

فتح القدیر

لِلْجَامِعِ بَيْنَ فَنَى الرِّوَايَةِ وَالْإِدْرَايَةِ مِنْ

عِلْمِ النَّفْسِ

تَأَلَّفَتْ

مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ مُحَمَّدٍ الشَّوْكَانِي

“وَفَاتَهُ بِبَغْدَادَ ١٢٥٠ هـ”

أَعْتَنَى بِهِ وَرَاجَعَ أَهْلَهُ

يُوسُفُ الْعُوشُ

دَارُ الْمَعْرِفَةِ

بِكُرْتِ لُبْنَانِ

فَتْحُ الْفِتْرِ

لِلْجَامِعِ بْنِ فَنِيّ الرِّوَايَةِ وَالِدِرَايَةِ مِنْ

عِلْمِ النَّفْسِ

تَأَلَّفَ

مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ مُحَمَّدٍ الشَّوْكَانِي

”وَفَاتَهُ بِصَفَاءِ ١٢٥٠ هـ“

اعْتَنَى بِهِ وَرَاجَعَ أَصُولَهُ

يُوسُفُ الْغُوشُ

دارُ المَعْرِفَةِ

بِزُورَتِ - لُبْنَانِ

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية
محفوظة لدار المعرفة بيروت - لبنان

Copyright® All rights reserved
Exclusive rights by **Dar Al-Marefah**
Beirut - Lebanon

ISBN 9953 - 420 - 75 - 0

الطبعة الرابعة
1428 هـ \ 2007 م

دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع
DAR AL-MAREFAH
Printing & Publishing



جسر المطار شارع البرجاوي • هاتف: ٨٣٤٣٣٢-٨٣٤٣٠١
فاكس: ٨٣٥٦١٤ • ص.ب: ٧٨٧٦ - بيروت - لبنان
Airport Bridge Birjawi Str. • Tel: 834301-834332
Fax: 835614 • P.O.Box: 7876 Beirut - Lebanon
Email: info@marefah.com • www.marefah.com

فَتْحُ الْفَتْحِ

لِلْجَامِعَيْنِ فِي الرِّوَايَةِ وَالْإِدْرَاكِ

عِلْمُ الْفَقِيرِ

ترجمة الإمام الشوكاني

اسمه ولقبه:

هو محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني ثم الصنعاني، الإمام العلامة الرباني، والسهيل الطالع من القطر اليماني، إمام الأئمة ومفتي الأمة، بحر العلوم وشمس الفهوم، سند المجتهدين الحفاظ، فارس المعاني والألفاظ، فريد العصر، نادرة الدهر، شيخ الإسلام، قوة الأنام، علامة الزمان، ترجمان الحديث والقرآن، علم الزهاد، أوجد العباد، قاصع المبتدعين، آخر المجتهدين، رأس الموحدين، تاج المتبعين، صاحب التصانيف التي لم يسبق إلى مثلها، قاضي قضاة أهل السنة والجماعة، شيخ الرواية والسماعة، عالي الإسناد، السابق في ميدان الاجتهاد، على الأكابر الأمجاد، المطلع على حقائق الشريعة ومواردها، العارف بغوامضها ومقاصدها.

مولده ونسبه:

ولد حسيباً وجد بخطه في وسط نهار الاثنين الثامن والعشرين من شهر ذي القعدة سنة 1173 هجرية في بلدة هجرة شوكان. وتوفي رحمه الله ليلة الأربعاء السابع والعشرين من شهر جمادى الآخرة سنة 1250 هـ.

قال صاحب الترجمة في كتابه «البدر الطالع» عند ذكر نسب والده: وعرف (أي والده) في صنعاء بالشوكاني، نسبة إلى شوكان، وهي قرية من قرى السحامية إحدى قبائل خولان، بينها وبين صنعاء نون مسافة يوم، وهو أحد المواضع التي يطلق عليها شوكان. قال في القاموس: وشوكان موضع بالبحرين وحسن باليمن، وبلدة بين سرخس وأبيورد: منه عتيق بن محمد بن عنبس وأخوه أبو العلاء عنبس بن محمد الشوكاني أ هـ ونسبة صاحب الترجمة إلى شوكان ليست حقيقية، لأن وطنه وطن سلفه وقرباته بمكان عدني شوكان، بينه وبينها جبل كبير مستطيل، يقال له هجرة شوكان، فمن هذه الحيثية كان انتساب أهله إلى شوكان، والله أعلم.

نشأته وطلبه العلم:

نشأ رحمه الله تعالى بصنعاء، وتربى في حجر أبيه على العفاف والطهارة، وأخذ في طلب العلم وسماع العلماء الأعلام، وفرغ نفسه للطلب وجد واجتهاد، فقرأ القرآن على جماعة من المعلمين، وختمه على الفقيه حسن بن عبد الله الهليل، وجوّده على جماعة من مشايخ القرآن (بصنعاء). ثم حفظ الأزهار للإمام مهدي في الفقه، ومختصر الفرائض للعصيفري، والملحة للحريري، والكافية والشافعية لابن

الحاجب، والتهذيب للعلامة التفتازاني، والتلخيص في علوم البلاغة للقزويني، والغاية لابن الإمام، وبعض مختصر المنتهى لابن الحاجب في أصول الفقه، ومنظومة الجزري في القراءات، ومنظومة الجزار في العروض، وآداب البحث والمناظرة للإمام العضد، ورسالة الوضع له أيضاً. وكان حفظه لبعض هذه المختصرات قبل شروعه في الطلب، وبعضها بعد ذلك، وقبل شروعه في الطلب كان كثير الاشتغال بمطالعة كتب التاريخ ومجاميع الأدب من أيام كونه في المكتب، فطالع كتباً عدّة ومجاميع كثيرة، ثم شرع في الطلب والسماع والتلقي من أقواء الرجال، إلى أن صار إماماً يشار إليه، ورأساً يرحل إليه، ولم يزل مكباً على العلم قراءة وتدريساً، إلى أن فارقه أجله ولقي ربه، رحمه الله تعالى ورضي عنه.

مشايخه الذين أخذ عنهم العلم سماعاً وقراءة:

قرأ رحمه الله على والده شرح الأزهار، وشرح الناظري لمختصر العصيفري، وقرأ شرح الأزهار أيضاً على السيد العلامة عبد الرحمن بن قاسم المدائني، والعلامة أحمد بن عامر الحداد، والعلامة أحمد بن محمد الحرازي وبه انتفع في الفقه وعليه تخرّج، وطالت ملازمته له نحو ثلاث عشرة سنة، وكرّر عليه قراءة شرح الأزهار وحواشيه. وقرأ عليه بيان ابن مظفر، وشرح الناظري وحواشيه. وفي أيام قراءته في الفروع شرع في قراءة النحو، فقرأ الملحة وشرحها على السيد العلامة إسماعيل بن الحسن بن أحمد بن الحسن ابن الإمام القاسم بن محمد، وقواعد الإعراب وشرحها للأزهري والحواشي جميعاً على العلامة عبد الله بن إسماعيل النهمي، وشرح السيد المفتي على الكافية على العلامة القاسم بن يحيى الخولاني والعلامة عبد الله بن إسماعيل النهمي، وأكملته من أوّله إلى آخره على كل واحد منهما. وقرأ شرح الخبيصي على الكافية وحواشيه على العلامة عبد الله بن إسماعيل النهمي من أوّله إلى آخره. وكذلك قرأه من أوّله إلى آخره على شيخه العلامة القاسم بن يحيى الخولاني. وقرأ شرح الجامي على الكافية مع ما يحتاج إليه من حواشيه على السيد العلامة عبد الله بن الحسين بن علي ابن الإمام المتوكل على الله إسماعيل من أوّله إلى آخره، وقرأ شرح الرضي على الكافية على العلامة القاسم بن يحيى الخولاني وبقي منه بقية يسيرة. وقرأ شرح الشافية للطف الله الغيث جميعاً على العلامة القاسم بن يحيى الخولاني. وقرأ شرح إيساغوجي للقاظمي زكريا على العلامة عبد الله بن إسماعيل النهمي جميعاً، وشرح التهذيب للشيرازي ولليزدي على

البحث وحواشيه على العلامة القاسم بن يحيى الخولاني، والخالدي في الفرائض والضرب والوصايا والمساحة، وطريقة ابن الهائم في المناسخة على السيد العارف يحيى بن محمد الحوثي، وبعض صحاح الجوهرى وبعض القاموس على السيد العلامة عبد القادر بن أحمد مع مؤلفه الذي سماه فلك القاموس. هذا ما أمكن سرده من مسموعات صاحب الترجمة ومقروءاته وله غير ذلك من المسموعات.

بعض تلاميذه الذين أخذوا عنه العلم:

أخذ عنه العلم ابنه العلامة علي بن محمد الشوكاني وكان صالحاً عالماً مبرزاً في جميع العلوم وكان نادرة زمانه على صغر سنه، والعلامة المتحلي بفرائض البيان والمعاني حسين بن محسن السبعي الأنصاري اليماني، والعلامة الأديب محمد بن حسن الشجني الذماري، والعلامة الشيخ عبد الحق بن فضل الهندي، والشريف الإمام محمد بن ناصر الحازمي وغير هؤلاء، وكلهم جهابذة محققون ونبلاء مدققون، أولو أقدام خارقة وفضائل فائقة، ولبعضهم تأليف رحم الله الجميع.

مذهبه وعقيدته:

تفقه على مذهب الإمام زيد وبرع فيه، وألف وافتي حتى صار قنوة فيه، وطلب الحديث وفاق فيه أهل زمانه حتى خلع ربة التقليد وتحلى بمنصب الاجتهاد، فألف كتاب «السيل الجرار المتدفق على حقائق الأزهار» وقد تكلم فيه على عيون من المسائل وصحيح ما هو مقيد بالذلائل، وزيف ما لم يكن عليه ليل، فقام عليه أهل عصره وغالبهم من المقلدة الجامدين على التعصب في الأصول والفروع، ولم تزل المجادلة والمصاولة بينه وبينهم دائرة، ولم يزلوا يندنون عليه في المباحث من غير حجة، فجعل كلامه في شرح الأزهار الذي هو في فقه آل البيت المختار موجهاً إليهم في التنفير عن التقليد المذموم، وإيقاظهم إلى النظر في الليل، لأنه كان يرى تحريم التقليد، وقد ألف في ذلك رسالة سماها «القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد».

وعندما ألف هذه الرسالة تحامل عليه جماعة من علماء الوقت، وأرسل إليه أهل جهته سهام اللوم والمقت؛ وثار من أجل ذلك فتنة في صنعاء اليمن بين من هو مقلد، ومن هو مقتد بالليل، توهماً من المقلدين أنه ما أراد إلا هدم مذهب آل البيت.

قال بعض من ترجمه: وحاشاه من التعصب على من أوجب الله محبتهم، وجعل أجر نبينا ﷺ في تبليغ الرسالة موثقتهم، لأن له الولاء التام لهم، وقد نشر محاسنهم في مؤلفه در السحابة، بما لا يخالف بعده ريبة لمرتاب، على أن كلامه مع الجميع من أهل المذاهب سواء بسواء، لأن المأخذ واحد، والرد واحد والخطب يسير، والخلاف في المسائل العلمية الظنية سهل، وعقيدته عقيدة مذهب السلف من حمل صفات البارئ تعالى، الواردة في القرآن الحكيم والسنة

شيخه العلامة القاسم بن يحيى الخولاني من أولهما إلى آخرهما، وشرح الشمسية للمقطب وحاشيته للشريف على شيخه العلامة الحسن بن إسماعيل المغربي، واقتصر على البعض من ذلك، وشرح التلخيص المختصر للسعد وحاشيته للطف الله الغياث على العلامة القاسم بن يحيى الخولاني جميعاً، ما عدا بعض المقدمة فعلى العلامة علي بن هادي عره، والشرح المطول للسعد التفتازاني أيضاً وحاشيته للجلبي وللشريف؛ أما المطول فجميعه وكذلك حاشية الجلبي، وأما حاشية الشريف فما تدعو إليه الحاجة، وقرأ الكافل وشرحه لابن لقمان على العلامة عبد الله بن إسماعيل النهي جميعاً، وشرح الغاية على العلامة القاسم بن يحيى الخولاني وحاشيته لسيلان، وشرح العضد على المختصر وحاشيته للسعد، وما تدعو إليه الحاجة من سائر الحواشي، وكمل ذلك على العلامة الحسن بن إسماعيل المغربي، وشرح جمع الجوامع للمحلى وحاشيته لابن أبي شريف على شيخه السيد الإمام عبد القادر بن أحمد، وكذلك شرح القلائد للنجري، وشرح المواقف العضدية للشريف، واقتصر على البعض من ذلك، وقرأ شرح الجزرية على العلامة هادي بن حسين القارني، وقرأ جميع شفاء الأمير الحسين على العلامة عبد الله بن إسماعيل النهي، وسمع أوائله على العلامة عبد الرحمن بن حسن الأكوخ، وقرأ في البحر الزخار وحاشيته وتخريجه وضوء النهار على شرح الأزهار على الشيخ السيد العلامة عبد القادر بن أحمد ولم يكمل، وقرأ الكشف وحاشيته للسعد، وبعد انقطاعها حاشيته للسراج مع مراجعة غير ذلك من الحواشي على شيخه العلامة الحسن بن إسماعيل المغربي، وتم ذلك إلا فوفاً يسيراً في آخر الثلث الأوسط، وسمع البخاري من أوله إلى آخره على السيد العلامة علي بن إبراهيم بن أحمد بن عامر، وسمع صحيح مسلم جميعه، وسنن الترمذي جميعاً، وبعض موطأ مالك، وبعض شفاء القاضي عياض على السيد العلامة عبد القادر بن أحمد، وكذلك سمع منه بعض جامع الأصول وبعض سنن النسائي، وبعض سنن ابن ملجه وسمع جميع سنن أبي داود وتخريجها للمنزري وبعض المعالم للخطابي، وبعض شرح ابن رسلان على العلامة الحسن بن إسماعيل المغربي، وكذلك بعض المنتقى لابن تيمية على السيد العلامة عبد القادر بن أحمد، وكذلك سمع شرح بلوغ المرام على العلامة الحسن بن إسماعيل المغربي وفاته بعض من أوله. وكذلك سمع على العلامة عبد القادر بن أحمد بعض فتح الباري، وعلى الحسن بن إسماعيل بعض شرح مسلم للنووي، وبعض شرح العمدة على العلامة القاسم بن يحيى الخولاني، والتتقي في علوم الحديث على العلامة الحسن بن إسماعيل المغربي، والنخبة وشرحها على العلامة القاسم بن يحيى، وبعض ألفية الزين العراقي وشرحها له على السيد العلامة عبد القادر بن أحمد، وجميع منظومة الجزار وجميع شرحها له في العروض على شيخنا المنكور، وشرح آداب

والتشكيك على التفكير، وإرشاد الغيبي إلى مذهب أهل البيت في صحب النبي، ورسالة رفع الجناح عن نافي المباح هل هو مأمور به أم لا، والقول المقبول في ردّ خبر المجبول من غير صحابة الرسول، وجواب السائل عن قول الله تعالى: ﴿وَالْقَمَر قُتِرْنَا مَنَازِلَ﴾ [يس: 39]، وأمنية المتشوق إلى معرفة حكم علم المنطق، وإرشاد المستفيد إلى دفع كلام ابن دقيق العيد في الإطلاق والتقييد، ورسالة ويل الغمامة في قوله تعالى: ﴿وَجَاعَلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: 55]، ورسالة في قول المحدثين رجال إسناده ثقات، ورسالة البحث العلم المتعلق بقوله تعالى: ﴿لَا يَحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ [النساء: 148]، والبحث المسفر عن تحريم كل مسكر ومفتر، ورسالة الدواء العاجل لدفع العدو الصائل، ورسالة عجيبة في رفع المظالم والمآثم، والدر النصيد في إخلاص كلمة التوحيد، ورسالة في وجوب توحيد الله عز وجل، ورسالة المقالة الفاخرة في اتفاق الشرائع على إثبات الدار الآخرة، ونزهة الأحداق في علم الاشتقاق، ورفع الريبة فيما يجوز وما لا يجوز من الغيبة، وتحرير الدلائل على مقدار ما يجوز بين الإمام والمؤتم من الارتفاع والانخفاض والبعد والحائل، وكشف الاستار عن حكم الشفعة بالجوار، والوشي المرقوم في تحريم التحلي بالذهب للرجال على العموم، وكشف الأستار في إبطال القول بفناء النار، ورسالة في الإرشاد إلى مذهب السلف سماها: التحف في الإرشاد إلى مذهب السلف: جواب سؤال ورد عليه من علماء مكة المشرفة في إجراء الصفات الإلهية على ظاهرها من غير تأويل، ورسالة الصوارم الحداد القاطعة لعلائق مقال أهل الإلحاد، ورسالة على حديث: «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه»، ورسالة إشراق النيرين في بيان الحكم إذا تخلف عن الوعد لأحد الخصمين، ورسالة في حكم التسعير، ورسالة نثر الجواهر في شرح حديث أبي نر، ورسالة منحة المنان في لجرة القاضي والسجان، ورسالة في مسائل العول، ورسالة تنبيه الأمثال على جواز الاستعانة من خالص المال يعني: طلب ولاية الجور من الأغنياء ظلماً من المال يسمونه معونة، وقطر الولي في معرفة الولي، والتوضيح في تواتر ما جاء في المهدي المنتظر والنجال والمسيح، ورسالة في حكم الاتصال بالسلطين، ورسالة جيد النقد في عبارة الكشف والسعد، ورسالة بغية المستفيد في الرد على من أنكر الاجتهاد من أهل التقليد، والروض الواسع في الدليل المنيع على عدم انحصار علم البديع، ورسالة فتح الخلاق في جواب مسائل عبد الرزاق مشتملة على جواب مائة وخمسين سؤالاً في علم المنطق، إلى غير ذلك من التصنيفات التي لم يتسع المقام لبسطها ونكرها. وأما الأبحاث التي اشتملت عليها فتلاوه المسماة بالفتح الرباني فكثيرة جداً، والله أعلم.

النبوية الصحيحة على ظاهره من غير تأويل ولا تحريف، وقد ألف رسالة في تلك سماها [التحف بمذهب السلف].

ذكر مؤلفاته:

له مؤلفات مفيدة في فنون عديدة: منها، كتاب نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار في الحديث الشريف، وأنب الطلب ومنتهى الأرب، وتحفة الذاكرين شرح عدة الحصن الحصين، وإرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوءات: ردّاً على الخبيث موسى بن ميمون الأنديلسي اليهودي في ظاهر المستند والزنيق في باطن المعتقد، والطود المنيف في الانتصاف للسعد من الشريف: في المسألة المشهورة التي تنازعا فيها بين يدي تيمورلنك، وشفاء العلل في حكم الزيادة في الثمن لمجرد الأجل، وشرح الصدور في تحريم رفع القبور، وطيب النشر في المسائل العشر: جواب عن سؤال القاضي العلامة عبد الرحمن بن أحمد البهكلي، ورسالة أجاب بها الشريف إبراهيم بن أحمد بن إسحاق، ومنها الصوارم الهندية المسلوقة على الرياض الندية: لإبطال قول من أوجب غسل الفرجين قبل الوضوء وجعله من أركانه كما هو مذهب الزيدية، ورسالة في اختلاف العلماء في تقدير مدة النفاس، ورسالة في الرد على القائل بوجوب التحية، والقول الصائق في حكم الإمام الفاسق، ورسالة في حدّ السفر الذي يجب معه قصر الصلاة، وله تشنيف السمع بإبطال أئمة الجمع يعني: جمع الصلاتين في الحضر ردّاً على القائلين بجوازه من الزيدية، والرسالة المكملة في أئمة البسمة، وإطلاع أرباب الكمال على ما في رسالة الجلال في الهلال من الاختلال، ورسالة في حكم الطلاق البدعي هل يقع أم لا، ورسالة في أن الطلاق لا يتبع الطلاق، ورسالة في حكم رضاع الكبير هل يقتضي التحريم أم لا، ورسالة تنبيه نوي الحجا على حكم بيع الرجا، ورسالة القول المحرر في حكم لبس المعصفر وسائر أنواع الأحمر، وعقود الزبرجد في جيد مسائل علامة ضمد، ورسالة في إبطال دعوى الإجماع على تحريم السماع، ورسالة زهر النسرين في حديث المعمرين، وإتحاف المهرة في الكلام على حديث: «لا عدوى ولا طيرة»، وعقود الجمان في بيان حدود البلدان، وأخرى سماها إرشاد الأعيان إلى تصحيح ما في عقود الجمان ردّاً على السيد العلامة حسين بن يحيى النيلملي، ورسالة حل الإشكال في إيجاب اليهود على النقاط الأزيال، وأخرى ردّاً على مناقضها السيد العلامة عبد الله بن عيسى بن محمد الكوكباني، التي سماها: إرسال المقال على إزالة حل الإشكال، فردّ شيخ الإسلام المترجم له على تعقبه بتفويق النبيل إلى إرشاد المقال، ورسالة البغية في مسألة الرؤية يعني: رؤية الله في الآخرة بين فيها مذهب أهل السنة، وزيف مقال أهل البدعة،

مراجعته

عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج الأنصاري القرطبي المالكي، نزيل منية ابن خصيب من الديار المصرية، عمل التفسير الكبير، وتعب عليه، وحشاه بكل فريدة، وألف كتاب: الأسنى في الأسماء الحسنى، وكتاب التذكرة في أمور الآخرة، وغير ذلك. وكان من أوعية العلم، ثم قال: وسمع من ابن نواح، وابن الحميري وأبي العباس بن المزني وعدة، روى عنه بالإجازة ولده شهاب الدين أبو العباس بالمنية، ثم قال: ومات سنة نيف وسبعين وستمائة في أوائل سنة إحدى بالمدينة انتهى.

وقال في تاريخ الإسلام: العلامة أبو محمد عبد الله بن أحمد بن بكير بن فرج: الإمام القرطبي إمام متقن متبحر في العلم، له تصانيف مفيدة تدل على كثرة اطلاعه، ووفور فضله. ثم نكر موته.

وقال بعده: وقد سارت بتفسيره العظيم الشأن الركبان، وله الأسنى في شرح الأسماء الحسنى، والتذكرة، وأنها تدل على إمامته ونكاته وكثرة اطلاعه انتهى.

وقال الكتبي في تاريخه: كان شيخاً فاضلاً، وله تصانيف مفيدة تدل على كثرة اطلاعه، ووفور علمه، منها تفسير القرآن مليح إلى الغاية في ستة عشر مجلداً انتهى.

(أ) النحاس: هو أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس أبو جعفر من أهل مصر، رحل إلى بغداد فأخذ عن المبرد، والأخفش علي بن سليمان، ونفطويه، والزجاج، وغيرهم، ثم عاد إلى مصر فأقام بها إلى أن مات في سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة.

(ب) ابن عطية: هو عبد الله بن عطية بن حبيب أبو محمد المقرئ المفسر، مات سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة، قيل أنه كان يحفظ خمسين ألف بيت من الشعر للإستشهاد بها على معاني القرآن وغيره، وكان ثقة.

(ج) ابن عطية أيضاً: هو عبد الحق بن غالب بن عطية المحاربي، عالم بالتفسير، والأحكام، والحديث، والفقه، والنحو، والأدب، واللغة، حسن التقديد، له نظم ونثر. ولي قضاء «المرية» من بلاد المغرب سنة تسع وعشرين وخمسائة. ألف كتابه الوجيز في التفسير، فأحسن فيه، وأبدع، وطار لحسن نيته كل مطار، كذا قال في الإحاطة من مؤلفات المغاربة، ومولده سنة إحدى وثمانين وأربعمائة، وتوفي سنة ست وأربعين وخمسائة في بلاد المغرب.

(د) القرطبي: قال الذهبي في النبلاء في ترجمته ما لفظه: القرطبي الإمام العلامة المفسر صاحب التصانيف أبو

«فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه».

ولما كان هذا العلم بهذه المنزلة الشامخة الأركان، العالية البنیان، المرتفعة المكان، رغبت إلى الدخول من أبوابه، ونشطت إلى القعود في محرابه، والكون من أحزابه، ووطنت النفس على سلوك طريقة، هي بالقبول عند الفحول حقيقة، وها أنا أوضح لك منارها، وأبين لك إيرادها وإصدارها فأقول:

إن غالب المفسرين تفرقوا فريقين، وسلخوا طريقين: الفريق الأول اقتصروا في تفاسيرهم على مجرد الرواية، وقنعوا برفع هذه الزاية. والفريق الآخر جرتوا أنظارهم إلى ما تقتضيه اللغة العربية، وما تقيده العلوم الأكيدة، ولم يرفعوا إلى الرواية رأساً، وإن جاؤوا بها لم يصححوا لها أساساً، وكلا الفريقين قد أصاب، وإطال وإطاب، وإن رفع عماد بيت تصنيفه على بعض الأطناب، وترك منها ما لا يتم بدونه كمال الانتصاب، فإن ما كان من التفسير ثابتاً عن رسول الله ﷺ، وإن كان المصير إليه متعيناً، وتقديمه محتتماً، غير أن الذي صح عنه من ذلك إنما هو تفسير آيات قليلة بالنسبة إلى جميع القرآن، ولا يختلف في مثل ذلك من أئمة هذا الشأن اثنان. وأما ما كان منها ثابتاً عن الصحابة رضي الله عنهم، فإن كان من الألفاظ التي قد نقلها الشرع إلى معنى مغاير للمعنى اللغوي بوجه من الوجوه فهو مقم على غيره، وإن كان من الألفاظ التي لم ينقلها الشرع، فهو كواحد من أهل اللغة الموثوق بعربيتهم. فإذا خالف المشهور المستفيض لم تقم الحجة علينا بتفسيره الذي قاله على مقتضى لغة العرب، فبالأولى تفاسير من بعدهم من التابعين وتابعيهم وسائر الأئمة. وأيضاً كثيراً ما يقتصر الصحابي، ومن بعده من السلف على وجه واحد مما يقتضيه النظم القرآني باعتبار المعنى اللغوي، ومعلوم أن ذلك لا يستلزم إهمال سائر المعاني التي تفيدها اللغة العربية، ولا إهمال ما يستفاد من العلوم التي تتبين بها دقائق العربية وأسرارها كعلم المعاني والبيان، فإن التفسير بذلك هو تفسير باللغة، لا تفسير بمحض الرأي المنهني عنه، وقد أخرج سعيد بن منصور في سننه، وابن المنذر، والبيهقي في كتاب: الرؤية عن سفيان قال: ليس في تفسير القرآن اختلاف، إنما هو كلام جامع يراد منه هذا وهذا. وأخرج ابن سعد في الطبقات، وأبو نعيم في الحلية، عن أبي قلابة قال: قال أبو الدرداء: لا تفقه كل الفقه حتى ترى للقرآن وجوهاً. وأخرج ابن سعد أن علياً قال لابن عباس: اذهب إليهم - يعني الخوارج - ولا تخصصهم بالقرآن، فإنه ذو وجوه؛ ولكن خاصهم بالسنة؛ فقال له: أنا أعلم بكتاب الله منهم، فقال: صليت، ولكن القرآن حمال ذو وجوه. وأيضاً لا يتيسر في كل تركيب من التراكيب القرآنية تفسير ثابت عن السلف، بل قد يخلو عن ذلك كثير من القرآن، ولا اعتبار بما لم يصح كالتفسير المنقول بإسناد ضعيف، ولا بتفسير من ليس بثقة منهم، وإن صح إسناده إليه، وبهذا تعرف أنه لا بد من

كُتِبَ مُوسَلَّتْ - أَيْتُمْ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يروي المفتقر إلى رحمة الله سبحانه وتعالى محمد بن محمد بن يحيى زبارة الحسني اليمني غفر الله له، وللمؤمنين. للقاضي الحافظ الشهير محمد بن علي بن محمد الشوكاني الصنعاني، المتوفى سنة 1250 هجرية، عن المولى الجهيز الكبير سيف الإسلام أحمد بن قاسم بن عبد الله حميد الدين أبقاه الله تعالى، عن السيد الحافظ عبد الكريم بن عبد الله أبي طالب الحسن اليمني، المتوفى سنة 1309، عن القاضي الحافظ أحمد بن محمد بن علي الشوكاني، المتوفى سنة 1281، عن أبيه المؤلف. قال رحمه الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي جعل كتابه المبين كافلاً ببيان الأحكام، شاملاً لما شرعه لعباده من الحلال والحرام، مرجعاً للأعلام عند تفاوت الأقهام، وتباين الأقدام، وتخالف الكلام، قاطعاً للخصام شافياً للسقام مرهماً للآوهم. فهو العروة الوثقى التي من تمسك بها فاز بدار الحق القويم، والجادة الواضحة التي من سلكتها فقد هدي إلى الصراط المستقيم. فإني عبارة تبلغ أدنى ما يستحقه كلام الحكيم من التعظيم، وأني لفظ يقوم ببعض ما يليق به من التكريم والتفخيم. كلا والله إن بلاغات البلغاء المصاقع، وفصاحات الفصحاء البواقع، وإن طالت نيلوها، وسالت سيولها، واستنتت بميايينها خيولها، تنقاصر عن الوفاء بأوصافه، وتتصاغر عن التشبث بأدنى أطرافه، فيعود جيدها عنه عاطلاً، وصفات ضوء الشمس تذهب باطلاً، فهو كلام من لا تحيط به العقول علماء، ولا تدرك كنهه الطبائع البشرية فهماً، فالاعتراف بالعجز عن القيام بما يستحقه من الأوصاف العظام أولى بالمقام، وأوفق بما تقتضيه الحال من الإجلال والإعظام. والصلاة والسلام على من نزل إليه الروح الأمين، بكلام رب العالمين، محمد سيد المرسلين، وخاتم النبيين، وعلى آله المطهرين، وصحبه المكرمين.

وبعد: فإن أشرف العلوم على الإطلاق، وأولاهما بالترتيب على الاستحقاق، وأرفعها قدرًا بالاتفاق، هو: علم التفسير لكلام القوي القدير، إذا كان على الوجه المعتبر في الورد والصدر، غير مشوب بشيء من التفسير بالرأي الذي هو من أعظم الخطر، وهذه الأشرقية لهذا العلم غنية عن البرهان، قريبة إلى الأفهام والأذهان، يعرفها من يعرف الفرق بين كلام الخلق والحق، ويدري بها من يميز بين كلام البشر، وكلام خالق القوي والقدّر، فمن فهم هذا استغنى عن التلويل، ومن لم يفهمه، فليس بماتل للمتحصيل، ولقد صدق رسول الله ﷺ حيث يقول فيما أخرجه عنه الترمذي وحسنه من حديث أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ:

واعلم أن الأحاديث في فضائل القرآن كثيرة جداً، ولا يتم لأصحاب القرآن ما يطلبه من الأجر الموعود به في الأحاديث الصحيحة حتى يفهم معانيه، فإن ذلك هو الثمرة من قراءته. قال القرطبي: ينبغي له أن يتعلم أحكام القرآن، فيفهم عن الله مراده، وما فرض عليه، فينتفع بما يقرأ، ويعمل بما يتلو؛ فما أقبح بحامل القرآن أن يتلو فرائضه وأحكامه عن ظهر قلب وهو لا يفهم معنى ما يتلو، فكيف يعمل بما لا يفهم معناه، وما أقبح به أن يسأل عن فقه ما يتلو، ولا يدريه، فما مثل من هذه حالته إلا كمثل الحمار يحمل أسفارا. وينبغي له أن يعرف المكي من المدني، ليفرق بين ما خاطب الله به عباده في أول الإسلام، وما ندبهم إليه في آخر الإسلام، وما فرض في أول الإسلام، وما زاد عليهم من الفرائض في آخره، فالمدني هو الناسخ للمكي في أكثر القرآن.

وقال أيضاً: قال علماؤنا: وأما ما جاء في فضل التفسير عن الصحابة والتابعين، فمن ذلك أن علي بن أبي طالب نكر جابر بن عبد الله ووصفه بالعلم، فقال له رجل: جعلت فداك، تصف جابراً بالعلم وأنت أنت؟ فقال: إنه كان يعرف تفسير قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأَيْكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: 85]. وقال مجاهد: أحب الخلق إلى الله أعلمهم بما أنزل الله. وقال الحسن: والله ما أنزل الله آية إلا أحب أن يعلم فيمن نزلت وما يعني بها. وقال الشعبي: رجل مسروق في تفسير آية إلى البصرة، ف قيل له إن الذي يفسرها رجل إلى الشام، فتجهز ورحل إلى الشام حتى علم تفسيرها. وقال عكرمة في قوله عز وجل ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [النساء: 100] طلبت اسم هذا الرجل أربع عشرة سنة حتى وجته. قال ابن عبد البر: هو ضميرة بن حبيب. وقال ابن عباس: مكثت سنتين أريد أن أسأل عمر عن المراتين اللتين تظاهرتا على رسول الله ﷺ. ما يمنعني إلا مهابته، فسألته فقال: هي حفصة وعائشة. وقال إيلس بن معاوية: مثل الذين يقرؤون القرآن وهم لا يعلمون تفسيره كمثل قوم جاءهم كتاب من عند مليكهم ليلاً وليس عندهم مصباح، فتدخلتهم روعة ولا يدرون ما في الكتاب. ومثل الذي يعرف التفسير كمثل رجل جاءهم بمصباح فقرأوا ما في الكتاب. ونكر ابن أبي الحواري أن فضيل بن عياض قال لقوم قصوده ليأخذوا عنه العلم: لو طلبتم كتاب الله لوجدتم فيه شفاء لما تريبون، فقالوا: قد تعلمنا القرآن، فقال: إن في تعلمكم القرآن شغلاً لأعماركم وأعمار أولادكم، فقالوا: كيف يا أبا علي؟ قال: لن تعلموا القرآن حتى تعرفوا إعرابه ومحكمه ومتشابهه وناسخه من منسوخه، فإذا عرفت ذلك استغنيت عن كلام فضيل وابن عيينة. والسلف رحمهم الله من هذا الجنس ما لا يأتي عليه الحصر.

الجمع بين الأمرين، وعدم الاختصار على مسلك أحد الفريقين، وهذا هو المقصد الذي وطئت نفسي عليه، والمسلك الذي عزمت على سلوكه إن شاء الله مع تعرضي للترجيح بين التفسير المتعارضة مهما أمكن واتضح لي وجهه، وأخذني من بيان المعنى العربي والإعرابي والبياني بأوفر نصيب، والحرص على إيراد ما ثبت من التفسير عن رسول الله ﷺ، أو الصحابة، أو التابعين أو تابعيهم، أو الأئمة المعترين. وقد أنكر ما في إسناده ضعف، إما لكونه في المقام ما يقويه، أو لموافقته للمعنى العربي، وقد أنكر الحديث معزواً إلى روايه من غير بيان حال الإسناد؛ لأنني أجده في الأصول التي نقلت عنها كذلك، كما يقع في تفسير ابن جرير، والقرطبي، وابن كثير، والسيوطي، وغيرهم، ويبعد كل البعد أن يعلموا في الحديث ضعفاً، ولا يبينونه، ولا ينبغي أن يقال فيما أطلقوه: إنهم قد علموا ثبوته، فإن من الجائز أن ينقلوه من دون كشف عن حال الإسناد، بل هذا هو الذي يغلب به الظن؛ لأنهم لو كشفوا عنه، فثبتت عندهم صحته لم يتركوا بيان ذلك، كما يقع منهم كثيراً التصريح بالصحة، أو الحسن، فمن وجد الأصول التي يروون عنها، ويعزون ما في تفاسيرهم إليها، فلينظر في أسانيدهم موقفاً إن شاء الله.

واعلم أن تفسير السيوطي المسمى: «بالدر المنثور» قد اشتمل على غالب ما في تفاسير السلف من التفسير المرفوعة إلى النبي ﷺ، وتفسير الصحابة ومن بعدهم، وما فاتة إلا القليل النادر. وقد اشتمل هذا التفسير على جميع ما تدعو إليه الحاجة منه مما يتعلق بالتفسير، مع اختصار لما تكرر لفظاً، واتحد معنى بقولي، ومثله أو نحوه، وضممت إلى ذلك فوائد لم يشتمل عليها وجدتها في غيره من تفاسير علماء الرواية، أو من الفوائد التي لاحت لي من تصحيح، أو تحسين، أو تضعيف، أو تعقب، أو جمع، أو ترجيح.

فهذا التفسير وإن كبر حجمه، فقد كثر علمه، وتوفر من التحقيق قسمه، وأصاب غرض الحق سهمه، واشتمل على ما في كتب التفسير من بدائع الفوائد، مع زوائد فوائد، وقواعد شوارده، فإن أحببت أن تعتبر صحة هذا، فهذه كتب التفسير على ظهر البسيطة، انظر تفاسير المعتمدين على الرواية، ثم أرجع إلى تفاسير المعتمدين على الرواية، ثم انظر في هذا التفسير بعد النظريتين، فعند ذلك يسفر الصبح لذي عينين، ويتبين لك أن هذا الكتاب هو: لبّ الباب، وعجب المعجب، ونخيرة الطلاب، ونهاية مارب اللباب، وقد سميت:

فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية

من علم التفسير

مستمداً من الله سبحانه بلوغ الغاية، والوصول بعد هذه البداية إلى النهاية، راجياً منه جل جلاله أن يديم به الانتفاع، ويجعله من النخائر التي ليس لها انقطاع.

تفسير سورة الفاتحة

معنى الفاتحة في الأصل: أول ما من شأنه أن يفتتح به، ثم أطلقت على أول كل شيء كالكلام، والتاء للنقل من الوصفية إلى الإسمية، فسميت هذه السورة «فاتحة الكتاب» لكونه افتتح بها، إذ هي أول ما يكتبه الكاتب من المصحف، وأول ما يتلوه التالي من الكتاب العزيز، وإن لم تكن أول ما نزل من القرآن. وقد اشتهرت هذه السورة للشريفة بهذا الاسم في أيام النبوة. قيل هي مكية، وقيل مدنية.

وقد أخرج الواحدي في أسباب النزول، والثعلبي في تفسيره عن علي رضي الله عنه قال: نزلت فاتحة الكتاب بمكة من كنز تحت العرش. وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف، وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في دلائل النبوة، والثعلبي والواحدي من حديث عمرو بن شرحبيل: أن رسول الله ﷺ لما شكا إلى خبيجة ما يجده عند أوائل الوحي، فذهبت به إلى ورقة، فأخبره فقال له: «إذا خلوت وحدي سمعت نداء خلفي: يا محمد يا محمد يا محمد، فانطلق هارباً في الأرض»، فقال: لا تفعل، إذا أتاك، فاثبت حتى تسمع ما يقول، ثم اثنتي، فأخبرني؛ فلما خلا ناداه: يا محمد قل: «بسم الله الرحمن الرحيم، حتى بلغ: ولا الضالين» الحديث. وأخرج أبو نعيم في الدلائل عن رجل من بني سلمة قال: لما أسلمت فتيتان بنيتي سلمة، وأسلم ولد عمرو بن الجموح قالت امرأة عمرو له: هل لك أن تسمع من أبيك ما روي عنه؟ فسأله، فقرأ عليه: «الحمد لله رب العالمين»، وكان ذلك قبل الهجرة، وأخرج أبو بكر بن الأنباري في المصاحف، عن عبادة قال: فاتحة الكتاب نزلت بمكة. فهذا جملة ما استدل به من قال: إنها نزلت بمكة.

واستدل من قال: إنها نزلت بالمدينة بما أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف، وأبو سعيد بن الأعرابي في معجمه، والطبراني في الأوسط من طريق مجاهد، عن أبي هريرة: «رن إيليس حين أنزلت فاتحة الكتاب»، وأنزلت بالمدينة.

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وأبو نعيم في الحلية، وغيرهم من طرق عن مجاهد قال: نزلت فاتحة الكتاب بالمدينة، وقيل: إنها نزلت مرتين مرة بمكة، ومرة بالمدينة جمعاً بين هذه الروايات.

وتسمى «أم الكتاب» قال البخاري في أول التفسير: وسميت أم الكتاب؛ لأنه يبدأ بكتابتها في المصاحف، ويبدأ بقراءتها في الصلاة. وأخرج ابن الضريس في فضائل القرآن عن أيوب، عن محمد بن سيرين، كان يكره أن يقول: أم الكتاب ويقول: قال الله تعالى: ﴿وعنده أم الكتاب﴾ [الرعد: 39] ولكن يقول: فاتحة الكتاب. ويقال لها: الفاتحة؛ لأنها يفتتح بها القراءة، وافتتحت الصحابة بها كتابة المصحف الإمام. قال ابن كثير في تفسيره: وصح تسميتها بالسبع المثاني، قالوا: لأنها تنثنى في الصلاة، فتقرأ في كل ركعة.

وأخرج أحمد من حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال لا أم القرآن: هي أم القرآن، وهي السبع المثاني، وهي القرآن العظيم. وأخرج ابن جرير في تفسيره عن أبي هريرة أيضاً، عن رسول الله ﷺ قال: «هي أم القرآن، وهي فاتحة الكتاب، وهي: السبع المثاني». وأخرج نحوه ابن مردويه في تفسيره، والدارقطني من حديثه، وقال: كلهم ثقات. وروى البيهقي عن علي، وابن عباس، وأبي هريرة أنهم فسروا قوله تعالى: ﴿سبعاً من المثاني﴾ [الحجر: 87] بالفاتحة.

ومن جملة أسمائها، كما حكاه في الكشف سورة الكنز، والواقية، وسورة الحمد، وسورة الصلاة. وقد أخرج الثعلبي أن سفيان بن عيينة كان يسمي فاتحة الكتاب: الواقية. وأخرج الثعلبي أيضاً عن عبد الله بن يحيى بن أبي كثير أنه سأل سائل عن قراءة الفاتحة خلف الإمام، فقال: عن الكافية تسأل؟ قال السائل: وما الكافية؟ قال: الفاتحة، أما علمت أنها تكفي عن سواها، ولا يكفي سواها عنها. وأخرج أيضاً عن الشعبي أن رجلاً اشتكى إليه وجع الخاصرة فقال: عليك بأساس القرآن، قال: وما أساس القرآن؟ قال: فاتحة الكتاب. وأخرج البيهقي في الشعب عن أنس، عن النبي ﷺ قال: «إن الله أعطاني فيما من به علي فاتحة الكتاب، وقال هي من كنوز عرشي» وأخرج إسحاق بن راهويه في مسنده، عن علي نحوه مرفوعاً. وقد نكر القرطبي في تفسيره للفاتحة اثني عشر اسماً، وهي سبع آيات بلا خلاف، كما حكاه ابن كثير في تفسيره. وقال القرطبي: أجمعت الأمة على أن فاتحة الكتاب سبع آيات إلا ما روي عن حسين الجعفي أنها ست، وهو شاذ. وإلا ما روي عن عمرو بن عبيد أنه جعل إيك نعبد آية، فهي عنده ثمان، وهو شاذ انتهى. وإنما اختلفوا في البسملة، كما سيأتي إن شاء الله. وقد أخرج عبد بن حميد، ومحمد بن نصر في كتاب الصلاة، وابن الأنباري في المصاحف، عن محمد بن سيرين: أن أبي بن كعب، وعثمان بن عفان كانا يكتبان فاتحة الكتاب، والمعوذتين، ولم يكتب ابن مسعود شيئاً منهن. وأخرج عبد بن حميد عن إبراهيم قال: كان عبد الله بن مسعود لا يكتب فاتحة الكتاب في المصحف، وقال: لو كتبها لكتب في أول كل شيء.

وقد ورد في فضل هذه السورة أحاديث، منها ما أخرجه البخاري، وأحمد، وأبو داود، والنسائي من حديث أبي سعيد بن المولى: أن رسول الله ﷺ قال له: «لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن يخرج من المسجد»، قال: فأخذ يدي، فلما أراد أن يخرج من المسجد، قلت: يا رسول الله إنك قلت لأعلمنك أعظم سورة في القرآن؟ قال: «نعم - الحمد لله رب العالمين - هي: السبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أوتيته». وأخرج أحمد، والترمذي وصححه، من حديث أبي بن كعب: أن النبي ﷺ قال له: «أتحب أن أعلمك سورة لم ينزل في التوراة، ولا في الإنجيل، ولا في الزبور، ولا في الفرقان مثلاًها؟» ثم أخبره أنها الفاتحة. وأخرجه للنسائي، وأخرج أحمد في المسند من حديث عبد الله بن جابر: أن

الحاكم وصححه، وأبو زر الهروي في فضائله، والبيهقي في الشعب عن أنس قال: كان النبي ﷺ في مسير له، فأنزل فمشى رجل من أصحابه إلى جنبه، فالتفت إليه النبي ﷺ فقال: «ألا أخبرك بأفضل القرآن، فثلا عليه ﷺ الحمد لله رب العالمين». وأخرج أبو نعيم، والديلمي عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «فاتحة الكتاب تجزي ما لا يجزي شيء من القرآن، ولو أن فاتحة الكتاب جعلت في كفة الميزان، وجعل القرآن في الكفة الأخرى لفضلت فاتحة الكتاب على القرآن سبع مرات». وأخرج أبو عبيد في فضائله، عن الحسن مرسلاً قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ فاتحة الكتاب فكانما قرأ التوراة والإنجيل والزبور والفرقان».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اختلف أهل العلم هل هي آية مستقلة في أول كل سورة كتبت في أولها، أو هي بعض آية من أول كل سورة، أو هي كذلك في الفاتحة فقط دون غيرها، أو أنها ليست بآية في الجميع وإنما كتبت للفصل والأقوال وأبلتها مبسوبة في موضع الكلام على ذلك. وقد اتفقوا على أنها بعض آية في سورة النمل. وقد جزم قراء مكة والكوفة بأنها آية من الفاتحة ومن كل سورة. وخالفهم قراء المدينة والبصرة، والشام، فلم يجعلوها آية لا من الفاتحة ولا من غيرها من السور، قالوا: وإنما كتبت للفصل والتبرك، وقد أخرج أبو داود بإسناد صحيح عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ كان لا يعرف فصل السورة حتى ينزل عليه: بسم الله الرحمن الرحيم. وأخرجه الحاكم في المستدرک، وأخرج ابن خزيمة في صحيحه عن أم سلمة: أن رسول الله ﷺ قرأ بالبسملة في أول الفاتحة في الصلاة وغيرها آية، وفي إسناده عمرو بن هارون البلخي، وفيه ضعف، وروى نحوه الدارقطني مرفوعاً عن أبي هريرة.

وكما وقع الخلاف في إثباتها وقع الخلاف في الجهر بها في الصلاة. وقد أخرج النسائي في سننه، وابن خزيمة، وابن حبان في صحيحيهما، والحاكم في المستدرک عن أبي هريرة: «أنه صلى فجهر في قراءته بالبسملة، وقال بعد أن فرغ: إني لأشبهكم صلاة برسول الله ﷺ»، وصححه الدارقطني، والخطيب، والبيهقي، وغيرهم. وروى أبو داود والترمذي عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ كان يفتتح الصلاة ببسم الله الرحمن الرحيم، قال الترمذي: وليس إسناده بذلك. وقد أخرجه الحاكم في المستدرک عن ابن عباس بلفظ: «كان رسول الله ﷺ يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم»، ثم قال: صحيح. وأخرج البخاري في صحيحه عن أنس أنه سئل عن قراءة رسول الله ﷺ فقال: كانت قراءته مداً، ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم يمد بسم الله، ويمد الرحمن، ويمد الرحيم. وأخرج أحمد في المسند، وأبو داود في السنن، وابن خزيمة في صحيحه، والحاكم في مستدرکه عن أم سلمة أنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يقطع قراءته: بسم الله الرحمن الرحيم ﷻ الحمد لله رب العالمين ﷻ الرحمن

رسول الله ﷺ قال له: «ألا أخبرك بأخير سورة في القرآن؟» قلت: بلى يا رسول الله، قال: «اقرأ الحمد لله رب العالمين حتى تختتمها»، وفي إسناده ابن عقيل، وقد احتج به كبار الأئمة، وبقية رجاله ثقات. وعبد الله بن جابر هذا هو: العبدی، كما قال ابن الجوزي، وقيل: الأنصاري البياضي كما قال ابن عساکر. وفي الصحيحين وغيرهما من حديث أبي سعيد: «أن النبي ﷺ قال لما أخبروه بأن رجلاً رقى سليماً بفاتحة الكتاب: «وما كان يدرى أنها رقية» الحديث. وأخرج مسلم في صحيحه، والنسائي في سننه من حديث ابن عباس قال: بينا رسول الله ﷺ وعنده جبريل إذ سمع نقيضاً فوقه، فرفع جبريل بصره إلى السماء فقال: هذا باب قد فتح من السماء ما فتح قط، قال: فنزل منه ملك، فأتى النبي ﷺ فقال: أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ حرفاً منهما إلا أوتيته». وأخرج مسلم، والنسائي، والترمذي وصححه من حديث أبي هريرة: «من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن، فهي: خداج، ثلاثاً، غير تامة». وأخرج البزار في مسنده بسند ضعيف عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا وضعت جنبك على الفراش، وقرأت فاتحة الكتاب، وقل هو الله أحد ﷻ فقد أمنت من كل شيء إلا الموت»، وأخرج الطبراني في الأوسط بسند ضعيف عن أبي زيد، وكان له صحبة قال: كنت مع النبي ﷺ في بعض فجاج المدينة، فسمع رجلاً يتعبد، ويقرأ بأم القرآن، فقام النبي ﷺ، فاستمع حتى ختمها، ثم قال: «ما في القرآن مثلاً». وأخرج سعيد بن منصور في سننه، والبيهقي في شعب الإيمان، عن أبي سعيد الخدري: أن رسول الله ﷺ قال: «فاتحة الكتاب شفاء من كل سقم». وأخرج أبو الشيخ نحوه من حديث، وحديث أبي هريرة مرفوعاً. وأخرج الدارمي، والبيهقي في شعب الإيمان بسند رجاله ثقات عن عبد الملك بن عمير قال: قال رسول الله ﷺ في فاتحة الكتاب: «شفاء من كل داء». وأخرج أحمد، وأبو داود والنسائي، وابن السني في عمل اليوم والليلة، وابن جرير، والحاكم وصححه عن خارجة بن الصلت التميمي عن عمه: أنه أتى رسول الله ﷺ، ثم أقبل راجعاً من عنده، فمر على قوم، وعندهم رجل مجنون موثق بالحديد، فقال أهله: أعنك ما تدوي به هذا؟ فإن صاحبكم قد جاء بخير، قال: فقرأت عليه فاتحة الكتاب ثلاثة أيام في كل يوم مرتين غداة وعشية، أجمع بزاقي، ثم أتفل، فبرأ، فأعطاني مائة شاة، فأتيت النبي ﷺ، فذكرت ذلك له فقال: «كل، فمن أكل برقية باطل، فقد أكلت برقية حق». وأخرج الفريابي في تفسيره عن ابن عباس قال: «فاتحة الكتاب ثلث القرآن». وأخرج الطبراني في الأوسط بسند ضعيف عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ أم القرآن وقل هو الله أحد ﷻ فكانما قرأ ثلث القرآن». وأخرج عبد بن حميد في مسنده بسند ضعيف، عن ابن عباس يرفعه إلى النبي ﷺ: «فاتحة الكتاب تعدل بثلاثي القرآن». وأخرج

الرحيم* مالك يوم الدين» وقال الدارقطني: إسناده صحيح.

واحتج من قال بأنه لا يجر بالبسملة في الصلاة بما في صحيح مسلم عن عائشة قالت: «كان رسول الله ﷺ يفتتح الصلاة بالتكبير، والقراءة بالحمد لله رب العالمين». وفي الصحيحين عن أنس قال: «صليت خلف النبي ﷺ، وأبي بكر، وعمر، وعثمان، فكانوا يستفتحون بالحمد لله رب العالمين». ولمسلم «لا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم في أول قراءة، ولا في آخرها». وأخرج أهل السنن نحوه عن عبد الله بن مغفل. وإلى هذا ذهب الخلفاء الأربعة، وجماعة من الصحابة. وأما الحديث للترك، وإن كانت أصح، ولكن الإثبات أرجح مع كونه خارجاً من مخرج صحيح، فالأخذ به أولى، ولا سيما مع إمكان تأويل الترك، وهذا يقتضي الإثبات الذاتي، أعني كونها قرآناً؛ والوصفي أعني الجهر بها عند الجهر بقراءة ما يفتتح بها من السور في الصلاة. ولتنقيح البحث والكلام على أطرافه استدلالاً، وروداً، وتعقباً، ونبغاً، ورواية، ودراسة موضع غير هذا. ومتعلق البسملة محنوف، وهو: اقرأ أو أتلى لأنه المناسبات لما جعلت البسملة مبدأ له، فمن قدره متقدماً كان غرضه الدلالة بتقديمه على الاهتمام بشأن الفعل، ومن قدره متأخراً كان غرضه الدلالة بتأخيرها على الاختصاص مع ما يحصل في ضمن ذلك من العناية بشأن الاسم والإشارة إلى أن البداية به أهم لكون التبرك حصل به، وبهذا يظهر رجحان تقدير الفعل متأخراً في مثل هذا المقام، ولا يعارضه قوله تعالى: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ [العلق: 1] لأن ذلك المقام مقام القراءة، فكان الأمر بها أهم، وأما الخلاف بين أئمة النحو في كون المقدر اسماً أو فعلاً فلا يتعلق بذلك كثير فائدة، والباء للاستعانة أو للمصاحبة، ورجح الثاني الزمخشري. واسم أصله سمو حذفت لامه، ولما كان من الأسماء التي بنوا أوائلها على السكون زالوا في أولها الهمزة إذا نطقوا به لئلا يقع الابتداء بالسكان، وهو: للفظ الدال على المسمى؛ ومن زعم أن الاسم هو المسمى كما قاله أبو عبيدة، وسيبويه، والباقلاني، وابن فورك، وحكاه الرازي عن الحشوية والكرامية والأشعرية، فقد غلط غلطاً بيناً، وجاء بما لا يعقل، مع عدم ورود ما يوجب المخالفة للعقل لا من الكتاب، ولا من السنة، ولا من لغة العرب، بل العلم الضروري حاصل بأن الاسم الذي هو أصوات مقطعة وحروف مؤلفة غير المسمى الذي هو مدلوله، والبحث مبسوط في علم الكلام. وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة: «إن الله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة»، وقال الله عز وجل: ﴿الله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾ [الأعراف: 180] وقال تعالى: ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أي ما تدعوا فله الأسماء الحسنى﴾ [الإسراء: 110]. والله علم لذات الواجب الوجود لم يطلق على غيره، وأصله إله حذفت الهمزة وعوضت عنها أداة التعريف، فلزمت. وكان قبل الحذف من أسماء الأجناس يقع على كل معبود بحق أو باطل، ثم غلب على المعبود

بحق كالنجم والصق، فهو قبل الحذف من الأعلام الغالبة، وبعده من الأعلام المختصة. والرحمن الرحيم: اسمان مشتقان من الرحمة على طريق المبالغة، ورحمن أشد مبالغة من رحيم. وفي كلام ابن جرير ما يفهم حكاية الاتفاق على هذا، ولذلك قالوا: رحمن الدنيا والآخرة ورحيم الدنيا. وقد تقرر أن زيادة البناء تدل على زيادة المعنى. وقال ابن الأنباري، والزجاج: إن الرحمن عبراني والرحيم عربي وخالفهما غيرهما. والرحمن من الصفات الغالبة لم يستعمل في غير الله عز وجل. وأما قول بني حنيفة في مسيلمه رحمن اليمامة، فقال في الكشف: إنه باب من تعنتهم في كفرهم. قال أبو علي الفارسي: الرحمن اسم عام في جميع أنواع الرحمة يختص به الله تعالى، والرحيم إنما هو في جهة المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿وكان بالمؤمنين رحيماً﴾ [الأحزاب: 43] وقد ورد في فضلها أحاديث. منها ما أخرجه سعيد بن منصور في سننه وابن خزيمة في كتاب البسملة والبيهقي عن ابن عباس قال: استرق الشيطان من الناس أعظم آية من القرآن: بسم الله الرحمن الرحيم. وأخرج نحوه أبو عبيد، وابن مروي، والبيهقي في شعب الإيمان عنه أيضاً. وأخرج الدارقطني بسند ضعيف عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «كان جبريل إذا جاءني بالوحي أول ما يلقي عليّ بسم الله الرحمن الرحيم». وأخرج ابن أبي حاتم في تفسيره، والحاكم في المستدرک، وصححه البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس: أن عثمان بن عفان سأل النبي ﷺ عن بسم الله الرحمن الرحيم، فقال: «هو اسم من أسماء الله، وما بينه وبين اسم الله الأكبر إلا كما بين سواد العين، وبياضها من القرب». وأخرج ابن جرير وابن عدي في الكامل، وابن مروي، وأبو نعيم في الحلية، وابن عساکر في تاريخ دمشق، والثعلبي بسند ضعيف جداً عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن عيسى ابن مريم أسلمته أمه إلى الكتاب لتعلمه، فقال له المعلم: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم، فقال له عيسى: وما بسم الله الرحمن الرحيم؟ قال المعلم: لا أدري، فقال له عيسى: الباء بهاء الله، والسين سناه، والميم مملكته، والله إله الألهة، والرحمن رحمن الدنيا والآخرة، والرحيم رحيم الآخرة» وفي إسناده إسماعيل بن يحيى، وهو كذاب. وقد أورد هذا الحديث ابن الجوزي في الموضوعات. وأخرج ابن مروي والثعلبي عن جابر قال: لما نزلت بسم الله الرحمن الرحيم هرب الغنم إلى المشرق، وسكنت الريح، وهاج البحر، وأصفت البهائم بأذنانها، ورجمت الشياطين من السماء، وحلف الله بعزته وجلاله أن لا تسمى على شيء إلا بارك فيه. وأخرج أبو نعيم، والديلمي عن عائشة قالت: لما نزلت بسم الله الرحمن الرحيم ضجت الجبال حتى سمع أهل مكة نوبها فقالوا: سحر محمد الجبال، فبعث الله نذناً حتى أظلم على أهل مكة، فقال رسول الله ﷺ: «من قرأ بسم الله الرحمن الرحيم موثقاً سبحت معه الجبال إلا أنه لا يسمع ذلك منها». وأخرج

الدليمي عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ بسم الله الرحمن الرحيم كتب الله له بكل حرف أربعة آلاف حسنة، ومحا عنه أربعة آلاف سيئة، ورفع له أربعة آلاف درجة». وأخرج الخطيب في الجامع عن أبي جعفر محمد بن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «بسم الله الرحمن الرحيم مفتاح كل كتاب». وهذه الأحاديث ينبغي البحث عن أسانيدھا والكلام عليها بما يتبين بعد البحث إن شاء الله. وقد شرعت التسمية في مواطن كثيرة قد بينها الشارع منها عند الرضوء وعند الذبيحة، وعند الأكل، وعند الجماع وغير ذلك.

أَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ① الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ② مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ③ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ④ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ⑤ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ⑥

﴿الحمد لله﴾ الحمد: هو الثناء باللسان على الجميل وبقيد الاختيار، فارق المدح، فإنه يكون على الجميل وإن لم يكن الممدوح مختاراً، كمدح الرجل على جماله، وقوته، وشجاعته. وقال صاحب الكشف: إنها أخوان، والحمد لخص من الشكر مورداً، وأعم منه متعلقاً. فمورد الحمد اللسان فقط، ومتعلقه النعمة وغيرها. ومورد الشكر اللسان والجنان والأركان، ومتعلقه النعمة. وقيل إن مورد الحمد كمورد الشكر، لأن كل ثناء باللسان لا يكون من صميم القلب مع موافقة الجوارح ليس بحمد بل سخرية واستهزاء. وأجيب بأن اعتبار موافقة القلب والجوارح في الحمد لا يستلزم أن يكون مورداً له بل شرطاً - وفرق بين الشرط والشرط، وتعريفه لاستغراق أفراد الحمد، وإنها مختصة بالرَّبِّ سبحانه على معنى أن حمد غيره لا اعتداد به، لأن المنعم هو الله عز وجل، أو على أن حمده هو الفرد الكامل، فيكون الحصر ادعائياً. ورجح صاحب الكشف أن التعريف هنا هو تعريف الجنس لا الاستغراق، والصواب ما نكرناه. وقد جاء في الحديث: «اللهم لك الحمد كله» وهو مرتفع بالابتداء وخبره الظرف وهو لله. وأصله النصب على المصدرية بإضمار فعله كسائر المصادر التي تنصبها العرب، فعدل عنه إلى الرفع لقصد الدلالة على الدوام، والثبات المستفاد من الجمل الاسمية دون الحثوث، والتجديد اللذين تفيدهما الجمل الفعلية، واللام الداخلة على الاسم الشريف هي لام الاختصاص. قال ابن جرير: الحمد ثناء أثنى به على نفسه، وفي ضمنه أمر عباده أن يثنوا عليه، فكانه قال: قولوا الحمد لله؛ ثم رجع اتحاد الحمد والشكر مستدلاً على ذلك بما حاصله: أن جميع أهل المعرفة بلسان العرب يوقعون كلا من الحمد والشكر مكان الآخر. قال ابن كثير: وفيه نظر لأنه اشتهر عند كثير من العلماء المتأخرين أن الحمد هو: الثناء بالقول على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدية. والشكر لا يكون إلا على المتعدية، ويكون بالجنان، واللسان، والأركان، انتهى. ولا يخفى أن المرجع في مثل هذا إلى معنى الحمد في لغة العرب لا إلى ما قاله

جماعة من العلماء المتأخرين، فإن ذلك لا يرد على ابن جرير، ولا تقوم به الحجة؛ هذا إذا لم يثبت للحمد حقيقة شرعية، فإن ثبتت وجب تقديمها. وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: قال عمر: قد علمنا سبحانه الله، ولا إله إلا الله، فما الحمد؟ فقال علي: كلمة رضىها لنفسه. وروى ابن أبي حاتم أيضاً عن ابن عباس أنه قال: الحمد لله كلمة الشكر، وإذا قال العبد الحمد لله قال: شكرني عبدي. وروى هو، وابن جرير، عن ابن عباس أيضاً أنه قال: الحمد لله هو: الشكر لله، والاستحذاء له، والإقرار له بنعمه، وهديته، وابتدائه، وغير ذلك. وروى ابن جرير عن الحكم بن عمير، وكانت له صحبة قال: قال النبي ﷺ: «إذا قلت الحمد لله رب العالمين، فقد شكرت الله فزادك»⁽¹⁾. وأخرج عبد الرزاق في المصنف، والحكيم الترمذي في نوار الأصول، والخطابي في الغريب، والبيهقي في الآب، والدليمي في مسند الفريوس عن عبد الله بن عمرو بن العاص، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الحمد رأس الشكر، ما شكر الله عبد لا يحمده». وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي عبد الرحمن الحبلي قال: «الصلاة شكر والصيام، وكل خير تفعله شكر، وأفضل الشكر الحمد». وأخرج الطبراني في الأوسط بسند ضعيف عن النّوّاس بن سميان قال: سرقت ناقة رسول الله ﷺ فقال: «لئن ردها الله علي لأشكرن ربّي» فرجعت، فلما رآها قال: «الحمد لله» فانتظروا هل يحدث رسول الله ﷺ صوماً أو صلاة، فظنوا أنه نسي فقالوا: يا رسول الله قد كنت قلت: لئن ردها الله علي لأشكرن ربّي، قال: «ألم أقل الحمد لله؟».

وقد ورد في فضل الحمد أحاديث. منها ما أخرجه أحمد، والنسائي، والحاكم وصححه، والبخاري في الآب المفرد عن الأسود بن سريع قال: قلت: يا رسول الله ألا انشدك محامد حممت بها ربّي تبارك وتعالى؟ فقال: «أما إن ربك يحب الحمد». وأخرج الترمذي وحسنه والنسائي وابن ماجه وابن حبان والبيهقي عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله». وأخرج ابن ماجه والبيهقي بسند حسن عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أتعلم الله على عبد نعمة فقال الحمد لله إلا كان الذي أعطى أفضل مما أخذ». وأخرج الحكيم الترمذي في نوار الأصول، والقرطبي في تفسيره عن أنس عن النبي ﷺ قال: «لو أن الدنيا كلها بحافيرها في يد رجل من أمتي ثم قال الحمد لله، لكان الحمد أفضل من ذلك» قال القرطبي: معناه: لكان إلهامه الحمد أكبر نعمة عليه من نعم الدنيا، لأن ثواب الحمد لا يفنى، ونعيم الدنيا لا يبقى. وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من

(1) وذلك لقوله تعالى: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ سورة إبراهيم، الآية: 7.

لأن هذا الجمع إنما هو جمع ما يعقل. حكى هذه الأقوال القرطبي في تفسيره، وذكر أئمتها، وقال: إن القول الأول أصح هذه الأقوال لأنه شامل لكل مخلوق وموجود. دليله قوله تعالى: ﴿قال فرعون وما ربّ العالمين﴾ قال ربّ السموات والأرض وما بينهما ﴿[الشعراء: 23، 24] وهو: مأخوذ من العلم، والعلامة لأنه يدل على موجد، كذا قال الزجاج: وقال: العالم كل ما خلقه الله في الدنيا والآخرة، انتهى. وعلى هذا يكون جمعه على هذه الصيغة المختصة بالعقلاء تغليظاً للعقلاء على غيرهم. وقال في الكشف: ساغ ذلك لمعنى الوصفية فيه، وهي الدلالة على معنى العلم. وقد أخرج ما تقدم من قول ابن عباس عنه الفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم، وصححه وأخرجه عبد بن حميد، وابن جرير عن مجاهد. وأخرجه ابن جرير عن سعيد بن جبير. وأخرج ابن جبير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ربّ العالمين﴾ قال: إله الخلق كله: السموات كلهن ومن فيهنّ. والأرضون كلهن ومن فيهنّ، ومن بينهنّ مما يعلم ومما لا يعلم.

﴿الرحمن الرحيم﴾ قد تقدم تفسيرهما. قال القرطبي: وصف نفسه تعالى بعد ربّ العالمين بأنه الرحمن الرحيم، لأنه لما كان في اتصافه برّب العالمين ترهيب قرنه بالرحمن الرحيم لما تضمن من الترغيب ليجمع في صفاته بين الرهبة منه والرغبة إليه. فيكون أعون على طاعته وأمنع، كما قال تعالى: ﴿نبئ عبادي أنني أنا الغفور الرحيم﴾ وأن عذابي هو العذاب الأليم ﴿[الحجر: 49، 50] وقال: ﴿غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب﴾ [غافر: 3]. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع في جنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد». انتهى. وقد أخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله: ﴿الحمد لله ربّ العالمين﴾ قال: ما وصف من خلقه، وفي قوله: ﴿الرحمن الرحيم﴾، قال: مدح نفسه.

ثم نكر بقية الفاتحة ﴿ملك يوم الدين﴾ قرئ: ملك، وملك، وملك يسكن اللام، وملك بصيغة الفعل. وقد اختلف العلماء أيهما أبلغ: الملك، أو مالك؟ فقيل إن ملك أعم وأبلغ من مالك، إذ كل ملك مالك، وليس كل مالك ملكاً، ولأن أمر الملك نافذ على الملك في ملكه حتى لا يتصرف إلا عن تدبير الملك، قاله أبو عبيد، والميرد، ورجحه الزمخشري. وقيل مالك أبلغ لأنه يكون مالكا للناس وغيرهم، فالمالك أبلغ تصرفاً وأعظم. وقال أبو حاتم: إن مالكا أبلغ في مدح الخالق من ملك، وملك أبلغ في مدح المخلوقين من مالك، لأن المالك من المخلوقين قد يكون غير ملك، وإذا كان الله تعالى مالكا كان ملكاً. واختار هذا القاضي أبو بكر بن العربي. والحق أن لكل واحد من الوصفين نوع أخصية لا يوجد في الآخر؛ فالمالك يقدر على ما لا يقدر عليه الملك من التصرفات بما

عبد ينعم عليه بنعمة إلا كان الحمد أفضل منها. وأخرج عبد الرزاق في المصنف نحوه عن الحسن مرفوعاً. وأخرج مسلم والنسائي، وأحمد عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان» الحديث. وأخرج سعيد بن منصور، وأحمد، والترمذي وحسنه، وابن مروي عن رجل من بني سليم أن رسول الله ﷺ قال: «سبحان الله نصف الميزان، والحمد لله تملأ الميزان، والله أكبر تملأ ما بين السماء والأرض، والطهور نصف الإيمان، والصوم نصف الصبر». وأخرج الحكيم الترمذي عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «التسبيح نصف الميزان، والحمد لله تملؤه، ولا إله إلا الله ليس لها لون الله حجاب حتى تخلص إليه». وأخرج البيهقي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «التاني من الله، والعجلة من الشيطان، وما شيء أكثر معاذير من الله، وما شيء أحب إلى الله من الحمد». وأخرج ابن شاهين في السنة والنيلمي عن أبان بن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «التوحيد ثمن الجنة، والحمد ثمن كل نعمة، ويتقاسمون الجنة بأعمالهم». وأخرج أهل السنن وابن حبان والبيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بحمد الله، فهو أقطع». وأخرج ابن ملجه في سننه عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ حدثهم: «أن عبداً من عباد الله قال: يا ربّ لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، فلم يدر الملك كيف يكتبها، فصعد إلى السماء فقال: يا ربنا إن عبداً قد قال مقالة لا ندري كيف نكتبها. قال الله وهو أعلم بما قال عبده: ماذا قال عبدي؟ قال يا ربّ إنه قال: لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك. فقال الله لهما: اكتباهما كما قال عبدي حتى يلقاني، وأجزيه بهاء. وأخرج مسلم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها».

﴿ربّ العالمين﴾ قال في الصحاح: الرب اسم من أسماء الله تعالى، ولا يقال في غيره إلا بالإضافة. وقد قالوه في الجاهلية للملك. وقال في الكشف: الرب: المالك. ومنه قول صفوان لأبي سفيان: لأن يربني رجل من قريش أحبّ إليّ من أن يربني رجل من هوازن. ثم نكر نحو كلام الصحاح. قال القرطبي في تفسيره: والرب: السيد، ومنه قوله تعالى: ﴿انكروني عند ربك﴾ [يوسف: 42] وفي الحديث: «أن تلد الأمة ربها»، والرب: المصلح، والمبّر، والجابر، والقائم قال: والرب المعبود. ومنه قول الشاعر:

أرب يبول للشعلبان برأسه لقد هان من بليت عليه الثعلاب و ﴿العالمين﴾: جمع العالم، وهو: كل موجود سوى الله تعالى، قاله قتادة. وقيل أهل كل زمان عالم، قاله الحسين بن الفضل. وقال ابن عباس: العالمون الجنّ، والإنس، وقال الفراء، وأبو عبيد: العالم عبارة عن يعقل، وهم أربعة أمم: الإنس، والجن، والملائكة، والشياطين. ولا يقال للبهائم عالم،

الواحد استقصاراً لنفسه، واستصغاراً لها، مجيء بالنون لقصد التواضع لا لتعظيم النفس، وقدمت العبادة على الإستعانة لكون الأولى وسيلة إلى الثانية، وتقديم الوسائل سبب لتحصيل المطالب، وإطلاق الإستعانة لقصد التعظيم. وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله إياك نعبد: يعني إياك نوحّد ونخاف يا ربنا لا غيرك، وإياك نستعين على طاعتك وعلى أمورنا كلها. وحكى ابن كثير عن قتادة أنه قال في إياك نعبد وإياك نستعين: يأمركم أن تخلصوا له العبادة، وأن تستعينوه على أمركم. وفي صحيح مسلم من حديث المعلى بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فنصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل، إذا قال العبد: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ قال: حمّنتي عبدي، وإذا قال: ﴿الرحمن الرحيم﴾ قال: أثّنت عليّ عبدي، فإذا قال: ﴿مالك يوم الدين﴾ قال مجدي عبدي، فإذا قال: ﴿إياك نعبد، وإياك نستعين﴾ قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل». وأخرج أبو القاسم البغوي والباوردي معاً في معرفة الصحابة، والطبراني في الأوسط، وأبو نعيم في الدلائل عن أنس بن مالك، عن أبي طلحة قال كنا مع رسول الله ﷺ في غزاة فلقى العدو فسمعتة يقول: «يا مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين»، قال: فلقد رأيت الرجال تصرع فتضربها الملائكة من بين يديها ومن خلفها.

﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ قرأه الجمهور بالصاد، وقرأ السراط بالسين، والزرط بالزاي؛ والهداية قد يتعذر فعلها بنفسه كما هنا، وكقوله: ﴿وهديناه النجدين﴾ [البك: 10] وقد يتعدى بئلى كقوله: ﴿اجتبهه وهداه إلى صراط مستقيم﴾ [النحل: 121] ﴿فأهتدوا إلى صراط الجحيم﴾ [الصافات: 23] ﴿وانك لتهدى إلى صراط مستقيم﴾ [الشورى: 52] وقد يتعدى باللام كقوله ﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا﴾ [الأعراف: 43] ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾ [الإسراء: 9] قال الزمخشري: أصله أن يتعدى باللام أو بئلى. انتهى. وهي الإرشاد، أو التوفيق، أو الإلهام، أو الدلالة. وفرّق كثير من المتأخرين بين معنى المتعدي بنفسه، وغير المتعدي، فقالوا: معنى الأوّل الدلالة، والثاني الإيصال. وطلب الهداية من المهتدي معناه طلب الزيادة كقوله تعالى: ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى﴾ [محمد: 17]، ﴿والذين جاهلوا فينا لنهينهم سبلنا﴾ [العنكبوت: 69] والصراط: الطريق، قال ابن جرير: أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعاً على أن الصراط المستقيم: هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه، وهو كذلك في لغة جميع العرب. قال: ثم تستعير العرب الصراط فتستعمله فتصف المستقيم باستقامته، والمعوجّ باعوجاجه. وقد أخرج الحاكم

هو مالك له بالبيع، والهيبة، والعتق، ونحوها، والملك يقدر على ما لا يقدر عليه الملك من التصرفات العائدة إلى تدبير الملك، وحياطته، ورعاية مصالح الرعية، فالملك أقوى من الملك في بعض الأمور، والفرق بين الوصفين بالنسبة إلى الرب سبحانه أن الملك صفة لذاته، والملك صفة لفعله. ويوم الدين: يوم الجزاء من الرب سبحانه لعباده كما قال: ﴿وما أدراك ما يوم الدين﴾ ثم ما أدراك ما يوم الدين* يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله [الانفطار: 17 - 19] وهذه الإضافة إلى الظرف على طريق الاتساع كقولهم: يا سارق الليلة أهل الدار، ويوم الدين وإن كان متأخراً فقد يضاف اسم الفاعل وما في معناه إلى المستقبل كقولك: هذا ضارب زيداً غداً. وقد أخرج الترمذي عن أم سلمة أن النبي ﷺ، كان يقرأ ملك بغير الف. وأخرج نحوه ابن الأنباري عن أنس، وأخرج أحمد والترمذي عن أنس أيضاً: أن النبي ﷺ، وأبا بكر، وعمر، وعثمان كانوا يقرؤون مالك بالالف. وأخرج نحوه سعيد بن منصور عن ابن عمر مرفوعاً. وأخرج نحوه أيضاً وكيع في تفسيره وعبد بن حميد، وأبو داود عن الزهري يرفعه مرسلاً. وأخرجه أيضاً عبد الرزاق في تفسيره وعبد ابن حميد، وأبو داود عن ابن المسيب مرفوعاً مرسلاً. وقد روي هذا من طرق كثيرة، فهو أرجح من الأول. وأخرج الحاكم وصححه عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ مالك يوم الدين، وكذا رواه الطبراني في الكبير عن ابن مسعود مرفوعاً. وأخرج ابن جرير، والحاكم وصححه عن ابن مسعود، وناس من الصحابة أنهم فسروا يوم الدين بيوم الحساب. وكذا رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير عن قتادة قال: يوم الدين يوم يدين الله العباد بأعمالهم.

﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ قراءة السبعة، وغيرهم بتشديد الياء، وقرأ عمرو بن فايد بتخفيفها مع الكسر؛ وقرأ الفضل والرقاشي بفتح الهمزة؛ وقرأ أبو السوار الغنوي «هياك» في الموضعين وهي لغة مشهورة. والضمير المنفصل هو «إيا»، وما يلحقه من الكاف، والهاء، والياء هي: حروف لبيان الخطاب، والغيبة، والتكلم، ولا محل لها من الإعراب كما ذهب إليه الجمهور، وتقديمه على الفعل لقصد الاختصاص، وقيل للاهتمام، والصواب أنه لهما، ولا تزاحم بين المقتضيات. والمعنى: نخصك بالعبادة، ونخصك بالاستعانة، لا نعبد غيرك، ولا نستعين، والعبادة أقصى غايات الخضوع والتذلّل. قال ابن كثير: وفي الشرع عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف، وعدل عن الغيبة إلى الخطاب لقصد الالتفات، لأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى آخر كان أحسن تطرية لنشاط السامع، وأكثر إيقاظاً له كما تقرر في علم المعاني. والمجيء بالنون في الفعلين لقصد الإخبار من الداعي عن نفسه وعن جنسه من العباد، وقيل إن المقام لما كان عظيماً لم يستقلّ به

المستقيم. انتهى.

﴿صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ انتصب صراط على أنه بدل من الأول، وفائدته التوكيد لما فيه من التثنية والتكرير، ويجوز أن يكون عطف بيان، وفائدته الإيضاح، والذين أنعم الله عليهم هم المنكروون في سورة النساء حيث قال: ﴿ومن يطع الله والرسول، فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً﴾. ذلك الفضل من الله، وكفى بالله عليمًا [النساء: 69، 70] وأطلق الإنعام ليشمل كل إنعام، وغير المغضوب عليهم بدل من الذين أنعمت عليهم على معنى أن النعم عليهم هم الذين سلموا غضب الله والضلal، أو صفة له على معنى أنهم جمعوا بين النعمتين: نعمة الإيمان والسلامة من ذلك، وصح جعله صفة للمعرفة مع كون «غير» لاتتعرف بالإضافة إلى المعارف لما فيها من الإبهام، لأنها هنا غير مبهمة لاشتغال المغايرة بين الجنسين. والغضب في اللغة قال القرطبي: الشدة، ورجل غضوب أي: شديد الخلق، والغضوب: الحية الخبيثة لشدتها. قال: ومعنى الغضب في صفة الله: إرادة العقوبة، فهو صفة ذاته، أو نفس العقوبة، ومنه الحديث: «إن الصدقة لتطفئ غضب الرب»، فهو صفة فعله. قال في الكشف: هو: إرادة الانتقام من العصاة، وإنزال العقوبة بهم، وأن يفعل بهم ما يفعله الملك إذا غضب على من تحت يده، والفرق بين عليهم الأولى، وعليهم الثانية، أن الأولى في محل نصب على المفعولية، والثانية في محل رفع على النيابة عن الفاعل. «ولا» في قوله: ولا الضالين تأكيد للنفي المفهوم من غير، والضلal في لسان العرب قال القرطبي: هو: الذهاب عن سنن القصد، وطريق الحق، ومنه: ضل اللبن في الماء، أي: غاب، ومنه: «إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ» [السجدة: 10] أي: غبنا بالموت، وصرنا تراباً. وأخرج وكيع، وأبو عبيد، وسعيد ابن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر عن عمر بن الخطاب أنه كان يقرأ: (صراط من أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم، وغير الضالين) وأخرج أبو عبيد، وعبد بن حميد أن عبد الله بن الزبير قرأ كذلك. وأخرج الأنباري، عن الحسن أنه كان يقرأ «عليهم» بكسر الهاء والميم، وإثبات الياء. وأخرج ابن الأنباري عن الأعرج، أنه كان يقرأ: «عليهم» بضم الهاء والميم، وإلحاق الواو. وأخرج أيضاً عن ابن كثير، أنه كان يقرأ: «عليهم» بكسر الهاء، وضم الميم مع إلحاق الواو. وأخرج أيضاً عن أبي إسحاق، أنه قرأ: «عليهم» بضم الهاء، والميم من غير إلحاق واو. وأخرج ابن داود عن عكرمة، والأسود أنهما كانا يقرآن كقراءة عمر السابقة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ يقول: طريق من أنعمت عليهم من الملائكة، والنبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين الذين أطاعوك وعبدوك. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس: أنهم المؤمنون. وأخرج عبد بن حميد عن الربيع

وصححه وتعبه الذهبي عن أبي هريرة: «أن رسول الله ﷺ قرأ: ﴿أهدنا الصراط المستقيم﴾ بالصاد». وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، والبخاري في تاريخه عن ابن عباس: «أنه قرأ الصراط بالسين». وأخرج ابن الأنباري عن ابن كثير: أنه كان يقرأ السراط بالسين. وأخرج أيضاً عن حمزة: أنه كان يقرأ الزراط بالزاي. قال الفراء: وهي لغة لعذرة وكلب وبني القين. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال: ﴿أهدنا الصراط المستقيم﴾ يقول: أهدنا دينك الحق». وأخرج ابن جرير عنه، وابن المنذر نحوه. وأخرج وكيع، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه عن جابر بن عبد الله أنه قال: «هو دين الإسلام، وهو أوسع مما بين السماء والأرض». وأخرج نحوه ابن جرير عن ابن عباس. وأخرج نحوه أيضاً عن ابن مسعود، وناس من الصحابة. وأخرج أحمد، والترمذي وحسنه، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في شعب الإيمان عن الثؤاس بن سميان، عن رسول الله ﷺ قال: «ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعلى جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط دأع يقول: يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعاً، ولا تفرقوا، ودأع يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال: ويحك لا تفتحه فإنك إن تفتحه تلجه، فالصراط: الإسلام، والسوران: حدود الله، والأبواب المفتحة: محارم الله، وذلك الداعي على رأس الصراط: كتاب الله، والداعي من فوق: واعظ الله تعالى في قلب كل مسلم». قال ابن كثير بعد إخرجه: وهو إسناد حسن صحيح. وأخرج وكيع، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وأبو بكر الأنباري، والحاكم وصححه، والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود أنه قال: «هو كتاب الله». وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن عدي، وابن عساکر، عن أبي العالية قال: هو رسول الله ﷺ وصاحبه من بعده. وأخرج الحاكم، وصححه عن أبي العالية، عن ابن عباس مثله. وروى القرطبي، عن الفضيل بن عياض، أنه قال: للصراط المستقيم طريق الحج، قال: وهذا خاص، والعموم أولى. انتهى. وجميع ما روي في تفسير هذه الآية ما عدا هذا المروي عن الفضيل يصنق بعضه على بعض، فإن من اتبع الإسلام أو القرآن أو النبي، فقد اتبع الحق. وقد ذكر ابن جرير نحو هذا فقال: والذي هو أولى بتأويل هذه الآية عندي معنياً به، وفقنا للإثبات على ما ارتضيته، ووفقت له من أنعمت عليه من عبائك من قول وعمل، وذلك هو الصراط المستقيم، لأن من وفق إليه ممن أنعم الله عليه من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين فقد وفق للإسلام وتصديق الرسل، والتمسك بالكتاب، والعمل بما أمره الله به، والانزجار عما زجره عنه، واتباع منهاج النبي ﷺ، ومنهاج الخلفاء الأربعة، وكل عبد صالح، وكل ذلك من الصراط

بنصيبك من سخط الله، فقال لا أستطيعه، فاستمر على فطرته، وجانب عبادة الأوثان.

[فائدة في مشروعية التامين بعد قراءة الفاتحة] اعلم أن السنة الصحيحة الصريحة الثابتة تواتراً قد دلت على ذلك، فمن ذلك ما أخرجه أحمد، وأبو داود، والترمذي عن وائل بن حجر قال: «سمعت رسول الله ﷺ قرأ ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾، فقال: آمين مد بها صوته، ولأبي داود: «رفع بها صوته» وقد حسنه الترمذي. وأخرجه أيضاً النسائي، وابن أبي شيبه، وابن ماجه، والحاكم وصححه، وفي لفظ من حديثه أنه ﷺ قال: رب اغفر لي آمين، أخرجه الطبراني، والبيهقي. وفي لفظ أنه قال: «آمين ثلاث مرات» أخرجه الطبراني. وأخرج وكيع، وابن أبي شيبه، عن أبي ميسرة قال لما أقرأ جبريل رسول الله ﷺ فاتحة الكتاب فبلغ، ﴿ولا الضالين﴾ قال: «قل آمين، فقال آمين». وأخرج ابن ملج عن علي قال: «سمعت رسول الله ﷺ إذا قال ﴿ولا الضالين﴾ قال: «آمين». وأخرج مسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قرأ يعني الإمام ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ فقولوا آمين يحبك الله». وأخرج البخاري ومسلم، وأهل السنن، وأحمد، وابن أبي شيبه، وغيرهم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أمن الإمام فأمنوا، فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه»، وأخرج أحمد، وابن ملج، والبيهقي بسند قال السيوطي: صحيح عن عائشة أن النبي ﷺ قال: «ما حسنتكم اليهود على شيء ما حسنتكم على السلام، والتأمين». وأخرج ابن عدي من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن اليهود قوم حسد، حسنوكم على ثلاثة: إقضاء السلام، وإقامة الصف، وآمين». وأخرج الطبراني في الأوسط من حديث معاذ مثله. وأخرج ابن ماجه بسند ضعيف عن ابن عباس قال: «ما حسنتكم اليهود على شيء ما حسنتكم على آمين، فأكثروا من قول آمين» ووجه ضعفه أن في إسناده طلحة بن عمرو، وهو: ضعيف. وأخرج الديلمي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ بسم الله الرحمن الرحيم ثم قرأ فاتحة الكتاب ثم قال آمين لم يبق ملك في السماء مقرب إلا استغفر له». وأخرج أبو داود عن بلال، أنه قال: «يا رسول الله لا تسبقني بآمين»، ومعنى آمين: استجب. قال القرطبي في تفسيره: معنى آمين عند أكثر أهل العلم: اللهم استجب لنا، وضع موضع الدعاء. وقال في الصحاح: معنى آمين: كذلك فليكن. وأخرج جويرير في تفسيره عن الضحاك عن ابن عباس قال: قلت يا رسول الله: ما معنى آمين؟ قال: «رب افعل». وأخرج الكلبي عن أبي صالح، عن ابن عباس مثله. وأخرج وكيع، وابن أبي شيبه في المصنف عن هلال بن يساف، ومجاهد قال: آمين اسم من أسماء الله. وأخرج ابن أبي شيبه عن حكيم بن جبير مثله. وقال الترمذي: معناه: لا تخيب رجاءنا. وفيه لغتان، المد على وزن

ابن أنس في قوله: ﴿صراط للذين أتعمت عليهم﴾ قال: النبيون: ﴿غير المغضوب عليهم﴾ قال اليهود: ﴿ولا الضالين﴾ قال النصارى. وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد مثله. وأخرج أيضاً عن سعيد بن جبير مثله. وأخرج عبد الرزاق، وأحمد في مسنده، وعبد بن حميد، وابن جرير، والبقوي، وابن المنذر، وأبو الشيخ عن عبد الله بن شقيق قال: أخبرني من سمع رسول الله ﷺ وهو بوادي القرى على فرس له، وسأله رجل من بني لقين، فقال: من المغضوب عليهم يا رسول الله؟ قال: «اليهود»، قال: فمن الضالون؟ قال: «النجاري». وأخرجه ابن مروي عن عبد الله بن شقيق، عن أبي نر قال: سألت رسول الله ﷺ، فذكره. وأخرجه وكيع، وعبد بن حميد، وابن جرير، عن عبد الله بن شقيق قال: كان رسول الله ﷺ يحاصر أهل وادي القرى، فقال له رجل... إلى آخره، ولم يذكر فيه: أخبرني من سمع النبي كالأول، وأخرجه البيهقي في الشعب عن عبد الله بن شقيق، عن رجل من بني لقين، عن ابن عم له أنه قال: أتيت رسول الله ﷺ... فذكره. وأخرجه سفيان بن عيينة، في تفسيره، وسعيد بن منصور، عن إسماعيل بن أبي خالد أن النبي ﷺ قال: «المغضوب عليهم: اليهود، والضالون: النصارى». وأخرجه أحمد، وعبد بن حميد، والترمذي وحسنه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبان في صحيحه عن عدي بن حاتم قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المغضوب عليهم هم اليهود، وإن الضالين النصارى». وأخرج أحمد، وأبو داود، وابن حبان، والحاكم وصححه، والطبراني عن الشريد قال: مر بي رسول الله ﷺ، وأنا جالس هكذا، وقد وضعت يدي اليسرى خلف ظهري، وانكأت على الية يدي فقال: «أتعتقد قعدة المغضوب عليهم؟» قال ابن كثير بعد ذكره لحديث عدي بن حاتم: وقد روي حديث عدي هذا من طرق، وله الفاظ كثيرة يطول ذكرها. انتهى. والمصير إلى هذا التفسير النبوي متعين، وهو: الذي أطبق عليه أئمة التفسير من السلف. قال ابن أبي حاتم: لا أعلم خلافاً بين المفسرين في تفسير المغضوب عليهم باليهود، والضالين بالنصارى. ويشهد لهذا التفسير النبوي آيات من القرآن، قال الله تعالى في خطابه لبني إسرائيل في سورة البقرة: ﴿بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فيلأوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين﴾ [البقرة: 90]. وقال في المائدة: ﴿قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل﴾ [المائدة: 60] وفي السيرة عن زيد بن عمرو بن نفيل: أنه لما خرج هو، وجماعة من أصحابه إلى الشام يطلبون الدين الحنيف قال اليهود: إنك لن تستطيع للدخول معنا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله، فقال: أنا من غضب الله أقر، وقالت له النصارى: إنك لن تستطيع للدخول معنا حتى تأخذ

عن أبي هريرة مرفوعاً. وأخرج مسلم، والترمذي، وأحمد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إن الشيطان ينفر من البيت الذي يقرأ فيه سورة البقرة». وأخرج أبو عبيد عن أنس نحوه مرفوعاً، وأخرج ابن عدي في الكامل، وابن عساكر في تاريخه عن أبي الدرداء مرفوعاً نحوه، وأخرج الطبراني بسند ضعيف عن عبد الله بن مغفل مرفوعاً نحوه، وأخرج النسائي، والطبراني، والبيهقي عن ابن مسعود مرفوعاً نحوه، وسنده ضعيف وأخرجه الدارمي، والبيهقي، والحاكم، وصححه من حديثه بنحوه. وأخرج أبو يعلى، وابن حبان، والطبراني والبيهقي عن سهل بن الساعدي قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لكل شيء سناماً، وسنام القرآن سورة البقرة، من قراها في بيته نهراً لم يدخله الشيطان ثلاثة أيام، ومن قراها في بيته ليلاً لم يدخله الشيطان ثلاث ليال». وأخرج أحمد، ومحمد بن نصر، والطبراني بسند صحيح، عن معقل بن يسار أن رسول الله ﷺ قال: «البقرة سنام القرآن ونروته، نزل مع كل آية منها ثمانون ملكاً، واستخرجت ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ من تحت العرش فوصلت بها». وأخرج البيهقي في معجم الصحابة، وابن عساكر في تاريخه عن ربيعة الجرسى قال: سئل رسول الله ﷺ أي القرآن أفضل؟ قال: «السورة التي يذكر فيها البقرة قيل فأي البقرة أفضل؟ قال: «آية الكرسي وخواتيم سورة البقرة نزلت من تحت العرش». وأخرج أبو عبيد، وأحمد، والبخاري في صحيحه تعليقاً، ومسلم، والنسائي عن أسيد بن حضير قال: بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة وفرسه مربوطة عنده إذ جالت الفرس، فسكت فسكنت، ثم قرأ فجالت الفرس، فسكت فسكنت، ثم قرأ فجالت الفرس فسكت فسكنت، فانصرف إلى ابنه يحيى، وكان قريباً منها، فاشفق أن تصيبه، فلما أخذه رفع رأسه إلى السماء، فإذا هو بمثل الظلة فيها أمثال المصابيح عرجت إلى السماء حتى ما يراها، فلما أصبح حدث رسول الله ﷺ بذلك، فقال رسول الله ﷺ: «أتدري ما ذاك؟» قال: لا يا رسول الله ﷺ، قال: «تلك الملائكة ننت لصوتك، ولو قرأت لأصبحت تنظر إليها الناس لا تتوارى منهم، ولهذا الحديث الفاظ. وأخرج الترمذي وحسنه، والنسائي، وابن حبان، والحاكم وصححه عن أبي هريرة قال: بعث رسول الله ﷺ بعثاً، فاستقرأ كل رجل منهم - يعني: ما معه من القرآن - «فاتى على رجل من أحدثهم سناً، فقال: «ما معك يا فلان؟» قال: معي كذا وكذا، وسورة البقرة، قال: «أمعك سورة البقرة؟» قال: «نعم، قال: «أذهب، فانت أميرهم». وأخرج البيهقي في الدلائل، عن عثمان بن أبي العاص قال: استعملني رسول الله ﷺ، وأنا أصغر القوم الذين وفدوا عليه من ثقيف، وذلك أنني كنت قرأت سورة البقرة. وأخرج البيهقي في الشعب بسند صحيح عن الصلصال بن الديهمس أن رسول الله ﷺ قال: «اقرأوا سورة البقرة في بيوتكم، ولا تجعلوا قبوراً، قال: «ومن قرأ سورة البقرة في

فاعيل كيلسين. والقصر على وزن يمين، قال الشاعر في المد:

يا رب لا تسلبني حبها أبداً ويرحم الله عبداً قال آمينا وقال آخر:

أمين أمين لا أرضى بواحدة حتى أبلغها الفين آمينا قال الجوهري: وتشديد الميم خطأ. وروي عن الحسن، وجعفر الصادق، والحسين بن فضل التشديد، من أم إذا قصد: أي نحن قاصدون نحوه، حكى ذلك القرطبي. قال الجوهري: وهو مبني على الفتح مثل أين وكيف لاجتماع الساكنين، وتقول منه: آمن فلان تاميناً. وقد اختلف أهل العلم في الجهر بها، وفي أن الإمام يقولها أم لا؟ وذلك مبين في مواطنه.

تفسير سورة البقرة

قال القرطبي في تفسير سورة البقرة: مدنية نزلت في مدد شتى. وقيل: هي أول سورة نزلت بالمدينة إلا قوله تعالى: «واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله» [البقرة: 281] فإنها آخر آية نزلت من السماء، ونزلت يوم النحر في حجة الوداع بمضى، وآيات الربا أيضاً من أولها ما نزل من القرآن. انتهى. وأخرج أبو الضريس في فضائله، وأبو جعفر النحاس في النسخ والمنسوخ، وابن مروي، والبيهقي في دلائل النبوة من طرق عن ابن عباس قال: نزلت بالمدينة سورة البقرة، وأخرج ابن مروي عن عبد الله بن الزبير مثله، وأخرج أبو داود في النسخ والمنسوخ عن عكرمة قال: أول سورة نزلت بالمدينة سورة البقرة.

وقد ورد في فضلها لحديث منها ما أخرجه مسلم، والترمذي، وأحمد، والبخاري في تاريخه، ومحمد بن نصر عن النّوّاس بن سميان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يؤتى بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به في الدنيا تقديماً سورة البقرة، وآل عمران». قال: وضرب لهما رسول الله ﷺ ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعد قال: «كانهما غمامتان، أو كأنهما غيابتان، أو كأنهما ظلّتان سوداوان، أو كأنهما فرقان من طير صواف تحاجان عن صاحبهما». وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، والدارمي، ومحمد بن نصر، والحاكم وصححه عن بريدة قال: قال رسول الله ﷺ: «تعلموا سورة البقرة، فإن أخذها بركة وتركها حسرة، ولا يستطيعها البطلة»، ثم سكت ساعة، ثم قال: «تعلموا سورة البقرة وآل عمران، فإنهما الزهراوان تظلان صاحبهما يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو غيابتان، أو فرقان من طير صواف»، قال ابن كثير: وإسناده حسن على شرط مسلم، وأخرج نحوه أبو عبيد، وأحمد، ومحمد بن زنجويه، ومسلم، وابن حبان، والطبراني، والحاكم، والبيهقي من حديث أبي أمامة مرفوعاً. وأخرج نحوه أيضاً الطبراني، وأبو نرّ الهروي بسند ضعيف عن ابن عباس مرفوعاً. وأخرج نحوه أيضاً البزار في سننه بسند صحيح

والبيهقي عن عائشة قالت: كنت أقوم مع رسول الله ﷺ في الليل فيقرأ بالبقرة، وآل عمران، والنساء. وأخرج أبو داود، والترمذي في الشمائل، والنسائي، والبيهقي عن عوف بن مالك الأشجعي قال: قمت مع رسول الله ﷺ ليلة، فقام، فقرأ سورة البقرة لا يمر بآية رحمة إلا وقف، الحديث.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

التر

﴿الم﴾ قال القرطبي في تفسيره: اختلف أهل التأويل في الحروف التي في أوائل السور، فقال الشعبي، وسفيان الثوري، وجماعة من المحدثين: هي سرّ الله في القرآن، والله في كل كتاب من كتبه سرٌّ، فهي من المتشابه الذي انفرد الله بعلمه، ولا نحِبُ أن نتكلم فيها، ولكن نؤمن بها، وتمدّ كما جاءت، وروي هذا القول عن أبي بكر الصديق، وعلي بن أبي طالب، قال: ونكر أبو الليث السمرقندي عن عمر، وعثمان، وابن مسعود، أنهم قالوا: الحروف المقطعة من المكتوم الذي لا يفسر، وقال أبو حاتم: لم نجد الحروف في القرآن إلا في أوائل السور، ولا ندري ما أراد الله عزّ وجل، قال جمع من العلماء كثير: بل نحِبُ أن نتكلم فيها، ونلتصم بالفوائد التي تحتها، والمعاني التي تتخرج عليها. واختلفوا في ذلك على أقوال عديدة، فروي عن ابن عباس، وعلي أيضاً أن الحروف المقطعة في القرآن اسم الله الأعظم إلا أنا لا نعرف تأليفه منها. وقال قطرب، والفراء، وغيرهما: هي إشارة إلى حروف الهجاء أعلم الله بها العرب حين تحدّاهم بالقرآن أنه مؤتلف من حروف هي التي بناء كلامهم عليها؛ ليكون عجزهم عنه أبلغ في الحجة عليهم إذ لم يخرج عن كلامهم. قال قطرب: كان ينفرون عند استماع القرآن، فلما نزل الم، والمصّ استنكروا هذا اللفظ، فلما أنصتوا له ﷺ أقبل عليهم بالقرآن المؤتلف؛ ليثبت في أسماعهم وأذانهم، ويقيم الحجة عليهم. وقال قوم: روي أن المشركين لما عرضوا عن القرآن بمكة ﴿وقالوا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه﴾ [فصلت: 26] فانزلها استغربوها، فيفتحون أسماعهم، فيسمعون القرآن بعدها، فتجب عليهم الحجة. وقال جماعة: هي حروف دالة على أسماء أخذت منها، وحذفت بقيتها، كقول ابن عباس، وغيره: الألف من الله، واللام من جبريل، والعيم من محمد. وذهب إلى هذا الزجاج، فقال: أذهب إلى أن كل حرف منها يؤدي عن معنى. وقد تكلم العرب بالحروف المقطعة كقوله: فقلت لها قفي، فقالت قاف

أي وقفت. وفي الحديث: «من إيمان على قتل مسلم بشطر كلمة» قال شقيق: هو أن يقول في اقتل اق كما قال ﷺ: «كفى بالسيف شاة» أي شافياً، وفي نسخة شاهداً. وقال زيد ابن أسلم: هي أسماء للسور. وقال الكلبي: هي أقسام أقسم الله بها لشرفها وفضلها وهي من أسمائه.

ومن أنق ما أبرزه المتكلمون في معاني هذه الحروف ما نكره الزمخشري في الكشف، فإنه قال: وأعلم أنك إذا تأملت

ليلة تَوَجَّ بتاج في الجنة». وأخرج أبو عبيد، عن عباد بن عباد، عن جرير بن حازم، عن عمه جرير بن يزيد: أن أشياخ أهل المدينة حدثوا عن رسول الله ﷺ قيل له: ألم تر إلى ثابت بن قيس بن شماس لم تزل داره البارحة تزهر مصابيح، قال: «فلعله قرأ سورة البقرة» قال: فستل ثابت، فقال: قرأت سورة البقرة. قال ابن كثير: وهذا إسناد جيد، إلا أن فيه إبهاماً، ثم هو مرسل.

وقد روى ثمة الحديث في فضائلها أحاديث كثيرة، وآثراً عن الصحابة واسعة، ومن فضائلها ما هو خاص بآية الكرسي، وما هو خاص بخواتم هذه السورة، وقد سبق بعض ذلك، وما هو في فضلها، وفضل آل عمران، وقد سبق أيضاً بعض من ذلك، وما هو في فضل السبع الطوال، كما أخرج أبو عبيد عن وثالة بن الأسقع، عن النبي ﷺ قال: «أعطيت السبع مكان التوراة، وأعطيت المئين مكان الإنجيل، وأعطيت المثاني مكان الزبور، وفضلت بالمفصل» وفي إسناده سعيد بن بشير، وفيه لين، وقد رواه بسند آخر عن سعيد بن أبي هلال. وأخرج أيضاً عن عائشة، عن النبي ﷺ قال: «من أخذ السبع فهو خير». وقد رواه عنها أحمد في المسند باللفظ أن رسول الله ﷺ قال: «من أخذ السبع الأول القرآن فهو خير». وأخرج أبو عبيد عن سعيد بن جبير في قوله تعالى: ﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني﴾ [الحجر: 87] قال: هي: السبع الطوال البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، ويونس، وبذلك قال مجاهد، ومكحول، وعطية بن قيس، وأبو محمد القارئ شذاد بن عبد الله، ويحيى بن الحارث النخعي.

وقد ورد ما يدل على كراهة أن يقول القائل سورة البقرة، ولا سورة آل عمران، ولا سورة النساء، وكذا القرآن كله. فأخرج ابن الضريس، والطبراني في الأوسط، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب بسند ضعيف عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقولوا سورة البقرة، ولا سورة آل عمران، ولا سورة النساء، وكذا القرآن كله، ولكن قولوا السورة التي تذكر فيها البقرة، والسورة التي ينكر فيها آل عمران، وكذا القرآن كله» قال ابن كثير: هذا حديث غريب لا يصح رفعه، وفي إسناده يحيى بن ميمون الخواص، وهو ضعيف الرواية لا يحتج به، وأخرج البيهقي في الشعب بسند صحيح عن ابن عمر قال: «لا تقولوا سورة البقرة، ولكن قولوا السورة التي تذكر فيها البقرة». وقد روي عن جماعة من الصحابة خلاف هذا. فثبت في الصحيحين عن ابن مسعود أنه رمى الجمرة من بطن الوادي، فجعل البيت عن يساره، ومنى عن يمينه، ثم قال: هذا مقام الذي أنزلت عليه سورة البقرة. وأخرج ابن شعبة، وأحمد، ومسلم، وأهل السنن، والحاكم وصححه عن حذيفة قال: صليت مع رسول الله ﷺ ليلة من رمضان، فافتتح البقرة، فقلت: يصلي بها في ركعة، ثم افتتح النساء، فقرأها، ثم افتتح آل عمران، فقرأها مترسلاً. الحديث. وأخرج أحمد، وابن الضريس،

الرب سبحانه الذي أنزل كتابه للإرشاد إلى شرائعه، والهداية به. وهب أن هذه صناعة عجيبة، ونكتة غريبة، فليس ذلك مما يتصف بفصاحة ولا بلاغة حتى يكون مفيداً أنه كلام بليغ أو فصيح، وذلك لأن هذه الحروف الواقعة في الفواتح ليست من جنس كلام العرب حتى يتصف بهذين الوصفين، وغاية ما هناك أنها من جنس حروف كلامهم، ولا مدخل لذلك فيما ذكر. وأيضاً لو فرض أنها كلمات متركة بتقدير شيء قبلها أو بعدها لم يصح وصفها بذلك، لأنها تعمية غير مفهومة للسامع إلا بأن يأتي من يريد بيانها بمثل ما يأتي به من أراد بيان الألفاظ والتعمية، وليس ذلك من الفصاحة والبلاغة في ورد ولا صدر بل من عكسهما، وضد رسمهما، وإذا عرفت هذا، فاعلم أن من تكلم في بيان معاني هذه الحروف جازماً بأن ذلك هو ما أراه الله عز وجل، فقد غلط أقبح الغلط، وركب في فهمه ودعواه أعظم الشطط، فإنه إن كان تفسيره لها بما فسرهما به راجعاً إلى لغة العرب وعلومها فهو كذب بحت، فإن العرب لم يتكلموا بشيء من ذلك، وإذا سمعه السامع منهم كان معبوداً عنده من الرطانة، ولا ينافي ذلك أنهم قد يقتصرون على أحرف، أو حروف من الكلمة التي يريدون النطق بها، فإنهم لم يفعلوا ذلك إلا بعد أن تقدم ما يدل عليه، ويفيد معناه، بحيث لا يلتبس على سامعه كمثل ما تقدم ذكره. ومن هذا القبيل ما يقع منهم من الترخيم، وأين هذه الفواتح الواقعة في أوائل السور من هذا؟ وإذا تقرر لك أنه لا يمكن استفادة ما ادّعوه من لغة العرب، وعلومها لم يبق حينئذ إلا أحد أمرين: الأول للتفسير بمحض الرأي الذي ورد النهي عنه، والوعيد عليه، وأهل العلم أحق الناس بتجنبه، والصد عنه، والتكذب عن طريقه، وهم اتقى الله سبحانه من أن يجعلوا كتاب الله سبحانه ملعبة لهم يتلاعبون به، ويضعون حماقات انظارهم، وخزعبلات افكارهم عليه. الثاني للتفسير بتوقيف عن صاحب الشرع، وهذا هو المهيض الواضح، والسبيل القويم، بل الجادة التي ما سواها مريبوم، والطريقة العامرة التي ما عداها معبوم، فمن وجد شيئاً من هذا، فغير ملوم أن يقول بملء فيه، ويتكلم بما وصل إليه علمه، ومن لم يبلغه شيء من ذلك فليقل لا أدري، أو الله أعلم بمراده، فقد ثبت النهي عن طلب فهم المتشابه، ومحاولة الوقوف على علمه مع كونه ألفاظاً عربية، وتراكيب مفهومة، وقد جعل الله تتبع ذلك صنيع الذين في قلوبهم زيغ، فكيف بما نحن بصده؟ فإنه ينبغي أن يقال فيه إنه متشابه المتشابه على فرض أن للفهم إليه سبيلاً، ولكلام العرب فيه مداخل، فكيف وهو خارج عن ذلك على كل تقدير. وانظر كيف فهم اليهود عند سماع آل فانهم لما لم يجدوها على نمط لغة العرب فهما أن الحروف المذكورة رمز إلى ما يصطلحون عليه من العدد الذي يجعلونه لها، كما أخرج ابن إسحاق، والبخاري في تاريخه، وابن جرير بسند ضعيف عن ابن عباس، عن جابر بن عبد الله قال: مر أبو ياسر بن أخطب في رجال من يهود برسول الله ﷺ، وهو يتلو فاتحة

ما أورده الله عز سلطانه في الفواتح من هذه الأسماء وجدتُها نصف أسامي حروف المعجم أربعة عشر سواء: وهي الألف، واللام، والميم، والصاد، والراء، والكاف، والهاء، والياء، والعين، والطاء، والسين، والحاء، والقاف، والنون في تسع وعشرين سورة على عدد حروف المعجم، ثم إذا نظرت في هذه الأربعة عشر، وجدتُها مشتملة على أنصاف أجناس الحروف. بيان ذلك أن فيها من المهموسة نصفها الصاد، والكاف، والهاء، والسين، والحاء، ومن المجهورة نصفها الألف، واللام، والميم، والراء، والعين، والطاء، والقاف، والياء، والنون، ومن الشديدة نصفها الألف، والكاف، والطاء، والقاف، ومن الرخوة نصفها اللام، والميم، والراء، والصاد، والهاء، والعين، والسين، والحاء، والياء، والنون، ومن المطبقة نصفها الصاد، والطاء، ومن المستعلية نصفها القاف، والصاد، والطاء، ومن المنخفضة نصفها الألف واللام والميم والراء، والكاف، والهاء، والتاء، والعين، والسين، والحاء، والنون، ومن حروف القلقة نصفها القاف، والطاء. ثم إذا استقرت الكلم، وتراكيبها رأيت الحروف التي ألقى الله ذكرها من هذه الأجناس المعنودة مكتوزة بالمنكورة منها، فسبحان الذي دقت في كل شيء حكمته، وقد علمت أن معظم الشيء وجله ينزل منزلة كله، وهو المطابق للطوائف التنزيل واختصاراته، فكان الله عز اسمه عند العرب الألفاظ التي منها تراكيب كلامهم إشارة إلى ما ذكرت من التبكيت لهم، وإلزام الحجة إياهم، وما يدل على أنه تعمد بالذكر من حروف المعجم أكثرها وقوعاً في تراكيب الكلم، أن الألف واللام لما تكاثر وقوعهما فيها جاءت في معظم هذه الفواتح مكررتين، وهي فواتح سورة البقرة، وآل عمران، والروم، والعنكبوت، ولقمان، والسجدة، والأعراف، والرعد، ويونس، وإبراهيم، وهود، ويوسف، والحجر. انتهى. وأقول: هذا التثني لا يأتي بفائدة يعتد بها، وبيانه أنه إذا كان المراد منه إلزام الحجة، والتبكيت كما قال، فهذا متيسر بأن يقال لهم: هذا القرآن هو من الحروف التي تتكلمون بها ليس هو من حروف مغايرة لها، فيكون هذا تبكيتاً وإلزاماً يفهمه كل سامع منهم من نون إلغاز، وتعمية وتفريق لهذه الحروف في فواتح تسع وعشرين سورة، فإن هذا مع ما فيه من التلطيل الذي لا يستوفيه سامعه إلا بسماع جميع هذه الفواتح، هو أيضاً مما لا يفهمه أحد من السامعين، ولا يتعقل شيئاً منه فضلاً عن أن يكون تبكيتاً له وإلزاماً للحجة لئلا كان، فإن ذلك هو أمر وراء الفهم مترتب عليه، ولم يفهم السامع هذا، ولا نكر أهل العلم عن فرد من أفراد الجاهلية الذين وقع التحدي لهم بالقرآن أنه بلغ فهمه إلى بعض هذا فضلاً عن كله. ثم كون هذه الحروف مشتملة على النصف من جميع الحروف التي تركبت لغة العرب منها، وذلك النصف مشتمل على أنصاف تلك الأنواع من الحروف المتصفة بتلك الأوصاف هو أمر لا يتعلق به فائدة لجاهلي ولا إسلامي، ولا مقر ولا منكر، ولا مسلم ولا معارض، ولا يصح أن يكون مقصداً من مقاصد

شبية، والبزار بسند ضعيف عن عوف بن مالك الأشجعي نحوه مرفوعاً. فإن قلت: هل روي عن الصحابة شيء من ذلك بإسناد متصل بقائله أم ليس إلا ما تقدم من حكيمة القرطبي عن ابن عباس وعلي؟ قلت: قد روى ابن جرير، والبيهقي في كتاب الأسماء والصفات عن ابن مسعود أنه قال: ﴿الْم﴾ حرف اشتقت من حروف اسم الله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس في قوله: ﴿الْم﴾، و﴿حَم﴾، و﴿وَن﴾ قال: اسم مقطوع. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في كتاب الأسماء عن ابن عباس أيضاً في قوله: ﴿الْم﴾، و﴿الْقَص﴾، و﴿الر﴾، و﴿كَهَيَّص﴾، و﴿ط﴾، و﴿طَسْم﴾، و﴿طس﴾، و﴿يس﴾، و﴿ص﴾، و﴿حَم﴾، و﴿وَن﴾، و﴿وَن﴾ قال: هو قسم أقسمه الله، وهو من أسماء الله. وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود في قوله ﴿الْم﴾ قال: هي اسم الله الأعظم. وأخرج عبد بن حميد، عن الربيع بن أنس في قوله ألم قال: ألف مفتاح اسمه الله، ولأم مفتاح اسمه لطيف، وميم مفتاح اسمه مجيد. وقد روي نحو هذه التفسيرات عن جماعة من التابعين منهم عكرمة والشعبي والسدي، وقتادة، ومجاهد، والحسن. فإن قلت: هل يجوز الاقتداء بأحد من الصحابة قال في تفسير شيء من هذه الفواتح قولاً صح إسناده إليه؟ قلت: لا لما قمنا، إلا أن يعلم أنه قال ذلك عن علم أخذه عن رسول الله ﷺ. فإن قلت: هذا مما لا مجال للاجتهاد فيه، ولا مدخل للغة العرب، فلم لا يكون له حكم الرفع؟ قلت: تنزيل هذا منزلة المرفوع، وإن قال به طائفة من أهل الأصول وغيرهم، فليس مما ينشرح له صدور المنصفين، ولا سيما إذا كان في مثل هذا المقام، وهو التفسير لكلام الله سبحانه، فإنه يدخل في أعظم الخطر بما لا برهان عليه صحيح إلا مجرد قولهم إنه يبعد من الصحابي كل البعد أن يقول بمحض رأيه فيما لا مجال فيه للاجتهاد، وليس مجرد هذا الاستبعاد مسوغاً للوقوع في خطر الوعيد الشديد. على أنه يمكن أن يذهب بعض الصحابة إلى تفسير بعض المتشابه، كما نجاه كثيراً في تفاسيرهم المنقولة عنهم، ويجعل هذه الفواتح من جملة المتشابه، ثم ما هنا مانع آخر، وهو أن المروي عن الصحابة في هذا مختلف متناقض، فإن عملنا بما قاله أحدهم دون الآخر كان تحكماً لا وجه له، وإن عملنا بالجميع كان عملاً بما هو مختلف متناقض، ولا يجوز. ثم ما هنا مانع غير هذا المانع، وهو أنه لو كان شيء إما قالوه مأخوذاً عن النبي ﷺ لاتفقوا عليه ثم لو كان عندهم شيء عن النبي ﷺ في هذا لما تركوا حكايته عنه ورفعوا إليه، لا سيما عند اختلافهم واضطراب أقوالهم في مثل هذا الكلام الذي لا مجال للغة العرب فيه، ولا مدخل لها. والذي أراه لنفسي ولكل من أحب السلامة، واقتدى بسلف الأمة أن لا يتكلم بشيء من ذلك، مع الاعتراف بأن في إنزالها حكمة لله عز وجل لا تبلغها عقولنا ولا تهتدي إليها أفعالنا، وإذا انتهيت إلى السلامة في

سورة البقرة ﴿الْمَ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ﴾ فأتى أخاه حي بن أخطب في رجال من اليهود فقال: تعلمون، والله لقد سمعت محمداً يتلو فيما أنزل عليه ﴿الْمَ﴾ ذلك الكتاب، فقال: أنت سمعته؟ فقال نعم، فمشى حيي في أولئك نفر إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد ألم تذكر أنك تتلو، فيما أنزل عليك ﴿الْمَ﴾ ذلك الكتاب؟ قال: «بلى»، قالوا: لأجلك بهذا جبريل من عند الله؟ قال: «نعم». قالوا: لقد بعث الله قبلك الأنبياء ما نعلمه بين نبي منهم ما مدة ملكه، وما أجل أمته غيرك، فقال حيي ابن أخطب وأقبل على من كان معه: الألف واحد، واللام ثلاثون، والميم أربعون، فهذه إحدى وسبعون سنة، اقتدخولون في دين نبي إنما مدة ملكه، وأجل أمته إحدى وسبعون سنة؟ ثم أقبل على رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد هل مع هذا غيره؟ قال: «نعم»، قال: وما ذاك؟ قال: ﴿الْقَص﴾، قال: هذه أثقل وأطول: الألف واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون، والصاد تسعون، فهذه إحدى وستون ومائة سنة، هل مع هذا يا محمد غيره؟ قال «نعم»، قال: وما ذاك؟ قال: ﴿الر﴾، قال: هذه أثقل وأطول: الألف واحدة، واللام ثلاثون، والراء مائتان، هذه إحدى وثلاثون سنة ومائتان، فهل مع هذا غيره؟ قال: نعم: ﴿المر﴾ قال: فهذه أثقل وأطول: الألف واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون، والراء مائتان، فهذه إحدى وسبعون سنة ومائتان، ثم قال: لقد ليس علينا امرئ يا محمد حتى ما ننري قليلاً أعطيت أم كثيراً، ثم قاموا، فقال أبو ياسر لأخيه حيي، ومن معه من الأحيار: ما يديكم لعله قد جمع هذا لمحمد كله إحدى وسبعون وإحدى وستون ومائة وإحدى وثلاثون ومائتان وإحدى وسبعون ومائتان، فذلك سبع مائة وأربع وثلاثون سنة، فقالوا: لقد تشابه علينا أمره، فيزعمون أن هذه الآيات نزلت فيهم: ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات﴾ [آل عمران: 7] فانظر ما بلغت إليه أفهامهم من هذا الأمر المختص بهم من عند الحروف مع كونه ليس من لغة العرب في شيء، وتأمل أي موضع أحق بالبيان من رسول الله ﷺ من هذا الموضع، فإن هؤلاء الملاعين قد جعلوا ما فهموه عند سماع ﴿الْمَ﴾ ذلك الكتاب من ذلك العدد موجباً للتنبيط عن الإجابة له، والدخول في شريعته، فلو كان لذلك معنى يعقل، وملول يفهم، لنفع رسول الله ﷺ ما ظنوه بادئ بدء حتى لا يتأثر عنه ما جأؤوا به من التشكيك على من معهم.

فإن قلت: هل ثبت عن رسول الله في هذه الفواتح شيء يصلح للتمسك به؟ قلت: لا أعلم أن رسول الله ﷺ تكلم في شيء من معانيها، بل غاية ما ثبت عنه هو مجرد عدد حروفها، فأخرج البخاري في تاريخه، والترمذي وصححه، والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول ﴿الْم﴾ حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف» وله طرق عن ابن مسعود. وأخرج ابن أبي

هديان: هدى دلالة، وهو الذي يقدر عليه الرسل وأتباعهم، قال الله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: 7] وقال: ﴿وَأَنْتَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: 52] فأنشئت لهم الهدى الذي معناه الدلالة والدعوة والتنبيه، وتفرد سبحانه بالهدى الذي معناه التأييد والتوفيق، فقال لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: 56] فالهدى على هذا يجيء بمعنى خلق الإيمان في القلب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: 5] وقوله: ﴿وَلَكِنْ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: 56] انتهى. والمتقين من ثبتت لهم التقوى. قال ابن فارس: وأصلها في اللغة قلة الكلام. وقال في الكشف: المتقي في اللغة: اسم فاعل من قولهم وقاه فاتقى، والوقاية: الصيانة، ومنه: فرس واق، وهذه الدابة تقي من وجارها: إذا أصلها ضلع من غلط الأرض ورقة الحافر، فهو يقي حافره أن يصيبه أنفى شيء يؤلمه. وهو في الشريعة: الذي يقي نفسه تعاطي ما يستحق به العقوبة من فعل أو ترك. انتهى. وأخرج ابن جرير، والحاكم، وصححه عن ابن مسعود أن الكتاب: القرآن، لا ريب فيه: لا شك فيه. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: «لا ريب فيه» قال: لا شك فيه. وأخرج أحمد في الزهد، وابن أبي حاتم، عن أبي الدرداء قال: الريب الشك. وأخرج عبد بن حميد عن قتادة مثله، وكذا ابن جرير عن مجاهد. وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود في قوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ قال: نور للمتقين، وهم المؤمنون. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي: الذين يحذرون من الله عقوبته في ترك ما يعرفون من الهدى ويرجون رحمته في التصديق مما جاء منه، وأخرج ابن أبي حاتم، عن معاذ بن جبل أنه قيل له: من المتقون؟ فقال: قوم اتقوا الشرك، وعبادة الأوثان، وأخلصوا لله العبادة. وأخرج ابن أبي الدنيا، عن أبي هريرة: أن رجلاً قال له: ما التقوى؟ قال: هل وجدت طريقاً ذا شوك؟ قال نعم، قال: فكيف صنعت؟ قال: إذا رايت الشوك عقلت عنه، أو جاوزته، أو قصرت عنه، قال: ذاك التقوى. وأخرج أحمد في الزهد، عن أبي الدرداء قال: تمام التقوى أن يتقي الله العبد حتى يتقيه من منقال نرة حين يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حراماً يكون حجاباً بينه وبين الحرام. وقد روي نحو ما قاله أبو الدرداء، عن جماعة من التابعين. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، والبخاري في تاريخه، والترمذي وحسنه، وابن ماجه، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب عن عطية السعدي قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً لما به البأس» فالمصير إلى ما أقاده هذا الحديث واجب، ويكون هذا معنى شرعياً للمتقي أخص من المعنى الذي قدمنا عن صاحب الكشف زاعماً أنه المعنى الشرعي.

الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ

مذاك، فلا تجاوزه، وسياقي لنا عند تفسير قوله تعالى: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران: 7] كلام طويل النيدول، وتحقيق تقبله صحيحات الأفهام وسليمان العقول.

ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١﴾

الإشارة بقوله ذلك إلى الكتاب المذكور بعده. قال ابن عباس: ﴿ذلك الكتاب﴾ هذا الكتاب، وبه قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والسدي، ومقاتل، وزيد بن أسلم، وابن جريج، وحكاه البخاري عن أبي عبيدة. والعرب قد تستعمل الإشارة إلى البعيد الغائب مكان الإشارة إلى القريب الحاضر، كما قال خفاف:

أقول له والمرح ياطر متنه تامل خفافاً أنني أنا لثلكا أي: أنا هذا، ومنه قوله تعالى: ﴿ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم﴾ [السجدة: 6] ﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم﴾ [الأنعام: 83] ﴿تلك آيات الله نتلوها عليك﴾ [البقرة: 252] ﴿تلكم حكم الله يحكم بينكم﴾ [المتحنة: 10] وقيل: إن الإشارة إلى غائب، واختلف في ذلك الغائب، فقيل: هو الكتاب الذي كتب على الخلائق بالسعادة، والشقاوة، والأجل، والرزق ﴿لا ريب فيه﴾ أي: لا مبدل له، وقيل: تلك الكتاب الذي كتبه الله على نفسه في الأزل أن رحمته سبقت غضبه، كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لما قضى الله الخلق كتب في كتاب على نفسه، فهو موضوع عنده: إن رحمتي تغلب غضبي». وفي رواية «سبقت». وقيل: الإشارة إلى ما قد نزل بمكة، وقيل: إلى ما في التوراة والإنجيل، وقيل: إشارة إلى قوله قبله ﴿الْقُرْآنُ﴾، ورجحه الزمخشري، وقد وقع الاختلاف في ذلك إلى تمام عشرة أقوال حسبما حكاه القرطبي، وأرجحها ما صرنه، واسم الإشارة مبتدأ، والكتاب صفته، والخبر لا ريب فيه، ومن جواز الابتداء بـ ﴿الْقُرْآنُ﴾ جعل ذلك مبتدأ ثانياً، وخبره الكتاب، أو هو صفته، والخبر لا ريب فيه، والجملة خبر المبتدأ. ويجوز أن يكون المبتدأ مقدرًا، وخبره ﴿الْقُرْآنُ﴾، وما بعده. والريب مصدر، وهو: قلق النفس واضطرابها، وقيل: إن الريب: الشك. قال ابن أبي حاتم: لا أعلم في هذا خلافاً. وقد يستعمل الريب في التهمة والحاجة، حكى ذلك القرطبي. ومعنى هذا النفي العام أن الكتاب ليس بمظنة للريب لوضوح دلالاته وضوحاً يقوم مقام البرهان المقتضى لكونه لا ينبغي الارتياح فيه بوجه من الوجوه، والوقف على ﴿فيه﴾ هو المشهور. وقد روي عن نافع، وعاصم الوقف على ﴿لا ريب﴾، قال في الكشف: ولا بد للوقوف من أن ينوي خبراً، ونظيره قوله تعالى: ﴿قُلُوا لَا ضَيْرَ﴾ [الشعراء: 50] وقول العرب: لا بأس، وهي كثيرة في لسان أهل الحجاز، والتقدير: لا ريب فيه فيه هدى. والهدى مصدر. قال الزمخشري: وهو: الدلالة الموصلة إلى البغية بدليل وقوع الضلال في مقابلته انتهى. ومحل الرفع على الابتداء وخبره للظرف المذكور قبله على ما سبق. قال القرطبي: الهدى

نصركم، فيا ليتني قد لقيت إخواني» وأخرج نحوه ابن عساكر في الأربعين السبائية من حديث أنس، وفي إسناده أبو هبة، وهو كذاب، وزاد فيه: «ثم قرأ النبي ﷺ الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة» [البقرة: 3] الآية. وأخرج أحمد، والدارمي، والبارودي وابن قانع معاً في معجم الصحابة، والبخاري في تاريخه، والطبراني، والحاكم عن أبي جمعة الأنصاري قال: قلت: يا رسول الله هل من قوم أعظم منا أجراً؟ أمنا بك، واتبعك، قال: «ما يمنعكم من ذلك، ورسول الله بين أظهركم يأتيكم بالوحي من السماء، بل قوم يأتون من بعدكم يأتيهم كتاب الله بين لوحين فيؤمنون به، ويعملون بما فيه أولئك أعظم منكم أجراً». وأخرج أحمد، وابن أبي شيبة، والحاكم، عن أبي عبد الرحمن الجهني قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ طلع راكبان، فقال رسول الله ﷺ: «كنديان أو منجحيان» حتى أتيا، فإذا رجلان من منجج، فدنا أحدهما ليبياعه، فلما أخذ بيده قال: يا رسول الله أرايت من جاءك فأمن بك واتبعك وصنّك فماذا له؟ قال: «طوبى له» فمسح على زنده، وانصرف، ثم جاء الآخر حتى أخذ بيده ليبياعه فقال: يا رسول الله أرايت من آمن بك، وصنّك، واتبعك، ولم يرك؟ قال: «طوبى له ثم طوبى له»، ثم مسح على زنده، وانصرف. وأخرج الطيالسي، وأحمد، والبخاري في تاريخه، والطبراني، والحاكم عن أبي أمامة الباهلي قال: قال رسول الله ﷺ: «طوبى لمن رأيي وأمن بي، وطوبى لمن آمن بي، ولم يركني سبع مرات». وأخرج أحمد، وابن حبان، عن أبي سعيد: أن رجلاً قال: يا رسول الله طوبى لمن رآك، وأمن بك؟ قال: «طوبى لمن رأيي وأمن بي، وطوبى، ثم طوبى، ثم طوبى لمن آمن بي ولم يركني» وأخرج الطيالسي، وعبد بن حميد، عن ابن عمر نحوه. وأخرج أحمد، وأبو يعلى، والطبراني من حديث أنس نحو حديث أبي أمامة الباهلي المتقدم. وأخرج سفيان بن عيينة، وسعيد بن منصور، وأحمد بن منيع في مسنده، وابن أبي حاتم، وابن الضبائي، والحاكم وصححه عن ابن مسعود، أنه قال: والذي لا إله غيره ما آمن أحد أفضل من إيمان بغيث، ثم قرأ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ [البقرة: 1-5] وللتابعين أقوال، والراجح ما تقدم من أن الإيمان الشرعي يصلق على جميع ما نكر هنا، قال ابن جرير: والأولى أن تكونوا موصوفين بالإيمان بالغيب قولاً، واعتقاداً، وعملاً. قال: وتدل الخشية لله في معنى الإيمان الذي هو تصديق القول بالعمل والإيمان كلمة جامعة للإقرار بالله، وكتبه، ورسله، وتصديق الإقرار بالفعل. وقال ابن كثير: إن الإيمان الشرعي المطلوب لا يكون إلا اعتقاداً، وقولاً، وعملاً، وهكذا ذهب إليه أكثر الأئمة، بل قد حكاه الشافعي، وأحمد بن حنبل، وأبو عبيد، وغير واحد إجماعاً أن الإيمان قول وعمل، ويزيد وينقص. وقد ورد فيه آيات كثيرة. انتهى.

وَيُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُقْنُونَ ﴿١٠٠﴾

هو معطوف على «يؤمنون» والإقامة في الأصل: النوام

هو وصف للمؤمنين كاشف. والإيمان في اللغة: التصديق، وفي الشرع ما سيأتي. والغيب في كلام العرب: كل ما غاب عنك. قال القرطبي: واختلف المفسرون في تأويل الغيب هنا، فقالت فرقة: الغيب في هذه الآية هو الله سبحانه، وضعفه ابن العربي. وقال آخرون: القضاء والقدر. وقال آخرون: القرآن وما فيه من الغيوب. وقال آخرون: الغيب كل ما أخبر به الرسول مما لا تهتدي إليه العقول من إشارات الساعة، وعذاب القبر، والحشر والنشر، والصراف، والميزان، والجنة والنار. قال ابن عطية: وهذه الأقوال لا تتعارض بل يقع الغيب على جميعها، قال: وهذا هو الإيمان الشرعي المشار إليه في حديث جبريل حين قال للنبي ﷺ: «فأخبرني عن الإيمان؟» قال: «أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»، قال: صدقت. انتهى. وهذا الحديث هو ثابت في الصحيح بلفظ: «أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والقدر خيره وشره». وقد أخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، وابن منده، وأبو نعيم، كلاهما في معرفة الصحابة عن تويلة بنت أسلم قالت: صليت الظهر، أو العصر في مسجد بني حارثة، فاستقبلنا مسجد إيليا، فصلينا سجدتين، ثم جاءنا من يخبرنا بأن رسول الله ﷺ قد استقبل البيت، فتحوّل الرجال مكان النساء، والنساء مكان الرجال، فصلينا السجدتين الباقيتين، ونحن مستقبلون البيت الحرام، فبلغ رسول الله ﷺ فقال: «أولئك قوم آمنوا بالغيب». وأخرج البزار، وأبو يعلى، والحاكم وصححه عن عمر بن الخطاب قال: كنت جالساً مع النبي ﷺ فقال: أتبئوني بأفضل أهل الإيمان إيماناً؟ فقالوا: يا رسول الله الملائكة، قال: «هم كذلك، ويحق لهم، وما يمنهم، وقد أنزلهم الله المنزلة التي أنزلهم بها» قالوا: يا رسول الله الأنبياء أكرمهم الله برسالاته والنبوة، قال: «هم كذلك، ويحق لهم، وما يمنهم، وقد أنزلهم الله المنزلة التي أنزلهم بها» قالوا: يا رسول الله الشهداء الذين استشهدوا مع الأنبياء، قال: هم كذلك، وما يمنهم، وقد أكرمهم الله بالشهادة، قالوا: فمن يا رسول الله؟ قال: أقوام في أصلاب الرجال يأتون من بعدي يؤمنون بي ولم يروني، ويصدقوني ولم يروني، يجنون الورق المعلق فيعملون بما فيه، فهؤلاء أفضل أهل الإيمان إيماناً» وفي إسناده محمد بن أبي حميد، وفيه ضعف. وأخرج الحسن بن عرفة في حزيه المشهور، والبيهقي في الدلائل عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: فنكر نحو الحديث الأول، وفي إسناده المغيرة بن قيس البصري، وهو منكر الحديث. وأخرج نحوه الطبراني عن ابن عباس مرفوعاً، والإسماعيلي عن أبي هريرة مرفوعاً أيضاً، والبزار عن أنس مرفوعاً. وأخرج ابن أبي شيبة في مسنده عن عوف بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «يا ليتني قد لقيت إخواني» قالوا: يا رسول الله ألسنا إخوانك؟ قال: «بلى، ولكن قوم يجيئون من بعدكم يؤمنون بي إيمانكم ويصدقوني تصديقكم وينصرونني

والثبات. يقال قام الشيء: أي دام وثبت. وليس من القيام على الرجل، وإنما هو من قولك قام الحق. أي: ظهر وثبت. قال الشاعر:

وقامت الحرب بنا على ساق

وقال آخر:

وإذا يقال أقيموا لم تبرحوا حتى تقيم الخيل سوق طعان وإقامة الصلاة أداؤها بأركانها وسننها وهيئاتها في أوقاتها. والصلاة أصلها في اللغة: الدعاء من صلى يصلي إذا دعا. وقد نكر هذا الجوهري وغيره. وقال قوم: هي مأخوذة من الصلاة وهو عرق في وسط الظهر، ويفترق عند العجب. ومنه أخذ المصلي في سبق الخيل، لأنه يأتي في الحلبة، ورأسه عند صلوى السابق، فاشتقت منه الصلاة لأنها ثانية للإيمان فشبهت بالمصلي من الخيل، وإما لأن الراكع يثني صلويه، والصلاة مغزى الذنب من الفرس، والاثنان صلوان، والمصلي تالي السابق؛ لأن رأسه عند صلوه. نكر هذا القرطبي في تفسيره. وقد نكر المعنى الثاني في الكشف، هذا المعنى اللغوي. وإما المعنى الشرعي، فهو هذه الصلاة التي هي ذات الأركان والآنكار. وقد اختلف أهل العلم هل هي مبقاة على أصلها اللغوي، أو موضوعة وضاعاً شرعياً ابتدائياً. فقيل: بالأول، وإنما جاء الشرع بزيادات هي الشروط والفروض الثابتة فيها. وقال قوم بالثاني. والرزق عند الجمهور ما صلح للانتماع به حالاً كان أو حراماً خلافاً للمعتزلة، فقالوا: إن الحرام ليس برزق، وللبحث في هذه المسألة موضع غير هذا. والإنفاق: إخراج المال من اليد، وفي المجيء بمن التبعية هاهنا نكتة سرية هي الإرشاد إلى ترك الإسراف. وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن إسحاق، عن ابن عباس في قوله: ﴿يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ قال: الصلوات الخمس ﴿وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ قال: زكاة أموالهم. وأخرج عبد بن حميد عن قتادة: أن إقامة الصلاة المحافظة على مواقيتها، ووضوئها، وركوعها، وسجودها ﴿وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ قال: أنفقوا في فرائض الله التي افترض عليهم في طاعته وسبيله. وأخرج ابن المنذر عن سعيد بن جبيرة نحوه. وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود في قوله: ﴿وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ قال: هي نفقة الرجل على أهله. وأخرج ابن جرير عن الضحاک قال: كانت النفقات قربات يقتربون بها إلى الله عز وجل على قدر ميسورهم وجهدهم، حتى نزلت فرائض الصلوات في سورة براءة من الناسخات المبينات. واختار ابن جرير أن الآية عامة في الزكاة، والنفقات، وهو الحق من غير فرق بين النفقة على الأقارب وغيرهم، وصدقة الفرض، والنفل، وعدم التصريح بنوع من الأنواع التي يصنق عليها مسمى الإنفاق يشعر أتم إشعار بالتعميم.

وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْآخِرُونَ هُمُ يُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾

وقيل: هم مؤمنو أهل الكتاب، فإنهم جمعوا بين الإيمان بما أنزل الله على محمد ﷺ، وما أنزله على من قبله، وفيهم

نزلت. وقد رجح هذا ابن جرير، ونقله السدي في تفسيره عن ابن عباس، وابن مسعود، وأنس من الصحابة، واستشهد له ابن جرير بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ [آل عمران: 119] ويقول تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين ﴿أولئك يؤتون أجرهم مرتين﴾ [القصص: 52 - 54] الآية. والآية الأولى نزلت في مؤمني العرب. وقيل: الأيتان جميعاً في المؤمنين على العموم. وعلى هذا، فهذه الجملة معطوفة على الجملة الأولى صفة للمؤمنين بعد صفة، ويجوز أن تكون مرفوعة على الاستثناء، ويجوز أن تكون معطوفة على المتقين، فيكون التقدير: هدى للمتقين، وللمؤمنين يؤمنون بما أنزل إليك. والمراد بما أنزل إلى النبي ﷺ هو القرآن. وما أنزل من قبله: هو الكتب السالفة.

والإيقان: إيقان العلم بانتفاء الشك والشبهة عنه، قاله في الكشف. والمراد أنهم يوقنون بالبعث، والنشور، وسائر أمور الآخرة من بون شك. والآخرة تأنيث الآخر الذي هو نقيض الأول، وهي صفة الدار كما في قوله تعالى: ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً﴾ [القصص: 83] وفي تقديم الظرف مع بناء الفعل على الضمير المنكسر إشعار بالحصر، وأن ما عدا هذا الأمر الذي هو أساس الإيمان ورأسه ليس بمستاهل للإيقان به والقطع بوقوعه. وإنما عبر بالماضي مع أنه لم ينزل إذ ذاك إلا البعض لا الكل تغليظاً للموجود على ما لم يوجد، أو تنبيهاً على تحقق الوقوع كانه بمنزلة النازل قبل نزوله. وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي: يصقونك بما جئت به من الله وما جاء به من قبلك من المرسلين، لا يفرقون بينهم، ولا يجحدون ما جأؤهم به من ربهم ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ إيماناً بالبعث، والقيامة، والجنة، والنار، والحساب، والميزان أي: لا هؤلاء الذين يزعمون أنهم آمنوا بما كان قبلك ويكفرون بما جاء من ربك. وأخرج عبد بن حميد، عن قتادة نحوه.

والحق أن هذه الآية في المؤمنين كالتي قبلها، وليس مجرد ذكر الإيمان بما أنزل إلى النبي ﷺ، وما أنزل إلى من قبله بمقتضى لجعل ذلك وصفاً لمؤمني أهل الكتاب، ولم يأت ما يوجب المخالفة لهذا ولا في النظم القرآني ما يقتضي ذلك. وقد ثبت الثناء على من جمع بين الأمرين من المؤمنين في غير آية. فمن ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾ [النساء: 136] وكقوله: ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ [العنكبوت: 46]، وقوله: ﴿آمَنَ الرُّسُلُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفَرَقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: 285]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يَفْرَقُوا بَيْنَ أَحَدٍ

منهم» [النساء: 152].

أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٣﴾

هذا كلام مستأنف استئنافاً بيانياً، كأنه قيل: كيف حال هؤلاء الجامعين بين التقوى والإيمان بالغيب، والإتيان بالفرائض، والإيمان بما أنزل على رسول الله ﷺ وعلى من قبله من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فقيل: ﴿أولئك على هدى﴾ ويمكن أن يكون هذا خيراً عن الذين يؤمنون بالغيب الخ، فيكون متصلاً بما قبله. قال في الكشف: ومعنى الاستعلاء في قوله ﴿على هدى﴾ مثل لتمكنهم من الهدى، واستقرارهم عليه، وتمسكهم به، شبهت حالهم بحال من اعتلى الشيء وركبه، ونحوه: هو على الحق، وعلى الباطل. وقد صرحوا بذلك في قوله: جعل الغواية مركباً، وامتنطى الجهل، واقتعد غارب الهوى. انتهى. وقد أطل للمحققون الكلام على هذا بما لا يتسع له المقام، واشتهر الخلاف في ذلك بين المحقق السعد والمحقق الشريف. واختلف من بعدهم في ترجيح الراجح من القولين، وقد جمعت في ذلك رسالة سميتها [الطود المنيف في ترجيح ما قاله السعد على ما قاله الشريف] فليرجع إليها من أراد أن يتضح له المقام، ويجمع بين أطراف الكلام على التمام. قال ابن جرير: إن معنى ﴿أولئك على هدى من ربهم﴾ على نور من ربهم، وبرهان واستقامة، وسداد بتسديد الله إياهم، وتوفيقه لهم، ﴿والمفلحون﴾ أي: المنجحون المدركون ما طلبوا عند الله بأعمالهم، وإيمانهم بالله، وكتبه، ورسله. هذا معنى كلامه. والفلاح أصله في اللغة: الشقّ والقطع، قاله أبو عبيد: ويقال للذي شقت شفته أفلح، ومنه سمي الأكار فلاحاً؛ لأنه شقّ الأرض بالحرث، فكان المفلح قد قطع المصاعب حتى نال مطلوبه. قال القرطبي: وقد يستعمل في الفوز والبقاء، وهو أصله أيضاً في اللغة، فمعنى ﴿أولئك هم المفلحون﴾ الفائزون بالجنة، والباقون. وقال في الكشف: المفلح الفائز بالبغيّة، كأنه الذي انتفعت له وجوه الظفر، ولم تستغلق عليه. انتهى. وقد استعمل الفلاح في السحور، ومنه الحديث للذي أخرجه أبو داود: «حتى كاد يفوتنا الفلاح مع رسول الله ﷺ». قلت: وما الفلاح؟ قال: السحور. فكان معنى الحديث: إن السحور به بقاء الصوم، فلهذا سمي فلاحاً. وفي تكرير اسم الإشارة دلالة على أنّ كلاً من الهدى، والفلاح مستقلّ بتمييزهم به عن غيرهم، بحيث لو انفرد أحدهما لكفى تمييزاً على حياله. وفائدة ضمير الفصل الدلالة على اختصاص المسند إليه بالمسند نون غيره. وقد روى السدي عن أبي مالك، وأبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة الهمداني، عن ابن مسعود، وعن أنس من الصحابة أن الذين يؤمنون بالغيب: هم المؤمنون من العرب، الذين يؤمنون بما أنزل إلى رسول الله ﷺ، وما أنزل إلى من قبله، هم، والمؤمنون من أهل الكتاب، ثم جمع الفريقين فقال: ﴿أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾. وقد قمنا الإشارة إلى هذا، وإلى ما هو أرجح منه كما هو منقول عن

مجاهد، وأبي العالية، والربيع بن أنس، وقتادة. وأخرج ابن أبي حاتم من حديث عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: قيل يا رسول الله إنا نقرأ من القرآن فنرجو ونقرأ فنكاد أن نيلس أو كما قال: فقال: «ألا أخبركم عن أهل الجنة وأهل النار؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: ﴿الم﴾ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين» إلى قوله: ﴿المفلحون﴾ [البقرة: 1 - 5] هؤلاء أهل الجنة، قالوا: إنا نرجو أن نكون هؤلاء، ثم قال: ﴿إن الذين كفروا سواء عليهم﴾ [البقرة: 6] إلى قوله: ﴿عظيم﴾ هؤلاء أهل النار، قالوا: السنا هم يا رسول الله؟ قال: «لجل».

وقد ورد في فضل هذه الآيات الشريفة أحاديث: منها ما أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند، والحاكم والبيهقي، عن أبي بن كعب قال: كنت عند النبي ﷺ، فجاء أعرابي فقال: يا نبي الله إن لي أخاً وبه وجع فقال: «وما وجعه؟» قال: به ليم، قال: «فأنتني به»، فوضعه بين يديه، فعوّذ النبي بفاتحة الكتاب، وأربع آيات ومن أول سورة البقرة، وهاتين الآيتين ﴿واللهم إله واحد﴾ [البقرة: 163] وآية الكرسي، وثلاث آيات من آخر سورة البقرة، وآية من آل عمران: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو﴾ [آل عمران: 18]، وآية من الأعراف: ﴿إن ربكم الله﴾ [الأعراف: 54]، وآخر سورة المؤمنین ﴿فتعالى الله الملك الحق﴾ [المؤمنون: 114]، وآية من سورة الجن ﴿وانه تعالى جد ربنا﴾ [الجن: 3]، وعشر آيات من أول الصفات، وثلاث آيات من آخر سورة الحشر، وقل هو الله أحد، والمعوذتين، فقام الرجل كأنه لم يشك قطه. وأخرج نحوه ابن السني في عمل اليوم والليلة من طريق عبد الرحمن بن أبي يعلى عن رجل عن أبي مثله. وأخرج الدارمي، وابن الضريس، عن ابن مسعود قال: من قرأ أربع آيات من أول سورة البقرة، وآية الكرسي، وأيتين بعد آية الكرسي، وثلاثاً من آخر سورة البقرة لم يقربه ولا أهله يومئذ شيطان، ولا شيء يكره في أهله، ولا مله، ولا تقرا على مجنون إلا أفاق. وأخرج الدارمي، وابن المنذر، والطبراني عنه قال: «من قرأ عشر آيات من سورة البقرة في ليلة لم يدخل تلك البيت شيطان تلك الليلة حتى يصبح: أربع من أولها، وآية الكرسي، وأيتان بعدها، وثلاث خواتمها أولها ﴿الله ما في السموات﴾ [البقرة: 284]. وأخرج سعيد بن منصور، والدارمي، والبيهقي عن المغيرة بن سبيع، وكان من أصحاب عبد الله بن مسعود بنحوه. وأخرج الطبراني، والبيهقي عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مات أحنكم، فلا تحبسوه، وأسرعوا به إلى قبره، وليقرأ عند رأسه بفاتحة البقرة، وعند رجله بخاتمة سورة البقرة، وقد ورد في ذلك غير هذا.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾
خَمَّ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَقَى أَبْصَارَهُمْ غُشًوًا وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٥٥﴾

نكر سبحانه فريق الشر بعد الفراغ من نكر فريق الخير

أهل السنة على المعتزلة، وحاولوا دفع هذه الحجة بمثل ما نكره صاحب الكشف، والكلام على مثل هذا متقرر في موطنه.

وقد اختلف في قوله تعالى ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ هل هو داخل في حكم الختم، فيكون معطوفاً على القلوب، أو في حكم التغشية، فقيل: إن الوقف على قوله ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ تام، وما بعده كلام مستقل، فيكون الطبع على القلوب والأسماع، والغشاوة على الأبصار كما قاله جماعة، وقد قرئ ﴿غشاوة﴾ بالنصب. قال ابن جرير: يحتمل أنه نصبها بإضمار فعل تقديره: وجعل على أبصارهم غشاوة، ويحتمل أن يكون نصبها على الإتيان على محل: وعلى سمعهم، كقوله تعالى ﴿وَحُودَ عَيْنٍ﴾ [الواقعة: 22] وقول الشاعر:

علفتها تبنياً وماءً بارداً

وإنما وحد السمع مع جمع القلوب والأبصار، لأنه مصدر يقع على القليل، والكثير، والعذاب: هو ما يؤلم، وهو مأخوذ من الحبس والمنع، يقال في اللغة: أعذبه عن كذا: حبسه ومنعه، ومنه عنوبة الماء؛ لأنها حبست في الإناء حتى صفت. وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني في الكبير، وابن مريويه، والبيهقي عن ابن عباس في قوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ﴾ قال: كان رسول الله ﷺ يحرص أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى، فأخبره الله أنه لا يؤمن إلا من سبق له من الله السعادة في الذكر الأول، ولا يضل إلا من سبق له من الله الشقاوة في الذكر الأول. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس أيضاً في تفسير الآية: أنهم قد كفروا بما عندهم من نكره، وجحدوا ما أخذ عليهم من الميثاق، فكيف يسمعون منك إنذاراً وتحذيراً، وقد كفروا بما عندهم من علمك ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة﴾.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي العالية في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال: نزلت هاتان الآيتان في قادة الأحزاب، وهم الذين نكروهم الله في هذه الآية: ﴿لَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ بَكَوْا نِعْمَتَ اللَّهِ كَفْراً﴾ [إبراهيم: 28] قال: فهم الذين قتلوا يوم بدر، ولم يدخل القادة في الإسلام إلا رجلاً: أبو سفيان، والحكم بن العاص. وأخرج ابن المنذر عن السدي في قوله: ﴿أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ قال: أوعظتهم أم لم تعظهم. وأخرج عبد بن حميد، عن قتادة في هذه الآية قال: أطاعوا الشيطان، فاستحوذ عليهم، فحتم الله على قلوبهم، وعلى سمعهم، وعلى أبصارهم غشاوة، فهم لا يبصرون هدى، ولا يسمعون، ولا يفقهون، ولا يعقلون. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، قال: الختم على قلوبهم، وعلى سمعهم، والغشاوة على أبصارهم. وأخرج ابن جرير، عن ابن مسعود قال: حتم الله على قلوبهم وعلى سمعهم، فلا يعقلون، ولا يسمعون، وجعل على أبصارهم: يعني أعينهم غشاوة، فهم لا يبصرون. وروى ذلك السدي، عن جماعة من الصحابة. وأخرج ابن جرير، عن ابن

قاطعاً لهذا الكلام عن الكلام الأول، معنوياً له بما يفيد أن شأن جنس الكفرة عدم إبداء الإنذار لهم، وأنه لا يترتب عليهم ما هو المطلوب منهم من الإيمان، وإن وجود ذلك كعدمه. وسواء اسم بمعنى الاستواء وصف به كما يوصف بالمصابر، والهمزة وأم مجزئتان لمعنى الاستواء غير مراد بهما ما هو أصلهما من الاستفهام، وصح الابتداء بالفعل، والإخبار عنه بقوله: سواء، هجراً لجانب اللفظ إلى جانب المعنى، كانه قال: الإنذار وعدمه سواء، كقولهم: تسمع بالمعيدي خير من أن تراه أي: سماعك. وأصل الكفر في اللغة: الستر والتغطية، قال الشاعر:

في ليلة كفر النجوم غمامها

أي: سترها، ومنه سمي الكافر كافراً؛ لأنه يغطي بكفره ما يجب أن يكون عليه من الإيمان. والإنذار: الإبلان والإعلام.

قال القرطبي: واختلف العلماء في تأويل هذه الآية، فقيل: هي عامة، ومعناها للخصوص فيمن سبقت عليه كلمة العذاب، وسبق في علم الله أنه يموت على كفره. أراد الله تعالى أن يعلم الناس أن فيهم من هذا حاله دون أن يعين أحداً. وقال ابن عباس، والكلبى، ونزلت في رؤساء اليهود حيي بن أخطب، وكعب بن الأشرف، ونظرائهما. وقال الربيع بن أنس: نزلت فيمن قتل يوم بدر من قادة الأحزاب، والأول أصح، فإن من عين أحداً فإنما مثل بمن كشف الغيب بموته على الكفر. انتهى. وقوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي: هم لا يؤمنون، وهي جملة مستأنفة؛ لأنها جواب سؤال مقدر كأنه قيل: هؤلاء الذين استوى حالهم مع الإنذار وعدمه ماذا يكون منهم؟ فقيل: لا يؤمنون أي: هم لا يؤمنون. وقال في الكشف: إنها جملة مؤكدة للجملة الأولى، أو خبر لأن، والجملة قبلها اعتراض. انتهى. والأولى ما نكرناه، لأن المقصود الإخبار عن عدم الاعتداد بإنذارهم، وأنه لا يجدي شيئاً بل بمنزلة العدم، فهذه الجملة هي التي وقعت خبراً لأن، وما بعدها من عدم الإيمان متسبب عنها لا أنه المقصود. وقد قال بمثل قول الزمخشري القرطبي. وقال ابن كيسان: إن خبر «إن» سواء، وما بعده يقوم مقام الصلة. وقال محمد بن يزيد المبرّد: سواء رفع بالابتداء، وخبره «أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ»، والجملة خبر إن. والختم: مصدر ختمت الشيء، ومعناه: التغطية على الشيء، والاستيثاق منه حتى لا يخله شيء، ومنه ختم الكتاب، والباب، وما يشبه ذلك حتى لا يوصل إلى ما فيه، ولا يوضع فيه غيره. والغشاوة: الغطاء، ومنه غاشية السرج، والمراد بالختم والغشاوة هنا هما المعنويان لا الحسيان أي: لما كانت قلوبهم غير واعية لما وصل إليها، والأسماع غير مؤنية لما يطرّقها من الآيات البينات إلى العقل على وجه مفهوم، والأبصار غير مهيبة للنظر في مخلوقاته وعجائب مصنوعاته، جعلت بمنزلة الأشياء المختوم عليها ختماً حسياً، والمستوثق منها استيثاقاً حقيقياً، والمغطاة بغطاء مدرك استعارة أو تمثيلاً، وإسناد الختم إلى الله قد احتج به

جريح قال: الختم على القلب والسمع، والغشاوة على البصر، قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يُخْتَمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ [الشورى: 24] وقال: ﴿وَيُخْتَمْ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ [الجنائية: 23]. قال ابن جرير في معنى الختم: والحق عندي في ذلك ما صحّ نظيره عن رسول الله ﷺ، ثم ذكر إسناداً متصلاً بابي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَتَتْهُ نَذْبًا كَانَ نَكْتَةً سُودَاءَ فِي قَلْبِهِ، فَإِنْ تَابَ، وَنَزَعَ، وَاسْتَعْتَبَ صَقَلَ قَلْبَهُ، وَإِنْ زَادَ زَانَتْ حَتَّى تَغْلُقَ قَلْبَهُ» فذلك الران الذي قال الله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الجنائية: 23]. وقد رواه من هذا الوجه الترمذي وصححه، والنسائي. ثم قال ابن جرير: فأخبر رسول الله ﷺ أن الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها، وإذا أغلقتها أتاها حينئذ الختم من قبل الله سبحانه، والطبع، فلا يكون إليها مسلك، ولا للكفر منها مخلص، فذلك هو: الختم الذي نكره الله في قوله: ﴿يُخْتَمُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ نظير الطبع، والختم على ما تدركه الأبصار من الأوعية والظروف التي لا يوصل إلى ما فيها إلا بقضّ ذلك عنها، ثم حلها، فذلك لا يصل الإيمان إلى قلوب من وصف الله أنه ختم على قلوبهم إلا بعد فضّ خاتمه، وحلّ رباطه عنها.

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَآمَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٦١﴾ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ اللَّهَ أَشْفَهُمْ وَمَا يَشْمُرُونَ ﴿١٦٢﴾

نكر سبحانه في أول هذه السورة المؤمنين الخلق، ثم ذكر بعدهم الكفرة الخلق، ثم نكر ثالثاً المنافقين، وهم: الذين لم يكونوا من إحدى الطائفتين، بل صاروا فرقة ثالثة لأنهم، وافقوا في الظاهر الطائفة الأولى وفي الباطن الطائفة الثانية، ومع ذلك فهم أهل الدرك الأسفل من النار. وأصل ناس أناس حنفت همزته تخفيفاً، وهو من النوس، وهو: الحركة، يقال: ناس ينوس أي: تحرك، وهو: من أسماء الجموع جمع إنسان، وإنسانة على غير لفظه، واللام الدالّة عليه للجنس، ومن تبعيضية: أي بعض الناس، ومن موصوفة: أي ومن الناس ناس يقول. والمراد باليوم الآخر: الوقت الذي لا ينقطع، بل هو دائم أبداً. والخداع في أصل اللغة: الفساد، حكاة ثعلب عن ابن الأعرابي، وأنشد:

أبيض اللون رقيق طعمه طيب الريق إذا الريق خدع
وقيل: أصله الإخفاء، ومنه مخدع البيت الذي يحرز فيه الشيء، حكاة ابن فارس، وغيره. والمراد من مخادعتهم الله أنهم صنعوا معه صنع المخادعين، وإن كان العالم الذي لا يخفى عليه شيء لا يخدع. وصيغة فاعل تفيد الاشتراك في أصل الفعل، فكونهم يخادعون الله والذين آمنوا يفيد أن الله سبحانه والذين آمنوا يخادعونهم. والمراد بالمخادعة من الله: أنه لما أجرى عليهم أحكام الإسلام مع أنهم ليسوا منه في شيء، فكأنه خادعهم بذلك كما خادعوه بإظهار الإسلام وإبطان الكفر مشكلة لما وقع منهم بما وقع منه. والمراد بمخادعة المؤمنين لهم: هو أنهم أجروا عليهم ما أمرهم الله به من أحكام الإسلام ظاهراً، وإن كانوا يعلمون فساد

بواطنهم، كما أن المنافقين خادعهم بإظهار الإسلام، وإبطان الكفر. والمراد بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَخَادِعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ الإشعار بأنهم لما خادعوا من لا يخدع كانوا مخادعين لأنفسهم، لأن الخداع إنما يكون مع من لا يعرف البواطن. وأما من عرف البواطن فمن دخل معه في الخداع فإنه يخدع نفسه، وما يشعر بذلك، ومن هذا قول من قال: من خادعته فانخدع لك، فقد خدعك. وقد قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو «يخادعون» في الموضعين، وقرأ حمزة، وعاصم، والكسائي، وابن عامر في الثاني «يخدعون». والمراد بمخادعتهم أنفسهم: أنهم يمتنونها الأمانى الباطلة، وهي كذلك تمنيتهم. قال أهل اللغة: شعرت بالشيء فطنت. قال في الكشف: والشعور علم الشيء علم حس، من الشعار، ومشاعر الإنسان: حواسه. والمعنى: أن لحوق ضرر ذلك لهم كالمحسوس، وهم لتمادي غفلتهم كالذي لا حس له. والمراد بالأنفس هنا نواتهم لا سائر المعاني التي تدخل في مسمى النفس كالروح، والدم، والقلب. وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس أنهم المنافقون من الأوس، والخزرج، ومن كان على أمرهم. وأخرج ابن جرير، عن ابن مسعود أنه قال: والمراد بهذه الآية المنافقون. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، عن قتادة مثله. وأخرج ابن المنذر، عن ابن سيرين قال: لم يكن عندهم شيء أخوف من هذه الآية ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَآمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾. وأخرج ابن سعد، عن حذيفة أنه قيل له: ما التفاف؟ قال: أن يتكلم بالإسلام، ولا يعمل به. وأخرج أحمد بن منيع في مسنده بسند ضعيف، عن رجل من الصحابة: أن قاتلاً من المسلمين قال: يا رسول الله ما النجاة غداً؟ قال: «لا تخادع الله قال: وكيف نخادع الله؟ قال: أن تعمل بما أمرك الله به تريد به غيره، فاتقوا الرياء، فإنه الشرك بالله، فإن المرآتي ينادي يوم القيامة على رؤوس الخلائق بأربعة أسماء: يا كافر يا فاجر يا خاسر يا غادر، ضلّ عملك، وبطل أجرك، فلا خلاق لك اليوم عند الله، فالتمس أجرك ممن كنت تعمل له يا مخادع، وقرأ آيات من القرآن ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ [الكهف: 110] الآية، و﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ [النساء: 142] الآية. وأخرج ابن جرير، عن ابن وهب قال: سألت ابن زيد عن قوله: ﴿يَخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ قال: هؤلاء المنافقون يخادعون الله ورسوله والذين آمنوا أنهم مؤمنون بما أظهروه. وعن قوله: ﴿وَمَا يَخَادِعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أنهم ضرّوا أنفسهم بما أضمرّوا من الكفر، والتناق. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن جرير في قوله ﴿يَخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ قال: يظهرون لا إله إلا الله يريون أن يحرزوا بذلك دماءهم، وأموالهم، وفي أنفسهم غير ذلك.

فِي قُلُوبِهِمْ مَرَمٌ فَرَادَهُمُ اللَّهُ مَرَمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٦٣﴾ بِكَذِبِهِمْ ﴿١٦٤﴾

المرض: كل ما يخرج به الإنسان عن حدّ الصحة من

علة، أو نفاق، أو تقصير في أمر، قاله ابن فارس. وقيل: هو الألم، فيكون على هذا مستعاراً للفساد الذي في عقائدهم إما شكاً ونفاقاً، أو جحداً وتكذيباً، وتقديم الخبر للإشعار بأن المرض مختص بها مبالغة في تعلق هذا الداء بتلك القلوب لما كانوا عليه من شدة الحسد، وفرط العداوة. والمراد بقوله ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ الإخبار بأنهم كذلك بما يتجدد لرسول الله ﷺ من النعم، ويتكرر له من منن الله الدنيوية والدينية. ويحتمل أن يكون دعاء عليهم بزيادة الشك، وترانف الحسرة، وفرط النفاق. والاليم المؤلم أي: المومع، و«ماء» في قوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْتُبُونَ﴾ مصدرية أي: بتكذيبهم، وهو: قولهم ﴿أَمَّا بَالِغُ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 8] والقراء مجمعون على فتح الراء من قوله مرض، إلا ما رواه الأصمعي عن أبي عمرو أنه: قرأ بلسكان الراء، وقرأ حمزة، وعاصم، والكسائي ﴿يَكْتُبُونَ﴾ بالتخفيف، والباقون بالتشديد. وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ قال: شك ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ قال: شكاً. وأخرج عنه ابن جرير، وابن أبي حاتم في قوله ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ قال: النفاق ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قال: نكال مومع ﴿بِمَا كَانُوا يَكْتُبُونَ﴾ قال: يبتلون ويحرفون. وأخرج ابن جرير، عن ابن مسعود مثل ما قاله ابن عباس أولاً. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: كل شيء في القرآن أليم، فهو المومع. وأخرج أيضاً عن أبي العالية مثله. وأخرج ابن جرير، عن الضحاك مثله أيضاً. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي: ريبة وشك في أمر الله ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ ريبة وشكاً ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بما كانوا يكتبون. قال: إياكم والكتب، فإنه باب النفاق. وأخرج ابن جرير، عن ابن زيد قال: هذا مرض في الدين وليس مرضاً في الأجساد، وهم المنافقون. والمرض: الشك الذي دخل في الإسلام. وروي عن عكرمة وطاوس أن المرض: الرياء.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَعْمَلُ صَالِحًا ﴿١٧﴾
إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾

(إذا) في موضع نصب على الظرف، والعامل فيه قالوا المنكور بعده. وفيه معنى الشرط. والفساد ضد الإصلاح، وحقيقته العبدول عن الاستقامة إلى ضدها. فسد الشيء يفسد فساداً، وفسوداً، فهو فاسد وفسيد. والمراد في الآية: لا تفسدوا في الأرض بالنفاق، وموالة الكفرة، وتفریق الناس عن الإيمان بمحمد ﷺ والقرآن، فإنكم إذا فعلتم ذلك فسد ما في الأرض بهلاك الأبدان، وخراب الديار، وبطلان الزرائع، كما هو مشاهد عند ثوران الفتن والتنازع. و«إنما» من أدوات القصر، كما هو مبين في علم المعاني. والإصلاح ضد الفساد. لما نهاهم الله عن الفساد الذي هو ذهابهم أجابوا بهذه الدعوى العريضة، ونقلوا أنفسهم من الاتصاف بما هي عليه حقيقة، وهو الفساد، إلى الاتصاف بما هو ضد لذلك، وهو

الصلاح، ولم يقفوا عند هذا الكذب البحت، والزور المحض حتى جعلوا صفة الإصلاح مخصصة بهم خالصة لهم، فرد الله عليهم ذلك أبليغ ردّ لما يفيد حرف التنبيه من تحقق ما بعده، ولما في «إن» من التأكيد، وما في تعريف الخبر مع توسيط ضمير الفصل من الحصر المبالغ فيه بالجمع بين أمرين من الأمور المفيدة له، وردّهم إلى صفة الفساد التي هم متصفون بها في الحقيقة ردّاً مؤكداً مبالغاً فيه بزيادة على ما تضمنته دعواهم الكاذبة من مجرد الحصر المستفاد من إنما. وأما نفي الشعور عنهم، فيحتمل أنهم لما كانوا يظهرُونَ الإصلاح مع علمهم أنهم على الفساد الخالص، ظنوا أن ذلك ينفي على النبي ﷺ، وينكتم عنه بطلان ما أضمره، ولم يشعروا بأنه عالم به، وأن الخبر يأتيه بذلك من السماء، فكان نفي الشعور عنهم من هذه الحثية لا من جهة أنهم لا يشعرون بأنهم على الفساد، ويحتمل أن فسادهم كان عندهم صلاحاً لما استقرّ في عقولهم من محبة الكفر، وعداوة الإسلام. وقد أخرج ابن جرير، عن ابن مسعود أنه قال: الفساد هنا هو: الكفر والعمل بالمعصية. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ أي: إنما نريد الإصلاح بين الفريقين من المؤمنين وأهل الكتاب. وأخرج ابن جرير، عن مجاهد في تفسير هذه الآية قال: إذا ركبوا معصية، فقبل لهم: لا تفعلوا كذا قالوا إنما نحن على الهدى. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن سلمان أنه قرأ هذه الآية فقال: لم يجيئ أهل هذه الآية بعد. قال ابن جرير: يحتمل أن سلمان أراد بهذا أن الذين يأتون بهذه الصفة أعظم فساداً من الذين كانوا في زمن النبي ﷺ، لا أنه عني أنه لم يعض ممن تلك صفته أحد. انتهى. ويحتمل أن سلمان يرى أن هذه الآية ليست في المنافقين، بل يحملها على مثل أهل الفتن التي يدين أهلها بوضع السيف في المسلمين، كالخوارج، وسائر من يعتقد في فساده أنه صلاح لما يطرأ عليه من الشبه الباطلة.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ أَشْقَاهُ الْآلَ
إِنَّهُمْ هُمُ أَشْقَاهُ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٩﴾

أي: وإذا قيل للمنافقين آمنوا كما آمن أصحاب محمد ﷺ من المهاجرين والأنصار، أجابوا بأحق جواب، وأبعده عن الحق والصواب، فنسبوا إلى المؤمنين السفه استهزاء، واستخفافاً، فتسببوا بذلك إلى تسجيل الله عليهم بالسفه بابلغ عبارة، وأكد قول. وحصر السفاهة وهي: رقة الحلوم، وفساد البصائر، وسخافة العقول فيهم مع كونهم لا يعلمون أنهم كذلك إما حقيقة، أو مجازاً، تنزيلاً لإصرارهم على السفه منزلة عدم العلم بكونهم عليه، وأنهم متصفون به؛ ولما ذكر الله هنا السفه ناسبه نفي العلم عنهم؛ لأنه لا يتساقفه إلا جاهل، والكاف في موضع نصب؛ لأنها نعت لمصدر محذوف أي: إيماناً كإيمان الناس. وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا

أي: إذا كنتم معنا فما بالكم إذا لقيتم المسلمين وافقتموهم؟ فقالوا: إنما نحن مستهزئون بهم في تلك الموافقة، ولم تكن بواطننا موافقة لهم، ولا ماثلة إليهم، فردَّ الله ذلك عليهم بقوله: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ أي: ينزل بهم الهوان والحقارة، وينتقم منهم، ويستخف بهم انتصافاً منهم لعباده المؤمنين، وإنما جعل سبحانه ما وقع منه استهزاء مع كونه عقوبة ومكافأة لمشاكلته. وقد كانت العرب إذا وضعت لفظاً بإزاء لفظ جواباً له وجزاء نكرته بمثل ذلك اللفظ، وإن كان مخالفاً له في معناه. وورد ذلك في القرآن كثيراً، ومنه ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى: 40] ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: 194] والجزاء لا يكون سيئة. والقصاص لا يكون اعتداء؛ لأنه حق، ومنه ﴿وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ [آل عمران: 54] ﴿وَأَنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ واكيد كيداً [الطارق: 15، 16] ﴿يَخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: 142] ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: 116]. وهو في السنة كثير كقوله ﷺ: «إن الله لا يعل حتى تملوا» وإنما قال: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ لأنه يفيد التجند وقتاً بعد وقت، وهو: أشدَّ عليهم، وأنكأ لقلوبهم، وأوجع لهم من الاستهزاء الدائم الثابت المستفاد من الجملة الإسمية، لما هو محسوس من أن العقوبة الحادثة وقتاً بعد وقت، والمتجددة حيناً بعد حين، أشدَّ على من وقعت عليه من العذاب الدائم المستمر لأنه يالغه، ويوطن نفسه عليه، والمد: الزيادة، قال يونس بن حبيب: يقال مد في الشر، ومد في الخير، ومنه ﴿وَأَمْدَنَّاكُمْ بَأَمْوَالٍ وَيَنِينَ﴾ [الإسراء: 6] ﴿وَأَمْدَنَّاكُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ﴾ [الطور: 22]. وقال الاخفش: مدت له إذا تركته، وأمديته: إذا أعطيته. وقال الفراء، والحياني: مدت فيما كانت زيانته من مثله، يقال: مدَّ النهر، ومنه ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ [لقمان: 27] وأمديت فيما كانت زيانته من غيره، ومنه: ﴿يَمْدَنُكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ﴾ [آل عمران: 125] والطغيان مجاوزة الحد، والغلو في الكفر، ومنه ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ﴾ [الحاقة: 11] أي: تجاوز للمقدار الذي قدرته الخزان. وقوله في فرعون: ﴿إِنَّا طَغَى﴾ [طه: 24] أي: أسرف في الدعوى حيث قال: ﴿إِنَّا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: 24]. والعمة، والعامه: الحائر المتروك، وذُهِبَ إليه لعمى: إذا لم يدر أين ذهب، والعمة والعمة في القلب كالعمى في العين. قال في الكشف: العمة مثل العمى، إلا أن العمى في البصر والرأي، والعمة في الرأي خاصة. انتهى. والمراد: أن الله سبحانه يطيل لهم المدة ويمهلهم كما قال: ﴿إِنَّمَا نَمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران: 178]. قال ابن جرير ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ في ضلالهم، وكفرهم الذين قد غمرهم يترددون حيارى ضللاً لا يجنون إلى المخرج منه سبيلاً، لأن الله قد طبع على قلوبهم، وختم عليها، وأعمى أبصارهم عن الهدى وأغشاهما، فلا يبصرون رشداً ولا يهتدون سبيلاً. وقد أخرج الواحدي

أمن الناس أي: صنفوا كما صنف أصحاب محمد أنه نبي ورسول، وأن ما أنزل عليه حق، ﴿قَالُوا لَنُؤْمِنَ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ يعنون أصحاب محمد ﴿إِلَّا أَنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾ يقول: الجهال ﴿وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يقول: لا يعقلون. وروي عن ابن عسك في تاريخه بسند واه أنه قال: آمنوا كما آمن الناس أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي. وأخرج ابن جرير، عن ابن مسعود في قوله: ﴿كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ قال: يعنون أصحاب النبي ﷺ. وأخرج عن الربيع، وابن زيد، مثله. وروي الكلبي عن أبي صالح، عن ابن عباس أنها نزلت في شأن اليهود أي: إذا قيل لهم: يعني اليهود ﴿آمَنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾ عبد الله بن سلام وأصحابه ﴿قَالُوا لَنُؤْمِنَ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾.

وَإِذَا لَعَنُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا عَنَّا سَتَرٌ وَمِنْ ءَلَلَةٍ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيُذَكِّرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٢٥﴾ ﴿لَقَالُوا أَصْلَهُ لَقِينَا﴾ نقلت الضمّة إلى القاف، وحذفت الياء لالتقاء الساكنين. ومعنى لقيته ولاقيته: استقبلته قريباً. وقرأ محمد بن السميع اليماني، وأبو حنيفة (لاقوا)، وأصله لاقبوا تحركت الياء، وانفتح ما قبلها، فأنقلب لقا، ثم حذفت الألف لالتقاء الساكنين. وخلوت بفلان وإلى: إذا انفردت به. وإنما عدي بـإلى، وهو يتعدى بالباء فيقال: خلوت به لا خلوت إليه، لتضمنه معنى ذهبوا وانصرفوا. والشياطين جمع شيطان على التكسير. وقد اختلف كلام سيبويه في نون الشيطان، فجعلها في موضع من كتابه أصلية، وفي آخر زائدة، فعلى الأول هو من شطن أي: بعد عن الحق، وعلى الثاني من شط أي: بعد، أو شاط أي: بطل، وشاط أي: احترق، وإشاط: إذا هلك قال:

وقد يشيط على أرماحنا البطل
أي: يهلك.

وقال آخر:

وأبيض ذي تاج إشاطت رملحنا لمعترك بين الفوارس اقتما
أي: أهلك. وحكي سيبويه أن العرب تقول: تشيطان فلان: إذا فعل أفعال الشياطين. ولو كان من شاط لقالوا: تشيط، ومنه قول أمية بن أبي الصلت:

أيما شاطن عصاه عكا «ورماه في السجن والأغلال»
وقوله: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ معناه مصاحبوكم في بينكم، وموافقوكم عليه. والهزء: السخريه واللعب. قال الرازي:

قد هزئت مني أم طيسله قالت أراه معصماً لا مال له
قال في الكشف: وأصل الباب الخفة من الهزء، وهو: القتل السريع، وهزأ يهزأ: مات على المكان. عن بعض العرب: مشيت، فلفيت، فظننت لأهزأ على مكاني، ونأقته تهزأ به أي: تسرع، وتخف. انتهى. وقيل أصله الانتقام، قال الشاعر:

قد استهزؤوا منهم بالفي منجج سراتهم وسط الصحاصح جثم
فأفاد قولهم ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ أنهم ثابتون على الكفر، وأفاد قولهم ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ ردهم للإسلام ورفعهم للحق، وكأنه جواب سؤال مقتر ناشئ من قولهم: إنا معكم

عادة العرب في قولهم: ربح بيعك، وخسرت صفقتك، وهو من الإسناد المجازي، وهو إسناد الفعل إلى ملابس للفاعل، كما هو مقرر في علم المعاني. والمراد: ربحوا، وخسروا. والاهتداء قد سبق تحقيقه أي: وما كنوا مهتدين في شرائهم الضلالة، وقيل: في سابق علم الله. وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: «اشترؤا الضلالة بالهدى» أي: الكفر بالإيمان. وأخرج ابن جرير، عن ابن مسعود قال: أخذوا الضلالة، وتركوا الهدى. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد قال: آمنوا ثم كفروا. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن قتادة قال: استحبوا الضلالة على الهدى، قد والله رأيتهم يخرجوا من الهدى إلى الضلالة، ومن الجماعة إلى الفرقة، ومن الأمن إلى الخوف، ومن السنة إلى البدعة.

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِينَ اسْتَوْفَدُوا نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُمْ دَمَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَنَزَّلَهُمْ فِي ظُلُمَةٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ بَدَّلَهُمْ نَارًا
يُرْجُونَ ﴿١٨﴾

«مثلهم» مرتفع بالابتداء، وخبره إما الكاف في قوله «كمثل» لأنها اسم أي: مثل مثل كما في قول الأعشى:
اتنتهون وإن تنهى لوى شطط كالطعن يذهب فيه الزيت والقتل
وقول امرئ القيس:

ورحنا بكابن الماء يجنب وسطنا تصوب فيه العين طورا وترتقي
أراد مثل الطعن ويمثل ابن الماء، ويجوز أن يكون الخبر
محذوفاً أي: مثلهم مستتير كمثل، فالكاف على هذا حرف.
والمثل: الشبه، والمثلاث: المتشابهان «والذي» موضوع
موضع الذين أي: كمثل الذين استوقدوا، وذلك موجود في
كلام العرب كقول الشاعر:

وإن الذي حانت بفلج نماؤهم هم القوم كل القوم يا أم خالد
ومنه «وخضتم كالذي خاضوا» [التوبة: 69] ومنه
«والذي جاء بالصلق وصنق به أولئك هم المتقون» [الزمر: 33].
ووقود النار: سطوعها وارتفاع لهبها، «واستوقد»
بمعنى أوقد مثل استجاب بمعنى أجاب، فالسين والتاء
زائدتان، قاله الأخفش. ومنه قول الشاعر:

وداع دعا يامن يجيب إلى النداء فلم يستجبه عند ذاك مجيب
أي: يجبه، والإضاءة فرط الإنارة، وفعلها يكون لازماً
ومتعدياً. «وما حوله» قيل ما زائدة، وقيل هي موصولة
في محل نصب على أنها مفعول أضاعت، وحوله منصوب
على الظرفية، «وذهب» من الذهاب، وهو زوال الشيء.
«وتركهم» أي: أبقاهم «في ظلمات» جمع ظلمة. وقرأ
الاعمش بإسكان اللام على الأصل. وقرأ أشهب العقيلي
بفتح اللام، وهي عدم النور. «وصم» وما بعده خبر مبتدأ
محذوف أي: هم. وقرأ ابن مسعود «صماً بكماً عمياً»
بالنصب على الذم، ويجوز أن ينتصب بقوله تركهم. والصمم:
الانسداد، يقال قناة صماء، إذا لم تكن مجوفة. وصممت
القارورة: إذا سدتها، وفلان أصم: إذا انسدت خروقه

والثعلبي بسند واه، لأن فيه محمد بن مروان، وهو مترك،
عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي
وأصحابه، ونكر قصة وقعت لهم مع أبي بكر، وعمر، وعلي
رضي الله عنهم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه قال:
كان رجال من اليهود إذا لقوا أصحاب النبي ﷺ، أو بعضهم
قالوا: إنا على دينكم «وإذا خلوا إلى شياطينهم» وهم
إخوانهم قالوا: «إنا معكم» على مثل ما أنتم عليه «إنما
نحن مستهزؤون» بأصحاب محمد ﷺ «الله يستهزئ بهم»
قال: يسخر بهم للنقمة منهم «ويمدهم في طغيانهم» قال:
في كفرهم «يعمهم» قال: يتردئون. وأخرج البيهقي في
الأسماء والصفات عنه بمعناه، وأطول منه. وأخرج ابن
إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه بنحو الأول،
وأخرج ابن جرير، عن ابن مسعود في قوله: «وإذا خلوا
إلى شياطينهم» قال: رؤسائهم في الكفر. وأخرج ابن أبي
حاتم، عن أبي مالك قال: «وإذا خلوا» أي: مضوا. وأخرج
عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة نحو ما قاله ابن
مسعود، وأخرج ابن جرير، عن ابن مسعود في قوله:
«ويمدهم» قال: يملئ لهم «في طغيانهم يعمهم» قال:
في كفرهم يتمنون. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن
أبي حاتم، عن ابن عباس نحو ما قاله ابن مسعود في تفسير
«يعمهم». وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبه، وعبد بن
حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد «يمدهم»
يزيدهم «في طغيانهم يعمهم» قال: يلعبون ويتردئون
في الضلالة. وأخرج أحمد في المسند، عن أبي نر قال: قال
رسول الله ﷺ: «نعوذ بالله من شياطين الإنس والجن»،
فقلت: يا رسول الله وللإنس شياطين؟ قال: نعم.

أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهَدْيِ فَمَا رَجَعَتِ غَيْرُهُمْ وَمَا كَانُوا
مُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾

قال سيبويه: صحت الواو في «اشترؤا» فرقاً بينها،
وبين الواو الأصلية في نحو «والو استقاموا» [الجن: 16].
وقال الزجاج: حركت بالضم كما يفعل في نحن. وقرأ
يحيى بن يعمر بكسر الواو على أصل اللقاء الساكنين. وقرأ
أبو السمك العدوي بفتحها لخفة الفتحة. وأجاز الكسائي
همز الواو. والشراء هنا مستعار للاستبدال أي: استبدلوا
الضلالة بالهدى كقوله تعالى: «فاستحبوا العمى على
الهدى» [فصلت: 17] فاما أن يكون معنى الشراء المعاوضة،
كما هو أصله حقيقة فلا، لأن المتناقضين لم يكونوا مؤمنين،
فبيعوا إيمانهم، والعرب قد تستعمل ذلك في كل من استبدل
شيئاً بشيء. قال أبو ذؤيب:

فإن تزعميني كنت أجهل فيكم فإني شريت اللحم بعنك بالجهل
وأصل الضلالة: الحيرة، والجور عن القصد، وفقد
الاهتداء، وتطلق على النسيان، ومنه قوله تعالى: «قال فعلتها
إذا وأنا من الضالين» [الشعراء: 20]، وعلى الهلاك كقوله:
«وقالوا إذا ضللتنا في الأرض» [السجدة: 10] وأصل الريح
الفضل. والتجارة: صناعة التاجر، وأسند الريح إليها على

والخير من الشرِّ، فبينما هو كذلك إذ كفر، فصار لا يعرف الحلال من الحرام، ولا الخير من الشرِّ، فهم صم بكم هم الخرس، فهم لا يرجعون إلى الإسلام. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس في قوله: ﴿كَمِثْلَ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ قال: ضربه الله مثلاً للمنافق، وقوله ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ قال: أما النور، فهو إيمانهم الذي يتكلمون به، وأما الظلمة، فهو ضلالهم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس مثله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن مجاهد نحوه. وأخرجنا أيضاً عن قتادة نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة، والحسن والسدي، والربيع بن أنس نحو ما تقدم.

أَوْ كَمِثْلِ مَن اسْتَوْقَدَ نَارًا وَرَدَّ رَدًّا يَجْمَلُونَ أَمِيمَةً فِي نَارِهِمْ
يَنْزِلُ الْمَرْيُوقُ حَذَرَ الْوَرَقِ وَاللَّهُ يُحِيطُ بِالْكَافِرِينَ ﴿٨﴾ يَكَادُ الْبَرُّ يُخَلِّقُ
أَبْصَرَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشْأَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ
بِصَوْنِهِمْ إِنْ كَانَتْ عَلَى اللَّهِ عِلَّةٌ مِّنْ شَيْءٍ فَيَذَرُوهَا

عطف هذا المثل على المثل الأول بحرف الشك لقصد التخيير بين المثلين أي: مثلوهم بهذا، أو هذا، وهي وإن كانت في الأصل للشك، فقد توسع فيها حتى صارت لمجرد التساوي من غير شك - وقيل: إنها بمعنى الواو، قاله القراء، وغيره، وأنشد:

وقد زعمت ليلى باني فالجر لنفسي نقاهاً أو عليها فجورها
وقال آخر:

نال الخلافة لو كانت له قدرأ كما أتى ربه موسى على قدر
والمراد بالصيب: المطر، واشتقاقه من صاب يصوب: إذا نزل. قال علقمة:

فلا تعلني بيني وبين معمر سقتك روايا الموت حيث تصوب
وأصله صيوب، اجتمعت الواو والواو، وسبقت إحداهما بالسكون، فقلبت الواو ياء وأدغمت، كما فعلوا في ميت، وسيد. والسماء في الأصل: كل ما علاك فأظلك. ومنه قيل لسقف البيت سماء. والسماء أيضاً: المطر، سمي بها لنزوله منها، وفائدة نكر نزوله من السماء مع كونه لا يكون إلا منها أنه لا يختص نزوله بجانب منها لكون جانب، وإطلاق السماء على المطر واقع كثيراً في كلام العرب، فمنه قول حسان:

ليار من بني الحسحاس فقر تعفيها النوامس والسماء
وقال آخر:

إذا نزل السماء بارض قوم

والظلمات قد تقدم تفسيرها، وإنما جمعها إشارة إلى أنه انضم إلى ظلمة الليل ظلمة الغيم. والرعد: اسم لصوت الملك الذي يزجر السحاب. وقد أخرج الترمذي من حديث ابن عباس قال: سألت اليهود النبي ﷺ عن الرعد ما هو؟ قال: «ملك من الملائكة بيده مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله»، قالوا: فما هذا الصوت الذي نسمع؟ قال: «زجره بالسحاب إذا زجره حتى ينتهي إلى حيث أمر». قالت: صدقت، الحديث بطوله، وفي إسناده مقال. قال القرطبي: وعلى هذا التفسير أكثر العلماء، وقيل: هو: اضطراب أجرام

مسامعه. والأيكم: الذي لا ينطق ولا يفهم، فإذا فهم فهو الأخرس. وقيل: الأخرس والأيكم واحد. والعصى: ذهب البصر. والمراد بقوله: ﴿فهم لا يرجعون﴾ أي: إلى الحق، وجواب لما في قوله: ﴿فلما أضاعت﴾، قيل هو: ﴿ذهب الله بنورهم﴾ وقيل: محنوف تقديره: طفتت فبقوا حائرين. وعلى الثاني فيكون قوله: ﴿ذهب الله بنورهم﴾ كلاماً مستأنفاً، أو بدلاً من المقدر.

ضرب الله هذا المثل للمنافقين لبيان أن ما يظهرونه من الإيمان مع ما يبطنونه من النفاق لا يثبت لهم به أحكام الإسلام، كمثّل المستوقد الذي أضاعت ناره، ثم طفتت، فإنه يعود إلى الظلمة، ولا تنفعه تلك الإضاءة اليسيرة، فكان بقاء المستوقد في ظلمات لا يبصر كبقاء المنافق في حيرته وتردده. وإنما وصفت هذه النار بالإضاءة مع كونها نار باطل؛ لأن الباطل كذلك تسطع نواذب لهب ناره لحظة، ثم تخفت. ومنه قولهم: «للباطل صولة، ثم يضمحل» وقد تقرر عند علماء البلاغة أن لضرب الأمثال شأناً عظيماً في إبراز خفيات المعاني، ورفع أستار محجبات النفاق ولهذا استكثر الله من ذلك في كتابه العزيز، وكان رسول الله ﷺ يكثر من ذلك في مخاطباته ومواظعه. قال ابن جرير: إن هؤلاء المضروب لهم المثل هاهنا لم يؤمنوا في وقت من الاوقات، واحتج بقوله تعالى: ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين﴾ [البقرة: 8]. وقال ابن كثير: إن الصواب أن هذا إخبار عنهم في حال نفاقهم وكفرهم، وهذا لا ينفي أنه كان حصل لهم إيمان قبل ذلك، ثم سلبوه، وطبع على قلوبهم كما يفيد قوله تعالى: ﴿ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون﴾ [المنافقون: 3]. قال ابن جرير: وصحَّ ضرب مثل الجماعة بالواحد كما قال «رأيتهم ينظرون إليك تنور أعينهم كالذي يفشى عليه من الموت» [الأحزاب: 19] أي: كنوران عيني الذي يفشى عليه من الموت، وقال تعالى: ﴿مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا﴾ [الجمعة: 5] اهـ وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿مثلهم كمثل الذي استوقد نارا﴾ قال: هذا مثل ضربه الله للمنافقين كانوا يعترفون بالإسلام، فينكحهم المسلمون، ويوارثونهم، ويقاسمونهم الفتي، فلما ماتوا سلبهم الله العزَّ كما سلب صاحب النار ضوءه «وتركهم في ظلمات لا يبصرون» يقول: في عذاب «صم بكم عمي» فهم لا يسمعون الهدى، ولا يبصرونه، ولا يعقلونه. وأخرج ابن جرير، عن ابن مسعود، وناس من الصحابة في قوله: ﴿مثلهم كمثل الذي استوقد نارا﴾ قالوا: إن ناساً دخلوا في الإسلام عند مقدم النبي ﷺ المدينة ثم نافقوا، فكان مثلهم كمثّل رجل كان في ظلمة فأوقد ناراً فأضاعت ما حوله من قذى وأذى، فأبصره حتى عرف ما يتقي، فبينما هو كذلك إذا طفتت ناره فأقبل لا يدري ما يتقي من أذى. فكنكك المنافق كان في ظلمة الشرك، فأسلم فعرف الحلال من الحرام،

الله ﷻ إلى المشركين، فأصابهما هذا المطر الذي نكر الله فيه رعد شديد وصواعق وبرق، فجعلنا كلما أصابهما الصواعق يجعلان أصابعهما في آذانهما من الفرق أن تدخل الصواعق في مسامعهما فتقتلها، وإذا لمع البرق مشياً في ضوئه وإذا لم يلمع لم يبصرا قاما مكانهما لا يمشيان فجعلنا يقولان: ليتنا قد أصبحنا فنأتي محمداً فنضع أيدينا في يده، فأصبحا فأتياه فأسلما، ووضعوا أيديهما في يده وحسن إسلامهما فضرب الله شان هذين المنافقين الخارجين مثلاً للمنافقين الذين بالمدينة، وكان المنافقون إذا حضروا مجلس النبي ﷺ جعلوا أصابعهم في آذانهم فرقاً من كلام النبي ﷺ أن ينزل فيهم شيء، أو ينكروا بشيء فيقتلوا، كما كان ذلك المنافقان الخارجان يجعلان أصابعهما في آذانهما، وإذا أضاء لهم مشوا فيه أي: فإذا كثرت أموالهم وأولادهم، وأصابوا غنيمة، وفتحاً مشوا فيه، وقالوا: إن دين محمد ﷺ حينئذ صدق، واستقاموا عليه، كما كان ذاك المنافقان يمشيان إذا أضاء لهم البرق، وإذا أظلم عليهم قاموا، فكانوا إذا هلكت أموالهم وأولادهم، وأصابهم البلاء قالوا: هذا من أجل دين محمد ﷺ، وارتدوا كفراً كما قام المنافقان حين أظلم البرق عليهما. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس قال: ﴿أو كصيب﴾ قال: هو، المطر، وهو مثل للمنافق في ضوئه يتكلم بما معه من كتاب الله مراءاة الناس، فإذا خلا وحده عمل بغيره، فهو في ظلمة ما أقام على ذلك، وأما الظلمات: فالضلالات. وأما البرق: فالإيمان، وهم أهل الكتاب، وإذا أظلم عليهم: فهو رجل يأخذ بطرف الحق لا يستطيع أن يجاوزه. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس أيضاً نحو ما سلف. وقد روي تفسيره بنحو ذلك عن جماعة من التابعين.

واعلم أن المنافقين أصناف، فمنهم من يظهر الإسلام، ويبطن الكفر، ومنهم من قال فيه النبي ﷺ كما ثبت في الصحيحين، وغيرهما: «ثلاث من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه واحدة منها كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: من إذا حُت كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان» وورد بلفظ أربع، وزاد: «وإذا خاصم فجر». وورد بلفظ «وإذا عاهد غدر». وقد ذكر ابن جرير ومن تبعه من المفسرين أن هذين المثلين لصنف واحد من المنافقين.

يَتَّبِعُ النَّاسُ أَهْدُوا رَبَّكُمْ الَّذِينَ عَاقَبَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا تَقَوْنَ الْآزَى جَمَلٌ لَكُمْ الْأَرْضُ رِزْقًا وَأَسْمَاءُ بَنَاتٍ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَحْسَبُوهُ آيَةً وَأَنْتُمْ تَمْلِكُونَ ﴿١١﴾

لما فرغ سبحانه من نكر المؤمنين، والكافرين، والمنافقين أقبل عليهم بالخطاب التفاتاً للنكتة السابقة في الفاتحة. ويا حرف نداء، والمنادى أي: وهو اسم مفرد مبني على الضم، وها حرف تنبيه مقحم بين المنادى وصفته. قال سيبويه: كأنك كررت «يا» مرتين، وصار الاسم بينهما كما قالوا: هاهوذا. وقد تقدّم الكلام في تفسير الناس، والعبادة، وإنما خص نعمة الخلق، وامتنن بها عليهم؛ لأن جميع النعم مترتبة

السحاب عند نزول المطر منها، وإلى هذا ذهب جمع من المفسرين تبعاً للفلاسفة، وجهلة المتكلمين، وقيل: غير ذلك، والبرق: مخراق حديد بيد الملك الذي يسوق السحاب، وإليه ذهب كثير من الصحابة وجمهور علماء الشريعة للحديث السابق. وقال بعض المفسرين تبعاً للفلاسفة: إن البرق ما ينقذ من اصطكاك أجرام السحاب المتركمة من الأبخرة المتصعدة المشتعلة على جزء ناري يتلهب عند الاصطكاك. وقوله: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾ جملة مستأنفة لا محل لها، كأن قائلها قال: فكيف حالهم عند ذلك الرعد؟ فقيل: يجعلون أصابعهم في آذانهم. وإطلاق الأصبع على بعضها مجاز مشهور، والعلاقة الجزئية والكلية؛ لأن الذي يجعل في الآن إنما هو: رأس الأصبع لا كلها. والصواعق، ويقال الصواعق: هي قطعة نار تنفصل من مخراق الملك الذي يزجر السحاب عند غضبه، وشدة ضربه لها، ويدل على ذلك ما في حديث ابن عباس الذي نكرنا بعضه قريباً وبه قال كثير من علماء الشريعة. ومنهم من قال: إنها نار تخرج من فم الملك. وقال الخليل: هي الواقعة الشديدة من صوت الرعد، يكون معها أحياناً قطعة نار تحرق ما أتت عليه. وقال أبو زيد: الصاعقة: نار تسقط من السماء في رعد شديد. وقال بعض المفسرين تبعاً للفلاسفة ومن قال بقولهم: إنها نار لطيفة تنقذ من السحاب إذا اصطكت أجرامها. وسيأتي في سورة الرعد إن شاء الله في تفسير الرعد، والبرق، والصواعق ماله مزيد فائدة، وإيضاح. ونصب ﴿حذر للموت﴾ على أنه مفعول لأجله. وقال الفراء: منصوب على التمييز، والموت: ضد الحياة. والإحاطة: الأخذ من جميع الجهات حتى لا تفوت المحاط به بوجه من الوجوه. وقوله: ﴿يكاد البرق يخطف أبصارهم﴾ جملة مستأنفة كأنه قيل: فكيف حالهم مع ذلك البرق؟ ويكاد: يقارب. والخطف: الأخذ بسرعة، ومنه سمي الطير خطافاً لاسرعته. وقرأ مجاهد: ﴿يخطف﴾ بكسر الطاء، والفتح أفصح. وقوله: ﴿كلما أضاء لهم مشوا فيه﴾ كلام مستأنف كأنه قيل: كيف تصنعون في تارتي خفوق البرق وسكونه، وهو تمثيل لشدة الأمر على المنافقين بشنئته على أهل الصيب ﴿ولو شاء الله لذهب بسمعهم وبأبصارهم﴾ بالزيادة في الرعد والبرق ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ وهذا من جملة مقصوراته سبحانه. وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: ﴿أو كصيب﴾ هو: المطر ضرب مثله في القرآن ﴿فيه ظلمات﴾ يقول: ابتلاء ﴿ورعد وبرق﴾ تخويف ﴿يكاد البرق يخطف أبصارهم﴾ يقول: يكاد محكم القرآن يدل على عورات المنافقين ﴿كلما أضاء لهم مشوا فيه﴾ يقول: كلما أصاب المنافقون من الإسلام عزاً أطمأنوا، فإن أصاب الإسلام نكية قاموا ليرجعوا إلى الكفر كقوله ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف﴾ [الحج: 11] الآية. وأخرج ابن جرير، عن ابن مسعود، وناس من الصحابة قالوا: كان رجلاً من المنافقين من أهل المدينة هرباً من رسول

واحد. انتهى. وحذف مفعول تعلمون للدلالة على عدم اختصاص ما هم عليه من العلم بنوع واحد من الأنواع الموجبة للتوحيد. وقد أخرج البيهقي، والحاكم، وابن مروي، والبيهقي في الدلائل عن ابن مسعود قال: ما كان **«يا أيها الذين آمنوا»** فهو أنزل بالمدينة، وما كان **«يا أيها الناس»** فهو أنزل بمكة. وروى نحو ذلك عن ابن أبي شيبه وعبد بن حميد، والطبراني في الأوسط، والحاكم وصححه. وروى نحوه أبو عبيد، وابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن من قول علقمة. وأخرج ابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن مروي، وابن المنذر عن الضحاك مثله. وكذا أخرج أبو عبيد عن ميمون بن مهران. وأخرج نحوه أيضاً ابن أبي شيبه، وابن مروي عن عروة، وعكرمة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **«يا أيها الناس»** قال: هي للفريقين جميعاً من الكفار والمؤمنين. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك في قوله: **«لعلكم»** يعني: كي. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن عون بن عبد الله بن عتبة قال: لعل من الله واجب. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن مسعود، وناس من الصحابة في قوله: **«الذي جعل لكم الأرض فراشاً»** [البقرة: 22] أي: تمشون عليها وهي: المهاد والقرار **«والسما بناء»** [البقرة: 22] قال: كهية القبة وهي سقف الأرض. وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن الحسن أنه سئل: المطر من السماء أم من السحاب قال: من السماء. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن كعب قال: السحاب غريال المطر، ولولا السحاب حين ينزل الماء من السماء لأفسد ما يقع عليه من الأرض والبذر. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن خالد بن معدان قال: المطر ماء يخرج من تحت العرش، فينزل من سماء إلى سماء حتى يجتمع في سماء الدنيا فيجتمع في موضع يقال: له الأبرم، فتجيء السحاب السود، فتدخله، فتشربه مثل شرب الإسفنج، فيسوقها الله حيث يشاء. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن عكرمة قال: ينزل الماء من السماء السابعة، فتقع القطرة منه على السحاب مثل البعير. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن خالد بن يزيد قال: المطر منه من السماء، ومنه ما يستقيه الغيم من البحر، فيعذبه الرعد والبرق. وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب المطر عن ابن عباس قال: إذا جاء القطر من السماء فتحت له الأصداف، فكان لؤلؤاً. وأخرج الشافعي في الأم، وابن أبي الدنيا في كتاب المطر، وأبو الشيخ في العظمة عن المطلب بن حنبل أن النبي ﷺ قال: «ما من ساعة من ليل ولا نهار إلا والسماء تمطر فيها يصرفه الله حيث يشاء». وأخرج ابن أبي الدنيا، وأبو الشيخ عن ابن عباس قال: ما نزل مطر من السماء إلا ومعه البذر، أما لو أنكم بسطتم نطعاً لرأيتموه. وأخرج ابن أبي الدنيا، وأبو الشيخ عن ابن عباس قال: المطر. مزاجه من الجنة، فإذا كثر المزاج عظمت البركة وإن قلَّ المطر، وإذا قلَّ المزاج قلت البركة وإن كثر المطر. وأخرج أبو الشيخ عن

عليها، وهي أصلها الذي لا يوجد شيء منها بدونها وأيضاً، فالكفار مقرّون بأن الله هو الخالق **«ولكن سألهم من خلقهم ليقولن الله»** [الزخرف: 87] فامتن عليهم بما يعترفون به، ولا ينكرونه. وفي أصل معنى الخلق، وجهان: أحدهما التقدير، يقال: خلقت الأديم للسقاء: إذا قدرته قبل القطع. قال زهير:

ولانت تفري ما خلقت وبعـ ض القوم يخلق ثم لا يفري
الثاني: الإنشاء، والإختراع، والإبداع. ولعل أصلها: الترجي، والطمع، والتوقع، والإشفاق، وذلك مستحيل على الله سبحانه، ولكنه لما كانت المخاطبة منه سبحانه للبشر كان بمنزلة قوله لهم: افعلوا ذلك على الرجاء منكم والطمع، وبهذا قال جماعة من أئمة العربية منهم سيبويه. وقيل: إن العرب استعملت لعل مجردة من الشك بمعنى لام كي. والمعنى هنا: لتتقوا، وكذلك ما وقع هذا الموضع، ومنه قول الشاعر:

وقلتم لنا كفوا الحروب لعلنا نكفـ ووثقتم لناكل موثق
فلما كفنا الحرب كانت عهوبكم كشبه سراب في الملا متلق
أي: كفوا عن الحرب لنكف، ولو كانت لعل للشك لم يوثقوا لهم كل موثق، وبهذا قال جماعة منهم قطرب. وقيل إنها بمعنى التعرض للشيء كأنه قال: متعرضين للتقوى. وجعل هنا بمعنى صير لتعنيته إلى للمفعولين، ومنه قول الشاعر:

وقد جعلت أرى الإثنين أربعة والأربع اثنين لما منني الكبير
«فراشاً» أي: وطاء يستقرون عليها. لما قدّم نعمة خلقهم أتبعه بنعمة خلق الأرض فراشاً لهم، لما كانت الأرض التي هي مسكنهم، ومحل استقرارهم من أعظم ما تدعو إليه حاجتهم، ثم أتبع ذلك بنعمة جعل السماء كالقبة المضروبة عليهم، والسقف للبيت الذي يسكنونه كما قال: **«وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً»** [الأنبياء: 32]. وأصل البناء: وضع لبنة على أخرى، ثم امتدَّ عليهم بإنزال الماء من السماء. وأصل ماء موه، قلبت الواو لتحركها وانفتاح ما قبلها الفاء فصار ماء، فلجتم حرفان خفيفان، فقلب الهاء همزة. والثمرات جمع ثمرة. والمعنى: أخرجنا لكم ألواناً من الثمرات، وأنواعاً من النبات ليكون ذلك متاعاً لكم إلى حين. والأنداد جمع ند، وهو المثل والنظير. وقوله: **«وأنتم تعلمون»** جملة حالية، والخطاب للكفار والمنافقين. فإن قيل: كيف وصفهم بالعلم، وقد نعتهم بخلاف ذلك حيث قال: **«ولكن لا يعلمون»**. [البقرة: 13] **«ولكن لا يشعرون»** [البقرة: 12]. **«وما كانوا مهتدين»** [البقرة: 16]. **«صم بكم عمي»** [البقرة: 18]. فيقال: إن المراد أن جهلهم، وعدم شعورهم لا يتناول هذا أي: كونهم يعلمون أنه المنعم دون غيره من الأنداد، فإنهم كانوا يعلمون هذا، ولا ينكرونه كما حكاه الله عنهم في غير آية. وقد يقال: المراد، وأنتم تعلمون، وحدانيته بالقوة والامكان لو تدبرتم ونظرتم. وفيه دليل على وجوب استعمال الحجج، وترك التقليد. قال ابن فورك: المراد: وتجعلون لله أنداداً بعد علمكم الذي هو نفي الجهل بأن الله

الشرط، وهو: أمر معناه التعجيز. لما احتج عليهم بما يثبت الوجدانية، ويبطل الشرك عقبه بما هو الحجة على إثبات نبوة محمد ﷺ وما يدفع الشبهة في كون القرآن معجزة، فتحداهم بأن يأتوا بسورة من سورة. والسورة: الطائفة من القرآن المسماة باسم خاص، سميت بذلك، لأنها مشتملة على كلماتها كاشتمال سور البلد عليها. و«من» في قوله ﴿من مثله﴾ زائدة لقوله فاتوا بسورة مثله. والضمير في مثله عائذ على القرآن عند جمهور أهل العلم. وقيل: عائذ على التوراة والإنجيل، لأن المعنى: فاتوا بسورة من كتاب مثله؛ فإنها تصق ما فيه. وقيل: يعود على النبي ﷺ، والمعنى من بشر مثل محمد أي: لا يكتب، ولا يقرأ. والشهداء جمع شهيد بمعنى الحاضر، أو القائم بالشهادة، أو المعاون، والمراد هنا: الأكلة. ومعنى ﴿دون﴾: أننى مكان من الشيء، واتسع فيه حتى استعمل في تخطي الشيء إلى شيء آخر، ومنه ما في هذه الآية. وكذلك قوله تعالى: ﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين﴾ [آل عمران: 28] وله معانٍ أخرى، منها التقصير عن الغاية، والحقارة، يقال هذا الشيء دون أي: حقير، ومنه:

إذا ما علا المرء رام العلا ويقنع بالدون من كان دونا والقرب يقال: هذا دون ذلك أي: أقرب منه، ويكون إغراء، تقول: دونك زيدا: أي خذ من أننى مكان ﴿من دون الله﴾ متعلق بادعوا أي: ادعوا الذين يشهدون لكم من دون الله إن كنتم صانقين فيما قلتم من أنكم تقدرون على المعارضة، وهذا تعجيز لهم، وبيان لانقطاعهم. والصق خلاف الكذب، وهو مطابقة الخبر للواقع، أو للاعتقاد أولهما على الخلاف المعروف في علم المعاني ﴿فإن لم تفعلوا﴾ يعني فيما مضى ﴿ولن تفعلوا﴾ أي: تطيقوا ذلك، فيما يأتي وتبين لكم عجزكم عن المعارضة ﴿فاتقوا النار﴾ بالإيمان بالله، وكتبه، ورسله، والقيام بفرائضه، واجتناب مناهيه، وعبر عن الإتيان بالفعل، لأن الإتيان فعل من الأفعال لقصد الاختصار، وجملة لن تفعلوا لا محل لها من الإعراب، لأنها اعتراضية، ولن للنفي المؤكد لما دخلت عليه، وهذا من الغيوب التي أخبر بها القرآن قبل وقوعها؛ لأنها لم تقع المعارضة من أحد من الكفرة في أيام النبوة، وفيما بعدها، وإلى الآن. والوقود بالفتح: الحطب، وبالضم: التوقد أي: المصدر، وقد جاء فيه الفتح. والمراد بالحجارة الأصنام التي كانوا يعبدونها؛ لأنهم قرونا أنفسهم بها في الدنيا، فجعلت وقوداً للنار معهم. ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ [الأنبياء: 98] أي: حطب جهنم. وقيل: المراد بها حجارة الكبريت، وفي هذا من التهويل مالا يقدر قدره من كون هذه النار تتقد بالناس والحجارة، فأوقدت بنفس ما يراد إحراقه بها، والمراد بقوله: ﴿أعدت﴾ جعلت عدة لعذابهم، وهيئت لذلك. وقد كرر الله سبحانه تحدي الكفار بهذا في مواضع في القرآن، منها هذا، ومنها قوله تعالى في سورة القصص: ﴿قل فاتوا بكتاب من عند

الحسن قال: ما من عام بمطر من عام، ولكن الله يصرفه حيث يشاء، وينزل مع المطر كذا وكذا من الملائكة يكتبون حيث يقع ذلك المطر، ومن يزرعه، ومن يخرج منه مع كل قطرة. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿فلا تجعلوا لله أندادا﴾ أي: لا تشركوا به غيره من الأنداد التي لا تضر، ولا تنفع ﴿ولأنتم تعلمون﴾ أنه لا رب لكم يرزقكم غيره. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿أندادا﴾ قال: أشباها. وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود ﴿أندادا﴾ قال شركاء. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، والبخاري في الألب المفرد، والنسائي، وابن ماجه، وأبو نعيم في الحلية عن ابن عباس قال: قال رجل للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت، قال: جعلتني لله نداً ما شاء الله وحده. وأخرج ابن سعد عن قتيلة بنت صيفى قالت: جاء خبر من الأبحار إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد نعم القوم أنتم لولا أنكم تشركون، قال: «وكيف؟» قال: يقول أحكم لا والكعبة فقال النبي ﷺ: «من حلف، فليحلف برب الكعبة». فقال: يا محمد نعم القوم أنتم لولا أنكم تجعلون لله نداً، قال: «وكيف ذلك؟» قال: يقول أحكم ما شاء الله وشئت، فقال النبي ﷺ: «فمن قال منكم ما شاء الله قال ثم شئت». وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، والبيهقي عن حنيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان، قولوا ما شاء الله ثم شاء فلان» وأخرج أحمد، وابن ماجه، والبيهقي، وابن مردويه عن طفيل بن سخبرة: أنه رأى فيما يرى النائم كأنه مرّ برهط من اليهود فقال: أنتم نعم القوم لولا أنكم تزعمون أن عزيزاً ابن الله، فقالوا: وأنتم نعم القوم لولا أنكم تقولون ما شاء الله، وشاء محمد. ثم مرّ برهط من النصارى فقال: أنتم نعم القوم لولا أنكم تقولون المسيح ابن الله، قالوا: وأنتم نعم القوم لولا أنكم تقولون ما شاء الله وشاء محمد. فلما أصبح أخبر النبي ﷺ، فخطب، فقال: «إن طفيلاً رأى رؤيا، وإنكم تقولون كلمة كان يعنني الحياء منكم، فلا تقولوها، ولكن قولوا ما شاء الله وحده لا شريك له» وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: الأنداد هو الشرك أخفى من دبيب النمل على صفا سوداء في ظلمة الليل، وهو أن تقول: والله وحياتك يا فلان وحياتي، وتقول: لولا كلبه هذا لاتانا للصوص، ولولا القط في الدار لأتى اللصوص، وقول الرجل: ما شاء الله وشئت، وقول الرجل لولا الله وفلان، هذا كله شرك. وأخرج البخاري، ومسلم عن ابن مسعود قال: قلت: يا رسول الله أي: الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً، وهو خلقك» الحديث.

وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا أي: القرآن أنزله على محمد ﷺ. والعبد مأخوذ من التعبد، وهو التذلل. والتنزيل: التدريج والتنجييم. وقوله: ﴿فاتوا﴾ الفاء جواب

الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صابقين» [القصص: 49] وقال في سورة سبحان: «قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً» [الإسراء: 88] وقال في سورة هود: «إم يقولون افترأه قل فاتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من نون الله إن كنتم صابقين» [هود: 13] في سورة يونس: «وما كان هذا القرآن أن يفترى من نون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين. أم يقولون افترأه قل فاتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من نون الله إن كنتم صابقين» [يونس: 37، 38].

وقد وقع الخلاف بين أهل العلم هل وجه الإعجاز في القرآن هو كونه في الرتبة العلية من البلاغة الخارجة عن طوق البشر، أو كان العجز عن المعارضة للصرفة من الله سبحانه لهم عن أن يعارضوه، والحق الأول، والكلام في هذا مبسوط في موطنه. وقد أخرج أحمد، والبخاري، ومسلم، والنسائي، والبيهقي في الدلائل عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من نبي من الأنبياء إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»، وقد أخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله: «وإن كنتم في ريب» قال: هذا قول الله لمن شك من الكفار فيما جاء به محمد ﷺ، وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: «وإن كنتم في ريب» قال: في شك «مما نزلنا على عبينا فتوا بسورة من مثله» قال: من مثل القرآن حقاً وصدقاً لا باطل فيه، ولا كذب. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم، عن مجاهد «فاتوا بسورة من مثله» قال: مثل القرآن «وادعوا شهداءكم» قال: ناس يشهدون لكم إذا أتيتم بها أنها مثله. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: «شهداءكم» قال: أعوانكم على ما أنتم عليه «فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا» فقد بين لكم الحق. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة «فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا» يقول: لن تقدروا على ذلك، ولن تطيقوه. وأخرج عبد بن حميد، عن مجاهد: أنه كان يقرأ كل شيء في القرآن وقودها برفع الواو الأولى، إلا التي في السماء ذات البروج «النار ذات الوقود» [البروج: 5] بنصب الواو. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني في الكبير، والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال: إن الحجارة التي نكرها الله في القرآن في قوله: «وقودها الناس والحجارة» [البقرة: 24] حجارة من كبريت خلقها الله عنده كيف شاء. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس مثله. وأخرج ابن جرير أيضاً عن عمرو بن ميمون مثله أيضاً. وأخرج ابن مردويه، والبيهقي في شعب الإيمان عن أنس قال: تلا رسول الله ﷺ هذه

الآية «وقودها الناس والحجارة» قال: «أوقد عليها ألف عام حتى احمرت، وألف عام حتى أبيضت، وألف عام حتى أسويت، فهي سوداء مظلمة لا يطفأ لهبها». وأخرج ابن أبي شيبة، والترمذي، وابن مردويه، والبيهقي عن أبي هريرة مرفوعاً مثله. وأخرج أحمد، ومالك، والبخاري، ومسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «نار بني آدم التي توقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم» قالوا: يا رسول الله إن كانت لكافية؟ قال: «فإنها قد فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلهن مثل حرها». وأخرج الترمذي وحسنه عن أبي سعيد مرفوعاً نحوه. وأخرج ابن ماجه، والحاكم وصححه عن أنس مرفوعاً نحوه أيضاً. وأخرج مالك في الموطأ، والبيهقي في البعث عن أبي هريرة قال: أترونها حمراء مثل ناركم هذه التي توقنون، إنها لأشد سواداً من القار. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: «أعنت للكافرين» قال أي: لمن كان مثل ما أنتم عليه من الكفر.

وَيَبْرَأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَنْجَارٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٥﴾

لما ذكر تعالى جزاء الكافرين عقبه بجزاء المؤمنين ليجمع بين الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد كما هي عادته سبحانه في كتابه العزيز، لما في ذلك من تنشيط عباده المؤمنين لطاعته، وتنشيط عباده الكافرين عن معاصيه. والتبشير: الإخبار بما يظهر أثره على البشارة، وهي الجلدة الظاهرة، من البشر، والسرور. قال القرطبي: أجمع العلماء على أن المكلف إذا قال: من بشرني من عبيدي، فهو حر، فبشره واحد من عبيده فأكثر فإن أولهم يكون حراً دون الثاني، واختلفوا إذا قال: من أخبرني من عبيدي بكذا، فهو حر، فقال أصحاب الشافعي: يعم لأن كل واحد منهم مخبر، وقال علمائنا: لا، لأن المكلف إنما قصد خبراً يكون بشارته، وذلك مختص بالأول. انتهى. والحق أنه إن أراد ملول الخبر عتقوا جميعاً، وإن أراد الخبر المقيد بكونه بشارته عتق الأول، فالخلاف لغظي. والمأمور بالتبشير قيل: هو: النبي ﷺ، وقيل: هو كل أحد كما في قوله ﷺ: «بشر المشائين» وهذه الجملة وإن كانت مصدرة بالإنشاء، فلا يقدح ذلك في عطفها على جملة وصف عقاب العصاة، من دون نظر إلى ما اشتمل عليه الوصفان من الأفراد المتخالفة خيراً وإنشاء. وقيل: إن قوله: «وبشر» معطوف على قوله: «فاتقوا النار» [البقرة: 24]، وليس هذا بجيد. و«الصلاحات» الأعمال المستقيمة. والمراد هنا: الأعمال المطلوبة منهم المفترضة عليهم، وفيه رد على من يقول إن الإيمان بمجردة يكفي، فالجنة تنال بالإيمان، والعمل الصالح. والجنات: البساتين، وإنما سميت جنات؛ لأنها تجر من فيها أي: تستره بشجرها، وهو اسم لدار الثواب كلها، وهي مشتملة على

عبد ابن حميد، عن عكرمة قال: قولهم ﴿مَنْ قَبْلُ﴾ معناه: هذا مثل الذي كان بالأمس. وأخرج ابن جرير عن يحيى بن أبي كثير، نحوه. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد قال: ﴿مُتَشَابِهًا﴾ في اللون مختلفاً في الطعم. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن الحسن في قوله: ﴿مُتَشَابِهًا﴾ قال: خيار كله يشبه بعضه بعضاً لا رذل فيه، ألم تروا إلى ثمار الدنيا كيف ترنلون بعضه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة مثله. وأخرج الحاكم وصححه، وابن مروي، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ قال: من الحيض، والغائط، والبزاق، والنخامة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: من القدر، والأذى. وأخرج ابن جرير، عن ابن مسعود قال: لا يحضن، ولا يحدثن، ولا يتنخمن. وقد روى نحو هذا عن جماعة من التابعين وقد ثبت عن النبي ﷺ في صفات أهل الجنة في الصحيحين، وغيرهما من طريق جماعة من الصحابة أن أهل الجنة لا ييصقون، ولا يتمخطون، ولا يتغوطون. وثبت أيضاً عن النبي ﷺ في أحاديث كثيرة في الصحيحين، وغيرهما من صفات نساء أهل الجنة ما لا يتسع المقام لبسطه، فليُنظر في نواوين الإسلام، وغيرهما. وأخرج ابن جرير، وابن إسحاق، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي: خاللون أبداً، يخبرهم أن الثواب بالخير، والشر مقيم على أهله أبداً لا انقطاع له. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة في قوله: ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ يعني لا يموتون. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: «يُبدل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، ثم يقوم مؤذن بينهم: يا أهل النار لا موت، ويا أهل الجنة لا موت، كل هو خالد فيما هو فيه». وأخرج البخاري من حديث أبي هريرة نحوه. وأخرج الطبراني، والحاكم وصححه من حديث معاذ نحوه. وأخرج الطبراني، وابن مروي، وأبو نعيم من حديث ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لو قيل لأهل النار إنكم ماكثون في النار عدد كل حصة في الدنيا لغرحوا بها، ولو قيل لأهل الجنة إنكم ماكثون عدد كل حصة لحزنوا، ولكن جعل لهم الأبد». ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَوُضِعَ مَثَلًا قَوْلًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْمَلُونَ لَّهُ الْخَيْرَ مِنَ نَّيْمٍ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَقْسَمُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْهُ بِقَوْلِهِمْ وَيَقْسَمُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِمْ أَنْ يُعْصَى وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿١٨﴾﴾

أنزل الله هذه الآية رداً على الكفار لما أنكروا ما ضربه سبحانه من الأمثال كقوله: ﴿مِثْلُهم كَمِثْلِ الذي استوقد ناراً﴾ [البقرة: 17] وقوله: ﴿لَوْ كُصِبَ مِنَ السَّمَاءِ﴾ [البقرة: 19] فقالوا الله أجل وأعلا من أن يضرب الأمثال. وقال

جنت كثيرة. والأنهار جمع نهر، وهو: المجرى الواسع فوق الجبول وبون البحر، والمراد: الماء الذي يجري فيها، وأسند الجري إليها مجازاً، والجاري حقيقة هو الماء كما في قوله تعالى ﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: 82] أي: أهلها، وكما قال الشاعر:

ونبتت أن النار بعنك أوقدت واستب بعنك يا كليب المجلس والضمير في قوله ﴿مَنْ تَحْتَهَا﴾ عائذ إلى الجنات لاشتغالها على الأشجار أي: من تحت أشجارها. وقوله: ﴿كَلِمًا رَزَقُوا﴾ وصف آخر للجنات، أو هو جملة مستأنفة كان سائلاً قال: كيف ثمارها. و﴿مَنْ ثَمَرَةٌ﴾ في معنى من أي ثمرة، أي: نوع من أنواع الثمرات. والمراد بقوله ﴿هَذَا الَّذِي رَزَقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ أنه شبيهه، ونظيره، لا أنه هو، لأن ذات الحاضر لا تكون عين ذات الغائب لاختلافهما، وذلك أن اللون يشبه اللون، وإن كان الحجم، والطعم، والرائحة، والماوية متخالفة. والضمير في به عائذ إلى الرزق، وقيل: المراد أنهم أتوا بما يرزقونه في الجنة متشابهاً، فما يأتيهم في أول النهار يشابه الذي يأتيهم في آخره، فيقولون هذا الذي رزقنا من قبل، فإذا أكلوا وجبوا له طعاماً غير طعم الأول. و﴿مُتَشَابِهًا﴾ منصوب على الحال. والمراد بتطهير الأزواج أنه لا يصيبهن ما يصيب النساء من قذر الحيض، والنفاس، وسائر الأناس التي لا يمتنع تعلقها بنساء الدنيا. والخلود: البقاء الدائم الذي لا ينقطع، وقد يستعمل مجازاً فيما يطول، والمراد هنا الأول. وقد أخرج ابن ماجه، وابن أبي الدنيا في صفة الجنة، والبزار، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والبيهقي، وابن مروي، عن أسامة بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا هل مشمر للجنة فإن الجنة لا خطر لها، هي ورب الكعبة نور يتلألأ، وريحانة تهتز، وقصر مشيد، ونهر مطرد، وثمره نضيجة وزوجة حسناء جميلة، وحلل كثيرة، ومقام في أبد في دار سليمة، وفلكة خضراء» الحديث. والأحاديث في وصف الجنة كثيرة جداً ثابتة في الصحيحين وغيرهما. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن حبان، والطبراني، والحاكم، وابن مروي، والبيهقي في البعث عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «نهار الجنة تفجر من تحت جبال مسك». وأخرج ابن أبي شيبة، وأبو حاتم، وأبو الشيخ، وابن حبان، والبيهقي في البعث وصححه عن ابن مسعود نحوه، موقوفاً. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي مالك في قوله: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ قال: يعني المساكن تجري أسفلها أنهارها. وأخرج ابن جرير، عن ابن مسعود وناس من الصحابة في قوله: ﴿كَلِمًا رَزَقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رَزَقًا﴾ قال: أتوا بالثمرة في الجنة، فنظروا إليها ﴿قَالُوا هَذَا الَّذِي رَزَقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ في الدنيا ﴿وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ في اللون والمراى، وليس يشبه الطعم. وأخرج عبد بن حميد، عن علي بن زيد، وقاتدة نحوه. وأخرج مسدد في مسنده، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: ليس في الدنيا مما في الجنة شيء إلا الأسماء. وأخرج

الرازي: إنه تعالى لما بين بالدليل كون القرآن معجزاً أورد هنا شبهة أوردتها الكفار قديماً في ذلك، وأجاب عنها، وتقدير الشبهة أنه جاء في القرآن ذكر النحل، والعنكبوت، والنمل، وهذه الأشياء لا يليق نكرها بكلام الفصحاء، فاشتغال القرآن عليها يقدح في فصاحته فضلاً عن كونه معجزاً. وأجاب الله عنها بأن صغر هذه الأشياء لا تقدح في الفصاحة إذا كان نكرها مستملاً على حكمة بالغة. انتهى. ولا يخفك أن تقرير هذه الشبهة على هذا الوجه، وإرجاع الإنكار إلى مجرد الفصاحة لا مستند له، ولا دليل عليه، وقد تقدمه إلى شيء من هذا صاحب الكشف، والظاهر ما نكرناه أولاً لكون هذه الآية جاءت بعقب المثليين الذين هما منكران قبلها، ولا يستلزم استنكارهم لضرب الأمثال بالأشياء المحقرة أن يكون ذلك لكونه قاصحاً في الفصاحة والإعجاز. والحياة: تغير وانكسار يعتري الإنسان من تخوف ما يعاب به وينم؛ كذا في الكشف، وتبعه الرازي في مفاتيح الغيب. وقال القرطبي: أصل الاستحياء: الانقباض عن الشيء، والامتناع منه خوفاً من موقعة اللقيح، وهذا محال على الله. انتهى. وقد اختلفوا في تأويل ما في هذه الآية من نكر الحياء فقيل: ساغ ذلك لكونه واقعاً في الكلام المحكي عن الكفار، وقيل: هو من باب المشكلة كما تقدم، وقيل هو جار على سبيل التمثيل. قال في الكشف: مثل تركه تخيب العبد، وأنه لا يرد يديه صغراً من عطائه لكرمه بترك من يترك رذ المحتاج إليه حياة منه. انتهى. وقد قرأ ابن محيصن، وابن كثير في رواية عنه «يستحي» بياء واحدة، وهي لغة تميم، وبكر بن وائل، نقلت فيها حركة الباء الأولى إلى الحاء، فسكنت، ثم استثقلت الضمة على الثانية فسكنت، فحنفت إحداهما للالتقاء الساكنين. وضرب المثل: اعتماده وصنعه. و«ما» في قوله: «ما بعوضة» إيهامية أي: موجبة لإيهام ما دخلت عليه حتى يصير أعم مما كان عليه، وأكثر شيوعاً في أقراده، وهي في موضع نصب على البدل من قوله: «مثلاً» و«بعوضة» نعت لها لإيهامها، قاله الفراء، والزجاج، وثلعب، وقيل: إنها زائدة، وبعوضة بدل من مثل. ونصب بعوضة في هذين الوجهين ظاهر، وقيل: إنها منصوبة بنزع الخافض، والتقدير: أن يضرب مثلاً ما بين بعوضة، فحنف لفظ بين. وقد روي هذا عن الكسائي، وقيل: إن يضرب بمعنى يجعل، فتكون بعوضة المفعول الثاني. وقرأ الضحك، وإبراهيم بن أبي عيلة ورؤية بن العجاج «بعوضة» بالرفع، وهي لغة تميم. قال أبو الفتح: وجه ذلك أن «ما» اسم بمنزلة الذي، وبعوضة رفع على إضمار المبتدأ، ويحتمل أن تكون «ما» استفهامية كأنه قال تعالى: «ما بعوضة فما فوقها» حتى لا يضرب المثل به، بل يدان لمثل بما هو أقل من ذلك بكثير، والبعوضة فعولة من بعض: إذا قطع، يقال: بعض وبضع بمعنى، والبعض: البق، الواحدة بعوضة، سميت بذلك لصغرها، قاله الجوهري وغيره. وقوله: «فما فوقها» قال الكسائي وأبو عبيدة وغيرهما: فما فوقها والله أعلم ما دونها:

أي أنها فوقها في الصغر كجناحها. قال الكسائي، وهذا كقولك في الكلام أتراه قصيراً، فيقول القائل: أو فوق ذلك أي: أقصر مما ترى. ويمكن أن يراء، فما زاد عليها في الكبر. وقد قال بذلك جماعة. قوله: «فما الذين آمنوا» أما حرف فيه معنى الشرط، وقدره سيبويه بمهما يكن من شيء، فكذا. ونكر صاحب الكشف أن فائدته في الكلام أنه يعطيه فضل توكيد، وجعل تقدير سيبويه ليللاً على ذلك. والضمير في «أنه» راجع إلى المثل. و«الحق» الثابت، وهو المقابل للباطل، والحق، واحد الحقوق، والمراد هنا الأول. وقد اختلف النحاة في (ماذا) فقيل: هي بمنزلة اسم واحد بمعنى: أي شيء أراد الله، فتكون في موضع نصب باراد. قال ابن كيسان: وهو: الجيد. وقيل: «ما» اسم تام في موضع رفع بالابتداء، و«ذا» بمعنى الذي، وهو: خبر المبتدأ مع صلته، وجوابه يكون على الأول منصوباً وعلى الثاني مرفوعاً. والإرادة نقيض الكرامة، وقد اتفق المسلمون على أنه يجوز إطلاق هذا اللفظ على الله سبحانه، و«مثلاً» قال ثعلب: منصوب على القطع، والتقدير: أراد مثلاً. وقال ابن كيسان: هو: منصوب على التمييز الذي وقع موقع الحال، وهذا أقوى من الأول. وقوله: «يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً» هو: كال تفسير للجمتين السابقتين المصترتين بآما، فهو خبر من الله سبحانه. وقيل: هو: حكاية لقول الكافرين كأنهم قالوا: ما مراد الله بهذا المثل الذي يفرق به الناس إلى ضلالة، وإلى هدى؟ وليس هذا بصحيح، فإن الكافرين لا يقرؤون بأن في القرآن شيئاً من الهداية، ولا يعترفون على أنفسهم بشيء من الضلالة. قال القرطبي: ولا خلاف أن قوله: «وما يضل به إلا الفاسقين» من كلام الله سبحانه. وقد أطال المتكلمون الخصام في تفسير الضلال المذكور هنا، وفي نسبه إلى الله سبحانه. وقد نزع البحث الرازي في تفسيره مفاتيح الغيب في هذا الموضع تنقيحاً نفسياً، وجوده وطوله، وأوضح فروعه، وأصوله، فليرجع إليه فإنه مفيد جداً. وأما صاحب الكشف، فقد اعتمد ما هنا على عصاه التي يتوكأ عليها في تفسيره، فجعل إسناد الإضلال إلى الله سبحانه بكونه سبباً، فهو من الإسناد المجازي إلى ملابس للمفاعل الحقيقي، وحكى القرطبي عن أهل الحق من المفسرين أن المراد بقوله: «يضل» يخذل. والفسق: الخروج عن الشيء، يقال: فسقت الرطبة: إذا خرجت عن قشرها. والفارة من جحرها نكر معنى هذا الفراء. وقد استشهد أبو بكر بن الأنباري في كتاب الزاهر له على معنى الفسق بقول رؤية بن العجاج:

يهوين في نجد وغوراً غائراً فواسقاً عن قصدها جوائر
قد زعم ابن الأعرابي أنه لم يسمع قط في كلام الجاهلية، ولا في شعرهم فاسق، وهذا مردود عليه، فقد حكى ذلك عن العرب، وأنه من كلامهم جماعة من أئمة اللغة كابن فارس، والجوهري، وابن الأنباري، وغيرهم. وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «خمس فواسق» الحديث. وقال في

مسعود، وناس من الصحابة قال: لما ضرب الله هذين المثلين للمنافقين قوله: ﴿مَثَلُ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: 17] وقوله: ﴿أَوْ كَمِثَابٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ [البقرة: 19] قال المنافقون: الله أعلا وأجل من أن يضرب هذه الأمثال، فأنزل الله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا﴾ الآية. وأخرج الواحدي في تفسيره عن ابن عباس قال: إن الله نكر آلهة المشركين، فقال: ﴿وَأِنْ يَسْلُبْهُمُ الذِّبَابُ شَيْئًا﴾ [الحج: 73] ونكر كيد الآلهة، فجعله كبيت العنكبوت، فقالوا: أ رأيت حيث نكر الله الذباب، والعنكبوت، فيما أنزل من القرآن على محمد أي شيء كان يصنع بهذا؟ فأنزل الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي﴾ وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة نحو قول ابن عباس. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الحسن قال: لما نزلت: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبُ مَثَلٍ﴾ [الحج: 73] قال المشركون: ما هذا من الأمثال، فيضرب؟ فأنزل الله هذه الآية. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن أبي حاتم، عن أبيه العالية في قوله تعالى: ﴿فَمَا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ قال: يؤمن به المؤمن، ويعلمون أنه الحق من ربهم، ويهديهم الله به، ويعرفه الفاسقون فيكفرون به. وأخرج ابن جرير، عن ابن مسعود، وناس من الصحابة في قوله: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا﴾ يعني المنافقين ﴿وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ يعني المؤمنين ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ قال: هم المنافقون. وفي قوله: ﴿يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ قال: هو ما عهد إليهم في القرآن، فآفَرُوا به، ثم كفروا، فنقضوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ يقول: يعرفه الكافرون، فيكفرون به. وأخرج ابن جرير، عن قتادة قال: فسقوا، فاضلهم الله بفسقهم. وأخرج البخاري، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن سعد بن أبي وقاص قال: الحرورية هم: الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، وكان يسميهم الفاسقين. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة قال: ما نعلم الله أوعد في ذنب ما أوعد في نقض هذا الميثاق، فمن أعطى عهد الله، وميثاقه من ثمرة قلبه، فليوف به الله. وقد ثبت عن رسول الله ﷺ في أحاديث ثابتة في الصحيح وغيره من طريق جماعة من الصحابة النهي عن نقض العهد، والوعيد الشديد عليه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة في قوله: ﴿وَيُوقِطِعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ قال: بالرحم والقرباة. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله: ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ قال: يعملون فيها بالمعصية. وأخرج ابن المنذر عن مقاتل في قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ يقول: هم أهل النار. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: كل شيء نسبته الله إلى غير أهل الإسلام مثل خاسر، ومسرف، وظالم، ومجرم، وفاسق، فإنما يعني به الكفر، وما نسبته إلى الإسلام، فإنما يعني به الذم.

الكشاف: الفسق الخروج عن القصد، ثم نكر عجز بيت رؤية المنكور، ثم قال: والفاسق في الشريعة: الخارج عن أمر الله بارتكاب الكبيرة. انتهى. وقال القرطبي: والفسق في عرف الاستعمال الشرعي: الخروج من طاعة الله عز وجل، فقد يقع على من خرج بكفر، وعلى من خرج بعصيان. انتهى. وهذا هو: اتسب بالمعنى اللغوي، ولا وجه لقصره على بعض الخارجين بون بعض. قال الرازي في تفسيره: واختلف أهل القبلة هل هو مؤمن، أو كافر؟ فعند أصحابنا أنه مؤمن، وعند الخوارج أنه كافر، وعند المعتزلة لا مؤمن، ولا كافر، واحتج المخالف بقوله تعالى: ﴿يُبْسِ الْأَسْمَ الْفَسْقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: 11] وقوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة: 67] وقوله: ﴿حَبِيبُ إِلَيْكَ الْإِيمَانُ وَزِينَةُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرِهَ إِلَيْكَ الْكُفْرُ وَالْفَسْقُ وَالْعَصْيَانُ﴾ [الحجرات: 7] وهذه المسألة طويلة منكورة في علم الكلام. انتهى. وقوله ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ﴾ في محل نصب وصفاً للفاسقين. والنقض: إفساد ما أبرم من بناء، أو حبل، أو عهد، والنقاضة: ما نقض من حبل الشعر. والعهد: قيل: هو: الذي أخذ الله على بني آدم حين استخرجهم من ظهره، وقيل: هو: وصية الله إلى خلقه، وأمره إياهم بما أمرهم به من طاعته، ونهيه إياهم عما نهاهم عنه من معصيته في كتبه على اللسان رسله، ونقضهم ذلك: ترك العمل به، وقيل: بل نصب الآية على وحدانيته بالسموات، والأرض، وسائر مخلوقاته، ونقضه: ترك النظر فيه، وقيل: هو ما عهده إلى الذين أوتوا الكتاب ليبيننه للناس. والميثاق: العهد المؤكد باليمين مفعال من الوثاقة وهي الشدة في العقد، والربط، والجمع الموثيق، والميثاق، وأنشد ابن الأعرابي:

حمى لا يحل الدهر إلا بإننا ولا نسال الاقوام عهد الميثاق واستعمال النقض في إبطال العهد على سبيل الاستعارة، والقطع معروف، والمصدر في الرحم القطيعة، وقطعت الحبل قطعاً، وقطعت النهر قطعاً. ومما في قوله: ﴿مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ﴾ في موضع نصب بيقطعون، و ﴿أَنْ يُوصَلَ﴾ في محل نصب بأمر. ويحتمل أن يكون بدلاً من ما، أو من الهاء في به. واختلفوا ما هو: الشيء الذي أمر الله بوصله، فقيل: الأرحام، وقيل: أمر أن يوصل القول بالعمل، وقيل: أمر أن يوصل التصديق بجميع أدبياته، فقطعوه بتصديق بعضهم، وتكذيب البعض الآخر، وقيل: المراد به حفظ شرائعه، وحدوده التي أمر في كتبه المنزلة، وعلى اللسان رسله بالمحافظة عليها، فهي عامة، وبه قال الجمهور، وهو: الحق. والمراد بالفساد في الأرض الأفعال، والاقوال المخالفة لما أمر الله به، كعبادة غيره، والإضرار بعباده، وتغيير ما أمر بحفظه، وبالجمل، فكل ما خالف الصلاح شرعاً أو عقلاً، فهو فساد. والخسران: النقصان، والخاسر، هو: الذي نقص نفسه من الفلاح، والفوز، وهؤلاء لما استبدلوا النقض بالوفاء، والقطع بالوصل كان عملهم فساداً لما نقصوا أنفسهم من الفلاح، والربح. وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن

كَيْتَ تَكْفُرُونَ يَا قَوْمِ أَمْ أَتَيْنَكُم مِّن مَّيْمِينِكُمْ ثُمَّ يَرِيحُكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٨﴾

كيف مبنية على الفتح لخفته، وهي في موضع نصب بتكفرون، ويسأل بها عن الحال، وهذا الاستفهام هو للإنكار عليهم، والتعجب من حالهم، وهي متضمنة لهمزة الاستفهام، والواو في ﴿وكنتم﴾ للحال، وقد مقترنة كما قال الزجاج والفراء، وإنما صح جعل هذا الماضي حالا لأن الحال ليس هو مجرد قوله ﴿كنتم أمواتاً﴾ بل هو وما بعده إلى قوله ﴿ترجعون﴾ كما جزم به صاحب الكشف كأنه قال: كيف تكفرون؟ وقصتكم هذه أي: وأنتم عالمون بهذه القصة، وبأولها، وآخرها. والأموات جمع ميت، واختلف المفسرون في ترتيب هاتين الموتيتين، والحياتين - فقيل: إن المراد ﴿كنتم أمواتاً﴾ قبل أن تخلقوا أي: معدومين، لأنه يجوز إطلاق اسم الموت على المعلوم لاجتماعها في عدم الاحساس ﴿فأحياكم﴾ أي: خلقكم ﴿ثم يميتكم﴾ عند انقضاء آجالكم ﴿ثم يحييكم﴾ يوم القيامة. وقد ذهب إلى هذا جماعة من الصحابة، فمن بعدهم. قال ابن عطية: وهذا القول هو: المراد بالآية، وهو الذي لا محيد للكفار عنه، وإذا أدعت نفوس الكفار بكونهم كانوا معدومين، ثم أحياء في الدنيا، ثم أمواتاً فيها لزمهم الإقرار بالحياة الأخرى. قال غيره: والحياة التي تكون في القبر على هذا التأويل في حكم حياة الدنيا. وقيل: إن المراد كنتم أمواتاً في ظهر آدم ثم أخرجكم من ظهره كاللذ، ثم يميتكم موت الدنيا، ثم يبعثكم. وقيل: ﴿كنتم أمواتاً﴾ أي: نطفاً في أصلاب الرجال ﴿فأحياكم﴾ حياة الدنيا. ﴿ثم يميتكم﴾ بعد هذه الحياة ﴿ثم يحييكم﴾ في القبور ﴿ثم يميتكم﴾ في القبر ﴿ثم يحييكم﴾ الحياة التي ليس بعدها موت. قال القرطبي: فعلى هذا التأويل هي: ثلاث موتات، وثلاث إحياءات، وكونهم موتى في ظهر آدم، وإخراجهم من ظهره، والشهادة عليهم غير كونهم نطفاً في أصلاب الرجال، فعلى هذا يجيء أربع موتات وأربع إحياءات. وقد قيل: إن الله أوجدكم قبل خلق آدم كالبهائم، وأماتهم، فيكون على هذا خمس موتات، وخمس إحياءات، وموتة سادسة للعصاة من أمة محمد ﷺ كما ورد في الحديث: «ولكن ناس أصابتهم النار بنوحيهم، فأماتهم الله إماتة، حتى إذا كانوا قحماً أنن في الشفاعة فجيء بهم، إلى أن قال: فينبئون نبات الحبة في حميل السيل» وهو في الصحيح من حديث أبي سعيد. وقوله: ﴿ثم إليه ترجعون﴾ أي: إلى الله سبحانه، فيجازيكم بأعمالكم. وقد قرأ يحيى بن يعمر، وابن أبي إسحاق، ومجاهد، وسلام، ويعقوب بفتح حرف المضارعة، وقرأ الجماعة بضمه. قال في الكشف: عطف الأول بالفاء، وما بعده بثم، لأن الإحياء الأول قد تعقب الموت بغير تراخ، وأما الموت، فقد تراخى عن الإحياء، والإحياء الثاني كذلك مترخ عن الموت إن أريد به النشور تراخياً ظاهراً، وإن أريد به إحياء القبر، فمعه يكتسب العلم بتراخيه، والرجوع إلى الجزاء أيضاً مترخ عن النشور.

انتهى. ولا يخفك أنه إن أراد بقوله إن الإحياء الأول قد تعقب الموت أنه وقع على ما هو متصف بالموت، فالموت الآخر وقع على ما هو متصف بالحياة، وإن أراد أنه وقع الإحياء الأول عند أول اتصافه بالموت بخلاف الثاني، فغير مسلم، فإنه وقع عند آخر أوقات موته كما وقع الثاني عند آخر أوقات حياته، فتأمل هذا. وقد أخرج ابن جرير عن ابن مسعود وناس من الصحابة في قوله تعالى: ﴿وكنتم أمواتاً﴾ الآية، قال: لم تكونوا شيئاً، فخلقكم ﴿ثم يميتكم ثم يحييكم﴾ يوم القيامة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة نحوه أيضاً. وأخرج ابن جرير عن أبي صالح قال: يميتكم، ثم يحييكم في القبر، ثم يميتكم. وأخرج ابن جرير، عن أبي العالية في قوله: ﴿وكنتم أمواتاً﴾ قال: حين لم تكونوا شيئاً، ثم أماتهم، ثم أحياهم يوم القيامة، ثم يرجعون إليه بعد الحياة. وأخرج ابن جرير، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال: خلقهم من ظهر آدم، فاخذ عليهم الميثاق، ثم أماتهم، ثم خلقهم في الأرحام، ثم أماتهم، ثم أحياهم يوم القيامة. والصحيح الأول.

هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾

قال ابن كيسان: ﴿خلق لكم﴾ أي: من أجلكم، وفيه دليل على أن الأصل في الأشياء المخلوقة الإبادة حتى يقوم دليل يدل على النقل عن هذا الأصل، ولا فرق بين الحيوانات، وغيرها مما ينتفع به من غير ضرر، وفي التأكيد بقوله ﴿جميعاً﴾ أقوى دلالة على هذا. وقد استدلت بهذه الآية على تحريم أكل الطين، لأنه تعالى خلق لنا ما في الأرض دون نفس الأرض. وقال الرازي في تفسيره: إن لقاتل أن يقول: إن في جملة الأرض ما يطلق عليه أنه في الأرض، فيكون جامعاً للوصفين، ولا شك أن المعائن داخلة في ذلك، وكذلك عروق الأرض، وما يجري مجرى البعض لها؛ ولأن تخصيص الشيء بالنكر لا يدل على نفي الحكم عما عداه. انتهى. وقد نكر صاحب الكشف ما هو أوضح من هذا فقال: فإن قلت: هل لقول من زعم أن المعنى: خلق لكم الأرض، وما فيها وجه صحة؟ قلت: إن أراد بالأرض الجهات السفلية دون الغبراء كما تذكر السماء، ويراد الجهات العلوية جاز ذلك، فإن الغبراء، وما فيها واقعة في الجهات السفلية. انتهى. وأما التراب، فقد ورد في السنة تحريمه، وهو أيضاً ضار، فليس مما ينتفع به أكلاً، ولكنه ينتفع به في منافع أخرى، وليس المراد منفعة خاصة كمنفعة الأكل، بل كل ما يصبق عليه أنه ينتفع به بوجه من الوجوه، وجميعاً منصوب على الحال. والاستواء في اللغة: الاعتدال، والاستقامة، قاله في الكشف، ويطلق على الارتفاع، والعلو على الشيء، قال تعالى: ﴿فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك﴾ [المؤمنون: 28] وقال: ﴿لنستوي على ظهوره﴾ [الزخرف: 13] وهذا المعنى هو المناسب لهذه الآية. وقد قيل: إن هذه الآية من

المشكلات. وقد ذهب كثير من الأئمة إلى الإيمان بها، وترك التعرّض لتفسيرها، وخالفهم آخرون. والضمير في قوله: ﴿فسوّاهن﴾ مبهم يفسر ما بعده كقولهم: زيد رجلاً، وقيل: إنه راجع إلى السماء؛ لأنها في معنى الجنس، والمعنى: أنه عدل خلقهنّ، فلا اعوجاج فيه. وقد استدلل بقوله: ﴿ثم استوى﴾ على أن خلق الأرض متقدم على خلق السماء. وكذلك الآية التي في حمّ السجدة. وقال في النازعات: ﴿أنتم أشد خلقاً أم السماء بناها﴾ [النازعات: 27] فوصف خلقها، ثم قال: ﴿والأرض بعد ذلك نوحاً﴾ [النازعات: 30] فكانت السماء على هذا خلقت قبل الأرض، وكذلك قوله تعالى: ﴿الحمد لله الذي خلق السموات والأرض﴾ [الأنعام: 1] وقد قيل: إن خلق جرم الأرض متقدم على السماء، ودورها متأخر. وقد نكر نحو هذا جماعة من أهل العلم، وهذا جم جيد لا بدّ من المصير إليه، ولكن خلق ما في الأرض لا يكون إلا بعد البحر، والآية المذكورة هنا دلّت على أنه خلق ما في الأرض قبل خلق السماء، وهذا يقتضي بقاء الإشكال، وعدم التخلص عنه بمثل هذا الجمع. وقوله: ﴿سبع سموات﴾ فيه التصريح بأن السموات سبع، وأما الأرض، فلم يأت في نكر عندها إلا قوله تعالى: ﴿ومن الأرض مثلهن﴾ [الطلاق: 12] فقل أي: في العدد، وقيل أي: في غلظهنّ، وما بينهما. وقال الداودي: إن الأرض سبع، ولكن لم يفتق بعضها من بعض. والصحيح أنها سبع كالسموات. وقد ثبت في الصحيح قوله ﷺ: «من أخذ شبراً من الأرض ظلماً طوّقه الله من سبع أرضين» وهو ثابت من حديث عائشة، وسعيد بن زيد. ومعنى قوله تعالى: ﴿فسوّاهن﴾ سوّى سطوحهن بالإملاس، وقيل: جعلهنّ سواء. قال الرازي في تفسيره: فإن قيل: فهل يدل التخصيص على سبع سموات أي: فقط؟ قلنا: الحق أن تخصيص العدد بالذكر لا يدل على نفي الزائد، والله أعلم. انتهى. وفي هذا إشارة إلى ما نكره الحكماء من الزيادة على السبع. ونحن نقول: إنه لم يأتنا عن الله، ولا عن رسوله إلا السبع، فنقتصر على ذلك، ولا نعمل بالزيادة إلا إذا جاءت من طريق الشرع، ولم يأت شيء من ذلك، وإنما أثبت لنفسه سبحانه أنه بكل شيء عليم، لأنه يجب أن يكون عالماً بجميع ما ثبت أنه خالفه. وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة في قوله تعالى: ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾ قال: سخر لكم ما في الأرض جميعاً كرامة من الله، ونعمة لابن آدم، وبلغة، ومنفعة إلى أجل. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة عن مجاهد في قوله: ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾ قال: سخر لكم ما في الأرض جميعاً ﴿ثم استوى إلى السماء﴾ قال: خلق الأرض قبل السماء، فلما خلق الأرض ثار منها دخان فنزل قوله: ﴿ثم استوى إلى السماء فسوّاهن سبع سموات﴾ يقول: خلق سبع سموات بعضهنّ فوق بعض، وسبع أرضين بعضهنّ فوق بعض. وأخرج ابن جرير، وابن

المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الاسماء، والصفات عن ابن عباس، وابن مسعود، وناس من الصحابة في قوله: ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض﴾ الآية، قالوا: إن الله كان عرشه على الماء، ولم يخلق شيئاً قبل الماء، فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخاناً، فارتفع فوق الماء، فسمّا عليه فسماه سماء، ثم انبسط الماء، فجعله أرضاً واحدة، ثم فتقها سبع أرضين في يومين الأحد، والاثنين، فخلق الأرض على حوت، وهو: الذي نكره في قوله: ﴿ن وَالْقَلَم﴾ [القلم: 1] والحوت في الماء، والماء على ظهر صفاة، والصفة على ظهر ملك، والملك على صخرة، والصخرة في الريح، وهي: الصخرة التي نكر لقمان ليست في السماء، ولا في الأرض، فتحرك الحوت، فاضطرب، فتزلزلت الأرض، فأرسي عليها الجبال فقوّت، فنزل قوله تعالى: ﴿والقى في الأرض رواسي أن تميز بكم﴾ [النحل: 15] وخلق الجبال فيها، وأقوات أهلها، وسخرها، وما ينبغي لها في يومين في الثلاثاء، والأربعاء، وذلك قوله: ﴿إنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض﴾ إلى قوله: ﴿وبارك فيها﴾ [فصلت: 9] يقول: أثبت شجرها ﴿وقدر فيها أقواتها﴾ [فصلت: 10] يقول: أقوات أهلها ﴿في أربعة أيام سواء للسائلين﴾ [فصلت: 10] يقول: من سال، فهكذا الأمر، ﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان﴾ [فصلت: 11] وكان ذلك الدخان من تنفس الماء حين تنفس، فجعلها سماء واحدة، ثم فتقها فجعلها سبع سموات في يومين في الخميس والجمعة؛ وإنما سمي يوم الجمعة لأنه جمع فيه خلق السموات، والأرض ﴿وأوحى في كل سماء أمراً﴾ [فصلت: 12] قال: خلق في كل أسماء خلقها من الملائكة، والخلق الذي فيها من البحار، وجبال البرد، وما لا يعلم، ثم زين السماء الدنيا بالكواكب، فجعلها زينة، وحفظاً من الشياطين، فلما فرغ من خلق ما أحب استوى على العرش. وأخرج البيهقي في الاسماء، والصفات، عن عباس في قوله: ﴿ثم استوى إلى السماء﴾ يعني صعد أمره إلى السماء، فسوّاهنّ: يعني خلق سبع سموات، قال: أجرى النار على الماء، فبخر البحر، فصعد في الهواء، فجعل السموات منه. وقد ثبت عن النبي ﷺ من حديث أبي هريرة في الصحيح قال: «أخذ النبي ﷺ بيدي، فقال: خلق الله التربة يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبثّ فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم يوم الجمعة بعد العصر. وقد ثبت عن النبي ﷺ من طرق عند أهل السنن، وغيرهم عن جماعة من الصحابة لأحاديث في وصف السموات، وإن غلط كل سماء مسيرة خمسمائة عام، وما بين كل سماء إلى سماء خمسمائة عام، وأنها سبع سموات، وإن الأرض سبع أرضين، وكذلك ثبت في وصف السماء آثار عن جماعة من الصحابة وقد نكر السيوطي في الدرّ المنتثور بعض ذلك في تفسير هذه الآية، وإنما تركنا نكره ها هنا لكونه غير متعلق بهذه الآية على الخصوص،

و«بحمك» في موضع الحال أي: حامدين لك، وقد تقدم معنى الحمد. والتقيس: التطهير، أي: ونظرك عما لا يليق بك مما نسب إليك الملحنون، واقتراه الجاحدون. ونكر في الكشف أن معنى التسبيح، والتقيس واحد، وهو: تبعيد الله من السوء، وإثباته من سبوح في الأرض، والماء، وقس في الأرض إذا ذهب فيها، وأبعد. وفي القاموس، وغيره من كتب اللغة ما يرشد إلى ما نكرناه، والتأسيس خير من التأكيد خصوصاً في كلام الله سبحانه: ولما كان سؤالهم واقعاً على صفة تستلزم إثبات شيء من العلم لأنفسهم. أجاب الله سبحانه عليهم بقوله: «إني أعلم ما لا تعلمون» وفي هذا الإجمال ما يغني عن التفصيل: لأن من علم ما لا يعلم المخاطب له كان حقيقاً بأن يسلم له ما يصدر عنه، وعلى من لا يعلم أن يعترف لمن يعلم بأن أفعاله صادرة على ما يوجبه العلم، وتقضي المصلحة الراجحة، والحكمة البالغة. ولم يذكر متعلق قوله: «تعلمون» ليفيد التعميم، ويذهب السامع عند ذلك كل مذهب، ويعترف بالعجز، ويقر بالقصور. وقد أخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، عن ابن عباس قال: إن الله أخرج آدم من الجنة قبل أن يخلقه، ثم قرأ: «إني جاعل في الأرض خليفة» وأخرج الحاكم وصححه عنه أيضاً نحوه وزاد. وقد كان فيها قبل أن يخلق بالفي عام الجن بنو الجن، فافسدوا في الأرض، وسفكوا الدماء، فلما افسدوا في الأرض بعث الله عليهم جنوداً من الملائكة، فضربوهم حتى أحرقوهم بجزائر البحور، فلما قال الله: «إني جاعل في الأرض خليفة قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء» كما فعل أولئك الجن، فقال الله: «إني أعلم ما لا تعلمون» وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عمر ومثله. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس أطول منه. وأخرج ابن جرير، وابن عساكر، عن ابن مسعود، وناس من الصحابة قال: لما فرغ الله من خلق ما أحب استوى على العرش، فجعل إبليس على ملك سماء الدنيا، وكان من قبيلة من الملائكة يقال لهم: الجن، وإنما سماوا الجن؛ لأنهم خزان الجنة، وكان إبليس مع ملكه خازناً، فوقع في صدره كبر، وقال: ما أعطاني الله هذا إلا لمزية لي، فاطلع الله على ذلك منه، فقال للملائكة: «إني جاعل في الأرض خليفة» قالوا: ربنا، وما يكون ذلك الخليفة؟ قال: يكون له نرية يفسدون في الأرض، ويتحاسنون، ويقتل بعضهم بعضاً قالوا ربنا: «اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء... قال إني أعلم ما لا تعلمون» وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة في الآية قال: قد علمت الملائكة وعلم الله أنه لا شيء أكره عند الله من سفك الدماء، والفساد في الأرض. وأخرج ابن المنذر، عن ابن عباس قال: إياكم، والرأي، فإن الله رد الرأي على الملائكة وذلك أن الله قال «إني جاعل في الأرض خليفة» قالت الملائكة: «اتجعل فيها من يفسد فيها» قال: «إني أعلم ما لا تعلمون». وأخرج ابن جرير،

بل هو متعلق بما هو أعم منها.
وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٥﴾

«إذا» من الظروف الموضوعية للتوقيت، وهي للمستقبل، وإذا للماضي، وقد توضع إحداها موضع الأخرى. وقال المبرد: هي مع المستقبل للمضي، ومع الماضي للاستقبال. وقال أبو عبيدة: إنها هنا زائدة. وحكاها الزجاج وابن النحاس وقالوا: هي ظرف زمان ليست مما يزداد، وهي هنا في موضع نصب بتقدير انكر، أو بقالوا، وقيل: هو متعلق بخلق لكم، وليس بظاهر، والملائكة جمع ملك بوزن فعل، قاله ابن كيسان، وقيل، جمع ملاك بوزن مفعول قاله أبو عبيدة، من لك: إذا أرسل، والألوكة: الرسالة. قال لبيد:

وغلما أرسلته أمه بالوك فبئلنا ماسال
وقال عدي بن زيد:

أبلغ النعمان عني مالكا أنه قد طال حبسي وانتظار
ويقال الكني أي: أرسلني. وقال النضر بن شميل: لا اشتقاق لملك عند العرب، والهاء في الملائكة تأكيد لتانيث الجمع، ومثله الصلانة، والصلام: الخيل الشداد واحداً صلماً - وقيل: هي للمبالغة كعلامة، ونسابة و«جاعل» هنا من جعل المتعدي إلى مفعولين. وذكر المطرزي أنه بمعنى خالق، وذلك يقتضي أنه متعد إلى مفعول واحد، والأرض هنا: هي هذه الغبراء، ولا يختص ذلك بمكان دون مكان - وقيل إنها مكة. والخليفة هنا معناه الخالف لمن كان قبله من الملائكة، ويجوز أن يكون بمعنى المخولف، أي: يخلفه غيره: قيل هو آدم؛ وقيل كل من له خلافة في الأرض، ويقوي الأول قوله خليفة دون خلائف، واستغنى بآدم عن نكر من بعده قيل: خاطب الله الملائكة بهذا الخطاب لا للمشورة، ولكن لاستخراج ما عندهم، وقيل خاطبهم بذلك لأجل أن يصدر منهم تلك السؤال، فيجابون بذلك الجواب، وقيل لأجل تعليم عبادهم مشروعية المشاورة لهم. وأما قولهم «اتجعل فيها من يفسد فيها» فظاهره أنهم استنكروا استخلاف بني آدم في الأرض لكونهم مظنة للإفساد في الأرض، وإنما قالوا هذه المقالة قبل أن يتقدم لهم معرفة ببني آدم، بل قبل وجود آدم فضلاً عن نريته، لعلم قد علموه من الله سبحانه بوجه من الوجوه؛ لأنهم لا يعلمون الغيب؛ قال بهذا جماعة من المفسرين. وقال بعض المفسرين: إن في الكلام حنفاً، والتقدير: إني جاعل في الأرض خليفة يفعل كذا وكذا، فقالوا: «اتجعل فيها من يفسد فيها» وقوله: «يفسد» قائم مقام المفعول الثاني. والفساد: ضد الإصلاح، وسفك الدم: صبه، قاله ابن فارس، والجوهري: ولا يستعمل السفك إلا في الدم، وواحد الدماء دم، وأصله نَمَى حنفاً لأمه، وجملة «ونحن نُسبِح بحمك» حالية. والتسبيح في كلام العرب: التزنية، والتبديد من السوء على وجه التعظيم. قال الأعشى:

أقول لما جاعني فخره سبحان من علقمة الفاخر

واختلف في اشتقاقه، فقيل: من أديم الأرض، وهو وجهها، وقيل: من الأدمة، وهي: السمرة. قال في الكشف: وما آدم إلا اسم عجمي، وأقرب أمره أن يكون على فاعل كآزر، وعازر، وعابر، وشالغ، وفالغ، وأشبه ذلك، و﴿الاسماء﴾ هي العبارات والمراد: أسماء المسميات، قال بذلك أكثر بذلك العلماء، وهو المعنى الحقيقي للاسم. والتأكيد بقوله: ﴿كلها﴾ يفيد أنه علمه جميع الأسماء، ولم يخرج عن هذا شيء منها كاشناً ما كان. وقال ابن جرير: إنها أسماء الملائكة، وأسماء نرية آدم، ثم رجع هذا، وهو: غير راجح. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أسماء النرية. وقال الربيع بن خيثم: أسماء الملائكة. واختلف أهل العلم هل عرض على الملائكة المسميات، أو الأسماء، والظاهر الأول؛ لأن عرض نفس الأسماء غير واضح. وعرض الشيء إظهاره، ومنه عرض الشيء للبيع. وإنما نكر ضمير المعروضين تغليبا للعقلاء على غيرهم. وقرأ ابن مسعود: «عرضهن» وقرأ أبي: «عرضها» وإنما رجع ضمير عرضهم إلى مسميات مع عدم تقدم نكرها؛ لأنه قد تقدم ما يدل عليها، وهو: أسماؤها. قال ابن عطية: والذي يظهر أن الله علم آدم الأسماء، وعرض عليه مع تلك الأجناس أشخاصاً، ثم عرض تلك على الملائكة، وسألهم عن أسماء مسمياتها التي قد تعلمها آدم، فقال لهم آدم: هذا اسمه كذا، وهذا اسمه كذا. قال الماوردي: فكان الأصح توجه العرض إلى المسمين. ثم في زمن عرضهم قولان: أحدهما: أنه عرضهم بعد أن خلقهم. الثاني: أنه صورهم لقلوب الملائكة، ثم عرضهم. وأما أمره سبحانه للملائكة بقوله: ﴿انبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين﴾ فهذا منه تعالى لقصد التثبيت لهم مع علمه بأنهم يعجزون عن ذلك. والمراد ﴿إن كنتم صادقين﴾ أن بني آدم يفسدون في الأرض فانبئوني، كذا قال المبرد، وقال أبو عبيد، وابن جرير: إن بعض المفسرين قال: معنى ﴿إن كنتم صادقين﴾: إذ كنتم، قالوا: وهذا خطأ. ومعنى ﴿انبئوني﴾: أخبروني. فلما قال لهم ذلك اعترفوا بالعجز، والقصور ﴿فقالوا سبحانه لا علم لنا إلا ما علمتنا﴾ وسبحان: منصوب على المصدرية عند الخليل، وسيبويه، وقال الكسائي: هو: منصوب على أنه منادى مضاف، وهذا ضعيف جداً. والعليم: للمبالغة، والدلالة على كثرة المعلومات. والحكيم صيغة مبالغة في إثبات الحكمة له. ثم أمر الله سبحانه آدم أن يعلمهم بأسمائهم بعد أن عرضهم على الملائكة فعجزوا واعترفوا بالقصور، ولهذا قال سبحانه: ﴿قل لکم﴾ الآية. قال فيما تقدم: ﴿اعلم ما لا تعلمون﴾ ثم قال هنا: ﴿اعلم غيب السموات والأرض﴾ تدرجاً من المجل إلى ما هو مبين بعض بيان، وبسوط بعض بسط. وفي اختصاصه بعلم غيب السموات، والأرض رد لما يتكلفه كثير من العباد من الإطلاع على شيء من علم الغيب كالمنجمين، والكهان، وأهل الرمل، والسحر، والشعوذة. والمراد بما يبينون، وما يكتمون: ما يظهرون، ويسرون كما

وابن أبي حاتم، وابن عسكرو، عن أبي سابط: أن النبي ﷺ قال: «نحيت الأرض من مكة وكانت الملائكة تطوف بالبيت فهي أول من طاف به، وهي الأرض التي قال الله: ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ قال ابن كثير: وهذا مرسل في سنده ضعف، وفيه منرج، وهو: أن المراد بالأرض مكة، والظاهر أن المراد بالأرض أعم من ذلك. انتهى. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة قال: التسبيح، والتقييد المذكور في الآية هو: الصلاة. وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب التوبة، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول من لبى الملائكة قال الله تعالى: ﴿إني جاعل في الأرض خليفة قالوا تبجل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾ قال: فرأوه، فأعرض عنهم، فطافوا بالعرش ست سنين يقولون: لبيك لبيك اعتذاراً إليك، لبيك لبيك نستغفرك، ونتوب إليك» وثبت في الصحيح من حديث أبي نر أن النبي ﷺ قال: «أحب الكلام إلى الله ما اصطفاه لملائكته سبحانه ربي، وبحمده». وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود، وناس من الصحابة في قوله: ﴿وننقش لك﴾ قال: نصلي لك. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: التقديس: التطهير. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد في قوله: ﴿وننقش لك﴾ قال: نعظمك ونكبرك. وأخرجنا عن أبي صالح قال: نعظمك ونمجلك. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد في قوله: ﴿أعلم ما لا تعلمون﴾ قال: علم من إبليس المعصية، وخلقها لها. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة في تفسيرها قال: كان في علم الله أنه سيكون من الخليقة أنبياء، ورسول، وقوم صالحون، وساكنون الجنة. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، وابن حبان في صحيحه، والبيهقي في الشعب عن عبد الله بن عمر: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن آدم لما أهبطه الله إلى الأرض قالت الملائكة: أي رب ﴿تبجل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾ الآية، قالوا: ربنا نحن أطوع لك من بني آدم قال الله لملائكته: هلموا ملكين من الملائكة حتى يهبطا إلى الأرض فننظر كيف يعملان؟ فقالوا: ربنا هاروت وماروت، قال: فاهبطا إلى الأرض، فتمثلت لهما الزهرة امرأة من أحسن البشر ونكر القصة. وقد ثبت في كتب الحديث المعتمدة أحاديث من طريق جماعة من الصحابة في صفة خلقه سبحانه لأدم وهي موجودة فلا تطول بنكرها.

وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢١﴾ قَالَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا كَسَبَتْ يَدَايَاهُ وَأَنْتَ أَعْلَمُ الْبُيُوتِ ﴿٢٢﴾ تَكُونُونَ ﴿٢٣﴾

(آدم) أصله أدم بهمزتين إلا أنهم لينوا الثانية، وإذا حركت قلبت واواً، كما قالوا في الجمع أوانم، قاله الأخفش.

وغيابته وضع الوجه على الأرض. قال ابن فارس: سجد إذا تطامن، وكل ما سجد، فقد نل، والإسجاد: إقامة النظر. وقال أبو عمر: وسجد إذا طأطأ رأسه، وفي هذه الآية فضيلة لأدم عليه السلام عظيمة حيث أسجد الله له ملائكة. وقيل: إن السجود كان لله، ولم يكن لأدم، وإنما كانوا مستقبلين له عند السجود، ولا ملجئ لهذا، فإن السجود للبشر قد يكون جائزاً في بعض الشرائع بحسب ما تقتضيه المصالح. وقد نلت هذه الآية على أن السجود لأدم، وكذلك الآية الأخرى أعني قوله: ﴿فَإِذَا سُوِّيْتَهُ وَنَفَخْتَ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: 29] وقال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ [يوسف: 100] فلا يستلزم تحريمه لغير الله في شريعة نبينا محمد ﷺ أن يكون كذلك في سائر الشرائع. ومعنى السجود هنا: هو وضع الجبهة على الأرض، وإليه ذهب الجمهور. وقال قوم: هو: مجرد التثني، والانقياد. وقد وقع الخلاف هل كان السجود من الملائكة لأدم قبل تعليمه الأسماء أم بعده؟ وقد أطل البحث في ذلك البقاعي في تفسيره. وظاهر السياق أنه وقع التعليم، وتعبقه الأمر بالسجود وتعبقه إسكانه الجنة، ثم إخراجها منها، وإسكانه الأرض. وقوله: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ استثناء متصل؛ لأنه كان من الملائكة على ما قاله الجمهور. وقال شهر بن حوشب وبعض الأصوليين: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنَّ﴾ الذين كانوا في الأرض. فيكون الاستثناء على هذا منقطعاً. واستدلوا على هذا بقوله تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: 6] ويقول تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ [الكهف: 50] والجنّ غير الملائكة، وأجاب الأولون بأنه لا يمتنع أن يخرج إبليس عن جملة الملائكة، لما سبق في علم الله من شقائه عدلاً منه ﴿لَا يَسْتَلْ عَمَّا يُفْعَلُ﴾ [الأنبياء: 23] وليس في خلقه من نار، ولا تركيب الشهوة فيه حين غضب عليه ما يدفع أنه من الملائكة وأيضاً على تسليم ذلك لا يمتنع أن يكون الاستثناء متصلاً تغليباً للملائكة الذين هم ألوف مؤلفة على إبليس الذي هو فرد واحد بين أظهرهم. ومعنى ﴿إِبْلِيسَ﴾: امتنع من فعل ما أمر به. والاستكبار: الاستعظام للنفس، وقد ثبت في الصحيح عنه ﷺ: «أن الكبر بطل الحق، وغمط الناس» وفي رواية «غمص» بالصاد المهملة «وكان من الكافرين» أي: من جنسهم. قيل إن: «كان» هنا بمعنى صار. وقال ابن فورك: إنه خطأ ترده الأصول. وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كانت السجدة لأدم، والطاعة لله. وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال: سجدوا كرامة من الله أكرم بها آدم. وأخرج ابن عسلكر عن إبراهيم المزني قال: إن الله جعل آدم كالكلبة وأخرج ابن أبي الدنيا، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري، عن ابن عباس قال: كان إبليس اسمه عزازيل، وكان من أشرف الملائكة من نوي الأجنحة الأربعة، ثم أبلس بعد. وروى ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه قال: إنما سمي إبليس، لأن الله أبلسه من الخير كله أي: آيسه منه. وأخرج

يفيده معنى ذلك عند العرب، ومن فسر به شيء خاص فلا يقبل منه ذلك إلا بلبيل. وقد أخرج الفريابي، وابن سعد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن ابن عباس قال: إنما سمي آدم، لأنه خلق من أديم الأرض. وأخرج نحوه عبد بن حميد، وابن جرير، عن سعيد بن جبيرة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ قال: علمه اسم الصخرة، والقدر، وكل شيء. وأخرج ابن جرير، عنه نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عنه في تفسير الآية قال: عرض عليه أسماء ولده إنساناً إنساناً، والذواب، فقيل هذا الجمل، هذا الحمار، هذا الفرس. وأخرج الحاكم في تاريخه، وابن عساکر، والديلمي عن عطية بن بشر مرفوعاً في قوله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ قال: علم الله آدم في تلك الأسماء ألف حرفاً من الحرف، وقال له: قل لأولئك، ولزيتك إن لم تصبروا عن الدنيا، فاطلبوها بهذه الحرف، ولا تطلبوها بالدين، فإن الدين لي وحدي خالصاً، ويل لمن طلب الدنيا بالدين ويل له. وأخرج الديلمي عن أبي رافع قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلت لي أمي في الماء والطين وعلمت الأسماء كلها كما علم آدم الأسماء كلها» وأخرج ابن جرير، عن ابن زيد في تفسير الآية قال: أسماء نزيته لجمعين ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ قال: أخذهم من ظهره. وأخرج عن الربيع بن أنس قال: أسماء الملائكة. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في الآية قال: هي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ يعني عرض أسماء جميع الأشياء التي علمها آدم من أصناف الخلق. ﴿فَقَالَ أَتَبْخُونِي﴾ يقول: أخبروني ﴿بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ إني لم أجعل في الأرض خليفة ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾ تنزيهاً لله من أن يكون يعلم الغيب أحد غيره تبناً إليك ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ تبرؤوا منهم من علم الغيب ﴿إِلَّا مَا عَلَّمْنَا﴾ كما علمت آدم. وأخرج ابن جرير، عن مجاهد قال: عرض أصحاب الأسماء على الملائكة. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ قال: العليم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمه. وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود، وناس من الصحابة في قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أن بني آدم يفسدون في الأرض، ويسفكون الدماء ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْذُونَ﴾ قال: قولهم: ﴿أَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يَفْسُدُ فِيهَا... وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: 30 - 33] يعني: ما أسر إبليس في نفسه من الكبر. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس قال: ﴿مَا تُبْذُونَ﴾ ما تظهرون ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ يقول: أعلم السر كما أعلم العلانية.

وَلَوْ قُلْنَا لِلنَّاسِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣١﴾

﴿إِنَّ﴾ متعلق بمحذوف تقديره: وانكر إذ قلنا. وقال أبو عبيدة: إذ زائدة، وهو ضعيف. وقد تقدم الكلام في الملائكة، وأدم. السجود معناه في كلام العرب: التثني والخضوع.

وبقرب أقرب قرابة مثل كتبت أكتب كتابة: إذا سرت إلى الماء، وبينك وبينه ليلة، والاسم القرب قال الأصمعي: قلت لأعرابي ما القرب؟ قال: سير الليل لورود الغد. والنهي عن القرب فيه سد للزريعة، وقطع للوسيلة، ولهذا جاء به عوضاً عن الأكل، ولا يخفى أن النهي عن القرب لا يستلزم النهي عن الأكل، لأنه قد يكل من ثمر الشجرة من هو بعيد عنها إذا حمل إليه، فالأولى أن يقال: المنع من الأكل مستفاد من المقام. والشجر: ما كان له ساق من نبات الأرض، وواحدة شجرة، وقرئ بكسر الشين، وبالياء المثناة من تحت مكان الجيم. وقرأ ابن محيصن: «هذي» بالياء بدل الهاء وهو: الأصل. واختلف أهل العلم في تفسير هذه الشجرة، فقيل: هي: الكرم وقيل السنبل، وقيل التين، وقيل الحنطة، وسيأتي ما روي عن الصحابة، فمن بعدهم في تعيينها. وقوله: **﴿فَتَكُونُ﴾** معطوف على **﴿تَقْرَبُ﴾** في الكشف، أو نصب في جواب النهي وهو: الأظهر. والظلم أصله: وضع الشيء في غير موضعه، والأرض المظلومة: التي لم تحفر قط، ثم حفرت، ورجل ظليم: شديد الظلم. والمراد هنا **﴿فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾** لأنفسهم بالمعصية، وكلام أهل العلم في عصمة الأنبياء، واختلاف مذاهبهم في تلك ملون في مواطنه، وقد أطال البحث في ذلك الرازي في تفسيره في هذا الموضع، فليرجع إليه، فإنه مفيد. وأزلهما من الزلة، وهي الخطيئة أي: استزلهما، وأوقعهما فيها، وقرأ حمزة: «فأزالهما» بإثبات الألف من الإزالة، وهي التنحية أي: نحاها - وقال: الباكون بحذف الألف. قال ابن كيسان: هو: من الزوال، أي: صرفهما عما كانا عليه من الطاعة إلى المعصية. قال القرطبي: وعلى هذا تكون القراءتان بمعنى، إلا أن قراءة الجماعة أمكن في المعنى؛ يقال منه: أزلته فزل و**﴿عنها﴾** متعلق بقوله أزلهما على تضمينه معنى أصدر، أي: أصدر الشيطان زلتها عنها أي بسببها، يعني الشجرة. وقيل: الضمير للجنة، وعلى هذا، فالفعل مضمّن معنى أبعدهما أي: أبعدهما عن الجنة. وقوله: **﴿فأخرجهما﴾** تأكيد لمضمون الجملة الأولى أي: أزلهما إن كان معناه زال عن المكان، وإن لم يكن معناه كذلك، فهو تأسيس، لأن الإخراج فيه زيادة على مجرد الصرف، والإبعاد، ونحوهما: لأن الصرف عن الشجرة، والإبعاد عنها قد يكون مع البقاء في الجنة بخلاف الإخراج لهما عما كانا فيه من النعيم، والكرامة، أو من الجنة، وإنما نسب ذلك إلى الشيطان؛ لأنه الذي تولى إغواء آدم حتى أكل من الشجرة. وقد اختلف أهل العلم في الكيفية التي فعلها الشيطان في إزالتهما، فقيل: إنه كان ذلك بمشاهدة منه لهما، وإليه ذهب الجمهور واستدلوا على ذلك بقوله تعالى: **﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾** [الأعراف: 21] والمقاسمة ظاهرها المشاهدة، وقيل: لم يصدر منه إلا مجرد الوسوسة، وقيل: غير ذلك مما سيأتي في المروي عن السلف. وقوله: **﴿أهبطوا﴾** خطاب لآدم وحواء، وخوطبا بما يخاطب به الجمع؛ لأن الاثنين أقل الجمع عند البعض من أئمة العربية،

ابن إسحاق، وابن جرير، وابن الأنباري، عنه قال: كان إبليس قبل أن يرتكب المعصية من الملائكة اسمه عزازيل، وكان من سكان الأرض، وكان من أشد الملائكة اجتهاداً، وأكثرهم علماً، فذلك دعاه إلى الكبر، وكان من حي يسمون جنا. وأخرج ابن المنذر، والبيهقي في الشعب عنه قال: كان إبليس من خزان الجنة، وكان يدبر أمر سماء الدنيا. وأخرج محمد بن نصر عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله أمر آدم بالسجود، فسجد، فقال: لك الجنة، ولمن سجد من ولك، وأمر إبليس بالسجود، فأبى أن يسجد، فقال: لك النار، ولمن أبى من ولك أن يسجد». وأخرج ابن المنذر، عن ابن عباس في قوله: **﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾** قال: جعله الله كافراً لا يستطيع أن يؤمن. وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي قال: ابتداء الله خلق إبليس على الكفر، والضلالة، وعمل بعمل الملائكة فصوره إلى ما ابتدئ إليه خلقه من الكفر، قال الله: **﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾**

وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْغَالِينَ ﴿٢٠﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٢١﴾ فَلَقَدْ آتَيْنَا آدَمَ مِنْ رَّبِّهِ كُنُوزًا فَكَابَ عَلَيْهَا هُوَ أَكْثَرُ الرَّبِّمْ ﴿٢٢﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ فَسَخِّطُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ فَمَا تَزِيدُونَ إِلَّا الْإِثْمَ كُفْرًا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾

﴿اسكن﴾ أي: اتخذ الجنة مسكناً وهو: محل السكن، وأما ما قاله بعض المفسرين من أن في قوله: «اسكن» تنبيهاً على الخروج، لأن السكنى لا تكون ملكاً، وأخذ ذلك من قول جماعة من العلماء أن من أسكن رجلاً منزلاً له، فإنه لا يملكه بذلك، وإن له أن يخرج منه، فهو: معنى عرفي، والواجب الأخذ بالمعنى العربي إذا لم تثبت في اللفظ حقيقة شرعية. و**﴿لَقَدْ﴾** تأكيد للضمير المستكن في الفعل ليصح العطف عليه كما تقرّر في علم النحو أنه لا يجوز العطف على الضمير المرفوع المستكن إلا بعد تأكيده بمنفصل. وقد يجيء العطف نادراً بغير تأكيد كقول الشاعر:

قلت إذ أقبلت وزهر تهادي كنعاج الملائع سفن رملا
وقوله: **﴿وزوجك﴾** أي: حواء، وهذه هي اللغة الفصيحة زوج بغير هاء، وقد جاء بها قليلاً كما في صحيح مسلم من حديث أنس: «أن النبي ﷺ كان مع إحدى نسائه، فمر به رجل، فدعاه وقال: يا فلان هذه زوجتي فلانة» الحديث، ومنه قول الشاعر:

وإن الذي يسعى ليفسد زوجتي كساع إلى أسد الشرى يستميلها
و**﴿ورغدا﴾** بفتح المعجمة، وقرأ النخعي، وابن وثاب بسكونها، والرغد: العيش الهنيء الذي لا عناء فيه، وهو منصوب على الصفة لمصدر محذوف. و**﴿حيث﴾** مبنية على الضم، وفيها لغات كثيرة مذكورة في كتب العربية. والقرب: البتو. قال في الصحاح: قرب الشيء بالضم يقرب قريباً أي: دنا، وقربته بالكسر أقربه قرباناً أي: دنوت منه،

﴿وعصى آدم ربه فغوى﴾ [طه: 121]. وأما قوله: ﴿قلنا اهبطوا﴾ بعد قوله: ﴿قلنا اهبطوا﴾، فكرهه للتوكيد، والتغليظ. وقيل إنه لما تعلق به حكم غير الحكم الأوّل كرهه، ولا تزامم بين المقترضات. فقد يكون التكرير للأمرين معاً. وجواب الشرط في قوله: ﴿فإما يأتينكم مني هدى﴾ هو الشرط الثاني مع جوابه قاله سيبويه. وقال الكسائي: إن جواب الشرط الأوّل، والثاني قوله: ﴿فلا خوف﴾ واختلفوا في معنى الهدى المذكور، فقيل: هو كتاب الله، وقيل التوفيق للهداية. والخوف هو: الذعر، ولا يكون إلا في المستقبل. وقرأ: الزهري والحسن وعيسى بن عمار، وابن أبي إسحاق، ويعقوب: ﴿فلا خوف﴾ بفتح الفاء، والحرز ضد السرور. قال اليزيدي: حزنه لغة قریش، وأحزنه لغة تميم. وقد قرئ بهما. وصحبة أهل النار لها بمعنى الاقتران، والملازمة. وقد تقدم نكر تفسير الخلود. وقد أخرج أبو الشيخ، وابن مرويّه، عن أبي نر قال: «قلت يا رسول الله أرأيت آدم نبياً كان؟ قال: نعم كان نبياً رسولاً كلمه الله قال له: «يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة» وأخرج ابن أبي شيبة، والطبراني، عن أبي نر قال: «قلت: يا رسول الله من أوّل الأنبياء؟ قال: آدم قلت: نبي؟ قال: نعم. قلت: ثم من؟ قال: نوح وبينهما عشرة آباء». وأخرج أحمد، والبخاري في تاريخه، والبيهقي في الشعب نحوه من حديث أبي نر مرفوعاً وزاد «كم كان المرسلون؟ قال: ثلاثمائة وخمسة عشر جماً غفيراً». وأخرج ابن أبي حاتم، وابن حبان، والطبراني، والحاكم وصححه، والبيهقي، عن أبي أمامة الباهلي، أن رجلاً قال: «يا رسول الله أنبيى كان آدم؟ قال: نعم، قال: كم بينه وبين نوح؟ قال: عشرة قرون قال: كم بين نوح، وبين إبراهيم؟ قال: عشرة قرون، قال: يا رسول الله كم الأنبياء؟ قال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، قال: يا رسول الله كم كانت الرسل من ذلك؟ قال: ثلاثمائة وخمسة عشر جماً غفيراً». وأخرج أحمد، وابن المنذر، والطبراني، وابن مرويّه من حديث أبي أمامة نحوه، وصرح بأن السائل أبو نر. وأخرج عبد بن حميد، والحاكم وصححه، عن ابن عباس قال: ما سكن آدم الجنة إلا ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن مرويّه، والبيهقي عنه قال: «ما غابت الشمس من ذلك اليوم حتى اهبط من الجنة». وأخرج الفريابي، وأحمد في الزهد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، عن الحسن قال: لبث آدم في الجنة ساعة من نهار، تلك الساعة مائة وثلاثون سنة من أيام الدنيا. وقد روي تقدير البث في الجنة عن سعيد بن جبير بمثل ما تقدم، عن ابن عباس كما رواه أحمد في الزهد. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي، وابن عساکر، عن ابن عباس، وابن مسعود، وناس من الصحابة قالوا: لما سكن آدم الجنة كان يمشي فيها وحشاً ليس له زوج يسكن إليها، فنام نومة فاستيقظ، وإذا عند رأسه امرأة قاعدة خلقها الله من ضلعه. وأخرج البخاري، ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «استوصوا بالنساء خيراً، فإن المرأة

وقيل إنه خطاب لهما، ولذريتتهما؛ لأنهما لما كانا أصل هذا النوع الإنساني جعلاً بمنزلته، وبديل على ذلك قوله: ﴿بعضكم لبعض عدو﴾ فإن هذه الجملة الواقعة حالاً مبيناً للهيئة الثابتة للمأمورين بالهبوط تفيد ذلك. والعدو خلاف الصديق، وهو من عدا إذا ظلم، ويقال: نثب عدوان: أي يعو على الناس، والعنوان: الظلم الصراح وقيل: إنه مأخوذ من المجاوزة، يقال عداه: إذا جاوزه، والمعنيان متقاربان، فإن من ظلم، فقد تجاوز. وإنما أخبر عن قوله: ﴿بعضكم﴾ بقوله: ﴿عدو﴾ مع كونه مفرداً؛ لأن لفظ بعض، وإن كان معناه محتملاً للتعدد، فهو مفرد فروعي جانب اللفظ، وأخبر عنه بالمفرد، وقد يراعى المعنى، فيخبر عنه بالتعدد. وقد يجاب بأن ﴿عدو﴾ وإن كان مفرداً، فقد يقع موقع المتعدد كقوله تعالى: ﴿وهم لكم عدو﴾ [الكهف: 50] وقوله: ﴿يحبسون كل صيحة عليهم هم العدو﴾ [المنافقون: 4] قال ابن فارس العدو اسم جامع للواحد، والاثنين، والثلاثة. والمراد بالمستقر: موضع الاستقرار، ومنه «أصحاب الجنة يومئذ خير مستقر» [الفرقان: 24] وقد يكون بمعنى الاستقرار، ومنه «إلى ربك يومئذ المستقر» [القيامة: 12] فالآية محتملة للمعنيين، ومثلها قوله: ﴿جعل لكم الأرض قراراً﴾ [غافر: 64] والمتاع: ما يستمتع به من المأكول، والمشروب، والملبوس، ونحوها. واختلف المفسرون في قوله: ﴿إلى حين﴾ فقيل إلى الموت، وقيل إلى قيام الساعة. وأصل معنى الحين في اللغة: الوقت البعيد، ومنه «هل أتى على الإنسان حين من الدهر» [الإنسان: 1] والحين الساعة، ومنه «أو تقول حين ترى العذاب» [الزمر: 58] والقطعة من الدهر، ومنه «فنهزم في غمرتهم حتى حين» [المؤمنون: 54] أي: حتى تفنى آجالهم، ويطلق على السنة، وقيل على ستة أشهر، ومنه «تؤتى أكلها كل حين» [إبراهيم: 25] ويطلق على المساء، والصباح، ومنه «حين تمسون وحين تصبحون» [الروم: 17] وقال الفراء: الحين حينان: حين لا يوقف على حده، ثم نكر الحين الآخر، واختلافه بحسب اختلاف المقامات كما نكرنا. وقال ابن العربي: الحين المجهول لا يتعلق به حكم، والحين المعلوم سنة. ومعنى تلقي آدم للكلمات: أخذه لها، وقبوله لما فيها، وعمله بها، وقيل فهمه لها، وفطنته لما تضمنته. وأصل معنى التلقي الاستقبال أي: استقبال الكلمات الموحاة إليه، ومن قرأ بنصب «آدم» جعل معناه استقبلته الكلمات. وقيل إن معنى تلقي تلقن، ولا وجه له في العربية. واختلف السلف في تعيين هذه الكلمات وسيأتي. والتوبة: الرجوع يقال تاب العبد: إذا رجع إلى طاعة مولاه، وعبد تواب: كثير الرجوع فمعنى تاب عليه: رجع عليه بالرحمة فقبل توبته، أو وفقه للتوبة. واقتصر على ذكر التوبة على آدم نون حواء مع اشتراكهما في الذنب؛ لأن الكلام من أوّل القصة معه، فاستمر على ذلك، واستغنى بالتوبة عليه عن ذكر التوبة عليها لكونها تابعة له، كما استغنى بنسبة الذنب إليه عن نسبته إليها في قوله:

وإبن المنذر، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب، عن ابن عباس. قال: قال الله لأدم: ما حملك على أن أكلت من الشجرة التي نهيتك عنها؟ قال: يا رب زينت لي حواء، قال: فإني عاقبتك بأن لا تحمل إلا كرهاً، ولا تضع إلا كرهاً، وألميتها في كل شهر مرتين. وأخرج البخاري، والحاكم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لولا بنو إسرائيل لم يخنز اللحم، ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها». وقد ثبتت أحاديث كثيرة عن جماعة من الصحابة في الصحيحين، وغيرهما في محاجة آدم، وموسى، وحج آدم موسى بقوله: «أتؤمنني على أمر قتره الله علي قبل أن أخلق؟ وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: «قلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو» قال: آدم، وحواء، وإبليس، والحية «ولكم في الأرض مستقر» قال: القبور «ومتاع إلى حين» قال: الحياة. وروى نحو ذلك عن مجاهد، وأبي صالح، وقتادة كما أخرجه عن الأول، والثاني أبو الشيخ، وعن الثالث عبد بن حميد. وأخرج أبو الشيخ، عن ابن مسعود في قوله: «ولكم في الأرض مستقر» قال: القبور «ومتاع إلى حين» قال: إلى يوم القيامة. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمر قال: «هبط آدم بالصفاء، وحواء بالمرودة، وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن ابن عباس قال: «أول ما هبط الله آدم إلى أرض الهند» وفي لفظ «بجنى أرض الهند». وأخرج ابن أبي حاتم عنه أنه هبط إلى أرض بين مكة والطائف. وأخرج ابن جرير، والحاكم وصححه، والبيهقي عنه قال: قال علي بن أبي طالب: أطيب ريح الأرض الهند، هبط بها آدم، فعلق شجرها من ريح الجنة. وأخرج ابن سعد، وابن عساکر، عن ابن عباس قال: «هبط آدم بالهند، وحواء بجدة، فجاء في طلبها حتى أتت جمعاً، فأنزلت إليه حواء، فلذلك سميت المزدلفة، واجتمعوا بجمع. وأخرج الطبراني، وأبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أنزل آدم عليه السلام بالهند، فاستوحش، فنزل جبريل، فنادى بالأذان، فلما سمع نكر محمد قال له: ومن محمد هذا؟ قال: هذا آخر، ولكم من الأنبياء». وقد روي عن جماعة من الصحابة أن آدم هبط إلى أرض الهند، منهم جابر أخرجه ابن أبي الدنيا، وابن المنذر، وابن عساکر، ومنهم ابن عمر أخرجه الطبراني. وأخرج ابن عساکر، عن علي قال: قال النبي ﷺ: «إن الله لما خلق الدنيا لم يخلق فيها ذهباً، ولا فضة، فلما هبط آدم، وحواء أنزل معهما ذهباً، وفضة، فسلكه يتابع في الأرض منفعة لأولادها من بعدهما وجعل ذلك صدق لحواء فلا ينبغي لأحد أن يتزوج إلا بصدق». وأخرج ابن عساکر بسند ضعيف، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «هبط آدم، وحواء عريانين جميعاً عليهم ورق الجنة تعد بيكي، ويقول لها: يا حواء قد أذاني الحر، فجاءه جبريل بقطن، وأمرها أن تغزل، وعلمها، وأمر آدم بالحياكة، وعلمه». وأخرج الديلمي في مسند الفردوس

خلقت من ضلع، وإن أعوج شيء من الضلع رأسه، فلن ذهب تقيمه كسرتة، وإن تركته تركته، وفيه عوج» وروى أبو الشيخ، وابن عساکر، عن ابن عباس قال: إنما سميت حواء لأنها أم كل حي. وأخرج ابن عدي، وابن عساکر، عن النخعي قال: لما خلق الله آدم، وخلق له زوجه بعث إليه ملكاً، وأمره بالجماع ففعل، فلما فرغ قالت له حواء: يا آدم هذا طيب زينا منه. وأخرج ابن جرير، وابن عساکر، عن ابن مسعود، وناس من الصحابة قال: الرغد الهنيء. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: الرغد سعة المعيشة. وأخرج عنه في قوله: «وكل منها رغداً حيث شئتما» قال: لا حساب عليكم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن عساکر من طرق، عن ابن عباس قال: الشجرة التي نهى الله عنها آدم السنبلة وفي لفظ: البر. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه قال: هي: الكرم. وأخرج ابن جرير، عن ابن مسعود مثله. وأخرج أبو الشيخ، عنه قال: هي: اللوز. وأخرج ابن جرير، عن بعض الصحابة قال: هي: التينة. وروى مثله أبو الشيخ عن مجاهد، وابن أبي حاتم عن قتادة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن وهب بن منبه قال: هي: البر. وأخرج أبو الشيخ، عن أبي مالك قال: هي: النخلة. وأخرج أبو الشيخ، عن يزيد بن عبد الله بن قسيط قال: هي: الأترج. وأخرج أحمد في الزهد، عن شعيب الجبائي قال: هي تشبه البر، وتسمى الدعة، وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: «فأزلهما» قال: فافواهما. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عاصم بن بهلثة قال: «فأزلهما» ففناهما. وأخرج أبو داود في المصاحف، عن الأعمش قال: قراءتنا في البقرة مكان فأزلهما فوسوس. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن مسعود وناس من الصحابة قالوا: أراد إبليس أن يدخل عليهما الجنة، فمنعته الخزنة، فأتى الحية، وهي: دابة لها أربع قوائم، كانها البعير، وهي: كاحسن الدواب، فكلما أن تدخله في فمها حتى تدخل به إلى آدم، فأنخلته في فمها، فمزت الحية على الخزنة فدخلت، ولا يعلمون لما أراد الله من الأمر، فكلمه من فمها فلم يبال بكلامه، فخرج إليه فقال: يا آدم «هل أهلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى» [طه: 120] وحلف لهما بالله «إني لكما لمن الناصحين» [الأعراف: 21] فأبى آدم أن يأكل منها، فتقدمت حواء، فأكلت، ثم قالت: يا آدم كل، فإني قد أكلت، فلم يضرني، فلما أكلت «بنت لهما سواتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة» [الأعراف: 22]. وقد أخرج قصة الحية، ودخول إبليس معها عبد الرزاق، وابن جرير، عن ابن عباس. وأخرج ابن سعد، وأحمد في الزهد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ قال: «إن آدم كان رجلاً طويلاً كأنه نخلة سحق طوله ستون ذراعاً كثير شعر الرأس، فلما ركب الخطيئة بدت له عورته» الحديث. وأخرج ابن منيع،

هم يحزنون﴾ يعني لا يحزنون للموت.

يَبْقَى لِشَرِّهِ لَئِنْ أَذْكُرُوا يَتَوَقَّى إِلَيَّ أُنْتَهُ عَلَيْكَ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِنَّي فَأَرْفَعُ بَيْنَ أَصْنَانٍ مِمَّا أَسْزَلْتُ مَصِيدًا لِمَا مَنَّكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَاذِبِينَ وَلَا تَسْتَدْرِكُوا بَعْدِي شَيْئًا قَلِيلًا وَإِنَّي فَأَنْتَوْنَ ۝ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْأَبْطِلِ وَتَكُونُوا الْآفَكُ وَأَنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝

اعلم أن كثيراً من المفسرين جاؤوا بعلم متكلف، وخاضوا في بحر لم يكلفوا سباحته، واستغرقوا أوقاتهم في فن لا يعود عليهم بفائدة، بل أوقعوا أنفسهم في التكلم بمحض الرأي المنهي عنه في الأمور المتعلقة بكتاب الله سبحانه، وذلك أنهم أراؤا أن ينكروا المناسبة بين الآيات القرآنية المسروبة على هذا الترتيب الموجود في المصاحف، فجاءوا بتكلفات، وتعسفات يتبرأ منها الإنصاف، ويتنزه عنها كلام البلغاء فضلاً عن كلام الرب سبحانه، حتى أقربوا ذلك بالتصنيف، وجعلوه المقصد الأهم من التأليف، كما فعله البقاعي في تفسيره، ومن تقلمه حسبما نكر في خطبته، وإن هذا لمن أعجب ما يسمعه من يعرف أن هذا القرآن ما زال ينزل مفرقاً على حسب الحوادث المقترضة لنزوله منذ نزول الوحي على رسول الله ﷺ إلى أن قبضه الله عز وجل إليه، وكل عاقل فضلاً عن عالم لا يشك أن هذه الحوادث المقترضة نزول القرآن متخالفة باعتبار نفسها، بل قد تكون متناقضة كتحريم أمر كان حلالاً، وتحليل أمر كان حراماً، وإثبات أمر لشخص، أو أشخاص يناقض ما كان قد ثبت لهم قبله، وتارة يكون الكلام مع المسلمين، وتارة مع الكافرين، وتارة مع من مضى، وتارة مع من حضر، وحيناً في عبادة، وحيناً في معاملة، ووقتاً في ترغيب، ووقتاً في ترهيب، وأونة في بشارة، وأونة في نذارة، وطوراً في أمر دنيا، وطوراً في أمر آخرة، ومرة في تكليف آتية، ومرة في إقاصيص ماضية، وإذا كانت أسباب النزول مختلفة هذا الاختلاف، ومتباينة هذا التباين الذي لا يتيسر معه الائتلاف، فالقرآن النازل فيها هو باعتباره نفسه مختلف باختلافها، فكيف يطلب العاقل المناسبة بين الضب، والنون، والماء، والنار، والملاح، والحادي، وهل هذا إلا من فتح أبواب الشك، وتوسيع دائرة الريب على من في قلبه مرض، أو كان مرضه مجرد الجهل، والقصور، فإنه إذا وجد أهل العلم يتكلمون في التناسب بين جميع أي القرآن، ويفردون ذلك بالتصنيف، تقرّر عنده أن هذا أمر لا بد منه، وأنه لا يكون القرآن بليغاً معجزاً إلا إذا ظهر الوجه المقترضى للمناسبة، وتبين الأمر الموجب للارتباط، فإن وجد الاختلاف بين الآيات، فرجع إلى ما قاله المتكلمون في ذلك، فوجده تكلفاً محضاً، وتعسفاً بيناً انقدح في قلبه ما كان عنه في عافية، وسلامة، هذا على فرض أن نزول القرآن كان مترتباً على هذا الترتيب الكائن في المصحف، فكيف، وكل من له أدنى علم بالكتاب، وأيسر حظ من معرفته يعلم علماً يقيناً أنه لم يكن كذلك، ومن شك في هذا، وإن لم يكن مما يشك فيه أهل العلم رجع إلى كلام

عن أنس مرفوعاً: «أول من حاك آدم عليه السلام». وقد روى عن جماعة من الصحابة، والتابعين، ومن بعدهم حكايات في صفة هبوط آدم من الجنة، وما أهبط معه، وما صنع عند وصوله إلى الأرض، ولا حاجة لنا ببسط جميع ذلك. وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَتَلَقَى آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ قال: أي رب ألم تخلقني بيнок؟ قال: بلى، قال: أي رب ألم تنفخ في من روحك؟ بلى قال: بلى، قال: أي رب ألم تسبق إلي رحمتك قبل غضبك؟ قال: بلى، قال: أي رب ألم تسكني جنتك؟ قال: بلى، قال: أي رب أرايت إن تبت وأصلحت أراجعي أنت إلى الجنة؟ قال: نعم. وأخرج الطبراني في الأوسط، وابن عساکر بسند ضعيف، عن عائشة عن النبي ﷺ قال: «لما أهبط الله آدم إلى الأرض قام وجاء الكعبة فصلى ركعتين» الحديث. وقد روي نحوه بإسناد لا بأس به أخرجه الأزرق في تاريخ مكة، والطبراني في الأوسط، والبيهقي في الدعوات، وابن عساکر من حديث بريدة مرفوعاً. وأخرج الثعلبي عن ابن عباس في قوله: ﴿فَتَلَقَى آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ قال: قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: 23]. وأخرج ابن المنذر من طريق ابن جرير عنه مثله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في شعب الإيمان عن محمد بن كعب القرظي في قوله: ﴿فَتَلَقَى آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ مثله: وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن مجاهد مثله. وأخرج عبد بن حميد عن الحسن، والضحاك مثله. وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قيل له: ما الكلمات التي تلقى آدم من ربه؟ قال: علم شأن الحج، فهي الكلمات. وأخرج عبد بن حميد عن عبد الله بن زيد في قوله: ﴿فَتَلَقَى آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ قال: لا إله إلا أنت سبحانه وبحمده عملت سوءاً، وظلمت نفسي، فاغفر لي إنك أنت خير الغافرين، لا إله إلا أنت سبحانه، وبحمده رب عملت سوءاً، وظلمت نفسي، فارحمني إنك أنت أرحم الراحمين، لا إله إلا أنت سبحانه، وبحمده رب عملت سوءاً، وظلمت نفسي، فتب علي إنك أنت التواب الرحيم. وأخرج نحوه البيهقي في شعب الإيمان، وابن عساکر، عن أنس. وأخرج نحوه هذا، وفي الزهد عن سعيد بن جبیر. وأخرج نحوه ابن عساکر من طريق جويبر، عن الضحاك، عن ابن عباس. وأخرج نحوه الديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف عن علي مرفوعاً. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله: ﴿فَإِذَا يَتَيْنِي مِنْ هَدًى﴾ قال الهدي: الأنبياء، والرسول، والبيان. وأخرج ابن الأنباري، في المصاحف عن أبي الطفيل قال: قرأ رسول الله ﷺ ﴿فَمَنْ تَبِعَ هَدًى﴾ بتثنية الباء، وفتحها. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبیر في قوله: ﴿فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ﴾ يعني في الآخرة ﴿وَلَا

قيل إن له اسمين؛ وقيل إسرائيل لقب له، وهو اسم عجمي غير منصرف، وفيه سبع لغات: إسرائيل بزنة إبراهيم، وإسرائيل بمدة مهموزة مختلصة رواها ابن شنودة، عن ورش، وإسرائيل بمدة بعد الياء من غير همز وهي: قراءة الأعمش، وعيسى بن عمر، وقرأ الحسن من غير همز، ولا مد، وإسرائيل بهمزة مكسورة. وإسرائيل بهمزة مفتوحة، وتميم يقولون إسرائين. والذكر هو ضد الإنصات وجعله بعض أهل اللغة مشتركاً بين نكر القلب، واللسان. وقال الكسائي: ما كان بالقلب، فهو مضموم الذال. وما كان باللسان، فهو مكسور الذال. قال ابن الأنباري: والمعنى في الآية: انكروا شكر نعمتي، فحذف الشكر اكتفاء بذكر النعمة، وهي اسم جنس، ومن جملة ما جعل منهم أنبياء، وأنزل عليهم الكتب، والمن، والسلوى، وأخرج لهم الماء من الحجر، ونجاهم من آل فرعون، وغير ذلك. والعهد قد تقدم تفسيره. واختلف أهل العلم في العهد المذكور في هذه الآية ما هو؟ فقيل هو: المذكور في قوله تعالى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: 63] وقيل هو: ما في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً﴾ [المائدة: 12] وقيل: هو قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [آل عمران: 187]. وقال الزجاج: هو ما أخذ عليهم في التوراة من اتباع محمد ﷺ، وقيل: هو أداء الفرائض، ولا مانع من حمله على جميع ذلك. ومعنى قوله: ﴿أَوْفُوا بِعَهْدِكُمْ﴾ أي: بما ضمنت لكم من الجزاء، والرهب، والرهبة: الخوف، ويتضمن الأمر به معنى التهديد، وتقديم معمول الفعل يفيد الاختصاص كما تقدم في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: 5] وإذا كان التقديم على طريقة الإضمار، والتفسير مثل زياداً ضربته ﴿وإياي فارهبون﴾ كان أوكد في إفادة الاختصاص، ولهذا قال صاحب الكشاف: وهو أوكد في إفادة الاختصاص من إياك نعبد، وسقطت الياء من قوله: ﴿فارهبون﴾ لأنها رأس آية ﴿ومصدقاً﴾ حال من «ها» في قوله: ﴿ما أنزلت﴾ أو من ضميرها المقدر بعد الفعل أي: أنزلته. وقوله: ﴿أَوَّلُ كَافِرٍ بِهِ﴾ إنما جاء به مفرداً، ولم يقل كافرين حتى يطابق ما قبله؛ لأنه وصف لموصوف محذوف مفرد للفظ، متعدد المعنى نحو فريق، أو فوج. وقال الأخفش، والفراء: إنه محمول على معنى الفعل؛ لأن المعنى أول من كفر. وقد يكون من باب قولهم: هو أظرف الفتيان، وأجمله كما حكى ذلك سيبويه، فيكون هذا المفرد قائماً مقام الجمع، وإنما قال: أول مع أنه قد تقدمهم إلى الكفر به كفار قريش؛ لأن المراد أول كافر به من أهل الكتاب؛ لأنهم العارفون بما يجب للأنبياء، وما يلزم من التصديق، والضمير في به عائد إلى النبي ﷺ أي: لا تكونوا أول كافر بهذا النبي مع كونكم قد وجدتموه مكتوباً عنكم في التوراة، والإنجيل، ميسراً به في الكتب المنزلة عليكم، وقد حكى الرازي في تفسيره في هذا الموضع ما وقف عليه من البشارات برسول الله ﷺ في الكتب السالفة، وقيل: إنه عائد إلى القرآن المدلول عليه بقوله:

أهل العلم العارفين بأسباب النزول، المطلعين على حوادث النبوة، فإنه ينثج صدره، ويذول عنه الريب، بالنظر في سورة من السور المتوسطة، فضلاً عن المطولة؛ لأنه لا محالة يجدها مشتملة على آيات نزلت في حوادث مختلفة، وأوقات متباينة لا مطابقة بين أسبابها، وما نزل فيها في الترتيب، بل يكفي المقصر أن يعلم أن أول ما نزل: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ [العلق: 1] وبعده ﴿يا أيها المدثر﴾ [المدثر: 1] ﴿يا أيها المزمل﴾ [المزمل: 1] وينظر أين موضع هذه الآيات، والسور في ترتيب المصحف؟ وإذا كان الأمر هكذا، فأي معنى لطلب المناسبة بين آيات تعلم قطعاً أنه قد تقدم في ترتيب المصحف ما أنزله الله متأخراً، وتأخر ما أنزله الله متقدماً، فإن هذا عمل لا يرجع إلى ترتيب نزول القرآن، بل إلى ما وقع من الترتيب عند جمعه ممن تصدى لذلك من الصحابة، وما أقل نفع مثل هذا، وأتذر ثمرته، وأحقر فائضه، بل هو عند من يفهم ما يقول، وما يقال له من تضيق الأوقات، وإنفاق الساعات في أمر لا يعود بنفع على فاعله، ولا على من يقف عليه من الناس، وأنت تعلم أنه لو تصدى رجل من أهل العلم للمناسبة بين ما قاله رجل من البلغاء من خطبه، ورسائله وإنشاءاته، أو إلى ما قاله شاعر من الشعراء من القصائد التي تكون تارة مسحاً، وأخرى هجاء، وحيناً نسيباً، وحيناً رثاء، وغير ذلك من الأنواع المتخالفة، فعمد هذا المتصدي إلى ذلك المجموع، فناسب بين فقره، ومقاطعته، ثم تكلف تكلفاً آخر، فناسب بين الخطبة التي خطبها في الجهاد، والخطبة التي خطبها في الحج، والخطبة التي خطبها في النكاح، ونحو ذلك؛ وناسب بين الإنشاء الكائن في العزاء والإنشاء الكائن في الهناء، وما يشابه ذلك، لعد هذا المتصدي لمثل هذا مصاباً في عقله، متلاعباً بأوقاته، عابثاً بعمره الذي هو رأس ماله، وإذا كان مثل هذا بهذه المنزلة، وهو ركوب الأحموق في كلام البشر، فكيف تراه يكون في كلام الله سبحانه الذي أعجزت بلاغته بلفاء العرب، وأبكت فصاحته فصحاء عدنان، وقحطان، وقد علم كل مقصر وكامل أن الله سبحانه وصف هذا القرآن بأنه عربي، وأنزله بلغة العرب، وسلك فيه مسالكهم في الكلام، وجرى به مجاريهم في الخطاب. وقد علمنا أن خطيبهم كان يقوم المقام الواحد فيأتي بفنون متخالفة، وطرائق متباينة فضلاً عن المقامين، فضلاً عن المقامات، فضلاً عن جميع ما قاله ما دام حياً، وكذلك شاعرهم. ولنكتف بهذا التنبيه على هذه المفسدة التي تعثر في ساحاتها كثير من المحققين، وإنما ذكرنا هذا البحث في هذا الموطن؛ لأن الكلام هنا قد انتقل مع بني إسرائيل بعد أن كان قبله مع أبي البشر آدم عليه السلام، فإذا قال متكلف: كيف ناسب هذا ما قبله؟ قلنا: لا كيف:

فدع عنك نهياً صريحاً في حجراته وهات حيناً ما حديث الروحاحل قوله: ﴿يا بني إسرائيل﴾ اتفق المفسرون على أن إسرائيل هو: يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، ومعناه عبد الله؛ لأن إسر في لغتهم هو: العبد، وإيل هو الله،

﴿بما أنزلت﴾ وقيل: عائد إلى التوراة المملول عليها بقوله: ﴿لما معكم﴾ وقوله: ﴿ولا تشتروا بآياتي﴾ أي: بأوامري ونوامي ﴿ثمناً قليلاً﴾ أي: عيشاً نزرأ، ورئاسة لا خطر لها. جعل ما اعتاضوه ثمناً، وأوقع الاشتراء عليه وإن كان الثمن هو المشتري به، لأن الاشتراء هنا مستعار للاستبدال: أي لا تستبدلوا بآياتي ثمناً قليلاً، وكثيراً ما يقع مثل هذا في كلامهم، وقد قمنا الكلام عليه في تفسير قوله تعالى: ﴿اشترُوا الضلالة بلهدي﴾ [البقرة: 16]، ومن إطلاق اسم الثمن على نيل عرض من أعراض الدنيا قول الشاعر:

إن كنت حاولت دنيا لو ظفرت بها فما أصبت بترك الحج من ثمن
وهذه الآية، وإن كانت خطاباً لبني إسرائيل، ونهياً لهم فهي متناولة لهذه الأمة بفحوى الخطاب، أو بلحنه، فمن أخذ من المسلمين رشوة على إبطال حق أمر الله به، أو إثبات باطل نهى الله عنه، أو امتنع من تعليم ما علمه الله، وكتب البيان أخذ الله عليه ميثاقه به، فقد اشترى بآيات الله ثمناً قليلاً، وقوله: ﴿وإياي فاتقون﴾ الكلام فيه كالكلام في قوله تعالى: ﴿وإياي فارهبون﴾ وقد تقدم قريباً. واللبس: الخلط، يقال لبست عليه الأمر البسه: إذا خلطت حقه بباطله، وواضحه بمشكله، قال الله تعالى: ﴿وللبسنا عليهم ما يلبسون﴾ [الأنعام: 9] قالت الخنساء:

ترى الجليس يقول الحق تحسبه رشداً وهيها فلانظر ما به التيسا
صدق مقالته واحذر عدالته والبس عليه أموراً مثل ما لبسا
وقال العجاج:

لما لبست الحق بالتجني عتبني فاستبدلن زيدا مني
ومنه قول عنتره:

وكتيبة لبستها بكتيبة حتى إذا التبت نفضت لها يدي
وقيل: هو مأخوذ من التغطية: أي لا تغطوا الحق بالباطل، ومنه قول الجعدي:

إذا ما الضجيج ثنى جيدها ثننت عليه وكانت لبسا
وقول الأختل:

وقد لبست لهذا الأمر أعصره حتى تجل راسي الشيب فاشتعل
والأول أولى. والباطل في كلام العرب: الزائل، ومنه قول لبيد:

الا كل شيء ما خلا الله باطل

ويطل الشيء يبطل بطولاً أو بطلاناً، وأبطله غيره، ويقال ذهب دمه بطلاً: أي هدرأ، والباطل: الشيطان، وسمي الشجاع بطلاً؛ لأنه يبطل شجاعة صاحبه، والمراد به هنا خلاف الحق. والباء في قوله: بالباطل يحتمل أن تكون صلة، وأن تكون للاستعانة نكر معناه في الكشف، ورجح الرازي في تفسيره الثاني. وقوله: ﴿وتكتموا﴾ يجوز أن يكون داخل تحت حكم النهي، أو منصوباً بإضمار أن، وعلى الأول يكون كل واحد من اللبس، والكتم منهياً عنه، وعلى الثاني يكون المنهي عنه هو: الجمع بين الأمرين، ومن هذا يلوح رجحان دخوله تحت حكم النهي، وإن كل واحد منهما لا يجوز فعله على انفرداه، والمراد النهي عن كتم حجج الله التي أوجب

عليهم تبليغها، وأخذ عليهم بيانها، ومن فسر اللبس أو الكتمان بشيء معين، ومعنى خاص، فلم يصب أن أراد أن ذلك هو: المراد بون غيره، لا إن أراد أنه مما يصدق عليه. وقوله: ﴿وانتم تعلمون﴾ جملة حالية، وفيه أن كفرهم كفر عناد لا كفر جهل، وذلك أغلظ للذنب، وأوجب للعقوبة، وهذا التقييد لا يفيد جواز اللبس، والكتمان مع الجهل؛ لأن الجاهل يجب عليه أن لا يقدم على شيء حتى يعلم بحكمه خصوصاً في أمور الدين، فإن التكلم فيها، والتصدي للإصدار، والإيراد في أبوابها إنما أن الله به لمن كان رأساً في العلم فرداً في الفهم، وما للجهال، والدخول فيما ليس من شأنهم، والعود في غير مقامهم. وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿يا بني إسرائيل﴾ قال للأخبار من اليهود: ﴿انكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾ أي بلائي عنكم، وعند آبائكم لما كان نجامهم به من فرعون، وقومه ﴿وأوفوا بعهدي﴾ الذي أخذت في أعناقكم للنبي ﷺ إذا جاءكم ﴿أوف بعهدكم﴾ أنجز لكم ما وعنتكم عليه بتصديقه، واتباعه بوضع ما كان عليكم من الإصر، والأغلال ﴿وإياي فارهبون﴾ أن أنزل بكم ما أنزلت بمن كان قبلكم من آبائكم من النعمات ﴿وأمّنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به﴾ وعنكم فيه من العلم ما ليس عند غيركم ﴿وتكتموا الحق وانتم تعلمون﴾ أي: لا تكتموا ما عنكم من المعرفة برسولي، وبما جاءكم به وأنتم تجنبونه عنكم فيما تعلمون من الكتب التي بأيديكم، وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه في قوله: ﴿أوفوا بعهدي﴾ يقول: ما أمرتكم به من طاعتي، ونهيتمكم عنه من معصيتي في النبي ﷺ، وغيره ﴿أوف بعهدكم﴾ يقول: أرض عنكم، وأسلخكم الجنة. وأخرج ابن المنذر، عن ابن مسعود مثله. وأخرج ابن المنذر، عن مجاهد في قوله: ﴿أوفوا بعهدي﴾ قال: هو: الميثاق الذي أخذه عليهم في سورة المائدة ﴿لقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل﴾ [المائدة: 12] الآية. وأخرج عبد بن حميد عن قتادة نحوه. وأخرج عبد بن حميد عن الحسن قال: أوفوا لي بما افترضت عليكم أوف لكم بما وعنتكم. وأخرج عبد بن حميد، وأبو الشيخ، عن الضحاك نحوه. وأخرج ابن جرير، عن أبي العالية في قوله: ﴿إياي فارهبون﴾ قال: فاحشون. وأخرج عبد بن حميد، وابن جريج، عن مجاهد في قوله: ﴿وأمّنوا بما أنزلت﴾ قال القرآن: ﴿مصديقاً لما معكم﴾ قال التوراة والإنجيل. وأخرج ابن جريج، عن ابن جرير في قوله: ﴿أول كافر به﴾ قال: بالقرآن. وأخرج ابن جرير عن أبي العالية في الآية قال: يقول يا معشر أهل الكتاب آمنوا بما أنزلت على محمد مصديقاً لما معكم؛ لأنهم يجعلونه مكتوباً عندهم في التوراة، والإنجيل ﴿ولا تكونوا أول كافر به﴾ أي: أول من كفر بمحمد ﴿ولا تشتروا بآياتي﴾ يقول: لا تأخذوا عليه أجراً، قال: وهو مكتوب عندهم في الكتاب الأول: يابن آدم علم مجاناً كما علمت مجاناً. وأخرج أبو الشيخ عنه قال: لا تأخذ على ما

سنة مؤكدة مرغّب فيها، وليس بواجب، وهو الحق للأحاديث الصحيحة الثابتة عن جماعة من الصحابة، من أن صلاة الجماعة تفضل صلاة الفرد بخمس وعشرين درجة، أو بسبع وعشرين درجة. وثبت في الصحيح عنه ﷺ الذي يصلي مع الإمام أفضل من الذي يصلي وحده، ثم ينাম. والبحث طويل النيل، كثير النقول، والهمزة في قوله: «تأمرون الناس بالبر» للاستفهام مع التوبيخ للمخاطبين، وليس المراد توبيخهم على نفس الأمر بالبر فإنه فعل حسن مندوب إليه، بل بسبب ترك فعل البر المستفاد من قوله: «وتنسون أنفسكم» مع التطهر بتزكية النفس، والقيام في مقام دعاة الخلق إلى الحق إيهاماً للناس وتليسياً عليهم كما قال أبو العتاهية:

وصفت النقي حتى كأنك لو تقي وريح الخطايا من ثيابك يسطع
والبر: الطاعة، والعمل لأصالح، والبر: سعة الخير،
والمعروف، والبر: الصق، والبر: ولد الثعلب، والبر: سوق
الغنم، ومن إطلاقه على الطاعة قول الشاعر:

لا هم ربّ أن يكونوا نونكا يبرك الناس ويفجرونكا
أي: يطيعونك، ويعصونك، والنسيان بكسر النون هو: هنا
بمعنى الترك أي: وتتركون أنفسكم، وفي الأصل خلاف
الذكر، والحفظ أي: زوال الصورة التي كانت محفوظة عن
المبركة، والحافظة. والنفس: الروح، ومنه قوله تعالى: ﴿الله
يتوفى الأنفس حين موتها﴾ [الزمر: 42] يريد الأرواح. وقال
أبو خراش: نجا سالم، والنفس منه بشقه والنفس أيضاً
الدم.

ومنه قولهم: سالت نفسه، قال الشاعر:

تسيل على حدّ السيف نفوسنا وليس على غير النيات تسيل
والنفس الجسد، ومنه:

نبئت أن بني سحيم أسخلوا أبياتهم تأمور نفس المنذر
والتأمور البدن. وقوله: «وانتم تتلون الكتاب» جملة
حالية مشتملة على أعظم تقريع، وأشدّ توبيخ، وأبلغ تبيك
أي: كيف تتركون البر الذي تأمرون الناس به، وأنتم من أهل
العلم العارفين بقبح هذا الفعل، وشدة الوعيد عليه، كما
ترونه في الكتاب الذي تتلونه، والآيات التي تقرؤونها من
التوراة. والتلاوة: القراءة، وهي المراد هنا، وأصلها الاتباع؛
يقال تلوته: إذا تبعته؛ وسمي القارئ تالياً، والقراءة تلاوة؛
لأنه يتبع بعض الكلام ببعض على النسق الذي هو عليه.
وقوله: «أفلا تعقلون» استفهام للإنكار عليهم، والتقريع
لهم، وهو أشدّ من الأول، وأشدّ، وأشدّ ما قرّع الله في هذا
الموضع من يأمر بالخير، ولا يفعله من العلماء الذين هم
غير عاملين بالعلم، فاستنكر عليهم أولاً أمرهم للناس بالبر
مع نسيان أنفسهم في ذلك الأمر الذي قاموا به في المجمع،
وتنادوا به في المجالس إيهاماً للناس بأنهم مبلغون عن الله ما
تحملوه من حجه، ومبينون لعباده ما أمرهم ببيانه،
وموصلون إلى خلقه ما استودعهم، واثمتهم عليه، وهم
أترك الناس لذلك، وأبعدهم من نفعه، وأزهدهم فيه، ثم ربط

علمت أجراً، إنما أجر العلماء، والحكماء، والحملاء على الله.
وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس في قوله: «ولا تلبسوا
الحق بالباطل» قال: لا تخلطوا الصدق بالكذب «وتتكموا
الحق» قال: لا تكتموا الحق، وأنتم قد علمتم أن محمداً
رسول الله. وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله: «ولا
تلبسوا» الآية، قال: لا تلبسوا اليهودية، والنصرانية
بالإسلام «وتتكموا الحق» قال: كتموا محمداً وهم يعلمون
أنه رسول الله يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة، والإنجيل.
وأخرج ابن جرير عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال:
الحق التوراة، والباطل الذي كتبه بأيديهم.

وَأَمِيرُوا أُمَّلَهُمْ وَأَمَّا الْآزَكَةُ وَأَزَكُوا مَعَ الْآزَكِيِّينَ ﴿١٧﴾ وَأَتَاهُمُ الْبَاطِلُ
بِالْبَرِّ وَتَسَوَّى أُنْسُكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٨﴾ وَأَسْبَغُوا
بِالْبَسِيرِ وَالْفَلَاوَةِ وَإِنَّا لَكَبِيرٌ إِلَّا عَلَى الْفَاسِقِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ أَتَمُّ مَلْفُوا
رَبِّهِمْ وَأَنْتُمْ إِلَى رَبِّكُمْ ﴿٢٠﴾

قد تقدم الكلام في تفسير إقامة الصلاة، واشتقاقها،
والمراد هنا الصلاة المعبودة، وهي: صلاة المسلمين على
أن التعريف للعهد، ويجوز أن تكون للجنس، ومثلها الزكاة.
والإيتاء: الإعطاء يقال أتيت: أي أعطيت. والزكاة مأخوذة من
الزكاء، وهو: النماء، زكا الشيء: إذا نما، وزاد، ودجل زكي
أي: زائد الخير، وسمي إخراج جزء من المال زكاة أي: زيادة
مع أنه نقص منه؛ لأنها تكثر بركته بذلك، أو تكثر أجر
صاحبه، وقيل الزكاة مأخوذة من التلهير، كما يقال: زكا
فلان أي: طهر.

والظاهر أن الصلاة، والزكاة، والحج، والصوم، ونحوها
قد نقلها الشرع إلى معان شرعية «أي: المرادة بما هو
مذكور في الكتاب، والسنة منها. وقد تكلم أهل العلم على
ذلك بما لا يتسع المقام لبسطه. وقد اختلف أهل العلم في
المراد بالزكاة هنا، فقيل المراد المفروضة لاقتنائها بالصلاة،
وقيل صدقة الفطر، والظاهر أن المراد ما هو أعم من ذلك.
والركوع في اللغة: الانحناء، وكل منح ركع، قال لبيد:
أخبر أخبار القرون التي مضت أنبكا أي كلما قامت ركع
وقيل: الانحناء يعم الركوع، والسجدة، ويستعار الركوع
أيضاً للانحناء في المنزلة، قال الشاعر:

لا تهين الفقير عليك أن تركع يوماً والدهر قد رفعه
وإنما خص الركوع بالذكر هنا؛ لأن اليهود لا ركوع في
صلاتهم؛ وقيل لكونه كان ثقيلاً على أهل الجاهلية وقيل إنه
أراد بالركوع جميع أركان الصلاة. والركوع الشرعي: هو: أن
ينحني الرجل ويمد ظهره، وعنقه، ويفتح أصابع يديه،
ويقبض على ركبتيه، ثم يطمئن ركعاً ذكراً بالذكر المشروع.
وقوله: «مع الراكعين» فيه الإرشاد إلى شهود الجماعة،
والخروج إلى المساجد. وقد ورد في ذلك من الأحاديث
الصحيحة الثابتة في الصحيحين، وغيره. ١٨ - معروف.
وقد أوجب حضور الجماعة بعض أهل العلم عرّ خلاف
بينهم في كون ذلك عيناً أو كفاية، وذهب الجمهور إلى أنه

إليها» [الجمعة: 11] فارجع الضمير هنا إلى الفضة والتجارة لما كانت الفضة أعم نفعاً، وأكثر، وجوداً، والتجارة هي الحاملة على الانقضاء، والفرق بين هذا الوجه وبين الوجه الأول أن الصبر هناك جعل داخلاً تحت الصلاة، وهنا لم يكن داخلاً، وإن كان مراداً، وقيل إن المراد الصبر، والصلاة، ولكن أرجع الضمير إلى أحدهما استغناء به عن الآخر، ومنه قوله تعالى: ﴿وجعلنا ابن مريم وأمه آية﴾ [المؤمنون: 50] أي: ابن مريم آية وأمه آية. ومنه قول الشاعر:

ومن يك أسى بالمدينة رحله فإني وقيار بها الغريب
وقال آخر:

لكل هم من الهموم سعة والصبح والمساء لافلاح معه
وقيل: رجع الضمير إليهما بعد تأويلهما بالعبادة، وقيل: رجع إلى المصدر المفهوم من قوله: ﴿واستعينوا﴾ وهو الاستعانة، وقيل: رجع إلى جميع الأمور التي نهى عنها بنو إسرائيل. والكبيرة التي يكبر أمرها، ويتعاطى شأنها على حاملها لما يجده عند تحملها، والقيام بها من المشقة، ومنه ﴿كبر على المشركين ما تدعوهم إليه﴾ [الشورى: 13]. والخاصع: هو المتواضع، والخشوع: التواضع. قال في الكشف: والخشوع: الإخبات والتطامن، ومنه الخشعة للرملة المتطامنة، وأما الخضوع: فاللين والانقياد، ومنه خضعت بقولها: إذا لينته. انتهى. وقال الزجاج: الخاشع الذي يرى أثر الذل، والخشوع عليه كخشوع الدار بعد الأقوى، ومكان خاشع: لا يهتدى إليه، وخشعت الأصوات أي: سكنت، وخشع ببصره: إذا غشه، والخشعة: قطعة من الأرض رخوة. وقال سفيان الثوري: سألت الأعمش عن الخشوع فقال: يا ثوري أنت تريد أن تكون إماماً للناس، ولا تعرف الخشوع؟ ليس الخشوع باكل الخشن، ولبس الخشن، وتطاطى الرأس، لكن الخشوع أن ترى الشريف، والذني في الحق سواء، وتخضع لله في كل فرض افترض عليك. انتهى. وما أحسن ما قاله بعض المحققين في بيان ماهيته: إنه هيئة في النفس يظهر منها في الجوارح سكون، وتواضع، واستئني سبحانه الخاشعين مع كونهم باعتبار استعمال جوارحهم في الصلاة، وملازمتهم لوظائف الخشوع الذي هو روح الصلاة، وإتعايبهم لأنفسهم إتعاباً عظيماً في الأسباب الموجبة للحضور، والخضوع؛ لأنهم لما يعلمونه من تضاعف الأجر، وتوفر الجزاء، والظفر بما وعد الله به من عظيم الثواب، تسهل عليهم تلك المتاعب، ويتذلل لهم ما يرتكبونه من المصاعب، بل يصير ذلك لذة لهم خالصة، وراحة عندهم محضة، ولأمر ما هان على قوم ما يلاقونه من حرّ السيف عند تصادم الصفوف، وكانت الأمنية عندهم طعم المنية حتى قال قائلهم:

ولست أبالي حين أقتل مسلماً على أي جنب كان في الله مصري
والظن هنا عند الجمهور بمعنى اليقين، ومنه قوله تعالى: ﴿إني ظننت أني ملاق حسابه﴾ [الحاقة: 20]، وقوله:

هذه الجملة بجملة أخرى جعلها مبينة لحالهم، وكاشفة لحوارهم، وهاتكة لاستارهم، وهي: أنهم فعلوا هذه الفعلة الشنيعة، والخصلة الفظيعة على علم منهم، ومعرفة بالكتاب الذي أنزل عليهم، وملازمة لتلاوته، وهم في ذلك كما قال المعري:

وإنما حمل التوراة قارئها كسب الفوائد لأحب التلاوات
ثم انتقل معهم من تقرير إلى تقرير، ومن توبيخ إلى توبيخ فقال: إنكم لو لم تكونوا من أهل العلم، وحملة الحجة، وأهل الدراسة لكتب الله لكان مجرد كونكم ممن يعقل حائلاً بينكم وبين ذلك ذائداً لكم عنه زاجراً لكم منه، فكيف أهملتم ما يقتضيه العقل بعد إهمالكم لما يوجب العلم. والعقل في أصل اللغة: المنع، ومنه عقال البعير؛ لأنه يمنع عن الحركة، ومنه العقل في الديّة؛ لأنه يمنع وليّ المقتول عن قتل الجاني. والعقل نقض الجهل، ويصح تفسير ما في الآية هنا بما هو، أصل معنى العقل عند أهل اللغة أي: أفلا تمنعون أنفسكم من مواجهة هذه الحال المزرية ويصح أن يكون معنى الآية: أفلا تتظنون بعقولكم التي رزقكم الله إياها حيث لم تنتفعوا بما لديكم من العلم. وقوله: ﴿واستعينوا بالصبر﴾ الصبر في اللغة: الحبس، وصبرت نفسي على الشيء: حبستها. ومنه قول عنتره:

فصبرت عارفة لذلك حرة ترسو إذا نفس الجبان تطلع
والمراد هنا: استعينوا بحبس أنفسكم عن الشهوات، وقصرها على الطاعات على نفع ما يرد عليكم من المكروهات، وقيل الصبر هنا هو: خاص بالصبر على تكليف الصلاة. واستدل هذا القائل بقوله تعالى: ﴿وامرأهك بالصلاة واصطبر عليها﴾ [طه: 132]، وليس في هذا الصبر الخاص بهذه الآية ما ينفي ما تفيدته الآلف، واللام الداخلة على الصبر من الشمول كما أن المراد بالصلاة هنا جميع ما تصلى عليه الصلاة الشرعية من غير فرق بين فريضة، ونافلة. واختلف المفسرون في رجوع الضمير في قوله: ﴿وإنها لكبيرة﴾ فقيل: إنه راجع إلى الصلاة، وإن كان المتقدم هو: الصبر، والصلاة، فقد يجوز إرجاع الضمير إلى أحد الأمرين المتقدم ذكرهما. كما قال تعالى: ﴿والله ورسوله أحق أن يرضوه﴾ [التوبة: 62] إذا كان أحدهما داخلاً تحت الآخر بوجه من الوجوه، ومنه قول الشاعر:

إن شرخ الشباب والشعر الأسود ما لم يعاض كان جنونا
ولم يقل ما لم يعاض بل جعل الضمير راجعاً إلى الشباب؛ لأن الشعر الأسود داخل فيه، وقيل: إنه عائد إلى الصلاة من نون اعتبار دخول الصبر تحتها؛ لأن الصبر هو عليها، كما قيل سابقاً، وقيل: إن الضمير راجع إلى الصلاة وإن كان الصبر مراداً معها، لكن لما كانت أكد، وأعم تكليفاً، وأكثر ثواباً كانت الكناية بالضمير عنها، ومنه قوله: ﴿والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله﴾ [التوبة: 34] كذا قيل، وقيل إن الضمير راجع إلى الأشياء المكنوزة، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وإذا راوا تجارة أو لهواً انفضوا

﴿وَوَظَنُوا أَنَّهُمْ مَوَاقِعُهُمْ﴾ [الكهف: 53] ومنه قول دريد بن الصمة:

فقلت لهم ظنوا بالفي منجج سراتهم بالفارسي المسؤد
وقيل: إن الظن في الآية على بابه، ويضمّر في الكلام
بذنوبهم، فكأنهم توقعوا لقاءه مننيين، نكره المهدي
والموادي، والأوّل أولى. وأصل الظن: الشك مع الميل إلى
أحد الطرفين، وقد يقع موقع اليقين في مواضع، منها هذه
الآية. ومعنى قوله: ﴿مَلَّاقُوا رَبَّهُمْ﴾ ملاقوا جزأه، والمفاعلة
هنا ليست على بابها، ولا أرى في حمله على أصل معناه
من دون تقدير المضاف بأساً. وفي هذا مع ما بعده من
قوله: ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ إقرار بالبعث، وما وعد الله به
في اليوم الآخر. وقد أخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد في
قوله: ﴿وَارْكَعُوا﴾ قال: صلوا. وأخرج ابن أبي حاتم أيضاً
عن مقاتل في قوله: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ قال: أمرهم
أن يركعوا مع أمة محمد يقول: كونوا منهم ومعهم. وأخرج
عبد بن حميد عن قتادة في قوله تعالى: ﴿تَقَامِرُونَ النَّاسَ
بِالْبُرِّ﴾ الآية، قال: أولئك أهل الكتاب كانوا يأمرون الناس
بالبر، وينسون أنفسهم، وهم يتلون الكتاب، ولا ينتفعون بما
فيه. وأخرج الثعلبي والواحدي عن ابن عباس قال: نزلت هذه
الآية في يهود أهل المدينة، كان الرجل منهم يقول لصهره،
ولذي قرابته، ولمن بينه وبينه رضاء من المسلمين: اثبت
على الدين الذي أنت عليه، وما يأمرك به هذا الرجل، يعنون
محمداً ﷺ، فإن أمره حق، وكانوا يأمرون الناس بذلك، ولا
يفعلونه. وأخرج ابن جرير عنه في قوله: ﴿تَقَامِرُونَ النَّاسَ
بِالْبُرِّ﴾ قال: بالخول في دين محمد. وأخرج ابن إسحاق،
وابن جرير، وابن أبي حاتم عنه في الآية قال: تنهون الناس
عن الكفر بما عندكم من النبوة، والعهد من التوراة، وأنتم
تكفرون بما فيها من عهدي إليكم في تصديق رسلِي؛ وأخرج
عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وابن جرير، والبيهقي، عن أبي
الرداء في الآية قال: لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يمقت
الناس في ذات الله، ثم يرجع إلى نفسه، فيكون لها أشدّ مقتاً.
وأخرج أحمد، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والبزار، وابن
المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو نعيم في الحلية، وابن حبان،
وابن مردويه، والبيهقي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت
ليلة أسري بي رجالاً تقرض شفاههم بمقاريض من نار،
كلما قرضت رجعت، فقلت لجبريل: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء
خطباء من أمتك كانوا يأمرون الناس بالبر، وينسون أنفسهم،
وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون». وثبت في الصحيحين من
حديث أسامة بن زيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:
«يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار، فتتلق به أقتابه،
فيثور بها كما ينور الحمار برحاه، فيطيف به أهل النار،
فيقولون: يا فلان ما لك ما أصابك؟ ألم تكن تأمرنا
بالمعروف، وتنهانا عن المنكر؟ فيقول: «كنت آمركم
بالمعروف، ولا آتية، وأنهاكم عن المنكر، وآتية» وفي الباب
أحاديث منها عن جابر مرفوعاً عند الخطيب، وابن النجار،

وعن الوليد بن عقبة مرفوعاً عند الطبراني، والخطيب بسند
ضعيف، وعند عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عنه
موقوفاً، ومعناها جميعاً: أنه يطلع قوم من أهل الجنة على
قوم من أهل النار، فيقولون لهم: بما نلظم النار، وإنما دخلنا
الجنة بتعليمكم؟ قالوا: إنا كنا نأمركم، ولا نفعل. وأخرج
الطبراني، والخطيب في الاقتضاء، والأصبهاني في الترغيب
بسند جيد عن جندب بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ:
«مثل العالم الذي يعلم الناس الخير، ولا يعمل به كمثل
السراج يضيء للناس، ويحرق نفسه». وأخرج ابن أبي شيبة،
وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عنه نحوه. وأخرج
الطبراني، والخطيب في الاقتضاء عن أبي برزة مرفوعاً
نحوه. وأخرج ابن قانع في معجمه، والخطيب في الاقتضاء
عن سليك مرفوعاً نحوه. وأخرج ابن سعد، وابن أبي شيبة،
وأحمد في الزهد عن أبي الدرداء قال: «ويل للذي لا يعلم
مرة، ولو شاء الله لعلمه، وويل للذي يعلم، ولا يعمل سبع
مرات». وأخرج أحمد في الزهد عن عبد الله بن مسعود مثله،
وما أحسن ما أخرجه ابن مردويه، والبيهقي في شعب
الإيمان، وابن عساكر عن ابن عباس أنه جاءه رجل فقال: يا
ابن عباس إني أريد أن أمر بالمعروف، وأنهى عن المنكر،
قال: أو بلغت ذلك؟ قال: أرجو، قال: فإن لم تخش أن تفتضح
بثلاثة أحرف في كتاب الله، فافعل، قال: وما هن؟ قال: قوله
عز وجل: ﴿تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة:
44] أحكمت هذه الآية؟ قال: لا، قال: فالحرف الثاني، قال:
قوله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ كبر مقتاً عند الله أن
تقولوا ما لا تفعلون» [الصف: 2] أحكمت هذه الآية؟ قال:
لا، قال: فالحرف الثالث، قال: قول العبد الصالح شعيب ﴿مَا
أُرِيدُ أَنْ لُخَالَفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: 88] أحكمت هذه
الآية؟ قال: لا، قال: فأبدأ بنفسك. وأخرج عبد بن حميد عن
قتادة في قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ قال:
إنهما موعنتان من الله، فاستعينوا بهما. وقد أخرج ابن أبي
الدينا في كتاب الصبر، وأبو الشيخ في الثواب، والبيهقي في
مسند الفريوس عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «الصبر
ثلاثة: فصبر على المصيبة، وصبر على الطاعة، وصبر عن
المعصية». وقد وردت أحاديث كثيرة في مدح الصبر،
والترغيب فيه، والجزاء للصابرين، ولم ننكرها هنا، لأنها
ليست بخاصة بهذه الآية، بل هي واردة في مطلق الصبر،
وقد نكر السيوطي في الدر المنثور ها هنا منها شطراً
صالحاً، وفي الكتاب العزيز من الثناء على ذلك، والترغيب فيه
الكثير الطيب. وأخرج أحمد، وأبو داود، وابن جرير عن
حذيفة قال: «كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة»
وأخرج أحمد، والنسائي، وابن حبان، عن صهيب، عن النبي
ﷺ قال: «كانوا: يعني الأنبياء، يقرعون إذا فزعوا إلى
الصلاة». وأخرج ابن أبي الدنيا، وابن عساكر، عن أبي
الرداء مرفوعاً نحو حديث حذيفة. وأخرج سعيد بن
منصور، وابن المنذر، والحاكم، والبيهقي في شعب الإيمان،

في كل زمان، فليس في اللفظ ما يفيد هذا، ولا في اشتقاقه ما يدل عليه؛ وأما من جعل العالم أهل العصر، فغايتها أن يكونوا مفضلين على أهل عصور لا على أهل كل عصر، فلا يستلزم ذلك تفضيلهم على أهل العصر الذين فيهم نبينا ﷺ، ولا على ما بعده من العصور، ومثل هذا الكلام ينبغي استحضاره عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلْ فَيْكُمُ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُوْت أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: 20] وعند قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَا هُمَ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البخاخ: 32] وعند قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: 33] فإن قيل: إن التعريف في العالمين يدل على شموله لكل عالم. قلت: لو كان الأمر هكذا لم يكن ذلك مستلزماً لكونهم أفضل من أمة محمد ﷺ، لقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 110] فإن هذه الآية، ونحوها تكون مخصصة لتلك الآيات. وقوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾ أمر معناه الوعيد، وقد تقدم معنى التقوى. والمراد باليوم يوم القيامة أي: عذابه. وقوله: ﴿لَا تَحْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ في محل نصب صفة ليوم، والعائد محذوف. قال البصريون في هذا وأمثاله تقديره فيه. وقال الكسائي هذا خطأ، بل التقدير لا تحزبه. لأن حذف الظرف لا يجوز، ويجوز حذف الضمير وحده. وقد روي عن سيبويه، والأخفش، والزجاج جواز الأمرين. ومعنى: لا تحزبي لا تكفي، وتقضي، يقال: جزا عني هذا الأمر يجزي أي: قضى، واجتزأت بالشئ اجتزتي أي: اكتفيت، ومنه قول الشاعر:

فإن الغدري في الأقوام عار وإن الحري يجزي بالكراع والمراد أن هذا اليوم لا تقضي نفس عن نفس شيئاً، ولا تكفي عنها، ومعنى التذكير التحقير أي: شيئاً يسيراً حقيراً، وهو منصوب على المفعولية، أو على أنه صفة مصدر محذوف أي: جزاء حقيراً، والشفاعة مأخوذة من الشفع، وهو الاثنان، تقول استشفعته أي: سألته أن يشفع لي، أي: يضمّ جأه إلى جأهك عند المشفوع إليه ليصل النفع إلى المشفوع له، وسميت الشفاعة شفعة: لأنك تضم ملك شريك إلى ملكك. وقد قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، «تقبل» بالمشناة الفوقية، لأن الشفاعة مؤنثة، وقرأ الباقرن بالياء التحتية؛ لأنها بمعنى الشفيع. قال الأخفش: الأحسن التذكير. وضمير منها يرجع إلى النفس المذكورة ثانياً أي: إن جاءت بشفاعة شفيع، ويجوز أن يرجع إلى النفس المذكورة أولاً أي: إذا شفعت لم يقبل منها. والعدل بفتح العين: الغداء، وبكسرها: المثل. يقال: عدل، وعديل للذي مائل في الوزن والقدر. وحكى ابن جرير أن في العرب من يكسر العين في معنى الغدية. والنصر: العون، والأنصار: الأعوان، وانتصر الرجل: انتقم، والضمير أي: هم يرجع إلى النفوس المعلول عليها بالإنكرة في سياق النفي، والنفس تذكر وتؤنث. وقوله: ﴿إِذْ نَجَّيْنَاكُمْ﴾ متعلق بقوله ﴿انْكروا﴾ والنجاة: النجوة من الأرض، وهي ما ارتفع منها، ثم سمي كل فائز ناجياً. وآل

عن ابن عباس أنه كان في مسير له، فنعى إليه ابن له، فنزل
فصلى ركعتين ثم استرجع فقال: فعلنا كما أمرنا الله فقال:
﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾. وقد روى عنه نحو ذلك
سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي لما
نعى إليه أخوه قثم. وقد روى نحو ذلك عن جماعة من
الصحابة، والتابعين، وأخرج ابن جرير، عن الضحاك في
قوله: ﴿وإنها لكبيرة﴾ قال: لتقيلة. وأخرج ابن جرير، وابن
أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿إلا على الخاشعين﴾
قال: المؤمنين حقاً. وأخرج ابن جرير عن أبي العالية في
قوله: ﴿إلا على الخاشعين﴾ قال: الخائفين. وأخرج ابن
جرير، وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: كل ظنٌّ
في القرآن، فهو يقين، ولا يتم هذا في مثل قوله: ﴿إن الظن
لا يغني عن الحق شيئاً﴾ [النجم: 28] وقوله: ﴿إن بعض
الظن إثم﴾ [الحجرات: 12] ولعله يريد الظن المتعلق بأمور
الآخرة كما رواه ابن جرير عن قتادة قال: ما كان من ظن
الآخرة، فهو علم. وأخرج ابن جرير عن أبي العالية في قوله:
﴿وأنهم إليه راجعون﴾ قال: يستيقنون أنهم يرجعون إليه
يوم القيامة.

يَبْنَى إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمِي الَّتِي أَنْهَيْتُ عَنْكُمْ وَأَلَيْ فُضِّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾
وَأَقْبُوا يَوْمًا لَا تَجْرِي فَمَسْرَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٨﴾ وَلَا جَبْنَئُكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُوكُمْ مُوسَى
الْعَلْبَ يَوْمَئِذٍ أَنْتُمْ وَتَسْتَحْيُونَ إِيَّاهُمْ وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ لَكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَيْهِمُ
﴿٧٩﴾ وَلَا فِرْقَانَكُمْ الْبَحْرُ فَأَجْبَيْنَكُمْ وَافْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْشَرْنَا نَهْرَهُمْ ﴿٨٠﴾

قوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْهَيْتُ عَنْكُمْ﴾ قد تقدم تفسيره، وإنما كرر ذلك سبحانه توكيداً للحجة عليهم، وتحذيراً لهم من ترك اتباع محمد ﷺ، ثم قرنه بالوعيد، وهو قوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾ وقوله: ﴿وَأَلَيْ فُضِّلْتُكُمْ﴾ معطوف على مفعول اذكروا أي: اذكروا نعمتي، وتفضيلي لكم على العالمين، قيل المراد بالعالمين: علم زمانهم، وقيل: على جميع العالمين بما جعل، فيهم من الأنبياء. وقال في الكشف: على الجَمِّ الغفير من الناس كقوله: ﴿بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 71] يقال رأيت عالماً من الناس: يروا لكثرة انتهت. قال الرازي في تفسيره: وهذا ضعيف؛ لأن لفظ العالم مشتق من العلم، وهو اللبيل، وكل ما كان لبيلاً على الله كان علماً، وكان من العالم. وهذا تحقيق قول المتكلمين: العالم كل موجود سوى الله، وعلى هذا لا يمكن تخصيص لفظ العالم ببعض المحدثات. انتهى. وأقول هذا الاعتراض ساقط، أما أولاً: فدعوى اشتقاقه من العلم لا برهان عليه، وأما ثانياً: فلو سلمنا صحة هذا الاشتقاق كان المعنى موجوداً بما يتحصل معه مفهوم اللبيل على الله الذي يصح إطلاق اسم العلم عليه، وهو كائن في كل فرد من أفراد المخلوقات التي يستدل بها على الخالق، وغايته أن جمع العالم يستلزم أن يكونوا مفضلين على أفراد كثيرة من المحدثات؛ وأما أنهم مفضلون على كل المحدثات

فرعون: قومه، وأصل آل أهل بدليل تصغيره على أهيل، وقيل غير ذلك، وهو يضاف إلى نوي الخطر. وقال الأخفش: إنما يقال في الرئيس الأعظم نحو آل محمد. ولا يضاف إلى البلدان، فلا يقال من آل المدينة. وقال الأخفش: قد سمعناه في البلدان قالوا آل المدينة. واختلفوا هل يضاف إلى المضممر أم لا. فمنعه قوم وسوغه آخرون، وهو الحق، ومنه قول عبد المطلب:

وانصر على آل الصليب بوعايبه اليوم ألك
وفرعون: قيل هو اسم ذلك الملك بعينه، وقيل إنه اسم لكل ملك من ملوك العمالة كما يسمى من ملك الفرس كسرى، ومن ملك الروم قيصر، ومن ملك الحبشة النجاشي. واسم فرعون موسى المذكور هنا: قابوس في قول أهل الكتاب. وقال وهب: اسمه الوليد بن مصعب بن الريان. قال المسعودي: لا يعرف لفرعون تفسير بالعربية. وقال الجوهري: إن كل عات يقال له فرعون، وقد تفرعن وهو نو فرعة أي: دهاء ومكر. وقال في الكشف: تفرعن فلان: إذا عتا وتجبر. ومعنى قوله: «يسومونكم» يولونكم، قاله أبو عبيدة، وقيل ينيقونكم، ويلزمونكم إياه، وأصل السوم الدوام، ومنه سائمة الغنم لمدوامتها الرعي؛ ويقال سامه خطة خسف: إذا أولاها إياها. وقال في الكشف: أصله من سام السلعة إذا طلبها، كأنه بمعنى يبيعونكم سوء العذاب، ويريدونكم عليه. انتهى. «وسوء العذاب»: أشده، وهو صفة مصدر محذوف: أي يسومونكم سووماً سوء العذاب، ويجوز أن يكون مفعولاً ثانياً، وهذه الجملة في محل رفع على أنها خبر لمبتدأ مقدر، ويجوز أن يكون في محل نصب على الحال أي: سائمين لكم. وقوله: «ينبجون» وما بعده بدل من قوله: «يسومونكم» وقال الفراء: إنه تفسير لما قبله، وقرأه الجماعة بالتشديد، وقرأ ابن محيصن بالتخفيف. والذبج في الأصل: الشق، وهو فري أوداج المنبوج، والمراد بقوله تعالى: «ويستحيون نساءكم» يتركونهن أحياء ليستخدمن، ويمتهنهن وإنما أمر بذبج الأبناء، واستحياء البنات، لأن الكهنة أخبروه بأنه يولد مولود يكون هلاكه على يده، وعبر عن البنات باسم النساء؛ لأنه جنس يصق على البنات. وقالت طائفة: أنه أمر بذبج الرجال، واستدلوا بقوله: «نساءكم» والأول أصح بشهادة السبب، ولا يخفى ما في قتل الأبناء، واستحياء البنات للخدمة، ونحوها من إنزال الذل بهم، وإلصاق الإمانة الشديدة بجمعهم لما في ذلك من العار. والإشارة بقوله: «وفي نلكم» إلى جملة الأمر. والبلاء يطلق تارة على الخير، وتارة على الشر، فإن أريد به هنا الشر كانت الإشارة بقوله: «وفي نلكم بلاء» إلى ما حل بهم من النعمة بالذبج، ونحوه، وإن أريد به الخير كانت الإشارة إلى النعمة التي أنعم الله عليهم بالإنقاذ، وما هو منكور قبله من تفضيلهم على العالمين. وقد اختلف السلف ومن بعدهم في مرجع الإشارة، فرجع الجمهور الأول، ورجح الآخرون الآخر. قال ابن جرير: وأكثر ما يقال في

الشر بولوته أبلوه بلاء، وفي الخير أبلية إبلاء وبلاء، قال زهير:

جزى الله بالإحسان ما فعلا بكم وإبلاهما خير البلاء الذي يبلى
قال: فجمع بين اللفتين؛ لأنه أراد، فأنعم عليهما خير النعم التي يختير بها عبادته. وقوله: «وإن فرقنا» متعلق بما تقدم من قوله: «أنكروا» وفرقنا: فلقنا، وأصل الفرق الفصل، ومنه فرق الشعر، وقرأ الزهري: «فرقنا» بالتشديد، والباء في قوله: «بكم» قيل هي بمعنى اللام أي: لكم، وقيل هي الباء السببية أي: فرقناه بسببكم، وقيل إن الجار والمجرور في محل الحال أي: فرقناه متلبساً بكم، والمراد ها هنا أن فرق البحر كان بهم أي: بسبب دخولهم فيه. أي: لما صاروا بين المائين صار الفرق بهم. وأصل البحر في اللغة: الاتساع، أطلق على البحر الذي هو مقابل البر لما فيه من الاتساع بالنسبة إلى النهر، والخليج، ويطلق على الماء المالح، ومنه أبحر الماء: إذا ملح، قال نصيب:

وقد عاد ماء الأرض بحرأ فزلبني إلى مرضي أن أبحر المشرب العنب
وقوله: «فأنجيناكم» أي: أخرجناكم منه. «وأغرقتنا آل فرعون» فيه. وقوله: «وأنتم تنظرون» في محل نصب على الحال أي: حال كونكم ناظرين إليهم ببصاركم، وقيل معناه: وأنتم تنظرون. أي: ينظر بعضكم إلى البعض الآخر من السالكين في البحر، وقيل نظروا إلى أنفسهم ينجون وإلى آل فرعون يفرقون. والمراد بآل فرعون هنا: هو وقومه، وأتباعه. وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عمر بن الخطاب أنه كان إذا تلا: «أنكروا نعمتي التي أنعمت عليكم» قال: مضى القوم، وإنما يعني به أنتم، وأخرج ابن جرير عن سفيان بن عيينة قال في قوله: «أنكروا نعمتي» هي أيادي الله، وإيامه. وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد قال: نعمة الله التي أنعم بها على بني إسرائيل، فيما سمى، وفيما سوى ذلك، فجز لهم الحجر، وأنزل عليهم المن، والسلوى، وأنجاهم من عبودية آل فرعون. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد عن قتادة في قوله: «وأنى فضلتكم على العالمين» قال: فضلوا على العالم الذي كانوا فيه، ولكل زمان عالم. وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن جرير عن أبي العالية في قوله: «فضلتكم على العالمين» قال: بما أعطوا من الملك، والرسول، والكتب على من كان في ذلك الزمان، فإن لكل زمان عالماً. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله: «ولا تجزي نفس عن نفس شيئاً» قال: لا يغني نفس مؤمنة عن نفس كافرة من المنفعة شيئاً. وأخرج ابن جرير، عن عمرو بن قيس الملائي، عن رجل من بني أمية من أهل الشام أحسن الثناء عليه قال: «قيل يا رسول الله ما العدل؟ قال: العدل الغدية». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس نحوه. قال ابن أبي حاتم ودوى عن أبي مالك، والحسن، وسعيد بن جبيرة، وقتادة، والربيع بن أنس، نحو ذلك، وأخرج عبد الرزاق عن علي في تفسير الصريف،

واباه، وابنه لا يبالي من قتل حتى قتل منهم سبعون ألفاً، فأوحى الله إلى موسى: مرهم، فليرفعوا أيديهم، وقد غفر لمن قتل، وتيب على من بقي. وقد أخرج عبد بن حميد عن قتادة، وأخرج أحمد في الزهد، وابن جرير عن الزهري نحوه مما سبق. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله: ﴿إلى بارئكم﴾ قال: خلقتكم.

وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى إِنَّ فِيكَ آيَةً فَاعْرِضْ بِالْمَلَأِ
وَأَنْتَ نَظَرُونَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَاكُمْ بَيْنَ يَدَيْكُمْ لَمَّا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٢٦﴾
وَكَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَاتَّخَذْتُمْ مِنْهُ دُفِينًا
فَرَقْنَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْوَالِدِ الَّذِي كَانُوا يَفْهَمُونَ ﴿٢٧﴾

قوله: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ﴾ هذه الجملة معطوفة على التي قبلها، وظاهر السياق أن القائمين هذه المقالة هم: قوم موسى، وقيل هم السبعون الذين اختارهم، وذلك أنهم لما سمعوا كلام الله قالوا له بعد ذلك هذه المقالة، فأرسل الله عليهم ناراً فأحرقتهم، ثم دعا موسى ربه، فأحياهم كما قال تعالى هنا: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَاكُمْ بَيْنَ يَدَيْكُمْ﴾ وسيأتي ذلك في الأعراف إن شاء الله. والجملة: المعينة، وأصلها الظهور، ومنه الجهر بالقراءة، والمجاهرة بالمعاصي، ورايت الأمر جهره وجهاً: أي غير مستتر بشيء، وهي مصدر واقع موقع الحال. وقرا ابن عباس: «جهره» بفتح الهاء، وهي لغتان مثل زهرة، وزهرة، ويحتمل أن يكون على هذه القراءة جمع جامر. والصاعقة قد تقدم تفسيرها، وقرا عمر، وعثمان وعلي: «الصعقة»، وهي قراءة ابن محيصن، والمراد بأخذ الصاعقة إصابتها إياهم ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ في محل نصب على الحال، والمراد من هذا النظر الكائن منهم أنهم نظروا أوائل الصاعقة النازلة بهم الواقعة عليهم لا آخرها الذي ماتوا عنده، وقيل المراد بالصاعقة الموت، واستدل عليه بقوله: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَاكُمْ بَيْنَ يَدَيْكُمْ﴾ ولا موجب للمصير إلى هذا التفسير، لأن المصعوق قد يموت كما في هذه الآية، وقد يغشى عليه، ثم يفيق كما في قوله تعالى: ﴿وَحَرَّزَ مُوسَى صَعْقًا فَلَمَّا آفَقَ﴾ [الأعراف: 143] ومما يوجب بعد ذلك قوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ فإنها لو كانت الصاعقة عبارة عن الموت لم يكن لهذه الجملة كبير معنى، بل قد يقال إنه لا يصح أن ينظروا الموت النازل بهم إلا أن يكون المراد نظر الأسباب المؤثرة للموت. والمراد بقوله: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَاكُمْ﴾ الإحياء لهم لوقوعه بعد الموت، وأصل البعث الإثارة للشيء من محله، يقال: بعثت الناقة أي: أثرتها، ومنه قول امرئ القيس:

وَإِخْوَانُ صُلُقٍ قَدْ بَعَثَتْ بِسَحَرَةٍ فِقَامُوا جَمِيعاً بَيْنَ غَاثٍ وَنَشْوَانٍ
وَقَوْلُ عَنَتَرَةٍ:

وصحابة شم الأنوف بعثتهم ليلاً وقد مال الكرى بطلاها
ولمنا عوقبوا بأخذ الصاعقة لهم؛ لأنهم طلبوا ما لم يأت
الله به من رؤيته في الدنيا. وقد ذهبت المعتزلة ومن تابعهم إلى إنكار الرؤية في الدنيا، والآخرة، وذهب من عداهم إلى

تماماً على الذي أحسن وتفصيلاً لكل شيء ﴿[الأنعام: 154] وقيل الفرقان: الفرق بينهم، وبين قوم فرعون، أنجى هؤلاء، وأغرق هؤلاء. وقال ابن زيد: الفرقان: انفراق البحر، وقيل الفرقان: الفرج من الكرب، وقيل: إنه الحجة، والبيان بالآيات التي أعطاه الله من العصا، واليد، وغيرهما، وهذا أولى، وأرجح، ويكون العطف على باباه، كانه قال: آتينا موسى التوراة والآيات التي أرسلناه بها معجزة له. قوله: ﴿يَا قَوْمُ﴾ القوم يطلق تارة على الرجال دون النساء، ومنه قول زهير: وما أدري وسوف إخال آدري أقوم آل حصن أم نساء ومنه قوله تعالى: ﴿يَا قَوْمُ﴾ لا يسخر قوم من قوم ﴿[الحجرات: 11]، ثم قال: ﴿يَا نِسَاءَ مِنْ نِسَاءٍ﴾ [الحجرات: 11]، ومنه ﴿يَا قَوْمُ﴾ لا يسخر قوم من قوم ﴿[العنكبوت: 28] أراد الرجال، وقد يطلق على الجميع كقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ [نوح: 1] والمراد هنا بالقوم عبدة العجل. والبارئ الخالق، وقيل إن البارئ هو: المبدع المحدث، والخالق هو: المقدر الناقل من حال إلى حال، وفي ذكر البارئ هنا إشارة إلى عظيم جرمهم أي: فتوبوا إلى الذي خلقكم، وقد عبثتم معه غيره. والفاء في قوله: ﴿فَتُوبُوا﴾ للسببية أي: لتسبب التوبة عن الظلم، وفي قوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ اجعلوا القتل متعقباً للتوبة. قال القرطبي: وأجمعوا على أنه لم يؤمر كل واحد من عبدة العجل بأن يقتل نفسه بيده، قيل قاموا صفين، وقتل بعضهم بعضاً، وقيل: وقف الذين عبدوا العجل، وبخل الذين لم يعبدوه عليهم بالسلاح فقتلهم. وقوله: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ قيل في الكلام حذف أي: فقتلتهم أنفسكم، فتاب عليكم أي: على الباقيين منكم. وقيل هو: جواب شرط محذوف، كانه قال: فإن فعلتم، فقد تاب عليكم. وأما ما قاله صاحب الكشف من أنه يجوز أن يكون خطاباً من الله لهم على طريقة الالتفات، فيكون التقدير: ففعلتم ما أمركم به موسى فتاب عليكم بارئكم، فهو بعيد جداً كما لا يخفى. وقد أخرج ابن جرير عن أبي العالية في قوله: ﴿أَرِيعِينَ لَيْلَةً﴾ قال: ذا القعدة، وعشرًا من ذي الحجة. وقد أخرج ابن جرير عنه في قوله: ﴿مَنْ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ قال: من بعد ما اتخذتم العجل. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن مجاهد في قوله: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ﴾ قال: الكتاب هو: الفرقان، فرق بين الحق والباطل. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس قال: الفرقان جماع اسم التوراة، والإنجيل، والزبور، والقرآن. وأخرج ابن جرير عنه قال: أمر موسى قومه عن أمر ربه أن يقتلوا أنفسهم، واختبأ الذين عكفوا على العجل، فجلسوا، وقام الذين لم يعكفوا على العجل فأخذوا الخناجر بأيديهم، وأصابتهم ظلمة شديدة، فجعل يقتل بعضهم بعضاً، فانجلت الظلمة عنهم عن سبعين ألف قتيل، كل من قتل منهم كانت له توبة، وكل من بقي كانت له توبة. وأخرج ابن أبي حاتم عن علي قال: قالوا لموسى: ما توبتنا؟ قال: يقتل بعضهم بعضاً، فأخذوا السكاكين، فجعل الرجل يقتل أخاه،

جوازها في الدنيا، والآخرة، ووقوعها في الآخرة. وقد تواترت الأحاديث الصحيحة بأن العباد يرون ربهم في الآخرة، وهي قطعية الدلالة لا ينبغي لمصنف أن يتمسك في مقابلها بتلك القواعد الكلامية التي جاء بها قدماء المعتزلة، وزعموا أن العقل قد حكم بها دعوى مبنية على شفا جرف هار، وقواعد لا يغتر بها إلا من لم يحظ من العلم النافع بنصيب، وسيأتيك إن شاء الله بيان ما تمسكوا به من الأدلة القرآنية، وكلها خارج عن محل النزاع بعيد من موضع الحجة، وليس هذا موضع المقال في هذه المسألة قوله: **«وظللنا عليكم الغمام»** أي: فعلناه كالظلة. والغمام جمع غمامة كسحاب، وسحاب، قاله الأخفش. قال الفراء ويجوز غمام. وقد ذكر المفسرون أن هذا جرى في التيه بين مصر، والشام لما امتنعوا من دخول مدينة الجبارين. والمن: قيل هو: الترنجيبين. قال النحاس: هو بتشديد الراء، وإسكان النون، ويقال: الطرنجيبين بالطاء، وعلى هذا أكثر المفسرين، وهو: طل ينزل من السماء على شجر، أو حجر، ويحلو، وينعقد عسلًا، ويجف جفاف الصمغ، نكر معناه في القاموس، وقيل إن المن العسل، وقيل شراب حلو، وقيل خبز الرقاق، وقيل إنه مصدر يعم جميع ما من الله به على عباده من غير تعب، ولا زرع، ومنه ما ثبت في صحيح البخاري، ومسلم من حديث أبي سعيد بن زيد عن النبي ﷺ: «إن الكلمة من المن الذي أنزل على موسى». وقد ثبت مثله من حديث أبي هريرة عند أحمد، والترمذي، ومن حديث جابر، وأبي سعيد، وابن عباس عند النسائي، والسلي: قيل هو: السمان، كجباري طائر ينبجونه، فياكلونه. قال ابن عطية: السلي طير بإجماع المفسرين، وقد غلط الهنلي فقال: وقاسمها بالله جهداً لانتما. الغد من السلي إذا ما أشورها ظر أن السلي العسل. قال القرطبي: ما ادعاه من الإجماع لا يصح. وقد قال المؤرخ أحد علماء اللغة، والتفسير: إنه العسل. واستدل ببيت الهنلي، ونكر أنه كذلك بلغة كنانة، وأنشد:

لوشربت السلي ماسلوت مابي غناعنك وإن غنيت
وقال الجوهري: والسلي العسل. قال الأخفش: السلي لا واحد له من لفظه مثل الخير والشر، وهو يشبه أن يكون واحده سلى. وقال الخليل: واحده سلوة، وأنشد:

وإنني لتعروني لنكرك سلوة كما انتقض السلوة من سلك القطر
وقال الكسائي: السلي واحدة، وجمعه سلاوى. وقوله: (كلوا) أي: قلنا لهم كلوا، وفي الكلام حذف، والتقدير: قلنا كلوا فعصوا، ولم يقابلوا النعم بالشكر، فظلموا أنفسهم، وما ظلمونا، فحذف هذا لدلالة **«ولكن كانوا أنفسهم يظلمون»** عليه، وتقديم الأنفس هنا يفيد الاختصاص. وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **«حتى نرى الله جهرة»** قال: علانية. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن أنس قال: هم: السبعون الذين اختارهم موسى **«فأخانتكم للصاعقة»** قال: ماتوا **«ثم بعثناكم من**

بعد موتكم» قال: فبعثوا من بعد الموت ليستوفوا آجالهم. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن قتادة في قوله: **«ثم بعثناكم»** نحوه. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: **«وظللنا عليكم الغمام»** قال: غمام أبرد من هذا، وأطيب، وهو: الذي يأتي الله فيه يوم القيامة، وهو الذي جاءت فيه الملائكة يوم بدر، وكان معهم في التيه. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: **«وظللنا عليكم الغمام»** كان هذا الغمام في البرية ظلل عليهم الغمام من الشمس، وأطعمهم المن، والسلي حين برزوا إلى البرية، فكان المن يسقط عليهم في محلهم سقوط الثلج أشدّ بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، يسقط عليهم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، فيأخذ الرجل قدر ما يكفيه يومه ذلك، فإن تعدى ذلك فسد ما يبقى عنده، حتى إذا كان يوم سادسه يوم جمعة أخذ ما يكفيه ليوم سادسه، ويوم سابعه فبقي عنده، لأنه كان يوم عيد لا يشخص فيه لأمر المعيشة، ولا لطلبه شيء، وهذا كله في البرية. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن عكرمة قال: المن شيء أنزل الله عليهم مثل الطل، والسلي طير أكبر من العصفور. وأخرج وكيع، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: المن صمغة، والسلي طائر. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن السدي قال: قالوا يا موسى كيف لنا بما هنا أين الطعام؟ فأنزل الله عليهم المن، فكان يسقط على الشجرة الترنجيبين. وأخرجوا عن وهب أنه سئل ما المن؟ قال: خبز الرقاق مثل النرة، أو مثل النقي. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس قال: المن شراب كان ينزل عليهم مثل العسل، فيمزجونه بالماء، ثم يشربونه. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كان المن ينزل عليهم بالليل على الأشجار، فيغنون إليه، فياكلون منه ما شاؤوا، والسلي طائر يشبه السمان كانوا ياكلون منه ما شاؤوا. وأخرج ابن جرير عنه نحوه. وأخرج ابن جرير، عن ابن مسعود، ونس من الصحابة في السلي مثله. وقد روي نحو ذلك عن جماعة من التابعين، ومن بعدهم. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **«وما ظلمونا»** قال نحن أعز من أن نظلم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **«ولكن كانوا أنفسهم يظلمون»** قال:

يظرون.

وَأَلْقَيْنَا آتِلُوا مَذْيَبَ الْقَرْيَةِ فَكَلُوا مِنْهَا حَيْثُ وَنْتُمْ رَدَدُوا وَأَذَلُّوا الْآبَاءَ
شَيْئًا وَقُولُوا جَعَلْنَاكُمْ كَمَا كُنْتُمْ وَتَرِيدُ الْغَمِيمَةَ ﴿٥٨﴾ قَدْ لَدَّ
الْأَيْمَنَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْرَاءَ
السَّحَابِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾

قال جمهور المفسرين: القرية هي بيت المقدس، وقيل إنها أريحاء قرية من قرى بيت المقدس، وقيل من قرى الشام. وقوله: **«كلوا»** أمر بإحاة، و **«رعدوا»** كثيراً واسعاً، وهو نعت لمصدر محذوف أي: أكلا رعداً، ويجوز أن يكون

وإني لتعروني لنكرك سلوة كما انتقض السلوة من سلك القطر
وقال الكسائي: السلي واحدة، وجمعه سلاوى. وقوله: (كلوا) أي: قلنا لهم كلوا، وفي الكلام حذف، والتقدير: قلنا كلوا فعصوا، ولم يقابلوا النعم بالشكر، فظلموا أنفسهم، وما ظلمونا، فحذف هذا لدلالة **«ولكن كانوا أنفسهم يظلمون»** عليه، وتقديم الأنفس هنا يفيد الاختصاص. وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **«حتى نرى الله جهرة»** قال: علانية. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن أنس قال: هم: السبعون الذين اختارهم موسى **«فأخانتكم للصاعقة»** قال: ماتوا **«ثم بعثناكم من**

لا أرى الموت يسبق الموت شيء نَفَسُ الموت ذا الغنى والفقر
فكفر الموت في البيت ثلاثاً تهويلاً لأمره، وتعظيماً
لشأنه. وقوله: ﴿وَجَزَاءٌ﴾ بكسر الراء في قراءة الجميع إلا
ابن محيصن، فإنه قرأ بضم الراء. والرجز: العذاب، والفسق
قد تقدم تفسيره. وقد أخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن
أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿ادخلوا هذه القرية﴾ قال:
بيت المقدس. وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال: هي أريحاء
قرية من بيت المقدس. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير،
وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن ابن
عباس في قوله: ﴿ادخلوا الباب﴾ قال: باب ضيق ﴿سجداً﴾
قال: ركعاً. وقوله: ﴿حطة﴾ قال: مغفرة، فدخلوا من قبل
أستاهم، وقالوا: حنطة استهزاء، قال: فذلك قوله تعالى:
﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ وأخرج ابن
جرير عن ابن عباس قال: الباب هو أحد أبواب بيت المقدس،
وهو يدعى باب حطة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير،
وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني في الكبير، وأبو
الشيخ عن ابن مسعود قال: قيل لهم: ﴿ادخلوا الباب
سجداً﴾ فدخلوا مقنعي رؤوسهم، وقالوا: حنطة حبة حمراء
فيها شعيرة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي
حاتم عن عكرمة في قوله: ﴿وادخلوا الباب سجداً﴾ قال:
طأطأوا رؤوسكم ﴿وقولوا حطة﴾ قال: قولوا لا إله إلا الله.
وأخرج البيهقي في الأسماء، والصفات عن ابن عباس في
قوله: ﴿وقولوا حطة﴾ قال: لا إله إلا الله. وأخرج ابن أبي
حاتم عنه قال: كان الباب قبل القبلة. وأخرج البخاري،
ومسلم، وغيرهما من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال:
«قيل لبني إسرائيل ادخلوا الباب سجداً، وقولوا حطة فبدلوا،
فدخلوا يزحفون على أستاههم، وقالوا حبة في شعرة».
وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس، وأبي هريرة
قالا: قال رسول الله ﷺ: «دخلوا الباب الذي أمروا أن يدخلوا
فيه سجداً يزحفون على أستاههم، وهم يقولون حنطة في
شعيرة»، والأول أرجح لكونه في الصحيحين. وقد أخرجه
معهما من أخرج هذا الحديث الآخر: أعني ابن جرير، وابن
المنذر. وأخرج ابن أبي شيبة، عن علي قال: إنما مثلنا في
هذه الأمة كسفينة نوح، وكباب حطة في بني إسرائيل.
وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: كل
شيء في كتاب الله من الرجز يعني به العذاب. وأخرج مسلم،
 وغيره من حديث أسامة بن زيد، وسعد بن مالك،
وخزيمة بن ثابت قالوا: قال رسول الله ﷺ: «وإن هذا
الطاعون رجز، وبقيّة عذاب عنب به أناس من قبلكم، فإذا كان
بارض، وأنتم بها، فلا تخرجوا منها، وإذا بلغكم أنه بارض،
فلا تدخلوها».

﴿وَإِذْ أَسْتَشْرَىٰ مُوسَىٰ لِقَارِيهِ، فَقُلْنَا أَشْرِبْ بِمَعَالِكَ الْحَبَرِ
فَانْجَرَتْ مِنْهُ أَثْنَا عَشَرَ عَيْتًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ نَفْسَهُمْ كَلَّمَا
وَأَشْرَىٰ بِنِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِيَسْمُوْنَ

في موضع الحال، وقد تقدم تفسيره. والباب الذي أمروا
بندخله هو باب في بيت المقدس يعرف اليوم بباب حطة،
وقيل: هو باب القبة التي كان يصلي إليها موسى، وبني
إسرائيل. والسجود قد تقدم تفسيره وقيل: هو هنا الانحناء،
وقيل: التواضع والخضوع، واستدلوا على ذلك: بأنه لو كان
المراد السجود الحقيقي الذي هو وضع الجبهة على الأرض
لامتنع الدخول المأمور به؛ لأنه لا يمكن الدخول حال
السجود الحقيقي. وقال في الكشف: إنهم أمروا بالسجود
عند الانتهاء إلى الباب شكراً لله، وتواضعاً. واعترضه أبو
حيان في النهر الماد فقال: لم يؤمروا بالسجود، بل هو: قيد
في وقوع المأمور به، وهو: الدخول، والأحوال نسب تقييدية،
والأوامر نسب إنشائية. انتهى. ويجاب عنه بأن الأمر بالمقيد
أمر بالمقيد، فمن قال أخرج مسرعاً، فهو أمر بالخروج على
هذه الهيئة، فلو خرج غير مسرع كان عند أهل اللسان
مخالفاً للأمر. ولا ينافي هذا كون الأحوال نسباً تقييدية، فإن
اتصافها بكونها قيوداً مأموراً بها هو شيء زائد على مجرد
التقييد. وقوله: ﴿حطة﴾ بالرفع في قراءة الجمهور على
إضمار مبتدأ، قال الأخفش: وقرئت: «حطة» نصباً على معنى
احطط عناذنوبنا حطة، وقيل معناها الاستغفار ومنه قول
الشاعر:

فاز بالحطة التي أمر الله بها ننب عبده مغفورا
وقال ابن فارس في المجل: ﴿حطة﴾ كلمة أمروا بها،
ولو قالوها لحطت أوزارهم. قال الرازي في تفسيره: أمرهم
بأن يقولوا ما يدل على التوبة، وذلك لأن التوبة صفة القلب،
فلا يطلع الغير عليها، وإذا اشتهر، وأخذ بالذنوب، ثم تاب بعده
لزمه أن يحكي توبته لمن شاهد منه الذنب؛ لأن التوبة لا تتم
إلا به. انتهى، وكون التوبة لا تتم إلا بذلك لا دليل عليه، بل
مجرد عقد القلب عليها يكفي سواء أطلع الناس على ذنبه أم
لا، وربما كان التكتّم بالتوبة على وجه لا يطلع عليها إلا الله
عز وجل أحب إلى الله، وأقرب إلى مغفرته. وأما رفع ما عند
الناس من اعتقادهم بقاءه على المعصية، فذلك باب آخر.
وقوله: ﴿يغفر لكم﴾ قرأ نافع بالياء التحتية المضمومة،
وقراه ابن عامر بالياء الفوقية المضمومة، وقراه الباقون
بالنون، وهي: أولى. والخطايا جمع خطيئة بالهمز، وقد تكلم
علماء العربية في ذلك بما هو معروف في كتب الصرف.
وقوله: ﴿وسنزيد المحسنين﴾ أي: نزيدهم إحساناً على
إحسانهم المتقدم، وهو: اسم فاعل من أحسن، وقد ثبت في
الصحيح: «أن رسول الله ﷺ سئل عن الإحسان فقال: أن
تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» وقوله:
﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ قيل إنهم
قالوا حنطة، وقيل غير ذلك. والصلوب أنهم قالوا: حبة في
شعرة كما سيأتي مرفوعاً إلى النبي ﷺ. وقوله: ﴿فَانزَلْنَا
عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ هو من وضع الظاهر موضع المضمّر
لنكتة كما تقرر في علم البيان، وهي هنا: تعظيم الأمر عليهم
وتقبيح فعلهم، ومنه قول عدي بن زيد:

لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَجَدَ قَادِحٌ لَّنَا رَبَّكَ يُخْرِجُ لَنَا مِمَّا ثَلُثُ الْأَرْضِ مِنْ بَقَلِيهَا
وَقِيْلَ لَهَا وَقَوْمُهَا وَبَعَثَ فِيهَا مَنْ يَشْفِئُهَا قَالَتْ لَتَلْبَسُنَّ الْكُلُوبُ الْكُلُوبُ الْكُلُوبُ
مِمَّا خَبَرَ أَتَيْتُهَا وَمِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مِمَّا سَأَلْتُمْ وَوَرِثَتْ عَنْهُمُ الْكُلُوبُ
وَالْمَسْكَنَةُ وَبَنُوهُمْ وَبَنُوهُمْ مِنْ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ
وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِمَا هُمْ رُسُلُ اللَّهِ فَذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٥١﴾

الاستسقاء إنما يكون عند عدم الماء، وحبس المطر. ومعناه في اللغة: طلب السقيا. وفي الشرع ما ثبت عن النبي ﷺ في صفة من الصلاة، والدعاء، والحجر يحتمل أن يكون حجراً معيناً، فتكون اللام للعهد، ويحتمل أن لا يكون معيناً، فتكون للجنس، وهو أظهر في المعجزة، وأقوى للحجة. وقوله: ﴿فَانفَجَرْتُ﴾ الفاء مترتبة على محذوف تقديره: فضرب، فأنفجرت، والانفجار: الانشقاق، وانفجر الماء انفجاراً تفتح، والفجرة: موضع تفتح الماء. قال ابن عطية: ولا خلاف أنه كان حجراً مربيعاً يخرج من كل جهة ثلاث عيون إذا ضرب به موسى سالت العيون، وإذا استغفوا عن الماء جفت، والمشروب: موضع للشرب، وقيل هو: المشروب نفسه. وفيه دليل على أنه يشرب من كل عين قوم منهم لا يشاركونهم غيرهم. قيل كان لكل سبط عين من تلك العيون لا يتعداها إلى غيرها، والأسباط نزية الاثني عشر من أولاد يعقوب. وقوله: ﴿كُلُوا﴾ أي: قلنا لهم كلوا من المن والسلوى، واشربوا الماء المتفجر من الحجر. وعنا يعني عيثاً، وعثا يعثو عثوا، وعثا يعيث عيثاً، لغات: بمعنى أقسد. وقوله: ﴿مفسدين﴾ حال مؤكدة. قال في القاموس: عثي كرمي، وسعى ورضي، عثياً، وعثياً، وعثياناً، وعثا يعثو عثوا: أقسد. وقال في الكشف: العثي أشد الفساد. فليل لهم: لا تمانوا في الفساد في حال فسادكم؛ لأنهم كانوا متمادين فيه. انتهى. قوله: ﴿لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ تضجر منهم بما صاروا فيه من النعمة، والرزق الطيب، والعيش المستند، ونزوع إلى ما افوه قبل ذلك من خشونة العيش:

إِنْ الشَّقِيُّ بِالشَّقَاءِ مَوْلَعٌ لَا يَمْلِكُ الرَّدْلُ إِذَا اتَى وَيَحْتَمِلُ أَنْ لَا يَكُونَ هَذَا مِنْهُمْ تَشَوُّقاً إِلَى مَا كَانُوا فِيهِ، وَنَظَرًا لِمَا صَارُوا إِلَيْهِ مِنَ الْعَيْشَةِ الرَّافِعَةِ، بَلْ هُوَ بَابٌ مِنْ تَعَنُّتِهِمْ، وَشُعْبَةٌ مِنْ شَعْبٍ تَعَجَّرُفُهُمْ كَمَا هُوَ دَابِيهِمْ، وَهَجِيرَاهُمْ فِي غَالِبِ مَا قَصَّ عَلَيْنَا مِنْ أَخْبَارِهِمْ. وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: إِنَّهُمْ كَانُوا أَهْلَ كِرَاثٍ، وَأَبْصَالٍ، وَأَعْدَاسٍ، فَنَزَعُوا إِلَى عَكْرِهِمْ، أَيْ: أَصْلَهُمْ عَكَرَ السَّوْدِ، وَاشْتَاقَتْ طِبَاعُهُمْ إِلَى مَا جَرَتْ عَلَيْهِ عَادَتُهُمْ فَقَالُوا: ﴿لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ والمراد بالطعام الواحد هو: المن والسلوى، وهما، وَإِنْ كَانَا طَعَامَيْنِ لَكِنْ لَمَّا كَانَا يَكُونُ أَحَدُهُمَا بِالْآخَرِ جَعَلُوهُمَا طَعَاماً وَاحِداً. وَقِيلَ لَتَكْرَهُمَا فِي كُلِّ يَوْمٍ، وَعَدَمُ وَجُودِ غَيْرِهِمَا مَعَهُمَا، وَلَا تَبَدُّلُهُمَا. وَمِنْ فِي قَوْلِهِ: ﴿مِمَّا تَنْتَبِهُ﴾ تخرج. قال الأخفش: زائدة، وخالفه سيبويه لكونها لا تزداد في الكلام الموجب. قال النحاس: وإنما دعا الأخفش إلى هذا؛ لأنه لم يجد مفعولاً ليخرج، فأراد أن يجعل ما

مفعولاً، والأولى أن يكون المفعول محذوفاً دل عليه سياق الكلام، أي: تخرج لنا مأكولاً. وقوله: ﴿مِمَّا بَقَلِيهَا﴾ بدل من ما بإعادة الحرف، والبقل: كل نبات ليس له ساق، والشجر: ما له ساق. قال في الكشف: البقل ما أنبتته الأرض من الخضر، والمراد به أطيب البقول التي ياكلها الناس كالنعناع، والكرفس، والكراث، وأنشباها. انتهى. والقضاء بكسر القاف، وفتحها. والأولى قراءة الجمهور. والثانية قراءة يحيى بن وثاب، وطلحة بن مصرف، وهو معروف. والفوم: قيل هو: الثوم، وقد قرأه ابن مسعود بالثاء. وروي نحو ذلك عن ابن عباس، وقيل: الفوم الحنطة، وإليه ذهب أكثر المفسرين، كما قال القرطبي. وقد رجح هذا ابن النحاس. وقال الجوهري: الفوم الحنطة، ومن قال بهذا الزجاج، والأخفش، وأنشد:

قد كنت لحسبني كاغنى واحد ترك المدينة عن زراعة فوم
وقال بالقول الأوّل الكسائي، والنضر بن شميل، ومنه قول أمية بن أبي الصلت:

كانت منازلهم إذ ذاك ظاهرة فيها الغرابيس والفومات والبصل
أي الثوم، وقال حسان:

وانتم أناس لثام الأصول طعامكم الفوم والحوقل
يعني الثوم، والبصل، وقيل الفوم: السنبلة، وقيل: الحمص، وقيل: الفوم كل حب يخبز. والعنس، والبصل معروفان. والاستبدال: وضع الشيء موضع الآخر ﴿وانني﴾ قال الزجاج: إنه مأخوذ من الدنو أي: القرب. والمراد: اتضعون هذه الأشياء التي هي بون موضع المن، والسلوى اللذين هما خير منها من جهة الاستلذاذ، والوصول من عند الله بغير واسطة أحد من خلقه، والحل الذي لا تطرقه الشبهة، وعدم الكلفة بالسعي له، والتعب في تحصيله، وقوله: ﴿اهبطوا مصر﴾ أي: انزلوا، وقد تقدم معنى الهبوط. وظاهر هذا أن الله أنن لهم بدخول مصر، وقيل إن الأمر للتعجيز؛ لأنهم كانوا في التيه، فهو مثل قوله تعالى: ﴿كونوا حجارة أو حديد﴾ [الإسراء: 50]، وصرف مصر هنا مع اجتماع العلمية، والتأنيث؛ لأنه ثلاثي ساكن الوسط، وهو: يجوز صرفه مع حصول السببين، وبه قال الأخفش والكسائي. وقال الخليل، وسيبويه: إن ذلك لا يجوز، وقالوا: إنه لا علمية هنا؛ لأنه أراد مصرّاً من الأمصار، ولم يرد المدينة المعروفة، وهو خلاف الظاهر. وقرأ الحسن، وأبان بن تغلب، وطلحة بن مصرف بترك التنوين، وهو كذلك في مصحف أبي، وابن مسعود. ومعنى ضرب النلة، والمسكنة إلزامهم بذلك، والقضاء به عليهم قضاء مستمراً لا يفارقهم، ولا ينفصل عنهم، مع دلالة على أن ذلك مشتمل عليهم اشتمال القباب على من فيها، ومنه قول الفرزدق يهجو جريراً:

ضربت عليك العنكبوت بوزنها وقضى عليك به الكتاب المنزل
وهو ضرب من الهجاء بليغ، كما أنه إذا استعمل في المديح كان في منزلة رفيعة، ومنه قول الشاعر:

إن المروءة والشجاعة والندي في قبة ضربت على ابن الحشرج

حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَقَوْمَهَا﴾ قال: الخبز، وفي لفظ: البر، وفي لفظ: الحنطة. وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال: القوم الثوم. وأخرج ابن جرير، عن الربيع بن أنس مثله. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، عن ابن مسعود: أنه قرأ: «وثومها» وروى ابن أبي الدنيا، عن ابن عباس أنه قال: قراءتي قراءة زيد، وأنا أخذ ببضعة عشر حرفاً من قراءة ابن مسعود هذا أحدهما: «من بقلها وقثائها وثومها». وأخرج ابن جرير، عن مجاهد في قوله: ﴿الَّذِي هُوَ أُنْثَى﴾ قال: أردأ. وأخرج عبد بن حميد، عن قتادة في قوله: ﴿وَاهْبِطُوا مِصْرًا﴾ قال مصراً من الأمصار. وأخرج ابن جرير، عن أبي العالية: أنه مصر فرعون. وأخرج نحوه ابن أبي داود، وابن الأنباري عن الأعمش. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ النَّلَّةُ﴾ قال: هم: أصحاب الجزية. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، عن قتادة، والحسن قال: ضربت عليهم النلة، والمسكنة أي: يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون. وأخرج ابن جرير، عن أبي العالية قال: المسكنة الفاقة. وأخرج ابن جرير، عن الضحاك في قوله: ﴿وَيَاوُوا بِغَضَبِ اللَّهِ﴾ قال: استحقوا الغضب من الله. وأخرج عبد بن حميد، عن قتادة في قوله: ﴿وَيَاوُوا﴾ قال: انقلبوا. وأخرج أبو داود الطيالسي، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال: كانت بنو إسرائيل في اليوم تقتل ثلاث مئة نبي، ثم يقيمون سوق بقلهم في آخر النهار.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلُوا صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٧﴾

قيل: إن المراد بالذين آمنوا المنافقون، بدلالة جعلهم مقترنين باليهود، والنصارى، والصابئين أي: آمنوا في الظاهر. والأولى أن يقال: إن المراد الذين صدقوا النبي ﷺ، وصاروا من جملة أتباعه، وكأنه سبحانه أراد أن يبين أن حال هذه الملة الإسلامية، وحال من قبلها من سائر الملل يرجع إلى شيء واحد، وهو: أن من آمن منهم بالله، واليوم الآخر، وعمل صالحاً استحق ما نكره الله من الأجر، ومن فاته ذلك فاته الخير كله، والأجر دقه وجله. والمراد بالإيمان هاهنا هو: ما بينه رسول الله ﷺ من قوله لما سأله جبريل عن الإيمان فقال: «أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والقدر خيره، وشره» ولا يتصف بهذا الإيمان إلا من دخل في الملة الإسلامية، فمن لم يؤمن بمحمد ﷺ، ولا بالقرآن، فليس بمؤمن، ومن آمن بهما صار مسلماً مؤمناً ولم يبق يهودياً، ولا نصرانياً، ولا مجوسياً. وقوله: ﴿هَانُوا﴾ معناه صاروا يهوداً، قيل هو: نسبة لهم إلى يهوذا بن يعقوب بالذال المعجمة، فقلبتا العرب دالا مهملة، وقيل معنى هانوا: تابوا لتوبتهم عن عبادة العجل، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَانَا لِلْإِيمَانِ﴾ [الأعراف: 156] أي تبنا، وقيل إن معناه السكون، والموادعة. وقال في الكشف: إن معناه دخل في اليهودية،

وهذا الخبر الذي أخبرنا الله به هو: معلوم في جميع الأزمنة، فإن اليهود أقامهم الله أنزل الفرق، وأشدهم مسكنة، وأكثرهم تصاغراً، لم ينتظم لهم جمع، ولا خفقت على رؤوسهم راية، ولا ثبتت لهم ولاية، بل ما زالوا عبيد العصى في كل زمن، وطروقة كل فحل في كل عصر، ومن تمسك منهم بنصيب من المال وإن بلغ في الكثرة أي مبلغ، فهو متظاهر بالفقر متردّ بأتواب المسكنة لينفع عن نفسه أطماع الطامعين في ماله، إما بحق كتوفير ما عليه من الجزية، أو بباطل كما يفعله كثير من الظلمة من التجرؤ على الله بظلم من لا يستطيع الدفع عن نفسه. ومعنى ﴿يَاوُوا﴾ رجعوا، يقال باء بكذا: أي: رجع به، وباء إلى المباءة: أي: رجع إلى المنزل، والباء: الرجوع، ويقال: هم في هذا الأمر بواء، أي: سواء يرجعون فيه إلى معنى واحد، وباء فلان بفلان: إذا كان حقيقة بأن يقبل به لمساواته له، ومنه قول الشاعر:

ألا تنتهي عنا ملوك وتنتهي محاربنا لا يبايأ الدم بالدم والمراد في الآية أنهم رجعوا بغضب من الله، أو صاروا أحقاء بغضبه، وقد تقدم تفسير الغضب. والإشارة بقوله ﴿نَلَّكَ﴾ إلى ما تقدم من حديث النلة، وما بعده بسبب كفرهم بالله، وقتلهم لأنبيائه بغير حق يحق عليهم اتباعه، والعمل به، ولم يخرج هذا مخرج التقييد حتى يقال: إنه لا يكون قتل الأنبياء بحق في حال من الأحوال لمكان العصمة، بل المراد نعي هذا الأمر عليهم، وتعظيمه، وأنه ظلم بحت في نفس الأمر. ويمكن أن يقال: أنه ليس بحق في اعتقادهم الباطل، لأن الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه لم يعارضوهم في مال ولا جاه، بل أرشدوهم إلى مصالح الدين، والدنيا كما كان من شعيا، وزكريا، ويحيى، فإنهم قتلوهم، وهم يعلمون، ويعتقدون أنهم ظالمون، وتكرير الإشارة لقصد التأكيد، وتعظيم الأمر عليهم، وتهويله، ومجموع ما بعد الإشارة الأولى، والإشارة الثانية هو السبب لضرب النلة، وما بعده، وقيل: يجوز أن تكون الإشارة الثانية إلى الكفر، والقتل، فيكون ما بعدها سبباً للسبب وهو بعيد جداً، والاعتدال تجاوز الحد في كل شيء.

وقد أخرج ابن جرير، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَوْدَاسُ بْنُ سُلَيْمٍ﴾ قال: ذلك في التيه، ضرب لهم موسى الحجر، فصار فيها اثنتا عشرة عينا من ماء، لكل سبط منهم عين يشربون منها. وأخرج عبد بن حميد، عن قتادة، ومجاهد، وابن أبي حاتم عن جويرير نحو ذلك. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ﴾ قال: لا تسعوا في الأرض فساداً. وأخرج ابن جرير عن أبي العالية مثله. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك قال: يعني لا تمشوا بالمعاصي. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، عن قتادة قال: لا تسيروا في الأرض مفسدين. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد في قوله: ﴿لَنْ نَنْصَبَ عَلَى طَعَامِ وَاحِدٍ﴾ قال: المَن، والسلوى واستبدلوا به البقل، وما حكى معه. وأخرج عبد بن

﴿وَأَنْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ قال: اقْرؤوا ما في التوراة، واعمَلوا به. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، عن ابن عباس في قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ قال: لعلكم تتزعمون عما أنتم عليه. وأخرج ابن جرير عنه قال: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْتُمْ﴾ أي: عرَفْتُمْ ﴿وَاعْتَدُوا﴾ يقول: اجْتَرؤوا في السبت بصيد السمك، فمسخهم الله قردة بمعصيتهم، ولم يعيش مسيخ قط فوق ثلاثة أيام، ولم ياكل، ولم يشرب، ولم ينسل. وأخرج ابن المنذر عنه قال: القردة، والخنازير من نسل الذين مسخوا، وأخرج ابن المنذر عن الحسن قال: انقطع نسل النسل. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد قال: مسخت قلوبهم، ولم يمسخوا قردة، وإنما هو: مثل ضربه الله لهم كقوله: ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: 5] وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة في الآية قال: أحلت لهم الحيتان، وحُرِّمَتْ عليهم يوم السبت ليعلم من يطيعه ممن يعصيه، فكان فيهم ثلاثة أصناف، ونكر نحو ما قَمَّنَاهُ عن المفسرين. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: صار شباب القوم قردة، والمشيمة صاروا خنازير. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿خَاسِثِينَ﴾ قال: لئيلين. وأخرج ابن المنذر عنه في قوله: ﴿خَاسِثِينَ﴾ قال: صاغرين. وأخرج ابن جرير، عن مجاهد مثله. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ من القرى ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ من القرى: ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ الذين من بعدهم إلى يوم القيامة. وأخرج ابن جرير عنه: ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ يعني الحيتان ﴿نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ من الذنوب التي عملوا قبل، وبعد. وأخرج ابن جرير عنه: ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ قال: جعلنا تلك العقوبة، وهي المسخة ﴿نَكَالًا﴾ عقوبة ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ يقول: ليحذر من بعدهم عقوبتي ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ يقول: للذين كانوا معهم ﴿وَمَوْعِظَةً﴾ قال: تنكرة، وعبرة للمتقين.

رَاذَ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنْتَذِبُكَ هَرُورًا قَالِ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿١٧٠﴾ قَالُوا أَنْتَ لَنَا رَبٌّ كَيْفَ بَيِّنَ لَنَا مَا هِيَ قَالِ إِنَّكَ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ظَائِرُ فِيهَا وَلَا يَغْوُ وَلَا يَأْكُلُ عَوَاءً يَبْئُكَ ذَلِكَ فَأَفْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿١٧١﴾ قَالُوا أَنْتَ لَنَا رَبٌّ كَيْفَ بَيِّنَ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالِ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿١٧٢﴾ قَالُوا أَنْتَ لَنَا رَبٌّ كَيْفَ بَيِّنَ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَّهَ عَلَيْنَا وَإِن شَاءَ اللَّهُ لَأَمْتَدُونَ ﴿١٧٣﴾ قَالِ إِنَّكَ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلْلَ فِيهَا تَغْيِيرُ الْأَرْضِ وَلَا تَنَقَّى لَوْنُهَا سَلَمَةً لَا شِبَهَ فِيهَا قَالُوا أَتَنَنْ جِنَّتٍ وَالْقَوْمُ فَذَّبْهُمَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٧٤﴾

قيل: إن قصة نبح البقرة المذكورة هنا مقدم في التلاوة، ومؤخر في المعنى على قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ [البقرة: 72] ويجوز أن يكون قوله: قتلتم مقدماً في النزول، ويكون الأمر بالنبح مؤخراً، ويجوز أن يكون ترتيب نزولها على حسب تلاوتها، فكان الله أمرهم بنبح البقرة حتى نبحوها، ثم وقع ما وقع من أمر القتل، فأمروا أن يضربوه ببعضها هذا على فرض أن الولو تقتضي الترتيب، وقد تقرر

وأعظم ما تجوز به العقل، وتقدره الأفهام، وهو: رفع الجبل فوق رؤوسهم كأنه ظلة عليهم. وقوله: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بأن تدارككم بلطفه، ورحمته حتى أظهركم التوبة لخسرتكم. والفخسل: الزيادة. قال ابن فارس في المجلد: الفضل تزيادة، والخير، والإفضال: الإحسان. انتهى. والخسران: النقصان، وقد تقدم تفسيره. والسبت في أصل اللغة: القطع؛ لأن الأشياء تمت فيه، وانقطع العمل؛ وقيل: هو: مأخوذ من السيوت، وهو الراحة، والدعة. وقال في الكشف: السبت مصدر سببت اليهود: إذا عظمت يوم السبت. انتهى. وقد نكر جماعة من المفسرين أن اليهود اختلفت قريقتين: ففرقة اعتدت في السبت أي: جاوزت ما أمرها الله به من العمل فيه فصالوا السمك الذي نهاهم الله عن صيده فيه: والفرقة الأخرى انقسمت إلى فرقتين: ففرقة جاهرت بالنهي، واعتزلت، وفرقة لم توافق المعتدين، ولا صالوا معهم لكنهم جالسوهم، ولم يجاهروهم بالنهي، ولا اعتزلوا عنهم، فمسخهم الله جميعاً، ولم تنج إلا الفرقة الأولى فقط، وهذه من جملة المحن التي امتحن الله بها هؤلاء الذين بالغوا في المعرفة، وعاندوا أنبياءهم، وما زالوا في كل موطن يظهرهم من حماقاتهم، وسخف عقولهم، وتعننتهم نوعاً من أنواع التعسف، وشعبة من شعب التكلف، فإن الحيتان كانت في يوم السبت كما وصف الله سبحانه بقوله: ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ نَبِلُهُمْ﴾ [الأعراف: 163] فاحتالوا لصيدها، وحفروا الحفائر، وشقروا الجداول، فكانت الحيتان تنخلها يوم السبت، فيصيدونها يوم الأحد، فلم ينتفعوا بهذه الحيلة الباطلة. والخاسي: المبعد، يقال: خسأته، فخسأ، وخسيء، وانخسأ: أبعدته، فبعد. ومنه قوله تعالى: ﴿يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَلْسًا﴾ [الملك: 4] أي: مبعداً. وقوله: ﴿اخْسَأُوا فِيهَا﴾ [المؤمنون: 108] أي: تباعدوا تباعد سخط، ويكون الخسأ بمعنى الصاغر. والمراد هنا: كونوا بين المصير إلى أشكال القردة مع كونهم مطروحين صاغرين، قردة خبر الكون. وخاسئين خبر آخر، وقيل إنه صفة لقردة، والأول أظهر. واختلف في مرجع الضمير في قوله: ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ وفي قوله: ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ فقيل العقوبة، وقيل الأمة، وقيل البقرة، وقيل القردة، وقيل الحيتان، والأول أظهر. والنكال: الزجر والعقاب، والنكل: القيد؛ لأنه يمنع صاحبه، ويقال للجام الدابة نكل؛ لأنه يمنعه، والموعظة مأخوذة من الاتعاط، والانزجار، والوعظ: التخويف. وقال الخليل: الوعظ التنكير بالخير. وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: الطور الجبل الذي أنزلت عليه التوراة، وكان بنو إسرائيل أسفل منه. وأخرج نحوه عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مروي عن ابن عباس قال: الطور ما أنبت من الجبال، وما لم ينبت، فليس بطور. وأخرج ابن جرير عنه في قوله: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ قال: أي جِدْ. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن أبي العلية في قوله:

في علم العربية أنها لمجرد الجمع من نون ترتيب، ولا معية، وسيأتي في قصة القتل تمام الكلام، والبقرة اسم للأنثى، ويقال للذكر ثور، وقيل إنها تطلق عليهما، وأصله من البقر، وهو: الشق؛ لأنها تشق الأرض بالحرث، قال الأزهري: البقر اسم جنس، وجمعه بقر. وقد قرأ عكرمة ويحيى بن يعمر «إن البقر تشابه علينا» وقوله: ﴿هَـزْأُوا﴾ الهزأ هنا: اللعب والسخرية، وقد تقدم تفسيره. وإنما يفعل ذلك أهل الجهل؛ لأنه نوع من العبث الذي لا يفعله العقلاء، ولهذا أجابهم موسى بالاستعانة بالله سبحانه من الجهل. وقوله: ﴿قَالُوا﴾ ادع لنا ربك. هذا نوع من أنواع تعنتهم المألوفة، فقد كانوا يسلكون هذه المسالك في غالب ما أمرهم الله به، ولو تركوا التعنت، والأسئلة المتكلفة لأجزأهم نبج بقرة من عرض البقر، ولكنهم شددوا فشد الله عليهم كما سيأتي بيانه. والفاراض: المسنة، ومعناه في اللغة الواسع. قال في الكشف: وكانها سميت فاراضاً؛ لأنها فرضت سنها أي: قطعها وبلغت آخرها. انتهى. ويقال للشيء القديم: فارض، ومنه قول الراجز:

يارب ذي ضغن علي فارض له قروك قرو الحائض
أي قديم، وقيل الفاراض: التي قد ولدت بطونا كثيرة فيتسع جوفها. والبكر: الصغيرة التي لم تحمل، وتطلق في إناث البهائم وبني آدم على ما لم يفتحل الفحل، وتطلق أيضاً على الأول من الأولاد، ومنه قول الراجز:

يا بكر بكرين يا صلب الكبد أصبحت مني كذراع من عضد
والعوان: المتوسطة بين سني الفاراض، وهي التي قد ولدت بطناً، أو بطنين؛ ويقال: هي التي قد ولدت مرة بعد مرة، والإشارة بقوله: ﴿بين ذلك﴾ إلى الفاراض، والبكر، وهما؛ وإن كانتا مؤنثتين، فقد أشير إليهما بما هو للمذكر على تأويل المذكر، كأنه قال: بين ذلك المذكر، وجاز دخول بين المقتضية لشئيتين؛ لأن المذكر متعدد. وقوله: ﴿فافعلوا﴾ تجنيد للأمر، وتأكيده، وجزر لهم عن التعنت، فلم ينفعهم ذلك، ولا نجح فيهم، بل رجعوا إلى طبيعتهم، وعادوا إلى مكروهم واستمروا على عانيتهم المألوفة، فقالوا: ﴿فادع لنا ربك﴾. واللون: واحد الألوان، وجمهور المفسرين على أنها كانت جميعها صفراء. قال بعضهم: حتى قرنها، وظلفها. وقال الحسن، وسعيد بن جبير: إنها كانت صفراء القرن، والظلف فقط، وهو: خلاف الظاهر. والمراد بالصفرة هنا الصفرة المعروفة. ويروي عن الحسن أن صفراء معناه سوداء، وهذا من بدع التفسير، ومنكراتها، وليت شعري كيف يصدق على اللون الأسود الذي هو: اقبح الألوان أنه يسر الناظرين، وكيف يصح وصفه بالفقور الذي يعلم كل من يعرف لغة العرب أنه لا يجزي على الأسود بوجه من الوجوه، فإنهم يقولون في وصف الأسود: حالك، وحلكوك، ودجوجي، وغريب. قال الكسائي: يقال فق لونها يفقع فقوعاً إذا خلصت صفرتها. وقال في الكشف: الفقور أشد ما يكون من الصفرة، وأنصعه. ومعنى ﴿تسر الناظرين﴾:

تدخل عليهم السرور إذا نظروا إليها إعجاباً بها، واستحساناً للونها. قال وهب: كانت كأن شعاع الشمس يخرج من جلدها، ثم لم ينزعوا عن غوايتهم، ولا أروعوا من سفهمهم، وجهلهم، بل عادوا إلى تعنتهم فقال: ﴿ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا﴾ أي: أن جنس البقر يتشابه عليهم لكثرة ما يتصف منها بالعوان الصفراء الفاقعة، ووعدوا من أنفسهم بالاهتداء إلى ما دلهم عليه، والامتثال لما أمروا به. والنزل: التي لم يزلها العمل أي: هي غير مثقلة بالعمل، ولا رخصة به. وقوله: ﴿تثيرون﴾ في موضع رفع على الصفة لبقرة أي: هي بقرة لا لنول مثيرة، وكذلك قوله: ﴿ولا تسقي الحرث﴾ في محل رفع؛ لأنه وصف لها: أي ليست من النواضح التي يسنى عليها لسقي الزروع، وحرف النفي الآخر تأكيد للأول أي: هي بقرة غير مثقلة بالحرث، ولا بالنضج، ولهذا قال الحسن: كانت البقرة، وحشية. وقال قوم: إن قوله: «تثيرون» فعل مستأنف، والمعنى: إيجاب الحرث لها، والنضج بها. والأول أرجح؛ لأنها لو كانت مثيرة ساقية، لكانت مثقلة رخصة، وقد نفى الله ذلك عنها. وقوله: ﴿مسلمة﴾ مرتفع على أنه من أوصاف البقرة، ويجوز أن يكون مرتفعاً على أنه خبر لمبتدأ محذوف أي: هي مسلمة. والجملة في محل رفع على أنها صفة، والمسلمة: هي التي لا عيب فيها، وقيل مسلمة من العمل، وهو: ضعيف؛ لأن الله سبحانه قد نفى ذلك عنها، والتأسيس خير من التأكيد، والإفادة أولى من الإعادة. والشية أصلها، وشية حذفت الواو كما حذفت من يشي، وأصله يوشي، ونظيره الزنة، والعدة، والصلة، وهي مأخوذة من وشي الثوب: إذا نسج على لونين مختلفين، وثور موسى في وجهه، وقوامه سواد. والمراد أن هذه البقرة خالصة الصفرة ليس في جسمها لمعة من لون آخر؛ فلما سمعوا هذه الأوصاف التي لا يبقى بعدها ريب، ولا يخالف سامعها شك، ولا تحتمل الشركة بوجه من الوجوه، أقصروا من غوايتهم، وانتبهوا من رقنتهم، وعرفوا بمقدار ما أوقعهم فيه تعنتهم من التضيق عليهم ﴿قَالُوا الآن جئنا بالحق﴾ أي: أوضحت لنا الوصف، وبينت لنا الحقيقة التي يجب الوقوف عندها، فحصلوا تلك البقرة الموصوفة بتلك الصفات ﴿فنبجوها﴾ وامتثلوا الأمر الذي كان يسرا، ففسروه، وكان واسعاً، فضيقوه ﴿وما كانوا يفعلون﴾ ما أمروا به لما وقع منهم من التثبط، والتعنت، وعدم المباررة، فكان ذلك مظنة للاستبعاد، ومحلاً للمجئ بعبارة مشعرة بالتثبط الكائن منهم، وقيل إنهم ما كانوا يفعلون لعدم، وجدان البقرة المتصفة بهذه الأوصاف، وقيل لارتفاع ثمنها، وقيل لخوف انكشاف أمر المقتول، والأول أرجح. وقد استدل جماعة من المفسرين، والأصوليين بهذه الآية على جواز النسخ قبل إمكان الفعل.

وليس ذلك عندي بصحيح لوجهين: الأول: أن هذه الأوصاف المزينة بسبب تكرر السؤال هي من باب التقييد

ايضاً في قوله: ﴿صَفْرَاءُ فَاقِعَ لَوْنُهَا﴾ قال: شديدة الصفرة تكاد من صفرتها تبيض. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عمر في قوله: ﴿صَفْرَاءُ﴾ قال: صفراء الظلف ﴿فَاقِعَ لَوْنُهَا﴾ قال: صافي. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير عن قتادة قال: ﴿فَاقِعَ لَوْنُهَا﴾ أي: صاف ﴿تَسْرُ النَّاظِرِينَ﴾ أي: تعجب. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، عن الحسن في قوله: ﴿صَفْرَاءُ فَاقِعَ لَوْنُهَا﴾ قال: سوداء شديدة السواد. وأخرج ابن جرير عن أبي العالية في قوله: ﴿لَا تُلْوُلُ﴾ أي: لم يبلها العمل ﴿تَثِيرُ الْأَرْضِ﴾ يعني ليست بثلول، فتثير الأرض ﴿وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ يقول: ولا تعمل في الحرث ﴿مُسْلِمَةً﴾ قال: من العيوب. وأخرج نحوه عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد. وقال: ﴿لَا شَيْءَ فِيهَا﴾ لا بياض فيها، ولا سواد. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس ﴿مُسْلِمَةً﴾ لا عوار فيها. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة: ﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتُ بِالْحَقِّ﴾ قالوا: الآن بينت لنا: ﴿فَنَبْحُوهَا وَمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ وأخرج ابن جرير، عن محمد بن كعب في قوله: ﴿وَمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ لغلاء ثمنها.

وَأَذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَآذَنَّاكُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٦﴾ أَسْرَبُوا بِمَعْيَتِكَ لِلْكَذِبِ يُحِبُّ اللَّهُ الْمَوْتِ وَرُبُّكُمْ إِلَهِكُمْ لَكُمْ مَعْلُومٌ ﴿٧٧﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارِ وَإِنْ مِنْ الْحِجَارِ لَمَنْ يَنْفَخُ مِنْهُ الْإِنْفُخَ وَإِنْ مِنْهَا لَمَنْ يَنْفَخُ مِنْهُ الْإِنْفُخَ وَإِنْ مِنْهَا لَمَنْ يَنْفَخُ مِنْهُ الْإِنْفُخَ وَإِنْ مِنْهَا لَمَنْ يَنْفَخُ مِنْهُ الْإِنْفُخَ ﴿٧٨﴾

قد تقدم ما نكرناه في قصة نبح البقرة، فيكون تقدير الكلام ﴿وَإِذَا قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَآذَنَّاكُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ فقال موسى لقومه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَنْبَحُوا بِقَرَّةٍ﴾ [البقرة: 67] إلى آخر القصة، وبعدها: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ الآية. وقال الرازي في تفسيره: اعلم أن وقوع القتل لا بد أن يكون متقدماً لأمره تعالى بالنبح، فاما الإخبار عن وقوع ذلك القتل، وعن أنه لا بد أن يضرب القاتل ببعض تلك البقرة، فلا يجب أن يكون متقدماً على الإخبار عن قصة البقرة، فقول من يقول هذه القصة يجب أن تكون متقدمة في التلاوة على الأولى خطأ، لأن هذه القصة في نفسها يجب أن تكون متقدمة على الأولى في الوجود، فاما التقدم في الذكر، فغير واجب، لأنه تارة يقدم نكر السبب على نكر الحكم، وأخرى على العكس من ذلك، فكانهم لما وقعت لهم تلك الواقعة أمرهم الله بنبح البقرة، فلما نبحوها قال: وَإِذَا قَتَلْتُمْ نَفْسًا مِنْ قَبْلِ، ونسب القتل إليهم بكون القاتل منهم، وأصل آذارتهم تدارتكم: ثم ادغمت التاء في الدال، ولما كان الابتداء بالمدمغ الساكن لا يجوز زائداً ألف الوصل، ومعنى آذارتكم: اختلفتم وتنازعتم؛ لأن المتنازعين يذرا بعضهم بعضاً، أي: ينفعه، ومعنى ﴿مُخْرِجٌ﴾ مظهر أي: ما كنتم بينكم من أمر القتل، فالله مظهره لعباده، ومبينه لهم، وهذه الجملة معترضة بين أجزاء

للمأمور به لا من باب النسخ، وبين البابين بون بعيد كما هو مقرر في علم الأصول. الثاني: أنا لو سلمنا أن هذا من باب النسخ لا من باب التقيد لم يكن فيه دليل على ما قالوه، فإنه قد كان يمكنهم بعد الأمر الأول أن يعمدوا إلى بقرة من عرض البقر فينبحوها، ثم كذلك بعد الوصف بكونها جامعة بين الوصف بالعوان، والصفراء، ولا دليل يدل على أن هذه المحاورة بينهم، وبين موسى عليه السلام واقعة في لحظة واحدة، بل الظاهر أن هذه الأسئلة المتعنة كانوا يتواطؤون عليها، ويديرون الرأي بينهم في أمرها، ثم يورونها، وأقل الأحوال الاحتمال القادح في الاستدلال.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، عن عبيدة السلماني قال: كان رجل من بني إسرائيل عقيماً لا يولد له، وكان له مال كثير، وكان ابن أخيه وارثه، فقتله ثم احتمله ليلاً، فوضعه على باب رجل منهم، ثم أصبح يدعيه عليهم حتى تسلحوا، وركب بعضهم إلى بعض، فقال ذو الرأي منهم: علام يقتل بعضهم بعضاً، وهذا رسول الله فيكم؟ فاتوا موسى، فنكروا ذلك له، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَنْبَحُوا بِقَرَّةٍ﴾ الآية، قال: فلو لم يعترضوا لأجزأت عنهم أنى بقرة، ولكنهم شددوا، فشدد عليهم حتى انتهوا إلى البقرة التي أمروا بنبحها، فوجدها عند رجل ليس له بقرة غيرها، فقال: والله لا أنقصها من ملء جلدتها ذهباً، فآخذوها بملء جلدتها ذهباً، فنبحوها فضربوه ببعضها، فقام فقالوا: من قتلك؟ فقال: هذا، لابن أخيه، ثم مال ميتاً، فلم يعط من ماله شيئاً، ولم يورث قاتل بعده. وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب: «من عاش بعد الموت» عن ابن عباس أن القاتل وجد بين قريتين، وأن البقرة كانت لرجل كان يبرأ أباه، فاشتروها بوزنها ذهباً. وأخرج ابن جرير، عنه نحوه من ذلك، ولم ينكر ما تقدم في البقرة. وقد روي في هذا قصص مختلفة لا يتعلق بها كثير فائدة. وأخرج البزار، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَوْ أَخَذُوا أَنْى بَقَرَةٍ لِأَجْزَائِهِمْ، أَوْ لِأَجْزَائِ عَنْهُمْ» وأخرج ابن أبي حاتم وابن مريويه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لَوْ أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَالُوا: ﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ مَا أَعْطَاوْا أَبَدًا، وَلَوْ أَنَّهُمْ اعْتَرَضُوا بِقَرَّةٍ مِنَ الْبَقَرِ، فَنَبَحُوهَا لِأَجْزَائِ عَنْهُمْ، وَلَكِنْهُمْ شَدُّوا، فَشَدُّوا اللَّهُ عَلَيْهِمْ» وأخرج نحوه الفريابي، وسعيد بن منصور، وابن المنذر، عن عكرمة يبلغ به النبي ﷺ. وأخرجه ابن جرير، عن ابن جريج يرفعه. وأخرجه ابن جرير، عن قتادة يرفعه أيضاً، وهذه الثلاثة مرسله. وأخرج نحوه ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس قال: «فَإِغَارُ الْهَرَمَةِ، وَالْبَكْرِ الصَّغِيرَةِ، وَالْعَوَانِ النِّصْفِ. وَأَخْرَجَ نَحْوَهُ عَنْ مُجَاهِدٍ. وَأَخْرَجَ ابْنَ جُرَيْرٍ، وَابْنَ أَبِي حَاتِمٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ قَالَ: بَيْنَ الصَّغِيرَةِ، وَالْكَبِيرَةِ، وَهِيَ أَقْوَى مَا يَكُونُ، وَأَحْسَنُهُ. وَقَدْ أَخْرَجَ ابْنَ جُرَيْرٍ، وَابْنَ أَبِي حَاتِمٍ، عَنْهُ

الكلام أي: فأذارتهم فيها فقلنا. واختلف في تعيين البعض الذي أمروا بأن يضربوا القتل به، ولا حاجة إلى ذلك مع ما فيه من القبول بغير علم، ويكفي أن نقول: أمرهم الله بأن يضربوه ببعضها، فأَيُّ بعض ضربوا به، فقد فعلوا ما أمروا به، وما زاد على هذا، فهو من فضول العلم إذا لم يرد به برهان. قوله: ﴿كَذَلِكَ يَحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ في الكلام حنف، والتقدير: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ فأحياء الله ﴿كَذَلِكَ يَحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ أي: إحياء كمثل هذا الإحياء. ﴿وَيُورِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي: علاماته، ودلائله الدالة على كمال قدرته، وهذا يحتمل أن يكون خطاباً لمن حضر القصة، ويحتمل أن يكون خطاباً للموجودين عند نزول القرآن. والقسوة: الصلابة، واليبس، وهي عبارة عن خلوها من الإنابة، والإنعان آيات الله مع وجود ما يقتضى خلاف هذه القسوة من إحياء القتل، وتكلمه، وتعيينه لقاتله، والإشارة بقوله: ﴿مَنْ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ إلى ما تقدم من الآيات الموجبة للين القلوب وركقتها. قيل «أو» في قوله: ﴿أَوْ لَشِدَّ قَسْوَةً﴾ بمعنى الواو كما في قوله تعالى: ﴿أَتَمَّا أَوْ كُفُورًا﴾ [الإنسان: 24] وقيل: هي بمعنى بل، وعلى أن «أو» على أصلها، أو بمعنى الواو، فالعطف على قوله: ﴿كَالْحَجَارَةِ﴾ أي: هذه القلوب هي كالْحَجَارَةِ، أو هي أشد قسوة منها، فشبهوها بأيّ الأمرين شئتم، فإنكم مصيبون في هذا التشبيه. وقد أجاب الرازي في تفسيره عن وقوع «أو» ههنا مع كونها للترديد أي: لا يليق لعلام الغيوب بثمانية أوجه، وإنما توصل إلى أقبل التفضيل بأشد مع كونه يصح أن يقال، وأقسى من الحجارة، لكونه أبين، ولأن على فرط القسوة، كما قاله في الكشف. وقرأ الأعمش «أو أشد» بنصب للدال، وكأنه عطفه على الحجارة، فيكون أشد مجروراً بالفتحة. وقوله: ﴿وَأَنْ مِنْ الْحَجَارَةِ﴾ إلى آخره، قال في الكشف إنه بيان لفضل قلوبهم على الحجارة في شدة القسوة، وتقرير لقوله: ﴿أَوْ لَشِدَّ قَسْوَةً﴾. انتهى. وفيه أن مجيء البيان بالواو غير معروف، ولا مألوف، والأولى جعل ما بعد الواو تنبيهاً أو حالاً. التفجر: التفتح، وقد سبق تفسيره. وأصل ﴿يَشْتَقُّ﴾ يشتاق أدغمت التاء في الشين، وقد قرأ الأعمش «يتشقق» على الأصل. وقرأ ابن مصرف ينشق بالنون، والشق واحد الشقوق. وهو: يكون بالطول، أو بالعرض، بخلاف الانفجار، فهو الانفتاح من موضع واحد مع اتساع الخرق. والمراد: أن الماء يخرج من الحجارة من مواضع الانفجار، والانشقاق، ومن الحجارة ما يهبط أي: ينحط من المكان الذي هو فيه إلى أسفل منه من خشية الله التي تدخله، وتحل به، وقيل: إن الهبوط مجاز عن الخضوع منها، والتواضع الكائن فيها انقياداً لله عز وجل، فهو مثل قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: 21] وقد حكى ابن جرير، عن فرقة أن خشية للحجارة مستعارة كما استعيرت الإرادة للجدار، وكما قال الشاعر:

لما أتى خبر الزبير تواضعت سور المدينة والجبال الخشع
ونكر الجاحظ أن الضمير في قوله: ﴿وَأَنْ مِنْهَا﴾ راجع إلى القلوب لا إلى الحجارة، وهو فاسد، فإن الغرض من سياق هذا الكلام هو التصريح بأن قلوب هؤلاء بلغت في القسوة، وفرط اليبس الموجبين لعدم قبول الحق، والتأثر للمواعظ إلى مكان لم تبلغ إليه الحجارة، التي هي أشد الأجسام صلابة، وأعظمها صلادة، فإنها ترجع إلى نوع من اللين، وهي تفجرها بالماء، وتشققها عنه، وقبولها لما توجهه خشية الله من الخضوع، والانقياد بخلاف تلك القلوب. وفي قوله: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من التهديد، وتشديد الوعيد ما لا يخفى، فإن الله عز وجل إذا كان عالماً بما يعملونه مطلعاً عليه غير غافل عنه كان لمجازاتهم بالمرصاد. وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن مجاهد في قوله: ﴿وَأَنْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَأَذَارْتُمْ فِيهَا﴾ قال: اختلفتم فيها ﴿وَاللَّهُ مَخْرُجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ قال: ما تغيبون. وأخرج ابن أبي حاتم، والبيهقي في شعب الإيمان، عن المسيب بن رافع قال: «ما عمل رجل حسنة في سبعة أبيات إلا أظهرها الله، وما عمل رجل سيئة في سبعة أبيات إلا أظهرها الله، وتصديق ذلك في كتاب الله: ﴿وَاللَّهُ مَخْرُجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾» وأخرج أحمد، والحكم وصححه عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أن رجلاً عمل عملاً في صخرة صماء لا باب لها، ولا كوة خرج عمله إلى الناس كأنها ما كان» وأخرج البيهقي من حديث عثمان قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانت له سريرة صالحة، أو سيئة أظهر الله عليها منها رداء، يعرف به» ورواه البيهقي أيضاً بنحوه من قول عثمان قال: والموقوف أصح. وأخرج أبو الشيخ، والبيهقي عن أنس مرفوعاً حديثاً طويلاً في هذا المعنى، ومعناه: أن الله يلبس كل عامل عمله حتى يتحدث به الناس، ويزيدون، ولو عمله في جوف بيت إلى سبعين بيتاً على كل بيت باب من حديد، وفي إنسانه ضعف. وأخرج ابن عدي من حديث أنس أيضاً مرفوعاً: «إن الله مرد كل امرئ رداء عمله». ولجماعة من الصحابة، والتابعين كلمات تفيد هذا المعنى. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ قال: ضرب بالعظم الذي يلي الغضروف. وأخرج عبد بن حميد، عن قتادة أنهم ضربوه بفخذها. وأخرج مثله ابن جرير، عن عكرمة. وأخرج نحوه عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد. وأخرج ابن جرير عن السدي قال: ضرب بالبطنة التي بين الكتفين. وأخرج عبد بن حميد، وأبو الشيخ في العظمة، عن وهب بن منبه قصة طويلة في نكر البقرة، وصاحبها لا حاجة إلى التطويل بنكرها، وقد استوفاهما في الدر المنثور. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة في قوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ قال: من بعد ما أراه الله من إحياء الموتى، ومن بعد ما أراه الله من أمر القتل: ﴿فَهِيَ كَالْحَجَارَةِ أَوْ لَشِدَّ قَسْوَةً﴾ ثم عذر الله الحجارة، ولم يعذر

الحاكمين، ويكون الفتح بمعنى الفرق بين الشيثيين، والمحاجة: إبراز الحجة، أي: لا تخبروهم بما حكم الله به عليكم من العذاب، فيكون ذلك حجة لهم عليكم، فيقولون: نحن أكرم على الله منكم، وأحق بالخير منه. والحجة، الكلام المستقيم، وحاجت فلاناً، فحججته أي غلبته بالحجة. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ما فيه الضرر عليكم من هذا التحذير الواقع منكم لهم. ثم وبخهم الله سبحانه ﴿أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من جميع أنواع الأسرار، وأنواع الإعلان، ومن ذلك إسرارهم الكفر، وإعلانهم الإيمان.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: ثم قال الله لنبيه، ومن معه من المؤمنين يؤيسهم منهم ﴿اقتطعمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله﴾ وليس قوله يسمعون التوراة كلهم قد سمعها، ولكنهم الذين سألوا موسى رؤية ربهم، فأخذتهم الصاعقة فيها. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة في قوله: ﴿اقتطعمعون أن يؤمنوا لكم﴾ الآية. قال: هم اليهود كانوا يسمعون كلام الله، ثم يحرفونه من بعد ما سمعوه، ووعوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد في قوله: ﴿اقتطعمعون أن يؤمنوا لكم﴾ الآية، قال: الذين يحرفونه، والذين يكتبونه هم العلماء منهم، والذين نبؤا كتاب الله وراء ظهورهم هؤلاء كلهم يهود. وأخرج ابن جرير، عن السدي في قوله: ﴿يسمعون كلام الله﴾ قال: هي التوراة حرفوها. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنُوا﴾ أي: بصاحبكم رسول الله ﷺ، ولكنه إليكم خاصة ﴿وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ قالوا لا تحدثوا العرب بهذا، فقد كنتم تستفتون به عليهم، وكان منهم ﴿يُحِجُّوكم﴾ أي: يحجبونكم به عنكم. أي: تَقْرُونَ بأنه نبي وقد علمتم أنه قد أخذ عليكم الميثاق باتباعه، وهو يخبرهم أنه النبي الذي كان ينتظر، ونجد في كتابنا أجسوده، ولا تقروا به. وأخرج ابن جرير، عنه أن هذه الآية في المنافقين من اليهود وقوله: ﴿بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ يعني بما أكرمكم به. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي قال: نزلت هذه الآية في ناس من اليهود آمنوا، ثم نافقوا، وكانوا يحدثون المؤمنين من العرب بما عذبوا به، فقال بعضهم لبعض: اتحدثونهم بما فتح الله عليكم من العذاب لتقولوا نحن أحب إلى الله منكم، وأكرم على الله منكم. وقد أخرج ابن جرير، عن ابن زيد أن سبب نزول الآية: أن النبي ﷺ قال: «لا يدخلن علينا قسبة المدينة إلا مؤمن، فكان اليهود يظهرون الإيمان، فيدخلون ويرجعون إلى قومهم بالأخبار، وكان المؤمنون يقولون لهم: ليس قد قال الله في التوراة كذا وكذا؟ فيقولون: نعم، فإذا رجعوا إلى قومهم: ﴿قَالُوا اتحدثونهم بما فتح الله عليكم﴾ الآية». وروى عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد أن سبب نزول الآية: «أن النبي ﷺ

شقني بني آدم فقال: ﴿وَإِنْ مِنْ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾ إلى آخر الآية. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال أي: من الحجارة لألين من قلوبكم عما تدعون إليه من الحق. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: «لأن الحجر ليقع على الأرض ولو اجتمع عليه فئام من الناس ما استطاعوه، وأنه ليهبط من خشية الله».

﴿اَنْظُرُوا أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَلْحَقُونَ مِنْ بَيْنِهِمْ مَا عَقِلُوا وَمَنْ يَلْحَقْ بِهِمْ فَلَوْ أَنَّهُمْ عَلِمُوا أَنَّهُمْ يَلْحَقُونَ بِهِمْ مِنْ بَيْنِهِمْ كَلِمَ اللَّهِ لَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [البقرة: 175] **قوله:** ﴿اقتطعمعون﴾ هذا الاستفهام فيه معنى الإنكار، كأنه آيسهم من إيمان هذه الفرقة من اليهود. والخطاب لأصحاب النبي ﷺ أوله ولهم. و ﴿يؤمنوا لكم﴾ أي: لأجلكم، أو على تضمين آمن معنى استجاب أي: اتطمعون أن يستجيبوا لكم. والفريق اسم جمع لا واحد له من لفظه. و ﴿كلام الله﴾ أي: التوراة، وقيل إنهم سمعوا خطاب الله لموسى حين كلمه، وعلى هذا، فيكون الفريق هم: السبعون الذين اختارهم موسى، وقرأ الأعمش: «كلم الله». والمراد من التحريف أنهم عمدوا إلى ما سمعوه من التوراة، فجعلوا حلاله حراماً، أو نحو ذلك مما فيه موافقة لأهوائهم كتحريفهم صفة رسول الله ﷺ، وإسقاط الحدود عن أشرافهم، أو سمعوا كلام الله لموسى، فزادوا فيه، ونقصوا، وهذا إخبار عن إصرارهم على الكفر، وإنكار على من طمع في إيمانهم، وحالهم هذه الحال أي: ولهم سلف حرقوا كلام الله، وغيروا شرائعه، وهم مقتنون بهم متبعون سبيلهم. ومعنى قوله: ﴿مَنْ بَعْدَ مَا عَقِلُوا﴾ أي: من بعد ما فهموه بعقولهم مع كونهم يعلمون أن ذلك الذي، فعلوه تحريف مخالف لما أمرهم الله به من بليغ شرائعه كما هي، فهم وقعوا في المعصية عالمين بها، وذلك أشد لعقوبتهم، وابن لضلالتهم. ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني أن المنافقين إذا لقوا الذين آمنوا: ﴿قَالُوا آمَنُوا وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ أي: إذا خلا الذين لم ينافقوا بالمنافقين قالوا لهم عاتين عليهم: ﴿اتحدثونهم بما فتح الله عليكم﴾ أي: حكم عليكم من العذاب، وذلك أن ناساً من اليهود أسلموا، ثم نافقوا، فكانوا يحدثون المؤمنين من العرب بما عذب به أبائهم، وقيل: إن المراد ما فتح الله عليهم في التوراة من صفة محمد، وقد تقدم معنى خلا. والفتح عند العرب: القضاء، والحكم، والفتاح: القاضي بلفة اليمن، والفتح: النصر، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة: 89] وقوله: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ [الأنفال: 19] ومن الأول: ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ [سبا: 26] أي: ﴿خير الحاكمين﴾ [الأعراف: 89] أي

قوم كانوا أهل كتاب، فرفع كتابهم لذنوب ارتكبوها، وقيل: هم: المجوس، وقيل غير ذلك، والراجع الأول. ومعنى ﴿لا يعلمون الكتاب إلا أماني﴾ أنه لا علم لهم به إلا ما هم عليه من الأماني التي يتمنونها، ويعلمون بها أنفسهم. والأماني جمع أمنية، وهي ما يتمناه الإنسان لنفسه، فهو لا علم لهم بالكتاب الذي هو التوراة لما هم عليه من كونهم لا يكتبون، ولا يقرؤون المكتوب، والاستثناء منقطع أي: لكن الأماني ثابتة لهم من كونهم مغفوراً لهم بما يدعونه لأنفسهم من الأعمال الصالحة، أو بما لهم من السلف الصالح في اعتقادهم؛ وقيل الأماني الأكاذيب كما سيأتي عن ابن عباس. ومنه قول عثمان بن عفان: ما تمنيت منذ أسلمت أي: ما كذبت، حكاه عنه القرطبي في تفسيره، وقيل الأماني: التلاوة، ومنه قوله تعالى: ﴿إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ [الحج: 52] أي: إذا تلا ألقى الشيطان في تلاوته، أي: لا علم لهم إلا مجرد التلاوة من دون تفهم وتدبر، ومنه قول كعب بن مالك:

تمنى كتاب الله أول ليلة وأخره لاقى حمام المقادر
وقال آخر:

تمنى كتاب الله آخر ليلة تمنى داود الزبور على رسل
وقيل الأماني: التقدير. قال الجوهري: يقال مني له أي: قُر، ومنه قول الشاعر:

لا تamen وإن أمسيت في حرم حتى تلاقي ما يمني لك الماني
أي: يقدر لك المقدر. قال في الكشف: والاشتقاق من مني إذا قدر: لأن المتمني يقدر في نفسه، ويجوز ما يتمناه، وكذلك المخلوق، والقارئ يقدر أن كلمة كذا بعد كذا. انتهى. «وإن» في قوله: ﴿وإن هم إلا يظنون﴾ نافية. أي: ما هم. والظن هو: التردد الراجع بين طرفي الاعتقاد الغير الجازم كذا في القاموس، أي: ما هم إلا يترددون بغير جزم، ولا يقين، وقيل: الظن هنا بمعنى الكذب، وقيل هو: مجرد الحس. لما ذكر الله سبحانه أهل العلم منهم بأنهم غير عاملين بل يحرفون كلام الله من بعد ما عقلوه، وهم يعلمون، نكر أهل الجهل منهم بأنهم يتكلمون على الأماني، ويعتمدون على الظن الذي لا يقفون من تقليدهم على غيره، ولا يظفرون بسواء. والويل: الهلاك. وقال الفراء: الأصل في الويل وي أي: حزن كما تقول وي لفلان أي: حزن له، فوصلته العرب باللام، قال الخليل: ولم نسمع على بنائه إلا ويح، وويس، وويه، وويك، وويب، وكله متقارب في المعنى، وقد فرّق بينها قوم، وهي: مصادر لم ينطق العرب بأفعالها، وجاز الابتداء به، وإن كان نكرة؛ لأن فيه معنى الدعاء. والكتابة معروفة، والمراد: أنهم يكتبون الكتاب المحرف، ولا يبينون، ولا ينكرونه على فاعله. وقوله: ﴿بليديهم﴾ تأكيد؛ لأن الكتابة لا تكون إلا باليد، فهو مثل قوله: ﴿ولا طائر يطير بجناحيه﴾ [الأنعام: 38] وقوله: ﴿يقولون بأقوالهم﴾ [آل عمران: 167] وقال ابن السراج: هو: كناية عن أنه من تلقائهم دون أن ينزل عليهم. وفيه أنه قد دل على أنه من تلقائهم

قام لقوم قريظة تحت حصونهم فقال: يا إخوان القردة، والخنازير، ويا عبدة الطاغوت، فقالوا: من أخبر هذا الأمر محمداً ما خرج هذا الأمر إلا منكم: ﴿اتحدثونهم بما فتح الله عليكم﴾ أي: بما حكم الله ليكون لهم حجة عليكم. وروى ابن أبي حاتم عن عكرمة أن السبب في نزول الآية: «أن امرأة من اليهود أصابت فاحشة، فجاؤا إلى النبي ﷺ يبتغون منه الحكم رجاء الرخصة، فدعا رسول الله ﷺ عالمهم، وهو ابن صوريا فقال له: لحكم، قال: فحبوه، والتجبية: يحملونه على حمار ويجعلون وجهه إلى ذنب الحمار، فقال رسول الله ﷺ: أبحكم الله حكمت؟ قال: لا، ولكن نساءنا كن حسانا، فأسرع فيهن رجالنا، فغيرنا الحكم، وفيه نزل: ﴿وَإِذَا خلا بعضهم إلى بعض﴾ الآية، وأخرج عبد بن حميد، عن قتادة في قوله: ﴿وَإِذَا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا، فصارهم بذلك ليرضوا عنهم: ﴿وَإِذَا خلا بعضهم إلى بعض﴾ نهى بعضهم بعضاً أن يحدثوا بما فتح الله عليهم، وبين لهم في كتابه من أمر محمد ﷺ، ونعته، ونبوته، وقالوا: إنكم إذا فعلتم ذلك احتجوا بذلك عليكم عند ربكم ﴿أفلا تعقلون﴾* ألا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون؟ قال: ما يعلنون من أمرهم، وكلامهم: إذا لقوا الذين آمنوا، وما يسرون إذا خلا بعضهم إلى بعض من كفرهم بمحمد ﷺ، وتكذيبهم به، وهم يجوبونه مكتوباً عندهم. وأخرج ابن جرير، عن أبي العالية في قوله: ﴿أو لا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾ يعني من كفرهم بمحمد ﷺ، ولكنهم، وما يعلنون حين قالوا للمؤمنين: آمنا، وقد قال بمثل هذا جماعة من السلف.

وَمَنْهُمْ أَمِينٌ لَا يَكْمُرُ الْكِتَابَ إِلَّا أَنَا وَإِنَّهُمْ إِلَّا يَنْظُرُونَ ﴿٥٨﴾
فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكُتُبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْرَوْا بِهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ شَيْئاً كَثِيبٌ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ شَيْئاً يَكْتُمُونَ ﴿٥٩﴾
وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّ النُّكُورُ إِلَّا أَنْبَاءاً مُسَوِّدَةً قُلْ أَخَذْتُ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يَخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَكْمُلُونَ ﴿٦٠﴾ بَلْ كَرِهَ كَسْبَ سَكِينَةٍ وَأَخْلَطَ بِهِ حَظِيظَتَهُمْ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٦١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا سَجْدُونَ إِلَّا لَآلِهَةِ وَيَا أُولَئِينَ إِحْسَاكَ وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالسَّكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٦٣﴾

قوله: ﴿ومنهم﴾ أي: من اليهود. والامي منسوب إلى الأمة الأمية التي هي على أصل، ولانتهى من أهاتها لم تتعلم الكتابة، ولا تحسن القراءة للمكتوب، ومنه حديث «إنا أمة أمية لا نكتب، ولا نحسب» وقال أبو عبيدة: إنما قيل لهم أميون لنزول الكتاب عليهم كأنهم نسبوا إلى أم الكتاب، فكانه قال: ومنهم أهل الكتاب، وقيل: هم نصارى العرب، وقيل: هم

قوله: ﴿يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ﴾ فإسناد الكتابة إليهم يفيد تلك. والاشتراء: الاستبدال، وقد تقدّم الكلام عليه، ووصفه بالقلّة لكونه فانياً لا ثواب فيه، أو لكونه حراماً لا تحلّ به البركة، فهؤلاء الكتبة لم يكتفوا بالتحريف، ولا بالكتابة لذلك المخزّف حتى نابوا في المحافل بأبائه من عند الله، لينالوا بهذه المعاصي المتكرّرة هذا الغرض النذير، والعوض الحقير. وقوله: ﴿مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ قيل: من الرشا ونحوها، وقيل: من المعاصي، وكرر الويل تغليظاً عليهم، وتعظيماً لفعلهم، وهتكاً لاستارهم ﴿وَقَالُوا﴾ أي: اليهود ﴿لَنْ تَمْسَنَا النَّارُ﴾ الآية. وقد اختلف في سبب نزول الآية كما سيأتي بيانه. والمراد بقوله: ﴿قُلْ تَحَنَّنْمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا﴾ الإنكار عليهم لما صدر منهم من هذه الدعوى الباطلة أنها لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة أي: لم يتقدّم لكم مع الله عهداً بهذا، ولا أسلفتم من الأعمال الصالحة ما يصليق هذه الدعوى حتى يتعين الوفاء بذلك، وعدم إخلاف العهد أي: إن اتخذتم عند الله عهداً، فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون. قال في الكشف، و«أم» إما أن تكون معاملة بمعنى أيّ الأمرين كلتن على سبيل التقرير؛ لأن العلم واقع بكون أحدهما، ويجوز أن تكون منقطعة. انتهى، وهذا توبيخ لهم شديد. قال الرازي في تفسيره: العهد في هذا الموضع يجري مجرى الوعد، وإنما سمي خبره سبحانه عهداً؛ لأن خبره أوكّد من العهود المؤكدة. وقوله: ﴿بَلَى﴾ إثبات بعد النفي أي: بلى تمسك لا على الوجه الذي نكرتم من كونه أياماً معدودة. والسيئة المراد بها الجنس هنا، ومثله قوله تعالى ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى: 40] «من يعمل سوءاً يجز به» [النساء: 123] ثم أوضح سبحانه أن مجرد كسب السيئة لا يوجب الخلود في النار، بل لا بد أن تكون سيئة محيطية به، قيل هي الشرك، وقيل الكبيرة. وتفسيرها بالشرك أولى لما ثبت في السنة تواتراً من خروج عصاة الموحدين من النار، ويؤيد ذلك كونها نازلة في اليهود، وإن كان الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. وقد قرأ نافع «خطيئته» بالجمع، وقرأ الباقر بالإفراد، وقد تقدم تفسير الخلود.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمِنْهُمْ أُمَيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ﴾ قال لا يدرون ما فيه: ﴿وَأَن هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ قال: وهم يحسون نبوتك بالظن. وأخرج ابن جرير عنه قال: الأميون قوم لم يصبقوا رسولا أرسله الله، ولا كتاباً أنزله الله، فكتبوا كتاباً بأيديهم، ثم قالوا لقوم سفلة جهال هذا من عند الله. وقد أخبر أنهم يكتبون بأيديهم، ثم سماهم أميين لجحودهم كتب الله ورسله. وأخرج ابن جرير، عن النخعي قال: منهم من لا يحسن أن يكتب. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِلَّا أَمَانِي﴾ قال: الأحايث. وأخرج ابن جرير عنه أنها الكذب. وكذا روى مثله عبد بن حميد، عن مجاهد، وزاد ﴿وَأَن هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ قال: إلا يكتبون. وأخرج النسائي، وابن المنذر، عن ابن عباس في

قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ﴾ قال: نزلت في أهل الكتاب. وأخرج أحمد، والترمذي، وابن حبان في صحيحه، والحاكم في مستدركه وصححه، عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ قال: «ويل واد في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره» وأخرج ابن جرير من حديث عثمان مرفوعاً قال: «الويل جبل في النار» وأخرج البزار، وابن مردويه، من حديث سعد بن أبي وقاص مرفوعاً أنه حجر في النار. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ﴾ قال: هم أحبار اليهود، وجعلوا صفة النبي ﷺ مكتوبة في التوراة كحل أعين ربيعة جعد الشعر حسن الوجه، فلما وجدوه في التوراة محوه حسداً، ويغياً، فاتاهم نفر من قريش فقالوا: تجنون في التوراة نبياً أمياً؟ فقالوا: نعم نجده طويلاً أزرق سبط الشعر، فأنكرت قريش وقالوا: ليس هذا منا. وأخرج ابن جرير عنه في قوله: ﴿ثُمَّ نَمُنَّا قَلِيلًا﴾ قال: عرضاً من عرض الدنيا ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ﴾ قال: فالعذاب عليهم من الذي كتبوا بأيديهم من ذلك الكذب ﴿وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ يقول: مما ياكلون به الناس السفلة، وغيرهم. وقد ذكر صاحب الدر المنثور آثاراً عن جماعة من السلف أنهم كرهوا بيع المصاحف مستثنين بهذه الآية، ولادلالة فيها على ذلك، ثم ذكر آثاراً عن جماعة منهم أنهم جوّزوا ذلك، ولم يكرهوه. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والواحدي، عن ابن عباس: أن اليهود كانوا يقولون مدة الدنيا سبعة آلاف سنة، وإنما تعذب بكل ألف سنة من أيام الدنيا يوماً واحداً في النار، وإنما هي: سبعة أيام معدودة، ثم ينقطع العذاب، فأنزل الله في ذلك: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمْسَنَا النَّارُ﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه قال: وجد أهل الكتاب مسيرة ما بين طرفي جهنم مسيرة أربعين، فقالوا: لن تعذب أهل النار إلا قدر أربعين، فإذا كان يوم القيامة أجموا في النار، فساروا فيها حتى انتهوا إلى سقر، وفيها شجرة الزقوم إلى آخر يوم من الأيام المعدودة، فقال لهم خزنة النار: يا أعداء الله زعمتم أنكم لن تعذبوا في النار إلا أياماً معدودة، فقد انقضى العدد وبقي الأبد، فيؤخّتون في الصعود يرهقون على وجوههم. وأخرج ابن جرير، عنه أن اليهود قالوا: لن تمسنا النار إلا أربعين ليلة مدة عبادة العجل. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن عكرمة قال: اجتمعت يهود يوماً، فخلصوا النبي ﷺ فقالوا: لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات أربعين يوماً، ثم يخلصنا فيها ناس، وأشاروا إلى النبي ﷺ، وأصحابه، فقال رسول الله ﷺ «يؤدّ يديه على رأسه: «كنتم بل أنتم خاللون مخلدون فيها لا نخلفكم فيها إن شاء الله أبداً، ففيهم نزلت هذه الآية: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمْسَنَا النَّارُ﴾» وأخرج ابن جرير، عن زيد بن أسلم مرفوعاً نحوه. وأخرج أحمد، والبخاري، والدارمي، والنسائي، من حديث أبي هريرة: «أن النبي ﷺ سأل اليهود في خير: من

ويدل عليه أيضاً ما عطف عليه من قوله: «وقولوا - وأقيموا - وآتوا» وقال قطرب، والمبرد: إن قوله: «لا تعبدون» جملة حالية أي: أخذنا ميثاقهم موحدين، أو غير معاندين. قال القرطبي: وهذا إنما يتجه على قراءة ابن كثير، وحمزة، والكسائي «يعبدون» بالياء التحتية. وقال الفراء، والزجاج، وجماعة: إن معناه أخذنا ميثاقكم بأن لا تعبدوا إلا الله، وبأن تحسنوا بالوالدين، وبأن لا تسفكوا الدماء؛ ثم حذف أن، فارتفع الفعل لزوالها. قال المبرد: هذا خطأ؛ لأن كل ما أضمر في العربية، فهو يعمل عمله مظهراً. وقال القرطبي: ليس بخطأ بل هما وجهان صحيحان، وعليهما أنشد:

ألا أيها الزاجري لحضر الوغى وأن أشهد الذنات هل أنت مخلدي
بالنصب لقوله لحضر، وبالرفع، والإحسان إلى الوالدين: معاشرتهما بالمعروف، والتواضع لهما، وامتنثال أمرهما، وسائر ما أوجبه الله على الولد لوالديه من الحقوق. والقريب: مصدر كالرجعى، والعقبى، هم القرابة، والإحسان بهم صلتهم، والقيام بما يحتاجون إليه بحسب الطاقة، وبقدر ما تبلغ إليه القدرة. واليتامى جمع يتيم، واليتيم في بني آدم من فقد أبوه، وفي سائر الحيوانات من فقدت أمه. وأصله الانفراد - يقال: صبي يتيم أي: منفرد من أبيه، والمسكين جمع مسكين، وهو: من أسكنته الحاجة وذليلته، وهو أشد فقراً من الفقير عند أكثر أهل اللغة، وكثير من أهل الفقه. وروي عن الشافعي أن الفقير أسوأ حالاً من المسكين. وقد ذكر أهل العلم لهذا البحث أدلة مستوفاة في مواطنها. ومعنى قوله: «وقولوا للناس حسنى» أي: قولوا لهم قولاً حسناً، فهو صفة مصدر محذوف، وهو: مصدر كبشرى. وقرأ حمزة، والكسائي: «حسناً» بفتح الحاء، والسين. وكذلك قرأ زيد بن ثابت، وابن مسعود. قال الأخفش هما بمعنى واحد، مثل البخل، والبخل، والرشد، والرشد، وحكى الأخفش أيضاً: «حسنى» بغير تنوين على فعلى. قال للنحاس: وهذا لا يجوز في العربية، لا يقال من هذا شيء إلا بالالف، واللام نحو الفضلى، والكبرى، والحسنى، وهذا قول سيبويه. وقرأ عيسى بن عمر: «حسناً» بضميتين: والظاهر أن هذا القول الذي أمرهم الله به لا يختص بنوع معين، بل كل ما صدق عليه أنه حسن شرعاً كان من جملة ما يصح عليه هذا الأمر. وقد قيل إن ذلك هو: كلمة التوحيد، وقيل الصلوة، وقيل الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وقيل غير ذلك. وقوله: «وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة» قد تقدم تفسيره، وهو: خطاب لبني إسرائيل، فالمراد الصلاة التي كانوا يصلونها، والزكاة التي كانوا يخرجونها. قال ابن عطية: وزكاتهم هي التي كانوا يضعونها، فتنزل النار على ما يقبل، ولا ينزل على ما لا يقبل. وقوله: «ثم توليتكم» قيل الخطاب للحاضرين منهم في عصر النبي ﷺ؛ لأنهم مثل سلفهم في ذلك، وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب. وقوله: «إلا قليلاً» منصوب على الاستثناء، ومنهم عبد الله بن سلام، وأصحابه. وقوله: «وأنتم معرضون» في موضع النصب

أهل النار؟ فقالوا: نكون فيها يسيراً، ثم تخلفونا فيها، فقال لهم رسول الله ﷺ: اخسئوا، والله لا نخلفكم فيها أبداً. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد في قوله: «قل لتخنتم عند الله عهداً» أي: موثقاً من الله بذلك أنه كما تقولون. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس أنه فسر العهد هنا بأنهم قالوا: لا إله إلا الله، لم يشركوا به، ولم يكفروا، وأخرج عبد بن حميد، عن قتادة في قوله: «لم تقولون على الله ما لا تعلمون» قال: قال القوم: الكذب والباطل، وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: «بلى من كسب سيئة» قال: الشرك. وأخرج عبد بن حميد، عن مجاهد، وعكرمة، وقاتدة مثله. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة في قوله: «وأحاطت به خطيئته» قال: لحاط به شركه، وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم في قوله: «بلى من كسب سيئة» أي: من عمل مثل أعمالكم، وكفر بمثل ما كفرتم حتى يحيط كفره بماله من حسنة «فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون» والذين آمنوا وعملوا الصالحات» أي: من آمن بما كفرتم به، وعمل بما تركتم من دينه، فلهم الجنة خالدين فيها. وأخرج عبد بن حميد، عن قتادة في قوله: «ولحاطت به خطيئته» قال: هي الكبيرة الموجبة لاهلها النار. وأخرج وكيع، وابن جرير، عن الحسن أنه قال: كل ما وعد الله عليه النار، فهو الخطيئة. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، عن الربيع بن خيثم قال: هو الذي يموت على خطيئته قبل أن يتوب، وأخرج مثله ابن جرير عن الأعمش.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَزَى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالسَّكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٨٧﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْكُنُونَ دِمَآكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ بَيْنَ يَدَيْكُمْ ثُمَّ أَفَرَضْتُمْ أَنْتُمْ فَتَعْدُونَ ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقُولُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ بَيْنَ يَدَيْكُمْ وَيَكْرِهُونَ تَصْلَاهُ بِالْأَيْمِ وَالَّذِينَ زَيْنَ يَأْتُوَكُمْ أَسْكُنُوا فَرْقًا مِّنْكُمْ وَيَكْرِهُونَ تَصْلَاهُ عَلَيْهِمْ لِمَارْجَاهُمْ أَفَتَعْدُونَ بَعْضُ الْكَذِبِ وَكَثُرَتِ بَعْضُ كَمَا جَاءَ مِنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا جِزْءٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَيْهِ أَسَدُ الْكَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِمُنْزِلِ عَنَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ السَّكَابُ وَلَا هُمْ يُصْرَفُونَ ﴿٩٠﴾

قد تقدم تفسير الميثاق المأخوذ على بني إسرائيل. وقال مكي: إن الميثاق الذي أخذه الله عليهم هنا هو: ما أخذه الله عليهم في حياتهم على السن أنبيائهم، وهو قوله: «لا تعبدون إلا الله» وعبادة الله إثبات توحيده، وتصديق رسله، والعمل بما أنزل في كتبه. قال سيبويه: إن قوله: «لا تعبدون إلا الله» هو: جواب قسم، والمعنى، استحلقتناهم، والله لا تعبدون إلا الله، وقيل هو: إخبار في معنى الأمر، ويدل عليه قراءة أبي، وابن مسعود: «لا تعبدوا» على النهي،

الجمهور، والأسير مشتق من السير، وهو: القيد الذي يشدُّ به المحمل، فسمي أسيراً؛ لأنه يشدُّ وثاقه، والعرب تقول: قد أسرقته أي: شدّه، ثم سمي كل أسير أسيراً، وإن لم يؤخذ. وقوله: ﴿تَفَادُوهُمْ﴾ جواب الشرط، وهي: قراءة حمزة، ونافع، والكسائي، وقرأ الباقون: «تفدوهم». والفداء: هو: ما يوجد من الأسير ليفك به أسره، يقال فداه، وفاداه: إذا أعطاه فداءه. قال الشاعر:

قفى نادى أسيرك إن قومي وقومك ما أرى لهم اجتماعاً
وقوله: ﴿وَهُوَ مُحْرَمٌ عَلَيْكَ إِخْرَجَهُمْ﴾ الضمير للشان وقيل مبهم تفسره الجملة التي بعده، وزعم الفراء أن هذا الضمير عماد، واعترض عليه بأن العماد لا يكون في أول الكلام. ﴿وَإِخْرَجَهُمْ﴾ مرتفع بقوله: ﴿مُحْرَمٌ﴾ ساذ مسدّ الخبر، وقيل: بل مرتفع بالابتداء، ومحرّم خبره. قال المفسرون: كان الله سبحانه قد أخذ على بني إسرائيل أربعة عهود: ترك القتل، وترك الإخراج، وترك المظاهرة، وفداء أسراهم؛ فاعرضوا عن كل ما أمروا به إلا الفداء، فويضهم الله على ذلك. يقوله: ﴿فَقَوْمُنٌ مِّنْ بَعْضِ الْكُتُبِ﴾ بالخزي، وقال الجوهري: والخزي بالكسر يخزي خزيًا: إذا ذل، وهان، وقد وقع هذا الجزاء الذي وعد الله به الملعين اليهود موفراً، فصاروا في خزي عظيم بما ألصق بهم من الذل، والمهانة بالقتل، والأسر، وضرب الجزية، والجلاء، وإنما ردهم الله يوم القيامة إلى أشدّ العذاب؛ لأنهم جاؤوا بنذب شديد، ومعصية فظيمة. وقد قرأ الجمهور يرون بالياء التحتية. وقرأ الحسن بالفوقية على الخطاب. وقد تقدّم تفسير قوله: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ وكذلك تفسير ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا﴾ وقوله: ﴿فَلَا يَخْفَىٰ﴾ إخبار من الله سبحانه بأن اليهود لا يزالون في عذاب موفر لازم لهم بالجزية، والصغار، والذلة، والمهانة، فلا يخفف عنهم ذلك أبداً ما داموا، ولا يوجد لهم ناصر يدفع عنهم، ولا يثبت لهم نصر في أنفسهم على عوهم.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ قال يؤنّبهم أي ميثاقكم. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنً﴾ قال: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر. وروى البيهقي في الشعب عن عليّ في قوله: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنً﴾ قال: يعني الناس كلهم، ومثله روى عبد بن حميد، وابن جرير، عن عطاء. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ قال أي: تركتم ذلك كله. وأخرج ابن جرير عنه أنه قال: معناه أعرضتم عن طاعتي إلا قليلاً منكم، وهم: الذين اخترتهم لطاعتي. وأخرج ابن جرير، عن أبي العالبة في قوله: ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ لا يقتل بعضكم بعضاً ﴿وَلَا تَخْرُجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ بِيَارِكُمْ﴾ لا يخرج بعضكم بعضاً من الديار ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾ بهذا الميثاق ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ وأنتم شهود. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم

على الحال، والإعراض، والتولي بمعنى واحد، وقيل: التولي بالجسم، والإعراض بالقلب. وقوله: ﴿لَا تَسْفِكُونَ﴾ الكلام فيه كالكلام في لا تعبدون، وقد سبق. وقرأ طلحة بن مصرف، وشعيب بن أبي حمزة بضم الفاء، وهي لغة. وقرأ أبو نهيك بضم الياء، وتشديد الفاء، وفتح السين، والسفك: الصبّ، وقد تقدّم، والمراد أنه لا يفعل ذلك بعضهم ببعض. والدار: المنزل الذي فيه أبنية المقام، بخلاف منزل الارتحال. وقال الخليل: كل موضع حله قوم، فهو دار لهم، وإن لم يكن فيه أبنية؛ وقيل سميت داراً لدورها على سكانها، كما يسمى الحائط حائطاً لإحاطته على ما يحويه. وقوله: ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾ من الإقرار: أي حصل منكم الاعتراف بهذا الميثاق المأخوذ عليكم في حال شهادتكم على أنفسكم بذلك، قيل الشهادة هنا بالقلوب، وقيل: هي بمعنى الحضور أي: أنكم الآن تشهدون على أسلافكم بذلك، وكان الله سبحانه قد أخذ في التوراة على بني إسرائيل أن لا يقتل بعضهم بعضاً، ولا ينفية، ولا يسترقه. وقوله: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ﴾ أي: أنتم هؤلاء المشاهدون الحاضرون تخالفون ما أخذ الله عليكم في التوراة، فتقتلون أنفسكم إلى آخر الآية؛ وقيل إن هؤلاء منصوب بإضمار أعني، ويمكن أن يقال منصوب بالذم، أو الاختصاص أي: أنتم، أو أخص. وقال القتيبي: إن التقدير: يا هؤلاء قال النحاس: هذا خطأ على قول سيبويه لا يجوز. وقال الزجاج هؤلاء بمعنى الذين أي: ثم أنتم الذين تقتلون. وقيل هؤلاء مبتدأ، وأنتم خبر مقدم، وقرأ الزهري: «تقتلون» مشدداً، فمن جعل قوله: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ﴾ مبتدأ، وخبراً جعل قوله: ﴿تَقْتُلُونَ﴾ بياناً؛ لأن معنى قوله: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ﴾ أنهم على حالة كحالة أسلافهم من نقض الميثاق. ومن جعل هؤلاء منادى، أو منصوباً بما نكرنا جعل الخبر تقتلون، وما بعده. وقوله: ﴿تَتَظَاهَرُونَ﴾ بالتشديد، وأصله تتظاهرون أدغمت التاء في الظاء لقربها منها في المخرج، وهي: قراءة أهل مكة. وقرأ أهل الكوفة: «تظاهرون» مخففاً بحذف التاء الثانية، لدلالة الأولى عليها. وأصل المظاهرة المعاونة، مشتقة من الظهر؛ لأن بعضهم يقوي بعضاً، فيكون له كالظهر، ومنه قول الشاعر:

تظاهرت من كل أوب ووجهة على واحد لا زلت من قرن واحد
ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ الْكَافِرَ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ [الفرقان: 55] وقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحریم: 4]. وإسارى حال. قال أبو عبيد، وكان أبو عمرو يقول: ما صار في أيديهم، فهو أسارى، وما جاء مستأسراً، فهو الأسرى. ولا يعرف أهل اللغة ما قال أبو عمرو. وإنما هذا كما تقول سكارى، وسكرى. وقد قرأ حمزة: «أسرى». وقرأ الباقون: «أسارى»، والأسرى جمع أسير كالقتلى جمع قتيل، والجرحى جمع جريح. قال أبو حاتم: ولا يجوز أسارى. وقال الزجاج: يقال أسارى كما يقال سكارى. وقال ابن فارس: يقال في جمع أسير أسرى، وأسارى. انتهى. فلعجب من أبي حاتم حيث ينكر ما ثبت في التنزيل. وقرأ به

الفريق المكذبين عيسى، ومحمد، ومن الفريق المقتولين يحيى، وزكريا. والغلف جمع أغلف، المراد به هنا: الذي عليه غشاوة تمنع من وصول الكلام إليه، ومنه غلفت السيف أي: جعلت له غلافاً. قال في الكشف: هو: مستعار من الأغلف الذي لم يختن كقوله: «قلوبنا في اكنة مما تدعوننا إليه» [فصلت: 5] وقيل إن الغلف جمع غلاف مثل حمار وحمر أي: قلوبنا أوعية للعلم، فما بالها لا تفهم عنك، وقد وعينا علماً كثيراً، فرد الله عليهم ما قالوه فقال: «يبل لعنهم الله بكفرهم» وأصل اللعن في كلام العرب الطرد، والإبعاد، ومنه قول الشماخ:

ذعرت به القطا ونفيت عنه مقام الذئب كالرجل اللعين أي: كالرجل المطرود. والمعنى: أبعدهم الله من رحمته، و «قليلاً» نعت لمصدر محذوف أي: إيماناً قليلاً «ما يؤمنون» و«ما» زائدة، وصِف إيمانهم بالقلة؛ لأنهم الذين قص الله علينا من عنادهم، وعجرفتهم، وشدة لجاجهم، وبعدهم عن إجابة الرسل ما قصه، ومن جملة ذلك أنهم يؤمنون ببعض الكتاب، ويكفرون ببعض. وقال معمر: المعنى لا يؤمنون إلا قليلاً مما في أيديهم، ويكفرون بأكثره، وعلى هذا يكون قليلاً منصوباً بنزع الخافض. وقال الواقدي معناه لا يؤمنون قليلاً، ولا كثيراً. قال الكسائي: تقول العرب مررنا بأرض قل ما تنبت الكراث، والبصل أي: لا تنبت شيئاً.

وقد أخرج ابن عساکر عن ابن عباس في قوله: «ولقد آتينا موسى الكتاب» يعني به التوراة جملة، واحدة مفصلة محكمة «ووقفنا من بعده بالرسول» يعني رسولا يدعى اشمويل بن بابل، ورسولا يدعى منشابيل، ورسولا يدعى شعيا، ورسولا يدعى حزقيال، ورسولا يدعى أرمياء، وهو الخضر، ورسولا يدعى داود، وهو أبو سليمان، ورسولا يدعى المسيح عيسى ابن مريم، فهؤلاء الرسل ابنتهم الله، وانتخبهم من الأمة بعد موسى، فآخذنا عليهم ميثاقاً غليظاً أن يؤثروا إلى أمتهم صفة محمد ﷺ، وصفة أمته. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم عنه في قوله: «وآتيناه عيسى ابن مريم للبينات» قال: هي الآيات التي وضع على يديه من إحياء الموتى، وخلقه من الطين كهنية الطير، وإبراء الأسقام. والخبر بكثير من الغيوب، وما ورد عليهم من التوراة، والإنجيل الذي أحدث الله إليه. وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله: «وليدناه» قال: قويناه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه قال: روح من القدس الاسم الذي كان عيسى يحيي به الموتى. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مجاهد قال: القدس: الله تعالى. وأخرج عن الربيع بن أنس مثله. وأخرج عن ابن عباس قال: القدس الطهر: وأخرج عن السدي قال: القدس البركة. وأخرج عن إسماعيل بن أبي خالد أن روح القدس جبريل. وأخرج عن ابن مسعود مثله وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن جابر عن النبي ﷺ قال: روح القدس جبريل. وقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال: «اللهم أيد حسان بروح القدس» وأخرج

عن ابن عباس في قوله: «ثم أقررتم» أن هذا حق من ميثاقي عليكم «ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم» أي: أهل الشرك حتى تسفكوا دماءهم معهم «وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم» قال: تخرجونهم من ديارهم معهم «تظاهرون عليهم بالإثم والعنوان» فكانوا إذا كان بين الأوس، والخزرج حرب خرجت معهم بنو قينقاع مع الخزرج، والنضير، وقريظة مع الأوس، وظاهر كل واحد من الفريقين حلفاءه على إخوانه حتى يسافكوا دماءهم، فإذا وضعت الحرب أوزارها افتدوا أسراهم تصديقاً لما في التوراة «وإن ياتوكم أسارى فتأبواهم» وقد عرفت أن ذلك عليكم في دينكم «وهو محرم عليكم» في كتابكم لإخراجهم «فتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض» تأفونهم مؤمنين بذلك، وتخرجونهم كفرةً بذلك. وأخرج ابن جرير، عن قتادة في قوله: «ولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة» قال: استحبوا قليل الدنيا على كثير الآخرة.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّكَ وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيْدِنَاهُ رُوحَ الْقُدُسِ أَنْجَلْنَاكُمْ أَنْ يُرْسِلَ بِمَا لَا تَهْتَكُ أَنْفُسُكُمْ أَشْكَرْتُمْ قَرِينًا كَذِبًا وَمَقَرَّيْنَا قُلُوبَكُمْ ۖ وَقَالُوا لَوْلَا نُفُوذُ غُلْفٍ بَلْ لَسْتُمْ أَكْثَرُكُمْ قَلِيلًا لَمَّا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٧﴾

الكتاب: التوراة، والتفقية: الإتيان، والإرداف، مأخوذة من القفا، وهو مؤخر العنق، تقول: استتقيته: إذا جثت من خلفه، ومنه سميت قافية الشعر؛ لأنها تتلو سائر الكلام. والمراد أن الله سبحانه أرسل على أثره رسلاً جعلهم تابعين له، وهم أنبياء بني إسرائيل المبعوثين من بعده. و «البينات» الأدلة التي نكرها الله في آل عمران، والمائدة. والتأييد: التقوية. وقرأ مجاهد، وابن محيصن: «آييناه» بالمد، وهما لغتان. وروح القدس من إضافة الموصوف إلى الصفة أي: الروح المقدسة. والقدس: الطهارة، والمقدس: المطهر، وقيل هو: جبريل أيد الله به عيسى، ومنه قول حسان:

وجبريل أمين الله فينا - وروح القدس ليس به خفاء قال النحاس: وسمي جبريل روحاً، وأضيف إلى القدس؛ لأنه كان بتكوين الله له من غير ولادة، وقيل القدس، هو الله عز وجل، وروحه جبريل، وقيل المراد بروح القدس: الاسم الذي كان عيسى يحيي به الموتى، وقيل المراد به الإنجيل، وقيل المراد به الروح المنفوخ فيه، أيده الله به لما فيه من القوة. وقوله: «بما لا تهوى أنفسكم» أي: بما لا يوافقها، ويلائمها، وأصل الهوى: الميل إلى الشيء. قال الجوهري: وسمي الهوى هوى؛ لأنه يهوى بصاحبه إلى النار. وبخهم الله سبحانه بهذا الكلام المعنون بهمة التوبيخ فقال: «افعلوا ما جاءكم رسول» منكم «بما لا» يوافق ما تهوونه استكبرتم عن إجابته احتقاراً للرسول، واستبعاداً للرسالة، والفاء في قوله: «افعلوا» للعطف على مقدر أي: آتيناكم يا بني إسرائيل من الأنبياء ما آتيناكم افعلوا ما جاءكم رسول. وفريقاً منصوب بالفعل الذي بعده، والفاء للتفصيل، ومن

يخالفه. والاستفتاح الاستنصار أي: كانوا من قبل يطلبن من الله النصر على أعدائهم بالنيبي المنعوت في آخر الزمان الذي يجدون صفته عندهم في التوراة، وقيل: الاستفتاح هنا بمعنى الفتح أي: يخبرونهم بأنه سيبعث، ويعرفونهم بذلك، وجواب «لما» في قوله: «ولما جاءهم كتاب» قيل هو: قوله: «فلما جاءهم ما عرفوا» وما بعده، وقيل هو: محنوف أي: كذبوا، أو نحوه، كذا قال الأخفش، والزجاج. وقال المبرد: إن جواب «لما الأولى هو قوله: «كفروا» وأعيدت «لما» الثانية لطول الكلام، واللام في الكافرين للجنس. ويجوز أن تكون للعهد، ويكون هذا من وضع الظاهر موضع المضمرة، والأول أظهر، و«ما» في قوله: «بثسما» موصولة، أو موصوفة أي: بثس الشيء، أو شيئاً «اشتروا به أنفسهم» قاله سيبويه. وقال الأخفش: «ما» في موضع نصب على التمييز كقولك: بثس رجلاً زيد. وقال الفراء: بثسما بجملته شيء واحد ركب كعبذاً. وقال الكسائي: «ما»، «اشتروا» بمنزلة اسم واحد قائم بنفسه، والتقدير: بثس اشتراؤهم أن يكفروا. وقوله: «أن يكفروا» في موضع رفع على الابتداء عند سيبويه، وخبره ما قبله. وقال الفراء، والكسائي: إن شئت كان في موضع خفض بدلاً من الهاء في به أي: اشتروا أنفسهم بأن يكفروا. وقال في الكشف: إن «ما» نكرة منصوبة مفسرة لفاعل بثس، بمعنى شيئاً اشتروا به أنفسهم، والمخصوص بالذم أن يكفروا، واشتروا بمعنى باعوا. وقوله: «بغيا» أي: حسداً. قال الأصمعي: البغي مأخوذ من قولهم قد بغى الجرح: إذا فسد، وقيل: أصله الطلب، ولذلك سميت الزانية بغياً. وهو علة لقوله: «اشتروا» وقوله: «أن ينزل» علة لقوله: «بغيا» أي: لأن ينزل. والمعنى: أنهم باعوا أنفسهم بهذا الثمن البخس حسداً، ومناقسة «أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده» وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب، وابن محيصن: «أن ينزل» بالتخفيف. «فباؤوا» أي: رجعوا، وصاروا أحقاء «بغضب على غضب» وقد تقدم معنى باؤوا، ومعنى الغضب، قيل الغضب، الأول لعبائتهم العجل، والثاني لكفرهم بمحمد، وقيل: كفرهم بعبسى، ثم كفرهم بمحمد، وقيل: كفرهم بمحمد، ثم البغي عليه، وقيل غير ذلك. والمهين مأخوذ من الهوان، قيل وهو: ما اقتضى الخلود في النار. وقوله: «بما أنزل الله» هو: القرآن، وقيل: كل كتاب أي: صلبوا بالقرآن، أو صلبوا بما أنزل الله من الكتب «قالوا نؤمن» أي: نصق «بما أنزل علينا» أي: التوراة. وقوله: «ويكفرون بما وراء» قال الفراء: بما سواه. وقال أبو عبيدة: بما بعده. قال الجوهري: وراء بمعنى خلف، وقد يكون بمعنى قدام، وهي من الأضداد. ومنه قوله تعالى: «وكان وراءهم ملك» [الكهف: 79] أي: قدامهم، وهذه الجملة أعني، ويكفرون في محل النصب على الحال أي: قالوا نؤمن بما أنزل علينا حال كونهم كافرين بما وراء مع كون هذا الذي هو وراء ما يؤمنون به هو الحق. وقوله:

ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جببر في قوله: «فريقا» قال: طائفة. وأخرج عن ابن عباس قال: إنما سمي القلب لتقلبه. وأخرج الطبراني في الأوسط عنه أنه كان يقرأ: «قلوبنا غلف» مثقلة أي: كيف نتعلم، وقلوبنا غلف للحكمة أي: أوعية للحكمة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه في قوله: «وقالوا قلوبنا غلف» ملووءة علماً لا تحتاج إلى علم محمد، ولا غيره، وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: «قلوبنا غلف» قال: في غطاء. ودوى ابن إسحاق، وابن جرير عنه أنه قال: في كنة. وأخرج ابن جرير عنه أنه قال: هي القلوب المطبوع عليها. وأخرج وكيع عن عكرمة، وابن جرير، عن مجاهد نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة قال: هي التي لا تفقه. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص، وابن جرير عن حنيفة قال: القلوب أربعة: قلب أغلف، فذلك قلب الكافر، وقلب مصفح، فذلك قلب المنافق، وقلب لجرد فيه مثل السراج، فذلك قلب المؤمن، وقلب فيه إيمان، ونفاق، فمثل الإيمان كمثل شجرة يمدّها ماء طيب، ومثل المنافق كمثل قرحة يمدّها القيح، والدم. وأخرج أحمد بسند جيد، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «القلوب أربعة: قلب أجرد فيه مثل السراج يزهى، وقلب أغلف مربوط على غلافه، وقلب منكوس، وقلب مصفح. فأما القلب الأجرد، فقلب المؤمن سراج فيه نوره، وأما القلب الأغلف، فقلب الكافر، وأما القلب المنكوس، فقلب المنافق غرف ثم أنكر، وأما القلب المصفح، فقلب فيه إيمان، ونفاق، فمثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدّها الماء الطيب، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدّها القيح، فأى المائتين غلبت على الأخرى غلبت عليه». وأخرج ابن أبي حاتم عن سلمان الفارسي مثله سواء موقوفاً. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، عن قتادة في قوله: «فقليل ما يؤمنون» قال: لا يؤمن منهم إلا قليل.

وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَوِّدٌ لِمَا مَسَّهِمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَمَّا نَزَّلَ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٨﴾ يَسْتَكْبِرُوا بِهِ أَنْفُسُهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَقِيَانُ أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فِصْلٍ عَنْ يَسَارٍ وَمِنْ بَيِّنَاتٍ وَأَمَّا أَنْزَلَ عَلَى الْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِمٌّ ﴿٨٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَوْحِيدٌ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَكَفَرُوا بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٠﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ كَاذِبُونَ ﴿٩١﴾

«ولما جاءهم» يعني اليهود «كتاب» يعني القرآن، و«مصق» وصف له، وهو في مصحف أبي منصور، ونصبه على الحال، وإن كان صاحبها نكرة، فقد تخصصت بوصفها بقوله: «من عند الله» وتصديقه لما معهم من التوراة، والإنجيل أنه يخبرهم بما فيهما، ويصفه، ولا

﴿مُصْنِقًا﴾ حال مؤكدة، وهذه احوال متداخلة اعني قوله: ﴿ويكفرون﴾ وقوله: ﴿وهو الحق﴾ وقوله: ﴿مُصْنِقًا﴾ ثم اعترض الله سبحانه عليهم لما قالوا نؤمن بما انزل علينا بهذه الجملة المتشتملة على الاستفهام المفيد للتوبيخ أي: إن كنتم تؤمنون بما انزل عليكم، فكيف تقتلون الانبياء، وقد نهيتم عن قتلهم، فيما انزل عليكم؟ وهذا الخطاب، وإن كان مع الحاضرين من اليهود، فالمراد به اسلافهم، ولكنهم لما كانوا يرضون بأفعال سلفهم كانوا مثلهم. واللام في قوله: ﴿ولقد﴾ جواب لقسم مقدر. والبيئات يجوز أن يراد بها التوراة، أو التسع الآيات المشار إليها بقوله تعالى: ﴿ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات﴾ [الإسراء: 101] ويجوز أن يراد الجميع، ثم عيبت العجل بعد النظر في تلك البيئات حال كونكم ظالمين بهذه العبادة الصادرة منكم عناداً بعد قيام الحجة عليكم.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، عن قتادة في قوله: ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصنق﴾ قال: هو القرآن ﴿مصنق لما معهم﴾ من التوراة، والإنجيل. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وإبو نعيم، والبيهقي كلاهما في الدلائل من طريق عاصم بن عمر بن قتادة الانصاري قال: حدثني أشياخ منا قالوا: لم يكن أحد من العرب أعلم بشأن رسول الله ﷺ منا؛ لأن معنا يهود، وكانوا أهل كتاب، وكنا أصحاب وثن، وكانوا إذا بلغهم منا ما يكرهون قالوا: إن نبياً ليبعث الآن قد اظلم زمانه نتبعه، فنقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما بعث رسول الله ﷺ اتبعناه، وكفروا به، ففينا، والله، وفيهم أنزل الله: ﴿وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا﴾ وأخرج البيهقي في الدلائل عن ابن عباس، وابن مسعود، وناس من الصحابة قالوا: كانت العرب تمر باليهود، فيؤثنونهم، وكانوا يجنون محمداً في التوراة، فيسألون الله أن يبعثه نبياً، فيقاتلون معه العرب، فلما جاء محمد كفروا به حين لم يكن من بني إسرائيل. وقد روي نحو هذا، عن ابن عباس من غير وجه بالفاظ مختلفة، ومعانيها متقاربة. وروي عن غيره من السلف نحو ذلك. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة في قوله: ﴿بئسما اشتروا به أنفسهم﴾ قال: هم اليهود كفروا بما أنزل الله، وبمحمد ﷺ بغيا، وحسداً للعرب ﴿فبأقوا بغضب على غضب﴾ قال: غضب الله عليهم مرتين بكفرهم بالإنجيل، وبعبسى، وبكفرهم بالقرآن، وبمحمد. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿بغيا أن يفزل الله﴾ أي: أن الله جعله من غيرهم ﴿فبأقوا بغضب﴾ بكفرهم بهذا النبي ﴿على غضب﴾ كان عليهم بما صنعوه من التوراة. وأخرج ابن جرير، عن عكرمة نحوه. وأخرج أيضاً عن مجاهد معناه. وأخرج ابن جرير، عن أبي العالية في قوله: ﴿ويكفرون بما وراءه﴾ قال: بما بعده. وأخرج ابن جرير عن السدي قال: بما وراءه أي القرآن. وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ رَرَقَمْنَا نَوَاصِيَكُمْ أَلْطَوْرَ حُدُوًّا مَّا ءَاتَيْنَاكُمْ

يَقْرَؤُ وَاسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَصَمَّيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الِيجْعَلْ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِسْمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيسَتُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٠٠﴾ وَإِنْ يَتَمَنَّوْا أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ إِلَيْهِمْ ۖ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿١٠١﴾ وَلَنَجْذِذَهُمْ أَعْرَصَ النَّاسِ عَلَى حِوَرٍ وَمِنَ الذَّيْتِ أَشْرَكُوا يَوْمَ أَهْلَهُمْ لَوْ يَسْمَرُ أَلْفَ مَسَرَّةٍ وَمَا هُوَ بِمُرْتَهَبَةٍ مِنَ الْعَذَابِ ۚ أَنْ يَمَسَّ ۖ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٢﴾

قد تقدم تفسير أخذ الميثاق، ورفع الطور. والأمر بالسمع معناه الطاعة، والقبول، وليس المراد مجرد الإدراك بحاسة السمع، ومنه قولهم: سمع الله لمن حمده أي: قبل وأجاب، ومنه قول الشاعر:

دعوت الله حتى خفت أن لا يكون الله يسمع ما أقول
أي يقبل، وقولهم في الجواب ﴿سمعنا﴾ هو: على بابه، وفي معناه أي: سمعنا قولك بحاسة السمع، وعصيناك أي: لا نقبل ما تأمرنا به، ويجوز أن يكونوا أرادوا بقولهم: ﴿سمعنا﴾ ما هو معهود من تلاعبهم، واستعمالهم المغالطة في مخاطبة انبيائهم، وذلك بأن يحملوا قوله تعالى: ﴿اسمعوا﴾ على معناه الحقيقي أي: السمع بالحاسة. ثم أجابوا بقولهم: ﴿سمعنا﴾ أي: أنركنا ذلك باسماعنا عملاً بموجب ما تأمر به، ولكنهم لما كانوا يعلمون أن هذا غير مراد الله عز وجل بل مراده بالأمر بالسمع الأمر بالطاعة، والقبول لم يقتصروا على هذه المغالطة بل ضموا إلى ذلك ما هو الجواب عندهم فقالوا: ﴿وعصينا﴾، وفي قوله: ﴿وأشربوا﴾ تشبيه بليغ أي: جعلت قلوبهم لتمكن حب العجل منها كأنها تشربه، ومثله قول زهير:

فصحت عنها بعد حب داخل والحب يشربه فزأك دائماً
وإنما عبر عن حب العجل بالشرب نون الأكل؛ لأن شرب الماء يتغلغل في الأعضاء حتى يصل إلى باطنها، والطعام يجاوزها، ولا يتغلغل فيها، والباء في قوله: ﴿بكفروهم﴾ سببية أي: كان ذلك بسبب كفرهم عقوبة لهم، وخذلانا. وقوله: ﴿قل بئسما يامرکم به إيمانكم﴾ أي: إيمانكم الذي زعمتم أنكم تؤمنون بما أنزل عليكم، وتكفرون بما وراءه، فإن هذا الصنع، وهو قولكم: ﴿سمعنا وعصينا﴾ في جواب ما أمرتم به في كتابكم، وأخذ عليكم الميثاق به مناد عليكم بأبلغ نداء بخلاق ما زعمتم، وكذلك ما وقع منكم من عبادة العجل، ونزول حبه من قلوبكم منزلة الشراب هو من أعظم ما يدل على أنكم كاذبون في قولكم: ﴿نؤمن بما أنزل علينا﴾ [البقرة: 91] لا صائقون، فإن زعمتم أن كتابكم الذي آمنتم به امرکم بهذا، فبئسما يامرکم به إيمانكم بكتابكم، وفي هذا من التهكم بهم ما لا يخفى. وقوله: ﴿قل إن كانت لكم الدار الآخرة﴾ هو رد عليهم لما أنعوا أنهم يدخلون الجنة، ولا يشاركم في نخولها غيرهم، وإلزام لهم بما يتبين به أنهم كاذبون في تلك الدعوى، وأنها صادرة منهم لا عن برهان،

فيه خروج من الكلام في اليهود إلى غيرهم من مشركي العرب لكنه أرجح لعدم استلزامه للتكليف، ولا ضير في استطراد نكر حرص المشركين بعد نكر حرص اليهود. وقال الرازي: إن الثاني أرجح ليكون ذلك أبلغ في إبطال دعواهم، وفي إظهار كذبهم في قولهم إن الدار الآخرة لنا لا لغيرنا. انتهى. ويجاب عنه بأن هذا الذي جعله مرجحاً قد أقاده قوله تعالى: ﴿وَلِتَجْنِبَهُمْ لِحِرْصِ النَّاسِ﴾ ولا يستلزم استثناء الكلام في المشركين أن لا يكونوا من جملة الناس، وخص الألف بالذكر؛ لأن العرب كانت تذكر ذلك عند إرادة المبالغة. وأصل سنة سنة، وقيل سنة. واختلف في الضمير في قوله: ﴿وَمَا هُوَ بِمَرْحُوحِهِ﴾ فقيل هو: راجع إلى أحدهم، والتقدير: وما أحدهم بمَرْحُوحِهِ من العذاب أن يعمر، وعلى هذا يكون قوله: ﴿أَنْ يَعْمَرَ﴾ فاعلاً لمَرْحُوحِهِ، وقيل هو: لما دل عليه يعمر من مصدره أي: وما التعمير بمَرْحُوحِهِ، ويكون قوله: «أن يعمر» بدلاً منه. وحكى الطبري عن فرقة أنها قالت: هو عماد، وقيل هو: ضمير الشأن، وقيل: «ما» هي الحجازية، والضمير اسمها، وما بعده خبرها، والأول أرجح، وكذلك الثاني، والثالث ضعيف جداً؛ لأن العماد لا يكون إلا بين شيئين، ولهذا يسمونه ضمير الفصل، والرابع فيه أن ضمير الشأن يفسر بجملة سالمة عن حرف جر كما حكاه ابن عطية عن النحاة. والزحزحة: التنحية، يقال زحزحته، فتزحزح: أي نحيت فتتحى، وتباعد، ومنه قول ذي الرمة:

يا قابض الروح عن جسم عصى زمناً
وفاقر الذنب زحزحني عن النار
والبصير: العالم بالشيء الخبير به، ومنه قولهم: فلان بصير بكذا: أي خبير به، ومنه قول الشاعر:

فإن تسألوني بالنساء فإنني بصير بأهواء النساء طبيب
وقد أخرج عبد الرزاق، وابن جرير، عن قتادة في قوله: ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعَجَلُ﴾ قال: أشربوا حبه حتى خلص ذلك إلى قلوبهم. وأخرج ابن جرير، عن أبي العالية، أن اليهود لما قالوا: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة: 111] الآية، نزل قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، مثله عن قتادة. وأخرج البيهقي، في الدلائل عن ابن عباس، أن قوله: ﴿خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ﴾ يعني المؤمنين: ﴿فَتَمْنُوا الْمَوْتَ﴾ فقال لهم رسول الله: «إن كنتم في مقاتلهم صائقين، فقولوا: اللهم أمتنا، فالذي نفسي بيده لا يقولها رجل منكم إلا غص بريقه، فمات مكلاه». وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَتَمْنُوا الْمَوْتَ﴾ أي: ادعوا بالموت على أي الفريقين أكتب، فابوا ذلك، ولو تمنوه يوم قال ذلك ما بقي على الأرض يهودي إلا مات. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو نعيم عنه قال: «لو تمنى اليهود الموت لماتوا». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه نحوه. وأخرج البخاري، وغيره من حديثه مرفوعاً: «لو أن اليهود تمنوا لماتوا، ولراوا مقاعدهم من النار». وأخرج ابن أبي حاتم،

و ﴿خَالِصَةً﴾ منصوب على الحال، ويكون خبر كان هو عند الله، أو يكون خبر كان هو خالصة، ومعنى الخلوص أنه لا يشاركهم فيها غيرهم إذا كانت اللام في قوله: ﴿مَنْ دُونِ النَّاسِ﴾ للجنس، أو لا يشاركهم فيها المسلمون إن كانت اللام للعهد. وهذا أرجح لقولهم في الآية الأخرى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة: 111] وإنما أمرهم بتمني الموت؛ لأن من اعتقد أنه من أهل الجنة كان الموت أحب إليه من الحياة، ولما كان ذلك منهم مجرد دعوى أحجموا، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ و«ما» في قوله: ﴿بِمَا قَنَمْتُمُ آبَائِهِمْ﴾ موصولة، والعائد محذوف أي: بما قنمته من الذنوب التي يكون فاعلها غير آمن من العذاب بل غير طامع في دخول الجنة، فضلاً عن كونه قاطعاً بها فضلاً عن كونها خالصة له مختصة به، وقيل: إن الله سبحانه صرفهم عن التمني ليجعل ذلك آية لنبيه ﷺ. والمراد بالتمني هنا هو: التلطف بما يدل عليه، لا مجرد خطوره بالقلب، وميل النفس إليه، فإن ذلك لا يراد في مقام المحاجة، ومواطن الخصومة، ومواقف التحدي، وفي تركهم للتمني، أو صرفهم عنه معجزة لرسول الله ﷺ، فإنهم قد كانوا يسلكون من التعجرف، والتجروء على الله، وعلى أنبيائه بالدعوى الباطلة في غير موطن ما قد حكاه عنهم التنزيل، فلم يتركوا عانيتهم هنا إلا لما قد تقرر عندهم من أنهم إذا فعلوا ذلك التمني نزل بهم الموت، إما لأمر قد علموه، أو للصرفة من الله عز وجل. وقد يقال: ثبت النهي عن النبي ﷺ عن تمني الموت، فكيف أمره الله أن يأمرهم بما هو منهى عنه في شريعته. ويجاب بأن المراد هنا إلزامهم الحجة، وإقامة البرهان على بطلان دعواهم. وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ تهديد لهم، وتسجيل عليهم بأنهم كذلك. واللام في قوله: ﴿وَلِتَجْنِبَهُمْ﴾ جواب قسم محذوف، وتنكير حياة للتحقير أي: أنهم أحرص الناس على أحقر حياة، وأقل لبث في الدنيا، فكيف بحياة كثيرة، ولبث متطول؟ وقال في الكشف: إنه أراد بالتنكير حياة مخصوصة، وهي: الحياة المتطولة، وتبعه في ذلك الرازي في تفسيره. وقوله: ﴿وَمَنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ قيل: هو: كلام مستأنف، والتقدير: ومن الذين أشركوا ناس ﴿يَبْوءُ أَحَدُهُمْ﴾ وقيل: إنه معطوف على الناس أي: أحرص الناس، وأحرص من الذين أشركوا، وعلى هذا يكون قوله: ﴿يَبْوءُ أَحَدُهُمْ﴾ راجعاً إلى اليهود بياناً لزيادة حرصهم على الحياة، ووجه ذكر الذين أشركوا بعد نكر الناس مع كونهم داخلين فيهم الدلالة على مزيد حرص المشركين من العرب، ومن شابههم من غيرهم. فمن كان أحرص منهم، وهم: اليهود كان بالغاً في الحرص إلى غاية لا يقاير قدرها. وإنما بلغوا في الحرص إلى هذا الحد الفاضل على حرص المشركين؛ لأنهم يعلمون بما يحل بهم من العذاب في الآخرة، بخلاف المشركين من العرب، ونحوهم، فإنهم لا يقرنون بذلك، وكان حرصهم على الحياة دون حرص اليهود. والأول، وإن كان

والحاكم وصححه عنه في قوله: ﴿وَلِتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِ﴾ قال اليهود: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ قال: وذلك أن المشركين لا يرجون بعثاً بعد الموت، فهو يحب طول الحياة، وإن اليهودي قد عرف ماله من الخزي بما ضيع ما عنده من العلم: ﴿وَمَا هُوَ بِمَزْحُجِهِ﴾ قال: بمنحيه. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم عنه في قوله: ﴿يَبُودُ أَحَدَهُمْ لَوْ يَعْمُرُ لَفِ سَنَةٍ﴾ قال: هو قول الأعاجم إذا عطس أحدهم «هه هه» إرسال، يعني عش ألف سنة.

قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿٧٨﴾

هذه الآية قد لجمع المفسرون على أنها نزلت في اليهود. قال ابن جرير الطبري: وأجمع أهل التأويل جميعاً أن هذه الآية نزلت جواباً على اليهود إذ زعموا أن جبريل عدو لهم، وأن ميكائيل ولي لهم. ثم اختلفوا ما كان سبب قولهم ذلك؟ فقال بعضهم: إنما كان سبب قيلهم ذلك من أجل مناظرة جرت بينهم وبين رسول الله ﷺ من أمر نبوته، ثم نكر روايات في ذلك ستأتي آخر البحث إن شاء الله. والضمير في قوله: ﴿فَإِنَّهُ﴾ يحتمل، وجهين: الأول أن يكون لله، ويكون الضمير في قوله: ﴿نَزَّلَهُ﴾ لجبريل أي: فإن الله سبحانه نزل جبريل على قلبك، وفيه ضعف كما يفيدته قوله: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾. الثاني أنه لجبريل، والضمير في «نزله» للقرآن أي: فإن جبريل نزل القرآن على قلبك، وخص القلب بالذكر؛ لأنه موضع العقل، والعلم، وقوله: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: يعلمه، وإرادته، وتيسيره، وتسهيله، ﴿وَمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ هو: التوراة كما سلف، أو جميع الكتب المعنوية، وفي هذا دليل على شرف جبريل، وارتفاع منزلته، وأنه لا وجه لمعاداة اليهود له حيث كان منه ما نكر من تنزيل الكتاب على قلبك، أو من تنزيل الله له على قلبك، وهذا هو وجه الربط بين الشرط، والجواب، أي: من كان معادياً لجبريل منهم، فلا وجه لمعاداته له، فإنه لم يصدر منه إلا ما يوجب المحبة دون العداوة، أو من كان معادياً له، فإن سبب معاداته أنه وقع منه ما يكرهونه من التنزيل، وليس ذلك بذنب له، وإن نزوه، فإن هذه الكراهة منهم له بهذا السبب ظلم، وعدوان، لأن هذا الكتاب الذي نزل به هو مصدق لكتابهم، وهدي، وبشري للمؤمنين، ثم أتبع سبحانه هذا الكلام بجملة مشتملة على شرط، وجزاء يتضمن الذم لمن عادى جبريل بذلك السبب، والوعيد الشديد له فقال: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ والعداوة من العبد هي: صدور المعاصي منه لله، والبغض لأوليائه، والعداوة من الله للعبد هي: تعذيبه بذنبه، وعدم التجاوز عنه، والمغفرة له، وإنما خص جبريل، وميكائيل بالذكر بعد نكر الملائكة لقصد التشريف لهما، والدلالة على فضلهما، وأنهما، وإن كانا من الملائكة، فقد صارا باعتبار ما

لهما من المزية بمنزلة جنس آخر أشرف من جنس الملائكة تنزيلاً للتغاير الوصفي منزلة التغاير الذاتي كما نكره صاحب الكشف، وقرره علماء البيان. وفي جبريل عشر لغات نكرها ابن جرير الطبري، وغيره، وقد قَدَّمنا الإشارة إلى ذلك. وفي ميكائيل ست لغات، وهما اسمان عجميان، والعرب إذا نطقت بالعجمي تساهلت فيه. وحكى الزمخشري عن ابن جني أنه قال: العرب إذا نطقت بالأعجمي خلطت فيه. وقوله: ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ من وضع الظاهر موضع المضمرة أي: فإن الله عدو لهم لقصد الدلالة على أن هذه العداوة موجبة لكفر من وقعت منه. وقد أخرج أحمد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو نعيم، والبيهقي عن ابن عباس قال: «حضرت عصابة من اليهود النبي ﷺ، فقالوا: يا أبا القاسم حدثنا عن خلال نساك عنهن لا يعلمن إلا نبي، قال: سلوني عما شئتم، فسألوه، ولجأهم، ثم قالوا: فحدثنا من وليك من الملائكة، فعندها نجامعك، أو نفارقك، فقال: وليي جبريل، ولم يبعث الله نبياً قط إلا وهو وليه؛ قالوا: فعندها نفارقك لو كان وليك سواه من الملائكة لاتبعناك، وصدقناك، قال: فما يمنعكم أن تصدقوه؟ قالوا: هذا عدونا، فعند ذلك أنزل الله الآية. وأخرج نحو ذلك ابن أبي شيبة في المصنف، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن الشعبي عن عمر بن الخطاب في قصة جرت له معهم، وإسنادها صحيح، ولكن الشعبي لم يدرك عمر، وقد رواها عكرمة، وقتادة، والسدي، وعبد الرحمن ابن أبي ليلى، عن عمر. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، والبخاري، والنسائي، وغيرهم، عن أنس قال: «سمع عبد الله ابن سلام بمقدم النبي ﷺ وهو في أرض يخترق، فأتى النبي ﷺ فقال: إني سأتلك عن ثلاث لا يعلمن إلا نبي: ما أول أشراف الساعة، وما أول طعام أهل الجنة، وما ينزع الولد إلى أبيه، أو إلى أمه؟ فقال: أخبرني بهن جبريل أنا، فقال: جبريل؟ قال: نعم، قال: ذاك عدو اليهود من الملائكة، فقرا هذه الآية: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾ قال: أما أول أشراف الساعة، فنار تخرج من المشرق، فتحشر الناس إلى المغرب، وأما أول ما يكل أهل الجنة، فزيادة كبد حوت، وأما ما ينزع الولد إلى أبيه، أو أمه، فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع إليه الولد، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزع إليها؛ قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله» وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ يقول: فإن جبريل نزل القرآن بأمر الله يشده به فؤادك، ويربط به على قلبك: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يقول لما قبله من الكتب التي أنزلها، والآيات، والرسائل التي بعثهم الله. وقد نكر السيوطي في هذا الموضع من تفسيره: «الدر المنثور» أحاديث كثيرة وأردت في جبريل، وميكائيل، وليست مما يتعلق بالتفسير حتى نذكرها.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتِنَا بِبَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿٧٩﴾ أَوْكَلِمَا عَلَهُدُوا عَهْدًا بَنَدُو فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٠﴾

نَبَذَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَأَى ظُهُورَهُمْ كَانُوا بِمَنْزِلَةٍ مِنْ لَا يَعْلَمُ. قَوْلُهُ: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ﴾ معطوف على قوله: «نبؤوا» أي: نبؤوا كتاب الله، واتبعوا ما تلتوا الشياطين من السحر، ونحوه. قال الطبري: اتبعوا بمعنى فعلوا. ومعنى: «تلتوا» تتقوله، وتقروءه ﴿وَعَلَىٰ مَلِكٍ سُلَيْمَانَ﴾ على عهد ملك سليمان، قاله الزجاج، وقيل: المعنى في ملك سليمان: يعني في قصصه، وصفاته، وأخباره. قال الفراء: تصلح «على»، وفي «في» هذا الموضع، والأول أظهر. وقد كانوا يظنون أن هذا هو: علم سليمان، وأنه يستجيزه، ويقول به، فردَّ الله ذلك عليهم، وقال: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينُ كَفَرُوا﴾ ولم يتقدم أن أحدا نسب سليمان إلى الكفر، ولكن لما نسبته اليهود إلى السحر صاروا بمنزلة من نسبته إلى الكفر؛ لأن السحر يوجب ذلك، ولهذا أثبت الله سبحانه كفر الشياطين فقال: ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينُ كَفَرُوا﴾ أي: بتعليمهم. وقوله: ﴿يَعْلَمُونَ النَّاسَ لِلْسَّحَرِ﴾ في محل نصب على الحال، ويجوز أن يكون في محل رفع على أنه خبر بعد خبر. وقرا ابن عامر، والكوفيون سوى عاصم: «ولكن الشياطين» بتخفيف لكن، ورفع الشياطين، والباقيون بالتشديد، والنصب. والسحر هو: ما يفعله الساحر من الحيل، والتخيلات التي تحصل بسببها للمسحور ما يحصل من الخواطر الفاسدة الشبيهة بما يقع لمن يرى السراب، فيظنه ماء، وما يظنه راكب السفينة، أو الدابة من أن الجبال تسير، وهو مشتق من سحرت الصبي إذا خدعته، وقيل أصله الخفاء، فإن الساحر يفعله خفية، وقيل: أصله اللصوف؛ لأن السحر مصروف عن جهته، وقيل: أصله الاستمالة؛ لأن من سحر، فقد استمالك. وقال الجوهري: السحر الأخذ، وكل ما لطف مأخذه وبق، فهو سحر. وقد سحره، يسحره سحراً، والساحر: العالم، وسحره أيضاً بمعنى خدعه. وقد اختلف هل له حقيقة أم لا؟ فذهبت المعتزلة، وأبو حنيفة إلى أنه خداع لا أصل له، ولا حقيقة. وذهب من عداهم إلى أن له حقيقة مؤثرة. وقد صح أن النبي ﷺ سحر، سحره لبيد بن الأعصم اليهودي حتى كان يخيّل إليه أنه يأتي الشيء ولم يكن قد أتاه، ثم شفاه الله سبحانه، والكلام في ذلك يطول. وقوله: ﴿وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ أي: يعلمون الناس ما أنزل على الملائكة، فهو معطوف على السحر، وقيل هو: معطوف على قوله: «ما تلتوا الشياطين» أي: واتبعوا ما أنزل على الملائكة. وقيل: إن «ما» في قوله: ﴿وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ نافية، والواو عاطفة على قوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ وفي الكلام تقديم، وتأخير، والتقدير: وما كفر سليمان، وما أنزل على الملائكة، ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل هاروت، وماروت، فهاروت، وماروت بدل من الشياطين في قوله: ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينُ كَفَرُوا﴾ ذكر هذا ابن جرير، وقال: فإن قال لنا قائل: وكيف وجه تقديم ذلك؟ قيل: وجه تقديمه أن يقال: واتبعوا ما تلتوا الشياطين على ملك سليمان، وما كفر سليمان وما أنزل الله على الملائكة، ولكن الشياطين كفروا

وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ بَشِّرَ رَبِّكَ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كَتَبَ اللَّهُ وَرَأَى ظُهُورَهُمْ كَانَتْهُمْ لَا يَتْلُونَ ﴿٥١﴾ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينُ كَفَرُوا يَعْلَمُونَ النَّاسَ لِلنَّاسِ الْيَتَرِ وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُجَالِسَانِ مِنْ آدَمَ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا غَرَبْنَا هُنَا فَلَ تَكْفُرْ فَيَعْلَمُونَ مِنْهُمَا مَا يَقْرَأُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَآئِرٍ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتْلَمُونَ مَا يُصَرُّهُمْ وَلَا يَسْمَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَئِنَّ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾

الضمير في قوله: ﴿إِلَيْكَ﴾ للنبي ﷺ أي: أنزلنا إليك علامات واضحات دالة على نبوتك. وقوله: ﴿إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ قد تقدم تفسيره، والظاهر أن المراد جنس الفاسقين، ويحتمل أن يراد اليهود؛ لأن الكلام معهم، والواو في قوله: ﴿وَأُولَئِكَ﴾ للعطف دخلت عليها همزة الاستفهام كما تدخل على الفاء، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [المائدة: 50] «أفانت تسمع الصم» [يونس: 42، الزخرف: 40] «أفقتنخونه ونزيتته» [الكهف: 50] ثم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا إِذَا مَا وَقَعَ﴾ [يونس: 51] وهذا قول سيبويه. وقال الأخفش: الواو زائدة. وقال الكسائي: إنها أو حركت الواو تسهلاً. قال ابن عطية: وهذا كله متكلف، والصحيح قول سيبويه، والمعطوف عليه محذوف، والتقدير: اكفروا بالآيات البينات، وكلما عاهدوا. وقوله: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ﴾ قال ابن جرير: أصل النبد الطرح، والإلقاء، ومنه سمي اللقيط منبذاً، ومنه سمي التنبذ، وهو التمر، والزبيب إذا طرحا في الماء، قال أبو الأسود:

نظرت إلى عنوانه فنبتته كنبذك نعلأ أخلقت من نعلكا
وقال آخر:

إِنَّ الَّذِينَ أَسْرَتَهُمْ أَنْ يَعْلَمُوا نَبؤَا كِتَابَكَ وَاسْتَحْلَ الْمُحَرَّمِ
وقوله: ﴿وَرَأَى ظُهُورَهُمْ﴾ أي: خلف ظهورهم، وهو: مثل يضرب لمن يستخف بالشيء، فلا يعمل به تقول العرب: اجعل هذا خلف ظهرك، ودير أذنك، وتحت قدمك: أي اتركه، وأعرض عنه، ومنه ما أنشده الفراء:

تيمم بن زيد لا تكون حاجتي بظهر فلا يعيبي علي جوابها
وقوله: ﴿كِتَابَ اللَّهِ﴾ أي: التوراة؛ لأنهم لما كفروا بالنبي ﷺ، وبما أنزل عليه بعد أن أخذ الله عليهم في التوراة الإيمان به، وتصديقه، واتباعه، وبين لهم صفته، كان ذلك منهم نبذاً للتوراة، ونقضاً لها، ورفضاً لما فيها، ويجوز أن يراد بالكتاب هنا القرآن أي: لما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم من التوراة نبؤوا كتاب الله الذي جاء به هذا الرسول، وهذا أظهر من الوجه الأول. وقوله: ﴿كَانَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ تشبيه لهم بمن لا يعلم شيئاً مع كونهم يعلمون علماً يقيناً من التوراة بما يجب عليهم من الإيمان بهذا النبي، ولكنهم لما لم يعملوا بالعلم بل عملوا عمل من لا يعلم من

يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت، فيكون معنياً بالملكين جبريل وميكائيل؛ لأن سحرة اليهود فيما نكر كانت تزعم أن الله أنزل السحر على لسان جبريل وميكائيل إلى سليمان بن داود، فأكذبهم الله بذلك، وأخبر نبيه ﷺ أن جبريل وميكائيل لم ينزلا بسحر، وبرأ سليمان مما نحلوه من السحر، وأخبرهم أن السحر من عمل الشياطين، وأنها تعلم الناس ذلك ببابل، وأن الذين يعلمونهم تلك رجالان أحدهما هاروت، والآخر ماروت، فيكون هاروت وماروت على هذا التأويل ترجمة عن الناس ورداً عليهم. انتهى. وقال القرطبي في تفسيره بعد أن حكى معنى هذا الكلام، ورجح أن هاروت وماروت يدل من الشياطين ما لفظه: هذا أولى ما حملت عليه الآية، وأصح ما قيل فيها، ولا يلتفت إلى سواء، فالسحر من استخراج الشياطين للطاقة جوهرهم، وبقة أفعالهم، وأكثر ما يتعاطاه من الإنس النساء، وخاصة في حال طمئنهن، قال الله: ﴿ومن شر التفات في العقد﴾ [الفلق: 4] ثم قال: إن قيل كيف يكون اثنان بدلاً من جمع، والبدل إنما يكون على حد المبدل؟ ثم أجاب عن ذلك بأن الاثنين قد يطلق عليهما الجمع، أو أنهما خصا بالذكر دون غيرهما لتمردهما، ويؤيد هذا أنه قرأ ابن عباس، والضحاك، والحسن: «الملكين» بكسر اللام، ولعل وجه الجزم بهذا التأويل مع بعده، وظهور تكلفه تنزيه الله سبحانه أن ينزل السحر إلى أرضه فتنة لعباده على السن ملائكته. وعندي أنه لا موجب لهذا التعسف المخالف لما هو الظاهر، فإن الله سبحانه أن يمتحن عباده بما شاء كما امتحن بنهر طالوت، ولهذا يقول الملكان: ﴿إنما نحن فتنة﴾ قال ابن جرير: وذهب كثير من السلف إلى أنهما كانا ملكين من السماء، وأنهما أنزلا إلى الأرض، فكان من أمرهما ما كان، ويبل قيل: هي العراق، وقيل نهاوند، وقيل نصيبين، وقيل المغرب. وماروت وماروت اسمان أعجميان لا ينصرفان. وقوله: ﴿وما يعلمان من أحد حتى يقول﴾ قال الزجاج: تعليم إنذار من السحر لا تعليم دعاء إليه، قال: وهو الذي عليه أكثر أهل اللغة، والنظر، ومعناه: أنهما يعلمان على النهي، فيقولان لهم: لا تفعلوا كذا، و«من» في قوله: «من أحد» زائدة للتوكيد، وقد قيل إن قوله: «يعلمان» من الإعلام لا من التعليم، وقد جاء في كلام العرب تعلم بمعنى أعلم كما حكاه ابن الأنباري، وابن الأعرابي، وهو كثير من أشعارهم كقول كعب بن مالك:

تعلم رسول الله أنك مكركي وإن وعيداً منك كالأخذ باليد وقال القطامي:

تعلم أن بعد الغي رشداً وإن لئلك الغي انقشاعاً وقوله: ﴿إنما نحن فتنة﴾ هو: على ظاهره أي: إنما نحن ابتلاء، واختبار من الله لعباده، وقيل إنه استهزاء منهما؛ لأنهما إنما يقولانه لمن قد تحققا ضلاله، وفي قولهما: ﴿فلا تكفر﴾ أبلغ إنذار، وأعظم تحذير أي: أن هذا نذير يكون من فعله كافراً، فلا تكفر، وفيه دليل على أن تعلم السحر كفر، وظاهره عدم الفرق بين المعتقد، وغير المعتقد، وبين من

تعلمه ليكون ساحراً، ومن تعلمه ليقدّر على دفعه. وقوله: ﴿فيتعلمون﴾ فيه ضمير يرجع إلى قوله: «من أحد» قال سيبويه: التقدير، فهم يتعلمون، قال: ومثله ﴿كن فيكون﴾ [البقرة: 117] وقيل هو: معطوف على موضع ما يعلمان؛ لأنه وإن كان منفياً، فهو يتضمن الإيجاب. وقال الفراء: هي مبنودة على قوله: «يعلمون الناس السحر» أي: يعلمون الناس، فيتعلمون، وقوله: ﴿ما يفرقون به بين المرء وزوجه﴾ في إسناده التفريق إلى السحرة، وجعل السحر سبباً لذلك دليل على أن للسحر تأثيراً في القلوب بالحب، والبغض، والجمع، والفرقة، والقرب، والبعد. وقد ذهبت طائفة من العلماء إلى أن الساحر لا يقدر على أكثر مما أخبر الله به من التفرقة؛ لأن الله نكر ذلك في معرض الذم للسحر، وبين ما هو الغاية في تعليمه، فلو كان يقدر على أكثر من ذلك لنكره. وقالت طائفة أخرى: إن ذلك خرج مخرج الأغلب، وأن الساحر يقدر على غير ذلك المنصوص عليه، وقيل ليس للسحر تأثير في نفسه أصلاً لقوله تعالى: ﴿وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله﴾ والحق أنه لا تنافي بين قوله: ﴿فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه﴾ وبين قوله: ﴿وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله﴾ فإن المستفاد من جميع ذلك أن للسحر تأثيراً في نفسه، ولكنه لا يؤثر ضرراً إلا فيمن آثر الله بتأثيره فيه. وقد أجمع أهل العلم على أن له تأثيراً في نفسه، وحقيقة ثابتة، ولم يخالف في ذلك إلا المعتزلة، وأبو حنيفة كما تقدم، وقوله: ﴿ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم﴾ فيه تصريح بأن السحر لا يعود على صاحبه بفائدة، ولا يجلب إليه منفعة بل هو: ضرر محض، وخسران بحت، واللام في قوله: ﴿ولقد﴾ جواب قسم محذوف، وفي قوله: ﴿لمن اشتراه﴾ للتأكيد و«من» موصولة، وهي في محل رفع على الابتداء، والخبر قوله: ﴿ماله في الآخرة من خلاق﴾ وقال الفراء إنها شرطية للمجازاة. وقال الزجاج: ليس هذا بموضع شرط، ورجح أنها موصولة كما نكرنا. والمراد بالشراء هنا: الاستبدال أي من استبدل ما تتلوا الشياطين على كتاب الله، والخلق: للنصيب عند أهل اللغة، كذا قال الزجاج. والمراد بقوله: ﴿ما شروا به أنفسهم﴾ أي: باعوها. وقد أثبت لهم العلم في قوله: ﴿ولقد علموا﴾ ونفاه عنهم في قوله: ﴿لو كانوا يعلمون﴾ واختلفوا في توجيه ذلك، فقال قطرب، والأخفش: إن المراد بقوله: ﴿ولقد علموا﴾ الشياطين، والمراد بقوله: ﴿لو كانوا يعلمون﴾ الإنس. وقال الزجاج: إن الأول للملكين، وإن كان بصيغة الجمع، فهو مثل قولهم: الزيدان قاموا. والثاني المراد به علماء اليهود، وإنما قال: ﴿لو كانوا يعلمون﴾ لأنهم تركوا العمل بعلمهم. وقوله: ﴿ولو أنهم آمنوا﴾ أي بالنبي ﷺ، وما جاء به من القرآن، ﴿واتقوا﴾ ما وقعوا فيه من السحر، والكفر، واللام، في قوله: ﴿لمتوبة﴾ جواب لو، والمثوبة: الثواب. وقال الأخفش: إن الجواب محذوف، والتقدير، ولو أنهم آمنوا، واتقوا لأثبوا،

فحذف لدلالة قوله: «لمثوبة» عليه وقوله: «لو كانوا يعلمون»: هو: إما للدلالة على أنه لا علم لهم، أو لتنزيل علمهم مع عدم العمل منزلة العدم.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس: «قال ابن صوريا للنبي ﷺ يا محمد ما جئتنا بشيء يعرف، وما أنزل الله عليك من آية بينة، فأنزل الله تعالى في ذلك: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيْنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾» وقال مالك بن الصيف حين بعث رسول الله ﷺ، ونكرهم ما أخذ عليهم من الميثاق، وما عهد إليهم في محمد: والله ما عهد إلينا في محمد، ولا أخذ علينا شيئاً، فأنزل الله: ﴿وَأَوْكَلِمَا عَاهِدُوا﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، عنه في قوله: ﴿آيَاتٍ بَيْنَاتٍ﴾ يقول: فأنزل الله عليه، وتخبرهم به غيرة، وعشية، وبين ذلك، وأنت عندهم أمي لم تقرأ الكتاب، وأنت تخبرهم بما في أيديهم على وجهه، ففي ذلك عبرة لهم، وحجة عليهم ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾. وأخرج ابن جرير، عن قتادة في قوله: ﴿نَبِيَّهُ﴾ نقضه. وأخرج أيضاً عن السدي في قوله ﴿مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾ قال: قال: لما جاءهم محمد عارضوه بالتوراة، واتفقت التوراة، والقرآن، فنبدوا التوراة، وأخذوا بكتاب آصف، وسحر هاروت وماروت، كأنهم لا يعلمون بما في التوراة من الأمر باتباع محمد ﷺ، وتصديقه. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، عن ابن عباس قال: إن الشياطين كانوا يسترقون السمع من السماء، فإذا سمع أحدهم بكلمة حق كذب معها ألف كلمة، فاشربتها قلوب الناس، واتخذوها نواوين، فأطلع الله على ذلك سليمان بن داود، فأخذها، ففلقها تحت الكرسي، فلما مات سليمان قام شيطان بالطريق، فقال: ألا أنلكم على كنز سليمان الذي لا كنز لأحد مثل كنزه الممنوع؟ قالوا: نعم، فأخرجوه فإذا هو: سحر، فتناستختها الأمم، وأنزل الله عن سليمان، فيما قالوا من السحر، فقال: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مَلِكٍ سُلَيْمَانَ﴾ الآية. وأخرج النسائي، وابن أبي حاتم، عنه قال: كان آصف كاتب سليمان، وكان يعلم الاسم الأعظم، وكان يكتب كل شيء بلمس سليمان، ويفننه تحت كرسيه، فلما مات سليمان أخرجه الشياطين، فكتبوا بين كل سطرين سحراً، وكفراً، وقالوا: هذا الذي كان سليمان يعمل بها، فأكفره جهال الناس، وسبوه، ووقف علماءهم، فلم يزل جهالهم يسبون حتى أنزل الله على محمد: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ﴾ الآية، وأخرج ابن جرير، عنه قال: كان سليمان إذا أراد أن يدخل الخلاه، أو يأتي شيئاً من شأنه أعطى الجرادة، وهي: امرأته خاتمه، فلما أراد الله أن يبتلي سليمان بالذي ابتلاه به أعطى الجرادة ذات يوم خاتمه، فجاء الشيطان في صورة سليمان، فقال لها: هاتي خاتمي، فأخذه، فلبسه، فلما لبسه دانت له الشياطين، والجن، والإنس، فجاء سليمان، فقال: هاتي خاتمي، فقالت: كذبت لست سليمان، فعرف أنه بلاء ابتلي به، فانطلقت الشياطين، فكتبت في تلك

الأيام كتباً فيها سحر، وكفر، ثم فنوها تحت كرسي سليمان، ثم أخرجوها، فقرأوها على الناس، وقالوا: إنما كان سليمان يغلب الناس بهذه الكتب، فبرئ الناس من سليمان، وأكفروه حتى بعث الله محمداً، وأنزل عليه: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾. وأخرج ابن جرير، عنه في قوله: ﴿وَمَا تَتْلُوا﴾ قال: ما تتبع. وأخرج أيضاً عن عطاء في قوله: ﴿وَمَا تَتْلُوا﴾ قال: نراه ما تحدث. وأخرج أيضاً عن ابن جرير في قوله: ﴿عَلَىٰ مَلِكٍ سُلَيْمَانَ﴾ يقول: في ملك سليمان. وأخرج أيضاً عن السدي في قوله: ﴿وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ قال: هذا سحر آخر خاصمه به، فإن كلام الملائكة، فيما بينهم إذا علمته الإنس، فصنع، وعمل به كان سحراً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ قال: لم ينزل الله السحر. وأخرج ابن أبي حاتم، عن علي قال: هما ملكان من ملائكة السماء، وأخرج نحوه ابن مروي عن وجه آخر عنه مرفوعاً. وأخرج البخاري في تاريخه، وابن المنذر، عن ابن عباس: ﴿وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ يعني جبريل وميكائيل: ﴿بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾. يعلمان الناس السحر. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عبد الرحمن، بن أبزي أنه كان يقرأها وما أنزل على الملكين داود وسليمان. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الضحاك قال: هما علجان من أهل بابل. وأخرج البيهقي في شعب الإيمان من حديث، ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «أشرفت الملائكة على الدنيا، فرأت بني آدم يعصون، فقالت يا رب ما أجمل هؤلاء، ما أقل معرفة هؤلاء بعظمتك، فقال الله: لو كنتم في محلاتهم لعصيتوني، قالوا: كيف يكون هذا، ونحن نسبح بحمك، ونقدس لك؟ قال: فاختاروا منكم ملكين، فاختاروا هاروت وماروت، ثم أهبطا إلى الأرض، وركبت، فيهما شهوات بني آدم، ومثلت لهما امرأة، فما عصما حتى واقعا المعصية، فقال الله: اختارا عذاب الدنيا، أو عذاب الآخرة، فنظر أحدهما لصاحبه قال ما تقول؟ قال: أقول إن عذاب الدنيا ينقطع، وإن عذاب الآخرة لا ينقطع، فاختارا عذاب الدنيا، فهما اللذان نكر الله في كتابه: ﴿وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ الآية. وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عمر، أنه كان يقول: أطلعت الحمراء بعد، فإذا رأها قال: لا مرحباً، ثم قال: إن ملكين من الملائكة هاروت وماروت سالا الله أن يهبطهما إلى الأرض، فاهبطا إلى الأرض فكانا يقضيان بين الناس، فإذا أمسيا تكلمتا بكلمات، فمرجا بها إلى السماء، فقيض لهما امرأة من أحسن النساء، والقيت عليهما الشهوة، فجعلتا يؤخرانهما، والقيت في أنفسهما، فلم يزالا يفعلان حتى وعدتهما ميعاداً، فأتتهما للميعاد فقالت: علماني الكلمة التي تعرجان بها، فعلماهما الكلمة فتكلمتا بها فمرجتا إلى السماء، فمسخت فجعلتا كما ترون، فلما أمسيا تكلمتا بالكلمة، فلم يعرجا، فبعث إليهما: إن شئتما فعذاب الآخرة، وإن شئتما، فعذاب الدنيا إلى أن تقوم الساعة على أن تلقيا الله، فإن شاء عذبكما، وإن شاء

بالسمع، ولم يصح. انتهى. وأقول هذا مجرد استبعاد. وقد ورد الكتاب العزيز في هذا الموضع بما تراه، ولا وجه لإخراجه عن ظاهره بهذه التكلفات، وما نكره من أن الأصول تنفع تلك، فعلى فرض، وجود هذه الأصول، فهي مخصصة بما وقع في هذه القصة، ولا وجه لمنع التخصيص، وقد كان إبليس يملك المنزل العظيمة، وصار أشد البرية، وأكثر العالمين. وأخرج ابن جرير، عن قتادة في قوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فَتَنَةٌ﴾ قال: بلاء. وأخرج البزار بإسناد صحيح، والحاكم وصححه عن ابن مسعود، قال: «من أتى كاهناً، أو ساحراً، وصنّقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد». وأخرج البزار عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: «من تطير، أو تطير له، أو تكهن، أو سحر، أو سحر له، ومن عقد عقدة، ومن أتى كاهناً، فصنّقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد» وأخرج عبد الرزاق، عن صفوان بن سليم، قال: قال رسول الله ﷺ: «من تعلم شيئاً من السحر قليلاً، أو كثيراً كان آخر عهده من الله». وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس في قوله: ﴿مَنْ خَلَقَ﴾ قال: قوام. وأخرج ابن حاتم، عنه قال: ﴿مَنْ خَلَقَ﴾ من نصيب، وكذا روى ابن جرير، عن مجاهد. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، عن الحسن: ﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾ قال: ليس له دين. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي في قوله: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ﴾ قال: باعوا. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، عن قتادة في قوله: ﴿لَمَنُوبَةٍ﴾ قال: ثوب.

يَأْتِيهَا الذَّبَرُ ۖ مَاتُوا لَا تَعْلَمُوا رَيْبًا وَقُولُوا أَنْظَرْنَا وَاسْمَعُوا
وَالْكَافِرِينَ عَذَابُ إِلَهٍ ۖ مَا يَوْمُ الذَّبَرِ كَمَا يَوْمُ أَهْلِ الْكِتَابِ
وَلَا الْمُرْكِبِينَ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْهِمْ مِنْ حَيْرٍ مِمَّنْ رَزَقَهُمُ اللَّهُ بِحَبْرٍ
مِنْ دَمْعِهِ ۚ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٥﴾

قوله: ﴿راعنا﴾ أي: راقبنا، واحفظنا، وصيغة المفاعلة تدل على أن معنى ﴿راعنا﴾ ارعنا، ونرعاك، واحفظنا، ونحفظك، وراقبنا، ونرقيبك، ويجوز أن يكون من أرعنا سمعك أي: فرغه لكلامنا، وجه النهي عن ذلك أن هذا اللفظ كان بلسان اليهود سباً، قيل: إنه في لغتهم بمعنى اسمع لا سمعت، وقيل غير ذلك، فلما سمعوا المسلمين يقولون للنبي ﷺ راعنا طلباً منه أن يراعيهم من المراجعة اغتصموا الفرصة، وكانوا يقولون للنبي ﷺ كذلك مظهرين أنهم يريدون المعنى العربي، مبطلين أنهم يقصدون السب الذي هو: معنى هذا اللفظ في لغتهم وفي ذلك دليل على أنه ينبغي تجنب الألفاظ المحتملة للسب، والنقص، وإن لم يقصد المتكلم بها ذلك المعنى المفيد للشتم سداً للذريعة، وبدفعاً للوسيلة، وقطعاً لمادة المفسدة، والتطرق إليه، ثم أمرهم الله بأن يخاطبوا النبي ﷺ بما لا يحتمل النقص، ولا يصلح للتعريض، فقال: ﴿وَقُولُوا أَنْظَرْنَا﴾ أي: أقبل علينا، وانظر إلينا، فهو من باب الحذف، والإيصال، كما قال الشاعر:

ظاهرات الجمال والحسن ينظر ن كما ينظر الأراك الظباء

رحمكما، فنظر أحدهما إلي صاحبه، فقال: بل نختار عذاب الدنيا ألف ضعف، فهما يعذبان إلى يوم القيامة. وقد رويت هذه القصة عن ابن عمر بالغلاف، وفي بعضها أنه يروي ذلك ابن عمر عن كعب الأحبار، كما أخرجه عبد الرزاق، وابن شعبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الشعب من طريق الثوري، عن موسى بن عقبة، عن سالم، عن ابن عمر، عن كعب قال: ذكرت الملائكة أعمال بني آدم، وما يأتون من الذنوب، فقبل لو كنتم مكانهم لاتيتم مثل ما يأتون، فاخترنا منكم اثنين، فاخترنا هاروت وماروت، فقال لهما: إني أرسل إلى بني آدم رسلاً، فليس بيني، وبينكم رسول، انزلا لا تشركا بي شيئاً، ولا تزنيا، ولا تشربا الخمر، قال كعب: فوالله ما أمسيا من يومهما الذي أهبطا فيه حتى استعملا جميع ما نهاي عنه. قال ابن كثير: وهذا أصح، يعني من الإنسانين اللذين نكرهما قبله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وأبو الشيخ في العظمة، والحاكم وصححه عن علي بن أبي طالب، قال: إن هذه الزهرة تسميها العرب الزهرة، والعجم أناهيد، ونكر نحو الرواية السابقة عن ابن عمر، عند الحاكم. قال ابن كثير: وهذا الإسناد رجاله ثقات، وهو غريب جداً. وقد أخرج عبد بن حميد، والحاكم وصححه عن ابن عباس، قال: كانت الزهرة امرأة. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، عنه: أن المرأة التي فتن بها الملك مسخت، فهي هذه الكوكبة الحمراء: يعني الزهرة. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب عنه، فنكر قصة طويلة، وفيها التصريح بأن الملكين شربا الخمر، وزنيا بالمرأة، وقتلاها. وأخرج ابن جرير، عن ابن مسعود، وابن عباس هذه القصة، وقالوا: إنها أنزلت إليهما الزهرة في صورة امرأة، وأنهما وقعا في الخطيئة. وقد روى في هذا الباب قصص طويلة وروايات مختلفة استوفاه السيوطي في الدر المنثور، ونكر ابن كثير في تفسيره بعضها، ثم قال: وقد روي في قصة هاروت وماروت عن جماعة من التابعين كمجاهد، والسدي، والحسن البصري، وقتادة، وأبي العالية، والزهري، والربيع بن أنس، ومقاتل بن حيان، وغيرهم، وقصصها خلق من المفسرين من المتقدمين، والمتأخرين. وحاصلها راجع في تفصيلها إلى أخبار بني إسرائيل، إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل بالإسناد إلى الصانع المصنوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى، وظاهر سياق القرآن إجمال القصة من غير بسط، ولا إطناب فيها، فنحن نؤمن بما ورد في القرآن على ما أراده الله تعالى، والله أعلم بحقيقة الحال. انتهى. وقال القرطبي بعد سياق بعض ذلك: قلنا هذا كله ضعيف، وبعيد عن ابن عمر، وغيره لا يصح منه شيء، فإنه قول تنفعه الأصول في الملائكة الذين هم: أمنا الله على وحيه، وسفرأوه إلى رسله لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، ثم نكر ما معناه: أن العقل يجوز وقوع ذلك منهم، لكن وقوع هذا الجائز لا يدرى إلا

أي: إلى الأراك، وقيل: معناه انتظرنا، وتأنّ بنا، ومنه قول الشاعر:

فإنكما إن تنظراني ساعة من الدهر تنفعني لدى لم جنب
وقرأ الأعمش ﴿انظرنا﴾ بقطع الهمزة وكسر الظاء بمعنى
أخرنا، وأهلنا حتى نفهم عنك، ومنه قول الشاعر:

إياهمد فلا تعجل علينا وانظرنا نخبرك اليقيناً
وقرأ الحسن: ﴿راعنا﴾ بالتثنية، وقال: الراعن من القول
السخريّ منه انتهى. وأمرهم بعد هذا النهي والأمر بأمر
آخر، وهو قوله: ﴿واسمعوا﴾ أي: اسمعوا ما أمرتم به
ونهيتم عنه، ومعناه: اطيعوا الله في ترك خطاب النبي ﷺ

بذلك اللفظ، وخاطبوه ما أمرتم به، ويحتمل أن يكون معناه:
اسمعوا ما يخاطبكم به الرسول من الشرع حتى يحصل لكم
المطلوب بدون طلب للمراعاة، ثم توعّد اليهود بقوله:
﴿وللكافرين عذاب اليم﴾ ويحتمل أن يكون وعيداً شاملاً
لجنس الكفرة. قال ابن جرير: والصواب من القول عندنا في

ذلك: أن الله نهى المؤمنين أن يقولوا لنبيه ﷺ: ﴿راعنا﴾
لأنها كلمة كرهها الله أن يقولوها لنبيه ﷺ نظير الذي نكر
عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تقولوا للعنب الكرم، ولكن قولوا

الحبلة، ولا تقولوا عبيدي، ولكن قولوا فتاي» وما أشبه ذلك.
وقوله: ﴿ما يؤذّ النّين كفروا من أهل الكتاب﴾ الآية، فيه

بيان شدة عداوة الكفار للمسلمين حيث لا يؤثرون إنزال
الخير عليهم من الله سبحانه، ثم ردّ الله سبحانه ذلك عليهم،
فقال: ﴿والله يختص برحمته من يشاء﴾ الآية. وقوله: ﴿أن

ينزل﴾ في محل نصب على المفعولية، و«من» في قوله:
﴿من خير﴾ زائدة، قلّه النحاس، وفي الكشف أن «من» في
قوله: ﴿من أهل الكتاب﴾ بيانية، وفي قوله: ﴿من خير﴾

مزيدة لاستغراق الخير، وفي قوله: ﴿من ربكم﴾ لابتداء
الغاية، وقد قيل بأن الخير الوحي، وقيل غير ذلك، والظاهر

أنهم لا يؤثرون أن ينزل على المسلمين أي خير كان، فهو لا
يختص بنوع معين كما يفيد وقوع هذه النكرة في سياق
النفي، وتلكيد العموم بدخول «من» المزيدة عليها، وإن كان

بعض أنواع الخير أعظم من بعض، فنذلك لا يوجب
التخصيص. والرحمة قيل هي: القرآن، وقيل النبوة، وقيل
جنس الرحمة من غير تعيين كما يفيد ذلك الإضافة إلى

ضميره تعالى: ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ أي: صاحب
الفضل العظيم، فكيف لا تولون أن يختص برحمته من يشاء
من عباده.

وقد أخرج سعيد بن منصور في سننه، وأحمد في الزهد،
وابن أبي حاتم، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في الشعب
عن ابن مسعود: أن رجلاً أتاه، فقال: اعهد إليّ، فقال: إذا

ويضحكون، فيما بينهم، فأنزل الله الآية. وأخرج أبو نعيم في
الدلائل، عنه أنه قال المؤمنون بعد هذه الآية: من سمعتموه
يقولها، فاضربوا عنقه، فانتهدت اليهود بعد ذلك. وأخرج ابن

جرير، وابن المنذر، عن السدي قال: كان رجلان من اليهود:
مالك بن الصيف، ورفاعة بن زيد إذا لقيا النبي ﷺ قالاه،
وهما يكلمانه: راعنا سمعك، واسمع غير مسمع، فظنّ

المسلمون أن هذا شيء كان أهل الكتاب يعظمون به
أنبياءهم، فقالوا للنبي ﷺ فأنزل الله الآية. وأخرج ابن
المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي صخر قال: كان رسول الله

ﷺ إذا أدير ناداه من كانت له حاجة من المؤمنين، فقالوا:
ارعنا سمعك، فاعظم الله رسوله أن يقال له ذلك، وأمرهم أن
يقولوا: ﴿انظرنا﴾ ليعزّزوا رسول الله ﷺ، ويوقروه.

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وأبو نعيم، عن قتادة: أن
اليهود كانت تقول ذلك استهزاء، فكره الله للمؤمنين أن يقولوا
كقولهم، وأخرج ابن حاتم، عن مجاهد قال: الرحمة القرآن

والإسلام.
﴿مَا تَنَسَّخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ نَّهَا أَوْ يُلْهِكَ اللَّهُ أَنَّ اللَّهَ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢١٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُنْ لَكَ الْكُفْرُ وَالْأَرْضُ وَمَا
لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢١٧﴾﴾

النسخ في كلام العرب على وجهين: أحدهما النقل كنقل
كتاب من آخر، وعلى هذا يكون القرآن كله منسوخاً، أعني
من اللوح المحفوظ، فلا مدخل لهذا المعنى في هذه الآية،

ومنه: ﴿إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾ [الجاثية: 29] أي
نأمر بنسخه. الوجه الثاني الإبطال، والإزالة، وهو المقصود
هنا. وهذا الوجه الثاني ينقسم إلى قسمين عند أهل اللغة:

أحدهما إبطال الشيء، وزواله، وإقامة آخر مقامه، ومنه
نسخت الشمس الظل إذا أذهبت، وحلت محله، وهو: معنى
قوله: ﴿ما فنسخ من آية﴾ وفي صحيح مسلم: «لم تكن

نبوة قط إلا تناسخت» أي: تحوّل من حال إلى حال. والثاني
إزالة الشيء دون أن يقوم مقامه آخر كقولهم: نسخت الريح
الأثر، ومن هذا المعنى ﴿فينسخ الله ما يلقي الشيطان﴾

[الحج: 52] أي: يزيله. وروي عن أبي عبيد أن هذا قد كان
يقع في زمن رسول الله ﷺ، فكانت تنزل عليه السورة،
فترفع، فلا تتلى، ولا تكتب. ومنه ما روي عن أبي، وعائشة

أن سورة الأحزاب كانت تعدل سورة البقرة في الطول. قال
ابن فارس: النسخ نسخ الكتاب، والنسخ أن تزيل أمراً كان
من قبل يعمل به، ثم تنسخه بحادث غيره، كالأية تنزل بأمر،

ثم تنسخ بأخرى، وكل شيء خلف شيئاً، فقد انتسخه: يقال
نسخت الشمس الظل، والشيب الشباب، وتناسخ الورثة أن
يموت ورثة بعد ورثة، وأصل الميراث قائم، وكذا تناسخ

الأزمنة والقرون. وقال ابن جرير: ﴿ما فنسخ﴾ ما ننقل من
حكم آية إلى غيره، فننبئه، ونغيره، وذلك أن نحول الحلال
حراماً، والحرام حلالاً، والمباح محظوراً، والمحظور مباحاً،
ولا يكون ذلك إلا في الأمر، والنهي، والحظر، والإطلاق،
والمنع، والإباحة، فأما الأخبار، فلا يكون فيها ناسخ، ولا

﴿الم تعلم أن الله على كل شيء قدير﴾ يفيد أن النسخ من مقبوراته، وأن إنكاره إنكار للقدرة الإلهية، وهكذا قوله: ﴿الم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض﴾ أي: له التصرف في السموات، والأرض بالإيجاد، والاختراع، ونفوذ الأمر في جميع مخلوقاته، فهو أعلم بمصالح عباد، وما فيه النفع لهم من أحكامه التي تعبد بهم بها، وشرعها لهم. وقد يختلف ذلك باختلاف الأحوال، والأزمنة، والأشخاص، وهذا صنع من لا ولي لهم غيره، ولا نصير سواه، فعليهم أن يتلقوه بالقبول، والامتثال، والتعظيم، والإجلال.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، والحاكم في الكنى، وابن عدي، وابن عساکر، عن ابن عباس، قال: كان مما ينزل على النبي ﷺ الوحي بالليل، وينساه بالنهار، فأنزل الله: ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها﴾ وفي إسناده الحجاج الجزري ينظر فيه. وأخرج الطبراني، عن ابن عمر، قال: «قرأ رجلان من الأنصار سورة أقرأهما رسول الله ﷺ وكنا يقرآن بها، فقاما يقرآن ذات ليلة يصليان، فلم يقدرنا منها على حرف، فأصبحا غاديين على رسول الله ﷺ، فقال: إنها مما نسخ، أو نسي، فآلهوا عنها» وفي إسناده سليمان بن أرقم، وهو: ضعيف. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس، في قوله: ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها﴾ يقول: ما نبطل من آية، أو نتركها لا نبيلها: ﴿نأت بخير منها أو مثلها﴾ يقول: خير لكم في المنفعة، وأرفق بكم. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه أنه قال: «ننساها» نؤخرها. وأخرج أبو داود في ناسخه، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن مسعود في قوله: ﴿ما ننسخ من آية﴾ قال: نثبت خطها، ونبدل حكمها: «أو ننساها» قال: نؤخرها. وأخرج عبد بن حميد، وأبو داود في ناسخه، وابن جرير، عن قتادة في قوله: ﴿نأت بخير منه أو مثلها﴾ يقول فيها تخفيف فيها رخصة فيها أمر فيها نهي. وأخرج أبو داود في ناسخه، وابن المنذر، وابن الأنباري في المصاحف، وأبو ذر الهروي في فضائله، عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف: «أن رجلاً كانت معه سورة، فقام من الليل: فقام بها، فلم يقدر عليها، وقام آخر يقرأ بها، فلم يقدر عليها، وقام آخر، فلم يقدر عليها، فأصبحوا، فاتوا رسول الله ﷺ فاجتمعوا عنده، فأخبروه، فقال: إنها نسخت البارحة» وقد روي نحوه عنه من وجه آخر. وقد ثبت في البخاري، وغيره عن أنس أن الله أنزل في الذين قتلوا في بئر معونة: «أن بلغوا قوماً أن قد لقينا ربنا فرضي عنا، وأرضنا» ثم نسخ، وهكذا ثبت في مسلم، وغيره عن أبي موسى قال: كنا نقرأ سورة نشبهها في الطول، والشدة ببراءة، فأنسيتها، غير أنني حفظت منها: «لو كان لابن آدم واديان من مال لا تبغى وإيا ثالثاً، ولا يملأ جوفه إلا التراب» وكنا نقرأ سورة نشبهها بإحدى المسبحات، أولها «سبح لله ما في السموات» [الحديد: 1] فأنسيتها، غير أنني حفظت منها: «يا أيها الذين

منسوخ، وأصل النسخ من نسخ الكتاب، وهو نقله من نسخة أخرى، فكذا معنى نسخ الحكم إلى غيره إنما هو تحويله إلى غيره، وسواء نسخ حكمها، أو خطها، إذ هي في كلتي حالتها منسوخة. انتهى. وقد جعل علماء الأصول مباحث النسخ من جملة مقاصد تلك الفن، فلا نطول بنكره، بل نحيل من أراد الاستشفاء عليه. وقد اتفق أهل الإسلام على ثبوته سلفاً، وخلفاً، ولم يخالف في ذلك أحد إلا من لا يعتد بخلافه، ولا يؤبه لقوله. وقد اشتهر عن اليهود، أقامهم الله، إنكاره، وهم محجوجون بما في التوراة أن الله قال لنوح عليه السلام عند خروجه من السفينة: «إني قد جعلت كل دابة مأكلاً لك، ولزيتك، وأطلقت لك لكم كنبات العشب ما خلا الدم، فلا تاكلوه، ثم قد حرم الله ذلك على موسى عليه السلام وعلى بني إسرائيل كثيراً من الحيوان، وثبت في التوراة أن آدم كان يزوج الأخ من الأخت، وقد حرم الله ذلك على موسى عليه السلام، وعلى غيره. وثبت فيها أن إبراهيم عليه السلام أمر بنبيح ابنه، ثم قال الله له: لا تنبحه، وبأن موسى أمر بني إسرائيل أن يقتلوا من عبد منهم العجل، ثم أمرهم برفع السيف عنهم، ونحو هذا كثير في التوراة الموجودة بأيديهم. وقوله: ﴿أو ننسها﴾ قرأ أبو عمرو، وابن كثير بفتح النون، والسين، والهمز، وبه قرأ عمر، وابن عباس، وعطاء، ومجاهد وأبي بن كعب، وعبيد بن عمير، والنخعي، وابن محيصن ومعنى هذه القراءة نؤخرها عن النسخ من قولهم: نسأت هذا الأمر إذا أخرته. قال ابن فارس: ويقولون نسأ الله في أجلك، ونسأ الله أجلك. وقد انتسأ القوم إذا تأخروا، وتباعوا، ونسأتهم أنا أخرتهم؛ وقيل معناه نؤخر نسخ لفظها: أي نتركه في أم الكتاب، فلا يكون. وقيل نذهبها عنكم حتى لا تقرأ، ولا تذكر. وقرأ الباقر «ننساها» بضم النون من النسيان الذي بمعنى الترك أي: نتركها، فلا نبيلها، ولا ننسخها، ومنه قوله تعالى: ﴿نسوا الله فنسيهم﴾ [التوبة: 67] أي تركوا عبادته، فتركهم في العذاب. واختار هذه القراءة أبو عبيد، وأبو حاتم، وحكى الأزهري أن معناه نامر بتركها يقال أنسيته الشيء: أي أمرته بتركه، ونسيته تركته، ومنه قول الشاعر:

إن علي عقيب أقضيها لست بناسيها ولا منسيها
أي: ولا أمر بتركها. وقال الزجاج: إن القراءة بضم النون لا يتوجه فيها معنى الترك، لا يقال أنسى بمعنى ترك. قال: وما روى علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿أو ننسها﴾ قال: نتركها لا نبيلها، والذي عليه أكثر أهل اللغة، والنظر أن معنى: ﴿أو ننسها﴾ نبح لكم تركها من نسي إذا ترك، ثم تعيب، ومعنى: ﴿نأت بخير منها أو مثلها﴾ نأت بما هو: أنفع للناس منها في العاجل والأجل، أو في أحدهما، أو بما هو مماثل لها من غير زيادة، ومرجع ذلك إلى إعمال النظر في المنسوخ والناسخ، فقد يكون الناسخ أخف، فيكون أنفع لهم في العاجل، وقد يكون أثقل، وثوابه أكثر، فيكون أنفع لهم في الأجل، وقد يستويان، فتحصل المماثلة. وقوله:

أمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون فنكتب شهادة في أعناقكم فتسألوا عنها يوم القيامة، وقد روي مثل هذا من طريق جماعة من الصحابة، ومنه آية الرجم كما رواه عبد الرزاق، وأحمد، وابن حبان، عن عمر.

أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلِ وَمَنْ يَبْدُلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٠٥﴾ وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَكًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ يَوْمَ يَبْدُو مَا بَيْنَ يَدَيْكُمْ الْحَرُوفُ فَاقْفُوا وَأَضَعُوا حَقَّ يَأْتِي اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ وَأَتَيْنَا الضَّكَاةَ وَآتَاؤُا الزَّكَاةَ وَمَا تَقْوَمُوا لِأَنْفُسِكُمْ يَوْمَ يَخْرُجُ عَذَابُ اللَّهِ عَنِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٠٧﴾

﴿أَمْ﴾ هذه هي المنقطعة التي بمعنى بل أي: بل تريدون، وفي هذا توبيخ، وتقريع، والكاف في قوله: ﴿كما﴾ في موضع نصب نعت لمصدر محذوف أي: سؤالاً مثل ما سئل موسى من قبل حيث سألوه أن يريهم الله جهرة، وسألوا محمداً ﷺ أن يأتي بالله، والملائكة قبيلاً. وقوله: ﴿سواء﴾ هو الوسط من كل شيء قاله أبو عبيدة، ومنه قوله تعالى: ﴿في سواء الجحيم﴾ [الصفافات: 55] ومنه قول حسان يرثي النبي ﷺ:

يا وحي أصحاب النبي ودهط بعد المغيب في سواء الملحد
وقال الفراء: السواء القصد أي: ذهب عن قصد الطريق، وسمته أي: طريق طاعة الله. وقوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ فيه إخبار المسلمين بحرص اليهود على فتنتهم، وردهم عن الإسلام، والتشكيك عليهم في دينهم. وقوله: ﴿لَوْ يَرُدُّونَكُمْ﴾ في محل نصب على أنه مفعول للفعل المذكور. وقوله: ﴿مَنْ عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ﴾ يحتمل أن يتعلق بقوله ﴿وَدَّ﴾ أي: ودوا ذلك من عند أنفسهم، ويحتمل أن يتعلق بقوله: ﴿حَسَدًا﴾ أي: حسداً ناشئاً من عند أنفسهم، وهو: علة لقوله: ﴿وَدَّ﴾. والعفو: ترك المؤاخذه بالذنوب. والصفح: إزالة أثره من النفس، صفحت عن فلان: إذا عرضت عن ذنبه، وقد ضربت عنه صفحاً: إذا عرضت عنه، وفيه الترغيب في ذلك، والإرشاد إليه، وقد نسخ ذلك بالامر بالقتال، قاله أبو عبيدة. وقوله: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ هو غاية ما أمر الله سبحانه به من العفو والصفح أي: افعلوا ذلك إلى أن يأتي إليكم الأمر من الله سبحانه في شأنهم بما يختاره ويشاؤه، وما قد قضى به في سابق علمه، وهو: قتل من قتل منهم، وإجلاء من أجلي، وضرب الجزية على من ضريت عليه، وإسلام من أسلم. وقوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ حث من الله سبحانه لهم على الاشتغال بما ينفعهم ويعود عليهم بالمصلحة، من إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة. وتقويم الخير الذي يثابون عليه حتى يمكن الله لهم، وينصرهم على المخالفين لهم.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، أنه قال: قال رافع بن حريملة، وهوب بن زيد لرسول الله ﷺ: يا محمد اثنتا بكتاب ينزل علينا من السماء

نقرؤه، أو فجر لنا أنهاراً نتبعك، ونصنقك، فأنزل الله في ذلك: ﴿أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ - إِلَى قَوْلِهِ - سِوَاءَ السَّبِيلِ﴾ وكان حيي بن أخطب من أشد اليهود حسداً للعرب إذ خصهم الله برسوله، وكانا جاهدين في رد الناس عن الإسلام ما استطاعا، فأنزل الله فيهما: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن السدي قال: سألت العرب محمداً ﷺ أن يأتهم بالله فيروه جهرة، فنزلت هذه الآية. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي العالية قال: قال رجل: لو كانت كفاراتنا كفارات بني إسرائيل، فقال النبي ﷺ: «ما أعطاكم الله خير، كانت بنو إسرائيل إذا أصاب أحدهم الخطيئة وجدها مكتوبة على بابيه، وكفارتها، فإن كفرها كانت له خزاي في الدنيا، وإن لم يكفرها كانت له خزاي في الآخرة. وقد أعطاكم الله خيراً من ذلك قال: «ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه» [النساء: 110] الآية، والصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة كفارات لما بينهن، فأنزل الله: ﴿أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ﴾ الآية. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد قال: سألت قریش محمداً ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً، فقال: نعم، وهو: لكم كالمائدة لبني إسرائيل إن كفرتهم، فأبوا ورجعوا، فأنزل الله: ﴿أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلِ﴾ أن يريهم الله جهرة. وأخرج ابن جرير، عن أبي العالية في قوله: ﴿وَمَنْ يَتَبَدَّلُ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ قال: يتبدل الشدة بالرخاء. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي في قوله: ﴿فَقَدْ ضَلَّ سِوَاءَ السَّبِيلِ﴾ قال: عدل عن السبيل. وأخرج أبو داود، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الدلائل عن كعب بن مالك، قال: كان اليهود، والمشركون من أهل المدينة يؤذون رسول الله ﷺ، وأصحابه أشد الأذى، فأمر الله بالصبر على ذلك، والعفو عنهم، وأنزل الله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ وفي الصحيحين، وغيرهما عن أسامة بن زيد، قال: كان رسول الله ﷺ، وأصحابه يعفون عن المشركين، وأهل الكتاب كما أمرهم الله، ويصبرون على الأذى، قال الله تعالى: ﴿وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَىٰ كَثِيرًا﴾ [آل عمران: 186] وقال: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ﴾ الآية، وكان رسول الله ﷺ يتأول في العفو ما أمره الله به حتى أذن الله فيهم بقتل، فقتل الله به من قتل من صنابير قریش. وأخرج ابن جرير، عن الربيع بن أنس في قوله: ﴿مَنْ عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ﴾ قال: من قبل أنفسهم. ﴿مَنْ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ يقول: إن محمداً رسول الله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة، نحوه وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مربي، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس في قوله: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾ وقوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمَشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: 106] ونحو هذا في العفو عن المشركين قال: نسخ ذلك كله بقوله: ﴿فَقَاتِلُوا الَّذِينَ لَا

﴿قله﴾ معطوف على: «من أسلم» وإن كانت من شرطية، فقله: «قله» هو: الجزء، ومجموع الشرط، والجزء رَدٌّ على أهل الكتاب، وإبطال لتلك الدعوى. وقله: «وقالت اليهود» وما بعده فيه أن كل طائفة تنفي الخير عن الأخرى، ويتضمن ذلك إثباته لنفسها تحجراً لرحمة الله سبحانه. قال في الكشف: إن الشيء هو: الذي يصح ويعتد به، وهذه مبالغة عظيمة؛ لأن المحال، والمعدوم يقع عليهما اسم الشيء، وإذا نفي إطلاق اسم الشيء عليه، فقد بولغ في ترك الاعتدال به إلى ما ليس بعده، وهكذا قولهم أقل من لا شيء. وقله: «وهم يتلون الكتاب» أي التوراة، والإنجيل، والجملة حالية، وقيل المراد جنس الكتاب، وفي هذا أعظم توبيخ، وأشدّ تقييد؛ لأن الوقوع في الدعاوى الباطلة، والتكلم بما ليس عليه برهان هو: وإن كان قبيحاً على الإطلاق لكنه من أهل العلم، والدراسة لكتب الله أشدّ قبحاً، وأقلع جرماً، وأعظم نكباً. وقله: «كذلك قال الذين لا يعلمون» المراد بهم كفار العرب الذين لا كتاب لهم قالوا: مثل مقالة اليهود اقتداء بهم؛ لأنهم جهلة لا يقدرون على غير التقليد لمن يعتقدون أنه من أهل العلم، وقيل المراد بهم طائفة من اليهود، والنصارى، وهم الذين لا علم عندهم، ثم أخبرنا سبحانه بأنه المتولي لفصل هذه الخصومة التي وقع فيها الخلاف عند الرجوع إليه، فيعذب من يستحق التعذيب، وينجي من يستحق النجاة.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن أبي العالية في قوله: «وقالوا لن يدخل الجنة» الآية، قال: قالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان يهودياً، وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً: «تلك أمانيتهم» قال: أمانيتهمونها على الله بغير حق: «قل هاتوا برهانكم» قال: حجتكم: «إن كنتم صائقين» بما تقولونه أنه كما تقولون: «بلى من أسلم وجهه لله» يقول: أخلص لله. وأخرج ابن جرير، عن مجاهد في قوله: «قل هاتوا برهانكم» قال: حجتكم، وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة في قوله: «بلى من أسلم وجهه» قال: أخلص دينه. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: لما قدم وفد نجران من النصارى على رسول الله ﷺ، اتهم أحبار اليهود، فتنازعوا عند رسول الله ﷺ، فقال رافع بن حريمة: ما أنتم على شيء وكفر بعيسى والإنجيل، فقال له رجل من أهل نجران: ما أنتم على شيء، وجدد نبوة موسى، وكفر بالتوراة، قال: فأنزل الله في ذلك: «وقالت اليهود ليست النصارى على شيء» وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب» أي: كل يتلو في كتبه تصديق من كفر به. وأخرج ابن جرير، عن ابن جريج قال: قلت لعطاء: من هؤلاء الذين لا يعلمون؟ قال: هم: أمم كانت قبل اليهود والنصارى. وأخرج ابن جرير عن السدي قال: هم العرب قالوا ليس محمد على شيء.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ تَنَعَ سَتَرَ اللَّهِ أَنْ يَذْكُرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَيَّ فِي حَرَابِهِ

يؤمنون بالله﴾ [التوبة: 29] الآية، وقوله: «أقتلوا المشركين حيث وجدتموهم» [التوبة: 5]. وأخرج ابن جرير، عن السدي نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة في قوله: «وما تقدموا لأنفسكم من خير» يعني من الأعمال من الخير في الدنيا. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن أبي العالية في قوله: «تجدوه عند الله» قال: تجدوا ثوابه.

وَقَالُوا إِن يَدْخُلِ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَانًى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ سَادِقِينَ ﴿٥٠﴾ بَلْ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرٌ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٥١﴾

قوله: «هوداً» قال الفراء: يجوز أن يكون هوداً بمعنى يهودياً، وأن يكون جمع هائد. وقال الأخفش: إن الضمير المفرد في كان هو باعتبار لفظ من، والجمع في قوله: «هوداً» باعتبار معنى من، قيل: في هذا الكلام حذف، وأصله: وقالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان يهودياً، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً. هكذا قال كثير من المفسرين، وسبقهم إلى ذلك بعض السلف. وظاهر النظم القرآني أن طائفتي اليهود، والنصارى وقع منهم هذا القول، وأنهم يختصون بذلك لون غيرهم؛ ووجه القول بأن في الكلام حذفاً ما هو معلوم من أن كل طائفة من هاتين الطائفتين تضلل الأخرى، وتنفي عنها أنها على شيء من الدين فضلاً عن دخول الجنة كما في هذا الموضع، فإنه قد حكى الله عن اليهود أنها قالت: ليست النصارى على شيء، وقالت النصارى ليست اليهود على شيء، والأمانيتهم قد تقدم تفسيرها، والإشارة بقوله تلك إلى ما تقدم لهم من الأمانيت التي أخرجها أنه لا يدخل الجنة غيرهم، وقيل إن الإشارة إلى هذه الأمانية الآخرة، والتقدير أمثال تلك الأمانية أمانيتهم على حذف المضاف ليطلق أمانيتهم، قوله: «هاتوا» أصله هاتوا حذفت الضمة لثقلها، ثم حذفت الياء للقاء الساكنين، ويقال للمفرد المنكر: هات، وللمؤنث هاتي، وهو: صوت بمعنى: أحضر. والبرهان: الدليل الذي يحصل عنده اليقين. قال ابن جرير: طلب الدليل هنا يقتضي إثبات النظر، ويرد على من ينفيه. وقوله: «إن كنتم صائقين» أي: في تلك الأمانيت المجردة، والدعاوى الباطلة، ثم رد عليهم، فقال: «بلى من أسلم» وهو: إثبات لما نفوه من دخول غيرهم الجنة أي: ليس كما يقولون بل يدخلها من أسلم وجهه لله. ومعنى أسلم: استسلم، وقيل: أخلص. وخص الوجه بالذكر لكونه أشرف ما يرى من الإنسان، ولأنه موضع الحواس الظاهرة، وفيه يظهر العز والذل، وقيل: إن العرب تخبر بالوجه عن جملة الشيء، وأن المعنى هنا الوجه، وغيره؛ وقيل المراد بالوجه هنا: المقصد أي: من أخلص مقصده وقوله: «وهو محسن» في محل نصب على الحال، والضمير في قوله: «وجهه» «وله» باعتبار لفظ من، وفي قوله: «عليهم» باعتبار معناها. وقوله: «من» إن كانت الموصولة، فهي فاعل لفعل محذوف أي: بلى يدخلها من أسلم. وقوله:

قال: «وسع كل شيء علماً» [طه: 98]، وقال الفراء: الواسع الجوار الذي يسع عطاؤه كل شيء.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن أبي حاتم عن ابن عباس، أن قريشاً منعوا النبي ﷺ الصلاة عند الكعبة في المسجد الحرام، فأنزل الله: «ومن أظلم ممن منع مساجد الله». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه قال: هم النصارى، وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن جرير، عن السدي قال: هم الروم كانوا ظاهروا بختنصر على خراب بيت المقدس. وفي قوله: «أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين» قال: فليس في الأرض رومي يدخله اليوم إلا وهو خائف أن يضرب عنقه، وقد أخيف بآداء الجزية، فهو يؤذيها. وفي قوله: «لهم في الدنيا خزي» قال: أما خزيهم في الدنيا، فإنه إذا قام المهدي، وفتحت القسطنطينية قتلهم، فذلك الخزي. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة أنهم الروم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن كعب: أنهم النصارى لما أظهروا على بيت المقدس حرقوه. وأخرج ابن جرير، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، قال: هم المشركون حين صدوا رسول الله ﷺ، عن البيت يوم الحديبية. وأخرج ابن أبي شيبة، عن أبي صالح قال: ليس للمشركون أن يدخلوا المسجد إلا خائفين. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير عن قتادة في قوله: «لهم في الدنيا خزي» قال: يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه عن ابن عباس، قال: أول ما نسخ من القرآن، فيما نكر لنا، والله أعلم شأن القبلة، قال الله تعالى: «ووجه المشرق والمغرب» الآية، فاستقبل رسول الله ﷺ، فصلى نحو بيت المقدس، وترك البيت العتيق، ثم صرفه الله إلى البيت العتيق، ونسخها فقال: «ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام» [البقرة: 149]، وأخرج ابن المنذر، عن ابن مسعود نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وغيرهم عن ابن عمر قال: كان النبي ﷺ يصلي على راحلته تطوعاً أينما توجهت به، ثم قرأ ابن عمر هذه الآية: «أينما تولوا فثم وجه الله» وقال: في هذا أنزلت هذه الآية. وأخرج نحوه عنه ابن جرير، والدارقطني، والحاكم وصححه: وقد ثبت في صحيح البخاري من حديث جابر، عن رسول الله ﷺ أنه كان يصلي على راحلته قبل المشرق، فإذا أراد أن يصلي المكتوبة نزل، واستقبل القبلة، وصلى. وروي نحوه من حديث انس مرفوعاً أخرجه ابن أبي شيبة، وأبو داود. وأخرج عبد بن حميد، والترمذي وضعفه، وابن ماجه، وابن جرير، وغيرهم عن عامر بن ربيعة قال: كنا مع رسول الله ﷺ في ليلة سوداء مظلمة، فنزلنا منزلاً، فجعل الرجل يأخذ الأحجار، فيعمل مسجداً، فيصلي فيه، فلما أن أصبحنا إذا نحن قد صلينا على غير القبلة، فقلنا يا رسول الله لقد صلينا ليلتنا هذه لغير القبلة، فأنزل الله: «ووجه المشرق والمغرب» الآية،

أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٥٠﴾

هذا الاستفهام فيه أبلغ دلالة على أن هذا الظلم متناه، وأنه بمنزلة لا ينبغي أن يلحقه سائر أنواع الظلم أي: لا أحد أظلم ممن منع مساجد الله، واسم الاستفهام في محل رفع على الابتداء، وأظلم خبره. وقوله: «أن يذكر فيها اسمه» قيل: هو بدل من مساجد، وقيل: إنه مفعول له بتقدير كراهية أن يذكر، وقيل: إن التقدير من أن يذكر، ثم حذف حرف الجر لطول الكلام؛ وقيل: إنه مفعول ثان لقوله: «منع» والمراد بمنع المساجد أن يذكر فيها اسم الله منع من يأتي إليها للصلاة، والتلاوة، والذكر، وتعليمه. والمراد بالسعي في خرابها: هو السعي في هدمها، ورفع بنيانها، ويجوز أن يراد بالخراب تعطيلها عن الطاعات التي وضعت لها، فيكون أعم من قوله: «أن يذكر فيها اسمه» فيشمل جميع ما يمنع من الأمور التي بنيت لها المساجد كتعلم العلم وتعليمه، والعودة للاعتكاف، وانتظار الصلاة، ويجوز أن يراد ما هو أعم من الأمرين من باب عموم المجاز كما قيل في قوله تعالى: «إنما يعمر مساجد الله» [التوبة: 18]. وقوله: «ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين» أي: ما كان ينبغي لهم دخولها إلا حال خوفهم، وفيه إرشاد للعباد من الله عز وجل أنه ينبغي لهم أن ينعوا مساجد الله من أهل الكفر من غير فرق بين مسجد ومسجد، وبين كافر وكافر، كما يفيد عموم اللفظ، ولا ينافيه خصوص السبب، وأن يجعلوهم بحالة إذا أرادوا الدخول كانوا على وجل وخوف من أن يقطن لهم أحد من المسلمين، فينزلون بهم ما يوجب الإهانة، والإذلال، وليس فيه الإنان لنا بتمكنهم من ذلك حال خوفهم، بل هو كناية عن المنع لهم منا عن دخول مساجدنا، والخزي: قيل هو ضرب الجزية عليهم، وإذلالهم، وقيل غير ذلك، وقد تقدم تفسيره. والمشرق: موضع الشروق. والمغرب: موضع الغروب أي: هما ملك الله، وما بينهما من الجهات، والمخلوقات، فيشمل الأرض كلها. وقوله: «فأينما تولوا» أي: أي جهة تستقبلونها، فهناك وجه الله أي: المكان الذي يرتضي لكم استقباله، وذلك يكون عند التباس جهة القبلة التي أمرنا بالتوجه إليها بقوله سبحانه: «فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره» [البقرة: 144] قال في الكشاف: والمعنى أنكم إذا منعتم أن تصلوا في المسجد الحرام أي: في بيت المقدس، فقد جعلت لكم الأرض مسجداً، فصلوا في أي بقعة شئتم من بقاعها، وافعلوا التولية فيها، فإن التولية ممكنة في كل مكان لا تختص أماكنها في مسجد دون مسجد، ولا في مكان دون مكان انتهى. وهذا التخصيص لا وجه له، فإن اللفظ أوسع منه. وإن كان المقصود به بيان السبب، فلا بأس. وقوله: «إن الله واسع عليم» فيه إرشاد إلى سعة رحمته. وأنه يوسع على عباده في دينهم، ولا يكلفهم ما ليس في وسعهم، وقيل واسع بمعنى أنه يسع علمه كل شيء كما

بين معان، يقال: قضى بمعنى خلق، ومنه: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ [فصلت: 12] وبمعنى أعلم، ومنه: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ﴾ [الإسراء: 4] وبمعنى أمر، ومنه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِلَٰهًا﴾ [الإسراء: 23] وبمعنى الزم، ومنه: قضى عليه القاضي، وبمعنى أوفاه، ومنه: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ﴾ [القصص: 29] وبمعنى أراد ومنه: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ أَمْرًا فَلَمَّا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [غافر: 68]، والأمر واحد الأمور. وقد ورد في القرآن على أربعة عشر معنى: الأول الدين، ومنه: ﴿حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ [التوبة: 48] الثاني بمعنى القول، ومنه: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ [المؤمنون: 27] الثالث العذاب، ﴿لَمَّا قَضَى الْأَمْرُ﴾ [إبراهيم: 22] الرابع عيسى، ومنه: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ أَمْرًا﴾ [غافر: 68] أي: أوجد عيسى عليه السلام. الخامس القتل، ومنه: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ [غافر: 78] السادس فتح مكة، ومنه: ﴿فَقَتَرِصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ [التوبة: 24]. السابع قتل بني قريظة، وإجلاء النضير، ومنه: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ [البقرة: 109]، الثامن القيامة، ومنه: ﴿يَأْتِي أَمْرُ اللَّهِ﴾ [النحل: 1] التاسع القضاء، ومنه: ﴿يَدِيرُ الْأَمْرَ﴾ [يونس: 3]، العاشر الوحي، ومنه: ﴿يُنَزِّلُ الْأَمْرَ بَيْنَهُنَّ﴾ [الطلاق: 12] الحادي عشر أمر الخلاق، ومنه: ﴿إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى: 53] الثاني عشر النصر، ومنه: ﴿هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [البقرة: 154]. الثالث عشر الذنب، ومنه: ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ [الطلاق: 9] الرابع عشر الشأن، ومنه: ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: 97] هكذا أورد هذه المعاني بأطول من هذا بعض المفسرين، وليس تحت ذلك كثير فائدة، وإطلاقه على الأمور المختلفة لصيق اسم الأمر عليها. وقوله: ﴿فَلَمَّا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: 117] الظاهر في هذا المعنى الحقيقي، وأنه يقول سبحانه هذا اللفظ، وليس في ذلك مانع، ولا جاء ما يوجب تأويله، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: 82] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَيْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: 40] وقال: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: 50] ومنه قول الشاعر:

إذا ما أراد الله أمراً فإِنما يقول له كن قوله فيكون
وقد قيل إن ذلك مجاز، وأنه لا قول، وإنما هو: قضاء يقضيه، فعبّر عنه بالقول، ومنه قول الشاعر، وهو عمر بن حمزة اللوسي:

فأصبحت مثل النسر طار فرأته إذا رام تطياراً يقال له قم
وقال آخر:

قالت جناحه لساقيه الحقاً ونجيا الحكم كما أن يمزقاً
والمراد بقوله: ﴿وقال الذين لا يعلمون﴾ اليهود، وقيل النصراني، ورَجَّحَ ابن جرير: لأنهم المنكوبون في الآية؛ وقيل مشركو العرب، و ﴿لَوْلَا﴾ حرف تحضيض أي: هلا ﴿يَكْلَمُنَا اللَّهُ﴾ بنبوة محمد، فنعلم أنه نبي ﴿أَوْ تَأْتِينَا﴾

فقال: مضت صلاتكم. وأخرج الدارقطني، وابن مريويه، والبيهقي عن جابر مرفوعاً نحوه، إلا أنه ذكر أنهم خطوا خطأ. وأخرج نحوه ابن مريويه بسند ضعيف، عن ابن عباس مرفوعاً. وأخرج نحوه أيضاً سعيد بن منصور، وابن المنذر عن عطاء يرفعه، وهو مرسل. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس: ﴿فَثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾ قال: قبله الله أينما توجهت شرقاً، أو غرباً. وأخرج ابن أبي شيبة، والترمذي وصححه، وابن ماجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «ما بين المشرق والمغرب قبله». وأخرج ابن أبي شيبة، والدارقطني، والبيهقي، عن ابن عمر مثله. وأخرج ابن أبي شيبة، والبيهقي عن عمر نحوه.

وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَمْ قَبِيضٍ ﴿١١٧﴾ بَيِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١١٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةً كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَّهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٩﴾

قوله: ﴿وقالوا﴾ هم اليهود والنصارى، وقيل اليهود: أي قالوا: ﴿عزير ابن الله﴾ [التوبة: 30] وقيل النصارى أي: ﴿قلوا المسيح ابن الله﴾ [التوبة: 30] وقيل: هم كفار العرب أي: قالوا الملائكة بنات الله. وقوله: ﴿سبحانه﴾ قد تقدم تفسيره، والمراد هنا تبرؤ الله تعالى عما نسبوه إليه من اتخاذ الولد. وقوله: ﴿بل له ما في السموات والأرض﴾ رد على القائلين: بأنه اتخذ ولداً: أي بل هو مالك لما في السموات، والأرض، وهؤلاء القائلون داخلون تحت ملكه، والولد من جنسهم لا من جنسه، ولا يكون الولد إلا من جنس الوالد. والقائنت: المطيع الخاضع أي: كل من في السموات، والأرض مطيعون له خاضعون لعظمته خاشعون لجلاله، والقنوت في أصل اللغة أصله القيام. قال الزجاج: فالخلق قانتون أي: قائمون بالعبودية إما إقراراً، وإما إن يكونوا على خلاف ذلك، فائر الصنعة بين عليهم، وقيل: أصله الطاعة، ومنه: ﴿والقانتين والقانتات﴾ [الأحزاب: 35] وقيل: السكون، ومنه قوله: ﴿وقوموا لله قانتين﴾ [البقرة: 238] ولهذا قال زيد بن أرقم: كنا نتكلم في الصلاة حتى نزلت ﴿وقوموا لله قانتين﴾ فأمرنا بالسكوت، ونهينا عن الكلام، وقيل القنوت: الصلاة، ومنه قول الشاعر:

قانتاً ش يتلو كتبه وعلى عمد من الناس اعتزل
والأولى أن القنوت لفظ مشترك بين معان كثيرة، قيل هي: ثلاثة عشر معنى، وهي: مبنية. وقد نظمها بعض أهل العلم، كما أوضحت ذلك في شرحي علم المنتقى. ويدير فعيل للمبالغة، وهو خبر مبتدأ، محذوف أي: هو بديع سمواته، وأرضه، أبدع الشيء: أنشأه لا عن مثال، وكل من أنشأ ما لم يسبق إليه قيل له مبدع. وقوله: ﴿وإذا قضى أمراً﴾ أي: أحكمه، واتقنه. قال الأزهري: قضى في اللغة على وجوه مرجعها إلى انقطاع الشيء، وتامه، قيل: هو مشترك

قُلْ أَتُؤْتِيكَمُ الْغَيْرَ وَأَنْتُمْ لَا تَشْكُرُونَ ﴿١٣١﴾

قوله: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ يحتمل أن يكون منصوباً على الحال، ويحتمل أن يكون مفعولاً له أي: أرسلناك لأجل التبشير، والإنذار. وقوله: ﴿وَلَا تَسْأَلُ﴾ قرأه الجمهور بالرفع مبنياً للمجهول أي: حال كونك غير مسؤول، وقرأ بالرفع مبنياً للمعلوم. قال الأخفش: ويكون في موضع الحال عطفاً على ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي: حال كونك غير سائل عنهم؛ لأن علم الله بكفرهم بعد إنذارهم يغني عن سؤاله عنهم، وقرأ نافع: ﴿وَلَا تَسْأَلُ﴾ بالجزم أي: لا يصدر منك السؤال عن هؤلاء، أو لا يصدر منك السؤال عما مات منهم على كفره، ومعصيته تعظيماً لحاله، وتغليظاً لشأنه: أي أن هذا أمر فظيع، وخطب شنيع، يتعاطم المتكلم أن يجريه على لسانه، أو يتعاطم السامع أن يسمعه. قوله: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ﴾ الآية، أي: ليس غرضهم، ومبلغ الرضا منهم ما يقترحونه عليك من الآيات، ويورثونه من التعتات، فإنك لو جئتهم بكل ما يقترحون، وأجبتهم عن كل تعتت لم يرضوا عنك، ثم أخبره بأنهم لن يرضوا عنه حتى يدخل في بينهم ويتبع ملتهم. والملة: اسم لما شرعه الله لعباده في كتبه على ألسن أنبيائه، وهكذا الشريعة، ثم رد عليهم سبحانه، فأمره بأن يقول لهم: ﴿إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهَدَى الْحَقِيقِي، لَا مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الشَّرِيعَةِ الْمَنسُوخَةِ، وَالْكَتَبِ الْمَحْرُفَةِ ثُمَّ اتَّبِعْ ذَلِكَ بُوْعِيدَ شَدِيدَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ اتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَحَالَوِ رِضَاهُمْ وَأَتَّبِعْ نَفْسَهُ فِي طَلَبِ مَا يُوَافِقُهُمْ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ تَعْرِيفاً لَامَتَهُ، وَتَحْذِيرًا لَهُمْ أَنْ يَوَاقِعُوا شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ، أَوْ يَدْخُلُوا فِي أَهْوِيَةِ أَهْلِ الْمَلِكِ، وَيَطْلُبُوا رِضَا أَهْلِ الْبَدْعِ. وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنَ الْوَعِيدِ الشَّدِيدِ الَّذِي تَرْجَفُ لَهُ الْقُلُوبُ، وَتَتَصَدَّعُ مِنْهُ الْأَقْفُودَةُ، مَا يُوْجِبُ عَلَى أَهْلِ الْعِلْمِ الْحَامِلِينَ لِحُجَجِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَالْقَائِمِينَ بِبَيَانِ شَرَائِعِهِ، تَرْكَ الدِّهَانِ لِأَهْلِ الْبَدْعِ الْمُتَمَذِّبِينَ بِمَذَاهِبِ السُّوءِ، التَّارِكِينَ لِلْعَمَلِ بِالْكَتَابِ، وَالسَّنَةِ، الْمُؤَثِّرِينَ لِمَعْضِ الرَّأْيِ عَلَيْهِمَا؛ فَإِنَّ غَالِبَ هَؤُلَاءِ، وَلَنْ أَظْهَرَ قَبُولًا، وَأَبَانَ مِنْ أَخْلَاقِهِ لَيْسًا لَا يَرْضِيهِ إِلَّا اتِّبَاعُ بَدْعَتِهِ، وَالدَّخُولُ فِي مَذَاحِلِهِ، وَالْوُقُوعُ فِي حَبَائِلِهِ، فَإِنَّ فِعْلَ الْعَالَمِ ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ عَلِمَهُ اللَّهُ مِنَ الْعِلْمِ مَا يَسْتَفِيدُ بِهِ أَنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ مَا فِي كِتَابِهِ، وَسُنَّةَ رَسُولِهِ، لَا مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ تِلْكَ الْبَدْعِ الَّتِي هِيَ ضَلَالَةٌ مُحَضَّةٌ، وَجَهَالَةٌ بَيِّنَةٌ، وَرَأْيُ مَنَاهِرٍ، وَتَقْلِيدٌ عَلَى شَفَا جَرَفٍ هَارٍ، فَهُوَ إِذْ ذَاكَ مَا لَهُ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ، وَلَا نَصِيرٍ، وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ، فَهُوَ مَخْذُولٌ لَا مُحَالَةَ، وَهَالِكٌ بِلَا شَكٍّ، وَلَا شَبْهَةٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ قيل: هم المسلمون، والكتاب هو: القرآن، وقيل: من أسلم من أهل الكتاب، والمراد بقوله: ﴿يَقْتُلُونَهُ﴾ أنهم يعلمون بما فيه، فيحطلون حلاله، ويحرمون حرامه، فيكون من تلاه يتلوه إذا أتبعه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَاهَا﴾ [الشمس: 2] أي: أتبعها كذا قيل، ويحتمل أن يكون من التلاوة أي: يقرؤونه حق قراءته لا يحرقونه، ولا يبيلونه. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ مبتداً وخبره ﴿يَقْتُلُونَهُ﴾

بنلك علامة على نبوته. والمراد بقوله: ﴿قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ قيل: هم اليهود، والنصارى في قول من جعل الذين لا يعلمون كفار العرب، أو الأمم السالفة في قول من جعل الذين لا يعلمون اليهود، والنصارى، أو اليهود في قول من جعل الذين لا يعلمون النصارى ﴿تَشَابِهَتْ﴾ أي: في التعتت، والاقتراح، وقال الفراء: ﴿تَشَابِهَتْ﴾ في اتقاقهم على الكفر ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي: يعترفون بالحق، وينصفون في القول، ويدعون لأمير الله سبحانه لكونهم مصدقين له سبحانه مؤمنين بآياته متبعين لما شرعه لهم.

وقد أخرج البخاري من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ قال: قال الله تعالى: «كذبني ابن آدم وشتمني، فأما تكذيبه إياي، فيزعم أنني لا أقدر أن أعيده كما كان، وأما شتمه إياي، فقله لي ولد، فسبحاني أن اتخذ صاحبة، أو ولداً». وأخرج نحوه أيضاً من حديث أبي هريرة، وفي الباب أحاديث. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾ قال: تنزيه الله نفسه عن السوء. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في الأسماء والصفات عن موسى بن طلحة، عن النبي ﷺ، أنه سئل عن التسبيح أن يقول الإنسان: سبحان الله، قال: براه الله من السوء. وأخرجه الحاكم وصححه، وابن مروي، والبيهقي من طريق طلحة بن يحيى بن طلحة، عن أبيه عن جده طلحة بن عبيد الله، قال: سألت رسول الله ﷺ عن تفسير سبحان الله، فقال: هو: تنزيه الله من كل سوء. وأخرجه ابن مروي، عنه من طريق أخرى مرفوعاً. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والطبراني في الأوسط، وأبو نعيم في الحلية، والضياء في المختارة، عن أبي سعيد عن رسول الله ﷺ قال: «كل حرف في القرآن يذكر فيه القنوت، فهو الطاعة». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس في قوله: ﴿كُلُّ لَهُ قَانُتُونَ﴾ قال مطيعون. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن أبي العلية في قوله: ﴿بِطِيعِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يقول: ابتدئ خلقهما، ولم يشركه في خلقهما أحد. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: قال رافع بن حريملة لرسول الله ﷺ: يا محمد إن كنت رسولاً من الله كما تقول، فقل لله، فليكلما حتى نسمع كلامه، فأنزل الله في ذلك: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الآية. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة أنهم كفار العرب. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد قال: هم النصارى، والذين من قبلهم يهود.

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١٣٢﴾ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَبْغِيَ يَأْسَهُمْ قُلْ إِنَّا مَدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنْ آتَيْنَا هَؤُلَاءِ مِنْ بَدَلِ الَّذِي جَاءَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا كَانُوا يَرْجُونَ وَلَا نَبْشِيرُ الَّذِينَ آمَنُوا هُمْ يُخْلَفُونَ حَتَّى يَلَاقُوا اللَّهَ أَتُؤْتِيهِمُ الْغَيْرَ وَأَنْتُمْ لَا تَشْكُرُونَ ﴿١٣٣﴾

أو الخبر قوله: ﴿أولئك﴾ مع ما بعده.

وقد أخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن محمد بن كعب القرظي، قال: قال رسول الله ﷺ: «ليت شعري ما فعل أبوي» فنزل: ﴿إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ولا تسال عن أصحاب الجحيم﴾ فما ذكرهما حتى توفاه الله. قال السيوطي: هذا مرسل ضعيف الإسناد. ثم رواه من طريق ابن جرير، عن داود بن أبي عاصم مرفوعاً، وقال: هو معضل الإسناد ضعيف لا تقوم به، ولا بالذي قبله حجة. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك قال: ﴿الجحيم﴾ ما عظم من النار. وأخرج الثعلبي عن ابن عباس قال: إن يهود المدينة، ونصارى نجران كانوا يروحون أن يصلي النبي ﷺ إلى قبليتهم، فلما صرف الله القبلة إلى الكعبة شق ذلك عليهم، وأيسوا منه أن يوافقهم على دينهم. فانزل الله: ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى﴾ الآية. وأخرج عبد الرزاق عن قتادة في قوله: ﴿الذين أتيناكم للكتاب﴾ قال: هم اليهود والنصارى. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله: ﴿يتلونوه حق تلاوته﴾ قال: يحلون حلاله، ويحرمون حرامه، ولا يحرفونه عن مواضعه. وأخرجوا عنه أيضاً قال: يتبعونه حق اتباعه، ثم قرؤوا: ﴿والقمر إذا تلاها﴾ يقول أتبعها. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عمر بن الخطاب، قال في قوله: ﴿يتلونوه حق تلاوته﴾ إذا مرّ بذكر الجنة، وإذا مرّ بذكر النار تعوذ بالله من النار. وأخرج الخطيب في كتاب الرواة بسند فيه مجاهيل، عن ابن عمر عن النبي ﷺ في قوله: ﴿يتلونوه حق تلاوته﴾ قال: يتبعونه حق اتباعه، وكذا قال القرطبي في تفسيره: أن في إسناده مجاهيل، قال: لكن معناه صحيح، وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير من طرق، عن ابن مسعود في تفسيره هذه الآية مثل ما سبق عن ابن عباس في قوله: (يحلون حلاله) إلى آخره. وأخرج ابن أبي حاتم، عن زيد بن أسلم قال: يتكلمون به كما أنزل، ولا يكتومونه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة في هذه الآية قال: هم أصحاب محمد، ثم حكى نحو ذلك عن عمر بن الخطاب. وأخرج وكيع، وابن جرير عن الحسن في قوله: ﴿يتلونوه حق تلاوته﴾ قال: يعملون بمحكمه، ويؤمنون بمتشابهه، ويكون ما أشكل عليهم إلى عالمه.

يَكُنْ لِشَيْءٍ أَكْثَرُا يَمَسُّهُ الَّذِي أَتَمَّتْ عِندَكَ وَآلِي فَصَلَّوْا عَلَى الْمَلَائِكَةِ
وَأَقْرَبُوا يَوْمَ لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُبَدَّلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا
شَفَعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا يَنْفَعُ زَيْجَرُهُمْ بِكَيْفَرِهِمْ قَالَتْ هُنَّ قَالِ إِنِّي
جَاءُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالِ وَمِنْ دُونِي قَالِ لَا يَبَالُ عَهْدِي لِلَّذِينَ ﴿١٠١﴾ وَلَا
جَمَلًا أَتَيْتُ سَابِقَةً لِلنَّاسِ وَأَمَّا وَاجْتَدُوا مِنْ مَقَارِ إِبْرَاهِيمَ مَسَلٌ

قوله: ﴿يا بني إسرائيل - إلى قوله - ولا هم ينصرون﴾ قد سبق مثل هذا في صدر السورة، وتقدم تفسيره، ووجه التكرار الحث على اتباع الرسول النبي الأمي،

نكر معناه ابن كثير في تفسيره. وقال البقاعي في تفسيره: إنه لما طال المدى في استقصاء تنكيرهم بالنعم، ثم في بيان عوارهم، وهتك أستارهم، وختم ذلك بالترهيب لتضييع أبنائهم بأعمالهم، وأحوالهم، وأقوالهم، أعاد ما صدر به قصتهم من التنكير بالنعم، والتحذير من حلول النقم يوم تجمع الأمم، ويوم فيه الندم لمن زلت به القدم، ليعلم أن ذلك، فنلكة القصة، والمقصود بالذات الحث على انتهاز الفرصة. انتهى. وأقول: ليس هذا بشيء، فإنه لو كان سبب التكرار ما نكره من طول المدى، وأنه أعاد ما صدر به قصتهم لذلك لكان الأولى بالتكرار، والأحق بإعادة النكر هو قوله سبحانه: ﴿يا بني إسرائيل انكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون﴾ [البقرة: 40] فإن هذه الآية مع كونها أول الكلام معهم، والخطاب لهم في هذه السورة هي أيضاً أولى بأن تعاد، وتكرر لما فيها من الأمر بذكر النعم، والوفاء بالعهود، والرهبة لله سبحانه، وبهذا تعرف صحة ما قدمناه لك عند أن شرع الله سبحانه في خطاب بني إسرائيل من هذه السورة، فراجع، ثم حكى البقاعي بعد كلامه السابق عن الحوالي أنه قال: كثره تعالى إظهاراً لمقصد التثام آخر الخطاب بأوله، وليتخذ هذا الإفصاح، والتعليم أصلاً لما يمكن بأن يرد من نحوه في سائر القرآن حتى كان الخطاب إذا انتهى إلى غاية خاتمه يجب أن يلحظ القلب بذاته تلك الغاية، فيتلوها ليكون في تلاوته جامعاً لطرفي الثناء، وفي تقيمه جامعاً لمعاني طرفي المعنى. انتهى. وأقول: لو كان هذا هو سبب التكرار لكان الأولى به ما عرفناك. وأما قوله: وليتخذ ذلك أصلاً لما يرد من التكرار في سائر القرآن فمعلوم أن حصول هذا الأمر في الأذهان وتقرره في الأفهام لا يختص بتكرير آية معينة يكون افتتاح هذا المقصد بها، فلم تتم حينئذ النكتة في تكرير هاتين الآيتين بخصوصهما، والله الحكمة البالغة التي لا تبلغها الأفهام ولا تدرکہا العقول، فليس في تكليف هذه المناسبات المتعسفة إلا ما عرفناك به هناك فتذكر قوله: ﴿وإذ ابتلى﴾ الابتلاء: الامتحان والاختبار أي: ابتلاه بما أمره به، و﴿إبراهيم﴾ معناه في السريانية أب رحيم، كذا قال الماوردي، قال ابن عطية: ومعناه في العربية ذلك. قال السهيلي: وكثيراً ما يقع الاتفاق بين السرياني، والعربي. وقد أورد صاحب الكشف هنا سؤالاً في رجوع الضمير إلى إبراهيم مع كون رتبته التأخير، وإجاب عنه بأنه قد تقدم لفظاً، فرجع إليه، والأمر في هذا أوضح من أن يشتغل بنكره، أو ترد في مثله الأسئلة، أو يسود وجه القرطاس بليضاحه. قوله: ﴿بكلمات﴾ قد اختلف العلماء في تعيينها، فقيل: هي شرائع الإسلام، وقيل نبح ابنه، وقيل أداء الرسالة، وقيل: هي خصال الفطرة، وقيل: هي قوله ﴿إني جاعلك للناس إماماً﴾ وقيل: بالطهارة كما سيأتي بيانه. قال الزجاج: وهذه الأقوال ليست بمتناقضة؛ لأن هذا كله مما ابتلي به إبراهيم. انتهى. وظاهر النظم القرآني أن الكلمات

تتخلف. وقد علمنا أنه قد نال عهده من الإمامة، وغيرها كثيراً من الظالمين. قوله: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ﴾ هو: الكعبة غلب عليه كما غلب النجم على الثريا، و ﴿مُثَابَةً﴾ مصدر من ثاب يثوب مثلاً، ومثابة، أي: مرجعاً يرجع الحجاج إليه بعد تفرقهم عنه، ومنه قول ورقة بن نوفل في الكعبة: مثاب لأقفاء القبائل كلها تخب إليها يعملات النوازل وقرأ الأعمش «مثابات» وقيل: المثابة من الثواب أي: يثابون هنالك. وقال مجاهد: المراد أنهم لا يقضون منه أوطارهم، قال الشاعر:

جعل البيت مثابات لهم ليس منه الدهر يقضون الوطر
قال الاخفش: ودخلت الهاء لكثرة من يثوب إليه، فهي كعلامة، ونسابة. وقال غيره: هي للتأنيث، وليست للمبالغة. وقوله: ﴿وَأَمَّا﴾ هو اسم مكان أي: موضع آمن. وقد استدل بذلك جماعة من أهل العلم على أنه لا يقام الحد على من لجأ إليه، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ نَخْلِهِ كَانَ آمَنًا﴾ [آل عمران: 97] وقيل: إن ذلك منسوخ. وقوله: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ قرأ نافع، وابن عامر بفتح الخاء على أنه فعل ماض أي: جعلنا البيت مثابة للناس وأماناً، واتخذوه مصلى. وقرأ الباقون على صيغة الأمر عطفاً على انكروا المنكور أول الآيات، أو على انكروا المقتر عاملاً في قوله: ﴿وَإِذْ﴾ ويجوز أن يكون على تقدير القول، أي: وقلنا: اتخذوا. والمقام في اللغة: موضع القيام، قال النحاس هو من قام يقوم، يكون مصدرأً واسماً للموضع، ومقام من أقام، وليس من هذا قول الشاعر:

وفيه مقامات حسان وجوها وأندية ينتابها القول والفعل
لأن معناه أهل مقامات. واختلف في تعيين المقام على أقوال أصحها أنه الحجر الذي يعرفه الناس، ويصلون عنده ركعتي الطواف، وقيل: المقام الحج كله، روي ذلك عن عطاء، ومجاهد، وقيل: عرفة، والمزلفة، روي عن عطاء أيضاً، وقال الشعبي: الحرم كله مقام إبراهيم. وروي عن مجاهد:

وقد أخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبَّهُ﴾ قال: ابتلاه الله بالطهارة: خمس في الرأس؛ وخمس في الجسد. في الرأس قص الشارب، والمضمضة، والاستنشاق، والسواك، وفريق الرأس، وفي الجسد: تقليم الأظفار، وحلق العانة، والختان، ونتف الإبط، وغسل مكان الغائط، والبول بالماء. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن المنذر عنه نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم، وابن مروي، وابن عساكر عنه قال: ما ابتلي أحد بهذا الدين، فقام به كله إلا إبراهيم. وقرأ هذه الآية فقيل له: ما الكلمات؟ قال: سهام الإسلام ثلاثون سهماً: عشرة في براءة ﴿التائبون العابدون﴾ [التوبة: 112] إلى آخر الآية، وعشرة في أول سورة قد أفلح وسأل سائل ﴿والذين يصنعون بيوم الدين﴾ [المعارج: 26] الآيات، وعشرة في

هي قوله: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ﴾ وما بعده، ويكون ذلك بياناً للكلمات، وسيأتي عن بعض السلف ما يوافق ذلك، وعن آخرين ما يخالفه. وعلى هذا، فيكون قوله: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ﴾ مستأنفاً كأنه ماذا قال له. وقال ابن جرير ما حاصله إنه يجوز أن يكون المراد بالكلمات جميع ذلك، وجائز أن يكون بعض ذلك، ولا يجوز الجزم بشيء منها أنه المراد على التعيين إلا بحديث، أو إجماع، ولم يصح في ذلك خبر بنقل الواحد، ولا بنقل الجماعة الذي يجب التسليم له، ثم قال: فلو قال قائل إن الذي قاله مجاهد، وأبو صالح، والربيع بن أنس أولى بالصواب: يعني أن الكلمات هي قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ وقوله: ﴿وَعَهْدًا إِلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [البقرة: 125] وما بعده، ورجح ابن كثير أنها تشمل جميع ما نكر، وسيأتي التصريح بما هو الحق بعد إيراد ما ورد عن السلف الصالح، وقوله: ﴿فَاتَمَّهْن﴾ أي قام بهن أتم قيام، وامتنل أكمل امتثال. والإمام هو: ما يؤتم به، ومنه قيل: للطريق إمام، وللبناء إمام، لأنه يؤتم بذلك أي: يهتدي به السالك، والإمام لما كان هو القدوة للناس لكونهم ياتمون به، ويهتدون بهديه أطلق عليه هذا اللفظ. وقوله: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ يحتمل أن يكون ذلك دعاء من إبراهيم، أي: واجعل من ذريتي أئمة، ويحتمل أن يكون هذا من إبراهيم بقصد الاستفهام، وإن لم يكن بصيغته أي: ومن ذريتي ماذا يكون يا رب؟ فأخبره أن فيهم عصاة، وظلمة، وأنهم لا يصلحون لذلك، ولا يقومون به، ولا ينالهم عهد الله سبحانه. والذرية مأخوذة من الذر؛ لأن الله أخرج الخلق من ظهر أم حين أشهدهم على أنفسهم كالذر، وقيل: مأخوذة من ذرأ الله الخلق ينزروهم إذا خلقهم. وفي الكتاب العزيز: ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحَ﴾ [الكهف: 45] قال في الصحاح: ذرت الريح السحاب، وغيره تذروه، وتذريه ذرواً، وذرياً أي: نسفته، وقال الخليل: إنما سماوا ذرية؛ لأن الله تعالى ذرأها على الأرض كما ذرأ الزارع البذر. واختلف في المراد بالعهد، فقيل: الإمامة، وقيل النبوة، وقيل: عهد الله أمره، وقيل: الأمان من عذاب الآخرة، ورجحه الزجاج، والأول أظهر كما يفيد السياق. وقد استدل بهذه الآية جماعة من أهل العلم على أن الإمام لا بد أن يكون من أهل العدل، والعمل بالشرع كما ورد؛ لأنه إذا زاع عن ذلك كان ظالماً. ويمكن أن ينظر إلى ما يصدق عليه اسم العهد، وما تفيدته الإضافة من العموم، فيشمل جميع ذلك اعتباراً بعموم اللفظ من غير نظر إلى السبب، ولا إلى السياق، فيستدل به على اشتراط السلامة من وصف الظلم في كل من تعلق بالأمور الدينية. وقد اختار ابن جرير أن هذه الآية، وإن كانت ظاهرة في الخبر أنه لا ينال عهد الله بالإمامة ظالماً، ففيها إعلام من الله لإبراهيم الخليل أنه سيوجد من ذريته من هو ظالم لنفسه. انتهى. ولا يخفك أنه لا جدوى لكلامه هذا. فالأولى أن يقال: إن هذا الخبر في معنى الأمر لعباده أن لا يولوا أمور الشرع ظالماً، وإنما قلنا: إنه في معنى الأمر؛ لأن أخباره تعالى لا يجوز أن

في ذلك على الله سبحانه، وأما روي عن ابن عباس، ونحوه من الصحابة، ومن بعدهم في تعيينها، فهو أولاً أقوال صحابة لا تقوم بها الحجة فضلاً عن أقوال من بعدهم، وعلى تقدير أنه لا مجال للاجتهاد في ذلك، وأن له حكم الرفع، فقد اختلفوا في التعيين اختلافاً يمتنع معه العمل ببعض ما روى عنهم دون البعض الآخر بل اختلفت الروايات عن الواحد منهم كما قدمنا عن ابن عباس، فكيف يجوز العمل بذلك، وبهذا تعرف ضعف قول من قال: إنه يصار إلى العموم، ويقال تلك الكلمات هي: جميع ما ذكر هنا، فإن هذا يستلزم تفسير كلام الله بالضعيف، والمتناقض، وما لا تقوم به الحجة. وأخرج عبد بن حميد، عن ابن عباس، **«قال إني جاعلك للناس إماماً»** يقتدى بدينك، وهديك، وستتك **«قال ومن نزييتي»** إماماً لخير نزييتي: **«قال لا ينال عهدي الظالمين»** أن يقتدى بدينهم، وهديهم، وستتهم. وأخرج الفريابي، وابن أبي حاتم، عنه قال: قال الله لإبراهيم: **«إني جاعلك للناس إماماً قال ومن نزييتي»** فأبى أن يفعل، ثم قال: **«لا ينال عهدي الظالمين»**. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة قال: هذا عند الله يوم القيامة لا ينال عهده ظالماً، فأما في الدنيا، فقد نالوا عهده فوارثوا به المسلمين، وغازوهم، وناكحهم، فلما كان يوم القيامة قصر الله عهده، وكرامته على أوليائه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد في تفسير الآية أنه قال: لا أجعل إماماً ظالماً يقتدى به، وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في الآية قال: يخبره أنه إن كان في نزيته ظالم لا ينال عهده، ولا ينبغي له أن يوليه شيئاً من أمره. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عنه أنه قال: ليس لظالم عليك عهد في معصية الله. وقد أخرج وكيع، وابن مروي عن حديث علي عن النبي ﷺ في قوله: **«لا ينال عهدي الظالمين»** قال: لا طاعة إلا في المعروف، وإسناده عند ابن مروي هكذا: قال حدثنا عبد الرحمن بن محمد بن حامد، حدثنا أحمد بن عبد الله بن سعد الأسدي، حدثنا سليم بن سعيد الدامغاني، حدثنا وكيع عن الأعمش، عن سعد بن عبيدة، عن أبي عبد الرحمن السلمي عن علي عن النبي ﷺ، فنكره. وأخرج عبد بن حميد، عن حديث عمران بن حصين، سمعت النبي ﷺ يقول: لا طاعة لمخلوق في معصية الله. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس، أنه قال في تفسير الآية: ليس للظالم عهد، وإن عاهدته فانقضه. قال ابن كثير: روي عن مجاهد، وعطاء، ومقاتل، وابن حبان نحو ذلك. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: **«مثابة للناس وأمناً»** قال: يثوبون إليه، ثم يرجعون. وأخرج ابن جرير، عنه أنه قال: لا يقضون منه وطراً يأتونه، ثم يرجعون إلى أمليهم، ثم يعوبون إليه. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، والبيهقي عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله:

الاحزاب **«إن المسلمين»** [الاحزاب: 35] إلى آخر الآية، **«فاتمهن»** كهن فكتب له براءة قال تعالى: **«وإبراهيم الذي وفى»** [النجم: 37]. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم عنه قال: منهن مناسك الحج. وأخرج ابن جرير عنه قال: الكلمات: **«إني جاعلك للناس إماماً - وإذ يرفع إبراهيم القواعد»** والآيات في شأن المناسك، والمقام الذي جعل لإبراهيم، والرزق الذي رزق ساكنو البيت، ويعث محمد في نزيتهما. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، عن مجاهد في قوله: **«وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات»** قال: ابتلى بالآيات التي بعدها. وأخرج أيضاً، عن الشعبي مثله. وأخرج ابن إسحاق، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: الكلمات التي ابتلى بهن إبراهيم، فاتمهن: فراق قومه في الله حين أمر بمفارقتهم، ومحاجته نمرود في الله حين وقفه على ما وقفه عليه من خطر الأمر الذي فيه خلاقتهم، وصبره على قذفهم إياه في النار: ليحرقوه في الله، والهجرة بعد ذلك من وطنه، وبلاده حين أمره بالخروج عنهم، وما أمره به من الضيافة، والصبر عليها، وما ابتلى به من ذبح ولده، فلما مضى على ذلك كله: **«قال»** الله له: **«أسلم قال أسلمت لرب العالمين»** [البقرة: 131]. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن الحسن قال: ابتلاه بالكوكب، فرضي عنه، وابتلاه بالقمر، فرضي عنه، وابتلاه بالشمس، فرضي عنه، وابتلاه بالهجرة، فرضي عنه، وابتلاه بالختان، فرضي عنه، وابتلاه بابنه، فرضي عنه. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس في قوله: **«فاتمهن»** قال: فاداهن. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عطاء قال: قال رسول الله ﷺ: «من فطرة إبراهيم السواك» قلت: وهذا على تقدير أن إسناده إلى عطاء صحيح، فهو مرسل لا تقوم به الحجة، ولا يحل الاعتماد على مثله في تفسيره كلام الله سبحانه، وهكذا لا يحل الاعتماد على مثل ما أخرجه ابن أبي حاتم عن مجاهد قال: من فطرة إبراهيم غسل الذكر، والبراجم، ومثل ما أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه عنه قال: ست من فطرة إبراهيم: قص الشارب، والسواك، والفرق، وقص الأظفار، والاستنجاء، وحلق العانة، قال: ثلاثة في الرأس - وثلاثة في الجسد. وقد ثبت عن رسول الله ﷺ في الصحيح، وغيره من طريق جماعة من الصحابة مشروعية تلك العشر لهذه الأمة، ولم يصح عن النبي ﷺ أنها الكلمات التي ابتلى بها إبراهيم. وأحسن ما روي عنه ما أخرجه الترمذي، وحسنه عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ يقص، أو يأخذ من شاربه. قال: وكان خليل الرحمن إبراهيم يفعله. ولا يخفك أن فعل الخليل له لا يستلزم أنه من الكلمات التي ابتلى بها، وإذا لم يصح شيء عن رسول الله ﷺ، ولا جاءنا من طريق تقوم بها الحجة تعيين تلك الكلمات لم يبق لنا إلا أن نقول: إنها ما نكره الله سبحانه في كتابه بقوله: **«قال إني جاعلك»** إلى آخر الآيات، ويكون ذلك بياناً للكلمات، أو السكوت، وإحالة العلم

﴿وَأَمَّا﴾ قال: أمناً للناس. وأخرج البخاري، وغيره من حديث أنس، عن عمر بن الخطاب قال: وافقت ربي في ثلاث ووافقني ربي في ثلاث، قلت: يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى، فنزلت: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾. قلت: يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر، والفاجر، فلو أمرتهن أن يحتجبن، فنزلت آية الحجاب، واجتمع على رسول الله ﷺ نسأوه في الغيرة، فقلت لهن: ﴿عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن﴾ [التحریم: 5] فنزلت كذلك، وأخرجه مسلم، وغيره مختصراً من حديث ابن عمر عنه. وأخرج مسلم، وغيره من حديث جابر: «أن النبي ﷺ رمل ثلاثة أشواط ومشى أربعاً، حتى إذا فرغ عمد إلى مقام إبراهيم، فصلى خلفه ركعتين، ثم قرأ: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾» وفي مقام إبراهيم عليه السلام أحاديث كثيرة مستوفاة في الأمهات، وغيرها، والأحاديث الصحيحة تدل على أن مقام إبراهيم هو: الحجر الذي كان إبراهيم يقوم عليه لبناء الكعبة لما ارتفع الجدار، أتاه إسماعيل به ليقوم فوقه، كما في البخاري من حديث ابن عباس، وهو: الذي كان ملصقاً بجدار الكعبة، وأول من نقله عمر بن الخطاب كما أخرجه عبد الرزاق، والبيهقي، بإسناد صحيح، وابن أبي حاتم، وابن مروييه من طرق مختلفة، وأخرج ابن أبي حاتم من حديث جابر في وصف حج النبي ﷺ، قال: لما طاف النبي ﷺ قال له عمر: هذا مقام إبراهيم؟ قال: نعم. وأخرج نحوه ابن مروييه.

وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهَّرَا بَيْتَ الْإِسْلَامِ وَالْمَكِينِ وَالرُّكْنَ الْأَشْجَرِ ﷺ وَلَقَدْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آيَةً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ الثَّرَاوَةِ مِنْ آمَنَ بِهِمْ فَأَوْفَىٰ الْوَعْدَ قَالَ وَسَ كَرَّمَ مَقَرَّتُمْ فَلَيْلًا ثُمَّ أَنْزَلُوهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَفِي السُّمُورِ ﷻ وَأَذَىٰ رَجَعَ إِبْرَاهِيمَ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلَ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﷻ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَبَّ عَيْنًا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﷻ

قوله: ﴿عَهْدَنَا﴾ معناه هنا: امرنا، أو لوجبنا. وقوله: ﴿أَن طَهَّرَا﴾ في موضع نصب بنزع الخافض أي: بأن طهرا قاله الكوفيون، وقال سيبويه: هو: بتقدير أي: المفسرة أي: أن طهرا، فلا موضع لها من الإعراب، والمراد بالتطهير قيل: من الأوثان، وقيل: من الآفات، والريب، وقيل: من الكفار؛ وقيل: من النجاسات، وطواف الجنب، والحائض، وكل خبيث. والظاهر أنه لا يختص بنوع من هذه الأنواع، وإن كل ما يصدق عليه مسمى التطهير، فهو يتناولها إما تنولاً شمولياً، أو بلبياً، والإضافة في قوله: ﴿بَيْتِي﴾ للتشريف، والتكريم، وقرأ الحسن، وابن أبي إسحاق، وأهل المدينة، وهشام، وحفص «بَيْتِي» بفتح الباء، وقرأ الآخرون بإسكانها. والطائف: الذي يطوف به، وقيل: الغريب الطارئ على مكة. والعاكف: المقيم، وأصل العكوف في اللغة: اللزوم، والإقبال على الشيء، وقيل: هو: المجاور لكون المقيم من أهلها.

والمراد بقوله: ﴿الرُّكْنَ السَّجُودِ﴾ المصلون، وخص هذين الركنين بالنكر: لأنهما أشرف أركان الصلاة. وقوله: ﴿وَأَذَى﴾ قال إبراهيم: ستاتي الأحاديث الدالة على أن إبراهيم هو الذي حرّم مكة، والأحاديث الدالة على أن الله حرّمها يوم خلق السموات، والأرض، والجمع بين هذه الأحاديث في هذا البحث. وقوله: ﴿بَلَدًا آمِنًا﴾ أي: مكة، والمراد الدعاء لأهله من نزيته وغيرهم كقوله: ﴿عَيْشَةً رَّاضِيَةً﴾ [الحاقة: 21، القارة: 7] أي: راض صاحبها. وقوله: ﴿مِنْ آمَنٍ﴾ بدل من قول أهله أي: أرزق من آمن من أهله نون من كفر. وقوله: ﴿وَمِنْ كَفَرٍ﴾ الظاهر أن هذا من كلام الله سبحانه رداً على إبراهيم حيث طلب الرزق للمؤمنين نون غيرهم أي: وأرزق من كفر، فامتعه بالرزق قليلاً، ثم أضطره إلى عذاب النار، ويحتمل أن يكون كلاماً مستقلاً بياناً لحال من كفر، ويكون في حكم الإخبار عن حال الكافرين بهذه الجملة الشرطية أي: من كفر، فإنني امتعه في هذه الدنيا بما يحتاجه من الرزق: ﴿ثُمَّ اضْطَرَّه﴾ بعد هذا التمتع «إلى عذاب النار» فأخبر سبحانه أنه لا ينال الكفرة من الخير إلا تمتيعهم في هذه الدنيا، وليس لهم بعد ذلك إلا ما هو شرّ محض، وهو: عذاب النار؛ وأما على قراءة من قرأ: ﴿فَامْتَعَهُ﴾ بصيغة الأمر، وكذلك قوله: ﴿ثُمَّ اضْطَرَّه﴾ بصيغة الأمر، فهي مبنية على أن ذلك من جملة كلام إبراهيم، وأنه لما فرغ من الدعاء للمؤمنين دعا للكافرين بالإمتاع قليلاً، ثم دعا عليهم بأن يضطروهم إلى عذاب النار. ومعنى: ﴿اضْطَرَّه﴾ ألزمه حتى صيره مضطراً لذلك لا يجد عنه مخلصاً، ولا منه متحولاً. قوله: ﴿وَأَذَى يَرْفَعُ﴾ هو: حكاية لحال ماضية استحضاراً لصورتها العجيبة. والقواعد: الأساس، قاله أبو عبيدة والفراء. وقال الكسائي: هي الجدر. والمراد برفعها رفع ما هو مبني فوقها لا رفعها في نفسها، فإنها لم ترتفع، لكنها لما كانت متصلة بالبناء المرتفع فوقها صارت كأنها مرتفعة بارتفاعه، كما يقال: ارتفع البناء، ولا يقال: ارتفع أعالي البناء، ولا أسافله. قوله: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾ في محل الحال بتقدير القول أي: قائلين ربنا. وقرأ أبي، وابن مسعود: «وَأَذَى يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمَ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلَ، ويقولان: ربنا تقبل منا». وقوله: ﴿وَلَجَعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ﴾ أي: أجعلنا ثابتين عليه، أو زدنا منه. قيل: المراد بالإسلام هنا مجموع الإيمان، والأعمال. وقوله: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا﴾ أي: وأجعل من ذريتنا، و«من» للتبعية، أو للتبيين. وقال ابن جرير: إنه أراد بالذرية العرب خاصة، وكذا قال السهيلي. قال ابن عطية: وهذا ضعيف؛ لأن دعوته ظهرت في العرب وغيرهم من الذين آمنوا به. والامة: الجماعة في هذا الموضع، وقد تطلق على الواحد، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ﴾ [النحل: 120] وتطلق على الدين ومنه: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: 23] وتطلق على الزمان، ومنه: ﴿وَأَنكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: 45]. وقوله: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ هي من الرؤية البصرية. وقرأ عمر بن عبد العزيز، وقناة، وابن

كثير، وابن محيصن، وغيرهم: «أرنا» بسكون الراء، ومنه قول الشاعر:

أرنا إبادة عبد الله يملؤها من ماء زمزم إن القوم قد ظلموا
والمناسك جمع نسك، وأصله في اللغة: الغسل، يقال: نسك ثوبه: إذا غسله. وهو في الشرع اسم للعبادة، والمراد هنا مناسك الحج، وقيل: مواضع الذبح، وقيل جميع المتعبدات. وقوله: ﴿وتب علينا﴾ قيل: المراد بطلبهما للتوبة التثبيت؛ لأنهما معصومان لا ذنب لهما، وقيل: المراد تب على الظلمة منا.

وقد أخرج ابن جرير، عن عطاء قال: ﴿وعهدنا إلى إبراهيم﴾ أي: أمرناه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿إن طهراً بيتي﴾ قال: من الأوثان. وأخرج أيضاً عن مجاهد، وسعيد بن جبيرة مثله، وزأوا الريب، وقول الزور، والرجس. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: إذا كان قائماً، فهو من الطائفين، وإذا كان جالساً، فهو من العاكفين، وإذا كان مصلياً، فهو من الركع السجود. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن عمر بن الخطاب أنه سئل عن الذين ينامون في المسجد فقال: هم العاكفون. وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «إن إبراهيم حرم مكة، وإني حرمت المدينة ما بين لابتيها، فلا يصاد صيدها، ولا يقطع عضاهها» كما أخرجه أحمد، ومسلم، والنسائي، وغيرهم من حديث جابر. وقد روي هذا المعنى عن النبي ﷺ من طريق جماعة من الصحابة، منهم رافع بن خديج عند مسلم، وغيره، ومنهم أبو قتادة عند أحمد، ومنهم أنس عند الشيخين، ومنهم أبو هريرة عند مسلم، ومنهم علي بن أبي طالب عند الطبراني في الأوسط، ومنهم أسامة بن زيد عند أحمد، والبخاري، ومنهم عائشة عند البخاري. وثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، وهي حرام إلى يوم القيامة» أخرجه البخاري تعليقاً، وابن ماجه من حديث صفية بنت شيبة. وأخرجه الشيخان، وغيرهما من حديث ابن عباس. وأخرجه الشيخان، وأهل السنن من حديث أبي هريرة، وفي الباب أحاديث غير ما ذكرنا، ولا تعارض بين هذه الأحاديث، فإن إبراهيم عليه السلام لما بلغ الناس أن الله حرمها، وأنها لم تزل حراماً آمناً نسب إليه أنه حرمها: أي أظهر للناس حكم الله فيها، وإلى هذا الجمع ذهب ابن عطية، وابن كثير. وقال ابن جرير: إنها كانت حراماً، ولم يتعبد الله الخلق بذلك حتى سأل إبراهيم، فحرمها، وتعبدوا بذلك. انتهى. وكلا الجمعين حسن. وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن محمد بن مسلم الطائفي قال: بلغني أنه لما دعا إبراهيم للحرم فقال: ﴿وارزق أهله من الثمرات﴾ نقل الله الطائف من فلسطين. وأخرج نحوه ابن أبي حاتم، والأزرقي، عن الزهري. وأخرج نحوه أيضاً الأزرقي عن بعض ولد نافع بن جبيرة بن مطعم. وقد أخرج الأزرقي نحوه مرفوعاً من طريق محمد بن

المنكدر. وأخرج أيضاً عن محمد بن كعب القرظي قال: دعا إبراهيم للمؤمنين، وترك الكفار، ولم يدع لهم بشيء، قال الله: ﴿ومن كفر فامتنعه﴾ الآية. وأخرج نحوه سفيان بن عيينة، عن مجاهد. وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿ومن آمن منهم بالله﴾ قال: كأن إبراهيم احتجها على المؤمنين دون الناس، فأنزل الله: ﴿ومن كفر﴾ أيضاً فأنزلهم كما أرزق المؤمنين، أخلق خلقاً لا أرزقهم امتنعهم قليلاً، ثم اضطروهم إلى عذاب النار، ثم قرأ ابن عباس: ﴿كلا نمد هؤلاء وهؤلاء﴾ [الإسراء: 20] الآية. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن أبي العالية قال: قال أبي بن كعب في قوله: ﴿ومن كفر﴾ أن هذا من قول الرب. وقال ابن عباس: هذا من قول إبراهيم يسأل ربه أن من كفر، فامتنعه قليلاً. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: القواعد أساس البيت. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، والبخاري، وابن جرير، وغيرهم عن سعيد بن جبيرة، قصة مطولة، وأخرها في بناء البيت، قال: فعند ذلك رفع إبراهيم القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة، وإبراهيم يبني حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر، فوضعه له، فقام عليه، وهو يبني، وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: ﴿ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وإذا رفع إبراهيم القواعد﴾ قال: القواعد التي كانت قواعد البيت قبل ذلك. وقد أكثر المفسرون في تفسير هذه الآية من نقل أقوال السلف في كيفية بناء البيت، ومن أي أحجار الأرض بني، وفي أي زمان عرف، ومن حجه؟ وما ورد فيه من الأدلة الدالة على فضله، أو فضل بعضه كالحجر الأسود. وفي الدر المنثور من ذلك ما لم يكن في غيره، فليرجع إليه، وفي تفسير ابن كثير بعض من ذلك، ولما لم يكن ما نكره متعلقاً بالتفسير لم نذكره. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سلام بن أبي مطيع في هذه الآية: ﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك﴾ قال: كانا مسلمين، ولكن سالاها الثبات. وأخرج ابن أبي حاتم عن عبد الكريم، قال: مخلصين. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن السدي في قوله: ﴿ومن ذريتنا﴾ قال: يعنيان العرب. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي حاتم، عن مجاهد قال: قال إبراهيم رب أرنا مناسكتنا، فأتاه جبريل فأتى به البيت فقال: أرفع القواعد، فرفع القواعد، وأتم البنين، ثم أخذ بيده، فأخرجه، فأنطلق به نحو منى، فلما كان عند العقبة، فإذا إبليس قائم عند الشجرة، فقال: كبير وارمه، فكبر ورماه، فذهب إبليس حتى أتى الجمرة الوسطى ففعل به إبراهيم كما فعل في الأولى، ثم كلك في الجمرة الثالثة، ثم أخذ جبريل بيد إبراهيم حتى أتى به المشعر الحرام فقال: هذا المشعر الحرام، ثم ذهب حتى أتى به عرفات، قال: وقد عرفت ما أريتكم؟ قالها ثلاثاً، قال: نعم، قال: فأنزل في الناس بالحج، قال: وكيف أؤذن؟ قال: قل يا أيها الناس أجيئوا ربكم ثلاث مرات، فأجاب العباد:

﴿اصطفيناه﴾ أي: اخترناه وقت أمرنا له بالإسلام، ويحتمل أن يتعلق بمحنوف هو: انكر. قال في الكشف: كأنه قيل انكر ذلك الوقت ليعلم أنه المصطفى الصالح الذي لا يرغب عن ملة مثله، والضمير في قوله: ﴿وَأَوْصَىٰ بِهَا﴾ راجع إلى الملة، أو إلى الكلمة، أي: أسلمت لرب العالمين. قال القرطبي: وهو أصوب؛ لأنه أقرب مذكور أي: قولوا أسلمنا. انتهى. والأول أرجح؛ لأن المطلوب ممن بعده هو: إتباع ملته لا مجرد التكلم بكلمة الإسلام، فالتوصية بذلك الديق إبراهيم، وأولى بهم. ووصى وأوصى بمعنى، وقرئ بهما، وفي مصحف عثمان: ﴿وَأَوْصَى﴾ وهي قراءة أهل الشام، والمدينة، وفي مصحف عبد الله بن مسعود ﴿وَوَصَى﴾ وهي قراءة الباقرين ﴿ويعقوب﴾ معطوف على إبراهيم، أي: وأوصى يعقوب بنيه كما أوصى إبراهيم بنيه. وقرأ عمر بن فايد الأسواري، وإسماعيل بن عبد الله المكي بنصب يعقوب، فيكون داخلاً فيمن أوصاه إبراهيم، قال القشيري: وهو بعيد، لأن يعقوب لم يدرك جده إبراهيم، وإنما ولد بعد موته. وقوله: ﴿يَا بَنِي﴾ هو بتقدير أن. وقد قرأ أبي، وابن مسعود، والضحاك بإثباتها. قال الفراء: الغيت أن، لأن التوصية كالقول، وكل كلام رجع إلى القول جاز فيه دخول أن وجاز فيه إلغاؤها، وقيل: إنه على تقدير القول، أي: قاتلاً يا بني. روي ذلك عن البصريين. وقوله: ﴿اصطفى لكم الدين﴾ أي: اختاره لكم، والمراد ملته التي لا يرغب عنها إلا من سفه نفسه، وهي الملة التي جاء بها محمد ﷺ. وقوله: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ فيه إيجاز بليغ. والمراد الزموا الإسلام، ولا تقارقه حتى تموتوا.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ قال: رغبت اليهود، والنصارى عن ملته، واتخذوا اليهودية، والنصرانية بدعة ليست من الله، تركوا ملة إبراهيم الإسلام، وبذلك بعث الله نبيه محمداً ﷺ بملة إبراهيم. وأخرج عبد بن حميد عن قتادة مثله. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي مالك في قوله: ﴿وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ﴾ قال: اخترناه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ﴾ قال: وصاهم بالإسلام، ووصى يعقوب بنيه بمثل ذلك. وأخرج الثعلبي، عن فضيل بن عياض في قوله: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي: محسنون بربكم الظن.

أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَبُذُ الْهَكَ وَاللَّهِ ءَاتَاكَ إِزْرِعَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًُا وَجَدًا وَنَحْنُ لَكَ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٠﴾ يَكُ أَتَقَدَّرُ خَلَّتْ لَهَا مَا كَبَيْتَ وَلَكُم مَّا كَبَيْتُمْ وَلَا تَسْتَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَسْأَلُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٢﴾ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَهُ إِبْرَاهِيمَ وَلَا يُشْرِكُ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَيَسَىٰ وَمَا أُوتِيَ الْكَلْبُوتُ مِنْ رَبِّهِمْ لَا تَفَرُّوا بَيْنَ أَعْمَارٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَكَ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا بِبَعْضِ مَا ءَامَنُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَلَنْ نُّؤْتَا

ليبك اللهم لبيك، فمن أجاب إبراهيم يومئذ من الخلق، فهو حاج. وأخرج ابن جرير من طريق ابن المسيب، عن علي قال: لما فرغ إبراهيم من بناء البيت قال: قد فعلت أي رب، فأرنا مناسكتنا: أبرزها لنا علمناها، فبعث الله جبريل، فحج به. وفي الباب آثار كثيرة عن السلف من الصحابة، ومن بعدهم تتضمن أن جبريل أرى إبراهيم المناسك، وفي أكثرها أن الشيطان تعرض له كما تقدم عن مجاهد. وقد أخرج ابن خزيمة، والطبراني، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب، عن ابن عباس نحو ذلك، وكذلك أخرج عنه أحمد، وابن أبي حاتم، والبيهقي.

رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا لِّمَن تَبَوَّلُوا عَلَيْهِمْ وَأَنِتَّبُوا لِيُذَكِّرَ الْبَشَرَ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعَزُّ لَلْكِبَرِ ﴿١٣٤﴾ وَنَزَّ عَنِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَوَّاهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَلَئِنَّ فِي الْآخِرَةِ لَكُنُوزَ كَثِيرَةٍ ﴿١٣٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْكَوَالِينَ ﴿١٣٦﴾ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ بَنِيَّ إِذْ قَالَ اللَّهُ اصْطَلِقْ لَكُمْ آلَئِيْنَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٧﴾

الضمير في قوله: ﴿وَابْعَثْ فِيهِمْ﴾ راجع إلى الأمة المسلمة المذكورة سابقا. وقرأ أبي: «وابعث في آخرهم» ويحتمل أن يكون الضمير راجعاً إلى النرية. وقد أجاب الله لإبراهيم عليه السلام هذه الدعوة، فبعث في ذريته ﴿رسولاً منهم﴾ وهو محمد ﷺ. وقد أخبر عن نفسه بأنه دعوة إبراهيم كما سيأتي تخريج ذلك إن شاء الله، ومراده هذه الدعوة. والرسول هو: المرسل. قال ابن الأنباري: يشبه أن يكون أصله ناقة مرسال، ورسلة إذا كانت سهلة السير ماضية أمام النوق. ويقال جاء القوم أرسالاً أي: بعضهم في أثر بعض، والمراد بالكتاب: القرآن. والمراد بالحكمة: المعرفة بالدين، والفقه في التأويل، والفهم للشريعة. وقوله: ﴿يُذَكِّرُ الْبَشَرَ﴾ أي: يطهرهم من الشرك، وسائر المعاصي. وقيل إن المراد بالآيات ظاهر الألفاظ، والكتاب معانيها، والحكمة الحكم، وهو: مراد الله بالخطاب، والعزيز الذي لا يعجزه شيء قاله ابن كيسان. وقال الكسائي ﴿العزیز﴾ الغالب: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ﴾ في موضع رفع على الابتداء، والاستفهام للإنكار. وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ في موضع الخبر، وقيل هو: بدل من فاعل يرغب، والتقدير: وما يرغب عن ملة إبراهيم أحد إلا من سفه نفسه. قال الزجاج: سفه بمعنى جهل، أي: جهل أمر نفسه، فلم يفكر فيها. وقال أبو عبيدة: المعنى أهلك نفسه. وحكى ثعلب، والمبرد أن سفه بكسر الفاء يتعدى كسفه بفتح الفاء مشددة. قال الاخفش: ﴿سفه نفسه﴾ أي: فعل بها من السفه ما صار به سفيها، وقيل: إن نفسه منتصب بنزع الخافض، وقيل: هو: تمييز، وهذا ضعيضان جداً، وأما سفه بضم الفاء، فلا يتعدى قاله المبرد، وثلث. والاصطفاة: الاختيار، أي: اخترناه في الدنيا، وجعلناه في الآخرة من الصالحين، فكيف يرغب عن ملته راغب. وقوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ﴾ يحتمل أن يكون متعلقاً بقوله:

نسيبه، والمراد: أنكم لا تنتفعون بحسناتهم، ولا تؤاخذون بسيئاتهم، ولا تسألون عن أعمالهم كما لا يسألون عن أعمالكم، ومثله: ﴿ولا تزد وزرة وذر أخرى﴾ [الأنعام: 164] ﴿وإن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ [النجم: 39]. ولما أدعت اليهود، والنصارى أن الهداية بيدها، والخير مقصور عليها رد الله نك عليهم بقوله: ﴿بل ملة إبراهيم﴾ أي: قل يا محمد هذه المقالة، ونصب ملة بفعل مقدر، أي: نتبع، وقيل: التقدير: نكون ملة إبراهيم، أي: أهل ملته، وقيل: بل نهتدي بملة إبراهيم، فلما حذف حرف الجر صار منصوباً. وقرأ الأعرج، وابن أبي عبلة: «ملة» بالرفع، أي: بل الهدى ملة إبراهيم. والحنيف: المثلل عن الأديان الباطلة إلى دين الحق، وهو في أصل اللغة: الذي تميل قنماه كل واحدة إلى أختها. قال الزجاج، وهو منصوب على الحال: أي نتبع ملة إبراهيم حال كونه حنيفاً. وقال علي بن سليمان: هو منصوب بتقدير أعني، والحال خطأ كما لا يجوز جأني غلام هند مسرعة. وقال في الكشف: هو حال من المضاف إليه كقولك: رأيت وجه هند قائم، وقال قوم: الحنف الاستقامة، فسمي ديناً إبراهيم حنيفاً لاستقامته، وسمي معوج الرجلين أحنف تفاؤلاً بالاستقامة، كما قيل للبعير سليم، وللمهلكة مفازة. وقد استدل من قال بأن الحنيف في اللغة المائل لا المستقيم بقول الشاعر:

إذا حول الظل العشي رأيت حنيفاً ومن قرن الضحى ينتصر
أي: إن الحرياء تستقبل القبلة بالعشي، وتستقبل المشرق بالغداة، وهي قبله النصارى، ومنه قول الشاعر:

والله لولا حنف في رجله ما كان في رجالكم من مثله
وقوله: ﴿وما كان من المشركين﴾ فيه تعريض باليهود لقولهم: ﴿عزيز ابن الله﴾ [التوبة: 30] وبالنصارى لقولهم: ﴿المسيح ابن الله﴾ [التوبة: 30] أي: أن إبراهيم ما كان على هذه الحالة التي أنتم عليها من الشرك بالله، فكيف تدعون عليه أنه كان على اليهودية، أو النصرانية. وقوله: ﴿قولوا آمنا بالله﴾ خطاب للمسلمين، وأمر لهم بأن يقولوا هذه المقالة، وقيل: إنه خطاب للكفار بأن يقولوا ذلك حتى يكونوا على الحق، والأول أظهر. والأسباط: أولاد يعقوب، وهم اثنا عشر ولداً، ولكل واحد منهم من الأولاد جماعة، والسبط في بني إسرائيل بمنزلة القبيلة في العرب، وسموا الأسباط من السبط، وهو: التتابع، فهم جماعة متتابعون، وقيل: أصله من السبط بالتحريك، وهو الشجر، أي: هم في الكثرة بمنزلة الشجر، وقيل: الأسباط حفدة يعقوب، أي: أولاد أولاده لا أولاده؛ لأن الكثرة إنما كانت فيهم بون أولاد يعقوب في نفسه، فهم أفراد لا أسباط. وقوله: ﴿لا نفرق بين أحد منهم﴾ قال الفراء: معناه لا نؤمن ببعضهم، ونكفر ببعضهم كما فعلت اليهود، والنصارى. قال في الكشف: وأحد في معنى الجماعة، ولذلك صح دخول بين عليه. وقوله: ﴿فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به﴾ هذا الخطاب للمسلمين أيضاً، أي: فإن آمن أهل الكتاب، وغيرهم بمثل ما آمنتم به من جميع

فإنما هم في شقاقٍ نكبحكم الله وهو السميع العليم ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَمْ عَيْدُونَ﴾ قُلْ أَتَمَّجُونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَكَّا أَجْمَلْنَا وَلَكُمْ أَجْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَمْ عَيْدُونَ ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ إِيْرَهْرَ وَإِسْجِيلَ وَإِسْحَاقَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هَوًى أَوْ صَرَخاً قُلْ أَنَأْتُمْ أَغْلَمُ أَرَأَيْتُمْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَبَ شَهَادَةً عِنْدَ رَبِّهِ اللَّهُ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَصْلُونَ ﴿تِلْكَ أَمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

قوله: ﴿إنا كنتم شهداء﴾ أم هذه قيل: هي: المنقطعة، وقيل: هي: المتصلة، وفي الهمزة الإنكار المعيد للتقريع، والتوبيخ، والخطاب لليهود، والنصارى الذين ينسبون إلى إبراهيم، وإلى بنييه أنهم على اليهودية، والنصرانية، فرد الله ذلك عليهم، وقال لهم: أشهدتم يعقوب، وعلمتم بما أوصى به بنييه، فتدعون ذلك عن علم، أم لم تشهدوا بل أنتم مفترون. والشهداء جمع شاهد، ولم ينصرف؛ لأن فيه ألف التانيث التي لتانيث الجماعة، والعامل في «إذ» الأولى معنى الشهادة، وإن الثانية بدل من الأولى، والمراد بحضور الموت حضور مقدماته، وإنما جاء بما بون من في قوله: ﴿ما تعيدون﴾ لأن المعبودات من بون الله غالبها جمادات كالآلات، والنار، والشمس، والكواكب. ومعنى: ﴿من بعدي﴾ أي من بعد موتي. وقوله: ﴿إبراهيم وإسماعيل وإسحاق﴾ عطف بيان لقوله: ﴿آبائكم﴾ وإسماعيل، وإن كان عملاً ليعقوب؛ لأن العرب تسمي العم أباً، وقوله: ﴿إلهاً﴾ بدل من إلهك، وإن كان نكرة، فذلك جائز، ولا سيما بعد تخصيصه بالصفة التي هي قوله: ﴿واحد﴾ فإنه قد حصل المطلوب من الإبدال بهذه الصفة. وقيل: إن إلهاً منصوب على الاختصاص، وقيل: إنه حال. قال ابن عطية: وهو قول حسن؛ لأن الغرض الإثبات حال الوجدانية. وقرأ الحسن، ويحيى بن يعمر، وأبو رجاء الطاردي: «واله أبيك» فقيل: أراد إبراهيم وحده. ويكون قوله: ﴿وإسماعيل﴾ عطفًا على أبيك، وكذلك «إسحاق» وإن كان هو أباه حقيقة، وإبراهيم جدّه، ولكن لإبراهيم مزيد خصوصية، وقيل: إن قوله: «أبيك» جمع كما روي عن سيبويه أن أبين جمع سلامة، ومثله أبون، ومنه قول الشاعر: فلما تبين أصولنا بكن وقد بنينا بالأبينا وقوله: ﴿ونحن له مسلمون﴾ جملة حالية أي: نعبد له حال إسلامنا له، وجوز الزمخشري أن تكون اعتراضية على ما يذهب إليه من جواز وقوع الجملة الاعتراضية آخر الكلام. والإرشاد بقوله: ﴿تلك﴾ إلى إبراهيم، وبنيه، ويعقوب، وبنيه، و«أمة» بدل منه، وخبره «قد خلت» أو أمة خبره، وقد خلت نعت لأمة، وقوله: ﴿لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾ بيان لحال تلك الأمة، وحال المخاطبين بأن لكل من الفريقين كسبه، لا ينفعه كسب غيره، ولا يناله منه شيء، ولا يضره نكب غيره، وفيه الرد على من يتكل على عمل سلفه، ويرج نفسه بالأمانى الباطلة، ومنه ما ورد في الحديث: «من بطأ به عمله لم يسرع

وقوله: ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ أي: لنا أعمال، ولكم أعمال، فليست بأولى بالله منا، وهو مثل قوله تعالى: ﴿فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيثُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: 41]. وقوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مَخْلُصُونَ﴾ أي: نحن أهل الإخلاص للعبادة بونكم، وهو: المعيار الذي يكون به التفاضل، والخصلة التي يكون صاحبها أولى بالله سبحانه من غيره، فكيف تدعون لأنفسكم ما نحن أولى به منكم، وأحق؟ وفيه توبيخ لهم، وقطع لما جازوا به من المجادلة، والمناظرة. وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ قرا حمزة، والكسائي، وعاصم في رواية حفص: «تقولون» بالتاء الفوقية، وعلى هذه القراءة تكون أم هانئ معالجة للهمزة في قوله: ﴿اتَّحَاجُونَنَا﴾ أي: اتحاجوننا في الله أم تقولون إن هؤلاء الأنبياء على دينكم، وعلى قراءة الياء التحتية تكون أم منقطعة، أي: بل يقولون. وقوله: ﴿قُلْ لَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ﴾ فيه تقييد، وتوبيخ، أي: لن الله أخبرنا بأنهم لم يكونوا هوداً، ولا نصارى، وأنتم تدعون أنهم كانوا هوداً أو نصارى، فهل أنتم أعلم أم الله سبحانه. وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ استفهام، أي: لا أحد أظلم: «ممن كنتم شهادة عنده من الله» يحتمل أن يريد بذلك الذم لأهل الكتاب بأنهم يعلمون أن هؤلاء الأنبياء ما كانوا هوداً، ولا نصارى، بل كانوا على الملة الإسلامية، فظلموا أنفسهم بكتهم لهذه الشهادة بل بأدعائهم لما هو مخالف لها، وهو أشد في الذنب ممن اقتصر على مجرد الكتم الذي لا أحد أظلم منه، ويحتمل أن المراد أن المسلمين لو كنتم هذه الشهادة لم يكن أحد أظلم منهم، ويكون المراد بذلك التعريض بأهل الكتاب، وقيل: المراد هنا ما كنتموه من صفة محمد ﷺ. وفي قوله: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وعيد شديد، وتهديد ليس عليه مزيد، وإعلام بأن الله سبحانه لا يترك عقوبتهم على هذا الظلم القبيح، والذنب الفظيع، وكثر قوله سبحانه: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ إلى آخر الآية لتضمنها معنى التهديد، والتخويف الذي هو المقصود في هذا المقام.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ﴾ يعني أهل الكتاب. وأخرج أيضاً عن الحسن في قوله: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ﴾ قال: يقول: لم يشهد اليهود، ولا النصارى، ولا أحد من الناس يعقوب إذ أخذ على بنيه الميثاق إذ حضره الموت أن لا تعبدوا إلا الله، فآقروا بذلك، وشهد عليهم أن قد آقروا بعبادتهم أنهم مسلمون. وأخرج عن ابن عباس أنه كان يقول: الجذأ، ويتلو الآية. وأخرج أيضاً عن أبي العالية في الآية قال: سمي العم أباً. وأخرج أيضاً نحوه عن محمد بن كعب. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: قال عبد الله بن صوريا الأعور للنبي ﷺ: ما الهدى إلا ما نحن عليه، فاتبعنا يا محمد تهتد، وقالت النصارى مثل ذلك، فانزل الله فيهم: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُوداً﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿حَنِيفاً﴾ قال: متبعاً.

كتب الله ورسله، ولم يفرقوا بين أحد منهم، فقد اهتموا، وعلى هذا، فمثل زائدة كقولهم: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: 11] وقول الشاعر:

فصبروا مثل كصف مأكول

وقيل: إن المماثلة وقعت بين الإيمانيين، أي: فإن آمنوا بمثل إيمانكم. وقال في الكشف: إنه من باب التيكيت: لأن دين الحق واحد لا مثل له، وهو: دين الإسلام، قال أي: فإن حصلوا ديناً آخر مثل دينكم مساوياً له في الصحة، والسداد، فقد اهتموا، وقيل: إن الباء زائدة مؤكدة، وقيل: إنها للاستعانة. والشقاق أصله من الشق، وهو: الجانب، كأن كل واحد من الفريقين في جانب غير الجانب الذي فيه الآخر، وقيل: إنه مأخوذ من فعل ما يشق، ويصعب، فكل واحد من الفريقين يحرص على فعل ما يشق على صاحبه، ويصح حمل الآية على كل واحد من المعنيين، وكذلك قول الشاعر:

ولا فاعلموا أننا وانتم بفاة ما بقينا في شقاق
وقوله الآخر:

إلى كم تقبل العلماء قسرا وتفخر بالشقاق وبالنفاق
وقوله: ﴿فَسِيكَفِيهِمْ اللَّهُ﴾ وعد من الله تعالى لنبيه أنه سيكفيه من عانده، وخالفه من المتولين، وقد أنجز له وعده بما أنزله من بأسه بقريظة، والنضير وبنى قينقاع. وقوله: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ قال الأخفش، وغيره أي: دين الله، قال: وهي: منتصبة على البذل من ملة. وقال الكسائي: هي: منصوبة على تقدير اتبعوا، أو على الإغراء، أي: الزموا، ودجج الزجاج الانتصاب على البذل من ملة، كما قاله الفراء. وقال في الكشف: إنها مصدر مؤكد منتصب عن قوله: ﴿أَمَّا بِلَاهِ﴾ كما انتصب ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ عما تقدمه، وهي فعلة من صبغ كالجلسة من جلس، وهي الحالة التي يقع عليها الصبغ، والمعنى تطهير الله، لأن الإيمان تطهير النفوس. انتهى. وبه قال سيبويه أي: كونه مصدراً مؤكداً. وقد ذكر المفسرون أن أصل ذلك أن النصارى كانوا يصبغون أولادهم في الماء، وهو الذي يسمونه المعموية، ويجعلون ذلك تطهيراً لهم، فإذا فعلوا ذلك قالوا: الآن صار نصراناً حقاً، فرد الله عليهم بقوله: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ أي: الإسلام، وسماه صبغة استعارة، ومنه قول بعض شعراء همدان:

وكل أناس لهم صبغة وصبغة همدان خير الصبغ
صبغنا على ذاك أولادنا فأكرم بصبغتنا في الصبغ
وقيل: إن الصبغة الاغتسال لمن أراد الدخول في الإسلام بدلاً من معموية النصارى، نكرو الملوذي. وقال الجوهري: صبغة الله دينه، وهو: يؤيد ما تقدم عن الفراء؛ وقيل: الصبغة الختان. وقوله: ﴿قُلْ اتَّحَاجُونَنَا فِي اللَّهِ﴾ أي: اتجادلوننا في الله، أي: في دينه، والقرب منه، والخطوة عنده، وذلك كقولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: 18] وقرأ ابن محيصن: «اتحاجونا» بالإدغام لاجتماع المثليين. وقوله: ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أي: نشترك نحن، وأنتم في ربوبيته لنا وعبوديتنا له، فكيف تدعون أنكم أولى به منا وتحاجوننا في ذلك.

حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿اتَّحَاجُونَنَا﴾ قال: اتَّخَصَمُونَنَا. وأخرج ابن جرير، عنه قال: اتَّجَالِدُونَنَا. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةَ﴾ الآية قال: أولئك أهل الكتاب كتموا الإسلام، وهم يعلمون أنه دين الله، واتخذوا اليهودية، والنصرانية، وكتموا محمداً، وهم يعلمون أنه رسول الله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن جرير، عن الحسن نحوه. وأخرج ابن جرير، عن قتادة، والربيع في قوله: ﴿تِلْكَ أَمَةٌ قَدْ خَلَّتْ﴾ قال: يعني إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط.

﴿سَيَقُولُ الشُّهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْنَاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمْ أَنَّى كَانُوا عَلَيْهِمْ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٩﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعَ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كُنْتُمْ لَكَيْفَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَكَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ يَسْتَعْمِلَكُمْ فِي الْكَاسِ لِرُؤُوفٍ رَبِّهِ ﴿٢٠﴾﴾

قوله: ﴿سَيَقُولُ﴾ هذا إخبار من الله سبحانه لنبيه ﷺ وللمؤمنين بأن السفهاء من اليهود، والمنافقين سيقولون هذه المقالة عند أن تتحول القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة. وقيل إن: ﴿سَيَقُولُ﴾ بمعنى قال، وإنما عبر عن الماضي بلفظ المستقبل للدلالة على استدامته، واستمرار عليه، وقيل: الإخبار بهذا الخبر كان قبل التحول إلى الكعبة، وأن فائدة ذلك أن الإخبار بالمكروه إذا وقع قبل وقوعه كان فيه تهويئاً لصدمته، وتخفيفاً لروعه، وكسراً لسورته. والسفهاء جمع سفیه، وهو: الكذاب البهات المعتمد خلاف ما يعلم، كذا قال بعض أهل اللغة. وقال في الكشف: هم خفاف الأحلام، ومثله في القاموس. وقد تقدّم في تفسير قوله: ﴿إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: 130] ما ينبغي الرجوع إليه، ومعنى: ﴿وَمَا وَلاَهُمْ﴾ ما صرفهم ﴿عَنْ قِبَلَتِهِمْ لَئِنْ كَانُوا عَلَيْهَا﴾ وهي بيت المقدس. فردّ الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ فله أن يامر بالتوجه إلى أي جهة شاء. وفي قوله: ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ إشعار بأن تحويل القبلة إلى الكعبة من الهداية للنبي ﷺ، ولأهل ملته إلى الصراط المستقيم وقوله: ﴿وَكُنْكُمْ جَعَلْنَاكُمْ﴾ أي: مثل ذلك جعلكم جعلناكم، قيل معناه: وكما أن الكعبة وسط الأرض كذلك جعلناكم أمة وسطا. والوسط الخيار، أو العدل، والآية محتملة للأمرين، ومما يحتملها قول زهير:

هم وسط ترضى الأنام بحكمهم إذا نزلت إحدى الليالي بمعظم ومثله قول الآخر:

أنتم أوسط حي علموا بصغير الأمر أو إحدى الكبر وقد ثبت عن النبي ﷺ تفسير الوسط هنا بالعدل كما سيأتي، فوجب الرجوع إلى ذلك، ومنه قول الرازي: لا تذهبن في الأمور مفراطاً لا تسألن إن سالت شططا وكن من الناس جميعاً وسطاً

وأخرج أيضاً، عن ابن عباس في قوله: ﴿حَنِيفًا﴾ قال: حاجاً. وأخرج ابن أبي حاتم، عن محمد بن كعب قال: الحنيف المستقيم. وأخرج أيضاً، عن خصيف قال: الحنيف المخلص. وأخرج أيضاً عن أبي قلابة قال: الحنيف الذي يؤمن بالرسول كلهم من أولهم إلى آخرهم. وأخرج أحمد عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت بالحنيفية السمحة». وأخرج أحمد أيضاً، والبخاري في الألب المفرد، وابن المنذر، عن ابن عباس قال: «قيل يا رسول الله: أي الأديان أحب إلى الله؟ قال: الحنيفية السمحة». وأخرج الحاكم في تاريخه، وابن عساکر، من حديث أسعد بن عبد الله بن مالك الخزاعي مرفوعاً مثله. وأخرج أحمد، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يقرأ في ركعتي الفجر في الأولى منها الآية التي في البقرة: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ كلها وفي الآخرة ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ، وَاشْهَدُوا بِأَنَّا مسلمون﴾ [آل عمران: 52]. وأخرج البخاري من حديث أبي هريرة قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «ولا تصدقوا أهل الكتاب، ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالله، الآية». وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس قال: الأسباط بنو يعقوب كانوا اثني عشر رجلاً كل واحد منهم ولد أمة من الناس. وروى نحوه ابن جرير، وابن أبي حاتم عن السدي، وحكاه ابن كثير في تفسيره عن أبي العالية، والربيع، وقتادة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس قال: لا تقولوا: فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به، فإن الله لا مثل له، ولكن قولوا: فإن آمنوا بالذي آمنتم به، وأخرج ابن أبي داود، في المصالحف، والخطيب في تاريخه عن أبي جمرة قال: كان ابن عباس يقرأ: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بمثل آمنتم به﴾ وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله: ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ قال فراق. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ قال: دين الله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد قال: فطرة الله التي فطر الناس عليها. وأخرج ابن مروي، والضياء في المختارة، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «إن بني إسرائيل قالوا: يا موسى هل يصبغ ربك؟ فقال: لتقوا الله، فتداه ربه: يا موسى سالوك هل يصبغ ربك فقل نعم أنا أصبغ الألوان الأحمر، والأبيض، والأسود، والألوان كلها في صبغتي» وأنزل الله على نبيه: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾. وأخرجه ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة، عن ابن عباس موقوفاً. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة قال: إن اليهود تصبغ أبناءها يهوداً، والنصارى تصبغ أبناءها نصارى، وإن صبغة الله الإسلام، ولا صبغة أحسن من صبغة الإسلام، ولا أظهر، وهو دين الله الذي بعث به نوحاً، ومن كان بعده من الأنبياء. وأخرج ابن النجار في تلويخ بغداد عن ابن عباس في قوله: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ قال: البياض. وأخرج ابن أبي

أي: أنها لا تخف، ولا تسهل إلا على الذين هدى الله. وقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ قال القرطبي: اتفق العلماء على أنها نزلت فيمن مات، وهو يصلي إلى بيت المقدس، ثم قال: فسمى الصلاة إيماناً لاجتماعها على نية، وقول، وعمل، وقيل: المراد ثبات المؤمنين على الإيمان عند تحويل القبلة، وعدم ارتيابهم كما ارتاب غيرهم. والأول يتعين القول به، والمصير إليه لما سيأتي من تفسيره ﷺ للآية بذلك. والروؤف كثير الرافة، وهي أشد من الرحمة. قال أبو عمرو ابن العلاء: الرافة أكبر من الرحمة، والمعنى متقارب. وقرأ أبو جعفر بن يزيد بن القعقاع: «لرؤف» بغير همز، وهي لغة بني أسد، ومنه قول الوليد بن عتبة:

وشر الغالبين فلا تكنه يقاتل عمه الرؤف الرحيم
وقد أخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن البراء أن النبي ﷺ كان أول ما نزل المدينة نزل على أخواله من الأنصار، وأنه صلى إلى بيت المقدس ستة عشر، أو سبعة عشر شهراً، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت، وإن أول صلاة صلاها العصر، وصلى معه قوم، فخرج رجل ممن كان صلى معه، فمر على أهل المسجد، وهم راكعون فقال: أشهد بالله لقد صليت مع النبي ﷺ قبل الكعبة، فداروا كما هم قبل البيت، وكانت اليهود قد أعجبهم إذ كان يصلي قبل بيت المقدس، وأهل الكتاب، فلما ولي وجهه قبل البيت أنكروا ذلك، وكان الذي مات على القبلة قبل أن تحوّل قبل البيت رجال، وقتلوا، فلم ندر ما يقول فيهم، فانزل الله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾. وله طرق آخر، والفاظ متقاربة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن ابن عباس، قال: إن أول ما نسخ في القرآن القبلة. وأخرج ابن أبي شيبة، وأبو داود في ناسخه، والبيهقي في سننه عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان يصلي بمكة نحو بيت المقدس، والكعبة بين يديه، وبعد ما تحوّل إلى المدينة ستة عشر شهراً، ثم صرفه الله إلى الكعبة. وفي الباب أحاديث كثيرة بمضمون ما تقدّم، وكذلك رويت أحاديث في الوقت الذي نزل فيه استقبال القبلة، وفي كيفية استدارة المصلين لما بلغهم ذلك، وقد كانوا في الصلاة، فلا نطوّل بنكرها. وأخرج سعيد بن منصور، وأحمد، والنسائي، والترمذي وصححه، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والإسماعيلي في صحيحه، والحاكم وصححه عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَكُنْكَ جَعَلْنَاكَ أُمَّةً وَسَطًا﴾ قال: عدلاً. وأخرج ابن جرير، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ مثله. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس مثله. وأخرج أحمد، والبخاري، والترمذي، والنسائي، وغيرهم، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «يدعى نوح يوم القيامة، فيقال له: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيدعى قومه، فيقال لهم: هل بلغكم؟ فيقولون: ما آتانا من نبي، وما آتانا من أحد، فيقال لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمه، فنلك قوله: ﴿وَكُنْكَ جَعَلْنَاكَ أُمَّةً وَسَطًا﴾ قال: والوسط العدل، فتدعون،

ولما كان الوسط مجانباً للغلو والتقصير كان محموداً، أي: هذه الأمة لم تغل غلو النصارى في عيسى، ولا قصروا تقصير اليهود في أنبيائهم، ويقال: فلان أوسط قومه وواسطتهم، أي: خيارهم. وقوله: ﴿لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ أي: يوم القيامة تشهدون للأنبياء على أممهم أنهم قد بلغوهم ما أمرهم الله بتبليغه إليهم، ويكون الرسول شهيداً على أمته بأنهم قد فعلوا ما أمر بتبليغه إليهم، ومثله قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: 41]، قيل إن قوله: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ يعني لكم أي: يشهد لهم بالإيمان، وقيل معناه: يشهد عليكم بالتبليغ لكم. قال في الكشف: لما كان الشهيد كالرقيب، والمهيمن على المشهود له جاء بكلمة الاستعلاء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجالة: 9] ﴿وَكُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: 117]. انتهى. وقالت طائفة: معنى الآية يشهد بعضكم على بعض بعد الموت، وقيل: المراد لتكونوا شهداء على الناس في الدنيا، فيما لا يصح إلا بشهادة العدل، وسيأتي من المرفوع ما يبين معنى الآية إن شاء الله؛ وإنما أخر لفظ «على» في شهادة الأمة على الناس، وقدمها في شهادة الرسول عليهم، لأن الغرض كما قال صاحب الكشف في الأول: إثبات شهادتهم على الأمم، وفي الآخر اختصاصهم بكون الرسول شهيداً عليهم. وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا﴾ قيل المراد بهذه القبلة: هي بيت المقدس أي: ما جعلناها إلا لنعلم المتبع، والمنقلب، ويؤيد هذا قوله: ﴿وَكُنْتَ عَلَيْهَا﴾ إذا كان نزول هذه الآية بعد صرف القبلة إلى الكعبة، وقيل: المراد الكعبة أي: ما جعلنا القبلة التي أنت عليها الآن بعد أن كانت إلى بيت المقدس إلا لذلك الغرض، ويكون ﴿وَكُنْتَ﴾ بمعنى الحال، وقيل: المراد بذلك القبلة التي كان عليها قبل استقبال بيت المقدس، فإنه كان يستقبل في مكة الكعبة، ثم لما هاجر توجه إلى بيت المقدس تألفاً لليهود، ثم صرف إلى الكعبة. وقوله: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ قيل: المراد بالعلم هنا الرؤية، وقيل: المراد إلا لتعلموا أننا نعلم بأن المنافقين كانوا في شك، وقيل: ليعلم النبي؛ وقيل: المراد لنعلم ذلك موجوداً حاصلاً، وهكذا ما ورد معللاً بعلم الله سبحانه لا بد أن يؤول يمثل هذا كقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ [آل عمران: 140]. وقوله: ﴿وَأَنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾ أي: ما كانت إلا كبيرة، كما قاله الفراء في أن، وإن: أنهما بمعنى ما وإلا. وقال البصريون: هي الثقيلة خفت، والضمير في كانت راجع إلى ما يدل عليه قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا﴾ من التحويلة، أو التولية، أو الجعلة، أو الردة، نكر معنى ذلك الاخفش، ولا مانع من أن يرجع الضمير إلى القبلة المذكورة أي: وإن كانت القبلة المتصفة بآنك كنت عليها لكبيرة إلا على الذين هداهم الله للإيمان، فانشرح صدورهم لتصديقك، وقبلت ما جئت به عقولهم، وهذا الاستثناء مفرغ، لأن ما قبله في قوة النفي

جَعَلَهُ مِنْ أَلِيمٍ إِنَّكَ إِذَا لَيْنَ الظُّلُمِوتِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَلَيْسَ بِمَعْرُوفَةٍ كَمَا يَمُرُّونَ آثَاءَهُمْ وَلَئِنْ قَرَيْتَهُمْ لَيَكُونَنَّ الْحَقُّ وَمَعَهُ يَمْلِكُونَ ﴿١٦﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُنْزَرِينَ ﴿١٧﴾

قوله: ﴿قد نرى تقلب وجهك﴾ قال القرطبي في تفسيره: قال العلماء: هذه الآية مقننة في النزول على قوله: ﴿سيقول السفهاء﴾ [البقرة: 142]، ومعنى: ﴿قد﴾ تكثير الرؤية، كما قاله صاحب الكشف، ومعنى: ﴿تقلب وجهك﴾ تحول وجهك إلى السماء، قاله قطرب. وقال الزجاج: تقلب عينيك في النظر إلى السماء، والمعنى متقارب. وقوله: ﴿فلنولينك﴾ هو إما من الولاية أي: فلنعطيتك ذلك، أو من التولي أي: فلنجعلنك متولياً إلى جهتها، وهذا أولى لقوله: ﴿فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾. والمراد بالشرط هنا: الناحية والجهة، وهو منتصب على الظرفية ومنه قول الشاعر:

اقول لام زنباع أقيمي صبور العيس شطر بني تميم
ومنه أيضاً قول الآخر:
الا من مبلغ عمراً رسولاً وما تغني الرسالة شطر عمرو
وقد يراد بالشرط النصف، ومنه «الوضوء شطر الإيمان»، ومنه قول عنترة:

إني امرؤ من خير عيس منصباً شطري وأحمي سائري بالمنصل
قال ذلك: لأن آباءه من سادات عيس، وأمه أمة، ويريد معنى البعض مطلقاً، ولا خلاف أن المراد بشطر المسجد هنا الكعبة. وقد حكى القرطبي الإجماع على أن استقبال عين الكعبة فرض على المعايين، وعلى أن غير المعايين يستقبل الناحية، ويستدل على ذلك بما يمكنه الاستدلال به، والضمير في قوله: ﴿إنه الحق﴾ راجع إلى ما يدل عليه الكلام من التحول إلى جهة الكعبة، وعلم أهل الكتاب بذلك إما لكونه قد بلغهم عن أنبيائهم، أو وجدوا في كتب الله المنزلة عليهم أن هذا النبي يستقبل الكعبة، أو لكونهم قد علموا من كتبهم، أو أنبيائهم أن النسخ سيكون في هذه الشريعة، فيكون ذلك موجباً عليهم الدخول في الإسلام، ومتابعة النبي ﷺ. قوله: ﴿وما الله بغافل عما يعملون﴾ قد تقدم معناه. وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي يعملون بالمشناة الفوقية على مخاطبة أهل الكتاب، أو أمة محمد ﷺ، وقرأ الباقر بالبائية التحتية. وقوله: ﴿ولئن أتيت﴾ هذه اللام هي موطئة للقسم، والتقدير: والله لئن أتيت. وقوله: ﴿وما تبعوا﴾ جواب القسم المقدر قال الأخفش والفراء: أوجب لئن بجواب ولو لأن المعنى: ولو أتيت، ومثله قوله تعالى: ﴿ولئن أرسلنا ريحاً فزأوه مصفرة لظلوا﴾ [الروم: 51] أي: ولو أرسلنا، وإنما قال هكذا: لأن لئن هي ضد لو، وذلك أن الأولى تطلب في جوابها المضى، والوقوع، ولئن تطلب في جوابها الاستقبال. وقال سيبويه: إن معنى لئن يخالف معنى لو، فلا تدخل إحداهما على الأخرى، فالمعنى: ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية لا يتبعون قبلك. قال سيبويه: ومعنى: ﴿ولئن أرسلنا ريحاً فزأوه مصفرة﴾ ليظللن. انتهى. وفي هذه الآية مبالغة عظيمة، وهي متضمنة

فتشهودون له بالبلاغ، وأشهد عليكم. وأخرج سعيد بن منصور، وأحمد، والنسائي، وابن ماجه، عن أبي سعيد نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن جابر، عن النبي ﷺ قال: «أنا وأمتي يوم القيامة على كوم مشرفين على الخلاق، ما من الناس أحد إلا ود أنه منا، وما من نبي كذبه قومه إلا ونحن نشهد أنه بلغ رسالة ربه». وأخرج ابن جرير، عن أبي سعيد في قوله: ﴿وكنك جعلنكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس﴾ بأن الرسل قد بلغوا: ﴿ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ بما عملتم، وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما، عن أنس قال مرؤاً بجنزة فأتني عليها خيراً، فقال النبي ﷺ: «وجبت وجبت وجبت، ومرؤاً بجنزة فأتني عليها شراً، فقال النبي ﷺ: وجبت وجبت وجبت، فسأله عمر فقال: من أئنتم عليه خيراً، وجبت له الجنة، ومن أئنتم عليه شراً، وجبت له النار، أئنتم شهداء الله في الأرض، أئنتم شهداء الله في الأرض، أئنتم شهداء الله في الأرض، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿وكنك جعلنكم أمة وسطاً﴾ الآية، وفي الباب أحاديث منها عن جابر مرفوعاً عند ابن المنذر، والحاكم وصححه، ومنها عن عمر مرفوعاً عند ابن أبي شيبة، وأحمد، والبخاري، والترمذي، والنسائي، ومنها عن أبي زهير الثقفي مرفوعاً عند أحمد، وابن ماجه، والطبراني، والدارقطني في الإفراء، والحاكم في المستدرک، والبيهقي في السنن، ومنها عن أبي هريرة مرفوعاً عند ابن جرير، وابن أبي حاتم، ومنها عن سلمة بن الأكوع مرفوعاً عند ابن أبي شيبة، وابن جرير، والطبراني. وأخرج ابن جرير عن عطاء في قوله تعالى: ﴿وما جعلنا للقبلة التي كنت عليها﴾ قال: يعني بيت المقدس ﴿إلا لنعلم﴾ قال نبتليهم لنعلم من يسلم لأمره. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله: ﴿إلا لنعلم﴾ قال: لنميز أهل اليقين من أهل الشك ﴿وإن كانت لكبيرة﴾ يعني تحويلها على أهل الشرك، والريب. وأخرج ابن جرير عن ابن جريج قال: بلغني أن ناساً ممن أسلم رجعوا، فقالوا مرة ها هنا، ومرة ها هنا. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، والترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن حبان، والطبراني، والحاكم وصححه عن ابن عباس، قال: لما وجه رسول الله ﷺ إلى القبلة، قالوا: يا رسول الله، فكيف بالذين ماتوا، وهم يصلون إلى بيت المقدس، فأنزل الله ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾. وقد تقدم حديث البراء، وفي الباب أحاديث كثيرة، وأثار عن السلف.

قد رَأَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنَرْفَعَنَّ فَعِلَهُ تَرْجِعْهُ إِلَىٰ وَجْهِكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْمَكْرُوهِ وَنَحْنُ قَوْلُهُمْ شَطْرُ وَلَئِنْ أَرْوَا أَلَيْسَ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَنَا اللَّهُ يَنْقِلُ عَنَّا يَمْلِكُونَ ﴿١٥﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أَرْوَا أَلَيْسَ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ الْغَيْبُ وَلَئِنْ أَتَيْتَ يَنْقِلُ عَنْهُمْ وَنَحْنُ قَوْلُهُمْ بَعْضٌ وَلَئِنْ أَتَيْتَ أَهْلَهُمْ وَنَحْنُ قَوْلُهُمْ

عليه إثم، وإثم من اقتدى به إلى يوم القيامة، نسال الله اللطف، والسلامة، والهداية وقوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُم الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ﴾ قيل: الضمير لمحمد ﷺ أي: يعرفون نبوته. روي ذلك عن مجاهد، وقتادة، وطائفة من أهل العلم، وقيل: يعرفون تحويل القبلية عن بيت المقدس إلى الكعبة بالطريق التي قَدَّمْنَا نذكرها، وبه قال جماعة من المفسرين، ورجح صاحب الكشف الأول. وعندي أن الراجح الآخر كما يدل عليه السياق الذي سيق له هذه الآيات. وقوله: ﴿يَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾ هو عند أهل القول الأول نبوة محمد ﷺ، وعند أهل القول الثاني استقبال الكعبة. وقوله: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ يحتمل أن يكون المراد به الحق الأول، ويحتمل أن يراد به جنس الحق على أنه خير مبتدأ محذوف، أو مبتدأ، وخبره قوله: «من ربك» أي الحق، هو الذي من ربك لا من غيره. وقرأ علي بن أبي طالب الحق بالنصب على أنه بدل من الأول، أو منصوب على الإغراء أي: ألزم الحق. وقوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ خطاب للنبي ﷺ، والامتراء: الشك، نهى الله سبحانه عن الشك في كونه الحق من ربه، أو في كون كتمانهم الحق مع علمهم، وعلى الأول هو: تعريض للامة أي لا يكن أحد من أمتة من الممترين، لأنه ﷺ لا يشك في كون ذلك هو: الحق من الله سبحانه.

وقد أخرج ابن ماجه عن البراء قال: صلينا مع رسول الله ﷺ نحو بيت المقدس ثمانية عشر شهراً، وصرفت القبلة إلى الكعبة بعد دخوله إلى المدينة بشهرين، وكان رسول الله ﷺ إذا صلى إلى بيت المقدس أكثر تقليب وجهه في السماء، وعلم الله من قلب نبيه أنه يهوى الكعبة، فصعد جبريل، فجعل رسول الله ﷺ يتبعه بصره، وهو يصعد بين السماء والأرض ينظر ما يأتيه به، فأنزل الله: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ الآية، فقال رسول الله ﷺ: يا جبريل كيف حالنا في صلاتنا إلى بيت المقدس؟ فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾. وأخرجه الطبراني من حديث معاذ مختصراً لكنه قال: سبعة عشر شهراً. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني في الكبير، والحاكم وصححه عن عبد الله بن عمرو في قوله تعالى: ﴿فَلَنُؤَلِّينَكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ قال: قبله إبراهيم نحو الميزاب. وأخرج عبد بن حميد، وأبو داود في ناسخه، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن البراء في قوله: ﴿قَوْلُ وَجْهِكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ قال: قبله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه عن علي بن أبي حاتم، وأخرج أبو داود في ناسخه، وابن جرير، والبيهقي عن ابن عباس قال: «شطره» نحوه. وأخرج البيهقي، عن مجاهد مثله. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، عن أبي العالية قال: «شطر المسجد للحرام» تلقاء، وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس قال: البيت كله قبله، وقبله البيت الباب. وأخرج البيهقي في سننه عنه، مرفوعاً قال:

للتسليّة لرسول الله ﷺ، وترويح خاطره، لأن هؤلاء لا تؤثر فيهم كل آية، ولا يرجعون إلى الحق، وإن جاءهم بكل برهان فضلاً عن برهان واحد، وذلك أنهم لم يتركوا اتباع الحق للليل عندهم، أو لشبهة طرأت عليهم، حتى يوازنوا بين ما عندهم، وما جاء به الرسول الله ﷺ، ويقلعوا عن غواييتهم عند وضوح الحق، بل كان تركهم للحق تمرداً، وعناداً مع علمهم بأنهم ليسوا على شيء، ومن كان هكذا، فهو لا ينتفع بالبرهان أبداً. وقوله: ﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ﴾ هذا الإخبار ممكن أن يكون بمعنى النهي من الله سبحانه لنبيه ﷺ أي: لا تتبع يا محمد قبلتهم، ويمكن أن يكون على ظاهره دفعاً لاطماع أهل الكتاب، وقطعاً لما يرجونه من رجوعه ﷺ إلى القبلة التي كان عليها. وقوله: ﴿وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ فيه إخبار بأن اليهود، والنصارى مع حرصهم على مبايعة الرسول ﷺ لما عندهم مختلفون في دينهم حتى في هذا الحكم الخاص الذي قصه الله سبحانه على رسوله، فإن بعضهم لا يتابع الآخر في استقبال قبلته. قال في الكشف: وذلك أن اليهود تستقبل بيت المقدس، والنصارى تستقبل مطلع الشمس. انتهى. وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ لَتَبِعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ إلى آخر الآية، فيه من التهديد العظيم، والزجر البليغ ما تقشعر له الجلود، وترجف منه الاقنعة، وإذا كان الميل إلى أهوية المخالفين لهذه الشريعة الغراء، والملة الشريفة من رسول الله ﷺ الذي هو سيد ولد آدم يجب عليه أن يكون وحاشاه من الظالمين، فما ظنك بغيره من أمتة، وقد صان الله هذه الفرقة الإسلامية بعد ثبوت قدم الإسلام، وارتفاع مناره عن أن يميلوا إلى شيء من هوى أهل الكتاب، ولم تبق إلا نسيئة شيطانية، ووسيلة طاغوتية، وهي ميل بعض من تحمل حجج الله إلى هوى بعض طوائف المبتدعة، لما يرجوه من الحطام العاجل من أيديهم، أو الجاه لنبيهم إن كان لهم في الناس دولة، أو كانوا من ذوي الصولة، وهذا الميل ليس بدون تلك الميل، بل اتباع أهوية المبتدعة تشبه اتباع أهوية أهل الكتاب، كما يشبه الماء الماء، والبيضة البيضة، والتمرة التمرة، وقد تكون مفسدة اتباع أهوية المبتدعة أشد على هذه الملة من مفسدة اتباع أهوية أهل الملل، فإن المبتدعة ينتمون إلى الإسلام، ويظهرون للناس أنهم ينصرون الدين، ويتبعون أحسنه، وهم على العكس من ذلك، والضد لما هنالك، فلا يزالون ينقلون من يميل إلى أهويتهم من بدعة إلى بدعة، وينفعونه من شناعة إلى شناعة، حتى يسلكوه من الدين، ويخرجوه منه، وهو يظن أنه منه في الصميم، وأن الصراط الذي هو عليه هو الصراط المستقيم، هذا إن كان في عداد المقصرين، ومن جملة الجاهلين، وإن كان من أهل العلم، والفهم المميزين بين الحق، والباطل كان في اتباعه لأهويتهم ممن أضله الله على علم، وختم على قلبه، وصار نقمة على عباد الله، ومصيبة صلبها الله على المقصرين، لأنهم يعتقدون أنه في علمه، وفهمه لا يميل إلا إلى حق، ولا يتبع إلا الصواب، فيضلون بضلاله، فيكون

وحكى الطبري أن قوماً قرؤوا: «ولكل وجهة» بالإضافة، ونسب هذه القراءة أبو عمرو الداني إلى ابن عباس. قال في الكشاف: والمعنى: وكل وجهة الله موليا، فزيت اللام لتقدم المفعول كقولك لزيد ضربت، ولزيد أبوه ضاربه. انتهى. وقرأ ابن عباس، وابن عامر: «مولاه» على ما لم يسم فاعله. قال الزجاج: والضمير على هذه القراءة لواحد، أي: ولكل واحد من الناس قبلة الواحد مولاه، أي: مصروف إليها. وقوله: «فاستبقوا الخيرات» أي: إلى الخيرات على الحنف، والإيصال، أي: بالبروا إلى ما أمركم الله من استقبال البيت الحرام كما يفيد السياق، وإن كان ظاهره الأمر بالاستباق إلى كل ما يصق عليه أنه خير كما يفيد العموم المستفاد من تعريف الخيرات، والمراد من الاستباق إلى الاستقبال: الاستباق إلى الصلاة في أول وقتها. ومعنى قوله: «فإنما تكونوا يات بكم الله» أي: في أي جهة من الجهات المختلفة تكونوا يات بكم الله للجزاء يوم القيامة، أو يجمعكم جميعاً، ويجعل صلاتكم في الجهات المختلفة كأنها إلى جهة واحدة، وقوله: «ومن حيث خرجت» كَرَّرَ سبحانه هذا لتأكيد الأمر باستقبال الكعبة، وللاهتمام به، لأن موقع التحويل كان معتنى به في نفوسهم، وقيل: وجه التكرير أن النسخ من مظان الفتنة، ومواطن الشبهة، فإذا سمعوه مرة بعد أخرى ثبتوا، وانفع ما يختلج في صدورهم، وقيل إنه كَرَّرَ هذا الحكم لتعدد علله، فإنه سبحانه نكر للتحويل ثلاث علل: الأولى ابتغاء مرضاته، والثانية جري العادة الإلهية أن يولى كل أهل ملة، وصاحب دعوة جهة يستقل بها، والثالثة دفع حجج المخالفين، فقرن بكل علة معلولها، وقيل: أراد بالاول: ول وجهك شطر الكعبة إذا صليت تلقاءها، ثم قال: وحيثما كنتم معاشر المسلمين في سائر المساجد بالمدينة، وغيرها، فولوا وجوهكم شطره، ثم قال: «ومن حيث خرجت» يعني وجوب الاستقبال في الأسفار، فكان هذا أمر بالتوجه إلى الكعبة في جميع المواطن من نواحي الأرض. وقوله: «لئلا يكون للناس عليكم حجة» قيل معناه: لئلا يكون لليهود عليكم حجة إلا للمعانين منهم القائلين ما ترك قبلتنا إلى الكعبة إلا ميلا إلى دين قومه فعلى هذا المراد بالذين ظلموا: المعانين من أهل الكتاب، وقيل: هم مشركو العرب، وحجتهم قولهم: راجعت قبلتنا، وقيل معناه: لئلا يكون للناس عليكم حجة لئلا يقولوا لكم قد أمرتم باستقبال الكعبة، ولستم ترونها. وقال أبو عبيدة: إن إلا هنا بمعنى الواو، أي: والذين ظلموا، فهو استثناء بمعنى الواو، ومنه قول الشاعر:

ما بالمدينة دار غير واحدة دار الخليفة إلا دار مرونا
كانه قال: إلا دار الخليفة ودار مروان، وأبطل الزجاج هذا القول، وقال: إنه استثناء منقطع أي: لكن الذين ظلموا منهم، فإنهم يحتجون، ومعناه إلا من ظلم بالاحتجاج، فيما قد وضع له كما تقول مالك علي حجة إلا أن تظلمني أي: مالك علي حجة البتة، ولكنك تظلمني، وسمي ظلمه حجة: لأن

البيت قبلة لاهل المسجد، والمسجد قبلة لاهل الحرم، والحرم قبلة لاهل الأرض في مشارقها، ومغاربها من أمتي، وأخرج ابن جرير عن السدي في قوله: «وإن الذين أوتوا الكتاب» قال: أنزل ذلك في اليهود. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: «ليعلمون أنه الحق» قال: يعني بذلك القبلة. وأخرج أبو داود في نسخته، وابن جرير عن أبي العالية نحوه. وأخرج ابن جرير عن السدي في قوله: «وما بعضهم يتابع قبلة بعض» يقول: ما اليهود بتابعي قبلة النصراني، ولا النصراني بتابعي قبلة اليهود. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: «الذين أتيناهم للكتاب» قال: اليهود والنصارى: «يعرفونه» قال: يعرفون رسول الله في كتابهم: «كما يعرفون أبناءهم». وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عنه في قوله: «يعرفونه» أي: يعرفون أن البيت الحرام هو: القبلة. وأخرج ابن جرير عن الربيع مثله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد في قوله: «وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون» قال: يكتمون محمداً، وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل. وأخرج أبو داود، في نسخته، وابن جرير، عن أبي العالية قال: قال الله لنبيه ﷺ: «الحق من ربك فلا تكونن من الممترين» يقول: لا تكونن في شك يا محمد أن الكعبة هي قبلتك، وكانت قبلة الأنبياء من قبلك.

وَلِكُلِّ وُجْهَةٍ هُوَ مَوْبِئٌ فَاسْتَوُوا الْوَسْطَ إِنَّا مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَيْمًا إِنَّ اللَّهَ عَلَّ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩٠﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِلَيْهِ لَنَرْجِعَنَّ ﴿١٩١﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ فَلَا يُكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَحْزَنْهُمْ حَزَنٌ وَإِلَيْهِ لَنَرْجِعَنَّ ﴿١٩٢﴾ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا بِحُجَّتٍ مُّبِينَةٍ وَإِلَيْنَا رُجُوكُمْ وَنُخْرِجُكُمْ مِنَ الْكِنَانِ وَالْحُكْمَ وَبَيْنَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٩٣﴾ فَادْكُرُوا الْآذَانَ وَاعْمُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُوا ﴿١٩٤﴾

قوله: «ولكل» بحذف المضاف إليه لدلالة التنوين عليه أي: لكل أهل دين وجهة، والوجهة فعلة من المواجهة، وفي معناها الجهة، والوجه، والمراد القبلة، أي: أنهم لا يتبعون قبلتك، وأنت لا تتبع قبلتهم «ولكل وجهة» إما بحق، وإما بباطل، والضمير في قوله: «هو مولياها» راجع إلى لفظ كل. والهاء في قوله: «مولياها» هي: المفعول الأول، والمفعول الثاني محذوف أي: موليا وجهه. والمعنى: أن لكل صاحب ملة قبلة صاحب القبلة موليا وجهه، أو لكل منكم يا أمة محمد قبلة يصلي إليها من شرق، أو غرب، أو جنوب، أو شمال إذا كان الخطاب للمسلمين، ويحتمل أن يكون الضمير لله سبحانه، وإن لم يجر له نكر، إذ هو معلوم أن الله فاعل ذلك، والمعنى: أن لكل صاحب ملة قبلة الله موليا إياه.

المحتج بها سماه حجة، وإن كانت داحضة. وقال قطرب: يجوز أن يكون المعنى: لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا على الذين ظلموا، فالذين يدل من الكاف، والميم في عليكم. ورجح ابن جرير الطبري أن الاستثناء متصل، وقال: نفى الله أن يكون لأحد حجة على النبي ﷺ، وأصحابه في استقبالهم الكعبة، والمعنى: لا حجة لأحد عليكم إلا الحجة الداحضة حيث قالوا ما ولاهم، وقالوا: إن محمداً تحير في دينه، وما توجه إلى قبلتنا إلا لنا أهدى منه. وغير ذلك من الأقوال التي لم تنبعث إلا من عابد وثن، أو من يهودي، أو منافق. قال: والحجة بمعنى المحاجة التي هي المخاصمة، والمجالبة، وسماها تعالى حجة، وحكم بفسادها حيث كانت من ظالم. ورجح ابن عطية أن الاستثناء منقطع، كما قال الزجاج. قال القرطبي: وهذا على أن يكون المراد بالناس اليهود، ثم استثنى كفار العرب كأنه قال: لكن الذين ظلموا في قولهم رجع محمد إلى قبلتنا، وسيرجع إلى ديننا كله. وقوله: ﴿فلا تخشوهم﴾ يريد الناس أي: لا تخافوا مطاعنهم، فإنها داحضة باطلة لا تضركم. وقوله: ﴿وَلَا تَمْنَعُكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ معطوف على: ﴿لئلا يكون﴾ أي: ولأن أتم قاله الأخفش، وقيل: هو مقطوع عما قبله في موضع رفع بالابتداء، والخبر مضمَر، والتقدير: ولأنتم نعمتي عليكم عرفتمكم قبلتي قاله الزجاج، وقيل: معطوف على علة مقدره كأنه قيل: واخشوني لأفققكم، ولأنتم نعمتي عليكم. وإتمام النعمة الهداية إلى القبلة، وقيل: دخول الجنة. وقوله: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا﴾ الكاف في موضع نصب على النعت لمصدر محذوف. والمعنى: ولأنتم نعمتي عليكم إتماماً مثل ما أرسلنا قاله الفراء، ورجحه ابن عطية. وقيل: الكاف في موضع نصب على الحال، والمعنى: ولأنتم نعمتي عليكم في هذه الحال، والتشبيه واقع على أن النعمة في القبلة كالنعمة في الرسالة. وقيل: معنى الكلام على التقديم والتأخير، أي: فأنكروني كما أرسلنا قاله الزجاج. وقوله: ﴿فَأَنْكُرُونِي أَنْكُرَكُمْ﴾ أمر وجوابه، وفيه معنى المجازاة. قال سعيد بن جببر: ومعنى الآية أنكروني بالطاعة أنكركم بالثواب، والمغفرة حكاها عنه القرطبي في تفسيره، وأخرجه عنه عبد بن حميد، وابن جرير، وقد روي نحوه مرفوعاً كما سيأتي. وقوله: ﴿وَاشْكُرُوا لِي﴾ قال الفراء: شكر لك وشكرت لك. والشكر: معرفة الإحسان، والتحدث به، وأصله في اللغة: الطهور. وقد تقدّم الكلام فيه. وقوله: ﴿وَلَا تَكْفُرُونَ﴾ نهي، ولذلك حذفت نون الجماعة، وهذه الموجودة في الفعل هي: نون المتكلم، وحذفت الباء، لأنها رأس آية، وإثباتها حسن في غير القرآن. والكفر هنا: ستر النعمة لا التكذيب، وقد تقدّم الكلام فيه.

قتادة نحوه. وأخرج ابن جرير، عن قتادة في قوله: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ يقول: لا تغلبن على قبلكم. وأخرج ابن جرير، عن ابن زيد في قوله: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ قال: الأعمال الصالحة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي العالية في قوله: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ يقول: فسارعوا في الخيرات: ﴿إِنَّمَا تَكُونُونَ يَاتُ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعاً﴾ قال: يوم القيامة. وأخرج ابن جرير، من طريق السدي، عن ابن عباس، وابن مسعود، وناس من الصحابة قال: لما صرف النبي ﷺ نحو الكعبة بعد صلاته إلى بيت المقدس قال المشركون من أهل مكة: تحير على محمد دينه، فتوجه بقبلته إليكم، وعلم أنكم أهدى منه سبيلاً، ويوشك أن يخل في دينكم، فأنزل الله: ﴿لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشوني﴾. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة في قوله: ﴿لئلا يكون للناس عليكم حجة﴾ قال: يعني بذلك أهل الكتاب حين صرف نبي الله إلى الكعبة قالوا: اشتاق الرجل إلى بيت أبيه، وبين قومه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد قال: حجتهم قولهم قد أحببنا قبلتنا، وأخرج أبو داود في ناسخه، وابن جرير، وابن المنذر عن قتادة، ومجاهد في قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ قال: الذين ظلموا منهم مشركو قريش أنهم سيحتجون بذلك عليكم، واحتجوا على نبي الله بانصرافه إلى البيت الحرام، وقالوا: سيرجع إلى ديننا كما رجع إلى قبلتنا، فأنزل الله في ذلك كله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: 153]. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي العالية في قوله: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ﴾ يقول: كما فعلت فأنكروني. وأخرج أبو الشيخ، والديلمي من طريق جويبر، عن الضحاك، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿فَأَنْكُرُونِي أَنْكُرَكُمْ﴾ يقول: أنكروني يا معشر العباد بطاعتي أنكركم بمغفرتي. وأخرج الديلمي، وابن عسكرك مثله مرفوعاً من حديث أبي هند الداري وزاد: فمن أنكرني، وهو مطيع، فحق علي أن أنكره بمغفرتي، ومن أنكرني، وهو لي عاص، فحق علي أن أنكره بمقت. وأخرج عبد بن حميد، عن ابن عباس: يقول الله: أنكرني لكم خير من أنكركم لي. وقد ورد في فضل ذكر الله على الإطلاق، وفضل الشكر أحاديث كثيرة.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتُلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَمْوَاتٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَسَوْفَ يَكُونُ لَكُمْ مِنَ الْقُوَىٰ وَأَلْوَجُ وَتَفْصِيلُ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالْمَرْثِ وَبَشِيرُ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِلَيْهِ رُجُوعُنَا ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَعَدُونَ ﴿١٥٧﴾

لما فرغ سبحانه من إرشاد عباده إلى ذكره، وشكره، عقب ذلك بإرشادهم إلى الاستعانة بالصبر، والصلاة، فإن

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ قال: يعني بذلك أهل الأديان، يقول: لكل قبلة يرضونها. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أنه قال في تفسير هذه الآية: صلوا نحو بيت المقدس مرة، ونحو الكعبة مرة أخرى. وأخرج أبو داود في ناسخه، عن

عبد الرحمن بن عوف قال: غشي على عبد الرحمن بن عوف في وجهه غشية ظنوا أنه قد فاضت نفسه فيها، حتى قاموا من عنده، وجللوه ثوباً، وخرجت أم كلثوم بنت عقبة امرأته إلى المسجد تستعين بما أمرت به من الصبر، والصلاة، فلبثوا ساعة، وهو في غشيته، ثم أفاق. وأخرج ابن منده في المعرفة، عن ابن عباس قال: قتل تميم بن الحمام ببدر، وفيه وفي غيره نزلت: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ﴾ الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة قال: ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ في طاعة الله في قتال المشركين. وقد رويت أحاديث أن أرواح الشهداء في أجواف طيور خضر تاكل من ثمار الجنة. فمنها: عن كعب بن مالك مرفوعاً عند أحمد، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن ماجه. وروي أن أرواح الشهداء تكون على صور طيور بيض، كما أخرجه عبد الرزاق، عن قتادة قال: بلغنا، فنكر ذلك. وأخرجه عبد بن حميد، وابن جرير عنه أيضاً بنحوه، وروى أنها على صور طيور خضر، كما أخرجه ابن أبي حاتم، والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي العلاء. وأخرجه ابن أبي شيبة في البعث، والنشور عن كعب. وأخرجه هناد ابن السري عن هذيل. وأخرجه عنه عبد الرزاق في المصنف عن عبد الله بن كعب بن مالك مرفوعاً، وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن عطاء في قوله: ﴿وَلَنُبَلِّغَنَّكُمْ بَشِيرًا مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾ قال: هم أصحاب محمد ﷺ. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَنُبَلِّغَنَّكُمْ﴾ الآية، قال: أخبر الله المؤمنين أن الدنيا دار بلاء، وأنه مبتليهم فيها، وأمرهم بالصبر، ويشهرهم فقال: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ وأخبر: أن المؤمن إذا سلم لأمر الله ورجع واسترجع عند المصيبة كتب الله له ثلاث خصال من الخير: الصلاة من الله، والرحمة، وتخفيف سبيل الهدى. وقال رسول الله ﷺ: «من استرجع عند المصيبة جبر الله مصيبتَه، وأحسن عقابه، وجعل له خلفاً صالحاً يرزاه». وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن رجاء بن حيوة في قوله: ﴿وَنَقُصَّ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ قال: يأتي على الناس زمان لا تحمل النخلة فيه إلا تمر. وأخرج الطبراني، وابن مريويه عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ: «أعطيت أمتي شيئاً لم يعطه أحد من الأمم أن يقولوا عند المصيبة: إنا لله، وإنا إليه راجعون» وقد ورد في فضل الاسترجاع عند المصيبة أحاديث كثيرة.

﴿إِنَّ أَلَمًا وَأَلَمًا وَكَرَّوَةً بَيْنَ سَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَزَّ أَلَيْتَ أَوْ أَعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَبْكُوكَ بِهِمَا وَمَنْ تَفَنَّيَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾

(اصل) «الصفاء» في اللغة: الحجر الأملس، وهو هنا علم لجبل من جبال مكة معروف، وكذلك «المروة» علم لجبل بمكة معروف، وأصلها في اللغة: واحدة المروى، وهي الحجارة التي فيها لين. وقيل: التي فيها صلابة، وقيل: تعم

من جمع بين نكر الله، وشكره، واستعان بالصبر، والصلاة على تاتية ما أمر الله به، وبفع ما يرد عليه من المحن، فقد هدى إلى الصواب، ووفق إلى الخير، وإن هذه المعية التي أوضحها الله بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ فيها أعظم ترغيب لعباده سبحانه إلى لزوم الصبر على ما ينوب من الخطوب، فمن كان الله معه لم يخش من الأهوال، وإن كانت كالجبال. وأموات، وأحياء مرتفعان على أنهما خبران لمخوفين، أي: لا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله هم أموات بل هم أحياء، ولكن لا تشعرون بهذه الحياة عند مشاهدتكم لأبدانهم بعد سلب أرواحهم، لأنكم تحكمون عليها بالموت في ظاهر الأمر بحسب ما يبلغ إليهم علمكم الذي هو بالنسبة إلى علم الله كما يأخذ الطائر في منقاره من ماء البحر، وليسوا كذلك في الواقع بل هم أحياء في البرزخ. وفي الآية دليل على ثبوت عذاب القبر، ولا اعتداد بخلاف من خالف في ذلك، فقد تواترت به الأحاديث الصحيحة وبلت عليه الآيات القرآنية، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ [آل عمران: 169]. والبلاء أصله المحنة، ومعنى نبؤكم: نمتحنكم لنختبركم هل تصبرون على القضاء أم لا؟ وتذكير شيء للتعليل أي: بشيء قليل من هذه الأمور. وقرأ الضحاك بأشياء. والمراد بالخوف: ما يحصل لمن يخشى من نزول ضرر به من علو، أو غيره. وبالجوع: المجاعة التي تحصل عند الجذب، والقطع. وينقص الأموال: ما يحدث فيها بسبب الجوائح، وما أوجب الله فيها من الزكاة، ونحوها. وينقص الأنفس: الموت، والقتل في الجهاد. وينقص الثمرات: ما يصيبها من الآفات، وهو من عطف الخاص على العام لشمول الأموال للثمرات وغيرها، وقيل: المراد بنقص الثمرات: موت الأولاد. وقوله: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ أمر لرسول الله ﷺ، أو لكل من يقدر على التبشير. وقد تقدم معنى البشارة. والصبر أصله الحبس، ووصفهم بأنهم المسترجعون عند المصيبة: لأن ذلك تسليم ورضا. والمصيبة واحدة المصائب: وهي النكبة التي يتأذى بها الإنسان، وإن صغرت. وقوله: ﴿إِنَّا لله وَإِنَّا إليه راجعون﴾ فيه بيان أن هذه الكلمات ملجأ للمصابين، وعصمة للممتحنين، فإنها جامعة بين الإقرار بالعونية لله، والاعتراف بالبعث، والنشور. ومعنى الصلوات هنا: المغفرة، والثناء الحسن قاله الزجاج. وعلى هذا، فنكر الرحمة لقصد التاكيد. وقال في الكشف: الصلاة الرحمة، والتعطف، فوضعت موضع الرافة، وجمع بينها، وبين الرحمة كقوله: رافة ورحمة ﴿رؤوف رحيم﴾ والمعنى: عليهم رافة بعد رافة، ورحمة بعد رحمة. انتهى. وقيل المراد بالرحمة: كشف الكربة، وقضاء الحاجة. و«المهتدون» قد تقدم معناه، وإنما وصفوا هنا بذلك لكونهم فعلوا ما فيه الوصول إلى طريق الصواب من الاسترجاع، والتسليم.

وأخرج الحاكم، والبيهقي في الدلائل، عن إبراهيم بن

الجميع. قال أبو ذؤيب:

حتى كاني للحوائث مروءة بصفا المشقر كل يوم تقعر
وقيل: إنها الحجارة البيض البراقة. وقيل: إنها الحجارة
السود. والشعائر جمع شعيرة، وهي: العلامة، أي: من أعلام
مناسكه. والمراد بها مواضع العبادة التي أشعرها الله إعلاما
للناس من الموقف، والسعي، والمنحر، ومنه إشعار الهدى،
أي: إعلامه بغرز حبيدة في سنامه، ومنه قول الكميت:
نقتلهم جيلا فجيلا تراهم شعائر قربان بهم يتقرب
وحج البيت في اللغة: قصده، ومنه قول الشاعر:

وأشهد من عرف حنولا كثيرة يحجون سب الزبرقان المزغرا
والسب: العمامة. وفي الشرع: الإتيان بمناسك الحج التي
شرعها الله سبحانه. والعمرة في اللغة: الزيارة. وفي الشرع:
الإتيان بالنسك المعروف على الصفة الثابتة. والجناح أصله
من الجنوح، وهو: الميل، ومنه الجوانح لاعوجاجها. وقوله:
«يطوف» أصله يتطوف، فادغم. وقرئ: «أن يطوف»، ورفع
الجناح يدل على عدم الوجوب، وبه قال أبو حنيفة،
وأصحابه، والثوري. وحكى الرمخشري في الكشف عن أبي
حنيفة، أنه يقول: إنه واجب، وليس بركن، وعلى تاركة نم.
وقد ذهب إلى عدم الوجوب ابن عباس، وابن الزبير،
وأنس بن مالك، وابن سيرين. ومما يقوي دلالة هذه الآية
على عدم الوجوب قوله تعالى في آخر الآية: «ومن تطوع
خيرا فإن الله شاكر عليم». وذهب الجمهور إلى أن السعي
واجب، ونسك من جملة المناسك، واستدلوا بما أخرجه
الشيخان، وغيرهما عن عائشة أن عروة قال لها: رأيت قول
الله: «إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت
أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما» فما أرى على
أحد جناحا أن لا يطوف بهما؟ فقالت عائشة: بش ما قلت يا
ابن أخي، إنها لو كانت على ما أولتها كانت، فلا جناح عليه
أن لا يطوف بهما، ولكنها إنما أنزلت أن الانصار قبل أن
يسلموا كانوا يهلون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها، وكان
من أهل لها يتحرج أن يطوف بالصفا، والمروة في الجاهلية،
فأنزل الله: «إن الصفا والمروة من شعائر الله» الآية،
قالت عائشة: ثم قد بين رسول الله ﷺ الطواف بهما، فليس
لأحد أن يدع الطواف بهما. وأخرج مسلم، وغيره عنها أنها
قالت: لعمرى ما أتم الله حج من لم يسع بين الصفا والمروة،
ولا عمرته؛ لأن الله قال: «إن الصفا والمروة من شعائر
الله». وأخرج الطبراني، عن ابن عباس قال: سئل رسول الله
ﷺ، فقال: «إن الله كتب عليكم السعي، فاسعوا» وأخرج
أحمد في مسنده، والشافعي، وابن سعد، وابن المنذر، وابن
قانع، والبيهقي عن حبيبة بنت أبي تجرأة قالت: «رأيت
رسول الله ﷺ يطوف بين الصفا، والمروة، والناس بين
يديه، وهو وراءهم يسعى حتى أرى ركبته من شدة السعي
يدور به إزاره، وهو يقول: اسعوا، فإن الله عز وجل كتب
عليكم السعي» وهو في مسند أحمد، من طريق شيخه
عبد الله بن المؤمل عن عطاء بن أبي رباح عن صفية بنت

شبية عنها، ورواه من طريق أخرى عن عبد الرزاق، أخبرنا
معمر، عن واصل مولى أبي عيينة عن موسى بن عبيدة، عن
صفية بنت شبية أن امرأة أخبرتها، فذكرته. ويؤيد ذلك
حديث: «خونا عني مناسككم» اهـ.

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا آتَانَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَدَىٰ مَا يَكْتُمُونَ لِلنَّاسِ فِي
الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ الْمَلَائِكَةُ ﴿١٢٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَسْكَنُوا
وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٠﴾
خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَجُودُ عَنْهُمْ إِلَّا عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يَنْصَرُونَ ﴿١٣١﴾ وَاللَّهُ كَرِيمٌ ﴿١٣٢﴾
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٣٣﴾

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾ إلى آخر الآية، فيه الإخبار
بان الذي يكتم تلك ملعون، واختلوا من المراد بذلك؟ فقيل:
أخبار اليهود، ورهبان النصارى الذين كتموا أمر محمد ﷺ،
وقيل: كل من كتم الحق، وترك بيان ما أوجب الله بيانه، وهو
الراجح؛ لأن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما
تقرر في الأصول، فعلى فرض أن سبب النزول ما وقع من
اليهود، والنصارى من الكتم، فلا ينافي ذلك تناول هذه الآية
كل من كتم الحق. وفي هذه الآية من الوعيد الشديد ما لا
يقاقر قدره، فإن من لعن الله، ولعنه كل من يتأتى منه اللعن
من عباده قد بلغ من الشقاوة، والخسران إلى الغاية التي لا
تلحق، ولا يدرك كنهها. وفي قوله: ﴿مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ﴾
لميل على أنه يجوز كتم غير ذلك كما قال أبو هريرة:
«حفظت عن رسول الله ﷺ، وعامين: أما أحدهما، فبثنته،
وأما الآخر، فلو بثنته قطع هذا البلعوم» أخرجه البخاري.
والضمير في قوله: ﴿مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ راجع إلى ما أنزلنا.
والكتاب اسم جنس، وتعريفه يفيد شموله لجميع الكتب،
وقيل: المراد به التوراة. واللعن: الإبعاد والطرده. والمراد بقوله:
﴿الْعَالَمُونَ﴾ الملائكة، والمؤمنون قاله: الزجاج وغيره،
ورجحه ابن عطية، وقيل: كل من يتأتى منه اللعن، فينخل في
ذلك الجن؛ وقيل: هم الحشرات والبهائم. وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ
تَابُوا﴾ الخ، فيه استثناء التائبين، والمصلحين لما فسد من
أعمالهم، والمبينين للناس ما بينه الله في كتبه، وعلى السن
رسله. قوله: ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ هذه الجملة حالية، وقد
استدل بذلك على أنه لا يجوز لعن كافر معين؛ لأن حاله عند
الوفاة لا يعلم، ولا ينافي ذلك ما ثبت عنه ﷺ من لعن لقوم
من الكفار بأعيانهم؛ لأنه يعلم بالوحي ما لا نعلم، وقيل:
يجوز لعنه عملا بظاهر الحال كما يجوز قتاله. قوله: ﴿أُولَٰئِكَ
عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ﴾ الخ، استدل به على جواز لعن الكفار على
العموم. قال القرطبي: ولا خلاف في ذلك. قال: وليس لعن
الكافر بطريق الزجر له عن الكفر، بل هو جزاء على الكفر،
وإظهار قبح كفره سواء كان الكافر عاقلا، أو مجنونا. وقال
قوم من السلف: لا فائدة في لعن من جن، أو مات منهم لا
بطريق الجزاء، ولا بطريق الزجر. قال: ويدل على هذا القول
أن الآية دالة على الإخبار عن الله، والملائكة، والناس بلعنهم

جريح، وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿وتصريف الرياح﴾ قال: إذا شاء جعلها رحمة لواقع للسحاب، وبشراً بين يدي رحمته، وإذا شاء جعلها عذاباً رجعاً عقيماً لا تلقح. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي بن كعب قال: كل شيء في القرآن من الرياح، فهي رحمة، وكل شيء في القرآن من الريح، فهي عذاب. وقد ورد في النهي عن سبِّ الريح، وأوصافها أحاديث كثيرة لا تعلق لها بالأية.

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَخُذُّ مِن دُونِ اللَّهِ أُنْدَادًا يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدَّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرْجُونَ أَنَّهُم مَّا نَلَكَ اللَّهُ حَبِيبًا وَأَنَّهُ سَيُلَوِّكُمُ الْمَوْتَ ۖ إِذْ يَنبُرُوا الَّذِينَ آمَنُوا بِأَنَّ الَّذِينَ آتَوْهُمُ رِزْقًا مِّنَ اللَّهِ هَٰؤُلَاءِ مِثْلُ مَا نَحْنُ بِمُحِبِّينَ ۚ وَقَالَ الَّذِينَ آتَوْهُمُ لَوْ أَنَّا كُنَّا كَرَّةً فَنَكَّرْنَا بَيْنَهُم كَمَا تَنَكَّرُوا وَإِنَّا كَذَّابُكُمْ يُرِيدُ اللَّهُ أَغْنَاهُمْ حَرَيتَ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِمُخْرَجِينَ مِنَ آثَارِهِ ۖ

لما فرغ سبحانه من الليل على وحدانيته، أخبر أن مع هذا الليل الظاهر المفيد لعظيم سلطانه، وجليل قدرته، وتفرده بالخلق، قد وجد في الناس من يتخذ معه سبحانه ندأ يعبد من الأصنام. وقد تقدم تفسير الانداد، مع أن هؤلاء الكفار لم يقتصروا على مجرد عبادة الانداد، بل أحبوا حباً عظيماً، وأقرطوا في تلك إقراطاً بالغاً، حتى صار حبهم لهذه الأوثان، ونحوها متمكناً في صدورهم كتمكن حب المؤمنين لله سبحانه، فالمصدر في قوله: ﴿كحُبِّ الله﴾ مضاف إلى المفعول، والفاعل محنوف، وهو المؤمنون. ويجوز أن يكون المراد كحبهم لله أي: عبدة الأوثان قاله ابن كيسان، والزجاج. ويجوز أن يكون هذا المصدر من المبني للمجهول، أي: كما يحب الله. والأولى أولى لقوله: ﴿والذين آمنوا أشدَّ حُباً لله﴾ فإنه استدرك لما يفيد التشبيه من التساوي، أي: أن حب المؤمنين لله أشدَّ من حب الكفار للانداد؛ لأن المؤمنين يخصون الله سبحانه بالعبادة، والدعاء، والكفار لا يخصون أصنامهم بذلك، بل يشركون الله معهم، ويعترفون بأنهم إنما يعبدون أصنامهم؛ ليقربوهم إلى الله، ويمكن أن يجعل هذا أعني قوله: ﴿والذين آمنوا أشدَّ حُباً لله﴾ بليلاً على الثاني؛ لأن المؤمنين إذا كانوا أشدَّ حُباً لله لم يكن حب الكفار للانداد كحب المؤمنين لله، وقيل: المراد بالانداد هنا الرؤساء، أي: يطعونهم في معاصي الله، ويقوي هذا الضمير في قولهم: ﴿يحبونهم﴾ فإنه لمن يعقل، ويقويه أيضاً قوله سبحانه عقب ذلك: ﴿إذ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ الآية. قوله: ﴿ولو ترى الذين ظلموا﴾ قراءة أهل مكة، والكوفة، وأبو عمر وبلياء التحتية، وهو: اختيار أبي عبيد. وقراءة أهل المدينة، وأهل الشام بالفوقية، والمعنى على القراءة الأولى: لو يرى الذين ظلموا في الدنيا عذاب الآخرة؛ لعلوا حين يرون أن القوة لله جميعاً قاله أبو عبيد. قال النحاس: وهذا القول هو الذي عليه أهل التفسير. انتهى. وعلى هذا، فالرؤية هي: البصرية لا القلبية. وروي عن محمد بن يزيد المبرد أنه قال: هذا التفسير الذي جاء به أبو عبيد بعيده، وليست عبارته فيه

التي تجرى في البحر﴾ وقال: ﴿حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم﴾ [يونس: 22] وقيل: واحده فلك بالتحريك، مثل أسد وأسد. وقوله: ﴿فيما ينفع للناس﴾ يحتمل أن تكون ما موصولة أي: بالذي ينفعهم، أو مصدرية أي: ينفعهم، والمراد بما أنزل من السماء المطر الذي به حياة العالم، وإخراج النبات، والأزلاق. والبث: النشر، والظاهر أن قوله: ﴿بث﴾ معطوف على قوله: ﴿فأحياها﴾ لأنهما أمران متسببان عن إنزال المطر. وقال في الكشف: إن الظاهر عطفه على أنزل. والمراد بتصريف الرياح: إرسالها عقيماً، وملقحة، وصرأ، ونصرأ، وهلاكاً، وحارة، وباردة، ولينة، وعاصفة، وقيل تصريفها: إرسالها جنوباً، وشمالاً وبيوراً، وصباً، ونكباً وهي التي تأتي بين مهبي ريحين، وقيل تصريفها: أن تأتي السفن الكبار بقدر ما تحملها، والصغار كذلك، ولا مانع من حمل التصريف على جميع ما ذكر. والسحاب سمي سحاباً لانسحابه في الهواء، وسحب نيلي سحبا، وتسحب فلان على فلان: اجتراً. والمسخر: المنزل، وسخره: بعثه من مكان إلى آخر، وقيل تسخيره: ثبوته بين السماء والأرض من غير عمد، ولا علائق. والأول أظهر. والآيات الدلالات على وحدانيته سبحانه لمن ينظر ببصره، ويتفكر بعقله.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وابن مروي، عن ابن عباس قال: قالت قريش للنبي ﷺ: ادع الله أن يجعل لنا الصفا ذهباً نتقوى به على عدونا، فأوحى الله إليه: إني معطيهم، فأجعل لهم الصغار ذهباً، ولكن إن كفروا بعد ذلك عذبتهم عذاباً لا أعني أحداً من العالمين، فقال: رب دعني، وقومي، فادعوه يوماً بيوم، فانزل الله هذه الآية. وأخرج نحوه عبد بن حميد، وابن جرير، عن سعيد بن جبيرة. وأخرج وكيع، والفرجلي، وأدم ابن أبي إياس، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة، والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي الضحى قال: لما نزلت: ﴿والهكم إله واحد﴾ عجب المشركون، وقالوا: إن محمداً يقول: ﴿والهكم إله واحد﴾ [البقرة: 163] فليأتنا بآية إن كان من الصائقين، فانزل الله: ﴿إن في خلق السموات والأرض﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن عطاء نحوه. وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن سلمان قال: الليل موكل به ملك يقال له شراهيل، فإذا حان وقت الليل أخذ خرزة سوداء، فدلها من قبل المغرب، فإذا نظرت إليها الشمس وجبت في أسرع من طرفه عين، وقد أمرت الشمس أن لا تغرب حتى ترى الخرزة، فإذا غربت جاء الليل، فلا تزال الخرزة معلقة حتى يجيء ملك آخر يقال له هراهيل بخرزة بيضاء، فيعلقها من قبل المطلع، فإذا رآها شراهيل مدَّ إليه خرزته، وترى الشمس الخرزة البيضاء، فتطلع، وقد أمرت أن لا تطلع حتى تراها، فإذا طلعت جاء النهار. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي مالك في قوله: ﴿والفلك﴾ قال: السفينة. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال: ﴿بث﴾ خلق، وأخرج عبد بن حميد، وابن

في هذا يطول.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد في قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾ قال: مباهاة، ومضاربة للحق بالانداد ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ قال: من الكفار لأكثرهم. وأخرج ابن جرير، عن أبي زيد في هذه الآية قال: هؤلاء المشركون أندادهم أللهتهم التي عبدوا مع الله يحبونهم كما يحب الذين آمنوا الله ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ من حبيبهم لأكثرهم. وأخرج ابن جرير، عن السدي في الآية قال: الأنداد من الرجال يطيعونهم كما يطيعون الله إذا أمرهم أطاعوهم، وعصوا الله. وأخرج عبد بن حميد، عن عكرمة نحو ما قال ابن زيد. وأخرج ابن جرير، عن الزبيري في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ قال: ولو ترى يا محمد الذين ظلموا أنفسهم، فاتخذوا من نوني أنداداً يحبونهم كحبكم إياي حين يعاينون عذابي يوم القيامة الذي أعدت لهم، لعلمت أن القوة كلها لي دون الأنداد، والألوه لا تغني عنهم هنالك شيئاً، ولا تدفع عنهم عذاباً أحلت بهم، وأيقنتهم أنني شديد عذابي لمن كفر بي، وأدعى معي إلهاً غيري. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة في قوله: ﴿إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ قال: هم الجبابرة، والقادة، والرؤوس في الشرك. ﴿وَمِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ قال: هم: الشياطين تبرؤوا من الإنس. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَتَقَطَّعْتَ بِهِمُ الْأَسْبَابَ﴾ قال: المودة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه قال: هي: المنازل. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عنه قال: هي: الأرحام. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وأبو نعيم في الحلية، عن مجاهد قال: هي الأوصال التي كانت بينهم في الدنيا، والمودة. وأخرج عبد بن حميد، عن أبي صالح قال: هي الأعمال. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن الربيع قال: هي المنازل. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة في قوله: ﴿لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ قال: رجعة إلى الدنيا. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي العالية في قوله: ﴿حَسْرَاتٍ﴾ قال: صارت أعمالهم الخبيثة حسرة عليهم يوم القيامة. وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ قال: أولئك أهلها الذين هم أهلها. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ثابت بن معبد قال: ما زال أهل النار يأمولون الخروج منها حتى نزلت ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُونُوا فِي الْآرْضِ حَنَافَ وَلَا تَتَّبِعُوا خُلُقَاتِ السَّيِّئِينَ إِنَّمَا لَكُمْ عَدُوٌّ شَرٌّ ﴿١٠٠﴾ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَةِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْمَلُونَ ﴿١٠١﴾ وَإِذْ قَالَ لَهُمُ الْمَلَكُ مَا أَرْزَلَهُ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَنبَغُ مَا أَتَيْنَا عَلَيْهِ بَآئَةً أَرَأَيْتُمْ لَآ تَقُولُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الْآرَةِ يَبْقَىٰ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا دَعَاً وَبَيْنَهُمْ

بالجيدة: لأنه يقدر: ولو يرى الذين ظلموا العذاب، فكأنه يجعله مشكوكاً فيه. وقد أوجبه الله تعالى، ولكن التقدير، وهو الأحسن: ولو يرى الذين ظلموا أن القوة لله، ويرى بمعنى يعلم. أي: لو يعلمون حقيقة قوة الله، وشدة عذابه. قال: وجواب لو محذوف، أي: لتبينوا ضرر اتخاذهم الألوه، كما حذف في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ﴾ [الأنعام: 27] ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: 30] ومن قرأ بالفوقية، فالتقدير: ولو ترى يا محمد الذين ظلموا في حال رؤيتهم العذاب، وفزعهم منه لعلمت أن القوة لله جميعاً. وقد كان النبي ﷺ علم ذلك، ولكن خوطب بهذا الخطاب، والمراد به أمته، وقيل: ﴿أَنَّ﴾ في موضع نصب مفعول لأجله، أي: لأن القوة لله، كما قال الشاعر:

واغفر عوراء الكريم أخاره
وأعرض عن شتم اللئيم تركماً
أي: لأخاره: والمعنى: ولو ترى يا محمد الذين ظلموا في حال رؤيتهم للعذاب: لأن القوة لله لعلمت مبلغهم من النكال: وبخلت (إذ) وهي لما مضى في إثبات هذه المستقبلات تقريباً للامر، وتصحيحاً لوقوعه. وقرأ ابن عامر: ﴿إِذْ يَرُونَ﴾ بضم الياء، والياقون بفتحها. وقرأ الحسن، ويعقوب، وأبو جعفر: ﴿إِنَّ الْقُوَّةَ﴾ وإن الله بكسر الهمزة فيهما على الاستثنا، وعلى تفسير القول. قوله: ﴿إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ بدل من قوله: ﴿إِذْ يَرُونَ العذاب﴾ ومعناه: أن السادة، والرؤساء تبرؤوا ممن اتبعهم على الكفر. وقوله: ﴿وَرَأَوْا العذاب﴾ في محل نصب على الحال: يعني التابعين، والمتبعين، قيل: عند المعالجة في الدنيا، وقيل: عند العرض، والمسألة في الآخرة. ويمكن أن يقال فيهما جميعاً إذ لا مانع من ذلك. قوله: ﴿وَتَقَطَّعْتَ بِهِمُ الْأَسْبَابَ﴾ هي: جمع سبب، وأصله في اللغة: الحبل الذي يشد به الشيء، ويجذب به، ثم جعل كل ما جر شيئاً سبباً، والمراد بها: الوصل التي كانوا يتواصلون بها في الدنيا من الرحم، وغيره، وقيل: هي الأعمال، والكثرة: الرجعة، والعودة إلى حال قد كانت، ولو هنا في معنى التمني كأنه قيل: ليت لنا كربة، ولهذا وقعت الغاء في الجواب. والمعنى: أن الاتباع قالوا: لو رددنا إلى الدنيا حتى نعمل صالحاً، ونتبرأ منهم كما تبرؤوا منا. والكاف في قوله: ﴿كَمَا تَبَرَّؤُوا مِنَّا﴾ في محل نصب على النعت لمصدر محذوف، وقيل: في محل نصب على الحال، ولا أراه صحيحاً. وقوله: ﴿كَذَلِكَ يَرِيهِمُ اللَّهُ﴾ في موضع رفع. أي: الأمر كذلك، أي: كما أراه الله العذاب يريهم أعمالهم، وهذه الرؤية إن كانت البصرية فقوله: ﴿حَسْرَاتٍ﴾ منتصب على الحال، وإن كانت القلبية، فهو المفعول الثالث، والمعنى: أن أعمالهم الفاسدة يريهم الله إياها، فتكون عليهم حسرات، أو يريهم الأعمال الصالحة التي أوجيها عليهم، فتركوها، فيكون ذلك حسرة عليهم. وقوله: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ فيه دليل على خلود الكفار في النار، وظاهر هذا التركيب يفيد الاختصاص، وجعله الزمخشري للثبوت لغرض له يرجع إلى المذهب، والبحث

بِكُمْ عَمَىٰ نَهْرٌ لَا يَمِيلُونَ ﴿٢٠﴾

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ قيل: إنها نزلت في ثقيف، وخزاعة، وبني مديج فيما حرموه على أنفسهم من الأنعام. حكاه القرطبي في تفسيره، ولكن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. وقوله: ﴿حَلَالًا﴾ مفعول، أو حال، وسمي الحلال حلالاً لأنحلال عقدة الحظر عنه. والطيب هنا هو المستأذ كما قاله الشافعي، وغيره. وقال مالك، وغيره: هو الحلال، فيكون تأكيداً لقوله: ﴿حَلَالًا﴾. ومن في قوله: ﴿مِمَّا فِي الْأَرْضِ﴾ للتبعض للقطع بأن في الأرض ما هو حرام ﴿وخطوات﴾ جمع خطوة بالفتح، والضم، وهي: بالفتح للمرة، وبالضم لما بين القدمين. وقرأ القراء خطوات بفتح الخاء، وقرأ أبو سماك بفتح الخاء، والطاء، وقرأ علي، وقتادة، والأعرج، وعمرو بن ميمون، والأعمش: «خطوات» بضم الخاء، والطاء، والهمز على الواو. قال الأخفش: وذهبوا بهذه القراءة إلى أنها جمع خطية من الخطا لا من الخطو. قال الجوهري: والخطوة بالفتح: المرة الواحدة، والجمع خطوات، وخطا، انتهى. والمعنى على قراءة الجمهور: لا تقفوا أثر الشيطان، وعمله، وكل ما لم يرد به الشرع، فهو منسوب إلى الشيطان، وقيل: هي الذنور، والمعاصي، والأول التعميم، وعدم التخصيص بفرد، أو نوع. وقوله: ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ أي: ظاهر العدواة، ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ عَنَّا مُضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص: 15] وقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخَذُوهُ عَصَاً﴾ [فاطر: 26] وقوله: ﴿يَا سَوْءَ﴾ سمي السوء سوءاً؛ لأنه يسوء صاحبه بسوء عاقبته، وهو مصنر ساءه يسوؤه سوءاً، ومساءة إذا لحزته. ﴿وَالْفَحْشَاءُ﴾ أصله سوء المنظر، ومنه قول الشاعر:

وجيد كجيد الرئم ليس بفالحش

ثم استعمل فيما يقبح من المعاني، وقيل السوء: والقبیح، والفحشاء: التجاوز للحد في القبح، وقيل السوء: ما لا حد فيه، والفحشاء: ما فيه الحد، وقيل الفحشاء: الزنا، وقيل: إن كل ما نهت عنه الشريعة، فهو من الفحشاء. وقوله: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قال ابن جرير الطبري: يريد ما حرموه من البحيرة، والسائبة، ونحوهما مما جعلوه شرعاً، وقيل: هو قولهم هذا حلال، وهذا حرام بغير علم. والظاهر أنه يصبق على كل ما قيل في الشرع بغير علم. وفي هذه الآية دليل على أن كل ما لم يرد فيه نص، أو ظاهر من الأعيان الموجودة في الأرض، فاصله الحل حتى يرد دليل يقتضي تحريمه، وأوضح دلالة على ذلك من هذه الآية قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: 29] والضمير في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ راجع إلى الناس؛ لأن الكفار منهم، وهم المقصوبون هنا، وقيل: كفار العرب خاصة، و﴿الْفِينَا﴾ معناه: وجدنا، والآف في قوله: ﴿أَوَّلُو﴾ كان آبائهم، للاستفهام، وفتحت الواو؛ لأنها واو العطف. وفي هذه الآية من الذم للمقلدين، والنداء بجهلهم الفالحش، واعتقادهم الفاسد ما لا يقاير قدره، ومثل هذه الآية قوله

تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [المائدة: 104] الآية، وفي ذلك دليل على قبح التقليد، والمنع منه، والبحث في ذلك يطول. وقد أقرته بمؤلف مستقل سميت [القول المفيد: في حكم التقليد] واستوفيت الكلام فيه في [أدب الطلب] ومنتهى الأرب. وقوله: ﴿وَمِثْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمِثْلِ الَّذِي يَنْعِقُ﴾ فيه تشبيه واعظ الكافرين، وداعيهم، وهو: محمد ﷺ بالراعي الذي ينقع بالغنم، أو الإبل، فلا يسمع إلا دعاء، ونداء، ولا يفهم ما يقول، هذا فسر الزجاج، والفراء، وسيبويه، وبه قال جماعة من السلف، قال سيبويه: لم يشبهوا بالناق، إنما شبهوا بالمنعوق به، والمعنى: مثلك يا محمد، ومثل الذين كفروا، كمثل الناق، والمنعوق به من البهائم التي لا تفهم، فحذف دلالة المعنى عليه. وقال قطرب: المعنى مثل الذين كفروا في دعائهم ما لا يفهم: يعني الأصنام، كمثل الراعي إذا نعى بغمه، وهو لا يدرى أين هي. وبه قال ابن جرير الطبري. وقال ابن زيد: المعنى: مثل الذين كفروا في دعائهم الألهة الجماد كمثل الصائغ في جوف الليل، فيجيبه الصدى، فهو يصيح بما لا يسمع، ويجيبه ما لا حقيقة فيه. والنعي: زجر الغنم، والصياح بها، يقال نعى الراعي بغمه ينعى نعيقاً، ونعاقاً، ونعقنا أي: صاح بها وزجرها، والعرب تضرب المثل براعي الغنم في الجهل، ويقولون: أجهل من راعي ضأن. وقوله: ﴿صَمٌّ﴾ وما بعده أخبار لمبتدئ محنوف أي: هم صم بكم عمي. وقد تقدم تفسير ذلك.

وقد أخرج ابن مردويه، عن ابن عباس قال: «تليت هذه الآية عند النبي ﷺ يعني: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ فقام سعد بن أبي وقاص فقال: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة، فقال: يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة، والذي نفس محمد بيده إن الرجل ليقف للقمعة الحرام في جوفه، فما يتقبل منه أربعين يوماً، وإيما عبد نبت لحمه من السحت، والربا، فالنار أولى به، وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه في قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ قال: عمله. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه أنه قال: «ما خالف القرآن، فهو من خطوات الشيطان، وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن مجاهد أنه قال: خطاه. وأخرج أيضاً، عن عكرمة قال: هي نزغات الشيطان. وأخرج أبو الشيخ، عن سعيد بن جببر، قال: هي تزوين الشيطان. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة قال: كل معصية لله، فهي من خطوات الشيطان. وأخرج عبد بن حميد، عن ابن عباس قال: ما كان من يمين، أو نذر في غضب، فهو من خطوات الشيطان، وكفارته كفارة يمين. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، عن ابن مسعود أنه أتى بضرع، وملح، فجعل ياكل، فاعتزل رجل من القوم، فقال ابن مسعود: ناولوا صاحبكم، فقال: لا أريد، فقال:

يجعل «ماء» في «إنماء» موصولة منفصلة في الخط، والميتة وما بعدها خبر الموصول، وقراءة الجميع بالنصب. وقرأ أبو جعفر بن القعقاع الميتة بتشديد الياء، وقد ذكر أهل اللغة أنه يجوز في ميت التخفيف، والتشديد. والميتة ما فارقتها الروح من غير نكاة. وقد خصص هذا العموم بمثل حديث: «أحل لنا ميتتان ونمان» أخرجه أحمد، وابن ماجه، والدارقطني، والحاكم، وابن مريويه، عن ابن عمر مرفوعاً، ومثل حديث جابر في العنبر الثابت في الصحيحين مع قوله تعالى: ﴿أحل لكم صيد البحر﴾ [المائدة: 96] فالمراد بالميتة هنا ميتة البر لا ميتة البحر. وقد ذهب أكثر أهل العلم إلى جواز أكل جميع حيوانات البحر حيها، وميتها. وقال بعض أهل العلم: إنه يحرم من حيوانات البحر ما يحرم شبهه في البر، وتوقف ابن حبيب في خنزير الماء. وقال ابن القاسم: وأنا أتقيه، ولا أراه حراماً. قوله: ﴿والدم﴾ قد اتفق العلماء على أن الدم حرام، وفي الآية الأخرى: ﴿أو نماً مسفوحاً﴾ [الأنعام: 145] فيحمل المطلق على المقيد؛ لأن ما خلط باللحم غير محرم، قال القرطبي: بالإجماع. وقد روت عائشة أنها كانت تطبخ اللحم، فتعلو للصفرة على البرمة من الدم، فيكلل ذلك النبي ﷺ، ولا ينكره. قوله: ﴿ولحم الخنزير﴾ ظاهر هذه الآية، والآية الأخرى أعني قوله تعالى: ﴿قل لا أجد فيما أوحى إليّ محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو نماً مفسوحاً أو لحم خنزير﴾ [الأنعام: 145] أن المحرم إنما هو: اللحم فقط. وقد أجمعت الأمة على تحريم شحمه كما حكاه القرطبي في تفسيره وقد ذكر جماعة من أهل العلم أن اللحم يدخل تحته الشحم. وحكى القرطبي الإجماع أيضاً على أن جملة الخنزير محرمة إلا الشعر، فإنه تجوز الخرازة به. قوله: ﴿وما أهل به لغير الله﴾ [الإملا]: رفع الصوت، يقال أهل بكذا أي: رفع صوته. قال الشاعر يصف فلاة:

تهلّ بالفرد ركبائها كما يهلّ الركاب المعتمر
وقال النابغة:

أوردة صفية غواصها بهج متى يرها يهلّ ويسجد
ومنه إهلال الصبي، واستهلاله: وهو صياحه عند ولادته. والمراد هنا: ما ذكر عليه اسم غير الله كالكلمات والعزى، إذا كان الذابح، وثنيّاً، والنار إذا كان الذابح مجوسياً. ولا خلاف في تحريم هذا، وأمثاله، ومثله ما يقع من المعتقدين للأموات من النبح على قبورهم، فإنه مما أهل به لغير الله، ولا فرق بينه وبين النبح للوثن. قوله: ﴿فمن اضطر﴾ قرئ بضم النون للاتباع، وبكسرهما على الأصل في التقاء الساكنين، وفيه إضمار. أي: فمن اضطر إلى شيء من هذه المحرمات. وقرأ ابن محيصن بإدغام الضاد في الطاء. وقرأ أبو السماك بكسر الطاء. والمراد من صيره الجوع، والعدم إلى الاضطرار إلى الميتة. قوله: ﴿غير باغ﴾ نصب على الحال. قيل المراد بالباغي: من يكلل فوق حاجته، والعاذي: من يكلل هذه المحرمات، وهو يجد عنها منوحة، وقيل: غير باغ على

أصائم أنت؟ قال: لا. قال: فما شأنك؟ قال: حرمت على نفسي أن أكل ضرعاً، فقال ابن مسعود: هذا من خطوات الشيطان، فاطعم، وكفر عن يمينك. وأخرج عبد بن حميد، عن عثمان بن غياث، قال: سألت جابر بن زيد، عن رجل نذر أن يجعل في أنفه حلقة من ذهب، فقال: هي من خطوات الشيطان، ولا يزال عاصياً لله، فليكفر عن يمينه. وأخرج عبد بن حميد، عن الحسن أنه جعل يمين من حلف أن يحجّ حبوا من خطوات الشيطان. وأخرج عبد بن حميد، وأبو الشيخ، عن أبي مجلز قال: هي: النذور في المعاصي. وأخرج ابن جرير، عن السدي في قوله: ﴿إنما يامركم بالسوء﴾ قال: المعصية ﴿والفحشاء﴾ قال: الزنا. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: دعا رسول الله ﷺ اليهود إلى الإسلام، ورغبهم فيه، وحذرهم عذاب الله، ونقمته، فقال له رافع بن خارجة، ومالك بن عوف: بل نتبع يا محمد ما وجدنا عليه آباءنا، فهم كانوا أعلم، وخيراً منا، فأنزل الله في ذلك: ﴿وإذا قيل لهم لتبوعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا﴾ وأخرج ابن جرير، عن الربيع، وقتادة في قوله: ﴿الفينا﴾ قالوا: وجدنا. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿ومثل الذين كفروا﴾ الآية، قال: كمثل البقر، والحمار، والشاة إن قلت لبعضهم كلاماً لم يعلم ما تقول غير أنه يسمع صوتك، وكذلك الكافر إن أمرته بخير، أو نهيته عن شرٍّ، أو وعظته لم يعقل ما تقول غير أنه يسمع صوتك، وروي نحو ذلك عن مجاهد أخرجه عبد بن حميد، وعن عكرمة، أخرجه وكيع. وأخرج ابن جرير، عن ابن جريج قال: قال لي عطاء في هذه الآية: هم: اليهود الذين أنزل الله فيهم: ﴿إن الذين يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب﴾ إلى قوله: ﴿فما أصبرهم على النار﴾ [البقرة: 174 - 175].

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِذَا
كُنتُمْ عَلَيْهِ تَابِعِينَ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ
الْخَنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ
إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٩﴾

قوله: ﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ هذا تأكيد للأمر الأول: أعني قوله: ﴿يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً﴾ [البقرة: 168] وإنما خص المؤمنين هنا لكونهم أفضل أنواع الناس، وقيل: والمراد بالأكل الانتفاع، وقيل: المراد به الأكل المعتاد، وهو الظاهر. قوله: ﴿واشكروا لله﴾ قد تقدم أنه يقال شكره، وشكر له يتعدى بنفسه، وبالحرف. وقوله: ﴿إن كنتم إياه تعبدون﴾ أي: تخصونه بالعبادة كما يفيد تقدم المفعول. قوله: ﴿إنما حرم عليكم الميتة﴾ قرأ أبو جعفر: ﴿حرم﴾ على البناء للمفعول و﴿إنما﴾ كلمة موضوعة للحصر تثبت ما تناوله الخطاب، وتتفي ما عداها. وقد حصرت هنا التحريم في الأمور المذكورة بعدها. قوله: ﴿الميتة﴾ قرأ ابن أبي عبيدة بالرفع، ووجه ذلك أنه

والمسلمين، وعاد عليهم، فيدخل في الباغي، والعادي قطاع الطريق، والخارج على السلطان، وقاطع الرحم، ونحوهم، وقيل: المراد غير باغ على مضطر آخر، ولا عاد سد الجوعة.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ قال: من الحلال. وأخرج ابن سعد، عن عمر بن عبد العزيز، أن المراد بما في الآية: طيب الكسب لا طيب الطعام، وأخرج ابن جرير، عن الضحاك: أنها حلال الرزق. وأخرج أحمد، ومسلم، والترمذي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: 51] وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: 172] ثم نكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: يا ربّ يا ربّ، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فإني يستجاب له». وأخرج ابن المنذر، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا أَهْلٌ﴾ قال: نبح. وأخرج ابن جرير، عنه قال: ﴿وَمَا أَهْلٌ بِهِ﴾ للطواغيت. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مجاهد قال: ما نبح لغير الله. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي العالية: قال: ما نكر عليه اسم غير الله. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿غَيْرِ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ يقول: من أكل شيئاً من هذه، وهو مضطر، فلا حرج، ومن أكله، وهو غير مضطر، فقد بغى، واعتدى. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه في قوله: ﴿غَيْرِ بَاغٍ﴾ قال: في الميتة ﴿وَلَا عَادٍ﴾ قال: في الأكل. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿غَيْرِ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ قال: غير باغ على المسلمين، ولا معتد عليهم. فمن خرج يقطع الرحم، أو يقطع السبيل، أو يفسد في الأرض، أو مفارقاً للجماعة، والائتمة، أو خرج في معصية الله، فاضطر إلى الميتة لم تحل له. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن سعيد بن جبير، قال: العادي الذي يقطع الطريق، وقوله: ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ يعني في أكله ﴿إِنْ أَنَا غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لمن أكل من الحرام رحيم به إذ حل له الحرام في الاضطرار. وأخرج عبد بن حميد، عن قتادة: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ غير باغ في أكله، ولا عاد يتعدى الحلال إلى الحرام، وهو يجد عنه بلفة، ومنوحة.

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ وَيُسْرُونَ بِهِ فَمَا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَكَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْغُفُورِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿٧٧﴾ ذَلِكَ يَأْتِيَنَّ اللَّهُ سَرَّكَ الْكُتُبَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَهِيمٍ ﴿٧٨﴾

والمسلمين، وعاد عليهم، فيدخل في الباغي، والعادي قطاع الطريق، والخارج على السلطان، وقاطع الرحم، ونحوهم، وقيل: المراد غير باغ على مضطر آخر، ولا عاد سد الجوعة.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ قال: من الحلال. وأخرج ابن سعد، عن عمر بن عبد العزيز، أن المراد بما في الآية: طيب الكسب لا طيب الطعام، وأخرج ابن جرير، عن الضحاك: أنها حلال الرزق. وأخرج أحمد، ومسلم، والترمذي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: 51] وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: 172] ثم نكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: يا ربّ يا ربّ، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فإني يستجاب له». وأخرج ابن المنذر، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا أَهْلٌ﴾ قال: نبح. وأخرج ابن جرير، عنه قال: ﴿وَمَا أَهْلٌ بِهِ﴾ للطواغيت. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مجاهد قال: ما نبح لغير الله. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي العالية: قال: ما نكر عليه اسم غير الله. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿غَيْرِ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ يقول: من أكل شيئاً من هذه، وهو مضطر، فلا حرج، ومن أكله، وهو غير مضطر، فقد بغى، واعتدى. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه في قوله: ﴿غَيْرِ بَاغٍ﴾ قال: في الميتة ﴿وَلَا عَادٍ﴾ قال: في الأكل. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿غَيْرِ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ قال: غير باغ على المسلمين، ولا معتد عليهم. فمن خرج يقطع الرحم، أو يقطع السبيل، أو يفسد في الأرض، أو مفارقاً للجماعة، والائتمة، أو خرج في معصية الله، فاضطر إلى الميتة لم تحل له. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن سعيد بن جبير، قال: العادي الذي يقطع الطريق، وقوله: ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ يعني في أكله ﴿إِنْ أَنَا غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لمن أكل من الحرام رحيم به إذ حل له الحرام في الاضطرار. وأخرج عبد بن حميد، عن قتادة: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ غير باغ في أكله، ولا عاد يتعدى الحلال إلى الحرام، وهو يجد عنه بلفة، ومنوحة.

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ وَيُسْرُونَ بِهِ فَمَا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَكَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْغُفُورِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿٧٧﴾ ذَلِكَ يَأْتِيَنَّ اللَّهُ سَرَّكَ الْكُتُبَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَهِيمٍ ﴿٧٨﴾

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾ قيل: المراد بهذه الآية علماء اليهود؛ لأنهم كتموا ما أنزل الله في التوراة من صفة محمد

وقد أخرج ابن جرير، عن عكرمة في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ قال: نزلت في يهود. وأخرج ابن جرير، عن السدي قال: كتموا اسم محمد ﷺ، وأخذا عليه طمعاً قليلاً. وأخرج ابن جرير، أيضاً عن أبي العالية نحوه.

حَبَّ الله عَزَّ وَجَلَّ لَا لَغَرَضٍ آخِرَ، وَهُوَ مِثْلُ قَوْلِهِ: ﴿وَيُطْعَمُونَ
الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ﴾ [الإنسان: 8] ومثله قول زهير:

إن الكريم على علاته هرم

وقدّم نوي القريبى لكون نفع المال إليهم صفة، وصله إذا كانوا فقراء، وهكذا يتامى الفقراء أولى بالصفة من الفقراء الذين ليسوا بيتامى، لعدم قدرتهم على الكسب. والمسكين: الساكن إلى ما في أيدي الناس لكونه لا يجد شيئاً. ﴿وابن السبيل﴾ المسافر المنقطع، وجعل ابناً للسبيل لملازمته له. وقوله: ﴿وفي الرقاب﴾ أي: في معاونة الأرقاء الذين كاتبهم المالكون لهم، وقيل: المراد شراء الرقاب، وإعتاقها، وقيل: المراد فك الأسارى، وقوله: ﴿وأتى الزكاة﴾ فيه دليل على أن الإيتاء المتقدم هو صفة التطوع، لا صفة الفريضة. وقوله: ﴿والموفون﴾ قيل: هو: معطوف على «من آمن»، كأنه قيل: ولكن البرّ المؤمنون، والموفون. قاله الفقهاء، والأخفش، وقيل: هو مرفوع على الابتداء، والخبر محذوف، وقيل: هو: خبر لمبتدأ محذوف. أي: هم الموفون، وقيل: إنه معطوف على الضمير في آمن، وأنكره أبو علي، وقال: ليس المعنى عليه. وقوله: ﴿والصابرين﴾ منصوب على المدح كقوله تعالى: ﴿والمقيمين الصلاة﴾ [النساء: 162] ومنه ما أشبهه أبو عبيدة:

لا يبعدن قومي النين هم سم العدة وأفة الجزر
النازلين بكل معركة والطيبين معاهد الأزر
وقال الكسائي: هو: معطوف على نوي القريبى كأنه قال:
وأنتى الصابرين. وقال النحاس: إنه خطأ. قال الكسائي: وفي
قراءة عبد الله: ﴿والموفين والصابرين﴾. قال النحاس:
يكونان على هذه القراءة منسوقين على نوي القريبى، أو على
المدح. وقرأ يعقوب، والأعمش: ﴿والموفون والصابرون﴾
بالرفع فيهما. ﴿واللباساء﴾ الشدة، والفقر. ﴿والضراء﴾
المرض، والزمانة ﴿وحين لباس﴾ قيل: المراد وقت الحرب،
واللباساء، والضراء اسمان بتنيا على فعلاء، ولا فعل لهما؛
لانهما اسمان، وليسا بنعت. وقوله: ﴿صنقوا﴾ وصفهم
بالصنق، والتقوى في أمورهم، والوفاء بها، وأنهم كانوا
جائنين. وقيل: المراد صنقوهم القتال، والأول أولى.

وقد أخرج ابن أبي حاتم وصححه عن أبي نر، أنه سأل رسول الله ﷺ عن الإيمان، فثلا **ليس البر أن تولوا وجوهكم** حتى فرغ منها، ثم سألها أيضاً، فثلاها، ثم سألها، فثلاها. قال: وإذا عملت بحسنة أحبها قلبك، وإذا عملت بسيئة أبغضها قلبك. وأخرج عبد بن حميد، وابن مروي، عن القاسم بن عبد الرحمن، قال: جاء رجل إلى أبي نر فقال: ما الإيمان؟ فثلا عليه هذه الآية، ثم نكر له نحو الحديث السابق. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في هذه الآية قال: يقول ليس البر أن تصلوا، ولا تعملوا، هذا حين تحوّل من مكة إلى المدينة، وإنزلت الفرائض. وأخرج عنه ابن جرير، أنه قال: هذه الآية نزلت بالمدينة، يقول: ليس البر أن تصلوا، ولكن البر ما ثبت في

وأخرج الثعلبي، عن ابن عباس بسنتين ضعيفين أنها نزلت في اليهود. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله: ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى﴾ قال: اختاروا الضلالة على الهدى، والعذاب على المغفرة ﴿فما أصبرهم على النار﴾ قال: ما أجرامهم على عمل النار، وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن مجاهد في قوله: ﴿فما أصبرهم على النار﴾ قال: ما أعملهم بأعمال أهل النار. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر في قوله: ﴿فما أصبرهم على النار﴾ قال: والله ما لهم عليها من صبر، ولكن يقول ما أجرامهم على النار. وأخرج ابن جرير، عن قتادة ونحوه. وأخرج ابن جرير أيضاً عن السدي في الآية قال: هذا على وجه الاستقحام يقول: ما الذي أصبرهم على النار؟ وقوله: ﴿وإن الذين اختلفوا في الكتاب﴾ قال: هم: اليهود والنصارى ﴿لفي شقاق بعيد﴾ قال: في عداوة بعيدة.

﴿لَيْسَ إِلَهٌ إِلَّا أَنَا قُولُوا وَبُوعُكُمْ قِيلَ الشَّرِيقُ وَالْمَغْرِبُ وَلَكِنَّ إِلَهَ مَنْ أَمَرَ
بِأَنَّهُ وَيَأْمُرُ بِالْأَحْزَامِ وَالْمَلَكُوتِ وَالْكَتَبِ وَالْبَيْتِ وَمَا قَالَهُ عَلَى حُدُودِهِ
الشَّرَفُ وَالْيَسْبُوحُ وَالْمُسْتَكِينُ وَإِنَّ السَّيْلَ وَالسَّابِغِينَ فِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ
الصَّلَاةَ وَمَا الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَ بِهَدْيِهِمْ إِذَا عَمَلُوا وَالْعَبِيدُ فِي الْبَنَاءِ
وَالْمَعْرُومِينَ الْهَائِلِ أُولَئِكَ الَّذِينَ سَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾

قوله: ﴿ليس البر﴾ قرا حمزة، وحفص بالنصب على أنه خبر ليس، والاسم: ﴿أن تولوا﴾ وقرا الباقون بالرفع على أنه الاسم قيل: إن هذه الآية نزلت للرد على اليهود، والنصارى، لما اختلفوا الكلام في شأن القبلة عند تحويل رسول الله ﷺ إلى الكعبة، وقيل: إن سبب نزولها أنه سأل رسول الله ﷺ سائل، وسيأتي ذلك آخر البحث إن شاء الله. وقوله: ﴿قبل المشرق والمغرب﴾ قيل: أشار سبحانه بذكر المشرق إلى قبلة النصارى؛ لأنهم يستقبلون مطلع الشمس، وأشار بذكر المغرب إلى قبلة اليهود؛ لأنهم يستقبلون بيت المقدس، وهو: في جهة الغرب منهم إذ ذاك. وقوله: ﴿ولكن البر﴾ هو: اسم جامع للخير، وخبره محذوف تقديره: بر من آمن. قاله الفراء، وقطرب، والزعجا، وقيل إن التقدير: ولكن نور البر من آمن، ووجه هذا التقدير: الفرار عن الإخبار باسم العين عن اسم المعنى، ويجوز أن يكون البر بمعنى البار، وهو يطلق المصدر على اسم للفاعل كثيراً، ومنه في التنزيل: ﴿إن أصبح ماؤكم غوراً﴾ [الملك: 30] أي: غائراً، وهذا لاختيار أبي عبيدة. والمراد بالكتاب هنا الجنس، أو القرآن، والضمير في قوله: ﴿على حبه﴾ راجع إلى المال، وقيل: راجع إلى الإيتاء المملول عليه بقوله: ﴿وأتى المال﴾ وقيل: إنه راجع إلى الله سبحانه، أي: على حب الله، والمعنى على الأول: أنه أعطى المال، وهو يحبه، ويشح به، ومنه قوله تعالى: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ [آل عمران: 92] والمعنى على الثاني: أنه يحب إيتاء المال، وتطبيب به نفسه، والمعنى على الثالث: أنه أعطى من تضمنته الآية في

عاهدوا يعني فيما بينهم، وبين الناس. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه عن ابن مسعود في الآية قال: ﴿اللباساء﴾ الفقر ﴿والضراء﴾ السقم ﴿وحين لباس﴾ حين القتال. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة في قوله: ﴿اولئك الذين صدقوا﴾ قال: فعلوا ما نكر الله في هذه الآية، وأخرج ابن جرير، عن الربيع في قوله: ﴿اولئك الذين صدقوا﴾ قال: تكلموا بكلام الإيمان. فكانت حقيقة العمل صدقوا الله. قال: وكان الحسن يقول هذا كلام الإيمان، وحقيقته العمل، فإن لم يكن مع القول عمل، فلا شيء.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ فَمَا لَكُمُ بِالْحَرْمِ وَالْمَيْدِ بِالْمَيْدِ وَالْأَنْفِ بِالْأَنْفِ مَنْ عَنِ لَمْ يَنْجِبْهُ شَيْءٌ فَلْيَبِغْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاةً إِلَى يَوْمِ يَأْتِيَنَّكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رَحْمَةٌ مِمَّنْ أَعْتَدَ بَعْدَ ذَلِكَ فَمَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٤﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حُكْمٌ يَأْذِي الْأَلْبَابَ لَكُمْ تَنْتَوْنُ ﴿٦٥﴾

قوله: ﴿كتب﴾ معناه فرض، وأثبت، ومنه قول عمر بن أبي ربيعة:

كتب القتل والقتال علينا وعلى الغنائيات جز الذبول
وهذا إخبار من الله سبحانه لعباده بأنه شرع لهم ذلك، وقيل إن: ﴿كتب﴾ هنا إشارة إلى ما جرى به القلم في اللوح المحفوظ. و﴿القصاص﴾ أصله قص الاثر، أي: اتباعه، ومنه القاص؛ لأنه يتتبع الآثار، وقص الشعر اتباع أثره، فكان القاتل يسلك طريقاً من القتل، يقص أثره فيها، ومنه قوله تعالى: ﴿فارتدأ على آثارهما قصصاً﴾ [الكهف: 64] وقيل: إن القصاص مأخوذ من القص، وهو: القطع، يقال قصصت ما بينهما، أي: قطعته. وقد استدلل بهذه الآية القائلون بأن الحر لا يقتل بالعبد، وهم: الجمهور. وذهب أبو حنيفة، وأصحابه، والثوري، وابن أبي ليلى، وداود إلى أنه يقتل به. قال القرطبي: وروي ذلك عن علي، وابن مسعود، وبه قال سعيد بن المسيب، وإبراهيم النخعي، وقاتادة، والحكم بن عتيبة، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس﴾ [المائدة: 45] وأجاب الأولون عن هذا الاستدلال بأن قوله تعالى: ﴿الحر بالحر والعبد بالعبد﴾ مفسر لقوله تعالى: ﴿النفس بالنفس﴾ وقالوا أيضاً: إن قوله: ﴿وكتبنا عليهم فيها﴾ يفيد أن ذلك حكاية عما شرعه الله لبني إسرائيل في التوراة. ومن جملة ما استدلل به الآخرون قوله: ﴿المسلمون تتكافأ دماؤهم﴾، ويجب عنه بأنه مجمل، والآية مبينة، ولكنه يقال إن قوله تعالى: ﴿الحر بالحر، والعبد بالعبد﴾ إنما أفاد بمنطوقه أن الحر يقتل بالحر، والعبد يقتل بالعبد، وليس فيه ما يدل على أن الحر لا يقتل بالعبد إلا باعتبار المفهوم، فمن أخذ بمثل هذا المفهوم لزمه القول به هنا، والبحث في هذا محذور في علم الأصول. وقد استدلل بهذه الآية القائلون بأن المسلم يقتل بالكافر، وهم:

القلب من طاعة الله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة قال: نكر لنا أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن البر، فأنزل الله: ﴿ليس البر﴾ الآية. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، عن قتادة قال: كانت اليهود تصلي قبل المغرب، والنصارى قبل المشرق، فنزلت: ﴿ليس البر﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن أبي العالية مثله. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في سننه عن ابن مسعود في قوله: ﴿وأتى المال على حبه﴾ قال: يعطي، وهو صحيح شحيح يأمل العيش، ويخاف الفقر. وأخرج عنه مرفوعاً مثله، وأخرج البيهقي في الشعب عن المطلب: «أنه قيل: يا رسول ما أتى المال على حبه، فكلنا نحبه. قال رسول ﷺ: تؤتيه حين تؤتيه، ونفسك تحنك بطول العمر، والفقر». وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة في قوله: ﴿وأتى المال على حبه﴾ يعني على حب المال. وأخرج عنه أيضاً في قوله: ﴿ذوي القربى﴾ يعني قرابته. وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم ثنتان صدقة وصلة». أخرجه ابن أبي شيبة، وأحمد، والترمذي وحسنه، والنسائي، وابن ماجه، والحاكم، والبيهقي في سننه من حديث سلمان بن عامر الضبي. وفي الصحيحين، وغيرهما من حديث زينب امرأة ابن مسعود: «أنها سألت رسول الله ﷺ هل تجزي عنها من الصدقة النفقة على زوجها، وأيتام في حجرها؟ فقال: لك أجران: أجر الصدقة، وأجر القرابة». وأخرج الطبراني، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه من حديث أم كلثوم بنت عقبة أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أفضل الصدقة على ذي الرحم الكاشح». وأخرج أحمد، والدارمي، والطبراني من حديث حكيم بن حزام عن النبي ﷺ نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: ابن السبيل هو الضيف الذي ينزل بالمسلمين. وأخرج ابن جرير، عن مجاهد قال: هو الذي يمر بك، وهو مسافر، وأخرج ابن جرير، عن عكرمة في قوله: ﴿والسائلين﴾ قال: السائل الذي يسالك. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة في قوله: ﴿وفي الرقاب﴾ قال: يعني فك الرقاب. وأخرج أيضاً عنه في قوله: ﴿واقام الصلاة﴾ يعني وأتم الصلاة المكتوبة. ﴿وأتى الزكاة﴾ يعني الزكاة المفروضة وأخرج الترمذي، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن عدي، والدارقطني، وابن مردويه عن فاطمة بنت قيس قالت: قال رسول الله ﷺ: «في المال حق سوى الزكاة، ثم قرأ: ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم﴾ الآية». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن أبي العالية في قوله: ﴿والموفون بعهدهم﴾ قال: فمن أعطى عهد الله، ثم نقضه، فالله ينتقم منه، ومن أعطى نمة النبي ﷺ، ثم غدر بها، فالنبي ﷺ خصمه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة في قوله: ﴿والموفون بعهدهم إذا

ويبقى إثمه إلى عذاب الآخرة. وقال عمر بن عبد العزيز: أمره إلى الإمام يصنع فيه ما رأى. قوله: ﴿ولكم في القصص حياة﴾ أي: لكم في هذا الحكم الذي شرعه الله لكم حياة؛ لأن الرجل إذا علم أنه يقتل قصاصاً إذا قتل آخر كفّ عن القتل، وانزجر عن التسرع إليه، والوقوع فيه، فيكون ذلك بمنزلة الحياة للنفوس الإنسانية. وهذا نوع من البلاغة بليغ، وجنس من الفصاحة رفيع، فإنه جعل القصص الذي هو موت حياة باعتبار ما يؤول إليه من ارتداد الناس عن قتل بعضهم بعضاً، إبقاء على أنفسهم، واستدامة لحياتهم، وجعل هذا الخطاب موجهاً إلى أولي الألباب؛ لأنهم هم الذين ينظرون في العواقب، ويتحامون ما فيه الضرر الآجل، وأما من كان مصاباً بالحكم، والطيش، والخفة، فإنه لا ينظر عند سورة غضبه، وغليان مراحله طيشه إلى عاقبة، ولا يفكر في أمر مستقبل، كما قال بعض فناكهم:

ساغسل عني العار بالسيف جالباً علي قضاء الله ما كان جالباً
ثم علل سبحانه هذا الحكم الذي شرعه لعباده بقوله:
﴿لعلكم تتقون﴾ أي: تتحامون القتل بالمحافظة على القصص، فيكون ذلك سبباً للمتقوى، وقرأ أبو الجوزاء:
﴿ولكم في القصص حياة﴾ قيل: أراد بالقصص القرآن: أي لكم في كتاب الله الذي شرع فيه القصص حياة، أي: نجاة، وقيل: أراد حياة القلوب، وقيل: هو مصدر بمعنى القصص، والكل ضعيف، والقراءة به منكراً.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة قال: إن حيين من العرب اقتتلوا في الجاهلية قبل الإسلام بقليل، فكان بينهم قتل، وجراحات حتى قتلوا العبيد، والنساء، ولم يأخذ بعضهم من بعض حتى أسلموا، فكان أحد الحيين يتناول على الآخر في العدة، والأموال، فحلفوا أن لا يرضوا حتى يقتل بالعبد منا الحرّ منهم، وبالمراة منا الرجل منهم، فنزلت هذه الآية. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن الشعبي نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس قال: كانوا لا يقتلون الرجل بالمراة، ولكن يقتلون الرجل بالرجل، والمراة بالمراة، فأنزل الله: ﴿النفوس بالنفس﴾، فجعل الأحرار في القصص سواء فيما بينهم في العمد رجالهم، ونساءهم في العمد النفس، وفيما نون النفس، وجعل العبيد مستورين في العمد في النفس، وفيما نون النفس رجالهم، ونساءهم. وأخرج ابن جرير، وابن مروي، عن أبي مالك قال: كان بين حيين من الأنصار قتال كان لأحدهما على الآخر الطول، فكانهم طلبوا الفضل، فجاء النبي ﷺ ليصلح بينهم، فنزلت هذه الآية: ﴿الحرّ بالحرّ والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى﴾ قال ابن عباس: فسختها: ﴿النفوس بالنفس﴾، وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه عن ابن عباس: ﴿فمن عفي له﴾ قال: هو: العمد رضي أهله بالعفو. ﴿فاتباع بالمعروف﴾ أمر به الطالب ﴿وإداء إليه بإحسان﴾ من القابل، قال: يؤدي المطلوب بإحسان. ﴿ذلك

الكوفيون، والثوري، لأن الحرّ يتناول الكافر كما يتناول المسلم، وكذا العبد، والأنثى يتناولان الكافر كما يتناولان المسلم. واستدلوا أيضاً بقوله تعالى: ﴿إن النفس بالنفس﴾ لأن النفس تصدق على النفس الكافرة كما تصدق على النفس المسلمة. وذهب الجمهور إلى أنه لا يقتل المسلم بالکافر، واستدلوا بما ورد من السنة عن النبي ﷺ أنه لا يقتل مسلم بكافر، وهو مبين لما يرد في الآيتين، والبحث في هذا يطول. واستدل بهذه الآية القائلون بأن الذكر لا يقتل بالأنثى، وقرروا الدلالة على ذلك بمثل ما سبق إلا إذا سلم أولياء المرأة الزيادة على دينها من دية الرجل. وبه قال مالك، والشافعي، وأحمد، وإسحاق، والثوري، وأبو ثور. وذهب الجمهور إلى أنه يقتل الرجل بالمراة، ولا زيادة، وهو الحق. وقد بسطنا البحث في شرح المنتقى، فليرجع إليه. قوله: ﴿فمن عفي له من أخيه شيء﴾ «من» هنا عبارة عن القتال. والمراد بالأخ المقتول، أو الولي، والشيء: عبارة عن الدم، والمعنى: أن القتال، أو الجاني إذا عفي له من جهة المجني عليه، أو الولي بمأصله منه على أن يأخذ منه شيئاً من الدية، أو الأرض، فليتبع المجني عليه الولي من عليه الدم فيما يأخذه منه من ذلك اتباعاً بالمعروف، وليؤد الجاني ما لزمه من الدية، أو الأرض إلى المجني عليه، أو إلى الولي أداء بإحسان، وقيل إن: «من» عبارة عن الولي، والأخ يرد به القتال، والشيء: الدية، والمعنى أن الولي إذا جنح إلى العفو عن القصص إلى مقابل الدية، فإن القتال مخير بين أن يعطيها، أو يسلم نفسه للقصص كما روي عن مالك أنه يثبت الخيار للقاتل في ذلك، وذهب من عده إلى أنه لا يخير، بل إذا رضى الأولياء بالدية، فلا خيار للقاتل بل يلزمه تسليمها، وقيل معنى: «عفى» بذل. أي: من بذل له شيء من الدية، فليقبل، وليتبع بالمعروف، وقيل إن المراد بذلك: أن من فضل له من الطائفتين على الأخرى شيء من البيات، فيكون عفي بمعنى فضل، وعلى جميع التقادير، فتذكير شيء للتقليل، فيتناول العفو عن الشيء اليسير من الدية، والعفو الصادر عن فرد من أفراد الورثة. وقوله: ﴿فاتباع﴾ مرتفع بفعل محذوف، أي: فليكن منه اتباع، أو على أنه خبر مبتدأ محذوف، أي: فالأمر اتباع، وكذا قوله: ﴿وإداء إليه بإحسان﴾ وقوله: ﴿ذلك تخفيف﴾ إشارة إلى العفو، والدية أي: أن الله شرع لهذه الأمة العفو من غير عوض، أو يعوض، ولم يضيق عليهم كما ضيق على اليهود، فإنه أوجب عليهم القصص، ولا عفو، وكما ضيق على النصارى، فإنه أوجب عليهم العفو ولا دية. قوله: ﴿فمن اعتدى بعد ذلك﴾ أي: بعد التخفيف، نحو أن يأخذ الدية، ثم يقتل القتال، أو يعفو، ثم يستقص. وقد اختلف أهل العلم فيمن قتل القتال بعد أخذ الدية. فقال جماعة منهم مالك، والشافعي: إنه كمن قتل ابتداء، إن شاء الولي قتله، وإن شاء عفا عنه. وقال قتادة، وعكرمة، والسدي، وغيرهم: عذابه أن يقتل البتة، ولا يمكن الحاكم الولي من العفو. وقال الحسن: عذابه أن يرد الدية فقط،

عليه أئمة العربية، وشرط سبحانه ما كتبه من الوصية بأن يترك الموصي خيراً. واختلف في جواب هذا الشرط ما هو؟ فروي عن الأخفش، وجهان:

أحدهما أن التقدير: إن ترك خيراً، فالوصية، ثم حذفت الفاء كما قال الشاعر:

من يفعل الحسنات الله يشكرها والشر بالشر عند الله مثلاًن
والثاني: أن جوابه مقتر قبله، أي: كتب الوصية للوالدين، والأقربين إن ترك خيراً. واختلف أهل العلم في مقدار الخير، فقيل ما زاد على سبعمائة دينار، وقيل: ألف دينار، وقيل: ما زاد على خمسمائة دينار. والوصية في الأصل: عبارة عن الأمر بالشيء، والعهد به في الحياة، وبعد الموت، وهي هنا: عبارة عن الأمر بالشيء لبعد الموت. وقد اتفق أهل العلم على وجوب الوصية على من عليه دين، أو عنده وبيعة، أو نحوها. وأما من لم يكن كذلك، فذهب أكثرهم إلى أنها غير واجبة عليه سواء كان فقيراً، أو غنياً، وقالت طائفة: إنها واجبة، ولم يبين الله سبحانه ها هنا القدر الذي كتب الوصية به للوالدين، والأقربين، فقيل: الخمس، وقيل: الربع، وقيل: الثلث، وقد اختلف أهل العلم في هذه الآية هل هي محكمة، أو منسوخة؟ فذهب جماعة إلى أنها محكمة، قالوا: وهي، وإن كانت عامة فمعناها الخصوص. والمراد بها من الوالدين من لا يرث كالأبوين الكافرين، ومن هو في الرق، ومن الأقربين من عدا الورثة منهم. قال ابن المنذر: أجمع كل من نحفظ عنه من أهل العلم على أن الوصية للوالدين الذين لا يرثان، والأقرباء الذين لا يرثون جائزة. وقال كثير من أهل العلم: إنها منسوخة بآية المواريث مع قوله ﷺ: «لا وصية لوارث»، وهو حديث صححه بعض أهل الحديث، وروي من غير وجه. وقال بعض أهل العلم: إنه نسخ الوجوب، ونفى الندب، وروي عن الشعبي، والنخعي، ومالك، قوله: «بالمعروف»، أي: العدل لا وكس فيه، ولا شطط. وقد أذن الله للميت بالثلث بون ما زاد عليه. وقوله: «حقاً»، مصدر معناه الثبوت، والوجوب. قوله: «فمن ينكح» هذا الضمير عائد إلى الإيصاء المفهوم من الوصية، وكذلك الضمير في قوله: «سمعه»، والتبديل: التغيير، والضمير في قوله: «فإنما إثم» راجع إلى التبديل المفهوم من قوله: «ينكح» وهذا وعيد لمن غير الوصية المطابقة للحق التي لا جنف فيها، ولا مضارة، وأنه يبوؤ بالإثم، وليس على الموصي من ذلك شيء، فقد تخلص مما كان عليه بالوصية به. قال القرطبي: ولا خلاف أنه إذا أوصى بما لا يجوز، مثل أن يوصي بخمر، أو خنزير، أو شيء من المعاصي أنه يجوز تبديله، ولا يجوز إمضائه كما لا يجوز إمضاء ما زاد على الثلث. قال أبو عمر: انتهى. والجنف: المجاوزة، من جنف يجنف: إذا جاوز، قاله النحاس، وقيل: الجنف: الميل، ومنه قول الأعشى:

تجانف عن حجر اليمامة يافتي وما قصت من أهلها لسوائكا
قال في الصحاح: الجنف الميل، وكذا في الكشاف. وقال لبيد:

تخفيف من ربكم ورحمة، مما كان على بني إسرائيل. وأخرج نحوه ابن أبي حاتم، عنه من وجه آخر. وأخرج البخاري، وغيره عن ابن عباس قال: كان في بني إسرائيل القصاص، ولم تكن الدية فيهم، فقال الله لهذه الأمة: «كتب عليكم القصاص في القتلى» إلى قوله: «فمن عفي له من أخيه شيء»، فالعفو أن تقبل الدية في العمد «فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة» مما كتب على من كان قبلكم «فمن اعتدى بعد ذلك» قيل: بعد قبول الدية «فله عذاب أليم» وأخرج ابن جرير، عن قتادة قال: كان أهل التوراة إنما هو القصاص، أو العفو ليس بينهما أرش، وكان أهل الإنجيل إنما هو العفو أمروا به، وجعل الله لهذه الأمة القتل، والعفو، والدية إن شأوا أحلها لهم، ولم تكن لأمة قبلهم. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وأحمد، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن أبي شريح الخزاعي أن النبي ﷺ قال: «من أصيب بقتل، أو خيل، فإنه يختار إحدى ثلاث: إما أن يقتص، وإما أن يعفو، وإما أن يأخذ الدية، فإن أراد الرابعة، فخذوا على يديه، ومن اعتدى بعد ذلك، فله نار جهنم خالداً فيها أبداً». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة أنه إذا قتل بعد أخذ الدية، فله عذاب عظيم، قال: فعليه القتل لا تقبل منه الدية. قال: وذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال: «لا أعافي رجلاً قتل بعد أخذ الدية»، وأخرج سمويه في فوائده، عن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ، فنكر مثله. وأخرج ابن أبي شيبة، عن عكرمة أنه قال: يقتل. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، عن قتادة في قوله: «ولكم في القصاص حياة» قال: جعل الله في القصاص حياة، ونكالا، وعظة إذا نكره للظالم المعتدي كف عن القتل. وأخرج ابن جرير، عن ابن زيد في قوله: «لعلكم تتقون» قال: لعلكم تتقي أن تقتله، فتقتل به. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله: «يا أولي الألباب» قال: من كان له لب ينكر القصاص، فيحجزه خوف القصاص عن القتل «لعلكم تتقون» قال: لكي تتقوا الدماء مخافة القصاص.

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقَّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٦﴾ فَمَنْ بَدَّلَهُ بِمَا يَمُرُّ بِكَأَنَّهُ إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يَبْذُلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ يَجْعَلُ لِكُلِّ شَيْءٍ عَذَابًا وَسِعًا ﴿١٥٧﴾ فَاسْلُحْ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِذْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥٨﴾

قد تقدم معنى: «كتب» قريباً، وحضور الموت: حضور أسبابه، وظهور علاماته، ومنه قول عنتره:

وإن الموت طوع يدي إذا ما وصلت بناتها بالهندوانى
وقال جرير:

إنما الموت الذي حدثت عنه فليس لهارب مني نجاة
وإنما لم يؤث الفعل المسند إلى الوصية، وهو: «كتب» لوجود الفاصل بينهما، وقيل: لأنها بمعنى الإيصاء، وقد روي جواز إسناد ما لا تانيث فيه إلى المؤث مع عدم الفصل. وقد حكى سيبويه: قام امرأة، وهو خلاف ما أطبق

قوله: ﴿جنفا﴾ يعني: إثمًا ﴿فأصلح بينهم﴾ قال: إذا أخطأ الميت في وصيته، أو حاف فيها، فليس على الأولياء حرج أن يربوا خطاه إلى الصواب. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير نحوه؛ لكنه فسر الجنف بالميل. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿جنفا أو إثمًا﴾ قال: خطأ، أو عمداً. وأخرج سعيد بن منصور، والبيهقي في سننه عنه قال: الجنف في الوصية، والإضرار فيها من الكباثر.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لِمَ تَكُونُوا أَتَاكُمْ مَعْرِضَاتُ مَن كَانَتْ وَرَثَةً لَّكُمْ عَلَى سَفَرٍ مِّنْهُ يَوْمَ يُقَالُ لِلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ آلِهِمْ أَقْرَبُونَ ۚ وَلَٰكِن لَّا تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٦٠﴾

قد تقدم معنى: ﴿كتب﴾ ولا خلاف بين المسلمين أجمعين أن صوم رمضان فريضة افترضها الله سبحانه على هذه الأمة. والصيام أصله في اللغة: الإمساك، وترك التنقل من حال إلى حال، ويقال: للصمت صوم؛ لأنه إمساك، عن الكلام، ومنه: ﴿إني نذرت للرحمن صوما﴾ [مريم: 26] أي: إمساكاً عن الكلام، ومنه قول النابغة:

خيل صيام وخيل غير صائمة تحت العجاج وخيل تملك للجماء
أي: خيل ممسكة عن الجري، والحركة. وهو في الشرع: الإمساك عن المفطرات مع اقتران النية به من طلوع الفجر إلى غروب الشمس. وقوله: ﴿كما كتب﴾ أي: صوماً كما كتب على أن الكاف في موضع نصب على النعت، أو كتب عليكم الصيام مشبهاً ما كتب على أنه في محل نصب على الحال. وقال بعض النحاة: إن الكاف في موضع رفع نعتاً للصيام، وهو ضعيف؛ لأن الصيام معرّف باللام، والضمير المستتر في قوله: ﴿كما كتب﴾ راجع إلى ما. واختلف المفسرون في وجه التشبيه ما هو، فقيل: هو قدر الصوم، ووقته، فإن الله كتب على اليهود، والنصارى صوم رمضان، فغيروا، وقيل: هو الوجوب، فإن الله أوجب على الأمم الصيام، وقيل: هو الصفة. أي: ترك الأكل، والشرب، ونحوهما في وقت، فعلى الأول معناه: أن الله كتب على هذه الأمة صوم رمضان كما كتبه على الذين من قبلهم، وعلى الثاني: أن الله أوجب على هذه الأمة الصيام كما أوجب على الذين من قبلهم، وعلى الثالث: أن الله سبحانه أوجب على هذه الأمة الإمساك عن المفطرات كما أوجب على الذين من قبلهم. وقوله تعالى: ﴿لعلكم تتقون﴾ بالمحافظة عليها، وقيل: تتقون المعاصي بسبب هذه العبادة؛ لأنها تكسر الشهوة، وتضعف نواحي المعاصي، كما ورد في الحديث أنه جُنَّة، وأنه وجاء. وقوله: ﴿أياماً﴾ منتصب على أنه مفعول ثانٍ لقوله: ﴿كتب﴾ قاله الفراء: وقيل إنه منتصب على أنه ظرف، أي: كتب عليكم الصيام في أيام. وقوله: ﴿معدودات﴾ أي: معينات بعدد معلوم، ويحتمل أن يكون في هذا الجمع لكونه من جموع القلة

إني أمرؤ منعت أربعة عامر ضيمي وقد جنفت عليّ خصومي وقوله: ﴿فأصلح بينهم﴾ أي: أصلح ما وقع بين الورثة من الشقاق، والاضطراب بسبب الوصية بإبطال ما فيه ضرار، ومخالفة لما شرعه الله، وإثبات ما هو حق كالوصية في قرينة لغير وارث، والضمير في قوله: ﴿بينهم﴾ راجع إلى الورثة، وإن لم يتقدم لهم نكر؛ لأنه قد عرف أنهم المرادون من السياق، وقيل راجع إلى الموصي لهم، وهم الأبوان والقرابة.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿إن ترك خيراً﴾ قال: مالا. وأخرج ابن جرير، عن مجاهد نحوه، وأخرج عبد بن حميد، عن ابن عباس قال: من لم يترك ستين ديناراً لم يترك خيراً. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم، والبيهقي في سننه عن عروة، أن علي ابن أبي طالب دخل على مولى لهم في الموت، وله سبع مائة درهم، أو ستمائة درهم فقال: ألا أوصي؟ قال: لا؟ إنما قال الله: ﴿إن ترك خيراً﴾ وليس لك كثير مال فدع مالك لورثتك. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، والبيهقي، عن عائشة، أن رجلاً قال لها: أريد أن أوصي قالت: كم مالك؟ قال: ثلاثة آلاف، قالت: كم عيالك؟ قال: أربعة، قالت: قال الله: ﴿إن ترك خيراً﴾ وإن هذا شيء يسير، فاتركه لعيالك، فهو أفضل. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، والبيهقي عن ابن عباس قال: إذا ترك الميت سبع مائة درهم، فلا يوصي. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، عن الزهري، قال: جعل الله الوصية حقاً مما قل منه، ومما كثر، وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، عن قتادة قال: قال رسول الله ﷺ، ونكر حديثاً، وفيه: «انظر قرابتك الذين يحتاجون، ولا يرثون، فأوص لهم من مالك بالمعروف» وأخرج أيضاً، عن طاوس قال: من أوصى لقوم، وسماهم، وترك نوي قرابته، محتاجين انتزعت منهم، وردت على قرابته، وأخرج سعيد بن منصور، وأحمد، وعبد بن حميد، وأبو داود في النسخ، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه، عن محمد بن بشير، عن ابن عباس قال: نسخت هذه الآية. وأخرج عنه من وجه آخر أبو داود في ناسخه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم أن هذه الآية نسخها قوله تعالى: ﴿للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون﴾ [النساء: 7] الآية. وأخرج عنه من وجه آخر ابن جرير، وابن أبي حاتم أنها منسوخة بآية الميراث. وأخرج عنه أبو داود في سننه، والبيهقي مثله. وأخرج ابن جرير عنه أنه قال: في الآية نسخ من يرث، ولم ينسخ الأقربين الذين لا يرثون. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي عن ابن عمر أنه قال: هذه الآية نسختها آية الميراث. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿فمن بئله﴾ الآية، قال: وقد وقع أجر الموصي على الله، وبرئ من إثمه، وقال في

إشارة إلى تقليل الأيام. وقوله: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا﴾ قيل: للمريض حالتان: إن كان لا يطيق الصوم كان الإفطار عزيمة، وإن كان يطيقه مع تضرر، ومشقة كان رخصة، وبهذا قال الجمهور وقوله: ﴿عَلَى سَفَرٍ﴾ اختلف أهل العلم في السفر المبيح للإفطار، فقليل مسافة قصر الصلاة، والخلاف في قدرها معروف، وبه قال الجمهور، وقال غيرهم بمقايير لا دليل عليها. والحق أن ما صدق عليه مسمى السفر، فهو الذي يباح عنده الفطر، وهكذا ما صدق عليه مسمى المرض، فهو الذي يباح عنده الفطر. وقد وقع الإجماع على الفطر في سفر الطاعة. واختلفوا في الأسفار المباحة، والحق أن الرخصة ثابتة فيه، وكذا اختلفوا في سفر المعصية. وقوله: ﴿فَعِدَّةٌ﴾ أي: فعليه عدة، أو فالحكم عدة، أو فالواجب عدة، والعدة فعلة من العدد، وهو بمعنى: المعبود. وقوله: ﴿مَنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ قال سيبويه: ولم ينصرف؛ لأنه معول به عن آخر؛ لأن سبيل هذا الباب أن يأتي بالالف واللام، وقال الكسائي: هو معول به عن آخر، وقيل: إنه جمع أخرى، وليس في الآية ما يدل على وجوب التتابع في القضاء. قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يَطِيقُونَهُ﴾ قراءة الجمهور بكسر الطاء، وسكون الياء، وأصله يطوقونه نقلت الكسرة إلى الطاء، وانقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها. وقرأ حميد على الأصل من غير إعلال. وقرأ ابن عباس بفتح الطاء مخففة، وتشديد الواو أي: يكلفونه. وروى ابن الأنباري، عن ابن عباس: يطيعونه، بفتح الياء، وتشديد الطاء، والياء مفتوحتين بمعنى: يطيقونه. وروى عن عائشة، وابن عباس، وعمرو بن دينار، وطاوس أنهم قرؤوا «يطيقونه» بفتح الياء، وتشديد الطاء مفتوحة. وقرأ أهل المدينة، والشام: «فنية طعام» مضافاً. وقرؤوا أيضاً: «مساكين» وقرأ ابن عباس: «طعام مسكين» وهي قراءة أبي عمرو، وعاصم، وحزمة، والكسائي. وقد اختلف أهل العلم في هذه الآية، هل هي: محكمة، أو منسوخة، فقيل: إنها منسوخة، وإنما كانت رخصة عند ابتداء فرض الصيام؛ لأنه شق عليهم، فكان من أطعم كل يوم مسكيناً ترك الصوم، وهو يطيقه، ثم نسخ ذلك، وهذا قول الجمهور. وروى عن بعض أهل العلم، أنها لم تنسخ، وإنما رخصة للشيوخ، والعجائز خاصة إذا كانوا لا يطيقون الصيام إلا بمشقة، وهذا يناسب قراءة التشديد، أي: يكلفونه كما من. والناسخ لهذه الآية عند الجمهور قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: 185]. وقد اختلفوا في مقدار الغنية، فقيل: كل يوم صاع من غير البر، ونصف صاع منه، وقيل: مد فقط. وقوله: ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾ قال ابن شهاب: معناه: من أراد الإطعام مع الصوم. وقال مجاهد معناه: من زاد في الإطعام على المد؛ وقيل: من أطعم مع المسكين مسكيناً آخر. وقرأ عيسى بن عمرو، ويحيى بن وثاب، وحزمة، والكسائي: «يطوِّع» مشدداً مع جزم الفعل على معنى يتطوَّع، وقرأ الباقر بتخفيف

الطاء على أنه فعل ماضٍ. وقوله: ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾ معناه: أن الصيام خير لهم من الإفطار مع الغنية، وكان هذا قبل النسخ، وقيل معناه: وأن تصوموا في السفر، والمرض غير الشاق.

وقد أخرج أحمد، وأبو داود، وابن جرير، وابن المنذر، وابن حبان، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه، عن معاذ بن جبل قال: أُحِيلَت الصلاة ثلاثة أحوال، وأحيل الصيام ثلاثة أحوال، فنكر أحوال الصلاة، ثم قال: وأما أحوال الصيام، فإن رسول الله ﷺ قدم المدينة، فجعل يصوم من كل شهر ثلاثة أيام، وصام عاشوراء، ثم إن الله سبحانه فرض عليه الصيام، وأنزل عليه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ إلى قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يَطِيقُونَهُ فَنِيَّةً طَعَامَ مَسْكِينٍ﴾ فكان من شاء صام، ومن شاء أطعم مسكيناً، فلجأ ذلك عنه، ثم إن الله أنزل الآية الأخرى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: 185] فأنشأ الله صيامه على الصحيح المقيم، ورخص فيه للمريض، والمسافر، وثبت الإطعام للكبير الذي لا يستطيع الصيام، ثم نكر تمام الحديث. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ قال: يعني بذلك أهل الكتاب. وأخرج البخاري في تاريخه، والطبراني، عن دغغل بن حنظلة، عن النبي ﷺ قال: «كان على النصارى صوم شهر رمضان، فمرض ملكهم، فقالوا: لئن شفاه الله لنزدين عشرة، ثم كان آخر، فاكل لحماً، فاجتمع فوه، فقال: لئن شفاه الله ليزيدن سبعة، ثم كان عليهم ملك آخر، فقال: ما ندع من هذه الثلاثة الأيام شيئاً أن نتمها، ونجعل صومنا في الربيع، ففعل، فصارت خمسين يوماً، وأخرج ابن جرير، عن السدي، في قوله: ﴿لِعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ قال: تتقون من الطعام، والشراب، والنساء مثل ما اتقوا. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس نحو ما سبق، عن معاذ. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «صيام رمضان كتبه الله على الأمم قبلكم». وأخرج البخاري، ومسلم عن عائشة قالت: كان عاشوراء صياماً، فلما أنزل رمضان كان من شاء صام، ومن شاء أفطر. وأخرج عبد بن حميد أن ابن عباس قال: إن قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يَطِيقُونَهُ﴾ قد نسخت. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مروي عنه نحو ذلك، وزاد أن الناسخ لها قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ﴾ الآية. وأخرج نحو ذلك عنه أبو داود في ناسخه. وأخرج نحوه عنه أيضاً سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وأبو داود، وابن جرير، وابن المنذر، وغيرهم. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما من حديث سلمة بن الأكوع قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يَطِيقُونَهُ فَنِيَّةً طَعَامَ مَسْكِينٍ﴾ كان من شاء صام، ومن شاء أن يفطر ويفتي فعل، حتى نزلت هذه الآية بعدها فنسختها: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ﴾. وأخرج البخاري، عن

النحاس، وقال: إنه منصوب على الإغراء. وقال الأخفش: إنه نصب على الظرف، ومنع الصرف للالف، والنون الزائدتين. قوله: ﴿انزل فيه القرآن﴾ قيل: أنزل من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا، ثم كان جبريل ينزل به نجماً نجماً. وقيل: أنزل فيه أوله، وقيل: أنزل في شأنه القرآن، وهذه الآية أعم من قوله تعالى: ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾ [القدر: 1]. وقوله: ﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة﴾ [الدخان: 3] يعني: ليلة القدر. والقرآن اسم لكلام الله تعالى، وهو بمعني المقروء كالمشروب سمي شراباً، والمكتوب سمي كتاباً، وقيل: هو مصدر قرأ يقرأ، ومنه قول الشاعر:

ضحوا بأشوط عنوان السجود به يقطع الليل تسبيحاً وقرأنا
أي: قراءة، ومنه قوله تعالى: ﴿وقرآن الفجر﴾ [الإسراء: 78] أي: قراءة الفجر. وقوله: ﴿هدى للناس﴾ منتصب على الحال أي: هادياً لهم. وقوله: ﴿وبينات من الهدى﴾ من عطف الخاص على العام إظهاراً لشرف المعطوف بإفراده بالذكر؛ لأن القرآن يشمل محكمه، ومتشابهه، والبينات تختص بالحكم منه. والفرقان: ما فرق بين الحق، والباطل، أي: فصل. قوله: ﴿من شهد منكم الشهر﴾ أي: حضر، ولم يكن في سفر بل كان مقيماً، والشهر منتصب على أنه ظرف، ولا يصح أن يكون مفعولاً به. قال جماعة من السلف، والخلف: إن من أنكره شهر رمضان مقيماً غير مسافر لزمه صيامه، سافر بعد ذلك، أو أقام استدلالاً بهذه الآية. وقال الجمهور: إنه إذا سافر أظفر، لأن معنى الآية: إن حضر الشهر من أوله إلى آخره لا إذا حضر بعضه، وسافر، فإنه لا يتحتم عليه إلا صوم ما حضره، وهذا هو الحق، وعليه يلتز الأئمة الصحيحة من السنة. وقد كان يخرج ﷺ في رمضان، فيفطر. وقوله: ﴿فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر﴾ قد تقدم تفسيره. وقوله: ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ فيه أن هذا مقصد من مقاصد الرب سبحانه، ومراد من مراداته في جميع أمور الدين، ومثله قوله تعالى: ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ [الحج: 78] وقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه كان يرشد إلى التيسير، وينهي عن التعسير كقوله ﷺ: «يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا» وهو في الصحيح. واليسر السهل الذي لا عسر فيه. وقوله: ﴿ولتكملا العدة﴾ الظاهر أنه معطوف على قوله: ﴿يريد الله بكم اليسر﴾ أي: يريد بكم اليسر، ويريد إكمالكم للعدة، وتكبيركم، وقيل: إنه متعلق بمحذوف تقديره: رخص لكم هذه الرخصة لتكملا العدة، وشرع لكم الصوم لمن شهد الشهر لتكملا العدة. وقد ذهب إلى الأول البصريون قالوا: والتقدير: يريد لأن تكملوا العدة، ومثله قول كثير بن صخر:

أريد لأنسى نكراهي فكانما تمثلي لي ليلاً بكل سبيل
وذهب الكوفيون إلى الثاني، وقيل: الواو مقحمة، وقيل: إن هذه اللام لام الأمر، والواو لعطف الجملة التي بعدها على الجملة التي قبلها. وقال في الكشاف: إن قوله: ﴿لتكملا

ابن أبي ليلى قال: حدثنا أصحاب محمد، فنكر نحوه. وأخرج ابن جرير، عن علي بن أبي طالب في قوله: ﴿وعلى الذين يطيقونه﴾ قال: الشيخ الكبير الذي لا يستطيع الصوم، فيفطر، ويطلع مكان كل يوم مسكيناً. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والدارقطني، والبيهقي، أن أنس بن مالك ضعف عن الصوم عاماً قبل موته، فصنع جفنة من ثريد ودعا ثلاثين مسكيناً، فأطعمهم. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، والدارقطني وصححه، عن ابن عباس أنه قال لأم ولد له حامل، أو مرضعة: أنت بمنزلة الذين لا يطيقون الصيام، عليك الطعام لا قضاء عليك. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، والدارقطني، عن ابن عمر أن إحدى بناته أرسلت تسأل، عن صوم رمضان، وهي حامل، قال: تفطر، وتطعم كل يوم مسكيناً، وقد روي نحو هذا، عن جماعة من التابعين. وأخرج عبد بن حميد، عن عكرمة في قوله: ﴿فمن تطوع خيراً﴾ قال: أطعم مسكينين. وأخرج عبد بن حميد، عن طاوس في قوله: ﴿فمن تطوع خيراً﴾ قال: إطعام مساكين. وأخرج ابن جرير، عن ابن شهاب في قوله: ﴿وأن تصوموا خير لكم﴾ أي: أن الصوم خير لكم من الفدية. وقد ورد في فضل الصوم أحاديث كثيرة جداً.

شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن نَّهَىٰ عَنْكَ شَيْئًا فَلْيَمْسَهُ وَمَن كَانَ عَلَىٰ صِرَاطٍ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَمَا كَانَ عَلَىٰ حَتْمٍ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلَٰكُمُ الْيُسْرُ وَأَلْغَيْنَا اللَّحْنَ

تَشْكُرُونَ ﴿٧٥﴾

﴿رمضان﴾ مأخوذ من رمض الصائم يرمض: إذا احترق جوفه من شدة العطش، والرمضاء معدود: شدة الحر، ومنه الحديث الثابت في الصحيح: «صلاة الأوابين إذا رمضت الفصال» أي: أحرقت الرمضاء أجوافها. قال الجوهري: وشهر رمضان يجمع على رمضان، وأرمضاء - يقال: إنهم لما نقلوا أسماء الشهور، عن اللغة القديمة سموها بالأزمنة التي وقعت فيها، فوافق هذا الشهر أيام الحر، فسمي بذلك، وقيل: إنما سمي رمضان؛ لأنه يرمض الذنوب، أي: يحرقها بالأعمال الصالحة. وقال الماوردي: إن اسمه في الجاهلية نائق، وأنشد المفضل:

وفي نائق أجلت لدى حومة الوغا وولت على الأبلار فرسلان خنمعا
ولما سموه بذلك؛ لأنه كان ينتقم لشئته عليهم، وشهر مرتفع في قراءة الجماعة على أنه مبتدأ خبره: ﴿الذي أنزل فيه القرآن﴾ أو على أنه خبر لمبتدأ محذوف، أي: المفروض عليكم صومه شهر رمضان، ويجوز أن يكون بدلاً من الصيام المذكور في قوله تعالى: ﴿كتب عليكم الصيام﴾ [البقرة: 183]. وقرأ مجاهد، وشهر بن حوشب بنصب الشهر، ورواه هارون الأعور، عن أبي عمرو، وهو منتصب بتقدير الزموا، أو صوموا. قال الكسائي، والفراء: إنه منصوب بتقدير فعل «كتب عليكم الصيام وأن تصوموا» وأنكر ذلك

عن ابن عباس قال: نزل القرآن جملة لأربعة وعشرين من رمضان، فوضع في بيت العزة في السماء الدنيا، فجعل جبريل ينزله على رسول الله ﷺ ترتيلاً. وأخرج ابن جرير، عنه أنه قال: «ليلة القدر هي الليلة المباركة، وهي في رمضان أنزل القرآن جملة واحدة من الذكر إلى البيت المعمور». وأخرج ابن المنذر، عن ابن جريج في قوله: «هدى للناس» قال: يهتدون به «وبينات من الهدى» قال: فيه الحلال، والحرام، والحدود. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن ابن عباس في قوله: «فمن شهد لكم الشهر فليصمه» قال: هو إهماله بالدار. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن علي قال: من أدرك رمضان وهو مقيم، ثم سافر، فقد لزمه الصوم؛ لأن الله يقول: «فمن شهد منكم الشهر فليصمه». وأخرج سعيد بن منصور، عن ابن عمر نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي، عن ابن عباس في قوله: «يريد الله بكم اليسر» قال: اليسر الإفطار في السفر، والعسر: الصوم في السفر. وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع في قوله: «ولتكملوا العدة» قال: عدة شهر رمضان. وأخرج ابن جرير، عن الضحك: أنه قال: عدة ما أقطر المريض في السفر. وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «صوموا لرؤيته، وأفطروا لرؤيته، فإن غم عليكم، فأكملوا العدة ثلاثين يوماً». وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس قال: حق على الصائمين إذا نظروا إلى شهر شوال أن يكبروا الله حتى يفرغوا من عيدهم؛ لأن الله يقول: «ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم». وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، عن ابن مسعود أنه كان يكبر: الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر الله أكبر والله الحمد. وأخرج ابن أبي شيبة، والبيهقي في سننه عن ابن عباس، أنه كان يكبر: الله أكبر كبيراً، الله أكبر كبيراً، الله أكبر، والله الحمد وأجل، الله أكبر على ما هداكم.

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي أَجِبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَا
لَيْسَ جَبْرًا لِي وَلَئِنْ شِئْتُ لَأَمْلَأَنَّ الْفُجُورَ

قوله: «وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي» يحتمل أن السؤال عن القرب، والبعد كما يدل عليه قوله: «فإني قريب» ويحتمل أن السؤال عن إجابة الدعاء كما يدل على ذلك قوله: «لجيب دعوة الداع» ويحتمل أن السؤال عما هو أعم من ذلك، وهذا هو الظاهر مع قطع النظر عن السبب الذي سيأتي بيانه. وقوله: «فإني قريب» قيل: بالإجابة، وقيل: بالعلم، وقيل: بالإنعام، وقيل: في الكشف؛ إنه تمثيل لحاله في سهولة إجابته لمن دعاه، وسرعة إنجابه حاجة من سأله بمن قرب مكانه، فإذا دعي أسرع تلبية. ومعنى الإجابة هو: معنى ما في قوله تعالى: «ادعوني أستجب لكم» [غافر: 60] وقيل: معناه: أقبل عبادة من عياني بالدعاء لما ثبت عنه ﷺ من أن الدعاء هو: العبادة، كما أخرجه أبو داود، وغيره من حديث النعمان بن بشير، والظاهر أن الإجابة هنا هي باقية على معناها اللغوي، وكون الدعاء من

العدة: علة للأمر بمراعاة العدة «ولتكبروا» علة ما علم من كيفية القضاء، والخروج عن عهدة الفطر «ولعلكم تشكرون» علة الترخيص، والتيسير، والمراد بالتكبير هنا: هو قول القائل: الله أكبر. قال الجمهور ومعناه: الحض على التكبير في آخر رمضان. وقد وقع الخلاف في وقته، فروي عن بعض السلف أنهم كانوا يكبرون ليلة الفطر، وقيل: إذا رأوا هلال شوال كبروا إلى انقضاء الخطبة، وقيل: إلى خروج الإمام، وقيل: هو التكبير يوم الفطر. قال مالك: هو من حين يخرج من داره إلى أن يخرج الإمام، وبه قال الشافعي. وقال أبو حنيفة: يكبر في الأضحية، ولا يكبر في الفطر. وقوله: «ولعلكم تشكرون» قد تقدم تفسيره.

وقد أخرج أبو حاتم، وأبو الشيخ، وابن عدي، والبيهقي في سننه، عن أبي هريرة مرفوعاً، وموقوفاً: «لا تقولوا رمضان، فإن رمضان اسم من أسماء الله تعالى، ولكن قولوا شهر رمضان». وقد ثبت، عن النبي ﷺ أنه قال: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه». وثبت عنه أنه قال: «من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه». وثبت عنه أنه قال: «شهرنا عيد لا ينقصان: رمضان، وذو الحجة» وقال: إذا نخل رمضان فتحت أبواب الجنة، وهذا كله في الصحيح. وثبت، عنه في أحاديث كثيرة غير هذه أنه كان يقول: رمضان بدون ذكر الشهر. وأخرج ابن مردويه: والأصبهاني في الترغيب: عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما سمي رمضان؛ لأن رمضان يرمض الذنوب» وأخرج أيضاً، عن عائشة مرفوعاً نحوه. وأخرج ابن عساکر في تاريخه عن ابن عمر نحوه. وقد ورد في فضل رمضان أحاديث كثيرة، وأخرج أحمد، وابن جرير، ومحمد بن نصر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والبيهقي في الشعب عن واثلة بن الأسقع أن رسول الله ﷺ قال: «أنزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان، وأنزل الزبور لثمانين عشرة خلت من رمضان، وأنزل الله القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان». وأخرج أبو يعلى، وابن مردويه عن جابر مثله، لكنه قال: «وأنزل الزبور لاثني عشر» وزاد: «وأنزل التوراة لست خلون من رمضان، وأنزل الإنجيل لثمانين عشرة خلت من رمضان» وأخرج محمد بن نصر عن عائشة نحو قول جابر، إلا أنها لم تذكر نزول القرآن. وأخرج ابن جرير، ومحمد بن نصر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في الأسماء، والصفات عن مقسم قال: سأل عطية بن الأسود ابن عباس فقال: إنه قد وقع في قلبي الشك في قول الله: «شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن». وقوله: «إننا أنزلناه في ليلة القدر» [القدر: 1] وقوله: «إننا أنزلناه في ليلة مباركة» [الدخان: 3] فقال ابن عباس إنه أنزل في ليلة القدر، وفي رمضان، وفي ليلة مباركة جملة واحدة، ثم أنزل بعد ذلك على مواقع النجوم رسلاً في الشهور، والأيام. وأخرج محمد بن نصر، والطبراني، وابن مردويه، والحاكم وصححه، والبيهقي، والضياء في المختارة،

عَنْكُمْ فَأَتَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ مَا كَنَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكَلُوا وَأَشْرَبُوا حَتَّى بَيَّنَّ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضَ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتَيْنَا هَٰؤُلَاءِ بِآيَاتِنَا إِلَى الْبَيْتِ وَلَا يَتَّبِعُهُمْ الْبَلَاءُ مَا لَ يَعْلَمُهُمْ بِسَبَبِ دَعَائِهِمْ، وَهَذَا مُقِيدٌ بِعَدَمِ اعْتِدَاءِ الدَّاعِي فِي دَعَائِهِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمَعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: 55] وَمِنَ الْاعْتِدَاءِ أَنْ يَطْلُبَ مَا لَا يَسْتَحِقُّهُ، وَلَا يَصِلُحُ لَهُ، كَمَنْ يَطْلُبُ مَنَزَلَةً فِي الْجَنَّةِ مَسَاوِيَةً لِمَنَزَلَةِ الْأَنْبِيَاءِ، أَوْ فَوْقَهَا. وَقَوْلُهُ: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ أي: كَمَا أُجِيبَتْهُمْ إِذَا دَعَوْنِي، فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي فِيمَا دَعَوْتُهُمْ إِلَيْهِ مِنَ الْإِيمَانِ، وَالطَّاعَاتِ، وَقِيلَ مَعْنَاهُ: أَنَّهُمْ يَطْلُبُونَ إِبَاجَةً اللَّهِ سُبْحَانَهُ لِدَعَائِهِمْ بِاسْتِجَابَتِهِمْ لَهُ أَيُّ: الْقِيَامِ بِمَا أَمَرَهُمْ بِهِ، وَالتَّارِكِ لِمَا نَهَاوَهُ عَنْهُ. وَالرُّشْدُ خِلَافَ الْغَيِّ، رُشْدٌ يَرُشِدُ رُشْدًا. وَرُشْدًا. قَالَ الْهَرَوِيُّ: الرُّشْدُ، وَالرُّشَادُ، وَالرُّشَادُ: الْهُدَى، وَالْإِسْقَامَةُ. قَالَ: وَمَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ.

وقوله: ﴿لِحُلِّ لَكُمْ﴾ فيه دلالة على أن هذا الذي أحله الله كان حراماً عليهم، وهكذا كان كما يفيد السبب لنزول الآية، وسيأتي. والرث: كناية عن الجماع. قال الزجاج: الرث كلمة جامعة لكل ما يريد للرجل من امرأته، وكذا قال الأزهري، ومنه قول الشاعر:

ويرين من أنس الحديث زوانيا ويهن عن رث الرجال نفار
وقيل الرث: أصله قول الفحش، رث ورث: إذا تكلم بالقبیح، وليس هو المراد هنا، وعذّي الرث بلى لتضمينه معنى الإمضاء، وجعل النساء لباساً للرجال، والرجال لباساً لهم لا امتزاج كل واحد منهما بالآخر عند الجماع كالامتزاج الذي يكون بين الثوب، ولا يسه. قال أبو عبيدة، وغيره: يقال للمرأة: لباس، وفرش، وإزار. وقيل: إنما جعل كل واحد منهما لباساً للآخر، لأنه يستتره عند الجماع، عن أعين الناس. وقوله: ﴿تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: تخونونها بالمباشرة في ليالي الصوم، يقال: خان، واختان بمعنى، وهما من الخيانة. قال القتيبي: أصل الخيانة أن يؤتمن الرجل على شيء، فلا يؤدي الأمانة فيه. انتهى. وإنما سماهم خائنين لأنفسهم؛ لأن ضرر ذلك عائد عليهم، وقوله: ﴿فَقَاتِبْ عَلَيْكُمْ﴾ يحتمل معنيين: أحدهما قبول التوبة من خيانتهم لأنفسهم، والآخر التخفيف عنهم بالرخصة، والإباحة كقوله: ﴿علم أن لن تحصوه فتاب عليكم﴾ [المزمل: 20] يعني: تخفف عنكم، وكقوله: ﴿فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله﴾ [النساء: 92] يعني تخفيفاً، وهكذا قوله: ﴿وعف عنكم﴾ يحتمل العفو من الذنب، ويحتمل التوسعة، والتسهيل. وقوله: ﴿وَابْتَغُوا﴾ قيل: هو الولد، أي: ابتغوا بمباشرة نساكنكم حصول ما هو معظم المقصود من النكاح، وهو حصول النسل، وقيل: المراد ابتغوا القرآن بما أبيح لكم فيه قاله الزجاج وغيره، وقيل: ابتغوا الرخصة، والتوسعة، وقيل: ابتغوا ما كتب لكم من الإماء، والزوجات، وقيل: غير ذلك مما لا يفيد النظم القرآني، ولا دل عليه ليل آخر، وقرأ الحسن البصري: «واتبعوا» بالعين المهملة من الإتياع، وقوله: ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ هو: تشبيه بليغ، والمراد هنا بالخيط الأبيض: هو: للمعتز في الأفق، لا الذي هو كذنب السرحان، فإنه الفجر الكذاب الذي لا يحل شيئاً، ولا يحرمه. والمراد بالخيط الأسود: سواد الليل، والتبين: أن يمتاز أحدهما عن الآخر، وذلك لا يكون إلا عند دخول وقت الفجر. وقوله: ﴿ثُمَّ اتَمَّوُا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ فيه التصريح بأن للصوم غاية هي الليل، فعند إقبال الليل من المشرق، وإبصار النهار من المغرب يقطر الصائم، ويحل له الأكل، والشرب

العبادة لا يستلزم أن الإجابة هي: القبول للدعاء، أي: جعله عبادة متقبلة، فالإجابة أمر آخر غير قبول هذه العبادة. والمراد أنه سبحانه يجيب بما شاء، وكيف شاء، فقد يحصل المطلوب قريباً، وقد يحصل بعيداً، وقد يدفع عن الداعي من البلاء ما لا يعلمه بسبب دعائه، وهذا مقيد بعدم اعتداء الداعي في دعائه، كما في قوله سبحانه ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمَعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: 55] ومن الاعتداء أن يطلب ما لا يستحقه، ولا يصلح له، كمن يطلب منزلة في الجنة مساوية لمنزلة الأنبياء، أو فوقها. وقوله: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ أي: كَمَا أُجِيبَتْهُمْ إِذَا دَعَوْنِي، فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي فِيمَا دَعَوْتُهُمْ إِلَيْهِ مِنَ الْإِيمَانِ، وَالطَّاعَاتِ، وَقِيلَ مَعْنَاهُ: أَنَّهُمْ يَطْلُبُونَ إِبَاجَةً اللَّهِ سُبْحَانَهُ لِدَعَائِهِمْ بِاسْتِجَابَتِهِمْ لَهُ أَيُّ: الْقِيَامِ بِمَا أَمَرَهُمْ بِهِ، وَالتَّارِكِ لِمَا نَهَاوَهُ عَنْهُ. وَالرُّشْدُ خِلَافَ الْغَيِّ، رُشْدٌ يَرُشِدُ رُشْدًا. وَرُشْدًا. قَالَ الْهَرَوِيُّ: الرُّشْدُ، وَالرُّشَادُ، وَالرُّشَادُ: الْهُدَى، وَالْإِسْقَامَةُ. قَالَ: وَمَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه من طريق الصلت بن حكيم عن رجل من الأنصار عن أبيه عن جده قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله اقريب ربنا، فنناجي أم بعيد، فنناجي؟ فسكت النبي ﷺ، فنزلت هذه الآية. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، عن الحسن قال: سأل أصحاب النبي ﷺ أين ربنا؟ فأنزل الله هذه الآية. وأخرج ابن مردويه، عن أنس أنه سأل أعرابي النبي ﷺ أين ربنا؟ فنزلت. وأخرج ابن عساکر في تاريخه عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «ولا تعجزوا عن الدعاء، فإن الله أنزل علي ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾» [غافر: 60] فقال رجل: يا رسول الله ربنا يسمع الدعاء أم كيف نللك؟ فأنزل الله هذه الآية. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن عطاء أنه بلغه لما نزلت ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ قالوا: لو نعلم أي: ساعة ندعو، فنزلت. وقد ثبت في الصحيح من حديث أبي سعيد أن النبي ﷺ قال: «ما من مسلم يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم، ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن ينخر له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثله». وثبت في الصحيح أيضاً من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يستجاب لأحکم ما لم يعجل، يقول دعوت، فلم يستجب لي». وأخرج ابن أبي حاتم، عن أنس في قوله: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ قال: ليدعوني: ﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ أي: أنهم إذا دعوني استجبت لهم. وأخرج ابن جرير، عن مجاهد قال: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ أي: فليطيعوني. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن الربيع بن أنس في قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ يَرْضَوْنَ﴾ قال: يهتدون.

أَيْلَ لَكُمْ لَيْلَةَ الْبَيْتِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ يَسْأَلَكُمْ مَنْ يَأْسُ لَكُمْ وَأَنْتُمْ يَأْسُ لَهْرُ عَمَّ اللَّهُ أَنْكُمْ كُنْتُمْ تَحْتَانُونَ أَنْتُمْ فَنَابَ عَلَيْكُمْ وَعَمَّا

وغيرهما. وقول: ﴿وَلَا تَبَاشِرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾ قيل: المراد: بالمباشرة هنا الجماع، وقيل: تشمل التقبيل، واللمس إذا كانا لشهوة لا إذا كانا لغير شهوة، فهما جائزان كما قاله عطاء، والشافعي، وابن المنذر، وغيرهم، وعلى هذا يحتمل ما حكاه ابن عبد البر من الإجماع على أن المعتكف لا يباشر، ولا يقبل، فتكون هذه الحكاية للإجماع مقيدة بأن يكونا لشهوة، والاعتكاف في اللغة: الملازمة، يقال عكف على الشيء: إذا لازمه، ومنه قول الشاعر:

وظل بنات الليل حولي عكفا عكوف البواكي حولهن صريع
ولما كان المعتكف يلزم المسجد قيل له عاكف في المسجد، ومعتكف فيه؛ لأنه يحبس نفسه لهذه العبادة في المسجد، والاعتكاف في الشرع: ملازمة طاعة مخصوصة على شرط مخصوص. وقد وقع الإجماع على أنه ليس بواجب، وعلى أنه لا يكون إلا في مسجد، وللاعتكاف أحكام مستوفاة في كتب الفقه، وشروح الحديث. وقوله: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي: هذه الأحكام حدود الله. وأصل الحد المنع، ومنه سمي البواب، والسجان حداداً، وسميت الأوامر، والنواهي حدود الله؛ لأنها تمنع أن يدخل فيها ما ليس منها، وأن يخرج عنها ما هو منها، ومن ذلك سميت الحدود حدوداً؛ لأنها تمنع أصحابها من العود. ومعنى النهي عن قربانها النهي عن تعديها بالمخالفة لها، وقيل: إن حدود الله هي محارمه فقط، ومنها المباشرة من المعتكف، والإفطار في رمضان لغير عذر، وغير ذلك مما سبق النهي عنه، ومعنى النهي عن قربانها على هذا واضح. وقوله: ﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ﴾ أي: كما بين لكم هذه الحدود يبين لكم العلامات الهادية إلى الحق، وقد أخرج البخاري، وأبو داود، والنسائي، وغيرهم عن البراء بن عازب قال: كان لأصحاب رسول الله ﷺ إذا كان الرجل صائماً، فحضر الإفطار، فنام قبل أن يفطر لم ياكل ليلته، ولا يومه حتى يمسي، وإن قيس ابن صرمة الأنصاري كان صائماً، فكان يومه ذلك يعمل في أرضه، فلما حضر الإفطار أتى امرأته فقال: هل عندك طعام؟ قالت: لا، ولكن أنطلق، فأطلب لك، فغلبته عينه، فنام، وجاءت امرأته، فلما رآته نائماً قالت: خيبة لك أئمت؟ فلما انتصف النهار غشي عليه، فذكر ذلك للنبي ﷺ، فنزلت هذه الآية: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ﴾ إلى قوله: ﴿مَنْ الْفَجْرِ﴾ ففرحوا بها فرحاً شديداً. وأخرج البخاري أيضاً من حديثه قال: لما نزل صوم شهر رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله، فكان رجال يخونون أنفسهم، فأنزل الله: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ الآية. وقد روي في بيان سبب نزول هذه الآية أحاديث عن جماعة من الصحابة نحو ما قاله البراء. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: كان الناس أول ما أسلموا إذا صام أحدهم يصوم يومه حتى إذا أمسى طعم من الطعام، ثم قال: وإن عمر بن الخطاب أتى امرأته، ثم أتى رسول الله فقال: يا رسول الله إني اعتذر إلى الله، وإليك من نفسي، وذكر ما وقع منه، فنزل قوله تعالى: ﴿لَحُلَّ

لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه قال: إن المسلمين كانوا في شهر رمضان، إذا صلوا العشاء حرم عليهم النساء، والطعام والشراب إلى مثلها من القابلة، ثم إن ناساً من المسلمين أصابوا النساء، والطعام في رمضان بعد العشاء، منهم عمر بن الخطاب، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ﴾ الآية. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طرق، عن ابن عباس قال: الرقت الجماع. وأخرج ابن المنذر، عن ابن عمر مثله. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال: اللخل، والتغشي، والإقضاء، والمباشرة، والرق، واللمس، والمس هذا الجماع، غير أن الله حيي كريم يكتفي بما شاء عما شاء. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن ابن عباس، في قوله: ﴿هَنْ لِبَاسٍ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ قال: هَنْ سَكَنَ لَكُمْ، وَأَنْتُمْ سَكَنَ لَهُنَّ. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ قال: تظلمون أنفسكم. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَالَّذِينَ بَاشَرُوهُمْ﴾ قال: انكحوا. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه في قوله: ﴿وَلَبِغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ قال: الولد. وأخرج عبد بن حميد، عن مجاهد، وقتادة والضحاك مثله. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿وَلَبِغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ قال: ليلة القدر. وأخرج البخاري في تاريخه، عن أنس مثله. وأخرج عبد الرزاق، عن قتادة قال: ﴿وَلَبِغُوا﴾ الرخصة التي كتب الله لكم. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما، عن سهل بن سعد، قال: أنزلت: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ ولم ينزل: ﴿مَنْ الْفَجْرِ﴾ فكان رجال إذا أراوا الصوم ربط أحدهم في رجله الخيط الأبيض، والخيط الأسود، فلا يزال يأكل، ويشرب حتى يتبين له رؤيتهما، فأنزل الله: ﴿مَنْ الْفَجْرِ﴾ فعلموا أنه يعني الليل والنهار. وفي الصحيحين، وغيرهما عن عدي بن حاتم، أنه جعل تحت وساده خيطين أبيض وأسود، وجعل ينظر إليهما فلا يتبين له الأبيض من الأسود، فغدا على رسول الله ﷺ، فأخبره، فقال: إن وسادك إذا لعريض، إنما ذلك بياض النهار من سواد الليل. وفي رواية في البخاري، وغيره، إنه قال له: إنك لعريض القفا. وفي رواية عند ابن جرير، وابن أبي حاتم: أنه ضحك منه. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، عن الضحاك قال: كانوا يجامعون، وهم معتكفون حتى نزلت: ﴿وَلَا تَبَاشِرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة نحوه. وأخرج ابن جرير، عن الربيع نحوه. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، عن ابن عباس قال: «إذا جامع المعتكف بطل اعتكافه ويستأنف». وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله:

سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، عن مجاهد قال: معناها لا تخاصم، وأنت تعلم أنك ظالم. وأخرج ابن المنذر، عن قتادة نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير أن أمراً القيس بن عابس، وعبدان بن أشوع الحضرمي اختصما في أرض، وأراد امرؤ القيس أن يحلف، فنزلت: ﴿كذلك﴾ يعني هكذا يبين الله.

﴿ولا تاكلوا أموالكم﴾ الآية.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَمْثَلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ النَّاسِ وَالْحَجُّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِكُمْ وَلَكِنْ الْبِرُّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَوْبَاهُمْ وَآخْفَا اللَّهُ لَكُمْ كَمَنْ تَلْمِزُونَ﴾

قوله: ﴿يسألونك﴾ سيأتي بيان من هم السائلون له ﷺ، والأهلة جمع هلال، وجمعها باعتبار هلال كل شهر، أو كل ليلة، تنزيلاً لاختلاف الأوقات منزلة اختلاف النوات، والهلال: اسم لما يبدو في أول الشهر، وفي آخره. قال الأصمعي: هو هلال حتى يستتير، وقيل هو: هلال حتى ينير بضوئه السماء، وذلك ليلة السابع. وإنما قيل له: هلال؛ لأن الناس يرفعون أصواتهم بالإخبار عنه عند رؤيته، ومنه استهل الصبي: إذا صاح، واستهل وجهه، وتهلل إذا ظهر فيه السرور. قوله: ﴿قل هي مواقيت للناس والحج﴾ فيه بيان وجه الحكمة في زيادة الهلال، ونقصانه، وأن ذلك لأجل بيان المواقيت التي يوقت الناس عباداتهم، ومعاملاتهم بها كالصوم، والفطر، والحج، ومدة الحمل، والعدة، والإجازات، والإيمان، وغير ذلك، ومثله قوله تعالى: ﴿لتعلموا عدد السنين والحساب﴾ [يونس: 5] والمواقيت جمع الميقات، وهو الوقت. وقراءة الجمهور: «والحج» بفتح الحاء. وقرأ ابن أبي إسحاق بكسرها في جميع القرآن. قال سيبويه: الحج بالفتح كالرد والشدة، وبالكسر كالنكر مصدران بمعنى، وقيل: بالفتح مصدر، وبالكسر الاسم. وإنما أقرد سبحانه الحج بالنكر؛ لأنه مما يحتاج فيه إلى معرفة الوقت، ولا يجوز فيه النسيء، عن وقته، ولعظم المشقة على من التبس عليه وقت مناسكه، أو أخطأ وقتها، أو وقت بعضها. وقد جعل بعض علماء المعاني هذا الجواب، أعني قوله: ﴿قل هي مواقيت﴾ من الأسلوب الحكيم، وهو: تلقى المخاطب بغير ما يترقب، تنبيهاً على أنه الأولى بالقصد، ووجه ذلك أنهم سألوا عن أجرام الأهلة باعتبار زيادتها، ونقصانها، فأجيبوا بالحكمة التي كانت تلك الزيادة، والنقصان لأجلها لكون ذلك أولى بأن يقصد السائل، وأحق بأن يتطلع لعلمه. قوله: ﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها﴾ وجه اتصال هذا بالسؤال عن الأهلة، والجواب بأنها مواقيت للناس، والحج أن الانصار كانوا إذا حجوا لا يدخلون من أبواب بيوتهم إذا رجع أحدهم إلى بيته بعد إحرامه قبل تمام حجه؛ لأنهم يعتقدون أن المحرم لا يجوز أن يحول بينه، وبين السماء حائل، وكانوا يتسمنون ظهور بيوتهم. وقال أبو عبيدة: إن هذا من ضرب المثل، والمعنى: ليس البر أن تسألوا الجهال، ولكن البر التقوى، وسألوا العلماء كما تقول: أتيت هذا الأمر من باب، وقيل: هو مثل في جماع النساء، وأنهم أمروا بأتيناهن في

﴿تلك حدود الله﴾ قال: يعني طاعة الله. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الضحاك قال: ﴿حدود الله﴾ معصية الله: يعني المباشرة في الاعتكاف. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مقاتل أنها الجماع. وأخرج أيضاً عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿كذلك﴾ يعني هكذا يبين الله.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتَذُلُوا بِهَا إِلَى الْمُكَذِّبِينَ﴾

﴿فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَشْرَ تَمْلِكُونَ﴾

هذا يعم جميع الأمة، وجميع الأموال، لا يخرج عن ذلك إلا ما ورد دليل الشرع بأنه يجوز أخذه، فإنه مأخوذ بالحق لا بالباطل، وماكول بالحل لا بالإثم، وإن كان صاحبه كارهاً كقضاء الدين إذا امتنع منه من هو عليه، وتسليم ما أوجبه الله من الزكاة ونحوها، ونفقة من أوجب الشرع نفقته. والحاصل: أن ما لم يبيع الشرع أخذه من مالكة، فهو مأكول بالباطل، وإن طابت به نفس مالكة: كمهر البغي، وحلوان الكاهن، وشن الخمر. والباطل في اللغة: الذاهب الزائل. وقوله: ﴿وتدلولوا﴾ مجزوم عطفاً على تاكلوا، فهو من جملة المنهي عنه، يقال: أدلى الرجل بحجته، أو بالأمر الذي يرجو النجاح به تشبيهاً بالذي يرسل الدلو في البئر، يقال: أدلى دلوه: أرسلها، والمعنى أنكم لا تجمعوا بين أكل الأموال بالباطل، وبين الإدلاء بها إلى الحكام بالحجج الباطلة، وفي هذه الآية دليل أن حكم الحاكم لا يحلل الحرام، ولا يحرم الحلال من غير فرق بين الأموال، والفرج، فمن حكم له القاضي بشيء مستنداً في حكمه إلى شهادة زور أو يمين، فجور، فلا يحل له أكله، فإن ذلك من أكل أموال الناس بالباطل، وهكذا إذا أقرض الحاكم، فحكم له بغير الحق، فإنه من أكل أموال الناس بالباطل. ولا خلاف بين أهل العلم أن حكم الحاكم لا يحلل الحرام، ولا يحرم الحلال. وقد روي عن أبي حنيفة ما يخالف ذلك، وهو مردود لكتاب الله تعالى، ولسنة رسول الله ﷺ، كما في حديث أم سلمة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فاقضي له على نحو ما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيء، فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من النار» وهو في الصحيحين، وغيرهما. وقوله: ﴿فريقاً﴾ أي: قطعة، أو جزءاً، أو طائفة، فعبر بالفريق عن ذلك، وأصل الفريق: القطة من الغنم تشذ عن معظمها. وقيل: في الكلام تقديم، وتأخير، والتقدير، لتاكلوا أموال فريق من الناس بالإثم، وسمي الظلم، والعنوان إثمًا باعتبار تعلقه بفعله. وقوله: ﴿وانتم تعلمون﴾ أي: حال كونكم عالمين أن ذلك باطل ليس من الحق في شيء، وهذا أشد لعقابهم، وأعظم لجرمهم.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿ولا تاكلوا أموالكم﴾ الآية، قال: هذا في الرجل يكون عليه مال، وليس عليه دين، فيجحد المال، ويخاصم إلى الحكام، وهو يعرف أن الحق عليه. وروى

الظالمين» قال: هم من أبى يقول لا إله إلا الله. وأخرج عبد ابن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن قتادة نحوه.

أَشْرَ الْمَرْءُ بِالْقَهْرِ الْمَرْءُ وَالْمَرْءُ مَنْ عَصَا مَنْ عَصَى عَنْكُمْ فَأَعْدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا عَصَيْتُمْ عَلَيْهِ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٥٠﴾

قوله: «الشهر الحرام بالشهر الحرام» أي: إذا قاتلوكم في الشهر الحرام، وهتكوا حرمة قاتلتهم في الشهر الحرام مكافأة لهم، ومجازاة على فعلهم. «والحرقات» جمع حرمة، كالأظلمات جمع ظلمة، وإنما جمع الحرقات؛ لأنه أراد الشهر الحرام، والبلد الحرام، وحرمة الإحرام، والحرمة: ما منع الشرع من انتهاكه. والقصاص: المساواة، والمعنى: أن كل حرمة يجري فيها القصاص، فمن هتك حرمة عليكم، فلكم أن تهتكوا حرمة عليه قصاصاً، قيل وهذا كان في أول الإسلام، ثم نسخ بالقتال، وقيل: إنه ثابت بين أمة محمد ﷺ لم ينسخ، ويجوز لمن تعدي عليه في مال، أو بدن أن يتعدى بمثل ما تعدي عليه، وبهذا قال الشافعي، وغيره. وقال آخرون: إن أمور القصاص مقصورة على الحكام، وهكذا الأموال لقوله ﷺ: «أد الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك» أخرجه الدارقطني، وغيره، وبه قال أبو حنيفة، وجمهور المالكية، وعطاء الخراساني، والقول الأول أرجح، وبه قال ابن المنذر، واختاره ابن العربي، والقرطبي، وحكاه الداودي عن مالك، ويؤيده إننه ﷺ لامرأة أبي سفيان أن تأخذ من ماله ما يكفيها، ولدها، وهو في الصحيح، ولا أصرح، وأوضح من قوله تعالى: في هذه الآية «فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم» وهذه الجملة في حكم التأكيد للجملة الأولى، أعني قوله: «والحرقات قصاص» وإنما سمي المكافاة اعتداء مشكلة كما تقدم.

وقد أخرج ابن جرير، عن ابن عباس قال: لما سار رسول الله ﷺ معتمراً في سنة ست من الهجرة، وحبسهم المشركون، عن الدخول، والوصول إلى البيت، وصنوه بمن معه من المسلمين في ذي القعدة، وهو شهر حرام قاضاهم على الدخول من قابل، فدخلها في السنة الآتية هو ومن كان معه من المسلمين، وأقصه الله منهم نزلت في ذلك هذه الآية: «الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرقات قصاص». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن أبي العالية نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد نحوه أيضاً. وأخرج أيضاً عن قتادة نحوه. وأخرج ابن جرير، عن ابن جريج نحوه. وأخرج أبو داود في ناسخه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس في قوله: «فمن اعتدى عليكم» الآية، وقوله «وجزاء سيئة» [يونس: 27] الآية، وقوله: «ولمن انتصر بعد ظلمه» [الشورى: 41] الآية، وقوله: «وان عاقبتكم» [النحل: 126] الآية قال: هذا ونحوه نزل بمكة، والمسلمون يومئذ قليل ليس لهم سلطان يقهر المشركين، فكان المشركون يتعاطونهم بالشتم، والأذى، فأمر الله المسلمين من يتجاوز منهم أن يتجاوز بمثل ما أوتي إليه، أو يصبروا، ويعفوا،

عن قتالكم، وبخلوا في الإسلام. قوله: «وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة» فيه الأمر بمقاتلة المشركين إلى غاية هي أن لا تكون فتنة، وأن يكون الدين لله، وهو الدخول في الإسلام، والخروج عن سائر الأديان المخالفة له، فمن دخل في الإسلام، وأقطع عن الشرك لم يحل قتاله، قيل: المراد بالفتنة هنا الشرك، والظاهر أنها الفتنة في الدين على عمومها كما سلف. قوله: «فلا عدوان إلا على الظالمين» أي: لا تعتدوا إلا على من ظلم، وهو من لم ينته عن الفتنة، ولم يدخل في الإسلام، وإنما سمي جزاء الظالمين عدواناً مشاكلة كقوله تعالى: «وجزاء سيئة سيئة مثله» [الشورى: 40]. وقوله: «فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه» [البقرة: 194].

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن أبي العالية قوله تعالى: «وقاتلوا في سبيل الله» الآية أنها أول آية نزلت في القتال بالمدينة، فلما نزلت كان رسول الله يقاتل من قاتله، ويكف عمن كف عنه، حتى نزلت سورة براءة. وأخرج عبد بن حميد، عن مجاهد في هذه الآية قال: إن أصحاب محمد أمروا بقتال الكفار. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: «ولا تعتدوا» يقول: لا تقتلوا النساء، والصبيان، والشيخ الكبير، ولا من ألقى السلم، وكف يده، فإن فعلتم، فقد اعتديتم. وأخرج ابن أبي شيبة، عن عمر بن عبد العزيز أنه قال: إن هذه الآية في النساء، والنزيرة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي العالية في قوله: «والفتنة أشد من القتل» يقول: الشرك أشد من القتل. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد في الآية قال: ارتداد المؤمن إلى الوثن أشد عليه من أن يقتل محقاً. وأخرج ابن أبي شيبة، وأبو داود في ناسخه، وابن جرير، عن قتادة في قوله: «ولا تقتلواهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه» قال: حتى يبدؤوا بالقتال، ثم نسخ بعد ذلك فقال: «وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة». وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وأبو داود في ناسخه عن قتادة أن قوله: «ولا تقتلواهم عند المسجد للحرام» وقوله: «يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير» [البقرة: 217] فكان كذلك حتى نسخ هاتين الآيتين جميعاً في براءة قوله: «فاقتلوا المشركين حيث وجنتهم» [التوبة: 5] «وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة» [التوبة: 36] وأخرج ابن جرير، عن مجاهد في قوله: «فإن انتهوا» قال: فإن تابوا. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الدلائل من طرق، عن ابن عباس في قوله: «وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة» يقول: شرك بالله: «ويكون الدين» ويخلص التوحيد لله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد في الآية، قال: الشرك. وقوله: «فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين» قال: لا تقتلوا إلا من قاتلكم. وأخرج ابن جرير، عن الربيع في قوله: «ويكون الدين لله» يقول: حتى لا تعبدوا إلا الله. وأخرج أيضاً، عن عكرمة في قوله: «فلا عدوان إلا على

عباس نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن عكرمة نحوه أيضاً. وأخرج ابن جرير، عن الحسن نحوه. وأخرج عبد بن حميد، والبيهقي في الشعب عنه قال: هو البخل. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن زيد بن أسلم في الآية قال: كان رجال يخرجون في بعوث يبعثها رسول الله ﷺ بغير نفقة، فلما يقطع لهم، وإما كانوا عيالاً، فأمروهم الله أن يستنفقوا مما رزقهم الله، ولا يلقوا بأيديهم إلى التهلكة. والتهلكة: أن تهلك رجال من الجوع، والعطش، ومن المشي. وقال لمن بيده فضل: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾. وأخرج عبد بن حميد، وأبو يعلى، وابن جرير، واليافعي في معجمه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبان، وابن مانع، والطبراني، عن الضحاك ابن أبي جبير: أن الانصار كانوا ينفقون في سبيل الله، ويتصدقون، فاصابتهم سنة، فساء ظنهم، وأمسكوا عن ذلك، فأنزل الله الآية. وأخرج عبد بن حميد، وأبو داود، والترمذي وصححه، والنسائي، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في سننه، عن أسلم بن عمران قال: كنا بالقسطنطينية، وعلى أهل مصر عقبة بن عامر، وعلى أهل الشام فضالة بن عبيد، فخرج صف عظيم من الروم، فوصلناهم، فحمل رجل من المسلمين على صف الروم حتى نخل فيهم، فصاح الناس، وقالوا: سبحان الله يلقي بيده إلى التهلكة؟ فقام أبو أيوب صاحب رسول الله ﷺ فقال: يا أيها الناس إنكم تؤولون الآية هذا التأويل. وإنما أنزلت فيها هذه الآية معشر الانصار، إنا لما أعز الله دينه، وكثر ناصروه، قال بعضنا لبعض سرّاً نون رسول الله ﷺ: إن أموال الناس قد ضاعت، وإن الله قد أعز الإسلام، وكثر ناصروه، فلو أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها؟ فأنزل الله على نبيه يرد علينا: ﴿وَانْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ فكانت التهلكة الإقامة في الأموال، وإصلاحها، وترك الغزو. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم وصححه، والبيهقي، عن البراء بن عازب، قال في تفسير الآية: هو: الرجل يذنب الذنب، فيلقي يديه، فيقول: لا يغفر الله لي أبداً. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن مردويه، والطبراني، والبيهقي في الشعب، عن الثعمان بن بشير نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، قال في تفسير الآية: إنه القنوط. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: التهلكة عذاب الله. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث أنهم حاصروا دمشق، فأسرع رجل إلى العدو وحده، فعاب ذلك عليه المسلمون، ورفع حديثه إلى عمرو بن العاص، فأرسل إليه فردّه، وقال: قال الله: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾. وأخرج ابن جرير، عن رجل من الصحابة في قوله: ﴿وَأَحْسِنُوا﴾ قال: أتو الفرائض. وأخرج عبد بن حميد، عن أبي إسحاق مثله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن

فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، وأعز الله سلطانه، أمر الله المسلمين أن ينتهوا في مظالمهم إلى سلطانهم، ولا يعو بعضهم على بعض كاهل الجاهلية، فقال ﴿ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً﴾ [الإسراء: 33] الآية، يقول: ينصره السلطان حتى ينصفه على من ظلمه، ومن انتصر لنفسه دون السلطان، فهو عاص مسرف قد عمل بحمية الجاهلية، ولم يرض بحكم الله تعالى. انتهى. وأقول: هذه الآية التي جعلها ابن عباس رضي الله عنه ناسخة مؤيدة لما تدل عليه الآيات التي جعلها منسوخة، ومؤيدة له، فإن الظاهر من قوله: ﴿فقد جعلنا لوليه سلطاناً﴾ أنه جعل السلطان له. أي: جعل له تسلطاً يتسلط به على القاتل، ولهذا قال: ﴿فلا يسرف في القتل﴾ [الإسراء: 33] ثم لو سلمنا أن معنى الآية كما قاله لكان ذلك مخصصاً للقتل من عموم الآيات المنكورة لا ناسخاً لها، فإنه لم ينص في هذه الآية إلا على القتل وحده، وتلك الآيات شاملة له، ولغيره، وهذا معلوم من لغة العرب التي هي: المرجع في تفسير كلام الله سبحانه.

وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٥﴾

في هذه الآية الأمر بالإنفاق في سبيل الله، وهو الجهاد، واللفظ يتناول غيره مما يصدق عليه أنه من سبيل الله، والباء في قوله: ﴿بأيديكم﴾ زائدة، والتقدير: ولا تلقوا أيديكم، ومثله: ﴿إلم يعلم بأن الله يرى﴾ [العلق: 14] وقال المبرد: ﴿بأيديكم﴾ أي: بأنفسكم تعبيراً ببعض عن الكل، كقوله: ﴿بما كسبت أيديكم﴾ [الشورى: 30] وقيل: هذا مثل مضروب، يقال: فلان ألقى بيده في أمر كذا. إذا استسلم؛ لأن المستسلم في القتال يلقي سلاحه بيديه، فكنك فعل كل عاجز في أي فعل كان وقال قوم: التقدير، ولا تلقوا أنفسكم بأيديكم. والتهلكة: مصدر من هلك يهلك هلاكاً، وهلكاً، وتهلكة. أي: لا تأخذوا فيما يهلككم. وللسلف في معنى الآية أقوال سيأتي بيانها، وميان سبب نزول الآية. والحق أن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فكل ما صدق عليه أنه تهلكة في الدين، أو الدنيا، فهو داخل في هذا، وبه قال ابن جرير للطبري. ومن جملة ما يدخل تحت الآية أن يقتحم الرجل في الحرب، فيحمل على الجيش مع عدم قدرته على التخلص، وعدم تأثيره لأثر ينفع المجاهدين، ولا يمنع من دخول هذا تحت الآية إنكار من أنكره من الذين راوا السبب، فإنهم ظنوا أن الآية لا تجاوز سببها، وهو ظن تنفعه لغة العرب. وقوله: ﴿وَأَحْسِنُوا﴾ أي: في الإنفاق في الطاعة، أو أحسنوا الظن بالله في إخلافه عليكم.

وقد أخرج عبد بن حميد، والبخاري، والبيهقي في سننه، عن حنيفة في قوله: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ قال: نزلت في النفقة. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في الآية قال: هو ترك النفقة في سبيل الله مخافة العيلة. وأخرج عبد بن حميد، والبيهقي، عن ابن

عكرمة قال: أحسنوا الظن بالله.

وَأَيُّو الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ يَوْمَ كَانَ أُصِرْتُمْ مَا أَسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرْبُوعًا أَوْ بَدَأَ أَدَى مِنْ رَأْيِهِ فَنَذِيَّةٌ مِنْ بَيْتِهِ أَوْ مَدَنَةٌ أَوْ شُكْلٌ فَإِذَا أَتَيْتُمْ مَنْ تَعَلَّقَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا أَسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَمَيْمًا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةً إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلًا حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٨﴾

قوله: ﴿واتقوا الحج﴾ اختلف العلماء في المعنى المراد بإتمام الحج، والعمرة لله، فقيل: أداؤهما، والإتيان بهما من نون أن يشوبهما شيء مما هو محظور، ولا يخل بشرط، ولا فرض لقوله تعالى: ﴿فاتمهن﴾ [البقرة: 124] وقوله: ﴿ثم اتموا الصيام إلى الليل﴾ [البقرة: 187]. وقال سفيان الثوري: إتمامهما أن تخرج لهما لا لغيرهما، وقيل: إتمامهما أن تفرد كل واحد منهما من غير تمتع، ولا قران، وبه قال ابن حبيب. وقال مقاتل: إتمامهما أن يستحلوا فيها ما لا ينبغي لهم، وقيل: إتمامهما أن يحرم لهما من نوى أهله، وقيل: أن ينفق في سفرهما الحلال الطيب، وسياطتي بيان سبب نزول الآية، وما هو مروى عن السلف في معنى إتمامهما. وقد استدل بهنو الآية على وجوب العمرة؛ لأن الأمر بإتمامهما أمر بها، وبذلك قال علي، وابن عمر، وابن عباس، وعطاء، وطاوس، ومجاهد، والحسن، وابن سيرين، والشعبي، وسعيد بن جبير، ومسروق، وعبد الله بن شداد، والشافعي، وأحمد. وإسحاق، وأبو عبيد، وابن الجهم من المالكية. وقال مالك، والنخعي، وأصحاب الرأي كما حكاه ابن المنذر عنهم: أنها سنة. وحكي عن أبي حنيفة أنه يقول بالوجوب. ومن القائلين بأنها سنة ابن مسعود، وجابر بن عبد الله. ومن جملة ما استدل به الأولون ما ثبت عنه ﷺ في الصحيح أنه قال لأصحابه: «من كان معه هدي فليهل بحج وعمرة». وثبت عنه أيضاً في الصحيح أنه قال: «دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيامة». وأخرج الدارقطني، والحاكم من حديث زيد بن ثابت قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الحج والعمرة فريضتان لا يضرك بأيهما بدأت». واستدل الآخرون بما أخرجه الشافعي في الآية، وعبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، عن أبي صالح الحنفي قال: قال رسول الله ﷺ: «الحج جهاد، والعمرة تطوع». وأخرج ابن ماجه عن طلحة بن عبيد الله مرفوعاً مثله. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والترمذي وصححه عن جابر: «أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن العمرة أواجبة هي؟ قال: لا، وإن تعتمروا خير لكم، وأجابوا عن الآية، وعن الأحاديث المصروفة بأنها فريضة يحمل ذلك على أنه قد وقع الدخول فيها، وهي بعد الشروع فيها واجبة بلا خلاف، وهذا، وإن كان فيه بعد، لكنه يجب المصير إليه جمعاً بين الأدلة، ولا سيما بعد تصريحه ﷺ بما تقدم في حديث جابر من عدم الوجوب، وعلى هذا يحمل ما ورد مما فيه دلالة على وجوبها، كما أخرجه الشافعي في الام أن في الكتاب الذي

كتبه النبي ﷺ لعمر بن حزم: «إن العمرة هي الحج الأصغر». وكحديث ابن عمر عند البيهقي في الشعب قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: أوصني، فقال: تعبد الله، ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم شهر رمضان، وتحج وتعتمر، وتسمع وتطيع، وعليك بالعلانية، وإياك والسرة» وهكذا ينبغي حمل ما ورد من الأحاديث التي قرن فيها بين الحج والعمرة في أنهما من أفضل الأعمال، وأنهما كفارة لما بينهما، وأنهما يهدمان ما كان قبلهما ونحو ذلك. قوله: ﴿فإن أحصرتكم﴾ الحصر: الحبس. قال أبو عبيدة، والكسائي، والخليل: إنه يقال أحصر بالمرض، وحصر بالعدو. وفي المجلد لابن فارس العكس يقال: أحصر بالعدو، وحصر بالمرض. ورجح الأول ابن العربي، وقال: هو رأي أكثر أهل اللغة. وقال للزجاج: أنه كذلك عند جميع أهل اللغة. وقال الفراء: هما بمعنى واحد في المرض، والعدو. ووافقه على ذلك أبو عمرو الشيباني فقال: حصرني الشيء، وأحصرني، أي: حبسني. وبسبب هذا الاختلاف بين أهل اللغة اختلف أئمة الفقه في معنى الآية، فقالت الحنفية: المحصر من يصير ممنوعاً من مكة بعد الإحرام بمرض، أو عدو، أو غيره. وقالت الشافعية، وأهل المدينة المراد بالآية حصر العدو. وقد ذهب جمهور العلماء إلى أن المحصر بعدو يحل حيث أحصر، وينحر هديه إن كان ثم هدي، ويحلق رأسه، كما فعل النبي ﷺ هو، وأصحابه في الحديبية. وقوله: ﴿فما استيسر من الهدى﴾ «ما» في موضع رفع على الابتداء، أو الخبر، أي: فالواجب، أو فعليكم، ويحتمل أن يكون في موضع نصب، أي: فأنحروا، أو فاهدوا ما استيسر، أي: ما تيسر، يقال: يسر الأمر، واستيسر، كما يقال: صعب واستصعب، والهدْيُ، والهدْيُ لغتان، وهما جمع هدية، وهي ما يهدى إلى البيت من بنته، أو غيرها. قال الفراء: أهل الحجاز وبني أسد يخفون الهدى، وتميم، وسفلى قيس يثقلون. قال الشاعر:

حلفت برب كعبة والمصلى وأعناق الهدى مقلدات
قال: وواحد الهدى هدية، ويقال في جمع الهدى أهد. واختلف أهل العلم في المراد بقوله: ﴿فما استيسر﴾ فذهب الجمهور إلى أنه شاة. وقال ابن عمر، وعائشة، وابن الزبير: جمل، أو بقرة. وقال الحسن: أعلا الهدى بنته، وأوسطه بقرة، وأبناء شاة، وقوله: ﴿ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدى محله﴾ هو خطاب لجميع الأمة من غير فرق بين محصر، وغير محصر، وإليه ذهب جمع من أهل العلم، وذهبت طائفة إلى أنه خطاب للمحصرين خاصة، أي: لا تحلوا من الإحرام حتى تعلموا أن الهدى الذي يعتنموه إلى الحرم قد بلغ محله، وهو الموضع الذي يحل فيه ذبحه. واختلفوا في تعيينه، فقال مالك، والشافعي: هو موضع الحصر اقتداء برسول الله ﷺ حيث أحصر في عام الحديبية. وقال أبو حنيفة: هو: الحرم لقوله تعالى: ﴿ثم محلها إلى البيت العتيق﴾ [الحج: 33] وأجيب عن ذلك بأن

المخاطب به هو الأمن الذي يمكنه الوصول إلى البيت. وأجاب الحنفية عن نحره ﷺ في الحديبية بأن طرف الحديبية الذي إلى أسفل مكة هو من الحرم، وردّ بأن المكان الذي وقع فيه النحر ليس هو من الحرم. قوله: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا﴾ الآية، المراد بالمرض هنا ما يصدق عليه مسمى المرض لغة. والمراد بالأذى من الرأس: ما فيه من قمل، أو جراح، ونحو ذلك، ومعنى الآية: أن من كان مريضاً، أو به أذى من رأسه، فحلق فعليه فدية. وقد بينت السنة ما أطلق هنا من الصيام، والصنقة، والنسك، فثبت في الصحيح: «أن رسول الله رأى كعب بن عجرة، وهو محرم، وقمله يتساقط على وجهه، فقال: أيؤذيك هوام رأسك؟ قال: نعم، فأمره أن يحلق، ويطعم ستة مساكين، أو يهدي شاة، أو يصوم ثلاثة أيام». وقد ذكر ابن عبد البر أنه لا خلاف بين العلماء أن النسك هنا هو: شاة. وحكي عن الجمهور أن الصوم المنكور في الآية ثلاثة أيام، والإطعام لسته مساكين. وروي عن الحسن، وعكرمة، ونافع أنهم قالوا: الصوم في فدية الأذى عشرة أيام، والإطعام عشرة مساكين. والحديث الصحيح المتقدم يردّ عليهم، ويبطال قولهم. وقد ذهب مالك، والشافعي، وأبو حنيفة، وأصحابهم، ودادوا إلى أن الإطعام في ذلك مدان بعد النبي ﷺ أي: لكل مسكين، وقال الثوري نصف صاع من برّ، أو صاع من غيره. وروي ذلك عن أبي حنيفة. قال ابن المنذر: وهذا غلط؛ لأن في بعض أخبار كعب أن النبي ﷺ قال له: تصدق بثلاثة أصوع من تمر على ستة مساكين. واختلفت الرواية عن أحمد بن حنبل، فروي عنه مثل قول مالك، والشافعي، وروي عنه أنه إن أطعم برّاً، فمدّ لكل مسكين، وإن أطعم تمرّاً، فنصف صاع. واختلفوا في مكان هذه الفدية، فقال عطاء: ما كان من دم، فبمكة، وما كان من طعام، أو صيام، فحيث شاء. وبه قال أصحاب الرأي. وقال طاوس، والشافعي: الإطعام، والدم لا يكونان إلا بمكة، والصوم حيث شاء. وقال مالك، ومجاهد: حيث شاء في الجميع، وهو: الحق لعدم الدليل على تعيين المكان. قوله: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعِمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ أي: برأتم من المرض، وقيل: من خوفكم من العدو على الخلاف السابق، ولكن الأمن من العدو أظهر من استعمال أمنتكم في ذهاب المرض، فيكون مقوياً لقول من قال إن قوله: ﴿فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ﴾ المراد به: الإحصار من العدو، كما أن قوله: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا﴾ يقوّي قول من قال بذلك لإفراد عذر المرض بالذكر. وقد وقع الخلاف هل المخاطب بهذا هم المحصورون خاصة أم جميع الأمة على حسب ما سلف، والمراد بالتمتع المنكور في الآية: أن يحرم الرجل بعمره، ثم يقيم حلالاً بمكة إلى أن يحرم بالحج، فقد استباح بذلك ما لا يحل للمحرم استباحته، وهو معنى: تمتع واستمتع. ولا خلاف بين أهل العلم في جواز التمتع، بل هو عندي أفضل أنواع الحج كما حررته في شرحي على المنتقى. وقد تقدّم الخلاف في معنى قوله: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ

من الهدْيِ﴾ قوله: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ الآية، أي: فمن لم يجد الهدْي، إما لعدم المال، أو لعدم الحيوان، صام ثلاثة أيام في الحج. أي: في أيام الحج، وهي من عند شروعه في الإحرام إلى يوم النحر، وقيل: يصوم قبل يوم التروية يوماً، ويوم التروية، ويوم عرفة، وقيل: ما بين أن يحرم بالحج إلى يوم عرفة، وقيل: يصومهم من أول عشر ذي الحجة، وقيل: ما دام بمكة، وقيل: إنه يجوز أن يصوم الثلاث قبل أن يحرم. وقد جوز بعض أهل العلم صيام أيام التشريق لمن لم يجد الهدْي، ومنعه آخرون. قوله: ﴿وَسَبْعَةَ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ قرأه الجمهور بخفض سبعة، وقرأ زيد بن علي، وابن أبي عتبة بالنصب على أنه معمول بفعل مقدر، أي: وصوموا سبعة، وقيل: على أنه معطوف على ثلاثة؛ لأنها وإن كانت مجرورة لفظاً، فهي في محل نصب كأنه قيل: فصيام ثلاثة. والمراد بالرجوع هنا: الرجوع إلى الأوطان. قال أحمد، وإسحاق: يجزئ الصوم في الطريق، ولا يتضيق عليه الوجوب إلا إذا وصل وطنه، وبه قال الشافعي، وقتادة، والربيع، ومجاهد، وعطاء، وعكرمة، والحسن، وغيرهم. وقال مالك: إذا رجع من منى، فلا بأس أن يصوم، والأول أرجح. وقد ثبت في الصحيح من حديث ابن عمر أنه قال ﷺ: «فمن لم يجد، فليصم ثلاثة أيام في الحج، وسبعة إذا رجع إلى أهله» فبين ﷺ أن الرجوع المنكور في الآية هو: الرجوع إلى الأهل. وثبت أيضاً في الصحيح من حديث ابن عباس بلفظ: «وسبعة إذا رجعتكم إلى أمصاركم» وإنما قال سبحانه: ﴿ثَلَاثَ إِفْرَادٍ﴾ مع أن كل أحد يعلم أن الثلاثة، والسبعة عشرة، لنفع أن يتوهم متوهم التخيير بين الثلاثة الأيام في الحج، والسبعة إذا رجع. قاله الزجاج. وقال المبرد: ذكر ذلك ليدل على انقضاء العدد لثلاثا يتوهم متوهم أنه قد بقي منه شيء بعد نكر السبعة، وقيل هو: توكيد كما تقول كتبت بيدي. وقد كانت العرب تأتي بمثل هذه الفلزكة فيما دون هذا العدد، كقول الشاعر:

ثلاث واثنتان فهنّ خمس وسانسة تميل إلى سهامي
وكذا قول الآخر:

ثلاث بالعداد وذاك حسبي وست حين يدركني العشاء
فثلث تسعة في اليوم ري وشرب المرء فوق السري داء
وقوله: ﴿كاملة﴾ توكيد آخر بعد الفلزكة لزيادة التوصية بصيامها، وأن لا ينقص من عددها. وقوله: ﴿ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام﴾ الإشارة بقوله: ﴿ذلك﴾ قيل: هي راجعة إلى التمتع، فتدل على أنه لا متعة لحاضري المسجد الحرام كما يقول أبو حنيفة، وأصحابه، قالوا: ومن تمتع منهم كان عليه دم، وهو دم جنائية لا يأكل منه، وقيل: إنها راجعة إلى الحكم، وهو وجوب الهدْي، والحرام، كما يقوله الشافعي، ومن وافقه. والمراد بمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام: من لم يكن ساكناً في الحرم، أو من لم يكن ساكناً في المواقيت، فما دونها على الخلاف

في ذلك بين الأئمة. وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: فيما فرضه عليكم في هذه الأحكام، وقيل: هو أمر بالتقوى على العموم، وتحذير من شدة عقاب الله سبحانه.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وأبو نعيم في الدلائل، وابن عبد البر في التمهيد، عن يعلى بن أمية قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ وهو بالجعرانة، وعليه جبة، وعليه أثر خلوق، فقال: كيف تأمرني يا رسول الله أن أصنع في عمرتي؟ فأنزل الله: ﴿وَاتِمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ فقال رسول الله ﷺ: أين السائل عن العمرة؟ فقال: ها أنا، قال: اخلع الجبة، واغسل عنك أثر الخلوق، ثم ما كنت صانعاً في حجك، فاصنعه في عمرتك». وقد أخرجه البخاري، ومسلم، وغيرهما من حديثه، ولكن فيهما أنه نزل عليه ﷺ الوحي بعد السؤال، ولم يذكر ما هو الذي أنزل عليه. وأخرج ابن أبي شيبة، عن علي في قوله: ﴿وَاتِمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ قال: إن تحرم من نويرة أهلك. وأخرج ابن عدي، والبيهقي مثله من حديث أبي هريرة مرفوعاً. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي حاتم، عن ابن عمر قال: من تمامهما أن يفرد كل واحد منهما عن الآخر، وإن يعتمر في غير أشهر الحج. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس قال: تمام الحج يوم النحر إذا رمى جمره العقبة، وزار البيت، فقد حل، وتمام العمرة إذا طاف بالبيت، وبالصفا، والمروة، فقد حل. وقد ورد في فضل الحج، والعمرة أحاديث كثيرة ليس هذا موطن ذكرها. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ﴾ يقول: من أحرم بحج، أو عمرة، ثم حبس عن البيت بمرض يجهده، أو عتو يحبس، فعليه نبح ما استيسر من الهدي شاة فما فوقها، وإن كانت حجة الإسلام، فعليه قضاؤها، وإن كانت بعد حجة الفريضة، فلا قضاء عليه، وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن مسعود في قوله: ﴿فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ﴾ يقول: الرجل إذا أهل بالحج، فأحصر بعث بما استيسر من الهدي، فإن كان عاجل قبل أن يبلغ الهدي محله، فحلق رأسه، أو مس طيباً، أو تداوى بدواء، كان عليه فدية من صيام، أو صدقة، أو نسك، فالصيام ثلاثة أيام، والصدقة ثلاثة أصع على ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع، والنسك شاة ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾ يقول: فإذا برئ، فمضى من وجهه ذلك إلى البيت أحل من حجته بعمرة، وكان عليه الحج من قابل، فإن هو رجع، ولم يتم من وجهه ذلك إلى البيت كان عليه حجة، وعمرة، فإن هو رجع متمتعاً في أشهر الحج كان عليه ما استيسر من الهدي شاة، فإن هو لم يجد، فصيام ثلاثة أيام في الحج، وسبعة إذا رجع. قال إبراهيم: فنكرت هذا الحديث لسعيد بن جبيرة فقال: هكذا قال ابن عباس في هذا الحديث كله. وأخرج مالك، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه عن علي في قوله: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ قال: شاة. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي

شيبه، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن ابن عباس مثله. وأخرج الشافعي في الأم، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، والبيهقي: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ قال: بقرة، أو جزور؛ قيل: أو ما يكفيه شاة؟ قال: لا. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، عن ابن عباس قال في تفسير: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ﴾ ما يجد. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه قال: إن كان موسراً، فمن الإبل، وإلا فمن البقر، وإلا فمن الغنم. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق القاسم، عن عائشة، وابن عمر أنهما كانا لا يريان ما استيسر من الهدي إلا من الإبل، والبقر. وكان ابن عباس يقول: ما استيسر من الهدي شاة. وأخرج الشافعي في الأم، وعبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: لا حصر إلا حصر العتو، فأما من أصابه مرض، أو وجع، أو ضلال، فليس عليه شيء، إنما قال الله: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾ فلا يكون الأمن إلا من الخوف، وأخرج ابن أبي شيبة، عن ابن عمر قال: لا إحصار إلا من عتو. وأخرج أيضاً عن الزهري نحوه. وأخرج أيضاً عن عطاء قال: لا إحصار إلا من مرض، أو عتو، أو أمر حائث. وأخرج أيضاً عن عروة قال: كل شيء حبس المحرم، فهو إحصار. وأخرج البخاري، عن المسور أن رسول الله ﷺ نحر قبل أن يحلق، وأمر أصحابه بذلك. وأخرج أبو داود في ناسخه، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾ ثم استثنى فقال: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً﴾ الآية. وأخرج الترمذي، وابن جرير، عن كعب بن عجرة قال: لقي نزلت، وإياي عني بها ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً﴾ أو به أذى من رأسه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً﴾ يعني من اشتد مرضه. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن المنذر عنه. قال: يعني بالمرض أن يكون برأسه أذى، أو قروح، أو به أذى من رأسه، قال: الأذى هو القمل. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس قال: النسك المذكور في الآية شاة. وروي أيضاً، عن علي مثله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ﴾ يقول: من أحرم بالعمرة في أشهر الحج. وأخرج عبد بن حميد، عن الضحاك نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم أن ابن الزبير كان يقول: إنما المتعة لمن أحصر، وليست لمن خلى سبيله. وقال ابن عباس: هي لمن أحصر، ومن خلى سبيله. وأخرج ابن جرير، عن علي في قوله: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ﴾ قال: فإن أحر العمرة حتى يجمعها مع الحج، فعليه الهدي. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن علي بن أبي طالب في قوله: ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ قال: قبل

بالحج قبلها أحل بعمرة، ولا يجزيه عن إحرام الحج، كمن نخل في صلاة قبل وقتها، فإنها لا تجزيه. وقال أحمد، وأبو حنيفة: إنه مكروه فقط. وروي نحوه عن مالك، والمشهور عنه جواز الإحرام بالحج في جميع السنة من غير كراهة. وروي مثله عن أبي حنيفة. وعلى هذا القول ينبغي أن ينظر في فائدة توقيت الحج بالأشهر المذكورة في الآية. وقد قيل: إن النص عليها لزيادة فضلها. وقد روي القول بجواز الإحرام في جميع السنة عن إسحاق بن راهويه، وإبراهيم النخعي، والثوري، والليث بن سعد، واحتج لهم بقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: 189] فجعل الأهلة كلها مواقيت للحج، ولم يخص الثلاثة الأشهر، ويجاب بأن هذه الآية عامة، وتلك خاصة، والخاص مقدم على العام. ومن جملة ما احتجوا به القياس للحج على العمرة، فكما يجوز الإحرام للعمرة في جميع السنة، كذلك يجوز للحج، ولا يخفى أن هذا القياس مصادم للنص القرآني، فهو باطل، فالحق ما ذهب إليه الأولون إن كانت الأشهر المذكورة في قوله: ﴿الحج أشهر﴾ مختصة بالثلاثة المذكورة بنص، أو إجماع، فإن لم يكن كذلك، فالأشهر جمع شهر، وهو من جموع القلة يتردد ما بين الثلاثة إلى العشرة، والثلاثة هي المتيقنة، فيجب الوقوف عندها، ومعنى قوله: ﴿معلومات﴾ أن الحج في السنة مرة واحدة في أشهر معلومات من شهورها ليس كالعمرة، أو المراد معلومات ببيان النبي ﷺ، أو معلومات عند المخاطبين لا يجوز التقدم عليها، ولا التأخر عنها، قوله: ﴿فمن فرض فيهنّ الحج﴾ أصل الفرض في اللغة: الحرّ والقطع، ومنه فرضة القوس، والنهر، والجبل، وفرضية الحج لازمة للعبد الحر كلزوم الحرّ للقوس، وقيل معنى فرض: إبان، وهو أيضاً يرجع إلى القطع؛ لأن من قطع شيئاً فقد إبانه عن غيره. والمعنى في الآية: فمن ألزم نفسه فيهنّ الحج بالشروع فيه بالنية قصداً باطناً، وبالإحرام فعلاً ظاهراً، وبالتلبية نطقاً مسموعاً. وقال أبو حنيفة: إن إلزامه نفسه يكون بالتلبية، أو بتقليد الهدي، وسوقه، وقال الشافعي: تكفي النية في الإحرام بالحج. والرفث قال ابن عباس، وابن جبير، والسدي، وقتادة، والحسن، وعكرمة، والزهري، ومجاهد، ومالك: هو الجماع. وقال ابن عمر، وطاوس، وعطاء، وغيرهم: الرفث: الإفحاش بالكلام. قال أبو عبيدة: الرفث: اللغاء من الكلام، وأنشد:

وربّ أسراب حبيج كظم عن اللغا ورفث التكلم
يقال رفث يرفث بكسر الفاء، وضمها. والفسوق: الخروج عن حدود الشرع؛ وقيل: هو الذبح للأصنام، وقيل: التنازع بالالاقاب؛ وقيل: السباب. والظاهر أنه لا يختص بمعصية معينة، وإنما خصصه من خصصه بما نكر باعتباره أنه قد أطلق، على ذلك الفرد اسم الفسوق، كما قال سبحانه في الذبح للأصنام ﴿أَوْ فَسَقًا أَهْلَ لَغِيرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [الأنعام: 145]. قال في التنازع ﴿بشئ الاسم الفسوق﴾ [الحجرات: 11].

التروية يوم، ويوم التروية، ويوم عرفة، فإن فاتته صامهنّ أيام التشريق. وأخرج هؤلاء إلا ابن أبي حاتم، والبيهقي، عن ابن عمر مثله إلا أنه قال: وإذا فاتته صام أيام منى، فإنهنّ من الحج. وأخرج ابن جرير، والدارقطني، والبيهقي، عن ابن عمر نحوه مرفوعاً. وأخرج ابن أبي شيبة، عن علقمة، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة مثله. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس قال: الصيام للمتمتع ما بين إحرامه إلى يوم عرفة. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس في الآية قال: إذا لم يجد المتمتع بالعمرة هنياً، فعليه صيام ثلاثة أيام في الحج قبل يوم عرفة، وإن كان يوم عرفة الثالث، فقد تمّ صومه، وسبعة إذا رجع إلى أهله. وأخرج الدارقطني عن عائشة سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من لم يكن معه هدي، فليصم ثلاثة أيام قبل يوم النحر، ومن لم يكن صام تلك الثلاثة الأيام، فليصم أيام التشريق». وأخرج أيضاً عن عبد الله بن حذافة: «أن رسول الله ﷺ أمره في رمط أن يطوفوا في منى في حجة الوداع، فينابوا: إن هذه أيام أكل، وشرب، وذكر الله، فلا نصوم فيهنّ إلا صوماً في هدي». وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، عن عطاء في قوله تعالى: ﴿ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام﴾ قال: ست قريبات: عرفة، وعرة، والرجيع والنخلتان، ومزّ الظهران، وضجتان، وقال مجاهد: هم أهل الحرم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس. قال:

أَلَمْ يَأْمُرْ أَشْهُرٌ مَّمْلُوكَةٌ مَمْنُورَةٌ فِيهِمْ لَحَجٌّ فَلَا رَفْعَ وَلَا سُوءَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَعْمَلُوا مِنْ حَيْرٍ يَمْلِكُهُ اللَّهُ وَتَسْرُدُوا فَرَاكَ حَيْرٍ أَرَادَ الْقَوْلُ وَأَقْوَمُ يَأْتِي الْأَنْبِيَاءُ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَقْبَضْتُمْ مِنْ عَرَقَتِ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْأَشْهُرِ الْحَرَامِ وَأَذْكُرُوا كَمَا هَدَيْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ بَيْنِهِمْ لَوْنُ الْفَكَالَيْنِ ﴿١٩٠﴾

قوله: ﴿الحج أشهر﴾ فيه حذف، والتقدير: وقت الحج أشهر، أي: وقت عمل الحج، وقيل التقدير: الحج في أشهر، وفيه أنه يلزم النصب مع حذف حرف الجر لا الرفع. قال الفراء: الأشهر رفع؛ لأن معناه وقت الحج أشهر معلومات، وقيل التقدير: الحج حج أشهر معلومات. وقد اختلف في الأشهر المعلومات، فقال ابن مسعود، وابن عمر، وعطاء، والربيع، ومجاهد، والزهري: هي شوال، وذو القعدة، وذو الحجة كله، وبه قال مالك. وقال ابن عباس، والسدي، والشعبي، والنخعي: هي شوال، وذو القعدة، وعشر من ذي الحجة، وبه قال أبو حنيفة، والشافعي، وأحمد، وغيرهم. وقد روي أيضاً عن مالك. ويظهر فائدة الخلاف في ما وقع من أعمال الحج بعد يوم النحر، فمن قال إن ذا الحجة كله من الوقت لم يلزمه دم التأخير، ومن قال ليس إلا العشر منه قال يلزم دم التأخير. وقد استدلل بهذه الآية من قال إنه لا يجوز الإحرام بالحج قبل أشهر الحج، وهو عطاء، وطلوس، ومجاهد، والأوزاعي، والشافعي، وأبو ثور قالوا: فمن أحرم

تَقَرَّرَ تاء التانيث في بنت؛ لأن التاء التي هي بدل من الواو لاختصاصها بالموثوث كتاء التانيث، فابت تقديرها. انتهت.

وسميت عرفات؛ لأن الناس يتعارفون فيها، وقيل: إن آدم التقى هو وحواء فيها، فتعارفا، وقيل غير ذلك، قال ابن عطية: والظاهر أنه اسم مرتجل كسائر أسماء البقاع، واستدل بالأية على وجوب الوقوف بعرفة؛ لأن الإفاضة لا تكون إلا بعده، والمراد بذكر الله عند المشعر الحرام: دعاؤه، ومنه التلبية والتكبير، وسمي المشعر مشعراً من الشعار، وهو: العلامة، والدعاء عنده من شعائر الحج، ووصف بالحرام لحرمة، وقيل: المراد بالذكر: صلاة المغرب، والعشاء بالمرتلة جمعاً. وقد أجمع أهل العلم على أن السنة أن يجمع الحاج بينهما فيها. والمشعر: هو جبل قزح الذي يقف عليه الإمام، وقيل: هو ما بين جبلي المرتلة من مازمي عرفة إلى وادي محسر. قوله: ﴿وَأَنكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾ الكاف نعت مصدر محذوف، وما مصدرية، أو كافة أي: أنكروه نكراً حسناً، كما هداكم هداية حسنة، وكَبَّرَ الأمر بالذكر تأكيداً، وقيل: الأول أمر بالذكر عند المشعر الحرام، والثاني أمر بالذكر على حكم الإخلاص، وقيل: المراد بالثاني تعيد النعمة عليهم، و «إن» في قوله: ﴿وَأَن كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ﴾ مخففة كما يفيد دخول اللام في الخبر، وقيل: هي بمعنى قد، أي: قد كنتم، والضمير في قوله: ﴿مَنْ قَبْلِهِ﴾ عائد إلى الهدى، وقيل: إلى القرآن.

وقد أخرج الطبراني في الأوسط، وابن مريويه، عن أبي
أمامة قال: قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿الحج
أشهر معلومات﴾ شوال، ونو القعدة، ونو الحجة. وأخرج
الطبراني في الأوسط أيضاً، عن ابن عمر مرفوعاً مثله.
وأخرج الخطيب، عن ابن عباس مرفوعاً مثله أيضاً. وأخرج
سعيد بن منصور، وابن المنذر، عن عمر بن الخطاب موقوفاً
مثله. وأخرج الشافعي في الأم، وسعيد بن منصور، وابن
أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن
أبي حاتم، عن ابن عمر موقوفاً مثله. وأخرج ابن أبي شيبة،
عن ابن عباس، وعطاء، والضحاك مثله. وأخرج سعيد بن
منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن
المنذر، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه من طرق، عن
ابن عمر في قوله: ﴿الحج أشهر معلومات﴾ قال شوال،
ونو القعدة، وعشر ليالٍ من ذي الحجة. وأخرجوا إلا الحاكم،
عن ابن مسعود مثله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير،
وابن المنذر، والطبراني، والبيهقي، عن ابن عباس من طرق
مثله. وأخرج ابن المنذر، والدارقطني، والطبراني، والبيهقي
عن عبد الله بن الزبير مثله أيضاً. وأخرج ابن أبي شيبة، عن
الحسن، ومحمد، وإبراهيم مثله. وأخرج عبد بن حميد، وابن
جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن ابن عمر في قوله:
﴿فمن فرض فيهنّ الحج﴾ قال: من أهل فيهنّ بحج،
وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، والبيهقي عن ابن
مسعود قال الفرض: الإحرام. وأخرج ابن أبي شيبة، عن ابن

وقال ﷺ في السباب: «سباب المسلم فسوق». ولا يخفى على عارف أن إطلاق اسم الفسوق على فرد من أفراد المعاصي لا يوجب اختصاصه به. والجدال مشتق من الجدل، وهو القتل، والمراد به هنا: المماراة، وقيل: السباب، وقيل الفخر بالآباء. والظاهر الأوّل، وقد قرئ بنصب الثلاثة، ورفعها، ورفع الأوّلين، ونصب الثالث، وعكس ذلك، ومعنى الثني لهذه الأمور النهي عنها. وقوله: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ حثّ على الخير بعد ذكر الشرّ، وعلى الطاعة بعد ذكر المعصية، وفيه أن كل ما يفعلونه من ذلك، فهو معلوم عند الله لا يفوت منه شيء. وقوله: ﴿وَتَزَوَّاتُ﴾ فيه الأمر باتخاذ الزاد: لأن بعض العرب كانوا يقولون كيف نحج بيت ربنا، ولا يطعمنا؟ فكانوا يحجون بلا زاد، ويقولون: نحن متوكلون على الله سبحانه، وقيل: المعنى تزوّاتوا لمعانيكم من الأعمال الصالحة ﴿فَإِنْ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ والأوّل أرجح كما يدل على ذلك سبب نزول الآية، وسيأتي وقوله: ﴿فَإِنْ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ إخبار بأن خير الزاد اتقاء للمنهيات، فكأنه قال: اتقوا الله في إتيان ما أمركم به من الخروج بالزاد، فإن خير الزاد التقوى، وقيل: للمعنى فإن خير الزاد ما اتقى به المسافر من الهلكة، والحاجة إلى السؤال، والتكف، وقوله: ﴿وَاتَّقُوا يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ فيه التخصيص لأولي الألباب بالخطاب بعد حثّ جميع العباد على التقوى؛ لأن أرباب الألباب هم القابلون لأوامر الله الناهضون بها، ولَبَّ كل شيء خالصه. قوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾ فيه الترخيص لمن حجّ في التجارة، ونحوها من الأعمال التي يحصل بها شيء من الرزق، وهو المراد بالفضل هنا، ومنه قوله تعالى: ﴿فَانْتَشَرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: 10] أي: لا إثم عليكم في أن تبتغوا فضلاً من ربكم. مع سفركم لتأنيبه ما افترضه عليكم من الحج. قوله: ﴿فَإِذَا أَقَضْتُمْ﴾ أي: بفعتم، يقال: فاض الإناء: إذا امتلأ ماء حتى ينصبّ من نواحيه؛ ورجل فياض أي: متدفقة يداه بالعطاء، ومعناه: أقضتم أنفسكم، فترك ذكر المفعول، كما ترك في قولهم نفعا من موضع كذا. وعرفات: اسم لتلك البقعة، أي: موضع الوقوف، وقرأه الجماعة بالتثوين، وليس التثوين هنا للفرق بين ما ينصرف، وما لا ينصرف، وإنما هو بمنزلة النون في مسلمين. قال النحاس: هذا الجيد. وحكى سيبويه عن العرب حذف التثوين من عرفات قال: لما جعلوها معرفة حذفوا التثوين. وحكى الأخفش، والكوفيون فتح التاء تشبيهاً بتاء فاطمة، وأنشدوا: تنزّرتها من أرعات وأهلها بيثرب أنني دارها نظر عالي وقال في الكشف: فإن قلت هلا منعت الصرف، وفيها السببان التعريف، والتأنيث، قلت: لا يخلو للتأنيث، إما أن يكون بالتاء التي في لفظها، وإما بتاء مقترنة كما في سعاد، فالتاء في لفظها ليست للتأنيث، وإنما هي مع الألف التي قبلها علامة جمع المؤنث، ولا يصح تقدير التاء فيها؛ لأن هذه التاء اختصاصها بجمع المؤنث مانعة من تقديرها، كما لا

بين اللازم، والمتعدي. وقوله: ﴿أولئك﴾ إشارة إلى الفريق الثاني ﴿لهم نصيب من﴾ جنس ﴿ما كسبوا﴾ من الأعمال أي: من ثوابها، ومن جملة أعمالهم الدعاء، فما أعطاهم الله بسببه من الخير، فهو مما كسبوا، وقيل: إن معنى قوله: ﴿مما كسبوا﴾ التعليل. أي: من أجل ما كسبوا، وهو بعيد، قيل إن قوله: ﴿أولئك﴾ إشارة إلى الفريقين جميعاً، أي: للأولين نصيب من الدنيا، ولا نصيب لهم في الآخرة، وللآخرين نصيب مما كسبوا في الدنيا، وفي الآخرة. وسريع من سرع يسرع كعظم يعظم سرعاً، وسرعة، والحساب مصدر كالمحاسبة، وأصله العدد، يقال: حسب يحسب حساباً، وحساباً، وحسباناً، وحسباً. والمراد هنا المحسوب، سمي حساباً تسمية للمفعول بالمصدر، والمعنى: أن حسابه لعباده في يوم القيامة سريع مجيئه، فبادروا ذلك بأعمال الخير، أو أنه وصف نفسه بسرعة حساب الخلائق على كثرة عددهم، وأنه لا يشغله شأن عن شأن، فيحاسبهم في حالة واحدة كما قال تعالى: ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾ [لقمان: 28]، وقوله: ﴿في أيام معدودات﴾ قال القرطبي: لا خلاف بين العلماء أن الأيام المعدودات في هذه الآية هي: أيام منى، وهي أيام التشريق، وهي أيام رمي الجمار. وقال الثعلبي: قال إبراهيم: الأيام المعدودات أيام العشر، والأيام للمعلومات أيام النحر. وكذا روي عن مكي، والمهدي. قال القرطبي: ولا يصح لما نكرناه من الإجماع على ما نقله أبو عمر بن عبد البر، وغيره وروى الطحاوي عن أبي يوسف أن الأيام المعلومات أيام النحر، قال: لقوله تعالى: ﴿ويذكروا الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾ [الحج: 28] وحكى الكرخي عن محمد بن الحسن أن الأيام المعلومات أيام النحر الثلاثة: يوم الأضحي، ويومان بعده. قال لكيا الطبري: فعلى قول أبي يوسف، ومحمد لا فرق بين المعلومات، والمعدودات، لأن المعدودات المذكورة في القرآن أيام التشريق بلا خلاف. وروي عن مالك أن الأيام المعدودات، والأيام المعلومات يجمعها أربعة أيام، يوم النحر، وثلاثة أيام بعده، فيوم النحر معلوم غير معدود، واليومان بعده معلومان معدودان، واليوم الرابع معدود لا معلوم، وهو مروى عن ابن عمر. وقال ابن زيد: الأيام المعلومات: عشر ذي الحجة، وأيام التشريق. والمخاطب بهذا الخطاب المذكور في الآية، أعني قوله تعالى: ﴿وانكروا الله في أيام معدودات﴾ هو الحاج، وغيره كما ذهب إليه الجمهور، وقيل: هو خاص بالحاج. وقد اختلف أهل العلم في وقته، فقيل: من صلاة الصبح يوم عرفة إلى العصر من آخر أيام التشريق، وقيل: من غداة عرفة إلى صلاة العصر من آخر النحر، وبه قال أبو حنيفة، وقيل: من صلاة الظهر يوم النحر إلى صلاة الصبح من آخر أيام التشريق، وبه قال مالك، والشافعي، وقوله: ﴿فمن تعجل﴾ الآية، اليومان هما يوم ثاني النحر، ويوم ثالث. وقال ابن عباس، والحسن، وعكرمة، ومجاهد، وقتادة، والنخعي: من

قريش، لأنهم كانوا لا يقفون مع الناس بعرفات. بل كانوا يقفون بالمزلفة، وهي من الحرم، فأمروا بذلك، وعلى هذا تكون، ثم لعطف جملة على جملة لا للترتيب. وقيل: الخطاب لجميع الأمة، والمراد بالناس إبراهيم، أي: ثم أقيضوا من حيث أفاض إبراهيم، فيحتمل أن يكون أمراً لهم بالإفاضة من عرفة. ويحتمل أن يكون إفاضة أخرى، وهي التي من المزلفة، وعلى هذا تكون، ثم على بابها أي: للترتيب، وقد رجح هذا الاحتمال الأخير ابن جرير الطبري، وإنما أمروا بالاستغفار؛ لأنهم في مساقط الرحمة، ومواطن القبول، ومظنات الإجابة، وقيل: إن المعنى استغفروا للذي كان مخالفاً لسنة إبراهيم، وهو: وقوفكم بالمزلفة نون عرفة، والمراد بالمناسك: أعمال الحج، ومنه قوله: ﴿خذوا عني مناسككم﴾ أي: فإذا فرغتم من أعمال الحج، فأنكروا الله، وقيل المراد: بالمناسك الذبائح، وإنما قال سبحانه: ﴿كنكروكم آباءكم﴾ لأن العرب كانوا إذا فرغوا من حجهم يقفون عند الجمرة، فيذكرون مفاخر آبائهم، ومناقب أسلافهم، فأمروهم الله بنكره مكان ذلك النكر، ويجعلونه نكراً مثل نكرهم لأبائهم، أو أشد من نكرهم لأبائهم. قال الزجاج: إن قوله: ﴿أو أشد﴾ في موضع خفض عطفًا على نكرهم، والمعنى، أو كاشد نكراً، ويجوز أن يكون في موضع نصب: أي أنكروه أشد نكراً. وقال في الكشف: إنه عطف على ما أضيف إليه النكر في قوله: ﴿كنكروكم﴾ كما تقول كنكر قريش آباءهم، أو قوم أشد منهم نكراً. وقوله: ﴿فمن الناس من يقول﴾ الآية، لما أرشد سبحانه عباده إلى نكره، وكان الدعاء نوعاً من أنواع النكر جعل من يدعو منقسماً إلى قسمين: أحدهما يطلب حظ الدنيا، ولا يلتفت إلى حظ الآخرة، والقسم الآخر يطلب الأمرين جميعاً، ومفعول الفعل، أعني قوله: ﴿فتن﴾ محذوف أي: ما نريد، أو ما نطلب، والواو في قوله: ﴿وما له﴾ واو الحال، والجملة بعدها حالية. والخلاق: النصيب، أي: وما لهذا الداعي في الآخرة من نصيب؛ لأن همه مقصور على الدنيا لا يريد غيرها، ولا يطلب سواها. وفي هذا الخبر معنى النهي عن الاقتصار على طلب الدنيا، والذم لمن جعلها غاية رغبته، ومعظم مقصوده. وقد اختلف في تفسير الحسنتين المذكورتين في الآية، فقيل: هما ما يطلبه الصالحون في الدنيا من العافية، وما لا بدّ منه من الرزق، وما يطلبونه في الآخرة من نعيم الجنة والرضا؛ وقيل المراد بحسنة الدنيا: الزوجة الحسنة، وحسنة الآخرة: الحور العين، وقيل حسنة الدنيا: العلم والعبادة، وقيل غير ذلك. قال القرطبي: والذي عليه أكثر أهل العلم أن المراد بالحسنتين: نعيم الدنيا، والآخرة. قال: وهذا هو الصحيح، فإن اللفظ يقتضي هذا كله، فإن حسنة نكرة في سياق الدعاء، فهو محتمل لكل حسنة من الحسنات على البذل، وحسنة الآخرة: الجنة بإجماع. انتهى. قوله: ﴿وقنا﴾ أصله أوقنا حنفت الواو، كما حنفت في يقي؛ لأنها بين ياء، وكسرة مثل يعد، هذا قول البصريين. وقال الكوفيون: حنفت فرقاً

عام غيث، وعام خصب، وعام ولاد حسن، لا يذكرون من أمر الآخرة شيئاً، فأنزل الله فيهم: ﴿فَمَنْ النَّاسُ مِنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ ويجئ بعدهم آخرون من المؤمنين فيقولون ﴿وَبِئْسَ آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقَدْ آتَيْنَا فِي الْآخِرَةِ خَيْرًا﴾ فأنزل الله فيهم: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ وأخرج الطبراني، عن عبد الله بن الزبير قال: كان الناس في الجاهلية إذا وقفوا عند المشعر الحرام دعوا، فقال أحدهم: اللهم ارزقني إبلاً، وقال الآخر: اللهم ارزقني غنماً، فأنزل الله الآية. وأخرج ابن جرير، عن أنس أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراً، فيدعون: اللهم اسقنا المطر، وأعطينا على عدونا الظفر، وربنا صالحين إلى صالحين، فنزلت الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عطاء في قوله: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا﴾ قال: مما عملوا من الخير. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ قال: سريع الإحصاء. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي الدنيا، وابن أبي حاتم، عن عليّ قال: الأيام المعدودات ثلاثة أيام: يوم الأضحى، ويومان بعده، اتبع في أيها شئت، وأفضلها أولها. وأخرج الفريابي، وابن أبي الدنيا، وابن المنذر، عن ابن عمر أنها أيام التشريق الثلاثة. وفي لفظ: هذه الأيام الثلاثة بعد يوم النحر. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب، والضياء في المختارة، عن ابن عباس قال: الأيام المعلومات أيام العشر، والأيام المعدودات أيام التشريق. وأخرج الطبراني، عن ابن الزبير قال في قوله: ﴿وَأَنذَرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ قال: هنّ أيام التشريق، ينكر فيهنّ بتسبيح، وتلهيل، وتكبير، وتحميد، وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: الأيام المعدودات أربعة أيام: يوم النحر، والثلاثة أيام بعده. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عمر أنه كان يكبر تلك الأيام بمنى، ويقول التكبير واجب، ويتأول هذه الآية: ﴿وَأَنذَرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾. وأخرج ابن جرير، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس أنه كان يكبر يوم النحر، ويتلو هذه الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عكرمة في قوله: ﴿وَأَنذَرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ قال: التكبير أيام التشريق، يقول في دبر كل صلاة: الله أكبر الله أكبر الله أكبر. وأخرج ابن المنذر، عن ابن عمر أنه كان يكبر ثلاثاً ثلاثاً وراء الصلوات ويقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. وأخرج المروزي عن الزهري قال: كان رسول الله ﷺ يكبر أيام التشريق كلها. وأخرج مالك، عن يحيى بن سعيد أنه بلغه أن عمر بن الخطاب خرج الغد من يوم النحر بمنى حين ارتفع النهار شيئاً، فكبر، وكبر الناس بتكبيره، ثم خرج الثانية في يومه ذلك بعد ارتفاع النهار، فكبر، وكبر الناس بتكبيره حتى بلغ تكبيرهم البيت، ثم خرج الثالثة من يومه ذلك حين زاغت الشمس، فكبر، وكبر الناس بتكبيره. وقد ثبت في الصحيح من حديث ابن عمر أن النبي ﷺ كان

رمى في اليوم الثاني من الأيام المعدودات، فلا حرج، ومن تأخر إلى الثالث، فلا حرج، فمعنى الآية كل ذلك مباح، وعبر عنه بهذا التقسيم اهتماماً، وتأكيداً؛ لأن من العرب من كان يذمّ التعجل، ومنهم من كان يذمّ التأخر، فنزلت الآية رافعة للجناح في كل ذلك. وقال عليّ، وابن مسعود: معنى الآية: من تعجل، فقد غفر له، ومن تأخر، فقد غفر له والآية قد دلت على أن التعجل، والتأخر مباحان. وقوله: ﴿لِمَنْ لَتَقَى﴾ معناه أن التخخير، ورفع الإثم ثابت لمن اتقى؛ لأن صاحب التقوى يتحرّز، عن كل ما يريبه، فكان أحق بتخصيصه بهذا الحكم. قال الأخفش: التقدير ذلك لمن اتقى، وقيل: لمن اتقى بعد انصرافه من الحج عن جميع المعاصي، وقيل: لمن اتقى قتل الصيد؛ وقيل معناه: السلامة لمن اتقى، وقيل: هو متعلق بالذكر أي: الذكر لمن اتقى.

وقد أخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما، عن عائشة قالت: «كانت قريش، ومن دأن بينها يقفون بالمزلفة، وكانوا يسمون الحمس، وكانت سائر العرب يقفون بعرفات، فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه أن يأتي عرفات، ثم يقف بها ثم يفيض منها، فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾. ولخرجوا أيضاً، عنها موثقاً، نحوه. وقد ورد في هذا المعنى روايات، عن الصحابة، والتابعين. وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال: إذا كان يوم عرفة هبط الله إلى سماء الدنيا في الملائكة، فيقول لهم: عبادي آمنوا بوعدي، وصنّوا برسلي ما جزأؤهم؟ فيقال: أن تغفر لهم، فذلك قوله: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. وقد وردت أحاديث كثيرة في المغفرة لأهل عرفة، ونزول الرحمة عليهم، وإجابة دعائهم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عطاء في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتْ مِنْاسِكُكُمْ﴾ قال: حجكم. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن مجاهد في قوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتْ مِنْاسِكُكُمْ﴾ قال: إهراق الدماء ﴿فَإَنذَرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾ قال: تفاخر العرب بينها بفعل آبائهم يوم النحر حين يفرغون، فأمروا بذكر الله مكان ذلك. وأخرج البيهقي في الشعب عن ابن عباس قال: كان المشركون يجلسون في الحج، فيذكرون أيام آبائهم، وما يعنون من أنسابهم يومهم أجمع، فأنزل الله على رسوله: ﴿فَإَنذَرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ إِشْرَافَكُمْ﴾. وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني عن عبد الله بن الزبير نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن جرير، عن سعيد بن جبيرة، وعكرمة نحوه أيضاً. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس في قوله: ﴿كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾ يقول: كما ينكر الابناء الآباء. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس أيضاً أنه قيل له في قوله: ﴿كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾ إن الرجل ليأتي عليه اليوم، وما ينكر أباه، فقال: إنه ليس بذلك، ولكن يقول: تغضب لله إذا عصي أشد من غضبك إذا نكر والدك بسوء. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: كان قوم من الأعراب يجيئون إلى الموقف، فيقولون: اللهم اجعله

وقرأ أبي، وابن مسعود: «ويستشهد الله على ما في قلبه». وقوله: ﴿ففي الحياة الدنيا﴾ متعلق بالقول، أو بـ «يعجبك»، فعلى الأول القول صادر في الحياة، وعلى الثاني الإعجاب صادر فيها. والألف: التشديد الخصومة. يقال: رجل ألد، وامرأة لداء، ولدت له: إذا جالته، فغلبته، ومنه قول الشاعر:

والذي جف عفلي كأنما نغلى عداوة صدره في مرجل
والخصام مصدر خاصم. قاله الخليل، وقيل: جمع خصم، قاله الزجاج ككلب، وكلاب، وصعب، وصعاب، وضخم، وضخام. والمعنى: أنه أشد المخاصمين خصومة، لكثرة جداله، وقوة مراجعته، وإضافة الألف إلى الخصام بمعنى في. أي: ألد في الخصام، أو جعل الخصام ألد على المبالغة. وقوله: ﴿وإذا تولي﴾ أي: أبر، وذهب عنك يا محمد، وقيل: إنه بمعنى ضل، وغضب، وقيل: إنه بمعنى الولاية، أي: إذا كان والياً فعل ما يفعله ولاية السوء من الفساد في الأرض. والسعي المنكور يحتمل أن يكون المراد به السعي بالقدمين إلى ما هو فساد في الأرض، كقطع الطريق، وحرب المسلمين، ويحتمل أن يكون المراد به العمل في الفساد، وإن لم يكن فيه سعي بالقدمين، كالتبشير على المسلمين بما يضرهم، وأعمال الحيل عليهم، وكل عمل يعمل الإنسان بجوارحه، أو حواسه يقال له سعي، وهذا هو الظاهر من هذه الآية. وقوله: ﴿وبهلك﴾ عطف على قوله: ﴿يلفسد﴾ وفي قراءة أبي: «وليهلك». وقراء قتادة بالرفع. وروي عن ابن كثير: ﴿وبهلك﴾ بفتح الياء وضم الكاف، ورفع الحرث، والنسل. وهي قراءة الحسن، وابن محيصن. والمراد بالحرث: الذرع والنسل: الأولاد، وقيل الحرث: النساء. قال الزجاج: وذلك، لأن النفاق يؤدي إلى تفريق الكلمة، ووقوع القتال، وفيه هلاك الخلق، وقيل معناه: أن الظلم يفسد في الأرض، فيمسخ الله المطر، فيهلك الحرث، والنسل. وأصل الحرث في اللغة: الشق، ومنه المحراث لما يشق به الأرض، والحرث: كسب المال، وجمعه. وأصل النسل في اللغة: الخروج، والسقوط، ومنه نسل الشعر، ومنه أيضاً ﴿إلى ربه ينسلون﴾ [يس: 51] ﴿وهم من كل حذب ينسلون﴾ [الأنبياء: 96]، ويقال لما خرج من كل أنثى نسل لخروجه منها. وقوله: ﴿والله لا يحب الفساد﴾ يشمل كل نوع من أنواعه من غير فرق بين ما فيه فساد الدين، وما فيه فساد الدنيا. والعزة: القوة والغلبة، من عزه يعزه: إذا غلبه، ومنه ﴿وعزني في الخطاب﴾ [ص: 23] وقيل: العزة هنا: الحمية، ومنه قول الشاعر:

أخذته عزة من جهله فتولى مغضباً فعل الضجر
وقيل العزة هنا: المنعة وشدة النفس. ومعنى: ﴿أخذته العزة بالإثم﴾ حملته العزة على الإثم، من قولك أخذته بكذا: إذا حملته عليه، والزمته إياه، وقيل: أخذته العزة بما يؤثمه أي: ارتكب الكفر للعزة، ومنه ﴿هل الذين كفروا في عزة وشقاق﴾ [ص: 2] وقيل: الباء في قوله: ﴿بالإثم﴾ بمعنى اللام، أي: أخذته العزة، والحمية عن قبول الوعظ للإثم الذي

يرمي الجمار، ويكبر مع كل حصاة. وقد روي نحو ذلك من حديث عائشة عند الحاكم وصححه. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه﴾ قال: في تعجيله: ﴿ومن تأخر فلا إثم عليه﴾ قال: في تأخيره. وأخرج ابن جرير، عن ابن عمر قال: أنظر في يومين لمن اتقى. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم عنه قال: من غابت له الشمس في اليوم الذي قال الله فيه: ﴿فمن تعجل في يومين﴾ وهو بمعنى، فلا يتفرق حتى يرمى الجمار من الغد، وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿لمن اتقى﴾ قال: لمن اتقى الصيد، وهو محرم. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وأهل السنن، والحاكم وصححه، عن عبد الرحمن بن يعمر الليلي: سمعت رسول الله ﷺ يقول، وهو واقف بعرفة، وأتاه الناس من أهل مكة، فقالوا: يا رسول الله كيف الحج؟ قال: الحج عرفات، فمن أترك ليلة جمع قبل أن يطلع الفجر، فقد أترك أيام منى ثلاثة أيام: ﴿فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه﴾ قال: مغفوراً له: ﴿ومن تأخر فلا إثم عليه﴾ قال مغفوراً له. وأخرج ابن جرير، عن قتادة في قوله: ﴿لمن اتقى﴾ قال: لمن اتقى في حجه. قال قتادة، ونكر لنا أن ابن مسعود كان يقول: من اتقى في حجه غفر له ما تقدم من ذنبه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن أبي العالية في قوله: ﴿فلا إثم عليه لمن اتقى﴾ قال: ذهب إثمك كله إن اتقى فيما بقي من عمره.

وَمَنْ أَتَىٰ مِنْ يُحِبُّكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ. وَهُوَ أَلَدُّ الْإِصْبَارِ ﴿٩٦﴾ وَإِذَا قُلٌّ سَكَنَ فِي الْأَرْضِ يُغَيِّدْ فِيهَا وَيُهْلِكُ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرَ ﴿٩٧﴾ رَدًّا يَكُلُّ لَهْ أَتَىٰ اللَّهُ أَهْلَهُ أَوْرَثُهُ بِالْأَرْضِ فَسَبَّحَهُ جَهَنَّمَ وَلَيْسَ الْيَهُودُ ﴿٩٨﴾ وَمِنْ أَلَىٰ مَنْ يَسْرِى نَفْسُهُ أَيْفَاءً مَهَكَاتِ اللَّهُ وَاللَّهُ زَوْرًا بِالْإِسْكَادِ ﴿٩٩﴾
لما نكر سبحانه طائفتي المسلمين بقوله: ﴿فمن الناس من يقول﴾ عقب ذلك بذكر طائفة المنافقين، وهم الذين يظهرون الإيمان، ويبطنون الكفر. وسبب النزول الأخنس بن شريق كما يأتي بيانه. قال ابن عطية: ما ثبت قط أن الأخنس أسلم، وقيل إنها نزلت في قوم من المنافقين، وقيل: إنها نزلت في كل من أضمر كفرًا، أو نفاقًا، أو كذبًا، وأظهر بلسانه خلافه. ومعنى قوله: ﴿يعجبك﴾ واضح. ومعنى قوله: ﴿ويشهد الله على ما في قلبه﴾ أنه يحلف على ذلك فيقول: يشهد الله على ما في قلبي من محبتك، أو من الإسلام، أو يقول: الله يعلم أنني أقول حقًا، وأني صادق في قلبي لك. وقرأ ابن محيصن: ﴿ويشهد الله﴾ بفتح حرف المضارعة، ورفع الاسم الشريف على أنه فاعل، والمعنى: ويعلم الله منه خلاف ما قال، ومثله قوله تعالى: ﴿والله يشهد إن المنافقين لكاذبون﴾ [المنافقون: 1] وقراءة الجماعة أبلغ في الذم. وقرأ ابن عباس: ﴿والله يشهد على ما في قلبه﴾

والدواب. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد أيضاً أنه سئل، عن قوله: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ﴾ قال: يلي في الأرض، فيعمل فيها بالعدوان، والظلم، فيحبس الله بذلك القطر من السماء، فتهلك بحبس القطر الحرث، والنسل، والله لا يحب الفساد. ثم قرأ مجاهد: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: 41] الآية. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس أنه سئل عن قوله: ﴿وَيَهْلِكُ الْحَرْثُ وَالنَّسْلُ﴾ قال: الحرث الزرع، والنسل: نسل كل دابة. وأخرج ابن المنذر، والطبراني، والبيهقي في الشعب، عن ابن مسعود قال: «إن من أكبر الذنوب عند الله أن يقول الرجل لأخيه: اتق الله، فيقول عليك بنفسك أنت تامرني». وأخرج ابن المنذر، والبيهقي في الشعب، عن سفيان قال: قال رجل لمالك بن مغول: اتق الله، فسقط، فوضع خده على الأرض تواضعاً لله. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن المنذر، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَبِئْسَ الْمَهَادُ﴾ قال: بشس المنزل. وأخرج عن مجاهد قال: يشس ما شهدوا لأنفسهم. وأخرج ابن مريويه، عن صهيب قال: لما أردت الهجرة من مكة إلى النبي ﷺ قالت لي قريش: يا صهيب قدمت إلينا، ولا مال لك، وتخرج أنت، ومالك، والله لا يكون ذلك أبداً، فقلت لهم: لرايتم إن دفعت إليكم مالي تخلون عني؟ قالوا: نعم، فدفعت إليهم مالي، فخلوا عني، فخرجت حتى قدمت المدينة، فبلغ ذلك النبي ﷺ وسلم فقال: ربح البيع صهيب مرتين. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو نعيم في الحلية، وابن عساکر، عن سعيد بن المسيب، نحوه. وأخرج الطبراني، والحاكم، والبيهقي في الدلائل، عن صهيب، نحوه. وأخرج ابن المنذر، والحاكم وصححه، عن أنس قال: نزلت في خروج صهيب إلى النبي ﷺ. وأخرج ابن جرير، عن قتادة قال: هم المهاجرون والأنصار.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلَاحِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الْكَافِرِينَ إِنَّكُمْ لَكُمْ عَذَابٌ مُبِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَإِنْ رَكَبْتُمْ بَعْدَ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٨﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلُلٍ مِّنَ الْسَّامَاتِ وَلَئِنَّهُمُ الْآمِرُونَ عَلَى الْآمُورِ ﴿١٠٩﴾

لما نكر الله سبحانه أن الناس ينقسمون إلى ثلاث طوائف: مؤمنين، وكافرين، ومنافقين، أمرهم بعد ذلك بالكون على ملة واحدة. وإنما أطلق على الثلاث الطوائف لفظ الإيمان؛ لأن أهل الكتاب مؤمنون بنبيهم، وكتابهم، والمنافق مؤمن بلسانه، وإن كان غير مؤمن بقلبه. والسلم بفتح السين، وكسرهما قال الكسائي: ومعناها واحد، وكذا عند البصريين، وهما جميعاً يقعان للإسلام، والمسالمة. وقال أبو عمرو بن العلاء: إنه بالفتح للمسالمة، وبالكسر للإسلام. وأنكر المبرد هذه التفرقة. وقال الجوهري: السلم بفتح السين: الصلح، وتكسر، ويذكر ويؤنث، وأصله من

في قلبه، وهو: النفاق، وقيل: الباء بمعنى مع. أي: أخذته العزة مع الإثم. وقوله: ﴿فَحَسْبِهِ جَهَنَّمُ﴾ أي: كافية معاقبة، وجزاء، كما تقول للرجل: كفاك ما حل بك، وأنت تستعظم عليه ما حل به. والمهاد جمع المهد، وهو الموضع المهيأ للنوم، ومنه مهد الصبي، وسميت جهنم مهذاً؛ لأنها مستقر الكفار، وقيل المعنى: أنها بدل لهم من المهاد كقوله ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: 21] وقول الشاعر:

تحية بينهم ضرب وجيع

ويشري بمعنى يبيع، أي: يبيع نفسه في مرضاة الله كالجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ومثله قوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ [يوسف: 20] وأصله الاستبدال ومنه قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ [التوبة: 111]، ومنه قول الشاعر: وشريت برداً لي تنني من بعد برد كنت هامة ومنه قول الآخر:

يعطي بها ثمناً فيمنعها ويقول صاحبه ألا تشري والمرضاة: الرضا، تقول: رضي يرضى، رضا ومرضاة. ووجه نكر الرافة هنا أنه أوجب عليهم ما أوجبه ليجازيهم، ويثيبهم عليه، فكان ذلك رافة بهم، ولطفاً لهم.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: لما أصيبت السرية التي فيها عاصم، ومروث قال رجال من المنافقين: يا ويح هؤلاء المقتولين الذين هلكوا هكذا، لا هم قعدوا في أهلهم، ولا هم أدوا رسالة صاحبهم؟ فأنزل الله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْجَبُكُ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: ما يظهر من الإسلام بلسانه: ﴿وَيَشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾ أنه مخالف لما يقوله بلسانه: ﴿وَهُوَ لَدَى الْخَصَامِ﴾ أي: نر جدال إذا كلمك وراجعك: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى﴾ خرج من عندك: ﴿سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ والله لا يحب الفساد: أي: لا يحب عمله، ولا يرضى به: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ﴾ الذين يشرون أنفسهم من الله بالجهاد في سبيله، والقيام بحقه، حتى هلكوا على ذلك يعني: هذه السرية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن السدي في قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْجَبُكُ﴾ الآية، قال: نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي حليف بني زهرة أقبل إلى النبي ﷺ المدينة، وقال جئت أريد الإسلام، ويعلم الله أنني لصديق، فأعجب النبي ﷺ ذلك منه، فنزل قوله: ﴿وَيَشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾. ثم خرج من عند النبي ﷺ، فمَرَّ بِزَرْعٍ لِقَوْمٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَحِمْرٍ، فَأَحْرَقَ الزَّرْعَ، وَعَقَرَ الْحِمْرَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ﴾ الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَهُوَ لَدَى الْخَصَامِ﴾ قال هو: شديد الخصومة. وأخرج عبد بن حميد، عن مجاهد في قوله: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ﴾ قال عمل في الأرض: ﴿وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ﴾ قال نبات الأرض: ﴿وَالنَّسْلَ﴾ نسل كل شيء من الحيوان، الناس،

عدل إلى صيغة الماضي دلالة على تحققه؛ فكانه قد كان، أو جملة مستأنفة جيء بها للدلالة على أن مضمونها واقع لا محالة، أي: وفرغ من الأمر الذي هو إهلاكهم. وقرأ معاذ بن جبل: «وقضاء الأمر» بالمصدر عطفاً على الملائكة. وقرأ يحيى بن يعمر: «وقضى الأمور» بالجمع. وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي: «ترجع الأمور» على بناء الفعل للفعل، وقرأ الباقر بن علي البناء للمفعول.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ قال: يعني مؤمني أهل الكتاب، فإنهم كانوا مع الإيمان بالله مستمسكين ببعض أمر التوراة، والشرائع التي أنزلت فيهم، يقول: ادخلوا في شرائع دين محمد، ولا تدعوا منها شيئاً، وحسبكم الإيمان بالتوراة، وما فيها. وأخرج ابن جرير، عن عكرمة: إن هذه الآية نزلت في ثعلبة، وعبد الله بن سلام، وابن يامين، وأسد، وأسيد ابني كعب، وسعيد بن عمرو وقيس بن زيد كلهم من يهود قالوا: يا رسول الله يوم السبت يوم كنا نعظمه فدعنا فلنسب فيه، وإن التوراة كتاب الله، فلنقم بها الليل، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: السلم الطاعة لله، وكافة يقول: جميعاً. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه قال: السلم: الإسلام، والزلل: ترك الإسلام. وأخرج ابن جرير، عن السدي قال: ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ قال: فإن ظلمتم من بعد ما جاءكم محمد ﷺ. وأخرج ابن مريويه، عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «يجمع الله الأولين، والآخرين لميقات يوم معلوم قياماً شاخصاً أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء، وينزل الله في ظلل من الغمام من العرش إلى الكرسي». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة، عن ابن عمر في هذه الآية قال: يهبط حين يهبط، وبينه وبين خلقه سبعون ألف حجاب، منها النور، والظلمة، والماء، فيصوت الماء في تلك الظلمة صوتاً تتخلع له القلوب. وأخرج أبو يعلى، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في هذه الآية قال: يأتي الله يوم القيامة في ظلل من السحاب قد قطعت طاقات. وأخرج ابن جرير، والديلمي عنه أن النبي ﷺ قال: «إن من الغمام طاقات يأتي الله فيها محفوفات بالملائكة، وذلك قوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن عكرمة: ﴿فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾ قال: طاقات، والملائكة حوله. وأخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة في الآية قال: يأتيهم الله في ظلل من الغمام، وتأتيهم الملائكة عند الموت. وأخرج عن عكرمة في قوله: ﴿وَقَضَى الْأَمْرَ﴾ يقول: قامت الساعة.

سَلِّ بِحَسْرَتِهِ كَمْ أَتَيْتَهُمْ مِنْ آيَاتٍ يَتَوَكَّرُونَ مِنْ بَيْدَلِ وَجْهِ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٦﴾ زَيْنُ الْبَرِّ كَفَرُوا الْبَعْرُ الْأَذْيَانُ وَسَحَرُونَ مِنَ الْبَرِّ مَأْمُورًا وَالَّذِينَ أَتَوْا مُوَفَّقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ رِزْقُ مَنْ يَشَاءُ بِحَسْرَتِهِ

الاستسلام، والانقياد. ورجح الطبري أنه هنا بمعنى الإسلام، ومنه قول الشاعر الكندي:

دعوت عشيرتي للسلم لما رأيتهم تولوا مسيرين
أي: إلى الإسلام. وقرأ الأعمش: «السلم» بفتح السين، واللام. وقد حكى البصريون في سلم، وسلم، وسلم أنها بمعنى واحد: «وكافة» حال من السلم، أو من ضمير المؤمنين، فمعناه على الأول: لا يخرج منكم أحد، وعلى الثاني: لا يخرج من أنواع السلم شيء بل ادخلوا فيها جميعاً. أي: في خصال الإسلام، وهو مشتق من قولهم كففت، أي: منعت، أي: لا يمنع منكم أحد من الدخول في الإسلام، والكف: المنع، والمراد به هنا: الجميع ﴿ادخلوا في السلم كافة﴾ أي: جميعاً. وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أي: لا تسلكوا الطريق التي يدعوكم إليه الشيطان، وقد تقدم الكلام على خطوات. قوله: ﴿زَلَلْتُمْ﴾ أي: تنحيتكم عن طريق الاستقامة، وأصل الزلل في القدم، ثم استعمل في الاعتقادات، والآراء، وغير ذلك، يقال زل يزل زلاً، وزلاً، وزلواً، أي: نحضت قلبه. وقرأ: ﴿زَلَلْتُمْ﴾ بكسر اللام، وهما لغتان، والمعنى: فإن ضللتكم، وعزجتكم عن الحق: ﴿مَنْ بَعْدَ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ أي: الحجج الواضحة، والبراهين الصحيحة، أن الدخول في الإسلام هو: الحق ﴿فاعلموا أن الله عزيز﴾ غالب لا يعجزه الانتقام منكم ﴿حَكِيمٌ﴾ لا ينتقم إلا بحق. قوله ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ أي: ينتظرون، يقال: نظرت وانتظرت به معنى، والمراد هل ينتظر التاركون للدخول في السلم، والظلل جمع ظلة، وهي ما يظلك، وقرأ قتادة، وي زيد بن القعقاع: «في ظلال»، وقرأ يزيد أيضاً ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ بالجر عطفاً على الغمام، أو على ظلل. قال الأخفش: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ بالخفض بمعنى: وفي الملائكة قال: ورفع أجود. وقال الزجاج: للتقدير في ظلل من الغمام، ومن الملائكة. والمعنى: هل ينتظرون إلا أن يأتيهم الله بما وعدهم من الحساب، والعذاب في ظلل من الغمام، والملائكة. قال الأخفش: وقد يحتمل أن يكون معنى الإتيان راجعاً إلى الجزاء، فسمي الجزاء إتياناً كما سمي التخويف، والتعذيب في قصة ثمود إتياناً، فقال ﴿فَأَتَى اللَّهَ بَنِيانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾ [النحل: 26] وقال في قصة النضير ﴿فَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ [الحشر: 2] وإنما احتمل الإتيان هذا؛ لأن أصله عند أهل اللغة القصد إلى الشيء، فمعنى الآية: هل ينظرون إلا أن يظهر الله فعلاً من الأفعال مع خلق من خلقه يقصد إلى محاربتهم وقيل إن المعنى: يأتيهم أمر الله، وحكمه، وقيل: إن قوله: ﴿فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾ بمعنى بظلل، وقيل: المعنى: يأتيهم ببأسه في ظلل. والغمام: السحاب الرقيق الأبيض، سمي بذلك؛ لأنه يغم. أي: يستر. ووجه إتيان العذاب في الغمام على تقدير أن ذلك هو المراد ما في مجيء الخوف من محل الأمن من الفظاعة، وعظم الموقع؛ لأن الغمام مظنة الرحمة لا مظنة العذاب. وقوله: ﴿وَقَضَى الْأَمْرَ﴾ عطف على يأتيهم داخل في حيز الانتظار، وإنما

حَسَابٍ ﴿١٠٠﴾ كَانَ أَتَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُحْكُمَ بَيْنَ الَّذِينَ فِيهَا أَنْتَفَلَوْا فِيهِ وَتَأْمُنُوا عَلَيْهِمْ وَلَا الَّذِينَ أَوْفَوْا مِنْ بَعْدِهِمْ جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَيِّنَاتٍ مِنْهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا أَنْتَفَلَوْا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾

المأمور بالسؤال لبني إسرائيل هو النبي ﷺ، ويجوز أن يكون هو كل فرد من الساطلين، وهو سؤال تقرير وتوبيخ. و﴿حكم﴾ في محل نصب بالفعل المذكور بعدها على أنها مفعول يأتي، ويجوز أن ينتصب بفعل مقترن دل عليه المذكور. أي: كم أتينا آياتناهم، وقد متلخرا؛ لأن لها صدر الكلام، وهي إما استفهامية للتقرير، أو خبرية للتكثير. و﴿من﴾ آية في موضع نصب على التمييز، وهي البراهين التي جاء بها أنبيائهم في أمر محمد ﷺ، وقيل: المراد بذلك الآيات التي جاء بها موسى، وهي التسع. والمراد بالنعمة هنا: ما جاءهم من الآيات. وقال ابن جرير الطبري: النعمة هنا الإسلام، والظاهر دخول كل نعمة أنعم الله بها على عبد من عباده كائناً من كان، فوقع منه التبديل لها، وعدم القيام بشكرها، ولا ينافي ذلك كون السياق في بني إسرائيل، أو كونهم السبب في النزول لما تقرر من أن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وفي قوله: ﴿فإن الله شديد للعقاب﴾ من التهيب، والتخويف ما لا يقادر قدره. قوله: ﴿زين﴾ مبني للمجهول، والمزين: هو الشيطان، أو الانفس المجبولة على حب العاجلة. والمراد بالذين كفروا: رؤساء قريش، أو كل كافر. وقرأ مجاهد، وحמיד بن قيس: «زين» على البناء للمعلوم. قال النحاس: وهي قراءة شاذة؛ لأنه لم يتقدم للفاعل ذكر. وقرأ ابن أبي عبيدة: «زينت» وإنما خص الذين كفروا بالذكر مع كون الدنيا مزية للمسلم، والكافر كما وصف سبحانه بأنه جعل ما على الأرض زينة لها ليلو الخلق أيهم أحسن عملاً؛ لأن الكافر افتتن بهذا التزيين، وأعرض عن الآخرة، والمسلم لم يفتتن به، بل اقبل على الآخرة. قوله: ﴿ويسخرون من الذين آمنوا﴾ هذه الجملة في محل نصب على الحال. أي: والحال أن أولئك الكفار يسخرون من الذين آمنوا لكونهم فقراء لا حظ لهم من الدنيا كحظ رؤساء الكفر، وإساطين الضلال، وذلك: لأن عرض الدنيا عندهم هو الأمر الذي يكون من ناله سعيداً رابحاً، ومن حرمة شقياً خاسراً. وقد كان غالب المؤمنين إذ ذاك فقراء لاشتغالهم بالعبادة، وأمر الآخرة، وعدم التفاتهم إلى الدنيا وزينتها. وحكى الأخفش أنه يقال: سخرت منه، وسخرت به، وضحكت منه، وضحكت به، وهزأت منه، وهزأت به، والاسم السخرية، والسخري. ولما وقع من الكفار ما وقع من السخرية بالمؤمنين رد الله عليهم بقوله: ﴿والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة﴾ والمراد بالفوقية هنا: العلو في الدرجة؛ لأنهم في الجنة، والكفار في النار، ويحتمل أن يراد بالفوق المكان؛ لأن الجنة في السماء، والنار في

أسفل سافلين، أو أن المؤمنين هم الغالبون في الدنيا كما وقع ذلك من ظهور الإسلام، وسقوط الكفر، وقتل أهله، وأسره، وتشريدهم، وضرب الجزية عليهم، ولا مانع من حمل الآية على جميع ذلك لولا التقيد بكونه في يوم القيامة. قوله: ﴿والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ يحتمل أن يكون فيه إشارة إلى أن الله سبحانه سيرزق المستضعفين من المؤمنين، ويوسع عليهم، ويجعل ما يعطيهم من الرزق بغير حساب. أي: بغير تقدير، ويحتمل أن المعنى: أن الله يوسع على بعض عباده في الرزق، كما وسع على أولئك الرؤساء من الكفار استدراجاً لهم، وليس في التوسعة دليل على أن من وسع عليه، فقد رضي عنه، ويحتمل أن يراد بغير حساب من المرزوقين كما قال سبحانه: ﴿ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ [الطلاق: 3]. قوله: ﴿كان للناس أمة واحدة﴾ أي: كانوا على دين واحد فاختلفوا: ﴿فبعث الله النبيين﴾ ويدل على هذا المحذوف: أعني: قوله، فاختلفوا قراءة ابن مسعود، فإنه قرأ ﴿كان للناس أمة واحدة فاختلفوا فبعث الله النبيين﴾. واختلف في الناس المنكروين في هذه الآية من هم؟ فقيل: هم بنو آدم حين أخرجهم الله نساءً من ظهر آدم وقيل: آدم وحده، وسمي نساءً؛ لأنه أصل النسل، وقيل: آدم وحواء، وقيل: المراد: القرون الأولى التي كانت بين آدم ونوح، وقيل: المراد: نوح ومن في سفينته، وقيل: معنى الآية كان الناس أمة واحدة كلهم كفار فبعث الله النبيين؛ وقيل: المراد الإخبار عن الناس الذين هم الجنس كله أنهم كانوا أمة واحدة في خلوقهم عن الشرائع، وجهلهم بالحقائق، لولا أن الله من عليهم بإرسال الرسل. والأمة مأخوذة من قولهم أمت الشيء، أي: قصته، أي: مقصدهم واحد غير مختلف. قوله: ﴿فبعث الله النبيين﴾ قيل: جملتهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، والرسل منهم ثلثمائة وثلاثة عشر. وقوله: ﴿مبشرين ومنذرين﴾ بالنصب على الحال. قوله: ﴿وانزل معهم الكتاب﴾ أي: الجنس. وقال ابن جرير الطبري: إن الألف واللام للعهد والمراد التوراة. وقوله: ﴿ليحكم﴾ مسند إلى الكتاب في قول الجمهور، وهو: مجاز مثل قوله تعالى: ﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق﴾ [الجاثية: 29] وقيل: إن المعنى ليحكم كل نبي بكتابه، وقيل: ليحكم الله، والضمير في قوله: ﴿فيه﴾ الأولى راجع إلى ما في قوله: ﴿فيما اختلفوا فيه﴾ والضمير في قوله: ﴿وما اختلف فيه﴾ يحتمل أن يعود إلى الكتاب، ويحتمل أن يعود إلى المنزل عليه وهو محمد ﷺ، قاله الزجاج: ويحتمل أن يعود إلى الحق. وقوله: ﴿إلا الذين أوتوه﴾ أي: أوتوا الكتاب، أو أوتوا الحق، أو أوتوا النبي، أي: أعطوا علمه. وقوله: ﴿بغياً بينهم﴾ منتصب على أنه مفعول به أي، لم يختلفوا إلا لبغى: أي: الحسد والحرص على الدنيا، وفي هذا تنبيه على السفه في فعلهم، والقبیح الذي وقعوا فيه؛ لأنهم جعلوا نزول الكتاب سبباً في شدة الخلاف. وقوله: ﴿فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من

«كان الناس أمة واحدة فاختلوا فبعث الله النبيين» وإن الله إنما بعث الرسل، وأنزل الكتب بعد الاختلاف، وما اختلف الذين أوتوه: يعني بني إسرائيل أوتوا الكتاب، والعلم بغيا بينهم، يقول: بغيا على الدنيا، وطلب ملكها، وزخرفها أيهم يكون له الملك، والمهابة في الناس. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس: «كان للناس أمة واحدة» قال: كفاراً. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي هريرة في قوله: «فهدى الله الذين آمنوا» قال: قال النبي ﷺ: «نحن الآخرون الأولون يوم القيامة، وأول الناس نخلاً يبدأ بهم، أوتوا الكتاب من قبلنا، وأوتينا من بعدهم، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق، فهذا اليوم الذي اختلفوا فيه، فهدانا الله له، فالناس لنا فيه تبع، فغدا لليهود، وبعد غد للنصارى، وهو في الصحيح بنون ذكر الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، عن زيد بن أسلم في قوله: «فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق» قال: اختلفوا في يوم الجمعة، فأخذ اليهود يوم السبت، والنصارى يوم الأحد، فهدى الله أمة محمد ليوم الجمعة، واختلفوا في القبلة، فاستقبلت النصارى المشرق، واليهود بيت المقدس، وهدى أمة محمد للقبلة، واختلفوا في الصلاة، فمنهم من يركع، ولا يسجد، ومنهم من يسجد ولا يركع، ومنهم من يصلي وهو يتكلم، ومنهم من يصلي وهو يمشي، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك، واختلفوا في الصيام، فمنهم من يصوم النهار، ومنهم من يصوم من بعد الطلوع، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك، واختلفوا في إبراهيم، فقالت اليهود: كان يهودياً، وقالت النصارى: كان نصرانياً، وجعله الله حنيفاً مسلماً، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك؛ واختلفوا في عيسى، فكذب به اليهود، وقالوا لأمه بهتاناً عظيماً، وجعلته النصارى إلهاً وولداً، وجعله الله روحه وكلمته، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك.

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْلَىٰ السَّجَّةُ وَلَمَّْا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الْآيِينَ خَلَا مِنْ قَبْلِكُمْ مَثَلُ الْبَاسَةِ وَالْعُرَّةِ وَزُرُّوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿١٣٨﴾

«أم» هنا منقطعة بمعنى بل. وحكى بعض اللغويين أنها قد تجيء بمثابة همزة الاستفهام مبتدأ بها الكلام، فعلى هذا معنى الاستفهام هنا التقرير، والإنكار. أي: أحسبتم دخولكم الجنة واقعاً، ولم تمتحنوا بمثل ما امتحن به من كان قبلكم، فتصبروا كما صبروا، نكر الله سبحانه هذه التسلية بعد أن نكر اختلاف الأمم على أنبيائهم، تثبيتاً للمؤمنين وتقوية لقلوبهم، ومثل هذه الآية قوله تعالى: «لم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم» [آل عمران: 142] وقوله تعالى: «الم» أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمناً وهم لا يفتنون» [العنكبوت: 1 - 2] وقوله: «مستهم» بيان لقوله: «مثل الذين خلوا». و«الباساء والضراء» قد تقدم تفسيرهما، والزلزلة: شدة التحريك يكون في الأشخاص وفي الأحوال، يقال: زلزل الله الأرض زلزلة، وزلزالاً بالكسر،

الحق» أي: فهدى الله أمة محمد ﷺ إلى الحق، وذلك بما بينه لهم في القرآن من اختلاف من كان قبلهم وقيل: معناه: فهدى الله أمة محمد للتصديق، بجميع الكتب بخلاف من قبلهم، فإن بعضهم كذب كتاب بعض؛ وقيل: إن الله هداهم إلى الحق من القبلة، وقيل: هداهم ليوم الجمعة، وقيل: هداهم لاعتقاد الحق في عيسى بعد أن كُتِبَته اليهود، وجعلته النصراني رباً، وقيل: المراد بالحق: الإسلام. وقال الفراء: إن في الآية قلباً، وتقديره: فهدى الله الذين آمنوا بالحق لما اختلفوا فيه. واختاره ابن جرير، وضعفه ابن عطية. وقوله: «وبأنه». قال الزجاج: معناه بعلمه. قال النحاس: وهذا غلط، والمعنى بامره.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد في قوله: «سل بني إسرائيل» قال: هم اليهود «حكم آتيناهم من آية بينة» ما نكر الله في القرآن، وما لم ينكر: «ومن يبذل نعمة الله» قال: يكفرها: وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية قال: آتاهم الله آيات بينات: عصى موسى، ويده، وأقطعهم البحر، وأغرق عدوهم، وهم ينظرون، وظلل من الغمام، وأنزل عليهم المن والسلوى. «ومن يبذل نعمة الله» يقول من يكفر بنعمة الله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن جريج في قوله: «زمن للذين كفروا للحياة الدنيا» قال: الكفار يبتغون الدنيا، ويطلبونها «ويسخرون من الذين آمنوا» في طلبهم الآخرة. قال ابن جريج: لا أحسبه إلا عن عكرمة. قال: قالوا: لو كان محمد نبياً لاتبعه ساداتنا، وأشرافنا، والله ما اتبعه إلا أهل الحاجة مثل ابن مسعود، وأصحابه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: «ويسخرون من الذين آمنوا» يقولون: ما هؤلاء على شيء استهزاء، وسخرياً «والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة» هنا كم التفاضل. وأخرج عبد الرزاق، عن قتادة قال: فوقهم في الجنة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عطاء قال: سألت ابن عباس، عن هذه الآية «والله يرزق من يشاء بغير حساب» قال: تفسيرها ليس على الله رقيب، ولا من يحاسبه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد ابن جبيرة قال: لا يحاسب الرب. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو يعلى، والطبراني بسند صحيح، عن ابن عباس قال: كان الناس أمة واحدة قال: على الإسلام كلهم. وأخرج البزار، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم عنه قال: كان بين آدم، ونوح عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق، فاختلوا، فبعث الله النبيين. قال: وكذلك في قراءة عبد الله «كان الناس أمة واحدة فاختلوا». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن أبي بن كعب قال: كانوا أمة واحدة حيث عرضوا على آدم، ففطرحهم الله على الإسلام، واقرؤا له بالعبودية، وكانوا أمة واحدة مسلمين، ثم اختلفوا من بعد آدم. وأخرج وكيع، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد «كان الناس أمة واحدة» قال: آدم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن أبيه أنه كان يقرؤها:

تنبيهاً على أنه الأولى بالقصد؛ لأن الشيء لا يعتد به إلا إذا وضع في موضعه، وصافه مصرفه، وقيل: إنه قد تضمن قوله: ﴿مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾ بيان ما ينفقونه، وهو كل خير، وقيل: إنهم إنما سألوا عن وجوه البر التي ينفقون فيها، وهو خلاف الظاهر. وقد تقدم الكلام في الأقربين، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل. وقوله: ﴿كُتِبَ﴾ أي: فرض، وقد تقدم بيان معناه. بين سبحانه أن هذا أي: فرض القتال عليهم من جملة ما امتحنوا به. والمراد بالقتال: قتال الكفار. والكره بالضم: المشقة، وبالفتح: ما أكرهت عليه، ويجوز الضم في معنى الفتح، فيكونان لغتين، يقال: كرهت الشيء كرهاً وكرهاً، وكراهية وكراهية، وأكرهته عليه إكراهاً، وإنما كان الجهاد كرهاً: لأن فيه إخراج المال، ومفارقة الأهل، والوطن، والتعرض لذهاب النفس، وفي التعبير بالمصدر، وهو قوله: ﴿كُره﴾ مبالغة، ويحتمل أن يكون بمعنى المكروه كما في قولهم الدرهم ضرب الأمير. وقوله: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا﴾ قيل: عسى هنا بمعنى قد، وروي ذلك عن الأصم. وقال أبو عبيدة: عسى من الله إيجاب، والمعنى: عسى أن تكرهوا الجهاد لما فيه من المشقة، وهو خير لكم، فربما تغلبون، وتظفرون، وتغنمون، وتؤجرون، ومن مات مات شهيداً، وعسى أن تحبوا الدعة، وترك القتال، وهو شر لكم، فربما يتقوى عليكم العدو، فيغلبكم، ويقصدكم إلى عقر دياركم، فيحل بكم أشد مما تخافونه من الجهاد الذي كرهتم مع ما يفوتكم في ذلك من الفوائد العاجلة، والأجلة ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ﴾ ما فيه صلاحكم، وفلاحكم ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي في قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾ قال: يوم نزلت هذه الآية لم تكن زكاة، وهي: النفقة ينفقها الرجل على أهله، والصدقة يتصدق بها، ففسختها الزكاة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن جرير قال: سأل المؤمنون رسول الله ﷺ أين يضعون أموالهم؟ فنزلت: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾ الآية، فنلك النفقة في التطوع، والزكاة سواء ذلك كله. وأخرج ابن المنذر، أن عمرو بن الجموح سأل رسول الله ﷺ: ماذا تنفق من أموالنا، وأين نضعها؟ فنزلت. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة في قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ قال: إن الله أمر النبي ﷺ، والمؤمنين بمكة بالتحديد، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأن يكفوا أيديهم، عن القتال، فلما هاجر إلى المدينة نزلت سائر الفرائض، وأن لهم في القتال، فنزلت: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ يعني فرض عليكم، وأن لهم بعد ما نهاهم عنه ﴿وَهُوَ كُره لكم﴾ يعني: القتال، وهو مشقة عليكم ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا﴾ يعني: الجهاد قتال المشركين، وهو خير لكم، ويجعل الله عاقبته، فتحاً، وغنيمة، وشهادة ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا﴾ يعني: القعود عن الجهاد ﴿وَهُوَ شر لكم﴾ فيجعل الله عاقبته شراً، فلا تصيبوا ظفراً، ولا غنيمة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن جريج قال: قلت: لعطاء ما يقول في

فتزلزلت إذا تحركت، واضطربت، فمعنى زلزلوا: خوفوا وأزعجوا إزعاجاً شديداً. وقال الزجاج: أصل الزلزلة: نقل الشيء من مكانه، فإذا قلت: زلزلته فمعناه كررت زلله من مكانه. وقوله: ﴿حَتَّى يَقُولَ﴾ أي: استمر ذلك إلى غاية هي: قول الرسول، ومن معه: ﴿مَتَى نَصَرَ اللهُ﴾ والرسول هنا قيل: هو محمد ﷺ؛ وقيل: هو شعيب؛ وقيل هو كل رسول بعث إلى أمته. وقرأ مجاهد، والأعرج، ونافع، وابن محيصن بالرفع في قوله: ﴿حَتَّى يَقُولَ﴾ وقرأ غيرهم بالنصب فالرفع على أنه حكاية لحال ماضية، والنصب بإضمار أن على أنه غاية لما قبله. وقرأ الأعمش: ﴿وَزَلْزَلُوا وَيَقُولُ الرَّسُولُ﴾ بالواو بدل حتى، ومعنى ذلك أن الرسول ومن معه بلغ بهم الضجر إلى أن قالوا هذه المقالة المقتضية لطلب النصر، واستبطاء حصوله واستطالة تأخره، فبشرهم الله سبحانه بقوله: ﴿إِلَّا إِنْ نَصَرَ اللهُ قَرِيبٌ﴾. وقالت طائفة: في الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: حتى يقول الذين آمنوا متى نصر الله، ويقول الرسول ﷺ: إلا إن نصر الله قريب، ولا ملجئ لهذا التكلف؛ لأن قول الرسول، ومن معه: ﴿مَتَى نَصَرَ اللهُ﴾ ليس فيه إلا استعجال النصر من الله سبحانه، وليس فيه ما زعموه من الشك، والارتياب حتى يحتاج إلى ذلك التأويل المتعسف.

وقد أخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة أن هذه الآية نزلت في يوم الأحزاب، أصاب النبي ﷺ يومئذ، وأصحابه بلاء، وحصر. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: أخبر الله المؤمنين أن الدنيا دار بلاء، وأنه مبتليهم فيها، وأخبرهم أنه هكذا فعل بأبياته، وصفوته لطيب أنفسهم، فقال ﴿مُسْتَهْمٌ لِبِئْسَاءٍ وَالضَّرَاءِ﴾ قال: البئساء: الفتن، والضراء: السقم، وزلزلوا بالفتن، وأذى الناس إياهم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي في قوله: ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا﴾ قال: أصابهم هذا يوم الأحزاب حتى قال قائلهم: ﴿مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: 12] ولعله يعني بقوله: حتى قال قائلهم: يعني: قائل المنافقين كما يفيد ذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللِّظُنُونِ﴾ هناك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً. وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً [الأحزاب: 10 - 12].

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ
وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَإِنَّ السَّبِيلَ وَمَا تَعْمَلُونَ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿١٥﴾
كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرهٌ لَّكُمْ وَصَحَّ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ
لَّكُمْ وَصَحَّ أَنْ تُجِبُوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا
تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾

السائلون هنا: هم المؤمنون سألوا عن الشيء الذي ينفقونه ما هو؟ فأجيبوا ببيان المصروف الذي يصرفونه فيه

قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ أوجب الغزو على الناس من أجلها؟ قال: لا، كتب على أولئك حينئذ. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن شهاب في الآية قال: الجهاد مكتوب على كل أحد غزا أو قعد، فالقاعد إن استعين به إيمان، وإن استغنى به أغاث، وإن استغنى نفر، وإن استغنى عنه قعد، وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن عكرمة في قوله: ﴿وَهُوَ كَرِهٌ لَكُمْ﴾ قال: نسختها هذه الآية: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [البقرة: 285]. وأخرجه ابن جرير موصولاً، عن عكرمة، عن ابن عباس. وأخرج ابن المنذر، والبيهقي في سننه من طريق علي قال: عسى من الله واجب. وأخرج ابن المنذر، عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي نحوه أيضاً. وقد ورد في فضل الجهاد، ووجوبه لحديث كثيرة لا يتسع المقام لبسطها.

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْكُرْهِ فَإِنَّ فِيهِ لَكُلَّ فِتْنَةٍ وَمَسْئُورٌ سَبِيلُ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدَ الْأَرَامَ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ يَقُولُونَ إِنَّهُ بَدِيعَكُمْ إِنْ اسْتَلَمُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَاذِبٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٨٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجْهَهُدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٨٦﴾

قوله: ﴿قتال فيه﴾ هو بدل اشتغال، قاله سيبويه. وجهه أن السؤال عن الشهر لم يكن إلا باعتبار ما وقع فيه من القتال. قال الزجاج: المعنى يسئلك عن القتال في الشهر الحرام، ولشد سيبويه قول الشاعر:

فما كان قيس هللكه ملك واحد ولكنه بنيان قوم تهلما
فقلوه: هللكه بدل اشتغال من قيس، وقال الفراء: هو مخفوض يعني قوله: ﴿قتال فيه﴾ على نية عن وقال أبو عبيدة: هو: مخفوض على الجوار. قال النحاس: لا يجوز أن يعرب الشيء على الجوار في كتاب الله، ولا في شيء من الكلام، وإنما وقع في شيء شاذ، وهو قولهم: هذا جحر ضب خرب. وتابع النحاس ابن عطية في تخطئة أبي عبيدة. قال النحاس: ولا يجوز إضمار عن، والقول فيه أنه بدل. وقرأ ابن مسعود، وعكرمة: يسألك عن الشهر الحرام، وعن قتال فيه. وقرأ الأعرج: «قتال فيه» بالرفع. قال النحاس: وهو غامض في العربية، والمعنى: يسألك عن الشهر الحرام جائز قتال فيه. وقوله: ﴿قتال فيه كبير﴾ مبتدأ وخبر، أي: القتال فيه أمر كبير مستنكر، والشهر الحرام المراد به الجنس. وقد كانت العرب لا تسفك فيه دماً، ولا تغير على عتق، والأشهر الحرم هي: ذو القعدة، وذو الحجة، ومحرم، ورجب، ثلاثة سرد وواحد فرد. وقوله: ﴿وصد﴾ عن سبيل الله﴾ مبتدأ. وقوله: ﴿وكفر به﴾ معطوف على صد. وقوله: ﴿والمسجد للحرام﴾ عطف على سبيل الله. وقوله: ﴿وإخراج أهله منه﴾ معطوف أيضاً على صد. وقوله: ﴿أكبر عند الله﴾ خبر صد، وما عطف عليه، أي: الصد عن

سبيل الله، والكفر به، والصد عن المسجد الحرام، وإخراج أهل الحرم منه: ﴿أكبر عند الله﴾ أي: أعظم إثماً، وأشدّ ذنباً من القتال في الشهر الحرام كذا قال المبرد، وغيره، والضمير في قوله: ﴿وكفر به﴾ يعود إلى الله، وقيل: يعود إلى الحج. وقال الفراء: إن قوله: ﴿وصد﴾ عطف على كبير، والمسجد عطف على الضمير في قوله: ﴿وكفر به﴾ فيكون الكلام منتسقاً متصلاً غير منفصل. قال ابن عطية: وذلك خطأ: لأن المعنى يسوق إلى أن قوله: ﴿وكفر به﴾ أي: بالله عطف أيضاً على كبير، ويجيء من ذلك أن إخراج أهل المسجد منه أكبر من الكفر بالله، وهذا بين فساده. ومعنى الآية على القول الأول الذي ذهب إليه الجمهور: أنكم يا كفار قريش تستعظمون علينا القتال في الشهر الحرام، وما تفعلون أنتم من الصد عن سبيل الله لمن أراد الإسلام، ومن الكفر بالله، ومن الصد عن المسجد الحرام، ومن إخراج أهل الحرم منه أكبر جرماً عند الله. والسبب يشهد لهذا المعنى، ويفيد أنه المراد كما سيأتي بيانه، فإن السؤال منهم المذكور في هذه الآية هو سؤال إنكار لما وقع من السرية التي بعثها النبي ﷺ، والمراد بالفتنة هنا الكفر. أي: كفركم أكبر من القتل الواقع من السرية التي بعثها النبي ﷺ. وقيل: المراد بالفتنة: الإخراج لأهل الحرم منه، وقيل: المراد بالفتنة هنا: فتنتهم عن دينهم حتى يهلكوا. أي: فتنة المستضعفين من المؤمنين، أو نفس الفتنة التي الكفار عليها. وهذا أرجح من الوجهين الأولين، لأن الكفر، والإخراج قد سبق نكرهما، وأنهما مع الصد أكبر عند الله من القتال في الشهر الحرام. وقوله: ﴿ولا يزالون﴾ ابتداء كلام يتضمن الإخبار من الله عز وجل للمؤمنين بأن هؤلاء الكفار لا يزالون مستمرين على قتلكم، وعداوتكم حتى يردوكم عن الإسلام إلى الكفر إن استطاعوا ذلك، وتهايم لهم منكم، والتقييد بهذا الشرط مشعر باستبعاد تمكنهم من ذلك، وقدرتهم عليه، ثم حذر الله سبحانه المؤمنين من الاغترار بالكفار، وال دخول فيما يريبونه من رذم عن دينهم الذي هو الغاية لما يريبونه من المقاتلة للمؤمنين، فقال: ﴿ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم﴾ إلى آخر الآية والردة: الرجوع عن الإسلام إلى الكفر، والتقييد بقوله: ﴿فيمت وهو كافر﴾ يفيد أن عمل من ارتد إنما يبطل إذا مات على الكفر. وحبط: معناه بطل، وفسد، ومنه الحبط، وهو: فساد يلحق المواشي في بطونها من كثرة أكلها للكلأ، فتنتفخ أجوافها، وربما تموت من ذلك، وفي هذه الآية تهديد للمسلمين ليثبتوا على دين الإسلام. ومعنى قوله: ﴿في الدنيا والآخرة﴾ أنه لا يبقى له حكم المسلمين في الدنيا، فلا يأخذ شيئاً مما يستحقه المسلمون، ولا يظفر بحظ من حظوظ الإسلام، ولا ينال شيئاً من ثواب الآخرة الذي يوجب الإسلام، ويستحقه أهله. وقد اختلف أهل العلم في الردة هل تحبط العمل بمجرد ما لا تحبط إلا بالموت على الكفر، والواجب حمل ما أطلقته الآيات في غير هذا الموضع على ما في هذه الآية

الثوري: أنه سئل عن هذه الآية فقال: هذا شيء منسوخ، ولا يأس بالقتال في الشهر الحرام. وأخرج النحاس في ناسخه، عن ابن عباس أن هذه الآية منسوخة بآية السيف في براءة: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: 5]. وأخرج ابن المنذر، عن ابن عمر: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ قال: الشرك. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُونَكُمْ﴾ قال: كفار قريش، وأخرج ابن أبي حاتم، عن الربيع بن أنس في قوله: ﴿وَلَوْلَاكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ﴾ قال: هؤلاء خيار هذه الأمة جعلهم الله أهل رجاء، إنه من رجا طلب، ومن خاف هرب. وأخرج عبد بن حميد عن قتادة نحوه.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْمِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُحِبُّونَ قُلِ الْمَنُوءُ كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ في الدنيا والآخرة وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَسَنِ قُلْ إِصْلَاحٌ لِمَنْ يَشَاءُ اللَّهُ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ وَاللَّهُ يَمْلِكُ الْمُنْفَسِدِينَ الْمُنْمِرِينَ وَالْمُنْمِرُ وَالْمُنْمِرُ وَالْمُنْمِرُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٥٠﴾

السائلون في قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ﴾ هم المؤمنون كما سيأتي بيانه عند ذكر سبب نزول الآية، والخمر مأخوذة من خمر إذا ستر، ومنه خمار المرأة، وكل شيء غطي شيئاً، فقد خمره، ومنه: خمروا أنيتكم، وسمي خمرأً لأنه يخمر العقل، أي: يغطي ويستره، ومن ذلك الشجر الملتف يقال له الخمر بفتح الميم، لأنه يغطي ما تحته ويستتره، يقال منه أخمرت الأرض: كثر خمرها، قال الشاعر:

ألا يازيد والضحاك سيراً فقد جاوزتما خمر الطريق
أي: جاوزتما الوهد، وقيل: إنما سميت الخمر خمرأً: لأنها تركت حتى أدركت، كما يقال: قد أخمرت العجيين، أي: بلغ إدراكه، وخمر الراي أي: ترك حتى تبين فيه الوجه، وقيل: إنما سميت الخمر خمرأً: لأنها تخالط العقل من المخامرة، وهي: المخالطة. وهذه المعاني الثلاثة متقاربة موجودة في الخمر: لأنها تركت حتى أدركت، ثم خالطت العقل، فخمرتها أي: سترته. والخمر: ماء العنب الذي غلا، واشتد، وقذف بالزبد، وما خامر العقل من غيره، فهو في حكمه كما ذهب إليه الجمهور. وقال أبو حنيفة، والثوري، وابن أبي ليلى، وابن عكرمة، وجماعة من فقهاء الكوفة: ما أسكر كثيره من غير خمر العنب، فهو حلال أي: ما بون المسكر فيه. وذهب أبو حنيفة إلى حل ما ذهب ثلثاه بالطبخ، والخلاف في ذلك مشهور. وقد أطلت الكلام على الخمر في شرحي للمتنقي، فليرجع إليه. والميسر مأخوذ من اليسر، وهو وجوب الشيء لصاحبه، يقال: يسر لي كذا: إذا وجب، فهو يسر يسراً، وميسراً، والياسر اللاعب بالقداح. وقد يسر يسراً، قال الشاعر:

فأعنهم وأيسر كما يسروا به وإذا هم نزلوا بضنك فانزل
وقال الأزهري: الميسر: الجزر التي كانوا يتقمارون عليه، سمي ميسراً: لأنه يجزأ أجزاء، فكانه موضع التجزئة،

من التقييد. وقد تقدم الكلام في معنى الخلود. قوله: ﴿وَهَاجَرُوا﴾ الهجرة معناها الانتقال من موضع إلى موضع، وترك الأول لإيثار الثاني، والهجر ضد الوصل، والتهاجر: التقاطع والمراد بها هنا: الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام. والمجاهدة: استخراج الجهد، جهده، مجاهدة، وجهاداً، والجهد والتجاهد: بذل الوسع. وقوله: ﴿يَرْجُونَ﴾ معناه يطمعون، وإنما قال: يرجون بعد تلك الأوصاف المانحة التي وصفهم بها، لأنه لا يعلم أحد في هذه الدنيا أنه صائر إلى الجنة، ولو بلغ في طاعة الله كل مبلغ. والرجاء الأمل، يقال: رجوت فلاناً أرجو رجاء، ورجاوة، وقد يكون الرجاء بمعنى الخوف كما في قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً﴾ [نوح: 13] أي: لا تخافون عظمة الله.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والبيهقي في سننه بسند صحيح، عن جناب بن عبد الله، عن النبي ﷺ أنه بعث رهطاً، وبعث عليهم أبا عبيدة بن الجراح، أو عبيدة بن الحارث، فلما ذهب لينطلق بكى شوقاً، وصلى إلى النبي ﷺ، فجلس، فبعث مكانه عبد الله بن جحش، وكتب له كتاباً، وأمره أن لا يقرأ الكتاب حتى يبلغ مكان كذا، وكذا، وقال: لا تكرهن أحداً من أصحابك على المسير معك، فلما قرأ الكتاب استرجع وقال: سمعاً، وطاعة لله، وارسوله، فخيرهم الخبر، وقرأ عليهم الكتاب فرجع رجلاً، ومضى بقيتهم، فلقوا ابن الحضرمي فقتلوه، ولم يدروا أن ذلك اليوم من رجب، أو جمادى، فقال المشركون للمسلمين: قتلتم في الشهر الحرام، فأنزل الله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ الآية، فقال بعضهم: إن لم يكونوا أصابوا وزراً، فليس لهم أجر، فأنزل الله: ﴿إِنَّ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَلِلَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ إلى آخر الآية. وأخرج البزار عن ابن عباس أن سبب نزول الآية، هو ذلك. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه قال: إن المشركين صدوا رسول الله ﷺ، وروئوه عن المسجد الحرام في شهر حرام، ففتح الله على نبيه في شهر حرام من العام المقبل، فعاب المشركون على رسول الله ﷺ القتال في شهر حرام. فقال الله: ﴿قُلْ قَاتِلُوا فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدَ الْحَرَامَ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ من القتال فيه، وإن محمداً ﷺ بعث سرية، فلقوا عمرو بن الحضرمي، وهو مقبل من الطائف في آخر ليلة من جمادى وأول ليلة من رجب، وإن أصحاب محمد كانوا يظنون أن تلك الليلة من جمادى، وكانت أول رجب ولم يشعروا، فقتله رجل منهم، وأخذوا ما كان معه، وإن المشركين أرسلوا يعيرونه بذلك، فنزلت الآية. وأخرج ابن إسحاق عنه: أن سبب نزول الآية مصاب عمرو بن الحضرمي. وقد ورد من طرق كثيرة في تعيين السبب مثل ما تقدم. وأخرج ابن أبي داود عن عطاء بن ميسرة قال: أحل القتال في الشهر الحرام في براءة في قوله: ﴿فَلَا تَظْلَمُوا فِيهِ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ [التوبة: 36]. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سفيان

وكل شيء جزأته، فقد يسرته، والياسر: الجازر، قال: وهذا الأصل في الياسر، ثم يقال للضاربين بالقدر، والمتقارمين على الجزور: يأسرون، لأنهم جازيون، إذ كانوا سبياً لذلك. وقال في الصحاح: ويسر القوم الجزور: إذا اجتزروها، واقتسموا أعضاءها، ثم قال: ويقال يسر القوم: إذا قامروا، ورجل ميسر ويسر بمعنى، والجمع ليسار، قال النابغة:

إنني أتمم ليسارى وأمنحهم مشي الأيادي وكسا الحفنة الأنا والمراد بالميسر في الآية: قمار العرب بالآلام. قال جماعة من السلف من الصحابة، والتابعين، ومن بعدهم: كل شيء فيه قمار من ترد، أو شطرنج، أو غيرهما، فهو الميسر، حتى لعب الصبيان بالجزور، والكعب إلا ما أبيح من الرهان في الخيل، والقرعة في إفران الحقوق. وقال مالك: الميسر ميسران: ميسر اللهو، وميسر القمار، فمن ميسر اللهو: الترد، والشطرنج، والملاهي كلها، وميسر القمار: ما يتخاطر الناس عليه، وكل ما قورم به، فهو ميسر، وسيأتي البحث مطوًلاً في هذا في سورة المائدة عند قوله: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾ [المائدة: 90]. قوله: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ يعني الخمر، والميسر، فإثم الخمر، أي: إثم تعاطيها ينشأ من فساد عقل مستعملها، فيصدر عنه ما يصدر عن فاسد العقل من المخاصمة، والمشاتمة، وقول الفحش، والزور، وتعطيل الصلوات، وسائر ما يجب عليه. وأما إثم الميسر، أي: إثم تعاطيه، فما ينشأ عن ذلك من الفقر، وذهاب المال في غير طائل، والعنوة، وإيحاش الصدور. وأما منافع الخمر فربح التجارة فيها، وقيل: ما يصدر عنها من الطرب، والنشاط، وقوة القلب، وثبات الجنان، وإصلاح المعدة، وقوة الباءة، وقد أشار شعراء العرب إلى شيء من ذلك قال:

وإذا شربت فإِنني ربَّ الخورنق والسدير
وإذا صحت فإِنني ربَّ الشويهة والبعير

وقال آخر:

ونشربها فتتركنا ملوكاً وأسداً ما يهنهنا اللقاء

وقال من أشار إلى ما فيها من المفاسد، والمصالح:

رأيت الخمر صالحة وفيها خصال تفسد الرجل الحلما
فلأولاه أشربها صحيحاً ولا أشفي بها أبداً سقيماً

ولا أعطي بها ثمناً حياتي ولا أدعولها أبداً نسيماً

ومنافع الميسر: مصير الشيء إلى الإنسان بغير تعب، ولا كد، وما يحصل من السرور، والارحية عند أن يصير له منها سهم صالح. وسهام الميسر أحد عشر، منها سبعة لها فروض على عدد ما فيها من الحظوظ. الأول: الفذ بفتح الفاء بعدها معجمة، وفيه علامة واحدة، وله نصيب، وعليه نصيب. الثاني: التوام بفتح التاء المثناة الفوقية، وسكون الواو وفتح الهمزة، وفيه علامتان، وله وعليه نصيبان. الثالث: الرقيب، وفيه ثلاث علامات، وله وعليه ثلاثة أنصباء. الرابع: الحلس بمهملتين، الأولى مكسورة، واللام ساكنة، وفيه أربع علامات، وله وعليه أربعة أنصباء. الخامس: النافر بالنون، والفاء والمهملة، ويقال: النافس بالسین المهملة مكان الزاء، وفيه

خمس علامات، وله وعليه خمسة أنصباء. السادس: المسبل بضم الميم، وسكون المهملة، وفتح الباء الموحدة، وفيه ست علامات، وله وعليه ستة أنصباء. السابع: المعلى بضم الميم، وفتح المهملة، وتشديد اللام المفتوحة، وفيه سبع علامات، وله وعليه سبعة أنصباء، وهو أكثر السهام حظاً، وأعلامها قدرأ، فجملة ذلك ثمانية وعشرون فرداً. والجزور تجعل ثمانية وعشرين جزءاً، هكذا قال الأصمعي، وبقي من السهام أربعة أغفلاً، لا فروض لها، وهي: المنبح بفتح الميم، وكسر النون وسكون الباء التحتية، وبعدها مهملة، والسفيح بفتح المهملة، وكسر الفاء، وسكون الياء التحتية بعدها مهملة، والوغد بفتح الواو وسكون المعجمة بعدها مهملة والضعف بالمعجمة بعدها مهملة ثم فاء، وإنما أنزلوا هذه الأربعة التي لا فروض لها بين نوات الفروض لتكثر السهام على الذي يجيلها، ويضرب بها، فلا يجد إلى الميل مع أحد سبيلاً. وقد كان المجيل للسهم يلتحف بثوب، ويحثوا على ركبتيه، ويخرج رأسه من الثوب، ثم يدخل يده في الرابية بكسر المهملة، وبعدها باء موحدة، وبعد الألف باء موحدة أيضاً، وهي الخريطة التي يجعل فيها السهام، فيخرج منها باسم كل رجل سهماً، فمن خرج له سهم له فرض أخذ فرضه، ومن خرج له سهم لا فرض له لم يأخذ شيئاً، وغرم قيمة الجنور، وكانوا يدفعون تلك الأنصباء إلى الفقراء. وقد قال ابن عطية: إن الأصمعي أخطأ في قوله: إن الجزور تقسم على ثمانية وعشرين جزءاً، وقال: إنما تقسم على عشرة أجزاء. قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمَا اكْبِرَ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ أخبر سبحانه بأن الخمر، والميسر، وإن كان فيهما نفع، فالإثم الذي يلحق متعاطيهما أكثر من هذا النفع؛ لأنه لا خير يساوي فساد العقل الحاصل بالخمر، فإنه ينشأ عنه من الشرور ما لا يأتي عليه الحصر، وكذلك لا خير في الميسر يساوي ما فيها من المخاطرة بالمال، والتعرض للفقر، واستجلاب العداوات المفضية إلى سفك الدماء، وهتك الحرم.

وقرأ حمزة، والكسائي: «كثير» بالمثلثة. وقرأ الباقون بالياء الموحدة. وقرأ أبي: «وإنهما أقرب من نفعهما». قوله: ﴿قُلْ لِّلْعَفْوِ﴾ قرأ الجمهور بالنصب. وقرأ أبو عمرو وحده بالرفع. واختلف فيه عن ابن كثير، وبالرفع قرأه الحسن، وقتادة قال النحاس: إن جعلت ذا بمعنى الذي كان الاختيار الرفع على معنى الذي يتفقون هو: العفو، وإن جعلت ما ذا شيئاً واحداً كان الاختيار النصب على معنى: قل يتفقون العفو، والعفو: ما سهل، وتيسر، ولم يشق على القلب، والمعنى: أنفقوا ما فضل عن حوائجكم، ولم تجهنوا فيه أنفسكم، وقيل: هو ما فضل عن نفقة العيال. وقال جمهور العلماء: هو نفقات التطوع، وقيل: إن هذه الآية منسوخة بآية الزكاة المفروضة، وقيل: هي محكمة، وفي المال حق سوى الزكاة. قوله: ﴿كَذَلِكَ يبين الله لكم الآيات﴾ أي: في أمر النفقة. وقوله: ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ متعلق بقوله: ﴿تَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: تتفكرون في أمرهما، فتحبسون من

وإذا شربت فإِنني ربَّ الخورنق والسدير
وإذا صحت فإِنني ربَّ الشويهة والبعير

وقال آخر:

ونشربها فتتركنا ملوكاً وأسداً ما يهنهنا اللقاء

وقال من أشار إلى ما فيها من المفاسد، والمصالح:

رأيت الخمر صالحة وفيها خصال تفسد الرجل الحلما
فلأولاه أشربها صحيحاً ولا أشفي بها أبداً سقيماً

ولا أعطي بها ثمناً حياتي ولا أدعولها أبداً نسيماً

ومنافع الميسر: مصير الشيء إلى الإنسان بغير تعب، ولا كد، وما يحصل من السرور، والارحية عند أن يصير له منها سهم صالح. وسهام الميسر أحد عشر، منها سبعة لها فروض على عدد ما فيها من الحظوظ. الأول: الفذ بفتح الفاء بعدها معجمة، وفيه علامة واحدة، وله نصيب، وعليه نصيب. الثاني: التوام بفتح التاء المثناة الفوقية، وسكون الواو وفتح الهمزة، وفيه علامتان، وله وعليه نصيبان. الثالث: الرقيب، وفيه ثلاث علامات، وله وعليه ثلاثة أنصباء. الرابع: الحلس بمهملتين، الأولى مكسورة، واللام ساكنة، وفيه أربع علامات، وله وعليه أربعة أنصباء. الخامس: النافر بالنون، والفاء والمهملة، ويقال: النافس بالسین المهملة مكان الزاء، وفيه

عليه فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت الآية التي في المائدة، فدعي عمر، فقرئت عليه، فلما بلغ: ﴿فهل أنتم منتهون﴾ [المائدة: 91] قال عمر: انتهينا انتهينا. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أنس قال: كنا نشرب الخمر، فانزلت: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر﴾ الآية، فقلنا نشرب منها ما ينفعنا، فنزلت في المائدة: ﴿إنما الخمر والميسر﴾ [المائدة: 90] الآية فقالوا: اللهم انتهينا. وأخرج أبو عبيد، والبخاري في الأدب المفرد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عمر قال: الميسر القمار. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد مثله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن المنذر، عن ابن عباس مثله قال: كان الرجل في الجاهلية يخطر عن أهله، وماله، فايهما قمر صاحبه ذهب بأمله، وماله. وقوله: ﴿قل فيهما إثم كبير﴾ يعني: ما ينقص من الدين عند شربها: ﴿ومنافع للناس﴾ يقول: فيما يصيبون من لذتها، وفرحها إذا شربوا: ﴿وإنهما أكبر من نفعهما﴾ يقول: ما يذهب من الدين، فالإثم فيه أكبر مما يصيبون من لذتها، وفرحها إذا شربوها، فانزل الله بعد ذلك: ﴿لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾ [النساء: 43] الآية، فكلنا لا يشربونها عند الصلاة، فإذا صلوا العشاء شربوها، ثم إن ناساً من المسلمين شربوها فقاتل بعضهم بعضاً، وتكلموا بما لم يرض الله من القول، فانزل الله: ﴿إنما الخمر والميسر والأنصاب﴾ [المائدة: 90] الآية، فحرم الخمر، ونهى عنها. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه قال: منافعها قبل التحريم، وإنهما بعد ما حرمهما. وأخرج ابن إسحاق، وابن أبي حاتم، عنه أن نفرأ من الصحابة حين أمروا بالنفقة في سبيل الله أتوا النبي ﷺ، فقالوا: إنا لا ندري ما هذه النفقة التي أمرنا بها في أموالنا، فما ننفق منها؟ فانزل الله: ﴿ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو﴾ وكان قبل ذلك ينفق ماله حتى ما يجد ما يتصدق به، ولا ما ياكل حتى يتصدق عليه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه قال: العفو هو ما لا يتبين في أموالكم، وكان هذا قبل أن تفرض الصدقة. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والبيهقي في الشعب عنه في الآية قال: ﴿العفو﴾ ما يفضل عن أهلك وفي لفظ قال: الفضل عن العيال. وأخرج ابن جرير عنه في قوله: ﴿قل للعفو﴾ قال: لم تفرض فيه فريضة معلومة ثم قال: ﴿خذ العفو وأمر بالمعروف﴾ [الأعراف: 199] ثم نزلت في الفرائض بعد ذلك مسماة. وقد ثبت في الصحيح من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى، وأبداً بمن تعمل». وثبت نحوه في الصحيح مرفوعاً من حديث حكيم بن حزام. وفي الباب أحاديث كثيرة، وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة﴾ قال: يعني في زوال الدنيا، وفنائها، وإقبال الآخرة، وبقائها.

أموالكم ما تصلحون به معاش دنياكم، وتتفكرون الباقي في الوجوه المقرّبة إلى الآخرة، وقيل: في الكلام تقديم، وتأخير أي: كذلك يبين الله لكم الآيات في الدنيا، والآخرة لعلكم تتفكرون في الدنيا، وزوالها، في الآخرة، وبقائها، فتدبرون عن العاجلة إلى الآجلة، وقيل: يجوز أن يكون إشارة إلى قوله: ﴿وإنهما أكبر من نفعهما﴾ أي: لتفكروا في أمر الدنيا، والآخرة، وليس هذا بجديد. قوله: ﴿ويسألونك عن اليتامى﴾ هذه الآية نزلت بعد نزول قوله تعالى: ﴿ولا تقربوا مال اليتيم﴾ [الأنعام: 152، الإسراء: 34] وقوله: ﴿إن الذين ياكلون أموال اليتامى﴾ [النساء: 10] وقد كان ضاق على الأولياء الأمر كما سيأتي بيانه إن شاء الله، فنزلت هذه الآية. والمراد بالإصلاح هنا: مخالطتهم على وجه الإصلاح لأموالهم، فإن ذلك أصلح من مجانبتهم. وفي ذلك دليل على جواز التصرف في أموال اليتامى من الأولياء، والأوصياء بالبيع، والمضاربة، والإجارة، ونحو ذلك. قوله: ﴿وإن تخالطوهم فإخوانكم﴾ اختلف في تفسير المخالطة لهم، فقال أبو عبيدة، مخالطة اليتامى أن يكون لأحدهم المال، ويشقّ على كافله أن يفرد طعمه عنه، ولا يجد بداً من خلطه بعياله، فيأخذ من مال اليتيم ما يرى أنه كافيه بالتحري، فيجعله مع نفقة أهله، وهذا قد تقع فيه الزيادة، والنقصان، فنلت هذه الآية على الرخصة، وهي: ناسخة لما قبلها، وقيل: المراد بالمخالطة: المعاشرة للايتام، وقيل: المراد بها: المصاهرة لهم. والأولى عدم قصر المخالطة على نوع خاص بل تشمل كل مخالطة كما يستفاد من الجملة الشرطية. وقوله: ﴿فإخوانكم﴾ خبر لمبتدأ محذوف أي: فهم إخوانكم في الدين. وفي قوله: ﴿وإنه يعلم المفسد من المصلح﴾ تحذير للأولياء، أي: لا يخفى على الله من ذلك شيء، فهو يجازي كل أحد بعمله من أصلح، فلنفسه، ومن أفسد فعلي نفسه. وقوله: ﴿لا اعتنكم﴾ أي: ولو شاء لجعل ذلك شاقاً عليكم، ومتعباً لكم، وأوقعكم فيما فيه الحرج، والمشقة، وقيل العنت هنا: معناه الهلاك. قاله أبو عبيدة، وأصل العنت المشقة. وقال ابن الأنباري: أصل العنت التشديد، ثم نقل إلى معنى الهلاك. وقوله: ﴿عزيز﴾ أي: لا يمتنع عليه شيء، لأنه غالب لا يغالب ﴿حكيم﴾ يتصرف في ملكه بما تقتضيه مشيئته، وحكمته، وليس لكم أن تختاروا لأنفسكم.

وقد أخرج أحمد، وابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وأبو داود، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والضياء في المختارة، عن عمر أنه قال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فإنها تذهب بالمال، والعقل، فنزلت: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر﴾ يعني هذه الآية، فدعي عمر، فقرئت عليه، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت التي في سورة النساء: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾ [النساء: 43] فكان ينادي رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة أن لا يقربن الصلاة سكران، فدعي عمر، فقرئت

جبر، والحسن، وطاوس، وعكرمة، والشعبي، والضحاك كما حكاه النحاس، والقرطبي. وقد حكاه ابن المنذر عن المذكورين، وزاد عمر بن الخطاب وقال: لا يصح عن أحد من الأوائل أنه حرّم ذلك. وقال بعض أهل العلم: إن لفظ المشرك لا يتناول أهل الكتاب لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَدْعُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرِ رَيْبِكُمْ﴾ [البقرة: 105]. وقال: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ [البينة: 1] وعلى فرض أن لفظ المشركين يعم، فهذا العموم مخصوص بآية المائدة كما قدمنا. قوله: ﴿وَالْأَمَةُ مُؤْمِنَةٌ﴾ أي: ولرقيقة مؤمنة، وقيل: المراد بالامة: الحرة؛ لأن الناس كلهم عبيد الله، وإماؤه، والاول أولى لما سيأتي؛ لانه الظاهر من اللفظ؛ ولانه أبلغ، فإن تفضيل الامة الرقيقة المؤمنة على الحرة المشركة يستفاد منه تفضيل الحرة المؤمنة على الحرة المشركة بالاولى. وقوله: ﴿وَلَوْ أَعْجَبْتَكُمْ﴾ أي: ولو أعجبكم المشركة من جهة كونها ذات جمال، أو مال، أو شرف، وهذه الجملة حالية. قوله: ﴿وَلَا تَنْكَحُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: لا تزوجوهم بالمؤمنات ﴿حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾ قال القرطبي: واجمعت الامة على أن المشرك لا يطأ المؤمنة بوجه لما في ذلك من الغضاضة على الإسلام، وأجمع القراء على ضم التاء من تنكحوا. وقوله: ﴿وَلِعَبْدٍ﴾ الكلام فيه كالكلام في قوله: ﴿وَالْأَمَةُ﴾ والترجيح كالترجيح. قوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى المشركين، والمشركت «يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ» أي: إلى الاعمال الموجبة للنار، فكان في مصاهرتهم، ومعاشرتهم، ومصاحبتهم من الخطر العظيم ما لا يجوز للمؤمنين أن يتعرضوا له، ويدخلوا فيه «وَاللهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ» أي: إلى الاعمال الموجبة للجنة، وقيل: المراد: أن أولياء الله هم: المؤمنون يدعون إلى الجنة. وقوله: ﴿بِإِذْنِهِ﴾ أي: بإمره، قاله الزجاج، وقيل: بتيسيره، وتوفيقه، قاله صاحب الكشاف.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وابن المنذر، عن مقاتل بن حيان قال: نزلت هذه الآية في أبي مرثد الغنوي استأثنى النبي ﷺ في عناق أن يتزوجها، وكانت ذات حظ من جمال، وهي مشركة، وأبو مرثد يومئذ مسلم، فقال: يا رسول الله إنها تعجبني، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَنْكَحُوا الْمُشْرِكَاتِ﴾. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تَنْكَحُوا الْمُشْرِكَاتِ﴾ قال: استثنى الله من ذلك نساء أهل الكتاب، فقال: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [المائدة: 5]. وقد روي هذا المعنى عنه من طرق. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه عن سعيد بن جببر في قوله: ﴿وَلَا تَنْكَحُوا الْمُشْرِكَاتِ﴾ يعني أهل الأوثان. وأخرج عبد بن حميد، والبيهقي عن مجاهد نحوه، وكذلك أخرج عبد الرزاق، وعبد ابن حميد، عن قتادة نحوه أيضاً. وأخرج عبد بن حميد، عن النخعي نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن أبي حاتم، عن ابن عمر أنه كره نكاح نساء أهل الكتاب، وتاويل: ﴿وَلَا

وأخرج أبو داود، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه عنه قال: لما أنزل الله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: 34] ﴿وَالَّذِينَ يَكْلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى﴾ [النساء: 10] الآية، انطلق من كان عنده يتيم يعزل طعامه عن طعامه، وشرابه عن شرابه، فجعل يفصل له الشيء من طعامه، فيحبس له حتى يلكه، أو يفسد فيرمى به، فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى﴾ الآية. فخلطوا طعامهم بطعامهم، وشرابهم بشرابهم. وقد روي نحو ذلك، عن جماعة من التابعين. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَالَّذِينَ تَخَالَطُوا﴾ قال: المخالطة أن يشرب من لبنك، وتشرب من لبنه، ويكل من قصعتك، وتاكل من قصعته، وياكل من ثمرتك، وتاكل من ثمرته: ﴿وَالَّذِينَ يَعْلَمُونَ الْمَقْسَدَ مِنَ الْمَصْلُوحِ﴾ قال: يعلم من يتعمد اكل مال اليتيم، ومن يتخرج منه، ولا يالو عن إصلاحه: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ يقول: لو شاء ما أحل لكم ما أعنتكم مما لا تتعمنون. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿لَأَعْنَتَكُمْ﴾ يقول: لأخرجكم، وضيق عليكم، ولكنه وسع، ويسر. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ قال، ولو شاء لجعل ما أصبتم من أموال اليتامى موبقاً.

وَلَا تَكُونُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَمْ يَكُنْ مُؤْمِنًا حَتَّى يَنْفِرُوا وَلَمْ يَكُنْ نَافِرًا حَتَّى يُمِيتُوا وَكُنْتُمْ مِثْلَ النُّجُومِ
أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا شَاءَ عِبَادُهُ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ
وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عِندَ رَبِّهِمْ فِي الدُّنْيَا ثَمَانِينَ مِائَةَ أَلْفًا مِنْ شَرِّ مَا يَحْمِلُونَ فِي الدُّنْيَا لَخَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أُولَئِكَ جَدَّتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غَمِّ مَا ظَلَمُوا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَسِيدٌ
وَيَسِّرْ لَنَا رَبَّنَا لِذَلِكَ الْأَمْرُ إِنَّ رَبَّنَا لَشَدِيدُ الْعِقَابِ

قوله: ﴿ولا تنكحوا﴾ قراه الجمهور بفتح التاء، وقرئ في الشواذ بضمها؛ قيل: والمعنى: كان المتزوج لها أنكحها من نفسها. وفي هذه الآية النهي عن نكاح المشركات، فقيل: المراد بالمشركات: الوثنيات، وقيل: إنها تعم الكتابيات؛ لأن أهل الكتاب مشركون، ﴿وقالت اليهود عزيز ابن الله، وقالت النصارى المسيح ابن الله﴾ [التوبة: 30]، وقد اختلف أهل العلم في هذه الآية، فقالت طائفة: إن الله حرم نكاح المشركات فيها، والكتابيات من الجملة، ثم جاءت آية المائدة، فخصصت الكتابيات من هذا العموم. وهذا محكي عن ابن عباس، ومالك، وسفيان بن سعيد، وعبد الرحمن بن عمر، والأوزاعي. وذهبت طائفة إلى أن هذه الآية ناسخة لآية المائدة، وأنه يحرم نكاح الكتابيات، والمشركات، وهذا أحد قولي الشافعي، وبه قال جماعة من أهل العلم. ويجلب عن قولهم أن هذه الآية ناسخة لآية المائدة بأن سورة البقرة من أول ما نزل، وسورة المائدة من آخر ما نزل. والقول الأول هو الأرجح. وقد قال به مع من تقم عثمان بن عفان، وطلحة، وجابر، وحذيفة، وسعيد بن المسيب، وسعيد بن

تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يَؤْمِنُوا. وأخرج البخاري عنه قال: حَرَّمَ اللهُ نِكَاحَ الْمُشْرِكَاتِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَلَا أَعْرِفُ شَيْئاً مِنَ الْإِشْرَاقِ أَعْظَمَ مِنْ أَنْ تَقُولَ الْمَرْأَةُ رَبِّهَا عَيْسَى، أَوْ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِ اللهِ. وأخرج الواحدي، وابن عسكِر من طريق السَّدي، عن أَبِي مَالِكٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالْمُؤْمِنَةُ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ﴾ قَالَ: نَزَلَتْ فِي عَبْدِ اللهِ بْنِ رَوَاحَةَ، وَكَانَتْ لَهُ أُمَةٌ سَوْدَاءُ، وَإِنَّهُ غَضِبَ عَلَيْهَا فَلَطَمَهَا، ثُمَّ إِنَّهُ فَرَزَ فَاتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَأَخْبَرَهُ خَبَرَهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لَهُ: مَا هِيَ يَا عَبْدَ اللهِ؟ قَالَ: تَصُومُ، وَتُصَلِّي، وَتُحَسِّنُ الْوُضُوءَ، وَتَشْهَدُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاتَّكِرُ رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللهِ هَذِهِ مُؤْمِنَةٌ، فَقَالَ عَبْدُ اللهِ: فَوَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، لَا أَعْتَقْنَهَا، وَلَا تَزَوِّجْنَهَا، ففعل، فطعن عليه ناس من المسلمين، وقالوا: نكح أمة، وكانوا يريدون أن ينكحوا إلى المشركين، وينكحهم رغبة في إحسانهم، فأنزل الله فيهم: ﴿وَالْمُؤْمِنَةُ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ﴾ وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن السَّدي مثله. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مقاتل بن حيان في قوله: ﴿وَالْمُؤْمِنَةُ﴾ قَالَ: بَلَّغْنَا أَنَّهَا كَانَتْ أُمَةً لَحْنِيَّةً سَوْدَاءَ، فَأَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا حَنِيفَةً. وأخرج ابن جرير، عن أبي جعفر محمد بن علي قال: النكاح يولي في كتاب الله، ثم قرأ: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يَؤْمِنُوا﴾.

وَسَأَلْتُكَ عَنِ الْحَيْضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزَلُوا النِّسَاءَ فِي الْحَيْضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأَوْفُرْنَ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَّبِينَ وَيُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ يَسْأَلُكُمْ حَرْثُ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَلَّا يَغْنَمَ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ كُنْتُمْ رُسُلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾

قوله: ﴿المحيض﴾ هو: الحيض، وهو مصدر، يقال: حاضت المرأة حيضاً، ومحيضاً، فهي حائض، وحائضة، وكذا قال الفراء، وأنشد:

كحائضة تزني بها غير طاهرة

ونساء حيض، وحوائض، والحيضة بالكسر: المرة الواحدة وقيل: الاسم، وقيل: للمحيض عبارة عن الزمان، والمكان، وهو مجاز فيهما، وقال ابن جرير الطبري: المحيض اسم الحيض، ومثله قول روبة:

إليك أشكوشدة المعيش

أي العيش، وأصل هذه الكلمة من السيلان، والانفجار يقال: حاض السيل، وفاض، وحاضت الشجرة، أي: سالت رطوبتها، ومنه الحيض، أي: الحوض؛ لأن الماء يحوض إليه. أي: يسيل. وقوله: ﴿قل هو أذى﴾ أي: قل هو شيء يتأذى به. أي: برائحته، والأذى كناية عن القدر، ويطلق على القول المكروه، ومنه قوله تعالى: ﴿لَا تَبْطُلُوا صَفَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ [البقرة: 264]، ومنه قوله تعالى: ﴿ودع أذاهم﴾ [الأحزاب: 48] وقوله: ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ أي: فاجتنبوهن في زمان الحيض إن حمل المحيض على المصدر، أو في محل الحيض إن حمل على الاسم. والمراد

من هذا الاعتزال: ترك المجامعة لا ترك المجالسة، أو الملامسة، فإن ذلك جائز، بل يجوز الاستمتاع منها بما عدا الفرج، أو بما نون الإزار على خلاف في ذلك، وأما ما يروى عن ابن عباس، وعبيدة السلماني: أنه يجب على الرجل أن يعتزل فراش زوجته إذا حاضت، فليس ذلك بشيء، ولا خلاف بين أهل العلم في تحريم وطء الحائض، وهو معلوم من ضرورة الدين. قوله: ﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾ قرأ نافع، وأبو عمرو، وابن كثير، وابن عامر، وعاصم في رواية حفص عنه بسكون الطاء، وضم الهاء. وقرأ حمزة، والكسائي، وعاصم في رواية أبي بكر: يَطْهُرْنَ، بتشديد الطاء، وفتحها، وفتح الهاء، وتشديدها. وفي مصحف أبي، وابن مسعود: «ويطْطهرن» والطر انقطاع الحيض، والتطهر: الاغتسال. وبسبب اختلاف القراء اختلف أهل العلم، فذهب الجمهور إلى أن الحائض لا يحل وطؤها لزوجه حتى تطهر بالماء. وقال محمد بن كعب القرظي، ويحيى بن بكير: إذا طهرت الحائض، وتيممت حيث لا ماء حلت لزوجه، وإن لم تغتسل. وقال مجاهد، وعكرمة: إن انقطاع الدم يحلها لزوجه، ولكن تتوضأ. وقال أبو حنيفة، وأبو يوسف، ومحمد: إن انقطع دمها بعد مضي عشرة أيام جاز له أن يطأها قبل الغسل، وإن كان انقطاعه قبل العشر لم يجز حتى تغتسل، أو يدخل عليها، وقت الصلاة. وقد رجح ابن جرير الطبري قراءة التشديد. والأولى أن يقال: إن الله سبحانه جعل للحل غليتين كما تقتضيه القراءتان: إحداهما انقطاع الدم، والأخرى التطهر منه، والغلبة الأخرى مشتملة على زيادة على الغلبة الأولى، فيجب المصير إليها. وقد دل أن الغلبة الأخرى هي المعبرة. قوله تعالى بعد ذلك: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ فإن ذلك يفيد أن المعتبر التطهر، لا مجرد انقطاع الدم. وقد تقرر أن القراءتين بمنزلة الآيتين، فكما أنه يجب الجمع بين الآيتين المشتملة إحداهما على زيادة بالعمل بتلك الزيادة، كذلك يجب الجمع بين القراءتين. قوله: ﴿فَاتَّقُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ﴾ أي: فجامعوهن، وكني عنه بالإتيان، والمراد: أنهم يجامعونهن في المأتي الذي أبلحه الله، وهو: القبل قيل: ﴿ومن حيث﴾ بمعنى في حيث، كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ [الجمعة: 9] أي: في يوم الجمعة، وقوله: ﴿مَآذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ [الأحقاف: 4] أي: في الأرض، وقيل: إن المعنى من الوجه الذي أنشأ الله لكم فيه، أي: من غير صوم، وإحرام، واعتكاف، وقيل: إن المعنى من قبل الطهر، لا من قبل الحيض، وقيل: من قبل الحلال، لا من قبل الزنا. قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ﴾ قيل: المراد: التوابين من الذنوب، والمطهرون من الجنابة، والأحداث، وقيل: التوابين من إتيان النساء في ألبارهن، وقيل: من إتيانهن في الحيض، والأول أظهر. قوله: ﴿يَسْأَلُكُمْ حَرْثُ لَكُمْ فَاتُوا حَرْثَكُمْ فَنُيْ شَنْتُمْ﴾ لفظ الحَرْث يفيد أن الإبلحة لم تقع إلا في الفرج الذي هو القبل خاصة، إذ هو مزروع النرية، كما أن الحَرْث مزروع النبات. فقد شبه

والبزار، عن جابر قال: إن اليهود قالوا: من أتى المرأة في دبرها كان ولده أحول فجاءوا إلى رسول الله ﷺ، فسأله عن ذلك، وعن إتيان الحائض، فنزلت. وأخرج ابن جرير، عن مجاهد قال الأذني: الدم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله: ﴿فَاعْتَرَلُوا نِسَاءَكُمْ﴾ يقول: اعتزلوا نكاح فزوجهن. وفي قوله: ﴿وَلَا تَقْرِبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ﴾ قال: من الدم. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد قال: حتى ينقطع الدم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن ابن عباس في قوله: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ قال: بالماء. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن جرير، عن عكرمة نحوه أيضاً. وأخرج ابن المنذر، عن مجاهد، وعطاء: أنهما قالا: إذا رأت الطهر، فلا بأس أن تستطيب بالماء ويأتيها قبل أن تغتسل. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَاتَوَهَّنْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ قال: يعني: أن يأتيها طاهراً غير حائض. وأخرج عبد بن حميد، عن قتادة نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَاتَوَهَّنْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ قال: من حيث أمركم أن تعتزلوهن. وأخرج ابن أبي شيبة، عن عكرمة مثله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي، عن ابن عباس قال: من حيث نهاكم أن تأتوهن وهن حيض: يعني من قبل الفرج. وأخرج ابن أبي شيبة، عن ابن الحنفية قال: ﴿فَاتَوَهَّنْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ من قبل التزويج. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن عطاء في قوله: ﴿يُحِبُّ التَّوَلَّيْنَ﴾ قال: من الذنوب. ﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ قال: بالماء. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الأعمش قال: التوبة من الذنوب، والتطهير من الشرك. وأخرج البخاري، وأهل السنن، وغيرهم عن جابر قال: كانت اليهود تقول: إذا أتى الرجل امرأته من خلفها في قبلها جاء الولد أحول، فنزلت: ﴿نَسْأُوكُمْ حُرْثَ لَكُمْ فَتَوَّأ حُرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ إن شاء محتبة، وإن شاء غير محتبة، غير أن ذلك في صمام واحد. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد ابن حميد، وابن جرير، عن مرة الهمداني نحوه. وقد روي هذا عن جماعة من السلف، وصرحوا أنه السبب، ومن الراويين لذلك عبد الله بن عمر، عند ابن عساکر، وأم سلمة، عند عبد الرزاق، وعبد بن حميد، والبيهقي في الشعب. وأخرجه أيضاً، عنها ابن أبي شيبة، وأحمد، والدارمي، وعبد ابن حميد، والترمذي، وحسنه: «أنها سألت رسول الله ﷺ بعض نساء الأنصار عن التحبية، فتلا عليها الآية، وقال: صمماً واحداً والصمام: السبيل، وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، والترمذي وحسنه، والنسائي، والضياء في المختارة، وغيرهم، عن ابن عباس قال: جاء عمر إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله هلكت قال: وما أهلكك؟ قال: حوكت رحلي الليلة، فلم يرد عليه شيئاً، فلوحي الله إلى رسوله هذه الآية: ﴿نَسْأُوكُمْ حُرْثَ لَكُمْ﴾ يقول: قبل، وأدبر، وأتق الدبر،

ما يلقي في أرحامهن من النطف التي منها النسل بما يلقي في الأرض من البذور التي منها النبات بجامع أن كل واحد منهما مادة لما يحصل منه، وهذه الجملة بيان للجملة الأولى، أعني قوله: ﴿فَاتَوَهَّنْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾. وقوله: ﴿أَنَّى شِئْتُمْ﴾ أي: من أي جهة شئتم من خلف، وقدام، وباركة، ومستلقية، ومضطجعة، إذا كان في موضع الحُرْث، وأنشد ثعلب:

إنما الأرحام أرضون لنا محترثات فعطينا الزرع فيها وعلى الله النبات وإنما عبر سبحانه بقوله: ﴿أَنَّى﴾ لكونها أعم في اللغة من كيف، وأين، ومتى. وأما سيبويه، ففسرها ها هنا بكيف، وقد ذهب السلف، والخلف من الصحابة، والتابعين، والأئمة إلى ما ذكرناه من تفسير الآية، وإن إتيان الزوجة في دبرها حرام، وروي عن سعيد بن المسيب، ونافع، وابن عمر، ومحمد بن كعب القرظي، وعبد الملك بن الماجشون أنه يجوز ذلك، حكاه عنهم القرطبي في تفسيره قال: وحكي ذلك عن مالك في كتاب له يسمى: «كتاب السر» وحذاق أصحاب مالك، ومشايخهم ينكرون ذلك الكتاب، ومالك أجل من أن يكون له كتاب سر، ووقع هذا القول في العتبية. ونكر ابن العربي أن ابن شعبان أسند جواز ذلك إلى زمرة كبيرة من الصحابة، والتابعين، وإلى مالك من روايات كثيرة في كتاب: «جماع النسوان وأحكام القرآن»، وقال الطحاوي: روى أصبغ ابن الفرج، عن عبد الرحمن بن القاسم قال: ما أركت أحداً أقتدي به في ديني شك في أنه حلال: يعني وطء المرأة في دبرها ثم قرأ: ﴿نَسْأُوكُمْ حُرْثَ لَكُمْ﴾ ثم قال: فأني شيء أبين من هذا. وقد روى الحاكم، والدارقطني، والخطيب البغدادي، عن مالك من طرق ما يقتضي إباحتها ذلك. وفي أسانيدنا ضعف. وقد روى الطحاوي عن محمد بن عبد الله ابن عبد الحكم، أنه سمع الشافعي يقول: ما صح عن النبي ﷺ في تحليله، ولا تحريمه شيء، والقياس أنه حلال. وقد روى ذلك أبو بكر الخطيب. قال ابن الصباغ: كان الربيع يحلف بالله الذي لا إله إلا الله هو لقد كذب ابن عبد الحكم على الشافعي في ذلك، فإن الشافعي نص على تحريمه في ستة كتب من كتبه. قوله: ﴿وَقَدِمُوا لَأَنْفُسِكُمْ﴾ أي: خيراً كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَقْدِمُوا لَأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [البقرة: 110] وقيل: ابتغاء الولد، وقيل: التزويج بالعنف، وقيل: غير ذلك. وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فيه تحذير عن الوقوع في شيء من المحرمات. وفي قوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنْكُمْ مَلَاقُوهُ﴾ مبالغة في التحذير. وفي قوله: ﴿وَيُشِرُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ تأنيس لمن يفعل الخير ويجتنب الشر.

وقد أخرج مسلم، وأهل السنن، وغيرهم، عن أنس: «أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة منهم أخرجوها من البيت، ولم يأكلوها، ولم يشاربوها، ولم يجامعوها في البيوت، فسئل رسول الله ﷺ عن ذلك، فأنزل الله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمُحِيضِ﴾ الآية فقال رسول الله ﷺ: «جامعوهن في البيوت، واصنعوا كل شيء إلا النكاح»، وأخرج النسائي،

والحيضة. وأخرج أحمد، عن ابن عباس مرفوعاً: أن هذه الآية نزلت في أناس من الأنصار أتوا النبي ﷺ، فسألوه فقال: انتهت على كل حال إذا كان في الفرج. وأخرج الدارمي، وأبو داود، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه، عنه قال ابن عمر: والله يغفر له أوهم، إنما كان هذا الحي من الأنصار، وهم أهل وثن مع هذا الحي من اليهود، وهم أهل الكتاب كانوا يرون لهم، فضلاً عليهم في العلم، فكانوا يقتنون بكثير من فعلهم، فكان من أمر أهل الكتاب لا يأتون النساء إلا على حرف، وذلك أستر ما تكون المرأة، وكان هذا الحي من الأنصار قد أخذوا بفعلهم، وكان هذا الحي من قريش يشرحون النساء شرحاً، ويتلذذون منهن مقبلات، ومديبرات، ومستلقيات، فلما قدم المهاجرون المدينة تزوج رجل منهم امرأة من الأنصار. فذهب يفعل بها ذلك، فأنكرته عليه، وقالت: إنما كنا نؤتى على حرف، فاصنع ذلك، وإلا فاجتنبني، فسرى أمرهما، فبلغ رسول الله ﷺ، فأنزل الله الآية: ﴿نَسَآؤُكُمْ حَرْثُ لَكُمْ﴾ يقول: مقبلات، ومديبرات بعد أن يكون في الفرج، وإن كان من قبل ببرها في قبلها زاد الطبراني: قال ابن عباس، قال ابن عمر: في ببرها، فأوهم، والله يغفر له، وإنما كان هذا الحديث على هذا. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، والدارمي، والبيهقي، عن ابن مسعود: أنه قال: محاش النساء عليكم حرام. وأخرج الشافعي في الأم، وابن أبي شيبة، وأحمد، والنسائي، وابن ماجه، وابن المنذر، والبيهقي في سننه من طريق خزيمة بن ثابت: «أن سائلاً سأل رسول الله ﷺ عن إتيان النساء في ألبارهن، فقال: حلال، أو لا بأس، فلما ولى دعاه فقال: كيف قلت؟ أمن ببرها في قبلها، فنعم، أم من ببرها في ببرها فلا، إن الله لا يستحيي من الحق لا تاتوا النساء في ألبارهن». وأخرج ابن عدي، والدارقطني، عن جابر بن عبد الله نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة، والترمذي وحسنه، والنسائي، وابن حبان عن ابن عباس: قال قال رسول الله ﷺ: «لا ينظر الله إلى رجل أتى امرأة في الدبر». وأخرج أحمد، والبيهقي في سننه، عن ابن عمرو: أن النبي ﷺ قال: «الذي يأتي امرأته في ببرها هي اللوطية الصغرى». وأخرج أحمد، وأبو داود، والنسائي، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ملعون من أتى امرأته في ببرها». وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والنسائي، والبيهقي عنه قال: إتيان الرجال، والنساء في ألبارهن كفر. وقد رواه ابن عدي، عن أبي هريرة مرفوعاً قال ابن كثير: والموقوف أصح. وقد ورد النهي عن ذلك من طرق منها عند البزار عن عمر مرفوعاً، وعند النسائي عنه موقوفاً، وهو أصح. وعند ابن عدي في الكامل، عن ابن مسعود مرفوعاً، وعند ابن عدي أيضاً، عن عقبة بن عامر مرفوعاً، وعند أحمد عن طلق بن يزيد، أو يزيد بن طلق مرفوعاً، وعند ابن أبي شيبة، وأحمد، والترمذي وحسنه، عن علي بن طلق مرفوعاً، وقد ثبت نحو ذلك عن جماعة من

الصحابه، والتابعين مرفوعاً، وموقوفاً، وأخرج البخاري، وغيره عن نافع قال: قرأت ذات يوم: ﴿نَسَآؤُكُمْ حَرْثُ لَكُمْ﴾ فقال ابن عمر: أتدري فيم أنزلت هذه الآية؟ قلت: لا، قال: نزلت في إتيان النساء في ألبارهن. وأخرج البخاري عن ابن عمر أنه قال: ﴿فَاتُوا حَرْثَكُمْ أَنْتِي شَتْمٌ﴾ قال: في الدبر. وقد روي هذا عن ابن عمر من طرق كثيرة، وفي رواية عند الدارقطني أنه قال له نافع: من دبها في قبلها؟ فقال: لا إلا في ببرها. وأخرج ابن راهويه، وأبو يعلى، وابن جرير، والطحاوي، وابن مريويه بإسناد حسن عن أبي سعيد الخدري، أن رجلاً أصاب امرأته في ببرها، فأنكر الناس عليه ذلك، فنزلت الآية. وأخرج البيهقي في سننه عن محمد بن علي قال: كنت عند محمد بن كعب القرظي، فجاءه رجل، فقال: ما تقول في إتيان المرأة في ببرها؟ فقال: هذا شيخ من قريش، فسله، يعني عبد الله بن علي بن السائب، فقال: قدر، ولو كان حلالاً. وقد روي القول بحل ذلك، عن محمد بن المنكدر، عند ابن جرير، وعن ابن أبي مليكة، عند ابن جرير أيضاً، وعن مالك بن أنس عند ابن جرير، والخطيب، وغيرهما، وعن الشافعي عند الطحاوي، والحاكم والخطيب. وقد قُدمنا مثل هذا، وليس في أقوال هؤلاء حجة البتة: ولا يجوز لأحد أن يعمل على أقوالهم، فإنهم لم يأتوا ببليل يدل على الجواز، فمن زعم منهم أنه فهم ذلك من الآية، فقد أخطأ في فهمه. وقد فسرها لنا رسول الله ﷺ، وأكابر أصحابه بخلاف ما قاله هذا المخطئ في فهمه كائناً من كان، ومن زعم منهم أن سبب نزول الآية: أن رجلاً أتى امرأته في ببرها، فليس في هذا ما يدل على أن الآية أحلت ذلك، ومن زعم ذلك، فقد أخطأ، بل الذي تدل عليه الآية أن ذلك حرام، فكون ذلك هو السبب لا يستلزم أن تكون الآية نازلة في تحليله، فإن الآيات النازلة على أسباب تأتي تارة بتحليل هذا، وتارة بتحريمه. وقد روي عن ابن عباس: أنه فسر هذه الآية بغير ما تقدم، فقال: معناها إن شتتم، فاعزلوا ولن شتتم، فلا تعزلوا. روى ذلك عنه ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والضياء في المختارة. وروي نحو ذلك عن ابن عمر. أخرجه ابن أبي شيبة، وعن سعيد بن المسيب، أخرجه ابن أبي شيبة، وابن جرير.

وَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ عِزَّهُ لِيُنْزِلَكُمْ آتٍ تَرَوْا وَيَتَنَزَّلَ وَتُصَلِّحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِالْفَنَاءِ فِي آيَاتِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبْتُمْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ عَزِيزٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٢﴾

العرضة: النصب، قاله الجوهري. يقال: جعلت فلاناً عرضة لكذا، أي: نصبة. وقيل: العرضة من الشدة، والقوة، ومنه قولهم للمرأة عرضة للزواج: إذا صلحت له، وقويت عليه، ولفلان عرضة، أي: قوة، ومنه قول كعب بن زهير: من كل نضاجة النقرى إذا عرقت عرضتها طامس الأعلام مجهول ومثله قول أوس بن حجر: وألما مثل العجل يوماً عرضتها لرحلي وفيها هزة وتقائف

والحيضة. وأخرج أحمد، عن ابن عباس مرفوعاً: أن هذه الآية نزلت في أناس من الأنصار أتوا النبي ﷺ، فسألوه فقال: انتهت على كل حال إذا كان في الفرج. وأخرج الدارمي، وأبو داود، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه، عنه قال ابن عمر: والله يغفر له أوهم، إنما كان هذا الحي من الأنصار، وهم أهل وثن مع هذا الحي من اليهود، وهم أهل الكتاب كانوا يرون لهم، فضلاً عليهم في العلم، فكانوا يقتنون بكثير من فعلهم، فكان من أمر أهل الكتاب لا يأتون النساء إلا على حرف، وذلك أستر ما تكون المرأة، وكان هذا الحي من الأنصار قد أخذوا بفعلهم، وكان هذا الحي من قريش يشرحون النساء شرحاً، ويتلذذون منهن مقبلات، ومديبرات، ومستلقيات، فلما قدم المهاجرون المدينة تزوج رجل منهم امرأة من الأنصار. فذهب يفعل بها ذلك، فأنكرته عليه، وقالت: إنما كنا نؤتى على حرف، فاصنع ذلك، وإلا فاجتنبني، فسرى أمرهما، فبلغ رسول الله ﷺ، فأنزل الله الآية: ﴿نَسَآؤُكُمْ حَرْثُ لَكُمْ﴾ يقول: مقبلات، ومديبرات بعد أن يكون في الفرج، وإن كان من قبل ببرها في قبلها زاد الطبراني: قال ابن عباس، قال ابن عمر: في ببرها، فأوهم، والله يغفر له، وإنما كان هذا الحديث على هذا. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، والدارمي، والبيهقي، عن ابن مسعود: أنه قال: محاش النساء عليكم حرام. وأخرج الشافعي في الأم، وابن أبي شيبة، وأحمد، والنسائي، وابن ماجه، وابن المنذر، والبيهقي في سننه من طريق خزيمة بن ثابت: «أن سائلاً سأل رسول الله ﷺ عن إتيان النساء في ألبارهن، فقال: حلال، أو لا بأس، فلما ولى دعاه فقال: كيف قلت؟ أمن ببرها في قبلها، فنعم، أم من ببرها في ببرها فلا، إن الله لا يستحيي من الحق لا تاتوا النساء في ألبارهن». وأخرج ابن عدي، والدارقطني، عن جابر بن عبد الله نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة، والترمذي وحسنه، والنسائي، وابن حبان عن ابن عباس: قال قال رسول الله ﷺ: «لا ينظر الله إلى رجل أتى امرأة في الدبر». وأخرج أحمد، والبيهقي في سننه، عن ابن عمرو: أن النبي ﷺ قال: «الذي يأتي امرأته في ببرها هي اللوطية الصغرى». وأخرج أحمد، وأبو داود، والنسائي، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ملعون من أتى امرأته في ببرها». وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والنسائي، والبيهقي عنه قال: إتيان الرجال، والنساء في ألبارهن كفر. وقد رواه ابن عدي، عن أبي هريرة مرفوعاً قال ابن كثير: والموقوف أصح. وقد ورد النهي عن ذلك من طرق منها عند البزار عن عمر مرفوعاً، وعند النسائي عنه موقوفاً، وهو أصح. وعند ابن عدي في الكامل، عن ابن مسعود مرفوعاً، وعند ابن عدي أيضاً، عن عقبة بن عامر مرفوعاً، وعند أحمد عن طلق بن يزيد، أو يزيد بن طلق مرفوعاً، وعند ابن أبي شيبة، وأحمد، والترمذي وحسنه، عن علي بن طلق مرفوعاً، وقد ثبت نحو ذلك عن جماعة من

ويطلق العرضة على الهمّة، ومنه قول الشاعر:

هم الانصرار عرضتها للقاء

أي: همّتها، ويقال: فلان عرضة للناس لا يزالون يقعون فيه، فعلى المعنى الذي ذكره الجوهري: أن العرضة النصب كالقبضة، والغرفة يكون ذلك اسماً لما تعرضه نون الشيء، أي تجعله حاجزاً له، ومانعاً منه. أي: لا تجعلوا الله حاجزاً، ومانعاً لما حلفتم عليه، وذلك؛ لأن الرجل كان يحلف على بعض الخير من صلة رحم، أو إحسان إلى الغير، أو إصلاح بين الناس بأن لا يفعل ذلك، ثم يمتنع من فعله معللاً لذلك الامتناع بأنه قد حلف أن لا يفعله، وهذا المعنى: هو الذي ذكره الجمهور في تفسير الآية، ينهّاهم الله أن يجعلوه عرضة لأيمانهم، أي: حاجزاً لما حلفوا عليه، ومانعاً منه، وسمي المحلوف عليه ميمناً لتلبسه باليمين، وعلى هذا يكون قوله: ﴿أَنْ تَبْرُوا﴾ عطف بيان لأيمانكم، أي: لا تجعلوا الله مانعاً لأيمان التي هي بركم، وتقواكم، وإصلاحكم بين الناس، ويتعلق قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُكُمْ﴾ بقوله: ﴿لَا تَجْعَلُوا﴾ أي: لا تجعلوا الله لأيمانكم مانعاً، وحاجزاً، ويجوز أن يتعلق بعرضة. أي: لا تجعلوه شيئاً معترضاً بينكم، وبين البرّ، وما بعده، وعلى المعنى الثاني، وهو أن العرضة: الشدة، والقوة يكون معنى الآية: لا تجعلوا اليمين بالله قوة لأنفسكم، وعدة في الامتناع من الخير، ولا يصح تفسير الآية على المعنى الثالث، وهو: تفسير العرضة بالهمّة، ولما على المعنى الرابع، وهو من قولهم: فلان لا يزال عرضة للناس، أي: يقعون فيه، فيكون معنى الآية عليه: ولا تجعلوا الله معرضاً لأيمانكم، فتبتذلونه بكثرة الحلف به، ومنه ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [المائدة: 89] وقد ذم الله المكثرين للحلف فقال: ﴿وَلَا تَطْعُ كُلَّ حِلَافٍ مِثِينَ﴾ [القلم: 10] وقد كانت العرب تتماح بقلّة الأيمان حتى قال قائلهم:

قليل الأيّا حافظ ليمينه وإن ندرت منه الآية برّت
وعلى هذا، فيكون قوله: ﴿أَنْ تَبْرُوا﴾ علة للنهي أي: لا تجعلوا الله معرضاً لأيمانكم إرادة أن تبروا، وتتقوا، وتصلحوا؛ لأن من يكثر الحلف بالله يجترئ على الحنث، ويفجر في يمينه. وقد قيل في تفسير الآية أقوال هي راجعة إلى هذه الوجوه التي ذكرناها، فمن ذلك قول الزجاج معنى الآية: أن يكون الرجل إذا طلب منه الفعل الذي فيه خير اعتلّ بالله: فقال علي يمين، وهو لم يحلف، وقيل معناها: لا تحلفوا بالله كائنين إذا أردتم البرّ، والتقوى، والإصلاح، وقيل: معناها: إذا حلفتم على أن لا تصلوا أرحامكم، ولا تصدقوا، ولا تصلحوا، وعلى أشباه ذلك من أبواب البر، فكفروا عن اليمين، وقد قيل إن قوله: ﴿أَنْ تَبْرُوا﴾ مبتدأ خبره محذوف أي: البرّ، والتقوى، والإصلاح أولى. قاله الزجاج وقيل: إنه منصوب أي: لا تمنعكم اليمين بالله البرّ، والتقوى، والإصلاح وروي ذلك عن الزجاج أيضاً، وقيل: معناها: أن لا تبروا، فحنث لا، كقوله: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ [النساء: 176] أي: لا تضلوا. قاله ابن جرير الطبري، وقيل: هو في موضع

جرّ على قول الخليل، والكسائي، والتقدير في ﴿أَنْ تَبْرُوا﴾ وقوله: ﴿سَمِيعٌ﴾ أي: لأقوال العباد: ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يصدر منهم. واللغو: مصدر لغا يلغو لغواً، ولغى يلغي لغياً؛ إذا أتى بما لا يحتاج إليه في الكلام، أو بما لا خير فيه، وهو الساقط الذي لا يعتد به، فاللغو من اليمين: هو الساقط الذي لا يعتد به، ومنه اللغو في البنية، وهو الساقط الذي لا يعتد به من أولاد الإبل، قال جرير:

ويذهب بينها المري لغوا كما
الغيت في البنية الحولوا
وقال آخر:

ورب أسراب حبيج كظم
عن اللغاء ورث التكلم
أي: لا يتكلمن بالساقط، والرفث، ومعنى الآية: لا يعاقبكم الله بالساقط من أيمانكم، ولكن يعاقبكم بما كسبت قلوبكم أي: اقترفته بالقصد إليه: وهي اليمين المعقودة، ومثله قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ يَؤْخَذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْاَيْمَانَ﴾ [المائدة: 89] ومثله قول الشاعر:

ولست بمأخوذ بلغو يقوله
إذا لم تعتمد عاقدات العزائم
وقد اختلف أهل العلم في تفسير اللغو، فذهب ابن عباس، وعائشة، وجمهور العلماء أيضاً: أنه قول الرجل لا والله، وبلى والله في حديثه، وكلامه غير معتقد لليمين، ولا مرید لها. قال المروزي: هذا معنى لغو اليمين الذي اتفق عليه عامة العلماء. وقال أبو هريرة، وجماعة من السلف: هو أن يحلف الرجل على الشيء لا يظن إلا أنه إياه فإذا ليس هو ما ظنه، وإلى هذا ذهب الحنفية، والزيدية، وبه قال مالك في الموطأ. وروي عن ابن عباس: أنه قال: لغو اليمين أن تحلف، وأنت غضبان، وبه قال طائوس، ومكحول. وروي عن مالك، وقيل: إن اللغو هو يمين المعصية، قاله سعيد بن المسيب، وأبو بكر بن عبد الرحمن، وعبد الله بن الزبير، وأخوه عروة كالذي يقسم ليشرب الخمر، أو ليقطعن الرحم، وقيل: لغو اليمين: هو دعاء الرجل على نفسه، كأن يقول: أعمى الله بصره، أذهب الله ماله، هو يهودي، هو مشرك. قاله زيد بن أسلم. وقال مجاهد: لغو اليمين أن يتبايع الرجلان، فيقول أحدهما: والله لا أبيعك بكذا، ويقول الآخر: والله لا أشتريه بكذا. وقال الضحاك: لغو اليمين هي المكفرة. أي: إذا كفرت سقطت، وصارت لغواً. والراجح القول الأول لمطابقتها للمعنى اللغوي، ولدلالة الآية عليه كما سيأتي. وقوله: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ أي: حيث لم يؤاخذكم بما تقولونه بالسنتكم من دون عمد، وقصد. وأخذكم بما تعمته قلوبكم، وتكلمت به ألسنتكم، وتلك هي اليمين المعقودة المقصودة.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ يقول: لا تجعلني عرضة ليمينك أن لا تصنع الخير، ولكن كفر عن يمينك، وأصنع الخير. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عنه: هو أن يحلف الرجل أن لا يكلم قريبته أو لا يتصدق، ويكون بين رجلين مغاضبة، فيحلف لا يصلح بينهما، ويقول قد حلفت، قال: يكفر عن

غضبان. وأخرج ابن جرير، عن أبي هريرة قال: لغو اليمين حلف الإنسان على الشيء يظن أنه الذي حلف عليه، فإذا هو غير ذلك. وأخرج ابن أبي حاتم، والبيهقي عن عائشة نحوه. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس نحوه، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس: أنها أن يحلف الرجل على تحريم ما أحل الله له. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جببر قال: هو الرجل يحلف على المعصية، وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد عن النخعي: هو أن يحلف الرجل على الشيء ثم ينسى. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جببر في قوله: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ يعني إذ تجاوز عن اليمين التي حلف عليها ﴿حليم﴾ إذ لم يجعل فيها الكفارة.

لِّلَّذِينَ يُؤَلِّونَ بَيْنَ يَدَيْهِمْ رِبًّا أُنْزِلَ آيَاتُ الْفُورِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾

قوله: ﴿يُؤَلِّونَ﴾ أي: يحلفون: والمصدر إيلاء، والية، والوة، وقرأ ابن عباس: «الذين ألوا» يقال: ألى يؤالي إيلاً، ويأتي بالياء انتلاء، أي: حلف، ومنه: ﴿ولا ياتل أولوا الفضل منكم﴾ [النور: 22] ومنه:

قليل الإيلاء حافظ ليمينه

البيت. وقد اختلف أهل العلم في الإيلاء، فقال الجمهور: إن الإيلاء هو أن يحلف أن لا يطأ امرأته أكثر من أربعة أشهر، فإن حلف على أربعة أشهر، فما دونها لم يكن مولياً، وكانت عندهم يميناً محضاً، وبهذا قال مالك، والشافعي، وأحمد، وأبو ثور. وقال الثوري، والكوفيون: الإيلاء أن يحلف على أربعة أشهر فصاعداً، وهو قول عطاء، وروي عن ابن عباس: أنه لا يكون مولياً حتى يحلف أن لا يمسه أبداً. وقالت طائفة: إذا حلف أن لا يقرب امرأته يوماً، أو أقل، أو أكثر ثم لم يطأ أربعة أشهر بانت منه بالإيلاء. وبه قال ابن مسعود، والنخعي، وابن أبي ليلى، والحكم، وحماد بن أبي سليمان، وقتادة، وإسحاق. قال ابن المنذر: وأنكر هذا القول كثير من أهل العلم. قوله: ﴿مَنْ فُسِّقَ﴾ يشمل الحرائر، والإماء إذا كن زوجات، وكذلك يدخل تحت قوله: ﴿لِلَّذِينَ يُؤَلِّونَ﴾ العبد إذا حلف من زوجته، وبه قال الشافعي، وأحمد، وأبو ثور قالوا: وإيلاؤه كالحر. وقال مالك، والزهري، وعطاء، وأبو حنيفة، وإسحاق: إن أجله شهران. وقال الشعبي: إيلاء الأمة نصف إيلاء الحرة. والتربص: التاني والتأخر، قال الشاعر:

تربص بها ريب المنون لعلها تطلق يوماً أو يموت حليلها
وقت الله سبحانه بهذه المدة نفعاً للضرار عن الزوجة.
وقد كن أهل الجاهلية يؤلون السنة، والسنتين، وأكثر من ذلك يقصون بذلك ضرار النساء. وقد قيل: إن الأربعة الأشهر هي التي لا تطيق المرأة الصبر عن زوجها زيادة عليها. قوله: ﴿فَإِنْ فَاوُوا﴾ أي: رجعوا ومنه ﴿حتى تفيء إلى أمر الله﴾ [الحجرات: 9] أي: ترجع، ومنه قيل: للظل بعد الزوال فيء؛ لأنه رجع عن جانب المشرق إلى جانب المغرب، يقال: فاء فيء فيئة، وفيوءاً، وإنه لسريع الفئة، أي: للرجعة،

يمينه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عطاء قال: جاء رجل إلى عائشة، فقال: إني نذرت إن كلمت فلاناً، فإن كل مملوك لي عتيق، وكل مال لي ستر للبيت، فقالت: لا تجعل مملوكك عتقاً، ولا تجعل مالك ستراً للبيت، فإن الله يقول: ﴿ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم﴾ فكفر عن يمينك، وقد ورد أن هذه الآية نزلت في أبي بكر في شأن مسطح. رواه ابن جرير، عن ابن جريج، والقصة مشهورة، وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة في الصحيحين، وغيرهما أن النبي ﷺ قال: «من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها، فليأت الذي هو خير، وليكفر عن يمينه». وثبت أيضاً في الصحيحين، وغيرهما أن النبي ﷺ قال: «والله إن شاء الله لا أحلف على يمين، فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير، وكفرت عن يميني». وأخرج ابن ماجه، وابن جرير عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «من حلف على يمين قطيعة رحم، أو معصية، فبزه أن يحث فيها، ويرجع عن يمينه». وأخرج أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «لا نذر، ولا يمين، فيما لا يملك ابن آدم، ولا في معصية الله، ولا في قطيعة رحم». وأخرج أبو داود، والحاكم، وصححه عن عمر مرفوعاً مثله. وأخرج النسائي، وابن ماجه، عن مالك الجشمي قال: قلت: يا رسول الله يأتيني ابن عمي، فاحلف أن لا أعطيه، ولا أصله، فقال: كفر عن يمينك. وأخرج مالك في الموطأ، وعبد الرزاق، وعبد بن حميد، والبخاري، وغيرهم عن عائشة قالت: أنزلت هذه الآية ﴿لا يؤخذكم الله باللغو في أيمانكم﴾ في قول الرجل لا والله، وبلى والله، وكلا والله. وأخرج أبو داود، وابن جرير، وابن حبان، وابن مردويه، والبيهقي من طريق عطاء بن أبي رباح: أنه سئل عن اللغو في اليمين، فقال: قالت عائشة إن رسول الله ﷺ قال: «هو كلام الرجل في بيته كلاً والله، وبلى والله». وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن عائشة: أنها قالت في تفسيره الآية: إن اللغو هو القوم يتدارون في الأمر يقول هذا: لا والله، ويقول هذا: كلا والله، يتدارون في الأمر لا تعقد عليه قلوبهم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن عائشة أنها قالت: هو اللغو في المزاحة والهزل، وهو قول الرجل لا والله، وبلى والله، فذلك لا كفارة فيه، وإنما الكفارة فيما عقد عليه قلبه أن يفعله، ثم لا يفعله. وأخرج ابن جرير، عن الحسن: قال: «مر رسول الله ﷺ بقوم ينتضلون، ومع النبي ﷺ رجل من أصحابه، فرمى رجل من القوم، فقال: أصبت والله، وأخطأت والله، فقال الذي مع النبي ﷺ: حنث الرجل يا رسول الله، فقال: كلا، إيمان الرماة لغو لا كفارة فيها، ولا عقوبة. وقد روى أبو الشيخ عن عائشة، وابن عباس، وابن عمر، وابن عمرو أن اللغو لا والله، وبلى والله، أخوجه سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد عن ابن عباس أنه قال: لغو اليمين أن تحلف، وأنت

ومنه قول الشاعر:

ففات ولم تقض الذي آقبلت له ومن حاجة الإنسان ما ليس قاضيا
قال ابن المنذر: وأجمع كل من يحفظ عنه العلم على أن
الفء الجماع لمن لا عذر له، فإن كان عذر مرض، أو سجن
فهو امرأته، فإذا زال العذر فابى الوطء فرّق بينهما إن كانت
المدة قد انقضت، قاله مالك؛ وقالت طائفة إذا أشهد على
فيئته بقلبه في حال العذر أجزأه. وبه قال الحسن، وعكرمة،
والنخعي، والأوزاعي، وأحمد بن حنبل. وقد أوجب الجمهور
على المولى إذا فاء بجماع امرأته الكفارة. وقال الحسن،
والنخعي: لا كفارة عليه. قوله: ﴿وإن عزموا الطلاق﴾ العزم:
العقد على الشيء، ويقال: عزم يعزم عزمًا، وعزيمة، وعزمانًا،
واعترم اعترامًا، فمعنى عزموا الطلاق: عقدوا عليه قلوبهم.
والطلاق من طلقت المرأة تطلق كنصر ينصر طلاقًا، فهي
طالق، وطالقة أيضًا، ويجوز طلقت بضم اللام، مثل عظم
يعظم، وإنكره الأخفش. والطلاق حلّ عقد النكاح، وفي ذلك
دليل على أنها لا تطلق بمضي أربعة أشهر كما قال مالك: ما
لم يقع إنشاء تطليق بعد المدة، أيضًا، فإنه قال: ﴿سميع﴾،
وسميع يقتضي مسموعًا بعد المضي. وقال أبو حنيفة:
﴿سميع﴾ لإيلائه ﴿عليم﴾ بعزمه الذي دل عليه مضي
أربعة أشهر. وأعلم أن أهل كل مذهب قد فسروا هذه الآية
بما يطابق مذهبهم، وتكلفوا بما لم يدل عليه اللفظ، ولا دليل
آخر، ومعناها ظاهر واضح، وهو أن الله جعل الأجل لمن
يولي: أي يحلف من امرأته أربعة أشهر. ثم قال مخبراً لعباده
بحكم هذا المولى بعد هذه المدة: ﴿فإن فاقوا﴾ رجعوا إلى
بقاء الزوجية، واستدامة النكاح ﴿فإن الله غفور رحيم﴾ أي:
لا يؤاخذهم بتلك اليمين بل يغفر لهم، ويرحمهم ﴿وإن
عزموا الطلاق﴾ أي: وقع العزم منهم عليه، والقصد له
﴿فإن الله سميع﴾ لذلك منهم ﴿عليم﴾ به، فهذا معنى الآية
الذي لا شك فيه، ولا شبهة، فمن حلف أن لا يطأ امرأته، ولم
يقيد بمدة، أو قيد بزيادة على أربعة أشهر كان علينا إمهاله
أربعة أشهر، فإذا مضت، فهو بالخيار إما رجوع إلى نكاح
امرأته، وكانت زوجته بعد مضي المدة كما كانت زوجته
قبلها، أو طلقها، وكان له حكم المطلق لامراته ابتداءً، وأما إذا
وقت بدون أربعة أشهر، فإن أراد أن يبرّ في يمينه اعتزل
امرأته التي حلف منها حتى تنقضي المدة كما فعل رسول
الله ﷺ حين ألى من نسائه شهرًا، فإنه اعتزلهن حتى
مضى الشهر، وإن أراد أن يطأ امرأته قبل مضي تلك المدة
التي هي بون أربعة أشهر حنث في يمينه، ولزمته الكفارة،
وكان ممثلاً لما صح عنه ﷺ من قوله: «من حلف على
شيء، فرأى غيره خيراً منه فليأت الذي هو خير منه، وليكفر
عن يمينه».

وقد أخرج الشافعي، وعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن
المنذر، والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال: الإيلاء أن
يحلف أنه لا يجامعها أبداً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر،
وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه عنه في قوله: ﴿الذين

يؤلون من نسائهم﴾ قال: هو الرجل يحلف لامراته بأه لا
ينكحها، فتتربص أربعة أشهر، فإن هو نكحها كفر عن يمينه،
فإن مضت أربعة أشهر قبل أن ينكحها خيره السلطان إما أن
يفي، وإما أن يعزم، فيطلق كما قال الله سبحانه. وأخرج
سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، والطبراني، والبيهقي عنه
قال: كان إيلاء الجاهلية السنة، والسنتين، وأكثر من ذلك،
فوقت الله لهم أربعة أشهر، فإن كان إيلاؤه أقل من أربعة
أشهر، فليس بإيلاء. وأخرج عبد بن حميد، عن علي قال:
الإيلاء إيلاءان: إيلاء في الغضب، وإيلاء في الرضا، فأما
الإيلاء في الغضب: فإذا مضت أربعة أشهر، فقد بان منه،
وأما ما كان في الرضا، فلا يؤاخذ به. وأخرج ابن جرير، عن
ابن عباس قال: لا إيلاء إلا بغضب. وأخرج أبو عبيد في
فضائله، وابن المنذر عن أبي بن كعب أنه قرأ: «فإن فاقوا»
فيهن فإن الله غفور رحيم». وأخرج عبد بن حميد، عن علي
قال: الفء: الجماع. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن
حميد، وابن جرير، وابن المنذر وابن أبي حاتم، والبيهقي في
سننه من طرق، عن ابن عباس مثله. وأخرج ابن المنذر، عن
ابن مسعود مثله. وأخرج ابن المنذر عن علي قال: الفء
الرضا. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن مسعود مثله. وأخرج
عبد بن حميد عن الحسن، قال: الفء الجماع، فإن كان له عذر أجزأه
أن يفى بلسانه. أخرج ابن أبي حاتم، عن ابن مسعود قال:
إذا حال بينه، وبينها مرض، أو سفر، أو حبس، أو شيء
يعذر به، فإشهاده فيء. وللشافعي في الفء أقوال مختلفة،
فينبغي الرجوع إلى معنى الفء لغة، وقد بيناه. وأخرج ابن
جرير، عن عمر بن الخطاب: أنه قال في الإيلاء: إذا مضت
أربعة أشهر لا شيء عليه حتى يوقف، فيطلق، أو يمسك.
وأخرج الشافعي، وابن جرير، والبيهقي، عن عثمان بن عفان
نحوه. وأخرج مالك، والشافعي، وعبد بن حميد، وابن جرير،
والبيهقي عن علي نحوه. وأخرج البخاري، وعبد بن حميد،
عن ابن عمر نحوه أيضاً. وأخرج ابن جرير، والبيهقي، عن
عائشة نحوه. وأخرج ابن جرير، والدارقطني، والبيهقي من
طريق سهيل بن أبي صالح، عن أبيه قال: سألت اثني عشر
رجلاً من أصحاب النبي ﷺ عن الرجل يولي من امرأته،
فكلهم يقول: ليس عليه شيء حتى تمضي الأربعة الأشهر،
فتوقف، فإن فاء، وإلا طلق. وأخرج البيهقي، عن ثابت بن
عبيدة مولى زيد بن ثابت، عن اثني عشر رجلاً من الصحابة
نحوه. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم،
والبيهقي عن عمر، وعثمان، وعلي، وزيد بن ثابت، وابن
مسعود، وابن عمر، وابن عباس قالوا: الإيلاء تطليقة بائنة إذا
مرت أربعة أشهر، قبل أن يفى، فهي أمك بنفسها،
وللصحابة، والتابعين في هذا أقوال مختلفة متناقضة،
والمتمعين الرجوع إلى ما في الآية الكريمة، وهو ما عرفناك،
فاشدد عليه بيديك. وأخرج عبد الرزاق عن عمر قال: إيلاء
العبد شهران. وأخرج مالك عن ابن شهاب قال: إيلاء العبد

نحو إيلاء الحر.

وَلَنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ سَبِيحَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمَلَائِكَةُ يَتَّبِعُونَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَجِدُ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَنْفُسِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَهُنَّ أَنْ يَرِيحُنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾

قوله: ﴿والمطلقات﴾ يدخل تحت عمومها المطلقة قبل الدخول، ثم خصص بقوله تعالى: ﴿فما لكم عليهن من عدة تعتدونها﴾ [الأحزاب: 49] فوجب بناء العام على الخاص، وخرجت من هذا العموم المطلقة قبل الدخول، وكذلك خرجت الحامل بقوله تعالى: ﴿وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن﴾ [الطلاق: 4] وكذلك خرجت الآية بقوله تعالى: ﴿فعلتهن ثلاثة أشهر﴾ [الطلاق: 4] والتريص: الانتظار، قيل: هو خبر في معنى الأمر، أي: ليتريصن قصد بإخراجه مخرج الخبر تأكيد وقوعه، وزاده تأكيداً وقوعه خبراً للمبتدأ. قال ابن العربي: وهذا باطل، وإنما هو: خبر عن حكم الشرع، فإن وجبت مطلقة لا تتريص، فليس ذلك من الشرع، ولا يلزم من ذلك، وقوع خبر الله سبحانه على خلاف مخبره. والقروء جمع قرء. وروي عن نافع أنه قرأ: «قروء» بتشديد الواو. وقرأ الجمهور بالهمز. وقرأ الحسن بفتح القاف، وسكون الراء، والتثوين. قال الأصمعي: الواحد قرء بضم القاف. وقال أبو زيد بالفتح: وكلاهما قال أقرأت المرأة: حاضت، وأقرأت: ظهرت. وقال الأخفش: أقرأت المرأة: إذا صارت صاحبة حيض، فإذا حاضت قلت قرأت بلا الف. وقال أبو عمرو بن العلاء من العرب من يسمي الحيض قرءاً، ومنهم من يسمي الطهر قرءاً، ومنهم من يجمعهما جميعاً، فيسمى الحيض مع الطهر قرءاً، وينبغي أن يعلم أن القرء في الأصل: الوقت؛ يقال: هبت الرياح لقرئها، ولقارئها، أي: لوقتها، ومنه قول الشاعر:

كرهت العقر عقروني شليل إذا هبت لقارئها الرياح
فيقال للحيض: قرء، وللطهر قرء؛ لأن كل واحد منهما له وقت معلوم. وقد أطلقته العرب تارة على الأطهار، وتارة على الحيض، فمن إطلاقه على الأطهار قول الأعشى:

أني كل عام أنت جاشم غزوة تشد لأقصاها عزم عزائكا
مورثة مالا وفي الحي رفة لما ضاع فيها من قروء نساكا
أي أطهارهن، ومن إطلاقه على الحيض قول الشاعر:

يارب ذي حنق علي قارض له قروء كقروء الحائض
يعني أنه طعنه، فكان له دم كدم الحائض. وقال قوم: هو مأخوذ من قري الماء في الحوض، وهو جمعه، ومنه القرآن لاجتماع المعاني فيه. قال عمرو بن كلثوم:

نراعي عيطل أسماء بكر هجان اللون لم تقرأ جنينا
أي: لم تجمع في بطنها. والحاصل أن القروء في لغة العرب مشترك بين الحيض، والطهر، ولأجل هذا الاشتراك اختلف أهل العلم في تعيين ما هو المراد بالقروء المذكورة في الآية، فقال أهل الكوفة: هي الحيض، وهو قول عمر،

وعلي، وابن مسعود، وأبي موسى، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، وعكرمة، والسدي، وأحمد بن حنبل. وقال أهل الحجاز هي: الأطهار، وهو قول عائشة، وابن عمر، وزيد بن ثابت، والزهري، وأبان بن عثمان، والشافعي، وأعلم أنه قد وقع الاتفاق بينهم على أن القرء الوقت، فصار معنى الآية عند الجميع، والمطلقات يتريصن بأنفسهن ثلاثة أوقات، فهي على هذا مفسرة في العدد مجملة في المعبود، فوجب طلب البيان للمعبود من غيرها، فأهل القول الأول استدلوا على أن المراد في هذه الآية الحيض بقوله ﷺ: «دعي الصلاة أيام أقرائك» ويقول ﷺ: «طلاق الأمة تطليقتان، وعنتها حيضتان» وبأن المقصود من العدة استبراء الرحم، وهو يحصل بالحيض لا بالطهر. واستدل أهل القول الثاني بقوله تعالى: ﴿فطلقوهن لعدتهن﴾ [الطلاق: 1] ولا خلاف أنه يؤمر بالطلاق، وقت الطهر. ولقوله ﷺ: «مره فليراجعها» ثم ليمسكها حتى تطهر، ثم تحيض، ثم تطهر، فترك العدة التي أمر الله أن تطلق لها النساء؛ وذلك لأن زمن الطهر هو الذي تطلق فيه النساء. قال أبو بكر بن عبد الرحمن: ما أركنا أحداً من فقهاءنا إلا يقول: بأن الأقراء هي: الأطهار، فإذا طلق الرجل في طهر لم يطأ فيه اعتدت بما بقي منه، ولو ساعة، ولو لحظة، ثم استقبل طهرًا ثانيًا بعد حيضة، فإذا رأت الدم من الحيضة الثالثة خرجت من العدة. انتهى. وعندي أن لا حجة في بعض ما احتج به أهل القولين جميعاً. أما قول الأولين أن النبي ﷺ قال: «دعي الصلاة أيام أقرائك» فغاية ما في هذا أن النبي ﷺ أطلق الأقراء على الحيض، ولا نزاع في جواز ذلك كما هو شأن اللفظ المشترك، فإنه يطلق تارة على هذا، وتارة على هذا، وإنما النزاع في الأقراء المذكورة في هذه الآية، وأما قوله ﷺ: «في الأمة: «وعنتها حيضتان» فهو حديث أخرجه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، والدارقطني، والحاكم وصححه، من حديث عائشة مرفوعاً. وأخرجه ابن ماجه، والبيهقي من حديث ابن عمر مرفوعاً أيضاً، ودلالته على ما قاله الأولون قوية. وأما قولهم: إن المقصود من العدة استبراء الرحم، وهو يحصل بالحيض لا بالطهر، فيجواب عنه: بأنه إنما يتم لو لم يكن في هذه العدة شيء من الحيض على فرض تفسير الأقراء بالأطهار، وليس كذلك بل هي مشتملة على الحيض، كما هي مشتملة على الأطهار، وأما استدلال أهل القول الثاني بقوله تعالى: ﴿فطلقوهن لعدتهن﴾ [الطلاق: 1] فيجواب عنه: بأن التنازع في اللام في قوله: ﴿لعدتهن﴾ يصير ذلك محتملاً، ولا تقوم الحجة بمحتمل. وأما استدلالهم بقوله ﷺ: «مره فليراجعها» الحديث، فهو في الصحيح، ودلالته قوية على ما ذهبوا إليه، ويمكن أن يقال: إنها تنقضي العدة بثلاثة أطهار، أو بثلاث حيض، ولا مانع من ذلك، فقد جوز جمع من أهل العلم حمل المشترك على معنیه، وبذلك يجمع بين الأدلة، ويرتفع الخلاف، ويندفع النزاع. وقد استشكل الزمخشري تمييز الثلاثة بقوله: قروء، وهي جمع كثرة دون أقراء التي

يكن من فضيلة الرجال على النساء إلا كونهن خلقن من الرجال لما ثبت أن حواء خلقت من ضلع آدم.

وقد أخرج أبو داود، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، عن أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية قالت: طلقت على عهد رسول الله ﷺ، ولم يكن للمطلقة عدة، فأنزل الله حين طلقت العدة للمطلق، فقال: ﴿والمطلقات يتربصن﴾ الآية. وأخرج أبو داود، والنسائي، وابن المنذر عن ابن عباس: ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء﴾ ثم قال: ﴿واللاني يشن من الحيض من نساكن إن ارتبتم فعنتهن ثلاثة أشهر﴾ [الطلاق: 4] فنسخ، وقال: ﴿ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها﴾ [الأحزاب: 49]. وأخرج مالك، والشافعي، وعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والدارقطني، والبيهقي من طرق، عن عائشة أنها قالت: الأقراء: الأطهار. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي عن ابن عمر، وزيد بن ثابت مثله. وأخرج المنكروني، عن عمرو بن دينار، قال الأقراء: للحيض عن أصحاب محمد ﷺ. وأخرج البيهقي، وابن جرير، عن ابن عباس في قوله: ﴿ثلاثة قروء﴾ قال: ثلاث حيض. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة في قوله تعالى: ﴿ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن﴾ قال: كانت المرأة تكتم حملها حتى تجعله لرجل آخر، فنهاهن الله عن ذلك. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عمر في الآية قال: الحمل، والحيض، وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وبيعولتهن أحق بردهن﴾ يقول: إذا طلق الرجل امرأته تطليقة، أو تطليقتين، وهي حامل، فهو أحق برجعتهما ما لم تضع حملها، وهو قوله: ﴿ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن﴾. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، والبيهقي، عن مجاهد في قوله: ﴿وبيعولتهن أحق بردهن في ذلك﴾ قال: في العدة. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة مثله، وزاد ما لم يطلقها ثلاثاً. وأخرج ابن جرير، عن الضحاک في قوله: ﴿ولهن مثل الذي عليهن﴾ قال: إذا طعن الله، وطعن أزواجهن، فعليه أن يحسن صحبتها، ويكف عنها إذاه، ويتفق عليها من سقته. وقد أخرج أهل السنن عن عمرو بن الأحوص أن رسول الله ﷺ قال: «ألا إن لكم على نساكنكم حقاً، ولنساكنكم عليكم حقاً، أما حقكم على نساكنكم أن لا يوطئن، فرشكم من تكرهون، ولا يأنن في بيوتكم لمن تكرهون، ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن، وطعامهن، وصححه الترمذي. وأخرج أحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وابن جرير، والحاكم وصححه، والبيهقي عن معاوية بن حيدة القشيري: «أنه سال النبي ﷺ ما حق المرأة على الزوج؟ قال: أن تطعمها إذا طعمت،

هي من جموع القلة. وأجاب بأنهم يتسعون في ذلك، فيستعملون كل واحد من الجمع مكان الآخر لاشتراكهما في الجمعية. قوله: ﴿ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن﴾ قيل: المراد به: الحيض، وقيل: الحمل، وقيل: كلاهما، ووجه النهي عن الكتمان ما فيه في بعض الأحوال من الإضرار بالزوج، وإذهاب حقه، فإذا قالت المرأة: حضت، وهي لم تحض ذهبت بحقه من الارتجاع، وإذا قالت: لم تحض، وهي قد حاضت ألزمته من النفقة ما لم يلزمه، فاضرت به، وكذلك الحمل ربما تكتمه التقطع حقه من الارتجاع، وربما تدعيه لتوجب عليه النفقة، ونحو ذلك من المقاصد المستلزمة للإضرار بالزوج. وقد اختلفت الأقوال في المدة التي تصنق فيها المرأة إذا ادعت انقضاء عنتها. وقوله: ﴿إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ فيه، وعيد شديد للكاتمات، وبيان أن من كتمت ذلك منهن لم تستحق اسم الإيمان. والبعولة جمع بعل، وهو الزوج، سمي بعلًا لعلوه على الزوجة؛ لأنهم يطلقونه على الرب، ومنه قوله: تعالى: ﴿أتدعون بعلًا﴾ [الصافات: 125] أي: رباً، ويقال: بعل، وبعولة، كما يقال في جمع الذكر نكور، ونكورة، وهذه التاء لتأنيث الجمع، وهو شاذ لا يقاس عليه بل يعتبر فيه السماع، والبعولة أيضاً تكون مصدرًا من بعل الرجل يبعل، مثل منع يمنع. أي: صار بعلًا. وقوله: ﴿أحق بردهن﴾ أي: برجعتهن، وذلك يختص بمن كان يجوز للزوج مراجعتها، فيكون في حكم التخصيص لعموم قوله: ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن﴾ لأنه يعم المثلثات، وغيرهن. وقوله: ﴿في ذلك﴾ يعني في مدة التربص، فإن انقضت مدة التربص، فهي أحق بنفسها، ولا تحل له إلا بنكاح مستأنف بولي، وشهود، ومهر جديد، ولا خلاف في ذلك، والرجعة تكون باللفظ، وتكون بالوطء، ولا يلزم المراجع شيء من أحكام النكاح بلا خلاف. وقوله: ﴿إن أرادوا إصلاحاً﴾ أي: بالمراجعة أي: إصلاح حاله معها، وحالها معه، فإن قصد الإضرار بها، فهي محرمة لقوله تعالى: ﴿ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا﴾ [البقرة: 231] قيل: وإذا قصد بالرجعة الضرر، فهي صحيحة، وإن ارتكب بذلك محرماً، وظلم نفسه، وعلى هذا، فيكون الشرط المذكور في الآية الحث للأزواج على قصد الإصلاح، والزجر لهم عن قصد الضرر، وليس المراد به جعل قصد الإصلاح شرطاً لصحة الرجعة. قوله: ﴿ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف﴾ أي: لهن من حقوق الزوجية على الرجال بمثل ما للرجال عليهن، فيحسن عشرتها بما هو معروف من عادة الناس أنهم يفعلونه لنسائهم، وهي: كذلك تحسن عشرة زوجها بما هو معروف من عادة النساء أنهم يفعلونه لأزواجهن من طاعة، وتزین، وتحبب، ونحو ذلك. قوله: ﴿وللرجال عليهن درجة﴾ أي: منزلة ليست لهن، وهو قيامه عليها في الإنفاق، وكونه من أهل الجهاد، والعقل، والقوة، وله من الميراث أكثر مما لها، وكونه يجب عليها امتثال أمره، والوقوف عند رضاه، ولو لم

هذا يكون إسناد الأخذ إليهم لكونهم الأمرين بذلك. والأول أولى لقوله: ﴿مِمَّا أَتَيْتُمُوهُنَّ﴾ فإن إسناده إلى غير الأزواج بعيد جداً، لأن إيتاء الأزواج لم يكن عن أمرهم، وقيل: إن الثاني أولى لثلاث يتشوش النظم. قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَا﴾ أي: لا يجوز لكم أن تأخذوا مما أتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا ﴿أَنْ لَا يَاقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ أي: عدم إقامة حدود الله التي حدّها للزوجين، ولوجب عليهما الوفاء بها من حسن العشرة والطاعة، فإن خافا ذلك ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ أي: لا جناح على الرجل في الأخذ، وعلى المرأة في الإعطاء بأن تقتدي نفسها من ذلك النكاح ببذل شيء من المال يرضى به الزوج، فيطلقها لاجله، وهذا هو الخلع، وقد ذهب الجمهور إلى جواز ذلك للزوج، وأنه يحل له الأخذ مع ذلك الخوف، وهو الذي صرح به القرآن. وحكى ابن المنذر، عن بعض أهل العلم أنه لا يحل له ما أخذ، ولا يجبر على رده، وهذا في غاية السقوط. وقرا حمزة: «إلا أن يخافا» على البناء للمجهول، والفاعل محنوف، وهو الأئمة، والحكام، واختاره أبو عبيد قال لقوله: ﴿فَإِنْ خَفْتُمْ﴾ فجعل الخوف لغير الزوجين. وقد احتج بذلك من جعل الخلع إلى السلطان، وهو سعيد بن جبير، والحسن، وابن سيرين. وقد ضعف النحاس اختيار أبي عبيد المذكور. وقوله: ﴿فَإِنْ خَفْتُمْ أَنْ لَا يَاقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ أي: إذا خاف الأئمة، والحكام، أو المتوسطون بين الزوجين، وإن لم يكونوا أئمة، وحكماً عدم إقامة حدود الله من الزوجين، وهي ما أوجبها عليهما كما سلف. وقد حكى عن بكر بن عبد الله المدني: أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَلِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ، وَأَتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قَنْطَرًا، فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا تَأْخُذُونَهُ بِهَتَانًا، وَإِثْمًا مَبِينًا﴾ [النساء: 20] وهو قول خارج عن الإجماع، ولا تنافي بين الاثنين. وقد اختلف أهل العلم إذا طلب الزوج من المرأة زيادة على ما نفقه إليها من المهر، وما يتبعه، ورضيت بذلك المرأة هل يجوز أم لا؟ وظاهر القرآن الجواز لعدم تقييده بمقدار معين، وبهذا قال مالك، والشافعي، وأبو ثور، وروي مثل ذلك عن جماعة من الصحابة، والتابعين، وقال طاوس، وعطاء، والأوزاعي، وأحمد، وإسحاق: إنه لا يجوز، وسيأتي ما ورد في ذلك عن النبي ﷺ. وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي: أحكام النكاح، والفراق المذكورة هي: حدود الله التي أمرت بامتثالها، فلا تعتوها بالمخالفة لها، فستحقوا ما نكحهم الله من التسجيل على فاعل ذلك بأنه ظالم. قوله تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا﴾ أي: الطلقة الثالثة التي نكحها سبحانه بقوله: ﴿أَوْ تَسْرِيحَ بِإِحْسَانٍ﴾ أي: فإن وقع منه ذلك، فقد حرمت عليه بالتثليث ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ أي: حتى تتزوج بزواج آخر. وقد أخذ بظاهر الآية سعيد بن المسيب، ومن وافقه قالوا: يكفي مجرد العقد؛ لأنه المراد بقوله: ﴿حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ وذهب الجمهور من السلف، والخلف إلى أنه لا بدّ مع العقد من الوطء لما ثبت عن النبي

وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه، ولا تهجر إلا في البيت. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد في قوله: ﴿وَاللرِّجَالُ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ قال: فضل ما فضله الله به عليها من الجهاد، وفضل ميراثه على ميراثها، وكل ما فضل به عليها. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن أبي مالك في الآية قال: يطلقها، وليس لها من الأمر شيء. وأخرج عن زيد بن أسلم قال: الإمارة.

الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِيسَافٌ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمُ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا أَتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٠﴾ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا حِلَّ لَهَا مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾

المراد بالطلاق المذكور: هو: الرجعي بدليل ما تقدم في الآية الأولى، أي: الطلاق الذي تثبت فيه الرجعة للأزواج هو مرتان أي: الطلقة الأولى، والثانية، إذ لا رجعة بعد الثالثة، وإنما قال سبحانه: ﴿مَرَّتَانٍ﴾ ولم يقل طلقتان إشارة إلى أنه ينبغي أن يكون الطلاق مرة بعد مرة، لا طلقتان دفعة واحدة، كذا قال جماعة من المفسرين، ولما لم يكن بعد الطلقة الثانية إلا أحد أمرين، إما إيقاع الثالثة التي بها تبين الزوجة، أو الإمساك لها، واستدامة نكاحها، وعدم إيقاع الثالثة عليها قال سبحانه: ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ أي: فإمساك بعد الرجعة لمن طلقها زوجها طلقتين بمعروف، أي: بما هو معروف عند الناس من حسن العشرة ﴿أَوْ تَسْرِيحَ بِإِحْسَانٍ﴾ أي: بإيقاع طلقة ثالثة عليها من دون ضرار لها، وقيل: المراد: ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: برجعة بعد الطلقة الثانية ﴿أَوْ تَسْرِيحَ بِإِحْسَانٍ﴾ أي: بترك الرجعة بعد الثانية حتى تنقضي عنتها. والأول أظهر. وقوله: ﴿الطَّلَاقُ﴾ مبتدأ بتقدير مضاف أي: عند الطلاق الذي تثبت فيه الرجعة مرتان. وقد اختلف أهل العلم في إرسال الثلاث دفعة واحدة هل يقع ثلاثاً، أو واحدة فقط، فذهب إلى الأول الجمهور، وذهب إلى الثاني من عداهم، وهو الحق. وقد قررته في مؤلفاتي تقريراً بالغاً، وأقرته برسالة مستقلة. قوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا أَتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا﴾ الخطاب للأزواج. أي: لا يحل للأزواج أن يأخذوا مما دفعوه إلى نسائهم من المهر شيئاً على وجه المضارة لهن، وتنكير «شيئاً» للتحقير، أي: شيئاً نزرأ فضلاً عن الكثير، وخص ما دفعوه إليهن بعدم حل الأخذ منه مع كونه لا يحل للأزواج أن يأخذوا شيئاً من أموالهن التي يملكنها من غير المهر لكون ذلك، هو الذي تتعلق به نفس الزوج، وتتطلع لأخذه دون ما عداه مما هو في ملكها، على أنه إذا كان أخذ ما دفعه إليها لا يحل له كان ما عداه ممنوعاً منه بالأولى، وقيل: الخطاب في قوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ﴾ للأئمة، والحكام ليطبق قوله: ﴿فَإِنْ خَفْتُمْ﴾ فإن الخطاب فيه للأئمة، والحكام، وعلى

مرتان» قالوا: وهو الميقات الذي تكون فيه الرجعة، فإذا طلق واحدة، أو اثنتين، فيما أن يمسه، ويراجع بمعروف، وإما أن يسكت عنها حتى تنقضي عدتها، فتكون أحق بنفسها. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في الآية نحوه. وأخرج أبو داود في ناسخه، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: كان الرجل يأكل من مال امرأته الذي نحلها، وغيره لا يرى أن عليه جناحاً، فأنزل الله: ﴿ولا يحل لكم أن تلتخوها مما آتيتموهن شيئاً﴾ فلم يصح لهم بعد هذه الآية أخذ شيء من أموالهن إلا بحقها، ثم قال: ﴿إلا أن يخافا أن يقيما حدود الله فإن خفتم ألا يقيما حدود الله﴾ وقال: ﴿فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً﴾ [النساء: 4]. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله﴾ قال: إلا أن يكون النشوز، وسوء الخلق من قبلها، فتدعوك إلى أن تقتدي منك، فلا جناح عليك فيما اقتدت به. وأخرج مالك، والشافعي وأحمد، وأبو داود والنسائي، والبيهقي من طريق عمرة بنت عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة، عن حبيبة بنت سهل الأنصاري: «أنها كانت تحب ثابت بن قيس، وأن رسول الله خرج إلى الصبح، فوجدها عند بابها في الغلس، فقال: من هذه؟ قالت: أنا حبيبة بنت سهل، فقال: ما شأنك؟ قالت: لا أنا، ولا بانت، فلما جاء ثابت بن قيس قال له رسول الله ﷺ: هذه حبيبة بنت سهل، فنكرت ما شاء الله أن تذكر، فقالت حبيبة: يا رسول الله كل ما أعطاني عنده، فقال رسول الله ﷺ: «خذ منها، فأخذ منها، وجلست في أهلها». وأخرج ابن جرير، عن ابن جريج قال: نزلت هذه الآية في ثابت بن قيس، وفي حبيبة، وكانت اشكته إلى رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «تردين عليه حديثه؟ قالت: نعم، فدعاه، فنكرت ذلك له، فقال: ويطيبي لي ذلك، قال: نعم، قال ثابت: قد فعلت، فنزلت: ﴿ولا يحل لكم أن تلتخوها﴾ الآية، وأخرج عبد الرزاق، وأبو داود، وابن جرير، والبيهقي من طريق عمرة، عن عائشة نحوه. وأخرج البخاري، والنسائي، وابن ماجه، وابن مروي، والبيهقي، عن ابن عباس: أن جميلة بنت عبد الله بن سلول، امرأة ثابت بن قيس بن شماس: «أتت النبي ﷺ، فقالت: يا رسول الله ثابت بن قيس ما اعتب عليه في خلق، ولا دين، ولكن لا أطيقه بغضاً، وأكره الكفر في الإسلام، قال: أتريدين عليه حديثه؟ قالت: نعم، قال: اقبل الحقيقة، وطلقها تطليقة». ولفظ ابن ماجه: «فأمره رسول الله ﷺ أن يأخذ منها حديثه، ولا يزداده». وأخرج البيهقي من طريق عطاء قال: «أتت امرأة النبي ﷺ، وقالت: إني أبغض زوجي، وأحب فراقه، قال: أتريدين عليه حديثه التي أصدقك؟ قالت: نعم، وزيادة، فقال النبي ﷺ: أما الزيادة من مالك فلا». وأخرج البيهقي، عن أبي الزبير: أن ثابت بن قيس، فنكرت القصة، وفيه: «أما الزيادة فلا» وأخرج ابن مروي بإسناد جيد عن ابن عباس، وفيه «أنه أمر النبي ﷺ ثابتاً أن يأخذ

من اعتبار ذلك، وهو زيادة يتعين قبولها، ولعله لم يبلغ سعيد بن المسيب، ومن تابعه، وفي الآية دليل على أنه لا بد من أن يكون ذلك نكاحاً شرعياً مقصوداً لذاته لا نكاحاً غير مقصود لذاته، بل حيلة للتخليل، وذريعة إلى ردها إلى الزوج الأول، فإن ذلك حرام للأدلة الواردة في نمه، ونم فاعله، وأنه التيس المستعار الذي لعنه الشارع، ولعن من اتخذه لذلك. قوله: ﴿فإن طلقها﴾ أي: الزوج الثاني: ﴿فلا جناح عليهما﴾ أي: الزوج الأول والمرأة ﴿أن يترجعا﴾ أي: يرجع كل واحد منهما لصاحبه. قال ابن المنذر: أجمع أهل العلم على أن الحر إذا طلق زوجته ثلاثاً، ثم انقضت عدتها، ونكحت زوجاً، وبخل بها، ثم فارقها، وانقضت عدتها، ثم نكحها الزوج الأول أنها تكون عنده على ثلاث تطليقات. قوله: ﴿إن ظننا أن يقيما حدود الله﴾ أي: حقوق الزوجية الواجبة لكل منهما على الآخر. وأما إذا لم يحصل ظن ذلك بأن يعلم، أو أحدهما عدم الإقامة لحدود الله، أو تردداً، أو أحدهما، ولم يحصل لهما الظن، فلا يجوز الخول في هذا النكاح؛ لأنه مظنة للمعصية لله، والوقوع فيما حرّمه على الزوجين. وقوله: ﴿وتلك حدود الله﴾ إشارة إلى الأحكام المذكورة، كما سلف، وخص الذين يعلمون مع عموم الدعوة للعالم، وغيره، ووجوب التبليغ لكل فرد؛ لأنهم المنتفعون بالبيان المنكوح.

وقد أخرج مالك، والشافعي، وعبد بن حميد، والترمذي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، عن هشام بن عروة، عن أبيه قال: كان الرجل إذا طلق امرأته، ثم ارتجعها قبل أن تنقضي عدتها كان ذلك له، وإن طلقها ألف مرة، فعمد رجل إلى امرأته فطلقها حتى إذا ما دنا وقت انقضاء عدتها ارتجعها، ثم طلقها، ثم قال: والله لا أويك إلي ولا تحليل أبداً، فأنزل الله: ﴿الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان﴾ فاستقبل الناس الطلاق جديداً من يومئذ من كان منهم طلق، ومن لم يطلق. وأخرج نحوه الترمذي، وابن مروي، والحاكم وصححه، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة. وأخرج البخاري عنها: أنها أتتها امرأة، فسألتها عن شيء من الطلاق، قالت: فنكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فنزلت: ﴿الطلاق مرتان﴾. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وأحمد، وعبد بن حميد، وأبو داود في ناسخه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مروي، والبيهقي، عن أبي رزين الاسدي قال: قال رجل: «يا رسول الله أرأيت قول الله الطلاق مرتان؟ فأين الثالثة؟ قال: التسريح بإحسان الثالثة» وأخرج نحوه ابن مروي، والبيهقي عن ابن ابن عباس مرفوعاً. وأخرج عبد بن حميد، عن مجاهد أنه قال: قال الله للثالثة: ﴿فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان﴾ وأخرج ابن أبي حاتم، عن يزيد بن أبي حبيب قال: التسريح في كتاب الله الطلاق. وأخرج البيهقي، من طريق السدي، عن ابن عباس، وابن مسعود، وناس من أصحاب النبي ﷺ في قوله: ﴿الطلاق

عائشة قالت: «جاءت امرأة رفاة القرظي إلى رسول الله ﷺ فقالت: إني كنت عند رفاة، فطلقني فبت طلاقي، فتزوجني عبد الرحمن بن الزبير، وما معه إلا مثل هدبة الثوب، فتبسم النبي ﷺ، فقال: أتريدان أن ترجعي إلى رفاة؟ لا حتى تنزوي عسيلته، وينزوي عسيلتك». وقد روي نحو هذا عنها من طرق. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وأحمد، والنسائي، وابن ماجه، وابن جرير، والبيهقي، عن عمر مرفوعاً نحوه. وأخرج أحمد، وابن جرير، والبيهقي، عن أنس مرفوعاً نحوه أيضاً. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، عن أبي هريرة مرفوعاً نحوه، ولم يسم هؤلاء الثلاثة الصحابة صاحبة القصة. وأخرج أحمد، والنسائي، عن ابن عباس: «أن العميصاء، أو الرميضاء أتت النبي ﷺ، وفي آخره «فقال النبي ﷺ: ليس ذلك لك حتى ينزوي عسيلتك رجل غيره». وقد ثبت لعن المحلل في أحاديث منها عن ابن مسعود عند أحمد، والترمذي وصححه، والنسائي، والبيهقي في سننه قال: «لعن النبي ﷺ المحلل والمحلل له» ومنها عن علي عند أحمد، وأبي داود، والترمذي، وابن ماجه، والبيهقي مرفوعاً مثل حديث ابن مسعود، ومنها عن جابر مرفوعاً عند الترمذي مثله، ومنها عن ابن عباس مرفوعاً عند ابن ماجه مثله، ومنها عن عقبة بن عامر، عند ابن ماجه، والحاكم وصححه، والبيهقي مرفوعاً مثله، ومنها عن أبي هريرة مرفوعاً عند أحمد، وابن أبي شيبة، والبيهقي مثله. وفي الباب أحاديث في ذم التحليل، وفاعله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن ابن عباس في قوله: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا﴾ يقول: إذا تزوجت بعد الأول، فدخل بها الآخر، فلا حرج على الأول أن يتزوجها إذا طلقها الآخر، أو مات عنها، فقد حلت له. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مقاتل في قوله: ﴿أَنْ يَقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ قال: أمر الله وطاعته.

وَأَمَّا طَلَّقَ الْإِسَاءَ فَلَمَّا أَتَاهُنَّ فَأَتِيَهُنَّ بِمَرْفُوعٍ أَوْ مَرْفُوعٍ بِمَرْفُوعٍ وَلَا تَحْكُمْنَ بِرَأَاكِ لِيَتَذَكَّرَا فِيكُمْ وَلَمْ يَنْتَهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا

البلوغ إلى الشيء: معناه الحقيقي الوصول إليه، ولا يستعمل البلوغ بمعنى المقاربة إلا مجازاً لعلاقة مع قرينة كما هنا، فإنه لا يصح إرادة المعنى الحقيقي؛ لأن المرأة إذا قد بلغت آخر جزء من مدة العدة، وجاوزته إلى الجزء الذي هو الأجل للانقضاء، فقد خرجت من العدة، ولم يبق للزوج عليها سبيل. قال القرطبي في تفسيره: إن معنى: ﴿بَلِّغْنَ﴾ هنا قارين بإجماع العلماء. قال: ولأن المعنى يضطر إلى ذلك؛ لأنه بعد بلوغ الأجل لا خيار له في الإمساك والإمساك بمعروف: هو القيام بحقوق الزوجية. أي: إذا طلقتم النساء، فقاربن آخر العدة، فلا تضاروهن بالمراجعة من غير قصد لاستمرار الزوجية، واستدامتها، بل اختاروا أحد أمرين: إما

ما ساق، ولا يزداده. وأخرج البيهقي عن أبي سعيد، ونكر القصة، وفيها: «فبرت عليه حقيقته وزانت». وأخرج ابن جرير، عن عمر: أنه قال في بعض المختلعات: «دخلها، ولو من قرطها». وفي لفظ أخرجه عبد الرزاق، عنه أنه قال للزوج: «خذ ولو عقاصها». قال البخاري: أجاز عثمان الخلع دون عقاصها. وأخرج عبد بن حميد، والبيهقي، عن عطاء: أن النبي ﷺ كره أن يأخذ من المختلعة أكثر مما أعطاه. وقد ورد في ذم المختلعات أحاديث منها: عن ثوبان عند أحمد، وأبي داود، والترمذي وحسنه، وابن ماجه، وابن جرير، والحاكم وصححه، والبيهقي قال: قال رسول الله ﷺ: «أيما امرأة سألت زوجها الطلاق من غير ما بأس، فحرام عليها رائحة الجنة». وقال: المختلعات هن المنافقات، ومنها عن ابن عباس، عند ابن ماجه، أن رسول الله ﷺ قال: «لا تسأل المرأة زوجها الطلاق في غير كنهه، فتجد ريح الجنة، وإن ريحها ليوجد مسيرة أربعين عاماً». ومنها عن أبي هريرة عند أحمد، والنسائي عن النبي ﷺ قال: «المختلعات، والمنزعات هن المنافقات، ومنها عن عقبة عند ابن جرير مرفوعاً مثل حديث أبي هريرة.

وقد اختلف أهل العلم في عدة المختلعة، والراجح أنها تعتد بحیضة لما أخرجه أبو داود، والترمذي وحسنه، والنسائي، والحاكم وصححه، عن ابن عباس: «أن النبي ﷺ أمر امرأة ثابت بن قيس، أن تعتد بحیضة، ولما أخرجه الترمذي، عن الربيع بنت معوذ بن عفراء: «أنها اختلعت على عهد رسول الله، فأمرها النبي ﷺ أن تعتد بحیضة، أو أمرت أن تعتد بحیضة». قال الترمذي: الصحيح أنها أمرت أن تعتد بحیضة. وأخرج النسائي، وابن ماجه، عنها أنها قالت: اختلعت من زوجي، فجئت عثمان، فسألته ماذا علي من العدة؟ فقال: لا عدة عليك إلا أن يكون حديث عهد بك، فتمكثين حتى تحيضی حیضة، قالت: إنما أتبع في ذلك قضاء رسول الله ﷺ في مريم المغالية، وكانت تحب ثابت بن قيس، فاختلعت منه. وأخرج النسائي، عن الربيع بنت معوذ: «أن النبي ﷺ أمر امرأة ثابت بن قيس، أن تتربص حیضة واحدة، فتلق باهلها، ولم يرد ما يعارض هذا من المرفوع، بل ورد عن جماعة من الصحابة، والتابعين أن عدة المختلعة كعدة الطلاق، وبه قال الجمهور. قال الترمذي: وهو قول أكثر أهل العلم من الصحابة، وغيرهم، واستتلوا على ذلك بأن المختلعة من جملة المطلقات، فهي داخلة تحت عموم القرآن. والحق ما ذكرناه؛ لأن ما ورد عن النبي ﷺ يخص عموم القرآن. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن ابن عباس في قوله: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ﴾ يقول: فإن طلقها ثلاثاً، فلا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره. وأخرج ابن المنذر، عن علي نحوه. وأخرج عبد بن حميد، عن قتادة نحوه. وأخرج الشافعي، وعبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وأحمد، والبخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، والبيهقي، عن

تتخذوا آيات الله هزواً، فالزمه رسول الله ﷺ الطلاق. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن الحسن مرفوعاً نحو حديث عبادة. وأخرج أبو داود، والترمذي وحسنه، وابن ماجه، والحاكم وصححه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث جدهن جد، وهزلن جد: النكاح، والطلاق، والرجعة».

وَلَا تَلْقَمُوا أَلْسِنَةً فَمَنْ أَجَلَهُ فَلَا تَعْلُوهُنَّ أَنْ يَكُونَ زَوْجُهُنَّ إِذَا رَأَوْهُنَّ يَكْفُرْنَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ أَزْكَى لَكُمْ وَأَنْتُمْ وَاللَّهُ يَسْمَعُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٠٠﴾

الخطاب في هذه الآية بقوله: «وإذا طلقتم» وبقوله: «فلا تعضلوهن» إما أن يكون للزواج، ويكون معنى العضل منهم أن يمنعوهم من أن يتزوجن من أردن من الأزواج بعد انقضاء عتقهن لحماية الجاهلية، كما يقع كثيراً من الخلفاء، والسلطين غيرة على من كنّ تحتهم من النساء أن يصرن تحت غيرهم؛ لأنهم لما نالوه من رئاسة الدنيا، وما صاروا فيه من النخوة، والكبرياء، يتخللون أنهم قد خرجوا من جنس بني آدم إلا من عصمه الله منهم بالورع، والتواضع؛ وإما أن يكون الخطاب للاولياء، ويكون معنى إسناد الطلاق إليهم أنهم سبب له لكونهم المزوجين للنساء المطلقات من الأزواج المطلقين لهن. وبلوغ الأجل المذكور هنا المراد به: المعنى الحقيقي. أي: نهائيت لا كما سبق في الآية الأولى. والعضل: الحبس. وحكى الخليل بجاية معضلة قد احتبس بيضها، وقيل: العضل: التضييق والمنع، وهو راجع إلى معنى الحبس، يقال أردت أمراً، فعضلته عنه أي: منعتني، وضيق عليّ، وأعضل الأمر: إذا ضاقت عليك فيه الحيل. وقال الأزهري: أصل العضل من قولهم عضلت الناقة: إذا نشب ولدها، فلم يسهل خروجها، وعضلت الناقة: نشب بيضها، وكل مشكل عند العرب معضل، ومنه قول الشافعي رحمه الله:

إذا المعضلات تصنين لي كشفت خفاء لها بالنظر
ويقال أعضل الأمر: إذا اشتد، وداء عضال. أي: شديد عسير البرء أعياء الأطباء، وعضل فلان أيمه، أي: منعها يعضلها بالضم، والكسر لغتان. قوله: «أن ينكحن» أي: من أن ينكحن، فمحله الجر عند الخليل، والنصب عند سيبويه، والفراء، وقيل: هو بدل اشتغال من الضمير المنصوب في قوله: «فلا تعضلوهن». وقوله: «أزواجهن» إن أريد به المطلوقين لهن، فهو مجاز باعتبار ما كان، وإن أريد به من يرين أن يتزوجنه، فهو مجاز باعتبار ما سيكون. وقوله: «ذلك» إشارة إلى ما فصل من الأحكام، وإنما أقرد مع كون المنكوح قبله جمعاً حملاً على معنى الجمع بتأويله بالفريق، ونحوه. وقوله: «ذلكم» محمول على لفظ الجمع، خالف سبحانه ما بين الإشارتين افتناناً. وقوله: «أزكى» أي: أنقى وأنفع: «وأظهر» من الأناس «وأن الله يعلم» ما لكم فيه الصلاح «وأنتم لا تعلمون» ذلك.

وقد أخرج البخاري، وأهل السنن، وغيرهم عن معقل بن

الإمساك بمعروف من غير قصد لضرار، أو التسريح بإحسان أي: تركها حتى تنقضي عتقها من غير مراجعة ضرار، ولا تمسكوهن ضراراً، كما كانت تفعل الجاهلية من طلاق المرأة حتى يقرب انقضاء عتقها، ثم مراجعتها لا عن حاجة، ولا لمحبة، ولكن لقصد تطويل العدة، وتوسيع مدة الانتظار «ضراراً» لقصد الاعتداء منكم عليهن، والظلم لهن «ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه» لأنه عرضها لعقاب الله وسخطه. قال الزجاج: يعني عرض نفسه للعذاب، لأن إتيان ما نهى الله عنه تعرض لعذاب الله «ولا تتخذوا آيات الله هزواً» أي: لا تأخذوا أحكام الله على طريقة الهزئ، فإنها جد كلها، فمن هزل فيها فقد لزمته - نهام سبحانه أن يفعلوا كما كانت الجاهلية تفعل، فإنه كان يطلق الرجل منهم، أو يعتق، أو يتزوج، ويقول: كنت لأعبأ. قال القرطبي، ولا خلاف بين العلماء أن من طلق هازلاً أن الطلاق يلزمه. قوله: «وأنكروا نعمت الله عليكم» أي: النعمة التي صرتم فيها بالإسلام، وشرائه بعد أن كنتم في جاهلية جهلاء، وظلمات بعضها فوق بعض، والكتاب: هو القرآن. والحكمة قال المفسرون: هي السنة التي سنها لهم رسول الله ﷺ «يعظكم به» أي: يخوفكم بما أنزل عليكم، وأقرد الكتاب، والحكمة بالذكر مع دخولهما في النعمة دخولاً أولياً، تنبيهاً على خطرهما، وعظم شأنهما.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: كان الرجل يطلق امرأته، ثم يراجعها قبل انقضاء عتقها، ثم يطلقها، فيفعل بها ذلك يضارها، ويعطلها، فأنزل الله: «وإذا طلقتم النساء» الآية. وأخرج نحوه مالك، وابن جرير، وابن المنذر، عن ثور بن يزيد. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، والبيهقي، عن الحسن في قوله: «ولا تمسكوهن ضراراً لتعتقوا» قال: هو الرجل يطلق امرأته، فإذا أراست أن تنقضي عتقها أشهد على رجعتها، يريد أن يطول عليها. وأخرج ابن ماجه، وابن جرير، والبيهقي، عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بال أقوام يلعبون بحبود الله يقول: قد طلقته، قد رجعتك، قد طلقته، قد رجعتك، ليس هذا طلاق المسلمين، طلقوا المرأة في قبل عتقها». وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن عبادة بن الصامت قال: كان الرجل على عهد رسول الله ﷺ يقول للرجل: زوجتك ابنتي، ثم يقول: كنت لأعبأ، ويقول: قد اعتقت، ويقول: كنت لأعبأ، فأنزل الله سبحانه: «ولا تتخذوا آيات الله هزواً» فقال رسول الله ﷺ: «ثلاث من قالهن لأعبأ، أو غير لأعب، فهن جائزات عليه: الطلاق، والنكاح، والعتاق، وأخرج ابن مروي، عن أبي الدرداء قال: كان الرجل يطلق، ثم يقول: لعبت، ويعتق، ثم يقول: لعبت، فأنزل الله: «ولا تتخذوا آيات الله هزواً» فقال رسول الله ﷺ: «من طلق، أو اعتق، فقال لعبت، فليس قوله بشيء، يقع عليه، فيلزمه». وأخرج ابن مروي أيضاً، عن ابن عباس قال: طلق رجل امرأته، وهو يلعب لا يريد الطلاق، فأنزل الله: «ولا

الرضاعة. قال النحاس: لا يعرف البصريون الرضاعة إلا بفتح الراء. وحكى الكوفيون جواز الكسر. والآية تدل على وجوب الرضاع على الأم لولدها، وقد حمل ذلك على ما إذا لم يقبل الرضيع غيرها. قوله: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ﴾ أي: على الأب الذي يولد له، وأثر هذا اللفظ بون قوله: وعلى الولد للدلالة على أن الأولاد للآباء لا للأمهات، ولهذا ينسبون إليهم ذنوبهم، كأنهم إنما ولدن لهم فقط، نكر معناه في الكشف، والمراد بالرزق هنا: الطعام الكافي المتعارف به بين الناس، والمراد بالكسوة: ما يتعارفون به أيضاً، وفي ذلك دليل على وجوب ذلك على الآباء للأمهات المرضعات. وهذا في المطلقات، وأما غير المطلقات، فنفتقتهن، وكسوتهن واجبة على الأزواج من غير إرضاعهن لأولادهن. وقوله: ﴿لَا تَكْفُلْ نَفْسَ إِلَّا وَسْعَهَا﴾ هو: تقييد لقوله: ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: هذه النفقة، والكسوة الواجبان على الأب بما يتعارفه الناس لا يكلف منها إلا ما يدخل تحت وسعه، وطاقته لا ما يشق عليه، ويعجز عنه، وقيل المراد: لا تكلف المرأة الصبر على التقدير في الأجرة، ولا يكلف الزوج ما هو إسراف، بل يراعي القصد. قوله: ﴿لَا تَضَارَّ﴾ قرأ أبو عمرو، وابن كثير، وجماعة ورواه أبان عن عاصم بالرفع على الخبر، وقرأ نافع، وابن عامر، وحزمة، والكسائي، وعاصم في المشهور عنه: «تضار» بفتح الراء المشددة على النهي، وأصله لا تضارر، أو لا تضارر على البناء للمفاعل، أو المفعول، أي: لا تضارر الأب بسبب الولد بأن تطلب منه ما لا يقدر عليه من الرزق، والكسوة، أو بأن تفرط في حفظ الولد، والقيام بما يحتاج إليه، أو لا تضارر من زوجها بأن يقصر عليها في شيء مما يجب عليه، أو ينتزع ولدها منها بلا سبب، وهكذا قراءة الرفع تحتل الوجهين؛ وقرأ عمر بن الخطاب: «لا تضارر» على الأصل بفتح الراء الأولى، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع: «لا تضار» بإسكان الراء، وتخفيفها، وروي عنه الإسكان، والتشديد، وقرأ الحسن، وابن عباس: «لا تضارر» بكسر الراء الأولى، ويجوز أن تكون الباء في قوله: بولده، صلة لقوله تضار على أنه بمعنى تضار. أي: لا تضار والدة بولدها، فتسبب تربيته، أو تقصر في غذائه، وأضيف الولد تارة إلى الأب، وتارة إلى الأم، لأن كل واحد منهما يستحق أن ينسب إليه مع ما في ذلك من الاستعطف، وهذه الجملة تفصيل للجملة التي قبلها وتقرير لها. أي: لا يكلف كل واحد منهما الآخر ما لا يطيقه، فلا تضار به بسبب ولده. قوله: ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ﴾ هو: معطوف على قوله: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ﴾ وما بينهما تفسير للمعروف، أو تحليل له معترض بين المعطوف، والمعطوف عليه. واختلف أهل العلم في معنى قوله: ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ﴾ مثل ذلك. فقيل: هو وارث الصبي، أي: إذا مات المولود له كان على وارث هذا الصبي المولود إرضاعه كما كان يلزم أباه ذلك، قاله عمر بن الخطاب، وقتادة، والسدي، والحسن، ومجاهد، وعطاء، وأحمد، وإسحاق، وأبو حنيفة، وابن أبي

يسار قال: كانت لي أخت، فأتاني ابن عم، فأنكحتها إياه، فكانت عنده ما كانت، ثم طلقها تطليقة لم يراجعها حتى انقضت العدة، فهويها، وهويته، ثم خطبها مع الخطاب فقلت له: يا لكع أكرمك بها، وزوجتكها، فطلقها، ثم جئت خطيبها، والله لا ترجع إليك أبداً، وكان رجلاً لا بأس به، وكانت المرأة تريد أن ترجع إليه، فعلم الله حاجته إليها، وحاجتها إلى بعلمها، فأنزل الله: ﴿وَإِذَا طَلَقْتِ الْمَرْأَةَ﴾ الآية، قال: ففي نزلت هذه الآية، فكفرت عن يميني، وأنكحتها إياه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في الرجل يطلق امرأته طلاقاً، أو طلاقين، فتنقض عنتها، ثم يبدو له تزويجها، وأن يراجعها، وتريد المرأة ذلك، فممنها وليها من ذلك، فنهى الله أن يمنعوها. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن السدي قال: نزلت هذه الآية في جابر بن عبد الله الأنصاري، كانت له ابنة عم، فطلقها زوجها تطليقة، وانقضت عنتها، فأراد مراجعتها فأبى جابر، فقال: طلقت بنت عمنا، ثم تريد أن تنكحها الثانية، وكانت المرأة تريد زوجها، فأنزل الله: ﴿وَإِذَا طَلَقْتِ الْمَرْأَةَ﴾. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مقاتل: «إذا تراضوا بينهم بالمعروف» يعني بمهر، وبينة، ونكاح مؤتلف. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن مربي، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «أنكحوا الأيامى، فقال رجل: يا رسول الله ما العلائق بينهم؟ قال: ما تراضى عليه أهلهن». وأخرج ابن المنذر، عن الضحاك قال: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ قال: الله يعلم من حب كل واحد منهما لصاحبه ما لا تعلم أنت أيها الولي.

﴿وَالْوَارِثُ رِزْقُهَا وَأَوَّلُهَا حَلَالٌ كَمَا لَمْ يَكُنْ لَهَا رِزْقٌ مِنَ الْأَرْوَاحِ﴾
وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكْفِلُ نَفْسٌ وَلَا رُحْمَةٌ
وَالِدَةً بَوْلَاهَا وَلَا مَوْلُودَ لَهُمُ يَوْلَاهُ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ
رَاضٍ بَيْنَهُمَا وَكُفَّ عَنْهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ذَلِكَ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ وَلَوْلَا
عَيْتُكَ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا بَيْنَهُمُ وَالْمَرْءِ وَالْمَرْءِ وَالْمَرْءِ أَنَّ اللَّهَ بِمَا صَعَلُونَ
بَعِيرٌ

لما نكر الله سبحانه النكاح، والطلاق، نكر الرضاع؛ لأن الزوجين قد يفترقان، وبينهما ولد، ولهذا قيل: إن هذا خاص بالمطلقات، وقيل: هو عام. وقوله: ﴿يُورِضُنَّ﴾ قيل: هو خبر في معنى الأمر للدلالة على تحقق مضمونه، وقيل: هو خبر على بابه ليس هو في معنى الأمر على حسب ما سلف في قوله: ﴿يُتْرِكُنَّ﴾ [البقرة: 228] وقوله: ﴿كَاْمِلِينَ﴾ تأكيد للدلالة على أن هذا التقدير تحقيقي لا تقريبي. وقوله: ﴿لَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَتِمَّ الرِّضَاعَةَ﴾ أي: ذلك لمن أراد أن يتم الرضاعة، وفيه دليل على أن إرضاع الحولين ليس حتماً بل هو التمام، ويجوز الاقتصار على ما بونه. وقرأ مجاهد، وابن محيصن: «لمن أراد أن تتم» بفتح التاء، ورفع الرضاعة على إسناد الفعل إليها. وقرأ أبو حية، وابن أبي عبيدة، والجارود ابن أبي سبرة بكسر الراء من الرضاعة، وهي لغة. وروي عن مجاهد أنه قرأ: الرضعة، وقرأ ابن عباس: «لمن أراد أن يكمل

للوليين. والفصال: الفطام عن الرضاع. أي: التفريق بين الصبي، والثدي، ومنه سمي الفصل؛ لأنه مفصول عن أمه. وقوله: ﴿عن تراض منهما﴾ أي: صائراً عن تراض من الأبوين إذا كان الفصال قبل الحولين: ﴿فلا جناح عليهما﴾ في تلك الفصال. سبحانه لما بين أن مدة الرضاع حولين كاملين قيد ذلك بقوله: ﴿لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾ وظاهره أن الأب وحده إذا أراد أن يفصل الصبي قبل الحولين كان ذلك جائزاً له، وهنا اعتبر سبحانه تراضي الأبوين وتشاورهما فلا بد من الجمع بين الأمرين بأن يقال: إن الإرادة المذكورة في قوله: ﴿لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾ لا بد أن تكون منهما، أو يقال: إن تلك الإرادة إذا لم يكن الأبوان للصبي حينئذ كان الموجود أحدهما، أو كانت المرخصة للصبي ظناً غير أمه. والتشاور: استخراج الرأي يقال: شرت العسل: استخرجته، وشرت الدابة: أجزيتها لاستخراج جريها، فلا بد لأحد الأبوين إذا أراد فصال الرضيع أن يراضي الآخر، ويشاوره حتى يحصل الاتفاق بينهما على ذلك. قوله: ﴿وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم﴾ قال الزجاج: التقدير أن تسترضعوا أولادكم غير الوالدة. وعن سيبويه أنه حذف اللام؛ لأنه يتعدى إلى مفعولين، والمفعول الأول محذوف، والمعنى: أن تسترضعوا المراضع أولادكم ﴿إذا سلمتم ما آتيتكم﴾ بالمد أي: أعطيتم، وهي: قراءة الجماعة إلا ابن كثير، فإنه قرأ بالقصر. أي: فعلتم، ومنه قول زهير:

وما كان من خير أثره فإنما توارثه آباء آبائهم قبل والمعنى: أنه لا بأس عليكم أن تسترضعوا أولادكم غير أمهاتهم إذا سلمتم إلى الأمهات أجرهن بحساب ما قد أَرْضعن لكم إلى وقت إرادة الاسترضاع، قاله سفيان الثوري، ومجاهد. وقال قتادة، والزهرى: إن معنى الآية: إذا سلمتم ما آتيتم من إرادة الاسترضاع أي: سلم كل واحد من الأبوين ورضي، وكان ذلك عن اتفاق منهما، وقصد خير وإرادة معروف من الأمر، وعلي هذا، فيكون قوله: ﴿سلمتم﴾ عاماً للرجال، والنساء تغليباً، وعلى القول الأول الخطاب للرجال فقط، وقيل: المعنى: إذا سلمتم لمن أردتم استرضاعها أجرها، فيكون المعنى: إذا سلمتم ما أردتم إيتاءه. أي: إعطاءه إلى المراضعات بالمعروف. أي: بما يتعارفه الناس من أجر المراضعات من نون ملاحظة لهن، أو حظ بعض ما هو لهن من ذلك، فإن عدم توفير أجرهن يبعثهن على التساهل بامر الصبي، والتفريط في شأنه.

وقد أخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وأبو داود في ناسخه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، عن مجاهد في قوله: ﴿والوالدات يرضعن أولادهن﴾ قال: المطلقات ﴿حولين﴾ قال: سنتين ﴿لا تضارَّ والدة بولدها﴾ يقول: لا تأبى أن ترضعه ضراراً لتشق على أبيه ﴿ولا مولود له بولده﴾ يقول: ولا يضارَّ الوالد بولده، فيمنع أمه أن ترضعه ليحزنها بذلك ﴿وعلى

ليلى على خلاف بينهم، هل يكون الوجوب على من يأخذ نصيباً من الميراث، أو على الذكور فقط، أو على كل ذي رحم له، وإن لم يكن، وراثتاً منه، وقيل: المراد بالوارث: وارث الأب تجب عليه نفقة المرضعة، وكسوتها بالمعروف، قاله الضحاك. وقال مالك في تفسير هذه الآية بمثل ما قاله الضحاك، ولكنه قال: إنها منسوخة، وإنها لا تلزم الرجل نفقة أخ، ولا ذي قرابة، ولا ذي رحم منه، بشرطه الضحاك بأن لا يكون للصبي مال، فإن كان له مال أخذت أجره رضاعه من ماله. وقيل: المراد: بالوارث المذكور في الآية هو: الصبي نفسه. أي: عليه من ماله إرضاع نفسه إذا مات أبوه، وورث من ماله، قاله قبيصة بن ذؤيب، وبشير بن نصر قاضي عمر بن عبد العزيز. وروي عن الشافعي، وقيل: هو الباقي من والدي المولود بعد موت الآخر منهما، فإذا مات الأب كان على الأم كفاية الطفل إذا لم يكن له مال، قاله سفيان الثوري، وقيل: إن معنى قوله تعالى: ﴿وعلى الوارث مثل ذلك﴾ أي: وارث المرضعة يجب عليه أن يصنع بالمولود كما كانت الأم تصنعه به من الرضاع، والخدمة، والتربية. وقيل: إن معنى قوله تعالى: ﴿وعلى الوارث مثل ذلك﴾ أنه يحرم عليه الإضرار بالأم كما يحرم على الأب، وبه قالت طائفة من أهل العلم، قالوا: وهذا هو الأصل، فمن ادعى أنه يرجع فيه العطف إلى جميع ما تقدم، فعليه الدليل. قال القرطبي: وهو الصحيح، إذ لو أراد الجميع الذي هو: الرضاع، والإنفاق، وعدم الضرر يقال: وعلى الوارث مثل هؤلاء، فدل على أنه معطوف على المنع من المضاربة، وعلى ذلك تأوله كافة المفسرين فيما حكى القاضي عبد الوهاب. قال ابن عطية، وقال مالك، وجميع أصحابه، والشعبي، والزهرى، والضحاك، وجماعة من العلماء: المراد بقوله: مثل ذلك أن لا تضارَّ. وأما الرزق، والكسوة، فلا يجب شيء منه. وحكى ابن القاسم، عن مالك، مثل ما قلنا عنه، في تفسير هذه الآية، ودعوى النسخ. ولا يخفى عليك ضعف ما ذهب إليه هذه الطائفة، فإن ما خصصوا به معنى قوله: ﴿وعلى الوارث مثل ذلك﴾ من ذلك المعنى. أي: عدم الإضرار بالمرضة قد أفاده قوله: ﴿لا تضارَّ والدة بولدها﴾ لصق ذلك على كل مضاربة ترد عليها من المولود له، أو غيره. وأما قول القرطبي: لو أراد الجميع لقال مثل هؤلاء، فلا يخفى ما فيه من الضعف البين، فإن اسم الإشارة يصلح للمتعدي كما يصلح للواحد بتأويل المنكور، أو نحوه. وأما ما ذهب إليه أهل القول الأول من أن المراد بالوارث: وارث الصبي، فيقال عليه إن لم يكن وارثاً حقيقة مع وجود الصبي حياً، بل هو وارث مجازاً باعتبار ما يؤول إليه. وأما ما ذهب إليه أهل القول الثاني، فهو وإن كان فيه حمل الوارث على معناه الحقيقي، لكن في إيجاب النفقة عليه مع غنى الصبي ما فيه، ولهذا قيده القائل به بأن يكون الصبي فقيراً، ووجه الاختلاف في تفسير الوارث ما تقدم من ذكر والدات، والمولود له والولد، فاحتمل أن يضاف الوارث إلى كل منهم. قوله: ﴿فإن أراداً فصلاً﴾ الضمير

وَعَسَىٰ أَفْأَقًا بَلَّتْنِ أَجْلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٢٢﴾

لما نكر سبحانه عدة الطلاق، واتصل بنكرها ذكر الإرضاع عقب ذلك بنكر عدة الوفاة، لئلا يتوهم أن عدة الوفاة مثل عدة الطلاق. قال الزجاج: ومعنى الآية، والرجال الذين يتوفون منكم، ويذرون أزواجاً، أي: ولهم زوجات، فالزوجات يتربصن. وقال أبو علي الفارسي: تقديره، والذين يتوفون منكم، ويذرون أزواجاً، يتربصن بعدهم؛ وهو: كقولك السمن منوان بدرهم. أي: منه. وحكى المهلوي عن سيبويه أن المعنى: وفيما يتلى عليكم الذين يتوفون، وقيل: التقدير: وأزواج الذين يتوفون منكم يتربصن، نكرة صاحب الكشاف، وفيه أن قوله: ﴿ويذرون أزواجاً﴾ لا يلائم ذلك التقدير، لأن الظاهر من النكرة المعادة المغيرة. وقال بعض النحاة من الكوفيين: إن الخبر عن الذين متروك، والقصد الإخبار عن أزواجهن بأنهن يتربصن. ووجه الحكمة في جعل العدة للوفاة هذا المقدار أن الجنين الذكر يتحرك في الغالب لثلاثة أشهر، والأنثى لأربعة، فزاد الله سبحانه على ذلك عشرة؛ لأن الجنين ربما يضعف عن الحركة، فتتأخر حركته قليلاً، ولا تتأخر عن هذا الأجل. وظاهر هذه الآية العموم، وأن كل من مات عنها زوجها تكون عنتها هذه العدة، ولكنه قد خصص هذا العموم قوله تعالى: ﴿وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن﴾ [الطلاق: 4] وإلى هذا ذهب الجمهور. وروي عن بعض الصحابة، وجماعة من أهل العلم أن الحامل تعتد بأخر الأجلين جمعاً بين العام، والخاص، وإعمالاً لهما، والحق ما قاله الجمهور. والجمع بين العام، والخاص على هذه الصفة لا يناسب قوانين اللغة، ولا قواعد الشرع، ولا معنى لإخراج الخاص من بين أفراد العام إلا بيان أن حكمه مغاير لحكم العام، ومخالف له. وقد صح عنه ﷺ أنه أذن لسبيعة الأسلمية أن تتزوج بعد الوضع، والتربص الثاني، والتصبر عن النكاح. وظاهر الآية عدم الفرق بين الصغيرة، والكبيرة، والحرّة، والأمة، وذات الحيض، والأيسة، وأن عنتهن جميعاً للوفاة أربعة أشهر وعشر، وقيل: إن عدة الأمة نصف عدة الحرية شهران وخمسة أيام. قال ابن العربي إجماعاً إلا ما يحكى عن الأصم، فإنه سوى بين الحرية، والأمة، وقال الباجي: ولا نعلم في ذلك خلافاً إلا ما يروى عن ابن سيرين أنه قال: عنتها عدة الحرّة، وليس بالثابت عنه، ووجه ما ذهب إليه الأصم، وابن سيرين ما في هذه الآية من العموم، ووجه ما ذهب إليه من عداها قياس عدة الوفاة على الحد، فإنه ينصف للأمة بقوله سبحانه: ﴿فعليهن نصف ما على المخصنات من العذاب﴾ [النساء: 25]. وقد تقدم حديث: «طلاق الأمة تطليقتان، وعنتها حيضتان، وهو: صالح للاحتجاج به، وليس المراد منه: إلا جعل طلاقها على النصف من طلاق الحرية، وعنتها على النصف من عنتها، ولكنه لما لم يمكن أن يقال: طلاقها تطليقة ونصف، وعنتها حيضة ونصف، لكون ذلك لا يعقل كانت عنتها، وطلاقها ذلك

للوأرث﴾ قال: يعني الولي من كان ﴿مثل ذلك﴾ قال: النفقة بالمعروف، وكفالاته، ورضاعه إن لم يكن للمولود مال، وإن لا تضار أمه ﴿فإن أراداً فصلاً عن تراض منهما وتشاور﴾ قال: غير مسيتين في ظلم أنفسهما، ولا إلى صبيهما، فلا جناح عليهما ﴿وإن أريتم أن تسترضعوا أولادكم﴾ قال: خيفة الضيعة على الصبي ﴿فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتكم بالمعروف﴾ قال: حساب ما أرضع به الصبي. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جببر في تفسير هذه الآية أنه قال: المراد بقوله: ﴿والوالدات يرضعن أولادهن﴾ هي في الرجل يطلق امرأته، وله منها ولد. وقال في قوله: ﴿إذا سلمتم ما آتيتكم﴾ قال: ما أعطيتكم الظئر من فضل على أجراها. وأخرج أبو داود في ناسخه، عن زيد بن أسلم في قوله: ﴿والوالدات يرضعن أولادهن﴾ قال: إنها المرأة تطلق، أو يموت عنها زوجها. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس في التي تضع لستة أشهر أنها ترضع حولين كاملين، وإذا وضعت لسبعة أشهر أرضعت ثلاثة وعشرين شهراً لتمام ثلاثين شهراً، وإذا وضعت لستة أشهر أرضعت إحدى وعشرين شهراً، ثم تلا: ﴿وحمله وفصاله ثلاثون شهراً﴾ [الأحقاف: 15] وأخرج ابن جرير عن الضحاك في قوله: ﴿وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف﴾ قال: على قدر الميسرة، وأخرج أبو داود في ناسخه، وابن أبي حاتم، عن زيد بن أسلم في قوله: ﴿لا تضارّ والدة بولدها ولا مولود له بولده﴾ ليس لها أن تلقي ولدها عليه، ولا يجد من يرضعه، وليس له أن يضارها، فينتزع منها ولدها، وهي تحب أن ترضعه ﴿وعلى الوارث﴾ قال: هو ولي الميت. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عطاء، وإبراهيم، والشعبي في قوله: ﴿وعلى الوارث﴾ قال: هو وارث الصبي ينفق عليه. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، عن قتادة نحوه، وزاد: إذا كان المولود لا مال له مثل الذي على والده من أجر الرضاع. وأخرج عبد بن حميد، عن الحسن نحوه. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، عن ابن سيرين نحوه أيضاً. وأخرج ابن جرير، عن قبيصة بن نؤيب في قوله: ﴿وعلى الوارث مثل ذلك﴾ قال: هو الصبي. وأخرج وكيع عن عبد الله بن مغفل نحوه. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن ابن عباس في قوله: ﴿وعلى الوارث مثل ذلك﴾ قال: لا يضار. وأخرج ابن جرير، عن الضحاك: ﴿فإن أراداً فصلاً﴾ قال: القطام. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير عن مجاهد. قال: التشاور فيما دون الحولين ليس لها أن تفضمه إلا أن يرضى، وليس له أن يفضمه إلا أن ترضى. وأخرجوا أيضاً عن عطاء في قوله تعالى: ﴿وإن أريتم أن تسترضعوا أولادكم﴾ قال: أمه أو غيرها ﴿فلا جناح عليكم إذا سلمتم﴾ قال: إذا سلمت لها أجراها ﴿ما آتيتكم﴾ ما أعطيتكم.

وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بِكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن أبي العالية قال: ضمت هذه الأيام العشر إلى الأربعة أشهر، لأن في العشر ينفخ فيه الروح. وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحك في قوله: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ يقول: إذا انقضت عنتها. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن شهاب في قوله: ﴿فَإِذَا جَنَّاحٌ عَلَيْكُمْ﴾ يعني أولياءها. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحكم عن ابن عباس أنه كره للمتوفي عنها زوجها الطيب، والزينة، وأخرج مالك، وعبد الرزاق، وأهل السنن وصححه الترمذي، والحاكم عن الفريفة بنت مالك بن سنان، وهي أخت أبي سعيد الخدري أنها جاءت إلى رسول الله ﷺ تسال أن ترجع إلى أهلها في بني خدره، وأن زوجها خرج في طلب أعبد لها أبقوا حتى إذا تطرف القنوم لحقهم، فقتلوه، قالت: فسالت رسول الله ﷺ أن أرجع إلى أهلي، فإن زوجي لم يتركني في منزل يملكه، ولا نفقة، فقال رسول الله ﷺ: نعم، فانصرفت حتى إذا كنت في الحجرة، أو في المسجد، فدعاني، أو أمر بي، فدعيت، فقال: كيف قلت؟ قالت: فريدت إليه القصة التي نكرت له من شأن زوجي، فقال: امكثي في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله. قالت: فاعتدت فيه أربعة أشهر وعشراً. قالت: فلما كان عثمان بن عفان أرسل إلي، فسألني عن ذلك، فأخبرته، فاتبه وقضى به.

وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْتَنَرْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عِلْمَ اللَّهِ أَنَّهُ أَتَمُّ سَدَرًا لَّهُنَّ وَلَكِنْ لَا تَأْخُذُوهُنَّ بِرَأْسٍ وَلَا تَنْقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْرِضُوا عَنْهُنَّ الْكَسَاحَ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَتْلَمَّ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَأَعْزِزُوا وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ عَلِيمٌ ﴿٢٣﴾

الجناح: الإثم، أي: لا إثم عليكم، والتعريض ضد التصريح، وهو: من عرض الشيء. أي: جانبه، كأنه يحوم به حول الشيء، ولا يظهره، وقيل: هو من قولك: عرضت الرجل. أي: أهيت له. ومنه أن ركباً من المسلمين عرضوا رسول الله ﷺ، وأبا بكر ثياباً بيضاً أي: أهوا لها، فالمعرض بالكلام يوصل إلى صاحبه كلاماً يفهم معناه. وقال في الكشف: الفرق بين الكناية، والتعريض، أن الكناية: أن يذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له. والتعريض: أن يذكر شيئاً يدل به على شيء لم يذكره، كما يقول المحتاج للمحتاج إليه: جئتكم لأسلم عليكم، ولأنظر إلى وجهك الكريم، ولذلك قالوا:

وحسبك بالتسليم مني تقاضياً

وكانه إمالة الكلام إلى عرض يدل على الغرض، ويسمى التلويح: لأنه يلوح منه ما يريده. انتهى. والخطبة بالكسر: ما يفعله الطالب من الطلب، والاستلطاف بالقول، والفعل، يقال: خطبها يخطبها خطبة، وخطباً. وأما الخطبة بضم الخاء، فهي الكلام الذي يقوم به الرجل خاطباً. وقوله: ﴿أَكْتَنَرْتُمْ﴾ معناه سترتم، وأضرمت من التزويج بعد انقضاء العدة. والإكتمان:

القدر المذكور في الحديث جبراً للكسر، ولكن ها هنا أمر يمنع من هذا القياس الذي عمل به الجمهور، وهو أن الحكمة في جعل عدة الوفاة أربعة أشهر وعشراً هو ما قُتِمْنَا من معرفة خلوها من الحمل، ولا يعرف إلا بتلك العدة، ولا فرق بين الحرة، والأمة في مثل ذلك، بخلاف كون عنتها في غير الوفاة حيضتين، فإن ذلك يعرف به خلو الرحم، ويؤيد عدم الفرق ما سيأتي في عدة أم الولد. واختلف أهل العلم في عدة أم الولد لموت سيدها. فقال سعيد بن المسيب، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن، وابن سيرين، والزهري، وعمر بن عبد العزيز، والأوزاعي، وإسحاق، وابن راهويه، وأحمد بن حنبل في رواية عنه: أنها تعتد بأربعة أشهر وعشر لحديث عمرو بن العاص قال: لا تلبسوا علينا سنة نبينا ﷺ: «عدة أم الولد إذا توفي عنها سيدها أربعة أشهر وعشر». أخرجه أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، والحكم وصححه، وضعفه أحمد، وأبو عبيد. وقال الدارقطني: الصواب أنه موقوف. وقال طلوس، وقتادة: عنتها شهران وخمس ليلال. وقال أبو حنيفة، وأصحابه، والثوري، والحسن بن صالح: تعتد بثلاث حيض، وهو: قول علي، وابن مسعود، وعطاء، وإبراهيم النخعي. وقال مالك، والشافعي، وأحمد في المشهور عنه: عنتها حيضة، وغير الحائض شهر، وبه يقول ابن عمر، والشعبي، ومكحول، والليث، وأبو عبيد، وأبو ثور، والجمهور. قوله: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ المراد بالبلوغ هنا: انقضاء العدة. ﴿فَإِذَا جَنَّاحٌ عَلَيْكُمْ﴾ بالمعروف الذي لا يخالف شرعاً، ولا عادة مستحسنة. وقد استدل بذلك على وجوب الإحداد على المعتدة عدة الوفاة. وقد ثبت ذلك في الصحيحين، وغيرهما من غير وجه أن النبي ﷺ قال: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله، واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً» وكذلك ثبت عنه ﷺ في الصحيحين، وغيرهما النهي عن الكحل لمن هي في عدة الوفاة، والإحداد: ترك الزينة من الطيب، وليس الثياب الجيدة، والحلي، وغير ذلك، ولا خلاف في وجوب ذلك في عدة الوفاة، ولا خلاف في عدم وجوبه في عدة الرجعية، واختلفوا في عدة البائنة على قولين، ومحل ذلك كتب الفروع.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ﴾ قال: كان الرجل إذا مات، وترك امرأته اعتدت سنة في بيته يتفق عليها من ماله. ثم أنزل الله: ﴿وَالَّذِينَ يَتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ﴾ الآية. فهذه عدة المتوفي عنها إلا أن تكون حاملاً، فعنتها أن تضع ما في بطنها. وقال في ميراثها: ﴿وَلَهُنَّ الرِّبْعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ﴾ [النساء: 12] فبين ميراث المرأة، وترك الوصية، والنفقة ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ فلا جناح عليكم، يقول: إذا طلقت المرأة، أو مات عنها زوجها، فإذا انقضت عنتها، فلا جناح عليها أن تتزين، وتتصنع، وتعرض للتزويج، فذلك المعروف.

إن تاتني إن تحسن إليّ أكرمك. أي: إن تاتني محسناً إليّ، والمعنى: إن طلقتموهن غير ماسين لهنّ. وقيل: إنها موصولة. أي: إن طلقتم النساء اللاتي لم تمسوهنّ، وهكذا اختلفوا في قوله: ﴿أو تفرضوا﴾ فقيل: أو بمعنى إلا. أي: إلا أن تفرضوا، وقيل: بمعنى حتى. أي: حتى تفرضوا، وقيل: بمعنى الواو. أي: وتفرضوا. ولست أرى لهذا التطويل وجهاً، ومعنى الآية أوضح من أن يلتبس، فإن الله سبحانه رفع الجناح عن المطلقين ما لم يقع أحد الأمرين. أي: مدة انتفاء ذلك الأحد، ولا ينتفي الأحد المبهم إلا بانتفاء الأمرين معاً، فإن وجد المسيس، وجب المسمى، أو مهر المثل، وإن وجد الفرض وجب نصفه مع عدم المسيس، وكل واحد منها جناح. أي: المسمى، أو نصفه، أو مهر المثل. واعلم أن المطلقات أربع: مطلقة منخول بها مفروض لها، وهي التي تقدّم ذكرها قبل هذه الآية، وفيها نهي الأزواج عن أن يأخذوا مما آتوهنّ شيئاً، وإن عتتهنّ ثلاثة قروء. ومطلقة غير مفروض لها، ولا منخول بها، وهي المذكورة هنا، فلا مهر لها، بل المتعة، وبين في سورة الأحزاب أن غير المنخول بها إذا طلقت، فلا عدة عليها. ومطلقة مفروض لها غير منخول بها، وهي المذكورة بقوله سبحانه هنا: ﴿وإن طلقتموهنّ من قبل أن تمسوهنّ وقد فرضتم لهنّ فريضة﴾، ومطلقة منخول بها غير مفروض لها، وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿فما استمتعتم به منهنّ، فاتوهنّ أجورهنّ﴾ [النساء: 24] والمراد بقوله: ﴿ما لم تمسوهنّ﴾ ما لم تجامعهنّ؛ وقرأ ابن مسعود: «من قبل أن تجامعهنّ» أخرجه عنه ابن جرير، وقرأه نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم: «ما لم تمسوهنّ» وقرأه حمزة، والكسائي: «تأسوهنّ» من المفاعلة، والمراد بالفريضة هنا تسمية المهر. قوله: ﴿ومتعهوهنّ﴾ أي: أعطوهن شيئاً يكون متاعاً لهنّ، وظاهر الأمر الوجوب، وبه قال علي، وابن عمر، والحسن البصري، وسعيد بن جبیر، وأبو قلابة، والزهري، وقتادة، والضحاك، ومن أئمة الوجوب قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهنّ فما لكم عليهن من عدة تعتنّوهن فمتعهوهنّ وسرحوهن سراحاً جميلاً﴾ [الأحزاب: 49] وقال مالك، وأبو عبيد، والقاضي شريح، وغيرهم: إن المتعة للمطلقة المذكورة مندوبة لا واجبة لقوله تعالى: ﴿حقاً على المحسنين﴾ ولو كانت واجبة لأطلقها على الخلق أجمعين، ويجاب عنه بأن ذلك لا ينافي الوجوب بل هو تأكيد له، كما في قوله في الآية الأخرى: ﴿حقاً على المتقين﴾ [البقرة: 241] أي: إن الوفاء بذلك، والقيام به شأن أهل التقوى، وكل مسلم يجب عليه أن يتقي الله سبحانه، وقد وقع الخلاف أيضاً هل المتعة مشروعة لغير هذه المطلقة قبل المسيس، والفرض أم ليست بمشروعة إلا لها فقط؟ فقيل إنها مشروعة لكل مطلقة، وإليه ذهب ابن عباس، وابن عمر، وعطاء، وجابر بن زيد، وسعيد بن جبیر، وأبو العالية، والحسن البصري، والشافعي

في أحد قوليه، وأحمد وإسحاق، ولكنهم اختلفوا هل هي واجبة في غير المطلقة قبل البناء، والفرض أم مندوبة فقط، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين﴾ [البقرة: 241] وبقوله تعالى: ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعننّ وأسرحننّ سراحاً جميلاً﴾ [الأحزاب: 28] والآية الأولى عامة لكل مطلقة، والثانية في أزواج النبي ﷺ، وقد كنّ مفروضاً لهنّ منخولاً بهنّ. وقال سعيد بن المسيب: إنها تجب للمطلقة إذا طلقت قبل المسيس، وإن كانت مفروضاً لها لقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهنّ من قبل أن تمسوهنّ فما لكم عليهنّ من عدة تعتنّوهن فمتعهوهنّ﴾ [الأحزاب: 49] قال: هذه الآية التي في الأحزاب نسخت التي في البقرة. وذهب جماعة من أهل العلم إلى أن المتعة مختصة بالمطلقة قبل البناء، والتسمية؛ لأن المنخول بها تستحق جميع المسمى، أو مهر المثل، وغير المنخولة التي قد فرض لها زوجها فريضة أي: سمي لها مهراً، وطلقتها قبل الدخول تستحق نصف المسمى، ومن القائلين بهذا ابن عمر، ومجاهد. وقد وقع الإجماع على أن المطلقة قبل الدخول، والفرض لا تستحق إلا المتعة إذا كانت حرة. وأما إذا كانت أمة، فذهب الجمهور إلى أن لها المتعة، وقال الأوزاعي، والثوري: لا متعة لها؛ لأنها تكون لسيدها، وهو لا يستحق مالاً في مقابل تاذي مملوكته؛ لأن الله سبحانه إنما شرع المتعة للمطلقة قبل الدخول، والفرض، لكونها تتأذى بالطلاق قبل ذلك. وقد اختلفوا في المتعة المشروعة هل هي مقدرة بقدر أم لا؟ فقال مالك، والشافعي في الجدي: لا حدّ لها معروف بل ما يقع عليه اسم المتعة. وقال أبو حنيفة: إنه إذا تنازع الزوجان في قدر المتعة وجب لها نصف مهر مثلها، ولا ينقص من خمسة دراهم؛ لأن أقل المهر عشرة دراهم، والمسلم فيهما أقوال سيأتي ذكرها إن شاء الله. وقوله: ﴿على الموسع قدره وعلى المقتر قدره﴾ يدل على أن الاعتبار في ذلك بحال الزوج، فالمتعة من الغني فوق المتعة من الفقير. وقرأ الجمهور على الموسع بسكون الواو، وكسر السين، وهو الذي اتسعت حاله. وقرأ أبو حيوة بفتح الواو، وتشديد السين، وفتحها. وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم في رواية أبي بكر قدره بسكون الدال فيهما. وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وعاصم في رواية حفص بفتح الدال فيهما. قال الأخفش، وغيره: هما لغتان فصيحتان، وهكذا يقرأ في قوله تعالى: ﴿فسالت أودية بقدرها﴾ [الرعد: 17]. وقوله: ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ [الأنعام: 91] والمقدر المقل، ومتاعاً مصدر مؤكد لقوله: ﴿ومتعهوهن﴾ والمعروف ما عرف في الشرع، والعادة الموافقة له. وقوله: ﴿حقاً﴾ وصف لقوله: ﴿متاعاً﴾ أو مصدر لفعل محنوف. أي: حق ذلك حقاً، يقال: حققت عليه القضاء، وأحققت. أي: أوجبت. قوله: ﴿وإن طلقتموهنّ من قبل أن تمسوهنّ﴾ الآية، فيه دليل على أن المتعة لا تجب

لهذه المطلقة لوقوعها في مقابلة المطلقة قبل البناء، والفرض التي تستحق المتعة. وقوله: ﴿فنصف ما فرضتم﴾ أي: فالواجب عليكم نصف ما سميت لهن من المهر، وهذا مجمع عليه. وقرأ الجمهور: ﴿فنصف﴾ بالرفع. وقرأ من عدا الجمهور بالنصب. أي: فأنصفوا نصف ما فرضتم، وقرئ أيضاً بضم النون، وكسرهما، وهما لغتان. وقد وقع الاتفاق أيضاً على أن المرأة التي لم يدخل بها زوجها، ومات، وقد فرض لها مهراً تستحقه كاملاً بالموت، ولها الميراث، وعليها العدة. واختلفوا في الخلوة هل تقوم مقام الدخول، وتستحق المرأة بها كمال المهر، كما تستحقه بالدخول أم لا؟ فذهب إلى الأول مالك، والشافعي في القديم، والكوفيون، والخلفاء الراشدون، وجمهور أهل العلم، وتجب عندهم أيضاً العدة. وقال الشافعي في الجنيذ: لا يجب إلا نصف المهر، وهو ظاهر الآية لما تقدم من أن المسيس هو الجماع، ولا تجب عنده العدة، وإليه ذهب جماعة من السلف قوله: ﴿إلا أن يعفون﴾ أي: المطلقات، ومعناه: يتركن، ويصفحن، ووزنه يفعلن، وهو استثناء مفرغ من أعم العام، وقيل: منقطع، ومعناه: يتركن النصف الذي يجب لهن على الأزواج. ولم تسقط النون مع إن: لأن جمع المؤنث في المضارع على حالة واحدة في الرفع، والنصب، والجزم لكون النون ضميراً، وليست بعلامة إعراب كما في المنكر في قوله: الرجال يعفون، وهذا عليه جمهور المفسرين. وروي عن محمد بن كعب القرظي أنه قال: ﴿إلا أن يعفون﴾ يعني: الرجال، وهو ضعيف لفظاً. ومعنى قوله: ﴿أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح﴾ معطوف على محل قوله: ﴿إلا أن يعفون﴾ لأن الأول مبني، وهذا معرب؛ قيل: هو الزوج، وبه قال جبير بن مطعم، وسعيد بن المسيب، وشريح، وسعيد بن جبير، ومجاهد، والشعبي، وعكرمة، ونافع، وابن سيرين، والضحاك، ومحمد بن كعب القرظي، وجابر بن زيد، وأبو مجلز، والربيع بن أنس، وإياس بن معاوية، ومكحول، ومقاتل بن حيان، وهو الجديد من قولي الشافعي، وبه قال أبو حنيفة، وأصحابه، والثوري، وابن شبرمة، والأوزاعي، ورجحه ابن جرير. وفي هذا القول قوة وضعف، أما قوته، فلكون الذي بيده عقدة النكاح حقيقة هو الزوج؛ لأنه هو الذي إليه رفعه بالطلاق، وأما ضعفه فلكون العفو منه غير معقول، وما قالوا به من أن المراد بعفوه أن يعطيها المهر كاملاً غير ظاهر. لأن العفو لا يطلق على الزيادة. وقيل: المراد بقوله: ﴿أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح﴾ هو: الولي، وبه قال النخعي، وعلقمة، والحسن، وطاوس، وعطاء، وأبو الزناد، وزيد بن أسلم، وربيعة، والزهرى، والأسود بن يزيد، والشعبي، وقتادة، ومالك، والشافعي في قوله القديم، وفيه قوة، وضعف؛ أما قوته فلكون معنى العفو فيه معقولاً، وأما ضعفه، فلكون عقدة النكاح بيد الزوج لا بيده، ومما يزيد هذا القول ضعفاً أنه ليس للولي أن يعفو عن الزوج مما لا يملكه. وقد حكى القرطبي الإجماع على أن الولي لا يملك شيئاً من

مالها، والمهر مالها. فالراجح ما قاله الأولون لوجهين: الأول أن الزوج هو الذي بيده عقدة النكاح حقيقة. الثاني أن عفوه بكمال المهر هو صادر عن المالك مطلق التصرف بخلاف الولي، وتسمية الزيادة عفواً، وإن كان خلاف الظاهر، لكن لما كان الغالب أنهم يسوقون المهر كاملاً عند العقد كان العفو معقولاً، لأنه تركه لها، ولم يسترجع النصف منه، ولا يحتاج في هذا إلى أن يقال، إنه من باب المشاكلة كما في الكشف، لأنه عفو حقيقي أي: ترك لما يستحق المطالبة به، إلا أن يقال، إنه مشاكلة، أو يطيب في توفية المهر قبل أن يسوقه الزوج. قوله: ﴿وأن تعفو أقرب للتقوى﴾ قيل: هو خطاب للرجال، والنساء تغليباً؛ وقرأه الجمهور بالتاء الفوقية، وقرأ أبو نهيك، والشعبي بالياء التحتية، فيكون الخطاب مع الرجال. وفي هذا دليل على ما رجحناه من أن الذي بيده عقدة النكاح هو الزوج؛ لأن عفو الولي عن شيء لا يملكه ليس هو أقرب إلى التقوى، بل أقرب إلى الظلم، والجور. قوله: ﴿ولا تنسوا الفضل بينكم﴾ قرأه الجمهور بضم الواو، وقرأ يحيى بن يعمر بكسرهما، وقرأ علي، ومجاهد، وأبو حية، وابن أبي عبيدة: «ولا تناسوا» والمعنى: أن الزوجين لا ينسيان التفضل من كل واحد منهما على الآخر، ومن جملة ذلك أن تتفضل المرأة بالعفو عن النصف، ويتفضل الرجل عليها بكمال المهر، وهو إرشاد للرجال، والنساء من الأزواج إلى ترك التقصي على بعضهم بعضاً، والمسامحة فيما يستغفره أحدهما على الآخر للوصلة التي قد وقعت سهماً من إفضاء البعض إلى البعض، وهي وصلة لا يشبهها، وصلة، فمن رعاية حقها، ومعرفتها حق معرفتها الحرص منها على التسامح. وقوله: ﴿إن الله بما تعملون بصير﴾ فيه من ترغيب المحسن، وترهيب غيره ما لا يخفى.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله: ﴿وما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة﴾ قال: المس: النكاح، والفريضة: الصداق «معتوهن» قال: هو على الرجل يتزوج المرأة، ولم يسم لها صداقاً، ثم يطلقها قبل أن يدخل بها. فأمره الله أن يمتنعها على قدر عسره، ويسره، فإن كان موسراً متعها بخادم، وإن كان معسراً متعها بثلاثة أثواب، أو نحو ذلك. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أنه قال: متعة الطلاق: أعلاها الخادم، ودون ذلك الورق، ودون ذلك الكسوة. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، عن ابن عمر قال: أنى ما يكون من المتعة ثلاثون درهماً. وروى القرطبي في تفسيره عن الحسن بن علي أنه متع بعشرين ألفاً، ورقاق من عسل. وعن شريح أنه متع بخمسمائة درهم. وأخرج الدارقطني عن الحسن بن علي أنه متع بعشرة آلاف. وأخرج عبد الرزاق، عن ابن سيرين أنه كان يمتع بالخادم، والنفقة، أو بالكسوة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله: ﴿ومن قبل أن تمسوهن﴾ قال المس: الجماع، فلها نصف صداقها،

خَفَّتُمْ رِيَالًا أَوْ زِكَاةً قِيَادًا أَيْنَ تُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٤٣﴾

المحافظة على الشيء: المداومة، والمواظبة عليه، والوسطى: تأنيت الأوسط، وأوسط الشيء، ووسطه: خياره. ومنه قوله تعالى: ﴿وَكُنْكَ لَجَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: 143]، ومنه قول بعض العرب يمدح النبي ﷺ:

يا لوسط الناس طرأني فلفخرهم وإكرام الناس أمأبرة وإبا
ووسط فلان القوم يسظمهم، أي: صار في وسطهم. وأقرد
الصلاة الوسطى بالذكر بعد دخولها في عموم الصلوات
تشريفاً لها. وقرأ أبو جعفر: ﴿والصلاة للوسطى﴾ بالنصب
على الإغراء، وكذلك قرأ الحلواني؛ وقرأ قالون عن نافع
الوصطي بالصدا لمجاورة الطاء، وهما لغتان: كالسراط،
والصراط. وقد اختلف أهل العلم في تعيينها على ثمانية
عشر قولاً أورثتها في شرحي للمنتقى، وذكرت ما تمسكت
به كل طائفة، وأرجح الأقوال، وأصحها ما ذهب إليه الجمهور
من أنها العصر. لما ثبت عند البخاري، ومسلم، وأهل السنن،
وغيرهم من حديث علي قال: كنا نراها للفجر حتى سمعت
رسول الله ﷺ يقول يوم الأحزاب: «شغلونا عن الصلاة
الوسطى صلاة العصر، ملا الله قبورهم وأجوافهم ناراً».
وأخرج مسلم، والترمذي، وابن ماجه، وغيرهم من حديث ابن
مسعود مرفوعاً مثله. وأخرجه أيضاً ابن جرير، وابن المنذر،
والطبراني من حديث ابن عباس مرفوعاً. وأخرجه البزار
بإسناد صحيح من حديث جابر مرفوعاً، وأخرجه أيضاً
البزار بإسناد صحيح من حديث حنيفة مرفوعاً. وأخرجه
الطبراني بإسناد ضعيف من حديث أم سلمة مرفوعاً. وورد
في تعيين أنها العصر من غير نكر يوم الأحزاب أحاديث
مرفوعة إلى النبي ﷺ: منها عن ابن عمر، عند ابن منده،
ومنها عن سمرة عند أحمد، وابن جرير، والطبراني، ومنها
عنه أيضاً عند ابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد،
والترمذي وصححه ابن جرير، والطبراني، والبيهقي، وعن
أبي هريرة، عند ابن جرير، والبيهقي، والطحاوي. وأخرجه
عنه أيضاً ابن سعيد، والبزار، وابن جرير، والطبراني، وعن
ابن عباس، عند البزار بإسناد صحيح، وعن أبي مالك
الأشعري، عند ابن جرير، والطبراني، فهذه أحاديث مرفوعة
إلى النبي ﷺ مصرحة بأنها العصر. وقد روي، عن
الصحابه في تعيين أنها العصر آثار كثيرة، وفي الثابت عن
النبي ﷺ ما لا يحتاج معه إلى غيره، وأما ما روي عن
علي، وابن عباس أنهما قالاً: إنها صلاة الصبح كما أخرجه
مالك في الموطأ عنهما، وأخرجه ابن جرير، عن ابن عباس،
وكذلك أخرجه، عنه عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن
حميد، وابن المنذر، وكذلك أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم،
عن ابن عمر، وكذلك أخرجه ابن جرير، عن جابر، وكذلك
أخرجه ابن أبي حاتم، عن أبي أمامة، وكل ذلك من أقوالهم،
وليس فيها شيء من المرفوع إلى النبي ﷺ، ولا تقوم بمثل
ذلك حجة لا سيما إذا عارض ما قد ثبت عنه ﷺ ثبوتاً

وليس لها أكثر من ذلك إلا أن يعفون. وهي المرأة الشيب،
والبكر يزوجها غير أبيها، فجعل الله العفو لهن إن شئن
عفون بتركهن، وإن شئن أخذن نصف الصداق ﴿أو يعفو
الذي بيده عقدة النكاح﴾ وهو أبو الجارية البكر جعل
العفو إليه ليس لها معه أمر إذا طلقت ما كانت في حجره.
وأخرج الشافعي، وسعيد بن منصور، والبيهقي عن ابن
عباس قال في الرجل يتزوج المرأة، فيخلو بها ولا يمسه،
ثم يطلقها: ليس لها إلا نصف الصداق؛ لأن الله يقول: ﴿فَإِنْ
طَلَقْتُمُوهُنَّ﴾ الآية. وأخرج البيهقي عن ابن مسعود قال: لها
نصف الصداق، وإن جلس بين رجلها. وأخرج ابن جرير،
وابن أبي حاتم، والطبراني في الأوسط، والبيهقي بسند
حسن، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: «الذي بيده عقدة
النكاح الزوج». وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن
جرير، وابن أبي حاتم، والدارقطني، والبيهقي، عن علي مثله
من قوله. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي شيبة، وابن جرير،
وابن المنذر، والبيهقي عن ابن عباس مثله. وأخرج ابن أبي
حاتم، والبيهقي عنه قال: هو لبوها، وأخوها، ومن لا تنكح إلا
بإئنه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن مجاهد في
قوله: ﴿وَلَا تَتَسَوُا الْفُضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ قال: في هذا، أو غيره.
وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وأحمد، وأبو داود،
والترمذي وصححه، والنسائي، وابن ماجه، والحاكم،
وصححه البيهقي أن قوماً أتوا ابن مسعود، فقالوا: إن رجلاً
تزوج منا امرأة، ولم يفرض لها صداقاً، ولم يجمعها إليه
حتى مات، فقال: أرى أن أجعل لها صداقاً كصداق نساها، لا
وكس، ولا شطط، ولها الميراث، وعليها العدة أربعة أشهر
وعشر، فسمع بذلك ناس من أشجع منهم: مففل بن سنان،
فقالوا: نشهد أنك قضيت مثل الذي قضى به رسول الله ﷺ
في امرأة منا يقال لها: يروع بنت واشق. وأخرج سعيد بن
منصور، وابن أبي شيبة، والبيهقي عن علي أنه قال في
المتوفى عنها زوجها، ولم يفرض لها صداقاً: لها الميراث،
وعليها العدة، ولا صداق لها. وقال: لا يقبل قول أعرابي من
أشجع على كتاب الله. وأخرج الشافعي، والبيهقي، عن ابن
عباس قال في المرأة التي يموت عنها زوجها، وقد فرض لها
صداقاً: لها الصداق، والميراث. وأخرج مالك، والشافعي، وابن
أبي شيبة، والبيهقي، عن عمر بن الخطاب أنه قضى في
المرأة يتزوجها الرجل: أنه إذا أرخيت الستور، فقد وجب
الصداق. وأخرج ابن أبي شيبة، والبيهقي، عن عمر، وعلي
قال: إذا أرخى ستراً، وأغلق باباً، فلها الصداق كاملاً، وعليها
العدة. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، والبيهقي،
عن زبارة بن أوفى قال: قضى الخلفاء الراشدون أنه من
أغلق باباً، أو أرخى ستراً، فقد وجب الصداق، والعدة، وأخرج
مالك، والبيهقي عن زيد بن ثابت نحوه. وأخرج البيهقي، عن
محمد بن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال: «من كشف امرأة،
فنظر إلى عورتها، فقد وجب الصداق».

حَفَظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالزَّكَاةِ وَقَوْمُوا لَهُمْ قَسَبَ اللَّهِ قَسَبًا

يمكن أن يدعى فيه التواتر، وإذا لم تقم الحجة بقول الصحابة لم تقم بقول من بعدهم من التابعين، وتابعهم بالاولى، وهكذا لا تقوم الحجة بما أخرجه ابن أبي حاتم بإسناد حسن، عن ابن عباس أنه قال: صلاة الوسطى المغرب، وهكذا لا اعتبار بما ورد من قول جماعة من الصحابة: أنها الظهر، أو غيرها من الصلوات، ولكن المحتاج إلى إمعان نظر، وفكر ما ورد مرفوعاً إلى النبي ﷺ مما فيه دلالة على أنها الظهر، كما أخرجه ابن جرير، عن زيد بن ثابت مرفوعاً: «إن الصلاة الوسطى صلاة الظهر». ولا يصح رفعه بل المروي، عن زيد بن ثابت ذلك من قوله، واستدل على ذلك بأن النبي ﷺ كان يصلي بالهجرة، وكانت أثقل الصلاة على أصحابه، وأين يقع هذا الاستدلال من تلك الأحاديث الصحيحة الثابتة، عن النبي ﷺ، وهكذا الاعتبار بما روي، عن ابن عمر من قوله: إنها الظهر. وكذلك ما روي، عن عائشة، وأبي سعيد الخدري، وغيرهم، فلا حجة في قول أحد مع قول رسول الله ﷺ، وأما ما رواه عبد الرزاق، وابن جرير، وغيرهما أن حفصة قالت لأبي رافع مولاها، وقد أمرته أن يكتب لها مصحفاً: إذا أتيت على هذه الآية: **﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى﴾** فتعال حتى أملكها عليك، فلما بلغ ذلك أمرته أن يكتب: **﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر﴾**. وأخرجه أيضاً، عنها مالك، وعبد بن حميد، وابن جرير، والبيهقي في سننه، وزادوا: وقالت أشهد أنني سمعتها من رسول الله ﷺ. وأخرج مالك، وأحمد، وعبد بن حميد، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وغيرهم، عن أبي يونس مولى عائشة أنها أمرته أن يكتب لها مصحفاً، وقالت: إذا بلغت هذه الآية فأنتني **﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى﴾** قال: فلما بلغت أنتنتها، فأملت علي: **﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر﴾** قلت عائشة: سمعتها من رسول الله ﷺ. وأخرج وكيع، وابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن أم سلمة أنها أمرت من يكتب لها مصحفاً، وقالت له، كما قالت حفصة، وعائشة. فغاية ما في هذه الروايات، عن أمهات المؤمنين الثلاث رضي الله عنهن أنهن يروين هذا الحرف هكذا عن رسول الله ﷺ، وليس فيه ما يدل على تعيين الصلاة الوسطى أنها الظهر، أو غيرها، بل غاية ما يدل عليه عطف صلاة العصر على صلاة الوسطى أنها غيرها؛ لأن المعطوف غير المعطوف عليه، وهذا الاستدلال لا يعارض ما ثبت عنه ﷺ ثبوتاً لا ينفع أنها العصر كما قمنا ببيانه. فالحاصل أن هذه القراءة التي نقلتها أمهات المؤمنين الثلاث بإثبات قوله: «وصلاة العصر» معارضة بما أخرجه ابن جرير، عن عروة قال: كان في مصحف عائشة: **﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وهي صلاة العصر﴾**. وأخرج وكيع، عن حميدة قالت: قرأت في مصحف عائشة: **﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى صلاة العصر﴾**. وأخرج ابن أبي داود،

عن قبيصة بن ذؤيب مثله. وأخرج سعيد بن منصور، وأبو عبيد، عن زياد بن أبي مريم أن عائشة أمرت بمصحف لها أن يكتب، وقالت: إذا بلغت **﴿حافظوا على الصلوات﴾** فلا تكتبوها حتى تؤننوني، فلما أخبروها أنهم قد بلغوا قالت: اكتبوها صلاة الوسطى صلاة العصر. وأخرج ابن جرير، والطحاوي، والبيهقي، عن عمرو بن رافع: قال كان مكتوباً في مصحف حفصة **﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وهي صلاة العصر﴾**. وأخرج أبو عبيد في فضائله، وابن المنذر عن أبي بن كعب أنه كان يقرؤها: **﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى صلاة العصر﴾**. وأخرج أبو عبيد، وعبد بن حميد، والبخاري في تاريخه، وابن جرير، والطحاوي، عن ابن عباس: أنه كان يقرأها: **﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى صلاة العصر﴾**. وأخرج المحاملي عن السائب بن يزيد أنه تلاها كذلك، فهذه الروايات تعارض تلك الروايات باعتبار التلاوة، ونقل القراءة، ويبقى ما صرح عن النبي ﷺ من التعيين صافياً، عن شوب كبر المعارضة. على أنه قد ورد ما يدل على نسخ تلك القراءة التي نقلتها حفصة، وعائشة، وأم سلمة. فأخرج عبد بن حميد، ومسلم، وأبو داود في ناسخه، وابن جرير، والبيهقي، عن البراء بن عازب، قال: نزلت: **﴿حافظوا على الصلوات وصلاة العصر﴾** فقرأناها على عهد رسول الله ﷺ ما شاء الله، ثم نسخها الله، فأنزل: **﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى﴾** فقيل له: هي إذن: صلاة العصر؟ قال: قد حدثتك كيف نزلت، وكيف نسخها الله، والله أعلم. وأخرج البيهقي، عنه من وجه آخر، نحوه. وإذا تقرر لك هذا، وعرفت ما سقناه تبين لك أنه لم يرد ما يعارض أن الصلاة الوسطى صلاة العصر. وأما حجج بقية الأقوال، فليس فيها شيء مما ينبغي الاشتغال به؛ لأنه لم يثبت عن النبي ﷺ في ذلك شيء، وبعض القائلين عول على أمر لا يعول عليه، فقال: إنها صلاة كذا؛ لأنها وسطى بالنسبة إلى أن قبلها كذا من الصلوات، وبعدها كذا من الصلوات، وهذا الرأي المحض، والتخمين البحت لا ينبغي أن تسند إليه الأحكام الشرعية على فرض عدم وجود ما يعارضه، عن النبي ﷺ، فكيف مع وجود ما هو في أعلا درجات الصحة، والقوة، والثبوت، عن رسول الله ﷺ؟ وبالله العجب من قوم لم يكتفوا بتقصيرهم في علم السنة، وإعراضهم عن خير العلوم، وأنفعها، حتى كلفوا أنفسهم التكلم على أحكام الله، والتحري على تفسير كتاب الله بغير علم، ولا هدى، فجأؤا بما يضحك منه تارة، ويبكى منه أخرى. قوله: **﴿وقوموا لله قانتين﴾** القنوت قيل: هو الطاعة. أي: قوموا لله في صلاتكم طائعين، قاله جابر بن زيد، وعطاء، وسعيد بن جبيرة، والضحاك، والشافعي. وقيل: هو الخشوع، قاله ابن عمر، ومجاهد. ومنه قول الشاعر:

قانتاً لله يدعور به وعلى عمد من الناس اعتزل
وقيل: هو الدعاء، وبه قال ابن عباس. وفي الحديث أن

عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَقَوْمُوا﴾ قانتين: قال: مصلين. وأخرج ابن جرير عنه في الآية قال: كل أهل دين يقومون فيها عاصين، قوموا أنتم مطيعين، وأخرج ابن أبي شيبة، عن الضحاك مثله. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن مجاهد في قوله: ﴿وَقَوْمُوا﴾ قانتين: قال: من القنوت الركوع، والخشوع، وطول الركوع: يعني طول القيام، وغض البصر، وخفض الجناح، والرهبة لله. وقد ثبت في الصحيحين، وغيرهما، عن النبي ﷺ أنه قال: «إن في الصلاة لشغلاً» وفي صحيح مسلم، وغيره أن النبي ﷺ قال: «إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح، والتكبير، وقراءة القرآن». وقد اختلفت الأحاديث في القنوت المصطلح عليه، هل هو قبل الركوع، أو بعده، وهل هو في جميع الصلوات، أو بعضها، وهل هو مختص بالنوازل أم لا؟ والراجح اختصاصه بالنوازل، وقد أوضحنا ذلك في شرحنا للمنتقى، فليرجع إليه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرَجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ قال: يصلي الركاب على دابته، والرجل على رجليه ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرَجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ يعني: كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون. يعني: كما علمكم أن يصلي الركاب على دابته، والرجل على رجليه. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن جابر بن عبد الله، قال: إذا كانت المسابقة، فليوم برأسه حيث كان وجهه، فنلك قوله: ﴿فَرَجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾. وأخرج عبد بن حميد، عن ابن عباس قال: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرَجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ قال: ركعة ركعة. وأخرج وكيع، وابن جرير، عن مجاهد: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾ قال: خرجتم من دار السفر إلى دار الإقامة.

وَالَّذِينَ يُتَوَكَّلُونَ بِكُمْ وَيَذَرُونَ أَنْوَابًا وَمِثْلَهُ لَا تَزْجَهُمْ مَتَّأ إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنَّ حَرْجَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْتُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْ مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ غَفِيرٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَّعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٢﴾

هذا عود إلى بقية الأحكام المفصلة فيما سلف. وقد اختلف السلف، ومن تبعهم من المفسرين في هذه الآية هل هي محكمة، أو منسوخة؟ فذهب الجمهور إلى أنها منسوخة بالاربعة الأشهر والعشر كما تقدم، وأن الوصية المنكورة فيها منسوخة بما فرض الله لهم من الميراث. وحكى ابن جرير، عن مجاهد أن هذه الآية محكمة لا نسخ فيها، وأن العدة أربعة أشهر وعشر، ثم جعل الله لهم وصية منه سكنى سبعة أشهر وعشرين ليلة، فإن شاعت المرأة سكنت في وصيتها، وإن شاعت خرجت. وقد حكى ابن عطية، والقاضي عياض أن الإجماع منعقد على أن الحول منسوخ، وأن عدتها أربعة أشهر وعشر. وقد أخرج عن مجاهد، ما أخرجه ابن

رسول الله ﷺ قنت شهراً يدعو على رعل، ونكون. وقال قوم: إن القنوت طول القيام، وقيل معناه: ساكتين قاله السدي، ويدل عليه حديث زيد بن أرقم في الصحيحين، وغيرهما قال: كان الرجل يكلم صاحبه في عهد النبي ﷺ في الحاجة في الصلاة حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَقَوْمُوا﴾ قانتين. فأمرنا بالسكوت، وقيل: أصل القنوت في اللغة الدوام على الشيء، فكل معنى يناسب للدوام يصح إطلاق القنوت عليه. وقد نكر أهل العلم أن القنوت ثلاثة عشر معنى، وقد نكرنا ذلك في شرح المنتقى، والمتعين هاهنا حمل القنوت على السكوت للحديث المذكور. قوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرَجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ الخوف هو: الفزع، والرجال جمع رجل، أو راجل، من قولهم: رجل الإنسان يرجل راجلاً: إذا عدم المركوب، ومشى على قدميه، فهو رجل، وراجل. يقول أهل الحجاز: مشى فلان إلى بيت الله حافياً رجلاً. حكاه ابن جرير الطبري، وغيره. لما نكر الله سبحانه الأمر بالمحافظة على الصلوات، نكر حالة الخوف أنهم يضيعون فيها ما يمكنهم، ويبدل تحت طوقهم من المحافظة على الصلاة بفعلها حال الترجل، وحال الركوب، وإبان لهم أن هذه العبادة لازمة في كل الأحوال بحسب الإمكان. وقد اختلف أهل العلم في حد الخوف المبيح لذلك، والبحث مستوفى في كتب الفروع. قوله: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾ أي: إذا زال خوفكم، فارجعوا إلى ما أمرت به من إتمام الصلاة مستقبلين القبلة قائمين بجميع شروطها، وأركانها، وهو قوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرَجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾. وقيل: معنى الآية: خرجتم من دار السفر إلى دار الإقامة، وهو خلاف معنى الآية. وقوله: ﴿كَمَا عَلَّمَكُمْ﴾ أي: مثل ما علمكم من الشرائع: ﴿مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ والكاف صفة لمصدر محذوف أي: نكرأ كأننا كتعليمه إياكم، أو مثل تعليمه إياكم.

وقد أخرج ابن جرير، عن سعيد بن المسيب قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ مختلفين في الصلاة الوسطى هكذا، وشبك بين أصابعه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عمر: أنه سئل عن الصلاة الوسطى؟ فقال: هي فيهن، فحافظوا عليهن. وأخرج عبد بن حميد، عن زيد بن ثابت: أنه سأل رجل عن الصلاة الوسطى، فقال: حافظ على الصلوات تدركها. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، عن الربيع بن خيثم: أن سائلاً سأله عن الصلاة الوسطى، قال: حافظ عليهن، فإنك إن فعلت أصبتها، إنما هي واحدة منهن. وأخرج ابن أبي شيبة، عن ابن سيرين قال: سئل شريح عن الصلاة الوسطى، فقال: حافظوا عليها تصيبوها. وقد قدما ما روي عن النبي ﷺ، وعن أصحابه رضي الله عنهم في تعيينها. وأخرج الطبراني، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَقَوْمُوا﴾ قانتين: مثل ما قدما، عن زيد بن أرقم. وأخرج ابن جرير، عن ابن مسعود، نحوه. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، عن محمد بن كعب، نحوه أيضاً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن عكرمة نحوه. وأخرج

والنسائي عن عكرمة قال: نسختها: ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً﴾ [البقرة: 234]. وأخرج ابن الأنباري في المصاحف، عن زيد بن أسلم نحوه. وأخرج أيضاً، عن قتادة نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من معروف﴾ قال: النكاح الحلال الطيب. وأخرج ابن جرير، عن ابن زيد، قال: لما نزل قوله: ﴿متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين﴾ [البقرة: 236] قال رجل: إن أحسنت، فعلت، وإن لم أرد ذلك لم أفعل، فانزل الله: ﴿وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين﴾. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن المسيب، قال: نسخت هذه الآية بقوله: ﴿وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم﴾ [البقرة: 237]. وأخرج أيضاً عن عتاب بن خصيف في قوله: ﴿وللمطلقات متاع﴾ قال: كان ذلك قبل الفرائض. وأخرج مالك، وعبد الرزاق، والشافعي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، والبيهقي عن ابن عمر قال: لكل مطلقة متعة إلا التي تطلقها، ولم تدخل بها، وقد فرض لها، كفى بالنصف متاعاً. وأخرج ابن المنذر، عن علي بن أبي طالب قال: لكل مؤمنة طلقت حرة، أو أمة متعة، وقرأ: ﴿وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين﴾. وأخرج البيهقي، عن جابر بن عبد الله، قال لما طلق حفص بن المغيرة امرأته فاطمة أتت النبي ﷺ، فقال لزوجها: متعها، قال: لا أجد ما أمتعها، قال: فإنه لا بد من المتاع، متعها، ولو نصف صاع من تمر. وأخرج عبد بن حميد، عن أبي العالية في الآية، قال: لكل مطلقة متعة.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [٢٢٩] وَتَنَبَّأُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٣٠﴾ مَنَآ كَلَّا يُدْرِى اللَّهُ قَرَضًا حَسَنًا يَصْنَعُهُمْ لَهُ أَمْوَالًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٣١﴾

الاستفهام هنا للتقرير، والرؤية المذكورة هي رؤية القلب لا رؤية البصر. والمعنى، عند سبويه: تنبه إلى أمر الذين خرجوا، ولا تحتاج هذه الرؤية إلى مفعولين كذا قيل. وحاصله أن الرؤية هنا التي بمعنى الإدراك مضمنة معنى التنبيه، ويجوز أن تكون مضمنة معنى الانتهاء. أي: ألم ينته علمك إليهم، أم معنى الوصول. أي: ألم يصل علمك إليهم، ويجوز أن تكون بمعنى الرؤية البصرية. أي: ألم تنظر إلى الذين خرجوا. جعل الله سبحانه قصة هؤلاء لما كانت بمكان من الشيع، والشهرة يحمل كل أحد على الإقرار بها بمنزلة المعلومة لكل فرد، أو المبصرة لكل مبصر؛ لأن أهل الكتاب قد أخبروا بها ودونوها، وأشهرها أمرها، والخطاب هنا لكل من يصلح له. والكلام جار مجرى المثل في مقام التعجيب أذعان لظهوره، وجلائه بحيث

جرير عنه البخاري في صحيحه. وقوله: ﴿وصية﴾ قرأ نافع، وابن كثير، وعاصم في رواية أبي بكر، والكسائي بالرفع على أن ذلك مبتدأ لخبر محذوف يقدر مقدماً. أي: عليهم وصية. وقيل: إن الخبر قوله: ﴿لازلوهم﴾ وقيل: إنه خبر مبتدأ محذوف. أي: وصية الذين يتوفون وصية، أو حكم الذين يتوفون وصية. وقرأ أبو عمرو، وحزمه، وابن عامر بالنصب على تقدير فعل محذوف. أي: فليوصوا وصية، أو أوصى الله وصية، أو كتب الله عليهم وصية. وقوله: ﴿متاعاً﴾ منصوب بوصية، أو بفعل محذوف. أي: متعوهن متاعاً، أو جعل الله لهن ذلك متاعاً، ويجوز أن يكون منتصباً على الحال. والمتاع هنا: نفقة السنة. وقوله: ﴿غير إخراج﴾ صفة لقوله: ﴿متاعاً﴾ وقال الأخفش: إنه مصدر كانه قال: لا إخراجاً. وقيل: إنه حال. أي: متعوهن غير مخرجات، وقيل: منصوب بنزع الخافض. أي: من غير إخراج، والمعنى: أنه يجب على الذين يتوفون أن يوصوا قبل نزول الموت بهم لأزواجهم أن يمتعن بعدهم حولاً كاملاً بالنفقة، والسكنى من تركتهم، ولا يخرجن من مساكنهن. وقوله: ﴿فإن خرجن﴾ يعني: باختيارهن قبل الحول ﴿فلا جناح عليكم﴾ أي: لا حرج على الولي، والحاكم، وغيرهما ﴿فيما فعلن في أنفسهن﴾ من التعرض للخطاب، والتزين لهم. وقوله: ﴿من معروف﴾ أي: بما هو معروف في الشرع غير منكر. وفيه دليل على أن النساء كنّ مخيرات في سكنى الحول، وليس ذلك بحتم عليهن؛ وقيل: المعنى: لا جناح عليكم في قطع النفقة عنهن، وهو ضعيف؛ لأن متعلق الجناح هو منكر في الآية بقوله: ﴿فيما فعلن﴾ وقوله: ﴿وللمطلقات متاع﴾ قد اختلف المفسرون في هذه الآية، فقيل: هي المتعة، وأنها واجبة لكل مطلقة، وقيل: إن هذه الآية خاصة بالثيبات اللواتي قد جرمعن؛ لأنه قد تقدم قبل هذه الآية نكر المتعة اللواتي لم يدخل بهن الأزواج. وقد قدمنا الكلام على هذه المتعة، والخلاف في كونها خاصة بمن طلقت قبل البناء، والفرض، أو عامة للمطلقات، وقيل: إن هذه الآية شاملة للمتعة الواجبة، وهي متعة المطلقة قبل البناء، والفرض، وغير الواجبة، وهي: متعة سائر المطلقات، فإنها مستحبة فقط، وقيل: المراد بالمتعة هنا النفقة.

وقد أخرج البخاري، وغيره عن ابن الزبير، قال: قلت لعثمان بن عفان: ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً﴾ قد نسختها الآية الأخرى، فلم تكتبها، أو لم تدعها؟ قال: يا ابن أخي لا غير شيئاً منه من مكانه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في الآية، قال: كان للمتوفى عنها زوجها نفقتها، وسكنائها في الدار سنة، فنسختها آية الموارث، فجعل لهن الربع، والثمن مما ترك الزوج. وأخرج ابن جرير، نحوه عن عطاء. وأخرج نحوه أبو داود، والنسائي، عن ابن عباس من وجه آخر. وأخرج الشافعي، وعبد الرزاق، عن جابر بن عبد الله، قال: ليس للمتوفى عنها زوجها نفقة حسبها الميراث. وأخرج أبو داود في ناسخه،

ورفع الفاء، وقرأ ابن عامر، ويعقوب: «فيضعفه» بإسقاط الألف مع تشديد العين، ونصب الفاء. وقرأ ابن كثير، وأبو جعفر بالتشديد، ورفع الفاء. فمن نصب، فعلى أن جواب الاستفهام، ومن رفع، فعلى تقدير مبتدأ. أي: هو يضاعفه. وقد اختلف في تقدير هذا التضعيف على أقوال. وقيل: لا يعلمه إلا الله وحده. وقوله: «والله يقبض ويبسط» هذا علم في كل شيء، فهو القابض الباسط، والقبض: التقدير، والبسط: التوسيع، وفيه وعيد بأن من بخل من البسط يوشك أن يبدل بالقبض، ولهذا قال: «والله ترجعون» أي: هو يجازيكم بما قدمتم عند الرجوع إليه، وإذا أنفقت مما وسع به عليكم أحسن إليكم، وإن بخلتم عاقبكم.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، والحاكم عن ابن عباس في قوله: «الم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم» قال: كانوا أربعة آلاف خرجوا فراراً من الطاعون، وقالوا: نأتي أرضاً ليس بها موت، حتى إذا كانوا بموضع كذا، وكذا قال لهم الله: موتوا، فماتوا، فمر عليهم نبي من الأنبياء، فدعا ربه أن يحييهم حتى يعبدوه، فأحياهم. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عنه: أن القرية التي خرجوا منها داوردان. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم هذه القصة مطولة، عن أبي مالك، وفيها أنهم بضعة وثلاثون ألفاً. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن عبد العزيز: أن ديارهم هي أنزعات. وأخرج أيضاً، عن أبي صالح قال: كانوا تسعة آلاف. وأخرج جماعة من محدثي المفسرين هذه القصة على أنحاء، ولا يأتي الاستكثار من طرقها بفائدة. وقد ورد في الصحيحين، وغيرهما، عن النبي ﷺ النهي عن الفرار من الطاعون، وعن دخول الأرض التي هو بها من حديث عبد الرحمن بن عوف. وأخرج سعيد بن منصور، وابن سعد، والبخاري، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والبيهقي في الشعب، عن ابن مسعود، قال: «لما نزلت: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يقرض الله قرضاً حسناً﴾ قال أبو النجداح الأنصاري: يا رسول الله إن الله ليريد منا القرض؟ قال: نعم يا أبا النجداح، قال: أرني ينك يا رسول الله، فنأوله يده، قال: فإنني قد أقرضت ربي حاشطي، وله فيه ستمائة نخلة». وقد أخرج هذه القصة عبد الرزاق، وابن جرير من طريق زيد بن أسلم، زاد الطبراني، عن أبيه، عن عمر بن الخطاب، وابن مرونه، عن أبي هريرة، وابن إسحاق، وابن المنذر، عن ابن عباس. وأخرج ابن جرير، عن السدي في قوله: «أضعافاً كثيرة» قال: هذا التضعيف لا يعلم أحد ما هو. وأخرج أحمد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي عثمان النهدي قال: بلغني عن أبي هريرة، حديث أنه قال: «إن الله ليكتب لعبده المؤمن بالحسنة الواحدة ألف ألف حسنة، فحجبت ذلك العام، ولم أكن أريد أن أحج إلا لآلئها في هذا الحديث، فلقيت أبا هريرة، فقلت له، فقال: ليس هذا، قلت: ولم يحفظ هذا الحديث الذي حدثك إنماء، قلت: «إن الله ليعطي العبد المؤمن بالحسنة الواحدة ألفي ألف حسنة» ثم قال أبو

يستوي في إدراكه الشاهد، والغائب. وقوله: «وهم الوف» في محل نصب على الحال من ضمير خرجوا، والوف من جموع الكثرة، فدل على أنها الوف كثيرة. وقوله: «حذر الموت» مفعول له. وقوله: «فقال لهم الله موتوا» هو أمر تكوين عبارة عن تعلق إرادته بموتهم بفعة، أو تمثيل لإماتته سبحانه إياهم ميتة نفس واحدة كأنهم أمروا، فاطاعوا. قوله: «ثم أحياهم» هو معطوف على مقدر يقتضيه المقام أي: قال الله لهم موتوا، فماتوا ثم أحياهم، أو على قال لما كان عبارة، عن الإماتة، وقوله: «إن الله لنؤ فضل على الناس» التنكير في قوله فضل للتعظيم. أي: لنؤ فضل عظيم على الناس جميعاً، أما هؤلاء الذين خرجوا، فلكونه أحياهم، ليعتبروا، وأما المخاطبون، فلكونه قد أرشدهم إلى الاعتبار، والاستبصار بقصة هؤلاء، وقوله: «وقاتلوا في سبيل الله» هو معطوف على مقدر، كأنه قيل: اشكروا فضله بالاعتبار بما قص عليكم، وقتلوا، هذا إذا كان الخطاب بقوله: «وقاتلوا» راجعاً إلى المخاطبين بقوله: «الم تر إلى الذين خرجوا» كما قاله جمهور المفسرين، وعلى هذا يكون إيراد هذه القصة لتشجيع المسلمين على الجهاد، وقيل: إن الخطاب للذين أحيوا من بني إسرائيل، فيكون عطفاً على قوله: «موتوا» وفي الكلام محذوف تقديره: وقال لهم قاتلوا. وقال ابن جرير: لا وجه لقول من قال: إن الأمر بالقتال للذين أحيوا. وقوله: «مَنْ ذَا الَّذِي يقرض الله» لما أمر سبحانه بالقتال، والجهاد أمر بالإنفاق في ذلك، ومنه: استفهامية مرفوعة المحل بالابتداء، وهذا خبره، والذي وصلته وصف له، أو بدل منه، وإقراض الله مثل لتقديم العمل الصالح الذي يستحق به فاعله الثواب، وأصل القرض اسم لكل ما يلتمس عليه الجزاء، يقال: أقرض فلان فلاناً، أي: أعطاه ما يتجأزه. قال الشاعر:

وإذا جوزيت قرضاً فأجزه

وقال الزجاج: القرض في اللغة: البلاء الحسن، والبلاء السيء.

قال أمية:

كل امرئ سوف يجزي قرضه حسناً أو سيئاً وميناً مثل ما دانا وقال آخر:

فجأزي القروض بأمثلها فبالخير خيراً وبالشر شراً

وقال الكسائي القرض: ما أسلفت من عمل صالح، أو سيء، وأصل الكلمة القطع، ومنه المقرض، واستدعاء القرض في الآية إنما هو: تأنيس، وتقريب للناس بما يفهمونه. والله هو الغني الحميد. شبه عطاء المؤمن ما يرجو ثوابه في الآخرة بالقرض، كما شبه إعطاء النفوس، والأموال في أخذ الجنة بالبيع، والشراء. وقوله: «حسناً» أي: طيبة به نفسه من دون من، ولا أذى. وقوله: «فيضاعفه» قرأ عاصم، وغيره بالألف، ونصب الفاء. وقرأ نافع، وأبو عمرو، وحزمة، والكسائي بإثبات الألف،

عنهم أذى العطش بعض الارتفاع، وليكسروا نزاع النفس في هذه الحال، وفيه أن الغرفة تكف سورة العطش عند الصابرين على شظف العيش الدافعين أنفسهم عن الرفاهية. فالمراد بقوله: «فمن شرب منه» أي: كرع، ولم يقتصر على الغرفة، «ومن» ابتدائية. ومعنى قوله: «فليس مني» أي: ليس من أصحابي من قولهم: فلان من فلان، كأنه بعضه لاختلاطهما، وطول صحبتهما، وهذا مهيع في كلام العرب معروف، ومنه قول الشاعر:

إذا حاولت في أسد فجوراً فإني لست منك ولست مني
وقوله: «ومن لم يطعمه» يقال: طعمت الشيء أي: نقته، واطعمته الماء أي: أنقته، وفيه دليل على أن الماء يقال له طعم، والاعتراف: الأخذ من الشيء باليد، أو بالغة، والغرف مثل الاعتراف، والغرفة المرة الواحدة. وقد قرئ بفتح الغين، وضمها، فالفتح للمرة، والضم اسم للشيء المغترف، وقيل: بالفتح الغرفة بالكف الواحدة، وبالضم الغرفة بالكفين، وقيل: هما لغتان بمعنى واحد، ومنه قول الشاعر:

لا يبلغون إلى ماء بأنية إلا اغترافاً من الغدران بالراح
قوله: «إلا قليلاً» سيأتي بيان عدهم، وقرئ «إلا قليل» ولا وجه له إلا ما قيل من أنه من هجر اللفظ إلى جانب المعنى أي: لم يعطه إلا قليل، وهو تعسف. قوله: «فلما جاوزوه» أي: جاوز النهر طالوت: «والذين آمنوا معه» وهم القليل الذين أطاعوه، ولكنهم اختلفوا في قوة اليقين، فيعضهم قال: «لا طاقة لنا» وقال النذين يظنون: أي: يتيقنون «أنهم ملأوا الله» والفتنة: الجماعة، والقطعة منهم من فأت راسه بالسيف أي: قطعت. وقوله «يرزوا» أي: صاروا في البراز، وهو المتسع من الأرض. وجالوت أمير العملاقة. قلوا أي: جميع من معه من المؤمنين، والإفراغ يفيد معنى الكثرة. وقوله: «وثبت اقدامنا» هذا عبارة عن القوة، وعدم الفشل، يقال: ثبت قدم فلان على كذا إذا استقر له، ولم يزل عنه، وثبت قدمه في الحرب إذا كان الغلب له، والنصر معه. قوله: «وانصرونا على القوم الكافرين» هم جالوت، وجنوده. ووضع الظاهر موضع المضمر إظهاراً لما هو العلة الموجبة للنصر عليهم، وهي كفرهم، وذكر النصر بعد سؤال تثبيت الأقدام، لكون الثاني هو غاية الأول. قوله: «فهزمهم بإذن الله» الهزم: الكسر؛ ومنه سقاء منهزم أي: انثنى بعضه على بعض مع الجفاف، ومنه ما قيل في زمزم إنها هزمة جبريل أي: هزمها برجله، فخرج الماء، والهزم: ما يكسر من يابس الحطب، وتقدير الكلام: فانزل الله عليهم النصر «فهزمهم بإذن الله» أي: بأمره وإرادته. قوله: «وقتل داود جالوت» هو: داود بن إيشا بكسر الهمزة، ثم تحية ساكنة بعدها معجمة، ويقال: داود بن زكريا بن بشوى من سبط يهوذا بن يعقوب جمع الله له بين النبوة، والملك بعد أن كان راعياً، وكان أصغر إخوته، اختاره طالوت لمقاتلة جالوت، فقتله. والمراد بالحكمة هنا: النبوة، وقيل: هي تعليمه صنعة الدروع، ومنطق الطير، وقيل هي: إعطاؤه

نياتهم، وفتور عزائمهم. واختلف في عدد القليل الذين استثناهم الله سبحانه، وهم الذين اكتفوا بالغرفة. وقوله «وقال لهم نبيهم» شروع في تفصيل ما جرى بينهم وبين نبيهم من الأقوال والأفعال. وطالوت: اسم أعجمي، وكان سقاء، وقيل: بباغ، وقيل: مكاري، ولم يكن من سبط النبوة، وهم بنو لاوي، ولا من سبط الملك، وهم بنو يهوذا، فلذلك: «قالوا أتى يكون له الملك علينا» أي: كيف ذلك، ولم يكن من بيت الملك، ولا هو ممن أوتي سعة من المال حتى نتبعه لشرفه، أو لماله، وهذه الجملة أعني قوله: «ونحن أحق» حالية وكذلك الجملة المعطوفة عليها. وقوله: «اصطفاه عليكم» أي: اختاره، واختيار الله هو الحجة القاطعة. ثم بين لهم مع ذلك وجه الاصطفاء: بأن الله زاده بسطة في العلم، الذي هو ملاك الإنسان، ورأس الفضائل، وأعظم وجوه الترجيح، وزاده بسطة في الجسم الذي يظهر به الأثر في الحروب، ونحوها، فكان قوياً في بيته، وبينه، وذلك هو المعتمد، لا شرف النسب. فإن فضائل النفس مقدمة عليه «والله يؤتي ملكه من يشاء» فالملك ملكه، والعبيد عبيده، فما لكم والاعتراض على شيء ليس هو لكم، ولا أمره إليكم. وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن قوله: «والله يؤتي ملكه من يشاء» من قول نبينا محمد ﷺ، وقيل: هو من قول نبيهم، وهو الظاهر. وقوله: «واسع» أي: واسع الفضل، يوسع على من يشاء من عباد «عليهم» بمن يستحق الملك، ويصلح له. والتابوت، فعلوت من التوب، وهو الرجوع؛ لأنهم يرجعون إليه أي: علامة ملكه إتيان التابوت الذي أخذ منهم. أي: رجوعه إليكم، وهو صندوق التوراة. والسكينة فعيلة مأخوذة من للسكون، والوقار، والطمأنينة أي: فيه سبب سكون قلوبكم فيما اختلفتم فيه من أمر طالوت. قال ابن عطية: الصحيح أن التابوت كانت فيه أشياء فاضلة من بقايا الأنبياء، وأكثارهم، فكانت النفوس تسكن إلى ذلك، وتأنس به، وتتقوى. وقد اختلف في السكينة على أقوال سيأتي بيان بعضها، وكذلك اختلف في البقية، فقيل: هي عصا موسى، ورضاض الألواح، وقيل: غير ذلك. وقيل: والمراد بآل موسى، وهارون هما أنفسهما. أي: مما ترك هارون، وموسى، ولفظ آل مقحمة، لتفخيم شأنهما، وقيل المراد: الأنبياء من بني يعقوب؛ لأنهما من نرية يعقوب، فسائر قرابته ومن تناسل منه آل لهما. وقيل معناه: خرج بهم، فصلت الشيء، فأنفصل أي: قطعت، فأنقطع، وأصله متعدد، يقال فصل نفسه، ثم استعمل استعمال اللازم كأنفصل، وقيل: إن فصل يستعمل لازماً، ومعنعياً، يقال: فصل عن البلد فصلاً، وفصل نفسه فصلاً. والابتلاء: الاختبار. والنهر: قيل: هو بين الأردن، وفلسطين، وقرأ الجمهور بنهر بفتح الهاء. وقرأ حميد، ومجاهد، والأعرج بسكون الهاء. والمراد بهذا الابتلاء اختبار طاعتهم، فمن أطاع في ذلك الماء أطاع فيما عداه، ومن عصى في هذا، وغلبته نفسه، فهو بالعصيان في سائر الشدائد أخرى، ورخص لهم في الغرفة ليرتفع

السلسلة التي كانوا يتحاكمون إليها. قوله: ﴿وَعَلَّمَهُ مَا يَشَاءُ﴾ قيل: إن المضارع هنا موضوع موضع الماضي، وفاعل هذا الفعل هو الله تعالى، وقيل: داود، وظاهر هذا التركيب أن الله سبحانه علمه مما قضت به مشيئته، وتعلقت به إرادته، وقد قيل: إن من ذلك ما قلّمنا من تعليمه صنعة الدروع، وما بعده. قوله: ﴿وَلَوْلَا دِفَاعُ اللَّهِ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ﴾ قرأه الجماعة: «ولولا دفع الله» وقرأ نافع: «دفاع» وهما مصدران لدفع، كذا قال سيبويه. وقال أبو حاتم: دافع، ودفع واحد مثل: طرقت نعلي، وطارقته. واختار أبو عبيدة قراءة الجمهور، وأنكر قراءة نافع، قال: لأن الله عز وجل لا يغالبه أحد، قال مكي: يوم أبو عبيدة أن هذا من باب المفاعلة، وليس به، وعلى القراءتين، فالمصدر مضاف إلى الفاعل أي: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ﴾ وبعضهم بدل من الناس، وهم الذين يباشرُونَ أسباب الشرِّ، والفساد ببعض آخر منهم، وهم الذين يكفونهم عن ذلك ويرتّبونهم عنه ﴿فَلَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ لتغلب أهل الفساد عليها، وإحداثهم للشرور التي تهلك الحرث، والنسل، وتتكبر فضل للتعظيم. وآيات الله هي: ما اشتملت عليه هذه القصة من الأمور المذكورة. والمراد ﴿بِالْحَقِّ﴾ هنا: الخير الصحيح الذي لا ريب فيه عند أهل الكتاب، والمطلعين على أخبار العالم. وقوله: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ إخبار من الله سبحانه بأنه من جملة رسل الله سبحانه تقوية لقلبه، وتثبيتاً لجنانته، وتشييداً لأمره.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا تَرَى إِلَى الْمَلَائِكَةِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ قال: هذا حين رفعت النبوة، واستخرج أهل الإيمان، وكانت الجبابرة قد أخرجتهم من ديارهم، وأبنائهم ﴿فَلَمَّا كَتَبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالَ﴾ وذلك حين اتّاهم التابوت، قال: وكان من إسرائيل سبطان: سبط نبوة، وسبط خلافة، فلا تكون الخلافة إلا في سبط الخلافة، ولا تكون النبوة إلا في سبط النبوة؛ ﴿فَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلَكًا﴾ قالوا: أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه؟ وليس من أحد السبطين لا من سبط النبوة، ولا من سبط الخلافة ﴿قَالَ إِنْ أَنْصَفْتُكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ فابوا أن يسلموا له الرياسة حتى قال لهم: ﴿إِنْ آيَةٌ مِنْ رَبِّكَ فَاتَّبِعْنِي فَإِنَّهُ يَمْلِكُنَا﴾ وكان موسى حين ألقى الألواح تكسرت، ورفع منها وجمع ما بقي، فجعله في التابوت، وكانت العمالة قد سببت ذلك التابوت، والعمالة فرقة من عاد كانوا باريحاء، فجاءت الملائكة بالتابوت تحمله بين السماء والأرض، وهم ينظرون إليه حتى وضعته عند طلوت، فلما رأوا ذلك قالوا: نعم، فسلموا له، وملكوه، وكانت الأنبياء إذا حضروا قتالاً قَدَّمُوا التابوت بين أيديهم، ويقولون: إن آم نزل بذلك التابوت، وبالركن، وبعضاً موسى من الجنة. وبلغني أن التابوت، وعصا موسى في بحيرة طبرية، وأنهما يخرجان قبل يوم القيامة. وقد ورد هذا المعنى مختصراً، ومطولاً عن

وأقول: هذه التفسيرات المتناقضة لعلها وصلت إلى هؤلاء الأعلام من جهة اليهود أقمامهم الله، فجاءوا بهذه الأمور لقصد التلاعب بالمسلمين رضي الله عنهم، والتشكيك عليهم، وانظر إلى جعلهم لها تارة حيواناً، وتارة جماداً، وتارة شيئاً لا يعقل، كقول مجاهد: كهية الرياح لها وجه كوجه الهر، وجناحان، وننّب مثل نذب الهر. وهكذا كل منقول عن بني إسرائيل يتناقض، ويشتمل على ما لا يعقل في الغالب، ولا يصح أن يكون مثل هذه التفسيرات المتناقضة مروياً عن النبي ﷺ، ولا رأياً رآه قائله، فهم أجلّ قدرأ من التفسير بالرأي، وبما لا مجال للاجتهاد فيه. إذا تقرّر لك هذا عرفت أن الواجب الرجوع في مثل ذلك إلى معنى السكينة لغة، وهو معروف، ولا حاجة إلى ركوب هذه الأمور المتعسفة المتناقضة، فقد جعل الله عنها سعة، ولو ثبت لنا في السكينة تفسير، عن النبي ﷺ لوجب علينا المصير إليه، والقول به، ولكنه لم يثبت من وجه صحيح بل ثبت أنها تنزلت عن

ثلاثين ألفاً. وقد ذكر المفسرون أقاصيص كثيرة من هذا الجنس، والله أعلم. وأخرج ابن أبي حاتم، والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ قال: يدفع الله بمن يصلي عن لا يصلي، وبمن يحج عن لا يحج، وبمن يزكي عن لا يزكي. وأخرج ابن عدي، وابن جرير بسند ضعيف عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لينفع بالمسلم الصالح عن مائة أهل بيت من جيرانه البلاء» ثم قرأ ابن عمر: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ﴾ الآية وفي إسناده يحيى بن سعيد العطار الحمصي، وهو ضعيف جداً.

﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَتُنْهَىٰ عَنْ مَلَكَمِ اللَّهِ وَرَفَعَ بَعْضُهُمْ دَرَجَةً ۚ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَلْنَا الَّذِينَ يَنْتَحِبُونَ مِنْهُمْ مَا جَاءَهُمْ الْقِيَمَتُ وَلَكِنْ أَخْلَفُوا ۚ فَيَوْمَئِذٍ مِمَّنْ آمَنَ وَمِمَّنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَلُوا وَلَكِنْ أَفَعَلَّ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾

قوله: ﴿تلك الرسل﴾ قيل: هو إشارة إلى جميع الرسل، فتكون الآلاف واللام للاستغراق، وقيل: هو إشارة إلى الأنبياء المذكورين في هذه السورة، وقيل: إلى الأنبياء الذين بلغ علمهم إلى النبي ﷺ. والمراد بتفضيل بعضهم على بعض: أن الله سبحانه جعل لبعضهم من مزايا الكمال فوق ما جعله للآخر، فكان الأكثر مزايا فاضلاً، والآخر مقضولاً. وكما دلت هذه الآية على أن بعض الأنبياء أفضل من بعض كذلك دلت الآية الأخرى، وهي قوله تعالى: ﴿ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وأتينا داود زبوراً﴾ [الإسراء: 55]. وقد استشكل جماعة من أهل العلم الجمع بين هذه الآية، وبين ما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة مرفوعاً بلفظ: «لا تفضلوني على الأنبياء» وفي لفظ آخر «لا تفضلوا بين الأنبياء» وفي لفظ «لا تخيروا بين الأنبياء» فقال قوم: إن هذا القول منه ﷺ كان قبل أن يوحى إليه بالتفضيل، وأن القرآن ناسخ للمنع من التفضيل، وقيل: إنه قال ﷺ ذلك على سبيل التواضع كما قال: «لا يقل أحدكم أنا خير من يونس بن متى» تواضعاً مع علمه أنه أفضل الأنبياء كما يدل عليه قوله: «أنا سيد ولد آدم»؛ وقيل: إنما نهى عن ذلك قطعاً للجدال، والخصام في الأنبياء، فيكون مخصوصاً بمثل ذلك لا إذا كان صدور ذلك مأموراً، وقيل: إن النهي إنما هو من جهة النبوة فقط؛ لأنها خصلة واحدة لا تفاضل فيها، ولا نهى عن التفاضل بزيادة الخصوصيات، والكرامات، وقيل: إن المراد النهي عن التفضيل لمجرد الأهواء، والعصبية. وفي جميع هذه الأقوال ضعف. وعندي أنه لا تعارض بين القرآن، والسنة، فإن القرآن دلّ على أن الله فضل بعض أنبيائه على بعض، وذلك لا يستلزم أنه يجوز لنا أن نفضل بعضهم على بعض، فإن المزايا التي هي مناط التفضيل معلومة عند الله لا تخفى عليه منها خافية، وليست بمعلومة عند البشر، فقد يجهل اتباع نبي من الأنبياء بعض مزاياه، وخصوصياته

بعض الصحابة عند تلاوته للقرآن، كما في صحيح مسلم، عن البراء قال: كان رجل يقرأ سورة الكهف، وعنده فرس مربوط، فتغشته سحابة، فجعلت تلور، وتدنو، وجعل فرسه ينفر منها: فلما أصبح أتى النبي ﷺ، فذكر ذلك له، فقال: تلك السكينة نزلت للقرآن. وليس في هذا إلا أن هذه التي سماها رسول الله ﷺ سكينة سحابة دارت على ذلك القارئ، والله أعلم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى﴾ قال: عصاه، ورضاض الألواح. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن أبي صالح قال: كان في التابوت عصى موسى، وعصى هارون، وثياب موسى، وثياب هارون، ولوحان من التوراة، والمِنْ وكلمة الفرج: «لا إله إلا الله العظيم الكريم وسبحان الله رب السموات السبع، ورب العرش العظيم، والحمد لله رب العالمين». وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، عن قتادة في قوله: ﴿نَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ قال: أقبلت به الملائكة تحمله حتى وضعت في بيت طالوت، فأصبح في داره. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس: ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ﴾ قال: علامة. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس: ﴿إِنْ اللَّهَ مَبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ﴾ يقول: بالعطش، فلما انتهى إلى النهر، وهو نهر الأردن كرع فيه عامة الناس، فشرّبوا منه، فلم يزد من شرب منه إلا عطشاً، وأجزأ من اغترف غرفة بيده، وانقطع الظما عنه. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبیر: ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فشرّبوا منه إلا قليلاً منهم. قال: القليل ثلاث مئة وبضعة عشر عدة أهل بدر. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والبخاري، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن البراء قال: كنا أصحاب محمد نتحدث أن أصحاب بدر على عذّة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر، ولم يجاوز معه إلا مؤمن بضعة عشر وثلاث مئة. وقد أخرج ابن جرير عن قتادة قال: نكر لنا أن النبي ﷺ قال لأصحابه يوم بدر: «أنتم بعدّة أصحاب طالوت يوم لقي جالوت». وأخرج ابن عسلكر من طريق جويبر، عن الضحك عن ابن عباس قال: كانوا ثلاث مئة ألف وثلاثة آلاف وثلاث مئة وثلاثة عشر، فشرّبوا منه كلهم إلا ثلاث مئة وثلاثة عشر رجلاً عذّة أصحاب النبي ﷺ يوم بدر، فردّهم طالوت، ومضى ثلاث مئة وثلاثة عشر. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي في قوله: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾ قال: الذين يستيقنون. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: كان طالوت أميراً على الجيش، فبعث أبو داود مع داود بشيء إلى إخوته، فقال داود لطالوت: ماذا لي، وأقبل جالوت فقال: لك ثلث ملكي، وإنكحك ابنتي، فأخذ مخلّة، فجعل فيها ثلاث مرات، ثم سمى إبراهيم، وإسحاق ويعقوب، ثم أدخل يده، فقال: بسم الله إلهي، وإله آبائي إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، فخرج على إبراهيم، فجعله في مرحمته، فرمى بها جالوت، فخرق ثلاثة وثلاثين بيضة عن رأسه، وقتلت ما وراءه

شاء الله عدم اقتتالهم ما اقتتلوا، فمفعول المشيئة محذوف على القاعدة ﴿ولكن اختلفوا﴾ استثناء من الجملة الشرطية أي: ولكن الاقتتال ناشيء عن اختلافهم اختلافاً عظيماً حتى صاروا ملأاً مختلفة ﴿منهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله﴾ عدم قتالهم بعد هذا الاختلاف ﴿ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد﴾ لا راد لحكمه، ولا مبدل لقضائه، فهو يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله تعالى: ﴿فضلنا بعضهم على بعض﴾ قال: اتخذ الله إبراهيم خليلاً، وكلم موسى تكليماً، وجعل عيسى كمثل آدم خلقه من تراب، ثم قال له كن، فيكون، وهو عبد الله، وكلمته وروحه، وأتى داود زبوراً، وأتى سليمان ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، وغفر لمحمد ما تقدم من ذنبه، وما تأخر. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن مجاهد في قوله: ﴿منهم من كلم الله﴾ قال: كلم الله موسى، وأرسل محمداً ﷺ إلى الناس كافة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عامر الشعبي في قوله: ﴿ورفع بعضهم درجات﴾ قال: محمداً ﷺ. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن قتادة ﴿ولو شاء الله ما أقتل الذين من بعدهم﴾ يقول: من بعد موسى، وعيسى. وأخرج ابن عساکر، عن ابن عباس قال: كنت عند النبي ﷺ وعنده أبو بكر، وعمر، وعثمان، ومعاوية إذ أقبل علي، فقال النبي ﷺ لمعاوية: «أحب علياً؟ قال: نعم قال: إنها ستكون بينكم فتنة هنية، قال معاوية: فما بعد ذلك يا رسول الله؟ قال: عفو الله ورضوانه، قال: رضينا بقضاء الله، فعند ذلك نزلت هذه الآية: ﴿ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد﴾ قال السيوطي: وسنده واه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةَ وَلَا شَفْعَةً وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٦٥﴾

ظاهر الأمر في قوله: ﴿انفقوا﴾ الوجوب، وقد حملة جماعة على صدقة الفرض لذلك، ولما في آخر الآية من الوعيد الشديد، وقيل: إن هذه الآية تجمع زكاة الفرض، والتطوع. قال ابن عطية: وهذا صحيح، ولكن ما تقدم من الآيات في نكر القتال، وإن الله ينفق بالمؤمنين في صدور الكافرين يترجح منه أن هذا التنبؤ إنما هو في سبيل الله. قال القرطبي: وعلى هذا التأويل يكون إنفاق المال مرة واجباً، ومرة ندباً بحسب تعيين الجهاد، وعدم تعيينه. قوله: ﴿من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه﴾ أي: انفقوا ما دمتم قادرين ﴿من قبل أن يأتي﴾ ما لا يمكنكم الإنفاق فيه، وهو: ﴿يوم لا بيع فيه﴾ أي: لا يتبايع الناس فيه. والخلة: خالص المؤدة مأخوذة من تخلل الأسرار بين الصديقين. أخبر سبحانه أنه لا خلة في يوم القيامة نافعة، ولا شفاعة مؤثرة إلا لمن أذن الله له. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، بنصب لا بيع ولا خلة، ولا شفاعة، من غير تنوين. وقرأ الباقر بن رفعها منونة، وهما لغتان مشهورتان للعرب، ووجهان معروفان عند النحاة، فمن الأوّل قول حسان:

فضلاً عن مزاياء غيره، والتفضيل لا يجوز إلا بعد العلم بجميع الأسباب التي يكون بها هذا فاضلاً، وهذا مفضولاً، لا قبل العلم ببعضها، أو بأكثرها، أو بإقلها، فإن ذلك تفضيل بالجهل، وإقدام على أمر لا يعلمه الفاعل له، وهو ممنوع منه، فلو فرضنا أنه لم يرد إلا القرآن في الإخبار لنا بأن الله فضل بعض أنبيائه على بعض لم يكن فيه دليل على أنه يجوز للبشر أن يفضلوا بين الأنبياء، فكيف وقد وربت السنة الصحيحة بالنهي عن ذلك؟ وإذا عرفت هذا علمت أنه لا تعارض بين القرآن، والسنة بوجه من الوجوه، فالقرآن فيه الإخبار من الله بأنه فضل بعض أنبيائه على بعض، والسنة فيها النهي لعباده أن يفضلوا بين أنبيائه، فمن تعرض للجمع بينهما زاعماً أنهما متعارضان، فقد غلط غلطاً بيناً. قوله: ﴿منهم من كلم الله﴾ وهو موسى، ونبينا سلام الله عليهما. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال في آدم: «إنه نبيّ مكرم». وقد ثبت ما يفيد ذلك في صحيح ابن حبان من حديث أبي ذر. قوله: ﴿ورفع بعضهم درجات﴾ هذا البعض يحتمل أن يراد به من عظمت منزلته عند الله سبحانه من الأنبياء، ويحتمل أن يراد به نبينا ﷺ لكثرة مزاياء المقتضية لتفضيله، ويحتمل أن يراد به إدريس؛ لأن الله سبحانه أخبرنا بأنه رفعه مكاناً علياً، وقيل: إنهم أولوا العزم، وقيل: إبراهيم، ولا يخفى أن الله سبحانه أبهم هذا البعض المرفوع، فلا يجوز لنا التعرض للبيان له إلا ببرهان من الله سبحانه، أو من أنبيائه عليهم الصلاة والسلام، ولم يرد ما يرشد إلى ذلك، فالتعرض لبيان هو من تفسير القرآن الكريم بمحض الرأي، وقد عرفت ما فيه من الوعيد الشديد مع كون ذلك نزيعة إلى التفضيل بين الأنبياء، وقد نهينا عنه، وقد جزم كثير من أئمة التفسير أنه نبينا ﷺ، وإطالوا في ذلك، واستدلوا بما خصه الله به من المعجزات، ومزاياء الكمال، وخصال الفضل، وهم بهذا الجزم بليل لا يدل على المطلوب قد وقعوا في خطرين، وارتكبوا نهيين، وهما: تفسير القرآن بالرأي، والبدول في نرائع التفضيل بين الأنبياء، وإن لم يكن ذلك تفضيلاً صريحاً، فهو نزيعة إليه بلا شك، ولا شبهة؛ لأن من جزم بأن هذا البعض المرفوع درجات هو النبي الفلاني، انتقل من ذلك إلى التفضيل المنهني عنه، وقد أغنى الله نبينا المصطفى ﷺ عن ذلك بما لا يحتاج معه إلى غيره من الفضائل، والفواضل، فلما كان لا يتقرب إليه ﷺ بالدخول في أبواب نهاك عن دخولها، فتعصيه، وتسيء، وأنت تظن أنك مطيع محسن. قوله: ﴿وأتينا عيسى ابن مريم البينات﴾ أي: الآيات الباهرة، والمعجزات الظاهرة من إحياء الأموات، وإبراء المرضى، وغير ذلك. قوله: ﴿وإلهنا بروح القدس﴾ هو: جبريل، وقد تقدم الكلام على هذا. قوله: ﴿ولو شاء الله ما أقتل الذين من بعدهم﴾ أي: من بعد الرسل، وقيل: من بعد موسى، وعيسى، ومحمد، لأن الثاني منكر صريحاً، والأول، والثالث وقعت الإشارة إليهما بقوله: ﴿منهم من كلم الله﴾ أي: لو

الأطعمان الأفرسان عادية ألا يحشؤكم حول التناخير ومن الثاني قول الراعي:

وما صرمتك حتى قلت معلنة لاناقة لي في هذا ولا جمل ويجوز في غير القرآن التغاير برفع البعض، ونصب البعض، كما هو مقرر في علم الإعراب. قوله: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُم الظَّالِمُونَ﴾ فيه دليل على أن كل كافر ظالم لنفسه، ومن جملة من ينخل تحت هذا العموم مانع الزكاة منعاً يوجب كفره لوقوع ذلك في سياق الأمر بالإنفاق.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن جريج في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا انْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ قال: من الزكاة، والتطوع. وأخرج ابن المنذر، عن سفيان قال: يقال نسخت الزكاة كل صدقة في القرآن، ونسخ شهر رمضان كل صوم. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال: قد علم الله أن ناساً يتخاللون في الدنيا، ويشفع بعضهم لبعض، فاما يوم القيامة، فلا خلّة إلا خلّة المتقين. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن عطاء قال: الحمد لله الذي قال: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُم الظَّالِمُونَ﴾ ولم يقل: والظالمون هم الكافرون.

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾

قوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود بحق إلا هو، وهذه الجملة خبر المبتدأ. والحي: الباقي، وقيل: الذي لا يزول، ولا يحول، وقيل: المصروف للأموار، والمقتر للأشياء. قال الطبري عن قوم إنه يقال: حي كما وصف نفسه، ويسلم ذلك دون أن ينظر فيه، وهو خبر ثان، أو مبتدأ خبره محذوف. والقيوم: القائم على كل نفس بما كسبت، وقيل: القائم بذاته المقيم لغيره، وقيل: القائم بتدبير الخلق، وحفظه، وقيل: هو الذي لا ينام، وقيل: الذي لا يبدل له. وأصل قيوم: قيوم اجتمعت الياء والواو، وسبقت إحداهما بالسكون، فادغمت الأولى في الثانية بعد قلب الواو ياء. وقرأ ابن مسعود، وعلقمة، والنخعي، والأعمش: «الحي القيام» بالالف، وروي ذلك عن عمر، ولا خلاف بين أهل اللغة أن القيوم أعرف عند العرب، وأصح بناء، وأثبت علة. والسنة: النعاس في قول الجمهور، والنعاس: ما يتقدم النوم من الفتور، وانطباع العينين، فإذا صار في القلب صار نوماً. وفرق المفصل بين السنة، والنعاس، والنوم فقال: السنة من الرأس، والنعاس في العين، والنوم في القلب. انتهى. والذي ينبغي التعويل عليه في الفرق بين السنة والنوم، أن السنة لا يفقد معها العقل، بخلاف النوم، فإنه استرخاء أعضاء الدماغ من رطوبات الأبخرة حتى يفقد معه العقل، بل وجميع الإدراكات بسائر المشاعر، والمراد: أنه لا يعتريه سبلحانه شيء منهما، وقدم السنة على النوم، لكونها تتقدمه في الوجود. قال الرازي في

تفسيره: إن السنة ما تتقدم النوم، فإذا كانت عبارة عن مقدمة النوم، فإذا قيل: لا تأخذ سنة دل على أنه لا يأخذ نوم بطريق الأولى، فكان ذكر النوم تكراراً، قلنا: تقدير الآية لا تأخذ سنة فضلاً عن أن يأخذ نوم، والله أعلم بمراده. انتهى. وأقول: إن هذه الأولوية التي نكرها غير مسلمة، فإن النوم قد يرد ابتداء من دون ما نكر من النعاس. وإذا ورد على القلب، والعين دفعة واحدة، فإنه يقال له نوم، ولا يقال له سنة، فلا يستلزم نفي السنة نفي النوم. وقد ورد عن العرب نفياً كلياً، ومنه قول زهير:

ولا سنة طوال الدهر تأخذ ولا ينام وما في امره فند فلم يكتف بنفي السنة، وإيضاً، فإن الإنسان يقدر على أن يدفع عن نفسه السنة، ولا يقدر على أن يدفع عن نفسه النوم، فقد يأخذ النوم، ولا تأخذ السنة، فلو وقع الاختصار في النظم القرآني على نفي السنة لم يفد ذلك نفي النوم، وهكذا لو وقع الاختصار على نفي النوم لم يفد نفي السنة، فكم من ذي سنة غير نائم، وكرر حرف النفي للتنصيص على شمول النفي لكل واحد منهما. قوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ في هذا الاستفهام من الإنكار على من يزعم أن أحداً من عباده يقدر على أن ينفع أحداً منهم بشفاعته، أو غيرها، والتفريع، والتوبيخ له ما لا مزيد عليه، وفيه من الدفع في صدور عباد القبور، والصد في وجوههم، والفت في أعضادهم ما لا يقدر قدره، ولا يبلغ مداه، والذي يستفاد منه فوق ما يستفاد من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: 28] وقوله تعالى: ﴿وَكُمْ مِنْ مَلَائِكَةٍ لَا تُدْرِكُهُمْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ يَبْتَهِمُ السَّاعَةَ يَوْمَ يَكْفُتُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالْفِئَةِ﴾ [الأنبياء: 26] وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأنبياء: 38] بدرجات كثيرة. وقد بينت الأحاديث الصحيحة الثابتة في دواوين الإسلام صفة الشفاعات، ولمن هي، ومن يقوم بها. قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ الضميران لما في السموات، والأرض بتغليب العقلاء على غيرهم، وما بين أيديهم، وما خلفهم عبارة، عن المتقدم عليهم، والمتأخر عنهم، أو عن الدنيا، والآخرة، وما فيهما. قوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ﴾ قد تقدم معنى الإحاطة، والعلم هنا بمعنى: المعلوم أي: لا يحيطون بشيء من معلوماته. قوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾ الكرسي الظاهر أنه الجسم الذي ورت الأثار بصفته كما سيأتي بيان ذلك. وقد نفي وجوده جماعة من المعتزلة، وأخطأوا في ذلك خطأ بيناً، وغلطوا غلطاً فاحشاً. وقال بعض السلف: إن الكرسي هنا عبارة عن العلم. قالوا: ومنه قيل للعلماء: الكرسي، ومنه الكراسة التي يجمع فيها العلم، ومنه قول الشاعر:

تحف بيبه بيض الوجوه وعصبة كراسي بالأخبار حين تنوب ورجح هذا القول ابن جرير الطبري، وقيل كرسية: قدرته التي يمسك بها السموات والأرض، كما يقال: اجعل لهذا الحائط كرسياً: أي ما يعمده، وقيل: إن الكرسي هو العرش،

قوله: ﴿وَلَا يُؤُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾. وأخرج الدارقطني في الصفات، والخطيب في تاريخه عنه قال: «سئل رسول الله ﷺ عن قول الله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾ قال: كرسية موضع قدمه، والعرش لا يقدر قدره إلا الله عز وجل». وأخرجه الحاكم وصححه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، والبيهقي عن أبي موسى الأشعري مثله موقوفاً. وأخرج ابن جرير وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: لو أن السموات السبع، والأرضين السبع بسطن، ثم وصلن بعضهن إلى بعض ما كنَّ في سعتي: يعني الكرسي إلا بمنزلة الحلقة في المفازة. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ في العظمة، وابن مردويه، والبيهقي عن أبي ذر الغفاري: أنه سأل رسول الله ﷺ، عن الكرسي، فقال رسول الله ﷺ: «الذي نفسي بيده ما السموات السبع عند الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة». وأخرج عبد بن حميد، والبزار، وأبو يعلى، وابن جرير، وأبو الشيخ، والطبراني، والضياء المقدسي في المختارة عن عمر قال: «أتت امرأة إلى النبي ﷺ، وقالت: ادع الله أن يخلني الجنة، فعظم الرب سبحانه وقال: إن كرسية وسع السموات والأرض، وإن له أطيافاً كأطياف الرجل الجديد من ثقله، وفي إسناده عبد الله بن خليفة، وليس بالمشهور. وفي سماعه من عمر بن الخطاب، ومنهم من يرويه، عن عمر موقوفاً. وأخرج ابن مردويه، عن أبي هريرة مرفوعاً: أنه موضع القدمين. وفي إسناده الحكم بن ظهير الفزاري الكوفي وهو متروك. وقد ورد عن جماعة من السلف من الصحابة، وتغيرهم، في وصف الكرسي آثار لا حاجة في بسطها. وقد روى أبو داود في كتاب السنة من سننه من حديث جبير بن مطعم حديثاً في صفته، وكذلك أورد ابن مردويه عن بريدة، وجابر، وغيرهما. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا يُؤُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ قال: لا يثقل عليه. وأخرج ابن أبي حاتم عنه: ﴿وَلَا يُؤُودُهُ﴾ قال: ولا يكثره. وأخرج ابن جرير عنه قال: العظيم الذي قد كمل في عظمته.

واعلم أنه قد ورد في فضل هذه الآية أحاديث. فأخرج أحمد، ومسلم، واللفظ له عن أبي بن كعب: «أن النبي ﷺ سأل أي آية من كتاب الله أعظم؟ قال: آية الكرسي، قال: ليهنك العلم أبا المنذر». وأخرج النسائي، وأبو يعلى، وابن حبان، وأبو الشيخ في العظمة، والطبراني، والحاكم وصححه، عن أبي بن كعب: أنه كان له جرن فيه تمر، فكان يتعاهده، فوجده ينقص، فحرصه ذات ليلة، فإذا هو بدابة شبه الغلام المحتلم، قال: فسلمت فرد السلام، فقلت: ما أنت، جنني أم إنسي؟ قال: جنني، قلت: ناولني يدك، فناولني، فإذا يده يد كلب، وشعره شعر كلب، فقلت: هكذا خلق الجن؟ قال: لقد علمت الجن أن ما فيهم من هو أشد مني، قلت: ما حملك على ما صنعت؟ قال: بلغني أنك رجل تحب الصنعة، فأجبنا أن نصيب من طعامك، فقال له أبي: فما الذي يجبرنا منكم؟

وقيل: هو تصوير لعظمته، ولا حقيقة له، وقيل: هو عبارة عن الملك. والحق القول الأول، ولا وجه للبدول عن المعنى الحقيقي إلا مجرد خيالات تسببت، عن جهالات وضلالات، والمراد بكونه وسع السموات والأرض: أنها صارت فيه، وأنه وسعها، ولم يضق عنها لكونه بسيطاً واسعاً. وقوله: ﴿وَلَا يُؤُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ معناه لا يثقله ثقله أدنى شيء، بمعنى أثقلني، وتحملت منه مشقة. وقال الزجاج: يجوز أن يكون الضمير في قوله: ﴿يُؤُودُهُ﴾ الله سبحانه، ويجوز أن يكون للكرسي؛ لأنه من أمر الله ﴿وَالْعَلِيِّ﴾ يراد به علو القدرة، والمنزلة. وحكى الطبري عن قوم أنهم قالوا: هو العلي عن خلقه بارتفاع مكانه، عن أماكن خلقه. قال ابن عطية: وهذه أقوال جهلة مجسمين، وكان الواجب أن لا تحكى. انتهى. والخلاف في إثبات الجهة معروف في السلف، والخلف، والنزاع فيه كائن بينهم، والأدلة من الكتاب، والسنة معروفة، ولكن النشئ على مذهب يرى غيره خارجاً عن الشرع، ولا ينظر في أثلته، ولا يلتفت إليها، والكتاب، والسنة هما المعيار الذي يعرف به الحق من الباطل، ويتبين به الصحيح من الفاسد ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [المؤمنون: 71] ولا شك أن هذا اللفظ يطلق على الظاهر الغالب كما في قوله: ﴿إِنْ فَرَعُونَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصاص: 4] وقال الشاعر:

فلما علونا واستويننا عليهم تركناهم صرعى لنسر وكاسر

والعظيم بمعنى عظم شأنه، وخطره. قال في الكشف: إن الجملة الأولى بيان لقيامه بتبدير الخلق، وكونه مهيمناً عليه غير ساه عنه. والثانية بيان لكونه مالكا لما يديره. والجملة الثالثة بيان لكبرياء شأنه. والجملة الرابعة بيان لإحاطته بأحوال الخلق، وعلمه بالمرتضى منهم المستوجب للشفاعة، وغير المرتضى. والجملة الخامسة بيان لسعة علمه وتعلقه بالمعلومات كلها، أو لجلاله، وعظم قدره.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم في قوله: ﴿الْحَيِّ﴾ أي: حي لا يموت ﴿وَالْقَيُّومِ﴾ القائم الذي لا بديل له. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي عن مجاهد في قوله: ﴿الْقَيُّومِ﴾ قال: القائم على كل شيء. وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال: القيوم الذي لا زوال له. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن ابن عباس في قوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ قال: السنة: النعاس، والنوم هو: النوم. وأخرجوا إلا البيهقي عن السدي قال: السنة ريح النوم الذي تأخذه في الوجه، فينعس الإنسان. وأخرج ابن جرير، عن مجاهد في قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ قال: ما مضى من الدنيا: ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ من الآخرة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس: ﴿وَمَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ ما قنموا من أعمالهم ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ما أضاعوا من أعمالهم. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾ قال: علمه، ألا ترى إلى

كَرَرُوا أَوَّلًا وَأَوَّلُهُمْ أَلَدُوتُ يُخْرِجُهُمْ مِنَ التَّوَرِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أَوَّلَتِكَ
أَسَحَبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا عَالِدُونَ ﴿١٦٥﴾

قد اختلف أهل العلم في قوله: ﴿لا إكراه في الدين﴾ على أقوال: الأول أنها منسوخة؛ لأن رسول الله ﷺ قد أكره العرب على دين الإسلام، وقتلهم، ولم يرض منهم إلا بالإسلام، والنسخ لها قوله تعالى: ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين﴾ [التوبة: 73] وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجندوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين﴾ [التوبة: 123] وقال: ﴿سنستعين إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون﴾ [الفتح: 16]، وقد ذهب إلى هذا كثير من المفسرين. القول الثاني: أنها ليست بمنسوخة، وإنما نزلت في أهل الكتاب خاصة، وأنهم لا يكرهون على الإسلام إذا أتوا الجزية، بل الذين يكرهون هم أهل الأوثان، فلا يقبل منهم إلا الإسلام، أو السيف، وإلى هذا ذهب الشعبي، والحسن، وقتادة، والضحاك. القول الثالث: أن هذه الآية في الانصار خاصة، وسيأتي بيان ما ورد في ذلك. القول الرابع: أن معناها لا تقولوا لمن أسلم تحت السيف إنه مكروه، فلا إكراه في الدين - القول الخامس: أنها وردت في السبي متى كانوا من أهل الكتاب لم يجبروا على الإسلام. وقال ابن كثير في تفسيره أي: لا تكرهوا أحداً على الدخول في دين الإسلام، فإنه بين واضح جلي دلائله، وبراهينه لا تحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام، وشرح صدره، ونور بصيرته نخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه، وختم على سمعه، وبصره، فإنه لا يفيد الدخول في الدين مكروهاً مقسوراً، وهذا يصلح أن يكون قولاً ساساً. وقال في الكشف في تفسيره هذه الآية أي: لم يجر الله أمر الإيمان على الإيجاب، والقسر، ولكن على التمكن، والاختيار، ونحوه قوله: ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾ [يونس: 99] أي: لو شاء لقسرهم على الإيمان، ولكن لم يفعل، وبني الأمر على الاختيار، وهذا يصلح أن يكون قولاً سابعاً. والذي ينبغي اعتماده، ويتمين الوقوف عنده: أنها في السبب الذي نزلت لأجله محكمة غير منسوخة، وهو أن المرأة من الانصار تكون مقلاة لا يكاد يعيش لها ولد، فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده، فلما أجليت يهود بني نضير كان فيهم من أبناء الانصار، فقالوا: لا ندع أبناءنا، فنزلت، أخرجه أبو داود، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبان، وابن مروي، والبيهقي في السنن، والضياء في المختارة عن ابن عباس. وقد وردت هذه القصة من وجوه، حاصلها ما ذكره ابن عباس مع زيادات تتضمن أن الانصار قالوا: إنما جعلناهم على دينهم أي: دين اليهود، ونحن نرى أن دينهم أفضل من ديننا، وإن الله جاء بالإسلام، فلنكرههم، فلما نزلت خير الأبناء رسول الله ﷺ، ولم يكرههم على الإسلام. وهذا يقتضي أن أهل الكتاب لا يكرهون على

قال: هذه الآية، آية الكرسي التي في سورة البقرة «من قالها حين يمسي أجير منا حتى يصبح، ومن قالها حين يصبح أجير منا حتى يمسي، فلما أصبح أتى رسول الله ﷺ، فأخبره، فقال: صدق الخبيث». وأخرج البخاري في تاريخه، والطبراني، وأبو نعيم في المعرفة بسند رجاله ثقات عن ابن الاسقع البكري: «أن النبي ﷺ جاءهم في صفة المهاجرين، فسأله إنسان أي آية في القرآن أعظم؟ فقال النبي ﷺ: ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تلخذه سنة ولا نوم﴾ حتى انقضت الآية». وأخرج أحمد من حديث أبي نر مرفوعاً نحوه. وأخرج الخطيب البغدادي في تاريخه، عن أنس مرفوعاً نحوه أيضاً. وأخرج الدارمي، عن أنفع بن عبد الله الكلاعي نحوه. وأخرج البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة قال: «وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آت، فجعل يحثو، وذكر قصة، وفي آخرها أنه قال له: دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها، قلت: ما هي؟ قال: إذا أويت إلى فراشك، فاقرا آية الكرسي، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فأخبر أبو هريرة بذلك رسول الله ﷺ، فقال: أما إنه صدقك، وهو كنوب، تعلم من تخاطب يا أبا هريرة؟ قال: لا، قال: ذلك شيطان كذاب. وأخرج نحو ذلك أحمد عن أبي أيوب. وأخرج الطبراني، والحاكم، وأبو نعيم، والبيهقي عن معاذ بن جبل مرفوعاً نحوه. وأخرج ابن مروي، عن ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: «أعظم آية في كتاب الله ﷻ ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾. وأخرج نحوه أحمد، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب عن أبي نر مرفوعاً. وأخرج نحوه أيضاً أحمد، والطبراني من حديث أبي أمامة مرفوعاً. وأخرج سعيد بن منصور، والحاكم، والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «سورة البقرة فيها آية سيدة أي القرآن لا تقرا في بيت فيه شيطان إلا خرج منه، آية الكرسي». قال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. وأخرج الحاكم من حديث زائدة مرفوعاً «لكل شيء سنم، وسنام القرآن سورة البقرة، وفيها آية هي سيدة أي القرآن، آية الكرسي»، وقال: غريب لا نعرفه إلا من حديث حكيم بن جبیر. وقد تكلم فيه شعبة، وضعفه، وكذا وضعفه أحمد، ويحيى بن معين، وغير واحد، وتركه ابن مهدي، وكذبه السعدي. وأخرج أبو داود، والترمذي وصححه من حديث أسماء بنت يزيد بن السكن قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول في هاتين الآيتين ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ «والله لا إله إلا هو» إن فيهما اسم الله الأعظم. وقد وردت أحاديث في فضلها غير هذه، وورد أيضاً في فضل قراءتها دبر الصلوات، وفي غير ذلك، وورد أيضاً في فضلها مع مشاركة غيرها لها لحديث، وورد عن السلف في ذلك شيء كثير.

لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ مَدَّ يَدَيْكَ إِلَى الْهَدْيِ مَن يَكْثُرِ بِالْظُلُومِ
وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْقِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ
﴿١٦٥﴾ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ

فطرة الله التي فطر الناس عليها إلى ظلمات الكفر التي وقعوا فيها بسبب ذلك الإخراج.

وقد أخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي، عن سعيد بن جبير نحو ما تقدم، عن ابن عباس من نكر سبب نزول قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ وذاك أن النبي ﷺ خير الأبناء. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن الشعبي نحوه أيضاً، وقال: فلحق بهم أي: ببني النضير من لم يسلم، وبني من أسلم. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد قال: كان ناس من الأنصار مسترضعين في بني قريظة، فثبتوا على دينهم، فلما جاء الإسلام أراد أهلوه أن يكرهوهم على الإسلام، فنزلت. وأخرج ابن جرير عن الحسن نحوه. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، عن ابن عباس في قوله: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ قال: نزلت في رجل من الأنصار من بني سالم بن عوف يقال له الحصين، كان له ابنان نصرانيان، وكان هو رجلاً مسلماً، فقال للنبي ﷺ: ألا أستكرههما، فإيهما قد أبيا إلا النصرانية؟ فنزلت. وأخرج عبد بن حميد، عن عبد الله بن عبيدة نحوه. وكذلك أخرج أبو داود في ناسخه، وابن جرير، وابن المنذر، عن السدي نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وأبو داود في ناسخه، وابن جرير، عن قتادة قال: كانت العرب ليس لها دين، فأكروها على الدين بالسيف. قال: ولا تكروها اليهود، ولا النصارى، والمجوس إذا أعطوا الجزية. وأخرج سعيد بن منصور عن الحسن نحوه. وأخرج البخاري عن أسلم: سمعت عمر بن الخطاب يقول لعجوز نصرانية: أسلمي تسلمي، فأبت، فقال: اللهم اشهد، ثم تلا: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ وروى عنه سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم أنه قال لزنبق الرومي غلامه: لو أسلمت استعنت بك على أمانة المسلمين فأبى، فقال: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن سليمان بن موسى في قوله: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ قال: نسختها ﴿جاهد الكفار والمنافقين﴾ [التوبة: 73]. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن عمر بن الخطاب قال: الطاغوت الشيطان. وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: الطاغوت الكاهن، وأخرج ابن جرير عن أبي العالقة قال: الطاغوت الساحر. وأخرج ابن أبي حاتم عن مالك بن أنس قال: الطاغوت ما يعبد من دون الله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: العروة الوثقى لا إله إلا الله. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن أبي حاتم عن أنس بن مالك: أنها القرآن. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد: أنها الإيمان. وعن سفيان: أنها كلمة الإخلاص. وقد ثبت في الصحيحين تفسير العروة الوثقى في غير هذه الآية بالإسلام مرفوعاً في تعبيره ﷺ لرؤيا عبد الله بن سلام. وأخرج ابن عساکر عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ:

الإسلام إذا اختاروا البقاء على دينهم، وآثروا الجزية. وأما أهل الحرب، فالآية وإن كانت تعميم؛ لأن النكرة في سياق النفي، وتعريف الدين يفيدان ذلك، والاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، لكن قد خص هذا العموم بما ورد من آيات في إكراه أهل الحرب من الكفار على الإسلام. قوله: ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ الرشد هنا الإيمان، والغى الكفر أي: قد تميز أحدهما من الآخر. وهذا استئناف يتضمن التعليل لما قبله. والطاغوت فعلوت من طغى يطغي، ويطغى: إذا جاوز الحد. قال سيبويه: هو اسم منكر مفرد أي: اسم جنس يشمل القليل، والكثير، وقال أبو علي الفارسي: إنه مصدر كرهبوت، وجبروت يوصف به الواحد، والجمع، وقلبت لاه إلى موضع العين، وعينه إلى موضع اللام كجذب، وجذب، ثم تقلب الواو ألفاً لتحركها، وتحرك ما قبلها، ف قيل: طاغوت، واختار هذا القول النحاس، وقيل: أصل الطاغوت في اللغة مأخوذ من الطغيان يؤدي معناه من غير اشتقاق، كما قيل: لأكى من اللؤلؤ. وقال المبرد: هو جمع. قال ابن عطية: وذلك مربوط. قال الجوهري: والطاغوت: الكاهن، والشيطان، وكل رأس في الضلال، وقد يكون واحداً. قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْحَكُمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾ [النساء: 60] وقد يكون جمعاً. قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الطَّاغُوتُ﴾ والجمع الطواغيت أي: فمن يكفر بالشيطان، أو الأصنام، أو أهل الكهانة، وروؤس الضلالة، أو بالجميع ﴿وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ عز وجل بعد ما تميز له الرشد من الغي، فقد فاز، وتمسك بالحبيل الوثيق أي: المحكم. والوثقى فعلى من الوثاقة، وجمعها وثق مثل الفضلى، والفضل. وقد اختلف المفسرون في تفسير العروة الوثقى بعد اتفاقهم على أن ذلك من باب التشبيه، والتمثيل لما هو معلوم بالليل بما هو مدرك بالخاصة، ف قيل: المراد بالعروة الإيمان، وقيل: الإسلام، وقيل: لا إله إلا الله، ولا مانع من الحمل على الجميع. والانفصام: الانكسار من غير بينونة. قال الجوهري: فصم الشيء كسره من غير أن يبين. وأما القسم بالقاف، فهو الكسر مع البينونة، وفسر صاحب الكشاف الانفصام بالانقطاع. قوله: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الولي فعيل بمعنى فاعل، وهو الناصر. وقوله: ﴿يُخْرِجُهُمُ﴾ تفسير للولاية، أو حال من الضمير في ولي، وهذا يدل على أن المراد بقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الذين آمنوا الإيمان؛ لأن من قد وقع منه الإيمان قد خرج من الظلمات إلى النور إلا أن يراد بالإخراج إخراجهم من الشبه التي تعرض للمؤمنين، فلا يحتاج إلى تقدير الإرادة، والمراد بالنور في قوله: ﴿يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ ما جاء به أنبياء الله من الدعوة إلى الدين، فإن ذلك نور للكفار أخرجهم أولياؤهم عنه إلى ظلمة الكفر أي: قرره أولياؤهم على ما هم عليه من الكفر بسبب صرهم عن إجابة الداعي إلى الله من الأنبياء. وقيل: المراد بالذين كفروا هنا: الذين ثبت في علمه تعالى كفرهم يخرجهم أولياؤهم من الشياطين، وروؤس الضلال من النور الذي هو

للمغرب؛ لكون هذه الحجة لا تجري فيها المغالطة، ولا يتيسر للكافر أن يخرج عنها بمخرج مكابرة، ومشاغبة. قوله: ﴿فَبِهَتِ الَّذِي كَفَرَ﴾ بهت الرجل، وبهت، وبهت: إذا انقطع، وسكت متحيراً. قال ابن جرير: وحكى عن بعض العرب في هذا المعنى بهت بفتح الباء، والهاء. قال ابن جني: قرأ أبو حيوة، فبهت بفتح الباء، وضم الهاء، وهي لغة في بهت بكسر الهاء؛ قال: وقرأ ابن السميع، فبهت بفتح الباء، والهاء على معنى، فبهت إبراهيم الذي كفر، فالذي في موضع نصب، قال: وقد يجوز أن يكون بهت بفتحهما لغة في بهت. وحكى أبو الحسن الأخفش قراءة: «فبهت» بكسر الهاء، قال: والأكثر بالفتح في الهاء. قال ابن عطية: وقد تأول قوم في قراءة من قرأ، فبهت بفتحهما أنه بمعنى سب، وقذف، وأن النمرود، هو الذي سب حين انقطع، ولم يكن له حيلة. انتهى. وقال سبحانه: ﴿فَبِهَتِ الَّذِي كَفَرَ﴾ ولم يقل، فبهت الذي حاج، إشعاراً بأن تلك المحاجة كفر. وقوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ تنبيل مقرر لمضمون الجملة التي قبله.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن علي بن أبي طالب أن الذي
حاج إبراهيم في ربه هو: نمرود بن كنعان. وأخرجه ابن
جرير، عن مجاهد، وقتادة، والربيع، والسدي. وأخرج
عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو
الشيخ في العظمة عن زيد بن أسلم: أن أول جبار كان في
الأرض نمرود، وكان الناس يخرجون يمتارون من عنده
الطعام، فخرج إبراهيم عليه السلام يمتار مع من يمتار، فإذا
مرَّ به ناس قال: من ربكم؟ قالوا: أنت، حتى مرَّ به إبراهيم،
فقال: من ربك؟ قال: الذي يحيي ويميت، قال: أن أحيي
واميت، قال: فإن الله يأتي بالشمس من المشرق، فلت بها من
المغرب، فبهِت الذي كفر، فَرَّه بغير طعام. فرجع إبراهيم
إلى أهله، فمرَّ على كُثَيْب من رمل أصفر فقال: ألا أخذ من
هذا فأتني به أهلي، فتطيب أنفسهم حين أدخل عليهم، فأخذ
منه فأتى أهله، فوضع متاعه، ثم نام، فقامت امرأته إلى
متاعه، ففتحتَه فإذا هي بأجود طعام رآه أخذ، فصنعت له
منه، فقربته إليه، وكان عهده بأهله أنه ليس عندهم طعام،
فقال: من أين هذا؟ قالت: من الطعام الذي جئت به، فعرف أن
الله رزقه، فحمد الله. ثم بعث الله إلى الجبار ملكاً أن آمن
وتركك على ملكك. قال: فهل ربٌ غيري؟ فجاءه الثانية، فقال
له ذلك قأبى عليه، ثم أتاه الثالثة فأبى عليه، فقال له الملك:
فاجمع جموعك إلى ثلاثة أيام، فجمع الجبار جموعه، فأمر
الله الملك، ففتح عليه باباً من البعوض، وطلعت الشمس، فلم
يروها من كثرتها، فبِعَثَّها الله عليهم، فاكلت شحومهم،
وشربت دماءهم، فلم يبق إلا العظام، والملك كما هو لا
يُصِيبُه من ذلك شيء، فبِعَثَّ الله عليه بعوضة، فدخلت في
منخره، فمكث أربعمئة سنة يضرب رأسه بالمطارق، وأرحم
الناس به من جمع يديه، ثم ضرب بهما رأسه، وكان جباراً
أربعمئة سنة، فعذبه الله أربعمئة سنة كملكه، ثم أماته الله،
وهو الذي كان بنى صرحاً إلى السماء، فأتى الله بنيانه من

«اقتنوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر، فإنهما حبل الله الممدود، فمن تمسك بهما، فقد تمسك بعروة الله الوثقى التي لا انفصام لها». وأخرج ابن المنذر، عن ابن عباس قال: إذا وحد الله وأمن بالقدر فهي العروة الوثقى. وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن معاذ أنه سئل عن قوله: ﴿لا انفصام لها﴾ قال: لا انقطاع لها لكون دخول الجنة. وأخرج ابن المنذر، والطبراني عن ابن عباس في قوله ﴿الله ولي الذين آمنوا﴾ الآية، قال: هم قوم كانوا كفروا بعبسى فآمنوا بمحمد ﷺ ﴿الذين كفروا أولياؤهم للطاغوت﴾ الآية، قال: هم قوم آمنوا بعبسى، فلما بعث محمد كفروا به. وأخرج ابن جرير عن الضحاک قال: الظلمات الكفر. والنور: الإيمان. وأخرج أبو الشيخ عن السدي مثله.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ مَاتَهُ اللَّهُ الْمَلَكُ إِذْ قَالَ
إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُعَذِّبُ عَذِّيبٌ مُبِينٌ. وَقِيلَ لَهُ قَالَ أَنَا أَنبِيءُ. وَأُفِيَّتْ لَهُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَلْيَك
اللَّهُ بِأَقْرَبَ مِنَ الشَّرْعِ فَأَتَى بِهِمَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَأَبْتَهُ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا
يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٢٦﴾

في هذه الآية استشهدا على ما تقدم ذكره من أن الكفرة أولياؤهم الطاغوت، وهمة الاستفهام لإنكار النفي، والتقرير المنفي أي: ألم ينته علمك، أو نظرك إلى هذا الذي صدرت منه هذه المحاجة. قال الفراء: ألم تر بمعنى هل رأيت، أي: هل رأيت الذي حَاجَّ إبراهيم، وهو النمرود بن كوس بن كنعان بن سلم بن نوح، وقيل: إنه النمرود بن فالخ بن عامر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام. وقوله: ﴿أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ أي: لأن آتاه الله، أو من أجل أن آتاه الله على معنى أن إيتاء الملك أبطره، وأورثه الكبير، والعتر، فحاج لذلك، أو على أنه وضع المحاجة التي هي أقبح وجوه الكفر موضع ما يجب عليه من الشكر، كما يقال: عابيتني؛ لأنني أحسنت إليك، أو وقت أن آتاه الله الملك. وقوله: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ هو ظرف لحاج، وقيل: بدل من قوله: ﴿أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ على الوجه الأخير، وهو بعيد. قوله: ﴿رَبِّي الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ بفتح ياء ربي، وقرئ بحذفها. وقوله: ﴿إِنَّا أَحْيَيْنَا قَرَأَ جَهْمُورُ الْقُرْآنِ أَنَا أَحْيِي بِطَرَحِ الْآلِفِ الَّتِي بَعْدَ النُّونِ مِنْ أَنَا فِي الْوَصْلِ، وَاتَّبَعْتُهَا نَافِعٌ، وَابْنُ أَبِي أُوَيْسٍ، كَمَا فِي قَوْلِ الشَّاعِرِ:

أنا شيخ العشرة فأعترفني حميداً قد تدرت السنما
أراد إبراهيم عليه السلام أن الله هو: الذي يخلق الحياة،
والموت في الأجساد، وأراد الكافر أنه يقدر أن يعفو عن
القتل، فيكون نكاح إحياء، وعلى أن يقتل، فيكون نكاح إماتة،
فكان هذا جواباً أحق لا يصح نصبه في مقابلة حجة
إبراهيم، لأنه أراد غير ما أراده الكفار، فلو قال له: ربه الذي
يخلق الحياة، والموت في الأجساد، فهل تقدر على نكاح؟
لبهت الذي كفر بدئي بدء، وفي أول وهلة، ولكنه انتقل معه
إلى حجة أخرى تنفيهاً لخناقه، وإرسالاً لعنان المناظرة
فقال: ﴿فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من

ابن أبي حاتم، عن رجل من أهل الشام أنه حزّ قيل. وروى ابن كثير، عن مجاهد أنه رجل من بني إسرائيل. والمشهور القول الأول، وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿خَاوِيَةٌ﴾ قال: خراب. وأخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة قال: ﴿خَاوِيَةٌ﴾ ليس فيها أحد. وأخرج أيضاً عن الضحك قال: ﴿على عروشها﴾ سقوفها. وأخرج ابن جرير، عن السديّ قال: ساقطة على سقوفها. وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال: ﴿لبثت يوماً﴾ ثم التفت فرأى الشمس، فقال: ﴿أو بعض يوم﴾. وأخرج عنه أيضاً قال: كان طعامة الذي معه سلة من تين، وشرا به زق من عصير. وأخرج أيضاً عن مجاهد نحوه. وأخرج أبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿لم يقسفه﴾ قال: لم يتغير. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير قال: ﴿لم يقسفه﴾ لم ينتن. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن مسعود في قوله: ﴿ولنجعلك آية للناس﴾ مثل ما تقدّم عن الأعمش، وكذلك أخرج مثله أيضاً عن عكرمة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿كيف ننشزها﴾ قال: نخرجها. وأخرج ابن جرير، عن زيد بن ثابت قال: نحياها.

وَلَاذَ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ كُنْتُ نَادٍ مُنْذِرٌ قَالِ يَكْفُرُونَ قَالِ أَتَعْلَمُ أَنْ لَكُمْ إِلَهُاتٌ كَذِبٌ أُولَئِكَ أَنْجَلْنَاهُ عَلَى صَبْرٍ نَعْتَمُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ

قوله: ﴿وَإِذْ﴾ ظرف منصوب بفعل محذوف أي: أنكر وقت قول إبراهيم، وإنما كان الأمر بالذكر موجهاً إلى الوقت دون ما وقع فيه مع كونه المقصود لقصد المبالغة؛ لأن طلب وقت الشيء يستلزم طلبه بالأولى، وهكذا يقال في سائر المواضع الواردة في الكتاب العزيز بمثل هذا الظرف. وقوله: ﴿رَبِّ﴾ أثره على غيره لما فيه من الاستعطاف الموجب لقبول ما يرد بعده من الدعاء. وقوله: ﴿أَرِنِي﴾ قال الأخفش: لم يرد رؤية القلب، وإنما أراد رؤية العين، وكذا قال غيره، ولا يصح أن يراد الرؤية القلبية هنا؛ لأن مقصود إبراهيم أن يشاهد الإحياء لتحصل له الطمأنينة، والهمزة الداخلة على الفعل لقصد تعنيته إلى المفعول الثاني، وهو الجملة: أعني قوله: ﴿كيف تحيي الموتى﴾ وكيف: في محل نصب على التشبيه بالظرف، أو بالحال، والعامل فيها الفعل الذي بعدها. وقوله: ﴿أَوَلَمْ تَتُومِنْ﴾ عطف على مقدر أي: ألم تعلم، ولم تؤمن بأنني قادر على الإحياء حتى تسألني إراءته: ﴿قَالَ بَلَى﴾ علمت، وأمنت بأنك قادر على ذلك، ولكن سألت ليطمئن قلبي بالاجتماع لدليل العيان إلى دلائل الإيمان. وقد ذهب الجمهور إلى أن إبراهيم لم يكن شاكاً في إحياء الموتى قط، وإنما طلب المعينة لما جبلت عليه النفوس البشرية من رؤية ما أخبرت عنه، ولهذا قال النبي ﷺ: «ليس الخبر كالمعاينة». يحكى ابن جرير، عن طائفة من أهل العلم أنه سأل ذلك؛ لأنه شك في قدرة الله. واستدلوا بما صح عنه

صار كذلك ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ [المؤمنون: 14]. قوله: ﴿ولنجعلك آية للناس﴾ قال الفراء: إنه أدخل الواو في قوله: ﴿ولنجعلك﴾ دلالة على أنها شرط لفعل بعدها؛ معناه: ولنجعلك آية للناس، ودلالة على البعث بعد الموت جعلنا ذلك. وإن شئت جعلت الواو مقحمة زائدة. قال الأعمش: موضع كونه آية هو أنه جاء شاباً على حاله يوم مات، فوجد الأبناء، والحفدة شيوخاً. قوله: وانظر إلى العظام كيف ننشزها، قرأ الكوفيون، وابن عامر بالزاي، والباقيون بالراء. وروى أبان عن عاصم: «ننشزها» بفتح النون الأولى، وسكون الثانية، وضم الشين، والراء. وقد أخرج الحاكم وصححه، عن زيد بن ثابت: أن رسول الله ﷺ قرأ: ﴿كيف ننشزها﴾ بالزاي، فمعنى القراءة بالزاي نرفعها، ومعنى النشر: وهو المرتفع من الأرض، أي: يرفع بعضها إلى بعض. وأما معنى القراءة بالراء المهمة، فواضحة من أنشر الله الموتى أي: أحيامهم، وقوله: ﴿ثم نكسوها لحماً﴾ أي: تسترنا به كما نستتر الجسد باللباس، فاستعار اللباس لذلك، كما استعاره النابتة للإسلام، فقال:

الحمد لله إذ لم يمتني لجلي حتى اكتسيت من الإسلام سربالا
قوله: ﴿فلما تبين له﴾ أي: ما تقدّم ذكره من الآيات التي أراه الله سبحانه، وأمره بالنظر إليها، والتفكر فيها: ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يستعصي عليه شيء من الأشياء. قال ابن جرير: المعنى في قوله: ﴿فلما تبين له﴾ أي: لما اتضح له عياناً ما كان مستنكراً في قدرة الله عنده قبل عيانه. ﴿قَالَ أَعْلَمُ﴾ وقال أبو علي الفارسي معناه: أعلم أن هذا الضرب من العلم الذي لم أكن علمته. وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿قَالَ أَعْلَمُ﴾ على لفظ الأمر خطاباً لنفسه على طريق التجريد.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن عليّ في قوله: ﴿أو كالذي مر على قرية﴾ قال: خرج عزير نبي الله من مدينته، وهو شاب، فمر على قرية خربة، وهي خاوية على عروشها، فقال: ﴿أني يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه﴾ فأول ما خلق الله عيانه، فجعل ينظر إلى عظامه ينضم بعضها إلى بعض، ثم كسيت لحماً، ثم نفخ فيه الروح، فقيل له: ﴿كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام﴾ فأتى مدينته. وقد ترك جارا له إسكافاً شاباً، فجاء، وهو شيخ كبير. وقد ورد عن جماعة من السلف أن الذي أماته الله عزير، منهم ابن عباس عند ابن جرير، وابن عساكر، ومنهم عبد الله بن سلام عند الخطيب، وابن عساكر، ومنهم عكرمة، وقاتدة، وسليمان، وبريدة، والضحك، والسديّ عند ابن جرير، وورد عن جماعة آخرين أن الذي أماته الله هو نبي اسمه أرمياء، فمنهم عبد الله بن عبيد بن عمير، عند عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، ومنهم: وهب بن منبه، عند عبد الرزاق، وابن جرير، وأبي الشيخ. وأخرج ابن إسحاق عنه أيضاً أنه الخضر. وأخرج

وإنما هي ألف إيجاب، وتقدير، كما قال جرير:
الستم خير من ركب المطايا وإندي العالمين بطون راح
والواو واو الحال، و«تؤمن»: معناه إيماناً مطلقاً نخل فيه
فضل إحياء الموتى، والطمأنينة: اعتدال، وسكون. وقال ابن
جرير: معنى: «ليطمئن قلبي» ليوقن. قوله: «فخذ أربعة
من الطير» الفاء جواب شرط محذوف أي: إن أردت ذلك
فخذ، والطير: اسم جمع لطائر كركب لراكب، أو جمع، أو
مصدر، وخص الطير بذلك، قيل: لأنه أقرب أنواع الحيوان
إلى الإنسان، وقيل: إن الطير همته الطيران في السماء،
والخليل كانت همته العلو، وقيل: غير ذلك من الأسباب
الموجبة لتخصيص الطير. وكل هذه لا تثمن، ولا تغني عن
جوع، وليس إلا خواطر أقيام، وبوار أذهان لا ينبغي أن
تجعل وجوها لكلام الله، وعللاً لما يرد في كلامه، وهكذا
قيل: ما وجه تخصيص هذا العدد، فإن الطمأنينة تحصل
بإحياء واحد؟ فقيل: إن الخليل إنما سال واحداً على عدد
العويصة، فأعطى أربعاً على قدر الربوبية، وقيل: إن الطيور
الأربعة إشارة إلى الأركان الأربعة التي منها تتركب أركان
الحيوان، ونحو ذلك من الهذيان. قوله: «فصبرهن إليك»
قرئ بضم الصاد، وكسرها أي: اضممهن إليك، وأملهن،
 واجمعهن، يقال: رجل أصور: إذا كان مائل العنق، ويقال:
صار الشيء يصوره: أماله. قال الشاعر:

الله يعلم أنا في تلفتنا يوم الفراق إلى جيراننا صور
وقيل: معناه قطعهن، يقال: صار الشيء يصوره أي:
قطعه، ومنه قول توبة بن الحمير:

فأنت لي الأسباب حتى بلغتها بنهض وقد كان اجتماعي يصورها
أي: يقطعها، وعلى هذا يكون قوله: «إليك» متعلقاً بقوله:
«خذ». وقوله: «ثم لجعل على كل جبل منهن جزءاً»
فيه الأمر بالتجزئة؛ لأن جعل كل جزء على جبل تستلزم
تقديم التجزئة. قال الزجاج: المعنى، ثم لجعل على كل جبل
من كل واحد منهن جزءاً، والجزء النصيب. وقوله:
«ياتينك» في محل جزم على أنه جواب الأمر، ولكنه بني
لأجل نون الجمع المؤنث. وقوله: «سعيًا» المراد به:
الإسراع في الطيران، أو المشي.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة، عن ابن
عباس قال: إن إبراهيم مرَّ برجل ميت زعموا أنه حبشي على
ساحل البحر، فرأى نواب البحر تخرج، فتأكل منه، وسباع
الأرض تأتية، فتأكل منه، والطير يقع عليه، فيأكل منه، فقال
إبراهيم عند ذلك: ربِّ، هذه نواب البحر تأكل من هذا،
وسباع الأرض، والطير، ثم تمت هذه فتبلى، ثم تحيىها،
فأرني كيف تحيي الموتى: «قال أولم تؤمن» يا إبراهيم
أنني أحيي الموتى؟ «قال بلى» يا ربِّ «ولكن ليطمئن
قلبي» يقول: لأرى من آياتك، وأعلم أنك قد أجبتني، فقال
الله: خذ أربعاً من الطير، واصنع ما صنع، والطير الذي أخذ:
وز، ورا، وديك، وطاوس، واحد نصفين مختلفين: ثم أتى
أربعة أجبل، فجعل على كل جبل نصفين مختلفين، وهو

﴿في الصحيحين، وغيرهما من قوله: «نحن أحق بالشك
من إبراهيم» وبما روي عن ابن عباس أنه قال: «ما في
القرآن عندي آية أرجى منها». أخرجه عنه عبد الرزاق،
وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه،
ورجح هذا ابن جرير بعد حكايته له. قال ابن عطية: وهو
عندي مرود، يعني: قول هذه الطائفة، ثم قال: وأما قول
النبي ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم» فمعناه: أنه لو
كان شاكاً لكان نحن أحق به، ونحن لا نشك، فإبراهيم أخرى
أن لا يشك. فالحديث مبني على نفي الشك عن إبراهيم. وأما
قول ابن عباس: هي أرجى آية، فمن حيث أن فيها الإدلال
على الله، وسؤال الإحياء في الدنيا، وليست مظنة ذلك.
ويجوز أن نقول هي أرجى آية لقوله: «أولم تؤمن» أي: أن
الإيمان كاف لا يحتاج معه إلى تنقيح، وبحث، قال: فالشك
يبعد على من ثبت قلبه في الإيمان فقط، فكيف بمرتبة
النبوة، والخلة؟ والأنبياء معصومون من الكبائر، ومن
الصغائر التي فيها رذيلة إجماعاً، وإذا تأملت سؤاله عليه
السلام، وسائر الالفاظ للآية لم تعط شكاً، وذلك أن
الاستفهام بكيف إنما هو سؤال عن حالة شيء موجود
متقرر الوجود عند السائل، والمسؤول نحو قولك: كيف علم
زيد؟ وكيف نسج الثوب؟ ونحو هذا، ومتى قلت: كيف ثوبك؟
وكيف زيد؟ فإنما السؤال عن حال من أحواله. وقد تكون
كيف خبراً، عن شيء شأنه أن يستفهم، عنه بكيف نحو
قولك: كيف شئت فكن، ونحو قول البخاري: كيف كان بدء
الوحي؟ وهي في هذه الآية استفهام، عن هيئة الإحياء،
والإحياء متقرر، ولكن لما وجنا بعض المنكرين لوجود
شيء قد يعبرون، عن إنكاره بالاستفهام، عن حالة لذلك
الشيء يعلم أنها لا تصح، فيلزم من ذلك أن الشيء في
نفسه لا يصح، مثال ذلك أن يقول مدح: أنا أرفع هذا الجبل،
فيقول المكنب له: أرني كيف ترفعه. فهذه طريقة مجاز في
العبارة، ومعناها تسليم جبل، كأنه يقول: افرض أنك ترفعه.
فلما كان في عبارة الخليل هذا الاشتراك المجازي خلس الله
له ذلك، وحمله على أن بين له الحقيقة، فقال له: «أولم
تؤمن قال بلى» فأكمل الأمر، وتخلص من كل شيء، ثم
علل عليه السلام سؤاله بالطمأنينة. قال القرطبي: هذا ما
ذكره ابن عطية، وهو بالغ، ولا يجوز على الأنبياء صلوات
الله عليهم مثل هذا الشك، فإنه كفر، والأنبياء متفقون على
الإيمان بالبعث. وقد أخبر الله سبحانه أن أنبياءه، وأوليائه
ليس للشيطان عليهم سبيل: فقال: «إن عبادي ليس لك
عليهم سلطان» [الإسراء: 65]. وقال اللعين: «إلا عبادك
منهم المخلصين» [الحجر: 40] وإذا لم يكن له عليهم
سلطنة، فكيف يشكهم، وإنما سال أن يشاهد كيفية جمع
أجزاء الموتى بعد تفريقها، واتصال الأعصاب، والجلود بعد
تمزيقها، فأراد أن يرقى من علم اليقين إلى عين اليقين،
فقله: «أرني كيف» طلب مشاهدة الكيفية. قال الماوردي:
وليست الألف في قوله: «أولم تؤمن» ألف الاستفهام،

قوله: ﴿ثم لجعل على كل جبل منهن جزءاً﴾ ثم تنحى ورؤوسها تحت قدميه، فدعا باسم الله الأعظم، فرجع كل نصف إلى نصفه، وكل ريش إلى طائره، ثم أقبلت تطير بغير رؤوس إلى قدميه تريد رؤوسها بأعناقها، فرقع قدميه، فوضع كل طائر منها عنقه في رأسه، فعانت كما كانت. وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة نحوه. وأخرج أيضاً، عبد بن حميد، وابن المنذر، عن الحسن، نحوه. وأخرج ابن جرير، عن ابن جريج أنها كانت جيفة حمار. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن ابن عباس في قوله: ﴿ولكن ليطمئن قلبي﴾ يقول: أعلم أنك تجيبني إذا دعوتك، وتعطيني إذا سألتك. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿فخذ أربعة من الطير﴾ قال: الغرنوق، والطاوس، والديك، والحمامة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، قال الأربعة من الطير: الديك، والطاوس، والغراب، والحمام. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي عن ابن عباس: ﴿فصرهن﴾ قال: قطعهن. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه قال: هي بالنبطية: شققهن. وأخرج عنه أنه قال: ﴿فصرهن﴾ لوثقهن، وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال: وضعهن على سبعة أجبيل، وأخذ الرؤوس بيده، فجعل ينظر إلى القطرة تأقي القطرة، والريشة تلقي الريشة حتى صرن أحياء ليس لهن رؤوس، فجئن إلى رؤوسهن، فنخلن فيها.

مَثَلُ الَّذِينَ يُبْغُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَكْبَتْتَ سَبْعَ سَعَابِلَ فِي كُلِّ سُكُوتٍ مِائَةٌ حَبٌّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ الَّذِينَ يُبْغُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُبْغُونَ مَا آتَوْهُمُ مِنْهَا وَلَا أَدَّى لَهُمْ أَجْرَهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٠٢﴾ قَوْلَ تَرَوْهُ وَتَعَوُّدَهُ حَرْفٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتِمُّهَا أَذَى وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ يَتَابِعُهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يُبْغِلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ وَرَكَّةَ النَّاسِ وَلَا يُؤْنِسُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَنْ لَّهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ ثَرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَكَسِبَهُ صَلْدًا لَا يَنْغَرِزُ عَنْ عُنُقِهِ وَمَا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٤﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُبْغُونَ أَمْوَالَهُمْ أَنْفُسَهُمْ مَرَضَاتٍ اللَّهُ وَتَكْلِيفًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَحْمٍ يَرْيَقُ أَصَابُهَا وَابِلٌ فَكَانَتْ أَكْلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصَبَّ وَابِلٌ فَكُلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٠٥﴾

قوله: ﴿كمثل حبة﴾ لا يصح جعل هذا خبراً عن قوله: ﴿مثل الذين ينفقون﴾ لاختلافهما، فلا بد من تفسير محذوف إما في الأول أي: مثل نفقة الذين ينفقون، أو في الثاني أي: كمثل زارع حبة، والمراد بالسبع السنابل: هي التي تخرج في ساق واحد يتشعب منه سبع شعب في كل شعبة سنبل، والحبة اسم لكل ما يزيدعه ابن آدم، ومنه قول المثلث:

قوله: ﴿ثم لجعل على كل جبل منهن جزءاً﴾ ثم تنحى ورؤوسها تحت قدميه، فدعا باسم الله الأعظم، فرجع كل نصف إلى نصفه، وكل ريش إلى طائره، ثم أقبلت تطير بغير رؤوس إلى قدميه تريد رؤوسها بأعناقها، فرقع قدميه، فوضع كل طائر منها عنقه في رأسه، فعانت كما كانت. وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة نحوه. وأخرج أيضاً، عبد بن حميد، وابن المنذر، عن الحسن، نحوه. وأخرج ابن جرير، عن ابن جريج أنها كانت جيفة حمار. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن ابن عباس في قوله: ﴿ولكن ليطمئن قلبي﴾ يقول: أعلم أنك تجيبني إذا دعوتك، وتعطيني إذا سألتك. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿فخذ أربعة من الطير﴾ قال: الغرنوق، والطاوس، والديك، والحمامة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، قال الأربعة من الطير: الديك، والطاوس، والغراب، والحمام. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي عن ابن عباس: ﴿فصرهن﴾ قال: قطعهن. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه قال: هي بالنبطية: شققهن. وأخرج عنه أنه قال: ﴿فصرهن﴾ لوثقهن، وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال: وضعهن على سبعة أجبيل، وأخذ الرؤوس بيده، فجعل ينظر إلى القطرة تأقي القطرة، والريشة تلقي الريشة حتى صرن أحياء ليس لهن رؤوس، فجئن إلى رؤوسهن، فنخلن فيها.

مَثَلُ الَّذِينَ يُبْغُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَكْبَتْتَ سَبْعَ سَعَابِلَ فِي كُلِّ سُكُوتٍ مِائَةٌ حَبٌّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ الَّذِينَ يُبْغُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُبْغُونَ مَا آتَوْهُمُ مِنْهَا وَلَا أَدَّى لَهُمْ أَجْرَهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٠٢﴾ قَوْلَ تَرَوْهُ وَتَعَوُّدَهُ حَرْفٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتِمُّهَا أَذَى وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ يَتَابِعُهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يُبْغِلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ وَرَكَّةَ النَّاسِ وَلَا يُؤْنِسُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَنْ لَّهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ ثَرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَكَسِبَهُ صَلْدًا لَا يَنْغَرِزُ عَنْ عُنُقِهِ وَمَا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٤﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُبْغُونَ أَمْوَالَهُمْ أَنْفُسَهُمْ مَرَضَاتٍ اللَّهُ وَتَكْلِيفًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَحْمٍ يَرْيَقُ أَصَابُهَا وَابِلٌ فَكَانَتْ أَكْلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصَبَّ وَابِلٌ فَكُلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٠٥﴾

قوله: ﴿كمثل حبة﴾ لا يصح جعل هذا خبراً عن قوله: ﴿مثل الذين ينفقون﴾ لاختلافهما، فلا بد من تفسير محذوف إما في الأول أي: مثل نفقة الذين ينفقون، أو في الثاني أي: كمثل زارع حبة، والمراد بالسبع السنابل: هي التي تخرج في ساق واحد يتشعب منه سبع شعب في كل شعبة سنبل، والحبة اسم لكل ما يزيدعه ابن آدم، ومنه قول المثلث:

أليت حب للعراق الدهر أطعمه والحب يأكله في القرية السوس
قيل: المراد بالسنابل هنا سنابل الدخن، فهو الذي يكون

لا تخلصك شجرة من سائل فلخير دهرك أن ترى مسؤولاً
لا تجبهن بالرد وجه مؤمل فبقاء عزك أن ترى مأمولاً
والمراد بالمغفرة: الستر للخلعة، وسوء حالة المحتاج،

والعفو عن السائل إذا صدر منه من الإلحاح ما يكره صدر المسؤول، وقيل المراد: أن العفو من جهة السائل؛ لأنه إذا ردة رداً جليلاً عنده، وقيل: المراد: فعل يؤدي إلى المغفرة خير من صدقة أي: غفران الله خير من صدقتكم. وهذه الجملة مستأنفة مقررة لترك اتباع المَن، والأذى للصنعة. قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ الإبطال للصنعات: إذهاب أثرها، وإفساد منفعتها أي: لا تبطلوها بالمنّ، والأذى، أو بأحدهما. قوله: ﴿كَالَّذِي﴾ أي: إبطالاً كإبطال الذي على أنه نعت لمصدر محذوف، ويجوز أن يكون حالاً أي: لا تبطلوا مشايهين للذي ينفق ماله رياء الناس، وانتصاب رياء على أنه علة لقوله: ﴿يَنْفِقُ﴾ أي: لأجل الرياء، أو حال أي: ينفق مرائياً لا يقصد بذلك وجه الله، وثواب الآخرة، بل يفعل ذلك رياء للناس استجلاباً لثناهم عليه، ومنحهم له، قيل: والمراد به: المنافق بليل قوله: ﴿وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾. قوله: ﴿فَمِثْلُهُ كَمِثْلِ صَفْوَانَ﴾ الصفوان: الحجر، الكبير، الأملس. وقال الأخفش: صفوان جمع صفوانة. وقال الكسائي: صفوان واحد، وجمعه صفي، وأصفي، وأنكره المبرد. وقال النحاس: يجوز أن يكون جمعاً، ويجوز أن يكون واحداً، وهو أولى لقوله: ﴿عَلَيْهِ تَرَابٌ فَاصْبَاهُ وَابِلٌ﴾ والوايل المطر الشديد، مثل الله سبحانه هذا المنفق بصفوان عليه تراب يظنه الظان أرضاً منبئة طيبة، فإذا أصابه وابل من المطر أذهب عنه التراب، وبقي صلباً أي: أجرد نقياً من التراب الذي كان عليه، فكل ذلك هذا المرائي، فإن نفقته لا تنفعه، كما لا ينفع المطر الواقع على الصفوان الذي عليه تراب. قوله: ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ أي: لا ينتفعون بما فعلوه رياء، ولا يجنون له ثواباً، والجملة مستأنفة، كأنه قيل: ماذا يكون حالهم حينئذ؟ فقيل: لا يقدرُونَ الخ، والضميران للموصول أي: كالذي باعتبار المعنى، كما في قوله تعالى: ﴿وَحُضِّتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ [التوبة: 69] أي: الجنس، أو الجمع، أو الفريق. قوله: ﴿وَمِثْلَ الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيئاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ قيل: إن قوله: ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ﴾ مفعول له، وتثبيئاً معطوف عليه، وهو أيضاً مفعول له. أي: الإنفاق لأجل الابتغاء، والتثبيت كذا قال مكّي في المشكل. قال ابن عطية: وهو مردود لا يصح في تثبيئاً أنه مفعول من أجله؛ لأن الإنفاق ليس من أجل التثبيت. قال: وابتغاء نصب على المصدر في موضع الحال، وكان يتوجه فيه النصب على المفعول من أجله، لكن النصب على المصدر هو الصواب من جهة عطف المصدر الذي هو تثبيئاً عليه، وابتغاء معناه طلب، ومرضات مصدر رضي يرضى، وتثبيئاً معناه: أنهم يتثبتون من أنفسهم ببذل أموالهم على الإيمان، وسائر العبادات رياضة لها، وتدريباً، وتمريناً، أو يكون التثبيت بمعنى التصديق أي: تصديقاً للإسلام ناشئاً من جهة أنفسهم. وقد اختلف السلف في معنى هذا الحرف، فقال الحسن، ومجاهد: معناه أنهم يتثبتون أن يضعوا

صدقاتهم، وقيل: معناه: تصديقاً، ويقيناً، روي ذلك عن ابن عباس، وقيل: معناه احتساباً من أنفسهم، قاله قتادة، وقيل: معناه: أن أنفسهم لها بصائر، فهي تثبتهم على الإنفاق في طاعة الله تثبيئاً. قاله الشعبي، والسدي، وابن زيد، وأبو صالح، وهذا أرجح مما قبله. يقال: ثبت فلاناً في هذا الأمر أثبتته تثبيئاً أي: صححت عزمه قوله: ﴿كَمِثْلِ جَنَّةٍ بَرِيَّةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ الجنة: البستان، وهي أرض تنبت فيها الأشجار حتى تغطيها، مأخوذة من لفظ الجن، والجنين لاستنارها. والربوة: المكان المرتفع ارتفاعاً يسيراً، وهي مثلثة الرأس، وبها قرى؛ وإنما خص الربوة، لأن نباتها يكون أحسن من غيره، مع كونه لا يصطلمه البرد في الغالب لللطافة هوائه بهبوب الرياح الملطفة له، قال الطبري: وهي رياض الحزن التي تستكثر العرب من نكرها، واعترضه ابن عطية، فقال: إن رياض الحزن منسوبة إلى نجد؛ لأنها خير من رياض تهامة، ونبات نجد أعطر، ونسيمه أبرد وأرق، ونجد يقال لها: حزن، وليست هذه المذكورة هنا من ذلك، ولفظ الربوة مأخوذ من ربا يربو إذا زاد. وقال الخليل الربوة: أرض مرتفعة طيبة. والوايل: المطر الشديد، كما تقدم، يقال: وبلت السماء تبل، والأرض موبولة. قال الأخفش: ومنه قوله تعالى: ﴿أَخْذًا وَبِيلاً﴾ [المزمل: 16] أي: شديداً، وضرب وابل، وعذاب وابل ﴿فَأَتَتْ أَكْثُلَهَا﴾ بضم الهمزة: الثمر الذي يؤكل كقوله تعالى: ﴿تَوْتِي أَكْثُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ [إبراهيم: 25] وإضافته إلى الجنة إضافة اختصاص، كسرج الفرس، وباب الدار قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمر، وأكلها بضم الهمزة، وسكون الكاف تخفيفاً. وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمره، والكسائي بتحريك الكاف بالضم. وقوله: ﴿ضَعْفَيْنِ﴾ أي: مثلي ما كانت تثمر بسبب الوايل. فالمراد بالضعف: المثل، وقيل: أربعة أمثال، ونصبه على الحال من أكلها أي: مضاعفاً. قوله: ﴿فَإِنْ لَمْ يَصْبِهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ﴾ أي: فلان الطل يكفيها: وهو المطر الضعيف المستنق القطر. قال المبرد، وغيره: وتقديره، فطل يكفيها. وقال الزجاج: تقديره، فالذي يصيبها طل، والمراد: أن الطل ينوب مناب الوايل في إخراج الثمرة ضعفين. وقال قوم: الطل: الندى. وفي الصحاح: الطل: أضعف المطر، والجمع أطلال. قال الماوردي: وزرع الطل أضعف من زرع المطر. والمعنى: أن نفقات هؤلاء زاكية عند الله لا تضع بحال، وإن كانت متفاوتة، ويجوز أن يعتبر التمثيل ما بين حالهم باعتبار ما صدر عنهم من النفقة الكثيرة والقليلة، وبين الجنة المعهودة باعتبار ما أصابها من المطر الكثير، والقليل، فكما أن كل واحد من المطرين يضعف أكلها، فكذلك نفقتهم جلت، أو قلت بعد أن يطلب بها وجه الله زاكية زائدة في أجورهم. وقوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾. قرأ الزهري بالتاء التحتية. وقرأ الجمهور بالفوقية، وفي هذا ترغيب لهم في الإخلاص مع ترهيب من الرياء، ونحوه، فهو وعد، ووعيد.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم في قوله: ﴿كَمِثْلِ

الخير، ولا حاجة إلى التّطويل بنكرها، فهي معروفة في مواطنها. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عمرو بن دينار قال: بلغنا أن النبي ﷺ قال: «ما من صدقة أحبّ إلى الله من قول الحقّ، ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿قُولُ مَعْرُوفٍ وَمَغْفِرَةٍ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أذى﴾». وأخرج ابن المنذر، عن الضّحك في قوله: ﴿قُولُ مَعْرُوفٍ﴾ قال: ردّ جميل، تقول: يرحمك الله، يرزقك الله، ولا تنهره، ولا تغلظ له القول. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: «لا يخل الجنة منان، وذلك في كتاب الله: ﴿لا تبطلوا صدقاتكم باليمن والأذى﴾». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿صِفْوَانٌ﴾ يقول: الحجر ﴿فتركه صلداً﴾ يقول: ليس عليه شيء. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن عكرمة قال: الوايل المطر. وأخرجنا عن قتادة قال: الوايل للمطر الشديد، قال: وهذا مثل ضربه الله لأعمال الكفار يوم القيامة ﴿لا يقدرون على شيء مما كسبوا﴾ يومئذ، كما ترك هذا المطر هذا الحجر ليس عليه شيء أنقى مما كان. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس: ﴿فتركه صلداً﴾ قال: يابساً جلياً لا ينبت شيئاً. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الربيع في قوله: ﴿ومثل الذين ينفقون أموالهم لبتقاء مرضات الله﴾ قال: هذا مثل ضربه الله لعمل المؤمن. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن الشعبي في قوله: ﴿وتثبیتاً من أنفسهم﴾ قال: تصديقاً، ويقينا. وأخرج ابن جرير، عن أبي صالح نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير قال: يتثبتون أين يضعون أموالهم. وأخرجنا عن الحسن قال: كان الرجل إذا همّ بصدقة تثبت، فإن كان لله أمضاه، وإن خالطه شيء من الرياء أمسك. وأخرج ابن المنذر، عن قتادة في قوله: ﴿تثبیتاً﴾ قال: النية، وأخرج الحاكم وصححه، عن ابن عباس قال: الربوة: النشز من الأرض. وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال: الربوة: الأرض المستوية المرتفعة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس قال: هي المكان المرتفع الذي لا تجري فيه الأنهار. وأخرج ابن جرير عنه في قوله تعالى: ﴿فقط﴾ قال: الندي. أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن الضّحك قال: الطل الرّذاذ من المطر: يعني: اللين منه. وأخرجنا عن قتادة قال: هذا مثل ضربه الله لعمل المؤمن يقول: ليس لخير خلف كما ليس لخير هذه الجنة خلف على أي حال كان، إن أصابها وابل، وإن أصابها ظل.

أَيُّوْهُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُوْنُ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجْوَى وَأَصَابٍ تَبْرَى مِنْ نَّحْوِهَا
الَّذِي لَمْ يَكُنْ مِنْ كَلِّ الْأَشْرَارِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَمْ ذَرِيَّةٌ مُّطَهَّرَةٌ
فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَامْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ
لَعَلَّكُمْ تَتَذَكَّرُونَ ﴿١٧٧﴾

الود: الحب للشيء مع تمنية، والهمزة الداخلة على الفعل، لإنكار الوقوع، والجنة تطلق على الشجر الملتف، وعلى الأرض التي فيها الشجر. والأول أولى هنا لقوله: ﴿تجري

حبة أنبتت سبع سنابل﴾ عن الربيع قال: «كان من بايع النبي ﷺ على الهجرة، ورابط معه بالمدينة، ولم يذهب وجهاً، إلا بإذنه كانت له الحسنة بسبعمئة ضعف، ومن بايع على الإسلام كانت الحسنة له عشر أمثالها». وأخرج مسلم، وأحمد، والنسائي، والحاكم، والبيهقي، عن ابن مسعود: أن رجلاً تصدق بناقطة مخطومة في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ: «لك بها يوم القيامة سبعمئة ناقة كلها مخطومة». وأخرج أحمد، والترمذي وحسنه، والنسائي، وابن حبان، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب عن خزيمة بن فائق قال: قال رسول الله ﷺ: «من أنفق نفقة في سبيل الله كتب له سبعمئة ضعف». وأخرجه البخاري في تاريخه من حديث أنس. وأخرجه أحمد من حديث أبي عبيدة وزاد: «ومن أنفق على نفسه، وأهله، أو عاد مريضاً، فالحسنة بعشر أمثالها». وأخرج نحوه النسائي في الصوم. وأخرج ابن ماجه، وابن أبي حاتم، من حديث عمران بن حصين، وعلي، وأبي الدرداء، وأبي هريرة، وأبي أمامة، وعبد الله بن عمرو، وجابر، كلهم، يحدث عن رسول الله ﷺ قال: «من أرسل بنفقة في سبيل الله، وأقام في بيته، فله بكل درهم يوم القيامة سبعمئة درهم، ومن غزا بنفسه في سبيل الله، وأنفق في وجهه ذلك، فله بكل درهم يوم القيامة سبعمئة ألف درهم، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَاللَّهُ يضاعف لمن يشاء﴾». وأخرجه أيضاً ابن ماجه، من حديث الحسن بن علي. وأخرج أحمد من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف إلى ما شاء الله، يقول الله ﷻ إلا الصوم، فإنه لي، وأنا أجزي به، وأخرجه أيضاً مسلم. وأخرج الطبراني من حديث معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ قال: «طوبى لمن أكثر، في الجهاد في سبيل الله من نكر الله، فإن له بكل كلمة سبعين ألف حسنة، كل حسنة منها عشرة أضعاف، وقد تقدّم نكر طرف من الأحاديث التضعيف للسننات عند قوله تعالى: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة﴾ [البقرة: 245]. وقد وردت الأحاديث الصحيحة في أجر من جهز غازياً. وأخرج أبو داود، والحاكم وصححه، عن سهل بن معاذ، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الصلاة، والصوم، والذكر تضاعف على النفقة في سبيل الله سبعمئة ضعف». وأخرج أحمد، والطبراني في الأوسط، والبيهقي في سننه عن بريدة قال: قال رسول الله ﷺ: «النفقة في الحج كالنفقة في سبيل الله بسبعمئة ضعف». وأخرج ابن أبي حاتم، عن الحسن قال في تفسير قوله تعالى: ﴿يَمْ لَّا يَتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنْأً وَلَا أذى﴾ أن أقواماً يبعثون الرجل منهم في سبيل الله، أو ينفق على الرجل، أو يعطيه النفقة، ثم يمرّ عليه ويؤذيه: يعني: أن هذا سبب النزول. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة نحوه. وقد وردت الأحاديث الصحيحة في النهي، عن المنّ، والأذى، وفي فضل الإنفاق في سبيل الله، وعلى الأقارب، وفي وجوه

يَكْفُرُ إِلَّا أُولَ الْأُكْبَرِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ أَوْ كُنْتُمْ مِنْ كَذِبٍ فَإِنَّكُمْ لَأَنْتُمْ وَمَا لَكُمْ أَنْتُمْ بِمُحْسِنِينَ ﴿١٢٧﴾ إِنْ تَدْعُوا اللَّهَ فَرِحْتُمْ بِذَلِكَ فَذَلِكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُدْعَوْنَ لَهُ وَإِنَّ أَكْثَرَكُمُ الْكَافِرُونَ ﴿١٢٨﴾ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ أَوْ كُنْتُمْ مِنْ كَذِبٍ فَإِنَّكُمْ لَأَنْتُمْ وَمَا لَكُمْ أَنْتُمْ بِمُحْسِنِينَ ﴿١٢٩﴾

قوله: ﴿مَنْ طَيَّبَاتٍ مَا كَسِبْتُمْ﴾ أي: من جيد ما كسبتم، ومختاره، كذا قال الجمهور. وقال جماعة: إن معنى الطيبات هنا: الحلال، ولا مانع من اعتبار الأمرين جميعاً؛ لأن جيد الكسب، ومختاره إنما يطلق على الحلال عند أهل الشرع، ولأن أطلقه أهل اللغة على ما هو جيد في نفسه حلالاً كان، أو حراماً، فالحقيقة الشرعية مقدمة على اللغوية. وقوله: ﴿وَمَا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي: ومن طيبات ما أخرجنا لكم من الأرض، وحذف دلالة ما قبله عليه، وهي: النبيلات، والمعادن، والركاز. قوله: ﴿وَلَا تَتِيمُوا الْخَبِيثَ﴾ أي: لا تقصصوا المال الردي، وقرأ الجمهور بفتح حرف المضارعة، وتخفيف الياء، وقرأ ابن كثير بتشديد ياءه، وقرأ ابن مسعود: «ولا تأموا» وهي لغة. وقرأ أبو مسلم بن خباب بضم الفوقية، وكسر الميم. وحكى أبو عمرو: أن ابن مسعود قرأ: «تتموا» بهمزة بعد المضمومة، وفي الآية الأمر بإنفاق الطيب، والنهي عن إنفاق الخبيث. وقد ذهب جماعة من السلف إلى أن الآية في الصدقة المفروضة، وذنب آخرون إلى أنها تعم صفة الفرض، والتطوع، وهو: الظاهر، وسيأتي من الآية ما يؤيد هذا، وتقديم الظرف في قوله: ﴿مِنْهُ تَنْفَقُونَ﴾ يفيد التخصيص أي: لا تخصوا الخبيث بالإنفاق، والجملة في محل نصب على الحال أي: لا تقصصوا المال الخبيث مخصصين الإنفاق به قاصرين له عليه. قوله: ﴿وَلَسْتُمْ بِأَخْيَارٍ﴾ أي: والحال أنكم لا تأخونونه في معاملتكم في وقت من الأوقات هكذا بين معناه الجمهور، وقيل: معناه: ولستم بأخيار لو وجبتموه في السوق يباع. وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَغْمُضُوا فِيهِ﴾ هو من أغض الرجل في أمر كذا: إذا تساهل ورضي ببعض حقه، وتجاوز، وغض بصره عنه، ومنه قول الشاعر:

إلى كم وكم أشياء منك تريبني أغض عنها لست عنها بذى عمي

وقرأ الزهري بفتح التاء، وكسر الميم مخففاً. وروي عنه أنه قرأ بضم التاء، وفتح الغين، وكسر الميم مشددة، وكذلك قرأ قتادة، والمعنى على القراءة الأولى من هاتين القراءتين: إلا أن تهضموا سوماً من البائع منكم، وعلى الثانية: إلا أن تأخذوا بنقصان. قال ابن عطية: وقراءة الجمهور تخرج على التجاوز، أو على تغميض العين، لأن أغض بمنزلة غمض، وعلى أنها بمعنى حتى أي: حتى تأتوا غامضاً من التلويل، والنظر في أخذ ذلك. قوله: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾ قد تقدم معنى الشيطان، واشتقاقه. ويعبدكم معناه يخوفكم الفقر أي: بالفقر لئلا تنفقوا، فهذه الآية متصلة بما قبلها. وقرئ: «الفقر» بضم الفاء، وهي لغة. قال الجوهري: والفقر لغة في الفقر، مثل الضعف، والضعف. والفحشاء

من تحتها الأنهار﴾ بإرجاع الضمير إلى الشجر من نون حجة إلى مضاف محذوف، وأما على الوجه الثاني، فلا بد من تقديره، أي: من تحت أشجارها، وهكذا قوله: ﴿فاحتترقت﴾ لا يحتاج إلى تقدير مضاف على الوجه الأول، وأما على الثاني، فيحتاج إلى تقديره، أي: فاحتترقت أشجارها، وخص النخيل، والأعناب بالذكر مع قوله: ﴿لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ لكونهما أكرم الشجر، وهذه الجملة صفات للجنة، والواو في قوله: ﴿وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ﴾ قيل: عاطفة على قوله: ﴿تَكُونُ﴾ ماض على مستقبل، وقيل: على قوله: ﴿يَوَدُّ﴾ وقيل: إنه محمول على المعنى إذ تكون في معنى كانت، وقيل: إنها واو الحال أي: وقد أصابه الكبر، وهذا أرجح. وكبر السن هو: مظنة شدة الحاجة لما يلحق صاحبه من العجز عن تعاطي الأسباب. وقوله: ﴿وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ﴾ حال من الضمير في أصابه أي: والحال أن له ذرية ضعفاء، فإن من جمع بين كبر السن، وضعف الذرية كان تحسره على تلك الجنة في غاية الشدة. والإعصار: الريح الشديدة التي تهب من الأرض إلى السماء كالعمود، وهي التي يقال لها: الزوبعة، قاله الزجاج. قال الجوهري: الزوبعة رئيس من رؤساء الجن، ومنه سمي الإعصار زوبعة، ويقال أم زوبعة. وهي ريح يثير الغبار، ويرتفع إلى السماء، كأنه عمود، وقيل: هي ريح تثير سحباً ذات رعد، وبرق. وقوله: ﴿فاحتترقت﴾ عطف على قوله: ﴿فأصابها﴾ وهذه الآية تمثيل من يعمل خيراً، ويضم إليه ما يحيطه، فيجده يوم القيامة عند شدة حاجته إليه لا يسمن، ولا يغني من جوع بحال من له هذه الجنة الموصوفة، وهو متصف بتلك الصفة.

وقد أخرج البخاري، وغيره عن ابن عباس قال: قال عمر يوماً لأصحاب النبي ﷺ، فيم ترون هذه الآية نزلت: ﴿إِيَّاهُ لَحَدِّكُمُ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ؟﴾ قالوا: الله أعلم، قال: قولوا نعلم أو لا نعلم، فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين، فقال عمر: يا ابن أخي قل، ولا تحقر نفسك، قال ابن عباس: ضربت مثلاً لعمل، قال عمر: أي عمل؟ قال ابن عباس: لرجل عني يعمل لطاعة الله، ثم يعث الله له الشيطان، فعمل في المعاصي حتى أغرق عمله. وأخرج ابن جرير عن عمر قال: هذا مثل ضرب لإنسان يعمل عملاً صالحاً حتى إذا كان عند آخر عمره أحوج ما يكون إليه عمل عمل السوء. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، من طرق عن ابن عباس في قوله: ﴿إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ﴾ قال: ريح فيها سموم شديدة.

يَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَبَقَتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَرْجَبْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَتِمُّوا الْبَيْتَ وَتَهُ تَنْفَقُونَ وَلَكُمْ يَتَذَكَّرُونَ إِلَّا أَنْ تَوَضُّعُوا فِيهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ حَكِيمٌ ﴿١٣٠﴾ الشَّيْطَانُ يَدْعُوكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمُ بِالنَّفْسِ وَاللَّهَ يَدْعُوكُمُ مَقْرَرةً يَنْتَهُ وَقَضَى وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَدِيمٌ ﴿١٣١﴾ يَتَذَكَّرُ الْحَكِيمُ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا

أشياء، فهو بتأويل المذكور أي: فإن الله يعلم المذكور، وبه جزم ابن عطية، ورجحه القرطبي، ونكر معناه كثير من النحاة في مؤلفاتهم. قوله: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ أي: ما الظالمين أنفسهم بما وقعوا فيه من الإثم لمخالفة ما أمر الله به من الإنفاق في وجوه الخير من أنصار ينصرونهم يمنعونهم من عقاب الله بما ظلموا به أنفسهم، والأولى الحمل على العموم من غير تخصيص لما يفيد السياق أي: ما الظالمين بأي مظلمة كانت من أنصار. قوله: ﴿إِنْ تَبَدُّوا لِلصَّدَقَاتِ فَنَعْمَا هِيَ﴾ قرئ بفتح النون، وكسر العين، وبكسرهما، وبكسر النون، وسكون العين، وبكسر النون، وإخفاء حركة العين. وقد حكى النحويون في: «نعم» أربع لغات، وهي: هذه التي قرئ بها، وفي هذا نوع تفصيل لما أجمل في الشرطية المتقدمة، أي: إن تظهروا الصدقات، فنعم شيئاً إظهارها، وإن تخفوها، وتصيبوا بها مصارفها من الفقراء، فالإخفاء خير لكم. وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن هذه الآية في صفة التطوع لا في صفة الفرض، فلا فضيلة للإخفاء فيها بل قد قيل: إن الإظهار فيها أفضل، وقالت طائفة: إن الإخفاء أفضل في الفرض، والتطوع. قوله: ﴿وَيَكْفُرْ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ قرأ أبو عمرو، وابن كثير، وعاصم في رواية أبي بكر، وقتادة، وابن إسحاق نكفر بالنون، والرفع. وقرأ ابن عامر، وعاصم في رواية حفص بالياء، والرفع. وقرأ الأعمش، ونافع، وحمرزة، والكسائي، بالنون، والجزم، وقرأ ابن عباس بالتاء الفوقية، وفتح الفاء، والجزم. وقرأ الحسين بن علي الجعفي بالنون، ونصب الراء. فمن قرأ بالرفع، فهو معطوف على محل الجملة الواقعة جواباً بعد الفاء، أو على أنه خبر مبتدأ محذوف. ومن قرأ بالجزم، فهو معطوف على الفاء، وما بعدها. ومن قرأ بالنصب فعلى تقدير أن. قال سيبويه: والرفع هاهنا الوجه الجيد، وأجاز الجزم بتأويل، وإن تخفوها يكن الإخفاء خيراً لكم، ويكفر، ويمثل قول سيبويه قال الخليل. ومن في قوله: ﴿مَنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ للتبعية، أي: شيئاً من سيئاتكم. وحكى الطبري عن فرقة أنها زائدة، وذلك على رأي الأخفش. قال ابن عطية: وذلك منهم خطأ.

وقد أخرج ابن جرير عن علي بن أبي طالب في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفَقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ قال: من الذهب، والفضة ﴿وَمَا لَخَرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ يعني من الحب، والتمر، وكل شيء عليه زكاة. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، عن مجاهد في قوله: ﴿أَنْفَقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ قال: من التجارة: ﴿وَمَا لَخَرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ قال: من الثمار. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والترمذي وصححه، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مروي، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه عن البراء بن عازب في قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تَتَفَقَّحُونَ﴾ قال: نزلت فينا معشر

الخصلة الفحشاء، وهي المعاصي، والإنفاق فيها، والبخل عن الإنفاق في الطاعات. قال في الكشف: والفاحش عند العرب البخل. انتهى. ومنه قول طرفة بن العبد:

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي عقيلة مال الفاحش المتشدد ولكن العرب، وإن أطلقت على البخل، فذلك لا ينافي إطلاقهم له على غيره من المعاصي، وقد وقع كثيراً في كلامهم. وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضلاً﴾ الوعد في كلام العرب: إذا أطلق، فهو في الخير، وإذا قيد، فقد يقيد تارة بالخير، وتارة بالشر. ومنه قوله تعالى: ﴿النَّارُ وَعِدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الحج: 72] ومنه أيضاً ما في هذه الآية من تهديد، وعد الشيطان بالفقر، وتهديد وعد الله سبحانه بالمغفرة، والفضل. والمغفرة: الستر على عباده في الدنيا، والآخرة لذنوبهم، وكفارتها، والفضل أن يخلف عليهم أفضل مما أنفقوا، فيوسع لهم في أرزاقهم، وينعم عليهم في الآخرة بما هو أفضل، وأكثر، وأجل، وأجمل. قوله: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ﴾ هي: العلم، وقيل: الفهم، وقيل: الإصابة في القول، ولا مانع من الحمل على الجميع شمولاً، أو بدلاً، وقيل: إنها النبوة، وقيل: العقل، وقيل: الخشية، وقيل: الورع، وأصل الحكمة ما يمنع من السفة، وهو كل قبيح. والمعنى: أن من أعطاه الله الحكمة، فقد أعطاه خيراً كثيراً. أي: عظيماً قدره، جليلاً خطره. وقرأ الزهري، ويعقوب: «ومن يؤتى الحكمة، على البناء للفاعل، وقرأ الجمهور على البناء للمفعول، والألواب: العقول، واحداً لب، وقد تقدّم الكلام فيه. قوله: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ﴾ ما شرطية، ويجوز أن تكون موصولة، والعائد محذوف أي: الذي أنفقتموه، وهذا بيان لحكم عام يشمل كل صدقة مقبولة، وغير مقبولة، وكل نذر مقبول، أو غير مقبول. وقوله: ﴿فَإِنْ اللَّهُ يَعْلَمَهُ﴾ فيه معنى الوعد لمن أنفق ونذر على الوجه المقبول، والوعيد لمن جاء بعكس ذلك. ووحد الضمير مع كون مرجعه شيئين، هما النفقة، والنذر: لأن التقدير: وما أنفقتم من نفقة، فإن الله يعلمها، أو نذرت من نذر، فإن الله يعلمه، ثم حذف أحدهما استغناء بالآخر، قاله النحاس، وقيل: إن ما كان العطف فيه بكلمة: «أو» كما في قولك: زيد، أو عمرو، فإنه يقال: أكرمته، ولا يقال: أكرمتهما، والأولى أن يقال إن العطف بأو يجوز فيه الأمران توحيد الضمير، كما في هذه الآية، وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً أَنْفَقُوا إِلَيْهَا﴾ [الجمعة: 11]. وقوله: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً﴾ [النساء: 112]، وتثنيته كما في قوله تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيْرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ [النساء: 135] ومن الأوّل في العطف بالواو قول امرئ القيس:

فتوضح فالمرأة لم ينف رسمها لما نسجت من جنوب وشمال ومنه قول الشاعر:

نحن بما عصبنا واثت بما عصبك راض والرأي مختلف ومنه «والذين يكنزون الذهب، والفضة، ولا ينفقونها» [التوبة: 34] وقيل: إنه إذا وحد الضمير بعد ذكر شيئين، أو

قال: هي الإصابة في القول. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي العالية قال: هي الخشية لله. وأخرج أيضاً عن مطر الوراق مثله. وأخرج ابن المنذر، عن سعيد بن جبير مثله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ قال: يحصيه. وقد ثبت عن النبي ﷺ في نذر الطاعة، والمعصية في الصحيح، وغيره ما هو معروف، كقوله ﷺ: «لأنذر في معصية الله» وقوله: «من نذر أن يطيع الله، فليطعه، ومن نذر أن يعصيه، فلا يعصه» وقوله: «لأنذر ما ابتغى به وجه الله» وثبت عنه في كفارة النذر ما هو معروف. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنْ تَبَدُّوا لَصَّدَقَاتُ فَنَعْمَا هِيَ﴾ الآية، قال: فجعل السر في التطوع يفضل علانيتهما سبعين ضعفاً، وجعل صدقة الفريضة علانيتهما أفضل من سرها بخمسة وعشرين ضعفاً. وكذلك جميع الفرائض، والنفقات في الأشياء كلها. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنْ تَبَدُّوا لَصَّدَقَاتُ﴾ الآية، قال: كان هذا يعمل قبل أن تنزل براءة، فلما نزلت براءة بفرائض الصدقات، وتفصيلها انتهت الصدقات إليها. وأخرج ابن المنذر، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنْ تَبَدُّوا لَصَّدَقَاتُ﴾ الآية، قال: هذا منسوخ. وقوله: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: 24] قال: منسوخ، نسخ كل صدقة في القرآن الآية التي في سورة التوبة: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾ [التوبة: 60] وقد ورد في فضل صدقة السر أحاديث صحيحة مرفوعة.

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ جُنَاحٌ أَنْ تَبْذُرَ أَمْوَالَكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِخَيْرٍ مِمَّا نَفَقْنَا مِنْ خَيْرِ مَا نَبْذُرُكَ وَلَا تَبْذُرْهُ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَا تَبْذُرُوا مِنْ خَيْرٍ يُوقَ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 267] ﴿لَقَدْ رَأَى الْقُرْآنُ الْأَزْهَرُ أَهْمُورًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَلِيمُونَ حَسْرًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنَاةً مِنَ الْمَتَّعِ تَرْفَهُمْ بَسْمَتُهُمْ لَا يَسْتَلِيمُونَ النَّاسَ الْمَكَافَ وَمَا تَبْذُرُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 268] ﴿يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْأَيْدِي وَالْأَنْهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 271]

قوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هَذَا﴾ أي: ليس بواجب عليك أن تجعلهم مهيين قائلين لما أمروا به ونهوا عنه: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ هداية توصله إلى المطلوب، وهذه الجملة معترضة، وفيها الالتفات، وسيأتي بيان السبب الذي نزلت لأجله، والمراد بقوله: ﴿مَنْ خَيْرٌ﴾ كل ما يصق عليه اسم الخير كائناً ما كان، وهو متعلق بمحذوف، أي: أي شيء تنفقون كائناً من خير، ثم بين أن النفقة المعتد بها المقبولة إنما هي ما كان ابتغاء وجه الله سبحانه، أي: لا ابتغاء وجه الله. وقوله: ﴿يُؤْفِكُ إِلَيْكُمْ﴾ أي: أجره، وثوابه على الوجه الذي تقدم ذكره من التضعيف. قوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾ متعلق بقوله: ﴿وَمَا تَبْذُرُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ أو بمحذوف أي: اجعلوا ذلك للفقراء، أو خبر مبتدا محذوف، أي: إنفاقكم للفقراء الذين

الأنصار، كنا أصحاب نخل، وكان الرجل يأتي من نخله على قدر كثرته، وقلته، وكان الرجل يأتي بالقنو والقنوين، فيعلقه في المسجد، وكان أهل الصفة ليس لهم طعام، فكان أحدهم إذا جاع أتى القنو فضربه بعصاه، فيسقط البسر، والتمر، فياكل، وكان ناس ممن لا يرغب في الخير يأتي الرجل بالقنو فيه الشيص، والحشف، وبالقنو قد انكسر، فيعلقه، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفَقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ قال: لو أن أحدكم أهدي إليه مثل ما أعطى لم يأخذه إلا على إغماض، وحياء، قال: فكنا بعد ذلك يأتي أحننا بصلح ما عنده. وأخرج عبد بن حميد، عن قتادة قال: نكر لنا أن الرجل كان يكون له الحاشطان، فينظر إلى أرثهما تمرأ، فيتصق به، ويخلط به الحشف، فنزلت الآية، فعاب الله ذلك عليهم، ونهاهم عنه. وأخرج عبد بن حميد، عن جعفر بن محمد عن أبيه قال: لما أمر رسول الله ﷺ بصدقة الفطر، فجاء رجل بتمر رديء، فأمر النبي ﷺ الذي يخرص النخل أن لا يجيز. فأنزل الله تعالى الآية هذه. وأخرج عبد بن حميد، وأبو داود، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والدارقطني، والحاكم، والبيهقي في سننه عن سهل بن حنيف قال: أمر رسول الله ﷺ بالصدقة، فجاء رجل بكباش من هذا السخل: يعني: الشيص فوضعه، فخرج رسول الله ﷺ، فقال: من جاء بهذا؟ وكان كل من جاء بشيء نسب إليه، فنزلت: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ﴾ الآية. ونهى رسول الله ﷺ عن لونين من التمر أن يوجد في الصدقة، الجعور ولون الحبيق. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مروي، والضياء في المختارة عن ابن عباس قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يشتررون الطعام الرخيص، ويتصدقون، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، عن عبيدة السلماني قال: سألت علي بن أبي طالب عن قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفَقُوا﴾ الآية، فقال: نزلت هذه الآية في الزكاة المفروضة، كان الرجل يعمد إلى التمر، فيصرمه، فيعزل الجيد ناحية، فإذا جاء صاحب الصدقة أعطاه من الرديء. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿يُؤْفِكُ إِلَيْكُمْ﴾ قال: المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه، محكمه ومتشابهه، ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه وأمثاله. وأخرج ابن مروي عنه: أنها القرآن يعني: تفسيره. وأخرج ابن المنذر عنه أنها النبوة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه قال: إنها الفقه في القرآن. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي الدرداء: ﴿يُؤْفِكُ إِلَيْكُمْ﴾ قال قراءة القرآن، والفكرة فيه. وأخرج ابن جرير، عن أبي العالية قال: هي الكتاب، والفهم به. وأخرج أيضاً عن النخعي نحوه، وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد قال: هي الكتاب يؤتي إصابته من يشاء. وأخرج عبد بن حميد عنه

أحسروا في سبيل الله بالغزو، أو الجهاد، وقيل: منعوا عن التكسب لما هم فيه من الضعف **﴿الذين لا يستطيعون ضرباً في الأرض﴾** للتكسب بالتجارة، والزراعة، ونحو ذلك بسبب ضعفهم، قيل: هم فقراء الصفة، وقيل: كل من يتصف بالفقر، وما نكر معه. ثم نكر سبحانه من أحوال أولئك الفقراء ما يوجب الحنو عليهم، والشفقة بهم، وهو: كونهم متعطفين عن المسألة، وإظهار المسكنة بحيث يظنهم الجاهل بهم أغنياء. والتعطف تفعل، وهو بناء مبالغ من عطف عن الشيء: إذا أمسك عنه، وتنزّه عن طلبه، وفي: «يحسبهم لغتان: فتح السين، وكسرها. قال أبو علي الفارسي: والفتح أقيس؛ لأن العين من الماضي مكسورة، فبالباء أن تأتي في المضارع مفتوحة. فالقراءة بالكسر على هذا حسنة، وإن كانت شاذة. ومنه» في قوله: «من التعطف» لابتداء الغاية، وقيل: لبيان الجنس. قوله: **﴿تعرفهم بسيماهم﴾** أي: برثائتيابهم، وضعف أبدانهم، وكل ما يشعر بالفقر، والحاجة. والخطاب إما لرسول الله ﷺ، أو لكل من يصلح للمخاطبة، والسيما مقصورة: العلامة، وقد تمد. والإحاف: الإحاح في المسألة، وهو مشتق من الحاف، سمي بذلك لاشتغاله على وجوه الطلب في المسألة، كاشتغال اللحاف على التغطية. ومعنى قوله: **﴿لا يسألون الناس إحافاً﴾** أنهم لا يسألونهم البتة، لا سؤال إحاح، ولا سؤال غير إحاح. وبه قال الطبري، والزجاج، وإليه ذهب جمهور المفسرين، ووجه أن التعطف صفة ثابتة لهم لا تفارقهم، ومجرد السؤال يناقياها، وقيل: المراد أنهم إذا سألوا سألوا بتلطف، ولا يلحفون في سؤالهم، وهذا، وإن كان هو الظاهر من توجه النفي إلى القيد بون المقيد، لكن صفة التعطف تنافيها، وإيضاً كون الجاهل بهم يحسبهم أغنياء لا يكون إلا مع عدم السؤال البتة. وقوله: **﴿بالليل والنهار﴾** يفيد زيادة رغبتهم في الإنفاق، وشدة حرصهم عليه حتى أنهم لا يتركون ذلك ليلاً، ولا نهاراً، ويقفلونه سراً وجهراً عند أن تنزل بهم حاجة المحتاجين، ويظهر لديهم فاقة المفتاتين في جميع الأزمنة على جميع الأحوال. ويدخل الفاء في خبر الموصول أعني قوله: **﴿فلهم جرحهم﴾** للدلالة على سببية ما قبلها لما بعدها، وقيل: هي للعطف، والخبر للموصول محذوف، أي: ومنهم الذين ينفقون.

وقد أخرج عبد بن حميد، والنسائي، والبزار، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه، والضياع في المختارة، عن ابن عباس، قال: كلنا يكرهون أن يرضخوا لأنسابهم من المشركين، فنزلت هذه الآية: **﴿ليس عليك هدام﴾** إلى قوله: **﴿وأنتم لا تظلمون﴾** فرخص لهم. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مريويه، والضياع عنه قال إن النبي ﷺ كان يأمرنا أن لا نتصق إلا على أهل الإسلام حتى نزلت هذه الآية، فأمر بالصنقة بعدها على كل من سالك من كل دين. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن سعيد بن جبيرة

نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة، عن ابن الحنفية، نحوه. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس قال: كان أناس من الانتصار لهم نسب، وقرباة من قريظة، والنضير، وكان يتقون أن لا يتصقوا عليهم، ويريدونهم أن يسلموا، فنزلت: **﴿ليس عليك هدام﴾** الآية. وأخرج ابن المنذر، عن عمرو الهلالي قال: سئل النبي ﷺ أنتصق على فقراء أهل الكتاب؟ فأنزل الله: **﴿ليس عليك هدام﴾** الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عطاء الخراساني قال في قوله: **﴿وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله﴾** قال: إذا أعطيت لوجه الله، فلا عليك ما كان عمله. وأخرج ابن المنذر من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس في قوله: **﴿للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله﴾** قال: هم أصحاب الصفة. وأخرج ابن سعد، عن محمد بن كعب القرظي، نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد قال: هم مهاجرو قريش بالمدينة مع النبي ﷺ أمروا بالصدقة عليهم. وأخرج ابن جرير، عن الربيع في قوله: **﴿الذين أحصروا في سبيل الله﴾** قال: حصرنا أنفسهم في سبيل الله للغزو فلا يستطيعون تجارة. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة قال: هم قوم أصابتهم الجراحات في سبيل الله، فصاروا زمني، فجعل لهم في أموال المسلمين حقاً. وأخرج ابن أبي حاتم، عن رجاء بن حيوة في قوله: **﴿لا يستطيعون ضرباً في الأرض﴾** قال: لا يستطيعون تجارة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي، نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الحسن في قوله: **﴿يحسبهم لجاهل أغنياء﴾** قال: دل الله المؤمنين عليهم، وجعل نفقاتهم لهم، وأمرهم أن يضعوا نفقاتهم فيهم، ورضي عنهم. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: **﴿تعرفهم بسيماهم﴾** قال: التخشع. وأخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن الربيع أن معناد تعرف في وجوههم الجهد من الحاجة. وأخرج ابن جرير، عن ابن زيد: **﴿تعرفهم بسيماهم﴾** قال: رثائتيابهم، وثبت في الصحيحين، وغيرهما من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **﴿ليس المسكين الذي ترده التمرة، والتمرتان، واللقمة، واللمتان، إنما المسكين الذي يتعطف، وأقرؤوا إن شئتم: ﴿لا يسألون الناس إحافاً﴾** وقد ورد في تحريم المسألة أحاديث كثيرة إلا لذي سلطان، أو في أمر لا يجد منه بدأ. وأخرج ابن سعد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن عدي، والطبراني، وأبو الشيخ، عن يزيد بن عبد الله بن غريب المليكي، عن أبيه، عن جده عن النبي ﷺ قال: «نزلت هذه الآية **﴿الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار﴾** في أصحاب الخيل». وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن عساكر، عن أبي أمامة الباهلي نحوه قال: فيمن لا يربطها خيلاء، ولا رياء، ولا سمعة. وأخرج ابن جرير، عن أبي النرداء نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن

به لا لتفهيم أن أصل الكلمة كذا مما لا يجري به النطق، فأعرف هذا، ولا تشتغل بما يعتبره كثير من أهل العلم في هذه النقوش، ويلزمون به أنفسهم، ويعيبون من خالفه، فإن تلك من المشاححة في الأمور الاصطلاحية التي لا تلزم أحداً أن يتقيد بها، فعليك بأن ترسم هذه النقوش على ما يلغظ به الالفاظ عند قراءتها، فإنه الأمر المطلوب من وضعها، والتواضع عليها، وليس الأمر المطلوب منها أن تكون دالة على ما هو أصل الكلمة التي يتلغظ بها المتلغظ مما لا يجري في لفظه الآن، فلا تغتر بما يروى عن سيبويه، ونحاة البصرة أن يكتب الربا بالواو؛ لأنه يقول في تنثيته: ربوان. وقال الكوفيون: يكتب بالياء، وتنثيته ربيان. قال الزجاج: ما رأيت خطأ أقبح من هذا، ولا أشنع، لا يكفيهم الخطأ في الخط حتى يخطئوا في التنثية، وهم يقرؤون: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبَا لِمِירו في اموال الناس فلا يريو﴾ [الروم: 39] وليس المراد بقوله هنا: ﴿الذين ياكلون الربا﴾ اختصاص هذا الوعيد بمن ياكله، بل هو عام لكل من يعمل بالربا، فيأخذه، ويعطيه، وإنما خص الأكل لزيادة التشنيع على فاعله، ولكونه هو الغرض الأهم، فإن أخذ الربا إنما أخذه للأكل قوله: ﴿لا يقومون﴾ أي: يوم القيامة، كما يدل عليه قراءة ابن مسعود: ﴿لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس﴾ يوم القيامة. أخرجه عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وبهذا، فسرهم جمهور المفسرين قائلوا: إنه يبعث كالمجنون عقوبة له، وتقبيلاً عند أهل المحشر، وقيل: إن المراد تشبيه من يحرص في تجارته، فيجمع ماله من الربا بقيام المجنون؛ لأن الحرص، والطمع، والرغبة في الجمع قد استقرت حتى صار شبيهاً في حركته بالمجنون، كما يقال لمن يسرع في مشيه، ويضطرب في حركاته: أنه قد جنّ، ومنه قول الأعشى في ناخته:

وتصبح من غب السري وكنها ألم بها من طائف الجنّ لولق فجعلها بسرعة مشيها، ونشاطها كالمجنون. قوله: ﴿إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس﴾ أي: إلا قياماً كقيام الذي يتخبطه، والخبط: الضرب بغير استواء كخبط العشواء، وهو المصروع. والمسّ: الجنون، والامس: المجنون، وكذلك الأولق، وهو: متعلق بقوله: ﴿يقومون﴾ أي: لا يقومون من المس الذي بهم ﴿إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان﴾ أو متعلق بيقوم. وفي الآية دليل على فساد قول من قال: إن الصرع لا يكون من جهة الجنّ، وزعم أنه من فعل الطبايع، وقال: إن الآية خارجة على ما كانت العرب تزعمه من أن الشيطان يصرع الإنسان، وليس بصحيح، وإن الشيطان لا يسلك في الإنسان، ولا يكون منه مسّ. وقد استعاذ النبي ﷺ من أن يتخبطه الشيطان، كما أخرجه النسائي، وغيره. قوله: ﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما ذكر من حالهم، وعقوبتهم بسبب قولهم: ﴿إنما البيع مثل الربا﴾ أي: أنهم جعلوا البيع، والربا شيئاً واحداً، وإنما شبهوا البيع بالربا مبالغة يجعلهم الربا أصلاً، والبيع فرعاً، أي: إنما البيع بلا

حنث الصنعاني أنه سمع ابن عباس يقول في هذه الآية: هم الذين يعلفون الخيل في سبيل الله. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن عساکر من طريق عبد الوهاب بن مجاهد، عن أبيه عن ابن عباس في هذه الآية: قال: نزلت في علي بن أبي طالب كانت له أربعة دراهم، فأنفق بالليل درهماً، وبالنهار درهماً، ودرهماً سراً، ودرهماً علانية. وعبد الوهاب ضعيف، ولكن قد رواه ابن مريويه من وجه آخر، عن ابن عباس. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة في هذه الآية قال: هؤلاء قوم أنفقوا في سبيل الله الذي افترض عليهم في غير سرف، ولا إملاق، ولا تبخير، ولا فساد. وأخرج ابن المنذر، عن سعيد بن المسيب قال: نزلت في عبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن عفان في نفقتهم في جيش العسرة.

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَاتَّهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧٥﴾ يَمْحُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الْمَكَدَرَةَ وَاللَّهُ لَا يُجِبُ كُلَّ كَذَّابٍ أَثِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِذَا الرِّبَا مَأْمُورًا وَكُفِّرُوا كَثِيرًا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٧٧﴾

الربا في اللغة: الزيادة مطلقاً، يقال: ربا الشيء يربو: إذا زاد، وفي الشرح: يطلق على شيئين، على ربا الفضل، وriba النسبية حسباً هو مفصل في كتب الفروع، وغالب ما كانت تفعله الجاهلية أنه إذا حلّ أجل الدين قال من هو له لمن هو عليه: أتقضي أم تربي؟ فإذا لم يقض زاد مقداراً في المال الذي عليه، وأخر له الأجل إلى حين. وهذا حرام بالاتفاق، وقياس كتابة الربا بالياء للكسرة في أوله. وقد كتبوه في المصحف بالواو. قال في الكشف: على لغة من يفخم⁽¹⁾ كما كتبت الصلاة، والزكاة، وزيدت الألف بعدها تشبيهاً بواو الجمع. انتهى. قلت: وهذا مجرد اصطلاح لا يلزم المشي عليه، فإن هذه النقوش الكتابية أمور اصطلاحية لا يشاح في مثلها إلا فيما كان يدل به منها على الحرف الذي كان في أصل الكلمة، ونحوه، كما هو مقرر في مباحث الخط من علم الصرف، وعلى كل حال، فرسم الكلمة، وجعل نقشها الكتابي على ما يقتضيه اللفظ بها هو الأولى، فما كان في النطق ألفاً كالصلاة، والزكاة، ونحوهما كان الأولى في رسمه أن يكون كذلك، وكون أصل هذا الألف ولواً، أو ياء لا يخفى على من يعرف علم الصرف، وهذه النقوش ليست إلا لفهم اللفظ الذي يدل بها عليه كيف هو: في نطق من ينطق

(1) والمراد بالتفخيم هنا الفتح، وضد الترقيق بالالف وهو الإمالة،

على الله: ﴿واحل الله البيع وحرم الربا﴾ ومن عاد فاكل الربا: ﴿فاولئك اصحاب النار هم فيها خالدون﴾. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه في الآية قال: أكل الربا يبعث يوم القيامة مجنوناً يخنق. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر من وجه آخر عنه أيضاً في قوله: ﴿لا يقومون﴾ قال: ذلك حين يبعث من قبره. وأخرج الاصبهاني في ترغيبه، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «يأتي أكل الربا يوم القيامة مختبلاً يجر شفتيه، ثم قرأ: ﴿لا يقومون﴾ إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس» وقد روت أحاديث كثيرة في تعظيم نيب الربا، منها من حديث عبد الله بن مسعود، عند الحاكم وصححه، والبيهقي عن النبي ﷺ قال: «الربا ثلاثة وسبعون باباً، ليسرهما مثل أن ينكح الرجل أمه، وإن أربى الربا عرض الرجل المسلم» ومن حديث أبي هريرة مرفوعاً، عند ابن ماجه، والبيهقي بلفظ: «سبعون باباً» وورد هذا المعنى مع اختلاف العدد عن عبد الله بن سلام، وكعب، وابن عباس، وأنس. وأخرج ابن جرير، عن الربيع في الآية قال: يبعثون يوم القيامة، وبهم خبل من الشيطان، وهي في بعض القراءات: «لا يقومون يوم القيامة». يعني قراءة ابن مسعود المتقدم نكرها. وفي الصحيحين، وغيرهما من حديث عائشة قالت: لما نزلت الآيات من آخر سورة البقرة في الربا «خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد، فقراهن على الناس، ثم حرم التجارة في الخمر» وأخرج ابن جرير، وابن مريويه، عن عمر بن الخطاب: أنه خطب، فقال: إن من آخر القرآن نزولاً آية الربا، وإنه قد مات رسول الله ﷺ، ولم يبينه لنا، فدعوا ما يريكم إلى ما لا يريكم. وأخرج البخاري، وغيره، عن ابن عباس أنه قال: آخر آية أنزلها على رسوله آية الربا. وأخرج البيهقي في الدلائل، عن عمر مثله. وأخرج ابن جرير، عن مجاهد في الربا الذي نهى الله، عنه قال: كان أهل الجاهلية يكون للرجل على الرجل الدين، فيقول: لك كذا وكذا، وتؤخر عني، فيؤخر عنه. وأخرج أيضاً، عن قتادة نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبیر، نحوه أيضاً، وزاد في قوله: ﴿فمن جاءه موعظة من ربه﴾ قال: يعني البيان الذي في القرآن في تحريم الربا، فانتهى عنه: «قله ما سلف» يعني: فله ما كان أكل من الربا قبل التحريم: «وأمره إلى الله» يعني بعد التحريم، وبعد تركه إن شاء عصمه منه، وإن شاء لم يفعل «ومن عاد» يعني في الربا بعد التحريم، فاستحله بقولهم: ﴿إنما البيع مثل الربا - فاولئك اصحاب النار هم فيها خالدون﴾ يعني لا يموتون. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، من طريق ابن جريج، عن ابن عباس في قوله: ﴿يمحق الله الربا﴾ قال: ينقص الربا «ويربي للصنقات» قال: يزيد فيها، وقد ثبت في الصحيحين، وغيرهما من حديث أبي هريرة مرفوعاً «من تصلق بعذل ثمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا طيباً، فإن الله يقبلها بيمينه، ثم يربها لصاحبها، كما يربي أحكم فلو» حتى تكون مثل الجبل».

زيادة عند حلول الأجل، كالبيع بزيادة عند حلوله، فإن العرب كانت لا تعرف ربا إلا ذلك، فرد الله سبحانه عليهم بقوله: ﴿واحل الله البيع وحرم الربا﴾ أي: أن الله أحل البيع، وحرم نوعاً من أنواعه، وهو البيع المشتمل على الربا. والبيع مصدر باع يبيع، أي: بفع عوضاً، وأخذ معوضاً، والجملة بيان لا محل لها من الإعراب. قوله: ﴿فمن جاءه موعظة من ربه﴾ أي: من بلغته موعظة من الله من المواعظ التي تشتمل عليها الأوامر، والنواهي، ومنها ما وقع هنا من النهي عن الربا «فانتهى» أي: فامتثل النهي الذي جاءه، وانزجر عن المنهي عنه، وهو معطوف، أي: قوله: ﴿فانتهى﴾ على قوله: ﴿جاءه﴾ وقوله: ﴿من ربه﴾ متعلق بقوله: ﴿جاءه﴾ أو بمحذوف وقع صفة لموعظة، أي: كائنة من «من ربه فله ما سلف» أي: ما تنقذ منه من الربا لا يؤخذ به؛ لأنه فعله قبل أن يبلغه تحريم الربا، أو قبل أن تنزل آية تحريم الربا. وقوله: ﴿فأمره إلى الله﴾ قيل: الضمير عائذ إلى الربا، أي: وأمر الربا إلى الله في تحريمه على عباده، واستمرار ذلك التحريم، وقيل: الضمير عائذ إلى ما سلف، أي: أمره إلى الله في العفو عنه، وإسقاط التبعة فيه، وقيل: الضمير يرجع إلى المربي، أي: أمر من عامل بالربا إلى الله في تنبيته على الإنتهاء، أو الرجوع إلى المعصية «ومن عاد» إلى أكل الربا، والمعاملة به «فاولئك اصحاب النار هم فيها خالدون» والإشارة إلى من عاد، وجمع أصحاب باعتبار معنى من، وقيل: إن معنى من عاد: هو أن يعود إلى القول: ﴿إنما البيع مثل الربا﴾ وأنه يكفر بذلك، فيستحق الخلود، وعلى التقدير الأول: يكون الخلود مستعاراً على معنى المبالغة، كما تقول العرب ملك خالد، أي: طويل البقاء، والمصير إلى هذا التأويل واجب للأحاديث المتواترة القاضية بخروج الموحدين من النار. قوله: ﴿يمحق الله الربا﴾ أي: يذهب بركته في الدنيا، وإن كان كثيراً، فلا يبقى بيد صاحبه، وقيل: يمحق بركته في الآخرة. قوله: ﴿ويربي للصنقات﴾ أي: يزيد في المال الذي أخرجت صدقته، وقيل: يبارك في ثواب الصنقة، ويضاعفه، ويزيد في أجر المتصدق، ولا مانع من حمل ذلك على الأمرين جميعاً. قوله: ﴿والله لا يحب كل كفار أثيم﴾ أي: لا يرضى؛ لأن الحب مختص بالتوابين، وفيه تشديد، وتغليظ عظيم على من أربى حيث حكم عليه بالكفر، ووصفه بأثيم للمبالغة، وقيل: لإزالة الاشتراك، إذ قد يقع على الزراع، ويحتمل أن المراد بقوله: ﴿كل كفار﴾ من صلرت منه خصلة توجب الكفر، ووجه التصاقه بالمقام أن الذين قالوا: إنما البيع مثل الربا كفار. وقد تقدم تفسير قوله: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ إلى آخر الآية.

وقد أخرج أبو يعلى من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس في قوله: ﴿الذين ياكلون الربا لا يقومون﴾ إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس» قال: يعرفون يوم القيامة بذلك لا يستطيعون القيام، إلا كما يقوم المتخبط المنخنق: «ذلك بانهم قالوا إنما البيع مثل الربا» وكنبوا

مصحف أبي بن كعب. وروى المعتمر، عن حجاج الوراق، قال في مصحف عثمان: ﴿وَأَنْ كَانَ ذَا عَسْرَةٍ﴾ قال النحاس، ومكي، والنقاش: وعلى هذا يختص لفظ الآية بأهل الربا، وعلى من قرأ: «نو» فهي عامة في جميع من عليه دين، وإليه ذهب الجمهور. وقرأ الجماعة: ﴿فَنظَرَةٌ﴾ بكسر الظاء. وقرأ مجاهد، وأبو رجاء، والحسن بسكونها، وهي لغة تميم. وقرأ نافع، وحده: ﴿مَيْسِرَةٌ﴾ بضم السين، والجمهور بفتحها، وهي اليسار. قوله: ﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا﴾ بحذف إحدى التامين، وقرئ بتشديد الصاد، أي: وأن تصدقوا على معسري غرماكم بالإبراء خير لكم، وفيه الترغيب لهم بأن يتصدقوا برووس أموالهم على من أعسر، وجعل ذلك خيراً من إنظاره، قاله السدي، وابن زيد، والضحاك. قال الطبري: وقال آخرون: معنى الآية: وأن تصدقوا على الغني، والفقير خير لكم. والصحيح الأول، وليس في الآية مندخل للغني. قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ جوابه محذوف، أي: إن كنتم تعلمون أنه خير لكم عملتم به. قوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾ هو يوم القيامة، وتذكيره للتحويل، وهو منصوب على أنه مفعول به لا ظرف. وقوله: ﴿تَرْجِعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ وصف له. وقرأ أبو عمر، ويفتح التاء، وكسر الجيم، والباقيون بضم التاء، وفتح الجيم، وذهب قوم إلى أن هذا اليوم المنكور هو يوم الموت. وذهب الجمهور إلى أنه يوم القيامة، كما تقدم. وقوله: ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ فيه مضاف محذوف تقديره إلى حكم الله ﴿فَمَنْ تَوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ﴾ من النفوس المكلفة ﴿مَا كَسَبَتْ﴾ أي: جزاء ما عملت من خير، أو شر، وجملة: ﴿وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾ حالية، وجمع الضمير؛ لأنه أنسب بحال الجزاء، كما أن الأفراد أنسب بحال الكسب، وهذا الآية فيها الموعظة الحسنة لجميع الناس.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن السدي في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾ قال: نزلت في العباس بن عبد المطلب، ورجل من بني المغيرة، كانا شريكين في الجاهلية يسلفان الربا إلى ناس من ثقيف، فجاء الإسلام، ولهما أموال عظيمة في الربا، فأنزل الله هذه الآية. وأخرج ابن جرير، عن ابن جريج، قال: كانت ثقيف قد صالحت النبي ﷺ على أن ما لهم من ربا على الناس، وما كان للناس عليهم من ربا، فهو موضوع، فلما كان الفتح استعمل عتاب بن أسيد على مكة، وكانت بنو عمرو بن عوف يأخون الربا من بني المغيرة، وكان بنو المغيرة يربون لهم في الجاهلية، فجاء الإسلام، ولهم عليهم مال كثير، فاتاهم بنو عمرو، يطلبون رباهم، فإبى بنو المغيرة أن يعطوهم في الإسلام، ورفعوا ذلك إلى عتاب بن أسيد، فكتب عتاب إلى رسول الله ﷺ، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾ فكتب بها رسول الله ﷺ إلى عتاب، وقال: إن رضوا، وإلا فأنهم بحرب. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَإِنَّمَا بِحَرْبٍ﴾ قال: من كان مقيماً

وأخرج البزار، وابن جرير، وابن حبان، والطبراني من حديث عائشة نحوه. وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول، عن ابن عمر مرفوعاً نحوه أيضاً. وفي حديث عائشة، وابن عمر أن رسول الله ﷺ قرأ بعد أن ساق الحديث: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾. وأخرج الطبراني عن أبي بزة الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد ليتصدق بالكسرة تربو عند الله حتى تكون مثل أحد» وهذه الأحاديث تبين معنى الآية.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٠٧﴾ فَإِنْ لَّمْ تَقْعُدُوا فَأَذْنُوبُ حَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتِغُوا فَكَيْفَ تُدْرِكُونَ ﴿٢٠٨﴾ لَكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٠٩﴾ وَإِنْ كَانَتْ ذُو عَسْرَةٍ فَنظَرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢١٠﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجِعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢١١﴾

قوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: قوا أنفسكم من عقابه، واتركوا البقايا التي بقيت لكم من الربا، وظاهره أنه إبطل من الربا ما لم يكن مقبوضاً. قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ قيل: هو شرط مجازي على جهة المبالغة، وقيل: إن «إن» في هذه الآية بمعنى إذ. قال ابن عطية: وهو مربود لا يعرف في اللغة، والظاهر أن المعنى: إن كنتم مؤمنين على الحقيقة، فإن ذلك يستلزم امتثال أوامر الله ونواهيه. قوله: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ يعني ما أمرتم به من الاتقاء، وترك ما بقي من الربا ﴿فَإِنَّمَا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: فاعلموا بها، من أنن بالشئ إذا علم به، قيل: هو من الإنن بالشئ، وهو الاستماع، لأنه من طرق العلم. وقرأ أبو بكر عن عاصم، وحزمة: «فإنما» على معنى فاعلموا غيركم أنكم على حربهم. وقد نلت هذه على أن أكل الربا، والعمل به من الكبائر، ولا خلاف في ذلك، وتذكير الحرب للتعظيم، وزادها تعظيماً نسبتها إلى اسم الله الأعظم، وإلى رسوله الذي هو: أشرف خليقته. قوله: ﴿فَإِنْ تَبْتِغُوا﴾ أي من الربا ﴿فَكَيْفَ تَدْرِكُونَ رُؤُوسَ أَمْوَالِكُمْ﴾ تآخونها ﴿لَا تَظْلَمُونَ﴾ غرماكم بأخذ الزيادة ﴿وَلَا تَظْلَمُونَ﴾ أنتم من قبلهم بالمطل، والنقص، والجملة حالية، أو استئنافية. وفي هذا دليل على أن أموالهم مع عدم التوبة حلال لمن أخذها من الأثمة، ونحوهم ممن ينوب عنهم. قوله: ﴿وَأَنْ كَانَ ذُو عَسْرَةٍ﴾ لما حكم سبحانه لأهل الربا برووس أموالهم عند الواجبين للمال حكم في نوي العسرة بالنظرة إلى يسار، والعسرة: ضيق الحال من جهة عدم المال، ومنه جيش العسرة. والنظرة: التأخير، والميسرة مصدر بمعنى اليسر، وارتفع «نو» بكان التامة التي بمعنى وجد، وهذا قول سيبويه، وأبي علي الفارسي، وغيرهما. وأنشد سيبويه:

فدى لبني ذهل بن شيبان يا فتى إذا كان يوم نو كوكلب أشهب
وفي مصحف أبي: «وَأَنْ كَانَ ذَا عَسْرَةٍ» على معنى: وإن كان المطلوب ذا عسرة. وقرأ الأعمش: «وَأَنْ كَانَ مَعْسَرًا». قال أبو عمرو الداني، عن أحمد بن موسى، وكذلك في

بيان حال الربا، أي: إذا دأب بعضكم بعضاً، وعامله بذلك، ونكر الدين بعد ذكر ما يفني عنه من المداينة لقصد التأكيد مثل قوله: ﴿ولا طائر يطير بجناحيه﴾ [الأنعام: 38] وقيل: إنه نكر ليرجع إليه الضمير من قوله: ﴿فلا تكتبوه﴾ ولو قال: فلا تكتبوا الدين لم يكن فيه من الحسن ما في قوله: ﴿إذا تداينتم بدين﴾، والدين عبارة، عن كل معاملة كان أحد العوضين فيها نقداً، والآخر في النعمة نسيئة، فإن العين عند العرب ما كان حاضراً، والدين ما كان غائباً، قال الشاعر:

وعشنا بدرهمينا طلاءً وسواء معجلاً غير دين
وقال الآخر:

إذا ما لوقدنا ناراً وحطباً فذاك الموت نقداً غير دين
وقد بين الله سبحانه هذا المعنى بقوله: ﴿إلى أجل مسمى﴾ وقد استدل به على أن الأجل المجهول لا يجوز، وخصوصاً أجل السلم. وقد ثبت في الصحيح، عن النبي ﷺ: «من أسلف في تمر فليسلف في كيل معلوم إلى أجل معلوم، وقد قال بذلك الجمهور، واشترطوا توقيته بالأيام، أو الأشهر، أو السنين، قالوا: ولا يجوز إلى الحصاد، أو النديس، أو رجوع القافلة، أو نحو ذلك، وجوزّه مالك. قوله: ﴿فلا تكتبوه﴾ أي: الدين باجلاً؛ لأنه أنفع للنزاع، وأقطع للخلاف. قوله: ﴿وليكتب بينكم كتاب﴾ هو: بيان كيفية الكتابة للأمور بها، وظاهر الأمر الوجوب، وبه قال عطاء، والشعبي، وغيرهما، فأوجبوا على الكاتب أن يكتب إذا طلب منه ذلك، ولم يوجد كاتب سواء، وقيل: الأمر للندب. وقوله: ﴿بالعدل﴾ متعلق بمحذوف صفة لكاتب أي: كاتب كائن بالعدل، أي: يكتب بالسوية لا يزيد، ولا ينقص، ولا يميل إلى أحد الجانبين، وهو أمر للمتدائنين باختيار كاتب متصف بهذه الصفة لا يكون في قلبه، ولا قلعه هودة لأحدهما على الآخر، بل يتحرى الحق بينهما، والمعملة فيهم. قوله: ﴿ولا ياب كتاب﴾ النكرة في سياق النفي مشعرة بالعموم، أي: لا يمتنع أحد من الكتاب أن يكتب كتاب التدائن، كما علمه الله، أي: على الطريقة التي علمه الله من الكتابة، أو كما علمه الله بقوله: ﴿بالعدل﴾. قوله: ﴿وليمل الذي عليه الحق﴾ الإملا، والإملاء لغتان: الأولى لغة أهل الحجاز، وبني أسد، والثانية لغة بني تميم، فهذه الآية جاءت على اللغة الأولى، وجاء على اللغة الثانية قوله تعالى: ﴿فهي تلي عليه بكرة وأصيلاً﴾ [الفرقان: 5] «والذي عليه الحق» هو من عليه الدين، أمره الله تعالى بالإملاء، لأن الشهادة إنما تكون على إقراره بثبوت الدين في نمته، وأمره الله بالتقوى فيما يمليه على الكاتب، بالغ في ذلك بالجمع بين الإسم، والوصف في قوله: ﴿وليتق الله ربه﴾ ونهاه عن البخس، وهو النقص، وقيل: إنه نهي للكاتب. والأول أولى؛ لأن من عليه الحق هو الذي يتوقع منه النقص، ولو كان نهياً للكاتب لم يقتصر في نهيه على النقص؛ لأنه يتوقع منه الزيادة، كما يتوقع منه النقص. والسفيه هو: الذي لا رأي له في حسن التصرف، ولا يحسن الأخذ، ولا الإعطاء، شبه بالثوب السفيه، وهو

على الربا لا ينزع منه، فحق على إمام المسلمين أن يستتبه، فإن نزع، ولا ضرب عنقه. وأخرجوا أيضاً عنه في قوله: ﴿فانثروا بحرب﴾ قال: استيقنوا بحرب، وأخرج أهل السنن، وغيرهم عن عمرو بن الأحوص، أنه شهد حجة الوداع مع رسول الله ﷺ، فقال: «ألا إن كل ربا في الجاهلية موضوع، لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون، ولا تظلمون، وأول ربا موضوع ربا العباس» وأخرج ابن منده، عن ابن عباس، قال: نزلت هذه الآية في ربيعة بن عمرو، وأصحابه: ﴿وإن تبتم فلکم رؤوس أموالکم﴾. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وإن كان ذو عسرة﴾ قال: نزلت في الربا، وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، عن شريح، نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن الضحاک في الآية، قال: وكذلك كل دين على مسلم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبیر، نحوه. وقد رويت أحاديث صحيحة في الصحيحين، وغيرهما في الترغيب لمن له دين على معسر أن ينظره، وأخرج أبو عبيد، وعبد بن حميد، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي، عن ابن عباس قال: آخر آية نزلت من القرآن على النبي ﷺ: ﴿ولتتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله﴾ وأخرج ابن أبي شيبة، عن السدي، وعطية العوفي مثله. وأخرج ابن الأنباري، عن أبي صالح، وسعيد بن جبیر، مثله أيضاً وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، والبيهقي من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس أنها آخر آية نزلت، وكان بين نزولها وبين موت النبي ﷺ إحدى وثمانون يوماً. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبیر: أنه عاش النبي ﷺ بعد نزولها تسع ليال، ثم مات.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلَأِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا بِيْعَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَوًى أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلَأْ وَليُمْلَأِ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشِيرُوا شِعْرَتَكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُنْوا بِحِلٍّ فَارْجِعُوا وَأَمَّا إِذَا مَنِ رَضَوْنَ مِنَ الْقَرْضَى أَنْ يَمِلَّ أَحَدُهُمَا فَتَحْصِرُوا أَحَدَهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَحْزَنْ أَنْ تَكْتُبُوهُ سَفِيهًا أَوْ كَذِبًا إِلَى أَجَلِهِ لَكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْهِ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهَدُوا إِذَا تَسَاءَلْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَقَلُّوا فَإِنَّهُ شُوفًا بِكُمْ وَأَضْغَوُا اللَّهُ رِيْبَكُمْ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٨﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَيْنَ مَقْبُوضَةً فَإِنْ أَنِ بَضُكُمْ بَعْضًا فَلَئِنَّ الَّذِي آتَىٰكُمْ أَسْنَدَهُ لَيْسَ اللَّهُ رِبًّا وَلَا تَحْزَنْوا الشَّهَادَةُ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ يَكُفِّرُ بِنَفْسِهِ وَأَلَّامُ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾

هذا شروع في بيان حال المداينة الواقعة بين الناس بعد

والملك، والشافعي، وأبو حنيفة، وأصحابه إلى أنه مندوب، وهذا الخلاف بين هؤلاء هو في وجوب الإشهاد على البيع. واستدل الموجبون بقوله تعالى: ﴿وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ ولا فرق بين هذا الأمر، وبين قوله: ﴿وَأَسْتَشْهَدُوا﴾ فيلزم القائلين بوجوب الإشهاد في البيع أن يقولوا بوجوبه في المداينة. قوله: ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُنْ﴾ أي: الشاهدان ﴿رَجُلَيْنِ فَرَجُلٍ وَامْرَأَتَانِ﴾ أي: فليشهد رجل، وامرأتان، أو فرجل، وامرأتان يكفون. وقوله: ﴿لَمَنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشَّهَدَاءِ﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة لرجل، وامرأتان، أي: كائنتون ممن ترضون حال كونهم من الشهداء. والمراد ممن ترضون دينهم، وعدلتهم، وفيه أن المرأتين في الشهادة برجل، وأنها لا تجوز شهادة النساء إلا مع الرجل لا وحدهن، إلا فيما لا يطلع عليه غيرهن للضرورة. واختلفوا هل يجوز الحكم بشهادة امرأتين مع يمين المدعي كما جاز الحكم برجل مع يمين المدعي؟ فذهب مالك، والشافعي إلى أنه يجوز ذلك، لأن الله سبحانه قد جعل المرأتين كالرجل في هذه الآية. وذهب أبو حنيفة، وأصحابه إلى أنه لا يجوز ذلك، وهذا يرجع إلى الخلاف في الحكم بشاهد مع يمين المدعي، والحق أنه جائز لورود الليل عليه، وهو زيادة لم تخالف ما في الكتاب العزيز، فيتعين قبولها. وقد أوضحنا ذلك في شرحنا للمنتقى، وغيره من مؤلفاتنا، ومعلوم عند كل من يفهم أنه ليس في هذه الآية ما يرد به قضاء رسول الله ﷺ بالشاهد، واليمين، ولم يدفعوا هذا إلا بقاعدة مبنية على شفا جرف هار هي قولهم: إن الزيادة على النص نسخ، وهذه دعوى باطلة، بل الزيادة على النص شريعة ثابتة جاعنا بها من جاعنا بالنص المتقدم عليها، وأيضاً كان يلزمهم أن لا يحكموا بنبول المطلوب، ولا بيمين الرد على الطالب. وقد حكموا بهما، والجواب الجواب. قوله: ﴿إِنْ تَضَلَّ إِحْدَاهُمَا فَتَنَكَّرْ إِحْدَاهُمَا الْآخَرَى﴾ قال أبو عبيد: معنى تَضَلَّ تنسى، والضلال عن الشهادة إنما هو نسيان جزء منها، ونكر جزء. وقرأ حمزة: ﴿إِنْ تَضَلَّ﴾ بكسر الهمزة. وقوله: ﴿فَتَنَكَّرْ﴾ جوابه على هذه القراءة، وعلى قراءة الجمهور هو منصوب بالعطف على تَضَلَّ، ومن رفعه فعلى الاستئناف. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: ﴿فَتَنَكَّرْ﴾ بتخفيف الذال، والكاف، ومعناه: تزيدها نكراً. وقراءة الجماعة بالتشديد، أي: تنبيهاً إذا غفلت، ونسيت، وهذه الآية تعليل لاعتبار العدد في النساء، أي: فليشهد رجل، وتشهد امرأتان عوضاً، عن الرجل الآخر لأجل تنكير إحداهما للآخرى إذا ضلت، وعلى هذا، فيكون في الكلام حذف، وهو سؤال سائل عن وجه اعتبار امرأتين عوضاً عن الرجل الواحد، فقيل وجهه أن تَضَلَّ إحداهما، فتَنَكَّرَ إحداهما الآخرى، والعلّة في الحقيقة هي: التنكير، ولكن الضلال لما كان سبباً له نزل منزلته، وأبهم الفاعل في تَضَلَّ، وتنكر، لأن كلا منهما يجوز عليه الوصفان؛ فالمعنى: إن ضلت هذه نكرتها هذه، وإن ضلت هذه نكرتها هذه لا على التعيين، أي: إن ضلت إحدى المرأتين نكرتها المرأة

الخفيف النسج، والعرب تطلق السفه على ضعف العقل تارة، وعلى ضعف البين أخرى، فمن الأول قول الشاعر:

نخاف أن تسفه أعلامنا ونجهل الدهرمع الجاهل

ومن الثاني قول ذي الرمة:

مشين كما امتزت رماح تسفهت أعليناها من الرياح النواسم

أي: استضعفها، واستلانها بحركتها، وبالجمله فالسفيه هو المبذر إما لجهله بالصرف، أو لتلاعبه بالمال عبثاً مع كونه لا يجهل الصواب. والضعيف هو: الشيخ الكبير، أو الصبي. قال أهل اللغة: الضعيف بضم الضاد في البدن، وفتحها في الرأي. والذي لا يستطيع أن يمل هو الأخرس، أو العمي الذي لا يقدر على التعبير كما ينبغي، وقيل: إن الضعيف هو المذهول العقل الناقص الفطنة العاجز عن الإملاء، والذي لا يستطيع أن يمل هو: الصغير. قوله: ﴿فَلْيَمْلِكْ وَلِيهِ بِالْعَدْلِ﴾ الضمير عائذ إلى الذي عليه الحق فيمل عن السفيه وليه المنصوب عنه بعد حجره، عن التصرف في ماله، ويمل عن الصبي، وصيه، أو وليه، وكذلك يمل عن العاجز، الذي لا يستطيع الإملاء لضعف وليه؛ لأنه في حكم الصبي، أو المنصوب عنه من الإمام، أو القاضي، ويمل عن الذي لا يستطيع، وكيله إذا كان صحيح العقل، وعرضت له آفة في لسانه، أو لم تعرض، ولكنه جاهل لا يقدر على التعبير، كما ينبغي. وقال الطبري: إن الضمير في قوله: ﴿وَلِيهِ﴾ يعود إلى الحق، وهو ضعيف جداً. قال القرطبي في تفسيره: وتصرف السفيه المحجور عليه نون وليه فاسد إجماعاً مفسوخ أبداً لا يوجب حكماً، ولا يؤثر شيئاً، فإن تصرف سفيه، ولا حجر عليه، ففيه خلاف. انتهى. قوله: ﴿وَأَسْتَشْهَدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رَجَالِكُمْ﴾ الاستشهاد: طلب الشهادة، وسماهما شهيدين قبل الشهادة من مجاز الأول أي: باعتبار ما يؤول إليه أمرهما من الشهادة، و ﴿مِنْ رَجَالِكُمْ﴾ متعلق بقوله: ﴿وَأَسْتَشْهَدُوا﴾ أو بمحذوف هو: صفة لشهيدين، أي: كائنين من رجالكم، أي: من المسلمين، فيخرج الكفار، ولا وجه لخروج العبيد من هذه الآية. فهم إذا كانوا مسلمين من رجال المسلمين، وبه قال شريح، وعثمان البتي، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وأبو ثور. وقال أبو حنيفة، ومالك، والشافعي، وجمهور العلماء: لا تجوز شهادة العبد لما يلحقه من نقص البرق. وقال الشعبي، والنخعي: يصح في الشيء اليسير نون الكثير. واستدل الجمهور على عدم جواز شهادة العبد بأن الخطاب في هذه الآية مع الذين يتعاملون بالمداينة، والعبيد لا يملكون شيئاً تجري فيه المعاملة. ويجب عن هذا بأن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وأيضاً العبد تصح منه المداينة، وسائر المعاملات إذا أذن له مالك بذلك. وقد اختلف الناس هل الإشهاد واجب، أو مندوب، فقال أبو موسى الأشعري، وابن عمر، والضحاك، وعطاء، وسعيد بن المسيب، وجابر بن زيد، ومجاهد، ودأود بن علي الظاهري، وابنه: إنه واجب، ووجه ابن جرير الطبري، وذهب الشعبي، والحسن،

الأخرى، وإنما اعتبر فيهما هذا التذكير لما يلحقهما من ضعف النساء بخلاف الرجال. وقد يكون الوجه في الإيهام أن ذلك يعني الضلال، والتذكير يقع بينهما متتارياً حتى ربما ضلت هذه عن وجه وضلت تلك عن وجه آخر، فنكرت كل واحدة منهما صاحبتهما. وقال سفيان بن عيينة: معنى قوله: ﴿فَتَذَكَّرْ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ تصديرها نكراً، يعني: أن مجموع شهادة المرأتين مثل شهادة الرجل الواحد. وروي نحوه عن أبي عمرو بن العلاء، ولا شك أن هذا باطل لا يدل عليه شرع، ولا لغة، ولا عقل. قوله: ﴿وَلَا يَأْبُ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ أي: لئلا الشهادة التي قد تحملوها من قبل، وقيل: إذا ما دعوا لتحمل الشهادة، وتسميتهم شهداء مجاز كما تقدم، وحملها الحسن على المعنيين. وظاهر هذا النهي أن الامتناع من أداء الشهادة حرام. قوله: ﴿وَلَا تَسَامُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ﴾ معنى تساموا: تملوا. قال الأخفش: سئمت إسام سامة، وسئاماً، ومنه قول الشاعر:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعيش ثمانين حولاً لا لبالك يسام
أي: لا تملوا أن تكتبوه، أي: اللين الذي تداينتم به، وقيل: الحق، وقيل: الشاهد، وقيل: للكتاب، نهامهم الله سبحانه عن ذلك؛ لأنهم ربما ملوا من كثرة المداينة أن يكتبوا، ثم بالغ في ذلك، فقال: ﴿صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا﴾ أي: حال كون ذلك المكتوب صغيراً، أو كبيراً أي: لا تملوا في حال من الأحوال سواء كان الدين كثيراً، أو قليلاً، وقيل: إنه كنى بالسامة عن الكسل. والاول أولى. وقدم الصغير هنا على الكبير للاهتمام به لنفع ما عساه أن يقال: إن هذا مال صغير، أي: قليل لا احتياج إلى كتبه، والإشارة في قوله: ﴿لَكُمْ﴾ إلى المكتوب المذكور في ضمير قوله: ﴿أَنْ تَكْتُبُوهُ﴾، وواقتسط معناه أعدل، أي: أصح، وأحفظ ﴿وَأَقِمْ لِلشَّهَادَةِ﴾ أي: أعون على إقامة الشهادة، وأثبت لها، وهو مبني من أقام، وكذلك اقتسط مبني من فعله، أي: اقتسط. وقد صرح سيبويه بأنه قياسي، أي: بني أفعال التفضيل. ومعنى قوله: ﴿وَأَنْتَ أَنْ لَا تَرْتَابُوا﴾ أقرب لنفي الريب في معاملاتكم، أي: الشك، ولذلك أن الكتاب الذي يكتبونه يدفع ما يعرض لهم من الريب كائناً ما كان. قوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾ أن في موضع نصب على الاستثناء قاله الأخفش، وكان تامة، أي: إلا أن تقع، أو توجد تجارة، والاستثناء منقطع، أي: لكن وقت تبائعكم، وتجارحكم حاضرة بحضور البليدين ﴿تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾ تتعاونونها يداً بيد، فالإدارة: التعاطي، والتقايض، فالمراد التبايع الناجز يداً بيد، فلا حرج عليكم إن تركتم كتابته. وقرئ بنصب تجارة على أن كان ناقصة، أي: إلا أن تكون التجارة تجارة حاضرة. قوله: ﴿وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ قيل: معناه: وأشهدوا إذا تبايعتم هذا التبايع المذكور هذا، وهو التجارة الحاضرة على أن الإشهاد فيها يكفي، وقيل: معناه: إذا تبايعتم أي تبايع كان حاضراً، أو كائناً، لأن ذلك أنفع لمادة الخلاف وأقطع لمنشا الشجار. وقد تقدم قريباً نكر الخلاف في كون هذا الإشهاد واجباً، أو

منوباً. قوله: ﴿وَلَا يَضَارُّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ يحتمل أن يكون مبنياً للفعل، أو للمفعول، فعلى الأول معناه: لا يضار كاتب، ولا شهيد من طلب ذلك منهما، إما بعدم الإجابة، أو بالتحريف، والتبديل، والزيادة، والنقصان في كتابته، ويدل على هذا قراءة عمر بن الخطاب، وابن عباس، وابن أبي إسحاق: «ولا يضار» بكسر الراء الأولى، وعلى الثاني لا يضار كاتب، ولا شهيد بأن يدعيا إلى ذلك، وهما مشغولان بهمم لهما، ويضيق عليهما في الإجابة، ويؤنيا إن حصل منهما التراخي، أو يطلب منهما الحضور من مكان بعيد، ويدل على ذلك قراءة ابن مسعود: «ولا يضار» بفتح الراء الأولى، وصيغة المفاعلة تدل على اعتبار الأمرين جميعاً. وقد تقدم في تفسير قوله تعالى: ﴿لَا تَضَارُّ وَالِدَةُ بَوْلِهَا﴾ [البقرة: 233] ما إذا راجعته ذلك بصيرة إن شاء الله. قوله: ﴿وَأَنْ تَفْعَلُوا﴾ أي: ما نيتهم عنه من المضارة ﴿فَإِنَّهُ﴾ أي: فعلكم هذا ﴿فَسَوْقَ بِكُمْ﴾ أي: خروج عن الطاعة إلى المعصية ملتبس بكم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في فعل ما أمركم به، وترك ما نهاكم عنه ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ ما تحتاجون إليه من العلم، وفيه الوعد لمن اتقاه أن يعلمه، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فِرْقَانًا﴾ [الأنفال: 29]. قوله: ﴿وَأَنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ﴾ لما نكر سبحانه مشروعية الكتابة، والإشهاد لحفظ الأموال، ودفع الريب، عقب ذلك بذكر حالة العذر، عن وجود الكاتب، ونص على حالة السفر، فإنها من جملة أحوال العذر، ويلحق بذلك كل عذر يقوم مقام السفر، وجعل الرهان المقبوضة قائمة مقام الكتابة، أي: فإن كنتم مسافرين ﴿وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا﴾ في سفركم ﴿فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ﴾ قال أهل العلم: الرهن في السفر ثابت بنص التنزيل، وفي الحضر بفعل رسول الله ﷺ، كما ثبت في الصحيحين: «أنه ﷺ رهن برعاً له من يهودي». وقرأ الجمهور: «كاتبا» أي: رجلاً يكتب لكم. وقرأ ابن عباس، وأبي وجاهد، والضحاك، وعكرمة، وأبو العالية: «كتاباً» قال ابن الأنباري: فسره مجاهد فقال: معناه فإن لم تجدوا مداداً: يعني في الأسفار. وقرأ أبو عمرو وابن كثير «فرهن» بضم الراء والهاء. وروي عنهما تخفيف الهاء جمع رهان، قاله الفراء، والزجاج، وابن جرير الطبري. وقرأ عاصم بن أبي النجود: «فرهن» بفتح الراء، وإسكان الهاء. وقراءة الجمهور: «رهان». قال الزجاج: يقال في الرهن: رهنه، وأرهنه، وكذا قال ابن الأعرابي، والأخفش. وقال أبو علي الفارسي: يقال أرهنه في المعاملات، وأما في القرض، والبيع، فرهنه، وقال ثعلب: الرواة كلهم في قول الشاعر:

فلما خشيت لظافيرهم نجوت وأرهنتهم مالاً
على أرهنتهم على أنه يجوز رهنه، وأرهنته إلا الأصمعي، فإنه رواه، وأرهنهم على أنه عطف لفعل مستقبل على فعل ماضٍ وشبهه بقوله قمت، وأصك وجهه. وقال ابن السكيت: أرهنه فيهما بمعنى أسلفت، والمرتهن الذي يأخذ الرهن، والشئ مرهون، ورهين،

قال: كانت الكتابة عزيمة، فنسخها ﴿ولا يضار كاتب ولا شهيد﴾ وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، قال: ﴿فإن كان الذي عليه الحق سفيهاً﴾ قال: هو الجاهل. ﴿أو ضعيفاً﴾ قال: هو الاحمق. وأخرج ابن جرير، عن الضحاك، والسدي، في قوله: ﴿سفيهاً﴾ قال: هو الصبي الصغير. وأخرج ابن جرير، من طريق عطية العوفي، عن ابن عباس: ﴿فليملل وليه﴾ قال صاحب الدين: وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن الحسن قال: ولي اليتيم. وأخرج ابن جرير، عن الضحاك قال ولي السفيه، أو الضعيف. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن المنذر، والبيهقي، عن مجاهد في قوله: ﴿ومن رجالكم﴾ قال: من الأحرار. وأخرج ابن جرير، عن الربيع في قوله: ﴿ممن ترضون من الشهداء﴾ قال: عدول. وأخرج الشافعي، والبيهقي، عن مجاهد قال: عدلان حران مسلمان. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿أن تضل إحداهما﴾ يقول: أن تنسى إحدى المراتين الشهادة ﴿فتنكر إحداهما الأخرى﴾ يعني تنكرها التي حبطت شهادتها. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿ولا ياب الشهداء﴾ قال: إذا كانت عندهم شهادة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن الربيع قال: كان الرجل يطوف في القوم الكثير يدعوهم يشهدون، فلا يتبعه أحد منهم، فأنزل الله: ﴿ولا ياب الشهداء﴾. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة نحوه. وأخرج ابن المنذر، عن عائشة في قوله: ﴿انقض عند الله﴾ قالت: أعدل. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس في قوله: ﴿ولا يضار كاتب ولا شهيد﴾ قال: يأتي الرجل الرجلين، فيدعوهما إلى الكتابة، والشهادة، فيقولان: إنا على حاجة، فيقول: إنكما قد أمرتما أن تجيبا، فليس له أن يضارهما. وأخرج ابن جرير، عن طلوس: ﴿لا يضار كاتب﴾، فيكتب ما لم يمل عليه ﴿ولا شهيد﴾ فيشهد بما لم يستشهد. وأخرج ابن جرير، عن الضحاك في قوله: ﴿وإن كنتم على سفر﴾ الآية، قال: من كان على سفر، فباع بيعاً إلى أجل، فلم يجد كاتباً، فربح له في الرهان المقبوضة، وليس له أن يجد كاتباً أن يرتهن. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن مجاهد قال: لا يكون الرهن إلا في السفر. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير، قال: لا يكون الرهن، إلا مقبوضاً. وأخرج البخاري في تاريخه، وأبو داود، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن ماجه، وأبو نعيم، والبيهقي، عن أبي سعيد الخدري، أنه قرأ هذه الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين﴾ حتى بلغ ﴿فإن آمن بعضكم ببعض﴾ قال: هذه نسخت ما قبلها. وأقول: رضي الله عن هذا الصحابي الجليل، ليس هذا من باب النسخ، فهذا مقيد بالائتمان، وما قبله ثابت محكم لم

وراهنت فلاناً على كذا مراهنه خاطرته. وقد ذهب الجمهور إلى اعتبار القبض، كما صرح به القرآن، وذهب مالك إلى أنه يصح الارتهان بالإيجاب، والقبول من دون قبض. قوله: ﴿فإن آمن بعضكم ببعض فليؤد الذي أوثمن أمانته﴾ أي: إن كان الذي عليه الحق أميناً، عند صاحب الحق لحسن ظنه به، وأمانته لديه، واستغنى بامانته عن الارتهان ﴿فليؤد الذي أوثمن﴾ وهو: المبيوع ﴿أمانته﴾ أي: الدين الذي عليه، والأمانة مصدر سمي به الذي في النمة، وأضافها إلى الذي عليه الدين من حيث أن لها إليه نسبة، وقرئ: ﴿أيتمن﴾ بقلب الهمزة ياء، وقرئ بإدغام الياء في التاء، وهو خطأ؛ لأن المنقلة من الهمزة لا تدغم؛ لأنها في حكمها ﴿وليتق الله ربه﴾ في أن لا يكتم من الحق شيئاً. قوله: ﴿ولا تكتموا الشهادة﴾ نهي للشهود أن يكتموا ما تحملوه من الشهادة، وهو في حكم التفسير لقوله: ﴿ولا يضار كاتب﴾ أي: لا يضار بكسر الراء الأولى على أحد التفسيرين للمتقين. قوله: ﴿ومن يكتمها فإنه آثم قلبه﴾ خص القلب بالذكر؛ لأن الكتم من أفعاله، ولكونه رئيس الأعضاء، وهو المضغة التي إن صلحت صلح الجسد كله، وإن فسدت فسد كله، وارتفاع القلب على أنه فاعل، أو مبتدأ، وآثم خبره على ما تقرر في علم النحو، ويجوز أن يكون قلبه بدلاً من آثم بدل البعض من الكل، ويجوز أن يكون أيضاً بدلاً من الضمير الذي في آثم الراجع إلى من، وقرئ: ﴿قلبه﴾ بالنصب كما في قوله: ﴿إلا من سفه نفسه﴾ [البقرة: 130].

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن ابن عباس في قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين﴾ قال: نزلت في السلم في كيل معلوم إلى أجل معلوم. وأخرج الشافعي، وعبد الرزاق، وعبد بن حميد، والبخاري، وغيرهم عنه قال: أشهد أن السلف المضمون إلى أجل مسمى أن الله لأجله، وقرأ هذه الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه في الآية. قال: أمر بالشهادة عند المداينة لكيلا يدخل في ذلك جحود، ولا نسيان، فمن لم يشهد على ذلك، فقد عصى ﴿ولا ياب الشهداء﴾ يعني من احتجج إليه من المسلمين ليشهد على شهادة، أو كانت عنده شهادة، فلا يحل له أن يابى إذا ما دعي، ثم قال بعد هذا: ﴿ولا يضار كاتب ولا شهيد﴾ والضرار أن يقول الرجل للرجل، وهو عنه غني: إن الله قد أمرك أن لا تأبى إذا دعيت، فيضار به بذلك، وهو مكتف بغيره، فنهأه الله عن ذلك. وقال: ﴿وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم﴾ يعني: معصية. قال: ومن الكبار كتمان الشهادة، لأن الله تعالى يقول: ﴿ومن يكتمها فإنه آثم قلبه﴾. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم في قوله: ﴿ولا ياب كاتب﴾ قال: واجب على الكاتب أن يكتب. وأخرج ابن جرير، عن الضحاك

والباء، فالفاء عاطفة لما بعدها على المجزوم قبلها، وهو: جواب الشرط: أعني قوله: ﴿يَحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾. وقرأ ابن عباس، والأعرج، وأبو العالية، وعاصم الجحدري بنصب الراء، والباء في قوله: ﴿فَيَغْفِرُ.. وَيُعَذِّبُ﴾ على إضمار أن عطفاً على المعنى. وقرأ طلحة بن مصرف يغفر بغير فاء على البدل، وبه قرأ الجعفي، وخالد.

وقد أخرج أحمد، ومسلم، وأبو داود في ناسخه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي هريرة قال: «لما نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ الآية اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، فأتوا رسول الله ﷺ، ثم جئوا على الركب، فقالوا: يا رسول الله كلفنا من الأعمال ما نطيق الصلاة، والصيام، والجهاد، والصقة، وقد أنزل الله عليك هذه الآية، ولا نطيقها، فقال رسول الله ﷺ: أتريدون أن تقولوا، كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا، وعصينا، بل قولوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: 85] فلما اقتراها القوم، ونلت بها السنتهم أنزل الله في أثرها: ﴿أَمَّا الرُّسُلُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾ [البقرة: 285] الآية، فلما فعلوا ذلك نسخها الله، فأنزل: ﴿لَا يَكْفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وَسَعَهَا﴾ [البقرة: 286] إلى آخرها. وأخرج أحمد، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم، والبيهقي، عن ابن عباس مرفوعاً نحوه، وزاد، فأنزل الله: ﴿وَبِمَا لَا تَوَاسُخُنَا أَنْ نَنْسِيَنَّ أَنْ لَا تَوَاسُخُنَا﴾ [البقرة: 286] قال: قد فعلت: ﴿وَبِمَا لَا تَحْمِلُ عَلَيْنَا إِمْرًا﴾ كما حملته على الذين من قبلنا» [البقرة: 286] قال: قد فعلت: ﴿وَأَعْفُفْنَا وَأَغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾ [البقرة: 286] قال: قد فعلت. وقد رويت هذه القصة، عن ابن عباس من طرق. وأخرج البخاري، والبيهقي عن مروان الأصغر، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ أحسبه ابن عمر: ﴿إِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ﴾ قال: نسختها الآية التي بعدها. وأخرج عبد بن حميد، والترمذي، عن علي نحوه. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، والطبراني، عن ابن مسعود، نحوه. وأخرج ابن جرير، عن عائشة نحوه أيضاً.

وبمجموع ما تقدم يظهر لك ضعف ما أخرجه سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في هذه الآية أنه قال: نزلت في كتمان الشهادة، فإنها لو كانت كذلك لم يشتد الأمر على الصحابة. وعلى كل حال، فبعد هذه الأحاديث المصروفة بالنسخ، والناسخ لم يبق مجال لمخالفتها، ومما يؤيد ذلك ما ثبت في الصحيحين، والسنن الأربع من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِي عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَتَكَلَّمْ، أَوْ تَعْمَلْ بِهِ». وأخرج ابن جرير، عن عائشة قالت: كل عبد هم بسوء، ومعصية، وحديث نفسه به حاسبه الله في

ينسخ، وهو مع عدم الائتمنان. وأخرج ابن جرير، عن السدي في قوله: ﴿أَنْتُمْ قُلُوبُ﴾ قال: فاجر قلبه. وأخرج ابن جرير، بإسناد صحيح، عن سعيد بن المسيب أنه بلغه أن أحدث القرآن بالعرش آية الدين. وأخرج أبو عبيد في فضائله، عن ابن شهاب قال: آخر القرآن عهداً بالعرش آية الربا، وآية الدين.

لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُمَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَمْيُزُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَعُودُ مَنِ نَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٦﴾

قوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ قد تقدم تفسيره. قوله: ﴿وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ إلى آخر الآية، ظاهره أن الله يحاسب العباد على ما أضمرت أنفسهم، أو أظهرته من الأمور التي يحاسب عليها، فيغفر لمن يشاء منهم ما يغفره منها، ويعذب من يشاء منهم بما أسره، أو أظهر منها، هذا معنى الآية على مقتضى اللغة العربية. وقد اختلف أهل العلم في هذه الآية على قول: الأول: أنها، وإن كانت عامة، فهي: مخصوصة بكتمان الشهادة، وإن الكاتم للشهادة يحاسب على كتمه سواء أظهر للناس أنه كاتم للشهادة، أو لم يظهر. وقد روي هذا عن ابن عباس، وعكرمة، والشعبي ومجاهد، وهو: مرئود بما في الآية من عموم اللفظ، ولا يصلح ما تقدم قبل هذه الآية من النهي عن كتم الشهادة أن تكون مختصة به. والقول الثاني: أن ما في الآية مختص بما يطرا على النفوس من الأمور التي هي بين الشك، واليقين، قاله مجاهد، وهو أيضاً: تخصيص بلا مخصص. والقول الثالث: أنها محكمة عامة، ولكن العذاب على ما في النفس يختص بالكفار، والمنافقين. حكاه الطبري عن قوم، وهو أيضاً: تخصيص بلا مخصص، فإن قوله: ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ لا يختص ببعض معين إلا ببطلان. والقول الرابع: أن هذه الآية منسوخة، قاله ابن مسعود، وعائشة، وأبو هريرة، والشعبي، وعطاء، ومحمد بن سيرين، ومحمد بن كعب، وموسى بن عبيدة، وهو مروي، عن ابن عباس، وجماعة من الصحابة، والتابعين، وهذا هو: الحق لما سيأتي من التصريح بنسخها، ولما ثبت عن النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ غَفَرَ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا». قوله: ﴿يَحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ قدم الجار، والمجرور على الفاعل لإظهار العناية به، وقدم الإبداء على الإخفاء؛ لأن الأصل في الأمور التي يحاسب عليها هو الأعمال البانية، وأما تقويم الإخفاء في قوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنْ تَخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تَبَدُّوهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: 29] فلكون العلم يتعلق بالأعمال الخافية، والبانية على السوية، وقدم المغفرة على التعذيب لكون رحمته سبقت غضبه، وجملة قوله: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ مستأنفة، أي: فهو يغفر، وهي متضمنة لتفصيل ما أجمل في قوله: ﴿يَحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ وهذا على قراءة ابن عامر، وعاصم. وأما على قراءة ابن كثير، ونافع، وأبي عمرو، وحزمة، والكسائي بجزم الراء،

الدنيا يخاف، ويحزن ويشتد همه لا يناله من ذلك شيء، كما هم بالسوء، ولم يعمل منه بشيء. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، عنها نحوه، والأحاديث المتقدمة المصروحة بالنسخ تبفعه. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس قال: إن الله يقول يوم القيامة: إن كتابي لم يكتبوا من أعمالكم إلا ما ظهر منها، فاما ما أسررتكم في أنفسكم، فانا أحاسبكم به اليوم، فأغفر لمن شئت، وأعذب من شئت، وهو مدفوع بما تقدم.

أَمَّا الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَعْرِضُ عَنْ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٨﴾ لَا يَكْفُرُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِمْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْزِزْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٢٩﴾

قوله: ﴿بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي: بجميع ما أنزل الله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ عطف على الرسول، وقوله: ﴿كُلٌّ﴾ أي: من الرسول والمؤمنين ﴿آمَنَ بِاللَّهِ﴾ ويجوز أن يكون قوله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ مبتدأ. وقوله: ﴿كُلٌّ﴾ مبتدأ ثان. وقوله: ﴿آمَنَ بِاللَّهِ﴾ خبر المبتدأ الثاني، وهو: وخبره خبر المبتدأ الأول، وأقرب الضمير في قوله: ﴿آمَنَ بِاللَّهِ﴾ مع رجوعه إلى كل المؤمنين، لما أن المراد ببيان إيمان كل فرد منهم من غير اعتبار الاجتماع، كما اعتبر ذلك في قوله تعالى: ﴿وَكُلُّكُمْ أَوْفَى دَاخِرِينَ﴾ [النمل: 87]. قال الزجاج لما نكر الله سبحانه في هذه السورة فرض الصلاة، والزكاة، وبين أحكام الحج، وحكم الحيض، والطلاق، والإيلاء، وأقاصيص الأنبياء، وبين حكم الربا، نكر تعظيمه سبحانه بقوله: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: 284] ثم نكر تصديق نبيه ﷺ، ثم نكر تصديق المؤمنين بجميع ذلك، فقال ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي: صدق الرسول بجميع هذه الأشياء التي جرى نكرها، وكذلك المؤمنون كلهم صدقوا بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، وقيل: سبب نزولها الآية التي قبلها. وقد تقدم بيان ذلك. قوله: ﴿وَمَلَائِكَتِهِ﴾ أي: من حيث كونهم عباد الله المكرمين المتوسطين بينه، وبين أنبيائه في إنزال كتبه، وقوله: ﴿وَكُتُبِهِ﴾ لأنها المشتملة على الشرائع التي تعبد بها عباده. وقوله: ﴿وَرُسُلِهِ﴾ لأنهم المبلغون لعباده ما نزل إليهم. وقرأ نافع، وابن كثير، وعاصم في رواية أبي بكر، وابن عامر، وكتبه بالجمع. وقرؤوا في التحريم، وكتابه. وقرأ ابن عباس هنا، وكتابه، وكذلك قرأ حمزة، والكسائي، وروى عنه أنه قال: الكتاب أكثر من الكتب. وبينه صاحب الكشاف، فقال: لأنه إذا أريد بالواحد الجنس، والجنسية قائمة في وحدان الجنس كلها لم يخرج منه شيء، وأما الجمع، فلا يدخل تحته إلا ما فيه الجنسية من الجموع. انتهى. ومن أراد تحقيق المقام، فليرجع إلى شرح التلخيص

المطول عند قول صاحب التلخيص «واستغراق المفرد أشمل». وقرأ الجمهور ورسله بضم السين. وقرأ أبو عمرو، بتخفيف السين. وقرأ الجمهور «لا نفرق» بالنون. والمعنى: يقولون: لا نفرق. وقرأ سعيد بن جبير، ويحيى بن يعمر، وأبو زرعة، وابن عمر، وابن جرير، ويعقوب «لا يفرق» بالياء التحتية. وقوله: ﴿بَيْنَ أَحَدٍ﴾ ولم يقل بين أحاد، لأن الأحد يتناول الواحد، والجمع، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: 47] فوصفه بقوله: ﴿حَاجِزِينَ﴾ لكونه في معنى الجمع، وهذه الجملة يجوز أن تكون في محل نصب على الحال، وأن تكون خبراً آخر لقوله: ﴿كُلٌّ﴾. وقوله: ﴿مِنْ رُسُلِهِ﴾ أظهر في محل الإضمار للاحتراز عن توهم اندراج الملائكة في الحكم، أو الإشعار بعلّة عدم التفريق بينهم. وقوله: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ هو: معطوف على قوله: ﴿آمَنَ﴾ وهو: وإن كان للمفرد، وهذا للجماعة، فهو جائز نظراً إلى جانب المعنى، أي: أدركناه بأسامعنا، وفهمناه، وأطعنا ما فيه؛ وقيل: معنى سمعنا: أجبنا دعوتك. قوله: ﴿غُفْرَانَكَ﴾ مصدر منصوب بفعل مقدر، أي: اغفر غفرانك. قاله الزجاج، وغيره، وقدم السمع، والطاعة على طلب المغفرة لكون الوسيلة تتقدم على المتوسل إليه. قوله: ﴿لَا يَكْفُرُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ التكليف هو: الأمر بما فيه مشقة، وكلفة، والوسع: الطاعة، والوسع: ما يسع الإنسان، ولا يضيق عليه، وهذه جملة مستقلة جاءت عقب قوله سبحانه: ﴿وَأَنْ تَتَّبِعُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ [البقرة: 284] الآية لكشف كربة المسلمين، وبفع المشقة عليهم في التكليف بما في الأنفس، وهي كقوله سبحانه: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: 185]. قوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ فيه ترغيب، وترهيب، أي: لها ثواب ما كسبت من الخير، وعليها وزر ما اكتسبت من الشر، وتقدم لها، وعليها على الفعلين، ليفيد أن ذلك لها لا لغيرها، وعليها لا على غيرها، وهذا مبني على أن كسب للخير فقط، واكتسب للشر فقط، كما قاله صاحب الكشاف، وغيره؛ وقيل: كل واحد من الفعلين يصلق على الأمرين، وإنما كبر الفعل، وخالف بين التصريفيين تحسناً للنظم، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَهْلُكُمْ رُويَا﴾ [الطارق: 17]. قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ أي: لا تؤاخذنا بإثم ما يصدر منا من هذين الأمرين. وقد استشكل هذا الدعاء جماعة من المفسرين، وغيرهم قائلين إن الخطأ، والنسيان مغفوران غير مؤاخذ بهما، فما معنى الدعاء بذلك، فإنه من تحصيل الحاصل. ولجيب عن ذلك بأن المراد طلب المؤاخذة بما صدر عنهم من الأسباب المؤدية إلى النسيان، والخطأ من التفريط، وعدم المبالاة، لا من نفس النسيان، والخطأ، فإنه لا مؤاخذة بهما، كما يفيد ذلك قوله ﷺ: «رفع عن أمتي الخطأ، والنسيان، وسياي مخرجه» وقيل: إنه يجوز للإنسان أن يدعوا بحصول ما هو حاصل له قبل الدعاء لقصد استدامته، وقيل: إنه وإن ثبت شرعاً أنه لا مؤاخذة بهما، فلا

مخرج التعليم كيف يدعون، وقيل: معناه: أنت سيينا، ونحن عبيدك ﴿فانصرونا على القوم الكافرين﴾ فإن من حق المولى أن ينصر عبيده، والمراد عامة الكفرة، وفيه إشارة إلى إعلاء كلمة الله في الجهاد في سبيله. وقد قدمنا في شرح الآية التي قبل هذه أعني قوله: ﴿إن تبوء ما في أنفسكم﴾ [البقرة: 284] إلخ، أنه ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أن الله تعالى قال عقب كل دعوة من هذه الدعوات: قد فعلت، فكان ذلك دليلاً على أنه سبحانه لم يؤاخذهم بشيء من الخطأ، والنسيان، ولا حمل، عليهم شيئاً من الإصر الذي حمله على من قبلهم، ولا حملهم ما لا طاقة لهم به، وعفا عنهم، وغفر لهم، ورحمهم، ونصرهم على القوم الكافرين، والحمد لله رب العالمين.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن مقاتل بن حبان ﴿لا نفرق بين أحد من رسله﴾ لا تكفر بما جاءت به الرسل، ولا نفرق بين أحد منهم، ولا تكذب به: ﴿وقالوا سمعنا﴾ للقرآن الذي جاء من الله ﴿واطعنا﴾، آتوا الله أن يطيعوه في أمره ونهيه. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن المنذر، عن ابن عباس في قوله: ﴿غفرناك ربنا﴾ قال: قد غفرت لكم ﴿والإيك المصير﴾ قال: إليك المرجع، والمآب يوم يقوم الحساب. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن حكيم بن جابر قال: لما نزلت: ﴿أمن الرسول﴾ الآية، قال جبريل للنبي ﷺ: إن الله قد أحسن الثناء عليك، وعلى أمتك، فسل تعطه، فقال: ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ حتى ختم السورة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ قال: هم المؤمنون وسع الله عليهم أمر دينهم، فقال: ﴿ما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ [الحج: 78]. وقال: يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ [البقرة: 185] وقال: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ [التغابن: 16] وأخرج ابن أبي حاتم، عنه في قوله: ﴿لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾ قال: من العمل. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة في قوله: ﴿إلا وسعها﴾ قال: إلا طاقتها. وأخرج ابن المنذر، عن الضحك، نحوه. وقد أخرج ابن ماجه، وابن المنذر، وابن حبان في صحيحه، والطبراني، والدارقطني، والحاكم، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: ﴿إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ، والنسيان، وما استكروها عليه﴾ وأخرجه ابن ماجه من حديث أبي زر مرفوعاً، والطبراني من حديث ثوبان، ومن حديث ابن عمر، ومن حديث عقبة بن عامر. وأخرجه البيهقي أيضاً من حديثه. وأخرجه ابن عدي في الكامل، وأبو نعيم من حديث أبي بكره. وأخرجه ابن أبي حاتم من حديث أم الدرداء. وأخرجه سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، من حديث الحسن مرسلاً. وأخرجه عبد بن حميد، من حديث الشعبي مرسلاً. وفي أسانيد هذه الأحاديث مقال، ولكنها يقوياً بعضها بعضاً، فلا تقصر عن رتبة الحسن لغيره. وقد تقدم حديث:

امتناع في المؤاخذة بهما عقلاً، وقيل: لأنهم كانوا على جانب عظيم من التقوى بحيث لا يصدر عنهم الذنب تعمداً، وإنما يصدر عنهم خطأ، أو نسياناً، فكانه وصفهم بالدعاء بذلك إيماناً بنزاهة ساحتهم، عما يؤاخذون به، كانه قيل: إن كان النسيان، والخطأ مما يؤاخذ به، فما منهم سبب مؤاخذة إلا الخطأ، والنسيان. قال القرطبي: وهذا لم يختلف فيه أن الإثم مرفوع، وإنما اختلف فيما يتعلق على ذلك من الأحكام هل ذلك مرفوع، ولا يلزم منه شيء، أو يلزم أحكام ذلك كله؟ اختلف فيه، والصحيح أن ذلك يختلف بحسب الوقائع، فقسم لا يسقط باتفاق كالغرامات، والدينيات، والصلوات المفروضة، وقسم يسقط باتفاق كالقصاص، والنطق بكلمة الكفر، وقسم ثالث مختلف فيه كمن أكل ناسياً في رمضان، أو حدث ساهياً، وما كان مثله مما يقع خطأ، ونسياناً، ويعرف ذلك في الفروع. انتهى. قوله: ﴿ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا﴾ عطف على الجملة التي قبله، وتكرير النداء للإيمان بمزيد التضرع، واللجأ إلى الله سبحانه. والإصر: العبء الثقيل الذي ياصر صاحبه، أي: يحبس مكانه لا يستقل به لثقله. والمراد به هنا: التكليف الشاق، والأمر الغليظ الصعب، وقيل الإصر: شدة العمل، وما غلظ على بني إسرائيل من قتل الأنفس، وقطع موضع النجاسة، ومنه قول النابغة:

يامانع الضيم أن تغشى سراتهم والحامل الإصر عنهم بعد ما غرقوا وقيل: الإصر: المسخ قردة، وخنازير، وقيل: العهد، ومنه قوله تعالى: ﴿واخذتم على نكاحكم إصراً﴾ [آل عمران: 81] وهذا الخلاف يرجع إلى بيان ما هو الإصر الذي كان على من قبلنا، لا إلى معنى الإصر في لغة العرب، فإنه ما تقدم ذكره بلا نزاع، والإصر: الحبل الذي تربط به الاحمال، ونحوها، يقال: أصر يلصر إصراً: حبس، والإصر بكسر الهمزة من ذلك. قال الجوهري: والموضع ماصر، والجمع مآصر، والعامة تقول معاصر. ومعنى الآية: أنهم طلبوا من الله سبحانه أن لا يحملهم من ثقل التكليف ما حمل الأمم قبلهم. وقوله: ﴿كما حملته﴾ صفة مصدر محذوف، أي: حملاً مثل حملك إياه على من قبلنا، أو صفة لإصر، أي: إصراً مثل الإصر الذي حملته على من قبلنا. قوله: ﴿ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به﴾ هو أيضاً عطف على ما قبله، وتكرير النداء للنكتة المذكورة قبل هذا، والمعنى: لا تحملنا من الأعمال ما لا نطيق وقيل: هو عبارة عن إنزال العقوبات، كانه قال: لا تنزل علينا العقوبات بتفريطنا في المحافظة على تلك التكالييف الشاقة التي كلفت بها من قبلنا، وقيل المراد به: الشاق الذي لا يكاد يستطيع من التكالييف. قال في الكشف: وهذا تقرير لقوله: ﴿ولا تحمل علينا إصراً﴾. قوله: ﴿واعف عنا﴾ أي: عن ذنوبنا، يقال عفوت عن ذنبي: إذا تركته، ولم تعاقبه عليه ﴿واغفر لنا﴾ أي: استر على ذنوبنا، والغفر: الستر ﴿وارحمنا﴾ أي: تفضل برحمة منك علينا ﴿أنت مولانا﴾ أي: ولينا، وناصرنا، وخرج هذا

يشفيان، وهما مما يحبهما الله الآيتان من آخر البقرة». وأخرج الطبراني بسند جيد، عن شداد بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق السموات والأرض بألفي عام، فأنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة لا يقرآن في دار ثلاث ليال، فيقربها شيطان» وأخرج ابن عدي، عن ابن مسعود الأنصاري: أن رسول الله ﷺ قال: «أنزل الله آيتين من كنوز الجنة، كتبهما الرحمن بيده قبل أن يخلق الخلق بألفي سنة، من قرأهما بعد العشاء الآخرة أجزأته عن قيام الليل». وأخرج ابن مروي، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا قرأ آخر سورة البقرة، أو آية الكرسي ضحك وقال: إنهما من كنز تحت العرش. وأخرج ابن مروي، عن معقل بن يسار قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة من تحت العرش، وأخرج مسلم، والنسائي، واللفظ له، عن ابن عباس قال: بينا رسول الله ﷺ وعنده جبريل إذ سمع نقيضاً، فرفع جبريل بصره فقال: هذا باب قد فتح من السماء ما فتح قط، قال: فنزل منه ملك، فأتى النبي ﷺ، فقال أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ حرفاً منهما إلا أوتيته. فهذه ثلاثة عشر حديثاً في فضل هاتين الآيتين مرفوعة إلى النبي ﷺ. وقد روى في فضلها من غير المرفوع، عن عمر، وعلي، وابن مسعود، وأبي مسعود، وكعب الأحبار، والحسن، وأبي قلابة، وفي قول النبي ﷺ ما يغني عن غيره.

تفسير سورة آل عمران

هي: مدنية، قال القرطبي: بالإجماع، ومما يدل على ذلك أن صدرها إلى ثلاث وثلاثين آية نزل في وفد نجران، وكان قومهم في سنة تسع من الهجرة. وقد أخرج البيهقي في الدلائل من طرق، عن ابن عباس قال: نزلت سورة آل عمران بالمدينة. وقد تقدم في أوائل سورة البقرة ما هو مشترك بينها، وبين هذه السورة من الأحاديث الدالة على فضلها، وكذلك تقدم ما ورد في السبع الطوال. وأخرج الطبراني بسند ضعيف، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ السورة التي يذكر فيها آل عمران يوم الجمعة صلى الله عليه، وملائكته حتى تغيب الشمس». وأخرج سعيد بن منصور، والبيهقي في الشعب، عن عمر بن الخطاب قال: من قرأ البقرة، وآل عمران، والنساء كتب عند الله من الحكماء. وأخرج الديلمي، ومحمد بن نصر، والبيهقي في الشعب، عن ابن مسعود: من قرأ آل عمران، فهو غني. وأخرج الدارمي، وعبد بن حميد، والبيهقي عنه قال: نعم كنز الصلوك آل عمران يقوم بها الرجل من آخر الليل. وأخرج سعيد بن منصور، عن أبي عطاء قال: اسم آل عمران في التوراة طيبة. وأخرج ابن أبي شيبة، عن عبد الملك بن عمير قال: قرأ رجل البقرة، وآل عمران، فقال كعب: قد قرأ السورتين إن

«إن الله قال قد فعلت» وهو في الصحيح وهو يشهد لهذه الأحاديث. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِصْرًا﴾ قال: عهداً. وأخرج عبد بن حميد، عن مجاهد مثله. وأخرج ابن جرير، عن ابن جريج مثله. وأخرج أيضاً عن عطاء بن أبي رباح في قوله: ﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْهِ إِصْرًا﴾ قال: لا تمسحنا قردة، وخنازير. وأخرج ابن جرير، عن ابن زيد في الآية أن الإصر: الذنب الذي ليس فيه توبة، ولا كفارة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الفضيل في الآية قال: كان الرجل من بني إسرائيل إذا أذنّب قيل له: توبتك أن تقتل نفسك، فيقتل نفسه، فوضعت الأصار عن هذه الأمة. وأخرج عبد بن حميد، عن عطاء قال: لما نزلت هذه الآيات: ﴿رَبِّمَا لَا تُوَلِّخُنَا﴾ إلخ، كلما قالها جبريل للنبي ﷺ قال النبي: آمين رب العالمين. وأخرج أبو عبيد، عن ميسرة أن جبريل لقن النبي ﷺ خاتمة البقرة آمين. وأخرج أبو عبيد، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، عن معاذ بن جبل أنه كان إذا فرغ من قراءة هذه السورة قال: آمين. وأخرج أبو عبيد عن جبير بن نفير: أنه كان يقول: آمين آمين. وأخرج عبد بن حميد، عن أبي نر قال: هي للنبي ﷺ خاصة. وأخرج ابن جرير، عن الضحاک في هذه الآية قال: سألها نبي الله ربه، فأعطاها إياها، فكانت للنبي ﷺ خاصة. وقد ثبت عند الشيخين، وأهل السنن، وغيرهم، عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه». وأخرج أبو عبيد، والدارمي، والترمذي، والنسائي، وابن حبان، والحاكم وصححه، والبيهقي، عن النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق السموات والأرض بألفي عام، فأنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة، ولا يقرآن في دار ثلاث ليال، فيقربها شيطان». وأخرج أحمد، والنسائي، والطبراني، وابن مروي، والبيهقي في الشعب بسند صحيح، عن حنيفة أن النبي ﷺ كان يقول: «أعطيت هذه الآيات من آخر سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يعطها نبي قبلي». وأخرج أحمد، والبيهقي، عن أبي نر مرفوعاً نحوه. وأخرج أبو عبيد، وأحمد، ومحمد بن نصر، عن عقبة بن عامر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقرأوا هاتين الآيتين من آخر سورة البقرة: ﴿آمَنَ لِلرَّسُولِ﴾ إلى خاتمتهما، فإن الله اصطفى بها محمداً، وإسناده حسن. وأخرج مسلم، عن ابن مسعود قال: لما أسرى برسول الله ﷺ انتهى إلى سدره المنتهى، وأعطى ثلاثاً، أعطي الصلوات الخمس، وأعطى خواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لا يشرك بالله من أمته شيئاً المفحّمات. وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب، عن أبي نر: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ختم سورة البقرة بأيتين أعطانيهما من كنزه الذي تحت العرش، فتعلموهما، وعلموهما نساءكم، وأبناءكم، فإنيهما صلاة، وقرآن، ودعاء». وأخرج الديلمي، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «اثنان هما قرآن، وهما

فيهما الاسم الذي إذا دعى به أجاب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿١﴾ زَلَّ عَلَيْكَ الْكَذِبُ بِالْحَقِّ مُصِيقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٢﴾ مِنْ قَبْلِ هَذِهِ نَسِيتُ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٤﴾ هُوَ الْوَكِيلُ يَسُورُكُمْ فِي الْأَنْصَارِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾

قرأ الحسن، وعمرو بن عبيد، وعاصم بن أبي النجود، وأبو جعفر الرواسي ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ بقطع ألف الوصل على تقدير الوقف على ﴿الْحَمْدُ﴾ كما يقدر الوقف على أسماء الأعداد نحو واحد اثنان ثلاثة أربعة مع وصلهم. قال الأخفش: ويجوز ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ بكسر الهمزة لالتقاء الساكنين. قال الزجاج: هذا خطأ، ولا تقوله العرب لثقله. وقد نكر سيبويه في الكتاب أن فواتح السور التي لم تكن موازنة لمفرد طريق التلظف بها الحكاية فقط ساكنة الأعجاز على الوقف، سواء جعلت أسماء، أو مسرودة على نمط التعديد، وإن لزما التقاء الساكنين لما أنه مفتقر في باب الوقف، فحق هذه الفاتحة أن يوقف عليها، ثم يبدأ بما بعدها، كما فعله الحسن، ومن معه في قراءتهم المحكية سابقاً. وأما فتح الميم على القراءة المشهورة: فوجه ما روى عن سيبويه أن الميم فتحت لالتقاء الساكنين. وقال الكسائي: حروف التهجى إذا لقيتها ألف وصل، فحذفت الألف، وحركت الميم بحركة الألف، وكذا قال الغراء. وهذه الفواتح إن جعلت مسرودة على نمط التعديد، فلا محل لها من الإعراب، وإن جعلت أسماء للسورة، فمحلها إما الرفع على أنها أخبار لمبتدآت مقدرة قبلها، أو النصب على تقدير أفعال يقتضيها المقام كالنكر، أو إقرار، أو نحوهما، وقد تقدم في أوائل سورة البقرة ما يغني عن الإعادة. وقوله: ﴿إِلَهُ إِلَّا هُوَ﴾ مبتدأ، وخبر، والجملة مستأنفة، أي: هو المستحق للعبودية. والحي القيوم: خبران آخران للاسم الشريف، أو خبران لمبتدأ محذوف، أي: هو الحي القيوم، وقيل: إنهما صفتان للمبتدأ الأول، أو بدلان منه، أو من الخبر، وقد تقدم تفسير الحي والقيوم. وقرأ جماعة من الصحابة القيام عمر، وأبي بن كعب، وابن مسعود. وقوله: ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ﴾ أي: القرآن، وقدم الظرف على المفعول به للاعتناء بالمنزل عليه ﷺ، وهي: إما جملة مستأنفة، أو خبر آخر للمبتدأ الأول. وقوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: بالصدق، وقيل: بالحجة الغالبة، وهو في محل نصب على الحال. وقوله: ﴿مُصِيقًا﴾ حال آخر من الكتاب مؤكدة؛ لأنه لا يكون إلا مصيقاً، فلا تكون الحال منتقلة أصلاً، وبهذا قال الجمهور، وجوز بعضهم الانتقال على معنى أنه مصيق لنفسه وبغيره. وقوله: ﴿لَمَّا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: من الكتب المنزلة، وهو متعلق بقوله: مصيقاً، واللام للتقوية. وقوله: ﴿وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ هذه

الجملة في حكم البيان لقوله: لما بين يديه. وإنما قال هنا أنزل، وفيما تقدم نزل: لأن القرآن نزل منجماً، والكتابان نزلوا بفعلة واحدة، ولم يذكر في الكتابين من أنزل عليه، ونكر فيما تقدم أن الكتاب نزل على رسول الله ﷺ؛ لأن القصد هنا ليس إلا إلى نكر الكتابين لا نكر من أنزل عليه. وقوله: ﴿مِنْ قَبْلِ هَذِهِ﴾ أي: أنزل التوراة، والإنجيل من قبل تنزيل الكتاب. وقوله: ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾ إما حال من الكتابين، أو علة للإنزال. والمراد بالناس: أهل الكتابين، أو ما هو أعم؛ لأن هذه الأمة متعبدة بما لم ينسخ من الشرائع. قال ابن فورك: هدى للناس المتقين، كما قال في البقرة هدى للمتقين. قوله: ﴿وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ أي: الفارق بين الحق والباطل، وهو القرآن، وكرر نكره تشريفاً له مع ما يشتمل عليه هذا النكر الآخر من الوصف له بأنه يفرق بين الحق والباطل، ونكر التنزيل أولاً، والإنزال ثانياً لكونه جامعاً بين الوصفين، فإنه أنزل إلى سماء الدنيا جملة، ثم نزل منها إلى النبي ﷺ مفزقاً منجماً على حسب الحوادث كما سبق. وقيل: أراد بالفرقان جميع الكتب المنزلة من الله تعالى على رسله، وقيل: أراد الزبور لاشتماله على المواعظ الحسنة، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: بما يصدق عليه أنه آية من الكتب المنزلة، وغيرها، أو بما في الكتب المنزلة المذكورة على وضع آيات الله موضع الضمير العائد إليها، وفيه بيان الأمر الذي استحقوا به الكفر ﴿لَهُمْ﴾ بسبب هذا الكفر ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي: عظيم ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ لا يغالبه مغالب ﴿نُورُ انْتِقَامٍ﴾ عظيم، والنقمة السطوة، يقال انتقم منه: إذا عاقبه بسبب ذنب قد تقدم منه. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ هذه الجملة استئنافية لبيان سعة علمه، وإحاطته بالمعلومات، وعبر عن معلوماته بما في الأرض، والسماء مع كونها أوسع من ذلك، لقصور عبادته عن العلم بما سواهما من أمكنة مخلوقاته، وسائر معلوماته، ومن جملة ما لا يخفى عليه إيمان من آمن من خلقه، وكفر من كفر. وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يَصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أصل اشتقاق الصورة من صاره إلى كذا أي: أماله إليه، فالصورة ماثلة إلى شبهه، وهيئة، وأصل الرحم من الرحمة؛ لأنه مما يتراحم به، وهذه الجملة مستأنفة مشتملة على بيان إحاطة علمه، وأن من جملة معلوماته ما لا يدخل تحت الوجود، وهو: تصوير عبادته في أرحام أمهاتهم من نطف آبائهم كيف يشاء من حسن، وقبيح، وأسود، وأبيض، وطويل، وقصير. وكيف معمول يشاء، والجملة حالية.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، عن جعفر بن محمد بن الزبير قال: «قدم على رسول الله ﷺ وقد نجران ستون راكباً، فيهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم، فكلم رسول الله ﷺ منهم أبو حارثة بن علقمة، والعاقب، وعبد المسيح، والسيد، وهو الأيهم، ثم نكروا القصة في الكلام الذي دار بينهم وبين رسول الله ﷺ، وأن

لما يفيد من الاختصاص. وقوله: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾^١ الموافق لقواعد العربية أن يكون الظرف خبراً مقدماً، والأولى بالمعنى أن يكون مبتدأً تقييده من الكتاب آيات بينات على نحو ما تقدم في قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ﴾ [البقرة: 8] وإنما كان أولى؛ لأن المقصود انقسام الكتاب إلى القسمين المذكورين لا مجرد الإخبار عنهما بأنهما من الكتاب، والجملة حالية في محل نصب، أو مستأنفة لا محل لها. وقد اختلف العلماء في تفسير المحكمات، والمتشابهات على أقوال: فقيل: إن المحكم ما عرف تأويله، وفهم معناه، وتفسيره، والمتشابه ما لم يكن لأحد إلى علمه سبيل؛ ومن القائلين بهذا جابر بن عبد الله، والشعبي، وسفيان الثوري، قالوا: وذلك نحو الحروف المقطعة في أوائل السور، وقيل: المحكم ما لا يحتمل إلا وجهاً واحداً، والمتشابه ما يحتمل وجوهاً، فإذا رُت إلى وجه واحد، وأبطل الباقي صار المتشابه محكماً، وقيل: إن المحكم ناسخه، وحرامه، وحلاله، وفرائضه، وما نؤمن به، ونعمل عليه، والمتشابه منسوخه، وأمثاله، وأقسامه وما نؤمن به، ولا نعمل به. روى هذا عن ابن عباس، وقيل: المحكم: الناسخ، والمتشابه: المنسوخ، روي عن ابن مسعود، وقتادة، والربيع، والضحاك، وقيل: المحكم: الذي ليس فيه تصريح، ولا تحريف عما وضع له، والمتشابه: ما فيه تصريح، وتحريف، وتأويل قاله مجاهد، وابن إسحاق. قال ابن عطية: وهذا أحسن الأقوال، وقيل: المحكم: ما كان قائماً بنفسه لا يحتاج إلى أن يرجع فيه إلى غيره، والمتشابه: ما يرجع فيه إلى غيره. قال النحاس: وهذا أحسن ما قيل في المحكمات، والمتشابهات. قال القرطبي ما قاله النحاس يبين ما اختاره ابن عطية، وهو الجاري على وضع اللسان، وذلك أن المحكم اسم مفعول من أحكم، والإحكام: الإتقان، ولا شك في أن ما كان واضح المعنى لا إشكال فيه، ولا تردد، إنما يكون كذلك لوضوح مفردات كلماته، وإتقان تركيبها، ومتى اختلف أحد الأمرين جاء التشابه، والإشكال. وقال ابن خويزمنداد للمتشابه وجوه ما اختلف فيه للعلماء أي الآيتين نسخت الأخرى، كما في الحامل المتوفى عنها زوجها، فإن من الصحابة من قال: إن آية وضع الحمل نسخت آية الأربعة الأشهر، والعشر، ومنهم من قال بالعكس. وكاختلفهم في الوصية للوارث، وكتعارض الآيتين أيهما أولى أن يقدم إذا لم يعرف النسب، ولم توجد شرائطه، وكتعارض الأخبار، وتعارض الأقيسة، هذا معنى كلامه.

والأولى أن يقال: إن المحكم هو: الواضح المعنى الظاهر الدلالة، إما باعتبار نفسه، أو باعتبار غيره، والمتشابه ما لا يتضح معناه، أو لا تظهر دلالاته لا باعتبار نفسه، ولا باعتبار غيره. وإذا عرفت هذا عرفت أن هذا الاختلاف الذي قدمناه ليس كما ينبغي، وذلك لأن أهل كل قول عرّفوا المحكم ببعض صفاته، وعرّفوا المتشابه بما يقابلها. وبيان ذلك أن أهل القول الأول جعلوا المحكم ما وجد إلى علمه سبيل،

الله أنزل في ذلك صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن الربيع، فنكر وقد نجران، ومخاصمتهم للنبي ﷺ في عيسى عليه السلام، وأن الله أنزل: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد في قوله: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ قال: لما قبله من كتاب، أو رسول. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الحسن نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة نحوه، وقال في قوله: ﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ هو القرآن فرق بين الحق والباطل، فاحل فيه حلاله، وحرم فيه حرامه، وشرع فيه شرائعه، وحد فيه حدوده، وفرض فيه فرائضه، وبين فيه بيانه، وأمر بطاعته، ونهى عن معصيته. وأخرج ابن جرير، عن محمد بن جعفر بن الزبير في قوله: ﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ أي: الفصل بين الحق والباطل فيما اختلف فيه الأحزاب من أمر عيسى، وغيره. وفي قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ أي: إن الله ينتقم ممن كفر بآياته بعد علمه بها، ومعرفته بما جاء منه فيها. وفي قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ أي: قد علم ما يريون، وما يكيدون، وما يضاؤون بقولهم في عيسى إذ جعلوه رباً وإلهاً، وعندهم من علمه غير ذلك غرّة بالله، وكفراً به. ﴿هُوَ الَّذِي يَصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ قد كان عيسى ممن صور في الأرحام لا يدفعون ذلك، ولا ينكرونه، كما صور غيره من بني آدم، فكيف يكون إلهاً، وقد كان بذلك المنزل. وأخرج ابن المنذر، عن ابن مسعود في قوله: ﴿يَصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ قال: نكرواً، وإنشأ. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس، وابن مسعود، وناس من الصحابة في قوله: ﴿يَصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ قال: إذا وقعت النطفة في الأرحام طارت في الجسد أربعين يوماً، ثم تكون علقة أربعين يوماً، ثم تكون مضغة أربعين يوماً، فإذا بلغ أن يخلق بعث الله ملكاً يصورها، فيأتي الملك بتراب بين أصبعيه، فيخلط منه المضغة، ثم يعجنه بها، ثم يصور، كما يؤمر فيقول: أنكر أم أنثى، أنشقي أم سعيد، وما رزقه، وما عمره، وما أثره، وما مصائبه؟ فيقول الله، ويكتب الملك، فإذا مات ذلك الجسد دفن حيث أخذ ذلك التراب. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة في قوله: ﴿يَصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ قال: من نكر، وأنثى، وأحمر، وأسود، وتأم الخلق، وغير تام الخلق.

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَسَمُّ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالزُّيغُونَ فِي الْقُلُوبِ يَقُولُونَ مَا نَا بُوَ كُلِّ شَيْءٍ عِبْرَتَنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أَوَّلَ الْأَلْبَابِ ﴿١٠١﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْ قُلُوبَنَا بَدَلًا إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿١٠٢﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَاسِعٌ النَّاسِ يَوْمَ لَا رَبَّ لَهُمْ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلِقُ الْبَرِيدَ ﴿١٠٣﴾

الكتاب هو: القرآن، فاللام للعهد، وقدم الظرف، وهو عليك

والمتشابه ما لا سبيل إلى علمه، ولا شك أن مفهوم المحكم، والمتشابه أوسع دائرة مما نكروه، فإن مجرد الخفاء، أو عدم الظهور، أو الإحتمال، أو التردد يوجب التشابه؛ وأهل القول الثاني خصوا المحكم بما ليس فيه احتمال، والمتشابه بما فيه احتمال، ولا شك أن هذا بعض أوصاف المحكم، والمتشابه لا كلها، وهكذا أهل القول الثالث، فإنهم خصوا كل واحد من القسمين بتلك الأوصاف المعينة دون غيرها؛ وأهل القول الرابع خصوا كل واحد منهما ببعض الأوصاف التي ذكرها أهل القول الثالث، والأمر أوسع مما قالوه جميعاً، وأهل القول الخامس خصوا المحكم بوصف عدم التصريف، والتحريف، وجعلوا المتشابه مقابله، وأهملوا ما هو أهم من ذلك مما لا سبيل إلى علمه من دون تصريف، وتحريف كقواتح السور المقطعة، وأهل القول السادس خصوا المحكم بما يقوم بنفسه، والمتشابه بما لا يقوم بها، وأن هذا هو بعض أوصافهما، وصاحب القول السابع، وهو ابن خويز منداد عمد إلى صورة الوفاق، فجعلها محكماً، وإلى صورة الخلاف، والتعارض، فجعلها متشابهة، فأهمل ما هو أخص أوصاف كل واحد منهما من كونه باعتبار نفسه مفهوم المعنى، أو غير مفهوم. قوله: ﴿هَؤُلَاءِ لَكُتَابٌ﴾ أي: أصله الذي يعتمد عليه، ويرد ما خالفه إليه، وهذه الجملة صفة لما قبلها. قوله: ﴿وَلَا تُخَرِّجُ الْمُتَشَابِهَاتِ﴾ وصف لمحنوف مقدر، أي: وآيات آخر متشابهات، وهي جمع أخرى، وإنما لم ينصرف؛ لأنه عدل بها عن الآخر؛ لأن أصلها أن يكون كذلك. وقال أبو عبيد: لم ينصرف؛ لأن واحدها لا ينصرف في معرفة، ولا نكرة، وأنكر ذلك المبرّد. وقال الكسائي: لم تنصرف؛ لأنها صفة، وأنكره أيضاً المبرّد. وقال سيبويه: لا يجوز أن يكون آخر معنولة عن الألف، واللام؛ لأنها لو كانت معنولة عنها لكان معرفة، ألا ترى أن سحر معرفة في جميع الأقاويل لما كانت معنولة. قوله: ﴿فَمَا لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ الزَّيْغُ: الميل؛ ومنه زاغت الشمس، وزاغت الأبصار؛ ويقال زاغ يزِغ زِيغاً: إذا ترك القصد، ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: 5] وهذه الآية تعم كل طائفة من الطوائف الخارجة عن الحق. وسبب النزول نصارى نجران، كما تقدّم، وسيأتي. قوله: ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ أي: يتعلقون بالمتشابه من الكتاب، فيشككون به على المؤمنين، ويجعلونه ليلاً على ما هم فيه من البدعة المائنة عن الحق، كما تجده في كل طائفة من طوائف البدعة، فإنهم يتلاعبون بكتاب الله تلاعباً شديداً، ويوردون منه لتفنيق جهلهم ما ليس من الدلالة في شيء. قوله: ﴿وَلِئَلَّا يَفْهَمُوا لِقَوْلِهِ﴾ أي: طلباً منهم لفتنه الناس في دينهم، والتلبيس عليهم، وإفساد ذات بينهم ﴿وَلِئَلَّا يَفْهَمُوا لِقَوْلِهِ﴾ أي: طلباً لتأويله على الوجه الذي يريدونه، ويوافق مذاهبهم الفاسدة. قال الزجاج: معنى ابتغائهم تأويله: أنهم طلبوا تأويل بعثهم، وإحيائهم، فأعلم الله عز وجل أن تأويل ذلك، ووقته لا يعلمه إلا الله. قال: والدليل على ذلك قوله: ﴿أَهْلٌ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾

يوم يأتي تأويله﴾ [الأعراف: 53] أي: يوم يرون ما يوعنون من البعث، والنشور، والعذاب ﴿يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ﴾ [الأعراف: 53] أي تركوه ﴿فَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ مِنَّا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: 53] أي: قد رأينا تأويل ما أنبأنا به الرسل. قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ التأويل يكون بمعنى التفسير، كقولهم تأويل هذه الكلمة على كذا، أي: تفسيرها، ويكون بمعنى ما يثول الأمر إليه، واشتقاقه من آل الأمر إلى كذا يثول إليه، أي: صار، وأولته تأويلاً، أي: صيرته، وهذه الجملة حالية، أي: يتبعون المتشابه لابتغاء تأويله، والحال أن ما يعلم تأويله إلا الله. وقد اختلف أهل العلم في قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ هل هو كلام مقطوع، عما قبله، أو معطوف على ما قبله؟ فتكون الواو للجمع، فالذي عليه الأكثر أنه مقطوع عما قبله، وأن الكلام تمّ عند قوله: ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ هذا قول ابن عمر، وابن عباس، وعائشة، وعروة بن الزبير، وعمر بن عبد العزيز، وأبي الشعثاء، وأبي نهيك، وغيرهم، وهو مذهب الكسائي، والفراء، والأخفش، وأبي عبيد، وحكاه ابن جرير الطبري، عن مالك، واختاره، وحكاه الخطابي، عن ابن مسعود، وأبي بن كعب قال: وإنما روي عن مجاهد أنه نسق الراسخين على ما قبله، وزعم أنهم يعلمونه، قال: واحتج له بعض أهل اللغة، فقال: معناه: والراسخون في العلم يعلمونه قائلين ﴿أَمَّا بِهِ﴾ وزعم أن موضع ﴿يَقُولُونَ﴾ نصب على الحال، وعامة أهل اللغة ينكرونه، ويستبعدونه؛ لأن العرب لا تضمّر الفعل، والمفعول معاً، ولا تنكر حالا إلا مع ظهور الفعل، فإذا لم يظهر فعل لم يكن حالاً، ولو جاز ذلك لجاز أن يقال عبد الله راكباً، يعني أقبل عبد الله راكباً، وإنما يجوز ذلك مع نكر الفعل كقوله عبد الله يتكلم يصلح بين الناس، فكان يصلح حالاً كقول الشاعر: أنشدني أبو عمرو. قال: أنشدنا أبو العباس ثعلب: أرسلت فيها رجلاً لكالكاً يقصر يمشي ويطول باركاً فكان قول عامة العلماء مع مساعدة مذاهب النحويين له أولى من قول مجاهد وحده. وأيضاً، فإنه لا يجوز أن ينفي الله سبحانه شيئاً عن الخلق، وينسبه لنفسه، فيكون له في ذلك شريك، ألا ترى قوله عز وجل: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: 65]، وقوله: ﴿لَا يَجْلِيهَا لَوْحُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: 187]، وقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصاص: 88] فكان هذا كله مما استأثر الله سبحانه به لا يشركه فيه غيره، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ ولو كانت الواو في قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ﴾ للنسق لم يكن لقوله: ﴿كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ فائدة. انتهى. قال القرطبي: ما حكاه الخطابي من أنه لم يقل بقول مجاهد غيره. فقد روي عن ابن عباس: أن الراسخين معطوف على اسم الله عز وجل، وأنهم داخلون في علم المتشابه، وأنهم مع علمهم به يقولون آمناً به. وقاله الربيع، ومحمد بن جعفر بن الزبير، والقاسم بن محمد، وغيرهم، و﴿يَقُولُونَ﴾ على هذا التأويل نصب على الحال من

الراسخون كما قال:

الريح يبكي شجوه والبرق يلعب في الغمام وهذا البيت يحتمل المعنيين، فيجوز أن يكون، والبرق مبتدأ، والخبر يلعب على التأويل الأول، فيكون مقطوعاً مما قبله، ويجوز أن يكون معطوفاً على الريح، ويلعب في موضع الحال على التأويل الثاني أي: لامعاً. انتهى. ولا يخفك أن ما قاله الخطابي في وجه امتناع كون قوله: ﴿يقولون آمنا به﴾ حالاً من أن العرب لا تذكر حالاً إلا مع ظهور الفعل إلى آخر كلامه لا يتم إلا على فرض أنه لا فعل هنا، وليس الأمر كذلك، فالفعل منكر، وهو قوله: ﴿وما يعلم تأويله﴾ ولكنه جاء الحال من المعطوف، وهو قوله: ﴿والراسخون﴾ بون المعطوف عليه، وهو قوله: ﴿إلا الله﴾ وذلك جائز في اللغة العربية. وقد جاء مثله في الكتاب العزيز. ومنه قوله تعالى: ﴿للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم﴾ [الحشر: 8] إلى قوله: ﴿والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا﴾ [الحشر: 10] الآية، وكقوله: ﴿جاء ربك والملك صفا صفا﴾ [الفجر: 22] أي: وجاءت الملائكة صفا صفا، ولكن ما هنا مانع آخر من جعل ذلك حالاً، وهو أن تقييد علمهم بتأويله بحال كونهم قائلين آمنا به ليس بصحيح، فإن الراسخين في العلم على القول بصحة العطف على الاسم الشريف يعلمونه في كل حال من الأحوال لا في هذه الحالة الخاصة، فاقتضى هذا أن جعل قوله: ﴿يقولون آمنا به﴾ حالاً غير صحيح، فتعين المصير إلى الاستئناف والجزم بأن قوله: ﴿والراسخون في العلم﴾ مبتدأ خبره ﴿يقولون﴾ ومن جملة ما استدلل به القائلون بالعطف أن الله سبحانه منحهم بالرسوخ في العلم، فكيف يمنحهم وهم لا يعلمون ذلك؟ ويجب عن هذا بأن تركهم لطلب علم ما لم يأتوا الله به، ولا جعل لخلقهم إلى علمه سبيلاً هو من رسوخهم، لأنهم علموا أن ذلك مما استأثر الله بعلمه، وأن الذين يتبعونه هم الذين في قلوبهم زيغ، وناهيك بهذا من رسوخ. وأصل الرسوخ في لغة العرب: الثبوت في الشيء، وكل ثبت راسخ، وأصله في الأجرام أن ترسخ الخيل، أو الشجر في الأرض، ومنه قول الشاعر:

لقد رسخت في الصرمنى مودة لليلى أبت آياتها أن تغيرا
فهؤلاء ثبتوا في امتثال ما جاءهم عن الله من ترك اتباع
المتشابه، وإرجاع علمه إلى الله سبحانه. ومن أهل العلم من
توسط بين المقامين فقال التأويل يطلق ويراد به في القرآن
شيئان: أحدهما للتأويل بمعنى حقيقة الشيء، وما يؤول أمره
إليه، ومنه قوله: ﴿هذا تأويل رؤياي﴾ [يوسف: 100]، وقوله:
﴿هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله﴾ [الأعراف: 53] أي:
حقيقة ما أخبروا به من أمر المعاد، فإن أريد بالتأويل هذا،
فلوقوف على الجلالة؛ لأن حقائق الأمور، وكنهها لا يعلمه إلا
الله عز وجل، ويكون قوله: ﴿والراسخون في العلم﴾ مبتدأ، و
﴿يقولون آمنا به﴾ خبره. وأما إن أريد بالتأويل المعنى

الأخر وهو: التفسير، والبيان، والتعبير عن الشيء، كقوله:
﴿نبينا بتأويله﴾ [لقمان: 34] أي بتفسيره فالوقوف على
﴿والراسخون في العلم﴾ لأنهم يعلمون، ويفهمون ما
خوطبوا به بهذا الاعتبار، وإن لم يحيطوا علماً بحقائق
الأشياء على كنه ما هي عليه، وعلى هذا، فيكون ﴿يقولون
آمنا به﴾ حالاً منهم، ورجح ابن فورك أن الراسخين يعلمون
تأويله، وأطلب في ذلك، وهكذا جماعة من محققي المفسرين
رجحوا ذلك. قال القرطبي: قال شيخنا أبو العباس أحمد بن
عمر: وهو: الصحيح فإن تسميتهم راسخين تقضي بأنهم
يعلمون أكثر من المحكم الذي يستوي في علمه جميع من
يفهم كلام العرب، وفي أي شيء هو رسوخهم إذا لم يعلموا
إلا ما يعلم الجميع، لكن المتشابه يتنوع، فمنه ما لا يعلم
البته كأمم الروح، والساعة مما استأثر الله بعلمه، وهذا لا
يتعاطى علمه أحد، فمن قال من العلماء الحذاق بأن
الراسخين لا يعلمون علم المتشابه، فإنما أراد هذا النوع.
وأما ما يمكن حمله على وجوه في اللغة، فيتأول، ويعلم
تأويله المستقيم، ويزال ما فيه من تأويل غير مستقيم.
انتهى.

واعلم أن هذا الاضطراب الواقع في مقالات أهل العلم
أعظم أسباب اختلاف أقوالهم في تحقيق معنى المحكم،
والمتشابه. وقد قدمنا لك ما هو الصواب في تحقيقهما،
ونزبك ما هنا إيضاحاً، وبياناً، فنقول: إن من جملة ما
يصنق عليه تفسير المتشابه الذي قدمناه فواتح السور،
فإنها غير متضحة المعنى، ولا ظاهرة الدلالة، لا بالنسبة إلى
أنفسها؛ لأنه لا يدري من يعلم بلغة العرب، ويعرف عرف
الشرع ما معنى ألم، ألمر، حم طس، طسم ونحوها؛ لأنه لا
يجد بيانها في شيء من كلام العرب، ولا من كلام الشرع،
فهي غير متضحة المعنى، لا باعتبارها نفسها، ولا باعتبار
أمر آخر يفسرها، ويوضحها، ومثل ذلك الألفاظ المنقولة عن
لغة العجم، والألفاظ الغريبة التي لا يوجد في لغة العرب، ولا
في عرف الشرع ما يوضحها، وهكذا ما استأثر الله بعلمه
ككروج، وما في قوله: ﴿إن الله عنده علم الساعة﴾ [لقمان: 34]
إلى الآخر الآية، ونحو ذلك، وهكذا ما كانت دلالة غير
ظاهرة لا باعتبار نفسه، ولا باعتبار غيره، كورود الشيء
محتماً لأمرين احتمالاً لا يرجح أحدهما على الآخر باعتبار
ذلك الشيء في نفسه، وذلك كالألفاظ المشتركة مع عدم
ورود ما يبين المراد من معنى ذلك المشترك من الأمور
الخارجة، وكذلك ورود دليلين متعارضين تعارضاً كلياً بحيث
لا يمكن ترجيح أحدهما على الآخر لا باعتبار نفسه، ولا
باعتبار أمر آخر يرجحه. وأما ما كان واضح المعنى باعتبار
نفسه بأن يكون معروفاً في لغة العرب، أو في عرف الشرع،
أو باعتبار غيره، وذلك كالأمور المجملة التي ورد بيانها في
موضع آخر من الكتاب العزيز، أو في السنة المطهرة، أو
الأمور التي تعارضت دلالتها، ثم ورد ما يبين راجحها من
مرجوحها في موضع آخر من الكتاب، أو السنة، أو سائر

﴿اليوم﴾ هو يوم القيامة أي: لحساب يوم، أو لجزاء يوم على تقدير حذف المضاف، وإقامة المضاف إليه مقامه. قوله: ﴿لا ريب فيه﴾ أي: في وقوعه ووقوع ما فيه من الحساب، والجزاء، وقد تقدم تفسير الريب، وجملة قوله: ﴿إن الله لا يخلف الميعاد﴾ للتعليل لمضمون ما قبلها، أي: أن الوفاء بالوعد شأن الإله سبحانه، وخلفه يخالف الألوهية، كما أنها تنافيه، وتباينه.

المرجحات المعروفة عند أهل الأصول المقبولة عند أهل الإنصاف، فلا شك، ولا ريب أن هذه من المحكم لا من المتشابه، ومن زعم أنها من المتشابه، فقد اشتبه عليه الصواب، فاشدد يدك على هذا، فإنك تنجو به من مضايق، ومزالق وقعت للناس في هذا المقام حتى صارت كل طائفة تسمى ما دل لما ذهب إليه محكماً، وما دل على ما يذهب إليه من يخالفها متشابهاً: سيما أهل علم الكلام، ومن أنكر هذا، فعليه بمؤلفاتهم.

واعلم أنه قد ورد في الكتاب العزيز ما يدل على أنه جميعه محكم، ولكن لا بهذا المعنى الوارد في هذه الآية بل بمعنى آخر، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿كتاب أحكمت آياته﴾ [هود: 1] وقوله: ﴿تلك آيات الكتاب الحكيم﴾ [يونس: 1] والمراد بالمحكم بهذا المعنى: أنه صحيح الالفاظ قوي المعاني فائق في البلاغة والفصاحة على كل كلام. وورد أيضاً ما يدل على أنه جميعه متشابه لكن لا بهذا المعنى الوارد في هذه الآية التي نحن بصدد تفسيرها بل بمعنى آخر، ومنه قوله تعالى: ﴿كتاباً متشابهاً﴾ [الزمر: 23] والمراد بالمتشابه بهذا المعنى: أنه يشبه بعضه بعضاً في الصحة، والفصاحة، والحسن، والبلاغة. وقد نكر أهل العلم لورود المتشابه في القرآن فولد: منها أنه يكون في الوصول إلى الحق مع وجودها فيه مزيد صعوبة، ومشقة، وذلك يوجب مزيد الثواب للمستخرجين للحق، وهم الأئمة المجتهدين، وقد نكر الزمخشري، والرازي، وغيرهما وجوهاً هذا أحسنها، وبقيتها لا تستحق الذكر ما هنا. قوله: ﴿كل من عند ربنا﴾ فيه ضمير مقدر عائد على مسمى المحكم، والمتشابه أي: كله، أو المحنوف غير ضمير، أي: كل واحد منهما، وهذا من تمام المقول المنكور قبله. وقوله: ﴿وما يذكر إلا أولوا الأبواب﴾ أي: العقول الخالصة وهم الراسخون في العلم، الواقفون عند متشابهه، العالمون بمحكمه العاملون بما أرشدهم الله إليه في هذه الآية. وقوله: ﴿ربنا لا تزغ﴾ الخ من تمام ما يقوله الراسخون، أي: يقولون آمنا به كل من عند ربنا، ويقولون: ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا﴾ قال ابن كيسان: سألوا ألا يزيفوا، فتزيف قلوبهم نحو قوله تعالى: ﴿فلما زأغوا زأغاً﴾ [الصف: 5] كأنهم لما سمعوا قوله سبحانه: ﴿وأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه﴾ قالوا: ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا﴾ بتابع المتشابه: ﴿بعد إذ هديتنا﴾ إلى الحق بما أننت لنا من العمل بالآيات المحكمات، والظرف، وهو قوله: ﴿بعد﴾ منتصب بقوله: لا تزغ. قوله: ﴿وهب لنا من لدنك رحمة﴾ أي: كائنة من عنك، ومن لابتداء الغاية ولئن بفتح اللام، وضم الدال، وسكون النون، وفيه لغات آخر هذه أقصعها، وهو ظرف مكان، وقد يضاف إلى الزمان، وتنكير رحمة للتعظيم أي: رحمة عظيمة واسعة وقوله: ﴿إنك أنت الوهاب﴾ تعليل للسؤال، أو لإعطاء المسؤول. وقوله: ﴿ربنا إنك جامع الناس﴾ أي: باعثهم ومحييهم بعد تفرقهم

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: المحكمات ناسخه، وحلاله، وحرامه، وحدوده، وفرائضه، وما نؤمن به، ونعمل به، والمتشابهات منسوخه، ومقتمه، ومؤخره، وأمثاله، وأقسامه، وما نؤمن به، ولا نعمل به. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مريويه، عن ابن عباس قال في قوله: ﴿منه آيات محكمات﴾ قال: الثلاث آيات من آخر سورة الأنعام محكمات: ﴿قل تعالوا﴾ [الأنعام: 151] والأيان بعدها. وفي رواية عنه أخرجها عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم في قوله: ﴿آيات محكمات﴾ قال: من هنا ﴿قل تعالوا﴾ إلى ثلاث آيات، ومن هنا ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه﴾ [الإسراء: 23] إلى ثلاث آيات بعدها. وقول: رحم الله ابن عباس ما أقل جنوى هذا الكلام المنقول عنه. فإن تعيين ثلاث آيات، أو عشر، أو مائة من جميع آيات القرآن، وصفها بأنها محكمة ليس تحته من الفائدة شيء، فالمحكمات هي أكثر القرآن على جميع الأقوال حتى على قوله المنقول عنه قريباً من أن المحكمات ناسخه، وحلاله، الخ، فما معنى تعيين تلك الآيات من آخر سورة الأنعام. وأخرج عبد بن حميد، عنه قال: المحكمات: الحلال والحرام، وللسلف أقوال كثيرة هي راجعة إلى ما قدمنا في أول هذا البحث. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: ﴿فأما الذين في قلوبهم زيغ﴾ يعني: أهل الشك، فيحملون المحكم على المتشابه، والمتشابه على المحكم، ويلبسون، فلبس الله عليهم: ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾ قال: تأويله يوم القيامة لا يعلمه إلا الله. وأخرج ابن جرير، عن ابن مسعود ﴿زيغ﴾ قال: شك. وفي الصحيحين، وغيرهما، عن عائشة قالت «تلا رسول الله ﷺ ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب﴾ إلى قوله: ﴿فأما الذين في قلوبهم زيغ﴾ إلى قوله: ﴿أولوا الأبواب﴾ قالت: قال رسول الله ﷺ: إذا رأيتم الذين يجادلون فيه، فهم الذين عني، فأحذروهم. وفي لفظ «فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه، فأولئك الذي سمامهم الله، فأحذروهم» هذا لفظ البخاري، ولفظ ابن جرير، وغيره «فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه، والذين يجادلون فيه، فهم الذين عني الله، فلا تجالسوهم» وأخرج عبد بن حميد، وعبد الرزاق، وأحمد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مريويه، والبيهقي في سننه عن أبي أمامة، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه﴾

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

المراد بالذين كفروا جنس الكفرة، وقيل: وقد نجران، وقيل: قريظة، وقيل: النضير، وقيل: مشركو العرب. وقرأ السلمي: «لن يغني» بالتحية، وقرأ الحسن بكون الياء الآخرة تخفيفاً، قوله: «من الله شيئاً» أي: من عذابه شيئاً من الإغناء، وقيل: إن كلمة من بمعنى عند، أي: لا تغني عند الله شيئاً قاله أبو عبيد، وقيل: هي بمعنى بدل. والمعنى بدل رحمة الله، وهو بعيد. قوله: «وأولئك هم وقود النار» الوقود: اسم للحطب، وقد تقدم الكلام عليه في سورة البقرة، أي: هم حطب جهنم الذي تسعر به، وهم: مبتدأ، ووقود خبره، والجملة خبر أولئك، أو هم ضمير فصل، وعلى التقديرين، فالجملة مستأنفة مقررة لقوله: «لن تغني عنهم أموالهم» الآية. وقرأ الحسن، ومجاهد، وطلحة بن مصرف «ووقود» بضم الواو، وهو مصدر، وكذلك الوقود بفتح الواو في قراءة الجمهور يحتمل أن يكون اسماً للحطب، كما تقدم، فلا يحتاج إلى تقدير، ويحتمل أن يكون مصدراً؛ لأنه من المصادر التي تأتي على وزن المفعول، فحتاج إلى تقدير، أي: هم أهل، ووقود النار. قوله: «كذاب آل فرعون» الداب: الاجتهاد، يقال داب الرجل في عمله يداب دأباً، ويؤبأ: إذا جد، واجتهد، والدائبان الليل، والنهار، والداب: العادة، والشأن، ومنه قول امرئ القيس:

كذابك من لم الحويرث قبلها وجارتها لم الرباب بماسل والمراد هنا: كعادة آل فرعون، وشأنهم، وحالهم، واختلفوا في الكاف، فقيل: هي في موضع رفع تقديره دأبهم كذاب آل فرعون مع موسى. وقال الفراء: إن المعنى كفرت العرب ككفر آل فرعون. قال النحاس: لا يجوز أن تكون الكاف متعلقة بكفروا، لأن كفروا داخلة في الصلة، وقيل: هي متعلقة بأخذهم الله، أي: أخذهم أخذة، كما أخذ آل فرعون، وقيل: هي متعلقة بلن تغني، أي: لم تغن عنهم غناء، كما لم تغن عن آل فرعون، وقيل: إن العامل فعل مقدر من لفظ الوقود، ويكون التشبيه في نفس الإحراق. قالوا: ويؤيده قوله تعالى: «اسلخوا آل فرعون أشد العذاب» [غافر: 46]. «النار يعرضون عليها غداً، وعشياً» [غافر: 46]. والقول الأول هو الذي قاله جمهور المحققين، ومنهم الأزهري. قوله: «والذين من قبلهم» أي: من قبل آل فرعون من الأمم الكافرة، أي: وكذاب الذين من قبلهم. قوله: «كنبوا بآياتنا فلأخذهم الله» يحتمل أن يريد الآيات المتلوة، ويحتمل أن يريد الآيات المنصوبة للدلالة على الوحدانية، ويصح إرادة الجميع. والجملة بيان، وتفسير لدأبهم، ويجوز أن تكون في محل نصب على الحال من آل فرعون والذين من قبلهم على إضمار قد: أي دأب هؤلاء كذاب أولئك قد كنبوا الخ. وقوله «بنذوبهم» أي بسائر نذوبهم التي من جملتها تكذيبهم. قوله: «قل للذين كفروا» قيل: هم اليهود، وقيل: هم مشركو مكة، وسيأتي بيان سبب نزول الآية. وقوله: «ستغلبون» قرئ بالفوقية، والتحتية، وكذلك

«تحشرون». وقد صدق الله، وعده بقتل بني قريظة، وإجلاء بني النضير، وفتح خيبر، وضرب الجزية على سائر اليهود، والله الحمد. قوله: «ويؤنس للمهاد» يحتمل أن يكون من تمام القول الذي أمر الله سبحانه نبيه ﷺ أن يقوله لهم، ويحتمل أن تكون الجملة مستأنفة تهويلاً، وتقطيعاً. قوله: «قد كان لكم آية» أي: علامة عظيمة دالة على صدق ما أقول لكم، وهذه الجملة جواب قسم محذوف، وهي: من تمام القول المأمور به لتقرير مضمون ما قبله، ولم يقل كانت؛ لأن التثنية غير حقيقي. وقال الفراء: إنه ذكر الفعل لأجل الفصل بينه، وبين الاسم بقوله: «لكم». والمراد بالفئتين المسلمين والمشركون لما التقوا يوم بدر. قوله: «فئة تقاوت في سبيل الله» قراءة الجمهور برفع فئة. وقرأ الحسن، ومجاهد «فئة» وكافرة» بالخفض، فالرفع على الخبرية لمبتدأ محذوف أي: إحداها فئة. وقوله: «تقتل» في محل رفع على الصفة، والجزء على البدل من قوله: «فئتين». وقوله: «ولخري» أي: وفئة أخرى كافرة. وقرأ ابن أبي عبيدة بالنصب فيهما. قال ثعلب: هو على الحال، أي: التقتا مختلفتين، مؤمنة، وكافرة. وقال الزجاج: النصب بتقدير أعني، وسميت الجماعة من الناس فئة؛ لأنه يفاء إليها أي: يرجع في وقت الشدة. وقال الزجاج الفئة: الفرقة مأخوذ من فالت رأسه بالسيف: إذا قطعت، ولا خلاف أن المراد بالفئتين هما: المقتتلان في يوم بدر، وإنما وقع الخلاف في مخاطب بهذا الخطاب، فقيل: مخاطب بها المؤمنون، وقيل: اليهود. وفائدة الخطاب للمؤمنين تثبيت نفوسهم، وتشجيعهم، وفائدته إذا كان مع اليهود عكس الفائدة المقصودة بخاطب المسلمين. قوله: «ترونها مثلهم» قال أبو علي الفارسي: الرؤية في هذه الآية رؤية العين، ولذلك تعنت إلى مفعول واحد، ويدل عليه قوله: «رأى العين» والمراد أنه يرى المشركون المسلمين مثلي عدد المشركين، أو مثلي عدد المسلمين، وهذا على قراءة الجمهور بالياء التحتية، وقرأ نافع بالفوقية. وقوله: «مثلهم» منتصب على الحال. وقد ذهب الجمهور إلى أن فاعل ترون هم: المؤمنون، والمفعول هم: الكفار. والضمير في مثلهم يحتمل أن يكون للمشركين، أي: ترون أيها المسلمون المشركين مثلي ما هم عليه من العدد، وفيه بعد أن يكثر الله المشركين في أعين المؤمنين، وقد أخبرنا أنه قللهم في أعين المؤمنين، فيكون المعنى ترون أيها المسلمون المشركين مثليكم في العدد، وقد كانوا ثلاثة أمثالهم، قلل الله المشركين في أعين المسلمين، فأراهم إياهم مثلي عدتهم لتقوى أنفسهم. وقد كانوا أعلموا أن المائة منهم تغلب المائتين من الكفار، ويحتمل أن يكون الضمير في مثلهم للمسلمين، أي: ترون أيها المسلمون أنفسكم مثلي ما أنتم عليه من العدد لتقوى بذلك أنفسكم، وقد قال من ذهب إلى التفسير الأول: أعني أن فاعل الرؤية المشركون، وأنهم رأوا المسلمين مثلي عددهم أنه لا يناقض هذا ما في سورة الأنفال من قوله تعالى: «ويقللهم في

امريء القيس:

لقد طوّرت في الأفق حتى رضيت من الفنمية بالإيلاب
قوله: ﴿قُلْ أُوْنِبْتُكُمْ بخير من نلُكم﴾ أي: هل أخبركم
بما هو خير لكم من تلك المستلذات، وإبهام الخير للتفخيم،
ثم بيّنه بقوله: ﴿للذين اتقوا عند ربهم جنات﴾ وعند في
محل نصب على الحال من جنات، وهي مبتدأ، وخبرها للذين
اتقوا، ويجوز أن تتعلق اللام بخير. وجنات خبر مبتدأ مقدر،
أي: هو جنات، وخص المتقين؛ لأنهم المنتفعون بذلك. وقد
تقدّم تفسير قوله: ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾ وما بعده.
قوله: ﴿الذين يقولون﴾ بدل من قوله: ﴿للذين اتقوا﴾ أو
خبر مبتدأ محذوف، أي: هم الذين، أو منصوب على المدح،
والصابرين، وما بعده نعت للموصول على تقدير كونه بدلاً،
أو منصوباً على المدح، وعلى تقدير كونه خبراً يكون
الصابرين، وما بعده منصوبة على المدح، وقد تقدّم تفسير
الصبر، والصديق، والقنوت. قوله: ﴿والمستغفرين
بالأسحار﴾ هم: السائلون للمغفرة بالأسحار، وقيل:
المصلون. والأسحار جمع سحر بفتح الحاء، وسكونها. قال
الزجاج: هو من حين يدير الليل إلى أن يطلع الفجر، وخص
الأسحار؛ لأنها من أوقات الإجابة.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن عمر بن
الخطاب، لما نزلت: ﴿زين للناس حبّ الشهوات﴾ قال: الآن
يا ربّ حين زينتها لنا، فنزلت: ﴿قُلْ أُوْنِبْتُكُمْ﴾. وأخرجه ابن
المنذر عنه بلفظ خير انتهى إلى قوله: ﴿قُلْ أُوْنِبْتُكُمْ بخير﴾
فبكى، وقال: بعد ماذا بعد ماذا بعد ما زينتها. وأخرج أحمد،
وابن ماجه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:
«القنطار اثنا عشر ألف أوقية». رواه أحمد من حديث
عبد الصمد بن عبد الوارث، عن حماد، عن عاصم عن أبي
صالح عنه. ورواه ابن ماجه، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن
عبد الصمد به. وقد رواه ابن جرير موقوفاً على أبي هريرة.
قال ابن كثير: وهذا أصح. وأخرج الحاكم وصححه، عن انس
قال: سئل رسول الله ﷺ عن القناطير المقنطرة، فقال:
«القنطار ألف أوقية». ورواه ابن أبي حاتم، وابن مردويه عنه
مرفوعاً بلفظ ألف دينار. وأخرج ابن جرير، عن أبي بن كعب
قال: قال رسول الله ﷺ: «القنطار ألف أوقية، ومائتا أوقية».
وأخرجه عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم،
والبیهقي من قول معاذ بن جبل، وأخرجه ابن جرير من قول
ابن عمر، وأخرجه عبد بن حميد، وابن جرير، والبيهقي من
قول أبي هريرة، وأخرجه ابن جرير، والبيهقي من قول ابن
عباس. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن
أبي سعيد الخدري، قال: القنطار ملء مسك جلد الثور ذهباً.
وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عمر أنه قال:
القنطار سبعون ألفاً، وأخرجه عبد بن حميد، عن مجاهد.
وأخرج أيضاً عن سعيد بن المسيب قال: القنطار ثمانون ألفاً.
وأخرج أيضاً، عن أبي صالح قال: القنطار مائة رطل.
وأخرجه أيضاً عن قتادة، وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي

جعفر قال: القنطار خمسة عشر ألف مثقال، والمثقال أربعة
وعشرون قيراطاً، وأخرج ابن جرير، عن الضحاک قال: هو
المال الكثير من الذهب، والفضة. وأخرجه أيضاً، عن الربيع.
وأخرج عن السدي: أن المقنطرة المضروبة. وأخرج ابن
جرير من طريق العوفي، عن ابن عباس ﴿والخيل
المسومة﴾ قال: الراعية. وأخرج ابن المنذر، عنه من طريق
مجاهد. وأخرج ابن جرير عنه قال: هي الراعية، والمطهمة
الحسان. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد قال:
هي المطهمة الحسان. وأخرجها، عن عكرمة قال: تسويمها
حسنها. وأخرج ابن أبي حاتم، قال: ﴿والخيل المسومة﴾
الغزة، والتحجيل، وأخرج عبد بن حميد، عن قتادة في قوله
الصابرين قال: قوم صبروا على طاعة الله، وصبروا عن
محارمه، والصادقون قوم صلبت نياتهم، واستقامت قلوبهم،
والسنتهم، وصنفوا في السرّ، والعلانية، والقانتون هم:
المطيعون، والمستغفرون بالأسحار أهل الصلاة. وأخرج ابن
أبي حاتم، عن سعيد بن جبیر، نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة
قال: هم الذين يشهدون صلاة الصبح. وأخرج ابن جرير،
وابن مردويه، عن انس قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نستغفر
بالأسحار سبعين مرة. وأخرج ابن جرير، وأحمد في الزهد،
عن سعيد الجريري قال: بلغنا أن داود عليه السلام سأل
جبريل، فقال: يا جبريل أي الليل أفضل؟ قال: يا داود ما
أدري إلا أن العرش يهتز في السحر. وقد ثبت في
الصحيحين، وغيرهما، عن جماعة من الصحابة أن رسول
الله ﷺ قال: «ينزل الله تبارك وتعالى في كل ليلة إلى سماء
الدنيا حتى يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول هل من سائل،
فاعطيه، هل من داع، فاستجب له، هل من مستغفر، فأغفر
له».

شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ
إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ إِنَّ الْآيَاتِ مِنْهُ الْإِنشَاءُ وَمَا أُخْتَلَفَ
الْأَيَاتِ أَوْثَرُ الْكِتَابِ إِلَّا مِنْ بَدَا مَا جَاءَهُمْ أَوَّلُ مَا يَنْهَوْنَ وَمَنْ يَكْفُرْ
بِعَاقِبَتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝ فَإِنَّ حَاقَهُ فَقَدْ أَتَتْ وَتَبَّهَ لِلَّهِ
وَمَنْ أَتَى وَتَبَّهَ لِلَّهِ لَئِنْ أَوْثَرُ الْكِتَابِ وَالْأَيَاتِ مَا سَلَسْتُ فَإِنْ أَسَلَمُوا فَقَدْ
أَفْتَدَوْا وَلَئِنْ تَوَلَّوْا فَمَا مَلَكَ الْبَلْغُ وَاللَّهُ بِمُؤْمِنِي الْوَاسِعُ ۝

قوله: ﴿شهد الله﴾ أي: بين وأعلم. قال الزجاج: الشاهد
هو الذي يعلم الشيء، وبيّنه، فقد لنا الله على وحدانيته بما
خلق وبيّن، وقال أبو عبيدة: شهد الله بمعنى قضى، أي: أعلم.
قال ابن عطية، وهذا مردود من جهات، وقيل: إنها شبيهت
دلالاته على وحدانيته بأفعاله، ووحية بشهادة الشاهد في
كونها مبنية. وقوله أنه بفتح الهمزة. قال المبرد أي: بأنه ثم
حذفت الباء، كما في امرتك الخير أي: بالخير. وقرأ ابن
عباس: «إنه» بكسر الهمزة بتضمين شهد معنى قال. وقرأ
أبو المهلب: «شهداء الله» بالنصب على أنه حال من
الصابرين، وما بعده، أو على المدح: ﴿والملائكة﴾ عطف
على الاسم الشريف، وشهادتهم إقرارهم بأنه لا إله إلا الله.

وقوله: ﴿وَأُولُوا الْعِلْمِ﴾ معطوف أيضاً على ما قبله، وشهادتهم بمعنى الإيمان منهم، وما يقع من البيان للناس على السننهم، وعلى هذا لا بد من حمل الشهادة على معنى يشمل شهادة الله، وشهادة الملائكة، وأولي العلم. وقد اختلف في أولي العلم هؤلاء من هم؟ فقيل: هم الأنبياء؛ وقيل: المهاجرون، والأنصار، قاله ابن كيسان، وقيل: مؤمنو أهل الكتاب، قاله مقاتل، وقيل: المؤمنون كلهم، قاله السدي، والكلبى، وهو الحق إذ لا وجه للتخصيص. وفي ذلك فضيلة لأهل العلم جليلة، ومنقبة نبيلة لقربهم باسمه، واسم ملائكته، والمراد بأولي العلم هنا علماء الكتاب، والسنة، وما يتوصل به إلى معرفتهما، إذ لا اعتداد بعلم لا مدخل له في العلم الذي اشتمل عليه الكتاب العزيز، والسنة المطهرة. وقوله: ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ أي: العدل، أي: قائماً بالعدل في جميع أموره، أو مقيماً له، وانتصاب قائماً على الحال من الاسم الشريف. قال في الكشاف: إنها حال مؤكدة كقوله: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾ [البقرة: 91] وجزان إفراذه سبحانه بذلك دون ما هو معطوف عليه من الملائكة، وأولي العلم لعدم اللبس، وقيل: إنه منصوب على المدح، وقيل: إنه صفة لقوله: ﴿إِلَهُهُ﴾ أي: لا إله قائماً بالقسط، إلا هو، أو هو حال من قوله: ﴿إِلَّا هُوَ﴾ والعامل فيه معنى الجملة. وقال الفراء: هو منصوب على القطع؛ لأن أصله الألف، واللام، فلما قطعت نصب كقوله: ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَأَصْبَا﴾ [النحل: 52] ويدل عليه قراءة عبد الله بن مسعود القائم بالقسط. وقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ تكرير لقصد التأكيد؛ وقيل: إن قوله: ﴿إِنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ كالدعوى، والآخر كالحكم. وقال جعفر الصائغ الأولى وصف، وتوحيد، والثانية رسم، وتعليم. وقوله: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ مرتفعان على البلية من الضمير، أو الوصفية لفاعل شهد لتقرير معنى الوحدانية. قوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾. قرأه الجمهور بكسر إن على أن الجملة مستأنفة مؤكدة للجملة الأولى، وقرئ بفتح أن. قال الكسائي: انتصبها جميعاً يعني قوله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ﴾ وقوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ بمعنى شهد الله أنه كذا، وأن الدين عند الله الإسلام. قال ابن كيسان: إن الثانية بدل من الأولى. وقد ذهب الجمهور إلى أن الإسلام هنا بمعنى الإيمان، وإن كانا في الأصل متغايرين، كما في حديث جبريل الذي بيّن فيه النبي ﷺ معنى الإسلام، ومعنى الإيمان، وصدقه جبريل، وهو في الصحيحين، وغيرهما ولكنه قد يسمى كل واحد منهما باسم الآخر، وقد ورد ذلك في الكتاب والسنة. قوله: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مَن بَعْدَ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ فيه الإخبار بأن اختلاف اليهود، والنصارى كان لمجرد البغي بعد أن علموا بأنه يجب عليهم الدخول في دين الإسلام بما تضمنته كتبهم المنزلة إليهم. قال الأخفش: وفي الكلام تقديم وتأخير، والمعنى: ما اختلف الذين أوتوا الكتاب بغياً بينهم إلا من بعد ما جاءهم العلم. والمراد بهذا الخلاف الواقع بينهم هو

خلافهم في كون نبينا ﷺ نبياً أم لا؟ وقيل اختلافهم في نبوة عيسى، وقيل: اختلافهم في ذات بينهم حتى قالت اليهود: ليست النصارى على شيء، وقالت النصارى: ليست اليهود على شيء. قوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: بالآيات الدالة على أن الدين عند الله الإسلام ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ فيجازيه، ويعاقبه على كفره بآياته، والإظهار في قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ مع كونه مقام الإضمار للتحويل عليهم، والتهديد لهم. قوله: ﴿فَإِنَّ حَاجُوكَ﴾ أي: جابلوك بالشبه الباطلة، والأقوال المحرفة، ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ أي: أخلصت ذاتي لله، وعبر بالوجه عن سائر الذات لكونه أشرف أعضاء الإنسان، وأجمعها للحواس، وقيل: الوجه هنا بمعنى: القصد. وقوله: ﴿وَمَن تَتَّبِعْ﴾ عطف على فاعل أَسْلَمْتُ، وجزان للفصل، وأثبت نافع، وأبو عمرو، ويعقوب الياء في اتبعن على الأصل، وحذفها الآخرون اتباعاً لرسم المصحف، ويجوز أن تكون الواو بمعنى مع والمراد بالأميين هنا مشركو العرب. وقوله: ﴿أَسْلَمْتُمْ﴾ استفهام تقريرى يتضمن الأمر، أي: أسلموا، كذا قاله ابن جرير، وغيره. وقال الزجاج: ﴿أَسْلَمْتُمْ﴾ تهديد، والمعنى: أنه قد أتاكم من البراهين ما يوجب الإسلام، فهل علمتم بموجب ذلك أم لا؟ تبيكنا لهم، وتصغيراً لشأنهم في الإنصاف، وقبول الحق. وقوله: ﴿فَقَدْ اهْتَدَوْا﴾ أي: ظفروا بالهداية التي هي الحظ الأكبر، وفازوا بخير الدنيا، والآخرة ﴿وَأَن تَوَلَّوْا﴾ أي: أعرضوا عن قبول الحجة، ولم يعملوا بموجبها ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ أي: فإنما عليك أن تبلغهم ما أنزل إليك، ولست عليهم بمسيطر، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، والبلأغ مصدر. وقوله: ﴿وَاللَّهُ بِصِيرِ الْعِبَادِ﴾ فيه وعد ووعد لتضمنه أنه عالم بجميع أحوالهم.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن الحسن في قوله: ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ قال: بالعدل. وأخرج أيضاً، عن ابن عباس مثله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة في قوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ قال: الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله، والإقرار بما جاء به من عند الله، وهو دين الله الذي شرع لنفسه، وبعث به رسوله، يدل عليه أوليائه لا يقبل غيره. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الضحاك قال: لم يبعث الله رسلاً إلا بالإسلام. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، عن سعيد بن جبيرة قال: كان حول البيت ستون وثلاثمائة صنم لكل قبيلة من قبائل العرب صنم، أو صنمان، فأنزل الله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ الآية، فاصبحت الأصنام كلها قد خربت، سجدت للكمبة. وأخرج ابن السني في عمل اليوم، والليلة، وأبو منصور الشحامي في الأربعين، عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ، وَآيَةَ الْكُرْسِيِّ، وَالْآيَتَيْنِ مِنْ آلِ عِمْرَانَ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴿قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمَلِكِ تَوْتِي الْمَلِكِ مِنْ تَشَاءُ وَتَنْزَعُ الْمَلِكِ مَنْ تَشَاءُ

تَسْتَأْذِنُ الْآثَرُ إِلَّا إِنَّمَا تَمْدُدُهُمْ فِي يَوْمِهِمْ تَأْكُلُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٦﴾
 كَيْفَ إِذَا جَمَعْتَهُمْ يَوْمَ لَا رَيْبَ فِيهِ ذُوقُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ
 لَا يُلَاحِظُونَ ﴿٢٧﴾

قوله: ﴿بآيات الله﴾ ظاهره عدم الفرق بين آية وآية
 «ويقتلون النبيين بغير حق» يعني: اليهود قتلوا الأنبياء
 «ويقتلون للنبيين يأمرون بالقسط من الناس» أي:
 بالعدل، وهم الذين يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر،
 قال المبرد: كان ناس من بني إسرائيل جاءهم النبيون،
 فدعواهم إلى الله، فقتلواهم، فقام أناس من بعدهم من
 المؤمنين، فأمرهم بالإسلام، فقتلواهم. ففيهم نزلت الآية.
 وقوله: ﴿فبشرهم بعذاب اليم﴾ خبر «إن الذين يكفرون»
 الخ، وبخلته الفاء لتضمن الموصول معنى الشرط، وذهب
 بعض أهل النحو إلى أن الخبر قوله: ﴿أولئك الذين حبطت
 أعمالهم﴾ وقالوا إن الفاء لا تدخل في خبر إن، وإن تضمن
 اسمها معنى الشرط؛ لأنه قد نسخ بدخول إن عليه، ومنهم
 سيبويه، والأخفش، وذهب غيرهما إلى أن ما يتضمنه المبتدأ
 من معنى الشرط لا ينسخ بدخول إن عليه، ومثل المكسورة
 المفتوحة، ومنه قوله تعالى: ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء
 فإن لله خمسه﴾ [الأنفال: 41]. وقوله: ﴿حبطت أعمالهم﴾
 قد تقدم تفسير الإحباط، ومعنى كونها حبطت في الدنيا،
 والآخرة أنه لم يبق لحسناتهم أثر في الدنيا، حتى يعاملوا
 فيها معاملة أهل الحسنات، بل عوملوا معاملة أهل السيئات،
 فلعنوا وحل بهم للخزي، والصغار، ولهم في الآخرة عذاب
 النار. قوله: ﴿الم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب﴾
 فيه تعجيب لرسول الله ﷺ، ولكل من تصح منه الرؤية من
 حال هؤلاء، وهم أحبار اليهود. والكتاب: التوراة، وتنكير
 النصيب للتعظيم، أي: نصيباً عظيماً، كما يفيد مقام المبالغة،
 ومن قال: إن التنكير للتحقير، فلم يصب، فلم ينتفعوا بذلك،
 وذلك بأنهم يدعون إلى كتاب الله الذي أوتوا نصيباً منه، وهو
 التوراة: «ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم» والحال
 أنهم معرضون عن الإجابة إلى ما دعوا إليه مع علمهم به،
 واعترافهم بوجوب الإجابة إليه، و«ذلك» إشارة إلى ما مر
 من التولي، والإعراض بسبب «أنهم قالوا لن تمسنا النار
 إلا أياماً معدودات» وهي: مقدار عبادتهم العجل. وقد تقدم
 تفسير ذلك: «ووغرهم في بينهم ما كانوا يفترون» من
 الأكاذيب التي من جعلتها هذا القول. قوله: ﴿فكيف إذا
 جمعناهم ليوم لا ريب فيه﴾ هو: رد عليهم، وإبطال لما
 غرهم من الأكاذيب، أي: فكيف يكون حالهم إذا جمعناهم
 ليوم لا ريب فيه، وهو يوم الجزاء الذي لا يرتاب مرتاب في
 وقوعه، فإنهم يعمون لا محالة، ويعجزون عن دفعه بالحيل،
 والأكاذيب «ووفيت كل نفس ما كسبت» أي: جزاء ما
 كسبت على حذف المضاف «وهم لا يظلمون» بزيادة، ولا
 نقص. والمراد كل الناس المبلول عليهم بكل نفس. قال
 الكسائي: اللام في قوله: ﴿ليوم﴾ بمعنى في، وقال
 البصريون: المعنى لحساب يوم. وقال ابن جرير الطبري

وتعز من تشاء وتذل من تشاء» إلى قوله: «بغير حساب»
 [آل عمران: 26، 27] هن معلقات بالعرش ما بينهن، وبين
 الله حجاب، يقلن يا رب تهبطنا إلى أرضك، وإلى من
 يعصيك؟ قال الله: إني خلقت لا يقرؤن أحد من عبادي دبر
 كل صلاة إلا جعلت الجنة مأواه على ما كان منه، وإلا
 أسكنته حظيرة القدس، وإلا نظرت إليه بعيني المكنونة كل
 يوم سبعين نظرة، وإلا قضيت له كل يوم سبعين حاجة
 أنناها المغفرة، وإلا أعنته من كل عدو، ونصرتة منه.
 وأخرج البيهقي في مسند الفريوس، عن أبي أيوب
 الأنصاري مرفوعاً نحوه، وفيه: «لا يتلوكن عبد دبر كل
 صلاة مكتوبة إلا غفرت له ما كان منه، وأسكنته جنة
 الفريوس، ونظرت إليه كل يوم سبعين مرة، وقضيت له
 سبعين حاجة أنناها المغفرة». وأخرج أحمد، وابن أبي
 حاتم، والطبراني، وابن السني، عن الزبير بن العوام قال:
 «سمعت رسول الله ﷺ، وهو يعرفه يقرأ هذه الآية: ﴿شهد
 الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً
 بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾ فقال: وأنا على ذلك
 من الشاهدين» ولفظ الطبراني «وأنا أشهد أن لا إله إلا أنت
 العزيز الحكيم». وأخرج ابن عدي، والطبراني في الأوسط،
 والبيهقي في شعب الإيمان، وضعفه، والخطيب في تاريخه،
 وابن النجار عن غالب القطان قال: أتيت الكوفة في تجارة،
 فنزلت قريباً من الأعمش. فلما كان ليلة أريت أن انحدر قام،
 فتهجد من الليل، فمر بهذه الآية «شهد الله أنه لا إله إلا
 هو» إلى قوله: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ فقال: وأنا
 أشهد بما شهد به الله، وأستودع الله هذه الشهادة، وهي لي
 وبيعة عند الله، قالها مراراً، فقلت: لقد سمع فيها شيئاً،
 فسألته فقال: حدثني أبو وائل عن عبد الله قال: قال رسول
 الله ﷺ: «يجاء بصاحبها يوم القيامة، فيقول الله: عبيدي عهد
 إلي، وأنا أحق من وفي بالعهد أنخلوا عبيدي الجنة». وأخرج
 ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير، في قوله: ﴿وما اختلف
 للذين أوتوا الكتاب﴾ قال: بنو إسرائيل. وأخرج ابن جرير،
 عن أبي العلاء في قوله: ﴿بغياً بينهم﴾ يقول: بغياً على
 الدنيا، وطلب ملكها، وسلطانها. فقتل بعضهم بعضاً على
 الدنيا من بعد ما كانوا علماء الناس. وأخرج ابن أبي حاتم،
 عن الحسن في قوله: ﴿فإن حاجوك﴾ قال: إن حاجك
 اليهود، والنصارى. وأخرج ابن المنذر، عن ابن جريج،
 ونحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن
 ابن عباس: «وقل للذين أوتوا الكتاب﴾ قال: اليهود،
 والنصارى «والأمة» قال: هم: الذين لا يكتبون.

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَسْمِعُونَ حَقَّ رَبِّهِمْ
 الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾
 أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي اللَّهِ وَآخِرَتِهِ وَمَا لَهُمْ مِنَ
 شَيْءٍ ﴿٢٩﴾ أَوْ تَرَى إِلَى اللَّهِ أَوْفَاءً نَبِيًّا مِنَ الْعِبَادِ يَدْعُونَ إِلَهُ
 اللَّهُ يَسْمَعُ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٣٠﴾ ذَلِكَ وَأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ

وابن ابي حاتم، عن ابن عباس: ﴿تخرج الحي من الميت﴾ قال: تخرج النطفة الميتة من الحي، ثم تخرج من النطفة بشراً حياً. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن ابي حاتم، عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن ابي حاتم، وأبو الشيخ، عن عكرمة ﴿تخرج الحي من الميت﴾ قال: هي البيضة تخرج من الحي، وهي ميتة، ثم يخرج منها الحي. وأخرج ابن جرير عنه قال: النطفة من الفؤاد، والنواة من النطفة، والحبة من السنبل، والسنبل من الحبة. وأخرج ابن ابي حاتم، وأبو الشيخ، عن أبي مالك مثله. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن الحسن قال: المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن. والمؤمن عبد حي الفؤاد، والكافر عبد ميت الفؤاد. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن ابي حاتم، والبيهقي، عن سلمان الفارسي، نحوه. وأخرج ابن مريويه، عنه مرفوعاً نحوه، وأخرجه أيضاً عنه، أو عن ابن مسعود، مرفوعاً. وأخرج عبد الرزاق، وابن سعد، وابن جرير، وابن ابي حاتم، وابن مريويه، عن عبيد الله بن عبد الله: «أن خالدة بنت الأسود بن عبد يغوث نزلت على النبي ﷺ، فقال: من هذه؟ قيل: خالدة بنت الأسود، قال: سبحان الذي يخرج الحي من الميت، وكانت امرأة صالحه، وكان أبوها كافراً. وأخرج ابن سعد، عن عائشة مثله.

لَا يَتَّبِعُ الْمُؤْمِنُونَ الْكُفْرَةَ أَزَلَةً مِنْ دُونِ الْكُفْرَةِ وَمَنْ يَتَمَنَّ ذَٰلِكَ
فَنَسَّ مِنْ اللَّهِ فِي سَعْدِ لَآ أَلَا تَسْتَعْلَمُونَ مِنْهُ نَزْلَهُ وَيُذَرِّكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ ذَٰلِ
اللَّهُ الْمَصِيرُ ﴿٧٩﴾ قُلْ إِن تَعْلَمُوا مَا فِي صُورِكُمْ أَوْ يُبْدُوهُ جَاهِلُهُ اللَّهُ وَسَمَّ مَا فِي
السَّحَابِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨٠﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ
مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُنْخَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا
بَعِيدًا وَيُذَرِّكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ دُفُوعًا بَالِغًا ﴿٨١﴾

قوله: ﴿لَا يَتَّخِذُ﴾ فيه النهي للمؤمنين عن موالاة الكفار بسبب من الأسباب، ومثله قوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ﴾ [آل عمران: 118] الآية، وقوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَاِنَّهُمْ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: 51]، وقوله: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِالْإِسْلَامِ﴾ [المجادلة: 22] الآية، وقوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة: 51]، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [المتحنة: 1] وقوله: ﴿مَنْ دُونَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ في محل الحال، أي: متجاوزين المؤمنين إلى الكافرين استقلالاً، أو اشتراكاً، والإشارة بقوله: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ إلى الاتحاد المملول عليه بقوله: ﴿لَا يَتَّخِذُ﴾ ومعنى قوله: ﴿فَلَيْسَ مِنْ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ أي: من ولايته في شيء من الأشياء، بل هو منسلخ عنه بكل حال. قوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ على صيغة الخطاب بطريق الالتفات، أي: إلا أن تخافوا منهم أمراً يجب اتقاؤه، وهو: استثناء مفرغ من أعم الأحوال. وتقاة مصدر واقع موقع المفعول، وأصلها وقية على وزن فعلة قلبت الواو تاء، والياء ألفاً، وقرأ رجاء، وقتادة تقيّة. وفي ذلك دليل على جواز

الشرّ: لأن الخير بفضل محض بخلاف الشرّ، فإنه يكون جزءا لعمل وصل إليه، وقيل: لأن كلّ شرٍّ من حيث كونه من قضائه سبحانه هو: متضمن للخير، فأفعاله كلها خير، وقيل: إنه حذف، كما حذف في قوله: ﴿سرابيل تقيكم الحر﴾ [النحل: 81] وأصله بينك الخير والشرّ، وقيل: خص الخير؛ لأن المقام مقام دعاء، قوله: ﴿إنك على كل شيء قدير﴾ تعليل لما سبق، وتحقيق له، قوله: ﴿تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل﴾ أي: تدخل ما نقص من أحدهما في الآخر، وقيل: المعنى تعاقب بينهما، ويكون زوال أحدهما، ولوجاً في الآخر. قوله: ﴿وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي﴾ قيل: المراد: إخراج الحيوان، وهو حي من النطفة، وهي ميتة، وإخراج النطفة، وهي ميتة من الحيوان، وهو حي، وقيل المراد: إخراج الطائر، وهو حي من البياضة، وهي ميتة، وإخراج البياضة، وهي ميتة من السجاجة، وهي حية، وقيل المراد: إخراج المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن. قوله: ﴿بغير حساب﴾ أي: بغير تضيق، ولا تقدير، كما تقول فلان يعطي بغير حساب، والباء متعلقة بمحذوف وقع حالاً.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن قتادة قال: نكر لنا أن نبي الله ﷺ سال ربه أن يجعل ملك فارس، والروم في أمته، فنزلت الآية. وأخرج الطبراني، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: اسم الله الأعظم ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمُلْكُ﴾ إلى قوله: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وأخرج ابن أبي الدنيا، والطبراني، عن معاذ أنه شكا إلى النبي ﷺ ديناً عليه، فعلمه أن يتلو هذه الآية، ثم يقول: رحمن الدنيا، والآخرة، ورحيمهما، تعطي من تشاء منها، وتمنع من تشاء، ارحمني رحمة تغنيني بها عن رحمة من سواك، اللهم أغنني من الفقر، واقض عني الدين.. وأخرجه الطبراني في الصغير من حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ لمعاذ: «ألا أعلمك دعاء تدعوه لو كان عليك مثل جبل أحد ديناً لأداء الله عنك، فنكره، وإسناده جيد، وقد تقدم عند تفسير قوله تعالى: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو﴾ [آل عمران: 18] بعض فضائل هذه الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿نُؤْتِي الْمُلْكَ مِنْ نَشَاءٍ﴾ قال: النبوة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن مسعود في قوله: ﴿تُولَجُ اللَّيْلِ فِي النَّهَارِ﴾ الآية، قال: تأخذ الصيف من الشتاء، وتأخذ الشتاء من الصيف ﴿وتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ تخرج الرجل الحي من النطفة الميتة ﴿وتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ تخرج النطفة الميتة من الرجل الحي. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس ﴿تُولَجُ اللَّيْلِ فِي النَّهَارِ﴾ قال: ما نقص من النهار تجعله في الليل، وما نقص من الليل تجعله في النهار. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي نحوه. وأخرج عبد بن حميد، عن مجاهد، نحوه. وأخرج عبد بن حميد، عن الضحاك، نحوه أيضاً. وأخرج ابن المنذر،

الموالاة لهم مع الخوف منهم، ولكنها تكون ظاهراً لا باطناً. وخالف في ذلك قوم من السلف، فقالوا: لا تقية بعد أن أعز الله الإسلام. قوله: ﴿وَيَحْذَرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ أي: ذاته المقدسة، وإطلاق ذلك عليه سبحانه جائز في المشاكلة، كقوله: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: 116] وفي غيرها. وذهب بعض المتأخرين، إلى منع ذلك إلا مشاكلة. وقال الزجاج: معناه: ويحذركم الله إياه، ثم استغنوا عن ذلك بهذا، وصار المستعمل. قال: وأما قوله: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ فمعناه تعلم ما عندي، وما في حقيقتي، ولا أعلم ما عنك، ولا ما في حقيقتك. وقال بعض أهل العلم: معناه: ويحذركم الله عقابه مثل ﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: 82] فجعلت النفس في موضع الإضمار، وفي هذه الآية تهديد شديد، وتخويف عظيم لعباده أن يتعرضوا لعقابه بموالاة أعدائه. قوله: ﴿قُلْ إِنْ تَخْشَوْنَ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ الآية فيه أن كل ما يضره العبد، ويخفيه، أو يظهره، ويبيده، فهو معلوم لله سبحانه، لا يخفى عليه منه شيء، ولا يعزب عنه مثقال ذرة: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ مما هو أعم من الأمور التي يخفونها، أو يبيدونها، فلا يخفى عليه ما هو أخص من ذلك. قوله: ﴿يَوْمَ تَجِدُ﴾ منصوب بقوله: ﴿وَيَحْذَرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ وقيل: بمحطوف، أي: انكروا، و﴿محضراً﴾ حال، وقوله: ﴿وَمَا عَمِلْتُمْ مِنْ سُوءٍ﴾ معطوف على ما الأولى أي: وتجد ما عملت من سوء محضراً تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً. فحذف محضراً لدلالة الأول عليه، وهذا إذا كان «تجد» من وجدان الضالة، وأما إذا كان من وجد بمعنى علم كان محضراً، هو المفعول الثاني، ويجوز أن يكون قوله: ﴿وَمَا عَمِلْتُمْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ جملة مستأنفة، ويكون «ما» في ما عملت مبتدأ، ويؤد خبره. والامد: للغاية، وجمعه أماد أي: تود لو أن بينها وبين ما عملت من السوء أمداً بعيداً، وقيل: إن قوله: ﴿يَوْمَ تَجِدُ﴾ منصوب بقوله: ﴿تَوَدُّ﴾ والضمير في قوله: ﴿وَبَيْنَهُ﴾ لليوم، وفيه بعد، وكرر قوله: ﴿وَيَحْذَرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ للتأكيد، وللإستحضار ليكون هذا التهديد العظيم على نكر منهم، وفي قوله: ﴿وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ دليل على أن هذا التحذير الشديد مقترب بالرفقة منه سبحانه بعباده لطفاً بهم. وما أحسن ما يحكي عن بعض العرب أنه قيل له: إنك تموت، وتبعث، وترجع إلى الله فقال: أتهدونني بمن لم أر الخير قط إلا منه.

للكافرين﴾ إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، من طرق عنه قال: نهى الله المؤمنين أن يلاطفوا الكفار، ويتخونهم، وليجة من دون المؤمنين، إلا أن يكون الكفار عليهم ظاهرين، فيظهرون لهم اللطف، ويخالفونهم في الدين، وذلك قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ فقد بريء الله منه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، من طريق العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُ تُقَاةً﴾ قال: التقية باللسان من حمل على أمر يتكلم به، وهو معصية الله، فيتكلم به مخافة للناس، وقلبه مطمئن بالإيمان، فإن ذلك لا يضره، إنما التقية باللسان. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه عنه في الآية قال: التقية التكلم باللسان، والقلب مطمئن بالإيمان، ولا ييسط يده، فيقتل، ولا إلى إثم، فإنه لا عذر له. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن أبي العلي في الآية قال: التقية باللسان، وليس بالعمل، وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن قتادة: ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ قال إلا أن يكون بينك وبينه قرابة، فتصله لذلك. وأخرج عبد بن حميد، والبخاري، عن الحسن قال: التقية جائزة إلى يوم القيامة. وحكى البخاري عن أبي الدرداء أنه قال: إنا نيش في وجوه أقوام، وقلوبنا تلعنهم، ويدل على جواز التقية، قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقُلُوبُهُ مَطْمَئِنٌ بِالْإِيمَانِ، وَلَكِنْ مِنْ شَرَحَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا، فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ، وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: 106]. ومن القائلين بجواز التقية باللسان أبو الشعثاء، والضحاك، والربيع بن أنس. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي في قوله: ﴿قُلْ إِنْ تَخْشَوْنَ﴾ الآية قال: أخبرهم أنه يعلم ما أسروا، وما أعلنوا. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله محضراً، يقول موقراً. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن الحسن في الآية قال: يسر أحكم أن لا يلقي عمله ذلك أبداً، يكون ذلك مناه. وأما في الدنيا، فقد كانت خطيئته يستلذها. وأخرجنا أيضاً، عن السدي: ﴿أَمَدًا بَعِيدًا﴾ قال: مكاناً بعيداً. وأخرج ابن جرير، عن ابن جريج أمداً قال: أجلاً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن الحسن في قوله: ﴿وَيَحْذَرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ قال: من رافقه بهم حذرهم نفسه.

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿١٦٨﴾ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦٩﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧٠﴾

الحب، والمحبة ميل النفس إلى الشيء، يقال: أحبه، فهو محب، وحبه يحبه بالكسر، فهو محبوب. قال الجوهري: وهذا شاذ؛ لأنه لا يأتي في المضاعف يفعل بالكسر. قال ابن

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: كان الحجاج بن عمرو حليف كعب بن الأشرف، وابن أبي الحقيق، وقيس بن زيد قد بطنوا بنفر من الأنصار ليفتنوهم عن دينهم، فقال رفاعة بن المنذر، وعبد الله بن جبيرة، وسعد بن خثمة، لأولئك النفر: اجتنبوا هؤلاء النفر من يهود، واحذروا مبايحتهم لا يفتنوكم عن دينكم، فأبى أولئك النفر، فأنزل الله فيهم: ﴿لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ

يحببكم الله ﴿١﴾ قال: على البر، والتقوى، والتواضع، وثلة النفس. وأخرجه أيضاً الحكيم الترمذي، وأبو نعيم، والديلمي، وابن عساكر عنه. أخرج ابن عساكر، مثله عن عائشة. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو نعيم في الحلية، والحاكم، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «الشرك أخفى من نبيب النمل على الصفا في الليلة الظلماء، وأنها أن يحب على شيء من الجور، ويبغض على شيء من العدل، وهل الدين إلا الحب، والبغض في الله» قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَلْ إِبْرَاهِيمَ وَأَلْ عِمْرَانَ﴾ قال: هم المؤمنون من آل إبراهيم، وآل عمران، وآل ياسين، وآل محمد. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿ذَرِيَّةَ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ قال: في النية، والعمل، والإخلاص، والتوحيد.

إِذْ قَالَتْ أَسْرَتُكَ عَمْرُو بْنُ أَبِي حَتَمٍ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مَرَّةً فَتَبَلَّ مَوْءُكَ إِنَّكَ أَنْتَ السَّيِّئُ الْقَلِيمُ ﴿٢﴾ فَلَمَّا وَصَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَصَعْتُهَا أَنْتَ وَاللَّهِ أَحَبُّ بِنَا وَصَعْتُ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَلَيْسَ سَمِيَّتِي مَرِيَّةً وَلَيْسَ أُبَيْدُهَا بِكَ وَذَرِيَّتَهَا مِنْ السَّيِّئِينَ الرَّجِيمِ ﴿٣﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَلْبَسَهَا ثِيَابًا حَسَنًا وَكَلَّمَهَا زَكَاةً كَلَّمَ مَكَلَّ عَالِمًا زَكَاةً الْوَحَرَاءَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَرْزُقُكَ اللَّهُ فَمَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُزِدُّكَ مِنْ شَيْءٍ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤﴾

قوله: ﴿إِذْ قَالَتْ﴾ قال أبو عمرو: «إذ» زائدة. وقال محمد بن يزيد: إنه متعلق بمحذوف تقديره انكر إذ قالت. وقال الزجاج: هو متعلق بقوله: ﴿اصطفي﴾ وقيل: متعلق بقوله: ﴿سميع عليهم﴾ وامرأة عمران اسمها حنة بالحاء المهملة، والنون، بنت فاقود بن قبيل أم مريم، فهي جدة عيسى. وعمران هو ابن ماثان جد عيسى. قوله: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي﴾ تقديم الجار، والمجرور، لكمال العناية، وهذا النذر كان جائزاً في شريعتهم. ومعنى: ﴿لَكَ﴾ أي: لعبادتك. ومحذراً منصوب على الحال، أي: عتيقاً خالصاً لله خالصاً للكنيسة. والمراد هنا: الحرية التي هي ضد العبودية. وقيل: المراد بالمحرر هنا الخالص لله سبحانه الذي لا يشوبه شيء من أمر الدنيا. ورجع هذا بأنه لا خلاف أن عمران، وأمراته حران. قوله: ﴿فَتَقَبَّلَ مِنِّي﴾ للتقبل أخذ الشيء على وجه الرضا، أي: تقبل مني نذري بما في بطني. قوله: ﴿فَلَمَّا وَصَعْتُهَا﴾ التانيث باعتبار ما علم من المقام أن الذي في بطنها أنثى، أو لكونه أنثى في علم الله، أو بتأويل ما في بطنها بالنفس، أو النسمة، أو نحو ذلك. قوله: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَصَعْتُهَا لَكَ﴾ إنما قالت هذه المقالة: لأنه لم يكن يقبل في النذر إلا الذكر دون الأنثى، فكانها تحسرت، وتحزنت لما فاتها من ذلك الذي كانت ترجوه، وتقدره، وأنثى حال مؤكدة من الضمير، أو بدل منه. قوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾ قرأ أبو بكر، وابن عامر بضم التاء، فيكون من جملة كلامها، ويكون متصلاً بما قبله، وفيه معنى التسليم لله، والخضوع، والتذرية له أن يخفى عليه شيء. وقرأ

الدهان: في حب لغتان حب وأحب، وأصل حب في هذا الباب حب كطرق، وقد فسرت المحبة لله سبحانه بإرادة طاعته. قال الأزهري: محبة العبد لله ورسوله طاعته لهما، واتباعه أمرهما، ومحبة الله للعباد إنعامه عليهم بالغفران. وقرأ أبو رجاء العطاردي: «فاتبعوني» بفتح الباء. وروي عن أبي عمرو بن العلاء أنه أدغم الراء من يغفر في اللام. قال النحاس: لا يجيز الخليل، وسيبويه إدغام الراء في اللام، وأبو عمرو أجل من أن يغلط في هذا، ولعله كان يخفي الحركة، كما يفعل في أشياء كثيرة. قوله: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ حذف المتعلق مشعر بالتعميم، أي: في جميع الأوامر، والنواهي. قوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ يحتمل أن يكون من تمام مقول القول، فيكون مضارعاً حذف فيه إحدى التامين، أي: تتولوا، ويحتمل أن يكون من كلام الله تعالى، فيكون ماضياً. وقوله: ﴿فَإِنْ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ نفي المحبة كناية عن البغض، والسخط. ووجه الإظهار في قوله: ﴿فَإِنْ اللَّهُ﴾ مع كون المقام مقام إضمار لقصد التعظيم، أو التعميم. قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ﴾ الخ لما فرغ سبحانه من بيان أن الدين المرضي هو: الإسلام، وأن محمداً ﷺ، هو الرسول الذي لا يصح لأحد أن يحب الله إلا باتباعه، وأن اختلاف أهل الكتابين فيه إنما هو لمجرد البغي عليه، والحسد له، شرع في تقرير رسالة النبي ﷺ، وبين أنه من أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة، والاصطفاء الاختيار. قال الزجاج: اختارهم بالنبوة على عالمي زمانهم، وقيل: إن الكلام على تقدير مضاف، أي: اصطفي دين آدم الخ، وقد تقدم الكلام على تفسير العالمين، وتخصيص آدم بالذكر: لأنه أبو البشر، وكذلك نوح، فإنه آدم الثاني، وأما آل إبراهيم، فلكون النبي ﷺ منهم مع كثرة الأنبياء منهم. وأما آل عمران فهم، وإن كانوا من آل إبراهيم، فلما كان عيسى عليه السلام منهم كان لتخصيصهم بالذكر وجه. وقيل المراد: بأل إبراهيم إبراهيم، نفسه، وبأل عمران عمران نفسه. قوله: ﴿ذَرِيَّةَ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ نصب ذرية على البلية مما قبله قاله الزجاج، أو على الحالية قاله الأخفش، وقد تقدم تفسير الذرية، وبعضها من بعض في محل نصب على صفة الذرية، ومعناه متناصلة متشعبة، أو متناصرة متعاضدة في الدين.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن الحسن من طرق قال: قال أقوام على عهد رسول الله ﷺ: والله يا محمد إنا لنحب ربنا، فأنزل الله: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾ الآية. وأخرج الحكيم الترمذي عن يحيى بن كثير نحوه. وأخرج أيضاً ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن جريج، نحوه. وأخرج ابن جرير، عن محمد بن جعفر بن الزبير في قوله: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾ أي: إن كان هذا من قولكم في عيسى حباً لله، وتعظيماً له: ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم. أي: ما مضى من كفركم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي الدرداء في قوله: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾

الجمهور وضعت، فيكون من كلام الله سبحانه على جهة التعظيم لما وضعته، والتفخيم لشأنه، والتجليل لها حيث وقع منها التحسر، والتحنن، مع أن هذه الأنثى التي وضعتها سيجعلها الله، وابنها آية للعالمين، وعبرة للمعتبرين، ويختصها بما لم يختص به أحداً. وقرأ ابن عباس: «بما وضعت» بكسر التاء على أنه خطاب من الله سبحانه لها، أي: إنك لا تعلمين قدر هذا الموهوب، وما علم الله فيه من الأمور التي تتقاصر عنها الأفعال، وتتضافر عندها العقول. قوله: **﴿وليس الذكر كالأنثى﴾** أي: وليس الذكر الذي طلبت، كالأنثى التي وضعت، فإن غاية ما أرائت من كونه نكراً أن يكون نذراً خادماً للكنيسة، وأمر هذه الأنثى عظيم، وشأنها فخم. وهذه الجملة اعتراضية مبينة لما في الجملة الأولى من تعظيم الموضوع، ورفع شأنه، وعلو منزلته، واللام في الذكر، والأنثى للعهد، هذا على قراءة الجمهور، وعلى قراءة ابن عباس، وأما على قراءة أبي بكر، وابن عامر، فيكون قوله: **﴿وليس الذكر كالأنثى﴾** من جملة كلامها، ومن تمام تحسرها، وتحزنها، أي: ليس الذكر الذي أريت أن يكون خادماً، ويصلح للنذر كالأنثى التي لا تصلح لذلك، وكأنها اعذرت إلى ربها من وجودها لها على خلاف ما قصصت. قوله: **﴿وإني سميتها مريم﴾** عطف على **﴿إني وضعتها أنثى﴾** ومقصودها من هذا الإخبار بالتسمية التقرب إلى الله سبحانه، وأن يكون فعلها مطابقاً لمعنى اسمها، فإن معنى مريم خادم الرب بلغتهم، فهي، وإن لم تكن صالحة لخدمة الكنيسة، فذلك لا يمنع أن تكون من العابدات. قوله: **﴿وإني أعيدنها بك وذريتها من الشيطان الرجيم﴾** عطف على قوله: **﴿إني سميتها مريم﴾**، والرجيم المطرود، وأصله المرمى بالحجارة، طلبت الإعاذة لها، ولولدها من الشيطان، وأعوانه. قوله: **﴿فتقبلها ربها بقبول حسن﴾** أي: رضي بها في النذر، وسلك بها مسلك السعداء. وقال قوم: معنى التقبل التكفل، والتربية، والقيام بشأنها، والقبول مصدر مؤكد للفعل السابق، والباء زائدة، والأصل تقبلاً، وكذلك قوله: **﴿وانبئتها نبأاً حسناً﴾** وأصله إنبأاً، فحذف الحرف الزائد، وقيل: هو مصدر لفعل محذوف، أي: فنبئت نبأاً حسناً. والمعنى أنه سوى خلقها من غير زيادة، ولا نقصان، قيل: إنها كانت تثبت في اليوم ما ينبت المولود في عام، وقيل: هو مجاز عن التربية الحسنة العادة عليها بما يصلحها في جميع أحوالها، قوله: **﴿وكفلها زكريا﴾** أي: ضمها إليه. وقال أبو عبيدة ضمن القيام بها. وقرأ الكوفيون: **﴿وكفلها﴾** بالتشديد، أي: جعله الله كافلاً لها، وملتزماً بمصالحها، وفي معناه ما في مصحف أبي، وكفلها، وقرأ الباقون بالتخفيف على إسناد الفعل إلى زكريا، ومعناه ما تقدم من كونه ضمها إليه، وضمن القيام بها. وروي عمرو بن موسى، عن عبد الله بن كثير، وأبي عبد الله المزني، وكفلها بكسر الفاء. قال الأخفش: لم أسمع كفل. وقرأ مجاهد: **﴿فتقبلها﴾** بإسكان اللام على المسألة، والطلب، ونصب ربها على أنه منادى مضاف. وقرأ

أيضاً: **﴿وانبئتها﴾** بإسكان التاء «وكفلها» بتشديد الفاء المكسورة، وإسكان اللام، ونصب «زكريا» مع المد. وقرأ حفص، وحزمة، والكسائي: «زكريا» بغير مد، ومده الباقون، وقال الفراء: أهل الحجاز يمدون زكريا، ويقصرونه. قال الأخفش: فيه لغات المد، والقصر، وزكري بتشديد الياء، وهو ممتنع على جميع التقادير للجمعة، والتعريف مع ألف التانيث. قوله: **﴿كلما نخل عليها زكريا المحراب﴾** قدم الظرف للاهتمام به، وكلمة كل ظرف، والزمان محذوف، وما مصدرية، أو نكرة موصوفة، والعامل في ذلك قوله: **﴿ووجد﴾** أي: كل زمان دخوله عليها، وجد عندها رزقاً، أي: نوعاً من أنواع الرزق. والمحراب في اللغة: أكرم موضع في المجلس قاله القرطبي، وهو: منصوب على التوسع، قيل: إن زكريا جعل لها محراباً: لا يرتقي إليه إلا بسلم، وكان يطلق عليها حتى كبرت، وكان إذا نخل عليها وجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء، فقال: **﴿يا مريم أني لك هذا﴾** أي: من أين يجيء لك هذا الرزق الذي لا يشبه أرزاق الدنيا **﴿قالت هو من عند الله﴾** فليس ذلك بعجيب، ولا مستنكر، وجملة قوله: **﴿إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾** تعليلية لما قبلها، وهو من تمام كلامها، ومن قال إنه من كلام زكريا، فتكون الجملة مستأنفة.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: **﴿إني نذرت لك ما في بطني محرراً﴾** قال: كانت نذرت أن تجعله في الكنيسة يتعبد بها، وكانت ترجو أن يكون نكراً. وأخرج ابن المنذر عنه قال: نذرت أن تجعله محرراً للعبادة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: **﴿محرراً﴾** قال: خالماً للبيعة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه قال: محرراً خالصاً لا يخالطه شيء من أمر الدنيا، وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسحه حين يولد، فيستهل صارخاً من مس الشيطان إياه إلا مريم، وابنها، ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: **﴿وإني أعيدنها بك وذريتها من الشيطان الرجيم﴾**» وللحديث الفاظ عن أبي هريرة هذا أحدها، وروى من حديث غيره. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، عن ابن عباس قال: كفلها زكريا، فدخل عليها المحراب، فوجد عندها عنباً في مكتل في غير حينه، فقال: أني لك هذا؟ قالت: هو من عند الله، قال: إن الذي يرزقك العنب في غير حينه لقادر أن يرزقني من العاقر الكبير العقيم ولداً **﴿هنالك دعا زكريا ربه﴾** [آل عمران: 38]. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة قال: كانت مريم ابنة سيدهم، وإمامهم، فتشاح عليها أحيارهم، فاقترعوا فيها بسهامهم أيهم يكفلها، وكان زكريا زوج اختها، فكفلها، وكانت عنده، وحضنها. وأخرج البيهقي في سننه عن ابن مسعود، وابن عباس، وناس من الصحابة، نحوه. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس: **﴿وكفلها﴾**

زكريا ﴿ قال: جعلها معي في محرابه.

[illegible]

قوله: ﴿هَناكَ﴾ ظرف يستعمل للزمان، والمكان، وأصله للمكان، وقيل: إنه للزمان خاصة، وهناك للمكان، وقيل: يجوز استعمال كل واحد منهما مكان الآخر، واللام للدلالة على البعد، والكاف للخطاب. والمعنى أنه دعا في ذلك المكان الذي هو قائم فيه عند مريم، أو في ذلك الزمان أن يهب الله له نزية طيبة، والذي بعثه على ذلك ما رآه من ولادة حنة لمريم، وقد كانت عاقراً، فحصل له رجاء الولد، وإن كان كبيراً، وامراته عاقراً، أو بعثه على ذلك ما رآه من فلكية الشتاء في الصيف، والصيف في الشتاء عند مريم؛ لأن من أوجد ذلك في غير وقته يقدر على إيجاد الولد من العاقر، وعلى هذا يكون هذا الكلام قصة مستأنفة سبقت في غصون قصة مريم لما بينهما من الارتباط، والنزلة النسل يكون للواحد، ويكون للجمع، ويدل على أنها هنا للواحد. قوله: ﴿فَهب لي من لَدُنكَ ولياً﴾ ولم يقل أولياء، وتأنيث طيبة لكون لفظ النزية مؤنثاً. قوله: ﴿فَنانته الملائكة﴾ قرأ حمزة، والكسائي: «فَناداه»، وبذلك قرأ ابن عباس وابن مسعود. وقرأ الباقون: «فَنانته الملائكة»، قيل: المراد هنا جبريل، والتعبير بلفظ الجمع عن الواحد جائز في العربية، ومنه: ﴿الَّذِينَ قالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ [آل عمران: 173]؛ وقيل: ناداه جميع الملائكة، وهو الظاهر من إسناد الفعل إلى الجمع والمعنى الحقيقي مَقْدَم، فلا يصار إلى المجاز إلا لقريظة. قوله: ﴿وَهُوَ قائِمٌ﴾ جملة حالية، و ﴿يُصلي في المَحرابِ﴾ صفة لقوله: ﴿قائِمٌ﴾ أو خبر ثان لقوله: ﴿وَهُوَ﴾. قوله: ﴿أَن الله يَبشُرُكَ﴾ قرئ بفتح آن، والتقدير بأن الله، وقرئ بكسرهما على تقدير القول. وقرأ أهل المدينة يبشرك بالتنزييد. وقرأ حمزة بالتخفيف. وقرأ حميد بن قيس المكي بكسر الشين، وضم حرف المضارعة. قال الأخفش: هي ثلاث لغات بمعنى واحد، والقراءة الأولى هي التي وردت كثيراً في القرآن، ومنه ﴿فَبَشِّرْ عِبادِي﴾ [الزمر: 17] ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِمَغْفَرَةٍ﴾ [يس: 11] ﴿فَبَشِّرْناها بِإِسحاق﴾ [هود: 71] ﴿قالوا بِشْرناكَ بِالْحَقِّ﴾ [الحجر: 55] وهي قراءة الجمهور. والثانية لغة أهل تهامة، وبها قرأ أيضاً

عبد الله بن مسعود، والثالثة من أبشر يبشر بإشراقاً. ويحيى ممتنع إما لكونه أعجمياً أو لكون فيه وزن الفعل، كيتمر مع العلمية. قال القرطبي حاكياً عن النقاش: كان اسمه في الكتب الأول حنا. انتهى. والذي رأيته في مواضع من الإنجيل أنه يوحنا، قيل: سمي بذلك؛ لأن الله أحياء بالإيمان، والنبوة، وقيل: لأن الله أحياء به الناس بالهدى. والمراد هنا: التبشير بولادته، أي: يبشرك بولادة يحيى. وقوله: ﴿مُصَنَّفًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: بعيسى عليه السلام، وسمي كلمة الله؛ لأنه كان بقوله سبحانه كن. وقيل: سمي كلمة الله؛ لأن الناس يهتدون به، كما يهتدون بكلام الله. وقال أبو عبيد: معنى: ﴿بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ بكتاب من الله، قال: والعرب تقول أنشدني كلمته، أي: قصيدته، كما روي أن الحويردة نكر لحسان، فقال: لعن الله كلمته، يعني قصيدته. انتهى. ويحيى أول من آمن بعيسى، وصنق، وكان أكبر من عيسى بثلاث سنين، وقيل: بستة أشهر. والسيد: الذي يسود قومه، قال الزجاج: السيد الذي يفوق أقرانه في كل شيء من الخير. والحصور أصله من الحصر، وهو الحبس، يقال حصرني الشيء، وأحصرني: إذا حبسني، ومنه قول الشاعر:

وما هجر ليلي أن تكون تباعدت عليك ولا أن أحصرتك شغول
والحصور: الذي لا يأتي النساء كأنه يحجم عنهن، كما
يقال رجل حصور، وحصير: إذا حيس رفقته، ولم يخرجها،
فيحیی عليه السلام كان حصوراً عن إتيان النساء، أي:
محصوراً لا ياتيهن، كغيره من الرجال، إما لعدم القدرة على
ذلك، أو لكونه يكف عنهن منعاً لنفسه عن الشهوة مع
القدرة. وقد رجّح الثاني بأن المقام مقام مدح، وهو لا يكون
إلا على أمر مكتسب يقدر فاعله على خلافه، لا على ما كان
من أصل الخلقة، وفي نفس الجبلية. وقوله: ﴿من
الصالحين﴾ أي: ناشئاً من الصالحين، لكونه من نسل
الأنبياء، أو كائناً من جملة الصالحين، كما في قوله: ﴿وإنه
في الآخرة لمن الصالحين﴾ [البقرة: 130]. قال الزجاج:
الصالح الذي يؤدي لله ما افترض عليه، وإلى الناس حقوقهم.
قوله: ﴿قال رب أنى يكون لي غلام﴾ ظاهر هذا أن الخطاب
منه لله سبحانه، وإن كان الخطاب الواصل إليه هو بواسطة
الملائكة، وذلك لمزيد التضرع، والجذ في طلب الجواب، عن
سؤاله، وقيل: إنه أراد بالربّ جبريل، أي: يا سيدي، قيل: وفي
معنى هذا الاستفهام، وجهان: أحدهما أنه سأل هل يرزق
هذا الولد من امرأته العاقرة، أو من غيرها؟ وقيل: معناه بأي
سبب استوجب هذا، وأنا، وامراتي على هذه الحال؟
والحاصل أنه استبعد حدوث الولد منهما مع كون العادة
قاضية بأنه لا يحدث من مثلهما؛ لأنه كان يوم التبشير
كبيراً، قيل: في تسعين سنة، وقيل: ابن عشرين ومائة سنة،
وكانت امرأته في ثمان وتسعين سنة، ولذلك قال: ﴿ولقد
بلغني الكبر﴾ أي: والحال ذلك، جعل الكبير، كالطالب له
لكونه طليعة من طلّاح الموت، فأسند الفعل إليه. والعاقرة:
التي لا تلد، أي: ذات عقر على النسب، ولو كان على الفعل

سابق من الأمور التي أخبره الله بها. والوحي في اللغة: الإعلام في خفاء، يقال وحي، وأوحى بمعنى. قال ابن فارس: الوحي الإشارة، والكتابة، والرسالة، وكل ما ألقته إلى غيرك حتى تعلمه. قوله: ﴿وَمَا كُنْتُ لِنَبِيِّهِمْ﴾ أي: تحضرهم يعني المتنازعين في تربية مريم، وإنما نفي حضوره عندهم مع كونه معلوماً، لأنهم أنكروا الوحي، فلو كان ذلك الإنكار صحيحاً لم يبق طريق للعلم به إلا المشاهدة، والحضور، وهم لا يدعون ذلك، فثبت كونه، وحيّاً مع تسليمهم أنه ليس ممن يقرأ التوراة، ولا ممن يلبس أهلها، والأقلام جمع قلم، من قلمه إذا قطعه، أي: أقالهم التي يكتبون بها، وقيل: قداحهم. ﴿إِنَّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ أي: يحضنها، أي: يلقون أقالهم؛ ليعلموا أيهم يكفلها، وذلك عند اختصاصهم في كفالتها، فقال زكريا: هو أحق بها لكون خالتها عنده، وهي أشيع أخت حنة أم مريم، وقال بنو إسرائيل: نحن أحق بها لكونها بنت عالمنا، فافترعوا، وجعلوا أقالهم في الماء الجاري على أن من وقف قلمه، ولم يجر مع الماء، فهو صاحبها، فجرت أقالهم، ووقف قلم زكريا، وقد استدل بهذا من أثبت القرعة، والخلاف في ذلك معروف، وقد ثبتت أحاديث صحيحة في اعتبارها.

وقد أخرج ابن جرير، عن ابن عباس قال: لما رأى زكريا ذلك، يعني فأكهة الصيف في الشتاء، وفأكهة الشتاء في الصيف، عند مريم قال: إن الذي أتى بهذا مريم في غير زمانه قاهر أن يرزقني ولداً، فلذلك حين دعا ربه. وأخرج ابن عساکر، عن الحسن نحوه، وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي: ﴿ذَرِيَّةٌ طَيِّبَةٌ﴾ يقول: مباركة. وأخرج ابن جرير، عن عبد الرحمن بن أبي حماد قال: في قراءة ابن مسعود: فناداه جبريل، وهو قائم يصلي في المحراب، وروى ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي أنه قال: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أي: جبريل. وأخرج ابن المنذر، عن السدي قال: المحراب المصلى. وقد أخرج الطبراني، والبيهقي، عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «أتقوا هذه المذابح» يعني: المحارب. وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف، عن موسى الجهني قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزال أمتي بخير ما لم يتخذوا في مساجدهم مذابح ك مذابح النصارى» وقد رويت كراهة ذلك عن جماعة من الصحابة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة قال: إنما سمي يحيى، لأن الله أحياه بالإيمان. وأخرجوا، عن ابن عباس قال: ﴿مُصَنِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ قال: عيسى بن مريم هو الكلمة، وأخرج ابن جرير، من طريق ابن جريج، عنه قال، كان يحيى، وعيسى ابني الخالة، وكانت أم يحيى تقول لمريم: إني أجد الذي في بطني يسجد للذي في بطني، فلذلك تصليقه بعيسى سجوده في بطن أمه، وهو: أول من صدق بعيسى. وأخرج أحمد في الزهد، وابن جرير، عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس ﴿وَسَيِّدًا﴾ قال: حليماً تقياً. وأخرج عبد بن حميد، وابن

لقال عقيرة، أي: بها عقر يمنعها من الولد، وإنما وقع منه هذا الاستفهام بعد دعائه بأن يهب الله له ذرية طيبة، ومشاهدته لتلك الآية الكبرى في مريم استعظماً لقدرة الله سبحانه لا لمحض الاستبعاد، وقيل: إنه قد مر بعد دعائه إلى وقت يشاء ربه أربعون سنة، وقيل: عشرون سنة، فكان الاستبعاد من هذه الحيثية. قوله: ﴿كَفَّلَكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ أي: يفعل الله ما يشاء من الأفعال العجيبة مثل ذلك الفعل، وهو: إيجاد الولد من الشيخ الكبير، والمرأة العاقر، والكاف في محل نصب نعتاً لمصدر محذوف، والإشارة إلى مصدر يفعل، أو الكاف في محل رفع على أنها خبر، أي: على هذا الشأن العجيب شأن الله، ويكون قوله: ﴿يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ بياناً له، أو الكاف في محل نصب على الحال، أي: يفعل الله الفعل كائناً مثل ذلك. قوله: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ أي: علامة أعرف بها صحة الحمل، فالتقى هذه النعمة بالشكر ﴿قَالَ آيَتُكَ أَنْ لَا تَكْلِمَ الْفَنَاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ أي: علامتك أن تحبس لسانك عن تكليم الناس ثلاثة أيام لا عن غيره من الانتكار، ووجه جعل الآية هذا لتخلص تلك الأيام لنكر الله سبحانه شكراً على ما أنعم به عليه، وقيل: بأن ذلك عقوبة من الله سبحانه له بسبب سؤاله الآية بعد مشافهة الملائكة إياه، حكاه القرطبي عن أكثر المفسرين. والرمز في اللغة: الإيماء بالشفيتين، أو العينين، أو الحاجبين، أو اليدين، وأصله الحركة، وهو: استثناء منقطع، لكون الرمز من غير جنس الكلام، وقيل: هو متصل على معنى أن الكلام ما حصل به الفهم من لفظ، أو إشارة، أو كتابة، وهو بعيد. والصواب الأول، وبه قال الأخفش، والكسائي. قوله: ﴿وَسَبِّحْ﴾ أي: سبحه ﴿بِالْعَشِيِّ﴾ وهو: جمع عشية، وقيل: هو واحد، وهو: من حين تزول الشمس إلى أن تغيب، وقيل: من العصر إلى زهاب صدر الليل، وهو ضعيف جداً. ﴿وَالْإِبْكَارِ﴾ من طلوع الفجر إلى وقت الضحى، وقيل: المراد بالتسبيح: الصلاة. قوله: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ الظَّرْفُ مَتَّعِلٌ بِمَحْذُوفٍ، كَالظَّرْفِ الْأَوَّلِ﴾ (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ) اختارك ﴿وَوَهَبُكِ﴾ من الكفر، أو من الأناس على عمومها ﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ قيل: هذا الاصطفاء الآخر غير الاصطفاء الأول، فالأول هو: حيث تقبلها بقبول حسن، والآخر لولادة عيسى. والمراد بالعالمين هنا قيل: نساء عالم زمانها، وهو الحق، وقيل: نساء جميع العالم إلى يوم القيامة، واختاره الزجاج، وقيل: الاصطفاء الآخر تأكيد للاصطفاء الأول، والمراد بهما جميعاً. واحد. قوله: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ﴾ أي: أطيلي القيام في الصلاة، أو أدبمي وقد تقدم الكلام على معاني اللقنوت، وقدم السجود على الركوع، لكونه أفضل، أو لكون صلاتهم لا ترتيب فيها مع كون الواو لمجرد الجمع بلا ترتيب. وقوله: ﴿وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ ظاهره أن ركوعها يكون مع ركوعهم، فيدل على مشروعيتها صلاة الجماعة، وقيل: المعنى: أنها تفعل مثل فعلهم، وإن لم تصل معهم، والإشارة بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ إلى ما

ريك. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، من طريق العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا كُنْتُ لِنَبِيٍّ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ﴾ قال: إن مريم لما وضعت في المسجد اقترع عليها أهل المصلى، وهم يكتبون الوحي، فاقترعوا بأقلامهم أيهم يكفلها. قال الله لمحمد: ﴿وَمَا كُنْتُ لِنَبِيٍّ﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن عكرمة قال: القوا أقلامهم في الماء، فذهبت مع الجرية، وصعد قلم زكريا، فكفلها زكريا. وأخرج ابن جرير، عن الربيع نحوه. وأخرج عبد بن حميد، عن مجاهد، وكذلك أخرج ابن أبي حاتم، عن ابن جريج، أن الأقسام هي التي يكتبون بها التوراة. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن عطاء: أنها القداح.

إِذْ قَالَتِ الْفَكَّكَةُ يَمُرُّ بِهَا إِنَّ اللَّهَ يَبْهَرُكَ بِكَمَلِهِ مِنْهُ أَسْمُهُ السَّيِّعُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِهَاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنَ الْمُنْزَلِينَ ﴿١٩﴾ وَيَكْفُرُ الْإِنْسَانُ فِي الْآخِرَةِ وَكَهَلًا وَزَيْنًا أَصْلَابِيَّتٍ ﴿٢٠﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٢١﴾ وَبَعَثْنَا الْمَرْكَبَ وَالْحَبْلَ وَالْزَبْرَةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٢٢﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جَعَلْتُكُمْ رِجَالًا رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ رَبَّكَ الْإِنْسَانَ كَهَيْئَةِ الطَّنْبَرِ فَأَنْفَخْتُ فِيهِ مِنْ نَفْسِي طَائِرًا يَلْزَمُ اللَّهَ وَارْتَعَىٰ الْأَكْشَمَ وَالْأَنْبَرُ وَأَتَىٰ الْمَوْتَ يَلْزَمُ اللَّهَ وَأَنْشِئَكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْرِكُونَ بِبُيُوتِكُمْ إِنِّي فِي ذَلِكَ أَكْبَرُ لَكُمْ إِنَّ كُتُبَ مُؤْنِنِينَ ﴿٢٣﴾ وَمَصْرَفًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ لَكُمْ بَعْضُ آلَاءِ حَرَمٍ عَلَيْكُمْ رِحْمَتُكَ يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ رِجْبُكُمْ فَأَنْتُمْ اللَّهُ وَأَطِيعُوا اللَّهَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبُّكُمْ فَاتَّقُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٢٥﴾

قوله: ﴿إِذْ قَالَتْ﴾ بدل من قوله: «وإذ قالت» المذكور قبله، وما بينهما اعتراض، وقيل: بدل من «إذ يختصمون» وقيل: منصوب بفعل مقدر، وقيل: بقوله: «يختصمون» وقيل: بقوله: ﴿وَمَا كُنْتُ لِنَبِيٍّ﴾.

والمسيح اختلف فيه مما إذا أخذ؟ فقيل: من المسيح، لأنه مسح الأرض، أي: ذهب فيها، فلم يستكن بكن، وقيل: إنه كان لا يمسح ذا عاهة إلا بري، فسمي مسيحاً، فهو على هذين فعيل بمعنى فاعل، وقيل: لأنه كان يمسح بالدهن الذي كانت الأنبياء تمسح به، وقيل: لأنه كان ممسوح الأخصمين، وقيل: لأن الجمال مسحه، وقيل: لأنه مسح بالتطهير من الذنوب، وهو على هذه الأربعة الأقوال: فعيل بمعنى مفعول. وقال أبو الهيثم: المسيح ضد المسيح بالخاء المعجمة. وقال ابن الأعرابي: المسيح الصديق. وقال أبو عبيد: أصله بالعبرانية مشيخاً بالمعجمتين فعرب، كما عرب موسى بموسى. وأما الدجال، فسمي مسيحاً؛ لأنه ممسوح إحدى العينين، وقيل: لأنه يمسح الأرض أي: يطوف بلدانها إلا مكة، والمدينة وبيت المقدس. وقوله: ﴿عِيسَى﴾ عطف بيان، أو بدل، وهو اسم أعجمي، وقيل: هو عربي مشتق من عاسه يعوسه إذا ساسه. قال في الكشف: هو معرب من ايشوع انتهى. والذي رأيناه في الإنجيل في مواضع أن اسمه يشوع بدون همزة، وإنما قيل: ابن مريم مع كون الخطاب معها

جرير، عن مجاهد قال: السيد الكريم على الله. وأخرج ابن جرير، عن ابن المسيب قال: السيد الفقيه العالم. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَسَيِّداً وَحَصُوراً﴾ قال: السيد الحليم، والحصور الذي لا يأتي النساء. وأخرج أحمد في الزهد، عن سعيد بن جبير في الحصور مثله. وأخرج أحمد في الزهد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: الحصور الذي لا ينزل الماء. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: «كان نكره مثل هبة الثوب، وأخرجه ابن أبي شيبه، وأحمد في الزهد، من وجه آخر، عن ابن عمرو موقوفاً، وهو أقوى. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن شعيب الجبائي قال: اسم أم يحيى أشيع. وأخرج ابن المنذر، عن ابن جريج في قوله: ﴿اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ قال: بالحمل به. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿أَبَيْتُ أَنْ لَا تَكَلَّمَ النَّاسُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ قال: إنما عوقب بذلك، لأن الملائكة شافهته بذلك مشافهة، فبشرته بيحيى، فسال الآية بعد كلام الملائكة إياه، فأخذ عليه بلسانه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِلَّا رَمَزًا﴾ قال: الرمز بالشفقتين. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير قال: الرمز الإشارة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿وَسَبَّحْ بِالعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ قال: العشي ميل الشمس إلى أن تغيب، والإبكار أول الفجر. وقد ثبت في الصحيحين، وغيرهما من حديث علي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خير نسائهما مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجة بنت خويلد». وأخرج الحاكم وصححه، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل نساء العالمين خديجة، وفاطمة، ومريم، وآسية امرأة فرعون». وأخرج ابن مريويه، عن أنس مرفوعاً نحوه. وأخرج نحوه، أحمد، والترمذي وصححه، وابن المنذر، وابن حبان، والحاكم، من حديثه مرفوعاً، وفي الصحيحين، وغيرهما من حديث أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وأفضل عائشة على النساء، كفضل الثريد على الطعام، وفي المعنى أحاديث كثيرة، وكلها تفيد أن مريم عليها السلام سيدة نساء عالمها، لا نساء جميع العالم. ويؤيده ما أخرجه ابن عساکر، عن مقاتل، عن الضحك، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «أربع نسوة سادات نساء عالمهن: مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وأفضلهن علماً فاطمة». وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد في قوله: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ﴾ قال: أطيلي الركود يعني القيام. وأخرج ابن جرير، عن سعيد بن جبير ﴿اقْنُتِي لِرَبِّكِ﴾ قال: اخلصي. وأخرج عن قتادة قال: أطيعي

يطير بغير ريش، وولد، كما ولد سائر الحيوانات مع كونه من الطير، ولا يبيض، كما يبيض سائر الطيور، ولا يبصر في ضوء النهار، ولا في ظلمة الليل، وإنما يرى في ساعتين: بعد غروب الشمس ساعة، وبعد طلوع الفجر ساعة، وهو: يضحك، كما يضحك الإنسان؛ وقيل: إن سؤالهم له كان على وجه التعنت، قيل: كان يطير ما دام الناس ينظرونه، فإذا غلب عن أعينهم سقط ميتاً ليميز فعل الله من فعل غيره، وقوله: ﴿يَبْذُرُ اللَّهُ﴾ فيه دليل على أنه لولا الإذن من الله عز وجل لم يقدر على ذلك، وأن خلق ذلك كان بفعل الله سبحانه أجراه على يد عيسى عليه السلام، قيل: كانت تسوية الطين، والتفخ من عيسى، والخلق من الله عز وجل. قوله: ﴿وَأَبْرَأَ الْأَكْمَهَ﴾ الأكمة: الذي يولد أعمى، كذا قال أبو عبيدة. وقال ابن فارس: الكمه العمي يولد به الإنسان، وقد يعرض، يقال كمه يكمه كمها: إذا عمي، وكمته عينه: إذا أعميتها؛ وقيل: الأكمة: الذي يبصر بالنهار، ولا يبصر بالليل، وقيل: هو الممسوح العين. والبرص معروف، وهو بياض يظهر في الجلد. وقد كان عيسى عليه السلام يبرئ من أمراض عذة، كما اشتمل عليه الإنجيل، وإنما خص الله سبحانه هذين المرضين بالذكر؛ لأنهما لا يبرئان في الغالب بالمدواة، وكذلك إحياء الموتى قد اشتمل الإنجيل على قصص من ذلك. قوله: ﴿وَأَنْبِئَكُمْ بِمَا تَكُلُونَ﴾ أي: أخبركم بالذي تاكلونه، وبالذي تنخرونه. قوله: ﴿وَمَصْنَعًا﴾ عطف على قوله: ﴿وَرَسُولًا﴾ وقيل: المعنى وجنتكم مصنفاً. قوله: ﴿وَلَا حُلَّ﴾ أي: ولا حل أن أحل، أي: جنتكم بأية من ربكم، وجنتكم لأحل لكم بعض الذي حرم عليكم من الأطعمة في التوراة، كالشحوم، وكل ذي ظفر، وقيل: إنما أحل لهم ما حرمته عليهم الأحبار، ولم تحرمه التوراة. وقال أبو عبيدة: يجوز أن يكون بعض بمعنى كل، وأنشد:

تراك أمكنة إذا لم أرضها أو يرتبط بعض النفوس حمامها
قال القرطبي: وهذا القول غلط عند أهل النظر من أهل اللغة؛ لأن البعض، والجزء لا يكونان بمعنى الكل، ولأن عيسى لم يحل لهم جميع ما حرمته عليهم التوراة، فإنه لم يحل القتل، ولا السرقة، ولا الفاحشة، وغير ذلك من المحرمات الثابتة في الإنجيل مع كونها ثابتة في التوراة، وهي: كثيرة يعرف ذلك من يعرف الكتابين، ولكنه قد يقع البعض موقع الكل مع القرينة، كقول الشاعر:

أبا منذر أقنيت فاستبق بعضنا حنانك بعض الشر أهون من بعض
أي: بعض الشر أهون من كله. قوله: ﴿بِأَيَّةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ هي قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ وإنما كان ذلك آية، لأن من قبله من الرسل كانوا يقولون ذلك، فمجيئه بما جاءت به الرسل يكون علامة على نبوته. ويحتمل أن تكون هذه الآية هي: الآية المنقمة، فتكون تكريراً لقوله: ﴿إِنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِأَيَّةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ﴾ الآية.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿بِكَلِمَةٍ﴾ قال: عيسى هو: الكلمة من

تنبيهاً على أنه يولد من غير أب، فنسب إلى أمه. والوجيه نو الوجامة: وهي: القوة والمنعة، ووجامته في الدنيا النبوة، وفي الآخرة الشفاعة، وعلو الدرجة، وهو: منتصب على الحال من كلمة، وإن كانت نكرة، فهي موصوفة، وكذلك قوله: ﴿وَمَنْ الْمُقَرَّبِينَ﴾ في محل نصب على الحال. قال الأخفش: هو: معطوف على وجيها. والمهد: مضجع الصبي في رضاعه، ومهنت الأمر: هيأته، ووطأته. والكهل هو: من كان بين سن الشباب، والشيوخه، أي: يكلم الناس حال كونه رضيعاً في المهد، وحال كونه كهلاً بالوحي، والرسالة، قاله الزجاج. وقال الأخفش، والفراء: إن كهلاً معطوف على وجيها. قال الأخفش: ﴿وَمَنْ الصَّالِحِينَ﴾ عطف على وجيها، أي: هو من العباد الصالحين. قولها: ﴿إِنِّي يَكُونُ لِي وَلَدٌ﴾ أي: كيف يكون على طريقة الاستبعاد العادي ﴿وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾ جملة حالية، أي: والحال أنه على حالة منافية للحالة المعتادة من كون له أب ﴿قَالَ كُنْ لَكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ هو: من كلام الله سبحانه. وأصل القضاء الأحكام، وقد تقدم، وهو هنا الإرادة، أي: إذا أراد أمراً من الأمور ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ من غير عمل ولا مزاولة، وهو تمثيل لكامل قدرته. قوله: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ﴾ قيل هو معطوف على ﴿يُبَشِّرُكَ﴾ أي: إن الله يبشرك وإن الله يعلمه، وقيل: على ﴿يَخْلُقُ﴾ أي: وكذلك يعلمه الله، أو كلام مبتدأ سيق تطييباً لقلبها. والكتاب الكتابة. والحكمة العلم، وقيل: تهذيب الأخلاق، وانتصاب رسولاً على تقدير، ويجعله رسولاً، أو ويكلمهم رسولاً، أو وأرسلت رسولاً، وقيل: هو معطوف على قوله: ﴿وَجِيهًا﴾ فيكون حالاً؛ لأن فيه معنى للنطق، أي: وناطقاً، قال الأخفش: وإن شئت جعلت الواو في قوله: ورسولاً مقحمة، والرسول حالاً. وقوله: ﴿إِنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ﴾ معمول لرسول؛ لأن فيه معنى النطق كما مر، وقيل: أصله بآني قد جئتكم، فحذف الجار، وقيل: منصوب بمضمر أي: تقول آني قد جئتكم، وقيل: معطوف على الأحوال السابقة. وقوله: ﴿بِأَيَّةٍ﴾ في محل نصب على الحال، أي: متلبساً بعلامة كائنة ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾. وقوله: ﴿إِنِّي أَخْلُقُ﴾ أي: أصور، وأقدر ﴿لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ وهذه الجملة بدل من الجملة الأولى، وهي: ﴿إِنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ﴾ أو بدل من آية، أو خبر مبتدأ محذوف، أي: هي: آني، وقرئ بكسر الهمزة على الاستئناف. وقرأ الأعرج، وأبو جعفر، كهئية الطير بالتشديد، والكاف في قوله: ﴿كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ نعت مصدر محذوف، أي: أخلق لكم خلقاً، أو شيئاً مثل هيئة الطير. وقوله: ﴿فَنَنْفِخُ فِيهِ﴾ أي: في ذلك الخلق، أو ذلك الشيء، فالضمير راجع إلى الكاف في قوله: كهئية الطير، وقيل: الضمير راجع إلى الطير، أي: الواحد منه، وقيل: إلى الطين، وقرئ: فيكون طائراً، وطيراً، مثل تاجر وتجر، وقيل: إنه لم يخلق غير الخفافش لما فيه من عجائب الصنعة، فإن له ثدياً، وأسناناً، وإنثاءً، ويحيض، ويطهر، وقيل: إنهم طلبوا خلق الخفافش لما فيه من العجائب المنكورة، ولكونه

وأخرج ابن جرير، عن وهب أن عيسى كان على شريعة موسى، وكان يسبت، ويستقبل بيت المقدس، وقال لبني إسرائيل: إني لم أدعكم إلى خلاف حرف مما في التوراة إلا لأحل لكم بعض الذي حرم عليكم، وأضع عنكم من الأصار. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن الربيع في الآية: قال كان الذي جاء به عيسى ألين مما جاء به موسى، وكان قد حرم عليهم فيما جاء به موسى لحوم الإبل، والثروب، فأحلها لهم على لسان عيسى، وحرم عليهم الشحوم، فأحل لهم فيما جاء به عيسى، وفي أشياء من السمك، وفي أشياء من الطير، وفي أشياء أخر حرمها عليهم، وشد عليهم فيها، فجاءهم عيسى بالتخفيف منه في الإنجيل. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة مثله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿وَجِئْتُكُمْ بآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ قال: ما بين لهم عيسى من الأشياء كلها، وما أعطاه ربه.

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ فَأَلْكَ الْحَوَارِثُ مِنْ أَنْصَارِ اللَّهِ مِمَّا مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَبِأَنَّ سُلَيْمَانَ (٥١) رَسَا مِمَّا أَنْصَارُ اللَّهِ وَأَتَبَعَا الرَّسُولَ فَأَعْتَبَا مَعَ الْكَافِرِينَ (٥٢) وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ (٥٣) إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيُوسَى إِنَّهُ مُؤْتَفِقٌ ذَرَّاهُكَ إِنَّكَ وَطَرَفُكَ مِنْ آلِ الْكَافِرِينَ كَفَرُوا وَيَا جِبْرِيلُ أَنْتُمْ قَوْمُ الْكَافِرِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ لَكُمْ مَزِيدٌ فَأَعْتَبَكُمْ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٥٤) فَلَمَّا أَلَيْنَ كَفَرُوا فَأَعْتَبَهُمْ عَدَاكَ سَكِينًا فِي الْأَنْفُسِ وَالْأَجْسَادِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٥٥) وَأَمَّا الْكَافِرُونَ فَمَا كَانُوا وَعَكِلُوا فَلَيَلْعَنَ قُلُوبُهُمْ أَجْرُهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٥٦) ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ (٥٧)﴾

قوله: ﴿فلما أحسن﴾ أي: علم وجود: قاله الزجاج. وقال أبو عبيدة معنى أحسن: عرف، وأصل ذلك وجود الشيء بالحاسة، والاحساس: العلم بالشيء. قال الله تعالى: ﴿هل تحس منهم من أحد﴾ [مريم: 98]. والمراد بالاحساس هنا: الإدراك القوي الجاري مجرى المشاهدة، وبالكفر إصرارهم عليه، وقيل: سمع منهم كلمة الكفر. وقال الفراء: أرادوا قتله. وعلى هذا فمعنى الآية: فلما أدرك منهم عيسى إرادة قتله التي هي كفر قال من أنصاري إلى الله، الانصار جمع نصير. وقوله: ﴿إلى الله﴾ متعلق بمحذوف وقع حالاً، أي: متوجهاً إلى الله، أو ملتجئاً إليه، أو ذاهباً إليه، وقيل: إلى بمعنى مع كقوله تعالى: ﴿ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم﴾ [النساء: 2] وقيل: للمعنى: من أنصاري في السبيل إلى الله، وقيل: المعنى: من يضم نصرته إلى نصرته الله. والحواريون جمع حواري، وحواري الرجل: صفوته، وخلاصته، وهو مأخوذ من الحور، وهو البياض عند أهل اللغة، حورت الثياب ببيضتها، والحواري من الطعام: ما حور: أي بيض، والحواري أيضاً الناصر، ومنه قوله ﷺ: «لكل نبي حواري، وحواري الزبير» وهو في البخاري، وغيره. وقد اختلف في سبب

الله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: المهد: مضجع الصبي في رضاعه. وقد ثبت في الصحيح أنه لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى، وكان في بني إسرائيل رجل يقال له جريج كان يصلي، فجاءته أمه فدعته فقال: أجيبيها، أو أصلي؟ فقالت: اللهم لا تمته حتى تراه وجهه المومسات، وكان جريج في صومعة، فتعرضت له امرأة، وكلمته، فابى، فأتت راعياً، فأمكنته من نفسها، فولدت غلاماً، فقالت من جريج، فأتوه فكسروا صومعته، وأنزلوه، وسبوه، فتوضأ، وصلى، ثم أتى الغلام، فقال: من أبوك يا غلام؟ قال الراعي، قالوا: نبني صومعته من ذهب؟ قال: لا إلا من طين. وكانت امرأة من بني إسرائيل ترضع ابناً لها، فمر بها رجل راكب ذو شارة، فقالت: اللهم اجعل ابني مثله، فترك ثديها، وأقبل على الراكب، فقال: اللهم لا تجعلني مثله، ثم أقبل على ثديها يمصه، ثم مر بامة تجرجر، ويلعب بها، فقالت: اللهم لا تجعل ابني مثل هذه، فترك ثديها، فقال: اللهم اجعلني مثلاً، فقالت: لم ذاك؟ فقال: الراكب جبار من الجبابرة، وهذه الأمة يقولون لها زني، وتقول حسبي الله، ونعم الوكيل، ويقولون سرقت، وتقول حسبي الله. وأخرج أبو الشيخ، والحاكم وصححه، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لم يتكلم في المهد إلا عيسى، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وابن ماشطة فرعون». وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة في قوله: ﴿ويكلم الناس في المهد وكهلاً﴾ قال: يكلمهم صغيراً، وكبيراً. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: الكهل هو من في سن الكهولة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد قال: الكهل الحليم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿ويعلمه الكتاب﴾ قال: الخط بالقلم. وأخرج ابن جرير، عن ابن جرير، نحوه. وأخرج أبو الشيخ، عن ابن عباس قال: إنما خلق عيسى طئراً ولحداً، وهو الخفاش. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، من طريق الضحاك، عن ابن عباس قال: الأكمة الذي يولد أعمى. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه قال: الأكمة الأعمى الممسوح العينين. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد قال: الأكمة الذي يبصر بالتهار، ولا يبصر بالليل. وأخرجوا عن عكرمة قالوا: الأكمة الأعمش. وأخرج أحمد في الزهد، عن خالد الحذاء قال: كان عيسى ابن مريم إذا سرح رسله يحيون الموتى يقول لهم: قولوا كذا، فإذا وجئتم قشعريرة، وبمعة، فادعوا عند ذلك. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿وأنبئكم بما تاكلون﴾ قال: بما أكلتم البارحة من طعام، وما خباتم منه. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن عمار بن يسر قال: ﴿أنبئكم بما تاكلون﴾ من المائدة ﴿وما تخشرون﴾ منها، وكان أخذ عليهم في المائدة حين نزلت أن ياكلوا، ولا يبخروا، فاكلوا، وأبخروا، وخانوا، ففعلوا قرده، وخنازير.

اليهود غالبين لهم قاهرين لمن وجد منهم، فيكون المراد بالذين كفروا هم اليهود خاصة؛ وقيل: هم الروم لا يزالون ظاهرين على من خلفهم من الكافرين، وقيل: هم الحواريون لا يزالون ظاهرين على من كفر بالمسيح، وعلى كل حال فغلبة النصارى لطائفة من الكفار، أو لكل طوائف الكفار لا يخافي كونهم مهزومين مغلوبين بطوائف المسلمين، كما تفيد الأيات الكثيرة، بأن هذه الملة الإسلامية ظاهرة على كل الملل، قاهرة لها مستعلية عليها. وقد أقرت هذه الآية بمؤلف سميته [وإبل الغمامة في تفسير: «وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة»] فمن رام استيفاء ما في المقام، فليرجع إلى ذلك. والفوقية هنا هي أعم من أن تكون بالسيف، أو بالحجة. وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة أن عيسى عليه السلام ينزل في آخر الزمان، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويحكم بين العباد بالشرعية المحمية، ويكون المسلمون انتصاره، واتباعه إذ ذلك، فلا يبعد أن يكون في هذه الآية إشارة إلى هذه الحالة. قوله: ﴿ثم إلي مرجعكم﴾ أي: رجوعكم، وتقديم الظرف للقصر ﴿فأحكم بينكم﴾ يومئذ: ﴿فيما كنتم فيه تختلفون﴾ من أمور الدين. وقوله: ﴿فاما الذين كفروا﴾ إلى قوله: ﴿والله لا يحب الظالمين﴾ تفسير للحكم. قوله: ﴿في الدنيا والآخرة﴾ متعلق بقوله: ﴿فاعذبهم﴾، أما تعذيبهم في الدنيا، فبالقتل والسبي، والجزية، والصغار، وأما في الآخرة، فبعضاب النار. قوله: ﴿فنوفيهم أجورهم﴾ أي: نعطيهم إياها كاملة موفرة، قرئ بالتحنية وبالنون. وقوله: ﴿لا يحب الظالمين﴾ كناية عن بغضهم، وهي جملة تنبؤية مقررة لما قبلها. قوله: ﴿ولذلك﴾ إشارة إلى ما سلف من نبأ عيسى، وغيره وهو مبتدأ خبره ما بعده، و﴿من الآيات﴾ حال، أو خبر بعد خبر. والحكيم المشتمل على الحكم، أو المحكم الذي لا خلل فيه.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن جريج في قوله: ﴿فلما أحس عيسى منهم الكفر﴾ قال: كفروا وأرادوا قتله، فذلك حين استنصر قومه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: إنما سموا الحواريين لبياض ثيابهم كانوا صيادين. وأخرج عبد بن حميد، عن الضحاك قال: الحواريون قصارون مَرَّ بهم عيسى فأمَنُوا به. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة قال: الحواريون هم الذين تصلح لهم الخلافة. وأخرج ابن مروي، عن ابن عباس قال: هم أصفياء الأنبياء. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن الضحاك مثله. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي حاتم، عن قتادة قال: الحواري الوزير. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سفيان بن عيينة قال: الحواري الناصر. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والطبراني وابن مروي، عن ابن عباس في قوله: ﴿فاكتبنا مع الشاهدين﴾ قال: مع محمد، وأمتهم أنهم شهدوا له أنه قد بلغ، وشهدوا للرسل أنهم

تسميتهم بذلك، فقل لبياض ثيابهم، وقيل: لخلوص نياتهم، وقيل: لأنهم خاصة الأنبياء، وكانوا اثني عشر رجلاً، ومعنى انتصار الله: انتصار دينه ورسله. وقوله: ﴿أما بالله﴾ استئناف جار مجرى العلة لما قبله، فإن الإيمان يبعث على النصر. قوله: ﴿واشهد باننا مسلمون﴾ أي: أشهد لنا يوم القيامة باننا مخلصون لإيماننا مقاتلون لما تريد منا. ومعنى: ﴿يما أنزلت﴾ ما أنزله الله سبحانه في كتبه. والرسول عيسى، وحذف المتعلق مشعر بالتعميم، أي: اتبعناه في كل ما يأتي به، فاكتبنا مع الشاهدين لك بالوحدانية، ولرسولك بالرسالة. أو اكتبنا مع الأنبياء الذين يشهدون لأمرهم، وقيل: مع أمة محمد ﷺ. قوله: ﴿ومكروا﴾ أي: الذي أحس عيسى منهم الكفر، وهم: كفار بني إسرائيل. ومكر الله استدرجه للعباد من حيث لا يعلمون. قاله الفراء، وغيره. وقال الزجاج: مكر الله مجازاتهم على مكروهم، فسمى الجزء باسم الابتداء، كقوله تعالى: ﴿الله يستهزئ بهم﴾ [البقرة: 15] ﴿وهو خادعهم﴾ [النساء: 142] وأصل المكر في اللغة: الاغتيال، والخدع: حكاة ابن فارس، وعلى هذا، فلا يسند إلى الله سبحانه إلا على طريق المشاكلة، وقيل: مكر الله هنا إلقاء شبه عيسى على غيره، ورفع عيسى إليه ﴿والله خير الماكرين﴾ أي: أقوامهم مكراً، وأنفذهم كيداً، وأقوامهم على إيصال الضرر بمن يريد إيصاله به من حيث لا يحتسب. قوله: ﴿إذ قال الله يا عيسى﴾ العامل في إذ: مكروا، أو قوله: ﴿خير الماكرين﴾ أو فعل مضمر تقديره وقع ذلك. وقال الفراء: إن في الكلام تقديماً، وتأخيراً تقديره إني رافعك، ومطهرك من الذين كفروا، ومتوفيك بعد إنزالك من السماء. وقال أبو زيد: متوفيك قابضك. وقال في الكشاف: مستوفي أجلك، ومعناه: إني عاصمك من أن يقتلك الكفار، ومؤخر أجلك إلى أجل كتبته لك، ومميتك تحف أنفك لا قتلاً بأيديهم. وإنما احتاج المفسرون إلى تأويل الوفاة بما نكر، لأن الصحيح أن الله رفعه إلى السماء من غير وفاة، كما رجحه كثير من المفسرين، واختاره ابن جرير الطبري، ووجه ذلك أنه قد صح في الأخبار عن النبي ﷺ نزوله، وقتله السجال، وقيل: إن الله سبحانه توفاه ثلاث ساعات من نهار، ثم رفعه إلى السماء، وفيه ضعف، وقيل: المراد بالوفاة هنا النوم ومثله: ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل﴾ [الأنعام: 60] أي: ينيمكم، وبه قال كثيرون. قوله: ﴿ومطهرك من الذين كفروا﴾ أي: من حيث جوازهم برفعه إلى السماء وبعده عنهم. قوله: ﴿وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة﴾ أي: الذين اتبعوا ما جئت به، وهم خلص أصحابه الذين لم يبلغوا في الغلو فيه إلى ما بلغ من جعله إلهاً، ومنهم المسلمون، فإنهم اتبعوا ما جاء به عيسى عليه السلام ووصفوه بما يستحقه من دون غلو، فلم يفرطوا في وصفه، كما فرطت اليهود، ولا أفرطوا كما أفرطت النصارى. وقد ذهب إلى هذا كثير من أهل العلم. وقيل: المراد: بالآية أن النصارى الذين هم اتباع عيسى لا يزالون ظاهرين على

والسواء: العدل. قال الفراء: يقال في المعنى العدل سوى، وسواء، فإذا فتحت السين مدلت، وإذا ضمنت، أو كسرت قصرت. قال زهير:

أرؤي خطبة لا ضميم فيها يروي نبتها فيها السواء
وفي قراءة ابن مسعود: «إلى كلمة عدل بيننا، وبينكم»
فالمعنى: اقبلوا إلى ما دعيتم إليه، وهي: الكلمة العادلة
المستقيمة التي ليس فيها ميل عن الحق، وقد فسرهما بقوله:
«إن لا نعيد إلا الله» وهو: في موضع خفض على البدل
من كلمة، أو رفع على إضمار مبتدأ، أي: هي أن لا نعيد،
ويجوز أن تكون أن مفسرة لا موضع للجملته التي دخلت
عليها، وفي قوله: «ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً» تبيكت
لمن اعتقد ربوبية المسيح، وعزير، وإشارة إلى أن هؤلاء من
جنس الشر، وبعض منهم، وإزاء على من قلد الرجال في
دين الله، فحلل ما حللوه له، وحرّم ما حرّموه عليه، فإن من
فعل ذلك، فقد اتخذ من قلده ربا، ومنه «اتخذوا أربابهم
ورهبانهم أرباباً من دون الله» [التوبة: 84] وقد جوّز
الكسائي، والفراء الجزم في «ولا تشرك» ولا يتخذ على
التروم. قوله: «فإن تولوا» أي: عرضوا عما دعوا إليه:
«فقولوا لشهدوا بنا مسلمون» أي: متقاون لأحكامه
مرتضون به معترفون بما أنعم الله به علينا من هذا الدين
القيوم.

وقد أخرج البخاري، ومسلم، والنسائي، عن ابن عباس
قال: حدثني أبو سفيان أن هرقل دعا بكتاب رسول الله ﷺ،
فقرأه فإذا فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول
الله إلى هرقل عظيم الروم: سلام على من اتبع الهدى، أما
بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك
مرتين، فإن توليت، فإن عليك إثم الأريسيين، ويا أهل الكتاب
تعالوا إلى كلمة سواء بيننا، وبينكم، إلى قوله: «بأنا
مسلمون». وأخرج الطبراني عن ابن عباس أن كتاب رسول
الله ﷺ إلى الكفار «تعالوا إلى كلمة» الآية. وأخرج ابن
جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن جريج قال: بلغني أن رسول
الله ﷺ دعا يهود المدينة إلى ما في هذه الآية، فأبوا عليه،
فجاهدهم حتى أقروا بالجزية. وأخرج عبد بن حميد، وابن
جرير، عن قتادة قال: نكر لنا أن النبي ﷺ دعا يهود أهل
المدينة إلى الكلمة السواء. وأخرج ابن جريج، عن الربيع
نحوه. وأخرج ابن جريج، وابن المنذر، عن قتادة: «إلى كلمة
سواء» قال: عدل. وأخرج ابن جريج، وابن أبي حاتم، عن
الربيع مثله. وأخرج ابن جريج، وابن المنذر، عن ابن جريج
في قوله: «ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً» قال لا يطيع
بعضنا بعضاً في معصية الله، ويقال: إن تلك الربوبية أن
يطيع الناس ساداتهم، وقائتهم في غير عبادة، وإن لم يصلوا
لهم. وأخرج ابن جريج، وابن أبي حاتم، عن عكرمة في قوله:
«ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً» قال: سجود بعضهم
لبعض.

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي دِينِكُمْ وَمَا أَزَلَكُمُ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ

وقد أخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما من حديث حنيفة:
أن العاقب، والسيد أتيا رسول الله ﷺ، فأراد أن يلاعنهما،
فقال أحدهما لصاحبه: لا نلاعنه، فوالله لئن كان نبياً، فلاعنا
لا نفلح أبداً نحن، ولا عقبنا من بعدنا، فقالوا له: نعطيك ما
سألت، فابعت معنا رجلاً أميناً، فقال: قم يا أبا عبيدة، فلما
قام قال: هذا أمين هذه الأمة. وأخرج ابن جريج، وابن أبي
حاتم، من طريق العوفي، عن ابن عباس: أن رهطاً من أهل
نجران قدموا على النبي ﷺ وكان فيهم السيد والعاقب،
فقالوا: ما شأنك تذكر صاحبنا؟ قال: من هو؟ قالوا: عيسى
تزعم أنه عبد الله، قالوا: فهل رأيت مثل عيسى، وإنبتت به،
ثم خرجوا من عنده، فجاء جبريل، فقال: قل لهم إذا أتوك:
«إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم» إلى آخر الآية. وقد
رويت هذه القصة على وجوه، عن جماعة من التابعين.
وأخرج الحاكم وصححه، وابن مردويه، وأبو نعيم في
الدلائل، عن جابر قال: قدم على النبي ﷺ العاقب، والسيد،
فدعاهما إلى الإسلام، فقالا: أسلمنا يا محمد، فقال: كذبتما إن
شئتما أخبرتكما ما يمنعكما من الإسلام، قالا فهات. قال:
حبّ الصليب، وشرب الخمر، وأكل لحم الخنزير. قال جابر:
فدعاهما إلى الملاعة، فوعدها على الغد، فغدا رسول الله
ﷺ، وأخذ بيد علي، وفاطمة، والحسن، والحسين، ثم أرسل
إليهما، فأبيا أن يجيباه، وأقرأ له، فقال: والذي بعثني بالحق
لو فعلا، لامطر الوادي عليهما ناراً. قال جابر: فيهم نزلت:
«تعالوا ندع لبناءنا» الآية. قال جابر: «لنفسنا
وانفُسكم» رسول الله ﷺ، وعلي، وابننا الحسن،
والحسين، ونساءنا فاطمة. ورواه أيضاً الحاكم، من وجه آخر
عن جابر وصححه، وفيه أنهم قالوا للنبي ﷺ: هل لك أن
نلاعنك؟ وأخرج مسلم، والترمذي، وابن المنذر، والحاكم،
والبيهقي، عن سعد بن أبي وقاص: قال لما نزلت هذه الآية:
«قل تعالوا» دعا رسول الله ﷺ علياً، وفاطمة، وحسناً،
وحسيناً، فقال: اللهم هؤلاء أهلي. وأخرج ابن عساکر، عن
جعفر بن محمد، عن أبيه: «تعالوا ندع لبناءنا» الآية، قال:
فجاء بلبي بكر، وولده، ويعمر، وولده، وبعثمان، وولده،
وبعلي، وولده. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق
ابن جريج، عن ابن عباس: «ثم نبتهل» نجتهد. وأخرج
الحاكم وصححه، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس: أن
رسول الله ﷺ قال: هذا الإخلاص يشير بأصبعه التي تلي
الإبهام، وهذا الدعاء، فرقع يديه نحو منكبيه، وهذا الابتهاج،
فرقع يديه مداً.

قُلْ يَأَهْلَ الْكِتَابِ تَمَازُوا إِلَى حَكَمَةٍ سَوَّيْنَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ إِلَّا سَبِيحَ إِلَّا
اللَّهُ وَلَا تَتْلُوا مِنْهُ سُبْحَانَ وَلَا تَتَّخِذُوا بَعْضُكُمْ آيَاتِكُمْ دِينًا وَلَا تَتْلُوا
فَقُولُوا أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١٣١﴾

قيل: الخطاب لأهل نجران ببديل ما تقدم قبل هذه الآية،
وقيل: لليهود المدينة، وقيل: لليهود والنصارى جميعاً، وهو:
ظاهر النظم القرآني، ولا وجه لتخصيصه بالبعث؛ لأن هذه
دعوة عامة لا تختص بأولئك الذين حاجوا رسول الله ﷺ.

المحمدية ﴿والذين آمنوا﴾ من أمة محمد ﷺ.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس قال: اجتمعت نصارى نجران، وأحبار يهود عند رسول الله ﷺ، فتنازعوا عنده، فقالت الأحرار: ما كان إبراهيم إلا يهودياً، وقالت النصارى: ما كان إبراهيم إلا نصرانياً، فنزل فيهم: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَا تَحْجُجُونَ﴾ الآية. وقد روى نحو هذا عن جماعة من السلف. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي العالية: ﴿مَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجِجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ يقول فيما شهدتم، ورأيتم، وعاینتم: ﴿فَلِمَ تَحْجُجُونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ يقول فيما لم تشهدوا، ولم تروا، ولم تعاینوا. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة مثله. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي، في الآية قال: أما الذي لهم به علم، فما حرم عليهم وما أمروا به، وأما الذي ليس لهم به علم فشان إبراهيم. وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال: يعذر من حاج بعلم، ولا يعذر من حاج بالجهل. وأخرج ابن جرير، عنه عن الشعبي، في قوله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ﴾ قال: أكنبهم الله، وانحس حجتهم. وأخرج أيضاً عن الربيع مثله. وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حبان نحوه. وأخرج عبد بن حميد عن طريق شهر بن حوشب حدثني ابن غنم أنه لما خرج أصحاب رسول الله ﷺ إلى النجاشي، فنكر قصتهم معه، وما قالوه له لما قال له عمرو بن العاص إنهم يشتمون عيسى، وهي قصة مشهورة، ثم قال: فأنزلت ذلك اليوم خصومتهم على رسول الله ﷺ، وهو بالمدينة: ﴿إِنْ أُولَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ﴾ الآية. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، والترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: ﴿إِنْ لِكُلِّ نَبِيٍّ وَلَاةٌ مِنَ النَّبِيِّينَ، وَلِنْ وَلِيٍّ مِنْهُمْ أَبِي خَلِيلٍ رَبِّي، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿إِنْ أُولَى النَّاسِ﴾﴾ الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الحكم بن مينا أن رسول الله ﷺ قال: ﴿يَا مَعْشَرَ قُرَيْشِ إِنْ أُولَى النَّاسِ بِالنَّبِيِّ الْمُتَّقُونَ، فَكُونُوا أَنْتُمْ سَبِيلَ ذَلِكَ، فَانْظُرُوا إِنْ لَا يَلْقَانِي النَّاسَ يَحْمِلُونَ الْأَعْمَالِ، وَتَلْقُونِي بِالنِّدْيَا تَحْمِلُونَهَا، فَاصْذُ عَنْكُمْ بَوَّحِي، ثُمَّ قَرَأَ عَلَيْهِمَ: ﴿إِنْ أُولَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ﴾﴾ الآية، وأخرج ابن أبي حاتم، عن الحسن في الآية قال: كل مؤمن ولي إبراهيم ممن مضى، ومن بقي.

وَدَّتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَدْرُوكُوهُمَا يَأْخُذُوهُمَا وَإِنَّمَا كُنْتُمْ مِنْكُمْ إِذْ أَنْفَضْتُمْهُمَا وَأَن تَقُولُوا لِمَنْ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ أَتَرْكَبُونَ ﴿٦٦﴾ إِنَّمَا تَأْكُلُ الْكِتَابَ لِمَ تَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ يَأْكُلُ الْكِتَابَ لِمَ تَكْفُرُونَ ﴿٦٨﴾ يَأْكُلُ الْكِتَابَ لِمَ تَكْفُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَأْكُلُ الْكِتَابَ لِمَ تَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ يَأْكُلُ الْكِتَابَ لِمَ تَكْفُرُونَ ﴿٧١﴾ يَأْكُلُ الْكِتَابَ لِمَ تَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ يَأْكُلُ الْكِتَابَ لِمَ تَكْفُرُونَ ﴿٧٣﴾ يَأْكُلُ الْكِتَابَ لِمَ تَكْفُرُونَ ﴿٧٤﴾ يَأْكُلُ الْكِتَابَ لِمَ تَكْفُرُونَ ﴿٧٥﴾ يَأْكُلُ الْكِتَابَ لِمَ تَكْفُرُونَ ﴿٧٦﴾ يَأْكُلُ الْكِتَابَ لِمَ تَكْفُرُونَ ﴿٧٧﴾ يَأْكُلُ الْكِتَابَ لِمَ تَكْفُرُونَ ﴿٧٨﴾ يَأْكُلُ الْكِتَابَ لِمَ تَكْفُرُونَ ﴿٧٩﴾ يَأْكُلُ الْكِتَابَ لِمَ تَكْفُرُونَ ﴿٨٠﴾ يَأْكُلُ الْكِتَابَ لِمَ تَكْفُرُونَ ﴿٨١﴾ يَأْكُلُ الْكِتَابَ لِمَ تَكْفُرُونَ ﴿٨٢﴾ يَأْكُلُ الْكِتَابَ لِمَ تَكْفُرُونَ ﴿٨٣﴾ يَأْكُلُ الْكِتَابَ لِمَ تَكْفُرُونَ ﴿٨٤﴾ يَأْكُلُ الْكِتَابَ لِمَ تَكْفُرُونَ ﴿٨٥﴾ يَأْكُلُ الْكِتَابَ لِمَ تَكْفُرُونَ ﴿٨٦﴾ يَأْكُلُ الْكِتَابَ لِمَ تَكْفُرُونَ ﴿٨٧﴾ يَأْكُلُ الْكِتَابَ لِمَ تَكْفُرُونَ ﴿٨٨﴾ يَأْكُلُ الْكِتَابَ لِمَ تَكْفُرُونَ ﴿٨٩﴾ يَأْكُلُ الْكِتَابَ لِمَ تَكْفُرُونَ ﴿٩٠﴾ يَأْكُلُ الْكِتَابَ لِمَ تَكْفُرُونَ ﴿٩١﴾ يَأْكُلُ الْكِتَابَ لِمَ تَكْفُرُونَ ﴿٩٢﴾ يَأْكُلُ الْكِتَابَ لِمَ تَكْفُرُونَ ﴿٩٣﴾ يَأْكُلُ الْكِتَابَ لِمَ تَكْفُرُونَ ﴿٩٤﴾ يَأْكُلُ الْكِتَابَ لِمَ تَكْفُرُونَ ﴿٩٥﴾ يَأْكُلُ الْكِتَابَ لِمَ تَكْفُرُونَ ﴿٩٦﴾ يَأْكُلُ الْكِتَابَ لِمَ تَكْفُرُونَ ﴿٩٧﴾ يَأْكُلُ الْكِتَابَ لِمَ تَكْفُرُونَ ﴿٩٨﴾ يَأْكُلُ الْكِتَابَ لِمَ تَكْفُرُونَ ﴿٩٩﴾ يَأْكُلُ الْكِتَابَ لِمَ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٠﴾

إِلَّا مِنْ تَحْتِهِ أَتَىٰ تَقْوَىٰ ﴿٦٥﴾ هَاتَمْتُ هَؤُلَاءِ حَبَشَةً فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَسْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ لِإِبْرَاهِيمَ بِهَدْيِهِ وَلَا نَصْرَانِيَّةٍ وَلَكِنْ كَانَتْ حَيْمًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّكَ أَوَّلُ النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلْغِنَى أَتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالْأَوَّلُ أَمَّا وَاللَّهُ رَبُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾

لما أتعت كل واحدة من طائفتي اليهود، والنصارى إبراهيم عليه السلام كان على دينهم ردَّ الله سبحانه ذلك عليهم، وأبان بأن الملة اليهودية، والملة النصرانية إنما كانتا من بعده. قال الزجاج: هذه الآية أبين حجة على اليهود، والنصارى أن التوراة، والإنجيل نزلا من بعده، وليس فيهما اسم لواحد من الأنبياء، واسم الإسلام في كل كتاب. انتهى. وفيه نظر، فإن الإنجيل مشحون بالآيات من التوراة، ونكر شريعة موسى، والاحتجاج بها على اليهود، وكذلك الزبور فيه في مواضع نكر شريعة موسى، وفي أوائله التبشير بعيسى، ثم في التوراة نكر كثير من الشرائع المتقدمة، يعرف هذا كل من عرف هذه الكتب المنزلة. وقد اختلف في قدر المدة التي بين إبراهيم وموسى، والمدة التي بين موسى، وعيسى. قال القرطبي: يقال كان بين إبراهيم، وموسى ألف سنة، وبين موسى، وعيسى ألفا سنة. وكذا في الكشف. قوله: ﴿افلأ تعقلون﴾ أي: تتفكرون في لحوض حجتكم، وبطلان قولكم. قوله: ﴿ها أنتم هؤلاء حاجبتم فيما لكم به علم﴾ الأصل في ها أنتم أنتم أبليت الهمزة الأولى هاء؛ لأنها أختها كذا قال أبو عمرو بن العلاء، والأخفش. قال النحاس: وهذا قول حسن. وقرأ قنبل: ﴿هأنتم﴾ وقيل: الهاء للتنبيه دخلت على الجملة التي بعدها، أي: ها أنتم هؤلاء الرجال الحمقى حاجبتم، وفي هؤلاء لغتان المد والقصر. والمراد بما لهم به علم هو ما كان في التوراة، وإن خالفوا مقتضاه، وجادلوا فيه بالباطل، والذي لا علم لهم به هو زعمهم أن إبراهيم كان على دينهم لجهلهم بالزمن الذي كان فيه. وفي الآية دليل على منع الجدل بالباطل، بل ورد الترغيب في ترك الجدل من المحق، كما في حديث: «من ترك المراء، ولو محقاً، فإنا ضميمناه على الله يبيت في رياض الجنة». وقد ورد تسويغ الجدل بالتي هي أحسن لقوله تعالى: ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ [النحل: 125] ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن﴾ [العنكبوت: 46] ونحو ذلك، فينبغي أن يقصر جوازه على المواطن التي تكون المصلحة في فعله أكثر من المفسدة، أو على المواطن التي المجادلة فيها بالمحاسنة لا بالمخالسة. قوله: ﴿والله يعلم﴾ أي: كل شيء، فيبطل في ذلك ما حاجبوا به. وقد تقدم تفسير الحنيف. قوله: ﴿إن أولى الناس﴾ أي: أحقهم به، وأخصم للذين اتبعوا ملته، واقتوا بدينه ﴿وهذا النبي﴾ يعني محمداً ﷺ، أقرده بالذكر تعظيماً له، وتشريفاً، وأولويته ﷺ بإبراهيم من جهة كونه من نريته، ومن جهة موافقته لدينه في كثير من الشريعة

أحد مثل ما أوتيتم، بالمَدِّ على الاستقهام تأكيداً للإنكار الذي قالوه أنه لا يؤتى أحد مثل ما أوتوه، فتكون على هذا أن، وما بعدها في محل رفع على الابتداء، والخبر محذوف تقديره تصدقون بذلك، ويجوز أن تكون في محل نصب على إضمار فعل تقديره تقررون أن يؤتى، وقد قرأ: «أن يؤتى» بالمَدِّ ابن كثير، وابن محيصن، وحמיד. وقال الخليل: أن في موضع خفض، والخافض محذوف. وقال ابن جريج: المعنى: ولا تؤمنوا إلا لمن تبع بينكم كراهية أن يؤتى؛ وقيل: المعنى: لا تخبروا بما في كتابكم من صفة محمد ﷺ إلا من تبع بينكم، لئلا يكون ذلك سبباً لإيمان غيرهم بمحمد ﷺ. وقال الفراء: يجوز أن يكون قد انقطع كلام اليهود عند قوله: ﴿إلا لمن تبع بينكم﴾ ثم قال الله لمحمد ﷺ: ﴿قل إن الهدى هدى الله﴾ أي: إن البيان الحق بيان الله بين أن لا يؤتى أحد مثل ما أوتيتم على تقدير لا كقوله تعالى: ﴿يبين الله لكم أن تضلوا﴾ [النساء: 176] أي: لئلا تضلوا، «وإن» في قوله: ﴿أو يحاجوكم﴾ بمعنى حتى، وكذلك قال الكسائي، وهي عند الأخفش عاطفة، كما تقدم. وقيل: إن هدى الله بدل من الهدى، وأن يؤتى خبر إن على معنى قل إن هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم. وقد قيل: إن هذه الآية أعظم أي: هذه السورة إشكالاً، وذلك صحيح. وقرأ الحسن يؤتى بكسر التاء الفوقية. وقرأ سعيد بن جبير إن يؤتى بكسر الهمزة على أنها النافية. وقوله: ﴿يختص برحمته من يشاء﴾ قيل: هي النبوة، وقيل: أعم منها، وهو ردٌ عليهم وبغع لما قالوه، وببروه.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن سفيان قال: كل شيء في آل عمران من نكر أهل الكتاب، فهو في النصراني، ويبلغ هذا أن كثيراً من خطابات أهل الكتاب المذكورة في هذه السورة لا يصح حملها على النصراني البتة، ومن ذلك هذه الآيات التي نحن بصدد تفسيرها، فإن الطائفة التي وُتَّ إضلال المسلمين، وكذلك الطائفة القائلة: ﴿آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار﴾ هي: من اليهود خاصة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة في قوله: ﴿يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون﴾ قال: تشهدون أن نعت نبي الله محمد في كتابكم، ثم تكفرون به، وتكفرونه، ولا تؤمنون به، وأنتم تجنون مکتوباً عنكم في التوراة، والإنجيل النبي الأمي. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن الربيع مثله. وأخرج أيضاً، عن السدي نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مقاتل نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن جريج: ﴿وأنتم تشهدون﴾ على أن الدين عند الله الإسلام ليس لله دين غيره. وأخرج عن الربيع في قوله: ﴿لم تلبسون الحق بالباطل﴾ يقول: لم تخلطون اليهودية، والنصرانية بالإسلام، وقد علمتم أن دين الله الذي لا يقبل من أحد غيره الإسلام: ﴿وتكتمون الحق﴾ يقول: تكتمون شأن محمد، وأنتم تجنون مکتوباً عنكم في التوراة، والإنجيل. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة مثله.

الطائفة من أهل الكتاب هم: يهود بني النضير، وقريظة، وبني قينقاع حين دعوا جماعة من المسلمين إلى دينهم، وسيأتي وقيل: هم جميع أهل الكتاب، فتكون من لبيان الجنس. وقوله: ﴿وما يضلون إلا أنفسهم﴾ جملة حالية للدلالة على ثبوت قدم المؤمنين في الإيمان، فلا يعود وبأل من أراد فتنتهم إلا عليه. والمراد بآيات الله ما في كتبكم من دلائل نبوة محمد ﷺ. ﴿وأنتم تشهدون﴾ ما في كتبكم من ذلك، أو تشهدون بمثلها من آيات الأنبياء الذين تقررون بنبوتهم، أو المراد: كنتم كل الآيات عناداً، وأنتم تعلمون أنها حق. ولبس الحق بالباطل خلطه بما يتعمونه من التحريف ﴿وأنتم تعلمون﴾ جملة حالية. قوله: ﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب﴾ هم رؤسائهم، وأشرافهم، قالوا للسفلة من قومهم هذه المقالة. ووجه النهار: أوله، وسمي وجهاً؛ لأنه أحسنه قال:

وتضئ في وجه النهار منيرة كجمانة البحرى سل نظامها وهو: منصوب على الظرف، أمرهم بذلك لإخفال الشك على المؤمنين، لكونهم يعتقدون أن أهل الكتاب لديهم علم، فإذا كفروا بعد الإيمان وقع الريب لغيرهم، واعتراه الشك، وهم لا يعلمون أن الله قد ثبت قلوب المؤمنين، ومكن أقدامهم، فلا تزلزلهم أراجيف أعداء الله، ولا تحركهم ريح المعاندين. وقوله: ﴿ولا تؤمنوا إلا لمن تبع بينكم﴾ هذا من كلام اليهود بعضهم لبعض، أي: قال ذلك الرؤساء للسفلة لا تصدقوا تصديقاً صحيحاً إلا لمن تبع بينكم من أهل الملة التي أنتم عليها، وأما غيرهم ممن قد أسلم، فآظفروا لهم ذلك خداعاً ﴿وجه النهار وكفروا آخره﴾ ليفتتنوا، ويكون قوله: ﴿أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم﴾ على هذا متعلقاً بمحذوف، أي: فعلتم ذلك؛ لأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم: يعني أن ما بكم من الحسد، والبغى أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من فضل العلم، والكتاب دعاكم إلى أن قلتم ما قلتم. وقوله: ﴿أو يحاجوكم﴾ معطوف على أن يؤتى، أي: لا تؤمنوا إيماناً صحيحاً، وتقروا بما في صدوركم إقراراً صادقاً لغير من تبع بينكم، فعلتم ذلك، وببرتموه أن المسلمين يحاجوكم يوم القيامة عند الله بالحق. وقوله: ﴿إن الهدى هدى الله﴾ جملة اعتراضية. وقال الأخفش: المعنى: ولا تؤمنوا إلا لمن تبع بينكم، ولا تؤمنوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، ولا تصدقوا أن يحاجوكم، فذهب إلى أنه معطوف، وقيل: المراد: لا تؤمنوا وجه النهار، وتكفروا آخره إلا لمن تبع بينكم، أي: لمن دخل في الإسلام، وكان من أهل بينكم قبل إسلامه؛ لأن إسلام من كان منهم هو: الذي قتلهم غيظاً وأماتهم حسرة، وأسفاً، ويكون قوله: ﴿أن يؤتى﴾ على هذا متعلقاً بمحذوف كالأول، وقيل: إن قوله: ﴿أن يؤتى﴾ متعلق بقوله: ﴿لا تؤمنوا﴾ أي: لا تظهروا إيمانكم ﴿أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم﴾ أي: أسروا تصديقكم بأن المسلمين قد أوتوا من كتب الله مثل ما أوتيتم، ولا تفشوه إلا لاتباع دينكم، وقيل: المعنى: ولا تؤمنوا إلا لمن تبع بينكم أن يؤتى

ثُمَّ قِيلَ أَنْتُمْ لَا عَاقِبَةَ لَكُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُكُمْ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُرْجِعُهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾

هذا شروع في بيان خيانة اليهود في المال بعد بيان خيانتهم في الدين، والجار، والمجور في قوله: ﴿وَمَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ في محل رفع على الابتداء على ما مر في قوله: ﴿وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يَقُولُ﴾ [البقرة: 8] وقد تقدم تفسير القنطار. وقوله: ﴿تَامَنَهُ﴾ هذه قراءة الجمهور. وقرأ ابن وثاب، والأشهب العقيلي: «تيمنه» بكسر التاء الفوقية على لغة بكر، وتميم، ومثله قراءة من قرأ: «نستعين» بكسر النون. وقرأ نافع، والكسائي: ﴿يُؤْذِهِ﴾ بكسر الهاء في الدرج. قال أبو عبيد: واتفق أبو عمرو، والأعمش، وحزمة، وعاصم في رواية أبي بكر على إسكان الهاء. قال النحاس: إسكان الهاء لا يجوز إلا في الشعر عند بعض النحويين، وبعضهم لا يجيزه البيت، ويرى أنه غلط من قرأ به، ويروى أن الجزم يقع على الهاء، وأبو عمرو أجل من أن يجوز عليه شيء من هذا، والصحيح عنه أنه كان يكسر الهاء. وقال الفراء: مذهب بعض العرب يسكنون الهاء إذا تحرك ما قبلها، فيقولون ضربته ضرباً شديداً، كما يسكنون ميم أنتم، وقمتم، وأنشد:

لما رأى أن لادعه ولا شبع مال إلى أرضاه حقف فاضطجع
وقرأ أبو المنذر سلام، والزهرى: «يؤذه» بضم الهاء بغير واو. وقرأ قتادة، وحزمة، ومجاهد: «يؤذ هو» بواو في الإخراج، ومعنى الآية: أن أهل الكتاب فيهم الأمين الذي يؤدي أمانته، وإن كانت كثيرة، وفيهم الخائن الذي لا يؤدي أمانته، وإن كانت حقيرة، ومن كان أميناً في الكثير، فهو في القليل أمين بالاولى، ومن كان خائناً في القليل، فهو في الكثير خائن بالاولى. وقوله: ﴿إِلَّا مَا دَمَتْ عَلَيْهِ قَاتَمًا﴾ استثناء مفرغ، أي: لا يؤذه إليك في حال من الأحوال إلا ما دمت عليه قاتماً مطالباً له مضيقاً عليه متقاضياً لردّه، والإشارة بقوله ذلك إلى ترك الأداء المدلول عليه بقوله: ﴿لَا يُؤْذِهِ﴾. والأمينون هم العرب الذين ليسوا أهل كتاب، أي: ليس علينا في ظلمهم حرج لمخالفتهم لنا في ديننا، وأدعوا لعنهم الله أن ذلك في كتابهم، فردّ الله سبحانه عليهم بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ بلى، أي: بلى عليهم سبيل لكتبهم، واستحلالهم أموال العرب، فقوله: ﴿بلى﴾ إثبات لما نفوه من السبيل. قال الزجاج: تمّ الكلام بقوله: ﴿بلى﴾ ثم قال: ﴿مَنْ أَوْفَى بَعْدَهُ وَاتَّقَى﴾ وهذه جملة مستأنفة، أي: من أوفى بعهده، واتقى، فليس من الكاذبين. أو فإن الله يحبه، والضمير في قوله: ﴿بِعَهْدِهِ﴾ راجع إلى من أو إلى الله تعالى، وعموم الملتزمين قائم مقام العائد إلى من، أي: فإن الله يحبه. قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ أي: يستبدلون، كما تقدم تحقيقه غير مرة. وعهد الله هو ما عاهدوه عليه من الإيمان بالنبي ﷺ، والإيمان هي التي كانوا يحلفون أنهم يؤمنون به، وينصرونه، وسيلاتي بيان سبب نزول الآية ﴿أُولَئِكَ﴾ أي: الموصوفون بهذه الصفة ﴿لَا خَلاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ أي: لا نصيب ﴿وَلَا يَكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾ بشيء أصلاً،

وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: قال عبد الله بن الصيف وعدي بن زيد، والحارث بن عوف بعضهم لبعض: تعالوا نؤمن بما أنزل على محمد، وأصحابه غداة، ونكفر به عشية حتى نلبس عليهم نينهم لعلهم يصنعون، كما صنع، فيرجعون عن دينهم، فانزل الله فيهم: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ وقد روى نحو هذا عن جماعة من السلف. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، والضياء في المختارة من طريق أبي ظبيان، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ﴾ الآية، قال: كانوا يكونون معهم أول النهار، ويجالسونه، ويكلمونه، فإذا أمسوا، وحضرت الصلاة كفروا به، وتركوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة في قوله: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ نَبِيِّكُمْ﴾ قال: هذا قول بعضهم لبعض. وأخرج ابن جرير، عن الربيع مثله. وأخرج أيضاً عن السدي نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد: ﴿إِنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾ حسداً من يهود أن تكون النبوة في غيرهم، وإرادة أن يتابعوا على دينهم. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي مالك، وسعيد بن جبير: ﴿إِنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾ قال أمة محمد ﷺ. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي قال الله لمحمد ﷺ: ﴿إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾ يا أمة محمد: ﴿أَوْ يَحْجُوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ يقول لليهود: فعل الله بنا كذا، وكذا من الكرامة حتى أنزل علينا المن، والسلوى، فإن الذي أعطيتكم أفضل، فقولوا ﴿قُلْ إِنْ الْفَضْلُ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة: ﴿قُلْ إِنْ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾ يقول لما أنزل الله كتاباً مثل كتابكم، ويعت نبياً كتبكم حسبتموه على ذلك ﴿قُلْ إِنْ الْفَضْلُ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾. وأخرج ابن جرير، عن الربيع مثله. وأخرج ابن جرير، عن ابن جرير: ﴿قُلْ إِنْ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾ يقول: هذا الأمر الذي أنعم الله عليه ﴿إِنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يَحْجُوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ قال: قال بعضهم لبعض لا تخبروهم بما بين الله لكم في كتابه ﴿لِيَحْجُوكُمْ﴾ قال: ليخاصموكم ﴿بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ فتكون لهم حجة عليكم: ﴿قُلْ إِنْ الْفَضْلُ بِيَدِ اللَّهِ﴾ قال: الإسلام ﴿يَخْتَصُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ قال القرآن، والإسلام. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد: ﴿يَخْتَصُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ قال: النبوة. وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال: رحمته الإسلام يختص بها من يشاء.

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَّا بِغَنَاقِهِ يُؤْذِيهِ وَإِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَّا بِغَنَاقِهِ لَا يُؤْذِيهِ وَإِلَيْكَ إِنْ تَأْمَنَّا عَلَيْهِ قَاتَمًا ذَلِكَ وَأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأَرْبَعِينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٧٨﴾ تَلَّ مَنْ أَدَّى بَعْدَهُ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ

إلى ما دل عليه ﴿يَلُودُونَ﴾ وهو: المحرف الذي جاؤوا به. قوله: ﴿وما هو من الكتاب﴾ جملة حالية، وكذلك قوله: ﴿وما هو من عند الله﴾ وكذلك قوله: ﴿وهم يعلمون﴾ أي: أنهم كانوا مفترين.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، من طريق العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿وإن منهم لفرقة يلودون السيئتهم﴾ قال: هم اليهود. كانوا يزيبون في الكتاب ما لم ينزل الله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد قال: يحرفونه.

مَا كَانَ لِشَرِّ أَنْ يُؤَيَّيَ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْعَمَلَ وَالشَّيْءَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّكُمْ بِنِعْمَةِ اللَّهِ تَكُونُوا يَوْمًا كُنْتُمْ تُدْرَسُونَ ﴿٧٦﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا لِلْكُفَّةِ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَّامُكُمْ بِالْكَفَرِ بَدَلًا أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٧٧﴾

أي: ما كان ينبغي، ولا يستقيم لبشر أن يقول هذه المقالة، وهو متصف بتلك الصفة. وفيه بيان من الله سبحانه لعباده أن النصراني افترضوا على عيسى عليه السلام ما لم يصح عنه، ولا ينبغي أن يقوله. والحكم: الفهم والعلم. قوله: ﴿ولكن كونوا﴾ أي: ولكن يقول النبي كونوا ربانيين، والرباني منسوب إلى الرب بزيادة الألف، والنون للمبالغة، كما يقال لعظيم الحية لحياني، ولعظيم الجمة جماتي، ولغليظ الرقبة رقباني، قيل: الرباني الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره، فكأنه يقتدي بالرب سبحانه في تيسير الأمور. وقال المبرد: الربانيون أرباب العلم، واحدهم رباني، من قوله: ربه يريه، فهو ربان: إذا نبهه، وأصلحه، والياء للنسب، فمعنى الرباني: العالم بين الرب القوي المتمسك بطاعة الله؛ وقيل العالم الحكيم. قوله: ﴿بما كنتم تعلمون﴾ أي بسبب كونكم عالمين، أي: كونوا ربانيين بهذا السبب، فإن حصول العلم للإنسان، والدراسة له يتسبب عنهما الربانية التي هي التعليم للعلم، وقوة التمسك بطاعة الله. وقرأ ابن عباس، وأهل الكوفة: ﴿بما كنتم تعلمون﴾ بالتشديد. وقرأ أبو عمرو، وأهل المدينة بالتخفيف، واختار القراءة الأولى أبو عبيد. قال: لأنها لجمع المعنيين. قال مكي: التشديد أبلغ؛ لأن العالم قد يكون عالماً غير معلم، فالتشديد يدل على العلم، والتعليم، والتخفيف إنما يدل على العلم فقط. واختار القراءة الثانية أبو حاتم. قال أبو عمرو: وتصديقها تدرسون بالتخفيف نون التشديد. انتهى. والحاصل أن من قرأ بالتشديد لزمه أن يحمل الرباني على أمر زائد على العلم، والتعليم، وهو أن يكون مع ذلك مخلصاً، أو حكيماً، أو حليماً حتى تظهر السببية، ومن قرأ بالتخفيف جاز له أن يحمل الرباني على العالم الذي يعلم الناس، فيكون المعنى كونوا معلمين بسبب كونكم علماء، وبسبب كونكم تدرسون العلم. وفي هذه الآية أعظم باعث لمن علم على أن يعمل، وإن من أعظم العمل بالعلم تعليمه، والإخلاص لله سبحانه. قوله: ﴿ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً﴾

كما يفيد حذف المتعلق من التعميم، أو لا يكلمهم بما يسرهم ﴿ولا ينظر إليهم يوم القيامة﴾ نظر رحمة، بل يسخط عليهم، ويعذبهم بنوبهم، كما يفيد قوله: ﴿ولهم عذاب اليم﴾.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، عن عكرمة في قوله: ﴿ومن أهل الكتاب من إن تاملنه بقنطار يؤده إليك﴾ قال: هذا من النصراني ﴿ومنهم من إن تاملنه ببينار﴾ قال: هذا من اليهود ﴿إلا ما نعت عليه قائماً﴾ قال: إلا ما طلبته، واتبعته. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن قتادة في قوله: ﴿ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل﴾ قال: قالت اليهود: ليس علينا فيما أصبنا من مال العرب سبيل. وأخرج ابن جرير، عن السدي نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل﴾ قال النبي ﷺ: «كذب أعداء الله، ما من شيء كان في الجاهلية إلا، وهو تحت قدمي هاتين، إلا الأمانة، فإنها مؤداة إلى البر، والفاجر». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن صعصعة أنه سأل ابن عباس فقال: إنا نصيب في الغزو من أموال أهل الذمة الدجاجة، والشاة، قال ابن عباس: فتقولون ماذا؟ قال: نقول ليس علينا في ذلك من بأس. قال: هذا، كما قال أهل الكتاب: ﴿ليس علينا في الأميين سبيل﴾ إنهم إذا أتوا الجزية لم تحل لكم أموالهم إلا بطيب نفوسهم. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس: ﴿بلى من أوفى بعهده ووفى﴾ يقول: اتقى الشرك: ﴿فإن الله يحب المتقين﴾ يقول الذين يتقون الشرك. وأخرج البخاري، ومسلم، وأهل السنن، وغيرهم، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من حلف على يمين هو فيها فاجر ليقطع بها مال امرئ مسلم لقي الله، وهو عليه غضبان. فقال الأشعث بن قيس: في والله كان ذلك، كان بيني وبين رجل من اليهود أرض، فجحنني، فقدمته إلى النبي ﷺ، فقال لي رسول الله ﷺ: لك بينة؟ قلت: لا، قال لليهودي: احلف، فقلت: يا رسول الله إنني يحلف، فيذهب مالي، فأنزل الله: ﴿إن الذين يشترون بعهد الله، وأيمانهم ثمناً قليلاً﴾ إلى آخر الآية. وقد روى: أن سبب نزول الآية أن رجلاً كان يحلف بالسوق: لقد أعطى بسلعته ما لم يعط بها. أخرجه البخاري، وغيره. وروى أن سبب نزولها مخلصمة كانت بين الأشعث، وامرئ القيس، ورجل من حضرموت. أخرجه النسائي، وغيره.

وَأَنْ مِّنْهُمْ لَمَن يَرَىٰ بِالْإِسْلاهِ الْإِسْلاهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا كُنْتُمْ عَلَيَّ إِلَّا يَوْمَئِذٍ يَكْفُرُونَ ﴿٧٨﴾ هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٩﴾

أي: طائفة من اليهود يلودون، أي: يحرفون، ويعدلون به عن القصد، وأصل اللتي: الميل، يقول لوى برأسه: إذا أماله، وقريء: ﴿يلودون﴾ بالتشديد، و ﴿يلودون﴾ بقلب الواو همزة، ثم تخفيفها بالحنف، والضمير في قوله: ﴿لنحسبوه﴾ يعود

الكتاب، وقيل: في الكلام حذف. والمعنى: وإذا أخذ الله ميثاق النبيين: لتعلمن الناس لما جاءكم من كتاب، وحكمة، ولتأخذن على الناس أن يؤمنوا، ودل على هذا الحذف قوله: ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ نَفْسِكُمْ إِصْرِي﴾ و «ما» في قوله: ﴿لَمَّا آتَيْنَاكُمْ﴾ بمعنى الذي. قال سيويه: سألت الخليل عن قوله: ﴿وَأَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَّا آتَيْنَاكُمْ﴾ فقال: «ما» بمعنى الذي. قال التحاسن: التقدير في قول الخليل الذي آتيتكموه، ثم حذفت الهاء لطول الاسم، واللام لام الابتداء، وبهذا قال الأخفش، وتكون ما في محل رفع على الابتداء، وخبرها من كتاب، وحكمة. وقوله: ﴿فَمَنْ جَاءَكُمْ﴾ وما بعده جملة معطوفة على الصلة، والعائد محذوف أي: مصنف به. وقال المبرد، والزجاج، والكسائي: «ما» شرطية نخلت عليها لام التحقيق، كما تدخل على إن، ولتؤمنن به» جواب القسم الذي هو أخذ الميثاق، إذ هو بمنزلة الاستحلاف، كما تقول: أخذت ميثاقك، لتفعلن كذا، وهو: سأد مسد الجزء. وقال الكسائي: إن الجزء قوله: ﴿فَمَنْ تَوَلَّى﴾. وقال في الكشف: إن اللام في قوله: ﴿لَمَّا آتَيْنَاكُمْ﴾ لام التوطئة، واللام في قوله: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ﴾ جواب القسم، وما يحتمل أن تكون المتضمنة لمعنى الشرط، ولتؤمنن سأد مسد جواب القسم، والشرط جميعاً، وأن تكون موصولة بمعنى للذي آتيتكموه لتؤمنن به. انتهى، وقرا حمزة: ﴿لَمَّا آتَيْنَاكُمْ﴾ بكسر اللام وما بمعنى الذي، وهي متعلقة بأخذ. وقرا أهل المدينة: «آتيناكم» على التعظيم. وقرا الباقون: «آتيتكم» على التوحيد، وقيل: إن «ما» في قراءة من قرأ بكسر اللام مصدرة، ومعناه: لأجل إيتائي إياكم بعض الكتاب، والحكمة، ثم لمجيء رسول مصنف لما معكم، واللام لام التعليل، أي: لأجل ذلك أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتؤمنن به. قوله: ﴿أَقْرَبْتُمْ﴾ هو من الإقرار. والإصر في اللغة: الثقل، سمي العهد إصرأ لما فيه من التشديد. والمعنى: وأخذتم على ذلك عهدي. قوله: ﴿قَالُوا اقْرَأْنَا﴾ جملة استئنافية، كأنه قيل: ماذا قالوا عند ذلك؟ فقيل قالوا اقْرَأْنَا، وإنما لم يذكر أحدهم الإصر لكتفاء بذلك. قوله: ﴿قَالَ فَاشْهَدُوا﴾ أي: قال الله سبحانه فاشهدوا، أي: ليشهد بعضهم على بعض: ﴿وَلَمَّا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي: وأنا على إقراركم، وشهادة بعضكم على بعض من الشاهدين. قوله: ﴿فَمَنْ تَوَلَّى﴾ أي: أعرض عما نكر بعد ذلك الميثاق ﴿قَالُوا هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: الخارجون عن الطاعة.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جببر قال: قلت لابن عباس: إن أصحاب عبد الله يقرأون: ﴿وَأَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَمَّا آتَيْنَاكُمْ﴾ من كتاب وحكمة. ونحن نقرأ ميثاق النبيين، فقال ابن عباس: إنما أخذ الله ميثاق النبيين على قومهم. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن طائفة من الصحابة، عن عبد الله بن مسعود: ﴿وَأَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ أن يصدق بعضهم بعضاً. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن مجاهد في قوله: ﴿وَأَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾

بالنصب عطفاً على «ثم يقول» «ولا» مزيدة لتأكيد النفي، أي: ليس له أن يأمر بعبادة نفسه، ولا يأمر باتخاذ الملائكة، والنبيين أرباباً بل ينتهي عنه، ويجوز عطفه على أن يؤتية، أي: ما كان لبشر أن يأمرهم بأن تتخذوا الملائكة، والنبيين أرباباً، وبالنصب قرأ ابن عامر، وعاصم، وحمزة، وقرأ الباقون بالرفع على الاستئناف، والقطع من الكلام الأول، أي: ولا يأمرهم الله أن تتخذوا الملائكة، والنبيين أرباباً، ويؤيده أن في مصحف ابن مسعود، ولن يأمرهم. والهمز في قوله: ﴿فَيَأْمُرُكُمْ﴾ لإنكار ما نفي عن البشر. وقوله: ﴿بَعْدَ إِذْ لَقِيتُمْ مَسْلُومِينَ﴾ استدلل به من قال إن سبب نزول الآية استئذان من استأذن النبي ﷺ من المسلمين أن يسجدوا له.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس قال: قال أبو رافع القرظي حين اجتمعت الأحزاب من اليهود، والنصارى من أهل نجران عند رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام: أتريد يا محمد أن نعبدك، كما تعبد النصارى عيسى؟ فقال رسول الله ﷺ: «معاذ الله أن نعبد غير الله، أو نأمر بعبادة غيره ما يهلك بعثني، ولا يهلك أمرني، فأنزل الله في ذلك: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ الآية». وأخرج عبد بن حميد، عن الحسن قال: بلغني أن رجلاً قال: يا رسول الله نسلم عليك، كما يسلم بعضنا على بعض أفلا نسجد لك؟ قال: لا ولكن اكرموا نبيكم، وأعرفوا الحق لأهله، فإنه لا ينبغي أن يسجد لأحد من دون الله، فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَالنَّبِيِّينَ﴾ قال: فقهاء علماء. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه قال: حكاه علماء حلماء. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه قال: علماء فقهاء. وأخرج ابن المنذر، عن ابن مسعود قال: حكاه علماء. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي رزين في قوله: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ قال: مذكرة الفقه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن جريج في قوله: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا﴾ قال: ولا يأمرهم النبي.

وَأَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ لَمَّا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَضْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَضْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٧﴾ فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٨﴾

قد اختلف في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ فقال سعيد بن جببر، وقتادة، وطائفة، والحسن، والسدي إنه أخذ الله ميثاق الأنبياء أن يصدق بعضهم بعضاً بالإيمان، ويأمر بعضهم بعضاً بذلك، فهذا معنى النصرة له، والإيمان به، وهو ظاهر الآية، فحاصله أن الله أخذ ميثاق الأول من الأنبياء أن يؤمن بما جاء به الآخر، وينصره، وقال الكسائي: يجوز أن يكون معنى: ﴿وَأَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ بمعنى وإذا أخذ الله ميثاق الذين مع النبيين، ويؤيده قراءة ابن مسعود: ﴿وَأَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا

الارض». وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس قال في الآية: ﴿أسلم من في السموات والارض﴾ حين أخذ عليهم الميثاق. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه في قوله: ﴿وله أسلم﴾ قال: المعرفة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن قتادة في الآية قال: أما المؤمن، فأسلم طائعا، فنفعه ذلك، وقبل منه، وأما الكافر، فأسلم حين رأى بأس الله، فلم ينفعه ذلك، ولم يقبل منه ﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا﴾ [غافر: 85]. وأخرج الطبراني في الأوسط عن انس قال: قال رسول الله ﷺ: «من ساء خلقه من الرقيق، والدواب، والصبيان، فاقروا في آذنه ﴿تغفّر دين الله تبغون﴾». وأخرج ابن السني في عمل اليوم، والليلة، عن يونس بن عبيد قال: ليس رجل يكون على دابة صعبة، فيقرأ في آذنها ﴿تغفّر دين الله تبغون﴾ الآية إلا نلت بإذن الله عز وجل. وأخرج أحمد، والطبراني في الأوسط عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تجي الأعمال يوم القيامة، فتجي الصلاة، فتقول: يا رب أنا الصلاة، فيقول إنك على خير، وتجي الصلوة فتقول: يا رب أنا الصلوة، فيقول إنك على خير، وتجي الصيام، فيقول: أنا الصيام، فيقول إنك على خير، ثم تجي الأعمال كل ذلك يقول الله إنك على خير، ثم يجي الإسلام فيقول: يا رب أنت السلام، وأنا الإسلام، فيقول: إنك على خير بك اليوم أخذ، وبك أعطي، قال الله تعالى في كتابه: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾».

أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْتَغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿١٩٠﴾ قُلْ أَمَّا يَوْمُكُمُ الَّذِي أَنْتُمْ مَعَكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَمَا أَنْزَلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْفَلَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالْبَنِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٩١﴾ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٩٢﴾

قوله: ﴿تغفّر دين الله تبغون﴾ عطف على مقتر، أي: اتتولون، فتبغون غير دين الله، وتقديم المفعول؛ لأنه المقصود بالإنكار. وقرأ أبو عمرو وحده «تبغون» بالتحية، و «ترجعون» بالقوقية، قال: لأن الأول خاص، والثاني عام، ففرق بينهما لافتراقهما في المعنى. وقرأ حفص بالتحية في الموضعين. وقرأ الباقون بالقوقية فيهما، وانتصب طوعا، وكرها على الحال، أي: طائعين، ومكرهين. والطوع: الانقياد، والاتباع بسهولة، والكره: ما فيه مشقة، وهو من أسلم مخافة القتل، وإسلامه استسلام منه. قوله: ﴿أمانا﴾ إخبار منه ﷺ عن نفسه، وعن أمته ﴿لا نفرق بين أحد منهم﴾ كما فرقت اليهود، والنصارى، فأمنوا ببعض، وكفروا ببعض. وقد تقدم تفسير هذه الآية ﴿ونحن له مسلمون﴾ أي: منقادون مخلصون. قوله: ﴿ديننا﴾ مفعول للفعل، أي: يبتغ ديناً حال كونه غير الإسلام، ويجوز أن ينتصب غير الإسلام على أنه مفعول الفعل، وديناً إما تمييز، أو حال إذا أول بالمعشوق، أو بدل من غير. قوله: ﴿وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ إما في محل نصب على الحال، أو جملة مستأنفة، أي: من الواقعين في الخسران يوم القيامة.

وقد أخرج الطبراني بسند ضعيف، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وله أسلم من في السموات والارض﴾ قال: أما من في السموات فالملائكة، وأما من في الارض، فمن ولد على الإسلام، وأما كرها، فمن أتى به من سبيل الأمم في السلاسل، والأغلال يقانون إلى الجنة، وهم كارهون. وأخرج الديلمي عن انس قال: قال رسول الله ﷺ في الآية «الملائكة أطاعوه في السماء، والانصار، وعبد القيس أطاعوه في

الارض». وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس قال في الآية: ﴿أسلم من في السموات والارض﴾ حين أخذ عليهم الميثاق. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه في قوله: ﴿وله أسلم﴾ قال: المعرفة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن قتادة في الآية قال: أما المؤمن، فأسلم طائعا، فنفعه ذلك، وقبل منه، وأما الكافر، فأسلم حين رأى بأس الله، فلم ينفعه ذلك، ولم يقبل منه ﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا﴾ [غافر: 85]. وأخرج الطبراني في الأوسط عن انس قال: قال رسول الله ﷺ: «من ساء خلقه من الرقيق، والدواب، والصبيان، فاقروا في آذنه ﴿تغفّر دين الله تبغون﴾». وأخرج ابن السني في عمل اليوم، والليلة، عن يونس بن عبيد قال: ليس رجل يكون على دابة صعبة، فيقرأ في آذنها ﴿تغفّر دين الله تبغون﴾ الآية إلا نلت بإذن الله عز وجل. وأخرج أحمد، والطبراني في الأوسط عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تجي الأعمال يوم القيامة، فتجي الصلاة، فتقول: يا رب أنا الصلاة، فيقول إنك على خير، وتجي الصلوة فتقول: يا رب أنا الصلوة، فيقول إنك على خير، وتجي الصيام، فيقول: أنا الصيام، فيقول إنك على خير، ثم تجي الأعمال كل ذلك يقول الله إنك على خير، ثم يجي الإسلام فيقول: يا رب أنت السلام، وأنا الإسلام، فيقول: إنك على خير بك اليوم أخذ، وبك أعطي، قال الله تعالى في كتابه: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾».

كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾ أَوَلَيْكَ جَزَاءُؤُهُمْ أَنْ هَدَيْتَهُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَوَلَيْكَ جَزَاءُؤُهُمْ أَنْ هَدَيْتَهُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٩٥﴾ أَوَلَيْكَ جَزَاءُؤُهُمْ أَنْ هَدَيْتَهُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَيْكَ جَزَاءُؤُهُمْ أَنْ هَدَيْتَهُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٩٧﴾ أَوَلَيْكَ جَزَاءُؤُهُمْ أَنْ هَدَيْتَهُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٩٨﴾ أَوَلَيْكَ جَزَاءُؤُهُمْ أَنْ هَدَيْتَهُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٩٩﴾ أَوَلَيْكَ جَزَاءُؤُهُمْ أَنْ هَدَيْتَهُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٠٠﴾

قوله: ﴿كيف يهدي الله قوما﴾ هذا الاستفهام معناه الجحد، أي: لا يهدي الله، ونظيره قوله تعالى: ﴿كيف يكون للمشركين عهد عند الله﴾ [التوبة: 71] أي: لا عهد لهم، ومثله قول الشاعر:

كيف نومي على الفراش ولما تشمل الشام غارة شعواء
أي: لا نوم لي. ومعنى الآية: لا يهدي الله قوماً إلى الحق كفروا بعد إيمانهم، وبعد ما شهدوا أن الرسول حق، وبعد ما جاءتهم البينات من كتاب الله سبحانه، ومعجزات رسول الله ﷺ، وقوله: ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ جملة حالية، أي: كيف يهدي المرتدين، والحال أنه لا يهدي من حصل منهم مجرد الظلم؛ لأنفسهم، ومنهم الباقون على الكفر، ولا ريب أن ذنب المرتد أشد من ذنب من هو باق على الكفر؛ لأن المرتد قد عرف الحق، ثم أعرض عناداً، وتمرداً. قوله:

﴿اولئك﴾ إشارة إلى القوم المتصفين بتلك الصفات السابقة، وهو: مبتدأ خبره الجملة التي بعده. وقد تقدم تفسير اللعن. وقوله: ﴿ولا هم ينظرون﴾ معناه: يؤخرون ويمهلون. ثم استثنى الثنتين: فقال: ﴿إلا اللذين تابوا من بعد ذلك﴾ أي: من بعد الارتداد ﴿وواصلوا﴾ بالإسلام ما كان قد أقسوه من دينهم بالردة. وفيه دليل على قبول توبة المرتد إذا رجع إلى الإسلام مخلصاً، ولا خلاف في ذلك فيما أحفظ. قوله: ﴿ثم ازدادوا كفراً﴾. قال قتادة، وعطاء الخراساني، والحسن: نزلت في اليهود، والنصارى كفروا بمحمد ﷺ بعد إيمانهم بنبوته، وصفته: ﴿ثم ازدادوا كفراً﴾ بإقامتهم على كفرهم، وقيل: ازدادوا كفراً بالذنوب التي اكتسبوها، ورجحه ابن جرير الطبري، وجعلها في اليهود خاصة. وقد استشكل جماعة من المفسرين قوله تعالى: ﴿فلن تقبل توبتهم﴾ [التوبة: 7] مع كون التوبة مقبولة، كما في الآية الأولى، وكما في قوله تعالى: ﴿وهو الذي يقبل التوبة عن عباده﴾ [الشورى: 25] وغير ذلك، فقيل: المعنى لن تقبل توبتهم بعد الموت. قال النحاس: وهذا قول حسن، كما قال تعالى: ﴿وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن﴾ [النساء: 18] وبه قال الحسن، وقتادة، وعطاء، ومنه الحديث: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يفرغره»؛ وقيل: المعنى لمن تقبل توبتهم التي كانوا عليها قبل أن يكفروا؛ لأن الكفر أحب، وقيل: لمن تقبل توبتهم إذا تابوا من كفرهم إلى كفر آخر، والأولى أن يحمل عدم قبولهم للتوبة في هذه الآية على من مات كافراً غير تائب، فكانه عبر عن الموت على الكفر بعدم قبول التوبة، وتكون الآية المنكورة بعد هذه الآية، وهي قوله: ﴿إن اللذين كفروا وماتوا وهم كفار﴾ في حكم البيان لها. قوله: ﴿ملء الأرض ذهباً﴾ الملء بالكسر مقدار ما يملأ الشيء، والملء بالفتح مصدر ملأت الشيء، وذهباً تمييز، قاله الفراء وغيره. وقال الكسائي نصب على إضمار من ذهب. كقوله: ﴿أو عدل ذلك صياماً﴾ [المائدة: 95] أي: من صيام. وقرأ الأعمش: «ذهب» بالرفع على أنه بدل من ملء، والواو في قوله: ﴿ولو افترى به﴾ قيل: هي مقحمة زائدة، والمعنى لو افترى به، وقيل: فيه حمل على الغنى كأنه قيل: فلن يقبل من أحدهم فدية، ولو افترى بملء الأرض ذهباً، وقيل: هو عطف على مقدر، أي: لن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً لو تصدق به في الدنيا، ولو افترى به من العذاب أي: بمثله.

حميد، وابن جرير، عن السدي نحوه، وأخرج ابن إسحاق، وابن المنذر، عن ابن عباس، نحوه أيضاً. وقد روى عن جماعة نحوه أيضاً. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، من طريق العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم﴾. قال: هم أهل الكتاب من اليهود عرفوا محمداً، ثم كفروا به. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن الحسن قال: هم أهل الكتاب من اليهود، والنصارى، ونكر نحو ما تقدم عنه. وأخرج البزار، عن ابن عباس: أن قوماً أسلموا، ثم ارتدوا، ثم أسلموا، ثم ارتدوا، فأسلوا إلى قومهم يسألون لهم، فنكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآية: ﴿إن اللذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً﴾ قال السيوطي: هذا خطأ من البزار. وأخرج ابن جرير، عن الحسن في الآية قال: اليهود، والنصارى لن تقبل توبتهم عند الموت. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن قتادة في الآية قال: هم اليهود كفروا بالإنجيل، وعيسى، ثم ازدادوا كفراً بمحمد ﷺ، والقرآن. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي العالية في الآية قال: إنما نزلت في اليهود، والنصارى كفروا بعد إيمانهم، ثم ازدادوا كفراً بذنوب آتنبوها، ثم ذهبوا يتوبون من تلك الذنوب في كفرهم، ولو كانوا على الهدى قبلت توبتهم، ولكنهم على الضلالة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد في قوله: ﴿ثم ازدادوا كفراً﴾ قال: نموا على كفرهم. وأخرج ابن جرير، عن السدي في قوله: ﴿ثم ازدادوا كفراً﴾ قال: ماتوا وهم كفار: ﴿لن تقبل توبتهم﴾ قال: إذا تاب عند موته لم تقبل توبته. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي العالية في قوله: ﴿لن تقبل توبتهم﴾ قال: تابوا من الذنوب، ولم يتوبوا من الأصل. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن الحسن في قوله: ﴿وماتوا وهم كفار﴾ قال: هو كل كافر. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما، عن أنس، عن النبي ﷺ قال: «يجاء بالكافر يوم القيامة، فيقال له: أريت لو كان لك ملء الأرض ذهباً أكنت مفتدياً به، فيقول نعم، فيقال له: لقد سئلت ما هو أيسر من ذلك، فنلك قوله تعالى: ﴿إن اللذين كفروا وماتوا وهم كفار﴾ الآية.

لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْتُمْ وَمَا يُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَوْمَهُ

عَلِيمٌ ﴿١١١﴾

هذا كلام مستأنف خطاب للمؤمنين عقب نكر ما لا ينفع الكفار. قوله: ﴿لن تنالوا البر﴾ يقال: نالني من فلان معروف بنالني، أي: وصل إلي، والنوال: العطاء من قولك نولته تنويلاً أعطيته. والبر: العمل الصالح، وقال ابن مسعود، وابن عباس، وعطاء، ومجاهد، وعمرو بن ميمون، والسدي: هو الجنة، فمعنى الآية: لن تنالوا العمل الصالح، أو الجنة، أي: تصلوا إلى ذلك، وتبلغوا إليه حتى تنفقوا مما تحبون، أي: حتى تكون نفقتكم من أموالكم التي تحبونها، و﴿من﴾ تبغيضية، ويؤيده قراءة ابن مسعود: «حتى تنفقوا بعض ما

وقد أخرج النسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس قال: كان رجل من الأنصار أسلم، ثم ارتد، ولحق بالمشركين، ثم ندم، فأرسل إلى قومه: أرسلوا إلى رسول الله ﷺ هل لي من توبة؟ فنزلت: ﴿كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم﴾ إلى قوله: ﴿غفور رحيم﴾ فأرسل إليه قومه، فأسلم. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، عن مجاهد نحوه، وقال: هو الحارث بن سويد. وأخرج عبد بن

كَانَتْ بَيْنَتْ مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ
مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٥٧﴾

هذا شروع في بيان شيء آخر مما جاللت فيه اليهود بالباطل، وذلك أنهم قالوا: إن بيت المقدس أفضل، وأعظم من الكعبة لكونه مهاجر الأنبياء، وفي الأرض المقدسة فرد الله ذلك عليهم بقوله: ﴿إِنْ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ الآية، فقوله: ﴿وُضِعَ﴾ صفة لبیت، وخبر إن قوله: ﴿لِلَّذِي بِيكَةِ﴾ فنيه تعالى بكونه أول متعبد على أنه أفضل من غيره، وقد اختلف في الباني له في الابتداء، فقيل: الملائكة، وقيل: آدم، وقيل: إبراهيم، ويجمع بين ذلك بأول من بناء الملائكة، ثم جنده آدم، ثم إبراهيم. وبكة علم للبلد الحرام، وكذا مكة، وهما لغتان، وقيل: إن بكة اسم لموضع البيت، ومكة اسم للبلد الحرام، وقيل: بكة للمسجد، ومكة للحرم كله؛ قيل: سميت بكة لازحام الناس في الطواف، يقال بك القوم: ازحموا، وقيل: البكة: بق العنق، سميت بذلك؛ لأنها كانت تنق أعناق الجبابرة. وأما تسميتها بمكة، فقيل: سميت بذلك لقلة ما بها؛ وقيل: لأنها تمك المخ من العظم بما ينال سلكتها من المشقة، ومنه مككت العظم: إذا أخرجت ما فيه، ومك الفصيل ضرع أمه، وامتنكه: إذا امتنصه؛ وقيل: سميت بذلك؛ لأنها تمك من ظلم فيها، أي: تهلك. قوله: ﴿مَبَارَكًا﴾ حال من الضمير في وضع، أو من متعلق الظرف؛ لأن التقدير للذي استقر ببكة مباركاً، والبركة: كثرة الخير الحاصل لمن يستقر فيه، أو يقصده، أي: الثواب المتضاعف. والآيات البينات الواضحات: منها الصفا، والمروة، ومنها أثر القدم في الصخرة الصماء، ومنها أن الغيث إذا كان بناحية الركن اليماني كان الخصب في اليمن، وإن كان بناحية الشامي كان الخصب بالشام، وإذا عمَّ البيت كان الخصب في جميع البلدان، ومنها انحراف الطيور، عن أن تمر على هوائه في جميع الأزمان، ومنها هلاك من يقصده من الجبابرة، وغير ذلك. وقوله: ﴿مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ﴾ بدل من آيات قاله محمد بن يزيد المبرد. وقال في الكشف: إنه عطف بيان. وقال الأخفش: إنه مبتدأ، وخبره محذوف، والتقدير منها مقام إبراهيم؛ وقيل: هو خبر مبتدأ محذوف أي: هي مقام إبراهيم، وقد استشكل صاحب الكشف بيان الآيات، وهي: جمع بالمقام، وهو: فرد، وأجاب بأن المقام جعل وحده بمنزلة آيات لقوة شأنه، أو بانه مشتمل على آيات، قال: ويجوز أن يراد فيه آيات بينات مقام إبراهيم، وأمن من نخله؛ لأن الإثنين نوع من الجمع. قوله: ﴿وَمَنْ نَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ جملة مستأنفة لبيان حكم من أحكام الحرم، وهو: أن من نخله كان آمناً، وبه استدل من قال: إن من لجأ إلى الحرم، وقد وجب عليه حد من الحدود، فإنه لا يقام عليه الحد حتى يخرج منه، وهو قول أبي حنيفة، ومن تابعه، وخالفه الجمهور، فقالوا: تقام عليه الحدود في الحرم. وقد قال جماعة: إن الآية خبر في معنى الأمر، أي: ومن نخله، فأمّنوه كقوله: ﴿لَا رَفْثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ﴾ [البقرة: 197] أي: لا ترفثوا، ولا تفسقوا،

ولا تجادلوا. قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ اللام في قوله: ﴿لِلَّذِي﴾ هي التي يقال لها لام الإيجاب، والإلزام، ثم زاد هذا المعنى تأكيداً حرف ﴿عَلَى﴾ فإنه من أوضح الدلالات على الوجوب عند العرب، كما إذا قال القائل لفلان علي كذا، فنكر الله سبحانه الحج بأبلغ ما يدل على الوجوب تأكيداً لحقه، وتعظيماً لحرمته، وهذا الخطاب شامل لجميع الناس لا يخرج عنه إلا من خصصه الليل كالصبي، والعبد. وقوله: ﴿مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ في محل جر على أنه بدل بعض من الناس. وبه قال أكثر النحويين. وأجاز الكسائي أن يكون في موضع رفع بحج. والتقدير: أن يحج البيت من استطاع إليه سبيلاً، وقيل: إن من حرف شرط، والجزاء محذوف، أي: من استطاع إليه سبيلاً فعلياً عليه الحج. وقد اختلف أهل العلم في الاستطاعة ماذا هي؟ فقيل الزاد، والراحلة، وإلى ذهب جماعة من الصحابة، وحكاة الترمذي، عن أكثر أهل العلم، وهو: الحق. قال مالك: إن الرجل إذا وثق بقوته لزمه الحج، وإن لم يكن له زاد، وراحلة إذا كان يقدر على التكسب، وبه قال عبد الله بن الزبير، والشعبي، وعكرمة. وقال الضحاك: إن كان شاباً قوياً صحيحاً، وليس له مال فعلي أن يؤاجر نفسه حتى يقضي حجه، ومن جملة ما يدخل في الاستطاعة دخولاً أولياً أن تكون الطريق إلى الحج آمنة، بحيث يأمن الحاج على نفسه، وماله الذي لا يجد زاداً غيره، أما لو كانت غير آمنة، فلا استطاعة؛ لأن الله سبحانه يقول: ﴿مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ وهذا الخائف على نفسه، أو ماله لم يستطع إليه سبيلاً بلا شك، ولا شبهة. وقد اختلف أهل العلم إذا كان في الطريق من الظلمة من يأخذ بعض الأموال على وجه لا يحجف بزاد الحاج، فقال الشافعي: لا يعطى حبة، ويسقط عنه فرض الحج ووافقه جماعة، وخالفه آخرون. والظاهر أن من تمكن من الزاد، والراحلة، وكانت الطريق آمنة بحيث يتمكن من مرورها، ولو بمصانعة بعض الظلمة لبيع شيء من المال يتمكن منه الحاج، ولا ينقص من زاده، ولا يحجف به، فالحج غير ساقط عنه بل واجب عليه، لأنه قد استطاع السبيل بدفع شيء من المال، ولكنه يكون هذا المال المدفوع في الطريق من جملة ما تتوقف عليه الاستطاعة، فلو وجد الرجل زاداً، وراحلة، ولم يجد ما يدفعه لمن يأخذ المكس في الطريق لم يجب عليه الحج؛ لأنه لم يستطع إليه سبيلاً، وهذا لا بد منه، ولا ينافي تفسير الاستطاعة بالزاد، والراحلة، فإنه قد تعذر المرور في طريق الحج لمن وجد الزاد، والراحلة إلا بذلك القدر الذي يأخذه المكاسون، ولعل وجه قول الشافعي إنه سقط الحج أن أخذ هذا المكس منكراً، فلا يجب على الحاج أن يدخل في منكر، وأنه بذلك غير مستطيع. ومن جملة ما يدخل في الاستطاعة أن يكون الحاج صحيح البدن على وجه يمكنه الركوب، فلو كان زماً بحيث لا يقدر على المشي، ولا على الركوب فهذا، وإن وجد الزاد، والراحلة، فهو لم يستطع السبيل. قوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾

عبد بن حميد، وابن المنذر، والأزرقى، عن عمر بن الخطاب قال: لو وجدت فيه قاتل الخطاب ما مسسته حتى يخرج منه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَنْ نَخْلُهُ كَانَ آمَنًا﴾ قال: من عاذ بالبيت أعاده البيت، ولكن لا يؤوى، ولا يطعم، ولا يسقى، فإذا خرج أخذ بذنبه. وقد روي عنه هذا المعنى من طرق. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عنه قال: لو وجدت قاتل أبي في الحرم لم أعرض له. وأخرج ابن جرير، عن ابن عمر قال: لو وجدت قاتل أبي في الحرم ما هجته. وأخرج الشياخ، وغيرهما، عن أبي شريح العدوي قال: قام النبي ﷺ الغد من يوم الفتح فقال: «إن مكة حرمها الله، ولم يحرمها الناس، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله، واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا، ولا يعضد بها شجرة، فإن أحد ترخص لقتال رسول الله ﷺ، فقولوا: إن الله قد أنزل رسوله، ولم يأن لكم، وإنما أنزلني ساعة من نهار، ثم عانت حرمتها اليوم، كحرمتها أمس». وأخرج الدارقطني، والحاكم وصححه، عن أنس: «أن رسول الله ﷺ سئل عن قوله: ﴿مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ فقيل: ما السبيل؟ قال: الزاد، والراحلة». وأخرج الشافعي، وعبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والترمذي، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن عدي، وابن مريويه، والبيهقي في سننه، عن ابن عمر مرفوعاً: أنه قام رجل، فقال: ما السبيل؟ فقال: الزاد، والراحلة. وأخرج الدارقطني، والبيهقي في سننهما من طريق الحسن، عن أمه، عن عائشة قالت: «سئل رسول الله ﷺ ما السبيل إلى الحج؟ قال: الزاد، والراحلة». وأخرج الدارقطني في سننه، عن ابن مسعود مرفوعاً مثله. وأخرج الدارقطني، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده مرفوعاً مثله. وأخرج الدارقطني، عن جابر مرفوعاً مثله. وقد روى هذا الحديث من طرق أقل أحواله أن يكون حسناً لغيره، فلا يضره ما وقع من الكلام على بعض طرقه، كما هو معروف. وأخرج الدارقطني، عن علي مرفوعاً في الآية: «أنه سئل النبي ﷺ، فقال: تجد ظهر بعير». وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، عن عمر بن الخطاب في قوله: ﴿مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ قال: الزاد، والراحلة، وأخرج ابن عباس مثله. وأخرجه عنه مرفوعاً ابن ماجه، والطبراني، وابن مريويه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي عنه قال: السبيل أن يصح بدن العبد، ويكون له ثمن زاد، وراحلة من غير أن يجحف به. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، عنه قال: ﴿سَبِيلًا﴾ من وجد إليه سعة، ولم يحل بينه، وبينه. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن عبد الله بن الزبير قال: الاستطاعة القوة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن أبي حاتم، عن النخعي قال: إن المحرم للمرأة من السبيل الذي قال الله. وقد ثبت عنه ﷺ النهي للمرأة أن تسافر بغير ذي محرم. واختلفت الأحاديث في قدر المدة، ففي لفظ ثلاثة أيام، وفي لفظ يوم وليلة، وفي لفظ بريد.

قيل: إنه عبر بلفظ الكفر عن ترك الحج تأكيداً لوجوبه، وتشبيهاً على تاركه، وقيل: المعنى: ومن كفر بفرض الحج، ولم يره واجباً، وقيل: إن من ترك الحج، وهو قادر عليه، فهو كافر. وفي قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ من الدلالة على مقت تارك الحج مع الاستطاعة، وخذلانه، وبعده من الله سبحانه ما يتعاضمه سامعه، ويرجف له قلبه، فإن الله سبحانه إنما شرع لعباده هذه الشرائع لنفعهم، ومصلحتهم، وهو تعالى شأنه، وتقدس سلطانه غني لا تعود إليه طاعات عباده بفسرها بنفع.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن علي بن أبي طالب في قوله: ﴿إِنْ أَوَّلَ بَيْتٍ﴾ الآية، قال: كانت البيوت قبله، ولكنه كان أول بيت وضع لعبادة الله. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما، عن أبي نر قال: «قلت يا رسول الله: أي مسجد وضع أول؟ قال: المسجد الحرام، قلت: ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى، قلت: كم بينهما؟ قال: أربعون سنة». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، والبيهقي في الشعب، عن ابن عمر، قال: «خلق الله البيت قبل الأرض بألفي سنة، وكان إذ كان عرشه على الماء زبدة بيضاء، وكانت الأرض تحته، كأنها حشفة فندحت الأرض من تحته». وأخرج نحوه ابن المنذر، عن أبي هريرة. وأخرج ابن المنذر، والأزرقى، عن ابن جريج قال: بلغنا أن اليهود قالت بيت المقدس أعظم من الكعبة؛ لأنه مهاجر الأنبياء، ولأنه في الأرض المقدسة، فقال المسلمون: بل الكعبة أعظم، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فنزلت: ﴿إِنْ أَوَّلَ بَيْتٍ﴾ الآية إلى قوله: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ﴾ وليس ذلك في بيت المقدس: ﴿وَمَنْ نَخْلُهُ كَانَ آمَنًا﴾ وليس ذلك في بيت المقدس: ﴿وَعَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ﴾ وليس ذلك في بيت المقدس. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، عن عبد الله بن الزبير قال: إنما سميت بكه؟ لأن الناس يجيئون إليها من كل جانب حجاجاً. وروى سعيد بن منصور، وابن جرير، والبيهقي، عن مجاهد: إنما سميت بكه؟ لأن الناس يتبكون فيها، أي: يزحمون. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مقتل بن حبان، في قوله: ﴿مُبَارَكًا﴾ قال: جعل فيه الخير، والبركة: ﴿وَهْدَى لِلْعَالَمِينَ﴾ يعني: بالهدى قبلتهم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، من طريق العوفي، عن ابن عباس: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ فمنهن مقام إبراهيم، والمشعر. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن الحسن في قوله: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ قال: مقام إبراهيم: ﴿وَمَنْ نَخْلُهُ كَانَ آمَنًا﴾ والله على الناس حج البيت. وأخرج الأزرقى، عن زيد بن أسلم نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وَمَنْ نَخْلُهُ كَانَ آمَنًا﴾ قال: كان هذا في الجاهلية، كان الرجل لو جر كل جريرة على نفسه، ثم لجأ إلى الحرم لم يتناول، ولم يطلب، فأما في الإسلام، فإنه لا يمنع من حدود الله، من سرق فيه قطع، ومن زنى فيه أقيم عليه الحد، ومن قتل فيه قتل. وأخرج

العرب، والنصارى، واليهود، والمجوس، والصابئين، فقال: إن الله فرض عليكم الحج، فحجوا البيت، فلم يقبله إلا المسلمون، وكفرت به خمس ملل، قالوا: لا نؤمن به، ولا نصلي إليه، ولا نستقبله، فانزل الله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾، وأخرج عبد بن حميد، والبيهقي في سننه، عن مجاهد نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن أبي داود نفيح قال: «قرأ رسول الله ﷺ ﴿وَلِلَّهِ الْحُجُوجُ﴾» قالوا: لا نؤمن به، ولا نستقبله، فانزل الله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾، وفي إسناده هلال الخراساني أبو هاشم، قال البخاري: منكر الحديث. وقيل: مجهول. وقال ابن عدي: هذا الحديث ليس بمحفوظ وفي إسناده أيضاً الحارث الأعور، وفيه ضعف. وأخرج سعيد بن منصور، وأحمد في كتاب الإيمان، وأبو يعلى، والبيهقي، عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات، ولم يحج حجة الإسلام لم يمنعه مرض حابس، أو سلطان جائر، أو حاجة ظاهرة، فليمت على أي حال شاء يهودياً، أو نصرانياً». وأخرج ابن أبي شيبة، عن عبد الرحمن بن سابط مرفوعاً مرسلاً مثله. وأخرج سعيد بن منصور. قال السيوطي بسند صحيح، عن عمر بن الخطاب قال: لقد هممت أن أبعث رجلاً إلى هذه الأمصار، فلينظروا كل من كان له جدة، ولم يحج، فيضربوا عليهم الجزية ما هم بمسلمين ما هم بمسلمين. وأخرج الإسماعيلي عنه يقول: «من أطاق الحج، ولم يحج، فسواء عليه يهودياً مات، أو نصرانياً» قال ابن كثير بعد أن ساق إسناده: وهذا إسناده صحيح. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، عنه نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن ابن عمر: «من مات، وهو موسر، ولم يحج جاء يوم القيامة، وبين عينيه مكتوب كافر». وأخرج سعيد بن منصور، عنه «من وجد إلى الحج سبيلاً سنة، ثم سنة، ثم سنة ثم مات، ولم يحج لم يصل عليه، ولا يدري مات يهودياً، أو نصرانياً». وأخرج سعيد بن منصور، عن عمر بن الخطاب، قال: لو ترك الناس الحج لقاتلتهم عليه، كما نقاتلهم على الصلاة، والزكاة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ﴾ قال: من زعم أنه ليس بفرض عليه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس في الآية قال: من كفر بالحج، فلم يرجعه برأ، ولا تركه مائماً. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في سننه، عن عكرمة قال: لما نزلت: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا﴾ [آل عمران: 85] قالت اليهود: فنحن مسلمون، فقال لهم النبي ﷺ: إن الله فرض على المسلمين حج البيت، فقالوا: لم يكتب علينا، وأبو أن يحجوا، قال الله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾.

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، عن ابن عمر: «من مات، وهو موسر، ولم يحج جاء يوم القيامة، وبين عينيه مكتوب كافر». وأخرج سعيد بن منصور، عنه «من وجد إلى الحج سبيلاً سنة، ثم سنة، ثم سنة ثم مات، ولم يحج لم يصل عليه، ولا يدري مات يهودياً، أو نصرانياً». وأخرج سعيد بن منصور، عن عمر بن الخطاب، قال: لو ترك الناس الحج لقاتلتهم عليه، كما نقاتلهم على الصلاة، والزكاة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ﴾ قال: من زعم أنه ليس بفرض عليه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس في الآية قال: من كفر بالحج، فلم يرجعه برأ، ولا تركه مائماً. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في سننه، عن عكرمة قال: لما نزلت: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا﴾ [آل عمران: 85] قالت اليهود: فنحن مسلمون، فقال لهم النبي ﷺ: إن الله فرض على المسلمين حج البيت، فقالوا: لم يكتب علينا، وأبو أن يحجوا، قال الله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾.

قوله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصَدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ أَمْرٍ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا تُطِيعُوا قُرْبًا مِنَ اللَّهِ أَوْثَرًا أَلَا تَتَذَكَّرُونَ كَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُنْفِرُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَنَحْنُ بِتَعْمَلِكُمْ بِاللَّهِ فَذَرُّوا حَقِّي إِلَى يَدِ اللَّهِ يُنْفِرُ مَا يُنْفِرُ اللَّهُ بِحَبْلٍ جَبِيمٍ وَلَا تَقْرَأُوا مَا كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءُ فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بَشِيرَةً إِنْجَزًا وَكُنْتُمْ عَلَى صَفَا حَقَرٍ مِّنَ النَّارِ فَاذْكُرُوا كَذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ قوله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ خطاب لليهود، والنصارى، والاستفهام في قوله: ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ﴾ للإنكار، والتوبيخ. وقوله: ﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾ جملة حالية مؤكدة للتوبيخ، والإنكار، وهكذا المجيء بصيغة المبالغة في شهيد يفيد مزيد التشديد، والتوبيخ، والاستفهام في قوله: ﴿لِمَ تَصَدُّونَ﴾ يفيد ما أفاقه الاستفهام الأول. وقرأ الحسن: ﴿تَصَدُّونَ﴾ من أصد، وهما لغتان: مثل صد اللحم، وأصد: إذا تغير، وأنتن، وسبيل الله دينه الذي ارتضاه لعباده، وهو دين الإسلام، والعوج: الميل، والزيغ، يقال عوج بالكسر إذا كان في الدين، والقول، والعمل، وبالفتح في الأجسام كالجدار، ونحوه، روي ذلك عن أبي عبيدة، وغيره، ومحل قوله: ﴿يَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ النصب على الحال. والمعنى: تطلبون لها اعوجاجاً، وميلاً عن القصد، والاستقامة بإيهامكم على الناس بأنها كذلك تنقيفاً لتحريفكم، وتقويماً لدعائركم الباطلة. وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ﴾ جملة حالية، أي: كيف

وقد رويت أحاديث في تشديد الوعيد على من ملك زاداً، وراحلة، ولم يحج. فأخرج الترمذي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مروي، والبيهقي في الشعب، عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: «من ملك زاداً، وراحلة تبلغه إلى بيت الله، ولم يحج بيت الله، فلا عليه بأن يموت يهودياً، أو نصرانياً» وذلك بأن الله يقول: ﴿وَلِلَّهِ الْحُجُوجُ﴾.

وتطلبون تلك بعملة الإسلام، والحال أنكم تشهدون أنها دين الله الذي لا يقبل غيره، كما عرفتم ذلك من كتبكم المنزل على أنبيائكم، قيل: إن في التوراة أن دين الله الذي لا يقبل غيره الإسلام، وإن فيه نعت محمد ﷺ؛ وقيل: المراد: ﴿وأنتم شهداء﴾ أي: عقلاء، وقيل: المعنى وأنتم شهداء بين أهل دينكم مقبولون عندهم، فكيف تأتون بالباطل الذي يخالف ما أنتم عليه بين أهل دينكم؟ ثم توعدهم سبحانه بقوله: ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ ثم خاطب سبحانه المؤمنين محذراً لهم عن طاعة اليهود، والنصارى مبيناً لهم أن تلك الطاعة تقضي إلى أن يربوهم بعد إيمانهم كافرين، وسياقي بيان سبب نزول الآية، والاستفهام في قوله: ﴿وكيف تكفرون﴾ للإنكار، أي: من أين يأتيكم ذلك، ولبيكم ما يمنع منه ويقطع أثره، وهو: تلاوة آيات الله عليكم، وكون رسول الله ﷺ بين أظهركم؟ ومحل قوله: ﴿وأنتم﴾ وما بعده النصب على الحال. ثم أرشدهم إلى الاعتصام بالله ليحصل لهم بذلك الهداية إلى الصراط المستقيم الذي هو الإسلام، وفي وصف الصراط بالاستقامة رد على ما ادعوه من العوج. قال الزجاج: يجوز أن يكون هذا الخطاب لأصحاب محمد ﷺ خاصة؛ لأن رسول الله ﷺ كان فيهم، وهم يشاهدونه، ويجوز أن يكون هذا الخطاب لجميع الأمة؛ لأن آثاره، وعلامته، والقرآن الذي أوتيها، فكان رسول الله ﷺ فينا، وإن لم نشاهده. انتهى. ومعنى الاعتصام بالله التمسك ببينه، وطاعته، وقيل: بالقرآن، يقال: اعتصم به، واستعصم، وتمسك، واستمسك: إذا امتنع به من غيره، وعصمه الطعام: منع الجوع منه. قوله: ﴿اتقوا الله حق تقاته﴾ أي: التقوى التي تحق له، وهي: أن لا يترك العبد شيئاً مما يلزمه فعله، ولا يفعل شيئاً مما يلزمه تركه، ويبذل في ذلك جهده، ومستطاعه. قال القرطبي: نكر المفسرون أنها لما نزلت هذه الآية قالوا: يا رسول الله من يقوى على هذا؟ وشق عليهم ذلك، فأنزل الله: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ [التغابن: 16] فنسخت هذه الآية. روي ذلك عن قتادة، والربيع، وابن زيد. قال مقاتل: وليس في آل عمران من المنسوخ شيء إلا هذا. وقيل: إن قوله: ﴿اتقوا الله حق تقاته﴾ مبين بقوله: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ والمعنى: اتقوا الله حق تقاته ما استطعتم. قال: وهذا أصوب؛ لأن النسخ إنما يكون عند عدم الجمع، والجمع ممكن، فهو أولى. قوله: ﴿ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ أي: لا تكونن على حال سوى حال الإسلام، فالاستثناء مفرغ، ومحل الجملة: أعني: قوله: ﴿وأنتم مسلمون﴾ النصب على الحال، وقد تقدم في البقرة تفسير مثل هذه الآية. قوله: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً﴾ الحبل لفظ مشترك، وأصله في اللغة السبب الذي يتوصل به إلى البغية، وهو: إما تمثيل، أو استعارة. أمرهم سبحانه بأن يجتمعوا على التمسك بدين الإسلام، أو بالقرآن، ونهاهم عن التفرق الناشئ عن الاختلاف في الدين، ثم أمرهم بأن ينكروا نعمة الله عليهم،

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن زيد بن أسلم قال: مر شاس بن قيس، وكان شيخاً قد عسى في الجاهلية، عظيم الكفر، شديد الطعن على المسلمين، شديد الحسد لهم على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس، والخزرج في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه، فغاضه ما رأى من ألفتهم، وجماعتهم، وصلاحتهم ذات بينهم على الإسلام. بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية، فقال: قد اجتمع ملا بني قيلة بهذه البلاد، والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار، فأمر فتى شاباً معه من يهود، فقال: اعد إليهم، فاجلس معهم، ثم نكروهم يوم بعثت، وما كان قبله، وأنشدكم بعض ما كانوا يتقاولون فيه من الأشعار، وكان يوم بعثت يوماً اقتتلت فيه الأوس، والخزرج، وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج، ففعل، فتكلم القوم عند ذلك، وتنازعوا، وتفاخروا حتى تواب رجلان من الحيين على الركب أوس بن قبيظي أحد بني حارثة من الأوس، وجبار بن صخر أحد بني سلمة من الخزرج، فتقاولا، ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم، والله ربنناها الآن جذعة، وغضب الفريقان جميعاً، وقالوا: قد فعلنا، السلاح السلاح موعنكم الظاهرة، والظاهرة الحرة، فخرجوا إليها، وانضمت الأوس بعضها إلى بعض، والخزرج بعضها إلى بعض على دعواهم التي كانوا عليها في الجاهلية، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين من أصحابه حتى جاءهم، فقال: يا معشر المسلمين الله الله أيدعوى الجاهلية، وأنا بين أظهركم بعد إذ هداكم الله إلى الإسلام، وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألف به بينكم، ترجعون إلى ما كنتم عليه كفاراً، فعرف القوم أنها نزعة من الشيطان، وكيد من عدوهم لهم، فآلقوا السلاح من أيديهم وبكروا، وعانق الرجال بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين قد أطفا الله عنهم كيد عبد الله شاس، وأنزل الله في شأن شاس بن قيس، وما صنع ﴿قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون﴾ إلى قوله: ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ وأنزل في أوس بن قبيظي، وجبار بن صخر، ومن كان معهما من

وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْعُرْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَقَرَّوْا وَخَافَلَوْا مِنْ بَيْنِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَبْسُ وَجُوهٌ وَسُودَ وَجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وَجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بِرَبِّكُمْ فَمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وَجُوهُهُمْ فَبِئْسَ رَحْمَةً أَلَلَّهُمْ مِنْهَا غَلِيظُونَ ﴿١٠٦﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْتَلُوها عَلَيْكَ وَالْحَقُّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَكَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلِلَّهِ اللَّهُ رُجْعُ الْأُمُورِ ﴿١٠٨﴾

قوله: ﴿ولتكن﴾ قراء الجمهور بإسكان اللام، وقرئ بكسر اللام على الأصل، ومن في قوله: ﴿منكم﴾ للتبعيض، وقيل: لبيان الجنس. ورجح الأول بأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يختص بأهل العلم الذين يعرفون كون ما يأمر به معروفاً، وينهون عنه منكرًا. قال القرطبي: الأول أصح، فإنه يدل على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض على الكفاية، وقد عينهم الله سبحانه بقوله: ﴿الذين إن مكناهم في الأرض﴾ [الحج: 41] الآية. وقرأ ابن الزبير: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويستعينون بالله على ما أصليهم﴾ قال أبو بكر بن الأنباري: وهذه الزيادة تفسير من ابن الزبير، وكلام من كلامه غلط فيه بعض الناقلين، فالحق بالفاظ القرآن. وقد روى أن عثمان قرأها كذلك، ولكن لم يكتبها في مصحفه، فدل على أنها ليست بقرآن. وفي الآية دليل على وجوب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وجوبه ثابت بالكتاب، والسنة، وهو من أعظم واجبات الشريعة المطهرة، وأصل عظيم من أصولها، وركن مشيد من أركانها، وبه يكمل نظامها ويرتفع سنامها. وقوله: ﴿يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ من باب عطف الخاص على العام، إظهاراً لشرفهما، وأتبعهما الفردان الكاملان من الخير الذي أمر الله عباده بالدعاء إليه، كما قيل في عطف جبريل وميكائيل على الملائكة، وحذف متعلق الأفعال الثلاثة، أي: يدعون، ويأمرون، وينهون لقصد التعميم، أي: كل من وقع منه سبب يقتضي ذلك، والإشارة في قوله: ﴿وأولئك﴾ ترجع إلى الأمة باعتبار اتصافها بما ذكر بعدها ﴿هم المفلحون﴾ أي: المختصون بالفلاح، وتعريف المفلحين للعهد، أو للحقيقة التي يعرفها كل أحد. قوله: ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا﴾ هم: اليهود والنصارى عند جمهور المفسرين، وقيل: هم المبتدعة من هذه الأمة، وقيل: الحرورية، والظاهر الأول. والبيانات الآيات الواضحة المبينة للحق الموجبة لعدم الاختلاف. قيل: وهذا النهي عن التفرق، والاختلاف يختص بالمسائل الأصولية، وأما المسائل الفرعية الاجتهادية، فالاختلاف فيها جائز، وما زال الصحابة، فمن بعدهم من التابعين، وتابعيهم مختلفين في أحكام الحوادث، وفيه نظر، فإنه ما زال في تلك العصور المنكر للاختلاف موجوباً وتخصيص بعض مسائل الدين بجواز الاختلاف فيها دون البعض الآخر ليس بصواب،

قومهما الذين صنعوا ما صنعوا ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب﴾ إلى قوله: ﴿وأولئك لهم عذاب عظيم﴾ وقد رويت هذه القصة مختصرة، ومطولة من طرق. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي في قوله: ﴿لم تصدون عن سبيل الله﴾ قال: كانوا إذا سألهم أحد تجلبون محمداً قالوا: لا، قال: فصنوا الناس عنه، وبغوا محمداً عوجاً هلاكاً. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة: لم تصدون عن الإسلام، وعن نبي الله من آمن بالله، وأنتم شهداء فيما تقرؤون من كتاب الله أن محمداً رسول الله، وأن الإسلام دين الله الذي لا يقبل غيره، ولا يجزي إلا به يجعلونه مكتوباً عندهم في التوراة، والإنجيل. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن جريج في قوله: ﴿ومن يعصم بالله﴾ قال: يؤمن به. وأخرجوا عن أبي العلية قال: الاعتصام: الثقة بالله. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مروي، عن ابن مسعود في قوله: ﴿اتقوا الله حق تقاته﴾ قال: أن يطاع، فلا يعصى، وينكر، فلا ينسى، ويشكر، فلا يكفر. وقد روى الحاكم وصححه، وابن مروي من وجه آخر عنه مرفوعاً بدون قوله: ويشكر، فلا يكفر. وأخرج ابن مروي، عن ابن عباس قال: حق تقاته أن يطاع، فلا يعصى، فلن تستطيعوا، فأنزل الله بعد ذلك: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ [التغابن: 16] وأخرج عبد بن حميد، عنه نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة، نحوه. وأخرج ابن مروي، عن ابن مسعود نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿حق تقاته﴾ قال: لم تنسخ، ولكن حق تقاته أن يجاهدوا في الله حق جهاده، ولا يأخذهم في الله لومة لائم، ويقوموا لله بالقسط، ولو على أنفسهم، وآبائهم، وأبنائهم. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، قال السيوطي بسند صحيح عن ابن مسعود في قوله: ﴿واعتصموا بحبل الله﴾ قال: حبل الله القرآن. وقد وردت أحاديث أن كتاب الله هو حبل الله الممدود. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن أبي العلية قال: واعتصموا بحبل الله بالإخلاص لله وحده. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الحسن قال: بطاعته. وأخرج أيضاً، عن قتادة قال: بعهد، وأمره. وأخرج ابن جرير، عن ابن زيد قال: بالإسلام. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن جريج في قوله: ﴿إن كنتم أعداء﴾ قال: ما كان بين الأوس، والخزرج في شأن عائشة. وأخرج ابن إسحاق قال: كانت الحرب بين الأوس، والخزرج عشرين ومائة سنة، حتى قام الإسلام، فألفا الله ذلك، وألف بينهم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي في قوله: ﴿وكنتم على شفا حفرة من النار﴾ يقول: كنتم على طرف النار، من مات منكم، وقع في النار، فبعث الله محمداً ﷺ، واستنقذكم به من تلك الحفرة.

إلى الخير﴾ أي: الإسلام: ﴿وَيَا مَرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بطاعة ربهم ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ عن معصية ربهم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن الضحاك في الآية قال: هم أصحاب محمد ﷺ خاصة، وهم: الرواة. انتهى. ولا أدري ما وجه هذا التخصيص، فالخطاب في هذه الآية، كالخطاب بسائر الأمور التي شرعها الله لعباده، وكلفهم بها. وأخرج أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، والحاكم وصححه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «افتترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وتفرقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة». وأخرج أحمد، وأبو داود، والحاكم، عن معاوية، مرفوعاً نحوه، وزاد: «كلها في النار إلا واحدة»، وهي الجماعة. وأخرج الحاكم، عن عبد الله بن عمرو، مرفوعاً نحوه أيضاً، وزاد: «كلها في النار إلا ملة واحدة، فقيل له: ما الواحدة؟ قال: ما أنا عليه اليوم، وأصحابي». وأخرج ابن ماجه عن عوف بن مالك، مرفوعاً نحوه، وفيه: «فواحدة في الجنة وثلثان وسبعون في النار، قيل: يا رسول الله من هم؟ قال: الجماعة» وأخرجه أحمد من حديث أنس، وفيه: «قيل يا رسول الله من تلك الفرقة؟ قال: الجماعة». وقد وردت آيات، وأحاديث كثيرة في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وفي الأمر بالكون في الجماعة، والنهي عن الفرقة. وأخرج ابن أبي حاتم، والخطيب، عن ابن عباس في قوله: ﴿يَوْمَ تَبْيِضُ وُجُوهٌ﴾ قال: تبيض وجوه أهل السنة والجماعة، وتسود وجوه أهل البدع والضلالة. وأخرجه الخطيب، والديلمي، عن ابن عمر مرفوعاً وأخرجه أيضاً مرفوعاً أبو نصر السجزي في الإبانة عن أبي سعيد. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي بن كعب في الآية قال: صاروا فرقتين يوم القيامة، يقال لمن أسود وجهه أكفرتم بعد إيمانكم؟ فهو الإيمان الذي كان في صلب آدم حيث كانوا أمة واحدة، وأما الذين أبيضت وجوههم فهم الذين استقاموا على إيمانهم، وأخلصوا له الدين فبيض الله وجوههم، وأظلمهم في رضوانه، وجنته، وقد روى غير ذلك.

كُتِبَ خَيْرَ أَمَةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْسُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَهُمْ مُوَفَّوْنَ بِمَا كَانُوا يَكُونُونَ ﴿١٠٤﴾ أَمَلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٠٥﴾ لَنْ يَضُرَّكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُضِلُّوكُمْ يُلُوكُمْ الْأَذْيَارُ ثُمَّ لَا يَضُرُّوكُمْ شَيْئًا عَلَيْهِمُ الدِّبَالَةُ إِنِ مَا يَقُولُوا إِلَّا مَجَالِي مِنَ اللَّهِ وَجَلِي مِنَ النَّاسِ وَكَأَنَّهُمْ يَخْلُفُونَ عَنْ اللَّهِ وَشَرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١٠٦﴾

قوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أمة﴾ هذا كلام مستأنف يتضمن بيان حال هذه الأمة في الفضل على غيرها من الأمم، وكان قيل: هي التامة، أي: وجدتم، وخلقتكم خير أمة، ومثله ما أنشده سييويه:

وجيران لنا كانوا أكرام

فالمسائل الشرعية المساوية الإقدام في انتسابها إلى الشرع. وقوله: ﴿يَوْمَ تَبْيِضُ وُجُوهٌ﴾ منتصب بفعل مضمر أي: انكر، وقيل: بما يدل عليه قوله: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فإن تقديره استقر لهم عذاب عظيم يوم تبيض وجوه، أي: يوم القيامة حين يبعثون من قبورهم تكون وجوه المؤمنين مبيضة، وجوه الكافرين مسودة. ويقال إن ذلك عند قراءة الكتاب إذا قرأ المؤمن كتابه رأى حسنته، فاستبشر وأبيض وجهه، وإذا قرأ الكافر كتابه رأى سيئاته، فحزن وأسود وجهه، والتذكير في وجوه للكثير، أي: وجوه كثيرة. وقرأ يحيى بن وثاب تبيض، وتسود بكسر التاءين. وقرأ الزهري تبيض، وتسود. قوله: ﴿أَكْفَرْتُمْ﴾ أي: فيقال لهم أكفرتم، والهزة للتوبيخ، والتعجب من حالهم، وهذا تفصيل لأحوال الفريقين بعد الإجمال، وقدم بيان حال الكافرين لكون المقام مقام تحذير وترهيب، قيل: هم أهل الكتاب، وقيل: المرتدون، وقيل: المنافقون، وقيل: المبتدعون. قوله: ﴿فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ أي: في جنته ودار كرامته، عبر عن ذلك بالرحمة إشارة إلى أن العمل لا يستقل بدخول صاحبه الجنة، بل لا بد من الرحمة، ومنه حديث: «لن يدخل أحد الجنة بعمله» وهو في الصحيح. وقوله: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ جملة استثنائية جواب سؤال مقدر. وتلك إشارة إلى ما تقدم من تعذيب الكافرين، وتنعيم المؤمنين. وقوله: ﴿نَقْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ جملة حالية، وبالحق متعلق بمحذوف، أي: متلبسة بالحق، وهو العدل. وقوله: ﴿وَمَا اللَّهُ يَرِيدُ ظُلْماً لِلْعَالَمِينَ﴾ جملة تنبيئية مقررة لمضمون ما قبلها، وفي توجه النفي إلى الإرادة الواقعة على النكرة دليل على أنه سبحانه لا يريد فرداً من أفراد الظلم الواقعة على فرد من أفراد العالم. والمراد بما في السموات، وما في الأرض مخلوقاته سبحانه، أي: له ذلك يتصرف فيه كيف يشاء، وعلى ما يريد، وعبر بما تغليباً لغير العقلاء على العقلاء لكثرتهم، أو لتنزيل العقلاء منزلة غيرهم. قال المهدوي: وجه اتصال هذا بما قبله أنه لما ذكر أحوال المؤمنين، والكافرين، وأنه لا يريد ظلماً للعالمين، وصله بذكر اتساع قدرته، وغناه عن الظلم لكون ما في السموات، وما في الأرض في قبضته، وقيل: هو ابتداء كلام يتضمن البيان لعباده بأن جميع ما في السموات، وما في الأرض له حتى يسألوه، ويعبدوه، ولا يعبدوا غيره. وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَرْجِعُ الْأُمُورَ﴾ أي: لا إلى غيره، لا لشركة، ولا استقلالاً.

وقد أخرج ابن مردويه، عن أبي جعفر الباقر قال: «قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أمة يدعوون إلى الخير﴾ قال: الخير اتباع القرآن وسنتي». وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي العالية قال: كل آية نكرها الله في القرآن في الأمر بالمعروف، فهو الإسلام، والنهي عن المنكر، فهو عبادة الأوثان، والشيطان. انتهى. وهو تخصيص بغير مخصص، فليس في لغة العرب، ولا في عرف الشرع ما يدل على ذلك. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مقاتل بن حيان قال: ﴿يَدْعُونَ

ومنه قوله تعالى ﴿كيف نكلم من كان في المهد صبياً﴾ [مريم: 29] وقوله: ﴿وانكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم﴾ [الأعراف: 86]. وقال الأخفش: يريد أهل أمة: أي خير أهل دين، وأنشد:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبه وهل يائمن نومة وهو طائع
وقيل: معناه: كنتم في اللوح المحفوظ، وقيل: كنتم منذ
أمنتم. وفيه دليل على أن هذه الأمة الإسلامية خير الأمم
على الإطلاق، وأن هذه الخيرية مشتركة ما بين أول هذه
الأمة، وآخرها بالنسبة إلى غيرها من الأمم، وإن كانت
متفاضلة في ذات بينها. كما ورد في فضل الصحابة على
غيرهم. قوله: ﴿أخرجت للناس﴾ أي: أظهرت لهم. وقوله:
﴿تأمرون بالمعروف﴾ الخ كلام مستأنف يتضمن بيان
كونهم خير أمة مع ما يشتمل عليه من أنهم خير أمة ما
أقاموا على ذلك، وتصفوا به، فإذا تركوا الأمر بالمعروف،
والنهي عن المنكر زال عنهم ذلك، ولهذا قال مجاهد: إنهم
خير أمة على الشرائط المذكورة في الآية، وهذا يقتضي أن
يكون تأمرون، وما بعده في محل نصب على الحال أي: كنتم
خير أمة حال كونكم أمرين زاهين مؤمنين بالله، وبما يجب
عليكم الإيمان به من كتابه، ورسوله، وما شرعه لعباده، فإنه
لا يتم الإيمان بالله سبحانه إلا بالإيمان بهذه الأمور. قوله:
﴿ولو آمن أهل الكتاب﴾ أي: لليهود إيماناً كليمان المسلمين
بالله، ورسله وكتبه: ﴿فكان خيراً لهم﴾ ولكنهم لم يفعلوا
ذلك بل قالوا: نؤمن ببعض الكتاب، ونكفر ببعض، ثم بين
حال أهل الكتاب بقوله: ﴿منهم المؤمنون﴾ وهم الذين آمنوا
برسول الله ﷺ منهم، فإنهم آمنوا بما أنزل عليه، وما أنزل
من قبله: ﴿واكثرهم الفاسقون﴾ أي: الخارجون عن طريق
الحق المتمردون في باطلهم المكذبون لرسول الله ﷺ ولما
جاء به، فيكون هذا التفصيل على هذا كلاماً مستأنفاً جواباً،
عن سؤال مقدر، كأنه قيل: هل منهم من آمن فاستحق ما
وعده الله. قوله: ﴿لن يضروكم إلا أذى﴾ أي: لن يضروكم
بأنواع الضرر إلا بنوع الأذى، وهو الكذب،
والتحريف، والبهت، ولا يقدرين على الضرر الذي هو
الضرر في الحقيقة بالحرب، والنهب، ونحوهما، فالاستثناء
مفرغ، وهذا وعد من الله لرسوله، وللمؤمنين أن أهل الكتاب
لا يغلبونهم، وأنهم منصورون عليهم، وقيل: الاستثناء
منقطع. والمعنى: لن يضروكم البتة لكن يؤذونكم، ثم بين
سبحانه ما نفاه من الضرر بقوله: ﴿وإن يقاتلوك يولوكم
الألبار﴾ أي: يهزمون ولا يقدرين على مقاومتكم فضلاً عن
أن يضروكم. وقوله: ﴿ثم لا ينصرون﴾ عطف على الجملة
الشرطية، أي: ثم لا يوجد لهم نصر، ولا يثبت لهم غلب في
حال من الأحوال، بل شأنهم الخذلان ما داموا. وقد وجدنا ما
وعدنا سبحانه حقاً، فإن اليهود لم تخفق لهم راية نصر، ولا
اجتمع لهم جيش غلب بعد نزول هذه الآية، فهي من
معجزات النبوة. قوله: ﴿ضربت عليهم الذلة﴾ قد تقدم في
البقرة معنى هذا التركيب. والمعنى: صارت الذلة محيطة بهم

في كل حال، وعلى كل تفسير في أي مكان وجدوا ﴿إلا
بحبل من الله﴾ أي: إلا أن يعتصموا بحبل من الله، قاله
الفراء أي: بركة الله، أو بكتابه ﴿وحبل من الناس﴾ أي:
بركة من الناس، وهم المسلمون، وقيل المراد بالناس: النبي
ﷺ ﴿وياؤوا﴾ أي: رجعوا ﴿بغضب من الله﴾ وقيل:
احتملوا، وأصل معناه في اللغة اللزوم، والاستحقاق، أي:
لزمهم غضب من الله هم مستحقون له. ومعنى ضرب
المسكنة: إحاطتها بهم من جميع الجوانب، وهكذا حال
اليهود، فإنهم تحت الفقر المدقع، والمسكنة الشديدة إلا
النار الشاذ منهم. والإشارة بقوله ذلك إلى ما تقدم من
ضرب الذلة، والمسكنة، والغضب، أي: وقع عليهم ذلك بسبب
أنهم كانوا يكفرون بآيات الله، ويقتلون الأنبياء بغير حق،
والإشارة بقوله: ذلك إلى الكفر، وقتل الأنبياء بسبب
عصيانهم لله، واعتدائهم لحوده. ومعنى الآية: أن الله ضرب
عليهم الذلة، والمسكنة، والبؤس بالغضب منه لكونهم كفروا
بآياته، وقتلوا أنبياءه بسبب عصيانهم، واعتدائهم.

وقد أخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن
حميد، وأحمد، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن
أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، عن ابن عباس
في قوله: ﴿كنتم خير أمة﴾ قال: هم الذين هاجروا مع
رسول الله ﷺ. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن
السدي في الآية قال: قال عمر بن الخطاب: لو شاء الله لقال
أنتم فكننا كلنا، ولكن قال كنتم في خاصة أصحاب محمد،
ومن صنعهم مثل صنعهم كانوا خير أمة أخرجت للناس،
وفي لفظ عنه أنه قال يكون لأولنا، ولا يكون لآخرنا. وأخرج
ابن جرير، عن قتادة قال: نكر لنا أن عمر بن الخطاب قرأ
هذه الآية، ثم قال: يا أيها الناس من سره أن يكون من تلك
الأمة، فليؤد شرط الله منها. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر،
عن عكرمة في الآية قال: نزلت في ابن مسعود، وعمار بن
ياسر، وسالم مولى أبي حنيفة، وأبي بن كعب، ومعاذ بن
جبل. وأخرج البخاري، وغيره، عن أبي هريرة في الآية قال:
خير الناس للناس يأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى
يدخلوا في الإسلام. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد،
وأحمد، والترمذي وحسنه، وابن ماجه، وابن جرير، وابن
المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، عن
معاوية بن حيدة: أنه سمع النبي ﷺ يقول في الآية: إنكم
تتمون سبعين أمة أنتم خيرها، وأكرمها. وروى من حديث
معاذ، وأبي سعيد نحوه. وقد وردت أحاديث كثيرة في
الصحيحين، وغيرهما أنه يدخل من هذه الأمة الجنة سبعون
ألفاً بغير حساب، ولا عذاب، وهذا من فوائد كونها خير
الأمم. وأخرج ابن جرير عن الحسن: ﴿لن يضروكم إلا
أذى﴾ قال: تسمعون منهم كذباً على الله يدعونكم إلى
الضلالة. وأخرج أيضاً، عن ابن جريج قال: إشراكهم في
عزير، وعيسى، والصليب. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الحسن،
وقتادة: ﴿ضربت عليهم الذلة﴾ قالوا: يعطون الجزية عن يد

وهم صاغرون. وروى ابن المنذر، عن الضحاك نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس: **﴿إلا بحبل من الله وحبل من الناس﴾** قال: بعهد من الله، وعهد من الناس.

﴿لَيْسُوا سَوَاءً يَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّبِعُ اللَّهُ مَا يُفِيءُ اللَّهُ أَهْلَهُ أَتَلْوُونَ مَا يُتْلَىٰ فِي سُورَاتِ الْإِنْجِيلِ يُمْشُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يَكُونُ لَهُمْ جِثْمٌ عَلَيْهُم بِاللَّهِ أَلَيْسَ إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ كَانُوا فِي سَبِيلِهِمْ أُمَّةً قَائِمَةً يَلْعَنُ اللَّهُ تِلْكَ الْأُمَّةَ أَصْحَابُ الْأَنْبِيَاءِ فِيهَا خُلَافَةٌ﴾ مثل ما ينفقون في هذه الآية كمثل ربيع فيها مير أصابت حرّ قور ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون

قوله: **﴿ليسوا سواء﴾** أي: أهل الكتاب غير مستويين بل مختلفين، والجملة مستأنفة سبقت لبيان التفاوت بين أهل الكتاب. وقوله: **﴿أمة قائمة﴾** هو استئناف أيضاً يتضمن بيان الجهة التي تفاوتوا فيها من كون بعضهم أمة قائمة إلى قوله: **﴿من الصالحين﴾** قال الأخفش: التقدير من أهل الكتاب نو أمة، أي: نو طريقة حسنة وإنشد:

وهل يائمن نو أمة وهو طائع
وقيل في الكلام حذف، والتقدير: من أهل الكتاب أمة قائمة وأخرى غير قائمة، فترك الأخرى لكفاء بالاولى، كقول أبي ذؤيب:

عصيت إليها القلب إنني لأمرها طائع
أراد أرشد أم غي. قال الفراء: أمة رفع بسواء، والتقدير: ليس يستوى أمة من أهل الكتاب قائمة يتلون آيات الله، وأمة كافرة. قال النحاس: وهذا القول خطأ من جهات: أحدها أنه يرفع أمة بسواء، فلا يعود على اسم ليس شيء، ويرفع بما ليس جارياً على الفعل، ويضمر ما لا يحتاج إليه؛ لأنه قد تقدّم نكر الكافرة، فليس لإضمار هذا وجه. وقال أبو عبيدة: هذا مثل قولهم أكلوني البراغيث، وذهبوا أصحابك. قال النحاس: وهذا غلط؛ لأنه قد تقدّم نكرهم، وأكلوني البراغيث لم يتقدم لهم نكر. انتهى.

وعندي أن ما قاله الفراء قوي قويم، وحاصله أن معنى الآية: لا يستوى أمة من أهل الكتاب شأنها كذا، وأمة أخرى شأنها كذا، وليس تقدير هذا المحذوف من باب تقدير ما لا حاجة إليه، كما قال النحاس، فإن تقدّم نكر الكافرة لا يفيد مفاد تقدير نكرها هنا، وأما قوله: إنه لا يعود على اسم ليس شيء، فيردّه أن تقدير العائد شائع مشتهر عند أهل الفن، وأما قوله: ويرفع بما ليس جارياً على الفعل فغير مسلم. والقائمة: للمستقيمة العادلة، من قولهم: أقمّت العود فقام أي: استقام. وقوله: **﴿يتلون﴾** في محل رفع على أنه صفة ثانية لأمة، ويجوز أن يكون في محل نصب على الحال **﴿وأناء الليل﴾** ساعاته، وهو: منصوب على الظرفية. وقوله: **﴿وهم يسجدون﴾** ظاهره أن التلاوة كائنة منهم في حال السجود،

ولا يصح ذلك إذا كان المراد بهذه الأمة الموصوفة في الآية: هم من قد أسلم من أهل الكتاب؛ لأنه قد صرح عن النبي ﷺ النهي عن قراءة القرآن في السجود، فلا بد من تأويل هذا الظاهر بأن المراد بقوله: **﴿وهم يسجدون﴾** وهم يصلون، كما قاله الفراء، والزجاج، وإنما عبر بالسجود عن مجموع الصلاة، لما فيه من الخضوع، والتذلل. وظاهر هذا أنهم يتلون آيات الله في صلاتهم من غير تخصيص لتلك الصلاة بصلاة معينة، وقيل: المراد بها: الصلاة بين العشاءين، وقيل: صلاة الليل مطلقاً. وقوله: **﴿يؤمنون بالله﴾** صفة أخرى لأمة أي: يؤمنون بالله وكتبه ورسله، ورأس ذلك الإيمان بما جاء به محمد ﷺ. وقوله: **﴿ويؤمنون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾** صفتان أيضاً لأمة أي: أن هذا من شأنهم، وصفتهم. وظاهره يفيد أنهم يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر على العموم؛ وقيل: المراد بالأمر بالمعروف هنا: أمرهم باتباع النبي ﷺ، وبالنهي عن المنكر نهيمهم عن مخالفتهم. وقوله: **﴿ويسارعون في الخيرات﴾** من جملة الصفات أيضاً: أي يسارعون بها غير متثاقلين عن تأديتها لمعرفةهم بقدر ثوابها. وقوله: **﴿ولولئكَ من الصالحين﴾** أي من جملتهم، وقيل: من بمعنى مع أي: مع الصالحين، وهم الصحابة رضي الله عنهم، والظاهر أن المراد: كل صالح، والإشارة بقوله: **﴿ولولئكَ﴾** إلى الأمة الموصوفة بتلك الصفات. قوله: **﴿وما تفعلوا من خير﴾** أي: خير كان **﴿فلن تكفروه﴾** أي: لن تعدموا ثوابه، وعدها إلى المفعولين، وهو لا يتعدى إلا إلى واحد؛ لأنه ضمنه معنى الحرمان، كأنه قيل: فلن تحرموه، كما قاله صاحب الكشف. قرأ الأعمش، وابن وثاب، وحفص، وحمزة، والكسائي، وخلف بالياء التحتية في الفعلين، وهي قراءة ابن عباس، واختارها أبو عبيد. وقرأ الباقون بالمشناة من فوق فيهما، وكان أبو عمرو يرى القراءتين جميعاً. والمراد بالمعتقين كل من ثبت له صفة التقوى، وقيل: المراد من تقدّم نكره، وهم الأمة الموصوفة بتلك الصفة، ووضع الظاهر موضع المضمّر مدحاً لهم ورفعاً من شأنهم. وقوله: **﴿إن الذين كفروا﴾** قيل: هم بنو قريظة، والنضير. قال مقاتل: لما نكر تعالى مؤمني أهل الكتاب نكر كفارهم في هذه الآية. والظاهر أن المراد بذلك: كل من كفر بما يجب الإيمان به. ومعنى: **﴿لن تنفعني﴾** لن تنفع، وخص الأولاد؛ لأنهم أحبّ القرابة، وأرجاهم لدفع ما ينوبه. وقوله: **﴿مثل ما ينفقون﴾** بيان لعدم إغناء أموالهم التي كانوا يعولون عليها. والصّر: البرد الشديد، أصله من الصرير الذي هو: للصوت، فهو: صوت الريح الشديد. وقال الزجاج: صوت لهب النار التي في تلك الريح. ومعنى الآية: مثل نفقة الكافرين في بطلانها، وذهابها، وعدم منفعتها، كمثل زرع أصابه ريح ياردة، أو نار فأحرقت، أو أهلكته، فلم ينتفع أصحابه بشيء منه بعد أن كانوا على طمع من نفعه، وفائتته. وعلى هذا فلا بد من تقدير في جانب المشبه به، فيقال: كمثل زرع أصابته ريح فيها صر، أو مثل إهلاك ما ينفقون، كمثل إهلاك ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم **﴿وما ظلمهم الله﴾** أي:

وهم صاغرون. وروى ابن المنذر، عن الضحاك نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس: **﴿إلا بحبل من الله وحبل من الناس﴾** قال: بعهد من الله، وعهد من الناس.

قوله: **﴿ليسوا سواء﴾** أي: أهل الكتاب غير مستويين بل مختلفين، والجملة مستأنفة سبقت لبيان التفاوت بين أهل الكتاب. وقوله: **﴿أمة قائمة﴾** هو استئناف أيضاً يتضمن بيان الجهة التي تفاوتوا فيها من كون بعضهم أمة قائمة إلى قوله: **﴿من الصالحين﴾** قال الأخفش: التقدير من أهل الكتاب نو أمة، أي: نو طريقة حسنة وإنشد:

وهل يائمن نو أمة وهو طائع
وقيل في الكلام حذف، والتقدير: من أهل الكتاب أمة قائمة وأخرى غير قائمة، فترك الأخرى لكفاء بالاولى، كقول أبي ذؤيب:

عصيت إليها القلب إنني لأمرها طائع
أراد أرشد أم غي. قال الفراء: أمة رفع بسواء، والتقدير: ليس يستوى أمة من أهل الكتاب قائمة يتلون آيات الله، وأمة كافرة. قال النحاس: وهذا القول خطأ من جهات: أحدها أنه يرفع أمة بسواء، فلا يعود على اسم ليس شيء، ويرفع بما ليس جارياً على الفعل، ويضمر ما لا يحتاج إليه؛ لأنه قد تقدّم نكر الكافرة، فليس لإضمار هذا وجه. وقال أبو عبيدة: هذا مثل قولهم أكلوني البراغيث، وذهبوا أصحابك. قال النحاس: وهذا غلط؛ لأنه قد تقدّم نكرهم، وأكلوني البراغيث لم يتقدم لهم نكر. انتهى.

وعندي أن ما قاله الفراء قوي قويم، وحاصله أن معنى الآية: لا يستوى أمة من أهل الكتاب شأنها كذا، وأمة أخرى شأنها كذا، وليس تقدير هذا المحذوف من باب تقدير ما لا حاجة إليه، كما قال النحاس، فإن تقدّم نكر الكافرة لا يفيد مفاد تقدير نكرها هنا، وأما قوله: إنه لا يعود على اسم ليس شيء، فيردّه أن تقدير العائد شائع مشتهر عند أهل الفن، وأما قوله: ويرفع بما ليس جارياً على الفعل فغير مسلم. والقائمة: للمستقيمة العادلة، من قولهم: أقمّت العود فقام أي: استقام. وقوله: **﴿يتلون﴾** في محل رفع على أنه صفة ثانية لأمة، ويجوز أن يكون في محل نصب على الحال **﴿وأناء الليل﴾** ساعاته، وهو: منصوب على الظرفية. وقوله: **﴿وهم يسجدون﴾** ظاهره أن التلاوة كائنة منهم في حال السجود،

لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ مُقُولُونَ ﴿١٧﴾ هَآئِنتُمْ أُولَآءِ يُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لُفَّتُمْ قَالُوا مَا نَآءَا إِذَا خَلَا عَصَاكُمْ الْآنَآءِلَ مِنْ الْقَبْطِ قُلْ مُؤْمِنُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٨﴾ إِنْ تَسْتَكْثِرُوا مِنْهُمْ لَكُمْ حَبْلٌ مِمَّنْ يَمُوتُ بَيْنَ يَدَيْكُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرَّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾

البطانة مصدر يسمى به الواحد، والجمع، وبطانة الرجل: خاصته الذين يستبطنون أمره، وأصله البطن الذي هو: خلاف الظهر، ويطن فلان بفلان بطناً، وبطانة: إذا كان خاصاً به، ومنه قول الشاعر:

وهم خلصائي كلهم وبطانتني وهم عيبتني من نون كل قريب
قوله: ﴿مَنْ نُونَكُمْ﴾ أي: من سواكم قاله الفراء أي: من نون المسلمين، وهم الكفار، أي: بطانة كائنة من نونكم، ويجوز أن يتعلق بقوله: ﴿لَا تَتَخَذُوا﴾. وقوله: ﴿لَا يَلُونَكُمْ﴾ خبالاً في محل نصب صفة لبطانة، يقال لا لوك جهداً أي: لا أقصر. قال امرؤ القيس:

وما المرء ما دامت حشاشة نفسه بمرك أطراف الخطوب ولا آل
والمراد: لا يقصرون فيما فيه الفساد عليكم، وإنما عذّي إلى مفعولين لكونه مضمناً معنى المنع أي: لا يمنعونكم خبالاً، والخبال، والخبل: الفساد في الأفعال، والأبدان، والعقول. قال أوس:

ابني لبني لستم بيد إلا يد مخبولة العضد
أي: فاسدة العضد. قوله: ﴿وَنُوءَا مَا عَنَّتُمْ﴾ ما مصدريه، أي: ونُوءَا عنتكم، والعنت المشقة، وشدة الضرر، والجملة مستأنفة مؤكدة للنهي. قوله: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ﴾ هي: شدة البغض، كالضراء لشدة الضرر. والافواه جمع فم، والمعنى: أنها قد ظهرت البغضاء في كلامهم؛ لأنهم لما خامرهم من شدة البغض، والحسد أظهرت استنهم ما في صدورهم، فتركوا التقية، وصرحوا بالكذب. أما اليهود، فالامر في ذلك واضح. وأما المنافقون، فكان يظهر من فلتات استنهم ما يكشف عن خبث طويتهم. وهذه الجملة مستأنفة لبيان حالهم ﴿وَمَا تَخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ لأن فلتات اللسان أقل مما تجنه الصدور، بل تلك الفلتات بالنسبة إلى ما في الصدور قليلة جداً. ثم إنه سبحانه امتن عليهم ببيان الآيات الدالة على وجوب الإخلاص إن كانوا من أهل العقول المركزة لذلك البيان. قوله: ﴿هَآئِنتُمْ أُولَآءِ﴾ جملة مصدرة بحرف التنبيه، أي: أنتم أولاء الخاطئون في مولاتهم، ثم بين خطابهم بتلك الموالاة بهذه الجملة التنبيلية. فقال ﴿تَحْبُونَهُمْ وَلَا يَحْبُونَكُمْ﴾، وقيل: إن قوله: ﴿تَحْبُونَهُمْ﴾ خبر ثان لقوله أنتم، وقيل: إن أولاء موصول، وتحبونهم صلته أي: تحبونهم لما أظهروا لكم الإيمان، أو لما بينكم، وبينهم من القرابة: ﴿وَلَا يَحْبُونَكُمْ﴾ لما قد استحكم في صدورهم من الغيظ والحسد. قوله: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ أي: بجنس الكتاب جميعاً، ومحل الجملة للنصب على الحال، أي: لا يحبونكم، والحال أنكم مؤمنون بكتب الله سبحانه التي من

المنفقين من الكافرين ﴿وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالكفر المانع من قبول النفقة التي أنفقوها، وتقديم المفعول لرعاية الفواصل لا للتخصيص؛ لأن الكلام في الفعل باعتبار تعلقه بالفاعل لا بالمفعول.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن منده، وأبو نعيم في المعرفة، والبيهقي في الدلائل، وابن عساکر، عن ابن عباس قال: لما أسلم عبد الله بن سلام، وثعلبة بن سعيد، وأسيد بن سعيد، ومن أسلم من يهود معهم، فأمنوا، وصنقوا، ورغبوا في الإسلام، قالت أخبار يهود، وأهل الكفر منهم: ما آمن بمحمد، وتبعه إلا شرارنا، ولو كانوا خيارنا ما تركوا دين آبائهم، وذهبوا إلى غيره، فأنزل الله ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه: ﴿أَمَةٌ قَائِمَةٌ﴾ يقول: مهتدية قائمة على أمر الله لم تنزع عنه، ولم تتركه، كما تركه الآخرون، وضيعوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم قال: ﴿أَمَةٌ قَائِمَةٌ﴾ عائلة. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿أَنَاءَ اللَّيْلِ﴾ قال: جوف الليل. وأخرج ابن جرير، عن الربيع قال: ساءت الليل. وأخرج عبد بن حميد، والبخاري في تاريخه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن مسعود في قوله: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ قال: لا يستوى أهل الكتاب، وأمة محمد: ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ أَنَاءَ اللَّيْلِ﴾ قال: صلاة العتمة هم: يصلونها، ومن سواهم من أهل الكتاب لا يصلونها. وأخرج أحمد، والنسائي، والبخاري، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني. قال السيوطي بسند حسن، عن ابن مسعود قال: «آخر رسول الله ﷺ صلاة العشاء ليلة، ثم خرج إلى المسجد، فإذا الناس ينتظرون الصلاة، فقال: لما إنه ليس من أهل هذه الأديان أحد ينكر الله هذه الساعة غيركم، ولفظ ابن جرير، والطبراني فقال: إنه لا يصلي هذه الصلاة أحد من أهل الكتاب. قال: وإنزلت هذه الآية: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن منصور قال: بلغني أنها نزلت هذه الآية: ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ أَنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ فيما بين المغرب، والعشاء. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة ﴿فَلَنْ تَكْفُرُوهُ﴾ قال: لن يضل عنكم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الحسن ﴿فَلَنْ تَكْفُرُوهُ﴾ قال: لن تظلموه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي في الآية يقول: ﴿مِثْلُ مَا يَنْفِقُونَ﴾ أي: المشركون، ولا يتقبل منهم، كمثل هذا الزرع إذا زرع القوم الظالمون، فإصابه ريح فيها صر، فأهلكته، فكذلك أنفقوا، فأهلكهم شركهم. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس ﴿فِيهَا صَرْ﴾ قال: برد شديد.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خِيَاكَةً وَدُوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِّنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا

والخير ﴿تَسْؤُهُمْ وَإِنْ تَصْبِحُمْ سَيِّئَةً﴾ يعني القتل، والهزيمة، والجهد.

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدًا لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٤١﴾ إِذْ مَكَتَ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَ وَاللَّهُ وَلِيُّنَا وَعَلَى اللَّهِ قَلْبُكَ يَا أَيُّهَا الْمُرْسَلُ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ ﴿١٤٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آفَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزِيلِينَ ﴿١٤٤﴾ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَأَوَّلُكُمْ مِنْ قَوْمِهِمْ هَذَا يُمِدُّكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٤٥﴾ وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بَشْرًا لَكُمْ وَلَظْمَيْنَ فُلُوكُمْ بِهِ وَمَا أَتَمَّرَ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٤٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَسِبَ غُلَامًا يَتَّبِعُوا آلَاءَهُمْ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤٧﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٨﴾

العامل في «إذ» فعل محذوف، أي: وانكر إذ غوت من منزل أهلك، أي: من المنزل الذي فيه أهلك. وقد ذهب الجمهور إلى أن هذه الآية نزلت في غزوة أحد، وقال الحسن: في يوم بدر. وقال مجاهد، ومقاتل، والكلبي: في غزوة الخندق. قوله: ﴿تُبَوِّئُ﴾ أي: تتخذ لهم مقاعد للقتال، وأصل التبوء اتخاذ اتخاذ المنزل، يقال بوائه منزلاً: إذا أسكنته إياه، والفعل في محل نصب على الحال. ومعنى الآية: وانكر إذ خرجت من منزل أهلك تتخذ للمؤمنين مقاعد للقتال، أي: أماكن يقعون فيها، وعبر عن الخروج بالغدو الذي هو: الخروج غدوة مع كونه ﷺ خرج بعد صلاة الجمعة، كما سيأتي؛ لأنه قد يعبر بالغدو، والرواح، عن الخروج، والدخول من غير اعتبار أصل معانها، كما يقال، أضصى، وإن لم يكن في وقت الضحى. قوله: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَ﴾ هو: يدل من إذ غوت، أو متعلق بقوله تبوئ، أو بقوله سمع عليم، والطائفتان بنو سلمة من الخرج، وبنو حارثة من الأوس، وكلنا جناحي العسكر يوم أحد، والفشل الجبن، والهَمُّ من الطائفتين كان بعد الخروج، لما رجع عبد الله بن أبي بن معن مع من المنافقين، فحفظ الله قلوب المؤمنين، فلم يرجعوا، وذلك قوله: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّنَا﴾. قوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ جملة مستأنفة سبقت لتصبيرهم بتذكير ما يترتب على الصبر من النصر. وبدر اسم لواء كان في موضع الوقعة، وقيل: هو اسم الموضع نفسه، وسيأتي سياق قصة بدر في الأنفال إن شاء الله. وأتلة جمع قلة، ومعناه: أنهم كانوا بسبب قتلهم أتلة، وهو: جمع ليل استعير لليلة، إذ لم يكونوا في أنفسهم أتلة، بل كانوا أعزة. والنصر: العون. وقد شرح أهل التواريخ، والسير غزوة بدر، وأحد باتم شرح، فلا حاجة لنا في سياق ذلك هاهنا. قوله: ﴿إِذْ تَقُولُ﴾ متعلق بقوله: ﴿نَصَرَكُمُ﴾ والهمزة في قوله: ﴿إِنْ يَكْفِيَكُمْ﴾ للإنكار منه ﷺ عليهم عدم اكتفائهم بذلك المدد من الملائكة، ومعنى الكفاية سد الخلة، والقيام بالأمر، والإمداد في الأصل: إعطاء الشيء حالاً بعد

جملتها كتابهم، فما بالكم تحبونهم، وهم لا يؤمنون بكتابكم. وفيه توبيخ لهم شديد، لأن من بيده الحق أحق بالصلاة، والشدة ممن هو على الباطل ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا﴾ نفاقاً وتقية ﴿وَإِذَا خَلَوْا عَضُوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ تأسفاً، وتحسراً، حيث عجزوا عن الانتقام منكم، والعرب تصف المغتاط، والنادم يعض الأنامل واللبان، ثم أمره الله سبحانه بأن يدعو عليهم، فقال: ﴿قُلْ مَوْتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ وهو يتضمن استمرار غيظهم ما داموا في الحياة حتى يأتيتهم الموت، وهم عليه، ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ فهو يعلم ما في صدوركم، وصدورهم، والمراد بذات الصدور: الخواطر القائمة بها، وهو كلام داخل تحت قوله: ﴿قُلْ﴾ فهو من جملة المقول. قوله: ﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسْؤُهُمْ﴾ هذه الجملة مستأنفة لبيان تنامي عداوتهم، وحسنة، وسيئة يعمان كل ما يحسن، وما يسوء. وعبر بالمس في الحسنة، وبالإصابة في السيئة، للدلالة على أن مجرد مس الحسنة يحصل به المساة، ولا يفرحون إلا بإصابة السيئة، وقيل: إن المس مستعار لمعنى الإصابة. ومعنى الآية: أن من كانت هذه حاله لم يكن أهلاً؛ لأن يتخذ بطانة ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا﴾ على عداوتهم، أو على التكاليف الشاقة ﴿وَتَتَّقُوا﴾ موالاتهم، أو ما حرّمه الله عليكم ﴿يُضِرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾، يقال ضارّه يضره، ويضيره ضيراً، وضيراً: بمعنى ضرّه يضره، وبه قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو. وقرأ الكوفيون، وابن عامر لا يضركم بضم الراء، وتشديدها من ضرّ يضر، فهو على القراءة الأولى مجزوم على أنه جواب الشرط، وعلى القراءة الثانية مرفوع على تقدير إضمار الفاء، كما في قول الشاعر:

من يفعل الحسنات الله يشكرها

قاله الكسائي، والفاء، وقال سيوبه: إنه مرفوع على نية التقديم، أي: لا يضرركم أن تصبروا. وحكى أبو زيد عن المفضل عن عاصم «لا يضرركم» بفتح الراء، وشيئاً صفة مصدر محذوف.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: كان رجال من المسلمين يواصلون رجالاً من يهود لما كان بينهم من الجوار، والحنف في الجاهلية، فأنزل الله فيهم ينهائهم، عن مبايحتهم لخوف الفتنة عليهم منهم «يا فيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة» الآية. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه قال: هم المنافقون. وأخرج عبد بن حميد، عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، عن أبي أمامة، عن رسول الله ﷺ قال: هم الخوارج. قال السيوطي، وسنده جيد. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ أي: بكتابكم وبكتابهم، وبما مضى من الكتب قبل ذلك، وهم يكفرون بكتابكم، فأنتم أحق باليغضاء، لهم منهم لكم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مقاتل ﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ﴾ يعني: النصر على العدو، والرزق،

يسألون» [الأنبياء: 23] وفي قوله: «والله غفور رحيم» إشارة إلى أن رحمته سبقت غضبه، وتبشير لعباده بأنه المتصف بالمغفرة، والرحمة على وجه المبالغة، وما أوقع هذا التنزيل الجليل وأحبه إلى قلوب العارفين بأسرار التنزيل.

وقد أخرج ابن إسحاق، والبيهقي في الدلائل عن ابن شهاب، وعاصم بن عمر بن قتادة، ومحمد بن يحيى بن حبان، والحسين بن عبد الرحمن بن أسعد بن معاذ قالوا: كان يوم أحد يوم بلاء، وتمحيص، اختبر الله به المؤمنين، ومحق به المنافقين ممن كان يظهر الإسلام بلسانه، وهو مستخف بالكفر، ويوم أكرم الله فيه من أراد كرامته بالشهادة من أهل ولايته. وكان مما نزل من القرآن في يوم أحد ستون آية من آل عمران فيها صفة ما كان في يومه ذلك، ومعاتبه من عاتب منهم، يقول الله لنبيه: «وَإِذْ غَدَوْتُ مِنْ أهلك» الآية. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس «وَإِذْ غَدَوْتُ مِنْ أهلك» الآية قال: يوم أحد. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير في قوله: «تَبَوَّأُ الْمُؤْمِنِينَ» قال: توطن. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن الحسن الآفة في يوم الأحزاب. وقد ورد في كتب السير، والتاريخ كيفية الاختلاف في المشورة على النبي ﷺ في يوم أحد، فمن قائل نخرج إليهم، ومن قائل نبقي في المدينة، فخرج، وكان من جملة المشيرين عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين، كان رأيه البقاء في المدينة، والمقاتلة فيها، ثم لما خولف في رأيه انخرل بمن معه من المنافقين، وهم قدر الثلث من القوم الذين خرج بهم النبي ﷺ. وأخرج البخاري، ومسلم وغيرهما عن جابر قال: فبينا نزلت في بني حارثة، وبني سلمة: «إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا» وما يسرني أنها لم تنزل لقوله: «والله وليهما». وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة في قوله: «إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ» قال: ذلك يوم أحد. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس قال: هم بنو حارثة، وبنو سلمة. وأخرج عبد بن حميد، عن مجاهد «وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ» إلى «ثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ» في قصة بدر. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن الحسن في قوله: «وَأَنْتُمْ أَكْثَرُ» يقول: وأنتم قليل، وهم يومئذ بضعة عشر وثلاثمائة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الشعبي: أن المسلمين بلغهم يوم بدر أن كرز بن جابر المحاربي يمد المشركين فشق ذلك عليهم، فانزل الله: «وَالَّذِينَ يَكْفِيكُمُ أَنْ يَمُنَّكُمْ بِرَبِّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ» إلى قوله: «مُسَوِّمِينَ» قال: فبلغت كرزاً، فلم يمد المشركين، ولم يمد المسلمين بالخمسة. وأخرج ابن جرير عن الشعبي لما كان يوم بدر بلغ رسول الله ﷺ، ثم نكر نحوه إلا أنه قال: «وَيَلْتَوَكَّمُ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا» يعني كرزاً، وأصحابه «يَمْدُدْكُمْ بِرَبِّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ» فبلغ كرزاً، وأصحابه الهزيمة، فلم يمدهم، ولم ينزل الخمسة، وأموا بعد ذلك

حال، والمجيء بلن لتأكيد النفي، وأصل الفور: القصد إلى الشيء، والاختذ فيه بجد، وهو: من قولهم فارت القدر تفور فوراً، وفوراناً. إذا غلت، والفور: الغليان، وفار غضبه: إذا جاش، وفعله من فوره أي: قبل أن يسكن، والفؤارة ما يفور من القدر، استعير للسرعة، أي: إن يأتوك من ساعتهم هذه يمددكم ربكم بالملائكة في حال إتيانهم لا يتأخر عن ذلك. قوله: «مُسَوِّمِينَ» بفتح الواو اسم مفعول، وهي: قراءة ابن عامر، وحمزة، والكسائي، ونافع أي: معلمين بعلامات. وقراء أبو عمرو، وابن كثير، وعاصم «مُسَوِّمِينَ» بكسر الواو اسم فاعل، أي: معلمين أنفسهم بعلامات. ورجح ابن جرير هذه القراءة، والتسويم إظهار سيما الشيء. قال كثير من المفسرين: «مُسَوِّمِينَ» أي: مرسلين خيلهم في الغارة، وقيل: إن الملائكة اعتمدت بعمائم بيض، وقيل: حمر، وقيل: خضر، وقيل: صفر، فهذه هي العلامة التي علموا بها أنفسهم حكى ذلك عن الزجاج، وقيل: كانوا على خيل بلق، وقيل: غير ذلك. قوله: «وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ» كلام مبتدأ غير داخل في مقول القول، والضمير في قوله: (جعله للإمداد المنلول عليه بالفعل، أو للتسويم، أو للإنزال، ورجح الأول الزجاج، وصاحب الكشف. وقوله: «وَمَا إِلَّا بُشْرَى» استثناء مفرغ من أعم العام، والبشرى اسم من البشارة، أي: إلا لتبشروا بأنكم تنصرون، ولتطمئن قلوبكم به، أي: بالإمداد، واللام لام كي، جعل الله ذلك الإمداد بشرى بالنصر، وطمأنينة للقلوب، وفي قصر الإمداد عليهما إشارة إلى عدم مباشرة الملائكة للقتال يومئذ «وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ» لا من عند غيره، فلا تنفع كثرة المقاتلة، ووجود العدة. قوله: «لَيَقْطَعَنَّ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا» متعلق بقوله: «وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ» وقيل: متعلق بقوله: «وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ» وقيل: متعلق بقوله: «يَمْدُدْكُمْ» والطرف الطائفة، والمعنى: نصركم الله ببدر ليقطع طائفة من الكفار، وهم: الذين قتلوا يوم بدر، أو وما النصر إلا من عند الله ليقطع تلك الطائفة، أو يمددكم ليقطع. ومعنى يكتبهم يحزنهم، والمكبوت المحزون. وقال بعض أهل اللغة: معناه يكيدهم، أي: يصيبهم بالحزن، والغيب في أكبادهم، وهو غير صحيح، فإن معنى كتب كبت أحزن، وأغلظ، وأذل، ومعنى كبد أصاب الكبد «فَيَنْقَلِبُوا خَاطِبِينَ» أي: غير ظافرين بمطلبهم. قوله: «لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ» جملة اعتراضية بين المعطوف، والمعطوف عليه، أي: أن الله مالك أمرهم يصنع بهم ما يشاء من الإهلاك، أو الهزيمة، أو التوبة إن أسلموا، أو العذاب، فقوله: «أَوْ يَتُوبُ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ» عطف على قوله، أو يكتبهم، وقال الفراء: إِنَّ أَوْ بمعنى إلا أن، بمعنى ليس لك من الأمر شيء إلا أن يتوب عليهم، فتفرح بذلك، أو يعذبهم فتشفي بهم. قوله: «وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» كلام مستأنف لبيان سعة ملكه «يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ» أن يغفر له: «وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ» أن يعذبه يفعل في ملكه ما يشاء، ويحكم ما يريد «لَا يَسْتَلْ عَمَّا يُفَعِّلُ» وهم

ومسلم، وغيرهما أيضاً من حديث أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد أن يدعو على أحد، أو يدعو لأحد قنت بعد الركوع: اللهم أنج الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة، والمستضعفين من المؤمنين، اللهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف، يجره بذلك. وكان يقول في بعض صلاته في صلاة الفجر: اللهم العن فلاناً، وفلاناً لأحياء من لحياء العرب حتى أنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ وفي لفظ: اللهم العن لحيان، ورعلا، ونكوان، وعصية عصت الله ورسوله، ثم بلغنا أنه ترك ذلك لما نزل قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ الآية.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ الَّتِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ الْبَاطِلِ ۚ وَأَقْرَبُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ۖ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٣﴾ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٥٤﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ فِي سَرَائِهِمُ الصَّلَاةَ وَالزَّكَاةَ وَالْكُفَّةَ وَالْمَغْفِرَةَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٥٥﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمِن يَتَذَكَّرِ اللَّهَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَتَمَّ يُعْمَلُ عَلَيْهِ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَكْمُلُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ جَزَاءُ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّتْ بُحْرَىٰ مِّن تَحْتِهَا الْآبَتْهُرُ خَالِدِينَ فِيهَا وَفِيهَا أَعْمَالُ الْعَمِلِينَ ﴿١٥٧﴾

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قيل: هو كلام مبتدأ للترهيب، والترغيب فيما نكر؛ وقيل: هو اعتراض بين أثناء قصة أحد. وقوله: ﴿أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ ليس لتقيد النهي لما هو معلوم من تحريم الربا على كل حال، ولكنه جاء به باعتبار ما كانوا عليه من العادة التي يعتادونها في الربا، فإنهم كانوا يربون إلى أجل، فإذا حل الأجل زالوا في المال مقدراً يتراضون عليه، ثم يزينون في أجل الدين، فكانوا يفعلون ذلك مرة بعد مرة حتى يآخذوا العربي أضغاف بيته الذي كان له في الابتداء؛ وأضعافاً حال، ومضاعفة نعت له، وفيه إشارة إلى تكرار التضعيف عاماً بعد عام، والمبالغة في هذه العبارة تفيد تأكيد التوبيخ. قوله: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ فيه الإرشاد إلى تجنب ما يفعله الكفار في معاملاتهم. قال كثير من المفسرين: وفيه أنه يكفر من استحل الربا، وقيل: معناه: اتقوا الربا الذي ينزع منكم الإيمان، فتستوجبون النار، وإنما خص الربا في هذه الآية؛ لأنه الذي توعده الله عليه بالحرب منه لفاعله. وقوله: ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ حذف المتعلق مشعر بالتعميم، أي: في كل أمر، ونهي ﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾ أي: راجين الرحمة من الله عز وجل. وقوله: ﴿وَسَارِعُوا﴾ عطف على اطيعوا، وقرأ نافع، وابن عامر ﴿سَارِعُوا﴾ بغير واو، وكذلك في مصاحف أهل المدينة، وأهل الشام، وقرأ الباقيون بالواو. قال أبو علي: كلا الأمرين سائغ مستقيم، والمسارة: العبادة، وفي الآية حذف، أي: سارعوا إلى ما يوجب

بالف، فهم أربعة آلاف. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة في الآية قال: أمثروا بالف، ثم صاروا ثلاثة آلاف، ثم صاروا خمسة آلاف، وذلك يوم بدر. وأخرج ابن جرير، عن عكرمة في قوله: ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾ الآية، قال: هذا يوم أحد، فلم يصبروا، ولم يتقوا، فلم يمتوا يوم أحد، ولو أمثروا لم ينهزموا يومئذ. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن الضحاك نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَيُلَاقِيكُمْ مِنْ قُدُورِهِمْ هَذَا﴾ يقول: من سفرهم هذا. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن عكرمة من قُدُورِهِمْ قال: من وجههم. وأخرج ابن جرير عن الحسن، والربيع، وقاتدة، والسدي مثله، وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد من قُدُورِهِمْ قال: من غضبهم. وأخرجنا عن أبي صالح مولى أم هانئ مثله. وأخرج الطبراني، وابن مريويه بسند ضعيف عن ابن عباس. قال: قال رسول الله ﷺ في قوله: ﴿مُسْؤِمِينَ﴾ قال: معلمين، وكانت سيما الملائكة يوم بدر عمائم سوداء، ويوم أحد عمائم حمراء. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه عن عبد الله بن الزبير: أن الزبير كان عليه يوم بدر عمامة صفراء معتجراً بها، فنزلت الملائكة عليهم عمائم صفراء. وأخرج ابن إسحاق، والطبراني عن ابن عباس قال: كانت سيما الملائكة يوم بدر عمائم بيضاء قد أرسلوها في ظهورهم، ويوم حنين عمائم حمراء، ولم تضرب الملائكة في يوم سوى يوم بدر، وكانوا يكونون عدداً، ومبدأ لا يضرئون. وفي بيان التسويم عن السلف اختلاف كثير لا يتعلق به كثير فائدة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿يُلَاقِيكُمْ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال قطع الله يوم بدر طرفاً من الكفار، وقتل صناديدهم، ورؤوسهم، وقانتهم في الشر. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم في قوله: ﴿يُلَاقِيكُمْ طَرَفًا﴾ قال: هذا يوم بدر قطع الله طائفة منهم، وبقيت طائفة. وأخرج ابن جرير، عن السدي قال: نكر الله قتل المشركين بأحد، وكانوا ثمانية عشر رجلاً، فقال: ﴿يُلَاقِيكُمْ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ثم نكر الله الشهداء، فقال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾ [آل عمران: 169]. وأخرج ابن المنذر عن مجاهد في قوله: ﴿لَوْ يَكْتُفُهُمْ﴾ قال: يحزنهم. وأخرج ابن جرير، عن قتادة، والربيع مثله. وأخرج البخاري، ومسلم وغيرهما عن أنس: أن النبي ﷺ كسرت رباعيته يوم أحد، وشج في وجهه حتى سال الدم، فقال: كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم، وهو يدعوهم إلى ربهم؟ فانزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ الآية. وقد روى هذا المعنى في روايات كثيرة. وأخرج البخاري، ومسلم وغيرهما، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ يوم أحد «اللهم العن أبا سفيان، اللهم العن الحارث بن هشام، اللهم العن سهيل بن عمرو، اللهم العن صفوان بن أمية، فنزلت هذه الآية: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾». وأخرج البخاري،

فعلهم. وقد تقدّم تفسير الإصرار. والمراد به هنا: العزم على معاودة الذنب، وعدم الإقلاع عنه بالتوبة منه. وقوله: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ جملة حالية، أي: لم يصروا على فعلهم عالمين بقبحه. قوله: ﴿أُولَئِكَ جِزَاؤُهُمْ﴾ الإشارة إلى المنكوبين بقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾. وقوله: ﴿جِزَاؤُهُمْ﴾ بدل اشتمال من اسم الإشارة. وقوله: ﴿مَغْفِرَةٌ﴾ خبر ﴿وَمَنْ رَبِّهِمْ﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة لمغفرة، أي: كائنة من ربهم. وقوله: ﴿وَنَعَم لِّجْرِ الْعَامِلِينَ﴾ المخصوص بالمدح محذوف، أي: أجرهم، أو تلك المنكوب. وقد تقدّم تفسير الجنات، وكيفية جرى الأنهار من تحتها.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، قال: كانوا يتبايعون إلى الأجل، فإذا جاء الأجل زالوا عليهم، وزالوا في الأجل، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَهُمْ مَضَاعِفًا﴾. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن عطاء قال: كانت ثقيف تدين بني المغيرة في الجاهلية، ونكر نحوه. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن معاوية بن قرة قال: كان الناس يتأولون هذه الآية: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ اتقوا لا أعنيكم بذنوبكم في النار التي أعدتها للكافرين. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن عطاء بن أبي رباح قال: قال المسلمون: يا رسول الله ابنو إسرائيل كانوا أكرم على الله منا؟ كانوا إذا أنذب أحدهم ذنباً أصبح كفارة ذنبه مكتوبة في عتبة بابه أجدع لثفك أجدع أنذك أفعل كذا وكذا، فسكت النبي ﷺ، فنزلت: ﴿وَسَارِعُوا﴾ الآية. وأخرج ابن المنذر، عن أنس بن مالك في تفسير: ﴿وَسَارِعُوا﴾ قال: التكبير الأولى. وأخرج ابن جرير من طريق السدي عن ابن عباس في قوله: ﴿عَرَضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ مثل ما ذكرناه سابقاً عن الجمهور. وأخرج نحوه عنه سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق كريب. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿الَّذِينَ يَنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ يقول: في اليسر والعسر ﴿وَالكَافِلِينَ الْغَيْظَ﴾ يقول: كاضمين على الغيظ. وقد وردت أحاديث كثيرة. في ثواب من كظم الغيظ. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن النخعي في الآية: قال: للظلم من الفاحشة، والفاحشة من الظلم. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والطبراني، وابن أبي الدنيا، وابن المنذر، والبيهقي عن ابن مسعود قال: إن في كتاب الله لأيتين ما أنذب عبد ذنباً، ففراهما، فاستغفر الله إلا غفر له ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾ الآية. وقوله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا﴾ أو يظلم نفسه ﴿[النساء: 110]﴾. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، عن ثابت البناني قال: بلغني أن إبليس حين نزلت هذه الآية بكى ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾ الآية. وأخرج الحكيم الترمذي عن عطاء بن خالد قال: بلغني أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْفِرَ الذَّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ ولم

المغفرة من الطاعات. وقوله: ﴿عَرَضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ أي: عرضها، كعرض السموات والأرض، ومثله الآية الأخرى ﴿عَرَضُهَا كَعَرَضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: 21] وقد اختلف في معنى ذلك، فذهب الجمهور إلى أنها تقرن السموات، والأرض بعضها إلى بعض، كما تبسط اللثياب، ويوصل بعضها ببعض، فذلك عرض الجنة، ونبه بالعرض على الطول؛ لأن الغالب أن الطول يكون أكثر من العرض، وقيل: إن هذا الكلام جاء على نهج كلام العرب من الاستعارة بون الحقيقة، وذلك أنها ما كانت الجنة من الاتساع، والانفساح في غاية قصوى، حسن التعبير عنها بعرض السموات، والأرض مبالغة؛ لأنهما أوسع مخلوقات الله سبحانه فيما يعلمه عباده، ولم يقصد بذلك التحديد. والسراء: اليسر، والضراء: العسر. وقد تقدّم تفسيرهما، وقيل السراء: الرخاء، والضراء: الشدة، وهو مثل الأول، وقيل: السراء في الحياة، والضراء بعد الموت. قوله: ﴿وَالكَافِلِينَ الْغَيْظَ﴾ يقال: كظم غيظه أي: سكت عليه، ولم يظهره، ومنه كظمت السقاء أي: ملأته. والكظامة: ما يسد به مجرى الماء، وكظم البعير جريته: إذا ردّها في جوفه، وهو عطف على الموصول الذي قبله. قوله: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ أي: التاركين عقوبة من أذنّب إليهم، واستحق المؤاخظة، وذلك من أجل ضروب الخير. وظاهره العفو عن الناس سواء كانوا من المماليك أم لا. وقال الزجاج وغيره: المراد بهم المماليك، واللام في المحسنين يجوز أن تكون للجنس، فيدخل فيه كل محسن من هؤلاء، وغيرهم، ويجوز أن تكون للعهد، فيختص بهؤلاء. والأول أولى اعتباراً بعموم اللفظ لا بخصوص السياق، فيدخل تحته كل من صدر منه مسمى الإحسان، أي: إحسان كل. قوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾ هذا مبتدأ، وخبره ﴿أُولَئِكَ﴾ وقيل: معطوف على المتقين. والأول أولى، وهؤلاء هم: صنف بون الصنف الأول ملحقين بهم، وهم التوابون، وسيأتي ذكر سبب نزولها، والفاحشة وصف لموصوف محذوف، أي: فعلة فاحشة، وهي تطلق على كل معصية. وقد كثر اختصاصها بالزنا. وقوله: ﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أي: باقتراف ذنب من الذنوب، وقيل: أو بمعنى الواو. والمراد ما ذكر، وقيل: الفاحشة الكبيرة، وظلم النفس الصغيرة؛ وقيل غير ذلك. قوله: ﴿نُكِرُوا اللَّهَ﴾ أي: بالنسبتهم، أو أخطروهم في قلوبهم، أو نكروا وعده، ووعيده ﴿فَاسْتَغْفِرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: طلبوا المغفرة لها من الله سبحانه، وتفسيره بالتوبة خلاف معناه لغة، وفي الاستفهام بقوله: ﴿وَمَنْ يَغْفِرَ الذَّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ من الإنكار مع ما يتضمنه من الدلالة على أنه المختص بذلك سبحانه بون غيره، أي: لا يغفر جنس الذنوب أحد إلا الله، وفيه ترغيب لطلب المغفرة منه سبحانه، وتنشيط للمنتهين أن يقفوا في مواقف الخضوع، والتنلل، وهذه الجملة اعتراضية بين المعطوف، والمعطوف عليه. وقوله: ﴿وَلَمْ يَصْرُوا عَلَى مَا فَعَلُوا﴾ عطف على فاستغفروا، أي: لم يقيموا على قبيح

بأبقي القصة. والمراد بالسنة: ما سنّه الله في الأمم من وقائعها، أي: قد خلت من قبل زمانكم وقائع سنّها الله في الأمم المكذبة، وأصل السنن جمع سنة: وهي الطريقة المستقيمة، ومنه قول الهذلي:

فلا تجزعن من سنة أنت سرتها فإل راض سنة من يسيرها والسنة: الإمام المتبع المؤتم به، ومنه قول لبيد:

من معشر سنت لهم أبولهم ولكل قوم سنة وإمام

والسنة: الأمة، والسنة: الأمم، قاله المفضل الضبي. وقال الزجاج: المعنى في الآية أهل سنن، فحذف المضاف، والفاء في قوله: ﴿فسيروا﴾ سببية؛ وقيل: شرطية، أي: إن شككتم، فسيروا. والعاقبة: آخر الأمر، والمعنى: سيروا، فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين، فإنهم خالفوا رسولهم بالحرص على الدنيا، ثم انقضوا، فلم يبق من دنياهم التي أتروها أثر. هذا قول أكثر المفسرين. والمطلوب من هذا السير المأمور به هو: حصول المعرفة بذلك، فإن حصلت بدونه، فقد حصل المقصود، وإن كان لمشاهدة الآثار زيادة غير حاصلة لمن لم يشاهدها، والإشارة بقوله: ﴿هذا﴾ إلى قوله: ﴿قد خلت﴾ وقال الحسن إلى القرآن: ﴿بيان للناس﴾ أي: تبين لهم، وتعريف الناس للعهد، وهم المكذبون، أو للجنس، أي: للمكذبين، وغيرهم. وفيه حث على النظر في سوء عاقبة المكذبين، وما انتهى إليه أمرهم. قوله: ﴿وهدى وموعظة﴾ أي: هذا النظر مع كونه بياناً فيه هدى، وموعظة للمتقين من المؤمنين، فعطف الهدى، والموعظة على البيان يدل على التغاير، ولو باعتبار المتعلق، وبيانه أن اللام في الناس إن كانت للعهد، فالبيان للمكذبين، والهدى، والموعظة للمؤمنين، وإن كانت للجنس، فالبيان لجميع الناس مؤمنهم، وكافرهم، والهدى، والموعظة للمتقين وحدهم. قوله: ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا﴾ عزاهم، وسلاهم بما نالهم يوم أحد من القتل، والجراح، وحشهم على قتال عيولهم، ونهاهم عن العجز، والفشل، ثم بين لهم أنهم الأعلون على عيولهم بالنصر والظفر، وهي جملة حالية، أي: والحال أنكم الأعلون عليهم، وعلى غيرهم بعد هذه الواقعة. وقد صدق الله وعده، فإن النبي ﷺ بعد واقعة أحد ظفر بعولهم في جميع وقعاته؛ وقيل: المعنى: وأنتم الأعلون عليهم بما أصبتم منهم في يوم بدر، فإنه أكثر مما أصابوا منكم اليوم. وقوله: ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ متعلق بقوله: ﴿ولا تهنوا﴾ وما بعده، أو بقوله: ﴿وانتم الأعلون﴾ أي: إن كنتم مؤمنين، فلا تهنوا، ولا تحزنوا، أو إن كنتم مؤمنين، فانتهم الأعلون. والقرح بالضم، والفتح: الجرح، وهما لغتان فيه، قاله الكسائي، والآخرش. وقال الفراء: هو: بالفتح الجرح، وبالضم ألمه. وقرأ محمد بن السميع: ﴿قرح﴾ بفتح القاف، والراء على المصدر. والمعنى في الآية: إن نالوا منكم يوم أحد، فقد نلتهم منهم يوم بدر، فلا تهنوا لما أصابكم في هذا اليوم، فإنهم لم يهنوا لما أصابهم في ذلك اليوم، وأنتم أولى بالصبر منهم؛ وقيل: إن المراد بما أصاب المؤمنين والكافرين في هذا اليوم، فإن المسلمين

يصرّوا على ما فعلوا، صاح إبليس بجنوده، وحثا على رأسه التراب، ودعا بالويل، والثبور حتى جاءت جنوده من كل بر، وبحر، فقالوا: مالك يا سيدنا؟ قال: آية نزلت في كتاب الله لا يضرّ بعدها أحداً من بني آدم نذب، قالوا: وما هي؟ فآخبرهم، قالوا: نفتح لهم باب الأمواء، فلا يتوبون، ولا يستغفرون، ولا يرون إلا أنهم على الحق، فرضى منهم بذلك. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، والحميدي، وعبد بن حميد، وأهل السنن الأربع، وحسنه النسائي، وابن حبان، والدارقطني في الأفراد، والبخاري، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن السنن، والبيهقي في الشعب، والضياء في المختارة عن أبي بكر الصديق سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من رجل يذنب ذنباً، ثم يقوم عند ذكر ذنبه فيطهر، ثم يصلي ركعتين، ثم يستغفر الله من ذنبه ذلك إلا غفر الله له، ثم قرأ هذه الآية: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة﴾ الآية. وأخرج البيهقي في الشعب، عن الحسن مرفوعاً نحوه، ولكنه قال: ثم خرج إلى براز من الأرض فصلى. وأخرج عبد بن حميد، وأبو داود، والترمذي، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الشعب، عن أبي بكر الصديق قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أصرّ من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة». وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي في قوله: ﴿ولم يصرّوا﴾ فيسكتون، ولا يستغفرون. وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل: ﴿ونعم لجر للعاملين﴾ قال: أجر العاملين بطاعة الله الجنة.

قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿١٣١﴾ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٢﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنْ يَسْتَكْبِرْ فَجُحَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَجُحَدْ وَتِلْكَ الْآيَاتُ نَذَارٌ لِّأُولَئِكَ الَّذِينَ لَا يُحِبُّونَ اللَّهَ وَلَئِنَّ اللَّهَ لَئِذَا أَمَرَأَ بِشَيْءٍ لَّيَخَذْ مِنْكُمْ شَرْهَهُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٣٤﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِشَيْءٍ لَّيَكْفُرَنَّ بِهِمْ وَيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِشَيْءٍ لَّيَكْفُرَنَّ بِهِمْ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْوَيْلَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُمْ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿١٣٥﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٣٦﴾ كَانَ لَيْسَ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كُنْزٌ مُؤْتًى وَمَنْ يَرِدْ ثَوَابُ الدُّنْيَا نُؤُوهُ مِنْهَا وَمَنْ يَرِدْ ثَوَابُ الْآخِرَةِ نُؤُوهُ مِنْهَا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٣٧﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَجْوَى قَتَلَ مَعَهُ يَرْيُوءُ كَثِيرٌ مِمَّا وَهَبُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَاثُوا وَاللَّهُ يَجِبُ الصَّابِرِينَ ﴿١٣٨﴾ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٣٩﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُجِبُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٠﴾

قوله: ﴿قد خلت من قبلكم سنن﴾ هذا رجوع إلى وصف

انس بن النضر عم أنس بن مالك. وقوله: ﴿من قبل أن تلقوه﴾ أي: القتال، أو الشهادة التي هي سبب الموت. وقرأ الأعمش: ﴿من قبل أن تلاقوه﴾ وقد ورد النهي عن تمني الموت، فلا بد من حمله هنا على الشهادة. قال القرطبي: وتمني الموت من المسلمين يرجع إلى تمني الشهادة المبينة على الثبات، والصبر على الجهاد لا إلى قتل الكفار لهم؛ لأنه معصية وكفر، ولا يجوز إرادة المعصية، وعلى هذا يحمل سؤال المسلمين من الله أن يرزقهم الشهادة، فيسألون الصبر على الجهاد، وإن أدى إلى القتل. قوله: ﴿فقد رايتموه﴾ أي: القتال، أو ما هو سبب للموت، ومحل قوله: ﴿وانتم تنظرون﴾ النصب على الحال، وقيد الرؤية بالنظر مع اتحاد معانها للمبالغة، أي: قد رايتموه معانين له حين قتل من قتل منكم. قال الأخفش: إن التكرير بمعنى التأكيد مثل قوله: ﴿ولا طائر يطير بجناحيه﴾ [الأنعام: 38] وقيل معناه: بصراء ليس في أعينكم علل، وقيل معناه: وانتم تنظرون إلى محمد ﷺ. وقوله: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾. سبب نزول هذه ما سيأتي من أن النبي ﷺ لما أصيب في يوم أحد صاح الشيطان قائلاً: قد قتل محمد، ففشل بعض المسلمين حتى قال قائل: قد أصيب محمد، فأعطوا بإيديكم، وإنما هم إخوانكم، وقال آخر: لو كان رسولاً ما قتل، فردّ الله عليهم ذلك، وأخبرهم بأنه رسول قد خلت من قبله الرسل، وسيخلو، كما خلوا، فجملة قوله: ﴿قد خلت من قبله الرسل﴾ صفة لرسول. والقصر قصر أفراد، كأنهم استنبعوا هلاكه، فأنبتوا له صفتين: الرسالة، وكونه لا يهلك، فردّ الله عليهم ذلك بأنه رسول لا يتجاوز ذلك إلى صفة عدم الهلاك، وقيل: هو: قصر قلب. وقرأ ابن عباس: «قد خلت من قبل رسل، ثم أنكر الله عليهم بقوله: ﴿إفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم﴾ أي: كيف ترتئون، وتتركون دينه إذا مات، أو قتل مع علمكم أن الرسل تخلو، ويتمسك أتباعهم بدينهم، وإن فقلوا بموت، أو قتل، وقيل الإنكار لجعلهم خلّو الرسل قبله سبباً لانقلابهم بموته، أو قتله، وإنما ذكر القتل مع علمه سبحانه أنه لا يقتل لكونه مجزاً عند المخاطبين. قوله: ﴿ومن ينقلب على عقبيه﴾ أي: بإبباره عن القتال، أو بارتداده عن الإسلام ﴿فلن يضر الله شيئاً﴾ من الضرر، وإنما يضر نفسه ﴿وسيجزي الله الشاكرين﴾ أي: الذين صبروا، وقتلوا، واستشهدوا؛ لأنهم بذلك شكروا نعمة الله عليهم بالإسلام، ومن امتثل ما أمر به، فقد شكر النعمة التي أنعم الله بها عليه. قوله: ﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله﴾ هذا كلام مستأنف يتضمن الحث على الجهاد، والإعلام بأن الموت لا بد منه. ومعنى: ﴿بإذن الله﴾ بقضاء الله، وقدره، وقيل: إن هذه الجملة متضمنة للإنكار على من فشل بسبب ذلك الإرجاف بقتله ﷺ، فبين لهم أن الموت بالقتل، أو بغيره منوط بإذن الله، وإسناده إلى النفس مع كونها غير محتارة له للإيدان بأنه لا ينبغي لأحد أن يقدم عليه إلا بإذن الله. وقوله: ﴿كتاباً﴾

لننصروا عليهم في الابتداء، فأصابوا منهم جماعة، ثم انتصر الكفار عليهم، فأصابوا منهم. والأول أولى؛ لأن ما أصابه المسلمون من الكفار في هذا اليوم لم يكن مثل ما أصابوه منهم فيه. وقوله: ﴿وتلك الأيام﴾ أي: الكائنة بين الأمم في حروبها، والآتية فيما بعد كالأيام الكائنة في زمن النبوة؛ تارة تغلب هذه الطائفة، وتارة تغلب الأخرى، كما وقع لكم أيها المسلمون في يوم بدر، وأحد، وهو معنى قوله: ﴿نداولها بين الناس﴾ فقوله: ﴿تلك﴾ مبتدأ، والأيام صفة، والخبر نداولها، وأصل المداولة: المعاورة، داولته بينهم: عاورته. والنولة: الكرة، ويجوز أن تكون الأيام خبراً، ونداولها حالاً، والأول أولى. وقوله: ﴿وليعلم الله﴾ معطوف على علة مقترنة كأنه قال: نداولها بين الناس ليظهر أمركم وليعلم، أو يكون العلل محذوفاً، أي: ليعلم الله الذين اتقوا، فعلنا ذلك، وهو من باب التمثيل، أي: فعلنا فعل من يريد أن يعلم لأنه سبحانه لم يزل عالماً، أو ليعلم الله الذين آمنوا بصيرهم علماً يقع عليه الجزاء، كما علمه علماً أزلياً ﴿ويؤخذ منكم شهداء﴾ أي: يكرمهم بالشهادة. والشهداء جمع شهيد، سمي بذلك لكونه مشهوداً له بالجنة، أو جمع شاهد لكونه، كالشاهد للجنة، ومن للتبويض، وهم شهداء أحد. وقوله: ﴿والله لا يحب الظالمين﴾ جملة معترضة بين المعطوف، والمعطوف عليه لتقرير مضمون ما قبله. وقوله: ﴿وليحصى الله الذين آمنوا﴾ من جملة العلل معطوف على ما قبله، والتحصيل: الاختبار، وقيل: للتطهير على حذف مضاف، أي: ليحصى ذنوب الذين آمنوا، قاله الفراء، وقيل: يمحصى يخلص، قاله الخليل، والزجاج، أي: ليخلص المؤمنين من ذنوبهم. وقوله: ﴿ويمحق للكافرين﴾ أي: يستأصلهم بالهلاك، وأصل التحقيق محو الآثار، والمحق نقصها. قوله: ﴿إم حسبتم أن تدخلوا الجنة﴾ كلام مستأنف لبيان ما ذكر من التمييز، وإم هي المنقطعة، والهمزة للإنكار، أي: بل أحسبتم، والواو في قوله: ﴿ولما يعلم الله﴾ واو الحال. والجملة حالية، وفيه تمثيل كالأول، أو علم يقع عليه الجزاء. وقوله: ﴿وليعلم الصابرين﴾ منصوب بإضمار أن، كما قال الخليل، وغيره على أن الواو للجمع. وقال الزجاج: الواو بمعنى حتى، وقرأ الحسن، ويحيى بن يعمر: «ويعلم الصابرين» بالجزم عطفاً على ﴿ولما يعلم﴾ وقرئ بالرفع على القطع، وقيل: إن قوله: ﴿ولما يعلم﴾ كناية عن نفي المعلوم، وهو: الجهاد. والمعنى: لم حسبتم أن تدخلوا الجنة، والحال أنه لم يتحقق منكم الجهاد، والصبر، أي: الجمع بينهما، ومعنى ﴿لما﴾ معنى: «لم» عند الجمهور، وفرّق سيبويه بينهما، فجعل لم لنفي الماضي، ولما لنفي الماضي، والمتوقع. قوله: ﴿ولقد كنتم تمنون الموت﴾ هو خطاب لمن كان يتمنى القتال، والشهادة في سبيل الله ممن لم يحضر يوم بدر، فإنهم كانوا يتمنون يوماً يكون فيه قتال، فلما كان يوم أحد انهزموا مع أنهم الذين أحووا على رسول الله ﷺ بالخروج، ولم يصبر منهم إلا نفر يسير مثل

عطف على قاتل، أو قتل. والوهن: انكسار الجِدِّ بالخوف. وقرأ الحسن: «وهنوا» بكسر الهاء، وضمها. قال أبو زيد: لغتان وهن الشيء ميهن، وهنا: ضعف، أي: ما وهنوا لقتل نبيهم، أو لقتل من قتل منهم. «وما ضعفوا» أي: عن عدوهم «وما استكانوا» لما أصابهم في الجهاد. والاستكانة: الثلثة، والخضوع، وقرئ: «وما وهنوا وما ضعفوا» بإسكان الهاء، والعين. وحكى الكسائي ضعفوا بفتح العين، وفي هذا توبيخ لمن انهزم يوم أحد، ونل، واستكان، وضعف بسبب تلك الإرجاف الواقع من الشيطان، ولم يصنع، كما صنع أصحاب من خلا من قبلهم من الرسل. قوله: «وما كان قولهم: أي: قول أولئك الذين كانوا مع الأنبياء إلا هذا القول، وقولهم منصوب على أنه خير كان. وقرأ ابن كثير، وعاصم في رواية عنهما برفع قولهم. وقوله: «إلا أن قالوا» استثناء مفرغ أي: ما كان قولهم عند أن قتل منهم ربانين، أو قتل نبيهم: «إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا» قيل: هي الصغائر. وقوله: «وإسرافنا في أمرنا» قيل: هي الكبائر، والظاهر أن الذنوب تعم كل ما يسمى ذنباً من صغيرة، أو كبيرة، والإسراف ما فيه مجاوزة للحد، فهو من عطف الخاص على العام، قالوا ذلك مع كونهم ربانين ضمناً لأنفسهم «وثبتت أقدامنا» في مواطن القتال: «فقاتلهم الله» بسبب ذلك «ثواب الدنيا» من النصر، والغنيمة، والعزة، ونحوها «وحسن ثواب الآخرة» من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي: ثواب الآخرة الحسن، وهو نعيم الجنة، جعلنا الله من أهلها.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: «قد خلت من قبلكم سنن» قال: تداول من الكفار، والمؤمنين في الخير، والشر. وأخرج ابن أبي شيبة في كتاب المصاحف عن سعيد بن جبير قال: أول ما نزل من آل عمران، «هذا بيان للناس» ثم أنزل بقيتها يوم أحد. وأخرج ابن جرير، عن الحسن في قوله: «هذا بيان» يعني: القرآن. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة نحوه، وأخرج ابن جرير، عن طريق العوفي، عن ابن عباس قال: أقبل خالد بن الوليد يريد أن يعلو عليهم الجبل، فقال النبي ﷺ: «اللهم لا يعلون علينا» فأنزل الله: «ولا تهنوا ولا تحزنوا» الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن جريج قال: انهزم أصحاب رسول الله ﷺ في الشعب يوم أحد، فسألوا ما فعل النبي ﷺ، وما فعل فلان، فنعى بعضهم لبعض، وتحذروا أن النبي ﷺ قد قتل، فكانوا في هم، وحزن، فبينما هم كذلك علا خالد بن الوليد بخيل المشركين، فوقهم على الجبل، وكانوا على أحد مجنبتَي المشركين، وهم أسفل من الشعب، فلما رأوا النبي ﷺ فرحوا، فقال النبي ﷺ: «اللهم لا قوة لنا إلا بك، وليس أحد يعبدك بهذا البلد غير هؤلاء النفر، فلا تهلكهم» وثاب نفر من المشركين رماة فصعدوا، فرموا خيل المشركين حتى هزمهم الله، وعلا المسلمون

مصدر مؤكد لما قبله؛ لأن معناه كتب الله الموت كتاباً. والمؤجل: المؤقت الذي لا يتقدم على أجله، ولا يتأخر. قوله: «ومن يرد» أي: بعمله «ثواب الدنيا» كالغنيمة، ونحوها، واللفظ يعم كل ما يسمى ثواب الدنيا، وإن كان السبب خاصاً «ثووته منها» أي: من ثوابها على حذف المضاف «ومن يرد» بعمله «ثواب الآخرة» وهو الجنة ثووته من ثوابها، ونضاعف له الحسنات أضعافاً كثيرة «وسنجزي الشاكرين» بامتثال ما أمرناهم به كالقتال، ونهيناهم عنه كالفرار، وقبول الإرجاف. وقوله: «وكاين» قال الخليل، وسيبويه: هي، أي: دخلت عليها كاف التشبيه، وثبتت معها، فصارت بعد التركيب بمعنى كم، وصورت في المصحف نوأ، لأنها كلمة نقلت عن أصلها، فغير لفظها لتغيير معناها، ثم كثر استعمالها، فتصرفت فيها العرب بالقلب، والحذف، فصار فيها أربع لغات قرئ بها: أحدها كائن مثل كاعن، وبها قرأ ابن كثير، ومثله قول الشاعر:

وكائن بالاباطح من صديق تراه لو أصبت هو المصايب
وقال آخر:

وكائن ربنا عنكم من مديح بحي أمام الركب يردى مقنعا
وقال زهير:

وكائن ترى من معجب لك شخصه زياته أو نقصه في التكلم
وكاين بالتشديد مثل كعين، وبه قرأ الباقون، وهو الأصل. والثالثة كاين مثل كعين مخففاً. والرابعة كيئن بياء بعدها همزة مكسورة، ووقف أبو عمرو بغير نون، فقال كأي: لأنه تنوين، ووقف الباقون بالنون. والمعنى كثير من الأنبياء قتل معه ربيون قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب قتل على البناء للمجهول، وهي قراءة ابن عباس، واختارها أبو حاتم، وفيه وجهان: أحدهما أن يكون في «قتل» ضمير يعود إلى النبي، وحينئذ يكون قوله: «معه ربيون» جملة حالية، كما يقال: قتل الأمير معه جيش، أي: ومعه جيش، والوجه الثاني أن يكون القتل، واقعاً على ربيون، فلا يكون في قتل ضمير، والمعنى: قتل بعض أصحابه، وهم الربيون. وقرأ الكوفيون، وابن عامر: «قاتل» وهي قراءة ابن مسعود، واختارها أبو عبيد، وقال: إن الله إذا حمد من قاتل كان من قتل داخلاً فيه، وإذا حمد من قتل لم يخل فيه من قاتل، ولم يقتل، فقاتل أعم، وأمدح، ويرجح هذه القراءة الأخرى. والوجه الثاني من القراءة الأولى قول الحسن: ما قتل نبي في حرب قط، وكذا قال سبيد بن جبير، والربيون بكسر الراء قراءة الجمهور، وقرأ علي بضمها، وابن عباس بفتحها، وواحد ربي بالفتح منسوب إلى الرب، والربي بضم الراء، وكسرهما منسوب إلى الرية بكسر الراء، وضمها، وهي الجماعة، ولهذا، فسرهم جماعة من السلف بالجماعات الكثيرة، وقيل: هم الاتباع؛ وقيل: هم العلماء. قال الخليل: الربى الواحد من العباد الذين صبروا مع الأنبياء، وهم الربانيون نسبوا إلى التلغ، والعبادة، ومعرفة الربوبية. وقال الزجاج: الربيون بالضم الجماعات. قوله: «فما وهنوا»

قوله: ﴿رَبِّيُونَ﴾ قال: الوف. وأخرج سعيد بن منصور عن الضحاك قال: الربة الواحدة الف. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس: ﴿رَبِّيُونَ﴾ قال: جموع. وأخرج ابن جرير عنه قال: علماء كثير. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ قال: تخشعوا. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿وَأَسْرَفْنَا فِي أَمْرِنَا﴾ قال: خطايانا.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن طُغِيَوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَزِدُّكُمْ عَلَىٰ عَظَمَتِكُمْ فَاصْبِرُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤١﴾ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٤٢﴾ سَتَلْقَىٰ فِي كُلِّ بَلَدٍ الَّذِينَ كَفَرُوا أَزْجَبَ يَمَآ أَشْرَكُوا بِآلِهَةِ مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّكَارُ وَبِئْسَ مَثْوَىٰ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٣﴾ وَلَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَىٰ عَبْدِهِ إِذْ نَحَّسَهُمْ بِيَاذِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَصَّلْتَهُ وَكُنْتُمْ فِي الْيَمْرِ عَصَبَتْكُمْ مِن مَّدَىٰ أَرْسِكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الذُّكْرَ مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ مَرَكَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَمَّا عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٤﴾ إِذْ صُودِرْتُمْ وَلَا تَكُونُوا عَلَىٰ أَحَدٍ زَاوِينَ وَلَا يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَجِكُمْ فَأَتَيْنَاكُم بِمَآ يَشَاءُ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَبَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٥﴾

لما أمر الله سبحانه بالاقتداء بمن تقدم من أنصار الأنبياء حذر عن طاعة الكفار، وهم مشركو العرب؛ وقيل اليهود والنصارى؛ وقيل المنافقون في قولهم للمؤمنين عند الهزيمة ارجعوا إلى دين آبائكم. وقوله: ﴿يَرْبُوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ أي يخرجوكم من دين الإسلام إلى الكفر ﴿فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ أي ترجعوا مغيبين. وقوله: ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾ إضراب عن مفهوم الجملة الأولى: أي إن تطيعوا الكافرين يخلوكم ولا ينصروكم بل الله ناصركم لا غيره؛ وقرئ: «بل الله» بالنصب على تقدير بل أطيعوا الله. قوله: ﴿سَتَلْقَىٰ﴾ قرأ السخستاني بالياء التحتية، وقرأ الباقون بالنون. وقرأ ابن عامر، والكسائي: ﴿الرَّعْبَ﴾ بضم العين. وقرأ الباقون بالسكون، وهما لغتان، يقال: رعبته رعباً، ورعباً، فهو مرعوب، ويجوز أن يكون مصدراً، والرعب بالضم: الاسم، وأصله الماء، يقال: سيل راعب، أي: يملأ الوادي، ورعبت الحوض: ملأته، فالمعنى: سنملأ قلوب الكافرين رعباً، أي: خوفاً، وفزعاً، والإلقاء يستعمل حقيقة في الأجسام، ومجازاً في غيرها، كهذه الآية، وذلك أن المشركين بعد وقعة أحد ندموا لا يكونوا استأصلوا المسلمين، وقالوا: بشما صنعنا قتلناهم حتى إذا لم يبق منهم إلا الشريد تركناهم ارجعوا، فاستأصلوهم، فلما عزموا على ذلك ألقى الله في قلوبهم الرعب حتى رجعوا، عما هموا به: ﴿بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ﴾ متعلق بقوله: ﴿سَتَلْقَىٰ﴾ وما مصدرية، أي: بسبب إشراكهم ﴿مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ أي: ما لم ينزل الله بجعله شريكاً له حجة، وبيلانه، وبرهانه، والنفي يتوجه إلى القيد، والمقيد، أي: لا حجة، ولا إنزال، والمعنى: أن الإشراك

الجبل، فذلك قوله: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الضحاك ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلُونَ﴾ قال: وأنتم الغالبون. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ﴾ قال: جراح، وقتل. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن الحسن في قوله: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾ قال: إن يقتل منكم يوم أحد، فقد قتل منهم يوم بدر. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، من طريق العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوَلَهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ قال: كان يوم أحد بيوم بدر. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، من طريق ابن جريج، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ﴾ الآية، قال: أдал المشركين على النبي ﷺ يوم أحد، وبلغني أن المشركين قتلوا من المسلمين يوم أحد بضعة وسبعين عند الأسارى الذين أسروا يوم بدر من المشركين، وكان عدد الأسارى يوم بدر ثلاثة وسبعين رجلاً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَيَتَّخِذْ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ قال: إن المسلمين كانوا يسألون ربهم: اللهم ربنا أرننا يوماً، كيوم بدر نقاتل فيه المشركين ونبليك فيه خيراً، ونلتمس فيه الشهادة، فلقوا المشركين يوم أحد، فاتخذ منهم شهداء. وأخرج ابن جرير في قوله: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قال: يبتليهم ﴿وَيُمَحِّقَ الْكَافِرِينَ﴾ قال: ينقصهم. وأخرج ابن أبي حاتم، من طريق العوفي عنه أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ كانوا يقولون: ليتنا نقتل، كما قتل أصحاب بدر، ونستشهد، أو ليت لنا يوماً كيوم بدر نقاتل فيه المشركين، ونبلي فيه خيراً، ونلتمس الشهادة، والجنة، والحياة، والرزق، فاشبههم الله أحداً، فلم يثبتوا إلا من شاء الله منهم. فقال الله: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ﴾ الآية. وأخرج ابن المنذر عن كليب قال: خطبنا عمر بن الخطاب، فكان يقرأ على المنبر آل عمران ويقول إنها أحذية، ثم قال: تفرقنا عن رسول الله ﷺ يوم أحد، فصعدت الجبل فسمعت يهودياً يقول: قتل محمد، فقلت: لا أسمع أحداً يقول قتل محمد إلا ضربت عنقه، فنظرت فإذا رسول الله ﷺ والناس يتراجعون إليه، فنزلت هذه الآية: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾. وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال: نادى مناد يوم أحد ألا إن محمداً قد قتل فارجعوا إلى دينكم الأول، فأنزل الله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾. وأخرج أيضاً عن مجاهد نحوه. وأخرج أيضاً عن علي في قوله: ﴿وَيُؤَيِّدُ اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ قال: الثابتين على دينهم أباً بكر وأصحابه، فكان علي يقول: كان أبو بكر أمير الشاكرين. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم عنه أنه كان يقول في حياة رسول الله ﷺ: إن الله يقول: ﴿إِنَّمَا مَاتَ لَوْ قَتَلَ لِنَقْلِبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ والله لا ننقلب على أعقابنا بعد إذ هدانا الله، والله لئن مات أو قتل لأقاتلن على ما قتل عليه حتى أموت. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني عن ابن مسعود في

إلا أيها ذا السائلين أين أصعدت فإن لها من بطن يثرب موعداً
وقال الفراء: الإصعاد: الابتداء في السفر، والانحدار:
الرجوع منه، يقال: أصعدنا من بغداد إلى مكة، وإلى
خراسان، وأشباه ذلك: إذا خرجنا إليها، وأخذنا في السفر،
وانحدرونا: إذا رجعنا. وقال المفضل: صعد، وأصعد بمعنى
واحد. ومعنى: «تَلَوْن» تعرجون، وتقيمون، أي: لا يلتفت
بعضكم إلى بعض هرباً، فإن المعرج إلى الشيء يلوي إليه
عنقه أو عنق دابته: «على أحد» أي: على أحد ممن معكم،
وقيل: على رسول الله ﷺ. وقرأ الحسن: «تلون» بواو
واحدة، وقرأ عاصم في رواية عنه بضم التاء، وهي لغة.
قوله: «والرسول يدعوكم في لُحْرَاكُمْ» أي: في الطائفة
المتاخرة منكم، يقال جاء فلان في آخر الناس، وآخره الناس،
وأخرى الناس، وأخريات الناس. وكان دعاء النبي ﷺ: «أي
عباد الله ارجعوا». قوله: «فَاتَابِكُمْ» عطف على صرفكم، أي:
فجازاكم الله غمّاً حين صرفكم عنه بسبب غمّ أنقتموه
رسول الله ﷺ بعصيانكم، أو غمّاً موصولاً بغمّ بسبب ذلك
الإرجاف، والجرح، والقتل، وظفر المشركين، والغمّ في
الأصل: التغطية، غميت الشيء: غطيته، ويوم غمّ، وليلة غمة:
إذا كانا مظلّمين، ومنه غمّ الهلال، وقيل: الغمّ الأول: الهزيمة،
والثاني: إشراف أبي هريرة، وخالد بن الوليد عليهم في
الجبل. قوله: «لِكَيْلَا تَحْزَنُوا» اللام متعلقة بقوله:
«فَاتَابِكُمْ» أي: هذا الغمّ بعد الغمّ لكيلا تحزنوا على ما فات
من الغنّية، ولا ما أصابكم من الهزيمة، تمريناً لكم على
المصائب، وتدريباً لاحتمال الشدائد. وقال المفضل: معنى:
«لِكَيْلَا تَحْزَنُوا» لكي تحزنوا، ولا زائدة كقوله تعالى: «وما
منعك أن لا تسجد» [الأعراف: 12] أي: أن تسجد، وقوله:
«لئلا يعلم أهل الكتاب» [الحديد: 29] أي: ليعلم.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن
ابن جريج في قوله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا اللَّهَ
وَالرَّسُولَ» قال: لا تنتصحو اليهود، والنصارى على دينكم، ولا
تصنعوهم بشيء في دينكم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن
السديّ يقول: إن تطيعوا أبا سفيان بن حرب يردكم كفاراً.
وأخرج ابن جرير، عنه في قوله: «سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ
كَفَرُوا الرَّعْبَ» نحو ما قلّمناه في سبب نزول الآية. وأخرج
البیهقي في الدلائل عن عروة في قوله: «وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ
وَعْدَهُ» قال: كان الله وعدهم على الصبر، والتقوى أن يمدّم
بخمسة آلاف من الملائكة مسؤمين، وكان قد فعل، فلما
عصوا أمر رسول الله ﷺ، وتركوا مصافهم، وتركوا الرماة
عهد الرسول إليهم أن لا يبرحوا منازلهم، وأرأوا الدنيا رفع
عنهم مند الملائكة. وقصة أحد مستوفاة في السير،
والتواريخ، فلا حاجة إلى إطالة الشرح هنا. وأخرج ابن
جرير، وابن المنذر، عن عبد الرحمن بن عوف في قوله: «إِذْ
تَحْسَبُونَهُمْ» قال: الحسن: القتل. وأخرج عبد بن حميد، عن
ابن عباس مثله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه. قال:
الغسل: الجبن. وأخرج ابن المنذر عن البراء بن عازب في

بالله لم يثبت في شيء من الملل. والمثوى: المكان الذي يقام
فيه، يقال ثوي يثوي ثواء. قوله: «وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ»
نزلت لما قال بعض المسلمين من أين أصابنا هذا، وقد
وعدنا الله النصر، وذلك أنه كان الظفر لهم في الابتداء، حتى
قتلوا صاحب لواء المشركين، وتسعة نفر بعده؛ فلما اشتغلوا
بالغنّية، وترك الرماة مركزهم طلباً للغنّية كان ذلك سبب
الهزيمة. والحسن: إذا قتله البرد، وسنة حسوس، أي: جبهة
تاكل كل شيء. قيل: وأصله من الحسن الذي هو الإدراك
بالحاسة، فمعنى حسه: أذهب حسه بالقتل، وتحسونهم:
تقتلونهم، وتستاصلونهم، قال الشاعر:
حسناهم بالسيف حسافاً صبحت بقيتهم قد شردوا وتبينوا
وقال جرير:

تحسهم السيوف كما تسامى حريق النار في الأجم الحصيد
«بأنه» أي: يعلمه، أو بقضائه «حتى إذا قُشِلْتُمْ» أي:
جبنتم وضعفتم، قيل: جواب حتى محذوف تقديره امتحنتم
وقال الفراء: جواب حتى قوله: «وَتَنَازَعْتُمْ» والواو مقحمة
زائدة، كقوله: «فلما أسلما وتله للجبين» [الصفاء: 103]
وقال أبو علي: يجوز أن يكون الجواب صرفكم عنهم، وقيل:
فيه تقييد وتأخير، أي: حتى إذا تنازعتهم، وعصيتهم، فشلتهم،
وقيل: إن الجواب عصيتهم، والواو مقحمة. وقد جَوَزَ الأخفش
مثله في قوله تعالى: «حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما
رحبت وضافت عليهم» [التوبة: 118]، وقيل: حتى بمعنى
إلى، وحينئذ لا جواب لها، والتنازع المذكور هو ما وقع من
الرماة حين قال بعضهم: نلحق الغنائم، وقال بعضهم: نثبت
في مكاننا، كما أمرنا رسول الله ﷺ. ومعنى قوله: «مَنْ
بَعْدَ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ» ما وقع لهم من النصر في
الابتداء في يوم أحد، كما تقدّم: «مَنْكُمْ مَنْ يَرِيدُ الدُّنْيَا»
يعني: الغنّية «وَمَنْكُمْ مَنْ يَرِيدُ الْآخِرَةِ» أي: الأجر بالبقاء
في مراكزهم امتثالاً لأمر رسول الله ﷺ «لَمْ صَرَفَكُمْ
عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ» أي: ربكم الله عنهم بالانهزام بعد أن
استوليتهم عليهم ليمتحنكم «وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ» لما علم من
ندمكم، فلم يستاصلكم بعد المعصية، والمخالفة، والخطاب
لجميع المنهزمين، وقيل: للرماة فقط. قوله: «إِذْ تَصْعَدُونَ»
متعلق بقوله: «صَرَفَكُمْ» أو بقوله: «وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ» أو
بقوله: «لِيَبْتَلِيَكُمْ» وقرأ الجمهور بضمّ التاء، وكسر العين،
وقرأ أبو رجاء العطاردي، وأبو عبد الرحمن السلمي،
والحسن، وقاتدة بفتح التاء، والعين. وقرأ ابن محيصة،
وقنبل: «تصعدون» بالتحّية. قال أبو حاتم: أصعدت إذا
مضيت حياء وجهك، وصعدت إذا ارتقيت في جبل،
فالإصعاد: السير في مستوى الأرض، ويطون الأودية،
والصعود: الارتفاع على الجبال، والسطوح، والسلام،
والدرج، فيحتمل أن يكون صعودهم في الجبل بعد إصعادهم
في الوادي، فيصح المعنى على القراءتين. وقال القتيبي:
أصعد: إذا أبعد في الذهاب، وأمعن فيه، ومنه قول الشاعر:

قوله: ﴿مَنْ بَعْدَ مَا أُرَاكُم مَا تُحِبُّونَ﴾ قال: الغنائم، وهزيمة القوم. وأخرج ابن جرير عن الحسن في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾ قال: يقول الله: قد عفوت عنكم أن لا أكون استأصلتكم. وأخرج أيضاً عن ابن جرير نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس: ﴿إِذْ تَصْعَدُونَ﴾ قال: أضعوا في أحد فراراً، والرسول يدعوهم في أهرامهم: ﴿إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ أَرْجِعُوا إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ أَرْجِعُوا﴾. وأخرج ابن مريويه عن عبد الرحمن بن عوف: ﴿فَلْيَاكُمُ غَمًّا بِغَمٍّ﴾ قال: الغم الأول بسبب الهزيمة، والثاني: حين قيل: قتل محمد، وكان ذلك عندهم أعظم من الهزيمة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿غَمًّا بِغَمٍّ﴾ قال: فرقة بعد الفرقة الأولى حين سمعوا الصوت أن محمداً قد قتل. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم قال: الغم الأول: الجراح، والقتل، والغم الآخر: حين سمعوا أن النبي ﷺ قد قتل. وأخرج ابن جرير، عن الربيع مثله.

ثُمَّ أُنْزِلَ عَلَيْكَ مِن بَدُوِّ الْمَنِيِّ أَنَّهُ تَأْسَاُ بَيْنَ يَدَيْكَ يَوْمَكَ وَمَا بَيْنَهُ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخَوِّنُونَ فِي أَنفُسِهِمْ مَا لَا يَبْدُونَ لَهُمْ يَقُولُونَ لَوْ كَانَتْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا قُلْ لَوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٠١﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠٢﴾

الامنة، والأمن سواء، وقيل: الامنة إنما تكون مع أسباب الخوف، والأمن مع عدمه، وهي منصوبة بأنزل. ونعاساً بدل منها، أو عطف بيان، أو مفعول له، وأما ما قيل: من أن أمنة حال من نعاساً مقدّمة عليه، أو حال من المخاطبيين، أو مفعول له، فبعيد. وقرأ ابن محيصن: «أمنه» بسكون الميم. قوله: ﴿يَغْشَى﴾ قرئ بالتحية على أن الضمير للنعاس، وبالفوقية على أن الضمير لأمنة، والطائفة: تطلق على الواحد، والجماعة، والطائفة الأولى: هم المؤمنون الذين خرجوا للقتال طلباً للأجر، والطائفة الأخرى هم: معتب بن قشير، وأصحابه، وكانوا خرجوا طمعاً في الغنيمة، وجعلوا يناشون على الحضور، ويقولون الاتاويل. ومعنى: ﴿أَهْمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ حملتهم على الهمة، أهتمي الأمر: اقلقي، والواو في قوله: ﴿وِطَائِفَةٍ﴾ للحال، وجاز الابتداء بالكرة لاعتمادها على واو الحال، وقيل: إن معنى ﴿أَهْمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ صارت همهم لا هم لهم غيرها. ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ هذه الجملة في محل نصب على الحال، أي: يظنون بالله غير الحق الذي يجب أن يظن به، وظن الجاهلية بدل منه. وهو: الظن المختص بعملة الجاهلية، أو ظن أهل الجاهلية، وهو ظنهم أن أمر النبي ﷺ باطل، وأنه لا ينصر، ولا يتم ما دعا إليه من دين الحق. وقوله: ﴿يَقُولُونَ﴾ بدل من «يظنون»، أي:

يقولون لرسول الله ﷺ: ﴿هل لنا من الأمر من شيء؟﴾ أي: هل لنا من أمر الله نصيب، وهذا الاستفهام معناه الجحد، أي: ما لنا شيء من الأمر. وهو النصر والاستظهار على العدو، وقيل: هو الخروج، أي: إنما خرجنا مكرهين، فردّ الله سبحانه ذلك عليهم بقوله: ﴿قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ وليس لكم، ولا لعنوكم منه شيء، فالتنصير بيده، والظفر منه. وقوله: ﴿يَخْفُونَ فِي أَنفُسِهِمْ﴾ أي: يضمرون في أنفسهم النفاق، ولا يبدون لك ذلك، بل يسألونك سؤال المسترشدين. وقوله: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَتْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا﴾ استئناف، كأنه قيل: ما هو الأمر الذي يخفون في أنفسهم؟ فقيل: يقولون فيما بينهم، أو في أنفسهم ﴿لَوْ كَانَتْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا﴾ أي: ما قتل من قتل منا في هذه المعركة، فردّ الله سبحانه ذلك عليهم بقوله: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ أي: لو كنتم قاعين في بيوتكم لم يكن بَدْ من خروج من كتب عليه القتل إلى هذه المصارع التي صرعوا فيها، فإن قضاء الله لا يرد. وقوله: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ علة لفعل مقرر قبلها معطوفة على علة له أخرى مطوية للإيذان بكثرتها، كأنه قيل: فعل ما فعل لمصالح جمّة ﴿وَلِيَبْتَلِيَ﴾ الخ، وقيل: إنه معطوف على علة مطوية لبرز، والمعنى: ليمتحن ما في صدوركم من الإخلاص، وليمحس ما في قلوبكم من وسواس الشيطان. قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ أي: انهزموا يوم أحد، وقيل: المعنى: إن الذين تولوا المشركين يوم أحد: ﴿إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ﴾ استدعى زللهم بسبب بعض ما كسبوا من الذنوب التي منها مخالفة رسول الله ﷺ: ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ لتوبتهم، واعتذارهم.

وقد أخرج ابن جرير، عن ابن عباس في الآية قال: أمّتهم الله يومئذ بنعاس غشاهم، وإنما ينعس من يامن. وقد ثبت في صحيح البخاري، وغيره أن أبا طلحة قال: غشنا، ونحن في مصافنا يوم أحد، فجعل سيفي يسقط من يدي وأخذته، ويسقط وأخذته، فنلك قوله: ﴿ثُمَّ أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَدُوِّ الْمَنِيِّ أَنَّهُ تَأْسَاُ بَيْنَ يَدَيْكَ يَوْمَكَ وَمَا بَيْنَهُ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخَوِّنُونَ فِي أَنفُسِهِمْ مَا لَا يَبْدُونَ لَهُمْ يَقُولُونَ لَوْ كَانَتْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا قُلْ لَوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٠١﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾

وقد أخرج ابن جرير، عن ابن عباس في الآية قال: أمّتهم الله يومئذ بنعاس غشاهم، وإنما ينعس من يامن. وقد ثبت في صحيح البخاري، وغيره أن أبا طلحة قال: غشنا، ونحن في مصافنا يوم أحد، فجعل سيفي يسقط من يدي وأخذته، ويسقط وأخذته، فنلك قوله: ﴿ثُمَّ أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَدُوِّ الْمَنِيِّ أَنَّهُ تَأْسَاُ بَيْنَ يَدَيْكَ يَوْمَكَ وَمَا بَيْنَهُ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخَوِّنُونَ فِي أَنفُسِهِمْ مَا لَا يَبْدُونَ لَهُمْ يَقُولُونَ لَوْ كَانَتْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا قُلْ لَوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٠١﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾

وقد أخرج ابن جرير، عن ابن عباس في الآية قال: أمّتهم الله يومئذ بنعاس غشاهم، وإنما ينعس من يامن. وقد ثبت في صحيح البخاري، وغيره أن أبا طلحة قال: غشنا، ونحن في مصافنا يوم أحد، فجعل سيفي يسقط من يدي وأخذته، ويسقط وأخذته، فنلك قوله: ﴿ثُمَّ أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَدُوِّ الْمَنِيِّ أَنَّهُ تَأْسَاُ بَيْنَ يَدَيْكَ يَوْمَكَ وَمَا بَيْنَهُ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخَوِّنُونَ فِي أَنفُسِهِمْ مَا لَا يَبْدُونَ لَهُمْ يَقُولُونَ لَوْ كَانَتْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا قُلْ لَوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٠١﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾

وقد أخرج ابن جرير، عن ابن عباس في الآية قال: أمّتهم الله يومئذ بنعاس غشاهم، وإنما ينعس من يامن. وقد ثبت في صحيح البخاري، وغيره أن أبا طلحة قال: غشنا، ونحن في مصافنا يوم أحد، فجعل سيفي يسقط من يدي وأخذته، ويسقط وأخذته، فنلك قوله: ﴿ثُمَّ أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَدُوِّ الْمَنِيِّ أَنَّهُ تَأْسَاُ بَيْنَ يَدَيْكَ يَوْمَكَ وَمَا بَيْنَهُ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخَوِّنُونَ فِي أَنفُسِهِمْ مَا لَا يَبْدُونَ لَهُمْ يَقُولُونَ لَوْ كَانَتْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا قُلْ لَوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٠١﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾

وقد أخرج ابن جرير، عن ابن عباس في الآية قال: أمّتهم الله يومئذ بنعاس غشاهم، وإنما ينعس من يامن. وقد ثبت في صحيح البخاري، وغيره أن أبا طلحة قال: غشنا، ونحن في مصافنا يوم أحد، فجعل سيفي يسقط من يدي وأخذته، ويسقط وأخذته، فنلك قوله: ﴿ثُمَّ أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَدُوِّ الْمَنِيِّ أَنَّهُ تَأْسَاُ بَيْنَ يَدَيْكَ يَوْمَكَ وَمَا بَيْنَهُ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخَوِّنُونَ فِي أَنفُسِهِمْ مَا لَا يَبْدُونَ لَهُمْ يَقُولُونَ لَوْ كَانَتْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا قُلْ لَوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٠١﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾

عبد الرحمن بن عوف في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ قال: هم ثلاثة: واحد من المهاجرين، واثنان من الأنصار. وأخرج ابن منده، وابن عساكر، عن ابن عباس في الآية قال: نزلت في عثمان ورافع بن المعلّى، وخارجة بن زيد. وقد روى في تعيين: «من» في الآية روايات كثيرة.

يَأْتِيهِمُ الْيَوْمَ آسَافُ مَا تَوَلَّوْا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرَى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يَخْبِي وَيَنْتَظِرُ مَا تَعْمَلُونَ بِصَدَقَاتِكُمْ وَلَكِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مِتُّمْ لَمْغْفِرَةً مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةً خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ وَلَكِنْ مَتُّمٌ أَوْ قُتِلْتُمْ لِأَنَّ اللَّهَ مُخْتَرُونَ وَمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتُمْ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَا تُفَضَّلُونَ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ إِنْ يَصْرَفْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَحْذِلكُمْ فَهَذَا الَّذِي يَصْرَفْكُمْ بِنَا بَعْدِي وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلَ وَمَنْ يَكُلْ يَأْتِ بِمَا عَلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تَوَكَّلْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ أَفَمَنْ أَتَّبَعَ يَضُولَ اللَّهُ كَمَنْ يَهْدِي اللَّهُ وَمَا لَهُ بِهِمْ وَلَا يَكُونُ لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِعْرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِسَابَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَيْلٍ ضَلَالٍ مُبِينٍ

قوله: ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هم المنافقون الذين قالوا: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلناها هنا. قوله: ﴿وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ في النفاق، أو في النسب، أي: قالوا لأجلهم: ﴿إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾ إذا ساروا فيها للتجارة، أو نحوها، قيل: إذا هنا المفيدة لمعنى الاستقبال، بمعنى إذا المفيدة لمعنى المضى، وقيل: هي على معناها، والمراد هنا: حكاية الحال الماضية. وقال الزجاج: إذا هنا تنوب عن ما مضى من الزمان، وما يستقبل ﴿لَوْ كَانُوا غُرَى﴾ جمع غار كراكم وركع، وغاثب وغيب، قال الشاعر:

قل للوقال والغزى إذا غزوا

﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ اللام متعلقة بقوله: ﴿قَالُوا﴾ أي: قالوا ذلك، واعتقدوه، ليكون حسرة في قلوبهم. والمراد: أنه صار ظنهم أنهم لو لم يخرجوا ما قتلوا حسرة، أو متعلقة بقوله: ﴿لَا تَكُونُوا﴾ أي: لا تكونوا مثلهم في اعتقاد ذلك؛ ليجعله الله حسرة في قلوبهم، فقط دون قلوبكم، وقيل: المعنى لا تلتفتوا إليهم؛ ليجعل الله عدم التفاتكم إليهم حسرة في قلوبهم، وقيل المراد: حسرة في قلوبهم يوم القيامة لما فيه من الخزي، والندامة: ﴿وَاللَّهُ يَخْبِي وَيَعِيتُ﴾ فيه رد على قولهم، أي: ذلك بيد الله سبحانه يصنع ما يشاء، ويحكم ما يريد، فيخبي من يريد، ويميت من يريد من غير أن يكون للسفر، أو الغزو أثر في ذلك، واللام في قوله: ﴿وَلَنْ قُتِلْتُمْ﴾ موطن. وقوله: ﴿لَمْغْفِرَةً﴾ جواب

عبد الرحمن بن عوف في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ قال: هم ثلاثة: واحد من المهاجرين، واثنان من الأنصار. وأخرج ابن منده، وابن عساكر، عن ابن عباس في الآية قال: نزلت في عثمان ورافع بن المعلّى، وخارجة بن زيد. وقد روى في تعيين: «من» في الآية روايات كثيرة.

يَأْتِيهِمُ الْيَوْمَ آسَافُ مَا تَوَلَّوْا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرَى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يَخْبِي وَيَنْتَظِرُ مَا تَعْمَلُونَ بِصَدَقَاتِكُمْ وَلَكِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مِتُّمْ لَمْغْفِرَةً مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةً خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ وَلَكِنْ مَتُّمٌ أَوْ قُتِلْتُمْ لِأَنَّ اللَّهَ مُخْتَرُونَ وَمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتُمْ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَا تُفَضَّلُونَ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ إِنْ يَصْرَفْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَحْذِلكُمْ فَهَذَا الَّذِي يَصْرَفْكُمْ بِنَا بَعْدِي وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلَ وَمَنْ يَكُلْ يَأْتِ بِمَا عَلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تَوَكَّلْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ أَفَمَنْ أَتَّبَعَ يَضُولَ اللَّهُ كَمَنْ يَهْدِي اللَّهُ وَمَا لَهُ بِهِمْ وَلَا يَكُونُ لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِعْرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِسَابَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَيْلٍ ضَلَالٍ مُبِينٍ

قوله: ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هم المنافقون الذين قالوا: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلناها هنا. قوله: ﴿وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ في النفاق، أو في النسب، أي: قالوا لأجلهم: ﴿إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾ إذا ساروا فيها للتجارة، أو نحوها، قيل: إذا هنا المفيدة لمعنى الاستقبال، بمعنى إذا المفيدة لمعنى المضى، وقيل: هي على معناها، والمراد هنا: حكاية الحال الماضية. وقال الزجاج: إذا هنا تنوب عن ما مضى من الزمان، وما يستقبل ﴿لَوْ كَانُوا غُرَى﴾ جمع غار كراكم وركع، وغاثب وغيب، قال الشاعر:

قل للوقال والغزى إذا غزوا

﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ اللام متعلقة بقوله: ﴿قَالُوا﴾ أي: قالوا ذلك، واعتقدوه، ليكون حسرة في قلوبهم. والمراد: أنه صار ظنهم أنهم لو لم يخرجوا ما قتلوا حسرة، أو متعلقة بقوله: ﴿لَا تَكُونُوا﴾ أي: لا تكونوا مثلهم في اعتقاد ذلك؛ ليجعله الله حسرة في قلوبهم، فقط دون قلوبكم، وقيل: المعنى لا تلتفتوا إليهم؛ ليجعل الله عدم التفاتكم إليهم حسرة في قلوبهم، وقيل المراد: حسرة في قلوبهم يوم القيامة لما فيه من الخزي، والندامة: ﴿وَاللَّهُ يَخْبِي وَيَعِيتُ﴾ فيه رد على قولهم، أي: ذلك بيد الله سبحانه يصنع ما يشاء، ويحكم ما يريد، فيخبي من يريد، ويميت من يريد من غير أن يكون للسفر، أو الغزو أثر في ذلك، واللام في قوله: ﴿وَلَنْ قُتِلْتُمْ﴾ موطن. وقوله: ﴿لَمْغْفِرَةً﴾ جواب

الغلول، واجتنباه، ومن بآء بسخط من الله بسبب إقدامه على الغلول. ثم أوضح ما بين الطائفتين من التفات، فقال: ﴿هم درجات عند الله﴾ أي: متفاوتون في الدرجات، والمعنى: هم نواجر درجات، أو لهم درجات، فدرجات من أتبع رضوان الله ليست كدرجات من بآء بسخط من الله، فإن الأولين في أرفع الدرجات. والآخرين في أسفلها. قوله: ﴿لقد من الله على المؤمنين﴾ جواب قسم محذوف، وخص المؤمنين لكونهم المنتفعين ببعثته. ومعنى: ﴿من أنفسهم﴾ أنه عربي مثلهم، وقيل: بشر مثلهم، ووجه المنة على الأول: أنهم يفقهون عنه، ويفهمون كلامه، ولا يحتاجون إلى ترجمان ومعناها على الثاني: أنهم يأنسون به بجامع البشرية، ولو كان ملكاً لم يحصل كمال الانس به لاختلاف الجنسية، وقرئ: ﴿من أنفسهم﴾ بفتح الفاء، أي: من أشرفهم، لأنه من بني هاشم، وبني هاشم أفضل قریش، وقریش أفضل العرب، والعرب أفضل من غيرهم، ولعل وجه الامتنان على هذه القراءة أنه لما كان من أشرفهم كانوا أطوع له، وأقرب إلى تصديقه، ولا بد من تخصيص المؤمنين في هذه الآية بالعرب على الوجه الأول، وأما على الوجه الثاني، فلا حاجة إلى هذا التخصيص، وكذا على قراءة من قرأ بفتح الفاء لا حاجة إلى التخصيص، لأن بني هاشم هم أنفس العرب، والعجم في شرف الأصل، وكرم النجار، ورفاعة المحدث، ويدل على الوجه الأول قوله تعالى: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم﴾ [الجمعة: 2] وقوله: ﴿وإنه لنكر لك ولقومك﴾ [الزخرف: 44]. قوله: ﴿يتلو عليهم آياته﴾ هذه مئة ثانية، أي: يتلو عليهم القرآن بعد أن كانوا أهل جاهلية لا يعرفون شيئا من الشرائع ﴿ويذكهم﴾ أي: يطهر من نجاسة الكفر، وهذه الجملة معطوفة على الجملة الأولى، وهما في محل نصب على الحال، أو صفة لرسول، وهكذا قوله: ﴿ويعلمهم الكتاب﴾، والمراد بالكتاب هنا: القرآن. والحكمة: السنة. وقد تقدم في البقرة تفسير ذلك: ﴿وإن كانوا من قبل﴾ أي: من قبل محمد، أو من قبل بعثته: ﴿لفي ضلال مبين﴾ أي: واضح لا ريب فيه، واللام للفرق بين إن المخففة من الثقيلة، وبين النافية، فهي تدخل في خبر المخففة لا النافية، واسمها ضمير الشأن، أي: وإن الشأن، والحديث، وقيل: إنها النافية، واللام بمعنى إلا، أي: وما كانوا من قبل إلا في ضلال مبين، وبه قال للكوفيون، والجملة على التقديرين في محل نصب على الحال.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض﴾ الآية، قال: هذا قول عبد الله بن أبي بن سلول، والمنافقين. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن المنذر، عن مجاهد في قوله: ﴿ليجعل الله تلك حسرة في قلوبهم﴾ قال: يحزنهم قولهم، ولا ينفعهم شيئا. وأخرجوا عن قتادة في قوله: ﴿فبما رحمة من

العلم والدين. قوله: ﴿فإذا عزم فتوكل على الله﴾ أي: إذا عزم عقب المشاورة على شيء، وأطمأنت به نفسك، فتوكل على الله في فعل ذلك، أي: اعتمد عليه، وفوض إليه؛ وقيل: إن المعنى: فإذا عزم على أمر أن تمضي فيه، فتوكل على الله لا على المشاورة. والعزم في الأصل: قصد الإمضاء، أي: فإذا قصدت إمضاء أمر، فتوكل على الله. وقرأ جعفر الصادق، وجابر بن زيد: ﴿فإذا عزمته﴾ بضم التاء بنسبة العزم إلى الله تعالى، أي: فإذا عزمته لك على شيء، وأرشدت إليه، فتوكل على الله. وقوله: ﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم﴾ جملة مستأنفة لتأكيد التوكل، والحث عليه. والخذلان: ترك العون، أي: وإن يترك الله عونكم: ﴿فمن ذا الذي ينصركم من بعده﴾ وهذا الاستفهام إنكاري. والضمير في قوله: ﴿من بعده﴾ راجع إلى الخذلان المملول عليه بقوله: ﴿وإن يخذلكم﴾ أو إلى الله، ومن علم أنه لا ناصر له إلا الله سبحانه، وإن من نصره الله لا غالب له، ومن خذله لا ناصر له، فوض أموره إليه، وتوكل عليه، ولم يشتغل بغيره، وتقديم الجار والمجرور على الفعل في قوله: ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ لإفادة قصره عليه. قوله: ﴿وما كان لنبي أن يغفل﴾ أي: ما صح له ذلك لتناهي الغلول، والنبوة: قال أبو عبيد: الغلول من المغنم خاصة، ولا نراه من الخيانة، ولا من الحقد، ومما يبين ذلك أنه يقال: من الخيانة أغل يغفل، ومن الحقد غل يغفل بالكسر، ومن الغلول غل يغفل بالضم، يقال غل المغنم غلولا، أي: خان بأن يأخذ لنفسه شيئا يستره على أصحابه، فمعنى الآية على القراءة بالبناء للمفاعل: ما صح لنبي أن يخون شيئا من المغنم، فيأخذ لنفسه من غير اطلاع أصحابه. وفيه تنزيه الأنبياء عن الغلول. ومعناها على القراءة بالبناء للمفعول: ما صح لنبي أن يغله أحد من أصحابه أي: يخونه في الغنمية، وهو على هذه القراءة الأخرى نهى للناس عن الغلول في المغنم، وإنما خص خيانة الأنبياء مع كون خيانة غيرهم من الأئمة، والسلاطين، والأمراء حراما، لأن خيانة الأنبياء أشد ذنباً، وأعظم وزراً ﴿ومن يغفل يات بما غل يوم القيامة﴾ أي: يات به حاملاً له على ظهره، كما صح ذلك عن النبي ﷺ، فيفضحه بين الخلائق، وهذه الجملة تتضمن تأكيد تحريم الغلول، والتنفير منه بأنه ذنب يختص فاعله بعقوبة على رؤوس الأشهاد يطلع عليها أهل المحشر وهي: مجيئه يوم القيامة بما غله حاملاً له قبل أن يحاسب عليه، ويعاقب عليه. قوله: ﴿ثم توفي كل نفس ما كسبت﴾ أي: تعطى جزاء ما كسبت وإقياً من خير وشر، وهذه الآية تتم كل من كسب خيراً، أو شراً، ويبخل تحتها الغلال دخلاً أولياً لكون السياق فيه. قوله: ﴿فمن أتبع رضوان الله كمن بآء بسخط من الله﴾ الاستفهام للإنكار، أي: ليس من أتبع رضوان الله في أوامره، ونواهيه، فعمل بأمره، واجتنب نهييه كمن بآء أي: رجع بسخط عظيم كائن من الله بسبب مخالفته لما أمر به، ونهى عنه. ويدخل تحت ذلك من أتبع رضوان الله بترك

حال، وقيل: إن المراد بقوله: ﴿هو من عند أنفسكم﴾ خروجهم من المدينة. ويرد أن الوعد بالنصر إنما كان بعد ذلك؛ وقيل: هو اختيارهم الفداء يوم بدر على القتل، و﴿يوم التقى الجمعان﴾ يوم أحد، أي: ما أصابكم يوم أحد من القتل، والجرح، والهزيمة ﴿فبإذن الله﴾ فبعلمه، وقيل: بقضائه، وقدره، وقيل: بتخليته بينكم، وبينهم، والفاء دخلت في جواب الموصول لكونه يشبه الشرط، كما قال سيبويه. وقوله: ﴿وليعلم المؤمنين﴾ عطف على قوله: ﴿فبإذن الله﴾ عطف سبب على سبب. وقوله: ﴿وليعلم الذين نافقوا﴾ عطف على ما قبله، قيل: أعاد الفعل لقصد تشريف المؤمنين عن أن يكون الفعل المسند إليهم، وإلى المنافقين، واحداً. والمراد بالعلم هنا: التمييز والإظهار؛ لأن علمه تعالى ثابت قبل ذلك، والمراد بالمنافقين هنا: عبد الله بن أبي وأصحابه. وقوله: ﴿وقيل لهم﴾ هو معطوف على قوله: ﴿نافقوا﴾ أي: ليعلم الله الذين نافقوا، والذين قيل: لهم، وقيل هو كلام مبتدأ أي: قيل لعبد الله بن أبي، وأصحابه ﴿تعالوا قتلوا في سبيل الله﴾ إن كنتم ممن يؤمن بالله، واليوم الآخر ﴿أو ابقوا﴾ عن أنفسكم إن كنتم لا تؤمنون بالله، واليوم الآخر، فأبوا جميع ذلك، وقالوا: لو نعلم أنه سيكون قتلاً لا تتبعناكم، وقاتلنا معكم، ولكنه لا قتال هنالك؛ وقيل المعنى: لو كنا نقدر على القتال، ونحسنه لا تتبعناكم، ولكننا لا نقدر على ذلك، ولا نحسنه. وعبر عن نفي القدرة على القتال بنفي العلم به لكونها مستلزماً له، وفيه بعد لا ملجئ إليه، وقيل معناه: لو نعلم ما يصح أن يسمى قتلاً لا تتبعناكم، ولكن ما أنتم بصدده ليس بقتال، ولكنه إلقاء بالنفس إلى التهلكة، لعدم القدرة منا، ومنكم على دفع ما ورد من الجيش بالبروز إليهم، والخروج من المدينة، وهذا أيضاً فيه بعد نون بعد ما قبله، وقيل: معنى النفع هنا تكثير سواد المسلمين، وقيل: معناه رباطوا، والقائل للمنافقين هذه المقالة التي حكاها الله سبحانه: هو عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري، والد جابر بن عبد الله. قوله: ﴿هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان﴾ أي: هم في هذا اليوم الذي انخلوا فيه عن المؤمنين إلى الكفر أقرب منهم إلى الإيمان عند من كان يظن أنهم مسلمون؛ لأنهم قد بينوا حالهم، وهتكوا أستارهم، وكشفوا عن نفاقهم إذ ذاك، وقيل المعنى: أنهم لأهل الكفر يومئذ أقرب نصرة منهم لأهل الإيمان. قوله: ﴿يقولون باقواهم ما ليس في قلوبهم﴾ جملة مستأنفة مقررة لمضمون ما تقدمها، أي: أنهم أظهروا الإيمان، وأبطنوا الكفر، وذكر الأقواء للتأكيد، مثل قوله: ﴿يطير بجناحيه﴾ [الأنعام: 38]. قوله: ﴿الذين قالوا لإخوانهم﴾ الخ، أي: هم الذين قالوا لإخوانهم على أنه خير مبتدأ محذوف، ويجوز أن يكون بدلاً من واو يكتمون، أو منصوباً على الذم، أو وصف للذين نافقوا. وقد تقدم معنى: ﴿قالوا لإخوانهم﴾ أي: قالوا لهم ذلك، والحال أن هؤلاء القائلين قد قعدوا عن القتال: ﴿لو اطاعونا﴾ بترك الخروج

الله، يقول: فبرحمة من الله: ﴿لنت لهم﴾. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس في قوله: ﴿لأنفضوا من حولك﴾ قال: لأنصرفوا عنك. وأخرج ابن عدي، والبيهقي في الشعب، قال السيوطي بسند حسن عن ابن عباس: قال: لما نزلت: ﴿وشاورهم في الأمر﴾ قال رسول الله ﷺ: «أما إن الله ورسوله لغنيان عنها، ولكن الله جعلها رحمة لأمتي، فمن استشار منهم لم يعدم رشداً، ومن تركها لم يعدم غيياً». وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس: ﴿وشاورهم في الأمر﴾. قال: أبو بكر وعمر. وأخرج ابن مريويه، عن عليّ قال: «سئل رسول الله ﷺ عن العزم، فقال: مشاورة أهل الرأي، ثم اتباعهم». وأخرج عبد بن حميد، وأبو داود، والترمذي وحسنه، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية: ﴿وما كان لنبي أن يغفل﴾ في قطيفة حمراء افتقدت يوم بدر، فقال بعض الناس: لعل رسول الله ﷺ أخذها، فنزلت. وأخرج البزار، وابن أبي حاتم، والطبراني، عن ابن عباس: ﴿وما كان لنبي أن يغفل﴾ قال: ما كان لنبي أن يتهمه أصحابه. وقد ورد في تحريم الغلول أحاديث كثيرة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، من طريق العوفي عن ابن عباس: ﴿هم درجات عند الله﴾ يقول: بأعمالهم. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في شعب الإيمان، عن عائشة في قوله: ﴿ولقد من الله على المؤمنين﴾ الآية، قالت: هذه للعرب خاصة.

أَوْ لَمَّا أَصَابَكُمْ مِصْبِيَّةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ إِنَّ هَذَا قُلٌ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَوِيٌّ ﴿١٧٠﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّنْقِ الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِسْتُمْ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ وَلَعَلَّكُمْ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَنَالُوا فَتُقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا أَوْ تَنَالُوا لَاتُصْنَعُكُمْ هُمْ لِيُكَفَّرَ بِوَجْهِهِمْ أَقْرَبُ يَتَنَبَّهٌ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَنفُسِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٧٢﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا أَوْ آتَاوُنَا مَا قَاتِلُوا قُلٌ قَادَرُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧٣﴾

قوله: ﴿أو لما أصابتكم مصيبة﴾ الالف للاستفهام بقصد التقرع، والواو للعطف. والمصيبة: الغلبة، والقتل الذي أصيبوا به يوم أحد: ﴿قد أصبتم مثلها﴾ يوم بدر، وذلك أن الذين قتلوا من المسلمين يوم أحد سبعون، وقد كانوا قتلوا من المشركين يوم بدر سبعين، وأسروا سبعين، فكان مجموع القتلى، والأسرى يوم بدر مثلي القتلى من المسلمين يوم أحد، والمعنى: أحيان أصابكم من المشركين نصف ما أصابهم منكم قبل ذلك جزعتم، وقتلتم من أين أصابنا هذا؟ وقد وعدنا بالنصر. وقوله: ﴿إني هذا﴾ أي: من أين أصابنا هذا الانهزام، والقتل، ونحن نقاتل في سبيل الله، ومعنا رسول الله ﷺ، وقد وعدنا الله بالنصر عليهم. وقوله: ﴿قل هو من عند أنفسكم﴾ أمر لرسول الله ﷺ بأن يجيب عن سؤالهم بهذا الجواب، أي: هذا الذي سألتم عنه هو من عند أنفسكم بسبب مخالفة الرماة لما أمرهم به النبي ﷺ من لزوم المكان الذي عينه لهم، وعدم مفارقتهم له على كل

من المدينة ما قتلوا، فردَّ الله ذلك عليهم بقوله: ﴿قُلْ فَادْرَؤُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ والدرء: الدفع، أي: لا ينفع الحذر من القدر، فإنَّ المقتول يقتل بأجله.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿أَوَلَمَّْا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ﴾ الآية. يقول: إنكم قد أصبتم من المشركين يوم بدر مثلي ما أصابوا منكم يوم أحد، وقد بين هذا عكرمة. فأخرج ابن جرير عنه قال: قتل المسلمون من المشركين يوم بدر سبعين، وأسروا سبعين، وقتل المشركون يوم أحد من المسلمين سبعين. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الحسن في الآية قال: لما رأوا من قتل منهم يوم أحد قالوا من أين هذا؟ ما كان للكفار أن يقتلوا منا، فلما رأى الله ما قالوا من ذلك، قال الله: هم بالأسرى الذين أخذتم يوم بدر. فردَّهم الله بذلك، وعجل لهم عقوبة ذلك في الدنيا ليسلموا منها في الآخرة، ويؤيد هذا ما أخرجه ابن أبي شيبة، والترمذي وحسنه، والنسائي، وابن جرير، وابن مريويه، عن عليّ قال: جاء جبريل إلي النبي ﷺ، فقال: يا محمد إن الله قد كره ما صنع قومك في أخذهم الأسارى، وقد أمرك أن تخيرهم بين أمرين: إما أن يقدموا، فتضرب أعناقهم، وبين أن يأخذوا الفداء على أن تقبل منهم عندهم، فدعا رسول الله ﷺ الناس، فنكر ذلك لهم، فقالوا: يا رسول الله عشانرنا، وإخواننا لا بل نأخذ، فداءهم، فنقوى به على قتال عدونا، ويستشهد منا عندهم، فليس في ذلك ما نكره، فقتل منهم يوم أحد سبعون رجلاً عدة أسارى أهل بدر. وهذا الحديث في سنن الترمذي، والنسائي هو من طريق أبي داود الحفري عن يحيى بن زكريا بن أبي زائدة، عن سفيان بن سعيد، عن هشام بن حسان، عن محمد بن سيرين، عن عبيدة عن عليّ: قال الترمذي بعد إخرجه: حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن أبي زائدة. وروى أبو أسامة عن هشام نحوه. وروى عن ابن سيرين، عن عبيدة، عن النبي ﷺ رسلاً، وإسناد ابن جرير لهذا الحديث هكذا: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا إسماعيل بن عليه، عن ابن عون ح قال سنيد، وهو حسين، وحدثني حجاج، عن جرير، عن محمد، عن عبيدة، عن عليّ فنكره. وأخرج ابن أبي حاتم، من طريق أبي بكر بن أبي شيبة، حدثنا قراد بن نوح، حدثنا عكرمة بن عمار، حدثنا سماك الحنفي أبو زميل، حدثني ابن عباس، عن عمر بن الخطاب قال: لما كان يوم أحد من العام المقبل عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء، فقتل منهم سبعون وفرَّ أصحاب محمد ﷺ عنه، وكسرت رباعيته، وهشمت البيضة على رأسه، وسال الدم على وجهه، فأنزل الله عز وجل: ﴿أَوَلَمَّْا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ﴾ الآية. وأخرجه الإمام أحمد من طريق عبد الرحمن بن غزوان، وهو قراد بن نوح به، ولكن باطول منه، ولكنه يشكل على حديث التخيير السابق ما نزل من المعاتبه منه سبحانه وتعالى لمن أخذ الفداء بقوله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يَتُخَذَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنفال: 67] وما روى من

بكاؤه ﷺ، هو وأبو بكر ندماً على أخذ الفداء، ولو كان أخذ ذلك بعد التخيير لهم من الله سبحانه لم يعاتبهم عليه، ولا حصل ما حصل من النبي ﷺ، ومن معه من الندم، والحزن، ولا صوب النبي ﷺ رأي عمر رضي الله عنه، حيث أشار بقتل الأسرى، وقال ما معناه: لو نزلت عقوبة لم ينج منها إلا عمر، والجميع في كتب الحديث، والسير. وأخرج ابن المنذر، عن ابن عباس: ﴿قُلْتُمُنِي هَذَا﴾ ونحن مسلمون نقاتل غضباً لله، وهؤلاء مشركون. فقال: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ عقوبة لكم بمعصيتكم النبي ﷺ حين قال لا تتبعوهم. وأخرج ابن المنذر عنه في قوله: ﴿أَوَّا انْفِعُوا﴾ قال: كثروا بأنفسكم، وإن لم تقتلوا. وأخرج أيضاً، عن الضحاك نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن أبي عون الأنصاري في قوله: ﴿أَوَّا انْفِعُوا﴾ قال: رابطوا. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن شهاب وغيره قال: خرج رسول الله ﷺ إلى أحد في ألف رجل من أصحابه، حتى إذا كانوا بالشوط بين أحد، والمدينة انخزل عنهم عبد الله بن أبي بلثث الناس، وقال: أطاعهم، وعصاني، والله ما تدري على ما نقتل أنفسنا ههنا؟ فرجع بمن اتبعه من أهل التفاق، وأهل الريب، واتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام من بني سلمة يقول: يا قوم أترككم الله أن تخذلوا نبيكم، وقومكم عند ما حضرهم عدوهم، قالوا: لو نعلم أنكم تقتلون ما أسلمناكم، ولا نرى أن يكون قتال. وأخرجه ابن إسحاق قال: حدثني محمد بن شهاب الزهري، ومحمد بن يحيى بن حبان، وعاصم بن عمر بن قتادة، والحسين بن عبد الرحمن بن عمر بن سعد بن معاذ، وغيرهم من علمائنا، فنكره، وزاد أنهم: لما استعصوا عليه، وأبوا إلا الانصراف قال: أبعدكم الله أعداء الله فسيغني الله عنكم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قَتَالًا لَا تَبْعُنَاكُمْ﴾ قال: لو نعلم أنا واجدون معكم مكان قتال لا تبعنكم.

وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٥٧﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ. وَكَسْبَتِيرُونَ وَالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٥٨﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَيْزُ عَظِيمٌ ﴿١٥٩﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٦٠﴾ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ لَمْ يَسْسُمْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَهُ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٦١﴾ إِنَّمَا ذَلِكَ الْكَيْدُ لِلْيَكُوفِ أَوَّلِيَاءَهُمْ فَلَا تَحْزَنُوا لَهُمْ وَتَأْوِيلُكُمْ أَنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٦٢﴾

لما بين الله سبحانه أن ما جرى على المؤمنين يوم أحد كان امتحاناً لتمييز المؤمن من المنافق، والكاذب من الصانع، بين ههنا أن من لم ينهزم، وقتل فله هذه الكرامة، والنعمة، وأن مثل هذا مما يتنافس فيه المتنافسون، لا مما يخاف،

ويحزنر، كما قالوا من حكى الله عنهم: ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران: 156] وقالوا: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران: 168] فهذه الجملة مستأنفة لبيان هذا المعنى، والخطاب لرسول الله ﷺ، أو لكل أحد، وقرئ بآلية التحية، أي: لا يحسبن حاسب.

وقد اختلف أهل العلم في الشهداء المذكورين في هذه الآية من هم؟ فقيل: في شهداء أحد، وقيل: في شهداء بدر، وقيل: في شهداء بئر معونة. وعلى فرض أنها نزلت في سبب خاص، فالاعتبار بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب. ومعنى الآية عند الجمهور: أنهم أحياء حياة محقة. ثم اختلفوا فمنهم من يقول: أنها ترد إليهم أرواحهم في قبورهم، فينتعمون. وقال مجاهد: يرزقون من ثمر الجنة، أي: يجنون ريحها، وليسوا فيها. وذهب من عدا الجمهور إلى أنها حياة مجازية، والمعنى: أنهم في حكم الله مستحقون للثمن في الجنة، والصحيح الأول، ولا موجب للمصير إلى المجاز. وقد وردت السنة المطهرة بأن أرواحهم في أجواف طيور خضر، وأنهم في الجنة يرزقون، ويأكلون، ويتمتعون. وقوله: ﴿الَّذِينَ قُتِلُوا﴾ هو: المفعول الأول. والحاسب هو النبي ﷺ، أو كل أحد، كما سبق، وقيل: يجوز أن يكون الموصول هو: فاعل الفعل، والمفعول الأول محذوف، أي: لا تحسبن الذين قتلوا أنفسهم أمواتاً، وهذا تكلف لا حاجة إليه، ومعنى النظم القرآني في غاية الوضوح، والجلاء. وقوله: ﴿بَلْ أحيَاء﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: بل هم أحياء. وقرئ بالنصب على تقدير الفعل، أي: بل أحسبهم أحياء. وقوله: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ إما خبر ثان، أو صفة لأحياء، أو في محل نصب على الحال، وقيل: في الكلام حذف، والتقدير: عند كرامة ربهم. قال سيبويه: هذه عنية الكرامة لا عنية القرب. وقوله: ﴿يُرْزَقُونَ﴾ يحتمل في إعرابه الوجه الذي نكرناها في قوله: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ والمراد بالرزق هنا: هو الرزق المعروف في العادات على ما ذهب إليه الجمهور، كما سلف، وعند من عدا الجمهور المراد به: الثناء الجميل، ولا وجه يقتضي تحريف الكلمات العربية في كتاب الله تعالى، وحملها على مجازات بعيدة، لا لسبب يقتضي ذلك. وقوله: ﴿فَرَحِينَ﴾ حال من الضمير في يرزقون، وبما آتاهم الله من فضله متعلق به. وقرأ ابن السميع: ﴿فَارَحِينَ﴾ وهما لغتان كالفره والفاره، والحز والحز. والمراد: ﴿بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ﴾ ما ساقه الله إليهم من الكرامة بالشهادة، وما صاروا فيه من الحياة، وما يصل إليهم من رزق الله سبحانه. ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ من إخوانهم المجاهدين الذين لم يقتلوا إذ ذاك. فالمراد باللاحق هنا: أنهم لم يلحقوا بهم في القتل، والشهادة، بل سيلحقون بهم من بعد. وقيل المراد: لم يلحقوا بهم في الفضل، وإن كانوا أهل فضل في الجملة، والواو في: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ﴾ عاطفة على: ﴿يُرْزَقُونَ﴾ أي: يرزقون، ويستبشرون، وقيل المراد: بإخوانهم هنا جميع المسلمين الشهداء، وغيرهم؛ لأنهم لما

عابنوا ثواب الله، وحصل لهم اليقين بحقية بين الإسلام استبشروا بذلك لجميع أهل الإسلام الذين هم أحياء لم يموتوا، وهذا أقوى، لأن معناه أوسع، وفائدته أكثر، واللفظ يحتمله بل هو الظاهر، وبه قال الزجاج، وابن فورك. وقوله: ﴿أَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ بدل من الذين، أي: يستبشرون بهذه الحالة الحاصلة لإخوانهم من أنه لا خوف عليهم، ولا حزن، وإن هي: المخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن المحذوف، وكرر قوله: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ لتأكيد الأول، ولبيان أن الاستبشار ليس لمجرد عدم الخوف، والحزن، بل به، وبنعمة الله، وفضله. والنعمة: ما ينعم الله به على عباده. والفضل: ما يتفضل به عليهم، وقيل النعمة: الثواب، والفضل الزائد، وقيل: النعمة الجنة، والفضل داخل في النعمة نكر بعدها لتأكيدهما، وقيل: إن الاستبشار الأول متعلق بحال إخوانهم، والاستبشار الثاني بحال أنفسهم. قوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَضيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قرأ الكسائي بكسر الهمزة من أن، وقرأ الباقون بفتحها فعلى القراءة الأولى هو: مستأنف اعتراض. وفيه دلالة على أن الله لا يضيع أجر شيء من أعمال المؤمنين، ويؤيده قراءة ابن مسعود، والله لا يضيع أجر المؤمنين. وعلى القراءة الثانية الجملة عطف على فضل داخلة في جملة ما يستبشرون به. وقوله: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا﴾ صفة للمؤمنين، أو بدل منهم، أو من الذين لم يلحقوا بهم، أو هو مبتدأ خبره: ﴿الَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرَ عَظِيمٍ﴾ بجملة، أو منصوب على المدح، وقد تقدم تفسير القرطبي. قوله: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ المراد بالناس هنا: نعيم بن مسعود، كما سيأتي بيانه، وجاز إطلاق لفظ الناس عليه لكونه من جنسهم، وقيل المراد بالناس: ركب عبد القيس الذين مروا بأبي سفيان، وقيل هم: المنافقون. والمراد بقوله: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ أبو سفيان، وأصحابه، والضمير في قوله: ﴿فَزَادَهُمْ﴾ راجع إلى القول المملول عليه، يقال، أو إلى المقول، وهو: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ أو إلى القائل، والمعنى: أنهم لم يفشلوا لما سمعوا ذلك، ولا التفقوا إليه، بل أخلصوا لله، وازدادوا طمأنينة، ويقيناً. وفيه دليل على أن الإيمان يزيد، وينقص. قوله: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ حسب مصدر حسبه، أي: كفاه، وهو بمعنى الفاعل، أي: محسب بمعنى كافي. قال في الكشف: والدليل على أنه بمعنى المحسب أنك تقول: هذا رجل حسبك، فتصف به النكرة؛ لأن إضافته لكونه بمعنى اسم الفاعل غير حقيقية. انتهى. والوكيل هو من توكل إليه الأمور، أي: نعم الموكل إليه أمرنا، أو الكافي، أو الكافل، والمخصوص بالمدح محذوف، أي: نعم الوكيل الله سبحانه. قوله: ﴿فَانْقَلَبُوا﴾ هو: معطوف على محذوف، أي: فخرجوا إليهم، فانقلبوا بنعمة هو: متعلق بمحذوف وقع حالا. والتنوين للتعظيم، أي: رجعوا متلبسين: ﴿بِنِعْمَةٍ﴾ عظيمة، وهي السلامة من عدوهم، وعافية ﴿وَفُضِّلَ﴾ أي: أجر تفضل الله

به عليهم؛ وقيل ربح في التجارة؛ وقيل: النعمة خاصة بمنافع الدنيا، والفضل بمنافع الآخرة، وقد تقدم تفسيرهما قريباً بما يناسب ذلك المقام لكون الكلام فيه مع الشهداء الذين قد صاروا في الدار الآخرة، والكلام هنا مع الأحياء. قوله: ﴿لم يمسسهم سوء﴾ في محل نصب على الحال، أي: سالمين عن سوء لم يصيبهم قتل، ولا جرح، ولا ما يخافونه ﴿واتبعوا رضوان الله﴾ في ما ياتون، وينزون، ومن ذلك خروجهم لهذه الغزوة ﴿والله ذو فضل عظيم﴾ لا يقاير قدره، ولا يبلغ مداه، ومن تفضله عليهم تثبتهم، وخروجهم للقاء عوهم، وإرشادهم إلى أن يقولوا هذه المقالة التي هي جالبة لكل خير، ودافعة لكل شر. قوله: ﴿إنما نلکم﴾ أي: المئبوط لكم أيها المؤمنون ﴿الشيطان﴾ هو: خبر اسم الإشارة، ويجوز أن يكون الشيطان صفة لاسم الإشارة، والخبر قوله: ﴿يخوف أوليائه﴾ جملة مستأنفة، أو حالية، والظاهر أن المراد هنا: الشيطان نفسه باعتبار ما يصدر منه من الوسوسة المقتضية للتبسط، وقيل المراد به: نعيم بن مسعود لما قال لهم تلك المقالة، وقيل: أبو سفيان لما صدر منه الوعيد لهم؛ والمعنى أن الشيطان يخوف المؤمنين أوليائه، وهم الكافرون، وقيل: إن قوله: ﴿أوليائه﴾ منصوب بنزع الحافض أي: يخوفكم بأوليائه، أو من أوليائه، قاله للفراء، والزجاج، وأبو علي الفارسي. ورده ابن الأنباري بأن التخويف قد يتعدى بنفسه إلى مفعولين، فلا ضرورة إلى إضمار حرف الجر. وعلى قول الفراء، ومن معه يكون مفعول يخوف محذوفاً، أي: يخوفكم. وعلى الأول يكون المفعول الأول محذوفاً، والثاني منكوراً، ويجوز أن يكون المراد: أن الشيطان يخوف أوليائه، وهم القاعدون من المنافقين، فلا حذف. قوله: ﴿فلا تخافوهم﴾ أي: أوليائه الذين يخوفكم بهم الشيطان، أو فلا تخافوا الناس المذكورين في قوله: ﴿إن للناس قد جمعوا لكم﴾ نهاهم سبحانه عن أن يخافوهم، فيجبنوا على اللقاء، ويفشلوا عن الخروج، وأمرهم بأن يخافوه سبحانه، فقال: ﴿وخافون﴾ فافعلوا ما أمركم به، وتركوا ما أنهاكم عنه لأنني الحقيق بالخوف مني، والمراقبة لأمري، ونهيي لكون الخير، والشر بيدي، وقيده بقوله: ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ لأن الإيمان يقتضي ذلك.

إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا، وفي لفظ: «قالوا من يبلغ إخواننا أنا أحياء في الجنة نرزق لثلاً يزهدوا في الجهاد، ولا ينكلوا عن الحرب، فقال الله: أنا أبلغهم عنكم، فانزل الله هؤلاء الآيات: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا﴾ الآية وما بعدها، وأخرج الترمذي وحسنه، وابن ماجه، وابن خزيمة، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مريويه، والبيهقي في الدلائل، عن جابر بن عبد الله: أن أباه سأل الله سبحانه أن يبلغ من وراءه ما هو فيه، فنزلت هذه الآية، وهو من قتلى أحد. وقد روى من وجوه كثيرة أن سبب نزول الآية قتلى أحد. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن أنس: أن سبب نزول هذه الآية قتلى بشر معونة، وعلى كل حال، فالآية باعتبار عموم لفظها يدخل تحتها كل شهيد، وقد ثبت في أحاديث كثيرة في الصحيح، وغيره أن أرواح الشهداء في أجواف طيور خضر، وثبت في فضل الشهداء ما يطول تعداده، ويكثر إيراده مما هو معروف في كتب الحديث. وأخرج النسائي، وابن ماجه، وابن أبي حاتم، والطبراني بسند صحيح، عن ابن عباس قال: لما رجع المشركون عن أحد قالوا: لا محمداً قتلتم، ولا الكواعب أرفتم بثس ما صنعتم ارجعوا، فسمع رسول الله ﷺ بذلك، فنذب المسلمين، فانتدبوا حتى بلغ حمراء الأسد، أو بئر أبي عتبة، شك سفيان، فقال المشركون: يرجع من قابل، فرجع رسول الله ﷺ فكانت تعد غزوة، فانزل الله سبحانه: ﴿الذين استجابوا لله والرسول﴾ الآية. وأخرج البخاري، ومسلم وغيرهما عن عائشة في قوله تعالى: ﴿الذين استجابوا لله والرسول﴾ الآية، أنها قالت لعروة بن الزبير: يا بن أختي كان أبواك منهم: الزبير، وأبو بكر، لما أصاب نبي الله ﷺ ما أصاب يوم أحد انصرف عنه المشركون خائف أن يرجعوا، فقال: من يرجع في أثرهم؟ فانتدب منهم سبعون فيهم أبو بكر، والزبير. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، والبيهقي في الدلائل عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال: خرج رسول الله ﷺ بجمراء الأسد، وقد أجمع أبو سفيان بالرجعة إلى رسول الله ﷺ، وأصحابه، وقالوا: رجعنا قبل أن نستأصلهم لنكزن على بقيتهم، فبلغه أن النبي ﷺ خرج في أصحابه يطلبهم، فثنى ذلك أبو سفيان، وأصحابه، ومر ركب من عبد القيس، فقال لهم أبو سفيان: بلغوا محمداً أنا قد أجمعنا الرجعة على أصحابه؛ لنستأصلهم؛ فلما مرَّ الركب برسول الله ﷺ بجمراء الأسد أخبروه بالذي قال أبو سفيان، فقال رسول الله ﷺ، والمسلمون معه: حسبنا الله، ونعم الوكيل، فانزل الله في ذلك: ﴿الذين استجابوا لله والرسول﴾ الآية. وأخرج موسى بن عقبة في مغازيه، والبيهقي في الدلائل، عن ابن شهاب قال: إن رسول الله ﷺ استنفر المسلمين لموعده أبي سفيان بداراً. فاحتمل الشيطان أوليائه من الناس، فمشوا في الناس يخوفونهم، وقالوا: إنا قد أخبرنا أن قد جمعوا لكم من الناس مثل الليل يرجون أن يواقعوكم. والروايات في هذا

وقد أخرج الحاكم وصححه، عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله﴾ في حمزة، وأصحابه. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد عن أبي الضحى أنها نزلت في قتلى أحد، وحمزة منهم. أخرج عبد بن حميد، وأبو داود، وابن جرير، والحاكم وصححه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتاكل من ثمارها، وتأتي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم، ومشربهم، وحسن مقيلمهم قالوا: يا ليت

مثل قول ابن عباس. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الحسن: إنما كان ذلك تخويف الشيطان، ولا يخاف الشيطان إلا ولي الشيطان.

وَلَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَمْ عَذَابُ عَظِيمٍ ﴿٧٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَمْ يَكْفُرُوا بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَلَهُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ ﴿٧٨﴾ وَلَا يَحْزَنُ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ تِلْكَ حَيْرٌ لَّا تُفْهِمُهُمْ إِنَّمَا تِلْكَ لَمْ يَزِدَّاوًا إِلَّا سَاءَ وَلَهُمْ عَذَابُ شَدِيدٍ ﴿٧٩﴾ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِقَكُمْ عَلَى التَّيِّبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْزِي مَنْ تَضَلَّ عَنْ يَتْلُوهُ مَنْ يَتْلُوهُ قَائِمًا وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَنْ تُوَفَّقُوا لِلْكَفْرِ أَتَرُ عَظِيمٌ ﴿٨٠﴾ وَلَا يَحْزَنُ الَّذِينَ يَبْغُلُونَ بِمَا أَنْهَنَّهُمُ اللَّهُ مِنْ تَضَلُّوهِمْ هُوَ خَيْرٌ لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَغُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَرَبُّ يَمِيزُ الْتَقْوَى وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨١﴾

قوله: ﴿وَلَا يَحْزَنُكَ﴾ قرأ نافع بضم الباء، وكسر الزاي، وقرأ ابن محيصن بضم الباء، والزاي، وقرأ الباقون بفتح الباء، وضم الزاي، وهما لغتان، يقال: حزني الأمر، وحزنتني، والاولى اقصح. وقرأ طلحة: ﴿يُسْرِعُونَ﴾ قيل: هم قوم ارتكبوا، فاغتم النبي ﷺ لذلك، فسلاه الله سبحانه، ونهاه عن الحزن، وعلل ذلك بأنهم لن يضرروا الله شيئاً، وإنما ضروا أنفسهم بأن لا حظ لهم في الآخرة، ولهم عذاب عظيم، وقيل: هم كفار قريش، وقيل: هم المنافقون، وقيل: هو عام في جميع الكفار. قال القشيري، والحزن على كفر الكافر طاعة، ولكن النبي ﷺ كان يفرط في الحزن، فنهى عن ذلك، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ﴾ [فاطر: 8] ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسُكَ عَلَى أَثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: 6] وعدى السارعون بفي نون إلى للدلالة على أنهم مستقرون فيه مقيمون لملايسته، ومثله يسارعون في الخيرات. وقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً﴾ تحليل للنهي، والمعنى: أن كفرهم لا ينقص من ملك الله سبحانه شيئاً، وقيل المراد: لن يضرروا أوليائه، ويحتمل أن يراد لن يضرروا دينه الذي شرعه لعباده، وشيئاً منصوب على المصدرية أي: شيئاً من الضرر، وقيل: منصوب بنزع الخافض: أي بشيء. والخط: النصيب. قال أبو زيد: يقال رجل حظيظ إذا كان ذا حظ من الرزق، والمعنى أن الله يريد أن لا يجعل لهم نصيباً في الجنة، أو نصيباً من الثواب، وصيغة الاستقبال للدلالة على نوام الإرادة، واستمرارها ﴿وَلَهُمْ عَذَابُ عَظِيمٍ﴾ بسبب مسارعهم في الكفر، فكان ضرر كفرهم عائداً عليهم جالباً لهم عدم الحظ في الآخرة، ومصيرهم في العذاب العظيم. قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ أي: استبدلوا الكفر بالإيمان، وقد تقدم تحقيق هذه الاستعارة: ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً﴾ معناه كالأول، وهو للتأكيد لما تقدمه، وقيل: إن الأول خاص بالمنافقين، والثاني يعم جميع الكفار، والأول أولى. قوله:

الباب كثيرة قد اشتملت عليها كتب الحديث، والسير. وأخرج ابن المنذر، عن سعيد بن جبير قال: للقرح الجراحات. وأخرج ابن جرير، عن السدي أن أبا سفيان، وأصحابه لقوا أعرابياً، فجعلاً له جعلاً على أن يخبر النبي ﷺ، وأصحابه أنهم قد جمعوا لهم، فأخبر النبي ﷺ بذلك، فقال هو، والصحابه: حسبنا الله، ونعم الوكيل، ثم رجعوا من حمراء الأسد، فأنزل الله فيهم، وفي الأعرابي: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ الآية. وأخرج ابن مردويه، عن أبي رافع أن هذا الأعرابي من خزاعة.

وقد ورد في فضل هذه الكلمة أعني: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ أحاديث منها ما أخرجه ابن مردويه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا وقعت في الأمر العظيم، فقولوا: حسبنا الله، ونعم الوكيل، قال ابن كثير بعد إخراجها: هذا حديث غريب من هذا الوجه. وأخرج أبو نعيم، عن شداد بن أوس قال: قال النبي ﷺ: «حسبي الله، ونعم الوكيل، أمان كل خائف». وأخرج ابن أبي الدنيا في الذكر، عن عائشة: «إن النبي ﷺ كان إذا اشتد غمه مسح يديه على رأسه، ولحيته، ثم تنفس الصعداء، وقال: حسبي الله، ونعم الوكيل». وأخرج البخاري، وغيره عن ابن عباس قال: حسبنا الله، ونعم الوكيل، قالها إبراهيم حين ألقي في النار، وقالها محمد حين قالوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾. وأخرج أحمد، وأبو داود، والنسائي، عن عوف بن مالك أنه حدثهم: «أن النبي ﷺ قضى بين رجلين، فقال المقضي عليه لما أكبر: حسبي الله، ونعم الوكيل، فقال رسول الله ﷺ: ربوا علي الرجل، فقال: ما قلت؟ قال: قلت: حسبي الله، ونعم الوكيل، فقال رسول الله ﷺ: إن الله يلوم على العجز، ولكن عليك بالكيس، فإذا غلبك أمر، فقل: حسبي الله، ونعم الوكيل». وأخرج أحمد، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف أتعلم، وصاحب القرن قد التقم القرن، وحنى جبهته يسمع متى يؤمر، فينفخ؟ ثم أمر الصحابة أن يقولوا حسبنا الله، ونعم الوكيل على الله توكلائه وهو حديث جيد. وأخرج البيهقي في الدلائل، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ﴾ وفضل: قال: النعمة أنهم سلموا، والفضل أن عيراً مَرَّتْ، وكان في أيام الموسم، فاشتراها رسول الله ﷺ، فربح مالا، فقسمه بين أصحابه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في الآية قال: الفضل ما أصابوا من التجارة، والأجر. وأخرج ابن جرير، عن السدي قال: أما النعمة: فهي العافية، وأما الفضل: فالتجارة، والسوء: القتل. أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن طريق العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿لَمْ يَمَسُّهُمْ سُوءٌ﴾ قال: لم يؤذهم أحد: ﴿وَاتَّبَعُوا رِضْوَانُ اللَّهِ﴾ قال: أطاعوا الله، ورسوله. وأخرج ابن جرير، عن طريق العوفي عنه في قوله: ﴿إِنَّمَا تِلْكَ حَيْرٌ لِلشَّيْطَانِ يَخُوفُ أَولِيَائِهِ﴾ قال: يقول الشيطان يخوف بأوليائه. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن أبي مالك قال: يعظم أوليائه في أعينكم. وأخرج ابن المنذر، عن عكرمة

في الأصلاب، والأرحام، أي: ما كان الله ليذر أولادكم على ما أنتم عليه حتى يفرق بينكم، وبينهم، وقيل: الخطاب للمؤمنين، أي: ما كان الله؛ ليترككم يا معشر المؤمنين على ما أنتم عليه من الاختلاط بالمنافقين حتى يميز بينكم، وعلى هذا الوجه، والوجه الثاني يكون في الكلام التفات. وقرئ: **﴿يُمَيِّزُ﴾** بالتشديد للمخفف، من ماز الشيء يميزه مِيزاً إذا فرق بين شيئين، فإن كانت أشياء قيل: ميزه تمييزاً **﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾** حتى تميزوا بين الطيب والخبيث، فإنه المستأثر بعلم الغيب لا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول من رسله يجتبي، فيطلعه على شيء من غيبه، فيميز بينكم، كما وقع من نبينا ﷺ من تعيين كثير من المنافقين، فإن ذلك كان بتعليم الله له، لا بكونه يعلم الغيب؛ وقيل المعنى: وما كان الله ليطلعكم على الغيب في من يستحق النبوة، حتى يكون الوحي باختياركم **﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُجْتَبِي﴾** أي: يختار **﴿مَنْ رُسُلَهُ مِنْ يَشَاءُ﴾**. قوله: **﴿فَأَمْنُوا بِآلِهِ وَرُسُلِهِ﴾** أي: افعلوا الإيمان المطلوب منكم، ودعوا الاشتغال بما ليس من شأنكم من التطلع لعلم الله سبحانه: **﴿وَإِنْ تَوَمَّنْوا﴾** بما نكر **﴿وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ﴾** عوضاً عن ذلك: **﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾** لا يعرف قدره، ولا يبلغ كنهه. قوله: **﴿وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خِيراً لَهُمْ﴾** الموصول في محل رفع على أنه فاعل الفعل على قراءة من قرأ بالياء التحتية، والمفعول الأول محنوف، أي: لا يحسبن الباخلون البخل خيراً لهم. قاله الخليل، وسيبويه، والفراء، قالوا: وإنما حذف لدلالة يبخلون عليه، ومن ذلك قول الشاعر:

إذا نهى السفيفه جرى إليه وخالف والسفيفه إلى خلاف
أي: جرى إلى السفيفه، فالسفيفه دل على السفيفه. وأما على قراءة من قرأ بالفوقية، فالفعل مسند إلى النبي ﷺ، والمفعول الأول محنوف، أي: لا تحسبن يا محمد بخل الذين يبخلون خيراً لهم. قال الزجاج: هو: مثل **﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ﴾** [يوسف: 82] والضمير المذكور هو ضمير الفصل. قال المبرد: والسين في قوله: **﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ﴾** سين الوعيد، وهذه الجملة مبنية لمعنى قوله: **﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ﴾** قيل: ومعنى التطويق هنا أنه يكون ما بخلوا به من المال طوقاً من نار في أعناقهم، وقيل معناه: أنه سيجملون عقاب ما بخلوا به، فهو من الطاقة، وليس من التطويق، وقيل المعنى: أنهم يلزمون أعمالهم، كما يلزم الطوق العنق، يقال: طوق فلان عمله طوق الحمامة أي: ألزم جزاء عمله، وقيل: إن ما لم تؤد زكاته من المال يمثل له شجاعاً أقرع حتى يطوق به في عنقه، كما ورد ذلك مرفوعاً إلى النبي ﷺ قال القرطبي: والبخل في اللغة أن يمنع الإنسان الحق الواجب، فأما من منع ما لا يجب عليه، فليس ببخل. قوله: **﴿وَنُفِثَ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾** أي: له وحده لا لغيره، كما يفيد التقديم. والمعنى: أن له ما فيهما مما يتوارثه أهلها، فما بالهم يبخلون بذلك، ولا ينفقونهم، وهو الله سبحانه لا لهم،

﴿وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ﴾ قرأ ابن عامر، وعاصم، وغيرهما: **﴿يَحْسِبَنَّ﴾** بالياء التحتية، وقرأ حمزة بالفوقية، والمعنى على الأولى: لا يحسبن الكافرون أنما نملئ لهم بطول العمر، ورغد العيش، أو بما أصابوا من الظفر يوم أحد **﴿خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ﴾** فليس الأمر كذلك بل إنما نملئ لهم ليزدادوا إثماً. ولهم عذاب مهين. وعلى القراءة الثانية: لا تحسبن يا محمد أن الإملاء للذين كفروا بما نكر خير لأنفسهم، بل هو شر واقع عليهم، ونازل بهم، وهو أن الإملاء الذي نملئهم لهم؛ ليزدادوا إثماً، فالموصول على القراءة الأولى فاعل الفعل، وإنما نملئ، وما بعده ساد مسد مفعولي الحسبان عند سيبويه، أو ساد مسد أحدهما، والآخر محنوف عند الأخفش. وأما على القراءة الثانية، فقال الزجاج: إن الموصول هو: المفعول الأول، وإنما وما بعدها بدل من الموصول ساد مسد المفعولين، ولا يصح أن يكون أنما، وما بعده هو المفعول الثاني؛ لأن المفعول الثاني في هذا الباب هو: الأول في المعنى. وقال أبو علي الفارسي: لو صح هذا لكان خيراً بالنصب؛ لأنه يصير بدلاً من الذين كفروا، فكانه قال: لا تحسبن إملاء الذين كفروا خيراً. وقال الكسائي، والفراء: إنه يقدر تكرير الفعل كأنه قال: ولا تحسبن الذين كفروا، ولا تحسبن أنما نملئ لهم، فسدت مسد المفعولين. وقال في الكشف: فإن قلت كيف صح مجيء البذل، ولم ينكر إلا أحد المفعولين، ولا يجوز الاختصار بفعل الحسبان على مفعول واحد؟ قلت: صح ذلك من حيث أن التعويل على البذل، والمبدل منه في حكم المنحي، ألا تراك تقول جعلت متاعك بعضه فوق بعض مع امتناع سكوتك على متاعك. انتهى. وقرأ يحيى بن وثاب: **﴿إِنَّمَا نُمَلِي﴾** بكسر إن فيهما، وهي قراءة ضعيفة باعتبار العربية. وقوله: **﴿إِنَّمَا نُمَلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً﴾** جملة مستأنفة مبنية لوجه الإملاء للكافرين. وقد احتج الجمهور بهذه الآية على بطلان ما تقوله المعتزلة؛ لأنه سبحانه أخبر بأنه يطيل أعمار الكفار، ويجعل عيشهم رغداً؛ ليزدادوا إثماً. قال أبو حاتم: وسمعت الأخفش ينكر كسر: **﴿إِنَّمَا نُمَلِي﴾** الأولى، وفتح الثانية، ويحتج بذلك لأهل القدر؛ لأنه منهم، ويجعله على هذا التقدير: ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملئ لهم؛ ليزدادوا إثماً أنما نملئ لهم خير لأنفسهم. وقال في الكشف: إن ازدياد الإثم علة، وما كل علة بعرض ألا تراك تقول: قعدت عن الغزو للعجز، والفاقة، وخرجت من البلد لمخافة الشر، وليس شيء يعرض لك، وإنما هي علل، وأسباب. قوله: **﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيُذِلَّ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾** كلام مستأنف، والخطاب عند جمهور المفسرين للكفار، والمنافقين، أي: ما كان الله ليذل المؤمنين على ما أنتم عليه من الكفر، والنفاق **﴿حَتَّى يُمَيِّزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾** وقيل: الخطاب للمؤمنين، والمنافقين، أي: ما كان الله؛ ليترككم على الحال التي أنتم عليه من الاختلاط حتى يميز بعضكم من بعض؛ وقيل: الخطاب للمشركين. والمراد بالمؤمنين من

وقد كان داب بنو إسرائيل أنهم كانوا يقرّبون القربان، فيقوم النبي، فيدعو، فتنتل نار من السماء، فتحرقه، ولم يتعبده الله بذلك كل أنبيائه، ولا جعله ليلياً على صدق دعوى النبوة، ولهذا ردّ الله عليهم، فقال: ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ﴾ من القربان ﴿قُلْ قَدْ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ صَافِقِينَ﴾ كيجيى بن زكريا وشعيا، وسائر من قتلوا من الأنبياء. والقربان: ما يتقرب به إلى الله من نسيسة، وصنقة، وعمل صالح، وهو فعلا من القربة؛ ثم سلى الله رسوله ﷺ بقوله: ﴿فَإِنْ كَذِبُكَ فَقَدْ كَذَبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا﴾ بمثل ما جئت به من البيّنات. والزبر جمع زبور: وهو الكتاب، وقد تقدم تفسيره ﴿وَالْكِتَابَ الْمُنِيرِ﴾ الواضح الجلي المضيء، يقال نار الشيء، وأثار، ونوره، واستناره بمعنى.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: نخل أبو بكر بيت المدراس، فوجد يهود قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له: فنحاص، وكان من علمائهم، وأخبارهم. فقال أبو بكر: ويحك يا فنحاص لتق الله وأسلم، فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله تجبونه مكتوباً عنكم في التوراة، فقال فنحاص: والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر، وإنه إلينا لفقير، وما نتضرع إليه، كما يتضرع إلينا، وإننا عنه لا غنىء، ولو كان غنياً عنا ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم، ينهاكم عن الربا، ويعطينا، ولو كان غنياً عنا ما أعطانا الربا، فغضب أبو بكر، فضرب وجه فنحاص ضربة شديدة، وقال: والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا وبينكم لضربت عنقك يا عبث الله، فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد انظر ما صنع صاحبك بي، فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: ما حملك على ما صنعت؟ فقال: يا رسول الله قال قولاً عظيماً، يزعم أن الله فقير، وأنهم عنه أغنياء، فلما قال ذلك غضبت له مما قال، فضربت وجهه، فجدد فنحاص فقال: ما قلت ذلك، فأنزل الله فيما قال فنحاص تصديقاً لأبي بكر: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا﴾ الآية، ونزل في أبي بكر، وما بلغه في ذلك من الغضب ﴿وَلَتَسْمَعُنَ مِنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ وَمَنِ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَى كَثِيرًا﴾ [آل عمران: 186] الآية. وقد أخرج هذه القصة ابن جرير، وابن المنذر، عن عكرمة، وأخرجها ابن جرير، عن السدي بأخصر من ذلك. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، والضياء في المختارة من طريق سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: أتت اليهود محمداً ﷺ حين أنزل الله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يقرض الله قرضاً حسناً﴾ [البقرة: 245] فقالوا: يا محمد أفتقرير ربك يسأل عباده القرض؟ فأنزل الله الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة: أن القائل لهذه المقالة حي بن أخطب، وأنها نزلت فيه. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن العلاء بن بدير أنه سئل عن قوله: ﴿وَقَتْلِهِمُ الْإِنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ وهم: لم يتركوا ذلك، قال: بموالاتهم من قتل الأنبياء. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَنْ أَلَّهِ لَيْسَ بِظُلَامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ قال: ما أنا بمعذب من لم يجترم. وأخرج ابن

المنذر، وابن أبي حاتم، عن الضحاك في قوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهْدُ إِلَيْنَا﴾ قال: هم اليهود. وأخرج ابن أبي حاتم، من طريق العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿حَتَّى يَأْتِيَنا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ [التوبة: 30] قال: يتصدق الرجل منا، فإذا تقبل منه أنزلت عليه النار من السماء، فأكثته. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الحسن في قوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهْدُ إِلَيْنَا﴾ قال: كذبوا على الله. وأخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ قال: للحلال، والحرام ﴿وَالزَّبِيرِ﴾ قال: كتب الأنبياء ﴿وَالْكِتَابَ الْمُنِيرِ﴾ قال: هو القرآن.

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُ أجُورَكُمْ يَوْمَ الْيَوْمِ فَمَنْ زُجِرَ عَنِ الْكَارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَّعٌ الشُّرُورِ ﴿١٥٥﴾ تَبَلَّوْكَ فِي أَنْوَالِكُمْ وَأَنْصَحَكُمْ وَلْتَمَسَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَنِ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَى كَبِيرًا وَلَنْ تُصِيرُوا فَتَقَوَّاءَ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٥٦﴾ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَّ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَكُوا بِهِمُ مِمَّا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿١٥٧﴾ لَمْ تَحْشَبْ إِلَيْهِمْ يَقْرَحُونَ مِمَّا آتَوْا وَمُجْرِبُونَ أَنْ يَحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسِبْنَهُمْ بِمَقَارِفٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ وَوَيْلٌ لَكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَوِيرٌ ﴿١٥٩﴾ قوله: ﴿ذَائِقَةُ﴾ من التوق، ومنه قول أمية بن أبي الصلت:

من لم يمت غبطة يمت هرماً الموت كاس والمرء ذائقها وهذه الآية تتضمن الوعد، والوعيد للمصلق، والمكذب بعد إخباره، عن الباخلين القائلين ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾. وقرأ الأعمش، ويحيى بن وثاب، وابن أبي إسحاق: ﴿ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ بالتثنية ونصب الموت. وقرأ الجمهور بالإضافة. قوله: ﴿وَأَمَّا تَوْفُونُ أَجُورِكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أجر المؤمن: الثواب، وأجر الكافر: العقاب أي: أن توفية الأجور، وتكميلها إنما تكون في ذلك اليوم، وما يقع من الأجور في الدنيا، أو في البرزخ، فإنما هو بعض الأجور، والرحمة: التنحية، والإبعاد: تكرير الزح، وهو الجذب بعجلة، قاله في الكشف، وقد سبق الكلام عليه، أي: فمن بعد عن النار يومئذ، ونحى، فقد فاز، أي: ظفر بما يريد، ونجا مما يخاف، وهذا هو الفوز الحقيقي الذي لا فوز يقاربه، فإن كل فوز، وإن كان بجميع المطالب نون الجنة ليس بشيء بالنسبة إليها اللهم لا فوز إلا فوز الآخرة، ولا عيش إلا عيشها، ولا نعيم إلا نعيمها، فاغفر لنوبنا، واستر عيوبنا، وأرض عنا رضا لا سخط بعده، واجمع لنا بين الرضا منك علينا، والجنة. والمتاع: ما يتمتع به الإنسان، وينتفع به، ثم يزول، ولا يبقى كذا قال أكثر المفسرين. الغرور: الشيطان يغرر الناس بالأماني الباطلة، والمواعيد الكاذبة، شبه سبحانه الدنيا بالمتاع الذي ينلس به على من يريده، وله ظاهر محبوب، وباطن مكروه. قوله: ﴿تَلْبَلُونَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْتُمْ سَاهُونَ﴾ هذا الخطاب للنبي ﷺ، وأمثه تسلية لهم عما سيلقونه من الكفرة، والفسقة: ليوطنوا أنفسهم على الثبات، والصبر على

فرحهم، والمفعول الثاني بمفاضة من العذاب. وقوله: ﴿فَلا تحسبنهم﴾ تأكيد للفعل الأوّل على القراءتين، والمفاضة: المنجاة، مفعلة من فاز يفوز إذا نجا، أي: ليسوا بفائزين، سمي موضع الخوف مفاضة على جهة التفاضل قاله الأصمعي. وقيل: لأنها موضع تفويض، ومظنة هلاك، تقول العرب: فوّز الرجل إذا مات. قال ثعلب: حكيت لابن الأعرابي قول الأصمعي، فقال خطأ. قال لي أبو المكارم: إنما سميت مفاضة: لأن من قطعها فاز. وقال ابن الأعرابي: بل لأنه مستسلم لما أصابه. وقيل المعنى: لا تحسبنهم بمكان بعيد من العذاب: لأن الفوز التباعده عن المكروه. وقرأ مروان بن الحكم، والأعمش، وإبراهيم النخعي: «أتواء بالمد، أي: يفرحون بما أعطوا. وقرأ جمهور القراء السبعة، وغيرهم «أتواء» بالقصر.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وهناد، وعبد بن حميد، والترمذي وصححه، وابن حبان، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها، أقرؤوا إن شئتم: ﴿فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع لغرور﴾». وأخرج ابن مريويه، عن سهل بن سعد مرفوعاً نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن الزهري في قوله: ﴿ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ قال: هو كعب بن الأشرف، وكان يحرض المشركين على رسول الله ﷺ، وأصحابه في شعره. وأخرج ابن المنذر، عن طريق الزهري، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك مثله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن جريج في الآية قال: يعني: اليهود والنصارى، فكان المسلمون يسمعون من اليهود قولهم: ﴿عزيز ابن الله﴾ [يوسف: 82]، ومن النصارى قولهم: ﴿المسيح ابن الله﴾ [البقرة: 167] ﴿وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور﴾ قال: من القوة مما عزم الله عليه، وأمرهم به. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، عن ابن عباس في قوله: ﴿وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس﴾ قال: فنحاص، وأشيح، وأشباههما من الأخبار. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن طريق العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس﴾ قال: كان الله أمرهم أن يتبعوا النبي الأمي. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه في الآية قال: في التوراة والإنجيل أن الإسلام بين الله الذي افترضه على عباده، وأن محمداً رسول الله يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة، والإنجيل، فنبؤوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة في الآية قال: هم اليهود: ﴿لتبيننه للناس﴾ قال: محمداً ﷺ. وأخرج ابن جرير، عن السدي مثله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة في الآية قال: هذا ميثاق أخذ الله على أهل العلم، فمن علم علماً،

المكاره، والابتلاء: الامتحان، والاختبار، والمعنى: لتمتحنن، ولتختبرن في أموالكم بالمصائب، والإنفاقات الواجبة، وسائر التكاليف الشرعية المتعلقة بالأموال. والابتلاء في الأنفس بالموت، والأمراض، وفقد الأحباب، والقتل في سبيل الله. وهذه الجملة جواب قسم محذوف نلت عليه اللام الموطئة ﴿ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ وهم: اليهود والنصارى. ﴿ومن الذين لشركوا﴾ وهم سائر الطوائف الكفرية من غير أهل الكتاب: ﴿إذى كثيراً﴾ من الطعن في دينكم، وأعراضكم، والإشارة بقوله: ﴿فإن ذلك﴾ إلى الصبر، والتقوى المنلول عليهما بالفعلين. وعزم الأمور: معزوماتها، أي: مما يجب عليكم أن تعزموا عليه لكونه عزمة من عزمات الله التي أوجب عليهم القيام بها، يقال عزم الأمر، أي: شدّه، وأصلحه. قوله: ﴿وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب﴾ هذه الآية توبيخ لأهل الكتاب وهم: اليهود والنصارى، أو اليهود فقط على الخلاف في ذلك، والظاهر أن المراد بأهل الكتاب: كل من أتاه الله علم شيء من الكتاب، أي: كتاب كان، كما يفيد التعريف الجنسي في الكتاب. قال الحسن، وقاتدة: إن الآية عامة لكل عالم، وكذا قال محمد بن كعب، ويدل على ذلك قول أبي هريرة: لولا ما أخذ الله على أهل الكتاب ما حدثكم بشيء، ثم تلا هذه الآية، والضمير في قوله: ﴿لتبيننه﴾ راجع إلى الكتاب، وقيل: راجع إلى النبي ﷺ، وإن لم يتقدم له نكر؛ لأن الله أخذ على اليهود والنصارى أن يبينوا نبوته للناس، ولا يكتموها ﴿فنبؤوه﴾ وراء ظهورهم. وقرأ أبو عمرو، وعاصم في رواية أبي بكر، وأهل المدينة: «لتبيننه» بالياء التحتية، وقرأ الباقر بالمثناة الفوقية. وقرأ ابن عباس: ﴿وإذا أخذ الله ميثاق النبيين لتبيننه﴾ [التوبة: 30] ويشكل على هذه القراءة قوله: ﴿فنبؤوه﴾ فلا بد من أن يكون فاعله الناس. وفي قراءة ابن مسعود: «لتبينونه» والنبذ: الطرح، وقد تقدم في البقرة. وقوله: ﴿وراء ظهورهم﴾ مبالغة في النبذ، والطرح، وقد تقدم أيضاً معنى قوله: ﴿ولشركوا به نعماً قليلاً﴾ والضمير عائد إلى الكتاب الذي أمروا ببيانه، ونهوا عن كتمانها، وقوله: ﴿نعمناً قليلاً﴾ أي: حقيراً يسيراً من حطام الدنيا، وأعراضها، قوله: ﴿فنبس ما يشترون﴾ ما نكرة منصوبة مفسرة لفاعل نبس، ويشترون صفة، والمخصوص بالنم محذوف، أي: نبس شيئاً يشترونه بذلك الثمن. قوله: ﴿لا تحسبن الذين يفرحون﴾ قرأ الكوفيون بالتاء الفوقية، والخطاب لرسول الله ﷺ، أو لكل من يصلح له. وقوله: ﴿بما أتوا﴾ أي: بما فعلوا. وقد اختلف في سبب نزول الآية، كما سيأتي، والظاهر شمولها لكل من حصل منه ما تضمنته عملاً بعموم اللفظ، وهو المعتبر بون خصوص السبب، فمن فرح بما فعل، وأحب أن يحمده الناس بما لم يفعل، فلا تحسبنه بمفاضة من العذاب. وقرأ نافع، وابن عامر، وابن كثير، وأبو عمرو: «لا يحسبن» بالياء التحتية، أي: لا يحسن الفارحون فرحهم منجياً لهم من العذاب، فالمفعول الأوّل محذوف، وهو

إلى الإيمان الذي لا تزلزله الشبهة، ولا تدفعه التشكيكات. قوله: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ الموصول نعت لأولي الألباب، وقيل: هو مفصول عنه خبر مبتدأ محذوف، أو منصوب على المدح. والمراد بالذكر هنا: ذكره سبحانه في هذه الأحوال من غير فرق بين حال الصلاة، وغيرها. وذهب جماعة من المفسرين إلى أن الذكر هنا عبارة عن الصلاة، أي: لا يضيعونها في حال من الأحوال، فيصلونها قِيَامًا مع عدم العذر، وقُعُودًا، وعلى جنوبهم مع العذر. قوله: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ معطوف على قوله: ﴿يَذْكُرُونَ﴾ وقيل: إنه معطوف على الحال، أعني: ﴿قِيَامًا وَقُعُودًا﴾ وقيل: إنه منقطع عن الأول، والمعنى: أنهم يتفكرون في بديع صنعهما، وإتقانها مع عظم أجرامها، فإن هذا الفكر إذا كان صالحًا، أوصلهم إلى الإيمان بالله سبحانه. قوله: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا﴾ هو على تقدير القول، أي: يقولون ما خلقت هذا عبثًا، ولهوا، بل خلقته لئلا على حكمتك، وقدرتك. والباطل: الزائل الذاهب، ومنه قول لبيد:

الأكل شيء ما خلا الله باطل

وهو منصوب على أنه صفة لمصدر محذوف، أي: خلقًا باطلًا، وقيل: منصوب بنزع الخافض، وقيل: هو مفعول ثان، وخلق بمعنى: جعل، أو منصوب على الحال، والإشارة بقوله: ﴿هَذَا﴾ إلى السموات والأرض، أو إلى الخلق على أنه بمعنى المخلوق. قوله: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ أي: تنزيهاً لك عما لا يليق بك من الأمور التي من جملتها أن يكون خلقك لهذه المخلوقات باطلاً. وقوله: ﴿فَقُنَّا عَذَابَ النَّارِ﴾ الفاء لترتيب هذا الدعاء على ما قبله. وقوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخُلُ النَّارَ فَقَدْ اخْرَيتَهُ﴾ تأكيد لما تقدم من استدعاء الوقاية من النار منه سبحانه، وبين للسبب الذي لأجله دعاه عباده بأن يقيهم عذاب النار، وهو أن من أدخله النار، فقد أخراه، أي: أنله، وأمانه. وقال المفضل: معنى اخْرَيتَهُ أهلكته، وأنشد:

أخزى الإله بني الصليب عنيزة واللابسين ملابس الرهبان
وقيل: معناه: فضحته، وأبعدته، يقال: أخزاه الله: أبعده ومقته، والاسم الخزي. قال ابن السكيت: خزي يخزي خزيًا: إذا وقع في بلية. قوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾ المنادي عند أكثر المفسرين هو النبي ﷺ، وقيل: هو القرآن، وأوقع السماع على المنادي مع كون المسموع هو النداء: لأنه قد وصف المنادي بما يسمع، وهو قوله: ﴿يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمَنُوا﴾. وقال أبو علي الفارسي: إن «ينادي» هو المفعول الثاني ونكر ينادي مع أنه قد فهم من قوله: ﴿مُنَادِيًا﴾ قصد التأكيد، والتفخيم لشأن هذا المنادي به، واللام في قوله: ﴿لِلْإِيمَانِ﴾ بمعنى إلى، وقيل: إن ينادي يتعدى باللام، وبإلى، يقال ينادي لكذا، وينادي إلى كذا، وقيل: اللام لليلة، أي: لأجل الإيمان. قوله: ﴿أَنْ آمَنُوا﴾ هي: إما تفسيرية، أو مصدرية، وأصلها بأن آمنوا، فحذف حرف الجر. قوله: ﴿فَأَمَّا﴾ أي: امتثلنا ما يأمر به هذا المنادي من

فليعلمه للناس، وإليك وكتمان العلم، فإن كتمان العلم هلكة. وأخرج ابن سعد عن الحسن قال: لولا الميثاق الذي أخذه الله على أهل العلم ما حدثتكم بكثير مما تسألون عنه. وأخرج البخاري، ومسلم وغيرهما: أن مروان قال لبوابه: اذهب يا رافع إلى ابن عباس، فقل: لئن كان كل امرئ منا فرح بما أوتي وأحب أن يحمد بما لم يفعل معنيًا؛ لنعنين أجمعين، فقال ابن عباس: ما لكم ولهذه الآية، إنما أنزلت في أهل الكتاب، ثم تلا: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ لُوتُوا الْكِتَابَ﴾ الآية، قال ابن عباس: سألهم النبي ﷺ عن شيء، فكتموه إياه، وأخبروه بغيره، فخرجوا، وقد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه، واستحمدا بذلك إليه، وفرحوا بما أتوا من كتمان ما سألهم عنه. وفي البخاري، ومسلم، وغيرهما، عن أبي سعيد الخدري: أن رجلاً من المنافقين كلوا إذا خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو تخلفوا عنه، وفرحوا بمقدمهم خلاف رسول الله ﷺ فإذا قدم رسول الله ﷺ من الغزو اعتنروا إليه، وحلفوا، وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا، فنزلت. وقد روى أنها نزلت في فحاص، وإشيع، وأشباهها. ودوي أنها نزلت في اليهود. وأخرج مالك، وابن سعد، والطبراني، والبيهقي في الدلائل، عن محمد بن ثابت أن ثابت بن قيس قال: يا رسول الله لقد خشيت أن أكون قد هلكت قال: لم؟ قال: قد نهانا الله أن نحب أن نحمد بما لم نفعل، وأجديني أحب الحمد، ونهانا عن الخيلاء، وأجديني أحب الجمال، ونهانا أن نرفع أصواتنا فوق صوتك، وأنا رجل جهير الصوت، فقال: يا ثابت ألا ترضى أن تعيش حميدًا، وتقتل شهيدًا، وتدخل الجنة؟ فعاش حميدًا، وقتل شهيدًا يوم مسيطة الكذاب. وأخرج ابن المنذر، عن الضحاك في قوله: ﴿بِمَغَافَةٍ﴾ قال بمغاة. وأخرج ابن جرير، عن ابن زيد مثله.

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ قَوْلًا عَذَابَ الثَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخُلُ النَّارَ فَقَدْ اخْرَيتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمَنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مِنَ الْأَكْبَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَإِنَّا مَا وَعَدْنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا نَخْرَأُ يَوْمَ الْفِتْنَةِ إِنَّكَ لَا تَخْلُفُ الْوَعْدَ ﴿١٩٤﴾

قوله: ﴿إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ﴾ هذه جملة مستأنفة لتقرير اختصاصه سبحانه بما ذكره فيها. والمراد ذات السموات، والأرض، وصفاتهما: ﴿وَلِخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي: تعاقبهما، وكون كل واحد منهما يخلف الآخر، وكون زيادة أحدهما في نقصان الآخر، وتفاوتهما طولًا، وقصرًا، وحرًا، وبردًا وغير ذلك: ﴿آيَاتٍ﴾ أي: دلالات واضحة، وبراهين بينة تدل على الخالق سبحانه. وقد تقدم تفسير بعض ما هنا في سورة البقرة. والمراد بأولي الألباب: أهل العقول الصحيحة الخالصة، عن شوائب النقص، فإن مجرد التفكير فيما قصه الله في هذه الآية يكفي العاقل، ويوصله

قتادة في الآية قال: هذه حالاتك كلها يابن آدم، انكر الله، وانت قائم، فإن لم تستطع، فانكره جالساً، فإن لم تستطع جالساً، فانكره، وانت على جنبك، يسر من الله، وتخفيف.

وأقول هذا التقييد الذي ذكره بعدم الاستطاعة مع تعميم الذكر لا وجه له لا من الآية، ولا من غيرها، فإنه لم يرد في شيء من الكتاب، والسنة ما يدل على أنه لا يجوز الذكر من قعود إلا مع عدم استطاعة الذكر من قيام، ولا يجوز على جنب إلا مع عدم استطاعته من قعود، وإنما يصلح هذا التقييد لمن جعل المراد بالذكر هنا: الصلاة، كما سبق عن ابن مسعود. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن حبان في صحيحه، وابن مردويه، عن عائشة مرفوعاً: ويل لمن قرأ هذه الآية، ولم يتفكر فيها. وأخرج ابن أبي الدنيا في التفكر عن سفيان رفعه «من قرأ آخر سورة آل عمران، فلم يتفكر فيها، ويله فعدّ أصابعه عشراً». قيل للوزاعي: ما غاية التفكر فيها؟ قال: يقرؤهن، وهو يعقلهن. وقد رويت أحاديث، وأثار عن السلف في استحباب التفكير مطلقاً. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن أنس في قوله: «**من تدخل النار فقد لخزيته**» قال: من تدخل. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن سعيد بن المسيب في الآية قال: هذه خاصة بمن لا يخرج منها. وأخرج ابن جرير، والحاكم، عن عمرو بن دينار قال: قدم علينا جابر بن عبد الله في عمرة، فانتبهت إليه أنا، وعطاء فقلت: «**وما هم بخارجين من النار**» قال: أخبرني رسول الله ﷺ أنهم الكفار، قلت لجابر: فقله: «**إنك من تدخل النار فقد لخزيته**» قال: وما لخزاه حين أحرقه بالنار، وإن دون ذلك خزيًا. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن جريج في قوله: «**هنايبا ينادي للإيمان**» قال: هو محمد ﷺ. وأخرج ابن جرير، عن ابن زيد مثله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن محمد بن كعب القرظي قال: هو القرآن، ليس كل أحد سمع النبي ﷺ. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن جريج في قوله: «**ربنا وآتينا ما وعدتنا على رسلك**» قال: يستنجزون موعد الله على رسله. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: «**ولا تخزننا يوم القيامة**» قال: لا تقضنا.

فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَابِدٍ مِّنْكُمْ ذَكَرَ أَوْ أُنْشِئَ بَعْضُكُمْ مِن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَّلُوا وَفُتِلُوا لَا أَكْفِرُهُنَّ عَنْهُمْ سِعَاتِهِمْ وَلَا أُعَذِّبُهُمْ حَتَّى تَجْرِيَ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَوَا مِن عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ الْوُثْقِ ﴿٢٠﴾

قوله: «**فاستجاب**» الاستجابة بمعنى: الإجابة؛ وقيل: الإجابة عامة، والاستجابة خاصة بإعطاء المسؤول، وهذا الفعل يتعدى بنفسه، وبالإلام، يقال استجاب، واستجاب له، والفاء للعطف؛ وقيل: على مقرر أي: دعوا بهذه

الإيمان فأمننا، وتكرير النداء في قوله: «**ربنا**» لإظهار التضرع، والخضوع، قيل المراد: بالذنوب هنا الكبائر، وبالسبب الصغائر. والظاهر عدم اختصاص أحد اللفظين بأحد الأمرين، والآخر بالآخر، بل يكون المعنى في الذنوب، والسبب واحد، والتكرير للمبالغة، والتأكيد، كما أن معنى الغفر، والكفر المستر. والأبرار جمع بار أو بر، وأصله من الاتساع، فكان البار متسع في طاعة الله، ومتسعة له رحمته، قيل: هم الأنبياء، ومعنى اللفظ أوسع من ذلك. قوله: «**ربنا وآتينا ما وعدتنا على رسلك**» هذا دعاء آخر والنكته في تكرير النداء ما تقدم، والموعود به على السن الرسل هو الثواب الذي وعد الله به أهل طاعته، ففي الكلام حذف، وهو لفظ الأسن، كقوله: «**واسأل القرية**» [آل عمران: 193] وقيل: المحذوف التصديق، أي: ما وعدتنا على تصديق رسلك، وقيل: ما وعدتنا منزلاً على رسلك، أو محمولاً على رسلك، والأول أولى. وصور هذا الدعاء منهم مع علمهم أن ما وعدهم الله به على السن رسله كائن لا محالة، إما لقصد التعجيل، أو للخضوع بالدعاء، لكونه مخ العادة، وفي قولهم: «**إنك لا تخلف الميعاد**» دليل على أنهم لم يخافوا خلف الوعد، وأن الحامل لهم على الدعاء هو ما نكرنا.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، عن ابن عباس قال: أتت قريش اليهود، فقالوا ما جاءكم به موسى من الآيات؟ قالوا عصاه، ويده بيضاء للناظرين، وآتوا النصراني، فقالوا: كيف كان عيسى فيكم؟ قالوا: كان يبصر الأكهم، والأبرص، ويحيي الموتى، فاتوا النبي ﷺ، فقالوا: ادع لنا ربك يجعل لنا الصفا ذهباً، فدعا ربه، فنزلت: «**إن في خلق السموات والأرض**» الآية. وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث ابن عباس قال: بث عند خالتي ميمونة، فنام رسول الله ﷺ حتى انتصف الليل، أو قبله بقليل، أو بعده بقليل، ثم استيقظ، فجعل يمسح النوم عن وجهه بيديه، ثم قرأ العشر الآيات الأواخر من سورة آل عمران حتى ختم. وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد المسند، والطبراني، والحاكم في الكنى، والبيهقي في معجم الصحابة، عن صفوان بن المعطل قال: كنت مع النبي ﷺ في سفر، فنكر نحوه، وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، من طريق جوبير، عن الضحك، عن ابن مسعود في قوله: «**الذين ينكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم**» الآية، قال: إنما هذه في الصلاة إذا لم يستطع قائماً، فقاعداً، وإن لم يستطع قاعداً، فعلى جنبه. وقد ثبت في البخاري من حديث عمران بن حصين قال: «كانت بي بواسير، فسألت النبي ﷺ عن الصلاة، فقال: صل قائماً، فإن لم تستطع، فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب». وثبت فيه عنه قال: «سألت رسول الله ﷺ، عن صلاة الرجل، وهو قاعد، فقال: من صلى قائماً، فهو أفضل، ومن صلى قاعداً، فله نصف أجر القائم، ومن صلى نائماً، فله نصف أجر القاعد». وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن

﴿فاستجاب لهم ربهم﴾. وأخرج ابن مردويه، عن أم سلمة قالت: آخر آية نزلت هذه الآية: ﴿فاستجاب لهم ربهم﴾ إلى آخرها. وقد ورد في فضل الهجرة أحاديث كثيرة.

لَا يَرْفَعُ قَلْبُكَ الَّذِينَ كَذَّبُوا فِي إِلَهٍ شَيْءٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿١٣٦﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ أَتَوْا رَبَّهُمْ فَقَدْ جَاءَتْهُمْ نَجْوَى مِنَ اللَّهِ نَهْيًا فَلَا تَنْهَى خَلِيلَكَ فِيهَا نُرُوءًا مِنَ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ حَزْرٌ إِلَّا رِجْرَاءُ ﴿١٣٧﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشَتَرُونَ بِمَا عَدَتْهُمُ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِسْرَءِيلَ سَرِيعَ الْحِسَابِ ﴿١٣٨﴾ يَأْتِيَهُمُ الْآيَةُ ؎ آمَنُوا أَصْبَرُوا وَصَابِرُوا وَرَاطِبُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٩﴾

قوله: ﴿لا يرفع قلبك﴾ خطاب للنبي ﷺ، والمراد: تثبितه على ما هو عليه، كقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا آمنوا﴾ [النساء: 136] أو خطاب لكل أحد، وهذه الآية متضمنة لقبح حال الكفار بعد نكر حسن حال المؤمنين؛ والمعنى: لا يرفعك ما هم فيه من تقلبهم في البلاد بالأسفار للتجارة التي يتوسعون بها في معاشهم، فهو متاع قليل يتمتعون به في هذه الدار، ثم مصيرهم إلى جهنم، فقول: ﴿متاع﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: هو متاع قليل لا اعتداد به بالنسبة إلى ثواب الله سبحانه ﴿وماواهم﴾ أي: ما يلوون إليه، والتقلب في البلاد: الاضطراب في الأسفار إلى الأمكنة، ومثله قوله تعالى: ﴿فلا يرفعك تقلبهم في البلاد﴾ [غافر: 4] والمتاع ما يعجل الانتفاع به، وسماه قليلاً؛ لأنه فان وكل فان وإن كان كثيراً، فهو قليل، وقوله: ﴿وبئس المهاد﴾ ما مهدوا لأنفسهم في جهنم بكفرهم، أو ما مهد الله لهم من النار، فالمخصوص بالندم محذوف، وهو هذا المقتر. قوله: ﴿لكن الذين اتقوا ربهم﴾ هو استتراك مما تقدم؛ لأن معناه معنى النفي كأنه قال: ليس لهم في تقلبهم في البلاد كثير انتفاع ﴿لكن الذين اتقوا﴾ لهم الانتفاع الكثير، والخلد الدائم. وقرأ يزيد بن القعقاع لكن بتشديد النون. قوله: ﴿نزلاً﴾ مصدر مؤكد عند البصريين، كما تقدم في «ثواب»، وعند الكسائي والفراء مثل ما قالوا في ثواب، والنزل ما يهيا للنزول، والجمع أنزال، قال الهروي: ﴿نزلاً من عند الله﴾ أي: ثواباً من عند الله ﴿وما عند الله﴾ مما أعده لمن أطاعه ﴿خير للابرار﴾ مما يحصل للكفار من الربح في الأسفار فإنه متاع قليل عن قريب يزول. قوله: ﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله﴾ هذه الجملة سقت لبيان أن بعض أهل الكتاب لهم حظ من الدين، وليسوا كسائرهم في فضائحهم التي حكاها الله عنهم فيما سبق، وفيما سيأتي، فإن هذا البعض يجمعون بين الإيمان بالله، وبما أنزل الله على نبيينا محمد ﷺ، وما أنزله على أنبيائهم حال كونهم ﴿خاشعين لله لا يشترون﴾ أي: يستبدلون ﴿بآيات الله ثمناً قليلاً﴾ بالتحريف، والتبديل، كما يفعله سائرهم، بل يحكون كتب الله سبحانه، كما هي، والإشارة بقوله: ﴿أولئك﴾ إلى هذه الطائفة الصالحة من

الأدعية، فاستجاب لهم، وقيل: على قوله: ﴿ويتفكرون﴾ وإنما نكر سبحانه الاستجابة، وما بعدها في جملة ما لهم من الأوصاف الحسنة؛ لأنها منه، إذ من أجيب دعوته، فقد رفعت درجته. قوله: ﴿إني لا اضيع عمل عامل منكم﴾ أي باني، وقرأ عيسى بن عمرو بكسر الهمزة على تقدير القول، وقرأ أبي بثبوت الباء، وهي للسببية، أي: فاستجاب لهم ربهم بسبب أنه لا يضيع عمل عامل منهم، والمراد بالإضاعة: ترك الإثابة. قوله: ﴿من ذكر أو أنسى﴾ من بيانية ومؤكدة لما تقتضيه النكرة الواقعة في سياق النفي من العموم. قوله: ﴿بعضكم من بعض﴾ أي: رجالكم مثل نساكم في الطاعة، ونساكم مثل رجالكم فيها، والجملة معترضة لبيان كون كل منهما من الآخر باعتبار تشعبهما من أصل واحد. قوله: ﴿فالذين هاجروا﴾ الآية، هذه الجملة تتضمن تفصيل ما أجمل في قوله: ﴿إني لا اضيع عمل عامل﴾ أي فالذين هاجروا من أوطانهم إلى رسول الله ﷺ وهاجروا من ديارهم في طاعة الله عز وجل وقاتلوا أعداء الله وقاتلوا في سبيل الله، وقرأ ابن كثير، وابن عامر: «وقتلوا» على التثنية وقرأ الأعمش، وحزمة، والكسائي: «وقتلوا وقاتلوا» وهو مثل قول الشاعر:

تصابى وأمسى علاه الكبير

أي: قد علاه الكبير، وأصل الواو لمطلق الجمع بلا ترتيب، كما قال به الجمهور. ولما هنا: أنهم قاتلوا، وقتل بعضهم، كما قال امرؤ القيس:

فإن تقتلونا نقتلكم

وقرأ عمر بن عبد العزيز: «وقتلوا وقتلوا». ومعنى قوله: ﴿واؤنوا في سبيلي﴾ أي: بسببه، والسبيل: الدين الحق. والمراد هنا: ما نالهم من الآنية من المشركين بسبب إيمانهم بالله، وعملهم بما شرعه الله لعباده. وقوله: ﴿لأكفرن﴾ جواب قسم محذوف. وقوله: ﴿ثواباً من عند الله﴾ مصدر مؤكد عند البصريين، لأن معنى قوله: ﴿لأدخلنهم جنات﴾ لأثيبنهم ثواباً، أي: إثابة، أو تثويباً كأننا من عند الله. وقال الكسائي: إنه منتصب على الحال. وقال الفراء: على التفسير «وأنه عنده حسن الثواب» أي: حسن الجزاء، وهو ما يرجع على العامل من جزاء عمله من ثاب يثوب: إذا رجع.

وقد أخرج سعيد بن منصور، وعبد الرزاق، والترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، عن أم سلمة قالت: يا رسول الله لا أسمع الله نكر النساء في الهجرة بشيء، فأنزل الله: ﴿فاستجاب لهم﴾ إلى آخر الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عطاء قال: «ما من عبد يقول يا رب يا رب ثلاث مرات إلا نظر الله إليه» فذكر للحسن، فقال: أما تقرأ القرآن؟ «ربنا إننا سمعنا منادياً» [آل عمران: 193] إلى قوله:

صلوا عليه، قالوا: يا رسول الله نصلي على عبد حبشي؟ فانزل الله ﴿وَأَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، عن جابر مرفوعاً أن المنافقين قالوا: انظروا إلى هذا يعني النبي ﷺ يصلي على علق نصراني، فنزلت. وأخرج الحاكم وصححه، عن عبد الله بن الزبير أنها نزلت في النجاشي. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد قال: هم مسلمة أهل الكتاب من اليهود والنصارى. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الحسن قال: هم أهل الكتاب الذين كانوا قبل محمد، والذين اتبعوا محمداً ﷺ. وأخرج ابن المبارك، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب عن أبي سلمة بن عبد الرحمن ما قُدمنا نكره. وأخرج ابن مريويه عنه عن أبي هريرة قال: أما إنه لم يكن في زمن النبي ﷺ غزو يرابطون فيه، ولكنها نزلت في قوم يعملون المساجد يصلون الصلوات في مواقيتها ثم يذكرون الله فيها. وقد ثبت في الصحيح وغيره من قول النبي ﷺ: «ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات: إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن محمد بن كعب القرظي قال: أصبروا على دينكم، وصابروا، الوعد الذي وعنتكم، ورباطوا عدوي، وعبوكم. وقد روي من تفاسير السلف غير هذا في سر الصبر على نوع من أنواع الطاعات، والمصابرة على نوع آخر، ولا تقوم بذلك حجة، فالواجب الرجوع إلى الملل لللغوي، وقد قُدمناه. وقد وردت أحاديث كثيرة في فضل الرباط، وفيها التصريح بأنه الرباط في سبيل الله، وهو يرد ما قاله أبو سلمة بن عبد الرحمن، فإن رسول الله ﷺ قد نسب إلى الرباط في سبيل الله، وهو الجهاد، فيحمل ما في الآية عليه، وقد ورد عنه ﷺ أنه سمي حراسة جيش المسلمين رباطاً، فأخرج الطبراني في الأوسط بسند جيد عن أنس قال: سئل رسول الله ﷺ عن أجر المرباط، فقال: من رباط ليلة حارساً من وراء المسلمين كان له أجر من خلفه ممن صام وصلى.

وقد ورد في فضل هذه العشر الآيات التي في آخر هذه السورة مرفوعاً إلى النبي ﷺ ما أخرجه ابن السني، وابن مريويه، وابن عساکر، عن أبي هريرة: «أن رسول الله ﷺ كان يقرأ عشر آيات من آخر سورة آل عمران كل ليلة». وفي إسناده مظاهر بن أسلم، وهو ضعيف. وقد تقدم من حديث ابن عباس في الصحيحين أن النبي ﷺ قرأ هذه العشر الآيات لما استيقظ. وكذلك تقدم في غير الصحيحين من رواية صفوان بن المعطل عن النبي ﷺ. وأخرج الدارمي عن عثمان بن عفان قال: «من قرأ آخر آل عمران في ليلة كتب له قيام ليلة».

أهل الكتاب من حيث اتصافهم بهذه الصفات الحميدة ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ الذي وعد الله سبحانه به بقوله: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ [القصص: 54] وتقويم الخبر يفيد اختصاص ذلك الأجر بهم. وقوله: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ في محل نصب على الحال. قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا﴾ الخ. هذه الآية العاشرة من قوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ﴾ [البقرة: 164، آل عمران: 190] ختم بها هذه السورة لما اشتملت عليه من الوصايا التي جمعت خير الدنيا والآخرة، فحضر على الصبر على الطاعات، والشهوات، والصبر: الحبس، وقد تقدم تحقيق معناه. والمصابرة مصابرة الأعداء، قال الجمهور أي: غلبوهم في الصبر على الشدائد الحرب، وخص المصابرة بالذكر بعد أن ذكر الصبر لكونها أشد منه، وأشق. وقيل: المعنى: صابروا على الصلوات، وقيل صابروا الأنفس عن شهواتها، وقيل: صابروا الوعد الذي وعدتكم، ولا تياسوا، والقول الأول هو المعنى العربي، ومنه قول عنترة:

فلم أرحاً صابروا مثل صبرنا ولا كافحوا مثل الذين نكافح
أي: صابروا العدو في الحرب. قوله: ﴿وَرَبِّطُوا﴾ أي: اقيموا في الثغور رابطين خيلكم فيها، كما يربطها أعداؤكم وهذا قول جمهور المفسرين. وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن: هذه الآية في انتظار الصلاة بعد الصلاة، ولم يكن في زمن رسول الله ﷺ غزو يرباط فيه، وسيتاتي ذكر من خرج عنه هذا، والرباط اللغوي هو الأول، ولا ينافيه تسميته ﷺ، لغيره رباطاً، كما سيتاتي. ويمكن إطلاق الرباط على المعنى الأول، وعلى انتظار الصلاة. قال الخليل: للرباط ملازمة الثغور، ومواظبة الصلاة، هكذا قال، وهو من أئمة اللغة. وحكى ابن فارس عن الشيباني أنه قال: يقال ماء مترابط دائم لا يبرح، وهو يقتضي تعمية الرباط إلى غير ارتباط الخيل في الثغور. قوله: ﴿وَلْتَقُوا اللَّهَ﴾ فلا تخالفوا ما شرعه لكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ أي: تكونون من جملة الفائزين بكل مطلوب، وهم: المفلحون.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، عن عكرمة في قوله: ﴿لَا يَغْرُوكَ تَقْلِبُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ تقلب ليلهم، ونهارهم وما يجري عليهم من النعم، قال عكرمة: قال ابن عباس، ويشس المهاد، أي: بشس المنزل. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي في قوله: ﴿تَقْلِبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾ قال ضربهم في البلاد. وأخرج عبد بن حميد، والبخاري في الأب المفرد، وابن أبي حاتم، عن ابن عمر في قوله: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ قال: إنما سماهم الله أبراراً؛ لأنهم برؤ الآباء والأبناء، كما أن لوالدك عليك حقاً كذلك لولدك عليك حقاً. وأخرجه ابن مريويه، عنه مرفوعاً، والأول أصح قاله للسيوطي. وأخرج ابن جرير، عن ابن زيد: ﴿خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ لمن يطيع الله. وأخرج النسائي، والبخاري، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، عن أنس قال: لما مات النجاشي قال ﷺ:

تفسير سورة النساء

هي منبئة كلها. قال القرطبي: إلا آية واحدة نزلت بمكة عام الفتح في عثمان بن طلحة الحنظلي، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: 58] على ما سيأتي إن شاء الله، قال النقاش: وقيل: نزلت عند هجرة رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة، وعلى ما تقدّم عن بعض أهل العلم أن قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ حيثما وقع، فإنه مكي يلزم أن يكون صدر هذه السورة مكية، وبه قال علقمة، وغيره. وقال النحاس: هذه الآية مكية. قال القرطبي: والصحيح الأوّل، فإن في صحيح البخاري عن عائشة أنها قالت: ما نزلت سورة النساء إلا وأنا عند رسول الله ﷺ: يعني قد بني بها. ولا خلاف بين العلماء أن النبي ﷺ إنما بني بعائشة بالمدينة، ومن تبين أحكامها علم أنها مدنية لا شك فيها. قال: وأما من قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ مكي حيث وقع، فليس بصحيح، فإن البقرة مدنية، وفيها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ في موضعين. وقد أخرج ابن الضريس في فضائله، والنحاس في ناسخه، وابن مروي، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: نزلت سورة النساء بالمدينة، وفي إسنادها العوفي، وهو ضعيف، وكذا أخرجه ابن مروي، عن عبد الله بن الزبير، وزيد بن ثابت، وأخرجه ابن المنذر عن قتادة.

وقد ورد في فضل هذه السورة ما أخرجه الحاكم في مستدركه عن عبد الله بن مسعود قال: إن في سورة النساء لخمس آيات ما يسرنى أن لي بها الدنيا وما فيها: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: 40] الآية، و﴿لَنْ تَجْتَنِبُوا كِبَاثًا مَا تَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ [النساء: 31] الآية، و﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: 48] الآية ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذَا ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [النساء: 64] الآية. ثم قال: هذا إسناد صحيح إن كان عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود سمع من أبيه، وقد اختلف في ذلك. وأخرجه عبد الرزاق، عن معمر عن رجل، عن ابن مسعود قال: خمس آيات من النساء هن أحب إلي من الدنيا جميعاً ﴿لَنْ تَجْتَنِبُوا كِبَاثًا مَا تَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ [النساء: 35] الآية ﴿وَلَنْ تَكُ حَسَنَةً يَضَاعِفُهَا﴾ [النساء: 30] الآية ﴿لَنْ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: 48] الآية ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوًءًا أَوْ يَظْلِمُ نَفْسَهُ﴾ [النساء: 110] الآية ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَمْ يَفِرْقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ [النساء: 152] الآية. ورواه ابن جرير. ثم روى من طريق صالح المري، عن قتادة، عن ابن عباس قال: ثمان آيات نزلت في سورة النساء هن خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس، وغربت، وذكر ما ذكره ابن مسعود، وزاد: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ﴾ [النساء: 26] الآية ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: 27] الآية ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يَخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ [النساء: 28] الآية. وأخرج أحمد، وابن الضريس، ومحمد بن نصر، والحاكم وصححه،

والبیهقي عن عائشة أن النبي ﷺ قال: «من أخذ السبع، فهو حبر». وأخرج البیهقي في الشعب عن واثلة بن الأسقع قال: قال رسول الله ﷺ «أعطيت مكان التوراة السبع الطوال والمئين كل سورة بلغت مائة فصاعداً»، والمثاني: كل سورة تكون المئين، وفوق المفصل. وأخرج أبو يعلى، وابن خزيمة، وابن حبان، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب، عن أنس قال: «وجد رسول الله ﷺ ذات ليلة شيئاً، فلما أصبح قيل: يا رسول الله إن أثر اللوح عليك لبين، قال: أما إنني على ما ترون بحمد الله قد قرأت السبع الطوال» وأخرج أحمد عن حذيفة قال: «قمت مع رسول الله ﷺ، فقرأ السبع الطوال في سبع ركعات» وأخرج عبد الرزاق عن بعض أهل النبي ﷺ: «أن النبي ﷺ قرأ بالسبع الطوال في ركعة واحدة» وأخرج الحاكم، عن ابن عباس أنه قال: «سلوني عن سورة النساء، فأني قرأت القرآن، وأنا صغير» قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف عنه قال: «من قرأ سورة النساء، فعلم ما يجب مما لا يجب علم الفرائض».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَتُنْصَبُ فِيهَا رُءُوسًا كَثِيرًا وَتَقَرَّبُوا إِلَيْهِ غِيظًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿١﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُهِيَ لَكُمْ فِيهَا وَمَا تَحْتَوِي أَلَا نَعْلَمُ لَكُمْ فِيهَا مِائَاتٌ مِمَّا تُغْنِي عَنْكُمْ وَالْأُولَى خَيْرٌ وَالْآخِرَةُ أَشَدُّ حَرًّا إِلَّا لِمَنْ كَانَتْ أَعْيُنُهُ عَلَى الْغَاثِ وَالنَّاصِثِ مُقْبِرًا ﴿٢﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُهِيَ لَكُمْ فِيهَا وَمَا تَحْتَوِي أَلَا نَعْلَمُ لَكُمْ فِيهَا مِائَاتٌ مِمَّا تُغْنِي عَنْكُمْ وَالْأُولَى خَيْرٌ وَالْآخِرَةُ أَشَدُّ حَرًّا إِلَّا لِمَنْ كَانَتْ أَعْيُنُهُ عَلَى الْغَاثِ وَالنَّاصِثِ مُقْبِرًا ﴿٣﴾

المراد بالناس: الموجودون عند الخطاب من بني آدم، ويخل من سيوجد بلبيل خارجي، وهو الإجماع على أنهم مكلفون بما كلف به الموجودون، أو تغليب الموجودين على من لم يوجد، كما غلب الذكر على الإناث في قوله: ﴿لَتَقُوا رِيحَكُمْ﴾ لاختصاص ذلك بجمع المذكر. والمراد بالنفس الواحدة هنا: آدم. وقرأ ابن أبي عبيدة، واحد بغير هاء على مراعاة المعنى، فالتانيث باعتبار اللفظ، والتذكير باعتبار المعنى. قوله: ﴿وَوَلَدْنَا مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ قيل: هو معطوف على مقبر يدل عليه الكلام، أي: خلقكم من نفس واحدة خلقها أولاً، وخلق منها زوجها، وقيل: على خلقكم، فيكون الفعل الثاني داخلاً مع الأول في حيز الصلة. والمعنى: وخلق من تلك النفس التي هي عبارة عن آدم زوجها، وهي حواء. وقد تقدم في البقرة معنى التقوى، والرب، والزوج، والبه، والضمير في قوله: ﴿مِنْهَا﴾ راجع إلى آدم وحواء المعب عنهما بالنفس، والزوج. وقوله: ﴿كَثِيرًا﴾ وصف مؤكد لما تنفيذه صيغة الجمع لكونها من جموع الكثرة وقيل: هو نعت لمصدر محذوف، أي: بثاً كثيراً. وقوله: ﴿وَنِسَاءً﴾ أي: كثيرة، وترك التصريح به استغناء بالوصف الأول. قوله:

صلوها، أو والأرحام أهل أن توصل، وقيل: إن الرفع على الإغراء عند من يرفع به، ومنه قول الشاعر:

إن قوماً منهم عمير وأشباهه
عميرو ومنهم السفاح
لجسديرون باللقاء إذا قالا
لأخ النجدة السلاح السلاح
والأرحام: اسم لجميع الأقارب من غير فرق بين المحرم وغيره، لا خلاف في هذا بين أهل الشرع، ولا بين أهل اللغة. وقد خصص أبو حنيفة، وبعض الزيدية الرحم بالمحرم في منع الرجوع في الهبة مع موافقتهم على أن معناها أعم، ولا وجه لهذا التخصيص. قال القرطبي: اتفقت الملة على أن صلة الرحم واجبة؛ وأن قطيعتها محرمة، انتهت. وقد وردت بذلك الأحاديث الكثيرة الصحيحة، والرقيب: المراقب، وهي صيغة مبالغة، يقال رقيب رقيباً وراقباً: إذا انتظرت. قوله: ﴿وَأَتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ﴾ خطاب للولياء، والأوصياء.

والإيتاء: الإعطاء. واليتيم: من لا أب له. وقد خصصه الشرع بمن لم يبلغ الحلم. وقد تقدم تفسير معناه في البقرة مستوفي، وأطلق اسم اليتيم عليهم عند إعطائهم أموالهم، مع أنهم لا يعطونها إلا بعد ارتفاع اسم اليتيم بالبلوغ مجازاً باعتبار ما كانوا عليه؛ ويجوز أن يراد باليتامى المعنى الحقيقي، وبالإيتاء ما يدفعه الأولياء، والأوصياء إليهم من النفقة، والكسوة لا نفعا جميعها، وهذه الآية مقيدة بالآية الأخرى، وهي قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَسْتَمْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء: 6] فلا يكون مجرد ارتفاع اليتيم بالبلوغ مسوغاً لنفع أموالهم إليهم حتى يؤنس منهم الرشد. قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾ نهى لهم عن أن يصنعوا صنع الجاهلية في أموال اليتامى، فإنهم كانوا يأخذون الطيب من أموال اليتامى، ويعوضونه بالردء من أموالهم، ولا يرون بذلك بأساً؛ وقيل المعنى: لا تاكلوا أموال اليتامى، وهي محرمة خبيثة، وتدعوا الطيب من أموالكم وقيل المراد: لا تتعجلوا أكل الخبيث من أموالهم وتدعوا انتظار الرزق الحلال من عند الله. والأول أولى؛ فإن تبدل الشيء بالشيء في اللغة أخذه مكانه، وكذلك استبداله، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [البقرة: 108] وقوله: ﴿وَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: 61] وأما التبديل، فقد يستعمل، كذلك كما في قوله: ﴿وَبَلَّغْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ﴾ [سبا: 16] وأخرى بالعكس، كما في قوله بكتك الحلقة بالخاتم: إذا أنبتتها، وجعلتها خاتماً، نص عليه الأزهري. قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾ ذهب جماعة من المفسرين إلى أن المنهي عنه في هذه الآية هو الخلط، فيكون الفعل مضمناً معنى الضم، أي: لا تاكلوا أموالهم مضمومة إلى أموالكم، ثم نسخ هذا بقوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَخْلَطُوهُمْ فَاخْوَانَكُمْ﴾ [البقرة: 220] وقيل: إن إلى بمعنى مع، كقوله تعالى: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: 52] والأول أولى. والحوب: الإثم يقال حاب الرجل يحوب حوباً: إذا أثم، وأصله الزجر للإبل، فسمي الإثم حوباً؛ لأنه يزجر عنه. والحوبة: الحاجة. والحوب أيضاً:

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ قرأ أهل الكوفة بحذف التاء الثانية، وأصله تتساءلون تخفيفاً لاجتماع المثلثين. وقرأ أهل المدينة، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر بإدغام التاء في السين؛ والمعنى: يسأل بعضكم بعضاً بالله، والرحم، فإنهم كانوا يقرنون بينهما في السؤال، والمناشدة، فيقولون: أسألك بالله، والرحم، وأنشدك الله، والرحم، وقرأ النخعي، وقتادة، والأعمش، وحزمة: ﴿وَالْأَرْحَامَ﴾ بالجر. وقرأ الباقر بالنصب.

وقد اختلف أئمة النحو في توجيه قراءة الجر، فاما البصريون، فقالوا: هي لحن لا تجوز القراءة بها. واما الكوفيون، فقالوا هي قراءة قبيحة. قال سيبويه في توجيه هذا القبح: إن المضمهر المجرور بمنزلة التنوين، والتنوين لا يعطف عليه. وقال الزجاج، وجماعة: يقبح عطف الاسم الظاهر على المضمهر في الخفض إلا بإعادة الخافض كقوله تعالى ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ [القصص: 81] وجوز سيبويه ذلك في ضرورة الشعر، وأنشد:

فاليوم قريت تهجونا وتمنحنا
فانذهب فمابك والأيام من عجب
ومنه قول الآخر:

تعلق في مثل السواري سيوفنا
وما بيننا والكعب بهونفانف
بعطف الكعب على الضمير في بينها. وحكى أبو علي الفارسي أن المبرد قال: لو صليت خلف إمام يقرأ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ بالجر، لأخذت نعلي، ومضيت. وقد رد الإمام أبو نصر القشيري ما قاله القابحون في قراءه الجر، فقال: ومثل هذا الكلام مروي عند أئمة الدين، لأن القراءات التي قرأ بها أئمة القراء ثبتت عن النبي ﷺ تواتراً، ولا يخفى عليك أن دعوى التواتر باطلة يعرف ذلك من يعرف الأسانيد التي رووها بها، ولكن ينبغي أن يحتج للجواز بمرود ذلك في أشعار العرب، كما تقدم، وكما في قول بعضهم:

وحسبك والضحك سيف مهند

وقول الآخر:

وقد رام أناق السماء فلم يجد
له مصعداً فيها ولا الأرض مقعداً

وقول الآخر:

ما إن بها والأمور من تلسف

وقول الآخر:

أكر على الكتيبة لست أدري
لحتفي كان فيها أم سواها
فسواها في موضع جر عطفاً على الضمير في فيها، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ [الحجر: 20]. وأما قراءة النصب، فمعناها واضح جلي؛ لأنه عطف للرحم على الاسم الشريف، أي: اتقوا الله واتقوا الأرحام فلا تقطعوهما، فإنها مما أمر الله به أن يوصل؛ وقيل إنه عطف على محل الجار والمجرور في قوله ﴿بِهِ﴾ كقولك مررت بزيد وعمراً، أي: اتقوا الله الذي تتساءلون به، وتتساءلون بالأرحام. والأول أولى. وقرأ عبد الله بن يزيد، والأرحام بالرفع على الابتداء، والخبر مقدر، أي: والأرحام

تتصوّر للعدل، والوصفية، كما هو مبين في علم النحو والأصل: انكحوا ما طاب لكم من النساء اثنتين اثنتين، وثلاثاً ثلاثاً، وأربعاً أربعاً.

وقد استدل بالآية على تحريم ما زاد على الأربع، وبينوا ذلك بأنه خطاب لجميع الأمة، وأن كل نكح له أن يختار ما أراد من هذا العدد، كما يقال للجماعة: اقتسموا هذا المال، وهو ألف درهم، أو هذا المال الذي في البكرة درهمين درهمين، وثلاثة ثلاثة، وأربعة أربعة. وهذا مسلم إذا كان المقسوم قد نكرت جملته، أو عين مكانه، أما لو كان مطلقاً، كما يقال: اقتسموا الدراهم، ويراد به ما كسبوه، فليس المعنى هكذا. والآية من الباب الآخر لا من الباب الأول. على أن من قال لقوم يقتسمون مالا معيناً كثيراً اقتسموه مثنى ومثنى ورباع، فقسّموا بعضه بينهم درهمين درهمين، وبعضه ثلاثة ثلاثة، وبعضه أربعة أربعة كان هذا هو المعنى العربي، ومعلوم أنه إذا قال القائل جاءني القوم مثنى، وهم مائة ألف، كان المعنى أنهم جاؤوه اثنين اثنين، وهكذا جاء في القوم ثلاث ورباع، والخطاب للجميع بمنزلة الخطاب لكل فرد فرد، كما في قوله تعالى: «أقتلوا المشركين» [التوبة: 5] «أقيموا الصلاة» «آتوا الزكاة» ونحوها، فقلوه: «فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع» معناه لينكح كل فرد منكم ما طاب له من النساء اثنتين اثنتين، وثلاثاً ثلاثاً، وأربعاً أربعاً، هذا ما تقتضيه لغة العرب. فالآية تدل على خلاف ما استدلوا بها عليه، ويؤيد هذا قوله تعالى في آخر الآية: «فإن خفتم أن لا تعدلوا فواحدة» فإنه وإن كان خطاباً للجميع، فهو بمنزلة الخطاب لكل فرد فرد. فالأولى أن يستدل على تحريم الزيادة على الأربع بالسنة لا بالقرآن.

وأما استدلال من استدل بالآية على جواز نكاح التسع باعتبار الواو الجامعة، فكأنه قال: انكحوا مجموع هذا العدد المنكوح، فهذا جهل بالمعنى العربي، ولو قال: انكحوا اثنتين وثلاثاً وأربعاً كان هذا القول له وجه وأما مع المحض بصيغة العدل فلا، وإنما جاء سبحانه بالواو الجامعة دون أو، لأن التخيير يشعر بأنه لا يجوز إلا أحد الأعداد المنكورة دون غيره، وذلك ليس بمراد من النظم القرآني. وقرأ النخعي، ويحيى بن وثاب ثلث وربع بغير ألف. قوله: «فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة» فانكحوا واحدة، كما يدل على ذلك قوله: «فانكحوا ما طاب» وقيل: التقدير فالزموا، أو فاختاروا واحدة. والأول أولى، والمعنى: فإن خفتم ألا تعدلوا بين الزوجات في القسم، ونحوه، فانكحوا واحدة، وفيه المنع من الزيادة على الواحدة لمن خاف ذلك. وقرأ بالرفع على أنه مبتدأ. والخبر محذوف. قال الكسائي: أي فواحدة تنقح، وقيل التقدير: فواحدة فيها كفاية، ويجوز أن تكون واحدة على قراءة الرفع خبر مبتدأ محذوف، أي: فالمقنع واحدة. قوله: «أو ما ملكت أيمانكم» معطوف على واحدة، أي: فانكحوا واحدة، أو انكحوا ما ملكت أيمانكم من السراري، وإن كثّر

الوحشة، وفيه ثلاث لغات: ضم الحاء وهي قراءة الجمهور. وفتح الحاء، وهي قراءة الحسن، قال الأخفش: وهي لغة تميم. والثالثة الحاب. وقرأ أبي بن كعب حاباً على المصدر، كقال قالا. والتحويب التحزن، ومنه قول طفيل:

فنزولوا كما نلقا عداه يحجر من الغيظ في اكبابنا والتحويب قوله: «وإن خفتم ألا تعدلوا في اليتامى فانكحوا» وجه ارتباط الجزاء بالشرط أن للرجل كان يكفل اليتيمة لكونه ولياً لها ويريد أن يتزوجها، فلا يقسط لها في مهرها، أي: يعدل فيه، ويعطيها ما يعطيها غيره من الأزواج، فنهاهم الله أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن، ويبلغوا بهن أعلى ما هو لهن من الصداق، وأمرنا أن ينكحوا ما طاب لهن من النساء سواهن، فهذا سبب نزول الآية كما سيأتي، فهو نهى يخص هذه الصورة. وقال جماعة من السلف: إن هذه الآية ناسخة لما كان في الجاهلية، وفي أول الإسلام من أن للرجل أن يتزوج من الحرائر ما شاء، فقصروهم بهذه الآية على أربع، فيكون وجه ارتباط الجزاء بالشرط أنهم إذا خافوا ألا يقسطوا في اليتامى، فكذلك يخافون ألا يقسطوا في النساء، لأنهم كانوا يخرجون في اليتامى، ولا يخرجون في النساء، والخوف من الأضداد، فإن المخوف قد يكون معلوماً، وقد يكون مظنوناً، ولهذا اختلف الأئمة في معناه في الآية، فقال أبو عبيدة: «خفتم» بمعنى أيقنتم. وقال آخرون: «خفتم» بمعنى ظننتم. قال ابن عطية: وهو الذي اختاره الحذاق، وأنه على بابه من الظن لا من اليقين، والمعنى: من غلب على ظنه التقصير في العدل لليتيمة، فليتركها، وينكح غيرها. وقرأ النخعي وابن وثاب: «تقسطوا» بفتح التاء من قسط: إذا جار، فتكون هذه القراءة على تقدير زيادة لا، كأنه قال: وإن خفتم أن تقسطوا. وحكى الزجاج أن أقسط يستعمل استعمال قسط، والمعروف عند أهل اللغة أن أقسط بمعنى عدل، وقسط بمعنى جار، وهما في قوله: «ما طاب» موصولة، وجاء بما مكان من لأنهما قد يتعاقبان، فيقع كل واحد منهما مكان الآخر كما في قوله: «والسما» وما بناها» [الشمس: 2] «فمنهم من يمشي على بطنه، ومنهم من يمشي على أربع» [النور: 45]. وقال البصريون: إن «ما» تقع للنوع كما تقع لما لا يعقل، يقال ما عندك، فيقال غريب، وكريم، فالمعنى: فانكحوا الطيب من النساء، أي: الحلال، وما حرّمه الله، فليس بطيب، وقيل: إن «ما» هنا مبنية، أي: ما نمت مستحسنين للنكاح، وضعفه ابن عطية. وقال الفراء: إن «ما» هنا مصدرية. قال النحاس: وهذا بعيد جداً. وقرأ ابن أبي عبيدة: «فانكحوا من طاب». وقد اتفق أهل العلم على أن هذا الشرط المنكوح في الآية لا مفهوم له، وأنه يجوز لمن لم يخف أن يقسط في اليتامى أن ينكح أكثر من واحدة، ومنه في قوله: «من النساء» إما بيانية، أو تبعيضية، لأن المراد غير اليتامى. قوله: «مثنى وثلاث ورباع» في محل نصب على البديل من «ما» كما قاله أبو علي الفارسي، وقيل: على الحال، وهذه الالفاظ لا

ابن الأعرابي أن العرب تقول: عال الرجل إذا كثر عياله، وكفى بهذا.

وقد ورد عال لمعان غير السبعة التي ذكرها ابن العربي، منها عال: اشتد وتفاقم، حكاه الجوهري، وعال الرجل في الأرض: إذا ضرب فيها، حكاه الهروي، وعال: إذا أعجز، حكاه الأحمر، فهذه ثلاثة معان غير السبعة؛ والرابع عال كثر عياله، فجملة معاني عال أحد عشر معنى. قوله: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتَهُنَّ نَحْلَةً﴾ الخطاب للأزواج، وقيل: للأولياء. والصدقات بضم الدال جمع صدقة كشمرة، قال الأخفش: وبنو تميم يقولون صدقة، والجمع صدقات، وإن شئت فتحت، وإن شئت أسكنت. والنحلة بكسر النون وضمها لغتان، وأصلها العطاء نحلته فلاناً: أعطيته، وعلى هذا، فهي منصوبة على المصدرية؛ لأن الإيتاء بمعنى الإعطاء، وقيل: النحلة التدين فمعنى نحلة تديناً، قاله الزجاج، وعلى هذا، فهي منصوبة على المفعول له. وقال قتادة: النحلة الفريضة، وعلى هذا، فهي منصوبة على الحال، وقيل: النحلة طيبة النفس، قال أبو عبيد: ولا تكون النحلة إلا عن طيبة نفس. ومعنى الآية على كون الخطاب للأزواج: أعطوا النساء اللاتي نكحتموهن مهوراً التي لهن عليكم عطية، أو بيانة منكم، أو فريضة عليكم، أو طيبة من أنفسكم. ومعناها على كون الخطاب للأولياء: أعطوا النساء من قراباتكم التي قبضتم مهوراً من أزواجهن تلك المهور. وقد كان الولي يأخذ مهر قريبته في الجاهلية، ولا يعطيها شيئاً، حكى ذلك عن أبي صالح، والكلبي. والأول أولى، لأن الضمائر من أول السياق للأزواج. وفي الآية دليل على أن الصداق واجب على الأزواج للنساء، وهو مجمع عليه، كما قال القرطبي، قال: واجمع العلماء أنه لا حدٌ لكثيره، واختلفوا في قليله. وقرأ قتادة: «صدقاتهن» بضم الصاد وسكون الدال. وقرأ النخعي، وابن وثاب بضمهما. وقرأ الجمهور بفتح الصاد وضم الدال. قوله: ﴿فَإِنْ طَبِئَ لَكُمُ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾ الضمير في منه راجع إلى الصداق الذي هو واحد الصدقات، أو إلى المذكور، وهو الصدقات، أو هو بمنزلة اسم الإشارة، كأنه قال من ذلك، ونفساً تمييز. وقال أصحاب سيبويه: منصوب بإضمار فعل لا تمييز، أي: أعني نفساً. والأول أولى، وبه قال الجمهور. والمعنى: فإن طبن، أي: النساء لكم أيها الأزواج، أو الأولياء عن شيء من المهر «فكلوه هنيئاً مريئاً» وفي قوله: «طبن» دليل على أن المعتبر في تحليل ذلك منهن لهم إنما هو طيبة النفس لا مجرد ما يصدر منها من الألفاظ التي لا يتحقق معها طيبة النفس، فإذا ظهر منها ما يدل على عدم طيبة نفسها لم يحل للزوج، ولا للولي، وإن كانت قد تلفظت بالهبة، أو النذر، أو نحوهما. وما أقوى دلالة هذه الآية على عدم اعتبار مصدر من النساء من الألفاظ المفيدة للملك بمجرد انقضاء عقولهن، وضعف إرادهن، وسرعة انخداعهن، وانجذابهن إلى ما يراد منهن بايسر ترغيب، أو ترهيب. وقوله: ﴿هَنِيئًا مَرِيئًا﴾ منصوبان على

عدمهن، كما يفيد الموصول. والمراد: نكلهن بطريق الملك لا بطريق النكاح، وفيه دليل على أنه لا حق للمملوكات في القسم، كما يدل على ذلك جملة قسيماً للواحدة في الأمن من عدم العدل، وإسناد الملك إلى اليمين، لكونها المباشرة لقبض الأموال، وإقباضها، ولسائر الأمور التي تنسب إلى الشخص في الغالب، ومنه:

إذا مارلية نصبت لمجد تلقاها عرابية باليمين
قوله: ﴿ذلك أننى ألا تعولوا﴾ أي ذلك أقرب إلى ألا تعولوا، أي: تجوروا، من عال الرجل يعول: إذا مال وجار، ومنه قولهم عال السهم عن الهنف: مال عنه، وعال الميزان إذا مال، ومنه:

قالوا اتبعنا رسول الله وأطرحوا قول الرسول وعالوا في الموازين
ومنه قول أبي طالب:
بميزان صلق لا يغل شعيرة له شاهد من نفسه غير عائل
ومنه أيضاً:

فنحن ثلاث وثلاث نود لقد عال الزمان على عيال
والمعنى: إن خفتم عدم العدل بين الزوجات، فهذه التي أمرتم بها أقرب إلى عدم الجور، ويقال عال الرجل يعيل: إذا افتقر، وصار عالة، ومنه قوله تعالى: ﴿وإن خفتم عيلة﴾ [التوبة: 28]، ومنه قول الشاعر:

وما يدرى الفقير متى غناه وما يدرى الغني متى يعيل
وقال الشافعي: ﴿ألا تعولوا﴾ ألا تكثر عيالك. قال الثعلبي: وما قال هذا غيره، وإنما يقال أعال يعيل: إذا كثر عياله. وذكر ابن العربي أن عال تأتي لسبعة معان: الأول عال: مال. الثاني زاد. الثالث جار. الرابع افتقر الخامس أثقل. السادس قام بمؤونة العيال، ومنه قوله ﷺ: «وأيدي بمن تعول». السابع عال: غلب، ومنه عيل صبري، قال: ويقال أعال الرجل: كثر عياله. وأما عال بمعنى كثر عياله، فلا يضح، ويجاب عن إنكار الثعلبي لما قاله الشافعي، وكذلك إنكار ابن العربي لذلك، بأنه قد سبق الشافعي إلى القول به زيد بن أسلم وجابر بن زيد، وهما إمامان من أئمة المسلمين لا يفسران القرآن هما، والإمام الشافعي بما لا وجه له في العربية. وقد أخرج ذلك عنهما الدارقطني في سننه. وقد حكاه القرطبي عن الكسائي وأبي عمر الدوري، وابن الأعرابي، وقال أبو حاتم: كان الشافعي أعلم بلغة العرب منا، ولعله لغة. وقال الثعلبي: قال أستاذنا أبو القاسم بن حبيب: سألت أبا عمر الدوري عن هذا، وكان إماماً في اللغة غير مدافع، فقال: هي لغة حمير، وأنشد:

وإن الموت يأخذك حي بلا شك وإن أمشي وعالا
أي: وإن كثرت ماشيتك وعياله. وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿أن لا تعيلوا﴾ قال ابن عطية: وقدح الزجاج في تأويل عال من العيال بأن الله سبحانه قد أباح كثرة السراري، وفي ذلك تكثير العيال، فكيف يكون أقرب إلى أن لا يكثرُوا، وهذا قدح غير صحيح؛ لأن السراي إنما هي مال يتصرف في البليغ، وإنما العيال الحرائر نوات الحقوق الواجبة. وقد حكى

الله عز وجل: ﴿وَأَنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَقْسُطُوا فِي الْيَتَامَى﴾ قالت: يابن أختي هذه اليتيمة تكون في حجر وليها تشركه في مالها، ويعجبها مالها، وجمالها، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقتها، فيعطيهام مثل ما يعطيها غيره، فنهوا عن أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن، ويبلغوا بهن أعلى سننهن في الصداق، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن، وأن الناس قد استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية، فأنزل الله: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾ [النساء: 127] قالت عائشة: وقول الله في الآية الأخرى: ﴿وَتُرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ [النساء: 127] رغبة أحكم عن يتيمة حين تكون قليلة المال، والجمال، فنهوا أن ينكحوا من رغبا في ماله، وجماله من باقي النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهم عنهن إذا كن قليلات المال، والجمال. وأخرج البخاري، عن عائشة: أن رجلا كانت له يتيمة، فنكحها، وكان لها عنق، فكان يمسكها عليه، ولم يكن لها من نفسه شيء، فنزلت: ﴿وَأَنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَقْسُطُوا فِي الْيَتَامَى﴾ أحسبه قال: كانت شريكته في ذلك العنق، وفي ماله. وقد روى هذا المعنى من طرق. وأخرج ابن جرير، من طريق العوفي، عن ابن عباس في الآية قال: كان الرجل يتزوج بمال اليتيم ما شاء الله تعالى، فنهى الله عن ذلك. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه قال: قصر الرجال على أربع نسوة من أجل أموال اليتامى. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جببر في قوله: ﴿وَأَنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَقْسُطُوا فِي الْيَتَامَى﴾ قال: كان الرجل يتزوج ما شاء، فقال: كما تخافون ألا تعملوا في اليتامى، فخافوا ألا تعملوا فيهن، فقصرهم على الأربع. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في الآية قال: كانوا في الجاهلية ينكحون عسرا من النساء الأيمل، وكانوا يعظمون شأن اليتيم، فتفقوا من بينهم شأن اليتامى، وتركوا ما كانوا ينكحون في الجاهلية. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه في الآية قال: كما خفتم ألا تعملوا في اليتامى، فخافوا ألا تعملوا في النساء إذا جمعتوهن عننكم. وأخرج ابن أبي حاتم، من طريق محمد بن أبي موسى الأشعري عنه قال: فلن خفتم الزنا، فانكحوهن، يقول: كما خفتم في أموال اليتامى ألا تقسطوا فيها، فكنلك، فخافوا على أنفسكم ما لم تنكحوا، وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي مالك: ﴿مَا طَابَ لَكُمْ﴾ قال: ما لعل لكم. وأخرج ابن جرير، عن الحسن، وسعيد بن جببر مثله. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، عن عائشة نحوه. وأخرج الشافعي، وابن أبي شيبة، وأحمد، والترمذي، وابن ماجه، والنحاس في ناسخه، والدارقطني، والبيهقي، عن ابن عمر: «أن غيلان بن سلمة الثقفي أسلم، وتحتة عشر نسوة، فقال له النبي ﷺ: «اختر منهن» وفي لفظ: «أمسك

أنهما صفتان لمصدر محنوف، أي: اكلا هنيئاً مريئاً، أو قائمان مقام المصدر، أو على الحال، يقال: هناء الطعام الشراب يهنيه ومراه، وأمرأه من الهنيء، والمريء، والفعل هنا، ومراه، أي: أتى من غير مشقة، ولا غيظ، وقيل: هو الطيب الذي لا تنغيص فيه، وقيل: المحمود العاقبة الطيب الهضم، وقيل: مالا إثم فيه، والمقصود هنا أنه حلال لهم خالص عن الشوائب، وخص الأكل؛ لأنه معظم ما يراد بالمال وإن كان سائر الانتفاعات به جائزة كالأكل.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ قال: آدم ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ قال: حواء من قصيري آدم، أي: قصيري أضلاعه. وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس مثله. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، قال: خلقت حواء من خلف آدم الأيسر، وأخرج ابن أبي حاتم، عن الضحاك قال: من ضلع الخلف، وهو من أسفل الأضلاع. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس: ﴿وَلَقَدْ تَوَلَّاهُ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ﴾ قال: تعاطون به. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن الربيع قال: تعاقبون وتعاهنون. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد قال: يقول أسلك بالله والرحم. وأخرج ابن جرير، عن الحسن نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: اتقوا الله الذي تساءلون به، واتقوا الأرحام، وصلوها. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ قال: حفيظاً. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جببر قال: إن رجلاً من غطفان كان معه مال كثير لابن أخ له، فلما بلغ اليتيم طلب ماله، فمنعه عمه، فخاصمه إلى النبي ﷺ، فنزلت: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ أَمْوَالَهُمْ﴾ يعني الأوصياء، يقول: أعطوا اليتامى أموالهم: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾ يقول: لا تستبدلوا الحرام من أموال الناس بالحلال من أموالكم، يقول: لا تذروا أموالكم الحلال، وتاكلوا أموالهم الحرام. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في شعب الإيمان، عن مجاهد قال: لا تعجل بالرزق الحرام قبل أن يأتك الحلال الذي قدر لك: ﴿وَلَا تَاكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾ قال: مع أموالكم تخلصونها، فتلكونها جميعاً ﴿إِنَّهُ كَانَ حَوِيًّا﴾ إثمًا. وأخرج ابن جرير، عن ابن زيد في الآية قال: كان أهل الجاهلية لا يورثون النساء، ولا يورثون الصغار يأخذهم الأكبر، فنصيبه من الميراث طيب، وهذا الذي يأخذ خبيث. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، عن قتادة قال: مع أموالكم، وأخرج ابن جرير، عن الحسن قال: لما نزلت هذه الآية في أموال اليتامى كرهوا أن يخالطوهم، وجعل ولي اليتيم يعزل مال اليتيم عن ماله، فشكوا ذلك إلى النبي ﷺ، فأنزل الله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالطُوهُمْ فَلِخْوَانِكُمْ﴾ [البقرة: 220] قال: فخالطوهم. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما: أن عروة سأل عائشة عن قول

قال: ألا تمليلوا. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن عكرمة قال: ألا تمليلوا، ثم قال: أما سمعت قول أبي طالب:

بميزان قسط لا يخيس شعيرة
روان صدق وزنه غير عائل
وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن مجاهد: قال: ألا تمليلوا. وأخرج ابن أبي شيبة، عن أبي رزين، وأبي مالك، والضحاك مثله. وأخرج ابن أبي حاتم، عن زيد بن أسلم في الآية، قال: تلك أنى ألا يكتر من تعولوا. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سفيان بن عيينة قال: ألا تففقروا. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي صالح قال: كان الرجل إذا زوج أيمته أخذ صداقها نونها، فنهاهم الله عن ذلك، ونزلت: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿نِحْلَةً﴾ قال: يعني: بالنحلة المهر. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عائشة: ﴿نِحْلَةً﴾ قالت: واجبة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن جرير: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ قال: فريضة مسماة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة مثله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جببر: ﴿فَإِنْ طَلَبَ لَكُمْ﴾ قال: هي للأزواج. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن عكرمة: ﴿فَإِنْ طَلَبَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ﴾ قال: من الصداق. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن طريق علي، عن ابن عباس: ﴿فَإِنْ طَلَبَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا﴾ يقول: إذا كان من غير ضرار، ولا خديعة، فهو هنيء مريء، كما قال الله.

وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ زِينًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٩﴾ وَأَتُوا النِّسَاءَ حَتَّىٰ تَبْلُغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ ذُكْحًا فَادْفَنُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَكَانَ عَنَّا قَوْلُهُمْ لَكُمْ مِمَّا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿١٠﴾ فَأَشْهَدُ أَنَّكُمْ وَأَنْتُمْ حَيٌّ ﴿١١﴾

هذا رجوع إلى بقية الأحكام المتعلقة بأموال اليتامى. وقد تقدّم الأمر بدفع أموالهم إليهم في قوله تعالى: ﴿وَأَتُوا اليتامى أموالهم﴾ [النساء: 2] فبين سبحانه هاهنا أن السفهاء، وغير البالغ لا يجوز دفع ماله إليهم. وقد تقدّم في البقرة معنى السفهاء لغيره.

واختلف أهل العلم في هؤلاء السفهاء من هم؟ فقال سعيد بن جببر: هم اليتامى لا تؤتوهم أموالكم. قال النحاس، وهذا من أحسن ما قيل في الآية. وقال مالك: هم الأولاد الصغار لا تعطوهم أموالكم، فيفسدوها، وتبقوا بلا شيء. وقال مجاهد: هم النساء. قال النحاس، وغيره: وهذا القول لا يصح إنما تقول العرب سفاهة، أو سفهيات. واختلفوا في وجه إضافة الأموال إلى المخاطبين، وهي للسفهاء، فقيل: أضافها إليهم؛ لأنها بأيديهم، وهم الناظرون فيها، كقوله:

منهنّ أربعاً، وفارق سائرهن، هذا الحديث أخرجه هؤلاء المذكورين من طرق، عن إسماعيل بن علي، وغندر، وزيد بن زريع، وسعيد بن أبي عروبة، وسفيان الثوري، وعيسى بن يونس، وعبد الرحمن بن محمد المحاربي، والفضل بن موسى، وغيرهم من الحفاظ عن معمر، عن الزهري، عن سالم عن أبيه، فنكره. وقد علل البخاري هذا الحديث، فحكي عنه الترمذي أنه قال: هذا حديث غير محفوظ. والصحيح ما روي عن شعب، وغيره، عن الزهري حدثت، عن محمد بن سويد الثقفي أن غيلان بن سلمة، فنكره، وأما حديث الزهري، عن أبيه: أن رجلاً من ثقيف طلق نساءه، فقال له عمر: لأرجمن قبرك، كما رجم قبر أبي رغال. وقد رواه معمر، عن الزهري مرسلًا، وهكذا رواه مالك عن الزهري مرسلًا. قال أبو زرعة: وهو أصح. ورواه عقيل، عن الزهري: بلغنا عن عثمان بن محمد بن أبي سويد قال: أبو حاتم: وهذا وهم، إنما هو الزهري، عن عثمان بن أبي سويد. وقد سامه أحمد برجال الصحيح، فقال: حدثنا إسماعيل، ومحمد بن جعفر قالوا: حدثنا معمر، عن الزهري قال أبو جعفر في حديثه: أخبرنا ابن شهاب، عن سالم عن أبيه أن غيلان، فنكره، وقد روى من غير طريق معمر، والزهري، فأخرجه البيهقي، عن أيوب، عن نافع، وسالم، عن ابن عمر: أن غيلان فنكره. وأخرج أبو داود وابن ماجه في سنتهما عن عمير الأسدي قال: أسلمت، وعندي ثمان نسوة، فنكرت للنبي ﷺ، فقال: اختر منهنّ أربعاً. قال ابن كثير: إن إسناده حسن. وأخرج الشافعي في مسنده، عن نوفل بن معاوية الديلي قال: أسلمت، وعندي خمس نسوة، فقال رسول الله ﷺ: «أمسك أربعاً، وفارق الأخرى». وأخرج ابن ماجه، والنحاس في ناسخه، عن قيس بن الحارث الأسدي قال: «أسلمت وكان تحتي ثمان نسوة، فأتيت النبي ﷺ، فأخبرته، فقال: اختر منهنّ أربعاً، وخلّ سائرهن، ففعلت» وهذه شواهد للحديث الأول، كما قال البيهقي. وأخرج ابن أبي شيبة، والبيهقي في سننه عن الحكم قال: أجمع أصحاب رسول الله ﷺ على أن المملوك لا يجمع من النساء فوق اثنتين. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن قتادة في الآية يقول: إن خفت ألا تعدل في أربع فثلاث، وإلا فثنتين، وإلا فواحدة، فإن خفت ألا تعدل في واحدة، فما ملكت يمينك. وأخرج ابن جرير، عن الربيع مثله. وأخرج أيضاً، عن الضحاك: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْلُوا﴾ قال: في المجامعة، والحب. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن السدي: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ قال: السراري. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبان في صحيحه، عن عائشة، عن النبي ﷺ: ﴿تِلْكَ أُنْثَىٰ أَلَّا تَعْلُوا﴾ قال: ألا تجوروا. قال ابن أبي حاتم قال أبي: هذا حديث خطأ، والصحيح، عن عائشة موقوف. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة في المصنف، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن طريق، عن ابن عباس في قوله: ﴿أَلَّا تَعْلُوا﴾

تحقيقه. وقد اختلفوا في معنى الاختبار، فقيل: هو أن يتأمل الوصي أخلاق يتيمة، ليعلم بنجابتها، وحسن تصرفه، فينبغ إليه ماله إذا بلغ النكاح، وأنس منه الرشد، وقيل: معنى الاختبار: أن يدفع إليه شيئاً من ماله، ويأمره بالتصرف فيه حتى يعلم حقيقة حاله، وقيل: معنى الاختبار: أن يرد النظر إليه في نفقة الدار ليعرف كيف تنبیره، وإن كانت جارية رد إليها ما يرد إلى ربة البيت من تدبير بيتها. والمراد ببلوغ النكاح بلوغ الحلم لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ﴾ [النور: 59] ومن علامات البلوغ الإنبات، وبلوغ خمس عشرة سنة. وقال مالك، وأبو حنيفة، وغيرهما: لا يحكم لمن لم يحتلم بالبلوغ إلا بعد مضي سبع عشرة سنة، وهذه العلامات تعم الذكر، والأنثى، وتختص الأنثى بالحبل، والحيض. قوله: ﴿فَإِنْ أَنْتُمْ أَيُّ أَبْصَرْتُمْ، وَرَأَيْتُمْ، وَمَنْهُ قَوْلُهُ: «أَنْتُمْ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا»﴾ [القصص: 29]. قال الأزهري: تقول العرب اذهب، فاستأنس هل ترى أحداً، معناه: تبصر، وقيل: هو هنا بمعنى: وجد وعلم، أي: فإن وجدتم، وعلمتم منهم رشدًا. وقراءة الجمهور: «رشدًا» بضم الراء وسكون الشين. وقرأ ابن مسعود، والسلمي، وعيسى الثقفي بفتح الراء، والشين، قيل: هما لغتان، وقيل: هو بالضم مصدر رشد، وبالفتح مصدر رشد.

واختلف أهل العلم في معنى الرشد هاهنا، فقيل: الصلاح في العقل، والدين، وقيل: في العقل خاصة. قال سعيد بن جبير، والشعبي: إنه لا يدفع إلى اليتيم ماله إذا لم يؤنس رشده، وإن كان شيئاً. قال الضحاك: وإن بلغ مائة سنة. وجمهور العلماء على أن الرشد لا يكون إلا بعد البلوغ، وعلى أنه إن لم يرشد بعد بلوغ الحلم لا يزول عنه الحجر. وقال أبو حنيفة، لا يحجر على الحر البالغ، وإن كان أفسق الناس، وأشدهم تبذيراً، وبه قال النخعي، وزفر، وظاهر النظم القرآني أنها لا تدفع إليهم أموالهم إلا بعد بلوغ غاية هي: بلوغ النكاح مقيدة هذه الغاية ببلوغ الرشد، فلا بد من مجموع الأمرين، فلا تدفع إلى اليتامى أموالهم قبل البلوغ، وإن كانوا معروفين بالرشد، ولا بعد البلوغ إلا بعد إنباس الرشد منهم. والمراد بالرشد: نوعه، وهو المتعلق بحسن التصرف في أمواله، وعدم التبذير بها، ووضعها في مواضعها. قوله: ﴿وَلَا تَاكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا﴾ الإسراف في اللغة: الإفراط، ومجازة الحد. وقال التضر بن شميل: السرف التبذير، والبدار المبادرة ﴿وَأَنْ يَكْبَرُوا﴾ في موضع نصب بقوله: ﴿بِدَارًا﴾ أي: لا تاكلوا أموال اليتامى أكل إسراف، وأكل مبادرة لكبرهم، أو لا تاكلوا لأجل السرف، ولأجل المبادرة أو لا تاكلوها مسرفين، ومباردين لكبرهم، وتقولوا ننفق أموال اليتامى. فيما نشتهي قبل أن يبلغوا، فينتزعوها من أيدينا. قوله: ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بين سبحانه ما يحل لهم من أموال اليتامى، فأمر الغني بالاستعفاف وتوفير مال الصبي عليه، وعدم تناوله منه،

﴿فَسَلِمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ [النور: 61]، وقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [البقرة: 54] أي: ليسلم بعضكم على بعض، وليقتل بعضكم بعضاً، وقيل: أضافها إليهم؛ لأنها من جنس أموالهم، فإن الأموال جعلت مشتركة بين الخلق في الأصل، وقيل المراد: أموال المخاطبين حقيقة، وبه قال أبو موسى الأشعري، وابن عباس، والحسن، وقتادة. والمراد: النهي عن دفعها إلى من لا يحسن تدبيرها كالنساء، والصبيان، ومن هو ضعيف الإدراك لا يهتدي إلى وجوه النفع التي تصلح المال، ولا يتجنب، وجوه الضرر التي تهلكه، وتذهب به. قوله: ﴿الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾ المفعول الأول محذوف، والتقدير التي جعلها الله لكم، وقِيَمًا قراءة أهل المدينة، وأبي عامر، وقرأ غيرهم: «قيماً»، وقرأ عبد الله بن عمر: «قواماً»، والقِيَم والقوام: ما يقيمك، يقال فلان قِيَم أهله، وقوام بيته، وهو الذي يقيم شأنه، أي: يصلحه، ولما انكسرت القاف في قوام أبطلوا الواو ياء. قال الكسائي، والفراء: قِيَمًا وقواماً بمعنى قِيَمًا، وهو: منصوب على المصدر أي: لا تؤثروا السفهاء أموالكم التي تصلح بها أموركم، فتقومون بها قِيَمًا، وقال الأخفش: المعنى قائمة بأموركم، فذهب إلى أنها جمع. وقال البصريون: قِيَمًا جمع قيمة كقيمة وديم، أي: جعلها الله قيمة للأشياء، وخطأ أبو علي الفارسي هذا القول، وقال: هي مصدر، كقيام وقوام. والمعنى: أنها صلاح للحال، وثبات له، فاما على قول من قال: إن المراد أموالهم على ما يقتضيه ظاهر الإضافة، فالمعنى واضح. وأما على قول من قال إنها أموال اليتامى، فالمعنى أنها من جنس ما تقوم به معاشيتكم، ويصلح به حالكم من الأموال. وقرأ الحسن، والنخعي: «اللاتي جعل» قال الفراء: الأكثر في كلام العرب النساء اللواتي، والأموال التي، وكذلك غير الأموال، نكره النحاس. قوله: ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ﴾ أي: اجعلوا لهم فيها رزقاً، أو افرضوا لهم، وهذا فيمن تلزم نفقته، وكسوته من الزوجات، والأولاد، ونحوهم. وأما على قول من قال: إن الأموال هي أموال اليتامى، فالمعنى اتجروا فيها حتى تربحوا، وتنفقوهم من الأرباح، أو اجعلوا لهم من أموالهم رزقاً ينفقونه على أنفسهم، ويكتسبون به. وقد استدل بهذه الآية على جواز الحجر على السفهاء، وبه قال الجمهور. وقال أبو حنيفة: لا يحجر على من بلغ عقلاً، واستدل بها أيضاً على وجوب نفقة القرابة، والخلاف في ذلك معروف في مواضعه. قوله: ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ قيل: ادعوا لهم: بارك الله فيكم، وحاطكم، وصنع لكم، وقيل معناه: عنوهم وعداً حسناً قولوا لهم: إن رشيتم نفعنا إليكم أموالكم، ويقول الأب لابنه: مالي سيصير إليك، وأنت إن شاء الله صاحبه، ونحو ذلك. والظاهر من الآية ما يصق عليه مسمى القول الجميل، ففيه إرشاد إلى حسن الخلق مع الأهل، والأولاد، أو مع الأيتام المكفولين. وقد قال النبي ﷺ فيما صح عنه: «خيركم خيركم أهله، وأنا خيركم لأهلي». قوله: ﴿وَابْتَغُوا الْيَتَامَى﴾ الابتلاء: الاختبار. وقد تقدّم

وسَوْغَ للفقير أن ياكل بالمعروف.

واختلف أهل العلم في الأكل بالمعروف ما هو؟ فقال قوم: هو القرض إذا احتاج إليه، ويقضي متى أيسر الله عليه، وبه قال عمر بن الخطاب، وابن عباس، وعبيدة السلماني، وابن جبير، والشعبي، ومجاهد، وأبو العالية، والأوزاعي، وقال النخعي، وعطاء، والحسن، وقتادة: لا قضاء على الفقير فيما ياكل بالمعروف، وبه قال جمهور الفقهاء. وهذا بالنظم القرآني الصق، فإن إباحة الأكل للفقير مشعرة بجواز ذلك له من غير قرض. والمراد بالمعروف: المتعارف به بين الناس، فلا يترفع بأموال اليتامى، ويبالغ في التمتع بالملكول، والمشروب، والملبوس، ولا يدع نفسه عن سدّ الفاقة، وستر العورة. والخطاب في هذه الآية لأولياء الأيتام القائمين بما يصلحهم كالأب، والجدة، ووصيهما. وقال بعض أهل العلم: المراد بالآية: اليتيم إن كان غنياً، وسع عليه، وعفّ من ماله، وإن كان فقيراً كان الإنفاق عليه بقدر ما يحصل له، وهذا القول في غاية السقوط. قوله: ﴿فَإِنْ نَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ﴾ أي: إذا حصل مقتضى النفع، فنفعتهم إليهم أموالهم، فأشهدوا عليهم أنهم قد قبضوها منكم لتتدفع عنكم التهم، وتأمنا عاقبة الدعاوى الصادرة منهم، وقيل: إن الإشهاد المشروع هو ما أنفقه عليهم الأولياء قبل رشدهم، وقيل: هو على رد ما استقرضه إلى أموالهم، وظاهر النظم القرآني مشروعية الإشهاد على ما نفع إليهم من أموالهم، وهو يعمّ الإنفاق قبل الرشد، والنفع للجميع إليهم بعد الرشد: ﴿وَكُفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ أي: حسباً لأعمالكم شاهداً عليكم في كل شيء تعملونه، ومن جملة ذلك معاملتكم لليتامى في أموالهم، وفيه وعيد عظيم، والباء زائدة، أي: كفى الله.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ يقول لا تعدد إلى مالك، وما خولك الله، وجعله لك معيشة، فتعطيه امرأتك، أو بنتك، ثم تضطر إلى ما في أيديهم، ولكن أمسك مالك، وأصلحه، وكن أثنت الذي تنفق عليهم في كسوتهم، ورزقهم، ومؤونتهم. قال: وقوله: ﴿قَوْلًا﴾ يعني: قوامكم من معاشكم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه من طريق العوفي في الآية يقول: لا تسلط السفهية من وليك على مالك، وأمره أن يرزقه منه، ويكسوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه قال: هم بنوك، والنساء. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن النساء السفهاء إلا التي أطاعت قيمها» وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي هريرة قال: هم الخدم، وهم شياطين الإنس. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن مسعود قال: هم النساء، والصبيان. وأخرج ابن جرير، عن حزمي: أن رجلاً عمد، فنفع ماله إلى امرأته، فوضعت في غير الحق، فقال الله: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن سعيد بن جبير قال: هم اليتامى، والنساء. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، عن

عكرمة قال: هو مال اليتيم، يكون عندك، يقول لا تؤتة إياه، وأنفق عليه حتى يبلغ. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَارْزُقُوهُمْ﴾ يقول: أنفقوا عليهم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد: ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ قال: أمروا أن يقولوا لهم قولاً معروفاً في البر، والصلة. وأخرج ابن جرير، عن ابن جريج: ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ قال: عدة تعينهم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَابْتَغُوا الْيَتَامَى﴾ يعني: اختبروا اليتامى عند الحلم ﴿فَإِنْ أَنْتُمْ﴾ عرفتكم ﴿مِنْهُمْ رَشَدًا﴾ في حالهم، والإصلاح في أموالهم: ﴿فَانْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا﴾ يعني تأكل مال اليتيم ببادرة قبل أن يبلغ، فتحول بينه، وبين ماله. وأخرج البخاري، وغيره، عن عائشة قالت: أنزلت هذه الآية في ولي اليتيم: ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بقدر قيامه عليه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، عن ابن عباس: ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ قال بنغناه: ﴿وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ قال: ياكل من ماله يقوت على نفسه حتى لا يحتاج إلى مال اليتيم، وأخرج ابن جرير عنه قال: هو القرض. وأخرج عبد بن حميد، والبيهقي، عن ابن عباس قال: إن كان فقيراً أخذ من فضل اللبن، وأخذ من فضل القوت، ولا يجاوز، وما يستر عورته من الثياب، فإن أيسر قضاءه، وإن أعسر، فهو في حل. وأخرج عبد الرزاق، وابن سعد، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في سننه من طرق عن عمر بن الخطاب قال: إني أنزلت نفسي من مال الله منزلة، ولي اليتيم، إن استغنيست استعففت، وإن احتجت أخذت منه بالمعروف، فإذا أيسرت قضيت. وأخرج أحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وابن أبي حاتم، عن ابن عمر: «أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ، فقال: ليس لي مال، ولي يتيم فقال: كل من مال يتيمك غير مسرف، ولا مبذر، ولا متائل مالا، ومن غير أن تقي مالك بماله». وأخرج أبو داود، والنحاس كلاهما في الناسخ، وابن المنذر، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ قال: نسختها ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ

أَمْوَالَ الْيَتَامَى﴾ [النساء: 10] الآية.

لِرِجَالٍ تَحِبُّ بِمَا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نِصِيبٌ بِمَا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ بِمَا تَرَكَ أَبُوهُنَّ أَوْ كُتْرَ نِصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١٠﴾ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالسَّكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿١١﴾ وَلَا تَحْسَبُوا الدِّينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِكُمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَاوِفًا عَلَيْهِمْ فَلْيَسْتَوْفُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَوِيًّا ﴿١٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ كَلْبًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾

لما ذكر سبحانه حكم أموال اليتامى، وصله بأحكام الموارث، وكيفية قسمتها بين الورثة. وأورد سبحانه ذكر

والمعنى: وليخش الذين صفتهم، وحالهم أنهم لو شارقوا أن يتركوا خلفهم ذرية ضعافاً، وذلك عند احتضارهم خافوا عليهم الضياع بعدهم لذهاب كافلهم، وكاسبهم، ثم أمرهم بتقوى الله، والقول السيد للمحتضرين، أو لأولادهم من بعدهم على ما سبق. قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى﴾ استئناف يتضمن النهي عن ظلم الأيتام من الأولياء، والأوصياء، وانتصاب قوله: ﴿ظُلُمًا﴾ على المصدرية، أي: أكل ظلم، أو على الحالية، أي: ظالمين لهم. وقوله: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ أي: ما يكون سبباً للنار، تعبيراً بالسبب عن السبب، وقد تقدم تفسير مثل هذه الآية. وقوله: ﴿وَيُصِيلُونَ﴾ قراءة عاصم، وابن عامر بضم الياء على ما لم يسم فاعله. وقرأ أبو حنيفة بضم الياء، وفتح الصاد، وتشديد اللام من التصلية بكثرة الفعل مرة بعد أخرى. وقرأ الباقون بفتح الياء من صلى النار يصلها، والصلى هو: التسخن بقرب النار، أو مباشرتها، ومنه قول الحارث بن عباد:

لم أكن من جنايتها علم الله ۞ وإنني لحزها اليوم صالي
والسعين: الجمر المشتعل.

وقد أخرج أبو الشيخ، عن ابن عباس قال: كان أهل الجاهلية لا يورثون البنات، ولا الصغار حتى يدركوا، فمات رجل من الأنصار يقال له: أوس بن ثابت، وترك ابنتين، وابناً صغيراً، فجاء ابنه عمه، وهما عصبته إلى رسول الله ﷺ، فأخذ ميراثه كله، فجاءت امرأته إلى رسول الله ﷺ، فنزلت الآية، فأرسل إليهما رسول الله ﷺ فقال: لا تحركا من الميراث شيئاً، فإنه قد أنزل على شيء احترت فيه إن للذكر والأنثى نصيباً، ثم نزل بعد ذلك: ﴿وَيُستَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾ [النساء: 127]، ثم نزل: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَانِكُمْ﴾ [النساء: 11] فدعا بالميراث، فأعطى المرأة الثمن، وقسم ما بقي للذكر مثل حظ الأنثيين. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن عكرمة في الآية قال: نزلت في أم كلثوم ابنة أم كحلّة، أو أم كحة، وشعلبة بن أوس، وسويد، وهم من الأنصار، كان أحدهم زوجها، والآخر عم ولدها، فقالت: يا رسول الله توفي زوجي، وتركني، وابنته، فلم نورث من ماله، فقال عمّ ولدها: يا رسول الله لا يركب فرساً، ولا ينكح عدواً ويكسب عليها، ولا يكتسب، فنزلت. وأخرج البخاري، وغيره عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ﴾ قال: هي محكمة، وليست بمنسوخة. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن خطاب بن عبد الله في هذه الآية قال: قضى بها أبو موسى. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وأبو داود في ناسخه، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في الآية قال: هي واجبة على أهل الميراث ما طابت به أنفسهم. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، عن الحسن، والزهرري قالاً: هي محكمة ما طابت به أنفسهم. وأخرج أبو داود في ناسخه، وابن جرير، والحاكم وصححه، عن ابن عباس قال:

النساء بعد ذكر الرجال، ولم يقل للرجال، والنساء نصيب، للإيذان بأصالتها في هذا الحكم، ونفع ما كانت عليه الجاهلية من عدم توريث النساء، وفي ذكر القرابة بيان لعل الميراث مع التعميم لما يصدق عليه مسمى القرابة من دون تخصيص. وقوله: ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾ بدل من قوله: ﴿مِمَّا تَرَكَ﴾ بإعادة الجار، والضمير في قوله: ﴿مِنْهُ﴾ راجع إلى المبدل منه. وقوله: ﴿نَصِيبًا﴾ منتصب على الحال، أو على المصدرية، أو على الاختصاص، وسيأتي ذكر السبب في نزول هذه الآية إن شاء الله، وقد أجمل الله سبحانه في هذه المواضع قدر النصيب المفروض، ثم أنزل قوله: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَانِكُمْ﴾ [النساء: 11] فبين ميراث كل فرد. قوله: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى﴾ المراد بالقرابة هنا: غير الوارثين، وكذا اليتامى، والمساكين، شرع الله سبحانه أنهم إذا حضروا قسمة التركة كان لهم منها رزق، فيرضخ لهم المتقاسمون شيئاً منها. وقد ذهب قوم إلى أن الآية محكمة، وأن الأمر للندب. وذهب آخرون إلى أنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَانِكُمْ﴾ [النساء: 11] والأول أرجح، لأن المذكور في الآية للقرابة غير الوارثين ليس هو من جملة الميراث حتى يقال إنها منسوخة بآية الموارث، إلا أن يقولوا إن أولى القرابة المذكورين هنا هم الوارثون كان للنسخ وجه. وقالت طائفة: إن هذا الرضخ لغير الوارث من القرابة واجب بمقدار ما تطيب به أنفس الورثة، وهو معنى الأمر الحقيقي، فلا يصار إلى الندب إلا لقرينة، والضمير في قوله: ﴿مِنْهُ﴾ راجع إلى المال المقسوم المملوك عليه بالقسمة، وقيل: راجع إلى ما ترك. والقول المعروف: هو القول الجميل الذي ليس فيه من بما صار إليهم من الرضخ ولا أذى. قوله: ﴿وَلِيُخْشِشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا﴾ هم الأوصياء، كما ذهب إليه طائفة من المفسرين، وفيه وعظ لهم بأن يفعلوا بليتامي الذين في حوزهم ما يحبون أن يفعل بأولادهم من بعدهم؛ وقالت طائفة: المراد جميع الناس أمروا باتقاء الله في الأيتام، وأولاد الناس، وإن لم يكونوا في حوزهم؛ وقال آخرون: إن المراد بهم: من يحضر الميت عند موته، أمروا بتقوى الله، وبأن يقولوا للمحتضر قولاً سيدياً من إرشادهم إلى التخلص عن حقوق الله، وحقوق بني أم، وإلى الوصية بالقرب المقربة إلى الله سبحانه، وإلى ترك التبذير بماله، وإحرام ورثته، كما يخشون على ورثتهم من بعدهم لو تركوهم، فقراء عالة يتكففون الناس، وقال ابن عطية: الناس صنفان يصلح لأحدهما أن يقال له عند موته ما لا يصلح للآخر، وذلك أن الرجل إذا ترك ورثته مستقلين بأنفسهم أغنياء حسن أن ينوب إلى الوصية، ويحمل على أن يقدم لنفسه، وإذا ترك ورثته ضعفاء مفلسين حسن أن ينوب إلى الترتيب لهم، والاحتياط، فإن أجره في قصد ذلك كأجره في المساكين. قال القرطبي: وهذا التفصيل صحيح. قوله: ﴿لَوْ تَرَكَوْا﴾ صلة الموصول، والفاء في قوله: ﴿فَلْيَتَّقُوا﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها؛

تَحْتَهَا الْأَنْهَكُ خَلِيدٌ فِيهَا وَذَلِكَ الْعَوْدُ الْقَطِيعُ ﴿٢٦﴾
وَمَنْ يَقَعِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا كَخَلِيدٍ فِيهَا
وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٢٧﴾

هذا تفصيل لما أجمل في قوله تعالى: ﴿للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون﴾ [النساء: 7] الآية، وقد استدلل بذلك على جواز تأخير البيان عن وقت الحاجة، وهذه الآية ركن من أركان الدين، وعمدة من عمد الأحكام، وأم من أمهات الآيات لاشتمالها على ما يهم من علم الفرائض، وقد كان هذا العلم من أجل علوم الصحابة، وأكثر مناظراتهم فيه، وسيأتي بعد كمال تفسير ما اشتمل عليه كلام الله من الفرائض نكر بعض فضائل هذا العلم إن شاء الله. قوله: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَانِكُمْ﴾ أي: في بيان ميراثهم. وقد اختلفوا هل يدخل أولاد الأولاد أم لا، فقالت الشافعية: إنهم يدخلون مجازاً لا حقيقة، وقالت الحنفية: إنه يتناولهم لفظ الأولاد حقيقة إذا لم يوجد أولاد الصلب، ولا خلاف أن بني البنين كالبنين في الميراث مع عدمهم، وإنما هذا الخلاف في دلالة لفظ الأولاد على أولادهم مع عدمهم، ويدخل في لفظ الأولاد من كان منهم كافراً، ويخرج بالسنة، وكذلك يدخل القاتل عمداً، ويخرج أيضاً بالسنة، والإجماع، ويدخل فيه الخنثى. قال القرطبي: وأجمع العلماء أنه يورث من حيث يبول، فإن بال منهما، فمن حيث سبق، فإن خرج البول منهما من غير سبق أحدهما، فله نصف نصيب الذكر، ونصف نصيب الأنثى، وقيل: يعطى أقل النصيبين، وهو نصيب الأنثى، قاله يحيى بن آدم، وهو قول الشافعي. وهذه الآية ناسخة لما كان في صدر الإسلام من الموارثة بالحلِف، والهجرة، والمعاقدة، وقد أجمع العلماء على أنه إذا كان مع الأولاد من له فرض مسمى أعطيه، وكان ما بقي من المال للذكر مثل حظ الأنثيين، للحديث الثابت في الصحيحين، وغيرهما بلفظ: «الحقوا الفرائض بأهلها، فما بقيت الفرائض، فلاولى رجل نكر، إلا إذا كان ساقطاً معهم، كالأخوة لام». وقوله: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ جملة مستأنفة لبيان الوصية في الأولاد، فلا بد من تقدير ضمير يرجع إليهم: ويوصيكم الله في أولادكم للذكر منهم مثل حظ الأنثيين. والمراد: حال اجتماع الذكور، والإناث، وأما حال الانفراد، فللذكر جميع الميراث، وللأنثى النصف، وللأنتنتين، فصاعداً الثلثان. قوله: ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ أي: فإن كن الأولاد، والأنتيت باعتبار الخبر، أو البنات، أو المولودات نساء ليس معهن ذكر فوق اثنتين، أي: زائدات على اثنتين على أن فوق صفة لنساء، أو يكون خبراً ثانياً لكان: ﴿فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ الميت المملول عليه بقرينة المقام. وظاهر النظم القرآني أن الثلثين فريضة الثلاث من البنات، فصاعداً، ولم يسم للأنتتين فريضة، ولهذا اختلف أهل العلم في فريضتهما، فذهب الجمهور إلى أن لهما إذا انفردتا عن البنين الثلثين، وذهب ابن عباس إلى أن فريضتهما النصف، احتج الجمهور بالقياس على الأختين،

يرضخ لهن فإن كان في ماله تقصير اعتذر إليهم، فهو قولاً معروفاً، وأخرج ابن المنذر، عن عائشة أنها لم تنسخ. وأخرج أبو داود في ناسخه، وابن جرير، وابن أبي حاتم: أن هذه الآية منسوخة بآية الميراث. وأخرج أبو داود في ناسخه، وعبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن المسيب قال: هي منسوخة. وأخرج ابن جرير، عن سعيد بن جبيرة قال: إن كانوا كباراً يرضخوا، وإن كانوا صغاراً اعتذروا إليهم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه في قوله: ﴿وَلِيُخْشِ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا﴾ قال: هذا في الرجل يحضر الرجل عند موته، فيسمعه يوصي وصية تضر بورثته، فأمر الله الذي يسمعه أن يتقي الله، ويوفقه، ويسدده للصواب، ولينظر لورثته، كما يحب أن يصنع لورثته إذا خشى عليهم الضيعة. وقد روى نحو هذا من طرق. وأخرج ابن أبي شيبة، وأبو يعلى، والطبراني، وابن حبان في صحيحه، وابن أبي حاتم، عن أبي بركة عن رسول الله ﷺ قال: «يبعث يوم القيامة قوم من قبورهم تاجع أقوامهم ناراً، فقيل: يا رسول الله من هم؟ قال: ألم تر أن الله يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْلُونُ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَكْلُونُ فِي بطونهم ناراً﴾». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن أبي سعيد الخدري، قال: حدثنا النبي ﷺ عن ليلة أسرى به قال: «نظرت فإذا يقوم لهم مشافرو، كمشافرو الإبل، وقد وكل بهم من يأخذ بمشافروهم، ثم يجعل في أقوامهم صخراً من نار فيقف في في أحدهم حتى يخرج من أسافلهم، ولهم جوار، وصراخ، فقلت: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء: ﴿الَّذِينَ يَكْلُونُ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَكْلُونُ فِي بطونهم ناراً﴾ وسيصلون سعيراً». وأخرج ابن جرير، عن زيد بن أسلم قال: هذه الآية لاهل الشرك حين كانوا لا يورثونهم، ويكلون أموالهم.

يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْكَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُّ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَكَ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ وَلَدٌ وَوَرِثَتْهُ أَوَّاهٌ فَلَوْلَاكَ ثُلُثُ إِنْ كَانَ لَكَ إِخْوَةٌ فَلِلْأَخَوَاتِ الشُّدُّ مِمَّا بَعْدَ وَصِيَّتِ يَوْسَ يَآ أَوْ دَيْنٌ أَمْثَالُكُمْ وَأَمَّا أَوْلَاكُمْ لَا تَذَرُونَهُمْ أَهْلُهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَعْمًا فَرِيشَةُ رَبِّكَ اللَّهُ إِنْ كَانَ عَيْسَى حَكِيمًا ﴿٢٨﴾ ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ كُنَّ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِ يَوْسَ يَآ أَوْ دَيْنٌ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكَنَّ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الشُّدُّ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِ يَوْسَ يَآ أَوْ دَيْنٌ وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُوْرَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُّ إِنْ كَانَ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِ يَوْسَ يَآ أَوْ دَيْنٌ غَيْرَ مُعَاوَرَةٍ وَصِيَّةٍ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ نَسَلَكُ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ

«السدس» يسكون الدال، وكذلك قرأ الثلث، والرابع إلى العشر بالسكون، وهي لغة بني تميم، وريبعة، وقرأ الجمهور بالتحريك ضمًا، وهي لغة أهل الحجاز، وبني أسد في جميعها. والمراد بالأبوين: الأب والأم، والثنيتي على لفظ الأب للتعليب.

وقد اختلف العلماء في الجد، هل هو بمنزلة الأب، فتسقط به الأخوة أم لا؟ فذهب أبو بكر الصديق إلى أنه بمنزلة الأب، ولم يخالفه أحد من الصحابة أيام خلافته، واختلفوا في ذلك بعد وفاته، فقال بقول أبي بكر ابن عباس، وعبد الله بن الزبير، وعائشة، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب، وأبو الدرداء، وأبو هريرة، وعطاء، وطاوس، والحسن، وقتادة، وأبو حنيفة، وأبو ثور، وإسحاق، واحتجوا بمثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا إِبْرَاهِيمُ﴾ [الحج: 78] وقوله: ﴿يَا بَنِي آدَمُ﴾ [الأعراف: 26، 27، 31، 35]، وقوله ﷺ: «ارموا يا بني إسماعيل». وذهب علي بن أبي طالب وزيد بن ثابت، وابن مسعود إلى توريت الجد مع الإخوة لأبوين أو لأب، ولا ينقص معهم من الثلث، ولا ينقص مع ذوي الفروض من السدس في قول زيد، ومالك، والأوزاعي، وأبي يوسف، ومحمد، والشافعي. وقيل: بشرك بين الجد، والإخوة إلى السدس، ولا ينقصه من السدس شيئاً مع ذوي الفروض، وغيرهم، وهو: قول ابن أبي ليلى، وطائفة. وذهب الجمهور إلى أن الجد يسقط بني الإخوة، وروى الشعبي عن علي أنه أجرى بني الإخوة في القاسمة مجرى الإخوة. وأجمع العلماء على أن الجد لا يرث مع الأب شيئاً، وأجمع العلماء على أن للجد السدس إذا لم يكن للميت أم، وأجمعوا على أنها ساقطة مع وجود الأم، وأجمعوا على أن الأب لا يسقط الجدة أم الأم.

واختلفوا في توريت الجدة، وابنها حي، فروي عن زيد بن ثابت، وعثمان، وعلي أنها لا ترث، وابنها حي، وبه قال مالك، والثوري، والأوزاعي، وأبو ثور، وأصحاب الرأي. وروي عن عمر وابن مسعود، وأبي موسى: أنها ترث معه وروي أيضاً، عن علي، وعثمان، وبه قال شريح، وجابر بن زيد، وعبيد الله بن الحسن، وشريك، وأحمد، وإسحاق وابن المنذر. قوله: ﴿إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾ الولد يقع على الذكر، والأنثى، لكنه إذا كان الموجود الذكر من الأولاد، وحده أو مع الأنثى منهم، فليس للجد إلا السدس، وإن كان الموجود أنثى كان للجد السدس بالفرض، وهو عصبية فيما عدا السدس، وأولاد ابن الميت كأولاد الميت. قوله: ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ﴾ أي: ولا ولد ابن لما تقدم من الإجماع ﴿وَوُورْثَهُ أَبَوَاهُ﴾ منفردين، عن سائر الورثة، كما ذهب إليه الجمهور من أن الأم لا تأخذ ثلث التركة إلا إذا لم يكن للميت وارث غير الأبوين، أما لو كان معهما أحد الزوجين، فليس للأم إلا ثلث الباقي بعد الموجود من الزوجين. وروي عن ابن عباس أن للأم ثلث الأصل مع أحد الزوجين، وهو يستلزم تفضيل الأم على الأب في مسئلة زوج، وأبوين مع الاتفاق على أن أفضل منها عند انفردهما عن أحد الزوجين. قوله: ﴿فَإِنْ

فَإِنْ أَلَّهِ سَبَّحَانَهُ قَالَ فِي شَانَهُمَا: ﴿فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثَّلَاثَانُ﴾ [النساء: 76] فالحقوا البنيتين بالأختين في استحقاقهما للثلاثين، كما الحقوا الأخوات إذا زين على اثنتين بالبنات في الاشتراك في الثلاثين، وقيل: في الآية ما يدل على أن للبنيتين الثلاثين، وذلك أنه لما كان للواحدة مع أخيها الثلث كان للإبنتين إذا انفردتا الثلاثين، هكذا احتج بهذه الحجة إسماعيل بن عياش، والميرد. قال النحاس: وهذا الاحتجاج عند أهل النظر غلط؛ لأن الاختلاف في البنيتين إذا انفردتا عن البنين، وأيضاً للمخالف أن يقول إذا ترك بنتين، وأبناً فللبنتين النصف، فهذا دليل على أن هذا فرضهما، ويمكن تأييد ما احتج به الجمهور بأن الله سبحانه لما فرض للبنات الواحدة إذا انفردت النصف بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ كان فرض البنيتين إذا انفردتا فوق فرض الواحدة، وأوجب القياس على الأختين الاقتصار للبنتين على الثلاثين. وقيل: إن فوق زائدة، والمعنى: وإن كنَّ نساء اثنتين، كقوله تعالى: ﴿فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ [الأنفال: 12] أي: الأعناق، ورد هذا النحاس، وابن عطية، فقالا: هو خطأ؛ لأن الظروف، وجميع الأسماء لا تجوز في كلام العرب أن تزداد لغير معنى. قال ابن عطية: ولأن قوله: ﴿فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ هو الفصيح، وليست فوق زائدة، بل هي محكمة المعنى؛ لأن ضربة العنق إنما يجب أن تكون فوق العظام في المفصل بون الدماغ، كما قال بريد بن الصمة: اخفض عن الدماغ، وارفع عن العظم، فهكذا كنت أضرب أعناق الأبطال. انتهى. وأيضاً لو كان لفظ فوق زائداً، كما قالوا لقال، فلهما ثلثا ما ترك، ولم يقل، فلهن ثلثا ما ترك، وأوضح ما يحتج به للجمهور ما أخرجه ابن أبي شيبة، وأحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وأبو يعلى، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والحاكم، والبيهقي في سننه، عن جابر قال: جاءت امرأة سعد بن الربيع إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله هاتان ابنتا سعد بن الربيع قتل أبوهما معك في أحد شهيداً، وإن عمهما أخذ مالهما، فلم يدع لهما مالاً، ولا ينكحان، إلا ولهما مال، فقال: يقضي الله في ذلك، فنزلت آية الميراث: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَاكُمْ﴾ الآية، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمهما، فقال: أعط ابنتي سعد الثلاثين، وأمهما الثمن، وما بقي، فهو لك. أخرجه من طرق عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن جابر قال الترمذي: ولا يعرف إلا من حديثه. قوله: ﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ قرأ نافع، وأهل المدينة: «واحدة» بالرفع على أن كان تامة بمعنى: فإن وجدت واحدة، أو حثت واحدة. وقرأ الباقر بالنصب قال النحاس: وهذه قراءة حسنة، أي: وإن كانت المتروكة، أو المولودة واحدة. قوله: ﴿وَأُولَاؤِيهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ﴾ أي: لأبوي الميت، وهو: كناية عن غير مذكور، وجاز ذلك لدلالة الكلام عليه ﴿وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ﴾ بدل من قوله: ﴿وَأُولَاؤِيهِ﴾ بتكرير العامل للتأكيد، والتفصيل. وقرأ الحسن، ونعيم بن ميسرة:

كان له إخوة فلامه السدس إطلاق الإخوة يدل على أنه لا فرق بين الإخوة لأبوين أو لأحدهما.

وقد أجمع أهل العلم على أن الإثنين من الإخوة يقومون مقام الثلاثة، فصاعداً في حجب الأم إلى السدس إلا ما يروى، عن ابن عباس أنه جعل الاثنين كالواحد في عدم الحجب. وأجمعوا أيضاً على أن الأخنتين، فصاعداً كالأخوين في حجب الأم. قوله: ﴿مَنْ بَعْدَ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دِينٍ﴾ قرأ ابن كثير، وابن عامر، وعاصم: «يوصى» بفتح الصاد. وقرأ الباقر بكسرهما، واختار الكسر أبو عبيد، وأبو حاتم؛ لأنه جرى نكر الميت قبل هذا. قال الأخفش: وتصديق ذلك قوله: ﴿يُوصِينَ وَتُوصُونَ﴾.

وإختلف في وجه تقديم الوصية على الدين مع كونه مقدماً عليها بالإجماع، فقيل: المقصود تقديم الأمرين على الميراث من غير قصد إلى الترتيب بينهما، وقيل: لما كانت الوصية أقل لزوماً من الدين قُضِمَتْ اهتماماً بها؛ وقيل: قُضِمَتْ لكثرة وقوعها، فصارت كالأمر اللازم لكل ميت، وقيل: قدمت لكونها حظ المساكين، والفقراء، وآخر الدين لكونه حظ غريم يطلبه بقوة وسلطان، وقيل: لما كانت الوصية ناشئة من جهة الميت قدمت، بخلاف الدين، فإنه ثابت مؤدي ذكر أو لم يذكر، وقيل: قُضِمَتْ لكونها تشبه الميراث في كونها مأخوذة من غير عوض، فربما يشق على الورثة إخراجها، بخلاف الدين، فإن نفوسهم مطمئنة بأدائه، وهذه الوصية مفيدة بقوله تعالى: ﴿غَيْرَ مُضَارٍ﴾ كما سيأتي إن شاء الله. قوله: ﴿أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ قيل: خبر قوله: ﴿أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ﴾ مقدر أي: هم المقسوم عليهم، وقيل: إن الخبر قوله: ﴿لَا تَدْرُونَ﴾ وما بعده ﴿وَأَقْرَبُ﴾ خبر قوله: ﴿أَيُّهُمْ﴾ و ﴿نَفْعًا﴾ تمييز، أي: لا تدرُونَ أيُّهم أقرب لكم نفعه في الدعاء لكم، والصنقة عنكم، كما في الحديث الصحيح: «أو ولد صالح يدعو له». وقال ابن عباس، والحسن: قد يكون الابن أفضل، فيشفع في أبيه. وقال بعض المفسرين: إن الابن إذا كان أرفع درجة من أبيه في الآخرة سأل الله أن يرفع إليه أباه، وإذا كان الأب أرفع درجة من ابنه سأل الله أن يرفع ابنه إليه؛ وقيل المراد: النفع في الدنيا، والآخرة، قاله ابن زيد، وقيل: المعنى: إنكم لا تدرُونَ من أنفع لكم من آبائكم، وأبنائكم، أمن أوصى منهم، فعرضكم لشواب الآخرة بأمضاء، وصيته، فهو أقرب لكم نفعاً، أو من ترك الوصية، ووفر عليكم عرض الدنيا؟ وقرئ هذا صاحب الكشاف، قال: لأن الجملة اعتراضية، ومن حق الاعتراض أن يؤكد ما اعترض بينه، ويناسبه قوله: ﴿قَرِيبَةً مِنْ اللَّهِ﴾ نصب على المصدر المؤكد، إذ معنى: ﴿يُوصِيكُمْ﴾ يفرض عليكم. وقال مكي، وغيره: هي حال مؤكدة، والعامل يوصيكم. والاولى أولى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بقسمة المواويز ﴿حَكِيمًا﴾ حكم بقسمتها، وبينها لاهلها. وقال الزجاج: ﴿عَلِيمًا﴾ بالأشياء قبل خلقها ﴿حَكِيمًا﴾ فيما يقدره ويمضيه منها. قوله: ﴿وَلَكُمْ نَصْفُ

ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهنَّ ولد﴾ الخطاب هنا للرجال. والمراد بالولد ولد الصلب، أو ولد الولد لما قدمنا من الإجماع ﴿فَإِنْ كَانَ لهنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرِّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ﴾، وهذا مجمع عليه لم يختلف أهل العلم في أن للزوج مع عدم الولد النصف، ومع وجوده، وإن سفل الربع. وقوله: ﴿مَنْ بَعْدَ وَصِيَّةٍ﴾ الخ الكلام فيه، كما تقدم. قوله: ﴿وَلَهُنَّ الرِّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ﴾ إن لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولد فلهنَّ الثمن مما تركتم. هذا النصيب مع الولد، والنصيب مع عدمه تنفرد به الواحدة من الزوجات، ويشترك فيه الأكثر من واحدة لا خلاف في ذلك، والكلام في الوصية، والدين، كما تقدم. قوله: ﴿وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً﴾ المراد بالرجل الميت، و ﴿يُورَثُ﴾ على البناء للمفعول من ورث لا من أورث، وهو خبر كان و ﴿كَلَالَةً﴾ حال من ضمير ﴿يُورَثُ﴾ أي: يورث حال كونه ذا كلاله، أو على أن الخبر كلاله، ويورث صفة لرجل، أي: إن كان رجل يورث ذا كلاله ليس له ولد، ولا والد، وقرئ ﴿يُورَثُ﴾ مخففاً، ومشدداً، فيكون كلاله مفعولاً، أو حالاً، والمفعول محذوف، أي: يورث، وأريد حال كونه ذا كلاله، أو يكون مفعولاً له، أي: لأجل الكلاله. والكلالة مصدر من تكلمه النسب، أي: أحاط به، وبه سمي الإكليل لإحاطته بالرأس. وهو الميت الذي لا ولد له، ولا والد، هذا قول أبي بكر الصديق، وعمر، وعلي، وجمهور أهل العلم، وبه قال صاحب كتاب العين وأبي منصور اللغوي، وابن عرفة، والقتيبي، وأبو عبيد، وابن الأنباري. وقد قيل: إنه إجماع. قال ابن كثير: وبه يقول أهل المدينة، والكوفة، والبصرة، وهو قول الفقهاء السبعة، والأئمة الأربعة، وجمهور الخلف، والسلف بل جميعهم. وقد حكى الإجماع غير واحد، وورد فيه حديث مرفوع. انتهى. وروى أبو حاتم، والأثرم، عن أبي عبيدة أنه قال: الكلالة كل من لم يرث أب، أو ابن، أو أخ، فهو عند العرب كلاله. قال أبو عمر بن عبد البر: نكر أبي عبيدة الأخ هنا مع الأب، والابن في شرط الكلاله غلط لا وجه له، ولم يذكره في شرط الكلاله غيره، وما يروى عن أبي بكر، وعمر من أن الكلاله من لا ولد له خاصة، فقد رجعا عنه. وقال ابن زيد: الكلالة: الحي، والميت جميعاً، وإنما سماوا القرابة كلاله؛ لأنهم أطافوا بالميت من جوانبه، وليسوا منه، ولا هو منهم، بخلاف الابن، والأب، فهنما طرفان له، فإذا ذهب تكلمه النسب، وقيل: إن الكلاله مأخوذة من الكلال، وهو الإعياء، فكانه يصير الميراث إلى الوارث عن بعد، وإعياء. وقال ابن الأعرابي: إن الكلاله بنو العم الأباعد. وبالجملة فمن قرأ: ﴿يُورَثُ كَلَالَةً﴾ بكسر الراء مشددة، وهو بعض الكوفيين، أو مخففة، وهو الحسن، وأيوب جعل الكلاله القرابة، ومن قرأ: ﴿يُورَثُ﴾ بفتح الراء، وهم الجمهور احتمل أن يكون الكلاله الميت، واحتمل أن يكون القرابة. وقد روي عن علي، وابن مسعود، وزيد بن ثابت، وابن عباس، والشعبي أن الكلاله ما كان سوى الولد، والوالد من الورثة. قال الطبري: الصواب أن الكلاله هم الذين

عليه، أو يوصي بوصية لا مقصد له فيها إلا الإضرار بالورثة. أو يوصي لوارث مطلقاً، أو لغيره بزيادة على الثلث، ولم تجز الورثة، وهذا القيد أعني قوله: ﴿غير مضر﴾ راجع إلى الوصية، والدين المذكورين، فهو قيد لهما، فما صدر من الإقرارات بالدين، أو الوصايا الممنهي عنها له، أو التي لا مقصد لصاحبها إلا المضارة لورثته، فهو باطل مردود لا ينفذ منه شيء، لا الثلث، ولا بونه. قاله القرطبي: وأجمع العلماء على أن الوصية للوارث لا تجوز. انتهى. وهذا القيد أعني عدم الضرر هو قيد لجميع ما تقدم من الوصية، والدين. قال أبو السعود في تفسيره: وتخصيص القيد بهذا المقام لما أن الورثة مظنة لتفريط الميت في حقهم. قوله: ﴿وصية من الله﴾ نصب على المصدر، أي: يوصيكم بذلك وصية من الله كقوله: ﴿فريضة من الله﴾ قال ابن عطية: ويصح أن يعمل فيها مضر. والمعنى: أن يقع الضرر بها، أو بسببها، فأوقع عليها تجوزاً، فتكون وصية على هذا مفعولاً بها: لأن الاسم الفاعل قد اعتمد على ذي الحال، أو لكونه منفياً معنًى، وقرأ الحسن: ﴿وصية من الله﴾ بالجر على إضافة اسم الفاعل إليها، كقوله: يا سارق الليلة أهل الدار. وفي كون هذه الوصية من الله سبحانه دليل على أنه قد وصى عباده بهذه التفاصيل المذكورة الفرائض، وأن كل وصية من عبادته تخالفها، فهي مسبوقه بوصية الله، وذلك كالوصايا المتضمنة: لتفضيل بعض الورثة على بعض، أو المشتتة على الضرر بوجه من الوجوه، والإشارة بقوله: ﴿تلك﴾ إلى الأحكام المتقدمة، وسماها حدوداً لكونها لا تجوز مجاوزتها، ولا يحل تعييبها ﴿ومن يطع الله ورسوله﴾ في قسمة الموارث، وغيرها من الأحكام الشرعية، كما يفيد عموم اللفظ: ﴿ننخله جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ وهكذا قوله: ﴿ومن يعص الله ورسوله﴾ قرأ نافع، وابن عامر ﴿ننخله﴾ بالنون. وقرأ الباقون بإلقاء التحتية. قوله: ﴿وله عذاب مهين﴾ أي: وله بعد إدخاله النار عذاب لا يعرف كنهه.

وقد أخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما، عن جابر قال: عانني رسول الله ﷺ، فقلت: ما تامرني أن أصنع في مالي يا رسول الله؟ فزلت. وقد قمنا أن سبب النزول سؤال امرأة سعد بن الربيع. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي قال: كان أهل الجاهلية لا يورثون الجواري، ولا الضعفاء من الغلمان، لا يرث الرجل من ولده إلا من أطاق القتال. فمات عبد الرحمن أخو حسان الشاعر، وترك امرأة يقال لها: أم كحة، وترك خمس جوار، فأخذ الورثة ماله، فشكت ذلك أم كحة إلى النبي ﷺ، فأنزل الله هذه الآية: ﴿فإن كن نساء فوق لثنتين﴾ ثم قال في أم كحة: ﴿ولهن الربع مما تركتم﴾. وأخرج سعيد بن منصور، والحاكم، والبيهقي، عن ابن مسعود قال: كان عمر بن الخطاب إذا سلك بنا طريقاً، فاتبعناه، وجننا سهلاً، وأنه سئل عن امرأة، وأبوين، فقال: للمرأة الربع، وللأم ثلث ما بقي، وما بقي،

يورثون الميت من عدا ولده، ووالده، لصحة خبر جابر «فقلت: يا رسول الله إنما يرثني كلاله، أفأوصي بمالي كله؟ قال: لا». انتهى. وروي عن عطاء أنه قال: الكلاله المال. قال ابن العربي وهذا قول ضعيف لا وجه له. وقال صاحب الكشف: إن الكلاله تنطلق على ثلاثة: على من لم يخلف ولداً، ولا والدًا، وعلى من ليس بولد، ولا والد من المخلفين، وعلى القرابة من غير جهة الولد، والوالد. انتهى. قوله: ﴿أو امرأة﴾ معطوف على رجل مقيد بما قيد به، أي: أو امرأة تورث كلاله. قوله: ﴿وله أخ أو أخت﴾ قرأ سعد بن أبي وقاص من أم. وسياتي نكر من أخرج ذلك عنه. قال القرطبي: أجمع العلماء أن الإخوة ما هنا هم الإخوة لأم قال: ولا خلاف بين أهل العلم أن الإخوة للاب، والام، أو للاب ليس ميراثهم هكذا، فدل إجماعهم على أن الإخوة المذكورين في قوله تعالى: ﴿وإن كانوا إخوة رجالاً ونساء فللنكر مثل حظ الأنثيين﴾ [النساء: 176] هم الإخوة لأبوين، أو لأب، وأقرب الضمير في قوله: ﴿وله أخ أو أخت﴾ لأن المراد كل واحد منهما، كما جرت بذلك عادة العرب إذا ذكروا اسمين مستويين في الحكم، فإنهم قد يذكرون الضمير الراجع إليهما مفرداً، كما في قوله تعالى: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة﴾ [البقرة: 45] وقوله: ﴿يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله﴾ [التوبة: 34]. وقد يذكرونه مثنى، كما في قوله: ﴿إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما﴾ [النساء: 135]. وقد قمنا في هذا كلاماً أطول من المذكور هنا. قوله: ﴿فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث﴾ الإشارة بقوله: «من ذلك» إلى قوله: ﴿وله أخ أو أخت﴾ أي: أكثر من الأخ المتفرد، أو الأخت المنفردة بواحد، وذلك بأن يكون الموجود اثنين فصاعداً، ذكرين، أو أنثيين، أو نكراً، وأنثى. وقد استدلل بذلك على أن النكر، كالأنثى من الإخوة لأم؛ لأن الله شرك بينهم في الثلث، ولم ينكر فضل النكر على الأنثى، كما ذكره في البنين، والإخوة لأبوين، أو لأب. قال القرطبي: وهذا إجماع. وبلت الآية على أن الإخوة لأم إذا استكمل بهم المسألة كانوا أقدم من الإخوة لأبوين، أو لأب، وذلك في المسألة المسماة بالحمارية، وهي إذا تركت الميتة زوجاً، وأماً، وأخوين لأم، وإخوة لأبوين، فإن للزوج النصف، وللأم السس، وللأخوين لأم الثلث، ولا شيء للإخوة لأبوين. ووجه ذلك أنه قد وجد الشرط الذي يرث عنده الإخوة من الأم، وهو كون الميت كلاله، ويؤيد هذا حديث: «الحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي، فلأولي رجل نكر، وهو في الصحيحين، وغيرهما، وقد قررنا دلالة الآية، والحديث على ذلك في الرسالة التي سميناهما: «المباحث للرية في المسألة الحمارية». وفي هذه المسألة خلاف بين الصحابة، فمن بعدهم معروف. قوله: ﴿من بعد وصية يوصي بها أو دين﴾ الكلام فيه، كما تقدم. قوله: ﴿غير مضر﴾ أي: يوصي حال كونه غير مضر لورثته بوجه من وجوه الضرر، كأن يقر بشيء ليس

فيعدل في وصيته، فيختم له بخير عمله، فيدخل الجنة» ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿عَذَابٌ مَّهِينٌ﴾ وفي إسناده شهر بن حوشب، وفيه مقال معروف. وأخرج ابن ماجه، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من قطع ميراث وارثه قطع الله ميراثه من الجنة يوم القيامة». وأخرجه البيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة مرفوعاً. وأخرجه ابن أبي شيبة، وسعيد بن منصور، عن سليمان بن موسى قال: قال رسول الله ﷺ، فنكر نحوه. وقد ثبت في الصحيحين، وغيرهما من حديث سعد بن أبي وقاص: «أن النبي ﷺ أتاه يعوده في مرضه، فقال: إن لي مالا كثيراً وليس يرثني إلا ابنة لي أقتصق بالثلثين؟ فقال لا، قال فالشطر؟ قال لا، قال فالثالث؟ قال الثلث والثالث كثير، إنك إن تذر، ورثتك أغنياء خير من أن تترهم عائلة يتكففون الناس». وأخرج ابن أبي شيبة، عن معاذ بن جبل قال: إن الله تصدق عليكم بثلث أموالكم زيادة في حسناتكم: يعني: الوصية. وفي الصحيحين، عن ابن عباس قال: وددت أن الناس غصوا من الثلث إلى الربع؛ لأن رسول الله ﷺ قال: «الثلث كثير». وأخرج ابن أبي شيبة، عن ابن عمر قال: نكر عند عمر الثلث في الوصية، فقال: الثلث وسط لا بخس، ولا شطط. وأخرج ابن أبي شيبة، عن علي قال: لأن أوصي بالخمس أحب إلي من أن أوصي بالربع؛ ولأن أوصي بالربع أحب إلي من أن أوصي بالثلث، ومن أوصى بالثلث لم يترك.

[فائدة] ورد في الترغيب في تعلم الفرائض، وتعليمها ما أخرجه الحاكم، والبيهقي في سننه، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «تعلموا الفرائض، وعلموه الناس، فإنني امرؤ مقبوض، وإن العلم سيقبض، وتظهر الفتن حتى يختلف الاثنان في الفريضة لا يجدان من يقضي بها». وأخرجه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تعلموا الفرائض، وعلموه، فإنه نصف العلم، وإنه ينسى، وهو أول ما ينزع من أمتي». وقد روى عن عمر، وابن مسعود، وأنس آثار في الترغيب في الفرائض، وكذلك روي عن جماعة من التابعين، ومن بعدهم.

وَأَلَيْكَ الْفَلْحَةُ مِنَ إِنْكَارِكُمْ فَاسْتَنْبِذُوا عَلَيْهِمْ أَرْبَعَةً يَنْصُرُكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا بِأَيْدِيكُمْ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَمُوتَ أَوْ يَمْلِكَ اللَّهُ لَهُمْ سَبِيلًا ۖ وَالَّذِينَ يَأْتِيَنَّاهُمْ مِنْكُمْ فَتَادِعُهُمْ قَالَتْ تَابَا وَأَصْلَحْنَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ قَوَّامًا رَحِيمًا ۖ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يُتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۖ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي بُدِّلْتُ وَلَئِنْ يَتُوبُوا ۖ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْدَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۖ

لما نكر سبحانه في هذه السورة الإحسان إلى النساء، وإيصال صنفاتهن إليهن، وميراثهن مع الرجال، نكر التغليب عليهن فيما يأتين به من الفاحشة لئلا يتوهمن أنه يسوغ

فللأب. وأخرج عبد الرزاق، والبيهقي، عن زيد بن ثابت نحوه. وأخرج ابن جرير، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس أنه نخل على عثمان، فقال: إن الأخوين لا يردان الأم عن الثلث. قال الله: ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ﴾ والأخوان ليس بلسان قومك إخوة، فقال عثمان: لا أستطيع أن أرد ما كان قبلي، ومضى في الأمصار، وتوارث به الناس. وأخرج الحاكم والبيهقي في سننه، عن زيد بن ثابت: أنه قال: إن العرب تسمي الأخوين إخوة. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، والترمذي، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم، وابن الجارود، والدارقطني، والبيهقي في سننه عن علي قال: إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿مَنْ بَعْدَ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ بَيْنَ﴾ وإن رسول الله ﷺ قضى بالدين قبل الوصية، وأن أعيان بني الأم يتوارثون دون بني العلات. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ يقول: أطوعكم الله من الآباء، والأبناء أرفعكم درجة عند الله يوم القيامة؛ لأن الله سبحانه شفع المؤمنين بعضهم في بعض. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن مجاهد في قوله: ﴿أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ قال: في الدنيا. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، والدارمي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، عن سعد بن أبي وقاص أنه كان يقرأ: ﴿وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ مِنْ أُمِّ﴾. وأخرج البيهقي، عن الشعبي قال: ما ورث أحد من أصحاب النبي ﷺ الإخوة من الأم مع الجد شيئاً قط، وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن شهاب قال: قضى عمر أن ميراث الأخوة لأم بينهم للذكر مثل الأنثى، قال: ولا أرى عمر قضى بذلك حتى علمه من رسول الله، ولهذه الآية التي قال الله: ﴿فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثَّلَاثِ﴾. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد الرزاق، وعبد بن حميد، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي، عن ابن عباس قال: الإضرار في الوصية من الكبائر، ثم قرأ: ﴿غَيْرَ مُضَارٍّ﴾. وقد رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي عنه مرفوعاً. وفي إسناده عمر بن المغيرة أبو حفص المصيصي. قال أبو القاسم بن عساكر: ويعرف بمفتي المساكين، وروي عنه غير واحد من الأئمة، قال فيه أبو حاتم الرازي: هو شيخ. قال: وعلي بن المنيني: هو مجهول لا أعرفه. قال ابن جرير: والصحيح الموقوف. انتهى. ورجال إسناده هذا الموقوف رجال الصحيح، فإن النسائي رواه في سننه، عن علي بن حجر، عن علي بن مسهر، عن داود بن أبي هند، عن عكرمة عنه. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، وأبو داود، والترمذي وحسنه، وابن ماجه، واللفظ له، والبيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة، فإذا أوصى خاف في وصيته، فيختم له بشر عمله، فيدخل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الشر سبعين سنة،

ينبئ عنه قوله: ﴿توباً رحيماً﴾ بل إنما تقبل من البعض دون البعض، كما بينه النظم القرآني ها هنا، فقوله: ﴿إنما للتوبة﴾ مبتدأ خبره قوله: ﴿للمن يعملون السوء بجهالة﴾. وقوله: ﴿على الله﴾ متعلق بما تعلق به الخبر من الاستقرار، أو متعلق بمحذوف وقع حالاً عند من يجوز تقديم الحال التي هي ظرف على عاملها المعنوي، وقيل: المعنى: إنما التوبة على فضل الله ورحمته بعباده، وقيل: المعنى: إنما التوبة واجبة على الله، وهذا على مذهب المعتزلة؛ لأنهم يوجبون على الله عز وجل واجبات من جعلتها قبول توبة التائبين، وقيل: على هنا بمعنى عند، وقيل: بمعنى من.

وقد اتفقت الأمة على أن التوبة فرض على المؤمنين لقوله تعالى: ﴿وتوبوا إلى الله جميعاً أيه المؤمنون﴾ [النور: 31] وذهب الجمهور إلى أنها تصح من نذوب نون ذنب خلافاً للمعتزلة، وقيل: إن قوله: ﴿على الله﴾ هو الخبر. وقوله: ﴿للمن يعملون﴾ متعلق بما تعلق به الخبر، أو بمحذوف وقع حالا. والسوء هنا: العمل السيئ. وقوله: ﴿بجهالة﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة، أو حالا، أي: يعملونها متصفين بالجهالة، أو جاهلين. وقد حكى القرطبي، عن قتادة أنه قال: أجمع أصحاب رسول الله ﷺ على أن كل معصية، فهي بجهالة عمداً كانت، أو جهلاً. وحكى عن الضحاك، ومجاهد، أن الجهالة هنا: العمد، وقال عكرمة: أمور الدنيا كلها جهالة، ومنه قوله تعالى: ﴿إنما الحياة الدنيا لعب ولهو﴾ [محمد: 36] وقال الزجاج: معناه بجهالة اختيارهم اللذة الفانية على اللذة الباقية، وقيل معناه: أنهم لا يعلمون كنه العقوبة، ذكره ابن فورك، وضعفه ابن عطية. قوله: ﴿ثم يتوبون من قريب﴾ معناه قبل أن يحضرهم الموت، كما يدل عليه قوله: ﴿حتى إذا حضر أحدهم الموت﴾ وبه قال أبو مجلز، والضحاك، وعكرمة، وغيرهم، والمراد قيل: المعالجة للملائكة، وغلبة المرء على نفسه، و «من» في قوله: ﴿من قريب﴾ للتبعض، أي: يتوبون بعض زمان قريب، وهو ما عدا وقت حضور الموت، وقيل معناه: قبل المرض، وهو ضعيف، بل باطل لما قلنا، ولما أخرجه أحمد، والترمذي، وحسنه، وابن ماجه، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر» وقيل معناه: يتوبون على قرب عهد من الذنب من غير إصرار. قوله: ﴿فأولئك يتوب الله عليهم﴾ هو وعد منه سبحانه بأنه يتوب عليهم بعد بيانه أن التوبة لهم مقصورة عليهم. وقوله: ﴿وليس التوبة للمن يعملون السيئات﴾ تصريح بما فهم من حصر التوبة فيما سبق على من عمل السوء بجهالة، ثم تاب من قريب قوله: ﴿حتى إذا حضر أحدهم الموت﴾ حتى حرف ابتداء، والجملة المنكورة بعدها غاية لما قبلها، وحضور الموت حضور علاماته، ويلوغ المريض إلى حالة السيقاق، ومصيره مغلوباً على نفسه مشغولاً بخروجها من بدنه، وهو وقت الغرغرة المنكورة في

لهم ترك التعفف ﴿واللاتي﴾ جمع التي بحسب المعنى نون اللفظ، وفيه لغات: اللاتي بإثبات التاء، والياء، واللات بحذف الياء، وإبقاء الكسرة؛ لتدل عليها، واللاتي بالهمزة، والياء، واللاء بكسر الهمزة، وحذف الياء، ويقال في جمع الجمع اللواتي، واللواتي، واللوات، واللواء، والفاحشة: الفعلة القبيحة، وهي مصدر كالعافية، والعاقبة، وقرأ ابن مسعود: ﴿بالفاحشة﴾. والمراد بها هنا: الزنا خاصة، وإتيانها فعلها، ومباشرتها. والمراد بقوله: ﴿من نسلككم﴾ المسلمات، وكذا ﴿منكم﴾ المراد به: المسلمون. قوله: ﴿فامسكوهن في البيوت﴾ كان هذا في أول الإسلام، ثم نسخ بقوله تعالى: ﴿الزانية والزاني فاجلسوا﴾ [النور: 2] وذهب بعض أهل العلم إلى أن الحبس المنكور، وكذلك الأذى باقيا مع الجلد؛ لأنه لا تعارض بينها بل الجمع ممكن. قوله: ﴿أوبجعل الله لهم سبيلاً﴾ هو ما في حديث عبادة الصحيح من قوله ﷺ: «خذا عني قد جعل الله لهم سبيلاً، البكر بل بكر جلد مائة وتغريب عام» الحديث. قوله: ﴿واللذان يأتياها منكم﴾ اللذان تثنية الذي، وكان القياس أن يقال اللذان كرحبان. قال سيبويه: حذفت الياء؛ ليفرق بين الأسماء الممكنة، وبين الأسماء المبهمة. وقال أبو علي: حذفت الياء تخفيفاً. وقرأ ابن كثير: ﴿الذان﴾ بتشديد النون، وهي لغة قریش، وفيه لغة أخرى، وهي: ﴿الذان﴾ بحذف النون. وقرأ الباقر بن خفيف النون. قال سيبويه: المعنى، وفيما يتلى عليكم اللذان يأتياها أي: الفاحشة منكم، وبخلت الغاء في الجواب؛ لأن في الكلام معنى الشرط. والمراد بالذان هنا: الزاني، والزانية تغليبا، وقيل: الآية الأولى في النساء خاصة محصنات، وغير محصنات، والثانية في الرجال خاصة، وجاء بلفظ التثنية لبيان صنفَي الرجال من أحسن، ومن لم يحسن، فعقوبة النساء الحبس، وعقوبة الرجال الأذى، واختار هذا النحاس، ورواه عن ابن عباس، ورواه القرطبي، عن مجاهد، وغيره، واستحسنه. وقال السدي، وقاتدة، وغيرهما الآية الأولى في النساء المحصنات، ويدخل معهن الرجال المحصنون، والآية الثانية في الرجل، والمرأة البكرين، ورجحه الطبري، وضعفه النحاس وقال: تغليب المؤنث على المذكر بعيد. وقال ابن عطية: إن معنى هذا القول تام إلا أن لفظ الآية يقلق عنه، وقيل: كان الإمساك للمرأة الزانية نون الرجل، فخصت المرأة بالذكر في الإمساك، ثم جمعا في الإيذاء، قال قتادة: كانت المرأة تحبس ويؤذنان جميعاً. واختلف المفسرون في تفسير الأذى، فقيل التوبيخ، والتعيير، وقيل: السب، والجفاء من نون تعيير، وقيل: النيل باللسان، والضرب بالنعال، وقد ذهب قوم إلى أن الأذى منسوخ كالحبس، وقيل: ليس بمنسوخ كما تقدم في الحبس. قوله: ﴿فإن تابا﴾ أي: من الفاحشة ﴿وأصلحا﴾ العمل فيما بعد ﴿فأعرضوا عنهم﴾ أي: تركوهم، وكفوا عنهم الأذى، وهذا كان قبل نزول الحدود على ما تقدم من الخلاف. قوله: ﴿إنما للتوبة على الله﴾ استثناء لبيان أن التوبة ليست بمقبولة على الإطلاق، كما

جرير، وابن أبي حاتم عنه قال: القريب ما بينه وبين أن ينظر إلى ملك الموت. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، والبيهقي في الشعب، عن الضحاك قال: كل شيء قبل الموت، فهو قريب له التوبة ما بينه وبين أن يعاين ملك الموت، فإذا تاب حين ينظر إلى ملك الموت، فليس له ذلك. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الحسن قال: القريب: ما لم يغرغر. وقد وردت أحاديث كثيرة في قبول توبة العبد ما لم يغرغر، نكرها ابن كثير في تفسيره، ومنها الحديث الذي قدمنا ذكره.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرْثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَتَّبِعُوا بِأَنفُسِكُمْ مَّا آتَيْنَاكُمْ مِنْهُ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّكُمْ بِفَتْحٍ مُبِينٍ وَتَعْلِمُوا مَا تَلْتَمِذُونَ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَمَسَّ أَنْ تَكُونُوا سَيِّئًا وَيَحْتَمِلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ سَخِرًا كَثِيرًا ﴿١٠﴾ وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَاتٍ زَوْجٍ وَمَا كُنْتُمْ بِعَدْلِهِمْ قَطًّا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِذَا مُمِيتَا ﴿١١﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَيْنَكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْتُ مِنْكُمْ يَمِينًا غَلِيظًا ﴿١٢﴾ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَدْ خَفِيتُمْ وَمَقَرُّكُمْ سَابِقًا ﴿١٣﴾

هذا متصل بما تقدم من نكر الزوجات، والمقصود نفي الظلم عنهن، والخطاب للأولياء، ومعنى الآية يتضح بمعرفة سبب نزولها، وهو ما أخرجه البخاري، وغيره، عن ابن عباس في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرْثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾ قال: كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بأمراته، إن شاء بعضهم تزوجها، وإن شاءوا زوجها، وإن شاءوا لم يزوجها، فهم أحق بها من أهلها، فنزلت. وفي لفظ لأبي داود عنه في هذه الآية: كان الرجل يرث امرأة ذي قرابته، فيعضلها حتى يموت، أو ترد إليه صداقتها. وفي لفظ لابن جرير، وابن أبي حاتم عنه: فإن كانت جميلة تزوجها، وإن كانت دمية حبسها حتى تموت، فيرثها. وقد روى هذا السبب بالفاظ، فمعنى قوله: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرْثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾ أي: لا يحل لكم أن تأخذوهن بطريق الإرث، فتزعمون أنكم أحق بهن من غيركم، وتحبسونهن لأنفسكم ﴿وَلَا﴾ يحل لكم أن ﴿تعضلوهن﴾ عن أن يتزوجن غيركم لتأخذوا ميراثهن إذا متن، أو ليفعلن إليكم صداقهن إذا أنتمن لهن بالنكاح. قال الزهري، وأبو مجلز: كان من عاداتهم إذا مات الرجل، وله زوجة أقي ابنه من غيرها، أو أقرب عصبته ثوبه على المرأة، فيصير أحق بها من نفسها، ومن أولياها، فإن شاء تزوجها بغير صداق إلا الصداق الذي اصدقها الميت، وإن شاء زوجها من غيره، وأخذ صداقتها، ولم يعطها شيئاً، وإن شاء عضلها لتفتدي منه بما ورثت من الميت، أو تموت، فيرثها، فنزلت الآية. وقيل: الخطب لأزواج النساء إذا حبسوهن مع سوء العشرة طمعاً في إرثهن، أو يفتدين ببعض مهرهن، واختاره ابن عطية. قال: ولبيل ذلك قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّكُمْ بِفَتْحٍ مُبِينٍ﴾ إذا أتت بفاحشة، فليس للولي حبسها حتى تذهب بمالها إجماعاً من الأمة، وإنما ذلك للزوج. قال الحسن: إذا زنت البكر، فإنها تجلد مائة، وتنفى،

الحديث السابق، وهي بلوغ روحه حلقومه، قاله الهروي. وقوله: ﴿قَالَ إِنِّي تَبْتُ الْآنَ﴾ أي: وقت حضور الموت. قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ معطوف على الموصول في قوله: ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ أي: ليست التوبة لأولئك، ولا للذين يموتون، وهم كفار مع أنه لا توبة لهم رأساً، وإنما نكروا مبالغة في بيان عدم قبول توبة من حضرهم الموت، وأن وجودها كعدمها.

وقد أخرج البزار، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَالَّذَاتِي يَأْتِيَنَّ الْفَاحِشَةَ﴾ قال: كانت المرأة إذا فجرت حبست في البيوت، فإن ماتت ماتت، وإن عاشت عاشت، حتى نزلت الآية في سورة النور: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا﴾ [النور: 2] فجعل الله لهن سبيلاً. فمن عمل شيئاً جلد، وأرسل، وقد روى هذا عنه من وجوه، وأخرج أبو داود في سننه عنه، والبيهقي في قوله: ﴿وَالَّذَاتِي يَأْتِيَنَّ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿سَبِيلًا﴾ ثم جمعها جميعاً، فقال: ﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِيَا مِنْكُمْ فَأَنُؤَمَّا﴾ ثم نسخ ذلك بآية الجلد، وقد قال بالنسخ جماعة من التابعين، أخرجه أبو داود، والبيهقي، عن مجاهد، وأخرجه عبد بن حميد، وأبو داود في ناسخه، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة، وأخرجه البيهقي في سننه، عن الحسن، وأخرجه ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبیر، وأخرجه ابن جرير عن السدي. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِيَا مِنْكُمْ﴾ قال: كان الرجل إذا زنا أؤذي بالتمعير، وضرب بالنعال، فأنزل الله بعد هذه الآية: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: 2] فإن كانا محصنين رجماً في سنة رسول الله ﷺ. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد: ﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِيَا مِنْكُمْ﴾ قال: الرجلان الفاعلان. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبیر: ﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِيَا مِنْكُمْ﴾ يعني البكرين. وأخرج ابن جرير، عن عطاء قال: الرجل، والمرأة، وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي العالية في قوله: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ﴾ الآية قال: هذه للمؤمنين وفي قوله: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ قال: هذه لأهل النفاق ﴿وَالَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ قال: هذه لأهل الشرك. وأخرج ابن جرير، عن الربيع مثله. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، عن قتادة قال: اجتمع أصحاب محمد ﷺ فرأوا أن كل شيء عصى به، فهو جهالة عمداً كان، أو غيره. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن أبي العالية: أن أصحاب محمد ﷺ كانوا يقولون: كل ذنب أصابه عبد، فهو جهالة. وأخرج ابن جرير من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ﴾ الآية، قال: من عمل السوء، فهو جاهل من جهالته عمل السوء ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ قال: في الحياة، والصحة، وأخرج ابن

للإنكار، والتقريع. والجملة مقررة للجملة الأولى المشتملة على النهي. وقوله: ﴿وَكَيْفَ تُلْخِصُونَهُ﴾ إنكار بعد إنكار مشتمل على العلة التي تقتضي منع الأخذ، وهي: الإقضاء. قال الهروي: وهو إذا كنا في لحاف واحد، جامع، أو لم يجمع، وقال الفراء: الإقضاء، أن يخلو الرجل، والمرأة، وإن لم يجمعها. وقال ابن عباس، ومجاهد، والسدي: الإقضاء في هذه الآية: الجماع، وأصل الإقضاء في اللغة: المخالطة، يقال للشئ: المختلط فضاء، ويقال القوم فوضى، وفضاء، أي: مختلطون لا أمير عليهم. قوله: ﴿وَلَا تُلْخِصُوا مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ معطوف على الجملة التي قبله، أي: والحال أن قد أقضى بعضكم إلى بعض، وقد أخذن منكم ميثاقاً غليظاً، وهو عقد النكاح، ومنه قوله ﷺ: «فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، وقيل: هو قوله تعالى: ﴿فَإِمْسَاكِنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِحِينَ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: 229] وقيل: هو الأولاد. قوله: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ نهى عما كانت عليه الجاهلية من نكاح نساء آبائهم إذا ماتوا، وهو شروع في بيان من يحرم نكاحه من النساء، ومن لا يحرم. ثم بين سبحانه وجه النهي عنه، فقال: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ هذه الصفات الثلاث تدل على أنه من أشد المحرمات، وأقبحها، وقد كانت الجاهلية تسميه نكاح المقت. قال ثعلب: سألت ابن الأعرابي، عن نكاح المقت، فقال: هو أن يتزوج الرجل امرأة أبيه إذا طلقها، أو مات عنها، ويقال لهذا الضييم، وأصل المقت البغض، من مقته يمقته مقتاً، فهو ممقوت، ومقيت. قوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ هو استثناء منقطع أي: لكن ما قد سلف فاجتنبوه، ودعوه، وقيل: إلا بمعنى بعد، أي: بعد ما سلف، وقيل: المعنى: ولا ما سلف، وقيل: هو استثناء متصل من قوله: ﴿مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ﴾ يفيد المبالغة في التحريم بإخراج الكلام مخرج التعلق بالمحال: يعني: إن أمكنكم أن تنكحوا ما قد سلف، فأنكحوا، فلا يحل لكم غيره. قوله: ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ هي جارية مجرى بئس في الذم، والعمل، والمخصوص بالذم محذوف، أي: ساء سبيلاً سبيل ذلك النكاح، وقيل: إنها جارية مجرى سائر الأفعال، وفيها ضمير يعود إلى ما قبلها.

وقد أخرج النسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف قال: لما توفي أبو قيس بن الأسلت أراد ابنه أن يتزوج امرأته، وقد كان لهم ذلك في الجاهلية، فأنزل الله: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن عكرمة قال: نزلت هذه الآية في كبيشة بنت معمر بن معن بن عاصم من الأوس كانت عند أبي قيس بن الأسلت، فتوفي عنها، فجنح عليها ابنه، فجاءت إلى النبي ﷺ، فقالت: لا أنا ورثت زوجي، ولا أنا تركت، فأنكح، فنزلت هذه الآية. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، عن عبد الرحمن بن البيلماني في قوله: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ قال: نزلت هاتان الآيتان إحداهما في أمر

وترد إلى زوجها ما أخذت منه. وقال أبو قلابة: إذا زنت امرأة الرجل، فلا بأس أن يضارها، ويشق عليها حتى تغتدى منه، وقال السدي: إذا فعلن ذلك، فخذوا مهوهرن. وقال قوم: الفاحشة البذاءة باللسان، وسوء العشرة قولاً وفعلًا. وقال مالك، وجماعة من أهل العلم: للزوج أن يأخذ من الناشز جميع ما تملك. هذا كله على أن الخطاب في قوله: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ للزوج، وقد عرفت مما قدمنا في سبب النزول أن الخطاب في قوله: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ لمن خطب بقوله: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾ فيكون المعنى: ولا يحل لكم أن تمنعن من الزوج: ﴿لَتَذَهَبُوا بِبَعْضٍ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾ أي: ما آتاهن من ثروته: ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مَبِينَةٍ﴾ جاز لكم حبسهن عن الأزواج، ولا يخفى ما في هذا من التعسف مع عدم جواز حبس من آتت بفاحشة عن أن تتزوج، وتستعف من الزنا، وكما أن جعل قوله: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ خطاباً للولاء فيه هذا التعسف، كذلك جعل قوله: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾ خطاباً للأزواج فيه تعسف ظاهر مع مخالفته لسبب نزول الآية الذي نكرناه، والأولى أن يقال إن الخطاب في قوله: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ﴾ للمسلمين، أي: لا يحل لكم معاشر المسلمين أن ترثوا النساء كرهًا، كما كانت تفعله الجاهلية، ولا يحل لكم معاشر المسلمين أن تعضلوا أزواجكم، أي: تحبسوهن عنكم مع عدم رغوبكم فيهن، بل لقصد أن تذهبوا ببعض ما آتيتوهن من المهر يفتدين به من الحبس، والبقاء تحتكم، وفي عقبتكم مع كراهتكم لهن: ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مَبِينَةٍ﴾ جاز لكم مخالطتهن ببعض ما آتيتوهن. قوله: ﴿مَبِينَةٍ﴾ قرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحفص، وحزمة، والكسائي بكسر الياء. وقرأ الباقر بفتحها. وقرأ ابن عباس: ﴿مَبِينَةٍ﴾ بكسر الباء، وسكون الياء من إبان الشيء، فهو مبين. قوله: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: بما هو معروف في هذه الشريعة، وبين أهلها من حسن المعاشرة، وهو خطاب للأزواج، أو لما هو أعم، وذلك يختلف باختلاف الأزواج في الغنى، والفقر، والرفاعة، والوضاعة: ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾ لسبب من الأسباب من غير ارتكاب فاحشة، ولا نشوز ﴿فَعَسَى﴾ أن يثول الأمر إلى ما تحبونه من ذهاب الكراهة، وتبيلها بالمحبة، فيكون في ذلك خير كثير من استدامة الصعبة، وحصول الأولاد، فيكون الجزاء على هذا محذوفاً مدلولاً عليه بعلته، أي: فإن كرهتموهن، فاصبروا: ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَجَعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ قوله: ﴿وَأَتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قَنْطَارًا﴾ قد تقدم بيانه في آل عمران، والمراد به هنا: المال الكثير، فلا تأخذوا منه شيئاً. قيل: هي محكمة، وقيل: هي منسوخة بقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَا تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ [البقرة: 229] والأولى أن الكل محكم، والمراد هنا: غير المختلفة لا يحل لزوجه أن يأخذ مما آتاه شيئاً. قوله: ﴿تَلْخِصُونَهُ بِهَتَانًا وَلِثْمًا مَبِينًا﴾ الاستفهام

يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴿٥٨﴾

قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ أي: نكاحهن، وقد بين الله سبحانه في هذه الآية ما يحل، وما يحرم من النساء، فحُرِّمَ سبعاً من النسب، وستاً من الرضاع، والصهر، والحققت السنة المتواترة تحريم الجمع بين المرأة، وعمتها، وبين المرأة، وخالتها، ووقع عليه الإجماع. فالسبع المحرمات من النسب الأمهات، والبنات، والأخوات، والعمات، والخالات، وبنات الأخ، وبنات الأخت. والمحرمات بالصهر، والرضاع: الأمهات من الرضاعة، والأخوات من الرضاعة، وأمهات النساء، والربائب، وحلائل الأبناء، والجمع بين الأختين، فهؤلاء ست، والسابعة منكوحات الآباء، والثامنة الجمع بين المرأة، وعمتها. قال الطحاوي: وكل هذا من المحكم المتفق عليه، وغير جائز نكاح واحدة منه، بالإجماع إلا أمهات النساء اللواتي لم يدخل بهن أزواجهن، فإن جمهور السلف ذهبوا إلى أن الأم تحرم بالعقد على الابنة، ولا تحرم الابنة إلا بالدخول بالأم. وقال بعض السلف: الأم، والربيبة سواء لا تحرم منهما واحدة إلا بالدخول بالأخرى. قالوا: ومعنى قوله: ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾ أي: اللاتي نكحتم بهن، وزعموا أن قيد الدخول راجع إلى الأمهات، والربائب جميعاً، رواه خلاص عن علي بن أبي طالب. وروى عن ابن عباس، وجابر، وزيد بن ثابت، وابن الزبير، ومجاهد، قال القرطبي: ورواية خلاص عن علي لا تقوم بها حجة، ولا تصح روايته عند أهل الحديث، والصحيح عنه مثل قول الجماعة. وقد أجيب عن قولهم إن قيد الدخول راجع إلى الأمهات، والربائب بأن ذلك لا يجوز من جهة الإعراب، وبيانه أن الخبرين إذا اختلفا في العامل لم يكن نعتهما واحداً، فلا يجوز عند اللحيويين مررت بنسائك، وهويت نساء زيد الظريفات، على أن يكون الظريفات نعتاً للجميع، فكذلك في الآية لا يجوز أن يكون اللاتي نكحتم بهن نعتاً لهما جميعاً؛ لأن الخبرين مختلفان. قال ابن المنذر: والصحيح قول الجمهور لدخول جميع أمهات النساء في قوله: ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾. ومما يدل على ما ذهب إليه الجمهور ما أخرجه عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في سننه من طريقين عن عمرو بن شعيب، عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال: «إذا نكح الرجل المرأة، فلا يحل له أن يتزوج أمها نخل بالابنة أو لم يدخل، وإذا تزوج الأم، فلم يدخل بها، ثم طلقها، فإن شاء تزوج الابنة» قال ابن كثير في تفسيره مستدلاً للجمهور: وقد روي في ذلك خبر غير أن في إسناده نظراً، فنذكر هذا الحديث، ثم قال، وهذا الخبر، وإن كان في إسناده ما فيه، فإن إجماع الحجة على صحة القول به يغني عن الاستشهاد على صحته بغيره، قال في الكشف: وقد اتفقوا على أن تحريم أمهات النساء مبهم دون تحريم الربائب على ما عليه ظاهر كلام الله تعالى. انتهى. ودعوى الإجماع منقوعة بخلاف من تقدم. وأعلم أنه يدخل في لفظ الأمهات أمهاتهن، وجداتهن، وأم الأب، وجداته، وإن علون؛ لأن كلهن أمهات لمن

ولده من ولنته، وإن سفل. ويدخل في لفظ البنات بنات الأولاد، وإن سفلن. والأخوات تصدق على الأخت لأبوين، أو لأحدهما، والعمة اسم لكل أنثى شاركت أبك، أو جتك في أصلها، أو أحدهما. وقد تكون العمة من جهة الأم وهي أخت أب الأم. والخالة اسم لكل أنثى شاركت أمك في أصلها أو في أحدهما، وقد تكون الخالة من جهة الأب، وهي أخت أم أبك، وبنات الأخ اسم لكل أنثى لأخيك عليها ولادة بواسطة، ومباشرة، وإن بعنت، وكذلك بنت الأخت. قوله: ﴿وَأُمَّهَاتُكُمْ لِللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ﴾ هذا مطلق مقيد بما ورد في السنة من كون الرضاع في الحولين إلا في مثل قصة إرضاع سالم مولى أبي حنيفة، وظاهر النظم القرآني أنه يثبت حكم الرضاع بما يصدق عليه مسمى الرضاع، لغة، وشرعاً، ولكنه قد ورد تقييده بخمس رضعات في أحاديث صحيحة، والبحث عن تقرير ذلك، وتحقيقه يطول، وقد استوفينا في مصنفاتنا، وقررنا ما هو الحق في كثير من مباحث الرضاع. قوله: ﴿وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرِّضَاعَةِ﴾ الأخت من الرضاع هي التي أرضعتها أمك بلبان أبيك سواء أرضعتها معك، أو مع من قبلك، أو بعدك من الإخوة، والأخوات، والأخت من الأم هي التي أرضعتها أمك بلبان رجل آخر. قوله: ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾ قد تقدم الكلام على اعتبار الدخول، وعمه. والمحرمات بالمصاهرة أربع: أم المرأة، وابنتها، وزوجة الأب، وزوجة الابن. قوله: ﴿وَوِثَائِكُمْ﴾ الربيبة بنت امرأة الرجل من غيره؛ سميت بذلك؛ لأنه يرببها في حجره، فهي: مربوبة فعيلة بمعنى مفعولة. قال القرطبي: واتفق الفقهاء على أن الربيبة تحرم على زوج أمها إذا نخل بالأم، وإن لم تكن الربيبة في حجره، وشذ بعض المتقدمين، وأهل الظاهر، فقالوا: لا تحرم الربيبة إلا أن تكون في حجر المتزوج، فلو كانت في بلد آخر، وفارق الأم، فله أن يتزوج بها؛ وقد روي ذلك عن علي. قال ابن المنذر، والطحاوي: لم يثبت ذلك عن علي؛ لأن روايه إبراهيم بن عبيد، عن مالك بن أوس بن الحدثان، عن علي، وإبراهيم هذا لا يعرف. وقال ابن كثير في تفسيره بعد إخراج هذا عن علي: وهذا إسناد قوي ثابت إلى علي بن أبي طالب على شرط مسلم. والحجور جمع حجر. والمراد: أنهن في حضنة أمهاتهن تحت حماية أزواجهن، كما هو الغالب، وقيل المراد بالحجور: البيوت، أي: في بيوتكم، حكاه الأثرم عن أبي عبيدة. قوله: ﴿فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا تَخْلُكُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: في نكاح الربائب، وهو: تصريح بما دل عليه مفهوم ما قبله.

وقد اختلف أهل العلم في معنى الدخول الموجب لتحريم الربائب: فروي عن ابن عباس أنه قال: للدخول الجماع، وهو قول طاوس، وعمرو بن دينار، وغيرهما. وقال مالك، والثوري، وأبو حنيفة، والأوزاعي، والليث، والزيدي: إن الزوج إذا لمس الأم لشهوة حرمت عليه ابنتها، وهو أحد قولي الشافعي. قال ابن جرير الطبري: وفي إجماع الجميع أن خلوة الرجل بامراته لا تحرم ابنتها عليه إذا طلقها قبل

أبناءكم﴾ [الأحزاب: 4] ومنه: ﴿ما كان محمد أباً أحد من رجالكم﴾ [الأحزاب: 40] وأما زوجة الابن من الرضاع، فقد ذهب الجمهور إلى أنها تحرم على أبيه، وقد قيل: إنه إجماع مع أن الابن من الرضاع ليس من أولاد الصلب. ووجهه ما صح عن النبي ﷺ من قوله: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب» ولا خلاف أن أولاد الأولاد، وإن سفلوا بمنزلة أولاد الصلب في تحريم نكاح نسائهم على آبائهم.

وقد اختلف أهل العلم في وطء الزنا هل يقتضي التحريم أم لا؟ فقال أكثر أهل العلم: إذا أصاب رجل امرأة بزنا لم يحرم عليه نكاحها بذلك، وكذلك لا تحرم عليه امرأته إذا زنا بأمرها، أو بابنتها، وحسبه أن يقام عليه الحد، وكذلك يجوز له عندهم أن يتزوج بأم من زنى بها، وبابنتها. وقالت طائفة من أهل العلم: إن الزنا يقتضي التحريم. حكى ذلك عن عمران بن حصين، والشعبي، وعطاء، والحسن، وسفيان الثوري، وأحمد، وإسحاق، وأصحاب الرأي، وحكى ذلك عن مالك، والصحيح عنه كقول الجمهور. احتج الجمهور بقوله تعالى: ﴿وَأَمْهَاتِ نَسَائِكُمْ﴾ وبقوله: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ﴾ والموطوءة بالزنا لا يصنع عليها أنها من نسائهم، ولا من حلائل آبائهم.

وقد أخرج الدارقطني عن عائشة قالت: «سئل رسول الله ﷺ عن رجل زنى بامرأة، فأراد أن يتزوجها، أو: ابنتها، فقال: لا يحرم الحرام الحلال». واحتج المحرمون بما روي في قصة جريج الثابتة في الصحيح أنه قال: يا غلام من أبوك؟ فقال: فلان الراعي، فنسب الابن نفسه إلى أبيه من الزنا، وهذا احتجاج ساقط، واحتجوا أيضاً بقوله ﷺ: «لا ينظر الله إلى رجل نظر إلى فرج امرأة، وابنتها، ولم يفصل بين الحلال، والحرام». ويجاب عنه بأن هذا مطلق مقيد بما ورد من الأدلة الدالة على أن الحرام لا يحرم الحلال.

واختلفوا في اللواط هل يقتضي التحريم أم لا؟ فقال الثوري: إذا لاط بالصبي حرمت عليه أمه، وهو: قول أحمد بن حنبل قال: إذا تلوط بابن امرأته، أو أביها، أو أخيها حرمت عليه امرأته. وقال الأوزاعي: إذا لاط بغلام وولد للمفجور به بنت لم يجز للفاجر أن يتزوجها؛ لأنها بنت من قد نخل به. ولا يخفى ما في قول هؤلاء من الضعف، والسقوط النازل، عن قول القائلين بأن وطء الحرام يقتضي التحريم بدرجات لعدم صلاحية ما تمسك به أولئك من الشبه على ما زعمه هؤلاء من اقتضاء اللواط للتحريم. قوله: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأَخْتَيْنِ﴾ أي: وحرم عليكم أن تجمعوا بين الأختين، فهو في محل رفع عطفاً على المحرمات السابقة، وهو يشمل الجمع بينهما بالنكاح، والوطء بملك اليمين. وقيل: إن الآية خاصة بالجمع في النكاح لا في ملك اليمين، وأما في الوطء بالملك، فلا حق بالنكاح، وقد أجمعت الأمة على منع جمعها في عقد نكاح.

واختلفوا في الأختين بملك اليمين، فذهب كافة العلماء إلى أنه لا يجوز الجمع بينهما في الوطء بالملك، وأجمعوا على

مسيبها، ومباشرتها، وقبل النظر إلى فرجها لشهوة ما يدل على أن معنى ذلك هو الوصول إليها بالجماع. انتهى. وهكذا حكى الإجماع القرطبي، فقال: وأجمع العلماء على أن الرجل إذا تزوج المرأة ثم طلقها، أو ماتت قبل أن يدخل بها حل له نكاح ابنتها. واختلفوا في النظر، فقال مالك: إذا نظر إلى شعرها، أو صدرها، أو شيء من محاسنها للذة حرمت عليه أمها، وابنتها. وقال الكوفيون: إذا نظر إلى فرجها للشهوة كان بمنزلة اللمس للشهوة، وكذا قال الثوري، ولم يذكر الشهوة. وقال ابن أبي ليلى: لا تحرم بالنظر حتى يلمس، وهو قول الشافعي. والذي ينبغي التعويل عليه في مثل هذا الخلاف هو: النظر في معنى للدخول شرعاً أو لغة، فإن كان خاصاً بالجماع، فلا وجه لإلحاق غيره به من لمس، أو نظر، أو غيرهما، وإن كان معناه أوسع من الجماع بحيث يصنع على ما حصل فيه نوع استمتاع كل مناط التحريم هو ذلك. وأما الربيبة في ملك اليمين فقد روي عن عمر بن الخطاب أنه كره ذلك. وقال ابن عباس: أحلتها آية، وحرمتها آية، ولم أكن لأقلعه. وقال ابن عبد البر: لا خلاف بين العلماء أنه لا يحل لأحد أن يطأ امرأة، وابنتها من ملك اليمين؛ لأن الله حرم ذلك في النكاح قال: ﴿وَأَمْهَاتِ نَسَائِكُمْ وَرَبَائِكُمْ اللَّاتِي فِي حَبْرُكُم مِّنْ نِّسَائِكُمْ﴾ وملك اليمين عندهم تبع للنكاح إلا ما روي، عن عمر، وابن عباس، وليس على ذلك أحد من أئمة الفتوى، ولا من تبعهم. انتهى. قوله: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ﴾ الحلائل: جمع حليلة، وهي الزوجة، سميت بذلك لأنها تحل مع الزوج حيث حل، فهي فعيلة بمعنى فاعلة. وذهب الزجاج، وقوم إلى أنها من لفظة الحلال، فهي حليلة بمعنى محللة. وقيل: لأن كل واحد منهما يحل إزار صاحبه. وقد أجمع العلماء على تحريم ما عقد عليه الآباء على الأبناء، وما عقد عليه الأبناء على الآباء سواء كان مع العقد وطء، أو لم يكن، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِّنَ النِّسَاءِ﴾ وقوله: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ﴾.

واختلف الفقهاء في العقد إذا كان فاسداً هل يقتضي التحريم أم لا؟ كما هو مبين في كتب الفروع. قال ابن المنذر: أجمع كل من يحفظ عنه العلم من علماء الأمصار أن الرجل إذا وطئ امرأة بنكاح فاسد أنها تحرم على أبيه، وابنته، وعلى أجداده. وأجمع العلماء: على أن عقد الشراء على الجارية لا يحرمها على أبيه وابنته، فإذا اشترى جارية فلمس، أو قبل حرمت على أبيه، وابنته لا أعلمهم يختلفون فيه، فوجب تحريم ذلك تسليمهم لهم. ولما اختلفوا في تحريمها بالنظر بون اللمس لم يجز ذلك لاختلافهم قال: ولا يصح عن أحد من أصحاب رسول الله ﷺ خلاف ما قلناه. قوله: ﴿الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ وصف للأبناء، أي: نون من تبنيتم من أولاد غيركم، كما كانوا يفعلونه في الجاهلية، ومنه قوله تعالى ﴿فَلَمَّا قُضِيَ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا لَكَ لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ [الأحزاب: 37] ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَائَكُمْ

أنه يجوز الجمع بينهما في الملك فقط. وقد توقف بعض السلف في الجمع بين الاختين في الوطء بالملك، وسيأتي بيان ذلك. واختلفوا في جواز عقد النكاح على أخت الجارية التي توطأ بالملك. فقال الأوزاعي: إذا وطئ جارية له بملك اليمين لم يجز له أن يتزوج أختها. وقال الشافعي: ملك اليمين لا يمنع نكاح الأخت. وقد ذهب الظاهرية إلى جواز الجمع بين الاختين بملك اليمين في الوطء، كما يجوز الجمع بينهما في الملك. قال ابن عبد البر بعد أن ذكر ما روي عن عثمان بن عفان من جواز الجمع بين الاختين في الوطء بالملك: وقد روي مثل قول عثمان عن طائفة من السلف منهم ابن عباس، ولكنهم اختلف عليهم، ولم يلتفت إلى ذلك أحد من فقهاء الأمصار بالحجاز، ولا بالعراق، ولا ما وراءها من المشرق، ولا بالشام، ولا المغرب إلا من شذ، عن جماعتهم باتباع الظاهر، ونفي القياس. وقد ترك من تعمد ذلك. وجماعة الفقهاء متفقون على أنه لا يحل الجمع بين الاختين بملك اليمين في الوطء، كما لا يحل ذلك في النكاح. وقد أجمع المسلمون على أن معنى قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ﴾ إلى آخر الآية، أن النكاح بملك اليمين في هؤلاء كلهن سواء، فكل ذلك يجب أن يكون قياساً ونظراً للجمع بين الاختين، وأمّهات النساء، والربائب، وكذا هو عند جمهورهم، وهي: الحجة المحجوج بها من خلفها، وشذ عنها، والله المحمود. انتهى.

وأقول: ها هنا إشكال، وهو أنه قد تقرّر أن النكاح يقال على العقد فقط، وعلى الوطء فقد، والخلاف في كون أحدهما حقيقة، والآخر مجازاً، أو كونهما حقيقتين معروف، فلن حملنا هذا التحريم المذكور في هذه الآية، وهي قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ إلى آخرها، على أن المراد تحريم العقد عليهن لم يكن في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأَخْتَيْنِ﴾ دلالة على تحريم الجمع بين المملوكتين في الوطء بالملك، وما وقع من إجماع المسلمين على أن قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ﴾ إلى آخره، يستوي فيه الحرائر، والإماء، والعقد، والملك لا يستلزم أن يكون محل الخلاف، وهو الجمع بين الاختين في الوطء بملك اليمين مثل محل الإجماع، ومجرد القياس في مثل هذا الموطن لا تقوم به الحجة لما يرد عليه من النقوض، وإن حملنا التحريم المذكور في الآية على الوطء فقط لم يصح ذلك للإجماع على تحريم عقد النكاح على جميع المذكورات من أول الآية إلى آخرها، فلم يبق إلا حمل التحريم في الآية على تحريم عقد النكاح، فيحتاج القائل بتحريم الجمع بين الاختين في الوطء بالملك إلى دليل، ولا ينفعه أن ذلك قول الجمهور، فالحق لا يعرف بالرجال، فإن جاء به خالصاً عن شوب الكدر فيها ونعمت، وإلا كان الأصل الحل، ولا يصح حمل النكاح في الآية على معنييه جميعاً أعني العقد، والوطء؛ لأنه من باب الجمع بين الحقيقة، والمجاز، وهو ممنوع، أو من باب الجمع بين معنويي المشترك، وفيه

الخلاف المعروف في الأصول فتدبر هذا. وقد اختلف أهل العلم إذا كان الرجل يوطأ مملوكته بالملك، ثم أراد أن يوطأ أختها بالملك، فقال علي، وابن عمر، والحسن البصري، والأوزاعي، والشافعي، وأحمد، وإسحاق: لا يجوز له وطء الثانية حتى يحرم فرج الأخرى بإخراجها من ملكه ببيع، أو عتق، أو بئان يزوجه. قال ابن المنذر: وفيه قول ثان لقتادة، وهو أنه ينوي تحريم الأولى على نفسه، وأن لا يقربها، ثم يمسك عنهما حتى تستبرئ المحرمة، ثم يغشى الثانية. وفيه قول ثالث، وهو أنه لا يقرب واحدة منهما، هكذا قال الحكم، وحمام. وروى معنى ذلك عن النخعي. وقال مالك: إذا كان عنده أختان بملك فله أن يوطأ إتيهما شاء، والكف عن الأخرى موكل إلى أمانته، فإن أراد وطء الأخرى، فيلزمه أن يحرم على نفسه فرج الأولى بفعله من إخراج عن الملك، أو تزويج، أو بيع، أو عتق، أو كتابة، أو إعدام طويل، فإن كان يوطأ إحداهما، ثم وثب على الأخرى بون أن يحرم الأولى وقف عنهما، ولم يجز له قرب إحداهما حتى يحرم الأخرى، ولم يوكل ذلك إلى أمانته، لأنه متهم. قال القرطبي: وقد أجمع العلماء على أن الرجل إذا طلق زوجته طلاقاً يملك رجعتها أنه ليس له أن ينكح أختها حتى تنقضي عدة المطلقة. واختلفوا إذا طلقها طلاقاً لا يملك رجعتها، فقالت طائفة: ليس له أن ينكح أختها، ولا رابعة حتى تنقضي عدة التي طلق. روي ذلك عن علي، وزيد بن ثابت، ومجاهد، وعطاء، والنخعي، والثوري، وأحمد بن حنبل، وأصحاب الرأي. وقالت طائفة: له أن ينكح أختها، وينكح الرابعة لمن كان تحته أربع، وطلق واحدة منهن طلاقاً بائناً. روي ذلك عن سعيد بن المسيب، والحسن، والقاسم، وعروة بن الزبير، وابن أبي ليلى، والشافعي، وأبي ثور، وأبي عبيد. قال ابن المنذر: ولا أحسبه إلا قول مالك. وهو أيضاً إحدى الروايتين عن زيد بن ثابت، وعطاء. قوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ يحتمل أن يكون معناه معنى ما تقدم من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ ويحتمل معنى آخر، وهو جواز ما سلف وأنه إذا جرى الجمع في الجاهلية كان النكاح صحيحاً، وإذا جرى في الإسلام خير بين الاختين. والصواب الاحتمال الأول. قوله: ﴿وَالْمَحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ عطف على المحرمات المذكورات. وأصل التحصن التمتع، ومنه قوله تعالى: ﴿لِتَحْصِنَكُمْ مِنْ بَاسِكُمْ﴾ [الأنبياء: 80] أي: لمتنعكم، ومنه الحصان بكسر الحاء للفرس؛ لأنه يمنع صاحبه من الهلاك. والحصان بفتح الحاء: المرأة العفيفة لمنعها نفسها، ومنه قول حسان:

حصان رزان ما تزنز بريبة وتصبح غرثي من لحوم الغوافل
والمصدر الحصانة بفتح الحاء. والمراد بالمحصنات هنا نوات الأزواج. وقد ورد الإحصان في القرآن لمعان، هذا أحدها. والثاني يراد به الحرّة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمَحْصَنَاتِ﴾ [النساء: 25] وقوله: ﴿وَالْمَحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمَحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ

للمعلوم عطفاً على الفعل المقتر في قوله: ﴿كتاب الله عليكم﴾ وقيل على قوله: ﴿حرمت عليكم﴾ ولا يقدح في ذلك اختلاف الفعلين، وفيه دلالة على أنه يحل لهم نكاح ما سوى المنكورات، وهذا عام مخصوص بما صح عن النبي ﷺ من تحريم الجمع بين المرأة وعمتها، وبين المرأة وخالتها. وقد أبعد من قال: إن تحريم الجمع بين المنكورات مأخوذ من الآية هذه؛ لأنه حرّم الجمع بين الأخنتين، فيكون ما في معناه في حكمه، وهو الجمع بين المرأة وعمتها، وبين المرأة، وخالتها، وكذلك تحريم نكاح الأمة لمن يستطيع نكاح حرّة، كما سيأتي، فإنه يخصص هذا العموم. قوله: ﴿أن تبتغوا بأموالكم﴾ في محل نصب على العلة، أي: حرّم عليكم ما حرّم، وأحلّ لكم ما أحلّ لأجل أن تبتغوا بأموالكم النساء اللاتي أحلّهنّ الله لكم، ولا تبتغوا بها الحرام، فتذهب حال كونكم: ﴿محصنين﴾ أي: متعفيين عن الزنا: ﴿غير مسافحين﴾ أي: غير زانين. والسفاح: الزنا، وهو مأخوذ من سفح الماء، أي: صبه، وسيلانه، فكانه سبحانه أمرهم بأن يطلبوا بأموالهم النساء على وجه النكاح، لا على وجه السفاح، وقيل: إن قوله: ﴿أن تبتغوا بأموالكم﴾ بدل من «ما» في قوله: ﴿ما وراء ذلكم﴾ أي: وأحلّ لكم الابتغاء بأموالكم. والأوّل أولى، وأراد سبحانه بالأموال المنكورة ما يدفعونه في مهور الحرائر وأثمان الإماء. قوله: ﴿فما استمتعتم به منهنّ فاتوهنّ لجورهنّ﴾ «ما» موصولة فيها معنى الشرط، والفاء في قوله: ﴿فاتوهنّ﴾ لتضمن الموصول معنى الشرط، والعائد محذوف، أي: فاتوهنّ أجورهنّ عليه.

وقد اختلف أهل العلم في معنى الآية: فقال الحسن، ومجاهد، وغيرهما: المعنى فما انتفعتن، وتلذذتم بالجماع من النساء بالنكاح الشرعي ﴿فاتوهنّ لجورهنّ﴾ أي: مهورهنّ. وقال الجمهور: إن المراد بهذه الآية: نكاح المتعة الذي كان في صدر الإسلام، ويؤيد ذلك قراءة أبيّ بن كعب، وابن عباس، وسعيد بن جبیر: ﴿فما استمتعتم به منهنّ إلى أجل مسمى فاتوهنّ لجورهنّ﴾ ثم نهى عنها النبي ﷺ، كما صحّ ذلك من حديث عليّ قال: نهى النبي ﷺ، عن نكاح المتعة، وعن لحوم الحمر الأهلية يوم خيبر، وهو في الصحيحين وغيرهما، وفي صحيح مسلم من حديث سبرة بن معبد الجهني، عن النبي ﷺ: أنه قال يوم فتح مكة «يا أيها الناس إني كنت أئنت لكم في الاستمتاع من النساء، والله قد حرّم ذلك إلى يوم القيامة، فمن كان عنده منهنّ شيء، فليخلّ سبيلها، ولا تآخروا مما آتيتوهنّ شيئاً». وفي لفظ لمسلم أن ذلك كان في حجة الوداع، فهذا هو الناسخ. وقال سعيد بن جبیر: نسختها آيات الميراث إذ المتعة لا ميراث فيها. وقالت عائشة، والقاسم بن محمد: تحريمها، ونسخها في القرآن، وذلك قوله تعالى: ﴿والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين﴾ [المعارج: 29] وليست المنكوحة

أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ [المائدة: 5]. والثالث يرد به: العيافة ومنه قوله تعالى: ﴿محصنات غير مسافحات﴾ [النساء: 25]، ﴿محصنين غير مسافحين﴾ [النساء: 24]، [المائدة: 5]. والرابع المسلمة، ومنه قوله تعالى: ﴿فإذا أحصن﴾.

وقد اختلف أهل العلم في تفسير هذه الآية، أعني قوله: ﴿والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم﴾ فقال ابن عباس، وأبو سعيد الخدري، وأبو قلاب، ومكحول، والزهري: المراد بالمحصنات هنا: المسيبات ذوات الأزواج خاصة، أي: من محرّمات عليكم إلا ما ملكت أيمانكم بالسبي من أرض الحرب، فإن تلك حلال، وإن كان لها زوج، وهو قول الشافعي، أي: أن السبأ يقطع العصمة، وبه قال ابن وهب، وابن عبد الحكم، ورواه عن مالك، وبه قال أبو حنيفة، وأصحابه، وأحمد، وإسحاق، وأبو ثور. واختلفوا في استبرائها بماذا يكون؟ كما هو مدوّن في كتب الفروع. وقالت طائفة: المحصنات في هذه الآية العفاف، وبه قال أبو العالية، وعبيدة السلماني، وطاوس، وسعيد بن جبیر، وعطاء، ورواه عبيدة، عن عمر. ومعنى الآية عندهم: كل النساء حرام إلا ما ملكت أيمانكم، أي: تملكون عصمتهنّ بالنكاح، وتملكون الرقبة بالشراء. وحكى ابن جرير الطبري أن رجلاً قال لسعيد بن جبیر: أما رأيت ابن عباس حين سئل عن هذه الآية، فلم يقل فيها شيئاً؟ فقال: كان ابن عباس لا يعلمها. وروى ابن جرير أيضاً عن مجاهد أنه قال: لو أعلم من يفسر لي هذه الآية لضربت إليه أكباد الإبل. انتهى. ومعنى الآية، والله أعلم واضح لا سترة به، أي: وحرّم عليكم المحصنات من النساء، أي: المزوجات أعم من أن يكنّ مسلمات، أو كافرات إلا ما ملكت أيمانكم منهنّ، أما سببي، فإنها تحلّ، ولو كانت ذات زوج، أو بشراء، فإنها تحلّ، ولو كانت مزوجة، وينفسخ النكاح الذي كان عليها بخروجها عن ملك سيدها الذي زوجها، وسيأتي ذكر سبب نزول الآية إن شاء الله، والاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. وقد قرئ: «المحصنات» بفتح الصاد وكسرها، فالفتح على أن الأزواج أحصنوهنّ، والكسر على أنهنّ أحصنّ فروجهنّ عن غير أزواجهنّ، أو أحصنّ أزواجهنّ. قوله: ﴿كتاب الله عليكم﴾ منصوب على المصدرية، أي: كتب الله ذلك عليكم كتاباً. وقال الزجاج، والكوفيون: إنه منصوب على الإغراء، أي: الزموا كتاب الله، أو عليكم كتاب الله، واعترضه أبو عليّ الفارسي بأن الإغراء لا يجوز فيه تقديم المنصوب، وهذا الاعتراض إنما يتوجه على قول من قال: إنه منصوب بعلينكم المذكور في الآية، وروي عن عبيدة السلماني أنه قال: إن قوله: ﴿كتاب الله عليكم﴾ إشارة إلى قوله تعالى: ﴿مثنى وثلاث ورباع﴾ وهو بعيد، بل هو إشارة إلى التحريم المذكور في قوله: ﴿حرمت عليكم﴾ إلى آخر الآية. قوله: ﴿وأحلّ لكم ما وراء ذلكم﴾ قرأ حمزة، والكسائي، وعاصم في رواية حفص، وأحلّ على البناء للمجهول، وقرأ الباقون على البناء

نفسه العنت. والمراد هنا: الأمة المملوكة للغير، وأما أمة الإنسان نفسه، فقد وقع الإجماع على أنه لا يجوز له أن يتزوجها، وهي تحت ملكه لتعارض الحقوق، واختلافها. والفقيات جمع فتاة، والعرب تقول للمملوك فتى، وللمملوكة فتاة. وفي الحديث الصحيح: «لا يقول أحدكم عبي، وأمتي، ولكن ليقل فتاتي، وفتاتي» قوله: «والله أعلم بإيمانكم» فيه تسلية لمن ينكح الأمة إذا اجتمع فيه الشرطان المذكوران، أي: كلكم بنو آدم، وأكرمكم عند الله اتقاكم، فلا تستنكفوا من الزواج بالإماء عند الضرورة، فربما كان إيمان بعض الإماء أفضل من إيمان بعض الحرائر. والجملة اعترافية. وقوله: «بعضكم من بعض» مبتدأ وخبر، ومعناه: أنهم متصلون في الانساب؛ لأنهم جميعاً بنو آدم، أو متصلون في الدين؛ لأنهم جميعاً أهل ملة واحدة، وكتابهم واحد ونبيهم واحد. والمراد بهذا: توطئة نفوس العرب؛ لأنهم يستهجنون أولاد الإماء، ويستصغرونهم، ويفضون منهم: «فإنكحوهن بإذن أهلهن» أي: بإذن المالكين لهن؛ لأن منافعهن لهن لا يجوز لغيرهم أن ينتفع بشيء منها إلا بإذن من هي له. وقوله: «وأتوهن لجورهن بالمعروف» أي: أتوا إليهن مهورهن بما هو بالمعروف في الشرع، وقد استدل بهذا من قال: إن الأمة أحق بمهرها من سيدها، وإليه ذهب مالك، وذهب الجمهور إلى أن المهر للسيد، وإنما أضافها إليهن؛ لأن التالية إليهن تانية إلى سيدهن لكونهن ماله. وقوله: «محصنات» أي: عفاف. وقرأ الكسائي محصنات بكسر الصاد في جميع القرآن إلا في قوله: «والمحصنات من النساء» وقرأ الباقر بالفتح في جميع القرآن. وقوله: «غير مسافحات» أي: غير معلنات بالزنا. والاختدان: الاخلاء، والخدن، والخدين المخادن، أي: المصاحب، وقيل ذات الخدن: هي التي تزني سراً، فهو مقابل للمسافحة، وهي التي تجاهر بالزنا، وقيل: المسافحة، المبذولة، وذات الخدن، التي تزني بواحد. وكانت العرب تعيب الإعلان بالزنا، ولا تعيب اتخاذ الاختدان، ثم رفع الإسلام جميع ذلك، قال الله: «ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن» [الأنعام: 151]. وقوله: «فإذا حصن» قرأ عاصم، وحزمة، والكسائي بفتح الهمزة. وقرأ الباقر بضمها، والمراد بالإحصان هنا: الإسلام. روي ذلك عن ابن مسعود، وابن عمر، وأنس، والأسود بن يزيد، وزد بن حبيش، وسعيد بن جبيرة، وعطاء، وإبراهيم النخعي، والشعبي، والسدي، وروي عن عمر بن الخطاب، بإسناد منقطع، وهو الذي نص عليه الشافعي، وبه قال الجمهور. وقال ابن عباس، وأبو الدرداء، ومجاهد، وعكرمة، وطاوس، وسعيد بن جبيرة، والحسن، وقتادة، وغيرهم: إنه التزويج. وروي عن الشافعي، فعلى القول الأول لا حد على الأمة الكافرة. وعلى القول الثاني لا حد على الأمة التي لم تتزوج. وقال القاسم وسالم: إحصانها: إسلامها، وعفافها. وقال ابن جرير: إن معنى القراءتين مختلف، فمن قرأ حصن بضم الهمزة، فمعناه التزويج، ومن قرأ بفتح الهمزة، فمعناه

بالمتمعة من أزواجهم، ولا مما ملكت أيماهم، فإن من شأن الزوجة أن ترث، وتورث، وليست المستمتع بها كذلك. وقد روي عن ابن عباس أنه قال بجواز المتمعة، وأنها باقية لم تنسخ. وروي عنه أنه رجع عن ذلك عند أن بلغه الناسخ. وقد قال بجوازها جماعة من الروافض، ولا اعتبار بأقوالهم. وقد اتعب نفسه بعض المتأخرين بتكثير الكلام على هذه المسألة، وتقوية ما قاله المجوزون لها، وليس هذا المقام مقام بيان بطلان كلامه.

وقد طولنا البحث، وبغنا الشبه الباطلة التي تمسك بها المجوزون لها في شرحنا للمنتقي، فليرجع إليه. قوله: «فريضة» منتصب على المصدرية المؤكدة، أو على الحال، أي: مفروضة. قوله: «ولا جناح عليكم فيما تراضيتكم به من بعد للفريضة» أي: من زيادة، أو نقصان في المهر، فإن ذلك سائغ عند التراضي، هذا عند من قال بأن الآية في النكاح الشرعي، وأما عند الجمهور القائلين بأنها في المتمعة، فالمعنى التراضي في زيادة مدة المتمعة، أو نقصانها، أو في زيادة ما دفعه إليها إلى مقابل الاستمتاع بها، أو نقصانها. قوله: «ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات للمؤمنات» الطول: الغنى، والسعة، قاله ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة، والسدي، وابن زيد، ومالك، والشافعي، وأحمد، وإسحاق، وأبو ثور، وجمهور أهل العلم. ومعنى الآية: فمن لم يستطع منكم غنى، وسعة في ماله يقدر بها على نكاح المحصنات المؤمنات، فلينكح من فتياتكم المؤمنات، يقال طال يطول طولا في الفضال، والقدرة، وفلان ذو طول، أي: ذو قدرة في ماله. والطول بالضم: ضد القصر. وقال قتادة، والنخعي، وعطاء، والثوري: إن الطول الصبر. ومعنى الآية عندهم أن من كان يهوى أمة حتى صار لذلك لا يستطيع أن يتزوج غيرها، فإن له أن يتزوجها إذا لم يملك نفسه، وخاف أن يبغى بها، وإن كان يجد سعة في المال لنكاح حرة. وقال أبو حنيفة، وهو مروى عن مالك: إن الطول المرأة الحرة، فمن كان تحته حرة لم يحل له أن ينكح الأمة، ومن لم يكن تحته حرة جاز له أن يتزوج أمة، ولو كان غنياً، وبه قال أبو يوسف، واختاره ابن جرير، واحتج له. والقول الأول هو المطابق لمعنى الآية، ولا يخلو ما عده عن تكلف، فلا يجوز للرجل أن يتزوج بالأمة إلا إذا كان لا يقدر على أن يتزوج بالحره لعدم وجود ما يحتاج إليه في نكاحها من مهر، وغيره. وقد استدل بقوله: «من فتياتكم المؤمنات» على أنه لا يجوز نكاح الأمة الكتابية، وبه قال أهل الحجاز، وجوزّه أهل العراق، وخلخت الفاء في قوله: «فمما ملكت إيمانكم» لتضمن المبتدأ معنى الشرط. وقوله: «من فتياتكم المؤمنات» في محل نصب على الحال، فقد عرفت أنه لا يجوز للرجل الحر أن يتزوج بالمملوكة إلا بشرط عدم القدرة على الحرّة. والشرط الثاني ما سينكره الله سبحانه آخر الآية من قوله: «ذلك لمن خشي العنت منكم» فلا يحل للفقير أن يتزوج بالمملوكة إلا إذا كان يخشى على

الإسلام. وقال قوم: إن الإحصان المذكور في الآية هو: التزويج، ولكن الحد واجب على الأمة المسلمة إذا زنت قبل أن تتزوج بالسنة، وبه قال الزهري. قال ابن عبد البر: ظاهر قول الله عز وجل يقتضي أنه لا حد على الأمة، وإن كانت مسلمة إلا بعد التزويج، ثم جاءت السنة بجلدها، وإن لم تحصن، وكان ذلك زيادة بيان. قال القرطبي: ظهر المسلم حمى لا يستباح إلا بيقين، ولا يقين مع الاختلاف لولا ما جاء في صحيح السنة من الجلد. قال ابن كثير في تفسيره: والأظهر، والله أعلم أن المراد بالإحصان هنا: التزويج؛ لأن سياق الآية يدل عليه حيث يقول سبحانه: ﴿ومن لم يستطع منكم طولا﴾ إلى قوله: ﴿فإذا أحصن فإن اتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب﴾ فالسياق كله في الفتيات المؤمنات، فتعين أن المراد بقوله: ﴿فإذا أحصن﴾ أي: تزوجن، كما فسر به ابن عباس، ومن تبعه، قال: وعلى كل من القولين إشكال على مذهب الجمهور؛ لأنهم يقولون إن الأمة إذا زنت فعليها خمسون جلدة سواء كانت مسلمة، أو كافرة مزوجة، أو بكراً مع أن مفهوم الآية يقتضي أنه لا حد على غير المحصنة من الإماء. وقد اختلفت أجوبتهم عن ذلك، ثم نكر أن منهم من أجاب، وهم الجمهور بتقديم منطوق الأحاديث على هذا المفهوم، ومنهم من عمل على مفهوم الآية، وقال: إذا زنت، ولم تحصن، فلا حد عليها، وإنما تضرب تأنيباً. قال: وهو المحكي عن ابن عباس، وإليه ذهب طاوس، وسعيد بن جبير، وأبو عبيد، وداود الظاهري في رواية عنه، فهؤلاء قنعوا بمفهوم الآية على العموم، وأجابوا عن مثل حديث أبي هريرة، وزيد بن خالد في الصحيحين، وغيرهما «أن رسول الله ﷺ سئل عن الأمة: إذا زنت، ولم تحصن، قال: إن زنت، فاجلدوها، ثم إن زنت، فاجلدوها، ثم إن زنت، فاجلدوها، ثم بيعوها، ولو بضفير» بأن المراد بالجلد هنا: التأنيب، وهو تعسف، وأيضاً قد ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا زنت أمة أحكم، فليجلدها الحد، ولا يثرب عليها. ثم إن زنت، فليجلدها الحد» الحديث. ولمسلم من حديث علي قال: «يا أيها الناس أقيموا على أركانكم الحد من أحصن، ومن لم يحصن، فإن أمة لرسول الله ﷺ زنت، فأمرني أن أجدها» الحديث. وأما ما أخرجه سعيد بن منصور، وابن خزيمة، والبيهقي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ «ليس على الأمة حد حتى تحصن بزواج، فإذا أحصنت بزواج فعليها نصف ما على المحصنات من العذاب» فقد قال ابن خزيمة، والبيهقي: إن رفعه خطأ، والصواب وقفه قوله: ﴿فإن اتين بفاحشة﴾ الفاحشة هنا الزنا: ﴿فعليهن نصف ما على المحصنات﴾ أي: الحرائر الأباكر؛ لأن الثيب عليها الرجم، وهو لا يتبعض، وقيل المراد بالمحصنات هنا: المزوجات؛ لأن عليهن الجلد، والرجم، والرجم لا يتبعض، فصار عليهن نصف ما عليهن من الجلد. والمراد بالعذاب هنا: الجلد، وإنما نقص حد الإماء عن حد

الحرائر؛ لأنهن أضعف، وقيل: لأنهن لا يصلن إلى مرادهن، كما تصل الحرائر؛ وقيل: لأن العقوبة تجب على قدر النعمة، كما في قوله تعالى: ﴿يضاعف لها العذاب ضعفين﴾ [الأحزاب: 30] ولم ينكر الله سبحانه في هذه الآية العبيد، وهم لاحقون بالإماء بطريق القياس، وكما يكون على الإماء، والعبيد نصف الحد في الزنا، كذلك يكون عليهم نصف الحد في القذف، والشرب، والإشارة بقوله: ﴿ذلك لمن خشي العنت منكم﴾ إلى نكاح الإماء. والعنت: الوقوع في الإثم، وأصله في اللغة انكسار العظم بعد الجبر، ثم استعير لكل مشقة: ﴿وإن تصبروا﴾ عن نكاح الإماء ﴿خير لكم﴾ من نكاحهن، أي: صبركم خير لكم؛ لأن نكاحهن يفضي إلى إرقاق الولد، والغص من النفس. قوله: ﴿يريد الله ليبين لكم﴾ اللام هنا هي لام كي التي تعاقب: «أن». قال الفراء: العرب تعاقب بين لام كي وأن، فتأتي باللام التي على معنى كي في موضع أن في أرت، وأمرت، فيقولون أرت أن تفعل، وأرت لتفعل، ومنه: ﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأقوامهم﴾ [الصف: 8] «وأمرت لأعدل بينكم﴾ [الشورى: 15] «وأمرنا لنسلم لرب العالمين﴾ [الأنعام: 71] ومنه:

أريد لأنسى نكحاً فكنتمنا تمثل لي ليلى بكل سبيل وحكى الزجاج هذا القول وقال: لو كانت اللام بمعنى أن لدخلت عليها لام أخرى، كما تقول: جئت كي تكرمني، ثم تقول: جئت لكي تكرمني، وأنشد:

أرت لكيما يعلم الناس أنها سراويل قيس والوفود شهود وقيل اللام زائدة لتأكيد معنى الاستقبال، أو لتأكيد إرادة التبيين، ومفعول يبين محذوف، أي: ليبين لكم ما خفي عليكم من الخير، وقيل: مفعول يريد محذوف، أي: يريد الله هذا ليبين لكم، وبه قال البصريون، وهو مروى عن سيبويه، وقيل: اللام بنفسها ناصبة للفعل من غير إضمار أن، وهي وما بعدها مفعول للفعل المتقدم، وهو مثل قول الفراء السابق، وقال بعض البصريين: إن قوله: ﴿يريد﴾ مؤول بالمصدر مرفوع بالابتداء مثل: تسمع بالمعيدي خير من أن تراه. ومعنى الآية: يريد الله ليبين لكم مصالح دينكم، وما يحل لكم، وما يحرم عليكم: ﴿ويهيئكم سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أي: طرقهم، وهم الأنبياء، وأتباعهم لتقتلوا بهم: ﴿ويُتَوَبَّعُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: ويريد أن يتوب عليكم فتوبوا إليه، وتلاقوا ما فرط منكم بالتوبة يغفر لكم ذنوبكم: ﴿وَاللَّهُ يَرِيدُ أَنْ يُتَوَبَّعَ عَلَيْكُمْ﴾ هذا تأكيد لما قد فهم من قوله: ﴿ويُتَوَبَّعُ عَلَيْكُمْ﴾ المتقدم؛ وقيل: الأول معناه للإرشاد إلى الطاعات، والثاني فعل أسبابها، وقيل: إن الثاني لبيان كمال منفعة إرادته سبحانه، وكمال ضرر ما يريده الله يتبعون الشهوات، وليس المراد به: مجرد إرادة التوبة حتى يكون من باب التكرير للتأكيد، قيل: هذه الإرادة منه سبحانه في جميع أحكام الشرع، وقيل: في نكاح الأمة فقط.

واختلف في تعيين المتبعين للشهوات، فقيل: هم الزناة، وقيل: اليهود والنصارى، وقيل: اليهود خاصة، وقيل هم

في النكاح. وأخرج عبد بن حميد عنه في الآية قال: ذلك في الحرائر، فأما المماليك، فلا بأس. وأخرج ابن المنذر عنه نحوه من طريق أخرى. وأخرج مالك، والشافعي، وعبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، عن عثمان بن عفان: أن رجلاً سأل عن الاختين في ملك اليمين هل يجمع بينهما؟ قال: أحلتها آية، وحرمتهما آية، وما كنت لأصنع ذلك، فخرج من عنده، فلقي رجلاً من أصحاب النبي ﷺ أراه علي بن أبي طالب، فسأله عن ذلك، فقال: لو كان لي من الأمر شيء، ثم وجدت أحداً فعل ذلك لجعلته نكالا. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، والبيهقي عن علي: أنه سئل عن رجل له أمتان اختان، وطئ إحداهما، وأراد أن يطأ الأخرى، فقال: لا حتى يخرجها من ملكه، وقيل: فلن زوجها عبده؟ قال: لا حتى يخرجها من ملكه. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، والطبراني، عن ابن مسعود: أنه سئل عن الرجل يجمع بين الاختين الأمتين، فكرهه، فقيل: يقول الله: ﴿إِذَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ فقال: ويعيرك أيضاً مما ملكت يمينك. وأخرج ابن أبي شيبة، والبيهقي، من طريق أبي صالح، عن علي بن أبي طالب قال في الاختين المملوكتين: أحلتها آية، وحرمتهما آية، ولا أمر، ولا أنهي، ولا لحل، ولا أحرم، ولا أقبل أنا، وأهل بيتي. وأخرج أحمد عن قيس قال: قلت لابن عباس: أيقع الرجل على المرأة، وابنتها مملوكتين له؟ فقال: أحلتها آية، وحرمتهما آية، ولم يكن لأفعله. وأخرج عبد الرزاق، والبيهقي عنه في الاختين من ملك اليمين: أحلتها آية، وحرمتهما آية. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والبيهقي، عن ابن عمر قال: إذا كان للرجل جارتان اختان، فغشى إحداهما، فلا يقرب الأخرى حتى يخرج التي غشى من ملكه. وأخرج البيهقي، عن مقاتل بن سليمان قال: إنما قال الله في نساء الآباء: ﴿إِذَا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ لأن العرب كانوا يتكفون نساء الآباء، ثم حرم النسب والصهر، فلم يقل إلا ما قد سلف؛ لأن العرب كانت لا تنكح النسب، والصهر. وقال في الاختين: ﴿إِذَا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ لأنهم كانوا يجمعون بينهما، فحرم جمعهما جميعاً إلا ما قد سلف قبل التحريم: ﴿إِنْ لَكَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ لما كان من جماع الاختين قبل التحريم. وأخرج أحمد، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وغيرهم، عن أبي سعيد الخدري: أن رسول الله ﷺ بعث يوم حنين جيشاً إلى أوطاس، فلقوا عدواً، فقاتلوه، فظفروا عليهم، وأصابوا لهم سبيلاً، فكان ناساً من أصحاب النبي ﷺ تخرجوا من غشيانهم من أجل أنزاجهم من المشركين، فأنزل الله في ذلك: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ يقول: إلا ما آفاه الله عليكم. وأخرج الطبراني عن ابن عباس أن ذلك سبب نزول الآية. وأخرج ابن أبي شيبة، عن سعيد بن جبيرة مثله. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، والبيهقي عن ابن عباس في قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ

المجوس؛ لأنهم أرادوا أن يتبعهم المسلمون في نكاح الأخوات من الأب. والأول أولى. والميل: العول عن طريق الاستواء. والمراد بالشهوات هنا: ما حرمه الشرع دون ما أحله، ووصف الميل بالعظم بالنسبة إلى ميل من اقترب خطيئة نادر. قوله: ﴿وَاللَّهُ يَرِيدُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ بما مر من الترخيص لكم، أو بكل ما فيه تخفيف عليكم: ﴿وَوَخَّلِقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا﴾ عاجزاً غير قادر على ملك نفسه، وبغفها عن شهواتها، وفاء بحق التكليف، فهو محتاج من هذه الحيثية إلى التخفيف، فلماذا أراد الله سبحانه التخفيف عنه.

وقد أخرج البخاري، وغيره عن ابن عباس قال: حرم من النسب سبع، ومن الصهر سبع، ثم قرأ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَبَنَاتُ الْأَخْتِ﴾ هذا من النسب، وباقي الآية من الصهر، والسابعة: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، والبيهقي، عن عمران بن حصين في قوله: ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾ قال: هي مبهمه. وأخرج هؤلاء، عن ابن عباس قال: هي مبهمه إذا طلق الرجل امرأته قبل أن يدخل بها، أو ماتت لم تحل له أمها. وأخرج هؤلاء إلا البيهقي، عن علي في الرجل يتزوج المرأة، ثم يطلقها، أو ماتت قبل أن يدخل بها هل تحل له أمها؟ قال: هي بمنزلة الربيبه. وأخرج هؤلاء عن زيد بن ثابت أنه كان يقول: إذا ماتت عنده، فأخذ ميراثها كره أن يخلف على أمها، وإذا طلقها قبل أن يدخل بها، فلا بأس أن يتزوج أمها. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، عن مجاهد قال في قوله: ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرِبَائِيكُمْ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾ أريد بهما الدخول جميعاً. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن عبد الله بن الزبير قال: الربيبه والام سواء لا بأس بهما إذا لم يدخل بالمرأة. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي حاتم، بسند صحيح، عن مالك بن أوس بن الحدثان قال: كانت عندي امرأة، فتوفيت، وقد ولدت لي فوجئت عليها، فلقيني علي بن أبي طالب، فقال: مالك؟ فقلت: توفيت المرأة، فقال علي: لها ابنة؟ قلت: نعم، وهي بالطائف، قال: كانت في حجرك؟ قلت: لا، قال: فأنكحها، قلت: فلين قول الله: ﴿وَرِبَائِيكُمْ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾؟ قال: إنها لم تكن في حجرك.

وقد قلنا قول من قال: إنه إسناد ثابت على شرط مسلم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس قال: الدخول الجماع. وأخرج عبد الرزاق في المصنف، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن عطاء قال: كنا نتحدث أن محمداً ﷺ لما نكح امرأة زيد قال المشركون بمكة في ذلك، فأنزل الله: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكَ لِلَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ ونزلت: ﴿وَمَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: 4]. وأخرج ابن المنذر، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأَخْتَيْنِ﴾ قال يعني

ليحفظ متاعه، ويصلح شأنه. حتى نزلت هذه الآية: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَمْهَاتُكُمْ﴾ فنسخت الأولى، فحُرِّمَتْ المتعة، وتصديقها من القرآن: ﴿إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ [المؤمنون: 6] وما سوى هذا الفرج، فهو حرام.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن الأنباري في المصاحف، والحاكم وصححه: أن ابن عباس قرأ: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [النساء: 24] وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن أبي بن كعب أنه قرأها كذلك. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد، أن هذه الآية في نكاح المتعة، وكذلك أخرج ابن جرير، عن السدي، والأحاديث في تحليل المتعة، ثم تحريمها، وهل كان نسخها مرة، أو مرتين؟ منكرة في كتب الحديث. وقد أخرج ابن جرير في تهذيبه، وابن المنذر، والطبراني، والبيهقي، عن سعيد بن جبيرة قال: قلت لابن عباس: ماذا صنعت ذهبت الركاب بفتيك، وقالت فيها الشعراء قال: وما قالوا؟ قلت: قالوا:

أقول للشيخ لما طال مجلسه يا صاح هل لك في فتيا ابن عباس هل لك في رخصة الأعطاف آنسة تكون مثواك حتى مصدر الناس فقال: إنا لله، وإنا إليه راجعون، لا والله ما بهذا أفتيت، ولا هذا أرت، ولا أحلتها إلا للمضطر، وفي لفظ، ولا أحلت منها إلا ما أحل الله من الميتة، والدم، ولحم الخنزير. وأخرج ابن جرير، عن حزمي أن رجلاً كانوا يفرضون المهر، ثم عسى أن تترك أحدهم العسرة، فقال الله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيزَةِ﴾ وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ﴾ قال: الراضي أن يوفى لها صداقها، ثم يخيرها. وأخرج ابن جرير، عن ابن زيد في الآية قال: إن وضعت لك منه شيئاً فهو سائغ، وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه عن ابن عباس: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً﴾ يقول: من لم يكن له سعة ﴿أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ يقول الحرائر: ﴿فَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فِتْيَانِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ فلينكح من إماء المؤمنين ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرِ مُسَافِحَاتٍ﴾ يعني عفائف غير زواني في سر، ولا علانية ﴿وَلَا مَتَخَذَاتٍ لُحْدَانٍ﴾ يعني أخلاء ﴿فَإِذَا أَحْصَنَ﴾ ثم إذا تزوجت حراً، ثم زنت ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ قال: من الجلد ﴿لَنْكَ خَشْيَ لَعْنَتِ مَنْكُمْ﴾ هو: الزنا، فليس لأحد من الأحرار أن ينكح أمة إلا أن لا يقدر على حرة، وهو يخشى العنت ﴿وَأَنْ تَصْبِرُوا﴾ عن نكاح الإماء ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي، عن مجاهد ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً﴾ يعني من لا يجد منكم غنى ﴿أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ يعني: الحرائر، فلينكح الأمة المؤمنة ﴿وَأَنْ تَصْبِرُوا﴾ عن نكاح الإماء ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ وهو حلال. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، عنه قال مما وسع الله به على هذه الأمة نكاح الأمة النصرانية،

من النساء﴾ قال: كل ذات زوج إتيانها زناً إلا ما سببت. وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، والطبراني، عن علي، وابن مسعود في قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ إلا ما ملكت أيمانكم﴾ قال: على المشركات إذا سبين حلت له. وقال ابن مسعود: المشركات، والمسلمات. وأخرج ابن جرير، عن ابن مسعود قال: إذا بيعت الأمة، ولها زوج، فسيدها أحق ببضعها. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ قال: نوات الأزواج. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، عن أنس بن مالك مثله. وأخرج ابن أبي شيبة، عن ابن مسعود مثله. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ﴾ قال: العفيفة العاقلة من مسلمة، أو من أهل الكتاب. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، عنه في الآية قال: لا يحل له أن يتزوج فوق الأربع، فما زاد، فهو عليه حرام، كامه، وأخته. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن أبي العالية في قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ قال: يقول انكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى، وثلاث، ورباع، ثم حرم ما حرم من النسب، والصهر، ثم قال: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ فرجع إلى أول السورة، فقال: هن حرام أيضاً، إلا لمن نكح بصدائق، وسنة، وشهود. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وابن جرير، عن عبيدة قال: لحل الله لك أربعاً في أول السورة، وحرم نكاح كل محصنة بعد الأربع إلا ما ملكت يمينك. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: «الإحصان إحصانان: إحصان نكاح، وإحصان عفاف، فمن قرأها، والمحصنات بكسر الصاد، فهن العفائف، ومن قرأها، والمحصنات بالفتح، فهن المتزوجات. قال ابن أبي حاتم: قال أبي هذا حديث منكر. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَحُلْ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ قال: ما وراء هذا النسب. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي قال: ما دون الأربع. وأخرج ابن جرير، عن عطاء قال: ما وراء ذات القرابة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة في قوله: ﴿وَلَحُلْ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ قال: ما ملكت أيمانكم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عبيدة السلماني نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرِ مُسَافِحِينَ﴾ قال غير زائنين. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس مثله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَاتَّوْهُنَّ لَجُورَهُنَّ﴾ يقول: إذا تزوج الرجل منكم المرأة، ثم نكحها مرة واحدة، فقد وجب صداقها كله، والاستمتاع هو: النكاح، وهو قوله: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صِدْقَاتَهُنَّ﴾ [النساء: 4]. وأخرج الطبراني، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس قال: كانت المتعة في أول الإسلام، وكانوا يقرؤون هذه الآية: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [النساء: 24] الآية، فكان الرجل يقدم البلدة ليس له بها معرفة، فيتزوج بقدر ما يرى أنه يفرغ من حاجته؛

لؤلئك سوف تؤتيتهم لجورهم وكان الله للذين عملوا من الذنوب «غفوراً رحيمًا» [النساء: 152].

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ بَعْضُكُمْ مِنْ رِاضٍ لِبَعْضٍ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿١٩﴾ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عَدُوًّا وَظَلَمًا سَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٢٠﴾ إِنْ تَحْبِرُوا كِبَارَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ تُكْفِرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلَ كَرِيمًا ﴿٢١﴾

الباطل: ما ليس بحق، ووجوه تلك كثيرة، ومن الباطل البيوعات التي نهى عنها الشرع. والتجارة في اللغة عبارة عن المعارضة، وهذا الاستثناء منقطع، أي: لكن تجارة عن تراض منكم جائزة بينكم، أو لكن كون تجارة عن تراض منكم حلالاً لكم. وقوله: «عن تراض» صفة لتجارة، أي: كائنة عن تراض، وإنما نص الله سبحانه على التجارة دون سائر أنواع المعاملات لكونها أكثرها، وأغلبها، وتطلق التجارة على جزاء الأعمال من الله على وجه المجاز، ومنه قوله تعالى: «هل أنلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم» [الصفا: 10]. وقوله: «يرجون تجارة لن تبور» [فاطر: 29].

واختلف العلماء في التراضي، فقالت طائفة: تمامه وجوبه بافتراق الأبدان بعد عقد البيع، أو بأن يقول أحدهما لصاحبه: اختر كما في الحديث الصحيح: «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا»، أو يقول أحدهما لصاحبه: اختر. وإليه ذهب جماعة من الصحابة، والتابعين، وبه قال الشافعي، والثوري، والأوزاعي، والليث، وابن عيينة، وإسحاق وغيرهم. وقال مالك، وأبو حنيفة: تمام البيع هو أن يعقد البيع بالأسنة، فيرتفع بذلك الخيار، وأجابوا عن الحديث بما لا طائل تحته. وقد قرئ تجارة بالرفع على أن كان تامة، وتجارة بالنصب على أنها ناقصة. قوله: «ولا تقتلوا أنفسكم» أي: لا يقتل بعضكم أيها المسلمون بعضاً إلا بسبب أثبتة الشرع، أو لا تقتلوا أنفسكم باقتراف المعاصي أو المراد النهي عن أن يقتل الإنسان نفسه حقيقة. ولا مانع من حمل الآية على جميع هذه المعاني. ومما يدل على ذلك احتجاج عمرو بن العاص بها حين لم يفتسل بالماء البارد حين أجنب في غزاة ذات السلاسل، فقرر النبي ﷺ احتجاجه، وهو في مسند أحمد، وسنن أبي داود وغيرهما. قوله: «ومن يفعل ذلك» أي: القتل خاصة، أو أكل أموال الناس ظلماً، والقتل عدواناً، وظلماً، وقيل: هو إشارة إلى كل ما نهى عنه في هذه السورة، وقال ابن جرير: إنه عائد على ما نهى عنه من آخر، وعيد، وهو قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كراهًا» [النساء: 19] لأن كل ما نهى عنه من أول السورة قرن به وعيد إلا من قوله: «يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم» فإنه لا وعيد بعده إلا قوله: «ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً» والعنوان: تجاوز الحد. والظلم: وضع الشيء في غير موضعه، وقيل: إن معنى العدوان، والظلم واحد، وتكريره لقصد التأكيد، كما في قول الشاعر:

واليهودية، وإن كان موسراً. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، والبيهقي عنه قال: لا يصلح نكاح إماء أهل الكتاب؛ لأن الله يقول: «من فتياتكم المؤمنات». وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، عن الحسن: «إن رسول الله ﷺ نهى أن تنكح الأمة على الحرّة، والحرّة على الأمة، ومن وجد طولاً لحرّة، فلا ينكح أمة». وأخرج ابن أبي شيبة، والبيهقي عن ابن عباس قال: لا يتزوج الحر من الإماء إلا واحدة. وأخرج ابن أبي شيبة، عن قتادة نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مقاتل في قوله: «والله أعلم بليمانكم بعضكم من بعض» يقول: أنتم إخوة بعضكم من بعض. وأخرج ابن المنذر، عن السدي: «فانكحوهن بإذن أهلهن» قال: بإذن موالينهن: «واتوهن لجورهن» قال: مهورهن. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس قال: المسافحات للمعلنات بالزنا، والمتخذات لخدان: ذات الخليل الولحد. قال: كان أهل الجاهلية يحرمون ما ظهر من الزنا، ويستحلون ما خفي، فأنزل الله: «ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن» [الأنعام: 151]. وأخرج ابن أبي حاتم، عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «فإذا أحصن» قال: إحصانها إسلامها. وقال علي: لجلوهن. قال ابن أبي حاتم، حديث منكرو، وقال ابن كثير في إسناده ضعيف، ومبهم لم يسم، ومثله لا تقوم به حجة. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، عن ابن عباس قال: حدّ العبد يفترى على الحرّ أربعون. وأخرج ابن جرير عنه قال: لعنت الزنا. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي: «ويريد الذين يتبعون الشهوات» قال: هم اليهود، والنصارى. وأخرج ابن المنذر، عن ابن عباس: «ويريد الذين يتبعون الشهوات» قال: الزنا. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد: «يريد الله أن يخفف عنكم» يقول: في نكاح الأمة، وفي كل شيء فيه يسر. وأخرج ابن جرير، عن ابن زيد: «يريد الله أن يخفف عنكم» قال: رخص لكم في نكاح الإماء «وخلق الإنسان ضعيفاً» قال: لو لم يرخس له فيها. وأخرج ابن جرير، والبيهقي في الشعب، عن ابن عباس قال: ثماني آيات نزلت في سورة النساء من خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس، وغربت: أولهن: «يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم» [النساء: 26]، والثانية: «والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً» [النساء: 27]، والثالثة: «يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً» [النساء: 28]، والرابعة: «إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم ونكحكم مثلاً كريماً» [النساء: 31]، والخامسة: «إن الله لا يظلم مثقال نرة» [النساء: 40] الآية، والسادسة: «ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله» [النساء: 110] الآية، والسابعة: «إن الله لا يفر لى يشرك به» [النساء: 48، 116] الآية، والثامنة: «والذين آمنوا بأهه ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم

والفسى قولها كذباً وميناً

وخرج بقيد العدوان والظلم ما كان من القتل بحق كالقصاص، وقتل المرتد، وسائر الحدود الشرعية، وكذلك قتل الخطأ. قوله: ﴿فسوف نصلي﴾ جواب الشرط أي: ندخله ناراً عظيمة: ﴿وكان ذلك﴾ أي: إصلاؤه النار ﴿على الله يسيراً﴾ لأنه لا يعجزه بشيء. وقرأ: ﴿نصلي﴾ بفتح النون، روي ذلك عن الأعمش، والنخعي، وهو: على هذه القراءة منقول من صلى، ومنه شاة مصلية. قوله: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم﴾ أي: إن تجتنبوا كبائر الذنوب التي نهلكم الله عنها: ﴿نكفر عنكم سيئاتكم﴾ أي: ننويكم التي هي صفات، وحمل السيئات على الصفات هنا متعين لذكر الكبائر قبلها، وجعل اجتنابها شرطاً لتكفير السيئات.

وقد اختلف أهل الأصول في تحقيق معنى الكبائر، ثم في عددها، فاما في تحقيقها، فقيل: إن الذنوب كلها كبائر، وإنما يقال لبعضها صغيرة بالإضافة إلى ما هو أكبر منها، كما يقال: الزنا صغيرة بالإضافة إلى الكفر، والقبلة المحرمة صغيرة بالإضافة إلى الزنا، وقد روي نحو هذا عن الإسفرائيني، والجويني، والقشيري، وغيرهم قالوا: والمراد بالكبائر التي يكون اجتنابها سبباً لتكفير السيئات هي: الشرك، واستئلا على ذلك بقراءة من قرأ: ﴿إن تجتنبوا كبير ما تنهون عنه﴾ وعلى قراءة الجمع، فالمراد أجناس الكفر، واستئلا على ما قالوه بقوله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ [النساء: 48] قالوا: فهذه الآية مقيدة لقوله: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه﴾ وقال ابن عباس: الكبيرة كل نيب ختمه الله بنار، أو غضب، أو لعنة، أو عذاب. وقال ابن مسعود: الكبائر ما نهى الله عنه في هذه السورة إلى ثلاث وثلاثين آية. وقال سعيد بن جبير: كل نيب نسبته الله إلى النار فهو كبيرة. وقال جماعة من أهل الأصول: الكبائر كل نيب رتب الله عليه الحد، أو صرح بالوعيد فيه. وقيل غير ذلك مما لا فائدة في التطويل بذكره. وأما الاختلاف في عددها، فقيل: إنها سبع، وقيل: سبعون، وقيل: سبعمئة، وقيل: غير منحصرة، ولكن بعضها أكبر من بعض، وسيأتي ما ورد في ذلك إن شاء الله. قوله: ﴿وندخلكم مixelاً﴾ أي: مكان نخول، وهو الجنة: ﴿كرميماً﴾ أي: حسناً مرضياً، وقد قرأ أبو عمرو، وابن كثير، وابن عامر، والكوفيون ﴿مixelاً﴾ بضم الميم. وقرأ أهل المدينة بفتح الميم، وكلاهما اسم مكان، ويجوز أن يكون مصدراً.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، قال السيوطي بسند صحيح، عن ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تاكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ قال: إنها محكمة ما نسخت، ولا تنسخ إلى يوم القيامة. وأخرج ابن جرير، عن عكرمة، والحسن في الآية قال: كان الرجل يتحرج أن ياكل عند أحد من الناس بعد ما نزلت هذه الآية، فنسخ ذلك الآية

التي في النور: ﴿ولا على أنفسكم أن تاكلوا من بيوتكم﴾ [النور: 61] الآية. وأخرج ابن ماجه، وابن المنذر، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿إنما البيع عن تراض﴾ وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي صالح، وعكرمة في قوله تعالى: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾ قالوا: نهام عن قتل بعضهم بعضاً. وأخرج ابن المنذر، عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن جرير، عن عطاء بن أبي رباح نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن السدي: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾ قال: أهل دينكم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿ومن يفعل ذلك عدواً وظلماً﴾ يعني: متعمداً اعتداء بغير حق: ﴿وكان ذلك على الله يسيراً﴾ يقول: كان عذابه على الله هيناً. وأخرج ابن المنذر، عن ابن جريج قال: قلت لعطاء: أرايت قوله تعالى: ﴿ومن يفعل ذلك عدواً وظلماً فسوف نصليه ناراً﴾ في كل ذلك أم في قوله: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾؟ قال: بل في قوله: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾. وأخرج عبد بن حميد، عن أنس بن مالك قال: هان ما سالكم ربكم: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم﴾. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، والبيهقي في الشعب، عن ابن عباس قال: كل ما نهى الله عنه، فهو كبيرة، وقد ذكرت الطرفة: يعني النظرة. وأخرج ابن جرير، عنه قال: كل شيء عصى الله فيه، فهو كبيرة. وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال: كل ما وعد الله عليه النار كبيرة. وأخرج ابن جرير، والبيهقي في الشعب عنه قال: الكبائر كل نيب ختمه الله بنار، أو غضب، أو لعنة، أو عذاب. وأخرج ابن جرير، عن سعيد بن جبير ما قُدمنا عنه. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الشعب، عن ابن عباس: أنه سئل عن الكبائر أسبع هي؟ قال: هي إلى السبعين أقرب. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه: أن رجلاً سأل كم الكبائر أسبع هي؟ قال: هي إلى سبعمئة أقرب منها إلى سبع، غير أنه لا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع إصرار. وأخرج البيهقي في الشعب عنه: كل نيب أصر عليه العبد كبيرة، وليس بكبيرة ما تاب عنه العبد. وقد ثبت في الصحيحين، وغيرهما من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿اجتنبوا السبع الموبقات﴾ قالوا: وما هي يا رسول الله؟ قال: الشرك بالله، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، والسحر، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات وثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي بكره قال: قال النبي ﷺ: ﴿ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا: بلى يا رسول الله﴾ قال: الإشراف بالله، وعقوق الوالدين، وكان متكئاً، فجلس، فقال: ألا وقول الزور، وشهادة الزور، فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت. وأخرج البخاري، وغيره عن ابن عمرو عن النبي ﷺ قال: «الكبائر: الإشراف بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس «شك شعبة» واليمين الغموس». وأخرج البخاري، ومسلم،

وغيرهما عن ابن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه، قالوا: وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: يسب أباه، ويسب أمه، فيسب أمه، فيسب أمه». والأحاديث في تعداد الكبائر، وتعيينها كثيرة جداً، فمن رام الوقوف على ما ورد في ذلك، فعليه بكتاب الزواجر في الكبائر، فإنه قد جمع، فأوعى.

واعلم أنه لا بد من تقييد ما في هذه الآية من تكفير السيئات بمجرد اجتناب الكبائر بما أخرجه النسائي، وابن ماجه، وابن جرير، وابن خزيمة، وابن حبان، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه، عن أبي هريرة، وأبي سعيد أن النبي ﷺ جلس على المنبر، ثم قال: «والذي نفسي بيده ما من عبد يصلي الصلوات الخمس، ويصوم رمضان، ويؤدي الزكاة، ويجتنب الكبائر السبع إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يوم القيامة حتى إنها لتصفق، ثم تلا: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نَكْفُرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾». وأخرج أبو عبيد في فضائله، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، والحاكم، والبيهقي في الشعب، عن ابن مسعود قال: إن في سورة النساء خمس آيات ما يسرنني أن لي بها الدنيا، وما فيها، ولقد علمت أن العلماء إذا مروا بها يعرفونها: قوله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ [النساء: 31] الآية، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: 40] الآية، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: 48، 116] الآية، وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ﴾ [النساء: 64] الآية، وقوله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾ [النساء: 110] الآية.

وَلَا تَسْمُرُوا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَهْيٌ وَإِمَّا أَكْتَسَبُوا لِلنِّسَاءِ نَهْيٌ وَإِمَّا أَكْتَسَبَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣١﴾ وَلِكُلِّ جَمَلًا مَّوَلًى وَإِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْتَنُكُمْ تَقَاتُوهُمْ نَهْيُهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٢﴾ الرِّجَالُ قَوَّاتٌ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَعَلَ اللَّهُ بِبَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ وَإِمَّا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَلِكُلِّهِمْ قَدْرٌ قَدَرْتُمْ حَقَّقْتُمْ لِلنِّسَاءِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّيُّ نَفَاقَةٌ تَنْوَرُهُمْ يُطْرَقُونَ وَأَنْفُسُهُمْ فِي الصَّغَابِ وَشَرُّهُمْ فَإِنَّ أَلْمَنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا ﴿٣٣﴾

قوله: ﴿ولا تسمروا﴾ التمني نوع من الإرادة يتعلق بالمستقبل، كالتلف نوع منها يتعلق بالماضي، وفيه النهي عن أن يتمنى الإنسان ما فضل الله به غيره من الناس عليه، فإن ذلك نوع من علم الرضا بالقسمة التي قسمها الله بين عباده على مقتضى إرادته، وحكمته البالغة، وفيه أيضاً نوع من الحسد المنهى عنه إذا صحبه إرادة زوال تلك النعمة عن الغير.

وقد اختلف العلماء في الغبطة هل تجوز أم لا؟ وهي أن

يتمنى أن يكون به حال مثل حال صاحبه، فذهب الجمهور إلى يتمنى زوال تلك الحال عن صاحبه، فذهب الجمهور إلى جواز ذلك، واستدلوا بالحديث الصحيح: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن، فهو يقوم به آناء الليل، وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالاً، فهو ينفقه آناء الليل، وآناء النهار، وقد بوب عليه البخاري: «باب الاغتباط في العلم، والحكم، وعموم لفظ الآية يقتضي تحريم تمني ما وقع به التفضيل سواء كان مصحوباً بما يصير به من جنس الحسد أم لا، وما ورد في السنة من جواز ذلك في أمور معينة يكون مخصصاً لهذا العموم، وسيأتي نكر سبب نزول الآية، ولكن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. وقوله: ﴿للرجال نصيب﴾ الخ، فيه تخصيص بعد التعميم، ورجوع إلى ما يتضمنه سبب نزول الآية من أن أم سلمة قالت: يا رسول الله يغزو الرجال، ولا يغزي، ولا نقاتل، فنستشهد، وإنا لنا نصف الميراث، فنزلت. أخرجه عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، والترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم، والبيهقي، وقد روى نحو هذا السبب من طرق بإفظاف مختلفة. والمعنى في الآية: أن الله جعل لكل من الفريقين نصيباً على حسب ما تقتضيه إرادته، وحكمته، وعبر عن ذلك المفعول لكل فريق من فريقتي النساء، والرجال بالنصيب، مما اكتسبوا على طريق الاستعارة التبعية شبه اقتضاء حال كل فريق لنصيبه باكتسابه إياه. قال قتادة: للرجال نصيب مما اكتسبوا من الثواب، والعقاب، وللنساء كذلك. وقال ابن عباس: المراد بذلك: الميراث والاكتساب على هذا القول بمعنى ما نكرنا. قوله: ﴿وسألوا الله من فضله﴾ عطف على قوله: ﴿ولا تسمروا﴾ وتوسيط التعليل بقوله: ﴿للرجال نصيب﴾ الخ. بين المعطوف، والمعطوف عليه لتقرير ما تضمنه النهي، وهذا الأمر يدل على وجوب سؤال الله سبحانه من فضله، كما قاله جماعة من أهل العلم. قوله: ﴿ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون﴾ أي: جعلنا لكل إنسان ورثة موالى يلون ميراثه، فلكل مفعول ثان قدم على الفعل، لتأكيد الشمول، وهذه الجملة مقررة لمضمون ما قبلها، أي: ليتبع كل أحد ما قسم الله له من الميراث، ولا يتمن ما فضل الله به غيره عليه، وقد قيل: إن هذه الآية منسوخة بقوله بعدها: ﴿والذين عاقدت أيمانكم﴾ وقيل: العكس، كما روى ذلك ابن جرير. وذهب الجمهور إلى أن الناسخ لقوله ﴿والذين عاقدت أيمانكم﴾ قوله تعالى - وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض - والموالى جمع مولى، وهو: يطلق على المعتق، والمعتق، والناصر، وابن العم، والجار قيل: والمراد هنا: العصبية، أي: ولكل جعلنا عصبية يرثون ما أبقت الفرائض. قوله: ﴿والذين عاقدت أيمانكم﴾ المراد بهم: موالى الموالاة: كان الرجل من أهل الجاهلية يعاقد الرجل، أي: يحالفه فيستحق من ميراثه نصيباً، ثم ثبت في صدر

العصيان. وقد تقدّم بيان أصل معناه في اللغة. قال ابن فارس: يقال: نشزت المرأة: استعصت على بعلها، ونشز بعلها عليها: إذا ضربها وجفاها **﴿فَعَظْلُوهُنَّ﴾** أي: نكروهنّ بما أوجبه الله عليهن من الطاعة، وحسن العشرة، ورغبوهنّ، ورهبوهنّ، **﴿وَأَمْجَرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾** يقال: مجره، أي: تباعد منه. والمضاجع: جمع مضجع، وهو محل الاضطجاع، أي: تباعدوا عن مضاجعتهنّ، ولا تخلوهنّ تحت ما تجعلونه عليكم حال الاضطجاع من الثياب، وقيل: هو أن يوليها ظهره عند الاضطجاع، وقيل: هو كناية عن ترك جماعها، وقيل: لا تبيت معه في البيت الذي يضطجع فيه **﴿وَأَضْرِبُوهُنَّ﴾** أي: ضرباً غير مبرح. وظاهر النظم القرآني أنه يجوز للزوج أن يفعل جميع هذه الأمور عند مخافة النشوز، وقيل: إنه لا يهجرها إلا بعد عدم تأثير الوعظ، فإن أثر الوعظ لم ينتقل إلى الهجر، وإن كناه الهجر لم ينتقل إلى الضرب **﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ﴾** كما يجب، وترك النشوز **﴿فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً﴾** أي: لا تتعرضوا لهنّ بشيء مما يكرهنّ لا بقول، ولا بفعل، وقيل: للمعنى: لا تكلفوهنّ الحبّ لكم، فإنه لا يدخل تحت اختيارهنّ **﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً كَبِيراً﴾** إشارة إلى الأزواج بخفض الجناح، ولين الجانب، أي: وإن كنتم تقدرون عليهنّ، فأنكروا قدرة الله عليكم، فإنها فوق كل قدرة، والله بالمرصاد لكم.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: **﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾** يقول: لا يتمنى الرجل، فيقول: ليت أن لي مال فلان، وأمله، فنهى الله سبحانه عن ذلك، ولكن يسأل الله من فضله: **﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَتَبْتُ بِلَهُمْ﴾** يعني مما ترك الوالدان، والأقربون للذكر مثل حظ الأنثيين. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة: أن سبب نزول الآية أن النساء قلن: لو جعل أنصباؤنا في الميراث، كنصيب الرجال؟ وقال الرجال: إنا لنرجو أن نفضل على النساء بحسناتنا في الآخرة، كما فضلنا عليهنّ في الميراث. وقد تقدم نكر سبب النزول. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: **﴿وَأَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾** قال: ليس بعرض الدنيا. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة **﴿وَأَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾** قال: العبادة ليس من أمر الدنيا. وأخرج الترمذي، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «سئلوا الله من فضله، فإن الله يحب أن يسأله». قال الترمذي: كذا رواه حماد بن واقد، وليس بالحافظ، ورواه أبو نعيم، عن إسرائيل، عن حكيم بن جبيرة عن رجل، عن النبي ﷺ. وحديث أبي نعيم أشبه أن يكون أصح، وكذا رواه ابن جرير، وابن مروي، ورواه أيضاً ابن مروي عن حديث ابن عباس. وأخرج البخاري، وأبو داود، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس **﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيًّ﴾** قال: ورثة **﴿وَالَّذِينَ عَاقَدْتَ إِيْمَانَكُمْ﴾** قال: كان المهاجرون

الإسلام بهذه الآية، ثم نسخ بقوله: **﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾** [الأنفال: 75] وقراءة الجمهور: «عاقدت» وروي عن حمزة أنه قرأ: «عقدت»، بتشديد القاف على التكثير، أي: والذين عقدت لهم إيمانكم الحلف، أو عقدت عهودهم إيمانكم، والتقدير على قراءة الجمهور: والذين عاقدتهم إيمانكم، فأتوهم نصيبهم، أي: ما جعلتموه لهم بعقد الحلف. قوله: **﴿لِلرِّجَالِ قُؤَامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾** بما فضل الله بعضهم على بعض، هذه الجملة مستأنفة مشتملة على بيان العلة التي استحق بها الرجال الزيادة، كأنه قيل: كيف استحق الرجال ما استحقوا مما لم تشاركهم فيه النساء، فقال: **﴿لِلرِّجَالِ قُؤَامُونَ﴾** الخ، والمراد: أنهم يقومون بالنزب عنهنّ، كما تقوم الحكام، والأمراء بالنزب عن الرعاية، وهم أيضاً يقومون بما يحتج إليهم من النفقة، والكسوة، والمسكن، وجاء بصيغة المبالغة في قوله: **﴿قُؤَامُونَ﴾** ليدل على أصالتهم في هذا الأمر، والباء في قوله: **﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ﴾** للسببية والضمير في قوله: **﴿بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾** للرجال، والنساء، أي: إنما استحقوا هذه المزية؛ لتفضيل الله للرجال على النساء بما فضلهم به من كون فيهم الخلفاء، والسلطين، والحكام، والأمراء، والغزاة، وغير ذلك من الأمور. قوله: **﴿وَبِمَا نَفَقَوْا﴾** أي: وبسبب ما أنفقوا من أموالهم، وما مصدريه، أو موصولة، وكذلك هي في قوله: **﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ﴾** ومن تبعيضية، والمراد: ما أنفقوه في الإنفاق على النساء، وبما نفقوه في مهرهنّ من أموالهم، وكذلك ما ينفقونه في الجهاد، وما يلزمهم في العقل.

وقد استدل جماعة من العلماء بهذه الآية على جواز فسخ النكاح إذا عجز الزوج عن نفقة زوجته، وكسوتها، وبه قال مالك، والشافعي، وغيرهما. قوله: **﴿فَالصَّالِحَاتُ﴾** أي: من النساء **﴿قَانِتَاتُ﴾** أي: مطيعات لله قائمات بما يجب عليهنّ من حقوق الله، وحقوق أزواجهنّ **﴿حَافِظَاتُ لِّغَيْبِ﴾** أي: لما يجب حفظه عند غيبة أزواجهنّ عنهنّ من حفظ نفوسهنّ، وحفظ أموالهنّ، وما في قوله: **﴿بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾** مصدريه، أي: بحفظ الله. والمعنى: لهنّ حافظات لغيب أزواجهنّ بحفظ الله لهنّ، ومعونته، وتسديده، أو حافظات له بما استحفظهنّ من أداء الأمانة إلى أزواجهنّ على الوجه الذي أمر الله به، أو حافظات له بحفظ الله لهنّ بما أوصى به الأزواج في شأنهنّ من حسن العشرة، ويجوز أن تكون «ما» موصولة، والعائد محذوف، وقرأ أبو جعفر: **﴿بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾** بنصب الاسم الشريف. والمعنى: بما حفظن الله أي: حفظن أمره، أو حفظن دينه، فحذف الضمير الراجع إليهنّ للعلم به، وما على هذه القراءة مصدريه، أو موصولة، كالقراءة الأولى، أي: بحفظهنّ الله، أو بالذي حفظن الله به. قوله: **﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾** هذا خطاب للأزواج، قيل: الخوف هنا على بابه، وهو حالة تحدث في القلب عند حدوث أمر مكروه، أو عند ظنّ حدوثه، وقيل المراد: بالخوف هنا العلم. والنشوز:

لما قدموا المدينة يرث المهاجري الأنصاري نون نوي رحمه للأخوة التي أذى النبي ﷺ بينهم، فلما نزلت: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي﴾ نسخت، ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ عَاقَبْتَ إِيْمَانَكُمْ قَاتُوهُمْ تَصِيْبِهِمْ﴾ من النصر، والرفادة، والنصيحة، وقد ذهب الميراث، ويوصي له. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عنه: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي﴾ قال: عصابة ﴿وَالَّذِينَ عَاقَبْتَ إِيْمَانَكُمْ﴾ قال: كان الرجلان إيهما مات، ورثه الآخر، فأنزل الله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أُولِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا﴾ [الأحزاب: 6] يقول: إلا أن يوصوا لأوليائهم الذين عاقبوا، وصية، فهو لهم جائز من ثلث مال الميت، وهو المعروف. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه في الآية قال: كان الرجل قبل الإسلام يعاقده الرجل يقول: ترثني، وأرثك، وكان الأحياء يتحالفون، فقال رسول الله ﷺ: كل حلف كان في الجاهلية، أو عقد أدركه الإسلام، فلا يزيده الإسلام إلا شدة، ولا عقده، ولا حلف في الإسلام، فنسختها هذه الآية: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ [الأنفال: 75]. وأخرج أبو داود، وابن جرير، وابن مردويه، والبيهقي، عنه في الآية قال: كان الرجل يحالف الرجل ليس بينهما نسب، فيرث أحدهما الآخر، فنسخ ذلك في الأنفال: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن الحسن: أن رجلاً من الأنصار لطم امرأته، فجاءت تلتطم القصاص، فجعل النبي ﷺ بينهما القصاص، فنزل: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ [طه: 114] فسكت رسول الله ﷺ، ونزل القرآن: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ الآية، فقال رسول الله ﷺ: أرئنا أمراً وأراد الله غيره. وأخرج ابن مردويه، عن علي نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ يعني أمراء عليهن أن تطيعه فيما أمرها الله به من طاعته، وطاعته أن تكون محسنة إلى أهله حافظة لماله ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ﴾ فضله عليها بنفقته، وسعيه ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ﴾ قال: مطيعات ﴿حَافِظَاتُ لَلْغَيْبِ﴾ يعني: إذا كنَّ كذا، فأحسنوا إليهن. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة ﴿حَافِظَاتُ لَلْغَيْبِ﴾ قال: حافظات للغيب بما استودعهن الله من حقه، وحافظات لغيب أزواجهن. وأخرج ابن المنذر، عن مجاهد قال: ﴿حَافِظَاتُ لَلْغَيْبِ﴾ للأزواج. وأخرج ابن جرير، عن السدي قال: تحفظ على زوجها ماله، وفرجها حتى يرجع، كما أمرها الله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس ﴿وَالَّذَاتِي تَخَافُونَ فَشَوْهَظَ﴾ قال: تلك المرأة تنشر، وتستخف بحق زوجها، ولا تطيع أمره، فأمره الله أن يعظها، ويذكرها بالله، ويعظم حقه عليها، فإن قبلت، وإلا هجرها في المضجع، ولا يكلمها من غير

وَأَنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْشِرُوا كَهَكَذَا مِنْ أَهْلِهِ. وَكَهَكَذَا مِنْ أَهْلِهِمَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّي اللَّهُ بَيْنَهُمَا مِنْ اللَّهِ كَأَنْ عَلِيًّا حَبِيراً ﴿٣٢﴾

قد تقدّم معنى الشقاق في البقرة، وأصله أن كل واحد منهم يأخذ شقاً غير شق صاحبه، أي: ناحية غير ناحية، واضيف الشقاق إلى الظرف لإجرائه مجرى المفعول به، كقوله تعالى: ﴿جَلَّ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [سبا: 32]، وقوله: يا سارق الليلة أهل الدار

والخطاب للأمرء والحكام، والضمير في قوله: ﴿بَيْنَهُمَا﴾ للزوجين؛ لأنه قد تقدم نكر ما يدل عليهما، وهو نكر الرجال، والنساء ﴿فَابْعَثُوا﴾ إلى الزوجين ﴿حُكَمَا﴾ يحكم بينهما ممن يصلح لذلك عقلاً، وديناً، وإنصافاً، وإنما نص الله سبحانه على أن الحكمين يكونان من أهل الزوجين؛ لأنهما أقعد بمعرفة أحوالهما، وإذا لم يوجد من أهل الزوجين من يصلح للحكم بينهما كان الحكمان من غيرهم، وهذا إذا أشكل أمرهما، ولم يتبين من هو المسيء منهما؛ فأما إذا عرف المسيء، فإنه يؤخذ لصاحبه الحق منه، وعلى الحكمين أن يسعيا في إصلاح ذات البين جهدهما، فإن قدرا على ذلك عملاً عليه، وإن أعياهما إصلاح حالهما، ورأيا التفريق بينهما جاز لهما ذلك من نون أمر من الحاكم في البلد، ولا توكيل بالفرقة من الزوجين. وبه قال مالك، والأوزاعي، وإسحاق، وهو مروى، عن عثمان، وعلي، وابن عباس، والشعبي، والنخعي، والشافعي، وحكاه ابن كثير عن الجمهور، قالوا: لأن الله قال: ﴿فَابْعَثُوا حُكَمَا مِنْ أَهْلِهِ وَحُكَمَا مِنْ أَهْلِهَا﴾ وهذا نص من الله سبحانه أنهما قاضيان لا وكيلان، ولا شاهدان. وقال الكوفيون، وعطاء، وابن زيد، والحسن، وهو

لما قدموا المدينة يرث المهاجري الأنصاري نون نوي رحمه للأخوة التي أذى النبي ﷺ بينهم، فلما نزلت: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي﴾ نسخت، ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ عَاقَبْتَ إِيْمَانَكُمْ قَاتُوهُمْ تَصِيْبِهِمْ﴾ من النصر، والرفادة، والنصيحة، وقد ذهب الميراث، ويوصي له. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عنه: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي﴾ قال: عصابة ﴿وَالَّذِينَ عَاقَبْتَ إِيْمَانَكُمْ﴾ قال: كان الرجلان إيهما مات، ورثه الآخر، فأنزل الله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أُولِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا﴾ [الأحزاب: 6] يقول: إلا أن يوصوا لأوليائهم الذين عاقبوا، وصية، فهو لهم جائز من ثلث مال الميت، وهو المعروف. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه في الآية قال: كان الرجل قبل الإسلام يعاقده الرجل يقول: ترثني، وأرثك، وكان الأحياء يتحالفون، فقال رسول الله ﷺ: كل حلف كان في الجاهلية، أو عقد أدركه الإسلام، فلا يزيده الإسلام إلا شدة، ولا عقده، ولا حلف في الإسلام، فنسختها هذه الآية: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ [الأنفال: 75]. وأخرج أبو داود، وابن جرير، وابن مردويه، والبيهقي، عنه في الآية قال: كان الرجل يحالف الرجل ليس بينهما نسب، فيرث أحدهما الآخر، فنسخ ذلك في الأنفال: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن الحسن: أن رجلاً من الأنصار لطم امرأته، فجاءت تلتطم القصاص، فجعل النبي ﷺ بينهما القصاص، فنزل: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ [طه: 114] فسكت رسول الله ﷺ، ونزل القرآن: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ الآية، فقال رسول الله ﷺ: أرئنا أمراً وأراد الله غيره. وأخرج ابن مردويه، عن علي نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ يعني أمراء عليهن أن تطيعه فيما أمرها الله به من طاعته، وطاعته أن تكون محسنة إلى أهله حافظة لماله ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ﴾ فضله عليها بنفقته، وسعيه ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ﴾ قال: مطيعات ﴿حَافِظَاتُ لَلْغَيْبِ﴾ يعني: إذا كنَّ كذا، فأحسنوا إليهن. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة ﴿حَافِظَاتُ لَلْغَيْبِ﴾ قال: حافظات للغيب بما استودعهن الله من حقه، وحافظات لغيب أزواجهن. وأخرج ابن المنذر، عن مجاهد قال: ﴿حَافِظَاتُ لَلْغَيْبِ﴾ للأزواج. وأخرج ابن جرير، عن السدي قال: تحفظ على زوجها ماله، وفرجها حتى يرجع، كما أمرها الله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس ﴿وَالَّذَاتِي تَخَافُونَ فَشَوْهَظَ﴾ قال: تلك المرأة تنشر، وتستخف بحق زوجها، ولا تطيع أمره، فأمره الله أن يعظها، ويذكرها بالله، ويعظم حقه عليها، فإن قبلت، وإلا هجرها في المضجع، ولا يكلمها من غير

الأخر، فليس حكمه بشيء حتى يجتمعا.

﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَاللَّادِينَ إِحْسَنًا وَيَذِ
الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارَ الْجُنُبِ
وَالصَّالِحِينَ وَالْحَبْرَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾

قد تقدم بيان معنى العيادة. وشيئاً إما مفعول به، أي: لا
تشاركوا به شيئاً من الأشياء من غير فرق بين حي، وميت،
وجماد وحيوان، وإما مصدر، أي: لا تشاركوا به شيئاً من
الإشراك من غير فرق بين الشرك الأكبر، والأصغر،
والواضح، والخفي. وقوله: ﴿إِحْسَانًا﴾ مصدر لفعل محذوف،
أي: أحسنوا بالوالدين إحساناً. وقرأ ابن أبي عتبة بالرفع، وقد
دل نكر الإحسان إلى الوالدين بعد الأمر بعبادة الله، والنهي
عن الإشراك به على عظم حقهما، ومثله: «إن اشكر لي
ولو لانيك» [لقمان: 14] فأمر سبحانه بأن يشكرا معه. قوله:
﴿يُذِي الْقُرْبَى﴾ أي: صاحب القرابة، وهو من يصح إطلاق
اسم القريب عليه، وإن كان بعيداً. ﴿وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ﴾
قد تقدم تفسيرهم، والمعنى وأحسنوا بذى القريب إلى آخر
ما هو مذكور في هذه الآية: ﴿وَالْجَارَ ذِي الْقُرْبَى﴾ أي:
القريب جواره، وقيل: هو من له مع الجوار في الدار قرب في
النسب ﴿وَالْجَارَ الْجُنُبِ﴾ المجانب، وهو مقابل للجار ذي
القريب، والمراد من يصلق عليه مسمى الجوارم كونه دارة
بعيدة، وفي ذلك دليل على تعميم الجيران بالإحسان إليهم
سواء كانت الديار متقاربة، أو متباعدة، وعلى أن الجوار
حرمة مرعية مأمور بها، وفيه ردٌ من على يظن أن الجار
مختص بالملاصق دون من بينه، وبينه حائل، أو مختص
بالقريب دون البعيد، وقيل: إن المراد بالجار الجنب هنا: هو
الغريب، وقيل: هو الأجني الذي لا قرابة بينه، وبين المجاور
له. وقرأ الأعمش، والمفضل: ﴿وَالْجَارَ الْجُنُبِ﴾ بفتح الجيم،
وسكون النون، أي: ذي الجنب، وهو: الناحية، وأنشد
الأخفش:

الناس جنب، والأمير جنب

وقيل: المراد بالجار ذي القريب: المسلم، وبالجار الجنب:
اليهودي، والنصراني.

وقد اختلف أهل العلم في المقدار الذي يصلق عليه
مسمى الجوار، وثبت لصاحبه الحق، فروي عن الأوزاعي
والحسن أنه إلى حد أربعين داراً من كل ناحية، وروي عن
الزهري نحوه، وقيل: من سمع إقامة الصلاة، وقيل: إذا
جمعتما محلة، وقيل: من سمع النداء. والأولى أن يرجع في
معنى الجار إلى الشرع، فإن وجد فيه ما يقتضي بيانه، وأنه
يكون جاراً إلى حد كذا من الدور، أو من مسافة الأرض، كان
العمل عليه متعيناً، وإن لم يوجد رجع إلى معناه لغة أو
عرفاً. ولم يأت في الشرع ما يفيد أن الجار هو الذي بينه،
وبين جاره مقدار كذا، ولا ورد في لغة العرب أيضاً ما يفيد
ذلك، بل المراد بالجار في اللغة: المجاور، ويطلق على معان.

أحد قولي الشافعي: إن التفريق هو إلى الإمام، أو الحاكم في
البلد لا إليهما، ما لم يوكلهما الزوجان، أو يامرهما الإمام،
والحاكم؛ لأنهما رسولان شاهدان، فليس إليهما التفريق،
ويرشد إلى هذا قوله: ﴿إِنْ يَرِيدَا﴾ أي: الحكمان
﴿إِصْلَاحًا﴾ بين الزوجين ﴿يُوفِقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ لاقتصاره
على نكر الإصلاح بين التفريق. ومعنى: ﴿إِنْ يَرِيدَا
إِصْلَاحًا يُوَفِّقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ أي: يوقع الموافقة بين الزوجين
حتى يعودا إلى الألفة، وحسن العشرة. ومعنى الإرادة:
خلوص نيتهما لإصلاح الحال بين الزوجين، وقيل: إن
الضمير في قوله: ﴿يُوفِقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ للحكمين، كما في
قوله: ﴿إِنْ يَرِيدَا إِصْلَاحًا﴾ أي: يوفق بين الحكمين في
اتحاد كلمتهما، وحصول مقصودهما، وقيل: كلا الضميرين
للزوجين، أي: إن يريدوا إصلاح ما بينهما من الشقاق لوقع
الله بينهما الألفة، والوفاق، وإذا اختلف الحكمان لم ينفذ
حكمهما، ولا يلزم قبول قولهما بلا خلاف.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم،
والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَنْ خِفْتُمْ
شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ قال: هذا الرجل، والمرأة إذا تفسدت الذي
بينهما أمر الله أن تبعثوا رجلاً صالحاً من أهل الرجل،
ورجلاً مثله من أهل المرأة، فينظران أيهما المسيء، فإن كان
الرجل هو المسيء حببوا امرأته عنه، وقسروه على التنفقه،
وإن كانت المرأة هي المسيئة قسروها على زوجها، ومنعوها
التنفقه، فإذا اجتمع رايهما على أن يفرقا، أو يجمعا، فأمرهما
جائز، فإن رايًا أن يجمعا، فرضي أحد الزوجين، وكره الآخر
ذلك، ثم مات أحدهما فإن الذي رضي يرث الذي كره، ولا
يرث الكاره الراضي ﴿إِنْ يَرِيدَا إِصْلَاحًا﴾ قال: هما،
الحكمان ﴿يُوفِقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ وكذلك كل مصلح يوفقه
للحق، والصواب. وأخرج الشافعي في الأم، وعبد الرزاق في
المصنف، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير،
وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، عن عبيدة
السلماني في هذه الآية قال: جاء رجل، وامرأة إلى علي،
ومعهما فئام من الناس، فأمرهم علي، فبعثوا حكماً من أهله،
وحكماً من أهلها، ثم قال للحكمين: تدريان ما عليكما؟ عليكما
إن رأيتما أن تجمعا أن تجمعا، وإن رأيتما أن تفرقا أن تفرقا،
قالت المرأة: رضيت بكتاب الله بما علي فيه ولي؛ وقال
الرجل: أما الفرقة، فلا، فقال: كذبت، والله حتى تقر مثل الذي
أقرت به. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير،
وابن المنذر، عن ابن عباس قال: بعثت أنا، ومعاوية حكمين،
فقبل لنا: إن رأيتما أن تجمعا جمعتما، وإن رأيتما أن تفرقا
فرقتما، والذي بعثهما عثمان. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن
حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي،
عن الحسن قال: إنما يبعث الحكمان ليصلحا، ويشهدا على
الظالم بظلمه، فأما الفرقة، فليست بأيديهما. وأخرج عبد بن
حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن قتادة نحوه. وأخرج
البيهقي، عن علي قال: إذا حكم أحد الحكمين، ولم يحكم

قال في القاموس. والجار المجاور، والذي أجرته من أن يظلم، والمجير، والمستجير، والشريك في التجارة، وزوج المرأة، وهي جارته، وفرج المرأة، وما قرب من المنازل، والاست كالجارة، والقاسم، والحليف، والناصر. انتهى. قال القرطبي في تفسيره: وروي: «أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ، فقال: إني نزلت محلة قوم، وإن أقربهم إليّ جواراً أشدهم لي أذى فبعث النبي ﷺ أبا بكر، وعمر، وعلياً يصيحون على أبواب المساجد: إلا إن أربعين داراً جار، ولا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه». انتهى. ولو ثبت هذا لكان مغنياً عن غيره، ولكنه رواه، كما ترى من غير عزوله إلى أحد كتب الحديث المعروفة، وهو: وإن كان إماماً في علم الرواية، فلا تقوم الحجة بما يرويه بغير سند منكر، ولا نقل عن كتاب مشهور، ولا سيما، وهو ينكر الواهيات كثيراً، كما يفعل في تذكرته، وقد ورد في القرآن ما يدل على أن المساكنة في مدينة مجاورة، قال الله تعالى: «لئن لم ينته المنافقون» إلى قوله: «ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً» [الأحزاب: 60] فجعل اجتماعهم في المدينة جواراً. وأما الأعراف في مسمى الجوار، فهي تختلف باختلاف أهلها، ولا يصح حمل القرآن على أعراف متعارفة، واصطلاحات متواضعة. قوله: **«والصاحب بالجانب»** قيل: هو الرفيق في السفر، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير، وعكرمة، ومجاهد، والضحاك. وقال علي بن أبي طالب، وابن مسعود، وابن أبي ليلى: هو الزوجة. وقال ابن جريج: هو الذي يصحبك، ويلزمك رجاء نفعك. ولا يبعد أن تتناول الآية جميع ما في هذه الأقوال مع زيادة عليها وهو: كل من صدق عليه أنه صاحب الجانب أي: بجانبك كمن يقف بجانبك في تحصیل علم، أو تعلم صناعة، أو مباشرة تجارة، أو نحو ذلك. قوله: **«وابن السبيل»** قال مجاهد: هو الذي يجتاز بك ماراً، والسبيل الطريق، فنسب المسافر إليه لمروده عليه، ولزومه إياه، فالأولى تفسيره بمن هو على سفر، فإن على المقيم أن يحسن إليه، وقيل: هو المنقطع به، وقيل: هو الضيف. قوله: **«وما ملكك إيمانكم»** أي: وأحسنوا إلى ما ملكت إيمانكم إحساناً، وهم: العبيد والإماء، وقد أمر النبي ﷺ بأنهم يطعمون مما يطعم مالكم، ويلبسون مما يلبس. والمختال ذو الخيلاء، وهو والكبر، والته، أي: لا يجب من كان متكبراً تائهاً على الناس مفتخراً عليهم. والفخر: المدح للنفس، والتلاؤل، وتعنيد المناقب، وخص هاتين الصفتين؛ لأنهما يحملان صاحبهما على الأنفة مما نسب الله إليه في هذه الآية.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في شعب الإيمان من طرق، عن ابن عباس في قوله: **«والجار ذي القربى»** يعني: الذي بينك، وبينه قرابة **«والجار الجنب»** يعني: الذي ليس بينك، وبينه قرابة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن نوف البكالي قال: الجار ذي القربى: المسلم، والجار الجنب: اليهودي، والنصراني. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم،

والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس في قوله: **«والصاحب بالجانب»** قال: الرفيق في السفر. وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير، ومجاهد مثله. وأخرج الحكيم، والترمذي في نوابر الأصول، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم: **«والصاحب بالجانب»** قال: هو جليستك في الحضر، ورفيقتك في السفر، وأمراتك التي تضامحك. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عليّ قال: هو المرأة. وأخرج هؤلاء، والطبراني عن ابن مسعود مثله. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس مثله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: **«وما ملكك إيمانكم»** قال: مما خولك الله، فأحسن صحبته: كل هذا أوصى الله به. وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل نحوه، وقد ورد مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ في برّ الوالدين، وفي صلة القرابة، وفي الإحسان إلى اليتامى، وفي الإحسان إلى الجار، وفي القيام بما يحتاجه الممالك أحاديث كثيرة قد اشتملت عليها كتب السنة لا حاجة بنا إلى بسطها هنا، وهكذا ورد في نم الكبر والاختيال والفخر ما هو معروف.

الَّذِينَ يَبِخُلُونَ وَأَمْرُهُنَّ النَّاسُ وَالْبُخْلُ وَيَكُونُونَ مَا أَتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٧٧﴾ وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِيقًا لِلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الْفَيْتَنَ لِمَنْ قَرَّبْنَا نَسَاءً قَرِينًا ﴿٧٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آتَاهُمُ اللَّهُ الْآخِرَ وَأَنْفَقُوا مِنْ دُونِهِمْ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٧٩﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ شَيْئًا حَدًّا وَإِنَّكَ فَتَنَ إِذَا يَحْسَبُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا وَجَعَلَ لَكَ عَلَى هَذِهِ حَاجِدًا ﴿٨٠﴾ يَوْمَ يُؤْذَى الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا أَرْسُولَ لَوْ سَوَّى يَوْمَ الْأَرْضِ وَلَا يَكُونُ اللَّهُ حَرِيًّا ﴿٨١﴾

قوله: **«الذين يبخلون»** هم في محل نصب بدلاً من قوله: **«من كان مختالاً»** أو على النّم، أو في محل رفع على الابتداء، والخبر مقدر، أي: لهم كذا، وكذا من العذاب، ويجوز أن يكون مرفوعاً بدلاً من الضمير المستتر في قوله: **«مختالاً فخوراً»** ويجوز أن يكون منصوباً على تقدير أعنى، أو مرفوعاً على الخبر، والمبتدأ مقدر، أي: هم الذين يبخلون، والجملة في محل نصب على البدل. والبخل المنعوم في الشرع هو الامتناع من أداء ما أوجب الله، وهؤلاء المذكورون في هذه الآية ضمو إلى ما وقعوا فيه من البخل الذي هو ائثر خصال الشر ما هو اقبح منه، وأدل على سقوط نفس فاعله، وبلوغه في الرذالة إلى غايته، وهو أنهم مع بخلهم بأموالهم، وكتهم لما أنعم الله به عليهم من فضله **«فيأمرون الناس بالبخل»** كأنهم يجنون في صدورهم من جود غيرهم بماله حرجاً، ومضاضة، فلا كثر في عبادته من أمثالكم، هذه أموالكم قد بخلتم بها لكونكم تظنون انتقاصها بإخراج بعضها في مواضعه، فما بالكم بخلتم بأموال

شهيذاً؟ وهذا الاستفهام معناه: والتوبيخ، والتفريع «يومئذ يودّ الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض» قرأ نافع، وابن عامر «تسوى» بفتح التاء، وتشديد السين، وقرأ حمزة، والكسائي بفتح التاء، وتخفيف السين، وقرأ الباقون بضم التاء، وتخفيف السين. والمعنى على القراءة الأولى والثانية: أن الأرض هي التي تسوى بهم، أي: أنهم تمنوا لو انفتحت لهم الأرض، فساخا فيها، وقيل الباء في قوله: «بهم» بمعنى على، أي: تسوى عليهم الأرض. وعلى القراءة الثالثة الفعل مبني للمفعول، أي: لو سوى الله بهم الأرض، فيجعلهم، والأرض سواء حتى لا يبعثوا. قوله: «ولا يكتُمون الله حديثاً» عطف على «يودّ» أي: يومئذ يودّ الذين كفروا، ويومئذ لا يكتُمون الله حديثاً، ولا يقدرون على ذلك. قال الزجاج: قال بعضهم «لا يكتُمون الله حديثاً» مستأنف؛ لأن ما عملوه ظاهر عند الله لا يقدرون على كتمانها. وقال بعضهم: هو معطوف. والمعنى: يوتون أن الأرض سويت بهم، وأنهم لم يكتُموا الله حديثاً؛ لأنه ظهر كنهم.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: كان كردم بن يزيد حليف كعب بن الأشرف، وأسامة بن حبيب، ونافع بن أبي نافع، وبحري بن عمرو، وحبي بن أخطب، ورفاعة بن زيد بن التابوت يأتون رجالاً من الأنصار يتنصحوهم لهم، فيقولون: لا تنفقوا أموالكم، فإننا نخشى عليكم الفقر في ذهابها، ولا تسارعوا في النفقة، فإنكم لا تدرون ما يكون؟ فأنزل الله فيهم: «الذين يبخلون ويأمرون للناس بالبخل» إلى قوله: «وكان الله بهم عليماً». وقد أخرج ابن أبي حاتم، عنه أنها نزلت في اليهود. وأخرجه عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد. وأخرجه ابن جرير، عن سعيد بن جبير. وأخرجه عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن قتادة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن ابن عباس: «إن الله لا يظلم مثقال ذرة» قال: رأس نملة حمراء. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير في قوله: «وإن تك حسنة» وزن ذرة زانت على سينثاته «يضاعفها» فاما المشرك، فيخفف به عنه العذاب، ولا يخرج من النار أبداً. وأخرج البخاري، وغيره، عن ابن مسعود قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اقرأ عليّ، قلت يا رسول الله اقرأ عليك، وعليك أنزل؟ قال: نعم إنني أحب أن أسمع من غيري، فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية: «فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً» قال: حسبك الآن، فإذا عيناه ترفقان». وأخرجه الحاكم، وصححه من حديث عمرو بن حريث. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، من طريق العوفي، عن ابن عباس في قوله: «لو تسوى بهم الأرض» يعني: أن تسوى الأرض بالجمال، والأرض عليهم، وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة في الآية: يقول: وبأ لو

غيركم؟ مع أنه لا يلحقكم في ذلك ضرر، وهل هذا إلا غاية اللوم، ونهاية الحق، والرقاعة، وقبح الطباع، وسوء الاختيار. وقد تقدم اختلاف القراءات في البخل. وقد قيل: إن المراد بهذه الآية: اليهود، فإنهم جمعوا بين الاختيال، والفخر، والبخل بالمال، وكنتم ما أنزل الله في التوراة، وقيل: المراد بها المنافقون، ولا يخفى أن اللفظ أوسع من ذلك، وأكثر شمولاً، وأعم فائدة. قوله: «والذين ينفقون أموالهم رثاء للناس» عطف على قوله: «الذين يبخلون» ووجه ذلك أن الأولين قد فرطوا بالبخل وبأمر الناس به وبكنتم ما أتاهم الله من فضله، وهؤلاء أفرطوا ببذل أموالهم في غير مواضعها لمجرد الرياء، والسمة، كما يفعله من يريد أن يتسمع الناس بأنه كريم، ويتطاول على غيره بذلك، ويشمخ بأنفه عليه، مع ما ضم إلى هذا الإنفاق الذي يعود عليه بالضرر من عدم الإيمان بالله، وباليوم الآخر. قوله: «ومن يكن الشيطان له قريناً» في الكلام إضمار، والتقدير، ولا يؤمنون بالله، ولا باليوم الآخر، فقريّنهم الشيطان «ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً» والقريّن المقارن، وهو صاحب، والخليل. والمعنى: من قبل من الشيطان في الدنيا، فقد قارنه فيها، أو فهو قرينه في النار، فساء الشيطان قريناً: «وماذا عليهم» أي: على هذه الطوائف «لو آمنوا بالله واليوم الآخر وانفقوا مما رزقهم الله» ابتغاء لوجهه، وامتنالاً لأمره، أي: وماذا يكون عليهم من ضرر لو فعلوا ذلك، قوله: «إن الله لا يظلم مثقال ذرة» المثقال مفعول من الثقل، كالمقدار من القدر، وهو منتصب على أنه نعت لمفعول محذوف، أي: لا يظلم شيئاً مثقال ذرة. والذرة واحدة الذر. وهي: النمل الصغار، وقيل: رأس النملة. وقيل: الذرة الخردلة، وقيل: كل جزء من أجزاء الهباء الذي يظهر فيما يدخل من الشمس من كوة، أو غيرها ذرة. والأول هو المعنى اللغوي الذي يجب حمل القرآن عليه. والمراد من الكلام: أن الله لا يظلم كثيراً، ولا قليلاً، أي: لا يبخسهم من ثواب أعمالهم، ولا يزيد في عقاب ذنوبهم وزن ذرة فضلاً عما فوقها. قوله: «وإن تك حسنة يضاعفها» قرأ أهل الحجاز: «حسنة» بالرفع. وقرأ من عداهم بالنصب، والمعنى على القراءة الأولى: إن توجد حسنة، على أن «كان» هي التامة لا الناقصة، وعلى القراءة الثانية: إن تك فعلته حسنة يضاعفها، وقيل: إن التقدير: إن تك مثقال الذرة حسنة، وإنث ضمير المثقال لكونه مضافاً إلى المؤنث، والأول أولى. وقرأ الحسن: «نضاعفها» بالنون، وقرأ الباقون بالياء، وهي الأرجح لقوله: «ويؤت من لئله لجرأ عظيماً» وقد تقدم الكلام في المضاعفة، والمراد: مضاعفة ثواب الحسنة قوله: «فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد» كيف منصوبة بفعل مضمر، كما هو رأي سيبويه، أو محلها رفع على الابتداء، كما هو رأي غيره، والإشارة بقوله: «هؤلاء» إلى الكفار، وقيل: إلى كفار قريش خاصة. والمعنى: فكيف يكون حال هؤلاء الكفار يوم القيامة إذا جئنا من كل أمة بشهيد، وجئنا بك على هؤلاء

انخرقت بهم الأرض، فساخوا فيها. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ قال: بجوارحهم.

يَتَأَيُّمُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَأُوا الْكُتُوبَ وَأَنْتُمْ تُكَذِّبُونَ حَتَّى تَمْلِكُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَابِرِ سَبِيلٍ حَتَّى تَنْقَلِبُوا وَإِنْ كُنْتُمْ تَهْتَكُونَ أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَمَاعَةٍ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْكَافِرَاتِ أَوْ لَكُمْ نِسَاءٌ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا غَفُورًا ﴿١٧﴾

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ جعل الخطاب خاصاً بالمؤمنين؛ لأنهم كانوا يقرّبون الصلاة حال السكر، وأما الكفار، فهم لا يقرّبونها سكارى، ولا غير سكارى. قوله: ﴿وَلَا تَقْرِبُوا﴾ قال أهل اللغة: إذا قيل: لا تقرب بفتح الراء معناه لا تتلبس بالفعل، وإذا كان بضم الراء كلن معناه: لا تدن منه. والمراد هنا: النهي عن التلبس بالصلاة، وغشيانها. وبه قال جماعة من المفسرين، وإليه ذهب أبو حنيفة. وقال آخرون: المراد: مواضع الصلاة، وبه قال الشافعي. وعلى هذا، فلا بد من تقدير مضاف، ويقوّي هذا قوله: ﴿وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَابِرِ سَبِيلٍ﴾ وقالت طائفة: المراد: الصلاة ومواضعها معاً؛ لأنهم كانوا حينئذ لا يأتون المسجد إلا للصلاة، ولا يصلون إلا مجتمعين، فكانا متلازمين. قوله: ﴿وَأَنْتُمْ سَكَارَى﴾ الجملة في محل نصب على الحال، وسكارى جمع سكران، مثل كسالى جمع كسلان. وقرأ النخعي: «سكرى» بفتح السين، وهو تكسير سكران. وقرأ الأعمش: «سكرى» كحبلى صفة مفردة. وقد ذهب العلماء كافة إلى أن المراد بالسكر هنا: سكر الخمر، إلا الضحّاك، فإنه قال: المراد سكر النوم. وسيأتي بيان سبب نزول الآية، وبه يندفع ما يخالف الصواب من هذه الأقوال. قوله: ﴿حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ هذا غاية النهي عن قربان الصلاة في حال السكر، أي: حتى يزول عنكم أثر السكر، وتعلموا ما تقولونه، فإن السكران لا يعلم ما يقوله، وقد تمسك بهذا من قال: إن طلاق السكران لا يقع؛ لأنه إذا لم يعلم ما يقوله انتفى القصد. وبه قال عثمان بن عفان، وابن عباس، وطاوس، وعطاء، والقاسم، وربيعة، وهو قول الليث بن سعد، وإسحاق، وأبي ثور، والمزني. واختاره الطحاوي، وقال: أجمع العلماء على أن طلاق المعتوه لا يجوز، والسكران معتوه كالמושوس. وأجازت طائفة، وقوع طلاقه، وهو محكي عن عمر بن الخطاب، ومعاوية، وجماعة من التابعين، وهو: قول أبي حنيفة، والثوري، والأوزاعي. واختلف قول الشافعي في ذلك. وقال مالك: يلزمه الطلاق، والقود في الجراح، والقتل، ولا يلزمه النكاح، والبيع. قوله: ﴿وَلَا جُنْبًا﴾ عطف على محل الجملة الحالية، وهي قوله: ﴿وَأَنْتُمْ سَكَارَى﴾ والجنب لا يؤثّر، ولا يثني، ولا يجمع؛ لأنه ملحق بالمصدر كالبعد، والقرب. قال الفراء: يقال جنب الرجل، وأجنب من الجنابة، وقيل: يجمع الجنب في لغة على أجنب، مثل عنق، وأعناق،

وطنب، وأطناب. وقوله: ﴿إِلَّا عَابِرِ سَبِيلٍ﴾ استثناء مفرغ، أي: لا تقربوها في حال من الأحوال إلا في حال عبور السبيل. والمراد به هنا: السفر، ويكون محل هذا الاستثناء المفرغ النصب على الحال من ضمير لا تقربوا بعد تقييده بالحال الثانية، وهي قوله: ﴿وَلَا جُنْبًا﴾ لا بالحال الأولى، وهي قوله: ﴿وَأَنْتُمْ سَكَارَى﴾ فيصير المعنى: لا تقربوا الصلاة حال كونكم جنباً إلا حال السفر، فإنه يجوز لكم أن تصلوا بالتيمم، وهذا قول علي، وابن عباس، وابن جبير، ومجاهد، والحكم، وغيرهم، قالوا: لا يصح لأحد أن يقرب الصلاة، وهو جنب إلا بعد الاغتسال إلا المسافر، فإنه يتيمم؛ لأن الماء قد يعدم في السفر لا في الحضر، فإن الغالب أنه لا يعدم. وقال ابن مسعود، وعكرمة، والنخعي، وعمرو بن دينار، ومالك، والشافعي: عابر السبيل هو: المجتاز في المسجد، وهو مروى عن ابن عباس، فيكون معنى الآية على هذا لا تقربوا مواضع الصلاة، وهي: المساجد في حال الجنابة إلا أن تكونوا مجتازين فيها من جانب إلى جانب، وفي القول الأول قوة من جهة كون الصلاة فيه باقية على معناها الحقيقي، وضعف من جهة ما في حمل عابر السبيل على المسافر، وإن معناه: أنه يقرب الصلاة عند عدم الماء بالتيمم، فإن هذا الحكم يكون في الحاضر إذا عدم الماء، كما يكون في المسافر، وفي القول الثاني قوة من جهة عدم التكلف في معنى قوله: ﴿إِلَّا عَابِرِ سَبِيلٍ﴾ وضعف من جهة حمل الصلاة على مواضعها، وبالجملة، فالحال الأولى، أعني قوله: ﴿وَأَنْتُمْ سَكَارَى﴾ تقوّي بقاء الصلاة على معناها الحقيقي من دون تقدير مضاف، وكذلك ما سيأتي من سبب نزول الآية يقوّي ذلك. وقوله: ﴿إِلَّا عَابِرِ سَبِيلٍ﴾ يقوّي تقدير المضاف، أي: لا تقربوا مواضع الصلاة. ويمكن أن يقال: إن بعض قيود النهي أعني: «لا تقربوا» وهو قوله: ﴿وَأَنْتُمْ سَكَارَى﴾ يدل على أن المراد بالصلاة: معناها الحقيقي، وبعض قيود النهي وهو قوله: ﴿إِلَّا عَابِرِ سَبِيلٍ﴾ يدل على أن المراد: مواضع الصلاة، ولا مانع من اعتبار كل واحد منهما مع قيده الدال عليه، ويكون ذلك بمنزلة نهيين مقيد كل واحد منهما بقيد، وهما لا تقربوا الصلاة التي هي ذات الإنكار، والاركان، وأنتم سكارى، ولا تقربوا مواضع الصلاة حال كونكم جنباً إلا حال عبوركم في المسجد من جانب إلى جانب، وغاية ما يقال في هذا أنه من الجمع بين الحقيقة، والمجاز، وهو جائز بتأويل مشهور. وقال ابن جرير بعد حكاية للقولين: والأولى قول من قال: ﴿وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَابِرِ سَبِيلٍ﴾ إلا مجتازي طريق فيه، وذلك أنه قد بين حكم المسافر إذا عدم الماء، وهو جنب في قوله: ﴿وَأَنْتُمْ سَكَارَى﴾ وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً، فكان معلوماً بذلك، أي: أن قوله: ﴿وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَابِرِ سَبِيلٍ﴾ حتى تغتسلوا، لو كان معنياً به المسافر لم يكن لإعادة نكره في قوله: ﴿وَأَنْتُمْ سَكَارَى﴾

الاحاديث الصحيحة تدفعه، وتبطله، كحديث عمار، وعمران بن حصين، وأبي نر في تيمم الجنب. وقالت طائفة: هو الجماع كما في قوله: ﴿ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن﴾ [الأحزاب: 49]، وقوله: ﴿وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن﴾ [البقرة: 237] وهو مروى عن علي، وأبي بن كعب، وابن عباس، ومجاهد، وطاوس، والحسن، وعبيد بن عمير، وسعيد بن جبير، والشعبي، وقتادة، ومقاتل بن حبان، وأبي حنيفة. وقال مالك: الملامس بالجماع يتيمم، واللامس باليد يتيمم إذا التذّ، فإن لمسه بغير شهوة، فلا وضوء، وبه قال أحمد، وإسحاق. وقال الشافعي: إذا أقضى الرجل بشيء من بدنه إلى بدن المرأة سواء كان باليد، أو غيرها من أعضاء الجسد انتقضت به الطهارة، وإلا فلا. وحكاه القرطبي عن ابن مسعود، وابن عمر، والزهري، وربيعه. وقال الأوزاعي: إذا كان للمس باليد نقض الطهر، وإن كان بغير اليد لم ينقض لقوله تعالى - فلمسوه بأيديهم - وقد احتجوا بحجج تزعم كل طائفة أن حجتها تدل على أن الملامسة المنكورة في الآية هي ما ذهب إليه، وليس الأمر كذلك. فقد اختلفت الصحابة، ومن بعدهم في معنى الملامسة المنكورة في الآية، وعلى فرض أنها ظاهرة في الجماع، فقد ثبتت القراءة المروية عن حمزة، والكسائي بلفظ: «أو لمستم»، وهي محتملة بلا شك، ولا شبهة، ومع الاحتمال، فلا تقوم الحجة بالمحتمل. وهذا الحكم تعم به البلوى، ويثبت به التكليف العام، فلا يحل إثباته بمحتمل قد، وقد وقع النزاع في مفهومه. وإذا عرفت هذا، فقد ثبتت السنة الصحيحة بوجوب التيمم على من اجتنب، ولم يجد الماء، فكان الجنب داخلًا في الآية بهذا الليل، وعلى فرض عدم دخوله فالسنة تكفي في ذلك. وأما وجوب الوضوء، أو التيمم على من لمس المرأة بيده، أو بشيء من بدنه، فلا يصح القول به استدلالاً بهذه الآية لما عرفت من الاحتمال. وأما ما استدلوا به من أنه ﷺ أتاه رجل، فقال: يا رسول الله ما تقول في رجل لقي امرأة لا يعرفها؟ وليس يأتي الرجل من امرأته شيئاً إلا قد أتاه منها غير أنه لم يجامعها فأنزل الله: ﴿أقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين﴾ [هود: 114]. أخرجه أحمد، والترمذي، والنسائي من حديث معاذ، قالوا: فأمره بالوضوء؛ لأنه لمس المرأة، ولم يجامعها، ولا يخفك أنه لا دالة بهذا الحديث على محل النزاع، فإن النبي ﷺ إنما أمره بالوضوء لياتي بالصلاة التي نكرها الله سبحانه في هذه الآية، إذ لا صلاة إلا بوضوء. وأيضاً فالحديث منقطع؛ لأنه من رواية ابن أبي ليلى عن معاذ، ولم يلقه، وإذا عرفت هذا، فالأصل البراءة عن هذا الحكم، فلا يثبت إلا ببليغ خالص عن الشوائب الموجبة لقصوره عن الحجة. وأيضاً قد ثبت عن عائشة من طرق أنها قالت: «كان النبي ﷺ يتوضأ، ثم يقبل، ثم يصلي، ولا يتوضأ». وقد روي هذا الحديث بالفاظ مختلفة، رواه أحمد، وابن أبي شيبة، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وما قيل

مرضى أو على سفر، معنى مفهوم. وقد مضى ذكر حكمه قبل ذلك، فإذا كان ذلك كذلك، فتأويل الآية: يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا المساجد للصلاة مصلين فيها، وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون، ولا تقربوها أيضاً جنباً حتى تغتسلوا إلا عابري سبيل. قال: والعابر السبيل المجتاز مرأً، وقطعاً، يقال منه: عبرت هذا الطريق، فأنا أعبره عبراً، وعبوراً، ومنه قيل: عبر فلان النهر إذا قطعه، وجاوزه، ومنه قيل للناقاة القوية: هي عبر أسفار لقوتها على قطع الأسفار. قال ابن كثير: وهذا الذي نصره يعني ابن جرير هو قول الجمهور، وهو الظاهر من الآية. انتهى. قوله: ﴿حتى تغتسلوا﴾ غاية للنهي عن قربان الصلاة، أو مواضعها حال الجنابة. والمعنى: لا تقربوها حال الجنابة حتى تغتسلوا إلا حال عبورك للسبيل. قوله: ﴿وإن كنتم مرضى﴾ المرض عبارة عن خروج البدن عن حد الاعتدال، والاعتياذ إلى الاعوجاج، والشنوء، وهو على ضربين كثير، ويسير. والمراد هنا: أن يخاف على نفسه التلف، أو الضرر باستعمال الماء، أو كان ضعيفاً في بدنه لا يقدر على الوصول إلى موضع الماء. وروي عن الحسن أنه يتطهر، وإن مات، وهذا باطل يدفعه قوله تعالى: ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ [الحج: 78]. وقوله: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾ [النساء: 29] وقوله: ﴿يريد الله بكم اليسر﴾ [البقرة: 185] قوله: ﴿أو على سفر﴾ فيه جواز التيمم لمن صنف عليه اسم المسافر، والخلاف مبسوط في كتب الفقه، وقد ذهب الجمهور إلى أنه لا يشترط أن يكون سفر قصر، وقال قوم: لا بد من ذلك. وقد أجمع العلماء على جواز التيمم للمسافر. واختلفوا في الحاضر، فذهب مالك، وأصحابه، وأبو حنيفة، ومحمد إلى أنه يجوز في الحاضر، والسفر. وقال الشافعي: لا يجوز للحاضر الصحيح أن يتيمم إلا أن يخاف التلف. قوله: ﴿أو جاء أحد منكم من الغائط﴾ هو المكان المنخفض، والمجيء منه كناية عن الحدث، والجمع الغيطان، والأغواط، وكانت العرب تقصد هذا الصنف من المواضع لقضاء الحاجة تستراً عن أعين الناس، ثم سمي الحدث الخارج من الإنسان غائطاً توسعاً، ويدخل في الغائط جميع الأحداث الناقضة للوضوء. قوله: ﴿أو لمستم للنساء﴾ قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: «ولمستم» وقرأ حمزة، والكسائي: «لمستم» قيل المراد بها: بما في القراءتين الجماع، وقيل: المراد به: مطلق المباشرة، وقيل: إنه يجمع الأمرين جميعاً. وقال محمد بن يزيد المبرد: الأولى في اللفظ أن يكون: «ولمستم» بمعنى قبلتم، ونحوه، و«لمستم» بمعنى غشيتهم.

واختلف العلماء في معنى ذلك على أقوال، فقالت فرقة: الملامسة هنا مختصة باليد دون الجماع، قالوا: والجنب لا سبيل له إلى التيمم بل يغتسل، أو يدع الصلاة حتى يجد الماء. وقد روي هذا عن عمر بن الخطاب، وابن مسعود. قال ابن عبد البر: لم يقل بقولهما في هذه المسئلة أحد من فقهاء الأمصار من أهل الرأي، وحملة الآثار. انتهى. وأيضاً

الضرب في الأرض مظنة لإعواز الماء في بعض البقاع دون بعض. قوله: ﴿فَتَيْمَمُوا﴾ التيمم لغة: القصد، يقال: تيممت الشيء: قصدته، وتيممت الصعيد: تعمدته، وتيممته بسهمي، ورمحي: قصدته دون من سواه، وأنشد الخليل:

يممته الرمح شزراً ثم قلت له هذي البسالة لألعب الزحاليق
وقال امرؤ القيس:

تيممتمنا من أترعات وأهلها بيثرب أننى دارها نظر عالي
وقال:

تيممت العين التي عند ضارج يفى عليها الظل عرمضا ظامي
قال ابن السكيت: قوله: ﴿فَتَيْمَمُوا﴾ أي: اقصدوا، ثم كثر استعمال هذه الكلمة حتى صار التيمم مسح الوجه واليدين بالتراب. وقال ابن الأنباري في قولهم قد تيمم الرجل: معناه قد مسح التراب على وجهه، وهذا خلط منهما للمعنى اللغوي بالمعنى الشرعي، فإن العرب لا تعرف التيمم بمعنى مسح الوجه واليدين، وإنما هو معنى شرعي فقط، وظاهر الأمر الوجوب، وهو مجمع على ذلك. والأحاديث في هذا الباب كثيرة، وتفاصيل التيمم، وصفاته مبنية في السنة المطهرة، ومقالات أهل العلم مؤونة في كتب الفقه، قوله: ﴿صعيداً﴾ الصعيد: وجه الأرض سواء كان عليه تراب، أو لم يكن، قاله الخليل، وابن الأعرابي، والزجاج. قال الزجاج: لا أعلم فيه خلافاً بين أهل اللغة، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً﴾ [الكهف: 8] أي: أرضاً غليظة لا تنبت شيئاً، وقال تعالى: ﴿فَتَصْبِحُ صَعِيداً زَلَقاً﴾ [الكهف: 40] وقال: ذو الرمة:

كانه بالضحى يرمي الصعيد به ونابه في عظام الرأس خرطوم
وإنما سمي صعيداً؛ لأنه نهاية ما يصعد إليه من الأرض، وجمع الصعيد صعدات.

وقد اختلف أهل العلم فيما يجزئ التيمم به، فقال مالك، وأبو حنيفة، والثوري، والطبري: إنه يجزئ بوجه الأرض كله تراباً كان، أو رملاً، أو حجارة، وحملوا قوله: ﴿طَبِيباً﴾ على الطاهر الذي ليس بنجس، وقال الشافعي، وأحمد، وأصحابهما: إنه لا يجزئ التيمم إلا بالتراب، فقط، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿صَعِيداً زَلَقاً﴾ [الكهف: 40] أي: تراباً أملس طيباً، وكذلك استدلوا بقوله: ﴿طَبِيباً﴾ قالوا: والطيب التراب الذي نبت. وقد تنوزع في معنى الطيب، فقيل: الطاهر كما تقدم، وقيل: المنبت كما هنا، وقيل: الحلال. والمحتمل لا تقوم به حجة، ولو لم يوجد في الشيء الذي يتيمم به إلا ما في الكتاب العزيز، لكان الحق ما قاله الأولون، لكن ثبت في صحيح مسلم من حديث حنيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ: «فضلنا الناس بثلاث: جعلت صفوفاً، كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً، وجعلت تربتها لنا طهوراً إذا لم نجد الماء، وفي لفظ «وجعل ترابها لنا طهوراً» فهذا مبين لمعنى الصعيد المذكور في الآية، أو مخصص لعمومه، أو مقيد لإطلاقه، ويؤيد هذا ما حكاه ابن فارس عن كتاب الخليل: تيمم بالصعيد، أي: أخذ من غباره. انتهى، والحجر الصلد لا غبار له. قوله: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ

من أنه من رواية حبيب بن أبي ثابت، عن عروة، عن عائشة، ولم يسمع من عروة، فقد رواه أحمد في مسنده من حديث هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، ورواه ابن جرير من حديث ليث، عن عطاء، عن عائشة، ورواه أحمد أيضاً، وأبو داود، والنسائي من حديث أبي روق الهمداني، عن إبراهيم التيمي، عن عائشة، ورواه أيضاً ابن جرير من حديث أم سلمة، ورواه أيضاً من حديث زينب السهمية. ولفظ حديث أم سلمة: «أن رسول الله ﷺ كان يقبلها، وهو صائم، ولا يفطر، ولا يحدث وضوءاً». ولفظ حديث زينب السهمية: «أن النبي ﷺ كان يقبل، ثم يصلي، ولا يتوضأ». ورواه أحمد، عن زينب السهمية، عن عائشة. قوله: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾ هذا القيد إن كان راجعاً إلى جميع ما تقدم مما هو منكر بعد الشرط، وهو المرض، والسفر، والمجيء من الغائط، وملامسة النساء كان فيه دليل على أن المرض، والسفر بمجردهما لا يسوغان التيمم، بل لا بد مع وجود أحد السببين من عدم الماء، فلا يجوز للمريض أن يتيمم إلا إذا لم يجد ماء، ولا يجوز للمسافر أن يتيمم إلا إذا لم يجد ماء، ولكنه يشكل على هذا أن الصحيح، كالمرضى إذا لم يجد الماء تيمم، وكذلك المقيم، كالسافر إذا لم يجد الماء تيمم، فلا بد من فائدة في التنصيص على المرض والسفر؛ فقل وجه التنصيص عليهما أن المرض مظنة للعجز عن الوصول إلى الماء، وكذلك المسافر عدم الماء في حقه غالب، وإن كان راجعاً إلى الصورتين الأخيرتين: أعني قوله: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدُ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسَ الْمَرْءُ الْمَرْءَةَ﴾ كما قال بعض المفسرين كان فيه إشكال، وهو أن من صلق عليه اسم المريض، أو المسافر جاز له التيمم، وإن كان واجداً للماء قادراً على استعماله، وقد قيل: إنه رجع هذا القيد إلى الآخرين مع كونه معتبراً في الأولين لندرة وقوعه فيهما. وأنت خبير بأن هذا كلام ساقط، وتوجيه بارد. وقال مالك، ومن تابعه: نكر الله المرض، والسفر في شرط التيمم اعتباراً بالأغلب في من لم يجد الماء بخلاف الحاضر، فإن الغالب وجوده، فلذلك لم ينص الله سبحانه عليه. انتهى. والظاهر أن المرض بمجرد مسوغ للتيمم، وإن كان الماء موجوداً إذا كان يتضرر باستعماله في الحال، أو في المال، ولا تعتبر خشية التلف، فالحق سبحانه يقول: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ﴾ [البقرة: 185] ويقول: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: 78]، والنبي ﷺ يقول: «الدِّينُ يَسْرُ» ويقول: «يسروا ولا تعسروا» وقال: «قتلوه قتلهم الله» ويقول: «أمرت بالشرعة السمحة» فإذا قلنا: إن قيد عدم وجود الماء راجع إلى الجميع كان وجه التنصيص على المرض هو أنه يجوز له التيمم، والماء حاضر موجود إذا كان استعماله يضره، فيكون اعتبار ذلك القيد في حقه إذا كان استعماله لا يضره، فإن في مجرد المرض مع عدم الضرر باستعمال الماء ما يكون مظنة لعجزه عن الطلب، لأنه يلحقه بالمرض نوع ضعف. وأما وجه التنصيص على المسافر، فلا شك أن

وأيديكم ﴿ هذا المسح مطلق يتناول المسح بضربة، أو ضربتين، ويتناول المسح إلى المرفقين، أو إلى الرسغين، وقد بينته السنة بياناً شافياً، وقد جمعنا بين ما ورد في المسح بضربة، وبضربتين، وما ورد في المسح إلى الرسغ، وإلى المرفقين في شرحنا للمتقى، وغيره من مؤلفاتنا بما لا يحتاج الناظر فيه إلى غيره. قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوَاً غَفُوراً﴾ أي: عفا عنكم، وغفر لكم تقصيركم، ورحمكم بالتريخيص لكم، والتوسعة عليكم.

وقد أخرج عبد بن حميد، وأبو داود، والترمذي وحسنه، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والضياء في المختارة، عن علي بن أبي طالب قال: صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاماً، فدعانا وسقانا من الخمر، فآخذت الخمر منا، وحضرت الصلاة، فقدموني، فقرأت: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون: 1 - 2] ونحن نعبد ما تعبُدون، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه: أن الذي صلى بهم عبد الرحمن. وأخرج ابن المنذر، عن عكرمة في الآية قال: نزلت في أبي بكر، وعمر، وعلي، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد، صنع لهم علي طعاماً، وشراباً، فأكلوا، وشربوا، ثم صلى بهم المغرب، فقرأ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ حتى ختمها، فقال: ليس لي دين، وليس لكم دين، فنزلت. وأخرج عبد بن حميد، وأبو داود، والنسائي، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس قال: هذه الآية قال: نسختها: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾ [المائدة: 90] الآية. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن الضحاک في الآية قال: لم يعن بها الخمر إنما عني بها سكر النوم. وأخرج عبد بن حميد، عن ابن عباس: ﴿وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ قال: النعاس. وأخرج القرطبي، وابن أبي شيبه في المصنف، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن علي. قوله: ﴿وَلَا جُنُباً إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ قال: نزلت في المسافرين تصيبه الجنابة، فيتيمم ويصلي. وفي لفظ قال: لا يقرب الصلاة إلا أن يكون مسافراً تصيبه الجنابة، فلا يجد الماء، فيتيمم، ويصلي حتى يجد الماء. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن ابن عباس في الآية يقول: لا تقربوا الصلاة، وأنتم جنب إذا، وجدتم الماء، فإن لم تجبوا الماء، فقد أحلت أن تمسحوا بالأرض. وأخرج عبد بن حميد، عن مجاهد قال: لا يَمُرُّ الجنب، ولا الحائض في المسجد، إنما أنزلت: ﴿وَلَا جُنُباً إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ للمسافر يتييم، ثم يصلي. وأخرج الدارقطني، والطبراني، وأبو نعيم في المعرفة، وابن مروي، والبيهقي في سننه، والضياء في المختارة عن الأسلم بن شريك قال: كنت أرحل ناقة رسول الله ﷺ، فأصابني جنابة في ليلة باردة، وأراد رسول الله ﷺ الرحلة، فكرهت أن أرحل ناقة، وأنا جنب، وخشيت أن أغتسل بالماء البارد، فأموت، أو أمرض، فأمرت

رجلاً من الأنصار، فرحله، ثم رصفت أحجاراً فأسخنت بها ماء فاغتسلت، ثم لحقت رسول الله ﷺ وأصحابه، فقال: يا أسلم، ما لي أرى راحلتك تغيرت؟ قلت: يا رسول الله لم أرحلها، رحلها رجل من الأنصار، قال: ولم؟ قلت: إني أصابتنى جنابة، فخشيت القر على نفسي، فأمرت أن يرحلها، ورصفت أحجاراً، فأسخنت بها ماء، فاغتسلت به، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا جُنُباً إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾. وأخرج ابن سعد، وعبد بن حميد، وابن جرير، والطبراني، والبيهقي من وجه آخر عن أسلم قال: «كنت أخدم النبي ﷺ وأرحل له، فقال لي ذات ليلة: يا أسلم قم، فأرحل لي، قلت: يا رسول الله أصابتنى جنابة، فسكت عني ساعة حتى جاء جبريل بآية الصعيد، فقال: قم يا أسلم فتييم، الحديث. وأخرج ابن أبي حاتم من طريق عطاء الخراساني عن ابن عباس: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ﴾ قال: المساجد. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي من طريق عطاء الخراساني عنه: ﴿وَلَا جُنُباً إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ قال: لا تدخلوا المسجد، وأنتم جنب إلا عابري سبيل، قال: تمر به مرأً، ولا تجلس. وأخرج ابن جرير، عن ابن مسعود، نحوه. وأخرج عبد الرزاق، والبيهقي في سننه عنه أنه كان يرخص للجنب أن يمر في المسجد، ولا يجلس فيه، ثم قرأ قوله: ﴿وَلَا جُنُباً إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾. وأخرج البيهقي، عن أنس نحوه. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبه، وابن جرير، والبيهقي، عن جابر قال: كان أحدنا يمر في المسجد، وهو جنب مجتازاً. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿وَأَنْ كُنْتُمْ مَرْضَى﴾ قال: نزلت في رجل من الأنصار كان مريضاً، فلم يستطع أن يقوم، فيتوضأ، ولم يكن له خادم فينأوله، فأتى رسول الله ﷺ، فنكر ذلك له، فأنزل الله هذه الآية. وأخرج ابن شيبه، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَنْ كُنْتُمْ مَرْضَى﴾ قال: هو الرجل المجنود أو به الجراح، أو القرح يجنب، فيخاف أن اغتسل أن يموت، فيتيمم. وأخرج ابن جرير، عن إبراهيم النخعي قال: نال أصحاب رسول الله ﷺ جراح ففشت فيهم، ثم ابتلوا بالجنابة، فشكوا ذلك إلى النبي ﷺ، فنزلت: ﴿وَأَنْ كُنْتُمْ مَرْضَى﴾ الآية. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم، والبيهقي من طرق عن ابن مسعود في قوله: ﴿وَأَوْ لَمْ تَمْسُكُمُ النِّسَاءَ﴾ قال: للمس ما دون الجماع، والقبلة منه، وفيه الوضوء. وأخرج ابن أبي شيبه، وابن جرير، عن ابن عمر أنه كان يتوضأ من قبل المرأة، ويقول هي: اللامس. وأخرج الدارقطني، والبيهقي، والحاكم عن عمر قال: إن القبلة من اللامس، فتوضأ منها. وأخرج ابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن علي قال: اللامس هو الجماع، ولكن الله كنى عنه. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبه، وعبد بن حميد،

من يحرفون الكلم كقوله: ﴿وما منا إلا له مقام معلوم﴾ [الصافات: 164] أي: من له، ومنه قول ذي الرمة:

نظفلوا ومنهم بمعناه سابق له

أي: من بمعناه، وأنكره الميرد، والزجاج؛ لأن حذف الموصول، كحذف بعض الكلمة؛ وقيل إن قوله: ﴿من الذين هادوا﴾ بيان لقوله: ﴿الذين أوتوا نصيباً من الكتاب﴾. والتحريف: الإمالة والإزالة، أي: يميلونه، ويزيلونه، عن مواضعه، ويجعلون مكانه غيره، أو المراد: أنهم يتأولونه على غير تأويله، ونمهم الله عز وجل بذلك، لأنهم يفعلونه عناداً وبغياً، وتأثيراً لغرض الدنيا. قوله: ﴿ويقولون سمعنا وعصينا﴾ أي: سمعنا قولك، وعصينا أمرك ﴿واسمع غير مسمع﴾ أي: اسمع حال كونك غير مسمع. وهو يحتمل أن يكون دعاء على النبي ﷺ، والمعنى: اسمع لا سمعت، ويحتمل أن يكون المعنى: اسمع غير مسمع مكروهاً، أو اسمع غير مسمع جواباً. وقد تقدم الكلام في راعنا. ومعنى: ﴿عليها بالسنتهم﴾ أنهم يلونونها على الحق، أي: يميلونها إلى ما في قلوبهم، وأصل اللي: الفتل، وهو منتصب على المصدر، ويجوز أن يكون مفعولاً لأجله. قوله: ﴿وطعنا في الدين﴾ معطوف على ليا، أي: يطعنون في الدين بقولهم: لو كان نبياً لعلم أنا نسبه، فاطلع الله سبحانه نبيه ﷺ على ذلك: ﴿ولو أنهم قالوا سمعنا﴾ قولك: ﴿واطعنا﴾ أمرك: ﴿واسمع﴾ ما نقول: ﴿وانظرونا﴾ أي: لو قالوا هذا مكان قولهم راعنا ﴿لكان خيراً لهم﴾ مما قالوه: ﴿واقوم﴾ أي: أعدل، وأولى من قولهم الأول، وهو قولهم: ﴿سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا﴾ لما في هذا من المخالفة، وسوء الأدب، واحتمال الذم في راعنا: ﴿ولكن﴾ لم يسلكوا المسلك الحسن، وياتوا بما هو خير لهم، وأقوم، ولهذا: ﴿لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً﴾ أي: إلا إيماناً قليلاً، وهو الإيمان ببعض الكتب دون بعض، وبعض الرسل دون بعض. قوله: ﴿يا أيها الذين أوتوا الكتاب﴾ نكر سبحانه أولاً أنهم أوتوا نصيباً من الكتاب، وهنا نكر أنهم أوتوا الكتاب. والمراد: أنهم أوتوا نصيباً منه؛ لأنهم لم يعملوا بجميع ما فيه، بل حرفوا وبكروا. وقوله: ﴿مصدقاً﴾ منتصب على الحال. والطمس: استئصال أثر الشيء، ومنه: ﴿وإننا لنجوم طمست﴾ [المرسلات: 8] يقال: طمس بكسر الميم وضماً لغتان في المستقبل، ويقال: طمس الأثر أي: محاه كله، ومنه: ﴿ربنا اطمس على أموالهم﴾ [يونس: 88] أي: أهلكها، ويقال: هو مطموس البصر، ومنه: ﴿ولو نشاء لطمسنا على أعينهم﴾ [يس: 66] أي: أعيناهم.

واختلف العلماء في المعنى المراد بهذه الآية هل هو حقيقة؟ فيجعل الوجه كالحق، فيذهب بالانف، والفم، والحاجب، والعين، أو ذلك عبارة عن الضلالة في قلوبهم، وسلبهم التوفيق؟ فذهب إلى الأول طائفة، وذهب إلى الآخر آخرون، وعلى الأول، فالمراد بقوله: ﴿ففردها على أبارها﴾ نجعلها قفا، أي: نذهب بآثار الوجه، وتخطيطه

وابن جرير، وابن المنذر، عن سعيد بن جبير قال: كنا في حجرة ابن عباس، ومعنا عطاء بن أبي رباح، ونفر من الموالي، وعبيد بن عمير، ونفر من العرب، فتذاكرنا للمس، فقلت أنا وعطاء، والموالي: للمس باليد، وقال عبيد بن عمير، والعرب: هو الجماع، فدخلت على ابن عباس، فأخبرته فقال: غلبت الموالي، وأصابته العرب، ثم قال: إن للمس والمس، والمباشرة إلى الجماع ما هو، ولكن الله يكتن ما شاء بما شاء. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال: إن أطيب الصعيد أرض الحرث.

أَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْكُرُونَ الْفَلَاحَ وَيُرِيدُونَ أَن يُضِلُّوا السَّبِيلَ ۖ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَابِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ۚ وَلَكِن يَأْتِيهِمْ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ عَنْ مَّوَاضِيَةٍ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مَسْمُوعٍ وَرَدِّعْنَا لِيَآمِنُنَّهِمْ وَطَعْنَا فِي الَّذِينَ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَانْظُرْ لَكَآ خَيْرًا لَّهْم وَأَقْوَمُ وَلَكِن لَّمْ يَكُنْ لَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۚ يَأْتِيهِمُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن نَّلْطُوسَ وُجُوهًا فَرَدَدْنَا عَلَى أَدْبَارِهِمْ أَوْ نَلْتَمِسَهُمْ كَمَا لَمْنَا أَهْلَ صَبَ السَّبَبِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَعُولًا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَمُنُّرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَنْفِرُ مَا نَدُّ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ۚ

قوله: ﴿لم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب﴾ كلام مستأنف، والخطاب لكل من يتأتى منه الرؤية من المسلمين. والنصيب: الحظ، والمراد: اليهود أوتوا نصيباً من التوراة. وقوله: ﴿يشكرون﴾ جملة حالية، والمراد بالاشتراء: الاستبدال، وقد تقدم تحقيق معناه. والمعنى: أن اليهود استبدلوا الضلالة، وهي: البقاء على اليهودية بعد وضوح الحجة على صحة نبوة نبينا ﷺ. قوله: ﴿ويريدون أن تضلوا السبيل﴾ عطف على قوله: ﴿يشكرون﴾ مشارك له في بيان سوء صنيعهم، وضعف اختيارهم، أي: لم يكتفوا بما جنوه على أنفسهم من استبدال الضلالة بالهدى، بل أرادوا مع ضلالهم أن يتوصلوا بكتهم، وجحدهم إلى أن تضلوا أنتم أيها المؤمنون السبيل المستقيم الذي هو سبيل الحق: ﴿والله أعلم بأعدائكم﴾ أيها المؤمنون، وما يريدونه بكم من الإضلال، والجملة اعتراضية ﴿وكفى بالله ولياً﴾ لكم ﴿وكفى بالله نصيراً﴾ ينصركم في مواطن الحرب، فاكفوا بولايته، ونصره، ولا تتولوا غيره، ولا تستنصروه، والباء في قوله: ﴿يا الله﴾ في الموضعين زائدة. قوله: ﴿من الذين هادوا﴾ قال الزجاج: إن جعلت متعلقة بما قبل، فلا يوقف على قوله: ﴿نصيراً﴾ وإن جعلت منقطعة، فيجوز الوقف على نصير، والتقدير: من الذين هادوا قوم يحرفون، ثم حذف، وهذا مذهب سيوي، ومثله قول الشاعر:

لو قلت ما في قومها لم أئثم بفضلها في حسب وميسم قالوا: المعنى: لو قلت ما في قومها لحد بفضلها، ثم حذف. وقال الفراء: المحذوف لفظ من: أي من الذين هادوا

﴿واسمع غير مسمع﴾ قال: غير مقبول ما تقول: ﴿لينا بالسنتهم﴾ قال: خلافاً يلون به السنتهم ﴿واسمع وانظرونا﴾ قال: أقمنا لا تعجل علينا. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، عن ابن عباس في قوله: ﴿واسمع غير مسمع﴾ قال: يقولون اسمع لا سمعت. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس قال: كلم رسول الله ﷺ رؤساء من أحبار اليهود: منهم عبد الله بن صوريا، وكعب بن أسد، فقال لهم: يا معشر اليهود اتقوا الله، وأسلموا، فوالله إنكم لتعلمون أن الذي جئتمكم به لحق. فقالوا: ما نعرف ذلك يا محمد، وأنزل الله فيهم: ﴿يا أيها الذين أوتوا الكتاب﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، من طريق العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿من قبل أن نطمس وجوهاً﴾ قال: طمسها أن تعمي ﴿فقردها على أنبارها﴾ يقول: نجعل وجوههم من قبل أقبعتهم، فيمشون القهقري، ونجعل لأحدهم عينين في قفاه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿من قبل أن نطمس وجوهاً﴾ يقول: عن صراط الحق عبد الرزاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن الحسن نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني عن أبي أيوب الأنصاري قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: إن لي ابن أخ لا ينتهي، عن الحرام، قال: وما بينه؟ قال: يصلي ويوحد الله، قال: استوهب منه دينه، فإن أبي فابتعه منه، فطلب الرجل منه ذلك، فأبى عليه، فأتى النبي ﷺ، فأخبره، فقال: وجدته شحيحاً على دينه، فنزلت: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾ الآية. وأخرج ابن الضريس، وأبو يعلى، وابن المنذر، وابن عدي بسند صحيح، عن ابن عمر قال: كنا نمسك عن الاستغفار لأهل الكباثر حتى سمعنا من نبينا ﷺ: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾، وقال: إنني أنخرت دعوتي، وشفاعتي لأهل الكباثر من امتي، فامسكنا عن كثير مما كان في أنفسنا، وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عمر قال: لما نزلت: ﴿يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم﴾ [الزمر: 53] الآية قام رجل فقال: والشرك يا نبي الله؟ فكره ذلك النبي ﷺ، فقال: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾ الآية. وأخرج ابن المنذر، عن أبي مجلز أن سؤال هذا الرجل هو سبب نزول: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾. وأخرج أبو داود في ناسخه، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال في هذه الآية: إن الله حرّم المغفرة على من مات، وهو كافر، وأرجأ أهل التوحيد إلى مشيئته، فلم يؤيسهم من المغفرة. وأخرج الترمذي، وحسنه عن علي قال: أحب آية إلى في القرآن ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾ الآية.

﴿أَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ يَزْعُونَ أَنَّهُمْ إِلَى اللَّهِ شَكَّاءٌ وَلََّا يَكُونُونَ قُتِيلًا﴾
﴿أَنْظُرْ كَيْفَ يَتَذَكَّرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكِبْرَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ ﴿أَمْ تَرَى إِلَى

حتى يصير على هيئة القفا، وقيل: إنه بعد الطمس يردّها إلى موضع القفا، والقفا إلى مواضعها، وهذا هو الصق بالمعنى الذي يفيد قوله: ﴿فقردها على أنبارها﴾ فإن قيل: كيف جاز أن يهتد بهم بطمس الوجوه إن لم يؤمنوا، ولم يفعل ذلك بهم؟ فقيل: إنه لما آمن هؤلاء ومن اتبعهم رفع الوعيد عن الباقين. وقال المبرد: الوعيد باق منتظر وقال: لا بدّ من طمس في اليهود، ونسخ قبل يوم القيامة. قوله: ﴿أو نلعنهم﴾ كما لعنا أصحاب السبت. الضمير عائذ إلى أصحاب الوجوه، قيل المراد باللعن هنا: المسخ لأجل تشبيهه بلعن أصحاب السبت، وكان لعن أصحاب السبت مسخهم قردة، وخنازير، وقيل المراد: نفس اللعنة، وهم ملعونون بكل لسان. والمراد: وقوع أحد الأمرين: إما الطمس، أو اللعن. وقد وقع اللعن، ولكنه يقوّي الأوّل تشبيه هذا اللعن بلعن أهل السبت. قوله: ﴿وكان أمر الله مفعولاً﴾ أي: كائناً موجداً لا محالة، أو يراد بالأمر المأمور. والمعنى أنه متى أرادته كان، كقوله: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾ [يس: 82] قوله: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ هذا الحكم يشمل جميع طوائف الكفار من أهل الكتاب وغيرهم، ولا يختص بكفار أهل الحرب، لأن اليهود قالوا عزيز ابن الله، وقالت النصارى المسيح ابن الله، وقالوا ثالث ثلاثة. ولا خلاف بين المسلمين أن المشرك إذا مات على شركه لم يكن من أهل المغفرة التي تفضل الله بها على غير أهل الشرك حسبما تقتضيه مشيئته؛ وأما غير أهل الشرك من عصاة المسلمين، فدخلوا تحت المشيئة يغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء. قال ابن جرير: قد أبانت هذه الآية أن كل صاحب كبيرة في مشيئة الله عزّ وجلّ إن شاء عذبه، وإن شاء عفا عنه ما لم تكن كبيرته شركاً بالله عزّ وجلّ. وظاهره أن المغفرة منه سبحانه تكون لمن اقتضته مشيئته تفضلاً منه، ورحمة، وإن لم يقع من ذلك المنتب توبة، وقيد ذلك المعتزلة بالتوبة. وقد تقدّم قوله تعالى: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم﴾ [النساء: 31] وهي تدل على أن الله سبحانه يغفر سيئات من اجتنب الكبائر، فيكون مجتنب الكبائر ممن قد شاء الله غفران سيئاته.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس قال: كان رفاعة بن زيد بن التابوت من عظماء اليهود، وإذا كلم رسول الله ﷺ لوى لسانه، وقال: أرعنا سمعك يا محمد حتى نفهمك، ثم طعن في الإسلام، وعابه، فأنزل الله فيه: ﴿لَم تَر إِلَى الَّذِينَ أوتوا نصيباً من الكتاب﴾ الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه في قوله: ﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾ يعني: يحرفون حدود الله في التوراة، وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن مجاهد في قوله: ﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾ قال: تبديل اليهود التوراة ﴿ويقولون سمعنا وعصينا﴾ قالوا: سمعنا ما تقول، ولا نطيعك

السحر، والطاغوت الشيطان. وروي عن ابن مسعود أن الجبت، والطاغوت هاهنا كعب بن الأشرف. وقال قتادة: الجبت: الشيطان، والطاغوت: الكاهن، وروي عن مالك أن الطاغوت: ما عبد من دون الله، والجبت: الشيطان، وقيل: هما كل معبود من دون الله، أو مطاع في معصية الله. وأصل الجبت الجبس، وهو: الذي لا سير فيه، فابيلت التاء من السين قاله قطرب، وقيل: الجبت: إبليس، والطاغوت: أولياؤه. قوله: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ أي: يقول اليهود لكفار قريش أنتم أهدي من الذين آمنوا بمحمد سبيلاً أي: أقوم ديناً، وأرشد طريقاً. وقوله: ﴿أُولَئِكَ إِشَارَةٌ إِلَى الْقَائِلِينَ﴾ «الذين لعنهم الله» أي: طردهم، وأبعدهم من رحمته ﴿وَمَنْ يَلْعَنَ اللَّهُ فْلَنٌ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ يدفع عنه ما نزل به من عذاب الله، وسخطه. قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمَلَكِ﴾ أم منقطعة، والاستفهام للإنكار، يعني: ليس لهم نصيب من الملك ﴿فَإِنْ لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ والفاء للسببية الجزائية لشرط محذوف أي: إن جعل لهم نصيب من الملك، فإن لا يعطون الناس نقيراً منه لشدة بخلهم، وقوة حسدهم؛ وقيل: المعنى: بل لهم نصيب من الملك على أن معنى أم الإضراب عن الأول، والاستئناف للثاني، وقيل: هي: عاطفة على محذوف، والتقدير: أهم أولى بالنبوة ممن أرسلته، أم لهم نصيب من الملك، فإن لا يؤتون الناس نقيراً؟ والنقير: النقرة في ظهر النواة، وقيل: ما نقر الرجل بأصبعه، كما ينقر الأرض. والنقير أيضاً: خشبة تنقر، وينبذ فيها. وقد نهى النبي ﷺ عن النقير، كما ثبت في الصحيحين، وغيرهما، والنقير: الأصل، يقال: فلان كريم النقير أي: كريم الأصل. والمراد هنا: المعنى الأول، والمقصود به المبالغة في الحقارة، كالقطمير، والفتيل. وإن هنا ملغاة غير عاملة لدخول فاء العطف عليها، ولو نصب لجاز. قال سيبويه: إن في عوامل الأفعال بمنزلة أظن في عوامل الأسماء التي تلغى إذا لم يكن الكلام معتمداً عليها، فإن كانت في أول الكلام، وكان الذي بعدها مستقبلاً نصبت. قوله: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أم منقطعة مفيدة للانتقال عن توبيخهم بأمر إلى توبيخهم بآخر أي: بل يحسدون الناس يعني: اليهود يحسدون النبي ﷺ فقط، أو يحسدونه هو، وأصحابه على ما آتاهم الله من فضله من النبوة، والنصر، وقهر الأعداء. قوله: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ﴾ هذا إلزام لليهود بما يعترفون به، ولا ينكرونه أي: ليس ما آتينا محمداً، وأصحابه من فضلنا ببعد حتى يحسدوا اليهود على ذلك، فهم يعلمون بما آتينا آل إبراهيم، وهم أسلاف محمد ﷺ. وقد تقدم تفسير الكتاب، والحكمة، والملك العظيم، قيل: هو ملك سليمان، واختاره ابن جرير ﴿فَمِنْهُمْ﴾ أي: اليهود ﴿مَنْ آمَنَ بِهِ﴾ أي: بالنبي ﷺ ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ﴾ أي: أعرض عنه، وقيل: الضمير في به راجع إلى ما نكر من حديث آل إبراهيم، وقيل: الضمير راجع إلى إبراهيم.

أُولَئِكَ أُولُوا نَيْبًا مِّنَ الْكُتُبِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيُؤْتُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنَ اللَّهُ فَهُوَ لَمَّا نَعِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمْ يَكُنْ يَدْعُهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ فَكَذَلِكَ لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿١٨﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴿١٩﴾ فَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَهْتَمُّ سَبِيلًا ﴿٢٠﴾

قوله: ﴿أَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ تعجيب من حالهم. وقد اتفق المفسرون على أن المراد: اليهود. واختلفوا في المعنى الذي زكوا به أنفسهم، فقال الحسن، وقاتدة: هو قولهم: ﴿نحن أبناء الله وأحببوا﴾ [المائدة: 18] وقولهم: ﴿لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى﴾ [البقرة: 111] وقال الضحاک: هو قولهم لا نذوب لنا، ونحن كالأطفال، وقيل: قولهم: إن آباءهم يشفعون لهم، وقيل: ثناء بعضهم على بعض. ومعنى التزكية: التطهير، والتنزيه، فلا يبعد صدقها على جميع هذه التفاسير، وعلى غيرها، واللفظ يتناول كل من زكى نفسه بحق، أو بباطل من اليهود، وغيرهم، ويدخل في هذا التلقب بالألقاب المتضمنة للتزكية، كمحيي الدين، وعز الدين، ونحوهما. قوله: ﴿يَبِلُ اللَّهُ يَزْكِي مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: ذلك إليه سبحانه، فهو العالم بمن يستحق التزكية من عباده، ومن لا يستحقها، فليدع العباد تزكية أنفسهم، ويفوضوا أمر ذلك إلى الله سبحانه، فإن تزكيتهم لأنفسهم مجرد دعاوي فاسدة تحمل عليها محبة النفس، وطلب العلو، والترفع، والتفاخر، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَلَا تَزْكُوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: 32]. قوله: ﴿وَلَا تَظْلُمُونَ﴾ أي: هؤلاء المزكون لأنفسهم ﴿فَتِيلًا﴾ وهو: الخيط الذي في نواة التمر، وقيل: القشرة التي حول النواة؛ وقيل: هو ما يخرج بين أصبعيك، أو كفك من الوسخ إذا فتلتهما، فهو: فتيل بمعنى مفتول، والمراد هنا: الكناية عن الشيء الحقيق، ومثله: ﴿وَلَا يَظْلُمُونَ نَفِيرًا﴾ [النساء: 124] وهو: النكتة التي في ظهر النواة. والمعنى: أن هؤلاء الذين يزكون أنفسهم يعاقبون على تزكيتهم لأنفسهم بقدر هذا الذنب، ولا يظلمون بالزيادة على ما يستحقون، ويجوز أن يعود الضمير إلى ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: لا يظلم هؤلاء الذين يزكهم الله فتيلاً مما يستحقونه من الثواب، ثم عجب النبي ﷺ من تزكيتهم لأنفسهم، فقال: ﴿انظر كيف يفترون على الله للكتب﴾ في قولهم ذلك. والافتراء: الاختلاق، ومنه افترى فلان على فلان أي: رماه بما ليس فيه، وفريت الشيء: قطعته، وفي قوله: ﴿وَكُفِيَ بِهِ إِثْمًا مَبِينًا﴾ من تعظيم الذنب، وتهويله ما لا يخفى. قوله: ﴿أَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ هذا تعجيب من حالهم بعد التعجيب الأول، وهم: اليهود.

واختلف المفسرون في معنى الجبت: فقال ابن عباس، وابن جبير، وأبو العالية، الجبت: الساحر بلسان الحبشة، والطاغوت: الكاهن، وروي عن عمر بن الخطاب أن الجبت:

والمعنى: فمن آل إبراهيم من آمن بإبراهيم، ومنهم من صد عنه، وقيل: الضمير يرجع إلى الكتاب، والأول أولى **﴿وَكُفَىٰ بِهِمْ سَعِيرًا﴾** أي: نارا مسعرة.

وقد أخرج ابن جرير، من طريق العوفي، عن ابن عباس قال: إن اليهود قالوا: إن آبائنا قد توفوا، وهم لنا قرية عند الله، وسيشفعون لنا، ويزكوننا، فقال الله لمحمد **﴿إِلَهُم تَرَىٰ إِلَيْنِ الَّذِينَ يَزُكُّونَ أَنْفُسَهُمْ﴾**. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه قال: كانت اليهود يقدّمون صبيانهم يصلون بهم، ويقربون قربانهم، ويزعمون أنهم لا خطايا لهم، ولا نوب، وكذبوا، قال الله: إني لا أظهر ذا نيب بأخر لا نيب له، ثم أنزل الله: **﴿إِلَهُم تَرَىٰ إِلَيْنِ الَّذِينَ يَزُكُّونَ أَنْفُسَهُمْ﴾**. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن الحسن أن التزكية قولهم: **﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾** [المائدة: 18] وقالوا: **﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا، أَوْ نَصَارَى﴾** [البقرة: 111]. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: **﴿وَلَا يَظْلُمُونَ فِتْيَانًا﴾** قال: الفتيل: ما خرج من بين الأصبعين. وفي لفظ آخر عنه: هو أن تلك بين أصبعيك، فما خرج منهما، فهو ذلك. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، عنه قال: النقيير: النقرة تكون في اللواة التي نبتت منها النخلة. والفتيل: الذي يكون على شق اللواة. والقطمير: القشر الذي يكون على اللواة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه: قال الفتيل الذي في الشق الذي في بطن اللواة. وأخرج الطبراني، والبيهقي في الدلائل عنه قال: قدم حيي بن أخطب، وكعب بن الأشرف مكة على قريش، فخالفهم على قتال رسول الله **﴿ﷺ﴾**، وقالوا لهم: انتم أهل العلم القديم، وأهل الكتاب، فأخبرونا عنا، وعن محمد، قالوا: ما انتم وما محمد؟ قالوا: ننحر الكوماء، ونسقي اللبن على الماء، ونفك العناء، ونسقي الحبيج، ونصل الأرحام، قالوا: فما محمد؟ قالوا: صنبور أي: فرد ضعيف، قطع أرحامنا، وتبعه سراق الحبيج بنو غفار، فقلوا: لا بل أنتم خير منه، وأهدى سبيلاً، فأنزل الله: **﴿إِلَهُم تَرَىٰ إِلَيْنِ الَّذِينَ أَوْتَوْا الَّذِينَ لَوْتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾** الآية. وأخرجه سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن عكرمة مرسلًا. وقد روي عن ابن عباس، وعن عكرمة بلفظ آخر. وأخرج نحوه عبد بن حميد، وابن جرير، عن السدي، عن أبي مالك. وأخرج نحوه أيضاً البيهقي في الدلائل، وابن عساکر في تاريخه، عن جابر بن عبد الله. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، عن عكرمة قال: الجب، والطاغوت صنمان. وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن عمر في تفسير الجب، والطاغوت ما قُتِمَا عَنْهُ. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: الجب: حيي بن أخطب، والطاغوت كعب بن الأشرف. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: الجب: الأصنام، والطاغوت: الذي يكون بين يدي الأصنام يعبرون عنها

الكتب؛ ليضلوا الناس. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: الجب: اسم الشيطان بالحشبية، والطاغوت: كهان العرب. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: **﴿لَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ﴾** قال: فليس لهم نصيب، ولو كان لهم نصيب لم يؤتوا الناس نقيراً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طرق، عن ابن عباس قال النقيير: النقطة التي في ظهر اللواة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، من طريق العوفي، عن ابن عباس قال: قال أهل الكتاب: زعم محمد أنه أوتي ما أوتي في تواضع، وله تسع نسوة، وليس له همة إلا النكاح، فأي ملك أفضل من هذا؟ فأنزل الله هذه الآية: **﴿لَمْ يَحْسُدُوا النَّاسَ﴾** إلى قوله: **﴿مُلْكًا عَظِيمًا﴾** يعني: ملك سليمان. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن عكرمة قال: الناس في هذا الموضع النبي خاصة. وأخرج ابن جرير، عن قتادة قال: هم: هذا الحي من العرب.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَمْ يَمُوتْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَدُخِلُوهُمْ ظِلًّا عَظِيمًا ﴿٥٧﴾

قوله: **﴿بِآيَاتِنَا﴾** الظاهر عدم تخصيص بعض الآيات بكون بعض، و **﴿سَوْفَ﴾** كلمة تنكر للتهديد قاله سيبويه. وينوب عنها السين. وقد تقدّم معنى نصلي في أول السورة. والمراد: ندخلهم ناراً عظيمة. وقرأ حميد بن قيس **﴿نُصَلِّيهِمْ﴾** بفتح النون. قوله: **﴿كَلِمًا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ﴾** يقال: نضج الشيء نضجاً، ونضاجاً، ونضج اللحم وقلان نضج الراي، أي: محكمه. والمعنى: أنها كلما احترقت جلودهم بكلهم الله جلوداً غيرها أي: أعطاهم مكان كل جلد محترق جلداً آخر غير محترق، فإن ذلك أبلغ في العذاب للشخص؛ لأن إحساسه لعمل النار في الجلد الذي لم يحترق أبلغ من إحساسه لعملها في الجلد المحترق، وقيل: المراد بالجلود: السراويل التي نكروها في قوله: **﴿سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطْرَانٍ﴾** [إبراهيم: 50] ولا موجب لترك المعنى الحقيقي ما هنا، وإن جاز إطلاق الجلود على السراويل مجازاً، كما في قول الشاعر:

كسا اللوم تيماً خضرة في جلودها فويل لقيم من سراويلها الخضرة
وقيل: المعنى: أعدنا الجلد الأول جديداً، ويأبى ذلك معنى التبديل. قوله: **﴿لِيُدْخِلُوا الْعَذَابَ﴾** أي: ليحصل لهم الذوق الكامل بذلك التبديل، وقيل: معناه: ليؤم لهم العذاب، ولا ينقطع، ثم أتبع وصف حال الكفار بوصف حال المؤمنين. وقد تقدّم تفسير الجنات التي تجري من تحتها الأنهار. قوله: **﴿لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾** أي: من الأناس التي تكون في نساء الدنيا، والظل الظليل الكثيف الذي لا يدخله ما يدخل ظل الدنيا من الحر، والسوم، ونحو ذلك، وقيل: هو مجموع ظل الأشجار، والقصور، وقيل: للظل الظليل هو الدائم الذي لا يزول، واشتقاق الصفة من لفظ الموصوف للمبالغة، كما يقال: ليل الليل.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عمر في

عثمان بن طلحة لما قبض منه ﷺ مفتاح الكعبة، فدعاه، ونبهه إليه. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن أبي شيبة، عن علي قال: حق على الإمام أن يحكم بما أنزل الله، وأن يؤدي الأمانة، فإذا فعل ذلك، فحق على الناس أن يسمعوا له، وأن يطيعوا، وأن يجيبوا إذا دعوا. وأخرج أبو داود، والترمذي، والحاكم، والبيهقي عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «أد الأمانة لمن ائتمنك، ولا تخن من خانك»، وقد ثبت في الصحيح أن من خان إذا أؤتمن، ففيه خصلة من خصال النفاق.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آيِسُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا رَسُولَ اللَّهِ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾

لما أمر سبحانه القضاة، والولاة إذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالحق، أمر الناس بطاعتهم ها هنا، وطاعة الله عز وجل هي امتثال أوامره، ونواهيه، وطاعة رسوله ﷺ هي فيما أمر به، ونهى عنه. وأولي الأمر هم: الأئمة، والسلاطين، والقضاة، وكل من كانت له ولاية شرعية لا ولاية طاغوتية، والمراد: طاعتهم فيما يأمرون به، وينهون عنه ما لم تكن معصية، فلا طاعة لمخلوق في معصية الله، كما ثبت ذلك عن رسول الله ﷺ. وقال جابر بن عبد الله، ومجاهد: إن أولي الأمر، هم: أهل القرآن، والعلم، وبه قال مالك، والضحاك. وروي عن مجاهد أنهم أصحاب محمد ﷺ. وقال ابن كيسان: هم أهل العقل، والرأي، والراجح القول الأول. قوله: ﴿فَإِنْ تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ المنازعة المجادلة، والنزع: الجنب، كان كل واحد ينتزع حجة الآخر، ويجنبها، والمراد: الاختلاف، والمجادلة، وظاهر قوله: ﴿فِي شَيْءٍ﴾ يتناول أمور الدين، والدنيا، ولكنه لما قال: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ تبين به أن الشيء المتنازع فيه يختص بأمور الدين دون أمور الدنيا، والرّد إلى الله: هو الرّد إلى كتابه العزيز، والرّد إلى الرسول: هو الرّد إلى سنته المطهرة بعد موته، وأما في حياته، فالرّد إليه سؤاله، هذا معنى الرّد إليهما، وقيل: معنى الرّد أن يقولوا: الله أعلم، وهو قول ساقط، وتفسير بارد، وليس الرّد في هذه الآية إلا الرّد المذكور في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: 83] قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فيه دليل على أن هذا الرّد محتتم على المتنازعين، وإنه شأن من يؤمن بالله واليوم الآخر، والإشارة بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ إلى الرّد المأمور به ﴿خَيْرٌ﴾ لكم ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي: مرجعاً، من الأول آل يؤول إلى كذا، أي: صار إليه، والمعنى: أن ذلك الرّد لكم، وأحسن مرجعاً ترجعون إليه. ويجوز أن يكون المعنى أن الرّد لأحسن تأويلاً من تأويلكم الذي صرتم إليه عند التنازع.

وقد أخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن ابن عباس في قوله: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾

قوله: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ﴾ قال: إذا احترقت جلودهم بكنائهم جلوداً بيضاء أمثال القراطيس. وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني عنه بسند ضعيف قال: قرئ عند عمر: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ﴾ الآية، فقال معاذ: عندي تفسيرها تبدل في ساعة مائة مرة، فقال عمر: هكذا سمعت من رسول الله ﷺ. وأخرجه أبو نعيم في الحلية، وابن مروي عن القائل كعب، وأنه قال: تبدل في الساعة الواحدة عشرين ومائة مرة. وأخرج ابن أبي شيبة، عن ابن مسعود أن غلظ جلد الكافر اثنتان وأربعون نزعاً. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الربيع بن أنس في قوله: ﴿ظِلًّا ظِلِيلًا﴾ قال: هو ظل العرش الذي لا يزول.

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَيْهِنَّ وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَعْلَمُوا بِالْقَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نَبْأُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾

هذه الآية من أمهات الآيات المشتملة على كثير من أحكام الشرع؛ لأن الظاهر أن الخطاب يشمل جميع الناس في جميع الأمانات، وقد روي عن علي، وزيد بن أسلم، وشهر بن حوشب أنها خطاب لولاة المسلمين، والأول أظهر، وورودها على سبب، كما سيأتي لا ينافي ما فيها من العموم، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، كما تقرر في الأصول، وتدخل الولاة في هذا الخطاب دخولاً أولياً، فيجب عليهم تأدية ما لديهم من الأمانات، وردّ الظلمات، وتحري العدل في أحكامهم، ويحلّ غيرهم من الناس في الخطاب، فيجب عليهم ردّ ما لديهم من الأمانات، والتحري في الشهادات، والأخبار. وممن قال بعموم هذا الخطاب: البراء بن عازب، وابن مسعود، وابن عباس، وأبي بن كعب، واختاره جمهور المفسرين، ومنهم ابن جرير، وأجمعوا على أن الأمانات مربوطة إلى أربابها: الأبرار منهم، والفجار، كما قال ابن المنذر. والأمانات جمع أمانة، وهي: مصدر بمعنى المفعول. قوله: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ أي: وإن الله يأمركم إذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل. والعدل: هو فصل الحكومة على ما في كتاب الله سبحانه، وسنة رسوله ﷺ، لا الحكم بالرأي المجرد، فإن ذلك ليس من الحق في شيء إلا إذا لم يوجد دليل تلك الحكومة في كتاب الله، ولا في سنة رسوله، فلا بأس بجتهاد الرأي من الحاكم الذي يعلم بحكم الله سبحانه، وبما هو أقرب إلى الحق عند عدم وجود النص، وأما الحاكم الذي لا يدرى بحكم الله ورسوله، ولا بما هو أقرب إليهما، فهو لا يدرى ما هو العدل؛ لأنه لا يعقل الحجة إذا جاءت فضلاً عن أن يحكم بها بين عباد الله. قوله: ﴿نِعْمًا﴾ ما موصوفة، أو موصولة، وقد قمنا البحث في مثل ذلك.

وقد أخرج ابن مروي، عن ابن عباس أن النبي ﷺ لما فتح مكة، وقبض مفتاح الكعبة من عثمان بن طلحة، فنزل جبريل عليه السلام برّد المفتاح، فدعا النبي ﷺ عثمان بن طلحة، وردّه إليه، وقرأ هذه الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن عسكرو، عن ابن جريج: أن هذه الآية نزلت في

قال: نزلت في عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي إذ بعثه النبي ﷺ في سرية، وقصته معروفة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن عطاء في الآية قال: طاعة الله، والرسول اتباع الكتاب، والسنة ﴿وَأُولَى الْأَمْرِ﴾ قال: أولى الفقه، والعلم. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي هريرة، قال: ﴿وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ هم: الأمراء، وفي لفظ هم: أمراء السرايا. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والحكيم الترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، عن جابر بن عبد الله في قوله: ﴿وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ قال: أهل العلم. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد نحوه، وأخرج ابن شيبة، وابن جرير، عن أبي العالية نحوه أيضاً. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ قال: إلى كتاب الله، وسنة رسوله. ثم قرأ: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: 83]. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ميمون بن مهران في الآية قال: الرد إلى الله الرد إلى كتابه، والرد إلى رسوله ما دام حياً، فإذا قبض فإلى سنته. وأخرج ابن جرير، عن قتادة، والسدي مثله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة في قوله: ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ يقول: ذلك أحسن ثواباً، وخير عاقبة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ قال: وأحسن جزاء. وقد وردت لحديث كثيرة في طاعة الأمراء ثابتة في الصحيحين، وغيرهما مقيدة بأن يكون ذلك في المعروف، وأنه لا طاعة في معصية الله.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ رَفَضُوا عَنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَمَكَّمُوا إِلَى الْأَلْمُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ. وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ سَكَلًا بَعِيدًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتُ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوكَ ﴿١٠٢﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ يَسَاءَ قَدَمَتْ آيَاتِهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَخْلَعُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿١٠٤﴾ أَوَلَيْكَ الْكَبِيرُ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْعَزَ عَنْهُمْ وَعَظَّمَهُمْ وَكَفَّ لَهُمْ فِتْنَتِهِمْ قَوْلًا بَيِّنًا ﴿١٠٥﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رُسُولٍ إِلَّا لِنُكَفِّرَ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿١٠٦﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿١٠٧﴾

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ فيه تعجب لرسول الله ﷺ من حال هؤلاء الذين ادعوا لأنفسهم أنهم قد جمعوا

بين الإيمان بما أنزل على رسول الله، وهو: القرآن، وما أنزل على من قبله من الأنبياء، فجاءوا بما ينقض عليهم هذه الدعوى، ويبطلها من أصلها، ويوضح أنهم ليسوا على شيء من تلك أصلاً، وهو إرادتهم التحاكم إلى الطاغوت، وقد أمروا فيما أنزل على رسول الله، وعلى من قبله أن يكفروا به، وسيأتي بيان سبب نزول الآية، وبه يتضح معناها. وقد تقدم تفسير الطاغوت، والاختلاف في معناها. قوله: ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ﴾ معطوف على قوله: ﴿يُرِيدُونَ﴾ والجملةتان مسوقتان لبيان محل التعجب، كأنه قيل: ماذا يفعلون؟ فقيل: يريدون كذا، ويريد الشيطان كذا. وقوله: ﴿ضَلَالًا﴾ مصدر للفعل المنكور بحذف الزوائد كقوله: ﴿وَاللَّهُ اتَّبَعْتُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: 17] أو مصدر لفعل محذوف دل عليه الفعل المنكور، والتقدير: ويريد الشيطان أن يضلهم فيضلون ضلالاً. والصدود: اسم للمصدر، وهو الصد عند الخليل، وعند الكوفيين أنهما مصدران، أي: يعرضون عنك إعراضاً. قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمْتُمْ لِنَفْسِهِمْ﴾ بيان لعاقبة أمرهم، وما صار إليهم حالهم، أي: كيف يكون حالهم ﴿إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ﴾ أي: وقت إصابتهم، فإنهم يعجزون عند ذلك، ولا يقدرون على الدفع. والمراد: ﴿بِمَا قَدَّمْتُمْ لِنَفْسِهِمْ﴾ ما فعلوه من المعاصي التي من جملتها التحاكم إلى الطاغوت ﴿ثُمَّ جَاءُوكَ﴾ يعتذرون عن فعلهم، وهو عطف على ﴿أَصَابَتْهُمْ﴾ وقوله: ﴿يَخْلَعُونَ﴾ حال، أي: جاءوك حال كونهم خائفين ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ أي: ما أريدنا بتحكمننا إلى غيرك إلا الإحسان لا الإساءة، والتوفيق بين الخصمين لا المخالفة لك. وقال ابن كيسان: معناها: ما أريدنا إلا عدلاً، وحقاً مثل قوله: ﴿وَلِيُخْلَفَنَّ بَيْنَهُمَا﴾ [التوبة: 107] فكذبهم الله بقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من النفاق، والعداوة للحق. قال الزجاج: معناها: قد علم الله أنهم منافقون ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ﴾ أي: عن عقابهم، وقيل عن قبول اعتذارهم: ﴿وَعَظَّمَهُمْ﴾ أي: خوفهم من النفاق ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: في حق أنفسهم، وقيل: معناها: قل لهم خالياً بهم ليس معهم غيرهم ﴿قَوْلًا بَلِيغًا﴾ أي: بالغاً في وعظهم إلى المقصود مؤثراً فيهم، وذلك بأن توعدهم بسفك دمائهم وسبي نسائهم، وسلب أموالهم ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رُسُولٍ﴾ من زائدة للتوكيد ﴿إِلَّا لِيُطَاعَ﴾ فيما أمر به، ونهى عنه ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بعلمه، وقيل بتوقيفه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بترك طاعتك، والتحاكم إلى غيرك ﴿جَاءُوكَ﴾ متوسلين إليك منتصلين عن جنابياتهم، ومخالفاتهم ﴿فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ﴾ لأنفسهم، وتضرعوا إليك حتى قمت شفيعاً لهم، فاستغفرت لهم، وإنما قال: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَهُمْ﴾ الرسول ﷺ على طريقة الالتفات لقصد التفخيم لشأن الرسول ﷺ ﴿لَوْ جَدُّوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ أي: كثير التوبة عليهم، والرحمة لهم. قوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ﴾ قال ابن جرير: قوله: ﴿فَلَا﴾ رد على ما تقدم نكره، تقديره، فليس الأمر كما

ثم لم يكتف بذلك، بل ضم إليه المصدر المؤكد، فقال: ﴿تسليماً﴾ فلا يثبت الإيمان لعبد حتى يقع منه هذا التحكيم، ولا يجد الحرج في صدره بما قضى عليه ويسلم لحكم الله وشرعه، تسليماً لا يخالطه ردة، ولا تشوبه مخالفة.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، والطبراني بسند قال السيوطي: صحيح عن ابن عباس، قال: كان برزة الأسلمي كاهناً يقضي بين اليهود فيما يتنافرون فيه، ففتنوا إليه ناس من المسلمين، فأنزل الله: ﴿ألم تر إلى الذين يزعمون﴾ الآية، وأخرج ابن إسحاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه قال: كان الجلاس بن الصامت قبل توبته، ومعقب بن قشير، ورافع بن زيد، كانوا يذعنون الإسلام، فدعاهم رجال من قومهم من المسلمين في خصومة كانت بينهم إلى رسول الله ﷺ، فدعوه إلى الكهان حكام الجاهلية، فنزلت الآية المنكورة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، من طريق العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت﴾ قال: الطاغوت رجل من اليهود كان يقال له: كعب بن الأشرف، وكانوا إذا ما دعوا إلى ما أنزل الله، وإلى الرسول: ليحكم بينهم قالوا: بل نحاكمكم إلى كعب، فنزلت الآية. وأخرج ابن جرير، عن الضحاك مثله. وأخرج البخاري، ومسلم، وأهل السنن، وغيرهم عن عبد الله بن الزبير: أن الزبير خاصم رجلاً من الأنصار قد شهد ببراءة مع النبي ﷺ إلى رسول الله ﷺ في شراج من الحرّة، وكانا يسقيان به كلاهما للنخل. فقال الأنصاري: سرح الماء يمر، فأبى عليه، فقال رسول الله ﷺ: اسق يا زبير، ثم أرسل الماء إلى جارك، فغضب الأنصاري، وقال يا رسول الله أن كان ابن عمك؟ فتلون وجه رسول الله ﷺ ثم قال: اسق يا زبير، ثم أحبس الماء حتى يرجع إلى الجدر، ثم أرسل الماء إلى جارك، واستوعى رسول الله ﷺ للزبير حقه، وكان رسول الله ﷺ قبل ذلك أشار على الزبير برأي أراد فيه سعة له، وللأنصاري، فلما أحفظ رسول الله ﷺ الأنصاري. استوعى للزبير حقه في صريح الحكم، فقال الزبير: ما أحسب هذه الآية نزلت إلا في ذلك ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم﴾. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مريويه، من طريق ابن لهيعة عن الأسود: أن سبب نزول الآية أنه اختصم إلى رسول الله ﷺ رجلان، فقضى بينهما، فقال المقضي عليه: ردنا إلى عمر، فردهما، فقتل عمر الذي قال ردنا، ونزلت الآية، فامهر النبي ﷺ دم المقتول، وأخرجه الحكيمة الترمذي في نوار الأصول عن مكحول، فنكر نحوه، وبين أن الذي قتله عمر كان منافقاً، وهما مرسلان، والقصة غريبة، وابن لهيعة فيه ضعف.

وَأَنَا كَيْسًا عَلَيْهِمْ أَنْ أَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ مَا فَعَلُوا إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَكَوْنَهُمْ قَتَلُوا مَا يُوْعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَكُمْ وَأَنْتُمْ تَسِيئُونَ ﴿١١١﴾ وَإِذْ لَا تَهْتَفُتُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٢﴾ وَلَهْدَيْتُمْ صِرَاطًا مُسْتَوِيًا ﴿١١٣﴾ وَمَنْ يُلَاحِظْ أَلَّامَةَ الْوَعْدِ فَالْوَعْدُ مَعَ الَّذِينَ آمَنُوا اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ

يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك، وما أنزل من قبلك، ثم استأنف القسم بقوله: ﴿وربك لا يؤمنون﴾ وقيل: إنه قدم «لا» على القسم اهتماماً بالنفي، وإظهاراً لقوته، ثم كرره بعد القسم تأكيداً، وقيل: لا مزيدة لتأكيد معنى القسم لا لتأكيد معنى النفي، والتقدير: فوريك لا يؤمنون، كما في قوله: ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم﴾ [الواقعة: 75] ﴿حتى يحكموك﴾ أي: يجعلوك حكماً بينهم في جميع أمورهم لا يحكمون أحداً غيرك، وقيل: معناه: يتحاكمون إليك، ولا ملجئ لذلك ﴿فيما شجر بينهم﴾ أي: اختلف بينهم، واختلط، ومنه الشجر لاختلاف أغصانه، ومنه قول طرفة:

وهم الحكم أرباب الهدى وسعاة الناس في الأمر الشجر
أي: المختلف، ومنه: تشاجر الرماح، أي: اختلفوا، ثم لا يجنوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت، قيل: هو معطوف على مقتر ينساق إليه الكلام، أي: فتقضي بينهم، ثم لا يجنوا. والخرج: للضيق، وقيل: الشك، ومنه قيل للشجر الملتف: خرج وحرجه، وجمعها حراج، وقيل: الحرج: الإثم، أي: لا يجنون في أنفسهم إثمًا بإنكارهم ما قضيت ﴿ويسلموا تسليماً﴾ أي: ينقادوا لأمر، وقضائك انقياداً لا يخالفونه في شيء. قال الزجاج: ﴿تسليماً﴾ مصدر مؤكد، أي: ويسلمون لحكمك تسليماً لا يدخلون على أنفسهم شكاً، ولا شبهة فيه. والظاهر أن هذا شامل لكل فرد في كل حكم، كما يؤيد ذلك قوله: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله﴾ فلا يختص بالمقصودين بقوله: ﴿يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت﴾ وهذا في حياته ﷺ، وأما بعد موته، فتحكيم الكتاب، والسنة، وتحكيم الحاكم بما فيها من الأئمة، والقضاة إذا كان لا يحكم بالرأي المجرد مع وجود الدليل في الكتاب، والسنة، لو في أحدهما، وكان يعقل ما يرد عليه من حجج الكتاب، والسنة، بأن يكون عالماً باللغة العربية، وما يتعلق بها من نحو، وتصريف، ومعاني، وبيان عارفاً بما يحتاج إليه من علم الأصول، بصيراً بالسنة المطهرة، مميزاً بين الصحيح، وما يلحق به، والضعيف، وما يلحق به، منصفاً غير متعصب لمذهب من المذاهب، ولا لنحلة من النحل، ورعاً لا يحيف، ولا يميل في حكمه، فمن كان هكذا، فهو قائم في مقام النبوة مترجم عنها حاكم بأحكامها. وفي هذا الوعيد الشديد ما تقشعر له الجلود، وترجف له الأفئدة، فإنه أولاً أقسم سبحانه بنفسه مؤكداً لهذا القسم بحرف النفي بأنهم لا يؤمنون، فنفي عنهم الإيمان الذي هو رأس مال صالح عباد الله حتى تحصل لهم غاية هي تحكيم رسول الله ﷺ، ثم لم يكتف سبحانه بذلك حتى قال: ﴿ثم لا يجنوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت﴾ فضم إلى التحكيم أمراً آخر، هو عدم وجود حرج أي: حرج في صدرهم، فلا يكون مجرد التحكيم، والإنعان كافياً حتى يكون من صميم القلب عن رضا، واطمئنان، وانسلاخ قلب، وطيب نفس، ثم لم يكتف بهذا كله، بل ضم إليه قوله: ﴿ويسلموا﴾ أي: يذعنوا، وينقادوا ظاهراً، وباطناً،

خشيت أن لا أراك، فلم يرد عليه النبي ﷺ حتى نزل جبريل بهذه الآية: ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم﴾ الآية. وأخرج الطبراني، وابن مريويه عن ابن عباس نحوه.

يَتَأْتِي الَّذِينَ آمَنُوا حُذُورًا حَذَرَكُمْ فَأَنْفَرُوا فَبَاتُوا أَنْفَرُوا جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنْ يَنْكُرُ لَكُمْ لِجَلَلَتِ إِنْ آمَنَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَتْ أَمْ أَمَرَ اللَّهُ عَلَىٰ إِذْ لَمْ أَكُنْ مِنْكُمْ شَيْدًا ﴿٧٢﴾ وَلَيْنَ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَكُونَنَّ كَأَنَّ لَمْ تَكُنْ يَنْتَكُمُ وَيَنْتَكُمُ مَوَدَّةً يَنْتَكُنِي كُنْتُ مِنْهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ فَلْيَقْتُلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَنَنْ يَمُوتُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلْ أَوْ يَغْلِبَ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمُ أَهْلُهَا وَاجْمَلْنَا مِنْ لَدُنْكَ وَيَا وَجْمَلْنَا لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الْكُفْرَةِ فَذِلَّوْا أُولَئِكَ الشَّيْطَانُ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾

قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ هذا خطاب لخلص المؤمنين، وأمر لهم بجهاد الكفار، والخروج في سبيل الله، والحذر، والحذر لغتان: كالمثل، والمثل. قال الفراء: أكثر الكلام الحذر، والحذر مسموع أيضاً، يقال: خذ حذرك أي: احذر، وقيل: معنى الآية: الأمر لهم بأخذ السلاح حذراً؛ لأن به الحذر. قوله: ﴿فانفروا﴾ نفر ينفر بكسر الفاء نفيراً، ونفرت الدابة تنفر بضم الفاء نفوراً. والمعنى: انهضوا لقتال العدو. أو النفير اسم للقوم الذين ينفرون، وأصله من النفار، والنفور، وهو: الفرز، ومنه قوله تعالى: ﴿ولوا على أنبارهم نفوراً﴾ [الإسراء: 46] أي: نافرين، قوله: ﴿ثبات﴾ جمع ثبة، أي: جماعة، والمعنى: انفروا جماعات متفرقات. قوله: ﴿أو انفروا جميعاً﴾ أي: مجتمعين جيشاً واحداً. ومعنى الآية: الأمر لهم بأن ينفروا على أحد الوصفين؛ ليكون ذلك أشد على عيولهم، وليأمنوا من أن يتخطفهم الأعداء إذا نفر كل واحد منهم وحده، أو نحو ذلك، وقيل: إن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ [التوبة: 41] ويقول: ﴿إن لا تنفروا يعينكم﴾ [التوبة: 39] والصحيح أن الآيتين جميعاً محكمتان: إحداهما في الوقت الذي يحتاج فيه إلى نفور الجميع، والأخرى عند الاكتفاء بنفور البعض دون البعض. قوله: ﴿وإن منكم لمن ليبطئن﴾ الليبطئ، والإبطاء التأخر، والمراد: المنافقون كانوا يقعون عن الخروج، ويقعدون غيرهم. والمعنى: أن من دخلائكم، وجنسكم، ومن أظهر إيمانه لكم نفاقاً من يبطن من المؤمنين، ويبطنهم، واللام في قوله: ﴿لمن﴾ لام توكيد، وفي قوله: ﴿ليبطئن﴾ لام جواب القسم، و «من» في موضع نصب، وصلتها الجملة. وقرا مجاهد، والنخعي، والكلبي ﴿ليبطئن﴾ بـ «فان» أصابتكم مصيبة من قتل، أو هزيمة، أو ذهاب مال. قال هذا المنافق قد أنعم الله عليّ إذ لم أكن معهم حتى يصيبني ما أصابهم ﴿ولئن أصابكم فضل من﴾ غنيمة، أو فتح

وَالْمُؤَيَّدِينَ وَالشُّهَدَاءَ وَالْمُجَلِّينَ وَسَخَّرَ أَوْلَئِكَ زَيْفًا ﴿٧٧﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عِلْمًا ﴿٧٨﴾

﴿لو﴾ حرف امتناع، وإن مصدرية، أو تفسيرية؛ لأن ﴿كتبنا﴾ في معنى أمرنا. والمعنى: أن الله سبحانه لو كتب القتل، والخروج من الديار على هؤلاء الموجودين من اليهود ما فعله إلا القليل منهم، أو لو كتب ذلك على المسلمين ما فعله إلا القليل منهم، والضمير في قوله: ﴿فعلوه﴾ راجع إلى المكتوب الذي دل عليه كتبنا، أو إلى القتل، والخروج المنلول عليهما بالفعلين، وتوحيد الضمير في مثل هذا قد قمنا وجهه. قوله: ﴿إلا قليل﴾ قرأه الجمهور بالرفع على البذل. وقرأ عبد الله بن عامر، وعيسى بن عمر ﴿إلا قليلاً﴾ بالنصب على الاستثناء، وكذا هو في مصاحف أهل الشام، والرفع أجود عند النحاة. قوله: ﴿ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به﴾ من اتباع الشرع، والانقياد لرسول الله ﷺ ﴿لكن﴾ ذلك «خيراً لهم» في الدنيا، والآخرة، «والشد تلتبثاً» لاقدامهم على الحق، فلا يضطربون في أمر دينهم ﴿وإذن﴾ أي: وقت فعلهم لما يوعظون به ﴿لأنناهم من لنا لجرأ عظيماً ولهيناهم صراطاً مستقيماً﴾ لا عوج فيه؛ ليصلوا إلى الخير الذي يناله من امتثل ما أمر به، وانقاد لمن يبعده إلى الحق. قوله: ﴿ومن يطع الله والرسول﴾ كلام مستأنف لبيان فضل طاعة الله والرسول، والإشارة بقوله: ﴿فأولئك﴾ إلى المطيعين، كما تفيد من «مع الذين أنعم الله عليهم» بدخول الجنة، والوصول إلى ما أعد الله لهم. والصليق المبالغ في الصديق، كما تفيد الصيغة، وقيل: هم فضلاء اتباع الأنبياء، والشهداء؛ من ثبتت لهم الشهادة، والصالحين: أهل الأعمال الصالحة. والرفيق مأخوذ من الرفق، وهو: لين الجانب، والمراد به: المصاحب لارتفاقك بصحبته، ومنه الرفقة لارتفاق بعضهم ببعض، وهو منتصب على التمييز، أو الحال، كما قال الأخفش.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿ولو لنا كتبنا عليهم أن يقتلوا أنفسهم﴾ هم: يهود، كما أمر أصحاب موسى أن يقتل بعضهم بعضاً. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، عن سفيان أنها نزلت في ثابت بن قيس بن شماس. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي نحوه. وقد روي من طرق أن جماعة من الصحابة قالوا: لما نزلت الآية لو فعل ربنا لفعلنا. أخرجه ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن الحسن. وأخرجه ابن أبي حاتم، عن عامر بن عبد الله بن الزبير. وأخرجه أيضاً عن شريح بن عبيد. وأخرج الطبراني، وابن مريويه، وأبو نعيم في الحلية، والضياء المقدسي في صفة الجنة، وحسنه عن عائشة قالت: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله: إنك لأحب إلي من نفسي، وإنك لأحب إلي من ولدي، وإنني لأكون في البيت، فأذكرك، فما أصبر حتى آتي، فانظر إليك، وإذا نكرت موتي، وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين، وإنني إذا دخلت الجنة

للمؤمنين، وتنشيط لهم بأن قتالهم لهذا المقصد لا لغيره **﴿والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت﴾** أي: سبيل الشيطان، أو الكهان، أو الأصنام، وتفسير الطاغوت هنا بالشيطان أولى لقوله: **﴿فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً﴾** أي: مكروه، ومكر من اتبعه من الكفار.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: **﴿فانفروا ثبات﴾** قال: عصباً، يعني سرايا متفرقين **﴿وانفروا جميعاً﴾** يعني كلكم. وأخرج أبو داود في ناسخه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه عنه قال في سورة النساء: **﴿خذوا حذرکم فانفروا ثبات او انفروا جميعاً﴾** نسختها: **﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾** [التوبة: 122]. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد في قوله: **﴿ثبات﴾** أي: فرقاً قليلاً. وأخرج عن قتادة في قوله: **﴿وانفروا جميعاً﴾** أي: إذا نفر نبي الله ﷺ، فليس لأحد أن يتخلف عنه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: **﴿وان منكم لمن ليبطئن﴾** إلى قوله: **﴿فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾** ما بين ذلك في المنافقين. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مقاتل بن حيان في الآية قال: هو فيما بلغنا عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة **﴿فليقاتل﴾** يعني: يقاتل المشركين **﴿في سبيل الله﴾** في طاعة الله **﴿ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل﴾** يعني: يقتله العدو **﴿او يغلب﴾** يعني: يغلب العدو من المشركين **﴿فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾** يعني: جزاء وافر في الجنة، فجعل القتال، والمقتول من المسلمين في جهاد المشركين شريكين في الأجر. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس في قوله: **﴿في سبيل الله والمستضعفين﴾** قال: وفي المستضعفين. وأخرج ابن جرير، عن الزهري قال: وسبيل المستضعفين. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه من طريق العوفي قال: المستضعفون أناس مسلمون كانوا بمكة لا يستطيعون أن يخرجوا منها. وأخرج البخاري، عنه قال: «أنا وأمي من المستضعفين». وأخرج ابن جرير، عنه قال: القرية الظالم أهلها مكة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عائشة مثله. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: إذا رأيت الشيطان، فلا تخافوه، وأحملوا عليه **﴿إن كيد الشيطان كان ضعيفاً﴾**. قال مجاهد: كان الشيطان يتراءى لي في الصلاة، فكنت أنكر قول ابن عباس، فأحمل عليه، فيذهب عني.

أَرَرَّ إِلَى الَّذِينَ قَدْ لَمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِنَّ أَجَلَ قَوْمٍ لَفِي مُنْعٍ أَلْحَقْ بِهِمْ ذُلًّا وَتَقَرَّرْ

﴿ليقولن﴾ هذا المنافق قول نادم حاسد **﴿يا ليتني كنت معهم فافوز فوزاً عظيماً﴾**. قوله: **﴿كان لم يكن بينكم وبينه مودة﴾** جملة معترضة بين الفعل الذي هو ليقولن وبين مفعوله، وهو: **﴿يا ليتني﴾** وقيل: إن في الكلام تقديماً وتأخيراً، وقيل: المعنى: ليقولن كان لم تكن بينكم وبينه مودة أي: كان لم يعاقبكم على الجهاد، وقيل: هو في موضع نصب على الحال. وقرأ الحسن: **﴿ليقولن﴾** بضم اللام على معنى من. وقرأ ابن كثير، وحفص عن عاصم **﴿كان لم تكن﴾** بإلقاء على اللفظ المودة. قوله: **﴿فافوز﴾** بالنصب على جواب التمني. وقرأ الحسن: **﴿فافوز﴾** بالرفع. قوله: **﴿فليقاتل في سبيل الله﴾** هذا أمر للمؤمنين، وقم الطرف على الفاعل للاهتمام به. و **﴿الذين يشرون﴾** معناه: يبيعون، وهم المؤمنون، والفاء في قوله: **﴿فليقاتل﴾** جواب الشرط مقترن أي: لم يقاتل هؤلاء المنكروون سابقاً الموصوفون بأن منهم لمن ليبطئن، فليقاتل المخلصون البائسون أنفسهم البائسون للحياة الدنيا بالآخرة، ثم وعد المقاتلين في سبيل الله بأنه سيؤتيهم أجراً عظيماً لا يقدر قدره، وذلك أنه إذا قتل فاز بالشهادة التي هي أعلى درجات الأجور، وإن غلب، وظفر كان له أجر من قاتل في سبيل الله مع ما قد ناله من العلو في الدنيا، والغنيمة، وظاهر هذا يقتضي التسوية بين من قتل شهيداً، أو انقلب غانماً، وربما يقال: إن التسوية بينهما إنما هي في إيتاء الأجر العظيم، ولا يلزم أن يكون أجراً مستوياً، فإن كون الشيء عظيماً هو من الأمور النسبية التي يكون بعضها عظيماً بالنسبة إلى ما هو بونه، وحقيقاً بالنسبة إلى ما هو فوقه. قوله: **﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله﴾** خطاب للمؤمنين المأمورين بالقتال على طريق الالتفات. قوله: **﴿والمستضعفين﴾** مجرور عطفاً على الاسم الشريف أي: ما لكم لا تقاتلون في سبيل الله، وسبيل المستضعفين حتى تخلصوهم من الأسر، وتريحوهم مما هم فيه من الجهد، ويجوز أن يكون منصوباً على الاختصاص، أي: وأخص المستضعفين، فإنهم من أعظم ما يصدق عليه سبيل الله، واختار الأول الزجاج، والأزهري. وقال محمد بن يزيد: اختار أن يكون المعنى، وفي المستضعفين، فيكون عطفاً على السبيل، والمراد بالمستضعفين هنا: من كان بمكة من المؤمنين تحت إزدال الكفار، وهم: الذين كان يدعو لهم النبي ﷺ، فيقول: **﴿اللهم أنج الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة، والمستضعفين من المؤمنين﴾** كما في الصحيح. ولا يبعد أن يقال: إن لفظ الآية أوسع، والاعتبار بعموم اللفظ لولا تقييده بقوله: **﴿الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها﴾** فإنه يشعر باختصاص تلك المستضعفين للكائنين في مكة: لأنه قد أجمع المفسرون، على أن المراد بالقرية الظالم أهلها: مكة. وقوله: **﴿من الرجال والنساء والولدان﴾** بيان للمستضعفين. قوله: **﴿الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله﴾** هذا ترغيب

حكاه مكي عن مالك، وقال: لا ترى إلى قوله: ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الْبُرُوجِ﴾ [البروج: 1] ﴿جعل في السماء بروجاً﴾ [الفرقان: 61] ﴿ولقد جعلنا في السماء بروجاً﴾ [الحجر: 16] وقيل: إن المراد بالبروج المشيدة هنا: قصور من حديد، وقرا طلحة بن سليمان: ﴿يدرككم الموت﴾ بالرفع على تقدير الغاء، كما في قوله:

وقال رائدهم أرسوا نزلوها

قوله: ﴿وإن تصبهم حسنة﴾ هذا، وما بعده مختص بالمنافقين، أي: إن تصبهم نعمة نسبوها إلى الله تعالى، وإن تصبهم بلية، ونعمة نسبوها إلى رسول الله ﷺ، فرد الله ذلك عليهم بقوله: ﴿قل كل من عند الله﴾ ليس، كما تزعمون، ثم نسبهم إلى الجهل، وعدم الفهم، فقال: ﴿فما هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً﴾ أي: ما بالهم هكذا. قوله: ﴿ما أصابك من حسنة فمن الله﴾ هذا الخطاب إما لكل من يصلح له من الناس، أو لرسول الله ﷺ تعريضاً لامته، أي: ما أصابك من خصب، ورخاء، وصحة، وسلامة، فمن الله بفضل، ورحمته، وما أصابك من جهد، وبلاء، وشدة، فمن نفسك بذنب أتيت، فعوقبت عليه، وقيل: إن هذا من كلام الذين لا يفقهون حديثاً، أي: فيقولون ما أصابك من حسنة، فمن الله، وقيل: إن ألف الاستفهام مضمرة، أي: أقمن نفسك، ومثله قوله تعالى: ﴿وتلك نعمة تمنها علي﴾ [الشعراء: 22] والمعنى، أو تلك نعمة، ومثله قوله: ﴿فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي﴾ [الأنعام: 77] أي: أهذا ربي، ومنه قول أبي خراش الهذلي:

رموني وقالوا خويلد لم ترع فقلت وأنكرت الوجوه هم هم
أي: أهم هم، وهذا خلاف الظاهر، وقد ورد في الكتاب العزيز ما يفيد مفاد هذه الآية، كقوله تعالى: ﴿وما أصابكم من مصيبة، فيما كسبت أيديكم، ويعفو عن كثير﴾ [الشورى: 30]، وقوله: ﴿أو لما أصابكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل: هو من عند أنفسكم﴾ [آل عمران: 165]. وقد يظن أن قوله: ﴿وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾ مناف لقوله: ﴿قل كل من عند الله﴾ ولقوله: ﴿وما أصابكم يوم اتقى الجمعان، فبإذن الله﴾ [آل عمران: 166]، وقوله: ﴿ونبئكم بالشر، والخير فتنة﴾ [الأنبياء: 45] وقوله: ﴿وإذا أراد الله بقوم سوءاً، فلا مرد له، وما لهم من دونه من وال﴾ [الرعد: 11] وليس الأمر كذلك، فالجمع ممكن، كما هو مقرر في مواطنه. قوله: ﴿وارسلناك للناس رسلاً﴾ فيه البيان لعموم رسالته ﷺ إلى الجميع، كما يفيد التأكيد بالمصدر، والعموم في الناس، ومثله قوله: ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس﴾ [سبا: 28]، وقوله: ﴿يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾ [الأعراف: 158] ﴿وكفى بالله شهيداً﴾ [الفتح: 28] على ذلك. قوله: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ فيه أن طاعة الرسول طاعة الله، وفي هذا من النداء بشرف رسول الله ﷺ، وعلو شأنه، وارتفاع مرتبته ما لا يقادر قدره، ولا يبلغ مداه، ووجهه أن الرسول لا يأمر إلا بما أمر الله به، ولا

يرجى شئكم وإن تصبهم حسنة يؤولوا هذبه من عند الله وإن تصبهم سيئة يؤولوا هذبه من عندك قل كل من عند الله قال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ مِنْ شَيْءٍ مِنْ اللَّهِ وَكَرِهْتَ فَإِنْ تَسَتَّرْ مِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَرِهْتَ فَأَلْقِهَا مِنْ يَدِكَ فَقَدْ أُطَاعَ اللَّهُ وَمَنْ تَوَلَّى مَتَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيطًا ﴿٢٨﴾ وَمَوْلَاكَ طَاعَةً فَإِنَّا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيِّنَ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٢٩﴾﴾

قوله: ﴿لم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم﴾ الآية، قيل: هم جماعة من الصحابة أمروا بترك القتال في مكة بعد أن تسرعوا إليه. فلما كتب عليهم بالمدينة تثبطوا عن القتال من غير شك في الدين بل خوفاً من الموت، وقرعاً من هول القتل، وقيل: إنها نزلت في اليهود، وقيل: في المنافقين أسلموا قبل فرض القتال، فلما فرض كرهوه، وهذا أشبه بالسياق لقوله: ﴿وقالوا ربنا لم كتب علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب﴾ وقوله: ﴿وإن تصبهم حسنة﴾ الآية، ويبعد صدور مثل هذا من الصحابة. قوله: ﴿كخشية الله﴾ صفة مصدر محذوف، أي: خشية كخشية الله، أو حال، أي: تخشونهم مشبهين أهل خشية الله، والمصدر مضاف إلى المفعول، أي: كخشيتهم الله. وقوله: ﴿أو أشد خشية﴾ معطوف على كخشية الله في محل جر، أو معطوف على الجار والمجرور جميعاً، فيكون في محل الحال كالمعطوف عليه، أو للتوزيع على معنى أن خشية بعضهم كخشية الله، وخشية بعضهم أشد منها. قوله: ﴿وقالوا﴾ عطف على ما يدل عليه قوله: ﴿إذا فريق منهم﴾ أي: فلما كتب عليهم القتال، فاجأ فريق منهم خشية الناس: ﴿وقالوا ربنا لم كتب علينا القتال لولا أخرتنا﴾ أي: هلا أخرتنا، يريسون المهلة إلى وقت آخر قريب من الوقت الذي فرض عليهم فيه القتال، فأمره الله سبحانه بأن يجيب عليهم، فقال: ﴿قل متاع الدنيا قليل﴾ سريع الفناء لا يدوم لصاحبه، وثواب الآخرة خير لكم من المتاع القليل ﴿لمن اتقى﴾ منكم، ورغب في الثواب الدائم ﴿ولا تظلمون قتيلاً﴾ أي: شيئاً حقيراً يسيراً، وقد تقدم تفسير الفتيل قريباً، وإذا كنتم توفرون أجوركم، ولا تنقصون شيئاً منها، فكيف ترغبون عن ذلك، وتشتغلون بمتاع الدنيا مع قلته، وانقطاعه. وقوله: ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت﴾ كلام مبتدأ، وفيه حث لمن قعد عن القتال خشية الموت، وبيان لفساد ما خالطه من الجبن، وخامره من الخشية، فإن الموت إذا كان كائنًا لا محالة، فمن لم يمت بالسيف ملت بغيره. والبروج جمع برج: وهو البناء المرتفع، والمشيدة: المرفعة من شاد القصر: إذا رفعه، وطلاه بالشيد، وهو الجص، وجواب لولا محذوف لدلالة ما قبله عليه.

وقد اختلف في هذه البروج ما هي؟ فقيل: الحصون التي في الأرض، وقيل: هي القصور، قال الزجاج، والقتيبي: ومعنى مشيدة مطولة، وقيل: معناه مطلية بالشيد، وهو الجص، وقيل: المراد بالبروج: بروج في سماء الدنيا مبنية،

ينهي إلا عما نهى الله عنه: ﴿ومن تولي﴾ أي: أعرض ﴿فما أرسلناك عليهم حفيظاً﴾ أي: حافظاً لأعمالهم، إنما عليك البلاغ، وقد نسخ هذا بآية السيف ﴿ويقولون طاعة﴾ بالرفع على أنها خبر مبتدأ محذوف، أي: أمرنا طاعة، أو شأنا طاعة. وقرأ الحسن، والجحدي، ونصر بن عاصم بالنصب على المصدر، أي: نطيع طاعة، وهذه في المنافقين في قول أكثر المفسرين، أي: يقولون إذا كانوا عندك طاعة ﴿وإذا برزوا من عندك﴾ أي: خرجوا من عندك. ﴿بيت طائفة منهم﴾ أي: زوّرت طائفة من هؤلاء القائلين غير الذي تقول لهم أنت، وتأمروهم به، أو غير الذي تقول لك هي من الطاعة لك، وقيل: معناه: غيروا، وبكّلوا، وحرقوا قولك فيما عهدت إليهم، والتبببت: التبديل، ومنه قول الشاعر:

أتوني فلم أرض ما بيتوا وكانوا أتوني بأمر نكر
يقال بيت الرجل الأمر: إذا بره ليلاً، ومنه قوله تعالى: ﴿إن يبيتون ما لا يرضى من القول﴾ [النساء: 108] ﴿والله يكتب ما يبيتون﴾ أي: يثبت في صحائف أعمالهم؛ ليجازيهم عليه. وقال الزجاج: المعنى ينزله عليك في الكتاب. قوله: ﴿فاعرض عنهم﴾ أي: دعهم، وشأنهم حتى يمكن الانتقام منهم، وقيل: معناه: لا تخبر بأسمائهم، وقيل: معناه: لا تعاقبهم. ثم أمره بالتوكل عليه، والثقة به في النصر على عدوه قيل: وهذا منسوخ بآية السيف.

وقد أخرج الثسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس: أن عبد الرحمن بن عوف، وأصحاباً له أتوا النبي ﷺ، فقالوا: يا نبي الله كنا في عزة، ونحن مشركون، فلما آمنا صرنا أئلة؟ فقال: إني أمرت بالعفو، فلا تقاتلوا القوم، فلما حوله الله إلى المدينة أمره بالقتال، فكفوا، فأنزل الله: ﴿لم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم﴾ الآية. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة في تفسير الآية نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد: أنها نزلت في اليهود. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، من طريق العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿فلما كتب عليهم للقتال إذا فريق﴾ الآية، قال: نهى الله هذه الأمة أن يصنعوا صنيعهم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي في قوله: ﴿إلى لجل قريب﴾ قال: هو الموت. وأخرج نحوه، عن ابن جريج. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة ﴿في بروج مشيدة﴾ قال: في قصور حصنة. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن عكرمة نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن أبي العالية قال: هي قصور في السماء. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، عن سفيان نحوه. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، عن قتادة في قوله: ﴿وإن تصيبهم حسنة﴾ يقول: نعمة ﴿وإن تصيبهم سيئة﴾ قال: مصيبة ﴿قل كل من عند الله﴾ قال: للنعم، والمصائب. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن أبي العالية في قوله: ﴿وإن تصيبهم حسنة﴾ قال:

هذه في السراء، والضراء، وفي قوله: ﴿وما أصابك من حسنة﴾ قال: هذه في الحسنات، والسيئات، وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿قل كل من عند الله﴾ يقول: الحسنة، والسيئة من عند الله، أما الحسنة، فأنعم بها عليك، وأما السيئة، فابتلاك بها، وفي قوله: ﴿وما أصابك من سيئة﴾ قال: ما أصابه يوم أحد أن شج وجهه، وكسرت ربايعيته. وأخرج ابن أبي حاتم، من طريق العوفي عنه في قوله: ﴿وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾ قال: هذا يوم أحد يقول: ما كانت من نكبة، فبذلك، وأما قُتِرَ ذلك. وأخرج ابن المنذر من طريق مجاهد أن ابن عباس كان يقرأ: ﴿وما أصابك من سيئة فمن نفسك وأنا كتبها عليك﴾ قال مجاهد: وكذلك قراءة أبي، وابن مسعود. وأخرج نحو قول مجاهد هذا ابن الأنباري في المصاحف. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم من طريق العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿ويقولون طاعة﴾ قال: هم أناس كانوا يقولون عند رسول الله ﷺ آمنا بالله ورسوله، ليأمنوا على دمائهم، وأمواهم ﴿فإذا برزوا﴾ من عند رسول الله ﷺ طائفة منهم. يقول: خالفوا إلى غير ما قالوا عنده، فعابهم الله. وأخرج ابن جرير، عنه قال غير أولئك ما قاله النبي ﷺ. أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَوِجُدُوا فِيهِ إِحْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَ الَّذِينَ يُسْتَبْطَلُونَ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّ اللَّهَ عَلَّمَكُمْ وَرَحِمَكُمْ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا لِيلًا﴾

الهمزة في قوله: ﴿أفلا يتدبرون﴾ للإنكار، والفاء للعطف على مقدر، أي: أيعرضون عن القرآن، فلا يتدبرونه يقال تدبرت الشيء: تفكرت في عاقبته، وتاملته، ثم استعمل في كل تامل، والتدبير: أن يدبر الإنسان أمره كأنه ينظر إلى ما تصير إليه عاقبته، وبلت هذه الآية، وقوله تعالى: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ [محمد: 24] على وجوب التدبر للقرآن؛ ليعرف معناه. والمعنى: أنهم لو تدبروه حق تدبره لوجدوه مؤتلفاً غير مختلف، صحيح المعاني، قوي المباني، بالغا في البلاغة إلى أعلى درجاتها ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيراً﴾ أي: تفاوتاً، وتناقضاً، ولا يدخل في هذا اختلاف مقايير الآيات، والسور؛ لأن المراد اختلاف التناقض، والتفاوت، وعدم المطابقة للواقع، وهذا شأن كلام البشر لا سيما إذا طال، وتعرض قائله للإخبار بالغيب، فإنه لا يوجد منه صحيحاً مطابقاً للواقع إلا القليل النادر. قوله: ﴿وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به﴾ يقال: أذاع الشيء، وأذاع به: إذا أفضاه، وأظهره، وهؤلاء هم: جماعة من ضعفة المسلمين كانوا إذا سمعوا شيئاً من أمر المسلمين فيه أمن نحو ظفر المسلمين، وقتل عدوهم، أو فيه خوف نحو هزيمة المسلمين، وقتلهم أفسوه، وهم يظنون أنه لا شيء عليهم في ذلك. قوله: ﴿ولو رآه إلى الرسول وإلى أولي الأمر

مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَكِيمًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّاتٍ فَجِوَابُكُمْ يُخْرَجُ مِنْكُمْ خَيْرٌ مِنْهُمَا وَإِذَا رُودُهَا مِنْكُمْ فَادْعُوهَا بِأَسْمَاءِ اللَّهِ الَّتِي دُعِيَ بِهَا وَإِذَا رُودُهَا مِنْكُمْ فَادْعُوهَا بِأَسْمَاءِ اللَّهِ الَّتِي دُعِيَ بِهَا وَإِذَا رُودُهَا مِنْكُمْ فَادْعُوهَا بِأَسْمَاءِ اللَّهِ الَّتِي دُعِيَ بِهَا

الفاء في قوله: ﴿فَقَاتِلْ﴾ قيل: هي متعلقة بقوله: ﴿ومن يقاتل في سبيل الله﴾ [النساء: 74] الخ، أي: من أجل هذا، فقاتل، وقيل: متعلقة بقوله: ﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله﴾ [النساء: 75] فقاتل، وقيل: هي جواب شرط محذوف يدل عليه السياق تقديره: إذا كان الأمر ما نكر من عدم طاعة المنافقين، فقاتل، أو إذا أفرسك، وتركوك، فقاتل، قال الزجاج: أمر الله رسوله ﷺ بالجهاد، وإن قاتل وحده؛ لأنه قد ضمن له النصر. قال ابن عطية: هذا ظاهر اللفظ، إلا أنه لم يجيء في خبر قط أن القتال فرض عليه بون الأمة، فالمعنى والله أعلم: أنه خطاب له في اللفظ، وفي المعنى له، ولا مته، أي: أنت يا محمد، وكل واحد من أمتك يقال له: ﴿فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك﴾ أي: لا تكلف غير نفسك، ولا تلزم فعل غيرك، وهو استثناء مقرر لما قبله؛ لأن اختصاص تكليفه بفعل نفسه من موجبات مباشرته للقتال وحده، وقرئ: ﴿لا تكلف﴾ بالجزم على النهي، وقرئ بالنون. قوله: ﴿وحرض المؤمنين﴾ أي: حضهم على القتال، والجهاد، يقال حرضت فلاناً على كذا: إذا أمرته به، وحارض فلان على الأمر، وأكب عليه، وواظب عليه بمعنى واحد. قوله: ﴿عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا﴾ فيه إطماع للمؤمنين بكف بأس الذين كفروا عنهم، والإطماع من الله عز وجل واجب، فهو وعد منه سبحانه، ووعد كائن لا محالة ﴿والله أشد بأساً﴾ أي: أشد صولة، وأعظم سلطاناً ﴿وأشد تنكيلاً﴾ أي: عقوبة، يقال: نكلت بالرجل تنكيلاً من النكل، وهو: العذاب. والمنكل الشيء الذي ينكل بالإنسان ﴿من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها﴾ أصل الشفاعة، والشفعة، ونحوهما من الشفع وهو: الزوج، ومنه الشفيع؛ لأنه يصير مع صاحب الحاجة شفعا، ومنه ناقة شفوع: إذا جمعت بين محبين في حلبة واحدة، وناقة شفيع: إذا اجتمع لها حمل، وولد يتبعها. والشفع: ضم واحد إلى واحد، والشفعة: ضم ملك الشريك إلى ملك، فالشفاعة: ضم غيرك إلى جاهك، ووسيلتك، فهي على التحقيق إظهار لمنزلة الشفيع عند المشفع، واتصال منفعة إلى المشفوع له. والشفاعة الحسنة هي: في البر والطاعة. والشفاعة السيئة في المعاصي، فمن شفع في الخير؛ لينفع، فله نصيب منها، أي: من أجزائها، ومن شفع في الشر، كمن يسعى بالنميمة، والغيبة كان له كفل منها، أي: نصيب من وزرها. والكفل: الوزر والإثم، واشتقاقه من الكساء الذي يجعله الراكب على سنام البعير لئلا يسقط، يقال اكتفلت البعير: إذا أشرت على سنامه كساء، وربكت عليه؛ لأنه لم يستعمل الظهر كله بل استعمل نصيباً منه ويستعمل في النصيب من الخير والشر. ومن استعمله في الخير قوله تعالى: ﴿يؤتكم كفلين من رحمته﴾ [الحديد: 28] ﴿وكان الله على كل شيء مقبلاً﴾

منهم﴾ وهم أهل العلم، والعقول الراجحة الذين يرجعون إليهم في أمورهم أو هم الولاة عليهم ﴿لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾ أي: يستخرجونه بتدبيرهم، وصحة عقولهم. والمعنى: أنهم لو تركوا الإنذاعة للأخبار حتى يكون النبي ﷺ هو الذي يتبعها، أو يكون أولي الأمر منهم هم الذين يتولون ذلك؛ لأنهم يعلمون ما ينبغي أن يفشي، وما ينبغي أن يكتم. والاستنباط مأخوذ من استنبط الماء: إذا استخرجته. والنبط: الماء المستنبط أول ما يخرج من ماء البئر عند حفرها، وقيل: إن هؤلاء الضعفة كانوا يسمعون إرجفات المنافقين على المسلمين، فيذيعونها، فتحصل بذلك المفسدة. قوله: ﴿ولو لا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً﴾ أي: لولا ما تفضل الله به عليكم من إرسال رسوله، وإنزال كتابه لاتبعتم الشيطان، فبقيتم على كفركم إلا قليلاً منكم، أو إلا اتباعاً قليلاً منكم، وقيل: المعنى: اذاعوا به إلا قليلاً منهم، فإنه لم يذع، ولم يفش، قاله الكسائي، والأخفش، والفراء، وأبو عبيدة، وأبو حاتم، وابن جرير، وقيل: المعنى لعلمه الذين يستنبطونه إلا قليلاً منهم، قاله الزجاج.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة: ﴿ولو كان من عند غير الله لوجبوا فيه لاختلاف كثيراً﴾ يقول: إن قول الله لا يختلف، وهو حق ليس فيه باطل، وإن قول الناس يختلف. وأخرج عبد بن حميد، ومسلم، وابن أبي حاتم، من طريق ابن عباس، عن عمر بن الخطاب قال: لما اعتزل النبي ﷺ نساءه دخلت المسجد، فوجدت الناس ينكتون بالحصى، ويقولون: طلق رسول الله ﷺ نساءه، فقامت على باب المسجد، فنابت بأعلى صوتي: لم يطلق نساءه، ونزلت هذه الآية: ﴿وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف اذاعوا به ولو رثوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾ فكتبت أنا استنبطت ذلك الأمر. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس في الآية: قال هذا في الإخبار إذا غزت سرية من المسلمين أخبر الناس عنها، فقالوا: أصاب المسلمون من عدوهم كذا وكذا، وأصاب العدو من المسلمين كذا وكذا، فاقشوه بينهم من غير أن يكون النبي ﷺ هو يخبرهم به. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الضحاك: ﴿وإذا جاءهم﴾ قال: هم أهل النفاق. وأخرج ابن جرير، عن أبي معاذ مثله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿ولو لا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان﴾ قال: فانقطع الكلام. وقوله: ﴿إلا قليلاً﴾ فهو في أول الآية يخبر عن المنافقين: قال: ﴿وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف اذاعوا به إلا قليلاً﴾ يعني: بالقليل المؤمنين.

فَقِيلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكَلِّمْ إِلَّا نَفْسَكَ وَرَحِمَتِ الزَّوْجَيْنِ عَنِ اللَّهِ أَنْ يَكُنَّ بِأَسْ أَلَيْنَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا ﴿٨٦﴾ مَنْ يَشْفَعْ مَشْفَعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ حَقُّهَا وَمَنْ يَشْفَعْ مَشْفَعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ

أي: جمعاً لا ريب فيه: ﴿ومن أصدق من الله حيثاً﴾ إنكار؛ لأن يكون أحد أصدق منه سبحانه. وقرأ حمزة، والكسائي، ومن «أزبق» بالزاي. وقرأ الباقون بالصاد، والصاد الأصل. وقد تبدل زاياً لقرب مخرجها منها.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي سنان في قوله: ﴿وحرض للمؤمنين﴾ قال: عظمهم. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿من يشفع شفاعة حسنة﴾ الآية، قال: شفاعة الناس بعضهم لبعض. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿يكن له نصيب منها﴾ قال: حظ منها. وقوله: ﴿كفل منها﴾ قال: الكفل هو الإثم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي قال: الكفل الحظ. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي، عن ابن عباس في قوله: ﴿وكان الله على كل شيء مقبلاً﴾ قال: حفيظاً. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن عبد الله بن رواحة: أنه سأله رجل، عن قول الله: ﴿وكان الله على كل شيء مقبلاً﴾ قال: يقبض كل إنسان بقدر عمله. وفي إسناده رجل مجهول. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿مقبلاً﴾ قال: شهيداً. وأخرج ابن جرير عنه ﴿مقبلاً﴾ قال: شهيداً حسبياً حفيظاً. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جببر في قوله: ﴿مقبلاً﴾ قال: قانراً. وأخرج ابن جرير، عن السدي قال: المقبض القنير. وأخرج أيضاً، عن ابن زيد مثله. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الضحاك قال: المقبض الرزاق. وأخرج ابن أبي شيبة، والبخاري في الأدب المفرد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: من سلم عليك من خلق الله، فأرد عليه، وإن كان يهودياً، أو نصرانياً، أو مجوسياً، نلك بأن الله يقول: ﴿وإذا حييتم بتحية﴾ الآية. وأخرج أحمد في الزهد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه قال السيوطي بسند حسن عن سلمان الفارسي قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: السلام عليك يا رسول الله، فقال: وعليك ورحمة الله، ثم أتى آخر، فقال: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله، فقال: وعليك ورحمة الله وبركاته، ثم جاء آخر، فقال: السلام عليك ورحمة الله وبركاته، فقال له: وعليك، فقال له الرجل: يا نبي الله، بأبي أنت، وأمي أتك فلان وفلان، فسلمنا عليك، فريدت عليهما أكثر مما ردت علي؟ فقال: إنك لم تدع لنا شيئاً، قال الله: ﴿وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو رنوها﴾ فريدناها عليك. ولخرج البخاري في الأدب المفرد، عن أبي هريرة: «أن رجلاً مرَّ على رسول الله ﷺ، وهو في مجلس، فقال: سلام عليكم، فقال: عشر حسنات، فمرَّ رجل آخر، فقال: السلام عليكم ورحمة الله، فقال: عشرون حسنة، فمرَّ رجل آخر، فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فقال: ثلاثون حسنة». وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر مرفوعاً نحوه. وأخرج

أي: مقتدراً، قاله الكسائي. وقال الفراء: المقبض الذي يعطي كل إنسان قوته، يقال: قته أقوته قوتاً، وأقته أقيته إقاةً، فإنا قانت ومقبض، وحكى الكسائي أقات يقبض. وقال أبو عبيدة: المقبض الحافظ. قال النحاس: وقول أبي عبيدة أولى؛ لأنه مشتق من القوت، والقوت معناه: مقدار ما يحفظ الإنسان. وقال ابن فارس في المجمل: المقبض المقتدر، والمقبض: الحافظ والشاهد. وأما قول الشاعر:

إلي الفضل أم عليّ إذا حو سبت إني على الحساب مقبض
فقال ابن جرير الطبري إنه من غير هذا المعنى. قوله: ﴿وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو رنوها﴾ التحية تفعلة من حييت، والأصل تحية مثل ترضية، وتسمية؛ فادغموا الياء في الياء، وأصلها الدعاء بالحياة، والتحية: السلام، وهذا المعنى هو المراد هنا، ومثله قوله تعالى: ﴿وإذا جاؤوك حيوك بما لم يحب به الله﴾ [المائدة: 8] وإلى هذا ذهب جماعة المفسرين، وروي عن مالك أن المراد بالتحية هنا: تشميت العاطس. وقال أصحاب أبي حنيفة، للتحية هنا الهدية لقوله: ﴿أو رنوها﴾ ولا يمكن رد السلام بعينه، وهذا فاسد لا ينبغي الالتفات إليه. والمراد بقوله: ﴿فحيوا بأحسن منها﴾ أن يزيد في الجواب على ما قاله المبتدئ بالتحية، فإذا قال المبتدئ: السلام عليكم، قال المجيب: وعليكم السلام ورحمة الله، وإذا زاد المبتدئ لفظاً زاد المجيب على جملة ما جاء به المبتدئ لفظاً، أو اللفظاً نحو: وبركاته، ومرضاته، وتحيته.

قال القرطبي: لجمع العلماء على أن الابتداء بالسلام سنة مرغ فيها، وردّه فريضة لقوله: ﴿فحيوا بأحسن منها أو رنوها﴾ واختلفوا إذا ردّ واحد من جماعة هل يجزئ أو لا؟ فذهب مالك، والشافعي إلى الإجزاء، وذهب الكوفيون إلى أنه لا يجزئ عن غيره، ويردّ عليهم حديث عليّ عن النبي ﷺ قال: «يجزئ عن الجماعة إذا مروا أن يسلم أحدهم، ويجزئ عن الجلوس أن يردّ أحدهم» أخرجه أبو داود، وفي إسناده سعيد بن خالد الخزاعي المدني، وليس به بأس، وقد ضعفه بعضهم. وقد حسن الحديث ابن عبد البر. ومعنى قوله: ﴿أو رنوها﴾ الاختصار على مثل اللفظ الذي جاء به المبتدئ، فإذا قال السلام عليكم، قال المجيب: وعليكم السلام. وقد ورد في السنة المطهرة في تعيين من يبتدئ بالسلام، ومن يستحق التحية، ومن لا يستحقها ما يغني عن البسط هاهنا قوله: ﴿إن الله كان على كل شيء حسيباً﴾ يحاسبكم على كل شيء؛ وقيل: معناه حفيظاً؛ وقيل: كافياً من قولهم أحسبني كذا أي: كفاني، ومثله: ﴿حسبك الله﴾ [الأنفال: 62، 64]. قوله: ﴿الله لا إله إلا هو﴾ مبتدأ وخبر، واللام في قوله: ﴿ليجمعنكم﴾ جواب قسم محذوف، أي: والله ليجمعنكم الله بالحشر إلى يوم القيامة، أي: إلى حساب يوم القيامة؛ وقيل: إلى بمعنى في، وقيل: إنها زائدة. والمعنى: ليجمعنكم يوم القيامة، ﴿يوم القيامة﴾ يوم القيام من القبور ﴿لا ريب فيه﴾ أي: في يوم القيامة، أو في الجمع،

البيهقي، عن سهل بن حنيف مرفوعاً نحوه أيضاً. وأخرج أحمد، والدارمي، وأبو داود، والترمذي وحسنه، والنسائي، والبيهقي، عن عمران بن حصين مرفوعاً نحوه أيضاً، وزاد بعد كل مرة أن النبي ﷺ ردّ عليه، ثم قال: عشر إلى آخره. وأخرج أبو داود، والبيهقي عن معاذ بن أنس الجهني مرفوعاً نحوه. وزاد بعد قوله وبركاته: ومغفرته، فقال: أربعون، يعني حسنة.

﴿مَا لَكُمْ فِي التَّائِبِينَ قِتْلَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ قَدْ خَلَّ سَبِيلَكُمْ﴾ ﴿٥٦﴾ وَذُو أَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً مَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ آيَةً حَتَّى يَهْجُرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَحُذَرُهُمْ وَأَقْلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ﴿٥٧﴾ إِلَّا الَّذِينَ يَمِيلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءَكُمْ حَبْرٌ صَدُرْتُمْ أَنْ يُبَيِّنَ لَكُمْ أَوْ يُغَيِّرُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتِلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَذَرُوكُمْ فَلَمْ يُبَيِّنْ لَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ الْغُيُوبِ مَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ ﴿٥٨﴾ سَتَجِدُونَ كَافَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمُرُوكُمْ وَيَأْمُرُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَارَدُوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ كُنْ يَتَّخِذُوكُمْ وَلِقَاؤُكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَحُذَرُهُمْ وَأَقْلُوهُمْ حَيْثُ تَقْبَلْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ كَفَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ ﴿٥٩﴾

الاستفهام في قوله: ﴿مَالِكُمْ﴾ للإنكار، واسم الاستفهام مبتدأ، وما بعده خبره. والمعنى أي: شيء كائن لكم ﴿في المنافقين﴾ أي: في أمرهم وشأنهم حال كونكم ﴿ففتتين﴾ في ذلك. وحاصله الإنكار على المخاطبين أن يكون لهم شيء يوجب اختلافهم في شأن المنافقين. وقد اختلف النحويون في انتصاب فتتين، فقال الأخفش، والبصريون على الحال، كقولك: مالك قائماً. وقال الكوفيون انتصابه على أنه خبر لكان، وهي مضمرة، والتقدير: فما لكم في المنافقين كنتم فتتين. وسبب نزول الآية ما سيأتي، وبه يتضح المعنى.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ﴾ معناه ردهم إلى الكفر ﴿بما كسبوا﴾ وحكى الفراء، والنضر بن شميل، والكسائي أركسهم، وركسهم، أي: ردهم إلى الكفر، ونكسهم، فالركس والنكس: قلب الشيء على رأسه، أو ردّ لوله إلى آخره، والمنكوس المركوس، وفي قراءة عبد الله بن مسعود وأبي ﴿وَاللَّهُ رَكْسَهُمْ﴾ ومنه قول عبد الله بن رواحة:

أركسوا في نفة مظلمة كسواد الليل يتلوهما فتن والباء في قوله: ﴿بما كسبوه﴾ سببية، أي: أركسهم بسبب كسبهم، وهو لحوقهم بدار الكفر، والاستفهام في قوله: ﴿اتريدون أن تهتدوا من أضل الله﴾ للتقريع والتوبيخ، وفيه دليل على أن من أضله الله لا تنجح فيه هداية البشر ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾. [القصص: 56] قوله: ﴿ومن يضل الله فلن تجد له سبيلاً﴾ أي: طريقاً إلى الهداية. قوله: ﴿وَوَلَّوْا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ هذا كلام مستأنف يتضمن بيان حال هؤلاء المنافقين، وإيضاح أنهم يؤنون أن يكفر

المؤمنون، كما كفروا، ويتمنوا ذلك عناداً، وغلوّاً في الكفر، وتمايلاً في الضلال، فالكاف في قوله: ﴿كَمَا﴾ نعت مصدر محذوف، أي: كفوّاً مثل كفرهم، أو حال، كما روي عن سيبويه. قوله: ﴿فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ عطف على قوله: ﴿تَكْفُرُونَ﴾ داخل في حكمه، أي: ونوا كفركم ككفرهم، وولوا مساواتكم لهم. قوله: ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ جواب شرط محذوف، أي: إذا كان حالهم ما نكر، فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يؤمنوا، ويحققوا إيمانهم بالهجرة ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن ذلك ﴿فَخُذُوهُمْ﴾ إذا قترتم عليهم ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ﴾ حيث وجبتهم في الحل، والحرم ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا﴾ قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَمِيلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ هو: المستثنى من قوله: ﴿فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ﴾ أي: إلا الذين يتصلون، ويدخلون في قوم بينكم، وبينهم ميثاق بالجوار، والحلف، فلا تقتلوهما لما بينهم وبين من بينكم وبينهم عهد وميثاق، فإن العهد يشملهم، هذا أصح ما قيل في معنى الآية، وقيل الاتصال هنا: هو اتصال النسب. والمعنى: إلا الذين ينتسبون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق قاله أبو عبيدة، وقد انكر ذلك أهل العلم عليه؛ لأن النسب لا يمنع من القتال بالإجماع، فقد كان بين المسلمين وبين المشركين أنساب، ولم يمنع ذلك من القتال. وقد اختلف في هؤلاء القوم الذين كان بينهم وبين رسول الله ﷺ ميثاق، فقيل: هم قريش كان بينهم وبين النبي ﷺ ميثاق ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ﴾ إلى قريش هم: بنو منلج، وقيل: نزلت في هلال بن عويم، وسراقة بن جعشم، وخزيمة بن عامر بن عبد مناف كان بينهم، وبين النبي ﷺ عهد، وقيل: خزاعة، وقيل: بنو بكر بن زيد. قوله: ﴿أَوْ جَاؤُوكُمْ حَصَرْتُمْ صُدُورَهُمْ﴾ عطف على قوله: ﴿يَصِلُونَ﴾ داخل في حكم الاستثناء، أي: إلا الذين يصلون، والذين جاؤوكم، ويجوز أن يكون عطفاً على صفة قوم، أي: إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق، والذين يصلون إلى قوم جاؤوكم حصرتم صدورهم، أي: ضاقت صدورهم، عن القتال، فامسكوا عنه، والحصر: الضيق، والانقباض. قال الفراء: وهو أي: حصرتم صدورهم حال من المضمر المرفوع في جاؤوكم، كما تقول: جاء فلان ذهب عقله، أي: قد ذهب عقله. وقال الزجاج: هو خبر بعد خبر، أي: جاؤوكم، ثم أخبر، فقال: ﴿حَصَرْتُمْ صُدُورَهُمْ﴾ فعلى هذا يكون حصرت بدلا من جاؤوكم، وقيل: حصرت في موضع خفض على النعت لقوم، وقيل التقدير: أو جاؤوكم رجال، أو قوم حصرتم صدورهم. وقرأ الحسن: ﴿أَوْ جَاؤُوكُمْ حَصْرَةَ صُدُورِهِمْ﴾ نصباً على الحال. وقرئ حصرات، وحاصرات، وقال محمد بن يزيد المبركة: حصرت صدورهم هو دعاء عليهم، كما تقول لمن الله الكافر، وضعفه بعض المفسرين، وقيل: أو بمعنى الواو. وقوله: ﴿إِنْ يَقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ﴾ هو متعلق بقوله: ﴿حَصَرْتُمْ صُدُورَهُمْ﴾ أي: حصرتم صدورهم عن قتالكم، والقتال معكم

الاستفهام في قوله: ﴿مَالِكُمْ﴾ للإنكار، واسم الاستفهام مبتدأ، وما بعده خبره. والمعنى أي: شيء كائن لكم ﴿في المنافقين﴾ أي: في أمرهم وشأنهم حال كونكم ﴿ففتتين﴾ في ذلك. وحاصله الإنكار على المخاطبين أن يكون لهم شيء يوجب اختلافهم في شأن المنافقين. وقد اختلف النحويون في انتصاب فتتين، فقال الأخفش، والبصريون على الحال، كقولك: مالك قائماً. وقال الكوفيون انتصابه على أنه خبر لكان، وهي مضمرة، والتقدير: فما لكم في المنافقين كنتم فتتين. وسبب نزول الآية ما سيأتي، وبه يتضح المعنى.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ﴾ معناه ردهم إلى الكفر ﴿بما كسبوا﴾ وحكى الفراء، والنضر بن شميل، والكسائي أركسهم، وركسهم، أي: ردهم إلى الكفر، ونكسهم، فالركس والنكس: قلب الشيء على رأسه، أو ردّ لوله إلى آخره، والمنكوس المركوس، وفي قراءة عبد الله بن مسعود وأبي ﴿وَاللَّهُ رَكْسَهُمْ﴾ ومنه قول عبد الله بن رواحة:

أركسوا في نفة مظلمة كسواد الليل يتلوهما فتن والباء في قوله: ﴿بما كسبوه﴾ سببية، أي: أركسهم بسبب كسبهم، وهو لحوقهم بدار الكفر، والاستفهام في قوله: ﴿اتريدون أن تهتدوا من أضل الله﴾ للتقريع والتوبيخ، وفيه دليل على أن من أضله الله لا تنجح فيه هداية البشر ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾. [القصص: 56] قوله: ﴿ومن يضل الله فلن تجد له سبيلاً﴾ أي: طريقاً إلى الهداية. قوله: ﴿وَوَلَّوْا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ هذا كلام مستأنف يتضمن بيان حال هؤلاء المنافقين، وإيضاح أنهم يؤنون أن يكفر

الاستفهام في قوله: ﴿مَالِكُمْ﴾ للإنكار، واسم الاستفهام مبتدأ، وما بعده خبره. والمعنى أي: شيء كائن لكم ﴿في المنافقين﴾ أي: في أمرهم وشأنهم حال كونكم ﴿ففتتين﴾ في ذلك. وحاصله الإنكار على المخاطبين أن يكون لهم شيء يوجب اختلافهم في شأن المنافقين. وقد اختلف النحويون في انتصاب فتتين، فقال الأخفش، والبصريون على الحال، كقولك: مالك قائماً. وقال الكوفيون انتصابه على أنه خبر لكان، وهي مضمرة، والتقدير: فما لكم في المنافقين كنتم فتتين. وسبب نزول الآية ما سيأتي، وبه يتضح المعنى.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ﴾ معناه ردهم إلى الكفر ﴿بما كسبوا﴾ وحكى الفراء، والنضر بن شميل، والكسائي أركسهم، وركسهم، أي: ردهم إلى الكفر، ونكسهم، فالركس والنكس: قلب الشيء على رأسه، أو ردّ لوله إلى آخره، والمنكوس المركوس، وفي قراءة عبد الله بن مسعود وأبي ﴿وَاللَّهُ رَكْسَهُمْ﴾ ومنه قول عبد الله بن رواحة:

أركسوا في نفة مظلمة كسواد الليل يتلوهما فتن والباء في قوله: ﴿بما كسبوه﴾ سببية، أي: أركسهم بسبب كسبهم، وهو لحوقهم بدار الكفر، والاستفهام في قوله: ﴿اتريدون أن تهتدوا من أضل الله﴾ للتقريع والتوبيخ، وفيه دليل على أن من أضله الله لا تنجح فيه هداية البشر ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾. [القصص: 56] قوله: ﴿ومن يضل الله فلن تجد له سبيلاً﴾ أي: طريقاً إلى الهداية. قوله: ﴿وَوَلَّوْا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ هذا كلام مستأنف يتضمن بيان حال هؤلاء المنافقين، وإيضاح أنهم يؤنون أن يكفر

الاستفهام في قوله: ﴿مَالِكُمْ﴾ للإنكار، واسم الاستفهام مبتدأ، وما بعده خبره. والمعنى أي: شيء كائن لكم ﴿في المنافقين﴾ أي: في أمرهم وشأنهم حال كونكم ﴿ففتتين﴾ في ذلك. وحاصله الإنكار على المخاطبين أن يكون لهم شيء يوجب اختلافهم في شأن المنافقين. وقد اختلف النحويون في انتصاب فتتين، فقال الأخفش، والبصريون على الحال، كقولك: مالك قائماً. وقال الكوفيون انتصابه على أنه خبر لكان، وهي مضمرة، والتقدير: فما لكم في المنافقين كنتم فتتين. وسبب نزول الآية ما سيأتي، وبه يتضح المعنى.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ﴾ معناه ردهم إلى الكفر ﴿بما كسبوا﴾ وحكى الفراء، والنضر بن شميل، والكسائي أركسهم، وركسهم، أي: ردهم إلى الكفر، ونكسهم، فالركس والنكس: قلب الشيء على رأسه، أو ردّ لوله إلى آخره، والمنكوس المركوس، وفي قراءة عبد الله بن مسعود وأبي ﴿وَاللَّهُ رَكْسَهُمْ﴾ ومنه قول عبد الله بن رواحة:

أركسوا في نفة مظلمة كسواد الليل يتلوهما فتن والباء في قوله: ﴿بما كسبوه﴾ سببية، أي: أركسهم بسبب كسبهم، وهو لحوقهم بدار الكفر، والاستفهام في قوله: ﴿اتريدون أن تهتدوا من أضل الله﴾ للتقريع والتوبيخ، وفيه دليل على أن من أضله الله لا تنجح فيه هداية البشر ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾. [القصص: 56] قوله: ﴿ومن يضل الله فلن تجد له سبيلاً﴾ أي: طريقاً إلى الهداية. قوله: ﴿وَوَلَّوْا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ هذا كلام مستأنف يتضمن بيان حال هؤلاء المنافقين، وإيضاح أنهم يؤنون أن يكفر

الآية، قال: نسختها براءة ﴿فإذا أسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجبتموه﴾ [التوبة: 5]. وأخرج ابن جرير وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن السدي: ﴿حصرت صدورهم﴾ يقول: ضاقت صدورهم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن الربيع ﴿والقوا إليكم السلم﴾ قال: الصلح. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿فإن اعتزلوكم﴾ الآية، قال: نسختها: ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجبتموه﴾ [التوبة: 5] وأخرج ابن جرير، عن الحسن، وعكرمة في هذه الآية قال: نسختها براءة وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿ستجدون آخرين﴾ الآية، قال: ناس من أهل مكة كانوا ياتون النبي ﷺ، فيسلمون رياء، ثم يرجعون إلى قومهم، فيرتكسون في الأوثان يبتغون بذلك أن يأمنوا هاهنا وهاهنا، فأمر بقتالهم إن لم يعتزلوا، ويصالحوا. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة أنهم ناس كانوا بتهامة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي أنها نزلت في نعيم ابن مسعود.

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةً وَدِيَّةٌ مُسْكُةٌ لِّإِخْوَيْهِ إِنْ أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمُ مِّمْلَةٌ فِدْيَةٌ مُسْكُةٌ لِّإِخْوَيْهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فِدْيَةً مِنْ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ فَوَدْيَةٌ مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٥٣﴾ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾

قوله: ﴿وما كان لمؤمن﴾ هذا النفي هو بمعنى النهي المقضي للتحريم كقوله: ﴿وما كان لكم أن تؤثروا رسول الله﴾ [الأحزاب: 53] ولو كان هذا النفي على معناه لكان خيراً، وهو يستلزم صفة، فلا يوجد مؤمن قتل مؤمناً قط؛ وقيل المعنى: ما كان له ذلك في عهد الله، وقيل: ما كان له ذلك فيما سلف، كما ليس له الآن ذلك بوجه، ثم استثنى منه استثناء منقطعاً فقال: إلا خطأ، أي: ما كان له أن يقتله البتة، لكن إن قتله خطأ فعليه كذا، هذا قول سيوي، والزجاج، وقيل: هو استثناء متصل؛ والمعنى: وما ثبت، ولا وجد، ولا ساغ لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ إذ هو مغلوب حينئذ، وقيل: المعنى: ولا خطأ. قال النحاس: ولا يعرف ذلك في كلام العرب، ولا يصح في المعنى؛ لأن الخطأ لا يحظر؛ وقيل: إن المعنى: ما ينبغي أن يقتله لعله من العلل إلا للخطأ وحده، فيكون قوله خطأ منتصباً بأنه مفعول له، ويجوز أن ينتصب على الحال، والتقدير: لا يقتله في حال من الأحوال إلا في حال الخطأ، ويجوز أن يكون صفة لمصدر محذوف، أي: إلا قتلاً خطأ، ووجه الخطأ كثرة، ويضبطها عدم القصد، والخطأ الاسم من أخطأ خطأ إذا لم يتعمد. قوله:

لقومهم، فضاقت صدورهم عن قتال الطائفتين، وكرهوا ذلك ﴿ولو شاء الله لسلطهم عليكم﴾ ابتلاء منه لكم، واختباراً، كما قال سبحانه: ﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم﴾ [محمد: 31] أو تحصيأ لكم، أو عقوبة بنوئكم، ولكنه سبحانه لم يشأ ذلك، واللام في قوله: ﴿فلقاتلوكم﴾ جواب لو على تكرير الجواب، أي: لو شاء الله لسلطهم، ولقاتلوكم، والفاء للتعقيب ﴿فإن اعتزلوكم﴾ ولم يتعرضوا لقتالكم ﴿والقوا إليكم السلم﴾ أي: استسلموا لكم، وانقلبوا ﴿فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً﴾ أي: طريقاً، فلا يحل لكم قتلهم، ولا أسرهم، ولا نهب أموالهم، فهذا الاستسلام يمنع من ذلك، ويحرمه ﴿ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم﴾ فيظهرون لكم الإسلام، ويظهرون لقومهم الكفر؛ ليأمنوا من كلا الطائفتين، وهم قوم من أهل تهامة طلبوا الأمان من رسول الله ﷺ؛ ليأمنوا عنده، وعند قومهم وقيل هي في قوم من أهل مكة، وقيل: في نعيم بن مسعود، فإنه كان يامن المسلمين، والمشركون، وقيل: في قوم من المنافقين، وقيل: في أسد وغطفان ﴿كلما رتوا إلى الفتنة﴾ أي: دعاهم قومهم إليها، وطلبوا منهم قتال المسلمين ﴿أركسوا فيها﴾ أي: قلبوا فيها، فرجعوا إلى قومهم، وقاتلوا المسلمين، ومعنى الارتكاس: الانتكاس ﴿فإن لم يعتزلوكم﴾ يعني: هؤلاء الذين يريدون أن يأمنوكم، ويأمنوا قومهم ﴿ويلقوا إليكم السلم﴾ أي: يستسلمون لكم، ويدخلون في عهدكم، وصلحكم، وينسلخون عن قومهم ﴿ويكفوا أيديهم﴾ عن قتالكم ﴿فخذوهم واقتلوهم حيث ثقتموهم﴾ أي: حيث وجبتموه وتمكنتم منهم ﴿وولولنكم﴾ الموصوفون بتلك الصفات ﴿جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً﴾ أي: حجة واضحة تتسلطون بها عليهم، وتقهرونهم بها بسبب ما في قلوبهم من المرض، وما في صدورهم من الدغل، وارتكاسهم في الفتنة بأيسر عمل، وأقل سعي.

وقد أخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما من حديث زيد بن ثابت أن رسول الله ﷺ خرج إلى أحد، فرجع ناس خرجوا معه، فكان أصحاب رسول الله ﷺ فيهم فرقتين، فرقة تقول نقتلهم، وفرقة تقول لا، فأنزل الله: ﴿فما لكم في المنافقين فئتين﴾ الآية كلها، فقال رسول الله ﷺ: إنها طيبة، وإنها تنفي الخبث، كما تنفي النار خبث القضة. هذا أصح ما روي في سبب نزول الآية، وقد رويت أسباب غير ذلك. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس: ﴿وواله أركسهم﴾ يقول: أوقعهم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه قال: ردهم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾ قال: نزلت في هلال بن عويمر، وسراقة بن مالك المملجي، وفي بني خزيمية بن عامر بن عبد مناف. وأخرج أبو داود في ناسخه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والنحاس، والبيهقي في سننه عنه في قوله: ﴿إلا الذين يصلون﴾

وغيرهما: هو القتل بحديدة كالسيف، والخنجر، وسنان الرمح، ونحو ذلك من المحدد، أو بما يعلم أن فيه الموت من ثقال الحجارة، ونحوها. وقال الجمهور: إنه كل قتل من قاتل قاصد للفعل بحديدة، أو بحجر، أو بمصص، أو بغير ذلك، وقيد بعض أهل العلم بأن يكون بما يقتل مثله في العادة. وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن القتل ينقسم إلى ثلاثة أقسام: عمد، وشبه عمد، وخطأ. واستدلوا على ذلك بأدلة ليس هذا مقام بسطها. وذهب آخرون إلى أنه ينقسم إلى قسمين: عمد، وخطأ ولا ثالث لهما. واستدلوا بأنه ليس في القرآن إلا القسمان. ويجب عن ذلك بأن اقتصر القرآن على القسمين لا ينفي ثبوت قسم ثالث بالسنة، وقد ثبت ذلك في السنة. وقد جاءت هذه الآية بتغليظ عقوبة القاتل عمداً، فجمع الله له فيها بين كون جهنم جزءاً له، أي: يستحقها بسبب هذا الذنب، وبين كونه خالداً فيها، وبين غضب الله عليه، ولعنته له، وإعداده له عذاباً عظيماً. وليس وراء هذا التشديد تشديد، ولا مثل هذا الوعيد وعيد. وانتصاب خالداً على الحال. وقوله: ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ معطوف على مقدر، يدل عليه السياق، أي: جعل جزاءه جهنم، أو حكم عليه، أو جزاءه، وغضب عليه، وأعد له.

وقد اختلف العلماء هل لقاتل العمد من توبة أم لا توبة له؟ فروى البخاري عن سعيد بن جبير قال: اختلف فيها علماء أهل الكوفة، فرحلت فيها إلى ابن عباس، فسأته عنها، فقال: نزلت هذه الآية: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً﴾ وهي آخر ما نزل، وما نسختها شيء، وقد روى النسائي عنه نحو هذا. وروى النسائي، عن زيد بن ثابت نحوه، وممن ذهب إلى أنه لا توبة له من السلف أبو هريرة، وعبد الله بن عمرو، وأبو سلمة، وعبيد بن عمير، والحسن، وقتادة، والضحاك بن مزاحم، نقله ابن أبي حاتم، عنهم. وذهب الجمهور إلى أن التوبة منه مقبولة، واستدلوا بمثل قوله تعالى: ﴿إِنْ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: 114] وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [الشورى: 25]. وقوله: ﴿وَيُغْفِرُ مَا بُونِ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: 48]، قالوا أيضاً: والجمع ممكن بين آية النساء هذه، وآية الفرقان، فيكون معناهما: فجزاؤه جهنم إلا من تاب، لا سيما، وقد اتحد السبب، وهو: القتل، والموجب، وهو: التوعد بالعقاب. واستدلوا أيضاً بالحديث المذكور في الصحيحين، عن عبادة بن الصامت أنه رضي الله عنه قال: «قال بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تزنوا، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ثم قال: فمن أصاب من ذلك شيئاً، فستره الله، فهو إلى الله إن شاء عفا عنه، وإن شاء عذبه» وبحديث أبي هريرة الذي أخرجه مسلم في صحيحه، وغيره، في الذي قتل مائة نفس، وذهب جماعة منهم أبو حنيفة، وأصحابه، والشافعي إلى أن القاتل عمداً داخل تحت المشيئة تاب، أو لم يتب. وقد أوضحت في شرحي على المنتقى متمسك كل فريق.

والحق أن باب التوبة لم يغلّق بون كل عاص، بل هو

﴿فتحرير رقبة مؤمنة﴾ أي: فعلية تحرير رقبة مؤمنة يعتقها كفاً عن قتل الخطأ، وعبر بالرقبة عن جميع لذات.

واختلف العلماء في تفسير الرقبة المؤمنة، فقيل: هي التي صلت، وعقلت الإيمان فلا تجزئ الصغيرة، وبه قال ابن عباس، والحسن، والشعبي، والنخعي، وقتادة، وغيرهم. وقال عطاء بن أبي رباح: إنها تجزئ الصغيرة المولودة بين مسلمين. وقال جماعة منهم مالك، والشافعي: يجزيء كل من حكم له بوجوب الصلاة عليه إن مات، ولا يجزيء في قول جمهور العلماء أعمى، ولا مقعد، ولا أشل، ويجزيء عند الأكثر الأعرج، والأعور. قال مالك: إلا أن يكون عرجاً شديداً. ولا يجزيء عند أكثرهم المجنون، وفي المقام تفاصيل طويلة مذكورة في علم الفروع. قوله: ﴿وَبِوَيْةٍ مُسْلِمَةٍ إِلَى أَهْلِهِ﴾ الآية: ما تعطى عوضاً عن دم المقتول إلى ورثته، والمسلمة: المنفوعة المؤداة، والأهل المراد بهم: الورثة، وأجناس البنية، وتفصيلها قد بينتها السنة المطهرة. قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَصْدُقُوا﴾ أي: إلا أن يتصدق أهل المقتول على القاتل بالدية، سمي العفو عنها صفة ترغيباً فيه. وقرأ أبي: إلا يتصدقوا، وهذه الجملة المستثناة متعلقة بقوله: ﴿فَبِئْسَ مَسْئَلَةٌ﴾ أي: فعلية بية مسلمة إلا أن يقع العفو من الورثة عنها. قوله: ﴿فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ﴾ أي: فإن كان المقتول من قوم عدو لكم، وهم الكفار الحربيون، وهذه مسئلة المؤمن الذي يقتله المسلمون في بلاد الكفار الذين كان منهم، ثم أسلم، ولم يهاجر، وهم يظنون أنه لم يسلم، وأنه باق على دين قومه، فلا دية على قاتله بل عليه تحرير رقبة مؤمنة. واختلفوا في وجه سقوط الدية، فقيل: وجهه أن أولياء القتيل كفار لا حق لهم في الدية، وقيل: وجهه أن هذا الذي آمن، ولم يهاجر حرمة قليلة لقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يهاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنفال: 72] وقال: بعض أهل العلم إن دية واجبة لبيت المال. قوله: ﴿وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ أي: مؤقت، أو مؤبد. وقرأ الحسن: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَبِئْسَ مَسْئَلَةٌ إِلَى أَهْلِهِ﴾ أي: فعلى قاتله دية مؤداة إلى أهله من أهل الإسلام، وهم ورثته. ﴿وتحرير رقبة مؤمنة﴾ كما تقدم ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ أي: الرقبة، ولا اتسع ماله لشراؤها ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ أي: فعليه صيام شهرين متتابعين، لم يفصل بين يومين من أيام صومهما إقطار في نهار، فلو أقطر استأنف، هذا قول الجمهور، وأما الإقطار لعذر شرعي كالحيض، ونحوه، فلا يوجب الاستئناف. واختلف في الإقطار لعرض المرض. قوله: ﴿تُوبَةٌ مِنَ اللَّهِ﴾ منصوب على أنه مفعول له، أي: شرع ذلك لكم توبة، أي: قبولاً لتوبتكم، أو منصوب على المصيرية، أي: تاب عليكم توبة، وقيل: منصوب على الحال أي: حال كونه ذا توبة كائنة من الله. قوله: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾ لما بين سبله حكم القاتل خطأ بين حكم القاتل عمداً.

وقد اختلف العلماء في معنى العمد، فقال عطاء، والنخعي،

مفتوح لكل من قصده ورام الدخول منه، وإذا كان الشرك، وهو أعظم الذنوب، وأشدّها تمحوه التوبة إلى الله، ويقبل من صاحبه الخروج منه، والدخول في باب التوبة، فكيف بما دونه من المعاصي التي من جملتها القتل عمداً، لكن لا بدّ في توبة قاتل العمد من الاعتراف بالقتل، وتسليم نفسه للقصاص إن كان واجباً، أو تسليم الدية إن لم يكن القصاص واجباً، وكان القاتل غنياً متمكناً من تسليمها، أو بعضها، وأما مجرد التوبة من القاتل عمداً، وعزمه على أن لا يعود إلى قتل أحد من دون اعتراف، ولا تسليم نفس، فنحن لا نقطع بقبولها، والله أرحم الراحمين، هو الذي يحكم بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَا﴾ يقول: ما كان له ذلك فيما أتاه من ربه من عهد الله الذي عهد إليه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ﴾ الآية، قال: إن عياش بن أبي ربيعة قتل رجلاً مؤمناً كان يعنّبه هو وأبو جهل، وهو أخوه لأمه في اتباع النبي ﷺ، وعياش يحسب أن ذلك للرجل كافر. وأوضح من هذا السياق ما أخرجه ابن جرير عن عكرمة قال: كان الحارث بن يزيد من بني عامر بن لؤي يعنّبه عياش بن أبي ربيعة مع أبي جهل، ثم خرج مهاجراً إلى النبي ﷺ، يعني: الحارث، فلقبه عياش بالحرّة فعلاه بالسيف، وهو يحسب أنه كافر، ثم جاء إلى النبي ﷺ، فأخبره، فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَا﴾ الآية، فقرأها النبي ﷺ، ثم قال له: قم فحرّر. وأخرجه ابن جرير، وابن المنذر، عن السدي بأطول من هذا. وقد روي من طرق غير هذه. وأخرج ابن جرير، عن ابن زيد قال: نزلت في رجل قتله أبو الدرداء كان في سرية، فعدّل أبو الدرداء إلى شعب يريد حاجة له، فوجد رجلاً من القوم في غنم فحمل عليه بالسيف، فقال لا إله إلا الله، فضربه. وأخرج ابن منده، وأبو نعيم نحو ذلك، ولكن فيه أن الذي قتل المتعمّد بكلمة الشهادة هو: بكر بن حارثة الجهني. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَتَحْرِيرَ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ قال: يعني بالمؤمنة من قد عقل الإيمان وصلى. وكل رقبة في القرآن لم تسم مؤمنة، فإنه يجوز المولود، فما فوقه ممن ليس به زمانة، وفي قوله: ﴿وَدِيَّةً مَسْلُومَةً إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ الآية، فإن يصنقوا قال: عليه الدية مسلمة إلا أن يتصنق بها عليه. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، عن قتادة قال: في حرف أبي فتححرير رقبة مؤمنة لا يجزئ فيها صبي. وأخرج عبد بن حميد، وأبو داود، والبيهقي، عن أبي هريرة: «أن رجلاً أتى النبي ﷺ بجارية سوداء، فقال: يا رسول الله إن علي عتق رقبة مؤمنة، فقال لها: أين الله؟ فأشارت إلى السماء بأصبعها، فقال لها: فمن أنا؟ فأشارت إلى رسول الله ﷺ وإلى السماء، أي: أنت رسول الله، فقال: اعتقها، فإنها

مؤمنة». وقد روي من طرق، وهو في صحيح مسلم من حديث معاوية بن الحكم السلمي. وقد وردت أحاديث في تقدير الدية، وفي الفرق بين دية الخطأ، ودية شبه العمد، ودية المسلم، ودية الكافر، وهي معروفة، فلا حاجة لنا في نكرها في هذا الموضع. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، عن إبراهيم النخعي في قوله: ﴿وَدِيَّةً مَسْلُومَةً إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ قال: هذا المسلم الذي ورثته مسلمون: ﴿فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُمْ مُؤْمِنٌ﴾ قال: هذا الرجل المسلم، وقومه مشركون، وليس بينهم وبين رسول الله عقد ﴿وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ قال: هذا الرجل المسلم، وقومه مشركون، وبينهم وبين رسول الله عقد، فيقتل، فيكون ميراثه للمسلمين، وتكون بيته لقومه: لأنهم يعقلون عنه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُمْ مُؤْمِنٌ﴾ يقول: فإن كان في أهل الحرب، وهو مؤمن، فقتله خطأ، فعلى قاتله أن يكفر بتحرير رقبة مؤمنة، أو صيام شهرين متتابعين، ولا دية عليه، وفي قوله: ﴿وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ يقول: إذا كان كافراً في نعمتكم، فقتل، فعلى قاتله الدية مسلمة إلى أهله، وتحرير رقبة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن طريق عطاء بن السائب عن أبي عياض قال: كان الرجل يجيء، فيسلم، ثم يأتي قومه، وهم مشركون، فيقيم فيهم، فتغزوهم جيوش النبي ﷺ، فيقتل الرجل، فيمن يقتل، فانزل الله هذه الآية: ﴿وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُمْ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرَ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ وليست له دية. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه من طريق عطاء بن السائب عن أبي يحيى، عن ابن عباس نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جببر في قوله: ﴿تُوبَةً مِنَ اللَّهِ﴾ يعني تجاوزاً من الله لهذه الأمة حيث جعل في قتل الخطأ الكفارة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن عكرمة: أن رجلاً من الأنصار قتل أخاً مقيس بن صباب، فأعطاه النبي ﷺ الدية، فقبلها، ثم وثب على قاتل أخيه، وفيه نزلت الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جببر نحوه، وفيه أن مقيس بن صباب لحق بمكة بعد ذلك، وارتد عن الإسلام. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا﴾ بعد التي في سورة الفرقان بشأن سنين، وهي قوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [الفرقان: 68] إلى قوله: ﴿غَفُورًا رَحِيمًا﴾. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، عن زيد بن ثابت أن قوله: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا﴾ نزلت بعد قوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ بستة أشهر. وأخرج ابن المنذر عنه قال: نزلت هذه الآية التي في النساء بعد قوله: ﴿وَيُغْفَرُ مَا بَيْنَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: 116] بأربعة أشهر، والآثار عن الصحابة في هذا كثيرة جداً،

المفهوم من نكر عدم الاستواء إجمالاً، والمراد هنا: غير أولى الضرر حلاً للمطلق على المقيد، وقال هنا: «درجة»، وفيما بعد: «درجات» فقال قوم: التفضيل بالدرجة، ثم بالدرجات، إنما هو مبالغة، وبيان، وتأكيد. وقال آخرون: فضل الله المجاهدين على القاعدين من أولى الضرر بدرجة واحدة، وفضل الله المجاهدين على القاعدين من غير أولى الضرر بدرجات، قاله ابن جريج، والسدي، وغيرهما، وقيل: إن معنى درجة علو، أي: أعلى نكرهم، ورفعهم بالثناء، والمدح، ودرجة منتصبة على التمييز، أو المصدرية لوقوعها موقع المرة من التفضيل، أي: فضل الله تفضيله، أو على نزاع الخافض، أو على الحالية من المجاهدين أي: نوي درجة. قوله: «وكلما» مفعول أول لقوله: «وعد الله» قدم عليه لإفادته القصر، أي: كل واحد من المجاهدين، والقاعدين، وعده الله الحسن، أي: المثوبة، وهي الجنة. قوله: «أجرأ» هو: منتصب على التمييز، وقيل: على المصدرية؛ لأن فضل بمعنى أجر، فالتقدير أجرهم أجرأ، وقيل: مفعول ثان لفضل لتضمنه معنى الإعطاء، وقيل: منصوب بنزع الخافض، وقيل: على الحال من درجات مقدم عليها، وأما انتصاب درجات، ومغفرة ورحمة: فهي بدل من أجرأ، وقيل: إن مغفرة، ورحمة ناصبهما أفعال مقترنة، أي: غفر لهم مغفرة، ورحمهم رحمة.

وقد أخرج البخاري وأحمد، وأبو داود والترمذي والنسائي وغيرهم عن زيد بن ثابت أن رسول الله ﷺ أملى عليه: «لا يستوي القاعدون من المؤمنين، والمجاهدون في سبيل الله فجاهد ابن أم مكتوم، وهو يملأها علي، فقال: يا رسول الله لو أستطيع الجهاد لجاهدت، وكان أعمى؟» فأنزل الله على رسوله ﷺ، وفخذه على فخذيه: «غير أولى للضرر». وقد أخرج هذا المعنى عبد بن حميد، والترمذي، وابن جرير، وابن أبي حاتم من حديث البراء، وأخرجه أيضاً سعيد بن منصور، وأحمد، وأبو داود، وابن المنذر، والطبراني، والحاكم وصححه، من حديث خازجة بن زيد بن ثابت عن أبيه. وأخرج الترمذي، وحسنه، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال: «لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولى للضرر» عن بدر، والخارجون إلى بدر. وأخرجه عنه أيضاً عبد الرزاق، وعبد بن حميد، والبخاري، وابن جرير، وابن المنذر. وأخرج عبد بن حميد، والطبراني، والبيهقي عنه قال: نزلت في قوم كانت تشغلهم أمراض، وأوجاع، فأنزل الله عنهم من السماء. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، عن أنس بن مالك قال: نزلت هذه الآية في ابن أم مكتوم، ولقد رأيت في بعض مشاهد المسلمين معه اللواء. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن جريج في قوله: «فضل الله المجاهدين بأمولهم وأنفسهم على القاعدين درجة» قال: على أهل الضرر. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن قتادة في قوله: «وكلما وعد الله الحسن» قال: الجنة. وأخرج ابن جرير، عن ابن جريج قال: كان يقال

إن الأرض تقبل من هو شر من صاحبكم، ولكن الله أراد أن يعظكم، ثم طرحوه في جبل، وألقوا عليه الحجارة، فنزلت: «يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم الآية. وأخرج البزار، والدارقطني في الإفراد، والطبراني، والضياء في المختارة، عن ابن عباس أن سبب نزول الآية: أن المقداد بن الأسود قتل رجلاً بعد ما قال لا إله إلا الله. وفي سبب النزول روايات كثيرة، وهذا الذي نكرناه أحسنها. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة في قوله: «وكنك كنتم من قبل» قال: تستخفون بإيمانكم، كما استخفى هذا الراعي بإيمانه، يعني: الذين قتلوه بعد أن ألقى إليهم السلام وفي لفظ تكتمون إيمانكم من المشركين: «فمن الله عليكم» فظاهر الإسلام، فأعلنتم إيمانكم: «ففتبينوا» قال: وعيد من الله ثان. وأخرج عبد بن حميد، عن قتادة في قوله: «وكنك كنتم من قبل» قال: كنتم كفاراً حتى من الله عليكم بالإسلام، وهذا كله.

لَا يَسْتَوِي الْقَائِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى أُولَى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَائِدِينَ دَرَجَةً وَلَا يَسْتَوِي مَنْ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَنْ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزُومًا رَحِيمًا ﴿١٥﴾ رَزَقْنَاهُ مِنْهُ رَحْمَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ عَزُومًا رَحِيمًا ﴿١٦﴾

التفاوت بين درجات من قعد عن الجهاد من غير عذر، ودرجات من جاهد في سبيل الله بماله، ونفسه، وإن كان معلوماً، لكن أراد سبحانه بهذا الإخبار تنشيط المجاهدين ليرغبوا، وتبكي القاعدين، ليأمنوا. قوله: «غير أولى للضرر» قرأ أهل الكوفة، وأبو عمرو بالرفع على أنه وصف للقاعدين، كما قال الأخفش: لأنهم لا يقصد بهم قوم بأعيانهم، فصاروا كالنكرة، فجاز وصفهم بغير. وقرأ أبو حيوة بكسر الراء على أنه وصف للمؤمنين. وقرأ أهل الحرمين بفتح الراء على الاستثناء من القاعدين، أو من المؤمنين، أي: إلا أولى الضرر، فإنهم يستوون مع المجاهدين. ويجوز أن يكون منتصباً على الحال من القاعدين، أي: لا يستوي القاعدون الأصحاء في حال صحتهم، وجازت الحال منهم؛ لأن لفظهم لفظ المعرفة. قال العلماء: أهل الضرر هم أهل الأعذار؛ لأنها أضرت بهم حتى منعتهم عن الجهاد، وظاهر النظم القرآني أن صاحب العذر يعطي مثل أجر المجاهد، وقيل: يعطى أجره من غير تضعيف، فيفضله المجاهد بالتضعيف لأجل المباشرة. قال القرطبي: والأول أصح إن شاء الله للحديث الصحيح في ذلك: «إن بالمدينة رجلاً ما قطعتم، وإنياً، ولا سرتم مسيراً إلا كانوا معكم أولئك قوم حبسهم العذر». قال: وفي هذا المعنى ما ورد في الخبر: «إذا مرض العبد قال الله تعالى: اكتبوا لعبدي ما كان يعمل في الصحة إلى أن يبرأ، أو أقبضه إلي». قوله: «فضل الله المجاهدين بأمولهم وأنفسهم على القاعدين درجة» هذا بيان لما بين الفريقين من التفاصل

والضمير. وقوله: ﴿من الرجال والنساء والولدان﴾ متعلق بمحذوف، أي: كاثنين منهم، والمراد بالمستضعفين من الرجال الزماني، ونحوهم، والولدان كعياش بن أبي ربيعة، وسلمة بن هشام، وإنما ذكر الولدان مع عدم التكليف لهم لقصد المبالغة في أمر الهجرة، وإيهام أنها تجب لو استطاعها غير المكلف، فكيف من كان مكلفاً، وقيل: أراد بالولدان المراهقين، والمماليك. قوله: ﴿لا يستطيعون حيلة﴾ صفة للمستضعفين، أو للرجال، والنساء، والولدان، أحوال من الضمير في المستضعفين، وقيل: الحيلة لفظ عام لأنواع أسباب التخلص، أي: لا يجنون حيلة، ولا طريقاً إلى ذلك، وقيل: السبيل: سبيل المدينة: ﴿فالولئك﴾ إشارة إلى المستضعفين الموصوفين بما ذكر ﴿عسى الله أن يعفو عنهم﴾ وجيء بكلمة الإطعام، لتأكيد أمر الهجرة، حتى يظن أن تركها ممن لا تجب عليه يكون ذنباً يجب طلب العفو عنه. قوله: ﴿ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة﴾ هذه الجملة متضمنة للترغيب في الهجرة، والتنشيط إليها. وقوله: ﴿في سبيل الله﴾ فيه دليل على أن الهجرة لا بد أن تكون بقصد صحيح، ونية خالصة غير مشوبة بشيء من أمور الدنيا، ومنه الحديث الصحيح: «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه».

وقد اختلف في معنى قوله سبحانه: ﴿يجد في الأرض مراغماً﴾ فقال ابن عباس، وجماعة من التابعين، ومن بعدهم: المراغم المتحول، والمذهب. وقال مجاهد: المراغم المتزحزح. وقال ابن زيد: المراغم المهاجر، وبه قال أبو عبيدة. قال النحاس: فهذه الأقوال متفقة المعاني، فالمرام: المذهب والمتحول، وهو الموضع الذي يراغم فيه، وهو مشتق من الرغام، وهو: التراب، ورغم أنف فلان، أي: لصق بالتراب، وراغمت فلاناً: هجرته، وعابيته، ولم أبال أن رغم أنفه، وقيل: إنما سمي مهاجراً، ومراغماً، لأن الرجل كان إذا أسلم عادى قومه، وهجرهم، فسمي خروجه مراغماً، وسمي مسيره إلى النبي ﷺ هجرة. والحاصل في معنى الآية أن المهاجر يجد في الأرض مكاناً يسكن فيه على رغم أنف قومه الذين هاجروهم، أي: على نلهم، وهوانهم. قوله: ﴿وسعة﴾ أي: في البلاد، وقيل: في الرزق، ولا مانع من حمل السعة على ما هو أعم من ذلك. قوله: ﴿ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله﴾ قرئ يدركه بالجزم على أنه معطوف على فعل الشرط، وبالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، وبالنصب على إضمار أن. والمعنى أن من أدركه الموت قبل أن يصل إلى مطلوبه، وهو المكان الذي قصد الهجرة إليه، أو الأمر الذي قصد الهجرة له: ﴿فقد وقع أجره على الله﴾ أي: ثبت ذلك عنده ثبوتاً لا يتخلف ﴿وكان الله غفوراً﴾ أي: كثير المغفرة ﴿رحيماً﴾ أي: كثير الرحمة. وقد استدل بهذه الآية على أن

الإسلام درجة، والهجرة درجة في الإسلام، والجهاد في الهجرة درجة، والقتل في الجهاد درجة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن محيريز في قوله: ﴿درجات﴾ قال: الدرجات سبعون درجة ما بين الدرجتين عدو الفرس الجواد المضمهر سبعين سنة. وأخرج نحوه عبد الرزاق في المصنف، عن أبي مجلز. وأخرج البخاري، والبيهقي في الأسما، والصفات عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين، كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله، فسلوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفرج أنهار الجنة».

إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْهُمُ النَّفْسُكَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا لَيْسَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِمَةً فَهَاجَرُوا فِيهَا قَالُوا لَكَ مَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١٠﴾ لَا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿١١﴾ قَالُوا لَكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَفْعَلَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا ﴿١٢﴾ وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَافًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٣﴾

قوله: ﴿توفاهم﴾ يحتمل أن يكون فعلاً ماضياً، وحذفت منه علامة التانيث؛ لأن تانيث الملائكة غير حقيقي، ويحتمل أن يكون مستقبل، والأصل تتوفاهم، فحذفت إحدى التاءين. وحكى ابن فورك، عن الحسن أن للمعنى تحشرهم إلى النار وقيل تقبض أرواحهم، وهو الظاهر. والمراد بالملائكة: ملائكة الموت لقوله تعالى: ﴿قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم﴾ [السجدة: 11]. وقوله: ﴿ظلمني أنفسهم﴾ حال، أي: في حال ظلمهم أنفسهم، وقول الملائكة: ﴿قيم كنتم﴾ سؤال توبيخ، أي: في شيء كنتم من أمور دينكم؟ وقيل المعنى: اكنتم في أصحاب النبي ﷺ أم كنتم مشركين، وقيل: إن معنى السؤال التقرع لهم بأنهم لم يكونوا في شيء من الدين. وقولهم: ﴿كنّا مستضعفين في الأرض﴾ يعني: مكة، لأن سبب النزول من أسلم بها، ولم يهاجر، كما سيأتي، ثم أوقفتم الملائكة على دينهم، والزمتمهم الحجة، وقطعت معذرتهم، فقالوا: ﴿الم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها﴾ قيل: المراد بهذه الأرض: المدينة، والأولى العموم اعتباراً بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، كما هو الحق، فيراد بالأرض كل بقعة من بقاع الأرض تصلح بالهجرة إليها، ويراد بالأرض الأولى كل أرض ينبغي الهجرة منها. قوله: ﴿ماواهم جهنم﴾ هذه الجملة خبر لأولئك، والجملة خبر إن في قوله: ﴿إن الذين توفاهم الملائكة﴾ ويدخل الفاء لتضمن اسم إن معنى الشرط: ﴿وساءت﴾ أي: جهنم ﴿مصيراً﴾ أي: مكاناً يصيرون إليه. قوله: ﴿إلا المستضعفين﴾ هو استثناء من الضمير في ماواهم، وقيل: استثناء منقطع لعدم دخول المستضعفين في الموصول،

وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿مِرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ قال: المِرَاعِمُ المتحوّل من أرض إلى أرض. والسعة: الرزق. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد: ﴿مِرَاعِمًا﴾ قال: متزحزحاً عما يكره. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عطاء في قوله: ﴿وَسَعَةً﴾ قال: ورخاء. وأخرج أيضاً عن مالك قال: سعة البلاد. وأخرج أبو يعلى، وابن أبي حاتم، والطبراني قال السيوطي بسند: رجاله ثقات عن ابن عباس قال: خرج ضمرة بن جندب من بيته مهاجراً، فقال لقومه احملوني، فأخرجوني من أرض الشرك إلى رسول الله ﷺ، فمات في الطريق قبل أن يصل إلى النبي ﷺ، فنزل الوحي: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من وجه آخر، عنه نحوه. وأخرج ابن سعد، وأحمد، والحاكم وصححه، عن عبد الله بن عتيك قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «من خرج من بيته مهاجداً في سبيل الله، وابن المجاهدون في سبيل الله؟ فخر عن دابته، فمات، فقد وقع أجره على الله، أو لدغته دابة، فمات فقد وقع أجره على الله، أو مات حتف أنفه، فقد وقع أجره على الله، يعني: بحتف أنفه على فراشه، والله إنها لكلمة ما سمعتها من أحد من العرب قبل رسول الله ﷺ، ومن قتل قصاصاً، فقد استوجب الجنة». وأخرج أبو يعلى، والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «من خرج حاجاً، فمات كتب له أجر الحاج إلى يوم القيامة، ومن خرج معتمراً، فمات كتب له أجر المعتمر إلى يوم القيامة، ومن خرج غازياً في سبيل الله، فمات كتب له أجر الغازي إلى يوم القيامة». قال ابن كثير: وهذا حديث غريب من هذا الوجه.

وَلَا كُنْتُمْ يَوْمَ فَاقَتِ لَهُمُ السَّلَوةُ فَلَنَقَمَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ مَّعَكُمْ وَلَا تَدْعُوا أَوْلِيَهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ أَلَيْسَ كُنُوزُكُمْ وَرَثَتُكُمْ وَلَأَنَّا طَائِفَةٌ أُخْرِجُوا لَمْ يَسْأَلُوا قَائِلًا مَّعَكُمْ وَلَا تَدْعُوا جَدَّكُمْ وَأَوْلِيَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَفَلَّوْا عَنْ أَوْلِيَتِكُمْ وَأَتَيْتُكُمْ قَبِيلُكُمْ مَيْلَةً وَجِدَّةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَدَى مِنْ مَّطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرَضًا أَنْ تَقَرُّوا أَوْلِيَتَكُمْ وَتَدْعُوا جَدَّكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١١﴾

قوله: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ﴾ قد تقدم تفسير الضرب في الأرض قريباً. قوله: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ فيه دليل على أن القصر ليس بواجب، وإليه ذهب الجمهور. وذهب الأقلون إلى أنه واجب، ومنهم عمر بن عبد العزيز، والكوفيون، والقاضي إسماعيل، وحمام بن أبي سليمان، وهو مروي عن مالك. واستدلوا بحديث عائشة الثابت في الصحيح: «فرضت الصلاة ركعتين ركعتين، فزيدت في الحضر، وأقرت في السفر» ولا يقدح في ذلك مخالفتها لما روت، فالعمل على الرواية الثابتة عن رسول الله ﷺ، ومثله حديث يعلى بن أمية قال: سألت عمر بن الخطاب قلت: «ليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتن أن يفتنكم النّين كفروا» وقد أمن الناس، فقال لي عمر: عجبت مما عجبت

الهجرة واجبة على كل من كان بدار الشرك، أو بدار يعمل فيها بمعاصي الله جهاراً إذا كان قادراً على الهجرة، ولم يكن من المستضعفين لما في هذه الآية الكريمة من العموم، وإن كان السبب خاصاً، كما تقدم. وظاهرها عدم الفرق بين مكان، ومكان، وزمان وزمان وقد ورد في الهجرة لحديث، وورد ما يدل على أنه لا هجرة بعد الفتح. وقد أوضحنا ما هو الحق في شرحنا على المنتقى، فليرجع إليه.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مروي، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس قال: كان قوم من أهل مكة أسلموا، وكانوا يستخفون بالإسلام، فأخرجهم المشركون معهم يوم بدر، فاصيب بعضهم، وقتل البعض، فقال المسلمون: قد كان أصحابنا هؤلاء مسلمين، وأكرموا، فاستغفروا لهم، فنزلت بهم هذه الآية: ﴿إِنَّ النّين توفاهم للملائكة ظالمي أنفسهم﴾ قال: فكتب إلى من بقي بمكة من المسلمين بهذه الآية، وأنه لا عذر لهم، فخرجوا، فلحقهم المشركون، فاعطوهم الفتنة، فنزلت فيهم هذه الآية: ﴿وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ﴾ [العنكبوت: 10] إلى آخر الآية فكتب المسلمون إليهم بذلك، فحزنوا، وأيسوا من كل خير، فنزلت فيهم: ﴿ثُمَّ لَنْ رِبِكْ لِلّين هَاجِرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فَتَنُوا ثُمَّ جَاحَدُوا وَصَبَرُوا إِنْ رِبِكْ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: 110] فكتبوا إليهم بذلك أن الله قد جعل لكم مخرجاً، فأخرجوا، فخرجوا، فأنكرهم المشركون، فقاتلوهم حتى نجا من نجا، وقتل من قتل. وقد أخرجه البخاري وغيره عنه مقتصرأ على أوله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن عكرمة في قوله: ﴿إِنَّ النّين توفاهم للملائكة﴾ إلى قوله: ﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ قال: نزلت في قيس بن الفلكه بن المغيرة، والحاتر بن ربيعة بن الأسود، وقيس بن الوليد بن المغيرة، وأبي العاص بن منبه بن الحجاج، وعلي بن أمية بن خلف، قال: لما خرج المشركون من قريش، وأتباعهم لمنع أبي سفيان بن حرب، وعير قريش من رسول الله ﷺ وأصحابه، وأن يطلبوا ما نيل منهم يوم نخلة، خرجوا معهم بشيبل كارهين كانوا قد أسلموا، واجتمعوا ببدر على غير موعد، فقتلوا ببدر كفاراً، ورجعوا عن الإسلام، وهم هؤلاء النّين سميناهم. وأخرج نحوه عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن إسحاق. وقد روي نحو هذا من طرق. وقد أخرج البخاري، وغيره، عن ابن عباس أنه تلا هذه الآية: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرّجال والنّساء والولدان﴾ فقال: كنت أنا، وأمي من المستضعفين أنا من الولدان، وأمي من النساء. وأخرج ابن المنذر، عن ابن جريج في قوله: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حيلة﴾ قال: قوة. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن عكرمة في قوله: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حيلة﴾ قال: نهوضاً إلى المدينة: ﴿وَلَا يَهْتِنُونَ سبيلاً﴾ قال: طريقاً إلى المدينة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر،

منه، فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: «صدقة تصنق الله بها عليكم، فاقبلوا صدقته» أخرجه أحمد، ومسلم، وأهل السنن. وظاهر قوله: «فاقبلوا صدقته» أن القصر واجب. قوله: «إن خفتكم أن يفتنكم الذين كفروا» ظاهر هذا الشرط أن القصر لا يجوز في السفر إلا مع خوف الفتنة من الكافرين لا مع الأمن، ولكنه قد تقرر بالسنة أن النبي ﷺ قصر مع الأمن، كما عرفت، فالقصر مع الخوف ثابت بالكتاب، والقصر مع الأمن ثابت بالنسبة، ومفهوم الشرط لا يقوى على معارضة ما تواتر عنه ﷺ من القصر مع الأمن. وقد قيل: إن هذا الشرط خرج مخرج الغالب؛ لأن الغالب على المسلمين إذ ذاك القصر للخوف في الأسفار، ولهذا قال يعلى بن أمية لعمر ما قال، كما تقدم. وفي قراءة أبي: «إن تقصروا من الصلاة أن يفتنكم الذين كفروا» بسقوط «إن خفتكم» والمعنى على هذه القراءة: كراهة أن يفتنكم الذين كفروا. وذهب جماعة من أهل العلم إلى أن هذه الآية إنما هي مبيحة للقصر في السفر للختاف من العدو، فمن كان آمناً، فلا قصر له. وذهب آخرون إلى أن قوله: «إن خفتكم» ليس متصلاً بما قبله، وأن الكلام تم عند قوله: «من الصلاة» ثم افتتح، فقال: «إن خفتكم أن يفتنكم الذين كفروا» فاقم لهم يا محمد صلاة الخوف. وقوله: «إن للكافرين كانوا لكم عدواً مبيناً» معترض، نكر معنى الجرجاني، والمهدوي، وغيرهما. ورده القشيري، والقاضي أبو بكر بن العربي. وقد حكى القرطبي، عن ابن عباس معنى ما نكره الجرجاني ومن معه، ومما يرد هذا، وينفعه الواو في قوله: «وإنذا كنت فيهم» وقد تكلف بعض المفسرين، فقال: إن الواو زائدة، وإن الجواب للشرط المنكور، أعني قوله: «إن خفتكم» هو قوله: «فلتقم طائفة» وذهب قوم إلى أن نكر الخوف منسوخ بالسنة، وهي حديث عمر الذي قمنا نكره، وما ورد في معناه. قوله: «إن يفتنكم الذين كفروا» قال الفراء: أهل الحجاز يقولون، فتنت الرجل، وربيعه، وقيس، وأسد، وجميع أهل نجد يقولون اقتنت الرجل، وقرق الخليل، وسيبويه بينهما، فقالا فتنته: جعلت فيه فتنة مثل كحلته، واقتنته: جعلته مفتناً، وزعم الأصمعي أنه لا يعرف اقتنته. والمراد بالفتنة: القتال، والتعرض بما يكره. قوله: «عدواً» أي: أعداء. قوله: «وإنذا كنت فيهم فاقمت لهم الصلاة» هذا خطاب لرسول الله ﷺ. ولمن بعده من أهل الأمر حكمه، كما هو معروف في الأصول، ومثله قوله تعالى: «خذ من أموالهم صدقة» [التوبة: 103] ونحوه، وإلى هذا ذهب جمهور العلماء، وشذ أبو يوسف، وإسماعيل بن علية، فقالا: لا تصلي صلاة الخوف بعد النبي ﷺ؛ لأن هذا الخطاب خاص برسول الله ﷺ، قالوا: ولا يلحق غيره به لماله ﷺ من المزية العظمى، وهذا مدفوع، فقد أمرنا الله باتباع رسوله، والتأسي به، وقد قال ﷺ «صلوا كما رأيتموني أصلي» والصحابة رضي الله عنهم أعرف بمعاني القرآن، وقد صلوا بعد موته في غير مرة، كما ذلك معروف. ومعنى:

«واقمت لهم الصلاة» أدت الإقامة، كقوله: «وإنذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم» [المائدة: 6]، وقوله: «وإنذا قرأت القرآن فاستعذ بالله» [النحل: 98] قوله: «فلتقم طائفة منهم معك» يعني: بعد أن تجعلهم طائفتين، طائفة تقف بإزاء العدو، وطائفة تقوم منهم معك في الصلاة: «وليأخذوا أسلحتهم» أي: الطائفة التي تصلي معه، وقيل: الضمير راجع إلى الطائفة التي بإزاء العدو، والأول أظهر؛ لأن الطائفة القائمة بإزاء العدو لا بد أن تكون قائمة بأسلحتها، وإنما يحتاج إلى الأمر بذلك من كان في الصلاة؛ لأنه يظن أن ذلك ممنوع منه حال الصلاة، فأمره الله بأن يكون آخذاً لسلاحه، أي: غير واضح له. وليس المراد: الأخذ باليد، بل المراد: أن يكونوا حاملين لسلاحهم؛ ليتناولوه من قرب إذا احتاجوا إليه، وليكون ذلك أقطع لرجاء عدوهم من إمكان فرصته فيهم. وقد قال بإرجاع الضمير من قوله: «وليأخذوا أسلحتهم» إلى الطائفة القائمة بإزاء العدو. ابن عباس قال: لأن المصلية لا تحارب، وقال غيره: إن الضمير راجع إلى المصلية، وجوز الزجاج، والنحس أن يكون ذلك أمراً للطائفتين جميعاً، لأنه أربه للعدو. وقد أوجب أخذ السلاح في هذه الصلاة أهل الظاهر حملاً للأمر على الوجوب. وذهب أبو حنيفة إلى أن المصلين لا يحملون السلاح، وأن ذلك يبطل الصلاة، وهو مدفوع بما في هذه الآية، وبما في الأحاديث الصحيحة. قوله: «فإنذا سجدوا» أي: القائمون في الصلاة «فليكونوا» أي: الطائفة القائمة بإزاء العدو «من ورائكم» أي: من وراء المصلين. ويحتمل أن يكون المعنى: فإنذا سجد المصلون معه، أي: أتوا الركعة تعبيراً بالسجود عن جميع الركعة، أو عن جميع الصلاة «فليكونوا من ورائكم» أي: فلينصرفوا بعد الفراغ إلى مقابلة العدو للحراسة «ولتات طائفة أخرى» وهي: القائمة في مقابلة العدو التي لم تصل «فليصلوا معك» على الصفة التي كانت عليها الطائفة الأولى «وليأخذوا» أي: هذه الطائفة الأخرى «أحذروهم وأسلحتهم» زيادة التوصية للطائفة الأخرى بأخذ الحذر مع أخذ السلاح. قيل: وجهه أن هذه المرة مظنة لوقوف الكفرة على كون الطائفة القائمة مع النبي ﷺ في شغل شاغل، وأما في المرة الأولى، فربما يظنونهم قائمين للحرب، وقيل: لأن العدو لا يؤخر قصده عن هذا الوقت، لأنه آخر الصلاة، والسلاح: ما ينفع به المرء عن نفسه في الحرب، ولم يبين في الآية الكريمة كم تصلي كل طائفة من الطائفتين؟ وقد وردت صلاة الخوف في السنة المطهرة على أنحاء مختلفة، وصفات متعددة، وكلها صحيحة مجزئة من فعل واحدة منها، فقد فعل ما أمر به، ومن ذهب من العلماء إلى اختيار صفة نون غيرها، فقد أبعد عن الصواب، وقد أوضحنا هذا في شرحنا للمنتقى، وفي سائر مؤلفاتنا. قوله: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً» هذه الجملة متضمنة لليلة التي لاجلها أمرهم الله بالحذر، وأخذ السلاح،

هنا. وأخرج البخاري، وغيره، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنْ كَانَ بِكُمْ أذىٌ مِنْ مطرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى﴾ قال: نزلت في عبد الرحمن بن عوف كان جريحاً.

فَإِذَا ضَبِيتَهُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ رَيْمًا وَقُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴿١٤١﴾ وَلَا تَهَيَّؤُوا فِي آيَةِ الْقُرْآنِ أَنْ تَتَكَبَّوْا تَأْلُمُونَ فَلَهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٤٢﴾

﴿قضيتكم﴾ بمعنى فرغتم من صلاة الخوف، وهو أحد معاني القضاء، ومثله: ﴿فإذا قضيت مناسككم﴾ [البقرة: 200] ﴿فإذا قضيت الصلاة، فانتشروا في الأرض﴾ [الجمعة: 10]. قوله: ﴿فأنكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم﴾ أي: في جميع الأحوال حتى في حال القتال. وقد ذهب جمهور العلماء إلى أن هذا الذكر المأمور به، إنما هو أثر صلاة الخوف، أي: إذا فرغتم من الصلاة، فأنكروا الله في هذه الأحوال؛ وقيل: معنى قوله: ﴿فإذا قضيت الصلاة﴾ إذا صليتم، فصلوا قياماً، وقعوداً، أو على جنوبكم حسبما يقتضيه الحال عند ملاحمة القتال، فهي مثل قوله: ﴿فإن خفتهم فرجالاً أو ركبانا﴾ [البقرة: 239]. قوله: ﴿فإذا اطمانتكم﴾ أي: امنتكم، وسكنت قلوبكم، والطمأنينة: سكون النفس من الخوف ﴿فأقيموا الصلاة﴾ أي: فاتوا بالصلاة التي نخل وقتها على الصفة المشروعة من الإنكار، والأركان، ولا تفعلوا ما أمكن، فإن ذلك إنما هو في حال الخوف. وقيل: المعنى في الآية أنهم يقضون ما صلوه في حال المسايعة؛ لأنها حالة قلق، وانزعاج، وتقصير في الإنكار، والأركان، وهو مروى عن الشافعي، والأول أرجح ﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾ أي: محدداً معيناً، يقال: وقته، فهو موقوت، ووقته، فهو موقت. والمعنى: إن الله افترض على عباده الصلوات، وكتبها عليهم في أوقاتها المحدودة لا يجوز لأحد أن يأتي بها في غير ذلك الوقت إلا لعذر شرعي من نوم، أو سهو، أو نحوهما. قوله: ﴿ولا تهنوا في ابتغاء القوم﴾ أي: لا تضعفوا في طلبهم، وظهروا القوة، والجلد. قوله: ﴿إن تكونوا تالمون فإنهم يالمون كما تالمون﴾ تعليل للنهي المنكسر قبله، أي: ليس ما تجبونه من ألم الجراح، ومزاولة القتال مختصاً بكم، بل هو أمر مشترك بينكم وبينهم، فليسوا بأولى منكم بالصبر على حر القتال، ومرارة الحرب، ومع ذلك فلكم عليهم مزية لا توجد فيهم، وهي: أنكم ترجون من الله من الأجر، وعظيم الجزاء ما لا يرجونه لكفرهم، وجحودهم، فأنتم أحق بالصبر منهم، وأولى بعدم الضعف منهم، فإن أنفسكم قوية؛ لأنها ترى الموت مغنماً، وهم يرونه مغراً. ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله﴾ [آل عمران: 140] وقيل: إن الرجاء هنا بمعنى الخوف؛ لأن من رجا شيئاً، فهو غير قاطع بحصوله، فلا يخلو من خوف ما يرجو. وقال الفراء، والزجاج: لا يطلق الرجاء بمعنى الخوف

أي: وتوا غفلتكم عن أخذ السلاح، وعن الحذر؛ ليصلوا إلى مقصودهم، وينالوا فرصتهم، فيشتنون عليكم شدة واحدة، والامتنعة: ما يتمتع به في الحرب، ومنه الزاد، والراحلة. قوله: ﴿ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أسلحتكم﴾ رخص لهم سبحانه في وضع السلاح إذا نالهم أذى من المطر، وفي حال المرض؛ لأنه يصعب مع هذين الأمرين حمل السلاح، ثم أمرهم بالخذ الحذر لئلا يأتيهم العدو على غرة، وهم غافلون.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، عن أبي حنظلة قال: سألت ابن عمر، عن صلاة السفر، فقال: ركعتان قلت: فإين قوله تعالى: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتَنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ونحن آمنون؟ قال: سنة رسول الله ﷺ. وأخرج عبد بن حميد، والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان، والبيهقي، عن أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد أنه سأل ابن عمر: أرايت قصر الصلاة في السفر؟ إننا لا نجد ما في كتاب الله، إنما نجد نكر صلاة الخوف، فقال ابن عمر: يا بن أخي إن الله أرسل محمداً ﷺ ولا نعلم شيئاً، وإنما فعل، كما رأينا رسول الله ﷺ يفعل، وقصر الصلاة في السفر سنة سنّها رسول الله ﷺ. وفي الصحيحين، وغيرهما عن حارثة بن وهب الخزاعي قال: صليت مع النبي ﷺ الظهر، والعصر بمعنى أكثر ما كان الناس، وأمنه ركعتين. وأخرج ابن أبي شيبة، والترمذي وصححه، والنسائي، عن ابن عباس قال: صلينا مع رسول الله ﷺ بين مكة، والمدينة، ونحن آمنون لا نخاف شيئاً ركعتين. وأخرج ابن جرير، عن عليّ قال: سأل قوم من التجار رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله إننا نضرب في الأرض، فكيف نصلي؟ فأنزل الله: ﴿وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة﴾ ثم انقطع الوحي، فلما كان بعد ذلك بحول غزا النبي ﷺ، فصلّى الظهر، فقال المشركون: قد أمكنكم محمد، وأصحابه من ظهورهم هلا شددتم عليهم؟ فقال قائل منهم: إن لهم أخرى مثلها في أثرها، فأنزل الله بين الصلاتين: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتَنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ لَكُمْ مِنْكُمْ عُدُوٌّ مُبِينٌ وَإِذَا كُنْتُمْ فِيهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِنْ لَكُمْ مِنَ الْمُكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ فنزلت صلاة الخوف. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، وأبو داود، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والدارقطني، والحاكم وصححه، عن أبي عيشة الزرقني قال: كنا مع رسول الله ﷺ بعسفان، فاستقبلنا المشركون عليهم خالد بن الوليد، وهم بيننا وبين القبلة فصلّى بنا النبي ﷺ الظهر، فقالوا: قد كانوا على حال لو أصبنا غرتهم، ثم قالوا: تأتي عليهم الآن صلاة هي أحب إليهم من إبنائهم، وأنفسهم، فنزل جبريل بهذه الآيات: ﴿وإذا كنتم فيهم فاقمتم لهم للصلاة﴾ ثم نكر صفة الصلاة التي صلوها مع النبي ﷺ. والأحاديث في صفة صلاة الخوف كثيرة، وهي مستوفاة في مواطنها، فلا نطول بذكرها ها

إلا مع النفي، كقوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: 13] أي: لا تخافون له عظمة. وقرأ عبد الرحمن الأعرج: ﴿أَنْ تَكُونُوا﴾ بفتح الهمزة، أي: لأن تكونوا. وقرأ منصور بن المعتمر تيلمون بكسر التاء ولا يجوز عند البصريين كسر التاء لثقله.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَانْكُرُوا لِلَّهِ قِيَامًا وَقَعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ قال: بالليل والنهار، في البر والبحر، وفي السفر والحضر، والغنى والفقر، والسقم والصحة، والسر والعلانية، وعلى كل حال. وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن مسعود أنه بلغه أن قوماً ينكرون الله قِيَامًا، وقَعُودًا، وعلى جنوبهم، فقال: إنما هذه إذا لم يستطع الرجل أن يصلي قائماً صلى قاعداً. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد: ﴿فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ﴾ قال: إذا خرجتم من دار السفر إلى دار الإقامة: ﴿فَاقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ قال: أتموها. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة نحوه. وأخرج ابن المنذر، عن ابن جريج نحوه أيضاً. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ يعني: مفروضاً. وأخرج ابن جرير، عنه قال: الموقوت الواجب. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه في قوله: ﴿وَلَا تَهْوُوا﴾ قال: ولا تضعفوا. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه في قوله: ﴿تَالْمُؤْنِ﴾ قال: توجعون: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ قال: ترجون الخير.

وقد أخرج الترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحكم وصححه، عن قتادة بن النعمان قال: كان أهل بيت منا يقال لهم: بنو أبيرق بشر وبشير ومبشر، وكان بشر رجلاً منافقاً يقول الشعر يهجو به أصحاب رسول الله ﷺ، ثم ينحله بعض العرب، ثم يقول: قال فلان كذا وكذا، قال فلان كذا وكذا؛ فإذا سمع أصحاب رسول الله ﷺ ذلك الشعر قالوا: والله ما يقول هذا الشعر إلا هذا الخبيث، فقال:

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِثِينَ خَصِيماً﴾ ١٥١. وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ إِنَّكَ اللَّهُ كَانَتْ عَفْوًا رَحِيمًا ١٥٢. وَلَا تَجْهَلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَاوْنَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَكِيماً ١٥٣. يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُمْ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَمْكُلُونَ حَكِيمًا ١٥٤. هَٰؤُلَاءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لَمَنْ يُجَادِلِ اللَّهُ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ١٥٥.

وقوله: ﴿بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ إما بوحى، أو بما هو جار على سنن ما قد أوحى الله به، وليس المراد هنا: رؤية العين؛ لأن الحكم لا يرى، بل المراد بما عرفه الله به وأرشد إليه. وقوله: ﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِثِينَ﴾ أي: لأجل الخائنين خصيماً، أي: مخاصماً عنهم مجادلاً للمحقين بسببهم. وفيه دليل على أنه لا يجوز لأحد أن يخاصم عن أحد إلا بعد أن يعلم أنه محق. وقوله: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ﴾ أمر لرسول الله ﷺ بالاستغفار. قال ابن جرير: إن المعنى: استغفر الله من ذنبك في خصامك للخائنين: وسيأتي بيان السبب الذي نزلت لأجله الآية، وبه يتضح المراد. وقيل: المعنى: واستغفر الله للمذنبين من أمثك والمخاصمين بالباطل. وقوله: ﴿وَلَا تَجَادَلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ أي: لا تحاجج عن الذين يخونون أنفسهم، والمجادلة مأخوذة من الجدل، وهو: الفتل، وقيل: مأخوذة من الجدالة، وهي: وجه الأرض؛ لأن كل واحد من

الخصمين يريد أن يلقي صاحبه عليها، وسمي ذلك خيانة لأنفسهم؛ لأن ضرر معصيتهم راجع إليهم. والخولان: كثير الخيانة، والاثيم: كثير الإثم، وعدم المحبة كناية عن البغض. قوله: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ﴾ أي: يستترون منهم كقوله: ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌ بِاللَّيْلِ﴾ [الرعد: 10] أي: مستتر، وقيل: معناه: يستخفون من الناس، ولا يستخفون من الله، أي: لا يستترون منه أو لا يستحيون منه، والحال أنه معهم في جميع أحوالهم عالم بما هم فيه، فكيف يستخفون منه؟ إذا يبيتون؟ أي: يديرون الرأي بينهم، وسماء تبيتاً، لأن الغالب أن تكون إدارة الرأي بالليل: ﴿وَمَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ﴾ أي: من الرأي الذي أثاروه بينهم، وسماء قولاً؛ لأنه لا يحصل إلا بعد المقابلة بينهم. قوله: ﴿هَٰؤُلَاءِ هَٰؤُلَاءِ﴾ يعني: القوم الذين جادلوا عن صاحبهم السارق، كما سيأتي، والجملة مبتدأ وخبر. قال الزجاج: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ بمعنى الذين و﴿جَادَلْتُمْ﴾ بمعنى حاججتم ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة؟ الاستفهام للإنكار، والتوبيخ، أي: فمن يخاصم، ويجادل الله عنهم يوم القيامة عند تعذيبهم بنزوبهم؟ أم من يكون عليهم وكيلاً؟ أي: مجادلاً، ومخاصماً والوكيل في الأصل: القائم بتبدير الأمور. والمعنى: من ذاك يقوم بأمرهم إذا أخذهم الله بعذابه.

وقد أخرج الترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحكم وصححه، عن قتادة بن النعمان قال: كان أهل بيت منا يقال لهم: بنو أبيرق بشر وبشير ومبشر، وكان بشر رجلاً منافقاً يقول الشعر يهجو به أصحاب رسول الله ﷺ، ثم ينحله بعض العرب، ثم يقول: قال فلان كذا وكذا، قال فلان كذا وكذا؛ فإذا سمع أصحاب رسول الله ﷺ ذلك الشعر قالوا: والله ما يقول هذا الشعر إلا هذا الخبيث، فقال:

أو كلما قال الرجال قصيدة أصموا فقالوا ابن الأبيرق قالها قال: وكنوا أهل بيت حاجة، وفاقاة في الجاهلية، والإسلام، وكان الناس إنما طعامهم بالمنية التمر، والشعير، وكان الرجل إذا كان له يسار، فقدمت ضافطة، أي: حمولة من الشام من الدرك ابتاع الرجل منها، فخص بها نفسه، وأما العيال، فإنما طعامهم التمر والشعير، فقدمت ضافطة من الشام، فابتاع عمي رفاعه بن رافع جملًا من الدرك، فجعله في مشربة، وفي المشربة سلاح له درعان، وسيفاهما، وما يصلحهما، فعدى عليه من تحت الليل، فنقبت المشربة، وأخذ الطعام، والسلاح، فلما أصبح أتاني عمي رفاعه، فقال: يا ابن أخي تعلم أن قد عدى علينا في ليلتنا هذه، فنقبت مشربتنا، فذهب بطعامنا، وسلاحنا، قال: فتحسسنا في الدار، وسألنا، فقيل لنا: قد رأينا بني أبيرق استوقدوا ناراً في هذه الليلة، ولا نرى فيما نرى إلا على بعض طعامكم، قال: وكان بنو أبيرق قالوا، ونحن نسال في الدار: والله ما نرى صاحبكم إلا لبيد بن سهل رجلاً مثله صلاح وإسلام، فلما سمع ذلك لبيد اختلط سيفه، ثم أتى بني أبيرق وقال: أنا أسرق؟ فو الله

المنذر، في تفسيره قال: حدثنا محمد بن إسماعيل: يعني: الصانع، حدثنا أحمد بن أبي شعيب الحراني، حدثنا محمد بن سلمة، فنكره بطوله. ورواه أبو الشيخ الأصبهاني في تفسيره. عن محمد بن العباس بن أيوب، والحسن بن يعقوب كلاهما، عن الحسن بن أحمد بن أبي شعيب الحراني، عن محمد بن سلمة به، ثم قال في آخره: قال محمد بن سلمة: سمع مني هذا الحديث يحيى بن معين، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن أبي إسرائيل. وقد رواه الحاكم في المستدرک عن أبي العباس الأصم، عن أحمد بن عبد الجبار العطاردي، عن يونس بن بكير، عن محمد بن إسحاق بمعناه ثم منه، ثم قال: هذا صحيح على شرط مسلم. وقد أخرجه ابن سعد، عن محمود بن لبيد قال: غدا بشير، فنكره مختصراً، وقد رويت هذه القصة مختصرة، ومطولة عن جماعة من التابعين.

وَمَنْ يَمْلُ سَوْماً أَوْ يَظْلِمُ نَفْسَهُ نُدَّ يَسْتَغْفِرُ اللَّهُ بِحَدِّهِ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴿١١٠﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴿١١١﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرَوْهَا فِي يَدَيْهِ فَفَدَّ بِهَا نَفْسَهُ وَجَاءَ إِلَى اللَّهِ بِحَسْرَةٍ فَقَدْ خَلَّفَ فِيهَا مِمَّا كَسَبَ مِمَّا كَسَبَ ﴿١١٢﴾ وَلَا فَضْلَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ كَثِيرَةٌ مِمَّا كَسَبَ مِمَّا كَسَبَ ﴿١١٣﴾ أَنْ يُبْلَاكَ وَمَا يُبْلَاكَ إِلَّا أَسْمُكَ وَمَا يُصْرُوكَ مِنْ نَفْسٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ﴿١١٤﴾

هذا من تمام القصة السابقة، والمراد بالسوء: القبيح الذي يسوء به: ﴿أو يظلم نفسه﴾ بفعل معصية من المعاصي، أو ذنب من الذنوب التي لا تتعدى إلى غيره: ﴿ثم يستغفر الله﴾ يطلب منه أن يغفر له ما قارفه من الذنب: ﴿يجد الله غفوراً﴾ للذنب: ﴿رحيماً﴾ به، وفيه ترغيب لمن وقع منه السرقة من بني أبيرق أن يتوب إلى الله، ويستغفره، وأنه غفور لمن يستغفره رحيم به. وقال الضحاك: إن هذه الآية نزلت في شأن وحشي قاتل حمزة، أشرك بالله، وقتل حمزة، ثم جاء إلى النبي ﷺ، وقال: هل لي من توبة؟ فنزلت. وعلى كل حال، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فهي لكل عيب من عباد الله أذن ذنباً، ثم استغفر الله سبحانه. قوله: ﴿ومن يكسب إثماً﴾ من الآثام بذنب يذنبه ﴿فإنما يكسبه على نفسه﴾ أي عاقبته عائدة عليه، والكسب ما يجز به الإنسان إلى نفسه نفعاً أو يدفع به ضرراً، ولهذا لا يسمى فعل الرب كسباً، قاله القرطبي: ﴿ومن يكسب خطيئة أو إثماً﴾ قيل: هما بمعنى واحد كسر للتأكيد. وقال الطبري: إن الخطيئة تكون عن عمد، وعن غير عمد، والإثم لا يكون إلا عن عمد، وقيل: الخطيئة: الصغيرة، والإثم: الكبيرة. قوله: ﴿ثم يرم به بؤيئاً﴾ توحيد الضمير لكون العطف باو، أو لتغليب الإثم على الخطيئة، وقيل: إنه يرجع إلى الكسب. قوله: ﴿فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً﴾ لما كانت الذنوب لازمة لفاعلها كانت كالنقل الذي يحمل، ومثله: ﴿وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم﴾ [العنكبوت: 13]، والبهتان مأخوذ

ليخالطكم هذا السيف، أو لتبينن هذه السرقة، قالوا: إليك عنا أيها الرجل، فوالله ما أنت بصاحبها، فسالنا في الدار حتى لم نشك أنهم أصحابها، فقال لي عمي: يا ابن أخي لو أتيت رسول الله ﷺ، فنكرت ذلك له، قال قتادة: فأتيت رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله إن أهل بيت منا أهل جفاء عمدوا إلى عمي رفاعة بن زيد، فنقبوا مشربة له، واخذوا سلاحه، وطعماه، فليرونا علينا سلاحنا، وأما الطعام، فلا حاجة لنا فيه، فقال رسول الله ﷺ: سأنظر في ذلك، فلما سمع ذلك بنو أبيرق أتوا رجلاً منهم يقال له: أسير بن عروة، فكلّموه في ذلك، واجتمع إليه ناس من أهل الدار، فاتوا رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله إن قتادة بن النعمان، وعمه عمدوا إلى أهل بيت منا أهل إسلام، وصلاح يرمونهم بالسرقة من غير بينة، ولا ثبت، قال قتادة: فأتيت رسول الله ﷺ، فكلّمته، فقال: عمدت إلى أهل بيت نكر منهم إسلام، وصلاح ترميهم بالسرقة على غير بينة، ولا ثبت، قال قتادة: فرجعت، ولوددت أني خرجت من بعض مالي، ولم أكلّم رسول الله ﷺ في ذلك، فاتاني عمي رفاعة فقال لي: يا ابن أخي ما صنعت؟ فأخبرته بما قال لي رسول الله ﷺ، فقال: الله المستعان، فلم نلبث أن نزل القرآن: ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً﴾ بني أبيرق ﴿واستغفر الله﴾ أي: مما قلت لقتادة: ﴿إن الله كان غفوراً رحيماً. ولا تجادل عن الذين يخفون أنفسهم﴾ إلى قوله: ﴿ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً﴾ [النساء: 110] أي: لو استغفروا الله لغفر لهم ﴿ومن يكسب إثماً﴾ [النساء: 111] إلى قوله: ﴿فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً﴾ [النساء: 111] قولهم للبيد: ﴿ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك﴾ [النساء: 113] يعني: أسير بن عروة، فلما نزل القرآن أتى رسول الله ﷺ بالسلاح، فردّه إلى رفاعة؛ قال قتادة: فلما أتيت عمي بالسلاح، وكان شيخاً قد غشى في الجاهلية، أي: كبير، وكنت أرى إسلامه منحولاً، فلما أتيت بالسلاح قال: يا ابن أخي هو في سبيل الله، فعرفت أن إسلامه كان صحيحاً، فلما نزل القرآن لحق بشير بالمشركين، فنزل على سلافة بنت سعد، فأنزل الله: ﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى﴾ [النساء: 115] إلى قوله: ﴿ضلالاً بعيداً﴾ [النساء: 115 - 116] فلما نزل على سلافة رماها حسان بن ثابت بأبيات من شعر، فأخذت رحله، فوضعت على رأسها، ثم خرجت، فرمت به في الأبطح، ثم قالت: أهديت لي شعر حسان ما كنت تأتيني بخير. قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعلم أحداً أسنده غير محمد بن سلمة الحراني، ورواه يونس بن بكير، وغير واحد، عن محمد بن إسحاق، عن عاصم بن عمر بن قتادة مرسلاً لم ينكر فيه، عن أبيه، عن جده. ورواه ابن أبي حاتم، عن هاشم بن القاسم الحراني، عن محمد بن سلمة به ببعضه. ورواه ابن

به الجماعة، كما يقال قوم عدل، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجَوْى﴾ [الإسراء: 47] فعلى الأول يكون الاستثناء منقطعاً. أي: لكن من أمر بصدقة، أو متصلاً على تقدير إلا نجوى من أمر بصدقة، وعلى الثاني يكون الاستثناء متصلاً في موضع خفض على البذل من كثير، أي: لا خير في كثير إلا فيمن أمر بصدقة. وقد قال جماعة من المفسرين: إن النجوى كلام الجماعة المنفردة، أو الاثنين سواء كان ذلك سرّاً، أو جهراً، وبه قال الزجاج. قوله: ﴿بِصَدَقَةٍ﴾ الظاهر أنها صدقة التطوّع، وقيل: إنها صدقة الفرض. والمعروف صدقة التطوّع، والأول أولى. والمعروف لفظ عام يشمل جميع أنواع البز. وقال مقاتل: المعروف هنا القرض. والأول أولى، منه قول الخطيب:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس ومنه الحديث: «كل معروف صدقة، وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق»، وقيل: المعروف إغاثة الملهوف. والإصلاح بين الناس عامٌ في السماء، والأعراض، والأموال، وفي كل شيء يقع التداعي فيه. قوله: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الأمور المنكورة، جعل مجزء الأمر بها خيراً، ثم رغب في فعلها بقوله: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ لأن فعلها أقرب إلى الله من مجزء الأمر بها، إذ خيرية الأمر بها إنما هي لكونه وسيلة إلى فعلها. قوله: ﴿لِيَتَغَاءَ مَرْضَاتُ اللَّهِ﴾ علة للفعل؛ لأن من فعلها لغير ذلك، فهو غير مستحق لهذا المدح، والجزاء، بل قد يكون غير ناجٍ من الوزر، والأعمال بالنيات: ﴿وَمَنْ يَشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى﴾ المشاققة: المعادة والمخالفة. وتبين الهدى ظهوره، بأن يعلم صحة الرسالة بالبراهين الدالة على ذلك، ثم يفعل المشاققة ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: غير طريقهم، وهو ما هم عليه من دين الإسلام والتمسك بأحكامه. ﴿قَوْلُهُ مَا تَوَلَّى﴾ أي: نجعله والياً لما توالاه من الضلال ﴿وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ﴾ قرأ عاصم وحزمة، وأبو عمرو: ﴿قَوْلُهُ وَنُصَلِّهِ﴾ بسكون الهاء في الموضعين. وقرأ الباقر بكسرهما، وهما لغتان، وقرئ ونصله بفتح النون من صلاه، وقد تقدّم بيان ذلك. وقد استدلت جماعة من أهل العلم بهذه الآية على حجية الإجماع لقوله: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ولا حجة في ذلك عندي؛ لأن المراد بغير سبيل المؤمنين هنا: هو الخروج من دين الإسلام إلى غيره، كما يفيد اللفظ ويشهد به السبب، فلا تصدق على عالم من علماء هذه الملة الإسلامية اجتهد في بعض مسائل دين الإسلام، فأذاه اجتهداه إلى مخالفة من بعصره من المجتهدين، فإنه إنما رام السلوك في سبيل المؤمنين، وهو الدين القويم والملة الحنيفية، ولم يتبع غير سبيلهم.

وقد أخرج عبد بن حميد، والترمذي، وابن ماجه، وغيرهم عن أم حبيبة قالت: قال رسول الله ﷺ: «كلام ابن آدم كله عليه لا له إلا أمراً بمعروف، أو نهياً عن منكر، أو نكراً لله عز وجل». قال سفيان الثوري هذا في كتاب الله: ﴿لَا خَيْرَ فِي

من البهت: وهو الكذب على البريء بما ينبت له، ويتهير منه، يقال بهت بهتاً، وبهتاناً: إذا قال عليه ما لم يقل، ويقال بهت الرجل بالكسر: إذا دهش، وتهير، وبهت بالضم، ومنه: ﴿فَبِهَتِ الذِّبْيُ كُفْرًا﴾ [البقرة: 258]، والإثم المبين: الواضح. قوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ﴾ خطاب لرسول الله ﷺ، والمراد بهذا: الفضل، والرحمة لرسول الله أنه نبهه على الحق في قصة بني أبيريق. وقيل: المراد بهما: النبوة والعصمة ﴿لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾ أي: من الجماعة الذين عضدوا بني أبيريق، كما تقدّم: ﴿أَنْ يَضْلُوكَ﴾ عن الحق: ﴿وَمَا يَضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ لأن وبال ذلك عائد عليهم ﴿وَمَا يَضُرُّوكَ مِنْ شَيْءٍ﴾ لأن الله سبحانه هو عاصمك من الناس؛ ولأنك عملت بالظاهر، ولا ضرر عليك في الحكم به قبل نزول الوحي، والجار والمجور في محل نصب على المصدرية، أي: وما يضرُّونك شيئاً من الضرر. قوله: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ قيل: هذا ابتداء كلام، وقيل: الوار للحال، أي: وما يضرُّونك من شيء حال إنزال الله عليك الكتاب، والحكمة، أو مع إنزال الله ذلك عليك. قوله: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ معطوف على أنزل، أي: علمك بالوحي ما لم تكن تعلم من قبل: ﴿وَوَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ إذ لا فضل أعظم من النبوة ونزول الوحي.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلَمْ نَفْسَهُ﴾ الآية. قال: أخبر الله عباده بحلمه، وعفوه، وكرمه، وسعة رحمته، ومغفرته، فمن أذنّب ذنباً صغيراً كان، أو كبيراً، ثم استغفر الله يجد الله غفوراً رحيمًا، ولو كانت ذنوبه أعظم من السموات والأرض، والجبال. وأخرج عبد بن حميد، عن ابن مسعود قال: من قرأ هاتين الآيتين من سورة النساء، ثم استغفر الله غفر له: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلَمْ نَفْسَهُ﴾ ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيمًا، ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك، فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول [النساء: 64] الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ قال: علمه الله بيان الدنيا، والآخرة بين حلاله، وحرامه ليحتج بذلك على خلقه. وأخرج أيضاً عن الضحاك قال: علمه الخير والشر، وقد ورد في قبول الاستغفار، وأنه يمحو الذنوب لحديث كثيرة مودة في كتب السنة.

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِسْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ اتِّبَعَتْ مِرْمَاتُ اللَّهِ سَوَاءٌ تَوَدُّهُ أَوْ كَرِهَ اللَّهُ عَظِيمًا﴾ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تَوَلَّى مَا تَوَلَّى وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١٥٩﴾

النجوى: السر بين الاثنين، أو الجماعة، تقول ناجيت فلاناً مناجاةً، ونجاء، وهم ينتجون، ويتناجون، ونجوت فلاناً أنجوه نجوى، أي: ناجيته، فنجوى مشتقة من نجوت الشيء أنجوه، أي: خلصته، وأقربته. والنجوة من الأرض المرتفع لانفراده بارتفاعه عما حوله، فالنجوى: المساواة مصدر، وقد تسمى

كثير من نجواهم ﴿الآية، وقوله: ﴿يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أنن له الرحمن وقال صواباً﴾ [النبأ: 38]، وقوله: ﴿العصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾ [العصر: 1 - 3]. وقد روت أحاديث صحيحة في الصمت، والتحذير من أفات اللسان، والترغيب في حفظه، وفي الحث على الإصلاح بين الناس. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مقاتل بن حيان في قوله: ﴿ومن يفعل ذلك﴾ تصدق، أو اقترض، أو أصلح بين الناس. وأخرج أبو نصر السجزي في الإبانة عن أنس قال: «جاء أعرابي إلى النبي ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: إن الله أنزل علي القرآن يا أعرابي: ﴿لا خير في كثير من نجواهم﴾ إلى قوله: ﴿فسوف نؤتيه لجزاً عظيماً﴾ يا أعرابي أجر العظيم للجنة: قال الأعرابي: الحمد لله الذي هدانا للإسلام. وأخرج الترمذي، والبيهقي في الأسماء، والصفات عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يجمع الله هذه الأمة على الضلالة أبداً، ويد الله على الجماعة، فمن شذ شذ في النار». وأخرجه الترمذي والبيهقي أيضاً عن ابن عباس مرفوعاً.

إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٧٧﴾ إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَّا نَعْتَدُ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧٨﴾ إِنْ يَدْعُونَ إِلَّا سَيِّئَاتِنَا مَرِيدًا ﴿١٧٩﴾ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الَّذِينَ اتَّخَذُوا عِبَادًا لَهُمْ نَسِيًّا مَرُوضًا ﴿١٨٠﴾ وَلَا يُنْفَعُهُمْ وَلَا تُنْقِصُهُمْ وَلَا تُغْنِيهِمْ فَيَقْبَرُوا عَلَى اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ﴿١٨١﴾ يَعْبُدُهُمْ وَيُكْسِبُهُمْ وَنَا يَعْبُدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا عُرْوًا ﴿١٨٢﴾ أُولَئِكَ مَا لَهُمْ مِنْ لَدُنْهُمْ وَلَا يَحْشَوْنَ عَنْهَا حَيْصًا ﴿١٨٣﴾ وَأُولَئِكَ مَأْمُورًا وَيَحْلِلُونَ صَلَاتَهُمْ سَكَتًا جَهَنَّمَ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٨٤﴾

قوله: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾ قد تقدم تفسير هذه الآية، وتكريرها بلفظها للتأكيد، وقيل: كررت هنا لأجل قصة بني أبيرق، وقيل إنها نزلت هنا لسبب غير قصة بني أبيرق. وهو ما رواه الثعلبي، والقرطبي في تفسيريهما على الضحاک: أن شيخاً من الأعراب جاء إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله إني شيخ منهم في الذنوب، والخطايا إلا أنني لم أشرك بالله شيئاً مذ عرفته، وأمنت به، ولم اتخذ من دونه، ولأياً، ولم أوقع المعاصي جراً على الله، ولا مكابرة له، وإني لنادم، وتائب، ومستغفر، فما حالي عند الله؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾ الآية ﴿ومن يشرك بالله فقد ضلّ﴾ عن الحق ﴿ضلالاً بعيداً﴾ لأن الشرك أعظم أنواع الضلال، وابعدها من الصواب ﴿إن يدعون من دونه إلا إنا﴾ أي: ما يدعون من دونه إلا أصناماً لها أسماء مؤنثة كالكالات والعزى ومناة: وقيل المراد بالإناث: الموات التي لا روح لها كالخشبة، والحجر، وقيل المراد

بالإناث: الملائكة لقولهم الملائكة بنات الله. وقرئ «وثنا» بضم الواو والثاء جمع وثن، روى هذه القراءة ابن الأنباري عن عائشة. وقرأ ابن عباس «إلا اثنا» جمع وثن أيضاً، وأصله وثن، فابنبت الواو همزة، وقرأ الحسن إلا اثنا بضم الهمزة والنون بعدها مثناة، جمع أنيث كغدير وغدر. وحكى الطبري أنه جمع إناث كثمار وثمر. وحكى هذه القراءة أبو عمرو الداني عن النبي ﷺ قال: وقرأ بها ابن عباس، والحسن، وأبو حيو. وعلى جميع هذه القراءات، فهذا الكلام خارج مخرج التوبيخ للمشركين، والإزراء عليهم، والتضعيف لعقولهم، لكونهم عبدوا من دونه نوعاً ضعيفاً ﴿وإن يدعون إلا شيطناً مريباً﴾ أي: وما يدعون من دونه الله إلا شيطناً مريباً، وهو إبليس لعنه الله، لأنهم إذا أطاعوه فيما سؤل لهم، فقد عبدوه. وقد تقدم اشتقاق لفظ الشيطان. والمريد: المتمرد العاتي، من مرد: إذا عتا. قال الأزهري: المريد الخارج عن الطاعة. وقد مرد الرجل مروداً: إذا عتا، وخرج عن الطاعة، فهو مارد، ومريد، ومتمرد. وقال ابن عرفة: هو الذي ظهر شره، يقال شجرة مرداء: إذا تساقط ورقها وظهرت عيدانها، ومنه قيل للرجل أمرد أي: ظاهر مكان الشعر من عارضيه. قوله: ﴿لعنه الله﴾ أصل اللعن الطرد، والإبعاد. وقد تقدم وهو في العرف إبعاد مقتدرين بسخط. قوله: ﴿وقال لاتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً﴾ معطوف على قوله: ﴿لعنه الله﴾ والجملة صفة لشيطان، أي: شيطناً مريباً جامعاً بين لعنة الله له وبين هذا القول الشنيع. والنصيب المفروض: هو المقطوع المقتدر، أي: لأجل قطعة مقترنة من عباد الله تحت غوايتي، وفي جانب إضلائي حتى أخرجهم من عبادة الله إلى الكفر به. وقوله: ﴿ولا ضلّناهم﴾ اللام جواب قسم محذوف. والإضلال: الصرف عن طريق الهداية إلى طريق الغواية، وهكذا اللام في قوله: ﴿ولا امنينهم ولا امرنهم﴾ والمراد بالاماني التي يمينهم بها الشيطان: هي الاماني الباطلة الناشئة عن تسويله، ووسوسته. قوله: ﴿ولا امرنهم فليبتكن أذان الأنعام﴾ أي: ولا امرنهم ببتكن أذان الأنعام أي: تقطيعها فليبتكنها بموجب أمري. والبتك: القطع، ومنه سيف باتك، يقال بتكه وبتكه مخففاً، ومشدداً، ومنه قول زهير:

طارت وفي كفه من ريشها بتك

أي: قطع. وقد فعل الكفار ذلك امتثالاً لأمر الشيطان، واتباعاً لرسمه، فشقوا أذان البحائر والسوائم، كما ذلك معروف. قوله: ﴿ولا امرنهم فليغيرن خلق الله﴾ أي: ولا امرنهم بتغيير خلق الله، فليغيرنه بموجب أمري لهم. واختلف العلماء في هذا التغيير ما هو؟ فقالت طائفة: هو الخصاء وفق الأعين، وقطع الأذان. وقال آخرون: إن المراد بهذا التغيير هو أن الله سبحانه خلق الشمس، والقمر، والأحجار، والنار، ونحوها من المخلوقات لما خلقها له، فغيرها الكفار بأن جعلوها آلهة معبودة، وبه قال الزجاج؛ وقيل المراد بهذا التغيير: تغيير الفطرة التي فطر الله الناس

من دونه إلا إنافاً». وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن الضحاك قال المشركون: إن الملائكة بنات الله، وإنما نعبدنهم ليقربونا إلى الله زلفى، قال: اتخذوهن أرباباً، وصوروهن صور الجواري، فحلوا وقلدوا، وقالوا هؤلاء يشبهن بنات الله الذي نعبدن: يعنون الملائكة. وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان في قوله: «وقال لاتخذن من عبادك» الخ، قال: هذا إبليس يقول من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة. وأخرج ابن المنذر عن الربيع بن أنس مثله. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن قتادة في قوله: «فليبتكن آذان الأنعام» قال التبتك في البحيرة، والسائبة يبتكون آذانها لطواغيهم. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن أنس أنه كره الإخصاء، وقال فيه نزلت: «ولأمرنهم فليغيرون خلق الله». وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس مثله. وأخرج ابن أبي شيبة، والبيهقي، عن ابن عمر قال: نهى رسول الله ﷺ عن الإخصاء البهائم، والخيل. وأخرج ابن المنذر، والبيهقي عن ابن عباس قال: نهى رسول الله ﷺ عن صبر الروح، وإخصاء البهائم، وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس في قوله: «ولأمرنهم فليغيرون خلق الله» قال: دين الله. وأخرج ابن جرير، عن الضحاك مثله. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر عن سعيد بن جبيرة مثله أيضاً. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الحسن قال: الوشم.

لَيْسَ بِإِيمَانِكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَمْلِكُ سَوْأَ يُجْزِيَهُ وَلَا يَجِدَ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١١٧﴾ وَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ الْفَاسِقِينَ أَنْ يَمْلِكُوا بِيَدِكُمْ بَدَلًا وَلَا يَقْبَلُوا النَّارَ وَلَا يَبْطَلُوا نَفْسًا ﴿١١٨﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ لِلْإِسْلَامِ حَيْكَةً ﴿١١٩﴾ وَلَوْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُخَبِّرًا ﴿١٢٠﴾

قرأ أبو جعفر بتخفيف الياء من أمانى في الموضعين، واسم ليس محذوف، أي: ليس دخول الجنة، أو الفضل، أو القرب من الله بآمانيك، ولا أمانى أهل الكتاب، كما يدل على ذلك سبب نزول الآية الآتي، وقيل: ضمير يعود إلى وعد الله، وهو بعيد، ومن أمانى أهل الكتاب قولهم: «لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى» [البقرة: 111] وقولهم: «نحن أبناء الله وأحبوه» [المائدة: 18] وقولهم: «لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة» [البقرة: 80]. قوله: «من يعمل سوءاً يجز به» قيل المراد بالسوء: الشرك، وظاهر الآية أعم من ذلك، فكل من عمل سوءاً: أي سوء كان فهو مجزي به من غيره فرق بين المسلم، والكافر. وفي هذه الجملة ما ترجف له القلوب من الوعيد الشديد، وقد كان لها في صدور المسلمين عند نزولها موقع عظيم كما ثبت في صحيح مسلم وغيره من حديث أبي هريرة، قال: لما نزلت: «من

عليها، ولا مانع من حمل الآية على جميع هذه الأمور حملاً شمولياً، أو بلياً.

وقد رخص طائفة من العلماء في خصاء البهائم إذا قصد بذلك زيادة الانتفاع به لسمن، أو غيره، وكره ذلك آخرون، وأما خصاء بني آدم فحرام، وقد كره قوم شراء الخصي. قال القرطبي: ولم يختلفوا أن خصاء بني آدم لا يحل، ولا يجوز وأنه مثله وتغيير لخلق الله، وكذلك قطع سائر أعضائهم في غير حد، ولا قود، قاله أبو عمر بن عبد البر، «ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله» باتباعه وامتنال ما يامر به من دون اتباع لما أمر الله به، ولا امتثال له «فقد خسر خسراً مبيناً» أي: واضحاً ظاهراً «يعدمهم» المواعيد الباطلة «ويمتنهم» الأمانى العاطلة «وما يعدمهم الشيطان إلا غروراً» أي: وما يعدمهم الشيطان بما يوقعه في خواطرهم من الوسوس الفارغة «إلا غروراً» يفرهم به ويظهر لهم فيه النفع، وهو ضرر محض، وانتصاب غروراً على أنه نعت لمصدر محذوف، أي: وعداً غروراً، أو على أنه مفعول ثان، أو مصدر على غير لفظه. قال ابن عرفة: الغرور ما رأيت له ظاهراً تحبه، وله باطن مكروه، وهذه الجملة اعتراضية. قوله: «أولئك» إشارة إلى أولياء الشيطان، وهذا مبتدأ، وخبره الجملة، وهي قوله: «وماوهم جهنم». قوله: «محيصاً» أي: معدلاً من حاص يحيص؛ وقيل ملجأ، ومخلصاً؛ والمحيص اسم مكان، وقيل: مصدر. قوله: «والذين آمنوا» الخ، جعل هذا الوعد للذين آمنوا مقترناً بالوعيد المتقدم للكافرين. قوله: «وعد الله حقاً» قال في الكشف مصدران: الأول مؤكد لنفسه، والثاني مؤكد لغيره، ووجهه أن الأول مؤكد لمضمون الجملة الاسمية، ومضمونها وعد، والثاني مؤكد لغيره، أي: حق ذلك حقاً. قوله: «ومن أصدق من الله قيلاً» هذه الجملة مؤكدة لما قبلها، والقليل مصدر قال كالقول، أي: لا أجد أصدق قولاً من الله عز وجل؛ وقيل: إن قيلاً اسم لا مصدر، وإنه منتصب على التمييز.

وقد أخرج الترمذي من حديث علي أنه قال: ما في القرآن آية أحب إلي من هذه الآية: «إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء» قال الترمذي: حسن غريب. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن أبي مالك في قوله: «إن يدعون من دونه إلا إنافاً» قال: اللات والعزة، ومناة كلها مؤنثة. وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد المسند، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والضياء في المختارة عن أبي بن كعب في الآية قال مع كل صنم جنه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس: «إن يدعون من دونه إلا إنافاً» قال: موتى. وأخرج مثله عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الحسن. وأخرج مثله أيضاً عبد بن حميد، وابن جرير عن قتادة. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر عن الحسن قال: كان لكل حي من أحياء العرب صنم يعبدونها يسمونها أنثى بني فلان، فأنزل الله: «إن يدعون

يعمل سوءاً يجز به. بلغت من المسلمين مبلغاً شديداً، فقال رسول الله ﷺ: قاربوا وسدوا، ففي كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى النكبة ينكبها، والشوكة يشاكها. قوله: ﴿ولا يجد له﴾ قرأه الجماعة بالجزم عطفاً على الجزاء، وروى ابن بكار عن ابن عامر ﴿ولا يجد﴾ بالرفع استئنافاً، أي: ليس لمن يعمل السوء من نون الله ولياً يواليه ولا نصيراً ينصره ﴿ومن يعمل من الصالحات﴾ أي: بعضها حال كونه ﴿من نكر أو أنثى﴾ وحال كونه مؤمناً، والحال الأولى لبيان من يعمل، والحال الأخرى لإفادة اشتراط الإيمان في كل عمل صالح ﴿فأولئك﴾ إشارة إلى العمل المتصف بالإيمان ﴿يدخلون الجنة﴾ قرأ أبو عمرو، وابن كثير: ﴿يدخلون﴾ بضم حرف المضارعة على البناء للمجهول. وقرأ الباقون بفتحها على البناء للمعلوم ﴿ولا يظلمون نقيراً﴾ أي: لا ينتقصون شيئاً حقيراً، وقد تقدم تفسير النقيز: ﴿ومن أحسن بينا ممن أسلم وجهه لله﴾ أي: أخلص نفسه له حال كونه محسناً، أي: عاملاً للحسنات ﴿واتبع ملة إبراهيم﴾ أي: دينه حال كونه المتبع ﴿حنيفاً﴾ أي: مائلاً عن الدين الباطلة إلى دين الحق، وهو الإسلام: ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾ أي: جعله صفوة له، وخصه بكراماته، قال ثعلب: إنما سمي الخليل خليلاً لأن محبته تتخلل القلب، فلا تدع فيه خليلاً إلا ملاته، وأنشد قول بشار: قد تخللت مسلك الروح مني وبه سمي الخليل خليلاً

وخليل فعيل بمعنى فاعل كالعليم بمعنى العالم؛ وقيل: هو بمعنى المفعول كالحيبيب بمعنى المحبوب. وقد كان إبراهيم عليه السلام محبوباً لله، ومحباً له، وقيل: الخليل من الاختصاص، فإله سبحانه اختص إبراهيم برسالته في ذلك الوقت واختاره لها، واختار هذا التحلل. وقال الزجاج: معنى الخليل الذي ليس في محبته خلل ﴿ووه ما في السموات وما في الأرض﴾ فيه إشارة إلى أنه سبحانه اتخذ إبراهيم خليلاً لطاعته لا لحاجته، ولا للتكرر به، والاعتضاد بمخالته ﴿وكان الله بكل شيء محيطاً﴾ هذه الجملة مقررّة لمعنى الجملة التي قبلها، أي: أحاط علمه بكل شيء: ﴿لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا احصاها﴾ [الكهف: 49].

وقد أخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد قال: قالت العرب: لا نبعث، ولا نحاسب، وقالت اليهود، والنصارى: ﴿لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى﴾ [البقرة: 11] وقالوا: ﴿لن تمسنا النار إلا إيماناً معبودة﴾ [البقرة: 80] فانزل الله: ﴿ليس بامانيكم ولا أمانتي أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به﴾. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر عن مسروق قال: احتج المسلمون، وأهل الكتاب، فقال المسلمون: نحن أهدى منكم، وقال أهل الكتاب: نحن أهدى منكم، فنزلت ففلج عليهم المسلمون بهذه الآية: ﴿ومن يعمل من الصالحات من نكر أو أنثى وهو مؤمن﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي

حاتم، عن مسروق قال: تفاخر النصارى، وأهل الإسلام، فقال هؤلاء نحن أفضل منكم، وقال هؤلاء نحن أفضل منكم، فنزلت وقد ورد معنى هذه الروايات من طرق كثيرة مختصرة، ومطولة. وأخرج عبد بن حميد، والترمذي، وابن المنذر، عن أبي بكر الصديق أن النبي ﷺ قال له لما نزلت هذه الآية: أما أنت، وأصحابك يا أبا بكر، فتجزون بذلك في الدنيا حتى تلقوا الله ليس لكم نوب، وأما الآخرون، فيجمع لهم ذلك حتى يجزوا به يوم القيامة. وأخرج البخاري، ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة، وأبي سعيد أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقول: «ما يصيب المؤمن من وصب، ولا نصب، ولا سقم، ولا حزن حتى ألهم بهمه إلا كفر الله به من سيئاته». وقد ورد في هذا المعنى أحاديث كثيرة. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس أن ابن عمر لقيه، فسأله عن هذه الآية: ﴿ومن يعمل من الصالحات﴾ قال: الفرائض. وأخرج الحاكم، وصححه عن جندب: أنه سمع النبي ﷺ يقول قبل أن يتوفى: «إن الله اتخذني خليلاً، كما اتخذ إبراهيم خليلاً». وأخرج الحاكم أيضاً وصححه، عن ابن عباس قال: أتعجبون أن تكون الخلّة لإبراهيم، والكلام لموسى، والرؤية لمحمد ﷺ؟

وَسَتَفْتَوِيكَ فِي الْإِسَاءِ عَلَى اللَّهِ يَنْتَبِهُكُمْ فِيهِمْ وَمَا يَتَلَّ عَلَيْهِمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَنَّى الْإِسَاءِ الْكَلِّي لَا تَوْتُونَهُنَّ مَا سَكِبَ لَهُنَّ وَزَعَبْنَ أَنْ تَكُوْهُنَّ وَالشَّعْبِيَّةِ مِنَ الْوَلَدَانِ وَأَنْ تَقُوْهُنَّ يَلْتَنَّى بِالْقِسْطِ وَمَا تَعْمَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً

سبب نزول هذه الآية سؤال قوم من الصحابة عن أمر النساء، وأحكامهن في الميراث وغيره، فأمر الله نبيه ﷺ أن يقول لهم: ﴿الله يفتيك﴾ أي: يبين لكم حكم ما سألتكم عنه، وهذه الآية رجوع إلى ما افتتحت به السورة من أمر النساء، وكان قد بقيت لهم أحكام لم يعرفوها، فسألوا، ف قيل لهم: ﴿الله يفتيك﴾. قوله: ﴿وما يتلى عليكم﴾ معطوف على قوله: ﴿الله يفتيك﴾ والمعنى: والقرآن الذي يتلى عليكم يفتيك فيهن، والمتلو في الكتاب في معنى اليتامى قوله تعالى: ﴿وان خفتم أن لا تقسطوا في اليتامى﴾ [النساء: 3] ويجوز أن يكون قوله: ﴿وما يتلى﴾ معطوفاً على الضمير في قوله: ﴿يفتيك﴾ الرجوع إلى المبتدأ لوقوع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بالمفعول والجار والمجرور، ويجوز أن يكون مبتدأ، وفي الكتاب خبره على أن المراد به: اللوح المحفوظ، وقد قيل في إعرابه غير ما ذكرنا، ولم ننكره لضعفه. وقوله: ﴿في يتامى للنساء﴾ على الوجه الأول، والثاني صلة لقوله: ﴿يتلى﴾ وعلى الوجه الثالث بدل من قوله: ﴿فيهن﴾. «اللاتي لا توتونهن ما كتب لهن» أي: ما فرض لهن من الميراث وغيره «وترغبون» معطوف على قوله: ﴿لا توتونهن﴾ عطف جملة مثبتة على جملة منفية. وقيل: حال من فاعل «توتونهن». وقوله: ﴿أن تنكحوهن﴾ يحتمل أن يكون التقدير في أن تنكحوهن، أي:

امرأة مرفوعة بفعل مقتر يفسره ما بعده، أي: وإن خافت امرأة، وخافت بمعنى: توقعت ما تخاف من زوجها وقيل معناها: تيقنت وهو خطأ. قال الزجاج: المعنى: «وإن امرأة خافت من بعلها» يوم النشوز. قال النحاس: الفرق بين النشوز، والإعراض: أن النشوز التباعد، والإعراض أن لا يكلمها، ولا يأنس بها، وظاهر الآية أنها تجوز المصالحة عند مخافة أي نشوز، أو أي إعراض، والاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب الذي سيأتي، وظاهرها أنه يجوز التصالح بأي نوع من أنواعه، إما بإسقاط الثوبة، أو بعضها، أو بعض النفقة، أو بعض المهر. قوله: «أن يصلحا» هكذا قرأه الجمهور، وقرأ الكوفيون: «أن يصلحوا» وقرأه الجمهور أولى؛ لأن قاعدة العرب أن الفعل إذا كان بين اثنين فصاعداً قيل: تصالح الرجلان، أو القوم، لا أصلح. وقوله: «صلحا» منصوب على أنه اسم مصدر، أو على أنه مصدر محذوف الزوائد، أو منصوب بفعل محذوف، أي: فيصلح حالهما صلحاً، وقيل: هو منصوب على المفعولية. وقوله: «بينهما» ظرف للفعل، أو في محل نصب على الحال. قوله: «والصلح خير» لفظ عام يقتضي أن الصلح الذي تسكن إليه النفوس، ويزول به الخلاف خير على الإطلاق أو خير من الفرقة، أو من الخصومة، وهذه جملة اعتراضية. قوله: «ولحضرت الأنفس الشخ» إخبار منه سبحانه بأن الشخ في كل واحد منهما بل في كل الأنفس الإنسانية كائن، وأنه جعل كانه حاضر لها لا يغيب عنها بحال من الأحوال، وأن ذلك بحكم الجبلة، والطبيعة، فالرجل يشخ بما يلزمه للمرأة من حسن العشرة، وحسن النفقة ونحوها، والمرأة تشخ على الرجل بحقوقها اللازمة للزوج، فلا تترك له شيئاً منها. وشخ الأنفس: بخلها بما يلزمها، أو يحسن فعله بوجه من الوجوه، ومنه: «ومن يوق شخ نفسه فاولئك هم المفلحون» [الحشر: 9]. قوله: «وإن تحسنوا وتتقوا» أي: تحسنوا عشرة النساء، وتتقوا ما لا يجوز من النشوز والإعراض «فإن الله كان بما تعملون خبيراً» فيجازيكم يا معشر الأزواج بما تستحقونه. قوله: «ولن تستطيعوا أن تعملوا بين النساء» أخبر سبحانه بنفي استطاعتهم للعدل بين النساء على الوجه الذي لا ميل فيه البتة لما جبلت عليه الطباع البشرية من ميل النفس إلى هذه دون هذه، وزيادة هذه في المحبة، ونقصان هذه، وذلك بحكم الخلقة بحيث لا يملكون قلوبهم، ولا يستطيعون توقيف أنفسهم على التسوية، ولهذا كان يقول الصائق المصنوق: «اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما لا أملك» ولما كانوا لا يستطيعون ذلك، ولو حرصوا عليه، وبالقوا فيه نهامهم عز وجل عن أن يميلوا كل الميل؛ لأن ترك ذلك وتجنب الجور كل الجور في وسعهم وداخل تحت طاقتهم، فلا يجوز لهم أن يميلوا عن إحسان إلى الأخرى كل الميل حتى يذروا الأخرى كالمعلقة التي ليست ذات زوج، ولا

ترغبون في أن تنكحوهن لجمالهن، ويحتمل أن يكون التقدير، وترغبون عن أن تنكحوهن لعدم جمالهن. قوله: «والمستضعفين من ولدان» معطوف على يتامى النساء، أي: وما يتلى عليكم في يتامى النساء، وفي المستضعفين من ولدان، وهو قوله تعالى: «يوصيكم الله في أولادكم» [النساء: 11] وقد كان أهل الجاهلية لا يورثون النساء، ولا من كان مستضعفاً من ولدان، كما سلف، وإنما يورثون الرجال القائمين بالقتال وسائر الأمور. قوله: «وأن تقوموا لليتامى بالقسط» معطوف على قوله: «وفي يتامى النساء» كالمستضعفين أي: وما يتلى عليكم في يتامى النساء، وفي المستضعفين، وفي أن تقوموا لليتامى بالقسط، أي: العدل، ويجوز أن يكون في محل نصب، أي: ويأمركم أن تقوموا «وما تفعلوا من خير» في حقوق المذكورين: «فإن الله كان به عليماً» يجازيكم بحسب فعلكم من خير وشر.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله: «ويستفتونك في النساء» الآية، قال: كان أهل الجاهلية لا يورثون المولود حتى يكبر، ولا يورثون المرأة، فلما كان الإسلام قال: «ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن» وما يتلى عليكم في الكتاب» في أول السورة في الفرائض. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد في الآية قال: كان أهل الجاهلية لا يورثون النساء، ولا الصبيان شيئاً، كانوا يقولون لا يغزون، ولا يغنمون خيراً، ففرض الله لهم الميراث حقاً واجباً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن سعيد بن جبيرة نحوه بأطول منه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن إبراهيم في الآية قال: كانوا إذا كانت الجارية يتيمة تيممة لم يعطوها ميراثها، وحبسوها من التزويج حتى تموت، فيرثونها، فأنزل الله هذا. وأخرج البخاري، ومسلم وغيرهما عن عائشة في قوله: «ويستفتونك في النساء» إلى قوله: «وترغبون أن تنكحوهن» قالت: هو الرجل تكون عنده اليتيمة هو وليها ووارثها قد شركته في ماله حتى في العنق، فيرغب أن ينكحها ويكره أن يزوجه رجلاً، فتشركه في ماله بما شركته فيعضلها، فنزلت هذه الآية. وأخرج ابن المنذر من طريق ابن عون عن الحسن، وابن سيرين في هذه الآية قال لهما: ترغبون فيهن، وقال الآخر: ترغبون عنهن.

وَأَنْ أَمْرَهُ خَافَتْ مِنْ بَيْلِهِا شُورًا أَوْ إِعْرَاسًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْذِرُ الْآنَفُسَ الشُّخَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٠﴾ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ الْإِسْهَ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَبْسِلُوهَا كُلَّ السَّبَلِ فَنَذَرُهَا كَالْمُتَلَذِّثِ وَإِنْ تَضِلُّوا وَتَفْتَرُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا ﴿٩١﴾ وَإِنْ يَنْفَرَا مِنْ اللَّهِ كُلًّا مِنْ سَكْرَةٍ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾

اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك، وإسناده صحيح. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، وأهل السنن عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانت له امرأتان، فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة، ولحد شقيه ساقط». قال الترمذي: إنما أسنده همام. ورواه هشام الدستوائي عن قتادة قال: كان يقال، ولا يعرف هذا الحديث مرفوعاً إلا من حديث همام. وأخرج ابن المنذر، عن ابن مسعود في قوله: «ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء» قال: الجماع. وأخرج ابن أبي شيبة، عن الحسن قال: الحب.

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٧٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٧٩﴾ إِنَّ يَسَّاءَ يَدْعُونَكُمُ إِلَيْهَا الْفَاسُ وَالْآسُ وَالْجَاهِلُونَ وَلَقَدْ كَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿١٨٠﴾ تَنْ كَانُ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَوَدَّ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٨١﴾

قوله: «وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» هذه الجملة مستأنفة لتقرير كمال سعته سبحانه، وشمول قدرته «وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ أَمْرَانَهُمَا» فيما أنزلناه عليهم من الكتب، واللام في الكتاب للجنس «وَأَيُّكُمْ» عطف على الموصول «أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ» أي: أَمْرَانَهُمَا وَأَمْرَانَكُمْ بِالْتَّقْوَى، وهو في موضع نصب بقوله: «وَصَّيْنَا» أو منصوب بنزع الخافض. قال الأخفش أي: بَأَنْ اتَّقُوا اللَّهَ، ويجوز أن تكون أن مفسرة: لأن التوصية في معنى القول. قوله: «وَأَنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» معطوف على قوله: «أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ» أي: وصيائهم، وإياكم بالتحقيق، وقلنا لهم، ولكم إِنْ تَكْفُرُوا، وفائدة هذا التكرير التأكيد ليتنبه العباد على سعة ملكه، وينظروا في ذلك، ويعلموا أنه غني عن خلقه «إِنْ يَشَاءُ يَذْهَبْكُمْ» أي: يفنكم «وَيَأْتِ بِآخَرِينَ» أي: يقوم آخرين غيركم، وهو كقوله تعالى «وَأَنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ» [محمد: 38] «مَنْ كَانَ يَرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا» وهو من يطلب بعمله شيئاً من أمور الدنيا كالمجاهد يطلب الغنيمة بون الأجر «فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ» فما باله يقتصر على أثنى الثوابين، وأحق الأجرين، وهما طلب بعمله ما عند الله سبحانه، وهو ثواب الدنيا، والآخرة، فيحزهما جميعاً، ويفوز بهما، وظاهر الآية العموم. وقال ابن جرير الطبري: إنها خاصة بالمشركون والمنافقين: «وَأَمَّا اللَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ» يسمع ما يقولونه، ويبصر ما يفعلونه.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: «وَأَمَّا اللَّهُ غَنِيًّا» عن خلقه «حميداً» قال: مستحسناً إليهم. وأخرج أيضاً عن علي مثله. وأخرج ابن

مطلقة تشبيهاً بالشئ الذي هو معلق غير مستقر على شيء، وفي قراءة أبي فتنروها كالمسجونة، قوله: «وَأَنْ تَصْلَحُوا» أي: ما أقدمتم من الأمور التي تركتم ما يجب عليكم فيها من عشرة النساء، والعدل بينهما «وَتَتَّقُوا» كل الميل الذي نهيتكم عنه: «فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا» لا يؤاخذكم بما فرط منكم. قوله: «وَأَنْ يَتَفَرَّقَا» أي: لم يتصالحا بل فارق كل واحد منهما صاحبه: «يَغْنِ اللَّهُ كِلَا» أي: يجعله مستغنياً عن الآخر بأن يهين للرجل امرأة توافقه، وتقر بها عينه، وللمرأة رجلاً تغتبط بصحبته، ويرزقهما «مَنْ سَعَتَهُ» رزقاً يغنيهما به عن الحاجة: «وَأَمَّا اللَّهُ وَسِعَ حَكِيمًا» واسع الفضل صابرة أفعاله على جهة الإحكام، والإتقان.

وقد أخرج الترمذي وحسنه، وابن المنذر، والطبراني، والبيهقي عن ابن عباس قال: خشيت سودة أن يطلقها رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله لا تطلقني، وأجعل يومي لعائشة، ففعل، ونزلت هذه الآية: «وَأَنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا» الآية، قال ابن عباس: فما اصطلحا عليه من شيء، فهو جائز. وأخرج أبو داود، والحاكم وصححه، والبيهقي عن عائشة أن سبب نزول الآية هو قصة سودة المنكورة. وأخرج البخاري وغيره عنها في الآية قالت: الرجل تكون عند المرأة ليس بمستكثر منها يريد أن يفارقها، فتقول: أجعلك من شأني في حل، فنزلت هذه الآية. وأخرج الشافعي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، والبيهقي عن سعيد بن المسيب أن ابنة محمد بن سلمة كانت عند رافع بن خديج، ففكره منها امرأة، إما كبراً، أو غيره، فأراد طلاقها، فقالت: لا تطلقني وأقسم لي ما بدا لك، فاصطلحا، وجرت السنة بذلك ونزل القرآن: «وَأَنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا» الآية. وأخرج أبو داود الطيالسي، وابن أبي شيبة، وابن راهويه، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي عن علي أنه سئل عن هذه الآية، فقال: هو رجل عنده امرأتان، فتكون إحداهما قد عجزت، أو تكون دمية، فيريد فراقها، فتصلحه على أن يكون عندها ليلة، وعند الأخرى ليلي، ولا يفارقها، فما طابت به نفسها، فلا بأس به، فإن رجعت سوى بينهما. وقد ورد عن جماعة من الصحابة نحو هذا، وثبت في الصحيحين من حديث عائشة قالت: «لما كبرت سودة بنت زمعة وهبت يوماً لعائشة، فكان رسول الله ﷺ يقسم لها بيوم سودة». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن ابن عباس في قوله: «وَأَحْضَرْتُ الْأَنْفُسَ الشَّخْ» قال: هواه في الشيء يحرص عليه، وفي قوله: «وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ» قال: في الحب والجماع، وفي قوله: «فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوا كَالْمِخْلَقَةِ» قال: لا هي أئمة، ولا ذات زوج. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن المنذر عن عائشة قالت: «كان النبي ﷺ يقسم بين نسائه، فيعدل، ثم يقول:

من النبي، يقال لويت فلاناً حقه: إذا نفعته عنه. والمراد لي الشهادة ميلاً إلى المشهود عليه. وقرأ ابن عامر، والكوفيون⁽¹⁾ «وإن تلوأ» من الولاية، أي: وإن تلوأ الشهادة، وتتركوا ما يجب عليكم من تأييدها على وجه الحق. وقد قيل: إن هذه القراءة تفيد معنيين: الولاية، والإعراض. والقراءة الأولى تفيد معنى واحداً وهو الإعراض: وزعم بعض النحويين أن القراءة الثانية غلط، ولحن؛ لأنه لا معنى للولاية هاهنا. قال النحاس وغيره: وليس يلزم هذا، ولكن يكون تلوأ بمعنى تلوأ، وذلك أن أصله تلوأ، فاستغلت الضمة على الواو بعدها واو أخرى، فالحقبت الحركة على اللام وحذفت إحدى الواوين لالتقاء الساكنين. وذكر الزجاج نحوه. قوله: «أو تعرضوا» أي: عن تأييد الشهادة من الأصل «فإن الله كان بما تعملون خبيراً» أي: بما تعملون من النبي، والإعراض، أو من كل عمل، وفي هذا وعيد شديد لمن لم يأت بالشهادة، كما تجب عليه، وقد روى أن هذه الآية تعم القاضي، والشهود، أما الشهود فظاهر، وأما القاضي فذلك بأن يعرض عن أحد الخصمين، أو يلوئ عن الكلام معه: وقيل: هي خاصة بالشهود. قوله: «يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله» أي: اثبتوا على إيمانكم، وبنوا عليه، والخطاب هنا للمؤمنين جميعاً «والكتاب الذي نزل على رسوله» هو القرآن، واللام للعهد «والكتاب الذي أنزل من قبل» هو كل كتاب، واللام للجنس. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر نزل، وأنزل بالضم. وقرأ الباقون بالفتح فيهما. وقيل إن الآية نزلت في المنافقين. والمعنى: يا أيها الذين آمنوا في الظاهر اخلصوا لله. وقيل نزلت في المشركين، والمعنى: يا أيها الذين آمنوا باللات والعزى آمنوا بالله، وهما ضعيفان. قوله: «ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر» أي: بشيء من ذلك «فقد ضل» عن القصد «ضلالاً بعيداً» وذكر الرسول فيما سبق لنكر الكتاب الذي أنزل عليه، وذكر الرسل هنا لنكر الكتب جملة، فناسبه نكر الرسل جملة، وتقديم الملائكة على الرسل؛ لأنهم الوسائط بين الله وبين رسله.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله: «يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين» الآية، قال، أمر الله المؤمنين أن يقولوا بالحق، ولو على أنفسهم، أو آياتهم، أو إبنائهم لا يحابون غنياً لغناه، ولا يرحمون مسكيناً لمسكنته، وفي قوله: «فلا تتبعوا الهوى» فتذروا الحق فتجوروا «وإن تلووا» يعني بالسنتكم بالشهادة «أو تعرضوا» عنها. وأخرج أحمد، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو نعيم في الحلية عنه في معنى الآية قال: الرجلان

جرير، عن قتادة في قوله: «وكفى باسه وكيلاً» قال: حفيظاً. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عنه في قوله: «إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين» قال قابر والله ربنا على ذلك أن يهلك من خلقه ما شاء ويأتي بآخرين من بعدهم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَرْكَىٰ بِمَا تَعْمَلُونَ الْمَوْحَىٰ أَنْ تَدُلُّوا وَإِنْ تَلَوُّا أَوْ تَرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَايِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابَ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابَ الَّذِي نَزَّلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَآيَاتِهِ الْأَخِيرَ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣﴾

قوله: «قوامين» صيغة مبالغة، أي: ليتكرر منكم القيام بالقسط، وهو العدل في شهادتكم على أنفسكم، وهو الاقرار بما عليكم من الحقوق، وأما شهادته على والديه فبان يشهد عليهما بحق للغير، وكذلك الشهادة على الأقربين ونكر الأبوين لوجوب برهما، وكونهما أحب الخلق إليه، ثم نكر الأقربين؛ لأنهم مظنة المودة، والتعصب، فإذا شهدوا على هؤلاء بما عليهم، فالأجنبي من الناس أحرى أن يشهدوا عليه. وقد قيل: إن معنى الشهادة على النفس أن يشهد بحق على من يخشى لحوق ضرر منه على نفسه، وهو بعيد. وقوله: «شهادة لله» خبر بعد خبر لكان، أو حال، ولم ينصرف؛ لأن فيه ألف التثنية. وقال ابن عطية: الحال فيه ضعيفة في المعنى؛ لأنها تخصص القيام بالقسط إلى معنى الشهادة فقط. وقوله: «الله» أي: لمرضاته وثوابه. وقوله: «ولو على أنفسكم» متعلق بشهادة، هذا المعنى الظاهر من الآية؛ وقيل معنى: «شهادة لله» بالوحدانية، فيتعلق قوله: «ولو على أنفسكم» بقوامين، والأول أولى. قوله: «إن يكن غنياً أو فقيراً» اسم كان مقتر، أي: إن يكن المشهود عليه غنياً، فلا يراعي لأجل غناه استجلاباً لنفعه، أو استنفاعاً لضره فيترك الشهادة عليه، أو فقيراً، فلا يراعي لأجل فقره رحمة له، وإشفافاً عليه، فيترك الشهادة عليه، وإنما قال: «فأله أولى بهما» ولم يقل به مع أن التخيير إنما يدل على الحصول لواحد؛ لأن المعنى: فأله أولى بكل واحد منهما. وقال الاخفش: تكون أو بمعنى الواو؛ وقيل: إنه يجوز ذلك مع تقدّم نكرهما كما في قوله: «وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السبس» [النساء: 12]. وقد تقدّم في مثل هذا ما هو أبسط مما هنا. وقرأ أبي: «فأله أولى بهم». وقرأ ابن مسعود: «إن يكن غني أو فقير» على أن كان تامة: «فلا تتبعوا الهوى» نهامهم عن اتباع الهوى. وقوله: «إن تعملوا» في موضع نصب، وهو إما من العمل كأنه قال: فلا تتبعوا الهوى كرامة أن تعملوا بين الناس، أو من العمل كأنه قال: فلا تتبعوا الهوى مخافة أن تعملوا عن الحق، أو كرامة أن تعملوا عن الحق. قوله: «وإن تلووا»

(1) صوابه (حمزة) اهـ مصحح القرآن.

ثم كفروا بعباسي، ثم ازدانوا كُفْراً بكفرهم بمحمد ﷺ؛ وقيل: آمنوا بموسى، ثم كفروا به بعبادتهم العجل، ثم آمنوا به عند عوده إليهم، ثم كفروا بعباسي، ثم ازدانوا كُفْراً بكفرهم بمحمد ﷺ والمراد بالأية: أنهم ازدانوا كُفْراً، واستمروا على ذلك كما هو الظاهر من حالهم، وإلا فالكافر إذا آمن، وأخلص إيمانه، وأقلع عن الكفر، فقد هداه الله السبيل الموجب للمغفرة، والإسلام يجب ما قبله، ولكن لما كان هذا مستبعداً منهم جداً كان غفران ذنوبهم، وهدايتهم إلى سبيل الحق مستبعداً. قوله: ﴿بِشْرَ الْمُنَافِقِينَ بَأْنِ لَهُمْ عَذَابٌ كَبِيرٌ﴾ إطلاق البشارة على ما هو شرّ خالص لهم تهكم بهم، وقد مرّ تحقيقه. وقوله: ﴿الَّذِينَ يَتَخَذُونَ الْكَاثِرِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ وصف للمنافقين، أو منصوب على الذم، أي: يجعلون الكفار أولياء لهم يوالونهم على كفرهم، ويمالئونهم على ضلالهم. وقوله: ﴿مَنْ يُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ في محل نصب على الحال، أي: يوالون الكافرين متجاوزين ولاية المؤمنين ﴿يَتَّبِعُونَ عَنْهُمْ الْعِزَّةَ﴾ هذا الاستفهام للتقريع، والتوبيخ، والجملة معترضة. قوله: ﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ هذه الجملة تعليل لما تقدّم من توبيخهم بابتغاء العزّة عند الكافرين، وجميع أنواع العزّة، وأفرادها مختص بالله سبحانه، وما كان منها مع غيره، فهو من فيضه، وتفضله كما في قوله: ﴿وَاللَّهُ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: 8] والعزّة: الغلبة، يقال عزّه يعزّه عزّاً: إذا غلبه: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ الخطاب لجميع من أظهر الإيمان من مؤمن ومنافق؛ لأن من أظهر الإيمان، فقد لزمه أن يمثل ما أنزله الله؛ وقيل إنه خطاب للمنافقين، فقط كما يفيد التشديد، والتوبيخ. وقرأ عاصم، ويعقوب: «نزل» بفتح النون والزاي وتشديدها، وفاعله ضمير راجع إلى اسم الله تعالى في قوله: ﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾. وقرأ حميد بتخفيف الزاي مفتوحة مع فتح النون، وقرأ الباقر بضم النون مع كسر الزاي مشددة على البناء للمجهول. وقوله: ﴿إِنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ﴾ في محل نصب على القراءة الأولى على أنه مفعول نزل. وفي محل رفع على القراءة الثانية على أنه فاعل، وفي محل رفع على أنه مفعول ما لم يسم فاعله على القراءة الثالثة. وإن هي المخففة من الثقيلة، والتقدير أنه إذا سمعتم آيات الله. والكتاب: هو القرآن. وقوله: ﴿يَكْفُرُ بِهَا وَيَسْتَهْزِأُ بِهَا﴾ حالان، أي: إذا سمعتم الكفر، والاستهزاء بآيات الله، فأوقع السماع على الآيات. والمراد: سماع الكفر والاستهزاء. وقوله: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ أي: أنزل عليكم في الكتاب أنكم عند هذا السماع للكفر، والاستهزاء بآيات الله لا تقعدوا معهم ما داموا كذلك حتى يخوضوا في حديث غير حديث الكفر والاستهزاء بها. والذي أنزله الله عليهم في الكتاب هو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [الأنعام: 68] وقد كان جماعة من الداخلين في الإسلام يقعدون مع المشركين، واليهود حال سخريتهم بالقرآن، واستهزائهم به، فنهوا عن ذلك.

يجلسان عند القاضي، فيكون لِي القاضي، وإعراضه لأحد الرجلين على الآخر. وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة كانت البقرة أوّل سورة نزلت، ثم أُرِفها سورة النساء، قال: فكان الرجل تكون عنده الشهادة قبل ابن عمه، أو نوي رحمه، فيلوى بها لسانه، أو يكتمها مما يرى من عسرته حتى يوسر، فيقضي حين يوسر، فنزلت: ﴿**كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ**﴾ الآية. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً ﴿**وَأَنْ تَلُولُوا لَوْ تَعْرِضُوا**﴾ يقول: تلوى لسانك بغير الحق، وهي اللجاجة، فلا تقيم الشهادة على وجهها. والإعراض: الترك. وأخرج الثعلبي عن ابن عباس «أن عبد الله بن سلام وأسدًا وأسيداً ابني كعب، وثعلبة بن قيس وسلام ابن أخت عبد الله بن سلام، وسلمة ابن أخيه، ويامين بن يامين أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله إنا نؤمن بك، ويكتابك، وموسى، والتوراة، وعزير، ونكفر بما سواه من الكتب والرسل، فقال رسول الله ﷺ: بل آمنوا بالله ورسوله محمد، وكتابه القرآن وبكل كتاب كان قبله، فقالوا: لا نفعل، فنزلت: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ**﴾ الآية. ويتبغي النظر في صحة هذا، فالثعلبي رحمه الله ليس من رجال الرواية، ولا يفرّق بين الصحيح، والموضوع. وأخرج ابن المنذر، عن الضحاك في هذه الآية قال: يعني بذلك: أهل الكتاب، كان الله قد أخذ ميثاقهم في التوراة والإنجيل، وأقرأوا على أنفسهم أن يؤمنوا بمحمد ﷺ، فلما بعث الله رسوله دعاهم إلى أن يؤمنوا بمحمد، والقرآن، ونكرهم الذي أخذ عليهم من الميثاق، فعنهم من صدّق النبي ﷺ واتباعه، ومنهم من كفر.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا كَفَرُوا كُفْرًا كَثِيرًا لَا يَأْكُلُ اللَّهُ لِقَافَهُمْ وَلَا لِقَاءَهُمْ مُبِيلًا ﴿١٠١﴾ نَسِيَ الْتَوَفَّيْنَ بِأَنَّهُمْ عَذَابُ الْعَذَابِ الَّذِينَ يَحْذَرُونَ الْكَافِرِينَ أَوَلَيْسَ مِنَ الدُّنْيَا الدُّنْيَانُ مِثْلَ حَبِثَاتِ النَّارِ ﴿١٠٢﴾ فَإِنَّ الْجَزَاءَ لَوَ جِيمًا ﴿١٠٣﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَن إِذَا تَوَعَّدَ مَآلِكُ أَنْ يُكَفِّرَ بَهَا وَيُشْهِرَهَا بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى تَخُوشُوا فِي حَيْثُ عَرِمُوا لِئَلَّا يَضْلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُتَوَفَّيْنَ فِي جَهَنَّمَ جِيمًا ﴿١٠٤﴾ الَّذِينَ يَرْتَضَوْنَ بِكُمُ الْإِنِّ كَانَ لَكُمْ قِتْحٌ مِنَ اللَّهِ كَالْوَالِدِ أَنْ تَتْلِيَنَّكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ تَسْتَعِذْ عَلَيْنَا مِنَ الْمُتَوَفَّيْنَ قَالَهُ بِكُمْ يَنْتَسِكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يُجِيبَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُتَوَفَّيْنَ مُبِيلًا ﴿١٠٥﴾

أخبر الله سبحانه عن هذه الطائفة التي آمنت، ثم كفرت ثم آمنت، ثم كفرت، ثم ازدادت كفراً بعد ذلك كله إنه لم يكن الله سبحانه؛ ليغفر لهم ذنوبهم، ولا ليهديهم سبيلاً يتوصلون به إلى الحق، ويسلكونه إلى الخير؛ لأنه يبعد عنهم كل البعد إن يخلصوا لله، ويؤمنوا إيماناً صحيحاً، فإن هذا الاضطراب منهم تارة يدعون أنهم مؤمنون، وتارة يمرقون من الإيمان ويرجعون إلى ما هو دأبهم، وشأنهم من الكفر المستمر، والجحود الدائم يدلُّ أبليغ دلالة على أنهم متلاعبون بالدين ليست لهم نية صحيحة، ولا قصد خالص. قيل المراد بهؤلاء: اليهود فاتهم آمنوا بموسى، ثم كفروا بعزير، ثم آمنوا بعزير،

هابكم المسلمون وخذلناهم عنكم؟ والأول أولى، فإن معنى الاستحواذ: الغلب، يقال: استحوذ على كذا، أي: غلب عليه، ومنه قوله تعالى: ﴿استحوذ عليهم الشيطان﴾ [المجادلة: 19] ولا يصح أن يقال: ألم تغلبكم حتى هابكم المسلمون، ولكن المعنى: ألم تغلبكم يا معشر الكافرين، وتتمكن منكم فتركناكم، وأبقينا عليكم حتى حصل لكم هذا الظفر بالمسلمين: ﴿ونمنعكم من المؤمنين﴾ بتخنيئهم وتبسيطهم عنكم حتى ضعفت قلوبهم عن النفع لكم وعجزوا عن الانتصاف منكم؛ والمراد أنهم يميلون مع من له الغلب، والظفر من الطائفتين، ويظهرون لهم أنهم كانوا معهم على الطائفة المغلوبة، وهذا شأن المنافقين أبعدهم الله، وشأن من حذا حنوه من أهل الإسلام من التظاهر لكل طائفة بأنه معها على الأخرى، والميل إلى من معه الحظ من الدنيا في مال أو جاه، فيلقاه بالتملق، والتودد، والخضوع، والنلة، ويلقى من لا حظ له من الدنيا بالشدة، والغلظة، وسوء الخلق، ويزدري به، ويكافحه بكل مكروه، فحبب الله أخلاق أهل النفاق، وأبعدهم. قوله: ﴿فإن الله يحكم بينكم يوم القيامة﴾ بما انطوت عليه ضمائرهم من النفاق، والبغض للحق، وأهله، ففي هذا اليوم تنكشف الحقائق، وتظهر الضمائر، وإن حقنوا في الدنيا دماءهم، وحفظوا أموالهم بالتكلم بكلمة الإسلام نفاقاً ﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾، هذا في يوم القيامة إذا كان المراد بالسبيل: النصر والغلب، أو في الدنيا إن كان المراد به الحجة. قال ابن عطية. قال جميع أهل التأويل: إن المراد بذلك يوم القيامة. قال ابن العربي: وهذا ضعيف لعدم فائدة الخبر فيه، وسببه توهم من توهم أن آخر الكلام يرجع إلى أوله يعني قوله: ﴿فإن الله يحكم بينكم يوم القيامة﴾ وذلك يسقط فائتته، إذ يكون تكراراً هذا معنى كلامه؛ وقيل المعنى: إن الله لا يجعل للكافرين سبيلاً على المؤمنين يمحو به دولتهم، ويذهب آثارهم، ويستبيح بيضتهم كما يفيد الحديث الثابت في الصحيح «ولن لا أسلط عليهم علواً من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من باقظارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً، ويسبي بعضهم بعضاً» وقيل إنه سبحانه لا يجعل للكافرين سبيلاً على المؤمنين ما داموا عاملين بالحق غير راضين بالباطل، ولا تاركين للنهي عن المنكر، كما قال تعالى: ﴿وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم﴾ [الشورى: 30] قال ابن العربي: وهذا نفيس جداً؛ وقيل: إن الله لا يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً شرعاً، فإن وجد، فبخلاف الشرع. هذا خلاصة ما قاله أهل العلم في هذه الآية، وهي: صالحة للاحتجاج بها على كثير من المسائل.

وفي هذه الآية باعتبار عموم لفظها الذي هو المعتبر دون خصوص السبب لئيل على اجتنب كل موقف يخوض فيه أهله بما يفيد التنقص، والاستهزاء للآلة الشرعية، كما يقع كثيراً من أسراء التقليد الذين استبدلوا آراء الرجال بالكتاب، والسنة، ولم يبق في أيديهم سوى قال إمام مذهبنا كذا، وقال فلان من أتباعه بكذا، وإذا سمعوا من يستدل على تلك المسألة بآية قرآنية، أو بحديث نبوي سخروا منه، ولم يرفعوا إلى ما قاله رسماً، ولا بالوا به بالة، وظنوا أنه قد جاء بأمر فظيع، وخطب شنيع، وخالف مذهب إمامهم الذي نزلوه منزلة معلم الشرائع، بل بالغوا في ذلك حتى جعلوا رأيهم الفاضل، واجتهاده الذي هو عن مناج الحق مائل، مقدماً على الله، وعلى كتابه، وعلى رسوله، فإننا الله، وإننا إليه راجعون، ما صنعت هذه المذاهب بأهلها، والأئمة الذين انتسب هؤلاء المقلدة إليهم برآء من فعلهم، فإنهم قد صرّحوا في مؤلفاتهم بالنهي عن تقليدهم، كما أوضحنا ذلك في رسالتنا المسماة [بالقول المفيد في حكم التقليد] وفي مؤلفنا المسمى [بالطلب، ومنتهى الأرب] اللهم انفعنا بما علمتنا، واجعلنا من المقتدين بالكتاب، والسنة وباعد بيننا وبين آراء الرجال المبنية على شفا جرف هار، يا مجيب السائلين.

قوله: ﴿إنكم إذا مثلهم﴾ تحليل للنهي أي: إنكم إن فعلتم ذلك، ولم تنتهوا، فأنتم مثلهم في الكفر. قيل: وهذه المماثلة ليست في جميع الصفات، ولكنه إلزام شبه بحكم الظاهر كما في قول القائل:

وكل قرين بالمقارن يقتدي

وهذه الآية محكمة عند جميع أهل العلم إلا ما يروى عن الكلبي فإنه قال: هي منسوخة بقوله تعالى: ﴿وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء﴾ [الأنعام: 61] وهو مردود، فإن من التقوى لاجتناب مجالس هؤلاء الذين يكفرون بآيات الله، ويستهزئون بها. قوله: ﴿إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً﴾ هذا تحليل لكونهم مثلهم في الكفر، قيل: وهم القاعدون، والمقعود إليهم عند من جعل الخطاب موجهاً إلى المنافقين. قوله: ﴿الذين يتربصون بكم﴾ أي: ينتظرون بكم ما يتجدد، ويحدث لكم من خير، أو شر، والموصول في محل نصب على أنه صفة للمنافقين، أو بدل منهم فقط دون الكافرين لأن التربص المذكور هو من المنافقين دون الكافرين، ويجوز أن يكون في محل نصب على الذم، ﴿فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم﴾ هذه الجملة، والجملة التي بعدها حكاية لتربصهم، أي: إن حصل لكم فتح من الله بالنصر على من يخالفكم من الكفار ﴿قالوا﴾ لكم ﴿ألم نكن معكم﴾ في الاتصاف بظاهر الإسلام، والتزام أحكامه والمظاهرة، والتسويد، وتكثير العدد ﴿وإن كان للكافرين نصيب﴾ من الغلب لكم، والظفر بكم ﴿قلوا﴾ للكافرين ﴿ألم نستحوذ عليكم﴾ أي: ألم نقهركم، ونغلبكم وتتمكن منكم، ولكن أبقينا عليكم. وقيل المعنى: إنهم قلوا للكفار الذين ظفروا بالمسلمين ألم نستحوذ عليكم حتى

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة في قوله: ﴿إن الذين آمنوا ثم كفروا﴾ الآية، قال: هم اليهود والنصارى أمنت اليهود بالتوراة، ثم كفرت، وأمنت النصارى بالإنجيل، ثم كفرت. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير عنه في الآية قال: هؤلاء اليهود آمنوا بالتوراة، ثم

قوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ هذا كلام مبتدأ يتضمن بيان بعض قبائح المنافقين، وفضائحتهم، وقد تقدم معنى الخدع في البقرة، ومخادعتهم لله هي أنهم يفعلون فعل المخادع من إظهار الإيمان، وإبطان الكفر، ومعنى كون الله خادعهم: أنه صنع بهم صنع من يخادع من خادعه، وذلك أنه تركهم على ما هم عليه من التظاهر بالإسلام في الدنيا، فعصم به أموالهم، ودماءهم، وأخر عقوبتهم إلى الدار الآخرة، فجازاهم على خداعهم بالدرك الأسفل من النار. قال في الكشف: والخادع اسم فاعل من خادعته، فخدعته إذا غلبته، وكنت أخدع منه. والكسالى بضم الكاف جمع كسلان، وقرئ بفتحها، والمراد أنهم يصلون، وهم متكاسلون متثاقلون لا يرجون ثواباً، ولا يخافون عقاباً. والرياء إظهار الجميل ليراه الناس، لا لاتباع أمر الله، وقد تقدم بيانه، والمرأة المفاعلة. قوله: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ معطوف على يراؤون، أي: لا يذكرونه سبحانه إلا نكراً قليلاً أو لا يصلون إلا صلاة قليلة، ووصف الذكر بالقلة لعدم الإخلاص، أو لكونه غير مقبول، أو لكونه قليلاً في نفسه؛ لأن الذي يفعل الطاعة لقصد الرياء، إنما يفعلها في المجمع، ولا يفعلها خالياً كالمخلص. قوله: ﴿مُتَنَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ المتنبذ المتردد بين امرين، والتنبذة الاضطراب، يقال نبذ به فتنبذ، ومنه قول النابغة:

ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتنذب
قال ابن جني: المتنبذ القلق الذي لا يثبت على حال، فهؤلاء المنافقون مترددون بين المؤمنين، والمشركين لا مخلصين الإيمان، ولا مصرحين بالكفر. قال في الكشف: وحقيقة المتنبذ الذي يذب عن كلا الجانبين، أي: يذاد، ويدفع، فلا يقر في جانب واحد، كما يقال: فلان يرمى به الرجوان، إلا أن التنبذة فيها تكرير ليس في الذب؛ كان المعنى: كلما مال إلى جانب ذب عنه. انتهى. وقرأ الجمهور بضم الميم وفتح الذالين، وقرأ ابن عباس بكسر الذال الثانية، وفي حرف أبي «متنبذين» وقرأ الحسن بفتح الميم والذالين، وانتصاب متنبذين إما على الحال، أو على الذم، والإشارة بقوله بين ذلك إلى الإيمان، والكفر. قوله: ﴿وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ إلى الكافرين، ومحل الجملة: النصب على الحال، أو على البذل من متنبذين، أو على التفسير له ﴿ومن يضل الله﴾ أي: يخله، ويسلبه التوفيق ﴿فلن تجد له سبيلاً﴾ أي: طريقاً يوصله إلى الحق. قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: لا تجعلوهم خاصة لكم، وبطانة توالوهم من دون إخوانكم من المؤمنين، كما فعل المنافقون من موالاتهم للكافرين: ﴿اتريدون أن تجعلوا الله عليكم سلطاناً مبيناً﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ، أي: اتريدون أن تجعلوا الله عليكم حجة بينة يعذبكم بها بسبب ارتكابكم لما نهاكم عنه من موالاة الكافرين ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ قرأ الكوفيون الدرك

كفروا، ثم ذكر النصاري، فقال: ﴿ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾ يقول: آمنوا بالإنجيل، ثم كفروا، ﴿ثُمَّ اٰزْدٰلٰوْاْ كُفْرًا﴾ بمحمد ﷺ. وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في الآية قال: هؤلاء المنافقون آمنوا مرتين، ثم كفروا مرتين، ثم ازدالوا كفراً بعد ذلك. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿ثُمَّ اٰزْدٰلٰوْاْ كُفْرًا﴾ قال: تموا على كفرهم حتى ماتوا. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن أبي وائل قال: إن الرجل ليتكلم في المجلس بالكلمة من الكذب؛ ليضحك بها جلساءه، فيسخط الله عليهم جميعاً، فنكروا ذلك لإبراهيم النخعي، فقال: صنق أبو وائل، أو ليس ذلك في كتاب الله؟ ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾. وأخرج ابن المنذر عن مجاهد قال: أنزل في سورة الأنعام ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [الأنعام: 68] ثم نزل التشديد في سورة النساء ﴿إِنكُمْ إِذَا مِثْلَهُمْ﴾. وأخرج ابن المنذر، عن سعيد بن جبيرة: أن الله جامع المنافقين من أهل المدينة والكافرين من أهل مكة الذين خاضوا واستهزؤوا بالقرآن في جهنم جميعاً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بِكُم﴾ قال: هم المنافقون يتربصون بالمؤمنين ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ﴾ إن أصاب المسلمين من عدوهم غنيمة قال المنافقون ﴿أَلَمْ تَكُنْ﴾ قد كنا ﴿مَعَكُمْ﴾ فاعطونا من الغنيمة مثل ما تأخذون ﴿وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ﴾ يصيبونه من المسلمين قال المنافقون للكفار ﴿أَلَمْ نَسْتَحِذْكُمْ﴾ لم نبين لكم لنا على ما أنتم عليه، قد كنا نشبطهم عنكم. وأخرج ابن جرير عن السدي: ﴿أَلَمْ نَسْتَحِذْكُمْ﴾ قال: نغلب عليكم. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في الشعب، والحاكم وصححه عن علي أنه قيل له: أرايت هذه الآية: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ وهم يقاتلوننا، فيظهرون ويقتلون، فقال: ابنه ابنه، ثم قال: ﴿فَإِنَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾. وأخرج ابن جرير عنه في الآية قال: في الآخرة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن أبي مالك نحوه أيضاً. وأخرج ابن جرير، عن السدي: ﴿سَبِيلًا﴾ قال: حجة.

إِنَّ الْمُتَّقِينَ يَخْدَعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُتَّالًا يَرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ مُتَنَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿١٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَرْيَاؤُكُمْ أَنْ تُجَمَلُوا بِهِمْ سَبِيلًا ﴿١٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ نَابَوْا وَأَصْلَحُوا وَأَغْتَمَصُوا بِاللَّهِ وَآخَصُوا بِهِمْ وَهُوَ فَالِقَ الْوَيْبِ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ أَمْرًا عَظِيمًا ﴿١٩﴾ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِمَذْيِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿٢٠﴾

المنذر عن مجاهد في قوله: ﴿مُنَافِقِينَ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ قال: هم المنافقون: ﴿لَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ يقول: لا إلى أصحاب محمد ﴿وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ اليهود، وثبت في الصحيح عن النبي ﷺ: «إن مثل المنافق مثل الشاة الغائرة بين الغنمين تغير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة فلا تدري أيهما تتبع». وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة في قوله: ﴿اتَّبِعُونِ أَنْ جَعَلُوا اللَّهَ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ قال: إن الله السلطان على خلقه ولكنه يقول عنراً مبيناً. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، والفريرابي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مروي، عن ابن عباس قال: «كل سلطان في القرآن، فهو حجة» والله سبحانه أعلم. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، عن ابن مسعود في قوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ قال: في توابيت من حديد مقفلة عليهم، وفي لفظ مبهم عليهم أي: مغلقة لا يهتدي لمكان فتحها. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن أبي هريرة نحوه. وأخرج ابن أبي الدنيا، عن ابن مسعود نحوه أيضاً. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، عن قتادة في قوله: ﴿فَمَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ﴾ الآية، قال: إن الله لا يعذب شاكراً، ولا مؤمناً.

﴿لَا يَحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَرِ مِنَ الْقُرْآنِ وَلَا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ شَهِيدًا عَلَى كُلِّ شَيْءٍ عَاشِقًا﴾
 ﴿إِنْ تَبَدَّرَ خَيْرًا أَوْ تَخَفَوْهُ أَوْ تَعَوَّاهُ عَنْ سُورَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ اللَّهُ كَانَ عَوَّاهًا قَدِيرًا﴾
 نفى الحب كناية عن البغض، وقراءة الجمهور: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ على البناء للمجهول. وقرا زيد بن أسلم، وابن أبي إسحاق، والضحاك، وابن عباس، وابن جبير، وعطاء بن السائب ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ على البناء للمعلوم، وهو على القراءة الأولى استثناء متصل بتقدير مضاف محذوف، أي: إلا جهر من ظلم؛ وقيل: إنه على القراءة الأولى أيضاً منقطع، أي: لكن من ظلم، فله أن يقول ظلمي فلان.

واختلف أهل العلم في كيفية الجهر بالسوء الذي يجوز لمن ظلم، فقيل: هو أن يدعو على من ظلمه؛ وقيل: لا بأس أن يجهر بالسوء من القول على من ظلمه بأن يقول: فلان ظلمي، أو هو ظالم، أو نحو ذلك؛ وقيل معناه: إلا من أكره على أن يجهر بسوء من القول من كفر، أو نحوه، فهو مباح له، والآية على هذا في الإكراه، وكذا قال قطرب، قال: ويجوز أن يكون على البديل كأنه قال لا يحب الله إلا من ظلم، أي: لا يحب الظالم بل يحب المظلوم، والظاهر من الآية أنه يجوز لمن ظلم أن يتكلم بالكلام الذي هو من السوء في جانب من ظلمه، ويؤيده الحديث الثابت في الصحيح بلفظ: «لبي الواجد ظلم يحل عرضه وعقوبته»، وأما على القراءة الثانية، فالاستثناء منقطع، أي: إلا من ظلم في فعل، أو قول، فاجهروا له بالسوء من القول في معنى النهي عن فعله، والتوبيخ له. وقال قوم: معنى الكلام لا يحب الله أن يجهر أحد بالسوء من القول، لكن من ظلم، فإنه يجهر بالسوء ظلماً، وعدواناً، وهو ظالم في ذلك، وهذا شأن كثير من

يسكون الرءاء، وقرا غيرهم بتحريكها. قال أبو علي: هما لغتان والجمع أدراك؛ وقيل جمع المحرك أدراك مثل جمل، وأجمال، وجمع الساكن أدراك مثل فلس، وأفلس. قال النحاس: والتحريك أقصح. والدرك: الطبقة. والنار دركات سبع، فالمنافق في الدرك الأسفل منها، وهي: الهاوية، لفظ كفره، وكثرة غوائله، وأعلى الدركات جهنم، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية. وقد تسمى جميعها باسم الطبقة العليا، أعاننا الله من عذابها: ﴿وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ يخلصهم من ذلك الدرك والخطاب لكل من يصلح له، أو للنبي ﷺ ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ استثناء من المنافقين، أي: إلا الذين تابوا عن النفاق ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ ما أقسوا من أحوالهم ﴿وَأَخْلَصُوا بَيْنَهُمْ﴾ أي: جعلوه خالصاً لا غير مشوب بطاعة غيره. والاعتصام بالله: التمسك به والثوق بوعده، والإشارة بقوله: ﴿وَأُولَئِكَ﴾ إلى الذين تابوا، واتصفوا بالصفات السابقة. قوله: ﴿مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال الفراء أي: من المؤمنين يعني الذين لم يصدر منهم نفاق أصلاً. قال القتيبي: حاد عن كلامهم غضباً عليهم، فقال: ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ولم يقل هم المؤمنون. انتهت. والظاهر أن معنى مع معتبر هنا، أي: فأولئك مصلحون للمؤمنين في أحكام الدنيا والآخرة، ثم بين ما أعد الله للمؤمنين الذين هؤلاء معهم، فقال: ﴿وَسَوْفَ يُوَفِّيهِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وحذفت الياء من يوفى في الخط، كما حذفت في اللفظ لسكونها وسكون اللام بعدها، ومثله ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾ [القمر: 6] و﴿سَدُودَ الزَّيَانَةِ﴾ [العلق: 18] و﴿يَوْمَ يَنَادُ الْمَنَادُ﴾ [ق: 41] ونحوها فإن الحذف في الجميع لالتقاء الساكنين. قوله: ﴿فَمَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَأَمْتُمْ﴾ هذه الجملة متضمنة لبيان أنه لا غرض له سبحانه في التعذيب إلا مجرد المجازاة للعصاة. والمعنى: أي منفعة له في عذابكم إن شكرتم، وأمتمتم، فإن ذلك لا يزيد في ملكه، كما أن ترك عذابكم لا ينقص من سلطانه: ﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ أي: يشكر عباده على طاعته، فيثيبهم عليها، ويتقبلها منهم. والشكر في اللغة: الظهور، يقال دابة شكور: إذا ظهر من سمها فوق ما تعطى من العلف.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن الحسن في قوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ الآية، قال: يلقي على مؤمن، ومنافق نور يمشون به يوم القيامة حتى إذا انتهوا إلى الصراط طفق نور المنافقين، ومضى المؤمنون بنورهم، فتلك خديعة الله إياهم. وأخرج ابن جرير عن السدي نحوه. وأخرج ابن المنذر، عن مجاهد، وسعيد بن جبير نحوه أيضاً، ولا أدري من أين جاء لهم هذا التفسير، فإن مثله لا ينقل إلا عن النبي ﷺ. وأخرج ابن جرير عن ابن جريج في الآية قال: نزلت في عبد الله بن أبي، وأبي عامر بن النعمان. وقد ورد في الأحاديث الصحيحة وصف صلاة المنافق، وأنه يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني شيطان قام، فنقرها أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً. وأخرج ابن جرير، وابن

بموسى، وكفروا بعيسى ومحمد، وكذلك النصارى آمنوا بعيسى، وكفروا بمحمد: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُتَخَذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ أي: يتخذوا بين الإيمان والكفر ديناً متوسطاً بينهما، فالإشارة بقوله: ﴿لَنُكَفِّرَنَّ﴾ إلى قوله تؤمن، ونكفر ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ أي: الكاملون في الكفر. وقوله: ﴿حَقًّا﴾ مصدر مؤكد لمضمون الجملة أي: حق ذلك حقاً. أو هو صفة لمصدر الكافرين، أي: كفرأ حقاً. قوله: ﴿وَلَمْ يَفْرُقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ بأن يقولوا تؤمن ببعض، ونكفر ببعض، وبخول بين على أحد لكونه عاماً في المفرد مذكراً، ومؤنثاً، ومشائهما، وجمعهما. وقد تقدم تحقيقه، والإشارة بقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ إلى الذين آمنوا بالله ورسوله، ولم يفرقوا بين أحد منهم.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة في الآية، قال: ﴿لَوْلَاكَ﴾ أعداء الله اليهود، والنصارى أمنت اليهود بالتوراة، وموسى، وكفروا بالإنجيل، وعيسى، وأمنت النصارى بالإنجيل، وعيسى، وكفروا بالقرآن، ومحمد، واتخذوا اليهودية والنصرانية، وهما بدعتان ليستا من الله وتركوا الإسلام، وهو دين الله الذي بعث به رسله. وأخرج ابن جرير، عن السدي، وابن جريج نحوه.

يَسْتَكْ أَهْلَ الْكِتَابِ أَنْ تَنُزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى
أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَأَى اللَّهَ تَجَازَاهُ فَخَذْنَاهُ مِنَ الصِّمَّةِ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ أَخَذُوا
الْوَحْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْيُسْتُ فَمَقَّوْا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا
﴿١٧٧﴾ وَوَعَدْنَا قَوْمَهُمُ الْغَدَ يَهِيشُهُمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا أَبْوَابَ مَكَّةَ وَظَلَمْنَا لَهُمْ
مَقَدُّوا فِي السَّبْتِ وَآخَذْنَا مِنْهُمُ بَيْعَتًا عَلَيْهِمْ ﴿١٧٨﴾ فَمَا تَقْبِضِهِمْ مُبْتِغِيهِمْ وَكُفِّرِهِمْ
بِكَلْبِ اللَّهِ وَقُلْهُمْ الْكَايِلَةَ بَعَثَ حَتَّى وَقَوْلُهُمْ قُلْنَا غُلْفًا بَلْ طَعِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٧٩﴾ وَكُفِّرِهِمْ وَقَوْلُهُمْ عَلَى مَرْيَمَ هَبْنَا
عِظِيمًا ﴿١٨٠﴾ وَقَوْلُهُمْ إِنَّا قُلْنَا لِلصَّبْحِ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رُسُولًا اللَّهُ وَمَا قُلْنَا وَمَا
صَلُّوهُ وَلَكِنْ شَيْءٌ لَمْ نَأْمُرِ الْإِنْسَانَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لِيَخْلُفَ فِيهِ مَا لَمْ يَكُنْ مِنْ عِلْمِ
إِلَّا نَبِيَّ الْغُلْفِ وَمَا قُلْنَا وَبَعَثْنَا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَكِيمًا
﴿١٨١﴾ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ
عَلَيْهِمْ حُجُبًا ﴿١٨٢﴾

قوله: ﴿يَسْأَلُ أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ هم اليهود سالوه ﷺ أن يرقى إلى السماء، وهم يرونه، فينزل عليهم كتاباً مكتوباً فيما ينبغي يدل على صلفه نغمة واحدة كما أتى موسى التوراة تعنتاً منهم، أبعدهم الله، فأخبره الله عز وجل بأنهم قد سالوا موسى سؤالاً أكبر من هذا السؤال، فقالوا: ﴿أَرَأَى اللَّهُ جَهْرَةً﴾ أي: عياناً، وقد تقدم معناه في البقرة، وجهرة نعت لمصدر محذوف، أي: رؤية جهرة. وقوله: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا﴾ جواب شرط مقترن، أي: إن استكبرت هذا السؤال منهم لك، فقد سالوا موسى أكبر من ذلك. قوله: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّاعِقَةَ﴾ هي النار التي نزلت عليهم من السماء، فأهلكتهم، والباء في قوله: ﴿بِظُلْمِهِمْ﴾ للسببية، أي: بسبب ظلمهم في سؤالهم الباطل لامتناع الرؤية عياناً في هذه الحالة، وذلك لا يستلزم امتناعها يوم القيامة، فقد جاءت بذلك

الظلمة، فإنهم مع ظلمهم يستطيّلون بالسنتهم على من
 ظلّموه، ويَنالون من عرضه. وقال الزّجّاج: يجوز أن يكون
 المعنى إلا من ظلّم، فقال سوءاً، فإنه ينبغي أن يأخذوا على
 يديه، ويكون استثناء ليس من الأوّل ﴿وَكَانَ اللهُ سَمِيعاً
 عَلِيماً﴾ هذا تحذير للظّالم بأن الله يسمع ما يصدر منه
 ويعلم به، ثم بعد أن أباح للمظلوم أن يجرّ بالسوء ندب إلى
 ما هو الأولى، والأفضل، فقال: ﴿إِنْ تَبَيَّنُوا خَيْراً أَوْ تَخَفُوا
 أَوْ تَعَفَّوْا عَنْ سُوءٍ﴾ تصابون به ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوَاً﴾
 عن عباده ﴿فَغَيْرِاً﴾ على الانتقام منهم بما كسبت أيديهم،
 فاقْتَنُوا به سبحانه، فإنه يعفو مع القدرة.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿لَا يَحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ قال: لا يَحِبُّ اللَّهُ أَنْ يَدْعُو أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَظْلُومًا، فَإِنَّهُ رَخَّصَ لَهُ أَنْ يَدْعُو عَلَى مَنْ ظَلَمَهُ، وَلَنْ يَصْبِرَ فَهُوَ خَيْرُ لَهُ. وَأَخْرَجَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ، وَعَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ، وَابْنُ جُرَيْرٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ فِي الْآيَةِ قَالَ: نَزَلَتْ فِي رَجُلٍ ضَلَفَ رَجُلًا بِفَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ، فَلَمْ يَضِفْهُ، ثُمَّ نَكَرَ أَنَّهُ لَمْ يَضِفْهُ لَمْ يَزِدْ عَلَى ذَلِكَ. وَأَخْرَجَ ابْنُ الْمُنْذَرِ عَنْ إِسْمَاعِيلَ ﴿لَا يَحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ قَالَ: كَانَ الضُّحَّاكُ بْنُ مَزْحَمٍ يَقُولُ هَذَا عَلَى التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ، يَقُولُ اللَّهُ: مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعِبَادِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ، وَأَمَنْتُمْ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ، وَكَانَ يَقْرَأُهَا كَذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ: ﴿لَا يَحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ أَي: عَلَى كُلِّ حَالٍ هَكَذَا قَالَ، وَهُوَ قَرِيبٌ مِنَ التَّحْرِيفِ لِمَعْنَى الْآيَةِ. وَقَدْ أَخْرَجَ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ، وَالتِّرْمِذِيُّ عَنْ عَلِيشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ دَعَا عَلَى مَنْ ظَلَمَهُ، فَقَدْ انْتَصَرَهُ». وَرَوَى نَحْوَهُ أَبُو دَاوُدَ عَنْهَا مِنْ وَجْهِ آخَرَ. وَقَدْ أَخْرَجَ أَبُو دَاوُدَ مِنْ حَيْثُ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «الْمُتَسَابِلَانِ مَا قَالَاهُ، فَعَلِيَ الْبِدَائِي مِنْهُمَا مَا لَمْ يَعْتَدِ الْمَظْلُومُ».

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضِ رُسُلِهِ وَنُكْفِرُ بِبَعْضٍ وَنُرِيدُونَ أَنْ يُطَعُوا بِبَيْنَ ذَلِكَ مِيلًا ﴿١٠١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٠٢﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَآمَنُوا وَرُسُلِهِمْ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَمْرِ اللَّهِ وَآمْرِ رُسُلِهِمْ كَانُوا بِخُصْمَتِهِمْ فِي شَرِّ الْبَقِيَّةِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٠٣﴾

لما فرغ من نكر المشركين، والمنافقين نكر الكفار من أهل الكتاب، وهم اليهود والنصارى؛ لأنهم كفروا بمحمد ﷺ، فكان ذلك كالكفر بجميع الرسل، والكتب المنزل، والكفر بذلك كفر بالله، وينبغي حمل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ على أنه استلزم ذلك كفرهم ببعض الكتب والرسل لا أنهم كفروا بالله ورسله جميعاً، فإن أهل الكتاب لم يكفروا بالله ولا بجميع رسله، لكنهم لما كفروا ببعض كان ذلك كفر بالله وبجميع الرسل. ومعنى: ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أنهم كفروا بالرسل بسبب كفرهم ببعضهم وأمنوا بالله، فكان ذلك تفرقاً بين الله وبين رسله ﴿وَيَقُولُونَ نُوْمَنُ بَعْضُ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ هم اليهود آمنوا

والأحاديث المتواترة. ومن استدل بهذه الآية على امتناع الرؤية يوم القيامة، فقد غلط غلطاً بيناً؛ ثم لم يكتفوا بهذا السؤال الباطل الذي نشأ منهم بسبب ظلمهم بعد ما رأوا المعجزات، بل ضموا إليه ما هو أقبح منه، وهو عبادة المعجل. وفي الكلام حذف والتقدير: فأحييناهم فاتخذوا المعجل. والبيئات: البراهين، والدلائل، والمعجزات من اليد، والعصا، وقلق البحر وغيرها **﴿فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ﴾** أي: عما كان منهم من التعت، وعبادة المعجل، **﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا﴾** أي: حجة بينة وهي: الآيات التي جاء بها، وسميت سلطاناً؛ لأن من جاء بها قهر خصمه، ومن ذلك أمر الله سبحانه له بأن يأمرهم بقتل أنفسهم توبة عن معصيتهم، فإنه من جملة السلطان الذي قهرهم به: **﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ﴾** أي: بسبب ميثاقهم ليعطوه؛ لأنه روى أنهم امتنعوا من قبول شريعة موسى، فرفع الله عليهم الطور، فقبلوها، وقيل: إن المعنى بسبب نقضهم ميثاقهم الذي أخذ منهم، وهو العمل بما في التوراة، وقد تقدم رفع الجبل في البقرة، وكذلك تفسير دخولهم الباب سجداً: **﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾** فاتخذوا ما أمرتم بتركه فيه من الحيتان، وقد تقدم تفسير ذلك، وقرأ لا تعتدوا، وتعدوا بفتح العين، وتشديد الدال **﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾** مؤكداً، وهو العهد الذي أخذهم عليه في التوراة؛ وقيل: إنه عهد مؤكداً باليمين، فسمي غليظاً لذلك. قوله: **﴿فَبِمَا نَقْضُهِمْ مِيثَاقَهُمْ﴾** ما مزيدة للتوكيد، أو نكرة، ونقضهم بدل منها، والباء متعلقة بمحذوف، والتقدير: فبنقضهم ميثاقهم لعناهم. وقال الكسائي: هو متعلق بما قبله والمعنى: فأخذتهم الصاعقة بظلمهم إلى قوله: **﴿فَبِمَا نَقْضُهِمْ مِيثَاقَهُمْ﴾** قال: ففسر ظلمهم الذي أخذتهم الصاعقة بسببه بما بعده من نقضهم ميثاقهم، وقتلهم الأنبياء، وما بعده، وأنكر ذلك ابن جرير الطبري وغيره؛ لأن الذين أخذتهم الصاعقة كانوا على عهد موسى، والذين قتلوا الأنبياء، ورموا مريم بالبهتان كانوا بعد موسى بزمان، فلم تأخذ الصاعقة الذين أخذتهم برمتهم بالبهتان. قال المهدوي وغيره: وهذا لا يلزم لأنه يجوز أن يخبر عنهم، والمراد آبائهم، وقال الزجاج: للمعنى فبنقضهم ميثاقهم حرماً عليهم طيبات أحلت لهم؛ لأنه هذه القصة ممتدة إلى قوله: **﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَانُوا حَرِمْنَا﴾** [النساء: 160] ونقضهم الميثاق أنه أخذ عليهم أن يبينوا صفة النبي ﷺ، وقيل المعنى: فبنقضهم ميثاقهم، وفعلهم كذا طبع الله على قلوبهم؛ وقيل المعنى: فبنقضهم لا يؤمنون إلا قليلاً، والفاء في قوله: **﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ﴾** مقحمة. قوله: **﴿وَكُفِّرْهُمْ بآيَاتِ اللَّهِ﴾** معطوف على ما قبله، وكذا قوله: **﴿وَوَقَّلتَهُمْ﴾**، والمراد بآيات الله كتبهم التي حرّفوها، والمراد بالأنبياء الذين قتلوهم يحيى، وزكرياء. وغلف جمع أغلف، وهو المغطى بالغلاف، أي: قلوبنا في أغطية، فلا نفقه ما تقول؛ وقيل: إن غلف جمع غلاف، والمعنى: أن قلوبهم أوعية للعلم، فلا حاجة لهم إلى علم غير ما قد حوته قلوبهم،

وهو كقولهم: **﴿قلوبنا في أكنة﴾** [فصلت: 5] وغرضهم بهذا ردّ حجة الرسل. قوله: **﴿جبل طبع الله عليها بكفرهم﴾** هذه الجملة اعتراضية، أي: ليس عدم قبولهم للحق بسبب كونها غلفاً بحسب مقصدهم الذي يريدونه، بل بحسب الطبع من الله عليها. والطبع: الختم، وقد تقدم إيضاح معناه في البقرة، وقوله: **﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾** أي: هي مطبوع عليها من الله بسبب كفرهم، فلا يؤمنون إلا إيماناً قليلاً، أو إلا قليلاً منهم كعباد الله بن سلام، ومن أسلم معه منهم، وقوله: **﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾** معطوف على قولهم، وإعادة الجار لوقوع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه، وهذا التكرير لإفادة أنهم كفروا كفراً بعد كفر؛ وقيل: إن المراد بهذا الكفر: كفرهم بالمسيح، فحذف لدلالة ما بعده عليه. قوله: **﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بَهْتَانًا عَظِيمًا﴾** هو رميها بيوسف النجار، وكان من الصالحين. والبهتان: الكذب المفرط الذي يتعجب منه. قوله: **﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾** معطوف على ما قبله، وهو من جملة جنائياتهم، ونزوبهم لأنهم كتبوا بأنهم قتلوه، واقتضوا بقتله، ونكروه بالرسالة استهزاء؛ لأنهم ينكرونها، ولا يعترفون بأنه نبي، وما ادّعوه من أنهم قتلوه قد اشتمل على بيان صفته، وإيضاح حقيقته الإنجيل، وما فيه هو من تحريف النصارى: أبعدهم الله، فقد كتبوا وصلى الله القاتل في كتابه العزيز: **﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾** والجملة حالية، أي: قالوا ذلك والحال أنهم ما قتلوه وما صلبوه **﴿وَلَكِنْ شَبِهَ لَهُمْ﴾** أي: ألقى شبهه على غيره؛ وقيل: لم يكونوا يعرفون شخصه، وقتلوا الذين قتلوه، وهم شاكرون فيه: **﴿وَأَنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾** أي: في شأن عيسى، فقال بعضهم: قتلناه، وقال من عاين رفعه إلى السماء ما قتلناه، وقيل: إن الاختلاف بينهم، هو أن النسطورية من النصارى قالوا: صلب عيسى من جهة ناسوته لا من جهة لا هوته، وقالت الملكانية: وقع القتل، والصلب على المسيح بكماله ناسوته، ولاهوته، ولهم من جنس هذا الاختلاف كلام طويل لا أصل له، ولهذا قال الله: **﴿وَأَنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ﴾** أي: في تردد لا يخرج إلى حيز الصحة، ولا إلى حيز البطلان في اعتقادهم، بل هم مترددون مرتابون في شكهم يعمهون، وفي جهلهم يتحيرون، **﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾** من زائدة لتوكيد نفي العلم، والاستثناء منقطع، أي: لكنهم يتبعون الظن؛ وقيل: هو بدل بما قبله. والأول أولى. لا يقال إن اتباع الظن يناقض الشك الذي أخبر الله عنهم بأنهم فيه، لأن المراد هنا بالشك: التردد كما قدمنا، والظن نوع منه، وليس المراد به هنا: ترجح أحد الجانبين. قوله: **﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾** أي: قتلاً يقيناً على أنه صفة مصدر محذوف، أو متيقنين على أنه حال، وهذا على أن الضمير في قتلوه لعيسى، وقيل: إنه يعود إلى الظن، والمعنى: ما قتلوا ظنهم يقيناً كقولك قتلتها علماً إذا علمته علماً تاماً. قال أبو عبيدة: ولو كان المعنى: وما قتلوا عيسى يقيناً لقال، وما قتلوه فقط، وقيل المعنى:

ماء، فقال: إن منكم من يكفر بي اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن بي، ثم قال: أيكم يلقي عليه شبهي، فيقتل مكاني، ويكون معي في رجعتي؟ فقام شاب من أخصبهم سناً، فقال له اجلس، ثم أعاد عليهم، فقام الشاب، فقال: اجلس، ثم أعاد عليهم، فقام الشاب فقال أنا، فقال: أنت ذاك فألقى عليه شبه عيسى، ورفع عيسى من روضة في البيت إلى السماء؛ قال: وجاء الطلب من اليهود، فأخذوا الشبه، فقتلوه، ثم صليوه، فكفر به بعضهم اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن به، واقتروا ثلاث فرق، فقالت طائفة: كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء، فهؤلاء اليعقوبية؛ وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء ثم رفعه الله إليه، وهؤلاء النسطورية. وقالت فرقة: كان فينا عبد الله ورسوله، وهؤلاء المسلمون، فتظاهرت الكفرتان على المسلمة، فقتلوهما، فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث الله محمداً، فأنزل الله عليه: ﴿فَأَمْنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الصف: 14] يعني: الطائفة التي أمنت في زمن عيسى: ﴿وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ﴾ يعني التي كفرت في زمن عيسى ﴿فَالْيَا لَئِنْ آمَنُوا﴾ في زمن عيسى بإظهار محمد بينهم على دين الكافرين. قال ابن كثير بعد أن ساقه بهذا اللفظ عن ابن أبي حاتم قال: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، فنكره. وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس، وصديق ابن كثير، فهؤلاء كلهم من رجال الصحيح. وأخرجه النسائي، من حديث أبي كريب، عن أبي معاوية بنحوه. وقد رويت قصته عليه السلام من طرق بالفاظ مختلفة، وساقها عبد بن حميد، وابن جرير، عن وهب بن منبه على صفة قريبة مما في الإنجيل، وكذلك ساقها ابن المنذر عنه. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ قال: لم يقتلوا ظنهم يقيناً. وأخرج ابن المنذر، عن مجاهد مثله. وأخرج ابن جرير، عن ابن جويبر، والسدي مثله أيضاً. وأخرج الفريابي وعبد بن حميد، والحاكم وصححه، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ قال: خروج عيسى ابن مريم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، من طرق عنه في الآية قال: قبل موت عيسى. وأخرج عنه أيضاً قال: قبل موت اليهودي. وأخرج ابن جرير عنه قال: إنه سيدرك أناس من أهل الكتاب عيسى حين يبعث سيؤمنون به. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر عنه قال: «ليس يهودي يموت أبداً حتى يؤمن بعيسى؛ قيل لابن عباس أرايت إن خر من فوق بيت؟ قال يتكلم به في الهواء؛ فقيل أرايت إن ضرب عنق لخدم؟ قال: يتلجلج بها لسانه». وقد روي نحو هذا عنه من طرق، وقال به جماعة من التابعين، وذهب كثير من التابعين فمن بعدهم إلى أن المراد: قبل موت عيسى، كما روي عن ابن عباس قبل هذا، وقيد كثير منهم بأنه يؤمن به من أدركه عند نزوله إلى الأرض. وقد تواترت الأحاديث بنزول عيسى حسبما أوضحنا ذلك في مؤلف مستقل يتضمن ذكر ما ورد

وما قتلوا الذي شبه لهم؛ وقيل المعنى: بل رفعه الله إليه يقيناً، وهو خطأ؛ لأنه لا يعمل ما بعد بل فيما قبلها. وأجاز ابن الأنباري نصب يقيناً بفعل مضمر هو جواب قسم، ويكون ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ كلاماً مستأنفاً ولا وجه لهذه الأقوال، والضمائر قبل قتلوه، وبعده لعيسى، وذكر اليقين هنا لقصد التهكم بهم لإشعاره بعلمهم في الجملة. قوله: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ رد عليهم، وإثبات لما هو الصحيح، وقد تقدم ذكر رفعه عليه السلام في آل عمران. قوله: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ المراد بأهل الكتاب: اليهود والنصارى، والمعنى: وما من أهل الكتاب أحد إلا والله ليؤمنن به قبل موته، والضمير في به راجع إلى عيسى، والضمير في موته راجع إلى ما دل عليه الكلام، وهو لفظ أحد المقدّر، أو الكتابي المنلول عليه بأهل الكتاب، وفيه دليل على أنه لا يموت يهودي، أو نصراني إلا وقد آمن بالمسيح؛ وقيل: كلا للضميرين لعيسى، والمعنى: أنه لا يموت عيسى حتى يؤمن به كل كتابي في عصره؛ وقيل: الضمير الأوّل لله؛ وقيل: إلى محمد، وقد اختار كون الضميرين لعيسى ابن جرير، وقال به جماعة من السلف، وهو الظاهر، والمراد الإيمان به عند نزوله في آخر الزمان، كما وردت بذلك الأحاديث المتواترة ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَيْسَى عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ شَهِيدًا﴾ يشهد على اليهود بالتكذيب له، وعلى النصارى بالغلو فيه حتى قالوا هو ابن الله.

وقد أخرج ابن جرير، عن محمد بن كعب القرظي قال: جاء ناس من اليهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: إن موسى جاء بالالواح من عند الله، فأتانا بالالواح من عند الله حتى نصدقك، فأنزل الله: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ إلى ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بَهْتَانًا عَظِيمًا﴾. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن جريج في الآية قال: إن اليهود والنصارى قالوا لمحمد ﷺ: لن نبأبعك على ما تدعونا إليه حتى تأتينا بكتاب من عند الله إلى فلان أنك رسول الله وإلى فلان أنك رسول الله، فأنزل الله: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس في قوله: ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ جَاءَ رَأَوْهُ، فَقَدَرُوهُ، وَإِنَّمَا قَالُوا جَهْرَةً﴾ قال: إنهم ومؤخر. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، عن قتادة في قوله: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ﴾ قال: جبل كانوا في أصله فرقه الله، فجعله فوقهم كانه ظلة، فقال: لتأخذن أمري، أو لأرمينكم به، فقالوا نأخذ، فأمسكه الله عنهم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بَهْتَانًا عَظِيمًا﴾ قال: رموها بالزنا. وأخرج سعيد بن منصور، والنسائي، وابن أبي حاتم، وإمام مروي، عن ابن عباس قال: لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء خرج إلى أصحابه، وفي البيت اثنا عشر رجلاً من الحواريين، فخرج عليهم من عين في البيت، ورأسه يقطر

الطاعنين ولما يطعنوا أحداً والقائلون لمن دار نخليها
وانشد:

لا يبعدن قومي الذين هم سم العدة وأفة الجذر
النازلين بكل معترك والطيبون معاهد الأزر
قال النحاس: وهذا أصح ما قيل في المقيمين. وقال
الكسائي، والخليل: هو معطوف على قوله: ﴿بما أنزل إليك﴾
قال الأخفش: وهذا بعيد لأن المعنى يكون هكذا: ويؤمنون
بالمقيمين. ووجهه محمد بن يزيد المبرد بأن المقيمين هنا
هم الملائكة، فيكون المعنى: يؤمنون بما أنزل إليك، وبما
أنزل من قبلك، وبالملائكة، واختار هذا. وحكى أن النصب
على المدح بعيد؛ لأن المدح إنما يأتي بعد تمام الخبر، وخبر
الرأسخون هو قوله: ﴿أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً﴾ وقيل:
إن المقيمين معطوف على الضمير في قوله: ﴿منهم﴾ وفيه
أنه عطف على مضمرب ببنو إعادة الخافض. وحكى عن
عائشة أنها سئلت، عن المقيمين في هذه الآية، وعن قوله
تعالى: ﴿إن هذان لساخران﴾ [طه: 63] وعن قوله:
﴿والصابئون﴾ [المائدة: 69] في المائدة؟ فقالت: يا ابن أخي
الكتاب أخطئوا. أخرجه عنها أبو عبيد في فضائله،
وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن
المنذر. وقال أبان بن عثمان كان الكاتب يملئ عليه، فيكتب،
فكتب: ﴿لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون﴾ ثم
قال ما أكتب؟ فقليل له أكتب: ﴿والمقيمين الصلاة﴾ فمن ثم
وقع هذا. أخرجه عنه عبد بن حميد، وابن جرير، وابن
المنذر. قال القشيري: وهذا باطل؛ لأن الذين جمعوا الكتاب
كانوا قوة في اللغة، فلا يضمن بهم ذلك. ويجاب عن
القشيري بأنه قد روي عن عثمان بن عفان أنه لما فرغ من
المصحف وأتى به إليه قال: أرى فيه شيئاً من لحن سقايته
العرب بالسنة. أخرجه عنه ابن أبي داود من طرق. وقد
رجح قول سيبويه كثير من أئمة النحو والتفسير، ورجح
قول الخليل، والكسائي ابن جرير الطبري، والقفال، وعلى
قول سيبويه تكون الجملة معترضة بين المبتدأ والخبر على
قول من قال: إن خبر الراسخون هو قوله: ﴿أولئك
سنؤتيهم﴾ أو بين المعطوف والمعطوف عليه إن جعلنا
الرأسخون هو يؤمنون، وجعلنا قوله: ﴿والمؤمنون الزكاة﴾
عطفاً على المؤمنون لا على قول سيبويه أن المؤمنون الزكاة
مرفوع على الابتداء، أو على تقدير مبتدأ محذوف، أي: هم
المؤمنون الزكاة. قوله: ﴿والمؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ هم
مؤمنو أهل الكتاب، وصفوا أولاً بالرسوخ في العلم، ثم
بالإيمان بكتب الله، وأنهم يقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة،
ويؤمنون بالله، واليوم الآخر؛ وقيل المراد بهم: المؤمنون من
المهاجرين، والأنصار، كما سلف، وأنهم جامعون بين هذه
الأوصاف، والإشارة بقوله: ﴿أولئك سنؤتيهم أجراً
عظيماً﴾ إلى الراسخون، وما عطف عليه. قوله: ﴿إننا أوحينا
إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده﴾ هذا
متصل بقوله: ﴿يسألك أهل الكتاب﴾ والمعنى: أن أمر محمد

في المنتظر، والرجال، والمسيح.
﴿يُظَاهِرُ مِنَ الدِّينِ قَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ كَبِهَتْ أَجَلَتْ لَهُمْ وَيَصَدِّهِمْ عَن
سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ وأنذهم الرزأ وقد هُتُوا عنه وأكهم أنزل أنيس بالبطل
وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً ﴿لكن الراسخون في الدين بينهم
والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة
والمؤثرون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً
﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والتيت من بلو، وأوحينا
إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق وإسحق ويعقوب والأنبياء وعيسى وأيوب
يونس وهرون وسليمان وماتينا داود وزكريا﴾ ورسلنا قد قصصناهم
عليك من قبل ورسلنا لهم قصصهم عليك وكلم الله موسى تكليماً
﴿رسلنا نبينهم ومزدين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل
وكان الله عزيزاً حكيماً﴾

الباء في قوله: ﴿فبظلم﴾ للسببية، والتذكير والتنوين
للتعظيم، أي: فبسبب ظلم عظيم حرّمنا عليهم طيبات أحلت
لهم، لا بسبب شيء آخر، كما زعموا أنها كانت محرمة على
من قبلهم. وقال الزجاج: هذا بدل من قوله: ﴿فبما نقضهم﴾
[النساء: 155، المائدة: 13]. والطيبات المذكورة هي ما نصه
الله سبحانه: ﴿وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر﴾
[الأنعام: 146] الآية ﴿وبصدهم﴾ أنفسهم وغيرهم ﴿عن
سبيل الله﴾ وهو اتباع محمد ﷺ وتحريفهم، وقتلهم
الأنبياء، وما صدر منهم من الذنوب المعروفة. وقوله:
﴿كثيراً﴾ مفعول للفعل المذكور، أي: بصدهم ناساً كثيراً، أو
صفة مصدر محذوف، أي: صدها كثيراً ﴿ولخدهم الربا وقد
نهوا عنه﴾ أي: معاملتهم فيما بينهم بالربا، وكلهم له، وهو
محرم عليهم ﴿وكلهم أموال الناس بالباطل﴾ كالرشوة
والسحت الذي كانوا يأخونه. قوله: ﴿لكن الراسخون في
العلم منهم﴾ استترك من قوله: ﴿وأعتدنا للكافرين منهم
عذاباً أليماً﴾ أو ﴿من الذين هادوا﴾ وذلك أن اليهود أنكروا
وقالوا: إن هذه الأشياء كانت حراماً في الأصل، وأنت تحلها،
فنزل: ﴿لكن الراسخون﴾ والراسخ: هو المبالغ في علم
الكتاب الثابت فيه، والرسوخ: الثبوت. وقد تقدّم الكلام عليه
في آل عمران. والمراد عبد الله بن سلام، وكعب الأحبار،
ونحوهما. والراسخون مبتدأ، ويؤمنون خبره، والمؤمنون
معطوف على الراسخون. والمراد بالمؤمنين: إما من آمن من
أهل الكتاب، أو من المهاجرين، والأنصار، أو من الجميع.
قوله: ﴿والمقيمين الصلاة﴾ قرأ الحسن، وملك بن دينار،
وجماعة: ﴿والمقيمين الصلاة﴾ على العطف على ما قبله،
وكذا هو في مصحف ابن مسعود، واختلف في وجه نصبه
على قراءة الجمهور على أقوال: الأول قول سيبويه أنه نصب
على المدح، أي: وأعني المقيمين. قال سيبويه: هذا باب ما
ينتصب على التعظيم، ومن ذلك: ﴿والمقيمين الصلاة﴾
وانشد:

وكل قوم أطاعوا أمر سيدهم إلا نميراً أطاعت أمر غايرها

وقيل: ما لم يؤكد بالمصدر، فإذا أكد لم يكن إلا حقيقة الكلام. قال النحاس: وأجمع النحويون على أنك إذا أكدت الفعل بالمصدر لم يكن مجازاً. قوله: ﴿رَسُولًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ بدل من رسل الأول، أو منصوب بفعل مقدر، أي: وأرسلنا، أو على الحال بأن يكون رسلًا موطنًا لما بعده، أو على المدح، أي: مبشرين لأهل الطاعات، ومنذرين لأهل المعاصي. قوله: ﴿لَعَلَّاهُ يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ أي: معذرة يعتذرون بها، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَمَلْنَاكُمْ بَعْدَ مِثْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ﴾ [طه: 134] وسميت المعذرة حجة مع أنه لم يكن لأحد من العباد على الله حجة تنبيهاً على أن هذه المعذرة مقبولة لديه تفضلاً منه ورحمة. ومعنى قوله: ﴿بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ بعد إرسال الرسل ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا﴾ لا يغالبه مغالب ﴿حَكِيمًا﴾ في أفعاله التي من جملتها إرسال الرسل.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن مجاهد: ﴿وَبَصِّدْهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ قال: أنفسمهم وغيرهم عن الحق. وأخرج ابن إسحاق في الدلائل عن ابن عباس في قوله: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾ قال: نزلت في عبد الله بن سلام، وأسيد بن شعبة، وشعبة بن شعبة حين فارقوا اليهود، وأسلموا. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في الدلائل عنه أن بعض اليهود قال: يا محمد ما تعلم الله أنزل على بشر من شيء بعد موسى، فانزل الله: ﴿إِنَّا نُوْحِيْنَا إِلَيْكَ الْآيَةَ﴾. وأخرج عبد بن حميد، والحكيم الترمذي في نوانر الأصول، وابن حبان في صحيحه، والحاكم، وابن عساكر، عن أبي نذر قال: «قلت يا رسول الله كم الأنبياء؟ قال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً. قلت: كم الرسل منهم؟ قال: ثلثمائة وثلاثة عشر جم غفير. وأخرج نحوه ابن أبي حاتم، عن أبي أمامة مرفوعاً إلا أنه قال: والرسل ثلثمائة وخمسة عشر» وأخرج أبو يعلى، والحاكم بسند ضعيف، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «كان فيمن خلا من إخواني من الأنبياء ثمانية آلاف نبي، ثم كان عيسى، ثم كنت أنا بعده». وأخرج الحاكم، عن أنس بسند ضعيف نحوه. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أحد أغير من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن؛ ولا أحد أحب إليه المدح من الله، من أجل ذلك مدح نفسه؛ ولا أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك بعث الله للنبيين مبشرين ومنذرين».

لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَرْكَأَ إِلَيْكَ أَنْزَلْنَا بِرَسُولِهِ. وَاللَّهُ يَشْهَدُ أَنَّكَ نَبِيٌّ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٣٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ يَجْعَلْ لَهُمْ وَلَا لِيَدِهِمْ طَرِيقًا ﴿١٣٦﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٣٧﴾ يَأْتِيكَ النَّاسُ قَدْ جَاءَكَمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَكَايَرُوا مَخِرًا

كأمر من تقدمه من الأنبياء، فما بالكم تطلبون منه ما لم يطلبه أحد من المعاصرين للرسل، والوحي إلام في خفاء، يقال: وحي إليه بالكلام وحيًا، وأوحى يوحى إichاء، وخَصَّ نوحًا لكونه أول نبي شرعت على لسانه الشرائع، وقيل: غير ذلك، والكاف في قوله: ﴿كَمَا﴾ نعت مصدر محذوف، أي: إichاء مثل إichائنا إلى نوح، أو حال، أي: أوحينا إليك هذا الإichاء حال كونه مشبهًا بإichائنا إلى نوح. قوله: ﴿وَأُوْحِيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ معطوف على ﴿وَأُوْحِيْنَا إِلَى نُوحٍ﴾ ﴿وَأِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ﴾ وهم أولاد يعقوب كما تقدم ﴿وَعِيسَى وَيُوشَعَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ﴾ خص هؤلاء بالذكر بعد دخولهم في لفظ النبيين تشريفًا لهم كقوله: ﴿وَمَلَّاكُتِهِ وَرِسْلَ وَجِبْرِيلَ﴾ [البقرة: 98]، وقدم عيسى على أيوب، ومن بعده مع كونهم في زمان قبل زمانه، ردًا على اليهود الذي كفروا به، وأيضًا فالواو ليست إلا لمطلق الجمع. قوله: ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَيْبُورًا﴾ معطوف على أوحينا، والزبور: كتاب داود. قال القرطبي: وهو مائة وخمسون سورة ليس فيها حكم، ولا حلال، ولا حرام، وإنما هي حكم، ومواعظ. انتهى. قلت: هو مائة وخمسون مزمورًا. والمزمور: فصل يشتمل على كلام لداود يستغث بالله من خصومه، ويدعو الله عليهم، ويستنصره، وتارة يأتي بمواعظ، وكان يقول ذلك في الغالب في الكنيسة، ويستعمل مع تكلمه بذلك شيئًا من الآلات التي لها نغمات حسنة، كما هو مصرح بذلك في كثير من تلك المزمورات. والزبور: الكتابة. والزبور بمعنى المزمور، أي: المكتوب. كالرسول، والطلوب، والركوب. وقرأ حمزة: ﴿زَيْبُورًا﴾ بضم الزاي، جمع زبر كفلس، وفلوس. والزبور بمعنى المزمور، والأصل في الكلمة التوثيق يقال بثر مزبورة، أي: مطوية بالحجارة، والكتاب سمي زبورًا لقوة الوثيقة به. قوله: ﴿وَرَسُولًا﴾ منصوب بفعل مضمر يدل عليه ﴿وَأُوْحِيْنَا﴾ أي: وأرسلنا رسلًا ﴿قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾ وقيل: هو منصوب بفعل دل عليه ﴿قَصَصْنَاهُمْ﴾ أي: وقصصنا رسلًا، ومثله ما أنشده سيبويه:

أصبحت لا أحمل السلاح ولا أملك رأس البعير إن نفرا والسناب أخشاه إن مررت به وحدي وأخشى الرياح والمطرا

أي: وأخشى الذئب. وقرأ أبي: ﴿رسل﴾ بالرفع على تقدير، ومنهم رسل. ومعنى: ﴿مَنْ قَبْلُ﴾ أنه قصهم عليه من قبل هذه السورة، أو من قبل هذا اليوم. قيل: إنه لما قص الله في كتابه بعض أسماء أنبيائه، ولم يذكر أسماء بعض قالت اليهود: نكر محمد الأنبياء، ولم يذكر موسى، فنزل: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ وقراءة الجمهور برفع الاسم الشريف على أن الله هو الذي كلم موسى. وقرأ النخعي، ويحيى بن وثاب بنصب الاسم الشريف على أن موسى هو الذي كلم الله سبحانه ﴿تَكْلِيمًا﴾ مصدر مؤكد. وفائدة التأكيد نفع توهم كون التكليم مجازًا، كما قال الفراء إن العرب تسمى ما وصل إلى الإنسان كلاماً بأي طريق،

لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٧٧﴾
يَكْفُرُ أَصْحَابُ الْكُتُبِ لَا تَقُولُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا
الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ فَوَضَعَتْهُ
فَحَامُوا بِهَا وَرَسُولُهُ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهَى خَيْرُ لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ
سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَكُمْ إِلَهٌ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ
وَكِيلًا ﴿٧٨﴾

قوله: ﴿لكن الله يشهد﴾ الاسم الشريف مبتدأ، والفعل خبره، ومع تشديد النون هو منصوب على أنه اسم لكن والاستترار من محنوف مقتر كأنهم قالوا: ما نشهد لك يا محمد بهذا، أي: الوحي، والنبوة، فنزل: ﴿لكن الله يشهد﴾. وقوله: ﴿والملائكة يشهدون﴾ جملة معطوفة على الجملة الأولى، أو جملة حالية، وكذلك قوله: ﴿أنزله يعلمه﴾ جملة حالية، أي: متلبساً يعلمه الذي لا يعلمه غيره من كونك أهلاً لما اصطفاك الله له من النبوة، وأنزله عليك من القرآن ﴿وكفى بالله شهيداً﴾ أي: كفى الله شاهداً ولبياء زائدة، وشهادة الله سبحانه هي: ما يصنعه من المعجزات الدالة على صحة النبوة، فإن وجود هذه المعجزات شهادة للنبي ﷺ بصلى ما أخبر به من هذا، وغيره ﴿إن الذين كفروا﴾ بكل ما يجب الإيمان به، أو بهذا الأمر الخاص، وهو ما في هذا المقام: ﴿ووصنوا عن سبيل الله﴾ وهو دين الإسلام بإنكارهم نبوة محمد ﷺ، ويقولهم ما نجد صفته في كتابنا، وإنما النبوة في ولد هرون ودلود، ويقولهم إن شرع موسى لا ينسخ ﴿قد ضلوا ضلالاً بعيداً﴾ عن الحق بما فعلوا، لأنهم مع كفرهم منعوا غيرهم عن الحق ﴿إن الذين كفروا﴾ بجحدهم ﴿وظلموا﴾ غيرهم بصددهم عن السبيل، أو ظلموا محمداً بكتمانهم نبوته، أو ظلموا أنفسهم بكفرهم، ويجوز الحمل على جميع هذه المعاني: ﴿لم يكن الله ليغفر لهم﴾ إذا استمروا على كفرهم، وماتوا كافرين ﴿ولا يهديهم طريقاً﴾ إلا طريق جهنم، لكونهم اقترفوا ما يوجب لهم ذلك بسوء اختيارهم، وفرط شقاوتهم، وجحدوا الواضح، وعاندوا البين: ﴿خالدين فيها أبداً﴾ أي: يدخلهم جهنم خالدين فيها، وهي حال مقتررة. وقوله: ﴿أبداً﴾ منصوب على الظرفية، وهو لنفع احتمال. أن الخلود هنا يراد به: المكث الطويل ﴿وكان ذلك﴾ أي: تخليدهم في جهنم، أو ترك المغفرة لهم، والهداية مع الخلود في جهنم: ﴿على الله يسيراً﴾ لأنه سبحانه لا يصعب عليه شيء ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾ [يس: 82] ﴿فأمنوا خيراً لكم﴾ اختلف أئمة النحو في انتصاب خيراً على ماذا؟ فقال سيبويه، والخليل بفعل مقدر، أي: واقصوا، أو أتوا خيراً لكم، وقال الفراء: هو نعت لمصدر محنوف، أي: فأمنوا إيماناً خيراً لكم، وذهب أبو عبيدة، والكسائي إلى أنه خبر لكن مقتررة، أي: فأمنوا يكن الإيمان خيراً لكم، وأقوى هذه الأقوال الثالث، ثم الأول، ثم الثاني على ضعف فيه: ﴿وإن تكفروا﴾ أي: وإن تستمروا على كفركم: ﴿فإن لله ما في السموات

والأرض﴾ من مخلوقاته، وأنتم من جملتهم، ومن كان خالقاً لكم، ولها فهو قادر على مجازاتكم بقبيح أفعالكم، ففي هذه الجملة، وعيد لهم مع إيضاح وجه البرهان، وإمطاة الستر عن الدليل بما يوجب عليهم القبول، والإنعان. لأنهم يعترفون بأن الله خالقهم ﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله﴾ [الزخرف: 87] قوله: ﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم﴾ الغلو: هو التجاوز في الحد، ومنه غلا السعر يغلو غلاء، وغلا الرجل في الأمر غلواً، وغلا بالجارية لحمها وعظمها إذا أسرع الشباب فجاوزت لداتها. والمراد بالآية: النهي لهم عن الإفراط تارة والتفريط لخرى، فمن الإفراط غلواً للنصارى في عيسى حتى جعلوه رباً، ومن التفريط غلو اليهود فيه عليه السلام حتى جعلوه لغير رشدة، وما أحسن قول الشاعر:

ولا تغل في شيء من الأمر واقتصد كلا طرفي قصد الأمور نعيم
﴿ولا تقولوا على الله إلا الحق﴾ وهو ما وصف به نفسه ووصفته به رسله، ولا تقولوا الباطل كقول اليهود عزير ابن الله، وقول النصارى المسيح ابن الله ﴿إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله﴾ المسيح مبتدأ، وعيسى بدل منه، وابن مريم صفة لعيسى، ورسول الله الخبر، ويجوز أن يكون عيسى ابن مريم عطف بيان، والجملة تعليل للنهي، وقد تقدم الكلام على المسيح في آل عمران. قوله: ﴿وكلمته﴾ عطف على رسول الله، و﴿القاما﴾ إلى مريم، حال، أي: كونه بقوله كن، فكان بشراً من غير أب، وقيل: ﴿كلمته﴾ بشارة الله مريم، ورسالته إليها على لسان جبريل بقوله: ﴿إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه﴾ [آل عمران: 45] وقيل: الكلمة هاهنا بمعنى: الآية، ومنه: ﴿وصدقت بكلمات ربها﴾ [التحريم: 12]، وقوله: ﴿ما نغلت كلمات الله﴾ [لقمان: 27]، قوله: ﴿وروح منه﴾ أي: أرسل جبريل فنفخ في درع مريم فحملت بإن الله، وهذه الإضافة للتفضيل، وإن كان جميع الأرواح من خلقه تعالى؛ وقيل قد يسمى من تظهر منه الأشياء العجيبة روحاً ويضاف إلى الله، فيقال هذا روح من الله، أي: من خلقه، كما يقال في النعمة إنها من الله وقيل: ﴿روح منه﴾ أي من خلقه كما قال تعالى: ﴿وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه﴾ [الجاثية: 13] أي: من خلقه، وقيل: ﴿روح منه﴾ أي: رحمة منه، وقيل: ﴿روح منه﴾ أي: برهان منه، وكان عيسى برهاناً وحجة على قومه. وقوله: ﴿منه﴾ متعلق بمحنوف وقع صفة لروح، أي: كائنة منه وجعلت الروح منه سبحانه، وإن كانت بنفخ جبريل لكونه تعالى الأمر لجبريل بالنفخ: ﴿فأمنوا بالله ورسوله﴾ أي: بانه سبحانه إله واحد لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، وبأن رسله صادقون مبلغون عن الله ما أمرهم بتبليغه، ولا تكذيبهم، ولا تغلوا فيهم، فتجعلوا بعضهم أهلاً. قوله: ﴿ولا تقولوا ثلاثة﴾ ارتفاع ثلاثة على أنه خبر مبتدأ محنوف قال الزجاج: أي: لا تقولوا ألهتنا ثلاثة، وقال الفراء، وأبو عبيد: أي:

رسول الله ﷺ، فقال لهم: «إني والله أعلم أنكم تعلمون أنني رسول الله، قالوا ما نعلم ذلك. فأنزل الله: ﴿لكن الله يشهد﴾ الآية». وأخرج عبد بن حميد، والحكم وصححه، والبيهقي في الدلائل، عن أبي موسى أن النجاشي قال لجعفر: ما يقول صاحبك في ابن مريم؟ قال: يقول فيه قول الله هو روح الله، وكلمته، أخرجه من البتول العذراء لم يقربها بشر، فتناول عودا من الأرض، فرفعه فقال: يا معشر القسيسين، والرهبان ما يزيد هؤلاء على ما تقولون في ابن مريم ما يزن هذه. وأخرجه البيهقي في الدلائل عن ابن مسعود بأطول من هذا. وأخرج البخاري عن عمر قال: قال رسول الله ﷺ «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم فإنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله».

لَنْ يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ أَلْفَرُيُونَ وَمَنْ يَسْتَنكِفَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَسَكَرَ فَيَحْضُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٦﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَخُودُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٧﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيَرْحَمُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٧٨﴾

أصل يستنكف نكف وباقي الحروف زائدة، يقال نكفت من الشيء، واستنكفت منه، وأنكفته أي: نزهته عما يستنكف منه. قال الزجاج: استنكف أي: أنف، مأخوذ من نكفت الدمع: إذا نحيت بأصبعك عن خديك؛ وقيل: هو من النكف، وهو العيب، يقال: ما عليه في هذا الأمر نكف ولا وكف أي: عيب. ومعنى الأول: لن يأنف عن العبودية، ولن يتنزه عنها. ومعنى الثاني: لن يعيب العبودية، ولن ينقطع عنها: ﴿ولا للملائكة المقربون﴾ عطف على المسيح، أي: ولن يستنكف الملائكة المقربون عن أن يكونوا عباداً لله.

وقد استدلل بهذا القائلون بتفضيل الملائكة على الأنبياء، وقرر صاحب الكشاف وجه الدلالة بما لا يسمن ولا يغني من جوع وأدعى أن النوق قاض بذلك، ونعم النوق العربي إذا خلطه محبة المذهب، وشابه شوائب الجمود كان هكذا، وكل من يفهم لغة العرب يعلم أن من قال لا يأنف من هذه العقالة إمَام، ولا مأموم أو لا كبير، ولا صغير أو لا جليل، ولا حقير، ثم يدل هذا على أن المعطوف أعظم شأنًا من المعطوف عليه، وعلى كل حال، فما أُرِدَ الاشتغال بهذه المسألة، وما أَقْلُ فائدتها، وما أبعداها عن أن تكون مركزاً من المراكز الشرعية الدينية، وجسراً من الجسور: ﴿ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر﴾ أي: يأنف تكبراً، ويعذ نفسه كبيراً عن العبادة ﴿فسيجشدهم إليه جميعاً﴾ المستنكف وغيره، فيجازي كلاً بعمله. وترك ذكر غير المستنكف هنا لدلالة أول الكلام عليه. ولكون الحشر لكلا الطائفتين ﴿فاما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم﴾ من غير أن يفوتهم منها شيء: ﴿واما الذين

لا تقولوا هم ثلاثة كقوله: ﴿سيقولون ثلاثة﴾ [الكهف: 22] وقال أبو علي الفارسي: لا تقولوا هو ثالث ثلاثة، فحذف المبتدأ، والمضاف، والنصاري مع تفرق مذاهبهم متفقون على التثليث، ويعنون بالثلاثة الثلاثة الاقانيم، فيجعلونه سبحانه جوهراً واحداً، وله ثلاثة اقانيم، ويعنون بالاقانيم اقنوم الوجود، واقنوم الحياة، واقنوم العلم، وربما يعيرون عن الاقانيم بالآب، والابن وروح القدس، فيعنون بالآب: الوجود، وبالروح: الحياة، وبالابن: المسيح. وقيل: المراد بالآلهة الثلاثة: الله سبحانه وتعالى، ومريم، والمسيح. وقد اختطب النصاري في هذا اختباطاً طويلاً.

ورقنا في الانجيل الاربعة التي يطل عليها عندهم اسم الانجيل على اختلاف كثير في عيسى: فتارة يوصف بأنه ابن الإنسان، وتارة يوصف بأنه ابن الله، وتارة يوصف بأنه ابن الرب، وهذا تناقض ظاهر، وتلاعب بالدين. والحق ما أخبرنا الله به في القرآن، وما خالفه في التوراة، أو الانجيل، أو الزبور، فهو من تحريف المحرفين، وتلاعب المتلاعبين. ومن أعجب ما رأيناه أن الانجيل الاربعة كل واحد منها منسوب إلى واحد من أصحاب عيسى عليه السلام.

وحاصل ما فيها جميعاً أن كل واحد من هؤلاء الاربعة نكر سيرة عيسى من عند أن بعثه الله إلى أن رفعه إليه، ونكر ما جرى له من المعجزات، والمراجعات لليهود ونحوهم، فاختلفت الفاظهم، واتفقت معانيها، وقد يزيد بعضهم على بعض بحسب ما يقتضيه الحفظ، والضبط، ونكر ما قاله عيسى، وما قيل له، وليس فيها من كلام الله سبحانه شيء، ولا أنزل على عيسى من عنده كتاباً، بل كان عيسى عليه السلام يحتج عليهم بما في التوراة، ويذكر أنه لم يات بما يخالفها، وهكذا الزبور، فإنه من أوله إلى آخره من كلام داود عليه السلام. وكلام الله أصدق، وكتابه أحق، وقد أخبرنا أن الانجيل كتبه أنزله على عبده ورسوله عيسى ابن مريم، وأن الزبور كتبه آتاه⁽¹⁾ داود وأنزله عليه. قوله: ﴿انتهوا خيراً لكم﴾ أي: انتهوا عن التثليث، وانتصاب «خيراً» هنا فيه الوجوه الثلاثة التي تقدمت في قوله: ﴿فأمنوا خيراً لكم﴾. ﴿إنما الله إله واحد﴾ لا شريك له صاحبة، ولا ولد: ﴿سبحانه أن يكون له ولد﴾ أي: أسبحة تسبيحاً عن أن يكون له ولد: ﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾ وما جعلتموه له شريكاً، أو ولداً هو من جملة ذلك، والمملوك المخلوق لا يكون شريكاً، ولا ولداً: ﴿وكفى بالله وكيلاً﴾ نكل الخلق أمورهم إليه، ولا يملكون لأنفسهم ضراً، ولا نفعاً.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس قال: دخل جماعة من اليهود على

(1) من هذا تلهم أن ما تقدم له محكي عن عقيدة غيره، اهـ

استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً ليماً» بسبب استنكافهم واستكبارهم «ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا عليهم «ولا نصيراً» ينصرهم. قوله: «يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم» بما أنزله عليكم من كتبه وبمن أرسله إليكم من رسله، وما نصبه لهم من المعجزات. والبرهان: ما يبرهن به على المطلوب: «وانزلنا إليكم نوراً مبيناً» وهو القرآن، وسماه نوراً لأنه يهتدى به من ظلمة الضلال: «فاما الذين آمنوا بالله واعتصموا به» أي: بالله، وقيل: بالنور المنكور: «فسيبخلهم في رحمة منه» يرحمهم بها «وفضل» يتفضل به عليهم «ويهديهم إليه» أي: إلى امتثال ما أمر به واجتناب ما نهى عنه أو إليه سبحانه وتعالى باعتبار مصيرهم إلى جزائه وتفضله: «صراطاً مستقيماً» أي: طريقاً يسلكونه إليه مستقيماً لا عوج فيه، وهو التمسك بدين الإسلام، وترك غيره من الأديان، قال أبو علي الفارسي: الهاء في قوله «إليه» راجعة إلى ما تقدم من اسم الله؛ وقيل: راجعة إلى القرآن؛ وقيل: إلى الفضل؛ وقيل: إلى الرحمة والفضل لانهما بمعنى الثواب وانتصاب صراطاً على أنه مفعول ثان للفعل المنكور؛ وقيل: على الحال.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: «لن يستنكف المسيح» لن يستكبر. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مروي، وأبو نعيم في الحلية، والإسماعيلي في معجمه بسند ضعيف، عن ابن مسعود قال: قال: رسول الله ﷺ في قوله: «فيؤفقيهم لجورهم ويزيدهم من فضله» قال: أجورهم يدخلهم الجنة، ويزيدهم من فضله الشفاعة فيمن وجبت له النار ممن صنع إليهم المعروف في الدنيا. وقد ساقه ابن كثير في تفسيره، فقال: وقد روى ابن مروي، من طريق بقية عن إسماعيل بن عبد الله الكندي عن الأعمش عن شقيق عن ابن مسعود، فذكره، وقال: هذا إسناد لا يثبت، وإذا روي عن ابن مسعود موقوفاً، فهو جيد. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة «قد جاءكم برهان» أي: بيته «وانزلنا إليكم نوراً مبيناً» قال: هذا القرآن. وأخرج أيضاً عن مجاهد قال: برهان حجة. وأخرج أيضاً عن ابن جريج في قوله: «واعتصموا به» قال: القرآن.

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ أَرَبْتُمْ هَٰذَا فَكَيْفَ لَكُمْ وَلَهُ وَلَهُ أَحَدٌ فَلَهَا يَضَعُ مَا رَزَقَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتْ أَنْثَىٰ فَلَهَا الْاِثْنَانِ بِمَا رَزَقَ وَلَنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ نِثْلٌ حِظُّ الْأُنثَىٰ يَبِينُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ عَلَيْهِ ۖ

قد تقدم الكلام في الكلاله في أول هذه السورة، وسياتي ذكر المستفتي المقصود بقوله: «يستفتونك». قوله: «إن امرؤ هلك» أي: إن هلك امرؤ هلك، كما تقدم في قوله: «وإن امرأة خافت» [النساء: 128]. وقوله: «ليس له ولد» إما صفة لامرؤ، أو حال، ولا وجه للمنع

من كونه حالاً، والولد يطلق على الذكر، والأنثى، واقتصر على عدم الولد هنا مع أن عدم الولد معتبر في الكلاله اتكلاً على ظهور ذلك، قيل: والمراد بالولد هنا: الابن، وهو أحد معني المشترك؛ لأن البنت لا تسقط الأخت. وقوله: «وله أخت» عطف على قوله: «ليس له ولد». والمراد بالأخت هنا: هي الأخت لأبوين، أو لأب لا لأم، فإن فرضها السدس، كما ذكر سابقاً. وقد ذهب جمهور العلماء من الصحابة، والتابعين، ومن بعدهم إلى أن الأخوات لأبوين، أو لأب عصبه للبنت، وإن لم يكن معهن أخ. وذهب ابن عباس إلى أن الأخوات لا يعصبن البنات، وإليه ذهب داود الظاهري، وطائفة، وقالوا: إنه لا ميراث للأخت لأبوين، أو لأب مع البنت، واحتجوا بظاهر هذه الآية، فإنه جعل عدم الولد المتناول للذكر، والأنثى قيداً في ميراث الأخت، وهذا استدلال صحيح لو لم يرد في السنة ما يدل على ثبوت ميراث الأخت مع البنت، وهو ما ثبت في الصحيح أن معاذاً قضى على عهد رسول الله ﷺ في بنت، وأخت، فجعل للبنت النصف، وللأخت النصف. وثبت في الصحيح أيضاً: «أن النبي ﷺ قضى في بنت وبنت ابن. وأخت فجعل للبنت النصف ولبنت الابن السدس وللأخت الباقي» فكانت هذه السنة مقتضية لتفسير الولد بالابن دون البنت. قوله: «وهو يرثها» أي: المرء يرثها، أي: يرث الأخت «إن لم يكن لها ولد» ذكر إن كان المراد بـ يرثها لها: حيازته لجميع ما تركته، وإن كان المراد: ثبوت ميراثها لها في الجملة أعم من أن يكون كلاً، أو بعضاً صح تفسير الولد بما يتناول للذكر، والأنثى، واقتصر سبحانه في هذه الآية على نفي الولد مع كون الأب يسقط الأخ، كما يسقطه الولد الذكر لأن المراد: بيان حقوق الأخ مع الولد فقط هنا. وأما سقوطه مع الأب، فقد تبين بالسنة، كما ثبت في الصحيح من قوله ﷺ: «الحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأولى رجل ذكر» والأب أولى من الأخ: «فإن كانتا اثنتين» أي: فإن كان من يرث بالأخوة اثنتين، والعطف على الشرطية السابقة، والثانية، والثالثة، وكذلك الجمع في قوله: «وإن كانوا إخوة» باعتبار الخبر: «فلهما الثلثان مما ترك» المرء إن لم يكن له ولد، كما سلف، وما فوق الاثنتين من الأخوات يكون لهن الثلثان بالأولى «وإن كانوا» أي: من يرث بالأخوة «إخوة رجالاً ونساء» أي: مختلطين ذكراً وإناثاً «فللذكر» منهم «مثل حظ الأنثيين» تعصياً «يبين الله لكم أن تضلوا» أي: يبين لكم حكم الكلاله، وسائر الأحكام كراهة أن تضلوا، هكذا حكاه القرطبي عن البصريين. وقال الكسائي: المعنى لثلاثاً تضلوا، ووافقه الفراء وغيره من الكوفيين «والله بكل شيء» من الأشياء التي هذه الأحكام المنكورة منها «عليم» أي: كثير العلم.

وقد أخرج البخاري، ومسلم، وأهل السنن، وغيرهم عن جابر بن عبد الله قال: «دخل علي رسول الله ﷺ وأنا مريض لا أعقل، فتوضأ، ثم صب علي، فعقلت، فقلت إنه لا

يرثني إلا كلاله، فكيف الميراث؟ فنزلت آية الفرائض. وأخرجه عنه ابن سعد، وابن أبي حاتم بلفظ أنزلت في **﴿يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة﴾**. وأخرج ابن راهويه، وابن مروييه، عن عمر أنه سأل رسول الله ﷺ: كيف تورث الكلالة: فانزل الله: **﴿يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة﴾** الآية. وأخرج مالك، ومسلم، وابن جرير، والبيهقي، عن عمر قال: ما سألت النبي ﷺ عن شيء أكثر مما سألته في الكلالة حتى طعن بأصبعه في صدري، وقال: ما تكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء. وأخرج أحمد، وأبو داود، والترمذي، والبيهقي، عن البراء بن عازب قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فسأله عن الكلالة؟ فقال: تكفيك آية الصيف. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن عمر قال: ثلاث، وبدت أن رسول الله ﷺ كان عهد إلينا فيهن عهداً ننتمي إليه: الجدة، والكلالة، وأبواب من أبواب الربا. وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن البراء بن عازب قال: آخر سورة نزلت كاملة براءة، وآخر آية نزلت خاتمة سورة النساء **﴿يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة﴾**. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، عن ابن سيرين قال: كان عمر بن الخطاب إذا قرأ **﴿يبين الله لكم أن تضلوا﴾** قال: اللهم من بينت له الكلالة، فلم تبين لي.

وقد أوضحنا الكلام خلافاً، واستدلالاً، وترجيحاً في شأن الكلالة في أوائل هذه السورة، فلا نعيده.

وإلى هنا. انتهى. الجزء الأول من التفسير المبارك:
المسمى «فتح القدير» الجامع بين فني الرواية، والدراية من
علم التفسير بقلم مؤلفه الراجي من ربه سبحانه أن يعينه
على تمامه، وينفع به من شاء من عباده، ويجعله ذخيرة له
عند وقوده إلى دار الآخرة «محمد بن علي بن محمد
الشوكاني» غفر الله لهما.

وكان الانتهاء إلى هذا الموضع في يوم العيد الأكبر، يوم النحر المبارك من سنة أربع وعشرين بعد مائتين وألف من الهجرة النبوية، حامداً لله ومصلياً ومسلماً على رسوله وحبيبه محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه. أ هـ.

الحمد له: كمل سماعاً، والحمد لله في شهر القعدة من عام سنة 1232.

يحيى بن علي الشوكاني

[تنبيه] وضعنا في هذه الصفحة تنمة المؤلف للجزء الأول بخط يده الشريفة تبركاً به، وليطلع القراء على أنموذج من النسخة الخطية الوحيدة التي كان الطبع عليها.

واللهنا نعلم انكم الذين الارسلنا منكم لتقدموا السلام على
الذين يتبعون فيكم الزواني والبراريه من علم التثنيه قد علموا انكم قد
سبحتم ان بعثتم على ناسه ويدينهم من بين من بعثه وخدمه له
حتى رطبه المرداه الاراضه كجودكم في كل من منكم الشكر في كل السلام وكان في
الهدى الموضعي في يوم العيد الاكبر يوم النبي المبارك من منتم ارجع وتبرئتم
بعدهم تدين والفس من الهجوه النبويه حاصداً ناسه ودمعيا هو ملكا على
رسله وحسينه هو بر كبره الم وما على اله وجههم

تفسير سورة المائدة^(١)

قال القرطبي: هي منية بالإجماع. وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة قال: المائدة منية. وأخرج أحمد والنسائي وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مروي، والبيهقي في سننه، عن جبير بن نفير، قال: حججت فدخلت على عائشة، فقالت لي: يا جبير تقرأ المائدة؟ فقلت نعم، فقالت: أما إنها آخر سورة نزلت، فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه، وما وجدتم من حرام فحرّموه. وأخرج أحمد والترمذي وحسنه، والحاكم وصححه، وابن مروي، والبيهقي في سننه، عن عبد الله بن عمرو قال: آخر سورة نزلت سورة المائدة والفتح. وأخرج أحمد عنه قال: أنزلت على رسول الله ﷺ سورة المائدة وهو راكب على راحلته، فلم تستطع أن تحملها، ففئز بها عنها. قال ابن كثير: تقدّر به أحمد. قلت: وفي إسناده ابن لهيعة. وأخرج أحمد وعبد بن حميد، وابن جرير، ومحمد بن نصر في كتاب الصلاة، والطبراني، وأبو نعيم في

(1) (تنبيه) جرى المفسر رحمه الله في ضبط الفاظ القرآن في تفسيره هذا على رواية نافع مع تعرضه للقراءات السبع وأثبتنا القرآن طبق رسم المصحف العثماني.

نعم أعمل مثل بعضه، فاحتجب أياماً كثيرة ثم خرج فقال: والله ما أقدر، ولا يطيق هذا أحد، إني فتحت المصحف فخرجت سورة المائدة، فنظرت فإذا هو قد نطق بالوفاء ونهى عن النكث، وحل تحليلاً عاماً، ثم استثنى بعد استثناء، ثم أخبر عن قدرته وحكمته في سطرين ولا يقدر أحد أن يأتي بهذا. قوله: ﴿أوفوا بالعقود﴾ يقال أوفى ووفى لغتان وقد جمع بينهما الشاعر فقال:

أما ابن طوف فقد أوفى بزمته كما وفى بقلاص النجم حافيهما
والعقود: العهود، وأصل العقود الربوط، واحداً عقد، يقال عقدت الحبل والعهد، فهو يستعمل في الأجسام والمعاني، وإذا استعمل في المعاني كما هنا أفاد أنه شديد الأحكام، قوي التوثيق؛ قيل المراد بالعقود هي التي عقدها الله على عباده والزمهم بها من الأحكام؛ وقيل هي العقود التي يعقدها بينهم من عقود المعاملات والأولى شمول الآية للأمرين جميعاً، ولا وجه لتخصيص بعضها دون بعض. قال الزجاج: المعنى أوفوا بعقد الله عليكم ويعقذك بعضكم على بعض انتهى. والعقد الذي يجب الوفاء به ما وافق كتاب الله وسنة رسول الله، فإن خالفهما فهو رد لا يجب الوفاء به ولا يحل. قوله: ﴿لحلت لكم بهيمة الأنعام﴾ الخطاب للذين آمنوا. والبهيمة: اسم لكل ذي أربع، سميت بذلك لإبهامها من جهة نقص نطقها وفهمها وعقلها، ومنه باب مبهم: أي مغلق، وليل مبهم، وبهمة للشجاع الذي لا يدري من أين يؤتى، وحلقة مبهم: لا يدري أين طرفاها. والأنعام: اسم للإبل والبقر والغنم، سميت بذلك لما في مشيها من اللين؛ وقيل بهيمة الأنعام: وحشيتها كالظباء وبقر الوحش والحمير الوحشية وغير ذلك، حكاة ابن جرير الطبري عن قوم، وحكاة غيره عن السدي والربيع وقتادة والضحاك. قال ابن عطية: وهذا قول حسن، وذلك أن الأنعام هي الثمانية الأزواج، وما انضاف إليها من سائر الحيوانات يقال له أنعام مجموعة معها، وكان المفترس كالأسد، وكل ذي ناب خارج عن حد الأنعام، فبهيمة الأنعام هي الراعي من نوات الأربع؛ وقيل بهيمة الأنعام: ما لم تكن صيداً، لأن الصيد يسمى وحشاً لا بهيمة؛ وقيل بهيمة الأنعام: الأجنة التي تخرج عند النجس من بطون الأنعام، فهي تؤكل من دون نكاة. وعلى القول الأول، أعني تخصيص الأنعام بالإبل والبقر والغنم، تكون الإضافة بيانية، ويلحق بها ما يحل مما هو خارج عنها بالقياس، بل وبالنصوص التي في الكتاب والسنة كقوله تعالى: ﴿قل لا أجد فيما أوحى إلي محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة﴾ [الأنعام، الآية: 145] الآية، وقوله ﷺ، «يحرم كل ذي ناب من السبع ومخلب من الطير»، فإنه يدل بمفهومه على أن ما عداه حلال، وكذلك سائر النصوص الخاصة بنوع، كما في كتب السنة المطهرة. قوله: ﴿إلا ما يتلى عليكم﴾ استثناء من قوله: ﴿لحلت لكم بهيمة الأنعام﴾، أي إلا مبدول ما يتلى عليكم فإنه ليس بحلال. والمتلو: هو ما نص الله على تحريره، نحو قوله تعالى: ﴿حرمت عليكم الميتة﴾

الدلائل، والبيهقي في شعب الإيمان عن أسماء بنت يزيد نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة في مسنده، والبخاري في معجمه، وابن مريويه، والبيهقي في دلائل النبوة، عن أم عمرو بنت عيسى عن عمها نحوه أيضاً. وأخرج أبو عبيد، عن محمد بن كعب القرظي نحوه. وزاد أنها نزلت في حجة الوداع فيما بين مكة والمدينة. وهكذا أخرج ابن جرير، عن الربيع بن أنس بهذه الزيادة، وأخرج أبو عبيد، عن ضمرة بن حبيب وعطية بن قيس قالوا: قال رسول الله ﷺ: «المائدة من آخر القرآن تنزيلاً، فأحلوا حلالها وحرّموا حرامها». وأخرج أبو داود والنحاس، كلاهما، في الناسخ عن أبي ميسرة، عمرو بن شرحبيل، قال: لم ينسخ من المائدة شيء. وكذا أخرجه سعيد بن منصور، وابن المنذر، عنه. وكذا أخرجه عبد بن حميد، وأبو داود في ناسخه، وابن جرير، وابن المنذر عن الشعبي. وكذا أخرجه عبد بن حميد، وأبو داود في ناسخه، وابن المنذر عن الحسن البصري. وأخرج عبد بن حميد وأبو داود في ناسخه، وابن جرير وابن المنذر عن الشعبي قال: لم ينسخ من المائدة إلا هذه الآية ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدى ولا القلائد﴾ [المائدة: 2]. وأخرج أبو داود في ناسخه، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، عن ابن عباس قال: نسخ من هذه السورة آيتان، آية القلائد. وقوله: ﴿فإن جاؤكم فالحكم بينهم أو اعرض عنهم﴾ [المائدة: 42]. وأخرج عبد بن حميد في مسنده عن ابن عباس أن النبي ﷺ قرأ في خطبته سورة المائدة والتوبة، وذكر النقاش عن أبي سلمة أنه قال: لما رجع ﷺ من الحديبية قال: يا علي أشعرت أنها نزلت علي سورة المائدة؟ ونعمت الفائدة. قال ابن العربي هذا حديث موضوع لا يحل لمسلم اعتقاده، وقال ابن عطية هذا عندي لا يشبه كلام النبي ﷺ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مِمَّا حَرَّمَ إِدَّاءُ اللَّهِ بِكُمْ مَا رُبِدَ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا مَا أُيِّنَ الْآيَةُ الْحَرَامَ يَتَتَفَعُونَ فُضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَاناً وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمُكُمْ شَتَاؤُكُمْ أَنْ مَسَكْتُمْ عَنْ السَّجْدِ لِلْحَرَامِ أَنْ تَتَذَكَّرُوا عَلَى الْآيَةِ وَالْقَوَاعِدِ وَلَا تَمُوتُوا عَلَى الْآيَةِ وَالْمَذَكَّرِ وَأَقْفُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَوِيدُ الْوَقَابِ ﴿٢﴾

هذه الآية التي افتتح الله بها هذه السورة إلى قوله: ﴿إن الله يحكم ما يريد﴾ فيها من البلاغة ما تتقاصر عنده القوى البشرية مع شمولها لأحكام عدة: منها الوفاء بالعقود، ومنها تحليل بهيمة الأنعام، ومنها استثناء ما يستلبي مما لا يحل، ومنها تحريم الصيد على المحرم، ومنها إباحة الصيد لمن ليس بمحرم. وقد حكى النقاش أن أصحاب الفيلسوف الكندي قالوا له: أيها الحكيم أعمل لنا مثل هذا القرآن، فقال:

[المائدة: 3] الآية، ويلحق به ما صرحت السنة بتحريمه، وهذا الاستثناء يحتمل أن يكون المراد به إلا ما يتلى عليكم الآن، ويحتمل أن يكون المراد به في مستقبل الزمان، فيدل على جواز تأخير البيان عن وقت الحاجة، ويحتمل الأمرين جميعاً. قوله: ﴿غير محلي الصيد﴾ ذهب البصريين إلى أن قوله: ﴿إلا ما يتلى عليكم﴾ استثناء من بهيمة الأنعام، وقوله: ﴿غير محلي الصيد﴾ استثناء آخر منه أيضاً، فالاستثناء أن جميعاً من بهيمة الأنعام، والتقدير: أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم إلا الصيد وأنتم محرمون؛ وقيل الاستثناء الأول من بهيمة الأنعام، والاستثناء الثاني هو من الاستثناء الأول، وردّ بأن هذا يستلزم إباحة الصيد في حال الإحرام، لأنه مستثنى من المحظور فيكون مباحاً، وأجاز الفراء أن يكون ﴿إلا ما يتلى﴾ في موضع رفع على البذل، ولا يجيزه البصريون إلا في النكرة وما قاربها من الأجناس. قال: وانتصاب ﴿غير محلي الصيد﴾ على الحال من قوله: ﴿أوفوا بالعقود﴾، وكذا قال الأخفش، وقال غيرهما: حال من الكاف والميم في ﴿لكم﴾ والتقدير: أحلت لكم بهيمة الأنعام غير محلي الصيد: أي الاصطياد في البرّ وأكل صيده. ومعنى عدم إحلالهم له تقرير حرمة عملاً واعتقاداً وهم حرم: أي محرمون وجملة ﴿وانتم حرم﴾ في محل نصب على الحال من الضمير في ﴿محلي﴾، ومعنى هذا التقييد ظاهر عند من يخص بهيمة الأنعام بالحيوانات الوحشية البرية التي يحل أكلها كأنه قال: أحل لكم صيد البرّ إلا في حال الإحرام؛ وأما على قول من يجعل الإضافة بيانية فالمعنى: أحلت لكم بهيمة، هي الأنعام، حال تحريم الصيد عليكم بخلوكم في الإحرام لكونكم محتاجين إلى ذلك، فيكون المراد بهذا التقييد الامتنان عليهم بتحليل ما عدا ما هو محرّم عليهم في تلك الحال. والمراد بالحرم من هو محرّم بالحجّ أو العمرة أو بهما، وسمي محرماً لكونه يحرم عليه الصيد والطيب والنساء، وهكذا وجه تسمية الحرم محرماً، والإحرام إحراماً. وقرأ الحسن والنخعي ويحيى بن وثاب ﴿حرم﴾ بسكون الراء وهي لغة تميمية، يقولون في رسل رسل، وفي كتب كتب ونحو ذلك. قوله: ﴿إن الله يحكم ما يريد﴾ من الأحكام المخالفة لما كانت العرب تعتاده، فهو مالك الكل يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا معقب لحكمه. قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله﴾ الشعائر: جمع شعيرة على وزن فعيلة. قال ابن فارس: ويقال للواحدة شعارة وهو أحسن، ومنه الإشعار للهدى. والمشارع: المعالم، واحداً مشعر، وهي المواضع التي قد اشعرت بالعلامات؛ قيل المراد بها هنا جميع مناسك الحج: وقيل الصفا والمروة، والهدي والبذل. والمعنى على هذين القولين: لا تحلوا هذه الأمور بأن يقع منكم الإخلال بشئٍ منها، أو بأن تحلوا بينها وبين من أراد فعلها. نكر سبحانه النهي عن أن يحلوا شعائر الله عقب نكره تحريم صيد المحرم؛ وقيل المراد بالشعائر هنا فرائض الله، ومنه ﴿ومن يعظم شعائر الله﴾

[الحج: 32]؛ وقيل هي حرّات الله، ولا مانع من حمل ذلك على الجميع اعتباراً بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ولا بما يدل عليه السياق. قوله: ﴿ولا الشهر الحرام﴾ المراد به الجنس، فيدخل في ذلك جميع الأشهر الحرم وهي أربعة، نو القعدة، وذو الحجة ومحرّم، ورجب: أي لا تحلوا بالقتال فيها؛ وقيل المراد به هنا شهر الحج فقط. قوله: ﴿ولا الهدى﴾ هو ما يهدي إلى بيت الله من ناقه أو بقرة أو شاة، الواحدة هدية. نهاهم سبحانه عن أن يحلوا حرمة الهدى بأن يأخذوه على صاحبه أو يحلوا بينه وبين المكان الذي يهدي إليه، وعطف الهدى على الشعائر مع دخوله تحتها لقصد التنبيه على مزيد خصوصيته والتشديد في شأنه. قوله: ﴿ولا القلائد﴾ جمع قلادة، وهي ما يقلد به الهدى من نعل أو نحو. وإحلالها بأن تؤخذ غضباً، وفي النهي عن إحلال القلائد تأكيد للنهي عن إحلال الهدى؛ وقيل المراد بالقلائد المقلدات بها، ويكون عطفه على الهدى لزيادة التوصية بالهدى، والأول أولى؛ وقيل المراد بالقلائد ما كان الناس يتقلدونه أمانة لهم، فهو على حذف مضاف: أي ولأصحاب القلائد. قوله: ﴿ولا آمين للبيت الحرام﴾ أي: قاصيه من قوله أمت كذا: أي قصته. وقرأ الأعمش «ولا آمي البيت الحرام» بالإضافة. والمعنى: لا تمنعوا من قصد البيت الحرام الحجّ أو عمرة أو ليسكن فيه؛ وقيل إن سبب نزول هذه الآية أن المشركين كانوا يحجون ويعتمرّون ويهتدون فأراد المسلمون أن يغيروا عليهم، فنزل: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله﴾ إلى آخر الآية، فيكون ذلك منسوخاً بقوله: ﴿اقتلوا المشركين حيث وجئتموهم﴾ [التوبة: 5]، وقوله: ﴿فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾ [التوبة: 28]، وقوله: ﴿ولا يحجّ بعد العام مشركاً﴾. وقال قوم: الآية محكمة وهي في المسلمين. قوله: ﴿يبغثون فضلاً من ربهم ورضواناً﴾ جملة حالية من الضمير المستتر في ﴿أمين﴾ قال جمهور المفسرين: معناه يبتغون الفضل والأرباح في التجارة، ويبتغون مع ذلك رضوان الله، ويكون هذا الابتغاء للرضوان الله؛ وقيل كان منهم من يطلب التجارة، ومنهم من يبتغي بالحجّ رضوان الله، ويكون هذا الابتغاء للرضوان بحسب اعتقادهم، وفي ظنهم عند من جعل الآية في المشركين؛ وقيل المراد بالفضل هنا الثواب لا الأرباح في التجارة. قوله: ﴿وإذا حللتم فاصطادوا﴾ هذا تصريح بما أقامه مفهوم ﴿وانتم حرم﴾ بإباح لهم الصيد بعد أن حظره عليهم لزوال السبب الذي حرّم لأجله، وهو الإحرام. قوله: ﴿ولا يجزئكم شأن قوم﴾ قال ابن فارس: جرم وأجرم ولا جرم بمعنى قولك لا بدّ ولا محالة، وأصلها من جرم أي كسب، وقيل المعنى: لا يحملنكم قاله الكسائي وثعلب، وهو يتعدى إلى مفعولين، يقال جرمني كذا على بغضك: أي حملني عليه ومنه قول الشاعر: ولقد طعنت أبا عبيدة طعنة جرمت فزاره بعدما أن بغضبوا أي حملتهم على الغضب. وقال أبو عبيدة والفراء: معنى

وهو داخل تحت هذا النهي لصديق هذين النوعين على كل ما يوجد فيه معناه، ثم أمر عباده بالتقوى وتوعد من خالف ما أمر به فتركه، أو خالف ما نهى عنه ففعله، بقوله: ﴿إِنْ أَشَاءَ اللَّهُ شَاءَ الْعَقَابُ﴾.

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ قال: ما أحل الله وما حرّم، وما فرض وما حد في القرآن كله لا تغدروا ولا تنكثوا. وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة قال: هي عقود الجاهلية الحلف. وروى عنه ابن جرير أنه قال: نكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: «أوفوا بعقد الجاهلية ولا تحدثوا عقداً في الإسلام». وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر، عن الحسن في قوله: ﴿وَأَحْلَلْتُ لَكُمْ بَهِيمَةَ الْأَنْعَامِ﴾ قال: الإبل والبقر والغنم. وأخرج ابن جرير عن ابن عمر في قوله: ﴿وَأَحْلَلْتُ لَكُمْ بَهِيمَةَ الْأَنْعَامِ﴾ قال: ما في بطونها، قلت: إن خرج ميتاً أكله؟ قال نعم. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي، في شعب الإيمان، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِلَّا مَا يَتْلُو عَلَيْكُمْ﴾ قال: الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به إلى آخر الآية، فهذا ما حرّم الله من بهيمة الأنعام. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ قال: كان المشركون يحجون البيت الحرام ويهدون الهدايا ويعظمون حرمة المشاعر وينحرون في حجهم، فأراد المسلمون أن يغيروا عليهم، فقال الله: ﴿لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾. وفي قوله: ﴿وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ يعني: لا تستحلوا قتلاً فيه ﴿وَلَا أَمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ﴾ يعني: من توجه قبل البيت الحرام، فكان المؤمنون والمشركون يحجون جميعاً، فنهى الله المؤمنين أن يمتنعوا أحداً حج البيت أو يتعرضوا له من مؤمن أو كافر، ثم أنزل الله بعد هذه الآية: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾ [التوبة: 28] وفي قوله: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا﴾ يعني: أنهم يرضون الله بحجهم، ﴿وَلَا يَجْرِمُكُمْ﴾ يقول: لا يحملنكم ﴿شَنَّانَ قَوْمٍ﴾ يقول: عداوة قوم. ﴿وَتَعَانُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ قال: البر ما أمرت به، والتقوى ما نهيت عنه. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه في الآية قال: شعائر الله ما نهى الله عنه أن تصيبه وأنت محرم، والهدي: ما لم يقدل، والقلائد مقلدات الهدي ﴿وَلَا أَمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ﴾ يقول: من توجه حاجاً. وأخرج ابن جرير عنه في قوله: ﴿لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ قال: مناسك الحج. وأخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم قال: كان رسول الله ﷺ بالحديبية وأصحابه حين صدمهم المشركون عن البيت، وقد اشتد ذلك عليهم، فمر بهم أناس من المشركين من أهل المشرق يريدون العمرة، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: نصد هؤلاء كما صدنا أصحابنا، فأنزل الله: ﴿وَلَا يَجْرِمُكُمْ﴾ الآية. وأخرج أحمد وعبد بن حميد والبخاري في تاريخه عن وابصة أن النبي ﷺ قال له: «البر

﴿لَا يَجْرِمُكُمْ﴾ لا يكسبنكم بغض قوم أن تعتدوا الحق إلى الباطل، والعدل إلى الجور، والجريمة والجارم بمعنى الكاسب، ومنه قول الشاعر:

جريمة ناهض في رأس نيق يرى لعظام ما جمعت صليباً
معناه كاسب قوت. والصليب: اللوك، ومنه قول الآخر:

يا أيها المشتكى عكلاً وما جرت إلى القبائل من قتل وإيئاس
أي كسبت، والمعنى في الآية: لا يحملنكم بغض قوم على الاعتداء عليهم، أو لا يكسبنكم بغضهم اعتداءكم للحق إلى الباطل، ويقال جرم يجرم جرماً: إذا قطع. قال علي بن عيسى الرماني: وهو الأصل، فجرم بمعنى حمل على الشيء لقطعه من غيره، وجرم بمعنى كسب لانتقاعه إلى الكسب، ولا جرم بمعنى حق؛ لأن الحق يقطع عليه قال الخليل: معنى ﴿لَا جرم أن لهم النار﴾ [النحل: 62] لقد حق أن لهم النار. وقال الكسائي: جرم وأجرم لغتان بمعنى واحد: أي اكتسب. وقرأ ابن مسعود: ﴿لَا يَجْرِمُكُمْ﴾ بضم الياء، والمعنى: لا يكسبنكم، ولا يعرف البصريون أجرم، وإنما يقولون جرم لا غير. والشَنَّانُ: البغض. وقرئ بفتح النون وإسكانها، يقال شنيت الرجل أشنوه شناء وشنأة وشنأناً كل ذلك: إذا أبغضته، وشنأن هنا مضاف إلى المفعول: أي بغض قوم منكم لا بغض قوم لكم. قوله: ﴿إِنْ صَدُوكُمْ﴾ بفتح الهمزة مفعول لأجله. أي: لأن صدوكم. وقرأ أبو عمرو وابن كثير بكسر الهمزة على الشرطية، وهو اختيار أبي عبيد، وقرأ الأعمش: ﴿إِنْ يَصُدُّوكُمْ﴾ والمعنى على قراءة الشرطية: لا يحملنكم بغضهم إن وقع منهم الصد لكم عن المسجد الحرام على الاعتداء عليهم. قال النحاس: وأما إن صدوكم بكسر إن، فالعلماء الجلة بالنحو والحديث والنظر، يمتنعون القراءة بها لأشياء: منها أن الآية نزلت عام الفتح سنة ثمان، وكان المشركون صدوا المؤمنين عام الحديبية سنة ست، فالصد كان قبل الآية؛ وإذا قرئ بالكسر لم يجز أن يكون إلا بعده، كما تقول: لا تعط فلاناً شيئاً إن قاتلك، فهذا لا يكون إلا للمستقبل، وإن فتحت كان للماضي، وما أحسن هذا الكلام. وقد أنكر أبو حاتم وأبو عبيدة شَنَّانَ بسكون النون. لأن المصادر إنما تأتي في مثل هذا متحركة، وخالفهما غيرهما فقال: ليس هذا مصدرأ، ولكنه اسم على وزن كسلان وغضبان. ولما نهاهم عن الاعتداء أمرهم بالتعاون على البر والتقوى: أي ليعن بعضكم بعضاً على ذلك، وهو يشمل كل أمر يصديق عليه أنه من البر والتقوى كائناً ما كان؛ قيل إن البر والتقوى لفظان لمعنى واحد، وكرر للتأكيد. وقال ابن عطية: إن البر يتناول الواجب والمندوب، والتقوى تختص بالواجب، وقال الماوردي: إن في البر رضا الناس وفي التقوى رضا الله، فمن جمع بينهما فقد تمت سعائته ثم نهاهم سبحانه عن التعاون على الإثم والعدوان، فالإثم: كل فعل أو قول يوجب إثم فاعله أو قائله، والعدوان: التعدي على الناس بما فيه ظلم، فلا يبقى نوع من أنواع الموجبات للإثم، ولا نوع من أنواع الظلم للناس الذين من جملتهم النفس، إلا

أُدرِك نكاته على ما روى عن ابن عمر، وهو قول مالك وأبي حنيفة وأصحابه والثوري والشافعي، وخالفهم الشاميون في ذلك. قال الأوزاعي في المعراض: كله خرق أو لم يخرق، فقد كان أبو الدرداء وقضالة بن عبيد وعبد الله بن عمر ومكحول لا يرون به بأساً. قال ابن عبد البر: هكذا نكر الأوزاعي عن عبد الله بن عمر، والمعروف عن ابن عمر ما نكر مالك عن نافع، قال: والأصل في هذا الباب والذي عليه العمل وفيه الحجة، حديث عدي بن حاتم، وفيه: «ما أصاب بعرضه فلا تكل فيه وقيد»، انتهى.

قلت: والحديث في الصحيحين وغيرهما عن عديّ قال: «قلت يا رسول الله إني أرمي بالمعراض الصيد، فأصيب فقال: إذا رميت بالمعراض فخرق فكله، وإن أصاب بعرضه، فإنما هو وقيد فلا تاكله». فقد اعتبر ﷺ الخرق وعدمه، فالحق: أنه لا يحل إلا ما خرق لا ما صم، فلا بد للتذكية قبل الموت وإلا كان وقيداً. وأما البنائق المعروفة الآن: وهي بنائق الحديد التي تجعل فيها البارود والرصاص ويرمي بها، فلم يتكلم عليها أهل العلم لتأخر حدوثها، فإنها لم تصل إلى الديار اليمنية إلا في المائة العاشرة من الهجرة، وقد سألني جماعة من أهل العلم عن الصيد بها إذا مات ولم يتمكن الصائد من تنكيته حياً. والذي يظهر لي أنه حلال؛ لأنها تخرق وتدخل في الغالب من جانب منه وتخرج من الجانب الآخر، وقد قال ﷺ في الحديث الصحيح السابق: «إذا رميت بالمعراض فخرق فكله»، فاعتبر الخرق في تحليل الصيد. قوله: ﴿وَالْمُتَرَدِّى﴾ هي التي تتردى من علو إلى أسفل فتموت، من غير فرق بين أن تتردى من جبل أو بئر أو مدفن أو غيرها، والتردى مأخوذ من الردى وهو الهلاك، وسواء تردت بنفسها أو ردها غيرها. قوله: ﴿وَالْمَنْطُوحَةُ﴾ هي فعلية بمعنى مفعولة، وهي التي تنطعها أخرى فتموت من بون تنكية. وقال قوم أيضاً: فعلية بمعنى فاعلة، لأن الدابيتين تتناطحان فتموتان، وقال: منطوحة ولم يقل نطيح مع أنه قياس فاعيل، لأن لزوم الحنف مختص بما كان من هذا الباب صفة لموصوف منكور فإن لم يذكر ثبتت التاء للنقل من الوصفية إلى الإسمية. وقرأ أبو ميسرة «والمَنْطُوحَةُ». قوله: ﴿وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ﴾ أي: ما افترسه نو ناب كالأسد والنمر والنثب والضبع ونحوها، والمراد هنا ما أكل منه السبع، لأن ما أكله السبع كله قد فنى، ومن العرب من يخص اسم السبع بالأسد، وكانت العرب إذا أكل السبع شاة، ثم خلصوها منه أكلوها، وإن ماتت ولم يذكوها. وقرأ الحسن وأبو حيوة «السَّبْعُ» بسكون الباء، وهي لغة لأهل نجد، ومنه قول حسان في عتبة بن أبي لهب

من يرجع العام إلى أهله فما أكمل السبع بالواجب
وقرأ ابن مسعود «واكيلة السبع». وقرأ ابن عباس: «واكيلة
السبع». قوله: ﴿إِلَّا مَا نَكَيْتُمْ﴾ في محل نصب على
الاستثناء المتصل عند الجمهور، وهو راجع على ما أدركت
نكاته من المذكورات سابقاً، وفيه حياة، وقال المدنيون: وهو

ما اطمأنَّ إليه القلب واطمأنت إليه النفس، والإثم ما حاك في
القلب وتردَّد في الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك». وأخرج
ابن أبي شيبة وأحمد، والبخاري، في الألب، ومسلم
والترمذي والحاكم والبيهقي، عن النّوّاس بن سميان قال:
سألت النبي ﷺ عن البرِّ والإثم، فقال: «البرُّ حسن الخلق،
والإثم ما حاك في نفسك وكهرت أن يطلع عليه الناس».
وأخرج أحمد وعبد بن حميد وابن حبان والطبراني، والحاكم
وصححه، والبيهقي عن أبي أمامة، أن رجلاً سأل النبي ﷺ
عن الإثم، فقال: «ما حاك في نفسك فدعه. قال فما الإيمان؟
قال: من ساعته سيئته، وسرّته حسنته، فهو مؤمن».

حَرَّمَتْ عَلَيْكَ النِّسَاءَ الَّتِي وَأَمَّ وَطَمَ الْجَنَزِيرُ وَمَا أُولَئِكَ لِيَوْمِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَفَاطَةُ
وَالْمُؤَدَّةُ وَالْمُرْدِيَةُ وَالطَّيْبَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَّبْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى
النُّصَبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَى ذَلِكُمْ يَنْقُ الْيَوْمَ نَفْسَ الْوَيْلِ كَفَرُوا مِنْ
دِينِكَ فَلَا تَعْتَصِمُ لَهُمْ وَأَعْتَصِمُوا الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي
وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِيمَانِهِ فَرَأَى
اللَّهَ عَفْوَ رَحِيمٌ ﴿٥٠﴾

هذا شروع في المحرمات التي أشار إليها سبحانه بقوله: ﴿إِلَّا مَا يَتْلُو عَلَيْكُمْ﴾. والميتة قد تقم نكحها في البقرة، وكذلك الدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله، وما هنا من تحريم مطلق الدم مقيد بكونه مسفوحاً كما تقدم، حملاً للمطلق على المقيد، وقد ورد في السنة تخصيص الميتة بقوله ﷺ: «أهلّ لنا ميتتان ويمان، فأما الميتتان فالحوت والجراد، وأما اليمان فالكلبد والطحال»، أخرجه الشافعي، وأحمد وابن ماجه والدارقطني والبيهقي وفي إسناده يقال، ويقرّبه حديث: «هو الطهور ماؤه والحل ميتته»، وهو عند أحمد وأهل السنن، وغيرهم، وصححه جماعة منهم ابن خزيمة وابن حبان، وقد أطلنا الكلام عليه في شرحنا للمنتقى. والإهلال رفع الصوت لغير الله، كان يقول: بسم اللات والعزى ونحو ذلك، ولا حاجة بنا هنا إلى تكرير ما قد أسلفناه، ففيه ما لا يحتاج الناظر فيه إلى غيره ﴿وَالْمُنْحَنَةِ﴾ هي التي تموت بالخنق: وهو حبس النفس، سواء كان ذلك بفعلها كان تدخل رأسها في حبل أو بين عودين، أو بفعل أئمن أو غيره، وقد كان أهل الجاهلية يخنقون الشاة، فإذا ماتت أكلوها: ﴿وَالْمَوْقُوذَةِ﴾ هي التي تضرب بحجر أو عصا حتى تموت من غير تنكية، يقال وقذه يقذه وقذاً فهو وقيد، والوقذ شدة الضرب، وفلان وقيد: أي مثخن ضرباً، وقد كان أهل الجاهلية يفعلون ذلك، فيضربون الانعام بالخشب لأكلتهم حتى تموت ثم ياكلونها، ومنه قول الفرزقي:

شغارة تغذ الفصيل برجلها فطارة لقوائم الأظفار
قال ابن عبد البر: واختلف العلماء قديماً وحديثاً في
الصيد بالبندق والحجر والمعرض، ويعني بالبندق: قوس
البندقية، وبالمعرض: السهم الذي لا ريش له، أو العصا التي
رأسها محدد، قال: فمن ذهب إلى أنه وقيد لم يجزه إلا ما

المشهور من مذهب مالك، وهو أحد قولي الشافعي أنه: إذا بلغ السبع منها إلى ما لا حياة معه فإنها لا تؤكل. وحكاة في الموطأ عن زيد بن ثابت، وإليه ذهب إسماعيل القاضي، فيكون الاستثناء على هذا القول منقطعاً: أي حرمت عليكم هذه الأشياء، لكن ما نكيتم فهو الذي يحل ولا يحرم، والأوّل أولى. والنكاة في كلام العرب الذبح، قاله قطرب وغيره. وأصل النكاة في اللغة: التعمام: أي تمام استكمال القوة، والنكاه حدة القلب، والنكاه سرعة الفطنة، والنكوة ما تنكى منه النار، ومنه أنكيت الحرب والنار: أوقدتها، ونكاه اسم الشمس والمراد هنا: إلا ما أتركتم نكاته على التعمام، والتنكية في الشرع: عبارة عن إنباه الدم، وفري الأوداج في المنبوح، والنحر في المنحور، والعقر في غير المقدور مقرونًا بالقصد لله، ونكر اسمه عليه. وإما الآلة التي تقع بها النكاة، فذهب الجمهور إلى أن كل ما أنهر الدم. وفري الأوداج فهو آلة للنكاة ما خلا السن والعظم، وبهذا جاءت الأحاديث الصحيحة. قوله: ﴿وَمَا ذَبَحْ عَلَى النَّصَبِ﴾ قال ابن فارس: النصب حجر كان ينصب فيعبد ويصّب عليه دماء الذبائح، والنصائب حجارة تنصب حوالي شفير البئر، فتجعل عضائد. وقيل النصب: جمع واحده نصاب، كحمار وحمر. وقرأ طلحة بضم النون وسكون الصاد. وروى عن أبي عمرو بفتح النون وسكون الصاد. وقرأ الجحدري بفتح النون والصاد، جعله اسماً موحداً كالجبل والجمل، والجمع انصاب كالأجبال والإجمال، قال مجاهد: هي حجارة كانت حوالي مكة ينبحون عليها قال ابن جريج: كانت العرب تنبج بمكة وتنضح بالدم ما أقبل من البيت، ويشرحون اللحم ويضعونه على الحجارة، فلما جاء الإسلام قال المسلمون للنبي ﷺ: نحن أحق أن نعظم هذا البيت بهذه الأفعال، فانزل الله ﴿وَمَا ذَبَحْ عَلَى النَّصَبِ﴾ والمعنى: والنية بذلك تعظيم النصب لا أن الذبح عليها غير جائز، ولهذا قيل إن ﴿على﴾ بمعنى اللام: أي لأجلها. قاله قطرب، وهو على هذا داخل فيما أهل به لغير الله، وخص بالذكر لتأكيد تحريمه، ولبلغ ما كانوا يظنونونه من أن تلك لتشريف البيت وتعظيمه. قوله: ﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾ معطوف على ما قبله: أي وحرم عليكم الاستقسام بالأزلام، والأزلام، قداح الميسر واحدها زلم، قال الشاعر:

بات يقاسيها غلام كلزيم ليس براعي إيل ولا غنم
ولا بجزار على لحم وضم

وقال آخر:

فلئن جنيمة قتلت ساداتها فنساؤها يضربن بالأزلام
والأزلام للمعرب ثلاثة أنواع: أحدها مكتوب فيه أفعل، والآخر مكتوب فيه لا تفعل، والثالث مهمل لا شيء عليه، فيجعلها في خريطة معه، فإذا أراد فعل شيء، أدخل يده وهي متشابهة فأخرج واحداً منها، فإن خرج الأوّل: فعل ما عزم عليه، وإن خرج الثاني: تركه، وإن خرج الثالث: أعاد الضرب حتى يخرج واحد من الأولين. وإنما قيل لهذا الفعل

استقسام: لأنهم كانوا يستقسمون به الرزق، وما يربون فعله، كما يقال استسقى: أي استدعى السقي، فالاستقسام: طلب القسم والنصيب. وجملة قداح الميسر عشرة، وقد قدّمنا بيانها، وكانوا يضربون بها في المقامرة، وقيل إن الأزلام كعاب فارس والروم التي يتقمارون بها، وقيل هي الشطرنج، وإنما حرم الله الاستقسام بالأزلام؛ لأنه تعرّض لدعوى علم الغيب، وضرب من الكهانة. قوله: ﴿فَلَكُمْ فُسْقٌ﴾ إشارة إلى الاستقسام بالأزلام، أو إلى جميع المحرمات المذكورة هنا. والفسق: الخروج عن الحد، وقد تقدّم بيان معناه، وفي هذا وعيد شديد؛ لأن الفسق هو أشدّ الكفر، لا ما وقع عليه اصطلاح قوم من أنه: منزلة متوسطة بين الإيمان والكفر. قوله: ﴿الْيَوْمَ يَنْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ نَيْبِكُمْ﴾ المراد: اليوم الذي نزلت فيه الآية، وهو يوم فتح مكة، لثمان بقين من رمضان، سنة تسع وقيل، سنة ثمان؛ وقيل المراد باليوم: الزمان الحاضر وما يتصل به، ولم يرد يوماً معيّنًا. ويش في لغتان ييس بيايين يأساً، وأيس يائس يأساً وإياساً. قاله النضر بن شميل: أي حصل لهم اليأس من إبطال دينكم وأن يردوكم إلى دينهم كما كانوا يزعمون ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ أي: لا تخافوا منهم أن يغلبوكم أو يبطّلوا دينكم ﴿وَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ فانا القادر على كل شيء إن نصرتمكم فلا غالب لكم، وإن خذلتكم لم يستطع غيري أن ينصركم. قوله: ﴿الْيَوْمَ اكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ جعلته كاملاً غير محتاج إلى إكمال؛ لظهوره على الأدیان كلها وغلبته لها، ولكمال أحكامه التي يحتاج المسلمون إليها من الحلال والحرام والمشتبه، ووفى ما تضمنه الكتاب والسنة من ذلك، ولا يخفى ما يستفاد من تقديم قوله: ﴿لَكُمْ﴾ قال الجمهور المراد بالإكمال هنا: نزول معظم الفرائض والتحليل والتحريم. قالوا: وقد نزل بعد ذلك قرآن كثير كآية الربا وآية الكلاله ونحوهما. والمراد باليوم المذكور هنا هو يوم الجمعة، وكان يوم عرفة بعد العصر في حجة الوداع سنة عشر، هكذا ثبت في الصحيح من حديث عمر بن الخطاب؛ وقيل: إنها نزلت في يوم الحج الأكبر. قوله: ﴿وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ بأكمل الدين المشتمل على الأحكام، وبفتح مكة وقهر الكفار، وإياسهم عن الظهور عليكم، كما وعدتكم بقولي: ﴿وَلَاتَمْ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: 150] قوله: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ أي: أخبرتكم برضاي به لكم، فإنه سبحانه لم يزل راضياً لامة نبيه ﷺ بالإسلام، فلا يكون لاختصاص الرضا بهذا اليوم كثير فائدة إن حملناه على ظاهره، ويحتمل أن يريد رضيت لكم الإسلام الذي أنتم عليه اليوم ديناً باقياً إلى انقضاء أيام الدنيا. وبيننا منتصب على التمييز، ويجوز أن يكون مفعولاً ثانياً. قوله: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ﴾ هذا متصل بذكر المحرمات وما بينهما اعتراض: أي من دعت الضرورة ﴿فِي مَخْمَصَةٍ﴾ أي: مجاعة إلى أكل الميتة وما بعدها من المحرمات. والخمص: ضمور البطن، ورجل خميص وخمضان، وامرأة

والمسلمون يدعون الله **﴿اليوم اكملت لكم دينكم﴾** يقول: حلالكم وحرامكم، فلم ينزل بعد هذا حلال ولا حرام **﴿واتممت عليكم نعمتي﴾** قال: منتي، فلم يحج معكم مشرك، **﴿ورضيت﴾** يقول: اخترت **﴿لكم الإسلام ديناً﴾** فمكث رسول الله ﷺ بعد نزول هذه الآية أحداً وثمانين يوماً، ثم قبضه الله إليه. وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه قال: أخبر الله نبيه والمؤمنين أنه اكمل لهم الإيمان، فلا يحتاجون إلى زيادة أبداً، وقد آتمه فلا ينقص أبداً، وقد رضيه فلا يسخطه أبداً، وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما، عن طارق بن شهاب قال: قالت اليهود لعمر: إنكم تقرؤون آية في كتابكم، لو علينا معشر اليهود نزلت، لاتخذنا ذلك اليوم عيداً، قال: وأي آية؟ قالوا: **﴿اليوم اكملت لكم دينكم﴾** قال عمر: والله إنني لأعلم اليوم الذي نزلت فيه على رسول الله ﷺ، والساعة التي نزلت فيها، نزلت على رسول الله ﷺ عشية عرفة، في يوم جمعة. وأخرج ابن جرير وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: **﴿فمن اضطر﴾** يعني: إلى ما حرّم مما سمي في صدر هذه السورة **﴿في مخصصة﴾** يعني: في مجاعة **﴿غير متجانف لإثم﴾** يقول: غير متعد لإثم.

يَسْتَلَوْكَ مَاذَا أَحَلَّ لَكَ قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ الْكَذِبُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَيِّبٍ تُفَوِّضُونَ بِمَا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا آتَاكُمْ عَلَيْهِمْ وَأَذْكُرُوا أَنَّهُمْ عَلَى اللَّهِ أَكْبَرُ وَأَلْفُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ① الْيَوْمَ أَحَلَّ لَكُمْ الْكَذِبَ وَطَعَامَ الزَّيْنِ أَوْثُوا الْكِتَابَ حَلَّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلَّ لَكُمْ وَالْمُحَنَّتُ مِنَ الْكُؤُوتِ وَالْمُحَنَّتُ مِنَ الْزَيْنِ أَوْثُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِنَّا أَنْتَزَعْنَا أَجْرَهُنَّ أَجْرَهُنَّ غَيْرَ مُسْتَوِينَ وَلَا مُتَجَدِّينَ أَحَدًا وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِبْرَةِ فَقَدْ حَبَطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْكَافِرِينَ ②

هذا شروع في بيان ما أحله الله لهم، بعد بيان ما حرّمه الله عليهم، وسيأتي ذكر سبب نزول الآية. قوله: **﴿ماذا أحلّ لكم﴾** أي شيء أحلّ لكم، أو ما الذي أحلّ لكم من المطاعم إجمالاً. ومن المصيد؟ من طعام أهل الكتاب؟ ومن نسايتهم؟ قوله: **﴿قل أحلّ لكم الطيبات﴾** هي ما يستلذه أكله ويستطيبه مما أحله الله لعباده؛ وقيل هي الحلال، وقد سبق الكلام في هذا؛ وقيل الطيبات: الذبائح لأنها طابت بالتذكية، وهو تخصيص للعام بغير مخصص، والسبب والسياق لا يصلحان لذلك. قوله: **﴿وما علمتم من الجوارح﴾** هو: معطوف على الطيبات بتقدير مضاف لتصحيح المعنى: أي أحلّ لكم الطيبات، وأحلّ لكم صيد ما علمتم من الجوارح. وقرأ ابن عباس ومحمد بن الحنفية «علمتم» بضم العين وكسر اللام: أي علمتم من أمر الجوارح والصيد بها. قال القرطبي: وقد نكر بعض من صنف في أحكام القرآن، أن الآية تدل على أن الإباحة تناولت ما علما من الجوارح، وهو يتضمن الكلب وسائر جوارح الطير، وذلك يوجب إباحة سائر وجوه الانتفاع، فدل على جواز بيع الكلب والجوارح، والانتفاع بها بسائر وجوه المنافع، إلا ما خصه الدليل؛ وهو

خميسة وخمصانة، ومنه أخصص القدم، ويستعمل كثيراً في الجوع، قال الأعشى:

تبيتون في المشاء ملأى بطونكم وجاراتكم غرئى بيتن خمائصاً
قوله: **﴿غير متجانف﴾** الجنف: الميل، والإثم: الحرام: أي حال كون المضطرّ في مخصصة غير مائل للإثم، وهو بمعنى غير باغ ولا عاد، وكل مائل فهو متجانف وجنف. وقرأ النخعي ويحيى بن وثاب والسلمي: «متجنف»، **﴿فإن الله غفور رحيم﴾** به لا يؤاخذ به الجائته إليه الضرورة في الجوع، مع عدم ميله بكل ما حرّم عليه إلى الإثم، بأن يكون باغياً على غيره، أو متعدياً لما دعت إليه الضرورة حسبما تقدّم.

وقد أخرج ابن أبي حاتم والطبراني وابن مريويه، والحاكم وصححه، عن أبي أمامة قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى قومي أدعوههم إلى الله ورسوله، وأعرض عليهم شعائر الإسلام، فبينما نحن كذلك، إذ جاؤوا بقصعة دم واجتمعوا عليها ياكلونها، قالوا: هلم يا صدي فكل قلت: ويحكم إنما آتيتكم من عند من يحرم هذا عليكم، لما أنزل الله عليه، قالوا: وما ذاك؟ قال: فتلوت عليهم هذه الآية: **﴿حرمت عليكم الميتة﴾** وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس في قوله: **﴿وما أهل لغير الله به﴾** قال: وما أهل للطواغيت به: **﴿والمخنقة﴾** التي تخنق فتموت **﴿والموقوذة﴾** قال: التي تضرب بالخشبة فتموت. **﴿والمترية﴾** قال: التي تتردى من الجبل فتموت. **﴿والنطيحة﴾** قال: الشاة التي تنطح الشاة. **﴿وما أكل السبع﴾** يقول: ما أخذ السبع، **﴿إلا ما نكيت﴾** يقول: نبحتم من ذلك، وبه روح فكلوه. **﴿وما نبح على النصب﴾** قال: النصب أنصاب كانوا ينبحون ويهللون عليها: **﴿وان تستقسموا بالأزلام﴾** قال: هي القداح كانوا يستقسمون بها في الأمور، **﴿نلكم فسق﴾** يعني: من أكل ذلك كله فهو فسق. وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال: الرداة التي تتردى في البئر، والمترية التي تتردى من الجبل. وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير في قوله: **﴿وان تستقسموا بالأزلام﴾** قال: حصى بيض كانوا يضربون بها. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن الحسن في الآية قال: كانوا إذا ارابوا أمراً أو سفراً يعمدون إلى قداح ثلاثة، يكتبون على واحد منها: أمرني، وعلى الآخر: نهاني، ويتروكون الثالث مخللاً بينهما ليس عليه شيء ثم يجيئونها، فإن خرج الذي عليه: أمرني مضوا لأمرهم، وإن خرج الذي عليه: نهاني كفوا، وإن خرج الذي: ليس عليه شيء أعلوها. وأخرج ابن جرير وابن المنذر، عن ابن عباس في قوله: **﴿اليوم يئس الذين كفروا من دينكم﴾** قال: يئسوا أن يرجعوا إلى دينهم أبداً. وأخرج البيهقي عنه في الآية قال: يقول يئس أهل مكة أن يرجعوا إلى دينهم عبادة الأوثان أبداً. **﴿فلا تخشوهم﴾** في اتباع محمد **﴿ولخشون﴾** في عبادة الأوثان وتكذيب محمد فلما كان واقفاً بعرفات، نزل عليه جبريل وهو رافع يديه،

أبي وقاص، وأبي هريرة وعبد الله بن عمر، وروى عن علي، وابن عباس والحسن البصري، والزهري وربيعة، ومالك، والشافعي في القديم، أنه يؤكل صيده، ويردّ عليهم قوله تعالى: ﴿مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ وقوله ﷺ لعدي بن حاتم: «إذا أرسلت كلبك المعلم ونكرت اسم الله عليه فكل ما أمسك عليك» وهو في الصحيحين وغيرهما، وفي لفظ لهما: «فإن أكل فلا تاكل فإنني أخاف أن يكون أمسك على نفسه». وأما ما أخرجه أبو داود بإسناد جيد من حديث أبي ثعلبة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أرسلت كلبك المعلم ونكرت اسم الله فكل وإن أكل منه». وقد أخرجه أيضاً بإسناد جيد من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وأخرجه أيضاً النسائي، فقد جمع بعض الشافعية بين هذه الأحاديث بأنه إن أكل عقب ما أمسكه فإنه يحرم؛ لحديث عدي بن حاتم، وإن أمسكه ثم انتظر صاحبه فطال عليه الانتظار وجاع فاكل من الصيد لجوعه لا لكونه أمسكه على نفسه فإنه لا يؤثر ذلك ولا يحرم به الصيد، وحملوا على ذلك حديث أبي ثعلبة الخشني، وحديث عمرو بن شعيب، وهذا جمع حسن. وقال آخرون: إنه إذا أكل الكلب منه حرم لحديث عدي، وإن أكل غيره لم يحرم للحديثين الآخرين؛ وقيل: يحمل حديث أبي ثعلبة على ما إذا أمسكه وخلاه، ثم عاد فاكل منه.

وقد سلك كثير من أهل العلم طريق الترجيح، ولم يسلكوا طريق الجمع لما فيها من البعد، قالوا: وحديث عدي بن حاتم أرجح لكونه في الصحيحين. وقد قررت هذا المسلك في شرحي للمنتقى بما يزيد الناظر فيه بصيرة. قوله: ﴿وَأَنذَرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ الضمير في ﴿عليه﴾ يعود إلى ﴿مِمَّا أَمْسَكْنَ﴾ أي: سموا عليه عند إرساله، أو لما أمسكن عليكم: أي سموا عليه إذا أربتم نكاته. وقد ذهب الجمهور إلى وجوب التسمية عند إرسال الجارح، واستدلوا بهذه الآية، ويؤيده حديث عدي بن حاتم الثابت في الصحيحين، وغيرهما بلفظ: «إذا أرسلت كلبك فانكر اسم الله وإذا رميت بسهمك فانكر اسم الله». وقال بعض أهل العلم: إن المراد التسمية عند الأكل. قال القرطبي: وهو الأظهر، واستدلوا بالأحاديث التي فيها الإرشاد إلى التسمية وهذا خطأ، فإن النبي ﷺ قد وقت التسمية بإرسال الكلب وإرسال السهم، ومشروعية التسمية عند الأكل حكم آخر، ومسألة غير هذه المسألة، فلا وجه لحمل ما ورد في الكتاب والسنة هنا على ما ورد في التسمية عند الأكل، ولا ملجئ إلى ذلك، وفي لفظ في الصحيحين من حديث عدي: «إن أرسلت كلبك وسميت فأخذ فكل». وقد ذهب جماعة إلى أن التسمية شرط وذبح آخرون إلى أنها سنة فقط، وذبح جماعة إلى أنها شرط على الذكور لا النسائي، وهذا أقوى الأقوال وأرجحها. قوله: ﴿وَأَقْتُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي: حسابه سبحانه سريع إتيانه وكل أت قريب. قوله: ﴿الْيَوْمَ لَحْلُ لَكُمْ الطَّيِّبَاتِ﴾ هذه الجملة مؤكدة للجملة الأولى، وهي قوله: ﴿لَحْلُ لَكُمْ الطَّيِّبَاتِ﴾ وقد تقدّم بيان الطيبات. قوله:

الأكل من الجوارح: أي الكواشب من الكلاب وسباع الطير. قال: أجمعت الأمة على أن الكلب إذا لم يكن أسود، وعلمه مسلم، ولم ياكل من صيده الذي صاده وأثر فيه بجرح أو تنبيب، وصاد به مسلم ونكر اسم الله عند إرساله، أن: صيده صحيح يؤكل بلا خلاف، فإن أضرمت شرط من هذه الشروط دخل الخلاف، فإن كان الذي يصاد به غير كلب كالفهد وما أشبهه، والكلبازي والصقر ونحوهما من الطير، فجمهور الأمة على أن كل ما صاد بعد التعليم فهو جازح كاسب، يقال جرح فلان واجترح: إذا اكتسب، ومنه الجارحة لأنه يكتسب بها، ومنه اجتراح السيئات، ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: 60]. وقوله: ﴿لَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ [الجاثية: 21]. قوله: ﴿مَكْلَبِينَ﴾ حال، والمكلب: معلم الكلاب لكيفية الاصطياد، والأخص معلم الكلاب، وإن كان معلم سائر الجوارح مثله، لأن الاصطياد بالكلاب هو الغالب، ولم يكتف بقوله: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ﴾ مع أن التكليل هو التعليم، لقصد التأكيد لما لا بد منه من التعليم؛ وقيل: إن السبع يسمى كلباً فيدخل كل سبع يصاد به؛ وقيل: إن هذه الآية خاصة بالكلاب. وقد حكى ابن المنذر عن ابن عمر أنه قال: ما يصاد بالبزاة وغيرها من الطير، فما أدرت نكاته فهو لك حلال، وإلا فلا تطعمه. قال ابن المنذر: وسئل أبو جعفر عن البزاي هل يحل صيده؟ قال لا، إلا أن تترك نكاته. وقال الضحاك والسدي: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مَكْلَبِينَ﴾ هي الكلاب خاصة، فإن كان الكلب الأسود بهيماً: فكره صيده الحسن وقتادة والنخعي. وقال أحمد: ما أعرف أحداً يرخص فيه إذا كان بهيماً، وبه قال ابن راهويه. فاما عامة أهل العلم بالمدينة والكوفة فيرون جواز صيد كل كلب معلم، واحتج من منع من صيد الكلب الأسود بقوله ﷺ: «الكلب الأسود شيطان». أخرجه مسلم وغيره، والحق أنه يحل صيد كل ما يدخل تحت عموم الجوارح من غير فرق بين الكلب وغيره، وبين الأسود من الكلاب وغيره وبين الطير وغيره، ويؤيد هذا أن سبب نزول الآية: سؤال عدي بن حاتم عن صيد الكلبي كما سيأتي. قوله: ﴿تَعْلَمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ الجملة في محل نصب على الحال: أي مما علمكم الله مما أنركتموه بما خلقه فيكم من العقل الذي تهتدون به إلى تعليمها وتدريبها، حتى تصير قابلة لإمسك الصيد عند إرسالكم لها. قوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ الفاء للتفريع، والجملة متفرعة على ما تقدّم من تحليل صيد ما علموه من الجوارح، ومن في قوله: ﴿مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ للتبعض، لأن بعض الصيد لا يؤكل كالجلد والعظم وما أكله الكلب ونحوه، وفيه دليل على أنه لا بد أن يمسكه على صاحبه، فإن أكل منه فإنما أمسكه على نفسه كما في الحديث الثابت في الصحيح. وقد ذهب الجمهور إلى أنه لا يحل أكل الصيد الذي يقصده الجارح من تلقاء نفسه من غير إرسال. وقال عطاء بن أبي رباح والأوزاعي: وهو مروى عن سلمان الفارسي، وسعد بن

للمسلمين أن يطعموا أهل الكتاب من نباتهم، وهذا من باب المكافأة والمجازاة، وإخبار المسلمين بأن ما يأخونه منهم من أعراض الطعام حلال لهم بطريق الدلالة الالتزامية. قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ اختلف في تفسير المحصنات هنا، فقليل العفاف، وقيل الحرائر. وقرأ الشعبي بكسر الصاد، وبه قرأ الكسائي. وقد تقدم الكلام في هذا مستوفي في البقرة والنساء. والمحصنات مبتدأ، ومن المؤمنات وصف له والخبر محذوف أي حل لكم، وذكرهن هنا توطئة وتمهيداً لقوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ والمراد بهن الحرائر دون الإماء، هكذا قال الجمهور، وحكى ابن جرير عن طائفة من السلف أن هذه الآية تعم كل كتابية حرة أو أمة؛ وقيل المراد بأهل الكتاب هنا الإسرائيليات، وبه قال الشافعي، وهو تخصيص بغير مخصص. وقال عبد الله بن عمر: لا تحل النصرانية، قال: ولا أعلم شركاً أكبر من أن تقول ربه عيسى، وقد قال الله ﴿وَلَا تَنْكَحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾ [البقرة: 221] الآية، ويجب عنه بأن هذه الآية مخصصة للكتابيات من عموم المشركت فيبني العام على الخاص. وقد استدل من حرّم نكاح الإماء الكتابيات بهذه الآية لأنه حملها على الحرائر، ويقول تعالى ﴿فَمَنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فِتْيَانِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ [النساء: 25] وقد ذهب إلى هذا كثير من أهل العلم وخالفهم من قال: إن الآية تعم أو تخصّ العفاف كما تقدّم. والحاصل أنه ينحل تحت هذه الآية الحرة العفيفة من الكتابيات على جميع الأقوال، إلا على قول ابن عمر في النصرانية، ويدخل تحتها الحرة التي ليست بعفيفة والأمة العفيفة، على قول من يقول إنه يجوز استعمال المشرك في كلا معنييه، وأما من لم يجوز ذلك فإن حمل المحصنات هنا على الحرائر لم يقل بجواز نكاح الأمة عفيفة كانت أو غير عفيفة إلا لبديل آخر، ويقول بجواز نكاح الحرة العفيفة كانت أو غير عفيفة، وإن حمل المحصنات هنا على العفاف قال بجواز نكاح الحرة العفيفة والأمة العفيفة دون غير العفيفة منهما. قوله: ﴿إِذَا أَتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ أي مهرهن، وجواب إذا محذوف: أي فهن حلال، أو هي ظرف لخبر المحصنات المقدر: أي حل لكم قوله: ﴿مُحْصَنِينَ﴾ منصوب على الحال: أي حال كونكم أعفاء بالنكاح، وكذا قوله: ﴿غَيْرِ مُسَافِحِينَ﴾ منصوب على الحال من الضمير في محصنين، أو صفة لمحصنين، والمعنى: غير مجاهرين بالزنا. قوله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا الْخُدْيَانَ﴾ معطوف على ﴿غَيْرِ مُسَافِحِينَ﴾ أو على ﴿مُسَافِحِينَ﴾. ﴿وَلَا﴾ مزيدة للتأكيد، والخدن يقع على الذكر والأنثى: أي لم يتخذوا معشوقات، فقد شرط الله في الرجال العفة، وعدم المجاهرة بالزنا، وعدم اتخاذ خدنان، كما شرط في النساء أن يكنّ محصنات ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ﴾ أي: يشرك الإسلام، ﴿فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ أي: بطل، ﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ وقرأ ابن السميع «فقد حبط» بفتح الباء هـ.

﴿وَطَعَامَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلَّ لَكُمْ﴾ الطعام: اسم لما يؤكل، ومنه النبات، وذهب أكثر أهل العلم إلى تخصيصه هنا بالنبات. وفي هذه الآية دليل على أن جميع طعام أهل الكتب من غير فرق بين اللحم وغيره حلال للمسلمين وإن كانوا لا يتركون على نباتهم اسم الله، وتكون هذه الآية مخصصة لعموم قوله: ﴿وَلَا تَكُلُوا مِمَّا لَمْ يَنْكُرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: 121]. وظاهر هذا أن نبات أهل الكتاب حلال، وإن نكر اليهودي على نبيحته اسم عزيز، ونكر النصراني على نبيحته اسم المسيح. وإليه ذهب أبو الرداء وعبد بن الصامت، وابن عباس والزهري وربيعة، والشعبي ومكحول. وقال علي وعائشة وابن عمر: إذا سمعت الكتابي يسمى غير الله فلا تاكل، وهو قول طاوس والحسن، وتمسكوا بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُلُوا مِمَّا لَمْ يَنْكُرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: 121] ويدل عليه أيضاً قوله: ﴿وَمَا أَهْلٌ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [المائدة: 3] وقال مالك: إنه يكره ولا يحرم. فهذا الخلاف إذا علمنا أن أهل الكتاب نكروا على نباتهم اسم غير الله، وأما مع عدم العلم فقد حكى الكيا الطبري وابن كثير الإجماع على حلها لهذه الآية، ولما ورد في السنة من أكله من الشاة المصلية التي أهدتها إليه اليهودية، وهو في الصحيح، وكذلك الجراب الشحم الذي أخذه بعض الصحابة من خيبر، وعلم بذلك النبي ﷺ، وهو في الصحيح، أيضاً وغير ذلك. والمراد بأهل الكتاب هنا اليهود والنصارى. وأما المجوس، فذهب الجمهور إلى أنها لا تؤكل نباتهم، ولا تنكح نسائهم؛ لأنهم ليسوا بأهل كتاب على المشهور عند أهل العلم، وخالف في ذلك أبو ثور، وإنكر عليه الفقهاء ذلك حتى قال أحمد ابن حنبل: أبو ثور كاسمه، يعني في هذه المسئلة، وكأنه تمسك بما يروي عن النبي ﷺ مرسلاً أنه قال في المجوس: «سنوا بهم سنة أهل الكتاب»، ولم يثبت بهذا اللفظ، وعلى فرض أن له أصلاً، ففيه زيادة تدفع ما قال، وهي قوله غير أكل نباتهم، ولا ناكحي نسائهم. وقد رواه بهذه الزيادة جماعة ممن لا خبرة لهم بقرآن الحديث من المفسرين والفقهاء، ولم يثبت الأصل ولا الزيادة، بل الذي ثبت في الصحيح: أن النبي ﷺ أخذ الجزية من مجوس هجر، وأما بنو تغلب، فكان علي بن أبي طالب ينهى عن نباتهم لأنهم عرب، وكان يقول: إنهم لم يتمسكوا بشيء من النصرانية إلا بشرب الخمر، وهكذا سائر العرب المتنصرة، كتنوخ وجذام ولخم وعاملة، ومن أشبههم. قال ابن كثير: وهو قول غير واحد من السلف والخلف. وروي عن سعيد بن المسيب والحسن البصري، إنهما كانا لا يريان بأساً بنبیحة نصراني بني تغلب. وقال القرطبي: وقال جمهور الأمة إن نبیحة كل نصراني حلال، سواء كان من بني تغلب أو من غيرهم، وكذلك اليهود. قال: ولا خلاف بين العلماء أن ما لا يحتاج إلى نكاة كالطعام يجوز أكله. قوله: ﴿وَطَعَامُكُمْ حَلَّ لَكُمْ﴾ أي: وطعام المسلمين حلال لأهل الكتاب، وفيه دليل على أنه يجوز

يُؤْيُوكُمْ وَأَيُّدِيكُمْ إِنَّهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْسَكُمْ تَكُونُوا ①

قوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ﴾ إذا أردتم القيام تعبيراً بالمسبب عن السبب، كما في قوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ [النحل: 98]. وقد اختلف أهل العلم في هذا الأمر عند إرادة القيام إلى الصلاة، فقالت طائفة: هو عام في كل قيام إليها، سواء كان القائم متطهراً أو محدثاً، فإنه ينبغي له إذا قام إلى الصلاة أن يتوضأ، وهو مروي عن علي وعكرمة. وقال ابن سيرين: كان الخلفاء يتوضئون لكل صلاة. وقالت طائفة أخرى: إن هذا الأمر خاص بالنبي ﷺ وهو ضعيف، فإن الخطاب للمؤمنين والأمر لهم. وقالت طائفة: الأمر للندب طلباً للفضل. وقال آخرون: إن الوضوء لكل صلاة كان فرضاً عليهم بهذه الآية، ثم نسخ في فتح مكة. وقال جماعة: هذا الأمر خاص بمن كان محدثاً. وقال آخرون: المراد إذا قُمْتُمْ من النوم إلى الصلاة، فيعم الخطب كل قائم من نوم. وقد أخرج مسلم، وأحمد وأهل السنن عن بريدة قال: كان النبي ﷺ يتوضأ عند كل صلاة، فلما كان يوم الفتح، توضأ ومسح على خفيه، وصلى الصلوات بوضوء واحد، فقال له عمر: يا رسول الله إنك فعلت شيئاً لم تكن تفعله، فقال: عمداً فعلته يا عمر، وهو مروي من طرق كثيرة بالفاظ متفقة في المعنى. وأخرج البخاري وأحمد، وأهل السنن، عن عمرو بن عامر الأنصاري سمعت أنس بن مالك يقول: كان النبي ﷺ يتوضأ عند كل صلاة، قال: قلت فأنتم كيف كنتم تصنعون؟ قال: كنا نصلي الصلوات بوضوء واحد ما لم نحث، فتقرر بما نكر أن الوضوء لا يجب إلا على المحدث، وبه قال جمهور أهل العلم وهو الحق. قوله: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ الوجه في اللغة مأخوذ من المواجهة، وهو عضو مشتمل على أعضاء، وله طول وعرض، فحده في الطول: من مبتدئ سطح الجبهة إلى منتهى اللحيين، وفي العرض: من الأذن إلى الأذن، وقد ورد الدليل بتخليل اللحية. واختلف العلماء في غسل ما استرسل، والكلام في ذلك مبسوط في مواضعه. وقد اختلف أهل العلم أيضاً: هل يعتبر في الغسل ذلك باليد أم يكفي إمرار الماء، والخلاف في ذلك معروف، والمرجع اللغة العربية، فإن ثبت فيها أن البلك داخل في مسمى الغسل، كان معتبراً، وإلا فلا. قال في شمس العلوم: غسل الشيء غسلاً: إذا أجري عليه الماء ولكنه انتهى. وأما المضمضة والاستنشاق، فإذا لم يكن لفظ الوجه يشمل باطن الفم والأنف، فقد ثبت غسلها بالسنة الصحيحة، والخلاف في الوجوب وعدمه معروف. وقد أوضحنا ما هو الحق في مؤلفاتنا. قوله: ﴿وَلِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَجْمَعُ﴾ إلى للغاية، وأما كون ما بعدها يدخل فيما قبلها فمحل خلاف. وقد ذهب سيبويه وجماعة إلى أن ما بعدها إن كان من نوع ما قبلها نخل وإلا فلا؛ وقيل إنها هنا بمعنى مع. وذهب قوم إلى أنها تفيد الغلية مطلقاً، وأما الدخول وعدمه فامر يدور مع الدليل. وقد ذهب الجمهور إلى أن المرافق تغسل، واستدلوا بما

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم والطبراني، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه، عن أبي رافع: أن النبي ﷺ أمره بقتل الكلاب في الناس، فقالوا: يا رسول الله ماذا يحل لنا من هذه الأمة التي أمرت بقتلها؟ فسكت النبي ﷺ، فأنزل الله: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا حَلَّ لَهُمْ﴾ الآية. وأخرج ابن جرير عن عكرمة نحوه. وأخرج أيضاً عن محمد بن كعب القرظي نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير: أن عدي بن حاتم وزيد بن المهلهل الطائيين، سألا رسول الله ﷺ، فقالا يا رسول الله إنا قوم نصيد بالكلاب واللبازة، فنزلت. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الشعبي: أن عدي بن حاتم الطائي أتى رسول الله ﷺ فسأله، فنكر نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ قال: هي الكلاب المعلمة، واللبازي والجوارح يعني: الكلاب والفهود والصقور وأشباهها. وأخرج ابن جرير عنه قال: آية المعلم أن يمسك صيده فلا ياكل منه حتى يأتي صاحبه. وأخرج عنه أيضاً قال: إذا أكل الكلب فلا تاكل، فإنما أمسك على نفسه. وأخرج عبد بن حميد عنه نحوه، وإذا أكل الصقر فلا تاكل، لأن الكلب تستطيع أن تضر به، والصقر لا تستطيع. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، عنه في قوله: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ أُولَئِكَ﴾ قال: نبيائهم، وفي قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ قال: نساء أهل البيت، يعني: ﴿إِذَا أَتَيْتُمُوهُنَّ لِجُورِهِنَّ﴾ يعني: مهورهن. ﴿مُحْصَنَاتٌ﴾ يعني: تتكونهن بالمهر والبيعة. ﴿غَيْرُ مُسَافِحِينَ﴾ غير متغالين بالزنا. ﴿وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ يعني: يسوون بالزنا. وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ قال: أحل الله لنا محصنتين: محصنة مؤمنة، ومحصنة من أهل الكتاب. نسأؤنا عليهم حرام، ونسأؤهم لنا حلال. وأخرج ابن جرير عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «فتزوج نساء أهل الكتاب ولا يتزوجون نساءنا». وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن عمر بن الخطاب قال: المسلم يتزوج النصرانية ولا يتزوج النصراني المسلمة. وأخرج الطبراني، والحاكم وصححه، عن ابن عباس قال: إنما أحلت نبيات اليهود والنصارى من أجل أنهم آمنوا بالتوراة والإنجيل. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد في قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ قال الحرائر. وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك قال: العفاف.

يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا

يجزئ مسحهما؛ لأن شأن المسح أن يصيب ما أصاب ويخطئ ما أخطأ، فلو كان مجزئاً لما قال «ويل للأعقاب من النار»، وقد ثبت عنه أنه قال بعد أن توضأ وغسل رجله: هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به. وقد ثبت في صحيح مسلم وغيره: أن رجلاً توضأ فترك على قدمه مثل موضع الظفر، فقال له: أرجع فأحسن وضوءك. وأما المسح على الخفين، فهو ثابت بالأحاديث المتواترة. وقوله: ﴿إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ الكلام فيه كاللزام في قوله: ﴿إِلَى الْمِرْفَقِ﴾ وقد قيل: في وجه جمع المرفق وتثنية الكعب إنه لما كان في كل رجل كعبان ولم يكن في كل يد إلا مرفق واحد ثبتت للكعب تنبيهاً، على أن لكل رجل كعبين، بخلاف المرفق فإنها جمعت لأنه لما كان في كل يد مرفق واحد لم يتوهم وجود غيره، نكر معنى هذا ابن عطية. وقال الكواشي: ثنى الكعبين وجمع المرفق لنفي توهم أن في كل وحدة أمن الرجلين كعبين، وإنما في كل واحدة كعب واحد، له طرفان من جانبي الرجل، بخلاف المرفق فهي أبعد عن الوهم انتهى.

وبقي من فرائض الوضوء النية والتسمية ولم يذكر في هذه الآية، بل وردت بهما السنة؛ وقيل إن في هذه الآية ما يدل على النية، لأنه لما قال: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ كان تقدير الكلام: فاغسلوا وجوهكم لها، وذلك هو النية المعتبرة. وقوله: ﴿وَأَنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَرُوا﴾ أي فاغتسلوا بالماء. وقد ذهب عمر بن الخطاب وابن مسعود إلى أن الجنب لا يتيمم البتة بل يدع الصلاة حتى يجد الماء استدلالاً بهذه الآية، وذهب الجمهور إلى وجوب التيمم للجنب مع عدم الماء، وهذه الآية هي للواجد، على أن التطهر هو أعم من الحاصل بالماء أو بما هو عوض عنه مع عدمه، وهو التراب. وقد صح عن عمر وابن مسعود الرجوع إلى ما قاله الجمهور، للأحاديث الصحيحة الواردة في تيمم الجنب، مع عدم الماء. وقد تقدم تفسير الجنب في النساء. وقوله: ﴿وَأَنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾ [النساء: 43] قد تقدم تفسير هذا في سورة النساء مستوفي، وكذلك تقدم الكلام على ملازمة النساء، وعلى التيمم وعلى الصعيد، ومن في قوله: ﴿مِنْهُ﴾ لابتداء الغاية، وقيل للتبعض. قيل وجه تكرير هذا هنا لاستيفاء الكلام في أنواع الطهارة: ﴿مَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي: ما يريد بأمركم بالطهارة بالماء أو بالتراب التضييق عليكم في الدين، ومنه قوله تعالى ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: 78] ثم قال: ﴿وَلَكِنْ يَرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ من الذنوب، وقيل: من الحدث الأصغر والكبير، ﴿وَلِيَقْتَمَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: بالترخيص لكم في التيمم عند عدم الماء، أو بما شرعه لكم من الشرائع التي عرَضكم بها للثواب، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمته عليكم، فتستحقون بالشكر ثواب الشاكرين.

وقد أخرج مالك والشافعي، وعبد بن حميد وابن جرير، وابن المنذر، عن زيد بن أسلم، في قوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى

أخرجه الدارقطني والبيهقي من طريق القاسم بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن جده، عن جابر بن عبد الله قال: كان رسول الله ﷺ إذا توضأ أدار الماء على مرفقيه، ولكن، القاسم، هذا متروك، وجده ضعيف. وقوله: ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ قيل: الباء زائدة، والمعنى: امسحوا برؤوسكم، وذلك يقتضي تعميم المسح لجميع الرأس وقيل هي للتبعض، وذلك يقتضي أنه يجزئ مسح بعضه. واستدل القائلون بالتعميم بقوله تعالى في التيمم: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ﴾ ولا يجزئ مسح بعض الوجه اتفاقاً؛ وقيل إنها للإصاق: أي الصقوا أيديكم برؤوسكم، وعلى كل حال، فقد ورد في السنة المطهرة ما يفيد أنه يكفي مسح بعض الرأس، كما أوضحناه في مؤلفاتنا، فكان هذا دليلاً على المطلوب غير محتمل كاحتمال الآية على فرض أنها محتملة، ولا شك أن من أمر غيره بأن يمسح رأسه، كان ممتثلاً بفعل ما يصدق عليه مسمى المسح، وليس في لغة العرب ما يقتضي أنه لا بد في مثل هذا الفعل من مسح جميع الرأس، وهكذا سائر الأفعال المتعدية نحو لضرب زيداً أو اطعنه أو ارجمه، فإنه يوجد المعنى العربي بوقوع الضرب، أو الطعن، أو الرجم، على عضو من أعضائه، ولا يقول قائل من أهل اللغة أو من هو عالم بها إنه لا يكون ضارباً إلا بإيقاع الضرب على كل جزء من أجزاء زيد، وكذلك الطعن والرجم وسائر الأفعال، فأعرف هذا حتى يتبين لك ما هو الصواب من الأقوال في مسح الرأس. فإن قلت: يلزم مثل هذا في غسل الوجه واليدين والرجلين. قلت: ملتزم لولا البيان من السنة في الوجه، والتحديد بالغاية في اليدين والرجلين بخلاف الرأس، فإنه ورد في السنة مسح الكل ومسح البعض. وقوله: ﴿وَأَرْجِلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ قرأ نافع بنصب الأرجل، وهي قراءة الحسن البصري والأعمش، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحزمة بالجر. وقراءة النصب، تدل على أنه يجب غسل الرجلين، لأنها معطوفة على الوجه، وإلى هنا ذهب جمهور العلماء. وقراءة الجر تدل على أنه يجوز الاقتصار على مسح الرجلين لأنها معطوفة على الرأس وإليه ذهب ابن جرير الطبري، وهو مروى عن ابن عباس. قال ابن العربي: اتفقت الأمة على وجوب غسلها وما علمت من رد ذلك إلا الطبري من فقهاء المسلمين، والرافضة من غيرهم، وتعلق الطبري بقراءة الجر، قال القرطبي: قد روى عن ابن عباس أنه قال: الوضوء غسلة واحدة ومسحتان، قال: وكان عكرمة يمسح رجله؛ وقال ليس في الرجلين غسل، إنما نزل فيهما المسح. وقال عامر الشعبي: نزل جبريل بالمسح. قال: وقال قتادة: افترض الله مسحين وغسلتين. قال: وذهب ابن جرير الطبري إلى أن فرضهما التخيير بين الغسل والمسح وجعل القراءة كالتراويتين، وقواه النحاس ولكنه قد ثبت في السنة المطهرة بالأحاديث الصحيحة من فعله ﷺ، وقوله غسل الرجلين فقط، وثبت عنه أنه قال: «ويل للأعقاب من النار»، وهو في الصحيحين وغيرهما فاقاد وجوب غسل الرجلين، وأنه لا

تفيد أنهم مأمورون بأن يقوموا بها أتم قيام ﴿الله﴾ أي: لأجله تعظيماً لأمره وطمعاً في ثوابه. والقسط: العدل. وقد تقدم الكلام على قوله: ﴿يجرممنكم﴾ مستوفى: أي لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل، وكنتم الشهادة ﴿اعدلوا هو﴾ أي: العدل المثلل عليه بقوله: اعدلوا ﴿أقرب للتقوى﴾ التي أمرتم بها غير مرة: أي أقرب لأن تتقوا الله، أو لأن تتقوا النار. قوله ﴿لهم مغفرة ولجر عظيم﴾ هذه الجملة في محل نصب على أنها المفعول الثاني لقوله: ﴿وعدهم﴾ على معنى: وعدهم أن لهم مغفرة، أو وعدهم مغفرة فوقعت الجملة موقع المفرد فاغنت عنه، ومثله قول الشاعر:

وجننا للصالحين لهم جزاء وجنات وعيناً سلسبيلاً
قوله: ﴿أصحاب الجحيم﴾ أي: ملابسوها. قوله: ﴿إذ هم قوم﴾ ظرف لقوله: ﴿انكروا﴾ أو للنعمة، أو لمحنوف وقع حالاً منها ﴿إن يبسطوا﴾ أي: بأن يبسطوا. وقوله: ﴿فكف﴾ معطوف على قوله: ﴿هم﴾ وسيأتي بيان سبب نزول هذه الآية، وبه يتضح المعنى.

وقد أخرج ابن جرير، والطبراني في الكبير، عن ابن عباس في قوله: ﴿إذ قلتم سمعنا واطعنا﴾ يعني حين بعث الله النبي ﷺ، وأنزل عليه الكتاب قالوا آمناً بالنبى والكتاب، وأقرنا بما في التوراة، فنكرهم الله ميثاقه الذي أقرؤا به على أنفسهم، وأمرهم بالوفاء به. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير وابن المنذر، عن مجاهد قال: النعم الآلاء، وميثاقه الذي واثقهم به، قال الذي واثق به بنى آدم، في ظهر آدم عليه السلام. وأخرج ابن جرير عن عبد الله بن كثير، في قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط﴾ الآية. قال: نزلت في يهود خيبر، ذهب إليهم رسول الله ﷺ يستفتيهم في بية، فهموا أن يقتلوه، فنلك قوله: ﴿ولا يجرممنكم شئان قوم على أن لا تعبلوا﴾ الآية. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في الدلائل، عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ، نزل منزلاً فافترق الناس في العضاء يستظلون تحتها، فعلق النبي ﷺ سلاحه بشجرة، فجاء أعرابي إلى سيفه فأخذه فسله، ثم أقبل على رسول الله ﷺ فقال: من يمنك مني؟ قال: الله، قال الأعرابي: مرتين أو ثلاثاً من يمنك مني؟ والنبي ﷺ يقول: الله، فشام الأعرابي السيف، فدعا النبي ﷺ أصحابه فأخبرهم بصنيع الأعرابي وهو جالس إلى جنبه لم يعاقبه. قال معمر: وكان قتادة ينكر نحو هذا. وينكر أن قوماً من العرب أرادوا أن يفتكوا بالنبي ﷺ، فأرسلوا هذا الأعرابي، ويتأول: ﴿انكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم﴾ الآية. وأخرج الحاكم وصححه، عنه بنحوه، ونكر أن اسم الرجل غورث بن الحارث، وأنه لما قال النبي ﷺ «الله» سقط السيف من يده، فأخذه النبي ﷺ وقال: من يمنك مني؟ قال: كن خير أخد، قال: فشهد أن لا إله إلا الله. وأخرجه أيضاً ابن إسحاق وأبو نعيم في الدلائل

للصلاة، قال قمتم من المضاجع، يعني: النوم. وأخرج ابن جرير عن السدي مثله. وأخرج ابن جرير أيضاً عنه يقول: إذا قمتم وأنتم على غير طهر. وأخرج ابن أبي شيبة عن الحسن، في قوله: ﴿فاغسلوا وجوهكم﴾ قال: نلك الغسل البلك. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن جرير، عن أنس أنه قيل له: إن الحجاج خطبنا فقال: اغسلوا وجوهكم وأيديكم، وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم، وأنه ليس شيء من ابن آدم أقرب إلى الخبث من قدميه، فاغسلوا بطونهما وظهورهما وعراقيبهما. قال أنس: صدق الله وكذب الحجاج، قال الله: ﴿وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم﴾ وكان أنس إذا مسح قدميه بلهما. وأخرج سعيد بن منصور عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: اجتمع أصحاب رسول الله ﷺ على غسل القدمين. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد في قوله: ﴿من حرج﴾ قال: من ضيق. وأخرج عبد بن حميد، وأبو الشيخ، عن سعيد بن جبير، في قوله: ﴿وليتنم نعمته عليكم﴾ قال: تمام النعمة دخول الجنة، لم يتم نعمته على عبد لم يدخل الجنة.

وَأَنكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِنَعَهُ الْآلِي وَافْتَكَم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَتَوْنَا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٧٢﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُنُوزٌ مِّنْ قُرْبِهِمْ فَلَا يَجْعَلُكُمْ شِرْكَاءَ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْلَمُوا أَعَدَّلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٤﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٧٥﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَمْثَلُ إِذْ كُرُوا نِعْمَتُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٧٦﴾

﴿نعمته الله﴾ قيل: هي الإسلام. والميثاق: العهد؛ قيل المراد به هنا: ما أخذه على بنى آدم كما قال ﴿وإذ أخذ ربك من بنى آدم﴾ [الأعراف: 172] الآية. قال مجاهد وغيره: نحن وإن لم ننكره فقد أخبرنا الله به؛ وقيل هو خطاب لليهود، والعهد: ما أخذه عليهم في التوراة. وذهب جمهور المفسرين من السلف ومن بعدهم، إلى أنه العهد الذي أخذه النبي ﷺ ليلة العقبة عليهم، وهو السمع والطاعة في المنشط والمكروه، وأضافه تعالى إلى نفسه؛ لأنه عن أمره وإنه، كما قال ﴿إنما يبايعون الله﴾ [الفتح: 10]، وبيعة العقبة منكرة في كتب السير، وهذا متصل بقوله ﴿أوفا بالعقود﴾ [المائدة: 1]. قوله ﴿إذ قلتم سمعنا واطعنا﴾ أي: وقت قولكم هذا القول، وهذا متعلق بواثقكم، أو بمحنوف وقع حالاً أي: كلنا هذا الوقت. و ﴿ذات الصور﴾: ما تخفيه الصور؛ لكونها مختصة بها لا يعلمها أحد، ولهذا أطلق عليها ذات التي بمعنى الصاحب، وإذا كان سبحانه عالماً بها، فكيف بما كان ظاهراً جلياً. قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين﴾ قد تقدم تفسيرها في النساء، وصيغة المبالغة في ﴿قوامين﴾

عزّرت فلاناً: إذا أثبتته وربّنته عن القبيح، فقلوه: **﴿وَعَزَّزْتُمُوهُمْ﴾** أي: عظمتوهم على المعنى الأول، أو ربّنتهم عنهم أعداءهم ومنعتوهم على الثاني. قوله **﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً﴾** أي: اتفقتم في وجوه الخير، و**﴿قَرْضاً﴾** مصدر محنوف الزوائد، كقوله تعالى: **﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً﴾** [آل عمران: 37] أو مفعول ثانٍ لأقرضتم. والحسن: قيل هو ما طلبت به النفس؛ وقيل ما ابتغى به وجه الله؛ وقيل الحلال. قوله: **﴿فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾** أي: بعد الميثاق أو بعد الشرط المنكور، **﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾** أي: اخطأ وسط الطريق. قوله: **﴿فِيمَا نَقَضَهُمْ مِيثَاقَهُمْ﴾** الباء سببية وما زائدة، أي: فبسبب نقضهم ميثاقهم: **﴿لِعَنَاهُمْ﴾** أي: طرناهم وأبعناهم **﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾** أي: صلبة لا تعي خيراً ولا تغفله. وقرأ حمزة والكسائي «قسية» بتشديد الباء من غير ألف، وهي قراءة ابن مسعود والنخعي ويحيى بن وثاب؛ يقال درهم قسيّ مخفف السين مشدّد الباء: أي زائف، نكر ذلك أبو عبيد. وقال الأصمعي وأبو عبيدة: درهم قسيّ كأنه معرب قاس. وقرأ الأعمش «قسية» بتخفيف الباء وقرأ الباقون: **﴿قَاسِيَةً﴾** **﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾** الجملة مستأنفة لبيان حالهم أو حالية أي: يبدّلونه بغيره أو يتأولونه على غير تأويله. وقرأ السلمي والنخعي «الكلام». قوله: **﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ﴾** أي: لا تزال يا محمد تقف على خائنة منهم، والخائنة: للخيانة؛ وقيل هو نعت لمحنوف، والتقدير فرقة خائنة، وقد تقع للمبالغة نحو علامة ونسابة إذا أردت المبالغة في وصفه بالخيانة؛ وقيل خائنة معصية. قوله: **﴿إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ﴾** استثناء من الضمير في منهم **﴿فَاعَفْ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾** قيل: هذا منسوخ بآية السيف؛ وقيل: خاص بالمعاصيين. قوله: **﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نُنْصَرِي لَخُنَّا مِيثَاقَهُمْ﴾** الجار والمجرور متعلق بقوله: **﴿لَخُنَّا﴾** والتقديم للاهتمام، والتقدير: واخذنا من الذين قالوا إننا نصارى ميثاقهم، أي: في التوحيد والإيمان بمحمد ﷺ وبما جاء به. قال الأخفش: هو كقولك أخذت من زيد ثوبه ودرهمه، فرتبة الذين بعد أخذنا. وقال الكوفيون بخلافه؛ وقيل إن الضمير في قوله: **﴿ميثاقهم﴾** راجع إلى بني إسرائيل: أي أخذنا من النصارى مثل ميثاق المنكوريين قبلهم من بني إسرائيل، وقال: **﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نُنْصَرِي﴾** ولم يقل، ومن النصارى، للإيذان بأنهم كانوا في دعوى النصرانية وأنهم أنصار الله. قوله: **﴿فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾** أي: نسوا من الميثاق المأخوذ عليهم نصيباً وافرأ عقب أخذه عليهم: **﴿فَاغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعُدَاةَ الْبِغْضَاءَ﴾** أي: الصقنا ذلك بهم، مأخوذ من الغراء: وهو ما يلصق الشيء بالشيء كالصمغ وشبهه يقال غرى بالشيء يغري غراً بفتح الغين مقصوداً، وغراء بكسرهما ممنوداً أي أولع به حتى كأنه صار ملتصقاً به، ومثل الإغراء التحرش، واغريت للكلب: أي أولعته بالصيد،

عنه. وأخرج أبو نعيم في الدلائل، عن ابن عباس: أن بني النضير هموا أن يطرحوا حجراً على النبي ﷺ ومن معه، فجاء جبريل فأخبره بما هموا، فقام ومن معه، فنزلت: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ﴾** الآية، ويدلّ نحو هذا من طرق عن غيره، وقصة الأعرابي وهو غورث المنكور ثابتة في الصحيح.

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَبِيّاً وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُعْطِيَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ ﴿١٧﴾ فِيمَا نَقَضَهُمْ يَتَنَقَّهُمْ لَمَنَّهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ فَاغْفِرْ لَهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿١٨﴾ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نُنْصَرِي لَخُنَّا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعُدَاةَ الْبِغْضَاءَ إِنَّ يَوْمَ الْفِتْنَةِ وَسُوءَ بَيْعَتِهِمْ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَمْسِكُونَ﴾ ﴿١٩﴾

قوله: **﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ﴾** كلام مستأنف يتضمن نكر بعض ما صدر من بني إسرائيل من الخيانة. وقد تقدّم بيان الميثاق الذي أخذه الله عليهم. واختلف المفسرون في كيفية بعث هؤلاء النقباء، بعد الإجماع منهم على أن النقيب كبير القوم العالم بأمرهم الذي ينقب عنها وعن مصالحهم فيها، والنقاب: الرجل العظيم الذي هو في الناس على هذه الطريقة، ويقال نقيب القوم لشاهددهم وضمينهم. والنقيب: الطريق في الجبل هذا أصله، وسمي به نقيب القوم لأنه طريق إلى معرفة أمورهم. والنقيب: أعلى مكاناً من العريف، فقليل المراد ببعث هؤلاء النقباء، أنهم بعثوا أمناء على الإطلاع على الجبارين، والنظر في قوتهم ومنعتهم ليختبروا حال من بها ويخبروا بذلك، فاطلعوا من الجبارين على قوة عظيمة وظنوا أنهم لا قبل لهم بها، فتعاقدوا بينهم على أن يخفوا ذلك عن بني إسرائيل، وأن يعلموا به موسى، فلما انصرفوا إلى بني إسرائيل خان منهم عشرة فأخبروا قرايبتهم، ففشا الخبر حتى بطل أمر الغزو، وقالوا **﴿انذهب أنت وريك فقتلا﴾** [المائدة: 24] وقيل إن هؤلاء النقباء كفل كل واحد منهم على سبطه بأن يؤمنوا ويتقوا الله، وهذا معنى بعثهم، وسياتي ذكر بعض ما قاله جماعة من السلف في ذلك. قوله: **﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ﴾** أي: قال ذلك لبني إسرائيل، وقيل للنقباء؛ والمعنى: إني معكم بالنصر والعون، واللام في قوله: **﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ﴾** هي: الموطئة للقسم المحنوف، وجوابه: **﴿لَأُكَفِّرَنَّ﴾** وهو ساء مسدّد جواب الشرط. والتعزيز: التعظيم والتوقير، وأنشد أبو عبيدة:

وكم من ماجد لهم كريم — ومن ليث يعززي الندي
أي يعظم ويوقر. ويطلق التعزير على الضرب والرد، يقال

منهم﴾ قال: هم يهود مثل الذي هموا به من النبي ﷺ يوم دخل عليهم حائطهم. وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن قتادة في قوله: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ﴾ قال: كذب وفجور، وفي قوله: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾ قال: لم يؤمر يومئذ بقتالهم، فأمره الله أن يعفو عنهم ويصفح، ثم نسخ ذلك في براءة فقال ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: 29] الآية. وأخرج أبو عبيد وابن جرير، وابن المنذر عن إبراهيم النخعي في قوله: ﴿فَاغْرِبْنَا بَيْنَهُمُ الْعُدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ قال: أغرى بعضهم ببعض بالخصومات والجدال في الدين.

يَتَأَمَّلُ الْكَاتِبُ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْبُدُونَ إِلَهًا مِثْلَ اللَّهِ فَأَنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٥٠﴾ يَهْدِي إِلَى اللَّهِ مَنِ اتَّبَعَ وَلَيْسَ الْفِتْنَةُ إِلَّا فِي الْأَفْهَامِ ﴿٥١﴾

الألف واللام في الكتاب للجنس، والخطاب لليهود والنصارى ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ أي: محمد ﷺ حال كونه: ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ المنزل عليكم، وهو التوراة والإنجيل: كآية الرجم وقصة أصحاب السبت المسوخين قرده ﴿وَيُعَفِّوْا عَنْ كَثِيرٍ﴾ مما تخفونه، فيترك بيانه لعدم اشتغاله على ما يجب بيانه عليه من الأحكام الشرعية، فإن ما لم يكن كذلك لا فائدة تتعلق ببيانه إلا مجرد اقتضاحكم؛ وقيل المعنى: إنه يعفو عن كثير فيتجاوز به ولا يخبركم به؛ وقيل: يعفو عن كثير منكم فلا يؤاخذهم بما يصدر منهم، والجملة في محل نصب عطفاً على الجملة الحالية: أعني قوله: ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾. قوله: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ﴾ جملة مستأنفة مشتملة على بيان أن محمداً ﷺ قد تضمنت بعته فوائد غير ما تقدم من مجرد البيان. قال الزجاج: النور: محمد ﷺ، وقيل الإسلام. والكتاب المبين: القرآن، فإنه المبين، والضمير في قوله: ﴿يَهْدِي بِهِ﴾ راجع إلى الكتاب أو إليه وإلى النور لكونهما كالشيء الواحد ﴿مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾ أي: ما رضيه الله، و﴿سَبِيلَ السَّلَامِ﴾: طرق السلامة من العذاب الموصلة إلى دار السلام المنزهة عن كل آفة؛ وقيل المراد بالسلاسل: الإسلام ﴿وَيُخْرِجُهُمُ مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ الكفرية ﴿إِلَى النُّورِ﴾ الإسلامي، ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ إلى طريق يتوصلون بها إلى الحق، لا عوج فيها ولا مخافة.

وقد أخرج ابن جرير، عن قتادة، في قوله: ﴿رَسُولُنَا﴾ قال: هو محمد ﷺ. وأخرج ابن جرير أيضاً عن عكرمة قال: إن نبي الله ﷺ أتاه اليهود يسألونه عن الرجم فقال: أيكم أعلم؟ فأشاروا إلى ابن صوريا، فنأشده بالذي أنزل التوراة على موسى، والذي رفع الطور بالمواثيق التي أخذت عليهم حتى أخذها أكل، فقال: إنه لما كثر فينا جللنا مائة جلدة

والمراد بقوله: ﴿بَيْنَهُمْ﴾ اليهود والنصارى؛ لتقدم نكرهم جمعاً؛ وقيل: بين النصارى خاصة، لأنهم أقرب منكور، وذلك لأنهم افترقوا إلى اليعقوبية والنسطورية والملكانية، وكفر بعضهم بعضاً، وتظاهروا بالعداوة في ذات بينهم. قال النحاس: وما أحسن ما قيل في معنى: ﴿فَاغْرِبْنَا بَيْنَهُمُ الْعُدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾: إن الله عز وجل أمر بعداوة الكفار وإبغاضهم، فكل فرقة مأمورة بعداوة صاحبها وإبغاضها قوله: ﴿وَسَوْفَ يَنْبُئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ تهديد لهم: أي سيلقون جزاء نقض الميثاق.

وقد أخرج ابن جرير عن أبي العالية في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ قال: أخذ مواثيقهم أن يخلصوا له ولا يعبدوا غيره ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ أي: كفيلاً كفلاً عليهم بالوفاء لله بما واظبوا عليه من العهد فيما أمرهم به وفيما نهاهم عنه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد في قوله: ﴿الَّذِي عَشَرَ نَقِيبًا﴾ قال: من كل سبط من بني إسرائيل رجال أرسلهم موسى إلى الجبارين، فوجدهم يدخل في كمّ لخدم اثنين منهم، ولا يحمل عنقود عندهم إلا خمسة أنفس منهم في خشبة، ويدخل في شطر الرمانة إذا نزع حبها خمسة أنفس أو أربعة، فرجع النقيب كلهم ينهى سبطه عن قتالهم، إلا يوشع بن نون، وكالب بن يافنة، فإنهما أمرا الأسباط بقتال الجبارين، ومجاهدتهم فعضوهما وأطاعوا الآخرين، فهما الرجلان اللذان أنعم الله عليهما، فتاهت بنو إسرائيل أربعين سنة، يصبحون حيث أمسوا، ويمسون حيث أصبحوا، في تيههم ذلك، فضرب موسى الحجر لكل سبط عينا حجراً لهم يحملونه معهم، فقال لهم موسى: اشربوا يا حمير، فنهاه الله عن سبهم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿الَّذِي عَشَرَ نَقِيبًا﴾ قال: هم من بني إسرائيل بعثهم موسى لينظروا إلى المدينة، فجاءوا بحبة من فاكهتهم وقر رجل، فقال: اقتدروا قوة قوم وبأسهم، وهذه فاكهتهم، فعند ذلك فتنوا فقالوا لا نستطيع القتال ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا﴾ [المائدة: 24] وقد ذكر ابن إسحاق أسماء هؤلاء الأسباط، وأسماؤهم منكورة في السفر الرابع من التوراة، وفيه مخالفة لما نكره ابن إسحاق. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَعَزَّزْتُمُوهُمْ﴾ قال: أعزمتهم. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد في قوله: ﴿وَعَزَّزْتُمُوهُمْ﴾ قال: نصرتهم. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿فِيمَا نَقُضُّهُمْ مِيثَاقَهُمْ﴾ قال: هو ميثاق أخذه الله على أهل التوراة فنقضوه. وأخرج ابن جرير عنه في قوله: ﴿يَحْرِقُونَ كُلِّكُمْ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ يعني حدود الله، يقولون إن أمركم محمد بما أنتم عليه فاقبلوه، وإن خالفكم فاحذروا، وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا تُكَرِّمُ بِهِ﴾ قال: نسوا الكتاب. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد في قوله: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ

وحالفنا الرؤوس، فحكم عليهم بالرجم، فنزلت هذه الآية. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج نحوه. وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله: ﴿ويعفوا عن كثير﴾ يقول: عن كثير من الذنوب. وأخرج ابن جرير عن السدي قال: ﴿سبيل للسلام﴾ هي: سبيل الله الذي شرعه لعباده ودعاهم إليه وابتعث به رسله: وهو الإسلام.

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَنَحْنُ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣١﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوا إِلَهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَفْعَلُ بِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٢﴾ وَمَا يَنْهَى اللَّهُ وَالْيَوْمُ الْآخِرُ

ضمير الفصل في قوله: ﴿هو المسيح﴾ يفيد الحصر؛ قيل: وقد قال بذلك بعض طوائف النصارى؛ وقيل: لم يقل به أحد منهم، ولكن استلزم قولهم: ﴿إن الله هو المسيح﴾ لا غيره، وقد تقدّم في آخر سورة النساء ما يكفي ويفني عن التكرار. قوله: ﴿قل فمن يملك من الله شيئاً﴾ الاستفهام للتوبيخ والتقريع، والملك، والضبط والحفظ والقدرة، من قولهم ملكت على فلان أمره: أي قدرت عليه: أي فمن يقدر أن يمنع ﴿إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً﴾ وإذا لم يقدر أحد أن يمنع من ذلك، فلا إله إلا الله، ولا ربّ غيره، ولا معبود بحق سواه، ولو كان المسيح إلهاً كما تزعم النصارى، لكان له من الأمر شيء، ولقدر على أن يدفع عن نفسه أكل حال، ولم يقدر على أن يدفع عن أمه الموت عند نزوله بها، وتخصيصها بالذكر مع دخولها في عموم من في الأرض، لكون الدفع منه عنها أولى وأحق من غيرها، فهو إذا لم يقدر على الدفع للدلالة على شمول قدرته، وأنه إذا أراد شيئاً كان لا معارض له في أمره، ولا مشارك له في قضائه: ﴿وولاه ملك السموات والأرض وما بينهما﴾ أي: ما بين النوعين من المخلوقات. قوله: ﴿يخلق ما يشاء﴾ جملة مستأنفة مسوقة؛ لبيان أنه سبحانه خالق الخلق بحسب مشيئته، وأنه يقدر على كل شيء لا يستصعب عليه شيء. قوله: ﴿وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ أثبتت اليهود لأنفسها ما أثبتته لعزير، حيث قالوا ﴿عزير ابن الله﴾ [التوبة: 30] وأثبتت النصارى لأنفسها ما أثبتته للمسيح حيث قالوا ﴿المسيح ابن الله﴾ [التوبة: 30] وقيل هو على حذف مضاف: أي نحن أتباع أبناء الله، وهكذا أثبتوا لأنفسهم أنهم أحباء الله بمجرد الدعوى الباطلة والاماني العاطلة، فأمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يردّ عليهم، فقال: ﴿قل فلم يعذبكم بذنوبكم﴾ أي: إن كنتم كما تزعمون، فما باله يعذبكم بما تقتربونه من الذنوب بالقتل، والمسح، وبالتار في يوم القيامة

كما تعترفون بذلك، لقولكم: ﴿لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة﴾ [البقرة: 80] فإن الابن من جنس أبيه لا يصدر عنه ما يستحيل على الأب وأنتم تنبئون، والحبیب لا يعذب حبيبه وأنتم تعذبون، فهذا يدل على أنكم كاذبون في هذه الدعوى. وهذا البرهان هو المسمى عند الجليليين ببرهان الخلف. قوله: ﴿بل أنتم بشر ممن خلق﴾ عطف على مقدر يدل عليه الكلام: أي فلستم حينئذ كذلك، ﴿بل أنتم بشر ممن خلق﴾ أي: من جنس من خلقه الله تعالى يحاسبهم على الخير والشر، ويجازي كل عامل بعمله ﴿يعفو لمن يشاء ويعذب من يشاء والله ملك السموات والأرض وما بينهما﴾ من الموجودات ﴿والله للمصير﴾ أي: تصيرون إليه عند انتقالكم من دار الدنيا إلى دار الآخرة.

وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس قال: أتى رسول الله ﷺ نعمان بن أضاء وبحري بن عمرو وشاس بن عدي فكلموه وكلمهم رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الله، وحذروهم نقمته، فقالوا: ما تخوفنا يا محمد ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ كقول النصارى؛ فانزل الله فيهم: ﴿وقالت اليهود والنصارى﴾ إلى آخر الآية. وأخرج أحمد في مسنده عن أنس قال: مرّ النبي ﷺ في نفر من أصحابه وصبي في الطريق، فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يوطأ، فاقبلت تسعى وتقول، ابني ابني، فسعت فأخذه، فقال القوم: يا رسول الله ما كانت هذه لتلقي ابنها في النار؟ فقال النبي ﷺ: لا، والله لا يلقي حبيبه في النار. وإسناده في المسند هكذا: حدثنا، ابن أبي عدي، عن حميد، عن أنس فذكره. ومعنى الآية يشير إلى معنى هذا الحديث، ولهذا قال بعض مشايخ الصوفية لبعض الفقهاء: أين تجد في القرآن أن الحبيب لا يعذب حبيبه؟ فلم يردّ عليه، فتلا الصوفي هذه الآية، وأخرج أحمد في الزهد عن الحسن أن النبي ﷺ قال: لا والله لا يعذب الله حبيبه، ولكن قد يبتليه في الدنيا. وأخرج ابن جرير عن السدي في قوله: ﴿يعفو لمن يشاء ويعذب من يشاء﴾ يقول: يهدي منكم من يشاء في الدنيا فيعفو له، ويميت من يشاء منكم على كفره فيعذب.

يَتَأَمَّلُ الْكِتَابَ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾

المراد بأهل الكتاب: اليهود والنصارى. والرسول هو محمد ﷺ، ﴿وبين لكم﴾ حال. والمبين هو: ما شرعه الله لعباده وحذف للعلم به، لأن بعثة الرسل إنما هي بذلك. والفترة أصلها السكون، يقال فتر الشيء: سكن؛ وقيل: هي الانقطاع. قاله أبو علي الفارسي وغيره؛ ومنه فتر الماء: إذا انقطع عما كان عليه من البرد إلى السخونة؛ وفتر الرجل عن عمله: إذا انقطع عما كان عليه من الجدّ فيه، وامرأة فاترة الطرف: أي منقطعة عن حدة النظر. والمعنى: أنه انقطع الرسل قبل بعثة ﷺ مدة من الزمان. واختلف في قدر مدة

يَا مُوسَى أَمَرَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا أَنْ يَدْخُلَا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَاسْلُكُوا عَلَيْهِمُ الْعِلْمَ وَاللَّهُ يَتَوَكَّلُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ قَالُوا يَتَوَكَّلْ إِنَّا كُنَّا نَدْعُهُمْ إِنَّمَا دَعَاؤُنَا فَأَمْرٌ رَبِّكَ فَفَعَلْنَا إِنَّا هُنَا مُبْتَلَوْنَ ﴿١٨﴾ قَالَ رَبِّي إِنِّي لَا آتِيكَ إِلَّا بِنُورٍ وَأَنِّي فَاعٍ قَاتِلٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُرْمَرَةٌ عَلَيْهِمْ مُزَيَّنَةٌ سَنَّا بِيَهُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٠﴾

هذه الآيات متضمنة للبيان من الله سبحانه، بأن أسلاف اليهود الموجهين في عصر محمد ﷺ تمرّدوا على موسى، وعصوه، كما تمرّد هؤلاء على نبينا ﷺ وعصوه، وفي ذلك تسلية له ﷺ، وروى عن عبد الله بن كثير أنه قرأ ﴿يَا قَوْمِ انكروا﴾ بضم الميم وكذا قرأ فيما أشبهه، وتقديره: يا أيها القوم انكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء: أي وقت هذا الجعل، وإيقاع الذكر على الوقت مع كون المقصود ما وقع فيه من الحوادث للمبالغة؛ لأن الأمر بذكر الوقت أمر بنكر ما وقع فيه بطريق الأولى، وامتنع عليهم سبحانه بجعل الأنبياء فيهم مع كونه قد جعل أنبياء من غيرهم؛ لكثرة من بعثه من الأنبياء منهم قوله: ﴿وَجَعَلَكُمْ مَلُوكًا﴾ أي: وجعل منكم ملوكاً، وإنما حذف حرف الجر لظهور أن معنى الكلام على تقديره، ويمكن أن يقال: إن منصب النبوة لما كان لعظم قدره وجلالة خطره بحيث لا ينسب إلى غير من هو له قال فيه: ﴿إِذْ جَعَلْ فِيكُمْ أَنْبِيَاءً﴾ ولما كان منصب الملك مما يجوز نسبته إلى غير من قال به، كما تقول قرابة الملك نحن الملوك، قال فيه: ﴿وَجَعَلَكُمْ مَلُوكًا﴾ وقيل المراد بالملك: أنهم ملكو أمرهم بعد أن كانوا مملوكين لفرعون، فهم جميعاً ملوك بهذا المعنى. وقيل معناه: أنه جعلهم نوري منازل لا يخل عليهم غيرهم إلا بآية؛ وقيل غير ذلك. والظاهر أن المراد من الآية الملك الحقيقي، ولو كان بمعنى آخر لما كان للامتنان به كثير معنى. فإن قلت: قد جعل غيرهم ملوكاً كما جعلهم. قلت: قد كثر الملوك فيهم كما كثر الأنبياء، فهذا وجه الامتنان. قوله: ﴿وَأَتَاكُمْ مَا لَمْ يَأْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ أي: من المن والسلوى، والحجر والغمام، وكثرة الأنبياء، وكثرة الملوك، وغير ذلك. والمراد عالمي زمانهم. وقيل إن الخطاب ها هنا لامة محمد ﷺ، وهو عنون عن الظاهر لغير موجب، والصواب ما ذهب إليه جمهور المفسرين، من أنه من كلام موسى لقومه، وخاطبهم بهذا الخطاب توطئة وتمهيداً لما بعده من أمرهم لهم بدخول الأرض المقدسة.

وقد اختلف في تعيينها؛ فقال قتادة: هي الشام، وقال مجاهد: الطور وما حوله، وقال ابن عباس والسدي وغيرهما: أريحا، وقال الزجاج: دمشق وفلسطين وبعض الأردن. وقول قتادة يجمع هذه الأقوال المذكورة بعده، والمقدسة: المطهرة، وقيل المباركة: ﴿التي كتب الله لكم﴾ أي: قسمها وقدرها لهم في سابق علمه، وجعلها مسكناً لكم ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَنْبَارِكُمْ﴾ أي: لا ترجعوا عن أمري وتتركوا طاعتي، وما أوجبته عليكم من قتال الجبارين، جبناً وفشلاً ﴿فَتَقَبَّلُونَا﴾

تلك الفترة، وسيأتي بيان ذلك. قوله: ﴿أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ تحليل لمجيء الرسول بالبيان على حين فترة: أي كرامة أن تقولوا هذا القول معتبرين عن تقريركم، ومنه في قوله ﴿مِنْ بَشِيرٍ﴾ زائدة للمبالغة في نفي المجيء، والفاء في قوله: ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ﴾ هي الفصيحة مثل قول الشاعر:

فقد جئنا خراسانا

أي: لا تعتذروا فقد جاءكم بشير ونذير، وهو: محمد ﷺ ﴿وَوَاشٍ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٍ﴾، ومن جملة مقدراته إرسال رسوله على فترة من الرسل.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس قال: دعا رسول الله ﷺ يهود إلى الإسلام، فرغبهم فيه وحذرهم فأبوا عليه، فقال لهم معاذ بن جبل، وسعد بن عباد، وعقبة بن وهب: يا معشر يهود اتقوا الله، فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله ﷺ، لقد كنتم تنكرونها لنا قبل ميعة، وتصفونها لنا بصفته، فقال رافع بن حرملة وهب بن يهودنا: ما قلنا لكم هذا وما أنزل الله من كتاب من بعد موسى، ولا أرسل بشيراً ولا نذيراً بعده، فأنزل الله: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾ الآية. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة في الآية قال: هو: محمد ﷺ جاء بالحق الذي فرق الله به بين الحق والباطل، فيه بيان وموعظة، ونور وهدى وعصمة لمن أخذ به. قال: وكانت الفترة بين عيسى ومحمد ستمائة سنة، وما شاء الله من ذلك. وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد، وابن جرير، عنه قال: كانت خمسمائة سنة وستين سنة. وقال الكلبي: خمسمائة سنة وأربعين سنة. وأخرج ابن المنذر عن ابن جرير قال: كانت خمسمائة سنة. وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال: كانت أربعمائة سنة وبضعاً وثلاثين سنة. وأخرج ابن سعد في كتاب الطبقات، عن ابن عباس قال: كان بين موسى وعيسى ألف سنة وتسعمائة سنة، ولم يكن بينهما فترة، فإنه أرسل بينهما ألف نبي من بني إسرائيل، سوى من أرسل من غيرهم، وكان بين ميلاد عيسى، ومحمد ﷺ خمسمائة سنة وتسع وستون سنة، بعث في أولها ثلاثة أنبياء كما قال الله تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ [يس: 14] والذي عزَّز به شمعون وكان من الحواريين، وكانت الفترة التي لم يبعث الله فيها رسولا أربعمائة سنة وأربعة وثلاثين سنة. وقد قيل غير ما ذكرناه.

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقَوِّمُ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يَأْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢١﴾ يُقَوِّمُ أَذْكُرُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَنْهَا فَنَزَلْنَا عَلَيْهَا خَبِيرِينَ ﴿٢٢﴾ قَالُوا يَتَوَكَّلْ إِنَّا فِيهَا قَوْمٌ جَبَّارُونَ وَإِنَّا نَدْعُهُمْ حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَلَا دَاجِلُونَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ

بسبب ذلك **«خاسرين»** لخير الدنيا والآخرة **«قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين»** قال الزجاج: الجبار من الأكيمين العاني، وهو الذي يجبر الناس على ما يريد، وأصله على هذا من الإجبار وهو الإكراه، فإنه يجبر غيره على ما يريده، يقال أجبره: إذا أكرهه؛ وقيل: هو مأخوذ من جبر العظم، فأصل الجبار على هذا المصلح لأمر نفسه، ثم استعمل في كل من جرّ إلى نفسه نقعاً بحق أو باطل، وقيل: إن جبر العظم راجع إلى معنى الإكراه. قال الفراء: لم أسمع فعلاً من أفعل إلا في حرفين، جبار من لجبر، وبرك من أدرك. والمراد هنا: أنهم قوم عظام الأجسام طوال متعاطمون؛ قيل هم قوم من بقية قوم عاد؛ وقيل هم من ولد عيص بن إسحاق؛ وقيل هم من الروم؛ ويقال إن منهم عوج بن عنق المشهور بالطول المفرط، وعنق هي بنت آدم، قيل كان طوله ثلاثة آلاف نراع وثلاثمائة وثلاثة وثلاثين نراعاً وثلاث نراع. قال ابن كثير: وهذا شيء يستحيا من نكره، ثم هو مخالف لما ثبت في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله خلق آدم وطوله ستون نراعاً ثم لم يزل الخلق ينقص» ثم قد ذكروا أن هذا الرجل كان كافراً، وأنه كان ولد زنية، وأنه امتنع من ركوب السفينة وإن الطوفان لم يصل إلى ركبته، وهذا كذب واقتراء، فإن الله نكر أن نوحاً دعا على أهل الأرض من الكافرين فقال: **«رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً»** [نوح: 26]، وقال تعالى: **«فانجيناه ومن معه في الفلك المشحون ثم أغرقنا بعد الباقين»** [الشعراء: 119، 120] وقال تعالى: **«لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم»** [هود: 43]. وإذا كان ابن نوح للكافر غرق فكيف يبقى عوج بن عنق وهو كافر ولد زنية؟ هذا لا يسوغ في عقل ولا شرع، ثم في وجود رجل يقال له عوج بن عنق نظر والله أعلم، انتهى كلامه.

قلت: لم يأت في أمر هذا الرجل ما يقتضي تطويل الكلام في شأنه، وما هذا باول كذبة اشتهرت في الناس، ولسنا بملزومين برفع الأكائيب التي وضعها القصاص، ونفقت عند من لا يميز بين الصحيح والسقيم، فكم في بطون نفاثر التفاسير من أكائيب وبلايا، وأقاصيص كلها حديث خرافة، وما أحق من لا تمييز عنده لفن الرواية ولا معرفة به أن يدع التعرّض لتفسير كتاب الله، ويضع هذه الحماقات والأضحوكات في المواضع المناسبة لها، من كتب القصاص. قوله: **«فإن يخرجوا منها فإنما دالخلون»** هذا تصريح بما هو مفهوم من الجملة التي قبل هذه الجملة، لبيان أن امتناعهم من الدخول ليس إلا لهذا السبب. قوله: **«قال رجلان»** هما: يوشع وكالب بن يوفنا أو ابن فانيا، وكانا من الاثنى عشر نقيباً كما مرّ بيان ذلك. وقوله: **«من الذين يخافون»** أي: يخافون من الله عزّ وجلّ. وقيل: من الجبارين أي: هذان الرجلان من جملة القوم الذين يخافون من الجبارين؛ وقيل من الذين يخافون ضعف بني إسرائيل وجبنهم، وقيل: إن الواو في **«يخافون»** لبني إسرائيل أي

من الذين يخافهم بنو إسرائيل. وقرأ مجاهد وسعيد بن جببر **«يخافون»** بضم الياء: أي يخافهم غيرهم. قوله: **«أنعم الله عليهما»** في محل رفع على أنه صفة ثانية لرجلان، بالإيمان، واليقين بحصول ما وعدوا به من النصر والظفر: **«انخلوا عليهم الباب»** أي: باب بلد الجبارين، **«فإذا دخلتموها فإنكم غالبون»** قالوا هذه المقالة لبني إسرائيل. والظاهر: أنهما قد علما بذلك من خبر موسى، أو قاله ثقة بوعد الله، أو كانا قد عرفا أن الجبارين قد ملئت قلوبهم خوفاً ورعباً. **«قالوا»** أي: بنو إسرائيل لموسى: **«إننا لن نخلها أبداً ما داموا فيها»** وكان هذا القول منهم فشلاً وجبناً، أو عناداً وجراً على الله وعلى رسوله **«فأذهب أنت وربك فقاتلا»** قالوا هذا جهلاً بالله عزّ وجلّ وبصفاته وكفراً بما يجب له، أو استهانة بالله ورسوله؛ وقيل: أرادوا بالذهاب الإرادة والقصص؛ وقيل أرادوا بالرّبّ هارون، وكان أكبر من موسى، وكان موسى يطيعه: **«إننا ها هنا قاعدون»** أي: لا نبرح ما هنا لا نتقدّم معك ولا نتأخر عن هذا الموضع؛ وقيل أرادوا بذلك عدم التقدم لا عدم التأخر **«قال»** موسى **«ربّ إني لا أملك إلا نفسي وأخي»** يحتمل أن يعطف وأخي على نفسي، وأن يعطف على الضمير في **«إني»** أي: إني لا أملك إلا نفسي وإن أخي لا يملك إلا نفسه، قال هذا تحسراً وتحزناً ولستجلاً للنصر من الله عزّ وجلّ **«فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين»** أي: افصل بيننا، يعني نفسه وأخاه، وبين القوم الفاسقين، وميزنا عن جملتهم، ولا تلحقنا بهم في العقوبة؛ وقيل المعنى: فاقض بيننا وبينهم؛ وقيل إنما أراد في الآخرة، وقرأ عبيد بن عمير **«فافرق»** بكسر الراء **«قال فلنهما»** أي: الأرض المقدّسة **«محرمّة عليهم»** أي على هؤلاء العصاة بسبب امتناعهم من قتال الجبارين **«أربعين سنة»** ظرف للتحريم أي: أنه محرمّ عليهم دخولها هذه المدة لا زيادة عليها، فلا يخالف هذا التحريم ما تقدّم من قوله: **«التي كتب الله لكم»** فإنها مكتوبة لمن بقي منهم بعد هذه المدة؛ وقيل: إنه لم يدخلها أحد ممن قال **«إننا لن نخلها»** فيكون توقيت التحريم بهذه المدة باعتبار نزاريهم؛ وقيل: إن **«أربعين سنة»** ظرف لقوله **«يتيهون في الأرض»** أي: يتيهون هذا المقدار فيكون التحريم مطلقاً. والموقت: هو التيه، وهو في اللغة الحيرة، يقال منه تاه يتيه تيهاً أو توهاً إذا تحير، فالمعنى: يتحيرون في الأرض؛ قيل: إن هذه الأرض التي تاهوا فيها كانت صغيرة نحو ستة فراسخ كانوا يمشون حيث أصبحوا ويصحبون حيث أمسوا، وكانوا سيرة مستمرين على ذلك لا قرار لهم.

واختلف أهل العلم هل كان معهم موسى وهارون أم لا؟ فقيل: لم يكونا معهم، لأن التيه عقوبة؛ وقيل: كانا معهم لكن سهل الله عليهما ذلك، كما جعل النار برداً وسلاماً على إبراهيم. وقد قيل كيف يقع هذا لجماعة من العقلاء في مثل هذه الأرض اليسيرة، في هذه المدة الطويلة؟ قال أبو علي: يكون ذلك بأن يحول الله الأرض التي هم عليها إذا ناموا إلى

أثارهم فتتبعهم، فكلما أصاب واحداً منهم أخذه فجعله في كفه مع الفاكهة، حتى التقط الاثني عشر كلهم فجعلهم في كفه مع الفاكهة، وذهب إلى ملكهم فنثرهم بين يديه فقال الملك: قد رأيتم شائناً وأمرنا اذهبوا فأخبروا صاحبكم، قال: فرجعوا إلى موسى فأخبروه بما عاينوا من أمرهم، فقال: اكنتموا عناء، فجعل الرجل يخبر أباه وصديقه ويقول: اكنتم عني، فاشيع ذلك في عسكرهم، ولم يكتم منهم إلا رجلان يوشع بن نون وكالب بن يوفنا، وهما اللذان أنزل الله فيهما ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ وقد روي نحو هذا مما يتضمن المبالغة في وصف هؤلاء وعظم أجسامهم، ولا فائدة في بسط ذلك فغالبه من إكنايب القصاص، كما قُتْنَا. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَافْرِقْ﴾ يقول: اقض. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه يقول: أفصل بيننا وبينهم. وأخرج ابن جرير، عن قتادة في قوله: ﴿فَإِنهَا مُحْرَمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ قال: أبداً، وفي قوله: ﴿يَتَّبِعُهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ قال: أربعين سنة. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: تاهوا أربعين سنة، فهلك موسى وهارون في التيه، وكل من جاوز الأربعين سنة، فلما مضت الأربعون سنة ناهضهم يوشع بن نون، وهو الذي قام بالأمر بعد موسى، وهو الذي افتتحها، وهو الذي قيل له اليوم يوم الجمعة، فهموا بافتتاحها فذنت الشمس للغروب، فخشى أن نخلت ليلة السبت أن يسبقوا، فنادى الشمس إني مأمور وأنت مأمورة فوقفت حتى افتتحها، فوجد فيها من الأموال ما لم ير مثله قط، فقرَّبوه إلى النار فلم تات، فقال فيكم الغلول، فدعا رؤوس الأسباط وهم اثنا عشر رجلاً، فبابعهم والتصقت يد رجل منهم بيده، فقال: الغلول عندك فلخرجه، فأخرج رأس بقرة من ذهب لها عينان من ياقوت ولسان من لؤلؤ، فوضعه مع القربان فأتت النار فاكلتها. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: خلق لهم في التيه ثياب لا تخلق ولا تدن.

وَأَتَىٰ عَلَيْهِمْ نَارٌ أَيْقَمَ بِأَلْحَقٍ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتُبِّلَ مِنَ الْآخَرِ قَالَ أَأَقْبَلْتُكَ قَالَ إِيَّاهُ يَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ السُّنُونِ ﴿٧٧﴾ لَيْنَ بَطَلَتْ إِلَيْكَ يَدُكَ يُقْبَلُكَ مَا أَنَا بِأَسِيطَ يَدِي إِلَيْكَ لَا أَقْبَلُكَ إِلَهَ أَخَاكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٨﴾ إِلَهَ أُرِيدُ أَنْ نَبْنِي إِلَٰهًا وَإِنَّا لَنَكُونُ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٩﴾ فَطَرَعَتْ لَهُمْ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْقَٰتِلِينَ ﴿٨٠﴾ بَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْعَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُخَبِّرَهُ كَيْفَ يُؤَدِّي سَوَاءَ أَخِيهِ قَالَ يُؤَدِّيهِمْ أَصْبَحْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأَدْرِي سَوَاءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ الْمُتَدَبِّرِينَ ﴿٨١﴾

وجه اتصال هذا بما قبله التنبيه من الله على أن ظلم اليهود ونقضهم المواثيق والعهود هو كظلم ابن آدم لأخيه، فإدعاء قديم، والشر أصيل.

وقد اختلف أهل العلم في لبني آدم المذكورين، هل هما لصلبه أم لا؟ فذهب الجمهور إلى الأول. وذهب الحسن والضحاك إلى الثاني، وقالوا: إنهما كانا من بني إسرائيل،

المكان الذي ابتوتوا منه، وقد يكون بغير ذلك من الأسباب المانعة من الخروج عنها على طريق المعجزة الخارقة للعادة.

وقد أخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة في قوله: ﴿وَجَعَلَكُمْ مَلُوكًا﴾ قال: ملكهم الخدم، وكانوا أوَّل من ملك الخدم. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في الآية قال: كان الرجل من بني إسرائيل، إذا كانت له الزوجة والخادم والدار سمي ملكاً. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير عنه في الآية قال: «الزوجة والخادم والبيت». وأخرج الفريابي، وابن جرير وابن المنذر، والحاكم وصححه، والبيهقي في شعب الإيمان، عنه أيضاً في قوله: ﴿وَجَعَلَكُمْ مَلُوكًا﴾ قال: المرأة والخدم «وأتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين» قال: الذين هم بين ظهرائهم يومئذ. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال: «كانت بنو إسرائيل إذا كان لأحدهم خلم ودابة وامرأة كتب ملكاً». وأخرج ابن جرير، والزبير بن بكار في الموقفيات، عن زيد بن أسلم قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان له بيت وخدام فهو ملك». وأخرج أبو داود في مراسيله، عن زيد بن أسلم في الآية قال: قال رسول الله ﷺ: «زوجة ومسكن وخدام». وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير عن عبد الله بن عمرو بن العاص، أنه سأل رجل: لسا من فقراء المهاجرين؟ قال: لك امرأة تآوي إليها؟ قال نعم، قال: لك مسكن تسكنه؟ قال نعم، قال: فأنت من الأغنياء، قال: إن لي خائماً، قال: فأنت من الملوك. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير وابن المنذر، عن مجاهد في قوله: ﴿وَجَعَلَكُمْ مَلُوكًا﴾ قال: جعل لهم أزواجاً وخداماً وبيوتاً «وأتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين» قال: الممن والسلولى، والحجر والغمام. وأخرج ابن جرير من طريق مجاهد عن ابن عباس في الآية قال: الممن والسلولى والحجر والغمام، وقد ثبت في الحديث الصحيح: «من أصبح منكم معافى في جسده أمناً في سربه عنده قوت يومه فكانما حيزت له الدنيا بحذافيرها». وأخرج ابن جرير عنه في قوله: ﴿انخلوا الأرض للمقتسة﴾ قال: للطور وما حوله. وأخرج عنه أيضاً قال: هي أريحاء. وأخرج ابن عسلكر عن معاذ بن جبل قال: هي ما بين العريش إلى الفرات. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد عن قتادة قال: هي الشام. وأخرج ابن جرير عن السدي في قوله: «التي كتب الله لكم» قال: التي أمركم الله بها. وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في الآية قال: أمر القوم بها كما أمرنا بالصلاة والزكاة والحج والعمرة. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس: أمر موسى أن يدخل مدينة الجبارين، فسار بمن معه حتى نزل قريباً من المدينة وهي أريحاء، فبعث إليهم اثني عشر عيناً من كل سبط منهم عين، لياتوه بخير القوم، فدخلوا المدينة فرأوا أمراً عظيماً من هيئتهم وجسمهم وعظمتهم، فدخلوا حائطاً لبعضهم فجاء صاحب الحائط: ليجتني الثمار من حائطه، فجعل يجتني الثمار فنظر إلى

هم فيه، ولكن إن خشيت أن يردك شعاع السيف، فالحق طرف رداك على وجهك كي يبيو بإثمك وإثمك». وفي معناه أحاديث عن جماعة من الصحابة سعد بن أبي وقاص وأبي هريرة وخبيب بن الأرت وأبي بكر وابن مسعود وأبي واقد، وأبي موسى. قوله: ﴿إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار﴾ هذا تعليل لامتناعه من المقاتلة، بعد التعليل الأول وهو: ﴿إني أخاف الله رب العالمين﴾.

اختلف المفسرون في المعنى فقيل: أراد هابيل إني أريد أن تبوء بالإثم الذي كان يلحقني لو كنت حريصاً على قتلك، وإثمك الذي تحملته بسبب قتلي؛ وقيل المراد بإثمي الذي يختص بي بسبب سيأتي، فيطرح عليك بسبب ظلمك لي وتبوء بإثمك في قتلي. وهذا يوافق معناه معنى ما ثبت في صحيح مسلم من قوله ﷺ: «يؤتى يوم القيامة بالظالم والمظلوم، فيؤخذ من حسنات الظالم فتزاد في حسنات المظلوم حتى ينتصف، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات المظلوم فطرح عليه»، ومثله قوله تعالى: ﴿وَلِيَحْمِلْنَ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: 13] وقيل المعنى: إني أريد أن لا تبوء بإثمي وإثمك كما في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: 15] أي: أن لا تميد بكم. وقوله: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ أَنْ تَضِلُّوا﴾ [النساء: 176] أي: لا تضلوا. وقال أكثر العلماء: إن المعنى: ﴿إني أريد أن تبوء بإثمي﴾ أي: بإثم قتلك لي: ﴿وإثمك﴾ الذي قد صار عليك بذنوبك من قبل قتلي. قال الثعلبي: هذا قول عامة المفسرين وقيل هو على وجه الإنكار أي: أو إني أريد على وجه الإنكار كقوله تعالى ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ﴾ [الشعراء: 22] أي أو تلك نعمة. قاله القشيري، ووجهه بأن إرادة القتل معصية. وسئل أبو الحسن بن كيسان كيف يريد المؤمن أن يآثم أخوه وإن يدخل النار؟ فقال: وقعت الإرادة بعد ما بسط يده إليه بالقتل، وهذا بعيد جداً، وكذلك الذي قبله. وأصل بآه رجع إلى المباءة، وهي المنزل: ﴿وَبَاؤُوا بَغْضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: 112] أي: رجعوا. قوله: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ﴾ أي: سهلت نفسه عليه الأمر وشجعت وصورته له أن قتل أخيه طوع يده سهل عليه، يقال طَوَّعَ الشيء: أي سهل وانقاد وطوعه فلان له: أي سهل. قال الهروي: طَوَّعَتْ وطاوعت واحد، يقال طاع له كذا: إذا آتاه طوعاً، وفي نكر تطويع نفسه له بعد ما تقدّم من قول قابيل ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ وقول هابيل ﴿لِنُقْتِلَنِي﴾ دليل على أن التطويع لم يكن قد حصل له عند تلك المواقلة. قوله ﴿فَقَتَلَهُ﴾. قال ابن جرير ومجاهد وغيرهما: روي أنه جهل كيف يقتل أخاه فجاءه إبليس بطائر أو حيوان غيره، فجعل يشدخ رأسه بين حجرين ليقتدي به قابيل ففعل؛ وقيل غير ذلك مما يحتاج إلى تصحيح الرواية. قوله: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحِثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سُوَاءَ أَخِيهِ﴾. قيل: إنه لما قتل أخاه لم يدرك كيف يواريه؛ لكونه أول ميت مات من بني آدم، فبعث الله غرابين أخوين فاقتتلا فقتل أحدهما صاحبه، فحفر

فضرب بهما المثل في إبانة حسد اليهود، وكانت بينهما خصومة، فتقرّباً بقربائين ولم تكن القرباين إلا في بني إسرائيل. قال ابن عطية: وهذا وهم كيف يجهل صورة الدفن أحد من بني إسرائيل حتى يقتدي بالغراب؟ قال الجمهور من الصحابة فمن بعدهم: واسمهما قابيل وهابيل، وكان قربان قابيل حزمة من سنبل، لأنه كان صاحب زرع واختارها من أراد زرعها، حتى إنه وجد فيها سنبله طيبة ففركها وإكلها، وكان قربان هابيل كبشاً؛ لأنه كان صاحب غنم أخذه من لجد غنمه، فتقبل قربان هابيل، وفرغ إلى الجنة فلم يزل يرفع فيها إلى أن فدى به الذبيح عليه السلام، كذا قال جماعة من السلف، ولم يتقبل قربان قابيل، فحسده وقال لأقتلك. وقيل: سبب هذا القربان أن حواء كانت تلد في كل بطن نكراً وأنثى، إلا شيئاً عليه السلام فإنها ولدت منفرداً، وكان آدم عليه السلام يرّجّج الذكر من هذا البطن بالأنثى من البطن الآخر. ولا تحل له أخته التي ولدت معه، فولدت مع قابيل أخت واسمها إقليما، ومع هابيل أخت ليست كذلك، واسمها ليودا فلما أراد آدم تزويجهما قال قابيل: أنا أحق بأختي، فأمره آدم فلم ياتم وزجره فلم يزوج، فاتفقوا على القربان وأن يتزوجها من تقبل قربانه. قوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة لمصدر، ﴿وَأَقْتُلْ﴾ أي: تلاوة متلبسة بالحق، أو صفة لنبا أي: نبأ متلبساً بالحق، والمراد بأحدهما هابيل وبالأخر قابيل، و﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ استئناف بياني، كأنه فماذا حال الذي لم يتقبل قربانه؟ وقوله: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ استئناف كالأول كأنه قيل: فماذا قال الذي تقبل قربانه؟ وإنما للحصر: أي إنما يتقبل الله القربان من المتقين لا من غيرهم، وكأنه يقول لأخيه: إنما أتيت من قبل نفسك لا من قبلي، فإن عدم تقبل قربانك بسبب عدم تقواك. قوله: ﴿لَكِن بَسَطْتُ إِلَيَّ يَدِيَ لِأَقْتُلَنَّكَ﴾ أي: لأن قصدت قتلي، واللام هي الموطئة، و﴿مَا لَنَا بِبَاسٍ﴾ جواب القسم: ساء مسدّ جواب الشرط، وهذا استسلام للقتل من هابيل، كما ورد في الحديث: «إذا كانت الفتنة فكن خير إبن آدم، وتلا النبي ﷺ هذه الآية، قال مجاهد: كان للفرض عليهم حينئذ أن لا يسئل أحد سيفاً وإن لا يمتنع ممن يريد قتله، قال القرطبي: قال علماؤنا: وذلك مما يجوز ورود التعبد به، إلا أن في شرعنا يجوز دفعه إجماعاً، وفي وجوب ذلك عليه خلاف. والأصح، وجوب ذلك لما فيه من النهي عن المنكر، وفي الحشوية قوم لا يجوزون للمصول عليه الدفع، واحتجوا بحديث أبي نر، وحمله العلماء على ترك القتال في الفتنة، وكف اليد عند الشبهة، على ما بيناه في كتاب التنكرة، انتهى كلام القرطبي. وحديث أبي نر المشار إليه هو عند مسلم، وأهل السنن إلا النسائي، وفيه «أن النبي ﷺ قال له: يا أبا نر أرايت إن قتل الناس بعضهم بعضاً كيف تصنع؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: اتعد في بيتك وأغلق عليك بابك، قال: فإن لم أترك، قال: فات من أثت منهم فكن فيهم، قال: فأخذ سلاحي؟ قال: إن تشاركهم فيما

صاحبه، فحفر له ثم حثا عليه، فلما رآه ﴿قال يا ويلتي اعجزت أن أكون مثل هذا الغراب﴾. وقد ثبت في الصحيحين، وغيرهما من حديث ابن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سنّ القتل». وقد روي في صفة قتله لأخيه روايات الله أعلم بصحتها.

يَنْ أَجَلَ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُمْ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَهُمْ نُوحًا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّا كَثَّرْنَا بِهِنَّ آيَاتِنَا فَتَوَلَّوْنَ ﴿١٧٠﴾ فَكَلَّمْنَا نُوْحًا إِنَّكَ جَارِدٌ لِلَّذِينَ يُخَارِجُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُنَطَّلَعُ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَخُوا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جَزَاءُ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧١﴾ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَتَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْرَأَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ وَلَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَقٌّ وَفِي الْآخِرَةِ حَقٌّ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾

قوله: ﴿من أجل ذلك﴾ أي: من أجل ذلك القاتل وجريته ويسبب معصيته، وقال الزجاج: أي من جنائته قال: يقال أجل الرجل على أهله شرأً يأجل أجلأ إذا جنى مثل أخذ يأخذ أخذاً. وقرأ أبو جعفر «من أجل» بكسر النون وحذف الهمزة، وهي لغة. قال في شرح الدرر: قرأ أبو جعفر منفرداً: «من أجل ذلك» بكسر الهمزة مع نقل حركتها إلى النون قبلها؛ وقيل يجوز أن يكون قوله: ﴿من أجل ذلك﴾ متعلقاً بقوله: ﴿من الغاممين﴾، فيكون الوقف على قوله: ﴿من أجل ذلك﴾ والاولى ما قلّمنا، والمعنى: إن نبأ ابني آدم هو الذي تسبب عنه الكتب المذكور على بني إسرائيل، وعلى هذا جمهور المفسرين. وخصّ بني إسرائيل بالذكر؛ لأن السياق في تعداد جنائياتهم، ولأنهم أول أمة نزل الوعيد عليهم في قتل الأنفس، ووقع التغليب فيهم إذ ذاك لكثرة سفكهم للدماء، وقتلهم للأنبياء وتقديم الجار والمجرور على الفعل الذي هو متعلق به أعني كتبنا؛ فيفيد القصر: أي من أجل ذلك لا من غيره، ومن لابتداء الغاية «إنه من قتل نفساً» واحدة من هذه النفوس «بغير نفس» أي: بغير نفس توجب القصاص، فيخرج عن هذا من قتل نفساً بنفس قصاصاً. قوله: ﴿لو فساد في الأرض﴾ قرأ الجمهور بالجرّ عطفاً على نفس. وقرأ الحسن بالنصب على تقدير فعل محذوف يدل عليه أول الكلام تقديره: أو أحدث فساداً في الأرض، وفي هذا ضعف. ومعنى قراءة الجمهور: أن من قتل نفساً بغير سبب من قصاص أو فساد في الأرض، فكأنما قتل الناس جميعاً. وقد تقرر أن كل حكم مشروط يتحقق أحد شيئين، فنقيضه مشروط بانتفاء معاً، وكل حكم مشروط بتحققهما معاً، فنقيضه مشروط بانتفاء أحدهما ضرورة أن نقيض كل شيء مشروط بنقيض شرطه.

وقد اختلف في هذا الفساد المذكور في هذه الآية ماذا هو؟ فقيل هو الشرك، وقيل قطع الطريق. وظاهر النظم القرآني أنه ما يصدق عليه أنه فساد في الأرض، فالشرك

له ثم حثا عليه، فلما رآه قابيل: ﴿قال يا ويلتي اعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سواة لخي﴾ فواراه، والضمير المستكن في «ليريه» للغراب؛ وقيل لله سبحانه، و«كيف» في محل نصب على الحال من ضمير: «يوارى» والجملة ثاني مفعولي يريه. والمراد بالسوء هنا ذاته كلها لكونها ميتة، و«قال» استئناف جواب سؤال مقدر من سوق الكلام، كأنه قيل: فماذا قال عند أن شاهد الغراب يفعل ذلك؟ و«يا ويلتي» كلمة تحسر وتحزن، والالف بدل من ياء المتكلم كأنه دعا ويلته بأن تحضر في ذلك الوقت، والويلة الهلكة، والكلام خارج مخرج التعجب منه من عدم اهتدائه لمواراة أخيه، كما امتدّى الغراب إلى ذلك «فأواري» بالنصب على أنه جواب الاستفهام، وقرئ بالسكون على تقدير فإنا أوري ﴿فأصبح من الغاممين﴾ على قتله؛ وقيل: لم يكن ندمه ندم توبة بل ندم لفقده، لا على قتله؛ وقيل غير ذلك.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن عساکر، عن ابن عباس قال: «نهى أن تنكح المرأة أخاها توأمها، وأن ينكحها غيره من إخوتها، وكان يولد له في كل بطن رجل وامرأة، فبينما هم كذلك ولد له امرأة وضيئة، وولد له أخرى قبيحة دميعة، فقال أخو الدميعة: أنكحني إختك وأنكحك أختي، فقال: لا، أنا أحق بأختي، فقرباً قرباناً، فجاء صاحب الغنم بكيش أعين أقرن أبيض، وصاحب الحرث بصيرة من طعام فتقبل من صاحب الكبش، ولم يتقبل من صاحب الزرع». قال ابن كثير في تفسيره: إسناده جيد، وكذا قال السيوطي في الدر المنثور. وأخرج ابن جرير عنه قال: كان من شأن بني آدم أنه لم يكن مسكين يتصدق عليه، وإنما كان القريان يقرّبه الرجل، فبينما ابنا آدم قاعدان إذ قالا لو قربنا ثم نكرا ما قرباه. وأخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله: ﴿لئن بسطت إلي يدك﴾ قال: كتب عليهم إذا أراد الرجل أن يقتل رجلاً تركه ولا يمتنع منه. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج نحوه. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله: ﴿إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك﴾ يقول: إني أريد أن تكون عليك خطيئتك، ودمي، فتبوء بهما جميعاً. وأخرج ابن جرير عنه «بإثمي»: قال بقتلك إياي، «وإثمك»، قال: بما كان منك قبل ذلك. وأخرج عن قتادة والضحاك مثله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن مجاهد في قوله: ﴿فطوّعت له نفسه قتل أخيه﴾ قال: شجعت على قتل أخيه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن قتادة في الآية قال: زينت له نفسه. وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود وناس من الصحابة في قوله: ﴿فطوّعت له نفسه قتل أخيه﴾ فطلبه ليقته فراغ الغلام منه في رؤوس الجبال، فاتاه يوماً من الأيام وهو يرعى غنماً له وهو نائم، فرفع صخرة فشدخ بها رأسه فمات، فتركه بالعراء، ولا يعلم كيف يدفن، فبعث الله غرابين أخوين فاققتلا، فقتل أحدهما

نكر مما كتبه الله على بني إسرائيل: أي إن كثيراً منهم بعد ذلك الكتب ﴿في الأرض لمسرفون﴾ في القتل. قوله ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله﴾ قد اختلف الناس في سبب نزول هذه الآية؛ فذهب الجمهور إلى أنها نزلت في العرنيين، وقال مالك والشافعي وأبو ثور وأصحاب الرأي: لأنها نزلت فيمن خرج من المسلمين يقطع الطريق ويسعى في الأرض بالفساد. قال ابن المنذر: قول مالك صحيح. قال أبو ثور محتجاً بهذا القول: إن قوله في هذه الآية: ﴿إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم﴾ يدل على أنها نزلت في غير أهل الشرك؛ لأنهم قد أجمعوا على أن أهل الشرك إذا وقعوا في أيدينا فأسلموا أن دمائهم تحرم، فدل ذلك على أن الآية نزلت في أهل الإسلام انتهت. وهكذا يدل على هذا قوله تعالى: ﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر ما قد سلف﴾ [الأنفال: 38]، وقوله ﷺ: «الإسلام يهدم ما قبله» أخرجه مسلم وغيره، وحكى ابن جرير الطبري في تفسيره عن بعض أهل العلم أن هذه الآية: أعني آية المحاربة نسخت فعل النبي ﷺ في العرنيين، ووقف الأمر على هذه الحدود. وروى عن محمد بن سيرين أنه قال: كان هذا قبل أن تنزل الحدود: يعني فعله ﷺ بالعرنيين وبهذا قال جماعة من أهل العلم. وذهب جماعة آخرون إلى أن فعله ﷺ بالعرنيين منسوخ بنهي النبي ﷺ عن المثلة، والقاتل بهذا مطالب ببيان تأخر النسخ، وسياقي سياق الروايات الواردة في سبب النزول. والحق أن هذه الآية تعم المشرك وغيره لمن ارتكب ما تضمنته، ولا اعتبار بخصوص السبب، بل الاعتبار بعموم اللفظ. قال القرطبي في تفسيره: ولا خلاف بين أهل العلم في أن حكم هذه الآية مترتب في المحاربين من أهل الإسلام، وإن كانت نزلت في المرتدين، أو اليهود انتهت. ومعنى قوله مترتب: أي ثابت؛ قيل المراد بمحاربة الله المنكورة في الآية: هي محاربة رسول الله ﷺ ومحاربة المسلمين في عصره، ومن بعد عصره بطريق العبارة بون الدلالة وبون القياس، لأن ورود النص ليس بطريق خطاب المشافهة حتى يختص حكمه بالمكلفين عند النزول، فيحتاج في تعميم الخطاب لغيرهم إلى دليل آخر؛ وقيل إنها جعلت محاربة المسلمين محاربة لله ولرسوله إكباراً لحريهم وتعظيماً لأنيتهم، لأن الله سبحانه لا يحارب ولا يغالب. والأولى أن تفسر محاربة الله سبحانه: بمعاصيه ومخالفة شرائعه، ومحاربة الرسول تحمل على معناها الحقيقي، وحكم أمته حكمه وهم أسوته. والسعي في الأرض فساداً، يطلق على أنواع من الشر كما قدمنا قريباً. قال ابن كثير في تفسيره: قال كثير من السلف منهم سعيد بن المسيب: إن قرض الدراهم والنانير من الإفساد في الأرض، وقد قال تعالى: ﴿وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد﴾ [البقرة: 205]. انتهى.

إذا تقرر لك ما قررناه، من عموم الآية ومن معنى المحاربة والسعي في الأرض فساداً، فاعلم أن ذلك يصدر

فساد في الأرض، وقطع الطريق فساد في الأرض، وسفك الدماء وهتك الحرم ونهب الأموال فساد في الأرض، والبغي على عباد الله بغير حق فساد في الأرض، وهدم البنين وقطع الأشجار، وتغوير الأنهار فساد في الأرض، فعرفت بهذا أنه يصدر على هذه الأنواع أنها فساد في الأرض، وهكذا الفساد الذي سيأتي في قوله: ﴿ويسعون في الأرض فساداً﴾ يصدر على هذه الأنواع، وسيأتي تمام الكلام على معنى الفساد قريباً. قوله: ﴿فكأنما قتل الناس جميعاً﴾ اختلف المفسرون في تحقيق هذا التشبيه للقطع بأن عقاب من قتل الناس جميعاً أشد من عقاب من قتل واحداً منهم. فروى عن ابن عباس أنه قال: المعنى من يأن عقاب من قتل الناس جميعاً أشد من عقاب من قتل واحداً منهم. فروى عن ابن عباس أنه قال: المعنى من قتل نبياً أو إمام عدل فكأنما قتل الناس جميعاً، ومن أحياء بأن شد عضده ونصره فكأنما أحيى الناس جميعاً. أخرج هذا عنه ابن جرير. وروى عن مجاهد أنه قال: المعنى أن الذي يقتل النفس المؤمنة متعمداً جعل الله جزاءه جهنم، وغضب عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً، فلو قتل الناس جميعاً لم يزد على هذا قال: ومن سلم من قتل، فلم يقتل أحداً، فكأنما أحيى الناس جميعاً.

وقد أخرج نحو هذا عنه عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وروى عن ابن عباس أيضاً أنه قال في تفسير هذه الآية. أوبق نفسه كما لو قتل الناس جميعاً، أخرجه عنه ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم. وروى عن الحسن أنه قال: فكأنما قتل الناس جميعاً في الوزر، وكأنما أحيى الناس جميعاً في الأجر. وقال ابن زيد: المعنى أن من قتل نفساً فيلزمه من القود والقصاص ما يلزم من قتل الناس جميعاً ﴿ومن أحياءها﴾ أي: من عفا عمن وجب قتله، حكاه عنه القرطبي. وحكى عن الحسن أنه العفو بعد القدرة: يعني أحياءها. وروى عن مجاهد أن أحياءها: إنجاؤها من غرق أو حرق أو هدم أو هلكة، حكاه عنه ابن جرير وابن المنذر؛ وقيل المعنى: أن من قتل نفساً فالْمُؤْمِنُونَ كلهم خصماؤه، لأنه قد وتر الجميع ﴿ومن أحياءها فكأنما أحيى الناس جميعاً﴾ أي وجب على الكل شكره؛ وقيل المعنى: أن من استحل واحداً، فقد استحل الجميع؛ لأنه أنكر الشرع. وعلى كل حال، فالأحياء هنا عبارة عن الترك والإنقاذ من هلكة فهو مجاز، إذ المعنى الحقيقي مختص بالله عز وجل. والمراد بهذا التشبيه في جانب القتل تهويل أمر القتل، وتعظيم أمره في النفوس حتى ينزجر عنه أهل الجراءة والجراسة، وفي جانب الإحياء الترغيب إلى العفو عن الجناة واستنقاذ المتورطين في الهلكات. قوله: ﴿ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات﴾ جملة مستقلة مؤكدة باللام الموطئة للقسم متضمنة للإخبار بأن الرسل عليهم الصلاة والسلام قد جاؤوا العباد بما شرعه الله لهم من الأحكام التي من جملتها أمر القتل، وثم في قوله: ﴿ثم إن كثيراً منهم﴾ للتراخي الترتبي والاستبعاد العقلي، والإشارة بقوله ﴿ذلك﴾ إلى ما

وحسمت، ثم قطعت رجله اليسرى وحسمت وخلي، لأن هذه الجنائية زانت على السرقة بالحراية؛ وإذا قتل قتل، وإذا أخذ المال وقتل، قتل وصلب. وروي عنه أنه قال: يصلب ثلاثة أيام. وقال أحمد: إن قتل قتل، وإن أخذ المال قطعت يده ورجله، كقول الشافعي، ولا أعلم لهذه التفاصيل دليلاً لا من كتاب الله ولا من سنة رسوله، إلا ما رواه ابن جرير في تفسيره، وتفرد بروايته، فقال: حدثنا علي بن سهل، حدثنا الوليد بن مسلم، عن يزيد بن أبي حبيب: أن عبد الملك بن مروان كتب إلى أنس بن مالك يسأله عن هذه الآية، فكتب إليه يخبره أن هذه الآية نزلت في أولئك نفر العرنيين، وهم من بجيلة، قال أنس: فارتدوا عن الإسلام وقتلوا الراعي واستاقوا الإبل، وأخافوا السبيل وأصابوا الفرج الحرام؛ قال أنس: فسأل رسول الله ﷺ جبريل عن القضاء فيمن حارب، فقال: من سرق وأخاف الطريق، فاقطع يده لسرقته ورجله بإضافته، ومن قتل، فاقتله؛ ومن قتل وأخاف السبيل واستحل الفرج الحرام، فاصلبه. وهذا مع ما فيه من النكارة الشديدة، لا يدري كيف صحته؟ قال ابن كثير في تفسيره بعد ذكره لشيء من هذه التفاصيل الذي ذكرناها ما لفظه: ويشهد لهذا التفصيل الحديث الذي رواه ابن جرير في تفسيره إن صح سنده ثم ذكره. قوله: ﴿وَيُصَلَّبُونَ فِي الْأَرْضِ فَساداً﴾ هو إما منتصب على المصدرية، أو على أنه مفعول له، أو على الحال بالتأويل: أي مفسدين. قوله: ﴿أَوْ يُصَلَّبُوا﴾ ظاهره أنهم يصلبون أحياء حتى يموتوا، لأنه أحد الأنواع التي خير الله بينها. وقال قوم: الصلب إنما يكون بعد القتل، ولا يجوز أن يصلب قبل القتل فيحال بينه وبين الصلاة والأكل والشرب. ويجاب بأن هذه عقوبة شرعها الله سبحانه في كتابه لعباده. قوله: ﴿أَوْ تَقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ﴾ ظاهرة قطع إحدى اليدين وإحدى الرجلين من خلاف سواء كانت المقطوعة من اليدين هي اليمنى أو اليسرى، وكذلك الرجلان، ولا يعتبر إلا أن يكون القطع من خلاف، إما معنى اليدين مع يسرى الرجلين، أو يسرى اليدين مع يمنى الرجلين؛ وقيل: المراد بهذا قطع اليد اليمنى والرجل اليسرى فقط. قوله: ﴿أَوْ يَنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ اختلف المفسرون في معناه، فقال السدي: هو أن يطلب بالخيال والرجل حتى يؤخذ فيقام عليه الحد، أو يخرج من دار الإسلام هرباً. وهو محكي عن ابن عباس، وأنس ومالك والحسن البصري، والسدي والضحاك وقتادة وسعيد بن جبيرة والربيع بن أنس، والزهري، حكاه الرماني في كتابه عنهم. وحكى عن الشافعي أنهم يخرجون من بلد إلى بلد ويطلبون لتقام عليهم الحدود، وبه قال الليث بن سعد. وروي عن مالك أنه ينفي من البلد الذي أحدث فيه إلى غيره، ويحبس فيه كالزاني، ورجحه ابن جرير والقرطبي. وقال الكوفيون: نفهم سجنهم، فينفي من سعة الدنيا إلى ضيقها. والظاهر من الآية: أنه يطرد من الأرض التي وقع منه فيها ما وقع، من غير سجن ولا غيره. والنفي قد يقع بمعنى

على كل من وقع منه ذلك، سواء كان مسلماً أو كافراً، في مصر وغير مصر، في كل قليل وكثير، وجليل وحقير، وأن حكم الله في ذلك هو ما ورد في هذه الآية من القتل أو الصلب، أو قطع الأيدي والأرجل من خلاف، أو النفي من الأرض، ولكن لا يكون هذا حكم من فعل أي ذنب من الذنوب، بل من كان ذنبه هو التعدي على إماء العباد وأموالهم فيما عدا ما قد ورد له حكم غير هذا الحكم في كتاب الله، أو سنة رسوله كالسرقة وما يجب فيه القصاص، لأننا نعلم أنه قد كان في زمنه ﷺ من تقع منه ذنوب ومعاص غير ذلك، ولا يجرى عليه ﷺ هذا الحكم المذكور في هذه الآية، وبهذا تعرف ضعف ما روى عن مجاهد في تفسير المحاربة المذكورة في هذه الآية أنها الزنا والسرقة، ووجه ذلك أن هذين الذنوبين قد ورد في كتاب الله، وفي سنة رسوله ﷺ لهما حكم غير هذا الحكم.

وإذا عرفت ما هو الظاهر من معنى هذه الآية، على مقتضى لغة العرب التي أمرنا بأن نفسر كتاب الله وسنة رسوله بها، فيلزم أن تغتر بشيء من التفاصيل المروية، والمذاهب المحكية، إلا أن يأتيك الليل الموجب لتخصيص هذا العموم أو تقييد هذا المعنى المفهوم من لغة العرب، فانت ذلك اعمل به، وضعه في موضعه، وأما ما عداه:

فدع عنك نهباً صريحاً في حجراته وهات حديثاً ما حديث الرواحل على أننا سنذكر من هذه المذاهب ما تسمعه. أعلم أنه قد اختلف العلماء فيمن يستحق اسم المحاربة؛ فقال ابن عباس وسعيد بن المسيب، ومجاهد وعطاء والحسن البصري، وإبراهيم النخعي والضحاك وأبو ثور: إن من شهر السلاح في قبة الإسلام، وأخاف السبيل ثم ظفر به وقدر عليه فإمام المسلمين فيه بالخيار: إن شاء قتله، وإن شاء صلبه، وإن شاء قطع يده ورجله. وبهذا قال مالك، وصرح بأن المحارب عنده من حمل على الناس في مصر أو في بركة، أو كابرهم على أنفسهم وأموالهم دون نائرة ولا نحل ولا عداوة. قال ابن المنذر: اختلف عن مالك في هذه المسألة، فثبتت المحاربة في المصر مرة، ونفى ذلك مرة. وروى عن ابن عباس غير ما تقدم، فقال في قطاع الطريق: إذا قتلوا وأخذوا المال قتلوا وصلبوا، وإذا قتلوا ولم يأخذوا المال قتلوا ولم يصلبوا، وإذا أخذوا المال ولم يقتلوا قطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وإذا أخافوا السبيل ولم يأخذوا ما لا نفوا من الأرض. وروي عن أبي مجلز وسعيد بن جبيرة وإبراهيم النخعي، والحسن وقتادة والسدي، وعطاء، على اختلاف في الرواية عن بعضهم، وحكاها ابن كثير عن الجمهور. وقال أيضاً: وهكذا عن غير واحد من السلف والأئمة. وقال أبو حنيفة: إذا قتل قتل وإذا أخذ المال ولم يقتل قطعت يده ورجله من خلاف، وإذا أخذ المال وقتل فالسلطان مخير فيه: إن شاء قطع يديه ورجليه، وإن شاء لم يقطع وقتله وصلبه. وقال أبو يوسف: القتل يأتي على كل شيء، ونحوه قول الأوزاعي. وقال الشافعي: إذا أخذ المال قطعت يده اليمنى

خرج فقتل ولم يأخذ المال قتل، وإذا خرج وأخذ المال وقتل قتل وصلب، وإذا خرج فأخلف السبيل، ولم يأخذ المال ولم يقتل نفي. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه في الآية قال: من شهر السلام في قبة الإسلام، وأفسد السبيل، فظهر عليه وقدر، فإمام المسلمين مخير فيه: إن شاء قتله، وإن شاء صلبه، وإن شاء قطع يده ورجله، قال: ﴿أو ينفوا من الأرض﴾ يهربوا ويخرجوا من دار الإسلام إلى دار الحرب. وأخرج ابن جرير عنه قال: نفيه أن يطلب. وأخرج أيضاً عن أنس نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا وابن جرير، وابن أبي حاتم عن الشعبي قال: كان حارثة بن بدر التيمي من أهل البصرة قد أفسد في الأرض وحارب، فكلّم رجلاً من قريش أن يستأمنوا له علياً، فأبوا فأتى سعيد بن قيس الهمداني، فأتى علياً فقال: يا أمير المؤمنين ما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً؟ قال: ﴿أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض﴾ ثم قال: ﴿إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم﴾ فقال سعيد: وإن كان حارثة بن بدر، قال: وإن كان حارثة بن بدر، قال: هذا حارثة بن بدر، قد جاء تائباً فهو آمن، قال نعم، فجاء به إليه فباعه، وقبل ذلك منه وكتب له أماناً.

يَتَابِعُهَا الْوَيْتُ، أَمَّا أَنْتُمْ اللَّهُ وَابْتَعُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَهْدُوا فِي سَبِيلِهِ لَمَّا كُنْتُمْ تَقُولُونَ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّثْلَ مِمَّا كَفَرُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا يَقْتُلُ وَيُهَيِّئُ لَكُم عَذَابًا آخَرَ﴾ يُرِيدُونَ أَنْ يَحْزَبُوا مِنْ النَّارِ وَمَا هُمْ بِحَازِلِينَ وَمَا لَهُمْ عَذَابٌ ثَوِيمٌ

﴿ابتغوا﴾ اطلبوا ﴿إليه﴾ لا إلى غيره، و﴿الوسيلة﴾ فعيلة من توسلت إليه، إذا تقربت إليه. قال عنتره: إن الرجال لهم إليك وسيلة إن يأخذوك تكحلي وتخضبي وقال آخر:

إذا غفل الواشون عندنا لوصلنا وعاد التصابي بيننا والوسائل فالوسيلة: القرية التي ينبغي أن تطلب، وبه قال أبو وائل والحسن ومجاهد، وقتادة والسدي وابن زيد. وروى عن ابن عباس، وعطاء، وعبد الله بن كثير. قال ابن كثير في تفسيره: وهذا الذي قاله هؤلاء الأئمة، لا خلاف بين المفسرين فيه. والوسيلة أيضاً درجة في الجنة مختصة برسول الله ﷺ. وقد ثبت في صحيح البخاري من حديث جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدًا الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، إلا حلت له الشفاعة يوم القيامة». وفي صحيح مسلم، من حديث عبد الله بن عمرو، أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا علي، فإنه من صلى علي صلاة صلى الله عليه عشراً ثم سلوا لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة، لا

الإهلاك، وليس هو مراداً هنا. قوله: ﴿ذلك لهم خزي في الدنيا﴾ الإشارة إلى ما سبق ذكره من الأحكام، والخزي: النذل والفضيحة. قوله: ﴿إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم﴾ استثنى الله سبحانه التائبين قبل القدرة عليهم من عموم المعاقبين بالعقوبات السابقة، والظاهر عدم الفرق بين النماء والأموال، وبين غيرها من الذنوب الموجبة للعقوبات المعينة المحدودة، فلا يطالب التائب قبل القدرة بشيء من ذلك، وعليه عمل الصحابة. وذهب بعض أهل العلم إلى أنه لا يسقط القصاص وسائر حقوق الأئمة بالتوبة قبل القدرة، والحق الأول. وأما التوبة بعد القدرة فلا تسقط بها العقوبة المنكورة في الآية، كما يدل عليه ذكر قيد: ﴿قبل أن تقدروا عليهم﴾ قال: القرطبي: وأجمع أهل العلم على أن السلطان ولي من حارب، فإن قتل محارب أخاً امرئ وإتاه في حال المحاربة، فليس إلى طالب الدم من أمر المحاربة شيء، ولا يجوز عفو ولي الدم.

وقد أخرج ابن جرير عن الضحك في قوله: ﴿من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل﴾ يقول: من أجل ابن آدم الذي قتل أخاه ظملاً. وأخرج ابن جرير عن الحسن أنه قيل له في هذه الآية يعني قوله: ﴿فكأنما قتل الناس جميعاً﴾ أمي لنا كما كانت لبني إسرائيل؟ فقال: إي والذي لا إله غيره. وأخرج أبو داود والنسائي عن ابن عباس في قوله: ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله﴾ قال: نزلت في المشركين، فمن تاب منهم قبل أن يقدر عليه لم يكن عليه سبيل، وليست تحرز هذه الآية الرجل المسلم من الحد إن قتل أو أفسد في الأرض أو حارب الله ورسوله. وأخرج ابن جرير والطبراني في الكبير عنه في هذه الآية قال: كان قوم من أهل الكتاب بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد وميثاق، فنقضوا العهد وأفسدوا في الأرض، فخير الله نبيه فيهم: إن شاء قتل وإن شاء صلب، وإن شاء أن يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وأما النفي فهو الضرب في الأرض، فإن جاء تائباً فدخل في الإسلام قبل منه، ولم يؤخذ بما سلف. وأخرج ابن مردويه عن سعد بن أبي وقاص أن هذه الآية نزلت في الحرورية. وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس أن نفراً من عكل قدموا على رسول الله ﷺ، فأسلموا واجتروا المدينة، فأمرهم النبي ﷺ أن يأتوا إبل الصدقة، فيشربوا من أبوالها واللبانها، فقتلوا راعيها واستاقوها: فبعث النبي ﷺ في طلبهم قافة، فأتى بهم، فقطع أيديهم وأرجلهم، وسمل أعينهم، ولم يحسمهم وتركهم حتى ماتوا، فأنزل الله ﴿إنما جزاء الذين يحاربون﴾ الآية. وفي مسلم عن أنس أنه قال: إنما سمل النبي ﷺ أعين أولئك لأنهم سملوا أعين الرعاة. وأخرج الشافعي في الأم، وعبد الرزاق والفرغاني، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد وابن جرير، وابن المنذر وابن أبي حاتم، والبيهقي، عن ابن عباس في الآية قال: إذا خرج المحارب فأخذ المال ولم يقتل قطع من خلاف، وإذا

بعلم الرواية بأن عصاة الموحدين يخرجون من النار، فمن أنكر هذا فليس بأهل للمناظرة؛ لأنه أنكر ما هو من ضروريات الشريعة، اللهم غفر.

وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا تَكَلَّافَ مِنَ اللَّهِ
وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ قَدْ تَابَ مِنْ بَمَلِّ عَلَيْهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يُتُوبُ
عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَكُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾

لما ذكر سبحانه حكم من يأخذ المال جهاراً وهو المحارب، عقبه بذكر من يأخذ المال خفية، وهو السارق، وذكر السارقة مع السارق؛ لزيادة البيان لأن غالب القرآن الاقتصاد على الرجال في تشريع الأحكام. وقد اختلف أئمة النحو في خبر السارق والسارقة، هل هو مقدر أم هو فاقطعوا؟ فذهب إلى الأول سيبويه، وقال تقديره: فيما فرض عليكم أو فيما يتلى عليكم، السارق والسارقة: أي حكمهما. وذهب المبرد والزجاج إلى الثاني، وبخول الفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط، إذ المعنى: الذي سرق والتي سرقت، وقرأ: «والسارق والسارقة» بالنصب على تقدير أقطعوا، ورجح هذه القراءة سيبويه، قال: الوجه في كلام العرب النصب، كما تقول زيداً أضربه، ولكن العامة أبت إلا الرفع، يعنى عامة القراء، والسرقة بكسر الراء اسم الشيء المسروق، والمصدر من سرق يسرق سرقاً قاله الجوهري: وهو أخذ الشيء في خفية من الأعين، ومنه استرق السمع، وسارقه النظر. قوله: «فاقطعوا» القطع: معناه الإبادة والإزالة، وجمع الأيدي لكراهة الجمع بين تثنييتين، وقد بينت السنة المطهرة أن موضع القطع الرسغ. وقال قوم: يقطع من المرفق. وقال الخوارزمي: من المنكب. والسرقة لابد أن تكون ربع دينار فصاعداً، ولا بد أن تكون من حرز، كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة. وقد ذهب إلى اعتبار الربع الدينار الجمهور. وذهب قوم إلى التقدير بعشرة دراهم. وذهب الجمهور إلى اعتبار الحرز. وقال الحسن البصري إذا جمع الثياب في البيت قطع. وقد أطل الكلام في بحث السرقة أئمة الفقه، وشرح الحديث بما لا يأتى التطويل به ها هنا بكثير فائدة. قوله: «جزاء بما كسباً» مفعول له: أي فاقطعوا للجزاء، أو مصدر مؤكد لفعل محنوف: أي فجاوزهما جزء، والباء سببية، وما مصدرية: أي بسبب كسبهما، أو موصولة: أي جزء بالذي كسباه من السرقة. وقوله: «تكالاً» بدل من جزء؛ وقيل هو علة للجزاء: والجزاء علة للقطع، يقال نكلت به: إذا فعلت به ما يجب أن ينكل به عن ذلك الفعل. قوله: «فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح» السياق يفيد أن المراد بالظلم هنا السرقة: أي فمن تاب من بعد سرقة، وأصلح أمره: «فإن الله يتوب عليه» ولكن اللفظ عام، فيشمل السارق وغيره من المذنبين، والاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. وقد استدل

تنبيغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة». وفي الباب أحاديث، وعطف «وليتغوا إليه الوسيلة» على «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله» يفيد أن الوسيلة غير التقوى؛ وقيل هي التقوى، لأنها ملاك الأمر، وكل الخير، فتكون الجملة الثانية على هذا مفسرة للجملة الأولى. والظاهر أن الوسيلة التي هي القربة تصدق على التقوى، وعلى غيرها من خصال الخير التي يتقرب العباد بها إلى ربهم «وجاهدوا في سبيله» من لم يقبل بينه «لعلكم تفلحون». قوله: «إن الذين كفروا» كلام مبتدأ مسوق لזجر الكفار، وترغيب المسلمين في امتثال أوامر الله سبحانه «لو أن لهم ما في الأرض» من أموالها ومنافعها؛ وقيل المراد لكل واحد منهم ليكون أشد تهويلاً، وإن كان الظاهر من ضمير الجمع خلاف ذلك، و«جميعاً» تأكيد. وقوله «ومثله» عطف على ما في الأرض، و«معه» في محل نصب على الحال «ليفتنوا به»؛ ليجلوه فنية لأنفسهم، وأقرض الضمير إما لكونه راجعاً إلى المنكر، أو لكونه بمنزلة اسم الإشارة: أي ليفتنوا بذلك، و«من عذاب يوم القيامة» متعلق بالفعل المنكر «وما تقبل منهم» ذلك، وهذا هو جواب لو. قوله: «يريدون أن يخرجوا من النار» هذا استئناف بياني، كأنه قيل: كيف حالهم فيما هم فيه من هذا العذاب الأليم؟ فقيل يريدون أن يخرجوا من النار. وقرأ: «أن يخرجوا» من أخرج، ويضعف هذه القراءة «وما هم بخارجين منها» ومحل هذه الجملة، أعني قوله: «وما هم بخارجين منها» النصب على الحال؛ وقيل إنها جملة اعتراضية.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: «وليتغوا إليه الوسيلة» قال: الوسيلة القربة. وأخرج الحاكم وصححه، عن حنيفة مثله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن قتادة في قوله: «وليتغوا إليه الوسيلة» قال: تقرّبوا إلى الله بطاعته والعمل بما يرضيه. وأخرج مسلم، وابن المنذر وابن أبي حاتم، وابن مروي، عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «يخرج من النار قوم فيدخلون الجنة» قال: يريد الفقير، فقلت لجابر يقول الله: «يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها» قال: أتى أول الآية «إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه ليفتنوا به» إلا أنهم الذين كفروا. وأخرج ابن جرير عن عكرمة: أن نافع بن الأزرق قال لابن عباس: تزعم أن قوما يخرجون من النار، وقد قال الله تعالى: «وما هم بخارجين منها» فقال ابن عباس: ويحك، أقرأ ما فوقها هذه للكفار. قال الزمخشري في الكشف بعد ذكره لهذا: إنه مما لفته المجبرة، ويا الله العجب من رجل لا يفرق بين أصح الصحيح، وبين كذب الكذب على رسول الله ﷺ، يتعرض للكلام على ما لا يعرفه ولا يدري ما هو قد تواترت الأحاديث تواتراً لا يخفى، على من له اننى إمام

وحزن الرجل بالكسر، فهو حزن وحزين: وأحزنه غيره وحزنه. قال البيهقي: حزنه لغة قريش وأحزنه لغة تميم، وقد قرئ بهما. وفي الآية النهي له ﷺ عن التأثر لمسارة الكفرة في كفرهم تأثراً بليفاً، لأن الله سبحانه قد وعده في غير موطن بالنصر عليهم، والمسارة إلى الشيء: الوقوع فيه بسرعة. والمراد هنا، وقوعهم في الكفر بسرعة عند وجود فرصة، وأثر لفظ ﴿هي﴾ على لفظ إلى للدلالة على استقرارهم فيه، ومن في قوله: ﴿من الذين قالوا﴾ بيانية، والجملة مبنية للمسارعين في الكفر، والباء في ﴿بأفواههم﴾ متعلقة بقالوا لا بأفواههم، وهؤلاء الذين قالوا آمنا بأفواههم، ولم تؤمن قلوبهم هم المنافقون. ﴿ومن الذين هادوا﴾ يعني اليهود، وهو معطوف على ﴿من الذين قالوا آمنا﴾ وهو تمام الكلام. والمعنى: أن المسارعين في الكفر طائفة المنافقين وطائفة اليهود. وقوله: ﴿سماعون للكذب﴾ خبر مبتدأ محذوف: أي هم سماعون للكذب، فهو راجع إلى الفريقين، أو إلى المسارعين، واللام في قوله: ﴿للكذب﴾ للتقوية أو لتضمنين السماع معنى القبول؛ وقيل إن قوله: ﴿سماعون﴾ مبتدأ خبره ﴿من الذين هادوا﴾ أي: ومن الذين هادوا قوم ﴿سماعون للكذب﴾ أي: قابلون لكذب رؤوسائهم المحرّفين للتوراة. قوله: ﴿سماعون لقوم آخرين﴾ خبر ثان، واللام فيه كاللام في ﴿للكذب﴾؛ وقيل اللام للتعليل في الموضعين، أي: سماعون لكلام رسول الله لأجل الكذب عليه، وسماعون لأجل قوم آخرين، وجهوهم عيوناً لهم لأجل أن يبلغوهم، ما سمعوا من رسول الله ﷺ. قوله: ﴿لم ياتوك﴾ صفة لقوم: أي لم يحضروا مجلسك وهم طائفة من اليهود، كانوا لا يحضرون مجلس رسول الله ﷺ تكبراً وتمرداً؛ وقيل هم جماعة من المنافقين، كانوا يتجنبون مجلس رسول الله ﷺ قال الفراء: ويجوز سماعين كما قال ﴿ملعونين أينما ثقفوا﴾ [الأحزاب: 61]. قوله: ﴿يحرفون لكلم من بعد موضعه﴾ من جملة صفات القوم المذكورين: أي يميلونه عن موضعه التي وضعه الله فيها، ويتأولونه على غير تأويله. والمحرّفون هم اليهود؛ وقيل: إن هذه الجملة خبر مبتدأ محذوف؛ وقيل في محل نصب على الحال، من ﴿لم ياتوك﴾ وقيل: مستأنفة لا محل لها من الإعراب، لقصد تعداد معائبهم ومثالبهم. ومعنى: ﴿من بعد موضعه﴾ من بعد كونه موضوعاً في موضعه، أو من بعد وضعه في موضعه التي وضعه الله فيها، من حيث لفظه، أو من حيث معناه. قوله: ﴿يقولون إن أوتيتهم هذا فخذوه﴾ جملة حالية، من ضمير يحرفون، أو مستأنفة، أو صفة لقوم، أو خبر مبتدأ محذوف، والإشارة بقولهم ﴿هذا﴾ إلى الكلام المحرّف: أي إن أوتيتهم من جهة محمد هذا الكلام الذي حرّفناه، فخذوه واعملوا به، وإن لم تؤتوه بل جاءكم بغير، فاحذروا من قبوله والعمل به. قوله: ﴿ومن يرد الله فتنته﴾ أي: ضلّاته ﴿فلن تملك له من الله شيئاً﴾ أي: فلا تستطيع دفع ذلك عنه ولا تقدر على نفعه وهدايته،

بهذا عطاء، وجماعة، على أن القطع يسقط بالتوبة، وليس هذا الاستدلال بصحيح، لأن هذه الجملة الشرطية لا تقيد إلا مجرد قبول التوبة، وإن الله يتوب على من تاب، وليس فيها ما يفيد أنه لا قطع على التائب. وقد كان في زمن النبوة يأتي إلى النبي ﷺ من وجب عليه حدّ تأثراً عن الذنب الذي ارتكبه، طالباً لتطهيره بالحدّ، فيحدّه النبي ﷺ. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال للسارق بعد قطعه: «تب إلى الله، ثم قال تاب الله عليك». أخرجه الدارقطني من حديث أبي هريرة. وأخرج أحمد وغيره، أن هذه الآية نزلت في المرأة التي كانت تسرق المتاع، لما قالت للنبي ﷺ بعد قطعها، هل لي من توبة. وقد ورد في السنة ما يدل على أن الحدود إذا رفعت إلى الأئمة وجبت وامتنع إسقاطها. قوله: ﴿الم تعلم أن الله له ملك للسموات والأرض﴾ هذا الاستفهام للإنكار مع تقرير العلم، وهو كالعنوان لقوله: ﴿يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء﴾ أي: من كان له ملك السموات والأرض، فهو قادر على هذا التعذيب الموكول إلى المشيئة والمغفرة الموكولة إليها.

وقد أخرج عبد بن حميد، وأبو الشيخ، عن قتادة في قوله: ﴿جزاء بما كسبنا نكالاً من الله﴾ قال: لا ترثوا لهم فيه فإنه أمر الله الذي أمر به. قال: ونكر لنا أن عمر بن الخطاب كان يقول: اشتدوا على الفساق، واجعلوهم يداً يداً ورجلاً رجلاً. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، عن مجاهد في قوله: ﴿فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه﴾ يقول: الحدّ كفرته. والأحاديث في قدر نصاب السرقة، وفي سائر ما يتعلق بتفاصيل هذا الحدّ مذكورة في كتب الحديث، فلا نطيل بذلك.

﴿يَأْتِيهَا أَرْسُولٌ لَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنًا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمَنْ الَّذِينَ هَادُوا سَمِعُوا لِلْكَذِبِ سَمْعُونَ لِقَوْمٍ غَائِرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ بِحُجُجٍ مِنَ الْكُفْرِ مِنْ بَعْدِ مُوَاضِعِهِمْ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تَوْفَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١١ سَمِعُوا لِلْكَذِبِ أَكْثُونَ لِلْحَقِّ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاعْلَمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَكَانَ يَصْرُوكَ شَيْعًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْقَاسِطِينَ ١٢ وَكَفَى بِحُكْمِكَ وَعِزَّةَ تَوْرَتِهِ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ١٣ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكَمُ بِهَا الْأَنْبِيَاءُ الَّذِينَ آسَلُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالزَّبَنِينَ وَالْأَحْبَارَ بِمَا اسْتَغْفَرُوا مِنْ كُتُبِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا الْكَاسَ وَخَشَوُا اللَّهَ وَلَا تَشْرَبُوا يَتَذَكَّرُ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا تَفْعَلُونَ ١٤﴾

قوله ﴿لا يحزنك﴾ قرأ نافع بضم الباء وكسر الزاي والباقيون بفتح الباء وضم الزاي، والحزن خلاف السرور،

وهذه الجملة مستأنفة مقررة لما قبلها، وظاهرها العموم ويندل فيها هؤلاء الذين سياق الكلام معهم بخولاً أولياً، والإشارة بقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ إلى من تقدم ذكرهم، من الذين قالوا آمنا بأقواهم ومن الذين هانوا، وهو مبتدأ وخبره الذين لم يرد الله أن يظهر قلوبهم: أي لم يرد تطهيرها من أرجاس الكفر والنفاق، كما طهر قلوب المؤمنين ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ بظهور نفاق المنافقين، وبضرب الجزية على الكافرين، وظهور تحريفهم وكتهم لما أنزل الله في التوراة. قوله: ﴿سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ كزّره تأكيداً لقبه، وليكون كالمقدمة لما بعده، وهو: أكلون للسحت، وهما من جملة أخبار ذلك المبتدأ المعتر سابقاً. والسحت، بضم السين وسكون الحاء: المال الحرام، وأصله الهلاك والشدة، من سحت: إذا هلكه، ومنه ﴿فَيَسْحَتُمْ بَعْدَآبٍ﴾ [طه: 61]، ومنه قول الفرزدق:

وعَضَ زَمَانُ يَابَنِ مِرْوَانَ لَمْ يَدَعْ مِنْ الْمَالِ إِلَّا مَسْحَتَ لَوْ مَحْلَقٍ وَيُقَالُ لِلْحَالِقِ اسْحَتَ: أي استأصل؛ وسمي الحرام سحتاً لأنه يسحت الطاعات: أي يذهبها ويستأصلها، وقال الفراء: أصله كلب الجوع؛ وقيل هو الرشوة، والأول أولى، والرشوة تسحل في الحرام بخولاً أولياً. وقد فسره جماعة بنوع من أنواع الحرام، خاص كالهدية، لمن يقضى له حاجة، وحلوان الكاهن، والتعميم أولى بالصواب. قوله: ﴿فَإِنْ جَاؤُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرَضْ عَنْهُمْ﴾ فيه تخيير لرسول الله ﷺ وبين الحكم بينهما والإعراض عنهم.

وقد استدلل به على أن حكام المسلمين مخيرون بين الأمرين. وقد أجمع العلماء على أنه يجب على حكام المسلمين أن يحكموا بين المسلم والنمى إذا ترافعا إليهم. واختلوا في أهل النمة إذا ترافعوا فيما بينهم؛ فذهب قوم إلى التخيير، وذهب آخرون إلى الوجوب، وقالوا: إن هذه الآية منسوخة بقوله: ﴿وَأَنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ وبه قال ابن عباس، ومجاهد وعكرمة، والزهرى وعمر بن عبد العزيز والسدي؛ وهو الصحيح من قول الشافعي، وحكاه القرطبي عن أكثر العلماء. قوله: ﴿وَأَنْ تَعْرَضَ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرَّوكَ شَيْئاً﴾ أي: إن اخترت الإعراض عن الحكم بينهم، فلا سبيل لهم عليك، لأن الله حافظك وناصرك عليهم، وإن اخترت الحكم بينهم ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل الذي أمرك الله به وأنزله عليك. قوله: ﴿وَكَيْفَ يَحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ فيه تعجيب له ﷺ من تحكيمهم إياه، مع كونهم لا يؤمنون به ولا بما جاء به، مع أن ما يحكمونه فيه هو موجود عندهم في التوراة كالرجم، ونحوه، وإنما يأتون إليه ﷺ ويحكمونه طمعاً منهم في أن يوافق تحريفهم، وما صنعوه بالتوراة من التغيير. قوله: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ﴾ عطف على يحكمونك ﴿مَنْ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي: من بعد تحكيمهم لك، وجملة قوله: ﴿يَوْمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ لتقرير مضمون ما قبلها. وقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ استئناف يتضمن تعظيم التوراة، وتفخيم

شأنها وأن فيها الهدى والنور، وهو بيان الشرائع، والتبشير بمحمد ﷺ وإيجاب اتباعه. قوله: ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ﴾ هم أنبياء بني إسرائيل، والجملة إما مستأنفة أو حالية، ﴿وَالَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ صفة مانحة للنبیین، وفيه إرغام لليهود المعاصرين له ﷺ بأن أنبياءهم كانوا يدينون بين الإسلام الذي دان به محمد ﷺ؛ وقيل المراد بالنبیین محمد ﷺ، وعبر عنه بلفظ الجمع تعظيماً. قوله: ﴿لِلَّذِينَ هَانُوا﴾ متعلق بيحكم. والمعنى: أنه يحكم بها النبيون للذين هانوا وعليهم. والربانيون العلماء الحكماء، وقد سبق تفسيره، والأخبار العلماء، مأخوذ من التحبير وهو التحسين فهم يحبرون العلم: أي يحسنونه. قال الجوهري: الحبر واحد أحبار اليهود بالفتح وبالكسر والكسر أفصح، وقال الفراء: هو بالكسر، وقال أبو عبيدة: هو بالفتح. قوله: ﴿بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ الباء للسببية واستحفظوا أمروا بالحفظ: أي أمرهم الأنبياء بحفظ التوراة عن التغيير والتبديل، والجار والمجرور متعلق بيحكم: أي يحكمون بها بسبب هذا الاستحفاظ، قوله: ﴿وَوَكُنَّا عَلَيْهِ شُهَدَاءُ﴾ أي على كتاب الله والشهداء الرقباء، فهم يحمونه عن التغيير والتبديل بهذه المراقبة، والخطاب بقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوْا النَّاسَ﴾ لرؤساء اليهود، وكذا في قوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمناً قليلاً﴾ والاشتراء الاستبدال، وقد تقدم تحقيقه. قوله: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ لفظ ﴿مَنْ﴾ من صيغ العموم فيفيد أن هذا غير مختص بطائفة معينة، بل بكل من ولي الحكم؛ وقيل إنها مختصة بأهل الكتاب؛ وقيل بالكفار مطلقاً لأن المسلم لا يكفر بارتكاب الكبير؛ وقيل هو محمول على أن الحكم بغير ما أنزل الله، وقع استخفافاً، أو استحلالاً، أو جحداً، والإشارة بقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ إلى من، والجمع باعتبار معناها، وكذلك ضمير الجماعة في قوله: ﴿هُمُ الْكَافِرُونَ﴾.

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿لَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يَسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ قال: هم اليهود ﴿مَنْ لِلَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَقْوَاهُمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾ قال: هم المنافقون. وأخرج أحمد، وأبو داود وابن جرير، وابن المنذر والطبراني، وأبو الشيخ وابن مردويه عنه قال: إن الله أنزل: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ - الظالمون - الفاسقون﴾ أنزلها الله في طائفتين من اليهود قهرت إحداهما الأخرى في الجاهلية حتى اصطالحوا على أن كل قتل قتلته العزيزة من النذيلة فديته خمسون وسقاً، وكل قتل قتلته النذيلة من العزيزة فديته مائة وسق، فكانوا على ذلك حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة، فنزلت الطائفتان كلتاهما لمقدم رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ يومئذ لم يظهر عليهم، فقتلت النذيلة من العزيزة، فأرسلت العزيزة إلى النذيلة أن ابعثوا إلينا بمائة وسق، فقالت النذيلة: وهل كان هذا في حين قط دينهما واحد ونسبهما واحد، وبلدهما واحد، ودية بعضهم نصف

أرفع يديك، فرفع يده فإذا آية الرجم، قالوا صدق، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن جابر بن عبد الله في قوله: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَانُوا سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ قال: يهود المدينة ﴿سَمَاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُواكَ﴾ قال: يهود فلك ﴿يَحْزَنُونَ لَكَ﴾ قال: يهود فلك يقولون ليهود المدينة ﴿إِنْ أَوْتَيْتُمْ هَذَا﴾ الجلد ﴿فَخَذَوْهُ وَإِنْ لَمْ تَوْتُوهُ فَاحْذَرُوا﴾ الرجم. وأخرج أبو داود، وابن ماجه، وابن المنذر، وابن مريويه، عنه قال: زنى رجل من أهل فلك، فكتب أهل فلك إلى ناس من اليهود بالمدينة أن سلوا محمداً، وذكر القصة. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿كَالْوَلَدِ لِلْسَّحْتِ﴾ قال: أخنوخ الرشوة في الحكم وقضوا بالكذب. وأخرج عبد الرزاق والفرغاني وعبد بن حميد وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن مسعود قال: السحت الرشوة في الدين. قال سفيان: يعني في الحكم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي في شعب الإيمان، عن ابن مسعود أيضاً قال: من شفع لرجل لينفع عنه مظلمة أو يرد عليه حقاً فهدى له هدية فقبلها، فذلك السحت فقيل له: يا أبا عبد الرحمن إنا كنا نعد السحت الرشوة في الحكم، فقال ذلك الكفر ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ وقد روي نحو هذا عنه من طرق، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: رشوة الحكام حرام. وهي السحت الذي ذكر الله في كتابه. وأخرج عبد بن حميد عن زيد بن ثابت قال: السحت الرشوة. وأخرج عبد بن حميد عن علي بن أبي طالب أنه سئل عن السحت فقال: الرشاء فقيل له في الحكم، قال: ذاك الكفر. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن عمر قال: بإبان من السحت يكلهما الناس: الرشاء في الحكم، ومهر الزانية. وقد ثبت عن رسول الله ﷺ في تحريم الرشوة ما هو معروف. وأخرج أبو داود في ناسخه، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مريويه، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس قال: آيتان نسختا من سورة المائدة: آية القلائد، وقوله: ﴿فَإِنْ جَاؤُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ فكان رسول الله ﷺ مخيراً: إن شاء حكم بينهم، وإن شاء أعرض عنهم، فردهم إلى أحكامهم، فنزلت: ﴿وَإِنْ لَحِمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ قال: فأمر رسول الله ﷺ أن يحكم بينهم بما في كتابنا. وأخرج نحوه في الآية الأخيرة عنه أبو عبيدة وابن المنذر، وابن مريويه. وأخرج عبد الرزاق عن عكرمة نحوه. وأخرج ابن إسحاق وابن جرير، وابن المنذر والطبراني وأبو الشيخ، وابن مريويه عن ابن عباس أن الآيات من المائدة التي قال فيها: ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿الْمُقْسِطِينَ﴾ إنما نزلت في الية من بني النضير وقريظة، وذلك أن قتلى بني النضير كان لهم شرف يوبون الية كاملة، وإن بني قريظة كانوا يوبون نصف الية، فتحاكموا في ذلك إلى رسول الله

ﷺ دية بعض؟ إنما أعطيناكم هذا ضيماً منكم لنا وفرقاً منكم، فأما إذ قدم محمد ﷺ، فلا نعطيكم ذلك، فكانت الحرب تهيج بينهما، ثم ارتضوا على أن جعلوا رسول الله ﷺ بينهما، ففكرت العزيزة فقالت: والله ما محمد يعطيكم منهم ضعف ما تعطيههم منكم، ولقد صدقوا، ما أعطونا هذا إلا ضيماً وقهراً لهم، ففسوا إلى رسول الله ﷺ من يخبر لكم رايه، فإن أعطاكم ما تريون حكمتوه، وإن لم يعطكم حذرتوه ولم تحكموه؛ ففسوا إلى رسول الله ﷺ ناساً من المنافقين يختبرون لهم رايه، فلما جاؤوا رسول الله ﷺ أخبر الله رسوله بأمرهم، كله وما أراؤا، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزَنْكَ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ ثم قال فيهم: والله أنزلت وإياهم عني. وأخرج عبد الرزاق، وأحمد وعبد بن حميد، وأبو داود وابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الدلائل عن أبي هريرة، قال: أول مرجوم رجمه رسول الله ﷺ من اليهود زنى رجل منهم وامرأة، فقال بعضهم لبعض: لاهبوا بنا إلى هذا النبي، فإنه نبي بعث بالتخفيف، فإن اقتانا بفتيا بون الرجم قبلناهما واحتججنا بها عند الله وقلنا: فتيا نبي من أنبيائك، قال: فاتوا النبي ﷺ، وهو جالس في المسجد وأصحابه، فقالوا: يا أبا القاسم ما ترى في رجل وامرأة منهم زنيا، فلم يكلمهم حتى أتى بيت مدراسهم، فقام على الباب فقال: انشدكم بالله الذي أنزل التوراة على موسى، ما تجدون في التوراة على من زنى إذا أحصن؟ قالوا: يحمم ونجبه ويجلد، والتجبية: أن يحمل الزانيان على حمار وتقابل أفتيتهما ويطاف بهما، وسكت شاب منهم، فلما رآه النبي ﷺ سكت الظ به النشدة فقال: اللهم إذ نشدتنا نجب فإننا نجد في التوراة الرجم، فقال النبي ﷺ: فما أول ما ارتخصتم أمر الله؟ قال: زنى رجل نو قرابة من ملك من ملوكنا، فأخر عنه الرجم، ثم زنى رجل في أسرة من الناس فأراد رجمه، فقال قومه بونه، وقالوا: والله لا ترجم صاحبنا حتى تجي بصاحبك فترجمه، فاصطلحوا هذه العقوبة بينهم، قال النبي ﷺ: فأني أحكم بما في التوراة، فأمر بهما فرجما. قال الزمري: فبلغنا أن هذه الآية نزلت فيهم ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ فكان النبي ﷺ منهم. وأخرجه ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر، والبيهقي في سننه من طريق أخرى عن أبي هريرة، وذكر فيه أن الشاب المذكور هو عبد الله بن سوريا. وأخرج نحو حديث أبي هريرة أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي من حديث البراء بن عازب. وأخرج البخاري ومسلم، وغيرهما، من حديث عبد الله بن عمر: أن لليهود جاؤوا إلى رسول الله ﷺ، فنكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: ما تجدون في التوراة؟ قالوا: نفضحهم ويجلدون، قال عبد الله بن سلام: كنتم إن فيها لية الرجم، فاتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال عبد الله بن سلام:

فانزل الله تلك فيهم، فحملهم رسول الله ﷺ على الحق في ذلك، فجعل الدنيا سواء. وأخرج نحوه عنه ابن أبي شيبة وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم وأبو الشيخ، وابن مريويه، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: **«وَعندهم للتوراة فيها حكم الله»** يعني حدود الله فأخبره الله بحكمه في التوراة، قال: **«وكتبنا عليهم فيها»** إلى قوله: **«والجروح قصاص»**. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وأبو الشيخ عن الحسن في قوله: **«يحكم بها للنبيون الذين أسلموا»** يعني النبي ﷺ **«للذين هادوا»** يعني اليهود. وأخرج ابن جرير عن عكرمة قال: الذين أسلموا النبي ومن قبله من الأنبياء يحكمون بما فيها من الحق. وأخرج ابن جرير عن الحسن قال: الربانيون والأخبار الفقهاء والعلماء. وأخرج عن مجاهد قال: الربانيون العلماء الفقهاء وهم فوق الأخبار. وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال: الربانيون العباد، والأخبار العلماء. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: الربانيون للفقهاء العلماء. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه قال: الربانيون هم المؤمنون، والأخبار هم القراء. وأخرج ابن جرير، عن السدي **«فلا تخشوا الناس»** فتكتموا ما أنزلت **«ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً»** على أن تكتموا ما أنزلت. وأخرج ابن جرير عن ابن زيد **«ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً»** قال: لا تاكلوا السحت على كتابي. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: **«ومن لم يحكم»** يقول: من جحد الحكم بما أنزل الله فقد كفر، ومن أقر به ولم يحكم به فهو ظالم فاسق. وأخرج الفريابي وسعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس في قوله: **«ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون»** قال: إنه ليس بالكفر الذي يذهبون إليه، وإنه ليس كفر ينقل من الملة بل بكون كفره. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن عطاء ابن أبي رباح في قوله: **«ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون - هم للظالمون - هم الفاسقون»** قال: كفر بكون كفر وظلم بكون ظلم، وفسق بكون فسق. وأخرج سعيد بن منصور، وأبو الشيخ، وابن مريويه عن ابن عباس قال: إنما أنزل الله **«ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون - و - للظالمون - و - الفاسقون»** في اليهود خاصة. وقد روى نحو هذا عن جماعة من السلف، وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، عن حنيفة، أن هذه الآيات تكررت عنده **«ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون - و - للظالمون - و - الفاسقون»** فقال رجل: إن هذا في بني إسرائيل، فقال حنيفة: نعم الإخوة لكم بنو إسرائيل، إن كان لكم كل حلوة ولهم كل مرة كلاً، والله لتسلكن طريقهم قد الشراك. وأخرج ابن المنذر نحوه عن ابن عباس.

وَكُنَّا عَلَيْهِمْ بِمَا أَنزَلْنَا مِنَ الْفَتَنِ وَالنَّعَسِ وَالْغَمِّ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفِ وَالْأَذُنِ وَالسِّنِّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحِ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارٌ لِّمَن لَّدُنَّا بِمَا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَى مَائِدِهِم بِبَيْسِ ابْنِ مَرْثَدَةَ لَمَّا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّورَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّورَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٥١﴾ وَلِكَمْ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلْنَا إِلَيْهِمْ وَمَن لَّدُنَّا بِمَا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ قَاصِمًا بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا فِيهِ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لَّيَسِّبُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَأَتَّبِعُوا الْخَيْرَ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنْزِلُ فِيهِ مَنَافِعُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِن أَحْكَمُ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّا رُبُّهُمُ اللَّهُ أَن يَغِيْبَهُمْ بِغَيْبٍ دُونَ هَٰذَا وَإِن كَثُرُوا مِن النَّاسِ لَنُنْزِلَنَّ ﴿٥٤﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْتَغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٥﴾

قوله: **«وكتبنا»** معطوف على أنزلنا التوراة، ومعناها فرضنا، بين الله سبحانه في هذه الآية ما فرضه على بني إسرائيل: من القصاص في النفس، والعين، والأنف، والأذن، والسِّنَّ، والجروح. وقد استدلل أبو حنيفة وجماعة من أهل العلم بهذه الآية فقالوا: إنه يقتل المسلم بالذمى لانه نفس. وقال الشافعي وجماعة من أهل العلم: إن هذه الآية خبر عن شرع من قبلنا وليس بشرع لنا. وقد قدمنا في البقرة في شرح قوله تعالى: **«كتب عليكم القصاص في القتل»** [البقرة: 178] ما فيه كفاية.

وقد اختلف أهل العلم في شرع من قبلنا هل يلزمنا أم لا؟ فذهب الجمهور إلى أنه يلزمنا إذا لم ينسخ، وهو الحق. وقد نكر ابن الصباغ في الشامل إجماع العلماء على الاحتجاج بهذه الآية على ما نلت عليه. قال ابن كثير في تفسيره: وقد احتج الأئمة كلهم على أن الرجل يقتل بالمرأة لعدم هذه الآية الكريمة انتهى.

وقد أوضحنا ما هو الحق في هذا في شرحنا على المنتقى، وفي هذه الآية توبيخ لليهود وتقريع لكونهم يخالفون ما كتبه الله عليهم في التوراة كما حكاها هنا، ويفاضلون بين الأنفس كما سبق بيانه، وقد كانوا يقيون بني النضير من بني قريظة، ولا يقيون بني قريظة من بني النضير. قوله: **«واللعين بالعين»** قرأ نافع وعاصم والأعمش وحمة بالنصب في جميعها على العطف. وقرأ ابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو، وأبو جعفر بالنصب أيضاً في الكل إلا في الجروح فيالرفع. وقرأ الكسائي، وأبو عبيد بالرفع في الجميع عطفاً على المحل؛ لأن النفس قبل دخول الحرف الناصب عليها كانت مرفوعة على الابتداء. وقال الزجاج: يكون عطفاً على المضمر في النفس؛ لأن التقدير: إن

الأنف، فيكون حالا من عيسى مؤكداً للحال الأول ومقرراً له. والأول أولى؛ لأن التأسيس خير من التأكيد. قوله: ﴿وهدى وموعظة للمتقين﴾ عطف على مصدقاً داخل تحت حكمه منضماً إليه: أي مصدقاً وهادياً وواعظاً للمتقين. قوله: ﴿وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه﴾ هذا أمر لأهل الإنجيل بأن يحكموا بما أنزل الله فيه، فإنه قبل البعثة المحمدية حق، وأما بعدها فقد أمروا في غير موضع بأن يعملوا بما أنزل الله على محمد ﷺ في القرآن الناسخ لكل الكتب المنزلة. وقرأ الأعمش وحمة بنصب الفعل من يحكم على أن اللام لام كي، وقرأ الباقر بن الجزم على أن اللام للأمر. فعلى القراءة الأولى، تكون اللام متعلقة بقوله: وآتيناه الإنجيل ليحكم أهله بما أنزل الله فيه، وعلى القراءة الثانية: هو كلام مستأنف. قال مكي: والاختيار الجزم، لأن الجماعة عليه، ولأن ما بعده من الوعيد والتهديد يدل على أنه إلزام من الله لأهل الإنجيل. وقال النحاس: والصواب عندي أنهما قراءتان حسنتان؛ لأن الله سبحانه لم ينزل كتاباً إلا ليعمل بما فيه. قوله: ﴿وانزلنا إليك الكتاب﴾ خطاب لمحمد ﷺ، والكتاب القرآن والتعريف للعهد، و﴿بالحق﴾ متعلق بمحذوف وقع حالاً: أي متلبساً بالحق؛ وقيل هو حال من فاعل أنزلنا؛ وقيل من ضمير النبي ﷺ و﴿مصنقاً لما بين يديه﴾ حال من الكتاب، والتعريف في الكتاب أعني قوله: ﴿مصنقاً لما بين يديه من الكتاب﴾ للجنس: أي أنزلنا إليك يا محمد القرآن حال كونه متلبساً بالحق وحال كونه مصنقاً لما بين يديه من كتب الله المنزل؛ لكونه مشتملاً على الدعوة إلى الله، والأمر بالخير، والنهي عن الشر، كما اشتمل عليه قوله: ﴿ومهيماً عليه﴾ عطف على مصنقاً، والضمير في عليه عائد إلى الكتاب الذي صدقه القرآن وهيمن عليه، والمهيمن الرقيب؛ وقيل الغالب المرتفع؛ وقيل الشاهد؛ وقيل الحافظ؛ وقيل المؤمن. قال المبرد: أصله مؤيمن أبذل من الهمة هاء، كما قيل في أرقت المال هرفت، وبه قال الزجاج وأبو علي الفارسي. وقال الجوهري: هو من آمن غيره من الخوف، وأصله آمن بهمزتين فهو مؤمن بهمزتين قلبت الثانية ياء كراهة لاجتماعهما، فصار مؤيمن ثم صيرت الأولى هاء، كما قالوا هراق الماء وأراقه، يقال هيمن على الشيء يهيمن: إذا كان له حافظاً، فهو له مهيمن كذا عن أبي عبيد. وقرأ مجاهد وابن محيصن: «مهيماً عليه» بفتح الميم، أي: هيمن عليه الله سبحانه. والمعنى على قراءة الجمهور: أن القرآن صار شاهداً بصحة الكتب المنزلة ومقرراً لما فيها مما لم ينسخ، وناسخاً لما خالفه منها، ورقياً عليها وحافظاً لما فيها من أصول الشرائع، وغالباً لها لكونه المرجع في المحكم منها والمنسوخ، ومؤمناً عليها لكونه مشتملاً على ما هو معمول به منها وما هو متروك. قوله: ﴿فاحكم بينهم بما أنزل الله﴾ أي: بما أنزله إليك في القرآن؛ لاشتماله على جميع ما شرعه الله لعباده في جميع الكتب السابقة عليه ﴿ولا تتبع أهواءهم﴾ أي: أهواء أهل الملل السابقة. وقوله:

النفس هي مأخوذة بالنفس، فالأسماء معطوفة على هي. قال ابن المنذر: ومن قرأ بالرفع جعل ذلك ابتداء كلام يتضمن بيان الحكم للمسلمين. والظاهر من النظم القرآني أن العين إذا فقتحت حتى لم يبق فيها محال للإدراك أنها تفتحا عين الجاني بها، والأنف إذا جددت جميعها فإنها تجدد أنف الجاني بها، والأنف إذا قطعت جميعها فإنها تقطع أنف الجاني بها، وكذلك السن؛ فإما لو كانت الجانية ذهبت ببعض إدراك العين، أو ببعض الأنف، أو ببعض الأذن، أو ببعض السن، فليس في هذه الآية ما يدل على ثبوت القصاص.

وقد اختلف أهل العلم في ذلك إذا كان معلوم القدر يمكن الوقوف على حقيقته، وكلامهم ملون في كتب الفروع. والظاهر من قوله: ﴿والسن بالسن﴾ أنه لا فرق بين الثنايا والأنياب والأضراس والرباعيات، وأنه يؤخذ بعضها ببعض؛ ولا فضل لبعضها على بعض. وإليه ذهب أكثر أهل العلم، كما قال ابن المنذر، وخالف في ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومن تبعه، وكلامهم ملون في مواطنه، ولكنه ينبغي أن يكون المأخوذ في القصاص من الجاني هو المماثل للسن المأخوذة من المجني عليه، فإن كانت ذاهبة فما يليها. قوله: ﴿والجروح قصاص﴾ أي نوات قصاص. وقد ذكر أهل العلم أنه لا قصاص في الجروح التي يخاف منها التلف، ولا فيما كان لا يعرف مقداره عمقا أو طولاً أو عرضاً. وقد قنر أئمة الفقه أرش كل جراحة بمقايير معلومة، وليس هذا موضع بيان كلامهم، ولا موضع استيفاء بيان ما ورد له أرش مقنر. قوله: ﴿فمن تصنق به فهو كفارة له﴾ أي: من تصنق من المستحقين للقصاص بالقصاص، بأن عفا عن الجاني فهو كفارة للمتصنق يكفر الله عنه بها ذنوبه. وقيل إن المعنى: فهو كفارة للجراح فلا يؤخذ بجناليته في الآخرة، لأن العفو يقوم مقام أخذ الحق منه. والأول أرجح، لأن الضمير يعود على هذا التفسير الآخر إلى غير منكور. قوله: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾ ضمير الفصل مع اسم الإشارة، وتعريف الخبر يستفاد منها أن هذا الظلم الصادر منهم ظلم عظيم بالغ إلى الغاية. قوله: ﴿وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم﴾ هذا شروع في بيان حكم الإنجيل بعد بيان حكم التوراة: أي جعلنا عيسى ابن مريم يقفوا آثارهم: أي آثار النبيين الذين أسلموا من بني إسرائيل، يقال قفيتها مثل عقبته: إذا اتبعته، ثم يقال قفيتها بفلان وعقبته به فيتعدى إلى الثاني بلباء، والمفعول الأول محذوف استغناء عنه بالظرف، وهو على آثارهم؛ لأنه إذا قفى به على أثره فقد قفى به إياه، وانتصاب ﴿مصنقاً﴾ على الحال من عيسى ﴿وآتيناه الإنجيل﴾ عطف على قفينا، ومحل الجملة أعني: ﴿فيه هدى﴾ النصب على الحال من الإنجيل ﴿ونور﴾ عطف على هدى. وقوله: ﴿ومصنقاً﴾ معطوف على محل ﴿فيه هدى﴾ أي: أن الإنجيل أوتيته عيسى حال كونه مشتملاً على الهدى والنور ومصنقاً لما بين يديه من التوراة؛ وقيل إن مصنقاً معطوف على مصنقاً

عن حكمك بما أنزل الله عليك ويتولون عنه ويبتغون حكم الجاهلية، والاستفهام في ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ للإنتكار أيضاً أي: لا أحسن من حكم الله عند أهل اليقين لا عند أهل الجهل والاهواء.

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس ﴿كُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا﴾ في التوراة. وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عنه، قال: كتب عليهم هذا في التوراة، وكانوا يقتلون الحرَّ بالعبد، فيقولون كتب علينا أن النفس بالنفس. وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ وابن مردويه، والبيهقي في سننه، عن ابن عمر في قوله: ﴿فَمَنْ تَصَنَّقْ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ قال: يهدم عنه من نذوبه بقدر ما تصنَّق به. وأخرج ابن أبي حاتم عن جابر ابن عبد الله ﴿فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ قال: للمجروح. وأخرج أحمد، والترمذي، وابن ماجه، عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم يصاب بشيء في جسده فيتصنَّق به إلا رفعه الله به درجة وحط عنه به خطيئة». وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ قال: مؤتمناً عليه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي عنه قال: المهيمين الأمين، والقرآن أمين على كل كتاب قبله. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ وابن مردويه، عنه في قوله: ﴿شُرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ قال: سبيلاً وسنة. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس قال: قال كعب بن أسد، وعبد الله بن سوريا وشاس بن قيس: اذهبوا بنا إلى محمد لعنا أن نفقته عن نبينا، فأتوه فقالوا: يا محمد إنك قد عرفت أنا أحبار يهود وأشرافهم وساداتهم، وإننا إن اتبعناك اتبعنا يهود، وإن بيننا وبين قومنا خصومة فتحاكمهم إليك، فتقاضى لنا عليهم ونؤمن بك ونصليكَ، فأبى ذلك، وأنزل الله فيهم: ﴿وَأَنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ قال: يهود. وأخرج عبد بن حميد عن قتادة قال: هذا في قتيل اليهود.

يُنَادِي الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ رَبِّكُمْ عَنْ دِينِهِمْ قَوْلَ بَلَى اللَّهُ يُقَاتِلُهُمْ وَيُجَاهِدُهُمْ
أُولَئِكَ عَلَى الْكُفْرَيْنِ أَكْبَرُ عَلَى الْكُفْرَيْنِ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ
ذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ يُقَاتِلُهُمْ مِنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ دَاسِعٌ عَلَيْهِ ﴿٢١﴾ إِنَّا رَزَقْنَاهُ اللَّهُ رِزْقًا وَالَّذِينَ
آمَنُوا الَّذِينَ يُبَيِّنُونَ السُّلُوكَ وَيُؤْتُونَ الزُّكُوفَ وَهُمْ رَكِبُونَ ﴿٢٢﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ رِجْبَ اللَّهِ هُوَ الْغُلْبَةُ ﴿٢٣﴾

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخْذُوا﴾ الظاهر أنه خطاب للمؤمنين حقيقة؛ وقيل المراد بهم: المنافقون، ووصفهم بالإيمان باعتبار ما كانوا يظهرونه. وقد كانوا يوالون اليهود والنصارى فنهوا عن ذلك. والأولى: أن يكون خطاباً لكل من يتصف بالإيمان أعم من أن يكون ظاهراً

﴿عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ متعلق بلا تتبع على تضمينه معنى لا تعدل أو لا تنحرف ﴿عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ متبعاً لاهوائهم؛ وقيل متعلق بمحنوف: أي لا تتبع أهواءهم عادلاً أو منحرفاً عن الحق. وفيه النهي له ﷺ عن أن يتبع أهوية أهل الكتاب، ويعدل عن الحق الذي أنزله الله عليه، فإن كل ملة من الملل تهوي أن يكون الأمر على ما هم عليه، وما أدركوا عليه سلفهم، وإن كان باطلاً منسوخاً أو محرّفاً عن الحكم الذي أنزله الله على الأنبياء، كما وقع في الرجم ونحوه مما حرفوه من كتب الله. قوله: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شُرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ الشريعة والشريعة في الأصل: الطريقة الظاهرة التي يتوصل بها إلى الماء، ثم استعملت فيما شرعه الله لعباده من الدين. والمنهاج: الطريقة الواضحة البينة. وقال أبو العباس محمد بن يزيد المبرد الشريعة: ابتداء الطريق، والمنهاج الطريق المستمر. ومعنى الآية: أنه جعل التوراة لاهلها، والإنجيل لاهله، والقرآن لاهله، وهذا قبل نسخ الشرائع السابقة بالقرآن، وأما بعده فلا شريعة ولا منهاج إلا ما جاء به محمد ﷺ. قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ بشريعة واحدة وكتاب واحد ورسول واحد ﴿وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَكُمْ﴾ أي ولكن لم يشأ ذلك الاتحاد، بل شاء الابتلاء لكم باختلاف الشرائع، فيكون ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ﴾ متعلقاً بمحنوف دل عليه سياق الكلام وهو ما نكرنا، ومعنى: ﴿فِيمَا آتَاكُمْ﴾ فيما أنزله عليكم من الشرائع المختلفة باختلاف الأوقات والرسول هل تعملون بذلك وتدعون له، أو تتركونه وتخالفون ما اقتضته مشيئة الله وحكمته، وتميلون إلى الهوى وتشترون الضلالة بالهدى. وفيه دليل على أن اختلاف الشرائع هو لهذه العلة، أعني الابتلاء والامتحان، لا لكون مصالح العباد مختلفة باختلاف الأوقات والأشخاص. قوله: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ أي: إذا كانت المشيئة قد قضت باختلاف الشرائع فاستبقوا إلى فعل ما أمرتم بفعله وترك ما أمرتم بتركه. والاستباق: المسارعة ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعَكُمْ جَمِيعًا﴾ لا إلى غيره وهذه الجملة كالعلة لما قبلها. قوله: ﴿وَأَنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ عطف على الكتاب: أي أنزلنا عليك الكتاب والحكم بما فيه. وقد استدلل بهذا على نسخ التخيير المتقدم في قوله: ﴿أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ وقد تقدم تفسير ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ قوله: ﴿وَاحْذَرُوا أَنْ يَفْتَخِرُوا عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ﴾ أي: يضلوك عنه ويصرفوك بسبب أهوائهم التي يريدون منك أن تعمل عليها وتؤثرها ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فاعلم إنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم﴾ أي إن أعرضوا عن قبول حكمك بما أنزل الله عليك، فذلك لما أراد الله من تعذيبهم ببعض ذنوبهم وهو ذنب التولي عنك، والإعراض عما جئت به ﴿وَأَنْ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ متمردون عن قبول الحق خارجون عن الإنصاف. قوله: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ الاستفهام للإنتكار والتوبيخ، والفاء للعطف على مقدر كما في نظائره. والمعنى: أيعرضون

يردّ عنك القدر المقدور وداثرات الدهر أن تسورا
أي: نولات الدهر الدائرة من قوم إلى قوم. وقوله:
﴿فعمسى الله أن يأتي بالفتح﴾ ردّ عليهم وبلغ لما وقع لهم
من الخشية، وعمسى في كلام الله وعد صادق لا يتخلف.
والفتح: ظهور النبي ﷺ على الكافرين، ومنه ما وقع من
قتل مقاتلة بني قريظة وسبي ذراريهم، وإجلاء بني النضير؛
وقيل هو فتح بلاد المشركين على المسلمين؛ وقيل فتح
مكة. والمراد بالأمر من عنده سبحانه: هو كل ما تندفع به
صولة اليهود ومن معهم وتنكسر به شوكتهم؛ وقيل: هو
إظهار أمر المنافقين وإخبار النبي ﷺ بما أسروا في
أنفسهم وأمره بقتلهم؛ وقيل: هو الجزية التي جعلها الله
عليهم؛ وقيل: الخصب والسعة للمسلمين، فيصبح المنافقون
﴿على ما أسروا في أنفسهم﴾ من التفاق الحامل لهم على
الموالة ﴿فنامين﴾ على ذلك؛ لبطلان الأسباب التي تخيلوها
وانكشاف خلافها. قوله: ﴿يقول الذين آمنوا﴾ قرأ أبو
عمرو، وابن أبي إسحاق، وأهل الكوفة بإثبات الواو، وقرأ
الباقون بحذفها، فعلى القراءة الأولى مع رفع، يقول: يكون
كلاماً مبتدأ، مسوقاً لبيان ما وقع من هذه الطائفة، وعلى
قراءة النصب: يكون عطفاً على ﴿فيصبحوا﴾ وقيل: على
﴿يأتي﴾ والأولى أولى؛ لأن هذا القول إنما يصدر عن
المؤمنين عند ظهور ندامة الكافرين لا عند إتيان الفتح؛ وقيل
هو معطوف على الفتح كقول الشاعر:

لللبس عباءة وتقرّ عينني

وأما على قراءة حذف الواو: فالجملة مستأنفة جواب
سؤال مقتر، والإشارة بقوله: ﴿أهلؤا﴾ إلى المنافقين: أي
يقول الذين آمنوا مخاطبين لليهود مشيرين إلى المنافقين:
﴿أهلؤا الذين أقسموا بالله جهد إيمانهم إنهم لمعكم﴾
بالمناصرة والمعاضدة في القتال، أو يقول بعض المؤمنين
لبعض مشيرين إلى المنافقين، وهذه الجملة مفسرة للقول.
وجهد الإيمان: أغلظها، وهو منصوب على المصدر أو على
الحال. أي: أقسموا بالله جاهدين. قوله: ﴿حبطت أعمالهم﴾
أي: بطلت وهو من تمام قول المؤمنين، أو جملة مستأنفة،
والقائل الله سبحانه. والأعمال هي التي عملوها في الموالة
أو كل عمل يعملونه. قوله: ﴿ها أيها الذين آمنوا من يرتد
منكم﴾ قرأ أهل المدينة والشام: يرتد بدالين بفك الإدغام،
وهي لغة تميم، وقرأ غيرهم بالإدغام. وهذا شروع في بيان
أحكام المرتدين، بعد بيان أن موالة الكافرين من المسلم
كفر، وذلك نوع من أنواع الردة. والمراد بالقوم الذين وعد الله
سبحانه بالإتيان بهم هم: أبو بكر الصديق رضي الله عنه
وجيشه من الصحابة والتابعين، الذين قاتل بهم أهل الردة،
ثم كل من جاء بعدهم من المقاتلين للمرتدين في جميع
الزمن، ثم وصف سبحانه هؤلاء القوم بهذه الأوصاف
العظيمة، المشتملة على غاية المدح ونهاية الثناء من كونهم
يحبون الله وهو يحبهم، ومن كونهم: ﴿أئمة على المؤمنين
أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون

ويأطناً أو ظاهراً فقط، فيدخل المسلم والمنافق، ويؤيد هذا
قوله: ﴿فترى الذين في قلوبهم مرض﴾ والاعتبار بعموم
اللفظ، وسيأتي في بيان سبب نزول الآية ما يتضح به
المراد. والمراد من النهي عن اتخاذهم أولياء، أن يعاملوا
معاملة الأولياء في المصانقة والمعاشرة والمناصرة. وقوله:
﴿بعضهم أولياء بعض﴾ تعليل للنهي، والمعنى: أن بعض
اليهود أولياء البعض الآخر منهم، وبعض النصارى أولياء
البعض الآخر منهم، وليس المراد بالبعض إحدى طائفتي
اليهود والنصارى، وبالبعض الآخر الطائفة الأخرى للقطع
بأنهم في غاية من العداوة والشقاق ﴿وقالت اليهود ليست
النصارى على شيء﴾ وقالت النصارى ليست اليهود على
شيء. [البقرة: 113] وقيل: المراد أن كل واحدة من
الطائفتين توالي الأخرى وتعاضدها، وتتاصرهما على عداوة
النبي ﷺ وعداوة ما جاء به، وإن كانوا في ذات بينهم
متعادين متضائين. ووجه تعليل النهي بهذه الجملة أنها
تقتضي أن هذه الموالة هي شأن هؤلاء الكفار لا شأنكم،
فلا تفعلوا ما هو من فعلهم فتكونوا مثلهم، ولهذا عقب هذه
الجملة التحليلية بما هو كالنتيجة لها فقال: ﴿ومن يتولهم
منكم فإنه منهم﴾ أي: فإنه من جملتهم وفي عدادهم وهو
وعيد شديد فإن المصحية الموجبة للكفر، هي التي قد بلغت
إلى غاية ليس وراءها غاية. وقوله: ﴿إن الله لا يهدي القوم
الضالين﴾ تعليل للجملة التي قبلها: أي أن وقوعهم في
الكفر هو بسبب علم هدايته سبحانه لمن ظلم نفسه بما
يوجب الكفر كمن يوالى الكافرين. قوله: ﴿فترى الذين في
قلوبهم مرض يسارعون فيهم﴾ الفاء للسببية، والخطاب
إما للرسل ﷺ، أو لكل من يصلح له أي: ما ارتكبه من
الموالة ووقعوا فيه من الكفر هو بسبب ما في قلوبهم من
مرض النفاق. وقوله: ﴿يسارعون﴾ في محل نصب إما على
أنه المفعول الثاني إذا كانت الرؤية قلبية أو على أنه حال إذا
كانت بصرية، وجعل المسارعة في موالاتهم مسارعة فيهم
للمبالغة في بيان رغوبهم في ذلك، حتى كأنهم مستقرون
فيهم داخلون في عدادهم. وقد قرئ فيرى بالتحية. واختلف
في فاعله ما هو؟ فقيل: هو الله عز وجل؛ وقيل: هو كل من
تصح منه الرؤية؛ وقيل: هو الموصول ومفعوله ﴿يسارعون
فيهم﴾ على حذف أن المصدرية: أي فيرى القوم الذين في
قلوبهم مرض أن يسارعوا فيهم، فلما حذفت ارتفع الفعل
كقوله:

الا ايهذا اللائمي احضر الوغا

والمرض في القلوب: هو النفاق والشك في الدين. وقوله:
﴿يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة﴾ جملة مشتملة على
تعليل المسارعة في الموالة: أي أن هذه الخشية هي الحاملة
لهم على المسارعة؛ وقيل إن الجملة حال من ضمير
يسارعون. والدائرة: ما تنور من مكاره الدهر: أي نخشى أن
تظفر الكفار بمحمد ﷺ، فتكون الدولة لهم وتبطل تولته
فيصيبنا منهم مكروه، ومنه قول الشاعر:

لومة لاثم والآنلة: جمع نليل لا نلول، والاعزة: جمع عزيز: أي يظهرون العطف والحنو والتواضع للمؤمنين ويظهرون الشدة والغلظة والترفع على الكافرين، ويجمعون بين المجاهدة في سبيل الله وعدم خوف الملامة في الدين، بل هم متصلبون لا يبالون بما يفعله أعداء الحق، وحزب الشيطان من الإزراء بأهل الدين، وقلب محاسنهم مساوئ، ومنابقيهم مثالب، حسداً وبغضاً، وكراهة للحق وأهله، والإشارة بقوله: **﴿ذلك﴾** إلى ما تقدم من الصفات التي اختصهم الله بها. والفضل: اللطف والإحسان. قوله: **﴿إنما وليكم الله﴾** لما فرغ سبحانه من بيان من لا تحل موالاته، بين من هو الولي الذي تجب موالاته، ومحل **﴿الذين يقيمون الصلاة﴾** الرفع على أنه صفة للذين آمنوا، أو بدل منه، أو النصب على المدح. وقوله: **﴿وهم راعون﴾** جملة حالية من فاعل الفعلين اللذين قبله. والمراد بالركوع: الخشوع والخضوع: أي يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم خاشعون خاضعون لا يتكبرون؛ وقيل هو حال من فاعل الزكاة. والمراد بالركوع هو المعنى المذكور: أي يضعون الزكاة في مواضعها غير متكبرين على الفقراء، ولا مترفعين عليهم؛ وقيل المراد بالركوع على المعنى الثاني: ركوع الصلاة، وينفعه عدم جواز إخراج الزكاة في تلك الحال، ثم وعد سبحانه من يتولى الله ورسوله والذين آمنوا بأنهم الغالبون لعنوتهم، وهو من وضع الظاهر موضع المضمرة، ووضع حزب الله موضع ضمير الموالين له ورسوله وللمؤمنين. والحزب: الصنف من الناس، من قولهم حزبه كذا أي: نابه، فكان المتحزبين مجتمعين كاجتماع أهل النائية التي تنوب، وحزب الرجل: أصحابه، والحزب: الورد. وفي الحديث: «فمن فاتته حزيه من الليل، وتحزبوا: اجتمعوا. والأحزاب: الطوائف. وقد وقع، والله الحمد ما وعد الله به أوليائه وأوليائه رسله، وأوليائه عباداه المؤمنين من الغلب لعنوتهم، فإنهم غلبوا اليهود بالنسي والقتل والإجلاء وضرب الجزية، حتى صاروا لعنهم الله أذل الطوائف الكفرية وأقلها شوكة، وما زالوا تحت كل كل المؤمنين يطحنونهم كيف شاؤوا، ويمتهنونهم كما يريون من بعد البعثة الشريفة المحمدية إلى هذه الغلبة.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ وابن مروي، والبيهقي في الدلائل، وابن عساکر، عن عباد بن الوليد بن عباد بن الصامت قال: لما حارب بنو قينقاع رسول الله ﷺ تشبث بأمرهم عبد الله بن أبي بن سلول وقام نوتهم، ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ وتبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلفهم، وكان أحد بني عوف بن الخزرج، وله من حلفهم مثل الذي كان لهم من عبد الله بن أبي بن سلول، فخلعهم إلى رسول الله ﷺ وقال: أتبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلف هؤلاء الكفار ولايتهم. وفيه وفي عبد الله بن أبي نزلت الآيات في المائدة **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا**

اليهود والنصارى أولياء﴾ إلى قوله: **﴿فإن حزب الله هم الغالبون﴾**. وأخرج ابن مروي عن ابن عباس قال: أسلم عبد الله بن أبي بن سلول، ثم قال: إن بيني وبين قريظة والنضير حلفاً، وإني أخاف الدوائر، فارتد كافرًا. وقال عبادة بن الصامت: أتبرأ إلى الله من حلف قريظة والنضير وأتولى الله ورسوله، فنزلت. وأخرج ابن مروي أيضاً من طريق عبادة بن الوليد بن عباد بن الصامت، عن أبيه، عن جده نحو ذلك. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، عن عطية بن سعد قال: جاء عبادة فنكر نحو ما تقدم، وأخرج ابن جرير، عن الزهري قال: لما انهزم أهل بدر قال المسلمون لأوليائهم من يهود: آمنوا قبل أن يصيبكم الله بيوم مثل يوم بدر، فقال مالك بن الصيف: غرّم أن أصبتم رهطاً من قريش لا علم لهم بالقتال، أما لو أصررنا العزيمة أن نستجمع عليكم، لم يكن لكم يدان بقتالنا، فقال عبادة، نكر نحو ما تقدم عنه وعن عبد الله بن أبي. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس في هذه الآية: **﴿يا أيها الذين آمنوا﴾** قال: إنها في النبأ «من دخل في دين قوم فهو منهم». وأخرج عبد بن حميد عن حنيفة قال: «ليتك أحكم أن يكون يهودياً أو نصرانياً وهو لا يشعر، وتلا **﴿ومن يتولهم منهم فإنه منهم﴾**». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عطية **﴿فترى الذين في قلوبهم مرض﴾** كعبد الله بن أبي **﴿يسارعون فيهم﴾** في ولايتهم. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، والبيهقي في سننه، وابن عساکر، عن قتادة قال: نزل الله هذه الآية: **﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عنه سرته﴾** مرتلون من الناس، فلما قبض الله نبيه ﷺ، ارتد عامة العرب عن الإسلام إلا ثلاثة مساجد: أهل المدينة، وأهل مكة، وأهل الجواثي من عبد القيس؛ وقال الذين ارتدوا: نصلي الصلاة ولا نركي، والله لا تغصب أموالنا، فكلّم أبا بكر في ذلك ليتجاوز عنهم، وقيل له: إنهم لو قد فقهوا أنوا الزكاة؛ فقال: والله لا أفترق بين شيء جمعه الله، ولو منعوني عقلاً مما فرض الله ورسوله لقاتلتهم عليه، فبعث الله عصاباً مع أبي بكر، فقاتلوا حتى أقرروا بالماعون، وهو الزكاة. قال قتادة: فكنا نتحدث أن هذه الآية نزلت في أبي بكر وأصحابه، **﴿فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه﴾** إلى آخر الآية. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي في الدلائل، عن الحسن نحوه. وأخرج ابن جرير، عن شريح بن عبيد قال: لما أنزل الله **﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عنه سرته﴾** الآية، قال عمر: أنا وقومي يا رسول الله؟ قال: لا بل هذا وقومه، يعني أبا موسى الأشعري. وأخرج ابن سعد، وابن أبي شيبة في مسنده، وعبد بن حميد، والحكيم، والترمذي وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم والطبراني، وأبو الشيخ وابن مروي، والحاكم وصححه، والبيهقي في الدلائل، عن عياض الأشعري قال: لما نزلت

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ وابن مروي، والبيهقي في الدلائل، وابن عساکر، عن عباد بن الوليد بن عباد بن الصامت قال: لما حارب بنو قينقاع رسول الله ﷺ تشبث بأمرهم عبد الله بن أبي بن سلول وقام نوتهم، ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ وتبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلفهم، وكان أحد بني عوف بن الخزرج، وله من حلفهم مثل الذي كان لهم من عبد الله بن أبي بن سلول، فخلعهم إلى رسول الله ﷺ وقال: أتبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلف هؤلاء الكفار ولايتهم. وفيه وفي عبد الله بن أبي نزلت الآيات في المائدة **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا**

تنتقمون أن أكثركم فاسقون؛ وقيل: هو مرفوع على الابتداء والخبر محذوف: أي وفسقكم معلوم فتكون الجملة حالية، وقرئ بكسر إن من قوله: ﴿وَأَنْ أَكْثَرُكُمْ فَاسِقُونَ﴾ فتكون جملة مستأنفة، قوله: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ﴾ بين الله سبحانه لرسوله أن فيهم من العيب ما هو أولى بالعيب، وهو ما هم عليه من الكفر الموجب لللعن الله وغضبه ومسخه؛ والمعنى: هل أنبئكم بشر من تقمكم علينا أو بشر مما تريدون لنا من المكروه أو بشر من أهل الكتاب أو بشر من دينهم. وقوله: ﴿مُتَوَبِّعٌ﴾ أي جزاء ثابتاً، وهي مختصة بالخير كما أن العقوبة مختصة بالشر. ووضعت هنا موضع العقوبة على طريقة ﴿فَنَبِّئُهُمْ بِعَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: 21] وهي منصوبة على التمييز من بشر. وقوله: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ خبر لمبتدأ محذوف مع تقدير مضاف محذوف: أي هو لعن من لعنه الله أو هو دين من لعنه الله، ويجوز أن يكون في محل جر بدلاً من شر. وقوله: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ أي مسخ بعضهم قردة وبعضهم خنازير وهم اليهود، فإن الله مسخ أصحاب السبت قردة، وكفار مائدة عيسى منهم خنازير وقوله: ﴿وَعِيدَ الطَّاغُوتِ﴾ قرأ حمزة بضم الباء من عيد وكسر التاء من ﴿الطَّاغُوتِ﴾ أي جعل منهم عبد الطاغوت بإضافة عبد إلى الطاغوت. والمعنى: وجعل منهم من يبالغ في عبادة الطاغوت، لأن فعل من صيغ المبالغة؛ كحذر وفطن للتبليغ في الحذر والفطنة. وقرأ الباقر بفتح الباء من ﴿عَبِيدَ﴾ وفتح التاء من ﴿الطَّاغُوتِ﴾ على أنه فعل ماضٍ معطوف على فعل ماضٍ وهو غضب ولعن، كانه قيل: ومن عبد الطاغوت، أو معطوف على القردة والخنازير: أي جعل منهم القردة والخنازير، وجعل منهم عبد الطاغوت حملاً على لفظ من. وقرأ أبي مسعود ﴿وَعَبِدُوا الطَّاغُوتَ﴾ حملاً على معناها. وقرأ ابن عباس ﴿وَعَبِيدَ﴾ بضم العين والباء كانه جمع عبد، كما يقال: سقف وسقف. ويجوز أن يكون جمع عبید، كزغيف وزغف، أو جمع عابد كباذل وبذل. وقرأ أبو واقد ﴿وعباد﴾ جمع عابد للمبالغة، كعامل وعمال. وقرأ البصريون وعباد جمع عابد أيضاً، كقائم وقيام، ويجوز أن يكون جمع عبد. وقرأ أبو جعفر الرقاشي وعبد الطاغوت على البناء للمفعول، والتقدير وعبد الطاغوت فيهم. وقرأ عون العقيلي، وابن بريده وعابد الطاغوت على التوحيد. وروي عن ابن مسعود وأبي أنهما قرأ ﴿وعبدة الطَّاغُوتِ﴾ وقرأ عبيد بن عمير ﴿وَأَعْبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ مثل كلب وأكلب. وقرئ ﴿وَعَبِيدَ الطَّاغُوتِ﴾ عطفاً على الموصول بناء على تقدير مضاف محذوف، وهي قراءة ضعيفة جداً، والطاغوت: الشيطان أو الكهنة أو غيرهما مما قد تقدّم مستوفى. قوله: ﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا﴾ الإشارة إلى الموصوفين بالصفات المتقدمة، وجعلت الشرارة للمكان، وهي لاهله للمبالغة، ويجوز أن يكون الإسناد مجازياً. قوله: ﴿وَإِضْلٌ عَنْ سِوَاءِ السَّبِيلِ﴾ معطوف على شر، أي هم أضل من غيرهم عن الطريق المستقيم، والتفضيل في

الموضعين للزيادة مطلقاً أو لكونهم أشد وأضل مما يشاركم في أصل الشرارة والضلال. قوله: ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا﴾ أي إذا جاءوكم أظهروا الإسلام. قوله: ﴿وَقَدْ نَخَلُوا بِالْكَفَرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ جملتان حاليتان: أي جاءوكم حال كونهم قد نخلوا عندك متلبسين بالكفر، وخرجوا من عندك متلبسين به لم يؤثر فيهم ما سمعوا منك، بل خرجوا كما نخلوا ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ عندك من الكفر، وفيه وعيد شديد، وهؤلاء هم المنافقون؛ وقيل: هم اليهود الذين قالوا: ﴿آمَنُوا بِالَّذِي أَنْزَلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَكَفَرُوا آخِرَهُ﴾ [آل عمران: 72]. قوله: ﴿وَوَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ أو لكل من يصلح له، والضمير في ﴿مِنْهُمْ﴾ عائد إلى المنافقين، أو اليهود، أو إلى الطائفتين جميعاً ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ﴾ في محل نصب على الحال، على أن الرؤية بصرية أو هو مفعول ثانٍ لترى على أنها قلبية، والمسارة: المبادرة، والإثم: الكذب أو الشرك أو الحرام، والعنوان: الظلم المتعدي إلى الغير أو مجاوزة الحد في الذنوب، والسحت: الحرام، فعلى قول من فسر الإثم بالحرام يكون تكريره للمبالغة، والربانيون علماء النصارى، والأخبار: علماء اليهود؛ وقيل الكل من اليهود لأن هذه الآيات فيهم؛ ثم ويخ علماءهم في تركهم لنهيهم فقال: ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ وهذا فيه زيادة على قوله: ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لأن العمل لا يبلغ درجة الصنع حتى يتدرب فيه صاحبه، ولهذا تقول العرب: سيف صنيع إذا جود عامله عمله فالصنع هو العمل الجيد لا مطلق العمل، فوبخ سبحانه الخاصة، وهم العلماء التاركين للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بما هو أغلظ وأشد من توبيخ فاعل المعاصي، فليفتح العلماء لهذه الآية مسامعهم ويفرجوا لها عن قلوبهم، فإنها قد جاءت بما فيه البيان الشافي لهم بأن كفهم عن المعاصي، مع ترك إنكارهم على أهلها لا يسمن ولا يغني من جوع، بل هم أشد حالاً وأعظم وبالاً من العصاة، فرحم الله عالماً قام بما أوجبه الله عليه من فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهو أعظم ما افترضه الله عليه وأوجب ما أوجب عليه النهوض به. اللهم اجعلنا من عبادك الصالحين الأمرين بالمعروف الناهمين عن المنكر الذين لا يخافون فيك لومة لائم، وأعنا على ذلك، وقوتنا عليه، ويسر لنا، وانصرنا على من تعدى حدودك، وظلم عبادك، إنه لا ناصر لنا سواك، ولا مستعان غيرك، يا مالك يوم الدين، إياك نعبد، وإياك نستعين.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس قال: كان رفاعة بن زيد بن التابوت، وسويد بن الحارث، قد أظهرا الإسلام ونافقا، وكان رجال من المسلمين يوانونهما، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا بَيْنَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا﴾ إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾. وأخرج

تنتقمون أن أكثركم فاسقون؛ وقيل: هو مرفوع على الابتداء والخبر محذوف: أي وفسقكم معلوم فتكون الجملة حالية، وقرئ بكسر إن من قوله: ﴿وَأَنْ أَكْثَرُكُمْ فَاسِقُونَ﴾ فتكون جملة مستأنفة، قوله: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ﴾ بين الله سبحانه لرسوله أن فيهم من العيب ما هو أولى بالعيب، وهو ما هم عليه من الكفر الموجب لللعن الله وغضبه ومسخه؛ والمعنى: هل أنبئكم بشر من تقمكم علينا أو بشر مما تريدون لنا من المكروه أو بشر من أهل الكتاب أو بشر من دينهم. وقوله: ﴿مُتَوَبِّعٌ﴾ أي جزاء ثابتاً، وهي مختصة بالخير كما أن العقوبة مختصة بالشر. ووضعت هنا موضع العقوبة على طريقة ﴿فَنَبِّئُهُمْ بِعَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: 21] وهي منصوبة على التمييز من بشر. وقوله: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ خبر لمبتدأ محذوف مع تقدير مضاف محذوف: أي هو لعن من لعنه الله أو هو دين من لعنه الله، ويجوز أن يكون في محل جر بدلاً من شر. وقوله: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ أي مسخ بعضهم قردة وبعضهم خنازير وهم اليهود، فإن الله مسخ أصحاب السبت قردة، وكفار مائدة عيسى منهم خنازير وقوله: ﴿وَعِيدَ الطَّاغُوتِ﴾ قرأ حمزة بضم الباء من عيد وكسر التاء من ﴿الطَّاغُوتِ﴾ أي جعل منهم عبد الطاغوت بإضافة عبد إلى الطاغوت. والمعنى: وجعل منهم من يبالغ في عبادة الطاغوت، لأن فعل من صيغ المبالغة؛ كحذر وفطن للتبليغ في الحذر والفطنة. وقرأ الباقر بفتح الباء من ﴿عَبِيدَ﴾ وفتح التاء من ﴿الطَّاغُوتِ﴾ على أنه فعل ماضٍ معطوف على فعل ماضٍ وهو غضب ولعن، كانه قيل: ومن عبد الطاغوت، أو معطوف على القردة والخنازير: أي جعل منهم القردة والخنازير، وجعل منهم عبد الطاغوت حملاً على لفظ من. وقرأ أبي مسعود ﴿وَعَبِدُوا الطَّاغُوتَ﴾ حملاً على معناها. وقرأ ابن عباس ﴿وَعَبِيدَ﴾ بضم العين والباء كانه جمع عبد، كما يقال: سقف وسقف. ويجوز أن يكون جمع عبید، كزغيف وزغف، أو جمع عابد كباذل وبذل. وقرأ أبو واقد ﴿وعباد﴾ جمع عابد للمبالغة، كعامل وعمال. وقرأ البصريون وعباد جمع عابد أيضاً، كقائم وقيام، ويجوز أن يكون جمع عبد. وقرأ أبو جعفر الرقاشي وعبد الطاغوت على البناء للمفعول، والتقدير وعبد الطاغوت فيهم. وقرأ عون العقيلي، وابن بريده وعابد الطاغوت على التوحيد. وروي عن ابن مسعود وأبي أنهما قرأ ﴿وعبدة الطَّاغُوتِ﴾ وقرأ عبيد بن عمير ﴿وَأَعْبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ مثل كلب وأكلب. وقرئ ﴿وَعَبِيدَ الطَّاغُوتِ﴾ عطفاً على الموصول بناء على تقدير مضاف محذوف، وهي قراءة ضعيفة جداً، والطاغوت: الشيطان أو الكهنة أو غيرهما مما قد تقدّم مستوفى. قوله: ﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا﴾ الإشارة إلى الموصوفين بالصفات المتقدمة، وجعلت الشرارة للمكان، وهي لاهله للمبالغة، ويجوز أن يكون الإسناد مجازياً. قوله: ﴿وَإِضْلٌ عَنْ سِوَاءِ السَّبِيلِ﴾ معطوف على شر، أي هم أضل من غيرهم عن الطريق المستقيم، والتفضيل في

في الزهد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن الضحاک بن مزاحم نحوه، وقد وردت أحاديث كثيرة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا حاجة لنا في بسطها هنا.

وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُغُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِثُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَنَرْزِقَنَّهُ كَإِذْ نَفَقْتُمْ مِمَّا آتَاكُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَنُغْنِيَنَّكُمْ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ الْكَافِرُ وَالْقِسْطَ يَنْهَى الْمُنَافِقَ وَالظَّالِمَ إِلَى يَوْمِ الْيَمِّنِ كَمَا أَقْدَمُوا نَارًا لَّحَرِّبَ أَمْفَاقًا اللَّهُ وَسِعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الضَّالِّينَ ﴿١٠﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَأَقْبَلُوا لَكُنَّا عَنْهُمْ مُبْرِئِينَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْتَنِبِينَ ﴿١١﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ وَالْجُحُودِ ءَامَنُوا لَأَسْكَنُوهُمْ أَزْوَاجًا ثَمَرًا وَمَا يَكُونُ لَهُمْ جُنتُ الْجَنَّةِ قَرِينَ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُ بَغْيِهِمْ شَيْئًا وَاللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُنَاصِرُ ﴿١٢﴾

قوله: **يَدِ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ** اليد: عند العرب تطلق على الجارحة، ومنه قوله تعالى: **«رَخِذْ يَدَكَ ضَغْثًا»** [ص: 44] وعلى النعمة، يقولون كم يد لي عند فلان؛ وعلى القدرة. ومنه قوله تعالى: **«قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ»** [آل عمران: 73] أو على التأييد، ومنه قوله **«يَدِ اللَّهِ مَعَ الْقَاضِي حِينَ يَقْضِي»** وتطلق على معانٍ أخرى. وهذه الآية هي على طريق التمثيل كقوله تعالى: **«وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ»** [الإسراء: 29] والعرب تطلق غل اليد على البخل، وبسطها على الجود مجازاً، ولا يريون الجارحة كما يصفون البخيل بأنه جعد الأنامل ومقبوض الكف، ومنه قول الشاعر:

كانت خراسان أرضاً لا يزيد بها وكل باب من الخيرات مفتوح
فاستبدلت بعده جعداً أنامله كأنما وجهه بالبخل منضوح
فمراد لليهود هنا عليهم لعائن الله أن الله بخيل، فأجاب سبحانه عليهم بقوله: **«غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ»** دعاء عليهم بالبخل، فيكون الجواب عليهم مطابقاً لما أزالوه بقوله: **«يَدِ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ»** ويجوز أن يراد غل أيديهم حقيقة بالأسر في الدنيا أو بالعذاب في الآخرة، ويقوي المعنى الأول: أن البخل قد لزم اليهود لزوم الظل للشمس، فلا ترى يهودياً، وإن كان ماله في غاية الكثرة، إلا وهو من أبخل خلق الله، وأيضاً المجاز أوفق بالمقام لمطابقته لما قبله. قوله: **«وَلَعَنُوا بِمَا قَالُوا»** معطوف على ما قبله والباء سببية: أي ألعنوا من رحمة الله بسبب قولهم: **«يَدِ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ»** ثم رد سبحانه بقوله: **«بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ»** أي: بل هو في غاية ما يكون من الجود، وذكر الينين مع كونهم لم يذكرها إلا اليد الواحدة مبالغة في الرد عليهم بإثبات ما يدل على غاية السخاء، فإن نسبة الجود إلى الينين أبلى من نسبته إلى اليد الواحدة، وهذه الجملة الإضرابية معطوفة على جملة مقترنة يقتضيها المقام: أي كلا ليس الأمر كذلك: **«بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ»** وقيل المراد بقوله: **«بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ»** نعمة الدنيا الظاهرة ونعمتها الباطنة؛ وقيل: نعمة المطر والنبات؛ وقيل: الثواب والعقاب. وحكى الأخفش عن ابن مسعود أنه قرأ «بل يدها بسيطتان»: أي منطلقتان كيف يشاء. قوله: **«يُنْفِثُ كَيْفَ يَشَاءُ»** جملة مستأنفة مؤكدة لكمال جوده سبحانه: أي

البيهقي في الدلائل من طريق الكلبى، عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله: **«وَإِذَا نَافِثُكُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُؤًا وَلَعِبًا»** قال: كان منادي رسول الله ﷺ إذا نادى بالصلاة، فقام المسلمون إلى الصلاة، قالت اليهود والنصارى: قد قاموا لا قاموا، فإذا رأوهم ركعوا وسجدوا استهزؤوا بهم وضحكوا منهم. قال: وكان رجل من اليهود تاجراً، إذا سمع المنادي ينادي بالآذان قال: أحرق الله الكاتب؛ قال: فبينما هو كذلك، إذ دخلت جاريته بشعلة من نار، فطارت شرارة منها في البيت فأحرقته. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن السدي قال: كان رجل من النصارى فذكر نحو قصة الرجل اليهودي. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس قال: أتى النبي ﷺ نفر من اليهود، فسألوه عمن يؤمن به من الرسل فقال: أومن بالله وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وما أوتى موسى وعيسى، وما أوتى النبيون من ربهم، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون؛ فلما ذكر عيسى جعلوا نبوته، وقالوا: لا تؤمن بعيسى ولا تؤمن بمن آمن به، فأنزل الله فيهم: **«قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَتَّقُونَ مَنْ»** إلى قوله: **«فَأَسْقُونَ»** وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد في قوله: **«وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقُرْدَةَ وَالْخَنَازِيرَ»** قال: مسخت من يهود. وأخرج أبو الشيخ، عن أبي مالك أنه قيل له: كانت القردة والخنازير قبل أن يسخرها؟ قال: نعم، وكانوا مما خلق من الأمم. وأخرج مسلم، وابن مريويه، عن ابن مسعود قال: سئل رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير هما مما مسح الله، فقال: إن الله لم يهلك قوماً، أو قال: لم يمسح قوماً فيجعل لهم نسلًا ولا عاقبة، وإن القردة والخنازير كانت قبل ذلك. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: **«وَإِذَا جَاؤُكُمْ قَالُوا آمَنَّا»** الآية، قال أناس من اليهود: كانوا يدخلون على النبي ﷺ فيخبرونه أنهم مؤمنون راضون بالذي جاء به، وهم متمسكون بضاللتهم وبالكفر، فكانوا يدخلون بذلك ويخرجون به من عند رسول الله ﷺ. وأخرج ابن جرير، عن السدي في الآية قال: هؤلاء ناس من المنافقين كانوا يهوداً، يقول بخلو كفاراً وخرجوا كفاراً. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله: **«وَوَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ»** قال: هؤلاء اليهود «لبئس ما كانوا يعملون» إلى قوله: **«لبئس ما كانوا يصنعون»** قال: يصنعون ويعملون واحد، قال لهؤلاء حين لم ينتهوا، كما قال لهؤلاء حين عملوا. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس في قوله: **«لَوْلَا يَنْهَاهُم الرِّبَانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ»** قال: فهل لا ينهاهم الربانيون والأحبار، وهم الفقهاء والعلماء. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن عباس قال: ما في القرآن آية أشد توبيخاً من هذه الآية **«لَوْلَا يَنْهَاهُم الرِّبَانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ»** وأخرج ابن المبارك

النباش بن قيس: إن ربك بخيل لا يتفق، فأنزل الله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ الآية. وأخرج أبو الشيخ عنه أنها نزلت في فنحاص اليهودي. وأخرج مثله ابن جرير عن عكرمة. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ أي بخيلة. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وَلِيُزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ قال: حملهم حسد محمد والعرب على أن تركوا القرآن، وكفروا بمحمد وبيته، وهم يجنونه مكتوباً عندهم. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم وأبو الشيخ، عن مجاهد في قوله: ﴿كَلِمًا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ لِيُلَاقُوا اللَّهَ﴾. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن السدي في الآية: كلما أجمعوا أمرهم على شيء فرّقه الله، وأطفا حدّهم ونارهم، وقذف في قلوبهم الرعب. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ قال: آمنوا بما أنزل على محمد، واتقوا ما حرّم الله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ قال: العمل بهما، وأما ما أنزل إليهم، فمحمد ﷺ، وما أنزل عليه، وأما: ﴿لَاكُلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ فأرسلت عليهم مطراً، وأما: ﴿مَنْ تَحْتَ أَرْجُلِهِمْ﴾ يقول: أنبت لهم من الأرض من رزقي ما يغنيهم، ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ﴾ وهم مسلمة أهل الكتاب. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس ﴿لَاكُلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ يعني لأرسل عليهم السماء مدراراً ﴿وَمَنْ تَحْتَ أَرْجُلِهِمْ﴾ قال: تخرج الأرض من بركتها. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن الربيع بن أنس قال: الأمة المقتصدة: الذين لا هم فسقوا في الدين ولا هم غلوا. قال: والغلو الرغبة، والفسق التقصير عنه. وأخرج أبو الشيخ، عن السدي ﴿أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ﴾ يقول: مؤمنة. وأخرج ابن مرويّه قال: حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا أحمد بن يونس الضبي، حدثنا عاصم بن علي، حدثنا أبو معشر عن يعقوب بن زيد بن طلحة، عن زيد بن أسلم، عن أنس بن مالك قال: كنا عند رسول الله ﷺ فنذكر حديثاً، قال: ثم حدثهم النبي ﷺ قال: «تفرقت أمة موسى على اثنتين وسبعين ملة، واحدة منها في الجنة وإحدى وسبعون منها في النار؛ وتفرقت أمة عيسى على اثنتين وسبعين ملة، واحدة منها في الجنة وإحدى وسبعون منها في النار، تعلوا أمتي على الفريقين جميعاً ملة واحدة في الجنة وثلثتان وسبعون منها في النار، قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: الجماعات الجماعات» قال يعقوب بن زيد: كان عليّ بن أبي طالب إذا حدث بهذا الحديث عن رسول الله ﷺ تلا فيه قرآنًا، قال: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكُنَّا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ

إِنْفَاقُهُ عَلَى مَا تَقْتَضِيهِ مَشِيئَتُهُ، فَإِنْ شَاءَ وَسِعَ، وَإِنْ شَاءَ قَتَرَ، فَهُوَ الْبَاسِطُ الْقَابِضُ؛ فَإِنْ قَبِضَ كَانَ ذَلِكَ لِمَا تَقْتَضِيهِ حُكْمَتُهُ الْبَاهِرَةُ، لَا لِشَيْءٍ آخَرَ، فَإِنْ خِزَانَتُ مَلِكُهُ لَا تَفْنَى وَمَوَادُّ جُودِهِ لَا تَنْتَاهِي. قوله: ﴿وَلِيُزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾ إلخ، اللام هي لام القسم: أي ليزيدن كثيراً من اليهود والنصارى ما أنزل إليكم من القرآن المشتمل على هذه الأحكام الحسنة ﴿طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ أي: طغياناً إلى طغيانهم، وكفراً إلى كفرهم. قوله: ﴿وَوَلَقَيْنَا بَيْنَهُمُ﴾ أي: بين اليهود والعداوة والبغضاء. أو بين اليهود والنصارى. قوله: ﴿كَلِمًا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ لِيُلَاقُوا اللَّهَ﴾ أي: كلما جمعوا للحرب جمعاً وأعدوا له عدة شئت الله جمعهم، وذهب بريحهم، فلم يظفروا بطائل ولا عابوا بفائدة، بل لا يحصلون من ذلك إلا على الغلب لهم، وهكذا لا يزالون يهيجون الحروب ويجمعون عليها، ثم يبطل الله ذلك، والآية مشتملة على استعارة بليغة، وأسلوب ببيع ﴿وَيُيَسِّعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ أي يجتهدون في فعل ما فيه فساد، ومن أعظمه ما يريونونه من إبطال الإسلام وكيد أهله؛ وقيل المراد بالنار هنا الغضب: أي كلما أثاروا في أنفسهم غضباً أطفاه الله بما جعله من الرعب في صدورهم، والذلة والمسكنة المضروبتين عليهم. قوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ إن كانت اللام للجنس، فهم داخلون في ذلك دخولاً أولياً، وإن كانت للعهد فوضع الظاهر موضع المضمّر لبيان شدة فسادهم، وكونهم لا ينفكون عنه. قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ أي: لو أن المتمسكين بالكتاب، وهم اليهود والنصارى، على أن التعريف للجنس ﴿آمَنُوا﴾ الإيمان الذي طلبه الله منهم، ومن أهمه الإيمان بما جاء به محمد ﷺ كما أمروا بذلك في كتب الله المنزلّة عليهم ﴿وَاتَّقَوْا﴾ المعاصي التي من أعظمها ما هم عليه من الشرك بالله، والجحود لما جاء به رسول الله ﷺ ﴿لَكُنَّا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ التي اقترفوها، وإن كانت كثيرة متنوعة؛ وقيل المعنى: لو سعنا عليهم في أرزاقهم، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ أي: أقاموا ما فيها من الأحكام التي من جملتها الإيمان بما جاء به محمد ﷺ. قوله: ﴿وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ من سائر كتب الله التي من جملتها القرآن، فإنها كلها وإن نزلت على غيرهم، فهي في حكم المنزلّة عليهم لكونهم متعبدین بما فيها؛ ﴿لَاكُلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمَنْ تَحْتَ أَرْجُلِهِمْ﴾ نكر فوق وتحت للمبالغة في تيسر أسباب الرزق لهم وكثرتها، وتعدد أنواعها. قوله: ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ﴾ جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: هل جميعهم متصفون بالأوصاف السابقة، أو البعض منهم دون البعض، والمقتصدون منهم هم: المؤمنون كعبد الله بن سلام، ومن تبعه، وطائفة من النصارى ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ وهم المصرون على الكفر المتمرنون عن إجابة محمد ﷺ والإيمان بما جاء به.

وقد أخرج ابن إسحاق، والطبراني في الكبير، وابن مرويّه، عن ابن عباس قال: قال رجل من اليهود يقال له

ساء ما يعملون» وتلا أيضاً: «وممن خلقنا أمة يهودن بالحق وبه يعملون» [الأعراف: 181] يعني: أمة محمد ﷺ. قال ابن كثير في تفسيره بعد ذكره لهذا الحديث ما لفظه: وحديث افتراق الأمم إلى بضع وسبعين، مروى من طرق عديدة قد ذكرناها في موضع آخر انتهى. قلت: أما زيادة كونها في النار إلا واحدة، فقد ضعفها جماعة من المحدثين، بل قال ابن حزم إنها: موضوعة.

﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَمُشِكُ مِنَ الثَّاغِيَةِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾

العموم الكائن في ما أنزل يفيد أنه يجب عليه ﷺ أن يبلغ جميع ما أنزل الله إليه، لا يكتف من شيئاً. وفيه دليل على أنه لم يسر إلى أحد مما يتعلق بما أنزل الله إليه شيئاً، ولهذا ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: من زعم أن محمداً ﷺ كتم شيئاً من الوحي فقد كذب. وفي صحيح البخاري من حديث أبي جحيفة وهب بن عبد الله السوائي قال: قلت لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: هل عنكم شيء من الوحي مما ليس في القرآن؟ فقال: لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، إلا فهماً يعطيه الله رجلاً في القرآن وما في هذه الصحيفة، قلت: وما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل، وفكك الأسير، وإن لا يقتل مسلم بكافر ﴿فإن لم تفعل﴾ ما أمرت به من تبليغ الجميع، بل كتمت ولو بعضاً من ذلك ﴿فما بلغت رسالته﴾. قرأ أبو عمرو، وأهل الكوفة إلا شعبة «رسالته» على التوحيد. وقرأ أهل المدينة وأهل الشام «رسالته» على الجمع، قال النحاس: والجمع أبين لأن رسول الله ﷺ كان ينزل عليه الوحي شيئاً فشيئاً، ثم يبينه انتهى. وفيه نظر، فإن نفي التبليغ عن الرسالة الواحدة أبلغ من نفيه عن الرسالات، كما ذكره علماء البيان على خلاف في ذلك، وقد بلغ رسول الله ﷺ لأمته ما نزل إليهم، وقال لهم في غير موطن: هل بلغت؟ فيشبهون له بالبيان، فجازه الله عن أمته خيراً؛ ثم إن الله سبحانه وعده بالعصمة من الناس دفعاً لما يظن أنه حامل على كتم البيان، وهو خوف لحوق الضرر من الناس، وقد كان ذلك بحمد الله، فإنه بين لعباد الله ما نزل إليهم على وجه التمام، ثم حمل من أبي من الدخول في الدين على الدخول فيه طوعاً أو كرهاً، وقتل صنائيد الشرك وفرق جموعهم وبند شملهم، وكانت كلمة الله هي العليا، فأسلم كل من نازعه ممن لم يسبق فيه السيف العذل، حتى قال يوم الفتح لصنائيد قريش ولكابرهم: ما تظنون أني فاعل بكم؟ فقالوا: أخ كريم وابن أخ كريم فقال: اذهبوا فأنتم الطلقاء، وهكذا من سبقت له العناية من علماء هذه الأمة يعصمه الله من الناس، إن قام ببيان حجج الله، وإيضاح براهينه، وصرخ بين ظهرائي من ضاد الله وعانده ولم يمتثل لشعره كطوائف المبتدعة، وقد رأينا من هذا في أنفسنا وسمعنا منه في غيرنا ما يزيد المؤمن إيماناً وصلابة في دين الله وشدة شكيمه في القيام بحجة الله، وكل ما يظنه متزلزلاً الأقدام، ومضطرباً القلوب،

من نزول الضرر بهم وحصول المحن عليهم فهو خيالات مختلة وتوهمات باطلة، فإن كل محنة في الظاهر هي منحة في الحقيقة، لأنها لا تأتي إلا بخير في الأولى والأخرى ﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾ [ق: 37]. قوله: ﴿إن الله لا يهدي القوم الكافرين﴾ جملة متضمنة لتعليل ما سبق من العصمة: أي إن الله لا يجعل لهم سبيلاً إلى الإضرار بك، فلا تخف وبلغ ما أمرت بتبليغه.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد قال: لما نزلت: ﴿بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾ قال: يا رب إنما أنا واحد كيف أصنع؟ يجتمع علي الناس، فنزلت: ﴿وإن لم تفعل فما بلغت رسالته﴾ وأخرج أبو الشيخ، عن الحسن، أن رسول الله ﷺ قال: إن الله بعثني برسالته فضقت بها ذرعاً وعرفت أن الناس مكذبني، فوعظني لأبلغن أو ليعذبنني، فنزلت: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾ وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وإن لم تفعل فما بلغت رسالته﴾ يعني: إن كتمت آية مما أنزل إليك لم تبلغ رسالته. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مروي، وابن عساكر، عن أبي سعيد الخدري قال: نزلت هذه الآية: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك﴾ على رسول الله ﷺ يوم غدير خم، في علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وأخرج ابن مروي، عن ابن مسعود قال: كنا نقرأ على عهد رسول الله ﷺ: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾ إن علياً مولى المؤمنين وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عنترة، قال: كنت عند ابن عباس فجاءه رجل فقال: إن ناساً يأتونا فيخبرونا أن عندكم شيئاً لم يده رسول الله ﷺ للناس، فقال: ألم تعلم أن الله قال: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾ والله ما ورننا رسول الله ﷺ سوداء في بيضاء. وأخرج ابن مروي، والضياء في المختارة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ سئل: أي آية أنزلت من السماء أشد عليك؟ فقال: كنت بمنى أيام موسم، فاجتمع مشركوا العرب وأقواء الناس في الموسم، فنزل علي جبريل فقال: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك﴾ الآية، قال: فقممت عند العقبة فناديت يا أيها الناس من ينصرني على أن أبلغ رسالة ربي وله الجنة، أيها الناس قولوا لا إله إلا الله وأنا رسول الله إليكم، فتفلحوا وتنجوا ولكم الجنة، قال: فما بقي رجل ولا امرأة ولا صبي إلا يرمون بالتراب والحجارة ويبيزون في وجهي ويقولون: كذب صابئ، فعرض علي عارض فقال: يا محمد إن كنت رسول الله فقد آن لك أن تدعو عليهم كما دعا نوح على قومه بالهلاك، فقال النبي ﷺ: اللهم أهد قومي فإنهم لا يعلمون، فجاء العباس عمه فأنقذه منهم وطردهم عنه. قال الأعمش: فبذلك يفتخر بنو العباس ويقولون فيهم نزلت: ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾ [القصص: 56] هو النبي ﷺ أبا طالب، وشاء الله عباس بن عبد المطلب.

وأخرج عبد بن حميد، والترمذي وابن جرير وابن المنذر، وابن أبي حاتم وأبو الشيخ، والحاكم، وابن مردويه، وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل، عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يحرس حتى نزلت: ﴿وَاللَّهُ يَعصمكُم مِنَ النَّاسِ﴾ فأخرج رأسه من القبة فقال: أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله. قال الحاكم في المستدرک: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وأخرج الطبراني، وابن مردويه من حديث أبي سعيد. وقد روى في هذا المعنى أحاديث. وأخرج ابن أبي حاتم عن جابر بن عبد الله قال: لما غزا رسول الله ﷺ بني النضير نزل ذات الرقيع بأعلى نخل، فبينما هو جالس على رأس بئر قد دلى رجله، فقال الوارث من بني النضير لأقتلن محمداً، فقال له أصحابه: كيف تقتله؟ قال: أقول له أعطني سيفك فإذا أعطانيه قتلت به؛ فأتاه فقال: يا محمد أعطني سيفك أشمه، فأعطاه إياه، فرعدت يده حتى سقط السيف من يده، فقال رسول الله ﷺ: حال الله بينك وبين ما تريد، فأنزل الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ كُلِّ مَحْذُورٍ﴾ وهذا حديث غريب من هذا الوجه. وأخرج ابن حبان في صحيحه، وابن مردويه عن أبي هريرة نحو هذه القصة، ولم يسم الرجل. وأخرج ابن جرير من حديث محمد بن كعب القرظي نحوه، وفي الباب روايات، وقصة غورث بن الحارث ثابتة في الصحيح، وهي معروفة مشهورة.

قُلْ يَتَذَكَّرُ الْكِتَابَ لَسْمَ عَلَى مَنْ وَحْيٌ تَقِيْمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَذِكْرُكُم كَثِيرٌ مِّنْهُم مَّا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مُّطَاعٌ وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقُونَ وَالصَّابِقُونَ مِمَّن آمَنُوا وَاللَّهُ وَالْيَوْمُ الْآخِرُ وَعَمَلٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٠١﴾ هُم بِمَزْنٍ ﴿١٠٢﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنرسلنا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كَثُلاً جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَصَحِيفًا وَلَا تَكُورُ فَنَفَخْنَا فِيهِمُ النَّارَ وَصَلَوْا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَلَوْا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٤﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّكَ اللَّهُ وَلِلَّاهِلِينَ مِمَّن آمَنُوا ﴿١٠٥﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّكَ اللَّهُ تَالِكُ تَلْبَسُ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَحْدٌ وَإِنْ لَمْ يَشْعُرُوا عَمَّا يُفْعَلُونَ لَيَسَّنَّ لِلَّذِينَ كَفَرُوا فِيهِمْ عَذَابُ آلِهَةٍ ﴿١٠٦﴾ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ إِنَّ أَوَّلَ وَفْءِهِمْ لِلَّهِ وَاللَّهُ عَزُورٌ ذِي جَبَرٍ ﴿١٠٧﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُتُمِّمَ صِدْقُهُ كَمَا يَكْفُلُ الْإِسْلَامُ أَنْظَرُ كَيْفَ بُنِيَ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظَرُ أَنَّ يُؤْتَكَّرَ ﴿١٠٨﴾

قوله: ﴿على شيء﴾ فيه تحقير وتقليل لما هم عليه: أي لستم على شيء يعتد به حتى تقيموا التوراة والإنجيل: أي تعملوا بما فيها من أوامر الله ونواهيه التي من جملتها

ولا فاعلموا أنا وإنتم بغاة الله ما بقينا في شقاق أي: ولا فاعلموا أنا بغاة وأنتم كذلك، ومثله قول ضابي البرجمي:

فمن يك أمسى بالمدينة رحله فإني وقيار بها الغريب أي: فإني لغريب وقيار كذلك. وقال الكسائي والأخفش: إن الصابئون معطوف على المضمر في هادوا. قال النحاس: سمعت الزجاج يقول وقد ذكر له قول الكسائي والأخفش: هذا خطأ من وجهين: أحدهما أن المضمر المرفوع لا يعطف عليه حتى يؤكد. وثانيهما أن المعطوف شريك المعطوف عليه، فيصير المعنى: إن الصابئين قد دخلوا في اليهودية، وهذا محال. وقال الفراء: إنما جاز الرفع لأن إن ضعيفة فلا تؤثر إلا في الاسم دون الخبر، فعلى هذا هو عنده معطوف على محل اسم إن، أو على مجموع إن واسمها، وقيل إن خبر إن مقدر، والجملة الآتية خبر الصابئون والنصارى، كما في قول الشاعر:

نحن بما عنننا وإنتم بما عننك راض والرائي مختلف وقيل: إن إن هنا بمعنى نعم: فالصابئون مرتفع بالابتداء، ومثله قول قيس بن الرقيات:

بكر العوائل في الصبا ح يلعنني والموهنه ويقلن شيب قد علا ك وقد كبرت فقلت إنه

قال الأخفش: إنه بمعنى نعم والهاء للسكت. وقد تقدم الكلام على الصابئين والنصارى في البقرة، وقرئ الصابيون صريحة تخفيفاً للهمزة، وقرئ الصابئون بدون ياء، وهو من صبا يصبو لأنهم صبوا إلى اتباع الهوى، وقرئ

وقرى: ﴿عَمُوا وَصَمُوا﴾ بالبناء للمفعول: أي أعماههم الله وأصمهم. قوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾. هذا كلام مبتدأ يتضمن بيان بعض فضائح أهل الكتاب، والقائلون بهذه المقالة هم فرقة منهم: يقال لهم اليعقوبية؛ وقيل: هم الملكانية، قالوا: إن الله عز وجل حل في ذات عيسى، فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ أي: والحال أنه قد قال المسيح هذه المقالة، فكيف يدعون الإلهية لمن يعترف على نفسه بأنه عبد مثله؟ قوله: ﴿إِنَّهُ مِنْ يَشْرِكُ بِاللَّهِ فَقَدْ حَزَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ الضمير للشأن، وهذا كلام مبتدأ يتضمن بيان أن الشرك يجب تحريم دخول الجنة، وقيل: هو من قول عيسى ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ ينصرونهم فيدخلونهم الجنة أو يخلصونهم من النار. قوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثَلَاثَةٍ﴾ وهذا كلام أيضاً مبتدأ لبيان بعض مخازيهم. والمراد بثالث ثلاثة واحد من ثلاثة، ولهذا يضاف إلى ما بعده، ولا يجوز فيه التثنية كما قال الزجاج وغيره، وإنما ينون وينصب ما بعده إذا كان ما بعده بونه بمرتبة نحو ثالث اثنين ورابع ثلاثة، والقائل بأنه سبحانه وتعالى ثالث ثلاثة هم النصاري، والمراد بالثلاثة: الله سبحانه، وعيسى، ومريم كما يدل عليه قوله: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ﴾ [المائدة: 116] وهذا هو المراد بقولهم ثلاثة آقانيم: إقنيم الأب وإقنيم الابن، وإقنيم روح القدس، وقد تقدّم في سورة النساء كلام في هذا، ثم رد الله سبحانه عليهم هذه الدعوى الباطلة فقال: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ أي: ليس في الوجود إلا الله سبحانه، وهذه الجملة حالية، والمعنى: قالوا تلك المقالة، والحال أنه لا موجود إلا الله، ومن في قوله: ﴿مَنْ إِلَهُ﴾ لتأكيد الاستغراق المستفاد من النفي: ﴿وَأَنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ﴾ من الكفر، ﴿لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابَ أَلِيمٍ﴾ جواب قسم محذوف ساد مسدّ جواب الشرط، ومن في ﴿مَنْهُمْ﴾ بيانية أو تبعية ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾ الفاء للعطف على مقدر، والهمزة للإنكار. قوله: ﴿مَا لِلْمَسِيحِ ابْنِ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ أي: هو مقصور على الرسالة، لا يجاوزها كما زعمتم، وجملة: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ صفة لرسول: أي ما هو إلا رسول من جنس الرسل الذين خلوا من قبله، وما وقع منه من المعجزات لا يوجب كونه إلهاً، فقد كان لمن قبله من الرسل مثلاً، فإن الله أحيا العصا في يد موسى، وخلق آدم من غير أب، فكيف جعلتم إحياء عيسى للموتى، ووجوده من غير أب يوجبان كونه إلهاً، فإن كان كما تزعمون إلهاً لذلك، فمن قبله من الرسل الذين جازوا بمثل ما جاء به آلهة، وأنتم لا تقولون بذلك. قوله: ﴿وَأَمَّا صَدِيقَةٌ﴾ عطف على المسيح: أي وما أمه إلا صديقة: أي صانقة فيما تقوله أو مصنقة لما جاء به ولدها من الرسالة، وذلك لا يستلزم الإلهية لها، بل هي كسائر من يتصف بهذا الوصف من النساء. قوله: ﴿كَانَا

وَالصَّابِغِينَ﴾ عطفاً على اسم إن قوله: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ مبتدأ وخبره ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ والمبتدأ وخبره خبر لأن، وبخول الفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط، والعائد إلى اسم إن محذوف: أي من آمن منهم، ويجوز أن يكون من آمن بدلاً من اسم إن وما عطف عليه، ويكون خبر إن ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ والمعنى على تقدير كون المراد بالذين آمنوا المنافقين كما قلنا: أن من آمن من هذه الطوائف إيماناً خالصاً على الوجه المطلوب، وعمل عملاً صالحاً، فهو الذي لا خوف عليه ولا حزن، وأما على تقدير كون المراد بالذين آمنوا جميع أهل الإسلام: المخلص والمنافق، فالمراد بمن آمن من اتصف بالإيمان الخالص واستمر عليه، ومن أحدث إيماناً خالصاً بعد نفاقه. قوله: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ كلام مبتدأ؛ لبيان بعض أفعالهم الخبيثة. وقد تقدّم في البقرة بيان معنى الميثاق ﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا﴾ ليعزّزهم بالشرائع وينذروهم ﴿كَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ﴾ جملة شرطية وقعت جواباً لسؤال ناس من الأحيار بإرسال الرسل كأنه قيل: ماذا فعلوا بالرسل؟ وجواب الشرط محذوف: أي عصوه. وقوله: ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ جملة مستأنفة أيضاً جواب عن سؤال ناس عن الجواب الأول كأنه قيل: كيف فعلوا بهم. فقيل فريقاً منهم كذبوه ولم يتعرضوا لهم بضرب، وفريقاً آخر منهم قتلوه، وإنما قال: ﴿وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ لمراعاة رؤوس الآي، فمن كذبوه عيسى وأمثاله من الأنبياء، ومن قتلوه زكريا ويحيى. قوله: ﴿وَحَسِبُوا أَنْ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي حسب هؤلاء الذين أخذ الله عليهم الميثاق أن لا يقع من الله عز وجل ابتلاء واختبار بالشدائد اعتزازاً بقولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: 18] قرأ أبو عمرو وحمة والكسائي ﴿تَكُونَ﴾ بالرفع على أن أن هي المخففة من الثقيلة، وحسب بمعنى علم، لأن أن معناها التحقيق. وقرأ الباقون بالنصب على أن أن ناصبة للفعل، وحسب بمعنى الظن، قال النحاس: والرفع عند النحويين في حسبت وأخواتها أجود، ومثله:

ألا زعمت بسباسة اليوم أنني كبرت وإن لا يشهد للهو أمثالي
قوله: ﴿فَعَمُوا وَصَمُوا﴾ أي: عموا عن أبصار الهدى، وصموا عن استماع الحق، وهذه إشارة إلى ما وقع من بني إسرائيل في الابتداء من مخالفة أحكام التوراة، وقتل شعيا، ثم تاب الله عليهم حين تابوا، فكشف عنهم القحط ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾ وهذا إشارة إلى ما وقع منهم بعد التوبة من قتل يحيى بن زكريا وقصدهم لقتل عيسى، وارتفاع ﴿كَثِيرٍ﴾ على البذل من الضمير في الفعلين. قال الاخفش: كما تقول رأيت قومك ثلاثتهم، وإن شئت كان على إضمار مبتدأ: أي العمى والصم كثير منهم، ويجوز أن يكون كثير مرتفعاً على الفاعلية على لغة من قال: لكلوني البراغيث، ومنه قول الشاعر:

ولكن نفاسي أبوه وأمه بحورن يعصرن السليط إقاربه

كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِآتِ وَمَا أَزَاكَ إِلَيْهِ مَا أَتَعَذَّرْتُمْ آيَةً
وَلَكِنْ كَثِيرًا مِّنْهُمْ تَقِصُّونَ ﴿١٨٨﴾

أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يقول لهم هذا القول إلزاماً لهم وقطعاً لشبهتهم: أي اتعبدون من دون الله متجاوزين إياه ما لا يملك لكم ضرراً ولا نفعاً؟ بل هو عبد مأمور، وما جرى على يده من النفع، أو دفع من الضر، فهو بإقدار الله له وتمكينه منه، وأما هو فهو يعجز عن أن يملك لنفسه شيئاً من ذلك، فضلاً عن أن يملكه لغيره، ومن كان لا ينفع ولا يضر فكيف تتخونونه إلهاً وتعبدونه، وأي سبب يقتضي ذلك؟ والمراد هنا المسيح عليه السلام، وقدم سبحانه الضر على النفع لأن دفع المفاسد أهم من جلب المصالح. ﴿والله هو السميع العليم﴾ أي: كيف تعبدون ما لا يملك لكم ضرراً ولا نفعاً، والحال أن الله هو السميع العليم، ومن كان كذلك فهو القادر على الضر والنفع لإحاطته بكل مسموع ومعلوم، ومن جملة ذلك مضاركم ومنافعكم. قوله: ﴿تغلوا في دينكم﴾ لما أبطل سبحانه جميع ما تعلقوا به من الشبه الباطلة، نهاهم عن الغلو في دينهم، وهو المجاوزة للحد كإثبات الإلهية ليعيسى، كما يقوله النصراني، أو حطه عن مرتبته العلية، كما يقوله اليهود فإن كل ذلك من الغلو الممنوم وسلوك طريقة الإفراط أو التقريط، واختيارهما على طريق الصواب. ﴿وغير﴾ منصوب على أنه نعت لمصدر محذوف: أي غلواً غير غلو الحق، وأما الغلو في الحق بإبلاغ كلية الجهد في البحث عنه، واستخراج حقائقه فليس بممنوم، وقيل إن النصب على الاستثناء المتصل، وقيل: على المنقطع ﴿ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل﴾ وهم أسلاف أهل الكتاب من طائفتي اليهود والنصارى: أي قبل البعثة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم ﴿واضلوا كثيراً﴾ من الناس ﴿واضلوا عن سواء السبيل﴾ أي: عن قصدهم طريق محمد ﷺ بعد البعثة، والمراد أن أسلافهم ضلوا من قبل البعثة واضلوا كثيراً من الناس إذ ذاك، وضلوا من بعد البعثة، واضلوا كثيراً من الناس إذ ذاك، وضلوا من بعد البعثة، إما بأنفسهم، أو جعل ضلال من أضلوه ضلالاً لهم؛ لكونهم سنوا لهم ذلك ونهجه لهم؛ وقيل المراد بالآول: كفرهم بما يقتضيه العقل، وبالثاني: كفرهم بما يقتضيه الشرع. قوله: ﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل﴾ أي: لعنهم الله سبحانه ﴿على لسان داود وعيسى ابن مريم﴾ أي: في الزبور والإنجيل على لسان داود وعيسى بما فعلوه من المعاصي، كاعتدائهم في السبت، وكفرهم بعيسى. قوله: ﴿ذلك بما عصوا﴾ جملة مستأنفة جواب عن سؤال مقدر، والإشارة بذلك إلى اللعن: أي ذلك اللعن بسبب المعصية والاعتداء لا بسبب آخر، ثم بين سبحانه المعصية والاعتداء بقوله: ﴿كانوا لا يقناهون عن منكر فعلوه﴾، فاسند الفعل إليهم لكونه فاعله من جملتهم وإن لم يفعلوه جميعاً. والمعنى: أنهم كانوا لا ينهاون العاصي عن معاودة معصية قد فعلها، أو تهايا لفعلها، ويحتمل أن

ياكلان الطعام﴾ استئناف يتضمن التقرير لما أشير إليه من أنهما كسائر أقراد البشر: أي من كان ياكل الطعام كسائر المخلوقين فليس برّب، بل هو عبد مربوب ولدت النساء، فمتى يصلح لأن يكون رباً؟ وأما قولكم إنه كان ياكل الطعام بناسوته لا بلاهوته، فهو كلام باطل يستلزم اختلاط الإله بغير الإله واجتماع الناسوت واللاهوت، ولو جاز اختلاط القديم بالحادث لجاز أن يكون القديم حادثاً، ولو صح هذا في حق عيسى لصح في حق غيره من العباد ﴿انظر كيف نبين لهم الآيات﴾ أي الدلالات، وفيه تعجيب من حال هؤلاء الذين يجعلون تلك الأوصاف مستلزماً للإلهية، ويغفلون عن كونها موجودة في من لا يقولون بأنه إله ﴿ثم انظر انى يؤفكون﴾ أي: كيف يصرفون عن الحق بعد هذا البيان؟ يقال افكه يافكه إذا صرفه، وكرر الأمر بالنظر للمبالغة في التعجيب، وجاء بثم لإظهار ما بين العجبيين من التفاوت.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس قال: جاء نافع بن حارثة وسلام بن مشكم، ومالك بن الصيف، ورافع بن حرمة فقالوا: يا محمد الست تزعم أنك على ملة إبراهيم وبنيه، وتؤمن بما عنينا من التوراة وتشهد أنها من الله حق؟ فقال النبي ﷺ: بلى ولكنكم أحدثتم وجحدتم ما فيها مما أخذ عليكم من الميثاق، وكفرتكم منها بما أمرتم أن تبينوه للناس، فبرئت من أحداثكم، قالوا: فلنا نؤخذ بما في أيدينا وإنما على الهدى والحق، ولا نؤمن بك ولا نتبعك، فأنزل الله فيهم: ﴿قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل﴾ إلى قوله: ﴿القوم الكافرين﴾. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الحسن في قوله: ﴿وحسبوا أن لا تكون فتنة﴾ قال: بلاء. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة مثله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة﴾ قال: النصراني يقولون إن الله ثالث ثلاثة وكذبوا. وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال: تفرقت بنو إسرائيل ثلاث فرق في عيسى، فقالت فرقة هو الله، وقالت فرقة هو ابن الله، وقالت فرقة هو عبد الله وروحه، وهي المقتصدة وهي مسلمة أهل الكتاب.

قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ شَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْكَلِيمُ ﴿١٨٩﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَصْلَحُوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿١٩٠﴾ لَوْ أَنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١٩١﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٩٢﴾ تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٩٣﴾ وَلَوْ

يعني في الزبور ﴿ويعيسى ابن مريم﴾ يعني في الإنجيل. وأخرج أبو عبيد، وعبد بن حميد وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن أبي مالك الغفاري في الآية قال: لعنوا على لسان داود فجعلوا قردة، وعلى لسان عيسى فجعلوا خنازير. وأخرج ابن جرير عن مجاهد مثله. وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ، عن قتادة نحوه. وأخرج البيهقي في مسند الفريوس، عن أبي عبيدة بن الجراح مرفوعاً: قتلتم بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً من أول النهار، فقام مائة وأثنا عشر رجلاً من عبادهم فأمروهم بالمعروف ونهواهم عن المنكر، فقتلوا جميعاً في آخر النهار، فهم الذين نكر الله: ﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل﴾ الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس في قوله: ﴿لبئس ما قُتِلْتُمْ لِمَ تَنفُسُكُمْ﴾ قال: ما أمرتهم. وأخرج ابن أبي حاتم والخرائطي في مساوئ الأخلاق، وابن مردويه، والبيهقي في شعب الإيمان، وضعفه، عن حنيفة عن النبي ﷺ قال: «يا معشر المسلمين إياكم والزنا، فإن فيه ست خصال: ثلاث في الدنيا وثلاث في الآخرة: فأما التي في الدنيا: فذهاب البهاء، ونوم الفقر، وقصر العمر؛ وأما التي في الآخرة: فسخط الله، وسوء الحساب، والخلود في النار؛ ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿لبئس ما قُتِلْتُمْ لِمَ تَنفُسُكُمْ﴾ إن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون» قال ابن كثير في تفسيره: هذا الحديث ضعيف على كل حال. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد في قوله: ﴿ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء﴾ قال: المناقون.

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَتَوْكُم مِّنْ بَيْنِهِمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَتَوْكُم مِّنْ بَيْنِهِمْ قَتِيلِينَ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٢٦) وَإِذَا سَأَلْتُمَا مَا أَنزَلَ إِلَى الرُّسُلِ تَجِدُهُمْ يَقُولُونَ مِمَّا قَالُوا مِن الْأَنبِيَاءِ إِنَّهُمْ يَكْتُمُونَ السَّيِّئَاتِ وَاللَّهُ يَكْفِي مَا كَتُمُوا (٢٧) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْحَقِّ فَاصْلَحُوا لِنَرْحَمَهُمْ (٢٨) فَاتَّبَعَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا فَجَنَّاتُ جَنَّةٍ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٢٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٣٠)

قوله: ﴿لَتَجِدَنَّ﴾ الخ هذه جملة مستأنفة لما قبلها من تعداد مساوئ اليهود وهناتهم، وبخول لام القسم عليها يزيد ما تأكيداً وتقريباً، والخطاب لرسول الله ﷺ، أو لكل من يصلح له كما في غير هذا الموضع من الكتاب العزيز. والمعنى في الآية: أن اليهود والمشركين لعنهم الله أشد جميع الناس عداوة للمؤمنين وأصلبهم في ذلك. وإن النصراني أقرب الناس مودة للمؤمنين، واللام في ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ في الموضعين متعلقة بمحذوف وقع صفة لعداوة ومودة، وقيل هو متعلق بعداوة ومودة؛ والإشارة بقوله: ﴿ذلك﴾ إلى كونهم أقرب مودة، والباء في ﴿بأن منهم قسيسين﴾ السببية: أي ذلك بسبب أن منهم قسيسين، وهو

يكون وصفهم بأنهم قد فعلوا المنكر باعتبار حالة النزول لا حالة ترك الإنكار، وبين العصيان والاعتداء بترك التناهي عن المنكر؛ لأن من أخل بواجب التناهي عن المنكر فقد عصى الله سبحانه وتعدى حدوده. والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهم القواعد الإسلامية، وأجل الفرائض الشرعية، ولهذا كان تاركه شريكاً لفاعل المعصية، ومستحقاً لغضب الله وانتقامه كما وقع لأهل السبت، فإن الله سبحانه مسخ من لم يشاركهم في الفعل، ولكن ترك الإنكار عليهم، كما مسخ المعتدين فصاروا جميعاً قردة وخنازير ﴿إن في ذلك لنعراً لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾ [ق: 37] ثم إن الله سبحانه قال مقباً لعدم التناهي عن المنكر ﴿لبئس ما كانوا يفعلون﴾ أي: من تركهم لإنكار ما يجب عليهم إنكاره ﴿تري كثيراً منهم﴾ أي: من اليهود مثل كعب بن الأشرف وأصحابه ﴿يتولون الذين كفروا﴾ أي: المشركين وليسوا على دينهم ﴿لبئس ما قُتِلْتُمْ لِمَ تَنفُسُكُمْ﴾ أي: سولت وزينت، أو ما قُتِمُوهم لأنفسهم؛ ليردوا عليه يوم القيامة، والمخصوص بالذم هو ﴿إن سخط الله عليهم﴾ أي: موجب سخط الله عليهم على حذف مضاف أو هو سخط الله عليهم على حذف المبتدأ؛ وقيل هو: أي إن سخط الله عليهم بدل من ما ﴿ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي﴾ أي: نبيهم ﴿وما أنزل إليه﴾ من الكتاب ﴿ما اتخذوهم﴾ أي: المشركين ﴿أولياء﴾ لأن الله سبحانه، ورسوله المرسل إليهم، وكتابه المنزل عليهم قد نهواهم عن ذلك ﴿ولكن كثيراً منهم فاسقون﴾ أي: خارجون عن ولاية الله وعن الإيمان به ويرسلوه ويكتبوا.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة في قوله: ﴿لا تغفلوا في بينكم﴾ يقول: لا تبتعدوا. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال: كانوا مما غلوا فيه أن دعوا لله صاحبة وولداً. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد في قوله: ﴿وضلوا عن سواء السبيل﴾ قال: يهود. وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد، وأبو داود، والترمذي وحسنه، وابن ماجه وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لن أول ما نخل النقص على بني إسرائيل كان الرجل يلقي الرجل فيقول له: يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك، ثم يلغاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ثم قال: ﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود﴾ إلى قوله: ﴿فاسقون﴾ ثم قال: كلاً، والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطراً». وقد روي هذا الحديث من طرق كثيرة، والاحاديث في هذا الباب كثيرة جداً فلا نطول بذكرها. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود﴾

الدخول مع الصالحين؟ فالحال الأول والثانية صاحبهما الضمير في ﴿لَنَا﴾ وعاملهما الفعل المقتدر: أي حصل، ويجوز أن تكون الحال الثانية من الضمير في ﴿نُؤْمِنُ﴾ والتقدير: وما لنا نجمع بين ترك الإيمان وبين الطمع في صحبة الصالحين. قوله: ﴿فَنُؤْمِنُ بِمَا قَالُوا﴾ الخ أثابهم على هذا القول مخلصين له معتقدين لمضمونه. قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ التكنيب بالآيات كفر، فهو من باب عطف الخاص على العام. والجحيم: النار الشديدة الإيقاد، ويقال جحيم فلان النار: إذا شدد إيقادها، ويقال أيضاً لعين الأسد: جحمة لشدة إيقادها. قال الشاعر:

والحرب لا تبقى لأجملها التحيل والمزاح

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد، في قوله: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً﴾ الآية قال هم الوفد الذين جاؤوا مع جعفر وأصحابه من أرض الحبشة. وأخرج أبو الشيخ، وابن مروي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما خلا يهودي بمسلم إلا هم بقتله» وفي لفظ: «إلا حثت نفسه بقتله» قال ابن كثير: وهو غريب جداً. وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء قال: ما نكر الله به النصراني من خير فلانما يراد به النجاشي وأصحابه. وأخرج أبو الشيخ عنه قال: هم ناس من الحبشة آمنوا إذا جاءتهم مهاجرة المؤمنين فنلك لهم. وأخرج النسائي وابن جرير وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مروي عن عبد الله بن الزبير قال: نزلت هذه الآية في النجاشي وأصحابه: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾. وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم وأبو نعيم، في الحلية والواحد من طريق ابن شهاب قال: أخبرني سعيد بن المسيب وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وعروة بن الزبير قالوا: بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري وكتب معه كتاباً إلى النجاشي، فقدم على النجاشي فقرأ كتاب رسول الله ﷺ، ثم دعا جعفر بن أبي طالب والمهاجرين معه، وأرسل النجاشي إلى الرهبان والقسيسين فجمعهم، ثم أمر جعفر بن أبي طالب أن يقرأ عليهم القرآن، فقرأ عليهم سورة مريم، فأمنوا بالقرآن وفاضت أعينهم من الدمع، وهم الذين أنزل الله فيهم: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً﴾ إلى قوله: ﴿مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ وابن مروي، عن سعيد بن جبيرة في الآية قال: هم رسل النجاشي بإسلامه وإسلام قومه، كانوا سبعين رجلاً يختارهم من قومه، الخير فالخير، في الفقه والسنن، وفي لفظ: نعت من خيار أصحابه إلى رسول الله ﷺ ثلاثين رجلاً، فلما أتوا رسول الله ﷺ دخلوا عليه فقرأ عليهم سورة يس، فبكوا حين سمعوا القرآن وعرفوا أنه الحق، فانزل الله فيهم: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً﴾ الآية ونزلت هذه الآية فيهم أيضاً ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ الكتاب من قبله هم به يؤمنون. [القصص: 52] إلى قوله:

جمع قس وقسيس قاله قطرب. والقسيس: العالم، وأصله من قس: إذا تتبع الشيء وطلبه. قال الرازي:

يصبحن عن قس الأذى غوافلاً وتقسست أصواتهم بالليل تسمعنها والقس: النميعة. والقس أيضاً: رئيس النصراني في الدين والعلم، وجمعه قسوس أيضاً، وكذلك القسيس: مثل الشر والشرير، ويقال في جمع قسيس تكسراً قسوسة بلبال أحد السنين وأو، والأصل قساسة، فالمراد بالقسيسين في الآية: المتبعون للعلماء والعباد، وهو إما عجمي خلطته العرب بكلامها، أو عربي، والرهبان: جمع راهب كركبان وراكب، والفعل رهب الله يرهبه: أي خافه. والرهبانة والترهب: التبع في الصوامع. قال أبو عبيد: وقد يكون رهبان للواحد والجمع. قال الفراء: ويجمع رهبان إذا كان للمفرد رهبان ورهبان كقربان وقربان. وقد قال جرير في الجمع:

رهبان مدين لوراك ترهبوا

وقال الشاعر في استعمال رهبان مفرداً:

لو أبصرت رهبان دير في الجبل لانحدر الرهبان يسعى ونزل ثم وصفهم الله سبحانه بأنهم لا يستكبرون عن قول الحق، بل هم متواضعون، بخلاف اليهود فإنهم على ضد ذلك، وهذه الجملة معطوفة على الجملة التي قبلها ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ﴾ معطوف على جملة ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾. ﴿تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ أي: تمتلئ فتفيض، لأن الفيض لا يكون إلا بعد الامتلاء، جعل العين تفيض، والفائض: إنما هو للدمع قصداً للمبالغة كقولهم نمت عينه. قال امرؤ القيس:

ففاضت دموع العين مني صلبة على النحر حتى بل لمعي محملي قوله: ﴿مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ من الأولى لابتداء الغاية، والثانية بيانية: أي كان ابتداء الفيض ناشئاً من معرفة الحق، ويجوز أن تكون الثانية تبعية، وقرئ: ﴿تَرَى أَعْيُنَهُمْ﴾ على البناء للمجهول. وقوله: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا﴾ استئناف مسوق لجواب سؤال مقتدر، كأنه قيل: فما حالهم عند سماع القرآن؟ فقال: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَالْتَكُنَّا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي: آمنا بهذا الكتاب النازل من عندك على محمد ويمن أنزلته عليه فالتكنا مع الشاهدين على الناس يوم القيامة، من أمة محمد أو مع الشاهدين بانه حق، أو مع الشاهدين بصلق محمد وأنه رسولك إلى الناس. قوله: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ كلام مستأنف، والاستفهام للاستبعاد ﴿وَلَنَا﴾ متعلق بمحذوف، و ﴿لَا نُؤْمِنُ﴾ في محل نصب في الحال، والتقدير: أي شيء حصل لنا حال كوننا لا نؤمن بالله وبما جاءنا من الحق؟ المعنى: أنهم استبعدوا انتفاء الإيمان منهم مع جود مقتضى له، وهو الطمع في إنعام الله، فالاستفهام والنفي متوجهان إلى القيد والمقيد جميعاً كقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً﴾ [نوح: 13]، والوار في ﴿وَنُطْمِعُ أَنْ يَدْخُلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ للحال أيضاً بتقدير مبتدأ: أي أي شيء حصل لنا غير مؤمنين ونحن نطمع في

﴿أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا﴾ [القصص: 54]. وأخرج عبد بن حميد، والطبراني، وأبو الشيخ وابن مردويه، عن ابن عباس نحوه بدون ذكر العدد. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي قال: بعث النجاشي إلى رسول الله ﷺ اثني عشر رجلاً، سبعة قسيسين وخمسة رهباناً، ينظرون إليه ويسألونه فلما لقوه فقرا عليهم ما أنزل الله بكوا وأمنوا، فأنزل الله فيهم: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَى الرَّسُولِ﴾ الآية، والروايات في هذا الباب كثيرة، وهذا المقدار يكفي، فليس المراد إلا بيان سبب نزول الآية. وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله: ﴿قسيسين﴾ قال: هم علماءهم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه من طرق عن ابن عباس في قوله: ﴿فَاكْتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ قال: أمة محمد ﷺ. **يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرَمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ** ﴿١٧﴾ وَكَلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١٨﴾

وقد أخرج الترمذي وحسنه وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن عدي في الكامل، والطبراني، وابن مردويه، عن ابن عباس: أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني إذا أكلت اللحم انتشرت للنساء، وأخذتني شهوة، وإني حرمت علي اللحم، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرَمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ وقد روي من وجه آخر مرسلًا، وروي موقوفًا على ابن عباس. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عنه في الآية قال: نزلت في رطب من الصحابة قالوا: نقطع مذاكيرنا ونترك شهوات الدنيا، ونسبح في الأرض كما يفعل الرهبان، فبلغ ذلك النبي ﷺ فارسل إليهم، فنكر لهم ذلك فقالوا نعم، فقال النبي ﷺ: ولكنني أصوم وأقصر وأصلي وأنام وأتكم النساء، فمن أخذ بسنتي فهو مني، ومن لم يأخذ بسنتي فليس مني. وقد ثبت نحو هذا في الصحيحين وغيرهما، من دون ذكر أن ذلك سبب نزول الآية، وأخرج عبد بن حميد، وأبو داود، في المراسيل، وابن جرير، عن أبي مالك أن هؤلاء الرهط هم عثمان بن مظعون وأصحابه، وفي الباب روايات كثيرة بهذا المعنى، وكثير منها مصرح بأن ذلك سبب نزول الآية. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم أن عبد الله بن رواحة ضافه ضيف من أهله، وهو عند النبي ﷺ ثم رجع إلى أهله، فوجدهم لم يطعموا ضيفهم انتظروا له، فقال لامراته: حبست ضيفي من أجلي هو حرام علي، فقالت امراته: هو حرام علي فقال الضيف: هو حرام علي، فلما رأى ذلك وضع يده وقال: كلوا بسم الله، ثم ذهب إلى النبي ﷺ فأخبره، فقال رسول الله ﷺ: قد أصبت، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرَمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ وهذا أثر منقطع، ولكن في صحيح البخاري في قصة الصديق مع أضيافه ما هو شبيه بهذا. وأخرج ابن أبي حاتم عن مسروق قال: كنا عند عبد الله فجاء بضرع، فتنحى رجل، فقال له عبد الله: ابن، فقال: إني حرمت أن أكله، فقال عبد الله: ابن فاطمك وكفر عن يمينك، وتلا هذه الآية. وأخرجه أيضاً الحاكم في مستدركه، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِالْفَمِّ وَآلِ الْفَوِّ وَآلِ الْيَمِينِ وَلَكِنْ بِؤَاخِذِكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ

الطيبات: هي المستلذات لما أحله الله لعباده، نهى الذين آمنوا عن أن يحرموا على أنفسهم شيئاً منهم، إما لظنهم أن في ذلك طاعة لله وتقرباً إليه، وأنه من الزهد في الدنيا لرفع النفس عن شهواتها، أو لقصد أن يحرموا على أنفسهم شيئاً مما أحله لهم كما يقع من كثير من العوام من قولهم: حرام علي، وحرمت علي نفسي، ونحو ذلك من الألفاظ التي تتخل تحت هذا النهي القرآني. قال ابن جرير الطبري: لا يجوز لأحد من المسلمين تحريم شيء مما أحل الله لعباده المؤمنين على نفسه من طيبات المطاعم والملابس والمناكح، ولذلك رد النبي ﷺ التبتل على عثمان بن مظعون. فثبت أنه لا فضل في ترك شيء مما أحله الله لعباده، وأن الفضل والبر إنما هو في فعل ما ندب الله عباده إليه، وعمل به رسول الله ﷺ وسنة لأمته، واتباعه على منهجه الأئمة الراشدون، إذ كان خير الهدي هدي نبينا محمد ﷺ. فإذا كان ذلك كذلك، تبين خطأ من أثر لبس الشعر والصوف على لباس القطن والكتان إذا قدر على لباس ذلك من حله، وأثر أكل الخشن من الطعام، وترك اللحم، وغيره حذراً من عارض الحاجة إلى النساء. قال: فإن ظن ظناً أن الفضل في غير الذي قلنا لما في لباس للخشن وأكله من المشقة على النفس وصرف ما فضل بينهما من القيمة إلى أهل الحاجة، فقد ظن خطأ، وذلك أن الأولى بالإنسان صلاح نفسه وعونه لها على طاعة ربها، ولا شيء، أضرم للجسم من المطاعم الربية، لأنها مفسدة لعقله، ومضعفة لأنواته التي جعلها الله سبباً إلى طاعته. قوله: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ أي: لا تعتدوا على الله بتحريم طيبات ما أحل الله لكم، أو لا تعتدوا فتحلوا ما حرم الله عليكم: أي تترخصوا فتحلوا حراماً كما نهيتهم عن التشديد على أنفسكم بتحريم الحلال. وقد ذهب جمهور العلماء إلى أن من حرم على نفسه شيئاً مما أحله الله له فلا

لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِالْفَمِّ وَآلِ الْفَوِّ وَآلِ الْيَمِينِ وَلَكِنْ بِؤَاخِذِكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ

وصاع مما عدها. وقد أخرج ابن ماجه، وابن مردويه، عن ابن عباس قال: كفر رسول الله ﷺ بصاع من تمر وكفر الناس به، ومن لم يجد فنصف صاع من بر، وفي إسناده عمر بن عبد الله بن يعلى الثقفي وهو مجمع على ضعفه. وقال الدارقطني: متروك. قوله: ﴿أَوْ كَسَوْتَهُمْ﴾ عطف على إطعام. قرئ بضم الكاف وكسرها وهما لغتان مثل أسوة وإسوة. وقرأ سعيد بن جبير، ومحمد بن السميعف اليماني «أو كاسوتهم»: يعني كأسوة أهليكم، والكسوة في الرجال تصنق على ما يكسو البدن، ولو كان ثوباً واحداً، وهكذا في كسوة النساء؛ وقيل الكسوة للنساء برقع وخمار؛ وقيل المراد بالكسوة ما تجزئ به الصلاة. قوله: ﴿أَوْ تَحْرِيرَ رَقَبَةٍ﴾ أي إعتاق مملوك، والتحرير: الإخراج من الرق، ويستعمل التحرير في فك الأسير وإعفاء المجهود بعمل عن عمله وترك إزال الضرر به، ومنه قول الفرزدق:

أبني غداة أنني حررتكم فوهبتكم لعطية بن جمال
أي حررتكم من الهجاء الذي كان سيضع منكم ويضر بأحسابكم.

ولاهل العلم أبحاث في الرقبة التي تجزئ في الكفارة، وظاهر هذه الآية أنها تجزئ كل رقبة على أي صفة كانت. وذهب جماعة منهم الشافعي إلى اشتراط الإيمان فيها، قياساً على كفارة القتل: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ أي فمن لم يجد شيئاً من الأمور المنكورة فكفارته صيام ثلاثة أيام، وقرئ «متتابعات» حكى ذلك عن ابن مسعود وأبي، فتكون هذه القراءة مقيدة لمطلق الصوم. وبه قال أبو حنيفة والثوري، وهو أحد قول الشافعي. وقال مالك، والشافعي في قوله الآخر: يجزئ التفريق ﴿ذَلِكَ كَفَّارَةٌ إِيْمَانَكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ أي ذلك المنكور كفارة إيمانكم إذا حلفتُم وحنثتم، ثم أمرهم بحفظ الإيمان، وعدم المسارعة إليها أو إلى الحنث بها، والإشارة بقوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ إلى مصدر الفعل المنكور بعده، أي مثل ذلك البيان ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ﴾ وقد تكرر هذا في مواضع من الكتاب العزيز، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ما أتمع به عليكم من بيان شرائعه وإيضاح أحكامه.

وقد أخرج ابن جرير، عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ في القوم الذين كانوا حرّموا على أنفسهم النساء واللحم قالوا: يا رسول الله كيف نصنع بإيماننا التي حلفنا عليها؟ فأنزل الله: ﴿لَا يُلَاحِظَكُمْ اللَّهُ بِاللُّغُو فِي إِيْمَانِكُمْ﴾ وأخرج عبد بن حميد، عن سعيد بن جبير، في اللغو قال: هو الرجل يحلف على الحلال. وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد قال: هما الرجلان يتبايعان، يقول أحدهما: والله لا أبيع بكذا، ويقول الآخر: والله لا أشتريه بكذا. وأخرج عبد بن حميد، وأبو الشيخ، عن النخعي قال: اللغو أن يصل كلامه بالحلف: والله لتأكلن والله لتشربن ونحو هذا لا يريد به يميناً ولا يتعمد حلفاً، فهو لغو اليمين ليس عليه كفارة، وقد تقدّم الكلام في

تقديم تفسير اللغو، والخلاف فيه، في سورة البقرة، و﴿فِي إِيْمَانِكُمْ﴾ صلة ﴿يُلَاحِظُكُمْ﴾ قيل و﴿فِي﴾ بمعنى من والإيمان جمع يمين. وفي الآية دليل على أن إيمان اللغو لا يؤخذ الله الحالف بها، ولا تجب فيها الكفارة. وقد ذهب الجمهور من الصحابة، ومن بعدهم، إلى أنها قول الرجل: لا والله وبلى والله في كلامه، غير معتقد لليمين، وبه فسر الصحابة الآية وهم أعرف بمعاني القرآن. قال الشافعي: وذلك عند اللجاج والغضب والعجلة. قوله: ﴿وَلَكِنْ يُلَاحِظُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْإِيْمَانَ﴾ قرئ بتشديد «عقدتم» وبتخفيفه، وقرئ «عاقبتهم». والعقد على ضربين: حسي، كعقد الحبل؛ وحكي، كعقد البيع، واليمين، والعهد. قال الشاعر:

قوم إذا عقبوا عقداً لجارهم شدا العناج وشدا فوقة الكربا
فاليمين المعقدة من عقد القلب ليفعلن أو لايفعلن في المستقبل: أي ولكن يؤاخذكم بإيمانكم المعقدة الموثقة بالقصد والنية إذا حنثتم فيها. وأما اليمين للغموس: فهي يمين مكر وخديعة، وكتب قد باء الحالف بإثمها، وليست بمعقودة ولا كفارة فيها كما ذهب إليه الجمهور، وقال الشافعي: هي يمين معقودة لأنها مكتسبة بالقلب معقودة بخبر مقرونة باسم الله، والراجع الأول، وجميع الأحاديث الواردة في تكفير اليمين مترجمة إلى المعقودة ولا يدل شيء منها على الغموس، بل ما ورد في الغموس إلا الوعيد والترهيب، وإنها من الكبائر، بل من أكبر الكبائر، وفيها نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَإِيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران: 77] الآية. قوله: ﴿فَكَفَّارَتُهُ﴾ الكفارة: هي مأخوذة من التكفير وهو التستير، وكذلك الكفر هو الستر، والكافر هو الساتر، لأنها تستر الذنب وتغطي، والضمير في كفارته راجع إلى «ما» في قوله: ﴿بِمَا عَقَّدْتُمْ﴾. إطعام عشرة مساكين من لوسط ما تطعمون أهليكم المراد بالوسط هنا المتوسط بين طرفي الإسراف والتقتير، وليس المراد به الأعلى كما في غير هذا الموضع: أي أطمعهم من المتوسط مما تعانون إطعام أهليكم منه، ولا يجب عليكم أن تطعموهم من أعلاه، ولا يجوز لكم أن تطعموهم من أدناه، وظاهره أنه يجزئ إطعام عشرة حتى يشبعوا. وقد روي عن علي بن أبي طالب أنه قال: لا يجزئ إطعام العشرة غداء دون عشاء حتى يغنيهم ويعشيهم. قال أبو عمر: هو قول أئمة الفتوى بالأمصار. وقال الحسن البصري وابن سيرين: يكفي أن يطعم عشرة مساكين أكلة واحدة: خبزاً وسمناً، أو خبزاً ولحماً. وقال عمر بن الخطاب، وعائشة، ومجاهد، والشعبي، وسعيد بن جبير، وإبراهيم النخعي، وميمون بن مهران، وأبو مالك، والضحاك والحكم، ومكحول، وأبو قلاب، ومقاتل: يدفع إلى كل واحد من العشرة نصف صاع من بر أو تمر. وروي ذلك عن علي. وقال أبو حنيفة نصف صاع بر

شَهْرَهُ ﴿١٧﴾ وَأَلْبِسُوا اللَّهَ وَأَلْبِسُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا إِنَّا قَدْ كُنَّا قَاعِلَمًا أَنَّمَا عَلَ رَسُولُ الْبَلْعِ الْبَيْتِ ﴿١٨﴾ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَمَنُوا وَاللَّهُ يَرْبِيُ الْغَرِيِّبَ ﴿١٩﴾

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ خطاب لجميع المؤمنين. وقد تقدم تفسير الميسر في سورة البقرة ﴿وَالْأَنْصَابِ﴾ هي: الأصنام المنصوبة للعبادة، ﴿وَالْأَزْلَامِ﴾. قد تقدم تفسيرها في أول هذه السورة، والرجس يطلق على العذرة والأقذار، وهو خير للخمر، وخير المعطوف عليه محذوف. وقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ لِلشَّيْطَانِ﴾ صفة لرجس: أي كائن من عمل الشيطان، بسبب تحسينه لذلك وتزيينه له وقيل: هو الذي كان عمل هذه الأمور بنفسه فاقتدى به بنو آدم والضمير في ﴿فَلَجْتَئِبُوهُ﴾ راجع إلى الرجس أو إلى المنكور. وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ علة لما قبله. قال في الكشف: أكد تحريم الخمر والميسر وجوهاً من التأكيد، منها تصدير الجملة بإنما، ومنها أنه قرنهما بعبادة الأصنام ومنه قوله ﴿شَارِبِ الْخَمْرِ كَعَالِدِ الْوَتَنِ﴾، ومنها أنه جعلهما رجساً، كما قال: ﴿فَلَجْتَئِبُوا الرَّجْسَ مِنَ الْأَوْتَانِ﴾ [الحج: 30]، ومنها أنه جعلهما من عمل الشيطان، والشيطان لا يأتي منه إلا الشرُّ البحت، ومنها أنه أمر بالاجتناب، ومنها أنه جعل الاجتناب من الفلاح، وإذا كان الاجتناب فلاحاً كان الارتكاب خيبةً ومحقة، ومنها أنه نكر ما ينتج منهما من الويل، وهو وقوع التعادي والتباعد بين أصحاب الخمر والقمر، وما يؤيدان إليه من الصد عن نكر الله، وعن مراعاة أوقات الصلوات انتهت.

وفي هذه الآية دليل على تحريم الخمر لما تضمنه الأمر بالاجتناب من الوجوب وتحريم الصد، ولما تقرّر في الشريعة من تحريم قربان الرجس، فضلاً عن جعله شرباً يشرب. قال أهل العلم من المفسرين وغيرهم: كان تحريم الخمر بتدريج ونوازل كثيرة، لأنهم كانوا قد افقوا شربها وحبيها الشيطان إلى قلوبهم، فأول ما نزل في أمرها ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: 219] فترك عند ذلك بعض من المسلمين شربها، ولم يتركه آخرون، ثم نزل قوله تعالى: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ [النساء: 43] فتركها البعض أيضاً، وقالوا لا حاجة لنا فيما يشغلنا عن الصلاة، وشربها البعض في غير أوقات الصلاة، حتى نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّمَا لِلْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ فصارت حراماً عليهم، حتى كان يقول بعضهم ما حرم الله شيئاً أشد من الخمر، وذلك لما فهموه من التشديد فيما تضمنته هذه الآية من الزواجر، وفيما جاءت به الأحاديث الصحيحة من الوعيد لشاربيها، وإنها من كبائر الذنوب.

وقد أجمع على ذلك المسلمون إجماعاً لا شك فيه ولا شبهة، واجمعوا أيضاً على تحريم بيعها والانتفاع بها ما

البقرة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿وَلَكِنْ يُوَاحِظُكُمْ بِمَا عَقَبْتُمُ الْإِيمَانَ﴾ قال: بما تعمدتم. وأخرج عبد بن حميد، وأبو الشيخ، عن قتادة نحوه. وأخرج ابن مريويه، عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ كان يقيم كفارة اليمين مدّاً من حنطة، وفي إسناده النضر بن زبارة بن عبد الكريم الذهلي الكوفي. قال أبو حاتم مجهول، ونكره ابن حبان في الثقات. وقد تقدّم حديث ابن عباس وتضعيفه. وأخرج ابن مريويه عن أسماء بنت أبي بكر قالت: كنا نعطي في كفارة اليمين بالمد الذي نقنات به، وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن عمر بن الخطاب قال: إني أحلف لا أعطي أقواماً، ثم يبيعوا لي فأعطيهم، فأطعم عشرة مساكين كل مسكين صاعاً من شعير، أو صاعاً من تمر أو نصف صاع من قمح، وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن علي بن أبي طالب قال: في كفارة اليمين إطعام عشرة مساكين لكل مسكين نصف صاع من حنطة. وأخرج عبد بن حميد، عن ابن عباس مثله. وأخرج عنه عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ من طرق قال: في كفارة اليمين مدٌّ من حنطة لكل مسكين. وأخرج هؤلاء ابن أبي حاتم عن زيد بن ثابت مثله. وأخرج هؤلاء أيضاً عن ابن عمر مثله. وأخرج ابن المنذر عن أبي هريرة مثله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن علي بن أبي طالب قال: تغيبهم وتعشيمهم إن شئت خبزاً ولحماً، أو خبزاً وزيتاً، أو خبزاً وسمناً، أو خبزاً وتمراً. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿مَنْ أَوْسَطَ مَا تَطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ قال: من عسركم ويسركم. وأخرج ابن ماجه عنه قال: الرجل يقوت أهله قوتاً فيه سعة، وكان الرجل يقوت أهله قوتاً فيه شدة، فنزلت: ﴿مَنْ أَوْسَطَ مَا تَطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مريويه عنه نحو ذلك. وأخرج الطبراني وابن مريويه، عن عائشة عن النبي ﷺ في قوله: ﴿أَوْ كَسَوْتَهُمْ﴾ قال: عبادة لكل مسكين، قال ابن كثير: حديث غريب. وأخرج ابن مريويه عن حنيفة قال: قلت يا رسول الله ﷺ ﴿أَوْ كَسَوْتَهُمْ﴾ ما هو؟ قال: عبادة عبادة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: عبادة لكل مسكين أو شملة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عمر قال: الكسوة ثوب أو إزار. وأخرج ابن جرير، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس قال: في كفارة اليمين هو بالخيار في هؤلاء الثلاثة الأول فالأول، فإن لم يجد من ذلك شيئاً فصيام ثلاثة أيام متتابعات. وأخرج ابن مريويه عنه نحوه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا لَنَنَزَّلُ اللَّيْلَ وَالْأَصْحَارَ وَالْأَكْثَرُ رَجَسٌ مِّنْ عَنِي الْفَلَيْتِ فَاتَّبِعُوا لَكُمْ قُلُوبَكُمْ ﴿٢٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الْفَلَيْتُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْمَدَّةَ وَالْمَحْضَةَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَرَسُولُكَ مَن ذَكَرَ اللَّهَ وَنِيَ الْفَلَاةَ فَهَلْ أَنْتُمْ

والثالث: الاتقاء بالإحسان والتقرب بالنوافل، وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مروي، والبيهقي في الشعب، عن ابن عمر قال: نزل في الخمر ثلاث آيات، فأول شيء: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر﴾ [البقرة: 219] الآية، فقيل: حرمت الخمر، فقيل: يا رسول الله دعنا ننتفع بها كما قال الله، فسكت عنهم، ثم نزلت هذه الآية: ﴿لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾ [النساء: 43]، فقيل: حرمت الخمر، فقالوا: يا رسول الله لا نشربها قرب الصلاة، فسكت عنهم، ثم نزلت: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر﴾ الآية، فقال رسول الله ﷺ: «حرمت الخمر» وأخرج أحمد عن أبي هريرة قال: حرمت الخمر ثلاث مرات، وذكر نحو حديث ابن عمر، فقال الناس: يا رسول الله، ناس قتلوا في سبيل الله وماتوا على فراشهم كانوا يشربون الخمر ويأكلون الميسر، وقد جعله الله رجساً من عمل الشيطان، فأنزل الله: ﴿ليس على الذين آمنوا﴾ الآية، وقال النبي ﷺ: «لو حرم عليهم لتركوه كما تركتم». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والنحاس في ناسخه، وأبو الشيخ، وابن مروي، عن سعد بن أبي وقاص قال: في نزل تحريم الخمر، صنع رجل من الأنصار طعاماً، فدعا ناساً، فأتوه، فكلوا وشربوا، حتى انتشوا من الخمر، وذلك قبل تحريم الخمر فتأخروا، فقالت الأنصار: الأنصار خير من المهاجرين، وقالت قريش: قريش خير، فأمر رجل بلحى جمل فضرب على أنفي، فأتيت النبي ﷺ فنكرت ذلك له، فنزلت هذه الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما للخمر والميسر﴾ الآية. وأخرج عبد بن حميد، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، وأبو الشيخ، والحكم وصححه، وابن مروي، والبيهقي عن ابن عباس قال: أنزل تحريم الخمر في قبيلتين من الأنصار شربوا، فلما أن ثمل القوم عبث بعضهم ببعض، فلما أن صحوا جعل يرى الرجل منهم الأثر بوجهه وبرأسه ولحيته، فيقول صنع بي هذا أخي فلان وكانوا إخوة ليس في قلوبهم ضغائن، والله لو كان بي رؤوفاً رحيماً ما صنع بي هذا حتى وقعت الضغائن في قلوبهم، فأنزل الله هذه الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر﴾ إلى قوله: ﴿فهل أنتم منتهون﴾ فقال ناس من المتكلفين: هي رجس، وهي في بطن فلان قتل يوم بدر، وفلان قتل يوم أحد، فأنزل الله هذه الآية: ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا﴾ الآية. وقد رويت في سبب النزول روايات كثيرة موافقة لما قد ذكرناه. وأخرج عبد بن حميد عن قتادة قال: الميسر هو القمار كله. وأخرج ابن مروي، عن وهب بن كيسان قال: قلت لجابر متى حرمت الخمر؟ قال: بعد أحد. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة قال: نزل تحريم الخمر في سورة المائدة، بعد غزوة الأحزاب. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم والطبراني، وأبو الشيخ، عن ابن عباس قال: كل القمار من الميسر حتى لعب

دامت خمرأ، وكما بليت هذه الآية على تحريم الخمر، بليت أيضاً على تحريم الميسر، والأنصاب، والأزلام. وقد أشارت هذه الآية إلى ما في الخمر والميسر من المفسدات الدنيوية بقوله: ﴿إنما يريد للشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء﴾ ومن المفسدات الدينية بقوله: ﴿ويصننكم عن ذكر الله وعن الصلاة﴾. قوله: ﴿فهل أنتم منتهون﴾ فيه زجر بليغ يفيد الاستفهام الدال على التقرع والتوبيخ. ولهذا قال عمر رضي الله عنه لما سمع هذا: انتهينا، ثم أكد الله سبحانه هذا التحريم بقوله: ﴿وطيعوا الله واطيعوا الرسول وحذروا﴾ أي مخالفتها: أي مخالفة الله ورسوله، فإن هذا وإن كان أمراً مطلقاً فالمجيء به في هذا الموضع يفيد ما ذكرناه من التأكيد، وهكذا ما أفاده بقوله: ﴿فإن توليتم فاعلموا إنما على رسولنا البلاغ المبين﴾ أي: إن أعرضتم عن الامتثال، فقد فعل الرسول ما هو الواجب عليه من البلاغ الذي فيه رشاكم وصلاحكم، ولم تضرروا بالمخالفة إلا أنفسكم، وفي هذا من الزجر ما لا يقاير قدره ولا يبلغ مداه. قوله: ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا﴾ أي: من المطاعم التي يشتهونها، والطعم وإن كان استعماله في الأكل أكثر لكنه يجوز استعماله في الشرب، ومنه قوله تعالى: ﴿ومن لم يطعمه فإنه مني﴾ [البقرة: 249] إباح الله سبحانه لهم في هذه الآية جميع ما طعموا كائناً ما كان مقيداً بقوله: ﴿إذا ما تقوا﴾ أي: اتقوا ما هو محرم عليهم كالخمر وغيره من الكبائر، وجميع المعاصي ﴿وآمنوا﴾ بالله ﴿وعملوا الصالحات﴾ من الأعمال التي شرعها الله لهم: أي استمروا على عملها. قوله: ﴿ثم لتقوا﴾ عطف على اتقوا الأول: أي اتقوا ما حرم عليهم بعد ذلك مع كونه كان مباحاً فيما سبق ﴿وآمنوا﴾ بتحريمه ﴿ثم لتقوا﴾ ما حرم عليهم بعد التحريم المنكسر قبله مما كان مباحاً من قبل، ﴿واحسنوا﴾ أي: عملوا الأعمال الحسنة، هذا معنى الآية؛ وقيل: التكرير باعتبار الأوقات الثلاثة؛ وقيل: إن التكرير باعتبار المراتب الثلاث، المبدأ، والوسط، والمنتهى؛ وقيل: إن التكرار باعتبار ما يتقيه الإنسان، فإنه ينبغي له أن يترك المحرمات توقياً من العذاب، والشبهات توقياً من الوقوع في الحرام، وبعض المباحات حفظاً للنفس عن الخسة؛ وقيل إنه لمجرد التأكيد، كما في قوله تعالى: ﴿كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون﴾ [التكاثر: 3، 4]، هذه الوجوه كلها مع قطع النظر عن سبب نزول الآية إما مع النظر إلى سبب نزولها، وهو أنه لما نزل تحريم الخمر، قال قوم من الصحابة: كيف بمن مات منا وهو يشربها ويأكل الميسر؟ فنزلت، فقد قيل: إن المعنى ﴿لتقوا﴾ الشرك ﴿وآمنوا﴾ بالله ورسوله ﴿ثم لتقوا﴾ الكبائر ﴿وآمنوا﴾ أي: ازدادوا إيماناً ﴿ثم لتقوا﴾ الصغائر ﴿واحسنوا﴾ أي: تنفلوا. قال ابن جرير الطبري: الاتقاء الأول: هو الاتقاء بتلقي أمر الله بالقبول والتصديق والدينونة به والعمل، والاتقاء الثاني: الاتقاء بالثبات على التصديق،

والأزلام: قدام كانوا يستقسمون بها الأمور. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة قال: كانت لهم حصيات إذا أراد أحدهم أن يغزو أو يجلس استقسم بها. وأخرج ابن المنذر عن مجاهد في الأزلام قال: هي كعاب فارس التي يقتسمون بها، وسهام العرب. وقد وردت لحديث كثيرة في ذم الخمر وشاربها، والوعيد الشديد عليه، وأن كل مسكر حرام، وهي مدونة في كتب الحديث، فلا تطول المقام بذكرها، فلسنا بصدد ذلك، بل نحن بصدد ما هو متعلق بالتفسير.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَبِئْسَ لَكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَمِائِكُمْ يَقْتُلُ اللَّهُ مِنْ خِفَافٍ بِالْقَيْبِ مِمَّنْ اعْتَدَا بِذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِمَّا قَتَلَ مِنْ أَنْفَمٍ بِحَسَبِ مَا دَوَّ عَدْلِي مِنْكُمْ هَذَا بَطْلٌ الْكَبِيرِ أَوْ كَثْرَةً طَعَامًا سَكِينًا أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَذُوقُ وَإِلَّا أَمْرٌ عَنَّا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْقِمِ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿١٦﴾ أَجَلٌ لَكُمْ صَيْدٌ الْبَحْرِ وَمَكَلَمَةٌ سَمَاءَ لَكُمْ وَلِلْغَنَةِ وَرَمٍ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرْمًا وَأَقْبُوا اللَّهَ الْوَلِيَّ إِلَيْهِ تُخْشَرُونَ ﴿١٧﴾ جَعَلَ اللَّهُ الْكَبْشَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ فَيَسَا لِلنَّاسِ وَالشَّهَرِ الْحَرَامَ وَالْمَدَنَ وَالْقَلْبَةَ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَلْمِزْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٨﴾ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩﴾ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٠﴾

قوله: ﴿لَبِئْسَ لَكُمْ﴾ أي ليختبرنكم، واللام جواب قسم محذوف، كان الصيد أحد معاش العرب فابتلاهم الله بتحريمه مع الإحرام وفي الحرم، كما ابتلى بني إسرائيل أن لا يعتدوا في السبت، وكان نزول الآية في عام الحديبية، أحرم بعضهم وبعضهم لم يحرم، فكان إذا عرض صيد اختلفت فيه أحوالهم.

وقد اختلف العلماء في المخاطبين بهذه الآية، هل هم المحلون أو المحرمون؟ فذهب إلى الأول: مالك وإلى الثاني: ابن عباس، والراجح أن الخطاب للجميع، ولا وجه لقصده على البعض دون البعض، و«من» في ﴿مَنْ الصَّيْدُ﴾ للتبعية وهو صيد البر، قلة ابن جرير الطبري وغيره؛ وقيل: إن «من» بانية: أي شيء حقير من الصيد، وتنكير شيء للتحقير. قوله: ﴿تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَمِائِكُمْ﴾ قرأ ابن وثاب (يناله) بالياء التحتية، هذه الجملة تقتضي تعميم الصيد، وأنه لا فرق بين ما يؤخذ باليد، وهو ما لا يطبق الفرار كالصغار والبيض، وبين ما تناله الرماح: وهو ما يطبق الفرار وخص الأيدي بالذكر: لأنها أكثر ما يتصرف به الصائد في أخذ الصيد، وخص الرماح بالذكر: لأنها أعظم الآلات للصيد عند العرب. قوله: ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مِنْ يَخَافَهُ بِالْغَيْبِ﴾ أي: ليميز عند الله من يخافه منكم بسبب عقابه الأخروي فإنه غائب عنكم غير حاضر، ﴿فَمَنْ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: بعد هذا البيان الذي امتحنكم الله به، لأن الاعتداء بعد العلم بالتحريم معاندة الله سبحانه

الصبيان بالجوز والكعاب. وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر، عن علي بن أبي طالب قال: النرد والشطرنج من الميسر. وأخرج عبد بن حميد عن علي قال: الشطرنج ميسر الأعاجم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن القاسم بن محمد، أنه سئل عن النرد أهو من الميسر؟ قال: كل من الهوى عن ذكر الله وعن الصلاة فهو ميسر. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي الدنيا في ذم المراهي، والبيهقي في الشعب، عنه أيضاً أنه قيل له: هذه النرد تكثر هونها فما بال الشطرنج؟ قال: كل ما الهوى عن ذكر الله وعن الصلاة فهو من الميسر. وأخرجوا أيضاً عن ابن الزبير قال: يا أهل مكة بلغني عن رجال يلعبون بلعبة يقال لها النردشير، والله يقول في كتابه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾ إلى قوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾، وإنني أحلف بالله لا أوتي بأحد يلعب بها إلا عاقبته في شعره وبشره، وأعطيت سلبه من أتاني به. وأخرج ابن أبي الدنيا عن مالك بن انس قال: الشطرنج من النرد، بلغنا عن ابن عباس أنه ولي مال يتيم فاحرقها. وأخرج ابن أبي الدنيا، عن عبد الله بن عمير قال: سئل ابن عمر عن الشطرنج؟ فقال هي شر من النرد. وأخرج ابن أبي الدنيا، عن عبد الملك بن عبيد قال: رأى رجل من أهل الشام أنه يغفر لكل مؤمن في كل يوم اثنتي عشرة مرة إلا أصحاب النشاة، يعني أصحاب الشطرنج. وأخرج ابن أبي الدنيا عن أبي جعفر أنه سئل عن الشطرنج، فقال تلك المجوسية فلا تلعبوا بها. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن أبي الدنيا، عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «من لعب بالنردشير فقد عصى الله ورسوله». وأخرج أحمد عن عبد الرحيم الخطمي، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مثل الذي يلعب بالنرد ثم يقوم فيصلي مثل الذي يتوضأ بالقحح ودم الخنزير ثم يقوم فيصلي». وأخرج ابن أبي شيبة، وابن أبي الدنيا عن عبد الله بن عمر قال: اللاعب بالنرد قماراً كآكل لحم الخنزير، والللاعب بها من غير قمار كالمذهن بولك الخنزير. وأخرج ابن أبي الدنيا، عن يحيى بن كثير قال: «مر رسول الله ﷺ يقوم يلعبون بالنرد فقال: قلوب لاهية وأيدي عليلة والسنة لاغية». وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي الدنيا، وأبو الشيخ، عن قتادة قال: الميسر القمار. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، من طريق ليث عن عطاء وطاوس، ومجاهد قالوا: كل شيء فيه قمار، فهو من الميسر، حتى لعب الصبيان بالجوز والكعاب. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن أبي الدنيا، وأبو الشيخ عن ابن سيرين قال: القمار من الميسر. وأخرج ابن أبي الدنيا، وأبو الشيخ، عنه قال: ما كان من لعب فيه قمار، أو قيام أو صياح، أو شر، فهو من الميسر. وأخرج ابن أبي حاتم، عن يزيد بن شريح، أن النبي ﷺ قال: «ثلاث من الميسر: الصفير بالحمام، والقمار، والضرب بالكعاب». وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: الأنصاب حجارة كانوا يذبحون لها،

وتجرئ عليه. قوله: ﴿لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ نهاهم عن قتل الصيد في حال الإحرام، وفي معناه ﴿غير محلي الصيد وأنتم حرم﴾ [المائدة: 1] وهذا النهي شامل لكل أحد من نكور المسلمين وإناتهم، لأنه يقال رجل حرام وامرأة حرام والجمع حرم، وأحرم الرجل: دخل في الحرم. قوله: ﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمَّداً﴾ المتعمد: هو القاصد للشيء مع العلم بالإحرام، والمخطئ: هو الذي يقصد شيئاً فيصيب صيداً، والناسي: هو الذي يتعمد الصيد ولا ينكر إحرامه. وقد استدل ابن عباس، وأحمد في رواية، وداود عنه باقتصاره سبحانه على العمد بأنه لا كفارة على غيره، بل لا تجب إلا عليه وحده. وبه قال سعيد بن جبير، وطاوس، وأبو ثور. وقيل: إنها تلزم الكفارة المخطئ والناسي كما تلزم المتعمد، وجعلوا قيد التعمد خارجاً مخرج الغالب، روي عن عمر، والحسن، والنخعي، والزهري، وبه قال مالك والشافعي وأبو حنيفة وأصحابهم، وروي عن ابن عباس. وقيل: إنه يجب التكفير على العمد للناسي لإحرامه، وبه قال مجاهد، قال: فإن كان ذاكراً لإحرامه فقد حل، ولا حج له، لا ارتكابه محظور إحرامه، فبطل عليه كما لو تكلم في الصلاة أو أحدث فيها. قوله: ﴿فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قُتِلَ مِنَ النِّعَمِ﴾ أي: فعليه جزء مماثل لما قتله، ومن النعم بيان للجزاء المماثل. قيل: المراد المماثلة في القيمة، وقيل: في الخلقة. وقد ذهب إلى الأول: أبو حنيفة، وذهب إلى الثاني: مالك والشافعي وأحمد والجمهور، وهو الحق لأن البيان للمماثل بالنعم يفيد ذلك، وكذلك يفيد هدياً بالغ الكعبة. وروي عن أبي حنيفة أنه يجوز إخراج القيمة ولو وجد المثل، وأن المحرم مخير. وقرئ: ﴿فَجَزَاؤُهُ مِثْلُ مَا قُتِلَ﴾ وقرئ: ﴿فَجَزَاءٌ مِثْلُ﴾ على إضافة جزء إلى مثل، وقرئ بنصبهما على تقدير فليخرج جزء مثل ما قتل، وقرأ الحسن ﴿النعم﴾ بسكون العين تخفيفاً، ﴿يُحْكَمُ بِهِ﴾ أي: بالجزاء أو بمثل ما قتل ﴿ثَوًّا﴾ عدل منكم أي: رجلان معروفان بالعدالة بين المسلمين، فإذا حكما بشيء لزم، وإن اختلفا رجع إلى غيرهما، ولا يجوز أن يكون الجاني أحد الحكمين؛ وقيل يجوز، وبالأول: قال أبو حنيفة، وبالثاني: قال الشافعي في أحد قوليه: وظاهر الآية يقتضي حكمين غير الجاني. قوله: ﴿هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾ نصب هدياً على الحال، أو البدل من مثل، و﴿بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾ صفة لهدياً، لأن الإضافة غير حقيقية، والمعنى: أنهما إذا حكما بالجزاء فإنه يفعل به ما يفعل بالهدي من الإرسال إلى مكة والنحر هناك، والإشعار والتقليد، ولم يرد الكعبة بعينها، فإن الهدي لا يبلغها، وإنما أراد الحرم، ولا خلاف في هذا. قوله: ﴿أَوْ كَفَّارَةٌ﴾ معطوف على محل من النعم وهو الرفع لأنه خبر مبتدأ محذوف، و﴿طَعَامٌ مَسَاكِينَ﴾ عطف بيان لكفارة، أو بدل منه، أو خبر مبتدأ محذوف ﴿أَوْ عَدْلٌ ثَلَاثُ مِثْلٍ﴾ معطوف على طعام؛ وقيل هو معطوف على جزء، وفيه ضعف، فالجاني مخير بين هذه الأنواع المذكورة، وعدل الشيء ما عايله من غير جنسه،

و﴿صِيَاماً﴾ منصوب على التمييز، وقد قرّر العلماء عدل كل صيد من الإطعام والصيام، وقد ذهب إلى أن الجاني يخير بين الأنواع المذكورة جمهور العلماء. وروى عن ابن عباس أنه لا يجوز المحرم الإطعام والصوم إلا إذا لم يجد الهدي، والعدل بفتح العين وكسرها لغتان، وهما الميل قاله الكسائي. وقال الفراء: عدل الشيء بكسر العين مثله من جنسه، وفتح العين مثله من غير جنسه، وبمثل قول الكسائي قال البصريون. قوله: ﴿لِيَذُوقَ وَيَلْأَمَهُ﴾ عليه لإيجاب الجزاء: أي أوجبنا ذلك عليه ليعذّب ويألم أمره، والذوق مستعار لإبرك المشقة، ومثله: ﴿نَذِقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [السخان: 49] والوبال: سوء العاقبة، والمرعى الوبيل: الذي يتأذى به بعد أكله، وطعام وبيل: إذا كان ثقیلاً. قوله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ يعني: في جاهليتك من قتلتم للصيد، وقيل عما سلف قبل نزول الكفارة ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلى ما نهيت عنه من قتل الصيد بعد هذا البيان، ﴿فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي فهو ينتقم الله منه. وقيل المعنى: إن الله ينتقم منه في الآخرة فيعذبه بنزبه، وقيل: ينتقم منه بالكفارة. قال شريح وسعيد بن جبير: يحكم عليه في أول مرة، فإذا عاد لم يحكم عليه بل يقال له: اذهب ينتقم الله منك، أي تذك أعظم من أن يكفر. قوله: ﴿أَحْلَ لَكُمْ صَيْدَ الْبَحْرِ﴾ الخطاب لكل مسلم أو للمحرمين خاصة، وصيد البحر ما يصاد فيه؛ والمراد بالبحر هنا كل ماء يوجد فيه صيد بحري وإن كان نهراً أو غيراً. قوله: ﴿وَوَطْعَامَهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلْمَسِيرَةِ﴾ الطعام لكل ما يطعم، وقد تقدّم. وقد اختلف في المراد به هنا فقيل: هو ما قذف به البحر وطفاً عليه، وبه قال كثير من الصحابة والتابعين؛ وقيل طعامه ما ملح منه وبقي، وبه قال جماعة، وروي عن ابن عباس؛ وقيل طعامه ملح الذي يتعقد من مائه وسائر ما فيه من نبات وغيره، وبه قال قوم؛ وقيل المراد به ما يطعم من الصيد: أي ما يحل أكله وهو السمك فقط، وبه قالت الحنفية. والمعنى: أحل لكم الانتفاع بجميع ما يصاد في البحر، وأحل لكم المأكول منه وهو السمك، فيكون التخصيص بعد التعميم، وهو تكلف لا وجه له، ونصب «متاعاً» على أنه مصدر: أي تمتع به متاعاً، وقيل: مفعول له مختص بالطعام؛ أي أحل لكم طعام البحر متاعاً، وهو تكلف جاء به من قال بالقول الأخير، بل إذا كان مفعولاً له كان من الجميع؛ أي أحل لكم مصيد البحر وطعامه تمتعاً لكم: أي لمن كان مقيماً منكم يأكله طرياً ﴿وَلِلْمَسِيرَةِ﴾ أي المسافرين منكم يتزوّنون ويجعلونه قنيداً، وقيل السيرة: هم الذين يركبونه خاصة. قوله: ﴿وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرَمًا﴾ أي حرم عليكم ما يصاد في البر ما دمت محرمين، وظاهره تحريم صيده على المحرم ولو كان الصائد حلالاً، وإليه ذهب الجمهور إن كان الحلال صاده للمحرم لا إذا لم يصده لأجله، وهو القول الأرجح، وبه يجمع بين الأحاديث؛ وقيل إنه يحل له مطلقاً، وإليه ذهب جماعة؛ وقيل يحرم عليه مطلقاً، وإليه ذهب آخرون، وقد بسطنا هذا

نحوه فعليه شاة تذبح بمكة، فإن لم يجد فإطعام ستة مساكين، فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام، فإن قتل أياً ونحوه فعليه بقرة، فإن لم يجد أطعم عشرين مسكيناً، فإن لم يجد صام عشرين يوماً، وإن قتل نعاماً أو حمار وحش أو نحوه فعليه بدنة، فإن لم يجد أطعم ستين مسكيناً، فإن لم يجد صام ثلاثين يوماً، والطعام مَدَّ يشبعهم، وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم، عن الحكم، أن عمر كتب أن يحكم عليه في الخطأ والعمد، وأخرجنا نحوه عن عطاء. وقد روي نحو هذا عن جماعات من السلف، من غير فرق بين العمد والخطأ والناسي، وروي عن آخرين اختصاص ذلك بالعمد.

وللسلف في تقدير الجزاء المعامل، وتقدير القيمة أقوال مبسطة في مواطنها. وأخرج أبو الشيخ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال في بيضة النعام: «صيام يوم أو إطعام مسكين». وأخرج ابن أبي شيبة عن عبد الله بن نكوان، عن النبي ﷺ مثله. وأخرج أيضاً عن عائشة، عنه ﷺ نحوه. وأخرج أبو الشيخ، وابن مردويه، من طريق أبي المهزم عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «في بيض النعام ثمنه». وقد استثنى النبي ﷺ من حيوانات الحرم الخمس، للفواسق، كما ورد ذلك في الأحاديث فإنه يجوز للمحرم أن يقتلها ولا شيء عليه. وأخرج ابن جرير، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم﴾ ما لفظه ميتاً فهو طعامه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن أبي هريرة موقوفاً مثله. وأخرج أبو الشيخ، عن أبي بكر الصديق نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن عكرمة أن أبا بكر الصديق قال في قوله: ﴿أحل لكم صيد البحر وطعامه﴾ قال: صيد البحر ما تصطاده أيدينا، وطعامه ماله البحر، وفي لفظ «طعامه كل ما فيه». وفي لفظ «طعامه ميتته». ويؤيد هذا ما في الصحيحين من حديث العنبرة التي أقامها البحر فاكل الصحابة منها، وقرَّره رسول الله ﷺ على ذلك، وحديث هو: «الطهور مأوه والحل ميتته». وحديث: «أحل لكم ميتتان وبمأن». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس﴾ قال: قياماً لدينهم ومعالم حجهم. وأخرج ابن جرير، عنه قال: قياماً أن يامن من توجه إليها. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن شهاب قال: جعل الله الكعبة لبيت الحرام والشهر الحرام قياماً للناس يامنون به في الجاهلية الأولى، لا يخاف بعضهم من بعض حين يلقونهم عند البيت، أو في الحرم، أو في الشهر الحرام. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن قتادة في قوله: ﴿جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد﴾ قال: حواجز أبقاما الله بين الناس في الجاهلية، فكان الرجل لو جرَّ كل جريدة ثم لجأ إلى الحرم لم يتناول ولم يقرب، وكان الرجل لو لقي قاتل أبيه في الشهر الحرام، لم يعرض له ولم يقربه،

في شرحنا للمنتقى. قوله: ﴿واتقوا الله الذي إليه تحشرون﴾ أي: اتقوا الله فيما نهاكم عنه الذي إليه تحشرون لا إلى غيره، وفيه تشديد ومبالغة في التحذير. وقرئ: ﴿وحرم عليكم صيد البر﴾ بالبناء للفاعل وقرئ: ﴿ما ممتكم﴾ بكسر الدال. قوله: ﴿جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس﴾ جعل هنا بمعنى خلق، وسميت الكعبة كعبة لأنها مربعة، والتكعيب التربع، وأكثر بيوت العرب منورة لا مربعة؛ وقيل سميت كعبة لتنوُّثها وبروزها، وكل بارز كعب مستديراً كان أو غير مستدير، ومنه كعب القديم، وكعب القنا، وكعب: ثدي المرأة، و﴿البيت الحرام﴾ عطف بيان، وقيل: مفعول ثان ولا وجه له، وسمي بيتاً؛ لأن له سقفاً وجنراً وهي حقيقة البيت، وإن لم يكن به ساكن، وسمى حراماً لتحريم الله سبحانه إياه. وقوله: ﴿قياماً للناس﴾ كذا قرأ الجمهور، وقرأ ابن عامر «قياماً» وهو منصوب على أنه المفعول الثاني إن كان جعل هو المتعدي إلى مفعولين، وإن كان بمعنى خلق كما تقدم، فهو منتصب على الحال، ومعنى كونه قياماً: أنه مدار لمعاشهم ودينهم أي: يقومون فيه بما يصلح دينهم وبنياهم: يامن فيه خائفهم، وينصر فيه ضعيفهم، ويربح فيه تجارهم، ويتعبد فيه متعبدهم. قوله: ﴿والشهر الحرام﴾ عطف على الكعبة، وهو ذو الحجة، وخصه من بين الأشهر الحرم؛ لكونه زمان تأدية الحج، وقيل: هو اسم جنس. والمراد به: الأشهر الحرم، ذو القعدة، وذو الحجة، ومحرم، ورجب، فإنهم كانوا لا يطلبون فيها نماً، ولا يقاتلون بها عدواً، ولا يهتكون فيها حرمة، فكانت من هذه الحيثية قياماً للناس ﴿والهدي والقلائد﴾ أي: وجعل الله الهدى والقلائد قياماً للناس. والمراد بالقلائد: نوات القلائد من الهدى، ولا مانع من أن يراد بالقلائد أنفسها، والإشارة بذلك إلى الجعل: أي ذلك الجعل ﴿لتعلموا أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض﴾ أي: لتعلموا أن الله يعلم تفاصيل أمر السموات والأرض، ويعلم مصالحكم الدينية والدنيوية فإنها من جملة ما فيهما، فكل ما شرعه لكم فهو جلب لمصالحكم، و دفع لما يضركم ﴿وان الله بكل شيء عليم﴾ هذا تعميم بعد التخصيص، ثم أمرهم بأن يعلموا بأن الله لمن انتهك محارمه ولم يتب عن ذلك شديد العقاب، وأنه لمن تاب وأناب غفور رحيم، ثم أخبرهم أن ما على رسوله إلا البلاغ لهم، فإن لم يمتثلوا ويطيعوا فما ضرُّوا إلا أنفسهم، وما جنوا إلا عليها، وأما الرسول عليه الصلاة والسلام فقد فعل ما يجب عليه، وقام بما أمره الله به.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس في قوله: ﴿ومن قتله منكم متعمداً﴾ قال: إن قتله متعمداً أو ناسياً أو خطأ حكم عليه، فإن عاد متعمداً عجلت له العقوبة إلا أن يعفو الله عنه، وفي قوله: ﴿فجزاء مثل ما قتل من النعم﴾ قال: إذا قتل المحرم شيئاً من الصيد حكم عليه فيه، فإن قتل ظبياً أو

المؤمنون، وأخرج البخاري ومسلم، وغيرهما، عن أنس قال: خطب النبي ﷺ خطبة ما سمعت مثلاً قط، فقال رجل: من أبي؟ فقال فلان، فنزلت هذه الآية: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ﴾. وأخرج البخاري وغيره نحوه من حديث ابن عباس، وقد بين هذا السائل في روايات أخر، أنه عبد الله بن حذافة، وأنه قال: من أبي؟ قال النبي ﷺ: «أبوك حذافة»، وأخرج ابن حبان، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ خطب فقال: «يا أيها الناس إن الله قد افترض عليكم الحجَّ، فقام رجل، فقال: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت عنه، فأعادها ثلاث مرات، فقال: لو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت ما قمت بها، نروني ما تركتكم فإنما هلك الذين قبلكم بكمرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم»، وذلك أن هذه الآية: أعني ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ﴾ نزلت في ذلك، وقد أخرج عنه نحو هذا ابن جرير، وأبو الشيخ، وابن مروي، وأخرج ابن جرير، والطبراني، وابن مروي، عن أبي أمامة الباهلي نحوه. وأخرج ابن مروي، عن ابن عباس نحوه أيضاً. وأخرج أحمد والترمذي وابن ماجه وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والدارقطني، والحاكم، وابن مروي، عن علي نحوه، وكل هؤلاء صرحوا في أحاديثهم أن الآية نزلت في ذلك. وأخرج البخاري ومسلم، وغيرهما، عن سعد بن أبي وقاص، قال: كانوا يسألون عن الشيء وهو لهم حلال، فما زالوا يسألون حتى يحرم عليهم، وإذا حرم عليهم وقعوا فيه. وأخرج ابن المنذر عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أعظم المسلمين في المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم فيحرم من أجل مسألته». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، عن أبي ثعلبة الخشني قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله حدَّ حُرْمًا فلا تعتنوها، وفرض لكم فرائض فلا تضيعوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وترك أشياء في غير نسيان ولكن رحمة لكم فاقبلوها ولا تبحثوا عنها». وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، وابن مروي، عن ابن عباس في قوله: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ﴾ قال: البحيرة والسائبة والوصيلة والحام. وأخرج البخاري ومسلم، وغيرهما، عن سعيد بن المسيب قال: البحيرة التي يمنع دُرُّها للطواغيت، ولا يحلبها أحد من الناس؛ والسائبة كانوا يسيبون لها كهنتهم لا يحمل عليها شيء؛ والوصيلة الناقة البكر، تبكر في أول نتاج الإبل ثم تثني بعد بئثي. وكانوا يسيبون لها لطواغيتهم إن وصلت إحداها بالأخرى، ليس بينهما نكر؛ والحامي فحل الإبل، يضرب الضراب المعداد، فإذا قضى ضرابه ودعوه للطواغيت وأعفوه من الحمل، فلم يحمل عليه شيء وسموه الحامي. وأخرج ابن جرير وابن المنذر، وابن أبي حاتم، من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: البحيرة الناقة إذا نتجت خمسة أبطن نظروا إلى الخامس، فإن كان نكراً

خمسة أبطن من غير تقييد بالإناث شقوا أنثى وحرموا ركوبها ودُرَّها. والسائبة: الناقة تسبب، أو البعير يسبب نذر على الرجل إن سلمه الله من مرض أو بلغه منزلة، فلا يحبس عن رعي ولا ماء، ولا يركبه أحد قاله أبو عبيد. قال الشاعر:

وسائبة لله تنمي تشكرا إن الله عاقباً عامراً ومجاشعاً
وقيل: هي التي تسبب لله فلا قيد عليها ولا راعي لها، ومنه قول الشاعر:

عقرتم ناقة كانت لربي مسيبة فقوموا للعقاب
وقيل: هي التي تابعت بين عشر إناث ليس بينهن نكر، فعند ذلك لا يركب ظهرها، ولا يجزَّ وبرها ولا يشرب لبنها إلا ضيف؛ وقيل: كانوا يسيبون العبد، فيذهب حيث يشاء لا يد عليه لأحد. والوصيلة: قيل: هي الناقة إذا ولدت أنثى بعد أنثى؛ وقيل هي الشاة كانت إذا ولدت أنثى فهي لهم، وإن ولدت نكراً فهو لأهنتهم، وإن ولدت نكراً وإنثى قالوا: وصلت أخاها فلم ينبحوا الذكر لأهنتهم؛ وقيل: كانوا إذا ولدت الشاة سبعة أبطن نظروا؛ فإن كان السابع نكراً نبج فاكل منه الرجال والنساء، وإن كانت أنثى تركت في الغنم، وإن كان نكراً وإنثى قالوا وصلت أخاها فلم ينبح لمكانها، وكان لحمها حراماً على النساء، إلا أن يموت فياكلها الرجال والنساء. والحام: الفحل الحامي ظهره عن أن يركب، وكانوا إذا ركب ولد الفحل قالوا حمى ظهره فلا يركب، قال الشاعر:

حماها أبو قابوس في عز ملكه كما قد حمى لولاد أولاده الفحل
وقيل: هو الفحل إذا نتج من صلبه عشرة، قالوا: قد حمى ظهره فلا يركب ولا يمنع من كلاً ولا ماء، ثم وصفهم الله سبحانه بأنهم ما قالوا ذلك إلا افتراء على الله وكنيا، لا لشرع شرعه الله لهم، ولا لعقل لهم عليه، وسبحان الله العظيم ما أرك عقول هؤلاء وأضعفها، يفعلون هذه الأفاعيل التي هي محض الرقاعة، ونفس الحمق ﴿وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا﴾. وهذه أفعال آبائهم وسننهم التي سنوها لهم، وصلى الله سبحانه حيث يقول: ﴿أولو كان أبائهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون﴾ أي: ولو كانوا جهلة ضالين، والواو للحال دخلت عليها همزة الاستفهام؛ وقيل للعطف على جملة مقترنة: أي أحسبهم ذلك ولو كان أبائهم. وقد تقدّم الكلام على مثل هذه الآية في البقرة. وقد صارت هذه المقالة التي قائلتها الجاهلية نصب أعين المقلدة وعصامهم التي يتوكلون عليها إن دعاهم داعي الحق وصرخ لهم صارخ الكتاب والسنة فاحتجاجهم بمن قلوه ممن هو مثلمهم في التعبد بشرع الله، مع مخالفة قوله لكتاب الله، أو لسنة رسوله، هو كقول هؤلاء، وليس للفرق إلا في مجرّد العبارة اللفظية، لا في المعنى الذي عليه تدور الإفادة والاستفادة، اللهم غفر.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي في الآية: قال الخبيث هم المشركون، والطيب هم

وصححه، وابن ماجه، وابن جرير، والبغوي في معجمه، وابن أبي حاتم والطبراني، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مريويه، والبيهقي في الشعب عن أبي أمية الشعثاني قال: أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلت له: كيف تصنع في هذه الآية؟ قال: آية آية؟ قلت: قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَيْتُمْ﴾ قال: أما والله لقد سألت عنها خبيراً، سألت عنها رسول الله ﷺ قال: «بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رايت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً وبنيأ مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك ودع عنك أمر العوام، فإن من ورائكم أياماً الصبر فيهن مثل القبض على الجمر، للعامل فيهن أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عملكم». وفي لفظ: «قيل يا رسول الله أجر خمسين رجلاً منا أو منهم؟ قال: بل أجر خمسين منكم». وأخرج أحمد وابن أبي حاتم، والطبراني وابن مريويه، عن عامر الأشعري أنه كان فيهم أعمى، فاحتبس على رسول الله ﷺ ثم أتاه فقال: ما حبسك؟ قال: يا رسول الله قرأت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَيْتُمْ﴾ قال: فقال له النبي ﷺ: أين ذهبت؟ إنما هي لا يضرُّكم من ضلَّ من الكفار إذا اهتيتُمْ» وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، وأبو الشيخ عن الحسن: أن ابن مسعود سأله رجل عن قوله: ﴿عليكم بأنفسكم﴾ فقال: يا أيها الناس إنه ليس بزمانها إنها اليوم مقبولة، ولكنه قد أوشك أن يأتي زمان تأمرون بالمعروف فيصنع بكم كذا وكذا، أو قال: فلا يقبل منكم، فحينئذ عليكم أنفسكم لا يضرُّكم من ضلَّ إذا اهتيتُمْ. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد عنه في الآية قال: «مروا بالمعروف وانهاو عن المنكر ما لم يكن من دونه السوط والسيف، فإذا كان كذلك فعليكم أنفسكم»، وأخرج ابن جرير، وابن مريويه، عن ابن عمر، أنه قال في هذه الآية: إنها لأقوام يجيئون من بعدنا إن قالوا لم يقبل منهم. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، عن رجل قال: كنت في خلافة عمر بن الخطاب بالمدينة في حلقة فيهم أصحاب رسول الله ﷺ، فإذا فيهم شيخ حسبت أنه قال أبي بن كعب، فقرأ ﴿عليكم أنفسكم﴾ فقال: إنما تأويلها في آخر الزمان. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وأبو الشيخ، عن أبي مازن قال: انطلقت على عهد عثمان إلى المدينة، فإذا قوم جلوس فقرأ أحدهم: ﴿عليكم أنفسكم﴾ فقال أكثرهم: لم يجيء تأويل هذه الآية اليوم. وأخرج ابن جرير عن جبير بن نفير قال: كنت في حلقة فيها أصحاب النبي ﷺ وإني لأصغر القوم، فتذكروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقلت: اليس الله يقول: ﴿عليكم أنفسكم؟﴾ فاقبلوا عليّ بلسان واحد فقالوا: تنزع آية من القرآن لا نعرفها ولا ندري ما تأويلها؟ حتى تمنيت أني لم أكن تكلمت، ثم أقبلوا يتحدثون، فلما حضر قيلمهم قالوا: إنك غلام حدث السن، وإنك نزع آية لا ندري ما هي؟ وعسى أن تترك ذلك

ونحوه فأكله الرجال دون النساء، وإن كانت أنثى جدعوا أذنانها فقالوا هذه بحيرة؛ وأما السائبة فكانوا يسيبون من انعامهم لأكلتهم لا يركبون لها ظهراً، ولا يحملون لها لبناء، ولا يجزون لها وبراً، ولا يحملون عليها شيئاً؛ وأما الوصيلة فالشاة إذا نتجت سبعة أبطن نظروا إلى السابع، فإن كان ذكراً أو أنثى وهو ميت اشترك فيه الرجال دون النساء، وإن كانت أنثى استحيوها، وإن كان ذكراً أو أنثى في بطن استحيوهما وقالوا وصلته اخته فحرمته علينا، وأما الحام فالفحل من الإبل إذا ولد لولده قالوا حمى هذا ظهره فلا يحملون عليه شيئاً، ولا يجزون له وبراً، ولا يمنونه من حمى ولا من حوض يشرب منه، وإن كان الحوض لغير صاحبه. وأخرج نحوه عنه ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مريويه من طريق العوفي.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾

أي: الزموا أنفسكم أو احفظوها كما تقول عليك زيداً: أي الزمه، قرئ: ﴿لا يضرُّكم﴾ بالجرم على أنه جواب الأمر الذي يدل عليه اسم الفعل. وقرأ نافع وغيره بالرفع على أنه مستأنف، كقول الشاعر:

فقال رائداهم أرسوا نزلوا لها

أو على أن ضم الراء للاتباع، وقرئ: ﴿لا يضرُّكم﴾ بكسر الضاد، وقرئ: «لا يضيركم» والمعنى: لا يضرُّكم ضلال من ضلَّ من الناس إذا اهتديتم للحق أنتم في أنفسكم، وليس في الآية ما يدل على سقوط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فإن من تركه مع كونه من أعظم الفروض الدينية فليس بمهتد. وقد قال الله سبحانه: ﴿إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ وقد نلت الآيات القرآنية، والأحاديث المتكاثرة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجوباً مضيئاً متحتماً، فتحمل هذه الآية على من لا يقدر على القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو لا يظن التأثير بحال من الأحوال، أو يخشى على نفسه أن يحل به ما يضرُّه ضرراً يسوغ له معه الترك ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ يوم القيامة ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، وأبو داود، والترمذي وصححه، والنسائي وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والدارقطني والضياء، في المختارة وغيرهم، عن قيس بن أبي حازم قال: قام أبو بكر، فحمد الله وأثنى عليه وقال: يا أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ وإنكم تضعونها على غير مواضعها، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا راوا المنكر ولم يغيروه أوشك أن يعصمهم الله بعقاب» وفي لفظ لابن جرير عنه: «والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليعمنكم الله منه بعقاب». وأخرج الترمذي

الزمان «إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بنفسك لا يضرك من ضل إذا اهتديت» وأخرج ابن مريويه، عن معاذ بن جبل، عن النبي ﷺ بنحو حديث أبي ثعلبة الخشني المتقدم، وفي آخره «كأجر خمسين رجلاً منكم» وأخرج ابن مريويه، عن أبي سعيد الخدري قال: نكرت هذه الآية عند رسول الله ﷺ، فقال النبي ﷺ: «لم يجيء تأويلها، لا يجيء تأويلها حتى يهبط عيسى ابن مريم عليه السلام، والروايات في هذا الباب كثيرة، وفيما نكرناه كفاية، ففيه ما يرشد إلى ما قمتنا من الجمع بين هذه الآية وبين الآيات والأحاديث الواردة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهِدُوا بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَمْرُكُمْ أَلَمْ تَوَدُّ جِنَ الْوَصِيَّةِ أَتَشَاءُونَ دُونَ ذَلِكَ مِنْكُمْ أَوْ إِخْرَانٍ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنَّ أَنْتُمْ صَرَرْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصْبَحْتُمْ مَسِيئَةً أَلَمْ تَوَدُّ تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الْفَلَاكَةِ فَيَقْسِمَانِ بِآلِهِ إِنْ أَرَبْتُمْ لَا تَشْرَى بِهِ فَمَا كُنَّا نَدْرِي أَنَّ كُنْتُمْ شَهِدَاءَ اللَّهِ إِنْ إِيَّاكُمْ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ فَإِنْ عَزَّ عَنْ أَهْلِهَا اسْتَشْفَافًا إِنَّمَا فَخْرَانِ يَوْمَانِ مَقَامَهُمَا مَرَاتِ الْوَدَّ اسْتَشْفَافًا عَلَيْهِمُ الْأَوَّلِينَ فَيَقْسِمَانِ بِآلِهِ لَشَهَدْنَا أَحَدًا مِنْ شَهِدَتِهِمَا وَمَا أَتَدْرِي إِيَّاكُمْ إِذَا لَيْنَ الْفُلَّيْنِ ﴿١٧﴾ ذَلِكَ أَنَّهُ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهٍ أَوْ يَخَافُوا أَنْ تَرُدَّ إِلَيْهِمْ عِدَّتُهُمْ وَأَتُوا اللَّهَ وَأَسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٨﴾

قال مكي: هذه الآيات الثلاث عند أهل المعاني من أشكل ما في القرآن إعراباً ومعنى وحكماً. قال ابن عطية: هذا كلام من لم يقع له النجاج في تفسيرها، وذلك بين من كتبه رحمه الله: يعني من كتاب مكي. قال القرطبي: ما ذكره مكي ذكره أبو جعفر النحاس قبله أيضاً. قال السعد في حاشيته على الكشف: واتفقوا على أنها أصعب ما في القرآن إعراباً ونظماً وحكماً. قوله: «شهادة بينكم» أضاف الشهادة إلى البين توسعاً لأنها جارية بينهم؛ وقيل أصله شهادة ما بينكم فحذفت «ما»، وأضيفت إلى الظرف كقوله تعالى: «بيل مكر الليل والنهار» [سبا: 33] ومنه قول الشاعر:

تصافح من لا قيت لي ذا علوة صفايا وعني بين عينيك منزوي
أراد ما بين عينيك، ومثله قول الآخر:

ويوماً شهنتاه سليماً وعامراً

أي: شهدنا فيه، ومنه قوله تعالى: «هذا فراق بيني وبينك» [الكهف: 78] قيل: والشهادة هنا بمعنى الوصية؛ وقيل بمعنى الحضور للوصية. وقال ابن جرير الطبري: هي هنا بمعنى اليمين، فيكون المعنى: يمين ما بينكم أن يحلف اثنان، واستدل على ما قاله بأنه لا يعلم الله حكماً يجب فيه على الشاهد يمين. واختار هذا القول القفال، وضعف ذلك ابن عطية، واختار أن الشهادة هنا هي الشهادة التي تؤدي من الشهود. قوله: «إذا حضر لحكم الموت» ظرف للشهادة، والمراد إذا حضرت علاماته، لأن من مات لا يمكنه الإشهاد، وتقديم المفعول للاهتمام ولكمال تمكن الفاعل عند النفس. وقوله: «حين الوصية» ظرف لحضر أو للموت، أو بدل من الظرف الأول. وقوله: «لثان» خبر شهادة على

تقدير محذوف: أي شهادة اثنان أو فاعل للشهادة على أن خبرها محذوف: أي فيما فرض عليكم شهادة بينكم اثنان على تقدير أن يشهد اثنان، نكر الوجهين أبو علي الفارسي. قوله: «نوا عدل منكم» صفة للثان وكذا منكم: أي كلثان منكم: أي من اقاربكم «أو آخران» معطوف على «اثنان»، و«من غيركم» صفة له: أي كلثان من الأجانب؛ وقيل: إن الضمير في «منكم» للمسلمين، وفي «غيركم» للكفار وهو الانسب لسباق الآية، وبه قال أبو موسى الأشعري، وعبد الله بن عباس وغيرهما، فيكون في الآية دليل على جواز شهادة أهل النمة على المسلمين، في السفر، في خصوص اللوصايا كما يفيد النظم القرآني، ويشهد له السبب للنزول وسياقي، فإذا لم يكن مع الموصي من يشهد على وصيته من المسلمين فليشهد رجلان من أهل الكفر، فإذا قنما وأتيا بالشهادة على وصيته حلفا بعد الصلاة اتها ما كنباً ولا بدلاً، وإن ما شهدا به حق، فيحكم حينئذ بشاهنتهما «فإن عشر» بعد ذلك «على اتها» كذا أو خانا حلف رجلان من أولياء الموصي وغرم الشاهدان الكافران ما ظهر عليهما من خيانة أو نحوها، هذا معنى الآية عند من تقدم ذكره، وبه قال سعيد بن المسيب ويحيى بن يعمر، وسعيد بن جبير، وأبو مجلز، والنخعي وشريح، وعبيدة السلماني، وابن سيرين، ومجاهد، وقتادة، والسدي، والثوري، وأبو عبيد، وأحمد بن حنبل. وذهب إلى الأول: أعني تفسير ضمير «منكم» بالقرابة أو العشيرة، وتفسير «من غيركم» بالأجانب الزهري والحسن وعكرمة. وذهب مالك والشافعي وأبو حنيفة وغيرهم من الفقهاء أن الآية منسوخة، واحتجوا بقوله: «ومن ترضون من الشهداء» وقوله: «واشهدوا ذوي عدل منكم» والكفار ليسوا بمرضيين ولا عدول، وخالفهم الجمهور فقالوا: الآية محكمة، وهو الحق لعدم وجود دليل صحيح يدل على النسخ. وأما قوله تعالى: «ومن ترضون من الشهداء» [البقرة: 282] وقوله: «واشهدوا ذوي عدل منكم» [الطلاق: 2] فهما علمان في الأشخاص والأزمان والأحوال، وهذه الآية خاصة بحالة الضرب في الأرض وبالوصية وبحالة عدم الشهود المسلمين، ولا تعارض بين عام وخاص. قوله: «إن اتتم» هو فاعل فعل محذوف يفسره ضربتم، أو مبتدأ وما بعده خبره، والأول: مذهب الجمهور من النحاة، والثاني: مذهب الأخفش والكوفيين، والضرب في الأرض هو السفر. وقوله: «فأصابكم مصيبة الموت» معطوف على ما قبله وجوابه محذوف: أي إن ضربتم في الأرض فنزل بكم الموت، وأردتم الوصية، ولم تجلوا شهوداً عليها مسلمين، ثم ذهبوا إلى ورتنكم بوصيتكم وبما تركتم فارتابوا في أمرهما وأدعوا عليهما خيانة، فالحكم أن تحبسوهما، ويجوز أن يكون استثنافاً لجواب سؤال مقدر، كأنهم قالوا: فكيف نصنع إن ارتبنا في الشهادة؟ فقال: تحبسونهما من بعد الصلاة إن ارتبتم في شاهنتهما. وخص بعد الصلاة: أي صلاة العصر،

قاله الأكثر؛ لكونه الوقت الذي يغضب الله على من حلف فيه فاجراً كما في الحديث الصحيح؛ وقيل؛ لكونه وقت اجتماع الناس وقعود الحكام للحكومة؛ وقيل صلاة الظهر؛ وقيل: أي صلاة كانت. قال أبو علي الفارسي: ﴿تحبسونهما﴾ صفة لأخران، واعترض بين الصفة والموصوف بقوله: ﴿إن أنتم ضربتم في الأرض﴾، والمراد بالحبس: توقيف الشاهدين في تلك الوقت لتحليفهما، وفيه دليل على جواز الحبس بالمعنى العام، وعلى جواز التغليظ على الحالف بالزمان والمكان ونحوهما. قوله: ﴿فيقسمان بالله﴾ معطوف على ﴿تحبسونهما﴾ أي: يقسم بالله الشاهدان على الوصية أو الوصيان.

وقد استدلّ بذلك ابن أبي ليلى على تحليف الشاهدين مطلقاً إذا حصلت الريبة في شهادتهما، وفيه نظر؛ لأن تحليف الشاهدين هنا إنما هو لوقوع الدعوى عليهما بالخيانة أو نحوها. قوله: ﴿إن ارتبتم﴾ جواب هذا الشرط محذوف دلّ عليه ما تقدّم كما سبق. قوله: ﴿لا نشترى به ثمناً﴾ جواب القسم، والضمير في ﴿به﴾ راجع إلى الله تعالى. والمعنى: لا نبيع حظنا من الله تعالى بهذا العرض النزر، فنحلف به كاذبين لأجل المال الذي اتّبعتموه علينا؛ وقيل يعود إلى القسم: أي لا نستبدل بصحة القسم بالله عرضاً من أعراض الدنيا؛ وقيل يعود إلى الشهادة، وإنما نكر الضمير لأنها بمعنى القول: أي لا نستبدل بشهادتنا ثمناً، قال الكوفيون: المعنى ذا ثمن، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه وهذا مبني على أن العروض لا تسمى ثمناً، وعند الأكثر أنها تسمى ثمناً، كما تسمى مبيعاً. قوله: ﴿ولو كان ذا قربي﴾ أي: ولو كان المقسم له، أو المشهود له قريباً فإننا نؤثر الحق والصدق، ولا نؤثر العرض الدنيوي، ولا القرابة، وجواب لو محذوف لدلالة ما قبله عليه: أي ولو كان ذا قربي، لا نشترى به ثمناً. قوله: ﴿ولا نكتم شهادة الله﴾ معطوف على ﴿لا نشترى﴾ داخل معه في حكم القسم، وأضاف الشهادة إلى الله سبحانه لكونه الأمر بإقامتها والنهي عن كتمانها. قوله: ﴿فإن عثر على أنهما استحقا إثماً﴾ عثر على كذا: اطلع عليه، يقال عثرت منه على خيانة: أي اطلعت وأعثرت غيري عليه، ومنه قوله تعالى: ﴿وكنكك أعثرنا عليهم﴾ [الكهف: 21] وأصل العثور الوقوع والسقوط على الشيء، ومنه قول الأعشى:

بذات لوث عصرنه إذ عثرت فالتعس لولى لها من أن أقول لما والمعنى: لئن إذا اطلع بعد التحليف على أن الشاهدين أو الوصيين استحقا إثماً: أي استوجبا إثماً إما بكذب في الشهادة أو اليمين، أو بظهور خيانة. قال أبو علي الفارسي: الإثم هنا اسم الشيء المأخوذ، لأن أخذه يائم باخذه، فسمى إثماً كما سمي ما يؤخذ بغير حق مظلمة. وقال سيبويه: المظلمة اسم ما أخذ منك فكذلك سمي هذا المأخوذ، باسم المصدر. قوله: ﴿فأخران يقومان مقامهما﴾ أي: فشاهدان أخران أو فحالفان أخران يقومان مقام اللذين عثر على أنهما

استحقا إثماً فيشهدان أو يحلفان على ما هو الحق، وليس المراد أنهما يقومان مقامهما في أداء الشهادة التي شهدها المستحقان للإثم. قوله: ﴿ومن الذين استحق عليهم الأوليان﴾ استحق مبني للمفعول، في قراءة الجمهور: وقرأ علي وأبي وابن عباس وحفص على البناء للفاعل، و﴿الأوليان﴾ على القراءة الأولى مرتفع على أنه خبر مبتدأ محذوف: أي هما الأوليان، كأنه قيل: من هما؟ فقيل هما الأوليان؛ وقيل: هو بدل من الضمير في يقومان أو من أخران. وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش وحزمة الأولين: جمع أول على أنه بدل من اللذين، أو من الهاء والميم في عليهم. وقرأ الحسن «الأولان». والمعنى على بناء الفعل للمفعول: من الذين استحق عليهم الإثم: أي جنى عليهم، وهم أهل الميت وعشيرته فإنهم أحق بالشهادة أو اليمين من غيرهم، فالأوليان تثنية أولى. والمعنى على قراءة البناء للفاعل: من الذين استحق عليهم الأوليان من بينهم بالشهادة أن يجروهما للقيام بالشهادة ويظهروا بهما كذب الكاذبين لكونهما الأقربين إلى الميت فالأوليان فاعل استحق ومفعوله أن يجروهما للقيام بالشهادة؛ وقيل المفعول محذوف، والتقدير: من الذين استحق عليهم الأوليان بالميت وصيته التي أوصى بها. قوله: ﴿فيقسمان بالله﴾ عطف على ﴿يقومان﴾: أي فيحلفان بالله لشهادتنا: أي يميننا، فالمراد بالشهادة هنا اليمين، كما في قوله تعالى: ﴿فشهدا أحدهم أربع شهادات بالله﴾ [النور: 6] أي: يحلفان لشهادتنا على أنهما كاذبان خائنان أحق من شهادتهما: أي من يمينهما على أنهما صامقان أمينان ﴿وما اعتدينا﴾ أي: تجاوزنا الحق في يميننا ﴿إننا إذا لعن الظالمين﴾ إن كنا حلفنا على باطل. قوله: ﴿ذلك أننى أن يأتوا بالشهادة على وجهها﴾ أي: ذلك البيان الذي قدمه الله سبحانه، في هذه القصة وعرفنا كيف يصنع من أراد الوصية في السفر؟ ولم يكن عنده أحد من أهله، وعشيرته، وعنده كفار أننى: أي أقرب إلى أن يؤدي الشهود المحتملون للشهادة على الوصية بالشهادة على وجهها، فلا يحرقوا ولا يبتلكوا، ولا يخونوا وهذا كلام مبتدأ يتضمن نكر المنفعة والفائدة، في هذا الحكم الذي شرعه الله في هذا الموضع من كتابه؛ فالضمير في ﴿يأتوا﴾ عائد إلى شهود الوصية من الكفار؛ وقيل: إنه راجع إلى المسلمين المخاطبين بهذا الحكم. والمراد بتحذيرهم من الخيانة، وأمرهم بأن يشهدوا بالحق. قوله: ﴿أو يخافوا أن تردّ أيمان بعد أيمانهم﴾ أي: تردّ على الورثة فيحلفون على خلاف ما شهد به شهود الوصية فيفتضح حينئذ شهود الوصية، وهو معطوف على قوله: ﴿أن يأتوا﴾ فتكون الفائدة في شرع الله سبحانه لهذا الحكم هي أحد الأمرين: إما احتراز شهود الوصية عن الكذب والخيانة فيأتون بالشهادة على وجهها. أو يخافوا الافتضاح إذا رتبت الأيمان على قرابة الميت فحلفوا بما يتضمن كذبهم أو خيانتهم فيكون ذلك سبباً لتأدية شهادة شهود الوصية على وجهها من غير كذب

مخزناً بالذهب، فأحلفهما رسول الله ﷺ بالله ما كتتماها ولا اطلعتما، ثم وجدا الجام بمكة فقبل: اشتريانه من تميم وعدي، فقام رجلان من أولياء السهمي فحلفا بالله لشهانتنا أحق من شهادتهما وإن الجام لصاحبهم، وأخذوا الجام، قال: وفيهم نزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنَكُمْ﴾ الآية، وفي إسناده محمد بن أبي القاسم الكوفي، قال الترمذي: قيل: إنه صالح الحديث، وقد روى ذلك أبو داود من طريقه. وقد روى جماعة من التابعين أن هذه القصة هي السبب في نزول الآية، ونكروها المفسرون في تفاسيرهم. وقال القرطبي: إنه أجمع أهل التفسير على أن هذه القصة هي سبب نزول الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والنحاس من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنَكُمْ﴾ الآية قال: هذا لمن مات وعنده المسلمون أمره الله أن يشهد على وصيته عجلين مسلمين. ثم قال: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ فهذا لمن مات وليس عنده أحد من المسلمين، أمر الله بشهادة رجلين من غير المسلمين، فإن ارتيب بشهادتهما استحلحفا بالله بعد الصلاة ما اشتريا بشهادتهما ثمناً قليلاً، فإن أطلع الأولياء على أن الكافرين كذباً في شهادتهما، وثم رجلان من الأولياء فحلفا بالله أن شهادة الكافرين باطلة، فنك قوله: ﴿فَإِنْ عَثَرَ عَلَىٰ أَنْتَهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ يقول: إن أطلع على أن الكافرين كذباً ﴿فَإِنَّكَ أَنْتَىٰ أَنْ﴾ يأتي الكافران ﴿بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهٍ أَوْ يَخَافُوا أَنْ تَرُدَّ إِيمَانًا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ فتترك شهادة الكافرين ويحكم بشهادة الأولياء، فليس على شهود المسلمين أقسام: إنما الاقسام إذا كانا كافرين. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن مسعود أنه سئل عن هذه الآية فقال: هذا رجل خرج مسافراً ومعه مال فأدركه قدره، فإن وجد رجلين من المسلمين نفع إليهما تركته، وأشهد عليهما عجلين من المسلمين، فرجلين من أهل الكتاب، فإن أدى فسيبيل ما أدى، وإن جحد استحلحفا بالله الذي لا إله إلا هو دبر صلاة، إن هذا الذي نفع إلي وما غيبت منه شيئاً، فإذا حلف برئ، فإذا أتى بعد ذلك صاحباً الكتاب فشهدا عليه، ثم ادعى القوم عليه من تسميتهم ما لهم جعلت إيمان الورثة مع شهادتهم ثم اقتطعوا حقه، فنك الذي يقول الله: ﴿فَإِنَّ نَازِلًا بِكُمْ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والضياء في المختارة عن ابن عباس في قوله: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ قال: من غير المسلمين من أهل الكتاب. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس قال: هذه الآية منسوخة. وأخرج ابن جرير عن زيد بن أسلم في الآية قال: كان ذلك في رجل توفي وليس عنده أحد من أهل الإسلام، وذلك في أول الإسلام، والأرض حرب، والناس كفار، إلا رسول الله ﷺ وأصحابه بالمدينة، وكان الناس يتوارثون بالوصية، ثم نسخت الوصية وفرضت الفرائض وعمل المسلمون بها. وأخرج ابن جرير أيضاً عن الزهري قال:

ولا خيانة؛ وقيل: إن ﴿يَخَافُوا﴾ معطوف على مقتر بعد الجملة الأولى، والتقدير: ذلك أني أن يأتوا بالشهادة على وجهها، ويخافوا عذاب الآخرة بسبب الكذب والخيانة، أو يخافوا الافتضاح برد اليمين، فأني الخوفين وقع حصل المقصود ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في مخالفة أحكامه ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ الخارجين عن طاعته بأي ذنب، ومنه الكذب في اليمين أو الشهادة.

وحاصل ما تضمنه هذا المقام من الكتاب العزيز، أن من حضرته علامات الموت أشهد على وصيته عجلين من عنول المسلمين، فإن لم يجد شهوداً مسلمين، وكان في سفر، ووجد كفاراً جاز له أن يشهد رجلين منهم على وصيته، فإن ارتاب بهما ورثة الموصي حلفاً بالله على أنهما شهدا بالحق، وما كتما من الشهادة شيئاً ولا خلنا مما تركه الميت شيئاً، فإن تبين بعد ذلك خلاف، ما أقسما عليه من خلل في الشهادة أو ظهور شيء من تركه الميت زعماً أنه قد صار في ملكهما بوجه من الوجوه حلف رجلان من الورثة وعمل بذلك.

وقد أخرج الترمذي وضعفه، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والنحاس في تاريخه، وأبو الشيخ، وابن مردويه، وأبو نعيم في المعرفة من طريق أبي النضر، وهو الكلبي، عن بإذان مولى أم هانئ عن ابن عباس، عن تميم الداري في هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ لِلْمَوْتِ﴾ قال: يري الناس منها غيري وغير عدي بن بدء، وكنا نصرانيين يختلفان إلى الشام قبل الإسلام، فأتينا الشام لتجارتهما، وقدم عليهما مولى لبني سهم يقال له بنيل بن أبي مريم بتجارة، ومعه جام من فضة يريد به الملك، وهو عظم تجارته، فمرض فأوصى إليهما وأمرهما أن يبلغا ما ترك أهله؛ قال تميم: فلما مات أخذنا ذلك الجام فبعناه بألف درهم، ثم اقتسمناه أنا وعدي بن بدء، فلما قدمنا إلى أهله دفعنا إليهم ما كان معنا، وفقدوا الجام فسالونا عنه، فقلنا: ما ترك غير هذا، أو ما دفع إلينا غيره؛ قال تميم: فلما أسلمت بعد قدوم رسول الله ﷺ المدينة تأثمت من ذلك، فأتيت أهله فأخبرتهم الخبر، وأتيت إليهم خمسمائة درهم، وأخبرتهم أن عند صاحبي مثله، فأتوا به رسول الله ﷺ، فسألهم البيعة فلم يجنوا، فأمرهم أن يستحلحفوه بما يعظم به على أهل دينه، فحلف فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَنْ تَرُدَّ إِيمَانًا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ فقام عمرو بن العاص ورجل آخر فحلفا، فنزعت الخمسمائة درهم من عدي بن بدء. وفي إسناده أبو النضر، وهو محمد بن السائب الكلبي صاحب التفسير، قال الترمذي: تركه أهل العلم بالحديث. وأخرج البخاري في تاريخه، والترمذي وحسنه، وابن جرير، وابن المنذر، والنحاس، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس قال: خرج رجل من بني سهم مع تميم الداري وعدي بن بدء، فمات السهمي بأرض ليس فيها مسلم، فأوصى إليهما فلما قدما بتركته فقدوا جاماً من فضة

قوله: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ إذ بدل، من يوم يجمع، وهو تخصيص بعد التعميم وتخصيص عيسى عليه السلام من بين الرسل لاختلاف طائفتي اليهود والنصارى فيه إفراطاً وتفريطاً؛ هذه تجعله إلهاً، وهذه تجعله كاتباً، وقيل هو منصوب بتقدير انكر، قوله: ﴿الذِّكْرُ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ﴾ نكّره سبحانه نعمته عليه وعلى أمه، مع كونه ذاكراً لها عالماً بتفضل الله سبحانه بها؛ لقصد تعريف الأم بما خصهما الله به من الكرامة وميزهما به من علو المقام، أو لتأكيد الحجة، وتبكيك الجاحد، بأن منزلتهما عند الله هذه المنزلة، وتوبيخ من اتخذهما إلهين، ببيان أن ذلك الإِنعام عليهما كله من عند الله سبحانه، وأنهما عبيدان من جملة عبادِه منعم عليهما بنعم الله سبحانه، ليس لهما من الأمر شيء. قوله: ﴿إِذْ أَيْتَنَّاكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ إذ ظرف للنعمة؛ لأنها بمعنى المصدر: أي انكر إنعامي عليك وقت تاييدي لك، أو حال من النعمة: أي كائنة ذلك الوقت ﴿أَيْتَنَّاكَ﴾ قوّيتك مأخوذ من الأيد، وهو القوّّة. وفي روح القدس وجهان: أحدهما أنها الروح الطاهرة التي خصه الله بها، وقيل: إنه جبريل عليه السلام، وقيل إنه الكلام الذي يحيى به الأرواح. والقدس: الطهر، وإضافته إليه لكونه سببه، وجملة ﴿تَكَلَّمَ لِلنَّاسِ﴾ مبيّنة لمعنى التأييد، وفي المهدى في محل نصب على الحال: أي تكلم الناس حال كونك صبياً وكهلاً لا يتفاوت كلامك في الحالتين مع أن غيرك يتفاوت كلامه فيهما تفاوتاً بيناً. وقوله: ﴿وَإِذْ عَلِمْتُكَ الْكِتَابَ﴾ معطوف على ﴿إِذْ أَيْتَنَّاكَ﴾ أي: وانكر نعمتي عليك وقت تعليمي لك الكتاب أي: جنس الكتاب، أو المراد بالكتاب الخط، وعلى الأول يكون نكر التوراة والإنجيل من عطف الخاص على العام، وتخصيصهما بالذكر لمزيد اختصاصهما بهما: أما التوراة فقد كان يحتج بها على اليهود في غالب ما يدور بينه وبينهم من الجدل كما هو مصرح بذلك في الإنجيل، وأما الإنجيل فلكونه نازلاً عليه من عند الله سبحانه، والمراد بالحكمة جنس الحكمة؛ وقيل هي الكلام المحكم ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ أي: تصوّر تصويراً مثل صورة الطير ﴿بِإِذْنِي﴾ لك بذلك وتيسيري له، ﴿فَتَنْفَخُ﴾ في الهيئة المصوّرة ﴿فَتَكُونُ﴾ هذه الهيئة ﴿طَائِراً﴾ متحركاً حياً كسائر الطيور ﴿فَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي﴾ لك وتسهيّله عليك وتيسيره لك، وقد تقدّم تفسير هذا مطوّلاً في البقرة، فلا نعيده ﴿وَإِذْ تَخْرُجُ الْوَتِئَ﴾ من قبورهم، فيكون ذلك آية لك عظيمة ﴿بِإِذْنِي﴾، وتكرير بإذني في المواضع الأربعة؛ للاعتناء بأن ذلك كله من جهة الله ليس لعيسى عليه السلام فيه فعل إلا مجرد امتثاله لأمر الله سبحانه. قوله: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ﴾ معطوف على ﴿إِذْ تَخْرُجُ﴾ كففت معناه: دفعت وصرفت ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ﴾ حين هموا بقتلك ﴿إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات الواضحات ﴿فَقَالُ النَّاسُ كُفُّوا عَنْ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: ما هذا الذي جئت به إلا سحر بين، لما عظم ذلك في صدرهم

مضت السنة أن لا تجوز شهادة كافر في حضر ولا سفر، إنما هي في المسلمين. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن عبيدة في قوله: ﴿تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ قال: صلاة العصر. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن زيد في قوله: ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا﴾ قال: لا نأخذ به رشوة ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ﴾ وإن كان صاحبها بعيداً. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة في قوله: ﴿فَإِنْ عَثَرَ عَلَىٰ تَهْمَا لِسْتَحِقَّا إِثْمًا﴾ أي: اطلع منهما على خيانة على أنهما كذبا أو كتماً. وأخرج ابن جرير، عن ابن زيد، في قوله: ﴿الْأَوَّلِيَانِ﴾ قال: بالميت. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة في قوله: ﴿فَلَمْ أَنْصِ أَنْ يَلْتَوَا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا﴾ يقول: ذلك أحرق أن يصنقوا في شهادتهم ﴿أَوْ يَخَافُوا أَنْ تَرُدَّ إِيمَانًا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ يقول: وأن يخافوا العتب. وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في قوله: ﴿أَوْ يَخَافُوا أَنْ تَرُدَّ إِيمَانًا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ قال: فيبطل إيمانهم ويؤخذ إيمان هؤلاء.

﴿يَوْمَ يَجْعَلُ اللَّهُ أَرْسُلَ قَوْلِهِ مَادًّا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عَمَلٌ لَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيُوسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ أَذَكَّرْتَنِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَبَدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْهَدْيِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِهِمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْوَارِثِينَ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّهِمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْتَبِعُوا صُلُوحَكُمْ﴾

قوله: ﴿يَوْمَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾ العامل في الظرف فعل مقدر: أي اسمعوا، أو انكروا، أو احدثوا. وقال الزجاج: هو منصوب بقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ المنكور في الآية الأولى؛ وقيل بدل من مفعول ﴿اتَّقُوا﴾ بدل اشتمال؛ وقيل ظرف لقول: ﴿لا يهدي﴾ [المائدة: 108] المنكور قبله؛ وقيل منصوب بفعل مقدر متأخر تقديره: ﴿يَوْمَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾ يكون من الأحوال كذا وكذا. قوله: ﴿وَإِذَا أُجِيبْتُمْ﴾ أي: إجابة أجابكم به أممكم الذين يعتمك الله إليهم؟ أو أي جواب أجابوكم به؟ وعلى الوجهين تكون ما منصوبة بالفعل المنكور بعدها، وتوجيه السؤال إلى الرسل لقصد توبيخ قومهم، وجوابهم بقولهم ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ مع أنهم عالمون بما أجابوا به عليهم تفويض منهم، وإظهار للعجز، وعدم القدرة، ولا سيما مع علمهم بأن السؤال سؤال توبيخ فإن تفويض الجواب إلى الله أبلغ في حصول ذلك، وقيل المعنى: لا علم لنا بما أحدثوا بعدنا؛ وقيل لا علم لنا بما اشتملت عليه بواطنهم. وقيل المعنى: لا علم لنا إلا علم ما أنت أعلم به منا؛ وقيل: إنهم ذهلوا عما أجاب به قومهم لهول المحشر.

قوله: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾ الظرف منصوب بفعل مقدر أي: انكر أو نحوه كما تقدم، قيل والخطاب لمحمد ﷺ، قرأ الكسائي ﴿هل تستطيع﴾ بالقوقية، ونصب ربك، وبه قرأ علي وابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد. وقرأ الباقون بالتحكية ورفع ربك. واستشكلت القراءة الثانية بأنه قد وصف سبحانه الحواريين بأنهم قالوا: ﴿أَمَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مسلمون﴾ والسؤال عن استطاعته لذلك ينافي ما حكوه عن أنفسهم. وأجيب بأن هذا كان في أول معرفتهم قبل أن تستحكم معرفتهم بالله، ولهذا قال عيسى في الجواب عن هذا الاستفهام الصابر منهم، ﴿اتقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾ أي: لا تشكوا في قدرة الله؛ وقيل: إنهم ادَّعوا الإيمان والإسلام دعوى باطلة، ويردُّه أن الحواريين هم خلاصاء عيسى وانصاره، كما قال: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ [آل عمران: 52] وقيل: إن ذلك صدر ممن كان معهم، وقيل: إنهم لم يشكوا في استطاعة البارئ سبحانه، فإنهم كانوا مؤمنين عارفين بذلك، وإنما هو كقول الرجل: هل يستطيع فلان أن يأتي مع علمه بأنه يستطيع ذلك ويقدر عليه؛ فالمعنى: هل يفعل ذلك وهل يجيب إليه؟ وقيل: إنهم طلبوا الطمأنينة كما قال إبراهيم عليه السلام ﴿رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [البقرة: 260] الآية، ويدل على هذا قولهم من بعد ﴿وَتَطْمِئِنُّ قُلُوبُنَا﴾ وأما على القراءة الأولى، فالمعنى: هل تستطيع أن تسأل ربك. قال الزجاج: المعنى هل تستدعي طاعة ربك فيما تسأله فهو من باب: ﴿وَسَأَلَ الْقُرْيَةَ﴾ [يوسف: 82]، والمائدة: الخوان إذا كان عليه الطعام، من ماله: إذا أعطاه ورفده كأنها تميد من تقدم إليه قاله قطرب وغيره؛ وقيل: هي فاعلة بمعنى مفعولة كـ ﴿عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: 21] قاله أبو عبيدة، فاجابهم عيسى عليه السلام بقوله: ﴿اتقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾ أي اتقوه من هذا السؤال، وأمثاله إن كنتم صادقين في إيمانكم، فإن شأن المؤمن ترك الاقتراح على ربه على هذه الصفة؛ وقيل: إنه أمرهم بالتحقُّق ليكون ذلك نريعة إلى حصول ما طلبوه. قوله: ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا﴾ بينوا به الغرض من سؤالهم نزول المائدة، وكذا ما عطف عليه من قولهم: ﴿وَتَطْمِئِنُّ قُلُوبُنَا﴾ ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين؛ والمعنى: تلمنن قلوبنا بكمال قدرة الله، أو بأنك مرسل إلينا من عنده، أو بأن الله قد أجابنا إلى ما سألناه، ونعلم علماً يقيناً بأنك قد صدقتنا في نبوتك، ونكون عليها من الشاهدين عند من لم يحضرها من بني إسرائيل، أو من سائر الناس، أو من الشاهدين لله بالوحدانية، أو من الشاهدين أي: الحاضرين دون السامعين. ولما رأى عيسى ما حكوه عن أنفسهم من الغرض بنزول المائدة قال: ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: كائنة أو نازلة من السماء، وأصل اللهم عند سيبويه واتباعه: يا الله، فجعلت الميم بدلاً من حرف النداء، وربنا نداء ثان، وليس بوصف، و﴿تَكُونُ لَنَا عِيداً﴾ وصف لمائدة. وقرأ الأعمش

وانبهروا منه لم يقدروا على جرده بالكلية، بل نسبوه إلى السحر. قوله: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾ هو معطوف على ما قبله، وقد تقدم تفسير ذلك. والوحي في كلام العرب معناه الإلهام: أي ألهمت الحواريين وقنفت في قلوبهم؛ وقيل معناه: أمرتهم على السنة الرسل أن يؤمنوا بي بالتحديد والإخلاص ويؤمنوا برسالة رسولِي. قوله: ﴿قَالُوا آمَنَّا﴾ جملة مستأنفة كأنه قيل ماذا قالوا؟ فقال: قالوا آمنا ﴿وَاشْهَدْ بِأَنَّا مسلمون﴾ أي: مخلصون للإيمان: أي واشهد يا رب، أو واشهد يا عيسى.

وقد أخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد في قوله ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرِّسَالَ فَيَقُولُ مَاذَا لَجِيتُمْ﴾ فيفزعون فيقولون ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ فتردُّ إليهم أفئنتهم فيعلمون. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي في الآية قال: ذلك أنهم نزلوا منزلاً ذهلت فيه العقول، فلما سئلوا قالوا: لا علم لنا، ثم نزلوا منزلاً آخر فشاهدوا على قومهم، وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس قال: قالوا لا علم لنا فرقاً يذهل عقولهم، ثم يردُّ الله إليهم عقولهم، فيكونون هم الذين يسألون بقول الله: ﴿فَلْيَسْأَلِ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلْيَسْأَلِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الاعراف: 6]. وأخرج ابن أبي حاتم وابن مريويه وابن عساكر عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ يَدْعَى بِالْأَنْبِيَاءِ وَأَمَّا ثُمَّ يَدْعَى بِعِيسَى فَيَنْكُرُهُ نِعْمَتُهُ عَلَيْهِ فَيَقْرَأُ بِهَا، فيقول: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ انْكَرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى النَّاسِ﴾ الآية، ثم يقول: ﴿وَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ؟﴾ [المائدة: 116] فينكر أن يكون قال ذلك، فيؤتى بالنصارى فيسألون، فيقولون نعم هو امرنا بذلك، فيطول شعر عيسى حتى يأخذ كل ملك من الملائكة بشعرة من شعر رأسه وجسده، فيجاثيهم بين يدي الشمعدان ألف عام حتى يوقع عليهم الحجة، ويرفع لهم الصليب وينطلق بهم إلى النار. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالآيات التي وضع على يديه من إحياء الموتى وخلقه من الطين كهية الطير وإبراء الأسقام، والخبر بكثير من الغيوب. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ، عن السدي في قوله: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾ يقول قنفت في قلوبهم. وأخرج عبد بن حميد عن قتادة نحوه.

إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَعْجِسُ ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ أَتَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكُونُوا مَشْكُومَةً وَمَعْلُومَةً أَنْ قَدْ مَدَقَّقْنَا وَتَكُونُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْقَائاً وَكَلِمَةً خَيْرَ الَّتِي هِيَ قَالَ اللَّهُ إِنَّي مُنْزِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ يَمِينِهِ كَذَّبَ بَعْدَ أَنْ أَهْبَأْتَهُ أَحَدًا مِنَ الْمَلَكِينَ ﴿١١٧﴾

معلم الخير، قلت لنا إن أجر العامل على من عمل له، وأمرتنا أن نصوم ثلاثين يوماً ففعلنا، ولم تكن نعمل لأحد ثلاثين يوماً إلا أطعمنا ﴿فهل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة﴾ إلى قوله: ﴿أحداً من العالمين﴾ فاقبلت الملائكة تطير بمائدة من السماء عليها سبعة أحوات، وسبعة أرغفة، حتى وضعتها بين أيديهم، فاكل منها آخر الناس كما اكل أولهم. وأخرج الترمذي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن عمار بن ياسر، قال: قال رسول الله ﷺ: «نزلت المائدة من السماء خبزاً ولحماً، وأمرُوا أن لا يخبثوا ولا يبخروا لحد، فخافوا وأخروا، ورفعوا لحد فمسحوا قردة وخنازير، وقد روي موقوفاً على عمار. قال الترمذي: والوقف أصح. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: المائدة سمكة ولرغفة. وأخرج ابن جرير من طريق العوفي عنه قال: نزلت على عيسى ابن مريم، والحواريين، خوان عليه سمك وخبز، ياكلون منه أينما تولوا إذا شأوا. وأخرج ابن جرير نحوه عنه من طريق عكرمة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وأبو الشيخ عن عبد الله بن عمرو قال: إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة من كفر من أصحاب المائدة، والمنافقون، وآل فرعون.

وَأَذَّاهُ قَالَ يَتَّبِعِي ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّبِعُونِي وَأُتِي إِلَهُيْنَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُمْ فَقَدْ عَلِمْتُمْ تَقُولُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا آخِذٌ بِمَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ اللَّهُمَّ الْقَيُّومُ مَا قُلْتَ لَهُمْ إِنْ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ آخِذُوا بِاللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ وَكُنْتُمْ شَهِيداً مَا دَعَا فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ إِنْ تَدْرِبُهُمْ فَبِأَنَّهُمْ يُفَكِّدُونَ وَإِنْ تَنْفَرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْمُغَرَّبُ الْمُفَكِّدُ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْ ذَلِكَ الْغَوْزُ الْأَكْبَرُ ﴿٥١﴾ لَهُمْ فِي ذَلِكَ السَّكَنَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَا فِيهَا وَهُمْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَوِيٌّ ﴿٥٢﴾

قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ﴾ معطوف على ما قبله في محل نصب بعامله أو يعامل مقترناً: أي أنكر. وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن هذا القول منه سبحانه هو يوم القيامة. والنكتة توبيخ عباد المسيح وأمه من النصاري. وقال السدي وقطرب: إنه قال له هذا القول عند رفعه إلى السماء، لما قالت النصاري فيه ما قالت، والأول أولى: قيل ﴿وَإِذْ﴾ هنا بمعنى إذا كقوله تعالى: ﴿ولو ترى إذ فرعوا﴾ [سبا: 51] أي: إذا فرعوا، وقول أبي النجم:

ثم جزك الله عني إذ جرى جنات عدن في السموات العلى
أي: إذا جرى، وقول الأسود بن جعفر الأسدي:

في الآن إذ هازلتهم فإنيما يفلن الالم يذهب الشيخ مذهباً
أي: إذا هازلتهم تعبيراً عن المستقبل بلفظ الماضي تنبيهاً على تحقيق وقوعه. وقد قيل: في توجيه هذا الاستفهام منه تعالى إنه لقصد التوبيخ كما سبق؛ وقيل: لقصد تعريف المسيح بأن قومه غيروا بعده وأدعوا عليه ما

«يكون لنا عيداً أي: يكون يوم نزولها لنا عيداً. وقد كان نزولها يوم الأحد، وهو يوم عيد لهم؛ والعيد واحد الأعياد، وإنما جمع بالياء وأصله الواو للزومها في الواحد؛ وقيل للفرق بينه وبين أعواد جمع عود، نكر معناه الجوهري؛ وقيل أصله من عاد يعود: أي رجع، فهو عود بالواو، وتقلب ياء لانكسار ما قبلها، مثل الميزان والميقات والميعاد، فقيل ليوم الفطر والأضحي عيدان، لأنهما يعودان في كل سنة. وقال الخليل: العيد كل يوم جمع كأنهم عادوا إليه. قوله: ﴿لأولنا وآخرنا﴾ بدل من الضمير في لنا بتكرير العامل: أي لمن في عصرنا ولمن يأتي بعننا من ذراريها وغيرهم. قوله: ﴿وآية منك﴾ عطف على عيداً: أي دلالة وحجة واضحة على كمال قدرتك، وصحة إرسالك من أرسلته ﴿ووارزقنا﴾ أي أعطنا هذه المائدة المطلوبة، أو ارزقنا رزقاً نستعين به على عبادتك ﴿وانت خير الرازقين﴾ بل لا رازق في الحقيقة غيرك ولا معطى سواك، فأجاب الله سبحانه سؤال عيسى عليه السلام فقال: ﴿إني منزلها﴾ أي: المائدة ﴿عليكم﴾.

وقد اختلف أهل العلم هل نزلت عليهم المائدة أم لا؟ فذهب الجمهور إلى الأول: وهو الحق؛ لقوله سبحانه ﴿إني منزلها عليكم﴾ ووعده الحق وهو لا يخلف الميعاد. وقال مجاهد: ما نزلت وإنما هو ضرب مثل ضربه الله لخلقها نهياً لهم عن مسألة الآيات لانبياؤه، وقال الحسن: وعدهم بالإجابة، فلما قال: ﴿فمن يكفر بعد منكم﴾ استغفروا الله وقالوا لا نريدها. قوله: ﴿فمن يكفر بعد منكم﴾ أي بعد تنزيلها: ﴿فإني أعذبه عذاباً﴾ أي: تعذيباً ﴿لا أعذبه﴾ صفة لعذاب، والضمير عائد إلى العذاب بمعنى التعذيب: أي لا أعذب مثل ذلك التعذيب ﴿أحداً من العالمين﴾ قيل: المراد عالمي زمانهم، وقيل جميع العالمين، وفي هذا من التهديد والترهيب ما لا يقاير قدره.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن عائشة قالت: كان الحواريون أعلم بالله من أن يقولوا: ﴿هل يستطيع ربك﴾ إنما قالوا: هل يستطيع أنت ربك أن تدعوه، ويؤيد هذا ما أخرجه الحاكم وصححه، والطبراني وابن مردويه، عن معاذ بن جبل أنه قال: أقراني رسول الله ﷺ ﴿هل يستطيع ربك﴾ بالتاء يعني الفوقية. وأخرج أبو عبيد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، أنه قرأها كذلك. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة قال: المائدة الخوان، وتطمئن: توقن. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي في قوله: ﴿تكون لنا عيداً﴾ يقول: نتخذ اليوم الذي نزلت فيه عيداً نعظمه نحن، ومن بعننا. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس: أنه كان يحدث عن عيسى ابن مريم أنه قال لبني إسرائيل: هل لكم أن تصوموا ثلاثين يوماً ثم تسألوه فيعطىكم ما سألتهم؟ فإن أجر العامل على من عمل له، ففعلوا ثم قالوا: يا

وبه قال الزجاج، ولا يجيز البصريون ما قاله إلا إذا أضيف الظرف إلى فعل ماضٍ. وقرا الأعمش: ﴿هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ﴾ بتوئين يوم كما في قوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ [البقرة: 48] فكلاهما مقطوع عن الإضافة بالتوئين. وقد تقدّم تفسير قوله: ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾. قوله: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ أي: رضي عنهم بما عملوه من الطاعات الخالصة له، ورضوا عنه بما جازاهم به مما لا يخطر لهم على بال ولا تتصوره عقولهم، والرضا منه سبحانه هو أرفع درجات النعيم، وأعلى منازل الكرامة، والإشارة بذلك إلى نيل ما نالوه من دخول الجنة والخلود فيها أبداً، ورضوان الله عنهم. والفوز: الظفر بالمطلوب على اتّام الأحوال. قوله: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ جاء سبحانه بهذه الخاتمة نفعاً لما سبق من إثبات من أثبت لإلهية عيسى وأمه، وأخبر بأن ملك السموات والأرض له نون عيسى وأمه وبن سائر مخلوقاته، وأنه القادر على كل شيء نون غيره؛ وقيل المعنى: أن له ملك السموات والأرض يعطي الجنات للمطيعين، جعلنا الله منهم.

وقد أخرج الترمذي، وصححه، والنسائي، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مروي، عن أبي هريرة قال: تلقى عيسى حجة الله لقاءه في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِثْلَ بَنِي إِسْرَءِيلَ؟ فَقَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ﴾ الآية. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن قتادة في الآية قال: يقول الله هذا يوم القيامة، ألا ترى أنه يقول: ﴿هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صُدُقَهُمْ﴾. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي قال: قال الله نلك لما رفع عيسى إليه، وقالت النصارى ما قالت. وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس في قوله: ﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ قال: سيدي وسيبكم. وأخرج ابن المنذر، عنه في قوله: ﴿وَكُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ قال: الحفيظ. وأخرج الطبراني عن ابن مسعود قال: قال النبي ﷺ: ﴿وَكُنْتَ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا كُنْتُ فِيهِمْ﴾ قال: ما كنت فيهم. وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس ﴿إِنْ تَعْنِبْهُمْ فَيَنْهَضُوا عَنْكَ﴾ يقول: عيبك قد استوجبوا العذاب بمقاتلتهم ﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أي: من تركت منهم ومد في عمره حتى أهبط من السماء إلى الأرض لقتل الدجال، فزالوا عن مقاتلتهم ووجدوك ﴿فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عنه في قوله: ﴿هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صُدُقَهُمْ﴾ يقول: هذا يوم ينفع المؤمنين توحيدهم.

لم يقله. وقوله: ﴿مَنْ دُونَ اللَّهِ﴾ متعلق بقوله: ﴿اتَّخَذُونِي﴾ على أنه حال: أي متجاوزين الحد، ويجوز أن يتعلق بمحذوف هو صفة للإلهين: أي كائنين من دُون الله. قوله: ﴿سَبِّحَانِكَ﴾ تنزيه له سبحانه: أي أنزهك تنزيهاً ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّكَ﴾ أي: ما ينبغي لي أن أدعي لنفسي ما ليس من حقها، ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ رد ذلك إلى علمه سبحانه، وقد علم أنه لم يقله، فثبت بذلك عدم القول عنه. قوله: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ هذه الجملة في حكم التعليل لما قبلها: أي تعلم معلومي ولا أعلم معلومك، وهذا الكلام من باب المشكلة كما هو معروف عند علماء المعاني والبيان؛ وقيل المعنى: تعلم ما في غيبي ولا أعلم ما في غيبك؛ وقيل تعلم ما أخفيه ولا أعلم ما تخفيه؛ وقيل: تعلم ما أريد ولا أعلم ما تريد. قوله: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ هذه جملة مقررة لمضمون ما تقدم: أي ما أمرتهم إلا بما أمرتني: ﴿إِنْ أَعْبَدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ هذا تفسير لمعنى ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ﴾ أي: ما أمرتهم، وقيل: عطف بيان للمضمر في ﴿بِهِ﴾ وقيل بدل منه ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً﴾ أي: حفيظاً ورقياً أرعى أحوالهم وأمنعهم عن مخالفة أمرك ﴿مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ أي: مدة دوامي فيهم ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ قيل: هذا يدل على أن الله سبحانه توفاه قبل أن يرفعَه، وليس بشيء لأن الأخبار قد تظافرت بأنه لم يمُت، وأنه باق في السماء على الحياة التي كان عليها في الدنيا، حتى ينزل إلى الأرض آخر الزمان، وإنما المعنى: فلما رفعتني إلى السماء. قيل الوفاة في كتاب الله سبحانه جاءت على ثلاثة أوجه: بمعنى الموت، ومنه قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: 42] وبمعنى النوم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾ [الأنعام: 60] أي: ينيمكم، وبمعنى الرفع، ومنه ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾. وإذا قال الله يا عيسى إني متوفيك [آل عمران: 55]. ﴿كُنْتُ لَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ أصل المراقبة: المراجعة، أي: كنت الحافظ لهم والعالم بهم والشاهد عليهم: ﴿إِنْ تَعْنِبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَانُكَ﴾ تصنع بهم ما شئت وتحكم فيهم بما تريد، ﴿وَأَنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: القادر على ذلك الحكيم في أفعاله، قيل: قاله على وجه الاستعطف كما يستعطف السيد لعبده. ولهذا لم يقل إن تعذبهم فإنهم عصبوك؛ وقيل: قاله على وجه التسليم لأمر الله والانقياد له، ولهذا عدل عن الغفور الرحيم إلى العزيز الحكيم. قوله: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صُدُقُهُمْ﴾ أي: صدقهم في الدنيا، وقيل: في الآخرة، والأول، أولى. قرأ نافع وابن محيصن ﴿يَوْمُ﴾ بالنصب، وقرأ الباقر بالرفع، فوجه النصب أنه ظرف للقول: أي قال الله هذا القول يوم ينفع الصادقين، ووجه الرفع أنه خبر للمبتدأ هو وما أضيف إليه. وقال الكسائي نصب ﴿يَوْمُ﴾ هاهنا لأنه مضاف إلى الجملة،

[تتجدد:]

على حين عاتبت المشيب على الصبا وقلت لما اصبح والشيب وازع

تفسير سورة الأنعام

قال الثعلبي: سورة الأنعام مكية، إلا ست آيات نزلت بالمدينة، وهي ﴿وما قديروا الله حق قدره﴾ [الأنعام: 91] إلى آخر ثلاث آيات [الأنعام: 91 - 93]، و﴿قل تعالوا أتت ما حرم ربكم عليكم﴾ [الأنعام: 151] إلى آخر ثلاث آيات [الأنعام: 151 - 153]. قال ابن عطية: وهي الآيات المحكمات، يعني في هذه السورة. وقال القرطبي: هي مكية إلا آيتين هما ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ نزلت في مالك بن الصيف، وكعب بن الأشرف اليهوديين، وقوله تعالى ﴿وهو الذي أنشأ جنات معروشات﴾ [الأنعام: 141] نزلت في ثابت بن قيس بن شماس. وأخرج أبو الشيخ، وابن مروي، والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس قال: أنزلت سورة الأنعام بمكة. وأخرج أبو عبيد، وابن المنذر، والطبراني، وابن مروي عنه: قال أنزلت سورة الأنعام بمكة ليلاً جملة وحولها سبعون ألف ملك يجأرون حولها بالتسبيح. وأخرج ابن مروي، عن ابن مسعود قال: نزلت سورة الأنعام يشيعها سبعون ألفاً من الملائكة. وأخرج ابن مروي، عن أسماء قال: نزلت سورة الأنعام على النبي ﷺ، وهو في مسير في زجل من الملائكة. وقد نظموا ما بين السماء والأرض. وأخرج الطبراني، وابن مروي، عن أسماء بنت يزيد نحوه. وأخرج الطبراني، وابن مروي، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «نزلت علي سورة الأنعام جملة واحدة يشيعها سبعون ألف ملك لهم زجل بالتسبيح والتحميد»، وهو من طريق إبراهيم بن نائلة شيخ الطبراني، عن إسماعيل بن عمرو، عن يوسف، بن عطية بن عون، عن نافع، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ، ففكره. وابن مروي، رواه عن الطبراني عن إسماعيل المذكور به. وأخرج الطبراني، وابن مروي، وأبو الشيخ، والبيهقي في الشعب، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «نزلت سورة الأنعام ومعها موكب من الملائكة يسد ما بين الخافقين، لهم زجل بالتسبيح والتقديس، والأرض ترتج، ورسول الله ﷺ يقول: سبحان الله العظيم». وأخرج الحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم، والإسماعيلي في معجمه، عن جابر قال: لما نزلت سورة الأنعام سبح رسول الله ﷺ ثم قال: بلقد شيع هذه السورة من الملائكة ما سد الأفق». وأخرج البيهقي وضعفه، والخطيب في تاريخه، عن علي بن أبي طالب قال: أنزل القرآن خمساً خمساً، ومن حفظه خمساً خمساً لم ينسه، إلا سورة الأنعام، فإنها نزلت جملة يشيعها من كل سماء سبعون ملكاً، حتى أتوها إلى النبي ﷺ، ما قرئت على عليل إلا شفاه الله. وأخرج أبو الشيخ، عن أبي بن كعب، مرفوعاً نحو حديث ابن عمر. وأخرج النحاس في تاريخه، عن ابن عباس قال: سورة الأنعام نزلت بمكة جملة واحدة، فهي مكية إلا ثلاث آيات منها نزلن بالمدينة ﴿قل تعالوا أتت ما حرم﴾ إلى تمام

الآيات الثلاث [الآيات: 151 - 153]. وأخرج الديلمي بسند ضعيف عن أنس مرفوعاً «ينادي مناد: يا قارئ سورة الأنعام هلم إلى الجنة بحبك إياها وتلاوتها». وأخرج ابن المنذر، عن أبي جحيفة قال: نزلت سورة الأنعام جميعاً معها سبعون ألف ملك كلها مكية إلا ﴿ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة﴾ [الأنعام: 111] فإنها مدنية. وأخرج أبو عبيد في فضائله، والدارمي في مسنده، ومحمد بن نصر في كتاب الصلاة، وأبو الشيخ، عن عمر بن الخطاب قال: الأنعام من نواجذ القرآن. وأخرج محمد بن نصر، عن ابن مسعود مثله. وأخرج السلفي بسند واه عن ابن عباس مرفوعاً «من قرأ إذا صلى الغداة ثلاث آيات من أول سورة الأنعام إلى ﴿ويعلم ما تكسبون﴾ [الأنعام: 3] نزل إليه أربعون ألف ملك يكتب له مثل أعمالهم، ونزل إليه ملك من فوق سبع سموات ومعه مرزبة من حديد، فإن أوحى الشيطان في قلبه شيئاً من الشر ضربه ضربة حتى يكون بينه وبينه سبعون حجاباً، فإذا كان يوم القيامة، قال الله تعالى: أنا ربك وأنت عبيدي، امش في ظلي واشرب من الكثر واغسل من السلسيل وادخل الجنة بغير حساب ولا عذاب». وأخرج الديلمي عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى الفجر في جماعة وقعد في مصلاه وقرأ ثلاث آيات من أول سورة الأنعام، وكل الله به سبعين ملكاً يسبحون الله ويستغفرون له إلى يوم القيامة». وفي فضائل هذه السورة روايات عن جماعة من التابعين مرفوعة وغير مرفوعة. قال القرطبي: قال العلماء: هذه السورة أصل في محاجة المشركين وغيرهم من المعتدين، ومن كذب بالبعث والنشور، وهذا يقتضي إنزالها جملة واحدة؛ لأنها في معنى واحد من الحجة، وإن تصرف ذلك بوجوه كثيرة، وعليها بنى المتكلمون أصول الدين.

لَحْمَدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِجَمَلٍ الثَّلَاثُ وَالْأَوَّلُ ثُمَّ الَّذِي كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَبْذُلُونَ ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَ رَبِّكُمْ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ بِرَحْمَتِهِمْ وَهُمْ لَا تَكْفُرُونَ﴾

بدأ سبحانه هذه السورة بالحمد لله، للدلالة على أن الحمد كله له، ولإقامة الحجة على الذين هم بربهم يعلون. وقد تقدم في سورة الفاتحة ما يغني عن الإعادة له هنا، ثم وصف نفسه بأنه الذي خلق السموات والأرض إخباراً عن قدرته الكاملة، الموجبة لاستحقاقه لجميع المحامد، فإن من اخترع ذلك وأوجده، هو الحقيق بإفراده بالثناء وتخصيصه بالحمد، والخلق يكون بمعنى الاختراع، وبمعنى التقدير. وقد تقدم تحقيق ذلك، وجمع السموات لتعدد طباقها، وقدمها على الأرض لتقدمها في الوجود ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾ [النازعات: 30]. قوله: ﴿وجعل الظلمات والنور﴾ معطوف على خلق، نكر سبحانه خلق الجواهر بقوله: ﴿خلق السموات والأرض﴾ ثم نكر خلق الأعراف بقوله: ﴿وجعل للظلمات والنور﴾ لأن الجواهر لا تستغني عن الأعراف.

وأوقات الألهة والبروج وما يشبه ذلك؛ والثاني أجل الموت. وقيل: الأول لمن مضى. والثاني لمن بقي ولمن يأتي. وقيل: إن الأول الأجل الذي هو محتوم؛ والثاني الزيادة في العمر لمن وصل رحمه، فإن كان برّاً تقيّاً وصلاً لرحمه زيد في عمره، وإن كان قاطعاً للرحم لم يزد له، ويرشد إلى هذا قوله تعالى: ﴿وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب﴾ [فاطر: 11]. وقد صح عن رسول الله ﷺ أن صلة الرحم تزيد في العمر، وورد عنه أن دخول البلاد التي قد فشا بها الطاعون والوباء من أسباب الموت؛ وجاز الابتداء بالنعرة في قوله: ﴿ولجل مسمى عنده﴾ لأنها قد تخصصت بالصفة. قوله: ﴿ثم أنتم تموتون﴾ استبعاد لصنور الشك منهم مع وجود المقتضى لعدمه؛ أي كيف تشكون في البعث مع مشاهدتكم في أنفسكم من الابتداء والانتهاى ما يذهب بذلك وينفعه، من خلقكم من طين، وصيركم أحياء تعلمون وتعقلون، وخلق لكم هذه الحواس والأطراف، ثم سلب ذلك عنكم فصرتم أمواتاً، وعنتم إلى ما كنتم عليه من الجمادية، لا يعجزه أن يبعثكم ويعيد هذه الأجسام كما كانت، ويردّ إليها الأرواح التي فارقتها بقدرته ويبيع حكمته. قوله: ﴿وهو الله في السموات وفي الأرض يعلم سرركم وجهركم ويعلم ما تكسبون﴾ قيل: إن في السموات وفي الأرض متعلق باسم الله باعتبار ما يدل عليه من كونه معبوداً ومتصرفاً ومالكاً؛ أي هو المعبود أو المالك أو المتصرف في السموات والأرض كما تقول: زيد الخليفة في الشرق والغرب؛ أي حاكم أو متصرف فيهما؛ وقيل المعنى: وهو الله يعلم سرركم وجهركم في السموات وفي الأرض، فلا تخفى عليه خافية، فيكون العامل فيهما ما بعدهما. قال النحاس: وهذا من أحسن ما قيل فيه. وقال ابن جرير: هو الله في السموات ويعلم سرركم وجهركم في الأرض. والأول أولى، ويكون «يعلم سرركم وجهركم» جملة مقررة لمعنى الجملة الأولى، لأن كونه سبحانه في السماء والأرض، يستلزم علمه بأسرار عباده وجهركم، وعلمه بما يكسبونه من الخير والشر، وجلب النفع ودفع الضرر.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن عليّ أن هذه الآية أعني: الحمد لله، إلى قوله: ﴿ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾ نزلت في أهل الكتاب. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وأبو الشيخ، عن عبد الرحمن بن أبزي عن أبيه نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد قال: نزلت هذه الآية في الزنادقة، قالوا: إن الله لم يخلق الظلمة ولا الخنافس، ولا العقارب، ولا شيئاً قبيحاً، وإنما يخلق النور وكل شيء حسن، فأنزلت فيهم هذه الآية. وأخرج أبو الشيخ، عن ابن عباس ﴿وجعل الظلمات والنور﴾ قال: الكفر والإيمان. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة قال: إن الذين بربهم يعدلون هم أهل الشرك. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السديّ مثله. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد،

واختلف أهل العلم في المعنى المراد بالظلمات والنور؛ فقال جمهور المفسرين: المراد بالظلمات سواد الليل، وبالنور ضياء النهار. وقال الحسن: الكفر والإيمان. قال ابن عطية: وهذا خروج عن الظاهر انتهى. والأولى أن يقال: إن الظلمات تشمل كل ما يطلق عليه اسم الظلمة، والنور يشمل كل ما يطلق عليه اسم النور، فيبخل تحت ذلك ظلمة الكفر ونور الإيمان. ﴿أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات﴾ [الأنعام: 122] وأفرد النور لأنه جنس يشمل جميع أنواعه، وجمع الظلمات لكثرة أسبابها وتعدد أنواعها. قال النحاس: جعل هنا بمعنى خلق؛ وإذا كانت بمعنى خلق له تتعدّ إلا إلى مفعول واحد، وقال القرطبي: جعل هنا بمعنى خلق لا يجوز غيره. قال ابن عطية: وعليه يتفق اللفظ والمعنى في النسق، فيكون الجمع معطوفاً على الجمع، والمفرد معطوفاً على المفرد، وتقديم الظلمات على النور لأنها الأصل، ولهذا كان النهار مسلوكاً من الليل. قوله: ﴿ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾ معطوف على الحمد لله، أو على خلق السموات والأرض، وثم لاستبعاد ما صنعه الكفار من كونهم بربهم يعدلون مع ما تبين من أن الله سبحانه حقيق بالحمد على خلقه السموات والأرض والظلمات والنور، فإن هذا يقتضي الإيمان به وصرف الثناء الحسن إليه، لا الكفر به واتخاذ شريك له، وتقديم المفعول للاهتمام، ورعاية الفواصل، وحذف المفعول لظهوره؛ أي يعدلون به ما لا يقدر على شيء مما يقدر عليه، وهذا نهاية الحمق وغاية الرقاعة حيث يكون منه سبحانه تلك النعم، ويكون من الكفرة الكفر. قوله: ﴿هو الذي خلقكم من طين﴾ في معناه قولان: أحدهما، وهو الأشهر، وبه قال الجمهور أن المراد آدم عليه السلام، وأخرجه مخرج الخطاب للجميع، لأنهم ولده ونسله. الثاني، أن يكون المراد جميع البشر باعتبار أن التطفة التي خلقوا منها مخلوقة من الطين، نكر الله سبحانه خلق آدم وبنيه بعد خلق السموات والأرض إتياعاً للعالم الأصغر بالعالم الأكبر، والمطلوب بذكر هذه الأمور نفع كفر الكافرين بالبعث، وردّ لجهودهم بما هو مشاهد لهم لا يمتزجون فيه. قوله: ﴿ثم قضى لجلأ واجل مسمى عنده﴾ جاء بكلمة «ثم» لما بين خلقهم وبين موتهم من التفاوت.

وقد اختلف السلف ومن بعدهم في تفسير الأجلين، فقيل: ﴿قضى لجلأ﴾ يعني الموت ﴿واجل مسمى عنده﴾ يعني القيامة، وهو مروى عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، والضحاك، ومجاهد، وعكرمة، وزيد بن أسلم، وعطية والسديّ وخصيف، ومقاتل وغيرهم، وقيل الأول: ما بين أن يخلق إلى أن يموت؛ والثاني: ما بين أن يموت إلى أن يبعث، وهو قريب من الأول. وقيل الأول مدة الدنيا؛ والثاني عمر الإنسان إلى حين موته. وهو مروى عن ابن عباس ومجاهد. وقيل: الأول قبض الأرواح في النوم؛ والثاني قبض الروح عند الموت. وقيل: الأول ما يعرف من

أهلكنا من قبلهم من قرن ﴿كلام مبتدأ؛ لبيان ما تقدمه، والهمزة للإنكار، و «كم» يحتمل أن تكون الاستفهامية وأن تكون الخبرية وهي معلقة لفعل الرؤية عن العمل فيما بعده، و «من قرن» تمييز، والقرن: يطلق على أهل كل عصر، سموا بذلك لإقتترانهم: أي ألم يعرفوا بسماع الأخبار، ومعاينة الآثار، كم أهلكنا من قبلهم من الأمم الموجودة في عصر بعد عصر؛ لتكذيبهم أنبياءهم. وقيل القرن مدة من الزمان. وهي ستون عاماً أو سبعون أو ثمانون أو مائة على اختلاف الأقوال، فيكون ما في الآية على تقدير مضاف محذوف: أي من أهل قرن. قوله: ﴿مَكْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نَمُكِّنْ لَكُمْ﴾ مكن له في الأرض جعل له مكاناً فيها، ومكنه في الأرض: أثبت فيه، والجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل: كيف ذلك؛ وقيل: إن هذه الجملة صفة لقرن، والأول: أولى، و «ما» في «ما لم نمكن» نكرة موصوفة بما بعدها: أي مكناهم تمكيناً لم نمكنه لكم، والمعنى: أنا أعطينا القرون الذين هم قبلكم، ما لم تعطكم من الدنيا، وطول الأعمار وقوة الأبدان، وقد أهلكناهم جميعاً، فإهلاككم وأنتم دونهم بالأولى. قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَاراً﴾ يريد للمطر الكثير، عبر عنه بالسما، لأنه ينزل من السماء، ومعناه قول الشاعر:

إذا نزل السماء بأرض قوم

والمدار صيغة مبالغة تدل على الكثرة كمنكار للمرأة التي كثرت ولايتها للذكور، وميناء للتي تلد الإناث، يقال بر اللبن يدر: إذا أقبل على الحلب بكثرة وانتصاب ﴿مداراً﴾ على الحال؛ وجريان الأنهار من تحتهم معناه: من تحت أشجارهم ومنازلهم: أي أن الله وسع عليهم النعم بعد التمكين لهم في الأرض، فكفروا، فأهلكهم الله بنذوبهم، ﴿وَأَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي من بعد إهلاكهم ﴿قَرْنًا آخَرِينَ﴾ فصاروا بدلاً من الهالكين، وفي هذا بيان لكمال قدرته سبحانه، وقوة سلطانه، وأنه يهلك من يشاء ويوجد من يشاء. قوله: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قُرْطَاسٍ فَلَمْسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في هذه الجملة بيان شدة صلابتهم في الكفر، وأنهم لا يؤمنون ولو أنزل الله على رسوله كتاباً مكتوباً في قرطاس بمرأى منهم ومشاهدة، ﴿فَلَمْسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ حتى يجتمع لهم إدراك الحاستين: حاسة البصر، وحاسة اللمس ﴿لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ منهم ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مِثْلُ مَا شَاءُوا﴾ بما شاهدوا ولمسوا، وإذا كان هذا حالهم في المرثي المحسوس، فكيف فيما هو مجرد وحي إلى رسول الله ﷺ بواسطة ملك، لا يرونه، ولا يحسونه؟ والكتاب مصر بمعنى الكتابة، والقرطاس: الصحيفة. قوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ هذه الجملة مشتملة على نوع آخر من أنواع جحدهم لنبوته ﷺ وكفرهم بها: أي قالوا هلا أنزل الله عليك ملكاً نراه، ويكلمنا: أنه نبي حتى نؤمن به ونتبعه؟ كقولهم: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرٌ﴾ [الفرقان: 7] ﴿وَلَوْ

وَأَبْنِ جَرِيرٍ، وَأَبْنِ الْمَنْزَرِ، وَأَبْنِ أَبِي حَاتِمٍ، وَأَبُو الشَّيْخِ عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: ﴿يَعْلَلُونَ﴾ يشركون. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن زيد في قوله: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْلَلُونَ﴾ قال: الأكلة التي عذبوا عذبوا بالله، وليس لله عدل ولا نذ، وليس معه آلهة ولا اتخذ صاحبة ولا ولداً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ يعني آدم ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلَهُ﴾ يعني أجل الموت ﴿وَأَجَلَ مَسْمًى عِنْدَهُ﴾ أجل الساعة والوقوف عند الله. وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، عنه في قوله: ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلَهُ﴾ قال: أجل الدنيا، وفي لفظ أجل موته ﴿وَأَجَلَ مَسْمًى عِنْدَهُ﴾ قال: الآخرة لا يعلمه إلا الله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه ﴿قَضَىٰ أَجَلَهُ﴾ قال: هو اليوم يقبض فيه الروح، ثم يرجع إلى صاحبه من اليقظة ﴿وَأَجَلَ مَسْمًى عِنْدَهُ﴾ قال: هو أجل موت الإنسان.

وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿١﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِذْ هُمْ فَسُوفٌ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ بَيْنَ قَرْنَيْنِ مَكَانَهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ يَكُنْ لَكُمُ الْوَسْطَاءُ السَّمَاءُ عَلَيْهِمْ يَذْرَازُكَمُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣﴾ فَجَاءَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ أَنْبَاءُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٤﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ كَبْشٍ فِي قُرْطُبٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُثْنٍ ﴿٥﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَفُتِحَ الْأَرْضُ ثُمَّ لَا يَنْظُرُونَ ﴿٦﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَمَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَكَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْمِزُونَ ﴿٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ لَأَتِيَنَّكُمْ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾ فَلَمْ يَرْوُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أُنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَذَابَ الْمُنْكَرِينَ ﴿٩﴾

قوله: ﴿وما تأتيتهم﴾ الخ كلام مبتدأ؛ لبيان بعض أسباب كفرهم وتمردهم، وهو الإعراض عن آيات الله التي تأتيهم كمعجزات الأنبياء، وما يصدر عن قدرة الله الباهرة مما لا يشك من له عقل أنه فعل الله سبحانه، والإعراض: ترك النظر في الآيات التي يجب أن يستدلوا بها على توحيد الله و «من» في «من آية» مزيدة للاستغراق و «من» في «من آيات» تبعية؛ أي وما تأتيهم آية من الآيات التي هي بعض آيات ربهم، إلا كانوا عنها معرضين، والفاء في «فقد كتبوا» جواب شرط مقدر: أي إن كانوا معرضين عنها فقد كتبوا بما هم أعظم من ذلك، وهو الحق ﴿لما جاءهم﴾ قيل: المراد بالحق هنا القرآن، وقيل محمد ﷺ ﴿فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون﴾ أي: أخبار الشيء الذي كانوا به يستهزئون وهو القرآن، أو محمد ﷺ، على أن ما عبارة عن ذلك تهويلاً للامر وتعظيماً له: أي سيعرفون أن هذا الشيء الذي استهزؤوا به ليس بموضع للاستهزاء، وذلك عند إرسال عذاب الله عليهم، كما يقال: اصبر فسوف يأتيك الخبر عند إرادة الوعيد والتهديد، وفي لفظ الأنباء ما يرشد إلى ذلك، فإنه لا يطلق إلا على خبر عظيم. قوله: ﴿لم يروا كم﴾

ملكاً لقضي الأمر» أي: لو أنزلنا ملكاً على الصفة التي اقترحوها بحيث يشاهدونه ويخاطبونه ولقضي الأمر» أي: لاهلكناهم إذ لو يؤمنوا عند نزوله، ورؤيتهم له؛ لأن مثل هذه الآية البينة، وهي نزول الملك على تلك الصفة إذا لم يقع الإيمان بعدها، فقد استحقوا الإهلاك والمعالجة بالعقوبة «ثم لا ينظرون» أي: لا يمهلون بعد نزوله ومشاهدتهم له؛ وقيل إن المعنى: إن الله سبحانه لو أنزل ملكاً مشاهداً لم تطلق قواهم البشرية أن يبقوا بعد مشاهدته أحياء، بل تزحف أرواحهم عند ذلك، فيبطل ما أرسل الله له رسله، وأنزل به كتيبه من هذا التكليف الذي كلف به عباده «لنبلوهم أيهم أحسن عملاً» [الكهف: 7]. قوله: «ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً» أي: لو جعلنا الرسول إلي النبي ملكاً يشاهدونه، ويخاطبونه، لجعلنا ذلك الملك رجلاً، لأنهم لا يستطيعون أن يروا الملك على صورته التي خلقه الله عليها إلا بعد أن يتجسم بالأجسام الكثيفة المشابهة لأجسام بني آدم؛ لأن كل جنس يأنس بجنسه، فلو جعل الله سبحانه الرسول إلى البشر، أو الرسول إلى رسوله، ملكاً مشاهداً مخاطباً لنفروا منه ولم يأنسوا به، ولدخلهم الرعب وحصل معهم من الخوف ما يمنعه من كلامه ومشاهدته، هذا أقل حال فلا تتم المصلحة من الإرسال. وعند أن يجعله الله رجلاً: أي على صورة رجل من بني آدم، ليسكنوا إليه ويأنسوا به، سيقول الكافرون إنه ليس بملك وإنما هو بشر، ويعولون إلى مثل ما كانوا عليه. قوله: «وللبسنا عليهم ما يلبسون» أي: لخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم؛ لأنهم إذا راوه في صورة إنسان قالوا هذا إنسان وليس بملك، فإن استدلل لهم بأنه ملك كذبوه قال الزجاج: المعنى للبسنا عليهم، أي على رؤسائهم كما يلبسون على ضعفهم، وكانوا يقولون لهم: إنما محمد بشر وليس بينه وبينكم فرق. فيلبسون عليهم بهذا ويشككونهم، فاعلم الله عز وجل أنه لو نزل ملكاً في صورة رجل، لوجدوا سبيلاً إلى اللبس كما يفعلون. واللبس: الخلط، يقال لبست عليه الأمر البسه لبساً: أي خلطته، وأصله التستر بالثوب ونحوه. ثم قال سبحانه مؤنساً لنبيه ﷺ ومسلياً له «ولقد استهزئ برسلك من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤون» يقال: حاق الشيء حيقاً حيقاً وحيوفاً وحيقناً نزل: أي فنزل ما كانوا به يستهزؤون، وأصاط بهم: وهو الحق حيث أهلكوا من أجل الاستهزاء به «فل سبيروا في الأرض» أي: قل يا محمد لهؤلاء المستهزئين سافروا في الأرض، وانظروا آثار من كان قبلكم لتعرفوا ما حل بهم من العقوبات، وكيف كانت عاقبتهم بعدما كانوا فيه من النعيم العظيم الذي يفوق ما أنتم فيه، فهذه ديارهم خاربة وجنائهم مغبرة وأراضيهم مكفجرة، فإذا كانت عاقبتهم هذه العاقبة، فأنتم بهم لآحقون، وبعد هلاكهم هالكون.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: «وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين»

يقول: ما يأتيهم من شيء من كتاب الله إلا أعرضوا عنه، وفي قوله: «فقد كتبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتهم أنباء ما كانوا به يستهزؤون» يقول: سيأتيهم يوم القيامة أنباء ما استهزؤوا به من كتاب الله عز وجل. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك في قوله: «من قرن» قال: أمة. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة في قوله: «مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم» يقول: أعطيناهم ما لم نعطيكم. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله: «وأرسلنا السماء عليهم مدراراً» يقول يتبع بعضها بعضاً، وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن هارون التيمي في الآية قال: المطر في إبانة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، من طريق العوفي عن ابن عباس، في قوله: «ولو أنزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم» يقول: لو أنزلنا من السماء صحفاً فيها كتاب «فلمسوه بأيديهم» لزامهم ذلك تكذيباً. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد في قوله: «فلمسوه بأيديهم» قال: فمسوه ونظروا إليه لم يصدقوا به. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن محمد بن إسحاق قال: دعا رسول الله ﷺ قومه إلى الإسلام، وكلمهم فابلغ إليهم فيما بلغني، فقال له زمعة بن الأسود بن المطلب، والنضر بن الحارث بن كلفة، وعبد بن عبد يغوث، وأبي بن خلف بن وهب، والعاص بن وائل بن هشام: لو جعل معك يا محمد ملك يحدث عنك الناس ويرى معك، فأنزل الله: «وقالوا لولا أنزل عليه ملك» الآية. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد في قوله: «وقالوا لولا أنزل عليه ملك» قال: ملك في صورة رجل «ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر» لقامت الساعة. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة في قوله: «للقضي الأمر» يقول: لو أنزل الله ملكاً ثم لم يؤمنوا لعجل لهم العذاب. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس في قوله: «ولو أنزلنا ملكاً» قال: ولو أتاهم ملك في صورته «للقضي الأمر» لاهلكناهم «ثم لا ينظرون» لا يؤخرون «ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً» يقول: لو أتاهم ملك ما أتاهم إلا في صورة رجل، لأنهم لا يستطيعون النظر إلى الملائكة «وللبسنا عليهم ما يلبسون» يقول: لخلطنا عليهم ما يخلطون. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد في قوله: «ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً» قال: في صورة رجل في خلق رجل. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير وأبو الشيخ، عن قتادة في قوله: «ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً» يقول: في صورة آدمي. وأخرج ابن جرير، عن ابن زيد نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس «وللبسنا عليهم» يقول:

شبهنا عليهم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي في الآية قال: شبهنا عليهم ما يشبهون على أنفسهم. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن محمد بن إسحاق قال: مرَّ رسول الله ﷺ فيما بلغني بالوليد بن المغيرة، وأميه بن خلف، وأبي جهل بن هشام فهمزوه واستهزؤوا به فغاضه ذلك، فأنزل الله: ﴿ولقد استهزئ برسول من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤون﴾.

قُلْ لِّمَن مَّا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ قُلُوبٌ مِّمَّنْ عَلٰى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَهُمْ اِلٰى يَوْمِ الْاٰخِرَةِ لَا رَيْبَ فِيْهِ الَّذِيْنَ خَسِرُوْا اَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُوْنَ ﴿١١﴾ وَلَمْ يَأْسْكُنْ فِي الْاٰلِ وَالْاَنْهَارِ وَهُوَ السَّمِيْعُ الْعَلِيْمُ ﴿١٢﴾ قُلْ اَعٰوِذُ اللّٰهَ اَعٰوِذُ وَلِيًّا فَاٰتٰى السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ وَهُوَ يُعِيْمُ وَلَا يُلْمُزُ قُلْ اِنِّيْ اُرْسِلْتُ اَنْ اَكُوْنُ اَوَّلَ مَنْ اٰسَدَ وَلَا تَكُوْنُ مِنْ الشُّرَكِيّٰ ﴿١٣﴾ قُلْ اِنِّيْ اَنَا الْاِنْسَانُ اِنْ عَصَيْتُمْ رَبِّيْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيْمٍ ﴿١٤﴾ مَّن يُّصِرْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَجِعْهُ وَذٰلِكَ الْاَوَّلُ الْاٰخِرُ ﴿١٥﴾ وَلَٰنَ يَسْـَٔلُكَ اللّٰهُ بِشَيْءٍ فَلَا كَافٍ لَّهٗ اِلَّا هُوَ وَلَٰنَ يَسْـَٔلُكَ بِشَيْءٍ فَهُوَ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ ﴿١٦﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيْمُ الْغِيْبُ ﴿١٧﴾ قُلْ اَمَّا مَنۡ اَكْثَرُ شَهَادَةً عَلٰى اللّٰهِ شَيْدًا بَيْنِيْ وَبَيْنَكُمْ وَاَرْضِيْ اِلٰهًا هَٰذَا الْاَوَّلُ لَا يُؤْمِرُكُمْ بِهٖ وَمَنْ يَّبْتَغِ الْاٰخِرَ لِيَتَّخِذَ اَنْتَ مَعَ اللّٰهِ اٰلِهَةً اٰخَرَ قُلْ لَا اَشْهَدُ قُلْ اِنَّمَا هُوَ اللّٰهُ وَحِيْدٌ وَّلَاۤ اِنِّيْ بِرَبِّكَ تَشْكُرُ ﴿١٨﴾ الَّذِيْنَ مَاتَيْتُهُمُ الْكِتٰبَ يَرْجُوْنَ كَمَا يَرْجُوْنَ اٰبَتَهُمْ الَّذِيْنَ خَسِرُوْا اَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُوْنَ ﴿١٩﴾ وَمَنْ اَظْلَمُ مِمَّنۡ اَفْتَرٰى عَلٰى اللّٰهِ كَذِبًا اَوْ كَذَّبَ بِآيٰتِيْهِ اِنَّهٗ لَا يَفْعَلُ الْاَعْمٰلُوْنَ ﴿٢٠﴾

قوله: ﴿قل لمن ما في السموات والأرض﴾ هذا احتجاج عليهم وتبكييت لهم، والمعنى: قل لهم هذا القول فإن قالوا فقل لله، وإذا ثبت أن له ما في السموات والأرض إما باعترافيهم، أو بقيام الحجة عليهم، فالله قادر على أن يعالجهم بالعقاب، ولكنه كتب على نفسه الرحمة: أي وعد بها فضلاً منه وتكرماً، ونكر للنفس هنا عبارة عن تأكيد وعده، وارتفاع الوسائط بونه، وفي الكلام ترغيب للمتولين عنه إلى الإقبال إليه وتسكين خواطرهم بأنه رحيم بعباده لا يعالجهم بالعقوبة، وأنه يقبل منهم الإنابة والتوبة، ومن رحمته لهم إرسال الرسل، وإنزال الكتب، ونصب الأئمة. قوله: ﴿ليجمعنكم إلى يوم القيامة﴾ اللام جواب قسم محذوف. قال الفراء وغيره: يجوز أن يكون تمام الكلام عند قوله: ﴿الرحمة﴾ ويكون ما بعدها مستأنفاً على جهة التبيين، فيكون المعنى ﴿ليجمعنكم﴾ ليمهلنكم وليؤخرن جمعكم. وقيل المعنى: ليجمعنكم في القبور إلى اليوم الذي أنكرتموه. وقيل: ﴿إلى﴾ بمعنى في: أي ليجمعنكم في يوم القيامة. وقيل يجوز أن يكون موضع ﴿ليجمعنكم﴾ للنصب على البذل من الرحمة، فتكون اللام بمعنى أن. والمعنى: كتب ربكم على نفسه الرحمة أن يجمعنكم كما قالوا في قوله تعالى: ﴿ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننهم﴾ [يوسف: 35] أي أن يسجنوه، وقيل إن جملة ﴿ليجمعنكم﴾ مسوقة للترهيب بعد الترغيب، وللوعيد بعد الوعد: أي إن

أمهلكم برحمته فهو مجازيكم بجمعكم في معاقبة من يستحق عقوبته من العصاة، والضمير في ﴿لا ريب فيه﴾ لليوم أو للجمع. قوله: ﴿الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون﴾. قال الزجاج: إن الموصول مرتفع على الابتداء وما بعده خبره كما تقول: الذي يكرمني فله درهم، فالفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط. وقال الأخفش: إن شئت كان ﴿الذين﴾ في موضع نصب على البذل من الكاف والميم في ﴿ليجمعنكم﴾ أي: ليجمعن المشركين الذين خسروا أنفسهم، وأنكره المبرد، وزعم أنه خطأ، لأنه لا يبذل من المخاطب ولا من المخاطب. لا يقال: مررت بك زيد ولا مررت بي زيد؛ وقيل: يجوز أن يكون ﴿الذين﴾ مجبوراً على البذل من المكنيين الذين تقدم ذكرهم، أو على النعت لهم؛ وقيل: إنه منادى وحرف النداء مقدر. قوله: ﴿وله ما سكن في الليل والنهار﴾ أي: الله، وخص السالكين بالنكر، لأن ما يتصف بالسكون أكثر مما يتصف بالحركة؛ وقيل المعنى: ما سكن فيها أو تحرك فالتفتى بأحد الضمتين عن الآخر، وهذا من جملة الاحتجاج على الكفرة. قوله: ﴿قل أغير الله ولياً﴾ الاستفهام للإنكار، قال لهم ذلك لما دعوهم إلى عبادة الأصنام، ولما كان الإنكار لاتخاذ غير الله ولياً، لا لاتخاذ الولي مطلقاً؛ دخلت الهمزة على المفعول لا على الفعل. والمراد بالولي هنا: المعبود أي: كيف اتخذ غير الله معبوداً؟ و﴿فاطر السموات والأرض﴾ مجرور على أنه نعت لاسم الله، وأجاز الأخفش الرفع على إضمار مبتدأ، وأجاز الزجاج النصب على المدح، وأجاز أبو علي الفارسي نصبه بفعل مضمر، كأنه قيل أترك فاطر السموات والأرض. قوله: ﴿وهو يطعم ولا يطعم﴾ قرأ الجمهور بضم الياء وكسر العين في الأول، وضمها وفتح العين في الثاني: أي يرزق ولا يرزق، وقرأ سعيد بن جبيرة، ومجاهد، والأعمش بفتح الياء في الثاني وفتح العين، وقرئ بفتح الياء والعين في الأول، وضمها وكسر العين في الثاني على أن الضمير يعود إلى الولي المذكور، وخص الإطعام بون غيره من ضروب الإنعام؛ لأن الحاجة إليه أمس. قوله: ﴿قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم﴾ أمره سبحانه بعد ما تقدم من اتخاذ غير الله ولياً أن يقول لهم: إنه مأمور بأن يكون أول من أسلم وجهه لله من قومه، وأخلص من أمته؛ وقيل معنى ﴿أسلم﴾ استسلم لأمر الله، ثم نهاه الله عز وجل أن يكون من المشركين. والمعنى: أمرت بأن أكون أول من أسلم ونهيت عن الشرك: أي يقول لهم هذا، ثم أمره أن يقول: ﴿إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾ أي: إن عصيته بعبادة غيره أو مخالفة أمره أو نهيه. والخوف: توقع المكروه؛ وقيل: هو هنا بمعنى العلم: أي إني أعلم إن عصيت ربي أن لي عذاباً عظيماً. قوله: ﴿من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه﴾ قرأ أهل المدينة وأهل مكة، وابن عامر، على البناء للمفعول: أي من يصرف عنه العذاب، واختار هذه القراءة سيبويه. وقرأ الكوفيون على البناء للفاعل، وهو

[الأنعام: 150] وما في ﴿مما تشركون﴾ موصولة أو مصدرة: أي من الأصنام التي تجعلونها آلهة، أو من إشراككم بالله. قوله: ﴿الذين آتيناكم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم﴾ الكتاب للجنس فيشمل التوراة والإنجيل وغيرهما أي: يعرفون رسول الله ﷺ. قال به جماعة من السلف، وإليه ذهب الزجاج؛ وقيل إن الضمير يرجع إلى الكتاب: أي يعرفونه معرفة محقة، بحيث لا يلتبس عليهم منه شيء، و﴿كما يعرفون أبناءهم﴾ بيان لتحقيق تلك المعرفة وكمالها وعدم وجود شك فيها، فإن معرفة الآباء للأبناء هي البالغة إلى غاية الإتيان إجمالاً وتفصيلاً. قوله: ﴿الذين خسروا أنفسهم﴾ في محل رفع على الابتداء، وخبره ﴿فهم لا يؤمنون﴾ وبخول الفاء في الخبر، لتضمن المبتدأ معنى الشرط؛ وقيل: إن الموصول خبر مبتدأ محذوف؛ وقيل: هو نعت للموصول الأول. وعلى الوجهين الآخرين يكون ﴿فهم لا يؤمنون﴾ معطوفاً على جملة ﴿الذين آتيناكم الكتاب﴾. والمعنى على الوجه الأول: أن الكفار الخاسرين لأنفسهم بعنادهم وتمردهم لا يؤمنون بما جاء به رسول الله ﷺ، وعلى الوجهين الآخرين أن أولئك الذين آتاهم الله الكتاب هم الذين خسروا أنفسهم بسبب ما وقعوا فيه من البعد عن الحق، وعدم العمل بالمعرفة التي ثبتت لهم فهم لا يؤمنون. قوله: ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾ أي: اختلق على الله الكذب فقال: إن في التوراة أو الإنجيل ما لم يكن فيهما ﴿أو كذب بآياته﴾ التي يلزمه الإيمان بها من المعجزة الواضحة البينة. فجمع بين كونه كاذباً على الله، ومكذباً بما أمره الله بالإيمان به، ومن كان هكذا فلا أحد من عباد الله أظلم منه، والضمير في ﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾ للشأن.

وقد أخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن سلمان الفارسي قال: إننا نجد في التوراة أن الله خلق السموات والأرض، ثم جعل مائة رحمة قبل أن يخلق الخلق، ثم خلق الخلق فوضع بينهم رحمة واحدة، وأمسك عنده تسعاً وتسعين رحمة، فبها يتراحمون، وبها يتعاطفون، وبها يتبائنون، وبها يتزاوون وبها تحن الناقة، وبها تنتج البقرة، وبها تيعر الشاة، وبها تتابع الطير، وبها تتابع الحيتان في البحر، فإذا كان يوم القيامة جمع تلك الرحمة إلى ما عنده، ورحمته أفضل وأوسع. وقد أخرج مسلم، وأحمد، وغيرهما، عن سلمان عن النبي ﷺ قال: «خلق الله يوم خلق السموات والأرض مائة رحمة: منها رحمة يتراحم بها الخلق، وتسعة وتسعون ليوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة»؛ وثبت في الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لما قضى الله الخلق كتب كتاباً فوضعه عنده فوق العرش: إن رحمتي سبقت غضبي». وقد روي من طرق أخرى بنحو هذا. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي في قوله: ﴿وله ما سكن في الليل والنهار﴾ يقول

اختيار أبي حاتم، فيكون الضمير على هذه القراءة لله. ومعنى ﴿يومئذ﴾ يوم العذاب العظيم، ﴿فقد رحمه﴾ الله أي: نجاه وأنعم عليه وأخله الجنة، والإشارة بذلك إلى الصرف أو إلى الرحمة: أي فذلك الصرف أو الرحمة ﴿الفوز للمبين﴾ أي: الظاهر الواضح، وقرأ أبي ﴿من يصرف الله عنه﴾. قوله: ﴿وإن يمسسك الله بضر﴾ أي: إن ينزل الله بك ضرراً من فقر أو مرض ﴿فلا تكشف له إلا هو﴾ أي: لا قادر على كشفه سواه ﴿وإن يمسسك بخير﴾ من رخاء أو عافية ﴿فهو على كل شيء قدير﴾ ومن جملة ذلك المس بالشر والخير. قوله: ﴿وهو القاهر فوق عباده﴾ القهر: الغلبة، والقاهر: الغالب، وأقهر الرجل: إذا صار مقهوراً ذليلاً، ومنه قول الشاعر:

تمنى حصين أن يسود خزاعة فامسى حصين قد أذل وأقهر
ومعنى: ﴿فوق عباده﴾ فوقية الاستعلاء بالقهر، والغلبة عليهم، لا فوقية المكان كما تقول: للسلطان فوق رعيته: أي بالمنزلة والرفعة. وفي القهر معنى زائد ليس في القدرة، وهو منع غيره عن بلوغ المراد ﴿وهو الحكيم﴾ في أمره ﴿الخبير﴾ بأفعال عباده. قوله: ﴿قل أي شيء أكبر شهادة﴾ أي مبتدأ، وأكبر خبره، وشهادة تمييز، والشيء يطلق على القديم والحادث، والمحال والممكن. والمعنى: أي شهيد أكبر شهادة، فوضع شيء موضع شهيد، وقيل: إن ﴿شيء﴾ هنا موضوع موضع اسم الله تعالى. والمعنى: الله أكبر شهادة: أي انفراده بالربوبية، وقيام البراهين على توحيده أكبر شهادة، وأعظم فهو شهيد بيني وبينكم؛ وقيل: إن قوله: ﴿الله شهيد بيني وبينكم﴾ هو الجواب، لأنه إذا كان الشهيد بينه وبينهم كان أكبر شهادة له ﷺ؛ وقيل: إنه قد تم الجواب عند قوله: ﴿قل الله﴾ يعني الله أكبر شهادة، ثم ابتدأ فقال: ﴿شاهد بيني وبينكم﴾ أي: شهيد بيني وبينكم، قوله: ﴿وأوحى إلي هذا القرآن لأنذك به ومن بلغ﴾ أي: أوحى الله إلي هذا القرآن الذي تلوته عليكم لأجل أن أنذك به، وأنذر به من بلغ إليه: أي كل من بلغ إليه من موجود ومعلوم سيوجد في الأزمنة المستقبلية، وفي هذه الآية من الدلالة على شمول أحكام القرآن لمن سيوجد، كشمولها لمن قد كان موجوداً وقت النزول، ما لا يحتاج معه إلى تلك الخزعبلات المذكورة في علم أصول الفقه، وقرأ أبو نهيك ﴿وأوحى﴾ على البناء للفاعل، وقرأ ابن عداة على البناء للمفعول. قوله: ﴿إنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى﴾ الاستفهام للتوبيخ والتقريع على قراءة من قرأ بهمزتين على الأصل أو بقلب الثانية، وأما من قرأ على الخبر فقد حقق عليهم شركهم، وإنما قال: ﴿آلهة أخرى﴾ لأن الآلهة جمع، والجمع يقع عليه التانيث، كذا قال الفراء، ومثله قوله تعالى: ﴿وإن أسماء الحسنی﴾ [الأعراف: 180] وقال: ﴿فما بال القرون الأولى﴾ [طه: 51] ﴿قل لا أشهد﴾ أي: فأنا لا أشهد معكم فحذف لدلالة الكلام عليه، وذلك لكون هذه الشهادة باطلة، ومثله: ﴿فإن شهدوا فلا تشهد معهم﴾

﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ يَمُنُّ بِهِمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ ﴿١٣﴾ أَنْتُمْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَصَلَّ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٤﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلًا كَلًّا لَا يُذَكِّرُوا يَأْخُذْ إِذَا جَاءَهُمْ بَعْدُ لَوْلَا يُقُولُ الْآيِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا اسْتِظْهَارُ الْآيِينَ ﴿١٥﴾ وَهُمْ يَبْهَتُونَ عَنْهُ وَيَتَنَوَّنَ عَنْهُ وَلَا يَهْتَكِرُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٦﴾ وَرَبُّهُ إِذْ وَفَّوْا عَلَى الْكَاذِبِ فَقَالُوا يَلَيِّنَا رَبُّهُ وَلَا يَنْكُزُ بِآيَاتِنَا رَبَّنَا وَكَانُوا مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ يَدَّأُ لَهُمْ مَا كَانُوا يُحِبُّونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رَدُّوا لَعَادُوا لِمَا نَبُؤُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا غَرَبُ بِمَبْعُوتِهِمْ ﴿١٩﴾ وَلَوْ رَدُّوا إِذْ وَفَّوْا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ الْآيِسُ هَذَا يَلْعَنُ قَالُوا بَلَى وَرَبَّنَا قَالَ فَذَرُونَا أَلَذَّنَا بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٢٠﴾

قوله: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ قرأ الجمهور بالنون في الفعلين، وقرأ بالياء فيهما، ونالصب الظرف محنوف مقدر متأخراً: أي يوم نحشرهم كان كيت وكيت، والاستفهام في ﴿أَيْنَ شَرَكَاؤُكُمْ﴾ للتقريع والتوبيخ للمشركين. وأضاف الشركاء إليهم، لأنها لم تكن شركاء الله في الحقيقة، بل لما سموها شركاء اضيفت إليهم، وهي ما كانوا يعبدونه من دون الله، أو يعبدونه مع الله. قوله: ﴿الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي: تزعمونها شركاء، فحنف المفعولان معاً، ووجه التوبيخ بهذا الاستفهام أن معبوداتهم غابت عنهم في تلك الحال، أو كانت حاضرة ولكن لا ينتفعون بها بوجه من الوجوه، فكان وجودها كعدمها. قوله: ﴿لَمْ تَكُنْ فَتَنْتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ قال الزجاج: تأويل هذه الآية، أن الله عز وجل أخبر بقصص المشركين وافتتانهم بشركهم، ثم أخبر أن فتنتهم لم تكن حتى رأوا الحقائق إلا أن انتفوا من الشرك، ونظير هذا في اللغة أن ترى إنساناً يحب غلوياً، فإذا وقع في هلكة تبرأ منه فتقول: ما كانت محبتك إياه إلا أن تبرأت منه انتهت. فالمراد بالفتنة على هذا كفرهم: أي لم تكن عاقبة كفرهم الذي افتخروا به، وقتلوا عليه، إلا ما وقع منهم من الجحود والحلف على نفيه بقولهم: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ وقيل المراد بالفتنة هنا جوابهم: أي لم يكن جوابهم إلا الجحود والتبرئ، فكان هذا الجواب فتنة لكونه كذباً، وجملته: ﴿لَمْ تَكُنْ فَتَنْتَهُمْ﴾ معطوفة على عامل الظرف المقدر كما مر والاستثناء مفرغ، وقرأ فتنتهم بالرفع وبالنصب. ويكن وتكن والوجه ظاهر، وقرأ ﴿وَمَا كَانَ فَتَنْتَهُمْ﴾ وقرأ ﴿رَبَّنَا﴾ بالنصب على النداء ﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ بإنكار ما وقع منهم في الدنيا من الشرك، ﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي: زال وذهب اقتراؤهم وتلاشي، وبطل ما كانوا يظنونونه من أن الشركاء يقرَّبونهم إلى الله، هذا على أنَّ ما مصدرية؛ وقيل هي موصولة عبارة عن الآلهة: أي فارقهم ما كانوا يعبدون من دون الله فلم يغن عنهم شيئاً، وهذا تعجيب لرسول الله ﷺ من حالهم المختلفة ودعواهم المتناقضة؛ وقيل لا يجوز أن يقع منهم كذب في الآخرة؛ لأنها دار لا يجري فيها غير

ما استقر في الليل والنهار، وفي قوله: ﴿قُلْ غَيْرِ اللَّهِ اخُذْ لِيَاءً﴾ قال: أما الولي فالذي تولاه، ويقر له بالربوبية. ولخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال: بديع السموات والأرض. ولخرج أبو عبيد في فضائله وابن جرير، وابن الأنباري، عنه قال: كنت لا أدري ما فاطر السموات والأرض؟ حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما: أنا فطرتها، يقول: أنا ابتدأتها. ولخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي في قوله: ﴿وَهُوَ يَطْعَمُ وَلَا يَطْعَمُ﴾ قال: يرزق ولا يرزق. ولخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿مَنْ يَصْرِفُ عَنْهُ﴾ قال: من يصرف عنه العذاب. وأخرج أبو الشيخ عن السدي في قوله: ﴿وَأَنْ يَمْسَسَكَ بِخَيْرٍ﴾ يقول: بعافية. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس قال: جاء النمام بن زيد، وقرم بن كعب، وبحري بن عمرو فقالوا: يا محمد ما تعلم مع الله إلهاً غيره؟ فقال رسول الله ﷺ: لا إله إلا الله، بذلك بعثت وإلى ذلك أدعو، فأنزل الله: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ الآية. ولخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي في الأسماء والصفات عن مجاهد قال: أمر محمد ﷺ أن يسأل قريشاً أي شيء أكبر شهادة؟ ثم أمره أن يخبرهم فيقول: الله شهيد بيني وبينكم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَوْحِي إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ﴾ يعني أهل مكة ﴿وَمَنْ بَلَغَ﴾ يعني من بلغه هذا القرآن من الناس فهو له نذير. وأخرج أبو الشيخ، وابن مروي، عن أنس قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَأَوْحِي إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ كتب رسول الله ﷺ إلى كسرى، وقيصر، والنجاشي، وكل جبار يدعوهم إلى الله عز وجل، وليس بالنجاشي الذي صلى عليه النبي ﷺ. وأخرج ابن مروي، وأبو نعيم، والخطيب وابن النجار، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من بلغه القرآن فكانما شافهته به، ثم قرأ، وأوحى إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ». وأخرج ابن أبي شيبة، وابن الضريس، وابن جرير، وابن المنذر وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن محمد بن كعب القرظي قال: «من بلغه القرآن فكانما رأى النبي ﷺ»، وفي لفظ «من بلغه القرآن حتى تفهمه وتعلمه كان كمن عاين رسول الله ﷺ» وكلمه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي في الأسماء والصفات، عن مجاهد في قوله: ﴿وَأَوْحِي إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ﴾ قال: العرب ﴿وَمَنْ بَلَغَ﴾ قال: العجم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عكرمة قال: قال النضر وهو من بني عبد الدار: إذا كان يوم القيامة شفعت لي اللات والعزى، فأنزل الله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ الآية.

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِمَاطًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَقْرَبُوا إِنَّ شَرَكَاؤَكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ

الصنق، فمعنى ﴿واولئِكَ﴾ ما كنا مشركين، نفى شركهم عند أنفسهم، وفي اعتقادهم، ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿ولا يكتُمون الله شيئاً﴾ [النساء: 42]. قوله: ﴿ومنهم من يستمع إليك﴾ هذا كلام مبتدأ؛ لبيان ما كان يصنعه بعض المشركين في الدنيا، والضمير عائد إلى الذين أشركوا: أي وبعض الذين أشركوا يستمع إليك حين تتلو القرآن ﴿وجعلنا على قلوبهم أكنة﴾ أي: فعلنا ذلك بهم مجازة على كفرهم، والأكنة: الأغطية جمع كنان مثل الأسنة والسنان، كننت الشيء في كنه: إذا جعلته فيه، واكننته أخفيته، وجملة: ﴿جعلنا على قلوبهم أكنة﴾ مستأنفة للإخبار بمضمونها، أو في محل نصب على الحال: أي وقد جعلنا على قلوبهم أغطية كرامة أن يفقهوا القرآن، أو لنلا يفقهوه، والوقر: الصمم؛ يقال وقرت أذنه تقر وقرأ: أي صمت. وقرأ طلحة بن مصرف ﴿وقرأ﴾ بكسر الواو: أي جعل في أذانهم ما سداها عن استماع القول على التشبيه بوقر البعير، وهو مقدار ما يطيق أن يحمله، وذكر الأكنة والوقر تمثيل؛ لفرط بعدهم عن فهم الحق وسماعه، كان قلوبهم لا تعقل، وأسماعهم لا تترك، ﴿وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها﴾ أي: لا يؤمنوا بشيء من الآيات التي يرونها من المعجزات، ونحوها؛ لعنادهم وتمردهم قوله: ﴿حتى إذا جأؤك يجادلوك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ حتى هنا هي الابتدائية التي تقع بعدها الجمل، وجملة يجادلوك في محل نصب على الحال، والمعنى: أنهم بلغوا من الكفر والعناد أنهم إذا جأؤك مجادلين لم يكتفوا بمجرد عدم الإيمان، بل يقولون إن هذا إلا أساطير الأولين؛ وقيل: حتى هي الجارة وما بعدها في محل جر، والمعنى: حتى وقت مجيئهم مجادلين يقولون إن هذا إلا أساطير الأولين، وهذا غاية التكنيب ونهاية العناد. والأساطير قال الزجاج: واحداً أسطار. وقال الأخفش: أسطورة. وقال أبو عبيدة أسطارة. وقال النحاس: أسطور. وقال القشيري: أسطير. وقيل: هو جمع لا واحد له كعبايد وإبابيل، والمعنى: ما سطره الأولون في الكتب من القصص والأحاديث. قال الجوهري: الأساطير الأباطيل والثرهات. قوله: ﴿وهم ينهون عنه وينثنون عنه﴾ أي: ينهى المشركون الناس عن الإيمان بالقرآن، أو بمحمد ﷺ ويبعدونهم في أنفسهم عنه. وقيل: إنها نزلت في أبي طالب، فإنه كان ينهى الكفار عن آتية النبي ﷺ، ويبعد هو عن إجابته ﴿وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾ أي: ما يهلكون بما يقع منهم من النهي والنأي، إلا أنفسهم بتعريضها لعذاب الله وسخطه، والحال: أنهم ما يشعرون بهذا البلاء الذي جلبوه على أنفسهم قوله: ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ، أو لكل من تتأتى منه الرؤية، وعبر عن المستقبل يوم القيامة بلفظ الماضي تنبيهاً على تحقق وقوعه، كما ذكره علماء المعاني، و ﴿وقفوا﴾ معناه حبسوا، يقال وقفته وقفاً ووقف وقفاً، وقيل: معنى ﴿وقفوا على النار﴾ أسخلوها، فتكون على

بمعنى في؛ وقيل هي بمعنى الباء: أي وقفوا بالنار أي بقرئها معانين لها، ومفعول ترى محذوف، وجواب لو محذوف، ليذهب السامع كل مذهب، والتقدير: لو تراه إذا وقفوا على النار؛ لرايت منظرأ هائلاً وحالاً فظيلاً ﴿فقالوا يا ليتنا نرد﴾ أي: إلى الدنيا ﴿ولا نكذب بآيات ربنا﴾ أي: التي جاءنا بها رسوله ﷺ، ﴿ونكون من المؤمنين﴾ بها العاملين بما فيها، والأفعال الثلاثة داخلة تحت التمني: أي تمنوا الرد، وأن لا يكذبوا، وأن يكونوا من المؤمنين، برفع الأفعال الثلاثة كما هي قراءة الكسائي وأهل المدينة، وشعبة، وابن كثير، وأبي عمرو. وقرأ حفص، وحزمة، بنصب نكذب ونكون بإضمار أن بعد الواو على جواب التمني، واختار سيبويه القطع في ﴿ولا نكذب﴾ فيكون غير داخل في التمني، والتقدير: ونحن لا نكذب على معنى الثبات على ترك التكنيب: أي لا نكذب ربنا أو لم نرد، قال: وهو مثل دعني ولا أعود: أي لا أعود على كل حال تركتني أو لم تتركني. واستدل أبو عمرو بن العلاء على خروجه من التمني بقوله: ﴿وإنهم لكانبون﴾؛ لأن الكنب لا يكون في التمني. وقرأ ابن عامر ﴿ونكون﴾ بالنصب، وأدخل الفعلين الأولين في التمني، وقرأ أبي ﴿ولا نكذب بآيات ربنا أبداً﴾ وقرأ هو وابن مسعود ﴿يا ليتنا نرد فلا نكذب﴾ بالفاء والنصب، والفاء ينصب بها في جواب التمني كما ينصب بالواو كما قال الزجاج، وقال أكثر البصريين: لا يجوز الجواب إلا بالفاء. قوله: ﴿بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل﴾ هذا إضراب عما يدل عليه التمني من الوعد بالإيمان والتصديق: أي لم يكن ذلك التمني منهم عن صدق نية وخلوص اعتقاد، بل هو لسبب آخر، وهو أنه بدا لهم ما كانوا يخفون: أي يجحدون من الشرك، وعرفوا أنهم هالكون بشركهم، فدخلوا إلى التمني والمواعيد الكاذبة؛ وقيل: بدا لهم ما كانوا يخفون من النفاق والكفر بشهادة جوارحهم عليهم؛ وقيل: بدا لهم ما كانوا يكتُمون من أعمالهم القبيحة كما قال تعالى: ﴿وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون﴾ [الزمر: 47] وقال المبرد: بدا لهم جزاء كفرهم الذي كانوا يخفونه، وهو مثل القول الأول؛ وقيل: المعنى أنه ظهر للذين اتبعوا الغواة ما كان الغواة يخفون عنهم من أمر البعث والقيامة، ﴿ولو ردوا﴾ إلى الدنيا حسبما تمنوا ﴿لعبادوا﴾ لفعل ما نهوا عنه من القبائح التي رأسها الشرك، كما عاين إبليس ما عاين من آيات الله ثم عاند، ﴿وإنهم لكانبون﴾ أي: متصفون بهذه الصفة لا ينفكون عنها بحال من الأحوال ولو شاهدوا ما شاهدوا؛ وقيل المعنى: وإنهم لكانبون فيما أخبروا به عن أنفسهم من الصدق والإيمان. وقرأ يحيى بن وثاب ﴿ولو ردوا﴾ بكسر الراء؛ لأن الأصل ردوا فنقلت كسرة الدال إلى الراء، وجملة ﴿وإنهم لكانبون﴾ معترضة بين المعطوف وهو وقالوا، وبين المعطوف عليه وهو لعبادوا: أي لعبادوا إلى ما نهوا عنه ﴿وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا﴾ أي: ما هي إلا حياتنا الدنيا ﴿وما نحن بمبعوثين﴾ بعد الموت، وهذا من شدة

نحوه أيضاً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس في الآية قال: ينهون عنه الناس أن يؤمنوا به، وينأون عنه: يتباعدون. وأخرج ابن جرير، من طريق العوفي عنه قال: لا يلقونه ولا يدعون أحدا يأتيه. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن محمد بن الحنفية، في الآية قال: كفار مكة كانوا يدفعون الناس عنه ولا يجيبونه. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد نحوه. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة قال: ينهون عن القرآن، وعن النبي ﷺ، وينأون عنه يتباعدون عنه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن أبي هلال، في الآية قال: نزلت في عومة النبي ﷺ وكانوا عشرة، فكانوا أشد الناس معه في العلانية، وأشد الناس عليه في السر. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة في قوله: ﴿يَلْجَأُ بَدَأُ لَهُمْ مَا كَانُوا يَخْشَوْنَ مِنْ قَبْلُ﴾ قال: من أعمالهم ﴿وَلَوْ رَتُّوا لَعَادُوا لَهَا نَهَوَا عَنْهُ﴾ يقول: ولو وصل الله لهم دنيا كدنياهم التي كانوا فيها لعادوا إلى أعمالهم، أعمال السوء التي كانوا نهوا عنها. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: أخبر الله سبحانه أنهم لو رتُّوا لم يقدروا على الهدى، فقال: ﴿وَلَوْ رَتُّوا لَعَادُوا لَهَا نَهَوَا عَنْهُ﴾ أي: لو رتُّوا إلى الدنيا لحيل بينهم وبين الهدى كما حيل بينهم وبينه أوّل مرة، وهم في الدنيا.

قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِفُلْكَ اللَّهُ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْسِرُنَا عَلَىٰ مَا كُنَّا فَعَلْنَا وَإِنَّمَا كُنَّا نَعْمُ عَلَىٰ أَنْفُسِنَا وَمَا نَحْنُ بِمُؤْمِرِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَهُوَ الْآخِرُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ قَدْ تَلَمَّ إِنَّهُمْ لَمُنْكَرًا لَا يَخْلَوْنَ إِلَّا فِي الْهَيْكَلِ وَلَكِنْ أَعْرَضُوا عَنْهُ فَلَمَّا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ كَانُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ عَذَابَ اللَّهِ لَئِيْلًا ﴿١٨﴾ وَإِنْ كَانُكَرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَغْنَتْ أَنْ يُنْفِقُوا فَقَدْ خَسِرُوا عَلَىٰ الْأَرْضِ أَوْ سَلَامًا فِي السَّمَاءِ فَتَاتِبْتُهُمْ بِأَنْفُسِهِمْ وَعَدَوْا أَنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ بِهِمْ وَلَكِنْ جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٩﴾ وَإِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتُ يَبْغِيهِمْ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي سَكِينَةٍ مَأْكُوفِينَ ﴿٢٠﴾

قوله: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِفُلْكَ﴾ هم الذين تقدّم نكرهم. والمراد من تكذيبهم بقاء الله تكذيبهم بالبعث، وقيل تكذيبهم بالجزاء. والأول أولى، لأنهم الذين قالوا قريبا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: 29] ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ أي: القيامة، وسميت ساعة لسرعة الحساب فيها. ومعنى بغتة: فجأة، يقال بغتهم الأمر يبغتهم بغتاً وبغتة. قال سيبويه: وهي مصدر في موضع الحال، قال: ولا يجوز أن يقاس عليه، فلا يقال: جاء فلان سرعة، و﴿حَتَّىٰ﴾ غاية للتكذيب لا للخسران، فإنه لا

تمردهم وعنادهم، حيث يقولون هذه المقالة على تقدير أنهم رجعوا إلى الدنيا بعد مشاهدتهم للبعث. قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ قد تقدّم تفسيره في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ النَّارِ﴾ [الأنعام: 27] أي: حبسوا على ما يكون من أمر ربهم فيهم: وقيل: على بمعنى عند، وجواب لو محذوف: أي لشاهدت أمراً عظيماً، والاستفهام في ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ للتقريع والتوبيخ: أي أليس هذا البعث الذي ينكرونه كلنا موجوداً، وهذا الجزاء الذي يجحدونه حاضراً. ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ اعترفوا بما أنكروا، وأكذوا اعترافهم بالحق. ﴿قَالَ قَتَلُوا الْعَذَابَ﴾ الذي تشاهدونه وهو عذاب النار ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: بسبب كفركم به أو بكل شيء مما إمرتكم بالإيمان به في دار الدنيا.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ قال: معذرتهم. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عنه ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ قال: حججهم ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ يعني: المنافقين والمشركين قالوا وهم في النار: هلم فلنكتب فلعلة أن ينفعنا، فقال الله: ﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ فِي الْقِيَامَةِ﴾ ما كانوا يفترون. يكنون في الدنيا. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عنه في قوله: ﴿وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ ثم قال: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: 42] قال بجوارحهم. وأخرج عبد بن حميد عن قتادة: ﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾ قال: باعتذارهم الباطل ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ قال: ما كانوا يشركون. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد في قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ قال: قریش، وفي قوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ قال: كالجبعة للنبل. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ قال: يسمعون بآذانهم ولا يعون منه شيئاً، كمثّل البهيمة التي لا تسمع النداء ولا تدري ما يقال لها. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي قال: الغطاء أكن قلوبهم أن يفقهوه، والوقر الصمم، و﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أساجيع الأولين. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس قال: أساطير الأولين: أحاسيت الأولين. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة قال: أساطير الأولين: كذب الأولين وباطلهم. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ قال: نزلت في أبي طالب كان ينهى المشركين أن يردّوا رسول الله ﷺ، ويتباعد عما جاء به. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن القاسم بن مخيمرة نحوه. وأخرج ابن جرير عن عطاء

أبو عبيد قراءة التخفيف. قال النحاس: وقد خولف أبو عبيد في هذا. ومعنى «يكنبونك» على التشديد: ينسبونك إلى الكذب ويرنون عليك ما قلت. ومعنى المخفف: أنهم لا يجنونك كذاباً، يقال أكنبته: وجنته كذاباً، وأبخلته: وبخله. وخيلاً. وحكى الكسائي عن العرب: أكنبت الرجل: أخبرت أنه جاء بالكذب، وكُنِبْتِه: أخبرت أنه كاذب. وقال الزجاج: كُنِبْتِه إذا قلت له كُنِبْتِ، وأكنبته: إذا أردت أن ما أتى به كذب. والمعنى: أن تكنبهم ليس يرجع إليك، فإنهم يعترفون لك بالصق، ولكن تكنبهم راجع إلى ما جئت به، ولهذا قال: «ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون» ووضع الظاهر موضع المضمرة لزيادة التوبيخ لهم، والإزراء عليهم، ووصفهم بالظلم لبيان أن هذا الذي وقع منهم ظاهر لا يبين: قوله: «ولقد كُنِبْتِ رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى اتاهم نصرنا» هذا من جملة التسلية لرسول الله ﷺ: أي أن هذا الذي وقع من هؤلاء إليك ليس هو بأوّل ما صنعه الكفار مع من أرسله الله إليهم، بل قد وقع التكنيب لكثير من الرسل المرسلين من قبلك، فاقتد بهم ولا تحزن واصبر كما صبروا على ما كذبوا به، وأوذوا، حتى يأتيتك نصرنا كما أتاهم فإننا لا نخلف الميعاد «ولكل أجل كتاب» [الرعد: 38] «إننا لننصر رسلنا والذين آمنوا» [غافر: 51] «ولقد سبقت كلمتنا لعباننا المرسلين. إنهم لهم المنصورون. وإن جندنا لهم الغالبون» [الصفات: 171 - 173] «كتب الله لأغلبن أنا ورسلي» [المجادلة: 21] «ولا تبدل لكلمات الله» بل وعده كائن، وأنت منصور على المكذبين، ظاهر عليهم. وقد كان ذلك لله الحمد. «ولقد جاءك من نبي المرسلين» ما جاءك من تجزي قومهم عليهم في الابتداء، وتكنبهم لهم، ثم نصرهم عليهم في الانتهاء، وأنت ستكون عاقبة هؤلاء المكذبين لك كعاقبة المكذبين للرسول، فيرجعون إليك ويخجلون في الدين الذي تدعوهم إليه طوعاً أو كرهاً. قوله: «وإن كان كبر عليك إعراضهم»، كان النبي ﷺ يكبر عليه إعراض قومه، ويتعاطاه، ويحزن له، فبين له الله سبحانه أن هذا الذي وقع منهم من توليهم عن الإجابة له، والإعراض عما دعا إليه، هو كائن لا محالة لما سبق في علم الله عز وجل، وليس في استطاعته وقدرته إصلاحهم وإجابتهم قبل أن يأتين الله بذلك، ثم علق ذلك بما هو محال، فقال «فإن استطعت أن تتبغي نفقاً في الأرض» فتأتيهم بآية منه «أو سلماً في السماء فتأتيهم بآية» منها فافعل، ولكنك لا تستطيع ذلك فدع الحزن - «ولا تذهب نفسك عليهم حسرات» [فاطر: 8] «ولست عليهم بمسيطر» [الغاشية: 22] «والنفق: السرب والمنفذ، ومنه النفاق لجحر اليربوع، ومنه المناق. وقد تقدّم في البقرة ما يغني عن الإعادة. والسلم: الدرج الذي يرتقي عليه، وهو منكر لا يؤنث، وقال الفراء: إنه يؤنث. قال الزجاج: وهو مشتق من السلامة، لأنه يسلك به إلى موضع الأمن؛ وقيل: إن الخطاب وإن كان لرسول الله ﷺ فالمراد به أمته،

غاية له «قلوا يا حسرتنا» هذا جواب إذا جاءتهم أوقعوا النداء على الحسرة، وليست بمنادى في الحقيقة ليدلّ ذلك على كثرة تحسّرهم. والمعنى: يا حسرتنا احضري، فهذا أوانك، كذا قال سيبويه في هذا النداء وأمثاله، كقولهم يا للعجب ويا للرجل؛ وقيل: هو تنبيه للناس على عظم ما يحلّ بهم من الحسرة، كأنهم قالوا: يا أيها الناس تنبهوا على عظيم ما بنا من الحسرة، والحسرة: الندم الشديد «على ما فرطنا فيها» أي: على تفريطنا في الساعة: أي في الاعتداد لها، والاحتفال بشأنها، والتصديق بها. ومعنى فرطنا ضيعنا، وأصله التقدّم، يقال فرط فلان: أي تقدّم وسبق إلى الماء، ومنه قوله ﷺ: وأنا فرطكم على الحوض، ومنه الفارط: أي المتقدم فكانهم أرادوا بقولهم: «على ما فرطنا» أي: على ما قدّمنا من عجزنا عن التصديق بالساعة والاعتداد لها، وقال ابن جرير الطبري: إن الضمير في فرطنا فيها يرجع إلى الصفة، وذلك أنهم لما تبين لهم خسران صفقتهم ببيعهم الإيمان بالكفر، والنيا بالآخرة «قلوا يا حسرتنا على ما فرطنا» في صفقتنا، وإن لم تذكر في الكلام، فهو دالّ عليها؛ لأن الخسران لا يكون إلا في صفقة؛ وقيل الضمير راجع إلى الحياة: أي على ما فرطنا في حياتنا. قوله: «وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم» هذه الجملة حالية: أي يقولون تلك المقالة، والحال أنهم: «يحملون أوزارهم على ظهورهم» أي: ننوبهم، جمع وزر: يقال: وزر يزر، فهو وزر وموزر، وأصله من الوزر. قال أبو عبيدة: يقال للرجال إذا بسط ثوبه، فجعل فيه المتاع: أحمل وزرك: أي ثقلك، ومنه الوزر، لأنه يحمل لثقال ما يسند إليه من تدبير الولاية. والمعنى: أنها لزمتهم الأثام فصاروا مثقلين بها، وجعلها محمولة على الظهور تمثيل «لأساء ما يزرّون» أي: بشس ما يحملون. قوله: «وما للحياة الدنيا إلا لعب ولهو» أي: وما متاع الدنيا إلا لعب ولهو على تقدير حذف مضاف، أو ما الدنيا من حيث هي، إلا لعب ولهو. والقصد بالآية تكذيب الكفار في قولهم: «ما هي إلا حياتنا الدنيا»، واللعب معروف، وكذلك اللهو، وكل ما يشغلك فقد الهك؛ وقيل: أصله الصرف عن الشيء. وردّ بأن اللهو بمعنى الصرف لأمه ياء، يقال لهيت عنه، ولأم اللهو واو، يقال لهوت بكذا «وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون» سميت آخرة لتأخرها عن الدنيا: أي هي خير الذين يتقون الشرك والمعاصي، أفلا تعقلون ذلك. قرأ ابن عامر «ولدار الآخرة» بلام واحدة، وبالإضافة وقرأ الجمهور باللام التي للتعريف معها، وجعل الآخرة نعتاً لها والخبر خير، وقرئ تعقلون بالفوقية وللتحتية. قوله: «قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون» هذا اللام مبتدأ مسوق لتسلية رسول الله ﷺ عما ناله من الغم والحزن بتكذيب الكفار له. ويخول قد للتكثير، فإنها قد تأتي لإفادته كما تأتي ربّ والضمير في «إنه» للشأن، وقرئ بفتح الياء من يحزنك وضمها. وقرئ «يكنبونك» مشدداً ومخففاً، واختار

جريح مثله. وأخرج ابن جرير وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسما والصفات، عن ابن عباس قال: ﴿فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ﴾ والنفق: السرب، فتذهب فيه فتأتيهم بآية، أو تجعل لهم سلماً في السماء فتصعد عليه ﴿فَتَأْتِيهِمْ بَآيَةً﴾ أفضل مما أتيناهم به، فافعل ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ﴾ يقول سبحانه: لو شئت لجمعتهم على الهدى أجمعين. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: ﴿نَفَقًا فِي الْأَرْضِ﴾ قال: سرباً ﴿أَوْ سَلْمًا فِي السَّمَاءِ﴾ قال: يعني الدرج. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الحسن في قوله: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ قال: المؤمنون ﴿وَالْمَوْتَى﴾ قال: الكفار. وأخرج هؤلاء عن مجاهد مثله.

وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ طَوِيلٌ مِّنْ رَبِّهِمْ فَلِمَ أَتَاهُ اللَّهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَنْزِلَ بَآيَةً وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّا نَآخِذُ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ أُنْثَاكُمْ مَّا نَرَكَ فِي الْكِتَابِ مِنْ قَبْلُ ثُمَّ إِنَّكُمْ بِرَبِّهِمْ كَخِرُوتٍ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُورُهُمْ يَتَكَلَّمُ مِنْ أَعْيُنِهِمْ إِنَّهُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٩﴾ وَعَنْ رَبِّكَ نَسْتَعِينُ ﴿٨٠﴾

هذا كان منهم تعنتاً ومكابرة، حيث لم يقتنوا بما قد أنزل الله على رسوله من الآيات البينات التي من جملتها القرآن، وقد علموا أنهم قد عجزوا عن أن يأتوا بسورة مثله، ومرادهم بالآية هنا: هي التي تضطرهم إلى الإيمان كنزول الملائكة بمرأى منهم ومسمع، أو تنق الجبل كما وقع لبني إسرائيل، فأمره الله سبحانه أن يجيبهم بأن الله قادر على أن ينزل على رسوله آية تضطرهم إلى الإيمان، ولكنه ترك ذلك لتظهر فائدة التكليف الذي هو الابتلاء والامتحان، وأيضاً لو أنزل آية كما طلبوا لم يمهلهم بعد نزولها بل سيعالجهم بالعقوبة إذا لم يؤمنوا. قال الزجاج: طلبوا أن يجمعهم على الهدى، يعني جمع إلقاء ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ أن الله قادر على ذلك، وأنه تركه لحكمة بالغة لا تبليها عقولهم. قوله: ﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا إمام أمثالكم﴾ الدابة من دب يذب فهو داب: إذا مشى مشياً فيه تقارب خطو. وقد تقدم بيان ذلك في البقرة ﴿ولا طائر﴾ معطوف على ﴿دابة﴾ مجرور في قراءة الجمهور. وقرأ الحسن وعبد الله بن أبي إسحاق ﴿ولا طائر﴾ بالرفع عطفاً على موضع من دابة على تقدير زيادة من، و﴿بجناحيه﴾ لرفع الإبهام؛ لأن العرب تستعمل الطيران لغير الطير كقولهم: طر في حاجتي: أي أسرع؛ وقيل: إن اعتدال جسد الطائر بين الجناحين يعينه على الطيران، ومع عم الاعتدال يميل، فأعلمنا سبحانه أن الطيران بالجناحين؛ وقيل: نكر الجناحين للتأكيد كضرب بيده وأبصر بعينه ونحو ذلك. والجناح: أحد ناحيتي الطير الذي يتمكن به من الطيران في الهواء، وأصله الميل إلى ناحية من النواحي.

لأنها كانت تضيق صدورهم بتمرد الكفرة وتصميمهم على كفرهم، ولا يشعرون أن الله سبحانه في تلك حكمة، لا تبليها العقول، ولا تتركها الأفهام، فإن الله سبحانه لو جاء لرسوله ﴿بآية تضطرهم إلى الإيمان لم يبق للتكليف الذي هو الابتلاء والامتحان معنى، ولهذا قال: ﴿ولو شاء الله لجمعهم على الهدى﴾ جمع إلقاء وقسر، ولكنه لم يشأ ذلك، والله الحكمة البالغة ﴿فلا تكونن من الجاهلين﴾ فإن شدة الحرص والحزن لإعراض الكفار عن الإجابة قبل أن يأتوا الله بذلك هو صنيع أهل الجهل، ولست منهم، فدرع الأمور مفوضة إلى عالم الغيب والشهادة، فهو أعلم بما فيه المصلحة، ولا تحزن لعدم حصول ما يطلبونه من الآيات التي لو بدا لهم بعضها، لكان إيمانهم بها اضطراراً ﴿إنما يستجيب الذين يسمعون﴾ أي: إنما يستجيب لك إلى ما تدعو إليه الذين يسمعون سماع تفهم بما تقتضيه العقول وتوجبها الأفهام، وهؤلاء ليسوا كذلك، بل هم بمنزلة الموتى الذين لا يسمعون ولا يعقلون لما جعلنا على قلوبهم من الأكنة، وفي آذانهم من الوقر، ولهذا قال ﴿والموتى يبعثهم الله﴾ شبههم بالأموات بجامع أنهم جميعاً لا يفهمون الصواب، ولا يعقلون الحق: أي أن هؤلاء لا يلجئهم الله إلى الإيمان وإن كان قادراً على ذلك، كما يقدر على بعث الموتى للحساب ﴿ثم إليه يرجعون﴾ إلى الجزاء فيجازي كلا بما يليق به كما تقتضيه حكمته البالغة.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿قَالُوا يَا حَسْرَتُنَا﴾ قال: الحسرة الندامة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني وأبو الشيخ، وابن مردويه، والخطيب بسند صحيح، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ في قوله: ﴿يَا حَسْرَتُنَا﴾ قال: الحسرة أن يرى أهل النار منازلهم من الجنة، فتلك الحسرة. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿ألا ساء ما يزرعون﴾ قال: ما يعملون. وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿لعب ولهو﴾ قال: كل لعب: لهو. وأخرج الترمذي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والحاكم وصححه، والضياء في المختارة، عن علي بن أبي طالب، قال: قال أبو جهل للنبي ﷺ: إنا لا نكذبك ولكن نكتب بما جئت به، فنزل الله: ﴿فإنهم لا يكتبونك ولكن للظالمين بآيات الله يجحدون﴾. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن أبي يزيد المنني، أن أبا جهل قال: والله إني لأعلم أنه صادق، ولكن متى كنا تبعاً لبني عبد مناف؟ وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن مردويه، عن أبي ميسرة، نحو رواية علي بن أبي طالب. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿ولكن للظالمين بآيات الله يجحدون﴾ قال: يعلمون أنك رسول الله ويجحدون. وأخرج ابن جرير عن الضحاك في قوله: ﴿ولقد كنيت رسل من قبلك﴾ قال: يعزّي نبيه ﷺ. وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن

قوله: ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أي: في ظلمات الكفر، والجهل والحيرة، لا يهتدون لشيء مما فيه صلاحهم. والمعنى: كائنين في الظلمات التي تمنع من إحصار المبصرات، وضموا إلى الصمم، والبكم، عدم الانتفاع بالابصار لتراكم الظلمة عليهم، فكانت حواسهم كالمسلوبة التي لا ينتفع بها بحال، وقد تقدّم في البقرة تحقيق المقام بما يغني عن الإعادة، ثم بين سبحانه أن الأمر بيده ما شاء يفعل، من شاء تعالى أن يضلّه أضله، ومن شاء أن يهديه جعله على صراط مستقيم، لا يذهب به إلى غير الحق. ولا يمشي فيه إلا إلى صوب الاستقامة.

وقد أخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في قوله: ﴿إِلَّا اِصْمُ امثالكم﴾ قال: أصنافاً مصنفة تعرف بأسمائها. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة في الآية قال: الطير أمة، والإنس أمة، والجن أمة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي: قال: خلق أمثالكم. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن جريح في الآية قال: اللزّة فما فوقها من ألوان ما خلق الله من الدواب. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس ﴿مَا فُرِطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ يعني: ما تركنا شيئاً إلا وقد كتبناه في أم الكتاب. وأخرج عبد الرزاق، وأبو الشيخ، عن قتادة نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم وأبو الشيخ، عن ابن عباس في قوله: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يَحْشُرُونَ﴾ قال: موت البهائم حشرها، وفي لفظ قال: يعني بالحشر الموت. وأخرج عبد الرزاق، وأبو عبيد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، عن أبي هريرة قال: «ما من دابة ولا طائر إلا سيحشر يوم القيامة، ثم يقتصر لبعضها من بعض، حتى يقتصر لبعضها من بعض، حتى يقتصر للجلحاء من ذات القرن، ثم يقال لها كوني تراباً، فعند ذلك يقول الكافر: «يا ليتني كنت تراباً» [النبا: 40] وإن شئتُمْ فاقروا: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، عن أبي نرّ قال: انتطحت شاتان عند النبي ﷺ فقال لي: «يا أبا نرّ أتدري فيم انتطحتا؟ قلت: لا قال: لكن الله يبري وسيقضي بينهما» قال أبو نرّ: ولقد تركنا رسول الله ﷺ وما يقاب طائر جناحيه في السماء ولا نكرنا منه علماً. وأخرجه أيضاً أحمد، وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «لنؤننّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء».

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَدَابُ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمْ الْإِنْسَانُ أَعْبَدُ اللَّهَ أَمْ تَدْعُونَ إِيَّاهُ أَنْ يَكُونَ إِلَٰهًا أَمْ تَدْعُونَ إِلَى شَاءٍ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَاهْتَدَوْا إِلَٰهًا وَتَضَرَّوْا لَعَلَّهُمْ يَضُرُّوْنَ ﴿٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الْكُفْرَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣﴾ فَلَمَّا سَوَّاهُ وَدُعَاؤُهُمْ فَتَخَسَّرَ عَلَيْهِمْ أَعْيُنُهُمْ كَالْحَصَىٰ وَكَانَ إِلَهُهُمُ لَا يُجِيبُ أَعْيُنَهُمْ فَذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرَجُوا عَنْهُمُ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا نَبَتْهُ إِذْ هُمْ

والمعنى: ما من دابة من الدواب التي تدب في أي مكان من أمكنة الأرض، ولا طائر يطير في أي ناحية من نواحيها إلا أم أمثالكم﴾ أي: جماعات مثلكم خلقهم الله كما خلقكم، ورزقهم كما رزقكم داخلّة تحت علمه وتقديره وإحاطته بكل شيء؛ وقيل: ﴿امثالنا﴾ في ذكر الله والدلالة عليه؛ وقيل: ﴿امثالنا﴾ في كونهم محشورين، روى ذلك عن أبي هريرة. وقال سفيان بن عيينة أي: ما من صنف من الدواب والطير إلا في الناس شبه منه، فمنهم من يعبد كالأسد، ومنهم من يشبه كالخنزير، ومنهم من يعوي كالكلب، ومنهم من يزهر كالطاووس؛ وقيل: ﴿امثالكم﴾ في أن لها أسماء تعرف بها. وقال الزجاج ﴿امثالكم﴾ في الخلق والرزق، والموت، والبعث، والاقتصاص. والأولى أن تحمل المماثلة على كل ما يمكن وجود شبه فيه كائناً ما كان. قوله: ﴿مَا فُرِطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: ما أغفلنا عنه ولا ضيعنا فيه من شيء. والمراد بالكتاب: اللوح المحفوظ، فإن الله أثبت فيه جميع الحوادث؛ وقيل إن المراد به القرآن: أي ما تركنا في القرآن من شيء من أمر الدين إما تفصيلاً أو إجمالاً، ومثله قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: 89]، وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: 44]، ومن جملة ما أجمله في الكتاب العزيز قوله: ﴿مَا أَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: 7] فأمر في هذه الآية باتباع ما سنه رسول الله ﷺ، فكل حكم سنه الرسول لأمره قد نكوه الله سبحانه في كتابه العزيز، بهذه الآية وينحو قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ [آل عمران: 31] ويقول: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: 21]، «ومن» في «من شيء» مزيدة للاستغراق. قوله: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يَحْشُرُونَ﴾ يعني: الأمم المنكورة، وفيه دلالة على أنها تحشر كما يحشر بنو آدم، وقد ذهب إلى هذا من العلماء، ومنهم أبو نرّ، وأبو هريرة، والحسن، وغيرهم. وذهب ابن عباس إلى أن حشرها موتها، وبه قال الضحك. والأول: أرجح للآية، ولما صح في السنة المطهرة من أنه يقاد يوم القيامة للشاة الجلحاء من الشاة القرناء، ولقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: 5]: وذهبت طائفة من العلماء إلى أن المراد بالحشر: المنكور في الآية: حشر الكفار، وما تخلل كلام معترض. قالوا: وأما الحديث فالمقصود به التمثيل على جهة تعظيم أمر الحساب والقصاص. واستتلوا أيضاً بأن في هذا الحديث خارج الصحيح عن بعض الرواة زيادة، ولفظه حتى يقاد للشاة الجلحاء من القرناء، وللحجر لم ركب على الحجر؟ والعود لم خدش العود؟ قالوا: والجمادات لا يعقل خطابها ولا ثوابها ولا عقابها. قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا صَمٌّ وَبِكَلِمِهِمْ﴾ أي: لا يسمعون بأسماعهم ولا ينطقون بالسنتهم، نزلهم منزلة من لا يسمع ولا ينطق، لعدم قبولهم لما ينبغي قبوله من الحجج الواضحة والدلائل الصحيحة. وقال أبو علي: يجوز أن يكون صممهم وبكمهم في الآخرة.

يُتْلَوْنَ ﴿تَقْعُ دَائِرُ الْقَوَرِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَكْمَدُوا رَبَّ النَّارِ﴾ ﴿١٥﴾

قوله: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ الكاف والميم عند البصريين للخطاب، ولا حظ لهما في الإعراب، وهو اختيار الزجاج. وقال الكسائي والفراء وغيرهما: إن الكاف والميم في محل نصب بوقوع الرؤية عليهما. والمعنى: أرايتم أنفسكم. قال في الكشف مرجحاً للمذهب الأول: إنه لا محل للضمير الثاني، يعني الكاف من الإعراب، لأنك تقول: أرايتك زيدا ما شأنه، فلو جعلت للكاف محلاً لكنت كأنك تقول: أرايت نفسك زيدا ما شأنه، وهو خلف من القول انتهى. والمعنى: أخبروني ﴿إِنْ تَأْتِكُمْ عَذَابُ اللَّهِ﴾ كما أتى غيركم من الأمم ﴿أَوْ تَأْتِكُمْ السَّاعَةُ﴾ أي: القيامة ﴿أَغْيِرِ اللَّهُ تَدْعُونَ﴾ هذا على طريقة التبيخ والتوبيخ: أي تدعون غير الله في هذه الحالة من الأصنام التي تعبدها، أم تدعون الله سبحانه. وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ تأكيد لذلك التوبيخ: أي أغير الله من الأصنام تدعون إن كنتم صادقين أن أصنامكم تضر وتنفع، وإنها آلهة كما تزعمون. قوله: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ معطوف على منفي مقدر أي: لا تدعون غيره، بل إياه تخصون بالدعاء ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي: فيكشف عنكم ما تدعونه إلى كشفه إن شاء أن يكشفه عنكم لا إذا لم يشأ ذلك. قوله: ﴿وَتَتَسَوْنَ مَا تَشْرَكُونَ﴾ أي: وتتسبون عند أن يأتكم العذاب ما تشركون به تعالى، أي ما تجعلونه شريكاً له من الأصنام ونحوها فلا تدعونها، ولا ترجون كشف ما بكم منها، بل تعرضون عنها إعراس الناس. وقال الزجاج: يجوز أن يكون المعنى: وتتركون ما تشركون. قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ كلام مبتدأ مسوق لتسليية النبي ﷺ: أي ولقد أرسلنا إلى أمم كائنة من قبلك رسلاً فكذبوهم ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ﴾ أي: البؤس والضَّرَّ وقيل: البأساء المصائب في الأموال، والضراء المصائب في الأبدان، وبه قال الأكثر ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ أي: يدعون الله بضراعة، مأخوذ من الضراعة وهي الذل، يقال: ضرع فهو ضارع، ومنه قول الشاعر:

لبيك يزيد ضارع لخصومة ومختبب مما تطيح الطوائح
قوله: ﴿فَلَوْلَا إِذَا جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ أي: فهلا إذ جاءهم بآسنا تضرعوا لكنهم لم يتضرعوا، وهذا عتاب لهم على ترك الدعاء في كل الأحوال حتى عند نزول العذاب بهم لشدة تمردهم وغلظهم في الكفر، ويجوز أن يكون المعنى أنهم تضرعوا عند أن نزل بهم العذاب، وذلك تضرع ضروري لم يصدر عن إخلاص، فهو غير نافع لصاحبه، والأول أولى، كما يدل عليه ﴿وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي صلبت وغلظت ﴿وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي أغواهم بالتصميم على الكفر والاستمرار على المعاصي، قوله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي: تركوا ما نذكروا به، أو أعرضوا عما نذكروا به، لأن النسيان لو كان على حقيقته لم يؤاخذوا به، إذ ليس هو من فعلهم، وبه قال ابن عباس، وابن جريج، وأبو علي الفارسي. والمعنى: أنهم لما تركوا الاعتاظ

بما نذكروا به من البأساء والضراء وأعرضوا عن ذلك ﴿فَتَحْنَاهُمْ فِتْنَةً﴾ أي: لما نسوا ما نذكروا به استدرجناهم بفتح أبواب كل نوع من أنواع الخير عليهم ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ من الخير على أنواعه فرح بطر وأشر وأعجبوا بذلك وظنوا أنهم إنما أعطوه لكون كفرهم الذي هم عليه حقاً وصواباً ﴿لَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ أي: فجأة وهم غير مترقبين لذلك والبغته: الأخذ على غرة من غير تقبلة أمانة، وهي مصدر في موضع الحال، لا يقاس عليها عند سيبويه. قوله: ﴿فَإِذَا هُمْ مَبْلُسُونَ﴾ المبلس: الحزين الأيس من الخير لشدة ما نزل به من سوء الحال، ومن ذلك اشتق اسم إبليس، يقال أبلس الرجل إذا سكت، وأبلست الناقة إذا لم ترع. قال العجاج:

صاح هل تعرف رسماً مكرساً قال نعم أعرفه وأبلساً
أي: تحير لهول ما رأى، والمعنى: فإذا هم محزونون متحيزون آيسون من الفرح. قوله: ﴿فَقَطَّعْ دَائِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ الدابر الآخر، يقال دبر القوم يدبرهم دبراً: إذا كان آخرهم في المجيء، والمعنى: أنه قطع آخرهم أي استؤصلوا جميعاً حتى آخرهم. قال قطرب: يعني أنهم استؤصلوا واهلكوا. قال أمية بن أبي الصلت:

فأهلكوا بعذاب حص دابرهم فما استطاعوا له صرفاً ولا انتصروا
ومنه التدبير؛ لأنه أحكام عواقب الأمور. قوله: ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي على هلاكهم، وفيه تعليم للمؤمنين كيف يحملونه سبحانه عند نزول النعم التي من أجلها هلاك الظلمة الذين يفسدون في الأرض، ولا يصلحون، فإنهم أشد على عباد الله من كل شديد، اللهم أرح عبادك المؤمنين من ظلم الظالمين، واقطع دابرهم، وأبلهم بالعدل الشامل لهم.

وقد أخرج أبو الشيخ، عن سعيد بن جبير، في قوله: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ﴾ قال: خوف السلطان وغلاء السعر. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ قال: يعني تركوا ما نذكروا به. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن جريج ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ قال: ما دعاهم الله إليه ورسله، أبوه ورسوله عليهم. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله: ﴿فَتَحْنَاهُمْ فِتْنَةً﴾ أي: فتنة كل شيء. قال: رخاء الدنيا ويسرها. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن قتادة نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن السدي، في قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ قال: من الرزق ﴿لَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ أي: أخذناهم مبلسون. قال: مهلكون متغير حالهم ﴿فَقَطَّعْ دَائِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يقول: فقطع أصل الذين ظلموا. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن محمد بن النضر الحارثي في قوله: ﴿لَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ قال: أمهلوا عشرين سنة، ولا يخفي أن هذا مخالف لمعنى البغته

إليه، ﴿فلا خوف عليهم﴾ بوجه من الوجوه ﴿ولا هم يحزنون﴾ بحال من الأحوال، هذا حال من آمن وأصلح، وأما حال المكذبين فهو أنه يمسهم العذاب بسبب فسقهم: أي خروجهم عن التصديق والطاعة.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس في قوله: ﴿يصفون﴾ قال: يعلون. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد، في قوله: ﴿يصفون﴾ قال: يعرضون، وقال في قوله: ﴿قل أريتكم إن اتاكم عذاب الله بغتة﴾ قال: فجأة أمتين، أو جهرة، قال: وهم ينظرون. وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال: كل فسق في القرآن فمعناه الكذب.

قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنِّي أَنَّى أَنَّى لَا مَا يَوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَيْبِهِمْ لَيْسَ لَهُم دُورٌ وَوَيْلٌ وَلَا شَفِيعٌ لَهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَقْلُوبُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْرِ وَالْغَيْبِ يُرِيدُونَ رَيْبَهُمْ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِن شَيْءٍ وَمَا مِن حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِن شَيْءٍ فَتَقْلُوبُهُمْ فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَاءَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ كُنْتُ رُسُلَكُمْ عَلَىٰ نَفْسِي أَرَأَيْتُمْ أَنَّمْ مِّنْ عَمَلِكُمْ شَيْءٌ يَّجْعَلُهُ ثُمَّ نَافٍ مِّنْ عَمَلِهِمْ وَأَسْلَحَ فَأَنَّهُ غَوًى رَّجِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَلِكَ نَقُصُّ الْأَنْبِيَاءَ لِنُؤْمِنَ سُبُلَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٥٥﴾

أمره الله سبحانه بأن يخبرهم لما كثر اقتراحهم عليه، وتعننتهم بإنزال الآيات التي تضطربهم إلى الإيمان، أنه لم يكن عنده خزائن قدرته التي تشتمل على كل شيء من الأشياء ويقول لهم: إنه لا يعلم الغيب حتى يخبرهم به ويعرفهم بما سيكون في مستقبل الدهر ﴿ولا أقول لكم إنني ملك﴾ حتى تكلفوني من الأفعال الخارقة للعادة ما لا يطيقه البشر، وليس في هذا ما يدل على أن الملائكة أفضل من الأنبياء. وقد اشتغل بهذه المفاضلة قوم من أهل العلم، ولا يترتب على ذلك فائدة دينية ولا نذوية. بل الكلام في مثل هذا من الاشتغال بما لا يعني، ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه ﴿إن تتبع إلا ما يوحى إلي﴾ أي: ما أتبع إلا ما يوحى الله إلي، وقد تمسك بذلك من لم يثبت اجتهاد الأنبياء عملاً بما يفيد القصر في هذه الآية، والمسألة ملوثة في الأصول والآلة عليها معروفة. وقد صح عنه ﷺ أنه قال: «أوتيت القرآن ومثله معه، قل هل يستوي الأعمى والبصير» هذا الاستفهام للإنكار، والمراد: أنه لا يستوي الضال والمهتدي، أو المسلم الكافر أو من أتبع ما أوحى إليه ومن لم يتبعه، والكلام تمثيل: ﴿أفلا تتفكرون﴾ في ذلك حتى تعرفوا عدم الاستواء بينهما، فإنه بين لا يلتبس على

لغة ومحتاج إلى نقل عن الشارع، وإلا فهو كلام لا طائل تحته. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن زيد قال: المبلس المجهود المكروب الذي قد نزل به الشر الذي لا يدفعه، والمبلس أشد من المستكين، وفي قوله: ﴿فقطع دابر القوم الذين ظلموا﴾ قال: استصلوا.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن أَخَذَ اللَّهُ مِمَّا كُمْتُمْ وَأَصْرَكُمْ وَحَمَّ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ أَنْظَرُ كَيْفَ نَعْرِفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْذَبُونَ ﴿٥٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ مِّنْ ءَمَّا نَسْلَخَ تَلَا حَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَرْجُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يُسَمُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾

هذا تكرير للتوبيخ لقصد تأكيد الحجة عليهم، ووجد السمع لأنه مصدر يدل على الجمع بخلاف البصر، ولهذا جمعه، والختم: الطبع، وقد تقدم تحقيقه في البقرة، والمراد: أخذ المعاني القائمة بهذه الجوارح أو أخذ الجوارح نفسها، والاستفهام في ﴿من إله غير الله﴾ يأتيكم به ﴿للتوبيخ، ومن، مبتداً، وإله، خبره، ودغير الله، صفة للخبر، ووجد الضمير في «به» مع أن المرجع متعدد على معنى: فمن يأتيكم بذلك المأخوذ أو المنكور، وقيل: الضمير راجع إلى أحد هذه المنكورات وقيل إن الضمير بمنزلة اسم الإشارة: أي يأتيكم بذلك المنكور، ثم أمر رسول الله ﷺ بالنظر في تصريف الآيات، وعدم قبولهم لها تعجباً له من ذلك، والتصريف المجيء بها على جهات مختلفة، تارة إنذار وتارة إغذار، وتارة ترغيب، وتارة ترهيب، وقوله: ﴿ثم هم يصفون﴾ عطف على نصرف، ومعنى يصفون: يعرضون، يقال: صنف عن الشيء: إذا عرض عنه صنفًا وصلوفاً. قوله: ﴿قل أريتكم إن اتاكم عذاب الله﴾ أي: أخبروني عن ذلك، وقد تقدم تفسير البغته قريباً أنها الفجأة. قال الكسائي: بغتهم يبيغتهم بغتا وبغته: إذا أتاهم فجأة أي: من دون تقديم مقدمات تدل على العذاب، والجهرة أن يأتي العذاب بعد ظهور مقدمات تدل عليه؛ وقيل البغته: إتيان العذاب ليلاً، والجهرة: إتيان العذاب نهاراً كما في قوله تعالى: ﴿بياتاً أو نهاراً﴾ [يونس: 50]. ﴿هل يهلك إلا القوم الظالمون﴾ الاستفهام للتقرير: أي ما يهلك هلاك تعذيب وسخط إلا القوم الظالمون. وقرئ «يهلك» على البناء للفاعل. قال الزجاج: معناه هل يهلك إلا أتم ومن أشبهكم؟ انتهى. قوله: ﴿وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين﴾ كلام مبتدأ؛ لبيان الغرض من إرسال الرسل: أي مبشرين لمن أطاعهم بما أعد الله له من الجزاء العظيم، ومنذرين لمن عصاهم بما له عنده الله من العذاب الويليل، وقيل: مبشرين في الدنيا بسعة الرزق وفي الآخرة بالثواب، ومنذرين مخوفين بالعقاب، وهما حالان مقدرتان: أي ما نرسلهم إلا مقترنين تبشيرهم وإنذارهم ﴿فمن آمن وأصلح﴾ أي: آمن بما جاءت به الرسل ﴿وأصلح﴾ حال نفسه بفعل ما يدعونه

من له أننى عقل، وأقل تفكر. قوله: ﴿وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم﴾ الإنذار: الإعلام، والضمير في به راجع إلى ما يوحى؛ وقيل إلى الله؛ وقيل إلى اليوم الآخر. وخص الذين يخافون أن يحشروا، لأن الإنذار يؤثر فيهم لما حل بهم من الخوف، بخلاف من لا يخاف الحشر من طوائف الكفر لجحوده به وإنكاره له، فإنه لا يؤثر فيه ذلك. قيل ومعنى يخافون: يعلمون ويتيقنون أنهم محشورون، فيشمل كل من آمن بالبعث من المسلمين، وأهل الذمة، وبعض المشركين؛ وقيل: معنى الخوف على حقيقته، والمعنى: أنه ينذر به من يظهر عليه الخوف من الحشر عند أن يسمع النبي ﷺ ينكره، وإن لم يكن مصيباً به في الأصل، لكنه يخاف أن يصح ما أخبر به النبي ﷺ، فإن من كان كذلك تكون الموعظة فيه أنجع والتذكير له أنفع. قوله: ﴿وليس لهم من دونه ولي ولا شفيع﴾ الجملة في محل نصب على الحال: أي أنذر به هؤلاء الذين يخافون الحشر حال كونهم لا ولي لهم يوالهم ولا نصير يناصرهم، ولا شفيع يشفع لهم من دونه الله، وفيه رد على من زعم من الكفار المعترفين بالحشر أن آباءهم يشفعون لهم، وهم أهل الكتاب، أو أن أصنامهم تشفع لهم، وهم المشركون. قوله: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾ الدعاء العبادة مطلقاً؛ وقيل: المحافظة على صلاة الجماعة؛ وقيل: الذكر وقراءة القرآن؛ وقيل: المراد الدعاء لله بجلب النفع وبغض الضرر. قيل: والمراد بذكر الغداة والعشي الدوام على ذلك والاستمرار؛ وقيل: هو على ظاهره، ويريدون وجهه في محل نصب على الحال. والمعنى: أنهم مخلصون في عبادتهم لا يريدون بذلك إلا وجه الله تعالى: أي يتوجهون بذلك إليه لا إلى غيره. قوله: ﴿وما عليكم من حسابهم من شيء﴾ وما من حسابك عليهم من شيء. هذا كلام معترض بين النهي وجوابه متضمن لنفي الحامل على الطرد: أي حساب هؤلاء الذين أردت أن تطردهم موافقة لمن طلب ذلك منك هو على أنفسهم ما عليك منه شيء، وحسابك على نفسك ما عليهم منه شيء فعلام تطردهم؟ هذا على فرض صحة وصف من وصفهم بقوله: ﴿ما نراك اتبعك إلا الذين هم أرائتنا﴾ [هود: 27] وطعن عندك في دينهم وحسبهم، فكيف وقد زكاهم الله عز وجل بالعبادة والإخلاص، وهذا هو مثل قوله تعالى: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ [الأنعام: 164] وقوله: ﴿وان ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ [النجم: 39]. وقوله: ﴿إن حسابهم إلا على ربي﴾ [الشعراء: 113]. قوله: ﴿فتطردهم﴾ جواب النفي في قوله: ﴿وما عليكم من حسابهم من شيء﴾ وهو من تمام الاعتراض: أي إذا كان الأمر كذلك فاقبل عليهم وجالسهم ولا تطردهم مراعاة لحق من ليس على مثل حالهم في الدين والفضل، ومن في ﴿ما عليكم من حسابهم من شيء﴾ للتبعيض، والثانية للتوكيد. وكذا في ﴿ما من حسابك عليهم من شيء﴾، قوله: ﴿فتكون من الظالمين﴾ جواب للنهي

أعني ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم﴾ أي: فإن فعلت ذلك كنت من الظالمين، وحاشاه عن وقوع ذلك. وإنما هو من باب التعريض لئلا يفعل ذلك غيره ﷺ من أهل الإسلام، كقوله تعالى: ﴿لئن أشركت ليحبطن عَمَلَك﴾ [الزمر: 65]. وقيل: إن ﴿فتكون من الظالمين﴾ معطوف على «فتطردهم» على طريق التسبب، والأول أولى. قوله: ﴿وكنلك فتنا بعضهم ببعض﴾ أي: مثل تلك الفتنة العظيمة فتنا بعض الناس ببعض، والفتنة الاختبار: أي عاملناهم معاملة المختبرين، واللام في ﴿ليقولوا﴾ للعاقبة: أي ليقول البعض الأول مشيرين إلى البعض الثاني ﴿أهؤلاء﴾ الذين ﴿ومن الله عليهم من بيننا﴾ أي: أكرمهم بإصابتهم الحق بوننا. قال النحاس: وهذا من المشكل، لأنه يقال كيف فتنتوا ليقولوا هذا القول وهو إن كان على طريقة الإنكار كفر، وأجاب بجوابين: الأول: أن ذلك واقع منهم على طريقة الاستفهام لا على سبيل الإنكار؛ والثاني: أنهم لما اختبروا بهذا كان عاقبته هذا القوم منهم كقوله: ﴿فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً﴾ [قصص: 8]. قوله: ﴿أليس الله بأعلم بالشاكرين﴾ هذا الاستفهام للتقرير. والمعنى: أن مرجع الاستحقاق لنعم الله سبحانه هو الشكر، وهو أعلم بالشاكرين له، فما بالك تعترضون بالجهل وتكثرون الفضل. قوله: ﴿وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا﴾ هم الذين نهاه الله عن طردهم وهم المستضعفون من المؤمنين، كما سيأتي بيانه: ﴿فقل سلام عليكم﴾ أمره الله بأن يقول لهم هذا القول تطبيقاً لخواطرهم، وإكراماً لهم. والسلام، والسلامة: بمعنى واحد، فمعنى سلام عليكم: سلمكم الله. وقد كان النبي ﷺ بعد نزول هذه الآية إذا رآهم بدهم بالسلام؛ وقيل: إن هذا السلام هو من جهة الله: أي أبلغهم منا السلام. قوله: ﴿كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾ أي: أوجب ذلك إيجاب فضل وإحسان؛ وقيل: كتب ذلك في اللوح المحفوظ. قيل: هذا من جملة ما أمره الله سبحانه بإبلاغه إلى أولئك الذين أمره بإبلاغ السلام إليهم تبشيراً بسعة مغفرة الله، وعظيم رحمته. قوله: ﴿أن من عمل منكم سوءاً بجهالة﴾ قرأ ابن عامر، وعاصم، ونافع بفتح أن من أنه، وقرأ الباقون بكسرها. فعلى القراءة الأولى: تكون هذه الجملة بدلاً من الرحمة: أي كتب ربكم على نفسه أنه من عمل إلى آخره. وعلى القراءة الثانية: تكون هذه الجملة مفسرة للرحمة بطريق الاستئناف وموضع بجهالة النصب على الحال: أي عمله وهو جاهل. قيل: والمعنى أنه فعل فعل الجاهلين؛ لأن من عمل ما يؤدي إلى الضرر في العاقبة مع علمه بذلك أو ظنه، فقد فعل فعل أهل الجهل، والسفه، لا فعل أهل الحكمة، والتدبير؛ وقيل المعنى: أنه عمل ذلك وهو جاهل لما يتعلق به من المضرة، فتكون فائدة التقييد بالجهالة الإيذان بأن المؤمن لا يباشر ما يعلم أنه يؤدي إلى الضرر. قوله: ﴿ثم تاب من بعده﴾ أي: من بعد عمله ﴿وواصل﴾ ما أقسده بالمعصية، فراجع الصواب وعمل الطاعة ﴿فإنه غفور رحيم﴾. قرأ ابن عامر،

بدهر. وأخرج مسلم والنسائي، وابن ماجه، وغيرهم، عن سعد بن أبي وقاص قال: لقد نزلت هذه الآية في ستة: أنا وعبد الله بن مسعود، وبلال، ورجل من هنيل، ورجلان لست أسميهما، فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء عنك لا يجترئون علينا، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، فحدث نفسه، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾. وقد روي في بيان السبب روايات موافقة لما ذكرنا في المعنى. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ قال: يعني الصلاة المكتوبة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد قال: الصلاة المكتوبة الصبح والمصر. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن إبراهيم النخعي في الآية قال: هم أهل النكر لا تطردهم عن النكر. قال سفيان: أي أهل الفقه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَكذلك فتناً بعضهم ببعض﴾ يعني: أنه جعل بعضهم أغنياء وبعضهم فقراء، فقال الأغنياء للفقراء ﴿أهؤلاء من الله عليهم من بيننا﴾ يعني: هؤلاء هدامهم الله، وإنما قالوا ذلك استهزاء وسخرية. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج ﴿أهؤلاء الذين من الله عليهم من بيننا﴾ أي: لو كان لهم كرامة على الله ما أصابهم هذا الجهد. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ماها بن قال: أتى قوم النبي ﷺ، فقالوا: إنا أصبنا نوباً عظيماً فما ردّ عليهم شيئاً فانصرفوا، فأنزل الله: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا﴾ الآية، فدعاهم فقرأوا عليهم. وأخرج ابن المنذر، عن ابن جريج، قال: أخبرت أن قوله: ﴿سلام عليكم﴾ كانوا إذا دخلوا على النبي ﷺ يدهم بالسلام، فقال ﴿سلام عليكم﴾ وإذا لقاهم فكذلك أيضاً. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، عن قتادة في قوله: ﴿وَكذلك نفصل الآيات﴾ قال: نبين الآيات. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن زيد في قوله: ﴿وَلتستبين سبيل المجرمين﴾ قال: الذين يأمرونك بطرد هؤلاء.

قُلْ إِنِّي نَبِيٌّ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ فَمِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ قَدْ صَلَّيْتُ إِذَا مَا أَنَا مِنَ الْهَاشِيئِينَ ﴿٥١﴾ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتَهُ بِهِ مَا يَتَّبِعُونَهُ إِلَّا الضَّلَالَةَ إِنَّ الْمُلُكَ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضِي الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاضِلِينَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أُوذِيَ مَا فَتَنَ الْجِنَّةَ وَالنَّاسَ فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَذَابَ لِلْكَافِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَاللَّهُ أَهْلُ عِلْمٍ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٤﴾ * وَصَدَقَ مَقَامُ النَّبِيِّ لَا يَمْلِكُهُ إِلَّا هُوَ وَيُؤْتِي مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْطُرُ مِنْ دُونِهِ لَا يَمْلِكُهُمْ وَلَا جَبَرُ فِي ظُلُمَاتٍ الْأَرْضِ وَلَا زَمْزَمَ وَلَا يَابِسَ إِلَّا فِي كَيْفٍ تُبَيِّنُ ﴿٥٥﴾

قوله: ﴿قُلْ إِنِّي نَهَيْتُ﴾ أمره الله سبحانه أن يعود إلى مخاطبة الكفار ويخبرهم بأنه نهى عن عبادة ما يدعون ويعبثونه من دون الله أي: نهى الله عن ذلك وصرفه وزجره، ثم أمره سبحانه بأن يقول لهم: ﴿لَا تَتَّبِعُوا هَؤُلَاءِ﴾ أي: لا أسلك المسلك الذي سلكتموه في دينكم، من اتباع الأهل

وعاصم، يفتح الهمزة من «فإنه»، وقرأ الباقون بالكسر. فعلى القراءة الأولى تكون أن وما بعدها خبر مبتدأ محذوف: أي فأمره أن الله غفور رحيم، وهذا اختيار سيبويه، واختار أبو حاتم أن الجملة في محل رفع على الابتداء، والخبر مضمّر، كأنه قيل: فله ﴿أنه غفور رحيم﴾ قال: لأن المبتدأ هو ما بعد الفاء. وأما على القراءة الثانية: فالجملة مستأنفة. قوله: ﴿وكنك تفصل الآيات﴾ أي: مثل تلك التفصيل نفسها، والتفصيل التبيين، والمعنى: أن الله فصل لهم ما يحتاجون إليه من أمر الدين، وبين لهم حكم كل طائفة. قوله: ﴿ولتستبين سبيل للمجرمين﴾. قال الكوفيون: هو معطوف على مقتر: أي وكنك تفصل الآيات لنبيين لكم، ولتستبين قال للنحاس: وهذا الحذف لا يحتاج إليه. وقيل: إن دخول الواو للعطف على المعنى: قرئ ﴿ولتستبين﴾ بالفوقية والتحتية، فالخطاب على الفوقية للنبي ﷺ: أي لتستبين يا محمد سبيل المجرمين، وسبيل منصوب على قراءة نافع. وأما على قراءة ابن كثير، وأبي عمرو، وابن عامر، وحفص بالرفع، فالفعل مسند إلى سبيل وأما على التحتية فالفعل مسند إلى سبيل أيضاً، وهي قراءة حمزة والكسائي وشعبة بالرفع، وإذا استبان سبيل المجرمين فقد استبان سبيل المؤمنين.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: ﴿وَقُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ قال: الأعمى الكافر، الذي عمي عن حق الله وأمره ونعمه عليه، والْبَصِيرُ: العبد المؤمن، الذي أبصر بصرًا نافعاً فوجد الله وحده، وعمل بطاعة ربه، وانتفع بما آتاه الله. وأخرج أحمد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مروي، وأبو نعيم في الحلية، عن عبد الله بن مسعود: قال مرَّ الملا من قريش على النبي ﷺ، وعنده صهيب، وعمار، وبلال، وخباب ونحوهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمد أرضيت بهؤلاء من قومك؟ ﴿أَهْوَاءٌ مِّنْ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ أنحن نكون تبعاً لهؤلاء، أطردم عنا، فلعلك إن طردتهم أن نتبعك، فأنزل الله فيهم القرآن ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَيْبِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾. وقد أخرج هذا السبب مطولاً ابن جرير، وابن المنذر، عن عكرمة، وفيه: إن الذين جاؤا إلى النبي ﷺ عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وقرظة بن عبد، عمرو بن نوفل، والحارث بن عامر بن نوفل، ومطعم بن عدي بن الخيار بن نوفل في أشراف الكفار من عبد مناف. وأخرجه ابن أبي شيبة، وابن ماجه وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ وابن مروي، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في الدلائل، عن خباب قال: جاء الأقرع بن حابس التميمي، وعيينة بن حصن الفزاري، فنكر نحو حديث عبد الله بن مسعود مطولاً. قال ابن كثير: هذا حديث غريب، فإن هذه الآية مكية، والأقرع وعيينة إنما أسلما بعد الهجرة

والمشي على ما توجه المقاصد الفاسدة التي يتسبب عنها الوقوع في الضلال. قوله: ﴿وَقَدْ ضَلَلْتُ إِذْ أَتَىٰ أَهْوَاؤَكُمْ فِيمَا يُدْعِيهِمْ إِلَىٰ عِبَادَةِ مَعْبُودَاتِكُمْ، وَطُرِدَ مِنْ أَرْبَعِ طَرَفِهِ﴾ وما أنا من المهتدي ﴿إِنْ فَعَلْتُ ذَلِكَ، وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ الْإِسْمِيَّةُ مَعْطُوفَةٌ عَلَى الْجُمْلَةِ الَّتِي قَبْلَهَا، وَالْمَجِيءُ بِهَا اسْمِيَّةٌ عَقِبَ تِلْكَ الْفِعْلِيَّةِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى الدَّوَامِ وَالثَّبَاتِ، وَقَرَأَ: ﴿ضَلَلْتُ﴾ بِفَتْحِ اللَّامِ وَكسرها وهما لغتان. قال أبو عمرو: ضَلَلْتُ بِكسْرِ اللَّامِ لُغَةً تَمِيمٌ، وَهِيَ قِرَاءَةُ ابْنِ وَثَابٍ وَطَلْحَةَ بْنِ مَصْرُوفٍ، وَالْأَوَّلَى هِيَ الْأَصَحُّ وَالْأَفْصَحُ؛ لِأَنَّهَا لُغَةُ أَهْلِ الْحِجَازِ، وَهِيَ قِرَاءَةُ الْجُمْهُورِ. قَالَ الْجَوْهَرِيُّ: وَالضَّلَالُ وَالضَّلَالَةُ ضِدُّ الرِّشَاءِ، وَقَدْ ضَلَلْتُ أَضِلُّ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي﴾ [سبأ: 50] قَالَ فَهَذِهِ: يَعْنِي الْمَفْتُوحَةَ لُغَةً نَجِدُ وَهِيَ الْفَصِيحَةُ، وَأَهْلُ الْعَالِيَةِ يَقُولُ: ضَلَلْتُ بِالْكَسْرِ أَضِلُّ أَنْتَهَى. قَوْلُهُ: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ الْبَيِّنَةُ: الْحُجَّةُ وَالْبَرَهَانُ: أَيِ إِنِّي عَلَىٰ بَرَهَانٍ مِنْ رَبِّي وَيَقِينٌ، لَا عَلَىٰ هَوًى وَشَكٍّ، أَمَرَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِأَنْ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّ مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ رَبِّهِ هُوَ عَنْ حُجَّةٍ بَرَهَانِيَّةٍ يَقِينِيَّةٍ، لَا كَمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ اتِّبَاعِ الشُّبْهِ الدَّاحِضَةِ وَالشُّكُوكِ الْفَاسِدَةِ الَّتِي لَا مَسْتَدَلَّ لَهَا إِلَّا مَجْرَدُ الْاِهْوَاءِ الْبَاطِلَةِ. قَوْلُهُ: ﴿وَكُنْتُمْ بِهِ﴾ أَيِ: بِالرَّبِّ أَوْ بِالْعَذَابِ أَوْ بِالْقُرْآنِ أَوْ بِالْبَيِّنَةِ، وَالتَّنْكِيرُ لِلتَّضَمِيرِ بِاعْتِبَارِ الْمَعْنَى. وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ إِمَّا حَالِيَّةٌ بِتَقْدِيرِ: قَدْ: أَيْ وَالْحَالُ أَنْ قَدْ كُنْتُمْ بِهِ، أَوْ جُمْلَةٌ مُسْتَنْفَاةٌ مَبْنِيَّةٌ لِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ التَّكْذِيبِ بِمَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْحُجَجِ الْوَاضِحَةِ وَالْبَرَاهِينِ الْبَيِّنَةِ. قَوْلُهُ: ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ أَخْبَرَهُمْ بِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ مَا يَتَعَجَّلُونَهُ مِنَ الْعَذَابِ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا لَفِرَطِ تَكْذِيبِهِمْ يَسْتَعْجِلُونَ نَزْلَهُ اسْتِهْزَاءً، نَحْوُ قَوْلِهِ: ﴿أَوْ تَسْقُطُ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا﴾ [الإسراء: 92]، وَقَوْلُهُمْ: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَامْطُرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الأنفال: 32]، وَقَوْلُهُمْ: ﴿مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سبأ: 29]، وَقِيلَ: ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي تَقْتَرِحُونَهَا عَلَيَّ. قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أَيِ مَا الْحُكْمُ فِي كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا لِلَّهِ سُبْحَانَهُ، وَمِنْ جُمْلَةِ ذَلِكَ مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَوْ الْآيَاتِ الْمَقْتَرَحَةِ. وَالْمَرَادُ: الْحُكْمُ الْفَاصِلُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ. قَوْلُهُ: ﴿يَقْصُ الْحَقُّ﴾ قَرَأَ نَافِعٌ وَابْنُ كَثِيرٍ وَعَاصِمٌ ﴿يَقْصُ﴾ بِالْقَافِ وَالصَّادِ الْمَهْمَلَةِ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ ﴿يَقْضِي﴾ بِالضَّادِ الْمَعْجَمَةِ وَالْيَاءِ، وَكَذَا قَرَأَ عَلِيٌّ وَابُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السَّلْمِيُّ، وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ، وَهُوَ مَكْتُوبٌ فِي الْمَصْحَفِ بِغَيْرِ يَاءٍ. فَعَلَى الْقِرَاءَةِ الْأُولَى، هُوَ مِنَ الْقَصَصِ: أَيِ يَقْصُ الْقَصَصُ الْحَقُّ، أَوْ مِنْ قَصَّ أَثَرُهُ: أَيِ يَتَّبِعُ الْحَقُّ فِيمَا يَحْكُمُ بِهِ. وَعَلَى الْقِرَاءَةِ الثَّانِيَةِ، هُوَ مِنَ الْقَضَاءِ: أَيِ يَقْضِي الْقَضَاءَ بَيْنَ عِبَادِهِ، وَالْحَقُّ مُنْتَصِبٌ عَلَى الْمَفْعُولِيَّةِ، أَوْ عَلَى أَنَّهُ صِفَةٌ لِمَصْدَرٍ مَحْذُوفٍ: أَيِ يَقْضِي الْقَضَاءَ الْحَقُّ، أَوْ يَقْصُ الْقَصَصُ الْحَقُّ ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ أَيِ: بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ بِمَا يَقْضِي بِهِ بَيْنَ عِبَادِهِ وَيَفْصِلُهُ لَهُمْ فِي كِتَابِهِ، ثُمَّ أَمَرَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنْ

يقول لهم: ﴿لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ أَيِ: مَا تَطْلُبُونَ تَعْجِيلَهُ بِأَنْ يَكُونَ إِزَالُهُ بِكُمْ مَقْدُورًا لِي وَفِي وَسْعِي ﴿لَقَضَى الْأَمْرَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أَيِ: لَقَضَى اللَّهُ الْأَمْرَ بَيْنَنَا بِأَنْ يَنْزِلَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِكُمْ بِسْؤَالِي لَهُ وَطَلْبِي ذَلِكَ؛ أَوْ الْمَعْنَى: لَوْ كَانَ الْعَذَابُ الَّذِي تَطْلُبُونَهُ وَتَسْتَعْجِلُونَ بِهِ عِنْدِي، وَفِي قَبْضَتِي لِأَنْزَلْتُهُ بِكُمْ، وَعِنْدَ ذَلِكَ يَقْضِي الْأَمْرَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ وَبَلَّوْتُ الَّذِي يَنْزِلُ فِيهِ عَذَابُهُمْ وَيَمَا تَقْتَضِيهِ مَشِيئَتُهُ مِنْ تَأْخِيرِهِ اسْتِدْرَاجًا لَهُمْ وَإِعْذَارًا إِلَيْهِمْ. قَوْلُهُ: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ الْمَفَاتِحُ جَمْعُ مِفْتَاحٍ بِالْفَتْحِ: وَهُوَ الْمَخْزَنُ: أَيِ عِنْدَهُ مَخَازِنُ الْغَيْبِ، جَعَلَ لِلْأُمُورِ الْغَيْبِيَّةِ مَخَازِنَ تَخْزَنُ فِيهَا عَلَى طَرِيقِ الاسْتِعَارَةِ، أَوْ جَمْعُ مِفْتَاحٍ بِكسْرِ الميم، وَهُوَ الْمِفْتَاحُ، جَعَلَ لِلْأُمُورِ الْغَيْبِيَّةِ مِفْتَاحَ يَتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى مَا فِي الْمَخَازِنِ مِنْهَا عَلَى طَرِيقِ الاسْتِعَارَةِ أَيْضًا، وَيُؤَيِّدُ أَنَّهَا جَمْعُ مِفْتَاحٍ بِالْكَسْرِ قِرَاءَةُ ابْنِ السَّمِيعِ ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ فَإِنَّ الْمَفَاتِحَ جَمْعُ مِفْتَاحٍ وَالْمَعْنَى: إِنَّ عِنْدَهُ سُبْحَانَهُ خَاصَّةً مَخَازِنَ الْغَيْبِ، أَوْ الْمَفَاتِحَ الَّتِي يَتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى الْمَخَازِنِ. وَقَوْلُهُ: ﴿لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ جُمْلَةٌ مُؤَكِّدَةٌ لِمَضْمُونِ الْجُمْلَةِ الْأُولَى، وَأَنَّهُ لَا عِلْمَ لِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ بِشَيْءٍ مِنَ الْأُمُورِ الْغَيْبِيَّةِ الَّتِي اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِعِلْمِهَا، وَيَنْدَرِجُ تَحْتَ هَذِهِ الْآيَةِ عِلْمُ مَا يَسْتَعْجِلُهُ الْكَفَّارُ مِنَ الْعَذَابِ كَمَا يَرِشِدُ إِلَيْهِ السِّيَاقُ ائْتِدَاجًا أَوَّلِيًّا. وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ الشَّرِيفَةِ مَا يَفْغُحُ أَبْطَالِ الْكُهَّانِ وَالْمَنْجَمِينَ وَالرَّمْلِيِّينَ وَغَيْرَهُمْ مِنَ الْمُدَّعِينَ مَا لَيْسَ مِنْ شَأْنِهِمْ، وَلَا يَدْخُلُ تَحْتَ قُدْرَتِهِمْ، وَلَا يَحِيطُ بِهِ عِلْمُهُمْ، وَلَقَدْ ابْتَلَى الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ بِقَوْمٍ سَوَاءٍ مِنْ هَذِهِ الْأَجْنَسِ الضَّالَّةِ، وَالْأَنْوَاعِ الْمَخْذُولَةِ، وَلَمْ يَرْبِحُوا مِنْ أَكْذَابِهِمْ وَأَبْطَالِهِمْ بِغَيْرِ خُطَّةٍ السَّوَاءِ الْمَنْكُورَةِ فِي قَوْلِ الصَّادِقِ الْمَصْدُوقِ ﷺ «مَنْ أَتَى كَاهِنًا أَوْ مَنْجِمًا فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أَنْزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ». قَوْلُهُ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ خَصَّصَهَا بِالذِّكْرِ؛ لِأَنَّهَا مِنْ أَعْظَمِ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ: أَيِ يَعْلَمُ مَا فِيهَا مِنْ حَيَوَانَ وَجَمَادٍ عِلْمًا مُفْصَلًا لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُ شَيْءٌ، أَوْ خَصَّصَهَا لِكُونِهَا أَكْثَرُ مَا يَشَاهِدُهُ النَّاسُ وَيَتَطَّلَعُونَ لَعَلَّ مَا فِيهَا ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ أَيِ: مِنْ وَرَقِ الشَّجَرِ وَهُوَ تَخْصِصٌ قَعْدُ التَّعْمِيمِ: أَيِ يَعْلَمُهَا وَيَعْلَمُ زَمَانَ سَقُوطِهَا وَمَكَانَهُ، وَقِيلَ: الْمَرَادُ بِالْوَرَقَةِ مَا يَكْتُبُ فِيهِ الْأَجَالُ وَالْأَرْزَاقُ، وَحَكَى النِّقَاشُ عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، أَنَّ الْوَرَقَةَ يَرَادُ بِهَا هُنَا السَّقُوطُ مِنْ أَوْلَادِ بَنِي أَدَمَ، قَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ: وَهَذَا قَوْلٌ جَارٍ عَلَى طَرِيقَةِ الرَّمُوزِ، وَلَا يَصَحُّ عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَلْتَفِتَ إِلَيْهِ ﴿وَلَا حَبَّةٌ كَاثِنَةٌ﴾ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ أَيِ: فِي الْأَمَكَةِ الْمَظْلَمَةِ، وَقِيلَ: فِي بَطْنِ الْأَرْضِ ﴿وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ﴾ بِالْخَفْضِ عَطْفًا عَلَى حَبَّةٍ: وَهِيَ مَعْطُوفَةٌ عَلَى وَرَقَةٍ. وَقَرَأَ ابْنُ السَّمِيعِ، وَالْحَسَنُ، وَغَيْرُهُمَا بِالرَّفْعِ عَطْفًا عَلَى مَوْضِعٍ مِنْ وَرَقَةٍ، وَقَدْ شَمَلَ وَصْفَ الرُّطُوبَةِ وَالْيَبُوسَةِ جَمِيعَ الْمَوْجُودَاتِ. قَوْلُهُ: ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ هُوَ الْوَرَقُ الْمَحْفُوظُ، فَتَكُونُ هَذِهِ الْجُمْلَةُ بَدَلُ اشْتِمَالٍ مِنْ ﴿إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ وَقِيلَ هُوَ عِبَارَةٌ عَنْ

علمه فتكون هذه الجملة بدل كل من تلك الجملة.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن أبي عمران الجوني، في قوله ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ قال: على ثقة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن عكرمة في قوله: ﴿لِقَاضِي الْأَمْرِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ قال: لقامت الساعة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي في قوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ قال: يقول خزائن الغيب. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ قال: من خمس وإن الله عنده علم الساعة إلى قوله: ﴿عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: 34]. وأخرج أحمد، والبخاري، وغيرهما، عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله، لا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله، ولا يعلم أحد متى تقوم الساعة إلا الله». وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس «وما تسقط من ورقة إلا يعلمها» قال: ما من شجرة في بر ولا بحر إلا وبها ملك يكتب ما يسقط من ورقها. وأخرج أبو الشيخ، عن مجاهد نحوه. وأخرج أبو الشيخ، عن محمد بن جحادة، في قوله: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا لَهُ فِيهَا رُقْعَةٌ فَمِنْهَا سَقُطَتْ وَرَقَّتْهُ خَرَجَتْ رُوحُهُ مِنْ جَسَدِهِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ وأخرج الخطيب في تاريخه بسند ضعيف، عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: «ما من زرع على الأرض ولا ثمار على أشجار إلا عليها مكتوب بسم الله الرحمن الرحيم، هذا رزق فلان بن فلان» فذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا لَهُ رِزْقٌ مِنْهُ﴾ وقد رواه يزيد بن هارون، عن محمد ابن إسحاق، عن نافع، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ فنكره. وأخرج أبو الشيخ، عن ابن عباس أنه تلا هذه الآية ﴿وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ﴾ فقال: الرطب واليابس من كل شيء.

وَهُوَ الَّذِي يَرْزُقُكُمْ يَأْتِلُ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْسُطُ فِيهِ لِقَاضِي أَمَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَرُسُلُهُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةٌ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٨﴾

قوله: ﴿يَتُوفَاكُم بِاللَّيْلِ﴾ أي: ينيمكم فيقبض فيه نفوسكم التي بها تميزون وليس ذلك موتاً حقيقة، فهو مثل قوله: ﴿إِنَّهُ يَتُوفَى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزمر: 42] والتوفي استيفاء الشيء، وتوفيت الشيء واستوفيته: إذا أخذته أجمع، قال الشاعر:

لن بني الأدم ليسوا من أحد ولا توفاهم قريش في العدد قيل: الروح إذا خرجت من البدن في المنام بقيت فيه

الحياة؛ وقيل: لا تخرج منه الروح بل الذهن فقط، والأولى أن هذا أمر لا يعرف إلا الله سبحانه. قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ أي: كسبتم بجوارحكم من الخير والشر. قوله: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ أي: في النهار يعني البقعة؛ وقيل يبعثكم من القبور فيه: أي في شأن ذلك الذي قطعتم فيه أعماركم من النوم بالليل والكسب بالنهار؛ وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: هو الذي يتوفاكم بالليل ثم يبعثكم بالنهار ويعلم ما جرحتم فيه؛ وقيل ثم يبعثكم فيه: أي في المنام، ومعنى الآية: أن إمهاله تعالى للكفار ليس للغفلة عن كفرهم، فإنه عالم بذلك ولكن ﴿لِقَاضِي أَمَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: معين لكل فرد من أفراد العباد من حياة ورزق ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي: رجوعكم بعد الموت ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، قوله: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ المراد: فوقية القدرة والرتبة كما يقال: السلطان فوق الرعية، وقد تقدّم بيانه في أول السورة. قوله: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ أي: ملائكة جعلهم الله حافظين لكم، ومنه قوله: ﴿وَلَنْ عَلَيْكُمْ لحَافِظِينَ﴾ [الإنفطار: 10] والمعنى: أنه يرسل عليكم من يحفظكم من الأفتات ويحفظ أعمالكم، والحفظة جمع حافظ، مثل كتبة جمع كاتب ﴿وَعَلَيْكُمْ﴾ متعلق بيرسل لما فيه من معنى الاستيلاء، وتقديره على حفظة ليفيد العناية بشأنه وأنه أمر حقيق بذلك؛ وقيل هو متعلق بحفظة. قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ حتى يحتمل أن تكون هي الغائية: أي ويرسل عليكم حفظة يحفظون ما أمروا بحفظه مما يتعلق بكم ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ﴾ ويحتمل أن تكون الابتدائية، والمراد بمجيء الموت: مجيء علاماته. وقرأ حمزة «توفاه رسلنا» وقرأ الأعمش «تتوفاه» والرسول هم أعوان ملك الموت، ومعنى توفته: استوفت روحه: ﴿لَا يَفِرُّونَ﴾ أي: لا يقصرون ويضيعون، وأصله من التقدّم، وقال أبو عبيدة: لا يتوانون. وقرأ عبيد بن عمير «لا يفرطون» بالتخفيف: أي لا يجاوزون الحد فيما أمروا به من الإكرام والإمانة. قوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ﴾ معطوف على توفته، والضمير راجع إلى أحد؛ لأنه في معنى الكل مع الالتفات من الخطاب إلى الغيبة: أي رُدُّوا بعد الحشر إلى الله: أي إلى حكمه وجزائه ﴿مَوْلَاهُمُ﴾ مالكمهم الذي يلي أمورهم ﴿الْحَقُّ﴾ قرأ الجمهور بالجر صفة لاسم الله. وقرأ الحسن ﴿الْحَقُّ﴾ بالنصب على إضمار فعل: أي أعني أو أمدح، أو على المصدر ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاكِمِينَ﴾ لكونه لا يحتاج إلى ما يحتاجون إليه من الفكر والروية والتدبر.

وقد أخرج أبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «مع كل إنسان ملك إذا نام يأخذ نفسه، فإذا أذن الله في قبض روحه قبضه ولا رُدُّها إليه، فذلك قوله تعالى: ﴿يَتُوفَاكُم بِاللَّيْلِ﴾. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن عكرمة، في الآية قال: ما من ليلة إلا والله يقبض

﴿ثم أنتم تشركون﴾ بالله سبحانه بعد أن أحسن إليكم بالخلوص من الشدائد، وذهاب الكرب، شركاء لا ينفعونكم ولا يضرونكم، ولا يقدرّون على تخليصكم من كل ما ينزل بكم، فكيف وضعت هذا الشرك موضع ما وعدتم به من أنفسكم من الشكر؟ ثم أمره الله سبحانه أن يقول لهم: ﴿هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً﴾ أي: الذي قدر على إنجائكم من تلك الشدائد ونفع عنكم تلك الكرب قادر على أن يعيكم في شدة ومحنة وكرب يبعث عذابه عليكم من كل جانب. فالعذاب المبعوث من جهة فوق: ما ينزل من السماء من المطر والصواعق. والمبعوث من تحت الأرض: الخسف والزلازل والفرق، وقيل: ﴿من فوقكم﴾ يعني: الأمراء الظلمة ﴿ومن تحت أرجلكم﴾ يعني: السفلة وعبيد السوء. قوله: ﴿أو يلبسكم شيعاً﴾ قرأ الجمهور بفتح التحتية، من لبس الأمر: إذا خلطه، وقرأ أبو عبد الله الميني بضمها: أي يجعل ذلك لباساً لكم؛ قيل والأصل: أو يلبس عليكم أمركم، فحذف أحد المفعولين مع حرف الجر كما في قوله تعالى: ﴿وإذا كالوهم أو وزنوهم﴾ [المطففين: 3] والمعنى: يجعلكم مختلطي الأهواء مختلفي النحل متفرقي الآراء. وقيل: يجعلكم فرقاً يقاتل بعضهم بعضاً. والشيخ: الفرق، أي يخلطكم فرقا. قوله: ﴿ويزيق بعضهم لباس بعض﴾ أي: يصيب بعضهم بشدة بعض من قتل وأسر ونهب ﴿ويزيق﴾ معطوف على ﴿يبيعث﴾. وقرئ ﴿يذيق﴾ بالنون ﴿انظر كيف نصرف الآيات﴾ نبين لهم الحجج والدلالات من وجوه مختلفة ﴿لعلهم يفقهون﴾ الحقيقة فيعبدون إلى الحق الذي بيناه لهم ببيانات متنوعة.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة في قوله: ﴿قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر﴾ يقول: من كرب البر والبحر. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، في تفسير الآية عن ابن عباس قال: يقول إذا أضل الرجل الطريق دعا الله ﴿لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين﴾ [يونس: 22]. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه في قوله: ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم﴾ قال: يعني: من أمرائكم ﴿أو من تحت أرجلكم﴾ يعني: سفلكم ﴿أو يلبسكم شيعاً﴾ يعني: بالشيء الأهواء المختلفة ﴿ويزيق بعضهم لباس بعض﴾ قال: يسلط بعضهم على بعض بالقتل والعذاب. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عنه من وجه آخر في تفسير الآية قال: ﴿عذاباً من فوقكم﴾ أئمة السوء ﴿أو من تحت أرجلكم﴾ قال: خدم السوء. وأخرج أبو الشيخ عنه أيضاً من وجه آخر قال: ﴿من فوقكم﴾ من قبل أمرائكم وأشرافكم ﴿أو من تحت أرجلكم﴾ قال: من قبل سفلكم وعبيدكم. وأخرج عبد بن حميد، وأبو الشيخ، عن أبي مالك ﴿عذاباً من فوقكم﴾ قال: القذف ﴿أو من تحت أرجلكم﴾ قال: الخسف. وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد مثله. وأخرج أبو الشيخ، عن مجاهد أيضاً

الأرواح كلها، فيسال كل نفس عما عمل صاحبها من النهار، ثم يدعو ملك الموت فيقول: اقتبس روح هذا؛ وما من يوم إلا وملك الموت ينظر في كتاب حياة الإنسان، قائل يقول ثلاثاً، وقائل يقول خمساً. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد في الآية قال: أما وفاته إياهم بالليل فمنامهم، وأما ﴿جرحتهم بالنهار﴾ فيقول: ما اكتسبتم بالنهار ﴿ثم يبعثكم فيه﴾ قال: في النهار ﴿ليقضي أجل مسمى﴾ وهو الموت. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس ﴿ويعلم ما جرحتهم﴾ قال: ما كسبتم من الإثم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي في قوله: ﴿ويرسل عليكم حفظة﴾ قال: هم المعقبات من الملائكة يحفظونه ويحفظون عمله. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس في الآية قال: أعوان ملك الموت من الملائكة. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه في قوله ﴿وهم لا يفرطون﴾ يقول: لا يضيعون.

قُلْ مَنْ يُنْجِيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ دَعْوَتُهُمْ نَعْرَةً وَخَفِيَةً لَّيْنِ أَجْنَانٍ يَنْ هَكْوَهُ لَنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٣٣﴾ قُلْ اللَّهُ يُنْجِيكُمْ مِنْهَا وَمَنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا بَيْنَ يَدَيْكُمْ أَوْ يَنْصَحَ أَنْفُسَكُمْ أَوْ يَكْسِبَكُمْ شَيْعًا وَيُزَيِّقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظِرْ كَيْفَ نَصَرْتُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٣٥﴾

قيل: المراد بظلمات البر والبحر: شدائدهما. قال النحاس: والعرب تقول يوم مظلم: إذا كان شديداً، فإذا عظمت تلك قالت: يوم نو كوكب: أي يحتاجون فيه لشدة ظلمته إلى كوكب، وأنشد سيبويه:

بني اسد هل تعلمون بلأنا إذا كان يوم نو كوكب أشنعاً والاستفهام للتقريع والتوبيخ: أي من ينجيكم من شدائدهما العظيمة؟ قرأ أبو بكر عن عاصم ﴿خفية﴾ بكسر الخاء، وقرأ الباقر بضمها، وهما لغتان، وقرأ الأعمش ﴿وخيفة﴾ من الخوف، وجملة ﴿تدعوته﴾ في محل نصب على الحال: أي من ينجيكم من ذلك حال دعائكم له دعاء تضرع وخفية أو متضرعين ومخفين. والمراد بالتضرع هنا: دعاء الجهر. قوله: ﴿لئن أنجيتنا﴾ كذا قرأ أهل المدينة وأهل الشام. وقرأ الكوفيون ﴿لئن أنجانا﴾ والجملة في محل نصب على تقدير القول: أي قائلين لئن أنجيتنا من هذه الشدة التي نزلت بنا وهي الظلمات المنكورة ﴿لنكونن من الشاكرين﴾ لك على ما أنعمت به علينا من تخليصنا من هذه الشدائد. قوله: ﴿قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب﴾ قرأ الكوفيون وهشام ﴿ينجيكم﴾ بالتشديد، وقرأ الباقر بالتخفيف، وقرأ التشديد تفيد التأكيد؛ وقيل: معناهما واحد، والضمير في ﴿منها﴾ راجع إلى الظلمات. والكرب: الغم يأخذ بالنفس، ومنه رجل مكروب. قال عنترة:

ومكروب كشفت الكرب عنه بطعنة فيوصل لما دعاني

وقد شاهدنا من هذه المجالس الملعونة ما لا يأتي عليه الحصر، وقمنا في نصرة الحق وبقع الباطل بما قدرنا عليه وبلغت إليه طاقتنا، ومن عرف هذه الشريعة المطهرة حق معرفتها، علم أن مجالسة أهل البدع المضلة فيها من المفسدة أضعاف أضعاف ما في مجالسة من يعصي الله بفعل شيء من المحرمات، ولا سيما لمن كان غير راسخ

وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَأَسْتَبَيِّنَ لَكُمْ بِرُكْنٍ مِّنْهُ لِكُلِّ بَلَدٍ مِّنْهُمْ نِمْشًا
وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنَّا رَأَيْنَاكَ بَيِّنَاتٍ مِّنْهُنَّ لَآ تَدْرِي بِهَا عَيْنُ مُرْتَبِنٍ فَمِنْ حَقٍّ مَّا عَوَّدُوا
فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِنَّا لَبَيِّنَاتُ الْفِتْيَانِ فَلَا تَقْعُدُ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ
الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَٰكِنْ
ذِكْرُنَا لَمَنْ يَتَّقُونَ ﴿١٩﴾ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لِبَآءٍ وَلَهُمْ
وَعَرَّتْهُمْ الْخَيْرَةُ الدُّنْيَا وَكَفَّرَ بِهِمْ أَنْ يُسْأَلَ فَمَنْ يَمَّا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا
فِي دُونِ اللَّهِ وَلَوْ وَلَا شَيْعٍ وَإِنْ تَدُلُّ كُلَّ عِدْلٍ لَّا يُوَفِّدُ مِنْهَا أُولَئِكَ
الَّذِينَ أُتْبِعُوا يَمَّا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ يَمَّا كَانُوا
يَكْفُرُونَ ﴿٢٠﴾ قُلْ أَدْعُوهُ إِلَى دِينِ آبَائِي مَا لَا يَنْفَعُنِي وَلَا يَضُرُّهُ عَلَيْهِ

والضلالات المتقدم نكرها؛ وقيل: المراد بالدين هنا العيد: أي اتخذوا عيدهم لعباً ولهواً، وجملة: «وَعَزَّوْهُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا» معطوفة على «اتَّخَذُوا» أي: عَزَّوْهُمْ حتى أثروها على الآخرة وأنكروا البعث وقالوا: «إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ» [المؤمنون: 37]. قوله: «وَنُذَكِّرُ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ» الضمير في «بِهِ» للقرآن أو للحساب. والإبسال: تسليم المرء نفسه للهلاك، ومنه أبسلت ولدي: أي رهنته في الدم، لأن عاقبة ذلك الهلاك. قال النابغة:

ونحن رهناً بالإلانة عامراً بما كان في الدرداء رهناً فإبسلنا
أي: فهلك، والدرداء: كتيبة كانت لهم معروفة بهذا الاسم،
فالمعنى: ونذكر به خشية أو مخافة أو كراهة أن تهلك نفس
بما كسبت: أي ترتب وتسلم للهلاك، وأصل الإبسال: المنع،
ومنه شجاع بأسل: أي ممتنع من قرنه. قوله: «وَأَنْ تُعَدَلَ
كُلُّ عَدَلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا» العدل هنا: الفدية. والمعنى: وإن
بذلت تلك النفس التي سلمت للهلاك كل فدية لا يؤخذ منها
لذلك العدل حتى تنجو به من الهلاك، وفاعل «يؤخذ»
ضمير يرجع إلى العدل، لأنه بمعنى المفدى به كما في قوله:
«وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدَلٌ» [البقرة: 48] وقيل: فاعله منها، لأن
العدل هنا مصدر لا يستند إليه الفعل، وكل عدل منصوب
على المصدر: أي عدلاً كل عدل، والإشارة بقوله «وَأُولَئِكَ»
إلى المتخذين دينهم لعباً ولهواً، وخبره (الذين أبسلوا بما
كسبوا) أي هؤلاء الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً هم الذين
سلموا للهلاك بما كسبوا، و«لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ» جواب
سؤال مقدر كأنه قيل: كيف حال هؤلاء؟ فقيل لهم شراب من
حميم، وهو الماء الحار، ومثله قوله تعالى: «يُصَبِّ من فوق
رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ» [الحج: 19] وهو هنا شراب يشربونه
فيقطع أمعاءهم. قوله: «قُلْ لِنَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا
يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا» أمره الله سبحانه بأن يقول لهم هذه
المقالة، والاستفهام للتوبيخ: أي كيف ندعوا من دون الله
أصناماً لا تنفعنا بوجه من وجوه النفع إن إردنا منها نفعاً
ولا نخشى ضرراً بوجه من الوجوه، ومن كان هكذا فلا
يستحق العبادة «وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا» عطف على «ندعوا».
ولأعقاب، جمع عقب أي: كيف ندعوا من كان كذلك ونرجع
إلى الضلالة التي أخرجنا الله منها. قال أبو عبيدة: يقال لمن
ردَّ عن حاجته ولم يظفر بها قد ردَّ على عقبه. وقال المبرد:

تعتقب بالشر بعد الخير

وأصله من المعاقبة والعقبي، وهما ما كان تالياً للشيء واجباً
أن يتبعه، ومنه «وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ» [القصص: 83]، ومنه
عقب الرجل، ومنه العقوبة، لأنها تالية للذنوب. قوله: «كَالَّذِي
اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ» هوى يهوى إلى الشيء
أسرع إليه. وقال الزجاج: هو من هوى النفس، أي زين له
الشیطان هواه، و«اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ» هوت به، والكاف
في «كَالَّذِي» إما نعت مصدر محذوف: أي ردَّ على أعقابنا
رداً كالذي، أو في محل نصب على الحال من فاعل نرد: أي

القدم في علم الكتاب والسنة، فإنه ربما ينفق عليه من
كذباتهم وهذيانهم ما هو من البطلان بأوضح مكان، فينقذ
في قلبه ما يصعب علاجه ويعسر دفعه، فيعمل بذلك مدة
عمره ويلقى الله به معتقداً أنه من الحق، وهو من أبطل
الباطل وأنكر المنكر. قوله: «وَأَمَّا يَنْتَشِيكُ الشَّيْطَانُ فَلَا
تَقْعُدُ بَعْدَ الذِّكْرَى» «إِذَا هَذِهِ هِيَ الشَّرْطِيَّةُ وَتَلْزَمُهَا غَالِباً
نَوْنُ التَّكْثِيرِ وَلَا تَلْزَمُهَا نَادِراً وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

إِذَا يَصْبُكُ عَدُوٌّ فِي مَنَازِلِهِ يَوْمًا فَقُلْ كَيْفَ يَسْتَعْلِي وَيَنْتَصِرُ
وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ «يَنْتَشِيكُ» بِتَشْدِيدِ السَّيْنِ، وَمِثْلُهُ قَوْلُ
الشَّاعِرِ:

وقد ينتسيك بعض الحاجة الكسل

والمعنى: إن أنساك الشيطان أن تقوم عنهم فلا تقعد بعد
الذكرى إذا ذكرت «مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» أي الذين ظلموا
أنفسهم بالاستهزاء بالآيات والتكذيب بها. وقيل: وهذا
الخطاب وإن كان ظاهره للنبي ﷺ فالمراد التعريض لأمته
لتنزهه عن أن ينسبه الشيطان؛ وقيل: لا وجه لهذا فالنسيان
جائز عليه كما نطقت بذلك الأحاديث الصحيحة «وَأَمَّا أَنَا بِشَرِّ
أَنْسَى كَمَا تَنْسُونَ، فَإِذَا نَسِيتُ فَذَكِّرُونِي» ونحو ذلك. قوله:
«وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ» أي: ما
على الذين يتقون مجالسة الكفار عند خوضهم في آيات الله
من حساب الكفار من شيء. وقيل المعنى: ما على الذين
يتقون ما يقع منهم من الخوض في آيات الله في مجالستهم
لهم من شيء: وعلى هذا التفسير ففي الآية الترخيص
للمتقين من المؤمنين في مجالسة الكفار إذا اضطروا إلى
ذلك كما سيأتي عند ذكر السبب: قيل: وهذا الترخيص كان
في أول الإسلام، وكان الوقت وقت تقية، ثم نزل قوله تعالى:
«وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يَكْفِرُ بِهَا
وَيَسْتَهْزِئُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ
غَيْرِهِ» [النساء: 140] فنسخ ذلك، قوله: «وَلَكِنْ ذِكْرَى
لَهُمْ»، ذكرى في موضع نصب على المصدر، أو رفع على
أنها مبتدأ، وخبرها محذوف: أي ولكن عليهم ذكرى. وقال
الكسائي: المعنى ولكن هذه ذكرى. والمعنى على الاستدراك
من النفي السابق: أي ولكن عليهم الذكرى للكافرين
بالموعظة والبيان لهم بأن ذلك لا يجوز. أما على التفسير
الأول، فلأن مجرد اتقاء مجالس هؤلاء الذين يخوضون في
آيات الله لا يسقط وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن
المنكر. وأما على التفسير الثاني، فالترخيص في المجالسة لا
يسقط التنكير «لَهُمْ يَتَّقُونَ» الخوض في آيات الله إذا
وقعت منكم الذكرى لهم. وأما جعل الضمير للمتقين فيعيد
جداً. قوله: «وَنُذِرُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا بَيْنَهُمْ لَعَاباً وَلِهَؤُلَاءِ» أي:
أترك هؤلاء الذين اتخذوا الدين الذي كان يجب عليهم العمل
به والدخول فيه لعباً ولهواً، ولا تعلق قلبك بهم فإنهم أهل
تعنت، وإن كنت مأموراً بإبلاغهم الحجة. وقيل: هذه الآية
منسوخة بآية القتال؛ وقيل المعنى: أنهم اتخذوا دينهم الذي
هم عليه لعباً ولهواً كما في فعلهم بالأنعام من تلك الجهالات

للصور خاصة: أي ويوم يقول للصور كن فيكون. قوله: ﴿عالم الغيب والشهادة﴾ رفع عالم على أنه صفة للذي خلق السموات والأرض، ويجوز أن يرتفع على إضمار مبتدأ: أي هو عالم الغيب والشهادة، وروي عن بعضهم أنه قرأ «ينفخ» بالبناء للمفاعل، فيجوز على هذه القراءة أن يكون الفاعل ﴿عالم الغيب﴾ ويجوز أن يرتفع بفعل مقدر كما أنشد سيبويه:

ليبك يزيد ضارح لخصومة ومختبط مما تطيح الطوائح
أي يبيكه مختبط. وقرأ الحسن والأعمش ﴿عالم﴾ بالخفض على البذل من الهاء في ﴿له الملك﴾ ﴿وهو الحكيم﴾ في جميع ما يصدر عنه ﴿الخبر﴾ بكل شيء.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي في قوله: ﴿وكنب به قومك﴾ يقول: كذبت قريش بالقرآن ﴿وهو الحق﴾ وأما الوكيل فالحفيظ، وأما ﴿لكل نبا مستقر﴾ فكان نبا القوم استقر يوم بدر بما كان يعدهم من العذاب. وأخرج النحاس في ناسخه، عن ابن عباس في قوله: ﴿وما أنا عليكم بوكيل﴾ قال: نسخ هذه الآية آية السيف ﴿فماقتلوا المشركين حيث وجبتهم﴾ [التوبة 5]. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس ﴿لكل نبا مستقر﴾ يقول: حقيقة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الحسن أنه قال في قوله: ﴿لكل نبا مستقر﴾ قال: حبست عقوبتها حتى عمل ننبها أرسلت عقوبتها. وأخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿لكل نبا مستقر﴾ قال: فعل وحقيقة ما كان منه في الدنيا وما كان منه في الآخرة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وإذا رايت الذين يخوضون في آياتنا فاعرض عنهم﴾ ونحو هذا في القرآن قال: أمر الله المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والفرقة وأخبرهم أنما أهلك من كان قبلكم بالمرء والخصومات في دين الله. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿وإذا رايت الذين يخوضون في آياتنا﴾ قال: يستهزئون بها، نهى محمداً ﷺ أن يقعد معهم إلا أن ينسى، فإذا نكر، فليقم ونلك قول الله: ﴿فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين﴾. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن محمد بن سيرين أنه كان يرى أن هذه الآية نزلت في أهل الأهواء. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وأبو نعيم في الحلية، عن أبي جعفر قال: لا تجالسوا أهل الخصومات فإنهم الذين يخوضون في آيات الله. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، عن محمد بن علي قال: إن أصحاب الأهواء من الذين يخوضون في آيات الله. وأخرج أبو الشيخ، عن مقاتل قال: كان المشركون بمكة إذا سمعوا القرآن من أصحاب النبي ﷺ خاضوا واستهزؤوا، فقال المسلمون: لا تصلح لنا مجالستهم نخاف أن نخرج حين نسمع قولهم ونجالسهم فلا نعيب عليهم، فأنزل الله

نرد حال كوننا مشبهين للذي استهوته الشياطين: أي ذهبت به مردة الجن بعد أن كان بين الإنسان. قرأ الجمهور «استهوته» وقرأ حمزة «استهواه» على تنكير الجمع. وقرأ ابن مسعود والحسن «استهواه للشيطان» وهو كذلك في قراءة أبي، و﴿حيران﴾ حال: أي حال كونه متحيراً تائهاً لا يدري كيف يصنع؟ والحيران هو الذي لا يهتدي لجهة، وقد حار يحار حيرة وحيرة: إذا تردد، وبه سمي الماء المستنقع الذي لا منفذ له حائراً. قوله: ﴿له أصحاب يدعونه إلى الهدى﴾ صفة لحيران أو حالية: أي له رفقة يدعونه إلى الهدى يقولون له اثنتا فلا يجيبهم ولا يهتدي بهديهم. قوله: ﴿قل إن هدى الله هو الهدى﴾ أمره الله سبحانه بأن يقول لهم: ﴿إن هدى الله﴾ أي بينه الذي ارتضاه لعباده ﴿هو الهدى﴾ وما عداه باطل: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه﴾ [آل عمران: 85]. ﴿وأمرنا﴾ معطوف على الجملة الإسمية: أي من جملة ما أمره الله بأن يقوله، واللام في ﴿لنسلم﴾ هي لام العلة، والمعلل هو الأمر: أي أمرنا لأجل نسلم لرب العالمين. وقال الفراء: المعنى أمرنا بأن نسلم لأن العرب تقول أمرتك لتذهب، وبأن تذهب بمعنى. وقال النحاس: سمعت ابن كيسان يقول هي لام الخفض. قوله: ﴿وأن أقيموا الصلاة واتقوه﴾ معطوف على ﴿لنسلم﴾ على معنى وأمرنا أن نسلم وأن أقيموا، ويجوز أن يكون عطفاً على يدعونه على المعنى: أي يدعونه إلى الهدى ويدعونه أن أقيموا ﴿وهو الذي إليه تحشرون﴾ فكيف تخالفون أمره ﴿وهو الذي خلق السموات والأرض﴾ خلقاً ﴿بالحق﴾ أو حال كون الخلق بالحق فكيف تبطلون الأصنام المخلوقة. قوله: ﴿ويوم يقول كن فيكون قوله الحق﴾ أي: وإنكر يوم يقول كن فيكون، أو واتقوا يوم يقول كن فيكون؛ وقيل: هو عطف على الهاء في ﴿واتقوه﴾ وقيل: إن «يوم» ظرف لمضمون جملة ﴿قوله للحق﴾ والمعنى وأمره المتعلق بالأشياء الحق: أي المشاهد له بأنه حق، وقيل: قوله مبتدأ، والحق صفة له ﴿ويوم يقول كن فيكون﴾ خبره مقدماً عليه، والمعنى: قوله المتصف بالحق كائن يوم يقول كن فيكون؛ وقيل: إن قوله مرتفع ببيكون، والحق صفة: أي يوم يقول كن فيكون قوله الحق. وقرأ ابن عامر ﴿فنكون﴾ بالنون، وهو إشارة إلى سرعة الحساب. وقرأ الباقون بلباء التحتية وهو الصواب. قوله: ﴿وله الملك يوم ينفخ في الصور﴾ الظرف منصوب بما قبله: أي له الملك في هذا اليوم، وقيل: هو بدل من اليوم الأول، والصور: قرن ينفخ فيه النفخة الأولى للفناء، والثانية للإنشاء، وكذا قال الجوهري: إن الصور القرن، قال الرلجزي:

لقد نطحناهم غداة الجمعين نطحاً شديداً لا كنعط الصورين والصور بضم الصاد وبكسرهما لغة، وحكى عن عمرو بن عبيد أنه قرأ «يوم ينفخ في الصور» بتحريك الواو، جمع صورة، والمراد: الخلق. قال أبو عبيدة: وهذا وإن كان محتملاً يرد بما في الكتاب والسنة. وقال الفراء: كن فيكون، يقال إنه

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَإِلَى الَّذِينَ أَنشَأَ مِنْهُ مِنَ الْبَنِيَّاتِ إِنَّكُمْ تَعْبُدُونَ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۖ وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ لِمَ تَعْبُدُونَ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۖ قَالَوا بَنِيَّائُنَا نِعْبُدُ آبَاءَنَا وَآبَاءُنَا نِعْبُدُ آبَاءَنَا ۖ وَكُنَّا عَلَىٰ دِينٍ آبَاءِنَا ۚ قَالَ إِبْرَاهِيمُ إِنَّكُمْ عَلَىٰ غَيْرِ خُبْرٍ ۖ يَكُونُ لَكُمْ يَوْمَ الْفُتُورِ الْفُتُورُ ۖ لَمَّا تَكُونُ الْأَنْجِلُ ۚ قَالَوا نَحْنُ نَحْمَدُ اللَّهَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ آبَاءَنَا وَآبَاءَنَا ۖ وَكُنَّا عَلَىٰ دِينٍ آبَاءِنَا ۚ قَالَ إِبْرَاهِيمُ إِنَّكُمْ عَلَىٰ غَيْرِ خُبْرٍ ۖ يَكُونُ لَكُمْ يَوْمَ الْفُتُورِ الْفُتُورُ ۖ لَمَّا تَكُونُ الْأَنْجِلُ ۚ قَالَوا نَحْنُ نَحْمَدُ اللَّهَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ آبَاءَنَا وَآبَاءَنَا ۖ وَكُنَّا عَلَىٰ دِينٍ آبَاءِنَا ۚ قَالَ إِبْرَاهِيمُ إِنَّكُمْ عَلَىٰ غَيْرِ خُبْرٍ ۖ يَكُونُ لَكُمْ يَوْمَ الْفُتُورِ الْفُتُورُ ۖ لَمَّا تَكُونُ الْأَنْجِلُ ۚ

قوله: ﴿لأبيه أزر﴾ قال الجوهري: أزر اسم أعجمي، وهو مشتق من أزر فلان فلانة إذا علونه، فهو مؤزر قومه على عبادة الأصنام. وقال ابن فارس: إنه مشتق من القوة. قال الجويني في النكت من التفسير له: ليس بين الناس اختلاف في أن اسم والد إبراهيم تاريخ، والذي في القرآن يدل على أن اسمه أزر. وقد تعقب في دعوى الاتفاق بما روى عن ابن إسحاق، والضحاك، والكلبي أنه كان له اسمان: أزر وتاريخ. وقال مقاتل: أزر لقب، وتاريخ اسم، وقال سليمان التيمي: إن أزر سب وعتب، ومعناه في كلامهم المعوج. وقال الضحاك معنى أزر: الشيخ الهنم بالفارسية. وقال الفراء: هي صفة نم بلغتهم كأنه قال: يا مخطئ، وروى مثله عن الزجاج. وقال مجاهد: هو اسم صنم. وعلى هذا إطلاق اسم الصنم على أبيه: إما للتعبير له لكونه معبوده، أو على حذف مضاف: أي قال لأبيه عابد أزر، أو اتعبد أزر على حذف الفعل. وقرأ ابن عباس «أزر» بهمزتين الأولى مفتوحة والثانية مكسورة، وروى عنه أنه قرأ بهمزتين مفتوحتين، ومحل «إذ قال» النصب على تقدير وانكر إذ قال إبراهيم، ويكون هذا المقدر معطوفاً على «ونكر به أن تبسل» [الأنعام: 70] وقيل: هو معطوف على «ونكر به أن تبسل» [الأنعام: 70] وأزر عطف بيان. قوله: «اتخذ أصناماً لله» الاستفهام للإنكار: أي اتجملها لله لك تعبدما «إني أراك وقومك» المتبعين لك في عبادة الأصنام «في ضلال» عن طريق الحق «مبين» واضح، «وكنلك نرى إبراهيم» أي: ومثل تلك الإراءة نرى إبراهيم، والجملة معترضة، و «ملكوت السفوات والأرض» ملكهما، وزيدت التاء والواو للمبالغة في الصفة. ومثله الرغوبت والرهبوت مبالغة في الرغبة والرغبة. قيل: أراد بملكوت السموات والأرض ما فيها من الخلق؛ وقيل: كشف الله له عن تلك حتى رأى إلى العرش وإلى

هذه الآية. وأخرج أبو الشيخ أيضاً عن السدي أنه قال: إن هذه الآية منسوخة بآية السيف. وأخرج النحاس عن ابن عباس في قوله: «وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء» قال: نسخت هذه الآية المكية بالآية المدنية، وهي قوله: «وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها» [النساء: 140] الآية. وأخرج عبد بن حميد، وأبو الشيخ، عن مجاهد: «وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء» إن قعدوا ولكن لا يقعدوا. وأخرج ابن أبي شيبة عن هشام بن عروة، عن عمر بن عبد العزيز، أنه أتى بقوم قعدوا على شراب معهم رجل صائم فضربه وقال: لا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد في قوله: «وذر الذين اتخذوا بينهم لعباً ولهواً» قال: هو مثل قوله: «ذرني ومن خلقت وحيداً» [الم نشر: 11] يعني أنه للتهديد، وأخرج عبد بن حميد، وأبو داود في ناسخه، عن قتادة، في هذه الآية قال: نسختها آية السيف، وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عنه في قوله: «لعباً ولهواً» قال: أكلاً وشرباً. وأخرج ابن جرير، والمنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: «إن تبسل» قال: أن تقضض، وفي قوله: «تبسلوا» قال: فضحوا وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عنه في قوله: «إن تبسل» قال: تسلم، وفي قوله: «تبسلوا» بما كسبوا قال: أسلموا بجرائهم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه أيضاً في قوله: «قل اندعوا من دون الله» قال: هذا مثل ضربه الله للأكله والمداغة الذين يدعون إلى الله. وقوله: «كأذي لستهوته للشياطين في الأرض» يقول: أضلته، وهم الغيلا ن يدعونه باسمه، واسم أبيه، وجده، فيتبعها ويرى أنه في شيء فيصبح وقد ألقته فيهلك، وربما أكلته أو تلقه في مضلة، من الأرض، يهلك فيها عطشاً، فهذا مثل من أجاب الآلهة التي تعبد من دون الله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه أيضاً في قوله: «كأذي لستهوته للشياطين» قال: هو الرجل لا يستجيب لهدى الله، وهو الرجل أطاع الشيطان وعمل في الأرض بالمعصية، وحاد عن الحق وضل عنه، و «له أصحاب يدعونه إلى الهدى» ويزعمون أن الذي يأمرونه به هدى، يقول الله تلك لأوليائهم من الإنس يقول: «إن الهدى هدى الله» والضلالة ما تدعو إليه الجن. وأخرج ابن المبارك في الزهد، وعبد بن حميد، وأبو داود، والترمذي وحسنه، والنسائي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مرونه، والبيهقي في البعث، عن عبد الله بن عمرو قال: «سئل النبي ﷺ عن الصور فقال: «قرن ينفخ فيه» والأحاديث الواردة في كيفية النفخ ثابتة في كتب الحديث لا حاجة لنا إلى إيرادها هنا. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس، في قوله: «عالم الغيب والشهادة» يعني: أن عالم الغيب والشهادة هو الذي ينفخ في الصور.

﴿قال يا قوم إني بريء مما تشركون﴾ أي: من الأشياء التي تجعلونها شركاء لله وتعبدها، وما موصولة أو مصدرية، قال بهذا لما ظهر له أن هذه الأشياء مخلوقة لا تنفع ولا تضر، مستدلاً على ذلك بأقوالها الذي هو دليل حدوثها ﴿إني وجهت وجهي﴾ أي: قصصت بعبادتي وتوحيدي الله عز وجل. ونكر الوجه لأنه العضو الذي يعرف به الشخص، أو لأنه يطلق على الشخص كله كما تقدم. وقد تقدم معنى ﴿قطر السموات والأرض حنيفاً﴾ مثلاً إلى الدين الحق. قوله: ﴿وحاجه قومه﴾ أي: وقعت منهم المحاجة له في التوحيد بما يدل على ما يدعونه من أن ما يشركون به ويعبدونه من الأصنام آلهة. فاجاب إبراهيم عليه السلام بما حكاه الله عنه أنه قال: ﴿أتحتاجوني في الله﴾ أي: في كونه لا شريك له ولا ند ولا ضد. وقرأ نافع بتخفيف نون أحتاجوني. وقرأ الباقون بتشديدها بإدغام نون الجمع في نون الوقاية، ونافع خفف فحذف إحدى النونين، وقد أجاز ذلك سيبويه. وحكى عن أبي عمرو بن العلاء أن قراءة نافع لحن، وجملة ﴿وقد هداني﴾ في محل نصب على الحال، أي هداني إلى توحيدهِ وأنتم تريون أن أكون مثلكم في الضلالة والجهالة وعدم الهداية. قوله: ﴿ولا أخاف ما تشركون به﴾ قال: هذا لما خوَّفه من آلهتهم بأنّها ستغضب عليه وتصيبه بمكرهه: أي إني لا أخاف ما هو مخلوق من مخلوقات الله لا يضر ولا ينفع، والضمير في به يجوز رجوعه إلى الله وإلى معبوداتهم المملول عليها بما في ﴿ما تشركون به﴾ إلا أن يشاء ربي شيئاً. أي: إلا وقت مشيئته ربي بأن يلحقني شيئاً من الضرر بذنوب عملته فالأمر إليه، وذلك منه لا من معبوداتكم الباطلة التي لا تضر ولا تنفع. والمعنى: على نفي حصول ضرر من معبوداتهم على كل حال، وإثبات الضرر والنفع لله سبحانه، وصورهما حسب مشيئته، ثم علل ذلك بقوله: ﴿وسع ربي كل شيء علماً﴾ أي: إن علمه محيط بكل شيء، فإذا شاء الخير كان حسب مشيئته، وإذا شاء إنزال شر بي كان، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. ثم قال لهم مكملاً للحجة عليهم، ودافعاً لما خوَّفه به ﴿وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً﴾ أي: كيف أخاف ما لا يضر ولا ينفع ولا يخلق ولا يرزق، والحال أنكم لا تخافون ما صدر منكم من الشرك بالله، وهو الضار النافع الخالق الرازق، أورد عليهم هذا الكلام الإلزامي الذي لا يجنون عنه مخلصاً ولا متحولاً، والاستفهام للإلزام عليهم والتقريع لهم. و﴿ما﴾ في ﴿ما لم ينزل به عليكم سلطاناً﴾ مفعول أشركتم: أي ولا تخافون أنكم جعلتم الأشياء التي لم ينزل بها عليكم سلطاناً شركاء لله، أو لمعنى أن الله سبحانه لم يأنز به جعلها شركاء له، ولا نزل عليهم بإشراكها حجة يحتجون بها، فكيف عبدها واتخذوها آلهة، وجعلوها شركاء لله سبحانه؟ قوله: ﴿فأي الفريقين لحق بالأمن﴾ المراد: بالفريقين: فريق المؤمنين وفريق المشركين:

أسفل الأرضين؛ وقيل: رأى من ملكوت السموات والأرض ما قصه الله في هذه الآية؛ وقيل: المراد بملكوتهما الربوبية والإلهية: أي نريه ذلك ونوقفه لمعرفة بطريق الاستدلال التي سلكها؛ ومعنى ﴿نرى﴾ أريناه، حكاية حال ماضية. قوله: ﴿وليكون من الموقنين﴾ متعلق بمقتدّر: أي أريناه ذلك ﴿ليكون من الموقنين﴾ وقد كان أزر وقومه يعبدون الأصنام والكواكب والشمس والقمر، فأراد أن ينبههم على الخطأ؛ وقيل: إنه ولد في سرب، وجعل رزقه في أطراف أصابعه، فكان يمصّها. وسبب جملة في السرب، أن النمرود رأى رؤيا أن ملكه يذهب على يد مولود فأمر بقتل كل مولود، والله أعلم. قوله: ﴿فلما جنّ عليه الليل﴾ أي: ستره بظلمته، ومنه الجنة والمجنّ والجن كله من الستر، قال الشاعر:

ولولا جنان الليل أترك ركضنا بذى الرمث والأرطي عياض بن ثابت والغاء للعطف على ﴿قال إبراهيم﴾: أي وانكر إذ قال، وإذ جنّ عليه الليل، فهو قصة أخرى غير قصة عرض الملكوت عليه، وجواب لما ﴿رأى كوكباً﴾ قيل: رآه من شق الصخرة الموضوعة على رأس السرب الذي كان فيه؛ وقيل رآه لما أخرجه أبوه من السرب وكان وقت غيبوبة الشمس، قيل: رأى المشتري وقيل الزهرة. قوله: ﴿هذا ربي﴾ جملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل فماذا قال عند رؤية الكوكب؟ وكان هذا منه عند قصور النظر؛ لأنه في زمن الطفولية؛ وقيل: أراد قيام الحجة على قومه كالحاكي لما هو عندهم وما يعتقونه لأجل إلزامهم، ويلاحظني قال الزجاج؛ وقيل: هو على حذف حرف الاستفهام: أي أهذا ربي، ومعناه إنكار أن يكون مثل هذا رباً، ومثله قوله تعالى: ﴿أفإن مت فهم الخالدون﴾ [الأنبياء: 34] أي: أفهم الخالدون، ومثله قول الهنلي:

رقوني وقلوا يا خويلد لم ترع فقلت وأتكرت الوجوه هم هم أي أهم هم، وقول الآخر:

لعمري ما أري وإن كنت دارياً بسبع رمين الجمر أم بثمانيا أي: أبسبع، وقيل المعنى: وأنتم تقولون هذا ربي فأضمر القول، وقيل المعنى على حذف مضاف: أي هذا دليل ربي ﴿فلما أفل﴾ أي: غرب ﴿قال﴾ إبراهيم ﴿لا أحب الأفلين﴾ أي: الألهة التي تغرب، فإن الغروب تغير من حال إلى حال، وهو دليل حدوث ﴿فلما رأى للقمر بازغاً﴾ أي: طالعا، يقال: بزغ القمر إذا ابتدأ في الطلوع، والبزغ: الشق كان يشق بنوره الظلمة ﴿فلما أفل قال لئن لم يهني ربي﴾ أي: لئن لم يثبتني على الهداية، ويوفقني للحجة ﴿لاكون من القوم الضالين﴾ الذين لا يهتدون للحق فيظلمون أنفسهم ويحرمونها حظها من الخير، ﴿فلما رأى الشمس بازغة﴾ بازغاً وبازغة منصوبان على الحال، لأن الرؤية بصرية، وإنما ﴿قال هذا ربي﴾ مع كون الشمس مؤنثة، لأن مراده هذا الطالع، قاله: الكسائي والأخفش - وقيل: هذا الضوء؛ وقيل: الشخص ﴿هذا أكبر﴾ أي: بما تقدّمه من الكوكب والقمر

وأبو الشيخ، عن ابن عباس أنه قال: إن والد إبراهيم لم يكن اسمه آزر، وإنما اسمه تارخ، وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الاسماء والصفات، عنه في قوله تعالى: ﴿وَكُنْكَ نَرَىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال: الشمس والقمر والنجوم. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عنه قال: في الآية كشف ما بين السموات حتى نظر إليهن على صخرة، والصخرة على حوت، وهو الحوت الذي منه طعمام الناس، والحوت في سلسلة، والسلسلة في خاتم العزة، وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، عن مجاهد في الآية: قال سلطانهما، وأخرج ابن أبي حاتم، عن الربيع بن أنس، في قوله: ﴿وَحَاجَهُ قَوْمُهُ﴾ يقول: خاصموه، وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿اتَّحٰجُونِي﴾ قال: اتخاصموني. وأخرج ابن أبي شيبة، والحكيم الترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن أبي بكر الصديق أنه فسر ﴿وَلَمْ يَلْبَسُوا إِيمَانَهُمْ بَظُلْمٍ﴾ بالشرك. وكذلك أخرج أبو الشيخ عن عمر بن الخطاب، وكذلك أخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن حنيفة بن اليمان، وكذلك أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن سلمان الفارسي، وكذلك أخرج أيضاً عن أبي بن كعب، وكذلك أخرج ابن المنذر، وابن مردويه، عن ابن عباس. وأخرج عنه من طريق أخرى عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر وأبو الشيخ مثله، وقد روي عن جماعة من التابعين مثل ذلك، ويغني عن الجميع ما قدمنا عن رسول الله ﷺ في تفسير الآية كما هو ثابت في الصحيحين وغيرهما. وأخرج ابن المنذر، عن ابن جريج، في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ قال: خصمهم. وأخرج أبو الشيخ، عن زيد بن أسلم، في قوله: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ﴾ قال: بالعلم. وأخرج أبو الشيخ، عن الضحاك قال: إن للعلماء درجات كدرجات الشهداء.

أي إذا كان الأمر على ما تقدم من أن معبودي هو الله المتصف بتلك الصفات، ومعبودكم هي تلك المخلوقات، فكيف تخوفوني بها، وكيف أخافها؟ وهي بهذه المنزلة، ولا تخافون من إشرارككم بالله سبحانه، وبعد هذا فأخبروني أي: الفريقين أحق بالأمن وعدم الخوف ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ بحقيقة الحال، وتعرفون البراهين الصحيحة وتميزونها عن الشبه الباطلة، ثم قال الله سبحانه قاضياً بينهم ومبيناً لهم ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبَسُوا إِيمَانَهُمْ بَظُلْمٍ﴾ أي: هم الأحق بالأمن من الذين أشركوا؛ وقيل: هو من تمام قول إبراهيم؛ وقيل: هو من قول قوم إبراهيم. ومعنى ﴿لَمْ يَلْبَسُوا إِيمَانَهُمْ بَظُلْمٍ﴾: لم يخلطوه ظلم. والمراد بالظلم الشرك، لما ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث ابن مسعود قال: لما نزلت هذه الآية شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، وقالوا: أينما لم يظلم نفسه؟ فقال رسول الله ﷺ: «ليس هو كما تظنون، إنما هو كما قال لقمان، ﴿يَا بَنِي لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾» [لقمان: 13]، والعجب من صاحب الكشاف حيث يقول في تفسير هذه الآية: وأبى تفسير الظلم بالكفر لفظ اللبس، وهو لا يدرى أن الصائق المصنوق قد فسرهما بهذا، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل، والإشارة بقوله: ﴿أَوَّلُكَ﴾ إلى الموصول المتصف بما سبق، و ﴿لَهُمُ الْأَمْنُ﴾ جملة وقعت خبراً عن اسم الإشارة، هذا أوضح ما قيل مع احتمال غيره من الوجوه. ﴿وَهُمْ مَهْتَدُونَ﴾ إلى الحق ثابتون عليه، وغيرهم على ضلال وجهل، والإشارة بقوله: ﴿تِلْكَ حُجَّتُنَا﴾ إلى ما تقدم من الحجج التي أوردها إبراهيم عليهم: أي تلك البراهين التي أوردها إبراهيم عليهم من قوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُمْ مَهْتَدُونَ﴾ - حججتنا آتيناها إبراهيم: أي: أعطيناها إياها وأرشدناه إليها، وجملة ﴿آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ﴾ في محل نصب على الحال، أو في محل رفع على أنها خبر ثان لاسم الإشارة ﴿عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ أي: حجة على قومه ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ﴾ بالهداية والإرشاد إلى الحق وتلقيان الحجة، أو بما هو أعم من ذلك ﴿إِنْ رَبُّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ أي: حكيم في كل ما يصدر عنه عليم بحال عباده، وأن منهم من يستحق الرفع ومنهم من لا يستحقه.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس قال في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ﴾ قال الأزر الصم، وأبو إبراهيم اسمه يازر، وأمه اسمها مثلي، وأمراته اسمها سارة، وسريته أم إسماعيل اسمها هاجر. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: آزر لم يكن بابيه ولكنه اسم صنم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي قال: اسم أبيه تارخ واسم الصنم آزر، وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن سليمان التيمي، أنه قرأ ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ﴾ قال: بلغني أنها أعوج وإنها أشد كلمة قالها إبراهيم لأبيه. وأخرج ابن أبي حاتم،

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ
وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ
نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٨﴾ وَذَكَرْنَا وَيْحَ وَإِسْمَاعِيلَ كُلًّا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٩﴾
وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَنُوحًا وَكَذَٰلِكَ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٣٠﴾ وَمِن
آلِهِمْ زَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَهُدَيْنَاهُم إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٣١﴾ ذَٰلِكَ
هُدَى اللَّهِ يُهْدِي مَن يَشَاءُ مَن يَشَاءُ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَلَيْهِمْ تَابًا كَآثُرًا
يَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنزَلْنَا الْكِتَابَ وَلِكُلِّ وَشْيٍ قَانَ يَتَكَبَّرُ فِيهَا مَوْلَاةٌ
فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لِّيُتَسَّأَلُوا بِهَا يَكْتُمُونَ ﴿١٣٣﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبْهُدَاهُم
أَفْتَدُوهُ قُلْ لَا أَتَكَلَّمُ عَلَىٰ أُجْرَةٍ إِن هُوَ إِلَّا وَكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٣٤﴾

قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ﴾ معطوف على جملة ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا﴾ [الأنعام: 83] عطف جملة فعلية على جملة اسمية، وقيل: معطوف على آتيناها والأول: أولى. والمعنى: ووهبنا له ذلك جزء له على الاحتجاج في الدين وبذل النفس فيه، و ﴿كُلًّا

بقوله: ﴿أولئك الذين آتيناهم الكتاب﴾ إلى الأنبياء المذكورين سابقاً: أي جنس الكتاب، ليصدق على كل ما أنزل على هؤلاء المذكورين: ﴿والحكم﴾ العلم ﴿والنبوة﴾ الرسالة أو ما هو أعم من ذلك ﴿فإن يكفر بها هؤلاء﴾ الضمير في بها للحكم والنبوة والكتاب، أو للنبوة فقط، والإشارة بهؤلاء إلى كفار قريش المعاندين لرسول الله ﷺ ﴿فقد وكلنا بها قوماً﴾ هذا جواب الشرط: أي الزمنا بالإيمان بها قوماً ﴿ليسوا بها بكافرين﴾ وهم المهاجرون والأنصار، أو الأنبياء المذكورين سابقاً، وهذا أولى لقوله فيما بعد: ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾ فإن الإشارة إلى الأنبياء المذكورين لا إلى المهاجرين والأنصار إذ لا يصح أن يؤمر النبي ﷺ بالاعتداء بهداهم، وتقديم بهداهم على الفعل يفيد تخصيص هداهم بالاعتداء، والاعتداء طلب موافقة الغير في فعله، وقيل المعنى: اصبر كما صبروا؛ وقيل اقتد بهم في التوحيد، وإن كانت جزئيات الشرائع مختلفة. وفيها دلالة على أنه ﷺ مأمور بالاعتداء بمن قبله من الأنبياء فيما لم يرد عليه فيه نص. قوله: ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً﴾ أمره الله بأن يخبرهم بأنه لا يسألكم أجراً على القرآن، وإن يقول لهم ما ﴿هو إلا نكرى﴾ يعني القرآن ﴿للعالمين﴾ أي: موعظة وتذكير للخلق كافة، الموجودين عند نزوله ومن سيوجد من بعد.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن محمد بن كعب قال: الخال والد العم والد، نسب الله عيسى إلى أخواله فقال ﴿ومن نريته﴾ حتى بلغ إلى قوله: ﴿وذكرها ويحيى وعيسى﴾. وأخرج أبو الشيخ، والحاكم، والبيهقي عن عبد الملك بن عمير قال: دخل يحيى بن يعمر على الحجاج فنكر الحسين، فقال الحجاج: لم يكن من نرية النبي، فقال يحيى: كذبت، فقال: لتأتينني على ما قلت ببينة فتلا ﴿ومن نريته﴾ إلى قوله: ﴿وعيسى﴾ فأخبر الله أن عيسى من نرية أم بامه، فقال: صدقت. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي حرب، بن أبي الأسود قال: أرسل الحجاج إلى يحيى بن يعمر فقال: بلغني أنك تزعم أن الحسن والحسين من نرية النبي، تجده في كتاب الله، وقد قرأته من أوله إلى آخره فلم أجده، فنكر يحيى بن يعمر نحو ما تقدم. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد في قوله: ﴿ولجئناهم﴾ قال: أخلصناهم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن زيد في قوله: ﴿ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون﴾ قال: يريد هؤلاء الذين هديناهم وفعلنا بهم. وأخرج أبو الشيخ، عن مجاهد قال: الحكم اللب. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿فإن يكفر بها هؤلاء﴾ يعني أهل مكة. يقول: إن يكفروا بالقرآن: ﴿فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين﴾ يعني: أهل المدينة والأنصار. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿فقد وكلنا بها قوماً﴾ قال: هم الأنبياء الثمانية عشر الذين قال الله فيهم ﴿فبهداهم

هدينا﴾ انتصاب كلاً على أنه مفعول لما بعده مقدم عليه للمقصر: أي كل واحد منهما هدينا، وكذلك نوحاً منصوب بهدينا الثاني، أو بفعل مضمر يفسره ما بعده ﴿ومن نريته﴾ أي: من نرية إبراهيم، وقال القراء: من نرية نوح. واختاره ابن جرير الطبري، والقسيري، وابن عطية، واختار الأول الزجاج، واعترض عليه بأنه عد من هذه النرية يونس ولوطاً، وما كانا من نرية إبراهيم، فإن لوطاً هو ابن أخي إبراهيم، وانتصب ﴿داود وسليمان﴾ يفعل مضمر أي وهدينا من نريته داود وسليمان، وكذلك ما بعدهما، وإنما عد الله سبحانه هداية هؤلاء الأنبياء من النعم التي عندها على إبراهيم، لأن شرف الأبناء متصل بالآباء، ومعنى «من قبل» في قوله: ﴿ونوحاً هدينا من قبل﴾ أي: من قبل إبراهيم، والإشارة بقوله: ﴿وكنك﴾ إلى مصدر الفعل المتأخر أي: ومثل ذلك الجزء ﴿نجزي للمحسنين﴾، ﴿وليس﴾ قال الضحاك: هو من ولد إسماعيل، وقال القتيبي: هو من سبط يوشع بن نون، وقرأ الأعرج والحسن، وقتادة ﴿وليس﴾ بوصل الهمزة، وقرأ أهل الحرمين وأبو عمرو وعاصم «واليسع» مخففاً، وقرأ الكوفيون إلا عاصماً بلامين، وكذا قرأ الكسائي، ورد القراءة الأولى، ولا وجه للرد فهو اسم أعجمي، والعجمة لا تؤخذ بالقياس، بل تؤدي على حسب السماع، ولا يمتنع أن يكون في الاسم لغتان للعجم، أو تغييره العرب تغييرين. قال المهودي: من قرأ بلام واحدة فالاسم يسع والآلف واللام مزيّتان، كما في قول الشاعر:

رايت الوليد بن اليزيد مباركاً شبيداً بأعباء الخلافة كاملة
ومن قرأ بلامين فالاسم ليسع، وقد تروهم قوم أن اليسع هو إلياس وهو وهم، فإن الله أفرد كل واحد منهما، وقال وهب: اليسع صاحب إلياس، وكانوا قبل يحيى وعيسى وذكراً؛ وقيل: إلياس هو إدريس، وهذا غير صحيح لأن إدريس جد نوح وإلياس من نريته؛ وقيل: إلياس هو الخضر؛ وقيل: لا بل اليسع هو الخضر ﴿وكلنا فضلنا على العالمين﴾ أي: كل واحد فضلناه بالنبوة على عالمي زمانه، والجملة معترضة. قوله: ﴿ومن آبائهم ونرياتهم وإخوانهم﴾ أي: هدينا، «ومن» للتبعيض: أي هدينا بعض آبائهم ونرياتهم وإخوانهم ﴿ولجئناهم﴾ معطوف على فضلنا، والاجتباء: الاصطفاء أو التخليص أو الاختيار، مشتق من جبيت الماء في الحوض جمعته، فالاجتباء ضم الذي تجتبيه إلى خاصيتك. قال الكسائي: جبيت الماء في الحوض جبي مقصور، والجابية الحوض، قال الشاعر:

كجابية الشيخ العراقي فتهق
والإشارة بقوله: ﴿ذلك هدى الله﴾ إلى الهداية والتفضيل والاجتباء المفهومة من الأفعال السابقة ﴿يهدي به﴾ الله ﴿من يشاء من عباده﴾ وهم الذين وفقهم للخير، وإتباع الحق ﴿ولو أشركوا﴾ أي: هؤلاء المذكورين بعبادة غير الله ﴿لحبط عنهم﴾ من حسناتهم ﴿ما كانوا يعملون﴾ والحبوط البطلان. وقد تقدم تحقيقه في البقرة، والإشارة

﴿تجعلونه﴾ راجع إلى الكتاب، وجملة تجعلونه في محل نصب على الحال، وجملة تبينونها صفة لقراطيس **﴿وتخفون كثيراً﴾** معطوف على «تبينونها»: أي وتخفون كثيراً منها، والخطاب في **﴿وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم﴾** لليهود: أي والحال أنكم قد علمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم، ويحتمل أن تكون هذه الجملة استثنائية مقررة لما قبلها، والذي علموه هو الذي أخبرهم به نبينا محمد ﷺ من الأمور التي أوحى الله إليه بها، فإنها اشتملت على ما لم يعلموه من كتبهم، ولا على لسان أنبيائهم، ولا علمه آباؤهم، ويجوز أن يكون ما في **﴿ما لم تعلموا﴾** عبارة عما علموه من التوراة، فيكون ذلك على وجه المَنّ عليهم بإنزال التوراة؛ وقيل: الخطاب للمشركون من قريش وغيرهم، فتكون «ما» عبارة عما علموه من رسول الله ﷺ، ثم أمره الله رسوله بأن يجيب عن ذلك الإلزام الذي ألزمهم به حيث قال: **﴿من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى﴾** فقال: **﴿قل الله﴾** أي: أنزله الله **﴿ثم زهم في خوضهم يلعبون﴾** أي: زهم في باطلهم حال كونهم يلعبون: أي يصنعون صنع الصبيان الذين يلعبون. قوله: **﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك﴾** هذا من جملة الرد عليهم في قولهم: **﴿ما أنزل الله على بشر من شيء﴾** أخبرهم بأن الله أنزل التوراة على موسى، وعقبه بقوله: **﴿وهذا كتاب أنزلناه﴾** يعني: على محمد ﷺ، فكيف تقولون: **﴿ما أنزل الله على بشر من شيء﴾** ومبارك ومصدق صفتان لكتاب، والمبارك كثير البركة، والمصدق كثير التصديق، والذي بين يديه ما أنزله الله من الكتب على الأنبياء من قبله، كالتوراة والإنجيل، فإنه يوافقها في الدعوة إلى الله، وإلى توحيده، وإن خالفها في بعض الأحكام. قوله: **﴿ولتُنذِر﴾** قيل: هو معطوف على ما دل عليه مبارك كأنه قيل أنزلناه للمبركات ولتنذِر، وخص أم القرى وهي مكة، لكونها أعظم القرى شأنًا، ولكونها أول بيت وضع للناس، ولكونها قبلة هذه الأمة ومحل حجهم، فالإنذار لاهلها مستتبع لإنذار سائر أهل الأرض، والمراد بمن حولها، جميع أهل الأرض، والمراد بأنذر أم القرى: إنذار أهلها وأهل سائر الأرض، فهو على تقدير مضاف محذوف كسؤال القرية **﴿والذين يؤمنون بالآخرة﴾** مبتدأ، و **﴿ويؤمنون به﴾** خبره، والمعنى: أن من حق من صدق بالدار الآخرة أن يؤمن بهذا الكتاب، ويصدق، ويعمل بما فيه، لأن التصديق بالآخرة يوجب قبول من دعا الناس إلى ما ينال به خيرها، ويندفع به ضررها، وجملة: **﴿وهم على صلاتهم يحافظون﴾** في محل نصب على الحال، وخص المحافظة على الصلاة من بين سائر الواجبات لكونها عمادها ويمنزلة الرأس لها. قوله: **﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾** هذه الجملة مقررة لمضمون ما تقدم من الاحتجاج عليهم بأن الله أنزل الكتب على رسله: أي كيف تقولون ما أنزل الله على بشر من شيء، وذلك يستلزم تكذيب الأنبياء عليهم السلام، ولا أحد أظلم ممن افترى على الله كذباً فزعم أنه نبي وليس بنبي، أو كذب

اقتده. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن أبي رجاء العطاردي قال في الآية: هم الملائكة. وأخرج البخاري، والنسائي وغيرهما، عن ابن عباس، في قوله: **﴿فيهداهم اقتده﴾** قال: أمر رسول الله ﷺ أن يقتدي بهداهم وكان يسجد في ص، ولفظ ابن أبي حاتم عن مجاهد: سألت ابن عباس عن السجدة التي في ص، فقال هذه الآية، وقال: أمر نبيكم أن يقتدي بدواد عليه السلام، وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: **﴿قل لا أسألكم عليه لجر﴾** قال: قل لهم يا محمد لا أسألكم على ما أدعوكم إليه عرضاً من عروض الدنيا.

وَمَا تَدْرُوا اللَّهَ حَقَّ دَرَيْهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قُرْآنًا وَيُذَوِّعُونَ كَثِيرًا وَعَلَّمَنَاهُ مَا لَمْ يَكُن لَّهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَلَا مَا بَاءُوكُم بِهِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿١٦﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَن حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿١٧﴾ وَمَن أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْعَذَابِ أَخْلَصُوا إِلَيْهِمْ أَخْرَجُوا أَشْشُكْمَ الْيَوْمِ تُجْرُونَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٨﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فَرْدًى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَرَكُم مَّا حَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَفَعَّلَ بَيْنَكُمْ وَبَعَثَ فِيكُمْ مَا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿١٩﴾

قوله: **﴿وما قدروا الله حق قدره﴾** قدرت الشيء وقدرته عرفت مقداره، وأصله: الستر، ثم استعمل في معرفة الشيء: أي لم يعرفوه حق معرفته، حيث أنكروا إرساله للرسول وإنزاله للكتب. وقيل المعنى: وما قدروا نعم الله حق تقديرها. وقرأ أبو حية: **﴿وما قدروا الله حق قدره﴾** بفتح الدال: وهي لغة، ولما وقع منهم هذا الإنكار وهم من اليهود، أمر الله نبيه ﷺ أن يورد عليهم حجة لا يطيقون نفعها، فقال: **﴿قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى﴾** وهم يعترفون بذلك ويذعنون له، فكان في هذا من التبكيت لهم والتقريع، ما لا يقاير قدره مع إلجائهم إلى الاعتراف بما أنكروه من وقوع إنزال الله على البشر، وهم الأنبياء عليهم السلام، فيبطل جحدهم وتبين فساد إنكارهم؛ وقيل: إن القائلين بهذه المقالة هم كفار قريش فيكون إلزامهم بإنزال الله الكتاب على موسى من جهة أنهم يعترفون بذلك ويعلمونه بالأخبار من اليهود، وقد كانوا يصنفونهم، و **﴿نوراً وهدى﴾** منتصبان على الحال و **﴿للناس﴾** متعلق بمحذوف هو صفة لهدى: أي كائناً للناس. قوله: **﴿تجعلونه قراطيس﴾** أي: تجعلون الكتاب الذي جاء به موسى في قراطيس تضعونه فيها ليتم لكم ما تريدونه من التحريف والتبديل، وكنتم صفة النبي ﷺ المنكورة فيه، وهذا ثم لهم، والضمير في **﴿تبينونها﴾** راجع إلى القراطيس، وفي

واحداً كل واحد منفرد عن أهله وماله، وما كان يعبيده من دون الله، فلم ينتفع بشيء من ذلك ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: على الصفة التي كنتم عليها عند خروجكم من بطون أمهاتكم، والكاف نعت مصدر محذوف: أي جئتمونا مجيئاً مثل مجيئكم عند خلقنا لكم، أو حال من ضمير فرادى: أي مشابهين ابتداء خلقنا لكم ﴿وَوَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ أي: أعطيناكم، والخول ما أعطاه الله للإنسان من متاع الدنيا: أي تركتم ذلك خلفكم لم تاتونا بشيء منه، ولا انتفعت به بوجه من الوجوه ﴿وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ عِبَدْتُمُوهُمْ وَقُلْتُمْ: «مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: 3] و ﴿زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ الله يستحقون منكم العبادة كما يستحقها. قوله: ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾. قرأ نافع والكسائي وحفص بنصيب بينكم على الظرفية، وفاعل تقطع محذوف: أي تقطع الوصل بينكم أنتم وشركاؤكم، كما يدل عليه: ﴿وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ﴾. وقرأ الباقون بالرفع على إسناد التقطع إلى البين: أي وقع التقطع بينكم، ويجوز أن يكون معنى قراءة النصب معنى قراءة الرفع في إسناد الفعل إلى الظرف، وإنما نصب لكثرة استعماله ظرفاً، وقرأ ابن مسعود: ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ مَا بَيْنَكُمْ﴾ على إسناد الفعل إلى ما: أي الذي بينكم ﴿وَوَضَلْ عَنكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ من الشركاء والشرك، وحيل بينكم وبينهم.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مروي، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ قال: هم الكفار لم يؤمنوا بقدرة الله، فمن آمن أن الله على كل شيء قدير قد قدر الله حق قدره، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره، إذ قالوا ما أنزل الله علي بشر من شيء. قالت اليهود: يا محمد أنزل الله عليك كتاباً؟ قال: نعم، قالوا: والله ما أنزل الله من السماء كتاباً، فأنزل الله ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾ إلى آخر الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء. قالها مشركو قريش. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي قال: قال فنحاص اليهودي ما أنزل الله على محمد من شيء فزلت. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن عكرمة قال: نزلت في مالك بن الصيف. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة، قال: جاء رجل من اليهود يقال له مالك بن الصيف، فخاصم النبي ﷺ، فقال له النبي ﷺ: «أنتشدك بالذي أنزل التوراة على موسى هل تجد في التوراة أن الله يبغض الحبر السمين؟ وكان حبراً سمياً، فغضب وقال: والله ما أنزل الله على بشر من شيء، فقال له أصحابه: ويحك ولا على موسى؟ قال: ما أنزل الله على بشر من شيء، فنزلت». وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَارِيضَ﴾ قال: اليهود، وقوله: ﴿وَعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ

على الله في شيء من الأشياء﴾ ﴿أَوْ قَالَ أَوْحَى إِلَيَّ وَلَمْ يُوْحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ أي: والحال أنه لم يوح إليه شيء، وقد صان الله أنبياءه عما تزعمون عليهم، وإنما هذا شأن الكذابين رؤوس الإضلال: كمسيلمة الكذاب، والأسود العنسي، وسجاح، قوله: ﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلَ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ معطوف على ﴿مَنْ افْتَرَى﴾ أي: ومن أظلم ممن افترى أو ممن قال أوحى إلي ولم يوح إليه شيء، أو ممن قال سأنزل مثل ما أنزل الله، وهم القائلون: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ [الأنفال: 31] وقيل: هو عبد الله بن أبي سرح، فإنه كان يكتب الوحي لرسول ﷺ، فأملى عليه رسول ﷺ: ﴿ثُمَّ انْشَأَنَاهُ خَلْقاً آخَرَ﴾ [المؤمنون: 14] فقال عبد الله: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: 14] فقال رسول الله ﷺ: «هكذا أنزلت» فشك عبد الله حينئذ وقال: لئن كان محمد صادقاً لقد أوحى إلي كما أوحى إليه، ولئن كان كاذباً لقد قلت كما قال، ثم ارتد عن الإسلام، ولحق بالمشركين، ثم أسلم يوم الفتح كما هو معروف، قوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ لِلظَّالِمِينَ فِي غَمْرَاتِ الْمَوْتِ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ أو لكل من يصلح له، والمراد كل ظالم، ويدخل فيه الجاحدين لما أنزل الله، والمذمومون للنبوات افتراء على الله بخولاً أولياء، وجواب لو محذوف: أي لرايت أمراً عظيماً، والغمرات جمع غمرة: وهي الشدة، وأصلها الشيء الذي يغمر الأشياء فيغطيها، ومنه غمرة الماء، ثم استعملت في الشدائد، ومنه غمرة الحرب. قال الجوهر: والغمرة الشدة والجمع غمر: مثل نوبة ونوب، وجملة: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ في محل نصب: أي والحال أن الملائكة باسطوا أيديهم، لقبض أرواح الكفار؛ وقيل للعذاب وفي أيديهم مطارق الحديد، ومثله قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَنْبَاسَهُمْ﴾ [الأنفال: 50]. قوله: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: قائلين لهم أخرجوا أنفسكم من هذه الغمرات التي وقمت فيها، أو أخرجوا أنفسكم من أيدينا وخلصوها من العذاب، أو أخرجوا أنفسكم من أجسادكم، وسلموها إلينا لنقبضها ﴿الْيَوْمَ تَجُزُّونَ عَذَابَ الْهَوْنِ﴾ أي: اليوم الذي تقبض فيه أرواحكم، أو أرادوا باليوم الوقت الذي يعذبون فيه الذي مبدؤه عذاب القبر، والهون والهوان بمعنى: أي اليوم تجزون عذاب الهوان الذي تصيرون به في إهانة وذلة بعدما كنتم فيه من الكبر والتعظيم، والباء في ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ للسببية: أي بسبب قولكم هذا من إنكار إنزال الله كتبه على رسله والإشراك به ﴿وَوَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن التصديق لها والعمل بها، فكان ما جؤزيت به من عذاب الهون: ﴿جِزَاءً وَفَاقاً﴾ [النبا: 26]. قوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرَادَى﴾ قرأ أبو حيوة فرادى بالتونين، وهي لغة تميم، وقرأ الباقون بآلف التانيث للجمع فلم ينصرف. وحكى ثعلب «فراده» بلا تنوين مثل: ثلاث ورباع، وفرادى جمع فرد كسكارى جمع سكران، وكسالى جمع كسلان، والمعنى: جئتمونا منفردين واحداً

لي اللات والعزى، فنزلت ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرَادَى﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن سعيد بن جببر، في قوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرَادَى﴾ الآية، قال: كيوم ولد يرد عليه كل شيء نقص منه يوم ولد. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي في قوله: ﴿وَوَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ قال: في الدنيا. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد وأبو الشيخ، عن قتادة في قوله: ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ قال: ما كان بينهم من الوصل. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد في قوله: ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ قال: تواصلكم في الدنيا.

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ اللَّيْلِ وَاللَّيْلُ يُجْرِعُ اللَّحْمَ مِنَ اللَّيْلِ وَيَخْرُجُ اللَّيْلِ مِنَ اللَّيْلِ فَالِقُ اللَّيْلِ﴾ ﴿١٥﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَذْيِيرٌ لِّلْكَافِرِينَ ﴿١٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النَّجْمَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْأَنبَاسِ قَدْ فَعَلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَكْفُرُونَ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَجَذَدٍ مِّنْ نَّفْسٍ وَتَسْتَوُونَ قَدْ فَعَلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَكْفُرُونَ ﴿١٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَبِيرًا يُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَشْجَارٍ مَّزْجُورَةٍ وَالزَّيْتُونِ وَالرَّيَّانِ شَجَرَاتٍ مُّشْتَبِهَاتٍ وَقَدْ فَتَنَّا قَوْمًا أَنظُرُوا إِلَىٰ غَيْرِهِ إِذَا أَلْمَزُوا وَيُؤْمِنُوا بِآنِ فِي ذَلِكَ آيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾

قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ هذا شروع في تعداد عجائب صنعه تعالى، وذكر ما يعجز آلهتهم عن أنبي شيء منه، والفاق الشق: أي هو سبحانه فالق الحب فيخرج منه النبات، وفالق النوى فيخرج منه النوى فيخرج منه الشجر؛ وقيل: معنى: ﴿فالق الحب والنوى﴾ الشق الذي فيهما من أصل الخلق؛ وقيل معنى: ﴿فالق﴾ خالق، والنوى: جمع نواة يطلق على كل ما فيه عجم كالتمر والمشمش والخوخ. قوله: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ هذه الجملة خبر بعد خبر، فهي في محل رفع؛ وقيل: هي جملة مفسرة لما قبلها، لأن معناها معناه، والأول: أولى، فإن معنى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ يخرج الحيوان من مثل النطفة والبيضة وهي ميتة. ومعنى: ﴿وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ مخرج النطفة والبيضة وهي ميتة من الحي، وجملة: ﴿وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ معطوفة على ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ عطف جملة اسمية على جملة فعلية ولا ضمير في ذلك؛ وقيل: معطوفة على (فالق) على تقدير أن جملة: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ مفسرة لما قبلها، والأول: أولى، والإشارة: ﴿بِئْسَ لَكُمْ﴾ إلى صانع ذلك الصنع العجيب المذكور سابقاً ﴿وَاللَّهُ﴾ خبره. والمعنى: أن صانع هذا الصنع العجيب هو المستجمع لكل كمال، والمفضل بكل إفضال، والمستحق لكل حمد وإجلال ﴿فَأَنبَأَ تَوْفُكُونَ﴾ فكيف تصرفون عن الحق مع ما ترون من بديع صنعه وكمال قدرته. قوله: ﴿فالق الإصباح﴾ مرتفع على أنه من جملة

تعلموا انتم ولا آبؤكم﴾ قال: هذه للمسلمين. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿وَعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ قال: هم اليهود أتاهم الله علماً فلم يقتدوا به، ولم يأخذوا به ولم يعملوا به، ففهمهم الله في علمهم ذلك. وأخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكٌ﴾ قال: هو القرآن الذي أنزله الله على محمد ﷺ. وأخرج عبد بن حميد، عنه قال: ﴿مُصْنَقٌ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي من الكتب التي قد خلت قبله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَتَنْتَظِرُنَّ آَمَ الْقُرَى﴾ قال: مكة ومن حولها. قال: يعني ما حولها من القرى إلى المشرق والمغرب. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي قال: إنما سميت أم القرى لأن أول بيت وضعت بها. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، عن قتادة في قوله: ﴿وَلَتَنْتَظِرُنَّ آَمَ الْقُرَى﴾ قال: هي مكة، قال: وبلغني أن الأرض لحيت من مكة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عطاء بن دينار نحوه. وأخرج الحاكم في المستدرک، عن شرحبيل بن سعد قال: نزلت في عبد الله بن أبي سرح ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ الآية، فلما دخل رسول الله ﷺ مكة فرأى إلى عثمان أخيه من الرضاة، فغيبه عنده حتى اطمان أهل مكة، ثم استأمن له. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي خلف الأعمى: أنها نزلت في عبد الله بن أبي سرح، وكذلك روى ابن أبي حاتم عن السدي. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، عن ابن جريج، في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ قال: نزلت في مسيلمة الكذاب ونحوه ممن دعا إلى مثل ما دعا إليه ﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ قال: نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سرح. وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن عكرمة نحوه. وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة لما نزلت: ﴿وَالْمُرْسَلَاتُ عِرفًا، فالعاصفات عصفافاً﴾ [المرسلات: 1، 2] قال: النضر وهو من بني عبد الدار: والطاحنات طحناً والعجانات عجنات قولاً كثيراً، فانزل الله ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس في قوله: ﴿غَمْرَاتُ الْمَوْتِ﴾ قال: سكرات الموت. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه قال في قوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ هذا عند الموت، والبسط: الضرب ﴿يُضْرَبُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَنْبَاءَهُمْ﴾ [الأنفال: 50، محمد: 27] وأخرج أبو الشيخ عنه قال: في الآية هذا ملك الموت عليه السلام. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن الضحاک في قوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ قال: بالعذاب. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن مجاهد في قوله: ﴿عَذَابُ الْهُونِ﴾ قال: الهوان. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن عكرمة قال: قال النضر بن الحارث: سوف تشفع

الذي انفشكم من نفس واحدة: أي: آم عليه السلام كما تقدم، وهذا نوع آخر من بديع خلقه الدال على كمال قدرته ﴿فمستقرٌ ومستودعٌ﴾ قرأ ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن وأبو عمرو وعيسى والأعرج والنخعي بكسر القاف، والباقون بفتحها، وهما مرفوعان على أنهما مبتدآن وخبرهما محذوف، والتقدير: فمنكم مستقرٌ أو فلكم مستقرٌ، التقدير الأول على القراءة الأولى، والثاني على الثانية: أي فمنكم مستقرٌ على ظهر الأرض، أو فلكم مستقرٌ على ظهرها، ومنكم مستودع في الرحم، أو في باطن الأرض، أو في الصلب؛ وقيل المستقر في الرحم، والمستودع في الأرض؛ وقيل المستقر في القبر. قال القرطبي: وأكثر أهل التفسير يقولون المستقر ما كان في الرحم، والمستودع ما كان في الصلب؛ وقيل المستقر من خلق، والمستودع من لم يخلق؛ وقيل الاستيداع إشارة إلى كونهم في القبور إلى المبعث.

ومما يدل على تفسير المستقر بالكون على الأرض قول الله تعالى: ﴿ولكم في الأرض مستقرٌ ومتاع إلى حين﴾ [البقرة: 36]، وذكر سبحانه هاهنا ﴿يفقهون﴾ وفيما قبله ﴿يعلمون﴾؛ لأن في إنشاء الأنفس من نفس واحدة وجعل بعضها مستقرًا وبعضها مستودعًا من الغموض والدقة ما ليس في خلق النجوم للاهتمام، فناسبه ذكر الفقه لإشعاره بمزيد تنقيح وإمعان فكر. قوله: ﴿وهو الذي نزل من السماء ماء﴾ هذا نوع آخر من عجائب مخلوقاته. والماء هو ماء المطر، وفي ﴿فأخرجنا به﴾ التفات من الغيبة إلى التكلم إظهارًا للعناية بشأن هذا المخلوق وما ترتب عليه، والضمير في ﴿به﴾ عائد إلى الماء، و﴿نبات كل شيء﴾ يعني: كل صنف من أصناف النبات المختلفة؛ وقيل: المعنى رزق كل شيء، والتفسير الأول: أولى. ثم فصل هذا الإجمال فقال: ﴿فأخرجنا منه خضرًا﴾ قال الأخفش: أي أخضر. والخضر: رطب البقول، وهو ما يتشعب من الأغصان الخارجة من الحبة؛ وقيل: يريد القمح والشعير والذرة والأرز وسائر الحبوب. ﴿نخرج منه حبا﴾ هذه الجملة صفة لخضر: أي نخرج من الأغصان الخضر حبا متراكبا: أي مركبا بعضه على بعضه كما في السنبال. ﴿ومن للنخل﴾ خبر مقدم، و﴿من طلعها﴾ بدل منه، وعلى قراءة من قرأ يخرج منه حب يكون ارتفاع قنوان على أنه معطوف على حب، وأجاز الفراء في غير القرآن قنوانا عطفاً على حبا، وتميم يقولون قنيان. وقرئ بضم القاف وفتحها باعتبار اختلاف اللغتين لغة قيس ولغة أهل الحجاز. والطلع: الكفري قبل أن ينشق عن الإغريض، والإغريض يسمى طلعاً أيضاً. والقنوان: جمع قنو، والفرق بين جمعه وتثنيته أن المثني مكسورة النون، والجمع على ما يقتضيه الأعراب، ومثله صنوان. والقنو: العنق. والمعنى: أن القنوان أصله من الطلع. والعنق: هو عنقود النخل، وقيل القنوان: الجمار. والدانية: القرية التي ينالها القائم والقاعد. قال الزجاج: المعنى منها دانية ومنها بعيدة فحذف، ومثله: ﴿سراويل تقيكم الحر﴾

أخبار «إن» في ﴿إن الله فائق الحب والنوى﴾ وقيل: هو نعت للاسم الشريف في ﴿نلكم الله﴾ وقرأ الحسن، وعيسى بن عمر ﴿فائق الأصباح﴾ بفتح الهمزة، وقرأ الجمهور بكسرها، وهو على قراءة الفتح جمع صبح، وعلى قراءة الكسر مصدر أصبح، والصبح والأصباح: أوّل النهار، وكذا الإصباح، وقرأ النخعي ﴿فلق الإصباح﴾ بفعل وهمزة مكسورة. والمعنى في ﴿فائق الإصباح﴾ أنه شاق الضياء عن الظلام وكاشفه، أو يكون المعنى على حذف مضاف: أي فائق ظلمة الإصباح، وهي الغيش، أو فائق عمود الفجر عن بياض النهار، لأنه يبدو مختلطاً بالظلمة ثم يصير أبيض خالصاً. وقرأ الحسن وعيسى بن عمر، وعاصم وحزمة، والكسائي ﴿وجعل الليل سكناً﴾ حملاً على معنى ﴿فائق﴾ عند حمزة والكسائي، وأما عند الحسن وعيسى فمفعلاً على فلق. وقرأ الجمهور، وجاعل عطفاً على فائق. وقرئ فائق وجاعل بنصبهما على المدح. وقرأ يعقوب وجاعل الليل ساكناً. والسكن: محل السكون، من سكن إليه: إذ اطمأن إليه، لأنه يسكن فيه الناس عن الحركة في معاشهم، ويستريحون من التعب والنصب. قوله: ﴿واللشمس والقمر حسيباناً﴾ بالنصب على إضمار فعل: أي وجعل الشمس والقمر، وبالرفع على الابتداء، والخبر محذوف تقديره والشمس والقمر معجولان حسيباناً، وبالجز عطفاً على الليل على قراءة من قرأ وجاعل الليل، قال الأخفش: والحسيبان جمع حساب مثل شهبان وشهاب. وقال يعقوب: حسيبان مصدر حسبت الشيء أحسبه حساباً وحسيباناً. والحساب: الاسم؛ وقيل الحسيبان بالضم مصدر حسب بالفتح، والحسيبان بالكسر مصدر حسب. والمعنى: جعلهما محل حساب تتعلق به مصالح العباد وسيرهما على تقدير لا يزيد ولا ينقص ليدل عباده بذلك على عظيم قدرته وبديع صنعه؛ وقيل الحسيبان: الضياء، وفي لغة أن الحسيبان: النار، ومنه قوله تعالى: ﴿ويرسل عليها حساباً من السماء﴾ [الكهف: 40] والإشارة بـ ﴿نلك تقدير العزيز للعليم﴾ إلى الجعل المدلول عليه بجاعل أو بجعل على القرامتين. والعزیز: القاهر الغالب. والعليم: كثير العلم، ومن جملة معلوماته تسييرهما على هذا التعبير المحكم. قوله: ﴿وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها﴾ أي: خلقها للاهتمام بها ﴿في ظلمات﴾ الليل عند المسير في ﴿البر والبحر﴾ وإضافة الظلمات إلى البر والبحر لكونها ملابسة لهما، أو المراد بالظلمات: اشتباه طرقهما التي لا يهتدى فيها إلا بالنجوم، وهذه إحدى منافع النجوم التي خلقها الله لها، ومنها ما ذكره الله في قوله: ﴿وحفظاً من كل شيطان مارد﴾ [الصفاف: 7]. ﴿وجعلناها رجوماً للشياطين﴾ [الملك: 5]، ومنها جعلها زينة للسماء، ومن زعم غير هذه الفوائد فقد أعظم على الله الفرية ﴿قد فصلنا الآيات﴾ التي بينها بياناً مفصلاً لتكون أبلى في الاعتبار ﴿للقوم يعلمون﴾ بما في هذه الآيات من الدلالة على قدرة الله وعظمته وبديع حكمته. قوله: ﴿وهو

[النحل: 81] وخصّ الدانية بالذكر لأن الغرض من الآية بيان القدر والامتنان، وذلك فيما يقرب تناوله أكثر. قوله: ﴿وَجَنَاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ﴾ قرأ محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، والأعمش، وعاصم في قراءته الصحيحة عنه برفع جنات، وقرأ الباقر بالنصب. وآنكر القراءة الأولى أبو عبيدة، وأبو حاتم، حتى قال أبو حاتم هي محال، لأن الجنات لا تكون من النخل. قال النحاس: ليس تأويل الرفع على هذا، ولكنه رفع بالابتداء، والخبر محذوف: أي ولهم جنات كما قرأ جماعة من القراء ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ [الواقعة: 22] وقد أجاز مثل هذا سيبويه والكسائي والفراء، وأما على النصب فقليل: هو معطوف على ﴿وَنَبَاتٍ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: وأخرجنا به جنات كائنة من أعناب، أو النصب بفعل يقدّر متأخراً: أي وجنات من أعناب أخرجناها، وهكذا القول في انتصاب الزيتون والرمان: وقيل: هما منصوبان على الاختصاص لكونهما عزيزين، و﴿مُشْتَبِهًا﴾ منتصب على الحال: أي كل واحد منهما يشبه بعضه بعضاً في بعض أوصافه، ولا يشبه بعضه بعضاً في البعض الآخر؛ وقيل: إن أحدهما يشبه الآخر في الورق باعتبار اشتراكه على جميع الفصن وباعتبار حجمه، ولا يشبه أحدهما الآخر في الطعم؛ وقيل خصّ الزيتون والرمان لقرب منابتهما من العرب كما في قول الله سبحانه: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: 17]، ثم أمرهم سبحانه بأن ينظروا نظر اعتبار إلى ثمره إذا أثمر، وإلى ينعه إذا أينع. والثمر في اللغة: جنى الشجر. واليانع: الناضج الذي قد أترك وحن قطافه. قال ابن الأنباري: الينع جمع يانع، كركب وراكب. وقال الفراء: أينع أحمر. قرأ حمزة والكسائي «ثمره» بضم الثاء والميم، وقرأ الباقر بفتحها، إلا الأعمش فإنه قرأ ثمره بضم الثاء، وسكون الميم تخفيفاً. وقرأ محمد بن السميع، وابن محيصن، وابن أبي إسحاق «وينعه» بضم الياء التحتية. قال الفراء: هي لغة بعض أهل نجد. وقرأ الباقر بفتحها، والإشارة بقوله: ﴿إِنْ فِي نَلْمِكُمْ﴾ إلى ما تقدّم ذكره مجعلاً ومفصلاً ﴿لَايَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بالله استدلالاً بما يشاهدونه من عجائب مخلوقاته التي قصها عليهم.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله تعالى ﴿إِنْ أَلْقَى فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ يقول: خلق الحب والنوى. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة قال: يلقى الحب والنوى عن النبات. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد قال: الشقان اللذان فيهما. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، عن أبي مالك نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عنه في قوله: ﴿يَخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ قال: النخلة من النواة والسنبلة من الحبة ﴿وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ قال: النواة من النخلة والحبة من السنبلة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مجاهد: ﴿يَخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ قال:

الناس الأحياء من النطف، والنطفة ميتة تخرج من الناس الأحياء، ومن الأنعام والنبات كذلك أيضاً. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس ﴿فَأَنى تَوَفُّكُونَ﴾ أي: فكيف تكذبون. وأخرج أيضاً عن الحسن قال أتى تصرفون. وأخرج أيضاً عن ابن عباس في ﴿فَالِقَ الْإِصْبَاحِ﴾ قال: خلق الليل والنهار. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه قال: يعني بالإصباح ضوء الشمس بالنهار، وضوء القمر بالليل. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد في ﴿فَالِقَ الْإِصْبَاحِ﴾ قال: إضاءة الفجر. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، عن قتادة في قوله: ﴿فَالِقَ الْإِصْبَاحِ﴾ قال: فلق الصبح. وأخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿وَجَاعِلَ اللَّيْلِ سَكَنًا﴾ قال: سكن فيه كل طير ودابة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَاللَّشْمُسَ وَالْقَمَرَ حَسْبَانًا﴾ يعني عند الأيام والشهور والسنين، وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾ قال: يضلّ الرجل وهو في الظلمة، والجور عن الطريق. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، والخطيب في كتاب النجوم، عن عمر بن الخطاب قال: تعلموا من النجوم ما تهتدون به في بركم وبحركم، ثم امسكوا، فإنها والله ما خلقت إلا زينة للسماء ورجوماً للشياطين، وعلامات يهتدى بها. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة نحوه. وأخرج ابن مريويه، والخطيب، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «تعلموا من النجوم ما تهتدون به في ظلمات البر والبحر ثم انتهوا».

وقد ورد في استحباب مراعاة الشمس والقمر لذكر الله سبحانه لا لغير ذلك أحاديث: منها عند الحاكم وصححه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لَحَبَّ عِبَادَ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ الَّذِينَ يَرَاعُونَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَذَكَرَ اللَّهَ». وأخرج ابن شاهين والطبراني، والحاكم، والخطيب، عن عبد الله بن أبي أوفى قال: قال رسول الله ﷺ، فنكر نحوه. وأخرج أحمد في الزهد، والخطيب، عن أبي الدرداء نحوه. وأخرج الخطيب في كتاب النجوم، عن أبي هريرة نحو حديثه الأول مرفوعاً. وأخرج الحاكم في تاريخه، والبيهقي بسند ضعيف، عن أبي هريرة أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلَاثَةٌ يَظْلَهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: التَّاجِرُ الْأَمِينُ، وَالْإِمَامُ الْمُقْتَصِدُ، وَرَاعِي الشَّمْسِ بِالنَّهَارِ». وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن سلمان الفارسي قال: «سبعة في ظلّ الله يوم لا ظلّ إلا ظله، فنكر منهم الرجل الذي يراعي الشمس لمواقيت الصلاة». فهذه الأحاديث مقيدة بكون المراعاة لذكر الله، والصلاة، لا لغير ذلك. وقد جعل الله انقضاء وقت صلاة الفجر طلوع الشمس. وأوّل صلاة الظهر زوالها، ووقت العصر ما دامت الشمس بيضاء نقية. ووقت المغرب غروب

الشمس. وورد في صلاة العشاء: «إن النبي ﷺ كان يصلّيها لوقت مغيب القمر ليلة ثالث الشهر» وبها يعرف أوائل الشهور وأواسطها وأواخرها. فمن رأى الشمس والقمر بهذه الأمور فهو الذي أراده ﷺ، ومن راعاها لغير ذلك فهو غير مراد بما ورد، وهكذا النجوم، ورد النهي عن النظر فيها كما أخرجه ابن مردويه، والخطيب، عن عليّ قال: نهاني رسول الله ﷺ عن النظر في النجوم. وأخرج ابن مردويه، والمرهبي، والخطيب، عن أبي هريرة قال: نهى رسول الله ﷺ عن النظر في النجوم. وأخرج الخطيب، عن عائشة مرفوعاً مثله. وأخرج الطبراني، وأبو نعيم في الحلية، والخطيب، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا نكر أصحابي فامسكوا، وإذا نكر القمر فامسكوا، وإذا نكرت النجوم فامسكوا». وأخرج ابن أبي شيبة، وأبو داود، وابن مردويه، عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ: «من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد» فهذه الأحاديث محمولة على النظر فيها لما عدا الاهتداء والتفكير والاعتبار. وما ورد في جواز النظر في النجوم فهو مقيد بالاهتداء والتفكير والاعتبار كما يدل عليه حديث ابن عمر السابق، وعليه يحمل ما روى عن عكرمة فيما أخرجه الخطيب عنه: أنه سأل رجلاً عن حساب النجوم، فجعل الرجل يتحرّج أن يخبره، فقال عكرمة: سمعت ابن عباس يقول: علم عجز الناس عنه ووددت أني علمته. وقد أخرج أبو داود، والخطيب، عن سمرة بن جندب، أنه خطب فنكر حديثاً عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أما بعد، فإن ناساً يزعمون أن كسوف هذه الشمس وكسوف هذا القمر وزوال هذه النجوم عن مواضعها لموت رجال عظماء من أهل الأرض، وإنهم قد كذبوا، ولكنها آيات من آيات الله يعبر بها عباده لينظر ما يحدث لهم من توبة». وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما في كسوف الشمس والقمر عن النبي ﷺ: «إنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكن يخوف الله بهما عباده». وأخرج ابن مردويه، عن أبي أمامة مرفوعاً: «إن الله نصب آدم بين يديه، ثم ضرب كتفه اليسرى فخرجت نريته من صلبه حتى ملئوا الأرض» فهذا الحديث هو معنى ما في الآية، وهو الذي انشاكم من نفس واحدة». وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه من طرق عن ابن عباس في قوله: «فمستقر ومستودع» قال: المستقر ما كان في الرحم، والمستودع ما استودع في أصلاب الرجال والدواب. وفي لفظ: المستقر ما في الرحم، وعلى ظهر الأرض ووطنها مما هو حي وما قد مات. وفي لفظ المستقر ما كان في الأرض، والمستودع ما كان في الصلب. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن مسعود في الآية: قال مستقرها في الدنيا ومستودعها في الآخرة. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، عن ابن مسعود قال:

وَجَعَلُوا يَوْمَ شُرَكَاءَ الْإِلَهِ رَفَعَهُمْ وَخَرُّوا لَهُ بَيْنَ وَبَيْنَ يَدَيْهِ عَلَيْهِمْ سُبْحَتُهُمْ وَتَعَلَّى عَمَّا يَصُورُونَ ﴿١٦﴾ بَوَّعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ فَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَلِكَ كَمَا أَنَّهُ رَزَقَكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَأَعْبَادُهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٨﴾ لَا تَدْرِكُهُ الْآبَاسُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْآبَاسَ وَهُوَ الْغَلِيظُ الْقَلِيرُ ﴿١٩﴾

هذا الكلام يتضمن نكر نوع آخر من جهالاتهم وضلالاتهم. قال النحاس: الجَنُّ المفعول الأول، وشركاء المفعول الثاني كقوله تعالى: «وجعلكم ملوكاً» [المائدة: 20] «رجعلت له ما لا ممدوداً» [المنثر: 12] وأجاز الفراء: أن يكون الجَنُّ بدلاً من شركاء ومفسراً له. وأجاز الكسائي رفع الجَنِّ بمعنى هم الجَنِّ كأنه قيل: من هم؟ فقيل الجَنُّ، وبالرفع قرأ يزيد بن أبي قطيب، وأبو حيان، وقرئ بالجر على إضافة شركاء إلى الجَنِّ للبيان. والمعنى: أنهم جعلوا شركاء لله فعبدوهم كما عبده، وعظموه كما عظموه. وقيل المراد بالجَنِّ هاهنا الملائكة لاجتماعهم: أي استتارهم، وهم الذين قالوا: للملائكة بنات الله، وقيل: نزلت في الزنادقة الذين قالوا: إن الله تعالى وإبليس أخوان، فالله خالق الناس والدواب، وإبليس خالق الحيات والسباع والعقارب. وروي ذلك عن الكلبي، ويقرب من هذا قول المجوس، فإنهم قالوا: للعالم صانعان هما الرب سبحانه والشيطان. وهكذا القائلون: كل خير من النور، وكل شر من الظلمة، وهم المانوية. قوله: «وخلقهم» جملة حالية بتقدير قد: أي وقد علموا أن الله خلقهم، أو خلق ما جعلوه شريكاً لله. قوله: «وخزقوا له بنين وبنات» قرأ نافع بالتشديد على التكثير، لأن المشركين ادّعوا أن الملائكة بنات الله، والنصارى ادّعوا أن المسيح ابن الله، واليهود ادّعوا أن عزيزاً ابن الله، فكثر ذلك

الشمس. وورد في صلاة العشاء: «إن النبي ﷺ كان يصلّيها لوقت مغيب القمر ليلة ثالث الشهر» وبها يعرف أوائل الشهور وأواسطها وأواخرها. فمن رأى الشمس والقمر بهذه الأمور فهو الذي أراده ﷺ، ومن راعاها لغير ذلك فهو غير مراد بما ورد، وهكذا النجوم، ورد النهي عن النظر فيها كما أخرجه ابن مردويه، والخطيب، عن عليّ قال: نهاني رسول الله ﷺ عن النظر في النجوم. وأخرج ابن مردويه، والمرهبي، والخطيب، عن أبي هريرة قال: نهى رسول الله ﷺ عن النظر في النجوم. وأخرج الخطيب، عن عائشة مرفوعاً مثله. وأخرج الطبراني، وأبو نعيم في الحلية، والخطيب، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا نكر أصحابي فامسكوا، وإذا نكر القمر فامسكوا، وإذا نكرت النجوم فامسكوا». وأخرج ابن أبي شيبة، وأبو داود، وابن مردويه، عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ: «من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد» فهذه الأحاديث محمولة على النظر فيها لما عدا الاهتداء والتفكير والاعتبار. وما ورد في جواز النظر في النجوم فهو مقيد بالاهتداء والتفكير والاعتبار كما يدل عليه حديث ابن عمر السابق، وعليه يحمل ما روى عن عكرمة فيما أخرجه الخطيب عنه: أنه سأل رجلاً عن حساب النجوم، فجعل الرجل يتحرّج أن يخبره، فقال عكرمة: سمعت ابن عباس يقول: علم عجز الناس عنه ووددت أني علمته. وقد أخرج أبو داود، والخطيب، عن سمرة بن جندب، أنه خطب فنكر حديثاً عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أما بعد، فإن ناساً يزعمون أن كسوف هذه الشمس وكسوف هذا القمر وزوال هذه النجوم عن مواضعها لموت رجال عظماء من أهل الأرض، وإنهم قد كذبوا، ولكنها آيات من آيات الله يعبر بها عباده لينظر ما يحدث لهم من توبة». وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما في كسوف الشمس والقمر عن النبي ﷺ: «إنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكن يخوف الله بهما عباده». وأخرج ابن مردويه، عن أبي أمامة مرفوعاً: «إن الله نصب آدم بين يديه، ثم ضرب كتفه اليسرى فخرجت نريته من صلبه حتى ملئوا الأرض» فهذا الحديث هو معنى ما في الآية، وهو الذي انشاكم من نفس واحدة». وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه من طرق عن ابن عباس في قوله: «فمستقر ومستودع» قال: المستقر ما كان في الرحم، والمستودع ما استودع في أصلاب الرجال والدواب. وفي لفظ: المستقر ما في الرحم، وعلى ظهر الأرض ووطنها مما هو حي وما قد مات. وفي لفظ المستقر ما كان في الأرض، والمستودع ما كان في الصلب. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن مسعود في الآية: قال مستقرها في الدنيا ومستودعها في الآخرة. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، عن ابن مسعود قال:

أبصار الكفار، هذا على تسليم أن نفي الإدراك يستلزم نفي الرؤية، فالمراد به هذه الرؤية الخاصة، والآية من سلب العموم لا من عموم السلب، والأول تخلفه الجزئية، والتقدير: لا تدرك كل الأبصار بل بعضها، وهي أبصار المؤمنين. والمصير إلى أحد الوجهين متعين لما عرّفناك من تواتر الرؤية في الآخرة، واعتقادها بقوله تعالى: ﴿وَجُوهَ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾ [القيامة: 22] الآية. قوله: ﴿وَهُوَ يَدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ أي: يحيط بها ويبلغ كنهها لا تخفى عليه منها خافية، وخص الأبصار ليجانس ما قبله. وقال الزجاج: في هذا دليل على أن الخلق لا يدركون الأبصار: أي لا يعرفون كيفية حقيقة البصر، وما الشيء الذي صار به الإنسان يبصر من عينيه دون أن يبصر من غيرهما من سائر أعضائه انتهى. ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ﴾ أي: الرقيق بعباده: يقال لطف فلان بفلان: أي رفق به، واللطف في العمل: الرفق فيه. واللطف من الله التوفيق والعصمة، واللطف بكذا: إذا أبهره والملاطفة: المبالغة. هكذا قال الجوهري وابن فارس، و﴿الخبير﴾ المختبر بكل شيء بحيث لا يخفى عليه شيء.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجَنِّ وَخَلَقَهُمْ﴾ قال: والله خلقهم ﴿وَوُخِّرُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ قال: تخرّصوا. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه في قوله ﴿وَوُخِّرُوا﴾ قال: جعلوا: وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد قال كذبوا. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن قتادة نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، والعقيلي، وابن عدي وأبو الشيخ، وابن مردويه بسند ضعيف، عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ في قوله: ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ قال: لو أن الإنس والجنّ والملائكة والشياطين منذ خلقوا إلى أن فنوا صفوا صفاً واحداً ما أحاطوا بالله أبداً. قال الذهبي: هذا حديث منكر انتهى. وفي إسنادة عطية العوفي وهو ضعيف. وأخرج الترمذي وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، عن ابن عباس قال: رأى محمد ربه. قال عكرمة: فقلت له اليس الله يقول: ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يَدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ قال: لا لم لك ذلك نوره إذا تجلّى بنوره لا يدركه شيء. وفي لفظ «إنما تلك إذا تجلّى بكيفيته لم يرق له بصر». وأخرج ابن جرير عنه قال: لا يحيط بصر أحد بالله. وأخرج أبو الشيخ، والبيهقي في كتاب الرؤية، عن الحسن في قوله: ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ قال: في الدنيا. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن إسماعيل بن علية مثله.

قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ كَمْ أَمْسَرَ فَلْيَنْفَعِي. وَنَ عَيَ فَمَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِمِصْرِطٍ ۖ وَكَذَلِكَ نَمُوتُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلَيَسْتَنْزِلُ لِقَوْمٍ يَكْفُرُونَ ۖ أَلَيْسَ مَا أُرِيكَ مِنْ رَيْكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ۚ رَوَى شَأْنُ اللَّهِ مَا أَشْكُرُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا

من كفرهم فشدّ الفعل لمطابقة المعنى. وقرأ الباقون بالتخفيف. وقرئ ﴿حرفوا﴾ من التحريف: أي زوّروا. قال أهل اللغة: معنى خرقوا اختلقوا وانفعلوا وكذبوا، يقال اختلق الإفك، واخترقه وخرقه، أو أصله من خرق الثوب: إذا شقه: أي اشتقوا له بنين وبنيات. قوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ متعلق بمحذوف هو حال: أي كائنين بغير علم، بل قالوا ذلك عن جهل خالص، ثم بعد حكاية هذا الضلال البين، والبهت الفطيع من جعل الجنّ شركاء لله، وإثبات بنين وبنيات له، نزه الله نفسه، فقال: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾ وقد تقدّم الكلام في معنى سبحانه. ومعنى «تعالى»: تباعد وارتفع عن قولهم الباطل الذي وصفوه به. قوله: ﴿يَبْدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: مبدعهما، فكيف يجوز أن يكون له ولد؟ وقد جاء البديع: بمعنى المبدع كالسميع بمعنى المسمع كثيراً، ومنه قول عمرو بن معدي كرب:

أَمِنْ رِيحَانَةِ الدَّاعِي السَّمِيعِ يُوْزِقُنِي وَأَصْحَابِي مَجْجُوعِ
أي: المسمع، وقيل: هو من إضافة الصفة المشبهة إلى الفاعل، والأصل بديع سمواته وأرضه. وأجاز الكسائي خفضه على النعت لله. والظاهر أن رفعه على تقدير مبتدأ محذوف، أو على أنه مبتدأ وخبره ﴿أَنِّي يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾ وقيل: هو مرفوع على أنه فاعل «تعالى»، وقرئ بالنصب على المدح، والاستفهام في ﴿أَنِّي يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾ للإنكار والاستبعاد: أي من كان هذا وصفه، وهو أنه خالق السموات والأرض وما فيهما، كيف يكون له ولد؟ وهو من جملة مخلوقاته، وكيف يتخذ ما يخلقه ولداً، ثم بالغ في نفي الولد، فقال: ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً﴾ أي: كيف يكون له ولد والحال أنه لم تكن له صاحبة، والصاحبة إذا لم توجد استحال وجود الولد، وجملة: ﴿وَوُخِّلَ كُلُّ شَيْءٍ﴾ لتقرير ما قبلها، لأن من كان خالقاً لكل شيء استحال منه أن يتخذ بعض مخلوقاته ولداً ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا تخفى عليه من مخلوقاته خافية، والإشارة بقوله ﴿تِلْكَ﴾ إلى الأوصاف السابقة، وهو في موضع رفع على الابتداء وما بعده خبره، وهو الاسم الشريف، و﴿رَبِّكُمْ﴾ خبر ثان، و﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ خبر ثالث، و﴿وَخَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ خبر رابع، ويجوز أن يكون ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ بدلاً من اسم الإشارة، وكذلك ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ خبر المبتدأ، ويجوز ارتفاع خالق على إضمار مبتدأ، وأجاز الكسائي والفراء النصب فيه ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ أي: من كانت هذه صفاته، فهو الحقيق بالعبادة فاعبدوه ولا تعبدوا غيره ممن ليس له من هذه الصفات العظيمة شيء. قوله: ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ الأبصار: جمع بصر، وهو الحاسة، وإبرك الشيء عبارة عن الإحاطة به. قال الزجاج أي لا تبلغ كنه حقيقته، فالمنفي هو هذا الإدراك لا مجرد الرؤية. فقد ثبتت بالأحاديث المتواترة تواتراً لا شك فيه ولا شبهة، ولا يجهل إلا من يجهل السنة المطهرة جهلاً عظيماً، وأيضاً قد تقرّر في علم البيان، والميزان أن رفع الإيجاب الكلي سلب جزئي، فالمنعنى لا تدركه بعض الأبصار وهي

إلا أنه بلغ. وحكى عن المبرد أنه قرأ ﴿وليقولوا﴾ بإسكان اللام، فيكون فيه معنى التهديد: أي وليقولوا ما شأؤوا فإن الحق بين، وفي هذا اللفظ أصله درس يدرس دراسة، فهو من الدرس، وهو القراءة؛ وقيل من درسته: أي نلته بكثرة القراءة، وأصله درس الطعام: أي داسه. والدياس: الدراس بلغة أهل الشام؛ وقيل أصله من درست الثوب أدرسه درساً: أي أخلقته، ودرست المرأة درساً: أي حاضت. ويقال: إن فرج المرأة يكنى أبا دراس وهو من الحيض، والدرس أيضاً: الطريق الخفي. وحكى الأصمعي: بغير لم يدرس: أي لم يركب. وروى عن ابن عباس وأصحابه، وأبي، وابن مسعود، والاعمش، أنهم قرؤوا «درس» أي: درس محمد الآيات، وقرئ «درست» وبه قرأ زيد بن ثابت: أي الآيات على البناء للمفعول، «ودارست» أي دارست اليهود محمداً، واللام في «لنبيئنه» لام كي: أي نصرف الآيات لكي نبيئنه لقوم يعلمون، والضمير راجع إلى الآيات؛ لأنها في معنى القرآن، أو إلى القرآن، وإن لم يجر له نكر؛ لأنه معلوم من السياق أو إلى التبيين المملول عليه بالفعل. قوله: ﴿اتبع ما أوحى إليك من ربك﴾ أمره الله باتباع ما أوحى إليه وأن لا يشغل خاطره بهم، بل يشتغل باتباع ما أمره الله، وجملة: ﴿لا إله إلا هو﴾ معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه، لقصد تأكيد إيجاب الاتباع ﴿وواعرض﴾ معطوف على ﴿اتبع﴾ أمره الله بالإعراض عن المشركين بعدما أمره باتباع ما أوحى إليه، وهذا قبل نزول آية السيف: ﴿ولو شاء الله ما أشركوا﴾ أي: لو شاء الله عدم إشراكهم ما أشركوا، وفيه أن الشرك بمشيئة الله سبحانه، والكلام في تقرير هذا على الوجه الذي يتعارف به أهل علم الكلام والميزان معروف فلا نطيل بإيراده، ﴿وما جعلناك عليهم حفيظاً﴾ أي: رقيباً ﴿وما أنت عليهم بوكيل﴾ أي: قيم بما فيه نفهم فتجلبه إليهم، ليس عليك إلا إيلاء الرسالة. قوله: ﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم﴾ الموصول عبارة عن الآلهة التي كانت تعبدونها الكفار. والمعنى: لا تسب يا محمد آلهة هؤلاء الكفار التي يدعونها من دون الله، فيتسبب عن ذلك سبهم لله عدواناً وتجاوزاً عن الحق وجهلاً منهم.

وفي هذه الآية دليل على أن الداعي إلى الحق والناهي عن الباطل إذا خشي أن يتسبب عن ذلك ما هو أشد منه من انتهاك حرم، ومخالفة حق، ووقوع في باطل أشد كان الترك أولى به، بل كان واجباً عليه، وما أنفع هذه الآية وأجل فائدتها لمن كان من الحاملين لحجج الله، المتصددين لبيانها للناس، إذا كان بين قوم من الصم البكم الذين إذا أمرهم بمعروف تركوه، وتركوا غيره من المعروف، وإذا نهاهم عن منكر، فعلوه وفعلوا غيره من المنكرات؛ عناداً للحق وبغضاً لاتباع المحققين، وجراءة على الله سبحانه سبحانه، فإن هؤلاء لا يؤثر فيهم إلا السيف، وهو الحكم العدل لمن عاند الشريعة المطهرة وجعل المخالفة لها والتجرؤ على أهلها

أَنْتَ عَلَيْهِمْ بَوَكِيلٌ ﴿١٧٦﴾ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّلْنَا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِنْ رَبَّهُمْ مَرْجِعُهُمْ فَيَنْتَهُمُ ﴿١٧٧﴾ يَسْأَلُونَ ﴿١٧٨﴾

البصائر جمع بصيرة، وهي في الأصل: نور القلب، والمراد بها هنا الحجة البينة والبرهان الواضح، وهذا الكلام وارد على لسان رسول الله ﷺ، ولهذا قال في آخره ﴿وما أنا عليكم بحفيظ﴾ ووصف البصائر بالمجىء تفخيماً لشأنها، وجعلها بمنزلة الغائب المتوقع مجيئه، كما يقال جاءت العافية، وانصرف المرض، وأقبلت السعود، وأدبرت النحوس ﴿فمن لبصر فلينبصر﴾ أي: فمن تعقل الحجة وعرفها وأدعن لها فنفقك لك لنفسه؛ لأنه ينجو بهذا الإبصار من عذاب النار ﴿ومن عمي﴾ عن الحجة ولم يتعقلها ولا أذعن لها، فضرر ذلك على نفسه؛ لأنه يتعرض لغضب الله في الدنيا ويكون مصيره النار ﴿وما أنا عليكم بحفيظ﴾ برقيب أحصى عليكم أعمالكم، وإنما أنا رسول أبلغكم رسالات ربي وهو الحفيظ عليكم. قال الزجاج: نزل هذا قبل فرض القتال ثم أمر أن يمنعهم بالسيف من عبادة الأوثان ﴿وكذلك نصرف الآيات﴾ أي: مثل ذلك التصريف للبيع نصرفها في الوعد والوعيد والوعظ والتنبيه. قوله: ﴿وليقولوا درست﴾ العطف على محذوف: أي نصرف الآيات لتقوم الحجة وليقولوا درست، أو علة لفعل محذوف يقرر متأخراً: أي وليقولوا درست صرّفناها، وعلى هذا تكون اللام للعاقبة أو للصيرورة. والمعنى: ومثل ذلك التصريف نصرف الآيات وليقولوا درست، فإنه لا احتفال بقولهم ولا اعتداد بهم، فيكون معناه الوعيد والتهديد لهم وعدم الاكتراث بقولهم. وقد أشار إلى مثل هذا الزجاج. وقال للنحاس: وفي المعنى قول آخر حسن، وهو أن يكون معنى «نصرف الآيات» ناتي بها آية بعد آية ﴿ليقولوا درست﴾ علينا، فينكرون الأول بالآخر، فهذا حقيقته، والذي قاله أبو إسحاق: يعني الزجاج مجاز، وفي «درست» قراءات، قرأ أبو عمرو، وابن كثير «دارست» بآلف بين الدال والراء كفاعلت، وهي قراءة علي، وابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وعكرمة، وأهل مكة. وقرأ ابن عامر «درست» بفتح السين وإسكان اللام من غير ألف كخرجت، وهي قراءة الحسن. وقرأ الباقون «درست» كضربت، فعلى القراءة الأولى المعنى: دارست أهل الكتاب ودارسوك: أي ذاكرتهم وذاكركم، ويدل على هذا ما وقع في الكتاب العزيز من إخبار الله عنهم بقوله: ﴿واعانه عليه قوم آخرون﴾ [الفرقان: 4] أي: أعان اليهود النبي ﷺ على القرآن، ومثله قولهم: «أساطير الأولين» اكتتبها فهي تملأ عليه بكرة وأصيلاً [الفرقان: 5]، وقولهم: «إنما يعلمه بشر» [النحل: 103]. والمعنى على القراءة الثانية: قمت هذه الآيات وعفت وانقطعت، وهو كقولهم: «أساطير الأولين» [الأنعام: 25]، وفي ثمانية مواضع أخر من كتاب الله العزيز. والمعنى على القراءة الثالثة: مثل المعنى على القراءة الأولى. قال الأخفش: هي بمعنى دارست

قالوا يا محمد لتنتهين عن سبك آلهتنا أو لنهجون ربك، فنهاهم الله أن يسبوا أولئهم ﴿فيسبوا الله عدواً بغير علم﴾. وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «ملعون من سبَّ والديه، قالوا يا رسول الله وكيف يسبَّ الرجل والديه؟ قال: يسبُّ أبا الرجل فيسبُّ أباه، ويسبُّ أمه فيسبُّ أمه».

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشِيرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٣٦﴾ وَتَقَلَّبَ أَثْقَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِآيَاتِهِمْ كَمَا لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٣٧﴾ وَلَوْ أَنَّنَا نَلْمِزُكَ لَتَلَذَّ النَّاسُ بِإِيمَانِكُمْ وَلَكُمُ الْفَوْزُ وَحَسْرَةً عَلَيْهِمْ كُلَّ يَوْمٍ فُتِلَا مَا كَانُوا يُؤْمِنُونَ إِلَّا أَنْ يَسْأَلَ اللَّهُ وَلَئِذَا كُنْهُمْ أَكْثَرُهُمْ يَهْمِلُونَ ﴿١٣٨﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَاطِئِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلَهُمْ بِذَلِكَ وَمَا يُفْقَرُونَ ﴿١٣٩﴾ وَلَئِنْ يَدْعُوا إِلَى آيَةٍ لَيَقُولُنَّ لَا يَأْتِيهِمْ إِلَّا الْفُتُورُ ﴿١٤٠﴾

قوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ﴾ أي الكفار مطلقاً، أو كفار قريش، وجهد الإيمان أشدها: أي أقسموا بالله أشد إيمانهم التي بلغت قدرتهم، وقد كانوا يعتقدون أن الله هو الإله الأعظم، فلماذا أقسموا به، وانتصاب جهد على المصدرية، وهو بفتح الجيم المشقة، وبضمها الطاقة، ومن أهل اللغة من يجعلهما لمعنى واحد، والمعنى: أنهم اقترحوا على النبي ﷺ آية من الآيات التي كانوا يقترحونها، وأقسموا لأن جاءتهم هذه الآية التي اقترحوها ﴿لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ وليس غرضهم الإيمان، بل معظم قصدهم التحكم على رسول الله ﷺ والتلاعب بآيات الله، فأمره الله سبحانه أن يجيب عليهم بقوله: ﴿إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ هذه الآية التي يقترحونها، وغيرها، وليس عندي من ذلك شيء، فهو سبحانه إن أراد إنزالها أنزلها، وإن أراد أن لا ينزلها لم ينزلها، قوله: ﴿وَمَا يَشْعُرُكُمْ أَنَهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. قرأ أبو عمرو، وابن كثير، بكسر الهمزة من أنها، وهي قراءة مجاهد، ويؤيد هذه القراءة قراءة ابن مسعود ﴿وَمَا يَشْعُرُكُمْ إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قال مجاهد وابن زيد: المخاطب بهذا المشركون أي وما يدريك، ثم حكم عليهم بقوله: ﴿أَنَهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وقال الفراء وغيره: الخطاب للمؤمنين، لأن المؤمنين قالوا للنبي ﷺ: يا رسول الله لو نزلت الآية لعلمهم يؤمنون، فقال الله تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُكُمْ أَنَهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وقرأ أهل المدينة والأعمش، وحمزة والكسائي، وعاصم، وابن عامر «أَنَهَا إِذَا جَاءَتْ» بفتح الهمزة، قال الخليل: أنها بمعنى لعلها، وفي التنزيل: ﴿وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّ يَزْكِي﴾ [عبس: 3] أي: أنه يزكي. وحكى عن العرب أئت السوق أنك تشتري لنا شيئاً: أي لعلك، ومنه قول عدي بن زيد:

أعائلا ما يدريك أن منيتي إلى ساعة في اليوم أوفى ضحى الغد
أي: لعل منيتي، ومنه قول دريد بن الصمة:

أريني جواداً مات هزلاً لأنني أرى ماترين لو بخيلاً مخلصاً
أي: لعلني، وقول أبي النجم:

دينه وهجيراه، كما يشاهد ذلك في أهل البدع الذين إذا دعوا إلى حق وقعوا في كثير من الباطل، وإذا أرشدوا إلى السنة، قابلوها بما لديهم من البدعة، فهؤلاء هم المتلاعبون بالدين المتهاونون بالشرائع، وهم شر من الزنادقة، لأنهم يحتجون بالباطل وينتمون إلى البدع، ويتظاهرون بذلك غير خائفين ولا وجلين، والزنادقة قد أجمعتهم سيوف الإسلام وتحاماهم أهله، وقد ينفق كيدهم ويتم باطلهم وكفرهم نادراً على ضعيف من ضعفاء المسلمين، مع تكتم وتحرز وخيفة ووجل، وقد ذهب جمهور أهل العلم إلى أن هذه الآية محكمة ثابتة غير منسوخة، وهي أصل أصيل في سدِّ الفرائض، وقطع التطرق إلى الشبه. وقرأ أهل مكة «عدواً» بضم العين والدال وتشديد الواو، وهي قراءة الحسن، وأبي رجاء وقتادة. وقرأ من عداهم بفتح العين وضم (1) الدال وتشديد الواو، ومعنى القراءتين واحد أي: ظلماً وعدواناً، وهو منتصب على الحال، أو على المصدر أو على أنه مفعول له ﴿كَذَلِكَ زِينَا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ﴾ أي: مثل ذلك التزيين زينا لكل أمة من أمة الكفار عملهم من الخير والشر ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [النحل: 93، فاطر: 8] ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من المعاصي التي لم ينتهوا عنها، ولا قبلوا من المرسلين ما أرسلهم الله به إليهم، وما تضمنته كتبه المنزلة عليهم.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة في قوله: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ﴾ أي: بينة ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ﴾ أي: فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ﴿وَمَنْ عَمِيَ﴾ أي: من ضل ﴿فَعَلَيْهَا﴾. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن مردويه، والضياء في المختارة، عن ابن عباس أنه كان يقرأ «دارست» وقال: قرأت. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه عنه «دارست» قال: قرأت وتعلمت. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عنه أيضاً قال «دارست» خاصمت جادلت تلوت. وأخرج أبو الشيخ، عن السدي، «وَأَعْرَضَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ» قال: كف عنهم، وهذا منسوخ نسخته القتال: «فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ» [التوبة: 5] وأخرج ابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ يقول الله تبارك وتعالى: لو شئت لأجمعتهم على الهدى أجمعين. وأخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ أي: بحفيظ. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَلَا تَسْبُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قال:

(1) صوابه وسكون الدال وتخفيف الواو اهـ. مصحح القرآن.

قلت لشيبان ابن من لقائه أي: لعلي، وقول جدير: هل أنتم عائجون بنا لأن نرى العرصات أو أثر الخيام أي: لعننا أهـ وقد وردت في كلام العرب كثيراً بمعنى لعل. وحكى الكسائي أنها كذلك في مصحف أبي بن كعب. وقال الكسائي أيضاً والفراء: إن «لا» زائدة، والمعنى: وما يشعركم أنها: أي الآيات، إذا جاءت يؤمنون، فزيدت كما زيدت في قوله تعالى: ﴿وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون﴾ [الأنبياء: 95] وفي قوله: ﴿ما منعك أن لا تسجد﴾ [الأعراف: 12] وضعف الزجاء والنحاس وغيرهما زيادة لا وقالوا: هو غلط وخطأ. ونكر النحاس وغيره، أن في الكلام حذفاً والتقدير: أنها إذا جاءت لا يؤمنون أو يؤمنون، ثم حذف هذا المقدر لعلم السامع، قوله: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم﴾ معطوف على ﴿لا يؤمنون﴾ قيل والمعنى: تقلب أفئدتهم وأبصارهم يوم القيامة على لهب النار، وحزّ الجمر ﴿كما لم يؤمنوا﴾ في الدنيا ﴿ونذرهم﴾ في الدنيا: أي نمهلهم ولا تعاقبهم فعلى هذا بعض الآية في الآخرة. وبعضها في الدنيا؛ وقيل المعنى: ونقلب أفئدتهم وأبصارهم في الدنيا: أي نحول بينهم وبين الإيمان لو جاءت تلك الآية كما حلنا بينهم وبين ما دعوتهم إليه أول مرة عند ظهور المعجزة؛ وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: أنها إذا جاءت لا يؤمنون كما لم يؤمنوا، ونقلب أفئدتهم وأبصارهم ونذرهم في طغيانهم يعمهون: أي يتحيرون، والكاف في ﴿كما لم يؤمنوا﴾ نعت مصدر محذوف، وما مصدرية، و﴿يعمهون﴾ في محل نصب على الحال، قوله: ﴿ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة﴾ أي: لا يؤمنون ولو نزلنا إليهم الملائكة كما اقترحوه بقولهم: ﴿ولو أنزل عليه ملك﴾ [الأنعام: 8] ﴿وكلهم الموتى﴾ الذين يعرفونهم بعد إحيائنا لهم، فقالوا لهم إن هذا النبي صادق مرسل من عند الله، فأمنوا به، لم يؤمنوا ﴿وحشرنا عليهم كل شيء﴾ مما سألوه من الآيات ﴿قبلاً﴾ أي: كلاً وضماً بما جئناهم به من الآيات البينات. هذا على قراءة من قرأ قبلاً بضم القاف وهم الجمهور. وقرأ نافع، وابن عامر، قبلاً بكسرهما: أي مقابلة. وقال محمد بن يزيد المبرد: قبلاً بمعنى ناحية، كما تقول لي قبل فلان مال، فقبلاً نصب على الظرف، وعلى المعنى الأول ورد قوله تعالى: ﴿أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً﴾ [الإسراء: 92] أي: يضمنون كذا قال الفراء. وقال الأخفش: هو بمعنى قبيل قبيل: أي جماعة جماعة. وحكى أبو زيد، لقيت فلاناً قبلاً ومقابلة وقبلاً كله واحد، بمعنى المواجهة، فيكون على هذا الضم كالكسر وتستوي القراءة. والحشر: الجمع ﴿ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله﴾ إيمانهم، فإن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، والاستثناء مفرغ ﴿ولكن أكثرهم جهلون﴾ جهلاً يحول بينهم وبين درك الحق والوصول إلى الصواب. قوله: ﴿وكنك جعلنا لكل نبي﴾ هذا الكلام لتسليية رسول الله ﷺ ونفع ما

حصل معه من الحزن بعدم إيمانهم: أي مثل هذا الجعل ﴿جعلنا لكل نبي عدواً﴾ والمعنى: كما ابتليتك بهؤلاء فقد ابتلينا الأنبياء من قبلك يقوم من الكفار، فجعلنا لكل واحد منهم عدواً من كفار زمنهم، و﴿شياطين الإنس والجن﴾ بدل من عدواً؛ وقيل هو المفعول الثاني لجعلنا. وقرأ الأعمش الجن والإنس بتقديم الجن، والمراد بالشياطين المردة من الفريقين، والإضافة بيانية، أو من إضافة الصفة إلى الموصوف، والأصل الإنس والجن الشياطين، وجملة ﴿يوحى بعضهم إلى بعض﴾ في محل نصب على الحال: أي حال كونه يوسوس بعضهم لبعض؛ وقيل إن الجملة مستأنفة لبيان حال العدو، وسمي وحياً لأنه إنما يكون خفية بينهم، وجعل تمويههم زخرف القول لتزيينهم إياه، والمزخرف: المزين، وزخارف الماء طرائقه، و﴿غروراً﴾ منتصب على المصدر، لأن معنى يوحى بعضهم إلى بعض يغرونهم بذلك غروراً، ويجوز أن يكون في موضع الحال، ويجوز أن يكون مفعولاً له، والغرور: الباطل. قوله: ﴿ولو شاء ربك ما فعلوه﴾ الضمير يرجع إلى ما ذكر سابقاً من الأمور التي جرت من الكفار في زمنه وزمن الأنبياء قبله: أي لو شاء ربك عدم وقوع ما تقدم ذكره ما فعلوه وأوقعوه؛ وقيل: ما فعلوا الأيحاء المللولة عليه بالفعل ﴿فذرهم﴾ أي: اتركهم، وهذا الأمر للتهديد للكفار كقوله: ﴿ذرني ومن خلقت وحيداً﴾ [الم نشر: 11] ﴿وما يفترون﴾ إن كانت ما مصدرية فالتقدير: اتركهم واقتراءهم، وإن كانت موصولة فالتقدير: اتركهم والذي يفترونه. قوله: ﴿ولتصفي إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ اللام في لتصفي لا مكي، فتكون علة كقوله: ﴿يوحى﴾ والتقدير: يوحى بعضهم إلى بعض ليغروهم ولتصفي؛ وقيل: هو متعلق بمحذوف يقدر متأخراً: أي لتصفي ﴿جعلنا لكل نبي عدواً﴾ وقيل: إن اللام للأمر وهو غلط، فإنها لو كانت لام الأمر جزمت الفعل، والإصغاء: الميل، يقال صغوت أصغو صغواً، وصغيت أصغى؛ ويقال صغيت بالكسر؛ ويقال أصغيت الإناء: إذا أملت له ليجتمع ما فيه، وأصله الميل إلى الشيء لغرض من الأغراض؛ ويقال صغت النجوم: إذا مالت للغروب، وأصغت للناقة: إذا أمالت رأسها، ومنه قول ذي الرمة: تصفي إذا شدها بالكور جانحة حتى إذا ما استوى في غرزا وثبت والضمير في إليه لزخرف القول، أو لما ذكر سابقاً من زخرف القول وغيره: أي أوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول ليغروهم ﴿ولتصفي إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ من الكفار، ﴿وليرضوه﴾ لانفسهم بعد الإصغاء إليه ﴿وليقتربوا ما هم مقتربون﴾ من الآثام، والاقتراف: الاكتساب؛ يقال خرج ليقترف لاهله: أي ليكتسب لهم، وقارف فلان هذا الأمر: إذا واقعه، وقرفه: إذا رماه بالريبة، واقترف: كذب، وأصله اقتطاع قطعة من الشيء. وقد أخرج أبو الشيخ، عن ابن عباس، قال: نزلت ﴿واقسموا بالله جهد إيمانهم﴾ في قریش ﴿ما يشعركم﴾

عليه؛ وقيل: إنها نزلت في سبب خاص وسيأتي، ولكن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فكل ما نكر الذابح عليه اسم الله حل إن كان مما أباح الله أكله. وقال عطاء: في هذه الآية الأمر بنكر الله على الشراب والنبيج وكل مطعوم، والشروط في ﴿إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ للتوبيخ والإلهاب؛ أي بلحاكمه من الأوامر والنواهي التي من جملتها الأمر بالأكل مما نكر اسم الله عليه، والاستفهام في ﴿وَمَا لَكُمْ إِلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا نَكَرَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ للإنكار؛ أي ما المانع لكم من أكل ما سميت عليه بعد أن أذن الله لكم بذلك ﴿وَوَيْلٌ لِلَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾. **الحال أن قد فصل لكم ما حرم عليكم**؛ أي: بين لكم بياناً مفصلاً يدفع الشك، ويزيل الشبهة بقوله: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾ [الأنعام: 145] إلى آخر الآية، ثم استثنى فقال: ﴿إِلَّا مَا اضْطُرَرْتُ إِلَيْهِ﴾؛ أي: من جميع ما حرمه عليكم، فإن الضرورة تحلل الحرام، وقد تقدم تحقيقه في البقرة، قرأ نافع، ويعقوب ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ بفتح الفعلين على البناء للفاعل، وهو الله سبحانه. وقرأ أبو عمرو، وابن عامر، وابن كثير، بالضم فيها على البناء للمفعول. وقرأ عطية العوفي «فصل» بالتخفيف؛ أي أبان وأظهر. قوله: ﴿وَإِنْ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاهِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ هم الكفار الذين كانوا يحرمون البحيرة والسائبة ونحوهما، فإنهم بهذه الأفعال المبنية على الجهل، كانوا يضلون الناس، فيتبعونهم، ولا يعلمون أن ذلك جهل وضلالة، لا يرجع إلى شيء من العلم، ثم أمرهم الله أن يتركوا ظاهر الإثم وباطنه، والظاهر: ما كان يظهر كإفعال الجوارح، والباطن: ما كان لا يظهر كإفعال القلب؛ وقيل ما أعلنتم وما أسررتم؛ وقيل: الرزا الظاهر، والزنا المكتوم، وأضاف الظاهر والباطن إلى الإثم لأنه يتسبب عنهما، ثم توعد الكاسبين للإثم بالجزاء بسبب اقترائهم على الله سبحانه.

وقد أخرج أبو داود، والترمذي وحسنه، والبخاري، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مريويه، عن ابن عباس، قال: جاءت اليهود إلى النبي ﷺ إنا ناكل مما قتلنا ولا ناكل مما قتل الله، فأنزل الله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا نَكَرَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة ﴿فَكُلُوا مِمَّا نَكَرَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ فإنه حلال ﴿إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ﴾ يعني القرآن ﴿مُؤْمِنِينَ﴾ قال: مصنفين ﴿وَمَا لَكُمْ إِلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا نَكَرَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ يعني: الذبائح، ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: ما حرم عليكم من الميتة ﴿وَإِنْ كَثِيرًا﴾ يعني: من مشركي العرب ﴿لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاهِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يعني في أمر الذبائح. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة في قوله: ﴿إِلَّا مَا اضْطُرَرْتُ إِلَيْهِ﴾ أي من الميتة، والدم، ولحم الخنزير. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس ﴿وَوَيْلٌ لِلَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ قال: هو الإثم؛ قال: هو نكاح الأمهات والبنات ﴿وَبِاطْنِهِ﴾ قال: هو

المراد بالأرض: مكة أي: أكثر أهل مكة، ثم علل ذلك سبحانه بقوله: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ أي: ما يتبعون إلا الظن الذي لا أصل له، وهو ظنهم أن معبوداتهم تستحق العبادة وأنها أقربهم إلى الله ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي: وما هم إلا يخرصون: أي يحسبون ويقدرّون، وأصل الخرص القطع، ومنه خرص النخل يخرص: إذا حزره لياخذ منه الزكاة، فالخارص يقطع بما لا يجوز القطع به، إذ لا يقين منه، وإذا كان هذا حال أكثر من في الأرض، فالعلم الحقيقي هو عند الله، فاتبع ما أمرك به، ودع عنك طاعة غيره، وهو العالم بمن يضل عن سبيله ومن يهتدي إليه. قال بعض أهل العلم: إن ﴿اعلم﴾ في الموضعين بمعنى يعلم، قال: ومنه قول حاتم الطائي:

فحلفت طي من نوننا حلفاً والله أعلم ما كنا لهم خولا
والوجه في هذا للتأويل: أن أفعال التفضيل لا ينصب الاسم الظاهر، فتكون من منصوبة بالفعل الذي جعل أفعال التفضيل نائبة عنه؛ وقيل: إن أفعال التفضيل على بابها والنصب بفعل مقتر؛ وقيل: إنها منصوبة بأفعال التفضيل أي: إن ربك أعلم، أي الناس يضل عن سبيله؛ وقيل: في محل نصب بنزع الخافض: أي بمن يضل، قاله بعض البصريين؛ وقيل: في محل جر بإضافة أفعال التفضيل إليها.

وقد أخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿مُفَصَّلًا﴾ قال: مبيناً. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة في قوله: ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ قال: صدقاً فيما وعد، وعدلاً فيما حكم. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وأبو نصر السجزي في الإبانة، عن محمد بن كعب القرظي، في قوله: ﴿لَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ قال: لا تبديل لشيء قاله في الدنيا والآخرة لقوله: ﴿مَا يَبْدُلُ الْقَوْلَ لَدِي﴾ [ق: 29]. وأخرج ابن مريويه، وابن النجار، عن أنس، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَوَعَدْتُمْ كَلِمَاتٍ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ قال: لا إله إلا الله. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي اليمان عامر بن عبد الله قال: دخل رسول الله ﷺ المسجد الحرام يوم فتح مكة، ومعه مخصرة، ولكل قوم صنم يعبدونه، فجعل يأتيها صنماً صنماً ويضعه في صدر الصنم بعضاً ثم يعقره، فكلما طعن صنماً أتبعه ضرباً بالقوس حتى يكسره ويطرحه خارجاً من المسجد، والنبي ﷺ يقول: ﴿وَوَعَدْتُمْ كَلِمَاتٍ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

فَكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤٥﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَوَدَّ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرَرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنْ كَثُرَ أَصْلُهُمْ يَتَّبِعُوا عَلَىٰ إِنْ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنْتَوِينَ ﴿١٤٦﴾ وَذَرُوا ظَهْرَ الْأَثَرِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِالْإِيمِ سَيَجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٤٧﴾

لما تقدم ذكر ما يصنعه الكفار في الانعام من تلك السنن الجاهلية، أمر الله المسلمين بأن ياكلوا مما نكر اسم الله

أخرج ابن عدي «أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أرايت الرجل منا يذبح وينسى أن يسمى؟ فقال النبي ﷺ: اسم الله على كل مسلم» فهو حديث ضعيف، قد ضعفه البيهقي وغيره. قوله: «وإنه لفسق» الضمير يرجع إلى «ما» بتقدير مضاف: أي وإن أكل ما لم يذكر لفسق، ويجوز أن يرجع إلى مصدر تاكلوا: أي فإن الأكل لفسق. وقد تقدم تحقيق الفسق.

قد استدل من حمل هذه الآية على ما ذبح لغير الله بقوله: «وإنه لفسق» ووجه الاستدلال أن الترك لا يكون فسقاً، بل الفسق الذبح لغير الله. ويجب عنه بأن إطلاق اسم الفسق على تارك ما فرضه الله عليه غير ممتنع شرعاً. «وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم» أي يوسوسون لهم بالوساوس المخالفة للحق المبينة للصواب قاصدين بذلك أن يجالكم هؤلاء الأولياء بما يوسوسون لهم «وإن اطعتموهم» فيما يأمرونكم به وينهونكم عنه «إنكم لمشركون» مثلهم.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وأبو داود، وابن ماجه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والنحاس، والطبراني وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس، قال: قال المشركون، وفي لفظ: قال اليهود: لا تاكلوا مما قتل الله وتاكلوا مما قتلتم أنتم، فأنزل الله: «ولا تاكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه» وأخرج ابن جرير، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عنه قال لما نزلت: «ولا تاكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه» أرسلت فارس إلى قريش أن خاصموا محمداً، فقالوا له: ما تذبح أنت بيدك بسكين فهو حلال، وما ذبح الله بشمشار من ذهب يعني الميتة فهو حرام، فنزلت: «وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجالبنكم» قال: الشياطين من فارس وأولياؤهم من قريش. وقد روى نحو ما تقدم في حديث ابن عباس الأول من غير طريق. وأخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ، عنه أيضاً في قوله: «وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم» قال: إبليس أوحى إلى مشركي قريش. وأخرج أبو داود، وابن مردويه، والبيهقي في سننه، عنه أيضاً في قوله: «ولا تاكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق» ففسخ، واستثنى من ذلك فقال: «وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم» [المائدة: 5]. وأخرج عبد بن حميد، عن عبد الله بن يزيد الخطمي قال: كلوا ذبائح المسلمين وأهل الكتاب مما ذكر اسم الله عليه. وروى ابن أبي حاتم عن مكحول نحو قول ابن عباس في النسخ.

أَوْ مَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْتَهُ وَجَعَلْنَا لَكَ ثَوْرًا يَمْشِي بِكَ فِي آثَانٍ كَمَنْ مَنَّكَ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَسْكُونُونَ ﴿٥٠﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمًا لِيَسْكَرُوا فِيهَا وَمَا يَسْكُرُونَ إِلَّا بِأَفْسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٥١﴾ وَإِذَا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مِّنَّا قَالُوا نَزِيلٌ أَوْ رُؤْيَا حَتَّى تَأْتِيَهُمْ آيَةُ رَبِّهِمْ أَوْ رُؤْيَا حَتَّى تَأْتِيَهُمْ آيَةُ رَبِّهِمْ أَوْ رُؤْيَا حَتَّى تَأْتِيَهُمْ آيَةُ رَبِّهِمْ أَوْ رُؤْيَا حَتَّى تَأْتِيَهُمْ آيَةُ رَبِّهِمْ

الزنا. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير قال: الظاهر منه «لا تنكحوا ما نكح آبائكم من النساء» [النساء: 22] و «حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم» [النساء: 23] الآية، والباطن: الزنا. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال: علانيته وسره.

وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا زَكَّرَ بِكُمْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَلَئِنَّ لَكُمْ لَآيَاتٍ لِّتُحْذَرُوا ﴿٥٠﴾

نهى الله سبحانه عن أكل ما لم يذكر اسم الله عليه، بعد أن أمر بالاكل مما نكر اسم الله عليه، وفيه دليل على تحريم أكل ما لم يذكر اسم الله عليه.

وقد اختلف أهل العلم في ذلك، فذهب ابن عمر، ونافع، مولا، والشعبي، وابن سيرين وهو رواية، عن مالك وعن أحمد بن حنبل، وبه قال أبو ثور، وداود الظاهري أن ما لم يذكر اسم الله عليه من الذبائح حرام من غير فرق بين العامد والناسي لهذه الآية، ولقوله تعالى في آية الصيد: «فكلوا مما أمسكن عليكم وانكروا اسم الله عليه» [المائدة: 4] ويزيد هذا الاستدلال تأكيداً لقوله سبحانه في هذه الآية: «وإنه لفسق».

وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة، الأمر بالتسمية في الصيد وغيره. وذهب الشافعي وأصحابه، وهو رواية عن مالك، ورواية عن أحمد، أن التسمية مستحبة لا واجبة، وهو مروى عن ابن عباس، وإبي هريرة، وعطاء بن أبي رباح، وحمل الشافعي الآية على من ذبح لغير الله، وهو تخصيص للآية بغير مخصص. وقد روى أبو داود في المرسل أن النبي ﷺ قال: «نبیحة المسلم حلال، نكر اسم الله أو لم يذكر». وليس في هذا المرسل ما يصلح لتخصيص الآية، نعم حديث عائشة أنها قالت للنبي ﷺ: «إن قوماً يأتوننا بلحمان لا ندري أذكر اسم الله عليه أم لا؟ فقال: سماؤنا انتم وكلوا، يفيد أن التسمية عند الأكل تجزئ مع التباس وقوعها عند الذبح. وذهب مالك، وأحمد في المشهور عنهما، وأبو حنيفة وأصحابه، وإسحاق بن راهويه، أن التسمية إن تركت نسياناً لم تضر، وإن تركت عمداً لم يحل أكل الذبيحة. وهو مروى عن علي، وابن عباس، وسعيد بن المسيب، وعطاء وطاوس، والحسن البصري، وإبي مالك، وعبد الرحمن بن أبي ليلى، وجعفر بن محمد، وربيعة بن أبي عبد الرحمن، واستدلوا بما أخرجه البيهقي عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «المسلم إن نسي أن يسمى حين يذبح فليذكر اسم الله وليأكله» وهذا الحديث رفعه خطأ، وإنما هو من قول ابن عباس. وكذا أخرجه من قوله عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر: نعم يمكن الاستدلال لهذا المذهب بمثل قوله تعالى: «ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا» [البقرة: 286] كما سبق تقريره، وبقوله ﷺ: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان» وأما حديث أبي هريرة الذي

سَيَصِيبُ الَّذِينَ اجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ يَمَّا كَانُوا يَسْكُرُونَ ﴿١١١﴾

قوله: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مِثْلًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾. قرأ الجمهور بفتح الواو بعد همزة الاستفهام. وقرأ نافع، وابن أبي نعيم بإسكانها، قال النحاس: يجوز أن يكون محمولاً على المعنى: أي انظروا وتدبروا ﴿أَغْفِرِ اللَّهُ أَسْتَغْفِرِي حَكَمًا. أَوْ مَنْ كَانَ مِثْلًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الانعام: 114] والمراد بالميت هنا الكافر، أحياء الله بالإسلام؛ وقيل معناه: كان ميتاً حين كان نطفة فأحْيَيْنَاهُ بنفخ الروح فيه. والأول أولى، لأن السياق يشعر بذلك؛ لكونه في تنفير المسلمين عن اتباع المشركين، وكثيراً ما تستعار الحياة للهداية وللعلم، ومنه قول القائل:

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله فاجسامهم قبل القبور قبور
وإن امرأ لم يحيي بالعلم ميت فليس له حتى النشور نشور
والنور عبارة عن الهداية والإيمان، وقيل هو القرآن، وقيل الحكمة، وقيل هو النور المذكور في قوله تعالى: ﴿يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ [الحديد: 12] والضمير في به راجع إلى النور ﴿كَمَنْ مِثْلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أي كمن صفته في الظلمات، ومثله مبتدأ والظلمات خبره، والجملة صفة لمن؛ وقيل مثل زائدة، والمعنى: كمن في الظلمات، كما تقول: أنا أكرم من مثلك: أي منك، ومثله: ﴿فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ [المائدة: 95] ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: 11] وقيل المعنى: كمن مثله مثل من هو في الظلمات، و ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ في محل نصب على الحال: أي حال كونه ليس بخارج منها بحال من الأحوال. قوله: ﴿وَكُنْكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مَجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ أي: مثل ذلك الجعل جعلنا في كل قرية، والأكابر جمع أكبر، قيل: هم الرؤساء والعظماء، وخصهم بالذكر؛ لأنهم أقدر على الفساد، والمكر: الحيلة في مخالفة الاستقامة، وأصله الفتل، فالماكر يفتل عن الاستقامة: أي يصرف عنها ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ أي: وبأل مكرهم عائد عليهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ بذلك لفرط جهلهم ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾ من الآيات، ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ يريدون أنهم لا يؤمنون حتى يكونوا أنبياء، وهذا نوع عجيب من جهالاتهم الغربية وعجرفتهم العجيبة، ونظيره: ﴿يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتِيَ صُحُفًا مَنشُورَةً﴾ [المائدة: 52]. والمعنى: إذا جاءت الأكابر آية قالوا هذه المقالة، فأجاب الله عنهم بقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِهِ﴾ أي: إن الله أعلم بمن يستحق أن يجعله رسولا ويكون موضعاً لها وأميناً عليها، وقد اختار أن يجعل الرسالة في محمد صفيه وحبيبه، فدعوا طلب ما ليس من شأنكم، ثم توعدهم بقوله: ﴿سَيَصِيبُ الَّذِينَ اجْرَمُوا صَغَارٌ﴾ أي: ذل وهوان، وأصله من الصغر كأنَّ الذَّلَّ يصغر إلى المرء نفسه؛ وقيل الصغار هو الرضا بالذل، روى ذلك عن ابن السكيت.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مِثْلًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ قال: كان كافراً

ضالاً فهديناه ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا﴾ هو القرآن ﴿كَمَنْ مِثْلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾: الكفر والضلالة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن عكرمة في الآية قال: نزلت في عمار بن ياسر؛ وأخرج أبو الشيخ، وابن مروي، عن ابن عباس في قوله: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مِثْلًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ يعني: عمر بن الخطاب، ﴿كَمَنْ مِثْلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ يعني: أبا جهل بن هشام. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن زيد بن أسلم، في الآية قال: نزلت في عمر بن الخطاب، وأبي جهل بن هشام، كانا ميتين في ضلالتهما، فلحيا الله عمر بالإسلام وأعزه، وأقر أبا جهل في ضلالته وموته، وذلك أن رسول الله ﷺ دعا فقال: «اللهم أعز الإسلام بأبي جهل بن هشام، أو بعمر بن الخطاب». وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن عكرمة في قوله: ﴿وَكُنْكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مَجْرِمِيهَا﴾ قال: نزلت في المستهزئين. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في الآية قال: سلطنا شرارها فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم بالعذاب. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن مجاهد قال ﴿أَكْبَرًا مَجْرِمِيهَا﴾ عظماءها. وأخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ، عن ابن جريج في قوله: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾ الآية قال: قالوا لمحمد حين دعاهم إلى ما دعاهم إليه من الحق. لو كان هذا حقاً لكان فينا، من هو أحق أن يؤتي به محمد: ﴿وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ [الزخرف: 31]. وأخرج ابن المنذر، عن ابن عباس، في قوله: ﴿سَيَصِيبُ الَّذِينَ اجْرَمُوا﴾ قال: أشركوا ﴿صَغَارٌ﴾ قال: هوان.

مَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَمْشِمْ سَبِيلَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ سَبِيلَهُ ضَلِيلًا حَتَّى كَأَنَّكَ تَمُشُّ فِي الظُّلُمَاتِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ أَلْتَمَسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١١٢﴾ وَكَذَلِكَ صَرَفَ رَبُّكَ مُتَقَبِّلًا فَذَكَّرْنَا الْآيَةَ لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ ﴿١١٣﴾ هَلْ ذَكَرُ الْكَافِرِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُمْ وَلِيُّهُمْ يَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٤﴾ وَيَوْمَ يُنْفَخُ الصُّرُورُ جَمِيعًا يَنْتَشِرُ كَيْفَ قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَنْتَعْ بَعْضًا يَتَعَصَّى وَبَلَّغْنَا كَلِمَاتِكَ لَكَلَّ لَنَا قَالَ الْتَأْتِ تَوْنُكُمْ خَلِيلِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾

قوله: ﴿فَمَنْ يَرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَمْشِمْ سَبِيلَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ الشرح: الشق وأصله التوسعة، وشرحت الأمر بينته وأوضحته، والمعنى: من يرد الله هدايته للحق يوسع صدره حتى يقبله بصدر منشرح، ﴿وَمَنْ يَرِدْ﴾ إضلاله ﴿يَجْعَلُ صدره ضيقاً حرجاً﴾ قرأ ابن كثير ﴿ضيقاً﴾ بالتخفيف مثل هين ولين. وقرأ الباقر بالتشديد وهما لغتان. وقرأ نافع ﴿حرجاً﴾ بالكسر، ومعناه الضيق، كرر المعنى تأكيداً، وحسن ذلك اختلاف اللفظ. وقرأ الباقر بالفتح، جمع حرجة، وهي شدة الضيق، والحرجة الغيظة، والجمع حرج وحرجات،

هو استمتاعهم بالجن؛ وقيل: استمتاع الإنس بالجن أنه كان إذا مرَّ الرجل بوادٍ في سفره وخاف على نفسه قال: أعوذ برَبِّ هذا الوادي من جميع ما أخطر، يعني: ربه من الجن، ومنه قوله تعالى: ﴿وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادهم رهقاً﴾ [الجن: 6] وقيل: استمتاع الجن بالإنس أنهم كانوا يصدقونهم فيما يقولون من الأخبار الغيبية الباطلة، واستمتاع الإنس بالجن: أنهم كانوا يتلذذون بما يلقونه إليهم من الأكانيب، وينالون بذلك شيئاً من حظوظ الدنيا كالكهان **﴿وبلغنا لجننا الذي أجلت لنا﴾** أي: يوم القيامة اعترافاً منهم بالوصول إلى ما وعدهم الله به مما كانوا يكتنون به. ولما قالوا هذه المقالة أجاب الله عليهم ف**﴿قال النار مثواكم﴾** أي: موضع مقامكم. والمثوى المقام، والجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر. قوله: **﴿خالدين فيها إلا ما شاء الله﴾** المعنى: الذي تقتضيه لغة العرب في هذا التركيب أنهم يخلدون في النار في كل الأوقات، إلا في الوقت الذي يشاء الله عدم بقائهم فيها. وقال الزجاج: إن الاستثناء يرجع إلى يوم القيامة، أي خالدين في النار إلا ما شاء الله من مقدار حشرهم من قبورهم ومقدار منتههم في الحساب، وهو تعسف، لأن الاستثناء هو من الخلود الدائم ولا يصح على من لم يدخل النار، وقيل الاستثناء راجع إلى النار: أي إلا ما شاء الله من تعذيبهم بغيرها في بعض الأوقات كالزهرير؛ وقيل: الاستثناء لأهل الإيمان، وما بمعنى من: أي إلا ما شاء الله إيمانه فإنه لا يدخل النار؛ وقيل المعنى: إلا ما شاء الله من كونهم في الدنيا بغير عذاب. وكل هذه التأويلات متكلفة، والذي ألجأ إليها ما ورد في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية من خلود الكفار في النار أبداً، ولكن لا تعارض بين عام وخاص لا سيما بعد وروده في القرآن مكرراً كما سيأتي في سورة هود **﴿خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك﴾** إن ربك فعلاً لما يريد **﴿هود: 107﴾** ولعله يأتي هناك إن شاء الله زيادة تحقيق.

وقد أخرج ابن المبارك في الزهد، وعبد الرزاق والفريابي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في الأسماء والصفات، عن أبي جعفر المدائني رجل من بني هاشم، وليس هو محمد بن علي قال: «سئل النبي ﷺ عن هذه الآية **﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام﴾** قالوا: كيف يشرح صدره يا رسول الله؟ قال: نور يقذف فيه فينشرح صدره له وينفسح له، قالوا: فهل لذلك من أمانة يعرف بها؟ قال: الإنابة إلى دار الخلود، والتجاني عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل لقاء الموت». وأخرج عبد بن حميد، عن فضيل نحوه، وأخرج ابن أبي الدنيا، عن الحسن نحوه أيضاً. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن أبي الدنيا، وابن جرير، وأبو الشيخ، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب، عن طريق عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ حين نزلت هذه الآية فذكر نحوه. وأخرجه ابن مردويه عنه

ومنه فلان يتخرج: أي يضيق على نفسه. وقال الجوهري: مكان حرج وحرج: أي ضيق كثير الشجر لا تصل إليه الراعية، والحرج الإثم. وقال الزجاج: الحرج أضيق الضيق. وقال النحاس: حرج اسم الفاعل، وحرج مصدر وصف به كما يقال: رجل عدل. وقوله: **﴿كانما يصعد في السماء﴾** قرأ ابن كثير بالتخفيف من الصعود، شبه الكافر في ثقل الإيمان عليه، بمن يتكلف ما لا يطيقه كصعود السماء. وقرأ النخعي «يصاعد» وأصله يتصاعد. وقرأ الباقون «يصعد» بالتشديد وأصله يتصعد، ومعناه: يتكلف ما لا يطيق مرة بعد مرة، كما يتكلف من يريد الصعود إلى السماء. وقيل: المعنى على جميع القراءات: كاد قلبه يصعد إلى السماء نبوراً على الإسلام، وما في «كانما» هي الهيئة لدخول كان على الجمل الفعلية. قوله: **﴿ذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون﴾** أي: مثل ذلك الجعل الذي هو جعل الصدر ضيقاً حرجاً يجعل الله الرجس. والرجس في اللغة: النتن، وقيل هو العذاب، وقيل: هو الشيطان يسلمه الله عليهم، وقيل: هو ما لا خير فيه؛ والمعنى الأول هو المشهور في لغة العرب، وهو مستعار لما يحل بهم من العقوبة وهو يصنق على جميع المعاني المنكورة. والإشارة بقوله: **﴿وهذا صراط ربك﴾** إلى ما عليه النبي ﷺ، ومن معه من المؤمنين أي: هذا طريق بين ربك لا أعوجاج فيه؛ وقيل الإشارة إلى ما تقدم مما يدل على التوفيق والخذلان أي: هذا هو عادة الله في عباده يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وانتصاب **﴿مستقيماً﴾** على الحال كقوله تعالى: **﴿وهو الحق مصفياً﴾** [البقرة: 91]، **﴿وهذا بعلي شيخاً﴾** [هود: 72] **﴿وقد فصلنا الآيات﴾** أي: بينها وأوضحناها **﴿لنقوم يذكرون﴾** ما فيها، ويفهمون معانيها **﴿لهم دار السلام عند ربهم﴾** أي: لهؤلاء المتذكرين الجنة لأنها دار السلامة من كل مكروه، أو دار الرب السلام منخرة لهم عند ربهم، ويوصلهم إليها **﴿وهو وليهم﴾** أي: ناصرهم، والباء في **﴿بما كانوا يعملون﴾** للسببية أي: بسبب أعمالهم. قوله: **﴿ويوم نحشرهم جميعاً﴾** الظرف منصوب بمضمر يقدر متقدماً أي: وأذكر يوم نحشرهم أو **﴿ويوم نحشرهم﴾** نقول: **﴿يا معشر الجن﴾** والمراد حشر جميع الخلق في القيامة، والمعشر الجماعة: أي يوم الحشر نقول، يا جماعة الجن **﴿قد استكثرتم من الإنس﴾** أي: من الاستمتاع بهم، كقوله: **﴿ربنا استمتع بعضنا ببعض﴾** [الأنعام: 128] وقيل: استكثرتم من إغوائهم وإضلالهم حتى صاروا في حكم الاتباع لكم، فحشرناهم معكم، ومثله قوله: استكثر الأمير من الجنود، والمراد التقرير والتوبيخ، وعلى الأول، فالمراد بالاستمتاع التلذذ من الجن بطاعة الإنس لهم ودخولهم فيما يريدون منهم **﴿وقال أولياؤهم من الإنس ربنا لستممتع بعضنا ببعض﴾** أما استمتاع الجن بالإنس فهو ما تقدم من تلذذهم باتباعهم لهم، وأما استمتاع الإنس بالجن فحيث قبلوا منهم تحسين المعاصي، فوقعوا فيها وتلذذوا بها. فلذلك

مرفوعاً من طريق أخرى. وأخرجه سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الاسماء والصفات، وابن النجار في تاريخه عن عبد الله بن المستورد، وكان من ولد جعفر بن أبي طالب قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية فذكر نحوه. وهذه الطرق يقوي بعضها بعضاً، والمتصل يقوي المرسل، فالمصير إلى هذا التفسير النبوي متعين. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في الآية قال كما لا يستطيع ابن آدم أن يبلغ السماء، كذلك لا يقدر على أن يدخل الإيمان والتوحيد قلبه حتى يدخله الله في قلبه. وأخرج البيهقي في الاسماء والصفات عنه في الآية يقول: من أراد أن يضلّه يضيق عليه حتى يجعل الإسلام عليه ضيقاً، والإسلام واسع وذلك حين يقول: ﴿ما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ [الحج: 78] يقول: ما جعل عليكم في الإسلام من ضيق. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله ﴿دار السلام﴾ قال: الجنة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن جابر بن زيد قال: السلام هو الله. وأخرج أبو الشيخ، عن السدي قال: الله هو السلام، وداره الجنة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله: ﴿قد استكثرتم من الإنس﴾ يقول: من ضلالتكم إياهم، يعني: أضللتهم منهم كثيراً، وفي قوله: ﴿خالدين فيها إلا ما شاء الله﴾ قال: إن هذه الآية لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه لا ينزلهم جنة ولا ناراً.

وَكَذَلِكَ نُولِي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٦٦﴾ يَمَسَّرُ لَوْلَى وَأَلْيَسَ أَلَى يَأْتِيَكُمْ رَسُولٌ مِنْكُمْ يُمْسَوْنَ عَلَيْكُمْ مَا يَنْبَغِي وَيُذِرُونَكُمْ لِقَاءَ رِيسِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَكَلَّهْمُ الَّذِينَ كَذَبُوا وَعَدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنْتُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿١٦٧﴾ ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٦٨﴾ وَلَكِنْ دَرَجَتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَسْعُونَ ﴿١٦٩﴾

قوله: ﴿وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً﴾ أي: مثل ما جعلنا بين الجن والإنس ما سلف ﴿وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً﴾ والمعنى: نجعل بعضهم يتولى البعض، فيكونون أولياء لبعضهم بعضاً، ثم يتبرأ بعضهم من البعض، فمعنى نولي على هذا: نجعله ولياً له. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: معناه نسلط ظلمة الجن على ظلمة الإنس. وروى عنه أيضاً أنه فسر هذه الآية بأن بالمعنى: نسلط بعض الظلمة على بعض فيهلكه ويذله، فيكون في الآية على هذا تهديد للظلمة بأن من لم يمتنع من ظلمه منهم سلط الله عليه ظالماً آخر. وقال فضيل بن عياض: إذا رايت ظالماً ينتقم من ظالم، فقف وانظر متعجباً؛ وقيل معنى نولي: نكل بعضهم إلى بعض فيما يختارونه من الكفر، والباء في ﴿وما كانوا يكسبون﴾ للسببية: أي بسبب كسبهم للذنوب ولينا بعضهم بعضاً. قوله: ﴿بما عسرهم لنقل لهم﴾ أي: يوم نحشرهم لنقل لهم ﴿الم ياتكم﴾ وهو شروع في حكاية ما سيكون في الحشر، وظاهره أن

الله يبعث في الدنيا إلى الجن رسلاً منهم، كما يبعث إلى الإنس رسلاً منهم؛ وقيل معنى منكم: أي ممن هو مجانس لكم في الخلق والتكليف، والقصد بالمخاطبة، فإن الجن والإنس متحدون في ذلك، وإن كان الرسل من الإنس خاصة فهم من جنس الجن من تلك الحيثية؛ وقيل: إنه من باب تغليب الإنس على الجن كما يغلب الذكر على الأنثى؛ وقيل المراد بالرسل إلى الجن هاهنا هم النذر منهم، كما في قوله: ﴿ولوا إلى قومهم منذرين﴾ [الحقاف: 29]. قوله: ﴿يقصون عليكم آياتي﴾ صفة أخرى لرسل، وقد تقدم بيان معنى القص. قوله: ﴿قلوا شهدنا على أنفسنا﴾ هذا إقرار منهم بأن حجة الله لازمة لهم بإرسال رسله إليهم، والجملة جواب سؤال مقتر فهي مستأنفة، وجملة ﴿ووغرتهم الحياة الدنيا﴾ في محل نصب على الحال، أو هي جملة معترضة ﴿وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين﴾ هذه شهادة أخرى منهم على أنفسهم بأنهم كانوا كافرين في الدنيا بالرسل المرسلين إليهم والآيات التي جاؤوا بها، وقد تقدم ما يفيد أن مثل هذه الآية المصروفة بإقرارهم بالكفر على أنفسهم، ومثل قولهم: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ [الأنعام: 23] محمول على أنهم يقرّون في بعض مواطن يوم القيامة، وينكرون في بعض آخر لطول ذلك اليوم، واضطراب القلوب فيه وطيشان العقول، وانغلاق الأفهام وتبدل الأذهان، والإشارة بقوله: ﴿ذلك﴾ إلى شهادتهم على أنفسهم أو إلى إرسال الرسل إليهم. وأن في ﴿أن لم يكن ربك مهلك القرى﴾ هي المخففة من الثقيلة، واسمها ضمير شأن محذوف. والمعنى: ذلك أن الشأن لم يكن ربك مهلك القرى، أو هي المصدرية، والباء في ﴿يظلم﴾ سببية: أي لم أكن أهلك القرى بسبب ظلم من يظلم منهم، والحال أن أهلها غافلون، لم يرسل الله إليهم رسولاً. والمعنى: أن الله أرسل الرسل إلى عباده؛ لأنه لا يهلك من عصاه بالكفر من القرى، والحال أنهم غافلون عن الإعذار والإنذار بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، بل إنما يهلكهم بعد إرسال الرسل إليهم، وارتفاع الغفلة عنهم بإنذار الأنبياء لهم: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾ [الإسراء: 15]؛ وقيل المعنى: ما كان الله مهلك أهل القرى بظلم منه، فهو سبحانه يتعالى عن الظلم، بل إنما يهلكهم بعد أن يستحقوا ذلك وترتفع الغفلة عنهم بإرسال الأنبياء؛ وقيل المعنى: أن الله لا يهلك أهل القرى بسبب ظلم من يظلم منهم مع كون الآخرين غافلين عن ذلك، فهو مثل قوله: ﴿ولا تزد وزارة وذرا أخرى﴾ [الأنعام: 164] ﴿ولكل درجات مما عملوا﴾ أي: لكل من الجن والإنس درجات متفاوتة مما عملوا، فنجازيهم بأعمالهم. كما قال في آية أخرى: ﴿ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون﴾ [الحقاف: 19]. وفيه دليل على أن المطيع من الجن في الجنة، والعاصي في النار ﴿وما ربك بغافل عما يعملون﴾ من أعمال الخير والشر، والغفلة ذهاب الشيء عنك لاشتغالك بغيره. قرأ ابن عامر ﴿تعملون﴾ بالفوقية،

فعلوه، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وإذا كان ذلك بمشيئة الله ﴿فذرهم وما يفترون﴾ فدعهم واقتراءهم فنلك لا يضرك.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن أبيان بن عثمان قال: النظرية الأصل، والنظرية النسل. وأخرجنا أيضاً عن ابن عباس **﴿وما أنتم بمعجزين﴾** قال: بسابقين. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه في قوله: **﴿على مكانتكم﴾** قال: على ناحيتكم. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، عنه أيضاً في قوله: **﴿وجعلوا لله﴾** الآية. قال: جعلوا لله من ثمارهم ومائهم نصيباً وللشيطان والأوثان نصيباً، فإن سقط من ثمره ما جعلوه لله في نصيب الشيطان تركوه، وإن سقط مما جعلوه للشياطين في نصيب الله، رثوه إلى نصيب الشيطان، وإن انفجر من سقي ما جعلوه لله في نصيب الشيطان تركوه، وإن انفجر من سقي ما جعلوه للشيطان في نصيب الله نزحوه، فهذا ما جعلوا لله من الحرث وسقي الماء، وأما ما جعلوه للشيطان من الانعام فهو قول الله: **﴿ما جعل الله من بحيرة﴾** [المائدة: 103] الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه نحوه من طريق أخرى. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد قال: جعلوا لله مما نرا من الحرث جزءاً ولشركائهم جزءاً، فما ذهب به الريح مما سموا لله إلى جزء أوثانهم تركوه وقالوا الله عن هذا غني، وما ذهب به الريح من جزء أوثانهم إلى جزء الله أخذوه. والآنعام التي سموا لله: البحيرة والسائبة، وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد في قوله: **﴿وكنك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم﴾** قال: شياطينهم يأمرونهم أن يثدوا أولادهم خوف العيلة.

وَقَالُوا هَذِهِ أَمْثَلُ الَّذِي كَانَ قَبْلَ هَٰذَا مِنَّا وَلَٰكِن لَّا نُفِيهِمْ ۖ فَذُقُوا حَرْثَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ وَلَا يَخَافُ أَصْحَابُ النَّارِ ۚ

هذا بيان نوع آخر من جهالاتهم وضلالاتهم. والحجر بكسر أوّله وسكون ثانيه في قراءة الجمهور. وقرأ أبان بن عثمان «حجر» بضم الحاء والجيم، وقرأ الحسن وقتادة بفتح الحاء وإسكان الجيم، وقرأ ابن عباس وابن الزبير «حرج» بتقديم الراء على الجيم، وكذا هو في مصحف أبي، وهو من الحرج، يقال فلان يتحرّج: أي يضيق على نفسه الدخول فيما يشتهه عليه. والحجر على اختلاف القراءات فيه هو مصدر بمعنى اسم المفعول: أي محجور، وأصله المنع، فمعنى الآية: هذه أنعام وحرث ممنوعة، يعنون أنها

السبي والحاجة؛ وقيل كان الرجل يحلف بالله لنن ولد له كذا من الذكور لينحرّ أحدهم كما فعله عبد المطلب. قرأ الجمهور «زين» بالبناء للفاعل ونصب «قتل» على أنه مفعول زين، وجزّ أولاد بإضافة قتل إليه، ورفع «شركاؤهم» على أنه فاعل زين، وقرأ الحسن بضم الزاي ورفع قتل، وخفض أولاد، ورفع شركاؤهم على أن قتل هو نائب الفاعل، ورفع شركاؤهم بتقدير يجعل يرجعه: أي زينه شركاؤهم، ومثله قول الشاعر:

ليبك يزيد ضارح لخصومة ومختبط ما تطيح الطوارخ
 أي يبكيه ضارح. وقرأ ابن عامر، وأهل الشام بضم
 الزاي، ورفع قتل، ونصب أولاد، وخفض شركائهم على أن
 قتل مضاف إلى شركائهم، ومعموله أولادهم؛ ففيه الفصل
 بين المصدر وما هو مضاف إليه بالمفعول، ومثله في
 الفصل بين المصدر وما أضيف إليه، قول الشاعر:

تمز على ما تاستمر وقد شفت علائل عبد القيس منها صدورها
بجر صدورها، والتقدير: شفت عبد القيس علائل
صدورها. قال النحاس: إن هذه القراءة لا تجوز في كلام ولا
في شعر، وإنما أجاز النحويون التفريق بين المضاف
والمضاف إليه بالظرف في الشعر لاتساعهم في الظروف،
وهو أي الفصل بالمفعول به في الشعر بعيد، فإجازته في
القرآن أبعد. وقال أبو غانم أحمد بن حمدان النحوي: إن
قراءة ابن عامر هذه لا تجوز في العربية وهي زلة عالم، وإذا
زل العالم لم يجز اتباعه، ورد قوله إلى الإجماع، وإنما
أجازوا في الضرورة للشاعر أن يفرق بين المضاف
والمضاف إليه بالظرف، كقول الشاعر:

كما خط الكتاب بكف يوماً
وقول الآخر:

للهِ دَرْ الْيَوْمِ مِنْ لَامِهَا

وقال قوم ممن انتصر لهذه القراءة: إنها إذا ثبت بالتواتر عن النبي ﷺ، فهي فصيحة لا قبيحة. قالوا: وقد ورد ذلك في كلام العرب، وفي مصحف عثمان رضي الله عنه «شركتهم» بالياء.

واقول: دعوى التواتر باطلة بإجماع القراء المعتمدين، كما بينا ذلك في رسالة مستقلة، فمن قرأ بما يخالف الوجه النحوي فقراءته ردٌ عليه، ولا يصح الاستدلال لصحة هذه القراءة بما ورد من الفصل في النظم كما قدمنا، وكقول الشاعر:

فزوجبتها بمزوجة زوج القلوص أبي مزاده
 فإن ضرورة الشعر لا يقاس عليها، وفي الآية قراءة
 رابعة وهي جرّ الأولاد والشركاء، ووجه ذلك أن الشركاء بدل
 من الأولاد؛ لكونهم شركاءهم في النسب والميراث. قوله:
﴿ليروهم﴾ اللام لام كي: أي لكي يروهم، من الإزداء
 وهو الإهلاك **﴿وليلبسوا عليهم بينهم﴾** معطوف على ما
 قبله: أي فعلوا ذلك التزيين لإهلاكهم ولخاطب دينهم عليهم
﴿ولو شاء الله ما فعلوه﴾ أي: لو شاء الله عدم فعلهم ما

شبية، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: **﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرِثَ حَجْرٌ﴾** قال: ما جعلوا لله ولشركائهم. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، عن قتادة **﴿وَحَرِثَ حَجْرٌ﴾** قال: حرام. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي في الآية قال: يقولون حرام أن يطعم الابن شيئاً **﴿وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾** قال: البحيرة والسائبة والحامي **﴿وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾** إذا نحرها. وأخرج ابن أبي شبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن أبي وائل في قوله: **﴿وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾** قال: لم تكن يحج عليها وهي البحيرة. وأخرج ابن أبي شبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس **﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ﴾** الآية قال: اللبن. وأخرج هؤلاء إلا ابن جرير عن مجاهد في الآية قال: السائبة والبحيرة محرّم على إزواجنا قال: النساء **﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾** قال: قولهم الكذب في ذلك. وأخرج أبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس في الآية قال: كانت الشاة إذا ولدت ذكرًا نبحوه، فكان للرجال دون النساء وإن كانت أنثى تركوها فلم تنبح، وإن كانت ميتة كانوا فيها شركاء. وأخرج عبد بن حميد، والبخاري، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس قال: إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرا ما فوق الثلاثين ومائة من سورة الأنعام **﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ﴾** إلى قوله: **﴿وَمَا كَانُوا مَهْتَبِينَ﴾** وأخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ، عن عكرمة في الآية قال: نزلت فيمن كان يثد البنات من مضر وربيعه. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة في الآية قال: هذا صنع أهل الجاهلية كان أحدهم يقتل ابنته مخافة السبي والفاقة ويفنئ كلبه **﴿وَحَرَمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾** قال: جعلوه بحيرة وسائبة ووصيلة وحامياً تحكماً من الشيطان في أموالهم.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْثَرُ الْأَلْوَانِ وَالْأَنْهَارَ مُتَجَسِّمَاتٍ وَغَيْرَ مُمْتَكِرَاتٍ كَلَّا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآمَنَ وَهُوَ جَاهِلٌ بِالْثَمَرِ إِذْ تَضَرَّعُوا إِلَيْهِ وَهُوَ يَسْتَجِيبُ لَكُمْ فِي الْأَنْهَارِ وَأَنْتُمْ كَالْعُصْفَرِ﴾

هذا فيه تنكير لهم ببديع قدرة الله وعظيم صنعه **﴿أَنْشَأَ﴾** أي: خلق، والجنت: البساتين **﴿مَعْرُوشَاتٍ﴾** مرفوعات على الأعمدة **﴿وَوُغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾** غير مرفوعات عليها؛ وقيل المعروشات: ما انبسط على وجه الأرض مما يعرش مثل الكرم والزرع والبطيخ، وغير المعروشات: ما قام على ساق مثل النخل وسائر الأشجار؛ وقيل المعروشات: ما أنبتة الناس وعرشوه، وغير المعروشات: ما نبت في البراري والجبال. قوله: **﴿وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ﴾** معطوف على جنات، وخصهما بالذكر مع دخولهما في الجنات لما فيها من

لأصنامهم لا يطعمها إلا من يشاؤون بزعمهم، وهم خدام الأصنام. والقسم الثاني قولهم: **﴿وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾** وهي البحيرة والسائبة والحام؛ وقيل: إن هذا القسم الثاني مما جعلوه لأفئتهم أيضاً. والقسم الثالث: **﴿أَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾** وهي: ما نبحوا لأفئتهم فإنهم يذبحونها باسم أصنامهم لا باسم الله. وقيل: إن المراد لا يحجون عليها افتراء على الله: أي للافتراء عليه **﴿سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾** أي: بآفئتهم أو بالذي يفترونه، ويجوز أن يكون افتراء منتصباً على أنه مصدر: أي افتروا افتراء أو حال: أي مفترين، وانتصابه على العلة أظهر، ثم بين الله سبحانه نوعاً آخر من جهالاتهم، فقال **﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ﴾** يعنون البحائر والسوائب من الأجنة **﴿خَالِصَةً لِّذُكُورِنَا﴾** أي: حلال لهم **﴿وَمَحْرَمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا﴾** أي: على جنس الأزواج، ومن النساء فيدخل في ذلك البنات والأخوات ونحوهن؛ وقيل: هو اللبن جعلوه حلالاً للذكور، ومحرمًا على الإناث، والهاء في خالصة للمبالغة في الخلوص كعلامة ونسابة، قاله الكسائي والأخفش. وقال الفراء: ثانيها لتأنيث الأنعام. ورد بأن ما في بطون الأنعام غير الأنعام، وتعقب هذا الرد بأن ما في بطون الأنعام أنعام، وهي الأجنة، وما عبارة عنها، فيكون تأنيث خالصة باعتبار معنى ما، وتنكير محرم باعتبار لفظها. وقرأ الأعمش «خالص» قال الكسائي: معنى خالص وخالصة واحد، إلا أن الهاء للمبالغة كما تقدم عنه. وقرأ قتادة «خالصة» بالنصب على الحال من الضمير في متعلق الظرف الذي هو صلة لما، وخبر المبتدأ محذوف كقولك: الذي في الدار قائماً زيد، هذا قول البصريين. وقال الفراء: إنه انتصب على القطع. وقرأ ابن عباس «خالصة» بإضافة خالص إلى الضمير على أنه بدل من ما. وقرأ سعيد بن جبير «خالصاً» **﴿وَأَنْ يَكُنْ مَيْتَةً﴾**. قرئ بالتحية والفقوية: أي وإن يكن الذي في بطون الأنعام **﴿مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ﴾** أي: في الذي في البطون **﴿شُرَكَاءُ﴾** ياكل منه الذكور والإناث **﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾** أي: بوصفهم على أنه منتصب بنزع الخافض، والمعنى: سيجزيهم بوصفهم الكذب على الله؛ وقيل المعنى: سيجزيهم جزاء وصفهم. ثم بين الله سبحانه نوعاً آخر من جهالاتهم فقال: **﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا﴾** أي: بناتهم بالواد الذي كانوا يفعلونه سفهًا: أي لأجل السفه: وهو الطيش والخفة لا لجة عقلية ولا شرعية، كائنًا ذلك منهم **﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾** يهتدون به. قوله: **﴿وَحَرَمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾** من الأنعام التي سموها بحائر وسوائب **﴿اِفْتَرَاءً عَلَى اللَّهِ﴾** أي: للافتراء عليه أو افتروا افتراء عليه **﴿قَدْ ضَلُّوا﴾** عن طريق الصواب بهذه الأفعال **﴿وَمَا كَانُوا مَهْتَبِينَ﴾** إلى الحق، ولا هم من أهل الاستعداد لذلك.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: **﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرِثَ حَجْرٌ﴾** قال: الحجر ما حرّموا من الوصيلة، وتحريم ما حرّموا. وأخرج ابن أبي

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: **﴿وهو الذي أنشأ جنات معروشات﴾** قال: المعروشات ما عرش الناس **﴿وغير معروشات﴾** ما خرج في الجبال والبرية من الثمار. وأخرج عبد بن حميد، عن قتادة قال: معروشات بالعبدان والقصب وغير معروشات قال: الضاحي. وأخرج أبو الشيخ، عن ابن عباس **﴿معروشات﴾** قال: الكرم خاصة. وأخرج ابن المنذر، والنحاس، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في قوله: **﴿وأتوا حقه يوم حصاده﴾** قال: ما سقط من السنبل. وأخرج أبو عبيد، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، والنحاس، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في سننه، عن ابن عمر في قوله **﴿وأتوا حقه يوم حصاده﴾** قال: كانوا يعطون من اعتز بهم شيئاً سوى الصدقة. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي عن مجاهد في الآية قال: إذا حصلت فحضرك المساكين فاطرح لهم من السنبل. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن ميمون بن مهران ويزيد الأصم قال: كان أهل المدينة إذا صرموا النخل يجيئون بالعنق فيضونه في المسجد فيجيء السائل، فيضربه بالعصا فيسقط منه، فهو قوله: **﴿وأتوا حقه يوم حصاده﴾**. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن حماد بن أبي سليمان، في الآية قال: كانوا يطعمون منه رطباً. وأخرج أحمد، وأبو داود في سننه، من حديث جابر بن عبد الله: أن النبي ﷺ أمر من كل حادي عشرة أوسق من التمر بقلع في المسجد للمساكين. وإسناده جيد. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والنحاس، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس، قال: **﴿وأتوا حقه يوم حصاده﴾** نسخها العشر، ونصف العشر. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وأبو داود في ناسخه، وابن المنذر عن السدي نحوه. وأخرج النحاس، وأبو الشيخ، والبيهقي، عن سعيد بن جبير نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عكرمة نحوه. وأخرج أبو عبيد، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، عن الضحاك نحوه. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، عن الشعبي قال: إن في المال حقاً سوى الزكاة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن أبي العالية قال: ما كانوا يعطون شيئاً سوى الزكاة، ثم إنهم تباذروا وأسرفوا، فأنزل الله **﴿ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين﴾**. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن جرير قال: نزلت في ثابت بن قيس بن شماس جد نخل فقال: لا يأتيني اليوم أحد إلا أطعمته، فأطعم حتى أمسى وليس له ثمرة، فأنزل الله **﴿ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين﴾**. وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد قال: لو أنفقت مثل أبي قبيس ذهباً في طاعة الله لم يكن إسرافاً، ولو أنفقت صاعاً في معصية الله كان إسرافاً، وللسلف في هذا

الفضيلة **﴿مختلفاً أكله﴾** أي: حال كونه مختلفاً أكله في الطعم والجودة والرداءة. قال الزجاج: وهذه مسألة مشكلة في النحو، يعني انتصاب مختلفاً على الحال؛ لأنه يقال قد أنشأها ولم يختلف أكلها، فالجواب أن الله سبحانه أنشأها مقترناً فيها الاختلاف، وقد بين هذا سيبويه بقوله: مررت برجل معه صقر صائداً به غداً: أي مقترناً للصيد به غداً، كما تقول: لتدخلن الدار أكلين شاربين: أي مقترنين ذلك، وهذه هي الحال المقطرة المشهورة عند النحاة المنونة في كتب النحو. وقال **﴿مختلفاً أكله﴾** ولم يقل أكلهما اكتفاء بإعادة الذكر على أحدهما كقوله: **﴿وإذا راوا تجارة أو لهواً أنفضوا إليها﴾** [الجمعة: 11] أو الضمير بمنزلة اسم الإشارة: أي أكل ذلك. قوله: **﴿والزيتون والرمان﴾** معطوف على جنات: أي وأنشأ الزيتون والرمان حال كونه متشابهاً وغير متشابه، وقد تقدم الكلام على تفسير هذا **﴿كلوا من ثمره﴾** أي: من ثمر كل واحد منهما، أو من ثمر ذلك **﴿إذا ثمر﴾** أي: إذا حصل فيه الثمر وإن لم يدرك ويبلغ حد الحصاد. قوله: **﴿وأتوا حقه يوم حصاده﴾**.

وقد اختلف أهل العلم هل هذه محكمة أو منسوخة أو محمولة على النيب، فذهب ابن عمر، وعطاء، ومجاهد وسعيد بن جبير، إلى أن الآية محكمة، وأنه يجب على المالك يوم الحصاد أن يعطي من حضر من المساكين القبضة والضغث ونحوهما. وذهب ابن عباس، ومحمد ابن الحنفية، والحسن، والنخعي، وطاوس، وأبو الشعثاء، وقتادة، والضحاك وابن جريح، أن هذه الآية منسوخة بالزكاة. واختاره ابن جرير، ويؤيده أن هذه الآية مكية، وآية الزكاة مكية في السنة الثانية بعد الهجرة، وإلى هذا ذهب جمهور أهل العلم من السلف والخلف. وقالت طائفة من العلماء: إن الآية محمولة على النيب لا على الوجوب. قوله: **﴿ولا تسرفوا﴾** أي: في التصديق، وأصل الإسراف في اللغة: الخطأ، والإسراف في النفقة: التبذير؛ وقيل: هو خطاب للولاة يقول لهم لا تأخذوا فوق حقكم؛ وقيل المعنى: لا تأخذوا الشيء بغير حقه وتضعونه في غير مستحقه. قوله: **﴿ومن الأنعام حمولة وفرشاً﴾** معطوف على جنات: أي وأنشأ لكم من الأنعام حمولة وفرشاً، والحمولة ما يحمل عليها، وهو يختص بالإبل فهي فعولة بمعنى فاعلة؛ والفرش: ما يتخذ من الوبر والصوف، والشعر، فرشاً يفرشه الناس؛ وقيل: الحمولة الإبل، والفرش: الغنم؛ وقيل الحمولة: كل ما حمل عليه من الإبل والبقر والخيل والبغال والحمير، والفرش: الغنم، وهذا لا يتم إلا على فرض صحة إطلاق اسم الأنعام على جميع هذه المذكورات؛ وقيل الحمولة: ما تركب، والفرش: ما يؤكل لحمه **﴿كلوا مما رزقكم﴾** من هذه الأشياء **﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾** كما فعل المشركون من تحريم ما لم يحرمه الله، وتحليل ما لم يحلله **﴿إنه﴾** أي: الشيطان **﴿لكم عو مبين﴾** مظهر للعداوة ومكاشف بها.

اسم جنس؛ وواحد المعز ماعز، مثل صحن وصاحب، وركب وراكب، وتجر وتاجر، والأنثى ماعزة. والمراد من هذه الآية: أن الله سبحانه بين حال الأنعام وتفصيلها إلى الأقسام المذكورة توضيحاً للامتنان بها على عباده، وبفعل لما كانت الجاهلية تزعمه من تحليل بعضها وتحريم بعضها، تقولاً على الله سبحانه واقتراء عليه، والهمزة في ﴿قُلِ الْكُفْرَيْنِ حَرَّمَ لَمْ الْأَنْثَيْنِ﴾ للإنتكار. والمراد بالذكورين الكبش والتميس، وبالأنثيين النعجة والعنز، وانتصاب الذكورين بحرّم، والأنثيين معطوف عليه منصوب بناصبه. والمعنى: الإنتكار على المشركين في أمر البقرة وما ذكر معها، وقولهم: ﴿مَا فِي بَطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمَحْرَمٌ عَلَى أَنْوَلِحِنَا﴾ أي: قل لهم إن كان حرم الذكور فكل نكر حرام، وإن كان حرم الإناث فكل أنثى حرام، يعني من الضان والمعز، فكل مولود حرام ذكراً كان أو أنثى وكلها مولود، فيستلزم أن كلها حرام. وقوله: ﴿فَبُيُوتُنِي بَعْلَمُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: أخبروني بعلم لا بجهل إن كنتم صادقين. والمراد من هذا التبكيت لهم وإلزام الحجة؛ لأنه يعلم أنه لا علم عندهم، وهكذا الكلام في قوله: ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾ إلى آخره. قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ شُهَدَاءُ إِذْ وَصَّاهُمْ اللَّهُ بِهَذَا﴾ أم هي المنقطعة، والإستفهام للإنتكار، وهي بمعنى بل والهمزة: أي بل اكنتم شهداء حاضرين مشاهدين إذ وصاكم الله بهذا التحريم. والمراد التبكيت وإلزام الحجة كما سلف قبله. قوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كُتُباً﴾ أي: لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذباً فحرم شيئاً لم يحرمه الله، ونسب ذلك إليه افتراء عليه كما فعله كبراء المشركين، واللام في ﴿يُضِلُّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ للعلة: أي لأجل يضل الناس بجهل، وهو متعلق بافتري ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ على العموم، وهؤلاء المذكورون في السياق داخلون في ذلك دخولاً أولياً، وينبغي أن ينظر في وجه تقديم المعز والضأن على الإبل والبقر (1) مع كون الإبل والبقر أكثر نفعا وأكبر أجساماً وأعود فائدة، لا سيما في الحمولة والفرش للذين وقع الإبدال منهما على ما هو الوجه الأوضح في إعراب ثمانية.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، من طرق عن ابن عباس قال: الأزواج الثمانية من الإبل والبقر والضأن والمعز. وليت شعري ما فائدة نقل هذا الكلام عن ابن عباس من مثل هؤلاء الأئمة، فإنها لا تتعلق به فائدة، وكون الأزواج الثمانية هي المذكورة، هو هكذا في الآية مصرحاً به تصريحاً لا لبس فيه. وأخرج عبد بن حميد عن قتادة قال: الذكر والأنثى زوجان. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر وابن أبي حاتم،

مقالات طويلة. وأخرج الفريابي، وأبو عبيد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، عن ابن مسعود قال: الحمولة ما حمل عليه من الإبل، والفرش صغار الإبل التي لا تحمل. وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال: الحمولة الكبار من الإبل، والفرش الصغار من الإبل. وأخرج أبو الشيخ عنه قال: الحمولة ما حمل عليه، والفرش ما أكل منه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه أيضاً قال: الحمولة الإبل والخيل والبغال والحمير، وكل شيء يحمل عليه، والفرش الغنم. وأخرج عبد بن حميد عن أبي العالية قال: الحمولة الإبل والبقر، والفرش الضأن والمعز:

ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ مَالِكُورَيْنِ حَرَّمَ أَرِ الْأَنْثَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثِيَيْنِ يُغَوِّي بِمَلُو إِذْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٢﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ مَالِكُورَيْنِ حَرَّمَ أَرِ الْأَنْثَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثِيَيْنِ أَمَّا كُنْتُمْ تُكِيدُونَ إِيَّاهُ فَصَلِّ عَلَى الْبَقَرِ مِمَّنْ أَفْلَحَ مِمَّنْ أَفْلَحَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّضَلِّ النَّاسِ يَمُرُّ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الضَّالِّينَ ﴿١٤٣﴾

اختلف في انتصاب ﴿ثمانية﴾ على ماذا؟ فقال الكسائي: بفعل مضمر، أي وأنشأ ثمانية أزواج - وقال الأخفش سعيد: هو منصوب على البديل من حمولة وفرشاً؛ وقال الأخفش علي بن سليمان: هو منصوب بكلاهما أي كلاً لحم ثمانية أزواج؛ وقيل: منصوب على أنه بدل من «ماء» في ﴿مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ﴾ [الأنعام: 142] والزواج خلاف الفرد، يقال زوج أو فرد، كما يقال شفع أو وتر، فقوله: ﴿ثمانية أزواج﴾ يعني ثمانية أفراد، وإنما سمي للفرد زوجاً في هذه الآية لأن كل واحد من الذكر والأنثى زوج بالنسبة إلى الآخر، ويقع لفظ الزوج على الواحد، فيقال هما زوج، وهو زوج، ويقول اشتريت زوجي حمام: أي نكرا وأنثى. والحاصل أن الواحد إذا كان منفرداً سواء كان ذكراً أو أنثى، قيل له فرد، وإن كان الذكر مع أنثى من جنسه قيل لهما زوج، ولكل واحد على انفراده منهما زوج، ويقال لهما أيضاً زوجان، ومنه قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَ مِنَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾ [القيامة: 39]. قوله: ﴿وَمِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ﴾ بدل من ثمانية منتصب بناصبه على حسب الخلاف السابق، والضأن ذوات الصوف من الغنم، وهو جمع ضأن، ويقال للأنثى ضائنة، والجمع ضوائن؛ وقيل: هو جمع لا واحد له؛ وقيل: في جمعه ضئنين كعبد وعبيد. وقرأ طلحة بن مصرف «الضأن» بفتح الهمزة، وقرأ الباقر بسكونها. وقرأ أبان بن عثمان ﴿وَمِنَ الضَّأْنِ اثْنَانِ وَمِنَ الْمَعَزِ اثْنَانِ﴾ رفعاً بالابتداء. قوله: ﴿وَمِنَ الْمَعَزِ اثْنَيْنِ﴾ معطوف على ما قبله مشارك له في حكمه. وقرأ ابن عامر، وأبو عمرو، وابن كثير، وأهل البصرة، بفتح العين من المعز. وقرأ الباقر بسكونها. قال النحاس: الأكثر في كلام العرب المعز والضأن بالإسكان، والمعز من الغنم خلاف الضأن، وهي ذوات الأشعار والأذنان القصار، وهو

(1) الترقى من أنثى إلى أعلى نوع من أنواع تحسين الكلام، فلعل هذا منه والله أعلم. اهـ من حاشية بالأصل.

حَرَّمَنا عليهم شحومهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم، إلا ما حملت ظهورهما فإنه غير محرَّم، ولا وجه لهذا التكلف، ولا موجب له، لأنه يكون المعنى إن الله حَرَّمَ عليهم إحدى هذه المذكورات. والمراد بما اختلط بعظم: ما لصق بالعظام من الشحوم في جميع مواضع الحيوان، ومنه الإلية فإنها لاصقة بعجب الذنب، والإشارة بقوله: ﴿ذلك﴾ إلى التحريم المدلول عليه بحرْمنا، أي تلك التحريم جزيناهم به بسبب بغيتهم؛ وقيل: إن الإشارة إلى الجزء المدلول عليه بقوله: ﴿جزيناهم﴾ أي: تلك الجزء جزيناهم، وهو تحريم ما حرَّمه الله عليهم ﴿وإنما لصاقون﴾ في كل ما نخبر به، ومن جملة ذلك هذا الخبر، وهو موجود عندهم في التوراة، ونصها «حرِّمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وكل دابة ليست مشقوقة الحافر، وكل حوت ليس فيه سفاسف» أي بياض انتهى. والضمير في «كذبوك» لليهود: أي فإن كذبك اليهود فيما وصفت من تحريم الله عليهم تلك الأشياء ﴿فقل ربكم ذو رحمة واسعة﴾ ومن رحمته حلمه عنكم، وعدم معاجلته لكم بالعقوبة في الدنيا وهو وإن أمهلكم ورحمكم و﴿لا يرد بأسه عن القوم المجرمين﴾ إذا أنزله بهم استحقوا المعالجة بالعقوبة وقيل المراد: لا يرد بأسه في الآخرة عن القوم المجرمين، والأوّل أولى، فإنه سبحانه قد عاجلهم بعقوبات منها تحريم الطيبات عليهم في الدنيا: وقيل الضمير يعود إلى المشركين الذين قسموا الأنعام إلى تلك الأقسام، وحلّلوا بعضها وحرّموا بعضها؛ وقيل المراد: أنه ذو رحمة للمطيعين ﴿ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين﴾ ولا ملجئ لهذا.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿كل ذي ظفر﴾ قال: هو الذي ليس بمنفرج الأصابع، يعني ليس بمشقوق الأصابع. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سنه، عنه ﴿كل ذي ظفر﴾ قال: البعير والنعامة. وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد قال: هو كل شيء لم تنفرج قوائمها من البهائم، وما انفرج أكلته اليهود، قال: انفرجت قوائم النجاء، والعصافير، فيهود تاكله، ولم ينفرج خفّ البعير ولا النعامة، ولا قائمة الوزينة، فلا تاكل اليهود الإبل ولا النعامة ولا الوزينة، ولا كل شيء لم تنفرج قائمته كذلك، ولا تاكل حمار الوحش. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سنه، عن ابن عباس، في قوله: ﴿ومن البقر والغنم حرّمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما﴾ يعني: ما علق بالظهر من الشحم ﴿أو الحوايا﴾ هي المبعر: وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن أبي صالح، في قوله: ﴿إلا ما حملت ظهورهما﴾ قال: الإلية ﴿أو الحوايا﴾ قال: المبعر ﴿أو ما اختلط بعظم﴾ قال: الشحم. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، عن مجاهد في قوله: ﴿أو الحوايا﴾ قال: المباعر. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن أبي حاتم، عن الضحّاك ﴿أو الحوايا﴾ قال: المرائض والمباعر. وأخرج ابن المنذر، وأبو

حرم من الميتة أكلها، وهو أيضاً في الصحيح. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿أو بما مسفوحاً﴾ قال: مهراقاً. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه قال: كان أهل الجاهلية إذا ذبحوا أوبجوا الدابة وأخذوا الدم فأكلوه، قال: هو دم مسفوح. وأخرج أبو الشيخ عن الشعبي: أنه سئل عن لحم الفيل والأسد قتلاً: ﴿قل لا أجد فيما أوحى إلي﴾ الآية. والأحاديث الواردة بتحريم كل ذي ناب من السباع، ومخلب من الطير، والحمر الأهلية، ونحوها مستوفاة في كتب الحديث.

وَعَلَّ الَّذِينَ هَانُوا عَلَى الْفَعْلِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ هَذَا التَّحْرِيمَ مُخْتَصٌّ بِهِمْ لَا يَجَاوِزُهُمْ إِلَى غَيْرِهِمْ. وَالَّذِينَ هَانُوا: الْيَهُودُ، نَكَرَ اللَّهُ مَا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ عَقِبَ نَكَرَ مَا حَرَّمَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ. وَالظَّفَرُ: وَاحِدُ الْأَظْفَارِ، وَيَجْمَعُ أَيْضاً عَلَى أَظْفِيرٍ، وَزَادَ الْفَرَاءُ فِي جَمْعِ ظَفَرٍ: أَظْفَارٌ وَأَظْفَارَةٌ، وَذُو الظَّفَرِ: مَا لَهُ أَصْبَعٌ مِنْ دَابَّةٍ أَوْ طَائِرٍ، وَيَدْخُلُ فِيهِ الْحَافِرُ وَالْخَفُّ وَالْمَخْلَبُ، فَيَتَنَاوَلُ الْإِبِلَ وَالْبَقَرَ، وَالْغَنَمَ وَالنَّعَامَ، وَالْأَوْزَ وَالْبِطَّ، وَكُلَّ مَا لَهُ مَخْلَبٌ مِنَ الطَّيْرِ، وَتَسْمِيَةُ الْحَافِرِ وَالْخَفِّ ظَفَرًا مُجَازٌ. وَالْأَوَّلَى حَمْلُ الظَّفَرِ عَلَى مَا يَصْدُقُ عَلَيْهِ اسْمُ الظَّفَرِ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ، لِأَنَّ هَذَا التَّعْمِيمَ يَأْبَاهُ مَا سَيَأْتِي مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ﴾ فَإِنْ كَانَ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ بَحِثٌ يَقَالُ عَلَى الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ كَانَ نَكَرُهُمَا مِنْ بَعْدِ تَخْصِيصِ حَرَمِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَانُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: 160]. قَوْلُهُ: ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شَحُومَهُمَا﴾ لَا غَيْرَ هَذِهِ الْمَذْكُورَاتِ كُلِّهِمَا، وَالشَّحُومُ يَدْخُلُ فِيهَا الثَّرُوبُ وَشَحْمُ الْكَلْبَةِ؛ وَقِيلَ الثَّرُوبُ جَمْعُ ثَرَبٍ، وَهُوَ الشَّحْمُ الرَّقِيقُ الَّذِي يَكُونُ عَلَى الْكَرْشِ، ثُمَّ اسْتَثْنَى اللَّهُ سَبْحَانَهُ مِنَ الشَّحُومِ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا مِنَ الشَّحْمِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَحْرَمْهُمُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَهَذَا فِي مَوْضِعٍ نَصَبَ عَلَى الِاسْتِثْنَاءِ ﴿أَوْ الْحَوَايَا﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى ظُهُورِهِمَا أَيْ: إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ حَمَلَتْ الْحَوَايَا، وَهِيَ الْمَبَاعِرُ الَّتِي يَجْتَمِعُ الْبَعْرُ فِيهَا، فَمَا حَمَلَتْهُ مِنَ الشَّحْمِ غَيْرَ حَرَامٍ عَلَيْهِمْ، وَوَاحِدُهَا حَاوِيَةٌ، مِثْلُ ضَارِبَةٍ وَضَوَارِبٍ؛ وَقِيلَ: وَوَاحِدُهَا حَاوِيَاءٌ مِثْلُ قَاصِعَاءٍ وَقَوَاصِعٍ، وَقِيلَ حَوِيَّةٌ: كَسَفِيئَةٍ وَسَفَائِزٍ. وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: الْحَوَايَا مَا تَحْوِي مِنَ الْبَطْنِ: أَيْ اسْتَدَارَ، وَهِيَ مَتَحْوِيَّةٌ: أَيْ مُسْتَدِيرَةٌ؛ وَقِيلَ الْحَوَايَا: خَزَائِنُ اللَّبَنِ، وَهِيَ تَتَّصِلُ بِالْمَبَاعِرِ؛ وَقِيلَ الْحَوَايَا: الْأَمْعَاءُ الَّتِي عَلَيْهَا الشَّحُومُ. قَوْلُهُ: ﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى «مَا» فِي «مَا حَمَلَتْ» كَذَا قَالَ الْكَسَاثِيُّ وَالْفَرَاءُ وَثَعْلَبٌ؛ وَقِيلَ: إِنَّ الْحَوَايَا وَمَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ مَعْطُوفَةٌ عَلَى الشَّحُومِ. وَالْمَعْنَى:

ذَلِكُمْ وَمَنْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٧﴾

قوله: ﴿قل تعالىوا﴾ أي تقموا. قال ابن السجري: إن المأمور بالتقدم في أصل وضع هذا الفعل كأنه كان قاعداً، فقليل له تعالى: أي أرفع شخصك بالقيام وتقدم، واتسعا فيه حتى جعلوه للواقف والمأشي. وهكذا قال الزمخشري في الكشف: إنه من الخاص الذي صار عاماً، وأصله أن يقوله من كان في مكان عال لمن هو أسفل منه، ثم كثروا واتسع فيه حتى عم. قوله: ﴿اتل ما حرم ربكم﴾ اتل جواب الأمر، وما موصولة في محل نصب به: أي اتل الذين حرمه ربكم عليكم. والمراد من تلاوة ما حرم الله تلاوة الآيات المشتملة عليه، ويجوز أن تكون ما مصدرية: أي اتل تحريم ربكم. والمعنى: ما اشتمل على التحريم؛ قيل ويجوز أن تكون ما استفهامية أي: اتل أي شيء حرم ربكم، على جعل التلاوة بمعنى القول، وهو ضعيف جداً، وعليكم أن تعلق باتل، فالمعنى: اتل عليكم الذي حرم ربكم، وإن تعلق بحرّم، فالمعنى اتل الذي حرم ربكم عليكم، وهذا أولى، لأن المقام مقام بيان ما هو محرّم عليكم لا مقام بيان ما هو محرّم مطلقاً، وقيل: إن عليكم للإغراء ولا تعلق لها بما قبلها. والمعنى عليكم أن لا تشركوا إلى آخره: أي الزموا نك كقوله تعالى: ﴿عليكم أنفسكم﴾ [المائدة: 105] وهو أضعف مما قبله، وأن في ﴿أن لا تشركوا﴾ مفسرة لفعل التلاوة، وقال النحاس: يجوز أن تكون في موضع نصب بدلاً من ما: أي اتل عليكم تحريم الإشراك؛ وقيل: يجوز أن يكون في محل رفع بتقدير مبتدأ: أي المتلو أن لا تشركوا، وشيئاً مفعول أو مصدر أي لا تشركوا به شيئاً من الأشياء، أو شيئاً من الإشراك. قوله: ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ أي: أحسنوا بهما إحساناً، والإحسان إليهما البر بهما، وامتنثال أمرهما ونهيهما. وقد تقدم الكلام على هذا. قوله: ﴿ولا تقتلوا أولادكم من إملاق﴾ لما نكر حق الوالدين على الأولاد، نكر حق الأولاد على الوالدين، وهو أن لا يقتلوه من أجل إملاق، والإملاق الفقر، فقد كانت الجاهلية تفعل ذلك بالنكر والإناث خشية الإملاق، وتفعله بالإناث خشية خشية العار، وحكى النقاش عن مؤرّج: أن الإملاق الجوع بلغة لخم، وذكر منذر بن سعيد البلوطي: أن الإملاق الإنفاق. يقال أملق ماله: بمعنى أنفقه. والمعنى الأوّل هو الذي أطبق عليه أئمة اللغة، وأئمة التفسير ما هنا. ﴿ولا تقرّبوا الفواحش﴾ أي: المعاصي، ومنه ﴿ولا تقرّبوا الزنا﴾ إنه كان فاحشة [الإسراء: 32] وما في ﴿ما ظهر﴾ بدل من الفواحش، وكذا ما بطن. والمراد بما ظهر: ما أعلن به منها، وما بطن: ما أسر. وقد تقدم ﴿ولا تقتلوا النفس﴾ اللام في النفس للجنس، و﴿التي حرم الله﴾ صفة للنفس: أي لا تقتلوا شيئاً من الأنفس التي حرمها الله ﴿إلا بالحق﴾ أي إلا بما يوجب الحق، والاستثناء مفرغ: أي لا تقتلوه في حال من الأحوال إلا في حال الحق، أو لا تقتلوهما بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق، ومن الحق قتلها قصاصاً، وقتلها بسبب زنا

المحصن، وقتلها بسبب الرذّة، ونحو ذلك من الأسباب التي ورد الشرع بها، والإشارة بقوله: ﴿تلكم﴾ إلى ما تقدم مما تلاه عليهم، وهو مبتدأ ﴿ووصاكم به﴾ خبره: أي أمركم به، وأوجبه عليكم ﴿ولا تقرّبوا مال اليتيم﴾ أي: لا تتعرضوا له بوجه من الوجوه ﴿إلا به﴾ الخصلة ﴿التي هي أحسن﴾ من غيرها، وهي ما فيه صلاحه وحفظه وتنميته، فيشمل كل وجه من الوجوه التي فيها نفع لليتيم وزيادة في ماله؛ وقيل: المراد بالتي هي أحسن التجارة ﴿حتى يبلغ أشده﴾ أي: إلى غاية هي أن يبلغ اليتيم أشده، فإن بلغ ذلك فادفعوا إليه ماله، كما قال تعالى: ﴿فإن أنستم منه رشداً فادفعوا إليه أموالهم﴾ [النساء: 6].

واختلف أهل العلم في الأشد؛ فقال أهل المدينة: بلوغه وإيناس رشده. وقال أبو حنيفة: خمس وعشرون سنة. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هو البلوغ. وقيل: إنه انتهاء الكهولة، ومنه قول سحيم الرباحي:

أخو الخمسين مجتمعت أشدي ويحدثني مداورة الشؤون والأولى في تحقيق بلوغ الأشد: أنه البلوغ إلى سن التكليف مع إيناس الرشد، وهو أن يكون في تصرفاته بماله سالماً مسلك العقلاء، لا مسلك أهل السفه والتبذير، ويدل على هذا قوله تعالى في سورة النساء: ﴿وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم﴾ [النساء: 6] فجعل بلوغ النكاح، وهو بلوغ سن التكليف مقيد بإيناس الرشد، ولعله قد سبق هنالك كلام في هذا، والأشد واحد لا جمع له، وقيل: واحده شد كفلس وأقلس وأصله من شد النهار: أي ارتفع. وقال سيبويه: واحده شدة. قال الجوهري: وهو حسن في المعنى، لأنه يقال بلغ الكلام شدته، ولكن لا تجمع فعلة على أفعّل. قوله: ﴿وأوفوا للكيل والميزان بالقسط﴾ أي: بالعدل في الأخذ والإعطاء عند البيع والشراء ﴿ولا تكلف نفساً إلا وسعها﴾ أي: إلا طاقتها في كل تكليف من التكليف، ومنه التكليف بإيفاء الكيل والوزن، فلا يخاطب المتولي لهما بما لا يمكن الاحتراز عنه في الزيادة والنقصان ﴿وإذا قلتم فاعدلوا﴾ أي: إذا قلتم يقول في خبر أو شهادة، أو جرح أو تعديل، فاعدلوا فيه، وتحزوا الصواب، ولا تتعصبوا في ذلك لقريب ولا على بعيد، ولا تميلوا إلى صديق، ولا على عمو، بل سوّوا بين الناس، فإن ذلك من العدل الذي أمر الله به، والضمير في ﴿ولو كان﴾ راجع إلى ما يفيد «وإذا قلتم» فإنه لا بد للقول من مقول فيه، أو مقول له: أي ولو كان المقول فيه، أو المقول له ﴿ذا قربي﴾ أي: صاحب قرابة لكم. وقيل إن المعنى: ولو كان الحق على مثل قراباتكم والأوّل أولى، ومثل هذه الآية قوله: ﴿ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين﴾ [النساء: 135]. قوله: ﴿وبيعده الله أوفوا﴾ أي: أوفوا بكل عهد عهده الله إليكم، ومن جملة ما عهده إليكم، ما تلاه عليكم رسوله بأمره في هذا المقام، ويجوز أن يراد به كل عهد، ولو كان بين المخلوقين، لأن الله

إلهك، لا تقتل، لا تزني، لا تسرق، لا تشهد على قريبك شهادة زور، لا تشته بنت قريبك، ولا تشته امرأة قريبك، ولا عبده، ولا أمته، ولا ثوره، ولا حماره، ولا شيئاً مما لقريبك، فلعل مراد كعب الأحبار هذا، وللإيهود بهذه الوصايا عناية عظيمة وقد كتبها أهل الزبور في آخر زبورهم. وأهل الإنجيل في أول إنجيلهم، وهي مكتوبة في لوحين، وقد تركنا منها ما يتعلق بالسبت، وأخرج عبد بن حميد، وأبو الشيخ، عن قتادة قال: **«ولا تقتلوا أولادكم من إملاق»** قال: من خشية الفاقة، قال: وكان أهل الجاهلية يقتل أحدهم ابنته مخافة الفاقة عليها والسبي **«ولا تقربوا للفواحش ما ظهر منها وما بطن»** قال: سرّها وعلايتها. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس **«ولا تقتلوا أولادكم من إملاق»** قال: خشية الفقر **«ولا تقربوا للفواحش ما ظهر منها وما بطن»** قال: كانوا في الجاهلية لا يرون بالزنا بأساً في السرّ، ويستقبحونه في العلانية، فحرم الله الزنا في السر والعلانية. وأخرج عبد بن حميد، وأبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: **«وإن هذا صراطي مستقيماً»** قال: اعلّموا أن السبيل سبيل واحد، جماعه الهدى ومصيره الجنة، وإن إبليس اشترع سبلاً متفرقة، جماعه الضلالة ومصيرها النار. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، والبخاري، والنسائي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مردويه، عن ابن مسعود، قال: «خط رسول الله ﷺ خطاً بيده ثم قال: هذا سبيل الله مستقيماً، ثم خط خطوطاً عن يمين ذلك الخط، وعن شماله، ثم قال: وهذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه، ثم قرأ: **«وإن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله»**. وأخرج أحمد، وابن ماجه، وابن مردويه، من حديث جابر نحوه. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن مردويه، عن ابن مسعود أن رجلاً سأله: ما الصراط المستقيم؟ قال: تركنا محمداً ﷺ، في إنائه وطرفه الجنة، وعن يمينه جواد وعن شماله جواد، وثم رجال يدعون من مرّ بهم، فمن أخذ في تلك الجواد انتهت به إلى النار، ومن أخذ على الصراط المستقيم انتهى به إلى الجنة، ثم قرأ ابن مسعود: **«وإن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه»** الآية. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس **«ولا تتبعوا السبل»** قال: الضلالات.

ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٧٠﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ بِرَحْمَةٍ قَائِمَةٍ وَأَنْتُمْ لَأَعْلَمُكُمْ بِرَحْمَتِنَا أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ بَيْنِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَفَنَافِلِينَ ﴿١٧١﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَاهُ عَلَى الْكِتَابِ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَقَ عَنْهَا سَجَرَى الَّذِينَ يَصْدُقُونَ عَنْ آيَاتِنَا سَوَاءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدُقُونَ ﴿١٧٢﴾

هذا الكلام مسوق لتقرير التوصية التي وصى الله عباده

سبحانه لما أمر بالوفاء به في كثير من الآيات القرآنية كان ذلك مسوغاً لإضافته إليه، والإشارة بقوله: **«ذلكم»** إلى ما تقدّم نكره **«وصاكم به»** أمركم به أمراً مؤكداً **«لعلكم تذكرون»** فتتعتظون بذلك، قوله: **«وإن هذا صراطي مستقيماً»** أن في موضع نصب: أي وإتّال أن هذا صراطي، قاله الفراء والكسائي. قال الفراء: ويجوز أن يكون خفصاً أي: وصاكم به، وبأن هذا. وقال الخليل وسيبويه: إن التقدير ولأن هذا صراطي مستقيماً، كما في قوله سبحانه: **«وإن المساجد لله»** [الجن: 18] وقرأ الأعمش وحمة والكسائي **«وإن هذا»** بكسر الهمزة على الاستئناف، والتقدير: الذي نكر في هذه الآيات صراطي. وقرأ ابن أبي إسحاق، ويعقوب **«وإن هذا صراطي»** بالتخفيف على تقدير ضمير الشأن. وقرأ الأعمش **«وهذا صراطي»** وفي مصحف عبد الله بن مسعود **«وهذا صراط ربكم»** وفي مصحف أبي **«وهذا صراط ربك»** والصراط: الطريق، وهو طريق دين الإسلام، ونصب مستقيماً على الحال، والمستقيم المستوي الذي لا اعوجاج فيه، ثم أمرهم بالتباعد ونهاهم عن اتباع سائر السبل: أي الأديان المتباينة طرقها **«فتفرق بكم»** أي: تميل بكم **«عن سبيله»** أي: عن سبيل الله المستقيم الذي هو دين الإسلام. قال ابن عطية: وهذه السبل تعم اليهودية والنصرانية والمجوسية، وسائر أهل الملل، وأهل البدع والضلالات من أهل الأهواء والشذوذ في الفروع، وغير ذلك من أهل التعمق في الجدل والخوض في الكلام، هذه كلها عرضة للزلل ومظنة لسوء المعتقد، والإشارة بـ **«ذلكم»** إلى ما تقدّم وهو مبتدأ وخبره **«وصاكم به»** أي: أكد عليكم الوصية به **«لعلكم تتقون»** ما نهاكم عنه.

وقد أخرج الترمذي وحسنه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن عبادة بن الصامت، قال: قال رسول الله ﷺ: «أيكم يبايعني على هؤلاء الآيات الثلاث؟ ثم تلا: **«قل تعالوا»** إلى ثلاث آيات، ثم قال: فمن وفى بهنّ فأجره على الله ومن انتقص منهّنّ شيئاً فادركه الله في الدنيا كانت عقوبته، ومن أخره إلى الآخرة كان أمره إلى الله إن شاء أخذه وإن شاء عفا عنه». وأخرج ابن أبي شيبة، وابن الضريس، وابن المنذر، عن كعب الأحبار قال: أول ما أنزل في التوراة عشر آيات، وهي العشر التي أنزلت من آخر الأنعام **«قل تعالوا اقل ما حرم ربكم عليكم»** إلى آخرها. وأخرج أبو الشيخ، عن عبيد الله بن عبد الله بن عدي بن الخيار قال: سمع كعب رجلاً يقرأ **«قل تعالوا اقل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً»** فقال كعب: والذي نفس كعب بيده إنها لأول آية في التوراة: بسم الله الرحمن الرحيم **«قل تعالوا اقل ما حرم ربكم عليكم»** إلى آخر الآيات انتهى. قلت: هي الوصايا العشر التي في التوراة، وأولها أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية، لا يكن لك إله آخر غيري. ومنها: أكرم أباك وأماك ليطول عمرك في الأرض التي يعطيك الرب

الكتاب، معطوف على ﴿تَقُولُوا﴾ أي: أو أن تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب كما أنزل على الطائفتين من قبلنا ﴿لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ إلى الحق الذي طلبه الله، فإن هذه المقالة والمعززة منهم مندفعة بإرسال محمد ﷺ إليهم، وإنزال القرآن عليه، ولهذا قال: ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: كتاب أنزله الله على نبيكم، وهو منكم يا معشر العرب، فلا تعتذروا بالاعذار الباطلة وتعللوا أنفسكم بالعلل الساقطة، فقد أسفر الصبح لذي عينين ﴿وَهْدَىٰ وَرَحْمَةً﴾ معطوف على ﴿بَيِّنَةً﴾ أي: جاءكم البينة الواضحة، والهدى الذي يهتدي به كل من له رغبة في الاهتداء، ورحمة من الله يدخل فيها كل من يطلبها ويريد حصولها، ولكنكم ظلمتم أنفسكم بالتكذيب بآيات الله، والصفوف عنها: أي الانصراف عنها. وصرف من أراد الإقبال إليها ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ آيَاتِ اللَّهِ﴾ التي هي رحمة وهدى للناس ﴿وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ فضل بانصرافه عنها، وأضل بصرف غيره عن الإقبال إليها ﴿سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي: العذاب السيئ ﴿بِمَا كَانُوا يَصِفُونَ﴾ وقيل معنى صدف: أعرض، ويصفون يعرضون، وهو مقارب لمعنى الصرف، وقد تقدّم تحقيق معنى هذا اللفظ، والاستفهام في: فمن أظلم للإنكار أي: إنكار أن يكون أحد أظلم ممن كذب بآيات الله وصف عنها ما يفيد ذلك من التبكيت لهم.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد ﴿تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ قال: على المؤمنين المحسنين. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي صخر ﴿تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ قال: تماماً لما كان قد أحسن الله. وأخرج أيضاً عن ابن زيد قال: تماماً لنعمته عليهم وإحسانه إليهم. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ﴾ قال: هو القرآن الذي أنزل الله على محمد ﴿فَاتَّبِعُوهُ وَتَقُوا﴾ يقول: فاتبعوا ما أحل الله فيه واتقوا ما حرم. وأخرج هؤلاء عن مجاهد في قوله: ﴿عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾ قال: اليهود والنصارى، خاف أن تقوله قريش. وأخرج ابن المنذر، وابن حاتم، عن ابن عباس، قال: هم اليهود والنصارى، ﴿وَإِنْ كُنَّا عَنْ دُرُسْتِهِمْ﴾ قال: تلاوتهم. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة، في قوله: ﴿لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ قال: هذا قول كفار العرب. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي، في قوله: ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يقول: قد جاءكم بيينة لسان عربي مبين حين لم يعرفوا دراسة الطائفتين. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿صَدَفَ عَنْهَا﴾ قال: أعرض عنها. وأخرج عبد بن حميد، عن الضحاك، في قوله: ﴿يَصِفُونَ﴾ قال: يعرضون.

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَشَرٌ مِثْلُكَ
يَوْمَ يَأْتِي بَشَرٌ مِثْلُكَ لَا يَخْلَقُ فَتًى إِنْشَاءً لَوْ تَكُنْ مَآمِنَةً مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ
فِي إِيْنَتِهَا غَيْرًا فَلَا يُنْظَرُ إِلَّا إِنَّا مُنْظِرُونَ ﴿٦٧﴾

بها، وقد استشكل العطف بثم مع كون قصة موسى وإيتائه الكتاب قبل المعطوف عليه. وهو ما تقدم من قوله: ﴿نَلَكُم وَصَاكُم بِهِ﴾ فقيل: إن ثم ما هنا بمعنى الواو؛ وقيل: تقدير الكلام، ثم كنا قد أتينا موسى الكتاب قبل إنزالنا القرآن على محمد ﷺ، وقيل المعنى: قل تعالوا آتِل ما حرم ربكم عليكم، ثم آتِل إيتاء موسى الكتاب؛ وقيل: إن التوصية المعطوف عليها قديمة لم يزل كل نبي يوصي بها أمته؛ وقيل: إن ثم للتراخي في الإخبار كما تقول: بلغني ما صنعت اليوم ثم ما صنعت بالأمس أعجب. قوله: ﴿تَمَاماً﴾ مفعول لأجله أو مصدر، و ﴿عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ قرئ بالرفع، وهي قراءة يحيى بن يعمر، وابن أبي إسحاق، فيكون رفع أحسن على تقدير مبتدأ: أي على الذي هو أحسن، ومنه ما حكى سيبويه عن الخليل أنه سمع: ما أنا بالذي قاتل لك شيئاً. وقرأ الباقون بالنصب على أنه فعل ماضٍ عند البصريين، وأجاز الفراء والكسائي أن يكون اسماً نعتاً للذي، وهذا محال عند البصريين لأنه نعت للاسم قبل أن يتم، والمعنى عندهم تماماً على من أحسن قبوله والقيام به كائناً من كان، ويؤيد هذا أن ابن مسعود قرأ: ﴿وَتَمَاماً عَلَى الَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ وقال الحسن: كان فيهم محسن وغير محسن، فأنزل الله الكتاب تماماً على المحسنين؛ وقيل المعنى: اعطينا موسى التوراة زيادة على ما كان يحسنه موسى مما علمه الله قبل نزول التوراة عليه؛ وقيل المعنى: تماماً على الذي أحسن به الله عز وجل إلى موسى من الرسالة وغيرها، وقيل: تماماً على إحسان موسى بطاعة الله عز وجل قاله الفراء. قوله: ﴿وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ معطوف على تماماً: أي ولأجل تفصيل كل شيء، وكذا ﴿وَهْدَىٰ وَرَحْمَةً﴾ معطوفتان عليه أي: وللهدي والرحمة، والضمير في لعلهم راجع إلى بني إسرائيل، المملول عليه بذكر موسى، والباء في ﴿بِلِقَاءِ﴾ متعلقة بيؤمنون. قوله: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكٌ﴾ الإشارة إلى القرآن، واسم الإشارة مبتدأ وخبره كتاب، وإنزالناه صفة لكتاب ومبارك صفة أخرى له، وتقدير صفة الإنزال لكن الإنكار متعلقاً بها، والمبارك كثير البركة لما هو مشتمل عليه من المنافع الدنيوية والدينية ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ فإنه لما كان من عند الله، وكان مشتملاً على البركة، كان أتباعه محتتماً عليكم ﴿وَاتَّقُوا﴾ مخالفته، والتكذيب بما فيه ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ إن قبلتموه ولم تخالفوه ﴿تَرْحَمُونَ﴾ برحمة الله سبحانه، وأن في ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ في موضع نصب، قال الكوفيون: لئلا تقولوا. وقال البصريون: كرامة أن تقولوا. وقال الفراء والكسائي: المعنى فاتقوا أن تقولوا يا أهل مكة ﴿إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ﴾ أي: التوراة والإنجيل ﴿عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾ وهم اليهود والنصارى، ولم ينزل علينا كتاب ﴿وَإِنْ كُنَّا عَنْ دُرُسْتِهِمْ﴾ أي: عن تلاوة كتبهم بلغاتهم ﴿بِلُغَاتِهِنَّ﴾ أي: لا ندرى ما فيها، ومرادهم إثبات نزول الكتابين مع الاعتذار عن اتباع ما فيهما بعدم الدراية منهم، والغفلة عن معانها. قوله: ﴿أَوْ تَقُولُوا لو أَنَا أَنْزَلْ عَلَيْنَا

لهم: انتظروا ما تريدون إتيانه إنا منتظرون له، وهذا تهديد شديد ووعيد عظيم، وهو يَقْوِي ما قيل في تفسير: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ أنها الآيات التي اقترحوها من إتيان الملائكة وإتيان العذاب لهم من قبل الله كما تقدّم بيانه.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن مسعود ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ قال: عند الموت ﴿أَوْ يَأْتِي رَبُّكَ﴾ قال: يوم القيامة. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة، في تفسير الآية مثله. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مقاتل ﴿أَوْ يَأْتِي رَبُّكَ﴾ قال: يوم القيامة في ظلل من الغمام. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، في مسنده، والترمذي وأبو يعلى، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ، في قوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ قال: طلوع الشمس من مغربها، قال الترمذي غريب. ورواه ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، عن أبي سعيد موقوفاً. وأخرجه الطبراني، وابن عدي، وابن مردويه من حديث أبي هريرة مرفوعاً. وأخرجه سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، ونعيم بن حماد، والطبراني عن ابن مسعود موقوفاً. فإذا ثبت رفع هذا التفسير النبوي من وجه صحيح لا قاذح فيه، فهو واجب التقديم له، متحتم الأخذ به، ويؤيده ما ثبت في الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورأها الناس آمنوا أجمعون فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها، ثم قرأ الآية». وأخرج مسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وغيرهم، عن أبي نر مرفوعاً نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس، مرفوعاً نحوه أيضاً. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي، في قوله: ﴿أَوْ كَسِبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا﴾ يقول: كسبت في تصديقها عملاً صالحاً، هؤلاء أهل القبلة وإن كانت مصدقة لم تعمل قبل ذلك خيراً فعملت بعد أن رأت الآية لم يقبل منها، وإن عملت قبل الآية خيراً، ثم عملت بعد الآية خيراً قبل منها وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مقاتل، في قوله: ﴿أَوْ كَسِبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا﴾ قال: يعني: المسلم الذي لم يعمل في إيمانه خيراً وكان قبل الآية مقيماً على الكبائر. والآيات التي هي علامات القيامة، قد وردت الأحاديث المتكاثرة في بيانها وتعدادها، وهي مذكورة في كتب السنة. إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا بَيْنَهُمْ وَكَأُفُوا شِمَاكَ لَآتَتْ مِنْهُمْ فِي سَوَاعِدِهِمْ إِلَى أَلْوَمِهِمْ يَأْتُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١٧٠﴾ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مَثَلًا وَلَمَن جَاءَ بِالْسَيِّئَةِ فَلَا يَجْزِيهِ إِلَّا وَفَاتُهَا وَهُم لَا يُلْقُونَ ﴿١٧١﴾

قرأ حمزة والكسائي «فارقوا دينهم» وهي قراءة علي بن أبي طالب: أي تركوا دينهم وخرجوا عنه. وقرأ الباقون فَرَّقُوا بالتشديد إلا النخعي فإنه بالتخفيف. والمعنى: أنهم جعلوا دينهم متفرقاً فأخذوا ببعضه، وتركوا بعضه. قيل المراد بهم: اليهود والنصارى. وقد روي في معنى هذا: في اليهود قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مَن بَعْدَ مَا جَاءَهُمُ

أَي لَمَّا أَقْمَنَّا عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ، وَأَنْزَلْنَا الْكِتَابَ عَلَى رَسُولِنَا الْمُرْسَلِ إِلَيْهِمْ، فَلَم يَنْفَعَهُمْ ذَلِكَ وَلَمْ يَرْجِعُوا بِهِ عَنْ غَوَايَتِهِمْ، فَمَا بَقِيَ بَعْدَ هَذَا إِلَّا أَنَّهُمْ «يَنْظُرُونَ» أَي يَنْتَظِرُونَ «أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ» أَي: ملائكة الموت لقبض أرواحهم، وعند ذلك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل ﴿أَوْ يَأْتِي رَبُّكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ كَمَا اقترحوه بقولهم: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةَ أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾ [الفرقان: 21] وقيل معناه: أو يأتي أمر ربك بإهلاكهم؛ وقيل المعنى: أو يأتي كل آيات ربك ببليل قوله: ﴿أَوْ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ وقيل: هو من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله، وقد جاء في القرآن حذف المضاف كثيراً كقوله: ﴿وَأَسْأَلُ الْقُرْيَةَ﴾ [يوسف: 82] وقوله: ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ [البقرة: 93] أي حب العجل؛ وقيل: إتيان الله مجيئه يوم القيامة لفصل القضاء بين خلقه كقوله: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً﴾ [الفجر: 22]. وقوله: ﴿وَيَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ قرأ ابن عمر وابن الزبير «يَوْمَ يَأْتِي» بالفوقية، وقرأ الباقون بالتحذية، قال المبرد: التأنيت على المجاورة لمؤث لا على الأصل ومنه قول جرير:

لَمَّا أَتَى خَيْرَ الزَّبِيرِ تَوَاضَعَتْ سُدُورُ الْمَدِينَةِ وَالْجِبَالِ الْخُشَعُ
وَقَرَأَ ابْنُ سِيرِينَ، لَا تَنْفَعُ بِالْفُوقِيَةِ. قال أبو حاتم: إن هذا غلط عن ابن سيرين. وقد قال الناس في هذا شيء بقيق من النحو نكروه نطويه، وذلك أن الإيمان والنفس كل واحد منهما مشتمل على الآخر، فأنث الإيمان إذ هو من النفس. قال النحاس، وفيه وجه آخر، وهو أن يؤنث الإيمان، لأنه مصدر كما ينكر المصدر المؤنث مثل «فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ» [البقرة: 275]. ومعنى «يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ» يوم يأتي الآيات التي اقترحوها، وهي التي تضطرهم إلى الإيمان ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا﴾ أو ما هو أعم من ذلك، فيدخل فيه ما ينتظرونه؛ وقيل: هي الآيات التي هي علامات القيامة المذكورة في الأحاديث الثابتة عن رسول الله ﷺ، فهي التي إذا جاءت لا ينفع نفساً إيمانها. قوله: ﴿لَمْ تَكُنْ آمَنْتَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: من قبل إتيان بعض الآيات، فاما التي قد كانت آمنت من قبل مجيء بعض الآيات فإيمانها ينفعها، وجملة: ﴿لَمْ تَكُنْ آمَنْتَ مِنْ قَبْلُ﴾ في محل نصب على أنها صفة نفساً. قوله: ﴿أَوْ كَسِبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا﴾ معطوف على «آمنت» والمعنى: أنه لا ينفع نفساً إيمانها عند حضور الآيات متصفة بانها لم تكن آمنت من قبل، أو آمنت من قبل ولكن لم تكسب في إيمانها خيراً، فحصل من هذا أنه لا ينفع إلا الجمع بين الإيمان من قبل مجيء بعض الآيات مع كسب الخير في الإيمان، فمن آمن من قبل فقط، ولم يكسب خيراً في إيمانه، أو كسب خيراً ولم يؤمن، فإن ذلك غير نافع، وهذا التركيب هو كقولك: لا اعطي رجلاً اليوم أتاني لم ياتني بالأمس أو لم يمدحني في إتيانه إلي بالأمس، فإن المستفاد من هذا أنه لا يستحق العطاء إلا رجل اتاه بالأمس ومدحه في إتيانه إليه بالأمس، ثم أمره الله سبحانه أن يقول

إذا تاب أو غلبت حسناته سيئاته، أو تغمد الله برحمته، وتفضل عليه بمغفرته، فلا مجازاة، وأبلة الكتاب والسنة مصرحة بهذا تصريحاً لا يبقى بعده ريب لمرتاب، **«وهم»** أي: من جاء بالحسنة ومن جاء بالسيئة **«لا يظلمون»** بنقص ثواب حسنات المحسنين، ولا بزيادة عقوبات المسيئين.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، قال: اختلفت اليهود والنصارى قبل أن يبعث محمد ﷺ فتفرقوا، فلما بعث محمد أنزل عليه: **«إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا بَيْنَهُمُ الْآيَةَ. وَأَخْرَجَ النَّحَّاسُ، عَنْهُ فِي نَاسِخِهِ «إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا بَيْنَهُمُ»** قال: اليهود والنصارى، تركوا الإسلام والدين الذي أمروا به **«وكانوا شيعاً»** فرقاً أحزاباً مختلفة **«لست منهم في شيء»** نزلت بمكة ثم نسخها **«قاتلوا المشركين»** [التوبة: 36]. وأخرج أبو الشيخ عنه **«وكانوا شيعاً»** قال: ملأ شتى. وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن أبي هريرة، في قوله: **«إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا بَيْنَهُمُ»** الآية قال: هم في هذه الأمة. وأخرج الحكيم الترمذي وابن جرير، والطبراني، والشيرازي في الألقاب، وابن مردويه، عنه، عن النبي ﷺ في الآية قال: هم أهل البدع والأهواء من هذه الأمة، وفي إسناده عبد بن كثير، وهو متروك الحديث، ولم يرفعه غيره، ومن عده وقفوه على أبي هريرة. وأخرج عبد بن حميد، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن أبي أمامة في الآية قال: هم الحرورية وقد رواه ابن أبي حاتم، والنحاس، وابن مردويه، عن أبي غالب عن أبي أمامة مرفوعاً ولا يصح رفعه. وأخرج الحكيم الترمذي، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن شاهين، وابن مردويه، وأبو نعيم في الحلية، وأبو نصر السجزي في الإبانة، والبيهقي في شعب الإيمان، عن عمر، أن رسول الله ﷺ قال لعائشة: **«يا عائشة إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا بَيْنَهُمْ وَكَانُوا شِعْياً»** هم أصحاب البدع وأصحاب الأهواء وأصحاب الضلالة من هذه الأمة ليست لهم توبة، يا عائشة إن لكل صاحب نيب توبة غير أصحاب البدع وأصحاب الأهواء ليس لهم توبة وهم مني برآء. قال ابن كثير: هو غريب ولا يصح رفعه. وأخرج عبد بن حميد، عن سعيد بن جبير، قال: لما نزلت **«مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا»** قال رجل من المسلمين: يا رسول الله لا إله إلا الله حسنة؟ قال: نعم، أفضل الحسنات، وهذا مرسل ولا ندرى كيف إسناده إلى سعيد؟ وأخرج ابن أبي شيبه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو نعيم، في الحلية، عن ابن مسعود **«مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ»** قال: لا إله إلا الله. وأخرج أبو الشيخ، عن أبي هريرة، مثله أيضاً. وقد قلّمنا الإشارة إلى أنها قد ثبتت الأحاديث الصحيحة بمضاعفة الحسنة إلى عشر أمثالها فلا نطيل بنكرها، ووردت أحاديث كثيرة في الزيادة على هذا المقدار، وفضل

البينة [البينة: 4]؛ وقيل المراد بهم: المشركون عبد بعضهم الصنم، وبعضهم الملائكة؛ وقيل الآية عامة في جميع الكفار، وكل من ابتدع وجاء بما لم يأمر به الله، وهذا هو الصواب لأن اللفظ يفيد العموم، فيدخل فيه طوائف أهل الكتاب، طوائف المشركين، وغيرهم ممن ابتدع من أهل الإسلام، ومعنى شيعاً فرقاً وأحزاباً، فتصدق على كل قوم كان أمرهم في الدين واحداً مجتمعاً، ثم اتبع كل جماعة منهم رأى كبير من كبارهم، يخالف الصواب ويبيان الحق **«لست منهم في شيء»** أي لست من تفرقهم، أو من السؤال عن سبب تفرقهم والبحث عن موجب تحزيبهم في شيء من الأشياء، فلا يلزمك من ذلك شيء، ولا تخاطب به، إنما عليك البلاغ، وهو مثل قوله ﷺ: **«من غشنا فليس منا»** أي نحن برآء منه، وموضع: **«في شيء»** نصب على الحال. قال الفراء: هو على حذف مضاف: أي لست من عقابهم في شيء، وإنما عليك الإنذار، ثم سلاه الله تعالى بقوله: **«إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ»** فهو مجاز لهم بما تقتضيه مشيئته والحصص، بإنما هو في حكم التعليل لما قبله والتأكيد له **«ثم»** هو يوم القيامة **«يُنَبِّئُهُمْ»** أي يخبرهم بما ينزله بهم من المجازاة **«بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ»** من الأعمال التي تخالف ما شرعه الله لهم، وأوجبه عليهم، وهذه الآية من جملة ما هو منسوخ بأية السيف. قوله: **«مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا»** لما توعد سبحانه المخالفين له بما توعد، بين عقب ذلك مقدار جزاء العالمين بما أمرهم به الممتثلين لما شرعه لهم، بأن من جاء بحسنة واحدة من الحسنات فله من الجزاء عشر حسنات، والتقدير: فله عشر حسنات أمثالها، فاقترنت الصفة مقام الموصوف. قال أبو علي الفارسي: حسن التانيث في عشر أمثالها، لما كان الأمثال مضافاً إلى مؤنث، نحو ذهبت بعض أصابعه. وقرأ الحسن وسعيد بن جبير والأعمش **«فله عشر أمثالها»** برفعهما.

وقد ثبت هذا التضعيف في السنة بأحاديث كثيرة، وهذا التضعيف هو أقل ما يستحقه عامل الحسنة. وقد وردت الزيادة على هذا عموماً وخصوصاً، ففي القرآن كقوله: **«كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ»** [البقرة: 261]. وورد في بعض الحسنات، أن فاعلها يجازى عليها بغير حساب، وورد في السنة المطهرة تضعيف الجزاء إلى الوف مؤلفة. وقد قدمنا تحقيق هذا في موضعين من هذا التفسير، فليرجع إليهما **«وَمَنْ جَاءَ بِالْسيِّئَةِ»** من الأعمال السيئة **«فلا يجزي إلا مثلاً»** من دون زيادة عليها على قدرها في الخفة والعظم، فالمشرك يجازى على سيئة الشرك بخلوده في النار، وفاعل المعصية من المسلمين يجازى عليها بمثلها مما ورد تقديره من العقوبات، كما ورد بذلك كثير من الأحاديث المصرحة بأن من عمل كذا فعليه كذا، وما لم يرد لعقوبته تقدير من الذنوب، فعلينا أن نقول يجازيه الله بمثله، وإن لم نقف على حقيقة ما يجازى به، وهذا إن لم يتب، أما

قال: أهلك القرون الأولى، فاستخلفنا فيها بعدهم ﴿ورفع بعضهم فوق بعض درجات﴾ قال: في الرزق.

تفسير سورة الأعراف

هي مكية إلا ثمان آيات، وهي قوله: ﴿واسألهم عن القرية﴾ إلى قوله: ﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم﴾ [الأعراف: 163 - 171]. وقد أخرج ابن الضريس، والنحاس في ناسخه، وابن مريويه، والبيهقي في الدلائل، من طرق عن ابن عباس، قال: سورة الأعراف نزلت بمكة. وأخرج ابن مريويه، عن عبد الله بن الزبير، مثله. وأخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ، عن قتادة: قال آية من الأعراف مدنية، وهي: ﴿واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر﴾ [الأعراف: 163] إلى آخر الآية، وسأثرها مكية، وقد ثبت أن النبي ﷺ كان يقرأ بها في المغرب يفرقها في الركعتين. وآياتها مائتان وست آيات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْعَص ۝ كَذَّبَ أَزْلَى إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي مَعْنَدِكَ حَرْجٌ مِّنْهُ لِيُنْذِرَ بِهِ وَيُذَكِّرَ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝ أَتَمْنَوْنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُونَ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝ وَكَمِ يَنْ قَرِيْبَةٍ أَمَلَكْنَاهَا فَمَا بِأَسْأَنًا بَيْنَا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ۝ فَمَا كَانَ دَعْوَانَهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْأَنًا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ۝ فَلَنَسْأَلَنَّ الْآزِلِينَ أَرْسِلْ لَنَا بَشَرًا مِّثْلَ الْمُرْسَلِينَ ۝ فَلَنَقْصُرَ عَنْهُمْ يَوْمَئِذٍ وَكُنَّا لَهُمْ مِثْلَ مَا كُنَّا لَبِئْسَ مَا يَرْبُؤُونَ كَمَا ظَلَمُوا ۝

قوله: ﴿الْعَص﴾ قد تقدّم في فاتحة سورة البقرة ما يغني عن الإعادة، وهو إما مبتدأ وخبره كتاب: أي «المص» حروف ﴿كتاب أنزل إليك﴾ أو هو خبر مبتدأ محذوف تقديره هذا «المص» أي المسمى به، وأما إذا كانت هذه الفواتح مسرودة على نمط التعديد فلا محل له، وكتاب خبر المبتدأ على الوجه الأول، أو خبر مبتدأ محذوف على الثاني: أي هو كتاب. قال الكسائي: أي هذا كتاب، وأنزل إليك صفة له ﴿فلا يكن في صدرك حرج منه﴾ الحرج: الضيق: أي لا يكن في صدرك ضيق منه، من إبلاغه إلى الناس، مخافة أن يكتنّبوا، ويؤذوك، فإن الله حافظك، وناصرك، وقيل: المراد لا يضيق صدرك حيث لم يؤمنوا به ولم يستجيبوا لك ﴿فإنما عليك البلاغ﴾، وقال مجاهد وقتادة: الحرج هنا الشك، لأن الشاك ضيق الصدر: أي لا تشك في أنه منزل من عند الله، وعلى هذا يكون النهي له ﷺ، من باب التعريض، والمراد أمته: أي لا يشك أحد منهم في ذلك، والضمير في منه راجع إلى الكتاب، فعلى الوجه الأول: يكون على تقدير مضاف محذوف: أي من إبلاغه، وعلى الثاني: يكون التقدير من إنزاله، والضمير في ﴿لتنذر به﴾ راجع إلى الكتاب: أي لتنذر الناس بالكتاب الذي أنزلناه إليك، وهو متعلق بأنزل: أي أنزل إليك لإنذارك للناس به، أو متعلق بالنهي، لأن انتفاء الشك في كونه منزلاً من عند الله، أو انتفاء الخوف من قومه

ما لا يقادر قدره، وغير منصوب بالفعل الذي بعده، وربما تمييز أو مفعول ثان على جعل الفعل ناصباً لمفعولين: قوله: ﴿ولا تكسب كل نفس نفساً إلا عليها﴾ أي: لا يؤخذ مما أتت من الذنب وارتكبت من المعصية سواها، فكل كسبها للشر عليها لا يتعداها إلى غيرها، وهو مثل قوله تعالى: ﴿لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾ [البقرة: 286] وقوله: ﴿لتجزى كل نفس بما تسعى﴾ [طه: 15]. قوله: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ أصل الوزر الثقل، ومنه قوله تعالى: ﴿ووضعنا عنك وزرك﴾ [الشرح: 2] وهو هنا الذنب ﴿وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم﴾ [الأنعام: 31] قال الأخفش، يقال وزر يوزر، ووزر يوزر وزراً، ويجوز إزراً، وفيه رد لما كانت عليه الجاهلية من مؤاخذه القريب بذنب قريبه، والواحد من القبيلة بذنب الآخر وقد قيل: إن المراد بهذه الآية في الآخرة، وكذلك التي قبلها لقوله تعالى: ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾ [الأنفال: 25] ومثله قول زينب بنت جحش: «يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثرت الخبث»، والأولى حمل الآية على ظاهرها: أعني العموم، وما ورد من المؤاخذه بذنب الغير كاللينة التي تحملها العاقلة ونحو ذلك، فيكون في حكم المخصص بهذا العموم، ويقر في موضعه ولا يعارض هذه الآية قوله تعالى: ﴿وليحملن أثقالهن وثقلاً مع أثقالهن﴾ [العنكبوت: 13] فإن المراد بالأثقال التي مع أثقالهن هي: أثقال الذين يضلونهم كما في الآية الأخرى: ﴿ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم﴾ [النحل: 25] ﴿ثم إلى ربكم مرجعكم﴾ يوم القيامة ﴿ففينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾ في الدنيا، وعند ذلك يظهر حق المحقين وباطل المبطلين. قوله: ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض﴾ خلائف جمع خليفة: أي جعلكم خلفاء الأمم الماضية والقرون السالفة، قال الشماخ:

أصيبهم وتخطئني المنيا ولخلف في ربوع عن ربوع أو المراد أنه يخلف بعضهم بعضاً، أو أن هذا النوع الإنساني خلفاء الله في أرضه: ﴿ورفع بعضهم فوق بعض درجات﴾ في الخلق، والرزق، والقوة، والفضل، والعلم ودرجات منصوب بنزع الخافض: أي إلى درجات ﴿ليبلوكم فيما آتاكم﴾ أي: ليختبركم فيما آتاكم من تلك الأمور، أو ليتلي بعضهم ببعض كقوله تعالى: ﴿وجعلنا بعضهم لبعض فتنة﴾ [الفرقان: 20] ثم خوفهم فقال: ﴿إن ربك سريع العقاب﴾ فإنه وإن كان في الآخرة فكل أت قريب كما قال: ﴿وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب﴾ [النحل: 77] ثم رغب من يستحق الترغيب من المسلمين، فقال: ﴿وإنه لغفور رحيم﴾ أي كثير الغفران والرحمة.

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿ولا تزر وازرة وزر﴾ قال: لا يؤخذ أحد بذنب غيره. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي في قوله: ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض﴾

يقويه على الانتذار ويشجعه، لأن المتيقن يقدم على بصيرة، ويباشر بقوة نفس. قوله: ﴿وَنُذَكِّرُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ النكرى التذكير. قال البصريون: النكرى في محل رفع على إضمار مبتدأ. وقال الكسائي: هي في محل رفع عطفًا على كتاب، ويجوز النصب على المصدر: أي ونذكر به نكرى قاله البصريون. ويجوز الجر حملاً على موضع لتنذر أي للإنذار والنكرى، وتخصيص النكرى بالمؤمنين؛ لأنهم الذين ينجع فيهم ذلك، وفيه إشارة إلى تخصيص الإنذار بالكافرين. قوله: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يعني: الكتاب ومثله السنة لقوله: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُم عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: 7] ونحوها من الآيات، وهو أمر للنبي ﷺ وأمته؛ وقيل: هو أمر للامة بعد أمره ﷺ بالتبليغ، وهو منزل إليهم بواسطة إنزاله إلى النبي ﷺ ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مَن يُونَهُ أُولِيَاءُ﴾ نهي للامة عن أن يتبعوا أولياء من دون الله يعبدونهم ويجعلونهم شركاء لله، فالضمير على هذا في ﴿مَن يُونَهُ﴾ يرجع إلى ربِّ، ويجوز أن يرجع إلى «ما» في ما أنزل إليكم: أي لا تتبعوا من دون كتاب الله أولياء تقلبونه في دينكم، كما كان يفعل أهل الجاهلية من طاعة الرؤساء فيما يطلونه لهم ويحرمونه عليهم. قوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ انتصاب قليلاً على أنه صفة لمصدر محذوف للفعل المتأخر: أي تذكر أقليلًا، وما مزيدة للتوكيد أو هو منتصب على الحال من فاعل لا تتبعوا، وما مصدرية: أي لا تتبعوا من يونه أولياء قليلاً تذكرهم قرئ ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بالتخفيف بحذف إحدى التامين، وقرئ بالتشديد على الإدغام. قوله: ﴿وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ كم هي الخبرية المفيدة للتكثير، وهي في موضع رفع على الابتداء و﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ الخبر، ومن قرية تمييز، ويجوز أن تكون في محل نصب بإضمار فعل بعدها لا قبلها، لأن لها صدر الكلام، ولولا اشتغال أهْلَكْنَاهَا بالضمير لجاز انتصاب كم به، والقرية موضع اجتماع الناس: أي كم من قرية من القرى الكبيرة أهْلَكْنَاهَا نفسها بإهلاك أهلها، أو أهْلَكْنَاهَا أهلها، والمراد أرْدْنَا إهلاكها. قوله: ﴿فَجَاءَهَا بِاسْنًا﴾ معطوف على أهْلَكْنَاهَا بتقدير الإزادة كما مر؛ لأن ترتيب مجيء الباس على الإهلاك لا يصح إلا بهذا التقدير، إذ الإهلاك هو نفس مجيء الباس. وقال الفراء: إن الفاء بمعنى الواو فلا يلزم التقدير، والمعنى: أهْلَكْنَاهَا وجاءها بأسنا، والواو لمطلق الجمع لا ترتيب فيها؛ وقيل: إن الإهلاك واقع لبعض أهل القرية؛ فيكون المعنى: وكَم من قرية أهْلَكْنَاهَا بعض أهلها فجاءها بأسنا فأهْلَكْنَاهَا الجميع؛ وقيل المعنى: وكَم من قرية حكمنا بإهلاكها فجاءها بأسنا؛ وقيل: أهْلَكْنَاهَا بإرسال ملائكة العذاب إليها فجاءها بأسنا، والبأس: هو العذاب، وحكى عن الفراء أنه إذا كان معنى الفعلين واحداً أو كالأولاد قدمت أيهما شئت فيكون المعنى: وكَم من قرية جاءها بأسنا فأهْلَكْنَاهَا، مثل دنا فقرب، وقرب فدنا ﴿بَيِّنَاتًا﴾ أي: ليلاً، لأنه بيات فيه، يقال بات ببيت ببيتاً وبيئاتاً، وهو مصدر واقع موقع

الحال: أي بائتين. قوله: ﴿وَإِذَا هُم قَائِلُونَ﴾ معطوف على بيئاتاً: أي بائتين أو قائلين، وجاءت الجملة الحالية بدون واو استغناءً لاجتماع الواوين واو العطف وواو الحال، هكذا قال الفراء. واعترضه الزجاج فقال: هذا خطأ بل لا يحتاج إلى الواو، تقول: جاءني زيد ركاباً، أو هو ماش لأن في الجملة ضميراً قد عاد إلى الأول، واو في هذا الموضع للتفصيل لا للشك. والقبولة هي نوم نصف النهار. وقيل: هي مجرد الاستراحة في تلك الوقت لشدة الحر من دون نوم، وخص الوقتين لأنهما وقت السكون والدعة، فمجيء العذاب فيهما أشد وأقطع. قوله: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِاسْنًا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ الدعوى: الدعاء: أي فما كان دعاؤهم ربهم عند نزول العذاب، إلا اعترافهم بالظلم على أنفسهم، ومثله ﴿وَأَخَّرْ دَعْوَاهُمْ﴾ [يونس: 10] أي أخر دعائهم؛ وقيل: الدعوى هنا بمعنى الاندعاء، والمعنى: ما كان ما يدعونه لينبئهم ويتحلونه إلا اعترافهم ببطلانه وفساده، واسم كان ﴿إِلَّا أَن قَالُوا﴾ وخبرها ﴿دَعْوَاهُمْ﴾ ويجوز العكس؛ والمعنى: ما كان دعاؤهم إلا قولهم إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ. قوله: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ هذا وعيد شديد، والسؤال للقوم الذين أرسل الله إليهم الرسل من الأمم السالفة للتقريع والتوبيخ، واللام القسم: أي لنسألهم عما أجابوا به رسلهم عند دعوتهم، والفاء لترتيب الأحوال الآخوية على الأحوال النبوية ﴿وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي: الأنبياء الذين بعثهم الله: أي نسألهم عما أجاب به أممهم عليهم ومن أطاع منهم ومن عصى؛ وقيل المعنى: فلنسأل الذين أرسل إليهم: يعني الأنبياء، ولنسأل المرسلين: يعني الملائكة، ولا يعارض هذا قول الله سبحانه: ﴿وَلَا يَسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: 78] لما قدمنا غير مرة أن الآخرة مواطن، ففي مواطن يسألون، وفي مواطن لا يسألون، وهكذا سائر ما ورد مما ظاهره التعارض بأن أثبت تارة ونفى أخرى، بالنسبة إلى يوم القيامة، فإنه محمول على تعدد المواقف مع طول ذلك اليوم طويلاً عظيماً ﴿فَلَنَنْقُصَنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ﴾ أي: على الرسل والمرسل إليهم، ما وقع بينهم عند الدعوة منهم لهم يعلم لا جهل: أي علمين بما يسرون وما يعلنون ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ عنهم في حال من الأحوال حتى يخفى علينا شيء مما وقع بينهم.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في الأسماء والصفات، وابن النجار في تاريخه، عن ابن عباس، في قوله: ﴿الْمَصِّ﴾ قال: أنا الله أقصّل. وأخرج ابن جرير، عن سعيد بن جبيرة، مثله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، أن هذا ونحوه من فواتح السور قسم أقسم الله به، وهي من أسماء الله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن السدي في قوله: ﴿الْمَصِّ﴾ قال: هو المصوّر. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن محمد بن كعب القرظي في قوله: ﴿الْمَصِّ﴾ قال: الألف من الله والميم من الرحمن والصاد من

باب ضرب المثل، كما تقول هذا الكلام في وزن هذا. قال الزجاج: هذا سائغ من جهة اللسان، والأولى أن نتبع ما جاء في الأسانيد الصحاح من نكر الميزان. قال القشيري: وقد أحسن الزجاج فيما قال، إذ لو حمل الصراط على الدين الحق، والجنة والنار على ما يرد على الأرواح دون الأجساد، والشياطين والجن على الأخلاق المذمومة، والملائكة على القوى المحمودة، ثم قال: وقد أجمعت الأمة في الصدر الأول على الأخذ بهذه الظواهر من غير تأويل، وإذا أجمعوا على منع التأويل وجب الأخذ بالظاهر، وصارت هذه الظواهر نصوصاً انتهى. والحق هو: القول الأول. وأما المستبعدون لحمل هذه الظواهر على حقائقها فما يأتون في استبعادهم بشيء من الشرع يرجع إليه، بل غاية ما تشبثوا به مجرد الاستبعادات العقلية، وليس في ذلك حجة على أحد، فهذا إذا لم تقبله عقولهم، فقد قبلته عقول قوم هي أقوى من عقولهم من الصحابة والتابعين وتابعيهم، حتى جاءت البدع كالليل المعظم وقال كل ما شاء، وتركوا الشرع خلف ظهورهم وليتهم جاؤوا بأحكام عقلية يتفق العقلاء عليها، ويتحد قبولهم لها، بل كل فريق يدعى على العقل ما يطابق هواه، ويوافق ما يذهب إليه هو أو من هو تابع له، فتتناقض عقولهم على حسب ما تناقضت مذاهبهم، يعرف هذا كل منصف، ومن أنكره فليصف فهمه وعقله عن شوائب التعصب والتمذهب، فإنه إن فعل ذلك أسفر الصبح لعينيته.

وقد ورد نكر الوزن والموازين في مواضع من القرآن كقوله: ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً﴾ [الأنبياء: 47]، وقوله: ﴿فلإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون﴾ [المؤمنون: 101]، وقوله: ﴿فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون. ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدين﴾ [المؤمنون: 102، 103]، وقوله: ﴿إن لا يظلم مثقال نرة﴾ [النساء: 40]، وقوله: ﴿فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية. وأما من خفت موازينه فأمه هاوية﴾ [القارعة: 6 - 9]، والفاء في ﴿فمن ثقلت موازينه﴾ للتفصيل. والموازين: جمع ميزان، وأصله موزان قلبت الواو ياء لكسر ما قبلها، ونقل الموازين هذا يكون بنقل ما وضع فيها من صحائف الأعمال؛ وقيل: إن الموازين جمع موزون؛ أي فمن رجحت أعماله الموزونة، والأول: أولى. وظاهر جمع الموازين المضافة إلى العامل أن لكل واحد من العاملين موازين يوزن بكل واحد منها صنف من أعماله؛ وقيل: وهو ميزان واحد عبر عنه بلفظ الجمع كما يقال: خرج فلان إلى مكة على البغال، والإشارة بقوله: ﴿فأولئك﴾ إلى من، والجمع باعتبار معناه كما رجع إليه ضمير ﴿موازينه﴾ باعتبار لفظه هو مبتدا خبره ﴿وهم المفلحون﴾ والكلام في قوله: ﴿ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم﴾ مثله، والباء في ﴿بما كانوا بآياتنا يظلمون﴾ سببية، وما مصدرية. ومعنى ﴿يظلمون﴾ يكذبون. قوله: ﴿ولقد مكناكم في

الصد. وأخرج أبو الشيخ، عن الضحاك، قال معناه: أنا الله الصائق، ولا يخفى عليك أن هذا كله قول بالطن، وتفسير بالحس، ولا حجة في شيء من ذلك، والحق ما قلنا في فاتحة سورة البقرة. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس: ﴿فلا يكن في صدوركم حرج منه﴾ قال: الشك، وقال لأعرابي: ما الحرج فيكم؟ قال: اللبس. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد، نحوه. وأخرج أبو الشيخ، عن الضحاك، قال: ضيق. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن مسعود: ما هلك قوم حتى يعنروا من أنفسهم، ثم قرأ ﴿فما كان دعواهم﴾ الآية. وأخرجه ابن جرير عنه مرفوعاً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي، عن ابن عباس: ﴿فلنسلن الذين أرسل إليهم ولنسلن المرسلين﴾ قال: نسال الناس عما لجاؤوا المرسلين، ونسال المرسلين عما بلغوا، فلنقصن عليهم بعلم، قال: بوضع الكتاب يوم القيامة فننكم بما كانوا يعملون. وأخرج عبد بن حميد، عن فرقد، في الآية قال: أحدهما الأنبياء، وأحدهما الملائكة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مجاهد، في الآية قال: نسال الناس عن قول لا إله إلا الله، ونسال جبريل.

وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَن خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ مَكَنَّكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَنَاصِدَ فَمَا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ مَوَزَنَّاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ آلَا سَجَدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ خَلْقِكَ بَنِي ثَارَ وَتَعَلَّقْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ ﴿١٢﴾ قَالَ فَأَخِطْ بِهَا فَمَا تَكُونُ لَهُ أَذٌ تَكْبَرُ فِيهَا فَخَرَّجَ إِيَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ ﴿١٣﴾ قَالَ أَطَّرِقَ إِلَيَّ يَوْمَ يَمُوتُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ يَمَا أَقْرَبَ لَأَمُدَّ لَكُمْ مَرَكَةَ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَا يَنْتَهُرُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبَيْنَ خَلْفِهِمْ وَمَنْ أَتَيْهِمْ وَمَنْ تَحَلَّيْلُهُمْ وَلَا يَجِدُ أَكْرَهُمْ شَكْرَهُمْ ﴿١٧﴾ قَالَ أَمْرَجَ بِهَا مَذْمُومًا مَذْمُورًا لَّنْ يَمَكَّ مِنْهُمْ لَأَتْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمِينَ ﴿١٨﴾

قوله: ﴿والوزن يومئذ الحق﴾ الوزن مبتدا وخبره الحق: أي الوزن في هذا اليوم العدل الذي لا جور فيه، أو الخبر يومئذ، والحق وصف للمبتدا، أي الوزن العدل كائن في هذا اليوم؛ وقيل: إن الحق خبر مبتدا محذوف.

واختلف أهل العلم في كيفية هذا الوزن الكائن في هذا اليوم، فقيل المراد به وزن صحائف أعمال العباد بالميزان وزناً حقيقياً، وهذا هو الصحيح، وهو الذي قامت عليه الأدلة؛ وقيل: توزن نفس الأعمال، وإن كانت أعراضاً فإن الله يقلبها يوم القيامة أجساماً كما جاء في الخبر الصحيح: «إن البقرة وآل عمران يأتیان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيابتان أو فرقان من طير صواف». وكذلك ثبت في الصحيح: أنه يأتي القرآن في صورة شاب شاحب اللون ونحو ذلك؛ وقيل: الميزان الكتاب الذي فيه أعمال الخلق؛ وقيل: الوزن والميزان بمعنى العدل والقضاء، ونكرهما من

الأرض» أي: جعلنا لكم فيها مكاناً وهيئنا لكم فيها أسباب المعاش. والمعاش جمع معيشة: أي ما يتعاش به من المطعوم والمشروب، وما تكون به الحياة، يقال عاش يعيش عيشاً ومعاشاً ومعيشاً. قال الزجاج: المعيشة ما يتوصلون به إلى العيش، والمعيشة عند الأخفش وكثير من النحويين مفعلة. وقرأ الأعرج «معاش» بالهمز، وكذا روى خارجة بن مصعب، عن نافع. قال النحاس: والهمز لحن لا يجوز، لأن الواحدة معيشة والياء أصلية، كمينية ومدائين، وصحيفة وصحاف. قوله: ﴿قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ الكلام فيه كالكلام فيما تقدّم قريباً من قوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَا تَذْكُرُونَ﴾ [الأعراف: 3]. قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ هذا نكر نعمة أخرى من نعم الله على عبده. والمعنى: خلقناكم نطفاً ثم صوّرناكم بعد ذلك، وقيل المعنى: خلقنا آدم من تراب، ثم صوّرناكم في ظهره؛ وقيل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾ يعني: آدم نكر بلفظ الجمع؛ لأنه أبو البشر، ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ راجع إليه، ويدل عليه: ﴿ثُمَّ قَلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ فإن ترتيب هذا القول على الخلق والتصوير يفيد أن المخلوق المصوّر آدم عليه السلام. وقال الأخفش: إن ثم في ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ بمعنى الواو؛ وقيل المعنى: خلقناكم من ظهر آدم ثم صوّرناكم حين أخذنا عليكم الميثاق. قال النحاس: وهذا أحسن الأقوال؛ وقيل المعنى: ولقد خلقنا الأرواح أولاً، ثم صوّرنا الأشباح، ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم؛ أي أمرناهم بذلك فامتثلوا الأمر، وفعلوا السجود بعد الأمر ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ قيل: الاستثناء متصل بتغليب الملائكة على إبليس؛ لأنه كان منفرداً بينهم، أو كما قيل: لأن من الملائكة جنساً يقال لهم الجن؛ وقيل: غير ذلك. وقد تقدّم تحقيقه في البقرة. قوله: ﴿لِمَ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ جملة مبيّنة لما فهم من معنى الاستثناء، ومن جعل الاستثناء منقطعاً قال معناه: لكن إبليس لم يكن من الساجدين، وجملة: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: فماذا قال له الله؟ «لا» في ﴿أَنْ لَا تَسْجُدَ﴾ زائدة للتوكيد بدليل قوله تعالى في سورة ص، ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ﴾ [ص: 75]؛ وقيل إن منع بمعنى قال، والتقدير: من قال لك أن لا تسجد؛ وقيل منع بمعنى دعا: أي ما دعاك إلى أن لا تسجد؛ وقيل: في الكلام حنف، والتقدير: ما منعك من الطاعة وأحوجك إلى أن لا تسجد ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ أي وقت أمرك، وقد استدل به على أن الأمر للفور، والبحث مقرر في علم الأصول، والاستفهام في ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ للتقريع والتوبيخ، وإلا فهو سبحانه عالم بذلك، وجملة: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل: فما قال إبليس؟ وإنما قال في الجواب أنا خير منه، ولم يقل: منعني كذا؛ لأن في هذه الجملة التي جاء بها مستأنفة ما يدل على المنع، وهو اعتقاده أنه أفضل منه. والفاضل لا يفعل مثل ذلك للمفضول مع ما تفيد هذه الجملة من إنكار أن يؤمر مثله بالسجود لمثله. ثم علل ما

أدعاه من الخيرية بقوله: ﴿خَلَقْنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ اعتقاداً منه أن عنصر النار أفضل من عنصر الطين. وقد أخطأ عدو الله، فإن عنصر الطين أفضل من عنصر النار من جهة رزاقته وسكونه، وطول بقائه، وهي حقيقة مضطربة سريعة النفاد، ومع هذا فهو موجود في الجنة دونها، وهي عذاب بونه. وهي محتاجة إليه لتتحيّز فيه، وهو مسجد وطهور، ولولا سبق شقاوته، وصديق كلمة الله عليه، لكان له بالملائكة المطيعين لهذا الأمر أسوة وقوة، فنعصرهم النوري أشرف من عنصره الناري، وجملة: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ﴾ استئنافية كالتي قبلها، والفاء لترتيب الأمر بالهبوط على مخالفته للأمر: أي اهبط من السماء التي هي محل المطيعين من الملائكة الذين لا يعصون الله فيما أمرهم، إلى الأرض التي هي مقر من يعصي ويطيع، فإن السماء لا تصلح لمن يتكبر، ويعصى أمر ربه مثلك، ولهذا قال ﴿فَمَا يَكُنْ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾. ومن التفاسير الباطلة ما قيل إن معنى ﴿اهْبِطْ مِنْهَا﴾ أي: أخرج من صورتك النارية التي افتخرت بها صورة مظلمة مشوهة؛ وقيل المراد هبوطه من الجنة؛ وقيل من زمرة الملائكة، وجملة: ﴿فَاخْرُجْ﴾ لتأكيد الأمر بالهبوط، وجملة: ﴿إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ تعليل للأمر: أي إنك من أهل الصغار، والوهان، على الله وعلى صالح عياده، وهكذا كل من تردى برداء الاستكبار، عوقب بلبس رداء الوهان والصغار. ومن ليس رداء التواضع اليسه الله رداء الترفع، وجملة: ﴿قَالَ انْظُرْنِي إِلَى يَوْمٍ يَبْعَثُونَ﴾ استئنافية كما تقدّم في الجمل السابقة: أي أمهلني إلى يوم البعث، وكأنه طلب أن لا يموت، لأن يوم البعث لا موت بعده، والضمير في ﴿يَبْعَثُونَ﴾ لآدم ونريته، فأجبه الله بقوله: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ أي: الممهلين إلى ذلك اليوم، ثم تعاقب بما قضاه الله لك، وإنزله بك في دركات النار. قيل: الحكمة في إنظاره ابتلاء العباد، ليعرف من يطيعه ممن يعصيه، وجملة: ﴿قَالَ فِيمَا أُغْوِيَنِي﴾ مستأنفة كالجمل السابقة، وأردت جواباً لسؤال مقدر، والباء في ﴿فِيمَا﴾ للسببية، والفاء لترتيب الجملة على ما قبلها؛ وقيل: الباء للقسمة كقوله: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَهُمْ لَجْمَعِينَ﴾ أي: فباغوائك إياي ﴿لَأُغْوِيَنَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، والإغواء: الإيقاع في الغي؛ وقيل: الباء بمعنى اللام، وقيل: بمعنى مع. والمعنى: فمع إغوائك إياي؛ وقيل: ﴿فَمَا﴾ في ﴿فِيمَا أُغْوِيَنِي﴾ للاستفهام. والمعنى: فبأي شيء أغويتني والأول: أولى. ومراده بهذا الإغواء الذي جعله سبباً لما سيفعله مع العباد هو ترك السجود منه، وأن ذلك كان بإغواء الله له، حتى اختار الضلالة على الهدى؛ وقيل: أراد به اللعنة التي لعنه الله: أي فيما لعنتني فاهلكتني، لأعبدن لهم ومنه: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: 59] أي: هلاكاً. وقال ابن الأعرابي: يقال: غوي الرجل يغوي غياً: إذا فسد عليه أمره أو فسد هو في نفسه، ومنه: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه: 121] أي فسد عيشه في الجنة ﴿لَأُعَدْنَ لَهُمْ﴾ أي: لأجهنن

عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «يصاح برجل من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر له تسعة وتسعون سجلاً كل سجل منها مد البصر، فيقول: أتذكر من هذا شيئاً؟ أظلمك كتبتني الحافظون؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: أفلك عذر أو حسنة؟ فيهاب الرجل فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى إن لك عندنا حسنة، وإنه لا ظلم عليك اليوم، فيخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقال: إنك لا تظلم، فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة» وقد صححه أيضاً الترمذي، وإسناده أحمد حسن. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب، عن ابن عباس، في قوله: «ولقد خلقناكم ثم صورناكم» قال: خلقوا في أصلاب الرجال، وصوروا في أرحام النساء. وأخرج الفريابي عنه أنه قال: خلقوا في ظهر آدم، ثم صوروا في الأرحام. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه أيضاً قال: أما خلقناكم فأدم، وأما ثم صورناكم فذريته. وأخرج أبو الشيخ، عن عكرمة، في الآية قال: خلق إبليس من نار العزة. وقد ثبت في الصحيح من حديث عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «خلقت الملائكة من نور، وخلق إبليس من نار، وخلق آدم مما وصفه لكم». وأخرج ابن جرير عن الحسن قال: أوّل من قلس إبليس في قوله: «خلقتني من نار وخلقته من طين» وإسناده صحيح إلى الحسن. وأخرج أبو نعيم في الحلية، والديلمي، عن جعفر بن محمد عن أبيه، عن جده، أن رسول الله ﷺ قال: «أوّل من قلس أمر الدين براه إبليس قال الله له اسجد لأدم، فقال: «إنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين» قال جعفر: فمن قلس أمر الدين براه، قرنه الله يوم القيامة بإبليس، لأنه اتبعه بالقياس، وينبغي أن ينظر في إسناد هذا الحديث، فما اظنه يصح رفعه وهو لا يشبه كلام النبوة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، قال: «فبما أغويتني» أضللتني. وأخرج عبد بن حميد، عنه، في قوله: «لأقعدن لهم صراطك المستقيم» قال: طريق مكة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن مسعود مثله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس «ثم لا أتينهم من بين أيديهم» قال: أشككم في آخرتهم «ومن خلفهم» قال: أرغبهم في دنياهم «وعن إيمانهم» أشبه عليهم أمر دينهم «وعن شمائلهم» قال: أسن لهم المعاصي وأحق عليهم الباطل «ولا تجد أكثرهم شاكرين» قال: موحدين. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه «ثم لا أتينهم من بين أيديهم» يقول: من حيث يبصرون «ومن خلفهم» من حيث لا يبصرون «وعن إيمانهم» من حيث لا يبصرون «وعن شمائلهم» من حيث لا يبصرون. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عنه، أيضاً في الآية قال: لم يستطع أن

في إغوائهم حتى يفسدوا بسببي كما فسدت بسبب تركي السجود لأبيهم. والصراط المستقيم هو الطريق الموصل إلى الجنة، وانتصابه على الظرفية: أي في صراطك المستقيم كما حكى سيبويه ضرب زيد الظهر والبطن، واللام في «لأقعدن» لام القسم، والباء في «بما أغويتني» متعلقة بفعل القسم المحذوف: أي فيما أغويتني أقسم لأقعدن. قوله: «ثم لا أتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن إيمانهم وعن شمائلهم» نكر الجهات الأربع؛ لأنها هي التي يأتي منها العدو عنوه، ولهذا ترك نكر جهة الفوق والتحت، وعدى الفعل إلى الجهتين الأوليين بمن، وإلى الآخرين بعن، لأن الغالب فيمن يأتي من قدام وخلف أن يكون متوجهاً إلى ما يأتيه بكلية بدنه، والغالب فيمن يأتي من جهة اليمين والشمال أن يكون منحرفاً، فناسب في الأوليين التعدية بحرف الابتداء، وفي الآخرين التعدية بحرف المجاوزة، وهو تمثيل لوسوسته وتسويله بمن يأتي حقيقة؛ وقيل المراد: «من بين أيديهم» من دنياهم «ومن خلفهم» من آخرتهم «وعن إيمانهم» من جهة حسناتهم «عن شمائلهم» من جهة سيئاتهم، واستحسنه النحاس. قوله: «ولا تجد أكثرهم شاكرين» أي وعند أن أفعل ذلك لا تجد أكثرهم شاكرين لتأثير وسوستي فيهم وإغوائي لهم، وهذا قاله على الظن ومنه قوله تعالى: «ولقد صنق عليهم إبليس ظنه» [سبأ: 20]، وقيل: إنه سمع ذلك من الملائكة فقال، وعبر بالشكر عن الطاعة أو هو على حقيقته وأنهم لم يشكروا الله بسبب الإغواء، وجملة «قال أخرج منها» استئناف، كالجمال التي قبلها: أي من السماء أو الجنة أو من بين الملائكة كما تقدم «مذموماً» أي: مذموماً من ذامه إذا زمه، يقال: ذامته وذمعت به معنى. وقرأ الأعمش «مذموماً». وقرأ الزهري «مذموماً» بغير همزة؛ وقيل المذموم: المنفي، والمذخور: المطرود. قوله: «لمن تبعك منهم» قرأ الجمهور بفتح اللام على أنها لام القسم، وجوابه: «لأملأن جهنم منكم لجمعين» وقيل: اللام في «لمن تبعك» للتوكيد، وفي «لأملأن» لام القسم. والأوّل: أوّل، وجواب القسم سدّ سدّ جواب الشرط، لأن من شرطية، وفي هذا الجواب من التهديد ما لا يقاير قدره. وقرأ عاصم في رواية عنه «لمن تبعك» بكسر اللام، وأنكره بعض النحويين. قال النحاس: وتقديره، والله أعلم، من أجل من اتبعك؛ كما يقال: أكرمت فلاناً لك؛ وقيل: هو علة لأخرج، وضمير «منكم» له ولمن اتبعه، وغلب ضمير الخطاب على ضمير الغيبة، والأصل منك ومنهم.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: «والوزن يومئذ الحق» قال: العدل «فمن ثقلت موازينه» قال: حسناته «ومن خفت موازينه» قال: حسناته. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي، توزن الأعمال. وقد ورد في كيفية الميزان والوزن والموزون أحاديث كثيرة. وأخرج أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مريويه، والبيهقي، عن

تكونا ملكين ﴿أو تكونا من الخالدين﴾ في الجنة، أو من الذين لا يموتون. قال النحاس: فضل الله الملائكة على جميع الخلق في غير موضع في القرآن، فمنها هذا، ومنها: ﴿ولا أقول إنني ملك﴾ [هود: 31]، ومنها ﴿ولا الملائكة المقربون﴾ [النساء: 172]. قال ابن فورك: لا حجة في هذه الآية، لأنه

يحتمل أن يريد ملكين في أن لا يكون لهما شهوة في الطعام. وقد اختلف الناس في هذه المسألة اختلافاً كثيراً، وأطالوا الكلام في غير طائل، وليست هذه المسألة مما كلفنا الله بعلمه، فالكلام فيها لا يعنيننا. وقرأ ابن عباس، ويحيى بن أبي كثير، والضحاك «ملكين» بكسر اللام، وأنكر أبو عمرو بن العلاء هذه القراءة وقال: لم يكن قبل آدم ملك فيصير ملكين. وقد احتج من قرأ بالكسر بقوله تعالى: ﴿هل انلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى﴾ [طه: 120]. قال أبو عبيد: هذه حجة بينة لقراءة الكسر، ولكن الناس على تركها فلهذا تركناها. قال النحاس: هي قراءة شاذة، وأنكر على أبي عبيد، هذا الكلام وجعله من الخطأ الفاحش. قال وهل يجوز أن يتوهم على آدم عليه السلام أن يصل إلى أكثر من ملك الجنة وهي غاية الطالبين، وإنما معنى ﴿وملك لا يبلى﴾ المقام في ملك الجنة والخلود فيه. قوله: ﴿وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين﴾ أي: حلف لهما فقال: أقسم قسماً أي: حلف، ومنه قول الشاعر:

وقاسمهما بالله جهداً لأنتما الذن السلوى ما إذا نشورها
وصيغة المفاعلة وإن كانت في الأصل تدل على المشاركة، فقد جاءت كثيراً لغير ذلك. وقد قمنا بتحقيق هذا في المائدة، والمراد بها هنا المبالغة في صدور الأقسام لهما من إبليس؛ وقيل: إنهما أقسما له بالقبول، كما أقسم لهما على المناصحة، قوله: ﴿فدلاهما بغرور﴾ التولية والإدلاء: إرسال الشيء من أعلى إلى أسفل، يقال أدلى لدوه: أرسلها والمعنى: أنه أبطهما بذلك من الرتبة العالية إلى الأكل من الشجرة؛ وقيل معناه: أوقعهما في الهلاك؛ وقيل: خدعهما، وأنشد نبطويه:

إن الكريم إذا تشاء خدعته وترى اللئيم مجرباً لا يخدع
وقيل معنى: ﴿دلأهما﴾ للهما من الدالة، وهي الجراءة: أي جأهما على المعصية، فخرجا من الجنة. قوله: ﴿فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سواتهما﴾ أي: لما طعامها ظهرت لهما عوراتهما، بسبب زوال ما كان ساتراً لهما، وهو تقلص النور الذي كان عليهما. وقد تقدم في البقرة، قوله: ﴿وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة﴾ طفق يفعل كذا بمعنى: شرع يفعل كذا. وحكى الأخفش: طفق يطفق مثل ضرب يضرب أي: شرعاً أو جعلاً يخصفان عليهما. قرأ الحسن «يخصفان» بكسر الخاء وتشديد الصاد، والأصل يخصفان، فادغم وكسرت الخاء لالتقاء الساكنين. وقرأ ابن بريدة ويعقوب بفتح الخاء. وقرأ الزهري «يخصفان» من أخصف. وقرأ الجمهور «يخصفان» من خصف. والمعنى: أنهما أخذوا يقطعان الورق ويلزقانه بعورتهم ليستراهما، من خصف

يقول من فوقهم. وفي لفظ علم أن الرحمة تنزل من فوقهم. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه، في قوله: ﴿منذوما﴾ قال: ملوماً، مسحوراً: قال مقيماً. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد ﴿منذوما﴾ قال: منغياً ﴿مسحوراً﴾ قال: مطروداً.

وَبَهَذَا أُنْكَرَ أَنْتَ وَرَبُّكَ أَلَجَّةً ذِكْلًا مِنْ حَيْثُ يَنْشَأُ وَلَا تَقْرَأُ هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ فَوَسَّوْا لَهَا الشَّيْطَانُ يُبَوِّى لَهَا مَا وُورَى عَنْهَا مِنْ سَوَاءٍ لَهَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿١١﴾ وَكَاسَمَهُمَا إِيَّيْكَمَا أَنْ لَا تَنْكِحَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا فَتَكُونَا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهَا سَوءُ ثِيَابٍ وَكُلِفَتَا يَحْصِيَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقٍ لَمَسَتْهُمَا فَكَانَا رَجَمًا أَوْ أَنْهَكَا عَنْ يَتَكَمَا الشَّجَرَةَ وَأَقَالَ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكَا عَدُوٌّ خَبِيرٌ ﴿١٢﴾ قَالَ رَبَّنَا طَعْنَا نَفْسَنَا وَإِنْ لَرَّ تَقَرَّرْنَا وَرَزَقْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَفَعَمَلُوا بِضُرٍّ لِيَتَّبِعُنَا عَدُوٌّ وَلَكِنْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَفَرٍّ وَمَنْعَ إِلَى جَهَنَّمَ قَالَ فِيهَا عَجْوَةٌ وَفِيهَا تَمْرُونَ وَمِنْهَا تَغْرَبُونَ ﴿١٤﴾

قوله: ﴿ويا آدم﴾ هو على تقدير القول أي: وقلنا يا آدم. قال له هذا القول، بعد إخراج إبليس من الجنة، أو من السماء، أو من بين الملائكة كما تقدم. وقد تقدم معنى الإسكان، ومعنى: ﴿لا تقربا هذه الشجرة﴾ في البقرة. ومعنى: ﴿ومن حيث شئتما﴾ من أي نوع من أنواع الجنة شئتما أكله، ومثله ما تقدم من قوله تعالى: ﴿وكلما منها رغداً حيث شئتما﴾ [البقرة: 35] وحذف النون من ﴿فتكونا﴾ لكونه معطوفاً على المجزوم، أو منصوباً على أنه جواب النهي. قوله: ﴿فوسوس لهما الشيطان﴾ الوسوسة: الصوت الخفي، والوسوسة: حديث النفس، يقال وسوست إليه نفسه وسوسة ووسواساً بكسر الواو، والوسوسة بالفتح الاسم: مثل الزلزلة والزلال، ويقال لهمس الصائد والكلاب، وأصوات الحلي: وسواس. قال الأعشى:

تسمع للحلي وسواساً إذا انصرف

والوسواس: اسم الشيطان. ومعنى وسوس له: وسوس إليه، أو فعل الوسوسة لأجله. قوله: ﴿ليبدي لهما﴾ أي: ليظهر لهما، واللام للعاقبة، كما في قوله: ﴿ليكون لهم عذراً وحزناً﴾ [القصص: 8]؛ وقيل هي لام كي: أي فعل ذلك ليتعقبه الإيذاء، أو لكي يقع الإيذاء. قوله: ﴿وما ووري﴾ أي ما ستر وغطي ﴿عنهما من سواتهما﴾ سمي الفرج سوءة، لأن ظهوره يسوء صاحبه، أراد الشيطان أن يسوءهما بظهور ما كان مستوراً عنهما من عوراتهما، فإنهما كانا لا يريان عورة أنفسهما، ولا يراهما أحدهما من الآخر، وإنما لم تقلب الواو في ﴿ووري﴾ همزة، لأن الثانية مدة؛ قيل: إنما بدت عورتها لهما لا لغيرهما، وكان عليهما نور يمنع من رؤيتها ﴿وقال﴾ أي: الشيطان لهما ﴿ما نهاكما ربكما عن﴾ أكل هذه الشجرة ﴿إلا أن تكونا ملكين﴾ أن في موضع نصب، وفي الكلام مضاف محذوف تقديره: ولا كراهة أن تكونا ملكين، هكذا قال البصريون. وقال الكوفيون: التقدير لئلا

أَوَّلِيَّةٌ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَخَسِرْتُ أَنْفُسَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢٣﴾

الفاحشة: ما تبالغ في فحشه وقبحه من الذنوب. قال أكثر المفسرين: هي طواف المشركين بالبيت عراة. وقيل هي الشرك، والظاهر أنها تصدق على ما هو أعم من الأمرين جميعاً، والمعنى: أنهم إذا فعلوا ذنباً قبيحاً متبالغاً في القبح، اعتذروا عن ذلك بعدزين: الأول: أنهم فعلوا ذلك اقتداءً بأبائهم لما وجدوه مستمرين على فعل تلك الفاحشة؛ والثاني: أنهم مأمورون بذلك من جهة الله سبحانه. وكلا العذرين في غاية البطلان والفساد، لأن وجود آبائهم على القبح لا يسوغ لهم فعله، والأمر من الله سبحانه لهم لم يكن بالفحشاء، بل أمرهم باتتباع الأنبياء والعمل بالكتب المنزلة ونهاهم عن مخالفتهم، ومما نهاهم عنه فعل الفواحش، ولهذا رد الله سبحانه عليهم بأن أمر نبيه ﷺ أن يقول لهم: **«إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ»** فكيف تدعون ذلك عليه سبحانه، ثم أنكر عليهم ما أضافوه إليه، فقال: **«اتَّقُوا اللَّهَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ»** وهو من تمام ما أمر النبي ﷺ بأن يقوله لهم، وفيه من التقرع والتوبيخ أمر عظيم، فإن القول بالجهل إذا كان قبيحاً في كل شيء، فكيف إذا كان في التقول على الله؟ وإن في هذه الآية الشريفة لأعظم زاجر، وأبلغ واعظ، للمقلدة الذين يتبعون آبائهم في المذاهب المخالفة للحق، فإن ذلك من الاقتداء بأهل الكفر لا بأهل الحق، فإنهم القائلون: **«إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ»** [الزخرف: 23] والقائلون **«وَجِئْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرْنَا بِهَآءِ»** والمقلد لولا اغتراره بكونه وجد أباه على ذلك المذهب، مع اعتقاده بأنه الذي أمر الله به، وأنه الحق لم يبق عليه، وهذه الخصلة هي التي بقي بها اليهودي على اليهودية، والنصراني على النصرانية، والمبتدع على بدعته، فما أباهم على هذه الضلالات إلا كونهم وجدوا آبائهم في اليهودية، والنصرانية، أو البدعية، وأحسنوا الظن بهم، بأن ما هم عليه هو الحق الذي أمر الله به، ولم ينظروا لأنفسهم، ولا طلبوا الحق كما يجب، وبحثوا عن دين الله كما ينبغي، وهذا هو التقليد البحت والقصور الخالص، فإما من نشأ على مذهب من هذه المذاهب الإسلامية أنا لك التنذير المبالغ في التحذير، من أن تقول هذه المقالة وتستمر على الضلالة، فقد اختلط الشر بالخير، والصحيح بالسقيم، وفسد الرأي بصحيح الرواية، ولم يبعث الله إلى هذه الأمة إلا نبياً واحداً أمرهم باتتباعه ونهى عن مخالفته فقال: **«مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا»** [الحشر: 7] ولو كان محض رأي أئمة المذاهب واتتباعهم حجة على العباد، لكان لهذه الأمة رسل كثيرون متعبدون بعدد أهل الرأي المكلفين للناس بما لم يكلفهم الله به. وإن من أعجب الغفلة، وأعظم الذهول عن الحق، اختيار المقلدة لآراء الرجال مع وجود كتاب الله، ووجود سنة رسوله، ووجود من يأخذونهم عنه، ووجود آلة الفهم لديهم، وملكة العقل عندهم. قوله: **«قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ»** القسط: العدل، وفيه أن الله سبحانه يأمر بالعدل،

بقوله **«ثَلَاثٌ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ»** إلى الإنزال الملل عليه بأنزلنا: أي ذلك الإنزال من آيات الله الدالة على أن له خالقاً، ثم كرر الله سبحانه النداء لبني آدم تحذيراً لهم من الشيطان، فقال: **«يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكَ الشَّيْطَانُ»** أي: لا يوقعنكم في الفتنة، فالنهي وإن كان للشيطان، فهو في الحقيقة لبني آدم بأن لا يفتتنوا بفتنته ويتأثروا لذلك، والكاف في **«كَمَا أَخْرَجَ»** نعت مصدر محذوف: أي لا يفتتننكم فتنة مثل إخراج أبيكم من الجنة، وجملة: **«يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا»** في محل نصب على الحال، وقد تقدم تفسيره، واللام في **«لِيُرِيَهُمَا سَوَاتِهِمَا»** لام كي: أي لكي يريهما، وقد تقدم تفسيره أيضاً. قوله: **«إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْهُنَّ»** هذه الجملة تعليل لما قبلها، مع ما تتضمنه من المبالغة في تحذيرهم منه، لأن من كان بهذه المثابة يرى بني آدم من حيث لا يرونه، كان عظيم الكيد، وكان حقيقةً بأن يحترس منه أبلغ احتراس **«وَقَبِيلُهُ»** أعوانه من الشياطين وجنوده.

وقد استدل جماعة من أهل العلم بهذه الآية على أن رؤية الشياطين غير ممكنة، وليس في الآية ما يدل على ذلك، وغاية ما فيها أنه يرانا من حيث لا نراه، وليس فيها أنا لا نراه أبداً، فإن انتفاء الرؤية منا له في وقت رؤيته لنا لا يستلزم انتفاءها مطلقاً، ثم أخبر الله سبحانه بأنه جعل الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون من عباده وهم الكفار.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: **«يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوَاتِكُمْ»** قال: كان ناس من العرب يطوفون بالبيت عراة، وفي قوله: **«وَرِيثًا»** قال: المال. وأخرج ابن جرير، عن عروة بن الزبير، في قوله: **«لِبَاسًا يُوَارِي سَوَاتِكُمْ»** قال: الثياب **«وَرِيثًا»** قال: المال **«وَلِبَاسٌ لِلتَّقْوَى»** قال: خشية الله. وأخرج ابن أبي حاتم، عن زيد بن علي، في قوله: **«لِبَاسًا يُوَارِي سَوَاتِكُمْ»** قال: لباس العامة **«وَرِيثًا»** قال: لباس الزينة **«وَلِبَاسٌ لِلتَّقْوَى»** قال: الإسلام. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن طريق عن ابن عباس، في قوله: **«وَرِيثًا»** قال: المال واللباس والعيش والنعيم، وفي قوله: **«وَلِبَاسٌ لِلتَّقْوَى»** قال: الإيمان والعمل الصالح **«ثَلَاثٌ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ»** قال: الإيمان والعمل خير من الريش واللباس، وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه، في قوله: **«وَرِيثًا»** يقول: المال. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: **«يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا»** قال: التقوى، وفي قوله: **«إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ»** قال: الجن والشياطين.

وَإِذَا قَالُوا فَتْنَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آيَاتَنَا وَاللَّهُ أَمَرْنَا بِهَآءِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٤﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٥﴾ قَرِيبًا مَدَدًا وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا

ذكر القدرية فقال: قاتلهم الله، ليس قد قال الله تعالى: ﴿كما بداكم تعوبون فريفاً هدى وفريفاً حق عليهم الضلالة﴾. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه، أيضاً في الآية: يقول كما خلقناكم أول مرة كذلك تعوبون.

﴿يَنْتَهِ عَذَابٌ يُذَكِّرُكَ عَذَابَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ ﴿١١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْكَلْبَتَيْنِ مِنَ الزَّيْنِ قُلْ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ تَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَكَتْ وَالْأَنَامُ وَالَّذِي يَغْتَرِ بِئْسَ الْفِتْنَىٰ تَشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا تَدْرِي بِدُعَائِهِمْ وَإِنَّا عَلَيْنَا مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

هذا خطاب لجميع بني آدم، وإن كان وارداً على سبب خاص، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب والزينة ما يترتب به الناس من الملبوس، أمروا بالترتين عند الحضور إلى المساجد للصلاة والطواف. وقد استدلل بالآية على وجوب ستر العورة في الصلاة، وإليه ذهب جمهور أهل العلم، بل سترها واجب في كل حال من الأحوال، وإن كان الرجل خالياً كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة، والكلام على العورة وما يجب ستره منها مفصل في كتب الفروع. قوله: ﴿كلوا واشربوا ولا تسرفوا﴾ أمر الله سبحانه عباده بالأكل والشرب، ونهاهم عن الإسراف، فلا زهد في ترك مطعم ولا مشرب، وتاركه بالمرّة قاتل لنفسه، وهو من أهل النار، كما صح في الأحاديث الصحيحة، والمقلد منه على وجه يضعف به بدنه ويعجز عن القيام بما يجب عليه القيام به من طاعة أو سعي على نفسه، وعلى من يعول مخالفاً لما أمر الله به وأرشد إليه، والمسرف في إنفاقه على وجه لا يفعله إلا أهل السفه، والتبذير مخالف لما شرعه الله لعباده واقع في النهي القرآني؛ وهكذا من حرّم حلالاً أو حلل حراماً، فإنه يدخل في المسرفين ويخرج عن المقتصدین. ومن الإسراف الأكل لا لحاجة، وفي وقت شبع. قوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ الزينة: ما يترتب به الإنسان، من ملبوس أو غيره من الأشياء المباحة، كالمعان التي لم يرد نهى عن التزين بها، والجواهر ونحوها؛ وقيل الملبوس خاصة، ولا وجه له، بل هو من جملة ما تشمله الآية، فلا حرج على من لبس الثياب الجيدة الغالية القيمة إذا لم يكن مما حرّمه الله، ولا حرج على من تزين بشيء من الأشياء التي لها مدخل في الزينة، ولم يمنع منها مانع شرعي، ومن زعم أن ذلك يخالف الزهد فقد غلط غلطاً بيئاً. وقد قدّمنا في هذا ما يكفي، وهكذا الطيبات من المطاعم والمشارب ونحوهما، مما يأكله الناس، فإنه لا زهد في ترك الطيب منها، ولهذا جاءت الآية هذه معنونة بالاستفهام المتضمن للإنكار على من حرّم ذلك على نفسه، أو حرّمه على غيره. وما أحسن ما قال ابن جرير الطبري: ولقد أخطأ من أثر لباس الشعر والصوف على لباس القطن والكتان، مع وجود السبيل إليه من حله، ومن أكل البقول والعس، واختاره على خبز البر، ومن ترك

لا كما زعموه من أن الله أمرهم بالفحشاء؛ وقيل القسط هنا هو: لا إله إلا الله، وفي الكلام حذف: أي قل أمر ربي بالقسط فأطيعوه. قوله: ﴿واقصموا وجوهكم عند كل مسجد﴾ معطوف على المحنوف المقدر: أي توجهوا إليه في صلاتكم إلى القبلة في أي مسجد كنتم، أو في كل وقت سجود، أو في كل مكان سجود، على أن المراد بالسجود: الصلاة ﴿وادعوه مخلصين له الدين﴾ أي: ادعوه أو اعبوه حال كونكم مخلصين الدعاء، أو العبادة له؛ وقيل: وحده ولا تشركوا به. قوله: ﴿كما بداكم تعوبون﴾ الكاف: نعت مصدر محنوف. وقال الزجاج: هو متعلق بما قبله. والمعنى: كما أنشاكم في ابتداء الخلق يعيدكم، فيكون المقصود الاحتجاج على منكري البعث، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته؛ وقيل: كما أخرجكم من بطون أمهاتكم تعوبون إليه كذلك ليس معكم شيء، فيكون مثل قوله تعالى: ﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة﴾ [الأنعام: 94] وقيل: كما بداكم من تراب تعوبون إلى التراب ﴿فريفاً هدى﴾ منتصب بفعل يفسره ما بعده؛ وقيل: منتصب على الحال من المضمر في تعوبون: أي تعوبون فريقتين: سعداء وأشقياء، ويقويه قراءة أبي «فريقتين فريفاً هدى»، والفريق الذي هداه الله هم: المؤمنون بالله المتبعون لأنبيائه، والفريق الذي حققت عليه الضلالة: هم الكفار. قوله: ﴿إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله﴾ تعليل لقوله: ﴿وفريفاً حق عليهم الضلالة﴾ أي: ذلك بسبب أنهم أطاعوا الشياطين في معصية الله، ومع هذا فإنهم ﴿يحسبون أنهم مهتدون﴾، ولم يعترفوا على أنفسهم بالضلالة، وهذا أشد في تمردهم وعنادهم.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة﴾ قال: كانوا يطوفون بالبيت عراة، فنهوا عن ذلك. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي مثله. وأخرج ابن أبي حاتم، عن محمد بن كعب نحوه. وأخرج عبد بن حميد، عن قتادة في الآية قال: والله ما أكرم الله عبداً قط على معصيته، ولا رضيتها له ولا أمر بها، ولكن رضي لكم بطاعته، ونهاكم عن معصيته، وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد، في قوله: ﴿أمر ربي بالقسط﴾ قال: بالعدل ﴿واقصموا وجوهكم عند كل مسجد﴾ قال: إلى الكعبة حيث صليتم في كنيسة أو غيرها ﴿كما بداكم تعوبون﴾ قال: شقي وسعيد. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿كما بداكم تعوبون﴾ الآية قال: إن الله بدأ خلق بني آدم مؤمناً وكافراً كما قال: ﴿هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن﴾ [التغابن: 2] ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأ خلقهم مؤمناً وكافراً. وأخرج ابن جرير، عن جابر في الآية قال: يبعثون على ما كانوا عليه المؤمن على إيمانه والمنافق على نفاقه. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، عنه أنه

جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عنه، في الآية قال: كان الرجال يطوفون بالبيت عراة فامرهم الله بالزينة. والزينة: اللباس وما يوارى السوء، وما سوى ذلك من جيد البر والمتاع. وأخرج ابن عدي، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «خذوا زينة الصلاة، قالوا: وما زينة الصلاة؟ قال: البسوا نعالكم فصلوا فيها». وأخرج العقيلي، وأبو الشيخ، وابن مردويه، وابن عساكر، عن أنس، عن النبي ﷺ في قول الله: «**خذوا زينتكم عند كل مسجد**»، قال: صلوا في نعالكم. والأحاديث في مشروعية الصلاة في النعل كثيرة جداً، وأما كون ذلك هو تفسير الآية كما روي في هذين الحديثين فلا أدري كيف إسنادهما. وقد ورد النهي عن أن يصلي الرجل في الثوب الواحد ليس على عاتقه منه شيء، وهو في الصحيحين وغيرهما، من حديث أبي هريرة. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الشعب، عن ابن عباس، قال: أحل الله الأكل والشرب ما لم يكن سرفاً أو مخيلة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه، في قوله: «**إنه لا يحب للمسرفين**»، قال: في الطعام والشراب. وأخرج عبد بن حميد، والنسائي، وابن ماجه، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب، من طريق عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ قال: «كلوا واشربوا وتصدقوا والبسوا في غير مخيلة ولا سرف، فإن الله سبحانه يحب أن يرى أثر نعمته على عبده». وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس، قال: كانت قريش تطوف بالبيت، وهم عراة يصفرون ويصفقون، فأنزل الله: «**قل من حرم زينة الله**»، فامروا بالثياب أن يلبسوها. «**قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة**»، قال: ينتفعون بها في الدنيا لا يتبعهم فيها ما ثم يوم القيامة. وأخرج عبد بن حميد، وأبو الشيخ، عن الضحاك «**قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا**»، قال: المشركون يشاركون المؤمنين في زهرة الدنيا، وهي خالصة يوم القيامة للمؤمنين دون المشركين. وأخرج أبو الشيخ، عن ابن عباس «**والطيبات من الرزق**»، قال: الولد، واللحم، والسمن. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه، قال: كان أهل الجاهلية يحرمون أشياء أحلها الله من الثياب وغيرها، وهو قول الله: «**قل أرايتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً**» [يونس: 59] وهذا هذا، فأنزل الله: «**قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا**»، يعني: شارك المسلمون الكفار في الطيبات في الحياة الدنيا، فأكلوها من طيبات طعامها، ولبسوا من جيد ثيابها ونكحوا من صالح نساها، ثم يخلص الله الطيبات في الآخرة للذين آمنوا، وليس للمشركين فيها شيء. وأخرج أبو الشيخ، عن ابن عباس، قال: ما ظهر منها العرية، وما بطن الزنا، وكانوا يطوفون بالبيت عراة. وأخرج ابن جرير،

أكل اللحم خوفاً من عارض الشهوة. وقد قدّمنا نقل مثل هذا عنه مطوّلاً. والطيبات المستلذات من الطعام؛ وقيل هو اسم عام لما طاب كسباً ومطعماً. قوله: «**قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا**»، أي: أنها لهم بالأصالة، وإن شاركهم الكفار فيها ما داموا في الحياة «**خالصة يوم القيامة**»، أي: مختصة بهم يوم القيامة، لا يشاركهم فيها الكفار. وقرأ نافع «خالصة» بالرفع، وهي قراءة ابن عباس، على أنها خبر بعد خبر. وقرأ الباقر بالنصب على الحال. قال أبو علي الفارسي: ولا يجوز الوقف على الدنيا؛ لأن ما بعدها متعلق بقوله: «**للذين آمنوا**»، حال منه بتقدير: قل هي ثابتة للذين آمنوا في الحياة الدنيا في حال خلوصها لهم يوم القيامة، قوله: «**كذلك تفصل الآيات لقوم يعلمون**»، أي: مثل هذا التفصيل تفصل الآيات المشتملة على التحليل والتحريم. قوله: «**قل إنما حرم ربي الفواحش**»، جمع فاحشة. وقد تقدّم تفسيرها «**ما ظهر منها وما بطن**»، أي: ما أعلن منها وما أسر، وقيل: هي خاصة بفواحش الزنا، ولا وجه لذلك؛ والإثم يتناول كل معصية يتسبب عنها الإثم؛ وقيل: هو الخمر خاصة؛ ومنه قول الشاعر:

شربت الإثم حتى ضل عقلي كذا الإثم تذهب بالعقول ومثله قول الآخر:

يشرب الإثم بالصواع جهارا

وقد أنكر جماعة من أهل العلم على من جعل الإثم خاصاً بالخمر. قال النحاس: فاما أن يكون الإثم الخمر فلا يعرف ذلك، وحقيقته أنه جميع المعاصي، كما قال الشاعر:

إنني وجبت الأمر أرشده تقوى الله وشره الإثم

قال الفراء: الإثم ما تون الحق والاستطالة على الناس انتهى. وليس في إطلاق الإثم على الخمر ما يدل على اختصاصه به، فهو أحد المعاصي التي يصدق عليها. قال في الصحاح: وقد يسمى الخمر إثماً، وأنشد:

شربت الإثم

البيت، وكذا أنشده الهروي قبله في غريبته. قوله: «**والبغي بغير الحق**»، أي: الظلم المجاوز للحد، وأفرده بالذكر بعد دخوله فيما قبله لكونه ذنباً عظيماً كقوله: «**وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي**» [النحل: 90] «**وإن تشرکوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً**»، أي: وإن تجعلوا شريكاً لم ينزل عليكم به حجة. والمراد التهكم بالمشركين، لأن الله لا ينزل برهاناً بأن يكون غيره شريكاً له: «**وإن تقولوا على الله ما لا تعلمون**»، بحقيقته وأن الله قاله، وهذا مثل ما كانوا ينسبون إلى الله سبحانه من التحليلات والتحريمات التي لم يأن بها.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، ومسلم، والنسائي، وغيرهم، عن ابن عباس، أن النساء كنّ يطفن عراة إلا أن تجعل المرأة على فرجها خرقة وتقول:

اليوم يلبس ببعضه أركله وما بدا منه فلا أحله فنزلت: «**خذوا زينتكم عند كل مسجد**». وأخرج ابن

عن مجاهد، في الآية قال: ما ظهر منها طواف الجاهلية عراة، وما بطن الزنا. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي، في قوله: ﴿وَالْإِثْمُ﴾ قال المعصية ﴿وَالْبَغْيُ﴾ قال: أن يبغي على الناس بغير حق.

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَعِذُونَ ﴿٢١﴾ بَنِي آدَمَ إِذَا يَأْتِيَكُمْ رَسُولٌ مِنْكُمْ يَخْبِتُونَ مِنْكُمْ خِيفَةً فَأَنَّى تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا حَافَظٍ عَلَيْكَ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَمْحَوا أَسْمَاءَهُمْ فِيهَا خِلَافٌ ﴿٢٤﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَتَخَوَّمُونَ عَنْهُم مِّنْ أَلْفِ مِائَةٍ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُنَا يُخَبِّرُهُمْ قَالُوا بَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنْهُ وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ أَتَدْعُونِي إِلَىٰ أَسْمَاءٍ مَّا كُنْتُ فِيهَا أُنَادِي بِرَبِّكَ إِنَّكَ تَدْعُونِي إِلَىٰ مُلْكٍ لَّكَ لَمْ تَكُنْ أَخْبَأَ حَقِّي إِذًا أَذْكَرٌ فِيهَا جِئًا قَالَتْ أَخْرِجْنِي بِأُورْثَتِي وَأَنْتَ مُلْكٌ لَّكَ أَصْلُكَ فَفَاتِنَهُمْ عَذَابًا جَهَنَّمَ إِنَّ الْأُنَارَ قَالَ لِكُلِّ ذِي نَفْسٍ وَلَكِنَّ لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَتْ أُولُنَّ لَأَغْرَبَنَّكَ مَا كُنْتَ تَكْفُرُ عَلَيْنَا مِن قَبْلُ فَذَرُونَا لَعَذَابِ مَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٢٧﴾

قوله: ﴿ولكل أمة أجل﴾ أي: وقت معين محدود ينزل فيه عذابهم من الله أو يميتهم فيه، ويجوز أن تحمل الآية على ما هو أعم من الأمرين جميعاً، والضمير في ﴿أجلهم﴾ لكل أمة: أي إذا جاء أجل كل أمة من الأمم كان ما قدره عليهم واقعاً في ذلك الأجل، لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون عنه ساعة. قال أبو السعود ما معناه: إن قوله: ﴿ولا يستقدمون﴾ عطف على ﴿يستأخرون﴾ لكن لا لبيان انتفاء التقدّم، مع إمكانه في نفسه، كالتأخر بل للمبالغة في انتفاء التأخر بنظمه في سلك المستحيل عقلاً؛ وقيل المراد بالمجيء النور بحيث يمكن التقدّم في الجملة كمجيء اليوم الذي ضرب لهلاكهم ساعة منه وليس بذلك. وقرأ ابن سيرين ﴿أجلهم﴾ بالجمع، وخصّ الساعة بالذكر لأنها أقل أسماء الأوقات. وقد استدلل بالآية الجمهور على أن كل ميت يموت بأجله، وإن كان موته بالقتل أو التردّي أو نحو ذلك، والبحث في ذلك طويل جداً، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون﴾ [الحجر: 5]. قوله: ﴿يا بني آدم إما يأتينكم﴾ الآية، إن هي الشرطية، ما زائدة للتوكيد، ولهذا لزمت الفعل النون المؤكدة، والقصص قد تقدّم معناه؛ والمعنى: إن أتاكم رسل كاثنون منكم يخبرونكم بأحكامي ويبينونها لكم، ﴿فمن اتقى وأصلح﴾ أي: اتقى معاصي الله، وأصلح حال نفسه باتباع الرسل، وإجابتهم ﴿فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ وهذه الجملة الشرطية هي الجواب للشرط الأول؛ وقيل جوابه ما دلّ عليه الكلام: أي إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي، فأطيعوهم. والأول: أولى، وبه قال الزجاج ﴿والذين كذبوا بآياتنا﴾ التي يقصها عليهم رسلنا ﴿واستكبروا﴾ عن إجابتها، والعمل بما فيها ﴿فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ لا يخرجون

منها، بسبب كفرهم بتكذيب الآيات والرسل ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته﴾ أي: لا أحد أظلم منه. وقد تقدّم تحقيقه، والإشارة بقوله: ﴿أولئك﴾ إلى المكذبين المستكبرين ﴿ينالهم نصيبهم من الكتاب﴾ أي: مما كتب الله لهم من خير وشر؛ وقيل: ينالهم من العذاب بقدر كفرهم؛ وقيل: الكتاب هنا القرآن لأن عذاب الكفار منكور فيه؛ وقيل هو اللوح المحفوظ. قوله: ﴿حتى إذا جاءتهم رسلنا﴾ أي: إلى غاية هي هذه، وجملة ﴿يتوفونهم﴾ في محل نصب على الحال. والمراد بالرسول هنا: ملك الموت وأعوانه؛ وقيل: حتى هنا هي التي للابتداء، ولكن لا يخفى أن كونها لابتداء الكلام بعدها لا ينافي كونها غاية لما قبلها، والاستفهام في قوله ﴿أين ما كنتم تدعون من دون الله﴾ للتقريع والتوبيخ: أي أين الآلهة التي كنتم تدعونها من دون الله وتعبدونها، وجملة ﴿قالوا ضلوا عنا﴾ استئنافية بتقدير سؤال وقعت هي جواباً عنه: أي ذهبوا عنا وغابوا فلا ندري أي هم؟ ﴿وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين﴾ أي: أقروا بالكفر على أنفسهم. قوله: ﴿قال انخلوا في أمم قد خلت من قبلكم﴾ القائل: هو الله عز وجل، ﴿وفي﴾ بمعنى مع: أي مع أمم؛ وقيل: هي على بابها، والمعنى: انخلوا في جملتهم؛ وقيل: هو قول مالك خازن النار، والمراد بالأمم التي قد خلت من قبلهم من الجن والإنس: هم الكفار من الطائفتين من الأمم الماضية ﴿كلما دخلت أمة﴾ من الأمم الماضية ﴿لبعثنا أختها﴾ أي: الأمة الأخرى التي سبقتها إلى النار، وجعلت أختاً لها باعتبار الدين، أو الضلالة، أو الكون في النار ﴿حتى إذا أذكوا فيها﴾ أي: تداركوا، والتدارك: التلاحق والتتابع، والاجتماع في النار. وقرأ الأعمش «تداركوا» على الأصل من نون إدغام. وقرأ ابن مسعود «حتى إذا أذكوا» أي: أذك بعضهم بعضاً. وروي عن أبي عمرو أنه قرأ بقطع ألف الوصل، فكانه سكت على إذا للتكرار، فلما طال سكوته، قطع ألف الوصل كالمبتدئ بها، وهو مثل قول الشاعر:

يا نفس صبراً كل حي لاقى وكل اثنين إلى افتراق
﴿قالت أخراهم لأولاهم﴾ أي: أخراهم دخلاً لأولاهم دخلاً؛ وقيل أخراهم: أي سفلتهم واتباعهم ﴿لأولاهم﴾ لرؤسائهم وكبارهم، وهذا أول كما يدل عليه ﴿ربنا هؤلاء أضلونا﴾ فإن المضلين هم الرؤساء. ويجوز أن يراد أنهم أضلوه لأنهم تبعوهم واقتدوا بدينهم من بعدهم، فيصح الوجه الأول، لأن أخراهم تبعت دين أولاهم قوله: ﴿فأتتهم عذاباً ضعفاً من النار﴾ الضعف الزائد على مثله مرة أو مرات، ومثله قوله تعالى: ﴿ربنا آتتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كثيراً﴾ وقيل: الضعف هنا الأفاعي والحيات، وجملة ﴿قال لكل ضعف﴾ استئنافية جواباً لسؤال مقدّر؛ والمعنى لكل طائفة منكم ضعف من العذاب: أي الطائفة الأولى، والطائفة الأخرى ﴿ولكن لا تعلمون﴾ بما لكل نوع من العذاب ﴿وقالت أولاهم لأخراهم﴾ أي: قال السابقون

لعل ضعف الأولي والآخرة ﴿وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل﴾ وقد ضللتكم كما ضللنا. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿عذاباً ضعفاً﴾ قال: مضاعفاً ﴿قال لكل ضعف﴾ قال: مضاعف، وفي قوله: ﴿فما كان لكم علينا من فضل﴾ قال: تخفيف من العذاب.

إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿١١﴾ ثُمَّ يَنْزِلُ فِيهِمْ مِثْرَةٌ مِنْ يَوْمِهِمْ تَأْتِي فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْفَاطِلِينَ ﴿١٢﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا تُكَذِّبُ نَفْسٌ إِلَّا أَوَّلَهَا وَآخِرَهَا أَجْنَبٌ كَبِيرٌ ﴿١٣﴾

قوله: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ قرأ ابن عباس، وحمزة، والكسائي بفتح التحتية؛ لكون تانيث الجمع غير حقيقي فجاز تنكيره. وقرأ الباقون بالفوقية على التانيث. وقرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي، تفتح بالتخفيف. وقرأ الباقون بالتشديد، والمعنى: أنها لا تفتح أبواب السماء لأرواحهم إذا ماتوا، وقد دل على هذا المعنى، وأنه المراد من الآية: ما جاء في الأحاديث الصحيحة، أن الملائكة إذا انتهوا بروح الكافر إلى السماء الدنيا يستفتحون فلا تفتح لهم أبواب السماء؛ وقيل لا تفتح أبواب السماء لأدعيتهم إذا دعوا: قاله مجاهد والنخعي؛ وقيل لأعمالهم: أي لا تقبل، بل ترد عليهم فيضرب بها في وجوههم؛ وقيل المعنى: أنها لا تفتح لهم أبواب الجنة يدخلونها، لأن الجنة في السماء، فيكون على هذا القول العطف لجملة ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ من عطف التفسير، ولا مانع من حمل الآية على ما يعم الأرواح والدعاء والأعمال، ولا ينافيه ورود ما ورد من أنها لا تفتح أبواب السماء لواحد من هذه، فإن ذلك لا يدل على فتحها لغيره، مما يدخل تحت عموم الآية. قوله: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ أي: أن هؤلاء الكفار المكذبين المستكبرين، لا يدخلون الجنة بحال من الأحوال، ولهذا علقه بالمستحيل، فقال: ﴿حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ وهو لا يلج أبداً، وخص الجمل بالذكر؛ لكونه يضرب به المثل في كبر الذات، وخص سَمَّ الخياط، وهو ثقب الإبرة بالذكر؛ لكونه غاية في الضيق. والجمل: الذكر من الإبل، والجمع جمال وأجمال وجمالات، وإنما يسمى جملاً إذا أربع. وقرأ ابن عباس «الجمل» بضم الجيم وفتح الميم مشددة، وهو حبل السفينة الذي يقال له القلس، وهو حبال مجموعة قاله ثعلب؛ وقيل الحبل الغليظ من القنب؛ وقيل الحبل الذي يصعد به في النخل. وقرأ سعيد بن جبير «الجمل» بضم الجيم وتخفيف الميم؛ وهو القلس أيضاً. وقرأ أبو السماك «الجمل» بضم الجيم وسكون الميم. وقرئ أيضاً بضمهما. وقرأ عبد الله بن مسعود «حتى يلج الجمل الأصغر في سم الخياط» وقرئ «في سم»

اللاحقين، أو المتبوعون للتابعين ﴿فما كان لكم علينا من فضل﴾ بل نحن سواء في الكفر بالله واستحقاق عذابه ﴿فتنوقوا﴾ عذاب النار، كما نقتله ﴿بما كنتم تكسبون﴾ من معاصي الله والكفر به.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مريويه، والخطيب، وابن النجار، عن أبي الدرداء قال: تذاكرنا زيادة العمر عند رسول الله ﷺ، فقلنا من وصل رحمه أنسى في أجله فقال: إنه ليس بزال في عمره، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ ولكن الرجل يكون له الذرية الصالحة، فيدعون الله من بعده فيبلغه ذلك، فذلك الذي ينسا في أجله. وفي لفظ: فيلحقه دعاؤه في قبره، فذلك زيادة العمر. وهذا الحديث ينبغي أن يكشف عن إسناده، ففيه نكارة، وقد جاءت الأحاديث الصحيحة في الصحيحين وغيرهما بخلافه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن أبي عروبة، قال: كان الحسن يقول: ما أحق هؤلاء القوم يقولون اللهم أطل عمره، والله يقول: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، من طريق الزهري، عن ابن المسيب قال: لما طعن عمر قال كعب: لو دعا الله لأخر في أجله، فقليل له: اليس قد قال الله: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ فقال كعب: وقد قال الله: ﴿وَمَا يَعْمَرُ مِنْ مَعْمَرٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عَمْرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ [فاطر: 11]. وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿لَوْلَاكَ يَنْتَاهِمُ نَصِيْبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾ قال: ما قدر لهم من خير وشر. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه، في الآية قال: من الأعمال، من عمل خيراً جزى به، ومن عمل شراً جزى به. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عنه، أيضاً قال: نصيبهم من الشقاوة والسعادة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، في الآية قال: ما سبق من الكتاب. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب في الآية قال: رزقه وأجله وعمله. وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن أبي صالح، في الآية قال: من العذاب. وأخرج عبد بن حميد عن الحسن مثله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي، في قوله: ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ قال: قد مضت ﴿كَلِمَا بَخَلْتُ أُمَّةً لَعَنْتُ لُحْتَهَا﴾ قال: كلما بخلت أمة ملة لعنوا أصحابهم على ذلك، يلعن المشركون المشركين، واليهود اليهود، والنصارى النصارى، والصابئون الصابئين، والمجوس المجوس، تلعن الآخرة الأولى ﴿حَتَّى إِذَا دَارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أَخْرَاهُمْ﴾ الذين كانوا في آخر الزمان ﴿لأولاهم﴾ الذين شرعوا لهم ذلك الدين ﴿ربنا هؤلاء اضلونا فاتهم عذاباً ضعفاً من النار قال

تَتَكَبَّرُونَ ﴿١٥﴾ أَهْلَؤَلَا الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ حَزُونَ ﴿١٦﴾

مناداة أصحاب الجنة لأصحاب النار لم تكن لقصد الإخبار لهم بما نادوهم به، بل لقصد تبيكيتهم وإيقاع الحسرة في قلوبهم، ﴿وَأَنْ قَدْ وَجِئْنَا﴾ هو نفس النداء: أي إنا قد وصلنا إلى ما وعدنا الله به من النعيم، فهل وصلتم إلى ما وعيدكم الله به من العذاب الأليم، والاستفهام هو للتقريع والتوبيخ، وحذف مفعول وعد الثاني لكون الوعد لم يكن لهم بخصوصهم، بل لكل الناس كالبعث والحساب والعقاب؛ وقيل حذف لإسقاط الكفار عن رتبة التشريف بالخطاب عند الوعد: ﴿قَالُوا نَعَمْ﴾ أي: وجئنا ما وعدنا ربنا حقاً. وقرأ الأعمش والكسائي «نعم» بكسر العين. قال مكي: من قال نعم بكسر العين فكأنه أراد أن يفرق بين نعم التي جواب وبين نعم التي هي اسم للبقر والغنم والإبل. والمؤذن: المنادي، أي: فنادي مناد بينهم: أي بين الفريقين؛ قيل: هو من الملائكة ﴿إِنْ لَعَنَ اللَّهُ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ قرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، والبزي، بتشديد أن وهو الأصل. وقرأ الباقر بالتخفيف على أنها المخففة من الثقيلة أو المفسرة. وقرأ الأعمش بكسر همزة إن على إضمار القول، وجملة: ﴿الَّذِينَ يَصْنُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ صفة للظالمين، ويجوز الرفع والنصب على إضمارهم، أو أعني. والصد: المنع: أي يمنعون الناس عن سلوك سبيل الحق ﴿وَيُيَفِقُونَهَا عَوْجاً﴾ أي: يطلبون عوجاجها: أي ينفرون الناس عنها ويقنحون في استقامتها، يقولهم إنها غير حق وإن الحق ما هم فيه، والعوج بالكسر في المعاني والأعيان ما لم يكن منتصباً، وبالفتح ما كان في المنتصب كالرمح، وجملة: ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ في محل نصب على الحال. قوله: ﴿وَيُؤَيِّنُهَا حِجَابٌ﴾ أي: بين الفريقين أو بين الجنة والنار. والحجاب هو السور المذكور في قوله تعالى: ﴿فَضْرِبْ بَيْنَهُمْ بَسُورَ﴾ [الحديد: 13]. قوله: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ الأعراف: جمع عرف، وهي شرفات السور المضروب بينهم، ومنه عرف الفرس وعرف الديك والأعراف في اللغة: المكان المرتفع، وهذا الكلام خارج مخرج المدح كما في قوله: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ نَكْرِ اللَّهِ﴾ [النور: 37].

وقد اختلف العلماء في أصحاب الأعراف من هم؟ فقيل هم الشهداء، ذكره القشيري وشرحبيل بن سعد؛ وقيل: هم فضلاء المؤمنين، فرغوا من شغل أنفسهم وتفرغوا لمطالعة أحوال الناس ذكره مجاهد؛ وقيل: هم قوم أنبياء ذكره الزجاج؛ وقيل: هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، قاله ابن مسعود وحذيفة بن اليمان، وابن عباس والشعبي، والضحاك وسعيد بن جبير؛ وقيل هم العباس وحمزة وعلي وجعفر الطيار، يعرفون محبيهم ببياض الوجوه ومبغضيهم بسوادها، حكى ذلك عن ابن عباس؛ وقيل: هم عدول القيامة الذين يشهدون على الناس بأعمالهم وهم في كل أمة، واختار

هذا القول النحاس؛ وقيل هم أولاد الزنا، روي ذلك عن ابن عباس؛ وقيل: هم ملائكة موكلون بهذا السور، يميزون الكافرين من المؤمنين قبل إدخالهم الجنة والنار، ذكره أبو مجلز، وجملة: ﴿يُعْرِفُونَ كَلَامَ سَيِّمَاهُمْ﴾ صفة لرجال: والسيما العلامة: أي يعرفون كلاماً من أهل الجنة والنار بعلاماتهم كبياض الوجوه وسوادها، أو مواضع الوضوء من المؤمنين، أو علامة يجعلها الله لكل فرق في ذلك الموقف، يعرف رجال الأعراف بها السعداء من الأشقياء ﴿وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ أي: نادى رجال الأعراف أصحاب الجنة حين رؤيتهم ﴿إِنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: نادوهم بقولهم سلام عليكم، تحية لهم وإكراماً وتبشيراً، أو أخبروهم بسلامتهم من العذاب. قوله: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ أي: لم يدخل الجنة أصحاب الأعراف، والحال أنهم يطمعون في دخولها؛ وقيل معنى: ﴿يَطْمَعُونَ﴾ يعلمون أنهم يدخلونها وذلك معروف عند أهل اللغة: أي طمع بمعنى علم. ذكره النحاس. وهذا القول أعني كونهم أهل الأعراف مروى عن جماعة منهم ابن عباس وابن مسعود. وقال أبو مجلز: هم أهل الجنة: أي أن أهل الأعراف قالوا لهم سلام عليكم، حال كون أهل الجنة لم يدخلوها والحال أنهم يطمعون في دخولها. قوله: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ أي: إذا صُرِفَتْ أبصار أهل الأعراف لتلقاء أصحاب النار: أي جهة أصحاب، وأصل معنى ﴿تِلْقَاءَ﴾ جهة اللقاء، وهي جهة المقابلة، ولم يأت مصدر على تفعال بكسر أؤله غير مصدرين، أحدهما هذا، والآخر تبيان، وما عدهما بالفتح ﴿قَالُوا﴾ أي: قال أهل الأعراف ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ سألوا الله أن لا يجعلهم منهم ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالاً﴾ من الكفار ﴿يُعْرِفُونَهُمْ بِسَيِّمَاهُمْ﴾ أي بعلاماتهم ﴿قَالُوا﴾ بدل من نادى ﴿مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ الذي كنتم تجمعون للصّد عن سبيل الله، والاستفهام للتقريع والتوبيخ، قوله: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾. «ما» مصدرية أي: وما أغنى عنكم استكباركم ﴿أَهْلُؤَلَا الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ هذا من كلام أصحاب الأعراف: أي قالوا للمسلمين ادخلوا الجنة، فقد انتفى عنكم الخوف والحزن بعد الدخول. وقرأ طلحة بن مصرف «ادخلوا» بكسر الخاء.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿إِنْ قَدْ وَجِئْنَا مَا وَعَدْنَا رَبَّنَا حَقّاً﴾ قال: من النعيم والكرامة ﴿فَهَلْ وَجِئْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً﴾ قال: من الخزي والهوان والعذاب. وأخرج ابن أبي شيبة، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عمر: أن النبي ﷺ لما وقف على قليب بدر

وابن مردويه، عن عبد الله بن مالك الهلالي، عن أبيه مرفوعاً نحوه. وأخرج ابن مردويه، عن ابن عباس مرفوعاً نحوه. وأخرج أبو الشيخ، وابن مردويه، عن رجل من مزينة مرفوعاً نحوه. وأخرج أبو الشيخ، عن أبي عبيدة بن محمد بن عمار، أنه سئل عن قوله: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ قال: سلمت عليهم الملائكة وهم لم يدخلوها وهم يطمعون أن يدخلوها حين سلمت. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن السدي قال: أصحاب الأعراف يعرفون الناس بسيماهم، أهل النار بسواد وجوههم وأهل الجنة ببياض وجوههم، فإذا مروا بزمرة يذهب بهم إلى الجنة قالوا سلام عليكم، وإذا مروا بزمرة يذهب بها إلى النار ﴿قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم، عن ابن عباس ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجُلًا﴾ قال: في النار ﴿يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تُسْتَكْبِرُونَ﴾ قال الله لأهل التكبر ﴿أَهْؤَلاءِ الَّذِينَ اقْسَمْتُمْ لَا يَنْالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ يعني: أصحاب الأعراف ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾.

وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَمْحَبَ الْجَنَّةُ أَنْ أَتِيَهُوا عَسَىٰ يَنْزِلَ إِلَيْكُم مِّنْ رَبِّكُم أَنَّهُ قَالَ لَكُمْ اللَّهُ حَرَمُهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلِبَاسًا وَغَرَّتُهُمْ الْخَبْرَةُ الْأُنْثَىٰ فَالْيَوْمَ نَنْسَهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوا مِن قَبْلِ قَدِّ جَلَّتْ رُسُلُنَا إِلَٰهِي قَدْ لَنَا مِن شَفَاعَةٍ فَيَسْأَلُونَكَ أَوِ لَرُدِّ قَعَمَلٍ غَيْرِ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَرَضُوا عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٥٣﴾ إِنَّكَ رَبُّكَ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُبْشِرُ الْإِنْسَانَ الْكَفَّارَ بِطَلْبِهِ حِينَئِذٍ تَأْتِي السَّمَاءُ وَكُلُّهَا سَحَابٌ وَأَرْسَلْنَا إِلَىٰ قُلُوبِ الْأُمَمِ بَرَكَاتِ اللَّهِ رَبُّ الْمَرْبِيِّينَ ﴿٥٤﴾

قوله: ﴿إِنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾ بالإفاضة: التوسعة، يقال أفاض عليه نعمه، طلبوا منهم أن يواسوهم بشيء من الماء، أو بشيء مما رزقهم الله من غيره من الأشربة أو الأطعمة، فأجابوا بقولهم: ﴿إِنْ اللَّهُ حَرَمُهُمَا﴾ أي: الماء وما رزقهم الله من غيره ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ فلا نواسيكم بشيء مما حرمه الله عليكم؛ وقيل: إن هذا النداء من أهل النار كان بعد دخول أهل الأعراف الجنة، وجملة ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلِبَاسًا﴾ في محل جر صفة الكافرين، وقد تقدم تفسير اللهو واللعب والغرر. قوله: ﴿فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ﴾ أي: نتركهم في النار ﴿كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ الكاف نعت مصدر محذوف، وما مصدرية: أي نسياناً كنسيانهم لقاء يومهم هذا. قوله: ﴿وَمَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ معطوف على ما نسوا: أي كما نسوا، وكما كانوا بآياتنا يحدون: أي ينكرونها، واللام في ﴿وَلَقَدْ جَفَنَاهُمْ﴾ جواب القسم. والمراد بالكتاب الجنس، إن كان الضمير للكفار جميعاً، وإن كان

تلا هذه الآية. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن السدي، في قوله: ﴿وَيُنِيبُهُمَا حِجَابٌ﴾ قال: هو السور وهو الأعراف، وإنما سمي الأعراف لأن أصحابه يعرفون الناس. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، عن حنيفة قال: الأعراف سور بين الجنة والنار. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي في البعث والنشور، عن ابن عباس قال: الأعراف هو الشيء المشرف. وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وأبو الشيخ، عنه، قال: الأعراف سور له عرف كعرف الديك. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن سعيد بن جبيرة، قال: الأعراف جبال بين الجنة والنار فهم على أعرافها، يقول على نراها. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس، أنها تل بين الجنة والنار حبس عليه ناس من أهل الذنوب: وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن جرير، قال: زعموا أنه الصراط. وأخرج ابن جرير، عن حنيفة قال: أصحاب الأعراف قوم كانت لهم أعراف أنجاهم الله بها من النار، وهم آخر من يدخل الجنة، قد عرفوا أهل الجنة وأهل النار، وأخرج ابن جرير، عن ابن مسعود: أنهم من استوت حسناتهم وسيئاتهم يقفون على الصراط. وأخرج ابن جرير عن حنيفة نحوه. وكذا أخرج نحوه عنه عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ. وأخرج أبو الشيخ، وابن مردويه، وابن عساکر، عن جابر بن عبد الله نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير قال: سئل رسول الله ﷺ عن أصحاب الأعراف؟ فقال: «هم آخر من يفصل بينهم من العباد، فإذا فرغ رب العالمين من الفصل بين العباد قال: أنتم قوم لخرجتكم حسناتكم من النار ولم تدخلوا الجنة فأنتم عتقائي، فارعوا من الجنة حيث شئتم». قال ابن كثير: وهذا مرسل حسن وأخرج البيهقي في البعث عن حنيفة أراه قال: قال رسول الله ﷺ «يجمع الناس يوم القيامة فيؤمر بأهل الجنة إلى الجنة ويؤمر بأهل النار إلى النار، ثم يقال لأصحاب الأعراف ما تنتظرون؟ قالوا: ننتظر أمرك، فيقال لهم: إن حسناتكم تجاوزت بكم النار أن تدخلوها وحالت بينكم وبين الجنة خطاياكم، فاندخلوا بمغفرتي ورحمتي». وأخرج سعيد بن منصور، وابن منيع، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ وابن مردويه، والبيهقي في البعث، عن عبد الرحمن المزني قال: سئل رسول الله ﷺ عن أصحاب الأعراف؟ فقال: «هم قوم قتلوا في سبيل الله في معصية آبائهم، فمنعهم من النار قتلهم في سبيل الله، ومنعهم من الجنة معصيتهم آباءهم». وأخرج الطبراني، وابن مردويه بسند ضعيف عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً نحوه. وأخرج ابن مردويه، والبيهقي في البعث، عن أبي هريرة مرفوعاً نحوه أيضاً. وأخرج الحارث بن أبي أسامة في مسنده، وابن جرير،

والمعاصرين للنبي ﷺ، فالمراد بالكتاب: القرآن، والتفصيل للتبيين، و﴿على علم﴾ في محل نصب على الحال: أي عالمين حال كونه ﴿هدى﴾ للمؤمنين ﴿ورحمة﴾ لهم. قال

الكسائي والفراء: ويجوز «هدى ورحمة» بالخفض على النعت لكتاب. قوله: ﴿هل ينظرون إلا تأويله﴾ بالهمز من آل، وأهل المدينة يخفون الهمزة. والنظر الانتظار: أي هل ينظرون إلا ما وعدوا به في الكتاب من العقاب الذي يثول الأمر إليه؛ وقيل: تأويله جزأؤه؛ وقيل عاقبته. والمعنى

متقارب. ويوم ظرف ليقول: أي يوم يأتي تأويله، وهو يوم القيامة ﴿يقول الذين نسوه من قبل﴾ أي تركوه من قبل أن يأتي تأويله ﴿قد جاءت رسل ربنا بالحق﴾ الذي أرسلهم الله به إلينا ﴿فهل لنا من شفعاء﴾ استفهام منهم؛ ومعناه التمني ﴿فيشفعوا لنا﴾ منصوب لكونه جواباً للاستفهام. قوله: ﴿أو نرد﴾ قال الفراء: المعنى أو هل نرد ﴿فنعمل غير الذي كنا نعمل﴾ وقال الزجاج: نرد عطف على المعنى: أي هل يشفع لنا أحد أو نرد. وقرأ ابن أبي إسحاق: ﴿أو نرد فتعمل﴾ بنصبهما، كقول امرئ القيس:

فقلت له لا تبك عينك إنما نحاول ملكاً أو نموت فنعززا
وقرأ الحسن برفعهما، ومعنى الآية: هل لنا شفعاء يخلصونا مما نحن فيه من العذاب، أو هل نرد إلى الدنيا فنعمل صالحاً غير ما كنا نعمل من المعاصي ﴿قد خسروا أنفسهم﴾ أي: لم ينتفعوا بها، فكانت أنفسهم بلاء عليهم ومحنة لهم، فكانتهم خسروها كما يخسر التاجر رأس ماله؛ وقيل خسروا النعيم وحظ الأنفس ﴿ووصل عنهم ما كانوا يفترون﴾ أي: افتراؤهم أو الذي كانوا يفترونه. والمعنى أنه بطل كذبهم الذي كانوا يقولونه في الدنيا، أو غاب عنهم ما كانوا يجعلونه شريكاً لله فلم ينتفعهم ولا حضر معهم. قوله: ﴿إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام﴾ هذا نوع من بديع صنع الله، وجليل قدرته، وتفرد به بالإيجاد، الذي يوجب على العباد توحيد عبادته. وأصل ستة سسة أبطل التاء من أحد السيتين وأدغم فيها الدال، والنليل على هذا أنك تقول في التصغير سديسة، وفي الجمع أسداس، وتقول جاء فلان سادساً. واليوم من طلوع الشمس إلى غروبها، قيل: هذه الأيام من أيام الدنيا؛ وقيل: من أيام الآخرة، وهذه الأيام الست أولها الأحد وآخرها الجمعة، وهو سبحانه قادر على خلقها في لحظة واحدة يقول لها كوني فتكون، ولكنه أراد أن يعلم عباده الرفق والثبات في الأمور، أو خلقها في ستة أيام لكون لكل شيء عنده أجلاً، وفي آية أخرى ﴿ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب﴾ [ق: 38]. قوله: ﴿ثم استوى على العرش﴾:

قد اختلف العلماء في معنى هذا على أربعة عشر قولاً، وأحقها وأولها بالصواب مذهب السلف الصالح أنه: استوى سبحانه عليه بلا كيف بل على الوجه الذي يليق به مع تنزهه عما لا يجوز عليه، والاستواء في لغة العرب هو العلو للمعاصرين للنبي ﷺ، فالمراد بالكتاب: القرآن، والتفصيل للتبيين، و﴿على علم﴾ في محل نصب على الحال: أي عالمين حال كونه ﴿هدى﴾ للمؤمنين ﴿ورحمة﴾ لهم. قال الكسائي والفراء: ويجوز «هدى ورحمة» بالخفض على النعت لكتاب. قوله: ﴿هل ينظرون إلا تأويله﴾ بالهمز من آل، وأهل المدينة يخفون الهمزة. والنظر الانتظار: أي هل ينظرون إلا ما وعدوا به في الكتاب من العقاب الذي يثول الأمر إليه؛ وقيل: تأويله جزأؤه؛ وقيل عاقبته. والمعنى متقارب. ويوم ظرف ليقول: أي يوم يأتي تأويله، وهو يوم القيامة ﴿يقول الذين نسوه من قبل﴾ أي تركوه من قبل أن يأتي تأويله ﴿قد جاءت رسل ربنا بالحق﴾ الذي أرسلهم الله به إلينا ﴿فهل لنا من شفعاء﴾ استفهام منهم؛ ومعناه التمني ﴿فيشفعوا لنا﴾ منصوب لكونه جواباً للاستفهام. قوله: ﴿أو نرد﴾ قال الفراء: المعنى أو هل نرد ﴿فنعمل غير الذي كنا نعمل﴾ وقال الزجاج: نرد عطف على المعنى: أي هل يشفع لنا أحد أو نرد. وقرأ ابن أبي إسحاق: ﴿أو نرد فتعمل﴾ بنصبهما، كقول امرئ القيس:

فقلت له لا تبك عينك إنما نحاول ملكاً أو نموت فنعززا
وقرأ الحسن برفعهما، ومعنى الآية: هل لنا شفعاء يخلصونا مما نحن فيه من العذاب، أو هل نرد إلى الدنيا فنعمل صالحاً غير ما كنا نعمل من المعاصي ﴿قد خسروا أنفسهم﴾ أي: لم ينتفعوا بها، فكانت أنفسهم بلاء عليهم ومحنة لهم، فكانتهم خسروها كما يخسر التاجر رأس ماله؛ وقيل خسروا النعيم وحظ الأنفس ﴿ووصل عنهم ما كانوا يفترون﴾ أي: افتراؤهم أو الذي كانوا يفترونه. والمعنى أنه بطل كذبهم الذي كانوا يقولونه في الدنيا، أو غاب عنهم ما كانوا يجعلونه شريكاً لله فلم ينتفعهم ولا حضر معهم. قوله: ﴿إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام﴾ هذا نوع من بديع صنع الله، وجليل قدرته، وتفرد به بالإيجاد، الذي يوجب على العباد توحيد عبادته. وأصل ستة سسة أبطل التاء من أحد السيتين وأدغم فيها الدال، والنليل على هذا أنك تقول في التصغير سديسة، وفي الجمع أسداس، وتقول جاء فلان سادساً. واليوم من طلوع الشمس إلى غروبها، قيل: هذه الأيام من أيام الدنيا؛ وقيل: من أيام الآخرة، وهذه الأيام الست أولها الأحد وآخرها الجمعة، وهو سبحانه قادر على خلقها في لحظة واحدة يقول لها كوني فتكون، ولكنه أراد أن يعلم عباده الرفق والثبات في الأمور، أو خلقها في ستة أيام لكون لكل شيء عنده أجلاً، وفي آية أخرى ﴿ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب﴾ [ق: 38]. قوله: ﴿ثم استوى على العرش﴾:

فلأورد بهم ماء ثقيفاً بقفرة وقد خلق النجم اليماني فاستوى
أي: علا وارتفع. والعرش. قال الجوهري: هو سرير الملك. ويطلق العرش على معان أخر منها عرش البيت: سقفه، وعرش البشر: طيها بالخشب، وعرش السماك: أربعة كواكب صغار، ويطلق على الملك والسلطان والعرز ومنه قول زهير:

تداركتما عبساً وقد ثل عرشها ونبيان إذ زلت بأقدامها النعل
وقول الآخر:

إن يقتلوك فقد ثللت عروشهم بعنينة بن الحرث بن شهاب
وقول الآخر:

رأوا عرشي تثلج جانباه فلما أن تثلج أقرنوني
وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة صفة عرش الرحمن، وإحاطته بالسموات والأرض وما بينهما وما عليهما، وهو المراد هنا. قوله: ﴿يغشي الليل النهار﴾ أي: يجعل الليل كالغشاء للنهار، فيغطي بظلمته ضياءه. وقرأ عاصم وحزمة والكسائي «يغشي» بالتشديد، وقرأ الباقر بالتخفيف وهما لغتان، يقال أغشى يغشي، وغشى يغشي، والتغشية في الأصل: لباس الشيء الشيء، ولم ينكر في هذه الآية يغشي الليل بالنهار اكتفاء بأحد الأمرين عن الآخر كقوله تعالى:

﴿سراويل تقيكم الحر﴾ [النحل: 81]. وقرأ حميد بن قيس «يغشي الليل النهار» على إسناد الفعل إلى الليل، ومحل هذه الجملة النصب على الحال، والتقدير: استوى على العرش مغشياً الليل النهار، وهكذا قوله: ﴿يطلبه حثيثاً﴾ حال من الليل: أي حال كون الليل طالباً للنهار طلباً حثيثاً لا يفتقر عنه بحال، وحثيثاً صفة مصدر محذوف، أي يطلبه طلباً حثيثاً: أو حال من فاعل يطلب. والحث: الاستعجال والسرعة، يقال ولي حثيثاً: أي مسرعاً. قوله: ﴿والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره﴾ قال الأخفش: معطوف على السموات، وقرأ ابن عامر برفعها كلها على الابتداء والخبر. والمعنى على الأول: وخلق الشمس والقمر والنجوم حال كونها مسخرات، وعلى الثاني: الإخبار عن هذه بالتسخير. قوله: ﴿إلا له الخلق والأمر﴾ إخبار منه سبحانه لعباده بأنهما له، والخلق: المخلوق، والأمر: كلامه، وهو كن في قوله: ﴿إنما أمرنا شيء إذا أرادنا أن نقول له كن فيكون﴾ [النحل: 40]، أو المراد بالأمر ما يأمر به على التفصيل، أو التصرف في مخلوقاته، ولما ذكر سبحانه في هذه الآية خلق السموات والأرض في ذلك الأمد اليسير، ثم ذكر استواءه على عرشه وتسخير الشمس والقمر والنجوم، وأن له الخلق والأمر. قال:

﴿تبارك الله رب العالمين﴾ أي: كثرت بركته واتسعت، ومنه بورك الشيء وبورك فيه، كذا قال ابن عرفة. وقال الأزهري في **﴿تبارك﴾** معناه تعالى وتعاظم. وقد تقدم تفسير **﴿رب العالمين﴾** في الفاتحة مستكملاً.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: **﴿ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة﴾** الآية قال: ينادي الرجل أخاه فيقول: يا أخي اغثنني، فإني قد احترقت، فأقض عليّ من الماء، فيقال أجب، فيقول: إن الله حرّمهما على الكافرين. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السديّ في قوله: **﴿فيضيوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله﴾** قال: من الطعام. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن زيد، في الآية قال: يستسقونهم ويستطعمونهم، وفي قوله: **﴿إن الله حرّمهما على الكافرين﴾** قال: طعام الجنة وشرابها. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات، عن ابن عباس، في قوله: **﴿فاليوم ننسأهم كما نسأ لقاء يومهم هذا﴾** يقول: نتركهم في النار كما تركوا لقاء يومهم هذا. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، في قوله: **﴿فاليوم ننسأهم﴾** قال: نؤخرهم. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: **﴿هل ينظرون إلا تأويله﴾** قال: عاقبته. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، قال: **﴿يوم يأتي تأويله﴾** جزأه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس: **﴿يوم يأتي تأويله﴾** قال: يوم القيامة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس **﴿ما كانوا يفترون﴾** قال: ما كانوا يكذبون في الدنيا. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس، في قوله: **﴿خلق السموات والأرض في ستة أيام﴾** قال: كل يوم مقداره ألف سنة. وأخرج ابن مردويه، عن أم سلمة، قال في قوله: **﴿استوى على العرش﴾** الكيف: غير معقول، والاستواء غير مجهول، والإقرار به إيمان، والجحد كفر. وأخرج اللالكائي عن مالك أن رجلاً سأله كيف استوى على العرش؟ فقال: الكيف غير معقول والاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة. وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب الدعاء والخطيب في تاريخه، عن الحسن بن علي، قال: أنا ضامن لمن قرأ هذه العشرين آية في كل ليلة أن يعصمه الله من كل سلطان ظالم، ومن كل شيطان مريد، ومن كل سبع ضاري، ومن كل لص عادي: آية الكرسي، وثلاث آيات من الأعراف **﴿إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض﴾** [الأعراف: 54 - 56] وعشراً من أول سورة الصفات، وثلاث آيات من الرحمن. أولها **﴿يا معشر الجن والإنس﴾** [الرحمن: 33 - 35]، وخاتمة الحشر. وأخرج أبو الشيخ بن عبيد بن أبي مزروق قال: من قرأ عند نومه **﴿إن ربكم الله الذي خلق**

السموات والأرض﴾ الآية، بسط عليه ملك جناحه حتى يصبح، وعوفي من السرقة. وأخرج أبو الشيخ عن محمد بن قيس صاحب عمر بن عبد العزيز قال: مرض رجل من أهل المدينة فجاءه زمرة من أصحابه يعولونه، فقرأ رجل منهم: **﴿إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض﴾** الآية كلها، وقد أصمت الرجل فتحرّك ثم استوى جالساً، ثم سجد يومه وليلته حتى كان من الغد من الساعة التي سجد فيها، قال له أهله، الحمد لله الذي عافاك، قال: بعث إلى نفسي ملك يتوفأها، فلما قرأ صاحبكم الآية التي قرأ، سجد الملك وسجدت بسجوده، فهذا حين رفع رأسه، ثم مال فقضى. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن السديّ، في قوله: **﴿يغشى الليل النهار﴾** قال: يغشى الليل النهار فيذهب بضوئه، ويطلبه سريعاً حتى يدركه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة، قال: يلبس الليل النهار. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: **﴿حجثا﴾** قال: سريعاً. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سفيان بن عيينة، في قوله: **﴿الا له الخلق والأمر﴾** قال: الخلق ما دون العرش، والأمر ما فوق ذلك. وأخرج ابن أبي حاتم، والبيهقي، عنه، قال: الخلق هو الخلق والأمر هو الكلام.

أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يَجِبُ الْمُتَكِبِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تَقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بِمَدِّ أَيْدِيكُمْ وَأَعْزُوا خَوْفًا طَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ تَثْرَاجًا مِّنْ بَيْنِ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَثَلَتْ سَحَابًا يَقَالُ سُنْغُهُ لِمَا يَنْزِلُ فَانْزِلَا بِهِ مَاءً فَأَرْجَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّارِتِ كَذَلِكَ تُخْرَجُ الْمَوْتُ لَكُمْ تَذَكُّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِي الْوَالِدُ اللَّيْتُ يَخْرُجُ بَنَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبَتْ لَا يَخْرُجُ إِلَّا كَذِبًا كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾

أمرهم الله سبحانه بالدعاء، وقيد ذلك بكون الداعي متضرعاً بدعائه مخفياً له، وانتصاب **﴿تضرعاً وخفية﴾** على الحال أي: متضرعين بالدعاء مخفين له، أو صفة مصدر محذوف أي: ادعوه دعاء تضرع ودعاء خفية. والتضرع من الضراعة، وهي الذلة والخشوع والاستكانة، والخفية: الإسرار به، فإن ذلك أقطع لعرق الرياء، وأحسم لباب ما يخالف الإخلاص، ثم علل ذلك بقوله: **﴿إنه لا يحبّ المعتنين﴾** أي: المجاوزين لما أمروا به في الدعاء وفي كل شيء، فمن جاوز ما أمره الله به في شيء من الأشياء فقد اعتدى، والله لا يحبّ المعتنين، وتدخل المجاوزة في الدعاء في هذا العموم بخلاً أولياً. ومن الاعتداء في الدعاء: أن يسأل الداعي ما ليس له، كالخلود في الدنيا، أو إدراك ما هو محال في نفسه، أو يطلب الوصول إلى منازل الأنبياء في الآخرة، أو يرفع صوته بالدعاء صارخاً به. قوله: **﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها﴾** نهاهم الله سبحانه عن الفساد في الأرض بوجه من الوجوه، قليلاً كان أو كثيراً، ومنه قتل الناس وتخريب منازلهم، وقطع أشجارهم، وتغوير أنهارهم. ومن الفساد في الأرض: الكفر بالله والوقوع في

من طيها فتصير كالمنفتحة. وقال أبو عبيدة: معناه متفرقة في وجوهها، على معنى ننشرها ها هنا وها هنا. وقرأ عاصم **﴿يُشْرَأُ﴾** بالياء الموحدة وإسكان الشين جمع بشير: أي الرياح تبشر بالمطر، ومثله قوله تعالى: **﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ مِبْشِرَاتٍ﴾** [الروم: 46]. قوله: **﴿بَيْنَ يَدَي رَحْمَتِهِ﴾** أراد بالرحمة هنا المطر: أي قدام رحمته، والمعنى: أنه سبحانه يرسل الرياح ناشرات أو مبشرات بين يدي المطر. قوله: **﴿حَتَّى إِذَا أَقْلَتَ سَحَابًا ثَقَالًا﴾** أقل فلان الشيء: حملة ورفع، والسحاب ينكر ويؤنث، والمعنى: حتى إذا حملت الرياح سحاباً ثقالاً بالماء الذي صارت تحمله **﴿سُقْنَاهُ﴾** أي السحاب **﴿بِلَبْدٍ مِيتٍ﴾** أي: مجلب ليس فيه نبات، يقال سقته لبداً كذا، وإلى بلد كذا؛ وقيل اللام هنا لام العلة: أي لأجل بلد ميت، والبلد: هو الموضع العامر من الأرض **﴿فَانْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ﴾** أي بالبلد الذي سقناه لأجله أو بالسحاب أي: أنزلنا بالسحاب الماء الذي تحمله أو بالريح أي: فأنزلنا بالريح المرسله بين يدي المطر الماء؛ وقيل إن الباء هنا بمعنى من: أي فأنزلنا معه الماء **﴿فَفَخَّرْنَا بِهِ﴾** أي بالماء **﴿مَنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾** أي: من جميع أنواعها. قوله: **﴿كَذَلِكَ نَخْرُجُ الْمَوْتَى﴾** أي: مثل ذلك الإخراج، وهو إخراج الثمرات نخرج الموتى من القبور يوم حشرهم **﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾** أي: تتذكرون فتعلمون بعظيم قدرة الله وبديع صنعته، وإنه قادر على بعثكم كما قدر على إخراج الثمرات التي تشاهدونها. قوله: **﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾** أي: التربة الطيبة يخرج نباتها بإذن الله وتيسيره إخراجاً حسناً تاماً وأفياً **﴿وَالَّذِي خَبَتْ لَا يُخْرِجُ إِلَّا نَكْدًا﴾** أي: والتربة الخبيثة لا يخرج نباتها إلا نكداً؛ أي لا خير فيه. وقرأ طلحة بن مصرف «نكداً» بسكون الكاف. وقرأ ابن القعقاع «نكداً» بفتح الكاف: أي ذا نكد. وقرأ الباقون «نكداً» بفتح النون وكسر الكاف. وقرأ **﴿يُخْرِجُ﴾** أي: يخرج به البلد؛ قيل: ومعنى الآية التشبيه، شبه تعالى السريع الفهم بالبلد الطيب، والبلد بالبلد الخبيث، نكره النحس؛ وقيل هذا مثل للقلوب، فشبه القلب القابل للوعظ بالبلد الطيب، والنائي عنه بالبلد الخبيث، قاله الحسن؛ وقيل: هو مثل لقلب المؤمن والمنافق قاله قتادة؛ وقيل هو مثل للطيب والخبيث من بني آدم، قاله مجاهد، **﴿كَذَلِكَ نَصْرَفُ الْآيَاتِ﴾** أي: مثل ذلك التصريف **﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾** الله ويعترفون بنعمته.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن ابن عباس **﴿ادعوا ربكم تضرعاً وخفية﴾** قال: السر **﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمَعْتَدِينَ﴾** في الدعاء ولا في غيره. وأخرج أبو الشيخ عن قتادة قال: التضرع علانية والخفية سر. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جببر، في قوله: **﴿ادعوا ربكم تضرعاً وخفية﴾** يعني: مستكيناً وخفية؛ يعني في خفض وسكون في حاجاتكم من أمر الدنيا والآخرة **﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمَعْتَدِينَ﴾** يقول: لا تدعوا على المؤمن والمؤمنة بالشرك؛ اللهم أخزه والعنه ونحو ذلك فإن ذلك عبوان. وأخرج ابن

معاصيه، ومعنى **﴿بعد إصلاحها﴾**: بعد أن أصلحها الله بإرسال الرسل وإنزال الكتب وتقرير الشرائع. قوله: **﴿وادعوه خوفاً وطمعاً﴾** إعرابهما يحتمل الوجهين المتقدمين في **﴿تضرعاً وخفية﴾** وفيه أنه يشرع للداعي أن يكون عند دعائه خائفاً وجللاً طامعاً في إجابة الله لدعائه، فإنه إذا كان عند الدعاء جامعاً بين الخوف والرجاء، ظفر بمطلوبه، والخوف: الانزعاج من المضار التي لا يؤمن من وقوعها، والطمع: توقع حصول الأمور المحبوبة. قوله: **﴿إِنْ رَحِمْتَ اللَّهُ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾** هذا إخبار من الله سبحانه بأن رحمته قريبة من عباده المحسنين، بأي نوع من الأنواع كان إحسانهم. وفي هذا ترغيب للعباد إلى الخير وتنشيط لهم، فإن قرب هذه الرحمة التي يكون بها الفوز بكل مطلب مقصود لكل عبد من عبادة الله.

وقد اختلف أئمة اللغة والإعراب في وجه تنكير خبر رحمة الله حيث قال قريب ولم يقل قريبة، فقال الزجاج: إن الرحمة مؤولة بالرحم، لكونها بمعنى العفو والغفران، ورجح هذا التأويل النحاس. وقال النضر بن شميل: الرحمة مصدر بمعنى الترحم، وحق المصدر للتذكير. وقال الأخفش سعيد: أراد بالرحمة هنا المطر، وتذكير بعض المؤنث جائز، وأنشد: فلامزنة وبقت وبقها ولا أرض أبقل أبقالها وقال أبو عبيدة: تنكير قريب على تنكير المكان: أي مكان قريب. قال علي بن سليمان الأخفش: وهذا خطأ، ولو كان كما قال لكان قريب منصوباً كما تقول: إن زيدا قريباً منك. وقال الفراء: إن القريب إذا كان بمعنى المسافة، فينكر ويؤنث، وإن كان بمعنى النسب فيؤنث بلا اختلاف بينهم. وروي عن الفراء أنه قال: يقال في النسب قريبة فلان، وفي غير النسب يجوز التذكير والتأنيث فيقال: دارك عنا قريب، وفلانة منا قريب قال الله تعالى: **﴿وَمَا يَدْرِكُ لَعْلَ السَّاعَةِ تَكُونُ قَرِيبًا﴾** [الأحزاب: 63] ومنه قول امرئ القيس:

لك الويل أن أمسني ولا أمْ هلمم قريب ولا البسباسة ابنة يشكرا وروي عن الزجاج أنه خطأ الفراء فيما قاله وقال: إن سبيل المذكر والمؤنث، أن يجريا على أفعالهما؛ وقيل: إنه لما كان تأنيث الرحمة غير حقيقي، جاز في خبرها التذكير، ذكر معناه الجوهري. قوله: **﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ تُنْشِرُ بَيْنَ يَدَي رَحْمَتِهِ﴾** عطف على قوله: **﴿يُغْفِي لِلَّيْلِ النَّهَارَ﴾** يتضمن نكر نعمة من النعم التي أنعم بها على عباده، مع ما في ذلك من الدلالة على وحدانيته وثبوت إلهيته. ورياح جمع ريح، وأصل ريح روح، وقرأ أهل الحرمين وأبو عمرو «نشرأ» بضم النون والشين جمع ناشر على معنى النسب: أي ذات نشر. وقرأ الحسن وقاتدة، وابن عامر «نشرأ» بضم النون وإسكان الشين من نشر. وقرأ الأعمش وحمزة والكسائي «نشرأ» بفتح النون، وإسكان الشين على المصدر، ويجوز أن يكون مصدرأ في موضع الحال، ومعنى هذه القراءات يرجع إلى النشر، الذي هو خلاف الطي فكان الريح مع سكونها كانت مطوية، ثم ترسل

جبرير، وابن أبي حاتم، عن أبي مجلز، في قوله: ﴿إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمَعْتَدِينَ﴾ قال: لا تسالوا منازل الأنبياء. وأخرج ابن المبارك، وابن جرير، وأبو الشيخ، عن الحسن قال: لقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء، وما يسمع لهم صوت، إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم، وذلك أن الله يقول ﴿ادْعُوا رَبَكُمْ تُسْرِعاً وَخَفِيَةً﴾ وذلك أن الله نكر عبداً صالحاً فرضي قوله فقال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ [مريم: 3]. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن صالح، في قوله: ﴿وَلَا تَفْسُدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ قال: بعدما أصلحها الأنبياء وأصحابهم. وأخرج أبو الشيخ، عن أبي سنان، في الآية قال: أحللت حلالي وحرمت حرامي، وحللت حدودي، فلا تفسدوها. وأخرج أبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿ادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ قال: خوفاً منه، وطمعاً لما عنده ﴿إِنْ رَحِمْتَ اللَّهُ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ يعني المؤمنين، ومن لم يؤمن بالله فهو من المفسدين. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي في قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَرْسِلُ لِلرِّيَّاحِ﴾ قال: إن الله يرسل الريح، فيأتي بالسحاب من بين الخافقين طرف السماء والأرض، من حيث يلتقيان، فيخرجه من ثم، ثم ينشره فيبسطة في السماء كيف يشاء، ثم يفتح أبواب السماء، فيسيل الماء على السحاب، ثم يمطر السحاب بعد ذلك. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿بَشِّرْ أَبِينَ يَدِي رَحْمَتَهُ﴾ قال: يستبشر بها الناس. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي في قوله: ﴿بَيْنَ يَدِي رَحْمَتِهِ﴾ قال: هو المطر، وفي قوله: ﴿كَذَلِكَ نَخْرُجُ الْمَوْتَى﴾ قال: كذلك تخرجون، وكذلك النشور، كما يخرج الزرع بالماء. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿كَذَلِكَ نَخْرُجُ الْمَوْتَى﴾ قال: إذا أراد الله أن يخرج الموتى أمطر السماء حتى يشقق عنهم الأرض، ثم يرسل الأرواح فيهبوي كل روح إلى جسده، فكذلك يحيي الله الموتى بالمطر، كإحيائه الأرض. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ﴾ الآية قال: هو مثل ضربه الله للمؤمن، يقول هو طيب وعمله طيب، كما أن البلد الطيب ثمرها طيب ﴿وَالَّذِي خَبَتْ﴾ ضرب مثلاً للكافر، كالبلد السبخة المالحة التي لا تخرج منها البركة، فالكافر هو الخبيث وعمله خبيث، وقد روي نحو هذا عن جماعة من التابعين.

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِذْ يَقُومُ فَقَالَ يَقُومُ أَعِدُّوا اللَّهُ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ
إِنَّهُ أَخَذَ عَلَيْكُمْ عَهْدَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ قَالَ التَّائِبُونَ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي
صَلَاتِكَ ثَبِيرٍ ﴿١٠٢﴾ قَالَ يَقُومُ لَيْسَ بِي صَلَاةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّي
الْمَلَكِيُّ ﴿١٠٣﴾ أُنَبِّئُكُمْ رَسُولَتِي رَبِّي وَأَصْحَى لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا
تَعْلَمُونَ ﴿١٠٤﴾ أَوْ عَجَبْتَ أَنْ جَاءَكَ رُكْنٌ مِنْ رَبِّكَ عَلَى نَجْوَى يُسْهِرُكُمْ
وَلَسْتُمْ تَأْمِنُونَ ﴿١٠٥﴾ تَكْذِبُوهُ فَاعْبُدُوهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفَلَاحِ وَأَغْرَقْنَا
الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿١٠٦﴾

لما بين سبحانه كمال قدرته، وبديع صنعته في الآيات السابقة، ذكر هنا أقاصيص الأمم وما فيها من تحذير الكفار ووعيدهم، لتنبية هذه الأمة على الصواب، وأن لا يقتدوا بمن خالف الحق من الأمم السالفة. واللام جواب قسم محذوف. وهو أول الرسل إلى أهل الأرض بعد آدم، وقد تقدم ذكر نوح في آل عمران، فأغني عن الإعادة هنا، وما قيل من أن إدريس قبل نوح، فقال ابن العربي: إنه وهم. قال المازري: فإن صح ما ذكره المؤرخون كان محمولاً على أن إدريس كان نبياً غير مرسل، وجملة: ﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ استئنافية جواب سؤال مقدر. قوله: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ هذه الجملة في حكم العلة، لقوله: ﴿اعْبُدُوا﴾ أي: اعبدوه لأنه لم يكن لكم إله غيره، حتى يستحق منكم أن يكون معبوداً. قرأ نافع، وأبو عمرو، وعاصم، وحزمة، وابن كثير، وابن عامر برفع غيره على أنه نعت لإله على الموضع. وقرأ الكسائي بالخفض في جميع القرآن، على أنه نعت على اللفظ. وأجاز الفراء والكسائي النصب على الاستثناء: يعني ما لكم من إله إلا إياه. وقال أبو عمرو: ما أعرف الجز ولا النصب. ويريد أن بعض بني أسد ينصبون «غير» في جميع الأحوال، ومنه قول الشاعر:

لم يمنع الشرب منها غير أن نطقت حماسة في غضون ذات أرقال
وجملة: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ جملة متضمنة لتعليل الأمر بالعبادة: أي إن لم تعبوه فلنني أخاف عليكم عذاب يوم القيامة أو عذاب يوم الطوفان. قوله: ﴿قَالَ الْعَمَلَا مِنْ قَوْمِهِ﴾ جملة استئنافية جواب سؤال مقدر، والملا أشراف القوم رؤسائهم؛ وقيل: هم الرجال، وقد تقدم بيانه في البقرة، والضلال: العول عن طريق الحق والذهاب عنه: أي إنا لنراك في دعائك إلى عبادة الله وحده في ضلال عن طريق الحق، وجملة: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ﴾ استئنافية أيضاً، جواب سؤال مقدر ﴿لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾ كما تزعمون ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: أرسلني إليكم لسوق الخير إليكم، ودفع الشر عنكم، نفي عن نفسه الضلالة، وأثبت لها ما هو أعلى منصباً وأشرف رفعة، وهو أنه رسول الله إليهم، وجملة: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي﴾ في محل رفع على أنها صفة لرسول، أو هي مستأنفة مبينة لحال الرسول. والرسالات: ما أرسله الله به إليهم مما أوحاه إليه ﴿وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾ عطف على ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾ يقال: نصحت ونصحت له، وفي زيادة اللام دلالة على المبالغة في إحاطة النصح، قال الأصمعي: الناصح: الخالص من الغل، وكل شيء خلص فقد نصح، فمعنى أنصح هنا: أخلص النية لكم عن شوائب الفساد، والاسم النصيحة وجملة: ﴿وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ معطوفة على الجملة التي قبلها، مقررة لرسالته ومبينة لمزيد علمه، وأنه يختص بعلم الأشياء التي لا يعلمونها بإخبار الله له بذلك، قوله: ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ﴾ فتحت الواو لكونها العاطفة، ودخلت عليها همزة الاستفهام للإنكار عليهم، والمعطوف عليه مقدر: كانه قيل: استبعدتم

وعجبتكم، أو اكذبتم وعجبتكم، أو أنكرتم وعجبتكم ﴿أَنْ جَاءَكُمْ نَكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: وحي وموعظة ﴿عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ﴾ أي: على لسان رجل منكم تعرفونه، ولم يكن ذلك على لسان من لا تعرفونه أو لا تعرفون لغته؛ وقيل على بمعنى مع: أي مع رجل منكم لأجل يذكركم به ﴿وَلِتَتَّقُوا﴾ ما يخالفه ﴿وَلِعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾ بسبب ما يفيد الإنذار لكم، والتقوى منكم من التعرض لرحمة الله سبحانه لكم ورضوانه عنكم ﴿فَكَذِبُوا﴾ أي: فبعد ذلك كذبوه ولم يعملوا بما جاء به من الإنذار ﴿فَانْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ من المؤمنين به المستقرين معه ﴿فِي الْفَلَكَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ واستمروا على ذلك، ولم يرجعوا إلى التوبة، وجملة ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا عَمِينَ﴾ علة لقوله: ﴿وَأَغْرَقْنَا﴾ أي: أغرقنا المكذبين لكونهم عمي القلوب لا تنجع فيهم الموعظة، ولا يفيدهم التنكير.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، وابن عساکر، عن أنس أن النبي ﷺ قال: «أول نبي أرسل نوح».

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وأبو نعيم، وابن عساکر، عن يزيد الرقاشي قال: إنما سمي نوح عليه السلام نوحاً لطول ما نوح على نفسه. وأخرج ابن المنذر عن عكرمة نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، عن ابن عباس قال: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي مالك قال: الملا يعني الأشراف من قومه. وأخرج أبو الشيخ، عن السدي ﴿أَنْ جَاءَكُمْ نَكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يقول: بيان من ربكم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ قال: كفاراً. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ قال: عن الحق.

﴿وَالَّذِينَ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ قَالَ يَتَوَرَّعُونَ عَمَّا نَزَّلَ مِنْ إِلَهِ غَيْرَهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّنَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَعْلَمُكَ مِنَ الْكَذِبِينَ ﴿١٦﴾ قَالَ يَتَوَرَّعُونَ لَيْسَ فِي سَفَاهَةٍ وَلَكِنَّ رَسُولَ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾ أَتَيْتُكُمْ بِسُلْطَانٍ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَأَعْلَمُ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَنِي قَوْمِهِ نُوْحٌ وَكَانَ مِنَ الْخَالِقِ بَشِيرًا نَذِيرًا ؕ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ لَكْرٌ تَلْوِينٌ ﴿١٩﴾ قَالُوا أَجِئْنَا بِبَشِيرٍ وَنَذِيرٍ وَمَا كَانَ بِأَعْيُنِنَا فَنَبَأٌ بَيْنَا يَمَانٍ يَمَانٍ إِنَّ كُنْتُمْ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رَجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي أَنْ أَسْمُوَ سَيِّئُهَا أَشْرٌ وَأَبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهِمَا مِنْ سُلْطَانٍ فَأَنْظِرُونَا إِلَى مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٢١﴾ فَأَجَبْتَهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقُلْنَا مَا أَزِيدُ الْكَافِرِينَ كَذِبًا يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾

قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ أي: وأرسلنا إلى قوم عاد أخاهم: أي واحداً من قبيلتهم أو صاحبهم، أو سماه أخا لكونه ابن آدم مثلهم، وعاد من هو ولد سام بن نوح. قيل

هو عاد بن عوص بن إرم بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح، وهود هو ابن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عوص بن إرم بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح، و﴿هوداً﴾ عطف بيان ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ﴾. قد تقدّم تفسير هذا قريباً، والاستفهام في ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ للإنكار. وقد تقدّم أيضاً تفسير الملا، والسفاهة الخفة والحمق، وقد تقدّم بيان ذلك في البقرة، نسبوه إلى الخفة والطيش ولم يكتفوا بذلك حتى قالوا: ﴿إِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَاتِبِينَ﴾ مؤكداً لظنهم كذبه فيما ادعاه من الرسالة، ثم أجاب عليهم بنفي السفاهة عنه، واستدرك من ذلك بانه رسول رب العالمين، وقد تقدّم بيان معنى هذا قريباً، وكذلك سبق تفسير ﴿أَبْلَغَكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي﴾ وتقدّم معنى الناصح، والأمين المعروف بالامانة، وسبق أيضاً تفسير ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ نَكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ﴾ في قصة نوح التي قبل هذه القصة. قوله:

﴿وَأَنكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ أنكرهم نعمة من نعم الله عليهم، وهي أنه جعلهم خلفاء من بعد قوم نوح أي: جعلهم سكان الأرض التي كانوا فيها، أو جعلهم ملوكاً، وإذ منصوب بأنكر، وجعل النكر للوقت. والمراد ما كان فيه من الاستخلاف على الأرض لقصد المبالغة، لأن الشيء إذا كان وقته مستحقاً للذكر، فهو مستحق له بالأولى ﴿وَوَزَّائِكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾ أي: طولاً في الخلق وعظم جسم، زيادة على ما كان عليه آبائهم في الأبدان. وقد ورد عن السلف حكايات عن عظم أجرام قوم عاد. قوله:

﴿فَانكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾ الآلاء: جمع إلى ومن جملتها نعمة الاستخلاف في الأرض، والبسطة في الخلق وغير ذلك مما أنعم به عليهم، وكرر التنكير لزيادة التقرير، والآلاء النعم ﴿لِعَلَّكُمْ تَقْلَحُونَ﴾ إن تنكرتم ذلك، لأن الذكر للنعمة سبب باعث على شكرها، ومن شكر فقد أفلح. قوله: ﴿قَالُوا اجْعَلْنَا لِنُعْبِدَ اللَّهَ وَحْدَهُ﴾ هذا استنكار منهم لدعائه إلى عبادة الله وحده دون معبوداتهم التي جعلوها شركاء الله، وإنما كان هذا مستنكراً عندهم لأنهم وجدوا آباءهم على خلاف ما دعاهم إليه ﴿وَنُذِرْ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ أي: نترك الذي كانوا يعبدونه، وهذا داخل في جملة ما استنكروه. قوله: ﴿فَاتَنَا بِمَا تَعْبُدْنَ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ هذا استعجال منهم للعذاب الذي كان هود يوعدهم به، لشدة تمردهم على الله، ونكوصهم عن طريق الحق، وبعدهم عن اتباع الصواب، فأجابهم بقوله: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رَجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ جعل ما هو متوقع كالواقع تنبيهاً على تحقق وقوعه، كما نكره أئمة المعاني والبيان، وقيل معنى وقع: وجب. والرجس: العذاب؛ وقيل: هو هنا الرين على القلب بزيادة الكفر، ثم استنكر عليهم ما وقع منهم من المجادلة، فقال:

﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ﴾ يعني: أسماء الأصنام التي كانوا يعبدونها جعلها أسماء، لأن مسمياتها لا حقيقة لها، بل تسميتها بالأكله باطلة فكانها معدومة لم توجد بل الموجود

عَبْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بِحُجَّةٍ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ ۖ فَذَرْهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءِ فِعْلِكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٧﴾ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِكُمْ وَوَوَّاعَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَذَكَّرُونَ مِن سُوءِهَا قُصُورًا وَتَنحَنُّونَ لِمِجَالِ بَيُوتِهَا فَادْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَمُوتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٨﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضِيعُوا مِنَّا مَن مِّنْهُمْ أَتَمَلَكُوتُ أَرْكَ سَكِلًا مَّرْسَلًا مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلُوا بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٦٩﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِينَ آمَنُوا كَافِرُونَ ﴿٧٠﴾ فَفَعَرُوا النَّاقَةَ وَعَصَوَاعَنَ أَمْرَ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَصْلِيحُ أَفْنًا يَمَّا يَمِدَنَّ إِنْ كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧١﴾ فَأَخَذَهُمُ الرَّجْمُ فَاتَمَدَّوْا فِي دَارِهِمْ جَنِينِينَ ﴿٧٢﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَافُورُوا لَقَدْ أَتَيْتُكُمْ بِرِسَالَةٍ تَبَيَّنَ لَكُمْ وَلَكِن لَّا تَعْبُرُونَ لَتَكُنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٧٣﴾

قوله: ﴿وَاللّٰهُ لَخَافِئُمْ صَالِحًا﴾ معطوف على ما تقدم أي: وأرسلنا إلى ثمود أخاهم، وثمرود قبيلة سموا باسم أبيهم، وهو ثمود بن عاد بن إرم بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح، وصالح عطف بيان، وهو صالح بن عبيد بن أسف بن ماشع بن عبيد بن حانز بن ثمود، وامتناع ثمود من الصرف لأنه جعل اسماً للقبيلة. وقال أبو حاتم: لم ينصرف لأنه أعجمي. قال النحاس: وهو غلط لأنه من الثمد، وهو الماء القليل، وقد قرأ القراء ﴿إِلَّا إِنْ ثَمُودًا كَفَرُوا بِهِمْ﴾ [هود: 68] على أنه اسم للحج، وكانت مساكن ثمود الحجر بين الحجاز والشام إلى وادي القرى. قوله: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرِهِ﴾ قد تقدم تفسيره في قصة نوح ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: معجزة ظاهرة، وهي إخراج الناقة من الحجر الصلد، وجملة ﴿هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾ مشتملة على بيان البينة المذكورة وانتصاب آية على الحال، والعامل فيها معنى الإشارة، وفي إضافة الناقة إلى الله تشريف لها وتكريم. قوله: ﴿فَذَرْهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ﴾ أي: دعوها تأكل في أرض الله، فهي ناقة الله، والأرض أرضه فلا تمنعوها مما ليس لكم، ولا تملكونه، ﴿وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءِ فِعْلِكُمْ﴾ أي: لا تتعرضوا لها بوجه من الوجوه التي تسوءها. قوله: ﴿فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هو جواب النهي: أي إذا لم تتركوا مسها بشيء من السوء أخذكم عذاب أليم: أي شديد الألم. قوله: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾ أي: استخلفكم في الأرض أو جعلكم ملوكاً فيها، كما تقدم في قصة هود ﴿وَوِوَّاعَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: جعل لكم فيها مباءة، وهي المنزل الذي تسكنونه ﴿تَتَخَوَّنُونَ مِنْ سُوءِهَا قُصُورًا﴾ أي: تتخون من سهولة الأرض قصوراً، أو هذه الجملة مبنية لجملة: «وَوِوَّاعَكُمْ فِي الْأَرْضِ»، وسهول الأرض ترابها يتخذون منه اللبن والأجر، ونحو ذلك، فينبون به القصور ﴿وَتَنحَنُّونَ لِمِجَالِ الْبُيُوتِ﴾ أي: تتخون في الجبال التي هي صخور بيوتاً تسكنون فيها، وقد كانوا لقوتهم وصلابة أبدانهم ينحتون الجبال فيتخذون فيها، كهوفاً يسكنون فيها، لأن الأبنية

أسماءها فقط ﴿سَمِيتُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ﴾ أي: سميت بها معبوداتكم من جهة أنفسكم وأنتم وأبائكم، ولا حقيقة لذلك ﴿يَوْمَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي: من حجة تحتجون بها على ما تدعون لها من الدعاوي الباطلة، ثم توعدهم بأشد وعيد فقال: ﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ أي: فانتظروا ما طلبتموه من العذاب، فإنني معكم من المنتظرين له، وهو واقع بكم لا محالة، ونازل عليكم بلا شك؛ ثم أخبر الله سبحانه أنه نجى هوداً ومن معه من المؤمنين به من العذاب النازل بمن كفر به ولم تقبل رسالته، وأنه قطع دابر القوم المكذبين: أي استأصلهم جميعاً. وقد تقدم تحقيق معناه، وجمله: ﴿يَوْمَا كُنَّا مَوْءُودِينَ﴾ معطوفة على كذبوا: أي استأصلنا هؤلاء القوم الجامعين بين التكنيبين بآياتنا وعدم الإيمان.

وقد أخرج ابن المنذر، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَاللّٰهُ لَخَافِئُمْ هُودًا﴾ قال: ليس بأخيهم في الدين، ولكنه أخوهم في النسب؛ لأنه منهم فلذلك جعل أخاهم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الربيع بن خيثم قال: كانت عاد ما بين اليمن إلى الشام مثل النذر. وأخرج ابن عساکر عن وهب قال: كان الرجل من عاد ستيين ذراعاً بزرعهم، وكان هامة الرجل مثل القبة العظيمة، وكان عين الرجل لتفرخ فيها السباع، وكذلك مناخرهم. وأخرج عبيد بن حميد، عن قتادة قال: نكر لنا أنهم كانوا اثني عشر ذراعاً طولاً. وأخرج الحكيم الترمذي في نوابر الأصول، عن ابن عباس قال: كان الرجل منهم ثمانين باعاً، وكانت البرة فيهم ككلية البقرة، والرمانة الواحدة يقعد في قشرها عشرة نفر. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عنه ﴿وَوِوَّاعَكُمْ فِي الْخَلْقِ بِسُوءِ فِعْلِكُمْ﴾ قال شدة. وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن أبي حاتم، عن أبي هريرة، قال: إن كان الرجل من قوم عاد ليتخذ المصراع من الحجارة، لو اجتمع عليه خمسمائة من هذه الأمة لم يستطيعوا أن يقلوه، وإن كان أحدهم ليدخل قمه في الأرض فتدخل فيها. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿إِلَّا إِنْ ثَمُودًا كَفَرُوا بِهِمْ﴾ قال: نعم الله، وفي قوله: ﴿رَجِسَ﴾ قال: سخط. وأخرج ابن عساکر قال: لما أرسل الله الريح على عاد اعتزل هود ومن معه من المؤمنين في حظيرة ما يصيبهم من الريح إلا ما تلين عليه الجلود وتلتذ به الأنفس، وإنها لتمر بالعادي فتحمله بين السماء والأرض، وتدمغه بالحجارة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن زيد، في قوله: ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا﴾ قال: استأصلناهم وأخرج البخاري في تاريخه، وابن جرير، وابن عساکر، عن علي بن أبي طالب، قال: قبر هود بحضرموت في كتيب أحمر عند رأسه سدره. وأخرج ابن عساکر، عن عثمان بن أبي العاتكة، قال: قبله مسجد دمشق قبر هود. وأخرج أبو الشيخ، عن أبي هريرة، قال: كان عمر هود أربعمائة سنة وأثنتين وسبعين سنة.

لَوْلَا ثَمُودُ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَفُورُوا أَعْبَدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ إِلَّا

فنجسر على ما فاتهم من الإيمان والسلامة من العذاب، ثم أبان عن نفسه أنه لم يال جهداً في إبلاغهم الرسالة ومحض النصيح، لكن أبوا ذلك فلم يقبلوا منه فحق عليهم العذاب، ونزل بهم ما كتبوا به واستعجلوه.

وقد أخرج عبد الرزاق، والفريابي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي الطفيل قال: قالت ثمود لصالح اثنتا بآية إن كنت من الصائقين، قال: أخرجوا، فخرجوا إلى هضبة من الأرض فإذا هي تمخض كما تمخض الحامل، ثم إنها انفجرت فخرجت الناقة من وسطها، فقال لهم صالح: هذه ناقة الله لكم آية، فلما ملوها عقروها: **﴿فَقَالَ تَمَتُّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾** [هود: 65]. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة: أن صالحاً قال لهم حين عقروا الناقة: تمتعوا ثلاثة أيام، ثم قال لهم: آية هلاككم أن تصبح وجوهكم غداً مصفرةً، وتصبح اليوم الثاني حمرةً، ثم تصبح اليوم الثالث مسودةً، فاصبحت كذلك؛ فلما كان اليوم الثالث أيقنوا بالهلاك فكفكفوا وتحنطوا، ثم أخذتهم الصيحة فاهمستهم. وقال عقر الناقة: لا أقتلها حتى ترضوا أجمعين، فجعلوا يدخلون على المرأة في خبرها فيقولون أترضين؟ فتقول نعم، والصبى حتى رضوا أجمعون، فعقرها. وأخرج أحمد، والبخاري، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني في الأوسط، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مريويه، عن جابر بن عبد الله، أن رسول الله ﷺ لما نزل الحجر قام فخطب فقال: «يا أيها الناس لا تسالوا نبيكم عن الآيات. فإن قوم صالح سألوا نبيهم أن يبعث إليهم آية فبعث الله لهم الناقة، فكانت ترد من هذا الفج فتشرب ماءهم يوم ردها ويحتلبون من لبنها مثل الذي كانوا يأخذون من مائها يوم غيبها وتصدر من هذا الفج، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها، فوعدهم الله العذاب بعد ثلاثة أيام، وكان وعد من الله غير مكذوب، ثم جاءتهم الصيحة فاهلك الله من كان منهم تحت مشارق الأرض ومغاربها، إلا رجلاً كان في حرم الله فممنعه حرم الله من عذاب الله، فليل يا رسول الله من هو؟ فقال: أبو رغال؛ فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه». قال ابن كثير: هذا الحديث على شرط مسلم. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، وابن مريويه، من حديث أبي الطفيل مرفوعاً مثله. وأخرج أحمد من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ وهو بالحجر: «لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا بأكين، فإن لم تكونوا بأكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم»، وأصل الحديث في الصحيحين من غير وجه، وفي لفظ لأحمد من هذا الحديث قال: لما نزل رسول الله ﷺ على تبوك نزل بهم الحجر عن بيوت ثمود. وأخرج أحمد، وابن المنذر، نحوه مرفوعاً، من حديث أبي كبشة الأنماري، وأخرج ابن المنذر، عن ابن جريج، في قوله: **﴿وَلَا تَمْسُوهُمْ بِسُوءٍ﴾** قال: لا تعقروها. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي، في قوله:

والسقوف كانت تغني قبل فناء أعمارهم، وانتصاب بيوتاً على أنها حال مقترنة أو على أنها مفعول ثانٍ لتحتون على تضمينه معنى تتخذون. قوله: **﴿فَانْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾** تقدم تفسيره في القصة التي قبل هذه. قوله: **﴿وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مَفْسِدِينَ﴾** العثي والعثو لغتان، وقد تقدم تحقيقه في البقرة بما يغني عن الإعادة **﴿قَالَ الْمَلَأَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾** أي: قال الرؤساء المستكبرون من قوم صالح للمستضعفين الذين استضعفهم المستكبرون، و**﴿لَمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾** بدل من الذين استضعفوا، بإعادة حرف الجر بدل البعض من كل، لأن في المستضعفين من ليس بمؤمن، هذا على عود ضمير «منهم» إلى الذين استضعفوا، فإن عاد إلى قومه كان بدل كل من المستضعفين، ومقول القول: **﴿تَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُرْسِلٌ مِنْ رَبِّهِ﴾** قالوا هذا على طريق الاستهزاء والسخرية. قوله: **﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾** أجابوهم بأنهم مؤمنون برسائله، مع كون سؤال المستكبرين لهم إنما هو عن العلم منهم هل تعلمون برسالته أم لا، مسارعة إلى إظهار ما لهم من الإيمان وتنبهياً على أن كونه مرسلأ أمر واضح مكشوف، لا يحتاج إلى السؤال عنه، فاجابوا تردداً وعناداً بقولهم: **﴿إِنَّا بِالَّذِي آمَنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾** وهذه الجملة المعنوية يقال مستأنفة لأنها جوابات عن سؤالات مقترنة كما سبق بيانه. قوله: **﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾** العقر: الجرح؛ وقيل: قطع عضو يؤثر في تلف النفس؛ يقال عقرت الفرس: إذا ضربت قوائمها بالسيف؛ وقيل أصل العقر: كسر عرقوب البعير ثم قيل للنحر عقر، لأن العقر سبب النحر في الغالب، وأسند العقر إلى الجميع مع كون العاقر واحداً منهم، لأنهم راضون بذلك موافقون عليه. وقد اختلف في عاقر الناقة ما كان اسمه، فليل قدر بن سالف، وقيل غير ذلك **﴿وَعَتُوا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾** أي: استكبروا، يقال عتا يعتو عتواً: استكبر، وتعتي فلان: إذا لم يطع، والليل العاتي: الشديد الظلمة **﴿وَقَالُوا يَا صَالِحُ اقْنُتْنَا بِمَا نَعْبُدُ﴾** من العذاب **﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾** هذا استعجال منهم للنفقة، وطلب منهم لنزول العذاب، وحلول البلية بهم **﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾** أي: الزلزلة، يقال رجف الشيء يرجف رجفاناً، وأصله حركة مع صوت، ومنه: **﴿يَوْمَ تَرْجَفُ الرَّجْافَةُ﴾** [النازعات: 6]؛ وقيل: كانت صيحة شديدة خلعت قلوبهم **﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ﴾** أي: بلدهم **﴿جَانِمِينَ﴾** لاصقين بالأرض على ركبهم ووجوههم كما يجثم الطائر، وأصل الجثوم للأرنب وشبهها؛ وقيل للناس والطيور، والمراد أنهم أصبحو في نورهم ميتين لا حراك بهم **﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾** صالح عند اليأس من إجابتهم **﴿وَقَالَ﴾** لهم هذه المقالة **﴿لَقَدْ بَلَّغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنُصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تَحِبُّونَ لِلنَّاصِحِينَ﴾** ويحتمل أنه قال لهم هذه المقالة بعد موتهم على طريق الحكاية لحالهم الماضية، كما وقع من النبي ﷺ من التكليم لأهل قلب يد بعد موتهم، أو قالها لهم عند نزول العذاب بهم، وكأنه كان مشاهداً لذلك،

تقعدا بكل طريق توعدون الناس بالعذاب، قيل: كانوا يقعدون في الطرقات المفضية إلى شعيب، فيتوعدون من أراد المجيء إليه، ويقولون إنه كذاب فلا تذهب إليه، كما كانت قريش تفعله مع النبي ﷺ، قاله ابن عباس، وقتادة، ومجاهد، والسدي، وغيرهم؛ وقيل المراد: القعود على طرق الدين ومنع من أراد سلوكها، وليس المراد به القعود على الطرق حقيقة، ويؤيده: ﴿وتصنفون عن سبيل الله من آمن به﴾ وقيل: المراد بالآية النهي عن قطع الطريق وأخذ السلب، وكان ذلك من فعلهم؛ وقيل: إنهم كانوا عشارين يأخذون الجباية في الطرق من أموال الناس فنهوا عن ذلك. والقول الأول: أقربها إلى الصواب مع أنه لا مانع من حمل النهي على جميع هذه الأقوال المذكورة. وجملة «توعدون» في محل نصب على الحال، وكذلك ما عطف عليها: أي لا تقعدا بكل طريق موعدين لأهله صائين عن سبيل الله باغين لها عوجاً، والمراد بالصد عن سبيل الله: صد الناس عن الطريق الذي قعدوا عليه، ومنعهم من الوصول إلى شعيب، فإن سلوك الناس في ذلك السبيل للوصول إلى نبي الله هو سلوك سبيل الله، ﴿ومن آمن به﴾ مفعول تصنون، والضمير في آمن به يرجع إلى الله، أو إلى سبيل الله، أو إلى كل صراط أو إلى شعيب، ﴿وتبغونها عوجاً﴾ أي: تطلبون سبيل الله أن تكون معوجة غير مستقيمة، وقد سبق الكلام على العوج. قال الزجاج: كسر العين في المعاني وفتحها في الاحرام ﴿وانكروا إذ كنتم﴾ أي: وقت كنتم ﴿قليلًا﴾ عديكم ﴿فكثركم﴾ بالنسل؛ وقيل: كنتم فقراء فأغناكم ﴿وانظروا كيف كان عاقبة للمفسين﴾ من الأمم الماضية، فإن الله أملاكهم وأنزل بهم من العقوبات ما ذهب بهم ومحا أثرهم ﴿وان كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به﴾ إليكم من الأحكام التي شرعها الله لكم ﴿وطائفة﴾ منكم ﴿لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين﴾ هذا من باب التهديد والوعيد الشديد لهم. وليس هو من باب الأمر بالصبر على الكفر. وحكم الله بين الفريقين هو نصر المحقين على المبطلين، ومثله قوله تعالى: ﴿فتربصوا إنا معكم متربصون﴾ [التوبة: 52] أو هو أمر للمؤمنين بالصبر على ما يحل بهم من أذى الكفار حتى ينصرهم الله عليهم ﴿قال لعل الذين استكبروا من قومه﴾ أي: قال الأشراف المستكبرون ﴿لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك﴾ لم يكتفوا بترك الإيمان والتمرد عن الإجابة إلى ما دعاهم إليه، بل جاوزوا ذلك بغياً وبطراً وأشرا إلى تورع بينهم ومن آمن به بالإخراج من قريتهم، أو عوده هو ومن معه في ملتهم الكفرية: أي لا بد من أحد الأمرين: إما الإخراج، أو العود. قال الزجاج: يجوز أن يكون العود بمعنى الإبتداء، يقال عاد إلي من فلان مكروه: أي صار وإن لم يكن سبقه مكروه قبل ذلك فلا يرد ما يقال: كيف يكون شعيب على ملتهم الكفرية من قبل أن يبعثه الله رسولا؟ ويحتاج إلى الجواب بتغليب قومه المتبعين له عليه في الخطاب بالعود إلى ملتهم،

كَانَ عَقِبَهُ الثَّمَنِيَّينَ ﴿١٦١﴾ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي
أُرْسِلَتْ بِهِ، وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمَرُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ
الْحَاكِمِينَ ﴿١٦٢﴾ قَالَ لِلَّذِي اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ تَخْرُجُكَ يَشْمُئِيهِ
وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مِنْ قُرْبَتِي أَوْ تُنَادِي بِرَأْسِنَا قَالُوا لَوْلَا كُنَّا كَهَيْئَةِ
الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى آثَرِهِمْ إِنْ عَدْنَا بِإِلْحَامِكُمْ فَتَمُوتُوا فِي بَنِي إِسْرَءِيلَ وَمَا
يَكُونُ لَنَا أَنْ
تُؤَدَّ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى آثَرِهِمْ رَبَّنَا
أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿١٦٣﴾ وَقَالَ لِلَّذِي كَفَرُوا
مِنْ قَوْمِهِ لِمَنِ اتَّبَعْتُمْ شُعْبًا إِكْرَادًا لِغَيْرِهِمْ ﴿١٦٤﴾ فَأَسَدَّتْ الرِّجْفَةُ فَاصْبَرُوا
فِي دَارِهِمْ جُنُودًا ﴿١٦٥﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعْبًا كَانُوا لَمْ يَقْنُوا فِيهَا الَّذِينَ
كَذَّبُوا شُعْبًا كَانُوا هُمُ الْخَائِبِينَ ﴿١٦٦﴾ فَتَرَىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَإَيُّكُمْ لَقَدْ آتَيْنَاكُمْ
رِسَالَتِي رَبِّي وَصَحَّحْتُ لَكُمْ كَيْفَ آمَنُوا عَلَى قَوْمٍ كَذِبِينَ ﴿١٦٧﴾

قوله: ﴿وَالِي مَدْيَنَ إِخَاهُمُ شَعْبِيًّا﴾ معطوف على ما تقدم: أي وأرسلنا. ومدّين: اسم قبيلة، وقيل: اسم بلد والأوّل أولى، وجبت القبيلة باسم أبيهم: وهو مدّين بن إبراهيم كما يقال بكر وتميم. قوله: ﴿إِخَاهُمُ شَعْبِيًّا﴾ شعيب عطف بيان، وهو شعيب بن ميكائيل بن يشجب بن مدّين بن إبراهيم، قاله عطاء وابن إسحاق وغيرهما. وقال الشرفي بن القطامي: إنه شعيب بن عيفاء بن ثويب بن مدّين بن إبراهيم. وزعم ابن سمرعان أنه شعيب بن حرّة بن يشجب بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم. وقال قتادة: هو شعيب بن صفوان بن عيفاء بن ثابت بن مدّين بن إبراهيم. قوله: ﴿قَالَ يَاقُودُ﴾ إلى قوله: ﴿بَيْنَهُ مِنْ رِبِكُمْ﴾ قد سبق شرحه في قصة نوح. قوله: ﴿فَاوْفُوا لِلْكِيلِ وَالْمِيزَانِ﴾ أمرهم بإيفاء الكيل والميزان لأنهم كانوا أهل معاملة بالكيل والوزن، وكانوا لا يوفونهما، ونكر الكيل الذي هو المصدر وعطف عليه الميزان الذي هو اسم للألة.

واختلف في توجيه ذلك، فقيل المراد بالكيل: المكيال
فتناسب عطف الميزان عليه؛ وقيل المراد بالميزان: الوزن
فيناسب الكيل، والفاء في «فاوفاو» للعطف على اعبدوا. قوله:
﴿وَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ فَنُفِثَ بِهِمْ﴾ البخس النقص، وهو
يكون بالتعيب للسلعة أو التزهد فيها، أو المخادعة
لصاحبها والاحتيال عليه، وكل ذلك من أكل أموال الناس
بالباطل وظاهر قوله: **﴿أَفْشَاءُ بِهِمْ﴾** أنهم كانوا يبخسون
الناس في كل الأشياء، وقيل: كانوا مكاسين يمسكون كل ما
دخل إلى أسواقهم، ومنه قول زهير:

أفي كل أسواق العراق إتاوة وفي كل ما باع امرؤ مكس درهم
 قوله: ﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها﴾ قد
 تقدم تفسيره قريباً، ويدخل تحته قليل الفساد وكثيره،
 ودقيقه وجليله، والإشارة بقوله: ﴿ذلكم﴾ إلى العمل بما
 أمرهم به وترك ما نهاهم عنه، والمواد بالخيرية هنا: الزيادة
 المطلقة، لأنه لا خير في عدم إيفاء الكيل والوزن، وفي
 بخس الناس، وفي الفساد في الأرض أصلاً. قوله: ﴿ولا
 تقعدوا بكل صراط توعدون﴾ الصراط: الطريق أي: لا

لم يغنوا فيها» هذه الجملة مستأنفة مبيّنة لما حلّ بهم من النعمة، والموصول مبتدأ، وكان لم يغنوا خبره: يقال غنيت بالمكان إذا أقمت به، وغنى القوم في دارهم أي طال مقامهم فيها، والمغني: المنزل، والجمع المغاني. قال حاتم الطائي:

غنينا زماناً بالتصعلك والغنى وكلا سقانا بكاسيهما الدهر

فما زاننا بغياً على ذي قرابة غناناً ولا أزرى بإحساننا الفقر ومعنى الآية: الذين كذبوا شعبياً كان لم يقيموا في دارهم، لأن الله سبحانه استأصلهم بالعباد، والموصول في

الذين كذبوا شعبياً مبتدأ خبره «كانوا هم الخاسرين»، وهذه الجملة مستأنفة كالأولى متضمنة لبيان خسران القوم

المكذّبين «فتولى عنهم» أي: شعيب لما شاهد نزول

العذاب بهم «وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي»

التي أرسلني بها إليكم «ونصحت لكم» ببيان ما فيه

سلامة دينكم وبنيناكم «فكيف آسى» أي: أحنن «على قوم

كافرين» بالله مصرّين على كفرهم، متمردين عن الإجابة، أو

الأسى شدة الحزن، آسى على ذلك فهو آس. قال شعيب هذه

المقالة تحسراً على عدم إيمان قومه، ثم سلا نفسه بأنه

كيف يقع منه الأسى على قوم ليس بأهل للحنن عليهم

لكفرهم بالله وعدم قبولهم لما جاء به رسوله.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن عساکر، عن عكرمة،

والسدي قالاً: ما بعث الله نبياً مرتين إلا شعبياً: مرة إلى

مدین فأخذتهم الصيحة، ومرة إلى أصحاب الأيكة فأخذهم

الله بعذاب يوم الظلة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس

«ولا تبخسوا الناس أشياءهم» قال: لا تظلموا الناس.

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وأبو الشيخ، عن قتادة

«ولا تبخسوا الناس أشياءهم» قال: لا تظلموهم «ولا

تقعوا بكل صراط توعدون» قال: كانوا يوعنون من أتى

شعبياً وغشيه وأراد الإسلام. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر،

وابن أبي حاتم، عن ابن عباس «ولا تقعوا بكل صراط

توعدون» قال: كانوا يجلسون في الطريق، فيخبرون من

أتى عليهم أن شعبياً كذاب، فلا يفتننكم عن دينكم. وأخرج

ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر،

وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد «بكل صراط

توعدون» قال: بكل سبيل حق «وتبغونها عوجاً» قال:

تلتبسوا لها الزيف. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو

الشيخ، عن السدي «ولا تقعوا بكل صراط توعدون»

قال: هو العاشر «وتصدون عن سبيل الله» قال: تصدّون

عن الإسلام «وتبغونها عوجاً» قال: هلاكاً. وأخرج أبو

الشيخ، عن مجاهد، قال: هم العشار. وأخرج ابن جرير، عن

أبي العالية، عن أبي هريرة أو غيره: شك أبو العالية قال: أتى

النبي ﷺ ليلة أسرى به على خشبة على الطريق لا يمر بها

ثوب إلا شقته، ولا شيء إلا خرقتها، قال: ما هذا يا جبريل؟

قال: هذا مثل أقوام من أمتك يقدعون على الطريق فيقطعونه

ثم تلا «ولا تقعوا بكل صراط توعدون». وأخرج ابن

وجملة «قال أو لو كنا كارهين» مستأنفة جواب عن سؤال مقتر، والهمزة لإنكار وقوع ما طلبوه من الإخراج أو

العود، والوالو للحال: أي أتعيوننا في ملتكم في حال كراهتنا

للعود إليهم، أو أتخرجوننا من قريتكم في حال كراهتنا

للخروج منها، أو في حال كراهتنا للأمريين جميعاً، والمعنى:

إنه ليس لكم أن تكرهونا على أحد الأمريين ولا يصح لكم

ذلك، فإن المكره لا اختيار له ولا تعدّ موافقته مكرها موافقة

ولا عوده إلى ملتكم مكرهاً عوداً، وبهذا التقرير ينفع ما

استشكله كثير من المفسرين في هذا المقام حتى تسبب عن

ذلك تطويل زيول الكلام «قد افترينا على الله كذباً إن عدنا

في ملتكم» التي هي الشرك «بعد إذ نجانا الله منها»

بالإيمان، فلا يكون منا عود إليهم أصلاً «وما يكون لنا»

أي: ما يصح لنا ولا يستقيم «أن نعود فيها» بحال من

الأحوال «إلا أن يشاء الله» أي: إلا حال مشيئته سبحانه،

فإنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. قال الزجاج: أي إلا

بمشيئة الله عزّ وجلّ، قال: وهذا قول أهل السنة، والمعنى:

أنه لا يكون منا العود إلى الكفر إلا أن يشاء الله ذلك،

فلا استثناء منقطع، وقيل: إن الاستثناء هنا على جهة التسليم

له عزّ وجلّ كما في قوله: «وما توفيقي إلا بالله» [هود: 88]

وقيل: هو كقولهم لا أكلمك حتى يبيض الغراب، وحتى يلج

الجمال في سمّ الخياط، والغراب لا يبيض: والجمال لا يلج،

فهو من باب التعليق بالحوال. «وسع ربنا كل شيء علماً»

أي: أحاط علمه بكل المعلومات، فلا يخرج عنه منها شيء،

وعلماً منصوب على التمييز، وقيل المغنى: «وما يكون لنا

أن نعود فيها» أي: القرية بعد أن كرهتم مجاورتنا لهم

«إلا أن يشاء الله» عودنا إليهم «على الله توكلنا» أي:

عليه اعتمدنا في أن يثبتنا على الإيمان، ويحول بيننا وبين

الكفر وأهله، ويتمّ علينا نعمته، ويعصمنا من نقمته. قوله:

«ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير

الفاصلين» الفتاحة الحكومة، أي احكم بيننا وبين قومنا

بالحق وأنت خير الحاكمين، دعوا الله سبحانه أن يحكم بينهم

ولا يكون حكمه سبحانه إلا بنصر المحقين على المبطلين:

كما أخبرنا به في غير موضع من كتابه فكانهم طلبوا نزول

العذاب بالكافرين، وحلول نعمة الله بهم «وقال للملأ الذين

كفروا من قومهم» معطوف على «وقال الملأ الذين

استكبروا» يحتمل أن يكون هؤلاء هم أولئك، ويحتمل أن

يكونوا غيرهم من طوائف الكفار الذين أرسل إليهم شعيب،

واللام في «لئن اتبعتم شعبياً» موطئة لجواب قسم محذوف:

أي بخلتم في دينه، وتركتم دينكم «إنكم إذا لخاسرون»

جواب القسم ساد مسدّ جواب الشرط، وخسرانهم: هلاكهم

أو ما يخسرونه بسبب إيفاء الكيل والوزن وترك التطفيف

الذي كانوا يعاملون الناس به «فأخضتهم الرجفة» أي:

الزلزلة؛ وقيل: الصيحة كما في قوله: «وأخذت الذين ظلموا

الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين» [هود: 94] قد تقدم

تفسيره في قصة صالح. قوله: «الذين كذبوا شعبياً كان

جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي، في قوله: **﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا﴾** قال: ما ينبغي لنا أن نعود في شرككم بعد إذ نجانا الله **﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رِيفًا﴾** والله لا يشاء الشرك، ولكن يقول: إلا أن يكون الله قد علم شيئاً، فإنه قد وسع كل شيء علماً. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات، وابن الأنباري في الوقف والابتداء، عن ابن عباس قال: ما ما كنت أدري ما قوله: **﴿رِيفًا افْتَحَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾** حتى سمعت ابنه ذي يزن تقول: تعال افتحك، تعني أفاضك. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه، في قوله: **﴿رِيفًا افْتَحَ﴾** يقول: أفض. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي، قال: الفتح القضاء لغة يمانية إذا قال أحدهم تعال أفاضك القضاء قال: تعال افتحك. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس **﴿لَمْ يَغْنُوا فِيهَا﴾** قال: لم يعيشوا فيها. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة، مثله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس **﴿فَكَيْفَ آسَى﴾** قال: أحزن. وأخرج ابن عساکر، عن ابن عباس قال: في المسجد الحرام قبران ليس فيه غيرهما، قبر إسماعيل، وقبر شعيب، فقبر إسماعيل في الحجر، وقبر شعيب مقابل الحجر الأسود. وأخرج ابن عساکر عن وهب بن منبه أن شعيباً مات بمكة، ومن معه من المؤمنين، فقبرهم في غربي الكعبة بين دار الندوة وبين باب بني سهم. وأخرج ابن أبي حاتم، والحاكم، عن ابن إسحاق قال: نكر لي يعقوب بن أبي مسلمة «أن رسول الله ﷺ كان إذا نكر شعيباً قال: ذاك خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه فيما يريد به، فلما كذبوه وتوعده بالرجم والنفي من بلادهم وعتروا على الله أخذهم عذاب يوم الظة».

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ نَبِيًّا إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْأَسَلَةِ وَالنَّصْرِ لَمْ يَكُنْ يَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آلِهَاتُنَا الْفِتْرَةُ وَالَّذِينَ فَخَذْنَاهُمْ بَيْنَهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥١﴾ وَكَوْنُ أَهْلِ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا فَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ أَمْ آمَنُوا مَعَكُمْ أَفَوْفًا بِأَمْرٍ مَكْرُوهٍ إِلَّا الْقَوْمَ الْخَاسِرِينَ ﴿٥٤﴾ أَوَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ بَرُوكُ الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَحْنَاهُمْ دُغُوبًا وَنَطْمَحُ عَنْ قُلُوبِهِمْ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾

قوله: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ نَبِيًّا﴾** لما فصل الله سبحانه أحوال بعض الأنبياء مع أممهم، وهم المذكورون سابقاً لأجل حال سائر الأمم المرسل إليها: أي وما أرسلنا في قرية من القرى من نبي من الأنبياء، وفي الكلام محذوف أي فكذب أهلها إلا أخذناهم، والاستثناء مفرغ: أي ما أرسلنا في حال من الأحوال إلا في حال أخذنا أهلها فمحل أخذنا

النصب، والبأساء: البؤس والفقر، والضراء: الضر، وقد تقدم تحقيق معنى البأساء والضراء **﴿لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾** أي: لكي يتضرعوا ويتذلّلوا، فيدعوا ما هم عليه من الاستكبار وتكذيب الأنبياء. قوله: **﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾** أي: ثم بعد الأخذ لأهل القرى بكنائهم **﴿مَكَانَ السَّيِّئَةِ﴾** التي أصبناهم بها من البلاء والامتحان **﴿الْحَسَنَةَ﴾** أي: الخصلة الحسنة: فصاروا في خير وسعة وأمن **﴿حَتَّى عَفَوْا﴾** يقال عفا كثر، وعفا درس، فهو من أسماء الأضداد، والمراد هنا: أنهم كثروا في أنفسهم وفي أموالهم: أي أعطيناهم الحسنة مكان السيئة، حتى كثروا **﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ﴾** أي: قالوا هذه المقالة عند أن صاروا في الحسنة بعد السيئة: أي أن هذا الذي مسنا من البأساء والضراء، ثم من الرخاء والخصب من بعد هو أمر وقع لأبائنا قبلنا مثله، فمسهم من البأساء والضراء ما مسنا ومن النعمة والخير ما نلناه، ومعناهم: أن هذه العادة الجارية في السلف والخلف، وأن نك ليس من الله سبحانه ابتلاء لهم واختبار لما عندهم، وفي هذا من شدة عنادهم وقوة تمردهم وعتوّهم ما لا يخفي، ولهذا عاجلهم الله بالعقوبة ولم يمهلهم فقال: **﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾** أي: فجأة عقب أن قالوا هذه المقالة من دون تراخ ولا إهمال (و) الحال أنهم **﴿لَمْ يَشْعُرُوا﴾** بذلك ولا يترقبونه، واللام في **﴿الْقُرَى﴾** للعهد أي: **﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى﴾** التي أرسلنا إليها رسلنا **﴿آمَنُوا﴾** بالرسول المرسلين إليهم **﴿وَاتَّقَوْا﴾** ما صمموا عليه من الكفر، ولم يصروا على ما فعلوا من القبائح **﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾** أي: يسرنا لهم خير السماء والأرض، كما يحصل التيسير للأبواب المغلقة بفتح أبوابها؛ قيل المراد بخير السماء: المطر، وخير الأرض: الثبات، والأولى حمل ما في الآية على ما هو أعم من ذلك: ويجوز أن تكون اللام في القرى للجنس، والمراد: لو أن أهل القرى أين كانوا، وفي أي بلاد سكنوا آمنوا واتقوا إلى آخر الآية **﴿وَلَكِنْ كَذَّبُوا﴾** بالآيات والأنبياء ولم يؤمنوا ولا اتقوا **﴿فَأَخَذْنَاهُمْ﴾** بالعذاب **﴿بِجِبِّ سَبَبٍ﴾** ما كانوا يكسبون، من الذنوب الموجبة لعذابهم، والاستفهام في **﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى﴾** للتقريع والتوبيخ، وأهل القرى هم أهل القرى المذكورة قبله، والفاء للعطف، وهو مثل: **﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾** [المائدة: 50]؛ وقيل: المراد بالقرى مكة وما حولها، لتكذيبهم للنبي ﷺ، والحمل على العموم أولى. قوله: **﴿أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا﴾** أي: وقت بيئت، وهو الليل على أنه منصوب على الظرفية، ويجوز أن يكون مصدراً: بمعنى تبييناً، أو مصدرأ في موضع الحال: أي مبيتين، وجملة: **﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾** في محل نصب على الحال، والاستفهام في **﴿أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا﴾** أي: يأتيناهم بآياتنا ضحى وهو الضحوة النهار، وهو في الأصل اسم لضوء الشمس إذا اشترقت وارتفعت. قرأ ابن عامر والحريمان (أو آمن) بإسكان الواو وقرأ الباقون بفتحها، وجملة **﴿وَهُمْ**

أهل فريق أوسع الله عليهم حتى كانوا يستنجون بالخبز فبعث الله عليهم الجوع. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿أَو لَمْ نَهْدِ﴾ قال: أو لم نبين. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد مثله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي في قوله: ﴿لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا﴾ قال: المشركون.

تِلْكَ الْقُرَى نَفُصٌ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا يَسَاءَ كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٣٨﴾ وَمَا وَدَّعْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَدَّعْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَتْرَقُونَ ﴿١٣٩﴾

قوله: ﴿تِلْكَ الْقُرَى﴾ أي: التي أهلكناها، وهي قرى قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب، المتقدم ذكرها. ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ أي: نتلو عليك ﴿مِنْ أَنْبَاءِهَا﴾ أي: من أخبارها، وهذه تسليية لرسول الله ﷺ وللمؤمنين، ونقص إما في محل نصب على أنه حال، و﴿تِلْكَ الْقُرَى﴾ مبتدأ وخبر، أو يكون في محل رفع على أنه الخبر، و﴿الْقُرَى﴾ صفة لتلك، ومن في ﴿مِنْ أَنْبَاءِهَا﴾ للتبعيض: أي نقص عليك بعض أنبيائها، واللام في ﴿لَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ جواب القسم. والمعنى: أن من أخبرهم أنها جاءتهم رسل الله ببيناته كما سبق بيانه في قصص الأنبياء المذكورين قبل هذا ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ عند مجيء الرسل ﴿بِمَا كَذَّبُوا﴾ به ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ مجيئهم أو فما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل في حال من الأحوال، ولا في وقت من الأوقات بما كذبوا به قبل مجيئهم، بل هم مستمرون على الكفر، متشبثون بأنبياء الطغيان دائماً، ولم ينجع فيهم مجيء الرسل ولا ظهر له أثر، بل حالهم عند مجيئهم كحالهم قبله؛ وقيل المعنى: فما كانوا ليؤمنوا بعد هلاكهم بما كذبوا به لو أحييناهم كقوله: ﴿وَلَوْ رَأَوْا لَعَانُوا﴾ [الأنعام: 28] وقيل سألوا المعجزات، فلما رأوها لم يؤمنوا بما كذبوا به من قبل رؤيتها. والأول: أولى، ومعنى تكذيبهم قبل مجيء الرسل: أنهم كانوا في الجاهلية يكتبون بكل ما سمعوا به من إرسال الرسل، وإنزال الكتب. قوله: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ أي: مثل ذلك الطبع الشديد يطبع الله على قلوب الكافرين، فلا ينجع فيهم بعد ذلك وعظ ولا تنكير ولا ترغيب ولا ترهيب. قوله: ﴿وَمَا وَدَّعْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ﴾ الضمير يرجع إلى أهل القرى المذكورين سابقاً: أي ما وجدنا لأكثر أهل هذه القرى من عهد: أي عهد يحافظون عليه ويتمسكون به، بل نابهم نقض اليهود في كل حال؛ وقيل الضمير يرجع إلى الناس على العموم: أي ما وجدنا لأكثر الناس من عهد وقيل المراد بالعهد: هو المأخوذ عليهم في عالم اللز؛ وقيل الضمير يرجع إلى الكفار على العموم من غير تقييد بأهل القرى: أي الأكثر منهم لا عهد ولا وفاء، والقليل منهم قد يفى بعهده ويحافظ عليه، وإن في ﴿وَمَا وَدَّعْنَا لِأَكْثَرِهِمْ

يَلْعَبُونَ﴾ في محل نصب على الحال: أي يشتغلون بما لا يعود عليهم بفائدة، والاستفهام في ﴿اقَامُوا مَكَرَ اللَّهِ﴾ للتقريع والتوبيخ، وإنكار ما هم عليه من أمان مالا يؤمن من مكر الله بهم وعقوبته لهم، وفي تكرير هذا الاستفهام زيادة تقرير لانكار ما أنكره عليهم، ثم بين حال من آمن مكر الله، فقال: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكَرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي: الذين أقرطوا في الخسران، ووقعوا في وعيده الشديد، وقيل: مكر الله هنا هو استدراجه بالنعمة والصحة. والأولى حمله على ما هو أعم من ذلك. قوله: ﴿أَو لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا﴾ قرئ «نهد» بالنون وبالتحتية فعلى القراءة بالنون يكون فاعل الفعل هو الله سبحانه ومفعول الفعل ﴿أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: أن الشان هو هذا، وعلى القراءة بالتحتية يكون فاعل يهد هو ﴿أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: أخذناهم بكفرهم وتكذيبهم، والهداية هنا بمعنى التبيين، ولهذا عديت باللام. قوله: ﴿وَنُطْبِعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أي: ونحن نطبع على قلوبهم على الاستئفاف ولا يصح عطفه على أصبنا لأنهم ممن طبع الله على قلبه لعدم قبولهم للإيمان؛ وقيل: هو معطوف على فعل مقتر دل عليه الكلام، كأنه قيل يغفلون عن الهداية ونطبع؛ وقيل معطوف على يرثون قوله: ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ جواب لو: أي صاروا بسبب إصابتنا لهم بذنوبهم والطبع على قلوبهم لا يسمعون ما يتلوهم عليهم من أوامره الله إليهم من الوعظ، والإعذار، والإنذار.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿فَمَا بَكَتْهُ مَكَانَ السِّبْطِ الْحَسَنَةِ﴾ قال: مكان الشدة الرخاء ﴿حَتَّى عَفَا﴾ قال: كثروا وكثرت أموالهم. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس في قوله: ﴿حَتَّى عَفَا﴾ قال: جموا. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَافُ وَالسَّرَافُ﴾ قال: قالوا قد أتى على آبائنا مثل هذا فلم يكن شيئاً ﴿فَلَاخْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عنه في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا﴾ قال: بما أنزل الله ﴿وَلَوْ تَقَوَّا﴾ قال: ما حرّمه الله ﴿فَلَفْتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ يقول: أعطتهم السماء بركاتها والأرض نباتها. وأخرج ابن أبي حاتم عن طريق معاذ بن رفاع، عن موسى الطائفي قال: قال رسول الله ﷺ: «أكرموا الخبز فإن الله أنزله من بركات السماء وأخرجه من بركات الأرض». وأخرج البزار والطبراني، قال السيوطي بسند ضعيف عن عبد الله ابن أمّ حرام قال: صليت القبلتين مع رسول الله ﷺ وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «أكرموا الخبز فإن الله أنزله من بركات السماء وسخر له بركات الأرض، ومن تتعب ما يسقط من السفرة غفر له». وأخرج ابن أبي شيبة عن الحسن قال: كان

لوجود ما يوجب الإيمان من المعجزات العظيمة التي جاءهم بها، والمراد بالآيات هنا: هي الآيات التسع، أو معنى: ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ ظلموا الناس بسببها لما صنّوهم عن الإيمان بها، أو ظلموا أنفسهم بسببها ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي: المكذبين بالآيات الكافرين بها وجعلهم مفسدين، لأن تكذيبهم وكفرهم من أقبح أنواع الفساد. قوله: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أخبره بأنه مرسل من الله إليه، وجعل ذلك عنواناً لكلامه معه، لأن من كان مرسلًا من جهة من هو رب العالمين أجمعين، فهو حقيق بالقبول لما جاء به، كما يقول من أرسله الملك في حاجة إلى رعيته: أنا رسول الملك إليكم، ثم يحكى ما أرسل به فلان في ذلك من تربية المهابة، وإخبال الروعة، ما لا يقادر قدره. قوله: ﴿حَقِيقٌ عَلَيَّ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ قرئ حقيق عليّ أن لا أقول: أي واجب عليّ، ولازم لي، أن لا أقول فيما أبْلُغكم عن الله إلا القول الحق، وقرئ ﴿حَقِيقٌ عَلَيَّ أَنْ لَا أَقُولَ﴾ بدون ضمير في عليّ؛ قيل: في توجيهه أن على معنى الباء: أي حقيق بأن لا أقول، ويؤيده قراءة أبي والاعمش، فإنهما قرأا «حقيق بأن لا أقول»؛ وقيل: إن ﴿حَقِيقٌ﴾ مضمن معنى حريص؛ وقيل: إنه لما كان لازماً للحق كان الحق لازماً له، فقول الحق حقيق عليه، وهو حقيق على قول الحق؛ وقيل إنه أغرق في وصف نفسه في ذلك المقام، حتى جعل نفسه حقيقة على قول الحق، كأنه وجب على الحق أن يكون موسى هو قائله. وقرأ عبد الله بن مسعود «حقيق أن لا أقول» بإسقاط على، ومعناها واضح، ثم قال بعد هذا ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: بما يتبين به صلتقي، وأتي رسول من رب العالمين. وقد طوى هنا ذكر ما دار بينهما من المحاورة، كما في موضع آخر أنه قال فرعون ﴿فَمَنْ رَبُّكَ يَا مُوسَى﴾ [طه: 49] ثم قال بعد جواب موسى ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: 23] الآيات الحاكية لما دار بينهما. قوله: ﴿فَارْسِلْ مُعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أمره بأن يدع بني إسرائيل يذهبون معه، ويرجعون إلى أوطانهم، وهي الأرض المقدسة. وقد كانوا باقين لديه مستعبدين ممنوعين من الرجوع إلى وطنهم، والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، فلما قال ذلك ﴿قَالَ﴾ له فرعون ﴿إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ﴾ من عند الله كما تزعم ﴿فَأَنْتَ بِهَا﴾ حتى نشاهدها، وننظر فيها ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في هذه الدعوى التي جئت بها. قوله: ﴿فَالْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ أي: وضعها على الأرض فانقلبت ثعباناً: أي حية عظيمة من نكور الحيات، ومعنى ﴿مُبِينٌ﴾ أن كونها حية في تلك الحال أمر ظاهر واضح لا لبس فيه ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾ أي: أخرجها وأظهرها من جيبه، أو من تحت إبطه، وفي التنزيل: ﴿وَأَخْلَصَ يَدَهُ فِي جَيْبِهِ فَخَرَجَ بِضَاءٌ مِنْ غَيْرِ سَوَاءٍ﴾ [النمل: 12]. قوله: ﴿فَإِذَا هِيَ بِضَاءٌ لِلنَّظَارِينَ﴾ أي: فإذا يده التي أخرجها بيضاء تتلأل نوراً يظهر لكل مبصر ﴿قَالَ الْمَلَأُ﴾ أي:

لفاسقين هي المخففة من الثقلية، وضمير الشأن محذوف: أي أن الشأن وجدنا أكثرهم لفاسقين. أو هي النافية، واللام في **لفاسقين** بمعنى إلا: أي إلا فاسقين خارجين عن الطاعة خروجاً شديداً.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن أبي بن كعب، في قوله: ﴿فَمَا كُنَّا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كُنَّا مِنْ قَبْلُ﴾ قال: كان في علم الله يوم أقرأ له بالميثاق من يكتب به ممن يصنق به. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، في قوله: ﴿فَمَا كُنَّا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كُنَّا مِنْ قَبْلُ﴾ قال: مثل قوله: ﴿وَلَوْ رَدُّوا لَعَاوُوا لِمَا نَهَوْا عَنْهُ﴾ [الأنعام: 28]. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الحسن، في قوله: ﴿وَمَا وَجِئْنَا لَأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ﴾ قال: الوفاء. وأخرج ابن أبي حاتم، في الآية قال: هو ذلك العهد يوم أخذ الميثاق. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَأَنْ وَجِئْنَا أَكْثَرَهُمْ لِفَاسِقِينَ﴾ قال: ذاك أن الله إنما أهلك القرى لأنهم لم يكونوا حفظوا ما وصاهم به.

ثُمَّ جَاءَنَا مِنْ بَيْنِهِمْ ثَمُودُ بِإِبْرَاهِيمَ إِلَى رُفْعُونَ وَكَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٠١﴾
 كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٢﴾ وَقَالَ مُوسَى يُخْرِجُونَنِي مِنْ رِيسُلٍ مِنْ
 رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٣﴾ حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ
 بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَمَّا رَبِّي بِوَاسِعَةٍ ﴿١٠٤﴾ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِإِبْرَاهِيمَ فَأَبِ
 يَأْ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٥﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثَمْبَارٌ مُبِينٌ ﴿١٠٦﴾
 وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْعُتَةٌ لِلنَّارِ ﴿١٠٧﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ رُفْعُونَ إِنَّ هَذَا
 لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٨﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَنْصَابِكُمْ فَأَوَّارُونَ ﴿١٠٩﴾ قَالُوا أَتُجِ
 وَكُنَّا وَأَمَّا وَارِثُ فِي الدَّائِنِ حَسْبَيْنِ ﴿١١٠﴾ بِأَنفُوكَ بِكُلِّ سِحْرِ عَظِيمٍ ﴿١١١﴾ وَجَاءَ
 السَّحَرَةُ رُفْعُونَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٢﴾ قَالَ نَعَمْ
 وَإِنَّكُمْ لَيَنَّ الْمُفْرَقِينَ ﴿١١٣﴾ قَالُوا يَمْشُوعُ إِنَّمَا أَنْ ثَلَاثِي وَإِنَّمَا أَنْ لَكُنْ نَحْنُ
 الْمُفْلِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ أَلَمْؤُا قَلَّمَا أَلْعَوَا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ
 وَجَاءَهُمْ بِسِحْرِ عَظِيمٍ ﴿١١٥﴾ ۞ وَارْجِعْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ آتَى عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ
 ثَلَاثٌ مَا يَأْكُرُونَ ﴿١١٦﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٧﴾ فغُلِبُوا هُنَاكَ
 وَاتَّقَلَبُوا صَفِينِ ﴿١١٨﴾ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَهُمْ ﴿١١٩﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ
 ﴿١٢٠﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٢١﴾

قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَى﴾ أي: من بعد نوح وهود وصالح ولوط وشعيب: أي ثم أرسلنا موسى بعد إرسالنا لهؤلاء الرسل؛ وقيل: الضمير في ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ راجع إلى الأمم السابقة: أي من بعد إهلاكهم ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ فرعون هو لقب لكل من يملك أرض مصر بعد العمالة، وملا فرعون: أشراف قومه؛ وتخصيصهم بالذكر مع عموم الرسالة لهم ولغيرهم، لأن من عداهم كالاتباع لهم. قوله: ﴿فَقُلُّوا بِهَا﴾ أي: كفروا بها. وأطلق الظلم على الكفر، لكون كفرهم بالآيات التي جاء بها موسى كان كفراً متبافاً

بذلك تأتياً معه، وثقة من انفسهم بأنهم غالبون، وإن تأخروا، وأن في موضع نصب، قاله الكسائي والفراء: أي إما أن تفعل الإلقاء أو نفعله نحن. فأجابهم موسى بقوله: **«الْقَوَا»** اختار أن يكونوا المتقدمين عليه بالإلقاء ما يلقونه غير مبال بهم ولا هائب لما جاؤوا به. قال الفراء: في الكلام حذف. المعنى: قال لهم موسى إنكم لم تغلبوا ربكم ولن تبطلوا آياته؛ وقيل هو تهديد: أي ابتدئوا بالإلقاء فستنظرون ما يحل بكم من الافتضاح، والموجب لهذين التاويلين عند من قال بهما أنه لا يجوز على موسى أن يامرهم بالسحر **«فلما القوا»** أي: حيالهم وعصيتهم **«سحروا أعين الناس»** أي: قلبوها وغيروها عن صحة إدراكها بما جاؤوا به من التتمويه، والتخييل الذي يفعله المشعرون وأهل الخفة **«واسترهبوهم»** أي: اسخروا الرهبة في قلوبهم إسخالاً شديداً **«وجاؤوا بسحر عظيم»** في أعين الناظرين لما جاؤوا به، وإن كان لا حقيقة له في الواقع. قوله: **«واوحيانا إلى موسى أن الق عصاك»** أمره الله سبحانه عند أن جاء السحرة بما جاؤوا به من السحر أن يلقى عصاه **«فإذا هي»** أي: العصا **«تلقف ما يافكون»** قرأ حفص **«تلقف»** بإسكان اللام، وتخفيف القاف من لقف يلقف. وقرأ الباقر بفتح اللام، وتشديد القاف من تلقف يتلقف، يقال لقفت الشيء وتلقفته: إذا أخذته أو بلغت. قال أبو حاتم: وبلغني في بعض القراءات تلقم بالميم والتشديد، قال الشاعر:

أنت عصا موسى التي لم تزل تلقم ما يأتاك الساحر
«وما» في **«ما يافكون»** مصدرية أو موصولة: أي إفكهم أو ما يافكونه، سماه إفكاً، لأنه لا حقيقة له في الواقع، بل هو كذب وزور وتمويه وشعوذة **«فوقع الحق»** أي: ظهر وتبين لما جاء به موسى **«وبطل ما كانوا يعملون»** من سحرهم: أي تبين بطلانه **«فغلبوا»** أي: السحرة **«هنالك»** أي: في الموقف الذي أظهروا فيه سحرهم **«وانقلبوا»** من ذلك الموقف **«صاغرين»** أذلاء مهزورين **«والقي السحرة ساجدين»** أي: خروا ساجدين، كأنما أقامهم ملق على هيئة السجود، أو لم يتمالكوا مما رأوا فكانهم القوا انفسهم، وجملة **«قالوا آمنا برب العالمين»** رب موسى وهارون **«مستأنفة جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل: ماذا قالوا عند سجودهم أوفى سجودهم؟ وإنما قالوا هذه المقالة وصرّحوا بأنهم آمنوا برب العالمين، ثم لم يكتفوا بذلك حتى قالوا: رب موسى وهارون لئلا يتوهم متوهم من قوم فرعون المقرّين بالهية أن السجود له.**

وقد أخرج أبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: **«ثم بعثنا موسى»** قال: إنما سمي موسى، لأنه ألقى بين ماء وشجر قائماً بالقطبية مو والشجر سي. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مجاهد: أن فرعون كان فارسياً من أهل إصطخر. وأخرج أيضاً عن ابن لهيعة: أنه كانت من أبناء مصر. وأخرج أيضاً وأبو الشيخ، عن محمد بن المنكدر قال: عاش فرعون ثلاثمائة سنة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن علي بن أبي طلحة،

الأشراف **«من قوم فرعون»** لما شاهدوا انقلاب العصى حية، ومصير يده بيضاء من غير سوء **«إن هذا»** أي: موسى **«لساحر عليم»** أي: كثير العلم بالسحر ولا تنافي بين نسبة هذا القول إلى الملا هنا، وإلى فرعون في سورة الشعراء، فكلهم قد قالوه، فكان ذلك مصححاً لنسبته إليهم تارة وإلى أخرى، وجملة: **«يريد أن يخرجكم من أرضكم»** وصف لساحر، والأرض المنسوبة إليهم هي أرض مصر: وهذا من كلام الملا، وأما **«فماذا تأمرون»** فقيل: هو من كلام فرعون، قال للملا لما قالوا بما تقدّم: أي بأي شيء تأمرونني؛ وقيل: هو من كلام الملا: أي قالوا لفرعون، فبأي شيء تأمرنا وخطبوه بما تخاطب به الجماعة تعظيماً له، كما يخاطب الرؤساء أتباعهم، وما في موضع نصب بالفعل الذي بعدها، ويجوز أن تكون ذا بمعنى الذي، كما ذكره النحاة في ماذا صنعت، ويكون هذا من كلام فرعون هو الأولى، بليل ما بعده وهو: **«قالوا أرحه وإخاه»** قال الملا جواباً لكلام فرعون، حيث استشارهم وطلب ما عندهم من الرأي: أرحه، أي: أخره وإخاه يقال أرحته وأرجيته: أخرته. قرأ عاصم والكسائي وحزمة وأهل المدينة «أرحه» بغير همز، وقرأ الباقر بالهمز وقرأ أهل الكوفة إلا الكسائي أرحه بسكون الهاء. قال الفراء: هي لغة للعرب يقفون على الهاء في الوصل، وأنكر ذلك البصريون؛ وقيل معنى أرحه: احبسه؛ وقيل هو من رجا يرجو: أي أطمعه ودعه يرجو، حكاه النحاس عن محمد بن يزيد المبرد **«وارسل في المداثر حاشرين»** أي: أرسل جماعة حاشرين في المداثر التي فيها السحرة، وحاشرين مفعول أرسل؛ وقيل: هو منصوب على الحال، **«وبياتوك»** جواب الأمر: أي يأتوك هؤلاء الذين أرسلتهم **«بكل سحر عليم»** أي: بكل ماهر في السحر كثير العلم بصناعته. قرأ أهل الكوفة إلا عاصم «سحار» وقرأ من عداهم «ساحر». قوله: **«وجاء السحرة فرعون»** في الكلام طي: أي فبعث في المداثر حاشرين، وجاء السحرة فرعون. قوله: **«قالوا إن لنا لأجراً»** أي: فلما جاؤوا فرعون قالوا له إن لنا لأجراً، والجملة استئنافية جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل: أي شيء قالوا له لما جاؤوه؟ والأجر الجائزة والجعل، ألزموا فرعون أن يجعل لهم جعلاً إن غلبوا موسى بسحرهم. قرأ نافع، وابن كثير «إن لنا» على الإخبار، وقرأ الباقر «أثن لنا» على الاستفهام، استفهما فرعون عن الجعل الذي سيجعله لهم على الغلبة، ومعنى الاستفهام التقرير. وأما على القراءة الأولى، فكانهم قاطعون بالجعل، وأنه لا بد لهم منه، فأجابهم فرعون بقوله: **«نعم وإنكم لمن المقربين»** أي: إن تلكم لأجراً وإنكم مع هذا الأجر المطلوب منكم لمن المقربين لدينا. قوله: **«قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين»** هذه الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل: فما قالوا لموسى بعد أن قال لهم فرعون نعم وإنكم لمن المقربين. والمعنى: أنهم خيروا موسى بين أن يبتدئ بالإلقاء ما يلقى عليهم، أو يبتدئوه هم

وقيل: ثلاثين ألفاً، وقيل: سبعين ألفاً، وقيل: ثمانين ألفاً، وقيل: ثلثمائة ألف، وقيل: تسعمائة ألف. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن قتادة، في قوله: ﴿إِنْ لَنَا لَأَجْرًا﴾ أي: عطاء. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس، في قوله: ﴿فَلَمَّا أَقْبَوْا﴾ قال: القوا حبلاً غلاظاً وخشياً طويلاً، فأقبلت يخیل إليه من سحرهم أنها تسعى. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السديّ قال: ألقى موسى عصاه فاكلت كل حية لهم، فلما رأوا ذلك سجدوا. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن المنذر عن مجاهد، في قوله: ﴿تَلَقَّفْ مَا يَأْكُونُ﴾ قال: ما يكنبون. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن الحسن في قوله: ﴿تَلَقَّفْ مَا يَأْكُونُ﴾ قال: تسترط حبلاهم وعصيتهم. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن مسعود، وناس من الصحابة قال: التقى موسى وأمير السحرة، فقال له موسى: أرايتك إن غلبتك أتؤمن بي وتشهد أن ما جئت به حق؟ فقال الساحر: لأتین غداً بسحر لا يغلبه سحر، فو الله لئن غلبتني لأومنن بك ولاشهدن أنه حق، وفرعون ينظر إليهما وهو قول فرعون ﴿إِنْ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ﴾ [الأعراف: 123]. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الأوزاعي قال: لما خرّ السحرة سجداً رفعت لهم الجنة حتى نظروا إليها.

قَالَ فِرْعَوْنُ مَا مَنَّمُ بِهِ قَبْلَ أَنْ مَادَنَّا لَكَ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢١﴾ لَا تَقْلُمَنَّ أَيُّكُمْ وَأَرْبَابَكُمْ يَنْصَلِفُ ثُمَّ لَا تُمَسِّكُكُمْ أَصْوَابُكُمْ ﴿١٢٢﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَٰهِنَا مُقْبِلُونَ ﴿١٢٣﴾ وَمَا نَقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْهُمْ رَجَاءُ أَقْرَبَ عَيْنًا مِّنْ دُورِكُمْ وَسُيُورًا ﴿١٢٤﴾ وَقَالَ الْكَلْبُ مِنَ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُسُونَ قَوْمَهُمْ وَلِيُخْرِجُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَعْلَىٰ أَبْنَاهُ وَقَتْلَىٰ بَنَاتُهُمَا وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٥﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْمَعُوا لِلَّهِ وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عَبْدِهِ وَالْعِزَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٦﴾ قَالُوا أَوْيَيْنَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَرَيْنَا بَعْدَ مَا جِئْتُنَا قَالِ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَذَابُكُمْ فَتَسْتَرْقِلَكُمْ فِي الْأَرْضِ يَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾

قوله: ﴿آمَنتم به﴾ قرئ بحذف الهمزة على الإخبار وبإثباتها، أنكر على السحرة فرعون إيمانهم بموسى قبل أن يانن لهم بذلك، ثم قال بعد الإنكار عليهم مبيناً لما هو الحامل لهم على ذلك في زعمه ﴿إِنْ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ﴾ أي: حيلة احتلتموها أنتم وموسى عن مواطاة بينكم سابقة ﴿لِيُخْرِجُوا﴾ من مدينة مصر ﴿أَهْلَهَا﴾ من القبط، وتسولوا عليها وتسكنوا فيها أنتم وبنو إسرائيل، ومعنى ﴿فِي الْمَدِينَةِ﴾ أن هذه الحيلة والمواطاة كانت بينكم، وأنتم بالمدينة، مدينة مصر، قبل أن تبرزوا أنتم وموسى إلى هذه الصحراء، ثم هذمهم بقوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عاقبة صنعكم هذا، وسوء مغبته، ثم لم يكتف

أن فرعون كان قبطياً ولد زنا طوله سبعة أشبار. وأخرج أيضاً عن الحسن قال: كان علجاً من همدان. وأخرج أبو الشيخ، عن إبراهيم بن مقسم الهنلي، قال: مكث فرعون أربعمئة سنة لم يصدح له رأس. وأخرج عبد بن حميد، وأبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: ﴿فَالْقَىٰ عَصَاهُ﴾ قال: نكر لنا أن تلك العصا عصا آدم، أعطاه إياها ملك حين توجه إلى مدين، فكانت تضوي بالليل، ويضرب بها الأرض بالنهار، فتخرج له رزقه ويهش بها على غنمه ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مَبِينٌ﴾ قال: حية تكاد تساوره. وأخرج ابن أبي حاتم، على ابن عباس، قال: لقد نخل موسى على فرعون وعليه زومانقة من صوف ما تجاوز مرفقيه، فاستأذن على فرعون فقال: أدخلوه، فدخل فقال: إن إلهي أرسلني إليك، فقال للقوم حوله: ما علمت لكم من إله غيري، خذوه. قال إني قد جئتكم بأية، قال: فأنث بها إن كنت من الصادقين، فالقى عصاه، فصارت ثعباناً بين لحييه ما بين السقف إلى الأرض، وأدخل يده في جيبه، فأخرجها مثل البرق تلتعج الأبصار، فخرجوا على وجوههم، وأخذ موسى عصاه ثم خرج، ليس أحد من الناس إلا نفر منه، فلما أفاق وذهب عن فرعون البرق قال للملا حوله: ماذا تأمروني ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَخَاهُ﴾ ولا تأتينا به ولا يقربنا ﴿وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ وكانت السحرة يخشون من فرعون، فلما أرسل إليهم قالوا: قد لاحتاج إليكم إلهكم؟ قال: إن هذا فعل كذا وكذا، قالوا: إن هذا ساحر سحر ﴿إِنْ لَنَا لَأَجْرٌ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ قال نعم وإنكم لمن المقربين. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه، قال: عصى موسى اسمها ماشا. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ من طرق، عنه، في قوله: ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مَبِينٌ﴾ قال: الحية النكر. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السديّ، في قوله: ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مَبِينٌ﴾ قال: النكر من الحيات فاتحة فمها واضعة لحيها الأسفل في الأرض، والأعلى على سور القصر، ثم توجهت نحو فرعون لتأخذه، فلما رآها نعر منها ووثب، فأحدث ولم يكن يحدث قبل ذلك، فصاح يا موسى خذها وأنا آؤمن بربك وأرسل معك بني إسرائيل، فأخذها موسى فصارت عصا. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿أَرْجِهْ﴾ قال: أخره. وأخرج عبد بن حميد، عن قتادة، قال: أحبسها وأخاه. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس من طرق في قوله: ﴿وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ قال: الشرط. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عنه، في قوله: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ﴾ قال: كانوا سبعين رجلاً أصبحوا سحرة، وأمسوا شهداء.

وقد اختلفت كلمة السلف في عددهم؛ فقيل: كانوا سبعين كما قال ابن عباس، وقيل كانوا اثني عشر، وقيل: خمسة عشر ألفاً، وقيل: سبعة عشر ألفاً، وقيل: تسعة عشر ألفاً،

بالنصب بأن مقنّرة على أنه جواب الاستفهام، والواو نائبة عن الفاء أو عطفاً على «يفسدوا» أي: ليفسدوا، وليترك لأنهم على الفساد في زعمهم، وهو يؤدي إلى ترك فرعون وآلهته.

واختلف المفسرون في معنى: «وآلهتك» لكون فرعون كان يدعي الربوبية كما في قوله: «ما علمت لكم من إله غيري» [القصص: 38]. وقوله: «أنا ربكم» [النازعات: 24] ف قيل معنى وآلهتك: وطاعتك، وقيل معناه: وعبادتك، ويؤيده قراءة علي، وابن عباس، والضحاك «وآلهتك» وفي حرف أبي «أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض وقد تركوك أن يعبدوك» وقيل: إنه كان يعبد بقرة، وقيل: كان يعبد النجوم. وقيل: كان له أصنام يعبدها قومه تقرباً إليه فنسبت إليه، ولهذا قال «أنا ربكم الأعلى» [النازعات: 24] قاله الزجاج، وقيل: كان يعبد الشمس. فقال فرعون مجيباً لهم، ومثبِتاً لقولهم على الكفر «سنقتل لبناءهم». قرأ نافع وابن كثير «سنقتل» بالتخفيف، وقرأ الباقون بالتشديد: أي سنقتل الأبناء ونستحيي النساء: أي نتركهن في الحياة. ولم يقل سنقتل موسى، لأنه يعلم أنه لا يقدر عليه «وإننا فوقهم قاهرون» أي: مستعلون عليهم بالقهر والغلبة، أو هم تحت قهرنا وبين أيدينا، ما شئنا أن نفعله بهم فعلناه، وجملة «قال موسى لقومه» مستانفة جواب سؤال مقدر. لما بلغ موسى ما قاله فرعون أمر قومه بالاستعانة بالله والصبر على المحنة، ثم أخبرهم «أن الأرض» يعني: أرض مصر «لله يورثها من يشاء من عباده» أو جنس الأرض، وهو وعد من موسى لقومه بالنصر على فرعون وقومه، وإن الله سيورثهم أرضهم ويوارثهم. ثم بشرهم بأن العاقبة للمتقين: أي العاقبة المحمودة في الدنيا والآخرة للمتقين من عباده، وهم موسى ومن معه. وعاقبة كل شيء آخرة. وقرئ «والعاقبة» بالنصب عطفاً على الأرض، وجملة «قالوا أوتينا من قبل أن تاتينا ومن بعد ما جئتنا» مستانفة جواب سؤال مقدر كالتي قبلها: أي أوتينا من قبل أن تاتينا رسولا، وذلك يقتل فرعون أبناءنا عند مولدك لما أخبر بأنه سيولد مولود يكون زوال ملكه على يده «ومن بعد ما جئتنا» رسولا يقتل أبنائنا الآن؛ وقيل: المعنى أوتينا من قبل أن تاتينا باستعمالنا في الأعمال الشاقة بغير جعل «من بعد ما جئتنا» بما صرنا فيه الآن من الخوف على أنفسنا وأولادنا وأهلنا؛ وقيل: إن الأذى من قبل ومن بعد واحد، وهو قبض الجزية منهم، وجملة «قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم» مستانفة كالتي قبلها، وعدهم بإهلاك الله لعدوهم، وهو فرعون وقومه. قوله: «ويستخلفكم في الأرض» هو تصريح بما رمز إليه سابقاً من أن الأرض لله. وقد حقق الله رجاءه وملكو مصر في زمان داود وسليمان، وفتحوا بيت المقدس مع يوشع بن نون، وأهلك فرعون وقومه بالغرق وأنجاهم «فينظر كيف تعملون» من الأعمال بعد أن يمنّ عليكم بإهلاك عدوكم «ويستخلفكم في الأرض» فيجازيكم

بهذا الوعيد المجمل بل فصله فقال: «لاقطعن آيديكم وأرجلكم من خلاف» أي: الرجل اليمنى واليد اليسرى، أو الرجل اليسرى واليد اليمنى، ثم لم يكتف عدو الله بهذا، بل جاوزه إلى غيره فقال: «ثم لأصلبنكم» في جنود النخل: أي أجعلكم عليها مصلوبين زيادة تنكيل بهم، وإفراطاً في تعذيبهم، وجملة «قالوا إنا إلى ربنا منقلبون» استئنافية جواب سؤال كما تقدّم، ومعناه: إنك وإن فعلت بنا هذا الفعل، فتعذبه يوم الجزاء سيجازيك الله بصنعك ويحسن إلينا بما أصابنا في ذاته، فتوعده بعذاب الله في الآخرة لما توعدهم بعذاب الدنيا. ويحتمل أن يكون المعنى: «إنا إلى ربنا منقلبون» بالموت: أي لا بد لنا من الموت، ولا يضرنا كونه بسبب منك. قوله: «وما ننقم منا» قرأ الحسن بفتح القاف. قال الاخفش: هي لغة، وقرأ الباقون بكسرها، يقال نقمتم الأمر أنكركته: أي لست تعيب علينا وتذكر منا «إلا أن أمانا بآيات ربنا لما جاءتنا» مع أن هذا هو الشرف العظيم والخير الكامل، ومثله لا يكون موضعاً للعب ومكاناً للإنكار، بل هو حقيق بالثناء الحسن والاستحسان البالغ، ثم تركوا خطابه وقطعوا الكلام معه والتفتوا إلى خطاب الجنب العلي مفرّضين الأمر إليه طالبين منه عزّ وجلّ أن يثبتهم على هذه المحنة بالصبر قائلين: «ربنا أفرغ علينا صبراً» الإفراغ: الصبّ: أي أصببه علينا حتى يفيض ويغمرنا، طلبوا أبلغ أنواع الصبر، استعداداً منهم لما سينزل بهم من العذاب من عدو الله، وتوطئاً لأنفسهم على التصلب في الحق، وثبوت القدم على الإيمان، ثم قالوا: «وتوفنا مسلمين» أي: توفنا إليك حال ثبوتنا على الإسلام غير محرّقين، ولا مبطلين، ولا مفتونين. ولقد كان ما هم عليه من السحر والمهارة في علمه مع كونه شراً محضاً سبباً للفوز بالسعادة، لأنهم علموا أن هذا الذي جاء به موسى خارج عن طوق البشر، وأنه من فعل الله سبحانه، فوصلوا بالشّر إلى الخير، ولم يحصل من غيرهم ممن لا يعرف هذا العلم من اتباع فرعون ما حصل منهم من الإذعان والاعتراف والإيمان، وإذا كانت المهارة في علم الشرّ قد تأتي بمثل هذه الفائدة، فما بالك بالمهارة في علم الخير، اللهم انفعنا بما علمتنا، وثبت أقدامنا على الحق، وأفرغ علينا صبراً الصبر وتوفنا مسلمين. قوله: «وقال للملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض» هذا الاستفهام منهم للإنكار عليه: أي أتتركه وقومه ليفسدوا في الأرض بإيقاع الفرقة وتشيت الشمل. والمراد بالأرض هنا: أرض مصر. قوله: «ويذكرك وآلهتك» قرأ نعيم بن ميسرة «ويذكرك» بالرفع على تقدير مبتدأ: أي وهو يذكرك، أو على العطف على «أتذر موسى» أي: أتذر ويذكرك، وقرأ الأشهب العقيلي «ويذكرك» بالجزم: إما على التخفيف بالسكون لثقل الضمة، أو على ما قيل في «ولكن من الصالحين» [المنافقون: 10] في توجيه الجزم. وقرأ انس بن مالك «ونذكرك» بالنون والرفع، ومعناه: أنهم أخبروا عن أنفسهم بأنهم سينرونه وآلهته. وقرأ الباقون «ويذكرك»

أرى من السنين أخذني مني كما أخذ السرار من الهلال
بكسر النون من السنين. قال النحاس: وأشد سبويه هذا
البيت بفتح النون.

أقول: قد ورد ما لا احتمال فيه وهو قول الشاعر:

وماذا تزدري الأقسام مني وقد جاوزت حد الأربعين
وبعده:

لخو الخمسين مجتمع أشدي وتجنبني مداورة السنين
فإن الأبيات قبله وبعده مكسورة. وأول هذه الأبيات:

لنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني
وحكى الفراء عن بني عامر أنهم يقولون: أقمت عنده
سنتيناً مصروفاً، قال: وبنو تميم لا يصرفونه، ويقال أسنت
القوم: أي أجديوا، ومنه قول ابن الزبيري:

ورجال مكة مسنتون عجاف

«ونقص من الثمرات» بسبب عدم نزول المطر، وكثرة
العامات «لعلهم ينكرون» فيتعطلون ويرجعون عن
غوايتهم. قوله: «فإذا جاءتكم الحسنة قالوا لنا هذه» أي:

الخصلة الحسنة من الخصب بكثرة المطر، وصلاح الثمرات،
ورخاء الأسعار «قالوا لنا هذه» أي: أعطيناها باستحقاق،
وهي مختصة بنا «وإن تصيبهم سيئة» أي: خصلة سيئة

من الجنب والقحط، وكثرة الأمراض ونحوها من البلاء
«يطيروا بموسى ومن معه» أي: يتشاموا بموسى ومن

معه من المؤمنين به، والأصل يطيروا أدغمت التاء في الطاء،
وقرأ طلحة «نطيروا» على أنه فعل ماضٍ، وقد كانت العرب
تطير بأشياء من الطيور والحيوانات، ثم استعمل بعد ذلك

في كل من تشاءم بشيء، ومثل هذا قوله تعالى: «وإن
تصيبهم سيئة يقولوا هذه من عندك» [النساء: 78] قيل:

وجه تعريف الحسنة أنها كثيرة الوقوع، ووجه تنكير
السيئة ندرة وقوعها، قوله: «إلا إنما طائرهم عند الله» أي:

سبب خيرهم وشرهم بجميع ما ينالهم من خصب وقحط،
هو من عند الله، ليس بسبب موسى ومن معه، وكان هذا

الجواب على نمط ما يعتقدونه وبما يفهمونه، ولهذا عبر
بالطائر عن الخير والشر الذي يجري بقدر الله وحكمته

ومشيئته «ولكن أكثرهم لا يعلمون» بهذا، بل ينسبون
الخير والشر إلى غير الله جهلاً منهم. وقرأ الحسن «طيرهم»

قوله: «وقالوا مهما تاتنا به من آية لتسحرنا بها فما
نحن لك بمؤمنين» قال الخليل: أصل مهما «ما» الشرطية

زيدت عليه «ما» التي للتوكيد، كما تزداد في سائر الحروف

مثل: حيثما وأينما وكيفما ومتى ما، ولكنهم كرهوا اجتماع
المثلين فأبدلوا ألف الأولى هاء. وقال الكسائي: أصله: أي

اكف ما تاتينا به من آية، وزيدت عليها «ما» الشرطية؛ وقيل:

وهي كلمة مفردة يجازي بها، ومحل مهما الرفع على

الابتداء، أو النصب بفعل يفسره ما بعدها، ومن آية لبيان

مهما، وسموها آية استهزاء بموسى كما يفيد ما بعده، وهو

«لتسحرنا بها» أي: لتصرفنا عما نحن عليه كما يفعله

السحرة بسحرهم، والضمير في به عائد إلى مهما، والضمير

با عملتم فيه من خير وشر.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي في
قوله: «إن هذا لمكر مكرموه في الممينة» إذا التقيتما

لتظاهرا فتخرجنا منها أهلها «لأقطعن لبيكم» الآية، قال:

فقتلهم وقطعهم كما قال. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر،
وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: كان أول من صلب

فرعون، وهو أول من قطع الأيدي والأرجل من خلاف.
وأخرج عبد بن حميد، عن قتادة، في قوله: «من خلاف»

قال: يدأ من ها هنا، ورجلاً من ها هنا. وأخرج عبد بن
حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، في قوله:

«أوئينا من قبل أن تلقينا ومن بعد ما جفتنا» قال: من
قبل إرسال الله إياك ومن بعده. وأخرج عبد بن حميد، وابن

أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن وهب بن منبه، في الآية قال:

قالت بنو إسرائيل لموسى كان فرعون يكلفنا اللبن قبل أن
تأتينا، فلما جئت كلفنا اللبن مع التبن أيضاً، فقال موسى: أي

رب أهلك فرعون، حتى متى تبقية؟ فأوحى الله إليهم إنهم لم
يعملوا الذنب الذي أهلكهم به. وأخرج عبد بن حميد، عن

قتادة، في الآية قال: حزا لعنوا الله حاز أنه يولد في العام
غلام يسلب ملكك، قال: فتتبع أولادهم في ذلك العام بذبح

الذكر منهم، ثم نحبهم أيضاً بعد ما جاءهم موسى. وأخرج
ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، قال: إن بنا أهل البيت يفتح

ويختم، ولا بد أن تقع دولة لبني هاشم فانظروا فيمن تكون
من بني هاشم؟ وفيهم نزلت: «عسى ريكم أن يهلك عدوكم

ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون» وينبغي أن
ينظر في صحة هذا عن ابن عباس، فالآية نازلة في بني

إسرائيل، لا في بني هاشم، واقعة في هذه القصة الحاكية
لما جرى بين موسى وفرعون.

ولقد أخذنا آل فرعون باليسين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون
فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذا وإن أصابهم سيئة يطيروا بموسى

ومن معه إلا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون وقالوا
مهما تأتينا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين فأرسلنا عليهم

الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مبينات فاستكبروا وكانوا قوماً

عجبرين ولما وقع عليهم الجزاء قالوا بموسى أدع لنا ربك بما عهد

عندك لين كشف عنا الجزاء لتؤيدنك ولكرسلن مملكت بني

إسرائيل قلنا كشفنا عنهم الجزاء إلى أجل هم يلبثوه إذا هم

ينكثرون فأنقمنا منهم فأغرقهم في إيل وهبهم كذبوا بآياتنا

وصكواؤها غيغاب

فاجتأوا النكت وبادروه **﴿فانتقمنا منهم﴾** أي: أردنا الانتقام منهم لما نكثوا بسبب ما تقدم لهم من الذنوب المتعددة **﴿فاغرقناهم في اليم﴾** أي: في البحر، قيل: هو الذي لا يدرك قعره، وقيل هو لجته وأوسطه، وجملة **﴿بأنهم كتبوا بأيديهم﴾** تحليل للإغراق **﴿وكانوا عنها غافلين﴾** معطوف على كتبوا: أي كانوا غافلين عن النعمة المدلول عليها بانتقمنا، أو عن الآيات التي لم يؤمنوا بها، بل كتبوا بها، وكانوا في تكذيبهم بمنزلة الغافلين عنها، والثاني: أولى لأن الجملتين تحليل للإغراق.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن مسعود **﴿ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين﴾** قال: السنين الجوع. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد قال: السنين الجوائح **﴿ونقص من الثمرات﴾** دون ذلك. وأخرج الحكيم الترمذي في نوارد الأصول، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، قال: لما أخذ الله آل فرعون بالسنين يبس كل شيء لهم، وذهبت مواشيهم حتى يبس نيل مصر، واجتمعوا إلى فرعون، فقالوا: إن كنت كما تزعم فائتتنا في نيل مصر بماء، قال: غداة يصبحكم الماء، فلما خرجوا من عنده قال: أي شيء صنعت إن لم أقدر على أن أجري في نيل مصر ماء غداة كذبوني؟ فلما كان جوف الليل قام فاغتسل، ولبس مدرعة صوف، ثم خرج حافياً حتى أتى نيل مصر فقال: اللهم إنك تعلم، أني أعلم أنك تقدر على أن تملأ نيل مصر ماء فاملاه ماء، فما علم إلا بجزر الماء يقبل، فخرج وأقبل النيل يزخ بالماء لما أراد الله بهم من الهلكة. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: **﴿فإذا جاءتهم الحسنة﴾** قال: العافية والرخاء **﴿قالوا لنا هذه﴾** نحن أحق بها **﴿وإن تصبهم سيئة﴾** قال: بلاء وعقوبة **﴿يطيئروا بموسى﴾** قال: يتشاءموا به. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس، في قوله: **﴿إلا إنما طائرهم عند الله﴾** قال: الأمر من قبل الله، وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ: «الطوفان الموت» قال ابن كثير: هو حديث غريب. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، قال: الطوفان الغرق. وأخرج هؤلاء عن مجاهد قال: الطوفان الموت على كل حال. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، قال: الطوفان: مطروا دائماً بالليل والنهار ثمانية أيام، والقمل: الجراد الذي له أجنحة. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه، قال: الطوفان أمر من أمر ربك، ثم قرأ: **﴿طاف عليها طائف من ربك﴾** [القلم: 19]. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد قال: الطوفان الماء، والطاعون والجراد. قال ياكل مسامير أرتجهم: يعني أبوابهم وثيابهم، والقمل: الدبابة

في بها عائد إلى آية؛ وقيل: إنها جميعاً عائدان إلى مهمما، وتذكير الأول باعتبار اللفظ، وتأييد الثاني باعتبار المعنى **﴿فما نحن لك بمؤمنين﴾** جواب الشرط: أي فما نحن لك بمصنفين: أخبروا عن أنفسهم أنهم لا يؤمنون بشيء مما يجيء به من الآيات التي هي في زعمهم من السحر، فعند ذلك نزلت بهم العقوبة من الله عز وجل المبينة بقوله: **﴿فأرسلنا عليهم الطوفان﴾** وهو المطر الشديد. قال الأخفش: واحده طوفانة، وقيل: هو مصدر كالرجحان والنقصان فلا واحد له، وقيل الطوفان: الموت. وقال النحاس: الطوفان في اللغة ما كان مهلكاً من موت أو سيل: أي ما يطيف بهم فيهلكهم **﴿والجراد﴾** هو الحيوان المعروف، أرسله الله لاكل زروعهم فاكلها **﴿والقمل﴾** قيل: هي الدبابة؛ والبلاء الجراد قبل أن تطير، وقيل: هي السوس، وقيل: البراغيث، وقيل: دواب سود صغار، وقيل: ضرب من القردان، وقيل: الجعلان. قال النحاس: يجوز أن تكون هذه الأشياء كلها أرسلت عليهم. وقرأ الحسن «القمل» بفتح القاف وإسكان الميم. وقرأ الباقون بضم القاف وفتح الميم مشددة. وقد فسر عطاء الخراساني «القمل» بالقمل **﴿والضفادع﴾** جمع ضفدع، وهو الحيوان المعروف الذي يكون في الماء **﴿والدم﴾** روي أنه سال النيل عليهم دماً، وقيل: هو الرعاف. قوله: **﴿آيات مفصلات﴾** أي: مبيئات، قال الزجاج: هو منصوب على الحال. والمعنى: أرسلنا عليهم هذه الأشياء حال كونها آيات بينات ظاهرات **﴿فاستكبروا﴾** أي: ترفعوا عن الإيمان بالله **﴿وكانوا قوماً مجرمين﴾** لا يهتدون إلى حق، ولا ينزعون عن باطل. قوله: **﴿ولما وقع عليهم الرجز﴾** أي: العذاب بهذه الأمور التي أرسلها الله عليهم، وقرئ بضم الراء وهما لغتان؛ وقيل: كان هذا الرجز طاعوناً مات به من القبط في يوم واحد سبعون ألفاً **﴿قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك﴾** أي: بما استودعك من العلم، أو بما اختصك به من النبوة؛ أو بما عهد إليك أن تدعو به فيجيبك، والباء متعلقة بادع على معنى: اسعفنا إلى ما نطلب من الدعاء بحق ما عندك من عهد الله، أو ادع لنا متوسلاً إليه بمعده عندك؛ وقيل: إن الباء للقسمة، وجوابه لنؤمنن: أي أقسمنا بعهد الله عندك **﴿لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك﴾** على أن جواب الشرط سد مسد جواب القسم؛ وعلى أن الباء ليست للقسمة، تكون اللام في **﴿لئن كشفت عنا الرجز﴾** جواب قسم محذوف، و **﴿لنؤمنن﴾** جواب الشرط ساد مسد جواب القسم **﴿ولنرسلن معك بني إسرائيل﴾** معطوف على لنؤمنن، وقد كانوا حابسين لبني إسرائيل عندهم، يمتنونهم في الأعمال، فوعده بإرسالهم معه **﴿فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه﴾** أي: رفعنا عنهم العذاب عند أن رجعوا إلى موسى وسأله بما سأله، لكن لا رفعاً مطلقاً، بل رفعاً مقيداً بغاية هي الأجل المضروب لإهلاكهم بالغرق، وجواب لما **﴿إذا هم ينكتون﴾** أي: ينقضون ما وعده على أنفسهم، وإذا هي الفجائية: أي

باركنا فيها» صفة للمشارك والمغارب؛ وقيل: صفة الأرض، والمباركة فيها إخراج الزرع والثمار منها على أتم ما يكون، وأنفع ما ينفق. قوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحَسَنَى﴾ أي: مضت واستمرت على التمام، والكلمة هي: «ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين» [القصص: 5]، وهذا وعد من الله سبحانه بالنصر والظفر بالأعداء والاستيلاء على أملاكهم، والحسنى: صفة للكلمة، وهي تأنيت الأحسن، وتتمام هذه الكلمة ﴿على بني إسرائيل﴾ بسبب صبرهم على ما أصيبوا به من فرعون وقومه. قوله: ﴿وَوَعَدْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمَهُ﴾ التتمير بالإهلاك: أي أهلكنا بالخراب ما كانوا يصنعونه من العمارات ﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ قرأ ابن عامر، وأبو بكر، عن عاصم «يعرشون» بضم الراء. قال الكسائي: هي لغة تميم. وقرأ إبراهيم بن أبي عبلة «يعرشون» بتشديد الراء وضم حرف المضارعة. وقرأ الباقر بكسر الراء مخففة أي ما كانوا يعرشونه من الجنات، ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ [الأنعام: 141] وقيل: معنى يعرشون يبنون، يقال عرش يعرش أي: بنى يبنى. قوله: ﴿وَوَعَدْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾ هذا شروع في بيان ما فعله بنو إسرائيل بعد الفراغ مما فعله فرعون وقومه. ومعنى جاوزنا ببني إسرائيل البحر: جزأه بهم وقطعناه. وقرئ «جوزنا» بالتشديد، وهو بمعنى قراءة الجمهور ﴿فَاتَوَا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ﴾ قرأ حمزة والكسائي «يعكفون» بكسر الكاف، وقرأ الباقر بضمها، يقال عكف يعكف: ويعكف بمعنى أقام على الشيء ولزمه، والمصدر منهما عكوف؛ قيل: هؤلاء القوم الذين أتاهم بنو إسرائيل هم من لحم كانوا نازلين بالرقّة، كانت أصنامهم تماثيل بقر؛ وقيل: كانوا من الكنعانيين ﴿قَالُوا﴾ أي: بنو إسرائيل عند مشاهدتهم لتلك التماثيل ﴿يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا﴾ أي: صنماً نعبده كائنًا كالذي لهؤلاء القوم، فالكاف متعلق بمحذوف وقع صفة للإلهاء، فاجاب عليهم موسى، و ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ وصفهم بالجهل، لأنهم قد شاهدوا من آيات الله ما يوجب من له أننى علم عن طلب عبادة غير الله، ولكن هؤلاء القوم: أعني بني إسرائيل أشد خلق الله عناداً وجهلاً وتلوّناً، وقد سلف في سورة البقرة بيان ما جرى منهم من ذلك، ثم قال لهم موسى ﴿إِنْ هَؤُلَاءِ﴾ يعني: القوم العاكفين على الأصنام ﴿مُتَّبِعُونَ﴾ أي: أن فيه التبار: الهلاك، وكل إناء منكسر فهو متبر: أي أن هؤلاء هالك ما هم فيه منكم مكسر، والذي هم فيه هو: عبادة الأصنام أخبرهم بأن هذا الدين الذي هؤلاء القوم عليه. هالك منكم لا يتم منه شيء. قوله: ﴿وَيُبْطِلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: ذاهب مضمحل جميع ما كانوا يعملونه من الأعمال مع عبادتهم للأصنام. قال في الكشف: وفي إيقاع هؤلاء اسماً لأن، وتقديم خبر المبتدأ من الجملة الواقعة خبراً لها، واسم لعبد الأصنام بأنهم هم المعرّضون للتبار، وأنه

والضفادع، تسقط على فرشهم وفي أطعمتهم، والدم: يكون في ثيابهم ومائهم وطعامهم. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس قال: القمل اللبأ. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، قال: كانت الضفادع برية، فلما أرسلها الله على آل فرعون سمعت وأطاعت، فجعلت تقذف نفسها في القدر وهي تغلي، وفي التناوير وهي تقور. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، قال: سال النيل دماً، فكان الإسرائيلي يستقي ماء طيباً، ويستقي الفرعوني دماً، ويشتركان في إناء واحد، فيكون ما يلي الإسرائيلي ماء طيباً وما يلي الفرعوني دماً. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن زيد بن أسلم، في قوله: ﴿وَالدَّمَ﴾ قال: سلب الله عليهم الرعاف. وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال: مكث موسى في آل فرعون بعدما غلب السحرة أربعين سنة، يريهم الآيات، والجرا، والقمل والضفادع. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه في قوله: ﴿آيَاتٍ مَفْصَلَاتٍ﴾ قال: كانت آيات مفصلات يتبع بعضها بعضاً ليكون لله الحجة عليهم. وأخرج ابن المنذر، عنه، قال: يتبع بعضها بعضاً تمكث فيهم سبباً إلى سبب، ثم ترفع عنهم شهراً. وأخرج ابن مردويه، عن عائشة، عن النبي ﷺ قال: «الرجز: العذاب» وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبيرة قال: الرجز الطاعون. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِلَى لَجَلٍ هُم بِالْفُجُوهِ﴾ قال: الغرق. وأخرج ابن أبي حاتم، عن طريق، عن ابن عباس قال: اليم البحر. وأخرج أيضاً عن السدي مثله.

وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَعْرِبَهَا أَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكُنْتَ رَكْبَ الْحَقِّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَوَعَدْنَا مَا كَانَتْ يَمْسَحُ بِرُءُوسِهِمْ وَقَوْمَهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٤١﴾ وَجَوَّزْنَا بِسَبْرِ إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَاتَوَا عَلَىٰ قَوْمٍ يَمْكُثُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَسْأَلُونَ أَجَلَ لَنَا إِلَهُهَا كَمَا فَتَىٰ إِلَهُهُ قَالِ إِنَّكُمْ قَوْمٌ يَجْهَلُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مَثَرُ نَارٍ فِيهِ وَيَبْطُلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْجِبْكُمْ إِلَهُهَا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٤﴾ وَإِذْ أَخْبَرْنَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ يَقُولُونَ أَبْنَاءُكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ رِجْسٌ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ لِّمَنْ رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤٥﴾

قوله: ﴿وَوَعَدْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَعْرِبَهَا﴾ أي: يذلون ويمتهون بالخضعة لفرعون، وقومه ﴿مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَعْرِبَهَا﴾ منصوبان بأورثنا. وقال الكسائي والفراء: إن الأصل في مشارق الأرض ومعاربها ثم حذفت «في» فنصبها، والأول: أظهر لأنه يقال أورثته المال، والأرض هي مصر والشام، ومشارقتها جهات مشرقها، ومعاربها جهات مغربها، وهي التي كانت لفرعون وقومه من القبط؛ وقيل: المراد جميع الأرض؛ لأن داود وسليمان من بني إسرائيل، وقد ملكا الأرض. قوله: ﴿وَالْقِي

فذلك كان أول شأن العجل ليكون لله عليهم الحجة، فينتقم منهم بعد ذلك. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، والترمذي وصححه، والنسائي وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مريويه عن أبي واقد الليثي قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حين فمررنا بسدرة، فقلت: يا رسول الله اجعل لنا هذه ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط، وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة، ويعكفون حولها فقال النبي ﷺ: «الله أكبر هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، إنكم تكونون سنن الذين من قبلكم» وأخرج نحوه ابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مريويه، من طريق كثير بن عبد الله بن عوف عن أبيه عن جده مرفوعاً، وكثير ضعيف جداً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿مَتَّبِعُوا﴾ قال: خسران. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عنه، قال: هلاك.

﴿وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ تَلَوُّنَ لَيْلَةٍ وَأَتَمَّتْهَا بِعَشْرِ فَنَمَّ مِمَّا رَزَيْنَا أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾

هذا من جملة ما كرم الله به موسى عليه السلام وشرفه. والثلاثين هي نو القعدة، والعشر هي عشر ذي الحجة ضرب الله هذه المدة موعداً لمناجاة موسى ومكالمته؛ قيل: وكان التكليم في يوم النحر، والفائدة في ﴿فَنَمَّ مِيقَاتِ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ مع العلم بأن الثلاثين والعشر أربعون ليلاً يتوهم وأن المراد أتمنا الثلاثين بعشر منها فبين أن العشر غير الثلاثين، وأربعين ليلة منصوب على الحال: أي فَنَمَّ حال كونه بالغاً أربعين ليلة. قوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي يَوْمِي﴾ أي: كن خليفتي فيهم، قال موسى هذا لما أراد المضي إلى المناجاة ﴿وَأَصْلِحْ﴾ أمر بني إسرائيل بحسن سياستهم، والرفق بهم، وتفقد أحوالهم ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي: لا تسلك سبيل العاصين، ولا تكن عوناً للظالمين.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، من طرق، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَوَاعِدْنَا مُوسَىٰ﴾ الآية، قال: نو القعدة، وعشر من ذي الحجة. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد عن مجاهد مثله. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في الآية، قال: إن موسى قال لقومه: إن ربي وعدني ثلاثين ليلة أن ألقاه، وأخلف هارون فيكم، فلما فصل موسى إلى ربه، زاده الله عشراً، فكانت ففتنتهم في العشر التي زاده الله، فلما مضى ثلاثون ليلة كان السامري قد أبصر جبريل، فأخذ من أثر الفرس قبضة من تراب، ثم نكر قصة السامري.

وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِيُعِظِيَنَّهُمْ وَكَلَّمَ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَسْمَعْ أَتُنْظِرُ إِنِّي كَأَن تَرْبِي وَلَكِنَّ أَتُنْظِرُ إِلَى الْكِبَالِ فَإِنَّ اسْمُكَ مَكْرَهُمُ سَوْفَ تَرْنِي لَمَّا جَمَلْتُ رَبُّهُمُ لِلْجَبَلِ جَمْعَهُمْ دَكًّا وَكَرَّ مُوسَىٰ صَوْقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ بُنْتُ

لا يعدوهم البتة، وأنه لهم ضربة لازب، ليحذرهم عاقبة ما طلبوا، وتبغض إليهم ما أحبوا. قوله: ﴿أَغْيِرَ اللَّهُ لِبَغْيِكُمُ إِلَهًا﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ: أي كيف أطلب لكم غير الله إلهاً تعبدونه، وقد شاهدتم من آياته العظام ما يكفي البعض منه؟ والمعنى: أن هذا الذي طلبتم لا يكون أبداً، وإدخال الهمزة على غير: للإشعار بأن المنكر هو كون المبتغى غيره سبحانه إلهاً، وغير مفعول للفعل الذي بعده، وإلهاً تمييز أو حال، وجملة: ﴿وَهُوَ فَضْلُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ في محل نصب على الحال أي: والحال أنه فضلكم على العالمين من أهل عصركم بما أنعم به عليكم من إهلاك عبوكم، واستخلافكم في الأرض، وإخراجكم من الذل والهوان إلى العز والرفعة، فكيف تقابلون هذه النعم بطلب عبادة غيره. قوله: ﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: وذكرنا وقت إنجائنا لكم من آل فرعون، بعد أن كانوا مالكين لكم، يستعبدونكم فيما يريدونه منكم، ويمتهنونكم بأنواع الامتهانات، هذا على أن هذا الكلام محكي عن موسى، وأما إذا كان في حكم الخطاب لليهود الموجودين في عصر محمد، فهو بمعنى: اذكروا إذ أنجينا أسلافكم من آل فرعون، وجملة: ﴿يَسْؤُمُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ في محل نصب على الحال: أي أنجيناكم من آل فرعون حال كونهم ﴿يَسْؤُمُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾، ويجوز أن تكون مستأنفة لبيان ما كانوا فيه مما أنجاهم منه، وجملة: ﴿يَقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ مفسرة للجملة التي قبلها، أو بدل منها. وقد سبق بيان ذلك، والإشارة بقوله: ﴿وَفِي نَارِكُمْ﴾ إلى العذاب: أي في هذا العذاب الذي كنتم فيه ﴿بِلَاءٌ﴾ عليكم ﴿مَنْ رِيكُمْ عَظِيمٌ﴾ وقيل: الإشارة إلى الإنجاء، والبلاء النعمة. والأول: أولى.

وقد أخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الحسن في قوله: ﴿مِشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا لَمَّا بَارَكْنَا فِيهَا﴾ قال: الشام. وأخرج هؤلاء عن قتادة مثله. وأخرج ابن عساکر عن زيد بن أسلم نحوه. وأخرج أبو الشيخ، عن عبد الله بن شونب، قال: هي فلسطين، وقد روي عن النبي ﷺ في فضل الشام لحديث ليس هذا موضع ذكرها. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿وَوُتِّمَتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحَسَنَى﴾ قال: ظهور قوم موسى على فرعون وتمكين الله لهم في الأرض وما ورثهم منها. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ قال: يبنون. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن قتادة، في قوله: ﴿فَاتُوا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ﴾ قال: لخم وجذام. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن أبي عمران الجوني مثله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن جريج، في الآية قال: تماثيل بقر من نحاس، فلما كان عجل السامري شبه لهم أنه من تلك البقر،

فالمعتملة استملوا بقوله: ﴿لن تراني﴾، وبامره بأن ينظر إلى الجبل. والأشعرية قالوا: إن تعليق الرؤية باستقرار الجبل يدل على أنها جائزة غير ممتنعة، ولا يخفك أن الرؤية الأخرية هي بمعزل عن هذا كله، والخلاف بينهم هو فيها لا في الرؤية في الدنيا، فقد كان الخلاف فيها في زمن الصحابة، وكلامهم فيها معروف، قوله: ﴿فلما تجلى ربه للجبل جعله نكاً﴾ تجلى معناه: ظهر، من قولك جلوت العروس: أي أبرزتها. وجلوت السيف: أخلصته من الصدا، وتجلى الشيء: انكشف. والمعنى: فلما ظهر ربه للجبل جعله نكاً، وقيل المتجلي: هو أمره وقدرته، قاله قطرب وغيره. والدك مصدر بمعنى المفعول: أي جعله منكوكاً منقوفاً. فصار تراباً، هذا على قراءة من قرأ نكاً بالمصدر، وهم أهل المدينة وأهل البصرة، وأما على قراءة أهل الكوفة ﴿جعلته نكاً﴾ على التانيث، والجمع نكاوت، كحمراء وحمراوات، وهي اسم للرابية الناشئة من الأرض أو للأرض المستوية، فالمعنى: أن الجبل صار صغيراً كالرابية، أو أرضاً مستوية. قال الكسائي: لك: الجبال العراض واحدها أنك. والدكاوت جمع نكاء، وهي رواب من طين ليست بالغلاظ، والدكالك: ما التبد من الأرض فلم يرتفع، وناق نكاء: لا سنام لها ﴿وخر موسى صعقاً﴾ أي: مغشياً عليه مأخوذاً من الصاعقة: والمعنى: أنه صار حاله لما غشي عليه كحال من يغشى عليه عند إصابة الصاعقة له. يقال صعق الرجل، فهو صعق ومصعوق: إذا أصابته الصاعقة ﴿فلما أفاق﴾ من غشيته ﴿قال سبحانك﴾ أي: أنزهك تنزيهاً من أن أسأل شيئاً لم تأذن لي به ﴿تبت إليك﴾ عن العود إلى مثل هذا السؤال. قال القرطبي: واجمعت الأمة على أن هذه التوبة ما كانت عن معصية، فإن الأنبياء معصومون؛ وقيل: هي توبة من قتله للقطبي، نكره القشيري، ولا وجه له في مثل هذا المقام ﴿وإن أول المؤمنين﴾ بك قبل قومي المومنين في هذا العصر المعترفين بعظمتك وجلالك، وجملة ﴿قال يا موسى﴾ مستأنفة كالتي قبلها، متضمنة لإكرام موسى واختصاصه بما اختصه الله به. والاصطفاء: الاجتباء والاختيار: أي اخترتك على الناس المعاصرين لك برسالتني، كذا قرأ نافع، وابن كثير، بالافراد، وقرأ الباقون بالجمع. والرسالة مصدر، والأصل فيه الإفراد، ومن جمع فكانه نظر إلى أن الرسالة هي على ضروب فجمع لاختلاف الأنواع، والمراد بالكلام هنا: التكليم. أمثّر الله سبحانه عليه بهذين النوعين العظيمين من أنواع الإكرام، وهما الرسالة والتكليم من غير واسطة، ثم أمره بأن يأخذ ما أتاه: أي أعطاه من هذا الشرف الكريم، وأمره بأن يكون من الشاكرين على هذا العطاء العظيم، والإكرام الجليل. قوله: ﴿وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء﴾ من كل شيء: أي من كل ما يحتاج إليه بنو إسرائيل في دينهم وبنياهم، وهذه الألواح: هي التوراة، قيل: كانت من زمردة خضراء؛ وقيل: من باقوتة حمراء، وقيل: من زبرجد، وقيل:

إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦١﴾ قَالَ يَتُوحَّحُ إِلَى أَصْطَلَقْتِكَ عَلَى النَّاسِ
يُرْسَلَنِي وَيَكْلِمُنِي فَخَدَّيَا مَا خَدَّيْكَ وَكَرْنُ يَدَيْ الشَّكْرَيْنِ ﴿١٦٢﴾ وَكُنَّا لَكَ فِي
الْأَلْوَانِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَتَوَعَّلَ وَتَقَصَّيْلًا لِكُلِّ شَيْءٍ نَحْنُ مَا نَحْنُ مَا نَحْنُ وَأَمْرُ
قَوْمِكَ يَأْتِيهِمْ سَائِرِيكَ دَارَ الْفَتَنِينِ ﴿١٦٣﴾ سَأَصْرَفُ عَنْ آيَتِي الَّذِينَ
يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلاًّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ
يَرَوْا سَيِّئَ الرَّشْدِ لَا يَقْتُلُوهُ سَيِّئًا وَلَا يَمُرُّوا سَيِّئًا سَيِّئًا لَقَدْ يَنْجِدُهُ سَيِّئًا
ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٦٤﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
وَلَقَدْ الْآخِرَةُ حِطَّتْ أَصْلَهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿١٦٥﴾

اللام في ﴿لميقاتنا﴾ للاختصاص: أي كان مجيئه مختصاً بالميقات المذكور، بمعنى أنه جاء في الوقت الموعود: ﴿وكلّمه ربه﴾ أي: أسمعته كلامه من غير واسطة. قوله: ﴿أرني انظر إليك﴾ أي: أرني نفسك انظر إليك: أي سأله النظر إليه اشتياقاً إلى رؤيته لما أسمعته كلامه. وسؤال موسى للرؤية يدلّ على أنها جائزة عنده في الجملة، ولو كانت مستحيلة عنده لما سأله، والجواب بقوله: ﴿لن تراني﴾ يفيد أنه لا يراه هذا الوقت الذي طلب رؤيته فيه، أو أنه لا يرى ما دام الرائي حياً في دار الدنيا. وأما رؤيته في الآخرة فقد ثبتت بالأحاديث المتواترة تواتراً لا يخفى على من يعرف السنة المطهرة، والجدال في مثل هذا والمراوغة لا تأتي بفائدة، ومنهج الحق واضح، ولكن الاعتقاد لمذهب نشأ الإنسان عليه وأدرك عليه أباه وأهل بلده، مع عدم التنبه لما هو المطلوب من العباد من هذه الشريعة المطهرة، يقع في التعصب، والمتعصب وإن كان بصره صحيحاً فبصيرته عمياء، وأئنّه عن سماع الحق سماء، ينفع الحق، وهو يظنّ أنه ما دفع غير الباطل، ويحسب أن ما نشأ عليه هو الحق غفلة منه وجهلاً بما أوجب الله عليه من النظر الصحيح، وتلقى ما جاء به الكتاب والسنة بالإذعان والتسليم، وما أقلّ المنصفين بعد ظهوره هذه المذاهب في الأصول والفروع فإنه صار بها باب الحقّ مرتجأً، وطريق الإنصاف مستورة، والأمر لله سبحانه، والهداية منه:

يأبى الفتى إلا اتباع الهوى ومنهج الحق له واضح
وجملة: ﴿قال لن تراني﴾ مستأنفة، لكونها جواباً لسؤال
مقدّر كائنه قيل: فما قال الله له؟ والاستدراك بقوله: ﴿ولكن
انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني﴾ معناه:
أنك لا تثبت لرؤيتي، ولا يثبت لها ما هو أعظم منك جرمًا
وصلابة وقوة، وهو الجبل، فانظر إليه ﴿فإن استقر مكانه﴾
ولم يتزلزل عند رؤيتي له ﴿فسوف تراني﴾ وإن ضعف عن
ذلك، فانت منه أضعف، فهذا الكلام بمنزلة ضرب المثل
لموسى عليه السلام بالجبل؛ وقيل: هو من باب التعليق
بالمحال، وعلى تسليم هذا فهو في الرؤية في الدنيا لما
قدمنا.

وقد تمسك بهذه الآية كلا طائفتين المعتزلة والاشعرية:

سبيلاً من سبيل الغي سلوكه واختاروه لأنفسهم. قرأ أهل المدينة وأهل البصرة «الرشد» بضم الراء وإسكان الشين. وقرأ أهل الكوفة إلا عاصماً بفتح الراء والشين. قال أبو عبيدة: فرق أبو عمرو بين الرشد والرشد فقال: الرشد الصلاح والرشد في الدين. قال النحاس: سيبويه يذهب إلى أن الرشد والرشد، كالسخط والسخط. قال الكسائي: والصحيح عن أبي عمرو، وغيره، ما قال أبو عبيدة. وأصل الرشد في اللغة: أن يظفر الإنسان بما يريد، وهو: ضد الخيبة، والإشارة بقوله: «**ذلك**» إلى الصرف: أي ذلك الصرف بسبب تكذيبهم، أو الإشارة إلى التكرير وعدم الإيمان بالآيات، وتجنب سبيل الرشد، وسلوك سبيل الغي، واسم الإشارة مبتدأ، وخبره جملة: «**بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين**». أي: بسبب تكذيبهم بالآيات وغفلتهم عنها، والموصول في «**والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة**» مبتدأ. وخبره «**حبطت أعمالهم**»، والمراد بلقاء الآخرة: لقاء الدار الآخرة: أي لقاءهم لها، أو لقاءهم ما وعدوا به فيها على أن الإضافة إلى الظرف، وحباط الأعمال بطلانها: أي بطلان ما عملوه مما صورته صورة الطاعة، كالصنعة والصلة، وإن كانوا في حال كفرهم لا طاعت لهم، ويحتمل أن يراد أنها تبطل بعينها كانت مرجوة النفع على تقدير إسلامهم، لما في الحديث الصحيح: «أسلمت على ما أسفلت من خير». **هل يجزون إلا ما كانوا يعملون**» من الكفر بالله، والتكذيب بآياته، وتكذب سبيل الحق، وسلوك سبيل الغي.

وقد أخرج الحكيم الترمذي في نوارير الأصول عن كعب قال: لما كلم الله موسى قال: يا رب أهكذا كلامك؟ قال: يا موسى إنما كلمك بقوة عشرة آلاف لسان ولي قوة الألسن كلها، ولو كلمتك بكنهه كلامي لم تك شيئاً. وأخرج البزار، وابن أبي حاتم، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في الأسماء والصفات، من حديث جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لما كلم الله موسى يوم الطور كلمه بغير الكلام الذي كلمه به يوم ناداه، فقال له موسى: يا رب أهذا كلامك الذي كلمتني به؟ قال: يا موسى إنما كلمتك بقوة عشرة آلاف لسان، ولي قوة الألسن كلها، وأقوى من ذلك، فلما رجع موسى إلى بني إسرائيل قالوا: يا موسى صف لنا كلام الرحمن، فقال: لا تستطيعونه، ألم تروا إلى أصوات الصواعق التي تقتل، في أحلى حلوة سمعتموه فذاك قريب منه وليس به». وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، عن أبي الحويرث عبد الرحمن بن معاوية، قال: إنما كلم الله موسى بقدر ما يطيق من كلامه ولو تكلم بكلامه كله لم يطقه شيء، فمكث موسى أربعين ليلة لا يراه أحد، إلا مات من نور رب العالمين. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: «**قال رب أرني أنظر إليك**» يقول: أعطني أنظر إليك. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، عن قتادة، في الآية، قال: لما سمع الكلام طمع في الرؤية. وأخرج أبو الشيخ، عن ابن عباس، قال: حين قال موسى لربه تبارك وتعالى «**رب أرني**

من صخرة صماء. وقد اختلف في عدد الألواح، وفي مقدار طولها وعرضها، والألواح: جمع لوح، وسمي لوحاً لكونه تلوح فيه المعاني، وأسند الله سبحانه الكتابة إلى نفسه تشريفاً للمكتوب في الألواح، وهي مكتوبة بأمره سبحانه؛ وقيل: هي كتابة خلقها الله في الألواح، و«**من كل شيء**» في محل نصب على أنه مفعول «**كتبنا**» و«**موعظة**» و«**تفصيلاً**» بدل من محل كل شيء، أي: موعظة لمن يتعظ بها من بني إسرائيل وغيرهم، وتفصيلاً للأحكام المحتاجة إلى التفصيل «**فخذها بقوة**» أي: خذ الألواح بقوة: أي بجِدِّ ونشاط وقيل الضمير عائد إلى الرسالات، أو إلى كل شيء، أو إلى التوراة، قيل: وهذا الأمر على إضمار القول: أي فقلنا له خذها، وقيل: إن «**فخذها**» بدل من قوله: «**فخذ ما أتيتك**» «**وأمر قومك ياخذوا بحسنها**» أي: بأحسن ما فيها بما أجزه أكثر من غيره، وهو مثل قوله تعالى: «**اتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم**» [الزمر: 55]، وقوله: «**فيتبعون أحسنه**» [الزمر: 18]، ومن الأحسن الصبر على الغير والعفو عنه، والعمل بالعزيمة دون الرخصة، وبالفريضة دون النافلة، وفعل المأمور به، وترك المنهي عنه. قوله: «**ساوركم دار الفاسقين**» قيل: هي أرض مصر التي كانت لفرعون وقومه وقيل منازل عاد وثمود، وقيل هي جهنم، وقيل منازل الكفار من الجبابرة والعماقة ليعتبروا بها، وقيل الدار: الهلاك. والمعنى: ساريكم هلاك الفاسقين. وقد تقدم تحقيق معنى الفسق. قوله: «**ساصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق**» قيل: معنى «**ساصرف عن آياتي الذين يتكبرون**» سامنعمهم فهم كتابي، وقيل: ساصرفهم عن الإيمان بها، وقيل: ساصرفهم عن نفخها مجازاة على تكبرهم كما في قوله: «**فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم**» [الصف: 5]، وقيل: ساطبع على قلوبهم حتى لا يتفكروا فيها ولا يعتبروا بها.

واختلف في تفسير الآيات، فقليل هي المعجزات، وقيل: الكتب المنزلة، وقيل: هي خلق السموات والأرض، وصرفهم عنها: أن لا يعتبروا بها، ولا مانع من حمل الآيات على جميع ذلك حمل الصرف على جميع المعاني المنكورة و«**بغير الحق**» إما متعلق بقوله: «**يتكبرون**» أي: يتكبرون بما ليس بحق، أو بمحذوف وقع حالاً: أي يتكبرون متلبسين بغير الحق. قوله: «**وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها**» معطوف على «**يتكبرون**» منتظم معه في حكم الصلة. والمعنى: ساصرف عن آياتي المتكبرين التاركين للإيمان بما يرونه من الآيات، ويدخل تحت كل آية الآيات المنزلة، والآيات التكوينية، والمعجزات: أي لا يؤمنون بآية من الآيات كائنة ما كانت. وقرأ مالك بن دينار «يروا» بضم الياء في الموضعين، وجملة: «**وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً**» معطوفة على ما قبلها داخلة في حكمها، وكذلك جملة: «**وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً**» والمعنى: أنهم إذا وجنوا سبيلاً من سبيل الرشد تركوه وتجنبوه، وإن راوا

من ياقوته. وأنا أقول: إنما كانت من زمرد وكتابها الذهب، كتبها الله بيده، فسمع أهل السموات صريف الأقلام.

أقول: رحم الله سعيداً ما كان أغناه عن هذا الذي قاله من جهة نفسه، فمثله لا يقال بال رأي ولا بالحس، والذي يغلب به الظن أن كثيراً من السلف رحمهم الله كانوا يسألون اليهود عن هذه الأمور، فلماذا اختلفت واضطربت، فهذا يقول من خشب، وهذا يقول من ياقوت. وهذا يقول من زمرد، وهذا يقول من زبرجد، وهذا يقول من برد، وهذا يقول من حجر. وأخرج أبو الشيخ، عن السدي **﴿وكتبنا له في الألواح من كل شيء﴾** كل شيء أمروا به ونهوا عنه.

وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، مثله. وقد اختلف السلف في المكتوب في الألواح اختلافاً كثيراً، ولا مانع من حمل المكتوب على جميع ذلك لعدم التنافي. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس **﴿فخذها بقوة﴾** قال بجد وحزم **﴿ساوركم دار الفاسقين﴾** قال: دار الكفار. وأخرج ابن جرير عنه **﴿وامر قومك يلخنوا بأحسنها﴾** قال: أمر موسى أن يأخذها بأشد مما أمر به قومه. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن الربيع بن أنس **﴿فخذها بقوة﴾** قال: بطاعة. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن السدي في قوله: **﴿فخذها بقوة﴾** يعني: بجد واجتهاد **﴿وامر قومك يأخذوا بأحسنها﴾** قال: بأحسن ما يجدون منها. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد **﴿ساوركم دار الفاسقين﴾** قال: مصيرهم في الآخرة. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن قتادة، قال: منازلهم في الدنيا. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الحسن، قال: جهنم. وأخرج أبو الشيخ، عن قتادة، قال: مصر. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي، في قوله: **﴿ساصرف عن آياتي﴾** قال: عن أن يتفكروا في آياتي. وأخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ، عن ابن جريج **﴿عن آياتي﴾** قال: عن خلق السموات والأرض، والآيات التي فيها ساصرفهم عن أن يتفكروا فيها أو يعتبروا. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن سفيان بن عيينة في الآية قال: أنزع عنهم فهم القرآن.

وَأَخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ قُوَّهِمْ عِجْلًا جَسَداً لَهُمُ خَورٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْفُرُهُمْ سِيعَلَا أَفَعَدَّوْهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَأَنَّهُمْ قَوْمٌ أَعْيَيْنَ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ صَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَذَرِ لَنَا لَبَكْرَةً مِنْ رَبِّ الْخَالِيَيْنِ ﴿١٠١﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَيْدِيًا قَالَ يَاسَ قَوْمِ لَقَدْ كُنْتُمْ مِنْ بَعْدَى آبَائِكُمْ أَهْلَ زَيْبٍ وَالْقُلُوبِ الْآلِيَةِ وَاتَّقُوا رَبَّ إِنَّهُ هُوَ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسِهِ فَذَلِكُمْ أَكْبَرُ وَإِنَّكُمْ أَنْتُمْ الْقَوْمُ السَّاعُونَ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَفَلَا تَتَذَكَّرُ ﴿١٠٢﴾ قَالُوا رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَعِزَّنَا فِي نَفْسِكَ وَأَنْتَ أَزْكَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٣﴾

قوله: **﴿واخذ قوم موسى من قوهم عجلاً جسداً لهم خوراً﴾** أي: من بعد خروجه إلى الطور **﴿من حلهم﴾** متعلق باتخاذ أو بمحنوف

لفظ **﴿إليك﴾** قال الله: يا موسى إنك لن تراني، قال يقول: ليس تراني ولا يكون ذلك أبداً، يا موسى إنه لن يراني أحد فيحيا، قال موسى ربّ إني أراك ثم أموت، أحب إليّ من أن لا أراك ثم أحياء، فقال الله لموسى: يا موسى انظر إلى الجبل العظيم الطويل الشديد **﴿فإن تستقر مكانه﴾** يقول: فإن ثبت مكانه لم يتضعضع، ولم ينهد لبعض ما يرى من عظمتي **﴿فسوف تراني﴾** أنت لضعفك ونلتك، وإن الجبل انهد بقوته وشدته وعظمته، فانت أضعف وأذل. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، والترمذي وصححه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن عدي في الكامل، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مريويه، والبيهقي في كتاب الرؤية من طرق، عن أنس بن مالك: أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية **﴿فلما تجلّى ربه للجبل جعله دكاً﴾** قال هكذا، وأشار بأصبعيه ووضع إبهاميه على أتملة الخنصر، وفي لفظ على المفصل الأعلى من الخنصر، فساخ الجبل **﴿وخرّ موسى صعقاً﴾** وفي لفظ، فساخ الجبل في الأرض، فهو يهوى فيها إلى يوم القيامة، وهذا الحديث حديث صحيح على شرط مسلم. وأخرج أبو الشيخ، عن ابن عباس، قال: الجبل الذي أمره الله أن ينظر إليه الطور. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي في كتاب الرؤية، عن ابن عباس **﴿فلما تجلّى ربه للجبل﴾** قال: ما تجلّى منه إلا قدر الخنصر **﴿جعله دكاً﴾** قال: تراباً **﴿وخرّ موسى صعقاً﴾** قال: مغشياً عليه. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مريويه، وأبو نعيم في الحلية، والنيلمي، عن أنس أن النبي ﷺ قال: «لما تجلّى الله للجبل طارت لعظمته ستة أجبل، فوقعت ثلاثة بالمدينة وثلاثة بمكة بالمدينة: أحد وورقان ورضوى، وبمكة: حراء وثبير وثور». وأخرج الطبراني في الأوسط، عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «لما تجلّى الله لموسى تطايرت سبعة أجبل، ففي الحجاز خمسة منها، وفي اليمن اثنان، في الحجاز: أحد وثبير وحراء وثور وورقان، وفي اليمن: حضور وصبر». وأخرج ابن جرير، والحاكم وصححه، وابن مريويه، عن ابن عباس، أن موسى لما كلمه ربه أحب أن ينظر إليه فسأله: فقال: **﴿لن تراني ولكن انظر إلى الجبل﴾** قال: فحَفَّ حول الجبل الملائكة، وحَفَّ حول الملائكة بنار، وحَفَّ حول النار بملائكة، وحَفَّ حولهم بنار، ثم تجلّى ربه للجبل تجلّى منه مثل الخنصر، فجعل الجبل دكاً وخرّ موسى صعقاً، فلم يزل صعقاً ما شاء الله، ثم أفاق فقال: سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين من بني إسرائيل. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وأبو الشيخ عن عليّ ابن أبي طالب، قال: كتب الله الألواح لموسى، وهو يسمع صريف الأقلام في لوح. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مريويه، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ قال: «الألواح التي أنزلت على موسى كانت من سدر الجنة كان طول اللوح اثني عشر ذراعاً». وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جببر، قال كانوا يقولون كانت الألواح

وقع حالاً، ومن للتبعيض، أو للابتداء، أو للبيان؛ والحلي جمع حلى. وقرأ أهل المدينة وأهل البصرة «من حليهم» بضم الحاء وتشديد الياء. وقرأ أهل الكوفة إلا عاصماً بكسر الحاء. وقرأ يعقوب بفتح الحاء وتخفيف الياء. قال النحاس: جمع حلي وحلي وحلى مثل ثدي وثدي وثدي، والأصل حلوى أدغمت الواو في الياء، فانكسرت اللام لمجاورتها الياء، وتكسر الحاء لكسرة اللام وضمها على الأصل، وأضيفت الحلي إليهم وإن كانت لغيرهم؛ لأن الإضافة تجوز لأننى ملابسة، و **﴿عجلاً﴾** مفعول اتخذ، وقيل: هو بمعنى التصيير، فيتعدى إلى مفعولين ثانيهما محذوف: أي اتخذوا عجلاً إلهاً. و **﴿جسداً﴾** بدل من عجلاً، وقيل وصف له، والخوار الصياح: يقال خار يخور خوراً إذا صاح. وكذلك خار يخار خواراً. ونسب اتخاذ العجل إلى القوم جميعاً، مع أنه اتخذهم السامري وحده، لكونه واحداً منهم، وهم راضون بفعله. روي أنه لما وعد موسى قومه ثلاثين ليلة فابطأ عليهم في العشر المزيدة، قال السامري لبني إسرائيل وكان مطاعاً فيهم: إن معكم حلياً من حلي آل فرعون الذي استعترموه منهم لتتزينوا به في العيد، وخرجتم وهو معكم. وقد أغرق الله أهله من القبط فهاتوها، فدفعوها إليه، فاتخذ منها العجل المذكور. قوله: **﴿لم يروا أنه لا يكلمهم﴾** الاستفهام للتقريع والتوبيخ: أي ألم يعتبروا بأن هذا الذي اتخذوه إلهاً لا يقدر على تكليمهم، فضلاً عن أن يقدر على جلب نفع لهم، أو دفع ضرر منهم **﴿ولا يهديهم سبيلاً﴾** أي: طريقاً واضحة يسلكونها **﴿اتخذوه وكانوا ظالمين﴾** أي: اتخذوه إلهاً **﴿وكانوا ظالمين﴾** لأنفسهم في اتخاذها، أو في كل شيء، ومن جملة ذلك هذا الاتخاذ. قوله: **﴿ولما سقط في أيديهم﴾** أي: ندموا وتحيروا بعد عود موسى من الميقات؛ يقال للناجم المتحير قد سقط في يده. قال الأخفش: يقال سقط في يده وأسقط، ومن قال سقط في أيديهم على البناء للفاعل، فالمعنى عنده: سقط الندم وأصله أن من شأن من اشتد ندمه وحسرتة أن يعضّ يده غماً، فتصير يده مسقوطة فيها، لأن فاه قد وقع فيها. وقال الأزهري والزجاج والنحاس وغيرهم: معنى سقط في أيديهم: أي في قلوبهم وأنفسهم، كما يقال: حصل في يده مكروه، وإن كان محالاً أن يكون في اليد تشبيهاً لما يحصل في القلب والنفس بما يحصل في اليد، لأن مباشرة الأشياء في الغالب باليد، قال الله تعالى: **﴿نلك بما قَدَمْتَ يدك﴾** [الحج: 10] وأيضاً الندم وإن حل القلب فآثره يظهر في البدن، لأن الندم يعضّ يده ويضرب إحدى يديه على الأخرى، قال الله تعالى: **﴿فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها﴾** [الكهف: 42] ومنه: **﴿ويوم يعض الظالم على يديه﴾** [الفرقان: 27] أي: من الندم، وأيضاً الندم يضع ثقته في يده **﴿ورأوا أنهم قد ضلوا﴾** معطوف على سقط: أي تبينوا أنهم قد ضلوا باتخاذهم العجل، وأنهم قد ابتلوا بمعصية الله سبحانه **﴿قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويفقر لنا﴾** قرأ حمزة والكسائي بالفوقية في الفعلين

جميعاً، وقرأ الباقون بالتحتيّة، واللام للقسم، وجوابه: **﴿لنكونن من الخاسرين﴾** وفي هذا الكلام منهم ما يفيد الاستغاثة بالله والتضرع والابتهاال في السؤال، وسيأتي في سورة طه إن شاء الله ما يدل على أن هذا الكلام المحكي عنهم هنا وقع بعد رجوع موسى، وإنما قدم هنا على رجوعه لقصد حكاية ما صدر عنهم من القول والفعل في موضع واحد. قوله: **﴿ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً﴾** هذا بيان لما وقع من موسى بعد رجوعه، وانتصاب غضبان وأسفاً على الحال، والأسف شديد الغضب. قيل هو منزلة وراء الغضب أشد منه، وهو أسف وأسيف وأسفان وأسوف، قال ابن جرير الطبري: أخبره الله قبل رجوعه بأنهم قد فتنوا، فلذلك رجع وهو غضبان أسفاً **﴿قال بثسماً خلفتموني من بعدي﴾** هذا نَم من موسى لقومه: أي بشس العمل ما علمتموه من بعدي: أي من بعد غيبتني عنكم، يقال خلفه بخير وخلفه بشر، استنكر عليهم ما فعلوه، وذمهم لكونهم قد شاهدوا من الآيات ما يوجب بعضه الانزعاج والإيمان بالله وحده، ولكن هذا شأن بني إسرائيل في تلَوّن حالهم واضطراب أفعالهم، ثم قال منكراً عليهم **﴿أعجلتم أمر ربكم﴾** والعجلة: التقدّم بالشيء قبل وقته، يقال عجلت الشيء سبقت، وأعجلت الرجل حملته على العجلة، والمعنى: أعجلتم عن انتظار أمر ربكم: أي ميعاده الذي وعده، وهو الأربعون ففعلتم ما فعلتم؛ وقيل معناه: تعجلتم سخط ربكم؛ وقيل معناه: أعجلتم عبادة العجل قبل أن ياتيكم أمر ربكم **﴿والقى الألواح﴾** أي: طرحها لما اعتراه من شدة الغضب والأسف حين أشرف على قومه، وهم عاكفون على عبادة العجل. قوله: **﴿واخذ برأس أخيه يجره إليه﴾** أي: أخذ برأس أخيه هارون أو بشعر رأسه حال كونه يجره إليه: فعل به ذلك لكونه لم ينكر على السامري، ولا غيره ما رآه من عبادة بني إسرائيل للعجل، فقال: هارون معتدراً منه **﴿ابن أمّ إن القوم استضعفوني وكابوا يقتلونني﴾** أي: إنني لم أطق تغيير ما فعلوه لهذين الأمرين استضعافهم لي، ومقاربتهم لقتلي وإنما قال ابن أمّ مع كونه أخاه من أبيه وأمه، لأنها كلمة لين وعطف، ولأنها كانت كما قيل مؤمنة. وقال الزجاج: قيل كان هارون أخا موسى لأنه لا لأبيه. قرئ **﴿ابن أمّ﴾** بفتح الميم تشبيهاً له بخمسة عشر، فصار كقولك يا خمسة عشر أقبلوا. وقال الكسائي والفراء وأبو عبيد: إن الفتح على تقدير يابن أما وقال البصريون هذا القول خطأ: لأن الألف خفيفة لا تحذف، ولكن جعل الاسمين اسماً واحداً كخمسة عشر، واختاره الزجاج والنحاس. وأما من قرأ بكسر الميم، فهو على تقدير ابن أمي، ثم حذفت الياء وأبقيت الكسرة، لتدل عليها. وقال الأخفش وأبو حاتم: ابن أمّ بالكسر، كما تقول يا غلام أقبل؛ وهي لغة شاذة والقراءة بها بعيدة، وإنما هذا فيما يكون مضافاً إليك. وقرئ **﴿ابن أمي﴾** بإثبات الياء. قوله: **﴿فلا تشمت بي الأعداء﴾** الشماتة: السرور من الأعداء بما يصيب من يعاونونه مع المصائب، ومنه قوله **﴿اللهم إني أعوذ بك من سوء**

وأخرج أبو نعيم في الحلية، عن مجاهد، أو سعيد بن جبير، قال: لما ألقاه موسى ذهب التفصيل وبقي الهدى. وأخرج ابن المنذر، عن ابن جريج، قال: كانت تسعة رفع منها لوحان وبقي سبعة. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، في قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ قال: مع أصحاب العجل.

إِنَّ الَّذِينَ أَخَذُوا الْوَيْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَأَمْسُوا إِلَىٰ رَبِّكَ مِن بَعْدِهَا لَنُغْفِرَ رَجِيئُكُمْ ﴿١٦﴾ وَلَكِن سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبَ أَخَذَ الْأَلْوَابُ وَفِي شَجَرِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٧﴾

الغضب ما نزل بهم من العقوبة في الدنيا بقتل أنفسهم، وما سينزل بهم في الآخرة من العذاب، والنلة هي التي ضربها الله عليهم بقوله: ﴿ضربت عليهم الذلة﴾ [البقرة: 61]، وقيل: هي إخراجهم من ديارهم، وقيل: هي الجزية، وفيه نظر لأنها لم تؤخذ منهم، وإنما أخذت من ذراريهم. والأولى أن يقيد الغضب والذلة بالدنيا؛ لقوله: ﴿ففي الحياة الدنيا﴾ وإن ذلك مختص بالمخذنين للعجل إله لا لمن بعدهم من ذراريهم، ومجرد ما أمروا به من قتل أنفسهم هو غضب من الله عليهم، وبه يصيرون أذلاء، وكذلك خروجهم من ديارهم هو من غضب الله عليهم، وبه يصيرون أذلاء، وأما ما نال ذراريهم من الذلة فلا يصح تفسير ما في الآية به إلا إذا تعذر حمل الآية على المعنى الحقيقي، وهو لم يتعذر هنا ﴿وكنك نجزي للمفترين﴾ أي: مثل ما فعلنا بهؤلاء نفعل بالمفترين، والافتراء الكذب، فمن افترى على الله سيناله من الله غضب وذلّة في الحياة الدنيا. وإن لم يكن بنفس ما عوقب به هؤلاء، بل المراد ما يصدق عليه أنه من غضب الله سبحانه، وإن فيه ذلة بأي نوع كان ﴿والذين عملوا السيئات﴾ أي: سيئة كانت ﴿ثم تابوا﴾ عنها ﴿من بعدها﴾ عملها ﴿وأمسوا﴾ بالله ﴿إن ربك من بعدها﴾ أي: من بعد هذه التوبة، أو من بعد عمل هذه السيئات التي قد تاب عنها فاعلها وأمن بالله ﴿لغفور رحيم﴾ أي: كثير الغفران لذنوب عباده وكثير الرحمة لهم. قوله: ﴿ولما سكّت عن موسى الغضب﴾ أصل السكوت: السكون والإمساك؛ يقال جرى الوادي ثلاثاً ثم سكن: أي أمسك عن الجري؛ قيل هذا مثل كان الغضب كان يغريه على ما فعل، ويقول له: قل لقومك كذا، والقي الألواح، وجر برأس أخيك، فترك الإغراء وسكت؛ وقيل: هذا الكلام فيه قلب، والأصل: سكت موسى عن الغضب، كقولهم أسلخت الأصبع الخاتم، والخاتم الأصبع، وأسلخت القلنسوة رأسي ورأسي القلنسوة. وقرأ معاوية بن قرة «ولما سكن عن موسى الغضب» وقرئ سكت وأسكت ﴿لأخذ الألواح﴾ التي ألقاها عند غضبه ﴿وفي نسختها هدى ورحمة﴾ النسخ نقل ما في كتاب إلى كتاب آخر، ويقال للأصل الذي كان النقل منه نسخة، وللمنقول نسخة

القضاء ودرك الشقاء وجهد البلاء وشماتة الأعداء» وهو في الصحيح. ومنه قول الشاعر:

إذا ما الدهر جرّ على أناس كلاكله أناخ بأخريتنا
فقل للشامتين بنا أفيقوا سيلقي الشامتون كما لقينا
والمعنى: لا تفعل بي ما يكون سبباً للشماتة منهم. وقرأ مجاهد ومالك بن دينار: ﴿فلا تشمت بي الأعداء﴾ بفتح حرف المضارعة وفتح الميم ورفع الأعداء على أن الفعل مسند إليهم: أي لا يكون ذلك منهم لفعل تفعله بي. ودوي عن مجاهد أنه قرأ ﴿تشمت﴾ كما تقدّم عنه مع نصب الأعداء. قال ابن جني: والمعنى فلا تشمت بي أنت يا رب، وجاز هذا كما في قوله: ﴿الله يستهزئ بهم﴾ [البقرة: 15] ونحوه، ثم عاد إلى المراد فاضمر فعلاً نصب به الأعداء، كأنه قال: ولا تشمت يا رب بي الأعداء، وما أبعد هذه القراءة عن الصواب، وأبعد تأويلها عن وجوه الإعراب. قوله: ﴿ولا تجعلني مع القوم الظالمين﴾ أي: لا تجعلني بغضبك علي في عداد القوم الظالمين: يعني الذين عبدوا العجل، أو لا تعتقد أنني منهم قوله: ﴿قال رب اغفر لي ولاخي﴾ هذا كلام مستأنف جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل: فماذا قال موسى بعد كلام هارون هذا؟ فقيل: ﴿قال رب اغفر لي ولاخي﴾ طلب المغفرة له أولاً، ولاخيه ثانياً ليزيل عن أخيه ما خافه من الشماتة، فكانه تلمم مما فعله بأخيه، وأظهر أنه لا وجه له، وطلب المغفرة من الله مما فرط منه في جانبه، ثم طلب المغفرة لأخيه إن كان قد وقع منه تقصير فيما يجب عليهم من الإنكار عليهم وتغيير ما وقع منهم، ثم طلب إخاله وإخال أخيه في رحمة الله التي وسعت كل شيء فهو ﴿أرحم الراحمين﴾.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، عن مجاهد، في قوله: ﴿ولتأخذ قوم موسى﴾ الآية، قال: حين دفنوها ألقى عليها السامري قبضة من تراب أثر فرس جبريل عليه السلام. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، في الآية قال: استعاروا حلياً من آل فرعون، فجمعه السامري فصاغ منه ﴿عجلاً﴾ فجعله ﴿جسداً﴾ لحماً ودماً ﴿له خوار﴾. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عكرمة، في قوله: ﴿خوار﴾ قال: الصوت. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الضحاك قال: خار العجل خورة لم يثن ألم تر أن الله قال: ﴿الم يروا أنه لا يكلمهم﴾ وأخرج ابن المنذر، عن ابن عباس، في قوله: ﴿يسقط في أيديهم﴾ قال: نموا. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ من طرق، عن ابن عباس ﴿أسفاً﴾ قال: حزينا. وأخرج أبو الشيخ، عن أبي الدرداء، قال: الأسف منزلة وراء الغضب أشد من ذلك. وأخرج عبد بن حميد، عن محمد بن كعب، قال: الأسف الغضب الشديد. وأخرج أبو عبيد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، قال: لما ألقى موسى الألواح تكسرت فرفعت إلا سدسها. وأخرج أبو الشيخ عنه قال: رفع الله منها ستة أسباعها وبقي سبع.

قوله: ﴿وَلَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا﴾ هذا شروع في بيان ما كان من موسى، ومن القوم الذين اختارهم، وسبعين مفعول اختار، وقومه منصوب بنزع الخافض: أي من قومه على الحنف والإيصال، ومثله قوله الراعي:

اخترتك الناس إذ رثت خلائقهم واعتل من كان يرجى عنده السؤل
يريد اخترتك من الناس، ومعنى ﴿لِمِيقَاتِنَا﴾ للوقت الذي وقتناه له، بعد أن وقع من قومه ما وقع، والميقات الكلام الذي تقدم ذكره لأن الله أمره أن يأتي إلى الطول في ناس من بني إسرائيل يعتذرون إليه سبحانه من عبادة العجل كذا قيل: والرجفة في اللغة: الزلزلة الشديدة، قيل: إنهم زلزلوا حتى ماتوا، فلما رأى موسى أخذ الرجفة لهم: ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَبَايَ﴾ قاله عليه السلام تحسراً وتلهفاً، لأن سبب أخذ الرجفة لهم ما حكى الله عنهم من قولهم: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذْتَكُمُ الصَّاعِقَةَ﴾ [البقرة: 55] على ما تقدم في البقرة؛ وقيل: هؤلاء السبعون غير من قالوا: ﴿أَرَأَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: 153] بل أخذتهم الرجفة، بسبب عدم انتهائهم عن عبادة العجل؛ وقيل: إنهم قوم لم يرضوا بعبادة العجل، ولا نهوا السامري ومن معه عن عبادته، فأخذتهم الرجفة بسبب سكوتهم، والمعنى لو شئت إهلاكنا بذنوبنا قبل هذا الوقت اعترافاً منه عليه السلام بالذنوب، وتلهفاً على ما فرط من قومه، والاستفهام في قوله: ﴿تَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ للجد: أي ليست ممن يفعل ذلك، قاله ثقة منه برحمة الله، والمقصود منه الاستعطف والتضرع؛ وقيل: معناه الدعاء والطلب، أي لا تهلكنا. قال المبرد: المراد بالاستفهام استفهام الإعظام كأنه يقول: وقد علم موسى أنه لا يهلك أحد بذنوب غيره، ولكنه كقول عيسى: ﴿إِنْ تَعْنِبُهُمْ فإِنَّهُمْ غَافِلُونَ﴾ [المائدة: 118]؛ وقيل المراد بالسفهاء: السبعون، والمعنى: أهلك بني إسرائيل بما فعل هؤلاء السفهاء في قولهم: ﴿أَرَأَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: 153]؛ وقيل المراد بهم: السامري وأصحابه. قوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ أي: ما الفتنة التي وقع فيها هؤلاء السفهاء إلا فتنتك التي تختبر بها من شئت، وتمتحن بها من أريت، ولعله عليه السلام استفاد هذا من قوله سبحانه: ﴿إِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ﴾ [طه: 85] ﴿تَضِلُّ بِهَا مِنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مِنْ تَشَاءُ﴾ أي: تضل بهذه الفتنة من تشاء من عباك وتهدي بها من تشاء منهم، ومثله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: 7]، ثم رجع إلا الاستعطف والدعاء فقال: ﴿وَأَنْتَ وَلِينَا﴾ أي المتولى لأمرنا ﴿فَاغْفِرْ لَنَا﴾ ما أنبأناه ﴿وَارْحَمْنَا﴾ ببرحمتك التي وسعت كل شيء ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ للذنوب ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ بتوفيقنا للأعمال الصالحة، أو تفضل علينا بأفاضة النعم في هذه الدنيا من العافية، وسعة الرزق ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أي: واكتب لنا في الآخرة الجنة بما تجازينا به، أو بما تفضل به علينا

أيضاً. قال القشيري. والمعنى ﴿وَفِي نَسْخَتِهَا﴾: أي فيما نسخ من الألواح المتكسرة، ونقل إلى الألواح الجديدة ﴿وَهْدَى وَرَحْمَةً﴾ وقيل المعنى: وفيما نسخ له منها: أي من اللوح المحفوظ، وقيل المعنى: وفيما كتب له فيها هدى ورحمة، فلا يحتاج إلى أصل ينقل عنه، وهذا كما يقال أنسخ ما يقول فلان: أي أثبتته في كتابك والنسخة فعلة، بمعنى مفعولة كالخطبة. والهدى ما يهتدون به من الأحكام؛ والرحمة ما يحصل لهم من الله عند عملهم بما فيها من الرحمة الواسعة، واللام في ﴿لِلَّذِينَ هُمْ﴾ متعلقة بمحذوف: أي كائنة لهم أو لأجلهم، واللام في ﴿لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ للتقوية للفعل، لما كان مفعوله متقدماً عليه، فإنه يضعف بذلك بعض الضعف. وقد صرح الكسائي بأنها زائدة. وقال الأخفش: هي لام الأجل، أي لأجل ربهم يرهبون. وقال محمد بن يزيد المبرد: هي متعلقة بمصدر الفعل المنكور، والتقدير: للذين هم رهبتهم لربهم يرهبون.

وقد أخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الشيخ عن أيوب، قال: تلا أبو قلابة هذه الآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعُجْلَ﴾ إلى قوله: ﴿وَكُنْكَ نَجْزِي الْمَفْتَرِينَ﴾ قال: هو جزء كل مفتر، يكون إلى يوم القيامة أن يناله الله. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عيسى، قال: أعطى موسى التوراة في سبعة ألواح من زبرجد، فيها تبيان لكل شيء وموعظة، ولما جاء فرأى بني إسرائيل عكوفاً على العجل رمى التوراة من يده فتحطمت، وأقبل على هارون فأخذ برأسه، ورفع الله منها ستة أسباع وبقي سبع ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضِبُ أَخَذَ الْأَلْوَحَ وَفِي نَسْخَتِهَا هَدًى وَرَحْمَةً﴾ قال: فيما بقي منها. وأخرج ابن المنذر، عن مجاهد، أو سعيد بن جببر، قال: كانت الألواح من زمرد فلما ألقاها موسى ذهب التفصيل، وبقي الهدى والرحمة، وقرأ ﴿وَكُنْكَ نَجْزِي فِي الْأَلْوَحِ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: 145] وقرأ ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضِبُ أَخَذَ الْأَلْوَحَ وَفِي نَسْخَتِهَا هَدًى وَرَحْمَةً﴾ قال: ولم ينكر التفصيل هاهنا.

وَإِذْ أَخَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَبَايَ أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَكَتَبْنَا لَكَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا أَوْلَىٰ بِمَا تَعْلَمُ قَالَ عَالِي أُحْيِيكَ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَنَحْنُ وَمِيتَ كُلِّ شَيْءٍ فَسَاحَتُنَا لِلَّذِينَ يَقُولُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِكَائِنًا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُونًا عِنْدَهُمْ فِي الْوُحُوشِ وَالْإِبِلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَهُدًى لَّهُمْ الْكَافِيَّةُ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٥﴾

على من يعانیه **﴿وَاتَّبِعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ﴾** أي: اتبعوا القرآن الذي أنزل عليه مع نبوته؛ وقيل المعنى: واتبعوا القرآن المنزل إليه مع اتباعه بالعمل بسنته، مما يأمر به وينهى عنه، أو اتبعوا القرآن مصاحبين له في اتباعه، والإشارة بـ **﴿أُولَئِكَ﴾** إلى المتصفين بهذه الأوصاف **﴿هُمْ الْمُفْلِحُونَ﴾** الفائزون بالخير والفلاح لا غيرهم من الأمم.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: **﴿وَأَخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ﴾** الآية. قال كان الله أمره أن يختار من قومه سبعين رجلاً فأختار سبعين رجلاً فبِز بهم ليدعوا ربهم، فكان فيما دعوا الله أن قالوا: اللهم أعطنا ما لم تعط أحداً من قبلنا ولا تعطه أحداً بعدنا، فكره الله ذلك من دعائهم، فأخذتهم الرجفة. **﴿قَالَ﴾** موسى **﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾** يقول: إن هي إلا عذابك تصيب به من تشاء وتصرفه عن تشاء. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد **﴿فَلَمِيقَاتِنَا﴾** قال: لتنام الموعد، وفي قوله: **﴿فَلَمَّا اخْتُنِمْ لِلرَّجْفَةِ﴾** قال: ماتوا ثم أحياهم. وأخرج ابن أبي شيبة، وأبو الشيخ، عن أبي العالية، في قوله **﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾** قال: بليتك. وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس **﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾** قال: مشيقتك وأخرج عبد بن حميد، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، قال: إن السبعين الذين اختارهم موسى من قومه، إنما أخذتهم الرجفة، لأنهم لم يرضوا بالعمل ولم ينهوا عنه. وأخرج سعيد بن منصور، عنه، في قوله: **﴿وَأَكْتَبَ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ﴾** فلم يعطها موسى **﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾** إلى قوله: **﴿الْمُفْلِحُونَ﴾**. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عكرمة، في قوله: **﴿وَأَكْتَبَ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ﴾** قال: فكتب الرحمة يومئذ لهذه الأمة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن طريق، عن ابن عباس، في قوله: **﴿إِنَّا هَذَا إِلَيْكَ﴾** قال تبنا إليك. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة، مثله. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن أبي وجزة السعدي، وكان من أعلم الناس بالعربية قال: لا والله ما أعلمها في كلام العرب هذا؛ قيل فكيف قال هذا بكسر الهاء، يقول: ملنا. وأخرج عبد الرزاق، وأحمد في الزهد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الحسن وقتادة، في قوله: **﴿وَرَحْمَتِي وَسَعَتْ كُلُّ شَيْءٍ﴾** قال: وسعت رحمته في الدنيا البر والفاجر، وهي يوم القيامة للذين اتقوا خاصة. وأخرج مسلم وغيره، عن سلمان، عن النبي ﷺ قال: «إن الله مائة رحمة فمئتا رحمة يتراحم بها الخلق وبها تحطف الوحوش على أولادها، وآخر تسعة وتسعين إلى يوم القيامة». وأخرج نحوه أحمد، وأبو داود، والطبراني، والحاكم، والبيهقي، من حديث جندب بن عبد الله العجلي. وأخرج أبو الشيخ، عن السدي قال: لما

من النعيم في الآخرة، وجملة **﴿إِنَّا هَذَا إِلَيْكَ﴾** تحليل لما قبلها من سؤال المغفرة، والرحمة، والحسنة، في الدنيا وفي الآخرة أي: إننا تبنا إليك ورجعنا عن الغواية التي وقعت من بني إسرائيل. والهود: التوبة. وقد تقدّم في البقرة، وجملة: **﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾** مستأنفة كنظائرها فيما تقدّم، قيل المراد بالعذاب هنا: الرجفة؛ وقيل: أمره سبحانه لهم بأن يقتلوا أنفسهم: أي ليس هذا إليك يا موسى، بل ما شئت كان، وما لم أشأ لم يكن. والظاهر أن العذاب هنا يندرج تحته كل عذاب، ويدخل فيه عذاب هؤلاء بخولاً أولاً؛ وقيل المراد: من أشاء من المستحقين للعذاب، أو من أشاء أن أضله وأسلبه التوفيق **﴿وَرَحْمَتِي وَسَعَتْ كُلُّ شَيْءٍ﴾** من الأشياء من المكلفين وغيرهم، ثم أخبر سبحانه أنه سيكتب هذه الرحمة الواسعة **﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾** الذنوب **﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾** المفروضة عليهم **﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾** أي: يصنقون بها ويذعنون لها، ثم بين سبحانه هؤلاء الذين كتب لهم هذه الرحمة، ببيان أوضح مما قبله وأصرح فقال: **﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأَمِّيَّ﴾** وهو محمد عليه الصلاة والسلام، فخرجت اليهود والنصارى وسائر الملل، والأممي: إما نسبة إلى الأمة الأمية التي لا تكتب ولا تحسب: وهم العرب، أو نسبة إلى الأم. والمعنى أنه باق على حالته التي ولد عليها لا يكتب ولا يقرأ المكتوب؛ وقيل نسبة إلى أم القرى، وهي مكة **﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ﴾** يعني: اليهود والنصارى: أي يجدون نعتهم **﴿مَكْتُوباً عَنْهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾** وهما مرجعهم في الدين، وهذا الكلام منه سبحانه مع موسى هو قبل نزول الإنجيل فهو من باب الإخبار بما سيكون، ثم وصف هذا النبي الذي يجدونه كذلك بأنه يأمر بالمعروف: أي بكل ما تعرفه القلوب، ولا تنكره من الأشياء التي هي من مكارم الأخلاق **﴿وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾** أي: ما تنكره القلوب ولا تعرفه. وهو ما كان من مساوئ الأخلاق؛ قيل: إن قوله: **﴿يُأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾** إلى قوله: **﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾** كلام يتضمن تفصيل أحكام الرحمة التي وعد بها، نكر معناه الزجاج، وقيل: هو في محل نصب على الحال من النبي، وقيل: هو مفسر لقوله: **﴿مَكْتُوباً﴾**. قوله: **﴿يَحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾** أي: المستلذات وقيل: يحل لهم ما حرم عليهم من الأشياء التي حُرِّمَتْ عليهم بسبب ذنوبهم **﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾** أي: المستخبثات كالحشرات والخنازير **﴿وَيُضِعُّ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾** الإصر الثقيل: أي يضع عنهم التكاليف الشاقة الثقيلة. وقد تقدّم بيانه في البقرة **﴿وَالْأَغْلَالُ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾** أي: ويضع عنهم الأغلال التي كانت عليهم: الأغلال مستعارة للتكاليف الشاقة التي كانوا قد كلفوها **﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ﴾** أي: بمحمد ﷺ **﴿وَاتَّبَعُوهُ﴾** فيما جاء به من الشرائع **﴿وَعَزَّوْهُ﴾** أي: عظموه ووقروه، قاله الأخفش، وقيل: معناه منعه من عدوه، وأصل العز: المنع، وقرأ الجحدري **﴿وَعَزَّوْهُ﴾** بالتخفيف (ونصره) أي: قاموا بنصره

جريج، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير، في قوله: **﴿وَيُضِعُّ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾** قال: ما غلظ على بني إسرائيل من قرض البول من جلودهم إذا أصابهم ونحوه. وأخرج ابن جريج، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: **﴿وَعَزَّوهُ﴾** يعني: عظموه ووقروه.

قُلْ يَكَايُهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جِئْتُكُمْ بِالْحَقِّ
الْكِتَابِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ
الَّذِي الْوَيْلُ لِلْكَافِرِينَ وَالْأَمْرُ لِلْمُؤْمِنِينَ تَهْتَدُونَ ﴿١٧٧﴾

لما تقدم ذكر أوصاف رسول الله ﷺ المكتوبة في التوراة والإنجيل: أمره سبحانه أن يقول هذا القول مقتضى لعموم رسالته إلى الناس جميعاً، لا كما كان غيره من الرسل عليهم السلام، فإنهم كانوا يبعثون إلى قومهم خاصة، وجميعاً منصوب على الحال: أي حال كونكم جميعاً، **﴿وَالَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾** إما في محل جر على الصفة للاسم الشريف، أو منصوب على المدح، أو مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف، وجملة **﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾** بدل من الصلة مقرر لمضمونها مبين لها، لأن من ملك السموات والأرض وما فيهما هو الإله على الحقيقة، وهكذا من كان يحيى ويميت هو المستحق لتقديسه بالربوبية ونفى الشركاء عنه. والأمر بالإيمان بالله وبرسوله متفرع على ما قبله، وقد تقدم تفسير النبي الأمي، وهما وصفان لرسوله. وكذلك: **﴿الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾** وصف له، والمراد بالكلمات ما أنزله الله عليه وعلى الأنبياء من قبله أو القرآن فقط. وجملة **﴿وَاتَّبِعُوهُ﴾** مقردة لجملة **﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ﴾**، **﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾** علة للأمر بالإيمان والاتباع.

وقد أخرج أبو الشيخ، وابن مروي، عن ابن عباس، قال: بعث الله محمداً ﷺ إلى الأحمر والأسود فقال: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾** والأحاديث الصحيحة الكثيرة في هذا المعنى مشهورة، فلا تطيل بذكرها. وأخرج عبد بن حميد، وابن جريج، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: **﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾** قال: آياته. وأخرج أبو عبيد، وابن جريج، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد **﴿وَكَلِمَاتِهِ﴾** قال: عيسى.

وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَبْتَلُونَ ﴿١٧٨﴾ وَنَعَّمْنَا لَهُمْ
عَشْرَةَ آيَاتٍ أَمَّا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ مَوْتَ إِدْ أَتَيْنَاهُ قَوْمَهُ أَرْبَ أَضْرِبٍ
يُعْصَاكَ الْمَلَكُ فَاغْبِثْ مِنْهُ أَتَيْنَا عَشْرَةَ آيَاتٍ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ
مَشْرِبَهُمْ وَطَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَّ وَأَزَلَّكَ اللَّهُمَّ وَالْمَلَكُ كَلُوا
مِنْ مَلَكِيَّتِهِ مَا زَكَّيْنَاهُمْ وَمَا طَلَّلْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٩﴾
وَلَوْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُتُوا هَذِهِ الْقَرْيَةُ وَكَلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ
وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْعُوا أَبَا سَجْدًا تَقُولُ لَكُمْ خَلِيقَتُكُمْ سَرِيدٌ
الْمُغْوِيينَ ﴿١٨٠﴾ فَبَدَّلَ الْأَوَّلَ طَلًّا مِنْهُمْ فَوَلَّاهُ الْوَيْلَ قِيلَ لَهُمْ
فَارْجِعُوا إِلَيْنَا وَجَعَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مِمَّا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٨١﴾
وَسَأَلْنَاهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي

نزلت: **﴿وَوَرَحْمَتِي وَسَعَتْ كُلُّ شَيْءٍ﴾** قال إبليس: وأنا من الشيء، فنسخها الله، فنزلت: **﴿فَسَاكُتْهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾** إلى آخر الآية. وأخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ، عن ابن جريج، قال: لما نزلت: **﴿وَوَرَحْمَتِي وَسَعَتْ كُلُّ شَيْءٍ﴾** قال إبليس: أنا من الشيء، قال الله تعالى: **﴿فَسَاكُتْهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾** قالت اليهود: فنحن نتقي ونؤتي الزكاة، قال الله: **﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأَمِّيَّ﴾** فعزلها الله عن إبليس وعن اليهود، وجعلها لامة محمد ﷺ. وأخرج عبد بن حميد، وابن جريج، وأبو الشيخ، عن قتادة نحوه. وأخرج البزار في مسنده، وابن المنذر، وابن مروي، عن ابن عباس، قال: سأل موسى ربه مسألة فأعطاها محمداً ﷺ. قوله: **﴿وَوَلِّخَا مَوْسَى قَوْمَهُ﴾** إلى قوله: **﴿فَسَاكُتْهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾** فأعطى محمداً كل شيء سأل موسى ربه في هذه الآية. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جريج، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مروي، عنه، في قوله: **﴿فَسَاكُتْهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾** قال: كتبها الله لهذه الأمة. وأخرج ابن جريج عنه في الآية قال: يتقون الشرك. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن النخعي في قوله: **﴿النَّبِيِّ الْأَمِّيَّ﴾** قال: كان لا يقرأ ولا يكتب. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، في الآية قال: هو نبيكم ﷺ كان أمياً لا يكتب. وأخرج ابن جريج، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: **﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ﴾** قال: يجدون نعته وأمره ونبوته مكتوباً عندهم. وأخرج ابن سعد، والبخاري، والبيهقي في الدلائل، عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص، فقلت له أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ، قال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِراً وَنَذِيراً، وَحِزْراً لِلْأُمِّيِّينَ أَتَى عَبْدِي وَرَسُولِي سَمِيكَكَ الْمُتَوَكِّلَ، لَيْسَ بِفُظٍّ وَلَا غُلِيظٍ، وَلَا صَخَابٍ فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا تَجْزَى بِالسِّيَةِ السِّيَةِ، وَلَكِنْ تَعْفُو وَتَصْفَحُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ حَتَّى يَقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ، بَلَنْ يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيَفْتَحَ بِهِ أَعْيُنًا عَمِيّاً وَأَدَاناً صَمّاً وَقُلُوباً غُلْفَاءً﴾** وأخرج ابن سعيد، والدارمي في مسنده، والبيهقي في الدلائل، وابن عساکر، عن عبد الله بن سلام مثله. وقد روى نحو هذا مع اختلاف في بعض الألفاظ، وزيادة في بعض، ونقص في بعض عن جماعة. وأخرج ابن المنذر، عن ابن جريج، في قوله: **﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾** قال: الحلال **﴿وَيُضِعُّ عَنْهُمْ إِصْرَهُمُ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾** قال: التثقيل الذي كان في دينهم. وأخرج ابن جريج، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس، في قوله: **﴿وَيُحِزُّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾** قال: كلعن الخنزير والربا، وما كانوا يستحلونه من المحرمات من المأكول التي حرّمها الله، وفي قوله: **﴿وَيُضِعُّ عَنْهُمْ إِصْرَهُمُ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾** قال: هو ما كان الله أخذ عليهم من الميثاق فيما حرّم عليهم. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن

ظلمونا بما وقع منهم من المخالفة وكفران النعم وعدم تقديرها حق قدرها **«ولكن كانوا أنفسهم يظلمون»** أي: كان ظلمهم مختصاً بهم مقصوراً عليهم، لا يجاوزهم إلى غيرهم **«وإذ قيل لهم»** أي: وانكر وقت قيل لهم هذا القول وهو **«اسكنوا هذه القرية»** أي: بيت المقدس أو أريحا، وقيل غير ذلك مما تقدم بيانه **«وكلوا منها»** أي: من المكولات الموجودة فيها **«حيث شئتم»** أي: في أي مكان شئتم من أمكنتها، لا مانع لكم من الأكل فيه **«وقولوا حطة»** قد تقدم تفسيرها في البقرة **«وادخلوا الباب»** أي: باب القرية المتقدمة حال كونكم **«سجداً»** أمروا بأن يجمعوا بين قولهم حطة وبين السخول ساجدين، فلا يقال كيف قُتِم الأمر بالقول هنا على السخول وأخره في البقرة؟ وقد تقدم بيان معنى السجود الذي أمروا به **«تغفروا لكم خطيئاتكم»** جواب الأمر، وقرئ **«خطيئتك»**، ثم وعدهم بقوله: **«سنزيد المحسنين»** أي: سنزيدهم على المغفرة للخطايا بما يتفضل به عليهم من النعم، والجملة استئنافية جواب سؤال مقتر كأنه قيل: فماذا لهم بعد المغفرة؟ **«فقبل الذين ظلموا منهم قولاً غير الذي قيل لهم»** قد تقدم بيان ذلك في البقرة **«فارسلنا عليهم رجلاً من السماء»** أي: عذاباً كائنًا منها **«بما كانوا يظلمون»** أي: بسبب ظلمهم. قوله: **«واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر»** معطوف على عامل إذ المقتر: أي انكر إذ قيل لهم واسألهم، وهذا سؤال تقريع وتوبيخ، والمراد من سؤال القرية: سؤال أهلها: أي أسألهم عن هذا الحادث الذي حدث لهم فيها المخالف لما أمرهم الله به. وفي ضمن هذا السؤال فائدة جلية، وهي تعريف اليهود بأن ذلك مما يعلمه رسول الله ﷺ، وأن اطلاعه لا يكون إلا بإخبار له من الله سبحانه، فيكون ليلاً على صفحة.

واختلف أهل التفسير في هذه القرية: أي قرية هي؟ فقيل أيلة، وقيل طبرية، وقيل منين، وقيل إيليا، وقيل قرية من قرى ساحل الشام التي كانت حاضرة البحر: أي التي كانت بقرب البحر، يقال كنت بحضرة الدار: أي بقربها. والمعنى: سل يا محمد هؤلاء اليهود الموجودين عن قصة أهل القرية المذكورة. قرئ «واسألهم» وقرئ «سلهم» **«إذ يعدون»** أي: وقت يعدون، وهو ظرف لمحذوف دل عليه الكلام، لأن السؤال هو عن حالهم وقصتهم وقت يعدون؛ وقيل: إنه ظرف لكانت أو لحاضرة. وقرئ «يعنون» بضم الياء وكسر العين وتشديد الدال من الإعداد للآلة، وقرأ الجمهور «يعنون» بفتح الياء وسكون العين وضم الدال مخففة: أي يتجاوزون حدود الله بالصيد يوم السبت الذي نهوا عن الاصطياد فيه، وقرئ «يعنون» بفتح الياء والعين وضم الدال مشددة بمعنى يعتنون، أدغمت التاء في الدال. والسبت: هو اليوم المعروف وأصله السكون، يقال سبت: إذا سكن وسبت اليهود تركوا العمل في سبتهم، والجمع أسبت، وسبوت، وأسبات وقرأ ابن السمعع في «الاسبات» على الجمع **«إذ تاتيتهم حيتانهم»**

النبت إذ تاتيتهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لا يسبوتون لا تاتيتهم كذلك بلوهم بما كانوا يسبوتون ﷻ وإذ قالت أمه بينهم لم يظنون قوماً الله موليكم أو مؤيديهم عذاباً شديداً قالوا مودة إنا نركركم ولنأمنه يفترون ﷻ فلما نسوا ما ذكروا به أنجبنا الذين يفتنون عز الشرة وأخذنا الذين ظلموا بمذابيب يسير بما كانوا يفشون ﷻ فلما عزا عن ما نهوا عنه قلنا لهم كونوا فرقة خاسية ﷻ

قوله: **«ومن قوم موسى»** لما قص الله علينا ما وقع من السامري وأصحابه، وما حصل من بني إسرائيل من التزلزل في الدين: قص علينا سبحانه أن قوم موسى أمة مخالفة لأولئك الذين تقدم ذكرهم، ووصفهم بأنهم **«يهودون بالحق»** أي: يدعون الناس إلى الهداية حال كونهم متلبسين بالحق **«وبه»** أي: بالحق **«يعملون»** بين الناس في الحكم، وقيل: هم الذين آمنوا بمحمد ﷺ منهم. قوله: **«وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً»** الضمير يرجع إلى قوم موسى المتقدم ذكرهم: لا إلى هؤلاء الأمة منهم الذين يهودون بالحق وبه يعملون، والمعنى: صيرناهم قطعاً متفرقة، وميزنا بعضهم من بعض، وهذا من جملة ما قصه الله علينا من النعم التي أنعم بها على بني إسرائيل، والمعنى: أنه ميز بعضهم من بعض حتى صاروا أسباطاً كل سبط معروف على انفراده لكل سبط نقيب، كما في قوله تعالى: **«وبعنا منهم اثني عشر نقيباً»** [المائدة: 12] وقد تقدم، وقوله: **«اثنتي عشرة»** هو ثاني مفعولي قطعنا لتضمنه معنى التصيير، وأسباطاً تمييز له أو بدل منه، و **«أماماً»** نعت للأسباط أو بدل منه، والأسباط جمع سبط: وهو ولد الولد، صاروا اثنتي عشرة أمة من اثني عشر ولداً، وأراد بالأسباط القبائل، ولهذا أثبت العدد، كما في قول الشاعر:

وإن قريشاً كلها عشر أبطن وأنت بريء من قبائلها العشر
أراد بالبطن القبيلة، وقد تقدم تحقيق معنى الأسباط في البقرة، وروى المفضل عن عاصم أنه قرأ **«قطعناهم»** مخففاً، وسماه أماً، لأن كل سبط كان جماعة كثيرة العدد: وكانوا مختلفي الآراء يؤم بعضهم غير ما يؤمه الآخر **«وألوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه»** أي: وقت استسقاهم له لما أصابهم العطش في التيه **«أن اضرب بعصاك الحجر»** تفسير لفعل الإيحاء **«فانبعجت»** عطف على مقتر يدل عليه السياق: أي فاضرب فانبعجت، والانبجاس: الانفجار: أي فانفجرت **«منه اثنتا عشرة عيناً»** بعدد الأسباط، لكل سبط عين يشربون منها **«قد علم كل إنسان مشربهم»** أي: كل سبط منهم العين المختصة به التي يشرب منها، وقد تقدم في البقرة ما فيه كفاية مغنية عن الإعادة **«وظللنا عليهم الغمام»** أي: جعلناه ظللاً عليهم في التيه، يسير بسيرهم ويقيم بإقامتهم **«وانزلنا عليهم المَنَّ والسَّلوى»** أي: الترنجيب والسمانى كما تقدم تحقيقه في البقرة **«كلوا من طيبات ما رزقناكم»** أي: وقلنا لهم كلوا من المستلذات التي رزقناكم **«وما**

ظرف ليعدون. والحيتان: جمع حوت، وأضيف إليهم لمزيد اختصاص لهم بما كان منها على هذه الصفة من الإتيان يوم السبت دون ما عداه، و **«يوم سبتهم»** ظرف لتأتيتهم. وقرأ **«يوم أسبأتهم»** و **«شرعاً»** حال، وهو جمع شارح: أي ظاهرة على الماء، وقيل رافعة رؤوسها، وقيل: إنها كانت تشرع على أبوابهم كالكبش البيض. قال في الكشاف: يقال شرع علينا فلان إذا بنى منا وأشرف علينا، وشرعت على فلان في بيته فرايته يفعل كذا انتهى **«ويوم لا يسبئون لا تأتيتهم»** أي: لا يفعلون السبت، وذلك عند خروج يوم السبت لا تأتيتهم الحيتان، كما كانت تأتيتهم في يوم السبت **«كنكك نبلوهم»** أي: مثل تلك البلاء العظيم نبلوهم بسبب فسقهم والابتلاء الامتحان والاختبار **«وإذا قالت أمة»** معطوف على إذ يعنون معمول لعامله داخل في حكمه، والأمة الجماعة: أي قالت جماعة من صلحاء أهل القرية لآخرين ممن كان يجتهد في وعظ المتعدين في السبت حين أبسوا من قبولهم للموعظة، وإقلاعهم عن المعصية **«لم تعظون قوماً الله مهلكهم»** أي: مستأمل لهم بالعقوبة **«لو معذبهم عذاباً شديداً»** بما انتهكوا من الحرمة وفعلوا من المعصية؛ وقيل: إن الجماعة القائلة لم تعظون قوماً؟ هم العصاة الفاعلون للصيد في يوم السبت، قالوا ذلك للواعظين لهم حين وعظوهم. والمعنى: إذا علمتم أن الله مهلكنا كما تزعمون فلم تعظوننا **«قالوا معذرة إلى ربكم»** أي: قال الواعظون للجماعة القائلة لهم لم تعظون، وهم طائفة من صلحاء القرية على الوجه الأول، أو الفاعلين على الوجه الثاني **«معذرة إلى ربكم»** قرأ عيسى بن عمر وطلحة بن مصرف **«معذرة»** بالنصب، وهي قراءة حفص عن عاصم، وقرأ الباقر بالرفع. قال الكسائي: ونصبه على وجهين: أحدهما على المصدر، والثاني على تقدير فعلنا تلك معذرة: أي لأجل المعذرة. والرفع على تقدير مبتدأ: أي موعظتنا معذرة إلى الله حتى لا يؤاخذنا بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اللذين أوجبهما علينا، ولرجاء أن يتعظوا فيتقوا ويقبلوا عما هم فيه من المعصية.

وقد أخرج الغريابي، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، قال: قال موسى: يا رب أجد أمة أناجيلهم في قلوبهم، قال: تلك أمة تكون بعدك أمة أحمد، قال: يا رب أجد أمة يصلون الخمس تكون كفارات لما بينهن، قال: تلك أمة تكون بعدك: أمة أحمد، قال: يا رب أجد أمة يعطون صدقات أموالهم ثم ترجع فيهم، فيلكون، قال: تلك بعدك: أمة أحمد، قال: يا رب اجعلني من أمة أحمد، فأنزل الله كهية المرضاة لموسى **«ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون»**. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن ابن جريج، في قوله: **«ومن قوم موسى أمة»** الآية، قال: بلغني أن بني إسرائيل لما قتلوا أنبياءهم، وكفروا وكانوا اثني عشر سبطاً، تبرأ سبط منهم مما صنعوا واعتنوا وسألوا الله أن يفرق بينهم وبينهم، ففتح الله لهم نفقاً في الأرض فساروا فيه حتى خرجوا من وراء الصين فهم هناك حنفاء مسلمين يستقبلون قبلتنا. قال ابن جريج: قال ابن عباس: فنلك قوله: **«وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم ليفيقا»** [الإسراء: 104] ووعد الآخرة عيسى ابن مريم، قال ابن

ظرف ليعدون. والحيتان: جمع حوت، وأضيف إليهم لمزيد اختصاص لهم بما كان منها على هذه الصفة من الإتيان يوم السبت دون ما عداه، و **«يوم سبتهم»** ظرف لتأتيتهم. وقرأ **«يوم أسبأتهم»** و **«شرعاً»** حال، وهو جمع شارح: أي ظاهرة على الماء، وقيل رافعة رؤوسها، وقيل: إنها كانت تشرع على أبوابهم كالكبش البيض. قال في الكشاف: يقال شرع علينا فلان إذا بنى منا وأشرف علينا، وشرعت على فلان في بيته فرايته يفعل كذا انتهى **«ويوم لا يسبئون لا تأتيتهم»** أي: لا يفعلون السبت، وذلك عند خروج يوم السبت لا تأتيتهم الحيتان، كما كانت تأتيتهم في يوم السبت **«كنكك نبلوهم»** أي: مثل تلك البلاء العظيم نبلوهم بسبب فسقهم والابتلاء الامتحان والاختبار **«وإذا قالت أمة»** معطوف على إذ يعنون معمول لعامله داخل في حكمه، والأمة الجماعة: أي قالت جماعة من صلحاء أهل القرية لآخرين ممن كان يجتهد في وعظ المتعدين في السبت حين أبسوا من قبولهم للموعظة، وإقلاعهم عن المعصية **«لم تعظون قوماً الله مهلكهم»** أي: مستأمل لهم بالعقوبة **«لو معذبهم عذاباً شديداً»** بما انتهكوا من الحرمة وفعلوا من المعصية؛ وقيل: إن الجماعة القائلة لم تعظون قوماً؟ هم العصاة الفاعلون للصيد في يوم السبت، قالوا ذلك للواعظين لهم حين وعظوهم. والمعنى: إذا علمتم أن الله مهلكنا كما تزعمون فلم تعظوننا **«قالوا معذرة إلى ربكم»** أي: قال الواعظون للجماعة القائلة لهم لم تعظون، وهم طائفة من صلحاء القرية على الوجه الأول، أو الفاعلين على الوجه الثاني **«معذرة إلى ربكم»** قرأ عيسى بن عمر وطلحة بن مصرف **«معذرة»** بالنصب، وهي قراءة حفص عن عاصم، وقرأ الباقر بالرفع. قال الكسائي: ونصبه على وجهين: أحدهما على المصدر، والثاني على تقدير فعلنا تلك معذرة: أي لأجل المعذرة. والرفع على تقدير مبتدأ: أي موعظتنا معذرة إلى الله حتى لا يؤاخذنا بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اللذين أوجبهما علينا، ولرجاء أن يتعظوا فيتقوا ويقبلوا عما هم فيه من المعصية.

قال جمهور المفسرين: إن بني إسرائيل افترقت ثلاث فرق: فرقة عصت وصابت وكانت نحو سبعين ألفاً، وفرقة اعتزلت فلم تنه ولم تعص، وفرقة اعتزلت ونهت ولم تعص، فقالت الطائفة التي لم تنه ولم تعص للفرقة الناهية **«لم تعظون قوماً»** يريدون الفرقة العاصية **«الله مهلكهم أو معذبهم»** قالوا ذلك على غلبة الظن لما جرت به عادة الله من إهلاك العصاة أو تعذيبهم من دون استئصال بالهلاك، فقالت الناهية: موعظتنا معذرة إلى الله ولعلمهم يتقون. ولو كانوا فرقتين فقط ناهية غير عاصية، وعاصية لقال: لعلمكم تتقون. قوله: **«فلما نسوا ما نكروا به»** أي: لما ترك العصاة من أهل القرية ما نكروهم به الصالحون الناهون عن المنكر، ترك الناسي للشيء المعرض عنه كلية الإعراض **«أنجيناً الذين ينهون عن السوء»** أي: الذين فعلوا النهي،

ينقيهم، وقد تقدّم بيان أصل معناه، ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنْ رِبِكَ لَسَرِيعٌ الْعِقَابُ﴾ يعاجل به في الدنيا كما وقع لهؤلاء ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: كثير الغفران والرحمة ﴿وَوَقَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: فرّقناهم في جوانبها، أو شتتنا أمرهم، فلم تجتمع لهم كلمة، و ﴿أَمَمَاءُ﴾ منتصب على الحال أو مفعول ثانٍ لقطعنا على تضمينه معنى صيرنا، وجملة ﴿مِنْهُمْ لِلصَّالِحِينَ﴾ بدل من «أَمَمَاءُ»، قيل: هم الذين آمنوا بمحمد ﷺ، ومن مات قبل البعثة المحمدية غير مبطل؛ وقيل: هم الذين سكنوا وراء الصين كما تقدّم بيانه قبل هذا ﴿وَمِنْهُمْ بَنُونَ نَكَحَ﴾ أي: بنون هذا الوصف الذي اتصفت به الطائفة الأولى وهو الصلاح، ومحل ﴿بَنُونَ نَكَحَ﴾ الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: ومنهم أناس بنون ذلك، والمراد بهؤلاء هم من لم يؤمن، بل انهمك في المخالفة لما أمره الله به. قال النحاس ﴿بَنُونَ﴾ منصوب على الظرف ولا نعلم أحداً رفعه ﴿وَيَبْلُونَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ أي: امتحناهم بالخير والشر رجاء أن يرجعوا مما هم من الكفر والمعاصي ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ المراد بهم: أولاد الذين قطعهم الله في الأرض. قال أبو حاتم: الخلف بسكون اللام: الأولاد، الواحد والجمع سواء. والخلف بفتح اللام البديل ولدًا كان أو غيره. وقال ابن الأعرابي: الخلف بالفتح الصالح، وبالسكون الطالح. قال لبيد:

ذهب للذين يعاش في كنفهم وبقيت في خلف كجلد الأجر
ومنه قيل للردى من الكلام خلف بالسكون، وقد يستعمل كل واحد منهما موضع الآخر، ومنه قول حسان ابن ثابت:

لنا القدم الأولى إليك وخلفنا لأولنا في طاعة الله تابع
﴿وَوَرَّثُوا الْكِتَابَ﴾ أي: التوراة من أسلافهم يقرؤونها ولا يعملون بها ﴿يَاخُنُونَ عَرْضَ هَذَا الْأَنْبَى﴾ أخبر الله عنهم بأنهم يأخذون ما يعرض لهم من متاع الدنيا لشدة حرصهم وقوة نهمتهم، والأنبياء مأخوذ من النوى، وهو القرب: أي يأخذون عرض هذا الشيء الأنبياء، وهو الدنيا يتعجلون مصالحها بالرشاء وما هو مجعول لهم من السحت في مقابلة تحريفهم لكلمات الله، وتبوينهم للعمل بأحكام التوراة وكتهم لما يكتونه منها؛ وقيل: إن الأنبياء مأخوذ من اللدناء والسقوط: أي إنهم يأخذون عرض الشيء الدنيء الساقط ﴿وَيَقُولُونَ سَيَغْفِرُ لَنَا﴾ أي: يعللون أنفسهم بالمغفرة مع تمايهم في الضلالة وعدم رجوعهم إلى الحق، وجملة ﴿يَاخُنُونَ﴾ يحتمل أن تكون مستأنفة لبيان حالهم، أو في محل نصب على الحال، وجملة ﴿يَقُولُونَ﴾ معطوفة عليها، والمراد بهذا الكلام: التقرّيع والتوبيخ لهم، وجملة ﴿وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرْضٌ مِثْلَهُ يَأْخُذُوهُ﴾ في محل نصب على الحال: أي يتعللون بالمغفرة، والحال أنهم إذا أتاهم عرض مثل العرض الذي كانوا يأخذونه أخذوه غير مباليين بالعقوبة، ولا خائفين من التبعة؛ وقيل: الضمير في ﴿يَأْتِهِمْ﴾ لليهود المدينة: أي وإن يأت هؤلاء اليهود الذين هم في عصر محمد

ﷺ عرض مثل العرض الذي كان يأخذ أسلافهم، أخذوه كما أخذ أسلافهم ﴿أَلَمْ يَأْخُذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ﴾ أي: التوراة ﴿أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ والاستفهام للتقرّيع والتوبيخ، وجملة ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ معطوفة على ﴿يَأْخُذْ﴾ على المعنى، وقيل: على ﴿وَوَرَّثُوا الْكِتَابَ﴾، والأولى: أن تكون في محل نصب على الحال بتقدير قد. والمعنى: أنهم تركوا العمل بالميثاق المأخوذ عليهم في الكتاب، والحال أن قد درسوا ما في الكتاب، وعلموه، فكان الترك منهم عن علم لا عن جهل، وذلك أشدّ نكباً وأعظم جرماً. وقيل: معنى ﴿دَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ أي: محوه بترك العمل به والفهم له، من قولهم درست الريح الآثار: إذا محتها ﴿وَالِدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ من ذلك العرض الذي أخذوه وآثروه عليها ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الله، ويجتنبون معاصيه ﴿إِنَّمَا تَعْقِلُونَ﴾ فتعلمون بهذا وتفهمونه، وفي هذا من التوبيخ والتقرّيع ما لا يقادر قدره، قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَمْسُكُونَ بِالْكِتَابِ﴾ قرأ الجمهور «يمسكون» بالتشديد من مسك وتمسك: أي استمسك بالكتاب، وهو التوراة. وقرأ أبو العالية، وعاصم، في رواية أبي بكر، بالتخفيف من أمسك يمسك. وروي عن أبي بن كعب أنه قرأ «مسكوا» والمعنى: أن طائفة من أهل الكتاب لا يمسكون بالكتاب، ولا يعملون بما فيه مع كونهم قد درسوه وعرفوه وهم من تقدّم ذكره، وطائفة يمسكون بالكتاب: أي التوراة ويعملون بما فيه ويرجعون إليه في أمر دينهم، فهم المحسنون الذين لا يضيع أجرهم عند الله، والموصول مبتدأ، و ﴿إِنَّمَا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ خبره: أي لا نضيع أجر المصلحين منهم، وإنما وقع التنصيص على الصلاة مع كونها داخلة في سائر العبادات التي يفعلها المتمسكون بالتوراة؛ لأنها رأس العبادات وأعظمها، فكان ذلك وجهاً لتخصيصها بالذكر؛ وقيل لأنها تقام في أوقات مخصوصة، والتمسك بالكتاب مستمر فنكرت لهذا، وفيه نظر. فإن كل عبادة في الغالب تختص بوقت معين، ويجوز أن يكون الموصول معطوفاً على الموصول الذي قبله، وهو للذين يتقون، ولكون ﴿إِنَّمَا تَعْقِلُونَ﴾ جملة معترضة.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس، في قوله: ﴿يَسْؤُهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ قال محمد وأمه، إلى يوم القيامة؛ وسوء العذاب: الجزية. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عنه، قال ﴿سُوءُ الْعَذَابِ﴾ الخراج، وفي قوله: ﴿وَوَقَّعْنَاهُمْ﴾ قال: هم اليهود بسطهم الله في الأرض فليس منها بقعة إلا وفيها عصاة منهم وطائفة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، في قوله: ﴿لِيَبْعِثَنَّ عَلَيْهِمُ﴾ قال: على اليهود والنصارى ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ من يسومهم سوء العذاب، فبعث الله عليهم أمة محمد ﷺ، يأخذون منهم الجزية وهم صاغرون ﴿وَوَقَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَمَمَاءُ﴾ قال: يهود ﴿مِنْهُمْ لِلصَّالِحِينَ﴾ وهم مسلمة

فقيل لهم: **«خذوا ما آتيناكم بقوة»** فكانوا إذا نظروا إلى الجبل قالوا سمعنا واطعنا، وإذا نظروا إلى الكتاب قالوا سمعنا وعصينا. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عنه، أيضاً قال: إني لأعلم لم تسجد اليهود على حرف، قال الله **«وإذا نتقنا لجليل فوقهم»** قال: لتأخذن أمري أو لارمينكم به، فسجدوا وهم ينظرون إليه مخافة أن يسقط عليهم، وكانت سجدة رضيها الله سبحانه فاتخذوها سنة، وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة **«وإذا نتقنا لجليل»** قال: انتزعه الله من أصله، ثم جعله فوق رؤوسهم، ثم قال: لتأخذن أمري أو لارمينكم به.

وَلَا أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَكْثَرَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَفَلَا تُرْجَعُونَ قَالُوا بَلَىٰ عَلَىٰ شَهِدَتِ أَلَمْ تَقُولُوا يَوْمَ الْآيَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَيْنِهِمْ أَفَتُنْكِرُ مَا كُنَّا لَنَعْلَمَ ﴿٧٧﴾ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ قوله: **«وإذا»** منصوب بفعل مقدر معطوف على ما قبله كما تقدم قوله: **«من بني آدم»** استدلل بهذا على أن المراد بالماخوذين هنا: هم ذرية بني آدم، أخرجهم الله من أصلابهم نسلاً بعد نسل.

وقد ذهب إلى هذا جماعة من المفسرين، قالوا: ومعنى: **«أشهدهم على أنفسهم»** بلهم بخلقهم على أنه خالقهم، فقامت هذه الدلالة مقام الأشهاد، فتكون هذه الآية من باب التمثيل كما في قوله تعالى: **«فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين»** [فصلت: 11]، وقيل المعنى: أن الله سبحانه أخرج الأرواح قبل خلق الأجساد، وأنه جعل فيها من المعرفة ما فهمت به خطابه سبحانه؛ وقيل المراد ببني آدم هنا: آدم نفسه كما وقع في غير هذا الموضع، والمعنى أن الله سبحانه لما خلق آدم مسح ظهره فاستخرج منه ذريته وأخذ عليهم العهد، وهؤلاء هم عالم النور، وهذا هو الحق الذي لا ينفي العدول عنه، ولا المصير إلى غيره، لثبوته مرفوعاً إلى النبي ﷺ، وموقوفاً على غيره من الصحابة، ولا ملجئاً للمصير إلى المجاز، وإذا جاء نهر الله بطل نهر مغل، وسنذكر آخر هذا البحث إن شاء الله بعض ما ورد في ذلك، قوله: **«من ظهورهم»** هو بدل من بني آدم، بدل بعض من كل، وقيل بدل اشتغال قوله: **«ذرياتهم»**، قرأ الكوفيون وابن كثير «ذرياتهم» بالتوحيد، وهي تقع على الواحد والجمع، وقرأ الباقون «ذرياتهم» بالجمع **«وأشهدهم على أنفسهم»** أي: أشهد كل واحد منهم **«ألست بربكم»** أي: قائلًا ألسنت بربكم، فهو على إرادة القول **«قالوا بلى شهدنا»** أي: على أنفسنا بأنك ربنا. قوله: **«إن تقولوا»**، قرأ أبو عمرو بالياء التحتية في هذا وفي قوله: **«أو يقولوا»** على الغيبة كما كان فيما قبله على الغيبة، وقرأ الباقون بالفوقية على الخطاب. والمعنى: كرامة أن يقولوا أو لئلا يقولوا أي: فعلنا ذلك الأخذ والإشهاد كرامة أن يقولوا **«يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين»** أي: عن

أهل الكتاب **«ومنهم من ذلك»** قال: اليهود **«وبلوناهم بالحسنات»** قال: الرخاء والعمارة **«والسيئات»** قال: البلاء والعقوبة. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس **«وبلوناهم بالحسنات والسيئات»** بالخصب والجذب، وأخرج أبو الشيخ، عنه، أنه سئل عن هذه الآية **«فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب ياخذون عرض هذا الأرض»** قال: أقوام يقبلون على الدنيا، فياكلونها ويتبعون رخص القرآن **«ويقولون سيغفر لنا»** ولا يعرض لهم شيء من الدنيا إلا أخذوه. وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: **«فخلف من بعدهم خلف»** قال: النصراري **«ياخذون عرض هذا الأرض»** قال: ما أشرف لهم من شيء من الدنيا حلالاً أو حراماً يشتبهونه أخذوه، ويتمنون المغفرة، وإن يجنوا الغد مثله يأخذوه. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس **«فخلف من بعدهم خلف»** الآية يقول: يأخذون ما أصابوا ويتركون ما شأوا من حلال أو حرام **«ويقولون سيغفر لنا»** وأخرج أبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: **«لم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق»** فيما يوجبون على الله من غفران ذنوبهم التي لا يزولون يعودون إليها ولا يتوبون منها. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن أبي زيد، في قوله: **«ودرسوا ما فيه»** قال: علموا ما في الكتاب لم يأتوه بهالة. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الحسن، في قوله: **«والذين يمسكون بالكتاب»** قال: هي لاهل الإيمان منهم. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد في قوله: **«والذين يمسكون بالكتاب»** قال: من اليهود والنصارى.

وَلَا تَنْتَقُوا لِلْجَلِّ قَوْمَهُمْ كَأَنَّهُمْ ظُلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُم رَاقِعٌ يَوْمَ يُخَذُّوا أَعْيُنُهُمْ فَيُؤَرَّدُونَ مَا بِهِمْ لَعَنَهُ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاغِبُونَ ﴿٧٩﴾

قوله: **«وإذا»** منصوب بفعل مقدر معطوف على ما قبله: أي وإسألهم إذ نتقنا الجبل: أي رفعنا الجبل **«فوقهم»** و **«كانه ظلة»** أي: كأنه لارتفاعه سحابة تظلمهم، والظلة: اسم لكل ما أظل، وقرئ «ظلة» بالطاء من أظل عليه إذا أشرف **«وظنوا أنه واقع بهم»** أي: ساقط عليهم. قيل: الظن هنا بمعنى العلم، وقيل: هو على بابه **«خذوا ما آتيناكم بقوة»** هو على تقدير القول: أي وقلنا لهم خذوا، والقوة: الجد والعزيمة: أي أخذنا كأننا بقوة **«وأنكروا ما فيه»** من الأحكام التي شرعها الله لكم، ولا تنسوه **«بلعلمكم تتقون»** رجاء أن تتقوا ما نهيتهم عنه، وتعملوا بما أمرتم به، وقد تقدم تفسير ما هنا في البقرة مستوفى فلا نعه.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: **«وإذا نتقنا لجليل»** يقول: رفعناه، وهو قوله: **«ورفعنا فوقهم الطور»** [النساء: 154] فقال: **«خذوا ما آتيناكم بقوة»** ولا أرسلته عليكم. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه، في الآية قال: رفعت الملائكة فوق رؤوسهم،

سفيان الثوري، عن منصور، عن مجاهد، عن عبد الله بن عمر، وهؤلاء أئمة ثقات. وأخرج عبد بن حميد، والترمذي في نوادر الأصول، والطبراني، وأبو الشيخ في العظمة، وابن مردويه، عن أبي أمامة: أن رسول الله ﷺ قال: «لما خلق الله الخلق وقضى القضية وأخذ ميثاق النبيين وعرضه على الماء، فأخذ أهل اليمين بيمينه وأخذ أهل الشمال بيمينه الأخرى وكلتا يدي الرحمن يمين، فقال: يا أصحاب اليمين، فاستجابوا له فقالوا: لبيك ربنا وسعديك، قال: ألاست بربكم قالوا بلى، الحديث والأحاديث في هذا الباب كثيرة بعضها مقيد بتفسير هذه الآية، وبعضها مطلق يشتمل على نكر إخراج ذرية آدم من ظهره، وأخذ العهد عليهم كما في حديث أنس مرفوعاً في الصحيحين وغيرهما. وأما المروي عن الصحابة في تفسير هذه الآية بإخراج ذرية آدم من صلبه في عالم النور، وأخذ العهد عليهم وإشهادهم على أنفسهم فهي كثيرة، منها عن ابن عباس، عند عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، في قوله: «وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ» الآية قال: خلق الله آدم وأخذ ميثاقه أنه ربه، وكتب أجله ورزقه، ثم أخرج ولده من ظهره كهية النور، فأخذ مواثيقهم أنه ربههم وكتب أجالهم وأرزاقهم ومصيباتهم. وأخرج نحوه عنه ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأخرج نحوه عنه عبد الرزاق وابن المنذر. وأخرج نحوه عنه عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن منده، وهذا المعنى مروي عنه من طرق كثيرة غير هذه موقوفة عليه. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن عبد الله بن عمر في قوله: «وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ» الآية قال: أخذهم كما يأخذ المشط من الرأس. وأخرج ابن عبد البر في التمهيد عن ابن مسعود، وناس من الصحابة في تفسير الآية نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وعبد الله بن أحمد بن حنبل في رواية المسند، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن منده، وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات، والضياء في المختارة، وابن عساكر في تاريخه، عن أبي بن كعب في قوله: «وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ» الآية قال: جمعهم جميعاً فجعلهم أرواحاً في صورهم، ثم استنطقهم فتكلموا، ثم أخذ عليهم العهد والميثاق، ثم أشهدهم على أنفسهم. وقد روي عن جماعة ممن بعد الصحابة تفسير هذه الآية بإخراج ذرية آدم من ظهره، وفيما قاله رسول الله ﷺ في تفسيرها مما قدمنا ذكره ما يغني عن التلويل.

وَأَتْلَوْا عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُ فَاغْلَبَ عَنْهَا فَأَنفَجَهُ إِلَى السَّيْطَانِ
فَكَانَ مِنْ الْتَّارِكِينَ ﴿٧٧﴾ وَكَوْضُلًا لَّرَفَعْتَهُ يَٰٓأَدَمُ وَلَكِنَّكَ أَهْلَكَ إِلَىٰ الْمَوْضِعِ
وَأَنفَجَهُ فَمَثَّلَ لَّكَ الْكَفْلَ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَتْكَ أَوْ تَرْتَكْهُ
يَلْهَتْكَ ذَٰلِكَ مَثَلُ النَّوْرِ الْبَرِّ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاصْصِرْ لِّصَصْرِ لَمَلُهُمْ

كون الله ربنا وحده لا شريك له. قوله: «وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ» معطوف على «تَقُولُوا» الأول أي: فعلنا ذلك كرامة أن تعتذروا بالغفلة، أو تنسبوا الشرك إلى آبائكم دونكم، و«وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ» أي: من قبل زماننا «وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ» لا نهتدي إلى الحق، ولا نعرف الصواب «فَأَهْلَكْنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ» من آباءنا، ولا ننب لنا لجهلنا وعجزنا عن النظر، واقتفائنا آثار سلفنا بين الله سبحانه في هذه الحكمة التي لأجلها أخرجهم من ظهر آدم وأشهدهم على أنفسهم، وأنه فعل ذلك بهم لئلا يقولوا هذه المقالة يوم القيامة، ويعتلتوا بهذه العلة الباطلة ويعتذروا بهذه المعذرة الساقطة «وَكُنْذُكُ» أي: ومثل ذلك التفصيل «فَنَفْصِلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» إلى الحق ويتركون ما هم عليه من الباطل.

وقد أخرج مالك في الموطأ، وأحمد في المسند، وعبد بن حميد، والبخاري في تاريخه، وأبو داود، والترمذي وحسنه، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبان في صحيحه، وأبو الشيخ، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي في الأسماء والصفات، والضياء في المختارة: أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية «وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ» الآية، سمعت رسول الله ﷺ يسأل عنها فقال: «إن الله خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية، فقال: خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون. ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية، فقال: خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون، فقال رجل: يا رسول الله فقيم العمل؟ فقال: إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله النار». وأخرج أحمد، والنسائي، وابن جرير، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الأسماء والصفات، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم بنوعمان يوم عرفة، فأخرج من صلبه كل ذرية نراها فنشرها بين يديه، ثم كلمهم فقال: «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا» إلى قوله: «الْمُبْطِلُونَ» وإسناده لا مطعن فيه. وقد أخرجه ابن أبي حاتم موقوفاً على ابن عباس. وأخرج ابن جرير، وابن منده في كتاب الرد على الجهمية عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ» قال: أخذهم من ظهره كما يؤخذ المشط من الرأس، فقال لهم: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ قَالُوا بَلَىٰ، قالت الملائكة: شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين. وفي إسناده أحمد بن أبي ظبية أبو محمد الجرجاني قاضي قومس كان أحد الزهاد، وأخرج له النسائي في سننه. وقال أبو حاتم الرازي: يكتب حديثه. وقال ابن عدي: حدث بأحاديث كثيرة غرائب. وقد روى هذا الحديث عبد الرحمن بن مهدي، عن

يَنْفَكِرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا بِظُلُمِهِمْ ﴿١٧٧﴾ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِىٌّ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا وَلِيَّكَ مِنْهُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾

قوله: ﴿وَاتِلْ﴾ معطوف على الأفعال المقدرة في القصص السابقة: وإيراد هذه القصة منه سبحانه وتذكير أهل الكتاب بها لأنها كانت مذكورة عندهم في التوراة، وقد اختلف في هذا الذي أوتي الآيات ﴿فَانْسِلْخَ مِنْهَا﴾ فقيل: هو بلعم بن باعوراء، وكان قد حفظ بعض الكتب المنزلة؛ وقيل: كان قد أوتي النبوة وكان مجاب الدعوة، بعثه الله إلى منين يدعوهم إلى الإيمان، فأعطوه الأعطية الواسعة، فاتبع دينهم وترك ما بعث به؛ فلما أقبل موسى في بني إسرائيل لقتال الجبارين، سأل الجبارون بلعم بن باعوراء أن يدعو على موسى، فقام ليدعو عليه فتحوّل لسانه بالدعاء على أصحابه، فقيل له في ذلك فقال: لا أقدر على أكثر مما تسمعون، وأنبّل لسانه على صدره، فقال قد ذهبت مني الآن الدنيا والآخرة، فلم يبق إلا المكر والخديعة والحيلة وسامكر لكم، وإنّي أرى أن تخرجوا إليهم فتياتكم فإن الله يبغض الزنا، فإن وقعوا فيه هلكوا، فوقع بنو إسرائيل في الزنا، فأرسل الله عليهم الطاعون، فمات منهم سبعون ألفاً؛ وقيل: إن هذا الرجل اسمه باعم، وهو من بني إسرائيل، وقيل المراد به أمية بن أبي الصلت الثقفي، وكان قد قرأ الكتب وعلم أن الله مرسل رسولاً في ذلك، فلما أرسل الله محمداً ﷺ حسده وكفر به؛ وقيل هو أبو عامر بن صيفي وكان يلبس المسوح في الجاهلية، فكفر بمحمد ﷺ؛ وقيل: نزلت في قريش آتاهم الله آياته التي أنزلها على محمد ﷺ فكفروا بها؛ وقيل: نزلت في اليهود والنصارى انتظروا خروج محمد ﷺ فكفروا به. قوله: ﴿فَانْسِلْخَ مِنْهَا﴾ أي: من هذه الآيات التي أوتيتها كما تنسلخ الشاة عن جلدها، فلم يبق له بها اتصال ﴿فَاتَّبِعْ الشَّيْطَانَ﴾ عند انسلاخه عن الآيات: أي لحقه فانكره وصار قريباً له، أو فاتبعه خطواته، وقرئ «فاتبعه» بالتشديد بمعنى تبعه ﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ المتمكنين في الغواية وهم الكفار. قوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ الضمير يعود إلى الذي أوتي الآيات، والمعنى: لو شئنا رفعه: بما آتيناه من الآيات لرفعناه بها: أي بسببها، ولكن لم نشأ ذلك لانسلاخه عنها وتركه للعمل بها؛ وقيل المعنى: ولو شئنا لامتناء قبل أن يعصي فرفعناه إلى الجنة بها: أي بالعمل بها ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أصل الإخلاق: اللزوم، يقال أخلد فلان بالمكان إذا قام به ولزمه، والمعنى هنا: أنه مال إلى الدنيا ورغب فيها وأثرها على الآخرة ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ أي: اتبع ما يهواه وترك العمل بما يقتضيه العلم الذي علمه الله، وهو حطام الدنيا؛ وقيل: كان هواه مع الكفار؛ وقيل: اتبع رضا زوجته، وكانت هي التي حملته على الانسلاخ من آيات الله. قوله: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾ أي: فصار لما انسلخ عن الآيات ولم يعمل بها منحطاً إلى أسفل رتبة، مشابهاً لأخس الحيوانات في الدناءة

مماثلًا له في اقبح أوصافه، وهو أنه يلهث في كلا حالتي قصد الإنسان له وتركه، فهو لاهث سواء زجر أو ترك طرد أو لم يطرد شدّ عليه أو لم يشد عليه، وليس بعد هذا في الخسة والدناءة شيء، وجملة ﴿إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثْ﴾ في محل نصب على الحال: أي مثله كمثل الكلب حال كونه متصفاً بهذه الصفة، والمعنى: أن هذا المنسلخ عن الآيات لا يرعوى عن المعصية في جميع أحواله سواء وعظه الواعظ، ونكره المنكر، وزجره الزاجر، أو لم يقع شيء من ذلك. قال القتيبي: كل شيء يلهث، فإنما يلهث من إعياء أو عطش، إلا الكلب فإنه يلهث في حال الكلال، وحال الراحة، وحال المرض، وحال الصحة. وحال الري، وحال العطش، فضربه الله مثلاً لمن كذب بآياته؛ فقال: إن وعظته ضلّ وإن تركته ضلّ، فهو كالكلب إن تركته لهث، وإن طردته لهث، كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءَ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُكُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾ [الأعراف: 193] واللّهث: إخراج اللسان لتعب أو عطش أو غير ذلك. قال الجوهري: لهث الكلب بالفتح يلهث لهثاً ولهائاً بالضم إذا أخرج لسانه من التعب أو العطش، وكذلك الرجل إذا أعيأ قيل معنى الآية: أنك إذا حملت على الكلب نبح وولى هارباً، وإن تركته شدّ عليك ونبح، فيتعب نفسه مقبلاً عليك ومبيراً عنك، فيعتريه عند ذلك ما يعتريه عند العطش من إخراج اللسان، والإشارة بقوله ذلك إلى ما تقدّم من التمثيل بتلك الحالة الخسيسة، وهو مبتدأ وخبره ﴿مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: ذلك المثل الخسيس مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا من اليهود، بعد أن علموا بها وعرفوها، فحرفوا وبنكروا، وكتبوا صفة رسول الله ﷺ وكذبوا بها ﴿فَاقْصِصْ الْقِصَصَ﴾ أي فاقصص عليهم هذا القصص الذي هو صفة الرجل المنسلخ عن الآيات، فإن مثله المذكور كمثل هؤلاء القوم المكذبين من اليهود الذين تقص عليهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في ذلك ويعملون فيه أقسامهم، فينزعجون عن الضلال، ويقبلون على الصواب، قوله: ﴿سَاءَ مَثَلًا لِلْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ هذه الجملة متضمنة لبيان حال هؤلاء القوم البالغة في القبح إلى الغاية: يقال ساء الشيء قبح، فهو لازم، وساءه يسوؤه مساءة: فهو متعد وهو من أفعال النзм: كبش، وفاعله ضمير مستتر فيه، ومثلاً تمييز مفسر له، والمخصوص بالذم هو الذين كذبوا بآياتنا، ولا بدّ من تقدير مضاف محذوف لأجل المطابقة أي: ساء مثلاً مثل القوم الذين كذبوا، وقال الأخفش: جعل المثل القوم مجازاً، والقوم مرفوع بالابتداء أو على إضمار مبتدأ التقدير: ساء المثل مثلاً هو مثل القوم، كذا قال. وقدره أبو علي الفارسي: ساء مثلاً مثل القوم كما قدّمنا، وقرأ الجحدري والأعمش ﴿وَسَاءَ مَثَلُ الْقَوْمِ﴾، قوله: ﴿وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلُمُونَ﴾ أي: ما ظلّموا بالتكذيب إلا أنفسهم لا يتعداها ظلّمهم إلى غيرها ولا يتجاوزها، والجملة معطوفة على التي قبلها على معنى أنهم جمعوا بين التكذيب بآيات الله وظلم أنفسهم ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ

منها قال: نزع منه العلم، وفي قوله: ﴿ولو شئنا لرفعناه بها﴾ قال: رفعه الله بعلمه. وأخرج مسلم، والنسائي، وابن ماجه، وابن مردويه، والبيهقي في الأسماء والصفات، عن جابر بن عبد الله قال: كان رسول الله ﷺ في خطبته يحمد الله ويثنى عليه بما هو أهله، ثم يقول: «من يهد الله فلا مضل له، ومن يضل فلا هادي له، أصبغ الحديث كتاب الله، وأحسن الهدى هدى محمد ﷺ، وبشر الأمور محدثاتها، وكل محدث بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار» ثم يقول: «بعثت أنا والساعة كهاتين».

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ ثُمَّ قَلَّبْنَا قُلُوبَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَلْصِقَةٌ لِّمَن يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَآلُ نَارٍ لَّهُمْ أَشَدُّ لُظًّا أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِسُونَ ﴿٣٧﴾

﴿ولقد ذرأنا﴾ أي: خلقنا. وقد تقدم بيان أصل معناه مستوفى، وهذه الجملة مقررة لمضمون ما قبلها ﴿لجهم﴾ أي: للتعذيب بها ﴿كثيراً﴾ أي: خلقاً كثيراً ﴿من الجن والإنس﴾ أي: من طائفتي الجن والإنس جعلهم سبحانه للنار بعد له ويعمل أهلها يعملون. وقد علم ما هم عاملون قبل كونهم كما ثبت في الأحاديث الصحيحة، ثم وصف هؤلاء فقال: ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها﴾ كما يفقه غيرهم بعقولهم، وجملة ﴿لا يفقهون بها﴾ في محل رفع على أنها صفة لقلوب، وجملة ﴿لهم قلوب﴾ في محل نصب صفة لكثيراً جعل سبحانه قلوبهم لما كانت غير فاقهة لما فيه نفهم وإرشادهم، غير فاقهة مطلقاً وإن كانت تفقه في غير ما فيه النفع والإرشاد فهو كالعدم، وهكذا معنى ﴿ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها﴾ فإن الذي انتقى من الأعين هو إبصار ما فيه الهداية بالتفكير والاعتبار، وإن كانت مبصرة في غير ذلك، والذي انتقى من الآذان هو سماع المواعظ النافعة، والشرائع التي استملت عليها الكتب المنزلة. وما جاءت به رسل الله، وإن كانوا يسمعون غير ذلك، والإشارة بقوله: ﴿ولولئِكَ﴾ إلى هؤلاء المتصفين بهذه الأوصاف كالانعام في انتفاء انتفاعهم بهذه المشاعر، ثم حكم عليهم بأنهم أضلّ منها، لأنها تدرك بهذه الأمور ما ينفعها ويضرها، فينتفع بما ينفع، وتجتنب ما يضر، وهؤلاء لا يميزون بين ما ينفع وما يضر باعتبار ما طلبه الله منهم وكلفهم به، ثم حكم عليهم بالغفلة الكاملة لما هم عليه من عدم التمييز الذي هو من شأن من له عقل ويصر وسمع.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿ولقد ذرأنا﴾ قال: خلقنا. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن الحسن في الآية قال خلقنا لجهم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، وابن النجار، عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ «إن الله لما ذرأ لجهم من ذرأ كان ولد الزنا ممن ذرأ لجهم». وأخرج ابن جرير، عن مجاهد، في قوله: ﴿ولقد ذرأنا لجهم﴾ قال: لقد خلقنا لجهم ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها﴾ قال: لا يفقهون شيئاً من أمور الآخرة ﴿ولهم

فهو المهتدي﴾ لما أمر به وشرعه لعباده ﴿ومن يضل فاولئك هم للخاسرون﴾ الكاملون في الخسران، من هذاه فلا مضلّ له، ومن أضله فلا هادي له: ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

وقد أخرج الفريابي، وعبد الرزاق، وعبد بن حميد، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن مسعود، في قوله: ﴿واولئك عليهم نبال الذي آتيناها آياتنا﴾ قال: هو رجل من بني إسرائيل يقال له بلعم بن أبز، وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن طرق عن ابن عباس قال: هو بلعم بن باعوراء، وفي لفظ: بلعام بن باعر الذي أوتي الاسم كان في بني إسرائيل، وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿واولئك عليهم نبال الذي آتيناها آياتنا﴾ قال: هو رجل من مدينة الجبارين يقال له بلعم، تعلم اسم الله الأكبر، فلما نزل بهم موسى أتاه بنو عمه وقومه فقالوا: إن موسى رجل حديد، ومعه جنود كثيرة، وإنه إن يظهر علينا يهلكنا، فادع الله أن يرد عنا موسى ومن معه، قال: إني إن دعوت الله أن يرد موسى ومن معه مضت ننيائي وأخرتي، فلم يزالوا به حتى دعا الله فسلخ ما كان فيه. وفي قوله: ﴿أن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث﴾ قال: إن حمل الحكمة لم يحملها، وإن ترك لم يهتد لخير، كالكلب إن كان رابضاً لهث وإن يطرد لهث. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عنه، في الآية قال: هو رجل أعطى ثلاث دعوات يستجاب له فيهن، وكانت له امرأة له منها ولد، فقالت: اجعل لي منها واحدة، قال: فلك واحدة فما الذي تريد؟ قالت ادع الله أن يجعلني أجمل امرأة في بني إسرائيل، فدعا الله فجعلها أجمل امرأة في بني إسرائيل؛ فلما علمت أن ليس فيهن مثلها رغبت عنه، وأرادت شيئاً آخر، فدعا الله أن يجعلها كلبة فصارت كلبة، فذهبت دعوتان، ففاجأ بنوها فقالوا: ليس بنا على هذا قرار قد صارت أمنا كلبة يعيرنا الناس بها، فدعا الله أن يردّها إلى الحال التي كانت عليه، فدعا الله فعدت كما كانت فذهبت الدعوات الثلاث وسميت البسوس. وأخرج عبد بن حميد، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن عبد الله بن عمرو، في الآية: قال: هو أمية بن أبي الصلت الثقفي، وفي لفظ: نزلت في صاحبكم أمية بن أبي الصلت. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وابن عساكر، عنه نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن الشعبي في هذه الآية قال: قال ابن عباس هو رجل من بني إسرائيل يقال له بلعام بن باعوراء، وكانت الأنصار تقول: هو ابن الراهب الذي بنى له مسجد الشقاق، وكانت ثقيف تقول: هو أمية بن أبي الصلت. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، قال: هو صيفي بن الراهب. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عنه، في قوله: ﴿فانسلخ

الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القوي، المتين، الولي، الحميد، المحصي، المبدئ، المعيد، المحيي، المميت، الحي، القيوم، الواجد، الماجد، الأحد، الصمد، القادر، المقتدر، المقدم، المؤخر، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الولي، المتعالي، البر، التواب، المنتقم، العفو، الرؤوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، المقسط، الجامع، الغني، المغني، المانع، الضار، النافع، النور، الهادي، البديع، الباقي، الوارث، الرشيد، الصبور.

هكذا أخرج الترمذي هذه الزيادة عن الجوزجاني، عن صفوان بن صالح، عن الوليد بن مسلم، عن شعيب بن أبي حمزة، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة مرفوعة وقال: هذا حديث غريب. وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة، ولا يعلم في كثير شيء من الروايات ذكر الأسماء إلا في هذا الحديث. ورواه ابن حبان في صحيحه، وابن خزيمة، والحاكم من طريق صفوان بإسناده السابق. ورواه ابن ماجه في سننه من طريق أخرى، عن موسى بن عقبة، عن الأعرج، عن أبي هريرة مرفوعة، فسر الأسماء المتقدمة بزيادة ونقصان. قال ابن كثير في تفسيره والذي عول عليه جماعة من الحفاظ أن سرد الأسماء في هذا الحديث مدرج فيه. وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم، وعبد الملك بن محمد الصنعاني، عن زهير بن محمد أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك: أي أنهم جمعوها من القرآن كما روي عن جعفر بن محمد، وسفيان بن عيينة، وأبي زيد اللغوي. قال: ثم ليعلم أن الأسماء الحسنی ليست منحصرة في التسعة والتسعين، بليل ما رواه الإمام أحمد في مسنده: عن يزيد بن هارون، عن فضيل ابن مرزوق، عن أبي سلمة الجهني، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن عبد الله بن مسعود، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما أصاب أحدا قط هم ولا حزن فقال اللهم إني عبدك ابن عبدك وأمتك، ناصيتي بيدك ماض في حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني وذهاب همي وغمي، إلا أذهب الله همه وحزنه، وأبلى له مكانه فرجاً» فقيل يا رسول الله ألا نتعلمها؟ فقال: بلى ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها. وقد أخرجه الإمام أبو حاتم بن حبان في صحيحه بمثله انتهى. وأخرجه البيهقي أيضاً في الأسماء والصفات. قال ابن حزم: جاءت في إحصائها، يعني الأسماء الحسنی أحاديث مضطربة لا يصح منها شيء أصلاً. وقد أخرجها بهذا العدد الذي أخرجه الترمذي ابن مردويه، وأبو نعيم، عن ابن عباس، وابن عمر قالوا: قال رسول الله ﷺ فنكرناه، ولا أدري كيف إسناده. وأخرج ابن أبي الدنيا، والطبراني كلاهما في الدعاء، وأبو الشيخ، والحاكم، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي عن أبي هريرة: إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة:

اعين لا يبصرون بها، الهدى أولهم أذان لا يسمعون بها، الحق، ثم جعلهم كالأنعام، ثم جعلهم شراً من الأنعام، فقال: «بل هم أفضل» ثم أخبر أنهم الغافلون.

وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾

هذه الآية مشتملة على الأخبار من الله سبحانه بما له من الأسماء على الجملة دون التفصيل، والحسنى تأنيث الاحسن: أي التي هي لحسن الأسماء لداليتها على لحسن مسمى وأشرف مدلول، ثم أمرهم بأن يدعوه بها عند الحاجة، فإنه إذا دعي بأحسن أسمائه كان ذلك من أسباب الإجابة، وقد ثبت في الصحيح: «إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة» وسياقي ويأتي أيضاً بيان عددها آخر البحث إن شاء الله. قوله: «وذروا الذين يلحدون في أسمائهم» الإلحاد: الميل وترك القصد، يقال لحد الرجل في الدين وألحد: إذا مال، ومنه اللحد في القبر لأنه في ناحية، وقرئ «يلحدون» وهما لغتان، والإلحاد في أسمائه سبحانه يكون على ثلاثة أوجه، إما بالتغيير كما فعله المشركون فإنهم أخذوا اسم اللات من الله، والعزى من العزيز، ومناة من المنان؛ أو بالزيادة عليها بأن اخترعوا أسماء من عندهم لم يأت الله بها، أو بالنقصان منها بأن يدعوه ببعضها دون بعض. ومعنى «وذروا الذين يلحدون» أتركوهم؛ ولا تحاجوهم، ولا تعرضوا لهم، وعلى هذا المعنى فالآية منسوخة بآيات القتال؛ وقيل معناه الوعيد كقوله تعالى: «ونرني ومن خلقت وحيداً» [الم نشر: 11]، وقوله: «نرهم ياكلوا ويتمتعوا» [الحجر: 3] وهذا أولى لقوله: «سيجزون ما كانوا يعملون» فإنه وعيد لهم بنزول العقوبة وتحذير للمسلمين أن يفعلوا كفعلهم. وقد نكر مقاتل وغيره من المفسرين أن هذه الآية نزلت في رجل من المسلمين كان يقول في صلاته يا رحمن يا رحيم، فقال رجل من المشركين ليس يزعم محمد وأصحابه أنهم يعبدون رباً واحداً فما بال هذا يدعو ربين اثنين؟ حكى ذلك القرطبي.

وقد أخرج أحمد، والبخاري ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن خزيمة، وأبو عوانة، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن منده، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة إنه وتر يحب الوتر». وفي لفظ ابن مردويه وأبي نعيم «من دعي بها استجاب الله دعاءه» وزاد الترمذي في سننه بعد قوله يحب الوتر «هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصور، الغفار، القهار، الوهاب، الرزاق، الفتاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعز، المذل، السميع، البصير، الحكيم، العدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العلي الكبير، الحفيظ، المقيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب،

وقد نكر ابن حجر في التلخيص أنه تتبعها من الكتاب العزيز إلى أن حرّرها منه تسعة وتسعين ثم سردها فابحثه. ويؤيد هذا ما أخرجه أبو نعيم، عن ابن عباس، وابن عمر، قالاً: قال رسول الله ﷺ «له تسعة وتسعون اسماً من أحصاها نخل الجنة، وهي في القرآن». وأخرج البيهقي، عن عائشة أنها قالت: «يا رسول الله علمني اسم الله الذي إذا دعى به أجاب، قال لها: قومي فتوضيء وادخلي المسجد فصلي ركعتين ثم ادعي حتى أسمع، ففعلت؛ فلما جلست للدعاء قال النبي ﷺ: اللهم فقها، فقالت: اللهم إني أسألك بجميع أسمائك الحسنى كلها ما علمنا منها وما لم نعلم، وأسألك باسمك العظيم الأعظم الكبير الأكبر، الذي من دعائك به أجبت، ومن سألك به أعطيت، قال النبي ﷺ: أصبتيه أصبتيه».

وقد أطل أهل العلم الكلام على الأسماء الحسنى حتى أن ابن العربي في شرح الترمذي تحكى عن بعض أهل العلم أنه جمع من الكتب والسنة من أسماء الله ألف اسم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَنُورُوا الَّذِينَ يَلْحَقُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ قال: الإلحاد، أن يدعو اللات والعزى في أسماء الله. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه، قال: الإلحاد التكذيب. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن ابن جريج، في الآية قال: اشتقوا العزى من العزيز، واشتقوا اللات من الله. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عطاء في الآية قال: الإلحاد المضاهاة وأخرج ابن أبي حاتم عن الأعمش أنه قرأ «يلحدون» من لحد، وقال تفسيرها: يدخلون فيها ما ليس منها. وأخرج عبد الرزاق بن حميد، وابن جرير، عن قتادة، في الآية قال: يشركون.

وَمَنْ خَلَقْنَا أَنَّهُ يَهُودٌ يَلْحَقُ بِهِ يَمْلُوكُ ﴿١٠٠﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُونَ ﴿١٠١﴾ وَأَمَّا لَهُمْ إِلَهٌ كَبِيرٌ ﴿١٠٢﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا يَصْعَقُ بِهِمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَقْرَبُ إِلَهُمْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٣﴾ مَنْ يَضِلِ اللَّهُ فَعَلَىٰ غَاوِيٍّ لَّهُمُ وَبَدْرُهُمْ فِي كَلْبِئِهِمْ يَبْعَرُونَ ﴿١٠٤﴾

قوله: ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا﴾ خبر مقدم و﴿أمة﴾ مبتدأ مؤخر و﴿يهودون﴾ وما بعده صفة له، ويجوز أن يكون ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا﴾ هو المبتدأ كما تقدم في قوله: ﴿وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يَقُولُ﴾ [البقرة: 8] والمعنى: أن من جملة من خلقه الله أمة يهودون الناس متلبسين بالحق، أو يهودونهم بما عرفوه من الحق ﴿وَمَنْ بِالْحَقِّ يَعْلَمُونَ﴾ بينهم قيل: هم من هذه الأمة، وإنهم الفرقة الذين لا يزالون على الحق ظاهرين، كما ورد في الحديث الصحيح، ثم لما بين حال هذه الأمة الصالحة بين حال من يخالفهم فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ والاستدراج: هو الأخذ بالتدرج منزلة بعد منزلة، والدرج: كَفَ الشيء، يقال درجته ودرجته، ومنه إدراج الميت في أكفانه؛ وقيل:

أسأل الله الرحمن، الرحيم، الإله، الرب، الملك، القنوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصور، الحليم، العليم، السميع، البصير، الحي، القيوم، الواسع، اللطيف، الخبير، الحنان، المنان، البديع، الغفور، الوودود، الشكور، المجيد، المبدئ، المعيد، النور، البارئ؛ وفي لفظ: القائم، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، العفو، الغفار، الوهاب، الفرد، وفي لفظ: القادر، الأحد الصمد، الوكيل، الكافي، الباقي، المغيث، الدائم، المتعالي، ذا الجلال والإكرام، المولى البصير، الحق، المتين، الوارث، المنير، الباعث، القدير. وفي لفظ: المجيب، المحي المميت الحميد؛ وفي لفظ: الجميل، الصابق، الحفيظ، المحيط، الكبير، القريب، الرقيب، الفتاح، التواب، القديم، الوتر، الفاطر، الرزاق، العلام، العلي، العظيم، الغني، الملك، المقدر، الأكرم، الرؤوف، المنير، المالك، القاهر، الهادي، الشاكر، الكريم، الرفيع، الشهيد، الواحد، ذا الطول، ذا المعارج، ذا الفضل، الخالق، الكفيل، الجليل.

وأخرج أبو نعيم عن محمد بن جعفر قال: سألت أبي جعفر بن محمد الصديق عن الأسماء التسعة والتسعين التي من أحصاها نخل الجنة؟ فقال: هي في القرآن، ففي الفاتحة خمسة أسماء: يا الله، يا رب، يا رحمن، يا رحيم، يا ملك، وفي البقرة ثلاثون وثلاثون اسماً: يا محيط، يا قدير، يا عليم، يا حكيم، يا على يا عظيم، يا تواب، يا بصير، يا ولي، يا واسع، يا كافي، يا رؤوف، يا بديع، يا شاكراً، يا واحد، يا سميع، يا قابض، يا باسط، يا حي، يا قيوم، يا غني، يا حميد، يا غفور، يا حليم، يا إله، يا قريب يا مجيب، يا عزيز، يا نصير، يا قوي، يا شديد، يا سريع، يا خبير، وفي آل عمران: يا وهاب، يا قائم، يا صادق، يا باعث، يا منعم، يا متفضل، وفي النساء: يا رقيب، يا حسيب، يا شهيد، يا مقيت، يا وكيل، يا علي، يا كبير، وفي الأنعام: يا فاطر، يا قاهر، يا لطيف، يا برهان؛ وفي الأعراف: يا محيي، يا مميت؛ وفي الأنفال: يا نعم المولى، ويا نعم النصير، وفي هود: يا حفيظ، يا مجيد، يا ودود يا فعال لما تريد؛ وفي الرعد: يا كبير، يا متعالي؛ وفي إبراهيم: يا منان، يا وارث؛ وفي الحجر: يا خالق؛ وفي مريم: يا فرد؛ وفي طه: يا غفار؛ وفي قد أفلح [أي: سورة المؤمنون] يا كريم؛ وفي النور: يا حق، يا مبين؛ وفي الفرقان: يا هادي؛ وفي سبا: يا فتاح؛ وفي الزمر: يا عالم؛ وفي غافر: يا قابل التوب، يا ذا الطول، يا رفيع؛ وفي الذاريات: يا رزاق، يا ذا القوة، يا متين؛ وفي الطور: يا بَرّ؛ وفي اقتربت [أي: سورة القمر] يا مقتدر، يا مليك؛ وفي الرحمن: يا ذا الجلال والإكرام، يا رب المشرقين، يا رب المغربين، يا باقي، يا معين؛ وفي الحديد: يا أول، يا آخر، يا ظاهر، يا باطن؛ وفي الحشر: يا ملك، يا قنوس، يا سلام، يا مؤمن، يا مهيمن، يا عزيز، يا جبار، يا متكبر، يا خالق، يا بارئ، يا مصور؛ وفي البروج: يا مبدئ، يا معيد؛ وفي الفجر: يا وتر؛ وفي الإخلاص: يا أحد، يا صمد. انتهى.

وينتفعون بالتفكير فيه والاعتبار به ﴿فبأي حديث بعده يؤمنون﴾ الضمير يرجع إلى ما تقدم من التفكير والنظر في الأمور المذكورة: أي فبأي حديث بعد هذا الحديث المتقدم بيانه يؤمنون؟ وفي هذا الاستفهام من التقرير والتوبيخ ما لا يقاشر قدره؛ وقيل الضمير للقرآن؛ وقيل لمحمد ﷺ، وقيل للأجل المذكور قبله. وجملة ﴿من يضل الله فلا هادي له﴾ مقررّة لما قبلها: أي إن هذه الغفلة منهم عن هذه الأمور الواضحة البينة ليس إلا لكونهم ممن أضله الله، ومن يضلله فلا هادي له: أي فلا يوجد من يهديه إلى الحق، وينزعه عن الضلالة البينة ﴿ويذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ قرئ بالرفع على الاستئناف، وبالجزم عطفًا على محل الجزاء، وقرئ بالنون؛ ومعنى يعمهون: يتحيرون، وقيل: يتردنون وهو في محل نصب على الحال.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن ابن جريج، في قوله: ﴿ومن خلقنا أمة يهدون بالحق﴾ قال: نكر لنا أن النبي ﷺ قال: «هذه أمتي بالحق يحكمون ويقضون ويأخون ويعطون». وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة، في الآية قال: بلغنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: «إذا قرأها هذه لكم وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها» ﴿ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾ [الأعراف: 159]. وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع في الآية قال: قال رسول الله ﷺ «إن من أمتي قومًا على الحق حتى ينزل عيسى ابن مريم متى نزل». وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي في قوله: ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ يقول: سنأخذهم من حيث لا يعلمون، قال: عذاب بدر. وأخرج أبو الشيخ، عن يحيى بن العثني في الآية قال: كلما أخذوا نذبا جددنا لهم نعمة، تنسيهم الاستغفار. وأخرج ابن أبي الدنيا، وأبو الشيخ، والبيهقي في الأسماء والصفات، عن سفيان في الآية قال: نسيخ عليهم النعمة ونمنعهم شكرها. وأخرج ابن أبي الدنيا، والبيهقي عن ثابت البناني، أنه سئل عن الاستدرج فقال: ذلك مكر الله بالعباد المضيعين. وأخرج أبو الشيخ، في قوله: ﴿واملي لهم﴾ يقول: أكف عنهم ﴿إن كيدي متين﴾ إن مكري شديد، ثم نسخها الله فانزل ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ [التوبة: 5]. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: كيد الله العذاب والنقمة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، قال: نكر لنا: «إن نبي الله ﷺ قام على الصفا، فدعا قريشاً فخذاً - فخذاً: يا بني فلان يا بني فلان، يحذرهم بأس الله ووقائع الله إلى الصباح حتى قال قائل إن صاحبكم هذا لمجنون بات يصوت حتى أصبح، فانزل الله: ﴿اولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة إن هو إلا نذير مبين﴾

هو من الدرجة، فالاستدرج: أن يخطو درجة بعد درجة إلى المقصود، ومنه درج الصبي: إذا قارب بين خطاه، والدرج الكتاب: طواه شيئاً بعد شيء، ودرج القوم: مات بعضهم في أثر بعض؛ والمعنى: سنستدينهم قليلاً قليلاً إلى ما يهلكهم، وذلك بإدراج النعم عليهم وإنسانهم شكرها، فينهمكون في الغواية، ويتنكبون طرق الهداية لاغترارهم بذلك وأنه لم يحصل لهم إلا بما لهم عند الله من المنزلة والزلفة. قوله: ﴿واملي لهم﴾ معطوف على سنستدرجهم: أي أطيل لهم المدة، وأملهم وأؤخر عنهم العقوبة، وجملة ﴿إن كيدي متين﴾ مقررّة لما قبلها من الاستدرج والإملاء، ومؤكدة له، والكيد: المكر، والمتين: الشديد القوي، وأصله من المتن وهو اللحم الغليظ الذي على جانب الصلب. قال في الكشف: سماء كيداً، لأنه شبيه بالكيد من حيث إنه في الظاهر إحسان وفي الحقيقة خذلان، والاستفهام في ﴿أو لم يتفكروا﴾ للإنكار عليهم حيث لم يتفكروا في شأن رسول الله ﷺ، وفيما جاء به «وما» في ﴿ما بصاحبهم﴾ للاستفهام الإنكاري، وهي في محل رفع بالابتداء والخبر بصاحبهم، واللجنة مصدر: أي وقع منهم للتكذيب، ولم يتفكروا أي شيء من جنون كائن بصاحبهم كما يزعمون، فإنهم لو تفكروا لوجدوا زعمهم باطلاً، وقولهم زوراً وبهتاناً، وقيل إن «ما» نافية واسمها ﴿من جنة﴾ وخبرها بصاحبهم: أي ليس بصاحبهم شيء مما يدعونه من الجنون، فيكون هذا رداً لقولهم: ﴿يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون﴾ [الحجر: 60] ويكون الكلام قد تمّ عند قوله: ﴿اولم يتفكروا﴾ والوقف عليه من الأوقاف الحسنة، وجملة: ﴿إن هو إلا نذير مبين﴾ مقررّة لمضمون ما قبلها، ومبينة لحقيقة حال رسول الله ﷺ، والاستفهام في ﴿أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض﴾ للإنكار والتوبيخ، ولقصد التعجيب من إعراضهم عن النظر في الآيات البينة الدالة على كمال قدرته وتفردته بالإلهية، والملكوت من أبنية المبالغة، ومعناه الملك العظيم وقد تقدم بيانه؛ والمعنى: إن هؤلاء لم يتفكروا حتى ينتفعوا بالتفكير، ولا نظروا في مخلوقات الله حتى يهتوا بذلك إلى الإيمان به، بل هم سادرون في ضلالتهم خائضون في غوايتهم لا يعملون فكراً ولا يمعنون نظراً. قوله: ﴿وما خلق الله من شيء﴾ أي: لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض، ولا فيما خلق الله من شيء من الأشياء كائنًا ما كان، فإن في كل مخلوقاته عبرة للمعتبرين، وموعظة للمتفكرين، سواء كانت من جلائل مصنوعاته كملكوت السموات والأرض، أو من دقائقها من سائر مخلوقاته. قوله: ﴿وإن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم﴾ معطوف على ملكوت، وإن هي المخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن وخبرها عسى وما بعدها: أي أو لم ينظروا في أن الشأن والحديث عسى أن يكون قد اقترب أجلهم، فيموتون عن قريب. والمعنى: إنهم إذا كانوا يجوزون قرب أجالهم فما لهم لا ينظرون فيما يهتدون به

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُحِيطُ بِوَقْعِهَا إِلَّا مَنۢ مَّشَىٰ بِالسَّكِينِ لَا تُدِيرُهَا إِلَّا غَنَّةُ رَبِّكَ إِذَا هُوَ عَنَّا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَٰكِنۢ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ قُلْ لَا أَتَمۡنَا بِمَا نَعْمَا

الساعة كأنك عالم بها، أو كانه مستقص للسؤال عنها ومستكثر منه، والجملة التشبيهية في محل نصب على الحال أي: يسألونك مشبهاً حالك حال من هو حفي عنها؛ وقيل المعنى: يسألونك عنها كأنك حفي بهم: أي حفي ببرهم وفرح بسؤالهم. والأول: هو معنى النظم القرآني على مقتضى المسلك العربي. قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ أمره الله سبحانه بأن يكرر ما أجاب به عليهم سابقاً لتقرير الحكم وتأكيد، وقيل: ليس بتكرير، بل أحدهما معناه الاستثثار بوقوعها، والآخر الاستثثار بكنهها نفسها. **﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾** باستثثار الله بهذا وعدم علم خلقه به، لم يعلمه ملك مقرب ولا نبي مرسل. قوله: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ هذه الجملة متضمنة لتأكيد ما تقدم من عدم علمه بالساعة إيان تكون ومتى تقع، لأنه إذا كان لا يقدر على جلب نفع له، أو دفع ضرر عنه إلا ما شاء الله سبحانه من النفع له والدفع عنه، فبالأولى أن لا يقدر على علم ما استأثر الله بعلمه، وفي هذا من إظهار العبودية والإقرار بالعجز عن الأمور التي ليست من شأن العبيد، والاعتراف بالضعف عن انتحال ما ليس له من شأنه، وينتقل علم الغيب بالنجاسة أو الرمل أو الطرق بالحصا أو الزجر، ثم أكد هذا وقرره بقوله: **﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾** أي: لو كنت أعلم جنس الغيب لتعرضت لما فيه الخير فجلبته إلى نفسي وتوقيت ما فيه السوء حتى لا يمسنني، ولكنني عبد لا أدري ما عند ربي، ولا ما قضاة في وقدره لي، فكيف أدري غير ذلك وأتكلف علمه؛ وقيل المعنى: لو كنت أعلم ما يريد الله عز وجل مني من قبل أن يعرّفني لفعلته؛ وقيل: لو كنت أعلم متى يكون لي النصر في الحرب لقاتلت فلم أغلب؛ وقيل: لو كنت أعلم الغيب لأجبت عن كل ما أسأل عنه، والأولى حمل الآية على العموم، فتندرج هذه الأمور وغيرها تحتها؛ وقد قيل: إن **﴿وَمَا مَسْنِي السُّوء﴾** كلام مستأنف، أي: ليس بي ما تزعمون من الجنون والأولى: أنه متصل بما قبله، والمعنى: لو علمت الغيب ما مسني السوء، ولحذرت عنه كما قدّمنا ذلك. قوله: **﴿إِنَّا إِنَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾** أي: ما أنا إلا مبلغ عن الله لأحكامه أنذر بها قوماً وأبشر بها آخرين، ولست أعلم بغيب الله سبحانه، واللام في **﴿لِقَوْمٍ﴾** متعلق بكلا الصفتين: أي بشير لقوم، ونذير لقوم، وقيل: هو متعلق ببشير، والمتعلق بنذير محذوف: أي نذير لقوم يكفرون، وبشير لقوم يؤمنون. قوله: **﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾** هذا كلام مبتدأ يتضمن نكر نعم الله على عباده وعدم مكافئتهم لها، مما يجب من الشكر والاعتراف بالعبودية، وأنه المنفرد بالإلهية. قال جمهور المفسرين: المراد بالنفس الواحدة: آدم، وقوله: **﴿وَجَعَلْنَا مِنْهَا زَوْجَهَا﴾** معطوف على **﴿خَلَقَكُمْ﴾** أي: هو الذي خلقكم من نفس آدم وجعل من هذه النفس زوجها، وهي حواء، خلقها من ضلع

وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسْنِيَ السُّوءُ إِنَّنَا إِنَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلْنَا مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا حَافِيًا فَرَرَتْ بِهِ فَلَمَّا أَفَلَتْ دَعَا اللَّهُ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْنَا مِنْكُمْ بَشَرًا لَّتُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا ءَاتَيْنَاهَا مِنْكُمْ حَمْلًا لَمْ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَيْنَاهُمَا فَفَعَلَهُ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٠٢﴾ أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلَا يَسْتَلِيمُونَ كَمَ نَصَرْنَا وَلَا أَشْهَمُ يَصْرُونَ ﴿١٠٤﴾

قوله: **﴿يسألونك عن الساعة﴾** السائلون: هم اليهود، وقيل: قريش، والساعة: القيامة وهي من الأسماء الغالبة، وإطلاقها على القيامة لوقوعها بغتة أو لسرعة حسابها، وإيان ظرف زمان مبني على الفتح. قال الرازي: إيان تقضي حاجتي إياناً أمانتري لنجحها إياناً ومعناه معنى متى، واشتقاقه من أي: وقيل من إين. وقراء السلمي «إيان» بكسر الهمزة وهو في موضع رفع. وعلى الخبر، **﴿ومرساها﴾** المبتدأ عند سيوييه، ومرساها بضم الميم: أي وقت إرسائها من أرساها الله: أي أثبها، وفتح الميم من رست: أي ثبتت، ومنه: **﴿وقدور رأسيات﴾** [سبأ: 13]، ومنه رسا الجبل، والمعنى: متى يرسىها الله أي يثبتها ويوقعها، وظاهر **﴿يسألونك عن الساعة﴾** أن السؤال عن نفس الساعة، وظاهر **﴿إيان مرساها﴾** أن السؤال عن وقتها، فحصل من الجميع أن السؤال المذكور هو عن الساعة باعتبار وقوعها في الوقت المعين لذلك، ثم أمره الله سبحانه بأن يجيب عنهم بقوله: **﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾** أي: علمها باعتبار وقوعها عند الله لا يعلمها غيره ولا يهتدي إليها سواء **﴿لا يجلبها لوقتها إلا هو﴾** أي: لا يظهرها لوقتها، ولا يكشف عنها إلا الله سبحانه، والتجلية: إظهار الشيء، يقال جلى لي فلان الخير: إذا أظهره وأوضحه، وفي استثثار الله سبحانه بعلم الساعة حكمة عظيمة، وتدبير بليغ كسائر الأشياء التي أخفاها الله واستأثر بعلمها. وهذه الجملة مقررّة لمضمون التي قبلها. قوله: **﴿ثقلت في السموات والأرض﴾** قيل معنى ذلك: أنه لما خفي علمها على أهل السموات والأرض كانت ثقيلة، لأن كل ما خفي علمه ثقيل على القلوب؛ وقيل المعنى: لا تطيقها السموات والأرض لعظمها، لأن السماء تنشق، والنجوم تتناثر، والبحار تنضب؛ وقيل: عظم وصفها عليهم؛ وقيل: ثقلت المسئلة عنها، وهذه الجملة مقررّة لمضمون ما قبلها أيضاً **﴿لا تأتيكم إلا بغتة﴾** إلا فجأة على غفلة، والبغتة، مصدر في موضع الحال، وهذه الجملة كالتي قبلها في التقرير. قوله: **﴿يسألونك كأنك حفي عنها﴾**. قال ابن فارس: الحفي العالم بالشيء، والحفي المستقص في السؤال، ومنه قول الأعشى:

فان تسالي عني فيارب سائل حفي عن الأعشى به حيث أصعدا
يقال أحفي في المسئلة وفي الطلب فهو محف، وحفي على التكثر مثل مخصب وخصيب. والمعنى: يسألونك عن

من أضلاعه؛ وقيل المعنى **﴿جعل منها﴾** من جنسها، كما في قوله: **﴿جعل لكم من أنفسكم أزواجاً﴾** [النحل: 72] والأول: أولى **﴿ليسكن إليها﴾** علة للجعل: أي جعله منها لأجل يسكن إليها يأنس إليها ويطمئن بها، فإن الجنس بجنسه أسكن وإليه أنس، وكان هذا في الجنة كما وردت بذلك الأخبار: ثم ابتداء سبحانه بحالة أخرى كانت بينهما في الدنيا بعد هبوطهما، فقال: **﴿فلما تغشاهما﴾**، والتغشي كناية عن الوقاع: أي فلما جامعها **﴿حملت حملاً خفيفاً﴾** علفت به بعد الجماع، ووصفه بالخفة لأنه عند إلقاء النطفة أخف منه عند كونه علقه، وعند كونه مضغاً أخف مما بعده، وقيل: إنه خف عليها هذا الحمل من ابتدائه إلى انتهائه، ولم تجد منه ثقلاً كما تجده الحوامل من النساء، لقوله: **﴿فعمرت به﴾** أي: استمرت بذلك الحمل تقوم وتقع، وتمضي في حوائجها لا تجد به ثقلاً، والوجه الأول، لقوله: **﴿فلما أنزلت﴾** فإن معناه: فلما صارت ذات ثقل لكبر الولد في بطنها، وقرئ «فمرت به» بالتخفيف: أي فجزعت لذلك، وقرئ «فمارت به» من المور، وهو المجيء والذهاب؛ وقيل المعنى: فاستمرت به. وقد رويت قراءة التخفيف عن ابن عباس، ويحيى بن يعمر، ورويت قراءة «فمارت» عن عبد الله بن عمر، وروى عن ابن عباس أنه قرأ «فاستمرت به» قوله: **﴿دعوا الله ربهما﴾** جواب لما أي: دعا آدم وحواء ربهما ومالك أمرهما **﴿لئن أتيتنا صالِحاً﴾** أي: ولداً صالحاً، واللام جواب قسم محذوف، و**﴿لنكونن من الشاكرين﴾** جواب القسم ساد مسد جواب الشرط: أي من الشاكرين لك على هذه النعمة؛ وفي هذا الدعاء دليل على أنهما قد علما أن ما حدث في بطن حواء من أثر ذلك الجماع هو من جنسهما، وعلماً بثبوت النسل المتأثر عن ذلك السبب **﴿فلما أتاهما﴾** ما طلباه من الولد الصالح وأجاب دعاهما **﴿جعلاً له شركاء فيما أتاهما﴾** قال كثير من المفسرين: إنه جاء إبليس إلى حواء وقال لها: إن ولدت ولداً فسميه باسمي فقالت: وما اسمك؟ قال: الحارث ولو سمي لها نفسه لعرفته، فسمته عبد الحارث، فكان هذا شركاً في التسمية ولم يكن شركاً في العبادة. وإنما قصداً أن الحارث كان سبب نجاة الولد كما يسمى الرجل نفسه عبد ضيفه كما قال حاتم الطائي:

وإني لعبد الضيف مادام ثلويأ وما في إلا تلك من شيمة العبد

وقال جماعة من المفسرين: إن الجاعل شركاً فيما أتاهما هم جنس بني آدم كما وقع من المشركين منهم، ولم يكن ذلك من آدم وحواء، ويدل على هذا جمع الضمير في قوله: **﴿فتعالى الله عما يشركون﴾** وذهب جماعة من المفسرين إلى أن معنى **﴿من نفس واحدة﴾** من هيئة واحدة وشكل واحد **﴿وجعل منها زوجها﴾** أي: من جنسها **﴿فلما تغشاهما﴾** يعني جنس الذكر جنس الأنثى، وعلى هذا لا يكون لآدم وحواء نكر في الآية، وتكون ضمائر التثنية راجعة إلى الجنسين. وقد قدمنا الإشارة إلى نحو هذا،

ونكرنا أنه خلاف الأولى لأمر منها **﴿وجعل منها زوجها﴾** بأن هذا إنما هو لحواء، ومنها **﴿دعوا الله ربهما﴾** فإن كل مولود يولد بين الجنسين، لا يكون منهما عند مقاربة وضعه هذا الدعاء. وقد قرأ أهل المدينة وعاصم «شركاً» على التوحيد. وقرأ أبو عمرو، وسائر أهل الكوفة بالجمع. وأنكر الأخفش سعيد القراءة الأولى. وأجيب عنه بأنها صحيحة على حذف المضاف: أي جعلاً له ذا شرك، أو نوي شرك، والاستفهام في **﴿أيشركون مالا يخلق شيئاً﴾** للتقريع والتوبيخ أي كيف يجعلون لله شريكاً لا يخلق شيئاً ولا يقدر على نفع لهم، ولا نفع عنهم. قوله: **﴿وهم يخلقون﴾** عطف على **﴿مالا يخلق﴾** والضمير راجع إلى الشركاء الذين لا يخلقون شيئاً، أي هؤلاء الذين جعلهم شركاء من الأصنام أو الشياطين مخلوقين، وجمعهم جمع العقلاء لاعتقاد من جعلهم شركاء أنهم كذلك **﴿ولا يستطيعون لهم﴾** أي: لمن جعلهم شركاء **﴿نصراً﴾** إن طلبه منهم **﴿ولا أنفسهم ينصرون﴾** إن حصل عليهم شيء من جهة غيرهم، ومن عجز عن نصر نفسه فهو عن نصر غيره أعجز.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وأبو الشيخ عن ابن عباس، قال: قال حمل بن أبي قيس، وشمول بن زيد لرسول الله ﷺ: أخبرنا متى الساعة إن كنت نبياً كما تقول فلنا نعلم ما هي؟ فأنزل الله **﴿يسألونك عن الساعة إيان مرساهما قل إنما علمها عند ربي﴾** إلى قوله: **﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾**. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة **﴿إيان مرساهما﴾** أي: متى قيامها؟ **﴿قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو﴾** قال: قالت قريش يا محمد أسر إلينا الساعة لما بيننا وبينك من القرابة؟ قال: **﴿يسألونك كأنك حفي عنها قل إنما علمها عند الله﴾** ونكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: «تهيج الساعة بالناس والرجل يسقي على ماشيته، والرجل يصلح حوضه، والرجل يخفض ميزانه ويرفعه، والرجل يقيم سلعته في السوق قضاء الله لا تاتيكم إلا بغتة» وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: **﴿إيان مرساهما﴾** قال: منتهاها. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد **﴿لا يجليها لوقتها إلا هو﴾** يقول: لا يأتي بها إلا الله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن قتادة، في الآية قال: هو يجليها لوقتها لا يعلم ذلك إلا الله. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: **﴿نقلت في السموات والأرض﴾** قال: ليس شيء من الخلق إلا يصيبه من ضرر يوم القيامة. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة، في قوله: **﴿نقلت في السموات والأرض﴾** قال: ثقل علمها على أهل السموات والأرض يقول كبرت عليهم. وأخرج ابن جرير وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن ابن جريج، في قوله: **﴿نقلت في السموات**

وجوه الكيد ﴿فلا تنظرون﴾ أي: فلا تهلولي ولا تؤخروني
إنزال الضرر بي من جهتها، والكيد: المكر، وليس بعد هذا
التحدي لهم والتعجيز لأصنامهم شيء ثم قال لهم: ﴿إِنَّ
وَلِيَّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابُ﴾ أي: كيف أخاف هذه الأصنام
التي هذه صفتها، ولي ولي الجأ إليه واستنصر به، وهو الله
عز وجل ﴿الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابُ﴾ وهذه الجملة تحليل لعدم
المبالاة بها وولي الشيء هو الذي يحفظه، ويقوم بنصرته،
ويمنع منه الضرر ﴿وَهُوَ يَقُولُ الصَّالِحِينَ﴾ أي: يحفظهم
وينصرهم، ويحول ما بينهم وبين أعدائهم. قال الأخفش:
وقرئ ﴿إِنَّ وَلِيَّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابُ﴾ يعني جبرائيل. قال
النحاس: هي قراءة عاصم الجحدري والقراءة الأولى أبين
لقوله: ﴿وَهُوَ يَقُولُ الصَّالِحِينَ﴾. قوله: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ
مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾
كّرر سبحانه هذا لمزيد التأكيد والتقرير، ولما في تكرار
التوبيخ والتقرير من الإهانة للمشركين، والتنقص بهم،
وإظهار سخف عقولهم، وركاكة أحلامهم ﴿وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ
إِلَيْكَ﴾ جملة مبتدأة لبيان عجزهم، أو حالية أي والحال أنك
تراهم ينظرون إليك حال كونهم لا يبصرون، والمراد:
الأصنام إنهم يشبهون الناظرين، ولا أعين. لهم يبصرون بها،
قيل: كانوا يجعلون للأصنام أعيناً من جواهر مصنوعة،
فكانوا ينك في هيئة الناظرين، ولا يبصرون. وقيل: المراد
بذلك المشركون، أخبر الله عنهم بأنهم لا يبصرون حين لم
ينتفعوا بأبصارهم، وإن أبصروا بها غير ما فيه نفعهم.

وقد أخرج أبو الشيخ، عن سعيد بن جبير قال: وجاء بالشمس والقمر حتى يلقيا بين يدي الله تعالى، وجاء بمن كان يعبدهما، فيقال: ﴿إدعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صانقين﴾. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن السدي، في قوله: ﴿وإتراهم ينظرون إليك﴾ قال: هؤلاء المشركون. وأخرج هؤلاء أيضاً عن مجاهد، في قوله: ﴿وإتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون﴾ ما يدعوهم إليه من الهدى.

خُذِ الْقَوَاعِدَ وَالْمَرْبِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَهْلِيَّاتِ ﴿١٥٠﴾ وَإِنَّا بِزَعْمِكَ مِنَ
الشَّاطِطِينَ نَرُوحُ ۖ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٥١﴾ إِنَّكَ الْيَقِينُ أَتَقُولُ إِذَا
مِنْهُمْ مَكَتَيْتَ مِنَ الشَّاطِطِيِّ تَذَكَّرُوا فَإِنَّا لَهُمْ مُبْعِرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَإِخْرَجْتَهُمْ
يَعْلَمُونَهُمْ فِي الْوَيْتَةِ لَا يُبْعِرُونَ ﴿١٥٣﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا
أَنْجَيْنَاهَا قُلْ إِنَّمَا آتَيْتُكُمْ مَا بَوَّعْتُ لَكُمْ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى
وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ
تُذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعًا وَخَجَةً وَدُونَ الْكِبَرِ مِنَ الْقَوْلِ
وَالْإِنْدَادِ وَالْأَحْصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا
يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ ۖ وَيَسْتَكْبِرُونَ وَلَكِنْ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥٧﴾

قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ لما عَدَّد الله ما عَدَّه من أحوال للمشركين وتسفيه رأيهم وضلال سعيهم: أمر رسوله ﷺ بأن يأخذ العفو من أخلاقهم، يقال أختت حقى عفواً: أي

تدعوهم: أي الأصنام إلى الهدى لا يتبعوكم؛ وقيل: المراد من سبق في علم الله أنه لا يؤمن. وقرأ «لا يتبعوكم» مشدداً ومخففاً وهما لغتان. وقال بعض أهل اللغة اتبعه مخففاً: إذا مضى خلفه ولم يدركه، واتبعه مشدداً: إذا مضى خلفه قادركه، وجملة ﴿سواء عليكم ادعوتهم أم لستم صامتون﴾ مقررة لمضمون ما قبلها: أي دعاؤكم لهم عند الشدائد وعدمه سواء لا فرق بينهما، لأنهم لا ينفعون ولا يضررون ولا يسمعون ولا يجيبون، وقال: ﴿أم أنتم صامتون﴾ مكان أصمتم لما في الجملة الاسمية من المبالغة. وقال محمد بن يحيى: إنما جاء بالجملة الاسمية لكونها رأس آية، يعني لمطابقة ﴿ولا أنفسهم ينصرون﴾ وما قبله. قوله: ﴿إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم﴾ أخبرهم سبحانه بأن هؤلاء الذين جعلتهم آلهة هم عباد الله كما أنتم عباد له مع أنكم أكمل منهم، لأنكم أحياء: تنطقون وتمشون، وتسمعون وتبصرون، وهذه الأصنام ليست كذلك، ولكنها مثلكم في كونها مملوكة لله مسخرة لأمره. وفي هذا تقرير لهم بالغ، وتوبيخ لهم عظيم، وجملة: ﴿فادعوهم فليستجيبوا لكم﴾ مقررة لمضمون ما قبلها من أنهم إن دعوهم إلى الهدى لا يتبعوهم، وأنهم لا يستطيعون شيئاً: أي ادعوا هؤلاء الشركاء، فإن كانوا كما تزعمون ﴿فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين﴾ فيما تدعونه لهم، من قدرتهم على النفع والضرر، والاستقحام في قوله: ﴿لهم أرجل﴾ وما بعده للتقريع والتوبيخ: أي هؤلاء الذين جعلتهم شركاء ليس لهم شيء من الآلات التي هي ثابتة لكم، فضلاً عن أن يكونوا قادرين على ما تطلبونه منهم، فإنهم كما ترون هذه الأصنام التي تعفنون على عبادتها ليست لهم: ﴿أرجل يمشون بها﴾ في نفع أنفسهم، فضلاً عن أن يمشوا في نفعكم وليس ﴿لهم أيد يبطشون بها﴾ كما يبطش غيرهم من الأحياء، وليس ﴿لهم أعين يبصرون بها﴾ كما تبصرون، وليس ﴿لهم أذان يسمعون بها﴾ كما تسمعون، فكيف تدعون من هم على هذه الصفة من سلب الأدوات، وبهذه المنزلة من العجز، وأم في هذه المواضع هي المنطقة التي بمعنى بل، والهمزة كما نكره أئمة النحو. وقرأ سعيد بن جبير: ﴿إن الذين تدعون﴾ بتخفيف إن ونصب عباداً: أي ما الذين تدعون ﴿من دون الله عباداً أمثالكم﴾ على إعمال إن النافية عمل ما الحجازية، وقد ضعفت هذه القراءة بأنها خلاف ما رجحه سيبويه وغيره من اختيار الرفع في خبرها، وبأن الكسائي قال: إنها لا تكاد تأتي في كلام العرب بمعنى «ما» إلا أن يكون بعدها إيجاب كما في قوله: ﴿إن الكافرون إلا في غرور﴾ [الملك: 20]، والبطش: الأخذ بقوة. وقرأ أبو جعفر ﴿يبطشون﴾ بضم الطاء، وهي لغة، ثم لما بين لهم حال هذه الأصنام وتعارو وجوه النقص والعجز لها من كل باب، أمره الله بأن يقول لهم: ادعوا شركاءكم الذين تزعمون أن لهم قدرة على النفع والضرر ﴿ثم كيونى﴾ أنتم وهم جميعاً بما شئتم من

الخيال: ﴿فَإِذَا هُمْ مَبْصُرُونَ﴾ بسبب التذكر: أي منتبهون وقيل على بصيرة. وقرأ سعيد بن جبيرة ﴿تَذَكَّرُوا﴾ بتشديد الذال. قال النحاس: ولا وجه له في الغريبة. قوله: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ﴾ قيل المعنى: وإخوان الشياطين وهم الفجار من ضلال الإنس، على أن الضمير في إخوانهم يعود إلى الشيطان المذكور سابقاً، والمراد به الجنس، فجاز إرجاع ضمير الجمع إليه. ﴿يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ﴾ أي: تمدُّهم الشياطين في الغي وتكون مدداً لهم، وسميت الفجار من الإنس إخوان الشياطين لأنهم يقبلون منهم ويقتدون بهم؛ وقيل: إن المراد بالإخوان الشياطين، وبالضمير الفجار من الإنس، فيكون الخبر جارياً على من هو له. وقال الزجاج: في الكلام تقديم وتأخير، والمعنى: والذين تدعون من دونه لا يستطيعون لكم نصراً ولا أنفسهم ينصرون ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ﴾ لأن الكفار إخوان الشياطين، ﴿ثُمَّ لَا يَقْصِرُونَ﴾ الاقتصار: الانتهاء عن الشيء: أي لا تقصر الشياطين في مدِّ الكفار في الغي، قيل: إن في الغي متصلاً بقوله ﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾ وقيل: بالإخوان، والغى الجهل. قرأ نافع ﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾ بضم حرف المضارعة وكسر الميم. وقرأ الباقون بفتح حرف المضارعة وضم الميم، وهما لغتان: يقال مدُّ وآمد. قال مكي: ومد أكثر. وقال أبو عبيد وجماعة من أهل اللغة: فإنمه يقال إذا كثُر شيء شيئاً بنفسه مدّه، وإذا كثره بغيره، قيل: أمده نحو ﴿يَمُدُّكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ﴾ [آل عمران: 125] وقيل: يقال: مدت في الشرّ وأمدت في الخير. وقرأ عاصم الجحري ﴿يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ﴾. وقرأ عيسى بن عمر ﴿ثُمَّ لَا يَقْصِرُونَ﴾ بفتح الياء وضم الصاد وتخفيف القاف. قوله: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ اجتبى الشيء بمعنى جباها لنفسه: أي جمعه، أي: هلا اجتمعته افتعلاً لها من عند نفسك؛ وقيل: المعنى اختلقتها، يقال: اجتبيت الكلام: انتحلته واختلته واخترته إذا جئت به من عند نفسك، كانوا يقولون لرسول الله ﷺ إذا تراخى الوحي هذه المقالة، فأمره الله بأن يجيب عليهم بقوله: ﴿إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحِي إِلَيَّ﴾ أي: لست ممن يأتي بالآيات من قبل نفسه كما تزعمون ﴿إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحِي إِلَيَّ مِنْ رَبِّي﴾، فما أوحاه إليّ وأنزله عليّ أبليته إليكم، وبصائر جمع بصيرة: أي هذا القرآن المنزل عليّ هو ﴿بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يتبصر بها من قبلها؛ وقيل: البصائر الحجج والبراهين. وقال الزجاج: البصائر الطرق ﴿وَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ معطوف على بصائر: أي هذا القرآن هو بصائر وهدي يهتدي به المؤمنون ورحمة لهم. قوله: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ أمرهم الله سبحانه بالاستماع للقرآن والإنصات له عند قراءته؛ لينتفعوا به ويتدبروا ما فيه من الحكم والمصالح؛ قيل: هذا الأمر خاص بوقت الصلاة عند قراءة الإمام، ولا يخفك أن اللفظ أوسع من هذا والعام لا يقصر على سببه، فيكون الاستماع والإنصات عند قراءة

سهلاً، وهذا نوع من التيسير الذي كان يأمر به رسول الله ﷺ، كما ثبت في الصحيح أنه كان يقول: «يسرّوا ولا تعسرّوا وبشروا ولا تنفروا» والمراد بالعفو هنا ضد الجهد، وقيل المراد: خذ العفو من صدقاتهم ولا تشدّد عليهم فيها وتأخذ ما يشقّ عليهم، وكان هذا قبل نزول فريضة الزكاة ﴿وَأَمْرٌ بِالْعُرْفِ﴾ أي: بالمعروف. وقرأ عيسى بن عمر «بالعرف» بضمّتين، وهما لغتان، والعرف والمعروف والعارفة: كل خصلة حسنة ترتضيها العقول، وتطمئن إليها النفوس، ومنه قول الشاعر:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس
﴿وَأَعْرَضَ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ أي: إذا أقمت الحجة في أمرهم بالمعروف فلم يفعلوا، فأعرض عنهم ولا تمارهم ولا تسافهم مكافأة لما يصدر منهم من المرء والسفاهة؛ قيل: وهذه الآية هي من جملة ما نسخ بأية السيف، قاله عبد الرحمن بن زيد وعطاء؛ وقيل هي محكمة، قاله مجاهد وقاتدة. قوله: ﴿وَإِنَّمَا يَنْزَغُنَا مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾ النزغ: الوسوسة وكذا اللنزغ والنخس. قال الزجاج: النزغ أننى حركة تكون، ومن الشيطان أننى وسوسة، وأصل النزغ: الفساد، يقال نزغ بيننا: أي أقسد، وقيل النزغ: الإغواء، والمعنى متقارب، أمر الله سبحانه نبيه ﷺ إذا أدرك من وسوسة الشيطان أن يستعذ بالله؛ وقيل إنه لما نزل قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ قال النبي ﷺ: «كيف ياربّ بالغضب» فنزلت، وجملة ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ علة لأمره بالاستعانة: أي: استعذ به والتجئ إليه، فإنه يسمع ذلك منك ويعلم به، وجملة ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا﴾ مقرّرة لمضمون ما قبلها أي: إن شأن الذين يتقون الله، وحالهم هو التذكر لما أمر الله به من الاستعانة به، والالتجاء إليه، عند أن يمسه طائف من الشيطان وإن كان يسيراً. قرأ أهل البصرة ﴿طَيْفٌ﴾ وكذا أهل مكة. وقرأ أهل المدينة والكوفة ﴿طَائِفٌ﴾. وقرأ سعيد بن جبيرة ﴿طَيْفٌ﴾ بالتشديد. قال النحاس: كلام العرب في مثل هذا طيف بالتخفيف على أنه مصدر من طاف طيف. قال الكسائي: هو مخفف مثل ميت وميت. قال النحاس ومعناه في اللغة ما يتخيل في القلب أو يرى في النوم، وكذا معنى طائف. قال أبو حاتم: سألت الأصمعي عن طيف فقال: ليس في المصادر فيعمل. قال النحاس: ليس هو مصدرًا ولكن يكون بمعنى طائف؛ وقيل: الطيف والطائف معنيان مختلفان، فالأول: التخيل، والثاني: الشيطان نفسه. فالأول: من طاف الخيال يطوف طيفاً، ولم يقولوا من هذا طائف. قال السهيلي: لأنه تخيل لا حقيقة له، فاما قوله ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ﴾ [القلم: 19] فلا يقال فيه طيف لأنه اسم فاعل حقيقة. قال الزجاج: طفت عليهم أطوف، فطاف الخيال طيف. قال حسان:

فدع هذا ولكن من لطيف يؤرقني إذا ذهب العشاء
وسميت الوسوسة طيفاً لأنها لمة من الشيطان تشبه لمة

القرآن في كل حالة، وعلى أي صفة مما يجب على السامع؛ وقيل: هذا خاص بقراءة رسول الله ﷺ للقرآن بغيره، ولا وجه لذلك **﴿لعلمكم ترجمون﴾** أي: تتألمون الرحمة وتفوزون بها بامتثال أمر الله سبحانه، ثم أمره الله سبحانه أن يذكره في نفسه، فإن الإخفاء أدخل في الإخلاص، وأدعى للقبول؛ قيل: المراد بالذكر هنا ما هو أعم من القرآن وغيره من الإنكار التي يذكر الله بها. وقال النحاس: لم يختلف في معنى **﴿وانكر ربك في نفسك﴾** أنه الدعاء؛ وقيل هو خاص بالقرآن: أي اقرأ القرآن بتأمل وتدبر و**﴿تضرعاً وخيفة﴾** منتصبين على الحال: أي متضرعاً وخائفاً، والخيفة: الخوف، وأصلها خوفاً قلبت الواو باء لانكسار ما قبلها. وحكى الفراء أنه يقال في جمع خيفة خيف. وقال الجوهري: والخيفة الخوف والجمع خيف، وأصله الواو: أي خوف **﴿ويون الجهر من القول﴾** أي: يون المجهور به من القول، وهو معطوف على ما قبله: أي متضرعاً، وخائفاً، ومتكلماً بكلام هو يون الجهر من القول، و**﴿بالغنى والأصال﴾** متعلق بانكر أي أوقات الغنوات وأوقات الأصائل، والغنى: جمع غنوة، والأصال: جمع أصيل، قاله الزجاج والأخفش، مثل يمين وأيمان؛ وقيل الأصال جمع أصل، والأصل جمع أصيل، فهو على هذا جمع الجمع، قاله الفراء. قال الجوهري الأصل الوقت من بعد العصر إلى المغرب، وجمعه أصل وأصال وأصائل كأنه جمع أصيلة. قال الشاعر:

لعمرى لانت البيت أكرم أمه
وأبعدني ألقنائه بالأصائل

ويجمع أيضاً على أصالان مثل بغير وبعران، وقرأ أبو مجلز «والإيصال» وهو مصدر. وخصّ هذين الوقتين لشرفهما، والمراد: يوم النكر **﴿ولا تكن من الغافلين﴾** أي: عن ذكر الله **﴿إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته﴾** المراد بهم: الملائكة. قال القرطبي: بالإجماع. قال الزجاج: وقال عند ربك والله عز وجل بكل مكان لأنهم قريبون من رحمته، وكل قريب من رحمة الله عز وجل فهو عنده. وقال غيره: لأنهم في موضع لا ينفذ فيه إلا حكم الله؛ وقيل: إنهم رسل الله، كما يقال عند الخليفة جيش كثير، وقيل: هذا على جهة التشريف والتكريم لهم، ومعنى: **﴿يسبحونه﴾** يعظمونه وينزهونه عن كل شين **﴿وله يسبحون﴾** أي: يخصونه بعبادة السجود التي هي أشرف عبادة؛ وقيل المراد بالسجود: الخضوع والذلّة، وفي نكر الملا الأعلى تعريض لبني آدم.

﴿خذ العفو﴾ قال: أمر الله نبيه أن يأخذ العفو من أخلاق الناس. وأخرج ابن أبي الدنيا، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الشعبي، قال: «لما أنزل الله: **﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾** قال رسول الله ﷺ: ما هذا يا جبريل؟ قال: لا أبري حتى أسأل العالم، فذهب ثم رجع فقال: إن الله أمرك أن تعفو عمن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك». وأخرج ابن مريويه، عن جابر، نحوه. وأخرج ابن مريويه، عن قيس بن سعد بن عباد، قال: لما نظر رسول الله ﷺ إلى حمزة بن عبد المطلب قال: «والله لأمثلن بسبعين منهم، فجاء جبريل بهذه الآية». وأخرج ابن مريويه، عن عائشة، في قوله: **﴿خذ العفو﴾** ما عفا لك من مكارم الأخلاق. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس، في قوله: **﴿خذ العفو﴾** قال: خذ ما عفا من أموالهم ما أتوك به من شيء فحذه، وهذا قيل أن تنزل براءة بفرائض الصدقة وتفصيلها. وأخرج ابن جرير، والنحاس، في ناسخه، عن السدي في الآية قال: الفصل من المال، نسخته الزكاة. وأخرج ابن جرير، عن ابن زيد، قال: لما نزل **﴿خذ العفو﴾** الآية. قال رسول الله ﷺ: «كيف بالغضب يارب؟ فنزل **﴿وإما ينزغك من الشيطان فزغ﴾**. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: **﴿إن الذين اتقوا﴾** قال هم المؤمنون. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: **﴿إذا مسهم طيف من الشيطان﴾** قال: الغضب. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: الطيف: الغضب. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي، في قوله: **﴿تذكروا﴾** قال: إذا زلوا تابوا. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، عن ابن عباس، في الآية قال الطائف: اللمة من الشيطان **﴿تذكروا فإذا هم مبصرون﴾** يقول: فإذا هم منتبهون عن المعصية، أخذون بأمر الله، عاصون للشيطان **﴿وإخوانهم﴾** قال: إخوان الشياطين: **﴿يؤمنونهم في الغي﴾** ثم لا يقصرون: قال: لا الإنس يمسون عما يعملون من السيئات، ولا الشياطين تمسك عنهم و**﴿إذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبتيتها﴾** يقول: لولا أحدثتها لولا تلقيتها فأنشأتها. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مريويه، عنه **﴿وإخوانهم يؤمنونهم في الغي﴾** قال: هم الجن يوحون إلى أوليائهم من الإنس **﴿ثم لا يقصرون﴾** يقول: لا يسامون **﴿وإذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبتيتها﴾** يقول: هلا افتعلتها من تلقاء نفسك. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مريويه، وابن عساکر، عن أبي هريرة، في قوله: **﴿وإذا قرئ القرآن﴾** الآية قال: نزلت في رفع الأصوات وهم خلف رسول الله ﷺ في الصلاة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي، عن ابن عباس، في الآية قال: يعني في الصلاة المفروضة. وأخرج ابن مريويه، والبيهقي، عنه قال: صلى النبي ﷺ، فقرأ خلفه قوم فخلطوا،

وقد أخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، والبخاري، وأبو داود، والنسائي، والنحاس في ناسخه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مريويه، والبيهقي في الدلائل، عن عبد الله بن الزبير، في قوله: **﴿خذ العفو﴾** الآية قال: ما نزلت هذه الآية إلا في اختلاف الناس، وفي لفظ: أمر الله نبيه ﷺ أن يأخذ العفو من أخلاق الناس. وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني في الأوسط، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مريويه، عن ابن عمر في قوله:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْأَنْفَالِ عَلَى الْأَنْفَالِ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَوْهُ اللَّهُ وَأَمْرُهُمْ ذَاتَ
بَيْنِهِمْ وَأَمْرُهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾

الأنفال جمع نفل محرّكاً، وهو الغنيمة، ومنه قول عنترة:
إنا إذا احمرّ الوغى نروي القنا ونعف عند مقاسم الأنفال
أي الغنائم، وأصل النفل: الزيادة، وسميت الغنيمة به لأنها
زيادة فيما أحلّ الله لهذه الأمة مما كان محرّماً على غيرهم،
أو لأنها زيادة على ما يحصل للمجاهد من أجر الجهاد،
ويطلق النفل على معانٍ آخر منها اليمين، والابتغاء ونبت
معروف. والنافلة التطوّع لكونها زائدة على الواجب، والنافلة:
ولد الولد، لأنه زيادة على الولد، وكان سبب نزول الآية:
اختلاف الصحابة رضي الله عنهم في يوم بدر، كما سيأتي
بيانه فنزع الله ما غنموه من أيديهم، وجعله لله والرسول،
فقال: ﴿قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ أي: حكمها مختص بهما
يقسمها بينكم رسول الله عن أمر الله سبحانه، وليس لكم
حكم في ذلك.

وقد ذهب جماعة من الصحابة والتابعين إلى أن الأنفال
كانت لرسول الله ﷺ خاصة، ليس لأحد فيها شيء حتى
نزل قوله تعالى: ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فأنّ لله
خمسه﴾ [الأنفال: 41]. ثم أمرهم بالتقوى، وإصلاح ذات
البين، وطاعة الله والرسول بالتسليم لأمرهما، وترك
الاختلاف الذي وقع بينهم، ثم قال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾
أي: امتثلوا هذه الأوامر الثلاثة إن كنتم مؤمنين بالله، وفيه
من التهيج والإلهاب مالا يخفى، مع كونهم في تلك الحال
على الإيمان فكانه قال: إن كنتم مستمزين على الإيمان بالله،
لأن هذه الثلاثة الأمور التي هي تقوى الله، وإصلاح ذات
البين، وطاعة الله والرسول، لا يكمل الإيمان بدونها، بل لا
يثبت أصلاً لمن لم يمتثلها، فإن من ليس بمتقٍ وليس بمطيع
لله ورسوله ليس بمؤمن.

وقد أخرج أحمد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وأبو
الشيخ، والحاكم، وابن مروي، والبيهقي في سننه، عن أبي
إمامة، قال: سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال فقال: فينا
أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل، وساءت فيه
أخلاقنا، فانتزعها الله من أيدينا وجعلها إلى الرسول ﷺ،
فقسمه رسول الله بين المسلمين عن بواء يقول: عن سواء.
وأخرج سعيد بن منصور، وأحمد، وابن المنذر، وابن أبي
حاتم، وابن حبان، والحاكم وصححه، وأبو الشيخ، وابن
مروي، والبيهقي في سننه، عن عبادة بن الصامت قال:
خرجنا مع رسول الله ﷺ فشهدت معه بدرًا، فالتقى الناس
فهزم الله العدو، فانطلقت طائفة في آثارهم يهزمون ويقتلون،
واكبت طائفة على العسكر يحوزونه ويجمعونه، وأحدقت
طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العدو منه غزّة، حتى إذا
كان الليل وفاء الناس بعضهم إلى بعض، قال الذين جمعوا
الغنائم: نحن حويناها وجمعناها فليس لأحد فيها نصيب،

فنزلت: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ﴾ الآية، فهذه في المكتوبة. قال:
وإن كنا لم نستمع لمن يقرأ بالأخفى من الجهر. وأخرج
سعيد بن منصور وابن أبي حاتم، والبيهقي عن محمد بن
كعب القرظي نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم،
والبيهقي في سننه، عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم،
وأبو الشيخ، وابن مروي، والبيهقي عن عبد الله بن مغفل
نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم،
وأبو الشيخ، والبيهقي، عن ابن مسعود، نحوه أيضاً، وقد
روي نحو هذا عن جماعة من السلف، وصرحوا بأن هذه
الآية نزلت في قراءة الصلاة من الإمام. وأخرج ابن أبي
شيبه، عن الحسن، في الآية قال: عند الصلاة المكتوبة، وعند
الذكر. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس،
في الآية قال: في الصلاة وحين ينزل الوحي. وأخرج
البيهقي عنه في الآية أنه قال: هذا في الصلاة. وأخرج
عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن
أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وَأَنْذِرْكَ بِكَ فِي نَفْسِكَ﴾
الآية قال: أمره الله أن ينكره، ونهاه عن الغفلة: أما بالغفوة
فصلاة الصبح، والأصالة بالعشي وأخرج ابن أبي حاتم، عن
أبي صخر. قال: الأصالة ما بين الظهر والعصر. وأخرج ابن
جرير، وأبو الشيخ، عن ابن زيد، في الآية قال: لا تجهر بذاك
﴿بِالْغَفْوَةِ وَالْأَصَالِ﴾ بالبكر والعشي. وأخرج ابن جرير،
وأبو الشيخ، عن مجاهد ﴿بِالْغَفْوَةِ﴾ قال: آخر الفجر صلاة
الصبح، والأصالة آخر العشي صلاة العصر، والأحاديث
والآثار عن الصحابة في سجود التلاوة، وعدد المواضع التي
يسجد فيها، وكيفية السجود، وما يقال فيه مستوفاة في كتب
الحديث والفقه، فلا نطول بإيراد ذلك هاهنا.

تفسير سورة الأنفال

صرح كثير من المفسرين بأنها مدنية ولم يستثنوا منها
شيئاً، وبه قال الحسن وعكرمة وجابر بن زيد وعطاء: وقد
روي مثل هذا عن ابن عباس، أخرجه النحاس في ناسخه،
وأبو الشيخ، وابن مروي، عنه، قال: سورة الأنفال نزلت
بالمدينة. وأخرجه ابن مروي، عن عبد الله بن الزبير.
وأخرجه ابن مروي أيضاً عن زيد بن ثابت. وأخرج
سعيد بن منصور، والبخاري، وابن المنذر، وأبو الشيخ،
وابن مروي عن ابن عباس أنه قال: نزلت في بدر. وفي
لفظ تلك سورة بدر. قال القرطبي: قال ابن عباس هي
مدنية إلا سبع آيات من قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾
[الأنفال: 30 - 36] إلى آخر سبع آيات، وجملة آيات هذه
السورة ست وسبعون آية، وقد كان النبي ﷺ يقرأ بها في
صلاة المغرب كما أخرجه الطبراني بسند صحيح عن أبي
ليوب وأخرج أيضاً عن زيد بن ثابت عن النبي ﷺ أنه كان
يقرأ في الركعتين من المغرب بسورة الأنفال.

فنزلت: ﴿يسألونك عن الأنفال﴾ الآية، فقسم النبي ﷺ الغنائم بينهم بالسوية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مروي، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس، في قوله: ﴿يسألونك عن الأنفال﴾ قال: الأنفال المغنم، كانت لرسول الله ﷺ خالصة ليس لأحد منها شيء ما أصاب من سرايا المسلمين من شيء أتوه به، فمن حبس منه إبرة أو سلكاً فهو غلول، فسألوا رسول الله ﷺ أن يعطيهم منها شيئاً فانزل الله: ﴿يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله ولي جعلتها ولسوالي ليس لكم فيها شيء﴾ فأتوا الله وأصلحوا ذات بينكم﴾ إلى قوله: ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ ثم أنزل الله ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء﴾ [الأنفال: 41] الآية، ثم قسم تلك الخمس لرسول الله ﷺ، ولذي القربى واليتامى، والمساكين، والمهاجرين في سبيل الله، وجعل أربعة أخماس الناس فيه سواء، للفرس سهمان، ولصاحبه سهم، وللراجل سهم. وأخرج أبو عبيد، وابن المنذر، عن ابن عباس، في قوله: ﴿يسألونك عن الأنفال﴾ قال: هي الغنائم، ثم نسخها ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء﴾ الآية. وأخرج مالك وابن أبي شيبة، وأبو عبيد، وعبد بن حميد وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والنحاس وأبو الشيخ، وابن مروي عن القسم بن محمد قال: سمعت رجلاً يسأل ابن عباس عن الأنفال فقال: الفرس من النفل، والسلب من النفل، فأعاد المسئلة فقال ابن عباس: هذا مثل ضبيع الذي ضربه عمر؛ وفي لفظ: فقال ما أحوجك أن يصنع بك كما صنع عمر بضبيع العراقي، وكان عمر ضربه حتى سالت الدماء على عقبيه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عنه، قال: الأنفال المغنم، أمروا أن يصلحوا ذات بينهم فيها، فيرد القوي على الضعيف. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والنحاس، وأبو الشيخ، عن عطاء، في قوله: ﴿يسألونك عن الأنفال﴾ قال: هو ما شذ من المشركين إلى المسلمين بغير قتال، من عبد أو دابة أو متاع، فذلك للنبي ﷺ، يصنع به ما شاء، وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وأبو الشيخ، عن محمد بن عمرو، قال: أرسلنا إلى سعيد بن المسيب نسأله عن الأنفال فقال: تسألوني عن الأنفال، وإنه لا نفل بعد رسول الله ﷺ. وأخرج عبد الرزاق عن سعيد أيضاً قال: ما كانوا ينفلون إلا من الخمس وروى عبد الرزاق عنه أنه قال: لا نفل في غنائم المسلمين إلا في خمس الخمس. وأخرج عبد الرزاق عن أنس أن أميراً من الأمراء أراد أن ينفله قبل أن يخمسه، فابى أنس أن يقبله حتى يخمسه. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن الشعبي، في قوله: ﴿يسألونك عن الأنفال﴾ قال: ما أصابت السرايا. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، والنحاس في ناسخه، عن مجاهد، وعكرمة، قال: كانت الأنفال لله والرسول، حتى نسخها آية الخمس ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء﴾ [الأنفال: 41] الآية. وأخرج ابن أبي شيبة، والبخاري، في الأدب المفرد، وابن مروي، والبيهقي في شعب الإيمان، عن

وقال الذين خرجوا في طلب العدو: لستم بأحق بها منا نحن نفينا عنه العدو وهزمناهم، وقال الذين أحرقوا برسول الله ﷺ: لستم بأحق بها منا نحن أحرقنا برسول الله ﷺ، وخفنا أن يصيب العدو منه غرة فاشتغلنا به، فنزلت: ﴿يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول﴾ قسمها رسول الله ﷺ بين المسلمين، وكان رسول الله ﷺ إذا أغار في أرض العدو نفل الربع، وإذا أقبل راجعاً وكل الناس نفل الثلث، وكان يكره الأنفال ويقول: ليرد قوي المسلمين على ضعيفهم. وأخرج إسحاق بن راهويه في مسنده، وأبو الشيخ، وابن مروي، عن أبي أيوب الأنصاري قال: بعث رسول الله ﷺ سرية، فنصرها الله وفتح عليها، فكان من آتاه بشيء نفعه من الخمس، فرجع رجال كانوا يستقدمون ويقتلونه ويأسرون وتركوا الغنائم خلفهم، فلم ينالوا من الغنائم شيئاً، فقالوا: يا رسول الله ما بال رجال منا يستقدمون ويأسرون، وتخلف رجال لم يصلوا بالقتال فنفلتهم بالغنمية؟ فسكت رسول الله ﷺ ونزل: ﴿يسألونك عن الأنفال﴾ الآية، فدعاهم رسول الله ﷺ، فقال: «ربوا ما أخذتم واقتسموا بالعدل والسوية فإن الله يأمركم بذلك، فقالوا: قد أنفقنا وأكلنا، فقال احتسبوا بذلك» وأخرج أحمد، وأبو داود، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو نعيم في الحلية، والحاكم وصححه، وابن مروي، والبيهقي في سننه، عن سعد بن أبي وقاص، قال قلت: يا رسول الله قد شفاني الله اليوم من المشركين، فهب لي هذا السيف، فقال: «إن هذا السيف لا لك ولا لي، ضعه، فوضعت، ثم رجعت قلت عسى يعطى هذا السيف اليوم من لا يبلى بلائي إذا رجل يدعوني من ورائي، قلت: قد أنزل الله في شيئاً؟ قال: كنت سألتني هذا السيف وليس هو لي، وإنه قد وهب لي فهو لك» وأنزل الله هذه الآية: ﴿يسألونك عن الأنفال﴾ وفي لفظ لأحمد أن سعداً قال: لما قتل أخي يوم بدر، وقتلت سعيد بن العاص، وأخذت سيفه وكان يسمى ذا الكنية فأتيت به رسول الله ﷺ، ثم شكر نحو ما تقدم، وقد روي هذا الحديث عن سعد من وجوه آخر. وأخرج ابن جرير وابن مروي، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه عن جده: أن الناس سألوا رسول الله ﷺ الغنائم يوم بدر، فنزلت: ﴿يسألونك عن الأنفال﴾. وأخرج ابن مروي عنه قال: لم ينفل النبي ﷺ بعد إذ نزلت عليه ﴿يسألونك عن الأنفال﴾ إلا من الخمس فإنه نفل يوم خيبر من الخمس. وأخرج ابن أبي شيبة وأبو داود والنسائي وابن جرير، وابن المنذر، وابن حبان، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مروي، والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس قال لما كان يوم بدر قال النبي ﷺ «من قتل قتيلاً فله كذا وكذا، ومن أسر أسيراً فله كذا وكذا، فأما المشيخة فثبثوا تحت الرايات، وأما الشبان فسارعوا إلى القتل والغنائم، فقالت المشيخة للشبان: أشركونا معكم فإننا كنا لكم رداء، ولو كان منكم شيء للجأتم إلينا، فاختصموا إلى النبي ﷺ،

عند ربهم» خبر ثان «أولئك» أو مستأنفة جواباً لسؤال مقدر، «ومغفرة» معطوف على درجات أي مغفرة للذنوب «ورزق كريم» يكرمهم الله به من واسع فضله، وفائض جوده.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: «وجلت قلوبهم» قال: فرقت قلوبهم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه، أيضاً في الآية قال: المنافقون لا يدخل قلوبهم شيء من نكر الله عند أداء فرائضه، ولا يؤمنون بشيء من آيات الله، ولا يتوكلون على الله، ولا يصلون إذا غابوا، ولا يؤتون زكاة أموالهم، فأخبر الله أنهم ليسوا بمؤمنين، ثم وصف المؤمنين فقال: «إنما المؤمنون الذين إذا نكر الله وجلت قلوبهم» فأنوا فرائضه. وأخرج الحكيم الترمذي، وابن جرير، وأبو الشيخ، من طريق شهر بن حوشب، عن أم الدرداء قالت: إنما الوجل في القلب كاحتراق السعفة يا شهر بن حوشب، أما تجد قشعريرة؟ قلت بلى، قالت: فادع عندها فإن الدعاء يستجاب عند ذلك. وأخرج الحكيم الترمذي عن ثابت البناني قال: قال فلان: إني لأعلم متى يستجاب لي؟ قالوا: ومن أين لك؟ قال: إذا اقشعر جلدي، ووجل قلبي، وفاضت عينا،ي، فذلك حين يستجاب لي. وأخرج أيضاً، عن عائشة قالت: ما الوجل في قلب المؤمن إلا كضربة السعفة، فإذا وجل أحدكم فليدع عند ذلك. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي في الآية قال: هو الرجل يريد أن يظلم أو يهمل بمعصية، فيقال له اتق الله فيبجل قلبه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: «زانتهم إيماناً» قال: تصديقا. وأخرج هؤلاء عن الربيع بن أنس في قوله: «زانتهم إيماناً» قال: خشية. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: «وعلى ربهم يتوكلون» يقول: لا يرجون غيره. وأخرج عنه في قوله: «أولئك هم المؤمنون حقا» قال: برئوا من الكفر. وأخرج أبو الشيخ عنه «حقاً» قال: خالصاً. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جببر، في قوله: «لهم درجات» يعني فضائل ورحمة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: «لهم درجات» قال: أعمال رفيعة. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن الضحاك في قوله: «لهم درجات» قال: أهل الجنة بعضهم فوق بعض، فيرى الذي هو فوق فضله على الذي هو أسفل منه. ولا يرى الذي هو أسفل أنه فضل عليه أحد. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن زيد، في قوله: «ومغفرة» قال: بترك الذنوب «ورزق كريم» قال: الأعمال الصالحة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن محمد بن كعب القرظي، قال إذا سمعتم الله يقول: «ورزق كريم» فهي الجنة.

كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠﴾ يَجْعَلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَحْسَبُونَ

ابن عباس، في قوله: «واصلحوا ذات بينكم» قال: هذا تخريج من الله على المؤمنين أن يتقوا الله وأن يصلحوا ذات بينهم حيث اختلفوا في الأنفال. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مكحول، قال: كان صلاح ذات بينهم أن ردت الغنائم، فقسمت بين من ثبت عند رسول الله ﷺ، وبين من قاتل وغنم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عطاء، في قوله: «وطيعوا الله ورسوله» قال: طاعة الرسول اتباع الكتاب والسنة.

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ يُبَيِّتُونَ الْمَسْجِدَ وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُبْقُونَ ﴿١٢﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّمْ يَرْجِعْ عَنِ اللَّهِ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿١٣﴾

الوجل الخوف والفرع، والمراد أن حصول الخوف من الله والفرع منه عند نكره هو شأن المؤمنين الكاملين الإيمان والمخلصين لله، فالحصص باعتبار كمال الإيمان لا باعتبار أصل الإيمان. قال جماعة من المفسرين: هذه الآية متضمنة للتحريض على طاعة رسول الله ﷺ، فيما أمر به من قسمة الغنائم، ولا يخفاك أن هذا وإن صح إدراج تحت معنى الآية، من جهة أن وجل القلوب عند الذكر وزيادة الإيمان عند تلاوة آيات الله يستلزمان امتثال ما أمر به سبحانه من كون الأنفال لله والرسول، ولكن الظاهر أن مقصود الآية هو إثبات هذه المزية لمن كمل إيمانه من غير تقييد بحال دون حال، ولا بوقت دون وقت، ولا بواقعة دون واقعة، والمراد من تلاوة آياته تلاوة الآيات المنزلة أو التعبير عن بديع صنعته، وكمال قدرته في آياته التكوينية بنكر خلقها البديع وعجائبها التي يخضع عند نكرها المؤمنون، قيل والمراد بزيادة الإيمان: هو زيادة انشراح الصدر وطمأنينة القلب وانثلاج الخاطر عند تلاوة الآيات؛ وقيل المراد بزيادة الإيمان: زيادة العمل؛ لأن الإيمان شيء واحد لا يزيد ولا ينقص، والآيات المتكاثرة والأحاديث المتواترة ترد ذلك وتدفعه «وعلى ربهم يتوكلون» لا على غيره، والتوكل على الله: تفويض الأمر إليه في جميع الأمور والموصول في قوله: «الذين يقيمون الصلاة» في محل رفع على أنه وصف للموصول الذي قبله، أو بدل منه، أو بيان له، أو في محل نصب على المدح، وخص إقامة الصلاة والصدقة لكونهما أصل الخير وإساسه، و«من» في «مما» للتبعض والإشارة بقوله: «أولئك» إلى المتصفين بالأوصاف المتقدمة، وهو مبتدأ وخبره «هم المؤمنون» أي: أن هؤلاء هم الكاملون الإيمان البالغون فيه إلى أعلى درجاته، وأقصى غاياته و «حقاً» مصدر مؤكد لمضمون جملة هم المؤمنون: أي حق ذلك حقاً أو صفة مصدر محذوف: أي هم المؤمنون إيماناً حقاً، ثم ذكر ما أعد لمن كان جامعاً بين هذه الأوصاف من الكرامة فقال «لهم درجات» أي: منازل خير وكرامة، وشرف في الجنة كائنة عند ربهم، وفي كونها عنده سبحانه زيادة تشريف لهم وتكريم، وتعظيم وتقخير؛ وجملة «لهم درجات

﴿وَإِذْ يَبْدَأُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنهَا لَكُمْ وَوَدُّرَتْ أَنْ عَرَّ ذَاتِ
الْكَرْبَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَرِيدُ اللَّهِ أَنْ يُحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ
الْكَافِرِينَ﴾ (٧) ﴿يُحَقِّقُ الْحَقَّ وَيَبْطِلُ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ (٨)

قوله: ﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق﴾ قال الزجاج: الكاف في موضع نصب: أي الأنفال ثابتة لك كما أخرجك ربك من بيتك بالحق: أي مثل إخراج ربك، والمعنى: امض لأمرك في الغنائم ونفل من شئت، وإن كرهوا، لأن بعض الصحابة قال لرسول الله ﷺ حين جعل لكل من أتى بأسير شيئاً قال: بقي أكثر الناس بغير شيء، فموضع الكاف نصب كما نكرنا، وبه قال الفراء وقال أبو عبيدة: هو قسم: أي والذي أخرجك، فالكاف بمعنى الولو، وما بمعنى الذي. وقال الأخفش سعيد بن مسعدة: المعنى أولئك هم المؤمنون حقاً كما أخرجك ربك. وقال عكرمة المعنى: أطيعوا الله ورسوله كما أخرجك ربك؛ وقيل كما أخرجك متعلق بقوله: ﴿لهم درجات﴾ أي: هذا الوعد للمؤمنين حق في الآخرة ﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق﴾ الواجب له، فأنجز وعده وظفرك بعدوك وأوفى لك، ذكره النحاس واختاره؛ وقيل الكاف في «كما» كاف التشبيه على سبيل المجازاة كقول القائل لعبده: كما وجهتك إلى أعدائي فاستضعفوك، وسألت مديداً فأمددتك وقويتك وأزحت علتك، فخذهم الآن فعاقبهم؛ وقيل: إن الكاف في محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره: هذه الحال كحال إخراجك يعني أن حالهم في كراهة ما رأيت من تنفيل الغزاة مثل حالهم في كراهة خروجك للحرب، ذكره صاحب الكشاف، وبالحق متعلق بمحذوف، والتقدير: إخراجاً ملتبساً بالحق الذي لا شبهة فيه، وجملة ﴿وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون﴾ في محل نصب على الحال: أي كما أخرجك في حال كراهتهم لذلك، لأنه لما وعدهم الله إحدى الطائفتين، إما العير أو النفير، رغبوا في العير لما فيها من الغنيمة والسلامة من القتال كما سيأتي بيانه، وجملة ﴿يجادلونك في الحق بعد ما تبين لهم﴾ إما في محل نصب على أنها حال بعد حال، أو مستأنفة جواب سؤال مقدر، ومجادلتهم لما ندبهم إلى إحدى الطائفتين، وفات العير وأمرهم بقتال النفير، ولم يكن معهم كثير أمة، لذلك شق عليهم وقالوا: لو أخبرتنا بالقتال لأخذنا العدة وإكملنا الأوبة، ومعنى ﴿في الحق﴾ أي: في القتال بعد ما تبين لهم أنك لا تأمر بالشيء إلا بإذن الله، أو بعد ما تبين لهم أن الله وعدهم بالظفر بإحدى الطائفتين، وأن العير إذا فاتت ظفروا بالنفير، و«بعد» ظرف ليجادلونك وما مصدرية أي: يجادلونك بعد ما تبين الحق لهم. قوله: ﴿عائنا يساقون إلى الموت وهم ينظرون﴾ الكاف في محل نصب على الحال من الضمير في ﴿لكارهون﴾ أي: حال كونهم في شدة فزعهم من القتال يشبهون حال من يساق ليقتل، وهو مشاهد لأسباب قتله، ناظر إليها لا يشك فيها. قوله: ﴿وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم﴾ الظرف

منصوب بفعل مقدر: أي وانكروا وقت وعد الله إياكم إحدى الطائفتين، وأمرهم بتذكير الوقت مع أن المقصود نكر ما فيه من الحوادث لقصد المبالغة، والطائفتان: هما العير والنفير، وإحدى هو: ثاني مفعولي يعد، و﴿فإنها لكم﴾ بدل منه بدل اشتغال، ومعناه: أنها مسخرة لكم، وأنكم تغلبونها وتغنمون منها وتصنعون بها ما شئتم من قتل وأسر وغنيمة، لا يطيقون لكم دفعاً، ولا يملكون لأنفسهم منكم ضرراً ولا نفعاً، وفي هذه الجملة تنكير لهم بنعمة من النعم التي أنعم الله بها عليهم. قوله: ﴿وتوتون﴾ معطوف على ﴿يعدكم﴾ من جملة الحوادث التي أمروا بذكر وقتها ﴿أن غير ذات الشوكة﴾ من الطائفتين، وهي طائفة العير ﴿تكون لكم﴾ دون ذات الشوكة، وهي طائفة النفير. قال أبو عبيدة: أي غير ذات الحد. والشوكة: السلاح، والشوكة: النبت الذي له حد. ومنه رجل شائك السلاح: أي حديد السلاح، ثم يقلب فيقال شاكى السلاح؛ فالشوكة مستعارة من واحدة الشوك، والمعنى: وتوتون أن تظفروا بالطائفة التي ليس معها سلاح، وهي طائفة النفير، لأنها غنيمة صافية عن كدر القتال، إذ لم يكن معها من يقوم بالنفع عنها. قوله: ﴿ويريد الله أن يحق الحق بكلماته﴾ معطوف على ﴿توتون﴾ وهو من جملة ما أمروا بذكر وقته: أي ويريد الله غير ما تريدون، وهو أن يحق الحق بإظهاره لما قضاه من ظفرك بذات الشوكة، وقتلكم لصناديدهم، وأسر كثير منهم، واغتنام ما غنمتم من أموالهم التي أجليوا بها عليكم، وراموا دفعكم بها، والمراد بالكلمات: الآيات التي أنزلها في محاربة ذات الشوكة، ووعيدكم منه بالظفر بها ﴿ويقطع دابر الكافرين﴾ الدابر: الآخر، وقطعه عبارة عن الاستئصال. والمعنى: ويستأصلهم جميعاً. قوله: ﴿ليحق الحق ويبطل الباطل﴾ هذه الجملة علة لما يريده الله: أي أراد ذلك، أو يريد ذلك ليظهر الحق، ويرفعه ﴿ويبطل الباطل﴾ ويضعه، أو اللام متعلقة بمحذوف: أي فعل ذلك ليحق الحق، وقيل متعلق بيقطع، وليس في هذه الجملة تكرير لما قبلها، لأن الأولى لبيان التفاوت فيما بين الإrantين، وهذه لبيان الحكمة الداعية إلى ذلك، والعلة المقتضية له، والمصلحة المترتبة عليه. وإحقاق الحق إظهاره، وإبطال الباطل إعدامه: ﴿بيل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق﴾ [الأنبياء: 18] ومفعول ﴿ولو كره المجرمون﴾ محذوف: أي ولو كرهوا أن يحق الحق، ويبطل الباطل، والمجرمون هم المشركون من قريش، أو جميع طوائف الكفار.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل، عن أبي أيوب الأنصاري قال: قال لنا رسول الله ﷺ ونحن بالمدينة، وبلغه أن عير أبي سفيان قد أقبلت فقال: «ما ترون فيها لعل الله يغمناها ويسلمنا، فخرجنا فلما سرنا يوماً أو يومين أمرنا رسول الله ﷺ أن نتعاده، ففعلنا فإذا نحن ثلاثمائة وثلاثة عشر، فأخبرنا النبي ﷺ بعثتنا، فسر بذلك وحمد الله وقال: عدة

المؤمنين لكارهون قال: لطلب المشركين **﴿يجادلونك في الحق بعد ما تبين﴾** أنك لا تصنع إلا ما أمرك الله به. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الضحاك، في قوله: **﴿وتوبون أن غير ذات الشوكة تكون لكم﴾** قال: هي غير أبي سفيان، وذو أصحاب محمد ﷺ أن العير كانت لهم، وأن القتال صرف عنهم. وأخرج عبد بن حميد عن قتادة **﴿ويقطع دابر الكافرين﴾** أي: شأقتهم. ووقعة بدر قد اشتملت عليها كتب الحديث والسير والتاريخ مستوفاة فلا تطيل بذكرها.

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَيْ مُدِّكُمْ يَا أَيُّهَا الْمَلَائِكَةُ مُرْسِيًا ۖ وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بُشْرًا وَكَفَمِينَ ۖ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ ۚ وَمَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ كُفْرُهُمْ ۚ هَٰذَا يَوْمُ يَكْفُرُ الْأَوَّلُونَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفِيرٌ خَبِيرٌ ﴿١٧﴾

قوله: **﴿إذ تستغيثون﴾** الظرف متعلق بمحذوف: أي وانكروا وقت استغاثتكم؛ وقيل بدل من **﴿وإن يعذبكم الله﴾** [الأنفال: 7] معمول لعامله؛ وقيل: متعلق بقوله: **﴿ليحق الحق﴾** [الأنفال: 8] والاستغاثة: طلب الغوث، يقال: استغاثني فلان فأغثته والاسم الغياث؛ والمعنى: أن المسلمين لما علموا أنه لا بد من قتال الطائفة ذات الشوكة، وهم النفيير كما أمرهم الله بذلك، وأرادهم منهم، ورأوا كثرة عدد النفيير وقلة عددهم، استغاثوا بالله سبحانه، وقد ثبت في صحيح مسلم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «أن عدد المشركين يوم بدر ألف، وعدد المسلمين ثلثمائة وسبعة عشر رجلاً، وإن النبي ﷺ لما رأى ذلك استقبل القبلة، ثم مد يديه فجعل يهتف بربه: اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آتني ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض» الحديث **﴿فاستجاب لكم﴾** عطف على تستغيثون داخل معه في التذكير، وهو وإن كان مستقبلاً فهو بمعنى الماضي، ولهذا عطف عليه استجاب، قوله: **﴿إني ممدكم بألف من الملائكة﴾** أي: باني ممدكم، فحذف حرف الجر وأوصل الفعل إلى المفعول، وقرئ بكسر الهمزة على إرادة القول. أو على أن في استجاب معنى القول. قوله: **﴿مردفين﴾** قرأ نافع بفتح الدال اسم مفعول، وقرأ الباقون بكسرها اسم فاعل وانتصابه على الحال، والمعنى على القراءة الأولى: أنه جعل بعضهم تابعاً لبعض، وعلى القراءة الثانية: أنهم جعلوا بعضهم تابعاً لبعض؛ وقيل: إن مردفين على القراءتين نعت لألف وقيل: إنه على القراءة الأولى، حال من الضمير المنصوب في ممدكم: أي ممدكم في حال إردافكم بألف من الملائكة؛ وقد قيل: إن ردف وأرشف بمعنى واحد، وانكره أبو عبيدة قال: لقوله تعالى: **﴿تتبعضها الرافة﴾** [النازعات: 7] ولم يقل المردفة، قال سيبويه: وفي الآية قراءة ثالثة وهي «مردفين» بضم الراء وكسر الدال مشددة. وقراءة رابعة بفتح الراء وتشديد الدال. وقرأ جعفر بن محمد، وعاصم الجحدري «بألف» جمع ألف، وهو الموافق لما تقدم في آل عمران، والضمير في «وما

أصحاب طالوت، فقال: ما ترون في قتال القوم فإنهم قد أخبروا بمخرجكم، فقلنا: يا رسول الله، لا والله ما لنا طاقة بقتال القوم، إنما خرجنا للعر، ثم قال: ما ترون في قتال القوم؟ فقلنا مثل ذلك، فقال المقداد: لا تقولوا كما قال قوم موسى لموسى **﴿أذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون﴾** [المائدة: 24] فأنزل الله: **﴿كما أخرجك ربك﴾** إلى قوله: **﴿وإن يعذبكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم﴾** فلما وعدنا الله إحدى الطائفتين، إما القوم وإما العير، طابت أنفسنا، ثم إنا اجتمعنا مع القوم فصففنا، فقال رسول الله ﷺ: اللهم إني أنشدك وعذك، فقال ابن رواحة: يا رسول الله إني أريد أن أشير عليك، ورسول الله ﷺ أفضل من أن يشير عليه، إن الله أجل وأعظم من أن تنشده وعده، فقال: يا ابن رواحة لا تشد الله وعده، فإن الله لا يخلف الميعاد، فأخذ قبضة من التراب فرمى بها رسول الله ﷺ في وجوه القوم فانهزموا، فأنزل الله **﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾** [الأنفال: 17] فقتلنا وأسرنه، فقال عمر: يا رسول الله ما أرى أن يكون لك أسرى فإنما نحن داعون مؤلفون، فقلنا: يا معشر الأنصار إنما يحمل عمر على ما قال حسد لنا، فنام رسول الله ﷺ ثم استيقظ فقال: ادعوا لي عمر، فدعي له فقال: إن الله قد أنزل علي **﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى﴾** [الأنفال: 67] الآية، وفي إسناده ابن لهيعة، وفيه مقال معروف. وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف، وابن مريويه عن محمد بن عمرو بن علقمة بن وقاص الليثي، عن أبيه، عن جده قال: خرج رسول الله ﷺ إلى بدر حتى إذا كان بالروحاء خطب الناس فقال: كيف ترون؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله بلغنا أنهم كذا وكذا، ثم خطب الناس فقال: كيف ترون؟ فقال عمر مثل قول أبي بكر، ثم خطب الناس فقال: كيف ترون؟ فقال سعد بن معاذ: يا رسول الله إيانا تريد، فولاذي أكرمك وأنزل عليك الكتاب ما سلكتها قط ولا لي بها علم، ولئن سرت حتى تأتي برك الغماد من ذي يمن، لنسيرن معك ولا نكون كالذين قالوا لموسى: **﴿أذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون﴾** [المائدة: 24] ولكن أذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا معكم متبعون، ولعلك أن تكون خرجت لأمر وأحدث الله إليك غيره، فانظر الذي أحدث الله إليك فامض له، فصل حبال من شئت، واقطع حبال من شئت، وعاد من شئت وسالم من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، فنزل القرآن على قول سعد **﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق﴾** إلى قوله: **﴿ويقطع دابر الكافرين﴾** وإنما كان رسول الله ﷺ يريد الغنيمة مع أبي سفيان، فأحدث الله إليه القتال. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: **﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق﴾** قال: كذلك يجادلونك في خروج القتال. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي، في قوله: **﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق﴾** قال: خروج النبي ﷺ إلى بدر **﴿وإن فريقاً من**

قبله، أو بدل ثان من إذ يعنكم، أو منصوب بالنصر المذكور قبله؛ وقيل: غير ذلك مما لا وجه له، و«يغشاكم» هي: قراءة نافع وأهل المدينة على أن الفاعل هو الله سبحانه، وهذه القراءة هي المطابقة لما قبلها، أعني قوله: «وما للنصر إلا من عند الله» ولما بعدها أعني «ويُنزل عليكم» فيتشاكل الكلام ويتناسب. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو «يغشاكم» على أن الفاعل النعاس، وقرأ الباقون «يغشاكم» بفتح الغين وتشديد الشين، وهي كقراءة نافع وأهل المدينة في إسناد الفعل إلى الله، ونصب النعاس قال مكي: والاختيار ضم الياء والتشديد، ونصب النعاس لأن بعده «أمنة منه» والهاء في منه لله، فهو الذي يغشاهم النعاس، ولأن الأكثر عليه، وعلى القراءة الأولى والثالثة يكون انتصاب أمنة على أنها مفعول له. ولا يحتاج في ذلك إلى تأويل وتكلف، لأن فاعل الفعل المعلل والعلّة واحد بخلاف انتصابها على العلّة، باعتبار القراءة الثانية، فإنه يحتاج إلى تكلف، وأما علي جعل الأمنة مصدرًا فلا إشكال، يقال أمن أمنة، وأمنًا وأمانًا، وهذه الآية تتضمن نكر نعمة أنعم الله بها عليهم، وهي أنهم مع خوفهم من لقاء العدو والمهابة لجانبه سكن الله قلوبهم وأمنها حتى ناموا آمنين غير خائفين، وكان هذا النوم في الليلة التي كان القتال في غدها، قيل: وفي امتنان الله عليهم بالنوم في هذه الليلة وجهان: أحدهما أنه قوامهم بالاستراحة على القتال من الغد، الثاني: أنه أمنهم بزوال الرعب من قلوبهم؛ وقيل: إن النوم غشاهم في حال التقاء الصفين، وقد مضى في يوم أحد نحو من هذا في سورة آل عمران. قوله: «ويُنزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به» هذا المطر كان بعد النعاس، وقيل: قبل النعاس. وحكى الزجاج أن الكفار يوم بدر سبقوا المؤمنين إلى ماء بدر، فنزلوا عليه وبقي المؤمنون لا ماء لهم، فأنزل الله المطر ليلة بدر. والذي في سيرة ابن إسحاق وغيره، أن المؤمنين هم الذين سبقوا إلى ماء بدر، وأنه منع قريشاً من السبق إلى الماء مطر عظيم، ولم يصب المسلمين منه إلا ما شدّ لهم دهمس الوادي، وأعانهم على المسير، ومعنى «ليطهركم به»: ليرفع عنكم الأحداث «ويذهب عنكم رجز الشيطان» أي: وسوسته لكم بما كان قد سبق إلى قلوبهم من الخواطر التي هي منه من الخوف والفشل حتى كانت حالهم حال من يساق إلى الموت «وليربط على قلوبكم» فيجعلها صابرة قوية ثابتة في مواطن الحرب، والضمير في «به» من قوله: «ويثبت به الأقدام» راجع إلى الماء الذي أنزله الله: أي يثبت بهذا الماء الذي أنزله عليكم عند الحاجة إليه أقدامكم في مواطن القتال؛ وقيل الضمير راجع إلى الربط الملل على بالفعل. قوله: «إذ يوحى ربك إلى الملائكة أني معكم» الظرف منصوب بفعل محذوف خاص بالنبي ﷺ؛ لأنه لا يقف على ذلك سواه: أي وانكر يا محمد وقت إحياء ربك إلى الملائكة؛ وقيل: هو بدل من «إذ يعنكم» كما تقدّم، ولكنه يلبي ذلك

جعله الله» راجع إلى الإمداد الملل عليه بقوله: «إني معكم» «إلا بشرى» أي إلا بشاره لكم بنصره، وهو استثناء مفرغ: أي ما جعل إمدانكم لشيء من الأشياء إلا للبشرى لكم بالنصر «ولتطمئنن به» أي: بالإمداد قلوبكم، وفي هذا إشعار بأن الملائكة لم يقاتلوا، بل أمد الله المسلمين بهم للبشرى لهم، وتطمئن قلوبهم وتثبتها، واللام في لتطمئن متعلقة بفعل محذوف يقدر متأخراً: أي ولتطمئن قلوبكم فعل ذلك لا لشيء آخر «وما للنصر إلا من عند الله» لا من عند غيره، ليس للملائكة في ذلك أثر، فهو الناصر على الحقيقة، وليسوا إلا سبباً من أسباب النصر التي سببها الله لكم، وأمنكم بها «إن الله عزيز» لا يغالب «حكيم» في كل أفعاله.

وقد أخرج ابن جرير، عن علي رضي الله عنه، قال: نزل جبريل في ألف من الملائكة عن ميمنة النبي ﷺ، وفيها أبو بكر، ونزل ميكائيل في ألف من الملائكة عن ميسرة النبي ﷺ وأنا في الميسرة. وأخرج سنيد، وابن جرير، وأبو الشيخ، عن مجاهد، قال: ما أمد النبي ﷺ بكثر من هذه الآلف التي نكر الله في الأنفال، وما نكر الثلاثة الآلاف، والخمسة الآلاف إلا بشرى. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: «مرفين» قال: متتابعين. وأخرج ابن جرير، عنه، في قوله: «مرفين» يقول: الممد. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عنه، أيضاً في الآية قال: وراء كل ملك ملك. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الشعبي، قال: كان ألف مرفين، وثلاثة آلاف منزلين، فكانوا أربعة آلاف، وهم مدد المسلمين في ثغورهم. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: «مرفين» قال: مجتئين. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة قال: متتابعين، أمدهم الله بألف ثم بثلاثة، ثم أكملهم خمسة آلاف «وما جعله الله إلا بشرى» لكم «ولتطمئنن به قلوبكم» قال: يعني نزول الملائكة. قال: ونكر لنا أن عمر قال: أما يوم بدر فلا نشك أن الملائكة كانوا معنا، وأما بعد ذلك فإله أعلم. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن زيد «مرفين» قال: بعضهم على أثر بعض.

إِذْ يُنْشِئُكُمْ النَّفْسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَلِيُرْثَبُوا عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْ مَكِّمُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا سَائِقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا رِئَسَهُمْ كُلًّا بِنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاوُوا اللَّهَ رُسُلَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ رُسُلَهُ فَكَرَّ اللَّهُ فَدِيدُ الْعُقَابِ ﴿١٣﴾ ذَلِكَ فَدُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾

قوله: «إذ يغشاكم» الظرف منصوب بفعل مقدر كالذي

بزيداً فأضربه غير صحيح؛ لأنه لم يقدّر فيه عليك، بل هو من باب الاشتغال، وجملة ﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ معطوفة على ما قبلها فتكون الإشارة على هذا إلى العقاب العاجل الذي أصيبوا به ويكون ﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ إشارة إلى العقاب الأجل.

وقد أخرج أبو يعلى، والبيهقي في الدلائل، عن عليّ قال: ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم، إلا رسول الله ﷺ يصلي تحت شجرة حتى أصبح. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن شهاب في الآية قال: بلغنا أن هذه الآية أنزلت في المؤمنين يوم بدر، فيما أغشاهم الله من النعاس أمة منه. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، في قوله: ﴿أَمِنَ مِنْهُ﴾ قال: أمانة من الله. وأخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة، في قوله: ﴿أَمِنَ مِنْهُ﴾ قال: رحمة منه، أمانة من العدو. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه قال: النعاس في الرأس، والنوم في القلب. وأخرج عبد بن حميد، عنه، أيضاً قال: كان النعاس أمانة من الله، وكان النعاس نعاسين: نعاس يوم بدر، ونعاس يوم أحد. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن سعيد بن المسيب، في قوله: ﴿وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾ قال: طش كان يوم بدر. وأخرج هؤلاء عن مجاهد في الآية قال: المطر أنزله الله عليهم قبل النعاس فاطفاً بالمطر الغيار، والتبّتت به الأرض، وطابت به أنفسهم، وثبتت به أقدامهم. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن إسحاق، عن عروة بن الزبير، قال: بعث الله السماء وكان الوادي دهساً، وأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه ما لبد الأرض ولم يمنهم المسير، وأصاب قريباً ما لم يقدروا على أن يرتحلوا معه. وأخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ، عن ابن عباس قال: إن المشركين غلبوا المسلمين في أول أمرهم على الماء، فضحى المسلمون وصلوا مجنبيين محدثين، فالتقى الشيطان في قلوبهم الحزن، وقال أتزعمون أن فيكم نبياً وأنكم أولياء الله، وتصلون مجنبيين محدثين؟ فأنزل الله من السماء ماء فسال عليهم الوادي ماء، فشرب المسلمون وتطهروا، وثبتت أقدامهم، وذهبت وسوسته. وقد قَدَمْنَا أن المشهور في كتب السير المعتمدة أن المشركين لم يغلبوا المؤمنين على الماء بل المؤمنون هم الذين غلبوا عليه من الابتداء، وهذا المروي عن ابن عباس في إسناده العوفي، وهو ضعيف جداً. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿رَجَزَ الشَّيْطَانُ﴾ قال: وسوسته. وأخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة، في قوله: ﴿وَلِيُرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ قال: بالصبر ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ قال: كان بطن الوادي دهساً، فلما مطروا اشتدت الرملة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي في قوله: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ قال: حتى تشتد على الرمل، وهو كهيفة الأرض. وأخرج ابن

أن هذا لا يقف عليه المسلمون، فلا يكون من جملة النعم التي عدّها الله عليهم؛ وقيل: العامل فيه يثبت فيكون المعنى: يثبت الأقدام وقت الرمي، وليس لهذا التقييد معنى؛ وقيل العامل فيه: ﴿لِيُرْبِطَ﴾ ولا وجه لتقييد الربط على القلوب بوقت الإيحاء، ومعنى الآية: أني معكم بالنصر والمعونة، فعلى قراءة الفتح للهمزة هو مفعول ﴿يُوحِي﴾ وعلى قراءة الكسر يكون بتقدير القول، ومعنى ﴿فَثَبَّتُوا النِّينَ أَمْنُوا﴾ بشروهم بالنصر، أو ثبتوهم على القتال بالحضور معهم، وتكثير سوادهم، وهذا أمر منه سبحانه للملائكة الذين أوحى إليهم بأنه معهم، والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها. قوله: ﴿سَالَفِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ﴾ قد تقدّم بيان معنى إلقاء الرعب في آل عمران، قيل: هذه الجملة تفسير لقوله: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾، قوله: ﴿فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ قيل: المراد الأعناق أنفسها و﴿فَوْقَ﴾ زائدة: قاله الأخفش وغيره. وقال محمد بن يزيد: هذا خطأ، لأن فوق يفيد معنى فلا يجوز زيادتها، ولكن المعنى أنه أبيع لهم ضرب الوجوه وما قرب منها؛ وقيل المراد بما فوق الأعناق: الرؤوس؛ وقيل المراد بفوق الأعناق: أعاليها لأنها المفصلات الذي يكون الضرب فيها أسرع إلى القطع. قيل: وهذا أمر للملائكة وقيل للمؤمنين، وعلى الأوّل قيل هو تفسير لقوله: ﴿فَثَبَّتُوا النِّينَ أَمْنُوا﴾. قوله: ﴿وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ قال الزجاج: واحد البنان بنانة، وهي هنا الأصابع وغيرها من الأعضاء، والبنان مشتق من قولهم أبى الرجل بالمكان إذا أقام به، لأنه يعمل بها ما يكون للإقامة والحياة؛ وقيل المراد بالبنان هنا: أطراف الأصابع من اليدين والرجلين وهو عبارة عن الثبات في الحرب، فإذا ضربت البنان تعطل من المضروب القتال بخلاف سائر الأعضاء. قال عنتره:

وكان في الهيجاء يحمي نمارها ويضرب عند الكرب كل بنان
وقال عنتره أيضاً:

وإن الموت طوع يدي إذا ما وطئت بنانها بالهندواني
قال ابن فارس: البنان الأصابع، ويقال الأطراف، والإشارة بقوله: ﴿نَلِكُ﴾ إلى ما وقع عليهم من القتل ودخل في قلوبهم من الرعب، وهو مبتدأ، و﴿بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ خبره: أي ذلك بسبب مشاقتهم، والشقاق أصله أن يصير كل واحد من الخصمين في شق، وقد تقدّم تحقيق ذلك ﴿وَمَنْ يَشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ له يعاقبه بسبب، ما وقع منه من الشقاق. قوله: ﴿نَلِكُمْ فَنُفِقُواهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ الإشارة إلى ما تقدّم من العقاب، أو الخطاب هنا للكافرين كما أن الخطاب في قوله: ﴿نَلِكُمْ﴾ للنبي ﷺ، أو لكل من يصلح للخطاب. قال الزجاج: نلكم رفع بإضمار الأمر أو القصة: أي الأمر أو القصة نلكم فنوفقوه. قال: ويجوز أن يضمّر وأعلموا. قال في الكشف: ويجوز أن يكون نصياً على: عليكم نلكم فنوفقوه، كقولك زيدا فأضربه. قال أبو حيان: لا يجوز تقدير عليكم لأنه اسم فعل، وأسماء الأفعال لا تضمّر، وتشبيهه

جدير، وأبو الشيخ، وابن مريويه، عن علي قال: «كان رسول الله ﷺ يصلي تلك الليلة ويقول: اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد، وأصابهم تلك الليلة مطر شديد، فنلك قوله: **«ويثبت به الأقدام»** وأخرج ابن أبي شيبة، عن مجاهد، قال: لم تقاتل الملائكة إلا يوم بدر. وأخرج أبو الشيخ، وابن مريويه، عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف، قال: قال لي أبي: يا بني لقد رأيتنا يوم بدر وإن أحدنا ليشير بسيفه إلى رأس المشرك، فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه السيف. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الربيع بن أنس قال: كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلهم بضرب على الأعناق، وعلى البنان مثل سمة النار قد احترق به. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن عكرمة، في قوله: **«فاضربوا فوق الأعناق»** يقول: الرؤوس. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن عطية **«فاضربوا فوق الأعناق»** قال: اضربوا الأعناق. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الضحاك **«فاضربوا فوق الأعناق»** يقول: اضربوا الرقاب. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: **«واضربوا منهم كل بنان»** قال: يعني بالبنان الأطراف. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن عطية **«واضربوا منهم كل بنان»** قال: كل مفصل.

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُتِلْتُمْ كَفَرُوا زَعَمًا فَلَا تُؤْلَوْهُمُ الْآدَنَكَارَ ۖ وَنَبِيْلَهُمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرُهُمْ إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِّقَالِ أَوْ مَتَحَرِّفًا إِنْ يَنْفَرُ فَقَدْ كَذَّبَ بِمَا يَنْصُرُ بِهِ رَبُّهُ وَمَا وَنُهُ جَهَنَّمَ وَلَيْسَ الْكَيْفُ ۖ فَلَمْ تَنْفُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَاتَلَهُمْ وَمَا زَمَيْتُ إِذْ رَمَيْتُ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلَيُبَلِّغَنَّ الْفُؤُؤِيَّتِ مِنْهُ بَلَاءَهُ حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۚ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُؤِتِي كَيْدِ الْكَافِرِينَ ۝

الزحف: للدنو قليلاً قليلاً، وأصله الاندفاع على الإلية، ثم سمي كل ماش في الحرب إلى آخر زاحفاً، والزحاف: التداني والتقارب. تقول زحف إلى العدو زحفاً، وأزحف القوم: أي مشى بعضهم إلى بعض، وانتصاب زحفاً، إما على أنه مصدر لفعل محذوف: أي تزحفون زحفاً، أو على أنه حال من المؤمنين: أي حال كونكم زاحفين إلى الكفار، أو حال من الذين كفروا: أي حال كون الكفار زاحفين إليكم، أو حال من الفريقين أي متزاحفين **«فلا تولوهم الأبنار»** نهى الله المؤمنين أن ينهزموا عن الكفار إذا لقوهم، وقد نبَّ بعضهم إلى بعض للقتال، فظاهر هذه الآية العموم لكل المؤمنين في كل زمن، وعلى كل حال، إلا حالة التحرف والتحيز. وقد روي عن عمر، وابن عمر، وابن عباس، وأبي هريرة، وأبي سعيد، وأبي نضرة، وعكرمة، ونافع، والحسن، وقتادة، وزيد بن أبي حبيب، والضحاك: أن تحريم الفرار من الزحف في هذه الآية مختص بيوم بدر، وإن أهل بدر لم يكن لهم أن يتحازوا، ولو انحازوا لانحازوا إلى المشركين، إذ لم يكن في الأرض يومئذ مسلمون غيرهم، ولا لهم فئة إلا النبي ﷺ،

فأما بعد ذلك فإن بعضهم فئة لبعض، وبه قال أبو حنيفة، قالوا: ويؤيده قوله: **«ومن يولهم يومئذ دبره»** فإنه إشارة إلى يوم بدر، وقيل إن هذه الآية منسوخة بآية الضعف. وذهب جمهور العلماء إلى أن هذه الآية محكمة عامة غير خاصة، وأن الفرار من الزحف محرّم، ويؤيد هذا أن هذه الآية نزلت بعد انقضاء الحرب في يوم بدر. وأجيب عن قول الأولين بأن الإشارة في **«يومئذ»** إلى يوم بدر بأن الإشارة إلى يوم الزحف كما يفيد السياق، ولا منافاة بين هذه الآية وآية الضعف، بل هذه الآية مقيدة بها، فيكون الفرار من الزحف محرماً بشرط ما بينه الله في آية الضعف، ولا وجه لما نكروه من أنه لم يكن في الأرض يوم بدر مسلمون غير من حضرها، فقد كان في المدينة إذ ذاك خلق كثير لم يأمرهم النبي ﷺ بالخروج، لأنه ﷺ ومن خرج معه لم يكونوا يرون في الابتداء أنه سيكون قتال. ويؤيد هذا ورود الأحاديث الصحيحة المصروفة بأن الفرار من الزحف من جملة الكبائر كما في حديث: «اجتنبوا السبع الموبقات، وفيه: والتولي يوم الزحف» ونحوه من الأحاديث، وهذا البحث تطول زيوله وتتشعب طرقه، وهو مبين في مواطنه. قال ابن عطية: والأبنار جمع دبر، والعبارة بالدبر في هذه الآية متمكنة في الفصاحة لما في ذلك من الشناعة على الفار والذم له. قوله: **«إلا متحرفاً لقتال»**: التحرف: الزوال عن جهة الاستواء. والمراد به هنا التحرف من جانب إلى جانب في المعركة طلباً لمكائد الحرب، وخداعاً للعدو، وكمن يومه أنه منهزم ليتبعه العدو، فيكرّ عليه ويتمكن منه، ونحو ذلك من مكائد الحرب، فإن الحرب خدعة. قوله: **«أو متحيزاً إلى فئة»** أي: إلى جماعة من المسلمين، غير الجماعة المقابلة للعدو وانتصاب متحرفاً ومتحيزاً على الاستثناء من المولين: أي ومن يولهم دبره إلا رجلاً منهم متحرفاً أو متحيزاً، ويجوز انتصابهما على الحال، ويكون حرف الاستثناء لغواً لا عمل له، وجملة **«فقد باء بغضب من الله»** جزاء للشرط. والمعنى: من ينهزم ويفرّ من الزحف، فقد رجع بغضب كائن من الله إلا المتحرف والمتحيز **«ومواواه جهنم»** أي: المكان الذي يآوي إليه هو النار، فقراره أوقعه إلى ما هو أشدّ بلاء مما فرّ منه وأعظم عقوبة. والمأوى: ما يآوي إليه الإنسان **«وبئس المصير»** ما صار إليه من عذاب النار. وقد اشتملت هذه الآية على هذا الوعيد الشديد لمن يفرّ عن الزحف، وفي ذلك دلالة على أنه من الكبائر الموبقة. قوله: **«فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم»** الفاء جواب شرط مقتر: أي إذا عرفتم ما قصه الله عليكم من إمداده لكم بالملائكة، وإيقاع الرعب في قلوبهم، فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم بما يسره لكم من الأسباب الموجبة للنصر. قوله: **«وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى»** اختلف المفسرون في هذا الرمي على أقوال: فروي عن مالك أن المراد به: ما كان منه ﷺ في يوم حنين، فإنه رمى المشركين بقبضة من حصباء الوادي، فأصاب كل واحد منهم؛ وقيل المراد به:

الزحف: للدنو قليلاً قليلاً، وأصله الاندفاع على الإلية، ثم سمي كل ماش في الحرب إلى آخر زاحفاً، والزحاف: التداني والتقارب. تقول زحف إلى العدو زحفاً، وأزحف القوم: أي مشى بعضهم إلى بعض، وانتصاب زحفاً، إما على أنه مصدر لفعل محذوف: أي تزحفون زحفاً، أو على أنه حال من المؤمنين: أي حال كونكم زاحفين إلى الكفار، أو حال من الذين كفروا: أي حال كون الكفار زاحفين إليكم، أو حال من الفريقين أي متزاحفين **«فلا تولوهم الأبنار»** نهى الله المؤمنين أن ينهزموا عن الكفار إذا لقوهم، وقد نبَّ بعضهم إلى بعض للقتال، فظاهر هذه الآية العموم لكل المؤمنين في كل زمن، وعلى كل حال، إلا حالة التحرف والتحيز. وقد روي عن عمر، وابن عمر، وابن عباس، وأبي هريرة، وأبي سعيد، وأبي نضرة، وعكرمة، ونافع، والحسن، وقتادة، وزيد بن أبي حبيب، والضحاك: أن تحريم الفرار من الزحف في هذه الآية مختص بيوم بدر، وإن أهل بدر لم يكن لهم أن يتحازوا، ولو انحازوا لانحازوا إلى المشركين، إذ لم يكن في الأرض يومئذ مسلمون غيرهم، ولا لهم فئة إلا النبي ﷺ،

الزحف: للدنو قليلاً قليلاً، وأصله الاندفاع على الإلية، ثم سمي كل ماش في الحرب إلى آخر زاحفاً، والزحاف: التداني والتقارب. تقول زحف إلى العدو زحفاً، وأزحف القوم: أي مشى بعضهم إلى بعض، وانتصاب زحفاً، إما على أنه مصدر لفعل محذوف: أي تزحفون زحفاً، أو على أنه حال من المؤمنين: أي حال كونكم زاحفين إلى الكفار، أو حال من الذين كفروا: أي حال كون الكفار زاحفين إليكم، أو حال من الفريقين أي متزاحفين **«فلا تولوهم الأبنار»** نهى الله المؤمنين أن ينهزموا عن الكفار إذا لقوهم، وقد نبَّ بعضهم إلى بعض للقتال، فظاهر هذه الآية العموم لكل المؤمنين في كل زمن، وعلى كل حال، إلا حالة التحرف والتحيز. وقد روي عن عمر، وابن عمر، وابن عباس، وأبي هريرة، وأبي سعيد، وأبي نضرة، وعكرمة، ونافع، والحسن، وقتادة، وزيد بن أبي حبيب، والضحاك: أن تحريم الفرار من الزحف في هذه الآية مختص بيوم بدر، وإن أهل بدر لم يكن لهم أن يتحازوا، ولو انحازوا لانحازوا إلى المشركين، إذ لم يكن في الأرض يومئذ مسلمون غيرهم، ولا لهم فئة إلا النبي ﷺ،

الرمية التي رمى رسول الله ﷺ أبي بن خلف بالحربة في عنقه، فانهزم ومات منها؛ وقيل المراد به: السهم الذي رمى به رسول الله ﷺ في حصن خيبر، فسار في الهوى حتى أصاب ابن أبي الحقيق، وهو على فراشه، وهذه الأقوال ضعيفة، فإن الآية نزلت عقب وقعة بدر. وأيضاً المشهور في كتب السير والحديث في قتل ابن أبي الحقيق: أنه وقع على صورة غير هذه الصورة والصحيح كما قال ابن إسحاق وغيره، أن المراد بالرمي المذكور في هذه الآية هو: ما كان منه ﷺ في يوم بدر، فإنه أخذ قبضة من تراب فرمى بها في وجوه المشركين، فاصابت كل واحد منهم ونخلت في عينيه ومنخره وأنفه، قال ثعلب: المعنى «وما رميت» الفزع والرعب في قلوبهم «إذ رميت» بالحصباء فانهزموا «ولكن الله رمى» أي: أعانك وأظفرك، والعرب تقول: رمى الله لك: أي أعانك وأظفرك وصنع لك. وقد حكى مثل هذا أبو عبيدة في كتاب المجاز. وقال محمد بن يزيد المبرد: المعنى «وما رميت» بقوة «إذ رميت» ولكنك بقوة الله رميت؛ وقيل المعنى: إن تلك الرمية بالقبضة من التراب التي رميتها لم ترمها أنت على الحقيقة، لأنك لو رميتها ما بلغ أثرها إلا ما يبلغه رمي البشر، ولكنها كانت رمية الله، حيث أثرت ذلك الأثر العظيم، فثبتت الرمية لرسول الله ﷺ؛ لأن صورتها وجدت منه، ونفاها عنه، لأن أثرها الذي لا يطيقه البشر فعل الله عز وجل، فكان الله فاعل الرمية على الحقيقة، وكأنها لم توجد من رسول الله ﷺ أصلاً هكذا في الكشف. قوله: «وليبلي المؤمنين منه بلاء حسناً» البلاء ها هنا: النعمة؛ والمعنى: ولينعم على المؤمنين إنعاماً جميلاً. واللام متعلقة بمحذوف: أي وللإنعام عليهم بنعمه الجميلة فعل ذلك لا لغيره، أو الواو عاطفة لما بعدها على علة مقدرة قبلها: أي ولكن الله رمى، ليمحق الكافرين، وليبلي المؤمنين منه بلاء حسناً «وإن الله سميع عليم» لدعائهم، عليم بأحوالهم؛ والإشارة بقوله نلکم إلى البلاء الحسن، وهو في محل رفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف: أي الغرض «نلکم وأن الله موهن كيد الكافرين» أي: إن الغرض منه سبحانه بما وقع مما حكته الآيات السابقة، إبلاء المؤمنين وتوهين كيد الكافرين، وقيل المشار إليه القتل والرمي، وقد قرئ بتشديد الهاء وتخفيفها مع التثوين. وقرأ الحسن بتخفيف الهاء مع الإضافة، والكيد: المكر. وقد تقدّم بيانه.

وقد أخرج البخاري في تاريخه، والنسائي، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن نافع، أنه سأل ابن عمر قال: إنا قوم لا نثبت عند قتال عدونا، ولا ندري من الفئة أمامنا أو عسكرنا؟ فقال لي: الفئة رسول الله ﷺ فقلت: إن الله يقول: «إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأنبار» قال: إنما نزلت هذه الآية في أهل بدر لا قبلها ولا بعدها. وأخرج عبد بن حميد، وأبو داود، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والنحاس في ناسخه، وأبو الشيخ، والحاكم، وابن مردويه، عن أبي سعيد الخدري، في قوله:

«ومن يولهم يومئذ بئرة» الآية قال: إنها كانت لأهل بدر خاصة. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن جرير، وابن عمر بن الخطاب قال: لا تغرنكم هذه الآية فإنما كانت يوم بدر، وأنا فئة لكل مسلم. وأخرج أبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس، في الآية قال: نزلت في أهل بدر خاصة ما كان لهم أن يهزموا عن رسول الله ﷺ ويتركوه. وقد روي اختصاص هذه الآية بأهل بدر عن جماعة من التابعين ومن بعدهم، وقد قُدمنا الإشارة إلى ذلك. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن سعيد بن جبیر، في قوله: «إلا متحرفاً لقتال» يعني: مستطرداً يريد الكرة على المشركين «أو متحيزاً إلى فئة» يعني: أو ينجاز إلى أصحابه من غير هزيمة «فقد باء بغضب من الله» يقول: استوجبوا سخطاً من الله «وماواه جهنم وبئس المصير» فهذا يوم بدر خاصة، كان شديداً على المسلمين يومئذ، ليقطع دابر الكافرين وهو أول قتال قاتل المشركين من أهل مكة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن الضحاك قال: المتحرف: المتقدم من أصحابه أن يرى عورة من العدو فيصيها. والمتحيز: الفار إلى رسول الله ﷺ، وكذلك من فرّ اليوم إلى أميره وأصحابه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن عطاء بن أبي رباح، في قوله: «ومن يولهم يومئذ بئرة» قال: هذه الآية منسوخة بالآية التي في الأنفال [الآن خفف الله عنكم] [الأنفال: 66] الآية، وأخرج سعيد بن منصور، وابن سعد، وابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، والبخاري في الأدب المفرد، واللفظ له، وأبو داود، والترمذي وحسنه، وابن ماجه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والنحاس، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في شعب الإيمان، عن ابن عمر قال: كنا في غزاة فحاص الناس حيصة، قلنا: كيف نلقى رسول الله ﷺ وقد فررنا من الزحف، ويؤنا بالغضب، فاتينا رسول الله ﷺ قبل صلاة الفجر، فخرج فقال: من القوم؟ فقال: نحن الفرارون، فقال: لا، بل أنتم العكارون. فقبلنا يده فقال: أنا فئتكم وأنا فئة المسلمين، ثم قرأ «إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة» وقد روي في تحريم الفرار من الزحف، وأنه من الكبائر أحاديث، وورد عن جماعة من الصحابة أنه من الكبائر، كما أخرجه ابن جرير، عن ابن عباس. وأخرجه ابن أبي شيبة، عن ابن عمر. وأخرجه ابن أبي شيبة، وابن أبي حاتم، عن علي بن أبي طالب. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: «فلم تقتلوهم» قال لأصحاب محمد ﷺ حين قال: هذا قتلت وهذا قتلت «وما رميت إذ رميت» قال لمحمد ﷺ حين حصب الكفار. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة، في قوله: «وما رميت إذ رميت» قال: رماهم يوم بدر بالحصباء. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، عن حكيم بن حزام قال: لما كان يوم بدر سمعنا صوتاً من السماء إلى الأرض

خروجهم من مكة سألوا الله أن ينصر أحق الطائفتين بالنصر فتهمك الله بهم، وسمى ما حل بهم من الهلاك نصراً؛ ومعنى بقية الآية على هذا القول **﴿وَأَنْ تَفْتَهُوا﴾** عما كنتم عليه من الكفر والعداوة لرسول الله **﴿فَهُوَ﴾** أي: الانتهاء **﴿خَيْرَ لَكُمْ وَإِنْ تَعُونُوا﴾** إلى ما كنتم عليه من الكفر والعداوة **﴿نَعُدُّ﴾** بتسليط المؤمنين عليكم، ونصرهم كما سلطناهم ونصرناهم في يوم بدر **﴿وَلَنْ تَغْنِي عَنْكُمْ فُتُكُمْ﴾** أي: جماعتكم **﴿شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ﴾** أي: لا تغني عنكم في حال من الأحوال، ولو في حال كثرتها، ثم قال: **﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾** ومن كان الله معه، فهو: المنصور، ومن كان الله عليه، فهو: المخلول. قرئ بكسر إن وفتحها، فالكسر على الاستثناء، والفتح على تقدير: ولأن الله مع المؤمنين فعل ذلك. وقيل: إن الآية خطاب للمؤمنين، والمعنى إن تستنصروا الله فقد جاءكم النصر في يوم بدر، وإن تنتهوا عن مثل ما فعلتموه من أخذ الغنائم، وفداء الأسرى قبل الإذن لكم بذلك، فهو خير لكم، وإن تعوبوا إلى مثل ذلك نعد إلى توبيخكم، كما في قوله: **﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾** [الأنفال: 68] الآية، ولا يخفى أنه يابى هذا القول معنى **﴿وَلَنْ تَغْنِي عَنْكُمْ فُتُكُمْ شَيْئاً﴾** ويأباه أيضاً **﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾** وتوجيه ذلك لا يمكن إلا بتكلف وتعسف، وقيل إن الخطاب في **﴿إِنْ تَسْتَفْتَحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾** للمؤمنين، وما بعده للكافرين، ولا يخفى ما في هذا من تفكيك النظم وعود الضمائر الجارية في الكلام على نمط واحد إلى طائفتين مختلفتين.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مروي، وابن منده، والحاكم وصححه، والبيهقي في الدلائل، عن ابن شهاب، عن عبد الله بن ثعلبة بن صغير، أن أبا جهل قال حين التقى القوم: اللهم أقطعنا للرحم وأتانا بما لا نعرف، فأحنه الغداة، فكان ذلك استفتاحاً منه فنزلت **﴿إِنْ تَسْتَفْتَحُوا﴾** الآية. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن عطية، قال: قال أبو جهل يوم بدر: اللهم انصر أهدي الفتنتين، وأفضل الفتنتين، وخير الفتنتين، فنزلت الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس **﴿إِنْ تَسْتَفْتَحُوا﴾** يعني المشركين: أي إن تستنصروا فقد جاءكم المدد. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد **﴿إِنْ تَسْتَفْتَحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾** قال: كفار قريش في قولهم: ربنا افتح بيننا وبين محمد وأصحابه. ففتح بينهم يوم بدر. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن عكرمة، في قوله: **﴿إِنْ تَسْتَفْتَحُوا﴾** قال: إن تستنصروا فقد جاءكم القضاء في يوم بدر. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي، في قوله: **﴿وَأَنْ تَفْتَهُوا﴾** قال: عن قتال محمد ﷺ، **﴿وَأَنْ تَعُونُوا نَعُدُّ﴾** قال: إن تستفتحو الثانية افتح لمحمد **﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾** قال: مع محمد

كأنه صوت حصاة وقعت في طست، ورمى رسول الله ﷺ بتلك الحصاة وقال: شأته الوجوه، فانهزمتنا، فذلك قوله تعالى: **﴿مَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾** الآية. وأخرج أبو الشيخ، وابن مروي، عن جابر، قال: سمعت صوت حصيات وقعت من السماء يوم بدر، كأنهن وقعن في طست، فلما اصطلف الناس أخذهن رسول الله ﷺ فرمى بهن في وجوه المشركين، فانهزموا. فذلك قوله: **﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾**. وأخرج الطبراني، وأبو الشيخ، وابن مروي، عن ابن عباس، في قوله: **﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾** قال: قال رسول الله ﷺ لعلني قبضة من حصباء، فنالوه فرمى بها في وجوه القوم، فما بقي أحد من القوم إلا امتلات عيناه من الحصباء، فنزلت هذه الآية **﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾**، وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن المسيب، قال: لما كان يوم أحد أخذ أبي بن خلف يركض فرسه حتى لنا من رسول الله ﷺ، واعترض رجال من المسلمين لأبي بن خلف ليقتلوه، فقال لهم رسول الله ﷺ: «استأخروا، فاستأخروا فأخذ رسول الله ﷺ حربته في يده، فرمى بها أبي بن خلف، وكسر ضلعاً من أضلاعه، فرجع أبي بن خلف إلى أصحابه ثقيلًا، فاحتملوه حين ولوا قافلين، فطفقوا يقولون لا بأس، فقال أبي حين قالوا له ذلك: والله لو كانت بالناس لقتلتهم، ألم يقل إني أقتلك إن شاء الله، فانطلق به أصحابه ينعشونه حتى مات ببعض الطريق، فنفوه. قال ابن المسيب: وفي ذلك أنزل الله **﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾**. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن المسيب، والزهري نحوه، وإسناده صحيح إليهما، وقد أخرجه الحاكم في المستدرک. قال ابن كثير: وهذا القول عن هذين الإمامين غريب جداً، ولعلهما أرادا أن الآية تتناولهما بعمومها، وهكذا قال فيما قاله عبد الرحمن بن جبیر كما سيأتي. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن عبد الرحمن بن جبیر: أن رسول الله ﷺ يؤم ابن أبي الحقيق دعا بقوس فرمى بها الحصن، فأقبل السهم حتى قتل ابن أبي الحقيق في فراشه، فأنزل الله: **﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾**. وأخرج ابن إسحاق، وابن أبي حاتم، عن عروة بن الزبير، في قوله: **﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾** أي: لم يكن ذلك برميك لولا الذي جعل الله من نصرك وما ألقى في صدور عدوك حتى هزمهم **﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بِلَاءً حَسَنًا﴾** أي ليعرف المؤمنين من نعمته عليهم في إظهارهم على عدوهم مع كثرة عدوهم وقلة عددهم ليعرفوا بذلك حقه، ويشكروا بذلك نعمته.

إِنْ تَسْتَفْتَحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ حَرٌّ لَكُمْ وَإِنْ تَوَدُّوا نَعْدُ وَلَنْ تَغْنِي عَنْكُمْ فُتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾

الاستفتاح: طلب النصر، وقد اختلف في المخاطبين بالآية من هم؟ فقيل: إنها خطاب للكفار تهكما بهم، والمعنى: إن تستنصروا الله على محمد فقد جاءكم النصر، وقد كانوا عند

عند الله ﴿الآية قال: إن هذه الآية نزلت في فلان وأصحاب له. وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والبخاري، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس، في قوله: ﴿إِنْ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ﴾ قال هم نفر من قريش من بني عبد الدار. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه، في قوله: ﴿الصَّمِّ لِبِكْمِ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ قال: لا يتبعون الحق. وأخرج ابن المنذر، عن ابن جريج، قال:

نزلت هذه الآية في النضر بن الحرث وقومه، ولعله المكنى عنه بفلان فيما تقدم من قول علي رضي الله عنه. وأخرج ابن إسحاق، وابن أبي حاتم، عن عروة بن الزبير، في قوله: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيمَهُمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ أي: لأنفذ لهم قولهم الذي قالوا بالسننهم، ولكن القلوب خالفت ذلك منهم. وأخرج أبو الشيخ، عن عكرمة، في الآية قال: قالوا نحن صم عما يدعوننا إليه محمد لا نسمعه، بكم لا نجيبه فيه بتصديق، قتلوا جميعاً باحد، وكانوا أصحاب اللواء يوم أحد.

يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَهُ عَشْرُونَ ﴿١٦﴾ وَاتَّقُوا فَتَنَةَ الشَّيْطَانِ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٧﴾

الامر هنا بالاستجابة مؤكد لما سبق من الامر بالطاعة، ووجد الضمير هنا حيث قال: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ كما وحده في قوله: ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ [الأنفال: 20] وقد قمنا الكلام في وجه ذلك، والاستجابة: الطاعة. قال أبو عبيدة معنى استجيبوا: أجيبوا، وإن كان استجاب يتعدى باللام، وأجاب بنفسه كما في قوله: ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾ [الاحقاف: 31]، وقد يتعدى استجاب بنفسه كما في قول الشاعر:

وداع دعايا من يجيب إلى الندى فلم يستجبه عند ذاك مجيب
﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ اللام متعلقة بقوله: ﴿استجيبوا﴾ أي: استجيبوا لما يحييكم إذا دعاكم، ولا مانع من أن تكون متعلقة بدعا: أي إذا دعاكم إلى ما فيه حياتكم من علوم الشريعة، فإن العلم حياة، كما أن الجهل موت؛ فالحياة هنا مستعارة للعلم. قال الجمهور من المفسرين: المعنى استجيبوا للطاعة وما تضمنه القرآن من أوامر ونواهي، ففيه الحياة الأبدية والنعمة السرمدية؛ وقيل المراد بقوله: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ الجهاد، فإنه سبب الحياة في الظاهر، لأن العدو إذا لم يغز غزا، ويستدل بهذا الأمر بالاستجابة على أنه يجب على كل مسلم إذا بلغه قول الله أو قول رسوله في حكم من الأحكام الشرعية أن يبادر إلى العمل به كلئلا ما كان، ويدع ما خلفه من الرأي وأقوال الرجال. وفي هذه الآية الشريفة أعظم باعث على العمل بنصوص الألة، وترك التقيد بالمذاهب، وعدم الاعتداد بما يخالف ما في الكتاب والسنة كائناً ما كان. قوله: ﴿وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ قيل معناه: يادروا إلى الاستجابة قبل أن لا تتمكنوا منها بزوال القلوب التي تعقلون بها بالموت الذي

وأصحابه. وأخرج عبد بن حميد، عن قتادة ﴿وَأَنْ تَعْبُدُوا نَعْدَهُ﴾ يقول: نعد لكم بالأسر والقتل.

يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿١٦﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمُّ الْبِكْمِ الَّذِينَ لَا يَقُولُونَ ﴿١٨﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيَوْمَ خَبَرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿١٩﴾

أمر الله سبحانه المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله، ونهاهم عن التولي عن رسوله، فالضمير في ﴿عَنْهُ﴾ عائذ إلى الرسول، لأن طاعة رسول الله ﷺ هي من طاعة الله، ومن يطع الرسول فقد أطاع الله [النساء: 80] ويحتمل أن يكون هذا الضمير راجعاً إلى الله وإلى رسوله، كما في قوله: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ [التوبة: 62] وقيل: الضمير راجع إلى الأمر الذي دل عليه أطيعوا، وأصل تولوا: تتولوا، فطرح إحدى التائين، هذا تفسير الآية على ظاهر الخطاب للمؤمنين، وبه قال الجمهور، وقيل: إنه خطاب للمنافقين، والمعنى: يا أيها الذين آمنوا بالسننهم فقط. قال ابن عطية: وهذا وإن كان محتملاً على بعد، فهو ضعيف جداً، لأن الله وصف من خاطبه في هذه الآية بالإيمان وهو التصديق، والمنافقون لا يتصفون من التصديق بشيء، وأبعد من هذا من قال: الخطاب لبني إسرائيل، فإنه أجنبى من الآية، وجملة ﴿وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ في محل نصب على الحال، والمعنى: وأنتم تسمعون ما يتلى عليكم من الحجج والبراهين وتصدقون بها ولستم كالصم البكم ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا﴾ وهم المشركون أو المنافقون أو اليهود أو الجميع من هؤلاء، فإنهم يسمعون بأذانهم من غير فهم ولا عمل، فهم كالذي لم يسمع أصلاً؛ لأنه لم ينتفع بما سمعه. ثم أخبر سبحانه ﴿إِنْ شَرَّ الدَّوَابِّ﴾ أي: ما دب على الأرض ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: في حكمه ﴿الصَّمِّ الْبِكْمِ﴾ أي: الذين لا يسمعون ولا ينطقون، وصفوا بذلك مع كونهم ممن يسمع وينطق، لعدم انتفاعهم بالسمع والنطق ﴿الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ما فيه النفع لهم فيأتونه، وما فيه الضرر عليهم فيجتنبونه، فهم شر الدواب عند الله، لأنها تميز بعض تمييز، وتفرق بين ما ينفعها ويضرها ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيمَهُمْ﴾ أي: في هؤلاء الصم البكم ﴿خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ سماعاً ينتفعون به، ويتعقلون عنده الحجج والبراهين. قال الزجاج ﴿لَأَسْمَعَهُمْ﴾ جواب كل ما سألوا عنه؛ وقيل: ﴿لَأَسْمَعَهُمْ﴾ كلام الموتى الذين طلبوا إحياءهم، لأنهم طلبوا إحياء قصي بن كلاب وغيره؛ ليشهدوا بنبوته محمد ﷺ ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ لأنه قد سبق في علمه أنهم لا يؤمنون، وجملة ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ في محل نصب على الحال.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ قال: غاصبون. وأخرج ابن أبي حاتم، عن علي بن أبي طالب، في قوله: ﴿إِنْ شَرَّ الدَّوَابِّ

في الآية: قال هو هذا القرآن فيه الحياة والثقة والنجاة والعصمة في الدنيا والآخرة. وأخرج ابن إسحاق، وابن أبي حاتم، عن عروة بن الزبير، في قوله: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ أي: للحرب التي أعزكم الله بها بعد الذلّ. وقواكم بها بعد الضعف، ومنعكم بها من العذاب بعد القهر منهم لكم. وقد ثبت في الصحيح من حديث أبي سعيد بن المعلى، قال: «كنت أصلي في المسجد فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه، ثم أتيت فقلت: يا رسول الله إنني كنت أصلي، فقال: ألم يقل الله تعالى استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم». الحديث. وفيه دليل على ما نكرنا من أن الآية تعم كل دعاء من الله أو من رسوله. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه من طرق، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ قال: يحول بين المؤمن وبين الكفر ومعاصي الله، ويحول بين الكافر وبين الإيمان وطاعة الله. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الربيع بن أنس، في الآية قال علمه يحول بين المرء وقلبه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في الآية قال: يحول بين المرء وقلبه حتى يتركه لا يعقل. وأخرج عبد بن حميد، عن الحسن، في الآية قال: في القرب منه. وأخرج أحمد، والبخاري، وابن المنذر، وابن مردويه، وابن عساكر، عن مطرف، قال: قلت للزبير يا أبا عبد الله ضيعتم الخليفة حتى قتل، ثم جئتم تطلبون بئمه. قال الزبير: إنا قرأنا على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ ولم تكن نحسب أنا أهلها حتى وقعت فينا، حيث وقعت. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الحسن، قال: قرأ الزبير ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ قال: البلاء والامر الذي هو كائن. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن الحسن، في الآية قال: نزلت في عليّ وعثمان وطلحة والزبير. وأخرج عبد بن حميد، عن الضحاك قال نزلت في أصحاب النبي ﷺ خاصة. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن السدي قال: نزلت في أهل بدر خاصة، فاصابته يوم الجمل فاقتلوا، فكان من المقتولين طلحة والزبير، وهما من أهل بدر. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي في الآية قال: تصيب الظلم والصالح عامة. وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد مثله. وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد في الآية قال: هي مثل ﴿يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ حتى يتركه لا يعقل. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في الآية قال: أمر الله المؤمنين أن لا يقرؤا المنكر بين أظهرهم فيعصمهم الله بالعذاب، وقد وردت الأحاديث الصحيحة الكثيرة بأن هذه الأمة إذا لم يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر عصمهم الله بعذاب من عنده.

وَأَكْثَرُوا إِذْ أَنتَ قِيلَ سَتَمْنُونُ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَبَكُمْ
الْأَنَاسُ فَتَوَارِكُمْ وَيَذْكُرْكُمْ بِصَرِهِ وَرَوَّكُمْ مِنَ الْكِبَرِ لَمَّا كُنْتُمْ تَتَكَبَّرُونَ

نعتبه الله عليكم؛ وقيل معناه: إنه خاف المسلمون يوم بدر كثرة العدو، فأعلمهم الله أنه يحول بين المرء وقلبه بأن يبذلهم بعد الخوف! أمنا، ويبذل عدوهم من الأمن خوفاً؛ وقيل هو: من باب التمثيل لقربه سبحانه من العبد كقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: 16] ومعناه: أنه مطلع على ضمائر القلوب، لا تخفى عليه منها خافية. واحتار ابن جرير أن هذا من باب الإخبار من الله عز وجل بأنه أملك لقلوب عباده منهم، وأنه يحول بينهم وبينها إذا شاء، حتى لا يترك الإنسان شيئاً إلا بمشيئته عز وجل، ولا يخفك أنه لا مانع من حمل الآية على جميع هذه المعاني: ﴿وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تَحْشَرُونَ﴾ معطوف على ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ وأنكم محشورون إليه، وهو مجازيكم بالخير خيراً، وبالشّر شراً. قال الفراء: ولو استأنفت فكسرت همزة ﴿إِنَّهُ﴾ لكان صواباً، ولعل مراده أن مثل هذا جائز في العربية. قوله: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ أي: اتقوا فتنة تتعدى الظالم فتصيب الصالح والطارح، ولا تختص إصابتها بمن يباشر الظلم منكم.

وقد اختلف النحاة في دخول هذه النون المؤكدة في ﴿تُصِيبُ﴾ فقال الفراء: هو بمنزلة قولك: انزل عن الدابة لا تطرحنك، فهو جواب الامر بلفظ النهي: أي إن تنزل عنها لا تطرحنك، ومثله قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطَمَنَّ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾ [النمل: 18] أي: إن تدخلوا لا يحطمنكم، فدخلت النون لما فيه من معنى الجزاء. وقال المبرد: إنه نهي بعد أمر. والمعنى: النهي للظالمين: أي لا يقربن الظلم، ومثله ما روى عن سيبويه لا أرينك هاهنا. فإن معناه: لا تكن هاهنا، فإن من كان هاهنا رأيته. وقال الجرجاني: إن لا تصيبن نهي في موضع وصف لفتنة، وقرأ عليّ، وزيد بن ثابت، وأبي وابن مسعود ﴿لِتُصِيبُ﴾ على أن اللام جواب لقسم محذوف، والتقدير: اتقوا فتنة والله لتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة، فيكون معنى هذه القراءة مخالفاً لمعنى قراءة الجماعة، لأنها تفيد أن الفتنة تصيب الظالم خاصة، بخلاف قراءة الجماعة: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، ومن شدة عقابه أنه يصيب بالعذاب من لم يباشر أسببه، وقد وردت الآيات القرآنية بأنه لا يصاب أحد إلا بنبئه، ولا يعذب إلا بجنايته، فيمكن حمل ما في هذه الآية على العقوبات التي تكون بتسليط العباد بعضهم على بعض، ويمكن أن تكون هذه الآية خاصة بالعقوبات العامة، والله أعلم، ويمكن أن يقال: إن الذين لم يظلموا قد تسببوا للعقوبة بأسباب: كترك الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، فتكون الإصابة المتعدية للظالم إلى غيره مختصة بمن ترك ما يجب عليه عند ظهور الظلم.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ قال: للحق. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْزَنُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَحْزَنُوا أَمْثَلَكُمْ وَأَنْتُمْ تَسْلُونَ ﴿١٧﴾ وَأَعْلَمُوا أَنَّ أَمْوَالَكُمْ وَأَزْوَاجَكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٨﴾

الخطاب بقوله: ﴿وأنكروا إذا أنتم قليل﴾ للمهاجرين: أي أنكروا وقت قلتكم، و﴿مستضعفون﴾ خبر ثان للمبتدأ، والأرض: هي أرض مكة، والخطف: الأخذ بسرعة، والمراد بالناس: مشركو قريش؛ وقيل: فارس والروم ﴿فأولكم﴾ يقال: أوى إليه بالمد وبالقصر بمعنى: انضم إليه، فالمعنى: ضمكم الله إلى المدينة أو إلى الأنصار ﴿وايكنم بنصره﴾ أي: قواكم بالنصر في مواطن الحرب التي منها يوم بدر، أو قواكم بالملائكة يوم بدر ﴿ورزقكم من الطيبات﴾ التي من جملتها الغنائم ﴿لعلكم تشكرون﴾ أي: إرادة أن تشكروا هذه النعم، التي أنعم بها عليكم، والخون أصله كما في الكشف: للنقص، كما أن الوفاء التمام، ثم استعمل في ضد الأمانة والوفاء، لأنك إذا خنت الرجل في شيء فقد أنخلت عليه النقصان؛ وقيل معناه: الغدر وإخفاء الشيء، ومنه قوله تعالى: ﴿يعلم خائنة الأعين﴾ [غافر: 19] نهاهم الله عن أن يخونوه بترك شيء مما افترضه عليهم، أو يخونوا رسوله بترك شيء مما أمّنهم عليه، أو بترك شيء مما سنه لهم، أو يخونوا شيئاً من الأمانات التي أوثمنوا عليها، وسميت أمانات لأنه يؤمن معها من منع الحق، مأخوذة من الأمن، وجملة ﴿وانتم تعلمون﴾ في محل نصب على الحال: أي وانتم تعلمون أن ذلك الفعل خيانة، فتفعلون الخيانة عن عمد، أو وانتم من أهل العلم لا من أهل الجهل، ثم قال: ﴿واعلموا إنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ لأنهم سبب الوقوع في كثير من الذنوب، فصاروا من هذه الحيثية محنة يختبر الله بها عباده، وإن كانوا من حيثة أخرى زينة الحياة الدنيا كما في الآية الأخرى ﴿وان الله عنده لجر عظيم﴾ فأتوا حقه على أموالكم وأولادكم، ليحصل لكم ما عنده من الأجر المذكور.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: ﴿وأنكروا إذا أنتم قليل﴾ قال: كان هذا الحي من العرب أذل الناس ذلاً، أشقاء عيشاً، وأجوعه بطوناً، وأعراه جلوداً، وأبينه ضلالة، من عاش عاش شقياً، ومن مات منهم ردي في النار يؤكلون ولا يكلون، لا والله ما نعلم قبلاً من حاضري الأرض يومئذ كان أشر منزلاً منهم حتى جاء الله بالإسلام، فمكن به في البلاد، ووسع به في الرزق وجعلهم به ملوكاً على رقاب الناس، وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم فاشكروا لله نعمه، فإن ربكم منعم يحب الشكر، وأهل الشكر في مزيد من الله عز وجل. وأخرج ابن المنذر، عن ابن جريج، في قوله: ﴿يتخطفكم الناس﴾ قال: في الجاهلية بمكة ﴿فأولكم﴾ إلى الإسلام. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن وهب، في قوله: ﴿يتخطفكم الناس﴾ قال: الناس إذا ذاك فارس والروم. وأخرج أبو الشيخ، وأبو نعيم، والديلمي، في مسند

الفريوس، عن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ، في قوله: ﴿وأنكروا إذا أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس﴾ قيل: يا رسول الله ومن الناس؟ قال: أهل فارس. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي في قوله: ﴿فأولكم﴾ قال: إلى الأنصار بالمدينة ﴿وايكنم بنصره﴾ قال: يوم بدر. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن جابر بن عبد الله، أن أبا سفيان خرج من مكة، فأتى جبريل النبي ﷺ فقال: إن أبا سفيان في مكان كذا وكذا، فقال رسول الله ﷺ: إن أبا سفيان في مكان كذا وكذا، فاخرجوا إليه واكتموا، فكتب رجل من المنافقين إلى أبي سفيان إن محمداً يريدكم فخذوا حذركم، فنزل الله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول﴾ الآية. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن عبد الله بن أبي قتادة، قال: نزلت هذه الآية ﴿لا تخونوا الله والرسول﴾ في أبي لبابة بن عبد المنذر، سالوه يوم قريظة ما هذا الأمر؟ فأشار إلى حلقه أنه الذبح فنزلت. قال أبو لبابة: ما زالت قدمي حتى علمت أنني خنت الله ورسوله. وأخرج سنيد، وابن جرير، عن الزهري نحوه باطول منه. وأخرج عبد بن حميد، عن الكلبي أن رسول الله ﷺ بعث أبا لبابة إلى قريظة وكان حليفاً لهم، فأوماً بيده أنه الذبح، فنزلت. وأخرج أبو الشيخ، عن السدي، في هذه الآية: أنها نزلت في أبي لبابة، ونسختها الآية التي في براءة ﴿وأخرون اعترفوا بذنوبهم﴾ [التوبة: 102]. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿لا تخونوا الله﴾ قال: بترك فرائضه ﴿والرسول﴾ بترك سننه، وارتكاب معصيته ﴿وتخونوا أماناتكم﴾ يقول: لا تنقصوها، والأمانة: الأعمال التي ائتمن الله عليها العباد. وأخرج ابن جرير، عن المغيرة بن شعبة، قال: نزلت هذه الآية في قتل عثمان، ولعل مراده أن من جملة من ينخل تحت عمومها قتل عثمان. وأخرج أبو الشيخ، عن يزيد بن أبي حبيب، في الآية قال: هو الإخلال بالسلاح في المغازي، ولعل مراده أن هذا مما يندرج تحت عمومها. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن مسعود، قال: ما منكم من أحد إلا وهو يشتمل على فتنة، لأن الله يقول: ﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ فمن استعاذ منكم، فليستعذ بالله من مضلات الفتن. وأخرج هؤلاء عن ابن زيد في الآية قال: فتنة الاختبار اختبرهم، وقرأ ﴿ولنبليكم بالشر والخير فتنة﴾ [الأنبياء: 35].

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَفْقَهُوا اللَّهَ يَعْمَلْ لَكُمْ مَقَرًا وَيَكْثِرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٩﴾

جعل سبحانه التقوى شرطاً في جعل المذكور، مع سبق علمه بأنهم يتقون أو لا يتقون جرياً على ما يخاطب به الناس بعضهم بعضاً، والتقوى: اتقاء مخالفة أوامره والوقوع في مناهيه، والفرقان: ما يفرق به بين الحق والباطل،

على ذلك ويرد كيدهم في نحورهم. وسمى ما يقع منه تعالى مكرًا مشاكلة، كما في نظائره ﴿والله خير الماكرين﴾ أي: المجازين لمكر الماكرين بمثل فعلهم، فهو: يعذبهم على مكرهم من حيث لا يشعرون، فيكون ذلك أشد ضرراً عليهم وأعظم بلاء من مكرهم. قوله: ﴿وَإِذَا تَقَالَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ أي: التي تأتيهم بها، وتتلوها عليهم ﴿قَالُوا﴾ تعنتاً وتمرداً وبعداً عن الحق ﴿قَدْ سَمِعْنَا﴾ ما تتلوه علينا ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ الذي تلوته علينا، قيل: إنهم قالوا هذا توهماً منهم أنهم يقدرون على ذلك، فلما راموا أن يقولوا مثله عجزوا عنه. ثم قال عناداً وتمرداً ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: ما يستطره الوراقون من أخبار الأولين، وقد تقدم بيانه مستوفى. ﴿وَإِذَا قَالُوا﴾ أي: وإنكر إذ قالوا ﴿إِنَّا لَنَرَاهُ لَمَكْرًا﴾ من عندك بنصب الحق على أنه خبر كان، والضمير للفصل، ويجوز الرفع. قال الزجاج: ولا أعلم أحداً قرأ بها، ولا اختلاف بين النحويين في إجازتها، ولكن القراءة سنة، والمعنى: إن كان القرآن الذي جاءنا به محمد هو الحق، ﴿فَأَمَطَرُ عَلَيْنَا﴾ قالوا هذه المقالة مبالغ في الجحود والإنكار. قال أبو عبيدة: يقال أمطر في العذاب، ومطر في الرحمة. وقال في الكشاف: قد كثر الإطمار في معنى العذاب ﴿وَإِنَّا لَنَرَاهُ لَمَكْرًا﴾ سألوا أن يعذبوا بالرجم بالحجارة من السماء، أو بغيرها من أنواع العذاب الشديد، فأجاب الله عليهم بقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنَّهُ يَاسُوءٌ﴾ أي: ما كان الله ليُعَذِّبَهُمْ في مهلة من العذاب الذي هو الاستئصال ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنَّهُ يَاسُوءٌ﴾ روي أنهم كانوا يقولون في الطواف غفرانك: أي: وما كان الله معذبهم في حال كونهم يستغفرونه؛ وقيل المعنى: لو كانوا ممن يؤمن بالله ويستغفروه لم يعذبهم؛ وقيل إن الاستغفار راجع إلى المسلمين الذين هم بين أظهرهم: أي وما كان الله ليُعَذِّبَهُمْ وفيهم من يستغفر من المسلمين، فلما خرجوا من بين أظهرهم عذبهم بيوم بدر وما بعده؛ وقيل المعنى: وما كان الله معذبهم وفي أصلابهم من يستغفر الله.

وقد أخرج عبد الرزاق، وأحمد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، وأبو نعيم في الدلائل، والخطيب، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَإِذَا يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال: تشاورت قريش ليلة بمكة فقال بعضهم: إذا أصبح فأنشئوه بالوثاق، يريدون النبي ﷺ، وقال بعضهم: بل اقتلوه، وقال بعضهم: بل أخرجوه، فاطلع الله نبيه على ذلك، فبات عليّ على فراش النبي ﷺ حتى لحق بالغار، فلما أصبحوا ثاروا إليه، فلما راوه علياً ردّ الله مكرهم فقالوا: أين صاحبك هذا؟ فقال: لا أدري، فاقترضوا أثره، فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم، فصعدوا في الجبل فعمروا بالغار، فرأوا على بابهم نسج العنكبوت فقالوا: لو دخل هنا لم يكن نسج العنكبوت على بابهم، فمكث فيه ثلاث ليال. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو نعيم،

والمعنى: أنه يجعل لهم من ثبات القلوب، وثقوب البصائر، وحسن الهداية ما يفرقون به بينهما عند الالتباس؛ وقيل: الفرقان المخرج من الشبهات والنجاة من كل ما يخافونه، ومنه قول الشاعر:

مالك من طول الأسى فرقان بعد قطين رحلوا وبانوا
ومن قول الآخر:

وكيف أرجى الخلد والموت طالبي ومالي من كاس المنية فرقان
وقال الفراء: المراد بالفرقان الفتح والنصر. قال ابن إسحاق: الفرقان الفصل بين الحق والباطل، وبمثله قال ابن زيد، وقال السدي: الفرقان النجاة، ويؤيد تفسير الفرقان بالمخرج والنجاة قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: 2] وبه قال مجاهد ومالك بن أنس ﴿وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ أي: يسترها حتى تكون غير ظاهرة ﴿وَيُغْفِرْ لَكُمْ﴾ ما اقترفت من الذنوب؛ وقد قيل إن المراد بالسيئات: الصفات؛ وبالذنوب التي تغفر: الكبائر؛ وقيل المعنى: أنه يغفر لهم ما تقدم من الذنوب وما تأخر ﴿وَاللَّهُ نَزَّلَ الْفَصْلَ الْعَظِيمَ﴾ فهو المتفضل على عباده بتكفير السيئات ومغفرة الذنوب.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ قال: هو المخرج. وأخرج ابن جرير عنه، قال: هو: النجاة. وأخرج ابن جرير، عن عكرمة، مثله. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، قال: هو النصر.

وَإِذَا يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُجْرِبُوكَ وَيَمْكُرُونَ بِكَ اللَّهُ هُوَ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٢١﴾ وَإِذَا نُنزلُ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِذَا قَالُوا أَلَلَّهُمْ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقٌّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمَطَرْنَا عَلَيْكَ حِكْمًا مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ أَثْنَيْنَا بِمَذَاقٍ آيَةٍ ﴿٢٣﴾ وَمَا كُنَّا لَنُعَذِّبَهُمْ وَأَنَّهُمْ يَمِئُونَ ﴿٢٤﴾

قوله: ﴿وَإِذَا يَمْكُرُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الظرف معمول لفعل محذوف. أي: وإنكر يا محمد وقت مكر الكافرين بك، أو معطوف على ما تقدم من قوله ﴿وَإِذَا يَمْكُرُونَ﴾ نكر الله رسوله هذه النعمة العظمى التي أنعم بها عليه، وهي نجاة من مكر الكافرين وكيدهم كما سيأتي بيانه ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ أي: يثبتوك بالجراحات، كما قال ثعلب وأبو حاتم، وغيرهما، وعنه قول الشاعر:

فقلت ويحكم ما في صحيفتك قالوا الخليفة أمسى مثبتاً وجعا
وقيل: المعنى ليحبسوك، يقال أثبته: إذا حبسه؛ وقيل: ليوثقوك، ومنه: ﴿فَشَنُوا الْوَثَاقَ﴾ [محمد: 4]. وقرأ الشعبي ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ من البيات. وقرئ ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ بالتشديد ﴿وَإِذَا يَمْكُرُونَ﴾ معطوف على ما قبله: أي يخرجوك من مكة التي هي بلك وبلد أهلك، وجملة: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ مستأنفة، والمكر: التبدير في الأمر في خفية، والمعنى: أنهم يخفون ما يعنونه لرسول الله ﷺ من المكائد، فيجازيهم الله

في شعب الإيمان، عن أبي هريرة قال: كان فيكم أمانان مضى أحدهما وبقي الآخر، قال ﴿وما كان الله ليعذبهم﴾ الآية. وأخرج أبو الشيخ، وابن مربي، عن ابن عباس نحوه. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، والطبراني وابن مربي، والحاكم، وابن عساکر، عن أبي موسى الأشعري نحوه أيضاً، والأحاديث عن رسول الله ﷺ في مطلق الاستغفار كثيرة جداً معروفة في كتب الحديث.

﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أُولَآئِهِ إِلَّا الضَّالُّونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْكَلْبِ إِلَّا مَكَاةً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ ﴿إِنَّ الْكَلْبَ كَفَرًا يَفُوقُونَ أَوْلَاهُمْ لِيُصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُفَوِّضُهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَعْمَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكَبَهُ جِيْمًا فَيَعْمَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أَزْوَاجًا هُمُ الْخَبِيرُونَ﴾

قوله: ﴿وما لهم الا يعذبهم الله﴾ لما بيّن سبحانه ان المانع من تعذيبهم هو الامران المتقدمان وجود رسول الله ﷺ بين ظهورهم، ووقوع الاستغفار. نكر بعد ذلك ان هؤلاء الكفار، أعني: كفار مكة، مستحقون لعذاب الله لما ارتكبوا من القبائح. والمعنى: أي شيء لهم يمنع من تعذيبهم؟ قال الأخفش: إن «أن» زائدة. قال النحاس: لو كان كما قال لرفع يعذبهم، وجملة: ﴿وهم يصنون عن المسجد الحرام﴾ في محل نصب على الحال: أي وما يمنع من تعذيبهم؟ والحال أنهم يصنون الناس عن المسجد الحرام، كما وقع منهم عام الحديبية من منع رسول الله ﷺ وأصحابه من البيت، وجملة ﴿وما كانوا أولياءه﴾ في محل نصب على أنها حال من فاعل ﴿يصنون﴾، وهذا كالرد لما كانوا يقولونه من أنهم ولاية البيت، وأن أمره مفوض إليهم، ثم قال مبيناً لمن له ذلك: ﴿إن أوليائهم إلا المتقون﴾ أي: ما أوليائهم إلا من كان في عداد المتقين للمشرك والمعاصي ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ ذلك، والحكم على الأكثرين بالجهل يفيد أن الأقلين يعلمون ولكنهم يعاندون، قوله: ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصفيه﴾ المكاء: الصفير من مكاء يكو مكاء، ومنه قول عنترة:

وخليل غانية تركت مجندلاً تمكو فريسته كشدق الأعلم
أي: تصوّت؛ ومنه مكات است الدابة: إذا نفخت بالريح، قيل المكاء: هو الصفير على لحن طائر أبيض بالحجاز يقال له المكاء. قال الشاعر:

إذا غرّد المكاء في غير نوحه فويل لأهل الشاء والحمرات
والتصفيه: التصفيق، يقال صدى صدى تصفيه: إذا صفق، ومنه قول عمر بن الإطابة:

وظلوا جميعاً لهم ضجة مكاء لدى البيت بالتصفيه
أي: بالتصفيق؛ وقيل المكاء: الضرب بالأيدي، والتصفيه:

والبيهي، عن ابن عباس، فنكر القصة بأطول مما هنا. وفيها نكر الشيخ النجدي: أي إبليس ومشورته عليهم عند اجتماعهم في دار الندوة للمشاورة في أمر النبي ﷺ، وأن أبا جهل أشار بأن يأخذوا من كل قبيلة من قبائل قريش غلاماً، ويعطوا كل واحد منهم سيفاً، ثم يضربونه ضربة رجل واحد، فإذا قتلوه تفرّق دمه في القبائل، فقال الشيخ النجدي: هذا والله هو الرأي، فتفرّقوا على ذلك. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن عبيد بن عمير، قال: لما ائتمروا بالنبي ﷺ ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه، قال له عمه أبو طالب: هل تدري ما ائتمروا بك؟ قال: يريدون أن يسجنوني أو يقتلوني أو يخرجوني، قال: من حثك بهذا؟ قال: ربي، قال: نعم الرب ربك استوص به خيراً، قال: أنا استوصي به؟ بل هو يستوصي بي. وأخرجه ابن جرير من طريق أخرى عنه. وهذا لا يصح، فقد كان أبو طالب مات قبل وقت الهجرة بسنتين. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن جرير، في قوله: ﴿إذ يمكركم بالذين كفروا﴾ قال: قال عكرمة هي مكية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن عطاء في قوله: ﴿ليثبتوك﴾ يعني: ليوثقوك. وأخرج ابن جرير، وابن مربي، عن سعيد بن جبيرة، قال: قتل النبي ﷺ يوم بدر صبراً عقبه بن أبي معيط، وطعيمة بن عدي، والنضر بن الحارث، وكان المقداد أسر النضر، فلما أمر بقتله قال المقداد: يا رسول الله أسيري، فقال رسول الله ﷺ: إنه كان يقول في كتاب الله ما يقول، قال: وفيه أنزلت هذه الآية ﴿وإذ تنزل عليهم آياتنا﴾ وهذا مرسل، وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي أنها نزلت في النضر بن الحارث. وأخرج البخاري، وابن أبي حاتم، وابن الشيخ، وابن مربي، والبيهقي، عن أنس بن مالك قال: قال أبو جهل بن هشام ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك﴾ الآية فنزلت ﴿وما كان الله ليعذبهم﴾ الآية. وأخرج عبد بن حميد، عن قتادة، أنها نزلت في أبي جهل. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة، في الآية، أنها نزلت في النضر بن الحارث. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وأبو الشيخ عن مجاهد مثله. وأخرج ابن جرير، عن عطاء، نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مربي، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس قال: كان المشركون يطوفون بالبيت ويقولون: لبيك اللهم لبيك، لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك، ويقولون: غفرانك غفرانك، فأنزل الله ﴿وما كان الله ليعذبهم﴾ الآية. قال ابن عباس، كان فيهم أمانان: النبي ﷺ، والاستغفار؛ فذهب النبي ﷺ، وبقي الاستغفار. وأخرج الترمذي وضعفه، عن أبي موسى الأشعري، قال: قال النبي ﷺ: «أنزل الله عليّ أمانين لأمّتي ﴿وما كان الله ليعذبهم﴾ الآية، فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار وأخرج أبو الشيخ، والحاكم وصححه، والبيهقي

﴿اولئك﴾ إشارة إلى الذين كفروا. انتهى.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس ﴿وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾ ثم استثنى أهل الشرك فقال ﴿وما لهم ألا يعذبهم الله﴾. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، عن سعيد بن جبير، في قوله: ﴿وما لهم ألا يعذبهم الله﴾ قال: عذابهم فتح مكة. وأخرج ابن إسحاق، وأبو حاتم، عن عباد بن عبد الله بن الزبير ﴿وما لهم ألا يعذبهم الله﴾ وهم يجحدون بآيات الله ويكذبون رسله. وأخرج ابن إسحاق، وابن أبي حاتم، عن عروة بن الزبير، في قوله: ﴿وهم يصنون عن المسجد الحرام﴾ أي: من آمن بالله وعبدته، أنت ومن اتبعك ﴿وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا للمنفقين﴾ الذين يخرجون منه ويقيمون الصلاة عنده: أي أنت ومن آمن بك. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿إن أولياؤه إلا للمنفقين﴾ قال: من كانوا حيث كانوا. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن سعيد بن جبير، قال: كانت قريش يعارضون النبي ﷺ في الطواف، ويستتهزئون ويصفقون ويصفقون، فنزلت: ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصفيه﴾. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مروي، والضياء عن ابن عباس، قال: كانت قريش يطوفون بالكعبة عراة تصفر وتصفق، فأنزل الله: ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصفيه﴾ قال: والمكاء الصفير، إنما شبهوا بصفير الطير، وتصفيه: التصفيق وأنزل الله فيهم: ﴿قل من حرم زينة الله﴾ [الأعراف: 32] الآية. وأخرج ابن المنذر، عن ابن عباس، نحوه. وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عنه نحوه أيضاً. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مروي، عن ابن عمر قال: المكاء الصفير، والتصفيه: التصفيق. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، قال: المكاء إدخال أصابعهم في أقوامهم، والتصفيه الصفير، يخلطون بذلك كله على محمد ﷺ صلاته. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي: قال: المكاء الصفير على نحو طير أبيض يقال له المكاء يكون بأرض الحجاز، والتصفيه: التصفيق. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن سعيد بن جبير، في قوله: ﴿إلا مكاء﴾ قال: كانوا يشيكون أصابعهم ويصفقون فيهم ﴿وتصفيه﴾ قال: صدهم الناس. وأخرج عبد بن حميد، عن عكرمة قال: كان المشركون يطوفون بالبيت على الشمال. وهو قوله: ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصفيه﴾ فالمكاء مثل نفخ البوق، والتصفيه: طوافهم على الشمال، وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الضحاك في قوله: ﴿فتنوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ قال: يعني أهل بدر عذبهم الله بالقتل والأسر. وأخرج ابن

الصياح؛ وقيل المكاء: إدخالهم أصابعهم في أقوامهم، والتصفيه: الصفير؛ وقيل التصفيه: صدهم عن البيت؛ قيل: والأصل على هذا تصفيدة فأبدل من إحدى الدالين ياء. ومعنى الآية: أن المشركين كانوا يصفقون ويصفقون عند البيت الذي هو موضع للصلاة والعبادة، فوضعوا ذلك موضع الصلاة، قاصدين به أن يشغلوا المصلين من المسلمين عن الصلاة، وقرئ بنصب صلاتهم على أنها خبر كان، وما بعده اسمها. قوله: ﴿فتنوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ هذا التفات إلى مخاطبة الكفار تهديداً لهم ومبالغة في إدخال الروعة في قلوبهم، والمراد به: عذاب الدنيا كيوم بدر وعذاب الآخرة. قوله: ﴿إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصنوا عن سبيل الله﴾ لما فرغ سبحانه من شرح أحوال هؤلاء الكفرة في الطاعات البدنية، أتبعها شرح أحوالهم في الطاعات المالية. والمعنى: أن غرض هؤلاء الكفار في إنفاق أموالهم هو الصّد عن سبيل الحق، بمحاربة رسول الله ﷺ وجمع الجيوش لذلك، وإنفاق أموالهم عليها وذلك كما وقع من كفار قريش يوم بدر، ويوم أحد، ويوم الأحزاب، فإن الرؤساء كانوا ينفقون أموالهم على الجيش؛ ثم أخبر الله سبحانه عن الغيب على وجه الإعجاز فقال: ﴿فسينفقونها﴾ أي: سيقع منهم هذا الإنفاق ﴿ثم تكون﴾ عاقبة ذلك أن يكون إنفاقهم حسرة عليهم، وكان ذات الأموال تنقلب حسرة تصير ندماً، ﴿ثم﴾ آخر الأمر ﴿يفلبون﴾ كما وعد الله به في مثل قوله: ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي﴾ [المجادلة: 12]. ومعنى ﴿ثم﴾ في الموضعين إما التراخي في الزمان لما بين الإنفاق المنكور، وبين ظهور دولة الإسلام من الامتداد، وإما التراخي في الرتبة لما بين بذل المال وعدم حصول المقصود من المباينة، ثم قال: ﴿والذين كفروا إلى جهنم يحشرون﴾ أي: استمرّوا على الكفر، لأن من هؤلاء الكفار المذكورين سابقاً من أسلم وحسن إسلامه: أي يساقون إليها لا إلى غيرها، ثم بيّن العلة التي لأجلها فعل بهم ما فعله فقال: ﴿ليميز الله الخبيث﴾ أي: الفريق الخبيث من الكفار ﴿ومن﴾ الفريق ﴿الطيب﴾ وهم المؤمنون ﴿ويجعل الخبيث بعضه على بعض﴾ أي: يجعل فريق الكفار الخبيث بعضه على بعض ﴿فيركمه جميعاً﴾ عبارة عن الجمع والضم: أي يجمع بعضهم إلى بعض، ويضم بعضهم إلى بعض حتى يتركاموا لفرط ازدهارهم، يقال ركم الشيء يركمه: إذا جمعه وألقى بعضه على بعض، والإشارة بقوله: ﴿اولئك﴾ إلى الفريق الخبيث ﴿هم الخاسرون﴾ أي: الكاملون في الخسران؛ وقيل: الخبيث والطيب: صفة للمال، والتقدير يميز المال الخبيث الذي أنفقه المشركون من المال الطيب الذي أنفقه المسلمون، فيضم تلك الأموال الخبيثة بعضها إلى بعض فيلقيه في جهنم ويعذبهم بها، كما في قوله تعالى: ﴿فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم﴾ [التوبة: 35]. قال في الكشاف: واللام على هذا متعلقة بقوله: ﴿ثم تكون عليهم حسرة﴾، وعلى الأوّل بيحشرون، و

هذه الآية دليل على أن الإسلام يجب ما قبله **﴿وإن يعودوا﴾** إلى القتال والعداوة أو إلى الكفر الذي هم عليه، ويكون العود بمعنى الاستمرار **﴿فقد مضت سنة الأولين﴾** هذه العبارة مشتملة على الوعيد، والتهديد، والتمثيل بمن هلك من الأمم في سالف الدهر بعذاب الله: أي قد مضت سنة الله فيمن فعل مثل فعل هؤلاء من الأولين من الأمم أن يصيبه بعذاب، فليتوقعوا مثل ذلك **﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾** أي: كفر، وقد تقدم تفسير هذا في البقرة مستوفى **﴿فإن انتهوا﴾** عما ذكر **﴿فإن الله بما يعملون بصير﴾** لا يخفى عليه ما وقع منهم من الانتهاء **﴿وإن تولوا﴾** عما أمروا به من الانتهاء **﴿فاعلموا﴾** أيها المؤمنون **﴿أن الله مولاكم﴾** أي: ناصركم عليهم **﴿نعم المولى ونعم النصير﴾** فمن وآله فاز ومن نصره غلب.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: **﴿فقد مضت سنة الأولين﴾** قال: في قريش وغيرها يوم بدر، والأمم قبل ذلك. وأخرج أحمد، ومسلم، عن عمرو بن العاص، قال: لما جعل الله الإسلام في قلبي أثبت النبي ﷺ، فقلت: أبسط يدك فلا يابك، فبسط يمينه فقبضت يدي، قال: مالك؟ قلت: أردت أن اشتراط، قال: تشتراط ماذا؟ قلت: أن تستغفر لي، قال: أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله؟ وقد ثبت في الصحيح من حديث ابن مسعود، أن رسول الله ﷺ قال: «الإسلام يجب ما قبله، والتوبة يجب ما قبلها» وقد فسر كثير من السلف قوله تعالى: **﴿فقد مضت سنة الأولين﴾** بما مضى في الأمم المتقدمة من عذاب من قاتل الأنبياء، وصمم على الكفر. وقال السدي ومحمد بن إسحاق: المراد بالآية يوم بدر. وفسر جمهور السلف الفتنة المذكورة هنا بالكفر. وقال محمد بن إسحاق: بلغني عن الزهري عن عروة بن الزبير، وغيره من علمائنا **﴿حتى لا تكون فتنة﴾** حتى لا يفتن مسلم عن دينه.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ رَبَّكُمُ لَهُ أَشْرُكٌ﴾ وَالْيَسْرَى وَالسَّكِينِ وَأَبَى الْكَذِبِ إِنَّ كُنتُمْ مَعَهُمْ وَمَا أَزَلْنَا عَنْ عِبَادِنَا يَوْمَ الْأَشْرَاقِ يَوْمَ الْأُنْفَالِ أَتَمَّ اللَّهُ عَلَى كُلِّ مَنٍّ وَفَيْدٍ ۝ إِذْ أَنتُمْ بِالْمَدِينَةِ الْأُنْيَا وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ الْقُسُورِ وَالرَّكْبُ أَهْلُ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتِلَافٍ فِي الْيَمِينِ وَلَكِنْ يَقَعُ اللَّهُ آمْرًا كَاتٍ مَعْمُولًا يَهْلِكُ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيْعَتِهِ وَيَمُوتُ مَنْ مَاتَ عَنْ بَيْعَتِهِ وَرَأَى اللَّهُ لَسِجِّعٍ عَلَيْهِ ۝

لما أمر الله سبحانه بالقتال بقوله: **﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾** [الأنفال: 39] وكانت المقاتلة مظنة حصول الغنم ذكر حكم الغنمة والغنيمة قد قدما أن أصلها إصابة الغنم من العدو، ثم استعملت في كل ما يصاب منهم، وقد تستعمل في كل ما ينال بسعي، ومنه قول الشاعر:

إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الدلائل، كلهم من طريقه: قال: حدثني الزهري، ومحمد بن يحيى بن حبان، وعاصم بن عمر بن قتادة، والحسين بن عبد الرحمن بن عمرو قالوا: لما أصيبت قريش يوم بدر ورجع فلهم إلى مكة ورجع أبو سفيان بعيره، مشى عبد الله بن أبي ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، في رجال من قريش أصيب أبائهم وأبنائهم، فكلما أبا سفيان ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة فقالوا: يا معشر قريش إن محمداً قد وترككم وقتل خياركم، فأعينوا بهذا المال على حربه فلعنا أن نترك منه ثاراً، ففعلوا، ففيهم كما نكر ابن عباس أنزل الله: **﴿إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصنوا عن سبيل الله﴾** إلى **﴿والذين كفروا إلى جهنم يحشرون﴾**. وأخرج ابن مردويه، عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في أبي سفيان بن حرب. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وأبو الشيخ، عن مجاهد نحوه. وأخرج هؤلاء وغيرهم عن سعيد بن جبير نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الحكم بن عتيبة، في الآية قال: نزلت في أبي سفيان أنفق على مشركي قريش يوم أحد أربعين لوقية من ذهب، وكانت الوقية يومئذ اثنين وأربعين مثقالاً من ذهب. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن شمر بن عطية، في قوله: **﴿ليميز الله الخبيث من الطيب﴾** قال: يميز يوم القيامة ما كان من عمل صالح في الدنيا، ثم تؤخذ الدنيا بأسرها فتلقى في جهنم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن زيد، في قوله: **﴿فيركبه جميعاً﴾** قال: يجمعه جميعاً.

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يُؤْثِرُوا فَأَنْزَلْنَا مَسَّتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ۝ وَكَذَّبْتُمْ عَنْ أَنْ تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِ النَّاسِ آيَةً وَلَكُمْ اللَّهُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ يَمْ لَوْلَا اللَّهُ لَفُتِنْتُمْ بِالْمَدِينَةِ وَمَا كُنْتُمْ لَهَا بِمُؤْتَمِرِينَ ۝

أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يقول للكفار هذا المعنى، سواء قاله بهذه العبارة أو غيرها. قال ابن عطية: ولو كان كما قال الكسائي إنه في مصحف عبد الله بن مسعود **﴿قل للذين كفروا إن تنتهوا﴾** يعني: بالتاء المثناة من فوق لما تأتت الرسالة إلا بترك الالفاظ بعينها. وقال في الكشف: أي قل لأجلهم هذا القول، وهو **﴿إن ينتهوا﴾** ولو كان بمعنى خاطبهم، لقليل إن تنتهوا يغفر لكم، وهي قراءة ابن مسعود، ونحوه **﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه﴾** [الأحقاف: 11] خاطبوا به غيرهم لأجلهم ليسمعوه: أي إن ينتهوا عما هم عليه من عداوة رسول الله ﷺ وقاتله بالدخول في الإسلام **﴿يغفر لهم ما قد سلف﴾** لهم من العداوة. انتهى وقيل معناه: إن ينتهوا عن الكفر، قال ابن عطية: والحامل على ذلك جواب الشرط بيغفر لهم ما قد سلف، ومغفرة ما قد سلف لا تكون إلا لمنته عن الكفر. وفي

وقد طوّقت في الأفاق حتى رضيت من الغنيمة بالإياب ومثله قول الآخر:

ومطعم الغنم يوم الغنم مطعمه أنى توجه والمحروم محروم
وأما معنى الغنيمة في الشرع، فحكى القرطبي الاتفاق على أن المراد بقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ مال الكفار إذا ظفر بهم المسلمون على وجه الغلبة والقهر. قال: ولا تقتضي اللغة هذا التخصيص، ولكن عرف الشرع قيد اللفظ بهذا النوع. وقد ادّعى ابن عبد البر الإجماع على أن هذه الآية بعد قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْغَنَائِمِ﴾ [الأنفال: 1] وإن أربعة أخماس الغنيمة مقسومة على الغانمين، وإن قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْغَنَائِمِ﴾ نزلت حين تشاجر أهل بدر في غنائم بدر على ما تقدّم أوّل السورة، وقيل إنها أعني قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْغَنَائِمِ﴾ محكمة غير منسوخة، وأن الغنيمة لرسول الله ﷺ وليست مقسومة بين الغانمين، وكذلك لمن بعده من الأئمة، حكاه الماوردي عن كثير من المالكية. قالوا: وللإمام أن يخرجها عنهم، واحتجوا بفتح مكة وقصة حنين وكان أبو عبيدة يقول: افتتح رسول الله ﷺ مكة عنوةً ومنّ على أهلها فردّها عليهم ولم يقسمها ولم يجعلها فيئاً، وقد حكى الإجماع جماعة من أهل العلم على أن أربعة أخماس الغنيمة للغانمين، ومن حكى ذلك ابن المنذر، وابن عبد البر، والداودي، والمازري، والقاضي عياض، وابن العربي، والأحاديث الواردة في قسمة الغنيمة بين الغانمين، وكيفيتها كثيرة جداً. قال القرطبي: ولم يقل أحد فيما أعلم أن قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْغَنَائِمِ﴾ الآية ناسخ لقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ الآية، بل قال الجمهور: إن قوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ ناسخ، وهم الذين لا يجوز عليهم التحريف ولا التبديل لكتاب الله. وأما قصة فتح مكة فلا حجة فيها لاختلاف العلماء في فتحها، قال: وأما قصة حنين فقد عوّض الانتصار لما قالوا تعطى الغنائم قريشاً وتتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم نفسه، فقال لهم: أما ترضون أن يرجع الناس بالندبا وترجعون برسول الله ﷺ إلى بيوتكم كما في مسلم وغيره، وليس لغيره أن يقول هذا القول، بل ذلك خاص به. قوله: ﴿أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ يشمل كل شيء يصدق عليه اسم الغنيمة و﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ بيان لما الموصولة، وقد خصّص الإجماع من عموم الآية الأسارى، فإن الخيرة فيها إلى الإمام بلا خلاف، وكذلك سلب المقتول إذا نادى به الإمام؛ وقيل: كذلك الأرض المغنومة. وردّ بانه لا إجماع على الأرض. قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ خَمْسَةٌ﴾ قرأ النخعي ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ بكسر إن. وقرأ الباقون بفتحها على أن أن وما بعدها مبتدأ وخبره محذوف، والتقدير: فتح أو فوجأب أن الله خمسة.

وقد اختلف العلماء في كيفية قسمة الخمس على أقوال ستة: الأوّل قالت طائفة: يقسم الخمس على ستة فيجعل السدس للكعبة، وهو الذي لله، والثاني لرسول الله، والثالث، لذوي القربى، والرابع لليتامى، والخامس للمساكين،

والسادس لابن السبيل. والقول الثاني: قاله أبو العالية والربيع: إنها تقسم الغنيمة على خمسة، فيعزل منها سهم واحد ويقسم أربعة على الغانمين، ثم يضرب يده في السهم الذي عزله، فما قبضه من شيء جعله للكعبة، ثم يقسم بقية السهم الذي عزله على خمسة للرسول ومن بعده الآية. القول الثالث: روي عن زين العابدين علي بن الحسين أنه قال: إن الخمس لنا، فقليل له: إن الله يقول: ﴿وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ فقال: يتامانا ومساكيننا وأبناء سبيلنا. القول الرابع قول الشافعي: إن الخمس يقسم على خمسة، وإن سهم الله وسهم رسوله واحد يصرف في مصالح المؤمنين، والأربعة الأخرى على الأربعة الأصناف المنكورة في الآية. القول الخامس قول أبي حنيفة: إنه يقسم الخمس على ثلاثة: اليتامى، والمساكين، وابن السبيل، وقد ارتفع حكم قرابة رسول الله ﷺ بموته، كما ارتفع حكم سهمه، قال: ويبدا من الخمس بإصلاح القناطر وبناء المساجد وأرزاق القضاة والجند. وروي نحو هذا عن الشافعي. القول السادس قول مالك: إنه موكل إلى نظر الإمام واجتهاده، فيأخذ منه بغير تقدير، ويعطى منه الغزاة باجتهاده، ويصرف الباقي في مصالح المسلمين. قال القرطبي، وبه قال الخلفاء الأربعة وبه عملوا، وعليه يدل قوله ﷺ: «مالي مما آفأ الله عليكم إلا الخمس، والخمس مردود عليكم»، فإنه لم يقسمه لخماساً ولا أثلاثاً، وإنما نكر ما في الآية من ذكره على وجه التنبيه عليهم، لأنهم من أهم من يدفع إليه. قال الزجاج محتجاً لهذا القول: قال الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ وَاليَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [البقرة: 215] وجائز بإجماع أن ينفق في غير هذه الأصناف إذا رأى ذلك. قوله: ﴿وَلِذِي الْقُرْبَى﴾ قيل إعادة اللام في ذي القربى دون من بعدهم، لرفع توهم اشتراكهم في سهم النبي ﷺ.

وقد اختلف العلماء في القربى على أقوال: الأول: أنهم قريش كلها، روي ذلك عن بعض السلف، واستدل بما روي عن النبي ﷺ أنه لما صعد الصفا جعل يهتف ببطن قريش كلها قائلاً: يا بني فلان يا بني فلان. وقال الشافعي، وأحمد، وأبو ثور، ومجاهد، وقتادة، وابن جريج، ومسلم بن خالد: هم بنو هاشم وبنو المطلب لقوله ﷺ: «إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد، وشبك بين أصابعه» وهو في الصحيح وقيل: هم بنو هاشم خاصة، وبه قال مالك، والثوري، والأوزاعي، وغيرهم، وهو مروي عن علي بن الحسين، ومجاهد. قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ﴾ قال الزجاج عن فرقة: إن المعنى فاعلموا أن الله مولاكم إن كنتم آمنتم بالله، وقالت فرقة أخرى: إن ﴿إِنْ﴾ متعلقة بقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ﴾ قال ابن عطية: وهذا هو الصحيح لأن قوله: ﴿وَأَعْلَمُوا﴾ يتضمن الأمر بالانقياد والتسليم لأمر الله في الغنائم، فعلق إن بقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا﴾ على هذا المعنى: أي إن كنتم مؤمنين بالله فانقادوا وسلموا لأمر الله في الغنائم، فيما

الكفر، فأخرج المسلمين لأخذ العير وغنيمتها عند أنفسهم، وأخرج الكافرين للمدافعة عنها. ولم يكن في حساب الطائفتين أن يقع هذا الاتفاق على هذه الصفة، واللام في **﴿ليقضي﴾** متعلقة بمحنوف، والتقدير: جمعهم ليقضي. وجملة: **﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيْنَةِ وَيَحْيِي مَنْ حَيَّ﴾** بدل من الجملة التي قبلها: أي ليموت من يموت عن بينة ويعيش عن بينة لثلا يبقى لأحد على الله حجة؛ وقيل الهلاك والحياة مستعاران للكفر والإسلام: أي ليصدر إسلام من أسلم عن وضوح بينة، ويقين بأنه بين الحق؛ ويصدر كفر من كفر عن وضوح بينة لا عن مخالفة شبهة. قرأ نافع، وخلف، وسهل، ويعقوب، والبزي وأبو بكر **﴿مَنْ حَيَّ﴾** بياءين على الأصل وقرأ الباقون بياء واحدة على الإدغام، وهي اختار أبي عبيد لأنها كذلك وقعت في المصحف **﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾** أي: سميع بكفر الكافرين عليم به، وسميع بإيمان المؤمنين عليم به.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن أبي حاتم، عن عبد بن عبد الله بن الزبير قال: ثم وضع مقاسم الفيء، فقال: **﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾** بعد الذي كان مضى من بدر **﴿فَإِنَّ اللَّهَ خَمْسُهُ﴾** إلى آخر الآية. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم، عن قيس بن مسلم الجدلي قال: سألت الحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب ابن الحنفية عن قول الله: **﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ خَمْسُهُ﴾** قال: هذا مفتاح كلام، الله الدنيا والآخرة **﴿وَالرَّسُولُ وَلِذِي الْقُرْبَى﴾** فاختلّفوا بعد وفاة رسول الله ﷺ في هذين السهمين. قال قائل منهم: سهم ذي القربى لقربة رسول الله ﷺ. وقال قائل منهم: سهم ذي القربى لقربة الخليفة، وقال قائل منهم: سهم النبي ﷺ الخليفة من بعده، واجتمع رأى أصحاب رسول الله ﷺ على أن يجعلوا هذين السهمين في الخيل والعدة في سبيل الله؛ فكان ذلك في خلافة أبي بكر وعمر. وأخرج ابن جرير، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث سرية فغنموا خمس الغنيمة فضرب ذلك في خمسة، ثم قرأ:

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ﴾ الآية، قال قوله: **﴿فَإِنَّ اللَّهَ خَمْسُهُ﴾** مفتاح كلام، الله ما في السموات وما في الأرض، فجعل الله سهم الله والرسول واحداً **﴿وَلِذِي الْقُرْبَى﴾** فجعل هذين السهمين قوة في الخيل والسلاح، وجعل سهم اليتامى والمساكين وابن السبيل لا يعطيه غيرهم، وجعل الأربعة الأسهم الباقية: للفرس سهماً ولراكبه سهماً، وللراجل سهماً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه، قال: كانت الغنيمة تقسم على خمسة أخماس: فاربعة منها بين من قاتل عليها، وخمس واحد يقسم على أربعة أخماس. فربح الله والرسول ولذي القربى، يعني قربة رسول الله ﷺ، فما كان لله والرسول فهو لقربة النبي ﷺ، ولم يأخذ النبي ﷺ من الخمس شيئاً؛ والربع الثاني لليتامى، والربع الثالث

أعلمكم به من حال قسمة الغنيمة. وقال في الكشف: إنه متعلق بمحنوف يدل عليه **﴿وَأَعْلَمُوا﴾** بمعنى: إن كنتم آمنتم بالله فاعلموا أن الخمس من الغنيمة يجب التقرب به، فاقطعوا عنه أطمامكم، واقتنعوا بالأخماس الأربعة، وليس المراد بالعلم المجرد، ولكن العلم المضمن بالعمل والطاعة لأمر الله، لأن العلم المجرد يستوي فيه المؤمن والكافر. انتهى. قوله: **﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾** معطوف على الاسم الجليل أي: إن كنتم آمنتم بالله وبما أنزلنا، و**﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾** يوم بدر، لأنه فرق بين أهل الحق وأهل الباطل **﴿وَالْجَمْعَانِ﴾** الفريقان من المسلمين والكافرين **﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾** ومن قدرته العظيمة نصر الفريق الأقل على الفريق الأكثر. قوله: **﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدَّنْيَا وَهَمَّ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى﴾** قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب، بكسر العين في العدوة في الموضعين، قرأ الباقون بالضم فيهما. و**﴿إِذْ﴾** بدل من يوم الفرقان، ويجوز أن يكون العامل محنوفاً، أي وأنكروا إذ أنتم. والعدوة: جانب الوادي، والدنيا: تانيث الأنثى، والقصوى: تانيث الأقصى، من دنا يدنو، وقصا يقصو، ويقال القصيا، والأصل الواو، وهي لغة أهل الحجاز، والعدوة الدنيا كانت مما يلي المدينة، والقصوى: كانت مما يلي مكة. والمعنى: وقت نزولكم بالجانب الأدنى من الوادي إلى جهة المدينة، وعدوكم بالجانب الأقصى منه مما يلي مكة. وجملة: **﴿وَالرَّكِبَ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾** في محل نصب على الحال، وانتصاب **﴿أَسْفَلَ﴾** على الظرف، ومحلّه الرفع على الخبرية: أي والحال أن الركب في مكان أسفل من المكان الذي أنتم فيه، ولجاز الأخفش والكسائي والفراء رفع أسفل على معنى أشدّ سفلاً منكم؛ والركب: جمع راكب، ولا تقول العرب ركب إلى للجماعة الراكبي الإبل، ولا يقال لمن كان على فرس وغيرها ركب، وكذا قال ابن فارس، وحكاه ابن السكيت عن أكثر أهل اللغة. والمراد بالركب ها هنا ركب أبي سفيان، وهي المراد بالغير، فإنهم كانوا في موضع أسفل منهم مما يلي ساحل البحر. قيل: وفائدة نكر هذه الحالة التي كانوا عليها من كونهم بالعدوة الدنيا وعدوهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منهم الدلالة على قوة شأن العدو وشوكته، وذلك لأن العدو القصوى التي أناخ بها المشركون كان فيها الماء، وكانت أرضاً لا يابس بها، وأما العدو الدنيا فكانت رخوة تسوخ فيها الأقدام ولا ماء بها، وكانت العير وراء ظهر العدو مع كثرة عددهم، فامتدّ الله على المسلمين بنصرتهم عليهم والحال هذه. قوله: **﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتِلَافِ الْمِيعَادِ﴾** أي: لو تواعدتم أنتم والمشركون من أهل مكة على أن تلتقوا في هذا الموضع للقتال لخالف بعضكم بعضاً. فثبطكم قلّتكم وكثرتهم عن الوفاء بالموعد، وثبطهم ما في قلوبهم من المهابة لرسول الله ﷺ **﴿وَلَكِنْ﴾** جمع الله بينكم في هذا الموطن **﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾** أي: حقيقة بأن يفعل من نصر أوليائه وخذلان أعدائه وإعزاز دينه وإذلال

إخوانك من بني هاشم لا ننكر فضلهم لمكانك منهم، رأيت إخواننا من بني المطلب أعطيتهم دوننا فإنما نحن وهم بمنزلة واحدة في النسب؟ فقال: إنهم لم يفارقونا في الجاهلية والإسلام، وقد أخرجهم مسلم في صحيحه. وأخرج ابن مريويه، عن زيد بن أرقم قال: آل محمد الذين أعطوا الخمس: آل علي، وآل العباس، وآل جعفر، وآل عقيل. وأخرج ابن مريويه، عن ابن عباس قال: كان للنبي ﷺ شيء واحد من المغنم يصطفيه لنفسه، إما خادم وإما فرس، ثم يصيب بعد ذلك من الخمس. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن مريويه، عن علي قال: قلت يا رسول الله: ألا وليتني ما خصنا الله به من الخمس؟ فولانيه. وأخرج الحاكم وصححه عنه قال: ولاني رسول الله ﷺ خمس الخمس فوضعت مواضعه حياة رسول الله ﷺ، وأبي بكر وعمر. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مريويه، عن ابن عباس، في قوله: ﴿يَوْمَ لِلْفِرْقَانِ﴾ قال: هو يوم بدر، وبدر ما بين مكة والمدينة، وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مريويه، والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس، في قوله: ﴿يَوْمَ لِلْفِرْقَانِ﴾ قال: هو يوم بدر فرق الله فيه بين الحق والباطل. وأخرج ابن مريويه، عن علي بن أبي طالب، قال: كانت ليلة الفرقان ليلة التقى الجمعان في صبيحتها ليلة الجمعة لسبع عشرة مضت من رمضان، وأخرجه عنه ابن جرير أيضاً. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾ قال: العُدوة الدنيا شاطئ الوادي ﴿وَالرَّكِبِ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ قال أبو سفيان. وأخرج ابن المنذر عن عكرمة قال: العُدوة الدنيا شفير الوادي الأدنى، والعدوة القصوى شفير الوادي الأقصى.

إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاقِعَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَادَكُمُ كَثِيرًا لَفَتَنَّاكُمْ وَلَكِنَّكُمْ فِي الْآخِرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَمَاءٌ لَكُمْ عَلَيْهِ يَدَاتُ السُّدُورِ ﴿١٦﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ إِذِ التَّقَاتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَيْلًا مِمَّا لَكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ يَتَغَنَّى اللَّهُ أَمْرًا كَأَنَّهُ مَعْمُولٌ زَاكٍ اللَّهُ رَجَّعَ الْأُمُورَ ﴿١٧﴾

إذ منصوب بفعل مقدر: أي انكر أو هو بدل ثان من يوم الفرقان. والمعنى: أن النبي ﷺ وأهم في منامه قليلاً فقص ذلك على أصحابه، فكان ذلك سبباً لشباعتهم، ولو أنهم في منامه كثيراً لفشلوا وجبنوا عن قتالهم وتنازعا في الأمر، هل يلاقونهم أم لا؟ ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾ أي: سلمهم وعصمهم من الفشل والتنازع فقللهم في عين رسول الله ﷺ في المنام؛ وقيل عني بالمنام: محل النوم، وهو العين: أي في موضع منامك وهو عينك، روى ذلك عن الحسن. قال الزجاج: هذا مذهب حسن ولكن الأول أسوغ في العربية لقوله: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّقَاتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيَقُلُّكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ فدل بهذا على أن هذه رؤية الالتقاء، وأن تلك رؤية النوم. قوله: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ﴾ الظرف منصوب بمضمر معطوف على الأول: أي وانكروا وقت

للمساكين؛ والرابع لابن السبيل، وهو الضيف الفقير الذي ينزل بالمسلمين. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي العالية، في قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ الآية قال: كان يجاء بالغنيمة فتوضع، فيقسمها رسول الله ﷺ على خمسة أسهم، فيعزل سهماً منها، ويقسم أربعة أسهم بين الناس، يعني لمن شهد الواقعة، ثم يضرب بيده في جميع السهم الذي عزله، فما قبض عليه من شيء جعله للكعبة، فهو الذي سمي الله لا تجعلوا لله نصيباً، فإن الله الدنيا والآخرة ثم يعمد إلى بقية السهم فيقسمه على خمسة أسهم: سهم للنبي ﷺ، وسهم لذی القربى وسهم لليتامى، وسهم للمساكين، وسهم لابن السبيل. وأخرج ابن المنذر، عن ابن عباس، قال: كان النبي ﷺ يجعل سهم الله في السلاح والكرام وفي سبيل الله وفي كسوة الكعبة وطيبها وما تحتاج إليه الكعبة، ويجعل سهم الرسول في الكرام والسلاح ونفقة أهله، وسهم ذي القربى لقربته، يضعه رسول الله ﷺ فيهم مع سهمهم مع الناس، ولليتامى والمساكين وابن السبيل ثلاثة أسهم يضعها رسول الله ﷺ فيمن شاء حيث شاء، ليس لبني عبد المطلب في هذه الثلاثة الأسهم ولرسول الله ﷺ سهم مع سهام الناس. وأخرج ابن أبي حاتم عن حسين المعلم قال: سألت عبد الله بن بريدة عن قوله: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ فقال: الذي لله لنبيه، والذي للرسول لأزواجه. وأخرج الشافعي، وعبد الرزاق، وابن أبي شيبة، ومسلم، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس، أن نجدة كتب إليه يسأله عن نوي القربى الذين ذكر الله، فكتب إليه إنا كنا نرى أنهم فابى ذلك علينا قومنا، وقالوا قريش كلها نوي قربى، وزيادة قوله وقالوا قريش كلها تفرد بها أبو معشر، وفيه ضعف وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، من وجه آخر عن ابن عباس: أن نجدة الحروري أرسل إليه يسأله عن سهم ذي القربى، ويقول لمن تراه؟ فقال ابن عباس: هو لقربى رسول الله ﷺ قسمه لهم رسول الله ﷺ. وقد كان عمر عرض علينا من ذلك عرضاً رأيناه دون حقنا فردناه عليهم وأبينا أن نقبله، وكان عرض عليهم أن يعين ناكحهم وأن يقضي عن غارهم، وأن يعطي فقيرهم، وأبى أن يزيدهم على ذلك. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: «رغبت لكم عن غسالة الأيدي، لأن لكم في خمس الخمس ما يكفيكم أو يغنيكم». روى ابن أبي حاتم عن إبراهيم بن مهدي المصيصي حدثنا المعتمر بن سليمان عن أبيه عن حنش عن عكرمة عنه مرفوعاً. قال ابن كثير: هذا حديث حسن الإسناد، وإبراهيم بن مهدي هذا وثقه أبو حاتم. وقال يحيى بن معين: يأتي بمنكأكير. وأخرج ابن إسحاق، وابن أبي حاتم، عن الزهري وعبد الله بن أبي بكر، عن جبير بن مطعم: أن النبي ﷺ قسم سهم نوي القربى من خيبر على بني هاشم وبني المطلب، قال: فمشيت أنا وعثمان بن عفان حتى دخلنا عليه، فقلنا يا رسول الله هؤلاء

إذا حاربتم جماعة من المشركين **﴿فَانْصِرُوا﴾** لهم ولا تجنبوا عنهم، وهذا لا ينافي الرخصة المتقدمة في قوله: **﴿إِلَّا مُحَرَّرًا لِقَاتِلٍ أَوْ مُحْتَزًّا إِلَى فِتْنَةٍ﴾** [الأنفال: 16] فإن الأمر بالثبات هو في حال السعة، والرخصة هي في حال الضرورة. وقد لا يحصل الثبات إلا بالتحزف والتحيز **﴿وَانْكُرُوا اللَّهَ﴾** أي: انكروا الله عند جزع قلوبكم، فإن ذكره يعين على الثبات في الشدائد؛ وقيل المعنى: اثبتوا بقلوبكم وانكروا بالسنتكم فإن القلب قد يسكن عند اللقاء ويضطرب اللسان، فأمرهم بالذكر حتى يجتمع ثبات القلب واللسان؛ قيل وينبغي أن يكون الذكر في هذه الحالة بما قاله أصحاب طالوت: **﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصِرْنَا عَلَى قَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾** [البقرة: 250]. وفي الآية دليل على مشروعية الذكر في جميع الأحوال، حتى في هذه الحالة التي ترجف فيها القلوب، وترزع عندها البصائر، ثم أمرهم بطاعة الله فيما يأمرهم به وطاعة رسوله فيما يرشدهم إليه، ونهاهم عن التنازع وهو الاختلاف في الرأي، فإن ذلك يتسبب عنه الفشل، وهو الجين في الحرب. والفاء جواب النهي، والفعل منصوب بإضمار أن، ويجوز أن يكون الفعل معطوفاً على تنازعوا مجزوماً بجازمه. قوله: **﴿وَوَهَبْ وَيُحْكَمْ﴾** قرئ بنصب الفعل، وجزمه عطفاً على تفشلوا على الوجهين، والريح: القوة والنصر، كما يقال الريح لفلان إذا كان غالباً في الأمر؛ وقيل الريح الدولة شبهت في نفوذ أمرها بالريح في هبوبها، ومنه قول الشاعر:

إذا هبت ريحك فاغتنمها فنعقبى كل خافقة سكن
وقيل المراد بالريح: ريح الصبا، لأن بها كان ينصر النبي ﷺ، ثم أمرهم بالصبر على شدائد الحرب، وأخبرهم بأنه مع الصابرين في كل أمر ينبغي الصبر فيه، وبما حبذا هذه المعية التي لا يغلب من رزقها غالب، ولا يوتى صاحبها من جهة من الجهات، وإن كانت كثيرة، ثم نهاهم عن أن تكون حالتهم كحالة هؤلاء الذين خرجوا من ديارهم بطراً ورتاء الناس، وهم قريش. فإنهم خرجوا يوم بدر ليحفظوا العير التي مع أبي سفيان، ومعهم القيان والمعازف، فلما بلغوا الجحفة بلغهم أن العير قد نجت وسلمت، فلم يرجعوا بل قالوا لا بد لهم من الوصول إلى بدر ليشربوا الخمر، وتغني لهم القيان، وتسمع العرب بمخرجهم، فكان ذلك منهم بطراً وأشرأ وطلباً للثناء من الناس، وللمدح إليهم، والفخر عندهم، وهو الرياء؛ وقيل والبطر في اللغة: التقوي بنعم الله على معاصيه، وهو مصدر في موضع الحال: أي خرجوا بطرين مرائين؛ وقيل هو مفعول له وكذا رياء: أي خرجوا للبطر والرياء. وقوله: **﴿وَيُصْنَوْنَ﴾** معطوف على بطراً، والمعنى كما تقدم: أي خرجوا بطرين مرائين صائدين عن سبيل الله، أو للصد عن سبيل الله. والصد: إضلال الناس والحيولة بينهم وبين طرق الهداية. ويجوز أن يكون يصنئون معطوفاً على يخرجون، والمعنى: يجمعون بين الخروج على تلك الصفة والصد **﴿وَاللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾** لا تخفى عليه

إراءتكم إياهم حال كونهم قليلاً، حتى قال القائل من المسلمين لآخر: أتراهم سبعين؟ قال: هم نحو المائة، وقلل المسلمين في أعين المشركين حتى قال قائلهم: إنما هم لكلة جزور، وكان هذا قبل القتال، فلما شرعوا فيه كثر الله المسلمين في أعين المشركين، كما قال في آل عمران: **﴿يُرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأَى الْعَيْنَ﴾** [آل عمران: 13]، ووجه تقليل المسلمين في أعين المشركين هو أنهم إذا راوهم قليلاً أقدموا على القتال غير خائفين، ثم يرونهم كثيراً فيفشلون، وتكون الدائرة عليهم، ويحل بهم عذاب الله وسوط عقابه، واللام في **﴿يُلْقِضِي اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾** متعلقة بمحذوف كما سبق مثله قريباً، وإنما كرره لاختلاف المعلل به **﴿وَاللَّهُ يَرْجِعُ الْأُمُورَ﴾** كلها يفعل فيها ما يريد ويقيضي في شأنها ما يشاء.

وقد أخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، في قوله: **﴿إِذْ يَرْيَكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾** قال: أراه الله إياهم في منامه قليلاً، فأخبر النبي ﷺ أصحابه بذلك فكان ذلك تثبيناً لهم. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: **﴿وَلَوْ أَرَاكُمْ كَثِيرًا لَفُشِلْتُمْ﴾** يقول: لجبنتم **﴿وَلِتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾** قال: لاختلفتم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: **﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾** أي: أتم، وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم، عنه **﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾** يقول: سلم لهم أمرهم حتى أظهرهم على عدوهم، وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن مسعود، في قوله: **﴿وَإِذْ يَرْيَكُهُمُ اللَّهُ﴾** الآية قال: لقد قلوا في أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل إلى جنبي: تراهم سبعين؟ قال: لا بل هم مائة، حتى أخذنا رجلاً منهم فسألناه قال: كنا ألفاً. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن عكرمة، في الآية قال: حضض بعضهم على بعض. قال ابن كثير: إسناداه صحيح. وأخرج ابن إسحاق عن عباد بن عبد الله بن الزبير في قوله: **﴿يُلْقِضِي اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾** أي ليلف بينهم الحرب للنعمة ممن أراد الانتقام منه، والإنعام على من أراد النعمة عليه من أهل ولايته.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاغْلِبُوا وَانْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لِمَكْرِكُمْ فُلْحَرِكْ ⑤ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَسْرِعُوا فَنَفْسَلُوا وَتَذَهَبَ رِعَاكُكُمْ وَأَصِيرُوا ⑥ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ⑦ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِيعَةً لِلنَّاسِ وَنَصَرُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَصْلَحُونَ خَبِيرٌ ⑧ وَإِذْ زَيْنٌ لَّهُمُ السَّقِينُ اعْمَلْتَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِذْ جَاءَ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْوُجُوهَ نَكَمَ عَنْ عَفْيِهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ⑨ إِذْ يَسْأَلُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ عَنْ هَؤُلَاءِ وَإِنَّهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ⑩

قوله: **﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾** اللقاء الحرب، والفئة الجماعة: أي

من أعمالهم خافية، فهو: مجازيهم عليها. قوله: ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ الظرف متعلق بمحذوف: أي وانكر يا محمد وقت تزيين الشيطان لهم أعمالهم، والتزيين: التحسين، وقد روي أن الشيطان تمثل لهم وقال لهم تلك المقالة، وهي: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾ أي: مجير لكم من كل عدو أو من بني كنانة، ومعنى الجار هنا: الدافع عن صاحبه أنواع الضرر، كما يدفع الجار عن الجار، وكان في صورة سراقاة بن مالك بن جشعم، وهو من بني بكر بن كنانة، وكانت قريش تخاف من بني بكر أن يأتوهم من ورائهم؛ وقيل المعنى: إنه ألقى في روعهم هذه المقالة، وخيل إليهم أنهم لا يغلبون ولا يطاقون ﴿فَلَمَّا تَرَأَتِ الْقُبُورَ﴾ أي: فئة المسلمين والمشركون ﴿نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ﴾ أي: رجع القهقري، ومنه قول الشاعر:

ليس النكوص على الأعقاب مكرومة
إن المكروم إقدام على الأمل

وقول الآخر:

وما نفع المستأخرين نكوصهم
ولا ضرأ أهل السابقات التقدّم

وقيل معنى نكص هاهنا: بطل كيدوه وذهب ما خيله ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ﴾ أي: تبرأ منهم لما رأى أمارات النصر مع المسلمين بإمداد الله لهم بالملائكة، ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾ يعني: الملائكة، ثم علل بعله أخرى فقال: ﴿إِنِّي لَخَافُ اللَّهَ﴾ قيل: خاف أن يصاب بمكرهه من الملائكة الذين حضروا الواقعة؛ وقيل إن دعوى الخوف كذب منه، ولكنه رأى أنه لا قوة له ولا للمشركين فاعتل بذلك، وجملته ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ يحتمل أن تكون من تمام كلام إبليس، ويحتمل أن تكون كلاماً مستأنفاً من جهة الله سبحانه. قوله: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ﴾ الظرف معمول لفعل محذوف هو انكر، ويجوز أن يتعلق بنكص أو بزَيْنَ أو بشديد العقاب؛ قيل: المنافقون هم الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ هم الشاككون من غير نفاق، بل لكونهم حديثي عهد بالإسلام، فوافقوا المنافقين في قولهم بهذه المقالة، أعني: ﴿غَرَّ هَؤُلَاءُ﴾ أي: المسلمين ﴿بَيْنَهُمْ﴾ حتى تكلفوا ما لا طاقة لهم به من قتال قريش؛ وقيل: الذين في قلوبهم مرض هم المشركون، ولا يبعد أن يراد بهم اليهود الساكنون في المدينة وما حولها، وأنهم هم والمنافقون من أهل المدينة، قالوا هذه المقالة عند خروج المسلمين إلى بدر لما راوهم في قلة من العدد وضعف من العدد، فأجاب الله عليهم بقوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يغلبه غالب، ولا يذل من توكل عليه ﴿حَكِيمٌ﴾ له الحكمة البالغة التي تقصر عندها العقول.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: ﴿وَانْكُرُوا اللَّهَ﴾ قال: افترض الله نكرهه عند أشغل ما يكونون: عند الضراب بالسيوف، وأخرج الحاكم وصححه، عن سهل بن سعد، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثنتان لا يرذآن: الدعاء عند النداء وعند البأس حين يلحم بعضهم بعضاً» وأخرج الحاكم وصححه، عن أبي موسى أن

رسول الله ﷺ كان يكره الصوت عند القتال، وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ يقول: لا تختلفوا فتجبنوا ويذهب نصركم. وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد في قوله: ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ قال: نصركم وقد ذهب ريح أصحاب محمد حين نازعوه يوم أحد. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مريويه، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ الآية، يعني المشركين الذين قاتلوا رسول الله ﷺ يوم بدر. وأخرج ابن جرير، عن محمد بن كعب القرظي قال: لما خرجت قريش من مكة إلى بدر خرجوا بالقيان والنفوف، فأنزل الله هذه الآية. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، عن مجاهد، في الآية قال: أبو جهل وأصحابه يوم بدر. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، في الآية قال: كان مشركو قريش الذين قاتلوا نبي الله ﷺ يوم بدر خرجوا ولهم بغى وفخر، وقد قيل لهم يومئذ أرجعوا فقد انطلقت غيركم وقد ظفرتم فقالوا: لا والله حتى يتحدث أهل الحجاز بمسيرنا وعيدنا، وذكر لنا أن نبي الله ﷺ قال يومئذ «اللهم إن قريشاً قد أقبلت بفخرها وخيلائها لتجادل رسولك، ونكر لنا أنه قال يومئذ «جاءت من مكة أفلاذها». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس، قال: جاء إبليس في جند من الشياطين ومعه راية في صورة رجال من بني ملج، والشيطان في صورة سراقاة بن مالك بن جعشم، فقال الشيطان: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾ وأقبل جبريل على إبليس، فلما رآه وكانت يده في يد رجل من المشركين انتزع إبليس يده وولى مديراً وشيعته، فقال الرجل: يا سراقاة إنك جار لنا فقال: ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾ وذلك حين رأى الملائكة ﴿إِنِّي لَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ قال: ولما بنا القوم بعضهم من بعض قلل الله المسلمين في أعين المشركين، وقلل المشركين في أعين المسلمين، فقال المشركون: وما هؤلاء غر هؤلاء بينهم، وإنما قالوا ذلك من قلتهم في أعينهم، وظنوا أنهم سيهزمونهم لا يشكون في ذلك، فقال الله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ وأخرج الطبراني، وأبو نعيم، عن رفاعة بن رافع الأنصاري، قال: لما رأى إبليس ما تفعل الملائكة بالمشركين يوم بدر أشفق أن يخلص القتل إليه فتشيت به الحارث بن هاشم، وهو يظن أنه سراقاة بن مالك، فوكر في صدر الحارث، فإلقاه ثم خرج هارباً حتى ألقى نفسه في البحر، ورفع يديه فقال: اللهم إني أسألك نظرتك إياي. وأخرج الواقدي وابن مريويه، عن ابن عباس نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾ قال: ذكر لنا أنه رأى جبريل تنزل معه الملائكة، فعلم عدو الله أنه لا يدان له بالملائكة، وقال: ﴿إِنِّي لَخَافُ اللَّهَ﴾ وكذب عدو الله ما به

كما قال سبحانه: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: 118] قوله: ﴿كُذِّبَ آلُ فِرْعَوْنَ﴾ لما نكر الله سبحانه ما أنزله بأهل بدر أتبعه بما يدل على أن هذه سنته في فرق الكافرين، والداب: العادة، والكاف في محل الرفع على الخبرية لمبتدأ محذوف: أي داب هؤلاء مثل داب آل فرعون ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، والمعنى: أنه جوزي هؤلاء كما جوزي أولئك، فكانت العادة في عذاب هؤلاء كالعادة الماضية لله في تعذيب طوائف الكفر، وجملة قوله: ﴿كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ مفسرة لداب آل فرعون: أي دابهم هذا هو أنهم كفروا بآيات الله، فتسبب عن كفرهم أخذ الله سبحانه لهم، والمراد بنوبهم: معاصيهم المترتبة على كفرهم، فيكون الباء في «بنوبهم» للملابسة: أي فآخذهم متلبسين بنوبهم غير تائبين عنها، وجملة: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ معترضة مقررة لمضمون ما قبلها، والإشارة بقوله: ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ إلى العقاب الذي أنزله الله بهم، وهو مبتدأ وخبره ما بعده، والجملة جارية مجرى التعليل لما حل بهم من عذاب الله. والمعنى: أن ذلك العقاب بسبب أن عادة الله في عباده عدم تغيير نعمه التي ينعم بها عليهم ﴿حَتَّى يَغْيِرُوا مَا بَنَفْسُهُمْ﴾ من الأحوال والأخلاق بكفران نعم الله وغمط إحسانه وإهمال أوامره ونواهيه، وذلك كما كان من آل فرعون ومن قبلهم ومن قریش ومن يماثلهم من المشركين، فإن الله فتح لهم أبواب الخيرات في الدنيا ومنّ عليهم بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، فقبلوا هذه النعم بالكفر فاستحقوا تغيير النعم، كما غيروا وما كان يجب عليهم سلوكه، والعمل به من شكرها وقبولها، وجملة: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ معطوفة على ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّبُلَ﴾، أي ذلك بسبب أن الله لم يك مغيراً نعمته داخلة معها في التعليل: أي ذلك بسبب أن الله لم يك مغيراً إلخ، وبسبب أن الله سميع عليم يسمع ما يقولونه ويعلم ما يفعلونه. وقرئ بكسر الهمزة على الاستثناء، ثم كرر ما تقدم، فقال ﴿كُذِّبَ آلُ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ لقصد التأكيد مع زيادة أنه كلابان للأخذ بالذنوب بأنه كان بالإغراق؛ وقيل: إن الأول باعتبار ما فعله آل فرعون ومن شبه بهم، والثاني: باعتبار ما فعل بهم؛ وقيل: المراد بالأول كفرهم بالله، وبالثاني تكذيبهم الأنبياء؛ وقيل غير ذلك مما لا يخلو عن تعسف، والكلام في ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ كالكلام المتقدم في فآخذهم الله بنوبهم ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ معطوف على أهلكناهم، عطف الخاص على العام، لقطاعه وكونه من أشد أنواع الإهلاك، ثم حكم على كلا الطائفتين من آل فرعون والذين من قبلهم، ومن كفار قریش بالظلم لأنفسهم، بما تسببوا به لعذاب الله من الكفر بالله وآياته ورسله، وبالظلم لغيرهم، كما كان يجري منهم في معاملاتهم للناس بأنواع الظلم.

مخافة الله، ولكن علم أنه لا قوة له به ولا منعة له. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، عن معمر قال: نكروا أنهم أقبلوا على سراقه بن مالك بعد ذلك، فانكر أن يكون قال شيئاً من ذلك. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ﴾ قال: وهم يومئذ في المسلمين. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن الحسن، في قوله: ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ قال: هم قوم لم يشهدوا القتال يوم بدر فسموا منافقين. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، عن الكلبي في قوله: ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ قال: هم قوم كانوا أقرّبوا بالإسلام، وهم بمكة ثم خرجوا مع المشركين يوم بدر، فلما رأوا المسلمين قالوا: ﴿غَزَى هَؤُلَاءُ بَيْنَهُمْ﴾. وأخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ، عن الشعبي نحوه.

وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَلَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةَ يَصْرُخُونَ وَيُهَيِّجُونَ وَأَذِّنُ لَهُمْ وَذُقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٦﴾ ذَلِكَ بِمَا كَذَّبْتُمْ آيَاتِي كَمَا أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلِيمٍ لِلْجَبِيدِ ﴿٥٧﴾ كَذَّبَ آلُ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٨﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْهَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُفَرِّدُوا مَا بَيْنَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ كَذَّبَ آلُ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٦٠﴾

قوله: ﴿وَلَوْ تَرَى﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ، أو لكل من يصلح له كما تقدم تحقيقه في غير موضع. والمعنى: ولو رايت، لأن لو تقلب المضارع ماضياً، و﴿إِذْ﴾ ظرف ل ترى، والمفعول محذوف: أي ولو ترى الكافرين وقت توفي الملائكة لهم؛ قيل أراد بالذين كفروا من لم يقتل يوم بدر؛ وقيل: هي فيمن قتل ببدر وجواب لو محذوف تقديره لرايت أمراً عظيماً، وجملة ﴿يُضْرَبُونَ وَجُوهَهُمْ﴾ في محل نصب على الحال، والمراد بأبصارهم استماعهم، كنى عنها بالأبصار، وقيل ظهورهم؛ قيل هذا الضرب يكون عند الموت كما يفيدته ذكر التوفي، وقيل: هو يوم القيامة حين يسرون بهم إلى النار. قوله: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ قاله: الفراء، المعنى: ويقولون ذوقوا عذاب الحريق، والجملة معطوفة على يضربون؛ وقيل: إنه يقول لهم هذه المقالة خزنة جهنم، والذوق قد يكون محسوساً، وقد يوضع موضع الابتلاء والاختبار، وأصله من الذوق بالغم والإشارة بقوله: ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ إلى ما تقدم من الضرب والعذاب والباء في ﴿بِمَا كَذَّبْتُمْ آيَاتِي﴾ سببية: أي ذلك واقع بسبب ما كسبتم من المعاصي، واقتربت من الذنوب. وجملة: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ في محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف: أي والأمر أنه لا يظلمهم، ويجوز أن تكون معطوفة على الجملة الواقعة خبراً لقوله: ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، وبما قدمت إنيكم، أي ذلك العذاب بسبب المعاصي، وبسبب: ﴿أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ لأنه سبحانه قد أرسل إليهم رسلاً، وأنزل عليهم كتبه، وأوضح لهم السبيل، وهاداهم النجدين

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن الضحاك في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَلَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةَ﴾ قال: الذين قتلهم الله ببدر من المشركين. وأخرج ابن جرير، عن الحسن، قال: قال

تدعو قعيماً وقد غص الحديد بها غص الثقال على ضم الأنابيب يقال ثقفته: وجنته، وفلان ثقف: سريع الوجود لما يحاوله، والتشريد: التفريق مع الاضطراب. وقال أبو عبيدة **﴿فشرّد بهم﴾** سمع بهم. وقال الزجاج: افعال بهم فعلاً من القتل تفرّق به من خلفهم، يقال شرّبت بني فلان: قلعته عن مواضعهم وطردتهم عنها حتى فارقوها. قال الشاعر:

أطوف في الأباطح كل يوم مخافة أن يشرّبتني حكيم
ومنه شرّد البعير: إذا فارق صاحبه، وروي عن ابن مسعود أنه قرأ **﴿فشرّد بهم﴾** بالذال المعجمة. قال قطرب: التشريد بالذال المعجمة هو التنكيل، وبالمهملة هو التفريق. وقال المهدوي: الذال المعجمة لا وجه لها إلا أن تكون بدلاً من الدال المهملة لتقاربهما، قال: ولا يعرف فشرّد في اللغة، وقرئ **﴿من خلفهم﴾** بكسر الميم والفاء. قوله: **﴿وإما تخافن من قوم خيانة﴾** أي: غشاً ونقضاً للعهد من القوم المعامدين **﴿فانذ إليهم﴾** أي: فاطرح إليهم العهد الذي بينك وبينهم **﴿على سواء﴾** على طريق مستوية. والمعنى: أنه يخبرهم إخباراً ظاهراً مكشوفاً بالنقض، ولا يناجزهم الحرب بغتة، وقيل معنى: **﴿على سواء﴾** على وجه يستوي في العلم بالنقض اقتصام وإنانهم، أو تستوي أنت وهم فيه. قال الكسائي: السواء العدل، وقد يكون بمعنى الوسط، ومنه قوله: **﴿في سواء الجحيم﴾** [الصفات: 55]، ومنه قول حسان:

يا ويح أنصار النبي ورهطه بعد المغيب في سواء الملحد
ومن الأول قول الشاعر:

فأضرب وجوه الغدر الأعداء حتى يجيبوك إلى سواء
وقيل: معنى **﴿فانذ إليهم على سواء﴾** على جهر لا على سرّ، والظاهر أن هذه الآية عامة في كل معاهد يخاف من وقوع النقص منه. قال ابن عطية: والذي يظهر من الفاظ القرآن أن أمر بني قريظة انقضى عند قوله: **﴿فشرّد بهم من خلفهم﴾** ثم ابتداء تبارك وتعالى في هذه الآية بإمره بما يصنعه في المستقبل مع من يخاف منه خيانة، وجملة **﴿إن الله لا يحب الخائنين﴾** تعليل لما قبلها، يحتمل أن تكون تحذيراً لرسول الله ﷺ عن المناجزة قبل أن ينبذ إليهم على سواء، ويحتمل أن تكون عائدة إلى القوم الذين تخاف منهم الخيانة. قوله: **﴿ولا تحسبن﴾** قرأ ابن عامر ويزيد وحمزة وحفص بالياء التحتية، وقرأ الباقر بالمثناة من فوق. فعلى القراءة الأولى يكون الذين كفروا فاعل الحسبان، ويكون مفعوله الأول محذوفاً: أي لا تحسبن الذين كفروا أنفسهم، ومفعوله الثاني سبقوا ومعناه: فاتوا وأفلتوا من أن يظفر بهم. وعلى القراءة الثانية يكون الخطاب لرسول الله ﷺ، ومفعوله الأول الذين كفروا، والثاني سبقوا، وقرئ **﴿إنهم سبقوا﴾** وقرئ **﴿يحبسن﴾** بكسر الياء، وجملة **﴿إنهم لا يعجزون﴾** تعليل لما قبلها: أي إنهم لا يفوتون ولا يجنون طالبيهم عاجزاً عن إدراكهم. وقرأ ابن عامر أنهم بفتح الهمزة، والباقر بفسرها، وكلا القراءتين مفيدة لكون الجملة

رجل يا رسول الله إني رأيت بظهر أبي جهل مثل الشوك قال: تلك ضرب الملائكة. وهذا مرسل. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: **﴿وإنذارهم﴾** قال: وأستأمرهم، ولكن الله كريم يكنى. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي في قوله: **﴿ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمته على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾** قال: نعمة الله: محمد ﷺ أنعم الله به على قريش فكفروا فنقله الله إلى الأنصار.

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٤﴾
عَهْدَتْ إِلَهُمْ ثُمَّ يَنْفُتُونَ عَنْهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَمَنْ لَا يَنْفُتُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّمَا تَنفُتُهُمْ فِي الْحَرْبِ فَتَرَهُمْ مَعَهُمْ لَمَّا يَكْفُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَإِنَّمَا تَخَافُونَ مِنْ قَوْمٍ خِيفَةً نَائِلَةً إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾ وَلَا يَسَّرُ اللَّهُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سُبُلًا إِنْهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٨﴾ وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَغْلَبُوا مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطٍ وَجَيْلٍ تَرْجُونَ بِهِ عَذَابَ اللَّهِ وَعَذَابَكُمْ وَمَلَكِينَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْمَعُونَ اللَّهَ يَطْلُمُهُمْ وَمَا تَسْمَعُونَ مِنْ قَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَوْمَ يُنْفِخُ فِي الصُّورِ ﴿٥٩﴾
إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٠﴾

قوله: **﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ﴾** أي: شرّ ما يلب على وجه الأرض **﴿عند الله﴾** أي: في حكمه **﴿الذين كفروا﴾** أي: المصرون على الكفر المتماثلين في الضلال، ولهذا قال: **﴿فهم لا يؤمنون﴾** أي: إن هذا شأنهم لا يؤمنون أبداً، ولا يرجعون عن الغواية أصلاً، وجعلهم شرّ الدواب لا شرّ الناس إيماء إلى انسلاخهم عن الإنسانية، وبخولهم في جنس غير الناس من أنواع الحيوان لعدم تعقلهم لما فيه رشادهم. قوله: **﴿الذين عاهدت منهم﴾** بدل من الذين كفروا أو عطف بيان أو في محل نصب على الذم. والمعنى: أن هؤلاء الكافرين الذين هم شرّ الدواب عند الله هم هؤلاء الذين عاهدت منهم: أي أخذت منهم عهدهم **﴿ثم﴾** هم **﴿ينقضون عهدهم﴾** الذي عاهدتهم **﴿في كل مرة﴾** من مرّات المعاهدة **﴿و﴾** الحال **﴿أنهم لا يتقون﴾** النقص، ولا يخافون عاقبته ولا يتجنبون أسبابه، وقيل إن **﴿من﴾** في قوله: **﴿منهم﴾** للتبعية، ومفعول عاهدت محذوف: أي الذين عاهدت، وهم بعض أولئك الكفرة: يعني الأشراف منهم، وعطف المستقبل وهو ثم ينقضون على الماضي، وهو عاهدت للدلالة على استمرار النقص منهم، وهؤلاء هم قريظة، عاهدتهم رسول الله ﷺ أن لا يعينوا الكفار فلم يفوا بذلك كما سيأتي، ثم أمر رسول الله ﷺ بالشدة والغلظة عليهم، فقال: **﴿فإنما تنفثهم في الحرب فشرّد بهم من خلفهم﴾** أي: فإما تصانفهم في ثقاف، وتلقاهم في حالة تقدر عليهم فيها، وتتمكن من غلبهم **﴿فشرّد بهم من خلفهم﴾** أي: ففرق بقتلهم والتنكيل بهم من خلفهم من المحاربين لك من أهل الشرك حتى يهاووا جانبك، ويكفوا عن حريك مخافة أن ينزل بهم ما نزل بهؤلاء. والثقاف في أصل اللغة: ما يشد به القناة أو نحوها ومنه قول النابغة:

﴿وَأَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ﴾ في شيء من هذه النفقة التي تنفقونها في سبيل الله: أي من ثوابها، بل يصير ذلك إليكم وافياً وافرأ كاملاً ﴿وَأَنْ تَكُ حَسَنَةً يَضَاعَفُهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 40] ﴿إِنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلٌ عَامِلٌ مِنْكُمْ﴾ [آل عمران: 195].

وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال: نزلت ﴿إِنْ شَرَّ لِلنَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ﴾ الآية في ستة رهط من اليهود فيهم ابن تابوت. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ﴾ قال: قريظة يوم الخندق مالمثوا على رسول الله ﷺ أعداءه. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿فَشَرَّدَ بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ قال: نكل بهم من بعدهم. وأخرج ابن جرير، عنه، في الآية قال: نكل بهم من رءاهم. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن سعيد بن جبير، في الآية قال: انذر بهم. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة قال: عظ بهم من سواهم من الناس. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن زيد، قال: أخفهم بهم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي، في قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَنْكَرُونَ﴾ يقول: لعلهم يحذرون أن ينكثوا فيصنع بهم مثل ذلك. وأخرج أبو الشيخ عن ابن شهاب قال: نكل جبريل على رسول الله ﷺ فقال: قد وضعت السلاح وما زلنا في طلب القوم، فأخرج فإن الله قد أنزل لك في قريظة، وأنزل فيهم: ﴿وَمَا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَا يَعْجِزُونَ﴾ قال: لا يفوتونا. وأخرج أبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَاعْتُوا لَهُمْ مَا لَسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ قال: الرمي والسيوف والسلاح. وأخرج ابن إسحاق، وابن أبي حاتم، عن عباد بن عبد الله بن الزبير، في قوله: ﴿وَاعْتُوا لَهُمْ مَا لَسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ قال: أمرهم بإعداد الخيل. وأخرج أبو الشيخ، والبيهقي في الشعب، عن عكرمة في الآية قال: القوة نكور الخيل، والرباط الإناء. وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد مثله. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن المسيب في الآية قال: القوة الفرس إلى السهم فما دونه. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن الإناء. وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿تَرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ قال: تخزون به عدو الله وعدوكم. وقد ورد في استحباب الرمي، وما فيه من الأجر لأحاديث كثيرة، وكذلك ورد في استحباب اتخاذ الخيل وإعدادها، وكثرة ثواب صاحبها أحاديث لا يتسع المقام لبسطها. وقد أورد ذلك جماعة من العلماء بمصنفات.

﴿وَأَنْ تَكُ حَسَنَةً يَضَاعَفُهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾

تعليقية؛ وقيل المراد بهذه الآية: من أقلت من وقعة بدر من المشركين. والمعنى: أنهم وإن أقلتوا من هذه الوقعة ونجوا فإنهم لا يعجزون، بل هم واقعون في عذاب الله في الدنيا أو في الآخرة. وقد زعم جماعة من النحويين منهم أبو حاتم، أن قراءة من قرأ يحسبن بالتحتية لحن، لا تحل القراءة بها لأنه لم يأت ليحسبن بمفعول، وهو يحتاج إلى مفعولين. قال النحاس: وهذا تحامل شديد. ومعنى هذه القراءة: ولا يحسبن من خلفهم الذين كفروا سبقوا، فيكون الضمير يعود على ما تقدم إلا أن القراءة بالتاء أبين. وقال المهدوي: يجوز على هذه القراءة أن يكون الذين كفروا فاعلاً، والمفعول الأول محنوف. والمعنى ولا يحسبن الذين كفروا أنفسهم سبقوا. قال مكي: ويجوز أن يضم مع سبقوا «أن» فتسد مسد المفعولين، والتقدير: ولا يحسبن الذين كفروا أن سبقوا، فهو مثل: «أحسب الناس أن يتركوا» [العنكبوت: 2] في سد أن مسد المفعولين، ثم أمر سبحانه بإعداد القوة للأعداء، والقوة كل ما يتقوى به في الحرب، ومن ذلك السلاح والقتل. وقد ثبت في صحيح مسلم وغيره من حديث عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول: «واعتوا لهم ما استطعتم من قوة إلا أن القوة الرمي، قالها ثلاث مرات». وقيل: هي الحصون، والمصير إلى التفسير الثابت عن رسول الله ﷺ متعين. قوله: ﴿وَمَنْ رِبَاطَ الْخَيْلِ﴾ قرأ الحسن وعمر بن دينار وأبو حيو «وَمَنْ رِبَاطَ الْخَيْلِ» بضم الراء والياء ككتب: جمع كتاب. قال أبو حاتم: الرباط من الخيل الخمس فما فوقها، وهي الخيل التي ترتبط بإزاء العدو. ومنه قول الشاعر:

أمر الإله بربطه بالعدو في الحرب إن الله خير موفق
قال في الكشف: والرباط اسم للخيل التي تربط في سبيل الله، ويجوز أن يسمى بالرباط الذي هو بمعنى المرباطة. ويجوز أن يكون جمع ربيط كفضيل وفصال. انتهى. ومن فسر القوة بكل ما يتقوى به في الحرب جعل عطف الخيل من عطف الخاص على العام، وجملة «تَرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ» في محل نصب على الحال والترهيب: التخويف، والضمير في به عائذ إلى «ما» في «ما استطعتم» أو إلى المصدر المفهوم من «واعتوا» وهو الإعداد. والمراد بعدو الله وعدوهم هم المشركون من أهل مكة، وغيرهم من مشركي العرب. قوله: ﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ﴾ معطوف على عدو الله وعدوكم. ومعنى من دونهم: من غيرهم؛ قيل هم اليهود، وقيل فارس والروم، وقيل الجن، ورجحه ابن جرير. وقيل المراد بالآخرين من غيرهم: كل من لا تعرف عدالته قاله السهيلي. وقيل: هم بنو قريظة خاصة، وقيل غير ذلك. والأولى: الوقف في تعيينهم لقوله: ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾. قوله: ﴿وَمَا تَنْفَقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: في الجهاد وإن كان يسيراً حقيقاً «يُؤَفِّقُ إِلَيْكُمْ» جزأه في الآخرة. فالحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، كما قرئناه سابقاً

وَأَن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوا فَرَاكَ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ نَصْرَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ وَأَلَّتْ بَيْتَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَفَتْ بَيْتَ قُلُوبِهِمْ وَلَخَسِرَ اللَّهُ أَكْثَرُ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٦﴾

الجنوح: الميل، يقال جنح الرجل إلى الرجل: مال إليه؛ ومنه قيل للأضالع جوانح لأنها مالت إلى الحنوة، وجنحت الإبل: إذا مالت أعناقها في السير، ومنه قول ذي الرمة: إذا مات فوق الرجل أحبيت روحه - بذكراك والعيس المراسيل جنح ومثله قول عنترة:

جوانح قد أيقن أن قبيله إذا ما التقى الجمعان لؤل غالب يعني الطير، والسلم: الصلح. قرأ الأعمش وأبو بكر، وابن محيصن، والمفضل بكسر السين، وقرأ الباقون بفتحها. وقرأ العقيلي ﴿فلجنح﴾ بضم النون، وقرأ الباقون بفتحها. والاولى: لغة قيس، والثانية: لغة تميم. قال ابن جني: ولغة قيس هي القياس، والسلم تؤنث كما تؤنث الحرب، أو هي مؤولة بالخصلة، أو الفعلة.

وقد اختلف أهل العلم هل هذه الآية منسوخة أم محكمة؟ فقيل هي منسوخة بقوله: ﴿فماقتلوا المشركين﴾ [التوبة: 5] وقيل: ليست بمنسوخة، لأن المراد بها قبول الجزية، وقد قبلها منهم الصحابة فمن بعدهم، فتكون خاصة بأهل الكتاب؛ وقيل: إن المشركين إن دعوا إلى الصلح جاز أن يجابوا إليه، وتمسك المانعون من مصلحة المشركين بقوله تعالى: ﴿ولا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم﴾ [محمد: 35] وقيدوا عدم الجواز بما إذا كان المسلمون في عزة وقوة، لا إذا لم يكونوا كذلك، فهو جائز كما وقع منه ﷺ من مهانة قريش، وما زالت الخلفاء والصحابة على ذلك، وكلام أهل العلم في هذه المسئلة معروف مقرر في مواضعه ﴿وتوكل على الله﴾ في جنوحك للسلم، ولا تخف من مكرهم، ف﴿إنه﴾ سبحانه ﴿هو السميع﴾ لما يقولون ﴿العليم﴾ بما يفعلون ﴿وإن يريدوا أن يخدعوك﴾ بالصلح، وهم مضمرون الغدر والخدع ﴿فإن حسبك الله﴾ أي: كافيك ما تخافه من شرورهم بالنكت والغدر، وجملة ﴿هو الذي إليك بنصره وبالمؤمنين﴾ تعليلية: أي لا تخف من خدعهم ومكرهم، فإن الله الذي قواك عليهم بالنصر فيما مضى، وهو يوم بدر، هو الذي سينصرك ويقويك عليهم عند حدوث الخدع والنكت، والمراد بالمؤمنين: المهاجرين والأنصار، ثم بين كيف كان تأييده بالمؤمنين فقال: ﴿وألقت بين قلوبهم﴾ وظاهره العموم وأن ائتلاف قلوب المؤمنين هو من أسباب النصر التي أيد الله بها رسوله. وقال جمهور المفسرين: المراد الأوس والخزرج، فقد كان بينهم عصبية شديدة وحروب عظيمة، فآلف الله بين قلوبهم بالإيمان برسول الله ﷺ، وقيل: أراد التآليف بين المهاجرين والأنصار، والحمل على العموم أولى، فقد كانت العرب قبل البعثة المحمدية ياكل بعضهم بعضاً ولا يحترم ماله ولا دمه، حتى جاء الإسلام فصاروا يداً واحدة، وذهب

ما كان بينهم من العصبية، وجملة ﴿ولو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألقت بين قلوبهم﴾ مقترنة لمضمون ما قبلها. والمعنى أن ما كان بينهم من العصبية والعداوة قد بلغ إلى حد لا يمكن نفعه بحال من الأحوال، ولو أنفق الطالب له جميع ما في الأرض لم يتم له ما طلبه من التآليف، لأن أمرهم في ذلك قد تفاقم جداً ﴿ولكن الله آلف بينهم﴾ بعظيم قدرته وبديع صنعه ﴿إنه عزيز﴾ لا يغالبه مغالب، ولا يستعصي عليه أمر من الأمور ﴿حكيم﴾ في تدبيره ونفوذ نبيه وأمره.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، في قوله: ﴿وإن جنحوا للسلم﴾ قال: قريظة. وأخرج أبو الشيخ، عن السدي في الآية قال: نزلت في بني قريظة نسختها: ﴿فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم﴾ [محمد: 35] إلى آخر الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، قال: السلم الطاعة. وأخرج أبو الشيخ عنه في الآية قال: إن رضوا فارض. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي في الآية قال: إن أرادوا الصلح، فأرده. وأخرج أبو عبيد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مروي، عن ابن عباس، في الآية قال: نسختها هذه الآية ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾ [التوبة: 29] إلى قوله: ﴿وهم صاغرون﴾ [التوبة: 29]. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، والنحاس في ناسخه، وأبو الشيخ، عن قتادة، قال: ثم نسخ ذلك: ﴿فماقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ [التوبة: 5]. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿وإن يريدون أن يخدعوك﴾ قال: قريظة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي، في قوله: ﴿وبالمؤمنين﴾ قال: بالأنصار. وأخرج ابن مروي، عن النعمان بن بشير نحوه. وأخرج ابن مروي، عن ابن عباس، نحوه أيضاً. وأخرج ابن عساکر، عن أبي هريرة، قال: مكتوب على العرش: لا إله إلا الله أنا الله وحدي لا شريك لي، ومحمد عبدي ورسولي أيدته بعلمي، وذلك قوله: ﴿هو الذي إليك بنصره وبالمؤمنين﴾. وأخرج ابن المبارك، وابن أبي شيبة، وابن أبي الدنيا، والنسائي، والبخاري، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مروي، والبيهقي في الشعب، عن ابن مسعود، أن هذه الآية نزلت في المتحابين في الله ﴿ولو أنفقت ما في الأرض جميعاً﴾ الآية. وأخرج أبو عبيد، وابن المنذر، وأبو الشيخ، والبيهقي في شعب الإيمان، واللفظ له عن ابن عباس قال: قرابة الرحم تقطع؛ ومئة المنعم تكفر، ولم نر مثل تقارب القلوب، يقول الله ﴿ولو أنفقت ما في الأرض جميعاً﴾ الآية. وأخرج ابن المبارك، وعبد الرزاق، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم، والبيهقي عنه نحوه. وليس في هذا عن ابن عباس ما يدل على أنه سبب النزول، ولكن الشأن في قول ابن مسعود رضي الله عنه: إن هذه الآية نزلت في المتحابين في الله مع أن الواقع قبلها ﴿هو الذي إليك بنصره وبالمؤمنين﴾ والواقع بعدها ﴿يا أيها النبي حسبك الله ومن

هذا الخبر الواقع في الآية هو في معنى الأمر كقوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضَعْنَ﴾ [البقرة: 233] ﴿وَالْمُطْلَقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ﴾ [البقرة: 228] فالْمُؤْمِنُونَ كانوا مأمورين من جهة الله سبحانه بأن تثبت الجماعة منهم لعشرة أمثالهم، ثم لما شق ذلك عليهم واستعظموه خفف عنهم ورخص لهم لما علمه سبحانه من وجود الضعف فيهم فقال: ﴿فَإِنْ تَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ إلى آخر الآية، فالوجوب على الواحد أن يثبت لاثنتين من الكفار. وقرأ حمزة وحفص عن عاصم «ضعفًا» بفتح الضاد، وقوله: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ متعلق بقوله: ﴿يَغْلِبُوا﴾ أي: إن هذا القلب بسبب جهلهم وعدم فقههم. وأنهم يقاتلون على غير بصيرة، ومن كان هكذا فهو مغلوب في الغالب، وقد قيل في نكتة التخصيص على غلب العشرين للمائتين، والمائة للآلاف أن سراياه التي كان يبعثها ﷺ كان لا ينقص عندها عن العشرين ولا يجاوز المائة، وقيل في التخصيص فيما بعد ذلك على غلب المائة للمائتين، والآلاف للآلاف، على أنه بشارة للمسلمين بأن عساكر الإسلام سيجاوز عددها العشرات والمئات إلى الآلاف، ثم أخبرهم بأن هذا الغلب هو بإذن الله وتسهيله، وتيسيره لا بقوةهم وجلالتهم، ثم بشرهم بأنه مع الصابرين، وفيه الترغيب إلى الصبر والتأكيد عليهم بلزومه والتوصية به، وأنه من أعظم أسباب النجاح والفلاح والنصر والظفر، لأن من كان الله معه لم يستقم لأحد أن يغلبه. وقد اختلف أهل العلم، هل هذا التخفيف نسخ أم لا؟ ولا يتعلق بذلك كثير فائدة.

وقد أخرج البزار عن ابن عباس قال: لما أسلم عمر قال للمشركون: قد انتصف القوم منا اليوم، وأنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. وأخرج الطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس قال: لما أسلم مع النبي ﷺ تسعة وثلاثون رجلاً وامرأة، ثم إن عمر أسلم صاروا أربعين فنزل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن سعيد بن جبيرة، قال: لما أسلم مع النبي ﷺ ثلاثة وثلاثون وست نسوة ثم أسلم عمر نزلت ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾. وأخرج ابن إسحاق، وابن أبي حاتم، عن الزهري في الآية قال: نزلت في الأنصار، وأخرج البخاري في تاريخه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الشعبي في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال: حَسْبُكَ اللَّهُ وحسب من اتبعك. وأخرج البخاري، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب، عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ فكتب عليهم أن لا يفرَّ واحد من عشرة، وأن لا يفرَّ عشرون من مائتين، ثم نزلت ﴿الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾ الآية، فكتب أن لا يفرَّ مائة من مائتين قال سفيان وقال ابن شبرمة: وأرى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مثل هذا،

اتبعك من المؤمنين﴾ [الأنفال: 64] ومع كون الضمير في قوله: ﴿مَا لَفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ يرجع إلى المؤمنين المذكورين قبله بلا شك ولا شبهة، وكذلك الضمير في قوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ لَمَعَ بَيْنَهُمْ﴾ فإن هذا يدل على أن التاليف المذكور وهو بين المؤمنين الذين أيد الله بهم رسوله ﷺ.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَكَمَا أَنَّ يَكُنْ مِنْكُمْ سِتَّةَ مِائَةٍ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ليس هذا تكريراً لما قبله فإن الأول مقيد بإعادة الخدع ﴿وَأَنْ يَرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوا فَإِنَّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ [الأنفال: 62] فهذه كفاية خاصة، وفي قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ كفاية عامة غير مقيدة: أي حَسْبُكَ اللَّهُ في كل حال، والواو في قوله: ﴿وَمَنِ اتَّبَعَكَ﴾ يحتمل أن تكون للعطف على الاسم الشريف. والمعنى: حَسْبُكَ اللَّهُ وحسبك المؤمنون: أي كافيك الله وكافيك المؤمنون، ويحتمل أن تكون بمعنى مع كما تقول: حَسْبُكَ وَزَيْدٌ درهم، والمعنى: كافيك وكافي المؤمنين الله، لأن عطف الظاهر على المضمَر في مثل هذه الصورة ممتنع كما تقرر في علم النحو، وأجازه الكوفيون. قال الفراء: ليس بكثير في كلامهم أن تقول حَسْبُكَ وَأَخِيكَ، بل المستعمل أن يقال: حَسْبُكَ وحسب أخيك بإعادة الجار، فلو كان قوله: ﴿وَمَنِ اتَّبَعَكَ﴾ مجروراً لقليل: حَسْبُكَ اللَّهُ وحسب من اتبعك، واختار النصب على المفعول معه النحاس، وقيل يجوز أن يكون المعنى: ومن اتبعك من المؤمنين حسبهم الله فحذف الخبر. قوله: ﴿حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ أي: حثهم وحضهم، والتحريض في اللغة: المبالغة في الحث وهو كالتحضيض، مأخوذ من الحرَض، وهو أن ينهك المرض ويتبالم فيه حتى يشفى على الموت كأنه ينسب إلى الهلاك لو تخلف عن المأمور به، ثم بشرهم تثبيتاً لقلوبهم وتسكيناً لخواطرهم بأن الصابرين منهم في القتال يغلبون عشرة أمثالهم من الكفار، فقال: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ ثم زاد هذا أيضاً مفيداً لعدم اختصاص هذه البشارة بهذا العدد، بل هي جارية في كل عدد فقال: ﴿وَأَنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا﴾ وفي هذا دلالة على أن الجماعة من المؤمنين قليلاً كانوا أو كثيراً لا يغلبهم عشرة أمثالهم من الكفار بحال من الأحوال، وقد وجد في الخارج ما يخالف ذلك، فكم من طائفة من طوائف الكفار يغلبون من هو مثل عشرهم من المسلمين، بل مثل نصفهم بل مثلهم. وأجيب عن ذلك بأن وجود هذا في الخارج لا يخالف ما في الآية لاحتمال أن لا تكون الطائفة من المؤمنين متصفة بصفة الصبر؛ وقيل: إن

فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم». القول الثالث هو: أنه لا يعذبهم ورسول الله ﷺ فيهم كما قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: 33]. القول الرابع: أنه لا يعذب أحداً بئذ فعله جاهلاً لكونه ذنباً. القول الخامس: أنه ما قضاه الله من محو الصفات باجتناب الكبائر. القول السادس: أنه لا يعذب أحداً إلا بعد تأكيد الحجة وتقديم النهي، ولم يتقدم نهي عن ذلك. وذهب ابن جرير الطبري إلى أن هذه المعاني كلها داخلة تحت اللفظ، وأنه يعمها ﴿لمسكم﴾ أي: لحل بكم ﴿فيما أخذتم﴾ أي: لأجل ما أخذتم من الفداء ﴿عذاب عظيم﴾ والفاء في ﴿فكلوا مما غنمتم﴾ لترتيب ما بعدها عن سبب محذوف: أي قد أبحث لكم الغنائم، فكلوا مما غنمتم ويجوز أن تكون عاطفة على مقدر محذوف: أي اتركوا الفداء فكلوا مما غنمتم من غيره؛ وقيل إن ﴿ما﴾ عبارة عن الفداء: أي كلوا من الفداء الذي غنمتم فإنه من جملة الغنائم التي أحلها الله لكم و﴿حلالاً طيباً﴾ منتصبان على الحال، أو صفة المصدر المحذوف: أي أكلاً حلالاً طيباً ﴿وواتقوا الله﴾ فيما يستقبل، فلا تقدموا على شيء لم يأن الله لكم به ﴿إن الله غفور﴾ لما فرط منكم ﴿رحيم﴾ بكم، فلذلك رخص لكم في أخذ الفداء في مستقبل الزمان.

وقد أخرج أحمد، عن أنس قال: استشار النبي ﷺ الناس في الأسارى يوم بدر فقال: إن الله قد أمكنكم منهم. فقال عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله اضرب أعناقهم. فأعرض عنه النبي ﷺ. ثم عاد رسول الله ﷺ فقال: يا أيها الناس إن الله قد أمكنكم منهم؛ وإنما هم إخوانكم بالأمس، فقام عمر فقال: يا رسول الله اضرب أعناقهم. فأعرض عنه النبي ﷺ. ثم عاد فقال مثل ذلك فقام أبو بكر الصديق فقال: يا رسول الله نرى أن تعفو عنهم وأن تقبل منهم الفداء، فعفا عنهم وقبل منهم الفداء، فأنزل الله ﴿لَوْلَا كِتَابُ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ الآية. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، والترمذي وحسنه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل، عن ابن مسعود قال: لما كان يوم بدر جيء بالأسارى وفيهم العباس، فقال رسول الله ﷺ: ما ترون في هؤلاء الأسارى؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله قومك وأهلك فاستبقهم لعل الله أن يتوب عليهم، وقال عمر: يا رسول الله كذبوك وأخرجوك وقتلوك قَتَمَهُم فاضرب أعناقهم؛ وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله انظر وائياً كثير الحطب فأضرمه عليهم نارا فقال العباس وهو يسمع: قطعت رحمك، فدخل النبي ﷺ عليهم ولم يرد عليهم شيئا، فقال أناس: يأخذ بقول أبي بكر، وقال أناس: يأخذ بقول عمر، وقال قوم: يأخذ بقول عبد الله بن رواحة، فخرج رسول الله ﷺ فقال: إن الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون الين من اللين، وإن الله ليشد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة، مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم عليه السلام قال: ﴿مَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ

إِنْ كَانَا رَجُلَيْنِ أَمْرُهُمَا وَإِنْ كَانُوا ثَلَاثَةً فَهُوَ فِي سَعَةِ مِنْ تَرْكِهِمْ، وأخرج البخاري والنحاس في ناسخه، وابن مردويه، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ﴾ شق ذلك على المسلمين حين فرض عليهم أن لا يفر واحد من عشرة، فجاء التخفيف ﴿الآن خفف الله عنكم﴾ الآية قال: فلما خفف الله عنهم من العدة نقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم.

مَا كَانَتْ لِيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُنْزَلَ فِي الْأَرْضِ يُرِيدُونَ عَرَصَ النَّبِيِّ وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧٧﴾ لَوْلَا كِتَابُ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧٨﴾ تَكُونُوا مِمَّا عَزَمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٩﴾

هذا حكم آخر من أحكام الجهاد. ومعنى ﴿ما كان لنبي﴾ ما صح له وما استقام، قرأ أبو عمرو، وسهيل ويعقوب، ويزيد، والمفضل، أن تكون بالفوقية، وقرأ الباقون بالتحية، وقرأ أيضاً يزيد والمفضل «أسارى» وقرأ الباقون «أسرى» والأسرى جمع أسير، مثل قتلى وقتيل، وجرحى وجريح، ويقال في جمع أسير أيضاً أسارى بضم الهمزة ويفتحها، وهو مأخوذ من الأسر، وهو القيد، لأنهم كانوا يشنون به الأسير، فسمي كل أخيد وإن لم يشد بالقيد أسيراً، قال الأعشى:

وقبيني الشعر في بيته كما قبلت الأسرات الحمرا
وقال أبو عمرو بن العلاء: الأسرى هم غير الموثقين عندما يؤخذون، والأسارى هم الموثقون ربطاً. والإثخان: كثرة القتل والمبالغة فيه؛ تقول العرب: اثخن فلان في هذا الأمر: أي بالغ فيه. فالمعنى: ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يبلغ في قتل الكافرين ويستكثر من ذلك؛ وقيل معنى الإثخان: التمكن، وقيل: هو القوة. أخبر الله سبحانه أن قتل المشركين يوم بدر كان أولى من أسرهم، وفدائهم؛ ثم لما كثر المسلمون رخص الله في ذلك فقال: ﴿فإنما منا بعد وإنما فداء﴾ [محمد: 4] كما يأتي في سورة القتال إن شاء الله. قوله: ﴿تريدون عرض﴾ الحياة ﴿الدنيا﴾ أي: نفعها ومتاعها بما قبضتم من الفداء؛ وسمي عرضاً لأنه سريع الزوال كما تزول الأعراض التي هي مقابل الجواهر ﴿والله يريد الآخرة﴾ أي: يريد لكم الدار الآخرة بما يحصل لكم من الثواب في الإثخان بالقتل. وقرأ «يريد الآخرة» بالجر على تقدير مضاف وهو المذكور قبله: أي والله يريد عرض الآخرة ﴿والله عزيز﴾ لا يغلب ﴿حكيم﴾ في كل أفعاله. قوله: ﴿لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم﴾ اختلف المفسرون في هذا الكتاب الذي سبق ما هو؟ على أقوال: الأول ما سبق في علم الله من أنه سيحل لهذه الأمة الغنائم بعد أن كانت محرمة على سائر الأمم. والثاني: أنه مغفرة الله لأهل بدر ما تقدم من ذنوبهم وما تأخر، كما في الحديث الصحيح «إن الله أطلع على أهل بدر

عباس، قال: سبقت لهم من الله الرحمة قبل أن يعملوا بالمعصية. وأخرج أبو حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد قال: سبق أن لا يعذب أحداً حتى يبين له ويتقدم إليه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَىٰ إِنْ سَلَّمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُوَفِّقْكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخذَ مِنْكُمْ وَيَنْصِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧٨﴾

اختلاف القراءة في أسرى^(١) والأسارى هو هنا كما سبق في الآية التي قبل هذه، خاطب الله النبي ﷺ بهذا: أي قل لهؤلاء الأسرى الذين هم في أيديكم أسرتهم يوم بدر وأخنتهم منهم الفداء «إِنْ يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا» من حسن إيمان، وصلاح نية، وخلوص طوية «يُوَفِّقْكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ» من الفداء: أي يعوضكم في هذه الدنيا رزقاً خيراً منه، وأنفع لكم، أو في الآخرة بما يكتبه لكم من المثوبة بالأعمال الصالحة «وَيُغْفِرْ لَكُمْ» ذنوبكم «وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» شأنه المغفرة لعباده والرحمة لهم. ولما نكر ما نكره من العوض لمن علم في قلبه خيراً نكر من هو على ضد ذلك منهم فقال: «وَأَنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ» بما قالوه لك بالسننهم من أنهم قد آمنوا بك وصدقوك، ولم يكن ذلك منهم عن عزيمة صحيحة ونية خالصة، بل هو مماكرة ومخادعة، فليس ذلك بمستبعد منهم، فإنهم قد فعلوا ما هو أعظم منه، وهو أنهم خانوا الله من قبل أن تظفر بهم، فكفروا به وقتلوا رسوله «فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ» بأن نصره عليهم في يوم بدر، فقتلت منهم من قتلت وأسرت من أسرت «وَاللَّهُ عَلِيمٌ» بما في ضمائرهم «حَكِيمٌ» في أفعاله بهم.

وقد أخرج الحاكم وصححه، والبيهقي في سننهم، عن عائشة قالت: لما بعث أهل مكة في فداء أسراهم، بعثت زينب بنت رسول الله ﷺ في فداء أبي العاص، وبعثت فيه بقلادة، فلما رآها رسول الله ﷺ رقى رقعة شديدة وقال: «إِنْ رَأَيْتُمْ أَنْ تَطْلُقُوا لَهَا أُسْرِيهَا، وَقَالَ الْعَبَّاسُ: إِنِّي كُنْتُ مُسْلِمًا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِسْلَامِكَ، فَإِنْ تَكُنْ كَمَا تَقُولُ فَاللَّهُ يَجْزِيكَ، فَافْدِ نَفْسَكَ وَابْنِي أَخُوكَ نَوْفَلَ بْنِ الْحَارِثِ وَعَقِيلَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، وَحَلِيفَكَ عَثْبَةَ بْنَ عَمْرِو، قَالَ: مَا ذَاكَ عِنْدِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَإِنَّ الْمَالَ الَّذِي بَفِنتِ أَنْتِ وَأَمَّ الْفَضْلُ؟ فَقُلْتُ لَهَا: إِنْ أَصِبتَ فِهَذَا الْمَالَ لِبَنِي فَقَالَ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ هَذَا لَشَيْءٌ مَا عَلِمَهُ غَيْرِي وَغَيْرَهَا، فَاحْصِبْ لِي مَا أَصِبتَ مِنْ عِشْرِينَ أَوْقِيَةً مِنْ مَالٍ كَانُ مَعِي، قَالَ: لَا أَفْعَلُ، فَفَدَى نَفْسَهُ وَابْنِي أَخُوهُ وَحَلِيفَهُ، وَنَزَلَتْ: «قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَىٰ» الآية، فَأَعْطَانِي مَكَانَ الْعِشْرِينَ الْأَوْقِيَةِ فِي الْإِسْلَامِ، عِشْرِينَ عَبْدًا كُلَّهُمْ فِي يَدِهِ مَالٌ يُضْرَبُ بِهِ مَعَ مَا أَرْجُو مِنْ مَغْفَرَةِ اللَّهِ». وأخرج ابن سعد، والحاكم وصححه، عن أبي موسى أن العلاء بن الحضرمي بعث إلى رسول الله

غفور رحيم ﴿إبراهيم: 36﴾، ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى عليه السلام إذ قال: ﴿إِنْ تَعَذَّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: 118]، ومثلك يا عمر مثل نوح عليه السلام إذ قال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: 26]، ومثلك يا عمر مثل موسى عليه السلام إذ قال: ﴿رَبِّنَا اطْمَسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: 88] أنتم عالة فلا ينفلتن أحد منهم إلا بفداء أو ضرب عنق، فقال عبد الله: يا رسول الله إلا سهيل بن بيضاء فإنني سمعته ينكر الإسلام، فسكت رسول الله ﷺ، فما رأيته في يوم أخوف من أن تقع علي الحجارة من السماء من تلك اليوم حتى قال رسول الله ﷺ: إلا سهيل بن بيضاء، فأنزل الله ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ﴾ الآية. وأخرج الحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في سننهم، عن علي قال: قال النبي ﷺ في الأسارى يوم بدر «إِنْ شِئْتُمْ قَتَلْتُمُوهُمْ، وَإِنْ شِئْتُمْ فَادَيْتُمْ وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِالْفِدَاءِ، وَاسْتَشْهَدْ مِنْكُمْ بَعْدْتُمْ. فَكَانَ آخِرُ السَّبْعِينَ ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ اسْتَشْهَدَ بِالْإِمَامَةِ». وأخرج عبد الرزاق في مصنفه، وابن أبي شيبة عن عبيدة نحوه. وأخرج الحاكم وصححه، وابن مردويه، عن ابن عمر، قال: لما أسر الأسارى يوم بدر أسر العباس فيمن أسره، أسره رجل من الأنصار وقد وعدته الأنصار أن يقتلوه، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «إِنِّي لَمْ أُنَمِ اللَّيْلَةَ مِنْ أَجْلِ عَمِي الْعَبَّاسِ، وَقَدْ زَعَمْتَ الْإِنصَارُ أَنَّهُمْ قَاتَلُوهُ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: فَاتَيْمُّ؟ قَالَ نَعَمْ، فَاتَى عُمَرَ الْإِنصَارُ فَقَالَ: أَرْسَلُوا لِعَبَّاسٍ، فَقَالُوا: لَا وَاللَّهِ لَا نُرْسِلُهُ. فَقَالَ لَهُمْ عُمَرُ: فَإِنْ كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ رِضًا، قَالُوا: فَإِنْ كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ رِضًا فَخَذَهُ، فَأَخَذَهُ عُمَرُ، فَلَمَّا صَارَ فِي يَدِهِ قَالَ لَهُ: يَا عَبَّاسُ اسْلَمْ، فَوَاللَّهِ إِنْ تَسْلَمَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَسْلَمَ الْخَطْبُ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِمَا رَأَيْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَعْجِبُهُ إِسْلَامُكَ، قَالَ: فَاسْتَشَارَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَبَا بَكْرٍ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: عَشِيرَتُكَ فَارْسَلَهُمْ، فَاسْتَشَارَ عُمَرَ فَقَالَ: اقْتُلْهُمْ، فَفَادَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فأنزل الله، ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ﴾ الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: «حَتَّى يَتَخَنُّ فِي الْأَرْضِ» يقول حتى يظهروا على الأرض، وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، عن مجاهد، قال: الإِثْخَانُ هُوَ: الْقَتْلُ. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، عن مجاهد، أيضاً في الآية قال: ثم نزلت الرخصة بعد، إن شئت فمَنْ، وإن شئت ففاد، وأخرج ابن المنذر عن قتادة «تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا» قال: أراد أصحاب محمد ﷺ يوم بدر الفداء، ففادوهم بأربعة آلاف أربعة آلاف. وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة «تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا» قال: الخراج. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مجاهد، في قوله: «لَوْلَا كِتَابُ اللَّهِ مِنْ اللَّهِ سَبَقَ» قال: سبق لهم المغفرة. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن سعيد بن جبيرة، قال: ما سبق لأهل بدر من السعادة. وأخرج الثعلباني، وابن مردويه، وأبو الشيخ، عن ابن

(١) هكذا بالأصل ولعله في الأسارى فقط اهـ. مصحح القرآن.

كان للطائفة الأولى الجامعين بين الإيمان والهجرة ﴿وإن استنصروكم﴾ أي: هؤلاء الذين آمنوا ولم يهاجروا، إذا طلبوا منكم النصر لهم على المشركين ﴿فعليكم النصر﴾ أي: فواجب عليكم النصر ﴿إلا﴾ أن يستنصروكم ﴿على قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾ فلا تنصروهم ولا تنقضوا العهد الذي بينكم وبين أولئك القوم، حتى تنقضي ميثاقه. قال الزجاج: ويجوز فعليكم النصر بالنصب على الإغراء. قوله: ﴿والذين كفروا﴾ مبتدأ خبره ﴿بعضهم أولياء بعض﴾ أي: بعضهم ينصر بعضاً ويتولاه في أموره، أو يرثه إذا مات، وفيه تعريض للمسلمين بأنهم لا يناصرون الكفار ولا يتولونهم. قوله: ﴿إلا تفعلوه﴾ الضمير يرجع إلى ما أمروا به قبل هذا من موالاة المؤمنين ومناصرتهم على التفصيل المذكور، وترك موالاة الكافرين ﴿تكن فتنة في الأرض﴾ أي: تقع فتنة إن لم تفعلوا ذلك ﴿وفساد كبير﴾ أي: مفسدة كبيرة في الدين والدنيا، ثم بين سبحانه حكماً آخر يتعلق بالمؤمنين المهاجرين المجاهدين في سبيل الله والمؤمنين الذين آووا من هاجر إليهم ونصروهم وهم الأنصار، فقال: ﴿أولئك هم المؤمنون حقا﴾ أي: الكاملون في الإيمان، وليس في هذا تكرير لما قبله فإنه وارد في الثناء على هؤلاء، والأول وارد في إيجاب الموالاة والنصرة، ثم أخبر سبحانه أن ﴿لهم﴾ منه ﴿مغفرة﴾ لنزوبهم في الآخرة ﴿و﴾ لهم في الدنيا ﴿رزق كريم﴾ خالص عن الكدر طيب مستلذ، ثم أخبر سبحانه بأن من هاجر بعد هجرتهم وجاهد مع المهاجرين الأولين والأنصار فهو من جملتهم: أي من جملة المهاجرين الأولين والأنصار في استحقاق ما استحقوه من الموالاة والمناصرة، وكمال الإيمان والمغفرة والرزق الكريم، ثم بين سبحانه بأن أولى الأرحام بعضهم أولى ببعض من غيرهم ممن لم يكن بينه وبينهم رحم في الميراث، والمراد بهم القربايات فيتناول كل قرابة؛ وقيل المراد بهم هنا: العصباء، قالوا: ومنه قول العرب: وصلتك رحم فإنهم لا يريون قرابة الأم. قالوا: ومنه قول قتيلة: ظلت سيوف بني أبيه تنوشه الله أرحام هناك تشق ولا يخفك أنه ليس في هذا ما يمنع من إطلاقه على غير العصباء، وقد استدل بهذه الآية من أثبت ميراث ذوي الأرحام، وهم من ليس بعصبة ولا ذي سهم على حسب اصطلاح أهل علم الموارث، والخلاف في ذلك معروف مقرر في موطنه؛ وقد قيل: إن هذه الآية ناسخة للميراث بالموالاة والنصرة عند من قسر ما تقدم من قوله: ﴿بعضهم أولياء بعض﴾ وما بعده بالتوارث، وأما من فسرهما بالنصرة والمعونة فيجعل هذه الآية إخباراً منه سبحانه وتعالى بأن القربايات ﴿بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾ أي: في حكمه، أو في اللوح المحفوظ، أو في القرآن، ويدخل في هذه الأولوية الميراث دخلاً أولاً لوجود سببه، أعني القرابة ﴿إن الله بكل شيء عليم﴾ لا يخفى عليه شيء من الأشياء كأننا ما كان، ومن جملة ذلك ما تضمنته هذه الآيات.

﴿بما﴾ من البحرين ثمانين ألفاً، فما أتى رسول الله ﷺ مال أكثر منه، فنشر على حصير، وجاء الناس، فجعل رسول الله ﷺ يعطيهم، وما كان يومئذ عدد ولا وزن، فجاء العباس فقال: يا رسول الله إني أعطيت فدائي، وفداء عقيل يوم بدر، وأعطني من هذا المال، فقال: خذ، فحشا في خميصته ثم ذهب ينصرف فلم يستطع، فرفع رأسه وقال: يا رسول الله أرفع علي، فتبسم رسول الله ﷺ وذهب وهو يقول: أما أحد للذين وعد الله فقد أنجزنا، وما ندرى ما يصنع في الأخرى ﴿قل لمن في أيديكم من الأسارى إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم﴾ فهذا خير مما أخذ مني ولا أندري ما يصنع في المغفرة. والروايات في هذا الباب كثيرة. وأخرج ابن سعد، وابن عسكرك، عن ابن عباس، في الآية قال: نزلت في الأسارى يوم بدر، منهم العباس بن عبد المطلب، ونوفل بن الحارث، وعقيل بن أبي طالب. وأخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ، عنه، في قوله: ﴿وإن يريدوا خيانتك﴾ إن كان قولهم كتباً ﴿فقد خانوا الله من قبل﴾ فقد كفروا وقاتلوك ﴿فامكن﴾ ك الله ﴿منهم﴾.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَهِجِرُوا مَا لَكُم مِّنْ دِينٍ وَلَا تَحِيصٌ وَمَن يَفْعَلْ مِثْلَ بِرِّ اللَّهِ فَلْيَكُفِّرْ بَعْدَهُ وَلَا تَفْعَلُوا مَن كَفَرَ بَعْدَ عَهْدٍ بِبَعْضِ أَوْلِيَٰهِ بَعْضٌ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ فَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَّا نَفَقُوا رِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنكُمْ وَأُولَئِكَ الْأَحْزَابُ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٨﴾

ختم الله سبحانه هذه السورة بنكر الموالاة ليعلم كل فريق ولية الذي يستعين به، وسمى سبحانه المهاجرين إلى المدينة بهذا الاسم، لأنهم هجروا أوطانهم وفارقوها طلباً لما عند الله، وإجابة لداعيه ﴿والذين آمنوا وأنصروا﴾ هم الأنصار والإشارة بقوله: ﴿أولئك﴾ إشارة إلى الموصول الأول والآخر، وهو مبتدأ وخبره الجملة المذكورة بعده، ويجوز أن يكون ﴿بعضهم﴾ بدلاً من اسم الإشارة، والخبر ﴿أولياء بعض﴾ أي: بعضهم أولياء بعض في النصرة والمعونة، وقيل المعنى: إن بعضهم أولياء بعض في الميراث. وقد كانوا يتوارثون بالهجرة والنصرة، ثم نسخ ذلك بقوله سبحانه: ﴿وآولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾. قوله: ﴿والذين آمنوا﴾ مبتدأ، وخبره ﴿ما لكم من ولايتهم من شيء﴾. قرأ يحيى بن وثاب والاعمش، وحمزة - ومن ولايتهم، بكسر الواو. وقرأ الباقون بفتحها: أي ما لكم من نصرتهم وإعانتهم، أو من ميراثهم، ولو كانوا من قربائكم لعدم وقوع الهجرة منهم ﴿حتى يهاجروا﴾ فيكون لهم ما

مسلماً، ثم قرأ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَظْمِهِمْ لَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ لَوْلِيَاءُ بَعْضُهُ﴾ الآية. وأخرج ابن سعد، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مروي، عن الزبير بن العوام قال: أنزل الله فينا خاصة معشر قريش ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾. وذلك أنا معشر قريش لما قدمنا المدينة قدمنا ولا أموال لنا، فوجدنا الأنصار نعم الإخوان. فواخيناهم ووارثناهم فأخونا، فأخى أبو بكر خارجة بن زيد، وأخى عمر فلاناً، وأخى عثمان بن عفان رجلاً من بني زريق بن أسعد الزرقى، قال الزبير: وأخيت أنا كعب بن مالك، ووارثونا ووارثناهم، فلما كان يوم أحد قيل لي: قد قتل أخوك كعب بن مالك، فجنفته فانتقلته فوجئت السلاح قد ثقلته فيما يرى، فوالله يا بني لو مات يومئذ عن الدنيا ما ورثه غيري، حتى أنزل الله هذه الآية فينا معشر قريش والأنصار فرجعنا إلى مواريثنا. وأخرج أبو داود الطيالسي، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مروي، عن ابن عباس قال: أخى رسول الله ﷺ بين أصحابه وورث بعضهم من بعض، حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ فتركوا ذلك وتوارثوا بالنسب.

تفسير سورة التوبة

هي مائة وثلاثون آية، وقيل: مائة وسبع وعشرون آية، ولها أسماء: منها سورة التوبة، لأن فيها التوبة على المؤمنين، وتسمى الفاضحة لأنه ما زال ينزل فيها: ومنهم، ومنهم حتى كانت أن لا تدع أحداً، وتسمى البحوث؛ لأنها تبحث عن أسرار المنافقين؛ وتسمى المبعثرة، والبغثرة البحث؛ وتسمى أيضاً بأسماء آخر كالمقشقة؛ لكونها تقشقش من النفاق: أي تبرئ منه؛ والمخزية، لكونها أخزت المنافقين، والمثيرة، لكونها تثير أسرارهم؛ والحافرة، لكونها تحفر عنها؛ والمنكدة، لما فيها من التنكيل لهم؛ والمدممة، لأنها تدمم عليهم.

وهي مدنية. قال القرطبي باتفاق. وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال: نزلت براءة بعد فتح مكة. وأخرج ابن مروي عنه قال: نزلت سورة التوبة بالمدينة. وأخرج ابن مروي، عن عبد الله بن الزبير نحوه. وأخرج ابن المنذر، عن قتادة نحوه أيضاً. وأخرج ابن أبي شيبة، والبخاري، والنسائي، وابن الضريس، وابن المنذر، والنحاس وأبو الشيخ، وابن مروي، عن البراء قال: آخر آية نزلت: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يَفْتِكَمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ [النساء: 176] وآخر سورة نزلت تامة: براءة.

وقد اختلف العلماء في سبب سقوط البسمة من أولها على أقوال. الأول عن المبرّد وغيره: أنه كان من شأن العرب إذا كان بينهم وبين قوم عهد، فلذا أربأوا نقضه كتبوا إليهم كتاباً ولم يكتبوا فيه بسمة؛ فلما نزلت براءة بنقض العهد الذي كان بين النبي ﷺ والمشركون، بعث بها النبي ﷺ

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وابن مروي، عن ابن عباس، في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا﴾ الآية قال: إن المؤمنين كانوا على عهد رسول الله ﷺ على ثلاث منازل، منهم المؤمن المهاجر المبين لقومه، وفي قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَنَصَرُوا﴾ قال: آووا ونصروا وأعلنوا ما أعلن أهل الهجرة، وشهروا السيوف على من كذب وجحد، فهذان مؤمنان جعل الله بعضهم أولياء بعض، وفي قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَهَاجَرُوا﴾ قال: كانوا يتوارثون بينهم إذا توفى المؤمن المهاجر بالولاية في الدين، وكان الذي آمن ولم يهاجر لا يرث من أجل أنه لم يهاجر ولم ينصر، فبَرَأَ الله المؤمنين المهاجرين من ميراثهم، وهي الولاية التي قال: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يَهَاجَرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ كان حقاً على المؤمنين الذين آووا ونصروا إذا استنصروهم في الدين أن ينصروهم إن قوتلوا إلا أن يستنصروا على قوم بينهم وبين النبي ﷺ ميثاق، فلا نصر لهم عليهم إلا على العدو الذي لا ميثاق لهم، ثم أنزل الله بعد ذلك أن الحق كل ذي رحم برحمه من المؤمنين الذين آمنوا ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَهَاجَرُوا﴾ فجعل لكل إنسان من المؤمنين نصيباً مفروضاً، لقوله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ لَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ الآية، وفي رواية لابن أبي حاتم، وابن مروي، عن ابن عباس، في قوله: ﴿أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ قال: يعني في الميراث جعل الله الميراث للمهاجرين والأنصار دون الأرحام ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَهَاجَرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ ما لكم من ميراثهم من شيء ﴿حَتَّى يَهَاجَرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ يعني: إن استنصر الأعراب المسلمون المهاجرين والأنصار على عدو لهم، فعليهم أن ينصروهم إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق، فكانوا يعملون على ذلك حتى أنزل الله هذه الآية: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ فنسخت الآية التي قبلها، وصارت المواريث لنوي الأرحام. وأخرج أبو عبيد، وأبو داود، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه أيضاً في هذه الآيات قال: كان المهاجر لا يتولى الأعرابي ولا يرثه وهو مؤمن، ولا يرث الأعرابي المهاجر، فنسختها هذه الآية ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مروي، عنه، أيضاً قال: قال رجل من المسلمين: لنورث نوي القريبى منا من المشركين، فنزلت: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَظْمِهِمْ لَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ لَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ﴾ فنزلت: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَظْمِهِمْ لَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ لَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ﴾. وأخرج أحمد، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، عن جرير بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «المهاجرون بعضهم أولياء بعض في الدنيا والآخرة، والطلقاء من قريش، والعقلاء من ثقيف بعضهم أولياء بعض في الدنيا والآخرة». وأخرج الحاكم وصححه، وابن مروي، عن أسامة، عن النبي ﷺ قال: «لا يتوارث أهل ملتين، ولا يرث مسلم كافراً، ولا كافر

الرحيم، لقول من قال هما سورة واحدة، فرضي الفريقان. قاله خارجه وأبو عصمة وغيرهما. وقول من جعلهما سورة واحدة أظهر، لأنهما جميعاً في القتال، وتعدان جميعاً سابعة السبع الطوال.

بِرَّاءَةٌ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠١﴾ فَيَسْجُوْا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَلِّمُوا الْكُفْرَ عَنِ اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ يُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾ وَأَذِّنْ لِلْحَيَّةِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحُجَّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عَنِ اللَّهِ مُعْجِزِينَ ﴿١٠٣﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِهِ

قوله: ﴿براءة من الله ورسوله﴾ برئت من الشيء أبرأ براءة، وأنا منه بريء: إذا أزلته عن نفسك، وقطعت سبب ما بينك وبينه، وبراءة مرتفعة على أنها خبر مبتدأ محذوف: أي هذه براءة، ويجوز أن ترتفع على الابتداء، لأنها نكرة موصوفة، والخبر ﴿إلى الذين عاهدتم﴾. وقرأ عيسى بن عمر ﴿براءة﴾ بالنصب على تقدير اسمعوا براءة، أو على تقدير التزموا براءة، لأن فيها معنى الإغراء، و«من» في قوله: ﴿من الله﴾ لا ابتداء الغاية متعلق بمحذوف وقع صفة: أي واصله من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم. وقرأ روح وزيد بنصب رسوله، وقرأ الباقر بالرفع. والعهد: العقد الموثق باليمين. والخطاب في عاهدتم للمسلمين، وقد كانوا عاهدوا مشركي مكة وغيرهم بإذن من الله ومن الرسول ﷺ، والمعنى: الإخبار للمسلمين بأن الله ورسوله قد برئا من تلك المعاهدة بسبب ما وقع من الكفار من النقض، فصار التنبذ إليهم بعهدهم واجباً على المعاهدين من المسلمين، ومعنى براءة الله سبحانه، وقوع الإنزاع منه سبحانه بالنزاع من المسلمين لعهد المشركين بعد وقوع النقض منهم، وفي ذلك من التفتيح لشأن البراءة والتهويل لها والتسجيل على المشركين بالذل والهوان ما لا يخفى. قوله: ﴿فسيجوا في الأرض أربعة أشهر﴾ هذا أمر منه سبحانه بالسياسة بعد الإخبار بتلك البراءة، والسياسة: السير، يقال ساح فلان في الأرض يسبح سياحة وسيجواً وسيحاناً، ومنه سباح الماء في الأرض وسبح الخيل، ومنه قول طرفة بن العبد:

لخفت هذا منك ما نلتني حتى ترى خيلاً أمامي تسبح
ومعنى الآية أن الله سبحانه بعد أن أنزاع بالنزاع إلى المشركين بعهدهم أباح للمشركين الضرب في الأرض والذهاب إلى حيث يريدون، والاستعداد للحرب هذه الأربعة الأشهر، وليس المراد من الأمر بالسياسة تكليفهم بها. قال محمد بن إسحاق وغيره: إن المشركين صنفان: صنف كانت مدة عهده أقل من أربعة أشهر، فأمهل تمام أربعة أشهر، ليرتاد والآخر كانت أكثر من ذلك فقصّر على أربعة أشهر، ليرتاد لنفسه، وهو حرب بعد ذلك لله ولرسوله وللمؤمنين يقتل حيث يوجد، وابتداء هذا الأجل يوم الحج الأكبر، وانقضاه إلى عشر من ربيع الآخر، فاما من لم يكن له عهد فإنما أجله انسلاخ الأشهر الحرم، وذلك خمسون يوماً: عشرون من ذي

علي بن أبي طالب فقرأها عليهم، ولم يبسم في ذلك على ما جرت به عادة العرب. وأخرج أبو الشيخ، وابن مروي، عن ابن عباس قال: سألت علي بن أبي طالب لم لا تكتب في براءة بسم الله الرحمن الرحيم؟ قال: لأن بسم الله الرحمن الرحيم أمان. وبراءة نزلت بالسيف. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وأبو داود، والترمذي وحسنه، والنسائي، والحاكم وصححه، عن ابن عباس قال: قلت لعثمان بن عفان: ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال، وهي من المثاني، وإلى براءة وهي من المثين، فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر، بسم الله الرحمن الرحيم، ووضعتموها في السبع الطوال؟ ما حملكم على ذلك؟ فقال عثمان: كان رسول الله ﷺ مما يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه السور نوات العدد، فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول: ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة، وكانت براءة من آخر القرآن نزولاً، وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظننت أنها منها، وقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها. فمن أجل ذلك قرنت بينهما سطر، بسم الله الرحمن الرحيم، ووضعتهما في السبع الطوال. وأخرج أبو الشيخ، عن أبي رجاء قال: سألت الحسن عن الأنفال وبراءة أسورتان أو سورة؟ قال: سورتان. وأخرج أبو عبيد، وابن المنذر، وأبو الشيخ، وابن مروي، عن حذيفة قال: يسمون هذه السورة سورة التوبة، وهي سورة العذاب. وأخرج هؤلاء عن ابن عباس قال: في هذه السورة هي: الفاضحة ما زالت تنزل، ومنهم حتى ظننا أنه لا يبقى منا أحد إلا نكر فيها. وأخرج أبو الشيخ عن عمر نحوه. وأخرج أبو الشيخ، وابن مروي، عن زيد بن أسلم، أن رجلاً قال لعبد الله بن عمر سورة التوبة، فقال ابن عمر: وإيتهم سورة التوبة، ثم قال: وهل فعل بالناس الأفاعيل إلا هي؟ ما كنا ندعوها إلا المقشقة. وأخرج ابن مروي، عن ابن مسعود، قال: يسمونها سورة التوبة، وإنها لسورة عذاب. وأخرج ابن المنذر، عن ابن إسحاق، قال: كانت براءة تسمى في زمن النبي ﷺ وبعدة المبعثرة، لما كشفت من سرائر الناس. وأخرج أبو الشيخ، عن عبيد الله بن عبيد بن عمير قال: كانت براءة تسمى المنقرة، نقرت عما في قلوب المشركين، وأخرج أبو عبيد، وسعيد بن منصور، وأبو الشيخ، والبيهقي في الشعب، عن أبي عطية الهمداني، قال: كتب عمر بن الخطاب: تعلموا سورة براءة وعلموا نساءكم سورة النور. ومن جملة الأقوال في حذف البسملة: أنها كانت تعدل سورة البقرة أو قريباً منها، وأنه لما سقط أولها سقطت البسملة، روي هذا عن مالك بن أنس، وابن عجلان، ومن جملة الأقوال في سقوط البسملة: أنهم لما كتبوا المصحف في خلافة عثمان اختلف الصحابة فقال بعضهم: براءة والأنفال سورة واحدة، وقال بعضهم: هما سورتان، فتركت بينهما فرجة، لقول من قال هما سورتان، وتركت، بسم الله الرحمن

وقيل إنه مجرور على الجوار. قوله: ﴿فَإِنْ تَبَيَّنَ﴾ أي: من الكفر، وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب، قيل: وفائدة هذا الالتفات زيادة التهديد، والضمير في قوله: ﴿فَهُوَ﴾ راجع إلى التوبة المفهومة من تبين ﴿خَيْرَ لَكُمْ﴾ مما أنتم فيه من الكفر ﴿وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: عرضتم عن التوبة، ويقيم على الكفر ﴿فَاعْلَمُوا لَكُمْ غَيْرَ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ أي: غير فائتين عليه، بل هو مدرككم، فمجازيكم بأعمالكم. قوله: ﴿وَيُبَشِّرُ النَّاسَ كُفْرًا بِعَذَابِ اللَّهِ﴾ هذا تهكم بهم، وفيه من التهديد ما لا يخفى.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، في قوله: ﴿بِرَاءةٍ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ عَاهِدَتْهُمُ مِنَ الْمَشْرُوكِينَ﴾ إلى أهل العهد خزاعة وملج، ومن كان له عهد قبل رسول الله ﷺ من تبوك حين فرغ منها فأراد الحج، ثم قال: إنه يحضر البيت مشركون يطوفون عراة فلا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك، فأرسل أبا بكر وعلياً فطفا في الناس بذى المجاز، وبما كنتهم التي كانوا يبيعون بها، أو بالموسم كله، فأذنوا أصحاب العهد أن يأمّنوا أربعة أشهر، وهي الأشهر الحرم المنسلخات المتواليات عشرون من آخر ذي الحجة إلى عشر تخلو من ربيع الآخر، ثم لا عهد لهم، وأذن الناس كلهم بالقتال إلى أن يموتوا. وأخرج عبد الله بن أحمد بن حنبل، في زوائد المسند، وأبو الشيخ، وابن مروي، عن علي قال: لما نزلت عشر آيات من براءة عن النبي ﷺ دعا أبا بكر ليقراها على أهل مكة، ثم بعاني فقال لي أدرك أبا بكر، فحيثما لقيته فخذ الكتاب منه، فأقرأه على أهل مكة، فلحقته فأخذت الكتاب منه، ورجع أبو بكر وقال: يا رسول الله نزل في شيء، قال لا، ولكن جبريل جاءني فقال: لن يؤدي عنك إلا أنت، أو رجل منك. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، والترمذي وحسنه، وأبو الشيخ، وابن مروي، من حديث أنس نحوه. وأخرج ابن مروي، من حديث سعد بن أبي وقاص، نحوه أيضاً. وأخرج أحمد، والنسائي، وابن المنذر، وابن مروي، عن أبي هريرة، قال: كنت مع علي حين بعثه رسول الله ﷺ إلى أهل مكة ببراءة، فكنا ننادي أنه لا يدخل الجنة إلا مؤمن، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد، فإن أجله وأمه إلى أربعة أشهر، فإذا مضت الأربعة أشهر، فإن الله بريء من المشركين ورسوله، ولا يحج هذا البيت بعد العام مشرك. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أبي هريرة قال: بعثني أبو بكر في تلك الحجة في مؤننين بعثهم يوم النحر يؤننون بمعنى: أن لا يحج بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ثم أرفد النبي ﷺ علي بن أبي طالب، فأمره أن يؤنن ببراءة، فأنن علي في يوم النحر ببراءة: أن لا يحج بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان. وأخرج الترمذي وحسنه، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مروي، والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ بعث أبا بكر وأمره أن ينادي بهؤلاء

الحجة وشهر محرم. وقال الكلبي: إنما كانت الأربعة الأشهر لمن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد دون أربعة أشهر، ومن كان عهده أكثر من ذلك فهو الذي أمر الله أن يتم له عهده بقوله: ﴿فَاتَمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مَتْنِهِمْ﴾ [التوبة: 4] ورجح هذا ابن جرير، وغيره. وسياقي في آخر البحث من الرواية ما يتضح به معنى الآية: ﴿وَاعْلَمُوا لَكُمْ غَيْرَ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ أي: اعلموا أن هذا الإمهال ليس لعجز، ولكن لمصلحة ليتوب من تاب، وفي ذلك ضرب من التهديد، كأنه قيل: افعلوا في هذه المدة كل ما أمكنكم من إعداد الآلات والابوات، فإنكم لا تفوتون الله وهو مخزيكم: أي مثلكم ومهينكم في الدنيا بالقتل والأسر، وفي الآخرة بالعذاب، وفي وضع الظاهر موضع المضمهر، إشارة إلى أن سبب هذا الإخراء هو: الكفر، ويجوز أن يكون المراد: جنس الكافرين، فيدخل فيه المخاطبون بخوالاً أولاً. قوله: ﴿وَإِذَا نَزَلَ بِرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ ارتفاع أذان على أنه خبر مبتدأ محذوف، أو على أنه مبتدأ وخبره ما بعده على ما تقدّم في ارتفاع براءة، والجملة هذه معطوفة على جملة ﴿بِرَاءةٍ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وقال الزجاج: إن قوله ﴿وَإِذَا نَزَلَ بِرَسُولِهِ﴾ معطوف على قوله براءة، واعترض عليه بأن الأمر لو كان كذلك لكن أذان مخبر عنه بالخبر الأول، وهو ﴿إِلَى النَّاسِ عَاهِدَتْهُمُ مِنَ الْمَشْرُوكِينَ﴾ وليس ذلك بصحيح. بل الخبر عنه هو ﴿إِلَى النَّاسِ﴾ والأذان بمعنى الإيذان، وهو الإعلام كما أن الأمان والعطاء بمعنى الإيمان والإعطاء. ومعنى قوله: ﴿إِلَى النَّاسِ﴾ التعميم في هذا: أي أنه إيذان من الله إلى كافة الناس غير مختص بقوم نون قوم، فهذه الجملة متضمنة للإخبار بوجوب الإعلام لجميع الناس، والجملة الأولى متضمنة للإخبار بالبراءة إلى المعاهدين خاصة، و﴿يَوْمَ الْحَجِّ﴾ ظرف لقوله: ﴿وَإِذَا نَزَلَ﴾ ووصفه بالأكبر لأنه يجتمع فيه الناس، أو لكون معظم أفعال الحج فيه.

وقد اختلف العلماء في تعيين هذا اليوم المذكور في الآية، فذهب جمع منهم: علي بن أبي طالب، وابن مسعود، وابن أبي أوفى، والمغيرة بن شعبة، ومجاهد، أنه: يوم النحر. ورجحه ابن جرير. وذهب آخرون منهم: عمر، وابن عباس، وطاوس، أنه: يوم عرفة. والأول: أرجح، لأن النبي ﷺ أمر من بعثه لإبلاغ هذا إلى المشركين أن يبلغهم يوم النحر. قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمَشْرُوكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ قرئ بفتح أن على تقدير بأن الله بريء من المشركين. فحذفت الياء تخفيفاً. وقرئ بكسرهما، لأن في الإيذان معنى القول، وارتفاع رسول الله ﷺ على أنه معطوف على موضع اسم أن، أو على الضمير في بريء، أو على أنه مبتدأ وخبره محذوف، والتقدير: ورسوله بريء منهم. وقرأ الحسن وغيره ﴿وَرَسُولُهُ﴾ بالنصب عطفاً على لفظ اسم أن. وقرئ ﴿وَرَسُولُهُ﴾ بالجر على أن الواو للقسم، روى ذلك عن الحسن، وهي قراءة ضعيفة جداً، إذ لا معنى للقسم برسول الله ﷺ هاهنا، مع ما ثبت من النهي عن الحلف بغير الله؛

الناس الحج الأصغر، فنبت أبو بكر إلى الناس في ذلك العام، فلم يحج عام حجة الوداع التي حج فيها رسول الله ﷺ مشرك، وأنزل الله في العام الذي نبت فيه أبو بكر إلى المشركين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نجس﴾ [التوبة: 28] الآية. وأخرج الطبراني، عن سمرة بن جندب، أن رسول الله ﷺ قال زمن الفتح: «إن هذا عام الحج الأكبر، قال: لاجتمع حج المسلمين وحج المشركين في ثلاثة أيام متتابعات، واجتمع للنصارى واليهود في ثلاثة أيام متتابعات؛ فاجتمع حج المسلمين والمشركين والنصارى واليهود في ستة أيام متتابعات، ولم يجتمع منذ خلق السموات والأرض كذلك قبل العام، ولا يجتمع بعد العام حتى تقوم الساعة». وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن الحسن، أنه سئل عن يوم الحج الأكبر فقال: مالكم وللحج الأكبر؟ ذاك عام حج فيه أبو بكر، استخلفه رسول الله ﷺ فحج بالناس، واجتمع فيه المسلمون والمشركون، فلذلك سمي الحج الأكبر، ووافق عيد اليهود والنصارى. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن المسيب، قال: الحج الأكبر: اليوم الثاني من يوم النحر، ألم تر أن الإمام يخطب فيه. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن المسور بن مخرمة، أن رسول الله ﷺ قال: «يوم عرفة هذا يوم الحج الأكبر». وأخرج ابن سعد، وابن أبي شيبه، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن عمر بن الخطاب، قال: الحج الأكبر يوم عرفة. وأخرج ابن جرير، عن أبي الصهباء البكري قال: سألت علي بن أبي طالب عن يوم الحج الأكبر فقال: يوم عرفة. وأخرج أبو عبيد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، قال: إن يوم عرفة يوم الحج الأكبر. وأخرج ابن جرير عن الزبير نحوه.

ولا يخفك أن الأحاديث الواردة في كون يوم النحر هو يوم الحج الأكبر هي ثابتة في الصحيحين، وغيرهم من طرق، فلا تقوى لمعارضتها هذه الروايات المصرحة بأنه يوم عرفة. وأخرج ابن أبي شيبه، عن الشعبي، أنه سئل: هذا الحج الأكبر، فما الحج الأصغر؟ قال: عمرة في رمضان. وأخرج ابن أبي شيبه، عن ابن إسحاق، قال: سألت عبد الله بن شداد عن الحج الأكبر فقال: الحج الأكبر يوم النحر، والحج الأصغر: العمرة. وأخرج ابن أبي شيبه، عن مجاهد، نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن محمد بن مسعود، قال: سئل سفيان بن عيينة عن البشارة تكون في المكروه فقال: ألم تسمع قوله: ﴿ويوشر للنين كفروا بعدذاب اليم﴾.

إِلَّا الْيَوْمَ عَهْدُكُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْصُورْكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يَطْعَمُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتَوْا إِلَيْهِمْ عَهْدُهُمْ إِلَى مَدِينَةٍ إِنَّ اللَّهَ يَبْهتُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ وَإِنَّا أَنْصَلْنَا الْأَنْشُرَ لِمَنْ قَاتَلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْنَاهُمْ وَمَدِينُهُمْ وَأَخْضَرْنَاهُمْ وَأَقْعَدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَأَوَّا أَوَّارًا أَوَّارًا وَأَوَّارًا فَكَلَّمُوا سُبُلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢﴾ وَإِن أَعَدَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتِجَارَةً فَلَيْسَ لَهُمْ حَقٌّ يَسْمَعُ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ إِنِّي أَفِيضُ مَا مَنَعْتُ ذَلِكَ إِلَيْهِمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾

الكلمات، ثم اتبعه علياً وأمره أن ينادي بهؤلاء الكلمات، فانطلقا فحجا، فقام علي في أيام التشريق فنادى: إن الله برئ من المشركين، ورسوله، فسيحوا في الأرض أربعة أشهر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يدخل الجنة إلا مؤمن؛ فكان علي ينادي، فإذا أعيا قام أبو بكر ينادي بها. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبه، وأحمد، والترمذي وصححه، وابن المنذر، والنحاس، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل، عن زيد بن تبيع قال: سألت علياً بأي شيء بعثت مع أبي بكر في الحج؟ قال: بعثت بربع: لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة. ولا يطوف بالبيت عريان. ولا يجتمع مؤمن وكافر بالمسجد الحرام بعد عامهم هذا. ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد، فعهد إلى مثته، ومن لم يكن له عهد، فأجله أربعة أشهر. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿براءة من الله ورسوله﴾ الآية قال: حد الله للذين عاهدوا رسوله أربعة أشهر يسبحون فيها حيث شاءوا، وحد أجل من ليس له عهد انسلاخ الأربعة الأشهر الحرم من يوم النحر؛ إلى انسلاخ المحرم خمسين ليلة. فإذا انسلاخ الأشهر الحرم أمره أن يضع السيف فيمنع عاهد، إن لم يدخلوا في الإسلام، ونقض ما سمي لهم من العهد والميثاق، وأذهب الشرط الأول ﴿إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام﴾ [التوبة: 7] يعني: أهل مكة. وأخرج النحاس، عنه، نحو هذا، وقال: ولم يعاهد رسول الله ﷺ بعد هذا أحداً. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والنحاس، عن الزهري ﴿فسيحوا في الأرض أربعة أشهر﴾ قال: نزلت في شوال فهي الأربعة أشهر: شوال، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن زيد، في قوله: ﴿وإذاذن من الله ورسوله﴾ قال: هو إعلام من الله ورسوله. وأخرج الترمذي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن علي قال: سألت رسول الله ﷺ عن يوم الحج الأكبر، فقال: يوم النحر. وأخرجه ابن أبي شيبه، والترمذي، وأبو الشيخ، عنه، من قوله. وأخرج أبو داود، والنسائي، والحاكم وصححه، عن عبد الله بن قرط، قال: قال رسول الله ﷺ: «أعظم الأيام عند الله يوم النحر ثم يوم القر». وأخرج ابن مردويه، عن ابن أبي أوفى، عن النبي ﷺ أنه قال: «يوم الأضحي هذا يوم الحج الأكبر». وأخرج البخاري تعليقا، وأبو داود، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، وأبو نعيم في الحلية، عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ وقف يوم النحر بين الجمرات في الحجة التي حج فقال: أي يوم هذا؟ قالوا: يوم النحر، قال: هذا يوم الحج الأكبر. وأخرج البخاري ومسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن مردويه، عن أبي هريرة قال: بعثني أبو بكر فيمن يؤذن يوم النحر بمعنى أن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ويوم الحج الأكبر: يوم النحر، والحج الأكبر: الحج؛ وإنما قيل الأكبر: من أجل قول

عهدهم إلى منتهم» وسميت حرماً لأن الله سبحانه حرّم على المسلمين فيها نساء المشركين والتعرض لهم، وإلى هذا ذهب جماعة من أهل العلم منهم: مجاهد، وابن إسحاق، وابن زيد، وعمرو بن شعيب. وقيل: هي الأشهر المذكورة في قوله: ﴿فسيحوا في الأرض أربعة أشهر﴾. وقد روي ذلك عن ابن عباس وجماعة، ورجحه ابن كثير، وحكاه عن مجاهد، وعمرو بن شعيب، ومحمد بن إسحاق، وقتادة، والسدي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وسيأتي بيان حكم القتال في الأشهر الحرم الدائرة في كل سنة في هذه السورة إن شاء الله. ومعنى ﴿حيث وجنتموهم﴾: في أي مكان وجنتموهم من حل أو حرم. ومعنى: ﴿خلوهم﴾ الأسر، فإن الأخذ هو الأسير. ومعنى الحصر منعهم من التصرف في بلاد المسلمين إلا بإذن منهم، والمرصد: الموضع الذي يرقب فيه العدو، يقال رصدت فلاناً أرصده: أي اقبعدوا لهم في المواضع التي ترتقبونهم فيها. قال عامر بن الطفيل:

ولقد علمت وما إخالك علماً أن النية للفتى بالمرصد
وقال النابغة:

اعانل إن الجهل من لذة لفتى وإن المنايا للنفوس بمرصد
وكل في كل مرصد منتصب على الظرفية وهو اختيار الزجاج، وقيل هو منتصب بنزع الخافض: أي في كل مرصد، وخطأ أبو علي الفارسي الزجاج في جعله ظرفاً. وهذه الآية المتضمنة للامر بقتل المشركين عند انسلاخ الأشهر الحرم عامة لكل مشرك، لا يخرج عنها إلا من خصته السنة، وهو: المرأة، والصبي، والعاجز الذي لا يقاتل، وكذلك يخصص منها أهل الكتاب الذين يعطون الجزية على فرض تناول لفظ المشركين لهم، وهذه الآية نسخت كل آية فيها ذكر الإعراض عن المشركين والصبر على أذاهم. وقال الضحاک وعطاء والسدي: هي منسوخة بقوله: ﴿فإما منا بعد وإما فداء﴾ [محمد: 4]، وإن الأسير لا يقتل صبراً بل يمن عليه أو يفادي. وقال مجاهد وقتادة: بل هي ناسخة لقوله: ﴿فإما منا بعد وإما فداء﴾، وأنه لا يجوز في الأسارى من المشركين إلا القتل. وقال ابن زيد: الأيتان محكمتان. قال القرطبي: وهو الصحيح؛ لأن المن والقتل والفداء لم تزل من حكم رسول الله ﷺ فيهم من أول حرب جاء بهم وهو يوم بدر. قوله: ﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ أي: تابوا عن الشرك الذي هو سبب القتل، وحققوا التوبة بفعل ما هو من أعظم أركان الإسلام، وهو إقامة الصلاة، وهذا الركن اكتفى به عن ذكر ما يتعلق بالأبدان من العبادات لكونه رأسها، واكتفى بالركن الآخر المالي، وهو إيتاء الزكاة عن كل ما يتعلق بالأموال من العبادات، لأنه أعظمها ﴿فخلوا سبيلهم﴾ أي: اتركوهم وشأنهم، فلا تأسروهم، ولا تحبسوهم، ولا تقتلوهم ﴿إن الله غفور﴾ لهم ﴿رحيم﴾ بهم. قوله: ﴿وإن لحد من المشركين استجارك فاجر﴾. يقال: استجرت فلاناً: أي طلبت أن يكون جاراً: أي محامياً

الاستثناء بقوله: ﴿إلا الذين عاهدتم﴾. قال الزجاج: إنه يعود إلى قوله: ﴿براءة﴾ والتقدير: براءة من الله ورسوله إلى المعاهدين من المشركين إلا الذين لم ينقضوا العهد منهم. وقال في الكشف: إنه مستثنى من قوله: ﴿فسيحوا﴾ والتقدير: فقولوا لهم: فسيحوا، إلا الذين عاهدتم ثم لم ينقضوكم، فاتموا إليهم عهدهم. قال: والاستثناء بمعنى الاستدراك، كأنه قيل بعد أن أمروا في الناكثين، ولكن الذين لم ينكثوا فاتموا إليهم عهدهم، ولا تجروهم مجراهم. وقد اعترض عليه بأنه قد تخلل الفاصل بين المستثنى والمستثنى منه، وهو: ﴿وإذا من الله﴾ إلخ. وأجيب بأن ذلك لا يضّر، لأنه ليس بالجنبي؛ وقيل: إن الاستثناء من المشركين المذكورين قبله، فيكون متصلاً وهو ضعيف. قوله: ﴿ثم لم ينقضوكم شيئاً﴾ أي: لم يقع منهم أي نقص. وإن كان يسيراً، وقرأ عكرمة، وعطاء بن يسار، ﴿ينقضوكم﴾ بالضاد المعجمة: أي لم ينقضوا عهدكم، وفيه دليل على أنه كان من أهل العهد من خاس بعدهم، ومنهم من ثبت عليه، فأن الله سبحانه لنبيه ﷺ ينقض عهد من نقض، وبالفاء لمن لم ينقض إلى منته ﴿ولم يظاهروا عليكم أحداً﴾ المظاهرة: المعاونة: أي لم يعاونوا عليكم أحداً من أعدائكم ﴿فاتموا إليهم عهد﴾ أي: اتوا إليهم عهدهم تاماً غير ناقص ﴿إلى منتهم﴾ التي عاهدتموهم إليها، وإن كانت أكثر من أربعة أشهر، ولا تعاملوهم معاملة الناكثين من القتال بعد مضي المدة المذكورة سابقاً، وهي أربعة أشهر أو خمسون يوماً على الخلاف السابق. قوله: ﴿فإذا انسلاخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجنتموهم﴾ انسلاخ الشهر: تكامله جزءاً فجزءاً إلى أن ينقضي كانسلاخ الجلد عما يحويه، شبه خروج المترن من زمانه بانفصال المتمكن عن مكانه، وأصله الانسلاخ للواقع بين الحيوان وجلده، فاستعير لانقضاء الأشهر، يقال: سلخت الشهر تسليخه سليخاً وسلوخاً بمعنى خرجت منه، ومنه قول الشاعر:

إذا ما سلخت الشهر أهلت مثله كفى قاتلاً سُلخي الشهور وإمالي
ويقال سلخت المرأة برعها: نزعته، وفي التنزيل: ﴿وآية لهم الليل نسلخ منه النهار﴾ [يس: 37].

واختلف العلماء في تعيين الأشهر الحرم المذكورة هاهنا، فقيل: هي الأشهر الحرم المعروفة التي هي: ذو القعدة وذو الحجة، ومحرم، ورجب: ثلاثة سرد، وواحد فرد. ومعنى الآية على هذا وجوب الإمساك عن قتال من لا عهد له من المشركين في هذه الأشهر الحرم. وقد وقع النداء والنبي إلى المشركين بعهدهم يوم النحر، فكان للباقي من الأشهر الحرم التي هي الثلاثة المسرودة، خمسين يوماً تنقضي بانقضاء شهر المحرم، فأمرهم الله بقتل المشركين حيث يوجدون، وبه قال جماعة من أهل العلم منهم الضحاک والباقر. وروي عن ابن عباس، واختاره ابن جرير؛ وقيل المراد بها: شهور العهد المشار إليها بقوله: ﴿فاتموا إليهم

فخلوا سبيلهم». وقال: «وإن أحد من المشركين استجارك فإجره حتى يسمع كلام الله». وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم، عن مجاهد، في قوله: «وإن أحد من المشركين استجارك فإجره» يقول: من جاءك واستمع ما تقول. واستمع ما أنزل إليك، فهو آمن حين يأتيك فيسمع كلام الله حتى يبلغ مأمنه من حيث جاء. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن زيد، في قوله: «ثم أبلغه مأمنه» قال: إن لم يوافق ما يقص عليه ويخبر به فأبلغه مأمنه، وهذا ليس بمنسوخ. وأخرج أبو الشيخ، عن قتادة في قوله: «حتى يسمع كلام الله» أي: كتاب الله. وأخرج أبو الشيخ، عن سعيد بن أبي عروبة، قال: كان الرجل يجيئ إذا سمع كتاب الله، وأقر به، وأسلم، فذاك الذي دعي إليه، وإن أنكر ولم يقر به، رد مأمنه، ثم نسخ ذلك، فقال: «وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة» [التوبة: 36].

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَٰهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقِيمُوا لَكُمْ فَأَسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ بَرٌّ إِلَى النَّاسِ ۖ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةٌ يُؤْتِيكُمْ بِأَنفُسِهِمْ وَثَاقٌ قُلُوبُهُمْ وَأَكْفَرُكُمْ قِيَمَتُهُ أَشْرَؤُا بِمَا نَبَايَ اللَّهُ تَمَكَّنَ قَلِيلًا فَصَدَّكَ عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۝ لَا يَرْبُونَ فِي مَثَلٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْسِدُونَ ۝ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَآمَنُوا بِأَوْثَانِكُمْ إِلَى اللَّهِ يَفْعَلْ الْأَمْرُ الْأَيْبَ لِيُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ

قوله: «كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله». الاستفهام هنا للتعجب المتضمن للإنكار، وعهد اسم يكون. وفي خبره ثلاثة أوجه: الأول: أنه كيف، وقدم للاستفهام؛ والثاني: للمشركين، وعند على هذين ظرف للعهد، أو ليكون، أو صفة للعهد؛ والثالث: أن الخبر عند الله، وفي الآية إضمار. والمعنى: كيف يكون للمشركين عهد عند الله يأمنون به من عذابه؛ وقيل معنى الآية: محال أن يثبت لهؤلاء عهد، وهم أضداد لكم مضمون للغدر، فلا يطمعوا في ذلك ولا يحثوا به أنفسهم، ثم استدرك، فقال: «إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام» أي: لكن الذين عاهدتم عند المسجد الحرام، ولم ينقضوا ولم ينكثوا فلا تقاتلوهم، فما داموا مستقيمين لكم على العهد الذي بينكم وبينهم «فأستقيموا لهم» قيل: هم بنو بكر، وقيل: بنو كنانة وبنو ضمرة، وفي «ما» وجهان: أحدهما: أنها مصدرية زمانية، والثاني: أنها شرطية، وفي قوله: «إن الله يحب المتقين» إشارة إلى أن الوفاء بالعهد والاستقامة عليه من أعمال المتقين، فيكون تعليلاً للأمر بالاستقامة. قوله: «كيف وإن يظهروا عليكم» أعاد الاستفهام التعجبي للتأكيد والتقرير، والتقدير: كيف يكون لهم عهد عند الله وعند رسوله؟ والحال أنهم إن يظهروا عليكم بالغلبة لكم «ولا يرقبوا» أي: لا يراعوا فيكم «إلا»: أي عهداً «ولا ذمة».

ومحافظاً من أن يظلمني ظالم، أو يتعرض لي متعرض. وأحد مرتفع بفعل مقتر يفسره المنكور بعده: أي وإن استجارك أحد استجارك، وكروهوا الجمع بين المفسر والمفسر. والمعنى: وإن استجارك أحد من المشركين الذين أمرت بقتالهم فإجره: أي كن جاراً له مؤمناً محامياً «حتى يسمع كلام الله» منك ويتدبره حق تدبره، ويقف على حقيقة ما تدعو إليه: «ثم أبلغه مأمنه» أي: إلى الدار التي يأمن فيها بعد أن يسمع كلام الله إن لم يسلم، ثم بعد أن تبلغه مأمنه قاتله فقد خرج من جوارك ورجع إلى ما كان عليه من إبادة دمه، ووجوب قتله حيث يوجد، والإشارة بقوله: «ذلك» إلى ما تقدم من الأمر بالإجارة، وما بعده «بأنهم قوم لا يعلمون» أي: بسبب فقدانهم للعلم النافع المميز بين الخير والشر في الحال والمآل.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: «إلا الذين عاهدتم» قال: هم قريش. وأخرج أيضاً عن قتادة قال: هم مشركو قريش الذين عاهدهم نبي الله زمن الحديبية، وكان بقي من منتهم أربعة أشهر بعد يوم النحر، فأمر نبيه أن يوفي بعهدهم هذا إلى منتهم. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن محمد بن عباد بن جعفر، في قوله: «إلا الذين عاهدتم» قال: هم بنو جذيمة بن عامر من بني بكر بن كنانة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مجاهد، في قوله: «فأتوا إليهم عهدهم إلى منتهم» قال: كان بقي لبني مذحج وخزاعة عهد، فهو الذي قال الله «فأتوا إليهم عهدهم إلى منتهم». وأخرج أبو الشيخ، عن السدي، في قوله: «إلا الذين عاهدتم من المشركين» قال: هؤلاء بنو ضمرة، وبنو ملج، من بني كنانة كانوا حلفاء للنبي ﷺ في غزوة العشيرة من بطن يثع «ثم لم ينقضوا عهداً» ثم لم ينقضوا عهدكم بغدر «ولم يظاهروا عليكم أحداً» قال: لم يظاهروا عدوكم عليكم «فأتوا إليهم عهدهم إلى منتهم» يقول: أجلهم الذي شرطتم لهم «إن الله يحب المتقين» يقول: الذين يتقون الله فيما حرم عليهم، فيوفون بالعهد. قال: فلم يعاهد النبي ﷺ بعد هؤلاء الآيات أحداً. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي، في قوله: «فإذا أنسلخ الأشهر الحرم» قال: هي الأربعة عشر من ذي الحجة والمحرم، وصفر، وشهر ربيع الأول، وعشر من ربيع الآخر. قلت: مراد السدي أن هذه الأشهر تسمى حرماً لكون تأمين المعاهدتين فيها يستلزم تحريم القتال، لا أنها الأشهر الحرم المعروفة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الضحاك، في الآية قال: هي عشر من ذي القعدة، وذو الحجة، والمحرم، سبعون ليلة. وأخرج أبو الشيخ، عن مجاهد قال: هي الأربعة الأشهر التي قال: «فسيحوا في الأرض أربعة أشهر». وأخرج ابن المنذر، عن قتادة، نحو قول السدي السابق. وأخرج أبو داود في ناسخه، عن ابن عباس، في قوله: «فإذا أنسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجنتهم» ثم نسخ واستثنى. فقال: «فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة

وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي قال: هم بنو جذيمة. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ قال: هو يوم الحديبية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿إِلَّا وَلَا ذَمًّا﴾ قال: الإل: القربة، والذمة: العهد. وأخرج الفريابي، وأبو عبيد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد قال: الإل الله عز وجل. وأخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ، عن عكرمة مثله. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد في قوله: ﴿اشْتَرَوْا بَيَّاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ قال: أبو سفيان بن حرب أطعم حلفاءه وترك حلفاء محمد ﷺ. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة، في قوله: ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ الآية يقول: إن تركوا اللات والعزى، وشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فإخوانكم في الدين. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، قال: حرمت هذه الآية قتال أو بقاء أهل الصلاة.

وَأَنْ تَكُونُوا آمِنَهُمْ بِمَا بَدَّ عَنْهُمْ وَتَكُونُوا فِي رَيْبِكُمْ فَتُؤَيِّلُوا آيَةً
الْكَفَرُ إِنَّهُمْ لَا يَكُونُ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهَوْنَ ﴿١١﴾ لَا تَنْتَلِزُوا قَوْلًا
تَكُونُوا آمِنَهُمْ وَتَكُونُوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَّ عَنْهُمْ أُولَئِكَ
مَنْ أَتَخَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخَوْا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢﴾ فَتَقُولُوا
بِعَذَابِ اللَّهِ أَتَأْتِيكُمْ وَنَحْنُ نَعْتَصِرُكُمْ عَلَيْهِمْ وَنَشْفِ صُدُورَ قَوَرٍ
مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ وَنُذِيبُ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَنُؤَيِّلُ اللَّهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ ﴿١٤﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَكَرَّ
بِجَهْدِائِهِمْ دُونَ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا
تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾

قوله: ﴿وَأِنْ نَكَثُوا﴾ معطوف على ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ [التوبة: 11] والنكث: النقض، وأصله نقض الخيط بعد إبرامه، ثم استعمل في كل نقض، ومنه نقض الإيمان والعهد على طريق الاستعارة. ومعنى: ﴿مَنْ بَعْدَ عَهْدِهِمْ﴾ أي: من بعد أن عاهدوكم. والمعنى: أن الكفار إن نكثوا العهد التي عاهدوا بها المسلمين، ووثقوا لهم بها وضموها إلى ذلك الطعن في دين الإسلام، والقدر فيه، فقد وجب على المسلمين قتالهم. وأما الكفر: جمع إمام، والمراد صنابيد المشركين، وأهل الرئاسة فيهم على العموم. وقرأ حمزة إمة، وأكثر النحويين يذهب إلى أن هذا لحن، لأن فيه الجمع بين همزين في كلمة واحدة. وقرأ الجمهور بجعل الهمزة الثانية بين بين: أي بين مخرج الهمزة والياء. وقرأ بإخلاص الياء وهو لحن، كما قال الزمخشري. قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَا إِيْمَانَ لَهُمْ﴾ هذه الجملة تعليل لما قبلها، والإيمان: جمع يمين في قراءة الجمهور. وقرأ ابن عامر «لا إيمان لهم» بكسر الهمزة. والمعنى على قراءة الجمهور: أن إيمان الكافرين وإن كانت في الصورة يميناً، فهي في الحقيقة ليست بيمين، وعلى القراءة الثانية: أن هؤلاء الناكثين للإيمان الطاعنين في الدين،

قال في الصحاح: الإل العهد والقربة، ومنه قول حسان: لعمرك أن إلك من قريش كإل للسقب من رثل النعام قال الزجاج: الإل عندي على ما توجه اللغة ينور على معنى الحدة، ومنه الإلة للحربة، ومنه أن مؤلة: أي محددة. ومنه قوله طرفة بن العبد يصف ناقته بالحدة والانتصاب: مؤلتان يعرف العنق منهما كسامعتي شاة بحومل مفرد قال أبو عبيدة: الإل العهد، والذمة والنديم. وقال الأزهري: هو اسم لله بالعبرانية، وأصله من الأكيل، وهو البريق، يقال أل لونه يول إلا: أي صفا ولمع، والذمة العهد، وجمعها ذمم، فمن فسر الإل بالعهد كان التكرير للتأكيد مع اختلاف اللفظين. وقال أبو عبيدة: الذمة: التثمم. وقال أبو عبيدة: الذمة: الأمان، كما في قوله ﷺ: «ويسعى بذمتهم أدناهم» وروي عن أبي عبيدة أيضاً أن الذمة ما يتذمم به: أي ما يجتنب فيه الذم. قوله: ﴿يَرْضَوْنَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أي: يقولون بالسننهم ما فيه مجاملة ومحاسنة لكم، طلباً لمرضايتهم وتطييب قلوبكم، وقلوبهم تابى ذلك وتخالفه، وتود ما فيه مساءتكم ومضرتكم، كما يفعله أهل النفاق وذو الوجهين؛ ثم حكم عليهم بالفسق، وهو التمرد والتجري، والخروج عن الحق لنقضهم العهود، وعدم مراعاتهم للعقود، ثم وصفهم بقوله: ﴿اشْتَرَوْا بَيَّاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: استبدلوا بآيات القرآن التي من جملتها ما فيه الأمر بالوفاء بالعهد ثمناً قليلاً حقيراً، وهو ما أتروه من حطام الدنيا ﴿فَصَنَوْا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أي: فعلوا وأعرضوا عن سبيل الحق، أو صرفوا غيرهم عنه. قوله: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنْ إِلَّا وَلَا ذَمًّا﴾ قال النحاس: ليس هذا تكريراً، ولكن الأول: لجميع المشركين، والثاني: لليهود خاصة، والدليل على هذا ﴿اشْتَرَوْا بَيَّاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يعني: اليهود، وقيل: هذا فيه مراعاة لحقوق المؤمنين على الإطلاق، وفي الأول: المراعاة لحقوق طائفة من المؤمنين خاصة ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمَعْتَدُونَ﴾ أي: المجاوزون للحلال إلى الحرام ينقض العهد، أو البالغون في الشر والتمرد إلى الغاية القصوى ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ عن الشرك والتزموا أحكام الإسلام، ﴿فَإِخْوَانُكُمْ﴾ أي: فهم إخوانكم ﴿فِي الدِّينِ﴾ أي في دين الإسلام ﴿وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ أي: نبينها ونوضحها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ بما فيها من الأحكام ويفهمونه، وخص أهل العلم لأنهم المنتفعون بها، والمراد بالآيات ما مر من الآيات المتعلقة بأحوال المشركين على اختلاف أنواعهم.

وقد أخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ قال: قريش. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن زيد، نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مقاتل قال: كان النبي ﷺ عاهد أناساً من بني ضمرة بني بكر وكنانة خاصة، عاهدهم عند المسجد الحرام، وجعل منتهم أربعة أشهر، وهم الذين نكر الله ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ يقول: ما وفوا لكم بالعهد ففوا لهم.

المسلمين فوجهه أن النصر والظفر من جهة الله يكون سبباً لخلوص النية والتوبة عن الذنوب. قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا﴾ أم هذه هي المنقطعة التي بمعنى بل، والهمزة والاستفهام للتوبيخ، وحرف الإضراب للدلالة على الانتقال من كلام إلى آخر، والمعنى: كيف يقع الحساب منكم بأن تتركوا على ما أنتم عليه، وقوله: ﴿أَنْ تُتْرَكُوا﴾ في موضع مفعولي الحساب عند سيويه. وقال المبرد: إنه حذف الثاني، والتقدير: أم حسبتم أن تتركوا من غير أن تبتلوا بما يظهر به المؤمن والمنافق، الظهور الذي يستحق به الثواب والعقاب. وجملة ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ في محل نصب على الحال، والمراد من نفي العلم نفي المعلوم، والمعنى كيف تحسبون أنكم تتركون، ولما يتبين المخلص منكم في جهاده من غير المخلص، وجملة: ﴿وَلَمْ يَتَخَوُوا﴾ معطوفة على جاهدوا داخلية معه في حكم النفي واقعة في حيز الصلة، والوليعة من الولوج: وهو الدخول، ولج يلج ولوجاً: إذا دخل، فالوليعة: البخيلة. قال أبو عبيدة: كل شيء أدخلته في شيء ليس منه، فهو وليعة. قال إبان بن ثعلب: فبنس الوليعة للهاربي. ن والمعنيين وأهل الريب وقال الفراء: الوليعة البطانة من المشركين، والمعنى واحد: أي كيف تتخذون بخيلة أو بطانة من المشركين تفشون إليهم بأسراركم، وتعلمونهم أموركم من دون الله ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: بجميع أعمالكم. وقد أخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، عن مجاهد، في قوله: ﴿وَأَنْ نُّكَلِّهُ إِيمَانَهُمْ﴾ قال: عهدهم. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مريويه، عن ابن عباس، في الآية قال: يقول الله لنبيه وإن نكلوا العهد الذي بينك وبينهم، فقاتلهم إنهم أئمة الكفر. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة في قوله: أئمة الكفر قال: أبو سفيان بن حرب، وأميه بن خلف، وعتبة بن ربيعة، وأبو جهل بن هاشم، وسهيل بن عمرو، وهم الذين نكلوا عهد الله وهموا بإخراج الرسول من مكة. وأخرج ابن عساکر، عن مالك بن أنس مثله. وأخرج أبو الشيخ، عن ابن عباس ﴿فَقَاتِلُوا أئمة الكفر﴾ قال: رؤوس قريش. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مريويه، عن ابن عمر قال: أبو سفيان بن حرب منهم. وأخرج أبو الشيخ عن الحسن أنهم النيلم. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مريويه، عن حنيفة أنهم نكلوا عنده هذه الآية فقال: ما قوتل أهل هذه الآية بعد، وأخرج ابن مريويه، عن علي بن وهب، وأخرج ابن أبي شيبة، والبخاري، وابن مريويه، عن حنيفة قال: ما بقي من أهل هذه الآية إلا ثلاثة، ولا من المنافقين إلا أربعة، فقال أعرابي: إنكم أصحاب محمد تخبروننا لا ندري فما بال هؤلاء الذين ينقرون بيوتنا ويسترقون أعلاقنا، قال: أولئك الفساق، أجل لم يبق منهم إلا أربعة. أحدهم شيخ كبير لو شرب الماء البارد لما وجد برده. والأولى: أن الآية عامة في كل رؤساء الكفار من غير تقييد

ليسوا من أهل الإيمان بالله حتى يستحقوا العصمة لدماهم وأموالهم، فقاتلهم واجب على المسلمين. قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ أي: عن كفرهم ونكثهم وطعنهم في دين الإسلام. والمعنى: أن قاتلهم يكون إلى الغاية هي الانتهاء عن ذلك. وقد استدلل بهذه الآية على أن النمي إذا طعن في الدين لا يقتل حتى ينكث العهد، كما قال أبو حنيفة، لأن الله إنما أمر بقتلهم بشرطين: أحدهما: نقض العهد، والثاني: الطعن في الدين. وذهب مالك والشافعي وغيرهما إلى أنه إذا طعن في الدين قتل، لأنه ينتقض عهده بذلك، قالوا: وكذلك إذا حصل من النمي مجرد النكث فقط من دون طعن في الدين، فإنه يقتل. قوله: ﴿إِلَّا تَقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا إِيمَانَهُمْ﴾ الهمزة الداخلة على حرف النفي للاستفهام التوبيخي، مع ما يستفاد منها من التحضيض على القتال والمبالغة في تحقيقه، والمعنى: أن من كان حاله كحال هؤلاء من نقض العهد وإخراج الرسول من مكة والبدء بالقتال، فهو حقيق بأن لا يترك قتاله، وإن يوبخ من فرط في ذلك، ثم زاد في التوبيخ فقال: ﴿تَخْشَوْنَهُمْ﴾ فإن هذا الاستفهام للتوبيخ والتفريع: أي تخشون أن ينالك منكم مكروه فتتركون قتالهم لهذه الخشية، ثم بين ما يجب أن يكون الأمر عليه، فقال: ﴿فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: هو أحق بالخشية منكم، فإنه الضار النافع بالحقيقة، ومن خشيتكم له أن تقاتلوا من أمركم بقتاله، فإن قضية الإيمان توجب ذلك عليكم، ثم زاد في تأكيد الأمر بالقتال فقال: ﴿فَقَاتِلُوهُمْ﴾ ورتب على هذا الأمر فوائد: الأولى: تعذيب الله للكفار بأيدي المؤمنين بالقتل والأسر؛ والثانية: إخراجهم، قيل بالأسر، وقيل: بما نزل بهم من الذل والهوان؛ والثالثة: نصر المسلمين عليهم وغلبتهم لهم؛ والرابعة: أن الله يشفي بالقتال صدور قوم مؤمنين ممن لم يشهد القتال ولا حضره؛ والخامسة: أنه سبحانه يذهب بالقتال غيظ قلوب المؤمنين الذي نالهم بسبب ما وقع من الكفار من الأمور الجالبة للغيظ وجرح الصدر. فإن قيل شفاء الصدور وإذهاب غيظ القلوب كلاهما بمعنى فيكون تكراراً. قيل في الجواب: إن القلب أخص من الصدر، وقيل: إن شفاء الصدر إشارة إلى الوعد بالفتح، ولا ريب أن الانتظار لنجاز الوعد مع الثقة به فيهما شفاء للصدر، وإن إذهاب غيظ القلوب إشارة إلى وقوع الفتح، وقد وقعت للمؤمنين والله الحمد هذه الأمور كلها، ثم قال: ﴿وَيُتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ وهو ابتداء كلام يتضمن الإخبار بما سيكون، وهو أن بعض الكافرين يتوب عن كفره، كما وقع من بعض أهل مكة يوم الفتح، فإنهم أسلموا وحسن إسلامهم، وهذا على قراءة الرفع في يتوب، وهي قراءة الجمهور. وقرأ بنصب يتوب بإضمار أن، ودخول التوبة في جملة ما أوجب به الأمر من طريق المعنى. قرأ بذلك ابن أبي إسحاق، وعيسى الثقفي، والأعرج. فإن قيل: كيف تقع التوبة جزاء للمقاتلة؟ وأجيب بأن القتال قد يكون سبباً لها إذا كانت من جهة الكفار، وأما إذا كانت من جهة

﴿مسجد الله﴾ الأفراد. وقرأ الباقون «مساجد» بالجمع، واختارها أبو عبيدة. قال النحاس: لأنها أعم، والخاص يدخل تحت العام، وقد يحتمل أن يرد بالجمع المسجد الحرام خاصة، وهذا جائز فيما كان من أسماء الأجناس كما يقال فلان يركب الخيل وإن لم يركب إلا فرساً قال: وقد أجمعوا على الجمع في قوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ وروي عن الحسن البصري أنه تعالى إنما قال: ﴿مَسَاجِدُ﴾ والمراد المسجد الحرام، لأنه قبلة المساجد كلها وإمامها، فعامره كعامة جميع المساجد. قال الفراء: العرب قد تضع الواحد مكان الجمع كقولهم: فلان كثير الدرهم وبالعكس، كقولهم فلان يجالس الملوك ولعله لم يجالس إلا ملكاً واحداً، والمراد بالعمارة إما المعنى الحقيقي أو المعنى المجازي، وهو ملازمته والتعبد فيه، وكلاهما ليس للمشركون، أما الأول: فلأنه يستلزم المنة على المسلمين بعمارة مساجدهم، وأما الثاني: فليكون الكفار لا عبادة لهم مع نهيهم عن قربان المسجد الحرام، ومعنى ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ ما صح لهم وما استقام أن يفعلوا ذلك، و﴿شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ﴾ حال: أي ما كان لهم ذلك حال كونهم شاهدين على أنفسهم بالكفر، بإظهار ما هو كفر من نصب الأوثان والعبادة لها، وجعلها آلهة؛ فإن هذا شهادة منهم على أنفسهم بالكفر، وإن أبوا ذلك بالسنتهم، فكيف يجمعون بين امرين متناقضين: عمارة المساجد التي هي من شأن المؤمنين، والشهادة على أنفسهم بالكفر التي ليست من شأن من يتقرب إلى الله بعمارة مساجده. وقيل المراد بهذه الشهادة قولهم في طوافهم: لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك؛ وقيل: شهادتهم على أنفسهم بالكفر: إن اليهودي يقول هو يهودي، والنصراني يقول هو نصراني، والمصابي يقول هو صابئ، والمشرک يقول هو مشرك ﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ التي يفتخرون بها، ويظنون أنها من أعمال الخير: أي بطلت ولم يبق لها أثر ﴿وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ وفي هذه الجملة الاسمية مع تقديم الظرف المتعلق بالخبر تأكيد لمضمونها. ثم بين سبحانه من هو حقيق بعمارة المساجد فقال: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ وفعل ما هو من لوازم الإيمان من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ﴿وَلَمْ يَخْشَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ فمن كان جامعاً بين هذه الأوصاف، فهو الحقيق بعمارة المساجد. لا من كان خالياً منها أو من بعضها، واقتصر على نكر الصلاة والزكاة والخشية تنبيهاً بما هو من أعظم أمور الدين على ما عداها مما افترضه الله على عباده، لأن كل ذلك من لوازم الإيمان، وقد تقدّم الكلام في وجه جمع المساجد، وفي بيان ماهية العمارة، ومن جَوَزَ الجمع بين الحقيقة والمجاز حمل العمارة هنا عليهما، وفي قوله: ﴿فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ حسم لأطماع الكفار في الانتفاع بأعمالهم، فإن الموصوفين بتلك الصفات إذا كان اعتقادهم مرجواً فقط، فكيف بالكفار الذين لم يتصفوا بشيء

بزمن معين أو بطائفة معينة اعتباراً بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ومما يفيد ذلك ما أخرجه ابن أبي حاتم، عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير، أنه كان في عهد أبي بكر الصديق إلى الناس حين وجههم إلى الشام قال: إنكم ستجدون قوماً مجوفة رؤوسهم، فاضربوا مقاعد الشيطان منهم بالسيف، فوالله لأن أقتل رجلاً منهم أحب إلي من أن أقتل سبعين من غيرهم، وذلك بأن الله يقول: ﴿فَقَاتِلُوا أُمَّةَ الْكَفْرِ﴾. وأخرج أبو الشيخ عن حنيفة لا إيمان لهم قال: لا عهد لهم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن عمار مثله. وأخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿إِلَّا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَحُوا إِيمَانَهُمْ﴾ قال: قتال قريش حلفاء النبي ﷺ وهمهم بإخراج الرسول. زعموا أن ذلك عام عمرة النبي ﷺ في العام التابع للحديبية، نكثت قريش العهد عهد الحديبية، وجعلوا في أنفسهم إذا دخلوا مكة أن يخرجوا منها؛ فذلك همهم بإخراجه، فلم تتابعهم خزاعة على ذلك فلما خرج النبي ﷺ من مكة، قالت قريش لخزاعة: عيتمونا عن إخراجهم، فقاتلوهم، فقتلوا منهم رجلاً. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن عكرمة قال: نزلت في خزاعة: ﴿فَقَاتِلُوهُمْ يَعْنِيهِمْ اللَّهُ بِلَايِيكُمْ وَيُخْزِمُهُمُ﴾ الآية. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي نحوه. وأخرج أبو الشيخ، عن قتادة، نحوه أيضاً، وقد ساق القصة ابن إسحاق في سيرته، وأورد فيها النظم الذي أرسلته خزاعة إلى النبي ﷺ، وأوله:

يارب إني نأشد محمداً حلف أبينا وإبيه الأتلا
وأخرج القصة البيهقي في الدلائل. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، قال: الوليجة: البطانة من غير دينهم. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، عن قتادة، قال: وليجة أي: خيلة.

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ
أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٧﴾ إِنَّمَا يَسْتَرْ مَسْجِدَ
اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ
إِلَّا اللَّهَ تَمَسَّكَ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٨﴾ أَجَلْتُمْ مَقَايِلَ الْمَلَأِ
وَعَارَةَ الْمَسْجِدِ الْمَكْرُورِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَنَهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا
يَسْتَوِ عِنْدَ اللَّهِ وَالَّذِي لَا يَجِدُ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٩﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَابُوا
وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَمْرُهُمْ أَكْبَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ
﴿١٠﴾ يُبْذَرُهُمْ رَبُّهُمْ رَحْمَةً رِيَّةً وَرِضْوَانًا وَجَنَّتْ لَهُمْ فِيهَا نَيْمَةٌ مُقِيمَةٌ
﴿١١﴾ خَلِيلُكَ فِيهَا أَيُّهَا إِذَا اللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٢﴾

قرأ الجمهور ﴿يعمروا﴾ بفتح حرف المضارعة وضم الميم من عمر يعمر. وقرأ ابن السميع بضم حرف المضارعة من أعمار يعمر: أي يجعلون لها من يعمرها. وقرأ ابن عباس، وسعيد بن جبير، وعطاء بن أبي رباح، ومجاهد، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن محيصن وسهم ويعقوب

من تلك الصفات؛ وقيل: عسى من الله واجبة؛ وقيل: هي بمعنى خليف: أي فخليق أن يكونوا من المهتدين؛ وقيل: إن الرجاء راجع إلى العباد، والاستفهام في ﴿لَجَعَلْتُمْ سَقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ لِلإِنكَارِ، والسقاية والعمارة مصدران كالسعاية والحماية، وفي الكلام حذف، والتقدير: أجعلتم أصحاب سقاية الحاج وعمارة المسجد، أو أهلهما ﴿كَمَنْ أَمَنَ﴾ حتى يتفق الموضوع والمحمول أو يكون التقدير في الخير: أي جعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، كعمل من آمن أو كإيمان من آمن. وقرأ ابن أبي وجرة السعدي، وابن الزبير، وسعيد بن جبيرة، أجعلتم سقاة الحاج، وعمرة المسجد الحرام، جمع ساق وعامر. وعلى هذه القراءة لا يحتاج إلى تقدير محذوف. والمعنى: أن الله أنكر عليهم التسوية بين ما كان عمله الجاهلية من الأعمال التي صورتها صورة الخير، وإن لم ينتفعوا بها وبين إيمان المؤمنين وجهادهم في سبيل الله، وقد كان المشركون يفتخرون بالسقاية والعمارة، ويفضلونهما على عمل المسلمين. فأنكر الله عليهم ذلك، ثم صرح سبحانه بالمفاضلة بين الفريقين وتفاوتهم وعدم استوائهم فقال: ﴿لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: لا تساوي تلك الطائفة الكافرة الساقية للحجيج العمارة للمسجد الحرام هذه للطائفة المؤمنة بالله واليوم الآخر المجاهدة في سبيله، ودل سبحانه بنفي الاستواء على نفي الفضيلة، التي يدعيها المشركون: أي إذا لم تبلغ أعمال الكفار إلى أن تكون مساوية لأعمال المسلمين، فكيف تكون فاضلة عليها كما يزعمون، ثم حكم عليهم بالظلم وأنهم مع ظلمهم بما هم فيه من الشرك لا يستحقون الهداية من الله سبحانه، وفي هذا إشارة إلى الفريق المفضل، ثم صرح بالفريق الفاضل فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلى آخره: أي الجامعون بين الإيمان والهجرة والجهاد بالأموال والأنفس ﴿اعظم درجة عند الله﴾ وأحق بما لديه من الخير من تلك الطائفة المشركة المفتخرة بأعمالها المحيطة بالباطلة، وفي قوله: ﴿عند الله﴾ تشريف عظيم للمؤمنين، والإشارة بقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ إلى المتصفين بالصفات المذكورة ﴿هَمُ الْفَائِزُونَ﴾ أي: المختصون بالفوز عند الله، ثم فسر الفوز بقوله: ﴿يَبْشِرُهُم بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ والتذكير في الرحمة والرضوان والجَنَاتِ للتعظيم؛ والمعنى أنها فوق وصف الواصفين وتصوّر المتصورين. والنعيم المقيم: الدائم المستمر الذي لا يفارق صاحبه، وذكر الأبد بعد الخلود تأكيد له، وجملة ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ مؤكدة لما قبلها مع تضمينها للتعليل: أي أعطاهم الله سبحانه هذه الأجور العظيمة لكون الأجر الذي عنده عظيم، يهب منه ما يشاء لمن يشاء، وهو ذو الفضل العظيم.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ وقال: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ

أَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فنفى المشركين من المسجد ﴿مَنْ أَمَنَ بِاللَّهِ﴾ يقول: من وحده الله وآمن بما أنزل الله ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ يعني: الصلوات الخمس، ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ يقول: لم يعبد إلا الله ﴿فَعَسَى أُولَئِكَ﴾ يقول: أولئك هم المهتدون، كقوله لنبيه ﷺ: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾ [الإسراء: 79] يقول إن ربك سيبعثك مقاماً محموداً، وهي الشفاعة، وكل عسى في القرآن فهي واجبة. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، والدارمي، والترمذي وحسنه، وابن ماجه، وابن المنذر، والبيهقي في سننه، عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يَعْتَادُ الْمَسَاجِدَ فَاشْهَدُوا لَهُ بِالْإِيمَانِ﴾ قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ أَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾. وقد وردت أحاديث كثيرة في استحباب ملازمة المساجد، وعمارتها والتردد إليها للطاعات. وأخرج مسلم، وأبو داود، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن النعمان بن بشير، قال: كنت عند منبر رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه فقال رجل منهم: ما أبالي أن لا أعمل لله عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج، وقال آخر: بل عمارة المسجد الحرام، وقال آخر: بل جهاد في سبيل الله خير مما قلتهم، فزجرهم عمر، وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ، وذلك يوم الجمعة، ولكن إذا صليت الجمعة دخلت على رسول الله ﷺ فاستفتيته فيما اختلفتم فيه، فأنزل الله: ﴿لَجَعَلْتُمْ سَقَايَةَ الْحَاجِّ﴾ إلى قوله: ﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس، في قوله: ﴿لَجَعَلْتُمْ سَقَايَةَ الْحَاجِّ﴾ الآية، وذلك أن المشركين قالوا عمارة بيت الله، وقيام على السقاية، خير ممن آمن وجاهد، فكانوا يفخرون بالحرم ويستكبرون به من أجل أنهم أهله وعماره، فنكر الله سبحانه استكبارهم وإعراضهم، فقال لأهل الحرم من المشركين: ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تَتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكَبُونَ. مُسْتَكْبِرِينَ بِه سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾ [المؤمنون: 66، 67] يعني: أنهم كانوا يستكبرون بالحرم. وقال به سامراً كانوا به يسمرون ويهجون بالقرآن والنبي ﷺ، فخير الإيمان بالله والجهاد مع نبي الله على عمران المشركين البيت وقيامهم على السعاية، ولم يكن لينفعهم عند الله مع الشرك به وإن كانوا يعمرون بيته ويخدمونه قال الله: ﴿لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ يعني: الذين زعموا أنهم أهل العمارة فسماهم ظالمين بشركهم، فلم تغن عنهم العمارة شيئاً، وفي إسناد العوفي وهو ضعيف. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس، قال: قال العباس حين أسر يوم بدر: إن كنتم سبقتُمونا بالإسلام والهجرة والجهاد لقد كنا نعلم المسجد الحرام، ونسقي الحاج ونفك العاني، فأنزل الله: ﴿لَجَعَلْتُمْ سَقَايَةَ الْحَاجِّ﴾ الآية: يعني: أن ذلك كان في الشرك، فلا أقبل ما كان في الشرك. وأخرج ابن مردويه، عنه، أيضاً في

عمرو الثقفي. وأخرج ابن المنذر، عن الحسن قال: لما اجتمع أهل مكة وأهل المدينة قالوا: الآن نقاتل حين اجتماعنا، فكره رسول الله ﷺ ما قالوا، وما أعجبهم من كثرتهم، فالتقوا فهزموا حتى ما يقوم أحد منهم على أحد حتى جعل رسول الله ﷺ ينادي أحياء العرب: إليّ، فوا الله ما يعرج عليه أحد حتى أعرى موضعه، فالتفت إلى الأنصار وهم ناحية فنادهم: يا أنصار الله وأنصار رسوله، إليّ عباد الله أنا رسول الله، فجثوا يبكون وقالوا: يا رسول الله ورب الكعبة إليك والله، فنكسوا رؤوسهم يبكون وقدموا أسياهم يضربون بين يدي رسول الله ﷺ، حتى فتح الله عليهم. وأخرج البيهقي في الدلائل، عن الربيع أن رجلاً قال يوم حنين: لن تغلب من قلة، فشق ذلك على رسول الله ﷺ، فأنزل الله ﴿يَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبْتُمْ كَثْرَتَكُمْ﴾ قال الربيع: وكانوا اثني عشر ألفاً، منهم ألفان من أهل مكة. وأخرج الطبراني، والحاكم وصححه، وأبو نعيم، والبيهقي في الدلائل، عن ابن مسعود قال: كنت مع رسول الله ﷺ يوم حنين، فولى عنه الناس وبقيت معه في ثمانين رجلاً من المهاجرين والأنصار، فكنا على أقدامنا نحواً من ثمانين قدماً ولم نولهم الدبر، وهم الذين أنزل الله عليهم السكينة، ورسول الله ﷺ على بغلته البيضاء يمشي قدماً، فقال: ناولني كفاً من تراب، فنولته فضرب به وجوههم فامتلات أعينهم تراباً، وولى المشركون أبارهم، ووقعة حنين منكرة في كتب السير والحديث بطولها وتفصيلها، فلا تطول بذلك. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي، في قوله: ﴿وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا﴾ قال: هم الملائكة. ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال: قتلهم بالسيف. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير، قال: في يوم حنين أمد الله رسوله بخمسة آلاف من الملائكة مسومين، ويومئذ سمي الله الأنصار مؤمنين قال: فأنزل سكينته على رسوله وعلى المؤمنين. وأخرج ابن إسحاق، وابن المنذر، وابن مريويه، وأبو نعيم، والبيهقي عن جبير بن مطعم، قال: رأيت قبل هزيمة القوم والناس يقتتلون مثل النجاد الأسود أقبل من السماء حتى سقط بين القوم، فنظرت فإذا نمل أسود ميثوث قد ملا الوادي، لم أشك أنها الملائكة، ولم تكن إلا هزيمة القوم.

يَكَايُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الَّذِينَ كَفَرُوا خَمَسٌ فَلَا يُنْصَرُوْا إِلَيْهِمْ وَهُمْ عَلَيْهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
الْحَرَامُ بَعْدَ عَاهِهِمْ هَكَذَا وَإِنْ جُنُدُ عِيَالِكَ فَسَوْفَ يُعْزِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِ حَكِيمٌ ﴿١٧﴾ قِيلُوا الَّذِينَ لَا دِينَهُمْ يَأْتُونَنَا بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَلَا يُؤْمِنُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدْعُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ ذَاكِرُونَ ﴿١٨﴾

النجس مصدر لا يثنى ولا يجمع، يقال رجل نجس، وامرأة نجس، ورجلان نجس، وامرأتان نجس، ورجال نجس، ونساء نجس؛ ويقال نجس ونجس بكسر الجيم وضمها؛ ويقال نجس بكسر النون وسكون الجيم وهو تخفيف من

زيد، وعمرو، مع قومه، أو في ثيابه أو على فرسه؛ وقيل: إن: ﴿إِذْ أَعْجَبْتُمْ كَثْرَتَكُمْ﴾ ليس ببديل من يوم حنين، بل منصوب بفعل مقدر: أي انكروا إذا أعجبكم كثرتكم، وحنين: واد بين مكة والطائف، وانصرف على أنه اسم للمكان، ومن العرب من يمنعه على أنه اسم للبقعة، ومنه قول الشاعر:

نصروا نبيهم وشنوا أزره
بحنين يوم تواكل الأبطال
وإنما أعجب من أعجب من المسلمين بكثرتهم لأنهم كانوا اثني عشر ألفاً، وقيل: أحد عشر ألفاً، وقيل: ستة عشر ألفاً؛ فقال بعضهم: لن تغلب اليوم من قلة، فوكلوا إلى هذه الكلمة، فلم تغن الكثرة شيئاً عنهم، بل انهزموا وثبت رسول الله ﷺ، وثبت معه طائفة يسيرة منهم عمه العباس وأبو سفيان بن الحارث، ثم تراجع المسلمون، فكان النصر والظفر. والإغناء: إعطاء ما يدفع الحاجة: أي لم تعطكم الكثرة شيئاً يدفع حاجتكم، ولم تقدمكم. قوله: ﴿بِمَا رَحِبتُ﴾ الرحب بضم الراء: السعة، والرحب بفتح الراء: المكان الواسع، والباء بمعنى مع، وما مصدريّة، ومحل الجار والمجرور الت نصب على الحال. والمعنى: أن الأرض مع كونها واسعة الأطراف ضاقت عليهم بسبب ما حلّ بهم من الخوف والوجل؛ وقيل: إن الباء بمعنى على: أي على رحبها ﴿ثُمَّ وَلِيتِم مَدِيرِينَ﴾ أي: انهزمت حال كونكم مدبرين: أي مولين أباركم، جاعلين لها إلى جهة عدوكم. قوله: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: أنزل ما يسكنهم، فيذهب خوفهم حتى وقع منهم الاجترأ على قتال المشركين بعد أن ولوا مدبرين، والمراد بالمؤمنين: هم الذين لم يهزموا، وقيل: الذين انهزموا. والظاهر جميع من حضر منهم، لأنهم ثبتوا بعد ذلك وقاتلوا وانتصروا. قوله: ﴿وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا﴾ هم الملائكة.

وقد اختلف في عددهم على أقوال: قيل: خمسة آلاف، وقيل: ثمانية آلاف، وقيل: ستة عشر ألفاً، وقيل: غير ذلك، وهذا لا يعرف إلا من طريق النبوة. واختلفوا أيضاً هل قاتلت الملائكة في هذا اليوم أم لا؟ وقد تقدم أن الملائكة لم تقاتل إلا يوم بدر، وأنهم إنما حضروا في غير يوم بدر لتقوية قلوب المؤمنين، وإدخال الرعب في قلوب المشركين ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بما وقع عليهم من القتل والأسر وأخذ الأموال وسبي الذرية، والإشارة بقوله: ﴿وَفَلَكَ﴾ إلى التعذيب المفهوم من عذب، وسمي ما حلّ بهم من العذاب في هذا اليوم جزاء مع أنه غير كاف بل لا بد من عذاب الآخرة مبالغة في وصف ما وقع عليهم وتعظيماً له ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: من بعد هذا التعذيب على من يشاء ممن هداه منهم إلى الإسلام ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ يغفر لمن أنوب، فتاب ﴿رَحِيمٌ﴾ بعباده يتفضل عليهم بالمغفرة لما اقترفوه.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، قال: حنين ما بين مكة والطائف، قاتل نبي الله ﷺ هوازن وثقيف، وعلى هوازن مالك بن عوف، وعلى ثقيف عبد ياليل بن

ظاهر لا يخفى، ولعله أراد تفسير ما بعد المضاف إلى عامهم ولا شك أنه عام عشر، وأما تفسير العام المشار إليه بهذا، فلا شك ولا ريب أنه عام تسع، وعلى هذا يحمل قول قتادة. وقد استدل من قال بأنه يجوز للمشركون دخول المسجد الحرام وغيره من المساجد بهذا القيد، أعني قوله: **﴿بعد عامهم هذا﴾** قائلًا إن النهي مختص بوقت الحج والعمرة، فهم ممنوعون عن الحج والعمرة فقط، لا عن مطلق النحول. ويجاب عنه بأن ظاهر النهي عن القربان بعد هذا العام يفيد المنع من القربان في كل وقت من الأوقات الكائنة بعده، وتخصيص بعضها بالجواز يحتاج إلى مخصص. قوله: **﴿وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله﴾** العيلة: الفقر، يقال عال الرجل يعيل: إذا افتقر، قال الشاعر: وما يدرى الفقير متى غناه وما يدرى الغني متى يعيل وقرأ علقمة وغيره من أصحاب ابن مسعود «عيلة» وهو مصدر كالقابلة والعافية والعاقبة؛ وقيل معناه: خصلة شاقة، يقال عالني الأمر يعولني: أي شق عليّ واشتدّ. وحكى ابن جرير الطبري أنه يقال عال يعول: إذا افتقر. وكان المسلمون لما منعوا المشركون من الموسم وهم كانوا يجلبون إليه الأطعمة والتجارات، قذف الشيطان في قلوبهم الخوف من الفقر، وقالوا: من أين نعيش؟ فوعدهم الله أن يغنيهم من فضله. قال الضحاك: ففتح الله عليهم باب الجزية من أهل الذمة بقوله: **﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله﴾** الآية. وقال عكرمة: أغناهم بإيراد المطر والنبات وخصب الأرض، وأسلمت العرب فحملوا إلى مكة ما أغناهم الله به. وقيل أغناهم بالفيء، وفائدة التقييد بالمشيئة التعليم للعباد بأن يقولوا ذلك في كل ما يتكلمون به، مما له تعلق بالزمان المستقبل، ولئلا يفوتوا عن الدعاء والتضرع **﴿إن الله عليم﴾** بأحوالكم **﴿حكيم﴾** في إعطائه ومنعه، ما شاء كان ومالم يشأ لم يكن. قوله: **﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله﴾** الآية، فيه الأمر بقتال من جمع بين هذه الأوصاف. قال أبو الوفاء بن عقيل: إن قوله **﴿قاتلوا﴾** أمر بالعقوبة، ثم قال: **﴿الذين لا يؤمنون بالله﴾** فبين الذنب الذي توجب العقوبة، ثم قال: **﴿ولا باليوم الآخر﴾** فلك الذنب في جانب الاعتقاد، ثم قال: **﴿ولا يحزبون ما حرم الله ورسوله﴾** فيه زيادة للذنب في مخالفة الأعمال، ثم قال: **﴿ولا يمينون بين الحق﴾** فيه إشارة إلى تأكيد المعصية بالانحراف والمعادنة، والافتة عن الاستسلام، ثم قال: **﴿من الذين أوتوا الكتاب﴾** تأكيد للحجة عليهم لأنهم كانوا يحبونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، ثم قال: **﴿حتى يعطوا الجزية﴾** فبين الغاية التي تمتد إليها العقوبة. انتهى. قوله: **﴿من الذين أوتوا الكتاب﴾** بيان للموصول مع ما في حيزه وهم أهل التوراة والإنجيل. قوله: **﴿حتى يعطوا الجزية عن يد﴾** الجزية وزن فعل من جرى يجزي: إذا كافأ عما أسدي إليه، فكانهم أعطوها جزاء عما منحوا من الأمن؛ وقيل: سميت جزية لأنها طائفة مما على أهل الذمة أن يجزوه، أي يقضوه،

المحرك. قيل: لا تستعمل إلا إذا قيل معه رجس؛ وقيل ذلك أكثرى لا كلي. والمشركون مبتدأ، وخبره المصدر مبالغة في وصفهم بذلك حتى كأنهم عين النجاسة، أو على تقدير مضاف: أي نوء نجس، لأن معهم الشرك وهو بمنزلة النجس. وقال قتادة ومعمر وغيرهما: إنهم وصفوا بذلك لأنهم لا يتطهرون، ولا يغتسلون، ولا يتجنبون النجاسات. وقد استدل بالآية من قال بأن المشرک نجس الذات، كما ذهب إليه بعض الظاهرية والزيدية. وروي عن الحسن البصري، وهو محكي عن ابن عباس. وذهب الجمهور من السلف والخلف ومنهم أهل المذاهب الأربعة إلى أن الكافر ليس بنجس الذات، لأن الله سبحانه أحل طعامهم، وثبت عن النبي ﷺ في ذلك من فعله، وقوله، ما يفيد عدم نجاسة نواتهم، فاكل في أنيتهم، وشرب منها، وتوضأ فيها، وأنزلهم في مسجده. قوله: **﴿فلا يقربوا المسجد الحرام﴾** الفاء للتفريع، فعدم قربانهم للمسجد الحرام متفرع على نجاستهم. والمراد بالمسجد الحرام: جميع الحرم، روي ذلك عن عطاء، فيمنعون عنده من جميع الحرم، وذهب غيره من أهل العلم إلى أن المراد المسجد الحرام نفسه، فلا يمنع المشرک من دخول سائر الحرم.

وقد اختلف أهل العلم في دخول المشرک غير المسجد الحرام من المساجد؛ فذهب أهل المدينة إلى منع كل مشرك عن كل مسجد. وقال الشافعي: الآية عامة في سائر المشرکين خاصة في المسجد الحرام، فلا يمنعون من دخول غيره من المساجد. قال ابن العربي: وهذا جمود منه على الظاهر، لأن قوله تعالى: **﴿إنما للمشركون نجس﴾** تنبيه على العلة بالشرك والنجاسة، ويجاب عنه بأن هذا القياس مربود بربطه ﷺ لثماته بن أثال في مسجده، وإنزال وفد ثقيف فيه. وروي عن أبي حنيفة مثل قول الشافعي، وزاد أنه يجوز دخول الذمي سائر المساجد من غير حاجة، وقيده الشافعي بالحاجة. وقال قتادة: إنه يجوز ذلك للذمي دون المشرک. وروي عن أبي حنيفة أيضاً أنه يجوز لهم دخول الحرم والمسجد الحرام وسائر المساجد، ونهى المشرکين عن أن يقربوا المسجد الحرام هو نهى للمسلمين عن أن يمكنوهم من ذلك، فهو من باب قولهم: لا أرينك هاهنا. قوله: **﴿بعد عامهم هذا﴾** فيه قولان: أحدهما: أنه سنة تسع، وهي التي حج فيها أبو بكر على الموسم. الثاني: أنه سنة عشر قاله قتادة، قال ابن العربي: وهو الصحيح الذي يعطيه مقتضى اللفظ، ومن العجب أن يقال إنه سنة تسع، وهو العام الذي وقع فيه الأذان، ولو دخل غلام رجل داره يوماً فقال له مولا: لا تدخل هذه الدار بعد يومك، لم يكن المراد اليوم الذي دخل فيه. انتهى. ويجاب عنه بأن الذي يعطيه مقتضى اللفظ هو خلاف ما زعمه، فإن الإشارة بقوله: **﴿بعد عامهم هذا﴾** إلى العام المذكور قبل اسم الإشارة وهو عام النداء، وهكذا في المثال الذي ذكره، المراد النهي عن دخولها بعد يوم الدخول الذي وقع فيه الخطاب، والأمر

المنذر، وابن أبي حاتم، عن عكرمة، في قوله: ﴿وَأَنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ قال: الفاقة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير، في قوله: ﴿فَسَوْفَ يَغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ قال: بالجزية. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، عن الضحاک مثله. وأخرج نحوه عبد الرزاق عن قتادة. وأخرج أبو الشيخ، عن الحسن، في قوله: ﴿إِنَّمَا الْمَشْرُكُونَ نَجَسٌ﴾ قال: قدر. وأخرج أبو الشيخ عنه، أيضاً قال: من صافحهم فليتوضأ. وأخرج أبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «من صافح مشركاً فليتوضأ أو ليغسل كفيه». وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي في سننه، عن مجاهد، في قوله: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ قال: نزلت هذه الآية حين أمر محمد ﷺ وأصحابه بغزوة تبوك. وأخرج ابن المنذر، عن ابن شهاب، قال: نزلت في كفار قريش والعرب ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ وأنزلت في أهل الكتاب ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ الآية إلى قوله: ﴿حَتَّى يَعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾، فكان أول من أعطى الجزية أهل نجران. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن سعيد بن جبير، في قوله: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ يعني: الذين لا يصَلُّون بتوحيد الله ﴿وَلَا يَحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ يعني الخمر والحريز ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾ يعني: دين الإسلام ﴿مَنْ الَّذِينَ أَوْتُوا لِلْكِتَابِ حَتَّى يَعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ يعني: مثللون. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: ﴿عَنْ يَدٍ﴾ قال: عن قهر. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سفيان بن عيينة، في قوله: ﴿عَنْ يَدٍ﴾ قال: من يده ولا يبعث بها غيره. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن أبي سنان في قوله: ﴿عَنْ يَدٍ﴾ قال: عن قدرة. وأخرج ابن المنذر، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ قال: يمشون بها متلتلين. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه، قال: يلكزون. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن سلمان، في الآية قال: غير محمودين.

وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَتَلْنَاهُ اللَّهُ أَلَمْ يُؤْتِكُمْ ﴿١٥﴾ أَنْتُمْ كَذِبُوا أَجْرَانَهُمْ وَرَبُّكُمْ أَرْكَبَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٦﴾ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَهُ أَنْ يُمْسُو نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٧﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾

قوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنِ اللَّهِ﴾ كلام مبتدأ لبيان شرك أهل الكتابين، وعزير مبتدأ وابن الله خبره، وقد قرأ عاصم والكسائي «عزير» بالتنوين، وقرأ الباقون بترك

وهي في الشرع ما يعطيه المعاهد على عهده، و﴿عَنْ يَدٍ﴾ في محل نصب على الحال. والمعنى: عن يد موأتية غير ممتنعة، وقيل معناه: يعطونها بأيديهم غير مستتبين فيها أحداً؛ وقيل معناه: نقد غير نسيئة؛ وقيل عن قهر؛ وقيل معناه: عن إنعام منكم عليهم، لأن أخذها منهم نوع من أنواع الإنعام عليهم؛ وقيل معناه منمومون. وقد ذهب جماعة من أهل العلم منهم الشافعي، وأحمد، وأبو حنيفة، وأصحابه والثوري، وأبو ثور، إلى أنها لا تقبل الجزية إلا من أهل الكتاب. وقال الأوزاعي ومالك: إن الجزية تؤخذ من جميع أجناس الكفرة كائناً من كان، ويدخل في أهل الكتاب على القول الأول: المجوس. قال ابن المنذر: لا أعلم خلافاً في أن الجزية تؤخذ منهم.

واختلف أهل العلم في مقدار الجزية. فقال عطاء: لا مقدار لها. وإنما تؤخذ على ما صولحوا عليه، وبه قال يحيى بن آدم، وأبو عبيد، وابن جرير إلا أنه قال: أقلها دينار، وأكثرها لا حد له. وقال الشافعي: دينار على الغني والفقير من الأحرار البالغين لا ينقص منه شيء، وبه قال أبو ثور. قال الشافعي: وإن صولحوا على أكثر من دينار جاز، وإذا زالوا وطابت بذلك أنفسهم قبل منهم. وقال مالك: إنها أربعة دنانير على أهل الذهب، وأربعون درهماً على أهل الورق، الغني والفقير سواء، ولو كان مجوسياً لا يزيد ولا ينقص. وقال أبو حنيفة وأصحابه، ومحمد بن الحسن، وأحمد بن حنبل: اثنا عشر، وأربعة وعشرون، وثمانية وأربعون. والكلام في الجزية مقرر في موطنه، والحق من هذه الأقوال قد قررناه في شرحنا للمنتقى وغيره من مؤلفاتنا. قوله: ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ في محل نصب على الحال، والصغار: الذال. والمعنى: إن الذمي يعطى الجزية حال كونه صاغراً، قيل: وهو أن يأتي بها بنفسه ماشياً غير راكب، ويسلمها وهو قائم، والمتسلم قاعد. وبالجمله ينبغي للقباض للجزية أن يجعل المسلم لها حال قبضها صاغراً قليلاً.

وقد أخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن جابر بن عبد الله، في قوله: ﴿إِنَّمَا الْمَشْرُكُونَ نَجَسٌ﴾ الآية قال: إلا أن يكون عبداً أو أحداً من أهل الذمة. وقد روي مرفوعاً من وجه أخرجه ابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ لا يدخل مسجدنا هذا بعد عامنا هذا مشرك إلا أهل العهد وخدمكم. قال ابن كثير: تفرد به أحمد مرفوعاً. والموقوف: أصح. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، قال: كان المشركون يجيئون إلى البيت ويجيئون معهم بالطعام يتجرون به، فلما نهوا عن أن يأتوا البيت. قال المسلمون: فمن أين لنا الطعام؟ فأنزل الله ﴿وَأَنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يَغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ﴾ قال: فأنزل الله عليهم المطر. وكثر خيرهم حين ذهب المشركون عنهم. وأخرج ابن مردويه، عنه، قال: فأغنام الله من فضله، وأمرهم بقتال أهل الكتاب. وأخرج عبد بن حميد، وابن

ابن الله. قوله: ﴿قاتلهم الله﴾ دعاء عليهم بالهلاك، لأن من قاتله الله هلك، وقيل هو تعجب من شناعة قولهم؛ وقيل معنى قاتلهم الله: لعنهم الله، ومنه قول أبان بن ثعلب: قاتلها الله تلحاني وقد علمت أني لنفسي إفسادي وإصلاحني وحكي النقاش أن أصل قاتل الله: الدعاء، ثم كثر في استعمالهم حتى قالوه على التعجب في الخير والشر وهم لا يريدون الدعاء، وأنشد الأصمعي:

يا قاتل الله ليلي كيف تعجبني وأخبر الناس اني لا أباليها
﴿أنى يؤفكون﴾ أي: كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل. قوله: ﴿اتخذوا أبحاراً وربانهم أرباباً من دون الله﴾ الأبحار: جمع حبر، وهو الذي يحسن القول، ومنه ثوب محبر؛ وقيل جمع حبر بكسر الحاء. قال يونس: لم أسمعها إلا بكسر الحاء. وقال الفراء: الفتح والكسر لغتان، وقال ابن السكيت: الحبر بالكسر العالم، والحبر بالفتح العالم. والربان جمع راهب مأخوذ من الرهبة، وهم علماء النصارى كما أن الأبحار علماء اليهود. ومعنى الآية: أنهم لما أطاعوهم فيما يأمرونهم به، ويهونهم عنه كانوا بمنزلة المتخذين لهم أرباباً، لأنهم أطاعوهم كما تطاع الأرباب، قوله: ﴿والمسيح ابن مريم﴾ معطوف على رهبانهم: أي اتخذ النصارى رباً معبوداً، وفيه إشارة إلى أن اليهود لم يتخذوا عزيز رباً معبوداً، وفي هذه الآية ما يزرع من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد عن التقليد في دين الله، وتأثير ما يقوله الأسلاف على ما في الكتاب العزيز والسنة المطهرة، فإن طاعة المتمذهب لمن يقتدى بقوله ويستتر بسنته من علماء هذه الأمة مع مخالفته لما جاءت به النصوص، وقامت به حجج الله وبراهينه، ونطقت به كتبه وأنبياءه، هو كاتخاذ اليهود والنصارى للأبحار والربان أرباباً من دون الله، للقطع بأنهم لم يعبدوهم بل أطاعوهم، وحرّموا ما حرّموا، وحلّلوا ما حلّلوا، وهذا هو صنيع المقلدين من هذه الأمة، وهو أشبه به من شبه البيضة بالبيضة، والتمرة بالتمرّة، والماء بالماء، فإيا عباد الله ويا أتباع محمد بن عبد الله ما بالكم تركتم الكتاب والسنة جانباً، وعمدتم إلى رجال هم مثلكم في تعبد الله لهم بهما وطلبه منهم للعمل بما دلا عليه وأفاده، فعلمتم بما جاءوا به من الآراء التي لم تعمد بعماد الحق، ولم تعضد بعض الدين، ونصوص الكتاب والسنة، تنادي بأبلغ نداء، وتصوّت بأعلى صوت بما يخالف ذلك ويباينه، فأعزموهما أذاناً صماً، وقلوباً غلفاً، وأفهاماً مريضة، وعقولاً مهیضة، وإذهاناً كليلّة، وخواطير عليّة، وأنشدتم بلسان الحال:

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد
فدعوا أرشدكم الله وإياي كتباً كتبها لكم الأموات من أسلافكم، واستبدلوا بها كتاب الله، خالفهم وخالفكم، ومتعبدوهم ومتعبدكم، ومعبدوهم ومعبدكم، واستبدلوا بأقوال من تدعونهم بأئمتكم وما جاءكم به من الرأي بأقوال إمامكم وإمامهم، وقدوتكم وقدوتهم، وهو الإمام الأول:

التنوين لاجتماع العجمة والعلمية فيه. ومن قرأ بالتنوين فقد جعله عربياً؛ وقيل: إن سقوط التنوين ليس لكونه ممتنعاً بل لاجتماع الساكنين، ومنه قراءة من قرأ ﴿قل هو الله أحد الله الصمد﴾ [الإخلاص: 1 - 2]. قال أبو علي الفارسي وهو كثير في الشعر، وأنشد ابن جرير الطبري:

لتجسني بالأمير برأً وبالقنأة لامراً مكرراً
إذا غطيت السلمي فرأً

وظاهر قوله: ﴿وقالت لليهود﴾ إن هذه المقالة لجميعهم، وقيل: هو لفظ خرج على العموم، ومعناه الخصوص لأنه لم يقل ذلك إلا البعض منهم. وقال النقاش: لم يبق يهودي يقولها؛ بل قد انقرضوا؛ وقيل: إنه قال ذلك للنبي ﷺ جماعة منهم، فنزلت الآية متضمنة لحكاية ذلك عن اليهود، لأن قول بعضهم لازم لجميعهم. قوله: ﴿وقالت النصارى المسيح ابن الله﴾ قالوا هذا لما رأوا من إحيائه الموتى مع كونه من غير أب، فكان ذلك سبباً لهذه المقالة، والأولى أن يقال: إنهم قالوا هذه المقالة لكون في الإنجيل وصفه تارة بابن الله وتارة بابن الإنسان، كما رأينا ذلك في مواضع متعددة من الإنجيل، ولم يفهموا أن ذلك لقصد التشريف والتكريم، أو لم يظهر لهم أن ذلك من تحريف سلفهم لغرض من الأغراض الفاسدة؛ قيل: وهذه المقالة إنما هي لبعض النصارى لا لكلهم. قوله: ﴿ذلك قولهم بأفواههم﴾ الإشارة إلى ما صدر عنهم من هذه المقالة الباطلة. ووجه قوله بأفواههم مع العلم بأن القول لا يكون إلا الفم. بأن هذا القول لما كان سانحاً ليس فيه بيان، ولا عضده برهان، كان مجرد دعوى، لا معنى تحتها فارغة صادرة عنهم صدور المهملات التي ليس فيها إلا كونها خارجة من الأفواه، غير مفيدة لغائدة يعتد بها؛ وقيل: إن نكر الأفواه لقصد التأكيد، كما في كتبت بيدي ومشيت برجلي، ومنه قوله تعالى: ﴿يكتبون الكتاب بأيديهم﴾ [البقرة: 79]. وقوله: ﴿ولا طائر يطير بجناحيه﴾ [الأنعام: 38]. وقال بعض أهل العلم: إن الله سبحانه لم ينكر قولاً مقروناً بنكر الأفواه والألسن، إلا وكان قولاً زوراً كقوله: ﴿يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم﴾ [آل عمران: 167]، وقوله: ﴿كبرت كلمة تخرج من أفواههم﴾ [الكهف: 5]، وقوله: ﴿يقولون بالسنتهم ما ليس في قلوبهم﴾ [الفتح: 11]. قوله: ﴿يضاهئون قول الذين كفروا﴾ المضاهاة: المشابهة. قيل ومنه قول العرب امرأة ضهياء وهي التي لا تحيض لأنها شابهت الرجال. قال أبو علي الفارسي: من قال: ﴿يضاهئون﴾ مأخوذ من قولهم امرأة ضهياء فقوله خطأ، لأن الهمزة في ضاهياً أصلية، وفي ضهياء زائدة كحمرء، وأصله يضاهئون وامرأة ضهياء، ومعنى مضاهاتهم لقول الذين كفروا فيه أقوال لأهل العلم: الأول: أنهم شابهوا بهذه المقالة عبدة الأوثان في قولهم واللات والعزى ومناة بنات الله. القول الثاني: أنهم شابهوا قول من يقول من الكافرين: إن الملائكة بنات الله، الثالث: أنهم شابهوا أسلافهم القائلين بأن عزيز ابن الله وإن المسيح

محمد بن عبد الله

دعوا كل قول عند قول محمد فما أبى في بيته كمخاطر
 اللهم هادي الضال، مرشد التائه، موضح السبيل، اهتدنا
 إلى الحق وأرشدنا إلى الصواب، وأوضح لنا منهج الهداية،
 قوله: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً﴾ هذه الجملة في
 محل نصب على الحال: أي اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً،
 والحال: أنهم ما أمروا إلا بعبادة الله وحده، أو ما أمر الذين
 اتخذوهم أرباباً من الأحبار والرهبان إلا بذلك، فكيف
 يصلحون لما أهلوهم له من اتخاذهم أرباباً. قوله: ﴿لا إله
 إلا هو﴾ صفة ثانية لقوله إلهاً ﴿سبحانه عما يشركون﴾
 أي: تنزيهاً له عن الإشراك في طاعته وعبادته. قوله:
 ﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم﴾ هذا كلام
 يتضمن نكر نوع آخر من أنواع ضلالهم وبعدهم عن الحق،
 وهو ما راموه من إبطال الحق بأقوالهم الباطلة، التي هي
 مجرد كلمات ساذجة، ومجادلات زائفة، وهذا تمثيل لحالهم
 في محاولة إبطال دين الحق، ونبوته نبي الصنق، بحال من
 يريد أن ينفخ في نور عظيم قد أثار به الدنيا، وانقضت به
 الظلمة، ليطفئه ويذهب أضواءه ﴿ويلي الله إلا أن يتم
 نوره﴾ أي: بينه القويم، وقد قيل: كيف بخلت إلا الاستثنائية
 على يلى، ولا يجوز كرهته أو بغضته إلا زيداً. قال الفراء:
 إنما بخلت لأن في الكلام طرفاً من الجحد. وقال الزجاج: إن
 العرب تحذف مع أبى، والتقدير ويلى الله كل شيء إلا أن
 يتم نوره. وقال علي بن سليمان: إنما جاز هذا في أبى، لأنها
 منع أو امتناع فضارعت النفي، قال النحس: وهذا أحسن
 كما قال الشاعر:

وهل لي أم غيرها إن تركتها أبى الله إلا أن يكون لها ابننا
 وقال صاحب الكشف: إن أبر قد أجرى مجرى لم يرد:
 أي ولا يريد إلا أن يتم نوره. قوله: ﴿ولو كره الكافرون﴾
 معطوف على جملة قبله مقترنة: أي أبى الله إلا أن يتم نوره،
 ولو لم يكره الكافرون ذلك، ولو كرهوا، ثم أكد هذا بقوله:
 ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى﴾ أي: بما يهدي به الناس
 من البراهمين والمعجزات، والأحكام التي شرعها الله لعباده،
 ﴿ودين الحق﴾ وهو: الإسلام، ﴿ليظهره﴾ أي: ليظهر
 رسوله، أو دين الحق بما اشتمل عليه من الحجج والبراهين،
 وقد وقع ذلك والله الحمد ﴿ولو كره للمشركون﴾ الكلام فيه
 كاللزام في ﴿ولو كره الكافرون﴾ كما قلنا ذلك.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو
 الشيخ، وابن مروي، عن ابن عباس، قال: أتى رسول الله
 ﷺ بن مشكم، ونعمان بن أوفى، وأبو أنس،
 وشاس بن قيس، ومالك بن الصيف، فقالوا: كيف نتبعك
 وقت تركت قبلتنا وأنت لا تزعم عزير ابن الله؟ فأنزل الله
 ﴿وقالت اليهود عزير ابن الله﴾ الآية. وأخرج ابن أبي
 شيبة، وابن المنذر، عنه، قال: كنّ نساء بني إسرائيل يجتمعن
 بالليل فيصليين ويعتزلن وينكرن ما فضل الله به بني
 إسرائيل وما أعطاهم، ثم سلط عليهم شر خلقه بختنصر،

فحرق التوراة وحرق بيت المقدس، وعزير يومئذ غلام، فقال
 عزير: أو كان هذا؟ فلحق بالجمال والوحش، فجعل يتعبد
 فيها، وجعل لا يخاطب الناس، فإذا هو ذات يوم بامرأة عند
 قبر وهي تبكي، فقال: يا أمه اتقي الله واحتسبي واصبري،
 أما تعلمين أن سبيل الناس إلى الموت؟ فقالت: يا عزير
 أتنهاني أن أبكي، وأنت قد خلفت بني إسرائيل، ولحقت
 بالجمال والوحش؟ ثم قالت: إني لست بامرأة ولكني الدنيا،
 وإنه سينبع في مصلاك عين وتنتب شجرة، فاشرب من ماء
 العين وكل من ثمر الشجرة، فإنه سيأتيك ملكان فاتركهما
 يصنعان ما أرادا؛ فلما كان من الغد نبعت العين ونبتت
 الشجرة، فشرب من ماء العين وأكل من ثمر الشجرة، وجاء
 ملكان ومعهما قارورة فيها نور فأوجراه ما فيها فآلهما الله
 التوراة، فجاء فأملاه على الناس، فعند ذلك قالوا عزير ابن
 الله، تعالى الله عن ذلك. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه، أيضاً
 فنذكر قصة وفيها: أن عزير سأل الله بعد ما أنسى بني
 إسرائيل التوراة ونسخها من صدورهم، أن يرده الذي نسخ
 من صدره، فبينما هو يصلي نزل نور من الله عز وجل
 فدخل جوفه، فعاد إليه الذي كان ذهب من جوفه من التوراة،
 فأنزله في قومه فقال: يا قوم قد أتاني الله التوراة وردّها إلي.
 وأخرج أبو الشيخ، عن كعب، قال: دعا عزير ربه أن يلقي
 التوراة كما أنزل على موسى في قلبه، فأنزلها الله عليه، فبعد
 ذلك قالوا: عزير ابن الله. وأخرج ابن مروي، وابن عساكر،
 عن ابن عباس، قال: ثلاث أشك فيهن: فلا أدري عزير كان
 نبياً أم لا؟ ولا أدري العن تبع أم لا؟ قال: ونسيت الثالثة.
 وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه، في قوله:
 ﴿يضاهون﴾ قال: يشبهون. وأخرج ابن جرير، وابن
 المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عنه، في قوله: ﴿قاتلهم
 الله﴾ قال: لعنهم الله، وكل شيء في القرآن قتل فهو لعن.
 وأخرج ابن سعد، وعبد بن حميد، والترمذي وحسنه، وابن
 المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مروي، والبيهقي
 في سننه، عن عدي بن حاتم، قال: أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ
 في سورة براءة ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من
 دون الله﴾ فقال: أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا
 إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه، وإذا حرّموا عليهم شيئاً
 حرّموه. وأخرجه أيضاً أحمد وابن جرير. وأخرج عبد الرزاق،
 والفرغاني، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ،
 والبيهقي في سننه، عن أبي البحتري قال: سأل رجل حنيفة
 فقال: أرايت قوله: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من
 دون الله﴾ أكانوا يعبدونهم؟ قال: لا، ولكنهم كانوا إذا أحلوا
 لهم شيئاً استحلوه، وإذا حرّموا عليهم شيئاً حرّموه. وأخرج
 ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن الضحاك، قال: أحبارهم:
 قراؤهم، ورهبانهم: علمائهم. وأخرج ابن المنذر، عن ابن
 جريج، قال: الأحبار من اليهود، والرهبان من النصارى.
 وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي مثله. وأخرج أيضاً عن
 الفضيل بن عياض قال: الأحبار: العلماء، والرهبان: العباد.

تجارة أو لهُوا أنقصوا إليها» [الجمعة: 11] أعاد الضمير إلى التجارة، لأنها الأهم؛ وقيل إن الضمير راجع إلى الذهب والفضة معطوفة عليه، والعرب تؤنث الذهب وتذكره؛ وقيل: إن الضمير راجع إلى الكنوز المدلول عليها بقوله: «يكنزون» وقيل: إلى الأموال، وقيل: للزكاة، وقيل: إنه اكتفى بضمير أحدهما عن ضمير الآخر مع فهم المعنى، وهو كثير في كلام العرب، وأنشد سيبويه:

نحن بما عنفنا وانت بما عندك راض والرأي مختلف
ولم يقل: راضون، ومثله قول الآخر:

رمانى بامر كنت منه ووالدي برياً ومن أجل الطوى رمانى
ولم يقل: برين، ومثله قول حسان:

إن شرخ الشباب والشعر الأسـ ود ما لم يعاض كان جنونا
ولم يقل: يعاضاً، وقيل: إن أفراد الضمير من باب الذهاب إلى المعنى نون اللفظ، لأن كل واحد من الذهب والفضة جملة وافية، وعدة كثيرة، وبنانير وديارهم، فهو كقوله: «وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا» [الحجرات: 9] وإنما خص الذهب والفضة بالذكر دون سائر الأموال لكونهما أثمان الأشياء، وغالب ما يكنز وإن كان غيرهما له حكمهما في تحريم الكنز، قوله: «فبشرهم بعذاب أليم» هو خبر الموصول، وهو من باب التهكم بهم كما في قوله:

تحية بينهم ضرب وجيع

وقيل: إن البشارة هي الخبر الذي يتغير له لون البشرة لتأثيره في القلب، سواء كان من الفرح أو من الغم. ومعنى «يوم يحمى عليها في نار جهنم» أن النار توقد عليها وهي ذات حمى وحر شديد. ولو قال يوم تحمى: أي الكنوز لم يعط هذا المعنى، فجعل الإحماء للنار مبالغة، ثم حذف النار وأسند الفعل إلى الجار، كما تقول رفعت القصة إلى الأمير، فإن لم تذكر القصة قلت رفع إلى الأمير، وقرأ ابن عامر «تحمى» بالمشناة فوقية، وقرأ أبو حيو «فيكوى» بالتحية. وخص الجباه والجنوب والظهور؛ لكون التآلم بكيها أشد لما في داخلها من الأعضاء الشريفة؛ وقيل: ليكون الكي في الجهات الأربع: من قدام، وخلف، وعن يمين، وعن يسار؛ وقيل: لأن الجمال في الوجه، والقوة في الظهر والجنبين، والإنسان إنما يطلب المال للجمال والقوة؛ وقيل غير ذلك مما لا يخلو عن تكلف. قوله: «هذا ما كنزتم لأنفسكم» أي: يقال لهم هذا ما كنزتم لأنفسكم: أي كنزتموه لتنتفعوا به، فهذا نفعه على طريقة التهكم والتوبيخ «فأنقوا ما كنتم تكنزون» ما مصدريه أو موصولة: أي نوقوا وباله، وسوء عاقبته، وقبح مغيبته، وشؤم فائتته.

وقد أخرج أبو الشيخ، عن الضحاك، في قوله: «إن كثيراً من الأحيار والرهبان» يعني: علماء اليهود والنصارى «ليأكلون أموال الناس بالباطل» والباطل: كتب كتبوا لم ينزلها الله فأكلوها بها أموال الناس، وذلك قول الله تعالى: «فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله» [البقرة: 79]. وأخرج ابن المنذر، عن ابن عباس، في

وأخرج أيضاً عن السدي في قوله: «يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم» قال: يريدون أن يطفئوا الإسلام بأقوالهم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الضحاك في قوله: «يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم» يقول: يريدون أن يهلك محمد وأصحابه. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، عن قتادة، في الآية قال: هم اليهود والنصارى. وأخرج أبو الشيخ، عن السدي: «هو الذي أرسل رسوله بالهدى» يعني: بالتوحيد والإسلام والقرآن.

﴿تَأْتِيَا الَّذِينَ يَسْتَوِيَانِ عَلَى كَثِيرٍ مِّنَ الْأَخْبَارِ وَأَرْهَبَانِ لِّمَا كُونُوا أَمْوَالُ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيُشْرُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنُزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَفْقَهُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كُنْتُمْ تَكْنُزُونَ ﴿٢٥﴾﴾

لما فرغ سبحانه من ذكر حال اتباع الأحيار والرهبان المتخذين لهم أرباباً ذكر حال المتبوعين فقال: «إن كثيراً من الأحيار» إلى آخره، ومعنى أكلهم لأموال الناس بالباطل أنهم يأخذونها بالوجوه الباطلة كالرشوة، وأثبت هذا للكثير منهم، لأن فيهم من لم يلتبس بذلك، بل بقي على ما يوجب به من غير تحريف ولا تبديل، ولا ميل إلى حطام الدنيا، ولقد اقتدى بهؤلاء الأحيار والرهبان من علماء الإسلام من لا يأتي عليه الحصر في كل زمان، فاش المستعان، قوله: «ويصنون عن سبيل الله» أي: عن الطريق إليه وهو دين الإسلام، أو عن ما كان حقاً في شريعتهم قبل نسخها بسبب أكلهم لأموال الناس بالباطل. قوله: «والذين يكنزون الذهب والفضة» قيل: هم المتقنن نكرهم من الأحيار والرهبان، وإنهم كانوا يصنعون هذا الصنع؛ وقيل: هم من يفعل ذلك من المسلمين، والأولى حمل الآية على عموم اللفظ، فهو أوسع من ذلك، وأصل الكنز في اللغة: الضم والجمع، ولا يختص بالذهب والفضة. قال ابن جرير: الكنز كل شيء مجموع بعضه إلى بعض في بطن الأرض كان أو على ظهرها. انتهى. ومنه ناقة كنان: أي مكتنزة اللحم، واكتنز الشيء: اجتمع.

واختلف أهل العلم في المال الذي أنبت زكاته هل يسمى كنزاً أم لا؟ فقال قوم: هو كنز، وقال آخرون: ليس بكنز. ومن القائلين بالقول الأول: أبو زر. وقيد بما فضل عن الحاجة. ومن القائلين بالقول الثاني: عمر بن الخطاب، وابن عمر، وابن عباس، وجابر، وأبو هريرة، وعمر بن عبد العزيز، وغيرهم، وهو الحق لما سيأتي من الآية المصروفة بأن ما أنبت زكاته فليس بكنز. قوله: «ولا ينفقونها في سبيل الله» اختلف في وجه أفراد الضمير مع كون المذكور قبله شيئين هما الذهب والفضة، فقال ابن الأنباري: إنه قصد إلى الأعم الأغلب، وهو الفضة قال: ومثله قوله تعالى: «واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة» [البقرة: 45] رد الكناية إلى الصلاة لأنها أعم، ومثله قوله: «وإذا راوا

ولما إلى النار. وأخرج ابن أبي شيبة، والبخاري، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن زيد بن وهب، قال: مررت على أبي نر بالزبدية، فقلت: ما أنزلك بهذه الأرض؟ فقال: كنا بالشام فقرات **﴿والذين يكنزون الذهب والفضة﴾** الآية، فقال معاوية: ما هذه فينا، ما هذه إلا في أهل الكتاب، قلت: إنها لفينا وفيهم.

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الْمُدْكَرُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَتْلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا بَدَّلْنَاكُمْ كَافَّةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٦﴾ إِنَّ الْيَوْمَ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُخَلِّفُونَ عَمَّا يُوْثِقُونَ عَمَّا يُؤْتُوا وَعِدَّةٌ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَجْلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ إِنَّهُمْ لَهُمْ سَوْءَ مُقْتَلِبَةٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٢٧﴾

قوله: **﴿إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً﴾** هذا كلام مبتدأ يتضمن نكر نوع آخر من قبائح الكفار وذلك أن الله سبحانه لما حكم في كل وقت بحكم خاص، غيروا تلك الأوقات بالنسيء والكبيسة، فأخبرنا الله بما هو حكمه فقال: **﴿إن عدة الشهور﴾** أي: عدد شهور السنة عند الله في حكمه وقضائه وحكمته: اثنا عشر شهراً. قوله: **﴿في كتاب الله﴾** أي: فيما أثبتته في كتابه. قال أبو علي الفارسي: لا يجوز أن يتعلق في كتاب الله بقوله: عدة الشهور، للفصل بالاجنبي وهو الخبر: أعني اثنا عشر شهراً؛ فقلوه: في كتاب الله، وقوله: يوم خلق بدل من قوله من عند الله، والتقدير: إن عدة الشهور عند الله في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض. وفائدة الإبدالين تقرير الكلام في الأذهان؛ لأنه يعلم منه أن تلك العدد واجب عند الله في كتاب الله، وثابت في علمه في أول ما خلق الله العالم. ويجوز أن يكون في كتاب الله صفة اثنا عشر: أي اثنا عشر مثبتة في كتاب الله، وهو اللوح المحفوظ. وفي هذه الآية بيان أن الله سبحانه وضع هذه الشهور وسماها باسمائها على هذا الترتيب المعروف يوم خلق السموات والأرض، وأن هذا هو الذي جاءت به الأنبياء ونزلت به الكتب، وأنه لا اعتبار بما عند العجم، والروم، والقبط، من الشهور التي يصطلحون عليها ويجعلون بعضها ثلاثين يوماً، وبعضها أكثر، وبعضها أقل. قوله: **﴿منها أربعة حرم﴾** هي: ذي القعدة، ونو الحجة، والمحرم، ورجب: ثلاثة سرد، وواحد فرد؛ كما ورد بيان ذلك في السنة المطهرة. قوله: **﴿ذلك الدين القديم﴾** أي: كين هذه الشهور كذلك، ومنها أربعة حرم هو: الدين المستقيم، والحساب الصحيح، والعدد المستوفى. قوله: **﴿فلا تظلموا فيهن أنفسكم﴾** أي في هذه الأشهر الحرم بإيقاع القتال فيها والهتك لحرمتها؛ وقيل: إن الضمير يرجع إلى الشهور كلها الحرم وغيرها، وإن الله نهى عن الظلم فيها، والأول: أولى. وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن تحريم القتال

قوله: **﴿والذين يكنزون الذهب والفضة﴾** قال: هؤلاء الذين لا يؤتون الزكاة من أموالهم، وكل ما لا تؤدي زكاته كان على ظهر الأرض أو في بطنها فهو كنز، وكل مال أثبت زكاته، فليس بكنز، كان على ظهر الأرض أو في بطنها، وأخرجه عنه ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وأبو الشيخ، من وجه آخر. وأخرج مالك، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عمر، نحوه. وأخرج ابن مردويه، عنه، نحوه مرفوعاً. وأخرج ابن عدي، والخطيب عن جابر، نحوه مرفوعاً أيضاً. وأخرجه ابن أبي شيبة، عنه، موقوفاً. وأخرج أحمد في الزهد، والبخاري، وابن ماجه، وابن مردويه، والبيهقي في سننه، عن ابن عمر، في الآية قال: إنما كان هذا قبل أن تنزل الزكاة، فلما نزلت الزكاة جعلها الله طهرة للأموال، ثم قال: ما أبالي لو كان عندي مثل أحد ذهباً أعلم عدده وإزكيه، وأعمل فيه بطاعات الله؟ وأخرج ابن أبي شيبة، وأبو الشيخ، عن عمر بن الخطاب قال: ليس بكنز ما أدى زكاته. وأخرج ابن مردويه، والبيهقي عن أم سلمة، مرفوعاً نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة، في مسنده، وأبو داود، وأبو يعلى، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: **﴿والذين يكنزون الذهب والفضة﴾** كبر تلك على المسلمين، وقالوا: ما يستطيع أحد منا لولده ما لا يبقى بعده، فقال عمر: أنا أفرج عنكم، فانطلق عمر واتبه ثوبان فأتى النبي ﷺ فقال: يا نبي الله إنه قد كبر على أصحابك هذه الآية، فقال: إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب بها ما بقي من أموالكم، وإنما فرض الموارث من أموال تبقى بكم، فكبر عمر، ثم قال له النبي ﷺ: ألا أخبرك بخير ما يكنز المرء؟ المرأة الصالحة التي إذا نظر إليها سرته، وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته. وقد أخرجه أحمد، والترمذي وحسنه، وابن ماجه، عن سالم بن أبي الجعد من غير وجه عن ثوبان. وحكى البخاري أن سالمًا لم يسمعه من ثوبان. وأخرج ابن مردويه، عن ابن عباس، في قوله: **﴿والذين يكنزون الذهب والفضة﴾** قال: هم أهل الكتاب، وقال: هي خاصة وعامة. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن علي بن أبي طالب، قال: أربعة آلاف فما دونها نفقة وما فوقها كنز. وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، عن أبي أمامة قال: حلية السيوف من الكنوز ما أحبتكم إلا ما سمعت. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن عراك بن مالك، وعمر بن عبد العزيز، أنهما قالا في قوله: **﴿والذين يكنزون الذهب والفضة﴾** إنها نسختها الآية الأخرى: **﴿خذ من أموالهم صدقة﴾** [التوبة: 103] الآية. وأخرج البخاري ومسلم، وغيرهما عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي زكاتها إلا جعل لها يوم القيامة صفائح، ثم أحمل عليها في نار جهنم، ثم يكوى بها جنباه وجبهته وظهره في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضي بين الناس فيرى سبيله، إما إلى الجنة،

وفيه يقول قائلهم:

ومننا ناسي الشهر القلمس

وقيل: هو عمرو بن لحي، وقيل: هو نعيم بن ثعلبة من بني كنانة، وسمى الله سبحانه النسيء زيادة في الكفر؛ لأنه نوع من أنواع كفرهم، ومعصية من معاصيهم المنضمة إلى كفرهم بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر. قوله: **«يُضِلُّ بِهِ النَّاسَ كُفْرًا»** قرأ أهل الحرمين وأبو عمرو وابن عامر **«يُضِلُّ»** على البناء للمعلوم. وقرأ الكوفيون على البناء للمجهول. ومعنى القراءة الأولى: أن الكفار يضلون بما يفعلونه من النسيء، ومعنى القراءة الثانية، أن الذي سَلَّ لهم ذلك يجعلهم ضالين بهذه السنة السيئة، وقد اختار القراءة الأولى أبو حاتم، واختار القراءة الثانية أبو عبيد، وقرأ الحسن وأبو رجاء ويعقوب **«يُضِلُّ»** بضم الياء وكسر الضاد على أن فاعله الموصول، ومفعوله محذوف، ويجوز أن يكون فاعله هو الله سبحانه، ومفعوله الموصول. وقرأ بفتح الياء والضاد من ضَلَّ يضلُّ، وقرأ **«نَضِلُّ»** بالنون، قوله: **«يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا»** الضمير راجع إلى النسيء: أي يحلون النسيء عامًا ويحرمونه عامًا، أو إلى الشهر الذي يؤخرونه ويقاثلون فيه: أي يحلونه عامًا بإبداله بشهر آخر من شهور الحل، ويحرمون عامًا: أي يحافظون عليه فلا يحلون فيه القتال، بل يبقونه على حرمة. قوله: **«لِيُؤْطَاوُا عَذَّةً مَا حَرَّمَ اللَّهُ»** أي: لكي يواطؤوا، والمواطاة: الموافقة، يقال: تواطى القوم على كذا: أي توافقوا عليه واجتمعوا. والمعنى: إنهم لم يحلوا شهرًا إلا حرموا شهرًا لتبقى الأشهر الحرم أربعة، قال قطرب: معناه عمدوا إلى صفر فزادوه في الأشهر الحرم، وقرنوه بالمحرم في التحريم. وكذا قال الطبري. قوله: **«فِيحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ»** أي: من الأشهر الحرم التي أبطلوها بغيرها **«زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ»** أي: زين لهم الشيطان الأعمال السيئة التي يعملونها، ومن جملتها النسيء. وقرأ على البناء للفاعل **«وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ»** أي: المصيرين على كفرهم المستمرين عليه فلا يهديهم هداية توصلهم إلى المطلوب، ولما الهداية بمعنى الدلالة على الحق والإرشاد إليه فقد نصبها الله سبحانه لجميع عباده.

وقد أخرج البخاري ومسلم، وغيرهما، من حديث أبي بكر أن النبي ﷺ خطب في حجته فقال: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهرًا، منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان». وأخرج نحوه ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، من حديث ابن عمر. وأخرج نحوه ابن المنذر، وأبو الشيخ، وابن مردويه، من حديث ابن عباس. وأخرج نحوه أيضًا البزار، وابن جرير، وابن مردويه، من حديث أبي هريرة. وأخرجه أحمد، وابن مردويه، من حديث أبي حرة الرقاشي عن عمه مرفوعاً مطولاً. وأخرج سعيد بن منصور،

في الأشهر الحرم ثابت محكم لم ينسخ لهذه الآية، ولقوله: **«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشُّهُرَ الْحَرَامَ»** [المائدة: 2] ولقوله: **«فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحَرَامُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ»** [التوبة: 5] الآية.

وقد ذهب جماعة آخرون إلى أن تحريم القتال في الأشهر الحرم منسوخ بآية السيف. ويجاب عنه بأن الأمر يقتل المشركين ومقاتلتهم مقيد بانسلاخ الأشهر الحرم كما في الآية المذكورة، فتكون سائر الآيات المتضمنة للأمر بالقتال مقيدة بما ورد في تحريم القتال في الأشهر الحرم، كما هي مقيدة بتحريم القتال في الحرم للآلة الواردة في تحريم القتال فيه، وأما ما استدلوا به من أنه ﷺ حاصر أهل الطائف في شهر حرام وهو: ذو القعدة، كما ثبت في الصحيحين وغيرهما، فقد أجيب عنه أنه لم يبتد محاصرته في ذي القعدة بل في شوال، والمحرم إنما هو ابتداء القتال في الأشهر الحرم لا إتمامه، وبهذا يحصل الجمع. قوله: **«وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً»** أي جميعاً. وهو مصدر في موضع الحال. قال الزجاج: مثل هذا من المصادر كعامة وخاصة لا يثنى ولا يجمع **«كما يقاتلونكم كافة»** أي جميعاً، وفيه دليل على وجوب قتال المشركين، وأنه فرض على الأعيان إن لم يقم به البعض **«وواعلموا أن الله مع المتقين»** أي: ينصرهم ويثبتهم، ومن كان الله معه فهو الغالب، وله العاقبة والخليفة. قوله: **«إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ»** قرأ نافع في رواية ورش عنه النسيء بياء مشددة بدون همز. وقرأ الباقر بياء بعدها همزة. قال النحاس: ولم يرو أحد عن نافع هذه القراءة إلا ورش وحده، وهو مشتق من نساء وإنسأه: إذا أخره، حكى ذلك الكسائي. قال الجوهري: النسيء فعيل بمعنى مفعول من قولك نسأت الشيء فهو منسوء: إذا أخرته، ثم تحول منسوء إلى نسيء كما تحول مقتول إلى قتل، قال ابن جرير: في النسيء بالهمزة معنى الزيادة يقال نسأ نسأً: إذا زاد، قال: ولا يكون بترك الهمزة إلا من النسيان، كما قال تعالى: **«نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ»** [التوبة: 67]، ورد على نافع قراءته. وكانت العرب تحرم القتال في الأشهر الحرم المذكورة، فإذا احتاجوا إلى القتال فيها قاتلوا فيها وحرموا غيرها، فإذا قاتلوا في المحرم، حرموا ببله شهر صفر، وهكذا في غيره. وكان الذي يحملهم على هذا: أن كثيراً منهم إنما كانوا يعيشون بالغارة على بعض البعوض، ونهب ما يمكنهم نهبه من أموال من يغيرون عليه، ويقع بينهم بسبب ذلك القتال، وكانت الأشهر الثلاثة المسرودة يضرب بهم تواليها وتشتد حاجتهم وتعظم فاقتهم، فيحللون بعضها ويحرمون مكانه بقره من غير الأشهر الحرم؛ فهذا هو معنى النسيء الذي كانوا يفعلونه. وقد وقع الخلاف في أول من فعل ذلك، فقيل: هو رجل من بني كنانة يقال له حذيفة بن عتيق، ويلقب القلمس، وإليه يشير الكمي بقوله:

السنا الناشئين على معدُ شهور الحل نجعلها حراما

وَأَنفِصَكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ لَوْ كَانَ عَرَفًا قَرَّبًا وَبَعَثْنَا فِيهِمْ رَسُولًا لَّا يَتَّبِعُونَ إِلَّا مَنَاسِكَ الْفُلْكِ وَمَا يُؤْتِيهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ قَتَلُوا رَسُولَهُمْ فَاسْلُكُوا النَّارَ وَلَئِن مَّا كُنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لما شرح معاني أولئك الكفار عاد إلى ترغيب المؤمنين في قتالهم، والاستفهام في ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ للتوبيخ: أي: أي شيء يمنعكم عن ذلك، ولا خلاف أن هذه الآية نزلت عتاباً لمن تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وكانت سنة تسع من الهجرة بعد الفتح بعام، والتغفر: هو الانتقال بسرعة من مكان إلى مكان، لأمر يحدث. قوله: ﴿انفصموا﴾ أصله انفصلتم، ادغمت التاء في الشاء لقربها منها، وجاء بالالف الوصل ليتوصل بها إلى النطق بالسكان، ومثله: أذكوا، وأطيرتم، وأطيروا، وأنشد الكسائي:

تولى الضجيع إذا ما اشتاقها حضراً عذب المذاق إذا ما اتابع القبل
وقرأ الأعمش ﴿انفصموا﴾ على الأصل، ومعناه تباطأتم، وعدى بـألى لتضمنه معنى الميل والإخلاق؛ وقيل معناه: ملتصق إلى الإقامة بأرضكم والبقاء فيها وقرئ ﴿انفصموا﴾ على الاستفهام، ومعناه التوبيخ والعامل في الظرف ما في ﴿مالكم﴾ من معنى الفعل، كأنه قيل: ما يمنعكم، أو ما تصنعون إذا قيل لكم؟ و﴿إلى الأرض﴾ متعلق بـانفصموا وكما مر. قوله: ﴿أرضيتكم بالحياة الدنيا﴾ أي: بنعيمها بدلاً من الآخرة كقوله تعالى: ﴿ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخفون﴾ [الزخرف: 60] أي بدلاً منكم، ومثله قول الشاعر:

قلبت لنا من ماء زمزم شربة مبردة باتت على طهيان
أي بدلاً من ماء زمزم، والطهيان: عود ينصب في ناحية الدار للهواء يعلق عليه الماء ليبرد، ومعنى: ﴿في الآخرة﴾ أي في جنب الآخرة، وفي مقابلها ﴿إلا قليل﴾ أي: إلا متاع حقير لا يعبا به، ويجوز أن يراد بالقليل العدم، إذ لا نسبة للمتناهي الزائل إلى غير المتناهي الباقي، والظاهر: أن هذا التثاقل لم يصدر من الكل، إذ من البعيد أن يطبقوا جميعاً على التباطؤ والتثاقل، وإنما هو من باب نسبة ما يقع من البعض إلى الكل، وهو كثير شائع، قوله: ﴿إلا تخفروا﴾ يعنيكم هذا تهديد شديد، وعيد مؤكد لمن ترك التغير مع رسول الله ﷺ ﴿يعنيكم عذاباً ليماً﴾ أي: يهلككم بعذاب شديد مؤلم؛ قيل: في الدنيا فقط، وقيل هو أعم من ذلك. قوله: ﴿ويستبدل قوماً غيركم﴾ أي: يجعل لرسوله بدلاً منكم ممن لا يتباطأ عند حاجتهم إليهم.

واختلف في هؤلاء القوم من هم؟ فقيل أهل اليمن، وقيل أهل فارس، ولا وجه للتمييز بدون دليل. قوله: ﴿ولا تضروه شيئاً﴾ معطوف على ﴿يستبدل﴾، والضمير قيل: لله، وقيل: للنبي ﷺ؛ أي ولا تضروا الله بترك امتثال أمره بالتغير شيئاً، أو لا تضروا رسول الله بترك نصره والتغير معه شيئاً ﴿والله على كل شيء قدير﴾ ومن حملة مقبوراته

وابن مردويه، عن ابن عباس ﴿منها أربعة حرم﴾ قال: المحرم، ورجب، ونو القعدة، ونو الحجة. وأخرج أبو الشيخ، عن الضحاك قال: إنما سمين حرمًا لثلاث يكون فيهن حرب. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الشعب، عن ابن عباس في قوله: ﴿إن عدة للشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله﴾ ثم اختص من ذلك أربعة أشهر فجعلهن حرمًا، وعظم حرمتهم، وجعل الدين فيهن أعظم، والعمل الصالح والأجر أعظم ﴿فلا تظلموا فيهن أنفسكم﴾ قال: في كلهن ﴿وقاتلوا المشركين كافة﴾ يقول جميعاً. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مقاتل، في قوله: ﴿وقاتلوا المشركين كافة﴾ قال: نسخت هذه الآية كل آية فيها رخصة. وأخرج الطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، قال: كانت العرب يحلون عاماً شهراً و عاماً شهرين، ولا يصيبون الحج إلا في كل سنة، وعشرين سنة مرة، وهي النسبي الذي ذكره الله في كتابه، فلما كان عام حج أبو بكر بالناس، وافق ذلك العام، فسماه الله الحج الأكبر، ثم حج رسول الله ﷺ من العام المقبل، واستقبل الناس الأهلة، فقال رسول الله ﷺ: ﴿إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض﴾. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عمر، قال: وقف رسول الله ﷺ بالعقبة فقال: إنما النسبي من الشيطان زيادة في الكفر، يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً، فكانوا يحرمون المحرم عاماً ويستحلون صفر، ويحرمون صفر عاماً ويستحلون المحرم، وهي: النسبي. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس، قال: كان جنادة بن عوف الكنانى يوافي الموسم كل عام، وكان يكتنى أبا ثمامة، فينادي ألا إن أبا ثمامة لا يخاب ولا يعاب، ألا وإن صفر الأول العام حلال، فيحله للناس، فيحرم صفر عاماً، ويحرم المحرم عاماً، فذلك قوله تعالى: ﴿إنما للنسبي زيادة في الكفر﴾ الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه، في الآية قال: للمحرم كانوا يسمونه صفر، وصفر يقولون صفران الأول والآخر، يحل لهم مرة الأول، ومرة الآخر. وأخرج ابن مردويه، عنه، قال: كانت النساء حي من بني مالك من كنانة من بني فقيم، فكان آخرهم رجلاً يقال له القلمس، وهو الذي أنسا المحرم.

يَتَأْتِيكَ الْذِّكْرُ ءَأَسَا مَا لَكَ إِذَا قِيلَ لَكَ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَا قَاتِلُهُ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضِيَهُ وَالْحَيَاةُ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَنَعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿١٣﴾ لَا تَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ عِدَابًا أَلِيمًا وَسَتَبَدِّلُ قَوْمًا بِكُمْ وَلَا تَنْفِرُوا شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤﴾ لَا تَنْفِرُوا فَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَلَاثَ ثُبُورٍ إِذْ هَمَّ فِي الْكَافِرِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَنْفِرْ إِنَّ اللَّهَ مَنَّآ فَاَنْفَرَ اللَّهُ سَكِينَةً مِّنْهُ وَأَيَّدَهُ بِجُيُوشٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَمَعَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّنُلَ وَكَلِمَةَ اللَّهِ هَكَذَا أَلَمَّا وَأَلَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ

انفروا خفت عليكم الحركة أو ثقلت. قيل: وهذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى﴾ [التوبة: 91]، وقيل الناسخ لها قوله: ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة﴾ [النور: 122] الآية، وقيل: هي محكمة وليست بمنسوخة، ويكون إخراج الأعمى والأعرج بقوله: ﴿ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج﴾ [النور: 61] وإخراج الضعيف والمريض بقوله: ﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى﴾ [التوبة: 91] من باب التخصيص، لا من باب النسخ على فرض دخول هؤلاء تحت قوله: ﴿خفافاً وثقالاً﴾ والظاهر: عدم دخولهم تحت العموم. قوله: ﴿وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله﴾ فيه الأمر بالجهاد بالأنفس والأموال وإيجابه على العباد، فالفقراء يجاهدون بأنفسهم، والأغنياء بأموالهم وأنفسهم. والجهاد من أكد الفرائض وأعظمها، وهو فرض كفاية مهما كان البعض يقوم بجهاد العدو ويدفعه، فإن كان لا يقوم بالعدو إلا جميع المسلمين في قطر من الأرض، أو أقطار وجب عليهم ذلك وجوب عين، والإشارة بقوله: ﴿أنلكم﴾ إلى ما تقدم من الأمر بالنفير، والأمر بالجهاد ﴿خير لكم﴾ أي: خير عظيم في نفسه، وخير: من السكون والدعة ﴿إن كنتم تعلمون﴾، ذلك، وتعرفون الأشياء الفاضلة وتميزونها عن المفضولة. قوله: ﴿لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك﴾. قال الزجاج: لو كان المدعو إليه فحذف لدلالة ما تقدم عليه، والعرض: ما يعرض من منافع الدنيا. والمعنى: غنيمة قريبة غير بعيدة ﴿وسفراً قاصداً﴾ عطف على ما قبله: أي سفراً متوسطاً بين القرب والبعد، وكل متوسط بين الإقراط والتقريط فهو قاصد ﴿ولكن بعثت عليهم الشقة﴾ قال أبو عبيدة وغيره: إن الشقة السفر إلى أرض بعيدة، يقال منه شقة شاقة. قال الجوهري: الشقة بالضم من الثياب، والشقة أيضاً: السفر البعيد، وربما قالوه بالكسر، والمراد بهذا غزوة تبوك، فإنها كانت سفرة بعيدة شاقة. وقرأ عيسى بن عمر ﴿بعثت عليهم الشقة﴾ بكسر العين والشين ﴿وسيطلفون بالله﴾ أي: المتخلفون عن غزوة تبوك حال كونكم قائلين ﴿لو استطعنا لخرجنا معكم﴾ أي: لو قدرنا على الخروج ووجدنا ما نحتاج إليه فيه مما لا بد منه ﴿لخرجنا معكم﴾ هذه الجملة سادة مسددة جواب القسم والشرط. قوله: ﴿يهلكون أنفسهم﴾ هو بئس من قوله: ﴿سيطلفون﴾ لأن من حلف كاتباً فقد أهلك نفسه أو يكون حالاً: أي مهلكين أنفسهم موقعين لها موقع الهلاك ﴿والله يعلم أنهم لكاذبون﴾ في حلفهم الذي سيطلفون به لكم. وقد أخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا﴾ الآية، قال هذا حين أمروا بغزوة تبوك بعد الفتح، وحين أمرهم بالنفير في الصيف وحين خرفت للنخل وطابت الثمار، واشتهوا الظلال، وشق عليهم المخرج، فأنزل الله: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾

تعنيكم والاستبدال بكم. قوله: ﴿إلا تنصروه فقد نصره الله﴾ أي: إن تركتم نصره فاش متكفل به، فقد نصره في مواطن القلة، وأظهره على عدوه بالغلبة والقهر؛ أو فسینصره من نصره حين لم يكن معه إلا رجل واحد وقت إخراج الذين كفروا له حال كونه ﴿ثاني اثنين﴾ أي: أحد اثنين، وهما: رسول الله ﷺ وأبو بكر الصديق رضي الله عنه. وقرأ بسكون الياء، قال ابن جني: حكاه أبو عمرو بن العلاء، وجهها أن تسكن الياء تشبيهاً لها بالالف. قال ابن عطية: فهي كقراءة الحسن ﴿ما بقي من الربا﴾ [البقرة: 278]، وكقول جرير:

هو الخليفة فارضوا ما رضيه لكم ماضي العزيمة ما في حكمه جنف قوله: ﴿إذ هما في الغار﴾ بدل من ﴿إذ أخرجه﴾ بدل بعض، والغار: ثقب في الجبل المسمى ثوراً، وهو: المشهور بغار ثور، وهو: جبل قريب من مكة، وقصة خروجه ﷺ من مكة إلى المدينة هو وأبو بكر ودخولهما الغار مشهورة منكرة في كتب السير والحديث. قوله: ﴿إذ يقول لصاحبه﴾ بدل ثان: أي وقت قوله لأبي بكر: ﴿لا تحزن إن الله معنا﴾ أي: دع الحزن، فإن الله بنصره وعونه وتأييده معناه، ومن كان الله معه فلن يغلب، ومن لا يغلب فيحق له أن لا يحزن. قوله: ﴿فأنزل الله سكينته عليه﴾ السكينة: تسكين جاشه وتأمينه حتى ذهب روعه، وحصل له الأمن، على أن الضمير في ﴿عليه﴾ لأبي بكر؛ وقيل: هو للنبي ﷺ، ويكون المراد بالسكينة النازلة عليه عصمته عن حصول سبب من أسباب الخوف له، ويؤيد كون الضمير في ﴿عليه﴾ للنبي ﷺ الضمير في ﴿وليدته بجنود لم تروها﴾ فإنه للنبي ﷺ، لأنه المؤيد بهذه الجنود التي هي الملائكة، كما كان في يوم بدر؛ وقيل: إنه لا محذور في رجوع الضمير من ﴿عليه﴾ إلى أبي بكر، ومن ﴿وليدته﴾ إلى النبي ﷺ، فإن ذلك كثير في القرآن، وفي كلام العرب ﴿وجعل كلمة الذين كفروا السفلى﴾ أي: كلمة الشرك، وهي دعوتهم إليه. وندأؤهم للأصنام ﴿وكلمة الله هي العليا﴾ قرأ الأعمش، ويعقوب بنصب كلمة حملاً على جعل، وقرأ الباقون برفعها على الاستئناف. وقد ضعف قراءة النصب للفراء، وأبو حاتم، وفي ضمير الفصل، أعني ﴿هي﴾ تأكيد لفصل كلمته في العلو، وأنها المختصة به نون غيرها، وكلمة الله هي كلمة التوحيد، والدعوة إلى الإسلام ﴿والله عزيز حكيم﴾ أي: غالب قاهر لا يفعل إلا ما فيه حكمة وصواب، ثم لما توعد من لم ينفر مع الرسول ﷺ وضرب له من الأمثال ما نكره عقبه بالأمر بالجزم فقال: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ أي: حال كونكم خفافاً وثقالاً، قيل المراد: منفردين أو مجتمعين، وقيل: نشاطاً وغير نشاط، وقيل: فقراء وأغنياء، وقيل: شبلاً وشيوخاً، وقيل: رجالاً وفرساناً، وقيل: من لا عيال له ومن له عيال، وقيل: من يسبق إلى الحرب كالطلائع، ومن يتأخر كالجيش، وقيل: غير ذلك، ولا مانع من حمل الآية على جميع هذه المعاني، لأن معنى الآية:

انزل من براءة: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ ثم نزل أولها وأخرها. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، عن أبي مالك، نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿خفافاً وثقالاً﴾ قال: نشاطاً وغير نشاط. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن الحكم في الآية قال: شاغيل وغير شاغيل. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الحسن، قال: في العسر واليسر. وأخرج ابن المنذر، عن زيد بن أسلم، قال: فتياناً وكهولاً. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، عن عكرمة، قال: شبلياً وشيوخاً. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، قال: قالوا إن فينا الثقيل، وهذا الحاجة، والضيعة، والشغل فأنزل الله: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ وأبى أن يعزهم دون أن ينفروا خفافاً وثقالاً، وعلى ما كان منهم. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي قال: جاء رجل زعموا أنه المقداد، وكان عظيماً سميناً، فشكا إليه وسأله أن يائنه له فأبى، فنزلت: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ فلما نزلت هذه الآية اشتد على الناس شأنها فنسخها الله، فقال: ﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى﴾ [التوبة: 91] الآية. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس، قال: إن رسول الله ﷺ قيل له: ألا تغزو بني الأصفر لعلك أن تصيب ابنة عظيم الروم؟ فقال رجلان: قد علمت يا رسول الله أن النساء فتنة فلا تقتنا بهن فأنن لنا، فأنن لهما، فلما انطلقنا قال أحدهما: إن هو إلا شحمة لأول أكل، فسار رسول الله ﷺ ولم ينزل عليه شيء في ذلك، فلما كان ببعض الطريق نزل عليه وهو على بعض المناء ﴿لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك﴾ ونزل عليه: ﴿عفا الله عنك لم أنت لهم﴾ [التوبة: 43] ونزل عليه: ﴿وإنما يستأنفك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ [التوبة: 45] ونزل عليه: ﴿إنهم رجس وماوهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون﴾ [التوبة: 95] وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس: ﴿لو كان عرضاً قريباً﴾ قال: غنيمة قريبة، ﴿ولكن بعدت عليهم الشقة﴾ قال: المسير. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، عن قتادة، في قوله: ﴿والله يعلم إنهم لكانبون﴾ قال: لقد كانوا يستطيعون الخروج ولكن كان تبطئة من عند أنفسهم، يزهدة في الجهاد.

وأخرج أبو داود، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مروي، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس، في قوله: ﴿إِلَّا تَتَغَفَّرُوا يَعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ قال: إن رسول الله ﷺ استغفر حياً من أحياء العرب، فثاقلوا عنه، فأنزل الله هذه الآية، فامسك عنهم المطر فكان ذلك عذابهم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عكرمة، قال: لم نزل: ﴿إِلَّا تَتَغَفَّرُوا يَعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، وقد كان تخلف عنه ناس في البو يفتقون قومهم، فقال المؤمنون: قد بقي ناس في البوادي، وقالوا هلك أصحاب البوادي، فنزلت: ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾ [التوبة: 122]. وأخرج أبو داود، وابن أبي حاتم، والنحاس، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس، في قوله: ﴿إِلَّا تَتَغَفَّرُوا﴾ الآية قال: نسختها: ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾ [التوبة: 122]. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿إِلَّا تَنْصَرُوا فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ قال: نكر ما كان من أول شأنه حين بعث، يقول: فإنا فاعل ذلك به، وناصره كما نصرته إذ ذاك وهو ثاني اثنين. وأخرج أبو نعيم، والبيهقي في الدلائل، عن ابن شهاب وعروة: أنهم ركبوا في كل وجه يعني المشركين يطلبون النبي ﷺ، وبعثوا إلى أهل المياه يأمرونهم ويجعلون لهم الحمل العظيم، وأتوا على ثور الجبل الذي فيه الغار، والذي فيه النبي ﷺ حتى طلوعوا فوقه، وسمع رسول الله ﷺ وأبو بكر أصواتهم، فاشفق أبو بكر، وأقبل عليه الهم والخوف، فعند ذلك يقول له رسول الله ﷺ: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ ودعا رسول الله ﷺ، فنزلت عليه السكينة من الله، فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين الآية. وأخرج ابن شاهين، وابن مروي، وابن عساکر، عن حبشي بن جنادة، قال أبو بكر: يا رسول الله لو أن أحداً من المشركين رفع قمحه لأبصرنا، فقال: «يا أبا بكر لا تحزن إن الله معنا». وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، عن الزهري، في قوله: ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ قال: هو الغار الذي في الجبل الذي يسمى ثورا. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مروي، والبيهقي في الدلائل، وابن عساکر في تاريخه، عن ابن عباس، في قوله: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ قال: على أبي بكر لأن النبي ﷺ لم تنزل معه السكينة. وأخرج ابن مروي، عن أنس، قال: نزل النبي ﷺ وأبو بكر غار حراء، فقال أبو بكر للنبي ﷺ: لو أن أحدهم يبصر موضع قدمه لأبصرني وإياك، فقال ﷺ: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما يا أبا بكر؟» إن الله أنزل سكينته عليك وأيدني بجنود لم يروها. وأخرج الخطيب في تاريخه، عن حبيب بن أبي ثابت ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ قال: على أبي بكر، فاما النبي ﷺ، فقد كانت عليه السكينة. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السَّفْلَى﴾ قال: هي الشرك بالله: ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ قال: لا إله إلا الله. وأخرج الفريابي، وأبو الشيخ، عن أبي الضحى قال: أول ما

عَمَّا آتَاكَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ لَعَلَّ الْكَافِرِينَ ﴿١٧﴾ لَا تَسْتَوِي السُّعْيَةُ وَالْبُيُوتُ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَعَلَّ الْكَافِرِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَخْتَارُ مَا يُؤْتِيهِ اللَّهُ لِمَنْ يُشَاءُ لَا يَحْتَسِبُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُ السُّعْيَةُ وَالْبُيُوتُ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَعَلَّ الْكَافِرِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ لِيَأْخُذُوا بِالْحَمْلِ وَالْحِمْلُ بِالْغَيْرِ الْمُنْفِقِينَ ﴿٢١﴾ إِنْ تَرَوْهُ فَقَدْ جَاءَ أَجَلُهُمْ لَعَلَّ الْكَافِرِينَ ﴿٢٢﴾ لَقَدْ اتَّخَذَ الْفُجُورُ مِنَ قُرْبَىٰهِمْ أَهْلًا عَرَضَ عَلَيْهِمْ آلُ لُقْمَانَ إِذْ أَخَذَ مِنْهُمُ الْمَصْدُوقَ إِذْ أَخَذَ مِنْهُمُ الْمَصْدُوقَ إِذْ أَخَذَ مِنْهُمُ الْمَصْدُوقَ

تحقق الريب في قلوبهم، وهو: الشك. قوله: ﴿فَهِم فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ أي: في شكهم الذي حل بقلوبهم يتحيرون، والتردد: التحير. والمعنى: فهؤلاء الذين يستأننونك ليسوا بمؤمنين، بل مرتابين حائرين لا يهتدون إلى طريق الصواب، ولا يعرفون الحق. قوله: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعْتَوُا لَهُمْ عِدَّةً﴾ أي: لو كانوا صائقين فيما يدعونه ويخبرونك به من أنهم يريدون الجهاد معك، ولكن لم يكن معهم من العدة للجهاد ما يحتاج إليه، لما تركوا إعداد العدة وتحصيلها قبل وقت الجهاد، كما يستعد لذلك المؤمنون، فمعنى هذا الكلام: أنهم لم يريدوا الخروج أصلاً ولا استعدوا للغزو. والعدة ما يحتاج إليه المجاهد من الزاد والراحلة والسلاح. قوله: ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ﴾ أي: ولكن كره الله خروجهم، فتبطلوا عن الخروج، فيكون المعنى: ما خرجوا ولكن تثبطوا، لأن كراهة الله انبعاثهم تستلزم تثبطهم عن الخروج، والانبعاث الخروج: أي حبسهم الله عن الخروج معك وخذلهم، لأنهم قالوا: إن لم يؤذن لنا في الجلوس، أقصدنا وحرّضنا على المؤمنين؛ وقيل المعنى: لو أرادوا الخروج لأعتوا له عدة، ولكن ما أرادوه لكراهة الله له قوله: ﴿وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِيِّنَ﴾ قيل: القائل لهم هو الشيطان بما يليق به إليهم من الوسوسة، وقيل: قاله بعضهم لبعض. وقيل: قاله رسول الله ﷺ غضباً عليهم، وقيل هو عبارة عن الخذلان: أي أوقع الله في قلوبهم القعود خذلاً لهم. ومعنى: ﴿مَعَ الْقَاعِيِّنَ﴾ أي: مع أولي الضرر من العميان، والمرضى، والنساء، والصبيان، وفيه من الذم لهم والإضرار عليهم والتقص بهم ما لا يخفى. قوله: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ هذه تسلية لرسول الله ﷺ وللمؤمنين عن تخلف المنافقين، والخبال: الفساد والنميمة، وإيقاع الإخلاف والأراجيف. قيل هذا الاستثناء منقطع: أي ما زادوكم قوة، ولكن طلبوا الخبال، وقيل المعنى: لا يزيدوكم فيما ترتدون فيه من الراي إلا خبالاً فيكون متصلاً؛ وقيل هو استثناء من أعْمَ العام: أي ما زادوكم شيئاً إلا خبالاً. فيكون الاستثناء من قسم المتصل، لأن الخبال من جملة ما يصق عليه الشيء. قوله: ﴿وَلَا أَوْضِعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ الإيضاع: سرعة السير، ومنه قوله ورقة بن نوفل:

ياليتني فيها جذع أخب فيها وأضع
يقال أوضع البعير: إذا أسرع السير، وقيل: الإيضاع سير الخب، والخلل الفرجة بين الشيتين، والجمع الخلال: أي الفرج التي تكون بين الصفوف. والمعنى: لسعوا بينكم بالإفساد بما يختلقونه من الأكاذيب المشتملة على الإرجاف والنمائم الموجبة لفساد ذات البين. قوله: ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ يقال بغيته كذا: طلبته له، وبغيته كذا: أعنته على طلبه. والمعنى: يطلبون لكم الفتنة في ذات بينكم بما يصنعونه من التحريش والإفساد؛ وقيل الفتنة هنا الشرك. وجملة: ﴿وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ﴾ في محل نصب على

يَقُولُ أَتَذَن لِي وَلَا تَقِيحُ إِلَّا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَكَبِيرَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٦﴾

الاستفهام في ﴿عفا الله عنك لم أنت له﴾ للإنكار من الله تعالى على رسوله ﷺ حيث وقع منه الإذن لما استأننه في القعود قبل أن يتبين من هو صائق منهم في عنده الذي أبداه، ومن هو كاذب فيه. وفي ذكر العفو عنه ﷺ ما يدل على أن هذا الإذن الصابر منه كان خلاف الأولى، وفي هذا عتاب لطيف من الله سبحانه؛ وقيل: إن هذا عتاب له ﷺ في إنته للمنافقين بالخروج معه، لا في إنته لهم بالقعود عن الخروج. والأول: أولى، وقد رخص له سبحانه في سورة النور بقوله: ﴿فَإِذَا اسْتَأْنَنُوا لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَنزَلْنَا مِنْهُمْ﴾ [النور: 62] ويمكن أن يجمع بين الآيتين بأن العتاب هنا متوجه إلى الإذن قبل الاستثبات حتى يتبين الصائق من الكاذب، والإذن هنالك متوجه إلى الإذن بعد الاستثبات، والله أعلم. وقيل: إن قوله: ﴿عفا الله عنك﴾ هي افتتاح كلام كما تقول: أصلحك الله، وأعزك ورحمك، كيف فعلت كذا، وكذا حكاه مكي والنحاس، والمهدوي، وعلى هذا التأويل يحسن الوقف على عفا الله عنك، وعلى التأويل الأول: لا يحسن. ولا يخفك أن التفسير الأول هو المطابق لما يقتضيه اللفظ على حسب اللغة العربية، ولا وجه لإخراجه عن معناه العربي. وفي الآية دليل على جواز الاجتهاد منه ﷺ، والمسألة مدونة في الأصول، وفيها أيضاً دلالة على مشروعية الاحتراز عن العجلة، والاعتراض بظواهر الأمور، و«حتى» في «حتى يتبين لك الذين صدقوا» للخفية، كانه قيل: لم سارعت إلى الإذن لهم؛ وهما تأنيث حتى يتبين لك صدق من هو صائق منهم في العذر الذي أبداه، وكذب من هو كاذب منهم في ذلك؛ ثم ذكر سبحانه أنه ليس من عادة المؤمنين أن يستأننوا رسول الله ﷺ في القعود عن الجهاد، بل كان من عاداتهم أنه ﷺ إذا أذن لواحد منهم بالقعود شق عليه ذلك. فقال: ﴿لَا يَسْتَأْنَنُ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا﴾ وهذا على أن معنى الآية أن لا يجاهدوا على حذف حرف النفي؛ وقيل المعنى: لا يستأننك المؤمنون في التخلف كراهة الجهاد؛ وقيل: إن معنى الاستئذان في الشيء الكراهة له، وأما على ما يقتضيه ظاهر اللفظ فالمعنى: لا يستأننك المؤمنون في الجهاد، بل دأبهم أن يبادروا إليه من غير توقف ولا ارتقاب منهم، لوقوع الإذن منك فضلاً عن أن يستأننوك في التخلف. قال الزجاج: أن يجاهدوا في موضع نصب بإضمار في: أي في أن يجاهدوا: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ وهم هؤلاء الذين لم يستأننوا ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْنَنُ﴾ في القعود عن الجهاد، والتخلف عنه: ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ وهم: المنافقون، وذكر الإيمان بالله أولاً، ثم باليوم الآخر ثانياً في الموضعين، لأنهما الباعثان على الجهاد في سبيل الله. قوله: ﴿وَأَرْتَابَ قُلُوبِهِمْ﴾ عطف على قوله: ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وجاء بالماضي للدلالة على

فقال: ﴿عفا الله عنك لم أنتت لهم﴾. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، في قوله: ﴿عفا الله عنك﴾ الآية قال: ناس قالوا استأذنوا رسول الله ﷺ فإن أنن لكم، فأتعدوا؛ وإن لم يأنن لكم، فأتعدوا. وأخرج النحاس في ناسخه، عن ابن عباس في قوله: ﴿عفا الله عنك لم أنتت لهم﴾ الثلاث الآيات، قال: نسخها: ﴿فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأنن لمن شئت منهم﴾ [النور: 62]. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والنحاس في ناسخه، عنه، في قوله: ﴿لا يستأذك الذين يؤمنون بالله﴾ الآية قال: هذا تعبير للمنافقين حين استأذنوا في القعود عن الجهاد بغير عذر، وعذر الله المؤمنين فقال: ﴿فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأنن لمن شئت منهم﴾ [النور: 62]. وأخرج أبو عبيدة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مروي، والبيهقي في سننه، عنه، أيضاً في قوله: ﴿لا يستأذك﴾ الآيتين قال: نسختها الآية التي في سورة النور: ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله﴾ إلى ﴿إن الله غفور رحيم﴾ [النور: 62] فجعل الله النبي ﷺ بأعلى النظريين في ذلك، من غزا غزا في فضيلة، ومن قعد قعد في غير حرج إن شاء الله. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الضحاك، في قوله: ﴿ولكن كره الله أشعثهم﴾ قال: خروجهم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿فقطبهم﴾ قال: حبسهم. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن زيد، في قوله: ﴿لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً﴾ قال: هؤلاء المنافقون في غزوة تبوك. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة، في قوله: ﴿ولا اوضعوا خالككم﴾ قال: لاسرعوا بينكم. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿ولا اوضعوا خالككم﴾ قال: لارفضوا ﴿يبغونكم للفتنة﴾ يبطئونكم: عبد الله بن نبتل، وعبد الله بن أبي ابن سلول، ورفاعة بن ثابت، وأوس بن قيطي ﴿وفيك سماعون لهم﴾ محثون لهم بأحاديثكم غير منافقين، وهم عيون للمنافقين. وأخرج ابن المنذر، والطبراني، وابن مروي، وأبو نعيم في المعرفة، عن ابن عباس، قال: لما أراد النبي ﷺ أن يخرج إلى غزوة تبوك، قال لجد بن قيس: يا جد بن قيس ما تقول في مجاهدة بني الأصفر؟ فقال: يا رسول الله إني امرؤ صاحب نساء، ومتى أرى نساء بني الأصفر اقتتن، فأنن لي ولا تفتني، فأنزل الله: ﴿ومنهم من يقول ائذن لي﴾ الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مروي، عن جابر بن عبد الله، نحوه. وأخرج ابن مروي، عن عائشة، نحوه أيضاً. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿ولا تفتني﴾ قال: لا تخرجني ﴿الا في الفتنة سقطوا﴾ يعني في الخروج. وأخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: ﴿ولا تفتني﴾ قال: لا تؤثمني ﴿الا في الفتنة﴾ الا في الإثم، وقصة تبوك منكورة في كتب الحديث والسير فلا نطول بذكرها.

الحال: أي والحال أن فيكم من يستمع ما يقولونه من الكذب، فينقله إليكم فيتأثر من ذلك الاختلاف بينكم، والفساد لإخوانكم ﴿والله عليم بالظالمين﴾ وبما يحدث منهم لو خرجوا معكم، فلذلك اقتضت حكمته البالغة أن لا يخرجوا معكم، وكره انبعاثهم معكم، ولا ينافي حالهم هذا لو خرجوا مع رسول الله ﷺ ما تقدم من عتابه على الإذن لهم في التخلف؛ لأنه سارع إلى الإذن لهم، ولم يكن قد علم من أحوالهم لو خرجوا أنهم يفعلون هذه الأفاعيل، فعوتب ﷺ على تسرعهم إلى الإذن لهم قبل أن يتبين له الصداق منهم في عذرهم من الكاذب، ولهذا قال الله سبحانه فيما يأتي في هذه السورة ﴿فإن رجعت الله إلي طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبداً﴾ [التوبة: 83] الآية، وقال في سورة الفتح: ﴿سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم﴾ إلى قوله ﴿قل لن تتبعونا﴾ [الفتح: 15]. قوله: ﴿لقد ابتغوا للفتنة من قبل﴾ أي: لقد طلبوا الإفساد والخبال وتفرق كلمة المؤمنين وتشتت شملهم من قبل هذه الغزوة التي تخلفوا عنك فيها. كما وقع من عبد الله بن أبي وغيره ﴿ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾ [التوبة: 32]. قوله: ﴿وقلبوا لك الأمور﴾ أي: صرفوها من أمر إلى أمر، ودبروا لك الحيل والمكائد، ومنه قول العرب ﴿حول قلب﴾ إذا كان دائراً حول المكائد والحيل، يدبر الرأي فيها ويتدبره. وقرئ ﴿وقلبوا﴾ بالتخفيف ﴿حتى جاء الحق﴾ أي: إلى غاية هي مجيء الحق، وإعلاء شرعه، وقهر أعدائه؛ وقيل الحق القرآن ﴿وهم كارهون﴾ أي: والحال أنهم كارهون لمجيء الحق وظهور أمر الله، ولكن كان ذلك على رغم منهم ﴿ومنهم﴾ أي: من المنافقين ﴿من يقول﴾ لرسول الله ﷺ ﴿ائذن لي﴾ في التخلف عن الجهاد ﴿ولا تفتني﴾ أي: لا توقعني في الفتنة؛ أي الإثم، إذا لم تأذن لي فتخلفت بغير إنك؛ وقيل معناه: لا توقعني في الهلكة بالخروج ﴿الا في الفتنة سقطوا﴾ أي: في نفس الفتنة سقطوا، وهي فتنة التخلف عن الجهاد، والاعتذار الباطل. والمعنى: أنهم ظنوا أنهم بالخروج أو بترك الإذن لهم يقعون في الفتنة، وهم بهذا التخلف سقطوا في الفتنة العظيمة. وفي التعبير بالسقوط ما يشعر بأنهم وقعوا فيها وقروا من يهوى من أعلى إلى أسفل، وذلك أشد من مجرد الدخول في الفتنة، ثم توعدهم على ذلك فقال: ﴿وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾ أي: مشتملة عليهم من جميع الجوانب لا يجدون عنها مخلصاً، ولا يتمكنون من الخروج منها بحال من الأحوال.

وقد أخرج عبد الرزاق في المصنف، وابن جرير عن عمرو بن ميمون، قال: ائتان فعلهما رسول الله ﷺ لم يؤمر فيهما بشيء: إثنه للمنافقين، وأخذهم من الأسارى، فأنزل الله: ﴿عفا الله عنك لم أنتت لهم﴾. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن عون بن عبد الله، قال: سمعت بمعاينة أحسن من هذا؟ بدأ بالعفو قبل المعاتبة.

أولى حتى يكون كل واحد من الجوابين اللذين أمر الله سبحانه رسوله بأن يجيب عليهم بهما مفيداً لفائدة غير فائدة الآخر، والتأسيس خير من التاكيد. ومعنى: ﴿هَلْ تَرَبَّصُونَ بَنَا إِلَّا إِحْدَى الْحَسَنَيْنِ﴾ هل تنتظرون بنا إلا إحدى الخصلتين الحسنيتين: إما النصر أو الشهادة، وكلاهما مما يحسن لدينا، والحسن تانيث الأحسن، ومعنى الاستفهام: التقريع والتوبيخ ﴿وَنَحْنُ نَقْرُبُكُمْ بِكُمْ﴾ إحدى المساءتين لكم: إما ﴿أَنْ يَصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾ أي: قارعة نازلة من السماء، فبصحتكم بعذابه، ﴿أَوْ﴾ بعذاب لكم ﴿بِإِيمَانِنَا﴾ أي: بإظهار الله لنا عليكم بالقتل والأسر والنهب والسبي. والفاء في فتريصوا فصيحة، والأمر للتهديد كما في قوله: ﴿نَقُتْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الخان: 49] أي تربصوا بنا ما نكرنا من عاقبتنا فنحن معكم متربصون ما هو عاقبتكم، فستظنون عند ذلك ما يسرنا ويسوؤكم. وقرأ البرزي وابن فليح «هل تربصون» بإظهار اللام وتشديد التاء. وقرأ الكوفيون بإدغام اللام في التاء. وقرأ الباقون بإظهار اللام وتخفيف التاء. قوله: ﴿قُلْ أَنْتَفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يَتَقَبَّلَ مِنْكُمْ﴾ هذا الأمر معناه الشرط والجزاء، لأن الله سبحانه لا يأمرهم بما لا يتقبله منهم. والتقدير: إن انفقتم طائعين أو مكريين فلن يتقبل منكم؛ وقيل: هو أمر في معنى الخبر: أي انفقتم طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم، فهو كقوله: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [التوبة: 80] وفيه الإشعار بتساوي الأمرين في عدم القبول، وانتصاب طوعاً أو كرهاً على الحال، فهما مصدران في موقع المشتقين: أي انفقوا طائعين من غير أمر من الله ورسوله، أو مكريين بأمر منهما. وسمي الأمر منهما إكراهاً لأنهم منافقون لا ياتمرون بالأمر. فكانوا بأمرهم الذي لا ياتمرون كالمكريين على الإنفاق، أو طائعين من غير إكراه من رؤسائكم أو مكريين منهم، وجملة ﴿إِنْكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ﴾ تعليل لعدم قبول إنفاقهم، والفسق: التمرد والعق، وقد سبق بيانه لغة وشرعاً؛ ثم بين سبحانه السبب المانع من قبول نفقاتهم فقال: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ يَقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتِهِمْ إِلَّا أَنْهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: كفرهم بالله ورسوله جعل المانع من القبول ثلاثة أمور: الأول: الكفر؛ الثاني: أنهم لا يصلون في حال من الأحوال إلا في جال الكسل والتثاقل، لأنهم لا يرجون ثواباً ولا يخافون عقاباً، فصلاتهم ليست إلا رياء للناس وتظاهرة بالإسلام الذي يبطنون خلافه؛ والثالث: أنهم لا ينفقون أموالهم إلا وهم كارهون، ولا ينفقونها طوعاً لأنهم يعنون إنفاقها وضعا لها في مضیعة لعدم إيمانهم بما وعده الله ورسوله. قوله: ﴿قُلْ لَا تَعْبِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ﴾ الإعجاب بالشيء: أن يسر به سروراً راض به متعجب من حسنه، قيل: مع نوع من الافتخار واعتقاد أنه ليس لغيره ما يساويه؛ والمعنى: لا تستحسن ما معهم من الأموال والأولاد: ﴿إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بما يحصل معهم من الغم والحزن عند أن يغنمها المسلمون،

إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فُسَبِّحْهُ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ رَبِّكَ وَكُنْتُمْ تُرْجَوْنَ ﴿١٥﴾ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ تَعَلَّيْكَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦﴾ قُلْ هَلْ تَرْتَضُونَ بَنَا إِلَّا إِحْدَى الْحَسَنَيْنِ وَنَحْنُ نَقْرُبُكُمْ أَنْ يَصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِإِيمَانِنَا فَرْتَضُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ أَنْتَفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يَقْبَلَ مِنْكُمْ كُفْرُكُمْ قَوْمًا تَقِيقُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ يَقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتِهِمْ إِلَّا أَنْهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الْفَكَوْهَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يَنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿١٩﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَشْهُمُ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَيَحْلِفُونَ بِآلِهِمْ لَنْ يَكُنَّ مِنْكُمْ وَمِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ يَحْذَرُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَعْرَاجًا أَوْ مَذْعَلَ لَوْلَا إِلَيْهِ وَهُمْ يَخْشَوْنَ ﴿٢٢﴾

قوله: ﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ﴾ أي: حسنة كانت بأي سبب اتفق، كما يفيد وقوعها في حيز الشرط، وكذلك القول في المصيبة، وتدخل الحسنة والمصيبة الكائنة في القتال كما يفيد السياق بخولاً أولياً، فمن جملة ما تصدق عليه الحسنة: الغنيمة والظفر. ومن جملة ما تصدق عليه المصيبة: الخيبة والانتهزام، وهذا نكر نوع آخر من خبث ضمائر المنافقين وسوء أفعالهم، والإخبار بعظيم عدوانهم لرسول الله ﷺ وللمؤمنين، فإن المساءة بالحسنة، والفرح بالمصيبة من أعظم ما يدل على أنهم في العداوة قد بلغوا إلى الغاية، ومعنى ﴿تَوَلَّوْا﴾ رجعوا إلى أهلهم عن مقامات الاجتماع، ومواطن التحدث حال كونهم فرحين بالمصيبة التي أصابت المؤمنين، ومعنى قولهم: ﴿قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: لاحتطنا لأنفسنا، وأخذنا بالحزم، فلم نخرج إلى القتال كما خرج المؤمنون حتى نألهم ما نألهم من المصيبة، ثم لما قالوا هذا القول أمر الله رسوله ﷺ بأن يجيب عليهم بقوله: ﴿لَنْ يَصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ أي: في اللوح المحفوظ، أو في كتابه المنزل علينا، وفائدة هذا الجواب أن الإنسان إذا علم أن ما قدره الله كائن، وأن كل ما ناله من خير أو شر إنما هو بقدر الله وقضائه، هانت عليه المصائب، ولم يجد مرارة شماتة الأعداء وتشفي الحسدة ﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾ أي: ناصرنا وجاعل العاقبة لنا، ومظهر دينه على جميع الأديان، والتوكل على الله تفويض الأمور إليه؛ والمعنى: أن من حق المؤمنين أن يجعلوا تركلهم مختصاً بالله سبحانه، لا يتوكلون على غيره. وقرأ طلحة بن مصرف ﴿يَصِيبُنَا﴾ بتشديد الياء. وقرأ عيين قاضي الري «يَصِيبُنَا» بنون مشددة. وهو لحن لأن الخبر لا يؤكد. ورد بمثل قوله تعالى: ﴿هَلْ يَذْهَبُنْ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾ [الحج: 15]. وقال الزجاج: معناه لا يصيبنا إلا ما اختصنا الله من النصر عليكم أو الشهادة. وعلى هذا القول يكون قوله: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بَنَا إِلَّا إِحْدَى الْحَسَنَيْنِ﴾ تكريراً لغرض التأكيد، والأول:

ويأخذونها قسراً من أيديهم مع كونها زينة حياتهم وقرّة أعينهم، وكذا في الآخرة يعذبهم بعذاب النار بسبب عدم الشكر لربهم الذي أعطاهم ذلك، وترك ما يجب عليهم من الزكاة فيها، والتصدق بما يحق التصديق به، وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، والمعنى: فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا، إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة لأنهم منافقون، فهم ينفقون كارهين، فيعذبون بما ينفقون. قوله: **﴿وتزهد أنفُسهم وهم كافرون﴾** المزموق: الخروج بصعوبة، والمعنى: أن الله يريد أن تزهد أنفُسهم وتخرج أرواحهم حال كفرهم لعدم قبولهم لما جاءت به الأنبياء وأرسلت به الرسل، وتصميمهم على الكفر وتماديهم في الضلالة، ثم نكر الله سبحانه نوعاً آخر من قبائح المنافقين، فقال: **﴿ويحلفون بالله أنهم لمنكم﴾** أي: من جملتكم في دين الإسلام، والالتقياد لرسول الله ﷺ، ولكتب الله سبحانه: **﴿وما هم منكم﴾** في ذلك إلا بمجرد ظواهرهم دون بواطنهم **﴿ولكنهم قوم يفرقون﴾** أي: يخافون أن ينزل بهم ما نزل بالمشرّكين من القتل والسبي، فيظهرون لكم الإسلام تقية منهم لا عن حقيقة **﴿لو يجدون ملجأ﴾** يلتجئون إليه ويحفظون نفوسهم فيه منكم من حصن أو غيره **﴿أو مغارات﴾** جمع مغارة من غار يغير. قال الأخفش: ويجوز أن يكون من أغار يغير، والمغارات: الغيران والسرايب، وهي المواضع التي يستتر فيها، ومنه غار الماء وغارت العين؛ والمعنى: لو وجدوا أمكنة يغيّبون فيها أشخاصهم هرباً منكم **﴿أو منخل﴾** من الدخول: أي مكاناً يدخلون فيه من الأمكنة التي ليست مغارات. قال النحاس: الأصل فيه متدخل قلبت التاء دالا، وقيل أصله متدخل. وقرأ أبي «متخلأ» وروى عنه أنه قرأ «منخلأ» بالنون. وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق، وابن محيصن «أو منخلأ» بضم الميم وإسكان الدال. قال الزجاج: وقرأ «أو منخلأ» بضم الميم وإسكان الدال. وقرأ الباقر بتشديد الدال مع ضم الميم **﴿لولوا إليه﴾** أي: لالتجئوا إليه وأنخلوا أنفسهم فيه **﴿و﴾** الحال أنهم يجمعون أي يسرعون إسراعاً لا يردهم شيء، من جمع الفرس: إذا لم يرده للجام، ومنه قول الشاعر:

سبوح جموح وإحضارها كعمعة السعف الموقد
والمعنى: لو وجدوا شيئاً من هذه الأشياء المذكورة لولوا إليه مسرعين هرباً من المسلمين.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن جابر بن عبد الله، قال: جعل المنافقون الذين تخلفوا بالمدينة يخبرون عن النبي ﷺ أخبار السوء يقولون: إن محمداً وأصحابه قد جهدوا في سفرهم وهلكوا، فبلغهم تكذيب حديثهم وعافية النبي وأصحابه، فسأهم ذلك فانزل الله **﴿إن تصبك حسنة تسؤهم﴾** الآية. وأخرج سنيد، وابن جرير، عن ابن عباس **﴿إن تصبك حسنة تسؤهم﴾** يقول: إن يصبك في سفرك هذه الغزوة تبوك حسنة تسؤم قال: الجد وأصحابه، يعني الجد بن قيس. وأخرج أبو الشيخ، عن السدي: **﴿قل لن**

يصيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾ قال: إلا ما قضى الله لنا. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، قال: **﴿هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين﴾** قال: فتح أو شهادة. وأخرج ابن المنذر، عن ابن جرير، في قوله: **﴿لو يابسين﴾** قال: القتل بالسيف. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس، قال: قال الجد بن قيس إنني إذا رأيت النساء لم أصبر حتى أقتتن ولكن أعينك بمالي، قال: ففيه نزلت **﴿قل لتنفقوا طوعاً أو كرهاً﴾** الآية. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: **﴿فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا، إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة.﴾** وأخرج ابن المنذر، عن ابن عباس، قال: إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي، في قوله: **﴿وتزهد أنفُسهم وهم كافرون﴾** قال: تزهد أنفُسهم في الحياة الدنيا **﴿وهم كافرون﴾** قال: هذه آية فيها تقديم وتأخير. وأخرج أبو حاتم، وأبو الشيخ عن الضحاك، في قوله: **﴿فلا تعجبك﴾** يقول: لا يفرنك **﴿وتزهد﴾** قال: تخرج أنفُسهم، قال في الدنيا وهم كافرون. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: **﴿لو يجدون ملجأ﴾** الآية قال: الملجأ الحز في الجبال، والمغارات: الغيران، والمنخل: السرب. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي **﴿وهم يجمعون﴾** قال: يسرعون.

وَمَنْ مِّن يَّزِيدٍ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنَّ أَهْلَهَا رَشَوُا وَإِنْ لَّمْ يَسْطَلُوا يَنْتَبِهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٨٧﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَشَوُا مَا عَاتَيْنَهُمُ اللَّهُ زُرْسُولُهُمْ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ زُرْسُولُهُمْ إِنَّا إِلَى اللَّهِ زَاغِرُونَ ﴿٨٨﴾ إِنَّا الصَّدَقَاتُ لِلْمَقْرَرَةِ وَالْمَسْكِينِ وَالْمَيْلِينَ عَلَيْهِ وَالْمَوْلَةِ لِرَبِّهِمْ فِي الرِّقَابِ وَالْمَقْرَرِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَآلِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨٩﴾

قوله: **﴿ومنهم من يلزمك﴾** هذا نكر نوع آخر قبائحهم، يقال لمزه يلزمه: إذا عابه. قال الجوهرى: اللزم العيب، وأصله الإشارة بالعين ونحوها، وقد لمزه يلزمه ويلزمه، ورجل لماز، ولمزة: أي عياب. قال الزجاج: لمزت الرجل المزة والمز، بكسر الميم وضمها: إذا عيته، وكذا همزته. ومعنى الآية: ومن المنافقين من يعيبك في الصدقات: أي في تفريقها وقسمتها. وروى عن مجاهد أنه قال: معنى **﴿يلزمك﴾** يرزؤك ويسالك، والقول عند أهل اللغة هو الأوّل، كما قال النحاس. وقرأ يلزمك بضم الميم، ويلزمك بكسرها مع التشديد. وقرأ الجمهور بكسرها مخففة **﴿فإن أعطوا منها﴾** أي: من الصدقات بقدر ما يريدون **﴿رضوا﴾** بما وقع من رسول الله ﷺ ولم يعيبوه، وذلك لأنه لا مقصد لهم إلا حطام الدنيا، وليسوا من الذين في شيء **﴿وإن لم يعطوا منها﴾** أي: من الصدقات ما يريدونه ويطلبونه **﴿إذا هم يسخطون﴾** أي: وإن لم يعطوا فاجتوا السخط، وفائدة إذا الفجائية أن الشرط

[الكهف: 79] فآخبر أن لهم سفينة من سفن البحر. وربما سارت جملة من المال، ويؤيده تعوذ النبي ﷺ من الفقر مع قوله: «اللهم آحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً» وإلى هذا ذهب الأصمعي وغيره من أهل اللغة. وحكاه الطحاوي عن الكوفيين، وهو أحد قولي الشافعي وأكثر أصحابه. وقال قوم: إن الفقير والمسكين سواء لا فرق بينهما وهو أحد قولي الشافعي، وإليه ذهب ابن القاسم وسائر أصحاب مالك، وبه قال أبو يوسف. وقال قوم: الفقير المحتاج المتعفف، والمسكين السائل. قاله الأزهري، واختاره ابن شعبان، وهو مروى عن ابن عباس. وقد قيل غير هذه الأقوال مما لا يأتي الاستكثار منه بفائدة يعتد بها. والأولى في بيان ماهية المسكين: ما ثبت عن رسول الله ﷺ عند البخاري ومسلم، وغيرهما، من حديث أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «ليس المسكين بهذا الطواف الذي يطوف على الناس فترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان، قالوا: فما المسكين يا رسول الله؟ قال: الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يفتن له فيتصنق عليه. ولا يسأل الناس شيئاً». قوله: «والعاملين عليها» أي: السعاة والجباة الذين يبعثهم الإمام لتحصيل الزكاة فإنهم يستحقون منها قسطاً.

وقد اختلف في القدر الذي يأخونه منها، فقليل الثمن. روي ذلك عن مجاهد والشافعي. وقيل: على قدر أعمالهم من الأجرة، روي ذلك عن أبي حنيفة وأصحابه. وقيل يعطون من بيت المال قدر أجرتهم. روي ذلك عن مالك، ولا وجه لهذا، فإن الله قد أخبر بأن لهم نصيباً من الصدقة فكيف يمنعون منها ويعطون من غيرها؟ واختلفوا هل يجوز أن يكون العامل هاشمياً أم لا؟ فمنعه قوم، وأجازه آخرون. قالوا: ويعطى من غير الصدقة. قوله: «والمؤلفة قلوبهم» هم قوم كانوا في صدر الإسلام، فقيل: هم الكفار الذين كان النبي ﷺ يتألفهم ليسلموا. وكانوا لا يدخلون في الإسلام بالقهر والسيف، بل بالعطاء؛ وقيل: هم قوم أسلموا في الظاهر ولم يحسن إسلامهم، فكان رسول الله ﷺ يتألفهم بالعطاء؛ وقيل: هم من أسلم من اليهود والنصارى؛ وقيل: هم قوم من عظماء المشركين لهم أتباع أعطاهم النبي ﷺ ليتألفوا أتباعهم على الإسلام. وقد أعطى النبي ﷺ جماعة ممن أسلم ظاهراً كعلي بن سفيان بن حرب، والحارث بن هشام، وسهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى، أعطى كل واحد منهم مائة من الإبل تألفهم بذلك، وأعطى آخرين نونهم.

وقد اختلف العلماء هل سهم المؤلفة قلوبهم باق بعد ظهور الإسلام أم لا؟ فقال عمر، والحسن، والشعبي: قد انقطع هذا الصنف بعزة الإسلام وظهوره، وهذا مشهور من مذهب مالك وأصحاب الرأي؛ وقد ادعى بعض الحنفية أن الصحابة أجمعت على ذلك. وقال جماعة من العلماء: سهمهم باق لأن الإمام ربما احتاج أن يتألف على الإسلام، وإنما قطعهم عمر لما رأى من إعزاز الدين. قال يونس: سألت الزهري عنهم فقال: لا أعلم نسخ ذلك، وعلى القول الأول

مفاجئ للجزء وهاجم عليه. وقد نابت إذا الفجائية مناب فاء الجزء «ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله» أي: ما فرضه الله لهم وما أعطاهم رسول الله ﷺ من الصدقات، وجوب لو محتوف، أي لكان خيراً لهم، فإن فيما أعطاهم الخير العاجل والأجل «وقالوا حسبن الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله» أي: قالوا هذه المقالة عند أن أعطاهم رسول الله ﷺ ما هو لهم: أي كفانا الله، سيعطينا من فضله، ويعطينا رسوله بعد هذا ما نرجوه ونؤمله «إننا إلى الله راغبون» في أن يعطينا من فضله ما نرجوه. قوله: «إنما الصدقات للفقراء» لما لمز المنافقون رسول الله ﷺ في قسمة الصدقات بين الله لهم مصرفها دفعا لطعنهم، وقطعاً لشغبهم، و«إنما» من صيغ القصر، وتعريف الصدقات للجنس: أي جنس هذه الصدقات مقصور على هذه الأصناف المذكورة لا يتجاوزها، بل هي لهم لا لغيرهم.

وقد اختلف أهل العلم هل يجب تقسيط الصدقات على هذه الأصناف الثمانية، أو يجوز صرفها إلى البعض دون البعض على حسب ما يراه الإمام أو صاحب الصدقة؟ فذهب إلى الأول الشافعي وجماعة من أهل العلم، وذهب إلى الثاني: مالك وأبو حنيفة، وبه قال عمر، وحنيفة، وابن عباس، وأبو العالية، وسعيد بن جبيرة، وميمون بن مهران. قال ابن جرير وهو قول عامة أهل العلم: احتج الأولون بما في الآية من القصر، وبحديث زياد بن الحرث الصدائي عند أبي داود والدارقطني قال: أتيت النبي ﷺ فبأيعته، فأتى رجل فقال: أعطني من الصدقة، فقال له: إن الله لم يرض بحكم نبي ولا غيره في الصدقات حتى حكم فيها هو، فجزأها ثمانية أصناف، فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك. وأجاب الآخرون بأن ما في الآية من القصر إنما هو لبيان الصرف والمصرف، لا لوجوب استيعاب الأصناف، وبأن في إسناد الحديث عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الإفريقي وهو ضعيف. ومما يؤيد ما ذهب إليه الآخرون قوله تعالى: «إن تبدوا الصدقات فنعما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم» [البقرة: 271] والصدقة تطلق على الواجبة كما تطلق على المنبوبة. وصح عنه ﷺ أنه قال: «أمرت أن آخذ الصدقة من أغنيائكم وأردأها في فقرائكم». وقد ادعى مالك الإجماع على القبول الآخر. قال ابن عبد البر: يريد إجماع الصحابة، فإنه لا يعلم له مخالف منهم. قوله: «للفقراء» قدمهم لأنهم أحوج من البقية على المشهور لشدة فاقتهم وحاجتهم.

وقد اختلف أهل العلم في الفرق بين الفقير والمسكين على أقوال: فقال يعقوب بن السكيت، والقتيبي، ويونس بن حبيب: إن الفقير أحسن حالاً من المسكين، قالوا: لأن الفقير هو الذي له بعض ما يكفيه ويقيم. والمسكين الذي لا شيء له، وذهب إلى هذا قوم من أهل الفقه منهم أبو حنيفة. وقال آخرون بالعكس، فجعلوا المسكين أحسن حالاً من الفقير، واحتجوا بقوله تعالى: «إما السفينة فكانت لمساكين»

ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد في قوله: **﴿ومنهم من يلمزك﴾** قال: يزرؤك يسألك. وأخرج ابن المنذر، عن قتادة قال: يطعن عليك. وأخرج ابن مريويه، عن ابن مسعود قال: لما قسم النبي ﷺ غنائم حنين، سمعت رجلاً يقول: إن هذه لقسمة ما أريد بها الله، فاتيت النبي ﷺ، ونكرت ذلك له، فقال: «رحمة الله على موسى قد أودي بكثرة من هذا فصبير، ونزل **﴿ومنهم من يلمزك في الصدقات﴾**». وأخرج ابن مريويه، عن ابن عباس، قال: نسخت هذه الآية كل صدقة في القرآن **﴿إنما الصدقات للفقراء﴾** الآية. وأخرج ابن المنذر، عن ابن جريج، نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وأبو الشيخ، عن حذيفة، في قوله: **﴿إنما الصدقات للفقراء﴾** الآية قال: إن شئت جعلتها في صنف واحد من الأصناف الثمانية التي سمي الله أو صنفين أو ثلاثة. وأخرج ابن أبي شيبة، عن أبي العالية، والحسن، وعطاء، وإبراهيم، وسعيد بن جبيرة، نحوه. وأخرج ابن المنذر، والنحاس، عن ابن عباس، قال: للفقراء فقراء المسلمين. والمساكين: الطوائف. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والنحاس، وأبو الشيخ، عن قتادة، قال: الفقير الذي به زمانة، والمساكين: المحتاج الذي ليس به زمانة. وأخرج ابن أبي شيبة، عن عمر، في قوله: **﴿إنما الصدقات للفقراء﴾** قال: هم زمني أهل الكتاب. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: **﴿والعاملين عليها﴾** قال: السعاة أصحاب الصدقة. وأخرج ابن جرير، وابن مريويه، عن ابن عباس، في قوله: **﴿والمؤلفة قلوبهم﴾** قال: هم قوم كانوا يأتون رسول الله ﷺ قد أسلموا، وكان يرضخ لهم من الصدقات، فإذا أعطاهم من الصدقة فأسلموا منها خيراً قالوا: هذا دين صالح، وإن كان غير ذلك عابوه وتركوه. وأخرج البخاري، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، عن أبي سعيد، قال: بعث علي بن أبي طالب من اليمن إلى النبي ﷺ بذهبية فيها تربتها، فقسمها بين أربعة من المؤلفة: الأقرع بن حابس الحنظلي وعلقمة بن علاثة العامري، وعيينة بن بدر الفزاري، وزيد الخيل الطائي؛ فقالت قریش والانصار: يقسم بين صناديد أهل نجد ويدعنا؟ فقال النبي ﷺ: إنما أتالفهم. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الزهري أنه سئل عن المؤلفة قلوبهم قال: من أسلم من يهودي أو نصراني، قلت: وإن كان موسراً؟ قال: وإن كان موسراً. وأخرج هؤلاء عن أبي جعفر قال: ليس اليوم مؤلفة قلوبهم. وأخرج هؤلاء أيضاً عن الشعبي مثله. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مقاتل، في قوله: **﴿وفي الرقاب﴾** قال: هم المكاتبون. وأخرج ابن المنذر، عن النخعي، نحوه. وأخرج أيضاً عن عمر بن عبد الله قال: سهم الرقاب نصفان: نصف لكل مكاتب ممن يدعي الإسلام، والنصف الآخر يشتري به رقاب ممن صلى وصام، وقدم إسلامه من نكر وأثنى، يعتقدون الله. وأخرج ابن أبي شيبة، وأبو عبيد، وابن المنذر، عن ابن عباس، أنه كان لا يرى بأساً

يرجع سهمهم لسائر الأصناف. قوله: **﴿وفي الرقاب﴾** أي في فك الرقاب بأن يشتري رقاباً ثم يعتقها. روي ذلك عن ابن عباس، وابن عمر، وبه قال مالك، وأحمد بن حنبل، وإسحاق وأبو عبيد. وقال الحسن البصري، ومقاتل بن حيان، وعمر بن عبد العزيز، وسعيد بن جبيرة، والنخعي، والزهري، وابن زيد: إنهم المكاتبون يعانون من الصدقة على مال الكتابة، وهو قول الشافعي وأصحاب الرأي، ورواية عن مالك، والأولى حمل ما في الآية على القولين جميعاً لصق الرقاب على شراء العبد وإعتاقه، وعلى إعانة المكاتب على مال الكتابة. قوله: **﴿والغارمين﴾** هم الذين ركبتهم الدين ولا وفاء عندهم بها، ولا خلاف في ذلك إلا من لزمه دين في سفاقة فإنه لا يعطى منها ولا من غيرها إلا أن يتوب. وقد أعان النبي ﷺ من الصدقة من تحمل حمالة وأرشد إلى إعانته منها. قوله: **﴿وفي سبيل الله﴾** هم الغزاة والمرابطون، يعطون من الصدقة ما ينفقون في غزوهم ومرابطتهم وإن كانوا أغنياء، وهذا قول أكثر العلماء. وقال ابن عمر: هم الحجاج والعمار، وروي عن أحمد وإسحاق أنهما جعلاً الحج من سبيل الله. وقال أبو حنيفة وصاحبه: لا يعطى الغازي إلا إذا كان فقيراً منقطعاً به. قوله: **﴿ولين السبيل﴾** هو: المسافر، والسبيل الطريق، ونسب إليها المسافر لملازمته إياها، والمراد الذي انقطعت به الأسباب في سفره عن بلده ومستقره، فإنه يعطى منها وإن كان غنياً في بلده، وإن وجد من يسلفه. وقال مالك: إذا وجد من يسلفه فلا يعطى. قوله: **﴿فريضة من الله﴾** صمد مؤكد، لأن قوله: **﴿إنما الصدقات للفقراء﴾** معناه: فرض الله الصدقات لهم. والمعنى: أن كون الصدقات مقصورة على هذه الأصناف هو حكم لازم فرضه الله على عباده ونهاهم عن مجاوزته **﴿والله عليم﴾** بأحوال عباده **﴿حكيم﴾** في أفعاله؛ وقيل إن «فريضة» منتصبة بفعل مقدر: أي فرض الله تلك فريضة. قال في الكشف: فإن قلت لم عدل عن اللام إلى «في» في الأربعة الآخرة؟ قلت: للإيدان بأنها أرسخ في استحقاق التصديق عليهم ممن سبق نكره؛ وقيل النكته في العدول أن الأصناف الأربعة الأول يصرف المال إليهم حتى ينصرفوا به كما شاءوا، وفي الأربعة الأخيرة لا يصرف المال إليهم، بل يصرف إلى جهات الحاجات المعتمدة في الصفات التي لأجلها استحقوا سهم الزكاة، كذا قيل.

وقد أخرج البخاري، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مريويه، عن أبي سعيد الخدري قال: «بينما رسول الله ﷺ يقسم قسماً إذ جاءه ابن ذي الخويصرة التيمي فقال: أعدل يا رسول الله، فقال: ويحك، ومن يعدل إذا لم أعدل؟ فقال عمر بن الخطاب: أئذن لي فأضرب عنقه فقال النبي ﷺ: دعه فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية الحبيث حتى قال: وفيهم نزلت: **﴿ومنهم من يلمزك في الصدقات﴾**. وأخرج

والتوبيخ، وأثبت وقوع ذلك منهم، ولم يعبا بإنكارهم؛ لأنهم كانوا كاذبين في الإنكار، بل جعلهم كالمعترفين بوقوع ذلك منهم حيث جعل المستهزاء به، وبالباء لحرف النفي، فإن ذلك إنما يكون بعد وقوع الاستهزاء وثبوته، ثم قال: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا﴾ نهيًا لهم عن الاشتغال بالاعتذارات الباطنة، فإن ذلك غير مقبول منهم. وقد نقل الواحدي عن أئمة اللغة أن معنى الاعتذار محو أثر الذنب وقطعه، من قولهم اعتذر المنزل: إذا درس، واعتذرت المياه: إذا انقطعت ﴿فَقَدْ كَفَرْتُمْ﴾ أي أظهرتم الكفر بما وقع منكم من الاستهزاء المذكور ﴿بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ أي بعد إظهاركم الإيمان، مع كونكم تبطنون الكفر ﴿إِنْ نَعَفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ﴾ وهم من أخلص الإيمان، وترك النفاق، وتاب عنه. قال الزجاج الطائفة في اللغة الجماعة. قال ابن الأنباري: ويطلق لفظ الجمع على الواحد عند العرب ﴿نَعَبَ طَائِفَةٌ بِهِ﴾ سبب ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا مجرمين﴾ مصريين على النفاق، لم يتوبوا منه، قرئ⁽¹⁾ نعب بالنون وبالتاء الفوقية على البناء للمفعول وبالتحتية على البناء للفاعل، وهو الله سبحانه.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، قال: كان نبتل بن الحارث يأتي رسول الله ﷺ، فيجلس إليه فيسمع منه، ثم ينقل حديثه إلى المنافقين، وهو الذي قال لهم: إنما محمد آثم، من حثه بشيء صدقه، فأنزل الله فيه: ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذِنُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أذْنٌ﴾ الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي، قال: اجتمع ناس من المنافقين فيهم: خلاص بن سويد بن صامت، ومخشي بن حمير، ووديعة بن ثابت، فأرأوا أن يقعوا في النبي ﷺ، فنهى بعضهم بعضاً وقالوا: إنا نخاف أن يبلغ محمداً فيقع بكم، فقال بعضهم: إنما محمد آثم نحلف له فيصدقنا، فنزل: ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذِنُونَ النَّبِيَّ﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس، في قوله: ﴿هُوَ أذْنٌ﴾ يعني: أنه يسمع من كل أحد. قال الله تعالى: ﴿إِذْ خَيْرَ لَكُمْ يَوْمَ بَاسٍ وَهُمْ يُلْمُونَ﴾ يعني: يصنق بالله ويصنق المؤمنين. وأخرج الطبراني، وابن عساکر، وابن مردويه، عن عمير بن سعد، قال: في أنزلت هذه الآية ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أذْنٌ﴾ وذلك أن عمير بن سعد كان يسمع لأخبار أهل المدينة، فيأتي النبي ﷺ، فيسأله حتى كانوا يتأثرون بعمير بن سعد، وكروهاً مجالسته، وقال: ﴿هُوَ أذْنٌ﴾ فأنزلت فيه. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة، قال: نكر لنا أن رجلاً من المنافقين قال: وإله إن هؤلاء لخيارنا وأشرافنا، ولئن كان ما يقول محمد حقاً لهم شر من الحمير، فسمعها رجل من المسلمين فقال: والله إن ما يقول محمد لحق ولأن شر من الحمير، فسعى بها الرجل إلى نبي الله ﷺ فأخبره، فأرسل

وهذه الجملة أعني: ﴿وَالله ورسوله لحق أن يرضوه﴾ في محل نصب على الحال، وجواب ﴿إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ محذوف: أي إن كانوا مؤمنين فليرضوا الله ورسوله. قوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مِنْ إِحَادِدِ اللهِ وَرَسُولِهِ فَإِنْ لَهُ نَارُ جَهَنَّمَ﴾. قرأ الحسن، وابن هرمز، ألم تعلموا بالفوقية. وقرأ الباقون بالتحتية: والمحادة وقوع هذا في حد. وذلك في حد كالمشاققة: يقال حاد فلان فلاناً: أي صار في حد غير حده ﴿فَإِنْ لَهُ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ قرأ الجمهور بفتح الهمزة على أنه خبر مبتدأ محذوف: أي حقق أن له نار جهنم. وقال الخليل وسيبويه: إن «أن» الثانية مبجلة من الأولى، وزعم المبرد أن هذا القول مردود، وأن الصحيح ما قال الجرمي أن الثانية مكورة للتوكيد لما طال الكلام. وقال الأخفش المعنى: فوجوب النار له، وإنكره المبرد وقال: هذا خطأ من أجل أن «أن» المفتوحة المشددة لا يبتدأ بها ويضمر الخبر. وقرئ بكسر الهمزة. قال سيبويه، وهي قراءة جيدة، وأنشد:

وإني إذا ملت ركابي منأخها فإني على حظي من الأمر جامع وانتصاب خالداً على الحال. والإشارة بقوله: ﴿تِلْكَ﴾ إلى ما نكر من العذاب. وهو مبتدأ وخبره ﴿الْخَزْيُ الْعَظِيمُ﴾ أي: الخزي البالغ إلى الغاية التي لا يبلغ إليها غيره، وهو الذل والهوان. قوله: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ﴾ قيل: هو خبر وليس بامر. وقال الزجاج: معناه ليحذر. فالمعنى على القول الأول: أن المنافقين كانوا يحذرون نزول القرآن فيهم. وعلى الثاني: الأمر لهم بأن يحذروا ذلك، وأن «تنزل» في موضع نصب: أي من أن تنزل، ويجوز على قول سيبويه أن يكون في موضع خفض على تقدير من وإعمالها. ويجوز أن يكون النصب على المفعولية. وقد أجاز سيبويه حذرت زيدا، وأنشد:

حذر أموراً لا تحضير وآسن مالميس ينجبني من الأقدار ومنع من النصب على المفعولية المبرد. ومعنى: ﴿عليهم﴾ أي: على المؤمنين في شأن المنافقين، على أن الضمير للمؤمنين، والأولى أن يكون الضمير للمنافقين: أي في شأنهم ﴿تَنْبِيْهِمْ﴾ أي: المنافقين ﴿بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ مما يسرونه فضلاً عما يظهرونه، وهم وإن كانوا عالمين بما في قلوبهم، فالمراد من إنباء السورة لهم إطلاعهم على أن المؤمنين قد علموا بما في قلوبهم، ثم أمر الله رسوله بأن يجيب عليهم، فقال: ﴿قُلْ اسْتَهِزُوا إِنَّ الله مَخْرُجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾ هو أمر تهديد: أي افعلوا الاستهزاء، إن الله مخرج ما تحذرون من ظهوره حتى يطلع عليه المؤمنون، إما بإنزال سورة، أو بإخبار رسوله بذلك أو نحو ذلك. قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ أي: لئن سألتهم عما قالوه من الطعن في الدين، وثلب المؤمنين بعد أن يبلغ إليك ذلك، ويطلعك الله عليه، ليقولنَّ إنما كنا نخوض ونلعب، ولم تكن في شيء من أمرك ولا أمر المؤمنين. ثم أمره الله أن يجيب عنهم فقال: ﴿قُلْ إِنَّا وَالْآيَاتِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ والاستفهام للتقريع

(1) صوابه قرنا بالنون على البناء للفاعل؛ وبالياء التحتية والتاء الفوقية على البناء للمفعول اهـ. مصحح القرآن.

قَبْلَكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأُولَادًا فَاسْتَنْتَبُوا بِحَلَّتِهِمْ
فَاسْتَنْتَبْتُمْ بِحَلَّتِهِمْ كَمَا اسْتَنْتَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِحَلَّتِهِمْ وَخُشِعَتْ
كَالِي حَاشُوا أَوْلِيَّتَكُمْ حِطَّتْ أَعْيُنُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ
هُمُ الْغَائِبُونَ ﴿٥٦﴾ إِنَّهُمْ يَأْتِيَهُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمٌ نُوحٍ وَصَارُوا
وَكُفُورًا وَقَوْمٌ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابَ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكِينَ وَأَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ
بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾

قوله: ﴿المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض﴾ ذكر
هنا جملة أحوال المنافقين، وأن نكودهم في ذلك كإثامهم،
وأنهم متناهون في النفاق والبعد عن الإيمان، وفيه إشارة
إلى نفي أن يكونوا من المؤمنين، ورد لقولهم ﴿ويحلفون
بالله إنهم لمنكم﴾ [التوبة: 56]، ثم فصل ذلك المجل ببيان
مضادة حالهم لحال المنافقين فقال: ﴿يأمرؤن بالمنكر﴾
وهو كل قبيح عقلاً أو شرعاً ﴿ويبينون عن المعروف﴾
وهو كل حسن عقلاً أو شرعاً قال الزجاج: هذا متصل بقوله
﴿ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم﴾ [التوبة: 56] أي
ليسوا من المؤمنين، ولكن بعضهم من بعض: أي متشابهون
في الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف ﴿ويقبضون
أيديهم﴾ أي: يشحون فيما ينبغي إخراجهم من المال في
الصنعة، والصلة والجهاد، فالقبض كناية عن الشح، كما أن
البسط كناية عن الكرم. والنسيان الترك: أي تركوا ما أمرهم
به، فتركهم من رحمته وفضله، لأن النسيان الحقيقي لا
يصح إطلاقه على الله سبحانه، وإنما أطلق عليه هنا من باب
المشكلة المعروفة في علم البيان، ثم حكم عليهم بالفسق:
أي الخروج عن طاعة الله إلى معاصيه، وهذا التركيب يفيد
أنهم هم الكاملون في الفسق. ثم بين مآل حال أهل النفاق
والكفر بأنه ﴿نار جهنم﴾ و﴿خالين فيها﴾ حال مقررة:
أي مقدرين الخلود؛ وفي هذه الآية دليل على أن وعد يقال
في الشر، كما يقال في الخير: ﴿هي حسبيهم﴾ أي: كافيتهم
لا يحتاجون إلى زيادة على عذابها، ﴿و﴾ مع ذلك فقد
﴿لعنهم الله﴾ أي: طردهم وأبعدهم من رحمته ﴿ولهم
عذاب مقيم﴾ أي: نوع آخر من العذاب دائم لا ينفك عنهم.
قوله: ﴿كلين من قبلكم﴾ شبه حال المنافقين بالكفار
الذين كانوا من قبلهم ملتفتاً من الغيبة إلى الخطاب، والكاف
محله رفع على خبرية مبتدأ محذوف: أي أنتم مثل الذين
من قبلكم، أو محله نصب: أي فعلتم مثل فعل الذين من
قبلكم من الأمم. وقال الزجاج: التقدير وعد الله الكفار نار
جهنم وعداً كما وعد الذين من قبلكم؛ وقيل المعنى: فعلتم
كأفعال الذين من قبلكم في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن
المنكر، فحنف المضاف. ثم وصف حال أولئك الكفار الذين
من قبلهم، وبين وجه تشبيههم بهم وتمثيل حالهم بحالهم
بأنهم كانوا أشد من هؤلاء المنافقين والكفار المعاصرين
للنبي ﷺ ﴿قوة وأكثر أموالاً وأولاداً فاستمتعوا﴾ أي:
تمتعوا ﴿بخلاقتهم﴾ أي: نصيبهم الذي قدره الله لهم من
ملاذ الدنيا، ﴿فاستمتعتم﴾ أنتم بخلاقتكم﴾ أي: نصيبكم

إلى الرجل فدعاه فقال: ما حملك على الذي قلت؟ فجعل
يلتعن ويحلف بالله ما قال ذلك، وجعل الرجل المسلم يقول:
اللهم صدق الصادق، وكذب الكاذب، فأنزل الله في ذلك:
﴿يحلفون بالله لكم ليرضوكم﴾ الآية. وأخرج ابن أبي
حاتم، عن السدي مثله، وسمى الرجل المسلم عامر بن قيس
من الأنصار. وأخرج أبو الشيخ، عن الضحاك ﴿لم يعلموا
أنه من يحادد الله ورسوله﴾ يقول: يعادي الله ورسوله.
وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو
الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿يحذر المنافقون﴾ الآية قال:
يقولون القول فيما بينهم، ثم يقولون عسى الله أن لا يفيش
علينا هذا. وأخرج أبو نعيم في الحلية، عن شريح بن عبيد،
أن رجلاً قال لأبي برداء: يا معشر القراء ما بالكم أجبن منا
وأبخل إذا سئلتهم، وأعظم لقمأ إذا كلكتم؟ فأعرض عنه أبو
البرداء ولم يرد عليه بشيء، فأخبر بذلك عمر بن الخطاب،
فانطلق عمر إلى الرجل الذي قال ذلك، فقال بثوبه وخنقه
وقاده إلى النبي ﷺ فقال الرجل: إنما كنا نخوض ونلعب،
فأرعى الله نبيه ﷺ: ﴿ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا
نخوض ونلعب﴾. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو
الشيخ، وابن مردويه، عن عبد الله بن عمر، قال: قال رجل
في غزوة تبوك في مجلس يوماً: ما رأيتنا مثل قرائنا هؤلاء،
لا أرغب بطوناً ولا أکذب السنة، ولا أجبن عند اللقاء، فقال
رجل في المجلس: كذبت ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله
ﷺ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، ونزل القرآن. قال عبد الله:
فأنا رأيت متعلقاً بحقب ناقة رسول الله ﷺ، والحجارة تنكبه
وهو يقول: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب، والنبي ﷺ
يقول: ﴿لإيه وآياته ورسوله كنتم تستهزئون﴾. وأخرجه
ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والخطيب، في الضعفاء، وأبو
الشيخ، وابن مردويه، والخطيب، في رواية مالك عن ابن عمر،
فقال: رأيت عبد الله بن أبي وهو يشتد قدام النبي ﷺ
والاحجار تنكبه وهو يقول: يا محمد إنما كنا نخوض ونلعب،
والنبي ﷺ يقول: ﴿لإيه وآياته ورسوله كنتم
تستهزئون﴾. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو
الشيخ، عن قتادة، في الآية قال: بينما رسول الله ﷺ في
غزوة إلى تبوك وبين يديه أناس من المنافقين، فقالوا: أيرجو
هذا الرجل أن تفتح له قصور الشام وحصونها؟ هيها
هيها، فاطلع الله نبيه على ذلك، فقال نبي الله ﷺ: احبسوا
على هؤلاء الركب، فاتاهم فقال: قلتم كذا، قالوا: يا نبي الله
إنما كنا نخوض ونلعب، فأنزل الله فيهم ما تسمعون. وقد
روي نحو هذا من طرق عن جماعة من الصحابة. وأخرج ابن
أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿إن نفع عن طائفة﴾
قال: الطائفة الرجل والنفر.

الْمُتَوَفُونَ وَالْمُتَوَفَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ بِأَمْرٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَيَهْوُونَ
عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ لَسُوا اللَّهُ فَتَسْبِيحُهُمْ إِنَّكَ الْمُنْتَوِينَ هُمْ
الْمُنْتَوُونَ ﴿٥٨﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنْتَوِينَ وَالْمُنْتَوَاتُ وَالْكَافَرُ دَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ
فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُؤِيمٌ ﴿٥٩﴾ كَالَّذِينَ مِنْ

والفاء في ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ للعطف على مقدر يدل عليه الكلام: أي فكذبوهم، فأهلكهم الله فما ظلمهم بذلك؛ لأنه قد بعث إليهم رسلاً فأنذروهم وحذروهم ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بسبب ما فعلوه من الكفر بالله، وعدم الانقياد لأتباعه، وهذا التركيب يدل على أن ظلمهم لأنفسهم كان مستمراً.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّكِ مِنَ الْمَرْكُوبِينَ﴾ قال: هو التكنيب، قال: وهو أنكر المنكر ﴿وَيُنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ شهادة أن لا إله إلا الله، والإقرار بما أنزل الله، وهو أعظم المعروف. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿وَيُقْبَضُونَ لِإِيْبِهِمْ﴾ قال: لا يبسطونها بنفقة في حق. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ قال: تركوا الله فتركهم من كرامته وثوابه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة، في قوله: ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ قال: صنيع الكفار، كالكفار. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، قال: ما أشبه الليلة بالبارحة ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً﴾ إلى قوله: ﴿وَوَضَعْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ هؤلاء بنو إسرائيل أشبهانهم، والذي نفسي بيده لنتبعنهم حتى لو نخل رجل جحر ضب لدخلتموه. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عنه، في قوله: ﴿بِخُلَاقِهِمْ﴾ قال: بدِينهم. وأخرج أيضاً عن أبي هريرة قال الخلاق: الدين. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي، في قوله: ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخُلَاقِهِمْ﴾ قال: بنصيبهم في الدنيا. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، عن قتادة، في قوله: ﴿وَوَضَعْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ قال: لعبتم كالذي لعبوا. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ قال: قوم لوط اتفكت بهم أرضهم، فجعل عليها سافلها.

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَشَرٌ أَوْلِيَاءُ مَعَ الْأَمْثَرِ وَالْمَرْفُوفِ وَنَهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحْسِنُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَسَيَكُنْ لَهُمْ فِي جَنَّاتٍ عَنْوَنٌ وَمِنْ أَلْفِ أَوْكَاظٍ مِنْ أَلْفِ أَوْكَاظٍ وَكَانَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٧٢﴾

قوله: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي: قلوبهم متحدة في التوادة، والتحابب، والتعاطف بسبب ما جمعهم من أمر الدين وضمهم من الإيمان بالله، ثم بين أوصافهم الحميدة كما بين أوصاف من قبلهم من المنافقين فقال: ﴿يَا مَرْيَمُ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: بما هو معروف في الشرع غير منكر، ومن ذلك توحيد الله سبحانه وترك عبادة غيره ﴿وَيُنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ أي: عما هو منكر في الدين غير معروف، وخصص إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة بالذكر من جملة العبادات؛ لكونهما الركنتين العظيمين فيما يتعلق بالأبدان

الذي قدره الله لكم ﴿كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخُلَاقِهِمْ﴾ أي: انتفعت به كما انتفعوا به، والغرض من هذا التمثيل ثم هؤلاء المنافقين والكفار بسبب مشابهتهم لمن قبلهم من الكفار، في الاستمتاع بما رزقهم الله. وقد قيل: ما فائدة نكر الاستمتاع بالخلق في حق الأولين مرة، ثم في حق المنافقين ثانياً، ثم تكريره في حق الأولين ثالثاً؛ وأجيب بأنه تعالى ذم الأولين بالاستمتاع بما أوتوا من حظوظ الدنيا، وحرمانهم عن سعادة الآخرة بسبب استغراقهم في تلك الحظوظ، فلما قرّر تعالى هذا عاد فشبّه حال المنافقين بحالهم، فيكون ذلك نهاية في المبالغة. قوله: ﴿وَوَضَعْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ معطوف على ما قبله: أي كالفوج الذي خاضوا، أو كالخوض الذي خاضوا؛ وقيل: أصله كالذين فحذفت النون، والأولى أن يقال إن الذي اسم موصول مثل من وما، يعبر به عن الواحد والجمع، يقال: خضت الماء: أخوضه خوضاً وخياضاً، والموضع مخاضة، وهو ما جاز الناس فيه مشاة وركبناً، وجمعها المخاض والمخاوض؛ ويقال منه خاض القوم في الحديث، وتخاضوا فيه، أي تفاوضوا فيه. والمعنى: خضتم في أسباب الدنيا، واللغو واللعب؛ وقيل في أمر محمد ﷺ بالتكنيب: أي دخلتم في ذلك، والإشارة بقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ إلى المتصفين بهذه الأوصاف من المشبهين، والمشبه بهم ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي: بطلت، والمراد بالأعمال ما عملوه مما هو في صورة طاعة، لا هذه الأعمال المذكورة هنا فإنها من المعاصي؛ ومعنى ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أنها باطلة على كل حال: أما بطلانها في الدنيا فلا؛ ما يترتب على أعمالهم فيها لا يحصل لهم بل يصير ما يرجونه من الغنى فقراً، ومن العزّ ذلاً، ومن القوة ضعفاً؛ وأما في الآخرة فلا؛ لأنهم يصيرون إلى عذاب النار، ولا ينتفعون بشيء مما عملوه من الأعمال التي يظنونها طاعة وقربة ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي: المتمكنون في الخسران الكاملون فيه في الدنيا والآخرة ﴿إِلَّا يَأْتِيهِمْ﴾ أي: المنافقين ﴿نَبَأَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: خبرهم الذي له شأن، وهو ما فعلوه وما فعل بهم، ولما شبه حالهم بحالهم فيما سلف على الإجمال في المشبه بهم، نكر منهم ههنا ست طوائف قد سمع العرب أخبارهم، لأن بلادهم وهي الشام قريبة من بلاد العرب، فالاستفهام للتقرير، وأولهم: قوم نوح، وقد أهلكوا بالإغراق، وثانيهم: قوم عاد، وقد أهلكوا بالريح العقيم، وثالثهم: قوم ثمود، وقد أخذوا بالصيحة، ورابعهم: قوم إبراهيم، وقد سلط الله عليهم البعوض، وخامسهم: أصحاب مدين، وهم قوم شعيب، وقد أخذتهم الرجة، وسادسهم: أصحاب الموفكات، وهي قرى قوم لوط، وقد أهلكهم الله بما أمطر عليهم من الحجارة؛ وسميت موفكات لأنها انقلبت بهم حتى صار عليها سافلها، والائتفak الانقلاب ﴿قَتَلَهُمُ رُسُلُهُمُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: رسل هذه الطوائف الست؛ وقيل: رسل أصحاب الموفكات؛ لأن رُسولهم لوط وقد بعث إلى كل قرية من قراهم رسولا،

بالله ما قال ولكن كذب علي عمير، فأنزل الله: **﴿يَحْلِفُونَ بِاللّٰهِ مَا قَالُوا﴾** الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل، عن أنس بن مالك قال: سمع زيد بن أرقم رجلاً من المنافقين يقول والنبي ﷺ يخطب: إن كان هذا صادقاً لنحن شر من الحمير؛ قال زيد: هو والله صادق، وأنت شر من الحمير، فرفع ذلك إلى النبي ﷺ فجحد القائل، فأنزل الله: **﴿يَحْلِفُونَ بِاللّٰهِ مَا قَالُوا﴾** الآية. وأخرج ابن جرير، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس، قال: كان رسول الله ﷺ جالساً في ظل شجرة فقال: إنه سيأتيكم إنسان ينظر إليكم بعيني شيطان، فإذا جاءكم فلا تكلّموا، فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق، فدعاه رسول الله ﷺ فقال: علام تشتمني أنت وأصحابك، فانطلق الرجل فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما قالوا حتى تجاوز عنهم، وأنزل الله: **﴿يَحْلِفُونَ بِاللّٰهِ مَا قَالُوا﴾** الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة قال: نكر لنا أن رجلين اقتتلا، أحدهما من جهينة والآخر من غفار، وكانت جهينة حلفاء الأنصار، فظهر الغفاري على الجهني، فقال عبد الله بن أبيّ للأوس: انصروا أخاكم، والله، ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل: «سمن كلبك ياكلك» والله **﴿لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ﴾** [المنافقون: 8] ففسي بها رجل من المسلمين إلى رسول الله ﷺ، فأرسل إليه فسأله، فجعل يحلف بالله ما قاله، فأنزل الله: **﴿يَحْلِفُونَ بِاللّٰهِ﴾** الآية، وفي الباب أحاديث مختلفة في سبب نزول هذه الآية، وفيما ذكرناه كفاية. وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس، في قوله: **﴿وَهُمُومًا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾** قال: همّ رجل يقال له الأسود بقتل النبي ﷺ. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي، في قوله: **﴿وَهُمُومًا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾** قال: أرادوا أن يتوجّوا عبد الله بن أبيّ بتاج. وأخرج ابن ماجه، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس، قال: قتل رجل على عهد رسول الله ﷺ فجعل ديتة اثني عشر ألفاً، وذلك قوله: **﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾** قال: بأخذهم الدية.

وَمِنْهُمْ مَّنْ عٰهَدَ اللّٰهَ كَيْفَ ءَاخٰتَنَّا مِنْ قَبْلِهِ لَمَنْعُوْا وَلَمْ يَمْنُوْا ۗ وَالَّذِيْنَ بَيْنَ يَدَيْهِ اَلْكِتٰبُ يَنْصَرُّوْنَ عَلَيْهِمْ ۚ
 ٧٥ فَلَمَّا ءَاخٰتَهُمْ مِنْ قَبْلِهِ بَيٰضُوْا وَهُمْ يُرٰوْنَ اَنْهُمْ مُّثَرٰشِرَةٌ
 ٧٦ فَاصْبَحَ مِنْ يَتٰفَا فِيْ قُلُوْبِهِمْ اِلٰى يَوْمٍ يَلْقَوْنَهُ يَمَّا اُخْلِفُوْا اللّٰهُ مَا وَعَدُوْهُ وَبِمَا كَانُوْا يَكْذِبُوْنَ ۝
 ٧٧ اَلَمْ يَلْمِزْ اَنْتَ اللّٰهَ يَسْمُوْا سِرْمَهُمْ وَتَجْعَلُهُمْ
 ٧٨ اَوَّلَ اللّٰهِ عَلٰى الْغُيُوْبِ ۝
 ٧٩ اَلَيْسَتْ يَلْمِزُوْنَ الْمُطَّوِّعِيْنَ مِنْ
 ٨٠ الْمُؤْمِنِيْنَ فِي الْمَدَنِيَّتِ وَالَّذِيْنَ لَا يَحْدُوْنَ اِلَّا جَهَنَّمَ فَيَسْعُرُوْنَ مِنْهُمُ
 سِرَ اللّٰهِ وَمِنْهُمْ رَكْمٌ عَنَابٌ اَلِيْمٌ ۝

اللام الأولى، وهي **﴿لئن تانا﴾** الله **﴿من فضله﴾** لام القسم، واللام الثانية، وهي **﴿لننصدين﴾** لام الجواب للقسم

رأس المنافقين لما قال: ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل: «سمن كلبك ياكلك» و **﴿لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ﴾** [المنافقون: 8] فأخبر النبي ﷺ بذلك، فجاء عبد الله بن أبي، فحلف أنه لم يقله. وقيل إنه قول جميع المنافقين، وإن الآية نزلت فيهم، وعلى تقدير أن القائل واحد أو اثنان فنسبة القول إلى جميعهم هي باعتبار موافقة من لم يقل، ولم يحلف من المنافقين لمن قد قال وحلف. ثم ردّ الله على المنافقين وكذبهم وبين أنهم حلفوا كذباً، فقال: **﴿ولقد قالوا كلمة للكفر﴾** وهي ما تقدّم بيانه على اختلاف الأقوال السابقة **﴿وكفروا بعد إسلامهم﴾** أي: كفروا بهذه الكلمة بعد إظهارهم للإسلام، وإن كانوا كفاراً في الباطن. والمعنى: أنهم فعلوا ما يوجب كفرهم على تقدير صحة إسلامهم. قوله: **﴿وهموماً بما لم ينالوا﴾** قيل: هو همهم بقتل رسول الله ﷺ ليلة العقبة في غزوة تبوك؛ وقيل هموا بعقد التاج على رأس عبد الله بن أبيّ، وقيل: هو همّ الجلاس بقتل من سمعه يقول تلك المقالة، فأخبر رسول الله ﷺ. قوله: **﴿وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله﴾** أي: وما عابوا وأنكروا إلا ما هو حقيق بالمدح والثناء، وهو إغناء الله لهم من فضله، والاستثناء مفرغ من أعمّ العام، وهو من باب قول النابغة:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهنّ فلول من قراع الكتائب
 ومن باب قول الشاعر:

ما نقموا من بني أمية إلا أنهم يحلمون إن غضبوا
 فهو من تأكيد المدح بما يشبه الذم. وقد كان هؤلاء المنافقون في ضيق من العيش، فلما قدم النبي ﷺ المدينة اتسعت معيشتهم، وكثرت أموالهم. قوله: **﴿فإن يتوبوا بك خيراً لّهم﴾** أي: فإن تحصل منهم التوبة والرجوع إلى الحق يكن ذلك الذي فعلوه من التوبة خيراً لّهم في الدين والدنيا، وقد تاب الجلاب بن سويد، وحسن إسلامه، وفي ذلك ليل على قبول التوبة من المنافق والكافر.

وقد اختلف العلماء في قبولها من الزنديق، فمنع من قبولها مالك واتباعه، لأنه لا يعلم صحة توبته إذ هو في كل حين يظهر التوبة والإسلام **﴿وإن يتولوا﴾** أي: يعرضوا عن التوبة والإيمان **﴿يعينهم الله عذاباً ليماً في الدنيا﴾** بالقتل والأسر، ونهب الأموال **﴿و﴾** في **﴿الآخرة﴾** بعدذاب النار **﴿وما لهم في الأرض من ولي﴾** يواليه **﴿ولا نصير﴾** ينصرهم.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن أبي حاتم، عن كعب بن مالك، قال: لما نزل القرآن فيه نكر المنافقين قال الجلاس والله لئن كان هذا الرجل صادقاً لنحن شر من الحمير، فسمعها عمير بن سعد، فقال: والله يا جلاس إنك لأحب الناس إليّ وأحسنهم عندي أثراً، وأعزهم عليّ أن يدخل عليه شيء يكرهه، ولقد قلت مقالة لئن نكرتها لتفضحك، ولئن سكنت عنها لتهلكني، وإحدهما أشد عليّ من الأخرى، فمشى إلى رسول الله ﷺ، فنكر له ما قال الجلاس، فحلف

والشرط. ومعنى: ﴿لَتَصْنَعُنَّ﴾ لنخرج الصدقة، وهي أعم من المفروضة وغيرها ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي: من جملة أهل الصلاح من المؤمنين القائمين بواجبات الدين التاركين لمحرّماته ﴿فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ أي: لما أعطاهم ما طلبوا من الرزق بخلوا به: أي بما آتاهم من فضله، فلم يتصنّفوا بشيء منه كما حلفوا به ﴿وَتَوَلَّوْا﴾ أي: أعرضوا عن طاعة الله وإخراج صدقات ما أعطاهم الله من فضله، ﴿وَو﴾ الحال أنّهم معرضون في جميع الأوقات قبل أن يعطيهم الله ما أعطاهم من الرزق وبعده. قوله: ﴿فَاعْقِبْهُمْ نَفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ الفاعل هو الله سبحانه: أي فاعقبهم الله بسبب البخل الذي وقع منهم والإعراض، نفاقاً كائنًا في قلوبهم، متمكنًا منها، مستمرًا فيها ﴿إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَ﴾ الله عزّ وجلّ، وقيل إن الضمير يرجع إلى البخل: أي فاعقبهم البخل بما عاهدوا الله عليه نفاقاً كائنًا في قلوبهم إلى يوم يلقون بخلهم: أي جزاء بخلهم. ومعنى ﴿فَاعْقِبْهُمْ﴾ أن الله سبحانه جعل النفاق المتمكن في قلوبهم إلى تلك الغاية عاقبة ما وقع منهم من البخل، والباء في ﴿بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾ للسببية: أي بسبب إخلافهم لما وعده من التصقّ والصلاح، وكذلك الباء في ﴿وَيَمَّا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ أي: وبسبب تكذيبهم بما جاء به رسول الله ﷺ، ثم أنكر عليهم فقال ﴿قَدْ يَعْلَمُوا﴾ أي المنافقون، وقرئ بالفوقية خطاباً للمؤمنين ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ أي: جميع ما يسرونه من النفاق، وجميع ما يتناجون به فيما بينهم من الطعن على النبي ﷺ، وعلى أصحابه، وعلى دين الإسلام ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ فلا يخفى عليه شيء من الأشياء المغيبة كائنًا ما كان، ومن جملة تلك ما يصدر عن المنافقين. قوله: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ﴾ الموصول محله النصب، أو الرفع على الذم، أو الجرّ بدلاً من الضمير في سرّهم ونجواهم، ومعنى ﴿يَلْمِزُونَ﴾ يعيبون. وقد تقدّم تحقيقه، والمطوّعين: أي المتطوّعين، والتطوّع: التبرّع. والمعنى: أن المنافقين كانوا يعيبون المسلمين إذا تطوّعوا بشيء من أموالهم وأخرجوه للصدقة، فكانوا يقولون: ما أغنى الله عن هذا، ويقولون: ما فعلوا هذا إلا رياء، ولم يكن لله خالصاً، و ﴿فِي الصَّدَقَاتِ﴾ متعلق بيلمزون: أي يعيبونهم في شأنها. قوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جَهْدَهُمْ﴾ معطوف على المطوّعين: أي يلمزون المتطوّعين، ويلمزون الذين لا يجدون إلا جهدهم؛ وقيل معطوف على المؤمنين: أي يلمزون المتطوّعين من المؤمنين، ومن الذين لا يجدون إلا جهدهم، وقرئ «جهدهم» بفتح الجيم، والجهد بالضم الطاقة، وبالفتح المشقة، وقيل: هما لغتان ومعناهما واحد، وقد تقدّم بيان ذلك. والمعنى: أن المنافقين كانوا يعيبون فقراء المؤمنين الذين كانوا يتصنّفون بما فضل عن كفايتهم. قوله: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ معطوف على يلمزون: أي يستهزئون بهم لحقارة ما يخرجونه في

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والعسكري في الأمثال، والطبراني، وابن منده، والبارودي، وأبو نعيم، وابن مردويه، والبيهقي، وابن عساكر، عن أبي أمامة الباهلي قال: جاء ثعلبة بن حاطب إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً، ويلك يا ثعلبة قليل تؤدّي شكره خير من كثير لا تطيقه. قال يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً، قال: ويحك يا ثعلبة: أما تحب أن تكون مثلي، فلو شئت أن يسير ربي هذه الجبال معي ذهباً لسارت، فقال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالا فوالذي بعثك بالحق إن آتاني الله مالا لأعطين كل ذي حق حقه قال ويحك يا ثعلبة قليل تطيق شكره خير من كثير لا تطيقه. فقال رسول الله ﷺ: اللهم أرزقه مالا؛ قال: فاتخذ غنماً فتمت كما تنمو الدود حتى ضاقت بها المدينة، فتنحى بها، فكان يشهد الصلاة بالنهار مع رسول الله ﷺ، ولا يشهد بالليل، ثم نمت كما تنمو الدود فتنحى بها، فكان لا يشهد الصلاة بالليل ولا بالنهار إلا من جمعة إلى جمعة مع رسول الله ﷺ، ثم نمت كما تنمو الدود فضاقت بها مكانه، فتنحى بها فكان لا يشهد جمعة ولا جنازة مع رسول الله ﷺ، فجعل يتلقى الركبان ويسألهم عن الأخبار، وفقده رسول الله ﷺ فسأل عنه، فأخبروه أنه اشترى غنماً، وأن المدينة ضاقت به وأخبروه خبره، فقال رسول الله ﷺ: بيع ثعلبة بن حاطب وبيع ثعلبة بن حاطب؛ ثم إن الله تعالى أمر رسوله أن يأخذ الصدقات، وأنزل: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ [التوبة: 103] الآية، فبعث رسول الله ﷺ رجلين، رجلاً من جبهة ورجلاً من بني سلمة يأخذان الصدقات، وكتب لهما أسنان الإبل والغنم كيف يأخذانها وجوهها، وأمرهما أن يمرّا على ثعلبة بن حاطب، وبرجل من بني سليم، فخرجا فمرا بثعلبة فسألا الصدقة، فقال: أرياني كتابكما، فنظر فيه فقال: ما هذه إلا جزية انطلقا حتى أرى رأيي، فانطلقا حتى قدما المدينة، فلما رأهما رسول الله ﷺ قال قبل أن يكلمهما: بيع ثعلبة بن حاطب، ودعا للمسلمي بالبركة، وأنزل الله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ﴾ الثلاث الآيات، قال: فسمع بعض أقارب ثعلبة، فأتى ثعلبة فقال: ويحك يا ثعلبة أنزل فيك كذا وكذا، قال: فقدم ثعلبة على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله هذه صدقة مالي، فقال رسول الله ﷺ: إن الله قد منعني أن أقبل منك، فجعل يبكي ويحني التراب على رأسه، فقال رسول الله ﷺ: هذا عملك بنفسك أمرتك فلم تطعني، فلم يقبل منه رسول الله ﷺ حتى مضى؛ ثم أتى أبا بكر، فقال: يا أبا بكر:

وفيهِ بيان لعدم المغفرة من الله سبحانه للمنافقين، وإن أكثر النبي ﷺ من الاستغفار لهم، وليس المراد من هذا أنه لو زاد على السبعين لكان ذلك مقبولاً، كما في سائر مفاهيم الأعداد، بل المراد بهذا المبالغة في عدم القبول. فقد كانت العرب تجري ذلك مجرى المثل في كلامها عند إرادة التكثير، والمعنى: أنه لن يغفر الله لهم وإن استغفرت لهم استغفاراً بالغاً في الكثرة، غاية المبالغ، وقد ذهب بعض الفقهاء إلى أن التقيد بهذا العدد المخصوص يفيد قبول الزيادة عليه، ويدل لذلك ما سيأتي عن النبي ﷺ أنه قال: لا يزيدُ على السبعين. ونكر بعضهم لتخصيص السبعين وجهاً فقال: إن السبعة عدد شريف، لأنها عدد السموات والأرضين، والبحار، والأقاليم، والنجوم السيارة، والأعضاء، وأيام الأسبوع، فصير كل واحد من السبعة إلى عشرة، لأن الحسنه بعشر أمثالها. وقيل خصت السبعون بالذكر لأنه ﷺ كبر على عمه الحمزة سبعين تكبيرة، فكانه قال: إن تستغفر لهم سبعين مرة بإزاء تكبيراتك على حمزة. وانتصاب سبعين على المصدر كقولهم: ضربته عشرين ضربة. ثم علل عدم المغفرة لهم بقوله: ﴿لأنك بأنهم كفروا بالله ورسوله﴾ أي: ذلك الامتناع بسبب كفرهم بالله ورسوله ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ أي: المتمرّنين الخارجين عن الطاعة المتجاوزين لحودها، والمراد هنا: الهداية الموصلة إلى المطلوب، لا الهداية التي بمعنى الدلالة وإراءة الطريق. ثم نكر سبحانه نوعاً آخر من قبائح المنافقين، فقال: ﴿فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله﴾ المخلفون المتروكون، وهم الذين استأنفوا رسول الله ﷺ من المنافقين، فأنزلهم وخلفهم بالمدينة في غزوة تبوك، أو الذين خلفهم الله وثبطهم، أو الشيطان، أو كسلهم، أو المؤمنون، ومعنى ﴿بمقعدهم﴾ أي: بعودهم يقال قعد قعوداً ومقعداً: أي جلس، وأقعد غيرَه، نكر معناه الجوهري فهو متعلق بفرح: أي فرح المخلفون بعودهم، وخلاف رسول الله منتصب على أنه ظرف لمقعدهم. قال الأخفش ويونس: الخلاف بمعنى الخلف: أي بعد رسول الله ﷺ، وذلك أن جهة الإمام التي يقصدها الإنسان تخالفها جهة الخلف. وقال قطرب والزجاج: معنى خلاف رسول الله: مخالفة الرسول حين سار وأقاموا، فانتصابه على أنه مفعول له: أي قعدوا لأجل المخالفة، أو على الحال مثل وأرسلها العراك: أي مخالفين له، ويؤيد ما قاله الأخفش ويونس قراءة أبي حنيفة خلف رسول الله. قوله: ﴿وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله﴾ سبب ذلك الشح بالأموال والأنفس، وعدم وجود باعث الإيمان، وداعي الإخلاص، ووجود الصارف عن ذلك، وهو ما هم فيه من النفاق، وفيه تعريض بالمؤمنين البائِلين لأموالهم وأنفسهم في سبيل الله لوجود الداعي معهم، وانتفاء الصارف عنهم ﴿وقالوا لا تنفروا في الحزب﴾ أي: قال المنافقون لإخوانهم هذه المقالة تثبيطاً لهم، وكسراً لنشاطهم، وتواصياً بينهم

إقبل مني صدقتي فقد عرفت منزلتي من الأنصار، فقال أبو بكر: لم يقبلها رسول الله ﷺ وأقبلها؟ فلم يقبلها أبو بكر؛ ثم ولي عمر بن الخطاب، فاتاه فقال: يا أبا حفص يا أمير المؤمنين اقبل مني صدقتي، قال: ويثقل عليه بالمهاجرين والأنصار وأزواج النبي ﷺ، فقال عمر: لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر اقبلها أنا؟ فأبى أن يقبلها؛ ثم ولي عثمان فسأله أن يقبل صدقته، فقال: لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر وأنا اقبلها منك؟ فلم يقبلها منه، فهلك في خلافة عثمان، وفيه نزلت: ﴿الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات﴾ قال: وذلك في الصدقة، وهذا الحديث هو مروى من حديث معاذ بن رفاع، عن علي بن زيد، عن أبي عبد الرحمن القاسم بن عبد الرحمن مولى عبد الله بن يزيد بن معاوية، عن أبي أمامة الباهلي. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس، في قوله: ﴿ومنها من عاهد الله﴾ الآية، وذلك أن رجلاً كان يقال له ثعلبة من الأنصار أتى مجلساً فاشدهم فقال: لئن أثناني الله من فضله أتيت كل ذي حق حقه، وتصنقت منه، وجعلت منه للقرابة؛ فابتلاه الله فاتاه من فضله، فأخلف ما وعده، فأغضب الله بما أخلفه ما وعده، فقص الله شأنه في القرآن. وأخرج أبو الشيخ، عن الحسن، أن رجلاً من الأنصار هو الذي قال هذا، فمات ابن عم له فورث منه مالاً فبخل به، ولم يف بما عاهد الله عليه، فأعقبه بذلك نفاقاً في قلبه إلى أن يلقاه. قال ذلك ﴿بما أخلفوا الله ما وعده وبما كانوا يكتبون﴾. وأخرج البخاري ومسلم، وغيرهما، عن ابن مسعود، قال: لما نزلت آية الصدقة كنا نتحامل على ظهورنا، فجاء رجل فتصنق بشيء كثير، فقالوا: وراء؛ وجاء أبو عقيل بنصف صاع، فقال المنافقون: إن الله لغني عن صدقة هذا، فنزلت: ﴿الذين يلمزون المطوعين﴾ الآية، وفي الباب روايات كثيرة. وأخرج أبو الشيخ، عن قتادة في قوله: ﴿الذين يلمزون المطوعين﴾ أي: يطعنون على المطوعين.

أَسْتَغْفِرَ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥٥﴾ قَرِحَ الشَّكْلُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلَفَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرْبِ قُلْ تَارَ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٥٦﴾ فَلَيْضَحْكُوا لَيْلًا وَلَيْسَكُنَّ كِبَرًا جَرَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٧﴾ إِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَدْنَوْهُ لِلشَّرْعِ فَقُلْ نَحْنُ عَرَجَاءُ مَعَ آبَائِكُمْ وَلَكِنْ تَنْتَرُوا مَعَ عَدُوِّكُمْ إِنَّكُمْ رَجَبْتُمْ بِالْقَمُودِ أَوْلَ مَرَّةٍ فَأَقْدَمُوا عَلَى الْكَلْبِيِّينَ ﴿٥٨﴾

أخبر الله سبحانه رسوله ﷺ بأن صدور الاستغفار منه للمنافقين وعدمه سواء، وذلك لأنهم ليسوا باهل لاستغفاره ﷺ، ولا للمغفرة من الله سبحانه لهم، فهو كقوله تعالى: ﴿قل انفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم﴾ [التوبة: 53]، ثم قال: ﴿إن تستغفروا لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾

فأنزل الله: ﴿سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم﴾ [المنافقون: 6]. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس، نحوه. وأخرج أحمد، والبخاري، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن أبي حاتم، والنحاس، وابن حبان، وابن مردويه، وأبو نعيم في الحلية، عن ابن عباس قال: سمعت عمر يقول: لما توفي عبد الله بن أبي

دعى رسول الله ﷺ للصلاة عليه فقام عليه، فلما وقف قلت: أعلی عبد الله عبد الله بن أبي القائل كذا وكذا، والقائل كذا وكذا؟ أعدد أيامه، ورسول الله ﷺ يتبسم حتى إذا كثرت قال: يا عمر أخرجني، إني قد خيرت، قد قيل لي: ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾ فلو أعلم لني إن زدت على السبعين غفر له، لزنت عليها، ثم صلى عليه رسول الله ﷺ ومشى معه حتى قام على قبره، حتى فرغ منه، فعجبت لي ولجراتي على رسول الله ﷺ، والله ورسوله أعلم، فوالله ما كان إلا يسيراً حتى نزلت هاتان الآيتان ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره﴾ [التوبة: 84] فما صلى رسول الله ﷺ على منافق بعد حتى قبضه الله عز وجل. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: ﴿فرح للمخلفون﴾ الآية قال: عن غزوة تبوك. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ أمر الناس أن ينبعثوا معه، وذلك في الصيف، فقال رجال: يا رسول الله الحر شديد، ولا نستطيع الخروج، فلا تنفروا في الحر، فقال الله: ﴿قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفتقون﴾ فأمره بالخروج. وأخرج ابن مردويه، عن جابر بن عبد الله، نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً﴾ قال: هم المنافقون والكفار الذين اتخذوا بينهم هزواً ولعباً، يقول الله: فليضحكوا قليلاً في الدنيا، وليبكوا كثيراً في الآخرة. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: ﴿فإن رجعت الله إلى طائفة منهم﴾ قال: نكر لنا أنهم كانوا اثني عشر رجلاً من المنافقين، وفيهم قيل ما قيل. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿فاقعدوا مع الخالفين﴾ قال: هم الرجال الذين تخلفوا عن الغزو.

وَلَا تَسْلَى عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَثَرُوا فِي اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَتَابُهُمْ قَيْسُ بْنُ سَلَمَةَ ۖ وَلَا تَسْجُدْ أَوْ تَوَكَّعْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الَّذِينَ يَرْتَابُونَ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۚ وَرَفَعَ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ كَاذِبُونَ ۚ وَإِذَا نَزَلَ بِسُورَةٍ أَنْ يَأْتُوا بِاللَّهِ وَجْهًا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولَٰئِكَ الطَّوْغَاتُ وَكَأَلُوا ذُرًّا تُكَرَّمُ مَعَ الْفَوَاحِشِ ۚ وَسَوَاءٌ يَأْتُوا بِحُجْرَاتٍ أَوْ سَبِيلٍ ۚ وَلَٰكِنْ قُلْ لَكُمْ

قوله: ﴿مات﴾ صفة لأحد، و ﴿أبداً﴾ ظرف لتأييد النفي. قال الزجاج: معنى قوله: ﴿ولا تقم على قبره﴾ أن رسول

بالمخالفة لأمر الله ورسوله، ثم أمر الله رسوله ﷺ أن يقول لهم: ﴿نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفتقون﴾ والمعنى: أنكم أيها المنافقون كيف تفرون من هذا الحر اليسير، ونار جهنم التي ستدخلونها خالدين فيها أبداً أشد حراً مما فررتم منه، فإنكم إنما فررتم من حر يسير في زمن قصير، ووقعتم في حر كثير في زمن كبير، بل غير متناه أبد الأبدين ودهر الدهارين.

فكنت كالساعي إلى مثعب موائلاً من سبل الراعد وجواب لو في ﴿لو كانوا يفتقون﴾ مقتر أي: لو كانوا يفتقون أنها كذلك لما فعلوا ما فعلوا. قوله: ﴿فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً﴾ هذان الأمران معناهما الخبر، والمعنى: فسيضحكون قليلاً ويبكون كثيراً، وإنما جيء بهما على لفظ الأمر، للدلالة على أن ذلك أمر محتوم لا يكون غيره، وقليل كثيراً منصوبان على المصدرية أو الظرفية: أي ضحكاً قليلاً، وبكاء كثيراً، أو زماناً قليلاً، وزماناً كثيراً ﴿وجزاء بما كانوا يكسبون﴾ أي: جزاء بسبب ما كانوا يكسبون من المعاصي، وانتصاب جزاء على المصدرية: أي يجوزون جزاء ﴿فإن رجعت الله إلى طائفة منهم﴾ الرجوع متعدي كالدرد، والرجوع: لازم، والفاء لتفريع ما بعدها على ما قبلها، وإنما قال ﴿إلى طائفة﴾ لأن جميع من أقام بالمدينة لم يكونوا منافقين بل كان فيهم غيرهم من المؤمنين لهم أعذار صحيحة، وفيهم من المؤمنين من لا عذر له، ثم عفا عنهم رسول الله ﷺ، وتاب الله عليهم كالثلاثة الذين خلفوا، وسيأتي بيان ذلك، وقيل إنما قال: إلى طائفة، لأن منهم من تاب عن النفاق، وندم على التخلف ﴿فاستأنوك للخروج﴾ معك في غزوة أخرى بعد غزوتك هذه ﴿قلل﴾ لهم: لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً أي: قل لهم ذلك عقوبة لهم، ولما في استصحابهم من المفساد، كما تقدم في قوله: ﴿لو خرجوا فيكم ما زادكم إلا خبالاً﴾ [التوبة: 47]، وقرئ يفتح الياء من معي في الموضعين، وقرئ بسكونها فيهما، وجملة: ﴿إنكم رضيتم بالقعود أول مرة﴾ للتعليل: أي لن تخرجوا معي، ولن تقاتلوا، لأنكم رضيتم بالقعود والتخلف أول مرة، وهي غزوة تبوك، والفاء في ﴿فاقعدوا مع الخالفين﴾ لتفريع ما بعدها على ما قبلها، والخالفين جمع خالف، كأنهم خلفوا الخارجين، والمراد بهم من تخلف عن الخروج، وقيل المعنى: فاقعدوا مع الفاسقين، من قولهم: فلان خالف أهل بيته إذا كان فاسداً فيهم، من قولك خلف اللبن: أي فسد بطول المكث في السقاء. نكر معناه الأصمعي، وقرئ: ﴿فاقعدوا مع الخالفين﴾ وقال الفراء: معناه المخالفين.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن عروة أن عبد الله بن أبي قال: لولا أنكم تنفقون على محمد وأصحابه لانفضوا من حوله، وهو القائل: ﴿ليخرجن الأعر منهن الأذل﴾ [المنافقون: 8] فأنزل الله: ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم﴾ فقال النبي ﷺ: لا زيدن على السبعين.

عباس، في قوله: **«رضوا بأن يكونوا مع الخولاف»** قال: مع النساء. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي، في الآية قال: رضوا بأن يقعدوا كما قعدت النساء. وأخرج أبو الشيخ، عن قتادة، قال: الخولاف النساء.

لَيْكِي الرُّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَهَنَّمَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُحَرَّرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٩﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ أَفْزَقُ الْمَوَظِّمِ ﴿٩٠﴾

المقصود من الاستدراك بقوله: **«لكن الرسول»** إلى آخره: الإشعار بأن تخلف هؤلاء غير ضائر، فإنه قد قام بفرضة الجهاد من هو خير منهم وأخلص نية كما في قوله: **«فلان يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين»** [الأنعام: 89]. وقد تقدم بيان الجهاد بالأموال والأنفس، ثم نكر منافع الجهاد فقال: **«وولولئك لهم الخيرات»** وهي: جمع خير، فيشمل منافع الدنيا والآخرة. وقيل المراد به: للنساء الحسان كقوله تعالى: **«فيهن خيرات حسان»** [الرحمن: 70] ومفرده خيرة بالتشديد ثم خفت مثل هيئة وهيئة: وقد تقدم معنى الفلاح، والمراد به هنا: الفائزون بالمطلوب، وتكرير اسم الإشارة لتفخيم شأنهم وتعظيم أمرهم، والجنات: البساتين. وقد تقدم بيان جري الأنهار من تحتها، وبيان الخلود والفوز، والإشارة بقوله: **«ذلك»** إلى ما تقدم من الخيرات والفلاح، وإعداد الجنات الموصوفة بتلك الصفة، ووصف الفوز بكونه عظيماً يدل على أنه الفرد الكامل من أنواع الفوز. وقد أخرج القرطبي في تفسيره، عن الحسن أنه قال الخيرات: هن النساء الحسان.

وَبَعَثَ الْمَعْدُونَةَ مِنَ الْأَعْرَابِ يَزِيدَنَّ لَهُمْ وَقَدْ كَذَّبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُذِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩١﴾

قرأ الأعرج والضحاك **«المعدنون»** بالتخفيف، من أعذر، ورواه أبو كريب عن أبي بكر عن عاصم، ورواه أصحاب القراءات عن ابن عباس. قال في الصحاح: وكان ابن عباس يقرأ **«وجاء المعدنون»** مخففة من أنذر، ويقول: والله هكذا أنزلت. قال النحاس: إلا أن مدارها على الكلبي، وهي من أعذر: إذا بالغ في العذر، ومنه: من أنذر فقد أعذر أي: بالغ في العذر. وقرأ الجمهور المعدنون بالتشديد فيه وجهان، أحدهما: أن يكون أصله المعدنون فادغمت التاء في الذال، وهم: الذين لهم عذر، ومنه قول لبيد:

إلى الحول ثم اسم السلام عليكم ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر
فالمعدنون على هذا: هم المحقون في اعتذارهم. وقد روي هذا عن الفراء، والزجاج، وابن الأنباري؛ وقيل: هو من عذر، وهو الذي يعتذر ولا عذر له، يقال عذر في الأمر: إذا قصر واعتذر بما ليس بعذر، نكره الجوهرى وصاحب الكشاف: فالمعدنون على هذا: هم المبطلون، لأنهم اعتذروا باعذار باطلة لا أصل لها. وروي عن الأخفش، والفراء، وأبي

الله **«كان إذا دفن الميت وقف على قبره، ودعا له فمحنها هنا منه؛ وقيل معناه: لا تقم بمهمات إصلاح قبره، وجمله: «إنهم كفروا»** تعليل للنهي. وإنما وصفهم بالفسق بعد وصفهم بالكفر، لأن الكافر قد يكون عدلاً في دينه، والكتب، والنفاق، والخداع، والجبن، والخبث، مستبحة في كل دين. ثم نهى رسوله عن أن تعجبه أموالهم وأولادهم. وهو تكرير لما سبق في هذه السورة وتقرير لمضمونه؛ وقيل: إن الآية المتقدمة في قوم، وهذه في آخرين؛ وقيل: هذه في اليهود، والأولى: في المنافقين؛ وقيل: غير ذلك. وقد تقدم في الآية الأولى جميع ما يحتاج إليه في تفسير هذه الآية، ثم عاد الله سبحانه إلى توبيخ المنافقين، فقال: **«وإذا أنزلت سورة»** أي: من القرآن، ويجوز أن يراد بعض السورة، وأن يراد تمامها؛ وقيل: هي هذه السورة: أي سورة براءة، و«إن» في **«أن آمنوا بالله»** مفسرة لما في الإنزال من معنى القول؛ أو مصدرية حذف منها الجاز: أي: بأن آمنوا، وإنما قدم الأمر بالإيمان، لأن الاشتغال بالجهاد لا يفيد إلا بعد الإيمان: **«استأنذك أولوا الطول منهم»** أي: نرو الفضل والسعة، من طال عليه طولاً كذا قال ابن عباس والحسن، وقال الأصم: الرؤساء والكبراء المنظور إليهم، وخصهم بالذكر لأن الذم لهم الزم، إذ لا عذر لهم في القعود **«وقالوا ذرنا»** أي اتركنا **«نكن مع اللعاعين»** أي: المتخلفين عن الغزو من المعذورين، كالضعفاء والزمنى، والخولاف: النساء اللاتي يخلفن الرجال في القعود في البيوت، جمع خالفة، وجوز بعضهم أن يكون جمع خالف، وهو من لا خير فيه: **«وطبع على قلوبهم»** هو كقوله: **«ختم الله على قلوبهم»** [البقرة: 7] وقد مر تفسيره **«فهم لا يفقهون»** شيئاً مما فيه نفعهم وضرهم، بل هم كالأنعام.

وقد أخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما، عن ابن عمر قال: لما توفي عبد الله بن أبي سلول، أتى ابنه عبد الله رسول الله **«فسأله أن يعطيه قميصه ليكفنه فيه فاعطاه»** ثم سأله أن يصلي عليه، فقام رسول الله **«فقام عمر فأخذ ثوبه فقال: يا رسول الله أتصلي عليه، وقد نهاك الله أن تصلي على المنافقين؟ فقال: إن ربي خيرني وقال: «استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم»** [التوبة: 80] وسأزید علی السبعین، فقال: إنه منافق، فصلی علیه، فأنزل الله: **«ولا تصل على أحد منهم مات أبداً»** الآية، فترك الصلاة عليهم. وأخرج ابن ماجه، والبخاري، وابن جرير، وابن مروي، عن جابر، قال: مات رأس المنافقين بالمدينة فأوصى أن يصلي عليه النبي **«فكان»** وإن يكفنه في قميصه، فجاء ابنه إلى رسول الله **«فقال: إن أبي أوصى أن يكفن في قميصك، فصلی علیه والبسه قميصه وقام على قبره، فأنزل الله: «ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره»** وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريه، عن ابن عباس، في قوله: **«ولولوا الطول»** قال: أهل الغنى. وأخرج هؤلاء، عن ابن

سبيله، وبذل النصيحة لهم في أمر الجهاد. وترك المعاناة لأعدائهم بوجه من الوجوه؛ ونصيحة الرسول ﷺ: التصديق بنبوته وبما جاء به، وطاعته في كل ما يأمر به، أو ينهي عنه، وموالاة من والاه، ومعاداة من عاداه، ومحبتة وتعظيم سنته، وإحيائها بعد موته بما تبلغ إليه القدرة. وقد ثبت في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: «الدين النصيحة ثلاثاً، قالوا: لمن؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم» وجملة: «**ما على المحسنين من سبيل**» مقررّة لمضمون ما سبق: أي ليس على المعنورين الناصحين من سبيل: أي طريق عقاب ومؤاخذه. ومن مزيدة للتأكيد، وعلى هذا فيكون لفظ «**المحسنين**» موضوعاً في موضع الضمير الراجع إلى المذكورين سابقاً. أو يكون المراد: ما على جنس المحسنين من سبيل، وهؤلاء المذكورون سابقاً من جملتهم، فتكون الجملة تعليلية. وجملة: «**والله غفور رحيم**» تنبيلية. وفي معنى هذه الآية قوله تعالى: «لا يكلف الله نفساً إلا وسعها» [البقرة: 286]، وقوله: «ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج» [النور: 61]، وإسقاط التكليف عن هؤلاء المعنورين، لا يستلزم عدم ثبوت ثواب الغزو لهم الذي عذرهم الله عنه، مع رغبتهم إليه لولا حبسهم العزو عنه، ومنه حديث أنس عند أبي داود وأحمد، وأصله في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال: «لقد تركتم بعنكم قوماً ما سرتهم من مسير ولا انفقتهم من نفقة ولا قطعتم وادياً إلا وهم معكم فيه. قالوا: يارسول الله وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة؟ فقال: حبسهم العذر». وأخرجه أحمد، ومسلم، من حديث جابر، ثم ذكر الله سبحانه من جملة المعنورين من تضمنه قوله: «**ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه**» والعطف على جملة «**ما على المحسنين**» أي: ولا على الذين إذا ما أتوك إلى آخره من سبيل. ويجوز أن تكون عطفاً على الضعفاء: أي ولا على إذا ما أتوك إلى آخره حرج. والمعنى: أن من جملة المعنورين هؤلاء الذين أتوك لتحملهم على ما يركبون عليه في الغزو، فلم تجد ذلك الذي طلبوه منك. قيل: وجملة «**لا أجد ما أحملكم عليه**» في محل نصب على الحال من الكاف في أتوك بإضمار قد: أي إذا ما أتوك قائللاً لأجد؛ وقيل: هي بدل من أتوك؛ وقيل: جملة معترضة بين الشرط والجزاء، والأوّل: أولى. وقوله: «**وتولوا**» جواب إذا، وجملة: «**وأعينهم تفيض من الدمع**» في محل نصب على الحال: أي تولوا عنك لما قلت لهم لا أجد ما أحملكم عليه، حال كونهم باكين، و«**حزنوا**» منصوب على المصدرية، أو على العلية، أو الحالية، و«**أن لا يجدوا**» مفعول له، وناصبه «**حزنوا**» وقال الفراء: أن لا بمعنى ليس: أي حزنوا أن ليس يجدوا؛ وقيل المعنى: حزنوا على أن لا يجدوا؛ وقيل المعنى: حزنوا أنهم لا يجدون ما ينفقون لا عند أنفسهم ولا عنك. ثم ذكر الله سبحانه من عليه السبيل من المتخلفين فقال: «**إنما السبيل**» أي: طريق العقوبة

حاتم، وأبي عبيد، أنه يجوز كسر العين لالتقاء السالكين وضمهما للاتباع، والمعنى: أنه جاء هؤلاء من الأعراب بما جاءوا به من الأعداء بحق أو بباطل على كلا التفسيرين؛ لأجل أن يائز لهم رسول الله ﷺ بالتخلف عن الغزو، وطائفة أخرى لم يعتذروا، بل قعدوا عن الغزو لغير عذر، وهم منافقوا الأعراب الذين كذبوا الله ورسوله، ولم يؤمنوا ولا صدقوا، ثم تورعدهم الله سبحانه، فقال: «**سيصيب الذين كفروا منهم**» أي: من الأعراب، وهم الذين اعتذروا بالأعداء الباطلة، والذين لم يعتذروا، بل كذبوا بالله ورسوله «**عذاب اليم**» أي: كثير الألم، فيصدق على عذاب الدنيا، وعذاب الآخرة.

وقد أخرج ابن المنذر، عن ابن عباس، في قوله: «**وجاء المعنورون من الأعراب**» أي: أهل العذر منهم. وروى ابن أبي حاتم، عنه، نحو ذلك. وأخرج ابن الأنباري في كتاب الأضداد عنه أيضاً أنه كان يقول: «لعن الله المعنورين» ويقرأ بالتشديد كان الأمر عنده أن المعنر بالتشديد: هو المظهر للعذر اعتلالاً من غير حقيقة. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن إسحاق، في قوله: «**ورجاء المعنورون من الأعراب**» قال: ذكر لي أنهم نفر من بني غفار، جاءوا فاعتذروا، منهم خفاف بن إسماء؛ وقيل: لهم رهط عامر بن الطفيل، قالوا: إن غزونا معك أغارت أعراب طيء على أهاليها، ومواسينا.

لَيْسَ عَلَى الْمُحْسِنِينَ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذِكْرُهُ ﴿١١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضٌ مِّنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يَنْفِقُونَ ﴿١٢﴾ ﴿١٣﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَبِيزُونَكُم وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَمَوْا بِالْحَوَارِيفِ وَطَعَنَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَتْلَوْنَ ﴿١٤﴾

لما ذكر سبحانه المعنورين، ذكر بعدهم أهل الأعداء الصحيحة المسقط للغزو، وبدأ بالعذر في أصل الخلقة. فقال: «**ليس على الضعفاء**» وهم: أرباب الزماتة، والهرم، والعمى، والعرج، ونحو ذلك، ثم ذكر العذر العارض، فقال: «**ولا على المرضى**» والمراد بالمرض: كل ما يصدق عليه اسم المرض لغة أو شرعاً؛ وقيل: إنه يدخل في المرضى: الأعمى والأعرج ونحوهما. ثم ذكر العذر الراجع إلى المال، لا إلى البدن فقال: «**ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون**» أي: ليست لهم أموال ينفقونها فيما يحتاجون إليه من التجهز للجهاد، فنفي سبحانه عن هؤلاء الحرج، وأبان أن الجهاد مع هذه الأعداء ساقط عنهم غير واجب عليهم، مقيداً بقوله: «**إذا نصحو الله ورسوله**» وأصل النصح: إخلاص العمل من الغش، ومنه التوبة النصوح. قال نفطويه نصح الشيء: إذا خلص، ونصح له القول: أي أخلصه له. والنصح لله: الإيمان به، والعمل بشريعته. وترك ما يخالفها كائناً ما كان، وينخل تحته بخولاً أولياً نصح عباده. ومحبة المجاهدين في

عمرو المزني. وقد اتفق الرواة على بعض هؤلاء السبعة. واختلفوا في البعض، ولا يأتي التطويل في ذلك بكثير فائدة. وأخرج ابن إسحاق، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن الزهري، ويزيد بن رومان، وعبد الله بن أبي بكر، وعاصم بن عمر بن قتادة، وغيرهم أن رجلاً من المسلمين أتوا رسول الله ﷺ وهم: البكاؤون، وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم، ثم نكروا أسماءهم، وفيه، فاستحملوا رسول الله ﷺ، وكانوا أهل حاجة. قال: ﴿لا تجد ما أحملكم عليه﴾. وأخرج أبو الشيخ، وابن مريويه، عن الحسن، قال: كان معقل بن يسار من البكائين الذين قال الله: ﴿ولا على الذين إذا ما اتوك لتحملهم﴾ الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أنس بن مالك، في قوله: ﴿لا تجد ما أحملكم عليه﴾ قال: الماء والزاد. وأخرج ابن المنذر، عن علي بن صالح، قال: حدثني مشيخة من جهينة، قالوا: أدركنا الذين سألوا رسول الله ﷺ الحملان، فقالوا: ما سألناه إلا الحملان على النعال. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن إبراهيم بن أدهم، عن حنث في قوله: ﴿ولا على الذين إذا ما اتوك لتحملهم﴾ قال: ما سألوه الدواب ما سألوه إلا النعال. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الحسن بن صالح، في الآية قال: استحملوه النعال. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، في قوله: ﴿إنما للسبيل على الذين يستأنفونك﴾ قال: هي وما بعدها إلى قوله ﴿إن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾ [التوبة: 96] في المنافقين.

يَعَذِّبُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعَذِّبُوا لَنْ تُوَفِّيَهُمْ لَكُمْ قَدْ
تَبَيَّنَا اللَّهُ مِنْ أَفْعَالِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تَزِيدُونَ إِلَى عَذَابِ
الْعَذِيبِ وَاللَّهُدَى فَيْتَحُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ سَيَحْمِلُونَ بِاللَّهِ
لَكُمْ إِذَا أَفْلَحْتُمْ مِنَ الْيَوْمِ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ
وَمَا وَدَّعَهُمْ جَهَنَّمَ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٢٠﴾ يَحْمِلُونَ لَكُمْ
لِيَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ النَّاسِيفِينَ
﴿٢١﴾ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَبَغَاً وَأَجْدَرُ أَلَّا يَسْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ
عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢﴾ مِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُبَيِّقُ مَقَرًّا
وَيَتَّبِعُ بَيْتَ الَّذِينَ يُؤْتُونَ عَلَيْهِمُ الدَّيْرَ ذَٰلِكَ السَّوْءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَمِنَ
الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتَتَّخِذُ مَا يُبَيِّقُ مَقَرًّا عِنْدَ
أَنَّهُ وَصَلَتْ الرُّسُلُ إِلَّا نَجْمًا مُّزِينًا لَهُمْ سَبِيلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ
عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٤﴾

والمواخذة ﴿على الذين يستأنونك﴾ في التخلف عن الغزو، ﴿والحال أنهم أغنياء﴾ أي: يجنون ما يحملهم وما يتجهزون به، وجملة: ﴿رضوا بأن يكونوا مع الخوالم﴾ مستأنفة كأنه قيل: ما بالهم استأنوا وهم أغنياء. وقد تقدم تفسير الخوالم قريباً. وجملة: ﴿وطع الله على قلوبهم﴾ معطوفة على ﴿رضوا﴾ أي: سبب الاستئذان مع الغنى أمران: أحدهما: الرضا بالصفقة الخاسرة، وهي أن يكونوا مع الخوالم، والثاني: الطبع من الله على قلوبهم ﴿فهم﴾ بسبب هذا الطبع ﴿لا يعلمون﴾ ما فيه الربح لهم، حتى يختاروه على ما فيه الخسر.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، والدارقطني في الإفراء، وابن مريويه، عن زيد بن ثابت، قال: كنت أكتب لرسول الله ﷺ فنزلت براءة، فكنت أكتب ما أنزل عليه، فإني لو اضع القلم عن أئني إذ أمرنا بالقتال، فجعل رسول الله ﷺ ينظر ما ينزل عليه إذ جاء أعمى فقال: كيف بي يا رسول الله وأنا أعمى؟ فنزلت: ﴿ليس على الضعفاء﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، قال: أنزلت هذه الآية في عابد بن عمر المزني. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مجاهد، قال: نزل من عند قوله: ﴿عفا الله عنك﴾ [التوبة: 43] إلى قوله: ﴿وما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم﴾ في المنافقين. وأخرج أبو الشيخ، عن الضحاك، في قوله: ﴿وما على المحسنين من سبيل﴾ قال: ما على هؤلاء من سبيل بأنهم نصحوا لله ورسوله ولم يطبقوا الجهاد، فعذرهم الله وجعل لهم من الأجر ما جعل للمجاهدين، ألم تسمع أن الله يقول: ﴿لا يستوى القاعدون للمجاهدين غير أولي الضرر﴾ [النساء: 95] فجعل الله للذين عذر من الضعفاء، وأولي الضرر، والذين لا يجنون ما ينفقون من الأجر مثل ما جعل للمجاهدين. وأخرج أبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وما على المحسنين من سبيل﴾ قال: ﴿والله﴾ لاهل الإساءة ﴿غفور رحيم﴾ وأخرج ابن مريويه، عن ابن عباس، في قوله: ﴿ولا على الذين إذا ما اتوك﴾ الآية، قال: أمر رسول الله ﷺ أن ينبعثوا غازين معه، فجاءت عصابة من أصحابه فيهم عبد الله بن مغفل المزني، فقالوا: يا رسول الله احملنا، فقال: والله ما أجد ما أحملكم عليه، فتولوا ولهم بكاء وعزيز عليهم أن يجلسوا عن الجهاد، ولا يجنون نفقة ولا محملاً، فأنزل الله عنهم ﴿ولا على الذين إذا ما اتوك﴾ الآية. وأخرج ابن سعد، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، عن عبد الله بن مغفل، قال: إني لا أجد الرهط الذين نكر الله ﴿ولا على الذين إذا ما اتوك لتحملهم﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، عن محمد بن كعب، قال: هم سبعة نفر من بني: عمر بن عوف سالم بن عمير، ومن بني: واقف حرمي بن عمرو، ومن بني: مازن بن النجار عبد الرحمن بن كعب يكنى أبا ليلى، ومن بني: المعلى سلمان بن صخر، ومن بني: حارثة عبد الرحمن بن زيد أبو عيلة، ومن بني: سلمة عمرو بن غنمة وعبد الله بن

قوله: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ﴾ إخبار من الله سبحانه عن المنافقين المعتذرين بالباطل، بأنهم يعتذرون إلى المؤمنين إذا رجعوا من الغزو، وهذا كلام مستأنف، وإنما قال: ﴿إِلَيْهِمْ﴾ أي: إلى المعتذرين بالباطل، ولم يقل إلى المدينة، لأن مدار الاعتذار هو الرجوع إليهم لا الرجوع إلى المدينة، وربما يقع الاعتذار عند الملاقاة قبل الوصول إليها، ثم أخبر الله سبحانه رسوله ﷺ بما يجب به عليهم، فقال: ﴿قُلْ لَا

تعتذروا لن نؤمن لكم﴾ فنهاهم أولاً عن الاعتذار بالباطل، ثم علله بقوله: ﴿لَنْ نؤمن لكم﴾ أي: لن نصدقكم، كأنهم ادَّعوا أنهم صانقون في اعتذارهم، لأن غرض المعتذر أن يصدق فيما يعتذر به، فإذا عرف أنه لا يصدق ترك الاعتذار، وجملة ﴿قد نبأنا الله من أخباركم﴾ تعليلية للتي قبلها: أي لا يقع منا تصديق لكم لأن الله قد أعلمنا بالوحي ما هو مناف لصدق اعتذاركم، وإنما خصَّ الرسول ﷺ بالجواب عليهم، فقال: ﴿قل لا تعتذروا﴾ مع أن الاعتذار منهم كائن إلى جميع المؤمنين، لأنه ﷺ رأسهم، والمتولي لما يرد عليهم من جهة الغير، ويحتمل أن يكون المراد بالضمير في قوله: ﴿إيكم﴾ هو الرسول ﷺ على التأويل المشهور في مثل هذا. قوله: ﴿وسيرى الله عملكم﴾ أي: ما ستفعلونه من الأعمال فيما بعد هل تفلحون عما أنتم عليه الآن من الشر أم تبقون عليه؟ وقوله: ﴿ورسوله﴾ معطوف على الاسم الشريف، ووسط مفعول الرؤية إيذاناً، بأن رؤية الله سبحانه لما سيفعلونه من خير أو شر هي التي يدور عليها الإثابة أو العقوبة، وفي جملة: ﴿ثم ترون إلى عالم الغيب﴾ إلى آخرها تخويف شديد، لما هي مشتملة عليه من التهديد، ولا سيما ما اشتملت عليه من وضع الظاهر موضع المضمهر، لإشعار ذلك بإحاطته بكل شيء يقع منهم مما يكتُمونه ويتظاهرون به، وإخباره لهم به ومجازاتهم عليه، ثم نكر أن هؤلاء المعتذرين بالباطل سيؤكِّنون ما جاعوا به من الاعتذار الباطلة بالحلف عند رجوع المؤمنين إليهم من الغزو، وغرضهم من هذا التأكيد هو: أن يعرض المؤمنون عنهم، فلا يوبخونهم ولا يؤاخضونهم بالتخلف، ويظهرون الرضا عنهم، كما يفيد نكر الرضا من بعد، وحذف المحلوف عليه لكون الكلام يدلُّ عليه، وهو اعتذارهم الباطل، وأمر المؤمنين بالإعراض عنهم المراد به: تركهم والمهاجرة لهم، لا الرضا عنهم والصفح عن نوبتهم، كما تفيد جملة ﴿إنهم رجس﴾ الواقعة علة للأمر بالإعراض. والمعنى: أنهم في أنفسهم رجس لكون جميع أعمالهم نجسة، فكانها قد صيرت نواتهم رجساً، أو أنهم نوو رجس: أي نوو أعمال قبيحة، ومثله: ﴿إنما المشركون نجس﴾ [التوبة: 28] وهؤلاء لما كانوا هكذا كانوا غير متاهلين لقبول الإرشاد إلى الخير والتحذير من الشر، فليس لهم إلا الترك. وقوله: ﴿وماواهم جهنم﴾ من تمام التعليل؛ فإن من كان من أهل النار لا يجدي فيه الدعاء إلى الخير، والماوى كل مكان يأوي إليه الشيء، لئلاً أو نهراً. وقد أوى فلان إلى منزله، يأوي أويأ وإيواء. و﴿جزاء﴾ منصوب على المصدرية، أو على العلية، والباء في ﴿بما كانوا يكسبون﴾ للسببية، وجملة ﴿يحلِفون لكم﴾ بدل مما تقدَّم. وحذف هنا المحلوف به لكونه معلوماً مما سبق، والمحلوف عليه لمثل ما تقدَّم، وبين سبحانه أن مقصدهم بهذا الحلف هو رضا المؤمنين عنهم، ثم نكر ما يفيد أنه لا يجوز الرضا عن هؤلاء المعتذرين بالباطل، فقال: ﴿فإن ترضوا عنهم﴾ كما هو مطلوبهم مساعدة لهم ﴿فإن

الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾ وإذا كان هذا هو ما يريده الله سبحانه من عدم الرضا على هؤلاء الفسقة العصاة، فينبغي لكم أيها المؤمنون أن لا تفعلوا خلاف ذلك، بل واجب عليكم أن لا ترضوا عنهم على أن رضاكم عنهم لو وقع لكان غير معتد به، ولا مفيد لهم. والمقصود من إخبار الله سبحانه بعدم رضاه عنهم، نهى المؤمنين عن ذلك؛ لأن الرضا على من لا يرضى الله عليه مما لا يفعله مؤمن. قوله: ﴿الاعراب أشدَّ كفراً ونفاقاً﴾ لما ذكر الله سبحانه أحوال المنافقين بالمدينة، ذكر حال من كان خارجاً عنها من الأعراب، وبين أن كفرهم ونفاقهم أشدَّ من كفر غيرهم ومن نفاق غيرهم، لأنهم أقسى قلباً وأغلظ طبعاً وأجفى قولاً، وأبعد عن سماع كتب الله، وما جاءت به رسله. والأعراب: هم من سكن البوادي بخلاف العرب، فإنه عام لهذا النوع من بني آدم، سواء سكنوا البوادي أو القرى، هكذا قال أهل اللغة، ولهذا قال سيبويه: إن الأعراب صيغة جمع وليست بصيغة جمع العرب. قال النيسابوري: قال أهل اللغة: رجل عربي إذا كان نسبه إلى العرب ثابتاً، وجمعه عرب، كالمجوسي والمجوس، واليهودي واليهود، فالأعرابي إذا قيل له يا عربي فرح، وإذا قيل للعربي يا أعرابي غضب، وذلك أن من استوطن القرى العربية فهو عربي، ومن نزل البادية فهو أعرابي، ولهذا لا يجوز أن يقال للمهاجرين والأنصار أعراب، وإنما هم عرب. قال: قيل إنما سمي العرب عرباً لأن أولاد إسماعيل عليه السلام نشؤوا بالعرب، وهي من تهامة فنسبوا إلى بلدهم، وكل من يسكن جزيرة العرب، وينطق بلسانهم فهو منهم؛ وقيل: لأن السنهم معربة، عما في ضمائرهم، ولما في لسانهم من الفصاحة والبلاغة. انتهى. ﴿ولجدر﴾ معطوف على أشد، ومعناه أخلق، يقال: فلان جدير بكذا: أي خليف به، وانت جدير أن تفعل كذا، والجمع: جدر، أو جديرون، وأصله من جدر الحائط، وهو رفعة بالبناء. والمعنى: أنهم أحق وأخلق بجهنم لا يعلموا حدود ما أنزل الله من الشرائع والأحكام، لبعدهم عن مواطن الأنبياء، وديار التنزيل. ﴿والله عليهم﴾ بأحوال مخلوقاته على العموم، وهؤلاء منهم: ﴿حكيم﴾ فيما يجازيهم به من خير وشر. قوله: ﴿ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً﴾ هذا تنويع لجنس إلى نوعين، الأول: هؤلاء، والثاني: ﴿ومن الأعراب من يؤمن بالله﴾ والمغرم الغرامة والخسران، وهو ثاني مفعولي يتخذ، لأنه بمعنى الجعل، والمعنى: اعتقد أن الذي ينفقه في سبيل الله غرامة وخسران، وأصل الغرم والغرامة، ما ينفقه الرجل وليس يلزم له في اعتقاده، ولكنه ينفقه للرياء والتقية؛ وقيل: أصل الغرم اللزوم، كأنه اعتقد أنه يلزمه لأمر خارج لا تنبثق له النفس. و﴿لواثر﴾ جمع دائرة، وهي الحالة المتقلبة عن النعمة إلى البلية، وأصلها: ما يحيط بالشيء، ودوائر الزمان: توبه وتصاريفه، وبوله، وكأنها لا تستعمل إلا في المكروه، ثم دعا سبحانه عليهم بقوله: ﴿عليهم دائرة السوء﴾ وجعل ما دعا به عليهم ممثلاً لما

الترمذي بعد إخراج: حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث الثوري. وأخرج أبو داود، والبيهقي، من حديث أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «من بدأ جفا ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتى أبواب السلطان افتتن، وما ازداد أحد من سُلْطانه قريباً إلا ازداد من الله بعداً». وأخرج أبو الشيخ، عن الضحاك، في قوله: «ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرمًا» قال: يعني بالمغرم أنه لا يرجو له ثواباً عند الله ولا مجازاة، وإنما يعطي من يعطي من الصدقات كرهاً «ويُتربص بكم للدوائر» الهلكات. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن زيد، في الآية قال: هؤلاء المنافقون من الأعراب الذين إنما ينفقون رياء اتقاء على أن يغزوا ويحاربوا، ويقاوتوا ويرون نفقاتهم مغرمًا. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: «ومن الأعراب من يؤمن بالله» قال: هم بنو مقرن من مزينة، وهم الذين قال الله: «ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم» [التوبة: 92] الآية. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن عبد الرحمن بن معقل، قال: كنا عشرة ولد مقرن، فنزلت فينا: «ومن الأعراب من يؤمن بالله» الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس، في قوله: «وصلوات الرسول» يعني: استغفار النبي ﷺ.

وَالْمُتَّقِينَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِلَا حَسَنٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣١﴾ وَمَنْ حَوْلَكَ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَى الْإِنْفَاقِ لَا يَلْمِزُكَ عَنْ تَلَمُّذِهِمْ سَمَّوْنَهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يَرُدُّونَ إِلَيْكَ عَنَاءٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٢﴾ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ رَحِيمٌ ﴿١٣٣﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٤﴾ أَلَمْ يَكُونُوا أَنْ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٣٥﴾ وَقُلِ اتَّقُوا اللَّهَ فَمَا كَانَ لَهُمْ عَمَلٌ شَرٌّ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَرُدُونَ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَالَّذِينَ قَبْلَهُمْ قَبَلَتْهُمُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٦﴾ وَآخَرُونَ مَرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِنَّمَا يَخْذَلُهُمْ وَإِنَّمَا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٣٧﴾

لما نكر سبحانه أصناف الأعراب نكر المهاجرين والأنصار، وبين أن منهم السابقين إلى الهجرة، وأن منهم التابعين لهم. وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قرأ «والأنصار» بالرفع عطفاً على «والسابقون» وقرأ سائر القراء من الصحابة فمن بعدهم بالجر. قال الأخفش: الخفض في الأنصار الوجه، لأن السابقين منهم يدخلون في قوله: «والسابقون» وفي الآية تفضيل السابقين الأوّلين من المهاجرين والأنصار، وهم الذين صلوا القلبتين في قول سعيد بن المسيب وطائفة، أو الذين شهدوا بيعة الرضوان. وهي بيعة الحديبية في قول الشعبي، أو أهل بدر في قول

أرادوه بالمسلمين، والسوء بالفتح عند جمهور القراء مصدر أضيفت إليه الدائرة للملابسة، كقولك رجل صدق. وقرأ أبو عمرو، وابن كثير، بضم السين، وهو المكروه. قال الأخفش: أي: عليهم دائرة الهزيمة والشر. وقال الفراء: «عليهم دائرة السوء» العذاب والبلاء. قال: والسوء بالفتح مصدر سؤته سوءاً ومساءة، وبالضم اسم لا مصدر، وهو كقولك: دائرة البلاء والمكروه «والله سميع» لما يقولونه «عليهم» بما يضمرونه. قوله: «ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر» هذا النوع الثاني من أنواع الأعراب كما تقدّم: أي: يصنّف بهما «ويُتخذ ما ينفق» أي: يجعل ما ينفقه في سبيل الله «قربات» وهي: جمع قربة، وهي ما يتقرب به إلى الله سبحانه، تقول منه قربت لله قرباناً، والجمع: قرب وقربات. والمعنى: أنه يجعل ما ينفقه سبباً لحصول القربات «عند الله» سبباً ل«وصلوات الرسول» أي: لدعوات الرسول لهم، لأنه ﷺ كان يدعو للمتصدقين، ومنه قوله: «وصل عليهم إن صلواتك سكن لهم» [التوبة: 103]، ومنه قوله ﷺ: «اللهم صل على آل أبي أوفى» ثم إنه سبحانه بين بأن ما ينفقه هذا النوع من الأعراب تقريباً إلى الله مقبول واقع على الوجه الذي أرادوه، فقال: «إلا إنها قربة لهم» فأخبر سبحانه بقبولها خيراً مؤكداً باسمية الجملة، وحرفي التنبيه والتحقيق، وفي هذا من التطبيب لخواطهم والتطمين لقلوبهم ما لا يقادر قدره، مع ما يتضمنه من النعي على من يتخذ ما ينفق مغرمًا، والتوبيخ له أبلغ وجه، والضمير في إنها راجع إلى «ما» في ما ينفق وتانيته باعتبار الخبر. وقرأ نافع، في رواية عنه «قربة» بضم الراء، وقرأ الباقون: بسكونها تخفيفاً، ثم فسر سبحانه القربة بقوله: «سيخظلم الله في رحمته» والسين لتحقيق الوعد.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي في قوله: «قد نبأنا الله من أخباركم» قال: أخبرنا أنكم لو خرجتم ما زلتُمونا إلا خيلاً، وفي قوله: «فاعرضوا عنهم» قال: لما رجع النبي ﷺ، قال للمؤمنين لا تكلموهم ولا تجالسوهم، فاعرضوا عنهم كما أمر الله. وأخرج أبو الشيخ، عن الضحاك، في قوله: «لتعرضوا عنهم» قال: لتجاوزوا عنهم. وأخرج أبو الشيخ، عنه، في قوله: «الأعراب أشد كفرةً ونفاقاً» قال: من منافقي المدينة «وليجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله» يعني: الفرائض، وما أمر به من الجهاد. وأخرج أبو الشيخ، عن الكلبي، أن هذه الآية نزلت في أسد وغطفان. وأخرج أحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، والبيهقي في شعب الإيمان، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ، قال: «من سكن البادية جفا، ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتى السلطان افتتن» وإسناد أحمد هكذا: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا سفيان عن أبي موسى، عن وهب بن منبه، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ، فنذكره. قال في التقريب: وأبو موسى عن وهب بن منبه مجهول من السادسة، وهم من قال إنه إسرائيل بن موسى، وقال

النفاق: أي ثبتوا عليه ثبوتاً شديداً، ومهروا فيه حتى خفي أمرهم على رسول الله ﷺ، فكيف سائر المؤمنين؟ والمراد عدم علمه ﷺ بأعينهم لا من حيث الجملة، فإن للنفاق دلائل لا تخفى عليه ﷺ، وجملة: ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ مقررّة لما قبلها لما فيها من الدلالة على مهارتهم في النفاق ورسوخهم فيه، على وجه يخفى على البشر، ولا يظهر لغير الله سبحانه لعلمه بما يخفى، وما تجنّه الضمائر وتنطوي عليه السرائر. ثم تواعدهم سبحانه فقال: ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ قيل المراد بالمرتين: عذاب الدنيا بالقتل والسبي، وعذاب الآخرة، وقيل: الفضيحة بانكشاف نفاقهم، والعذاب في الآخرة؛ وقيل: المصائب في أموالهم وأولادهم، وعذاب القبر؛ وقيل: غير ذلك مما يطول ذكره مع عدم الدليل على أنه المراد بعينه. والظاهر أن هذا العذاب المكرّر هو في الدنيا بما يصبق عليه اسم العذاب، وأنهم يعذبون مرّة بعد مرّة، ثم يردون بعد ذلك إلى عذاب الآخرة، وهو المراد بقوله: ﴿ثُمَّ يَرْتَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ قال معنى قوله: ﴿ثُمَّ يَرْتَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ أنهم يردون بعد عذابهم في النار، كسائر الكفار إلى الدرك الأسفل منها؛ أو أنهم يعذبون في النار عذاباً خاصاً بهم نون سائر الكفار، ثم يردون بعد ذلك إلى العذاب الشامل لهم ولسائر الكفار. ثم ذكر سبحانه حال طائفة من المسلمين وهم المخلطون في دينهم فقال: ﴿وَأُخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ وهو معطوف على قوله ﴿مُتَنَافِقُونَ﴾: أي ومن حولكم من الأعراب ومن أهل المدينة قوم آخرون، ويجوز أن يكون آخرون مبتدأ، واعترفوا بذنوبهم صفة، وخلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً خبره، والمعنى: أن هؤلاء الجماعة تخلطوا عن الغزو لغير عذر مسوّغ للتخلف، ثم ندموا على ذلك، ولم يعتنوا بالاعذار الكاذبة كما اعتذر المنافقون، بل تابوا واعترفوا بالذنوب، ورجوا أن يتوب الله عليهم. والمراد بالعمل الصالح: ما تقدّم من إسلامهم وقيامهم بشرائع الإسلام، وخروجهم إلى الجهاد في سائر المواطن. والمراد بالعمل السيئ: هو تخلفهم عن هذه الغزوة، وقد اتبعوا هذا العمل السيئ عملاً صالحاً، وهو الاعتراف به والتوبة عنه. وأصل الاعتراف الإقرار بالشيء، ومجرد الإقرار لا يكون توبة إلا إذا اقترن به الندم على الماضي، والعزم على تركه في الحال والاستقبال، وقد وقع منهم ما يفيد هذا كما سيأتي بيانه إن شاء الله. ومعنى الخلط: أنهم خلطوا كل واحد منهما بالآخر، كقولك خلطت الماء باللبن، واللبن بالماء. ويجوز أن تكون الواو بمعنى الباء، كقولك بعت الشاة شاة وردهما: أي بدرهم، وفي قوله: ﴿عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ دليل على أنه قد وقع منهم مع الاعتراف ما يفيد التوبة، أو أن مقدّمة التوبة وهي الاعتراف قامت مقام التوبة، وحرف الترجي وهو عسى، هو في كلام الله سبحانه يفيد تحقق الوقوع، لأن الإطماع من الله سبحانه إيجاب لكونه أكرم الأكرمين ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

محمد بن كعب، وعطاء بن يسار، ولا مانع من حمل الآية على هذه الأصناف كلها، قال أبو منصور البغدادي: أصحابنا مجمعون على أن أفضلهم الخلفاء الأربعة، ثم الستة الباقون، ثم البريرون، ثم أصحاب أحد، ثم أهل بيعة الرضوان بالحديبية. قوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ﴾ محذوف الواو وصفاً للأنصار على قراءته برفع الأنصار، فراجعه في ذلك زيد بن ثابت، فسأل أبي بن كعب فصنّق زيدا، فرجع عمر عن القراءة المذكورة كما رواه أبو عبيد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مروي، ومعنى الذين اتبعوهم بإحسان: الذين اتبعوا السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، وهم المتأخرون عنهم من الصحابة فمن بعدهم إلى يوم القيامة، وليس المراد بهم التابعين اصطلاحاً، وهم كل من أترك الصحابة ولم يترك النبي ﷺ، بل هم من جملة من ينخل تحت الآية، فتكون ﴿مَنْ﴾ في قوله: ﴿مَنْ﴾ من المهاجرين على هذا للتبويض، وقيل إنها للبيان، فيتناول المدح جميع الصحابة، ويكون المراد بالتابعين من بعدهم من الأمة إلى يوم القيامة. وقوله: ﴿بِإِحْسَانٍ﴾ قيد للتابعين: أي والذين اتبعوهم متبسين بإحسان في الأفعال والأقوال اقتداء منهم بالسابقين الأولين. قوله: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ خبر للمبتدأ وما عطف عليه، ومعنى رضاه سبحانه عنهم: أنه قبل طاعاتهم وتجاوز عنهم، ولم يسخط عليهم ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بما أعطاهم من فضله، ومع رضاه عنهم فقد ﴿أَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ في الدار الآخرة. وقرأ ابن كثير ﴿تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ بزيادة من. وقرأ الباقون بحذفها والنصب على الظرفية، وقد تقدّم تفسير جري الأنهار من تحت الجنات، وتفسير الخلود والفوز. قوله: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُتَنَافِقُونَ﴾ هذا عود إلى شرح أحوال المنافقين من أهل المدينة، ومن يقرب منها من الأعراب. وممن حولكم خير مقدّم، ومن الأعراب بيان، وهو في محل نصب على الحال، ومتنافقون هو المبتدأ؛ وقيل: وهؤلاء الذين هم حول المدينة من المنافقين هم: جهينة ومزينة، وأشجع، وغفار، وجملة: ﴿وَمِمَّنْ أهل المدينة مردوا على النفاق﴾ معطوفة على الجملة الأولى، عطف جملة على جملة. وقيل: إن من أهل المدينة عطف على الخبر في الجملة الأولى، فعلى الأول: يكون المبتدأ مفعلاً، أي ومن أهل المدينة قوم مردوا على النفاق، وعلى الثاني: يكون التقدير: وممن حولكم من الأعراب ومن أهل المدينة متنافقون مردوا، ولكون جملة مردوا على النفاق مستأنفة لا محل لها، وأصل مرد وتمرد اللين والملاسة والتجرّد، فكانهم تجرّدوا للنفاق، ومنه غصن أمرد: لا ورق عليه، وفرس أمرد: لا شعر فيه. وغلام أمرد: لا شعر بوجهه، وأرض مرداء: لا نبات فيها، وصرح ممرّد: مجرّد؛ فالمعنى: أنهم أقاموا على النفاق وثبتوا عليه ولم ينتنوا عنه. قال ابن زيد: معناه لجوا فيه وأثروا غيره، وجملة: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ مبنية للجملة الأولى، وهي مردوا على

عملك لا يخفى على الله، ولا على رسوله ولا على المؤمنين، فسارعوا إلى أعمال الخير، وأخلصوا أعمالكم لله عز وجل، وفيه أيضاً ترغيب وتنشيط، فإن من علم أن عمله لا يخفى سواء كان خيراً أو شراً رغب إلى أعمال الخير، وتجنب أعمال الشر، وما أحسن قول زهير:

ومهما تكن عند امرئ من خليفة وإن خالها تخفى على الناس تعلم والمراد بالرؤية هنا العلم بما يصدر منهم من الأعمال، ثم جاء سبحانه بوعيد شديد فقال: **«وَسْتَرْثَوْنَ إِلَى عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ»** أي: وسترثون بعد الموت إلى الله سبحانه، الذي يعلم ما تسرونه وما تعلنونه، وما تخفونه وما تبونونه. وفي تقديم الغيب على الشهادة: إشعار بسعة علمه عز وجل، وأنه لا يخفى عليه شيء، ويستوي عنده كل معلوم. ثم ذكر سبحانه ما سيكون عقب ردِّهم إليه فقال: **«فَيُنَبِّئُكُمْ»** أي: يخبركم **«بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ»** في الدنيا، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، ويفضل على من يشاء من عباده. قوله: **«وَأُخْرُونَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ»** ذكر سبحانه ثلاثة أقسام في المتخلفين: الأول: المنافقون الذين مردوا على النفاق، والثاني: التائبون المعترفون بذنوبهم، الثالث: الذين بقي أمرهم موقوفاً في تلك الحال، وهم المرجون لأمر الله، من أرجيته وأرجأته: إذا أخرته. قرأ حمزة والكسائي، ونافع وحفص **«مُرْجُونَ»** بالواو من غير همز. وقرأ الباقون بالهمزة المضمومة بعد الجيم. والمعنى: أنهم مؤخرون في تلك الحال، لا يقطع لهم بالتوبة لاو بعدهما، بل هم على ما يتبين من أمر الله سبحانه في شأنهم **«وَأَمَّا يَعْنِيهِمْ»** إن بقوا على ما هم عليه، ولم يتوبوا **«وَأَمَّا يَقُوبُ عَلَيْهِمْ»** إن تابوا توبة صحيحة وأخلصوا إخلاصاً تاماً، والجملة في محل نصب على الحال، والتقدير **«وَأُخْرُونَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ»** حال كونهم، إما معذبين، وإما متوباً عليهم **«وَاللَّهُ عَلِيمٌ»** بأحوالهم **«حَكِيمٌ»** فيما يفعله بهم من خير أو شر.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وأبو نعيم في المعرفة، عن أبي موسى، أنه سئل عن قوله: **«وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ»** فقال: هم الذين صلوا القبلتين جميعاً. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وأبو نعيم، عن سعيد بن المسيب، مثله. وأخرج ابن المنذر، وأبو نعيم، عن الحسن، ومحمد بن سيرين، مثله أيضاً. وأخرج ابن مردويه، عن ابن عباس، قال: هم أبو بكر، وعمر، وعلي، وسلمان، وعمار بن ياسر. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، وأبو نعيم في المعرفة، عن الشعبي قال: هم من أدرك بيعة الرضوان. وأخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: **«وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ»** قال: التابعون. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن زيد، قال: هم من بقي من أهل الإسلام، إلى أن تقوم الساعة. وأخرج أبو الشيخ، وابن عساکر، عن أبي صخر حميد بن زياد قال: قلت لمحمد بن

أي: يغفر الذنوب ويفضل على عباده. قوله: **«خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً»** اختلف أهل العلم في هذه الصدقة المأمور بها، فقيل: هي صدقة الفرض، وقيل: هي مخصوصة بهذه الطائفة المعترفة بذنوبها، لأنهم بعد التوبة عليهم عرضوا أموالهم على رسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآية، و**«مِنْ»** للتبعية على التفسيرين، والآية مطلقة مبينة بالسنة المطهرة، والصدقة مأخوذة من الصدق، إذ هي دليل على صدق مخرجها في إيمانه. قوله: **«تَطْهَرُهمْ وَتَزَكِّيهمْ بِهَا»** الضمير في الفعلين للنبي ﷺ، أي تطهرهم وتزكئهم يا محمد بما تأخذه من الصدقة منهم. وقيل الضمير في تطهرهم للصدقة: أي تطهرهم هذه الصدقة المأخوذة منهم، والضمير في تزكئهم للنبي ﷺ، أي تزكئهم يا محمد بالصدقة المأخوذة، والأول: أولى لما في الثاني من الاختلاف في الضميرين في الفعلين المتعاطفين؛ وعلى الأول: فالفعلان منتصبان على الحال، وعلى الثاني: فالفعل الأول صفة لصدقة، والثاني: حال منه ﷺ. ومعنى التطهير: إذهاب ما يتعلق بهم من أثر الذنوب، ومعنى التزكية: المبالغة في التطهير. قال الزجاج: والأجود أن تكون المخاطبة للنبي ﷺ: أي فإنك يا محمد تطهرهم وتزكئهم بها على القطع والاستئناف، ويجوز الجزم على جواب الأمر. والمعنى: أن تأخذ من أموالهم صدقة تطهرهم. وقد قرأ الحسن بجزم تطهرهم. وعلى هذه القراءة فيكون **«وَتَزَكِّيهمْ»** على تقدير مبتدأ: أي وأنت تزكئهم بها. قوله: **«وَصَلَّ عَلَيْهِم»** أي ادع لهم بعد أخذك لتلك الصدقة من أموالهم، قال النحاس. وحكى أهل اللغة جميعاً فيما علمناه، أن الصلاة في كلام العرب الدعاء، ثم علل سبحانه أمره لرسوله ﷺ بالصلاة على من يأخذ منه الصدقة فقال: **«إِنْ صَلَّوْاكَ سَكَنَ لَهُمْ»** قرأ حفص، وحمزة، والكسائي **«صَلَّوْاكَ»** بالتوحيد. وقرأ الباقون بالجمع، والسكن ما تسكن إليه النفس وتطمئن به. قوله: **«لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ»** لما تاب الله سبحانه على هؤلاء المذكورين سابقاً. قال الله: **«لَمْ يَعْلَمُوا»** أي: غير التائبين، أو التائبين قبل أن يتوب الله عليهم ويقبل صفقاتهم **«أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ»** لاستغفائه عن طاعة المطيعين، وعدم مبالاته بمعصية العصاة. وقرئ: **«لَمْ يَعْلَمُوا»** بالفوقية، وهو إما خطاب للتائبين، أو لجماعة من المؤمنين، ومعنى: **«وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ»** أي يتقبلها منهم، وفي إسناد الأخذ إليه سبحانه بعد أمره لرسوله ﷺ بأخذها تشريف عظيم لهذه الطاعة، ولمن فعلها. وقوله: **«وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ»** معطوف على قوله: **«أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ»** مع تضمنه لتأكيد ما اشتمل عليه المعطوف عليه: أي: أن هذا شأنه سبحانه. وفي صيغة المبالغة في التواب، وفي الرحيم مع توسيط ضمير الفصل. والتأكيد من التبشير لعباده والترغيب لهم ما لا يخفى. قوله: **«وَقُلْ أَعْمَلُوا فَيَسِّرَ اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ»** فيه تخويف وتهديد: أي إن

إذا رجع عليهم فلما رآهم قال: من هؤلاء الموثقون انفسهم؟ قالوا: هذا أبو لبابة، وأصحاب له تخلفوا عنك يا رسول الله حتى تطلقهم وتعذرهم، قال: وأنا أقسم بالله، لا أطلقهم، ولا أعذرهم حتى يكون الله هو الذي يطلقهم، رغبوا عني وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين، فلما بلغهم ذلك قالوا: ونحن لا نطلق انفسنا حتى يكون الله هو الذي يطلقنا، فنزلت: ﴿عسى الله أن يتوب عليهم﴾ وعسى من الله واجب، فلما نزلت أرسل إليهم النبي ﷺ فاطلقهم وعذرهم، فجاءوا بأموالهم فقالوا: يا رسول الله هذه أموالنا فتصنق بها عنا، واستغفر لنا، قال: ما أمرت إن أخذ أموالكم، فأنزل الله عز وجل: ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم﴾ يقول: استغفر لهم ﴿إن صلواتك سكن لهم﴾ يقول: رحمة لهم، فأخذ منهم الصدقة واستغفر لهم، وكانوا ثلاثة نفر لم يوثقوا انفسهم بالسواري، فأرجئوا سنة لا يدرون أيعذبون أو يتاب عليهم؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿لقد تاب الله على النبي﴾ [التوبة: 117] إلى قوله: ﴿وعلى الثلاثة الذين خلفوا﴾ إلى قوله: ﴿ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم﴾ [التوبة: 118] يعني: إن استقاموا. وأخرج أبو الشيخ، عن الضحاک، مثله سواء. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الدلائل، عن مجاهد في قوله: ﴿اعترفوا بذنوبهم﴾ قال: هو أبو لبابة إذ قال لقريظة ما قال، وأشار إلى حلقه بأن محمداً يذبكم إن نزلتم على حكمه، والقصة منكرة في كتب السير. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي، في قوله: ﴿خلطوا عملاً صالحاً﴾ قال: غزوه مع رسول الله ﷺ ﴿وأخر سيئاً﴾ قال: تخلفهم عنه. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وصل عليهم﴾ قال: استغفر لهم من ذنوبهم التي كانوا أصابوها ﴿إن صلواتك سكن لهم﴾ قال: رحمة لهم. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما، عن عبد الله بن أبي أوفى قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتى بصدقة قال: «اللهم صل على آل فلان، فاتاه أبي بصدقته فقال: اللهم صل على آل أبي أوفى». وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿اعملوا فسيروا الله عملكم ورسوله﴾ قال: هذا وعيد من الله عز وجل. وأخرج أحمد، وأبو يعلى، وابن حبان، والحاكم، والبيهقي في الشعب، وابن أبي الدنيا، والضياء في المختارة، عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ قال: «لو أن أحلكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة، لأخرج الله عمله للناس كائناتاً ما كان». وأخرج ابن المنذر، عن عكرمة، في قوله: ﴿وأخرون مرجون لأمر الله﴾ قال: هم الثلاثة الذين خلفوا. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في الآية قال: هم هلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، وكعب بن مالك، من الأوس والخزرج. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي، في قوله: ﴿إما يعذبهم﴾ يقول: يميئتهم على معصية ﴿وإما يتوب عليهم﴾ فأرجأ أمرهم ثم

كعب القرظي: أخبرني عن أصحاب رسول الله ﷺ، وإنما أريد الفتنة، قال: إن الله قد غفر لجميع أصحاب النبي ﷺ، وأوجب لهم الجنة في كتابه محسنهم ومسيئهم، قلت له: وفي أي موضع أوجب الله لهم الجنة في كتابه؟ قال: إلا تقرأون قوله تعالى: ﴿والسابقون الأولون﴾ الآية أوجب لجميع أصحاب النبي ﷺ الجنة والرضوان، وشرط على التابعين شرطاً لم يشترطه فيهم. قلت: وما اشترط عليهم؟ قال: اشترط عليهم أن يتبعوهم بإحسان. يقول: يقتلون بهم في أعمالهم الحسنة، ولا يقتلون بهم في غير ذلك. قال أبو صخر: فوالله لكانني لم أقرأها قبل ذلك، وما عرفت تفسيرها حتى قرأها عليّ ابن كعب. وأخرج ابن مردويه من طريق الأوزاعي قال: حدثني يحيى بن أبي كثير، والقسم ومكحول، وعبد بن أبي لبابة، وحسان بن عطية، أنهم سمعوا جماعة من أصحاب النبي ﷺ يقولون لما أنزلت هذه الآية: ﴿والسابقون الأولون﴾ إلى قوله: ﴿ورضوا عنه﴾ قال رسول الله ﷺ: هذا لأمتي كلهم، وليس بعد الرضا سخط. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني في الأوسط، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس في قوله: ﴿وممن حولكم من الأعراب﴾ الآية، قال: قام رسول الله ﷺ يوم جمعة خطيباً، فقال: قم يا فلان فأخرج، فإنك منافق، أخرج يا فلان، فإنك منافق، فأخرجهم بأسمائهم ففضحهم، ولم يكن عمر بن الخطاب يشهد تلك الجمعة لحاجة كانت له، فلقبهم عمر وهم يخرجون من المسجد، فاختبأ منهم استحياء أنه لم يشهد الجمعة، وظن الناس قد انصرفوا، واختبئوا هم من عمر، وظنوا أنه قد علم بأمرهم، فدخل عمر المسجد، فإذا الناس لم ينصرفوا، فقال له رجل: أبشر يا عمر فقد فضح الله المنافقين اليوم، فهو: العذاب الأول، والعذاب الثاني: عذاب القبر. وأخرج ابن المنذر عن عكرمة في قوله: ﴿وممن حولكم من الأعراب﴾ قال: جهينة ومزينة، وأشجع واسلم وغفار. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن زيد، في قوله: ﴿مردوا على النفاق﴾ قال: أقاموا عليه، ولم يتوبوا كما تاب آخرون. وأخرج ابن المنذر، عن ابن جريج، في الآية قال: ماتوا عليه: عبد الله بن أبي، وأبو عامر الراهب، والجعد بن قيس. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿سعذبهم مرتين﴾ قال: بالجوع والقتل. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن أبي مالك، قال: قال: بالجوع وعذاب القبر. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي، عن قتادة قال: عذاب في القبر، وعذاب في النار. وقد روى عن جماعة من السلف نحو هذا في تعيين العذابين، والظاهر ما قلناه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وأخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً﴾ قال: كانوا عشرة رهط تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك. فلما حضر رجوع رسول الله ﷺ أوثق سبعة منهم انفسهم بسواري المسجد، وكان ممن النبي ﷺ

نسخها فقال: ﴿وعلى الثلاثة الذين خلفوا﴾ [التوبة: 118].

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا شِرْكًَا وَكَفَرُوا وَتَرَفُّوا بِرَبِّ الْمُؤْمِنِينَ
وَارْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَ
وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١٨﴾ لَا تَقْرَأُوا فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى
مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحْيُونَ أَنْ يَمُوتُوا وَاللَّهُ يُحْيِي
الْمُتْلِفِينَ ﴿١١٩﴾ أَفَمَنْ أُسِّسَ بُيُوتُهُ عَلَى تَقْوَى مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ
مَنْ أُسِّسَ بُيُوتُهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَاتَّكَرَ بِهِ فِي بَارِئِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا
يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٢٠﴾ لَا يَزَالُ بُعِثَتْهُمْ إِلَى بُرَاءِ رَبِّهِمْ فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا
أَنْ تَقَطَّ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٢١﴾

لما نكر الله أصناف المنافقين، وبين طرائقهم المختلفة، عطف على ما سبق هذه الطائفة منهم، وهم الذين اتخذوا مسجداً ضراراً، فيكون التقدير: ومنهم الذين اتخذوا على أن الذين مبتدأ، وخبره منهم المحنوف، والجملة معطوفة على ما تقدمها، ويجوز أن يكون الموصول في محل نصب على الذم. وقرأ المدنيون وابن عامر: ﴿الذين اتخذوا﴾ بغير واو، فتكون قصة مستقلة، الموصول مبتدأ، وخبره: ﴿لا تقم﴾ قاله الكسائي، وقال النحاس: إن الخبر هو ﴿لا يزال بنيانهم الذي بناوا﴾ وقيل الخبر محنوف، والتقدير يعذبون، وسيأتي بيان هؤلاء البائنين لمسجد الضرار، و﴿ضراراً﴾ منصوب على المصدرية، أو على العلية ﴿وكفراً وترففاً وإرصاداً﴾ معطوفة على ﴿ضراراً﴾ فقد أخبر الله سبحانه أن الباعث لهم على بناء هذا المسجد أمور أربعة: الأول: الضرار لغيرهم، وهو المضاررة. الثاني: الكفر بالله والمباهاة لاهل الإسلام، لأنهم أرادوا ببنايته تقوية أهل النفاق. الثالث: التفريق بين المؤمنين، لأنهم أرادوا أن لا يحضروا مسجد قباء، فتقل جماعة المسلمين، وفي ذلك من اختلاف الكلمة وبطلان الافة ما لا يخفى. الرابع: الإرصاد لمن حارب الله ورسوله: أي الإعداد لأجل من حارب الله ورسوله. قال الزجاج: الإرصاد الانتظار. وقال ابن قتيبة: الإرصاد الانتظار مع العداوة. وقال الأكثرون: هو الإعداد، والمعنى متقارب، يقال أرصدت لكذا: إذا أعددت مرتقباً له به. وقال أبو زيد: يقال رصدته وأرصدته في الخير، وأرصدت له في الشر. وقال ابن الأعرابي: لا يقال إلا أرصدت، ومعناه ارتقبت، والمراد بمن حارب الله ورسوله: المنافقون، ومنهم أبو عامر الراهب: أي أعدوه لهؤلاء، وارتقبوا به وصولهم، وانتظروهم ليلصوا فيه حتى يباهوا بهم المؤمنين، وقوله: ﴿من قبل﴾ متعلق باتخذوا: أي اتخذوا مسجداً من قبل أن يناقق هؤلاء ويبنوا مسجد الضرار، أو متعلق بحارب: أي لمن وقع منه الحرب لله ورسوله من قبل بناء مسجد الضرار. قوله: ﴿وليحلفنَّ إن أردنا إلا الحسنى﴾ أي: ما أردنا إلا الخصلة الحسنى، وهي: الرفق بالمسلمين، فرد الله عليهم بقوله: ﴿والله يشهد إنهم لكاذبون﴾ فيما حلفوا عليه، ثم نهى الله سبحانه رسوله ﷺ عن الصلاة في مسجد الضرار، فقال: ﴿لا تقم فيه

أبداً﴾ أي: في وقت من الأوقات، والنهي عن القيام فيه، يستلزم النهي عن الصلاة فيه. وقد يعبر عن الصلاة بالقيام، يقال فلان يقوم الليل: أي يصلي، ومنه الحديث الصحيح: «من قام رمضان إيماناً به واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه». ثم نكر الله سبحانه علة النهي عن القيام فيه بقوله: ﴿لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه﴾ واللام في ﴿لمسجد﴾ لام القسم، وقيل: لام الابتداء، وفي ذلك تأكيد لمضمون الجملة، وتأسيس البناء: تثبيته ورفع. ومعنى تأسيسه على التقوى: تأسيسه على الخصال التي تنقي بها العقوبة.

واختلف العلماء في المسجد الذي أسس على التقوى، فقالت طائفة: هو مسجد قباء، كما روي عن ابن عباس والضحاك، والحسن، والشعبي، وغيرهم. وذهب آخرون إلى أنه مسجد النبي ﷺ والأول: أرجح لما سيأتي قريباً إن شاء الله، و﴿من أول يوم﴾ متعلق بأسس: أي أسس على التقوى من أول يوم من أيام تأسيسه، قال بعض النحاة: إن ﴿من﴾ هنا بمعنى منذ: أي منذ أول يوم ابتدئ ببنايته، وقوله: ﴿أحق أن تقوم فيه﴾ خبر المبتدأ، والمعنى: لو كان القيام في غيره جائزاً لكان هذا أولى بقيامه فيه للصلاة ولنكر الله، لكونه أسس على لتقوى من أول يوم، ولكون ﴿فيه رجال يحبون أن يتطهروا﴾ وهذه الجملة مستأنفة لبيان أحقية قيامه ﷺ فيه: أي كما أن هذا المسجد أولى من جهة المحل، فهو أولى من جهة الحال فيه، ويجوز أن تكون هذه الجملة في محل نصب على الحال: أي حال كون فيه رجال يحبون أن يتطهروا، ويجوز أن تكون صفة أخرى لمسجد. ومعنى محبتهم للتطهر: أنهم يؤثرونه ويحرصون عليه عند عروض موجب، وقيل معناه: يحبون التطهر من الذنوب بالتوبة والاستغفار. والأول: أولى. وقيل يحبون أن يتطهروا بالحمل المطهرة من الذنوب فحموا جميعاً، وهذا ضعيف جداً. ومعنى محبة الله لهم: الرضا عنهم، والإحسان إليهم، كما يفعل المحب بمحبوبه. ثم بين سبحانه أن بين الفريقين بوناً بعيداً. فقال: ﴿أفمن أسس بنيانه﴾ والهمزة للإنكار التقريري، والبنيان مصدر كالعمران، وأريد به المبنى، والجملة مستأنفة. والمعنى: أن من أسس بناء دينه على قاعدة قوية محكمة، وهي تقوى الله ورضوانه، خير ممن أسس دينه على ضد ذلك، وهو الباطل والنفاق، والموصول مبتدأ، وخبره خير، وقرئ: «أسس بنيانه» على بناء الفعل للفاعل، ونصب بنيانه، واختار هذه القراءة أبو عبيدة، وقرئ على البناء للمجهول، وقرئ: «أسس بنيانه» بإضافة أسس إلى بنيانه، وقرئ: «أسس بنيانه» والمراد: أصول البناء، وحكى أبو حاتم قراءة أخرى، وهي «أسس بنيانه» على الجمع، ومنه:

أصبح الملك ثابت الأساس بالبهاليل من بني العباس
والشفا: الشفير، والجرف: ما يتجرف السيول، وهي:
الجوانب التي تنجرف بالماء، والاجتراف: اقتلاع الشيء من أصله، وقرئ بضم الراء من جرف وبإسكانها. والهار:

عبد الله بن حنيف، ووبيعه بن حزام، ومجمع بن جارية الأنصاري، فبنوا مسجد التفلق، فقال رسول الله ﷺ لبيدج: ويحك يا بجدج ما أريت إلى ما أرى، فقال: يا رسول الله والله ما أريت إلا الحسنى وهو كاتب، فصنّقه رسول الله ﷺ وأراد أن يعذره، فانزل الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضُرَارًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يعني: رجلاً يقال له أبو عامر، كان محارباً لرسول الله ﷺ، وكان قد انطلق إلى هرقل، وكلنا يرصنون إذا قدم أبو عامر أن يصلي فيه، وكان قد خرج من المدينة محارباً لله ولرسوله. وأخرج ابن إسحاق، وابن مروي، عنه، أيضاً قال: دعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم، فقال مالك لعاصم: أنظرني حتى أخرج إليك بنار من أهلي، فدخل على أهله فأخذ سعفات من نار، ثم خرجوا يشتنون حتى دخلوا المسجد وفيه أهله، فحرقوه وهمدوه، وخرج أهله ففترقوا عنه، فانزل الله هذه الآية. ولعل في هذه الرواية حذفاً بين قوله ﷺ دعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم وبين قوله فقال مالك لعاصم، ويبين ذلك ما أخرج ابن إسحاق، وابن مروي، عن أبي رهم: كلثوم بن الحصين الغفاري، وكان من الصحابة الذين بايعوا تحت الشجرة قال: أقبل رسول الله ﷺ حتى نزل بذى أوان: بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار، وكان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه وهو يتجهز إلى تبوك، فقالوا يا رسول الله: إنا بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة، والليله الشاتية، والليله المطيرة، وإنا نحب أن تاتينا فنصلي لنا فيه، قال: إني على جناح سفر، ولو قدمنا إن شاء الله أتيناكم فصلينا لكم فيه؛ فلما نزل بذى أوان أتاه خبر المسجد، فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم أخا بني سالم بن عوف، ومعن بن عدي، وأخاه عاصم بن عدي، أحد بني العجلان، فقال: انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله، فاهدماه وحرقاه، فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف، وهم رهط مالك بن الدخشم، فقال مالك لمعن: أنظرني حتى أخرج إليك، فدخل إلى أهله، فأخذ سعفاً من النخل، فأشعل فيه ناراً، ثم خرجا يشتدان، وفيه أهله فحرقاه وهمداه وتفرقوا عنه، ونزل فيهم من القرآن ما نزل: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضُرَارًا وَكُفْرًا﴾ إلى آخر القصة. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، إن الذين بنوا مسجد الضرار كانوا اثني عشر رجلاً، وذكر أسماءهم. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن خزيمة، وابن حبان، وأبو الشيخ، والحاكم، وابن مروي، والبيهقي في الدلائل، عن أبي سعيد الخدري قال: اختلف رجلان: رجل من بني خدره، وفي لفظ: تماريت أنا ورجل من بني عمرو بن عوف في المسجد الذي أسس على التقوى، فقال الخدري: هو مسجد رسول الله ﷺ، وقال العمري: هو مسجد قباء، فاتيا رسول الله ﷺ فسألاه عن ذلك فقال: هو هذا المسجد، لمسجد رسول الله ﷺ، وقال في ذلك خير

الساقط، يقال هار البناء: إذا سقط، وأصله هائر، كما قالوا: شاك السلاح، وشائك كذا، قال الزجاج. وقال أبو حاتم: إن أصله هاور. قال في شمس العلوم: الجرف ما جرف السيل أصله، وأشرف أعلاه فإن انصدع أعلاه فهو الهار اه جعل الله سبحانه هذا مثلاً لما بنوا عليه دينهم الباطل المضمحل بسرعة، ثم قال: ﴿فَانْهَارْ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ وفاعل فانهار، ضمير يعود إلى الجرف: أي فانهار الجرف بالبنيان في النار، ويجوز أن يكون الضمير في ﴿بِهِ﴾ يعود إلى من، وهو الباني. والمعنى: أنه طاع الباطل بالبناء، أو الباني في نار جهنم، وجاء بالانهيار الذي هو للجرف ترشيحاً للمجاز، وسبحان الله ما أبلغ هذا الكلام، وأقوى تراكيبه، وأوقع معناه، وأصح مناه. ثم نكر سبحانه أن بنيانهم هذا موجب لمزيد ريبهم، واستمرار ترددهم وشكهم فقال: ﴿لَا يَزَالُ بَنِيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي شكاً في قلوبهم ونفاقاً، ومنه قول النابغة:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب
وقيل معنى الريبة: الحسرة والندامة، لأنهم ندموا على بنيانهم. وقال المبرد: أي حرارة وغيطاً. وقد كان هؤلاء الذين بنوا مسجد الضرار منافقين شاكين في دينهم، ولكنهم ازدادوا بهدم رسول الله ﷺ نفاقاً وتصميماً على الكفر، ومقماً للإسلام، لما أصابهم من الغيظ الشديد، والغضب العظيم بهدمه، ثم نكر سبحانه ما يدل على استمرار هذه الريبة ونوامها، وهو قوله: ﴿لَا أَنْ تَقْطَعَ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: لا يزال هذا إلا أن تنقطع قلوبهم قطعاً، وتتفرق أجزاء: إما بالموت أو بالسيف، والمقصود أن هذه الريبة دائمة لهم ما داموا أحياء، ويجوز أن يكون نكر التقطع تصويراً لحال زوال الريبة. وقيل معناه: إلا أن يتوبوا توبة تنقطع بها قلوبهم نتماً وأسفاً على تفريطهم. وقرأ ابن عامر، وحزمة، وحفص، ويعقوب، وأبو جعفر، بفتح حرف المضارعة. وقرأ الجمهور بضمها. وروي عن يعقوب أنه قرأ «تقطع» بالتخفيف، والخطاب للنبي ﷺ: أي إلا أن تقطع يا محمد قلوبهم. وقرأ أصحاب عبد الله بن مسعود: «ولو تقطعت قلوبهم». وقرأ الحسن، ويعقوب، وأبو حاتم: «إلى أن تقطع» على الغاية. أي لا يزالون كذلك إلى أن يموتوا.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مروي، والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس، في قوله: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضُرَارًا﴾ قال: هم أناس من الأنصار ابتنوا مسجداً، فقال لهم أبو عامر الراهب: ابنوا مسجدكم واستمدوا بما استطعتم من قوة وسلاح، فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم، فأتني بجند من الروم، فأخرج محمداً وأصحابه؛ فلما فرغوا من مسجدهم، أتوا النبي ﷺ، فقالوا: قد فرغنا من بناء مسجدنا فيجب أن تصلي فيه، وتدعو بالبركة، فانزل الله: ﴿لَا تَقِيمُ فِيهِ لَبِداً﴾. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مروي، عنه، قال: لما بنى رسول الله ﷺ مسجد قباء خرج رجال من الأنصار منهم بجدج جد

أُخرجَه ابن خزيمة في صحيحه. وأخرج ابن ماجه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الجارود في المنتقى، والدارقطني، والحاكم، وابن مردويه، وابن عساكر، عن طلحة بن نافع، قال: حَدَّثَنِي أَبُو أَيُّوبَ، وَجَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، وَأَتِسْ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ لَمَّا نَزَلَتْ ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَتَى عَلَيْكُمْ خَيْرًا فِي الطَّهْوَرِ، فَمَا طَهُورَكُمْ هَذَا؟ قَالُوا: نَتَوَضَأُ لِلصَّلَاةِ وَنَغْتَسِلُ مِنَ الْجَنَابَةِ، قَالَ: فَهَلْ مَعَ ذَلِكَ غَيْرُهُ؟ قَالُوا: لَا، غَيْرَ أَنْ أَحَدُنَا إِذَا خَرَجَ إِلَى الْغَائِطِ أَحَبَّ أَنْ يَسْتَنْجِيَ بِالْمَاءِ، قَالَ: هُوَ ذَاكَ فَعَلَيْكُمْوه. وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ، وَاحْمَدُ، وَالْبُخَارِيُّ فِي تَارِيخِهِ، وَابْنُ جُرَيْرٍ، وَالْبُغْيَوِيُّ فِي مَعْجَمِهِ، وَالتَّبْرَانِيُّ وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ، وَأَبُو نَعِيمٍ فِي الْمَعْرِفَةِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: لَمَّا أَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَسْجِدَ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مَسْجِدَ قُبَاءَ فَقَالَ: إِنْ اللَّهُ قَدْ أَتَى عَلَيْكُمْ فِي الطَّهْوَرِ خَيْرًا أَقْلًا تَخْبِرُونِي؟ يَعْنِي: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ﴾ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا لَنَجِدُهُ مَكْتُوبًا عَلَيْنَا فِي التَّوْرَةِ الْإِسْتِنْجَاءُ بِالْمَاءِ، وَنَحْنُ نَفْعَلُهُ الْيَوْمَ. وَإِسْنَادُ أَحْمَدَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ هَكَذَا: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ أَدَمَ، حَدَّثَنِي مَالِكٌ، يَعْنِي ابْنَ مَغُولٍ، سَمِعْتُ سَيَّارًا أَبَا الْحَاكِمِ، عَنْ شُهْرَ بْنِ حَوْشَبٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ. وَقَدْ رَوَى عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ التَّابِعِينَ فِي نَكَرٍ سَبَبِ نَزُولِ الْآيَةِ نَحْوَ هَذَا. وَلَا يَخْفَاكَ أَنَّ بَعْضَ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ لَيْسَ فِيهِ تَعْيِينُ مَسْجِدِ قُبَاءَ وَأَهْلِهِ، وَبَعْضُهَا ضَعِيفٌ، وَبَعْضُهَا لَا تَصْرِيحَ فِيهِ بِأَنَّ الْمَسْجِدَ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى هُوَ مَسْجِدُ قُبَاءَ، وَعَلَى كُلِّ حَالٍ: لَا تُقَاوِمُ تِلْكَ الْأَحَادِيثِ الْمَصْرُوحَةُ بِأَنَّ الْمَسْجِدَ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى هُوَ مَسْجِدُ النَّبِيِّ ﷺ فِي صَحَّتِهَا وَصَرَّاحَتِهَا. وَأَخْرَجَ ابْنُ الْمُنْذَرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، فِي قَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّهُارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ قَالَ: يَعْنِي قَوَاعِدَهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ. وَأَخْرَجَ مُسْنَدُ فِي مُسْنَدِهِ، وَابْنُ جُرَيْرٍ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ، وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: لَقَدْ رَأَيْتُ اللَّخَانَ يَخْرُجُ مِنْ مَسْجِدِ الضَّرَارِ حَيْثُ انْتَهَارَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. وَأَخْرَجَ ابْنُ الْمُنْذَرِ، وَالبَيْهَقِيُّ فِي الدَّلَائِلِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ قَالَ: يَعْنِي الشُّكَّ ﴿إِلَّا أَنْ تَقْطَعَ قُلُوبُهُمْ﴾ يَعْنِي: الْمَوْتَ. وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَأَبُو الشَّيْخِ، عَنْ حَبِيبِ بْنِ أَبِي ثَابِتٍ، فِي قَوْلِهِ: ﴿رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ قَالَ: غِيظًا فِي قُلُوبِهِمْ ﴿إِلَّا أَنْ تَقْطَعَ قُلُوبُهُمْ﴾ قَالَ: إِلَى أَنْ يَمُوتُوا. وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، عَنْ سَفْيَانَ، فِي قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا أَنْ تَقْطَعَ قُلُوبُهُمْ﴾ قَالَ: إِلَّا أَنْ تَمُوتُوا.

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ
الْجَنَّةَ يُقْبَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ تَلَوُا وَتِلَاوَةً وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي
الْوَعْدَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِوَعْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبِشِرُوا
بِشَيْئِكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَعْلُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ آمَنُوا

كثير، يعني: مسجد قباء. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، والزهري بن بكار في أخبار المدينة، وأبو يعلى، وابن حبان، والطبراني، والحاكم في الكنى، وابن مردويه، عن سهل بن سعد الساعدي نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وابن المنذر، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والخطيب، والضياء في المختارة، عن أبي بن كعب قال: «سألت النبي ﷺ عن المسجد الذي أسس على التقوى قال: هو مسجدني هذا». وأخرج الطبراني، والضياء المقدسي في المختارة، عن زيد بن ثابت مرفوعاً مثله. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن مردويه، والطبراني، من طريق عروة بن الزبير، عن زيد بن ثابت قال: المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم مسجد النبي ﷺ. قال عروة: مسجد النبي ﷺ خير منه، إنما أنزلت في مسجد قباء. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن مردويه، عن ابن عمر، قال: المسجد الذي أسس على التقوى: مسجد النبي ﷺ. وأخرج المنكران عن أبي سعيد الخدري مثله. وقد روي عن جماعة غير هؤلاء مثل قولهم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس، أنه مسجد قباء. وأخرج أبو الشيخ، عن الضحاك، مثله. ولا يخفك أن النبي ﷺ قد عين هذا المسجد الذي أسس على التقوى، وجزم بأنه مسجده ﷺ، كما قلّمنا من الأحاديث الصحيحة، فلا يقاوم ذلك قول فرد من الصحابة ولا جماعة منهم، ولا غيرهم، ولا يصح لإيراده في مقابلة ما قد صحّ عن النبي ﷺ، ولا فائدة في إيراد ما ورد في فضل الصلاة في مسجد قباء، فإن ذلك لا يستلزم كونه المسجد الذي أسس على التقوى، على أن ما ورد في فضائل مسجده ﷺ أكثر مما ورد في فضل مسجد قباء، بلا شك ولا شبهة تعمّ. وأخرج أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: نزلت هذه الآية في أهل قباء: ﴿فيه رجال يحبون أن يتطهروا﴾ قال: وكانوا يستنجون بالماء فنزلت فيهم هذه الآية، وفي إسناده يونس بن الحارث، وهو ضعيف. وأخرج الطبراني، وأبو الشيخ، والحاكم، وابن مردويه، عن ابن عباس، قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿فيه رجال يحبون أن يتطهروا﴾ بعث رسول الله ﷺ إلى عويم بن ساعدة، فقال: ما هذا الطهور الذي أتى الله عليكم؟ فقالوا: يا رسول الله ما خرج منا رجل ولا امرأة من الغائط إلا غسل فرجه، أو قال: مقعته، فقال النبي ﷺ: هو هذا. وأخرج أحمد، وابن خزيمة، والطبراني، والحاكم، وابن مردويه، عن عويم بن ساعدة الأنصاري، أن النبي ﷺ اتهم في مسجد قباء فقال: إن الله قد أحسن عليكم الثناء في الطهور في قصة مسجلكم، فما هذا الطهور الذي تتطهرون به؟ قالوا: والله يا رسول الله ما نعلم شيئاً إلا أنه كان لنا جيران من اليهود، فكانوا يغسلون أنبارهم من الغائط فغسلنا كما غسلوا، رواه أحمد عن حسن بن محمد. حدثنا أبو أويس، حدثنا شريحيل عن عويم بن ساعدة، فنكره. وقد

لَمُتَّيْنِ أَنْتَهُمُ الْكَافِرُونَ الْكَافِرُونَ بِالْمَرْبِ وَالْكَافِرُونَ
عَنِ الشُّكْرِ وَالْمُحْطُونَ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ وَبَرُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٠﴾

لما شرح فضائح المنافقين وقبايحهم بسبب تخلفهم عن غزوة تبوك، وذكر أقسامهم، وفرّع على كل قسم منها ما هو لائق به، عاد على بيان فضيلة الجهاد والترغيب فيه، وذكر الشراء تمثيل، كما في قوله: ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى﴾ [البقرة: 16] مثل سبحانه إثابة المجاهدين بالجنة على بذلهم أنفسهم وأموالهم في سبيل الله بالشراء، وأصل الشراء بين العباد هو: إخراج الشيء عن الملك بشيء آخر مثله أو دونه، أو أنفع منه، فهولاء المجاهدون باعوا أنفسهم من الله بالجنة التي أعدّها للمؤمنين أي: بأن يكونوا من جملة أهل الجنة، وممن يسكنها فقد جادوا بأنفسهم، وهي أنفس الاعلاق، والجود بها غاية الجود:

يجود بالنفس إن ضلّ الجبان بها والجود بالنفس أقصى غاية الجود وجاد الله عليهم بالجنة، وهي أعظم ما يطلبه العباد، ويتوسلون إليه بالأعمال؛ والمراد بالأنفس هنا: أنفس المجاهدين، وبالأموال: ما ينفقونه في الجهاد. قوله: ﴿يقاتلون في سبيل الله﴾ بيان للبيع الذي يقتضيه الاشتراء المذكور، كأنه قيل كيف يبيعون أنفسهم وأموالهم بالجنة؟ فقيل يقاتلون في سبيل الله، ثم بيّن هذه المقاتلة في سبيل الله بقوله: ﴿فيقتلون ويقتلون﴾ والمراد أنهم يقدمون على قتل الكفار في الحرب، ويبذلون أنفسهم في ذلك، فإن فعلوا فقد استحقوا الجنة، وإن لم يقع القتل عليهم بعد الإبلاء في الجهاد، والتعرض للموت بالإقدام على الكفار. قرأ الأعمش، والنخعي، وحزمة، والكسائي «وخلص» بتقديم المبني للمفعول على المبني للفاعل. وقرأ الباقون بتقديم المبني للفاعل على المبني للمفعول. وقوله: ﴿وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن﴾ إخبار من الله سبحانه أن فريضة الجهاد واستحقاق الجنة بها قد ثبت الوعد بها من الله في التوراة والإنجيل، كما وقع في القرآن، وانتصاب وعداً وحقاً على المصدورية أو الثاني: نعت للآل، وفي التوراة متعلق بمحذوف: أي وعداً ثابتاً فيها. قوله: ﴿ومن أوفى بعهد من الله﴾ في هذا من تأكيد الترغيب للمجاهدين في الجهاد، والتنشيط لهم على بذل الأنفس والأموال، ما لا يخفى، فإنه أولاً أخبر بأنه قد اشترى منهم أنفسهم، وأموالهم، بأن لهم الجنة، وجاء بهذه العبارة الفخيمة، وهي كون الجنة قد صارت ملكاً لهم، ثم أخبر ثانياً بأنه قد وعد بذلك في كتبه المنزلة، ثم أخبر بأنه بعد هذا الوعد الصادق، لا بدّ من حصول الموعد به، فإنه لا أحد أوفى بعهد من الله سبحانه، وهو صادق الوعد لا يخلف الميعاد، ثم زادهم سروراً وجوراً، فقال: ﴿فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به﴾ أي: أظهروا السرور بذلك، والبشارة هي إظهار السرور، وظهوره يكون في بشرة الوجه، ولذا يقال أسارير الوجه: أي التي يظهر فيها السرور. وقد تقدّم إيضاح هذا، والفاء لترتيب

الاستبشار على ما قبله. والمعنى: أظهروا السرور بهذا البيع الذي بايعتم به الله عزّ وجلّ، فقد ربحتم فيه ربحاً لم يربحه أحد من الناس، إلا من فعل مثل فعلكم، والإشارة بقوله: ﴿ذلك﴾ إلى الجنة، أو إلى نفس البيع الذي ربحوا فيه الجنة، ووصف الفوز وهو الظفر بالمطلوب بالعظم، يدل على أنه فوز لا فوز مثله. قوله: ﴿التائبون﴾ خبر مبتدأ محذوف: أي هم التائبون، يعني: المؤمنون، والتائب الرجوع: أي هم الراجعون إلى طاعة الله عن الحالة المخالفة للطاعة. وقال الزجاج: الذي عندي أن قوله: ﴿التائبون العابدون﴾ رفع بالابتداء وخبره مضمّر: أي التائبون، ومن بعدهم إلى آخر الآية لهم الجنة أيضاً، وإن لم يجاهدوا. قال: وهذا أحسن، إذ لو كانت هذه أوصافاً للمؤمنين المذكورين في قوله: ﴿اشترى من المؤمنين﴾ لكان الوعد خاصاً بمجاهدين. وقد ذهب إلى ما ذهب إليه الزجاج من أن هذا الكلام منفصل عما قبله طائفة من المفسرين، وذهب آخرون إلى أن هذه الأوصاف راجعة إلى المؤمنين في الآية الأولى، وأنها على جهة الشرط: أي لا يستحق الجنة بتلك المبايعة إلا من كان من المؤمنين على هذه الأوصاف. وفي مصحف عبد الله بن مسعود: التائبين العابدين إلى آخرها - وفيه وجهان: أحدهما: أنها أوصاف للمؤمنين. الثاني: أن النصب على المدح. وقيل: إن ارتفاع هذه الأوصاف على البدل من ضمير يقاتلون، وجوز صاحب الكشف أن يكون التائبون مبتدأ، وخبره العابدون، وما بعده أخبار، كذلك أي: التائبون من الكفر على الحقيقة، الجامعون لهذه الخصال، وفيه من البعد ما لا يخفى، والعابدون القائمون بما أمروا به من عبادة الله مع الإخلاص. و﴿الحامدون﴾ الذين يحمدون الله سبحانه على السراء والضراء، و﴿السائحون﴾ قيل: هم الصائمون، وإليه ذهب جمهور المفسرين، ومنه قوله تعالى: ﴿عابدات سائحات﴾ [التحريم: 5] وإنما قيل للصائم سائح، لأنه يترك اللذات، كما يتركها السائح في الأرض، ومنه قول أبي طالب بن عبد المطلب:

وبالسائحين لا ينقون فطرة لربهم والراكذات العوامل
وقال آخر:

تراه يصلي ليله ونهاره يظل كثير الذكر لله سائحا
قال الزجاج: ومذهب الحسن أن السائحين ها هنا هم الذين يصومون الفرض، وقيل: إنهم الذين يديمون الصيام. وقال عطاء: السائحون المجاهدون. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: السائحون: المهاجرون. وقال عكرمة: هم الذين يسافرون لطلب الحديث والعلم. وقيل: هم الجائلون بأفكارهم في توحيد ربهم وملكوته، وما خلق من العبر. والسياحة في اللغة أصلها: الذهاب على وجه الأرض كما يسبح الماء، وهي مما يعين العبد على الطاعة لانقطاعه عن الخلق، ولما يحصل له من الاعتبار بالتفكير في مخلوقات الله سبحانه، و﴿الراكعون الساجدون﴾ معناه: المصلون، و﴿الأمرون بالمعروف﴾ القائمون بأمر الناس بما هو معروف في

في شعب الإيمان، من طريق عبيد بن عمير، عن أبي هريرة مرفوعاً مثله. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، وابن مريويه، وابن النجار، من طريق أبي صالح عن أبي هريرة مرفوعاً مثله. وأخرج ابن مريويه، عن ابن مسعود، مرفوعاً مثله. وقد روي عن أبي هريرة موقوفاً، وهو أصح من المرفوع من طريقه، وحديث عبيد بن عمير مرسل، وقد أسنده من طريق أبي هريرة في الرواية الثانية. وقد روي من قول جماعة من الصحابة مثل هذا: منهم عائشة عند ابن جرير، وابن المنذر، ومنهم ابن عباس عند ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبي الشيخ، ومنهم ابن مسعود، عند هؤلاء المنكرين قبله. وروي نحو ذلك عن جماعة من التابعين. وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم، والبيهقي في شعب الإيمان، عن أبي أمامة أن رجلاً استأذن رسول الله ﷺ في السباحة فقال: «إن سباحة أمي الجهاد في سبيل الله» وصححه عبد الحق. وأخرج أبو الشيخ، عن الربيع، في هذه الآية قال: هذه أعمال قال فيها أصحاب النبي ﷺ: إن الله قضى على نفسه في التوراة والإنجيل والقرآن لهذه الأمة أن من قتل منهم على هذه الأعمال كان عند الله شهيداً، ومن مات منهم عليها فقد وجب أجره على الله. وأخرج ابن المنذر، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، قال: الشهيد من لو مات على فراشه دخل الجنة. قال: وقال ابن عباس من مات وفيه تسع، فهو شهيد، وقرأ هذه الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ» قال: «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ» يعني: بالجنة، ثم قال: «الْمُتَابِعُونَ» إلى قوله: «وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ» يعني: القائمين على طاعة الله، وهو شرط اشتراطه الله على أهل الجهاد، وإذا وقوا الله بشرطه وفي لهم بشرطهم.

مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالْأَنْبِيَاءِ أَمْوَالٌ أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَى مِنْ بَدَى مَا بَكَرَ لَهُمْ أَمْوَالُهُمْ أَتَتْهُمْ أَسْوَاقُ الْبَازِيرِ ﴿٥٥﴾ وَمَا كَانَتْ أَسْوَاقُ الْبَازِيرِ إِلَّا عَنْ مُوَاعِدَةٍ وَرَدَّهَا بِإِتَاءٍ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ عَدُوٌّ لِلَّهِ وَرَبِّهِمْ مِنْهُ إِذَا يُرْجَوْنَ لَأَكْذِبُنَّ كِبَرَهُمْ ﴿٥٦﴾

لما بين الله سبحانه في أول السورة وما بعده أن البراءة من المشركين والمنافقين واجبة، بين سبحانه هنا ما يزيد ذلك تأكيداً، وصرح بأن ذلك محتتم، ولو كانوا أولي قربى، وأن القرابة في مثل هذا الحكم لا تأثير لها. وقد نكر أهل التفسير أن «ما كان» في القرآن يأتي على وجهين: الأول: على النفي نحو: «ما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله» [آل عمران: 145]، والآخر: على معنى النهي نحو: «ما كان لكم أن تؤذوا رسول الله» [الأحزاب: 53] و «ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين» وهذه الآية متضمنة لقطع الموالاة للكفار، وتحريم الاستغفار لهم، والدعاء بما لا يجوز لمن كان كافراً، ولا يناقض هذا ما ثبت عنه ﷺ في الصحيح أنه قال يوم أحد حين كسر

الشريعة «والناهاون عن المنكر» القائمون بالإنكار على من فعل منكراً: أي شيئاً ينكره الشرع «والحافظون لحدود الله» القائمون بحفظ شرائعه التي أنزلها في كتبه، وعلى لسان رسله، وإنما أدخل الواو في الوصفين الآخرين، وهما «والناهاون عن المنكر» و«الحافظون» الخ، لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمنزلة خصلة واحدة، ثم عطف عليه الحافظون بالواو لقربه؛ وقيل: إن العطف في الصفات يجيء بالواو وبغيرها، كقوله: «غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب» [غافر: 3]، وقيل: إن الواو زائدة؛ وقيل: هي واو الثمانية المعروفة عند النحاة، كما في قوله تعالى: «ثيبات وإبكاراً» [التحريم: 5]، وقوله: «وفتحت أبوابها» [الزمر: 73]، وقوله: «سبعة وثامنهم كلبهم» [الكهف: 22]، وقد أنكروا والثمانية أبو علي الفارسي وناظره في ذلك ابن خالويه «وبشر المؤمنين» الموصوفين بالصفات السابقة.

وقد أخرج ابن جرير، عن محمد بن كعب القرظي، وغيره قالوا: «قال عبد الله بن رواحة لرسول الله ﷺ: اشترط لربك ولنفسك ما شئت، قال: اشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، واشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم، قالوا: فإذا فعلنا ذلك فما لنا؟ قال: الجنة، قال: ربح البيع لا نقيلاً ولا نستقيلاً، فنزلت: «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ» الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مريويه، عن جابر بن عبد الله، قال: أنزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ وهو في المسجد «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ» فكبر الناس في المسجد، فاقبل رجل من الأنصار ثانياً طرفي رداءه على عاتقه، فقال: يا رسول الله أنزلت هذه الآية؟ قال: نعم، فقال الأنصاري: بيع ربيع لا نقيلاً ولا نستقيلاً. وقد أخرج ابن سعد، عن عباد بن الصامت، أن النبي ﷺ اشترط في بيعة العقبة على من بايعه من الأنصار: أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنه رسول الله، وقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، والسمع والطاعة، ولا ينازعوا في الأمر أهله، ويمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأهليهم، قالوا: نعم؛ قال قائل الأنصار: نعم، هذا لك يا رسول الله، فما لنا؟ قال: الجنة. وأخرجه ابن سعد أيضاً من وجه آخر، وليس في قصة العقبة ما يدل على أنها سبب نزول الآية. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، عن ابن عباس، قال: من مات على هذه التسع، فهو في سبيل الله: «الْمُتَابِعُونَ الْعَابِدُونَ» إلى آخر الآية. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، وابن المنذر، عن ابن عباس، قال: الشهيد من كان فيه التسع الخصال المذكورة في هذه الآية. وأخرج أبو الشيخ عنه قال: العابدون الذين يقيمون الصلاة. وأخرج أبو الشيخ، وابن مريويه، والبيهقي في شعب الإيمان، عنه، أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «أول من يدعى إلى الجنة الحمائم الذين يحمدون الله على السراء والضراء». وأخرج ابن جرير، عن عبيد بن عمير، قال: سئل النبي ﷺ عن السائحين، فقال: هم الصائمون. وأخرج الفريابي، وابن جرير، والبيهقي

استغفر لها، روي ذلك عن أبي أيوب. وقيل: هو الشفيق قاله عبد العزيز بن يحيى. وقيل: إنه المعلم للخير. وقيل: إنه الراجع عن كل ما يكرهه الله قاله عطاء. والمطابق لمعنى الأَوَاه لغة أن يقال إنه الذي يكثُر التَّأَوُّه من ذنوبه، فيقول مثلاً: آه من ذنوبي آه، مما أعاقب به بسببها، ونحو ذلك، وبه قال الفراء، وهو مروى عن أبي ذرٍّ، ومعنى التَّأَوُّه هو: أن يسمع للصدر صوت من تنفس الصعداء. قال في الصحاح: وقد أَوَّه الرجل تأوَّيهًا، وتأوَّه تأوَّهًا إذا قال أَوَّه، والاسم منه آهة بالمد، قال:

إذا ما قمت أرحلها بليل تأوَّه آهة الرجل الحزين
﴿وَالْحَلِيم﴾ الكثير الحلم، كما تفيد صيغة المبالغة، وهو الذي يصفح عن الذنوب، ويصبر على الأذى؛ وقيل: الذي لا يعاقب أحداً قط إلا الله.

وقد أخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما، عن سعيد بن المسيب، عن أبيه، قال: لما حضرت الوفاة أبا طالب دخل النبي ﷺ، وعنده أبو جهل وعبد الله بن أمية، فقال النبي ﷺ: أي عمّ قل لا إله إلا الله أحاج لك بها عند الله، فقال أبو جهل وعبد الله بن أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فجعل رسول الله ﷺ يعرضها عليه، وأبو جهل وعبد الله، يعاندانه بتلك المقالة. فقال أبو طالب آخر ما كلمهم: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله. فقال النبي ﷺ: لاستغفرنَّ لك ما لم أنه عنك، فنزلت: **﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾** الآية، وأنزل الله في أبي طالب: **﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾** [القصص: 56].

وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، والترمذي، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في شعب الإيمان، والضياء في المختارة، عن عليّ قال: سمعت رجلاً يستغفر لأبويه وهما مشركان، فقلت تستغفر لأبويك وهما مشركان؟ فقال: أو لم يستغفر إبراهيم لأبيه؟ فنكرت ذلك للنبي ﷺ فنزلت: **﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾** الآية. وأخرج ابن سعد، وابن عساکر، عن عليّ قال: أخبرني النبي ﷺ بموت أبي طالب، فبكى، فقال: اذهب ففسله وكفنه، ووراة غفر الله له ورحمه، ففعلت، وجعل رسول الله ﷺ يستغفر له أياماً ولا يخرج من بيته حتى نزل عليه **﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾** الآية. وقد روي كون سبب نزول الآية: استغفار النبي ﷺ لأبي طالب من طرق كثيرة: منها عن محمد بن كعب، عند ابن أبي حاتم وأبي الشيخ، وهو مرسل. ومنها عن عمرو بن دينار، عند ابن جرير، وهو مرسل أيضاً. ومنها عن سعيد بن المسيب، عند ابن جرير، وهو مرسل أيضاً. ومنها عن عمر بن الخطاب عند ابن سعد، وأبي الشيخ وابن عساکر. ومنها عن الحسن البصري عند ابن عساکر، وهو مرسل. وروي أنها نزلت بسبب زيارة النبي ﷺ لقبر أمه، واستغفاره لها، من طريق ابن عباس عند الطبراني وابن مردويه، ومن طريق ابن مسعود عند ابن أبي حاتم، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل، وعن

المشركون رباعيته وشجوا وجهه: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون، لأنه يمكن أن يكون ذلك قبل أن يبلغه تحريم الاستغفار للمشركين، وعلى فرض أنه قد كان بلغه، كما يفيد سبب النزول، فإنه قبل يوم أحد بمدة طويلة، وسيأتي، فصدور هذا الاستغفار منه لقومه إنما كان على سبيل الحكاية عن تقصُّم من الأنبياء، كما في صحيح مسلم عن عبد الله، قال: كآني انظر إلى النبي ﷺ يحكي نبياً من الأنبياء ضربه قومه، وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون. وفي البخاري، أن النبي ﷺ ذكر نبياً قبله شجّه قومه، فجعل النبي ﷺ يخبر عنه بأنه قال: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون. قوله: **﴿مَنْ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾** هذه الجملة تتضمن التعليل للنهي عن الاستغفار، والمعنى: أن هذا التبيين موجب لقطع الموالاة لمن كان هكذا، وعدم الاعتداد بالقرابة؛ لأنهم ماتوا على الشرك. وقد قال سبحانه: **﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾** [النساء: 116] فطلب المغفرة لهم في حكم المخالفة لوعد الله ووعيده. قوله: **﴿وَمَا كَانَ لِاسْتِغْفَارِ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ﴾** الآية: ذكر الله سبحانه السبب في استغفار إبراهيم لأبيه، أنه كان لأجل وعد تقدّم من إبراهيم لأبيه بالاستغفار له، ولكنه ترك ذلك وتبرأ منه لما تبين له أنه عدوُّ الله، وأنه غير مستحق للاستغفار، وهذا يدلُّ على أنه إنما وعده قبل أن يتبين له أنه من أهل النار، ومن أعداء الله، فلا حاجة إلى السؤال الذي يورده كثير من المفسرين، أنه كيف خفي ذلك على إبراهيم، فإنه لم يخف عليه تحريم الاستغفار لمن أصرَّ على الكفر ومات عليه، وهو لم يعلم ذلك إلا بإخبار الله سبحانه له بأنه عدوُّ الله، فإن ثبوت هذه العداوة تدلُّ على الكفر، وكذلك لم يعلم نبينا ﷺ بتحريم ذلك إلا بعد أن أخبره الله بهذه الآية، وهذا حكم إنما يثبت بالسمع لا بالعقل. وقيل المراد من استغفار إبراهيم لأبيه: دعاؤه إلى الإسلام، وهو ضعيف جداً. وقيل المراد بالاستغفار في هذه الآية: النهي عن الصلاة على جنانز الكفار، فهو كقوله: **﴿وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً﴾** [التوبة: 84] ولا حاجة إلى تفسير الاستغفار بالصلاة ولا ملجئ إلى ذلك، ثم ختم الله سبحانه هذه الآية بالثناء العظيم على إبراهيم. فقال: **﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ﴾** وهو كثير التَّأَوُّه، كما تدلُّ على ذلك صيغة المبالغة.

وقد اختلف أهل العلم في معنى الأَوَّاه، فقال ابن مسعود، وعبيد بن عمير: إنه الذي يكثُر الدعاء. وقال الحسن، وقتادة: إنه الرَّحِيم بعباد الله. وروي عن ابن عباس: أنه المؤمن بلغه الحبشة. وقال الكلبي: إنه الذي ينكر الله في الأرض للكفر. وروي مثله: عن ابن المسيب، وقيل: الذي يكثُر النكر لله من غير تقييد، روي ذلك عن عتبة بن عامر. وقيل: هو الذي يكثُر التلاوة، حكى ذلك عن ابن عباس. وقيل: إنه الفقيه، قاله مجاهد والنخعي، وقيل: المتضرع الخاضع، روى ذلك عن عبد الله بن شاذان بن الهاد. وقيل: هو الذي إذا نكر خطايا

بريدة عند ابن مروييه، وما في الصحيحين مقمّم على ما لم يكن فيهما، على فرض أنه صحيح، فكيف وهو ضعيف غالبه. وأخرج ابن المنذر، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبِّيَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ إلى قوله: ﴿كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: 23 - 24] قال: ثم استثنى فقال: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن قتادة، في قوله: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ﴾ قال: تبين له حين مات وعلم أن التوبة قد انقطعت منه. وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وأبو بكر الشافعي في قوائده، والضياء في المختارة، عن ابن عباس قال: لم يزل إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات، فلما مات تبين له أنه عدو لله، فغضب منه. وأخرج ابن مروييه، عن جابر، أن رجلاً كان يرفع صوته بالنكر، فقال رجل: لو أن هذا خفض صوته؟ فقال رسول الله ﷺ: دعه فإنه أواه. وأخرج الطبراني وابن مروييه، عن عقبة بن عامر، أن رسول الله ﷺ قال لرجل يقال له نو النجابين: إنه أواه، وذلك أنه كان يكثر نكر الله بالقرآن والدعاء. وأخرجه أيضاً أحمد قال: حدثنا موسى بن لهيعة، عن الحارث بن يزيد، عن علي بن رباح، عن عقبة بن عامر، فذكره. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مروييه، عن عبد الله بن شداد بن الهاد قال: قال رجل: يا رسول الله ما الأواه؟ قال: الخاشع المتضرع الدعاء. وهذا إن ثبت وجب المصير إليه وتقديمه على ما نكره أهل اللغة في معنى الأواه، وإسناده عند ابن جرير هكذا: حدثني المثنى، حدثني الحجاج بن منهال، حدثنا عبد الحميد بن بهرام، حدثنا شهر بن حوشب، عن عبد الله بن شداد، فذكره. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لِأَوْاهٍ حَلِيمٌ﴾ قال: كان من حلمه أنه كان إذا أذاه الرجل من قومه قال له: هداك الله.

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُخِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ يَسْتَوِيَّ لَهُمْ مَا يَفْعَلُونَ إِنَّ اللَّهَ بَكِلِي أَمْرِهُمْ عَلَيْهِ ﷻ إِنَّ اللَّهَ لَمَّا تِلْكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﷻ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَىٰ النَّبِيِّ وَالْمُشْكِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ أَقْبَعُوا فِي سَاعَةِ الْمُنْهَرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ فَلَوْلَاقِي وَنَهَمَتْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُمْ بِهِمْ رُدُّوا رَجِعُوا ﷻ وَكَلَّ اللَّهُ الْأَنْفُسَ الْأَرِيضَ خَلُّوا حَتَّىٰ إِذَا سَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَكَلَّلُوا أَن لَّمْ يَلْحَاقُوا إِلَّا إِلَهِهُ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْوَلِيُّ الرَّحِيمُ ﷻ يَأْتِيَنَّ الْأَنْفُسَ مَا أَمَرُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكَرِهُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﷻ

لما نزلت الآية المتقدمة في النهي عن الاستغفار للمشركين، خاف جماعة ممن كان يستغفر لهم العقوبة من الله بسبب ذلك الاستغفار، فأنزل الله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا﴾ إلخ: أي أن الله سبحانه لا يوقع الضلال على قوم، ولا يسميهم ضلالاً بعد أن هداهم إلى الإسلام، والقيام

بشرائعه، مالم يقدموا على شيء من المحرمات بعد أن يتبين لهم أنه محرّم، وأما قبل أن يتبين لهم ذلك، فلا إثم عليهم ولا يؤاخذون به، ومعنى: ﴿حَتَّىٰ يَبَيَّنَ لَهُمْ مَا يَفْعَلُونَ﴾ حتى يتبين لهم ما يجب عليهم اتقاؤه من محرمات الشرع ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ مما يحلّ لعباده، ويحرم عليه، ومن سائر الأشياء التي خلقها، ثم بين لهم أن له سبحانه ملك السموات والأرض لا يشاركه في ذلك مشارك، ولا ينازعه منازع يتصرف في ملكه بما شاء من التصرفات التي من جملتها أنه يحيي من قضت مشيئته بإحيائه، ويميت من قضت مشيئته بإماتته، وما لعباده من نونه من ولي يواليهم، ولا نصير ينصرهم، فلا يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى، فإن القرابة لا تنفع شيئاً ولا تؤثر أثراً، بل التصرف في جميع الأشياء لله وحده. قوله: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ﴾ فيما وقع منه ﷺ من الإثني في التخلف، أو فيما وقع منه من الاستغفار للمشركين. وليس من لازم التوبة أن يسبق الذنب ممن وقعت منه أوله، لأن كل العباد محتاج إلى التوبة والاستغفار. وقد تكون التوبة منه تعالى على النبي من باب أنه ترك ما هو الأولى، والأليق، كما في قوله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لَمَ أَتَيْتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: 43]، ويجوز أن يكون نكر النبي ﷺ لأجل التعريض للمؤمنين بأن يتجنبوا الذنوب، ويتوبوا عما قد لا يسوه منها، وكذلك تاب الله سبحانه على المهاجرين والانصار، فيما قد اقترفوه من الذنوب. ومن هذا القبيل ما صرح عنه ﷺ من قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اطَّلَعَ عَلَىٰ أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غُفِرَ لَكُمْ﴾ ثم وصف سبحانه المهاجرين والانصار بأنهم الذين اتبعوا النبي ﷺ، فلم يتخلفوا عنه، وساعة العسرة هي غزوة تبوك، فإنهم كانوا في عسرة شديدة، فالمراد بالساعة جميع أوقات تلك الغزاة، ولم يرد ساعة بعينها، والعسرة صعوبة الأمر. قوله: ﴿مَنْ بَعْدَ مَا كَادَ تَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ في كاد ضمير الشأن، وقلوب مرفوع بتزيغ عند سيبويه؛ وقيل: هي مرفوعة بكاد، ويكون التقدير من بعد ما كان قلوب فريق منهم تزيغ. وقرأ الأعمش وحمة وحفص «يزيغ» بالتحية. قال أبو حاتم: من قرأ بالياء التحية، فلا يجوز له أن يرفع القلوب بكاد. قال النحاس: والذي لم يجزه جائز عند غيره على تنكير الجمع، ومعنى: ﴿تَزِيغُ﴾ تتلف بالجهد والمشقة والشدة؛ وقيل معناه: تميل عن الحق وتترك المناصرة والممانعة؛ وقيل معناه: تهّم بالتخلف عن الغزو لما هم فيه من الشدة العظيمة. وفي قراءة ابن مسعود «من بعد ما زاعت» وهم المتخلفون على هذه القراءة. وفي تكرير التوبة عليهم بقوله: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ تأكيد ظاهر واعتناء بشأنها، هذا إن كان الضمير راجعاً إلى من تقدّم نكر التوبة عنهم، وإن كان الضمير إلى الفريق فلا تكرار. قوله: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا﴾ أي: وتاب على الثلاثة الذين خلفوا: أي أخروا، ولم تقبل توبتهم في الحال كما قبلت توبة أولئك المتخلفين المتقدم ذكرهم. قال ابن جرير: معنى خلفوا

تركوا، يقال خلفت فلاناً فارقته. وقرأ عكرمة بن خالد «خلفوا» بالتخفيف: أي أقاموا بعد نهوض رسول الله ﷺ والمؤمنين إلى الغزو. وقرأ جعفر بن محمد «خالفوا» وهؤلاء الثلاثة: هم كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، أو ابن ربيعة العامري، وهلال بن أمية الواقفي، وكلهم من الأنصار لم يقبل النبي ﷺ توبتهم، حتى نزل القرآن بأن الله قد تاب عليهم؛ وقيل معنى خلفوا: فسدوا، مأخوذ من خلوف الفم. قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ معناه: أنهم أخروا عن قبول التوبة إلى هذه الغاية، وهي وقت أن ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وما مصدرية: أي برحبها، لإعراض الناس عنهم وعدم مكالمتهم من كل أحد، لأن النبي ﷺ نهى الناس أن يكالموهم. والرحب: الواسع. يقال: منزل رحب ورحيب ورحاب. وفي هذه الآية دليل على جواز هجران أهل المعاصي تأنيباً لهم؛ لينزجروا عن المعاصي. ومعنى ضيق أنفسهم عليهم: أنها ضاقت صدورهم بما نالهم من الوحشة وبما حصل لهم من الجفوة، وعبر بالظن في قوله: ﴿وَوَظَنُوا أَن لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾ عن العلم: أي علموا أن لا ملجأ يُلجئون إليه قط، إلا إلى الله سبحانه بالتوبة والاستغفار. قوله: ﴿فَمَ تَابَ عَلَيْهِمُ لِيَتُوبُوا﴾ أي: رجع عليهم بالقبول والرحمة، وأنزل في القرآن التوبة عليهم ليستقيموا أو وفقهم للتوبة فيما يستقبل من الزمان إن فرطت منهم خطيئة ليتوبوا عنها، ويرجعوا إلى الله فيها ويندموا على ما وقع منهم ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ﴾ أي: الكثير القبول لتوبة التائبين، ﴿الرَّحِيمُ﴾ أي: الكثير الرحمة لمن طلبها من عباده. قوله: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ هذا الأمر بالكون مع الصادقين بعد قصة الثلاثة فيه الإشارة إلى أن هؤلاء الثلاثة حصل لهم بالصدق ما حصل من توبة الله، وظاهر الآية الأمر للعباد على العموم.

وقد أخرج ابن مريويه، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ﴾ قال: نزلت حين أخذوا الفداء من المشركين يوم الأسارى. قال: لم يكن لكم أن تأخذوه حتى يؤذن لكم، ولكن ما كان الله ليعذب قوماً بنذوب أنبوه ﴿حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمُ مَا يَتَّقُونَ﴾ قال: حتى ينهاهم قبل ذلك. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، في الآية قال: بيان الله للمؤمنين في الاستغفار للمشركين خاصة، وفي بيانه طاعته ومعصيته غامض ما فعلوا أو تركوا. وأخرج ابن جرير، وابن خزيمة، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي، والضياء في المختارة، عن ابن عباس، أنه قال: لعمر بن الخطاب: حدثنا من شأن ساعة العسرة، فقال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلاً فاصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنتقطع، حتى إن الرجل لينحر بعبيره، فيعصر فرثه، فيشربه ويجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله، إن الله قد عونك في الدعاء خيراً فادع لنا، فرفع يديه، فلم يرجعهما

وقد أخرج ابن مريويه، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ﴾ قال: نزلت حين أخذوا الفداء من المشركين يوم الأسارى. قال: لم يكن لكم أن تأخذوه حتى يؤذن لكم، ولكن ما كان الله ليعذب قوماً بنذوب أنبوه ﴿حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمُ مَا يَتَّقُونَ﴾ قال: حتى ينهاهم قبل ذلك. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، في الآية قال: بيان الله للمؤمنين في الاستغفار للمشركين خاصة، وفي بيانه طاعته ومعصيته غامض ما فعلوا أو تركوا. وأخرج ابن جرير، وابن خزيمة، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي، والضياء في المختارة، عن ابن عباس، أنه قال: لعمر بن الخطاب: حدثنا من شأن ساعة العسرة، فقال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلاً فاصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنتقطع، حتى إن الرجل لينحر بعبيره، فيعصر فرثه، فيشربه ويجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله، إن الله قد عونك في الدعاء خيراً فادع لنا، فرفع يديه، فلم يرجعهما

في قوله: ﴿مَا كَانَ لَأَهْلِ الْمَدِينَةِ مَعَ قَوْمِهِ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْجِعُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ لَا يُحِبُّونَهُمْ ظُلْمًا وَلَا نَصَبًا وَلَا عَمَلَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَتَّقُونَ مَوَاطِنَ تَقِيصُ الْكَفَّارُ وَلَا يَأْتُونَ مِنْ عَدُوٍّ يُكَذِّبُ إِلَّا كَيْدَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ مُبْتَلًى إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِلُّ أُمَّرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٠﴾ وَلَا يَتَّقُونَ نَفَقَةَ صَوْبَةٍ وَلَا كَيْدَ وَلَا يَتَّقُونَ وَادِيًا إِلَّا كَيْدَ لَمْ يَجْعَلْهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَحْسَبُونَ ﴿١١١﴾﴾

في قوله: ﴿مَا كَانَ لَأَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ الخ، زيادة تأكيد لوجوب الغزو مع رسول الله ﷺ، وتحريم التخلف عنه: أي ما صح وما استقام لأهل المدينة ﴿وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ كمزينة وجهينة، وأشجع وأسلم وغفار ﴿إِنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ﴾، في غزوة تبوك، وإنما

وقد أخرج ابن أبي حاتم من طريق عمر بن مالك، عن بعض الصحابة قال: لما نزلت ﴿وَمَا كَانَ لَأَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ الآية، قال رسول الله ﷺ: «والذي بعثني بالحق لولا ضعفاء الناس ما كانت سرية إلا كنت فيها». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن زيد، في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لَأَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ قال هذا حين كان الإسلام قليلاً لم يكن لأحد أن يتخلف عن رسول الله ﷺ، فلما كثر الإسلام وفشا قال الله: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾ [التوبة: 122]. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الأوزاعي، وعبد الله بن المبارك، وإبراهيم بن محمد الفزاري، وعيسى بن يونس السبيعي، أنهم قالوا في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَتَالَوْنَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً﴾ قالوا: هذه الآية للمسلمين إلى أن تقوم الساعة.

﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾ فَلَوْلَا نَزَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لَسَفَّهُوا فِي الَّذِينَ يَضُرُّوهُمُ وَإِنَّا رَجَمْنَا إِلَيْهِمْ لَعْنَهُمْ يُحْذَرُونَ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْمَلُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

اختلف المفسرون في معنى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾ فذهب جماعة إلى أنه من بقية أحكام الجهاد. لأن سبحانه لما بالغ في الأمر بالجهاد والانتداب إلى الغزو، كان المسلمون إذا بعث رسول الله ﷺ سرية من الكفار ينفرون جميعاً ويتركون المدينة خالية، فأخبرهم الله سبحانه بأنه ما كان لهم ذلك: أي ما صح لهم، ولا استقام أن ينفروا جميعاً، بل ينفر من كل فرقة منهم طائفة من تلك الفرقة، ويبقى من عدا هذه الطائفة النافرة. قالوا: ويكون الضمير في قوله: ﴿لِيَتَفَقَّهُوا﴾ عائداً إلى الفرقة الباقية. والمعنى: أن الطائفة من هذه الفرقة تخرج إلى الغزو، ومن بقي من الفرقة يفتقون لطلب العلم، ويعلمون الغزاة إذا رجعوا إليهم من الغزو، أو يذهبون في طلبه إلى المكان الذي يجنون فيه من يتعلمون منه، ليأخذوا عنه الفقه في الدين، وينثروا قومهم وقت رجوعهم إليهم. وذهب آخرون إلى أن هذه الآية ليست من بقية أحكام الجهاد، وهي حكم مستقل بنفسه في مشروعية الخروج لطلب العلم، والتفقه في الدين، جعله الله سبحانه متصلاً بما دل على إيجاب الخروج إلى الجهاد، فيكون السفر نوعين: الأول: سفر الجهاد، والثاني: السفر لطلب العلم. ولا شك أن وجوب الخروج لطلب العلم إنما يكون إذا لم يجد الطالب من يتعلم منه في الحضر من غير سفر. والفقه: هو العلم بالأحكام الشرعية، وبما يتوصل به إلى العالم بها من لغة ونحو، وصرف وبيان وأصول. ومعنى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ﴾ فهلا نفر، والطائفة في اللغة: الجماعة. وقد جعل الله سبحانه الغرض من هذا هو التفقه في الدين، وإنذار من لم يتفقه. فجمع بين المقصدين الصالحين والمطلبين الصحيحين، وهما تعلم العلم وتعليمه، فمن كان غرضه بطلب العلم غير هذين، فهو طالب لغرض دنيوي لا لغرض ديني، فهو كما قلت:

خصهم الله سبحانه لأنهم قد استنفروا، فلم ينفروا، بخلاف غيرهم من العرب، فإنهم لم يستنفروا مع كون هؤلاء لقربهم وجوارهم أحق بالنصرة والمتابعة لرسول الله ﷺ ﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِنَفْسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ أي: وما كان لهم أن يرغبوا بأنفسهم عن نفسه، فيشحون بها ويصونونها، ولا يشحون بنفس رسول الله، ويصونونها كما شحوا بأنفسهم وصانوها، يقال رغبت عن كذا: أي ترفعت عنه، بل واجب عليهم أن يكابدوا معه المشاق، ويجاهدوا بين يديه أهل الشقاق. ويبذلوا أنفسهم دون نفسه؛ وفي هذا الإخبار معنى الأمر لهم مع ما يفيد إirاده على هذه الصيغة من التوبيخ لهم، والتفريع الشديد، والتهيج لهم، والإزراء عليهم. والإشارة بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ إلى ما يفيد السياق من وجوب المتابعة لرسول الله ﷺ: أي ذلك الوجوب عليهم بسبب أنهم مثابون على أنواع المتاعب، وأصناف الشدائد. والظما: العطش، والنصب: التعب، والمخمصة: المجاعة الشديدة التي يظهر عندها ضمور البطن. وقرأ عبيد بن عمير «ظماء» بالمد. وقرأ غيره بالقصر، وهما لغتان مثل خطأ وخطاء، و﴿لَا﴾ في هذا المواضع زائدة للتأكيد. ومعنى ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ في طاعة الله. قوله: ﴿وَلَا يَطْشُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾ أي: لا يدوسون مكاناً من أمكنة الكفار باقدامهم، أو بحوافر خيولهم أو بأخفاف راحلهم، فيحصل بسبب ذلك الغيظ للکفار. والموطئ: اسم مكان، ويجوز أن يكون مصدرًا ﴿وَلَا يَتَالَوْنَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً﴾ أي: يصيبون من عدوهم قتلاً أو أسراً أو هزيمة أو غنيمة، وأصله من نلت الشيء: اتل: أي أصيب. قال الكسائي: هو من قولهم أمر منيل منه، وليس هو من التناول، إنما التناول من نلته بالعطية. قال غيره: نلت أنول من العطية، ونلته أناله: أدركته، والضمير في ﴿بِهِ﴾ يعود إلى كل واحد من الأمور المذكورة، والعمل الصالح: الحسنة المقبولة: أي إلا كتبه الله لهم حسنة مقبولة يجازيهم بها، وجملة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ لِحَرِّ الْمُحْسِنِينَ﴾ في حكم التعليل لما سبق مع كونه يشمل كل محسن، ويصنق على المنكوريين هنا صدقاً أولياً. قوله: ﴿وَلَا يَنْفَقُونَ نَفَقَةً﴾ معطوف على ما قبله: أي ولا يقع منهم الإنفاق في الحرب، وإن كان شيئاً صغيراً يسيراً ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ وهو في الأصل كل منفرج بين جبال وأكام يكون منفذاً للسيل، والعرب تقول: واد وأودية على غير قياس. قال النحاس: ولا يعرف فيما علمت فاعل وأفعلة ﴿إِلَّا كَتَبَ لَهُمْ﴾ أي: كتب لهم ذلك الذي عملوه من النفقة والسفر في الجهاد ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ﴾ به ﴿لِحَسَنٍ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: أحسن جزاء ما كانوا يعملون من الأعمال، ويجوز أن يكون في قوله: ﴿إِلَّا كَتَبَ لَهُمْ﴾ ضمير يرجع إلى عمل صالح. وقد ذهب جماعة إلى أن هذه الآية منسوخة بالآية المذكورة بعدها، وهي قوله: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾ [التوبة: 122] فإنها تدل على جواز التخلف من البعض، مع القيام بالجهاد من البعض، وسيأتي.

وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن حذيفة، قال: كنا نسمع في كل عام كذبة أو كذبتين، فيضل بها فئام من الناس كثير. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿نَظَرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ قال: هم المنافقون. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، قال: لا تقولوا انصرفنا من الصلاة، فإن قوماً انصرفوا، صرف الله قلوبهم ولكن قولوا قضينا الصلاة. وأخرج ابن أبي شيبة، عن ابن عمر، نحوه. وأقول: الانصراف يكون عن الخير، كما يكون عن الشر، وليس في إطلاقه هنا على رجوع المنافقين عن مجلس الخير ما يدل على أنه لا يطلق إلا على نحو ذلك، وإلا لزم أن كل لفظ يستعمل في لغة العرب في الأمور المتعددة إذا استعمل في القرآن في حكاية ما وقع من الكفار، لا يجوز استعماله في حكاية ما وقع من أهل الخير، كالرجوع والذهاب، والنحول والخروج، والقيام والقعود. واللازم باطل بالإجماع، فالملزوم مثله، ووجه الملازمة ظاهر لا يخفى. وأخرج عبد بن حميد، والحاثر بن أبي أسامة، في مسنده، وابن المنذر، وابن مردويه، وأبو نعيم، في دلائل النبوة، وابن عساکر، عن ابن عباس، في قوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ قال: ليس من العرب قبيلة إلا وقد ولدت النبي ﷺ مضرها وربيعها ويمانيها. وأخرج ابن سعد عنه، في قوله: ﴿مَنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ قال: قد وليتموه يا معشر العرب. وأخرج عبد الرزاق في المصنف، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، وأبو الشيخ، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، في قوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ قال: لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية، وقال رسول الله ﷺ: «خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح» وهذا فيه انقطاع، ولكنه قد وصله الحافظ الرامهرمزي في كتابه الفاصل بين الراوي والواعي، فقال: حدثنا أبو أحمد، يوسف بن هرون بن زياد، حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا محمد بن جعفر بن محمد قال: أشهد على أبي يحيى، عن أبيه، عن جده، عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: «خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم إلى أن ولدني أبي وأمي». وأخرج ابن مردويه، عن أنس، قال: «قرأ رسول الله ﷺ ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ فقال علي بن أبي طالب: يا رسول الله ما معنى من أنفسكم؟ قال: نسباً وصبراً وحسباً، ليس في ولا في آبائي من لدن آدم سفاح كلنا نكاح». وأخرج الحاكم، عن ابن عباس، «أن رسول الله ﷺ قرأ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ يعني: من أعظمكم قدراً». وأخرج ابن سعد عنه نحو حديث علي الأول. وأخرج الطبراني عنه أيضاً نحوه. وأخرج ابن سعد، وابن عساکر، عن عائشة، نحوه. وفي الباب أحاديث بمعناه، ويؤيد ما في صحيح مسلم، وغيره، من حديث وثالة بن الأسقع قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل،

من آلهم، أو عن ما يقتضى الهداية والإيمان إلى ما يقتضى الكفر والتفارق، ثم دعا الله سبحانه عليهم، فقال: ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ أي: صرفها عن الخير وما فيه الرشد لهم والهداية، وهو سبحانه مصرف القلوب ومقلبها؛ وقيل المعنى: أنه خذلهم عن قبول الهداية؛ وقيل: هو دعاء لا يراد به وقوع مضمونه، كقولهم: قاتله الله. ثم نكر سبحانه السبب الذي لأجله انصرفوا عن مواطن الهداية، أو السبب الذي لأجله استحقوا الدعاء عليهم بقوله: ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ فقال: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ما يسمعون له لعدم تبهرهم وإنصافهم، ثم ختم الله سبحانه هذه السورة بما يهون عنده بعض ما اشتملت عليه من التكاليف الشاقة، فقال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ﴾ يا معشر العرب ﴿رَسُولٌ﴾ أرسله الله إليكم، له شأن عظيم ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ من جنسكم في كونه عربياً وإلى كون هذه الآية خطاباً للعرب ذهب جمهور المفسرين. وقال الزجاج: هي خطاب لجميع العالم. والمعنى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ﴾ جنسكم في البشرية ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ ما مصيرية. والمعنى: شاق عليه عنيتكم لكونه من جنسكم، ومبعوثاً لهداييتكم، والعنت: التعب لهم والمشقة عليهم بعذاب الدنيا بالسيف ونحوه، أو بعذاب الآخرة بالنار، أو بمجموعهما ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: شحيح عليكم بأن تدخلوا النار، أو حريص على إيمانكم. والأول: أولى، وبه قال الفراء. والرءوف: الرحيم، قد تقدم بيان معناهما: أي هذا الرسول ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ منكم أيها العرب أو الناس ﴿وَرَعُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ثم قال مخاطباً لرسوله ومسلماً له، ومرشداً له، إلى ما يقوله عند أن يعصى ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي: أعرضوا عنكم ولم يعملوا بما جئت به ولا قبلوه ﴿فَقُلْ﴾ يا محمد ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ أي: كافي الله سبحانه المنفرد بالالوهية ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي: فوّضت جميع أموري ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ وصفه بالعظم، لأنه أعظم المخلوقات. وقد قرأ الجمهور بالجر على أنه صفة لعرش. وقرأ ابن محيصن بالرفع صفة لرب. وقد رويت هذه القراءة عن ابن كثير.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس، في قوله: ﴿فَإِنَّمَا لِلَّذِينَ آمَنُوا قُرْآنُهُمْ إِيْمَانًا﴾ قال: كان إذا نزلت سورة آمنوا بها فزادهم الله إيماناً وتصديقاً، وكانوا بها يستبشرون. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي، في قوله: ﴿رَجَسًا إِلَى رَجْسِهِمْ﴾ قال: شكاً إلى شكهم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿أَوَّلَ يَرَوْنَ بِأَنَّهُمْ يُفَتَنُونَ﴾ قال: يقتلون. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، نحوه وقال: بالسنة والجوع. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الحسن، قال: بالعدو. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة، قال: بالغزو في سبيل الله. وأخرج أبو الشيخ، عن بكار بن مالك، قال: يمرضون في كل عام مرة أو مرتين. وأخرج ابن مردويه، عن أبي سعيد، قال: كانت لهم في كل عام كذبة أو كذبتان. وأخرج ابن جرير،

تفسير سورة يونس

هي مكية إلا ثلاث آيات من قوله: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ﴾ إلى آخره [يونس: 94 - 96]، هكذا روى القرطبي في تفسيره عن ابن عباس. وحكي عن مقاتل أنها مكية إلا آيتين، وهي قوله: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ﴾ [يونس: 94] فإنها نزلت في المدينة. وحكي عن الكلبي أنها مكية إلا قوله: ﴿وَمِنْهُمْ من لا يؤمن به﴾ [يونس: 40] فإنها نزلت بالمدينة. وحكي عن الحسن، وعكرمة، وعطاء، وجابر، أنها مكية من غير استثناء. وأخرج النحاس، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس، قال: نزلت سورة يونس بمكة. وأخرج أبو الشيخ عن ابن سيرين قال: كانت سورة يونس بعد السابعة. وأخرج ابن مردويه، عن أنس، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله أعطاني الرائيات إلى الطواسين مكان الإنجيل». وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن الأحنف، قال: صليت خلف عمر غداة فقرأ يونس وهود وغيرهما.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّيَّةَ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ أَكُنْ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّكَ هَذَا سَاحِرٌ كَذِبٌ ﴿٢﴾ إِذْ رَكَضَتْهُ الْآلَةُ حَقَّ السَّمَكِ وَالْأَنْفُسُ فِي سَيْتَةِ الْإِمَامِ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ بِذِي الْأَمْرِ مَا مِنْ شَيْعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذِي. ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُمْ يَبْدَأُ الْفَلَاقَ ثُمَّ يُبِيدُهُمْ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾

قوله: ﴿الرَّيَّةَ﴾ قد تقدّم الكلام مستوفى على هذه الحروف الواقعة في أوائل السور في أول سورة البقرة، فلا نعيده. ففيه ما يغني عن الإعادة. وقد قرأ بالإمالة أبو عمرو، وحمزة، وخلف، وغيرهم. وقرأ جماعة من غير إمالة؛ وقد قيل: إن معنى ﴿الرَّيَّةَ﴾ أنا الله أرى. قال النحاس: ورايت أبا إسحاق يميل إلى هذا القول، لأن سيبويه قد حكى مثله عن العرب، وأنشد:

بالخير خيرات وإن شرافا

أي: وإن شراً فشر. وقال الحسن وعكرمة ﴿الرَّيَّةَ﴾ قسم، وقال سعيد عن قتادة ﴿الرَّيَّةَ﴾ اسم للسورة، وقيل: غير ذلك مما فيه تكلف لعلم ما استأثر الله بعلمه، وقد اتفق القراء على أن ﴿الرَّيَّةَ﴾ ليس بآية، وعلى أن طه آية، وفي مقنع أبي عمر، والداني، أن العاديين لطف آية هم: الكوفيون فقط، قيل: ولعل الفرق أن ﴿الرَّيَّةَ﴾ لا يشاكل مقاطع الآي التي بعده، والإشارة بقوله: ﴿تلك﴾ إلى ما تضمنته السورة من الآيات، والتباعد للتعظيم، واسم الإشارة مبتدأ وخبره ما بعده. وقال

واصفى من ولد إسماعيل بني كنانة، واصله من بني كنانة قريشاً، واصله من قريش بني هاشم، واصله من بني هاشم. وأخرج أحمد، والترمذي وحسنه، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي، عن العباس بن عبد المطلب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله حين خلق الخلق جعلني من خير خلقه، ثم حين فرقهم جعلني في خير الفريقين، ثم حين خلق القبائل جعلني من خير قبيلة، وحين خلق الأنفس جعلني من خير أنفسهم، ثم حين خلق البيوت جعلني من خير بيوتهم، فإنا خيرهم بيتاً وخيرهم نفساً، وفي الباب أحاديث. وأخرج ابن أبي شيبة، وإسحاق بن راهويه، وابن منيع، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل من طريق يوسف بن مهران، عن ابن عباس، عن أبي بن كعب، قال: آخر آية أنزلت على النبي ﷺ، وفي لفظ: آخر ما أنزل من القرآن: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ إلى آخر الآية، وروي عنه نحوه من طريق أخرى: أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند، وابن الضريس، في فضائله، وابن أبي داود في المصاحف، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل، والخطيب في تلخيص المتشابه، والضياء في المختارة. وأخرج ابن مردويه، عن سعد بن أبي وقاص، قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة جاءت جهينة فقالوا له: إنك قد نزلت بين أظهرنا فاثق لنا نأمنك وتأمنا قال: ولم سألتهم هذا؟ قالوا: نطلب الأمن، فأنزل الله هذه الآية: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ يعني: الكفار تولوا عن النبي ﷺ. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه، قال: إنما سمي العرش عرشاً لارتفاعه، وقد رويت أحاديث كثيرة في صفة العرش وماهيته، وقدره.

وإلى هنا انتهى الثلث الأول من التفسير المسمى: «فتح القدير» الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، بقلم مؤلفه: محمد بن علي الشوكاني، غفر الله لهما. وكان تمام هذا الثلث في نهار يوم الثلاثاء لعله يوم عشرين من شهر محرم سنة 1227 هـ.

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وآله وصحبه أجمعين.

الحمد له: انتهى سماعاً على مؤلفه. أطال الله مئته في شهر جمادى الأولى من عام سنة 1235 هـ.

يحيى بن علي الشوكاني

غفر الله لهما أمين

مجاهد وقتادة: أراد التوراة والإنجيل وسائر الكتب المتقدمة، فإن تلك إشارة إلى غائب مؤنث، وقيل: **«تلك»** بمعنى هذه: أي هذه آيات الكتاب الحكيم، وهو القرآن، ويؤيد كون الإشارة إلى القرآن أنه لم يجر للكتب المتقدمة نكر، وأن الحكيم من صفات القرآن لا من صفات غيره، و**«الحكيم»** المحكم بالحلال والحرام، والحدود والأحكام، قاله أبو عبيدة وغيره؛ وقيل: الحكيم معناه الحاكم، فهو فعيل بمعنى فاعل، كقوله: **«وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه»** [البقرة: 213]؛ وقيل: الحكيم بمعنى المحكوم فيه، فهو فعيل بمعنى مفعول: أي حكم الله فيه بالعدل والإحسان، قاله الحسن وغيره؛ وقيل: الحكيم ذو الحكمة؛ لاشتغاله عليها، والاستفهام في قوله: **«إكان للناس عجباً»** لإنكار العجب مع ما يفيد من التقرير والتوبيخ، واسم كان **«أن أوحينا»** وخبرها **«عجباً»** أي: إكان إيحائنا عجباً للناس. وقرأ ابن مسعود «عجب» على أنه اسم كان، على أن كان تامة، و**«أن أوحينا»** بدل من عجب. وقرأ بإسكان الجيم من «رجل» في قوله: **«إلى رجل منهم»** أي: من جنسهم، وليس في هذا الإيحاء إلى رجل من جنسهم ما يقتضى العجب، فإنه لا يلبس الجنس ويرشده ويخبره عن الله سبحانه، إلا من كان من جنسه، ولو كان من غير جنسهم لكان من الملائكة، أو من الجن، ويتعذر المقصود حينئذ من الإرسال، لأنهم لا يأنسون إليه، ولا يشاهدونه، ولو فرضنا تشككه لهم وظهوره، فيما أن يظهر في غير شكل النوع الإنساني، وذلك أوحش لقلوبهم وأبعد من أنفسهم، أو في الشكل الإنساني، فلا بد من إنكارهم لكونه في الأصل غير إنسان، هذا إن كان العجب منهم لكونه من جنسهم، وإن كان لكونه يتيماً أو فقيراً، فذلك لا يمنع من أن يكون من كان كذلك جامعاً من خصال الخير والشرف ما لا يجمعه غيره وبالعاقبة في كمال الصفات إلى حد يقصر عنه من كان غنياً، أو كان غير يتيماً، وقد كان لرسول الله ﷺ قبل أن يصطفيه الله بإرساله من خصال الكمال عند قریش ما هو أشهر من الشمس، وأظهر من النهار، حتى كانوا يسمونه الأمين: قوله: **«إن أئدر للناس»** في موضع نصب بنزع الخافض: أي بأن أنذر الناس، وقيل هي المفسرة لأن في الإيحاء معنى القول، وقيل: هي المخففة من الثقيلة، قوله: **«قدم صدق»** أي: منزل صدق، وقال الزجاج: درجة عالية، ومنه قول ذي الرمة:

لكم قدم لا ينكر الناس أنها مع الحساب العالي طمت على البحر
وقال ابن الأعرابي: القدم المتقدم في الشرف، وقال أبو عبيدة والكسائي: كل سابق من خير أو شر، فهو عند العرب قدم: يقال: فلان قدم في الإسلام، وله عندي قدم صدق، وقدم خير، وقدم شر؛ ومنه قول العجاج:

زل بنو العوام عند آل الحكم وتركوا الملك لملك ذي قدم
وقال ثعلب: القدم كل ما قدمت من خير، وقال ابن الأنباري: القدم كناية عن العمل الذي لا يقع فيه تأخير، ولا إبطاء، وقال قتادة: سلف صدق، وقال الربيع: ثواب صدق،

وقال الحسن: هو محمد ﷺ، وقال الحكيم الترمذي: قدمه ﷺ في المقام المحمود، وقال مقاتل: أعمالاً قاموها واختاره ابن جرير، ومنه قول الواضح:

صل لذي العرش واتخذ قوماً ينجيك يوم الخصام والزلزل
وقيل غير ما تقدم مما لا حاجة إلى التطويل بإيراده. قوله: **«قال الكافرون إن هذا لسحر مبين»**. قرأ ابن كثير، وعاصم، وحزمة، والكسائي، وخلف، والأعمش، وابن محيصن «لساحر» على أنهم أرادوا رسول الله ﷺ باسم الإشارة. وقرأ الباقر «لسحر» على أنهم أرادوا القرآن، وقد تقدم معنى السحر في البقرة، وجملة: **«قال الكافرون»** مستأنفة كأنه قيل: ماذا صنعوا بعد التعجب؛ وقال القفال: فيه إضمار، والتقدير: فلما أنذرهم قال الكافرون ذلك. ثم إن الله سبحانه جاء بكلام يبطل به العجب الذي حصل للكفار من الإيحاء إلى رجل منهم، فقال: **«إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام»** أي: من كان له هذا الاقتدار العظيم الذي تضيق العقول عن تصوّره، كيف يكون إرساله لرسول إلى الناس من جنسهم محلاً للتعجب مع كون الكفار يعترفون بذلك، فكيف لا يعترفون بصحة هذه الرسالة بهذا الرسول، وقد تقدم تفسير هذه الآية في الأعراف في قوله: **«إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش»** [الأعراف: 54] فلا نعيده هنا، ثم ذكر ما يدل على مزيد قدرته وعظيم شأنه فقال: **«يبصر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذن»**، وترك العاطف، لأن جملة يدبر كالتفسير والتفصيل، لما قبلها؛ وقيل: هي في محل نصب على الحال من ضمير استوى؛ وقيل: مستأنفة جواب سؤال مقدر، وأصل التدبير النظر في أدبار الأمور وعواقبها؛ لتقع على الوجه المقبول. وقال مجاهد: يقضيه ويقدره وحده، وقيل: يبعث الأمر، وقيل: ينزل الأمر، وقيل: يأمر به ويمضيه، والمعنى متقارب، واشتقاقه من البصر، والأمر الشأن، وهو أحوال ملكوت السموات والأرض، والعرش، وسائر الخلق. قال الزجاج: إن الكفار الذين خاطبوا بهذه الآية كانوا يقولون إن الأصنام شفعائنا عند الله، فرد الله عليهم بأنه ليس لأحد أن يشفع إليه في شيء إلا بعد إذن، لأنه أعلم بموضع الحكمة والصواب. وقد تقدم معنى الشفاعة في البقرة، وفي هذا بيان لاستبداده بالأمر في كل شيء سبحانه وتعالى، والإشارة بقوله: **«تلكم»** إلى فاعل هذه الأشياء من الخلق والتدبير: أي الذي فعل هذه الأشياء العظيمة **«الله ربكم»** واسم الإشارة مبتدأ، وخبره: الاسم الشريف، وربكم: بدل منه، أو بيان له، أو خبر ثان، وفي هذه الجملة زيادة تأكيد لقوله: **«إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض»** ثم أمرهم سبحانه بعبادته بعد أن بين لهم أنه الحقيق بها دون غيره لبديع صنعه وعظيم اقتداره، فكيف يعبدون الجمادات التي لا تسمع ولا تبصر، ولا تنفع ولا تضر؟ والاستفهام في قوله: **«أفلا تذكرون»** للإنكار، والتوبيخ، والتقرير: لأن من له أدنى تذكر، وأقل اعتبار، يعلم بهذا ولا يخفى عليه، ثم بين لهم ما يكون آخر

إليهم﴾ [الأنبياء: 7] الآية، فلما كثر الله سبحانه عليهم الحج قالوا: وإذا كان بشراً، فقير محمد كان أحق بالرسالة، ﴿لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ [الزخرف: 31] يقول: أشرف من محمد، يعنون الوليد بن المغيرة من مكة، ومسعود بن عمرو الثقفي من الطائف، فأنزل الله رداً عليهم: ﴿أهم يقسمون رحمة ربك﴾ [الزخرف: 32] الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عنه، في قوله: ﴿وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم﴾ قال: ما سبق لهم من السعادة في الذكر الأول. وأخرج ابن جرير، عنه، أيضاً قال: أجراً حسناً بما قدموا من أعمالهم. وأخرج أبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن مسعود، قال: القدم هو العمل الذي قدموا. قال الله سبحانه: ﴿نكتب ما قدموا وأثأرهم﴾ [يس: 12] والآثار ممشاهم. قال: مشى رسول الله ﷺ بين أسطواناتين من مسجدهم ثم قال: هذا أثر مكتوب. وأخرج ابن مردويه، عن أبي سعيد الخدري، في قوله: ﴿قدم صدق﴾ قال: محمد ﷺ يشفع لهم. وأخرج ابن مردويه، عن علي بن أبي طالب مثله. وأخرج الحاكم، وصححه، عن أبي بن كعب، قال: سلف صدق. والروايات عن التابعين وغيرهم في هذا كثيرة، وقد قدمنا أكثرها. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿ييسر الأمر﴾ قال: يقضيه وحده، وفي قوله: ﴿إنه يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ قال: يحييه ثم يميتة ثم يحييه.

هُوَ الَّذِي جَعَلَ السَّمْعَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ يُنَزَّلُونَ عَدَدَ النُّجُومِ وَالْحَسَابَ مَا عَلَّمَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّ فِي خُلُوفِ أَلْيَافِ النَّخْلِ وَمَا حَقَّقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١١﴾

نكر ها هنا بعض نعمه على المكلفين، وهي مما يستدل به على وجوده ووحدته، وقدرته وعلمه، وحكمته بإتقان صنعه في هذين النيرين المتعاقبين على الدوام، بعدما ذكر قبل هذا إيداعه للسموات والأرض، واستواءه على العرش، وغير ذلك. والضياء قيل: جمع ضوء، كالسياط والحياض. وقرأ قنبل عن ابن كثير «ضياء» بجعل الياء همزة مع الهمزة، ولا وجه له لأن ياءه كانت واواً مفتوحة، وأصله: «ضواء» فقلبت ياء لكسر ما قبلها. قال المهدوي: ومن قرأ ضياء بالهمزة فهو مقلوب قُذِمَت الهمزة التي بعد الألف، فصارت قبل الألف، ثم قلبت الياء همزة، والأولى: أن يكون ضياء مصدراً لا جمعاً، مثل قام يقوم قياماً، وصام يصوم صياماً، ولا بد من تقدير مضاف: أي: جعل الشمس ذات ضياء والقمر ذا نور إلا أن يحمل على المبالغة، وكأنهما جعلتا نفس الضياء والنور. قيل: الضياء أقوى من النور، وقيل الضياء هو ما كان بالذات، والنور ما كان بالعرض، ومن هنا قال الحكماء: إن نور القمر مستفاد من ضوء الشمس. قوله: ﴿وقدّره منازل﴾ أي: قدر مسيره في منازل، أو قدره ذا منازل، والضمير راجع إلى القمر، ومنازل القمر:

أمرهم بعد الحياة الدنيا، فقال: ﴿إليه مرجعكم جميعاً﴾ وفي هذا من التهديد والتخويف ما لا يخفى، وانتصاب: ﴿وعد الله﴾ على المصدر؛ لأن في قوله: ﴿إليه مرجعكم جميعاً﴾ معنى الوعد أو هو منصوب بفعل مقدر، والمراد بالمرجع الرجوع إليه سبحانه: إما بالموت، أو بالبعث، أو بكل واحد منهما، ثم أكد ذلك الوعد بقوله: ﴿حَقّاً﴾ فهو تأكيد لتأكيد، فيكون في الكلام من الوكادة ما هو الغاية في ذلك. وقرأ ابن أبي عبيدة ﴿وعد الله حق﴾ على الاستثناء، ثم علل سبحانه ما تقدم بقوله: ﴿إنه يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ أي: إن هذا شأنه يبتدئ خلقه من التراب ثم يعيده إلى التراب، أو معنى الإعادة الجزاء يوم القيامة. قال مجاهد: ينشئه ثم يميتة، ثم يحييه للبعث؛ وقيل ينشئه من الماء ثم يعيده من حال إلى حال. وقرأ يزيد بن القعقاع: أنه يبدأ الخلق بفتح الهمزة، فتكون الجملة في وضع نصب بما نصب به وعد الله: أي وعلمك أنه يبدأ الخلق ثم يعيده، ويجوز أن يكون التقدير لأنه يبدأ الخلق، وأجاز الفراء أن تكون «أن» في موضع رفع، فتكون اسماً. قال أحمد بن يحيى بن ثعلب يكون التقدير حقاً إبداءه الخلق، ثم ذكر غاية ما يترتب على الإعادة فقال: ﴿ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط﴾ أي: بالعدل الذي لا جور فيه ﴿والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب ليم بما كانوا يكفرون﴾ يحتمل أن يكون الموصول الآخر معطوفاً على الموصول الأول: أي ليجزي الذين آمنوا، ويجزي الذين كفروا، وتكون جملة: ﴿لهم شراب من حميم﴾ في محل نصب على الحال، هي وما عطف عليها: أي وعذاب اليم، ويكون التقدير هكذا، ويجزي الذين كفروا حال كون لهم هذا الشراب وهذا العذاب، ولكن يشكل على ذلك أن هذا الشراب وهذا العذاب الاليم هما من الجزاء، ويمكن أن يقال: إن الموصول في ﴿والذين كفروا﴾ مبتدأ وما بعده خبره، فلا يكون معطوفاً على الموصول الأول، والباء في ﴿بما كانوا يكفرون﴾ للسببية: أي بسبب كفرهم، والحميم: الماء الحار، وكل مسخن عند العرب، فهو حميم.

وقد أخرج ابن مردويه، عن ابن عباس، في قوله: ﴿الزَّ﴾ قال: فواتح أسماء من أسماء الله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي في الأسماء والصفات، وابن النجار في تاريخه، عنه، قال: في قوله: ﴿الزَّ﴾ أنا الله أرى. وأخرج ابن المنذر، عن سعيد بن جبير، مثله. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الضحاک، مثله أيضاً. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي مالك، في قوله: ﴿تلك آيات الكتاب﴾ قال: يعني هذه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة، في قوله: ﴿تلك آيات الكتاب﴾ قال: الكتب التي خلت قبل القرآن. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس، قال: لما بعث الله محمداً ﷺ رسولاً أنكرت العرب ذلك، أو من أنكر منهم، فقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد، فأنزل الله: ﴿إكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم﴾ الآية ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي

فيها، وأن خالقها وخالقهم ما أهملهم، بل جعلها لهم دار عمل، وإذا كان كذلك فلا بد من أمر ونهي.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي، في قوله تعالى: ﴿جَعَلَ لِلشَّمْسِ ضِيَاءً وَالْقَمَرِ نُورًا﴾ قال: لم يجعل الشمس كهية القمر لكي يعرف الليل من النهار، وهو قوله: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ [الإسراء: 12]. وأخرج أبو الشيخ، وابن مروي، عن ابن عباس، في الآية قال: وجوهما إلى السموات، واقفيتهما إلى الأرض. وأخرج ابن مروي، عن عبد الله بن عمرو، مثله. وأخرج أبو الشيخ، عن خليفة العبد، قال: لو أن الله تبارك وتعالى لم يعبد إلا عن رؤية ما عبده أحد، ولكن المؤمنون تفكروا في مجيء هذا الليل إذا جاء فعلاً كل شيء، وغطى كل شيء، وفي مجيء سلطان النهار إذا جاء فمحا سلطان الليل، وفي السحاب المسخر بين السماء والأرض، وفي النجوم، وفي الشتاء والصيف، فوالله ما زال المؤمنون يتفكرون فيما خلق ربهم تبارك وتعالى حتى أيقنت قلوبهم ببرهم.

إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا رَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا الْكَافِرِينَ لَا يَأْمُرُونَ بِالْغَيْرِ إِلَّا بِالْإِذْنِ مِنْ رَبِّهِمْ يُحَرِّمُونَ النَّارَ الَّتِي هُمْ فِيهَا مَكِينٌ ﴿٩﴾ وَقَدْ جَاءَهُمْ بَيِّنَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ يُخْفُونَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿١١﴾ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢﴾

شرح الله سبحانه في شرح أحوال من لا يؤمن بالمعاد، ومن يؤمن به، وقدم الطائفة التي لم تؤمن، لأن الكلام في هذه السورة مع الكفار الذين يعجبون مما لا عجب فيه، ويهملون النظر والتفكر فيما لا ينبغي إهماله مما هو مشاهد لكل حي طول حياته، فيتسبب عن إهمال النظر، والتفكر الصانق: عدم الإيمان بالمعاد، ومعنى الرجاء هنا الخوف، ومنه قول الشاعر:

إذا لست النحل لم يرج لسعها وخالفها في بيت نوب عواسل
وقيل يرجون: يطمعون، ومنه قول الشاعر:

أترجو بني مروان سمعي وطاعتي وقومي تميم والفلاة ورائيا
فالمعنى على الأول: لا يخافون عقاباً. وعلى الثاني: لا يطمعون في ثواب إذا لم يكن المراد باللقاء حقيقة؛ فإن كان المراد به حقيقته كان المعنى: لا يخافون رؤيتنا أو لا يطمعون في رؤيتنا؛ وقيل المراد بالرجاء هنا: التوقع، فيدخل تحته الخوف والطمع، فيكون المعنى: ﴿لا يرجون لقاءنا﴾ لا يتوقعون لقاءنا، فهم لا يخافونه، ولا يطمعون فيه ﴿ورضوا بالحياة الدنيا﴾ أي: رضوا بها عرضاً عن الآخرة، فعملوا لها ﴿واطمأننوا بها﴾ أي: سكنت أنفسهم إليها، وفرحوا بها ﴿والذين هم عن آياتنا غافلون﴾ لا يعتبرون بها، ولا يتفكرون فيها ﴿أولئك ماوهم﴾ أي: ماثوهم، ومكان إقامتهم النار، والإشارة إلى المتصفين بالصفات السابقة من عدم الرجاء، وحصول الرضا والاطمئنان، والغفلة ﴿بما كانوا يكسبون﴾ أي: بسبب ما

هي المسافة التي يقطعها في يوم وليلة بحركته الخاصة به، وجملتها ثمانية وعشرون وهي معروفة، ينزل القمر في كل ليلة منها منزلاً لا يتخطاه، فيبدو صغيراً في أول منازل، ثم يكبر قليلاً قليلاً حتى يبدو كاملاً، وإذا كان في آخر منازل رقب واستقوس، ثم يستتر ليلتين إذا كان الشهر كاملاً، أو ليلة إذا كان ناقصاً، والكلام في هذا يطول، وقد جمعنا فيه رسالة مستقلة جواباً عن سؤال أورده علينا بعض الأعلام. وقيل: إن الضمير راجع إلى كل واحد من الشمس والقمر، كما قيل في قوله تعالى: ﴿وإذا رآوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها﴾ [الجمعة: 11]، وفي قول الشاعر:

نحن بما عنننا وانت بما عنك راض والرأي مختلف
وقد قمنا تحقيق هذا فيما سبق من هذا التفسير، والأولى رجوع الضمير إلى القمر وحده، كما في قوله تعالى: ﴿والقمر قدرناه منازل﴾ [يس: 39]، ثم نكر بعض المنافع المتعلقة بهذا التقدير، فقال: ﴿لتعلموا عدد السنين والحساب﴾ فإن في العلم بعد السنين من المصالح الدينية والدنيوية ما لا يحصى، وفي العلم بحساب الأشهر والأيام والليالي من ذلك ما لا يخفى، ولولا هذا التقدير الذي قدره الله سبحانه، لم يعلم الناس بذلك ولا عرفوا ما يتعلق به كثير من مصالحهم. والسنة تتحصل من اثني عشر شهراً، والشهر يتحصل من ثلاثين يوماً إن كان كاملاً، واليوم يتحصل من ساعات معلومة هي: أربع وعشرون ساعة لليل والنهار، قد يكون لكل واحد منهما اثنتا عشرة ساعة في أيام الاستواء، ويزيد أحدهما على الآخر في أيام الزيادة وأيام النقصان، والاختلاف بين السنة الشمسية والقمرية معروف؛ ثم بين سبحانه أنه ما خلق الشمس والقمر، واختلاف تلك الأحوال إلا بالحق والصواب، نون الباطل والعبث، فالإشارة بقوله: ﴿ذلك﴾ إلى المنكور قبله، واستثناء مفرغ من أعم الأحوال، ومعنى تفصيل الآيات تبينها، والمراد بالآيات التكوينية أو التنزيلية أو مجموعهما، وتدخل هذه الآيات التكوينية المنكورة هنا لخواً أولاً في ذلك. قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحفص، ويعقوب «يفصل» بالتحية. وقرأ ابن السميع «تفصل» بالفوقية على البناء للمفعول. وقرأ الباقون بالنون. واختار أبو عبيد، وأبو حاتم، القراءة الأولى، ولعل وجه هذا الاختيار أن قبل هذا الفعل ﴿ما خلق الله ذلك﴾ إلا بالحق. وبعده ﴿وما خلق الله في السموات والأرض﴾ ثم ذكر سبحانه المنافع الحاصلة من اختلاف الليل والنهار، وما خلق في السموات والأرض من تلك المخلوقات، فقال: ﴿إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والأرض لآيات لقوم يتقون﴾ أي: الذين يتقون الله سبحانه، ويجتنبون معاصيه، وخصهم بهذه الآيات لأنهم الذين يمعنون النظر والتفكر في مخلوقات الله سبحانه حذراً منهم عن الوقوع في شيء مما يخالف مراد الله سبحانه، ونظراً لعاقبة أمرهم، وما يصلحهم في معادهم. قال القفال: من تدبر في هذه الأحوال علم أن الدنيا مخلوقة لبقاء الناس

﴿ وَكَوَيْدُكَ اللَّهُ الْكَائِنُ الشَّرُّ لَسَمِعَهُمْ بِالْحَرِيرِ لَقِيتُمْ لِمَاتِهِمْ
أَحْلَهُمْ تَنْزُدُ الْإِنْسَانُ لَا يَرْجُوهُ لِقَاءَهُ فِي طَلْعَتِهِمْ بَعَثُوا ﴿١٠﴾ وَإِذَا مَسَّ
الْإِنْسَانُ الشَّرُّ دَعَاكَ لِحَبْلِهِمْ أَوْ قَائِلًا أَوْ قَائِلًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ غُشْرَهُ مَرَّ
كَانَ لَهُ يَدْعَانِ إِلَى شَرِّ سَمْعِهِ كَذَلِكَ زَيْنَ الْإِنْسَانِ مَا كَانُوا يَصْعَلُونَ
﴿١١﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا عَلِمُوا رِجَالَهُمْ وَشُلُوبَهُمْ وَالْيَبْتُونَ
وَمَا كَانُوا يَتَّقُونَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُعْجِرِينَ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلِيفَةً فِي
الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَقْسِلُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا نُفِثَ بَنِيهِمْ بِأَيَّامِنَا
يَجْنَتُونَ قَالُ الْإِنْسَانُ لَا يَرْجُوهُ لِقَاءَهُ أَنْتَ بِشَرِّهِمْ غَيْرَ هَذَا أَوْ بَدِيلَهُ قُلْ مَا
يَكُونُ لَهُ أَنْ أُنْذِرَكُمْ مِنْ نِقْمَتِي إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مَا يَوْحِي إِلَيَّ لِقَائِي
إِنْ عَصَيْتُمْ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ ﴿١٤﴾ قُلْ أَوْ كَذَلِكَ اللَّهُ مَا تَلَّوْنَاهُ عَلَيْهِكُمْ
وَلَا أَدْرِيكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٥﴾

كانوا يكسبون من الكفر والتكذيب بالمعاد فهذا حال الذين لا يؤمنون بالمعاد، وإما حال الذين يؤمنون به، فقد بيّنه سبحانه بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: فعلوا الإيمان الذي طلبه الله منهم بسبب ما وقع منهم من التفكير والاعتبار، فيما تقدّم نكره من الآيات ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ التي يقتضيها الإيمان، وهي ما شرعه الله لعباده المؤمنين ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ أي: يرزقهم الهداية بسبب هذا الإيمان المضموم إليه العمل الصالح، فيصلون بذلك إلى الجنة، وجملة: ﴿وَتَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ مستأنفة، أو خبر ثان، أو في محل نصب على الحال. ومعنى من تحتهم: من تحت بساطتينهم، أو من بين أيديهم: لأنهم على سرر مرفوعة. وقوله: ﴿فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾ متعلق بتجري أو يهديهم، أو خبر آخر أو حال من الأنهار. قوله: ﴿دَعَاوَاهُمْ﴾ أي: دعاؤهم وندائهم، وقيل: الدعاء العباد، كقوله تعالى: ﴿واعتزلكم وما تدعون من دون الله﴾ [مريم: 48] وقيل معنى دعاوهم هنا: النداء الكائن بين المتخاصمين، والمعنى: أن أهل الجنة يدعون في الدنيا والآخرة تنزيه الله سبحانه من المعاييب والإقرار له بالإلهية. قال القفال: أصله من الدعاء لأن الخصم يدعو خصمه إلى من يحكم بينهما، وقيل معناه: طريقتهم وسيرتهم، وذلك أن المدعى للشيء مواظب عليه، فيمكن أن تجعل الدعوى كناية عن الملازمة، وإن لم يكن في قوله: ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ دعوى ولا دعاء؛ وقيل معناه: تمنيمهم كقوله: ﴿وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ﴾ [يس: 57] وكان تمنيمهم في الجنة ليس إلا تسبيح الله وتقديسه، وهو مبتدأ وخبره سبحانه الله، و﴿فِيهَا﴾ أي: في الجنة. والمعنى على القول الأول: أن دعاءهم الذي يدعون به في الجنة هو تسبيح الله وتقديسه، والمعنى: نسبك يا الله تسبيحاً. قوله: ﴿وَتَحْتِهِمْ فِيهَا سِلَاحٌ﴾ أي: تحية بعضهم لبعض، فيكون المصدر مضافاً إلى الفاعل، أو تحية الله أو الملائكة لهم، فيكون من إضافة المصدر إلى المفعول. وقد مضى تفسير هذا في سورة النساء، قوله: ﴿وَأُخْرَى دَعَاوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: وخاتمة دعائهم الذي هو التسبيح أن يقولوا: الحمد لله رب العالمين. قال النحاس: مذهب الخليل أن «أن» هذه مخففة من الثقيلة. والمعنى: أنه الحمد لله. وقال محمد بن يزيد المبرد: ويجوز أن تعملها خفيفة عملها ثقيلة. والرفع أقيس، ولم يحك أبو عبيد إلا التخفيف. وقرأ ابن محيصن بتشديد أن ونصب الحمد.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، في قوله: ﴿وَرِضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قال: مثل قوله: ﴿مَنْ كَانَ يَرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نَوْفَ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا﴾ [هود: 15] الآية. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، أيضاً في قوله: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ قال: يكون لهم نور يمشون به. وأخرج أبو الشيخ، عن قتادة، مثله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة، في قوله: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾

حذف، والتقدير: ﴿ولو يعجل الله للناس الشر﴾ تعجيلاً مثل ﴿استعجالهم بالخير﴾ ثم حذف تعجيلاً وأقام صفته مقامه، ثم حذف صفته وأقام المضاف إليه مقامه قال: هذا مذهب الخليل وسيبويه، وهو قول الأخفش والفراء، قالوا: وأصله كاستعجالهم، ثم حذف الكاف ونصب. قال الفراء: كما تقول ضربت زيداً ضربك: أي كضربك، ومعنى ﴿لقضي إليهم أجلهم﴾ لأمكوا، ولكنه سبحانه لم يعجل لهم الشر فأمهلوا؛ وقيل معناه: أميتوا. وقرأ ابن عامر «لقضي» على البناء للفاعل، وهي قراءة حسنة لمناسبة ذلك لقوله: ﴿ولو يعجل الله﴾. قوله: ﴿فنذر الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون﴾ الفاء للعطف على مقدر يدل عليه الكلام، لأن قوله: ﴿ولو يعجل الله﴾ يتضمن نفي التعجيل، فكانه قيل: لكن لا يعجل لهم الشر، ولا يقضي إليهم أجلهم، فنذرهم الخ: أي فنتركهم ونمهلهم، والطغيان: التناول، وهو العلو والارتفاع، ومعنى ﴿يعمهون﴾ يتحIRON: أي نتركهم يتحIRON في تناولهم وتكبرهم، وعدم قبولهم للحق استدراجاً لهم منه سبحانه وخذلاناً؛ ثم بين الله سبحانه أنهم كانوا في استعجال الشر، ولو أصابهم ما طلبوه لأظهروا العجز والجزع، فقال: ﴿وإذا من الإنسان الضر﴾ أي: هذا الجنس الصالح على كل ما يحصل الضرر به ﴿دعانا لجنبه﴾ اللام للوقت، كقوله جئته لشهر كذا، أو في محل نصب على الحال بدلالة عطف قاعدة أو قائماً عليه، وتكون اللام بمعنى على: أي دعانا مضطجاً ﴿أو قاعدة أو قائماً﴾ وكأنه قال: دعانا في جميع الأحوال المذكورة وغيرها، وخصّ المذكورة بالذكر لأنها الغالب على الإنسان، وما عداها نادر كالركوع والسجود، ويجوز أن يراد أنه يدعو الله حال كونه مضطجاً غير قادر على القعود، وقاعداً غير قادر على القيام، وقائماً غير قادر على المشي، والأول: أولى. قال الزجاج: إن تعديل أحوال الدعاء أبلغ من تعديل أحوال المضرة، لأنه إذا كان داعياً على الدوام، ثم نسي في وقت الرخاء كان أعجب. قوله: ﴿فلما كشفنا عنه ضره مر﴾ لم يدعنا إلى ضره مسه. أي: فلما كشفنا عنه ضره الذي مسه، كما تفيد الفاء، مضى على طريقته التي كان عليها قبل أن يمسه الضر، ونسي حالة الجهد والبلاء، أو مضى عن موقف الدعاء والتضرع، لا يرجع إليه كأنه لا عهد له به، كأنه لم يدعنا عند أن مسه الضر إلى كشف ذلك الضر الذي مسه. وقيل معنى ﴿مر﴾ استمر على كفره، ولم يشكر، ولم يتعظ. قال الأخفش: «أن» في ﴿كان لم يدعنا﴾ هي المخففة من الثقيلة، والمعنى: كأنه انتهى. والجملة التشبيهية في محل نصب على الحال، وهذه الحالة التي نكرها الله سبحانه للداعي لا تختص بأهل الكفر، بل تنفق لكثير من المسلمين، تلين السنتهم بالدعاء وقلوبهم بالخشوع والتذل عند نزول ما يكرهون به. فإذا كشفه الله عنهم غفلوا عن الدعاء والتضرع، وذهلوا عما يجب عليهم من شكر النعمة التي أنعم الله بها عليهم، من إجابة دعائهم ورفع ما نزل بهم من

الضر، وبغ ما أصابهم من المكروه. وهذا مما يدل على أن الآية تعم المسلم والكافر، كما يشعر به لفظ الناس، ولفظ الإنسان، اللهم أوزعنا شكر نعمك، وأنكرنا الأحوال التي مننت علينا فيها بإجابة الدعاء، حتى نستكثر من الشكر الذي لا نطيق سواء، ولا نقدر على غيره، وما أغناك عنه وأحوجنا إليه و ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ [إبراهيم: 7] والإشارة بقوله: ﴿كنك زين للمسرفين ما كانوا يعملون﴾ إلى مصدر الفعل المذكور بعده كما مر غير مرة، أي: مثل تلك التزيين العجيب زين للمسرفين عملهم. والمسرف في اللغة: هو الذي ينفق المال الكثير لأجل الغرض الخسيس، ومحل كذلك النصب على المصدرية. والتزيين هو: إما من جهة الله تعالى على طريقة التحلية وعدم اللطف بهم، أو من طريق الشيطان بالسوسة، أو من طريق النفس الامارة بالسوء. والمعنى: أنه زين لهم الإعراض عن الدعاء، والغفلة عن الشكر، والاشتغال بالشهوات. ثم نكر سبحانه ما يجري مجرى الردع والزجر، عما صنعه هؤلاء، فقال: ﴿ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا﴾ يعني: الأمم الماضية من قبل هؤلاء الكفار المعاصرين للنبي ﷺ: أي أهلكناهم من قبل زمانكم؛ وقيل: الخطاب لأهل مكة على طريق الالتفات للمبالغة في الزجر، و ﴿لما﴾ ظرف لأهلكنا: أي أهلكناهم حين فعلوا الظلم بالتكذيب، والتجاري على الرسل، والتناول في المعاصي من غير تأخير لإهلاكهم، كما أخرجنا إهلاككم، والواو في ﴿وجاءتهم رسلهم بالبينات﴾ للحال بإضمار قد: أي وقد جاءتهم رسلهم الذين أرسلناهم إليهم بالبينات: أي بالآيات البينات الواضحات الدالة على صدق الرسل، وقيل الواو للعطف على ﴿ظلموا﴾ والأول: أولى؛ وقيل المراد بالظلم هنا: هو الشرك، والواو في ﴿وما كانوا ليؤمنوا﴾ للعطف على ظلموا، أو الجملة اعتراضية، واللام لتأكيد النفي: أي وما صح لهم وما استقام أن يؤمنوا لعدم استعدادهم لذلك، وسلب اللطاف عنهم ﴿كنك نجزي القوم المجرمين﴾ أي: مثل تلك الجزاء نجزي القوم المجرمين، وهو الاستئصال الكلي لكل مجرم، وهذا وعيد شديد لمن كان في عصره من الكفار، أو لكفار مكة على الخصوص، ثم خاطب سبحانه الذين بعث إليهم رسول الله ﷺ فقال: ﴿ثم جعلناكم فئسة﴾ أي: استخلفناكم في الأرض بعد تلك القرون التي تسمعون أخبارها وتنظرون آثارها، والخلاف جمع خليفة، وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة الأنعام، واللام في ﴿لننظر كيف تعملون﴾ لام كي: أي: لكي ننظر كيف تعملون من أعمال الخير أو الشر، و ﴿كيف﴾ في محل نصب بالفعل الذي بعده: أي لننظر أي عمل تعملونه، أو في محل نصب على الحالية: أي على أي حالة تعملون الأعمال اللائقة بالاستخلاف، ثم حكى الله سبحانه نوعاً ثالثاً من تعنتهم وتلاعبهم بآيات الله، فقال: ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات﴾ وفيه التفات من الخطاب إلى الغيبة إرضاء عنهم، والمراد بالآيات: الآيات التي في الكتاب العزيز: أي وإذا تلا

اللام والهمزة. والمعنى: ولو شاء الله لأعلمكم به من غير أن أتله عليكم، فتكون اللام لام التأكيد دخلت على ألف أفعل. وقد قرئ «أرؤكم» بالهمزة فقيلاً: هي منقلبة عن الألف، لكونهما من واد واحد، ويحتمل أن يكون من درأته إذا نفعته، وأدراته إذا جعلته دارياً. والمعنى: لأجعلكم بتلاوته خصماء تدرعونني بالجدال وتكذبونني، وقرأ ابن عباس، والحسن **﴿ولا أدرككم به﴾** قال أبو حاتم: أصله ولا أدريكم به، فأبدل من الياء ألفاً، قال النحاس: وهذا غلط. والرواية عن الحسن «ولا أدرككم» بالهمزة. قوله: **﴿فقد لبثت فيكم عمراً من قبله﴾** تعليل لكون ذلك بمشيئة الله، ولم يكن من النبي **﴿إلا التبليغ﴾** أي قد أقمت فيما بينكم عمراً من قبله: أي زماناً طويلاً، وهو أربعون سنة من قبل القرآن تعرفونني بالصنق والأمانة، لست ممن يقرأ ولا ممن يكتب **﴿أفلا تعقلون﴾** الهمزة للتقريع والتوبيخ: أي أفلا تجرون على ما يقتضيه العقل من عدم تكذيبني لما عرفتم من العادة المستمرة إلى المدة الطويلة بالصنق والأمانة، وعدم قراءتي للكتب المنزلة على الرسل وتعلمي لما عند أهلها من العلم، ولا طلبي لشيء من هذا الشأن، ولا حرصي عليه، ثم جئتم بهذا الكتاب الذي عجزتم عن الإتيان بسورة منه، وقصرتم عن معارضته وأنتم العرب المشهود لهم بكمال الفصاحة المعترف لهم بأنهم البالغون فيها إلى مبلغ لا يتعلق به غيركم؟

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: **﴿ولو يعجل الله للناس الشر﴾** الآية، قال: هو قولي الإنسان لولده وماله إذا غضب عليهم: اللهم لا تبارك فيه والعنه **﴿لقضي إليهم لجلهم﴾** قال: لأهلك من دعا عليه وأماته. وأخرج أبو الشيخ، عن سعيد بن جبير، في الآية قال: قول الرجل للرجل: اللهم العنه، اللهم اخزه، وهو يحب أن يستجاب له. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن قتادة، في الآية قال: هو دعاء الرجل على نفسه وماله بما يكره أن يستجاب له. وحكى القرطبي في تفسيره عن ابن إسحاق، ومقاتل، في الآية قال: هو قول النضر بن الحارث: **﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء﴾** [الأنفال: 32] فلو عجل لهم هذا لهلكوا. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن جريج، في قوله: **﴿دعانا لجنبه﴾** قال: مضطجعاً. وأخرج أبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: **﴿دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً﴾** قال: على كل حال. وأخرج أبو الشيخ، عن أبي الدرداء، قال ادع الله يوم سرائك يستجاب لك يوم ضرائك.

وأقول أنا: أكثر من شكر الله على السراء يدفع عنك الضراء، فإن وعده للشاركين بزيادة النعم مؤذن بدفعه عنهم النقم لذهاب حلاوة النعمة عند وجود مرارة النقم: اللهم اجمع لنا بين جلب النعم وسلب النقم، فإننا نشكرك عند ما نشكر الشاكرون بكل لسان في كل زمان، ونحمدك عند ما

التالي عليهم آياتنا الدالة على إثبات التوحيد، وإبطال الشرك، حال كونها بينات: أي واضحات الدلالة على المطلوب **﴿قال الذين لا يرجون لقاءنا﴾** وهم المنكرون للمعاد، وقد تقدم تفسيره قريباً: أي قالوا لمن يتلوها عليهم، وهو رسول الله **﴿أنت بقرآن غير هذا أو بكلمة﴾** طلبوا من رسول الله **﴿لما سمعوا ما غاظهم﴾** فيما تلاه عليهم من القرآن من ذم عبادة الأوثان، والوعيد الشديد لمن عبدها أحد أمرين: إما الإتيان بقرآن غير هذا القرآن مع بقاء هذا القرآن على حاله، وإما تبديل هذا القرآن بنسخ بعض آياته، أو كلها، ووضع أخرى مكانها مما يطابق إرادتهم ويلائم غرضهم، فأمره الله أن يقول في جوابهم: **﴿ما يكون لي﴾** أي: ما ينبغي لي، ولا يحل لي، أن أبذله من تلقاء نفسي؛ فنفي عن نفسه أحد القسمين، وهو التبديل لأنه الذي يمكنه لو كان ذلك جائزاً، بخلاف القسم الآخر وهو الإتيان بقرآن آخر، فإن ذلك ليس في وسعه ولا يقدر عليه. وقيل: إنه **﴿نفي عن نفسه أسهل القسمين ليكون نليلاً على نفي أصعبهما بالطريق الأولى، وهذا منه﴾** من باب مجازاة السفهاء، إذ لا يصدر مثل هذا الاقتراح عن العقلاء بعد أن أمره الله سبحانه بذلك. وهو أعلم بمصالح عباده وبما يدفع الكفار عن هذه الطلبات الساقطة والسؤالات الباردة، و **﴿تلقاء﴾** مصدر استعمل ظرفاً، من قبل نفسي. قال الزجاج: سالوه إسقاط ما فيه من ذكر البعث والنشور، وقيل: سالوه أن يسقط ما فيه من عيب آلهتهم وتسفيه أحلامهم؛ وقيل: سالوه أن يحول الوعد وعيداً والحرام حلالاً والحلال حراماً، ثم أمره أن يؤكد ما أجاب به عليهم من أنه ما صح له، ولا استقام أن يبذله من تلقاء نفسه بقوله: **﴿إن اتبع إلا ما يوحى إلي﴾** أي: ما أتبع شيئاً من الأشياء إلا ما يوحى إلي من عند الله سبحانه من غير تبديل ولا تحويل، ولا تحريف ولا تصحيف، فقصر حاله **﴿على اتباع ما يوحى إليه، وربما كان مقصد الكفار بهذا السؤال التعريض للنبي﴾** بأن القرآن كلامه، وأنه يقدر على الإتيان بغيره والتبديل له، ثم أمره الله سبحانه أن يقول لهم تكميلاً للجواب عليهم: **﴿إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾** فإن هذه الجملة كالتعليل لما قدمه من الجواب قبلها، واليوم العظيم هو يوم القيامة: أي **﴿إني أخاف إن عصيت ربي﴾** بفعل ما تطلبون على تقدير إمكانه عذاب يوم القيامة، ثم أكد سبحانه كون هذا القرآن من عند الله، وأنه **﴿إنما يبلغ إليهم منه ما أمره الله بتبليغه لا يقدر على غير ذلك، فقال: ﴿قل لو شاء الله ما تلوته عليكم﴾** أي: أن هذا القرآن المتلئ عليكم هو بمشيئة الله وإرادته، ولو شاء الله أن لا أتله عليكم ولا لأبلغكم إياه ما تلوته، فالأمر كله منوط بمشيئة الله، ليس لي في ذلك شيء. قوله: **﴿ولا أدرككم به﴾** معطوف على ما تلوته، ولو شاء الله ما أدركم بالقرآن: أي ما أعلمكم به على لساني يقال: دريت الشيء وأدراني الله به. هكذا قرأ الجمهور بالألف من أدراه يدريه أعلمه يعلمه. وقرأ ابن كثير: **﴿ولا أدرككم به﴾** بغير ألف بين

ولا تضر من لم يعبدنا، فقال: **«ويعبدون من دون الله»** أي: متجاوزين الله سبحانه إلى عبادة غيره، لا بمعنى ترك عبادته بالكلية **«ملا يضرمهم ولا ينفعهم»** أي: ما ليس من شأنه الضر ولا النفع، ومن حق المعبود أن يكون مثيباً لمن أطاعه معاقباً لمن عصاه، والوالو لعطف هذه الجملة على جملة **«وإذا تتلى عليهم آياتنا»** [يونس: 15] **«وما»** في **«ملا يضرمهم»** موصولة أو موصوفة، والواو في **«ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله»** للعطف على **«ويعبدون»** زعموا أنهم يشفعون لهم عند الله، فلا يعذبهم بنوبهم، وهذا غلبة الجهالة منهم، حيث ينتظرون الشفاعة في المال ممن لا يوجد منه نفع ولا ضرر في الحال؛ وقيل أرادوا بهذه الشفاعة إصلاح أحوال دنياهم، ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ بأن يجيب عنهم، فقال: **«قل اتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض»** قرأ أبو السمال العدوي **«تنبتون»** بالتخفيف من أنبا ينبئ، وقرأ من عداه بالتشديد من نبا ينبئ، والمعنى: أتخبرون الله أن له شركاء في ملكه يعبدون كما يعبد، أو أتخبرونه أن لكم شفعا بغير إئنه، والله سبحانه لا يعلم لنفسه شريكاً ولا شفيعاً بغير إئنه من جميع مخلوقاته الذين هم في سمواته وفي أرضه؟ وهذا الكلام حاصله: عدم وجود من هو كذلك أصلاً، وفي هذا من التهمك بالكفار ما لا يخفى، ثم نزه الله سبحانه نفسه عن إشراكهم، وهو يحتمل أن يكون ابتداء كلام غير داخل في الكلام الذي أمر الله سبحانه رسوله بأن يجيب به عليهم، ويحتمل أن يكون من تمام ما أمر النبي ﷺ أن يقوله لهم جواباً عليهم. قرأ حمزة والكسائي **«عما يشركون»** بالتحية. وقرأ الباقون بالفوقية، واختار القراءة الأولى أبو عبيد. قوله: **«وما كان للناس إلا أمة واحدة فاختلّفوا»** قد تقدم تفسيره في البقرة. والمعنى: أن الناس ما كانوا جميعاً إلا أمة واحدة موحدة لله سبحانه، مؤمنة به، فصار البعض كافراً وبقي البعض الآخر مؤمناً، فخالف بعضهم بعضاً. وقال الزجاج: هم العرب كانوا على الشرك. وقال: كل مولود يولد على الفطرة، فاختلّفوا عند البلوغ، والأول أظهر. وليس المراد أن كل طائفة أحدثت ملة من ملل الكفر مخالفة للآخرى، بل المراد كفر البعض وبقي البعض على التوحيد، كما قدمنا: **«ولولا كلمة سبقت من ربك»** وهي: أنه سبحانه لا يقضى بينهم فيما اختلفوا فيه إلا يوم القيامة **«لنقضى بينهم»** في الدنيا **«فيما»** هم **«فيه»** يختلفون، لكنه قد امتنع ذلك بالكلمة التي لا تتخلف، وقيل معنى: **«لنقضى بينهم»** بإقامة الساعة عليهم، وقيل لفرغ من هلاكهم، وقيل: الكلمة إن الله أمهل هذه الأمة فلا يهلكهم بالعذاب في الدنيا؛ وقيل: الكلمة أنه لا يأخذ أحداً إلا بحجة، وهي إرسال الرسل كما قال تعالى: **«وما كنا معذبين حتى رسولا»** [الإسراء: 15]؛ وقيل: الكلمة قوله «سبقت رحمتي غضبي». وقرأ عيسى بن عمر «لنقضى» بالبناء للفاعل. وقرأ من عداه بالبناء للمفعول.

حمدك الحامدون بكل لسان في كل زمان. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: **«لم جعلناكم خلائف في الأرض»** الآية، قال: نكر لنا أن عمر بن الخطاب قرأ هذه الآية فقال: صدق ربنا ما جعلنا خلائف في الأرض إلا لينظر إلى أعمالنا، فأروا الله خير أعمالكم بالليل والنهار، والسّر والعلانية. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن جرير، قال: **«خلائف في الأرض»** لأمة محمد ﷺ. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: **«أثبت بقرآن غير هذا لو بئله»** قال: هذا قول مشركي أهل مكة للنبي ﷺ. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: **«ولا ادركم به»** أعلمكم به. وأخرج أبو الشيخ، عن قتادة، قال: **«ولا ادركم به»** ولا أشعركم به. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، عن ابن عباس، أنه كان يقرأ **«ولا لنزركم به»**. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي، في قوله: **«فقد لبثت فيكم عمراً من قبله»** قال: لم أتل عليكم ولم أنكر. وأخرج عنه قال: لبث أربعين سنة قبل أن يوحى إليه ورأى الرؤيا سنتين، وأوحى الله إليه عشر سنين بمكة، وعشرًا بالمدينة، وتوفي وهو ابن اثنتين وستين سنة. وأخرج ابن أبي شيبة، والبخاري، والترمذي، عن ابن عباس، قال: بعث رسول الله ﷺ لأربعين سنة، فمكث بمكة ثلاثة عشر يوحى إليه، ثم أمر بالهجرة فهاجر عشر سنين، ومات وهو ابن ثلاث وستين سنة.

قَدْ أَفْلَحَ مَن آفَرَزَ مَلَّ اللَّهُ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِنَا إِنَّهُ لَا يُلَاحِظُ الْجَاهِلُونَ ﴿٧٧﴾ وَسَبَّحْتَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَعْزِمُهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ رَبُّهُمْ هَؤُلَاءِ شُفَعَتْنَا عِنْدَ اللَّهِ بِمَا لَا يَسْتَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ وَمَا كَانَ الْكَافِرُ إِلَّا أَكْثَرًا وَجِدَّةً فَاسْتَكْبَرُوا وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٩﴾

قوله: **«فمن اظلم»** استفهام فيه معنى الجحد، أي لا أحد أظلم **«ممن افترى على الله»** الكذب، وزيادة **«كذباً»** مع أن الافتراء لا يكون إلا كذباً لبيان أن هذا مع كونه افتراء على الله هو كذب في نفسه، فربما يكون الافتراء كذباً في الإنسان فقط، كما إذا أسند ذنب زيد إلى عمرو، نكر معنى هذا أبو السعود في تفسيره، قيل: وهذا من جملة رده ﷺ على المشركين لما طلبوا منه أن يأتي بقرآن غير هذا القرآن، أو ببئله، فبين لهم أنه لو فعل ذلك لكان من الافتراء على الله، ولا ظلم يماثل ذلك؛ وقيل: المفترى على الله الكذب هم: المشركون، والمكذب بآيات الله هم أهل الكتاب **«إنه لا يفلح المجرمون»** تحليل لكونه لا اظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته، أي لا يظفرون بمطلوب، ولا يفوزون بخير، والضمير في **«إنه»** للشان: أي إن الشأن هذا، ثم نعى الله سبحانه عليهم عبادة الأصنام، وبين أنها لا تنفع من عبدها

نعمته ولا قدرها حق قدرها، بل أضافوها إلى أصنامهم التي لا تنفع ولا تضر، وطعنوا في آيات الله، واحتالوا في نفعها بكل حيلة، وهو معنى المكر فيها. وإذا الأولى شرطية، وجوابها إذا لهم مكر، وهي فجائية، نكر معنى ذلك الخليل وسيبويه. ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يجيب عنهم فقال: ﴿قل الله أسرع مكرًا﴾ أي: أعجل عقوبة، وقد دلّ أفعال التفضيل على أن مكرهم كان سريعاً، ولكن مكر الله أسرع منه. وإذا الفجائية يستفاد منها السرعة، لأن المعنى أنهم فاجئوا المكر: أي أوقعوه على جهة الفجاءة والسرعة، وتسمية عقوبة الله سبحانه مكرًا من باب المشاكلة، كما قرّر قبلها، فإن مكرهم إذا كان ظاهراً لا يخفى، فعقوبة الله كائنة لا محالة، ومعنى هذه الآية قريب من معنى الآية المتقدمة وهي: ﴿وإذا مس الإنسان الضر﴾ [يونس: 12] وفي هذه زيادة، وهي أنهم لا يقتصرون على مجرد الإعراض، بل يطلبون الغوائل لآيات الله بما يديرونه من المكر ﴿هو الذي يسيركم في البحر والبحبر﴾ ضرب سبحانه لهؤلاء مثلاً حتى ينكشف المراد انكشافاً تاماً، ومعنى تسييرهم في البر أنهم يمشون على أقدامهم التي خلقها لهم، لينتفعوا بها، ويركبون ما خلقه الله لركوبهم من الدواب، ومعنى تسييرهم في البحر: أنه لهم عمل السفائن التي يركبون فيها في لجة البحر، ويسر ذلك لهم، ودفع عنهم أسباب الهلاك. وقد قرأ ابن عامر: ﴿وهو الذي ينشركم في البحر﴾ بالنون والشين المعجمة من النشر كما في قوله: ﴿فانتشروا في الأرض﴾ [الجمعة: 10] أي ينشرهم سبحانه في البحر، فينجي من يشاء ويفرق من يشاء ﴿حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم﴾ الفلك يقع على الواحد والجمع ويذكر ويؤنث، وقد تقدّم تحقيقه ﴿وجرين﴾ أي السفن بهم: أي بالراكبين عليها، وحتى لانتهاه الغاية، والغاية مضمون الجملة الشرطية بكمالها، فالقيود المعتبرة في الشر ثلاثة: أولها: الكون في الفلك؛ والثاني: جريها بهم بالريح الطيبة التي ليست بعاصفة؛ والثالث: فرحهم. والقيود المعتبرة في الجزء ثلاثة: الأول: ﴿جاءتها﴾ أي: جاءت الفلك ريح عاصف، أو جاءت الريح الطيبة: أي تلقفتها ريح عاصف، والعصوف: شدة هبوب الريح؛ والثاني: ﴿وجاءهم الموج من كل مكان﴾ أي: من جميع الجوانب للفلك، والمراد: جاء الراكبين فيها، والموج ما ارتفع من الماء فوق البحر؛ والثالث: ﴿ظنوا أنهم أحيط بهم﴾ أي: غلب على ظنونهم الهلاك، وأصله من إحاطة العدو بقوم أو ببلد، فجعل هذه الإحاطة مثلاً في الهلاك وإن كان بغير العدو كما هنا، وجواب إذا في قوله: ﴿إذا كنتم في

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن عكرمة، قال: قال النضر: إذا كان يوم القيامة شفعت لي اللات والعزى، فأنزل الله: ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته إنه لا يفلح المجرمون، ويعبدون من دونه الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم﴾ الآية. وأخرج أبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلّفوا﴾ قال ابن مسعود: كانوا على هدى. وروى أنه قرأ هكذا. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿وما كان الناس إلا أمة واحدة﴾ قال: آدم وحده ﴿فاختلّفوا﴾ قال: حين قتل أحد ابني آدم أخاه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي، في الآية قال: كان الناس أهل دين ولحد على دين آدم، فكفروا، فلولا أن ربك أجلهم إلى يوم القيامة لقضي بينهم.

وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ بِيَدِ اللَّهِ فَأَنْتُمْ تَنْتَظِرُونَ
إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْظِرِينَ ﴿١٥﴾ وَإِذَا أَقْبْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَرَةٍ مَسَّيْنَاهُمْ إِذَا لَهُمْ مُكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلْ اللَّهُ أَسْرَعُ مُكْرًا إِذْ رُسُلُنَا يَكْفُرُونَ مَا تَكْفُرُونَ
﴿١٦﴾ هُوَ الَّذِي يُسَوِّرُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَّتِ بِرِيحٍ طَبَيعٌ وَوَرَّحُوا بِهَا جَهَنَّمَ رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَيْنَأْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٧﴾ فَلَمَّا أَجَبْتُمْ إِذَا هُمْ يَبُوءُونَ فِي الْأَرْضِ بِمَكْرٍ الْغَيْبِ يَكْتُمُونَ النَّاسَ إِذَا بَيْنَكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ لِيَأْخُذْكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

قوله: ﴿ويقولون﴾ نكر سبحانه هاهنا نوعاً رابعاً من مخازيهم، وهو معطوف على قوله: ﴿ويعبدون﴾ [يونس: 18] وجاء بالمضارع لاستحضار صورة ما قاله. قيل: والقائلون هم: أهل مكة، كأنهم لم يعتدوا بما قد نزل على رسول الله ﷺ من الآيات الباهرة، والمعجزات القاهرة التي لو لم يكن منها إلا القرآن لكفي به ليلياً بيناً ومصنقاً قاطعاً: أي هلا أنزلت عليه آية من الآيات التي تقترحها عليه، وتطلبها منه، كإحياء الأموات، وجعل الجبال ذهباً، ونحو ذلك؟ ثم أمره الله سبحانه أن يجيب عنهم فقال: ﴿قل إنما الغيب لله﴾ أي: أن نزول الآية غيب، والله هو المختص بعلمه، المستأثر به، لا علم لي ولا لكم، ولا لسائر مخلوقاته ﴿فانتظروا﴾ فنزل ما اقترحتهم من الآيات ﴿إني معكم من المنتظرين﴾ لنزولها، وقيل المعنى: انتظروا قضاء الله ببني وبينكم بإظهار الحق على الباطل. قوله: ﴿وإذا أنقنا للناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لهم مكر في آياتنا﴾ لما بين سبحانه في الآية المتقدمة أنهم طلبوا آية عناداً ومكرًا ولجاجاً، وأكد ذلك بما ذكره هنا من أنه سبحانه إذا أنقاهم رحمة منه من بعد أن مستهم الضراء، فعلوا مقابل هذه النعمة العظيمة المكر منهم في آيات الله؛ والمراد بإذاعتهم رحمته سبحانه: أنه وسع عليهم في الأرزاق، وأثر عليهم النعم بالمطر وصلاح الثمار، بعد أن مستهم الضراء بالجذب وضيق المعاش، فما شكروا

البغي وسوء مغبته. قرأ ابن إسحاق، وحفص، والمفضل بنصب متاع، وقرأ الباقر بالرفع. فمن قرأ بالنصب جعل ما قبله جملة تامة: أي بغيكم وبإل على أنفسكم، فيكون بغيكم مبتدأ وعلى أنفسكم خبره، ويكون متاع في موضع المصدر المؤكد، كأنه قيل: تتمتعون متاع الحياة الدنيا، ويكون المصدر مع الفعل المقدر استثناءً؛ وقيل: إن متاع على قراءة النصب ظرف زمان نحو مقدم الحاج: أي زمن متاع الحياة الدنيا؛ وقيل: هو مفعول له: أي لأجل متاع الحياة الدنيا؛ وقيل منصوب بنزع الخافض: أي كمتاع؛ وقيل على الحال على أنه مصدر بمعنى المفعول: أي ممتعين، وقد نوقش غالب هذه الأقوال في توجيه النصب. وأما من قرأ برفع متاع فجعله خبر المبتدأ: أي بغيكم متاع الحياة الدنيا، ويكون على أنفسكم متعلق بالمصدر، والتقدير: إنما بغيكم على أمثالك، والذين جنسهم جنسكم، متاع الحياة الدنيا ومنفعتها التي لا بقاء لها، فيكون المراد بأنفسكم على هذا الوجه: أبناء جنسهم، وعبر عنهم بالأنفس لما يدركه الجنس على جنسه من الشفقة؛ وقيل: ارتفاع متاع على أنه خبر ثان؛ وقيل: على أنه خبر لمبتدأ محذوف: أي هو متاع. قال النحاس: على قراءة الرفع يكون بغيكم مرتفعاً بالابتداء، وخبره متاع الحياة الدنيا، وعلى أنفسكم مفعول البغي، ويجوز أن يكون خبره على أنفسكم، ويضمير مبتدأ: أي ذلك متاع الحياة الدنيا، أو هو متاع الحياة الدنيا. انتهى. وقد نوقش أيضاً بعض هذه الوجوه المذكورة في توجيه الرفع، بما يطول به البحث في غير طائيل. والحاصل أنه إذا جعل خبر المبتدأ على أنفسكم، فالمعنى: أن ما يقع من البغي على الغير هو بغي على نفس الباغي، باعتبار ما يؤول إليه الأمر من الانتقام منه مجازاة على بغيه، وإن جعل الخبر متاعاً، فالمراد: أن بغي هذا الجنس الإنساني على بعضه بعضاً هو سريع الزوال، قريب الاضمحلال، كسائر أمتعة الحياة الدنيا، فإنها ذاهبة عن قرب، متلاشية بسرعة، ليس لذلك كثيرة فائدة ولا عظيم جلوى. ثم ذكر سبحانه ما يكون على ذلك البغي من المجازاة يوم القيامة، مع وعيد شديد فقال: **﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾** وتقديم الخبر للدلالة على القصر، والمعنى: أنكم بعد هذه الحياة الدنيا ومتاعها ترجعون إلى الله، فيجازيكم المسيء بإساءته، والمحسن بإحسانه **﴿فَنَنْبِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾** في الدنيا: أي فنخبركم بما كنتم تعملون في الدنيا من خير وشرٍّ، والمراد بذلك: المجازاة، كما تقول لمن أساء: سأخبرك بما صنعت، وفيه أشد وعيد واقطع تهديد.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن الربيع، في قوله: **﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظَرِينَ﴾** قال: خوفهم عذابه وعقوبته. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: **﴿وَإِذَا أَنْفَنَّا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسْتَهْمٍ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾** قال: استهزاء وتكذيب. وأخرج ابن المنذر، عن ابن

الفلك قوله: **﴿جَاعَتَهَا﴾** إلى آخره، ويكون قوله: **﴿دَعَا اللَّهَ﴾** بدلاً من ذنونا؛ لكون هذا الدعاء الواقع منهم إنما كان عند ظن الهلاك وهو الباعث عليه، فكان بدلاً منه بدل اشتغال لاشتغاله عليه، ويمكن أن يكون جملة دعوا مستأنفة كأنه قيل: ماذا صنعوا؟ فقيل: دعوا الله، وفي قوله: **﴿وَجَرَيْنَ بِهِمُ﴾** التفات من الخطاب إلى الغيبة، جعل الفائدة فيه صاحب الكشف المبالغ. وقال الرازي: الانتقال من مقام الخطاب إلى مقام الغيبة في هذا المقام ليل المقت والتباعد، كما أن عكس ذلك في قوله: **﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾** [الفاتحة: 5] دليل الرضا والتقريب، وانتصاب مخلصين على الحال: أي لم يشوبوا دعاءهم بشيء من الشوائب، كما جرت عابثهم في غير هذا الموطن أنهم يشركون أصنامهم في الدعاء، وليس هذا لأجل الإيمان بالله وحده، بل لأجل أن ينجيهم مما شافوه من الهلاك، لعلمهم أنه لا ينجيهم سوى الله سبحانه. وفي هذا دليل على أن الخلق جبلوا على الرجوع إلى الله في الشدائد، وإن المضطرَّ يجاب دعاؤه وإن كان كافراً. وفي هذه الآية بيان أن هؤلاء المشركين كانوا لا يلتفتون إلى أصنامهم في هذه الحالة، وما يشابهها، فإجاباً لما حدث في الإسلام من طوائف يعتقدون في الأموات؟ فإذا عرضت لهم في البحر مثل هذه الحالة دعوا الأموات، ولم يخلصوا الدعاء لله، كما فعله المشركون، كما تواتر ذلك إلينا تواتراً يحصل به القطع، فانظر هداك الله ما فعلت هذه الاعتقادات الشيطانية، وابن وصل بها أهلها، وإلى أين رمى بهم الشيطان، وكيف اقتادهم وتسلب عليهم؟ حتى انقادوا له انقياداً ما كان يطعم في مثله، ولا في بعضه، من عباد الأوثان، فإننا لله وإنا إليه راجعون، واللام في **﴿لَنْتُنْجِيَنَّاهُ مِنْ هَذِهِ﴾** هي اللام الموطئة للقسم: أي قائلين ذلك، والإشارة بقوله: **﴿مَنْ هَذِهِ﴾** إلى ما وقعوا فيه من مشاركة الهلاك في البحر، واللام في **﴿لَنْكُونَنَّ﴾** جواب القسم: أي لنكونن في كل حال ممن يشكر نعمك التي أنعمت بها علينا، منها هذه النعمة التي نحن بصدد سؤلها أن نفرجها عنا، وتنجينا منها؛

هذه الجملة مفعول دعوا **﴿فَلَمَّا نَجَاهُمْ﴾** الله من هذه المحنة التي وقعوا فيها، وإجاب دعاءهم، لم يفوا بما وعدوا من أنفسهم، بل فعلوا فعل الجاحدين لا فعل الشاكرين، وجعلوا البغي في الأرض بغير الحق مكان الشكر. وإذا في **﴿إِذَا هُمْ يَبْقُونَ﴾** هي الفجائية: أي فاجئوا البغي في الأرض بغير الحق، والبغي: هو الفساد، من قولهم بغي الجرح: إذا ترامى في الفساد، وزيادة في الأرض للدلالة على أن فسادهم هذا شامل لأقطار الأرض، والبغي وإن كان يناق في أن يكون بحق، بل لا يكون إلا بالباطل، لكن زيادة بغير الحق إشارة إلى أنهم فعلوا ذلك بغير شبهة عندهم، بل تمرّداً وعناداً، لأنهم قد يفعلون ذلك لشبهة يعتقدونها مع كونها باطلة. قوله: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾** لما ذكر سبحانه أن هؤلاء المتقدم ذكرهم يبقون في الأرض بغير الحق، ذكر عاقبة

أُن تملأ العين برونقها، وتجلبب النفوس ببهجتها. وتحمل أهلها على أن يسفكوا دماء بعضهم بعضاً، ويهتكوا حرهم حباً لها، وعشاقاً لجمالها الظاهري، وتكالباً على التمتع بها، وتهافتاً على نيل ما تشتهي الأنفس منها بضرب من التشبيه المركب، فقال: ﴿**إِنَّمَا مِثْلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا هِيَ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ**﴾ إلى آخر الآية. والمعنى: أن مثلها في سرعة الذهاب والاتصاف بوصف يضاد ما كانت عليه وببائنه، مثل ما على الأرض من أنواع النبات في زوال رونقه، وذهاب بهجته، وسرعة تقضيه، بعد أن كان غصاً مخضراً طرياً قد تعانقت أغصانه المتمايلة، وزهت أوراقه المتصافحة، وتلألأت أنوار نوره، وحلكت الزهر أنواع زهره، وليس المشبه به هو ما دخله الكاف في قوله: ﴿**كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ**﴾ بل ما يفهم من الكلام، والباء في ﴿**فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ**﴾ للسببية: أي فاختلط بسببه نبات الأرض بأن اشتبك بعضه ببعض، حتى بلغ إلى حد الكمال، ويحتمل أن يراد أن النبات كان في أول بروزه، ومبدأ حيوته غير مهتز ولا مترعرع، فإذا نزل الماء عليه اهتز وربا، حتى اختلط بعض الأنواع ببعض ﴿**مِمَّا يَأْكُلُ الْفُلْسُ وَالْإِنْعَامُ**﴾ من الحبوب والثمار، والكلأ والتبن، وأخذت الأرض زخرفها. قال في الصحاح الزخرف: الذهب، ثم يشبه به كل مموء مزور. انتهى. والمعنى: أن الأرض أخذت لونها الحسن المشابه بعضه للون الذهب، وبعضه للون الفضة، وبعضه للون الياقوت، وبعضه للون الزمرد. وأصل أزيئت: تزينت أذعمت التاء في الزاي، وجئ بالف الوصل؛ لأن الحرف المدغم مقام حرفين أولهما ساكن، والساكن لا يمكن الابتداء به. وقرأ ابن مسعود، وأبي بن كعب «وتزينت» على الأصل. وقرأ الحسن والأعرج وأبو العالية «وأزيئت» على وزن أفعلت: أي أزيئت بالزينة التي عليها، شبهها بالعروس التي تلبس الثياب الجيدة المتلونة اللوناً كثيرة. وقال عوف بن أبي جميلة: قرأ أشياخنا «وأزيئت» على وزن اسوائت، وفي رواية المقدمي «وازانت» والأصل فيه تزاينت على وزن تفاعلت. وقرأ الشعبي، وقتادة «أزيئت»، ومعنى هذه القراءات كلها هو ما ذكرنا ﴿**وَوُضِعَ**﴾ أهلها أنهم قادرون عليها: أي غلب على ظنونهم أو تثقنوا أنهم قادرين على حصادها والانتفاع بها، والضمير في عليها للأرض، والمراد: النبات الذي هو عليها ﴿**أَتَاهَا أَمْرُنَا**﴾ جواب إذا، أي: جاءها أمرنا بإهلاكها واستئصالها وضربها ببعض العاهات ﴿**فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً**﴾ أي: جعلنا زرعها شبيهاً بالمحصول في قطعه من أصوله. قال أبو عبيدة: الحصيد المستاصل ﴿**كَانَ لَمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ**﴾ أي: كان لم يكن زرعها موجوداً فيها بالأمس مخضراً طرياً، من غنى بالمكان بالكسر يغني بالفتح إذا أقام به، والمراد بالأمس الوقت القريب، والمغني في اللغة المنازل. وقال قتادة: كان لم تنعم، قال لبيد:

غنيت سنيناً قبل مجرى داحس لو كان للنفس للجرج خلود
وقرأ قتادة ﴿**كَانَ لَمْ يَغْنِ**﴾ بالتحية بإرجاع الضمير

جريح، في قوله: ﴿**وَوُضِعَ لَهُمْ لَحْمُهُمْ**﴾ قال: هلكوا. وأخرج ابن أبي شيبة، وأبو داود، والنسائي، وابن مردويه، عن سعد بن أبي وقاص، ما حاصله: أن النبي ﷺ لما أهدر يوم الفتح دم جماعة، منهم عكرمة بن أبي جهل، هرب من مكة وركب البحر فاصابهم عاصف، فقال أصحاب السفينة لاهل السفينة: اخلصوا فإن آلهكم لا تغني عنكم شيئاً، فقال عكرمة: لئن لم ينجني في البحر الإخلاص، ما ينجيني في البر غيره، اللهم إن لك عهداً إن أنت عافيتني مما أنا فيه، أن أتى محمداً حتى أضع يدي في يده، فلاجدنه عفواً كريماً، فجاء فأسلم. وأخرج أبو الشيخ، وابن مردويه، وأبو نعيم، والخطيب في تاريخه، والديلمي في مسند الفردوس، عن انس، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث هن راجع على أهلها: المكر، والنكث، والبغي، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ**﴾ ولا يحق المكر السيء إلا بأهله» [فاطر: 43] «ومن نكث فإنما ينكث على نفسه» [الحج: 10]. وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقي في شعب الإيمان، عن أبي بكرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تبغ ولا تكن باغياً، فإن الله يقول: ﴿**إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ**﴾». وأخرج أبو الشيخ عن مكحول قال: ثلاث من كن فيه كن عليه: المكر، والبغي، والنكث، قال الله سبحانه: ﴿**إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ**﴾.

أقول أنا: وينبغي أن يلحق بهذه الثلاث التي دل القرآن على أنها تعود على فاعلها: الخدع، فإن الله يقول: ﴿يَخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ [البقرة: 9]. وأخرج ابن مردويه، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «لو بغى جبل على جبل لك الباغى منهما». وأخرج ابن مردويه من حديث ابن عمر مثله.

إِنَّمَا مِثْلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا هِيَ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا اخْتَلَّتْ الْأَرْضُ رُحْرُهَا وَأَذْيَتْ وَطَرَهَا أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدْ بَرَزُوا عَلَيْهَا أَنَّهُمْ أَشْرَاءُ لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٠﴾ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ كَارِ السَّيِّئِ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١١﴾ الَّذِينَ آمَنُوا لِلْمُسْلِمِينَ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٢﴾ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْجُمُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا هُمْ مِنَ اللَّهِ مِن عَاسٍ كَانُوا أَفْوَيْتَ وَرُفُفُهُمْ وَلَقَدْ لَبِثُوا الْأَرْضَ وَحَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ ﴿١٣﴾ وَبِمِثْلِ مَا تَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ فَرَلْنَا بَيْنَهُمْ وَكَأَلْ شُرَكَائِهِمْ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١٤﴾ فَكَفَرُوا بِاللَّهِ كُفْرًا كَبِيراً وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ عِبَادَتَهُمْ أَفْكٌ وَلَقَدْ كَذَّبْنَا بِكُلِّ قَوْمٍ مِّثْلَ مَا هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهُ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَلَقَدْ كَانَ اللَّهُ شَهِيدًا عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَلَقَدْ كَانَ اللَّهُ شَهِيدًا عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَلَقَدْ كَانَ اللَّهُ شَهِيدًا عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَلَقَدْ كَانَ اللَّهُ شَهِيدًا عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿١٨﴾ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَلَقَدْ كَانَ اللَّهُ شَهِيدًا عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَلَقَدْ كَانَ اللَّهُ شَهِيدًا عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٠﴾

لما نكر الله سبحانه ما تقدّم من متاع الدنيا، جاء بكلام مستأنف يضمن بيان حالها وسرعة تقضيها، وأنها تعود بعد

غبرة، ولا يظهر فيها هوان؛ وقيل القتر: الكآبة، وقيل: سواد الوجوه، وقيل: هو دخان النار ﴿أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ الإشارة إلى المتصفين بالصفات السابقة هم أصحاب الجنة خالدون فيها، المتنعمون بأنواع نعيمها ﴿والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها﴾ هذا الفريق الثاني من أهل الدعوة، وهو معطوف على ﴿الذين أحسنوا﴾ كانه قيل: وللذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها، أو يقدر وجزاء الذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها: أي يجازي سيئة واحدة بسيئة واحدة، لا يزداد عليها، وهذا أولى من الأول، لكونه من باب العطف على معمولي عاملين مختلفين؛ والمراد بالسيئة: إما الشرك، أو المعاصي التي ليست بشرك، وهي ما يتلبس به العصاة من المعاصي، قال ابن كيسان: الباء زائدة، والمعنى: جزاء سيئة مثلها؛ وقيل: الباء مع ما بعدها الخبر، وهي متعلقة بمحذوف قامت مقامه، والمعنى: جزاء سيئة كائن بمثلها، كقولك إنما أنا بك، ويجوز أن يتعلق بجزاء، والتقدير جزاء سيئة بمثلها كائن، فحذف خبر المبتدأ، ويجوز أن يكون ﴿جزاء﴾ مرفوعاً على تقدير: فلهم جزاء سيئة، فيكون مثل قوله: ﴿فعدّه من أيام أخر﴾ [البقرة: 184] أي: فعليه عذّة، والباء على هذا التقدير متعلقة بمحذوف، كانه قال لهم جزاء سيئة ثابت بمثلها، أو تكون مؤكدة أو زائدة. قوله: ﴿ترهقهم نلّة﴾ أي يغشاهم هوان وخزي. وقرئ «يرهقهم» بالتحية ﴿مالهم من الله من عاصم﴾ أي: لا يعصمهم أحد كائناً من كان من سخط الله وعذابه، أو مالهم من جهة الله ومن عنده من يعصمهم كما يكون للمؤمنين، والأول: أولى، والجملة في محل نصب على الحالية، أو مستأنفة ﴿كانما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً﴾ قطعاً جمع قطعة، وعلى هذا يكون مظلماً منتصباً على الحال من الليل: أي أغشيت وجوههم قطعاً من الليل في حالة ظلمته. وقد قرأ بالجمع جمهور القراء. وقرأ الكسائي وابن كثير ﴿قطعاً﴾ بإسكان الطاء، فيكون مظلماً على هذا صفة لقطعاً، ويجوز أن يكون حالاً من الليل. قال ابن السكيت: القطع طائفة من الليل ﴿أولئك﴾ أي: الموصوفون بهذه الصفات النامية ﴿أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ وإطلاق الخلود هنا مقيد بما تواتر في السنة من خروج عصاة الموحدين، قوله: ﴿ويوم نحشرهم جميعاً﴾ الحشر الجمع، وجميعاً منتصب على الحال ﴿ويوم﴾ منصوب بمضمر: أي أنشدهم يوم نحشرهم، والجملة مستأنفة لبيان بعض أحوالهم القبيحة. والمعنى: أن الله سبحانه يحشر العابد والمعبود لسؤالهم ﴿ثم نقول للذين أشركوا﴾ في حالة الحشر، ووقت الجمع تقريباً لهم على رموس الأشهاد، وتوبيخاً لهم مع حضور من يشاركونهم في العبادة، وحضور معبوداتهم ﴿مكانكم﴾ أي: لزموا مكانكم، وأثبتوا فيه، وقفوا في موضعكم ﴿انتم وشركاؤكم﴾ هذا الضمير تأكيد للضمير الذي في مكانكم لسد مسد الزموا، وشركاؤكم معطوف عليه. وقرئ بنصب شركاؤكم على أن

إلى الزخرف. وقرأ من عداه ﴿تغن﴾ بالفوقية بإرجاع الضمير إلى الأرض ﴿كنك﴾ أي: مثل تلك التفصيل البيع ﴿نفصل الآيات﴾ القرآنية التي من جملتها هذه الآية ﴿لقوم يتفكرون﴾ فيما اشتملت عليه، ويجوز أن يراد الآيات التكرينية. قوله: ﴿والله يدعو إلى دار السلام﴾ لما نذر عباده عن الميل إلى الدنيا بما ضربه لهم من المثل السابق، رغبهم في الدار الآخرة بإخبارهم بهذه الدعوة منه عز وجل إلى دار السلام، قال الحسن وقتادة: للسلام هو: الله تعالى، وداره الجنة. وقال الزجاج: المعنى والله يدعو إلى دار السلامة. ومعنى السلام والسلامة واحد كالرضاع والرضاعة. ومنه قول الشاعر:

تحى بالسلامة ثم بكر
وهل لك بعد قومك من سلام
وقيل: أراد دار السلام الذي هو: التحية؛ لأن أهلها ينالون من الله السلام بمعنى: التحية، كما في قوله: ﴿تحيتهم فيها سلام﴾ [يونس: 10]؛ وقيل: السلام اسم لأحد الجنان السبع: أحدها: دار السلام، والثانية: دار الجلال، والثالثة: جنة عدن، والرابعة: جنة المأوى، والخامسة: جنة الخلد، والسادسة: جنة الفردوس، والسابعة: جنة النعيم. وقيل المراد: دار السلام الواقع من المؤمنين بعضهم على بعض في الجنة، وقد اتفقوا على أن دار السلام هي الجنة، وإنما اختلفوا في سبب التسمية بدار السلام ﴿ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ جعل سبحانه الدعوة إلى دار السلام عامة، والهداية خاصة بمن يشاء أن يهديه، تكميلاً للحجة وإظهاراً للاستغناء عن خلقه، ثم قسم سبحانه أهل الدعوة إلى قسمين، وبين حال كل طائفة فقال: ﴿الذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾ أي: الذين أحسنوا بالقيام بما أوجبه الله عليهم من الأعمال، والكف عما نهاهم عنه من المعاصي، والمراد بالحسنى المثوبة الحسنى. قال ابن الأنباري: العرب توقع هذه اللفظة على الخصلة المحبوبة المرغوب فيها، ولذلك ترك موصوفها؛ وقيل المراد بالحسنى: الجنة، وأما الزيادة فقيل المراد بها: ما يزيد على المثوبة من الفضل، كقوله: ﴿ليوفيه أجورهم ويزيدهم من فضله﴾ [فاطر: 30] وقيل الزيادة النظر إلى وجهه الكريم؛ وقيل: الزيادة هي: مضاعفة الحسنه إلى عشر أمثالها؛ وقيل الزيادة: غرفة من لؤلؤ، وقيل الزيادة: مغفرة من الله ورضوان؛ وقيل: هي أنه سبحانه يعطيهم في الدنيا من فضله ما لا يحاسبهم عليه؛ وقيل: غير ذلك، مما لا فائدة في ذكره، وسياتي بيان ما هو الحق في آخر البحث: ﴿ولا يرهق وجوههم قتر ولا نلّة﴾ معنى يرهق: يلحق، ومنه قيل: غلام مراهق، إذا لحق بالرجال، وقيل يعلو، وقيل يغشى، والمعنى متقارب؛ والقتر: الغبار، ومنه قول الفرزدق:

متوج برداء الملك يتبعه
موج ترى فوقه الرايات والقتر
وقرأ الحسن «قتر» بإسكان المثناة، والمعنى واحد، قاله النحاس، ووحد القتر قتر، والنلّة: ما يظهر على الوجه من الخضوع والإنكسار والهوان، والمعنى: أنه لا يعلو وجوههم

وأيوبها من لؤلؤة واحدة. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس، في قوله: **﴿وَزِيَادَةٌ﴾** قال: هو مثل قوله: **﴿وَلَدِينَا مُزِيدٌ﴾** [ق]: 35 يقول يجزيهم بعملهم، ويزيدهم من فضله. وقال: **﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها﴾** [الأنعام: 160]. وقد روى عن التابعين ومن بعدهم روايات في تفسير الزيادة غالبها أنها النظر إلى وجه الله سبحانه. وقد ثبت التفسير بذلك من قول رسول الله ﷺ، فلم يبق حينئذ لقاتل مقال، ولا التفات إلى المجادلات الواقعة بين الممتذهة الذين لا يعرفون من السنة المطهرة ما ينتفعون به، فإنهم لو عرفوا ذلك لكفوا عن كثير من هذيانهم، والله المستعان. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: **﴿وَلَا يَرْمِقُ وَجُوهُهُمْ﴾** قال لا يغشاهم **﴿قُتِرَ﴾** قال: سواد الوجوه. وأخرج أبو الشيخ عن عطاء في الآية قال: القتر: سواد الوجه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مجاهد، في الآية قال: خزي. وأخرج أبو الشيخ، وابن مروي، عن صهيب عن النبي ﷺ: **﴿وَلَا يَرْمِقُ وَجُوهُهُمْ قُتِرَ وَلَا نَلَّةٌ﴾** قال: بعد نظرهم إليه عز وجل. وأخرج أبو الشيخ، عن السدي، في قوله: **﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ﴾** قال: الذين عملوا الكبائر **﴿جزءاً سيئةً يمثلها﴾** قال: النار **﴿كلما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً﴾** القطع: السواد نسختها الآية في البقرة **﴿بلى من كسب سيئة﴾** [البقرة: 81] الآية. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس، في قوله: **﴿وَوَرَمَهُمْ نَلَةٌ﴾** قال: تفشاهم نلة وشدة. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عنه، في قوله: **﴿مَا لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾** يقول: من مانع. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: **﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾** قال: الحشر الموت. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن زيد، في قوله: **﴿فَرَزِيلْنَا بَيْنَهُمْ﴾** قال: فَرَزَقْنَا بَيْنَهُمْ. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، قال: تنصب الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله، فيقول: هؤلاء الذين كنتم تعبدون من دون الله؟ فيقولون نعم، هؤلاء الذين كنا نعبد، فتقول لهم الآلهة. والله ما كنا نسمع ولا نبصر، ولا نعقل، ولا نعلم، أنكم كنتم تعبدوننا، فيقولون: بلى والله لإيالكم كنا نعبد، فتقول لهم الآلهة: **﴿فَكُفِّي بِاللهِ شَهِيداً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَاتِكُمْ غَافِلِينَ﴾** وأخرج ابن مروي، عن ابن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «يمثل لهم يوم القيامة ما كانوا يعبدون من دون الله، فيتبعونهم حتى يؤتوهم النار، ثم تلا رسول الله ﷺ: **﴿هَٰذَا نَكَالُ الْإِنْسَانِ كُلِّ نَفْسٍ مَا سَلَفَتْ﴾**» وأخرج أبو الشيخ، عن السدي **﴿هَٰذَا نَكَالُ الْإِنْسَانِ﴾** يقول تتبع. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، قال: **﴿تَبْلُو﴾** تختبر. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن زيد، **﴿تَبْلُو﴾** قال: تعابن **﴿كُلَّ نَفْسٍ مَا سَلَفَتْ﴾** ما عملت **﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾** ما كانوا يدعون معه من الانداد. وأخرج أبو الشيخ، عن السدي في قوله: **﴿وَوَرَّثُوا﴾**

الإسلام، والبيت الجنة، وأنت يا محمد رسول، فمن أجابك دخل الإسلام، ومن دخل الإسلام دخل الجنة، ومن دخل الجنة أكل منها، وقد روي معنى هذا من طرق. وأخرج أحمد في الزهد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن قتادة، في قوله: **﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾** قال: ذكر لنا أن في التوراة مكتوباً: يا باغي الخير هلم، ويا باغي الشر ائتقه. وأخرج أبو الشيخ، عن الحسن، أنه كان إذا قرأ: **﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾** قال: لبيك ربنا وسعديك. وأخرج أحمد، ومسلم، والترمذي، وابن ماجه، وابن خزيمة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وغيرهم، عن صهيب: «إن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: **﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنَى وَزِيَادَةٍ﴾** قال: إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار نادى مناد: يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه، فيقولون: وما هو؟ ألم يثقل موازيننا، ويبيض وجوهنا، ويدخلنا الجنة، ويزحزحنا عن النار؟ قال: فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إليه، ولا أقر لأعينهم». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والدارقطني في الرؤية، وابن مروي، عن أبي موسى، عن رسول الله ﷺ: «إن الله يبعث يوم القيامة منادياً ينادي بصوت يسمعه أولهم وآخرهم: إن الله وعكم الحسنَى وزيادة، فالحسنَى الجنة، والزيادة النظر إلى وجه الرحمن. وأخرج ابن جرير، وابن مروي، والبيهقي في الرؤية، عن كعب بن عجرة، عن النبي ﷺ، في قوله: **﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنَى وَزِيَادَةٍ﴾** قال: للزيادة النظر إلى وجه الرحمن. وأخرج هؤلاء والدارقطني، وابن أبي حاتم، عن أبي بن كعب، أنه سأل رسول الله ﷺ عن قوله: **﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنَى وَزِيَادَةٍ﴾** قال: الذين أحسنوا: أهل التوحيد، والحسنَى: الجنة، والزيادة: للنظر إلى وجه الله. وأخرج ابن مروي، عن ابن عمر، مرفوعاً نحوه. وأخرج أبو الشيخ، والدارقطني، وابن مروي، والخطيب، وابن النجار، عن أنس مرفوعاً نحوه. وأخرج أبو الشيخ، عن أبي هريرة، نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن خزيمة، وابن المنذر، وأبو الشيخ، والدارقطني، وابن مروي، والبيهقي، عن أبي بكر الصديق، في الآية قال: الحسنَى الجنة، والزيادة النظر إلى وجه الله. وأخرج ابن مروي، عن طريق الحرث، عن علي بن أبي طالب في الآية مثله. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، والدارقطني، والبيهقي، عن حذيفة في الآية قال: للزيادة النظر إلى وجه الله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والدارقطني، والبيهقي، عن أبي موسى نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، واللالكائي عن ابن مسعود، نحوه. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي، عن علي قال: الزيادة غرفة من لؤلؤة واحدة لها أربعة أبواب غرفها

إلى الله مولاهم الحق قال: نسخها قوله: ﴿إله مولى الذين آمنوا وإن الكافرين لا مولى لهم﴾ [محمد: 11].

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ النَّفْسَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يَدْبُرُ الْأُمُورَ فَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٠﴾ فَذَلِكُمْ اللَّهُ يُدَبِّرُ لَكُمْ أَمْرًا مَا تَتَوَقَّعُونَ قُلْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠١﴾ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَدْعُوا لِلْفَلَقِ ثُمَّ يُبَدِّلُ اللَّهُ سُبُوحًا لِلْفَلَقِ ثُمَّ يُبَدِّلُ مَا تَدْعُونَ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلْ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُبْعَثَ نَذِيرٌ أَمْ لَا أَنْ يَهْدِيَهُمَا اللَّهُ لَمَبَّةٍ لَكُمُ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظُلْمًا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي شِقَاقٍ شَدِيدٍ ﴿١٠٤﴾ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَسْكُرُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا كَانَ هَذَا الْقَوْمَ أَنْ يَنْفَعَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ نَصِيبٌ أَلَى بَيْنَ يَدَيْهِ وَفَصِيلَ الْكَافِرِينَ لَا رَبَّ فِيهِمْ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٦﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَتَنبِئُهُمْ بِقُلُوبِهِمْ فَاقْتُلُوا رَسُولَهُمْ وَادْعُوا إِلَى مَا أَسْتَطْعَمُونَ دُونَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٠٧﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَهُمْ مَنْ يَدْعُونَ بِهِ وَهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَرَبُّكَ أَكْبَرُ مِنَ الظَّاهِرِينَ ﴿١٠٩﴾ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١١٠﴾

لما بين فضائح المشركين اتبعها بإيراد الحجج الدامغة، من أحوال الرزق والحواس، والموت والحياة، والابتداء والإعادة، والإرشاد والهدى، وبنى سبحانه الحجج على الاستفهام وتفويض الجواب إلى المسؤولين، ليكون أبلغ في إلزام الحجة وأوقع في النفوس، فقال: ﴿قُلْ يا محمد للمشركين احتجاجاً لحقية التوحيد، ويطلان ما هم عليه من الشرك ﴿مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ من السماء بالمطر، ومن الأرض بالنبات والمعادن، فإن اعترفوا حصل المطلوب، وإن لم يعترفوا فلا بد أن يعترفوا بأن الله هو الذي خلقهما ﴿أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ أم هي المنقطعة، وفي هذا انتقال من سؤال إلى سؤال، وخص السمع والبصر بالذكر، لما فيهما من الصنعة العجيبة، والقدرة الباهرة العظيمة أي: من يستطيع ملكهما وتسويتهما على هذه الصفة العجيبة، والخلقة الغريبة، حتى ينتفعا بهما هذا الانتفاع العظيم، ويحصلون بهما من الفوائد ما لا يدخل تحت حصر الحاصرين، ثم انتقل إلى حجة ثالثة، فقال: ﴿وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ الإنسان من النطفة، والطير من البيضة، والنبات من الحبة، أو المؤمن من الكافر ﴿يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ أي: النطفة من الإنسان، أو الكافر من المؤمن، والمراد من هذا الاستفهام عمن يحيي ويميت ثم انتقل إلى حجة رابعة، فقال: ﴿وَمَنْ يَدْبُرُ الْأُمُورَ﴾ أي: يقدِّره ويقضيه، وهذا من عطف العام على الخاص، لأنه قد عمَّ ما تقدّم وغيره ﴿فَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ أي: سيكون قولهم في جواب هذه الاستفهامات إن الفاعل لهذه الأمور هو: الله سبحانه، إن أنصفوا وعملوا على ما يوجبه الفكر الصحيح

والعقل السليم، وارتفاع الاسم الشريف على أنه خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ خبره محذوف، أي: الله يفعل ذلك، ثم أمره الله سبحانه بعد أن يجيبوا بهذا الجواب أن يقول لهم: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ والاستفهام للإنكار، والفاء للعطف على مقتر: أي تعلمون ذلك، أفلا تتقون وتفعلون ما يوجب هذا العلم من تقوى الله الذي يفعل هذه الأفعال ﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ﴾ أي: فذلكم الذي يفعل هذه الأفعال هو ربكم المتصف بانه الحق، لا ما جعلتموه شركاء له، والاستفهام في قوله: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ للتقريع والتوبيخ، إن كانت ما استفهامية، لا إن كانت نافية كما يحتمل الكلام، والمعنى: أي شيء بعد الحق إلا الضلال، فإن ثبوت ربوبية الرب سبحانه حق بإقرارهم، فكان غيره باطلاً لأن واجب الوجود يجب أن يكون واحداً في ذاته وصفاته ﴿فَأَنَّى تصرفون﴾ أي: كيف تستجيزون العدول عن الحق الظاهر، وتقعون في الضلال إذ لا واسطة بينهما؟ فمن تخطى أحدهما وقع في الآخر، والاستفهام للإنكار والاستبعاد والتعجب ﴿كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون﴾ أي: كما حق وثبت أن الحق بعده الضلال، أو كما حق أنهم مصروفون عن الحق، كذلك حقت كلمة ربك: أي حكمه وقضاؤه على الذين فسقوا: أي خرجوا من الحق إلى الباطل، وتمزقوا في كفرهم عناداً ومكابرة، وجملة ﴿أنهم لا يؤمنون﴾ بدل من الكلمة. قاله الزجاج: أي حقت عليهم هذه الكلمة، وهي عدم إيمانهم، ويجوز أن تكون الجملة تعليلية لما قبلها بتقدير اللام: أي لأنهم لا يؤمنون. وقال الفراء: إنه يجوز إنهم لا يؤمنون بالكسر على الاستثناء، وقد قرأ نافع، وابن عامر: ﴿كلمات ربك﴾ بالجمع. وقرأ الباقون بالافراد. قوله: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَدْعُوا لِلْخَلْقِ ثُمَّ يَعْبُدُ﴾ أورد سبحانه في هذا حجة خاصة على المشركين، أمر نبيه ﷺ أن يقولها لهم، وهم وإن كانوا لا يعترفون بالمعاد، لكنه لما كان أمراً ظاهراً بيناً، وقد أقام الأدلة عليه في هذه السورة على صورة لا يمكن نفيها عند من أنصف، ولم يكابر، كان كالمسلم عندهم الذي لا جحد له ولا إنكار فيه، ثم أمره سبحانه أن يقول لهم: ﴿قُلْ اللَّهُ يَدْعُوا لِلْخَلْقِ ثُمَّ يَعْبُدُ﴾ أي: هو الذي يفعل ذلك لا غيره، وهذا القول الذي قاله النبي ﷺ، عن أمر الله سبحانه له هو نيابة عن المشركين في الجواب، إما على طريق التلقين لهم، وتعريفهم كيف يجيبون، وإرشادهم إلى ما يقولون، وإما لكون هذا المعنى قد بلغ في الوضوح إلى غاية لا يحتاج معها إلى إقرار الخصم، ومعرفة ما لديه، وإما لكون المشركين لا ينطقون بما هو الصواب في هذا الجواب، فراراً منهم عن أن تلزمهم الحجة، أو أن يسجل عليهم بالعناد والمكابرة إن حادوا عن الحق - ومعنى: ﴿فَأَنَّى توفكون﴾ فكيف توفكون: أي تصرفون عن الحق وتنقلبون منه إلى غيره. ثم أمره الله سبحانه أن يورد عليهم حجة سادسة فقال: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾

في محل نصب بتحكمون، ثم بين سبحانه ما هؤلاء عليه في أمر دينهم، وعلى أي شيء بنوه، وبأي شيء اتبعوا هذا الدين الباطل، وهو الشرك فقال: ﴿وما يتبع أكثرهم إلا ظناً إن الظن لا يغني من الحق شيئاً﴾ وهذا كلام مبتدأ غير داخل في الأوامر السابقة. والمعنى: ما يتبع هؤلاء المشركون في إشراكهم بالله، وجعلهم له أنداداً إلا مجرد الظن، والتخمين والحس، ولم يكن ذلك عن بصيرة، بل ظن من ظن من سلفهم أن هذه المعبودات تقربهم إلى الله، وأنها تشفع لهم، ولم يكن ظنه هذا لمستند قط، بل مجرد خيال مختل وحس بطل، ولعل تنكير الظن هنا للتحقير: أي إلا ظناً ضعيفاً لا يستند إلى ما تستند إليه سائر الظنون. وقيل المراد بالآية: إنه ما يتبع أكثرهم في الإيمان بالله والإقرار به إلا ظناً. والأول: أولى. ثم أخبرنا الله سبحانه: بأن مجرد الظن لا يغني من الحق شيئاً، لأن أمر الدين إنما يبني على العلم، وبه يتضح الحق من الباطل، والظن لا يقوم مقام العلم، ولا يدرك به الحق، ولا يغني عن الحق في شيء من الأشياء، يجوز انتصاب شيئاً على المصدرة، أو على أنه مفعول به، ومن الحق حال منه والجملة مستأنفة لبيان شأن الظن وبطلانه ﴿إن الله عليم بما يفعلون﴾ من الأفعال القبيحة الصادرة لا عن برهان. قوله: ﴿وما كان هذا القرآن أن يفترى من نون الله﴾ لما فرغ سبحانه من دلائل التوحيد وحججه، شرع في تثبيت أمر النبوة: أي وما صح وما استقام أن يكون هذا القرآن المشتمل على الحجج البينة، والبراهين الواضحة، يفترى من الخلق من نون الله، وإنما هو من عند الله عز وجل، وكيف يصح أن يكون مفترى، وقد عجز عن الإتيان بسورة منه القوم الذين هم أقصص العرب لساناً وأنهم أدهاناً ﴿ولكن﴾ كان هذا القرآن تصديق الذي بين يديه. من الكتب المنزلة على الأنبياء، ونفس هذا التصديق معجزة مستقلة، لأن أقاصيصه موافقة لما في الكتب المتقدمة، مع أن النبي ﷺ لم يطلع على ذلك ولا تعلمه ولا سأل عنه، ولا اتصل بمن له علم بذلك، وانتصاب تصديق على أنه خبر لكان المقدرة بعد لكن، ويجوز أن يكون انتصابه على العلية لفعل محذوف: أي لكن أنزل الله تصديق الذي بين يديه. قال الفراء: ومعنى الآية، وما ينبغي لهذا القرآن أن يفترى كقوله: ﴿وما كان لنبي أن يغل﴾ [آل عمران: 161] ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾ [التوبة: 122]. وقيل: إن «أن» بمعنى اللام: أي: وما كان هذا القرآن ليفترى؛ وقيل بمعنى لا: أي لا يفترى، قال الكسائي والفراء: إن التقدير في قوله: ﴿ولكن تصديق﴾ ولكن كان تصديق، ويجوز عندهما الرفع أي: ولكن هو تصديق؛ وقيل المعنى: ولكن القرآن تصديق ﴿الذي بين يديه﴾ من الكتب: أي أنها قد بشرت به قبل نزوله، فجاء مصدقاً لها؛ قيل المعنى: ولكن تصديق النبي الذي بين يدي القرآن، وهو محمد ﷺ، لأنهم شاهدوه قبل أن يسمعوا منه القرآن. قوله: ﴿وتفصيل الكتاب﴾ عطف على قوله: ﴿ولكن تصديق الذي بين

والاستفهام ها هنا كالاستفهامات السابقة، والاستدلال بالهداية بعد الاستدلال بالخلق وقع كثيراً في القرآن كقوله: ﴿الذي خلقني فهو يهدين﴾ [الشعراء: 78] وقوله: ﴿الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾ [طه: 50] وقوله: ﴿الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى﴾ [الأعلى: 2، 3] وفعل الهداية يجيء متعدياً باللام وإلى، وهما بمعنى واحد. روي ذلك عن الزجاج. والمعنى: قل لهم يا محمد هل من شركائكم من يرشد إلى دين الإسلام، ويدعو الناس إلى الحق؟ فإذا قالوا لا، فقل لهم: الله يهدي للحق دون غيره، ولليل ذلك ما تقدم من الأدلة الدالة على اختصاصه سبحانه بهذا، وهداية الله سبحانه لعباده إلى الحق هي بما نصبه لهم من الآيات في المخلوقات، وإرساله للرسول، وإنزاله للكتب، وخلق له ما يتوصل به العباد إلى ذلك من العقول والأفهام، والأسماع والأبصار، والاستفهام في قوله: ﴿أقمم يهدي إلى الحق﴾ الحق أن يتبع أم من لا يهدي إلا أن يهدي للتقرير والإزام الحجة.

وقد اختلف القراء في ﴿لا يهدي﴾ فقرأ أهل المدينة إلا نافعاً «يهدي» بفتح الياء وإسكان الهاء وتشديد الدال فجمعوا في قراءتهم هذه بين ساكنين. قال النحاس: والجمع بين ساكنين لا يقدر أحد أن ينطق به. قال محمد بن يزيد: لا بد لمن رام مثل هذا أن يحرك حركة خفيفة إلى الكسر، وسيبويه يسمي هذا اختلاصاً. وقرأ أبو عمرو، وقالون، في رواية بين الفتح والإسكان. وقرأ ابن عامر، وابن كثير، وورش، وابن محيصن، بفتح الياء والهاء وتشديد الدال. قال النحاس: هذه القراءة بيّنة في العربية، والأصل فيها يهتدي، أدغمت التاء في الدال وقلبت حركتها إلى الهاء. وقرأ حفص، ويعقوب، والأعمش مثل قراءة ابن كثير، إلا أنهم كسروا الهاء، قالوا: لأن الكسر هو الأصل عند النقاء الساكنين. وقرأ أبو بكر، عن عاصم «يهدي» بكسر الياء والهاء وتشديد الدال، وذلك للاتباع. وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف، ويحيى بن وثاب «يهدي» بفتح الياء وإسكان الهاء، وتخفيف الدال من هدي يهدي. قال النحاس: وهذه القراءة لها وجهان في العربية، وإن كانت بعيدة: الأول: أن أبا العباس والفراء قالوا: إن يهدي بمعنى يهتدي. الثاني: أن أبا العباس قال: إن التقدير أم من لا يهدي غيره، ثم تم الكلام، وقال بعد ذلك ﴿إلا أن يهدي﴾ أي: لكنه يحتاج أن يهدي، فهو استثناء منقطع، كما تقول فلان لا يسمع غيره إلا أن يسمع: أي لكنه يحتاج أن يسمع، والمعنى على القراءات المتقدمة: أقمم يهدي للناس إلى الحق، وهو الله سبحانه أحق أن يتبع ويقتدي به، أم الأحق بأن يتبع ويقتدي به من لا يهتدي بنفسه إلا أن يهتدي غيره، فضلاً عن أن يهدي غيره؟ والاستثناء على هذا، استثناء مفرغ من أعم الأحوال. قوله: ﴿فما لكم كيف تحكمون﴾ هذا تعجب من حالهم باستقامتهم متواليين: أي أي شيء لكم كيف تحكمون باتخاذ هؤلاء شركاء لله، وكلا الاستفهامين للتقريع والتوبيخ، وكيف

وتعلمه وجداناً. والحاصل أن من كذب بالحجة النيرة، والبرهان الواضح، قبل أن يحيط بعلمه، فهو لم يتسمك بشيء في هذا التكنيب، إلا مجرد كونه جاهلاً لما كذب به غير عالم به، فكان بهذا التكنيب منادياً على نفسه بالجهل بأعلى صوت، ومسجلاً بقصوره عن تعقل الحجج بأبلغ تسجيل، وليس على الحجة ولا على من جاء بها من تكنيبه شيء:

ما يبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه
قوله: ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ معطوف على ﴿لَمْ يَحِيطُوا بعلمه﴾ أي: بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه، وبما لم يأتهم تأويله، أو هذه الجملة في محل نصب على الحال: أي كذبوا به حال كونهم لم يفهموا تأويل ما كذبوا به، ولا بلغته عقولهم. والمعنى: أن التكنيب منهم وقع قبل الإحاطة بعلمه، وقيل أن يعرفوا ما يؤول إليه من صدق ما اشتمل عليه من حكاية ما سلف من أخبار الرسل المتقدمين، والامم السابقين، ومن حكايات ما سيحدث من الأمور المستقبلية التي أخبر عنها قبل كونها، أو قيل أن يفهموه حق الفهم، وتتعلقه عقولهم، فإنهم لو تدبروه كلية التدبر لفهموه كما ينبغي، وعرفوا ما اشتمل عليه من الأمور الدالة بأبلغ دلالة على أنه كلام الله، وعلى هذا فمعنى تأويله ما يؤول إليه لمن تدبره من المعاني الرشيدة، واللطائف الانيقة، وكلمة التوقع أظهر في المعنى الأول: ﴿كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: أي: مثل ذلك التكنيب كذب الذين من قبلهم من الأمم عند أن جاءتهم الرسل بحجج الله وبراهينه، فإنهم كذبوا به قبل أن يحيطوا بعلمه، وقبل أن يأتيتهم تأويله: ﴿فَنَظَرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ من الأمم السالفة من سوء العاقبة، بالخسف والمسح ونحو ذلك من العقوبات التي حلت بهم، كما حكى ذلك القرآن عنهم، واشتملت عليه كتب الله المنزلة عليهم. قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ أي: ومن هؤلاء الذين كذبوا بالقرآن من يؤمن به في نفسه، ويعلم أنه صدق وحق، ولكنه كذب به مكابرة وعناداً. وقيل المراد: ومنهم من يؤمن به في المستقبل، وإن كذب به في الحال، والموصول مبتدأ، وخبره منهم ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ﴾ ولا يصنقه في نفسه، بل كذب به جهلاً كما مر تحقيقه، أو لا يؤمن به في المستقبل، بل يبقى على جوده وإصراره؛ وقيل الضمير في الموضعين للنبي ﷺ. وقد قيل إن هذا التقسيم خاص بأهل مكة، وقيل: عام في جميع الكفار ﴿وَرَبِّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ فيجازيهم بأعمالهم، والمراد بهم: المفسدون، أو بكلا الطائفتين، وهم الذين يؤمنون به في أنفسهم، ويكذبون به في الظاهر، والذين يكذبون به جهلاً، أو الذين يؤمنون به في المستقبل، والذين لا يؤمنون به. ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ بأن يقول لهم إن أصرؤا على تكذيبه واستمرؤا عليه ﴿لِيْ عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ أي لي جزاء عملي ولكم جزاء عملكم، فقد أبلغت إليكم ما أمرت بإبلاغه، وليس علي غير ذلك، ثم أكد هذا بقوله: ﴿أَنْتُمْ

بنيه﴾ فيجيء فيه الرفع والنصب على الوجهين المذكورين في تصديق، والتفصيل: التبيين، أي يبين ما في كتب الله المتقدمة، والكتاب للجنس؛ وقيل: أراد ما بين في القرآن من الأحكام، فيكون المراد بالكتاب: القرآن. قوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ الضمير عائد إلى القرآن، وهو داخل في حكم الاستدراك خبر ثالث، ويجوز أن تكون هذه الجملة في محل نصب على الحال من الكتاب، ويجوز أن تكون الجملة استثنائية لا محل لها، و﴿مَنْ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ خبر رابع: أي كائن من رب العالمين، ويجوز أن يكون حالاً من الكتاب؛ أو من ضمير القرآن في قوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: كائناً من رب العالمين، ويجوز أن يكون متعلقاً بتصديق وتفصيل، وجملة ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ معترضة. قوله: ﴿وَأَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ الاستفهام للإنكار عليهم، مع تقرير ثبوت الحجة، وأم هي المنقطعة التي بمعنى بل والهزة: أي بل يقولون افتراه واختلقه. وقال أبو عبيدة: لم بمعنى الواو: أي ويقولون افتراه؛ وقيل الميم زائدة، والتقدير: يقولون افتراه، والاستفهام للتقريع والتوبيخ. ثم أمره الله سبحانه أن يتحدثهم حتى يظهر عجزهم ويتبين ضعفهم فقال: ﴿قُلْ فَاتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ أي: إن كان الأمر كما تزعمون من أن محمداً افتراه، فاتوا أنتم على جهة الافتراء بسورة مثله في البلاغة، وجودة الصناعة، فأنتم مثله في معرفة لغة العرب وفصاحة اللسان وبلاغة الكلام ﴿وَادْعُوا﴾ بمظاهريكم ومعاونيكم ﴿مَنْ اسْتَطَعْتُمْ﴾ دعاء والاستعانة به، من قبائل العرب، ومن آلهتكم التي تجعلونهم شركاء لله. وقوله: ﴿مَنْ دُونِ اللَّهِ﴾ متعلق بادعوا: أي ادعوا من سوى الله من خلقه ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعوكم أن هذا القرآن مفترى.

وسبحان الله العظيم ما أقوى هذه الحجة وأوضحها، وأظهرها للعقول، فإنهم لما نسبوا الافتراء إلى واحد منهم في البشرية والعربية، قال لهم: هذا الذي نسبتموه إليّ وأنا واحد منكم، ليس عليكم إلا أن تأتوا، وأنتم الجمع الجَمُّ، بسورة مماثلة لسورة من سوره، واستعينوا بمن شئتم من أهل هذه اللسان العربية على كثرتهم وتباين مساكنهم، أو من غيرهم من بني آدم، أو من الجنّ، أو من الأصنام، فإن فعلتم هذا بعد التلّيا والتي، فأنتم صانقون فيما نسبتموه إليّ والصقتموه بي، فلم يأتوا عند سماع هذا الكلام المنصف، والتنزل البالغ، بكلمة ولا نطقوا ببنت شفة، بل كاعوا عن الجواب، وتشبثوا بأنيال العناد البارد، والمكابرة المجردة عن الحجة، وذلك مما لا يعجز عنه مبطل، ولهذا قال سبحانه عقب هذا التحذير البالغ ﴿يَلْ كَذِبُوا بِمَا لَمْ يَحِيطُوا بعلمه﴾ فأضرب عن الكلام الأول، وانتقل إلى بيان أنهم سارعوا إلى تكذيب القرآن، قبل أن يتدبروه ويفهموا معانيه، وما اشتمل عليه، وهكذا صنع من تصلب في التقليد، ولم يبال بما جاء به من دعا إلى الحق وتمسك بذيل الإنصاف، بل يردّه بمجرد كونه لم يوافق هواه، ولا جاء على طبق دعواه قبل أن يعرف معناه، ويعلم مبناه، كما تراه عياناً

في النظر. وقد انضم إلى فقد البصر، فقد البصيرة؛ لأن الأعمى الذي له في قلبه بصيرة قد يكون له من الحس الصحيح ما يفهم به في بعض الأحوال فهما يقوم مقام النظر، وكذلك الأصم العاقل، قد يتحسّس تحسّساً يفيد بعض فائدة، بخلاف من جمع له بين عمي البصر والبصيرة، فقد تعذر عليه الإدراك. وكذا من جمع له بين الصمم وذهاب العقل، فقد انسد عليه باب الهدى، وجواب لو في الموضوعين محذوف، دلّ عليهما ما قبلهما، والمقصود من هذا الكلام تسليّة رسول الله ﷺ، فإن الطبيب إذا رأى مريضاً لا يقبل العلاج أصلاً أعرض عنه، واستراح من الاشتغال به. قوله:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ نكر هذا عقب ما تقدّم من عدم الاهتداء بالاسماع والأبصار، ليبين أن ذلك لم يكن لأجل نقص فيما خلقه الله لهم من السمع والعقل، والبصر والبصيرة، بل لأجل ما صار في طبائعهم من التعصب والمكابرة للحق، والمجادلة بالباطل، والإصرار على الكفر، فهم الذين ظلّموا أنفسهم بذلك، ولم يظلمهم الله شيئاً من الأشياء، بل خلقهم وجعل لهم من المشاعر ما يدركون به أكمل إدراك، وركب فيهم من الحواس ما يصلون به إلى ما يريدون، ووفر مصالحهم الدنيوية عليهم، وخلق بينهم وبين مصالحهم الدينية، فعلى نفسها براقش نجتي، وقرأ حمزة والكسائي ﴿ولكن الناس﴾ بتخفيف النون ورفع الناس، وقرأ الباقون بتشديد النون ونصب الناس. قال النحاس: زعم جماعة من النحويين منهم الفراء، أن العرب إذا قالت «ولكن» بالواو شدّوا النون، وإذا حذفوا الواو خففوها. قيل: والنكتة في وضع الظاهر موضع المضمّر زيادة التعيين والتقرير، وتقديم المفعول على الفعل لإفادة القصر، أو لمجرد الاهتمام مع مراعاة الفاصلة. قوله: ﴿ويوم نحشرهم﴾ الظرف منصوب بمضمّر: أي وانكر يوم نحشرهم ﴿كان لم يلبثوا﴾ أي: كأنهم لم يلبثوا، والجملة في محل نصب على الحال: أي مشبهين من لم يلبث ﴿إلا ساعة من النهار﴾ أي: شيئاً قليلاً منه، والمراد باللبث هو اللبث في الدنيا، وقيل: في القبور، استقلوا المدة الطويلة إما لأنهم ضيعوا أعمارهم في الدنيا، فجعلوا وجودها كالعدم، أو استقصروها للدش والحيرة، أو لطول وقوفهم في المحشر، أو لشدة ما هم فيه من العذاب، نسوا لذات الدنيا وكأنها لم تكن، ومثل هذا قولهم: ﴿لبثنا يوماً أو بعض يوم﴾ [الكهف: 19] وجملة: ﴿يتعارفون بينهم﴾ في محل نصب على الحال، أو مستأنفة. والمعنى: يعرف بعضهم بعضاً كأنهم لم يتعارفوا إلا قليلاً، وذلك عند خروجهم من القبور، ثم تنقطع التعاريف بينهم لما بين أيديهم من الأمور المدهشة للعقول، المذهلة للأفهام. وقيل: إن هذا التعارف، هو: تعارف التوبيخ والتقريع، يقول بعضهم لبعض: أنت أضللتني وأغويتني، لا تعارف شفقة وراقة، كما قال تعالى: ﴿ولا يسأل حميم حميماً﴾ [المعارج: 10] وقوله: ﴿فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون﴾ [المؤمنون: 101] فيجمع

بريئون مما عمل وانا بريء مما تعملون﴾ أي: لا تؤاخذون بعلمي، ولا آؤاخذ بعملكم، وقد قيل إن هذا منسوخ بآية السيف كما ذهب إليه جماعة من المفسرين.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿كنك حقت كلمة ريك﴾ يقول: سبقت كلمة ريك. وأخرج أبو الشيخ، عن الضحاك، قال: صدقت. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿لم من لا يهدي إلا أن يهدي﴾ قال: الأوثان. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن زيد، في قوله: ﴿وإن كنوبك فقل لي عملي﴾ الآية، قال: أمره بهذا، ثم نسخه، فأمره بجهادهم.

وَمَنْ مِّنْ يَّسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الَّذِينَ كَانُوا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١١﴾ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الَّذِينَ كَانُوا لَا يَهْدُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ يُسْأَلُهُمْ كُلُّهُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَالَّذِينَ كَانُوا لَا يَشْعُرُونَ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَزَكَّرُونَ بِهِنَّ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِآيَاتِهِ الَّذِينَ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَمَّا رَأَيْنَا أَنَّ بَعْضَ آلِي نَبِيِّنَا أَوْ تَزْجُرُكَ فَاِنَّا نَرُوحُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ يَشْهَدُ عَلَى مَا يَمْشُونَ ﴿١٦﴾ وَلَمَّا كُنَّا أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنَّا جَاءَهُ رُسُلُهُمْ فَوَيْلٌ لِّبَنِيهِمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَوْمَئِذٍ مِّنْ هَذَا الْوَعْدِ إِنَّ كَيْدَ صَادِقِينَ ﴿١٨﴾ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَتَّبِعِي صِرَاطَ وَلَا تَقْصَا إِلَّا مَا سَكَنَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَلْبَسَ إِذَا جَاءَهُمْ فَلَا يُسْتَعْرَضُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقِيمُونَ ﴿١٩﴾

قوله: ﴿ومنهم من يستمعون﴾ الخ بين الله سبحانه في هذا أن في أولئك الكفار من بلغت حاله في النفرة والعداوة إلى هذا الحد، وهي أنهم يستمعون إلى النبي ﷺ إذا قرأ القرآن وعلم الشرائع في الظاهر، ولكنهم لا يسمعون في الحقيقة؛ لعدم حصول أثر السماع، وهو حصول القبول والعمل بما يسمعون، ولهذا قال: ﴿أفأنت تسمع الصم﴾ يعني: أن هؤلاء وإن استمعوا في الظاهر فهم صم، والصمم مانع من سماعهم، فكيف تطمع منهم بذلك مع حصول المانع، وهو: الصمم، فكيف إذا انضم إلى ذلك أنهم لا يعقلون، فإن من كان أصم غير عاقل، لا يفهم شيئاً ولا يسمع ما يقال له. وجمع الضمير في يستمعون حملاً على معنى من، وأفرده في ﴿ومنهم من ينظر﴾ حملاً على لفظه. قيل والنكتة: كثرة المستمعين بالنسبة إلى الناظرين، لأن الاستماع لا يتوقف على ما يتوقف عليه النظر، من المقابلة وانتفاء الحائل وانفصال الشعاع، والنور الموافق لنور البصر، والتقدير في قوله: ﴿ومنهم من يستمعون﴾ ومنهم من ينظر، ومنهم ناس يستمعون، ومنهم بعض ينظر، والهمزتان في ﴿أفأنت تسمع﴾ ﴿أفأنت تهدي﴾ للإنكار، والفاء في الموضوعين للعطف على مقدّر، كأنه قيل: أيسمعون إليك فأنت تسمعهم؟ أينظرون إليك فأنت تهديهم؟ والكلام في ﴿ومنهم من ينظر﴾ كالكلام في ﴿ومنهم من يستمعون﴾ الخ، لأن العمى مانع، فكيف يطمع من صاحبه

69] وقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ [النساء: 41] والمراد المبالغة في إظهار العدل، والنصفة بين العباد، ثم نكر سبحانه شبهة أخرى من شبه الكفار، وذلك أن النبي ﷺ، كان كلما هددهم بنزول العذاب كانوا ﴿يَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ والاستفهام منهم للإنكار، والاستبعاد، وللقدح في النبوة ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ خطاباً منهم للنبي ﷺ، وللمؤمنين، وجواب الشرط محذوف يدل عليه ما قبله، ويحتمل أن يراد بالقائلين هذه المقالة جميع الأمم الذين لم يسلموا لرسولهم الذين أرسلهم الله إليهم، ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يجيب عليهم بما يحسم مادة الشبهة ويقطع اللجاج فقال: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلَا نَفْعاً﴾ أي: لا أقدر على جلب نفع لها، ولا دفع ضرر عنها، فكيف أقدر على أن أملك ذلك لغيري، وقدم الضرر، لأن السياق لإظهار العجز عن حضور الوعد الذي استعجلوه واستبعدوه، والاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ منقطع كما نكره أئمة التفسير، أي: ولكن ما شاء الله من ذلك كان، فكيف أقدر على أن أملك لنفسي ضرراً أو نفعاً، وفي هذه أعظم واعظ، وأبلغ زاجر لمن صار دينه وهجيرة المنادة لرسول الله ﷺ، والاستغاثة به عند نزول النوازل التي لا يقدر على دفعها إلا الله سبحانه، وكذلك من صار يطلب من الرسول ﷺ ما لا يقدر على تحصيله إلا الله سبحانه. فإن هذا مقام رب العالمين الذي خلق الأنبياء والصالحين، وجميع المخلوقين، ورزقهم، وأحياهم ويميتهم، فكيف يطلب من نبي من الأنبياء، أو ملك من الملائكة، أو صالح من الصالحين، ما هو عاجز عنه غير قادر عليه، ويترك الطلب لربّ الأرباب القادر على كل شيء، الخالق الرازق المعطي المانع؟ وحسبك بما في هذه الآية موعظة، فإن هذا سيد ولد آدم، وخاتم الرسل، يأمره الله بأن يقول لعباده: لا أملك لنفسي ضرراً ولا نفعاً، فكيف يملكه لغيره، وكيف يملكه غيره ممن رتبته دون رتبته، ومنزلته لا تبلغ إلى منزلته لنفسه، فضلاً عن أن يملكه لغيره، فيا عجباً لقوم يعكفون على قبور الأموات الذين قد صاروا تحت أطباق الثرى، ويطلبون منهم من الحوائج ما لا يقدر عليه إلا الله عز وجل؟ كيف لا يتيقظون لما وقعوا فيه من الشرك، ولا يتنبهون لما حلّ بهم من المخالفة لمعنى: لا إله إلا الله، وملول: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: 1]؟ وأعجب من هذا: اطلاع أهل العلم على ما يقع من هؤلاء، ولا ينكرون عليهم، ولا يحولون بينهم وبين الرجوع إلى الجاهلية الأولى، بل إلى ما هو أشد منها، فإن أولئك يعترفون بأن الله سبحانه هو الخالق الرازق، المحيي المميت، الضار النافع، وإنما يجعلون أصنامهم شفعاء لهم عند الله، ومقربين لهم إليه، وهؤلاء يجعلون لهم قدرة على الضر والنفع، وينادونهم تارة على الاستقلال، وتارة مع ذي الجلال، وكفاك من شر سماعه، والله ناصر دينه، ومطهر شريعته من أوضار الشرك، وأناس الكفر، ولقد توسل الشيطان أخزاه الله بهذه الذريعة إلى ما تقر به عينه، وينتجج به صدره، من كفر كثير من هذه الأمة

بأن المراد بالتعارف؛ هو: تعارف التوبيخ، وعليه يحمل قوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ﴾ [سبا: 31]، وقد جمع بين الآيات المختلفة في مثل هذا وغيره بأن المواقف يوم القيامة مختلفة، فقد يكون في بعض المواقف ما لا يكون في الآخر ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَتَبُوا بَلَاءَ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مَهْتَدِينَ﴾ هذا تسجيل من الله سبحانه عليهم بالخسران، والجملة في محل النصب على الحال، والمراد بلقاء الله: يوم القيامة عند الحساب والجزاء، ونفى عنهم أن يكونوا من جنس المهتدين لجهلهم، وعدم طلبهم لما ينجيهم وينفعهم، قوله: ﴿وَمَا نَرِيكَ بِعَظْمٍ نَعْدُهُمْ﴾ أصله: إن نرك، وما مزيدة لتأكيد معنى الشرط وزيدت نون التأكيد، والمعنى: إن حصلت منا الإراءة لك بعض الذي وعدناهم من إظهار دينك في حياتك بقتلهم وأسرهم، وجواب الشرط محذوف، والتقدير فتراه، أو فذاك، وجملة: ﴿أَوْ نَتُوفِينُكَ﴾ معطوفة على ما قبلها، والمعنى: أو لا نرينك ذلك في حياتك، بل نتوفيك قبل ذلك ﴿فَالْيُنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ فعند ذلك نعذبهم في الآخرة، فنريك عذابهم فيها، وجواب ﴿أَوْ نَتُوفِينُكَ﴾ محذوف أيضاً، والتقدير: أو نتوفيك قبل الإراءة فنحن نريك ذلك في الآخرة؛ وقيل: إن جواب ﴿أَوْ نَتُوفِينُكَ﴾ هو قوله: ﴿فَالْيُنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ لدلالته على ما هو المراد من إراءة النبي ﷺ تعذيبهم في الآخرة، وقيل: العدول إلى صيغة المستقبل في الموضعين لاستحضار الصورة، والأصل: أريناك أو توفيك، وفيه نظر، فإن إراءته ﷺ لبعض ما وعد الله المشركين من العذاب لم تكن قد وقعت كالوفاة. وحاصل معنى هذه الآية: إن لم تنتقم منهم عاجلاً انتقمنا منهم أجلاً. وقد أراه الله سبحانه قتلهم وأسرهم، ونزولهم وهاب عزهم، وانكسار سورة كبرهم بما أصابهم به في يوم بدر وما بعده من المواطن، فله الحمد. قوله: ﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾ جاء بثم الدالة على التباعد، مع كون الله سبحانه شهيداً على ما يفعلونه في الدارين؛ للدلالة على أن المراد بهذه الأفعال ما يترتب عليها من الجزاء، أو ما يحصل من إنطاق الجوارح بالشهادة عليهم يوم القيامة، فجعل ذلك بمنزلة شهادة الله عليهم، كما نكره النيسابوري ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم الخالية في وقت من الأوقات ﴿رَسُولٌ﴾ يرسله الله إليهم، ويبين لهم ما شرعه الله لهم من الأحكام على حسب ما تقتضيه المصلحة ﴿فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ﴾ إليهم، وبلغهم ما أرسله الله به فكتبوه جميعاً ﴿قَضَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين الأمة ورسولها ﴿بِالْقِسْطِ﴾ أي: العدل فنجا الرسول، وهلك المكذبون له، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ تَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: 15] ويجوز أن يراد بالضمير في بينهم الأمة على تقدير أنه كذبه بعضهم، وصنقه البعض الآخر، فيهلك المكذبون، وينجو المصدقون ﴿وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾ في ذلك القضاء، فلا يعذبون بغير ننب، ولا يؤاخذون بغير حجة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ [الزمر:

المباركة ﴿وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا﴾ [الكهف: 104] ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ [البقرة: 156] ثم بين سبحانه أن لكل طائفة حداً محدوداً لا يتجاوزونه، فلا وجه لاستعجال العذاب فقال: ﴿لكل أمة أجل﴾ فإذا جاء ذلك الوقت، أنجز وعده وجازى كل بما يستحقه، والمعنى: أن لكل أمة ممن قضى بينهم وبين رسولهم، أو بين بعضهم البعض أجلاً معيناً، ووقتاً خاصاً، يحل بهم ما يريده الله سبحانه لهم عند حلوله: ﴿إذا جاء لأجلهم﴾ أي: ذلك الوقت المعين، والضمير راجع إلى كل أمة ﴿فلا يستلخروا﴾ عن ذلك الأجل المعين ﴿ساعة﴾ أي: شيئاً قليلاً من الزمان ﴿ولا يستقدمون﴾ وعليه، جملة: لا يستقدمون معطوفة على جملة لا يستأخرون، ومثله قوله تعالى: ﴿ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون﴾ [الحجر: 5] والكلام على هذه الآية المنكورة هنا قد تقدم في تفسير الآية التي في أول الأعراف، فلا نعيده.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الحسن، في قوله: ﴿يتعارفون بينهم﴾ قال: يعرف الرجل صاحبه إلى جنبه لا يستطيع أن يكلمه. وأخرج ابن جريج، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿وإما نرينك﴾ الآية. قال: سوء العذاب في حياتك ﴿أو نتوفينك﴾ قبل ﴿فإلينا مرجعهم﴾ وفي قوله: ﴿ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم﴾ قال: يوم القيامة.

قَدْ أَرَبَتْ لِي أَنْتُمْ عَذَابِي بَيْنَا أَوْ نَهَارًا مَا نَسْتَجِيبُ لَهُ الْمُتَكِبُونَ ﴿٥٥﴾
أَمَّا إِنْ مَا وَقَعَ مَا نَسْتُمْ بِهِ الْكَفَرِ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥٦﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْغُلَاظِ هَلْ تَحْزَنُونَ ﴿٥٧﴾ إِنْ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٥٨﴾
وَسَيُؤَذِّنُكُمْ أَصْحَابُ هَذِهِ الْقُرْآنِ لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُمْ لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْهِمْ ﴿٥٩﴾ وَتَوَلَّى وَجْهَكَ لِلدِّينِ أَلْفَاظَ الْقَوْلِ لَمَّا رَأَى الْغُلَاظَ وَشَهِدَ بَيْنَهُمْ بِالْقَوْلِ وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٦٠﴾ أَلَا إِنَّ إِلَهُكُمْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ هُوَ يَحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ رُجُوعُكُمْ ﴿٦٢﴾ يَأْتِيهِ النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِدَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشَقَّ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهَذِهِ لَمَّا نَزَلَتْ ﴿٦٣﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ قَدْ جَاءَكُمْ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِنْ مِمَّا يَكْتُمُونَ ﴿٦٤﴾

قوله: ﴿قل أوليتم إن اتاكم عذابه﴾ هذا منه سبحانه تزييف لرأي الكفار في استعجال العذاب بعد التزييف الأول: أي أخبروني إن اتاكم عذاب الله ﴿ببساطة﴾ أي: وقت بيات، والمراد به الوقت الذي يبيتون فيه، وينامون ويغفلون، عن التحرز، والبيات بمعنى التبييت اسم مصدر كالسلام بمعنى التسليم، وهو منتصب على الظرفية، وكذلك نهراً: أي وقت الاشتغال بطلب المعاش والكسب، والضمير في منه راجع إلى العذاب، وقيل: راجع إلى الله، والاستفهام في ﴿ماذا يستعجل منه المجرمون﴾ للإنكار المتضمن للنهي، كما في قوله: ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه﴾ [النحل: 1] ووجه الإنكار عليهم في استعجالهم: أن العذاب مكروه تنفر منه

القلوب، وتأباه الطبائع فما مقتضى لاستعجالهم له؟ والجملة المصدرة بالاستفهام جواب الشرط بحذف الفاء؛ وقيل: إن الجواب محذوف، والمعنى: تندموا على الاستعجال، أو تعرفوا الخطأ منكم فيه؛ وقيل: إن الجواب قوله: ﴿إنم إذا ما وقع﴾ وتكون جملة ﴿ماذا يستعجل منه المجرمون﴾ اعتراضاً، والمعنى: إن اتاكم عذابه أمنتكم به بعد وقوعه حين لا ينفعكم الإيمان. والأول: أولى. وإنما قال: يستعجل منه المجرمون، ولم يقل: يستعجلون منه؛ للدلالة على ما يوجب ترك الاستعجال، وهو الإجماع، لأن من حق المجرم أن يخاف من العذاب بسبب إجرامه، فكيف يستعجله؟ كما يقال لمن يستوخم أمراً إذا طلبه: ماذا تجني على نفسك. وحكى النحاس، عن الزجاج، أن الضمير في ﴿منه﴾ إن عاد إلى العذاب كان لك في ﴿ماذا﴾ تقديران: أحدهما: أن تكون ما في موضع رفع بالابتداء، وهذا بمعنى الذي، وهو خبر ما، والعائد محذوف. والتقدير الآخر: أن يكون ﴿ماذا﴾ اسماً واحداً في موضع رفع بالابتداء، والخبر ما بعده، وإن جعل الضمير في ﴿منه﴾ عائداً إلى الله تعالى، كان ﴿ماذا﴾ شيئاً واحداً في موضع نصب يستعجل، والمعنى: أي شيء يستعجل منه المجرمون: أي من الله عز وجل. ويدخل الهمزة الاستفهامية في ﴿إنم إذا ما وقع أمنتكم به﴾ على ثم كدخلها على الواو والفاء، وهي لإنكار إيمانهم، حيث لا ينفع الإيمان، وذلك بعد نزول العذاب، وهو يتضمن معنى التهويل عليهم، وتقطيع ما فعلوه في غير وقته، مع تركهم له في وقته الذي يحصل به النفع والنفعة، وهذه الجملة داخلة تحت القول المأمور به، وجيء بكلمة ثم التي للتراخي؛ دلالة على الاستبعاد. وجيء بلذا مع زيادة ما للتأكيد؛ دلالة على تحقق وقوع الإيمان منهم في غير وقته، ليكون في ذلك زيادة استعجال لهم، والمعنى: أبعد ما وقع عذاب الله عليهم، وحل بكم سخطه وانتقامه أمنتكم، حين لا ينفعكم هذا الإيمان شيئاً، ولا يدفع عنكم ضرراً؛ وقيل إن هذه الجملة: ليست داخلة تحت القول المأمور به، وإنما من قول الملائكة استهزاء بهم، وإزراء عليهم. والأول: أولى. وقيل: إن ثم هاهنا، هي بفتح الناء، فتكون ظرفية بمعنى هناك. والأول: أولى. قوله: ﴿الآن وقد كنتم به تستعجلون﴾ قيل: هو استئناف بتقدير القول، غير داخل تحت القول الذي أمر الله رسوله ﷺ أن يقوله لهم: أي قيل لهم عند إيمانهم بعد وقوع العذاب: الآن أمنتكم به وقد كنتم به تستعجلون: أي بالعذاب تكتيباً منكم واستهزاء، لأن استعجالهم كان على جهة التكنيب والاستهزاء، ويكون المقصود بأمره ﷺ أن يقول لهم هذا القول: التوبيخ لهم، والاستهزاء بهم، والإزراء عليهم، وجملة ﴿وقد كنتم به تستعجلون﴾ في محل نصب على الحال، وقرئ: «وَأَلَّا» بحذف الهمزة التي بعد اللام، والفاء حركتها على اللام. قوله: ﴿ثم قيل للذين ظلموا نوقوا عذاب للخلد﴾ معطوف على الفعل المقتّر، قيل الآن، والمراد منه: التقرير والتوبيخ لهم: أي قيل للذين ظلموا أنفسهم بالكفر وعدم الإيمان: إن هذا

الأنفس المذلولة عليها بكل نفس. ومعنى أسروا: أخفوا: أي لم يظهروا الندامة بل أخفوها، لما قد شاهدهوا في ذلك الموطن مما سلب عقولهم، وذهب بتجلدهم، ويمكن أنه بقي فيهم، وهم على تلك الحالة عرق يزعجهم إلى العصبية التي كانوا عليها في الدنيا، فأسروا الندامة لثلاث يشمت بهم المؤمنون؛ وقيل: أسرها الرؤساء فيما بينهم دون أتباعهم، خوفاً من توبيخهم لهم؛ لكنهم هم الذين أضلّوهم، وحالوا بينهم وبين الإسلام؛ ووقع هذا منهم كان عند رؤية العذاب، وأما بعد الدخول فيه فهم الذين: ﴿قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا﴾ [المؤمنون: 106] وقيل معنى أسروا: أظهروا، وقيل: وجدا ألم الحسرة في قلوبهم، لأن الندامة لا يمكن إظهارها، ومنه قول كثير:

فأسررت الندامة يوم نادى برّد جمال عاصرة المنادى
ونكر المبرد في تلك وجهين: الأول: أنها بدت في وجوههم أسرة الندامة، وهي الإنكسار، واحدها: سرار، وجمعها: أسارير، والثاني: ما تقدّم؛ وقيل معنى: ﴿أسروا الندامة﴾: أخلصوها، لأن إخفاءها إخلاصها، و﴿لما﴾ في قوله: ﴿لما رأوا العذاب﴾: ظرف بمعنى حين منصوب بأسروا، أو حرف شرط جوابه محذوف للدلالة ما قبله عليه ﴿وقضى بينهم بالقسط﴾: أي: قضى الله بين المؤمنين وبين الكافرين، أو بين الرؤساء والأتباع، أو بين الظالمين من الكفار والمظلومين؛ وقيل: معنى القضاء بينهم: إنزال العقوبة عليهم، والقسط: العدل، وجملة ﴿وهم لا يظلمون﴾ في محل نصب على الحال: أي: لا يظلمهم الله فيما فعله بهم من العذاب الذي حل بهم، فإنه بسبب ما كسبوا، وجملة ﴿ألا إن لله ما في السموات والأرض﴾: مسوقة لتقرير كمال قدرته، لأن من ملك ما في السموات والأرض، تصرف به كيف يشاء، وغلب غير العقلاء لكونهم أكثر المخلوقات. قيل: لما نكر سبحانه افتداء الكفار بما في الأرض لو كان لهم ذلك بين أن الأشياء كلها لله، وليس لهم شيء يتمكنون من الافتداء به؛ وقيل: لما أقسم على حقيقة ما جاء به النبي ﷺ، أراد أن يصحب ذلك ببليال البرهان البين بأن ما في العالم على اختلاف أنواعه ملكه، يتصرف به كيف يشاء، وفي تصدير الجملة بحرف التنبيه تنبيه للغاقلين، وإيقاظ للذاهلين، ثم أكد ما سبق بقوله: ﴿ألا إن وعد الله حق﴾: أي: كائن لا محالة، وهو عام يندرج فيه ما استعجلوه من العذاب اندراجاً أولياً، وتصدير الجملة بحرف التنبيه، كما قلنا في التي قبلها مع الدلالة على تحقق مضمون الجملتين ﴿ولكن أكثر الناس﴾: أي: الكفار ﴿لا يعلمون﴾ ما فيه صلاحهم، فيعملون به، وما فيه فسادهم فيجتنبونه ﴿هو يحيى ويميت﴾: يهب الحياة ويسلبها. ﴿والله يرجعون﴾ في الدار الآخرة، فيجازي كل بما يستحقه، ويتفضل على من يشاء من عباده. قوله: ﴿يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم﴾: يعني: القرآن فيه ما يتعظ به من قرأه وعرف معناه، والوعظ في الأصل: هو: التنكير بالعواقب سواء كان

الذي تطلبونه ضرر محض، عار عن النفع من كل وجه، والعاقلة لا يطلب ذلك، ويقال لهم على سبيل الإمانة لهم: نوقوا عذاب الخلد: أي العذاب الدائم الذي لا ينقطع، والقائل لهم هذه المقالة، والتي قبلها، قيل: هم: الملائكة الذين هم: خزنة جهنم. ولا يبعد أن يكون القائل لذلك هم الأنبياء على الخصوص، أو المؤمنون على العموم ﴿هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون﴾ في الحياة من الكفر والمعاصي. والاستفهام للتقرير، وكأنه يقال لهم هذا القول عن استغاثتهم من العذاب، وحلول النقمة. ثم حكى الله سبحانه عنهم بعد هذه البيانات البالغة، والجوابات عن أقوالهم الباطلة: أنهم استفهموا تارة أخرى عن تحقق العذاب، فقال: ﴿ويستنبئونك أحق هو﴾: أي: يستخبرونك عن جهة الاستهزاء منهم والإنكار، أحق ما تعدنا به من العذاب في العاجل والأجل، وهذا السؤال منهم جهل محض، وظلمات بعضها فوق بعض، فقد تقدّم نكره عنهم مع الجواب عليه، فصنعهم في هذا التكرير صنيع من لا يعقل ما يقول، ولا ما يقال له؛ وقيل المراد بهذا الاستخبار منهم هو: عن حقيقة القرآن، وارتفاع حق على أنه خبر مقدّم، والمبتدأ هو الضمير الذي بعده، وتقديم الخبر للاهتمام، أو هو مبتدأ، والضمير مرتفع به ساء مسدّد الخبر، والجملة في موضع نصب يستنبئونك، وقرئ ﴿أحق هو﴾ على أن اللام للجنس، فكانه قيل: أهو الحق لا الباطل. قوله: ﴿قل إي وربي إنه لحق﴾: أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يقول لهم هذه المقالة جواباً عن استفهامهم الخارج مخرج الاستهزاء: أي قل لهم يا محمد غير ملتفت إلى ما هو مقصودهم من الاستهزاء: إي وربي إنه لحق: أي نعم، وربي إن ما أعلّمكم به من العذاب لحق ثابت كائن لا محالة. وفي هذا الجواب تأكيد من وجوه: الأول: القسم مع دخول الحرف الخاص بالقسم الواقع موقع نعم؛ الثاني: دخول إن المؤكدة؛ الثالث: اللام في لحق؛ الرابع: إسمية الجملة، وذلك يدل على أنهم قد بلغوا في الإنكار والتمرد إلى الغاية التي ليست وراءها غاية، ثم توعدهم بأشدّ توعد، ورهيبهم بأعظم ترهيب، فقال: ﴿وما أنتم بمعجزين﴾: أي: فائتين العذاب بالهرب والتحيل الذي لا ينفع، والمكابرة التي لا تنفع من قضاء الله شيئاً، وهذه الجملة إما معطوفة على جملة جواب القسم، أو مستأنفة لبيان عدم خلوصهم من عذاب الله بوجه من الوجوه؛ ثم زاد في التأكيد، فقال: ﴿ولو أن لكل نفس ظلمت ما في الأرض لافتنت به﴾: أي: ولو أن لكل نفس من الأنفس المتصفة بأنها ظلمت نفسها بالكفر بالله وعدم الإيمان به ما في الأرض، من كل شيء من الأشياء التي تشتمل عليها من الأموال النفيسة، والذخائر الفائقة لافتنت به: أي جعلته فدية لها من العذاب، ومثله قوله تعالى: ﴿إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحد ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به﴾ [آل عمران: 91] وقد تقدّم قوله: ﴿أسروا الندامة لما رأوا العذاب﴾ [سبا: 33] الضمير راجع إلى الكفار، الذين سياق الكلام معهم. وقيل: راجع إلى

الذين أرسلهم الله إلى عباده، ومعنى أرايتم: أخبروني، و﴿ها﴾ في محل نصب بأرايتم المتضمن لمعنى أخبروني - وقيل: إن «ما» في محل الرفع بالابتداء وخبرها ﴿الله أذن لكم﴾ و«قل» في قوله: ﴿قل الله أذن لكم﴾ تكرير للتأكيد والرباط محذوف، ومجموع المبتدأ والخبر في محل نصب بأرايتم والمعنى: أخبروني الذي أنزل الله إليكم من رزق، فجعلتم منه حراماً وحلالاً، الله أذن لكم في تحليله وتحريمه ﴿ام على الله تفترون﴾ وعلى الوجهين، فمن في منه حراماً للتبعيض، والتقدير: فجعلتم بعضه حراماً وجعلتم بعضه حلالاً، وذلك كما كانوا يفعلونه في الأنعام حسبما سبق حكاية نك عنهم في الكتاب العزيز؛ ومعنى إنزال الرزق: كون المطر ينزل من جهة العلو، وكذلك يقضي الأمر في أرزاق العباد في السماء على ما قد ثبت في اللوح المحفوظ من ذكره سبحانه وتعالى، لكل شيء فيه. وروى عن الزجاج أن «ما» في موضع نصب بأنزل، وأنزل بمعنى خلق، كما قال: ﴿وانزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج﴾ [الزمر: 6] ﴿وانزلنا الحديد فيه بأس شديد﴾ [الحديد: 25] وعلى هذا القول والقول الأول يكون قوله: ﴿قل الله أذن لكم﴾ مستأنفاً، قيل: ويجوز أن تكون الهمزة في ﴿الله أذن لكم﴾ للإنكار، وأم منقطعة بمعنى: بل افتترون على الله، وإظهار الإسم الشريف وتقديمه على الفعل للدلالة على كمال الاقتراء. وفي هذه الآية الشريفة ما يصك مسامع المتصدين للإفتاء لعباد الله في شريعته، بالتحليل والتحريم والجواز وعدمه، مع كونهم من المقلدين الذين لا يعقلون حجج الله، ولا يفهمونها ولا يدرون ما هي. ومبلغهم من العلم الحكاية لقول قاتل من هذه الأمة قد قلبوه في دينهم، وجعلوه شارعاً مستقلاً. ما عمل به من الكتاب والسنة، فهو المعمول به عندهم. وما لم يبلغه أو بلغه ولم يفهمه حق فهمه، أو فهمه وأخطأ الصواب في اجتتهاده وترجيحه، فهو: في حكم المنسوخ عندهم المرفوع حكمه عن العباد، مع كون من قلبوه متعبداً بهذه الشريعة، كما هم متعبدون بها ومحكوماً عليه بأحكامها، كما هو محكوم عليهم بها، وقد اجتهد رأيه وأدى ما عليه، وفاز بأجرين مع الإصابة وأجر مع الخطأ، إنما الشأن في جعلهم لرأيه الذي أخطأ فيه شريعة مستقلة، ودليلاً معمولاً به. وقد أخطئوا في هذا خطأ بيناً، وأغلطوا غلطاً فاحشاً. فإن الترخيص للمجتهد في اجتتهاد رأيه يخصه وحده، ولا قائل من أهل الإسلام المعتد بأقوالهم أنه يجوز لغيره أن يعمل به تقليداً له واقتداء به، وما جاء به المقلدة في تقوّم هذا الباطل، فهو من الجهل العاطل، اللهم كما رزقنا من العلم ما نميز به بين الحق والباطل، فارزقنا من الإنصاف ما ننظر عنده بما هو الحق عندك يا واهب الخير. ثم قال: ﴿وما ظنّ الذين يفترون على الله للكذب يوم القيامة﴾ أي: أي شيء ظنهم في هذا اليوم، وما يصنع بهم فيه، وهذه الجملة الاستفهامية المتضمنة لتعظيم الوعيد لهم غير داخلة تحت القول الذي أمر الله رسوله ﷺ أن يقول لهم، بل مبتدأة مسوقة لبيان ما

سيحلّ بهم من عذاب الله، و«يوم القيامة» منصوب بالظنّ، ونكر الكذب بعد الافتراء، مع أن الافتراء لا يكون إلا كذباً لزيادة التأكيد. وقرأ عيسى بن عمر «وما ظنّ» على أنه فعل: ﴿إن الله لنؤ فضل على الناس﴾ يتفضل عليهم بأنواع النعم في الدنيا والآخرة ﴿ولكن أكثرهم لا يشكرون﴾ الله على نعمه الواصلة إليهم منه سبحانه في كل وقت من الأوقات، وطرفة من الطرفات. قوله: ﴿وما تكون في شأن﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ، وما نافية، والشأن: الأمر بمعنى القصد، وأصله الهمز، وجمعه شؤون. قال الأخفش: تقول العرب: ما شأنت شأنه: أي ما عملت عمله: ﴿وما تقتلوا منه من قرآن﴾ قال الفراء والزجاج: الضمير في منه يعود على الشأن، والجار والمجرور صفة لمصدر محذوف: أي تلاوة كائنة منه، إذ التلاوة للقرآن من أعظم شؤونه ﷺ؛ والمعنى: أنه يتلو من أجل الشأن الذي حدّث القرآن، فيعلم كيف حكمه، أو يتلو القرآن الذي ينزل في ذلك الشأن. وقال ابن جرير الطبري: الضمير عائذ في منه إلى الكتاب: أي ما يكون من كتاب الله من قرآن، وأعاده تفخيماً له كقوله: ﴿إني أنا الله﴾ [طه: 14]، والخطاب في ﴿ولا تعملون من عمل﴾ لرسول الله ولأمة؛ وقيل: الخطاب لكفار قريش ﴿إلا كنا عليهم شهداء﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال للمخاطبين: أي شهداء عليكم بعملهم منكم، والضمير. في فيه من قوله: ﴿تفيضون فيه﴾ عائذ على العمل، يقال: أفاض فلان في الحديث والعمل: إذا اندفع فيه. وقال الضحاك: الضمير في فيه عائذ على القرآن؛ والمعنى: إذ تشيعون في القرآن الكذب. قوله: ﴿وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء﴾ قرأ الكسائي «يعزب» بكسر الزاي، وقرأ الباقر بالضم وهما لغتان فصيحتان، ومعنى يعزب: يغيب، وقيل يبعد. وقال ابن كيسان: يذهب، وهذه المعاني متقاربة، ومن في ﴿من مثقال﴾ زائدة للتأكيد: أي وما يغيب عن ربك وزن ذرة: أي: نملة حمراء، وعبر بالأرض والسماء مع أنه سبحانه لا يغيب عنه شيء، لا فيهما ولا فيما هو خارج عنهما، لأن الناس لا يشاهدون سواهما وسوى ما فيهما من المخلوقات، وقدّم الأرض على السماء؛ لأنها محل استقرار العالم فهم يشاهدون ما فيها من قرب، والووا في ﴿ولا أصغر من ذلك ولا أكبر﴾ لعطف على لفظ مثقال، وانتصبا لكونهما ممتنعين، ويجوز أن يكون العطف على ذرة؛ وقيل: انتصبا بما بلا التي لنفي الجنس، والووا للاستثناء، وليس من متعلقات وما يعزب، وخبر لا ﴿إلا في كتاب﴾ والمعنى: ولا أصغر من مثقال الذرة ولا أكبر منه إلا وهو في كتاب مبين، فكيف يغيب عنه؟ وقرأ يعقوب وحمزة برفع أصغر وأكبر، ووجه ذلك أنه معطوف على محل من مثقال، ومحلّه الرفع، وقد أورد على توجيه النصب والرفع على العطف على لفظ مثقال ومحلّه، أو على لفظ ذرة إشكال، وهو أنه يصير تقدير الآية: لا يعزب عنه شيء في الأرض، ولا في السماء إلا في كتاب، ويلزم منه أن يكون ذلك الشيء الذي في

أي لهم البشرى من الله ما داموا في الحياة بما يوحىه إلى أنبيائه، وينزله في كتبه، من كون حال المؤمنين عنده هو إدخالهم الجنة ورضوانه عنهم، كما وقع كثير من البشارات للمؤمنين في القرآن الكريم، وكذلك ما يحصل لهم من الرؤيا الصالحة، وما يتفضل الله به عليهم من إجابة دعائهم، وما يشاهدونه من التبشير لهم عند حضور آجالهم بتنزل الملائكة عليهم قائلين لهم: لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة؛ وأما البشرى في الآخرة، فتلقى الملائكة لهم مبشرين بالفوز بالنعيم والسلامة من العذاب. والبشرى مصدر أريد به المبشر به، والظرفان في محل نصب على الحال: أي حال كونهم في الدنيا، وحال كونهم في الآخرة، ومعنى: ﴿لا تبديل لكلمات الله﴾ لا تغيير لأقواله على العموم، فيدخل فيها ما وعد به عباده الصالحين دخولاً أولياً، والإشارة بقوله: ﴿ذلك﴾ إلى المذكور قبله من كونهم مبشرين بالبشارتين في الدارين ﴿هو الفوز العظيم﴾ الذي لا يقار قدره، ولا يماثل غيره، والجملتان: أعني ﴿لا تبديل لكلمات الله﴾ و﴿ذلك هو الفوز العظيم﴾ اعتراض في آخر الكلام عند من يجوز، وفائدتهما تحقيق المبشر به وتعظيم شأنه، أو الأولى: اعتراضية، والثانية: تنبيئية.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مريويه، عن ابن عباس، في قوله: ﴿قل أرايتم ما أنزل الله لكم من رزق﴾ قال: هم أهل الشرك كانوا يحلون من الأنعام والحمر، ما شاءوا ويحرمون ما شاءوا. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه، في قوله: ﴿إذ تفيضون فيه﴾ قال: إذ تغفلون. وأخرج الفريابي، وابن جرير، عن مجاهد، مثله. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي، في قوله: ﴿وما يعزب عن ربك﴾ قال: لا يغيب عنه وزن نزة ﴿ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين﴾ قال: هو الكتاب الذي عند الله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن زيد، في قوله: ﴿إلا إن أولياء الله﴾ قيل: من هم يا رب؟ قال: هم الذين آمنوا وكانوا يتقون. وأخرج أبو الشيخ، عن سعيد بن جبيرة، قال: هم الذين إذا رؤوا نكروا، وأخرج الطبراني، وأبو الشيخ، وابن مريويه، والضياء في المختارة، عن ابن عباس، مرفوعاً وموقوفاً قال: هم الذين إذا رؤوا ينكروا الله لرؤيتهم. وأخرج عنه ابن المبارك، والحكيم الترمذي في نوازل الأصول، والبخاري، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مريويه، مرفوعاً، مثله. وأخرجه ابن المبارك، وابن شيبة، وابن جرير، وأبو الشيخ، وابن مريويه، عن سعيد بن جبيرة، مرفوعاً وهو مرسل. وروي نحوه من طرق أخرى مرفوعاً وموقوفاً. وأخرج أحمد، والحكيم الترمذي، عن عمرو بن الجموح، أنه سمع النبي ﷺ يقول: لا يحق العبد حق صريح الإيمان حتى يحب الله ويبغض الله، فإذا أحب الله وأبغض الله فقد استحق الولاء من الله، وإن أوليائي من عبادي وأحبائي من خلقي الذين ينكرون بنكري وأنكر بنكرهم. وأخرج أحمد

الكتاب خارجاً عن علم الله وهو: محال. وقد أجيب عن هذا الإشكال بأن الأشياء المخلوقة قسمان: قسم أوجده الله ابتداء من غير واسطة، كخلق الملائكة والسموات والأرض؛ وقسم آخر أوجده بواسطة القسم الأول من حوادث عالم الكون والفساد، ولا شك أن هذا القسم الثاني متباعد في سلسلة العلية عن مرتبة الأول، فالمراد من الآية أنه لا يبعد عن مرتبة وجوده، سبحانه شيء في الأرض ولا في السماء إلا وهو في كتاب مبين أثبت فيه صورة تلك المعلومات، والغرض: الرد على من يزعم أنه غير عالم بالجزئيات. وأجيب أيضاً بأن الاستثناء منقطع: أي لكن هو في كتاب مبين. ونكر أبو علي الجرجاني أن إلا بمعنى الواو، على أن الكلام قد تم عند قوله: ﴿ولا أكبر﴾ ثم وقع الابتداء بقوله: ﴿إلا في كتاب مبين﴾ أي: وهو أيضاً في كتاب مبين. والعرب قد تضع إلا موضع الواو، ومنه قوله تعالى: ﴿إني لا يخاف لدي المرسلون إلا من ظلم﴾ [النمل: 10 - 11] يعني: ومن ظلم، وقوله: ﴿ثلاثا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا﴾ [البقرة: 150] أي: والذين ظلموا، وقدر هو بعد الواو التي جاءت إلا بمعناها، كما في قوله: ﴿وقولوا حطة﴾ [البقرة: 58] أي: هي حطة، ومثله: ﴿ولا تقولوا ثلاثة﴾ [النساء: 171] ﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾ [الأنعام: 59]. وقال الزجاج: إن الرفع على الابتداء في قراءة من قرأ بالرفع، وخبره: ﴿إلا في كتاب﴾ واختاره صاحب الكشف، واختار في قراءة النصب التي قرأ بها الجمهور أنهما منصوبان بلا التي لنفي الجنس، واستشكل العطف بنحو ما قدمنا. ثم لما بين سبحانه إحاطته بجميع الأشياء، وكان في ذلك تقوية لقلوب المطيعين، وكسر لقلوب العاصين ذكر حال المطيعين، فقال: ﴿إلا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ الولي: في اللغة: القريب. والمراد بأولياء الله: خالص المؤمنين كأنهم قريبوا من الله سبحانه بطاعته واجتناب معصيته. وقد فسر سبحانه هؤلاء الأولياء بقوله: ﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ أي: يؤمنون بما يجب الإيمان به، ويتقون ما يجب عليهم اتقاؤه من معاصي الله سبحانه، والمراد بنفي الخوف عنهم: أنهم لا يخافون أبداً كما يخاف غيرهم؛ لأنهم قد قاموا بما أوجب الله عليهم، وانتهوا عن المعاصي التي نهاهم عنها، فهم على ثقة من أنفسهم، وحسن ظن بربهم، وكذلك لا يحزنون على فوت مطلب من المطالب، لأنهم يعلمون أن ذلك بقضاء الله وقدره، فيسلمون للقضاء والقدر، ويريحون قلوبهم عن الهم والكدر، فصدورهم منشرة وجوارحهم نشطة، وقلوبهم مسرورة؛ ومحل الموصول النصب على أنه بدل من أولياء أو الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف، أو هو مبتدأ وخبره لهم البشرى، فيكون غير متصل بما قبله، أو النصب أيضاً على المدح، أو على أنه وصف لأولياء. قوله: ﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ تفسير لمعنى كونهم أولياء الله:

ابن جرير، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في الآية قال: «هي في الدنيا الرؤيا الصالحة يراها العبد الصالح أو ترى له، وفي الآخرة الجنة». وأخرج ابن أبي الدنيا، وأبو الشيخ، وابن مردويه، وابن منده، من طريق أبي جعفر، عن جابر أن رسول الله ﷺ فسر البشري في الحياة الدنيا بالرؤيا الحبيبة، وفي الآخرة ببشارة المؤمن عند الموت: إن الله قد غفر لك ولمن حملك إلى قبرك. وأخرج ابن مردويه، عن ابن مسعود، مرفوعاً مثل حديث جابر. وأخرج ابن جابر. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، عن ابن عباس، مثله. وقد وردت أحاديث صحيحة بأن الرؤيا الصالحة من المبشرات، وأنها جزء من أجزاء النبوة، ولكنها لم تقيد بتفسير هذه الآية. وقد روي أن المراد بالبشري في الآية هي قوله: «ويبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً» [الأحزاب: 47] أخرج ذلك ابن جرير، وابن المنذر، من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس. وأخرج ابن المنذر، عنه، من طريق مقسم أنها قوله: «إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا» [فصلت: 30]. وأخرج ابن جرير، والحاكم، والبيهقي عن نافع، قال: خطب الحجاج فقال: إن ابن الزبير بذل كتاب الله، فقال ابن عمر: لا تستطيع ذلك أنت ولا ابن الزبير، «ولا تبديل لكلمات الله».

وَلَا يَحْزَنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٥﴾
 أَلَا إِنَّكَ لَمِنَ الَّذِينَ فِي السَّمَاءِ وَمَا يَسْمَعُ الَّذِينَ
 يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَسْمَعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا
 يَخْرُصُونَ ﴿١٦﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهَا وَالنَّهَارَ مُبْشَرًا
 إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿١٧﴾ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا
 سُبْحَنَهُ هُوَ الْعَزِيزُ لَمَّا فِي السَّمَاءِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنَّ عِنْدَكُمْ مِنْ
 سُلْطَانٍ مُّبِينًا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ
 عَلَى اللَّهِ الْكُفْرَ لَا يَغْلِبْكُمْ ﴿١٩﴾ مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ
 نُؤْتِيهِمُ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٢٠﴾

قوله: «ولا يحزنك قولهم» نهي للنبي ﷺ عن الحزن من قول الكفار المتضمن: للظعن عليه وتكذيبه، والقدح في دينه. والمقصود: التسليته له والتبشير. ثم استأنف سبحانه الكلام مع رسول الله ﷺ معللاً لما نكره من النهي لرسوله ﷺ فقال: «إن العزة لله جميعاً» أي: الغلبة والقهر له في مملكته وسلطانه، ليست لأحد من عباده، وإذا كان ذلك كله له، فكيف يقدرون عليك حتى تحزن لأقوالهم الكاذبة، وهم لا يملكون من الغلبة شيئاً. وقرئ «يحزنك» من أحزنه. وقرئ «أن العزة» بفتح الهمزة على معنى، لأن العزة لله، ولا ينافي ما في هذه الآية من جعل العزة جميعها لله تعالى قوله سبحانه: «وإله العزة ولرسوله وللمؤمنين» [المنافقون: 8] لأن كل عزة بالله، فهي: كلها لله. ومنه قوله: «كتب الله لأغلبن أنا ورسلي» [المجادلة: 21] «إنا لننصر رسلنا»

عن عبد الرحمن بن غنم يبلغ به النبي ﷺ: «خيار عباد الله الذين إذا رؤوا نكر الله، وشرار عباده المشاءون بالنسيئة المفرقون بين الأحبة الباغون البراءة العنت». وأخرج الحكيم الترمذي، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: قال رسول الله ﷺ: «خياركم من نكرتم الله رؤيته، وزاد في علمكم منطقاً، ورغبكم في الآخرة عمله». وأخرج الحكيم الترمذي، عن ابن عباس، مرفوعاً نحوه. وأخرج الحاكم وصححه، عن ابن عمر، مرفوعاً: «إن الله عبداً ليسوا بالأنبياء ولا شهداء يغبطهم النبيون والشهداء يوم القيامة بقرهم ومجلسهم منه، فجئنا أعرابي على ركبتيه فقال: يا رسول الله صفهم لنا حلهم لنا؟ قال: قوم من أقداء الناس من نزاع القبائل، تصافوا في الله وتحابوا في الله، يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور فيجلسهم. يخاف الناس ولا يخافون، هم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون». وأخرج أبو داود، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في شعب الإيمان، عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ فنكر نحوه. قال ابن كثير: وإسناده جيد. وأخرج ابن أبي الدنيا، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي، عن أبي هريرة مرفوعاً نحوه. وأخرج أحمد، وابن أبي الدنيا، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي، عن أبي مالك الأشعري مرفوعاً نحوه. وأخرج ابن مردويه، عن أبي هريرة، قال: سئل النبي ﷺ عن قول الله «ألا إن أولياء الله» الآية فقال: الذين يتحابون في الله». وأخرج ابن مردويه، عن جابر، مرفوعاً مثله. وقد ورد في فضل المتحابين في الله أحاديث ليس فيها أنهم المرادون بالآية. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وأحمد، والترمذي وحسنه، والحكيم في نواتر الأصول، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في شعب الإيمان، عن عطاء بن يسار، عن رجل من أهل مصر قال: سألت أبا الدرداء عن معنى قوله: «لهم البشري في الحياة الدنيا» فقال: ما سألني عنها أحد منذ سألت رسول الله ﷺ فقال: ما سألني عنها أحد غيرك منذ أنزلت علي: هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم، أو ترى له، فهي بشره في الحياة الدنيا. وبشره في الآخرة الجنة. وفي إسناده هذا الرجل المجهول. وأخرج أبو داود الطيالسي، وأحمد، والدارمي، والترمذي، وابن ماجه، والحكيم الترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي، عن عبادة بن الصامت قال: «سألت رسول الله ﷺ عن قوله: «لهم البشري في الحياة الدنيا» قال: هي الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له». وأخرج أحمد، وابن جرير، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي عن عبد الله بن عمرو، عن رسول الله ﷺ في قوله: «لهم البشري في الحياة الدنيا» قال: الرؤيا الصالحة يبشر بها المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة، فمن رأى ذلك فليخبر بها الحديث. وأخرج

﴿سبحانه هو الغني﴾ فتنزهه جل وعلا عما نسبوه إليه من هذا الباطل البين، وبين أنه غني عن ذلك، وأن الولد إنما يطلب للحاجة. والغني المطلق لا حاجة له حتى يكون له ولد يقضيها، وإذا انتفت الحاجة انتفى الولد، وإيضاً إنما يحتاج إلى الولد من يكون بصدد الانقراض، ليقوم الولد مقامه، والأزلي القديم لا يفتقر إلى ذلك. وقد تقدم تفسير الآية في البقرة. ثم بالغ في الرّد عليهم بما هو كالبرهان، فقال: ﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾، وإذا كان الكل له، وفي ملكه، فلا يصح أن يكون شيء مما فيهما ولداً له للمنافاة بين الملك والبنوة والأبوة. ثم زيف دعوامه الباطلة وبين أنها بلا دليل فقال: ﴿إن عنكم من سلطان بهذا﴾ أي: اعنكم من حجة وبرهان بهذا القول الذي تم لونه، و«من» في ﴿من سلطان﴾ زائدة للتأكيد، والجار والمجرور في ﴿بهذا﴾ متعلق إما بسلطان، لأنه بمعنى الحجة والبرهان، أو متعلق بما عنكم لما فيه من معنى الاستقرار. ثم ويخيم على هذا القول العاطل عن الدليل الباطل عند العقلاء فقال: ﴿تقولون على الله ما لا تعملون﴾، ويستفاد من هذا أن كل قول لا دليل عليه، ليس هو من العلم في شيء، بل من الجهل المحض، ثم أمر رسوله ﷺ أن يقول لهم قولاً يدل على أن ما قالوه كذب، وأن من كذب على الله لا يفلح، فقال: ﴿قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون﴾ أي: كل مفتر هذا شأنه، ويخل فيه هؤلاء دخولاً أولياً. وذكر الكذب مع الافتراء للتأكيد كما سبق في مواضع من الكتاب العزيز. والمعنى: إن هؤلاء الذين يكذبون على ربهم لا يفوزون بمطلب من المطالب. ثم بين سبحانه أن الافتراء وإن فاز صاحبه بشيء من المطالب العاجلة، فهو متاع قليل في الدنيا، ثم يتعقبه الموت والرجوع إلى الله، فيعذب المفتر عذاباً مؤبداً. فيكون متاع خبر مبتداً محذوف، والجملة مستأنفة لبيان أن ما يحصل للمفترى بافترائه ليس بغائدة يعتد بها، بل هو متاع يسير في الدنيا، يتعقبه العذاب الشديد بسبب الكفر الحاصل بأسباب من جملتها الكذب على الله. وقال الاخفش: إن التقدير لهم متاع في الدنيا، فيكون المحذوف على هذا هو الخبر. وقال الكسائي: التقدير ذلك متاع أو هو متاع، فيكون المحذوف على هذا هو المبتداً.

وقد أخرج أبو الشيخ، عن ابن عباس، قال: في قوله تعالى: ﴿ولا يحزنك﴾ لما لم ينتفخوا بما جاءهم من الله وإقاموا على كفرهم، كبر ذلك على رسول الله ﷺ، فجاءه من الله فيما يعاتب: ﴿ولا يحزنك قولهم إن العزة لله جميعاً هو السميع العليم﴾ يسمع ما يقولون ويعلمه، فلو شاء بعزته لانتصر منهم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة، في قوله: ﴿والنهار مبصر﴾ قال: منيراً. وأخرج أبو الشيخ، عن الحسن، في قوله: ﴿إن عنكم من سلطان بهذا﴾ يقول: ما عنكم سلطان بهذا.

﴿وَأَنزَلَ عَلَيْهِمْ تَبَارُكُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ يَنْقُورُ لِإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾

[غافر: 51] ﴿ألا إن الله من في السموات ومن في الأرض﴾ ومن جملتهم هؤلاء المشركون المعاصرون للنبي ﷺ، وإذا كانوا في ملكه يتصرف فيهم كيف يشاء، فكيف يستطيعون أن يؤنوا رسول الله ﷺ بما لا يأتان الله به، وغلب العقلاء على غيرهم؛ لكونهم أشرف. وفي الآية نعي على عباد البشر، والملائكة والجمادات؛ لأنهم عبدوا المملوك، وتركوا المالك، وذلك مخالف لما يوجب العقل، ولهذا عقبه بقوله: ﴿وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء﴾ والمعنى: أنهم وإن سمو معبوداتهم شركاء لله، فليست شركاء له على الحقيقة، لأن ذلك محال: ﴿ولو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا﴾ [الأنبياء: 22] وما في وما يتبع نافية وشركاء مفعول يتبع، وعلى هذا يكون مفعول يدعون محذوفاً، والأصل وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء شركاء في الحقيقة؛ إنما هي: أسماء لا مسميات لها، فحذف أحدهما لدلالة المذكور عليه، ويجوز أن يكون المذكور مفعول يدعون، وحذف مفعول يتبع لدلالة المذكور عليه، ويجوز أن تكون استفهامية بمعنى: أي شيء يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء، ويكون على هذا الوجه شركاء منصوباً بـيدعون، والكلام خارج مخرج التوبيخ لهم، والإزراء عليهم. ويجوز أن تكون ما موصولة معطوفة على من في السموات: أي الله من في السموات، ومن في الأرض، وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء؛ والمعنى: أن الله مالك لمعبوداتهم لكونها من جملة من في السموات ومن في الأرض. ثم زاد سبحانه في تأكيد الرّد عليهم، والنفع لأقوالهم، فقال: ﴿إن يتبعون إلا الظن﴾ أي: ما يتبعون يقيناً إنما يتبعون ظناً، والظن لا يغني من الحق شيئاً ﴿إن هم إلا يخرون﴾ أي: يقدر أنهم شركاء تقديراً باطلاً، وكذباً بحتاً، وقد تقدمت هذه الآية في الانعام. ثم نكر سبحانه طرفاً من آثار قدرته مع الامتنان على عباده ببعض نعمه، فقال: ﴿هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً﴾ أي: جعل لعباده الزمان منقسماً إلى قسمين: أحدهما: مظلم وهو: الليل؛ لأجل يسكن العباد فيه عن الحركة والتعب، ويريحون أنفسهم عن الكد والكسب. والآخر: مبصر، لأجل يسعون فيه بما يعود على نفهم، وتوفير معاشهم، ويحصلون ما يحتاجون إليه في وقت مضيء منير، لا يخفى عليهم فيه كبير ولا حقيق، وجعله سبحانه للنهار مبصراً مجاز. والمعنى: أنه مبصر صاحبه كقولهم: نهاره صائم، والإشارة بقوله: ﴿إن في ذلك﴾ إلى جعل المذكور ﴿آيات﴾ عجيبة كثيرة ﴿لقوم يسمعون﴾ أي: يسمعون ما يتلى عليهم من الآيات التنزيلية المنبهة على الآيات التكوينية مما ذكره الله سبحانه هاهنا منها، ومن غيرها مما لم يذكره، فعند السماع منهم لذلك يتفكرون ويعتبرون، فيكون ذلك من أعظم أسباب الإيمان. قوله: ﴿قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغني﴾ هذا نوع آخر من أباطيل المشركين التي كانوا يتكلمون بها، وهو زعمهم بأن الله سبحانه اتخذ ولداً، فرد ذلك عليهم بقوله:

لنصرتكم، فهو على هذا منصوب بفعل مضمر. وقال محمد بن يزيد المبرد: هو معطوف على المعنى، كما قال الشاعر:

يا ليت زوجك في الوغى متقلداً سيفاً ورمحاً
والرمح لا يقتل به، لكنه محمول كالسيف. وقال الزجاج: المعنى مع شركائكم، فالوار على هذا واو مع. وأما على قراءة اجمعوا بهمزة وصل فالعطف ظاهر: أي اجمعوا أمركم، واجمعوا شركاءكم. وأما توجيه قراءة الرفع، فعلى عطف الشركاء على الضمير المرفوع في اجمعوا، وحسن هذا العطف مع عدم التأكيد بمنفصل كما هو المعتبر في ذلك أن الكلام قد طال. قال النحاس وغيره: وهذه القراءة بعيدة؛ لأنه لو كان شركاءكم مرفوعاً لرسم في المصحف بالواو، وليس ذلك موجوداً فيه، قال المهوي: ويجوز أن يرتفع الشركاء بالابتداء، والخبر محذوف: أي وشركاؤكم ليجمعوا أمرهم، ونسبة ذلك إلى الشركاء مع كون الأصنام لا تعقل، لقصد التوبيخ، والتقرع لمن عبدها. وروي عن أبي أنه قرأ: «وادعوا شركاءكم» بإظهار الفعل. قوله: **﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾** الغمة: التغطية من قولهم، غمّ الهلال: إذا استتر أي: ليكن أمركم ظاهراً منكشفاً، قال طرفة:

لعمرك ما أمري عليّ بغمة نهاري ولا ليالي عليّ بسرمد
هكذا قال الزجاج. وقال الهيثم: معناه لا يكن أمركم عليكم مبهماً - وقيل إن الغمة: ضيق الأمر، كذا روي عن أبي عبيدة. والمعنى: لا يكن أمركم عليكم بمصاحبتي والمجاملة لي ضيقاً شديداً، بل انفعوا هذا الضيق والشدة بما شئتم، وقدرتم عليه، وعلى الوجهين الأولين: يكون المراد بالأمر الثاني هو الأمر الأول، وعلى الثالث: يكون المراد به غيره. قوله: **﴿ثُمَّ اقضوا إلي ولا تنظرون﴾** أي ذلك الأمر الذي تريدونه بي، وأصل اقضوا من القضاء، وهو الإحكام، والمعنى: احكموا ذلك الأمر. قال الأخفش والكسائي: هو مثل: **﴿وقضينا إليه ذلك الأمر﴾** [الحجر: 66] أي أنهيناها إليه وأبلغناه إياه، ثم لا تنظرون: أي لا تمهلون، بل عجلوا أمركم واصنعوا ما بدا لكم، وقيل معناه: ثم امضوا إلي ولا تؤخروني، قال النحاس: هذا قول صحيح في اللغة، ومنه قضى الميت: مضى، وحكى الفراء عن بعض القراء أنه قرأ ثم «اقضوا» بالفاء وقطع الهمزة: أي توجهوا، وفي هذا الكلام من نوح عليه السلام ما يدل على وثوقه بنصر ربه، وعدم ميالاته بما يتوعد به قومه. ثم بين لهم أن كل ما أتى به إليهم من الإعذار والإنذار، وتبليغ الشريعة عن الله ليس هو لطمع دنيوي، ولا لغرض خسيس، فقال: **﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُمْ مِنْ جَرٍ﴾** أي: إن أعرضتم عن العمل بنصحي لكم، وتذكيري إياكم، فما سألتكم في مقابلة ذلك من أجر تؤبونه إليّ حتى تتيموني فيما جئت به، والفاء في **﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾** لترتيب ما بعدها على ما قبلها، والفاء في **﴿فَمَا سَأَلْتُمْ﴾** جزائية **﴿إِنْ جَرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾** أي: ما ثوابي في النصح والتذكير إلا عليه سبحانه، فهو يثيبني أمتنم أو

أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلي ولا تنظرون ﴿٦٦﴾ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُمْ مِنْ جَرٍ إِنْ جَرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمِثْ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٦٧﴾ فَكَذَّبُوا فَجَعَلْنَاهُ مِنْ نَعْمٍ فِي الْآلَمِ وَجَعَلْنَاهُ حَكِيمٌ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ بَشِّرْ مِنْ بَيْنِهِمْ رُسُلًا إِنْ قَوْمُهُمْ بِالْإِثْنِ قَتَلُوا لِيُؤْمِرُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطِيعُ كُلِّ قَوْمٍ الْمَعْتَرِينَ ﴿٦٩﴾

لما بالغ سبحانه في تقرير البراهين الواضحة ودفع الشبهة المنهارة؛ شرع في نكر قصص الأنبياء، لما في ذلك من التسلية لرسول الله ﷺ، فقال: **﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ﴾** أي: على الكفار المعاصرين لك، المعارضين لما جئت به بأقوالهم الباطلة **﴿نبأ نوح﴾** أي: خبره، والنبأ هو الخبر الذي له خطر وشأن، والمراد: ما جرى له مع قومه الذين كفروا بما جاء به، كما فعله كفار قريش وأمثالهم: **﴿إِنْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾** أي: وقت قال لقومه، والظرف منصوب بنبأ أو بدل منه بدل اشتغال، واللام في **﴿لِقَوْمِهِ﴾** لام التبليغ **﴿بِأَقْوَمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي﴾** أي: عظم ونقل، والمقام بفتح الميم: الموضع الذي يقام فيه، وبالضم الإقامة. وقد انفق القراء على الفتح، وكنى بالمقام عن نفسه كما يقال فعلته لمكان فلان: أي لأجله. ومنه: **﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾** [الرحمن: 46] أي: خاف ربه، ويجوز أن يراد بالمقام: المكث: أي: شق عليكم مكثي بين أظهركم، ويجوز أن يراد بالمقام: القيام؛ لأن الواظ يقوم حال وعظه؛ والمعنى: إن كان كبر عليكم قيامي بالوعظ في مواطن اجتماعكم، وكبر عليكم تنكيري لكم **﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾** التكوينية والتنزيلية، **﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾** هذه الجملة جواب الشرط، والمعنى: إني لا أقابل ذلك منكم إلا بالتوكل على الله، فإن ذلك دأبي الذي أنا عليه قديماً وحديثاً. ويجوز أن يريد إحداث مرتبة مخصوصة عن مراتب التوكل، ويجوز أن يكون جواب الشرط **﴿فَلِاجْمَعُوا﴾** وجملة **﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾** اعتراض، كقولك: إن كنت أنكرت علي شيئاً فالله حسبي. ومعنى: **﴿فَلِاجْمَعُوا أَمْرَكُمْ﴾** اعتزموا عليه، من أجمع الأمر: إذا نواه وعزم عليه قاله الفراء: وروي عن الفراء أنه قال: أجمع الشيء: أعدّه، وقال مؤرج السدوسي: أجمع الأمر أقصم من أجمع عليه، وأنشد:

يا ليت شعري والمعنى لا تنفع هل أغنوني يوماً وأمري مجمع
وقال أبو الهيثم: أجمع أمره: جعله جميعاً بعدما كان متفرقاً، وتفرقه أن تقول مرة أفل كذا، ومرة أفل كذا، فلما عزم على أمر واحد فقد جمعه: أي جعله جميعاً، فهذا هو الأصل في الإجماع، ثم صار بمعنى العزم، وقد اتفق جمهور القراء على نصب «شركاءكم» وقطع الهمزة من اجمعوا. وقرأ يعقوب، وعاصم الجحدري بهمزة وصل في اجمعوا، على أنه من جمع يجمع جمعاً. وقرأ الحسن، وابن أبي إسحاق، ويعقوب «وشركاؤكم» بالرفع. قال النحاس: وفي نصب الشركاء على قراءة الجمهور ثلاثة أوجه: الأول: بمعنى وادعوا شركاءكم، قاله الكسائي والفراء: أي ادعواهم

ثم جمعوا بينه وبين هارون في الخطاب في قولهم: **﴿وَتَكُونُ لَكُمْ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾** ووجه ذلك أنهم أسندوا المجيء والصرف عن طريق آباؤهم إلى موسى، لكونه المقصود بالرسالة المبلغ عن الله ما شرعه لهم، وجمعوا بينهما في الضميرين الآخرين، لأن الكبرياء شامل لهما في زعمهم، ولكون ترك الإيمان بموسى يستلزم ترك الإيمان بهارون، وقد مرّت القصة في الأعراف، قوله: **﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتُؤْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾** قال هكذا لما رأى اليد البيضاء والعصا، لأنه اعتقد أنهما من السحر، فأمر قومه بأن يأتوه بكل ساحر عليم، هكذا قرأ حمزة والكسائي، وابن وثاب، والأعمش «سحار». وقرأ الباقون: «ساحر» وقد تقدّم الكلام على هذا في الأعراف، والسحر صيغة مبالغة: أي كثير السحر، كثير العلم بعمله وأنواعه **﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ﴾** في الكلام حذف، والتقدير هكذا: وقال فرعون أئتوني بكل ساحر عليم، فأتوا بهم إليه، فلما جاء السحرة، فتكون الفاء للعطف على المقدر المحذوف. قوله: **﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى اقْبُوا مَا أَنْتُمْ مَلْقُونُ﴾** أي: قال لهم هذه المقالة بعد أن قالوا له: إما أن تلقى، وإما أن نكون نحن الملقون: أي اطرحوا على الأرض ما معكم من حبالكم وعصيك **﴿فَلَمَّا اقْبُوا﴾** ما القوه من ذلك **﴿قَالَ﴾** لهم **﴿مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ﴾** أي: الذي جئتم به السحر، على أن ما موصولة مبتدأ والخبر السحر: والمعنى: أنه سحر، لا أنه آية من آيات الله. وأجاز الفراء نصب السحر بجئتم، وتكون ما شرطية، والشرط جئتم، والجزاء: **﴿إِنْ اللَّهُ سَيِّبُطُهُ﴾** على تقدير الفاء: أي فإن الله سيبيطه: وقيل: إن السحر منتصب على المصدر: أي ما جئتم به سحراً، ثم دخلت الألف واللام، فلا يحتاج على هذا إلى حذف الفاء واختاره النحاس. وقال: حذف الفاء في المجازاة لا يجيزه كثير من النحويين إلا في ضرورة الشعر. وقرأ أبو عمرو، وأبو جعفر «أسحر» على أن الهمزة للاستفهام، والتقدير: أهو السحر، فتكون ما على هذه القراءة استفهامية. وقرأ أبي «ما أتيتم به سحر إن الله سيبيطه» أي: سيمحقه، فيصير باطلاً بما يظهره على يدي من الآيات المعجزة **﴿إِنْ اللَّهُ لَا يَصْلَحُ عَمَلُ الْمَفْسِدِينَ﴾** أي: عمل هذا الجنس، فيشمل كل من يصدق عليه أنه مفسد، ويدخل فيه السحر والسحرة دخلاً أولياً، والواو في **﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ﴾** للعطف على سيبطه: أي يبينه ويوضحه **﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾** التي أنزلها في كتبه على أنبيائه، لاشتمالها على الحجج والبراهين **﴿وَوَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾** من آل فرعون، أو المجرمون على العموم، ويدخل تحتهم آل فرعون دخلاً أولياً، والإجرام: الأثام. قوله: **﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ﴾** الضمير يرجع إلى موسى: أي من قوم موسى، وهم طائفة من ذراري بني إسرائيل؛ وقيل المراد طائفة من ذراري فرعون، فيكون الضمير عائداً على فرعون؛ قيل: ومنهم مؤمن آل فرعون وأمراته، وماشطة ابنته، وامرأة خازنه؛ وقيل: هم قوم آبائهم

تذعنوا له، ثم قال أسحر هذا، منكراً لما قالوه؛ وقيل إن مفعول **﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾** محذوف، وهو ما دلّ عليه قولهم: **﴿إِنْ هَذَا لَسِحْرٌ﴾** والتقدير: اتقوا ما تقولون، يعني: قولهم إن هذا لسحر مبين، ثم قيل أسحر هذا، وعلى هذا التقدير والتقدير الأول فتكون جملة **﴿أسحر هذا﴾** مستأنفة من جهة موسى عليه السلام، والاستفهام: للتقريع والتوبيخ، بعد الجملة الأولى المستأنفة الواقعة جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: ماذا قال لهم موسى لما قالوا إن هذا لسحر مبين؟ فقيل: قال اتقوا للحق لما جاءكم، على طريقة الاستفهام الإنكاري، والمعنى: اتقوا للحق لما جاءكم إن هذا لسحر مبين، وهو أبعد شيء من السحر. ثم أنكر عليهم، وقرعهم، ووبخهم، فقال: **﴿أسحر هذا﴾** فجاء موسى عليه السلام بإنكار بعد إنكار، وتوبيخ بعد توبيخ، وتجهيل بعد تجهيل، وجملة: **﴿وَلَا يَفْلَحُ السَّاحِرُونَ﴾** في محل نصب على الحال: أي اتقوا للحق إنه سحر، والحال: أنه لا يفلح الساحرون، فلا يظفرون بمطلوب، ولا يفوزون بخير، ولا ينجون من مكروه، فكيف يقع في هذا من هو مرسل من عند الله، وقد أيدته بالمعجزات والبراهين الواضحة؟ وجملة: **﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتْنَا عَمَا وَجِدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾** مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل: فماذا قالوا بعد أن قال لهم موسى ما قال؟ وفي هذا ما يدلّ على أنهم انقطعوا عن الدليل، وعجزوا عن إبراز الحجة، ولم يجحدوا ما يجيبون به عما أورده عليهم، بل لجئوا إلى ما يلجأ إليه أهل الجهل والبلادة، وهو: الاحتجاج بما كان عليه آبائهم من الكفر، وضموا إلى ذلك ما هو غرضهم وغاية مطلبهم، وسبب مكابرتهم للحق، وجودهم للآيات البينة، وهو الرياسة الدنيوية التي خافوا عليها، وظنوا أنها ستذهب عنهم إن آمنوا، وكم بقي على الباطل، وهو يعلم أنه باطل بهذه الذريعة من طوائف هذا العالم في سابق الدهر ولاحقه، فمنهم من حبسه ذلك عن الخروج من الكفر، ومنهم من حبسه عن الخروج إلى السنة من البدعة، وإلى الرواية الصحيحة من الرأي البحت، يقال لفته لفتاً: إذا صرفه عن الشيء ولواه عنه، ومنه قول الشاعر:

تلفت نحو الحي حتى رأيتين وجعت من الإصغاء ليتاً وأخذعا
أي: تريد أن تصرفنا عن الشيء الذي وجدنا عليه آبائنا، وهو عبادة الأصنام، والمراد بالكبرياء الملك، قال الزجاج: سمي الملك كبرياء؛ لأنه أكبر ما يطلب من أمر الدنيا؛ وقيل سمي بذلك؛ لأن الملك يتكبر.

والحاصل أنهم عللوا عدم قبولهم دعوة موسى بأمرين: التمسك بالتقليد للأباء، والحرص على الرياسة الدنيوية، لأنهم إذا أجابوا النبي وصنّفوه صارت مقاليد أمر أمته إليه ولم يبق للملك رئاسة تامة، لأن التدبير للناس بالدين يرفع تدبير الملوك هم بالسياسات والعادات، ثم قالوا: **﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾** تصريحاً منهم بالتكذيب، وقطعاً للطمع في إيمانهم، وقد أورد الخطاب لموسى في قولهم: **﴿أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتْنَا،**

والمراد بالقبلة على القول الأول هي: جهة بيت المقدس، وهو: قبلة اليهود إلى اليوم؛ وقيل: جهة الكعبة، وأنها كانت قبلة موسى ومن معه؛ وقيل: المراد أنهم يجعلون بيوتهم مستقبلية للقبلة، ليصلوا فيها سرّاً لئلا يصيبهم من الكفار معرة بسبب الصلاة، ومما يؤيد هذا قوله: **﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾** أي: التي أمركم الله بإقامتها، فإنه يفيد أن القبلة هي قبلة الصلاة، إما في المساجد أو في البيوت، لا جعل البيوت متقابلة، وإنما جعل الخطاب في أول الكلام مع موسى وهارون، ثم جعله لهما ولقومهما في قوله: **﴿وَلْجَعَلُوا بَيْوتَكُمْ قِبْلَةً وَاقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾** ثم أورد موسى بالخطاب بعد ذلك، فقال: **﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾** لأن اختيار المكان مفوض إلى الأنبياء، ثم جعل عاماً في استقبال القبلة وإقامة الصلاة، لأن ذلك واجب على الجميع لا يختص بالأنبياء، ثم جعل خاصاً بموسى، لأنه الأصل في الرسالة، وهارون تابع له، فكان ذلك تعظيماً للبشارة وللمبشر بها؛ وقيل: إن الخطاب في وبشّر المؤمنين لنبينا محمد ﷺ، على طريقة الالتفات والاعتراض، والأول: أولى.

وقد أخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة، في قوله: **﴿لَتَلَفْتُنَا﴾** قال: لتلوتنا. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي، قال: لتصدنا عن آلهتنا، وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: **﴿وَتَكُونُ لَكُمْ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ﴾** قال: العظمة والملك والسلطان. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: **﴿فَمَا أَمَّنْ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِيَةٌ﴾** قال: الذرية القليل. وأخرج هؤلاء، عنه، في قوله: **﴿ذُرِيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ﴾** قال: من بني إسرائيل. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن مجاهد، قال: هم أولاد الذين أرسل إليهم موسى من طول الزمان ومات آبائهم. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس، قال: كانت الذرية التي آمنت لموسى من أناس غير بني إسرائيل من قوم فرعون منهم: امرأة فرعون، ومؤمن آل فرعون، وخازن فرعون، وامرأة خازنه. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، ونعيم بن حماد في الفتن، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: **﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾** قال: لا تسلطهم علينا فيفتنونا. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عنه، قال في تفسير الآية: لا تعذبنا بأيدي قوم فرعون، ولا بعذاب من عندك، فيقول قوم فرعون: لو كناؤنا على الحق ما عذبوا ولا سلطنا عليهم فيفتنونا بنا. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن أبي قلابة، في الآية قال: سال ربه أن لا يظهر علينا عدونا، فيحسبون أنهم أولى بالعدل فيفتنونا بذلك. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي مجلز، نحوه. وأخرج أبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: **﴿وَلَوْحِينَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَآخِيهِ﴾** الآية، قال ذلك حين منعهم فرعون الصلاة، فأمرؤا أن يجعلوا مساجدهم

من القبط وأمهاتهم من بني إسرائيل، روي هذا عن الفراء **﴿على خوف من فرعون وملأه﴾** الضمير لفرعون، وجمع لأنه لما كان جباراً جمعوا ضميره تعظيماً له؛ وقيل: إن قوم فرعون سمو بفرعون مثل ثمود، فرجع الضمير إليهم بهذا الاعتبار، وقيل: إنه عائد على مضاف محذوف، والتقدير: على خوف من آل فرعون، وروي هذا عن الفراء. ومنع ذلك الخليل، وسيبويه، فلا يجوز عندهما قامت هند وأنت تريد غلامها. وروي عن الأخفش أن الضمير يعود على الذرية، وقوله النحاس: **﴿أَن يَفْتَنَهُمْ﴾** أي: يصرفهم عن دينهم بالعذاب الذي كان ينزله بهم، وهو بدل اشتغال. ويجوز أن يكون في موضع نصب بالمصدر **﴿وَأَنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٌ فِي الْأَرْضِ﴾** أي: عات متكبر، متغلب على أرض مصر **﴿وَأَنَّهُ لَمَنْ الْمُسْرِفِينَ﴾** المجاوزين للحد في الكفر، وما يفعله من القتل والصلب، وتنويع العقوبات، قوله: **﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾** قيل: إن هذا من باب التكرير للشرط، فشرط في التوكل على الله الإيمان به والإسلام: أي الاستسلام لقضائه وقدره؛ وقيل إن هذا ليس من تعليق الحكم بشرطين بل المعلق بالإيمان هو وجوب التوكل، والمشروط بالإسلام وجوده؛ والمعنى: أن يسلموا أنفسهم لله: أي يجعلوها له سائمة خالصة لا حظ للشيطان فيها، لأن التوكل لا يكون مع التخليط. قال في الكشف: ونظيره في الكلام إن ضربك زيد فاضربه، إن كانت لك به قوة **﴿فَقَالُوا﴾** أي: قوم موسى مجيبين له **﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾** ثم دعا الله مخلصين، فقالوا: **﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً﴾** أي: موضع فتنة **﴿لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾** والمعنى: لا تسلطهم علينا، فيعذبونا حتى يفتنونا عن ديننا، ولا تجعلنا فتنة لهم، يفتنون بنا غيرنا، فيقولون لهم: لو كان هؤلاء على حق لما سلطنا عليهم وعذبناهم، وعلى المعنى الأول: تكون الفتنة بمعنى المفتون. ولما قَدَّمُوا التضرع إلى الله سبحانه في أن يصون دينهم عن الفساد، أتبعوه بسؤال عصمة أنفسهم، فقالوا: **﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾** وفي هذا دليل على أنه كان لهم اهتمام بالدين فوق اهتمامهم بسلامة أنفسهم. قوله: **﴿وَلَوْحِينَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَآخِيهِ إِنْ تَبَوَّأَ لِقَوْمِكُمْ مِصْرَ بَيْوتًا﴾** أن هي المفسرة لأن في الإحياء معنى القول إن تَبَوَّأَ: أي: اتخذوا لقومكم بمصر بيوتاً؛ يقال: تَبَوَّأَ زَيْدٌ مَكَاناً، وَتَبَوَّأَ زَيْدٌ مَكَاناً، وَالمَبْوَأُ: المنزل الملزم، ومنه بَوَّاهُ الله منزلاً: أي الزمه إياه، وأسكنه فيه، ومنه الحديث: «من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار». ومنه قول الراجز: نحن بنو عدنان ليس شك تبوأ المجد بنا والملك قيل: ومصر في هذه الآية هي الإسكندرية، وقيل: هي مصر المعروفة، لا الإسكندرية **﴿وَلْجَعَلُوا بَيْوتَكُمْ قِبْلَةً﴾** أي: متوجهة إلى جهة القبلة، قيل والمراد بالبيوت هنا: المساجد، وإليه ذهب جماعة من السلف؛ وقيل المراد بالبيوت: التي يسكنون فيها، أمروا بأن يجعلوها منا قبلة،

المضارعة: أي يوقعوا الإضلال على غيرهم. وقرأ الباقون بالفتح: أي يضلون في أنفسهم ﴿ربنا اطمس على أموالهم﴾. قال الزجاج: طمس الشيء إذهابه عن صورته؛ والمعنى: الدعاء عليهم بأن يمحو الله أموالهم، ويهلكها وقرئ بضم الميم من اطمس ﴿واشدد على قلوبهم﴾ أي: اجعلها قاسية مطبوعة لا تقبل الحق، ولا تنشرح للإيمان. قوله: ﴿فلا يؤمنوا﴾ قال المبرد والزجاج: هو معطوف على ليضلوا، والمعنى: آتيتهم النعم، ليضلوا ولا يؤمنوا، ويكون ما بين المعطوف والمعطوف عليه اعتراضاً. وقال الفراء، والكسائي، وأبو عبيدة: هو دعاء بلفظ النهي، والتقدير: اللهم فلا يؤمنوا، ومنه قول الأعشى:

فلا ينسبط من بين عينيك ما انزوى ولا تلقني إلا وإنك راغم
وقال الأخفش: إنه جواب الأمر: أي اطمس واشدد، فلا يؤمنوا، فيكون منصوباً. وروي هذا عن الفراء أيضاً، ومنه:

ياناق سيرى عنقاً فسيحاً إلى سليمان فنستريحاً
﴿حتى يروا العذاب الأليم﴾ أي: لا يحصل منهم الإيمان إلا مع المعاينة لما يعذبهم الله به، وعند ذلك لا ينفع إيمانهم. وقد استشكل بعض أهل العلم ما في هذه الآية من الدعاء على هؤلاء، وقال: إن الرسل إنما تطلب هداية قومهم وإيمانهم. واجيب بأنه لا يجوز لنبي أن يدعو على قومه إلا بإذن الله سبحانه، وإنما يأذن الله بذلك لعلمه بأنه ليس فيهم من يؤمن، ولهذا لما أعلم الله نوحاً عليه السلام بأنه لا يؤمن من قومه إلا من قد آمن، قال: ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾ [نوح: 26]. ﴿قال قد اجببت دعوتكما فاستقيما﴾ جعل الدعوة ها هنا مضافة إلى موسى وهارون، وفيما تقدم أضافها إلى موسى وحده، فقيل: إن هارون كان يؤمن على دعاء موسى، فسمي ها هنا داعياً، وإن كان الداعي موسى وحده، ففي أول الكلام أضاف الدعاء إلى موسى لكونه الداعي، وها هنا أضافه إليهما تنزيلاً للمؤمن منزلة الداعي، ويجوز أن يكونا جميعاً داعيين، ولكن أضاف الدعاء إلى موسى في أول الكلام لأصلته في الرسالة. قال النحاس: سمعت علي بن سليمان يقول: الدليل على أن الدعاء لهما، قول موسى ربنا ولم يقل رب. وقرأ علي والسلمي «دعواكما» وقرأ ابن السميغ «دعواكما» والاستقامة: الثبات على ما هما عليه من الدعاء إلى الله. قال الفراء وغيره: أمر بالاستقامة على أمرهما والثبات عليه، على دعاء فرعون وقومه إلى الإيمان إلى أن ياتيهما تأويل الإجابة أربعين سنة، ثم اهلكوا؛ وقيل معنى الاستقامة: ترك الاستعجال ولزوم السكينة، والرضا والتسليم لما يقضي به الله سبحانه. قوله: ﴿ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون﴾ بتشديد النون للتأكيد، وحزكت بالكسر لكونه الأصل، ولكونهما أشبهت نون التثنية. وقرأ ابن توكان بتخفيف النون على النفي لا على النهي. وقرئ بتخفيف الفوقية الثانية من لا يعلم. والمعنى: النهي لهما عن سلوك طريقة من لا يعلم بعبادة الله سبحانه في إجراء الأمور على ما تقتضيه

في بيوتهم، وأن يوجهوها نحو القبلة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، في قوله: ﴿أن تبوأ لقومكما بمصر﴾ قال: مصر الإسكندرية. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في الآية قال: كانوا لا يصلون إلا في البيع حتى خافوا من آل فرعون، فأمرؤ أن يصلوا في بيوتهم. وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس، في الآية قال: أمرؤ أن يتخذوا في بيوتهم مساجد. وأخرج أبو الشيخ، عن أبي سنان، قال: القبلة: الكعبة، وذكر أن آدم فمن بعده كانوا يصلون قبل الكعبة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿واجعلوا بيوتكم قبلة﴾ قال: يقابل بعضها بعضاً.

وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأْتَ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي كَلْبِهِ
أَذْنًا رَبَّنَا يُضْلِئُوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ
فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿١٧٦﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبْتُ دَعْوَتَكُمْ فَوَاقِئًا وَلَا
تُتِمَّائِي سَبِيلَ الْآلِئِ لَا يَمْلُؤُونَ ﴿١٧٧﴾ وَكَوْنَا بِسَبِيلِ إِبْرَاهِيمَ الْبَخْرِ
فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ الْفِرْقُ قَالَ مَا أَنتَ أَنتُمْ
لَا إِلَهَ إِلَّا الْآلِئِ مَا أَنتَ بِدِ بَنِي إِبْرَاهِيمَ وَأَنَا مِنَ السَّالِئِينَ ﴿١٧٨﴾ فَالْقَنَ وَقَدْ
عَصَيْتَ قَبْلَ وَكَنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٧٩﴾ فَأَيُّكُمْ تَسْبِيحُكَ بِذِكْرِ لَكَوَتْ
يَمْنُ خَلَقَكَ بِأَيْدِي وَإِنَّ كِبَارًا مِنَ الْآلِئِ عَنْ آيَاتِنَا لَمُنْفُوتِ ﴿١٨٠﴾

لما بالغ موسى عليه السلام في إظهار المعجزات، وإقامة الحجج البينات، ولم يكن لذلك تأثير في من أرسل إليهم، دعا عليهم بعد أن بين سبب إصرارهم على الكفر، وتمسكهم بالجحود والعناد، فقال مبيناً للسبب أولاً: ﴿ربنا إنك آتيت فرعون وملاه زينة وأمواً في الحياة الدنيا﴾ قد تقدم أن الملاء هم الأشراف، والزينة: اسم لكل ما يترزين به، من ملبوس ومركوب، وحلية وفراش وسلاح، وغير ذلك، ثم كرر النداء للتأكيد فقال: ﴿ربنا ليضلوا عن سبيلك﴾.

وقد اختلف في هذه اللام الداخلة على الفعل، فقال الخليل وسيبويه: إنها لام العاقبة والصيرورة. والمعنى: أنه لما كان عاقبة أمرهم الضلال، صار كأنه سبحانه أعطاهم ما أعطاهم من النعم ليضلوا، فتكون اللام على هذا متعلقة بآتيت؛ وقيل: إنها لام كي: أي أعطيتهم لكي يضلوا. وقال قوم: إن المعنى أعطيتهم ذلك لئلا يضلوا. فنحن لا كما قال سبحانه: ﴿يبين الله لكم أن تضلوا﴾ [النساء: 176]. قال النحاس: ظاهر هذا الجواب حسن إلا أن العرب لا تحذف لا إلا مع أن، فمؤه صاحب هذا التأويل بالاستدلال بقوله: ﴿يبين الله لكم أن تضلوا﴾ [النساء: 176]. وقيل اللام للدعاء عليهم. والمعنى: ابتلهم بالهلاك عن سبيلك، واستدل هذا القائل بقوله سبحانه بعد هذا: اطمس واشدد. وقد أطال صاحب الكشف في تقرير هذا بما لا طائل تحته، والقول الأول هو: الأولى. وقرأ الكوفيون «ليضلوا» بضم حرف

واضلالك لغيرك. قوله: ﴿فاليوم ننجيك ببينك﴾ قرئ «ننجيك» بالتخفيف، والجمهور على التثقيل. وقرأ اليزيدي: «ننجيك» بالحاء المهملة من النجية، وحكاها علقمة عن ابن مسعود؛ ومعنى ننجيك بالجي: نلّيك على نجوة من الأرض، وذلك أن بني إسرائيل لم يصنّفوا أن فرعون غرق، وقالوا: هو أعظم شأناً من ذلك، فالفاء الله على نجوة من الأرض، أي: مكان مرتفع من الأرض حتى شاهوه؛ وقيل المعنى: نخرجك مما وقع فيه قومك من الرسوب في قعر البحر، ونجعلك طافياً ليشاهدوك ميتاً بالغرق، ومعنى ننحك بالمهملة: نطرحك على ناحية من الأرض، وروي عن ابن مسعود أنه قرأ «بأبدانك».

وقد اختلف المفسرون في معنى بينك، فقليل معناه: بجسدك بعد سلب الروح منه؛ وقيل معناه: بدرك، والدرع يسمى بدنأً، ومنه قول كعب بن مالك:

ترى الأبدان فيها مسبغات على الأبطال واليلب الحصينا
أراد بالأبدان الدروع، وقال عمرو بن معدى كرب:

ومضى نساؤهم بكل مضاضة جدلاء سابغة وبالأبدان
أي بدروع سابغة، ودروع قصيرة: وهي التي يقال لها أبدان كما قال أبو عبيدة. وقال الأخفش: وأما قول من قال بدرك فليس بشيء، ورجح أن البدن المراد به هنا الجسد. قوله: ﴿لتكون لمن خلفك آية﴾ هذا تعليل لتنجيته ببينه، وفي ذلك دليل على أنه لم يظهر جسده دون قومه إلا لهذه العلة لا سوى، والمراد بالآية العلامة: أي لتكون لمن خلفك من الناس علامة يعرفون بها هلاكك، وأنت لست كما تدعي ويندفع عنهم الشك في كونك قد صرت ميتاً بالغرق؛ وقيل: المراد ليكون طرّحك على الساحل وحكك دون المغرقين من قومك آية من آيات الله، يعتبر بها الناس، أو يعتبر بها من سيأتي من الأمم إذا سمعوا ذلك، حتى يحذروا من التكبر والتجبر والتمرد على الله سبحانه، فإن هذا الذي بلغ إلى ما بلغ إليه من دعوى الإلهية، واستمر على ذلك دهرًا طويلاً كانت له هذه العاقبة القبيحة. وقرئ «لمن خلفك» على صيغة الفعل الماضي أي: لمن يأتي بعدك من القرون، أو من خلفك في الرياسة أو في السكن في المسكن الذي كنت تسكنه ﴿وإن كثيراً من الناس عن آياتنا﴾ التي توجب الاعتبار والتفكير، وتوقظ من سنة الغفلة ﴿لغافلون﴾ عما توجبه الآيات، وهذه الجملة تنبيية.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿ربنا اطمس على أموالهم﴾ يقول: دمر على أموالهم وأهلكها ﴿واشدّد على قلوبهم﴾ قال: اطبع ﴿فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم﴾ وهو الغرق. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن محمد بن كعب القرظي، قال: سألتني عمر بن عبد العزيز، عن قوله: ﴿ربنا اطمس على أموالهم﴾ فأخبرته أن الله طمس على أموال فرعون وآل فرعون، حتى صارت حجارة، فقال عمر: كما أنت حتى آتاك، فدعا بكيس مختوم ففكه، فإذا

المصالح، تعجلاً وتأييلاً. قوله: ﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر﴾ هو من جاوز المكان: إذا خلفه وتخطاه، والباء للتعدي: أي جعلناهم مجاوزين البحر، حتى بلغوا الشط، لأن الله سبحانه جعل البحر ييبساً فمرّوا فيه حتى خرجوا منه إلى البر. وقد تقدّم تفسير هذا في سورة البقرة في قوله سبحانه: ﴿وإذا فرقتا بكم البحر﴾ [البقرة: 50] وقرأ الحسن «وجوّزنا» وهما لغتان ﴿فاتبعهم فرعون وجنوده﴾ يقال تبع وتابع بمعنى واحد: إذا لحقه. وقال الأصمعي: يقال اتبعه بقطع الالف: إذا لحقه وأدركه، واتبعه بوصل الالف: إذا اتبع أثره أدركه، أو لم يدركه. وكذا قال أبو زيد، وقال أبو عمرو: إن اتبعه بالوصل: اقتدى به، وانتصاب بغياً وعنواً على الحال، والبغي: الظلم، والعدو: الاعتداء، ويجوز أن يكون انتصابهما على العلة: أي للبغي والعدو. وقرأ الحسن «وعنوا» بضم العين والدال وتشديد الواو، مثل علا يعلو علواً، وقيل إن البغي: طلب الاستعلاء في القول بغير حق، والعدو: في الفعل ﴿حتى إذا أدركه الغرق﴾ أي: ناله ووصله والجمه. وذلك أن موسى خرج ببني إسرائيل على حين غفلة من فرعون، فلما سمع فرعون بذلك لحقهم بجنوده، ففرق الله البحر لموسى وبني إسرائيل، فمشوا فيه حتى خرجوا من الجانب الآخر، وتبعهم فرعون، والبحر باق على الحالة التي كان عليها عند مضي موسى ومن معه، فلما تكامل دخول جنود فرعون، وكانوا أن يخرجوا من الجانب الآخر، انطبق عليهم فغرقوا كما حكى الله سبحانه ذلك ﴿قال آمننت أنه لا إله إلا الذي آمننت به بنو إسرائيل﴾ أي: صدقت أنه بفتح الهمزة على أن الأصل بانه، فحذفت الباء، والضمير للشأن. وقرئ بكسر إن على الاستئناف، وزعم أبو حاتم أن القول محذوف: أي آمننت، فقلت: إنه، ولم ينفعه هذا الإيمان أنه وقع منه بعد إدراك الغرق كله، كما تقدّم في النساء، ولم يقل للعين آمننت بالله أو برّب العالمين، بل قال آمننت أنه لا إله إلا الذي آمننت به بنو إسرائيل، لأنه بقي فيه عرق من دعوى الإلهية. قوله: ﴿ولنا من المسلمين﴾ أي: المستسلمين لأمر الله، المنقادين له، الذين يوحونه وينفون ما سواه، وهذه الجملة إما في محل نصب على الحال أو معطوفة على آمننت. قوله: ﴿الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين﴾ هو مقول قول مقتر معطوف على قال آمننت: أي فقليل له أتؤمن الآن؟

وقد اختلف من القائل لفرعون بهذه المقالة؟ فقليل: هي من قول الله سبحانه، وقيل: من قول جبريل، وقيل: من قول ميكائيل، وقيل: من قول فرعون، قال ذلك في نفسه لنفسه. وجملة وقد عصيت قبل: في محل نصب على الحال من فاعل الفعل المقتر بعد القول المقدر، وهو أتؤمن الآن؛ والمعنى: إنكار الإيمان منه عند أن الجمه الغرق، والحال أنه قد عصى الله من قبل، والمقصود التقرّيع والتوبيخ له. وجملة وكنت من المفسدين معطوفة على عصيت داخله في الحال: أي: كنت من المفسدين في الأرض بضلالك عن الحق،

فيه الفضة مقطوعة كأنها الحجارة والدنانير والدراهم، وأشبهه ذلك من الأموال حجارة كلها. وقد روي أن أموالهم تحولت حجارة من طريق جماعة من السلف. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، قال: قد أجيببت دعوتكما، قال: فاستجاب له، وحال بين فرعون وبين الإيمان. وأخرج أبو الشيخ، عن أبي هريرة قال: كان موسى إذا دعا أمَّن هارون على دعائه يقول آمين. قال أبو هريرة: وهو اسم من أسماء الله، فذلك قوله: ﴿قَدْ أَجِيبْتُ دَعْوَتَكُمْ﴾. وأخرج أبو الشيخ، عن ابن عباس، نحوه. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وأبو الشيخ، عن عكرمة نحوه. وأخرج سعيد بن منصور، عن محمد بن كعب القرظي، نحوه أيضاً. وأخرج ابن المنذر، عن ابن عباس، قال: يزعمون أن فرعون مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة. وأخرج ابن جرير، عن ابن جرير، مثله. وأخرج الحكيم الترمذي، عن مجاهد، نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس، فاستقيماً: فامضياً لامري، وهي الاستقامة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عكرمة، قال: العدو والعنوّ والعلوّ في كتاب الله: التجبر. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، قال: لما خرج آخر أصحاب موسى وبخل آخر أصحاب فرعون، أوحى الله إلى البحر أن انطبق عليهم، فخرجت أصبع فرعون بلا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل، قال جبريل: فعرفت أن الرب رحيم، وخفت أن تدركه الرحمة، فرمسته بجناحي وقلت: الآن وقد عصيت قبل؟ فلما خرج موسى وأصحابه قال من تخلف من قوم فرعون: ما غرق فرعون ولا أصحابه، ولكنه في جزائر البحر يتصيدون، فأوحى الله إلى البحر أن اللفظ فرعون عرياناً، فلفظه عرياناً أصلع أخيش قصيراً فهو قوله: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَيْتِكَ لَتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾. لمن قال: إن فرعون لم يغرق، وكان نجاؤه غيره لم تكن نجاؤه عافية؛ ثم لوحى الله إلى البحر أن اللفظ ما فيك، فلفظهم على الساحل، وكان البحر لا يلفظ غريقاً في بطنه حتى ياكله السمك، فليس يقبل البحر غريقاً إلى يوم القيامة. وأخرج أحمد، والترمذي وحسنه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «أغرق الله فرعون فقال: ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾» قال لي جبريل: يا محمد لو رأيته وأنا أخذ من حال البحر فأنسه في فيه مخافة أن تدركه الرحمة، وقد روي هذا الحديث الترمذي من غير وجه، وقال حسن صحيح غريب، وصححه أيضاً الحاكم. وروي عن ابن عباس، مرفوعاً من طرق أخرى. وأخرج الطبراني في الأوسط، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: «قال لي جبريل: ما كان على الأرض شيء أبغض إليّ من فرعون، فلما آمن جعلت أحشوا فاه حماً وأنا أغطه خشية أن تدركه الرحمة». وأخرج ابن جرير، والبيهقي، من حديث أبي هريرة مرفوعاً نحوه. وأخرج ابن مردويه، عن ابن عمر، مرفوعاً نحوه أيضاً. وأخرج أبو الشيخ، عن أبي أمامة، مرفوعاً نحوه أيضاً، وفي إسناد

قَدْ بَرَأْنَا نَبِيَّ إِسْرَءِيلَ سِدْقًا وَرَفَعْنَاهُ مِنَ الْغَلِيظِ فَمَا أَخْلَقْنَا حَتَّى جَاءَهُمُ الْغَلَاءُ إِنَّ رَبَّكَ بِبُيُوتِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَمِينًا كَانُوا يَمِينًا يَخْلُقُونَ ﴿١٠﴾ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ فَسَلِّ الْأَوَّلَ يُقَرِّمُونَ الْحَكِيمَ مِنْ بَيْنِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِبَيِّنَاتٍ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الْأَوَّلَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ سَكَنَتْ رَبُّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى بَرَأْنَا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿١٤﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَمَّهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يَمُوتُونَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ غَافِلًا الْآخِرِي فِي الْحَبْوَةِ الدَّيَا وَنَسْنَسْنَا إِلَيْ جِوِّهِمْ ﴿١٥﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جِيعًا فَأَنْتَ أَكْثَرُ النَّاسِ حَتَّى يَكُونُوا

مُؤْمِنِينَ ﴿وَمَا كَانَتْ لَيْسَ أَنْ تَزِيدَ إِلَّا يَازْنَ اللَّهُ وَيَعْمَلُ الْيَحْيَى
عَلَى الْوَيْتِ لَا يَمُوتُونَ﴾ ١٣

كانه قال له: فإن وقع لك شك مثلاً وخيل لك الشيطان خيلاً
منه تقديراً، فاسأل الذين يقرءون الكتاب، فإنهم سيخبرونك
عن نبوتك وما نزل عليك، ويعترفون بذلك لأنهم يجدونه
مكتوباً عندهم، وقد زال فيمن أسلم منهم ما كان مقتضياً
للكتم عندهم. قوله: ﴿لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن
من الممترين﴾ في هذا بيان ما يقلع الشك من أصله
ويذهب به بجملته، وهو شهادة الله سبحانه بأن هذا الذي
وقع الشك فيه على اختلاف التفاسير في الشك هو الحق
الذي لا يخالطه باطل، ولا تشوبه شبهة، ثم عقبه بالنهي
للنبي ﷺ عن الامتراء فيما أنزل الله عليه، بل يستمر على
ما هو عليه من اليقين وانتفاء الشك. ويمكن أن يكون هذا
النهي له تعريضاً لغيره، كما في مواطن من الكتاب العزيز،
وهكذا القول في نهيه ﷺ عن التكذيب بآيات الله، فإن
الظاهر فيه التعريض، ولا سيما بعد تعقيب بقوله: ﴿فتكون
من الخاسرين﴾ وفي هذا التعريض من الزجر للممترين
والمكذبين ما هو أبلغ وأوقع من النهي لهم أنفسهم، لأنه إذا
كان بحيث ينهي عنه من لا يتصور صدوره عنه، فكيف بمن
يمكن منه ذلك. قوله: ﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا
يؤمنون﴾ قد تقدم مثله في هذه السورة، والمعنى: أنه حق
عليهم قضاء الله وقدره بأنهم يصرون على الكفر، ويموتون
عليه لا يقع منهم الإيمان بحال من الأحوال، وإن وقع منهم
ما صورته صورة الإيمان، كمن يؤمن منهم عند معاينة
العذاب، فهو في حكم عدم ﴿ولو جاءتهم كل آية﴾ من
الآيات التكوينية والتنزيلية، فإن ذلك لا ينفعهم، لأن الله
سبحانه قد طبع على قلوبهم، وحق منه القول عليهم ﴿حتى
يروا العذاب الأليم﴾ فيقع منهم ما صورته صورة الإيمان،
وليس بإيمان، ولا يترتب عليه شيء من أحكامه. قوله:
﴿فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها﴾ لولا هذه هي
التحضيضية التي بمعنى هلا، كما قال الأخفش والكسائي
وغيرهما، ويدل على ذلك ما في مصحف أبي وابن مسعود
«فهلأ قرية» والمعنى: فهلأ قرية واحدة من هذه القرى التي
أهلكناها آمنت إيماناً معتداً به، وذلك بأن يكون خالصاً لله
قبل معاينة عذابه، ولم يؤخره كما أخره فرعون، والاستثناء
بقوله: ﴿إلا قوم يونس﴾ منقطع، وهو استثناء من القرى
لأن المراد أهلها: والمعنى: لكن قوم يونس ﴿لما آمنوا﴾
إيماناً معتداً به قبل معاينة العذاب، أو عند أول المعاينة قبل
حلوله بهم ﴿كشفنا عنهم عذاب الخزي﴾ وقد قال بأن هذا
الاستثناء منقطع: جماعة من الأئمة منهم: الكسائي،
والأخفش، والغراء؛ وقيل: يجوز أن يكون متصلاً، والجمله
في معنى النفي، كانه قيل: ما آمنت قرية من القرى الهالكة
إلا قوم يونس، وانتصابه على أصل الاستثناء. وقرئ بالرفع
على البدل. وقال الزجاج في توجيه الرفع: يكون المعنى غير
قوم يونس، ولكن حملت إلا عليها وتعذر جعل الإعراب
عليها، فأعرب الاسم الذي بعدها بإعراب غيره. قال ابن
جرير: خص قوم يونس من بين الأمم بأن: تيب عليهم من

قوله: ﴿ولقد يؤننا﴾ هذا من جملة ما عنده الله سبحانه
من النعم التي أنعم بها على بني إسرائيل، ومعنى يؤننا:
أسكننا، يقال يؤن زيدا منزلاً: أسكنته فيه، والمبوا اسم مكان
أو مصدر، وإضافته إلى الصديق علي ما جرت عليه قاعدة
العرب، فإنهم كانوا إذا مدحوا شيئاً أضافوه إلى الصديق،
والمراد به هنا: المنزل المحمود المختار، قيل: هو أرض
مصر، وقيل: الأردن وفلسطين، وقيل: الشام ﴿ورزقناهم من
الطيبات﴾ أي: المستلذات من الرزق ﴿فما لختلفوا﴾ في
أمر دينهم، وتشعبوا فيه شعباً بعد ما كانوا على طريقة
واحدة غير مختلفة ﴿حتى جاءهم العلم﴾ أي: لم يقع منهم
الاختلاف في الدين إلا بعد ما جاءهم العلم بقراءتهم التوراة،
وعلمهم بأحكامها، وما اشتملت عليه من الأخبار بنبوته محمد
ﷺ، وقيل المعنى: أنهم لم يختلفوا حتى جاءهم العلم، وهو
القرآن النازل على نبينا ﷺ، فاختلّفوا في نعتة وصفته،
وأمن به من آمن منهم، وكفر به من كفر. فيكون المراد
بالمختلفين على القول الأول هم: اليهود بعد أن أنزلت عليهم
التوراة وعلموا بها، وعلى القول الثاني هم: اليهود
المعاصرين لمحمد ﷺ ﴿إن ربك يقضي بينهم يوم
القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ فيجازي المحسن
بإحسانه، والمسيء بإساءته، والمحقّ بعمله بالحق، والمبطل
بعمله بالباطل ﴿فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك﴾ الشك
في أصل اللغة: ضم الشيء بعضه إلى بعض، ومنه شك
الجوهر في العقد، والشاك كانه يضم إلى ما يتوهمه شيئاً
آخر خلافاً، فيتردد ويتحير، والخطاب للنبي ﷺ، والمراد
غيره، كما ورد في القرآن في غير موضع. قال أبو عمر،
محمد بن عبد الواحد، الزاهد: سمعت الإمامين ثعلباً والمبرد
يقولان: معنى: ﴿فإن كنت في شك﴾ أي: قل يا محمد للكافر
فإن كنت في شك ﴿فاسأل الذين يقرءون الكتاب من
قبلك﴾ يعني: مسلمي أهل الكتاب كعبد الله بن سلام
وأمثاله، وقد كان عبدة الأوثان يعترفون لليهود بالعلم،
ويقرّون بأنهم أعلم منهم، فأمر الله سبحانه نبيه أن يرشد
الشاكين فيما أنزله الله إليه من القرآن أن يسألوا أهل الكتاب
الذين قد أسلموا، فإنهم سيخبرونهم بأنه كتاب الله حقاً، وأن
هذا رسوله، وأن التوراة شاهدة بذلك ناطقة به، وفي هذا
الوجه مع حسنة مخالفة للظاهر. وقال القتيبي: المراد بهذه
الآية: من كان من الكفار غير قاطع بتكذيب النبي ﷺ، ولا
بتصديقه، بل كان في شك. وقيل المراد بالخطاب: النبي ﷺ
لا غيره. والمعنى: لو كنت ممن يلحقه الشك فيما أخبرناك به
فسألت أهل الكتاب لأزالوا عنك الشك. وقيل: الشك هو ضيق
الصدر: أي إن ضاق صدرك بكفر هؤلاء، فاصبر واسأل
الذين يقرءون الكتاب. من قبلك يخبروك بصبر من قبلك من
الأنبياء على أذى قومهم. وقيل معنى الآية: الفرض والتقدير،

الآية، قال: لم يشك رسول الله ﷺ، ولم يسأل. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، عن قتادة، قال: نكر لنا أن رسول الله ﷺ قال: لا أشك ولا أسأل. وهو مرسل. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿فَاسْأَلُ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ قال: التوراة والإنجيل الذين أدركوا محمداً من أهل الكتاب وأمنوا به، يقول: سلهم إن كنت في شك بأنك مكتوب عندهم. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قال: حق عليهم سخط الله بما عصوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي مالك، في قوله: ﴿فَقُلْ لَا كَانَتْ قَرْيَةٌ أَمَنْتُ﴾ يقول: فما كانت قرية أمنت. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، في الآية قال: لم يكن هذا في الأمم قبل قوم يونس لم ينفع قرية كفرت ثم أمنت حين علينت العذاب إلا قوم يونس، فاستثنى الله قوم يونس. قال: وذكر لنا أن قوم يونس كانوا بني نوى من أرض الموصل، فلما فقدوا نبيهم قذف الله في قلوبهم الثوب، فلبسوا المسوح وأخرجوا المواشي، وفرقوا بين كل بهيمة وولدها، فعجوا إلى الله أربعين صلباً، فلما عرف الله الصدق من قلوبهم والتوبة والندامة على ما معنى منهم، كشف عنهم العذاب بعد ما تلى عليهم لم يكن بينهم وبين العذاب إلا ميل. وأخرج ابن مردويه، عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ، قال: إن يونس دعا قومه، فلما أبوا أن يجيبوه وعدهم العذاب، فقال: إنه ياتيكم يوم كذا وكذا، ثم خرج عنهم، وكانت الأنبياء إذا وعدت قومها العذاب خرجت، فلما أظلم العذاب خرجوا، ففرقوا بين المرأة وولدها، وبين السخلة وولدها، وخرجوا يعجون إلى الله، وعلم الله منهم الصدق فتاب عليهم، وصرف عنهم العذاب، وقعد يونس في الطريق يسأل عن الخبر، فمر به رجل فقال: ما فعل قوم يونس؟ فحنّته بما صنعوا، فقال: لا أرجع إلى قوم قد كذبتم، وانطلق مفاضياً: يعني مراغماً. وأخرج أحمد في الزهد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن سعيد بن جبيرة، قال: غشى قوم يونس العذاب كما يغشى القبر بالثوب إذا نخل فيه صاحبه ومطرت السماء دماً. وأخرج أحمد في الزهد، وابن جرير، عن ابن عباس، أن العذاب كان هبط على قوم يونس لم يكن بينهم وبينه إلا قدر ثلثي ميل، فلما دعوا كشفه الله عنهم. وأخرج أحمد في الزهد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي الجلد، قال: لما غشى قوم يونس العذاب مشوا إلى شيخ من بقية علمائهم. فقالوا له ما ترى؟ قال: قولوا يا حيّ حين لا حيّ، ويا حيّ محيي الموتى، ويا حيّ لا إله إلا أنت، فقالوا فكشف عنهم العذاب. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ﴾ قال: السخط. وأخرج أبو الشيخ، عن قتادة، قال: الرجس: الشيطان، والرجس العذاب.

قُلْ أَنْظَرُوا مَا فِي الْأَرْضِ وَمَا فِي الْآبِئَاتِ وَالْأَنْدَرِ عَنْ قَوْمٍ لَا

بعد معاينة العذاب. وحكى ذلك عن جماعة من المفسرين. وقال الزجاج: إنه لم يقع العذاب، وإنما راوا العلامة التي تدل على العذاب، ولو راوا عين العذاب لما نفعهم الإيمان، وهذا أولى من قول ابن جرير. والمراد بعذاب الخزي الذي كشفه الله عنهم، وهو: العذاب الذي كان قد وعدهم يونس أنه سينزل عليهم ولم يروه، أو الذي قد راوا علاماته دون عينه ﴿وَمَتَعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ أي: بعد كشف العذاب عنهم، متعمهم الله في الدنيا إلى حين معلوم، قدره لهم. ثم بين سبحانه أن الإيمان وضده كلاهما بمشيئة الله وتقديره، فقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ﴾ بحيث لا يخرج عنهم أحد ﴿جَمِيعاً﴾ مجتمعين على الإيمان، لا يتفرقون فيه ويختلفون، ولكنه لم يشأ ذلك لكونه مخالفاً للمصلحة التي أرادها الله سبحانه، وانتصاب جميعاً على الحال كما قال سيبويه. قال الأخفش: جاء بقوله جميعاً بعد كلهم للتأكيد كقوله: ﴿لَا تَتَخَذُوا الْهِنِ اثْنَيْنِ﴾ [النحل: 51] ولما كان النبي ﷺ حريصاً على إيمان جميع الناس، أخبره الله بأن ذلك لا يكون، لأن مشيئته الجارية على الحكمة البالغة، والمصالح الراجحة، لا تقتضي ذلك، فقال: ﴿فَأَنذَرْتُكَ تَكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ فإن ذلك ليس في وسعك يا محمد، ولا داخل تحت قدرتك، وفي هذا تسلية له ﷺ، ونفع لما يضيق به صدره من طلب صلاح الكل، الذي لو كان لم يكن صلاحاً محققاً بل يكون إلى الفساد أقرب، والله الحكمة البالغة. ثم بين سبحانه ما تقدم بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: ما صح، وما استقام لنفس من الأنفس أن تؤمن بالله إلا بإذنه: أي بتسهيله وتيسيره ومشيتته؛ لذلك فلا يقع غير ما يشاؤه كائناً ما كان ﴿وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: العذاب، أو الكفر، أو الخذلان الذي هو سبب العذاب. وقرأ الحسن وأبو بكر والمفضل «ونجعل» بالنون. وفي الرجس لغتان: ضم الراء وكسرهما، والمراد بالذين لا يعقلون: هم الكفار الذين لا يتعللون حجج الله، ولا يتفكرون في كيّاته، ولا يتنبهون فيما نصبه لهم من الأدلة.

وقد أخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن عساکر، عن قتادة، في قوله: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَبْأَأَ صَدُوقٍ﴾ قال: بَوَّأهم الله الشام وبيت المقدس. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الضحاک قال: منازل صدق مصر والشام. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن زيد، في قوله: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ قال: العلم كتاب الله الذي أنزله، وأمره الذي أمرهم به. وقد ورد في الحديث أن اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة، وأن النصارى اختلفوا على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، وهو في السنن والمسند، والكلام فيه يطول. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والضياء في المختارة، عن ابن عباس، في قوله: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ﴾

يُنَجِّي إِنْجَاءً، وَنَجَّى يَنْجِي تَنْجِيَةً بِمَعْنَى وَاحِدٍ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى رُسُلْنَا: أَي: نَجِينَاهُمْ وَنَجِينَا الَّذِينَ آمَنُوا، وَالتَّعْبِيرُ بِلَفْظِ الْفِعْلِ الْمُسْتَقْبَلِ لِاسْتِحْضَارِ صُورَةِ الْحَالِ الْمَاضِيَةِ تَهْوِيلًا لِأَمْرِهِا ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا﴾ أَي: حَقُّ ذَلِكَ عَلَيْنَا حَقًّا، أَوْ إِنْجَاءً مِثْلَ ذَلِكَ الْإِنْجَاءِ حَقًّا ﴿نَنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ مِنْ عَذَابِنَا لِلْكَفَّارِ، وَالْمُرَادُ بِالْمُؤْمِنِينَ: الْجَنَسُ، فَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الرُّسُلُ وَأَتْبَاعُهُمْ، أَوْ يَكُونُ خَاصًّا بِالْمُؤْمِنِينَ، وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ؛ لِأَنَّ الرُّسُلَ دَخَلُوا فِي ذَلِكَ بِالْأُولَى. قَوْلُهُ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ بَيْنِي﴾ أَمْرٌ سَبَّحَانَهُ رَسُولُهُ بَانَ يَظْهَرُ التَّبَايُنُ بَيْنَ طَرِيقَتِهِ وَطَرِيقَةِ الْمُشْرِكِينَ، مُخَاطَبًا لِجَمِيعِ النَّاسِ، أَوْ لِلْكَفَّارِ مِنْهُمْ، أَوْ لِأَمَلِ مَكَّةَ عَلَى الْخُصُوصِ بِقَوْلِهِ: إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ بَيْنِي الَّذِي أَنَا عَلَيْهِ، وَهُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلَمْ تَعْلَمُوا بِحَقِيقَتِهِ وَلَا عَرَفْتُمْ صَحَّتَهُ، وَأَنَّهُ الدِّينُ الْحَقُّ الَّذِي لَا دِينَ غَيْرُهُ، فَاعْلَمُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِنْ أَدْيَانِكُمُ الَّتِي أَنْتُمْ عَلَيْهَا ﴿فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ فِي حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ ﴿وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم﴾ أَي: أَخْصَهُ بِالْعِبَادَةِ، لَا أَعْبُدُ غَيْرَهُ مِنْ مَعْبُودَاتِكُمْ مِنَ الْأَصْنَامِ وَغَيْرِهَا، وَخَصَّ صِفَةَ الْمُتَوَفَّى مِنْ بَيْنِ بِالْصِفَاتِ لَمَّا فِي ذَلِكَ مِنَ التَّهْدِيدِ لَهُمْ: أَي: أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم فَيَفْعَلُ بِكُمْ مَا يَفْعَلُ مِنَ الْعَذَابِ الشَّدِيدِ، وَلِكُونِهِ يَدُلُّ عَلَى الْخَلْقِ أَوَّلًا، وَعَلَى الْإِعَادَةِ ثَانِيًا، وَلِكُونِهِ أَشَدُّ الْأَحْوَالِ مَهَابَةً فِي الْقُلُوبِ، وَلِكُونِهِ قَدْ تَقَدَّمَ نَكَرُ الْإِهْلَاكِ، وَالْوَقَائِعِ النَّازِلَةِ بِالْكَفَّارِ مِنَ الْأَمَمِ السَّابِقَةِ، فَكَانَهُ قَالَ: أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي وَعَدَنِي بِإِهْلَاكِكُمْ. وَلَمَّا نَكَرَ أَنَّهُ لَا يَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ، بَيَّنَّ أَنَّهُ مَامُورٌ بِالْإِيمَانِ فَقَالَ: ﴿وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَي: بَانَ أَكُونُ مِنْ جَنَسٍ مِنْ أَمَنَ بِاللَّهِ، وَأَخْلَصَ لَهُ الدِّينَ، وَجُمْلَةً ﴿وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ مَعْطُوفَةٌ عَلَى جُمْلَةٍ ﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وَلَا يَمْنَعُ مِنْ ذَلِكَ كَوْنُ الْمَعْطُوفِ بِصِغَةِ الْأَمْرِ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْ «أَنْ» الدَّلَالَةُ عَلَى الْمَصْدَرِ، وَنَلَكُ لَا يَخْتَلِفُ بِالْخَبَرِيَّةِ وَالْإِنْشَائِيَّةِ، أَوْ يَكُونُ الْمَعْطُوفُ عَلَيْهِ فِي مَعْنَى الْإِنْشَاءِ: كَأَنَّهُ قِيلَ: كُنْ مُؤْمِنًا ثُمَّ أَقِمَّ: وَالْمَعْنَى: أَنْ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ أَمَرَهُ بِالِاسْتِقَامَةِ فِي الدِّينِ وَالثَّبَاتِ فِيهِ، وَعَدِمَ التَّزَلُّزَ عَنْهُ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ. وَخَصَّ الْوَجْهَ لِأَنَّهُ أَشْرَفُ الْأَعْضَاءِ، أَوْ أَمْرُهُ بِاسْتِقْبَالِ الْقِبْلَةِ فِي الصَّلَاةِ، وَعَدِمَ التَّحَوُّلَ عَنْهَا. وَحَنِيفًا حَالُ مِنَ الدِّينِ، أَوْ مِنَ الْوَجْهِ: أَي: مَائِلًا عَنْ كُلِّ دِينٍ مِنَ الْأَدْيَانِ إِلَى دِينِ الْإِسْلَامِ. ثُمَّ أَكَّدَ الْأَمْرَ الْمُتَقَدِّمَ لِلنَّهْيِ عَنْ ضِدِّهِ، فَقَالَ: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وَهُوَ مَعْطُوفٌ عَلَى أَقِمَّ، وَهُوَ مِنْ بَابِ التَّعْرِيزِ لَغَيْرِهِ ﷺ. قَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ غَيْرُ دَاخِلٍ تَحْتَ الْأَمْرِ، وَقِيلَ مَعْطُوفٌ عَلَى «وَلَا تَكُونُوا» أَي: لَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ عَلَى حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ بِشَيْءٍ مِنَ النِّفْعِ وَالضَّرِّ إِنْ دَعَوْتَهُ، وَدَعَاءُ مَنْ كَانَ هَكَذَا لَا يَجْلِبُ نَفْعًا، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى ضَرْ ضَائِعٍ لَا يَفْعَلُهُ عَاقِلٌ عَلَى تَقْدِيرِ أَنَّهُ لَا يَوْجِدُ مِنْ يَقْدِرُ عَلَى النِّفْعِ وَالضَّرِّ غَيْرُهُ، فَكَيْفَ

يُؤْمِنُونَ ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ آبَائِهِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِلَى مَعَكُمْ رَبِّكَ الْغَافِلِينَ﴾ ثُمَّ تَنَجَّى رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نَجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ بَيْنِي وَبَيْنِ فَلَا آفِيدُ الَّذِينَ تَتَّبِعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ آفِيدُ اللَّهِ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم وَأَلْزَمْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ إِنْ قُلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الْقَائِلِينَ﴾ وَإِنْ يَسْتَسْأَلُ اللَّهُ بِضَرْفٍ فَلَا كَافٍ لَهُ إِلَّا هُوَ وَلَئِنْ يَرْدَكَ جَبْرٌ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُغَيِّبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَحَدُنَا فَأَلَمَّا يَجِدْ يُقْسِمُ وَمَنْ حَلَّ فَأَلَمَّا يَجِدْ عَلَيْنَا وَمَا نَأْتِيكُمْ بِرُكُوبٍ﴾ وَأَنْتُمْ مَا يَوْعَى إِلَيْكَ وَأَسْبَحَ حَقٌّ بِحُكْمِ اللَّهِ وَهُوَ خَيْرُ الْمُتَرَكِّينَ ﴿

قَوْلُهُ: ﴿قُلْ نَظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لَمَّا بَيَّنَّ سَبَّحَانَهُ أَنَّ الْإِيمَانَ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِمُشِيئَةِ اللَّهِ، أَمْرٌ بِالنَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ بِالْأَدْلَالِ السَّمَاوِيَّةِ وَالْأَرْضِيَّةِ، وَالْمُرَادُ بِالنَّظَرِ: لِلتَّفَكُّرِ وَالِاعْتِبَارِ: أَي: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِلْكَفَّارِ تَفَكَّرُوا وَاعْتَبَرُوا بِمَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنَ الْمَصْنُوعَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى الْمَصْنَعِ وَوَحْدَتِهِ، وَكَمَالِ قُدْرَتِهِ، وَمَاذَا مَبْتَدَأَ، وَخَبَرَهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ. أَوْ الْمَبْتَدَأُ مَا، وَذَا بِمَعْنَى الَّذِي، وَفِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ صِلَتُهُ، وَالْمَوْصُولُ وَصِلَتُهُ خَبَرُ الْمَبْتَدَأِ: أَي: أَيُّ شَيْءٍ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَعَلَى التَّقْدِيرَيْنِ فَالْجُمْلَةُ فِي مَحَلِّ نَصْبٍ بِالْفِعْلِ الَّذِي قَبْلُهَا، ثُمَّ نَكَرَ سَبَّحَانَهُ أَنَّ لِلتَّفَكُّرِ وَالتَّدَبُّرِ فِي هَذِهِ الدَّلَائِلِ لَا يَنْفَعُ فِي حَقِّ مَنْ اسْتَحْكَمَتْ شِقَاوَتُهُ، فَقَالَ: ﴿وَمَا تَغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ﴾ أَي: مَا تَنْفَعُ عَلَى أَنْ مَا نَافِيَةٌ، وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ اسْتِفْهَامِيَّةً: أَي: أَيُّ شَيْءٍ يَنْفَعُ، وَالْآيَاتُ هِيَ الَّتِي عَبَّرَ عَنْهَا بِقَوْلِهِ: ﴿مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وَالنُّذُرُ: جَمْعُ نَذِيرٍ، وَهُمْ: الرُّسُلُ أَوْ جَمْعُ إِذْذَارٍ، وَهُوَ الْمَصْدَرُ ﴿عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فِي عِلْمِ اللَّهِ سَبَّحَانَهُ: وَالْمَعْنَى: أَنْ مَنْ كَانَ هَكَذَا لَا يَجِدُ فِيهِ شَيْءَ، وَلَا يَنْفَعُهُ عَنْ الْكُفْرِ دَافِعٌ. قَوْلُهُ: ﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أَي: فَهَلْ يَنْتَظِرُ هَؤُلَاءِ الْكَفَّارُ الْمَعَاصِرُونَ لِمُحَمَّدٍ ﷺ إِلَّا مِثْلَ وَقَائِعِ اللَّهِ سَبَّحَانَهُ بِالْكَفَّارِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِ هَؤُلَاءِ، فَقَدْ كَانَ الْأَنْبِيَاءُ الْمُتَقَدِّمُونَ يَتَوَعَّبُونَ كُفْرَ زَمَانِهِمْ بِأَيَّامٍ مُشْتَمِلَةٍ عَلَى أَنْوَاعِ الْعَذَابِ، وَهُمْ يَكْتُبُونَهُمْ وَيَصْصِمُونَ عَلَى الْكُفْرِ، حَتَّى يَنْزِلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَذَابُهُ، وَيَحُلُّ بِهِمْ انْتِقَامُهُ، ثُمَّ قَالَ: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْكَفَّارِ الْمَعَاصِرِينَ لَكَ ﴿فَانْتَظِرُوا﴾ أَي: تَرَبَّصُوا لَوَعْدِ رَبِّكُمْ، إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمَتَرَبِّصِينَ لَوَعْدِ رَبِّي، وَفِي هَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ، وَوَعْدٌ بِالْغَبَاءِ سَيَنْزِلُ بِهِؤُلَاءِ مَا نَزَلَ بِأُولَئِكَ مِنَ الْإِهْلَاكِ، وَثُمَّ فِي قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ نَنْجِي رُسُلَنَا﴾ لِلْعَظْفِ عَلَى مَقَرٍّ يَدُلُّ عَلَيْهِ مَا قَبْلَهُ، كَأَنَّهُ قِيلَ أَمَلَكُنَا الْأَمَمَ ثُمَّ نَجِينَا رُسُلَنَا الْمُرْسَلِينَ إِلَيْهِمْ. وَقَرَأَ يَعْقُوبُ ثُمَّ «نَنْجِي» مُخَفَّفًا. وَقَرَأَ كَذَلِكَ أَيْضًا فِي «حَقًّا عَلَيْنَا نَجِي الْمُؤْمِنِينَ». وَدَوَّى كَذَلِكَ عَنِ الْكَسَاثِيِّ وَحَفْصِ فِي الثَّانِيَةِ. وَقَرَأَ الْبَاقُونَ بِالتَّشْدِيدِ، وَهَمَا لَفْظَانِ فَصِيحَتَانِ: أَنْجَى

الآية قال: حَوَّفَهُمْ عَذَابَهُ وَنَقَمَتَهُ وَعَقُوبَتَهُ، ثُمَّ أَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ إِذَا وَقَعَ مِنْ نَحْوِكَ أَمْرٌ نَجَى اللَّهُ رُسُلَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا، فَقَالَ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية. وأخرج أبو الشيخ، عن السدي، في قوله: ﴿وَإِنْ يَرِكَ بِخَيْرٍ﴾ يقول: بعافية. وأخرج البيهقي في الشعب، عن عامر بن قيس، قال: ثلاث آيات في كتاب الله اكتفيت بهنَّ عن جميع الخلائق: أُولَئِهِنَّ: ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَرِكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾، والثانية: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يَمَسُّكَ فَلَا مُمْسِكَ لَهُ﴾ [فاطر: 2]، والثالثة: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: 6]. وأخرج أبو الشيخ، عن الحسن، نحوه. وأخرج أبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ قال: هو الحق المذكور في قوله: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، في قوله: ﴿وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ﴾ قال: هذا منسوخ، أمره بجهاهم والغلظة عليهم.

تفسير سورة هود

هي مكية في قول الحسن وعكرمة، وعطاء وجابر. قال ابن عباس وقتادة: إلا آية وهي قوله: ﴿واقم الصلاة طرفي النهار﴾ [هود: 114] وأخرج النحاس في ناسخه، وأبو الشيخ، وابن مردويه، من طرق عن ابن عباس قال: نزلت سورة هود بمكة. وأخرج ابن مردويه، عن عبد الله بن الزبير، مثله. وأخرج الدارمي، وأبو داود في مراسيله، وأبو الشيخ، وابن مردويه، وابن عساكر، والبيهقي في الشعب، عن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرأوا هود يوم الجمعة». وأخرج ابن المنذر، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، وابن عساكر، من طريق مسروق، عن أبي بكر الصديق، قال: «قلت يا رسول الله لقد أسرع إليك الشيب، فقال: شيبتني هود، والواقعة، والمرسلات، وعمَّ يتساءلون، وإذا الشمس كورت». وأخرجه البزار، وابن مردويه، من طريق أنس، عنه، مرفوعاً بلفظ: «قلت يا رسول الله عجل إليك الشيب، قال: شيبتني هود وأخواتها، والواقعة، والحاقة، وعمَّ يتساءلون، وهل أتاك حديث الغاشية». وأخرجه سعيد بن منصور، وابن مردويه، عن أنس، قال: «قال أصحاب رسول الله ﷺ: لقد عجل إليك الشيب، فقال: شيبتني هود وأخواتها من المفصل». وأخرج الترمذي وحسنه، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في البعث والنشور، من طريق عكرمة، عن ابن عباس، قال: «قال أبو بكر: يا رسول الله قد شبت. قال: شيبتني هود، والواقعة، والمرسلات، وعمَّ يتساءلون، وإذا الشمس كورت». وأخرج ابن عساكر من طريق عطاء عنه، أن الصحابة قالوا: «يا رسول الله لقد أسرع إليك الشيب، قال: أجل شيبتني هود وأخواتها». قال عطاء: وأخواتها: اقتربت الساعة، والمرسلات، وإذا الشمس كورت. وأخرج البيهقي في الدلائل، عن أبي سعيد الخدري، قال:

إذا كان موجوداً؟ فإن العبدول عن دعاء القادر إلى دعاء غير القادر أتبع وأتبع ﴿فَإِنْ فَعَلْتَ﴾ أي: فإن دعوت، ولكنه كنى عن القول بالفعل ﴿فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ هذا جزاء الشرط: أي فإن دعوت من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك، فإنك في عداد الظالمين لأنفسهم. والمقصود من هذا الخطاب التعريض بغيره ﷺ، وجملة ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ إلى آخرها مقرونة لمضمون ما قبلها. والمعنى أن الله سبحانه هو الضار النافع، فإن أنزل بعبد ضراً لم يستطع أحد أن يكشفه كائناً من كان، بل هو المختص بكشفه كما اختص بإنزاله ﴿وَإِنْ يَرِكَ بِخَيْرٍ﴾ أي: خير كان لم يستطع أحد أن يبقعه عنك، ويحول بينك وبينه كائناً من كان، وعبر بالفضل مكان الخير للإرشاد إلى أنه يتفضل على عباده بما لا يستحقونه بأعمالهم. قال الواحدي: إن قوله: ﴿وَإِنْ يَرِكَ بِخَيْرٍ﴾ هو من القلب، وأصله وإن يرد بك الخير، ولكن لما تعلق كل واحد منهما بالآخر جاز أن يكون كل واحد منهما مكان لآخر. قال النيسابوري: وفي تخصيص الإرادة بجانب الخير، والمسَّ بجانب الشرِّ دليل على أن الخير يصدر عنه سبحانه بالذات، والشرُّ بالعرض. قلت: وفي هذا نظر، فإن المسَّ هو أمر وراء الإرادة، فهو مستلزم لها، والضمير في يصيب به راجع إلى فضله: أي يصيب بفضل من يشاء من عباده. وجملة: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ تنييلية، ثم ختم هذه السورة بما يستدل به على قضاؤه وقدره، فقال: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: القرآن ﴿فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي: منفعة اهتدائه مختصة به، وضرب كفره مقصور عليه لا يعتداه، وليس لله حاجة في شيء من ذلك، ولا غرض يعود إليه ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ أي: بحفيظ يحفظ أمورك، وتوكل إليه: إنما أنا بشير ونذير. ثم أمره الله سبحانه أن يتبع ما أوحاه إليه من الأوامر والنواهي التي يشرعها الله له، ولا مته. ثم أمره بالصبر على أدنى الكفار، وما يلاقيه من مشاق التبليغ، وما يعانیه من تلون أخلاق المشركين وتعجرهم، وجعل تلك الصبر ممتداً إلى غاية هي قوله: ﴿حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ أي: يحكم الله بينه وبينهم في الدنيا بالنصر له عليهم، وفي الآخرة بعذابهم بالنار، وهم يشاهدونه ﷺ هو وامته، المتبعون له المؤمنون به، العاملون بما يأمرهم به، المنتهون عما ينهاهم عنه، يتقلبون في نعيم الجنة الذي لا ينفد، ولا يمكن وصفه، ولا يوقف على أدنى مزياء.

وقد أخرج أبو الشيخ، عن السدي في قوله: ﴿وَمَا تَغْنِي الْآيَاتُ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ﴾ يقول: عند قوم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ نسخت قوله: ﴿حِكْمَةً بِالْغَةِ﴾ فما تغني النذر [القمر: 5]. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: ﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ قال: وقائع الله في الذين خلوا من قبلهم، قوم نوح، عاد، وثمود. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن الربيع في

آياته ﴿صارت محكمة متقنة، لا نقص فيها ولا نقض لها كالبناء المحكم، وقيل معناه: إنها لم تنسخ بخلاف التوراة والإنجيل، وعلى هذا فيكون هذا الوصف للكتاب باعتبار الغالب، وهو المحكم الذي لم ينسخ؛ وقيل معناه: أحكمت آياته بالأمر والنهي، ثم فصلت بالوعد والوعيد، والثواب والعقاب؛ وقيل: أحكمها الله من الباطل، ثم فصلها بالحلال والحرام؛ وقيل: أحكمت جملته، ثم فصلت آياته؛ وقيل: جمعت في اللوح المحفوظ، ثم فصلت بالوحي؛ وقيل آتيت بالحجج القاطعة الدالة على كونها من عند الله؛ وقيل معنى إحكامها: أن لا فساد فيها، أخذاً من قولهم أحكمت الدابة: إذا وضعت عليها الحكمة لئلا تمنعها من الجراح، و ﴿ثم فصلت﴾ معطوف على أحكمت، ومعناه ما تقدم، والتراخي المستفاد من ثم إما زمني إن فسر التفصيل بالتنجيم على حسب المصالح، وإما رتبي إن فسر بغيره مما تقدم، والجمل في محل رفع على أنها صفة لكتاب، أو خبر آخر للمبتدأ أو خبر لمبتدأ محذوف، وفي قوله: ﴿من لدن حكيم خبير﴾ لف ونشر، لأن المعنى: أحكمها حكيم، وفصلها خبير عالم بمواقع الأمور. قوله: ﴿الا تعبدوا إلا الله﴾ مفعول له حذف منه اللام: كذا في الكشف، وفيه أنه ليس بفعل لفاعل الفعل المعلن؛ وقيل: إن هي المفسرة لما في التفصيل من معنى القول؛ وقيل: هو كلام مبتدأ منقطع عما قبله، محكياً على لسان النبي ﷺ. قال الكسائي والفراء: للتقدير أحكمت بأن لا تعبدوا إلا الله. وقال الزجاج: أحكمت ثم فصلت لثلاث تعبدوا إلا الله، ثم أخبرهم رسول الله ﷺ بأنه نذير وبشير، فقال: ﴿إني لكم منه نذير وبشير﴾ أي: ينذرهم ويخوفهم من عذابه لمن عصاه، ويبشّرهم بالجنة والرضوان لمن أطاعه، والضمير في منه راجع إلى الله سبحانه: أي إني لكم نذير وبشير من جهة الله سبحانه؛ وقيل: هو من كلام الله سبحانه كقوله: ﴿ويحذرکم الله نفسه﴾ [آل عمران: 28]. قوله: ﴿وان استغفروا ریکم﴾ معطوف على الا تعبدوا، والكلام في أن هذه كالکلام في التي قبلها، وقوله: ﴿ثم توبوا إليه﴾ معطوف على استغفروا، وقدم الإرشاد إلى الاستغفار على التوبة، لكونه وسيلة إليها؛ وقيل: إن التوبة من تتمات الاستغفار؛ وقيل معنى استغفروا: توبوا، ومعنى توبوا: اخلصوا التوبة واستقيموا عليها؛ وقيل: استغفروا من سالف الذنوب، ثم توبوا من لاحقها؛ وقيل: استغفروا من الشرك، ثم ارجعوا إليه بالطاعة. قال الفراء: ثم هاهنا بمعنى الواو: أي وتوبوا إليه، لأن الاستغفار هو: التوبة، والتوبة هي: الاستغفار؛ وقيل: إنما قدم ذكر الاستغفار لأن المغفرة هي الغرض المطلوب، والتوبة. هي: السبب إليها، وما كان آخراً في الحصول، كان أولاً في الطلب؛ وقيل: استغفروا في الصفات، وتوبوا إليه في الكبائر؛ ثم رتب على ما تقدم أمرين الأول: ﴿يمتعکم متاعاً حسناً﴾ أصل الإمتاع: الإطالة، ومنه أمتع الله بك؛ فمعنى الآية: يطول نفعكم في الدنيا بمنافع حسنة مرضية من سعة الرزق ورغد العيش ﴿إلى أجل مسمى﴾

قال عمر بن الخطاب: يا رسول الله اسرع إليك الشيب. قال: شيبتني هو وأخواتها: الواقعة، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت. وأخرج الطبراني، وابن مروي، عن سهل بن سعد الساعدي، قال: قال رسول الله ﷺ: «شيبتني هود وأخواتها: الواقعة، والحاقة، وإذا الشمس كورت». وأخرج أيضاً عن ابن مسعود «أن أبا بكر قال: يا رسول الله ما شيبك؟ قال: هود والواقعة». وفي إسناده عمرو بن ثابت، وهو متروك. وأخرج الطبراني، وابن مروي بسند صحيح، عن عقبة بن عامر: «أن رجلاً قال: يا رسول الله قد شبت، قال: شيبتني هود، وإذا الشمس كورت وأخواتها». وأخرج الحكيم الترمذي في نوار ال اصول، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وأبو يعلى، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مروي، وابن عساکر، عن أبي جحيفة قال: «قالوا: يا رسول الله نراك قد شبت، قال: شيبتني هود وأخواتها». وأخرج ابن مروي، وابن عساکر، عن عمران بن حصين: «أن رسول الله ﷺ قال له أصحابه: قد أسرع إليك الشيب. قال: شيبتني هود وأخواتها من المفصل». وأخرج ابن عساکر، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، أن رسول الله ﷺ قال: «شيبتني هود وأخواتها، وما فعل بالأمم قبل».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُهِتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَتْلُوا إِلَّا أَلْفَ نَجْمٍ لَكُم مِّنْ ذِكْرِ رَبِّهِ ﴿٢﴾ وَأَن أَسْتَقْرَأَ رَكْعَةً ثُمَّ تَقُولُوا إِلَيْهِ بِعَفْوِكُمْ مِّنْهَا حَسْبًا إِلَّا أَجَلٌ شَرٌّ وَيُؤْتِي كُلَّ ذِي فَهْلٍ فَهْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَهَّابٌ ﴿٤﴾ أَلَا إِنَّهُمْ يَفْقَهُونَ سُوءَاتِهِمْ لَيْسَتَغْفُوا مِنْهُ إِلَّا جَنَ يَسْتَفْشِفُونَ وَيَا بَهُمْ بِمِثْلِ مَا يُفْعَلُونَ وَمَا يُظُنُّونَ أَنَّهُ عَلَيْهِمْ يَدَاتُ الشُّدُورِ ﴿٥﴾ وَمَا مِنْ نَّافَةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعُهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ يَلْعَبُكُمْ بِأَمْثَلِ عَمَلٍ وَلَكِنْ قَلَّتْ رِجَاكُمْ تَبُوءُونَ مِنْ بَدِ السَّمَوَاتِ لَعْنَةُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَكِنْ أَخْرَأْنَاهُمْ مَوَدَّاتِ إِلَى أَثَرِ مُّذَوْدِهِمْ لَقَوْلِهِمْ مَا يَجِئُهُمْ إِلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوعًا عَنْهُمْ وَعَافَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾

قوله: ﴿الر﴾ إن كان مسروداً على سبيل التعديد كما في سائر فواتح السور فلا محل له، وإن كان اسماً للسورة فهو في محل رفع على أنه مبتدأ خبره ما بعده أو خبر مبتدأ محذوف، و﴿كتاب﴾ يكون على هذا الوجه خبراً لمبتدأ محذوف: أي هذا كتاب، وكذا على تقدير أن ﴿الر﴾ لا محل له، ويجوز أن يكون ﴿الر﴾ في محل نصب بتقدير فعل يناسب المقام نحو: انكر، أو اقرا، فيكون كتاب على هذا الوجه خبر مبتدأ محذوف، والإشارة في المبتدأ المقدر إما إلى بعض القرآن أو إلى مجموع القرآن، ومعنى: ﴿أحكمت

إلى وقت مقدّر عند الله، وهو: الموت؛ وقيل: القيامة؛ وقيل: دخول الجنة؛ والأوّل: أولى. والأمر الثاني قوله: **﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾** أي: يعطى كل ذي فضل في الطاعة والعمل فضله: أي جزء فضله، إما في الدنيا، أو في الآخرة، أو فيهما جميعاً، والضمير في فضله راجع إلى كل ذي فضل؛ وقيل: راجع إلى الله سبحانه على معنى أن الله يعطي كل من فضلت حسناته فضله الذي يتفضل به على عباده. ثم توعدهم على مخالفة الأمر فقال: **﴿وَأَنْ تَوَلَوْا﴾** أي: تتولوا وتعرضوا عن الإخلاص في العبادة، والاستغفار، والتوبة **﴿فَإِنِّي لَخَافٌ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾** وهو: يوم القيامة، ووصفه بالكبر، لما فيه من الأهوال؛ وقيل: اليوم الكبير يوم بدر. ثم بين سبحانه عذاب اليوم الكبير بقوله: **﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾** أي: رجوعكم إليه بالموت، ثم البعث، ثم الجزاء، لا إلى غيره **﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾** ومن جملة ذلك عذابكم على عدم الامتثال، وهذه الجملة مقرّرة لما قبلها. ثم أخبر الله سبحانه بأن هذا الإنذار والتحذير والتوعد لم ينجح فيهم، ولا لانت له قلوبهم، بل هم مصرونّ على العناد مصممون على الكفر، فقال مصدراً لهذا الإخبار بكلمة التنبيه الدالة على التعجب من حالهم، وأنه أمر ينبغي أن يتنبه له العقلاء ويفهموه **﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَفْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾** يقال: نني صدره عن الشيء: إذا أزورّ عنه وانحرف منه، فيكون في الكلام كناية عن الإعراض، لأن من أعرض عن الشيء ننى عنه صدره، وطوى عنه كشح؛ وقيل معناه: يعطفون صدورهم على ما فيها من الكفر والإعراض عن الحق، فيكون في الكلام كناية عن الإخفاء لما يعتقدونه من الكفر، كما كان داب المنافقين. والوجه الثاني أولى، ويؤيده قوله: **﴿لَيْسَتْخَفُوا مِنْهُ﴾** أي: ليستخفوا من الله، فلا يطلع عليه رسوله والمؤمنين، أو ليستخفوا من رسول الله ﷺ؛ ثم كرّر كلمة التنبيه مبيناً للوقت الذي يفتنون فيه صدورهم، فقال: **﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾** أي: يستخفون في وقت استغشاء الثياب، وهو التغطي بها، وقد كانوا يقولون: إذا أغلقنا أبوابنا، واستغشينّا ثيابنا، وثنيّا صدورنا على عداوة محمد فمن يعلم بنا؟ وقيل معنى حين يستغشون: حين يأوون إلى فراشهم، ويتنثرون بثيابهم؛ وقيل إنه حقيقة: وذلك أن بعض الكفار كان إذا مرّ به رسول الله ﷺ، ننى صدره، وولى ظهره، واستغشى ثيابه، لئلا يسمع كلام رسول الله ﷺ، وجملة **﴿يَعْلَمُ مَا يَسْرُونَ﴾** وما يعلنون مستأنفة؛ لبيان أنه لا فائدة لهم في الاستخفاء، لأن الله سبحانه يعلم ما يسرونه في أنفسهم، أو في ذات بينهم وما يظهرونه؛ فالظاهر والباطن عنده سواء، والسّر والجهر سيان، وجملة: **﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾** تعليل لما قبلها وتقرير له، وذات الصدور هي: الضمائر التي تشتمل عليها الصدور؛ وقيل: هي القلوب، والمعنى: إنه عليم بجميع الضمائر، أو عليم بالقلوب وأحوالها في الأسرار والإظهار، فلا يخفى عليه شيء من ذلك؛ ثم أكد كونه عالماً بكل المعلومات بما فيه

غاية الامتنان، ونهاية الإحسان، فقال: **﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾** أي: الرزق الذي تحتاج إليه من الغذاء اللائق بالحيوان، على اختلاف أنواعه تفضلاً منه وإحساناً، وإنما جاء به على طريق الوجوب، كما تشعر به كلمة «على» اعتباراً بسبق الوعد به منه، ومن زائدة للتأكيد، ووجه اتصال هذا الكلام بما قبله: أن الله سبحانه لما كان لا يغفل عن كل حيوان باعتبار ما قسمه له من الرزق، فكيف يغفل عن أحواله، وأقواله، وأفعاله، والدابة: كل حيوان يذب **﴿وَيَعْلَمُ مَسْتَقَرَّهَا﴾** أي: محل استقرارها في الأرض، أو محل قرارها في الأصلاب **﴿وَيَسْتَوْدِعُهَا﴾** موضعها في الأرحام، وما يجري مجراها كالبليضة ونحوها. وقال الفراء: مستقرها حيث تأوي إليه ليلاً ونهاراً، ومستودعها موضعها الذي تموت فيه، وقد مرّ تمام الأقوال في سورة الأنعام، ووجه تقدّم المستقر على المستودع على قول الفراء ظاهر. وأما على القول الأوّل: فلعل وجه ذلك أن المستقر أنسب باعتبار ما هي عليه حال كونها دابة. والمعنى: وما من دابة في الأرض إلا يرزقها الله حيث كانت من أماكنها بعد كونها دابة، وقبل كونها دابة، وذلك حيث تكون في الرحم ونحوه؛ ثم ختم الآية بقوله: **﴿كُلٌّ فِي كِتَابٍ مَبِينٍ﴾** أي: كل من ما تقدّم نكره من الدواب، ومستقرّها ومستودعها، ورزقها في كتاب مبين، وهو اللوح المحفوظ: أي مثبت فيه. ثم أكد دلائل قدرته بالتعرض لنكر خلق السموات والأرض، وكيف كان الحال قبل خلقها فقال: **﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾** قد تقدّم بيان هذا في الأعراف، قيل والمراد بالأيام الأوقات: أي في ستة أوقات، كما في قوله: **﴿وَمَنْ يُولِهِمْ يَوْمُذْ ذَرَهُ﴾** [الأنفال: 16] وقيل: مقدار ستة أيام، ولا يستقيم أن يكون المراد بالأيام هنا الأيام المعروفة، وهي المقابلة لليالي، لأنه لم يكن حينئذ لا أرض ولا سماء، وليس اليوم إلا عبارة عن مدة كون الشمس فوق الأرض، وكان خلق السموات في يومين، والأرضين في يومين، وما عليهما من أنواع الحيوان والنبات والجماد، في يومين، كما سيأتي في حم السجدة. قوله: **﴿وَوَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾** أي: كان قبل خلقهما عرشه على الماء، وفيه بيان تقدّم خلق العرش والماء على السموات والأرضين. قوله: **﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾** اللام متعلقة بخلق: أي خلق هذه المخلوقات ليبتلي عباده بالاعتبار والتفكير والاستدلال، على كمال قدرته، وعلى البعث والجزاء أيهم أحسن عملاً فيما أمر به ونهى عنه، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، ويوفر الجزاء لمن كان أحسن عملاً من غيره، ويدخل في العمل الاعتقاد، لأنه من أعمال القلب؛ وقيل المراد بالأحسن عملاً: الآتم عقلاً؛ وقيل: الأزهد في الدنيا، وقيل: الأكثر شكراً؛ وقيل: الاتقى لله. قوله: **﴿وَلَوْ أَنَّ قُلُوبَكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولُنَّ لَنَزَّلْنَا كَفَرُوا﴾** إن هذا إلا سحر مبين؛ ثم لما كان الابتلاء يتضمن حديث البعث أتبع ذلك بذكره، والمعنى: لأن قلت لهم يا محمد على

مجاهد في قوله: يؤت كل ذي فضل فضله: أي في الآخرة. وأخرج أبو الشيخ، عن الحسن قال: يؤت كل ذي فضل في الإسلام فضل الدرجات في الآخرة. وأخرج ابن جرير، عن ابن مسعود، في قوله: ﴿يؤت كل ذي فضل فضله﴾ قال: من عمل سيئة كتبت عليه سيئة، ومن عمل حسنة كتبت له عشر حسنات، فإن عوقب بالسيئة التي عملها في الدنيا بقيت له عشر حسنات، وإن لم يعاقب بها في الدنيا أخذ من الحسنات العشر واحدة، وبقيت له تسع حسنات، ثم يقول: هلك من غلب آحاده أعشاره. وأخرج البخاري وغيره، عن ابن عباس، في قوله: ﴿إلا إنهم يثنون صدورهم﴾ الآية قال: كانوا يستحيون أن يتخلوا فيفضوا إلى السماء، وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء، فنزل ذلك فيهم. قال البخاري، وعن ابن عباس: ﴿يستغشون﴾ يغطون رؤوسهم. وروى البخاري أيضاً عن ابن عباس في تفسير هذه الآية، يعني به الشك في الله، وعمل السيئات، وكذا روي عن مجاهد والحسن وغيرهما: أي أنهم كانوا يثنون صدورهم إذا قالوا شيئاً أو عملوه، فيظنون أنهم يستخفون من الله بذلك، فاعلمهم سبحانه أنه حين يستغشون ثيابهم عند منامهم في ظلمة الليل ﴿يعلم ما يسرون﴾ من القول ﴿وما يعلنون﴾. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن عبد الله بن شداد بن الهاد، في قوله: ﴿إلا إنهم يثنون صدورهم﴾ قال: كان المنافقون إذا مروا أحدهم بالنبي ﷺ ثنى صدره، وتغشى ثوبه، لكيلا يراه، فنزلت. وأخرج ابن جرير، عن الحسن، في قوله: ﴿إلا حين يستغشون ثيابهم﴾ قال: في ظلمة الليل في أجواف بيوتهم. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن أبي رزين في الآية قال: كان أحدهم يحيي ظهره ويستغشى بثوبه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، في الآية قال: كانوا يخبون صدورهم لكيلا يسمعو كتاب الله، قال تعالى: ﴿إلا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون﴾ وذلك أخفى ما يكون ابن آدم إذا أحنى ظهره، واستغشى بثوبه، وأضمر همه في نفسه، فإن الله لا يخفى عليه ذلك. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، قال في الآية: يكتمون ما في قلوبهم إلا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما عملوا بالليل والنهار. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وما من دابة﴾ الآية قال: يعني كل دابة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿وما من دابة﴾ الآية قال: يعني ما جاءها من رزق فمن الله، وربما لم يرزقها حتى تموت جوعاً، ولكن ما كان لها من رزق لها فمن الله. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿ويعلم مستقرها﴾ قال: حيث تأوى، ومستودعها قال: حيث تموت. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه ﴿ويعلم مستقرها﴾ قال: يأتيها رزقها حيث كانت. وأخرج

ما توجيه قضية الابتلاء، إنكم مبعوثون من بعد الموت، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، ليقولن الذين كفروا من الناس إن هذا الذي تقول يا محمد إلا باطل كبطلان السحر، وخدع كخدعه. ويجوز أن تكون الإشارة بهذا إلى القرآن، لأنه المشتمل على الإخبار بالبعث. وقرأ حمزة والكسائي ﴿إن هذا إلا ساحر﴾ يعنون النبي ﷺ، وكسرت إِنْ من قوله: ﴿إنكم﴾ لأنها بعد القول. وحكى سيبويه الفتح على تضمين قلت معنى نكرت، أو على أن بمعنى عل: أي ولئن قلت لعلكم مبعوثون، على أن الرجاء باعتبار باعتبار حال المخاطبين: أي توقعوا ذلك، ولا تبتوا القول بإنكاره ﴿ولئن أخرجنا للعذاب﴾ أي: الذي تقدم ذكره في قوله: ﴿عذاب يوم كبير﴾ وقيل: عذاب يوم القيامة وما بعده، وقيل يوم بدر ﴿إلى أمة معبودة﴾ أي: إلى طائفة من الأيام قليلة، لأن ما يحصره العد قليل، والأمة اشتقاقها من الأم: وهو القصد، وأراد بها الوقت المقصود لإيقاع العذاب: وقيل: هي في الأصل الجماعة من الناس، وقد يسمى الحين باسم ما يحصل فيه، كقولك: كنت عند فلان صلاة العصر: أي في ذلك الحين، فالمراد على هذا: إلى حين تنقضى أمة معبودة من الناس ﴿ليقولن ما يحبسها﴾ أي: شيء يمنع من لنزول استعجالاً له على جهة الاستهزاء والتكذيب، فأجابهم الله بقوله: ﴿إلا يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم﴾ أي: ليس محبوساً عنهم، بل واقع بهم لا محالة، ويوم منصوب بمصروفاً ﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون﴾ أي: أحاط بهم العذاب الذي كانوا يستعجلونه استهزاء منهم، ووضع يستهزءون مكان يستعجلون، لأن استعجالهم كان استهزاء منهم، وعبر بلفظ الماضي تنبيهاً على تحقق وقوعه، فكانه قد حاق بهم.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن ابن زيد، أنه قرأ: ﴿لن كتاب أحكمت آياته﴾ قال: هي كلها محكمة، يعني سورة هود ﴿ثم فصلت﴾ قال: ثم نكر محمداً ﷺ، فحكم فيها بينه وبين من خالفه، وقرأ مثل الفريقين الآية كلها، ثم نكر قوم نوح ثم هود، فكان هذا تفصيل ذلك، وكان أوله محكماً قال: وكان أبي يقول ذلك، يعني: زيد بن أسلم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الحسن، في قوله: ﴿كتاب أحكمت آياته﴾ قال: أحكمت بالامر والنهي، وفصلت بالوعد والوعيد، وأخرج هؤلاء عن مجاهد ﴿فصلت﴾ قال: فسرت. وأخرج هؤلاء أيضاً عن قتادة في الآية قال: أحكمها الله من الباطل، ثم فصلها بعلمه، فبين حلاله وحرامه وطاعته ومعصيته، وفي قوله: ﴿من لدن حكيم﴾ يعني من عند حكيم، وفي قوله: ﴿بمعتكم متاعاً حسناً﴾ قال: فأنتم في ذلك المتاع، فخذوه بطاعة الله ومعرفة حقه، فإن الله منعم يحب الشاكرين، وأهل الشكر في مزيد من الله، وذلك قضاؤه الذي قضاء: وفي قوله: ﴿إلى لجل مسمى﴾ يعني: الموت، وفي قوله: ﴿يؤت كل ذي فضل فضله﴾ أي: في الآخرة. وأخرج هؤلاء أيضاً عن

يَبْتَخِنُونَ ﴿١٠﴾ أَزَلَيْكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا
 فِيهَا وَحِطَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ أَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَمِينِهِ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ
 شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كُتِبَ مُرْسًى إِمَامًا وَرَحْمَةً أَزَلَيْكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ. وَمَنْ
 يَكْفُرْ بِهِ، مِنَ الْأَحْزَابِ قَالَتِ الْأَنْفُسُ دَلَّكَ عَلَىٰ حَقِّهِ إِنَّهُ لَأَقْبَلُ الْخَبْرَ
 مِنْكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾

اللام في ﴿وَلَنْ أُنْفِقُنَا الْإِنْسَانَ﴾ هي الموطنة للقسم، والإنسان الجنس، فيشمل المؤمن والكافر، ويدل على ذلك الاستثناء بقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ وقيل المراد: جنس الكفار، ويؤيده أن اليأس والكفران والفرح والفخر، هي أوصاف أهل الكفر لا أهل الإسلام في الغالب؛ وقيل المراد بالإنسان: الوليد بن المغيرة، وقيل: عبد الله بن أمية المخزومي. والمراد بالرحمة هنا: النعمة من توفير الرزق والصحة والسلامة من المحن ﴿ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ﴾ أن سلبناه إياها ﴿إِنَّهُ لَيُؤْسٍ﴾ أي: أيس من الرحمة، شديد القنوط من عودها، وأمثالها، والكفور: عظيم الكفران، وهو الجحود بها قاله ابن الأعرابي؛ وفي إيراد صيغتي المبالغة في ﴿لَيُؤْسٍ كَفُورٍ﴾ ما يدل على أن الإنسان كثير اليأس، وكثير الجحد عند أن يسلبه الله بعض نعمه، فلا يرجو عودها، ولا يشكر ما قد سلف له منها. وفي التعبير بالذوق ما يدل على أنه يكون منه ذلك عند سلب أنى نعمة ينعم الله بها عليه، لأن الإذاقة والذوق: أقل ما يوجد به الطعم، والنعماء: إنعام يظهر أثره على صاحبه، والضراء ظهور أثر الإضرار على من أصيب به. والمعنى: أنه إن أذاق الله سبحانه العبد نعماء من الصحة والسلامة، والغنى بعد أن كان في ضر من فقر أو مرض أو خوف، لم يقابل ذلك بما يليق به من الشكر لله سبحانه، بل يقول ذهب السيئات: أي المصائب التي ساءته من الضر والفقر والخوف والمرض عنه وزال أثرها، غير شاكر لله، ولا مثن عليه بنعمه ﴿إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ﴾ أي: كثير الفرح بطراً وأشراً، كثير الفخر على الناس، والتطاول عليهم بما يتفضل الله به عليه من النعم، وفي التعبير عن ملازمة الضر له بالمس مناسبة للتعبير في جانب النعماء بالإذاقة، فإن كلاهما لأنى ما يطلق عليه اسم الملاقة، كما تقدم ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ فإن عانتهم الصبر عند نزول المحن، والشكر عند حصول الممن. قال الأخفش: هو استثناء ليس من الأول: أي ولكن الذين صبروا وعملوا الصالحات في حالتهم النعمة والمحنة. وقال الفراء: هو استثناء من لئن أنقذناه أي من الإنسان، فإن الإنسان بمعنى الناس، والناس: يشمل الكافر والمؤمن، فهو استثناء متصل، والإشارة بقوله: ﴿أُولَئِكَ إِلَىٰ الْمَوْصُولِ بِاعتبار اتصافه بالصبر وعمل الصالحات﴾ لهم مغفرة، لذنبهم ﴿وَلَجَرٍ﴾ يوجبون به لأعمالهم الحسنة ﴿كَبِيرٍ﴾ متناه في الكبر. ثم سلى الله سبحانه رسوله ﷺ، فقال: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضُ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ﴾

ابن أبي شيبه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، عن ابن مسعود، قال: مستقرها في الارحام، ومستودعها حيث تموت. ويؤيد هذا التفسير الذي ذكره ابن مسعود ما أخرجه الترمذي الحكيم في نوابر الاصول، والحاكم وصححه، وابن مريويه، والبيهقي في الشعب، عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ قال: إذا كان أجل أحدكم بارض أتيت له إليها حاجة، حتى إذا بلغ أقصى أثره منها فيقبض، فتقول الأرض يوم القيامة: هذا ما استودعتني. وأخرج عبد الرزاق في المصنف، والفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، والبيهقي في الاسماء والصفات، عن ابن عباس، أنه سئل عن قوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ على أي شيء كان الماء؟ قال: على متن الريح. وقد وردت أحاديث كثيرة في صفة العرش، وفي كيفية خلق السموات والأرض ليس هذا موضع ذكرها. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم في التاريخ، وابن مريويه، عن ابن عمر، قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿لِيَبْلُوكُم أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ فقال: ما معنى ذلك يا رسول الله؟ قال: ليبلوكم أيكم أحسن عقلاً، ثم قال: وأحسنكم عقلاً أوردكم عن محارم الله، وأعملكم بطاعة الله. وأخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة، قال: إنكم أتم عقلاً. وأخرج أيضاً عن سفيان قال: أزهنكم في الدنيا. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة، قال: لما نزلت ﴿اقْتَرِبْ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: 1] قال ناس: إن الساعة قد اقتربت فتناهاوا، فتناهى القوم قليلاً ثم عادوا إلى أعمالهم أعمال السوء، فأنزل الله: ﴿اتَّبِعْ أَمْرَ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلْهُ﴾ [النحل: 1] فقال ناس من أهل الضلال: هذا أمر الله قد أتى، فتناهى القوم ثم عادوا إلى مكربهم، مكر السوء، فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَلَنْ أَخْرَجَنَاهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، عن ابن عباس، في قوله: ﴿إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ قال: إلى أجل معدود. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة ﴿لِيَقُولُوا مَا يَحْبِسُهُ﴾ يعني أهل النفاق. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي، في قوله: ﴿وَحَقَّ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ يقول: وقع بهم العذاب الذي استهزؤا به.

وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُوفُ كَافُورٌ ﴿١٣﴾ وَلَيْنَ أَذَقْنَاهُ نِعْمَةً بَعْدَ ضَرْبٍ مِّنَّا لَيَقُولَنَّ دَهْبَ السَّيِّئَاتِ هِيَ إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ ﴿١٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَزَلَيْكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٥﴾ فَلَمَّا كَذَبَ بَعْضُ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَصَلَّىٰ يَوْمَ مَذَرَلَهُ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ جَاءَهُ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٦﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفَنُفِثَ بَيْنَهُ سَوْرٌ يَبْتَغِيهِ. مَقْرُورٌ وَأَعْدَاوًا مِّنْ أَسْتَفْهَمَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ كَثُرَ سَوْرَتَيْنِ ﴿١٧﴾ وَإِنَّمَا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِالْحَقِّ وَلَمْ يَلْمِزْ أُولَئِكَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أُنْتُمْ تُسَلِّمُونَ ﴿١٨﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْيُنَهُمْ فِيهَا وَفَرَّ فِيهَا لَا

أمرهم بالعلم، أمرهم بالثبات عليه؛ لأنهم عالمون بذلك من قبل عجز الكفار عن الإتيان بعشر سور مثله، أو المراد بالأمر بالعلم: الأمر بالازدياد منه، إلى حد لا يشوبه شك، ولا تخالط شبهة، وهو علم اليقين. والأول: أولى. ومعنى: ﴿**فَمَا أَتَزَلْ بِعِلْمِ اللَّهِ**﴾ أنه أنزل مطلباً يعلم الله المختص به، الذي لا تطلع على كنهه العقول، ولا تستوضح معناه الأفهام، لما اشتمل عليه من الإعجاز الخارج عن طرق البشر ﴿**وَأَن لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ**﴾ أي: واعلموا أن الله هو المتفرد بالالوهية لا شريك له، ولا يقدره غيره على ما يقدر عليه. ثم ختم الآية بقوله: ﴿**فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ**﴾ أي: ثابتون على الإسلام، مخلصون له، مزدابون من الطاعات، لأنه قد حصل لكم بعجز الكفار عن الإتيان بمثل عشر سور من هذا الكتاب طمانينة فوق ما كنتم عليه، وبصيرة زائدة، وإن كنتم مسلمين من قبل - هذا فإن الثبوت عليه وزيادة البصيرة فيه والطمانينة به مطلوب منكم. وقيل: إن الضمير في ﴿**فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ**﴾ للموصول في من استطعتم، وضمير لكم، للكفار، الذين تحدّاهم رسول الله ﷺ، وكذلك ضمير فاعلموا - والمعنى: فإن لم يستجب لكم من دعوتهم للمعاضدة والمناصرة على الإتيان بعشر سور من سائر الكفار ومن يعبدونهم، ويزعمون أنهم يضرون وينفعون، فاعلموا أن هذا القرآن الذي أنزله الله على هذا الرسول، خارج عن قدرة غيره سبحانه وتعالى، لما اشتمل عليه من الإعجاز الذي تتقاصر نون قوّة المخلوقين، وأنه أنزل بعلم الله الذي لا تحيط به العقول، ولا تبلغه الأفهام، واعلموا أنه المتفرد بالالوهية لا شريك له، فهل أنتم بعد هذا مسلمون؟ أي: داخلون في الإسلام، متبعون لأحكامه، مقتدون بشرائعه. وهذا الوجه أقوى من الوجه الأول من جهة، وأضعف منه من جهة، فلما جهة قوّته، فلا تتساق الضمائر وتنسبها وعدم احتياج بعضها إلى تأويل، وأما ضعفه، فلما في ترتيب الأمر بالعلم على عدم الاستجابة ممن دعوهم واستعانوا بهم من الخفاء واحتياجه إلى تكلف، وهو أن يقال: إن عدم استجابة من دعوهم واستعانوا بهم من الكفار والأكله مع حرصهم على نصرهم، ومعاضدتهم، ومباغتتهم في عدم إيمانهم واستمرارهم على الكفر، يقيد حصول العلم لهؤلاء الكفار، بأن هذا القرآن من عند الله، وأن الله سبحانه هو الإله وحده لا شريك له، وذلك يوجب دخولهم في الإسلام، وأعلم أنه قد اختلف التحدي للكفار بمعارضة القرآن، فتارة وقع بمجموع القرآن، كقوله: ﴿**قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ**﴾ [الإسراء: 88] وبعشر سور كما في هذه الآية، وذلك لأن العشرة أوّل عقد من العقود، وبسورة منه كما تقدّم، وذلك لأن السورة أقلّ طائفة منه، ثم إن الله سبحانه توعد من كان مقصور الهمة على الدنيا لا يطلب غيرها ولا يريد سواها، فقال: ﴿**مَنْ كَانَ يَرِيدَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا**﴾ قال الفراء: إن كان هذه زائدة، ولهذا جزم الجواب. وقال الزجاج:

أي: فلعلك لعظم ما تراه منهم من الكفر والتكذيب، واقتراح الآيات التي يقترحونها عليه على حسب هواهم، وتعتهم تارك بعض ما يوحى إليك مما أنزله الله عليك وأمرك بتبليغه، مما يشق عليهم سماعه أو يستشقون العمل به، كسب آلهتهم وأمرهم بالإيمان بالله وحده. قيل: وهذا الكلام خارج مخرج الاستفهام: أي هل أنت تارك؟ وقيل: هو في معنى النفي مع الاستبعاد: أي لا يكون منك ذلك، بل تبليغهم جميع ما أنزل الله عليك، أحبوا ذلك أم كرهوه، شاءوا أم أبوا ﴿**وَضَائِقُ بِهِ صَدْرُكَ**﴾ معطوف على تارك، والضمير في به راجع إلى ما أو إلى بعض، وغير بضائق نون ضيق لأن اسم الفاعل فيه معنى الحدث والعروض والصفة المشبهة فيها معنى اللزوم ﴿**وَأَن يَقُولُوا**﴾ أي: كراهة أن يقولوا، أو مخافة أن يقولوا أو لئلا يقولوا ﴿**لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ**﴾ أي: هلا أنزل عليه كُتُبٌ: أي مال مكنوز مخزون ينتفع به ﴿**وَأَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ**﴾ يصنّفه ويبين لنا صحة رسالته؛ ثم بيّن سبحانه أن حاله ﷺ مقصور على النذارة، فقال: ﴿**إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ**﴾ ليس عليك إلا الإنذار بما أوحى إليك، وليس عليك حصول مطلوبهم وإيجاد مقترحاتهم ﴿**وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ**﴾ يحفظ ما يقولون، وهو فاعل بهم ما يجب أن يفعل. قوله: ﴿**وَأَم يَقُولُونَ افْتَرَاهُ**﴾ أم هي المنطبعة التي بمعنى بل والهمزة، وأضرب عما تقدّم من تهالونهم بالوحي، وعدم قنوعهم بما جاء به من المعجزات الظاهرة، وشرع في نكر ارتكابهم لما هو أشدّ من ذلك، وهو افتراءهم عليه بأنه افتراه، والاستفهام للتوبيخ والتقريع، والضمير المستتر في افتراه للنبي ﷺ، والبارز إلى ما يوحى ثم أمره الله سبحانه أن يجيب عليهم بما يقطعهم ويبين كذبهم ويظهر به عجزهم، فقال: ﴿**قُلْ فَاتُواْ بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ**﴾ أي: مماثلة له في البلاغة، وحسن النظم، وجزالة اللفظ، وفخامة المعاني. ووصف السور بما يوصف به المفرد، فقال: مثله، ولم يقل أمثاله، لأن المراد مماثلة كل واحد من السور، أو لقصد الإيحاء إلى وجه الشبه، ومداره المماثلة في شيء واحد، وهو البلاغة البالغة إلى حد الإعجاز، وهذا إنما هو على القول بأن المطابقة في الجمع والتثنية، والإفراد شرط، ثم وصف السور بصفة أخرى، فقال: ﴿**مَقْتَرِيَاتٍ وَأَدْعَاؤٍ**﴾ للاستظهار على المعارضة بالعشر السور ﴿**مَنْ اسْتَطَاعْتُمْ**﴾ دعاء، وقدرتم على الاستعانة به، من هذا النوع الإنساني، وممن تعبدونه وتجعلونه شريكاً لله سبحانه. وقوله: ﴿**مَنْ يُّؤْنِ اللَّهُ**﴾ متعلق بادعوا: أي ادعوا من استطعتم متجاوزين الله تعالى: ﴿**إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾ فيما تزعمون من افتراي له ﴿**فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ**﴾ أي: فإن لم يفعلوا ما طلبته منهم، وتحديتهم به من الإتيان بعشر سور مثله، ولا استجابوا إلى المعارضة المطلوبة منهم، ويكون الضمير في لكم لرسول الله ﷺ وللمؤمنين، أو للنبي ﷺ وحده، وجمع تعظيماً وتقخيماً ﴿**فَاعْلَمُواْ**﴾ أمر لرسول الله ﷺ وللمؤمنين أو للرسول وحده على التأويل الذي سلف قريباً. ومعنى

وتبائناً بعيداً؛ والمعنى: أقمن كان على بيعة من ربه في اتباع النبي ﷺ، والإيمان بالله، كغيره ممن يريد الحياة الدنيا وزينتها؛ وقيل المراد بمن كان على بيعة من ربه: النبي ﷺ: أي أقمن كان معه بيان من الله، ومعجزة كالقرآن، ومعه شاهد كجبريل، وقد بشرت به الكتب السالفة، كمن كان يريد الحياة الدنيا وزينتها. ومعنى البيعة: البرهان الذي يدل على الحق، والضمير في قوله: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ﴾ راجع إلى البيعة باعتبار تأويلها بالبرهان، والضمير في منه راجع إلى القرآن، لأن قد تقدم ذكره في قوله: ﴿لَمَّا يَقُولُونَ لِقَاءَهُ﴾ أو راجع إلى الله تعالى. والمعنى: ويتلو البرهان الذي هو البيعة شاهد يشهد بصحته من القرآن، أو من الله سبحانه. والشاهد: هو الإعجاز الكائن في القرآن، أو المعجزات التي ظهرت لرسول الله ﷺ، فإن ذلك من الشواهد التابعة للقرآن. وقال الفراء قال بعضهم: ويتلو شاهد منه: الإنجيل، وإن كان قبله فهو يتلو القرآن في التصديق، والهاء في منه لله عز وجل؛ وقيل المراد بمن كان على بيعة من ربه: هم مؤمنو أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام، وأضرابه. قوله: ﴿وَمَنْ قَبْلَهُ كِتَابَ مُوسَى﴾ معطوف على شاهد. والتقدير: ويتلو الشاهد شاهد آخر من قبله هو كتاب موسى، فهو وإن كان متقدماً في النزول، فهو يتلو الشاهد في الشهادة، وإنما قدم الشاهد على كتاب موسى، مع كونه متأخراً في الوجود، لكونه وصفاً لازماً غير مفارق، فكان أغرق في الوصفية من كتاب موسى. ومعنى شهادة كتاب موسى، وهو التوراة أنه بشر بمحمد ﷺ، وأخبر بأنه رسول من الله. قال الزجاج: والمعنى ويتلو من قبله كتاب موسى، لأن النبي ﷺ موصوف في كتاب موسى، يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل. وحكى أبو حاتم، عن بعضهم، أنه قرأ: ﴿وَمَنْ قَبْلَهُ كِتَابَ مُوسَى﴾ بالنصب، وحكاه المهدي، عن الكلبي، فيكون معطوفاً على الهاء في يتلو. والمعنى: ويتلو كتاب موسى جبريل، وانتصاب إماماً ورحمة على الحال. والإمام: هو الذي يؤتم به في الدين ويقتدى به، والرحمة: النعمة العظيمة التي أنعم الله بها على من أنزله عليهم، وعلى من بعدهم باعتبار ما اشتمل عليه من الأحكام الشرعية الموافقة لحكم القرآن، والإشارة بقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ إلى المتصفين بتلك الصفة الفاضلة، وهو الكون على البيعة من الله. واسم الإشارة مبتدأ وخبره ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي: يصدقون بالنبي ﷺ، أو بالقرآن ﴿وَمَنْ يَكْفُرُ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ أي: بالنبي أو بالقرآن. والأحزاب: المتحزبون على رسول الله ﷺ من أهل مكة وغيرهم، أو المتحزبون من أهل الأديان كلها ﴿فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ أي: هو من أهل النار لا محالة، وفي جعل النار موعداً إشعار بأن فيها ما لا يحيط به الوصف من أفانين العذاب، ومثله قول حسان:

أوربتموها حياض الموت صاحبة فالنار موعدها والموت لاقبها
﴿فَلَا تَكُ فِي مَرِيَةٍ مِنْهُ﴾ أي: لا تك في شك من القرآن، وفيه تعريض بغيره ﷺ؛ لأنه معصوم عن الشك في القرآن،

«من كان» في موضع جزم بالشرط، وجوابه نَوْفٌ إليهم: أي من يكن يريد.

واختلف أهل التفسير في هذه الآية، فقال الضحاك: نزلت في الكفار، واختاره النحاس بلبيل الآية التي بعدها ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾؛ وقيل: الآية وأردت في الناس على العموم، كافرهم ومسلمهم. والمعنى: إن من كان يريد بعمله حظ الدنيا يكافأ بذلك، والمراد بزینتها: ما يزينها ويحسنها من الصحة والامن، والسعة في الرزق، وارتفاع الحظ، ونفاذ القول، ونحو ذلك. وإبخال «كان» في الآية يفيد أنهم مستمرون على إرادة الدنيا بأعمالهم، لا يكانون يريدون الآخرة، ولهذا قيل: إنهم مع إعطائهم حظوظ الدنيا يعشون في الآخرة، لأنهم جربوا قصدهم إلى الدنيا، ولم يعملوا للآخرة. وظاهر قوله: ﴿نَوْفٌ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا﴾ أن من أراد بعمله الدنيا حصل له الجزء الدنيوي ولا محالة، ولكن الواقع في الخارج يخالف ذلك، فليس كل متمر ينال من الدنيا أمنيته، وإن عمل لها وأرادها، فلا بد من تقييد ذلك بمشيئة الله سبحانه. قال القرطبي: ذهب أكثر العلماء إلى أن هذه الآية مطلقة، وكذلك الآية التي في الشورى ﴿مَنْ كَانَ يَرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ [الشورى: 20]. وكذلك ﴿مَنْ كَانَ يَرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ [النساء: 134] قينتها وفسرتها التي في سبحان ﴿مَنْ كَانَ يَرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ [الإسراء: 18] قوله: ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَبْخَسُونَ﴾ أي: وهؤلاء المريدون بأعمالهم الدنيا هم فيها: أي في الدنيا لا يبخسون: أي لا ينقصون من جزائهم فيها بحسب أعمالهم لها، وذلك في الغالب، وليس بمطرد، بل إن قضت به مشيئته سبحانه، ورجحته حكمته البالغة. وقال القاضي: معنى الآية: من كان يريد بعمل الخير الحياة الدنيا وزينتها، نَوْفٌ إليهم أعمالهم وأقية كاملة من غير بخس في الدنيا، وهو ما ينالون من الصحة والكفاف، وسائر اللذات والمنافع، فخصّ الجزء بمثل ما نكره، وهو حاصل لكل عامل للدنيا، ولو كان قليلاً يسيراً. قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ الإشارة إلى المريدين المنكورين، ولا بد من تقييد هذا بأنهم لم يريدوا الآخرة بشيء من الأعمال المعتد بها، الموجبة للجزاء الحسن في الدار الآخرة، أو تكون الآية خاصة بالكفار، كما تقدم ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا﴾ أي: ظهر في الدار الآخرة حبوط ما صنعوه من الأعمال التي كانت صورتها صورة الطاعات الموجبة للجزاء الآخروي، لولا أنهم أقسدوها بفساد مقاصدهم، وعدم الخلو، وإرادة ما عند الله في دار الجزاء، بل قصرُوا ذلك على الدنيا وزينتها؛ ثم حكم سبحانه ببطلان عملهم فقال: ﴿وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: أنه كان عملهم في نفسه باطلاً غير معتد به، لأنه لم يعمل لوجه صحيح يوجب الجزاء، ويترتب عليه ما يترتب على العمل الصحيح. قوله: ﴿أَقْمِنَ كَانَ عَلَى بَيْعَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ بين سبحانه أن بين من كان طالباً للدنيا فقط، ومن كان طالباً للآخرة تفاقماً عظيماً،

أو من الموعد ﴿إِنَّه الحق من ربك﴾ فلا منخل للشك فيه بحال من الأحوال ﴿ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾ بذلك مع وجوب الإيمان به، وظهور الدلائل الموجبة له، ولكنهم يعاندون مع علمهم بكونه حقاً، أو قد طبع على قلوبهم فلا يفهمون أنه الحق أصلاً.

وقد أخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿فهل أنتم مسلمون﴾ قال: لأصحاب محمد ﷺ. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مريويه، عن أنس، في قوله: ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها﴾ قال: نزلت في اليهود والنصارى. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عبد الله بن معبد، قال: قام رجل إلى عليّ فقال: أخبرنا عن هذه الآية ﴿من كان يريد الحياة الدنيا﴾ إلى قوله: ﴿ويبطل ما كانوا يعملون﴾ قال: ويحك، ذلك من كان يريد الدنيا لا يريد الآخرة. وأخرج النحاس عن ابن عباس ﴿من كان يريد الحياة الدنيا﴾ أي: ثوابها ﴿وزينتها﴾ مالهـا ﴿نوف إليهم﴾ نوفر لهم بالصحة والسور في الأهل، والمال، والولد ﴿وهم فيها لا يبخسون﴾ لا ينقصون. ثم نسخها ﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء﴾ [الإسراء: 18] الآية. وأخرج أبو الشيخ، عن السدي، مثله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في الآية قال: من عمل صالحاً: للتماس الدنيا صوماً أو صلاة، أو تهجداً بالليل، لا يعمل إلا التماس الدنيا، يقول الله أو فيه الذي التمس في الدنيا وحبط عمله الذي كان يعمل، وهو في الآخرة من الخاسرين. وأخرج ابن جرير، عن الضحك، قال: نزلت هذه الآية في أهل الشرك. وأخرج أبو الشيخ، عن الحسن، في قوله: ﴿نوف إليهم أعمالهم﴾ قال: طيباتهم. وأخرج أبو الشيخ، عن ابن جرير، نحوه. وأخرج أبو الشيخ، عن السدي، في قوله: ﴿وحبط ما صنعوا فيها﴾ قال: حبط ما عملوا من خير، وبطل في الآخرة، ليس لهم فيها جزاء. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في الآية، قال: هم أهل الرياء. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مريويه، وأبو نعيم في المعرفة، عن عليّ بن أبي طالب، قال: ما من رجل من قريش إلا نزل فيه طائفة من القرآن، فقال له رجل: ما نزل فيك؟ قال: أما قرأ سورة هود ﴿أقمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه﴾ رسول الله ﷺ بينة من ربه، ولنا شاهد منه. وأخرج ابن عساکر، وابن مريويه من وجه آخر، عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أقمن كان على بينة من ربه.. أنا. ويتلوه شاهد منه: عليّ». وأخرج أبو الشيخ، عن أبي العالية، في قوله: ﴿أقمن كان على بينة من ربه﴾ قال: ذلك محمد ﷺ. وأخرج أبو الشيخ، عن إبراهيم، نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني في الأوسط، وأبو الشيخ، عن محمد بن علي بن أبي طالب، قال: قلت لأبي: إن الناس يزعمون في قول الله سبحانه ﴿ويتلوه شاهد منه﴾ أنك أنت التالي، قال: وبدت أني أنا هو، ولكنه لسان محمد ﷺ. وأخرج أبو الشيخ، عن عكرمة،

عن ابن عباس، أن الشاهد جبريل ووافقه سعيد بن جبير. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مريويه من طرق، عن ابن عباس، قال: جبريل فهو شاهد من الله بالذي يتلوه من كتاب الله الذي أنزل على محمد ﴿ومن قبله كتاب موسى﴾ قال: ومن قبله التوراة على لسان موسى، كما تلا القرآن على لسان محمد ﷺ. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن عساکر، عن الحسن بن عليّ، في قوله: ﴿ويتلوه شاهد منه﴾ قال: محمد هو الشاهد من الله. وأخرج أبو الشيخ، عن إبراهيم ﴿ومن قبله كتاب موسى﴾ قال: ومن قبله جاء الكتاب إلى موسى. وأخرج عبد الرزاق، وأبو الشيخ، عن قتادة ﴿ومن يكفر به من الأحزاب﴾ قال: الكفار أحزاب كلهم على الكفر. وأخرج أبو الشيخ، عن قتادة، قال: ﴿ومن يكفر به من الأحزاب﴾ قال: من اليهود والنصارى.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعَذِّبُ عَنْ رَبِّهِمْ رِيقُولُ أَلْأَشْهَدُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوًا وَمِمَّنِ الْآخِرَةُ مُمْ كَثِيرُونَ ﴿١٨﴾ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعِفُ لَهُمْ الْعَذَابَ مَا كَانُوا يَسْتَغِيثُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُجِيرُونَ ﴿١٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٢٠﴾ لَا جَرَائِمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٢﴾ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَصْحَى وَالْأَسْرَى وَالْبَصِيرَ وَالسَّيِّعُ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾

قوله: ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾ أي: لا أحد أظلم منهم لأنفسهم؛ لأنهم افتروا على الله كذباً بقولهم لأصنامهم: هؤلاء شفعاؤنا عند الله. وقولهم: الملائكة بنات الله، وأضافوا كلامه سبحانه إلى غيره، واللفظ وإن كان لا يقتضي إلا نفي وجود من هو أظلم منهم كما يفيد الاستفهام الإنكاري، فالمقام يفيد نفي المساوي لهم في الظلم. فالمعنى على هذا: لا أحد مثلم في الظلم فضلاً عن أن يوجد من هو أظلم منهم، والإشارة بقوله: أولئك إلى الموصوفين بالظلم المتبالغ، وهو مبتدأ، وخبره يعرضون على ربهم فيحاسبهم على أعمالهم، أو المراد بعرضهم: عرض أعمالهم ﴿ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كتبوا على ربهم﴾ الأشهاد: هم الملائكة الحفظة، وقيل المرسلون، وقيل: الملائكة والمرسلون والعلماء الذين بلغوا ما أمرهم الله بإبلاغه، وقيل جميع الخلائق. والمعنى: أنه يقول هؤلاء الأشهاد عند العرض: هؤلاء المعرضون أو المعروضة أعمالهم الذين كتبوا على ربهم بما نسبوه إليه ولم يصرحوا بما كتبوا به، كانه كان أمراً معلوماً عند أهل ذلك الموقف. قوله: ﴿ألا لعنة الله على الظالمين﴾ هذا من تمام كلام الأشهاد أي: يقولون هؤلاء الذين كتبوا على ربهم، ويقولون:

«لا جرم» بمعنى حق فهي عندهما بمنزلة كلمة واحدة، وبه قال الفراء. وروي عن الخليل والفراء أنها: بمنزلة قولك لا بد ولا محالة، ثم كثر استعمالها حتى صارت بمنزلة حقاً. وقال الزجاج: إن جرم بمعنى كسب: أي كسب ذلك الفعل لهم الخسران، وفاعل كسب مضمَر، وأن منصوبة بجرم. قال الأزهري: وهذا من أحسن ما نقل في هذه اللغة. وقال الكسائي: معنى لا جرم: لا صد ولا منع عن أنهم في الآخرة هم الأخسرون. وقال جماعة من النحويين: إن معنى لا جرم لا قطع قاطع «أنهم في الآخرة هم الأخسرون» قالوا: والجرم القطع، وقد جرم النخل واجترمه: أي قطعه، وفي هذه الآية بيان أنهم في الخسران قد بلغوا إلى حد يتقاصر عنه غيرهم، ولا يبلغ إليه، وهذه الآيات مقررة لما سبق من نفي المماثلة بين من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها، وبين من كان على بينة من ربه «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا» أي: صدقوا بكل ما يجب التصديق به من كون القرآن من عند الله، وغير ذلك من خصال الإيمان «وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَخَبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ» أي: أنابوا إليه، وقيل: خضعوا، وقيل: خضعوا، قيل وأصل الإخبات: الاستواء في الخبث: وهو الأرض المستوية الواسعة فيناسب معنى الخشوع والاطمئنان. قال الفراء: إلى ربهم، ولربهم واحد «أُولَٰئِكَ» الموصوفون بتلك الصفات الصالحة «أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ». قوله: «مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ» ضرب للفرقتين مثلاً وهو تشبيه فريق الكافرين بالأعمى والأصم، وتشبيه فريق المؤمنين بالبصير والسميع، على أن كل فريق شبه بشيئين، أو شبه بمن جمع بين الشيئين، فالكافر شبه بمن جمع بين العمى والصمم، والمؤمن شبه بمن جمع بين السمع والبصر، وعلى هذا تكون الواو في «وَالْأَصَمِّ»، وفي «وَالسَّمِيعِ» لعطف الصفة على الصفة، كما قول الشاعر:

إلى الملك القرم وابن الهمام

والاستفهام في قوله: «هل يستويان» للإنكار، يعني الفريقين، وهذه الجملة مقررة لما تقدم من قوله: «أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ» وانتصاب مثلاً على التمييز من فاعل يستويان: أي هل يستويان حالاً وصفة «أَفَلَا تَذَكَّرُونَ» في عدم استوائهما، وفيما بينهما من التفاوت الظاهر الذي لا يخفى على من له تنكر، وعنده تفكر وتأمل، والهمزة لإنكار عدم التنكر واستبعاد صورته عن المخاطبين.

وقد أخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن جريج، في قوله: «وَمَنْ أَظْلَمُ» قال: الكافر والمنافق «أُولَٰئِكَ يَعْرُضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ» فيسألهم عن أعمالهم «وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ» الذين كانوا يحفظون أعمالهم عليهم في الدنيا «هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَتَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ» شهدوا به عليهم يوم القيامة. وأخرج ابن جرير، عن مجاهد، قال: الأشهاد: الملائكة. وأخرج أبو الشيخ، عن قتادة، نحوه، وفي الصحيحين وغيرهما عن ابن عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ يَدْنِي الْمُؤْمِنَ حَتَّىٰ يَضَعَ كَنَفَهُ وَيَسْتَرْه مِنَ النَّاسِ وَيَقْرَرَهُ بَنُوْبِهِ، وَيَقُولُ لَهُ:

إِلَّا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِالْإِقْتِرَاءِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، قَالَهُ بَعْدَمَا قَالَ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَتَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ. وَالْأَشْهَادُ جَمْعُ شَهِيدٍ، وَرَجَحَهُ أَبُو عَلِيٍّ بِكَثْرَةِ وَرُودِ شَهِيدٍ فِي الْقُرْآنِ كَقَوْلِهِ: «وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا» [البقرة: 143] «فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا» [النساء: 41]، وَقِيلَ: هُوَ جَمْعُ شَهِيدٍ كَأَصْحَابٍ وَصَاحِبٍ، وَالْفَائِدَةُ فِي قَوْلِ الْأَشْهَادِ بِهَذِهِ الْمَقَالَةِ الْمُبَالِغَةُ فِي فَضِيحَةِ الْكُفْرِ، وَالتَّزْجِيرِ لَهُمْ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ، ثُمَّ وَصَفَ هَؤُلَاءِ الظَّالِمِينَ الَّذِينَ لَعَنُوا بِأَنَّهُمْ «وَالَّذِينَ يَصْنَعُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» أي: يمتنعون من قُبْرِهِمْ عَلَى مَنَعِهِ عَنْ دِينِ اللَّهِ وَالدُّخُولِ فِيهِ «وَيُوبِقُونَهَا عَوْجًا» أي: يصفونها بِالْأَعْوِجَاجِ تَنْفِيرًا لِلنَّاسِ عَنْهَا، أَوْ يَبْغُونَ أَهْلِهَا أَنْ يَكُونُوا مَعْوَجِينَ بِالْخُرُوجِ عَنْهَا إِلَى الْكُفْرِ، يُقَالُ بَغَيْتَكَ شَرًّا: أَيِ طَلَبْتَهُ لَكَ «وَوُجِدَ الْحَالُ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْكَافِرِينَ هُمْ كَافِرُونَ» أي: يصفونها بِالْمَعْوِجِ، وَالْحَالُ أَنَّهُمْ بِالْآخِرَةِ غَيْرُ مُصْطَقِينَ، فَكَيْفَ يَصْنَعُونَ النَّاسَ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ، وَهُمْ عَلَى الْبَاطِلِ الْبَحْثُ؟ وَتَكَرَّرَ الضَّمِيرُ لِتَأْكِيدِ كُفْرِهِمْ وَإِخْتِصَاصِهِمْ بِهِ، حَتَّى كَانَ كُفْرُ غَيْرِهِمْ غَيْرَ مَعْتَدٍ بِهِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى عَظِيمِ كُفْرِهِمْ «أُولَٰئِكَ» الْمَوْصُوفُونَ بِتِلْكَ الصِّفَاتِ «لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ» أي: مَا كَانُوا يَعْجِزُونَ اللَّهَ فِي الدُّنْيَا إِنْ أَرَادَ عَقُوبَتَهُمْ «وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ» يَدْفَعُونَ عَنْهُمْ مَا يَرِيدُهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مِنْ عَقُوبَتِهِمْ، وَإِنْزَالِ بَاسِهِ بِهِمْ، وَجَمَلَةٌ «يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ» مُسْتَنْفَاةٌ لِبَيَانِ أَنَّ تَأْخِيرَ الْعَذَابِ وَالتَّرَاخِي عَنْ تَعْجِيلِهِ لَهُمْ، لِيَكُونَ عَذَابًا مُضَاعَفًا. وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ، وَابْنُ عَامِرٍ، وَيَزِيدٌ وَيَعْقُوبُ «يُضَاعَفُ» مُشْدَدًا «وَمَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ» أي: أَفْرَطُوا فِي إِعْرَاضِهِمْ عَنِ الْحَقِّ، وَبَغْضِهِمْ لَهُ، حَتَّى كَانَهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى السَّمْعِ وَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى الْإِبْصَارِ، لَفَرَطِ تَعَامِيهِمْ عَنِ الصَّوَابِ. وَيَجُوزُ أَنْ يَرَادَ يَقُولُهُ: «وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ» أَنَّهُمْ جَعَلُوا آلِهَتَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَلَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ، فَمَا كَانَ هَؤُلَاءِ الْأَوْلِيَاءُ يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يَبْصُرُونَ، فَكَيْفَ يَنْفَعُونَهُمْ فَيُجْلِبُونَ لَهُمْ نَفْعًا أَوْ يَدْفَعُونَ عَنْهُمْ ضَرَرًا، وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ «مَا» هِيَ الْمَدِيَّةُ. وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَدَّةَ اسْتَطَاعَتِهِمْ لِلْسَّمْعِ وَالْبَصَرِ. قَالَ الْفَرَاءُ: مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ، لِأَنَّ اللَّهَ أَضْلَمَهُمْ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ. وَقَالَ الزَّجَّاجُ: لِبَغْضِهِمُ النَّبِيَّ ﷺ. وَعَدَاوَتِهِمْ لَهُ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَسْمَعُوا مِنْهُ وَلَا يَفْهَمُوا عَنْهُ. قَالَ النُّحَاسُ: هَذَا مَعْرُوفٌ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ، يُقَالُ: فَلَانٌ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى فَلَانٍ: إِذَا كَانَ ثَقِيلًا عَلَيْهِ «أُولَٰئِكَ» الْمُتَصِفُونَ بِتِلْكَ الصِّفَاتِ «الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ» بِعِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ. وَالْمَعْنَى: اشْتَرَوْا عِبَادَةَ الْإِلَهِةِ بِعِبَادَةِ اللَّهِ، فَكَانَ خَسْرَانُهُمْ فِي تِجَارَتِهِمْ أَكْثَرَ خَسْرَانٍ «وَوُضِّلَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ» أي: ذَهَبَ وَضَاعٌ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ مِنَ الْإِلَهِةِ الَّتِي يَدَّعُونَ أَنَّهَا تَشْفَعُ لَهُمْ، وَلَمْ يَبْقَ بَالِيَدِهِمْ إِلَّا الْخَسْرَانُ. قَوْلُهُ: «لَا جَرِمَ» قَالَ الْخَلِيلُ وَسَيَبُويهِ:

وكانه قال هذا على وجه الإعظام لهم، ويحتمل أنه قاله خوفاً من مخاصمتهم له عند ربه بسبب طرده لهم؛ ثم بين لهم ما هم عليه في هذه المطالب التي طلبوها منه، والعلل التي اعتلوا بها عن إجابته فقال: **﴿وَلَكِنِّي أُرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾** كل ما ينبغي أن يعلم، ومن ذلك استرداهم للذين اتبعوه وسؤالهم له أن يتردهم. ثم أكد عدم جواز طردهم بقوله: **﴿وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتَهُمْ﴾** أي: من يمنعني من عذاب الله وانتقامه إن طردتهم؟ فإن طردهم بسبب سبهم إلى الإيمان والإجابة إلى الدعوة التي أرسل الله رسوله لأجلها ظلم عظيم، لا يقع من أنبياء الله المؤيدين بالعصمة، ولو وقع ذلك منهم فرضاً وتقديراً لكان فيه من الظلم ما لا يكون لو فعله غيرهم من سائر الناس. وقوله: **﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾** معطوف على مقتر؛ كأنه قيل: أتستمرون على ما أنتم عليه من الجهل بما ذكر، أفلا تذكرون من أحوالهم ما ينبغي تذكركه وتتفكرون فيه، حتى تعرفوا ما أنتم عليه من الخطأ، وما هم عليه من الصواب. قوله: **﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾** بين لهم أنه كما لا يطلب منهم شيئاً من أموالهم على تبليغ الرسالة، كذلك لا يدعي أن عنده خزائن الله حتى يستلوا بعمدها على كذبه، كما قالوا: **﴿وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾** والمراد بخزائن الله: خزائن رزقه **﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبُ﴾** أي: ولا أدعي أنني أعلم بغيب الله، بل لم أقل لكم إلا أنني نذير مبين، إنني أخاف عليكم عذاب يوم اليم **﴿وَلَا أَقُولُ﴾** لكم **﴿إِنِّي مُلْكٌ﴾** تقولوا ما نراك إلا بشراً مثلاً. وقد استدلل بهذا من قال إن الملائكة أفضل من الأنبياء، والأدلة في هذه المسئلة مختلفة، وليس لطالب الحق إلى تحقيقها حاجة، فليست مما كلفنا الله بعلمه **﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ﴾** أي: تحتقر، والازدراء مأخوذ من أزرى عليه: إذا عبه، وزري عليه: إذا احتقره، وأنشد القراء: يباعده الصديق وتزدرى خليلته وينهره الصغير والمعنى: إنني لا أقول لهؤلاء المتبعين لي المؤمنين بالله الذين تعيبونهم وتحتقرونهم **﴿لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾** بل قد آتاهم الخير العظيم بالإيمان به واتباع نبيه؛ فهو مجازيهم بالجزاء العظيم في الآخرة، ورافعهم في الدنيا إلى أعلى محل، ولا يضرهم احتقاركم لهم شيئاً **﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾** من الإيمان به، والإخلاص له، فمجازيهم على ذلك، ليس لي ولا لكم من أمرهم شيء **﴿إِنِّي إِذَا لَمَنِ الظَّالِمِينَ﴾** لهم إن فعلت ما تريدونه بهم، أو من الظالمين لأنفسهم إن فعلت ذلك بهم، ثم جابووه بغير ما تقدم من كلامهم وكلامه عجزاً عن القيام بالحجة، وقصوراً عن رتبة المناظرة، وانقطاعاً عن المبراة بقولهم: **﴿يَا نُوحُ قَدْ جَانَبْتَنا فَكُتِرَتْ جِدَالُنَا﴾** أي: خاضمتنا بأنواع الخصام، وبغفقتنا بكل حجة لها مدخل في المقام، ولم يبق لنا في هذا الباب مجال، فقد ضاقت علينا المسالك، وانسدت أبواب الحيل **﴿فَاتَّانَا بِمَا تَعِدُنَا﴾** من العذاب الذي تخوفنا منه، وتخافه علينا **﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾** فيما تقوله لنا، فأجاب بأن ذلك ليس

مجرد العصبية، والحسد، واستبقاء ما هم فيه من الرياسة الدنيوية، فقالوا: **﴿جَلَّ نَفْلُكُمْ كَانِبِينَ﴾** فيما تدعونه، ويجوز أن يكون هذا خطاباً للأرائل وحدهم، والأول: أولى؛ لأن الكلام مع نوح لا معهم إلا بطريق التبعية له. ثم نكر سبحانه ما أجاب به نوح عليهم، فقال: **﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّي﴾** أي: أخبروني إن كنت على برهان من ربي في النبوة يدل على صحتها ويوجب عليكم قبولها، مع كون ما جعلتموه قادحاً ليس بقادح في الحقيقة، فإن المساواة في صفة البشرية لا تمنع المفارقة في صفة النبوة، واتباع الأرائل كما تزعمون ليس مما يمنع من النبوة، فإنهم مثلكم في البشرية والعقل والفهم، فاتباعهم لي حجة عليكم لا لكم، ويجوز أن يريد بالبينة المعجزة **﴿وَأَتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ﴾** هي: النبوة، وقيل: الرحمة: المعجزة، والبينة: النبوة. قيل: ويجوز أن تكون الرحمة هي: البينة نفسها، والأولى تفسير الرحمة بغير ما فسرت البينة، والإفراد في **﴿فَعَمِيتُ﴾** على إرادة كل واحدة منهما، أو على إرادة البينة، لأنها هي التي تظهر لمن تفكر، وتخفى على من لم يتفكر، ومعنى عميت: خفيت؛ وقيل: الرحمة هي على الخلق، وقيل: هي الهداية إلى معرفة البرهان، وقيل: الإيمان، يقال عميت عن كذا، وعمي عليّ كذا: إذا لم أقيمه. قيل وهو من باب القلب، لأن البينة أو الرحمة لا تعمى وإنما يعمى عنها فهو كقولهم: انخلت القلنسوة رأسي. وقرأ الأعمش، وحمزة، والكسائي، وحفص «فعميت» بضم العين وتشديد الميم على البناء للمفعول أي فعماها الله عليكم، وفي قراءة أبي **﴿فَعَمَاهَا عَلَيْكُمْ﴾** والاستفهام في **﴿أَنْتَلُزِمُكُمْوهَا﴾** للإنكار: أي لا يمكنني أن أضطركم إلى المعرفة بها، والحال أنكم لها كارهون؛ والمعنى: أخبروني إن كنت على حجة ظاهرة الدلالة على صحة نبوتي إلا أنها خافية عليكم أيمكنننا أن تضطركم إلى العلم بها، والحال أنكم لها كارهون غير متبشرين فيها، فإن ذلك لا يقدر عليه إلا الله عز وجل. وحكى الكسائي والقراء إسكان الميم الأولى في أنلزمكموها تخفيفاً كما في قول الشاعر:

فاليوم أشرب غير مستحقب إثمًا من الله ولا واصل
فإن إسكان الباء في أشرب للتخفيف. وقد قرأ أبو عمرو كذلك. قوله: **﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ لَجِرَى إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾** فيه التصريح منه عليه السلام بأنه لا يطلب على تبليغ الرسالة مالا حتى يكون بذلك محلاً للتهمة، ويكون لقول الكافرين مجال بأنه إنما ادعى ما ادعى طلباً للدنيا، والضمير في عليه راجع إلى ما قاله لهم، فيما قبل هذا. وقوله: **﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾** كالجواب عما يفهم من قولهم **﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرْتَلُنَا﴾** من التلميح منهم إلى إبعاد الأرائل عنه؛ وقيل: إنهم سألوه طردهم تصريحاً لا تلميحاً، ثم علل ذلك بقوله: **﴿إِنَّهُمْ مَلَاقُوا رَبَّهُمْ﴾** أي: لا أطردهم، فإنهم ملاقون يوم القيامة ربهم فهو يجازيهم على إيمانهم لأنهم طلبوا بإيمانهم ما عنده سبحانه،

﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبُ﴾ لا أقول: اتبعوني على علمي بالغيب
﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مُلْكٌ﴾ نزلت من السماء برسالة، ما أنا إلا
بشر مثلكم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن زيد ﴿وَلَا أَقُولُ
لِللَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ﴾ قال: حقرتموهم. وأخرج أبو
الشيخ، عن السدي، في قوله: ﴿لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾ قال:
يعني: إيماناً. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن جريج،
في قوله: ﴿فَاتَّقُوا بِمَا تَعْبُدُونَ﴾ قال: تكذيباً بالعذاب، وأنه
باطل.

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِخْرَاسِي وَأَنَا نَزِيهٌُ وَمِمَّا
يُخْشَوْنَ ﴿١٥﴾ وَأَرَادَ أَن تُهْلِكَ أَفَتُؤْمِنُ بِبُيُوتٍ مِنْ تُرَابٍ لَآ مِنْ قَدَمِ مَآءٍ فَلَا
يَتَنَسَّوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْمَلُونَ ﴿١٦﴾ وَأَضَعُ الْفُلُوكَ فَاِثْمِينَا وَنَحْنُ لَا نُظَلِّجُ فِي
الْبَإِثْنِ ظُلُمًا لَهُمْ فَهُمْ يَنْفَرُونَ ﴿١٧﴾ وَصَنَعُ الْفُلُوكَ رَكَّاعًا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ
قُيُومِهِ سَجِيرًا إِنَّهُ قَالَ إِنَّ اسْفَحَا وَمَا فَاِنَا نَسْفَحُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْفَحُونَ ﴿١٨﴾
تَسْفَحُ تَقْمَلُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُثِيمٌ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا
جَاءَ امْرَأَتُهَا وَكَانَ الشُّرُوكُ قُلُتًا اجْمَلَ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَةٍ آتِيَةٍ وَأَهْلَكَ إِلَّا
مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ
اتَّكِبْ إِلَىٰ يَمِينِهِ اللَّهُ يُخْرِجُهَا وَيُؤْتِيهَا لَهَا رُبِّي فَأَقْرِضْ رَيْبِي ﴿٢١﴾ وَهِيَ تَجْرِي
بِيَمِينِهِ فِي مَرَجٍ كَالْجَبَالِ وَتَأَذَىٰ نُحْ أَنْتُمْ وَكَانَ فِي مَعْبَرٍ بِئْسَ أَرْكَبُ
مَعْنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ سَوَاءٌ لِي جَبَلٌ يَعْصِي أَمْرًا أَلَمْ يَأْمُرْ
أَلَا لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَهُ وَكَانَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ
الْمُتَفَرِّقِينَ ﴿٢٣﴾ وَقِيلَ يَتَّخِذُ آلِي يُوسُفَ أَلْفِينًا وَهُوَ غَافٍ مَلَأَ وَهُوَ
الْأَكْمَرُ وَاسْتَوَتْ عَلَىٰ الْجُودِيِّ وَقِيلَ بِعَدَا لِلْقَوْرِ السُّلَاطِينِ ﴿٢٤﴾

قوله: ﴿إِذَا يَقُولُونَ افْتِرَاءً﴾ أنكر سبحانه عليهم قولهم: **إِنْ** مَا أَوْحَى إِلَى نُوْحٍ مُّفْتَرًى، فقال: ﴿إِذَا يَقُولُونَ افْتِرَاءً﴾ ثم أمره أَنْ يَجِيبَ بِكَلَامٍ مُّتَصِفٍ، فقال: ﴿قُلْ إِنْ افْتَرَيْتَهُ فَعَلِيْ إِجْرَامٍ﴾ بكسر الهمزة على قراءة الجمهور، مصدر أَجْرَمَ: أَي فَعَلَ مَا يُوْجِبُ الْإِثْمَ، وَجَرَمَ وَأَجْرَمَ بِمَعْنَى قَالَه النَّحَّاسُ، وَالْمَعْنَى: فَعَلِيْ إِثْمِي، أَوْ جَزَاء كَسْبِي. وَمَنْ قَرَأَ بِفَتْحِ الهمزة، قَالَ: هُوَ جَمِيعُ جَرَمٍ نَكَرَهُ النَّحَّاسُ أَيْضاً ﴿وَإِنَّا بِرِئْءٍ مِّمَّا تَجْرِمُونَ﴾ أَي: مِنْ إِجْرَامِكُمْ بِسَبَبِ مَا تَنْسِبُونَهُ إِلَيْنَا مِنَ الْإِفْتِرَاءِ، قِيلَ: وَفِي الْكَلَامِ حَذْفٌ وَالتَّقْدِيرُ: لَكِنْ مَا افْتَرَيْتَهُ، فَالْإِجْرَامُ وَعِقَابُهُ لَيْسَ إِلَّا عَلَيْكُمْ، وَإِنَّا بِرِئْءٍ مِنْهُ.

وقد اختلف المفسرون في هذه الآية، فقيل: إنها حكاية عن نوح، وما قاله لقومه، وقيل: هي حكاية عن المحاورة الواقعة بين نبينا محمد ﷺ وكفار مكة. والأول: أولى؛ لأن الكلام قبلها وبعدها مع نوح عليه السلام. قوله: ﴿وَأَوْحَى إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾، أنه لن يؤمن في محل رفع على أنه نائب الفاعل الذي لم يسم. ويجوز أن يكون في موضع نصب بتقدير الباء: أي بانه، وفي الكلام تاييس له من إيمانهم، وأنهم مستمرّون على كفرهم، مصممون عليه، لا يؤمن أحد منهم إلا من قد سبق إيمانه ﴿فَلَا تَتَنَبَّسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ البؤس: الحزن، أي

إليه وإنما هو بمشيئة الله وإرادته، **﴿وقال إنما يفتكم به﴾** إن شاء، فإن قضت مشيئته وحكمته بتعجيله عجله لكم، وإن قضت مشيئته وحكمته بتأخيرها أخره **﴿وما أنتم بمعجزين﴾** بفائتين عما أَرَادَه الله بكم بهرب أو مدافعة **﴿ولا ينفعكم نصحي﴾** الذي أبلّنه لكم، واستكثر منه قياماً مني بحق النصيحة لله ببلاغ رسالته، ولكم بإيضاح الحق وبيان بطلان ما أنتم عليه **﴿إن أردت أن أنصح لكم﴾** وجواب هذا الشرط محنوف، والتقدير: إن أردت أن أنصح لكم لا ينفعكم نصحي، كما يدل عليه ما قبله: **﴿إن كان الله يريد أن يغويكم﴾** أي: إن كان الله يريد إغواءكم، فلا ينفعكم النصح مني، فكان جواب هذا الشرط محنوفاً كالأول، وتقديره ما ذكرناه، وهذا التقدير إنما هو على مذهب من يمنع من تقدّم الجزء على الشرط، وأما على مذهب من يجيزه، فجزء الشرط الأول، ولا ينفعكم نصحي، وجزاء الشرط الثاني الجملة الشرطية الأولى وجزاؤها. قال ابن جرير: معنى يغويكم يهلككم بعذابه، وظاهر لغة العرب أن الإغواء الإضلال؛ فمعنى الآية: لا ينفعكم نصحي إن كان الله يريد أن يضلّكم عن سبيل الرشاد، ويضلّكم عن طريق الحق. وحكى عن طي أصبح فلان غاوياً: أي مريضاً، وليس هذا المعنى هو المراد في الآية. وقد ورد الإغواء بمعنى الإهلاك، ومنه **﴿فسوف يلقون غيا﴾** [مریم: 59] وهو غير ما في هذه الآية **﴿هو ريك﴾** فالإيه الإغواء وإليه الهداية **﴿والإيه ترجعون﴾** فيجازيكم بأعمالكم إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَمَا تَرَكَ أَتْبَعُكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَأَيْنَا بُادِي الْأَرَاءِ﴾ قال: فيما ظهر لنا. وأخرج أبو الشيخ، عن عطاء، مثله. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن جريج، في قوله: ﴿إِنْ كُنْتَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ قال: قد عرفت وأعرفت بها أمره، وأنه لا إله إلا هو، ﴿وَأَتَانِي رَحْمَةٌ مِنْ عِنْدِهِ﴾ قال: الإسلام الهدى والإيمان، والحكم والنبوة. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن قتادة في قوله: ﴿أَنْتَلِزِمُكُمْوهَا﴾ قال: أما والله لو استطاع نبي الله لألزمها قومه، ولكنه لم يستطع ذلك ولم يمكنه. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، أنه كان يقرأ «أنتلزمكموها من شطر أنفسنا وأنتم لها كارهون» وأخرج ابن جرير، عن أبي العالية، قال في قراءة أبي: «أنتلزمكموها من شطر أنفسنا وأنتم لها كارهون». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن أبي بن كعب، أنه قرأ: «أنتلزمكموها من شطر قلوبنا». وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن جريج، في قوله: ﴿وَمَا لَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال: قالوا له يا نوح إن أحببت أن نتبعك فأطردهم، وإلا فلن نرضى أن نكون نحن وهم في الأرض سواء، وفي قوله: ﴿إِنَّهُمْ مَلَأُوا بِهِمْ﴾ قال: فيسألهم عن أعمالهم ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ التي لا يفنيها شيء، فأكون إنما دعوتكم لتتبعوني عليها، لا أعطيك بملكه لى عليها

مقيم وهو عذاب النار الدائم، ومعنى يحل: يجعل المؤجل حالاً، مأخوذ من حلول الدين المؤجل، ومن موصولة في محل نصب، ويجوز أن تكون استفهامية في محل رفع: أي أينما يأتيه عذاب يخزيه؛ وقيل: في موضع رفع بالابتداء، ويأتيه الخبر، ويخزيه صفة لعذاب. قال الكسائي: إن ناساً من أهل الحجاز يقولون سوف تعلمون؛ قال: ومن قال ستعلمون أسقط الواو والفاء جميعاً، وجوز الكوفيون «سوف تعلمون» ومنعه البصريون، والمراد بعذاب الخزي: العذاب الذي يخزي صاحبه، ويحل عليه العار. قوله: ﴿حتى إذا جاء أمرنا وفار الثنور﴾ حتى هي الابتدائية دخلت على الجملة الشرطية، وجعلت غاية لقوله: واصنع الفلك باعيننا.

والثنور اختلف في تفسيرها على أقوال: الأول: أنها وجه الأرض، والعرب تسمى وجه الأرض تنوراً، روي ذلك عن ابن عباس، وعكرمة، والزهري، وابن عيينة. الثاني: أنه تنور الخبز الذي يخبزه فيه، وبه قال مجاهد وعطية وهو الحسن، وروي عن ابن عباس أيضاً. الثالث: أنه موضع اجتماع الماء في السفينة، روي عن الحسن. الرابع: أنه طلوع الفجر، من قولهم تنور الفجر، روي عن علي بن أبي طالب. الخامس: أنه مسجد الكوفة، روي عن علي أيضاً ومجاهد؛ قال مجاهد: كان ناحية الثنور بالكوفة. السادس: أنه أعالي الأرض، والمواضع المرتفعة، قاله قتادة. السابع: أنه العين التي بالجزيرة المسماة عين الورد، روي ذلك عن عكرمة. الثامن: أنه موضع بالهند؛ قال ابن عباس: كان تنور آدم بالهند. قال النحاس: وهذه الأقوال ليست بمتناقضة، لأن الله سبحانه قد أخبر بأن الماء قد جاء من السماء والأرض، قال: ﴿ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر. وفجرنا الأرض عيوناً﴾ [القمر: 11، 12] فهذه الأقوال تجتمع في أن ذلك كان علامة، هكذا قال، وفيه نظر، فإن القول الرابع ينافي هذا الجمع، ولا يستقيم عليه التفسير ببيع الماء. إلا إذا كان المراد مجرد العلامة، كما ذكره آخر. وقد نكر أهل اللغة أن الفور: الفليان، والثنور: اسم عجمي عربيته العرب؛ وقيل معنى فار الثنور: التمثيل بحضور العذاب كقولهم: حمي الوطيس؛ إذا اشتد الحرب، ومنه قول الشاعر:

تركتهم قدركم لا شيء فيها وقدروا القوم حامية تفور يريد: الحرب.

قوله: ﴿قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين﴾ أي: قلنا يا نوح احمل في السفينة من كل زوجين مما في الأرض من الحيوانات اثنين نكراً وأثني. وقرأ حفص «من كل» بتووين كل: أي: من كل شيء زوجين، والزوجان للثنين اللذين لا يستغني أحدهما عن الآخر، ويطلق على كل واحد منهما زوج، كما يقال للرجال زوج، وللمرأة زوج، ويطلق الزوج على الاثنين إذا استعمل مقابلاً للفرد، ويطلق الزوج على الضرب والصنف، ومثله قوله تعالى: ﴿وأثبتت من كل زوج بهيج﴾ [الحج: 5]، ومثله قول الأعشى:

وكل ضرب من الديباج يلبسه أبو حذافة مخبوء بذاك معا

فلا تحزن، والبائس: المستكين، فنهاه الله سبحانه عن أن يحزن حزن مستكين؛ لأن الابتئاس حزن في استكانة. ومنه قول الشاعر:

وكم من خليل أو حميم رزقته فلم أبتئس والرزء فيه جليل ثم إن الله سبحانه لما أخبره أنهم لا يؤمنون البتة عرفه وجه إهلاكهم، وألهمه الأمر الذي يكون به خلاصه، وخلاص من آمن معه، فقال: ﴿واصنع الفلك باعيننا ووحينا﴾ أي: اعمل السفينة متلبساً باعيننا: أي بمرأى منا، والمراد بحراستنا لك وحفظنا لك، وعبر عن ذلك بالآعين لأنها آلهة الرؤية، والرؤية هي: التي تكون بها الحراسة والحفظ في الغالب، وجمع الآعين للتعظيم لا للتكثير؛ وقيل المعنى: ﴿باعيننا﴾ أي: باعين ملائكتنا الذين جعلناهم عيوناً على حفظك؛ وقيل: ﴿باعيننا﴾ بعلمنا؛ وقيل: بامرنا. ومعنى بوحينا: بما أوحينا إليك من كيفية صنعها ﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا﴾ أي: لا تطلب إهلاكهم، فقد حان وقت الانتقام منهم، وجملة ﴿إنهم مفرقون﴾ للتعليل: أي: لا تطلب منا إهلاكهم، فإنه محكوم منا عليهم بالغرق، وقد مضى به القضاء فلا سبيل إلى نفعه ولا تأخير؛ وقيل: المعنى ولا تخاطبني في تعجيل عقابهم، فإنهم مفرقون في الوقت المضروب لذلك، لا يتأخر إغراقهم عنه؛ وقيل المراد بالذين ظلموا: امرأته وابنه ﴿واصنع الفلك﴾ أي: وطفق يصنع الفلك، أو وأخذ يصنع الفلك؛ وقيل: هو حكاية حال ماضية لاستحضار الصورة، وجملة: ﴿وكلما مَرَّ عليه مَلَأ من قومه سخروا منه﴾ في محل نصب على الحال: أي استهزؤا به لعمله السفينة. قال الأخفش والكسائي: يقال سخرت به ومنه. وفي وجه سخريتهم منه قولان: أحدهما: أنهم كانوا يرونه يعمل السفينة، فيقولون يا نوح صرت بعد النبوة نجاراً. والثاني: أنهم لما شاهدوه يعمل السفينة، وكانوا لا يعرفونها قبل ذلك، قالوا: يا نوح ما تصنع بها؟ قال: أمشي بها على الماء فعجبوا من قوله، وسخروا به. ثم أجاب عليهم بقوله: ﴿إن تسخروا منا فإننا نسخر منكم كما تسخرون﴾ وهذا الكلام مستأنف على تقدير سؤال كأنه قيل: فماذا قال لهم؟ والمعنى: إن تسخروا منا بسبب عملنا للسفينة اليوم، فإننا نسخر منكم غداً عند الغرق. ومعنى السخرية هنا: الاستجهال، أي: إن تستجهلونا فإننا نستجهلكم كما تستجهلون، واستجهاله لهم باعتبار إظهاره لهم ومشافهتهم، وإلا فهم عنده جهال قبل هذا وبعده، والتشبيه في قوله: ﴿كما تسخرون﴾ لمجرد التحقق والوقوع، أو التجدد والتكرر، والمعنى: إننا نسخر منكم سخرية متحركة واقعة كما تسخرون منا كذلك، أو متجددة متكررة كما تسخرون منا كذلك؛ وقيل معناه: نسخر منكم في المستقبل سخرية مثل سخريتكم إذا وقع عليكم الغرق، وفيه نظر، فإن حالهم إذ ذاك لا تناسبه السخرية، إذ هم في شغل شاغل عنها، ثم هددهم بقوله: ﴿فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه﴾ وهو عذاب الغرق في الدنيا ﴿ويحل عليه عذاب

أراد كل صنف من الديباج **﴿واهلك﴾** عطف على زوجين، أو على اثنين على قراءة حنف، وعلى محل كل زوجين، فإنه في محل نصب باحمل، أو على اثنين على قراءة الجمهور، والمراد: امرأته وبنوه ونسأؤهم **﴿إلا من سبق عليه القول﴾** أي: من تقدم الحكم عليه بأنه من المفرقين، في قوله: **﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مفروقون﴾** على الاختلاف السابق فيهم، فمن جعلهم جميع الكفار من أهله وغيرهم كان هذا الاستثناء من جملة **﴿لحمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك﴾** ومن قال المراد بهم ولده كنعان وامراته واعدة أم كنعان جعل الاستثناء من أهلك، ويكون متصلاً إن أريد بالأهل ما هو أعم من المسلم والكافر منهم، ومنقطعاً إن أريد بالأهل المسلمون منهم فقط، قوله: **﴿ومن آمن﴾** معطوف على أهلك أي: وأحمل في السفينة من آمن من قومك، وأفرد الأهل منهم لمزيد العناية بهم، أو للاستثناء منهم على القول الآخر. ثم وصف الله سبحانه قلة المؤمنين مع نوح بالنسبة إلى من كفر به، فقال: **﴿وما آمن معه إلا قليل﴾** قيل: هم ثمانون إنساناً: منهم ثلاثة من بنيه، وهو سام، وحام، ويافث، وزوجاتهم، ولما خرجوا من السفينة بنوا قرية يقال لها قرية الثمانين، وهي موجودة بناحية الموصل، وقيل: كانوا عشرة، وقيل: سبعة، وقيل: كانوا اثنين وسبعين، وقيل: غير ذلك. قوله: **﴿وقال اركبوا فيها﴾** القائل: نوح، وقيل: الله سبحانه. والأول: أولى، لقوله: **﴿إن ربي لغفور رحيم﴾** والركوب: العلو على ظهر الشيء حقيقة نحو ركب الدابة، أو مجازاً نحو ركب الدين، وفي الكلام حذف: أي: اركبوا الماء في السفينة، فلا يرد أن ركب يتعدى بنفسه؛ وقيل إن الفائدة في زيادة **﴿في﴾** أنه أمرهم بأن يكونوا في جوف السفينة لا على ظهرها؛ وقيل: إنها زبدت لرعاية جانب المحلية في السفينة كما في قوله: **﴿فإذا ركبوا في الفلك﴾** [العنكبوت: 65]، وقوله: **﴿حتى إذا ركبوا في الفلك﴾** [الكهف: 71] قيل: ولعل نوحاً قال هذه المقالة بعد إنخال ما أمر بحمله من الأزواج، كانه قيل: فحمل الأزواج وأدخلها في الفلك، وقال للمؤمنين، ويمكن أن يقال إنه أمر بالركوب كل من أمر بحمله من الأزواج والأهل والمؤمنين، ولا يمتنع أن يفهم خطابه من لا يعقل من الحيوانات، أو يكون هذا على طريقة التخليب. قوله: **﴿يسم الله﴾** متعلق باركبوا، أو حال من فاعله: أي مسمين الله، أو قائلين: **﴿يسم الله مجراها ومرساها﴾** قرأ أهل الحرمين وأهل البصرة بضم الميم فيهما إلا من شذ منهم على أنهما اسما زمان، وهما: في موضع نصب على الظرفية: أي وقت مجراها ومرساها، ويجوز أن يكونا مصدرين: أي: وقت إجرائها وإرسائها. وقرأ الأعمش، وحمزة، والكسائي، وحفص «مجرأها» بفتح الميم، ومرساها بضمها، وقرأ يحيى بن وثاب بفتحها فيهما. وقرأ مجاهد، وسليمان بن جندب، وعاصم الجحدري، وأبو رجاء العطاردي «مجرأها ومرساها» على أنهما وصفان لله، ويجوز أن يكونا في موضع رفع

باضمار مبتدا: أي هو مجريها ومرسيها **﴿إن ربي لغفور﴾** للذنوب **﴿رحيم﴾** بعباده، ومن رحمته إنجاء هذه الطائفة تفضلاً منه لبقاء هذا الجنس الحيواني، وعدم استئصاله بالغرق. قوله: **﴿وهي تجري بهم في موج كالجبال﴾** هذه الجملة متصلة بجملة محذوفة دل عليها الأمر بالركوب، والتقدير: فركبوا مسمين، وهي تجري بهم، والموج: جمع موجة، وهي: ما ارتفع عن جملة الماء الكثير عند اشتداد الريح، وشبهها بالجبال المرتفعة على الأرض. قوله: **﴿ونادى نوح ابنه﴾** هو: كنعان، قيل: وكان كافراً، واستبعد كون نوح ينادي من كان كافراً مع قوله: **﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾** [نوح: 26]، وأجيب بأنه كان منافقاً، فظن نوح أنه مؤمن، وقيل: حملته شفقة الأبوة على ذلك؛ وقيل: إنه كان ابن امرأته، ولم يكن بابنه، ويؤيده ما روي أن علياً قرأ ونادى نوح ابنها؛ وقيل: إنه كان لغير رشدة، وولد على فراش نوح. ورد بأن قوله: **﴿ونادى نوح ابنه﴾**، وقوله: **﴿إن ابني من أهلي﴾** يدفع ذلك على ما فيه من عدم صيانة منصب النبوة **﴿وكان في معزل﴾** أي: في مكان عزل فيه نفسه عن قومه، وقرباته بحيث لم يبلغه قول نوح: اركبوا فيها، وقيل: في معزل من دين أبيه، وقيل: من السفينة، قيل: وكان هذا النداء قبل أن يستيقن الناس الغرق، بل كان في أول فور التنور. قوله: **﴿يا بني اركب معنا﴾** قرأ عاصم بفتح الياء، والباقون بكسرها، فأما الكسر فلجعله بدلاً من ياء الإضافة، لأن الأصل يا بني، وأما الفتح فلقلب ياء الإضافة ألفاً لخفة الألف، ثم حذف الألف وبقيت الفتحة لتدل عليه. قال النحاس: وقراءة عاصم مشكلة. وقال أبو حاتم: أصله يا بنياء ثم تحذف، وقد جعل الزجاج للفتح وجهين، وللکسر وجهين. أما الفتح بالوجه الأول ما نكرناه، والوجه الثاني: أن تحذف الألف للالتقاء الساكنين. وأما الكسر، فالوجه الأول ما نكرناه، والثاني: أن تحذف للالتقاء الساكنين، كذا حكى عنه النحاس. وقرأ أبو عمرو، والكسائي، وحفص **﴿اركب معنا﴾** بادغام الباء في الميم لتقاربهما في المخرج. وقرأ الباقر بن عاصم الإدغام **﴿ولا تكن مع الكافرين﴾** ناه عن الكون مع الكافرين: أي خارج السفينة، ويمكن أن يراد بالكون معهم الكون على دينهم، ثم حكى الله سبحانه ما أجاب به ابن نوح على أبيه، فقال: **﴿قال سأوي إلى جبل يعصمني من الماء﴾** أي: يمنعي بارتفاعه من وصول الماء إلي، فأجاب عنه نوح بقوله: **﴿لا عاصم اليوم من أمر الله﴾** أي: لا مانع، فإنه يوم قد حق فيه العذاب وجف القلم بما هو كائن فيه، نفى جنس العاصم فيندرج تحته العاصم من الغرق في ذلك اليوم اندراجاً أولياً، وعبر عن الماء أو عن الغرق بأمر الله سبحانه تخفيفاً لشانه، وتهويلاً لأمره. والاستثناء قال الزجاج: هو منقطع: أي: لكن من رحمه الله فهو يعصمه، فيكون: **﴿من رحم﴾** في موضع نصب، ويجوز أن يكون الاستثناء متصلاً على أن يكون عاصم بمعنى معصوم: أي: لا معصوم اليوم من أمر الله إلا

إجرامي» قال علي «ولنا بريء مما تجرمون» أي: مما تعملون. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: «ولوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن» وذلك حين دعا عليهم نوح قال: «لا تذكر على الأرض من الكافرين دياراً» [نوح: 26]. وأخرج أحمد في الزهد، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن الحسن، قال: إن نوحاً لم يدع على قوم حتى نزلت الآية هذه، فانقطع عند ذلك رجاءه منهم، فدعا عليهم. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس، في قوله: «فلا تبقتس» قال: فلا تحزن. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي، عنه، في قوله: «واصنع الفلك باعيننا ووحينا» قال: بعين الله ووحيه. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه، أيضاً قال: لم يعلم نوح كيف يصنع الفلك، فأوحى الله إليه أن يصنعها مثل جؤجؤ الطائر. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم، وابن مريويه، عن عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ: «كان نوح مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم، حتى كان آخر زمانه غرس شجرة فعظمت وزهبت كل مذهب، ثم قطعها، ثم جعل يعملها سفينة، ويمرّون فيسألونه، فيقول: أعملها سفينة، فيسخرون منه، ويقولون: يعمل سفينة في البر، وكيف تجري؟ قال: سوف تعلمون، فلما فرغ منها وفار التتور، وكثر الماء في السك خشبته أم الصبي عليه، وكانت تحبه حباً شديداً، فخرجت إلى الجبل حتى بلغت ثلثه، فلما بلغها الماء خرجت حتى استوت على الجبل، فلما بلغ الماء رقبته رفعته بين يديها حتى ذهب بها الماء، فلو رحم الله منهم أحداً لرحم أم الصبي»، وقد ضعفه الذهبي في مستدركه على مستدرك الحاكم. وقد روي في صفة السفينة وقبرها أحاديث، وأثار ليس في نكرها هنا كثير فائدة. وأخرج ابن المنذر، عن ابن عباس، في قوله: «من يأتيه عذاب يخزيه» قال: هو: الغرق «ويحل عليه عذاب مقيم» قال: هو الخلود في النار. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، عنه، قال: كان بين دعوة نوح وبين هلاك قومه ثلثمائة سنة، وكان فار التتور بالهند وطافت سفينة نوح بالبيت أسبوعاً. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه أيضاً قال: التتور العين التي بالجزيرة عين الوردية. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن علي بن أبي طالب، قال: فار التتور من مسجد الكوفة من قبل أبواب كندة. وقد روي عنه نحو هذا من طرق. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس قال: التتور: وجه الأرض، قيل له: إذا رأيت الماء على وجه الأرض، فاركب أنت ومن معك. والعرب تسمى وجه الأرض تتور الأرض. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن علي «وفار التتور» قال: طلع الفجر، قيل له إذا طلع الفجر فاركب أنت وأصحابك. وقد روي في تفسير التتور غير هذا، وقد قَدَّمنا الإشارة إلى ذلك. وروي في صفة القصة، وما حملة نوح في السفينة، وكيف كان

من رحمه الله: مثل: «ماء دافق» [الطارق: 6] «وعيشة راضية» [الحاقة: 21] ومنه قول الشاعر:

دع المكارم لا تنهض لبغيبتها واقعد فإنك انت الطاعم الكاسي
أي: المطعم المكس، واختار هذا الوجه ابن جرير؛ وقيل: العاصم بمعنى ذي العصمة، كلابن وتامر، والتقدير: لا عاصم قط إلا مكان من رحم الله، وهو السفينة، وحينئذ فلا يرد ما يقال: إن معنى من رحم من رحمه الله، ومن رحمه الله هو معصوم، فكيف يصح استثنائه عن العاصم؟ لأن في كل وجه من هذه الوجوه دعفاً للإشكال. وقرئ «إلا من رحم» على البناء للمفعول «وحوال بينهما الموج» أي: حال بين نوح وابنه فتعذر خلاصه من الغرق؛ وقيل: بين ابن نوح، وبين الجبل، والأول: أولى، لأن تفرع «فكان من للمغرقين» عليه يدل على الأول لا على الثاني، لأن الجبل ليس بعاصم. قوله: «وقيل يا أرض بلعي ماءك» يقال: بلع الماء يبلعه مثل منع يمنع، وبلغ يبلع، مثل حمد يحمد لغتان حكاهما الكسائي والفراء؛ والبلع: الشرب، ومنه البالوعة، وهي: الموضع الذي يشرب الماء، والازتراد، يقال: بلع ما في فمه من الطعام إذا ازترده، واستعير البلع الذي هو من فعل الحيوان للنفش دلالة على أن ذلك ليس كالنفش المعتاد للكائن على سبيل التدرج «ويا سماء اقلعي» الإقلاع الإمساك، ياكل: اقلع المطر إذا انقطع. والمعنى: أمر السماء بامساك الماء عن الإرسال، وقدم نداء الأرض على السماء لكون ابتداء الطوفان منها «وغيض للماء» أي: نقص، يقال: غاض الماء وغضته أنا «وقضي الأمر» أي: أحكم وفرغ منه: يعني: أهلك الله قوم نوح على تمام وإحكام «واستوت على الجودي» أي: استقرت السفينة على الجبل المعروف بالجودي، وهو جبل بقرب الموصل؛ وقيل: إن الجودي اسم لكل جبل، ومنه قول زيد بن عمرو بن نفيل:

سبحانه ثم سبحانا نعوذ به وقبلنا سبح الجودي والجمد
ويقال: إنه من جبال الجنة، فلذا استوت عليه «وقيل بعدا للقوم الظالمين» القائل: هو الله سبحانه، ليناسب صدر الآية؛ وقيل: هو نوح وأصحابه. والمعنى: وقيل هلاكاً للقوم الظالمين، وهو من الكلمات التي تختص بدعاء السوء ووصفهم بالظلم للإشعار بأنه علة الهلاك، وللإيماء إلى قوله: «ولا تخاطبني في الذين ظلموا» [هود: 37]. وقد أطبق علماء البلاغة على أن هذه الآية الشريفة بالغة من الفصاحة والبلاغة إلى محل يتقاصر عنه الوصف، وتضعف عن الإتيان بما يقاربه قدرة القادرين على فنون البلاغة، الثابتين الأقدام في علم البيان، الراسخين في علم اللغة، المطلعين على ما هو متون من خطب مصافح خطباء العرب، وأشعار بواق شعرائهم، المرتاضين بدقائق علوم العربية وأسرارها. وقد تعرض لبيان بعض ما اشتملت عليه من ذلك جماعة منهم، فاطلوا وأطلوا، رحمنا الله وإياهم برحمته الواسعة.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة، في قوله: «فعلي

الفرق، وكم بقيت السفينة على ظهر الماء روايات كثير، لا مدخل لها في تفسير كلام الله سبحانه. وأخرج ابن جرير، عن مجاهد، في قوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ قال حين يركبون ويجرون ويرسون. وأخرج ابن جرير، عن الضحاک قال: كان إذا أراد أن ترسي قال بسم الله فارست، وإذا أراد أن تجري قال بسم الله فجرت. وأخرج أبو يعلى، والطبراني، وابن السني، وابن عدي، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن الحسن بن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «أمان لأمّتي من الغرق إذا ركبوا الفلك أن يقولوا: بسم الله الملك الرحمن، بسم الله مجراها ومرساها، إن ربي لغفور رحيم، وما قدروا الله حق قدره إلى آخر الآية، وأخرجه ابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ: «وأخرجه أيضاً أبو الشيخ، عنه، مرفوعاً من طريق أخرى. وأخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة، قال: كان اسم ابن نوح الذي غرق كنعان. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس قال: هو ابنه غير أنه خالفه في النية والعمل. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن عكرمة، في قوله: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مِنْ رَحِمٍ﴾ قال: لا ناج إلا أهل السفينة. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن القاسم بن أبي بزة، في قوله: ﴿وَوَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ﴾ قال: بين ابن نوح والجبل. وأخرج ابن المنذر، وعن عكرمة في قوله: ﴿هِيَ أَرْضُ بِلْعِي﴾ قال: هو بالحبشية. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن وهب بن منبه، في بِلْعِي قال بالحبشية: أي ازترديه. وأخرج أبو الشيخ، عن جعفر بن محمد، عن أبيه قال: معناه اشربي بلغة الهند. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس مثله. أقول: وثبوت لفظ البلع وما يشتق منه في لغة العرب: ظاهر مكشوف، فما لنا وللحبشة والهند.

وَكَأَنِّي نُوحٌ رَبِّكَ فَقَالَ رَبِّي إِنَّ آتِي مِنَ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْكَافِرِينَ ﴿١٠﴾ قَالَ يَبْنُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتْلَنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّهُ يَعْلَمُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَتُكَلَّمَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَلَا أَتَقَرَّبُ لِي وَتَرْحَمَنَ أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٢﴾ قِيلَ يَبْنُوحُ أَهَيْطَ يَسْأَلُ رَبَّنَا وَزَكَّيْتَ عَلَيْكَ وَكَانَ أَمْرٌ مِّنْ مَّعْلُومٍ وَأَمَّا سَمْعِيَّتُهُمْ ثُمَّ يَشْهَدُ رَبَّنَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٣﴾ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَكْتُمُهَا أَنْتَ وَلَا تَوَكَّلْ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَذَابَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾

معنى: «ونادي نوح ربه» دعاءه، والمراد أراد دعاءه بليل الفاء في «فقال رب إن ابني من أهلي» وعطف الشيء على نفسه غير ساخف، فلا بد من التقدير المنكور، ومعنى قوله: «إن ابني من أهلي» أنه من الأهل الذين وعدني بتنجيتهم بقولك: وأهلك، فإن قيل كيف طلب نوح عليه السلام إنجاز ما وعده الله بقوله: «وأهلك» وهو

المستثنى منه، وترك ما يفيد الاستثناء، وهو: «إلا من سبق عليه القول»؟ فيجواب بأنه لم يعلم إذ ذاك أنه ممن سبق عليه القول، فإنه كان يظنه من المؤمنين «وإن وعدك الحق» الذي لا خلف فيه، وهذا منه «وأننت أحكم الحاكمين» أي: اتقن المتقنين لما يكون به الحكم، فلا يتطرق إلى حكمك نقض، وقيل: أراد بأحكم الحاكمين أعلمهم وأعلهم: أي: أنت أكثر علماً وعدلاً من ذوي الحكم؛ وقيل: إن الحاكم بمعنى ذي الحكمة كدارع، ثم أجاب الله سبحانه عن نوح ببيان أن ابنه غير داخل في عموم الأهل، وأنه خارج بقيد الاستثناء فـ «فقال يا نوح إنه ليس من أهلك» الذين آمنوا بك، وتابعوك، وإن كان من أهلك باعتبار القرابة؛ ثم صرح بالعلة الموجبة لخروجه من عموم الأهل المبينة له بأن المراد بالقرابة قرابة الدين، لا قرابة النسب، وحده، فقال: «إنه عمل غير صالح» قرأ الجمهور عمل على لفظ المصدر. وقرأ ابن عباس، وعكرمة، والكسائي، ويعقوب، عمل على لفظ الفعل؛ ومعنى القراءة الأولى المبالغة في نومه، كأنه جعل نفس العمل، وأصله ذو عمل غير صالح ثم حذف المضاف وجعل نفس العمل، كذا قال الزجاج وغيره، ومعنى القراءة الثانية ظاهر: أي إنه عمل عملاً غير صالح، وهو: كفره وتركه لمتابعة أبيه؛ ثم نهاء عن مثل هذا السؤال، فقال: «فلا تسألن ما ليس لك به علم» لما بين له بطلان ما اعتقده من كونه من أهله، فَرَعَ على ذلك النهي عن السؤال، وهو وإن كان نهياً عاماً بحيث يشمل كل سؤال، لا يعلم صاحبه أن حصول مطلوبه منه صواب، فهو يدخل تحته سؤاله هذا دخولاً أولياً، وفيه عدم جواز الدعاء بما لا يعلم الإنسان مطابقتها للشرع، وسمى دعاءه سؤالاً لتضمنه معنى السؤال «إني أعظك أن تكون من الجاهلين» أي: أحذرك أن تكون من الجاهلين، كقوله: «يعظكم الله أن تعبدوا لمثله أبداً» [النور: 17] وقيل المعنى: أرفعك أن تكون من الجاهلين. قال ابن العربي: وهذه زيادة من الله وموعظة يرفع بها نوحاً عن مقام الجاهلين، ويعليه بها إلى مقام العلماء العاملين، ثم لما علم نوح بأن سؤاله لم يطابق الواقع، وإن دعاءه ناشئ عن وهم كان يتوهمه، بانر إلى الاعتراف بالخطأ، وطلب المغفرة والرحمة، فـ «فقال رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم» أي: أعوذ بك أن أطلب منك ما لا علم لي بصحته وجوازه، «وإن لا تغفر لي» ننب ما دعوت به على غير علم مني «وترحممني» برحمتك التي وسعت كل شيء، فتقبل توبتي «أكن من الخاسرين» في أعمالي، فلا أربح فيها. القائل: هو الله، أو الملائكة «قيل يا نوح اهبط» أي: انزل من السفينة إلى الأرض، أو من الجبل إلى المنخفض من الأرض، فقد بلغت الأرض ماءها، وجفت «بسلام منا» أي: بسلامة وأمن، وقيل: بتحية «وبركات» أي: نعم ثابتة، مشتق من بركو الجمل، وهو ثبوته، ومنه البركة لثبوت الماء فيها، وفي هذا الخطاب له دليل على قبول توبته ومغفرة زلته «وعلى أُمم ممن معك»

معنى: «ونادي نوح ربه» دعاءه، والمراد أراد دعاءه بليل الفاء في «فقال رب إن ابني من أهلي» وعطف الشيء على نفسه غير ساخف، فلا بد من التقدير المنكور، ومعنى قوله: «إن ابني من أهلي» أنه من الأهل الذين وعدني بتنجيتهم بقولك: وأهلك، فإن قيل كيف طلب نوح عليه السلام إنجاز ما وعده الله بقوله: «وأهلك» وهو

المستثنى منه، وترك ما يفيد الاستثناء، وهو: «إلا من سبق عليه القول»؟ فيجواب بأنه لم يعلم إذ ذاك أنه ممن سبق عليه القول، فإنه كان يظنه من المؤمنين «وإن وعدك الحق» الذي لا خلف فيه، وهذا منه «وأننت أحكم الحاكمين» أي: اتقن المتقنين لما يكون به الحكم، فلا يتطرق إلى حكمك نقض، وقيل: أراد بأحكم الحاكمين أعلمهم وأعلهم: أي: أنت أكثر علماً وعدلاً من ذوي الحكم؛ وقيل: إن الحاكم بمعنى ذي الحكمة كدارع، ثم أجاب الله سبحانه عن نوح ببيان أن ابنه غير داخل في عموم الأهل، وأنه خارج بقيد الاستثناء فـ «فقال يا نوح إنه ليس من أهلك» الذين آمنوا بك، وتابعوك، وإن كان من أهلك باعتبار القرابة؛ ثم صرح بالعلة الموجبة لخروجه من عموم الأهل المبينة له بأن المراد بالقرابة قرابة الدين، لا قرابة النسب، وحده، فقال: «إنه عمل غير صالح» قرأ الجمهور عمل على لفظ المصدر. وقرأ ابن عباس، وعكرمة، والكسائي، ويعقوب، عمل على لفظ الفعل؛ ومعنى القراءة الأولى المبالغة في نومه، كأنه جعل نفس العمل، وأصله ذو عمل غير صالح ثم حذف المضاف وجعل نفس العمل، كذا قال الزجاج وغيره، ومعنى القراءة الثانية ظاهر: أي إنه عمل عملاً غير صالح، وهو: كفره وتركه لمتابعة أبيه؛ ثم نهاء عن مثل هذا السؤال، فقال: «فلا تسألن ما ليس لك به علم» لما بين له بطلان ما اعتقده من كونه من أهله، فَرَعَ على ذلك النهي عن السؤال، وهو وإن كان نهياً عاماً بحيث يشمل كل سؤال، لا يعلم صاحبه أن حصول مطلوبه منه صواب، فهو يدخل تحته سؤاله هذا دخولاً أولياً، وفيه عدم جواز الدعاء بما لا يعلم الإنسان مطابقتها للشرع، وسمى دعاءه سؤالاً لتضمنه معنى السؤال «إني أعظك أن تكون من الجاهلين» أي: أحذرك أن تكون من الجاهلين، كقوله: «يعظكم الله أن تعبدوا لمثله أبداً» [النور: 17] وقيل المعنى: أرفعك أن تكون من الجاهلين. قال ابن العربي: وهذه زيادة من الله وموعظة يرفع بها نوحاً عن مقام الجاهلين، ويعليه بها إلى مقام العلماء العاملين، ثم لما علم نوح بأن سؤاله لم يطابق الواقع، وإن دعاءه ناشئ عن وهم كان يتوهمه، بانر إلى الاعتراف بالخطأ، وطلب المغفرة والرحمة، فـ «فقال رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم» أي: أعوذ بك أن أطلب منك ما لا علم لي بصحته وجوازه، «وإن لا تغفر لي» ننب ما دعوت به على غير علم مني «وترحممني» برحمتك التي وسعت كل شيء، فتقبل توبتي «أكن من الخاسرين» في أعمالي، فلا أربح فيها. القائل: هو الله، أو الملائكة «قيل يا نوح اهبط» أي: انزل من السفينة إلى الأرض، أو من الجبل إلى المنخفض من الأرض، فقد بلغت الأرض ماءها، وجفت «بسلام منا» أي: بسلامة وأمن، وقيل: بتحية «وبركات» أي: نعم ثابتة، مشتق من بركو الجمل، وهو ثبوته، ومنه البركة لثبوت الماء فيها، وفي هذا الخطاب له دليل على قبول توبته ومغفرة زلته «وعلى أُمم ممن معك»

الدنيا ﴿ثُمَّ يَمْسُهُمْ مَنَا عَذَابُ الْيَمِّ﴾ لما سبق لهم في علم الله من الشقاوة؛ وأخرج أبو الشيخ قال: ثم رجع إلى محمد ﷺ فقال: ﴿تَكُنْ مِنْ أَتْبَاعِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا وَلَا قَوْمُكَ﴾ يعني: العرب ﴿مَنْ قَبْلَ هَذَا﴾ القرآن.

وإِنَّا عَادَ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يُقَوِّرُ عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنَّا أَنْشَرُوا إِلَّا مَقَرَّةً ﴿٥١﴾ يُقَوِّرُ لَا أَشْكُرُ عَلَيْكَ أَجْرًا إِنَّا جُرُوعٌ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنَا أَفَلَا تَقُولُونَ ﴿٥٢﴾ وَنُقَوِّرُ أَسْتَفْهِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوْبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلُ السَّكَنَةَ عَلَيْكُمْ يُنْذِرُكُمْ وَتَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا بَحْرِيْنِ ﴿٥٣﴾ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَاتٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِنَّا نَقُولُ إِنَّكَ لَكَاذِبٌ بَشَرٌ مِثْلُ بَشَرٍ قَالِ إِنَّ إِلَهَنَا إِلَهُكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِعِصْمَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ إِنَّا نَقُولُ فَذَرِكُنَا آلِهَكُمْ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ إِلَيْكُمْ وَتَسْتَكْبِرُونَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُمْ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَاسِيطٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَرْسُنَا بَنَيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَحْنُ نَعْتَمِدُ مِنَ عَذَابِ غِلَظٍ ﴿٥٨﴾ وَقَالَ عَادٌ جَعَلْنَا بَنِيكَ وَبَنَاتِكَ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَحْنُ أَكْبَرُ كُلِّ جَبَّارٍ غَیْبٍ ﴿٥٩﴾ وَأَتُوا فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمٍ هُودٍ ﴿٦٠﴾

قوله: ﴿وإلى عاد أخاهم هوداً﴾ معطوف على وأرسلنا نوحاً: أي وأرسلنا إلى عاد أخاهم: أي واحداً منهم، وهوداً عطف ببيان، وقوم عاد كانوا عبدة أوثان، وقد تقدّم مثل هذا في الأعراف. وقيل: هم عاد الأولى وعاد الأخرى، فهؤلاء هم عاد الأولى، وعاد الأخرى هم: شداد ولقمان وقومهما المنكورون في قوله: ﴿إِذْ ذَاتَ الْعَمَادِ﴾ [الفجر: 7]، وأصل عاد: اسم رجل، ثم صار اسماً للقبيلة كتميم وبكر، ونحوهما ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ﴾ قرئ غيره بالجر على اللفظ، ويرفع على محل من إله، وقرئ بالنصب على الاستثناء ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ أي: ما أنتم بآخذاء إله غير الله إلا كاذبون على الله عز وجل، ثم خاطبهم فقال: ﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ لُجْرًا﴾ أي: لا أطلب منكم أجراً على ما أبلغه إليكم، وأنصحكم به من الإرشاد إلى عبادة الله وحده، وأنه لا إله لكم سواه، فالضمير راجع إلى مضمون هذا الكلام. وقد تقدّم معنى هذا في قصة نوح ﴿إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾ أي: ما أجري الذي أطلب إلا من الذي فطرني: أي: خلقتني فهو الذي يثيبني على ذلك ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أن أجراً الناصحين إنما هو من رب العالمين، قيل: إنما قال فيما تقدّم في قصة نوح: مالا، وهنا قال: أجراً لذكر الخزانة بعده في قصة نوح، ولفظ المال بها اللين، ثم أرشدهم إلى الاستغفار والتوبة. والمعنى: اطلبوا مغفرته لما سلف من ذنوبكم، ثم توسلوا إليه بالتوبة. وقد تقدّم زيادة بيان لمثل هذا في قصة نوح، ثم رغبهم في الإيمان بالخير العاجل، فقال: ﴿يُرْسِلُ السَّمَاءَ﴾ أي: المطر ﴿عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ أي: كثير الدور،

أي: ناشئة ممن معك، وهم المتشعبون من نرية من كان معه في السفينة؛ وقيل: أراد من في السفينة، فإنهم أمم مختلفة، وأنواع من الحيوانات متباينة. قيل: أراد الله سبحانه بهؤلاء الأمم الذين كانوا معه من صار مؤمناً من نريتهم، وأراد بقوله: ﴿وَأَمَّمْ سَمْعَتَهُمْ ثُمَّ يَمْسُهُمْ مَنَا عَذَابُ الْيَمِّ﴾ من صار كافراً من نريتهم إلى يوم القيامة، وارتفاع أمم في قوله: ﴿وَأَمَّمْ سَمْعَتَهُمْ﴾ على أنه خبر مبتدأ محذوف: أي: ومنهم أمم؛ وقيل على تقدير: ويكون أمم. وقال الأخفش: هو كما تقول: كلمت زيدا وعمرو جالساً، وأجاز الفراء في غير القراءة وأمماً سَمْعَتَهُمْ: أي: ونمتع أمماً؛ ومعنى الآية: وأمم سَمْعَتَهُمْ في الدنيا بما فيها من المتاع، ونعطيه من ما يعيشون به، ثم يمسهم مَنَا في الآخرة عذاب اليم؛ وقيل: يمسهم إما في الدنيا أو في الآخرة، والإشارة بقوله: ﴿تَكُنْ﴾ إلى قصة نوح، وهي مبتدأ والجمل بعده أخبار ﴿مَنْ أَتْبَاعِ الْغَيْبِ﴾ من جنس أتباع الغيب، والأبناء جمع نبا وهو الخبر: أي من أخبار الغيب التي مرت بك في هذه السورة، والضمير في ﴿نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾ راجع إلى القصة، والمجيء بالمضارع لاستحضار الصورة ﴿مَا كُنْتَ﴾ يا محمد ﴿تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا﴾ يعلمها ﴿قَوْمُكَ﴾ بل هي مجهولة عنكم من قبل الوحي، أو من قبل هذا الوقت ﴿فَاصْبِرْ﴾ على ما تلاقيه من كفار زمانك، والفاء لتفريع ما بعدها على ما قبلها ﴿إِنْ الْعَاقِبَةُ﴾ المحمود في الدنيا والآخرة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ لله المؤمنين بما جاءت به رسله، وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ، وتبشير له بأن الظفر للمتقين في عاقبة الأمر، ولا اعتبار بمبائيه.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الحسن، قال: نادى نوح ربه فقال: رَبِّ إِنِّي ابْنِي مِنْ أَهْلِي، وَإِنَّكَ قَدْ وَعَدْتَنِي أَنْ تَنْجِيَنِي لِي أَهْلِي، وَإِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن عساکر، عن ابن عباس، قال: «ما بغت امرأة نبي قط». وقوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ يقول: ليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم معك. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عنه، قال: إن نساء الأنبياء لا يزنيهن، وكان يقرؤها ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ يقول: مسالكك إياي يا نوح عمل غير صالح لا أرضاه لك. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ قال: بين الله لنوح أنه ليس بابنه. وأخرج أبو الشيخ، عن ابن زيد، في قوله: ﴿يَا نُوْحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا﴾ قال: اهبطوا والله عنهم راض. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن محمد بن كعب القرظي، قال: دخل في ذلك السلام والبركات كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة. وبخل في ذلك العذاب الأليم كل كافر وكافرة إلى يوم القيامة. وأخرج ابن جرير، عن الضحاک، ﴿وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ﴾ يعني ممن لم يولد، أوجب الله لهم البركات لما سبق لهم في علم الله من السعادة ﴿وَأَمَّمْ سَمْعَتَهُمْ﴾ يعني: متاع الحياة

وهو منصوب على الحال، نزلت السماء تدرّ، وتدرّ، فهي: مدرار، وكان قوم هود أهل بساتين، وزرع، وعمارة، وكانت مساكنهم الرمال التي بين الشام واليمن **﴿ويزيكم قوة إلى قوتكم﴾** معطوف على يرسل: أي: شدة مضافة إلى شنتكم، أو خصباً إلى خصبكم، أو عزّاً إلى عزكم. قال الزجاج: المعنى يزيكم قوة في النعم **﴿ولا تتولوا مجرمين﴾** أي: لا تعرضوا عما أدعوكم إليه، وتقيموا على الكفر مصرّين عليه، والإجرام: الآثام كما تقدّم، ثم أجابه قومه بما يدلّ على فرط جهالتهم، وعظيم غباوتهم، ف **﴿قالوا يا يهود ما جئتنا ببينة﴾** أي: بحجة واضحة تعمل عليها، ونؤمن لك بها غير معترفين بما جاءهم به من حجج الله وبراهينه، عناداً وبعداً عن الحق **﴿وما نحن بتاركي آلهتنا﴾** التي نعبد ما من دون الله، ومعنى: **﴿عن قولك﴾** صادرين عن قولك، فالظرف في محل نصب على الحال **﴿وما نحن لك بمؤمنين﴾** أي: بمصنّقين في شيء مما جئت به **﴿إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا التي تتعيبها، وتسفه رأينا في عبادتها بسوء جنون، حتى نشأ عن جنوك ما تقول لنا، وتكرره علينا من التفتير عنها، يقال عراه الأمر واعتراه: إذا ألمّ به، فأجابهم بما يدلّ على عدم مبالاة بهم، وعلى وثوقه بربه وتوكله عليه، وأنهم لا يقدرّون على شيء مما يريد الكفار به، بل الله سبحانه هو الضارّ النافع ف **﴿قال إني أشهد الله وأشهدوا﴾** أنتم **﴿إني بريء مما تشركون﴾** به **﴿من دونه﴾** أي: من إشراككم من دون الله من غير أن ينزل به سلطاناً **﴿فكيدوني جميعاً﴾** أنتم وآلهتكم إن كانت كما تزعمون من أنها تقدر على الإضرار بي، وأنها اعترتني بسوء **﴿ثم لا تنظرون﴾** أي: لا تمهلوني، بل عاجلوني واصنعوا ما بدا لكم؛ وفي هذا من إظهار عدم المبالاة بهم وبإصنامهم التي يعبدونها ما يصكّ مسامعهم، ويوضح عجزهم، وعدم قدرتهم على شيء **﴿إني توكلت على الله ربي وربكم﴾** فهو: يعصمني من كيئكم، وإن بلغت في تطلب وجه الإضرار بي كل مبلغ، فمن توكل على الله كفاه. ثم لما بين لهم توكله على الله وثقته بحفظه وكلاءته، وصفه بما يوجب التوكل عليه والتفويض إليه من اشتغال ربوبيته عليه وعليهم، وأنه مالك للجميع، وأن ناصية كل دابة من نواب الأرض بيده، وفي قبضته وتحت قهره، وهو تمثيل لغاية التسخير ونهاية التذلّل، وكانوا إذا أسروا الأسير وأرادوا إطلاقه، والمَنْ عليه جزوا ناصيته، فجعلوا ذلك علامة لقهره. قال الفراء: معنى أخذ بناصيتها: مالكها والقادر عليها، وقال القتيبي: قاهرها لأن من أخذت بناصيته فقد قهرته. والناصية: قصاص الشعر من مقدّم الرأس؛ ثم علل ما تقدّم بقوله: **﴿إن ربي على صراط مستقيم﴾** أي: هو على الحق والعدل، فلا يكاد يسلطكم عليّ **﴿فإن تولوا﴾** أي: تتولوا فحنفت إحدى التاءين، والمعنى: فإن تستمروا على الإعراض عن الإجابة والتصميم على ما أنتم عليه من الكفر **﴿فقد أبلغتكم ما****

أرسلت به إليكم﴾ ليس عليّ إلا ذلك، وقد لزمتمكم الحجة **﴿ويستخلف ربي قوماً غيركم﴾** جملة مستأنفة لتقرير الوعيد بالهلاك: أي يستخلف في دياركم وأموالكم قوماً آخرين، ويجوز أن يكون عطفاً على فقد أبلغتكم. وروى حفص عن عاصم أنه قرأ **﴿ويستخلف﴾** بالجزم حملاً على موضع فقد أبلغتكم **﴿ولا تضرونه شيئاً﴾** أي: بتوليكم، ولا تقدرون على كثير من الضرر ولا حقيق **﴿إن ربي على كل شيء حفيظ﴾** أي رقيب مهيم عليه يحفظه من كل شيء، قيل وعلى بمعنى اللام، فيكون المعنى: لكل شيء حفيظ، فهو يحفظني من أن تنالوني بسوء **﴿ولما جاء أمرنا﴾** أي: عذابنا الذي هو إهلاك عاد **﴿نجينا هوداً والنّين آمنوا معه﴾** من قومه **﴿برحمة منا﴾** أي: برحمة عظيمة كائنة منا؛ لأنه لا ينجو أحد إلا برحمة الله، وقيل هي الإيمان **﴿من عذاب غليظ﴾** أي: شديد قيل: وهو السموم التي كانت تسخر أتوفهم **﴿وتلك عاد﴾** مبتدأ وخبر، وأنت الإشارة اعتباراً بالقبيلة. قال الكسائي: إن من العرب من لا يصرف عاد ويجعله أسماء للقبيلة **﴿جحدوا بآيات ربهم﴾** أي: كفروا بها، وكذبوها وأنكروا المعجزات **﴿وعصوا رسله﴾** أي: هوداً وحده، لأنه لم يكن في عصره رسول سواه، وإنما جمع هنا لأن من كتب رسولا فقد كتب جميع الرسل؛ وقيل: إنهم عصوا هوداً ومن كان قبله من الرسل، أو كانوا بحيث لو بعث الله إليهم رسلاً متعديين لكذبهم **﴿واتبعوا أمر كل جبار عنيد﴾** الجبار: المتكبر، والعنيد: الطاغى الذي لا يقبل الحق ولا يذعن له. قال أبو عبيدة: العنيد العنود والعائد والمعايد، وهو المعارض بالخلاف منه، ومنه قيل للعرق الذي يتقعر بالدم، عائد. قال الراجز:

إني كبير لا أطيق العندا

﴿واتبعوا في هذه الدنيا لعنة﴾ أي: الحقوها، وهي: الإبعاد من الرحمة والطرد من الخير، والمعنى: أنها لازمة لهم لا تفارقهم ما داموا في الدنيا **﴿و﴾** أتبعوها **﴿يوم القيامة﴾** فلعنوا هنالك كما لعنوا في الدنيا **﴿إلا إن عاداً كفروا ربهم﴾** أي: بربهم. وقال الفراء: كفروا نعمة ربهم، يقال كفرته وكفرت به: مثل شكرته وشكرت له **﴿إلا بعداً لعاد قوم هود﴾** أي: لا زالوا مبغين من رحمة الله، والبعد: الهلاك، والبعد: التباعد من الخير، يقال بعد يبعد بعداً: إذا تأخر وتباعد، وبعد يبعد بعداً: إذا هلك، ومنه قول الشاعر:

لا يبعدن قومي النّين هم سم السعادة وآفة الجزر
وقال النابغة:

فلا تبعدن إنّ المنية منهل وكل امرئ يوماً به الحال زائل
ومنه قول الشاعر:

ما كان ينفعني مقال نسائهم وقتلت نون رجالهم لا تبعد
وقد تقدّم أن العرب تستعمل في الدعاء بالهلاك.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة **﴿إلا على الذي فطرني﴾** أي: خلقتني. وأخرج ابن عساکر، عن الضحاک، قال: أمسك الله عن عاد

جرير، وأبو الشيخ، عن مجاهد ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ يقول: ما تزدانوننكم إلا خساراً. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن عطاء الخراساني نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن زيد، في قوله: ﴿فَاصْبَحُوا فِي بَيَارِهِمْ جَائِعِينَ﴾ قال: ميتين. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس ﴿كَانَ لَمْ يَغْنُوا فِيهَا﴾ قال: كان لم يعيشوا فيها. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عنه، قال: كان لم يعمرها فيها. وأخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة، قال: كان لم ينعموا فيها.

وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلًا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشِيرِ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ مَّا لَيْتَ أَنْ جَاءَهُ بِبَنِيٍّ حَنِيزٍ ﴿٧١﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَنَّهُمْ لَا يَصِلُونَ إِلَيْهِ نَكَرَهُمْ وَأَرْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَحْزَنْ إِنَّا نُنَبِّئُكَ أَنَّ هَذِهِ نِسَاءُكَ وَالَّذِينَ فِي بَيْتِكَ مَعَكَ فَصَحَّكَ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَبِزَكَوٍ وَبِغُوثٍ ﴿٧٢﴾ قَالَتْ يَوَاقِلُ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذِهِ بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٣﴾ قَالُوا أَتَتَّخِذِينَ مِنَ آيَةِ اللَّهِ هُزُوًا رَبُّهُنَّ اللَّهُ وَرَبُّكُمْ عَلَيَّكَ أَهْلُ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَبِيبٌ نَجِيدٌ ﴿٧٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَرَبَّاهُ تَبَّ الْبَشِيرُ يُخَدِّتُكَ فِي قَوْرِ لُوطٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَكَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٦﴾ يُخَوِّدُهُمْ عَنْ هَذَا إِنَّهُمْ قَدْ جَاءَهُ أَمْرٌ رُبُّكَ وَرَأَيْتُمْ أَنِيْمَ عَذَابٍ غَيْرَ مَرْدُودٍ ﴿٧٧﴾

هذه قصة لوط عليه السلام وقومه، وهو ابن عم إبراهيم عليه السلام، وكانت قرى لوط بنواحي الشام، وإبراهيم ببلاد فلسطين. فلما أنزل الله الملائكة بعذاب قوم لوط، مزوا بإبراهيم ونزلوا عنده، وكان كل من نزل عنده يحسن قراه، وكان مودعهم عليه لتبشيرهم بهذه البشارة المذكورة، فظنهم أضيافاً، وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل. وقيل: كانوا تسعة، وقيل: أحد عشر، والبشرى التي بشروهم بها هي بشارته بالولد؛ وقيل: بإهلاك قوم لوط، والأولى: الأولى. ﴿وقالوا سلاماً﴾ منصوب بفعل مقدر: أي سلمنا عليك سلاماً ﴿قال سلاماً﴾ ارتفاعه على أنه خبر مبتدأ محذوف: أي أمركم سلام، أو مرتفع على أنه مبتدأ والخبر محذوف، والتقدير: عليكم سلام ﴿فما لبثت﴾ أي: إبراهيم ﴿أن جاء بعجل حنيذ﴾ قال أكثر النحويين ﴿أن﴾ هنا بمعنى حتى أي: فما لبث حتى جاء؛ وقيل: إنها في محل نصب بسقوط حرف الجر، والتقدير: فما لبث عن أن جاء: أي ما أبدا إبراهيم عن مجيئه بعجل، وما نافية قاله: سيبويه. وقال الفراء فما لبث مجيئه أي ما أبدا مجيئه، وقيل: إن ما موصولة وهي: مبتدأ والخبر أن جاء بعجل حنيذ. والتقدير: فالذي لبث إبراهيم هو مجيئه بعجل حنيذ، والحنيذ: المشوي مطلقاً؛ وقيل: المشوي بحر الحجارة من غير أن تمسه النار، يقال حنذ الشاة يحنذها: جعلها فوق حجارة محماة لتنضجها فهي: حنيذ؛ وقيل: معنى حنيذ: سمين؛ وقيل: الحنيذ هو: السميط؛ وقيل: النضيج، وهو فصيل بمعنى مفعول، وإنما جاءهم بعجل، لأن البقر كانت أكثر أمواله ﴿فلما رأى إنيهم لا تصل إليه﴾ أي: لا يمدونها إلى العجل كما يمد يده من يريد الأكل

﴿فذرهما تاكل في أرض الله﴾ أي: دعوهما تاكل في أرض الله مما فيها من المراعي التي تاكلها الحيوانات. قال أبو إسحاق الزجاج: ويجوز رفع تاكل على الحال والاستئناف، ولعله يعني في الأصل على ما تقتضيه لغة العرب لا في الآية، فالمعتمد القراءات المروية على وجه الصحة ﴿ولا تمسوها بسوء﴾ قال الفراء: يعقر، والظاهر أن النهي عما هو أعم من ذلك ﴿فياخذكم عذاب قريب﴾ جواب النهي: أي قريب من عقرها. وذلك ثلاثة أيام ﴿فمعهروها﴾ أي: فلم يمتثلوا الأمر من صالح ولا النهي، بل خالفوا كل ذلك فوقع منهم العقر لها ﴿فقال﴾ لهم صالح ﴿تمتعوا في داركم ثلاثة أيام﴾ أي: تمتعوا بالعيش في منازلكم ثلاثة أيام، فإن العقاب نازل عليكم بعدها، قيل: إنهم عقروها يوم الأربعاء، فاقاموا الخميس والجمعة والسبت، واتاهم العذاب يوم الأحد، والإشارة بقوله: ﴿ذلك﴾ إلى ما يدل عليه الأمر بالتمتع ثلاثة أيام ﴿وعد غير مكذوب﴾ أي: غير مكذوب فيه، فحنف الجار اتساعاً، أو من باب المجاز كان الوعد إذا وفى به صلق ولم يكن، ويجوز أن يكون مصدرأ: أي وعد غير كذب ﴿فلما جاء أمرنا﴾ أي: عذابنا، أو أمرنا بوقوع العذاب ﴿نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا﴾ قد تقدم تفسير هذا في قصة هود ﴿ومن خزي يومئذ﴾ أي: ونجيناهم من خزي يومئذ وهو هلاكهم بالصيحة، والخزي: الذل والمهانة؛ وقيل من عذاب يوم القيامة، والأول: أولى. وقرأ نافع والكسائي بفتح يوم على أنه اكتسب البناء من المضاف إليه. وقرأ الباقون بالكسر ﴿إن ربك هو القوي العزيز﴾ القادر الغالب الذي لا يعجزه شيء ﴿ولخذلنن ظلموا للصيحة﴾ أي: في اليوم الرابع من عقر الناقة، صبح بهم فماتوا، ونكر الفعل لأن الصيحة والصياح واحد، مع كون التانيث غير حقيقي؛ قيل: صيحة جبريل، وقيل: صيحة من السماء فتقطعت قلوبهم وماتوا، وتقدم في الأعراف ﴿فاخذتهم الرجفة﴾ [الأعراف: 78] قيل: ولعلها وقعت عقب الصيحة ﴿فاصبحوا في بيارهم جائعين﴾ أي: ساقطين على وجوههم موتى قد لصقوا بالتراب كالطير إذا جثمت ﴿كان لم يغنوا فيها﴾ أي: كأنهم لم يقيموا في بلادهم أو ديارهم، والجملة في محل نصب على الحال والتقدير: مماثلين لمن لم يوجد ولم يقيم في مقام قط ﴿إلا إن نموداً كفروا ربهم﴾ وضع الظاهر موضع المضمرة لزيادة البيان، وصرح بكفرهم مع كونه معلوماً تعليلاً للدعاء عليهم بقوله: ﴿إلا بعداً لنمود﴾ وقرأ الكسائي بالتثنية. وقد تقدم تفسير هذه القصة في الأعراف بما يحتاج إلى مراجعته ليضم ما في إحدى القصتين من الفوائد إلى الأخرى.

وقد أخرج أبو الشيخ، عن السدي ﴿هو انشاكم من الأرض﴾ قال: خلقكم من الأرض. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد ﴿واستعمركم فيها﴾ قال: أعمركم فيها. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد ﴿واستعمركم فيها﴾ قال: استخلفكم فيها. وأخرج ابن

﴿نكروهم﴾ يقال: نكرته وأنكرته واستنكرته: إذا وجدته على غير ما تعدد، ومنه قول الشاعر:

فأنكرتني وما كان الذي نكرت من الحوادث إلا الشيب والصلعا
فجمع بين اللغتين، ومما جمع فيه بين اللغتين قول الشاعر:

إذا أنكرتني بلدة أو نكرتها خرجت مع البازي علي سواد
وقيل يقال: أنكرت لما تراه بعينك، ونكرت لما تراه بقلبك،
قيل: وإنما استنكر منهم ذلك، لأن عانيتهم أن الضيف إذا نزل
بهم ولم ياكل من طعامهم ظنوا أنه قد جاء بشر ﴿ولوجس
منهم﴾ أي: أحس في نفسه منهم ﴿خيفة﴾ أي: خوفاً
وفرعاً، وقيل معنى أوجس: أضمر في نفسه خيفة، والأول
الصق بالمعنى اللغوي، ومنه قول الشاعر:

جاء البريد بقرطاس يحدث به فأرجس القلب من قرطاسه فزعا
وكأنه ظن أنهم قد نزلوا به لأمر ينكره، أو لتعذيب قومه
﴿قالوا لا تخف﴾ قالوا له هذه المقالة مع كونه لم يتكلم بما
يدل على الخوف، بل أوجس ذلك في نفسه، فلعلهم استلوا
على خوفه بامارات كظهور أثره على وجهه، أو قالوه له
بعدما قال عقب ما أوجس في نفسه من الخيفة قولاً يدل
على الخوف، كما في قوله في سورة الحجر: ﴿قال إنا منكم
وجلون﴾ [الحجر: 52]، ولم ينكر ذلك ها هنا اكتفاء بما
هناك، ثم عللوا نهيهم عن الخوف بقولهم: ﴿إنا أرسلنا إلى
قوم لوط﴾ أي: أرسلنا إليهم خاصة، ويمكن أن يكون
إبراهيم عليه السلام قد قال قولاً يكون هذا جواباً عنه ﴿قال
فما خطبكم أيها المسلمون، قالوا إنا أرسلنا إلى قوم
مجرمين﴾ [الحجر: 57، 58]. وجملة ﴿وامراته قائمة
فضحكت﴾ في محل نصب على الحال، قيل: كانت قائمة
عند تحاورهم وراء الستر. وقيل: كانت قائمة تخدم الملائكة
وهو جالس، والضحك هنا هو الضحك المعروف الذي يكون
للتعجب أو للسرور كما قاله الجمهور. وقال مجاهد وعكرمة:

إنه الحيض، ومنه قول الشاعر:

وإني لأتي العرس عند طهورها وأهجرها يوماً إذا تك ضاحكاً
وقال الآخر:

وضحك الأرناب فوق الصفا كمثل دم الخوف يوم اللقاء
والعرب تقول ضحكت الأرناب: إذا حاضت. وقد أنكر
بعض اللغويين أن يكون في كلام العرب ضحكت بمعنى
حاضت ﴿فبشرناها بإسحاق﴾ ظاهره أن التبشير كان بعد
الضحك. وقال الفراء: فيه تقديم وتأخير. والمعنى: فبشرناها
فضحكت سروراً بالولد. وقرأ محمد بن زياد من قراء مكة
فضحكت بفتح الحاء، وأنكره المهدي ﴿ومن وراء إسحاق
يعقوب﴾ قرأ حمزة، وابن عامر، وحفص بنص يعقوب
على أنه مفعول فعل دل عليه فبشرناها، كأنه قال: وهبنا
لها من وراء إسحاق يعقوب. وأجاز الكسائي، والأخفش، وأبو
حاتم أن يكون يعقوب في موضع جر. وقال الفراء: لا يجوز
الجر إلا بإعادة حرفه. قال سيبويه: ولو قلت مررت بزيد أول
من أمس، وأمس عمر كان قبياً خبيثاً، لأنك فرقت بين

المجور، وما يشركه، كما يفرق بين الجار والمجور. وقرأ
الباقون برفع يعقوب على أنه مبتدأ وخبره الطرف الذي قبله؛
وقيل الرفع بتقدير فعل محذوف: أي ويحدث لها، أو وثبت
لها. وقد وقع التبشير هنا لها، ووقع لإبراهيم في قوله
تعالى: ﴿فبشرناه بغلام حليم﴾ [الصافات: 101] ﴿وبشروه
بغلام عليهم﴾ [الذاريات: 28]، لأن كل واحد منهما مستحق
للبشارة به لكونه منهما، وجملة: ﴿قالت يا ويلتا﴾ مستأنفة
جواب سؤال مقدر كأنه قيل: فماذا قالت؟ قال الزجاج: أصلها
يا ويلتي، فابدل من الياء ألف لأنها أخف من الياء والكسرة،
وهي لم ترد الدعاء على نفسها بالويل، ولكنها كلمة تقع
كثيراً على أقوال النساء إذا طرأ عليهن ما يعجبن منه، وأصل
الويل: الخزي، ثم شاع في كل أمر فظيع، والاستفهام في
قولها: ﴿وإنا عجوز﴾ للتعجب: أي: كيف الد وأنا
شيخة قد طعنت في السن، يقال: عجزت تعجز مخففاً ومتقلاً
عجزاً وتعجيراً: أي: طعنت في السن، ويقال: عجوز وعجوزة،
وأما عجزت بكسر الجيم: فمعناها عظمت عجيزتها، قيل: كانت
بنت تسع وتسعين، وقيل: بنت تسعين ﴿وهذا بعلي
شيخاً﴾ أي: وهذا زوجي إبراهيم شيخاً لا تحبل من مثله
النساء، وشيخاً منتصب على الحال، والعامل فيه معنى
الإشارة، قال النحاس: وفي قراءة أبي وابن مسعود شيخ
بالرفع على أنه خبر المبتدأ، أو خبر بعد خبر، أو خبر مبتدأ
محذوف، وعلى الأول يكون «بعلي» بدلاً من اسم الإشارة؛
قيل: كان إبراهيم ابن مائة وعشرين سنة؛ وقيل: ابن مائة،
وهذه المبشرة هي سارة امرأة إبراهيم. وقد كان ولد
لإبراهيم من هاجر أمته إسماعيل، فتمنت سارة أن يكون لها
ابن، وأيست منه لكبر سنهما، فبشرها الله به على لسان
ملائكته ﴿إن هذا لشيء عجيب﴾ أي: ما ذكرته الملائكة من
التبشير بحصول الولد، مع كونها في هذه السن العالية التي
لا يولد لمثلها شيء يقضي منه العجب، وجملة ﴿قالوا
لتعجبين من أمر الله﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر،
والاستفهام فيها للإنكار: أي كيف تعجبين من قضاء الله
وقدره، وهو لا يستحيل عليه شيء، وإنما أنكرها عليها مع
كون ما تعجبت منه من خوارق العادة لأنها من بيت النبوة،
ولا يخفى على مثلها أن هذا من مقدوراته سبحانه، ولهذا
قالوا: ﴿رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت﴾ أي: الرحمة
التي وسعت كل شيء، والبركات وهي: النمو والزيادة، وقيل
للرحمة: النبوة، والبركات: الأسباط من بني إسرائيل لما فيهم
من الأنبياء، وانتصاب أهل البيت على المدح أو الاختصاص،
وصرف الخطاب من صيغة الواحدة إلى الجمع لقصد
التعميم ﴿إنه حميد﴾ أي: يفعل موجبات حمده من عباده
على سبيل الكثرة ﴿مجيد﴾ كثير الإحسان إلى عباده بما
يفيضة عليهم من الخيرات، والجملة تعليل لقوله: ﴿رحمة
الله وبركاته عليكم أهل البيت﴾. قوله: ﴿فلما ذهب عن
إبراهيم اللوع﴾ أي: الخيفة التي أوجسها في نفسه، يقال
ارتاع من كذا: إذا خاف، ومنه قول النابغة:

فارتاع من صوت كلاب فبات له طوع الشوامت من خوف ومن حذر

﴿وجاءته البشري﴾ أي: بالولد، أو بقولهم: لا تخف، قوله: ﴿يجادلنا في قوم لوط﴾ قال الاخفش والكسائي: إن يجادلنا في موضع جادلنا، فيكون هو جواب لما تقدّر من أن جوابها يكون بالماضي لا بالمستقبل. قال النحاس: جعل المستقبل مكانه كما يجعل الماضي مكان المستقبل في الشرط، وقيل: إن الجواب محذوف، ويجادلنا في موضع نصب على الحال، قاله الفراء. وتقديره: فلما ذهب عنه الروع وجاءته البشرية اجترأ على خطابنا حال كونه يجادلنا: أي يجادل رسلنا؛ وقيل إن المعنى: أخذ يجادلنا، ومجاملته لهم قيل إنه سمع قولهم: ﴿إننا مهلكوا أهل هذه القرية﴾ [العنكبوت: 31] قال: أرايتم إن كان فيهم خمسون من المسلمين أتلهونكم؟ قالوا لا، قال فاربعمون؟ قالوا لا، قال فعشرون؟ قالوا لا، ثم قال فعشرة فخمسة؟ قالوا لا. قال فواحد؟ قالوا لا ﴿قال إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله﴾ [العنكبوت: 32] الآية، فهذا معنى مجاملته في قوم لوط: أي في شأنهم وأمرهم. ثم اثنا على إبراهيم، أو اثني الله عليه فقال: ﴿إن إبراهيم لحليم﴾ أي: ليس بعجول في الأمور، ولا بموقع لها على غير ما ينبغي. والأوّل: كثير التّأوّه، والمنيب: الراجع إلى الله، وقد تقدّم في براءة الكلام على الأوّل. قوله: ﴿يا إبراهيم أعرض عن هذا﴾ هذا قول الملائكة له: أي أعرض عن هذا الجدل في أمر قد فرغ منه، وجفّ به القلم، وحقّ به القضاء ﴿إنه قد جاء أمر ربك﴾ الضمير للشأن، ومعنى مجيء أمر الله: مجيء عذابه الذي قدره عليهم، وسبق به قضاؤه ﴿وانهم آتيتهم عذاب غير مردود﴾ أي: لا يرده دعاء ولا جدال، بل هو واقع بهم لا محالة، ونازل بهم على كل حال، ليس بمصروف ولا منفوع.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن عثمان بن محصن، في ضيف إبراهيم قال: كانوا أربعة: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، ورافئيل. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس، في قوله: ﴿يَعْبُدْ حَنِيزٌ﴾ قال: نضيج. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه، قال: مشوي. وأخرج أبو الشيخ، عنه، أيضاً قال: سميط. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الضحاك قال: الحنيز الذي أنضج بالحجارة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن يزيد بن أبي يزيد البصري، في قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْبِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾ قال: لم ير لهم أيدياً فنكرهم، وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: ﴿نَكَرَهُمْ﴾ قال: كانوا إذا نزل بهم ضيف فلم يكل من طعامهم ظنوا أنه لم يأت بخير، وأنه يحدث نفسه بشر، ثم حدثوه عند ذلك بما جاءوا فيه، فضحكت امرأته. وأخرج ابن المنذر، عن المغيرة قال: في مصحف ابن مسعود «وامراته قائمة وهو جالس». وأخرج ابن أبي حاتم، عن مجاهد «وامراته قائمة» قال: في خدمة أضياف إبراهيم. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن

المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة قال: لما أوجس إبراهيم في نفسه خيفة حدثوه عند ذلك بما جاءوا فيه، فضحكت امرأته تعجباً مما فيه قوم لوط من الغفلة، ومما آتاهم من العذاب. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس **﴿فضحكت﴾** قال: فحاضت وهي: بنت ثمان وتسعين سنة. وأخرج ابن جرير، عن مجاهد، في قوله: **﴿فضحكت﴾** قال: حاضت، وكنت ابنة بضع وتسعين سنة، وكان إبراهيم ابن مائة سنة. وأخرج أبو الشيخ، عن عكرمة قال: حاضت. وأخرج أبو الشيخ عن ابن عمر مثله. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس، في قوله: **﴿ومن وراء إسحاق يعقوب﴾** قال: هو ولد الولد. وأخرج ابن الأنباري في كتاب الوقف والابتداء، عن حسان بن أبجر قال: كنت عند ابن عباس، فجاء رجل من هنذل، فقال له ابن عباس: ما فعل فلان؟ قال: مات وترك أربعة من الولد وثلاثة من الوراء، فقال ابن عباس **﴿فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾** قال: ولد الولد. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم، وأبو الشيخ، والبيهقي في الشعب من طرق، عن ابن عباس أنه كان ينهى عن أن يزداد في جواب التحية على قولهم: عليكم السلام ورحمة الله وبركاته، ويتلو هذه الآية **﴿رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت﴾**. وأخرج البيهقي عن ابن عمر نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد، في قوله: **﴿فلما ذهب عن إبراهيم اللوع﴾** قال: الفرق **﴿يجالينا في قوم لوط﴾** قال: يخاصمنا. وأخرج عبد الرزاق، وأبو الشيخ، عن قتادة في تفسير المجالة قال: إنه قال لهم يومئذ: أرايتم إن كان فيهم خمسون من المسلمين؟ قالوا: إن كان فيهم خمسون لم ننعذبهم. قال أربعون؟ قالوا وأربعون، قال ثلاثون؟ قالوا وثلاثون حتى بلغوا عشرة، قالوا: إن كان فيهم عشرة لم ننعذبهم، قال: ما قوم لا يكون فيهم عشرة فيهم خير؟ قال قتادة: إنه كان في قرية لوط أربعة آلاف إنسان، أو ما شاء الله من ذلك. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس قال: لما جاءت الملائكة إلى إبراهيم قالوا لإبراهيم: إن كان فيها خمسة يصلون رفع عنهم العذاب. وأخرج أبو الشيخ، عن عمر بن ميمون قال: الأواه: الرحيم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، قال: المنيب المقبل إلى طاعة الله. وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال: المنيب المخلص.

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا مِنْهُ يَوْمَ ذُرْغَمَاءَ يَوْمَ ذُرْغَمَاءَ قَالَ لُوطُ لَكُمْ فِي هَٰذَا مَا تُغْتَابُونَ ۚ أَلَمْ نَجْعَلْ لَكَ رَسُولًا مِنْ قَبْلِي فَقُلْ كُنَّا تَعْمَلُونَ الشَّيْءَ ۚ قَالَ تَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَلَا تَخْزَوْنِي مِنْ فَتْيَتِي ۚ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ شَهِيدٌ ۚ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا مِنْ بَنَاتِكِ مِنْ حَاقٍ ۚ وَلَئِنْ لَفُتَلَقْنَا مَا تُرِيدُ ۚ قَالَ لَوْ أَنَّ فِيكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آلَاءِي إِلَىٰ دُخَانٍ مُبْدِي ۚ قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ ۚ لَنْ يَبْعِلَاكَ أَتَانِي ۚ أَهْلَكَ بِقِطْعٍ مِنَ الْبَيْتِ ۚ وَلَا تَلْفُتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَتَاكَ ۚ إِنَّهُمْ مُصِيبُ مَا أَهْلَبَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ

على التفضيل، بل هي مثل «الله أكبر». وقرأ الحسن، وعيسى بن عمر بنصب أظهر، وقرأ الباقر بالرفع؛ ووجه النصب أن يكون اسم الإشارة مبتدأ، وخبره بناتي، وهن ضمير فصل، وأظهر حال. وقد منع الخليل، وسيبويه، والاختف مثل هذا، لأن ضمير الفصل الذي يسمى عماداً إنما يكون بين كلامين بحيث لا يتم الكلام إلا بما بعدها، نحو كان زيد هو أخاك **﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾** أي: اتقوا الله بترك ما تريبون من الفاحشة بهم، ولا تنزلوني وتجلبوا علي العار في ضيفي، والضيف يطلق على الواحد والاثنتين والجماعة، لأنه في الأصل مصدر، ومنه قول الشاعر:

لا تعدمي الدهر شغار الجازر للضيف والضيف لحق زائر
ويجوز فيه التثنية والجمع، والأول: أكثر. يقال خزي الرجل خزاية: أي استحيا أو ذل أو هان، وخزي خزيا: إذا افتضح، ومعنى في ضيفي: في حق ضيفي، فخزي الضيف: خزي للمضيف، ثم وبخهم فقال: **﴿الَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾** يرشدكم إلى ترك هذا العمل القبيح، ويمنعكم منه، فأجابوا عليه معرضين عما نصحهم به، وأرشدهم إليه، بقوله: **﴿مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾** أي: ما لنا فيهن من شهوة ولا حاجة، لأن من احتاج إلى شيء فكأنه حصل له فيه نوع حق. ومعنى ما نسبوه إليه من العلم أنه قد علم منهم المكالبة على إتيان الذكور، وشدة الشهوة إليهم، فهم من هذه الحيثية كأنهم لا حاجة لهم إلى النساء؛ ويمكن أن يريbo: أنه لا حق لنا في نكاحهن، لأنه لا ينكحهن ويتزوج بهن إلا مؤمن، ونحن لا نؤمن أبداً؛ وقيل: إنهم كانوا قد خطبوا بناته من قبل فردنهم، وكان من سنتهم أن من خطب فرداً، فلا تحل المخطوبة أبداً **﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾** من إتيان الذكور، ثم إنه لما علم تصميمهم على الفاحشة، وأنهم لا يتركون ما قد طلبوه **﴿قَالَ لَوْ أَنِّي لِي بِكُمْ قُوَّةٌ﴾** وجواب لو محنوف. والتقدير: لدافعتكم عنهم ومنعتكم منهم، وهذا منه عليه السلام على طريق التمني: أي لو وجدت معيناً وناصرأ، فسمي ما يتقوى به قوة **﴿لَوْ أَوَىٰ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾** عطف على ما بعد لو لما فيه من معنى الفعل، والتقدير: لو قويت على دفعكم، أو أويت إلى ركن شديد. وقرئ «أو أوى» بالنصب عطفاً على قوة كانه قال: لو أن لي بكم قوة، أو إيواء إلى ركن شديد؛ ومراده بالركن الشديد: العشيبة، وما يمتنع به عنهم هو ومن معه، وقيل أراد بالقوة: الولد، وبالركن الشديد: من ينصره من غير ولده؛ وقيل: أراد بالقوة: قوته في نفسه. ولما سمعته الملائكة يقول هذه المقالة، وجدوا قومه قد غلبوه وعجز عن مدافعته **﴿قَالُوا يَا لَوُطُ إِنَّا رَسَلُكَ لَنَ يَصْلُوا إِلَيْكَ﴾** أخبروه ألا أنهم رسل ربه، ثم بشروه بقولهم: **﴿لَنَ يَصْلُوا إِلَيْكَ﴾** وهذه الجملة موضحة لما قبلها، لأنهم إذا كانوا مرسلين من عند الله إليه لم يصل عدوه إليه ولم يقدروا عليه؛ ثم أمره أن يخرج عنهم، فقالوا له: **﴿فَاسْرَ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾** قرأ

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَهْرَآ جَمَلًا عَلَيْهِمَا سَابِقَهَا وَأَمْتَرْنَا عَلَيْهَا جِبَارَةً يَنْ سِيَّجِلَ مَشْهُورٍ﴾ ٥٧ سُورَةُ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا مِنْ أَكْثَلِ لَوِيكَ بِعِيدٍ ٥٨

لما خرجت الملائكة من عند إبراهيم، وكان بين إبراهيم وقرية لوط أربعة فراسخ، جاءوا إلى لوط. فلما رآهم لوط، وكانوا في صورة غلمان حسان مرد، **﴿سَاءَ بِهِمْ﴾** أي: ساءه مجيئهم، يقال ساءه يسوءه، وأصل ساء بهم سوي بهم نقلت حركة اللوا إلى السين فقلبت اللوا ياء، ولما خففت الهمزة القيت حركتها على الياء. وقرأ نافع، وابن عامر، والكسائي، وأبو عمرو بإشمام السين الضم **﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذُرْعًا﴾** قال الأزهري: الذرع يوضع موضع الطاعة، وأصله أن البعير ينزع بيده في سيره على قدر سعة خطوه: أي يبسطها، فإذا حمل عليه أكثر من طاقته، ضاق ذرعه عن ذلك، فجعل ضيق الذرع كناية عن قلة الوسع والطاقة وشدة الأمر؛ وقيل هو من ذرعه القيء: إذا غلبه وضاق عن حبسه. والمعنى أنه ضاق صدره لما رأى الملائكة في تلك الصورة خوفاً عليهم من قومه، لما يعلم من فسقهم وارتكابهم لفاحشة اللواط **﴿وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾** أي: شديد. قال الشاعر:

وإنك إن لم ترض بكر بن وائل يكن لك يوم بالعراق عصيب
يقال عصيب وعصيب وعصوب على التكرير: أي: يوم مكروه يجتمع فيه الشر، ومنه قيل: عصبة وعصابة: أي مجتمعوا الكلمة، ورجل معصوب: أي مجتمع الخلق **﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يَهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾** أي: جاءوا لوطاً، الجملة في محل نصب على الحال. ومعنى يهرعون إليه: يسرعون إليه. قال الكسائي، والفراء، وغيرهما من أهل اللغة: لا يكون الإهرع إلا إسراعاً مع رعدة، يقال أهرع الرجل إهرعاً: أي أسرع في رعدة من برد أو غضب أو حمى، قال مهلهل:

فجاءوا يهرعون وهم أسارى نهودهم على رغم الأنوف
وقيل يهرعون: يهرولون، وقيل: هو مشي بين الهرولة والعدو. والمعنى: أن قوم لوط لما بلغهم مجيء الملائكة في تلك الصورة أسرعوا إليه، كأنما يدفعون دفعا لطلب الفاحشة من أضيافه **﴿وَمَنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾** أي: ومن قبل مجيء الرسل في هذا الوقت، كانوا يعملون السيئات؛ وقيل: ومن قبل لوط كانوا يعملون السيئات أي: كانت عاداتهم إتيان الرجال، فلما جاءوا إلى لوط، وقصدوا أضيافه لذلك العمل، قام إليهم لوط مدافعاً **﴿وَقَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَظْهَرُ لَكُمْ﴾** أي: تزوجوهن، ودعوا ما تطلبونه من الفاحشة بأضيافني، وقد كان له ثلاث بنات، وقيل: اثنتان، وكانوا يطلبون منه أن يزوجهن بهن، فيمتنع لخبثهم، وكان لهم سيدان مطاعان، فأراد أن يزوجهما بنتيه؛ وقيل: أراد بقوله: **﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾** النساء جملة، لأن نبي القوم أب لهم، وقالت طائفة: إنما كان هذا القول منه على طريق المدافعة، ولم يرد الحقيقة. ومعنى: **﴿هُنَّ أَظْهَرُ لَكُمْ﴾** أي: أحل وأنزله؛ والتظهر: التنزه عما لا يحل، وليس في صيغة أظهر دلالة

جناحه تحتها فرفعها من تخوم الأرض حتى انماها من السماء ثم قلبها عليهم ﴿وامطرتنا عليها حجارة من سجيل﴾ قيل: إنه يقال أمطرتنا في العذاب وأمطرتنا في الرحمة؛ وقيل: هما لغتان، يقال مطرت السماء وأمطرت حكي ذلك الهروي؛ والسجيل: الطين المتحجر بطيخ أو غيره؛ وقيل هو الشديد الصلب من الحجارة؛ وقيل: السجيل الكثير؛ وقيل: إن السجيل لفظة غير عربية، أصله سج وجيل، وهما بالفارسية حجر وطين عربتهما العرب فجعلتهما اسماً واحداً؛ وقيل: هو من لغة العرب. وذكر الهروي: أن السجيل اسم لسماء الدنيا. قال ابن عطية: وهذا ضعيف يرده وصفه بمنضود؛ وقيل: هو بحر معلق في الهواء بين السماء والأرض؛ وقيل: هي جبال في السماء. وقال الزجاج: هو من التسجيل لهم: أي ما كتب لهم من العذاب فهو في معنى سجين، ومنه قوله تعالى: ﴿وما أدراك ما سجين. كتاب مرقوم﴾ [المطففين: 8، 9] وقيل: هو من أسجلته إذا أعطيته، فكانه عذاب أعطوه، ومنه قول الشاعر:

من يساجلني يساجل ماجداً يملأ اللو إلى عقد الكرب
ومعنى ﴿منضود﴾: أنه نضد بعضه فوق بعض، وقيل: بعضه في أثر بعض، يقال نضدت المتاع: إذا جعلت بعضه على بعض، فهو منضود ونضيد، والمسومة: المعلمة أي التي لها علامة: قيل كان عليها أمثال الخواتيم؛ وقيل: مكتوب على كل حجر اسم من رمى به. وقال الفراء: زعموا أنها كانت مخططة بحمرة وسواد في بياض، فذلك تسويهما؛ ومعنى: ﴿عند ربك﴾ في خزائنه ﴿وما هي من الظالمين ببعيد﴾ أي: وما هذه الحجارة الموصوفة من الظالمين وهم قوم لوط ببعيد، أو ما هي من كل ظالم من الظلمة ومنهم كفار قريش ومن عاضدهم على الكفر بمحمد ﷺ ببعيد، فهم لظلمهم مستحقون لها. وقيل: ﴿وما هي﴾ أي: قرى ﴿من الظالمين﴾ من كفر بالنبي ﷺ ببعيد، فإنها بين الشام والمدينة. وفي إمطار الحجارة قولان: أحدهما: أنها أمطرت على المدن حين رفعها جبريل. والثاني: أنها أمطرت على من لم يكن في المدن من أهلها، وكان خارجاً عنها. وتذكير البعيد على تأويل الحجارة بالحجر، أو إجراء له على موصوف منكر: أي شيء بعيد، أو مكان بعيد، أو لكونه مصدراً كالزفير والصهيل، والمصادر يستوي في الوصف بها المذكر والمؤنث.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿ولما جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً﴾ قال: ساء ظنا بقومه، وضاق ذرعاً بضايفه ﴿وقال هذا يوم عصيب﴾ يقول: شديد. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه، في قوله: ﴿يهرعون إليه﴾ قال: يسرعون ﴿ومن قبل كانوا يعملون السيئات﴾ قال: يأتون الرجال. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عنه، أيضاً قال: ﴿يهرعون إليه﴾ يستمعون إليه. وأخرج أبو الشيخ، عنه، أيضاً في قوله: ﴿هؤلاء بناتي﴾ قال: ما عرض لوط

نافع وابن كثير بالوصل، وقرأ غيرهما بالقطع، وهما لغتان فصيحتان. قال الله تعالى: ﴿والليل إذا يسر﴾ [الفجر: 4] وقال: ﴿سبحان الذي أسرى﴾ [الإسراء: 1] وقد جمع الشاعر بين اللغتين فقال:

حي النضير وردية الخدر أسرت عليه ولم تكن تسري
وقيل: إن أسرى للمسير من أول الليل، وسرى للمسير من آخره، والقطع من الليل: الطائفة منه. قال ابن الأعرابي: بقطع من الليل: بساعة منه، وقال الأخفش: بجنح من الليل، وقيل: بظلمة من الليل، وقيل: بعد هدوء من الليل، قيل: إن السرى لا يكون إلا في الليل، فما وجه زيادة بقطع من الليل؟ قيل: لو لم يقل بقطع من الليل لجاز أن يكون في أوله قبل اجتماع الظلمة، وليس ذلك بمراد ﴿ولا يلتفت منكم لحد﴾ أي: لا ينظر إلى ما وراءه، أو يشتغل بما خلفه من مال أو غيره. قيل: وجه النهي عن الالتفات أن لا يروا عذاب قومهم، وهو ما نزل بهم، فيرحمهم ويرقوا لهم، أو لئلا ينقطعوا عن السير المطلوب منهم بما يقع من الالتفات، فإنه لا بد للملتفت من فترة في سيره ﴿إلا امرأتك﴾ بالنصب على قراءة الجمهور، وقرأ أبو عمرو، وابن كثير بالرفع على البذل، فعلى القراءة الأولى امرأته مستثناة من قوله: ﴿فاسر بأهلك﴾ أي: أسر بأهلك جميعاً إلا امرأتك فلا تسر بها، فـ ﴿إنه مصيبها ما أصابهم﴾ من العذاب، وهو رميهم بالحجارة لكونها كانت كافرة؛ وإنكر قراءة الرفع جماعة منهم أبو عبيد وقال: لا يصح ذلك إلا برفع يلتفت ويكون نعتاً، لأن المعنى يصير إذا أبطلت وجزمت أن المرأة أبيع لها الالتفات وليس المعنى كذلك. قال النحاس: وهذا العمل من أبي عبيد وغيره على مثل أبي عمرو مع جلالته ومحلّه من العربية لا يجب أن يكون، والرفع على البذل له معنى صحيح، وهو أن يكون استثناء من النهي عن الالتفات: أي لا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك، فإنها تلتفت وتهلك؛ وقيل: إن الرفع على البذل من أحد، ويكون الالتفات بمعنى التخلف لا بمعنى النظر إلى الخلف، فكأنه قال: ولا يتخلف منكم أحد إلا امرأتك، فإنها تتخلف، والملجئ إلى هذا التأويل البعيد الفرار من تناقض القراءتين، والضمير في ﴿إنه مصيبها ما أصابهم﴾ للشان، والجملة خبر لئن ﴿إن موعدهم للصبح﴾ هذه الجملة تقليل لما تقدم من الأمر بالإسراء والنهي عن الالتفات، والمعنى: أن موعد عذابهم للصبح المسفر عن تلك الليلة، والاستفهام في ﴿ليس للصبح بقريب﴾ للإنكار التقريري، والجملة تأكيد للتعليل. وقرأ عيسى بن عمر ﴿ليس للصبح﴾ بضم الباء وهي لغة، ولعل جعل الصبح ميقاتاً لهلاكهم لكون النفوس فيه أسكن، والناس فيه مجتمعون لم يتفرقوا إلى أعمالهم ﴿فلما جاء امرئنا﴾ أي: الوقت المضروب لوقوع العذاب فيه، أو المراد بالامر: نفس العذاب ﴿جعلنا عاليها سافلها﴾ أي: عالي قرى قوم لوط سافلها، والمعنى: أنه قلبها على هذه الهيئة، وهي كون عاليها صار سافلها وسافلها صار عاليها، وذلك لأن جبريل أنزل

ناقص ووزن ناقص؛ وجملة **﴿إني أراكم بخير﴾** تعليل للنهي: أي لا تنقصوا المكيال والميزان لأنني أراكم بخير: أي بثروة وسعة في الرزق، فلا تغيروا نعمة الله عليكم بمعصيته والإضرار بعباده، ففي هذه النعمة ما يفيكم عن أخذ أموال الناس بغير حقها، ثم نكر بعد هذه العلة علة أخرى، فقال: **﴿وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط﴾** فهذه العلة فيها الإنكار لهم بعذاب الآخرة كما أن العلة الأولى فيها الإنكار لهم بنعيم الدنيا؛ ووصف اليوم بالإحاطة والمراد العذاب، لأن العذاب واقع في اليوم؛ ومعنى إحاطة عذاب اليوم بهم، أنه لا يشذ منهم أحد عنه، ولا يجنون منه ملجأ ولا مهرباً، واليوم: هو يوم القيامة، وقيل: هو يوم الانتقام منهم في الدنيا بالصيحة؛ ثم أكد النبي عن نقص الكيل والوزن بقوله: **﴿ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط﴾** والإيفاء: هو الإتمام، والقسط: العدل، وهو عدم الزيادة والنقص وإن كان الزيادة على الإيفاء فضل وخير، ولكنها فوق ما يفيد اسم العدل، والنهي عن النقص، وإن كان يستلزم الإيفاء ففي تعاضد الداللتين مبالغة بليغة وتأكيد حسن، ثم زاد ذلك تأكيداً فقال: **﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾** قد مرّ تفسير هذا في الأعراف، وفيه النهي عن البخس على العموم، والأشياء أعمّ مما يكال ويوزن، فيدخل البخس بتطفيف الكيل والوزن في هذا دخولاً أولياً؛ وقيل البخس المكس خاصة، ثم قال: **﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾** قد مرّ أيضاً تفسيره في البقرة، والعثي في الأرض يشمل كل ما يقع فيها من الإضرار بالناس، فيدخل فيه ما في السياق من نقص المكيال والميزان، وقيدته بالحال وهو قوله: **﴿مفسدين﴾** ليخرج ما كان صورته من العثي في الأرض، والمقصود به الإصلاح كما وقع من الخضر في السفينة **﴿بقيت الله خير لكم﴾** أي: ما يبقي لكم من الحلال بعد إيفاء الحقوق بالقسط أكثر خيراً وبركة مما تبوقونه لأنفسكم من التطفيف والبخس، والفساد في الأرض، نكر معناه ابن جرير وغيره من المفسرين. وقال مجاهد: بقية الله طاعته. وقال الربيع: وصيته. وقال الفراء: مراقبته، وإنما قيد ذلك بقوله: **﴿إن كنتم مؤمنين﴾** لأن ذلك إنما ينتفع به المؤمن لا الكافر، أو المراد بالمؤمنين هنا: المصنّفون لشعيب **﴿وما أنا عليكم بحفيظ﴾** أحفظكم من الوقوع في المعاصي من التطفيف والبخس وغيرهما، أو أحفظ عليكم أعمالكم، وأحاسبكم بها وأجازيكم عليها، وجملة: **﴿قلوا يا شعيب أصلواتك تأمرك أن تترك ما يعبد آباؤنا﴾** مستانفة جواب سؤال مقدر، كأنه قيل فعماذا قالوا لشعيب؟ وقرئ **﴿أصلواتك﴾** بالإنفراد، وإن نترك في موضع نصب. وقال الكسائي: موضعها خفض على إضمار الباء، ومرادهم بما يعبد آباؤهم ما كانوا يعبدون من الأوثان، والاستفهام للإنكار عليه والاستهزاء به، لأن الصلوات عندهم ليست من الخير الذي يقال لفاعله عند إرادة تليين قلبه وتلطيف صغوبته كما يقال لمن كان كثير الصلوة إذا فعل ما لا يناسب الصواب:

أصصقتك أمرتك بهذا، وقيل المراد بالصلاة هنا القراءة؛ وقيل المراد بها الدين، وقيل المراد بالصلوات اتباعه، ومنه المصلى الذي يتلو السابق؛ وهذا منهم جواب لشعيب عن أمره لهم بعبادة الله وحده، وقولهم: **﴿أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء﴾** جواب له عن أمرهم بإيفاء الكيل والوزن، ونهيهم عن نقصهما، وعن بخس الناس، وعن العثي في الأرض، وهذه الجملة معطوفة على «ما» في ما يعبد آباؤنا. والمعنى: أصلواتك تأمرك أن تترك ما يعبد آباؤنا، وتأمرك أن تترك أن نفعل في أموالنا ما نشاء، من الأخذ والإعطاء، والزيادة والنقص. وقرئ **﴿نفعل ما نشاء﴾** بالفوقية فيها. قال النحاس: فتكون أو على هذه القراءة للمعطف على أن الأولى، والتقدير: أصلواتك تأمرك أن تفعل في أموالنا ما تشاء. وقرئ «نفعل» بالنون وما تشاء بالفوقية، ومعناه: أصلواتك تأمرك أن تفعل نحن في أموالنا ما تشاء أنت وندع ما نشاء نحن وما يجري به التراضي بيننا؛ ثم وصفوه بوصفين عظيمين فقالوا: **﴿إنك لأنت الحليم الرشيد﴾** على طريقة التهكم به، لأنهم يعتقدون أنه على خلافهما، أو يريدون إنك لأنت الحليم الرشيد عند نفسك، وفي اعتقادك، ومعناهم: أن هذا الذي نهيتنا عنه وأمرتنا به يخالف ما تعتقده في نفسك من الحلم والرشد؛ وقيل إنهم قالوا لك لا على طريقة الاستهزاء بل هو عندهم كذلك، وإنكروا عليه الأمر والنهي منه لهم بما يخالف الحلم والرشد في اعتقادهم. وقد تقدّم تفسير الحلم والرشد، وجملة: **﴿يا قوم أرايتم إن كنتم على بيعة من ربي﴾** مستانفة كالجملة التي قبلها؛ والمعنى: أخبروني إن كنتم على حجة واضحة من عند ربي فيما أمرتكم به ونهيتكم عنه **﴿ورزقني منه﴾** أي من فضله وخزائنه ملكه **﴿رزقاً حسناً﴾** أي: كثيراً واسعاً حاللاً طيباً، وقد كان عليه السلام كثير المال؛ وقيل: أراد بالرزق النبوة، وقيل: الحكمة، وقيل: العلم، وقيل: التوفيق، وجواب الشرط محذوف يدلّ عليه سياق الكلام تقديره: أتراك أمركم ونهيكم، أو اتقولون في شأني ما تقولون مما تريدون به السخرية والاستهزاء **﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾** أي: وما أريد بنهيي لكم عن التطفيف والبخس أن أخالفكم إلى ما نهيتكم عنه فأفعله بونكم، يقال: خالفه إلى كذا إذا قصده وهو مولّد عنه، وخالفته عن كذا في عكس ذلك **﴿إن أريد إلا الإصلاح﴾** أي: ما أريد بالأمر والنهي إلا لإصلاح لكم وبعف الفساد في دينكم ومعاملاتكم **﴿ما استطعت﴾** ما بلغت إليه استطاعتي، وتمكنت منه طاقتي **﴿وما توفيقي إلا بالله﴾** أي: ما صرت موفقاً هادياً نبياً مرشداً إلا بتأييد الله سبحانه، وإقداري عليه ومنحي إياه **﴿عليه توكلت﴾** في جميع أموري التي منها أمركم ونهيكم **﴿وليه أنيب﴾** أي: أرجع في كل ما نابني من الأمور، وأفوض جميع أموري إلى ما يختاره لي من قضائه وقدره، وقيل معناه: وإليه أرجع في الآخرة؛ وقيل: إن الإنابة الدعاء. ومعناه: وله ادعوا. قوله: **﴿ويا قوم لا**

يجرمكم شقاقي قال الزجاج: معناه لا يكسبكم شقاقي إصابة العذاب إياكم، كما أصاب من كان قبلكم؛ وقيل معناه: لا يحملكم شقاقي، والشقاق العدواة، ومنه قول الأخطل:

الامن مبلغ عني رسولاً فكيف وجنتم طعم الشقاق

وإن يصيبكم في محل نصب على أنه مفعول ثان ليجرمكم **مثل ما أصاب قوم نوح** من الغرق **أو قوم هود** من الريح **أو قوم صالح** من الصيحة، وقد تقدّم تفسير يجرمكم وتفسير الشقاق **وما قوم لوط منكم ببعيد** يحتمل أن يريد ليس مكانهم ببعيد من مكانكم، أو ليس زمانهم ببعيد من زمانكم، أو ليسوا ببعيد منكم في السبب الموجب لعقوبتهم، وهو مطلق الكفر، وأورد لفظ **ببعيد** لمثل ما سبق في **وما هي من الظالمين ببعيد** ثم بعد ترهيبهم بالعذاب أمرهم بالاستغفار والتوبة، فقال: **واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم وودود** وقد تقدّم تفسير الاستغفار مع ترتيب التوبة عليه في أوّل السورة، وتقدّم تفسير الرحيم، والمراد هنا أنه عظيم الرحمة للتائبين، والودود المحبّ. قال في الصحاح: ودت الرجل أودّه ودّاً: إذا أحببته، والودود المحب، والودّ والودّ: والمحبّة؛ والمعنى هنا: أنه يفعل بعباده ما يفعله من هو بليغ المودة بمن يودّه من اللطف به، وسوق الخير إليه، ودفع الشر عنه. وفي هذا تعليل لما قبله من الأمر بالاستغفار والتوبة، جملة: **قلوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول** مستأنفة كالجملة السابقة، والمعنى: أنك تأتينا بما لا عهد لنا به من الإخبار بالأمور الغيبية، كالبعث والنشور، ولا نفقه ذلك: أي نفهمه كما نفهم الأمور الحاضرة المشاهدة، فيكون نفي الفقه على هذا حقيقة لا مجازاً، وقيل: قالوا ذلك إعراضاً عن سماعه، واحتقار الكلام مع كونه مفهوماً لديهم معلوماً عندهم، فلا يكون نفي الفقه حقيقة بل مجازاً، يقال فقه يفقه: إذا فهم فقها وفقها، وحكى الكسائي فقهاً، ويقال فقه فقهاً: إذا صار فقيهاً **وإنّا لنراك فينا ضعيفاً** أي: لا قوة لك تقدر بها على أن تمنع نفسك منا، وتتمكّن بها من مخالفتنا؛ وقيل: المراد أنه ضعيف في بدنه قاله علي بن عيسى؛ وقيل: إنه كان مصاباً ببصره. قال النحاس: وحكى أهل اللغة أن حمير تقول للأعمى ضعيف: أي قد ضعف بذهاب بصره كما يقال له ضرير: أي قد ضرّ بذهاب بصره؛ وقيل: الضعيف: المهين، وهو قريب من القول الأوّل **ولولا رهطك لرجمناك** رهط الرجل عشيرته الذين يستند إليهم، ويتقوّى بهم، ومنه الراهط لجرير اليربوع، لأنه يتوثق به ويخبا فيه ولده، والرهط يقع على الثلاثة إلى العشرة، وإنما جعلوا رهطه مانعاً من إنزال الضرر به مع كونهم في قلة، والكفار الوف مؤلفة، لأنهم كانوا على دينهم، فتركوه احتراماً لهم لا خوفاً منهم، ثم اكبوا ما وصفوه به من الضعف بقولهم: **وما أنت علينا بعزیز** حتى تكفّ عنك لأجل عزّتك عندنا، بل تركنا رجمك لعزة رهطك علينا، ومعنى لرجمناك لقتلتناك بالرجم، وكانوا إذا قتلوا إنساناً رجموه

بالحجارة وقيل معنى لرجمناك لشتمنناك، ومنه قول الجعدي: ترلجمنا بمرّ القول حتى نصير كأننا فرسا رهان ويطلق الرجم على اللعن، ومنه الشيطان الرجيم، وجملة: **قال يا قوم أرهطي أعزّ عليكم من الله** مستأنفة، وإنما قال أعزّ عليكم من الله، ولم يقل أعزّ عليكم مني، لأن نفي العزّة عنه وإثباتها لقومه كما يدل عليه إيلاء الضمير حرف النفي استهانة به، والاستهانة بأنبياء الله استهانة بالله عزّ وجل، فقد تضمن كلامهم أن رهطه أعزّ عليه من الله، فاستنكر ذلك عليهم، وتعجب منه وألزمهم ما لا مخلص لهم عنه، ولا مخرج لهم منه بصورة الاستفهام، وفي هذا من قوة المحاجة ووضوح المجادلة وإقام الخصم الحجر ما لا يخفى، ولأمر ما سمي شعيب خطيب الأنبياء، والضمير في **واتخذتموه** راجع إلى الله سبحانه. والمعنى: واتخذتم الله عزّ وجلّ بسبب عدم اعتدائكم بنبيه الذي أرسله إليكم **وراءكم ظهرياً** أي: منبوذاً وراء الظهر لا تبالون به؛ وقيل المعنى: واتخذتم أمر الله الذي أمرني بإبلاغه إليكم، وهو ما جئتكم به وراء ظهوركم، يقال: جعلت أمره بظهور: إذا قصرت فيه، و **ظهرياً** منسوب إلى الظهر، والكسر لتغيير النسب **إن ربي بما تعملون محيط** لا يخفى عليه شيء من أقوالكم وأفعالكم. **ويا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل سوف تعلمون** لما رأى إصرارهم على الكفر وتصميمهم على دين آبائهم، وعدم تأثير الموعظة فيهم، توعدهم بأن يعملوا على غاية تمكّنهم ونهاية استطاعتهم، يقال مكن مكانة: إذا تمكن أبْلَغ تمكن، وأخبرهم أنه عامل على حسب ما يمكنه ويقدر الله له؛ ثم بالغ في التهديد والوعيد بقوله: **سوف تعلمون** أي: عاقبة ما أنتم فيه من عبادة غير الله والإضرار بعباده، وقد تقدّم مثله في الأنعام **ومن يأتيه عذاب يخزيه** من في محل نصب بتعلمون: أي: سوف تعلمون من هو الذي يأتيه العذاب المخزي الذي يتأثر عنه الذلّ والفضيحة والعار **ومن هو كاذب** معطوف على من يأتيه؛ والمعنى: ستعلمون من هو المعذب ومن هو الكاذب؛ وفيه تعريض بكنبهم في قولهم: **لولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزیز**؛ وقيل: إن من مبتدأ، وما بعدها صلتها، والخبر محذوف، والتقدير: من هو كاذب فسيعلم كذبه وينوق ويأل أمره. قال الفراء: إنما جاء بهو في **من هو كاذب** لأنهم لا يقولون من قائم: إنما يقولون من قام، ومن يقوم، ومن القائم، فزادوا هو ليكون جملة تقوم مقام فعل ويفعل. قال النحاس: ويدل على خلاف هذا قول الشاعر:

من رسولني إلى الشريا فإني ضقت نزعاً بهجرها والكتاب

وارتقبوا إني معكم رقيب أي: انتظروا إني معكم منتظر لما يقضي به الله بيننا **ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه** أي: لما جاء عذابنا، أو أمرنا بعذابهم، نجينا شعيباً وأتباعه الذين آمنوا به **برحمة منا** لهم بسبب إيمانهم، أو برحمة منا لهم: وهي هدايتهم للإيمان

حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة **﴿لا يجرمنكم شقاق﴾** لا يحملنكم فراق. وأخرج ابن المنذر، عن مجاهد، قال: شقاقى عداوتى. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السديّ قال: لا تحملنكم عداوتى. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، عن قتادة، في قوله: **﴿وما قوم لوط منكم ببعيد﴾** قال: إنما كانوا حبيثي عهد قريب بعد نوح وئموذ. وأخرج أبو الشيخ، وابن عساکر، عن سعيد بن جبیر **﴿وإنّا لنراك فينا ضعيفاً﴾** قال: كان أعمى، وإنما عمي من بكائه من حبّ الله عزّ وجلّ. وأخرج الواحدي، وابن عساکر، عن شدّاد بن أوس، قال: قال رسول الله ﷺ: «بكى شعيب عليه السلام من حبّ الله حتى عمي». وأخرج ابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والخطيب، وابن عساکر من طرق، عن ابن عباس، في قوله: **﴿وإنّا لنراك فينا ضعيفاً﴾** قال: كان ضرير البصر. وأخرج أبو الشيخ، عن أبي صالح، مثله. وأخرج أبو الشيخ، عن سفيان في قوله: **﴿وإنّا لنراك فينا ضعيفاً﴾** قال: كان أعمى، وكان يقال له خطيب الأنبياء. وأخرج أبو الشيخ، عن السديّ، قال: معناه إنما أنت واحد. وأخرج أبو الشيخ، عن عليّ بن أبي طالب، أنه خطب فتلا هذه الآية في شعيب **﴿وإنّا لنراك فينا ضعيفاً﴾** قال: كان مكفوّفاً، فنسبوه إلى الضعف **﴿ولولا رهطك لرجمنك﴾** قال عليّ: فوالله الذي لا إله غيره ما هابوا جلال ربه ما هابوا إلا العشيرة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، في قوله: **﴿واتخذتموه وراءكم ظهرياً﴾** قال: نبذتم أمره. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن قتادة، قال في الآية: لا تخافونه. وأخرج أبو الشيخ عن الضحك قال: تهانونتم به.

﴿وَلَخِذْتُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ غيّرهم بما أخذوا من أموالهم بغير وجه، وظلموا أنفسهم بالتصميم على الكفر ﴿الصّيحة﴾ التي صاح بهم جبرائيل حتى خرجت أرواحهم من أجسادهم، وفي الأعراف ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الرّجفة﴾ [الأعراف: 78، 91] وكذا في العنكبوت. وقد قِيمْنَا أن الرّجفة الزلزلة، وأنها تكون تابعة للصّيحة لتموّج الهوى المفضي إليها ﴿فَاصْبَحُوا فِي بَيَارِهِمْ جَائِعِينَ﴾ أي: ميتين، وقد تقدّم تفسيره وتفسير ﴿كَانَ لَمْ يَغْنُوا فِيهَا﴾ قريباً، وكذا تفسير ﴿أَلَا بَعْدَ لَمَدَيْنِ كَمَا بَعْدَتْ ثُمُودُ﴾ وحكى الكسائي أن أبا عبد الرحمن السلمي قرأ ﴿كَمَا بَعْدَتْ ثُمُودُ﴾ بضم العين. قال المهنوي: من ضم العين من بعدت فهي لغة يستعمل في الخير والشرّ، وبعدت بالكسر على قراءة الجمهور يستعمل في الشرّ خاصة، وهي هنا بمعنى اللعنة.

وقد أخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿إني أراكم بخير﴾ قال: رخص السعر ﴿وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط﴾ قال: غلاء السعر، وأخرج ابن جرير، عنه ﴿بقية الله﴾ قال: رزق الله. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة ﴿بقية الله خير لكم﴾ يقول: حظكم من ربكم خير لكم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد قال: طاعة الله. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن الأعمش في قوله: ﴿أصلواتك تأمرك﴾ قال: إقراءتك. وأخرج ابن عساکر، عن الأحنف: أن شعيباً كان أكثر الأنبياء صلاة. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن زيد، في قوله: ﴿أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء﴾ قال: نهام عن قطع هذه اللنانير والدراهم فقلوا: إنما هي أموالنا نفعل فيها ما نشاء، إن شئنا قطعناها، وإن شئنا أحرقناها، وإن شئنا طرحنها. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن محمد بن كعب نحوه. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن أحمد بن محمد بن سعيد بن المسيب، نحوه أيضاً. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿إنك لأنت الحليم الرشيد﴾ قال: يقولون إنك لست بحليم ولا رشيد. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة قال: استهزاء به. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الضحاک، في قوله: ﴿ورزقني منه رزقاً حسناً﴾ قال: الحلال. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: ﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾ قال: يقول لم أكن لأنهاكم عن أمر وأركبه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿والله لتيب﴾ قال: إليه أرجع. وأخرج أبو نعيم في الحلية، عن علي، قال: «قلت: يا رسول الله أوصني، قال: قل الله ربي ثم استقم، قلت: ربي الله وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب، قال: ليهنك العلم أبا الحسن، لقد شربت العلم شرباً ونهلته نهلاً، وفي إسناده محمد بن يوسف الكديمي. وأخرج ابن جرير، وابن أبي

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلَاطِنٍ ثَمِينٍ ﴿١٦١﴾ إِلَيْكَ فِرْعَوْنَكَ وَمَلَإِيهِ
مَائِمًا أَمْرًا فِرْعَوْنَ وَمَا أَثَرُ فِرْعَوْنَ يُرْشِدُ ﴿١٦٢﴾ بِقَدَمِ قَوْمِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
وَأَنزَلْنَاهُ الْكَافَرَ وَالْكَافِرُ الْمُرُودُ ﴿١٦٣﴾ وَأَتَمَّوْا فِي هَذِهِ لَسَعَةً وَيَوْمَ
الْيَوْمِ الْيَوْمِ الْيَوْمِ الْيَوْمِ الْيَوْمِ الْيَوْمِ الْيَوْمِ الْيَوْمِ الْيَوْمِ الْيَوْمِ الْيَوْمِ الْيَوْمِ
قَامَ وَصَبِيحُ ﴿١٦٤﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ
مَالُهُمْ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَنَا جَلَّةُ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا
تُفْسِيرُ ﴿١٦٥﴾ وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الشَّرْكَ مِنْ رَحْمَةٍ طَلَبَهُ إِذْ أَخَذَهُ أَيْدِي
شَيْدُ ﴿١٦٦﴾ إِذْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمَ تَحْشُرُهُ لَهُ
النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمَ مَشْهُودٍ ﴿١٦٧﴾ وَمَا تُؤْخِرُونَ إِلَّا لِأَجَلٍ يُعَدُّونَ ﴿١٦٨﴾ يَوْمَ يَأْتِي
لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ سُوءٌ مُسْتَعْتَبٌ ﴿١٦٩﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَفَعُوا فَقُلِ
النَّارُ لَمْ يَبْرَأُوا مِنْهَا وَتَحْشُرُ ﴿١٧٠﴾ خَلِيلُكَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ
وَلَا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِذْ رَبُّكَ فَعَالَ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٧١﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سُبُوهُمَا فِي الْمَنَاطِقِ
خَلِيلِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَلَا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَلَيْهِمْ غَيْرُ مُجْتَرِبٍ ﴿١٧٢﴾

المراد بالآيات التوراة، والسلطان المبين: المعجزات؛ وقيل
المراد بالآيات هي التسع المذكورة في غير هذا الموضع،
والسلطان المبين: العصا، وهي وإن كانت من التسع لكنها
لما كانت أبهرها اقترنت بالذكر؛ وقيل: المراد بالآيات: ما يفيد

والنّاس في قسم المنيّة بينهم كالزّرع منه قائم وحصيد
﴿وما ظلمناهم﴾ بما فعلنا بهم من العذاب **﴿ولكن ظلموا أنفسهم﴾** بالكفر والمعاصي **﴿فما أغنيت عنهم آلهتهم﴾** أي: فما نفعت عنهم أصنامهم التي يعبدونها من دون الله شيئاً من العذاب **﴿لما جاء أمر ربك﴾** أي: لما جاء عذابه **﴿وما زادهم غير قتيب﴾** الهلاك والخسران: أي: ما زادتهم الأصنام التي يعبدونها إلا هلاكاً وخسراناً، وقد كانوا يعتقدون أنها تعينهم على تحصيل المنافع **﴿وكنك لخذ ربك﴾** قرأ الجحدري وطلحة بن مصرف «أخذ» على أنه فعل. وقرأ غيرهما «أخذ» على المصدر **﴿إذا لخذ القرى وهي ظالمة﴾** أي: أهلها وهم ظالمون **﴿إن لخذهم﴾** أي: عقوبته للكافرين **﴿اليم شديد﴾** أي: موجع غليظ **﴿إن في ذلك لآية﴾** أي: في أخذ الله سبحانه لأهل القرى، أو في القصص الذي قصه على رسوله لعبرة وموعظة **﴿لمن خاف عذاب الآخرة﴾** لأنهم الذين يعتبرون بالعبير، ويتعظون بالمواعظ، والإشارة بقوله: **﴿ذلك يوم مجموع له الناس﴾** إلى يوم القيامة المدلول عليه بذكر الآخرة أن يجمع فيه الناس للمحاسبة والمجازاة **﴿ولذلك﴾** أي: يوم القيامة **﴿يوم مشهود﴾** أي: يشهده أهل المحشر، أو مشهود فيه الخلاق، فانتسج في الظرف بإجرائه مجرى المفعول **﴿وما نؤخره﴾** إلا لأجل معنود **﴿أي: وما نؤخر ذلك اليوم إلا لانتهاه أجل معنود معلوم بالعدد، قد عيّن الله سبحانه وقوع الجزاء بعده﴾** **﴿يوم يات﴾** قرأ أهل المدينة وأبو عمرو، والكسائي بإثبات الياء في الدرج، حذفها في الوقف. وقرأ أبي، وابن مسعود بإثباتها وصلّاً ووقفاً. وقرأ الأعمش بحذفها فيهما، ووجه حذف الياء مع الوقف ما قاله الكسائي أن الفعل السالم يوقف عليه كالمجزوم فحذفت الياء كما تحذف الضمة. ووجه قراءة من قرأ بحذف الياء مع الوصل: أنهم راوا رسم المصحف كذلك. وحكى الخليل وسيبويه أن العرب تقول لا أنر، فتحذف الياء وتجتزئ بالكسر، وأنشد الفراء في حذف الياء:

كفأك كف ما تليق برهماً جوداً وأخرى تعطب بالسيف الدما
 قال الزجاج: والأجود في النحو إثبات الياء، والمعنى: حين يأتي يوم القيامة **﴿لا تكلم نفس﴾** أي: لا تتكلم حذفت إحدى التامين تخفيفاً: أي لا تكلم بحجة ولا شفاعة **﴿إلا بإذنه﴾** سبحانه لها في التكلم بذلك، وقد جمع بين هذا وبين قوله: **﴿هذا يوم لا ينطقون﴾** ولا يؤذن لهم فيعتنون **﴿[المرسلات: 35، 36] باختلاف أحوالهم باختلاف مواقف القيامة. وقد تكرر مثل هذا الجمع في مواضع ﴿فمنهم شقي وسعيد﴾ أي: من الأنفس شقي، ومنهم سعيد؛ فالشقي: من كتبت عليه الشقاوة، والسعيد: من كتبت له السعادة، وتقديم الشقي على السعيد لأن المقام مقام تحذير ﴿فاما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق﴾ أي: فاما الذين سبقت لهم الشقاوة، فمستقرون في النار لهم فيها زفير وشهيق. قال**

الظنّ، والسلطان المبين ما يفيد القطع بما جاء به موسى؛ وقيل: هما جميعاً عبارة عن شيء واحد: أي أرسلناه بما يجمع وصف كونه آية، وكونه سلطاناً مبيناً؛ وقيل إن السلطان المبين: ما أورده موسى على فرعون في المحاورّة بينهما **﴿إلى فرعون وملائه﴾** أي: أرسلناه بذلك إلى هؤلاء. وقد تقدّم أن الملأ اشرف القوم، وإنما خصهم بالذكر دون سائر القوم، لأنهم أتباع لهم في الإصدار والإيراد، وخص هؤلاء الملأ بون فرعون بقوله: **﴿فاتبعوا أمر فرعون﴾** أي: أمره لهم بالكفر، لأن حال فرعون في الكفر أمر واضح، إذ كفر قومه من الأشراف وغيرهم إنما هو مستند إلى كفره، ويجوز أن يراد بأمر فرعون شأنه وطريقته، فيعمّ الكفر وغيره **﴿وما أمر فرعون برشيد﴾** أي: ليس فيه رشد قط، بل هو: غي وضلال، والرشيد بمعنى المرشد، والإسناد مجازي، أو بمعنى ذي رشد، وفيه تعريض بأن الرشد في أمر موسى **﴿يقدم قومه يوم القيامة﴾** من قدمه بمعنى تقدّمه: أي يصير متقدماً لهم يوم القيامة سابقاً لهم إلى عذاب النار، كما كان يتقدّمهم في الدنيا **﴿فاوردهم النار﴾** أي: إنه لا يزال متقدماً لهم، وهم يتبعونه حتى يوردهم النار، وعبر بالماضي تنبيهاً على تحقق وقوعه، ثم نّم الورد الذي أوردهم إليه، فقال: **﴿ويبئس اللورد للمورود﴾** لأن الورد إلى الماء الذي يقول له الورد، إنما يرده ليطفى حَرّ العطش، ويذهب ظمأه، والنار على ضدّ ذلك، ثم نّمهم بعد نّم المكان الذي يردونه، فقال: **﴿واتبعوا في هذه لعنة﴾** أي: اتبع قوم فرعون مطلقاً، أو الملأ خاصة، أو هم وفرعون في هذه الدنيا لعنة عظيمة: أي طرداً وإبعاداً **﴿ويوم القيامة﴾** أي: واتبعوا لعنة يوم القيامة، يلعنهم أهل المحشر جميعاً، ثم إنه جعل اللعنة رعداً لهم على طريقة التهكم، فقال: **﴿يبئس الرford المرفود﴾**. قال الكسائي وأبو عبيدة: رفنته أرفده رعداً: أمنته وأعطيته، واسم العطية الرford: أي بئس العطاء، والإعانة ما أعطوهم إياه، وأعانوهم به، والمخصوص بالنّم محنوف: أي رفدهم، وهو: اللعنة التي اتبعوها في الدنيا والآخرة، كأنها لعنة بعد لعنة تمدّ الأخرى الأولى وتؤيدها. وذكر الماوردي حكاية عن الأصمعي أن الرford بالفتح: القدح، وبالكسر: ما فيه من الشراب فكانه نّم ما يستقونه في النار، وهذا أنسب بالمقام؛ وقيل: إن الرford الزيادة: أي بئس ما يرفدون به بعد الفرق، وهو الزيادة قاله الكلبي؛ والإشارة بقوله: **﴿ذلك من أنباء القرى نقصه عليك﴾** أي: ما قصه الله سبحانه في هذه السورة من أخبار الأمم السالفة، وما فعلوه مع أنبيائهم: أي هو مقصوص عليك خبر بعد خبر، وقد تقدّم تحقيق معنى القصص، والضمير في منها عائذ إلى القرى: أي من القرى قائم، ومنها حصيد، والقائم: ما كان قائماً على عروشه، والحصيد: ما لا أثر له؛ وقيل القائم: العامر، والحصيد: الخراب؛ وقيل القائم: القرى الخاوية على عروشها، والحصيد: المستأصل بمعنى محصود، شبه القرى بالزّرع القائم على ساقه والمقطوع. قال الشاعر:

قد حصلت جزءاً؛ وقد حكى هذا القول الزجاج أيضاً. السابع: أن المعنى: خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك من مقدار موقفهم في قبوركم وللحساب، حكاة الزجاج أيضاً. الثامن: أن المعنى: خالدين فيها إلا ما شاء ربك من زيادة النعيم لأهل النعيم وزيادة العذاب لأهل الجحيم؛ حكاة أيضاً الزجاج، واختاره الحكيم الترمذي. التاسع: أن إلا بمعنى الواو قاله الفراء؛ والمعنى وما شاء ربك من الزيادة؛ قال مكي: وهذا القول بعيد عند البصريين أن تكون إلا بمعنى الواو. العاشر: أن إلا بمعنى الكاف، والتقدير: كما شاء ربك، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَكَبَّرَ مَا نَكْحَ أَبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: 22] أي: كما قد سلف.

الحادي عشر: أن هذا الاستثناء إنما هو على سبيل الاستثناء الذي نيب إليه الشارع في كل كلام، فهو على حدّ قوله: ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمَنِينَ﴾ [الفتح: 27] روى نحو هذا عن أبي عبيد، وهذه الأقوال هي جملة ما وقفنا عليه من أقوال أهل العلم. وقد نوقش بعضها بمناقشات، ودفعت بدفوعات. وقد أوضحت ذلك في رسالة مستقلة جمعتها في جواب سؤال ورد من بعض الأعلام. ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فَفِي لُجْنَةٍ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ قرأ الأعمش، وحفص، وحمزة، والكسائي «سعدوا» بضم السين، وقرأ الباقر بن فتح السين، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم. قال سيبويه: لا يقال سعد فلان، كما لا يقال شقي فلان؛ لكونه مما لا يتعدى، قال النحاس: ورأيت علي بن سليمان يتعجب من قراءة الكسائي بضم السين مع علمه بالعربية، وهذا لحن لا يجوز، ومعنى الآية كما مر في قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا﴾ قوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ قد عرف من الأقوال المتقدمة ما يصلح لحمل هذا الاستثناء عليه ﴿عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْنُودٍ﴾ أي: يعطيهم الله عطاء غير مجنود، والمجنود: المقطوع، من جذه يجذّه إذا قطعه، والمعنى: أنه ممتد إلى غير نهاية.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿يُقَدِّمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يقول: أضلهم فأوردهم النار. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وأبو الشيخ، عن قتادة، في الآية قال: فرعون يمضي بين أيدي قومه حتى يهجم بهم على النار. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس، في قوله: ﴿فَأُورِدُهُمُ النَّارَ﴾ قال: الورد: الدخول. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿بَشَّشَ لِلرُّفْدِ الْمَرْفُودِ﴾ قال: لعنة الدنيا والآخرة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه ﴿مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ يعني: قرى عامرة وقرى خادمة. وأخرج أبو الشيخ، عن قتادة: منها قائم يرى مكانه، وحصيد لا يرى له أثر. وأخرج أبو الشيخ، عن ابن جريج: منها قائم خلو على عروشه، وحصيد ملصق بالأرض. وأخرج أبو الشيخ، عن أبي عاصم ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ﴾ قال: ما نفعت. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن ابن عمر،

الزجاج: الزفير من شدة الأنين، وهو المرتفع جداً. قال: وزعم أهل اللغة من البصريين والكوفيين: أن الزفير بمنزلة ابتداء صوت الحمير، والشهيق: بمنزلة آخره؛ وقيل الزفير: الصوت الشديد، والشهيق: الصوت الضعيف؛ وقيل الزفير: إخراج النفس، والشهيق: ردّ النفس؛ وقيل: الزفير من الصدر، والشهيق: من الحلق، وقيل الزفير: ترديد النفس من شدة الخوف، والشهيق: النفس الطويل الممتد، والجملة إما مستأنفة كأنه قيل ما حالهم فيها؟ أو في محل نصب على الحال ﴿وَخَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ أي: مدة دوامهما.

وقد اختلف العلماء في بيان معنى هذا التوقيت، لأنه قد علم بالأدلة القطعية تأييد عذاب الكفار في النار، وعدم انقطاعه عنهم، وثبت أيضاً أن السموات والأرض تذهب عند انقضاء أيام الدنيا، فقالت طائفة: إن هذا الإخبار جار على ما كانت العرب تعتاده إذا أرادوا المبالغة في دوام الشيء، قالوا: هو دائم ما دامت السموات والأرض، ومنه قولهم: لا أتيك ما جنّ لي، وما اختلف الليل والنهار، وما ناح الحمام ونحو ذلك، فيكون معنى الآية: أنهم خالدون فيها أبداً لا انقطاع لذلك ولا انتهاء له؛ وقيل إن المراد: سموات الآخرة وأرضها، فقد ورد ما يدل على أن للآخرة سموات وأرضاً غير هذه الموجودة في الدنيا، وهي دائمة بدوام دار الآخرة، وأيضاً لا بدّ لهم من موضع يقلهم وآخر يظلمهم، وهما أرض وسماء. قوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ قد اختلف أهل العلم في معنى هذا الاستثناء على أقوال: الأول: أنه من قوله: ﴿فَفِي النَّارِ﴾ كأنه قال: إلا ما شاء ربك من تأخير قوم عن ذلك. روى هذا أبو نضرة عن أبي سعيد الخدري. الثاني: أن الاستثناء إنما هو للعصاة من الموحنين، وأنهم يخرجون بعد مدة من النار، وعلى هذا يكون قوله سبحانه: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا﴾ عاماً في الكفرة والعصاة، ويكون الاستثناء من خالدين، وتكون ما بمعنى من، وبهذا قال قتادة، والضحاك، وأبو سنان، وغيرهم. وقد ثبت بالأحاديث المتواترة تواتراً يفيد العلم الضروري بأنه يخرج من النار أهل التوحيد، فكان ذلك مخصصاً لكل عموم. الثالث: أن الاستثناء من الزفير والشهيق: أي لهم فيها زفير وشهيق ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ من أنواع العذاب غير الزفير والشهيق، قاله ابن الأنباري. الرابع: أن معنى الاستثناء: أنهم خالدون فيها ما دامت السموات والأرض، لا يموتون إلا ما شاء ربك، فإنه يأمر النار فتاكلهم حتى يفنوا، ثم يجدد الله خلقهم؛ روي ذلك عن ابن مسعود. الخامس: أن إلا بمعنى سوى. والمعنى ما دامت السموات والأرض سوى ما يتجاوز ذلك من الخلود، كأنه ذكر في خلودهم ما ليس عند العرب أطول منه، ثم زاد عليه الدوام الذي لا آخر له حكاة الزجاج. السادس: ما روي عن الفراء وابن الأنباري وابن قتيبة من أن هذا لا ينافي عدم المشيئة كقولك: والله لأضربنه إلا أن أرى غير ذلك، ونوقش هذا بأن معنى الآية الحكم بخلودهم إلا لمدة التي شاء الله، فالمشيئة

في قوله: ﴿وَمَا زَادَهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ أي: هلكة. وأخرج أبو الشيخ، عن ابن زيد قال: تخسير. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة معناه. وأخرج البخاري، ومسلم وغيرهما عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى لِمِثْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يَفْلِتْهُ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَكُنْكَ لَأُخَذَ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ إِنْ أَخَذَهُ لَيْمٌ شَدِيدٌ». وأخرج ابن جرير، عن ابن زيد، في قوله: ﴿إِنْ فِي نَفْسِكَ لَأَيَّةٌ لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ يقول: إِنَّا سَوْفَ نَفِي لَكُمْ بِمَا وَعَدْنَاهُمْ فِي الْآخِرَةِ كَمَا وَفَيْنَا لِلْأَنْبِيَاءِ أَنَّا نَنْصُرُهُمْ. وأخرج ابن أبي شيبة، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿تِلْكَ يَوْمَ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَتِلْكَ يَوْمَ مَشْهُودٍ﴾ قال: يوم القيامة. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن مجاهد، مثله. وأخرج أبو الشيخ، عن ابن جريج، في قوله: ﴿يَوْمَ يَأْتُ﴾ قال: ذلك اليوم. وأخرج الترمذي وحسنه، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن عمر بن الخطاب، قال: «لَمَّا نَزَلَتْ ﴿فَمَنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَعَلَامَ نَعْمَلُ عَلَى شَيْءٍ قَدْ فَرَّغَ مِنْهُ، أَوْ عَلَى شَيْءٍ لَمْ يَفْرَغْ مِنْهُ؟ قَالَ: بَلْ عَلَى شَيْءٍ قَدْ فَرَّغَ مِنْهُ، وَجَرَتْ بِهِ الْأَقْلَامُ يَا عُمَرُ، وَلَكِنْ كُلُّ مَيْسِرٍ لَمَّا خُلِقَ لَهُ. وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَأَبُو الشَّيْخِ، وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: هَاتَانِ مِنَ الْمُخْبَرَاتِ قَوْلُ اللَّهِ: ﴿فَمَنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ وَ «يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا» [المائدة: 109] أَمَا قَوْلُهُ: ﴿فَمَنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ فَهَمْ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْقَبْلَةِ يَعْبُدُهُمْ اللَّهُ بِالنَّارِ مَا شَاءَ بِذُنُوبِهِمْ، ثُمَّ يَأْتَنُ فِي الشِّفَاعَةِ لَهُمْ، فَيُشْفَعُ لَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ فَيُخْرِجُهُمُ مِنَ النَّارِ فَيَدْخُلُهُمُ الْجَنَّةَ، فَسَمَامُ أَشْقِيَاءٍ حِينَ عَذَبُهُمْ فِي النَّارِ ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ حِينَ أَنْزَلَ فِي الشِّفَاعَةِ لَهُمْ وَأَخْرَجَهُمُ مِنَ النَّارِ وَادْخُلُهُمُ الْجَنَّةَ وَهُمْ هُمْ ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا﴾ يَعْنِي بَعْدَ الشَّقَاءِ الَّذِي كَانُوا فِيهِ ﴿فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ يَعْنِي: الَّذِينَ كَانُوا فِي النَّارِ. وَأَخْرَجَ ابْنُ جُرَيْرٍ، وَأَبُو الشَّيْخِ، وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ، عَنْ قَتَادَةَ أَنَّهُ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا﴾ فَقَالَ: حَدَّثَنَا أَنَسُ بْنُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يُخْرِجُ قَوْمٌ مِنَ النَّارِ وَلَا نَقُولُ كَمَا قَالَ أَهْلُ حَرُورَاءَ: إِنْ مِنْ دَخَلُهَا بَقِيَ فِيهَا. وَأَخْرَجَ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ، عَنْ جَابِرٍ، قَالَ: «قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يُخْرِجَ أَنْسَاءُ مِنَ الَّذِينَ شَقُوا مِنَ النَّارِ فَيَدْخُلُهُمُ الْجَنَّةَ فَعَلَّ». وَأَخْرَجَ ابْنُ جُرَيْرٍ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، عَنْ خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ قَالَ: إِنَّهَا فِي التَّوْحِيدِ مِنْ أَهْلِ الْقَبْلَةِ. وَأَخْرَجَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ، وَابْنُ الضَّرِيرِ، وَابْنُ الْمُنْذِرِ، وَالتَّبْرَانِيُّ، وَالبَيْهَقِيُّ فِي الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، عَنْ أَبِي نُضْرَةَ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، أَوْ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، أَوْ رَجُلٍ

من أصحاب النبي ﷺ، في قوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ قَالَ: هَذِهِ الْآيَةُ قَاضِيَةٌ عَلَى الْقُرْآنِ كُلِّهِ، يَقُولُ حَيْثُ كَانَ فِي الْقُرْآنِ خَالِدِينَ فِيهَا تَأْتِي عَلَيْهِ. وَأَخْرَجَ ابْنُ الْمُنْذِرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَأَبُو الشَّيْخِ، وَالبَيْهَقِيُّ عَنْ أَبِي نُضْرَةَ، قَالَ: يَنْتَهِي الْقُرْآنُ كُلُّهُ إِلَى هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿إِنْ رَبُّكَ فَعَالٌ لَمَّا يَرِيدُ﴾. وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، فِي قَوْلِهِ: ﴿مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ قَالَ: لِكُلِّ جَنَّةٍ سَمَاءٌ وَأَرْضٌ. وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَأَبُو الشَّيْخِ، عَنْ الْحَسَنِ، نَحْوَهُ أَيْضًا. وَأَخْرَجَ البَيْهَقِيُّ فِي الْبَيْتِ وَالنَّشُورِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ قَالَ: فَقَدْ شَاءَ رَبُّكَ أَنْ يَدْخُلَ هَؤُلَاءِ فِي النَّارِ، وَأَنْ يَدْخُلَ هَؤُلَاءِ فِي الْجَنَّةِ. وَأَخْرَجَ ابْنُ جُرَيْرٍ، عَنْهُ، فِي قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ قَالَ: اسْتَغْنَى اللَّهُ مِنَ النَّارِ أَنْ تَأْكُلَهُمْ. وَأَخْرَجَ أَبُو الشَّيْخِ، عَنْ السَّدِيدِيِّ، فِي الْآيَةِ قَالَ: فَجَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ مَشِئَةِ اللَّهِ مَا نَسَخَهَا، فَانْزَلَ بِالْمَدِينَةِ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنْ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ [النساء: 168] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، فَذَهَبَ الرَّجَاءُ لِأَهْلِ النَّارِ أَنْ يُخْرِجُوا مِنْهَا، وَأُوجِبَ لَهُمْ خُلُودُ الْأَبَدِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا﴾ الْآيَةُ. قَالَ: فَجَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ مَشِئَةِ اللَّهِ مَا نَسَخَهَا، فَانْزَلَ بِالْمَدِينَةِ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ظِلًّا ظِلِيلًا﴾ [النساء: 57] فَأُوجِبَ لَهُمْ خُلُودُ الْأَبَدِ. وَأَخْرَجَ ابْنُ الْمُنْذِرِ، عَنْ الْحَسَنِ، قَالَ: قَالَ عُمَرُ: لَوْ لَبِثَ أَهْلُ النَّارِ فِي النَّارِ كَقَدَرِ رَمْلِ عَالِجٍ، لَكُنْ لَهُمْ عَلَى ذَلِكَ يَوْمٌ يُخْرِجُونَ فِيهِ. وَأَخْرَجَ إِسْحَاقُ بْنُ رَاهُوَيْهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: «سَيَاتِي عَلَى جَهَنَّمَ يَوْمَ لَا يَبْقَى فِيهَا أَحَدٌ، وَقَرَأَ ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا﴾ الْآيَةَ. وَأَخْرَجَ ابْنُ الْمُنْذِرِ، وَأَبُو الشَّيْخِ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، قَالَ: «مَا فِي الْقُرْآنِ آيَةٌ أَرْجَى لِأَهْلِ النَّارِ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾» قَالَ وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: «لَيَأْتِيَنَّ عَلَيْهَا زَمَانٌ تَخْفَقُ أَبْوَابُهَا». وَأَخْرَجَ ابْنُ جُرَيْرٍ عَنْ الشَّعْبِيِّ قَالَ: «جَهَنَّمَ أَسْرَعَ الدَّارَيْنِ عَمْرَانًا وَأَسْرَعُهُمَا خَرَابًا». وَأَخْرَجَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ، وَابْنُ جُرَيْرٍ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، عَنْ قَتَادَةَ، فِي قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ قَالَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِتَثْنِيَّتِهِ مَا وَقَعَتْ. وَقَدْ رَوَى عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ السَّلَفِ مِثْلَ مَا ذَكَرَهُ عُمَرُ، وَأَبُو هُرَيْرَةَ، وَابْنُ مَسْعُودٍ، كَابْنِ عَبَّاسٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ، وَجَابِرُ، وَأَبِي سَعِيدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَعَنْ أَبِي مَجْلَزٍ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدٍ بَنِ أَسْلَمَ، وَغَيْرُهُمَا مِنَ التَّابِعِينَ. وَوَرَدَ فِي ذَلِكَ حَدِيثٌ فِي مَعْجَمِ الطَّبْرَانِيِّ الْكَبِيرِ عَنْ أَبِي إِمَامَةَ صَدِيِّ بْنِ عَجَلَانَ الْبَاهِلِيِّ، وَإِسْنَادُهُ ضَعِيفٌ. وَلَقَدْ تَكَلَّمَ صَاحِبُ الْكَشَافِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ بِمَا كَانَ لَهُ فِي تَرْكِهِ سَعَةً، وَفِي السَّكُوتِ عَنْهُ غَنًى، فَقَالَ: وَلَا يَخْدَعُنِي قَوْلُ الْمَجْبُورَةِ إِنْ الْمُرَادُ بِالْإِسْتِثْنَاءِ خُرُوجُ أَهْلِ الْكِبَائِرِ مِنَ النَّارِ، فَإِنَّ الْإِسْتِثْنَاءَ الثَّانِي يُنَادِي عَلَى تَكْذِيبِهِمْ وَيُسَجِّلُ بِأَفْثَرَاتِهِمْ، وَمَا ظَنَنْتُ بِقَوْمٍ نَبِذُوا كِتَابَ اللَّهِ لَمَّا رَوَى لَهُمْ بَعْضُ الثَّوَابِتِ عَنْ ابْنِ عُمَرَ: لَيَأْتِيَنَّ عَلَى جَهَنَّمَ يَوْمٌ تَصْفَقُ فِيهِ أَبْوَابُهَا لَيْسَ فِيهَا أَحَدٌ، ثُمَّ قَالَ: وَأَقُولُ: مَا كَانَ

إلى كفر عصره ﷺ؛ وقيل المعنى: لا تك في شك من بطلان ما يعبد هؤلاء؛ وقيل: لا تك في شك من سوء عاقبتهم. ولا مانع من الحمل على جميع هذه المعاني، وهذا النهي له ﷺ هو تعريض لغيره ممن يداخله شيء من الشك، فإنه ﷺ لا يشك في ذلك أبداً. ثم بين له سبحانه أن معبودات هؤلاء كمعبودات آبائهم، أو أن عبادتهم كعبادة آبائهم من قبل، وفي هذا استثناء تعليل للنهي عن الشك. والمعنى: أنهم سواء في الشرك بالله وعبادة غيره. فلا يكن في صدرك حرج مما تراه من قومك. فهم كمن قبلهم من طوائف الشرك، وجاء بالمضارع في كما يعبد آبائهم لاستحضار الصورة. ثم بين له أنه مجازيهم بأعمالهم فقال: ﴿وَإِنَّا لَمَوْفُوهُمْ نَصِيْبِهِمْ﴾ من العذاب كما وقينا آبائهم، لا ينقص من ذلك شيء، وانتصاب غير الحال، والتوفية لا تستلزم عدم النقص، فقد يجوز أن يوفى وهو ناقص، كما يجوز أن يوفى وهو كامل، وقيل: المراد نصيبهم من الرزق، وقيل: ما هو أعم من الخير والشر. ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ أي: التوراة ﴿فَاخْتَلَفَ فِيهِ﴾ أي: في شأنه وتفاصيل أحكامه، فأمن به قوم، وكفر به آخرون، وعمل بأحكامه قوم، وترك العمل ببعضها آخرون، فلا يضق صدرك يا محمد بما وقع من هؤلاء في القرآن ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: لولا أن الله سبحانه قد حكم بتأخير عذابهم إلى يوم القيامة لما علم في ذلك من الصلاح لقضى بينهم: أي بين قومك، أو بين قوم موسى فيما كانوا فيه مختلفين، فأنيب المحق وعذب المبطل؛ أو الكلمة هي أن رحمته سبحانه سبقت غضبه، فأمهلهم ولم يعاجلهم لذلك؛ وقيل: إن الكلمة هي أنهم لا يعذبون بعذاب الاستئصال، وهذا من جملة التسلية له ﷺ، ثم وصفهم بأنهم في شك من الكتاب فقال: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ أي: من القرآن، إن حمل على قوم محمد ﷺ، أو من التوراة، إن حمل على قوم موسى عليه السلام، والمريب: المريب في الريبة. ثم جمع الأولين والآخرين في حكم توفية العذاب لهم، أو هو والثواب فقال: ﴿وَإِنْ كَلَّا لَمَا لِيَؤْفِقِينَ رَبِّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو بكر «وإن» بالتخفيف على أنها إن المخففة من الثقيلة وعملت في كلا النصب، وقد جَوَزَ عملها الخليل وسيبويه، وقد جَوَزَ البصريون تخفيف إن مع إعمالها، وأنكر ذلك الكسائي وقال: ما أري على أي شيء قرئ «وإن كلا» وزعم الفراء أن انتصاب كلا بقوله ليؤفقيهم، والتقدير وإن ليؤفقيهم كلا، وأنكر ذلك عليه جميع النحويين. وقرأ الباقون بتشديد «إن» ونصبوا بها كلا. وعلى كلا القراءتين فالتنوين في كلا عوض عن المضاف إليه: أي وإن كل المختلفين. وقرأ عاصم وحمرزة وابن عامر «لما» بالتشديد، وخففها الباقون. قال الزجاج: لام لما لام إن، وما زائدة مؤكدة، وقال الفراء: ما بمعنى من كقوله: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَنْ لِيُطِيعَنَّ﴾ [النساء: 72] أي: وإن كلاً لمن ليؤفقيهم؛ وقيل: ليست بزائدة بل هي اسم دخلت عليها لام التوكيد، والتقدير:

لا بن عمرو في سيفيه ومقاتلته بهما علي بن أبي طالب رضي الله عنه ما يشغله عن تسيير هذا الحديث. انتهى.

وأقول: أما الطعن على من قال بخروج أهل الكباثر من النار، فالقائل بذلك يا مسكين رسول الله ﷺ، كما صرح عنه في دواوين الإسلام التي هي بفاطر السنة المطهرة، وكما صرح عنه في غيرها من طريق جماعة من الصحابة يبلغون عدد التواتر؛ فمالك والطعن على قوم عرفوا ما جهلته، وعملوا بما أنت عنه في مسافة بعيدة، وأي مانع من حمل الاستثناء على هذا الذي جاء به الأئمة الصحيحة الكثيرة، كما ذهب إلى ذلك وقال به جمهور العلماء من السلف والخلف؛ وأما ما ظننته من أن الاستثناء الثاني ينادي على تكذيبهم، ويسجل بافترائهم، فلا مناداة ولا مخالفة، وأي مانع من حمل الاستثناء في الموضعين على العصاة من هذه الأمة، فالاستثناء الأول: يحمل على معنى إلا ما شاء ربك من خروج العصاة من هذه الأمة من النار، والاستثناء الثاني: يحمل على معنى إلا ما شاء ربك من عدم خلودهم في الجنة كما يخلد غيرهم، وذلك لتأخر خلودهم إليها مقدار المدة التي ليثوا فيها في النار؛ وقد قال بهذا من أهل العلم من قدمنا ذكره، وبه قال ابن عباس حبر الأمة. وأما الطعن على صاحب رسول الله ﷺ، وحافظ سنته، وعابد الصحابة، عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، فإلى أين يا محمود، أتدري ما صنعت، وفي أي واد وقعت، وعلى أي جنب سقطت؟ ومن أنت حتى تصعد إلى هذا المكان، وتتناول نجوم السماء بيدك القصيرة، ورجلك العرجاء، أما كان لك في مكسري طلبتك من أهل النحو واللغة ما يريك عن الدخول فيما لا تعرف، والتكلم بما لا تدري، فيأله العجب ما يفعل القصور في علم الرواية، والبعد عن معرفتها إلى أبعد مكان من الفضيحة لمن لم يعرف قدر نفسه، ولا أوقفها حيث أوقفها الله سبحانه.

فَلَا تَكُ فِي مِرْرَةٍ وَمَا يَصْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَبْصُرُونَ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ
قَبْلَ وَإِنَّا لَمَوْفُوهُمْ نَصِيْبِهِمْ غَيْرَ مُنْصِفِينَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ
فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ
مُرِيبٍ ﴿١٦﴾ وَإِنْ كَلَّا لَمَا لِيَؤْفِقِينَ رَبِّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُمْ بِمَا يَمْكُرُونَ خَبِيرٌ ﴿١٧﴾
فَأَنْصَرِفُوا كَمَا أَمَرْتُ وَمَنْ كَانَتْ مَعَهُ وَلَا تَطْلُقُوا إِلَهُكُمْ بِمَا تَمْكُرُونَ بِحَيْرٍ ﴿١٨﴾
وَلَا تَرْجِعُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَنْصَبُوا لَهُمْ أَعْيُنُكُمْ وَأَنْتُمْ كَالْأَعْيُنِ
أُولَئِكَ ثَمَرَ لَا تُصْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَأَقْرِضْهُمُ الْفَلَاحَ وَزَكَاةَ الْبَيْتِ إِنَّ
الْمُسْتَنْصِفِينَ يُدْعُونَ الْأَنْصَارَ ذَلِكَ دَرَكُ الَّذِينَ لَدَارِكُونَ ﴿٢٠﴾ وَأَسْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا
يُخَيِّبُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٢١﴾

لما فرغ الله سبحانه من أقاصيص الكفرة، وبيان حال السعداء والأشقياء، سلى رسوله ﷺ بشرح أحوال الكفرة من قومه في ضمن النهي له عن الامتزاع في أن ما يعبونه غير نافع ولا ضار، ولا تأثير له في شيء. وحذف النون في «لا تك» لكثرة الاستعمال، والمرية: الشك، والإشارة بهؤلاء

باب علم يعلم. وقرأ ابن أبي عبله بضم التاء وفتح الكاف على البناء للمفعول من أركنه. قال في الصحاح: ركن إليه يركن بالضم. وحكى أبو زيد: ركن إليه بالكسر، يركن ركوناً فيهما: أي مال إليه وسكن قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾. وأما ما حكى أبو زيد ركن يركن بالفتح فيهما فإنما هو على الجمع بين اللغتين. انتهى. وقال في شمس العلوم: الركون: السكون. يقال: ركن إليه ركوناً، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾. انتهى. وقال في القاموس: ركن إليه، كنصر وعلم، ومنع ركوناً: مال وسكن انتهى، فهؤلاء الأئمة من رواة اللغة فسروا الركون بمطلق الميل والسكون من غير تقييد بما قيده به صاحب الكشف حيث قال: فإن الركون هو الميل اليسير، وهكذا فسره المفسرون، بمطلق الميل والسكون من غير تقييد إلا من كان من المتقين بما ينقله صاحب الكشف؛ ومن المفسرين من ذكر في تفسير الركون قيوداً لم ينكرها أئمة اللغة. قال القرطبي في تفسيره: الركون حقيقته الاستناد والاعتماد والسكون إلى الشيء والرضا به. ومن أئمة التابعين من فسّر الركون بما هو أخص من معناه اللغوي. فروي عن قتادة، وعكرمة في تفسير الآية أن معناها: لا تودهم ولا تطيعوهم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في تفسير الآية: الركون هنا الإدهان، وذلك أن لا ينكر عليهم كفرهم: وقال أبو العالية: معناه لا ترضوا أعمالهم.

وقد اختلف أيضاً الأئمة من المفسرين في هذه الآية هل هي خاصة بالمشركين أو عامة؟ فقيل خاصة، وإن معنى الآية النهي عن الركون إلى المشركين، وأنهم المرادون بالذين ظلموا، وقد روي ذلك عن ابن عباس؛ وقيل: إنها عامة في الظلمة من غير فرق بين كافر ومسلم، وهذا هو الظاهر من الآية، ولو فرضنا أن سبب النزول هم المشركون، لكان الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. فإن قلت: وقد وردت الأدلة الصحيحة البالغة عدد التواتر الثابتة عن رسول الله ﷺ ثبوتاً لا يخفى على من له أدنى تمسك بالسنة المطهرة، بوجوب طاعة الأئمة والسلطين والأمراء حتى ورد في بعض الفاظ الصحيح: «أطيعوا السلطان وإن كان عبداً حبشياً رأسه كالزبيبة». وورد وجوب طاعتهم ما أقاموا الصلاة، وما لم يظهر منهم الكفر البواح، وما لم يأمروا بمعصية الله. وظاهر ذلك أنهم وإن بلغوا في الظلم إلى أعلى مراتبه، وفعلوا أعظم أنواعه مما لم يخرجوا به إلى الكفر البواح، فإن طاعتهم واجبة حيث لم يكن ما أمروا به من معصية الله؛ ومن جملة ما يأمرون به تولي الأعمال لهم، والدخول في المناصب الدينية التي ليس الدخول فيها من معصية الله؛ ومن جملة ما يأمرون به: الجهاد، وأخذ الحقوق الواجبة من الرعايا، وإقامة الشريعة بين المتخاصمين منهم، وإقامة الحدود على من وجبت عليه. وبالجمل، فطاعتهم واجبة على كل من صار تحت أمرهم ونهيهم في كل ما يأمرون به مما لم يكن من معصية الله، ولا بد في مثل ذلك

وإن كلاً لمن خلق. قيل: وهي مركبة، وأصلها لمن ماء، فقلبت النون ميماً واجتمعت ثلاث ميّات، فحذفت الوسطى حكى ذلك النحاس عن النحويين. وزيف الزجاج هذا وقال: من اسم على حرفين فلا يجوز حذف النون. وذهب بعض النحويين إلى أن لما هذه بمعنى إلا، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: 4] وقال المازني: الأصل لما المخففة ثم ثقلت. قال الزجاج: وهذا خطأ، إنما يخفف المثلث ولا يثقل المخفف. وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: يجوز أن يكون التشديد من قولهم لمت الشيء المة: إذا جمعته، ثم بنى منه فعلى كما قرئ ﴿ثم أرسلنا رسلنا تترى﴾ [المؤمنون: 44] وأحسن هذه الأقوال أنها بمعنى إلا الاستثنائية. وقد روي ذلك عن الخليل، وسيبويه، وجميع البصريين، ورجحه الزجاج ويؤيده أن في حرف أبي «وإن كلاً إلا ليوفينهم» كما حكاه أبو حاتم عنه. وقرئ بالتثنية: أي جميعاً. وقرأ الأعمش «وإن كل لما» بتخفيف إن ورفع كل وتشديد لما، وتكون إن على هذه القراءة نافية «إنه بما يعملون» أيها المختلفون «خبير» لا يخفى عليه منه شيء، والجملة تعليل لما قبلها، ثم أمر سبحانه رسوله ﷺ بكلمة جامعة لأنواع الطاعة له سبحانه، فقال: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتُ﴾ أي: كما أمرك الله، فيدخل في ذلك جميع ما أمر به وجميع ما نهى عنه، لأنه قد أمره بتجنب ما نهى عنه، كما أمره بفعل ما تعبد بفعله، وأمرته أسوته في ذلك، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ أي: رجع من الكفر إلى الإسلام، وشاركك في الإيمان، وهو معطوف على الضمير في فاستقم، لأن الفصل بين المعطوف والضمير المرفوع المعطوف عليه يقرم مقام التأكيد: أي: وليستقم من تاب معك، وما أعظم موقع هذه الآية وأشدّ أمرها، فإن الاستقامة كما أمر الله لا تقوم بها إلا الأنفس المطهرة، والنوات المقدسة، ولهذا يقول المصطفى ﷺ: «شيبنتي هود» كما تقدم ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾ الطغيان: مجاوزة الحد، لما أمر الله سبحانه بالاستقامة المذكورة بين أن الغلو في العبادة، والإفراط في الطاعة على وجه تخرج به عن الحد الذي حدّه، والمقدار الذي قدره ممنوع منه منهي عنه، وذلك كمن يصوم ولا يفطر، ويقوم الليل ولا ينام، ويترك الحلال الذي أنن الله به ورغب فيه، ولهذا يقول الصائق المصدق فيما صح عنه: «أما أنا فاصوم واقطر، وأقوم وأنام، وأتكح النساء؛ فمن رغب عن سنتي فليس مني». والخطاب للنبي ﷺ ولأئمة تغليياً لحالهم على حاله، أو النهي عن الطغيان خاص بالأئمة ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يجازيكم على حسب ما تستحقون، والجملة تعليل لما قبلها. قوله: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، قرأ الجمهور بفتح الكاف، وقرأ طلحة بن مصرف، وقتادة، وغيرهما ﴿تَرْكَنُوا﴾ بضم الكاف. قال الفراء: وهي لغة تميم وقيس، قال أبو عمرو: وقرأ الجمهور هي لغة أهل الحجاز، قال: ولغة تميم بكسر التاء وفتح الكاف، وهم يكسرون حرف المضارعة في كل ما كان من

هو الرضا بما عليه الظلمة. أو تحسين الطريقة وتزيينها عند غيرهم، ومشاركتهم في شيء من تلك الأبواب؛ فاما مداخلتهم لرفع ضرر واجتلاب منفعة عاجلة، فغير داخلة في الركون؛ قال: وأقول هذا من طريق المعاش والرخصة، ومقتضى التقوى هو الاجتناب عنهم بالكلية «ليس الله بكاف عبده» [الزمر: 36]. انتهى.

قوله: «فتمسك النار» بسبب الركون إليهم، وفيه إشارة إلى أن الظلمة أهل النار، أو كالنار، ومصاحبة النار توجب لا محالة مس النار، وجملة: «وما لكم من دون الله من أولياء» في محل نصب على الحال من قوله: فتمسك النار. والمعنى: أنها تمسك النار حال عدم وجود من ينصركم، وينقذك منها «ثم لا تنصرون» من جهة الله سبحانه، إذ قد سبق في علمه أنه يعذبكم بسبب الركون الذي نهيت عنه، فلم تنتهوا عناداً وتمرداً. قوله: «واقم الصلاة طرفي النهار» لما نكر الله سبحانه الاستقامة خص من اتواها إقامة الصلاة لكونها رأس الإيمان، وانتصاب طرفي النهار على الظرفية، والمراد صلاة الغداة والعشي، وهما: الفجر والعصر؛ وقيل: الظهر موضع العصر، وقيل الطرفان الصبح والمغرب، وقيل هما الظهر والعصر. ورجح ابن جرير أنهما الصبح والمغرب، قال: واللبليل عليه إجماع الجميع على أن أحد الطرفين الصبح، فدل على أن الطرف الآخر المغرب «وزلفاً من الليل» أي: في زلف من الليل، والزلف: الساعات القريبة بعضها من بعض، ومنه سميت المزدلفة لأنها منزل بعد عرفة بقرب مكة، وقرأ ابن القعقاع وأبو إسحاق وغيرهما «زلفاً» بضم اللام جمع زليف، ويجوز أن يكون واحده زلفة. وقرأ ابن محيصن بإسكان اللام. وقرأ مجاهد «زلفى» مثل فعلى. وقرأ الباقون «زلفاً» بفتح اللام كغرفة وغرف. قال ابن الأعرابي: الزلف الساعات واحتبتها زلفة. وقال قوم: الزلفة أول ساعة من الليل بعد مغيب الشمس. قال الأخفش: معنى زلفاً من الليل: صلاة الليل «إن الحسنات يذهبن السيئات» أي: إن الحسنات على العموم، ومن جملة بل عمادها الصلاة يذهبن السيئات على العموم؛ وقيل المراد بالسيئات: الصفات، ومعنى يذهبن السيئات: يكفرن حتى كأنها لم تكن، والإشارة بقوله: «ذلك نذكرى للذاكرين» إلى قوله: «فاستقم» وما بعده؛ وقيل: إلى القرآن نذكرى للذاكرين أي: موعظة للمتعطين «وإصبر» على ما أمرت به من الاستقامة وعدم الطغيان، والركون إلى الذين ظلموا؛ وقيل: إن المراد الصبر على ما أمر به دون ما نهى عنه، لأنه لا مشقة في اجتنابه، وفيه نظر، فإن المشقة في اجتناب المنهي عنه كائنه، وعلى فرض كونها دون مشقة امتثال الأمر، فذلك لا يخرجها عن مطلق المشقة «فإن الله لا يضيع أجر المحسنين» أي: يوفيه أجورهم ولا يضيع منها شيئاً فلا يمهله ولا يبخسه بنقص.

وقد أخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: «وإننا لموفوهم

من المخالطة لهم والدخول عليهم، ونحو ذلك مما لا بد منه، ولا محيص عن هذا الذي نكرناه من وجوب طاعتهم بالقيود المذكورة، لتواتر الأدلة الواردة به، بل قد ورد به الكتاب العزيز: «وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم» [النساء: 59] بل ورد أنهم يعطون الذي لهم من الطاعة، وإن منعوا ما هو عليهم للرعايا كما في بعض الأحاديث الصحيحة: «أعطوهم الذي لهم، واسألوا الله الذي لكم، بل ورد الأمر بطاعة السلطان، وبلغ في ذلك النبي ﷺ حتى قال: «وإن أخذ ملك وضرب ظهره»، فإن اعتبرنا مطلق الميل والسكون، فمجرد هذه الطاعة المأمور بها مع ما تستلزمه من المخالطة هي ميل وسكون؛ وإن اعتبرنا الميل والسكون ظاهراً وباطناً فلا يتناول النهي في هذه الآية من مال إليهم في الظاهر، لأمر يقتضي ذلك شرعاً كالطاعة، أو للتقية ومخافة الضرر منهم، أو لجلب مصلحة عامة أو خاصة، أو نفع مفسدة عامة أو خاصة، إذا لم يكن له ميل إليهم في الباطن، ولا محبة، ولا رضا بأفعالهم. قلت: أما الطاعة على عمومها بجميع أقسامها حيث لم تكن في معصية الله، فهي على فرض صق مسمى الركون عليها، مخصصة لعموم النهي عنه بإلتها التي قمنا الإشارة إليها، ولا شك في هذا ولا ريب، فكل من أمره ابتداء أن يدخل في شيء من الأعمال التي أمرها إليهم مما لم يكن من معصية الله، كالمناصب الدينية، ونحوها إذا وثق من نفسه بالقيام بما وكل إليه، فذلك واجب عليه فضلاً عن أن يقال جائز له. وأما ما ورد من النهي عن الدخول في الإمارة، فذلك مقيد بعدم وقوع الأمر ممن تجب طاعته من الأئمة والسلطين، والأمراء جمعاً بين الأدلة، أو مع ضعف المأمور عن القيام بما أمر به، كما ورد لتليل النهي عن الدخول في الإمارة بذلك في بعض الأحاديث الصحيحة، وأما مخالطتهم والدخول عليهم لجلب مصلحة عامة أو خاصة، أو نفع مفسدة عامة أو خاصة، مع كراهة ما هم عليه من الظلم، عدم ميل النفس إليهم ومحبتها لهم، وكراهة المواصله لهم لولا جلب تلك المصلحة أو نفع تلك المفسدة، فعلى فرض صق مسمى الركون على هذا، فهو مخصص بالأدلة الدالة على مشروعية جلب المصالح ودفع المفاسد، والأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، ولا تخفى على الله خافية؛ وبالجمله فمن ابتلي بمخالطة من فيه ظلم، فعليه أن يزن أقواله وأفعاله، وما يأتي وما يذر بميزان الشرع، فإن زاغ عن ذلك: «فعلى نفسها براقش تجني» ومن قدر على الفرار منهم قبل أن يؤمر من جهتهم بأمر يجب عليه طاعته، فهو الأولى له والأليق به.

يا مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين، لجعلنا من عبانك الصالحين الأمرين بالمعروف الناهين عن المنكر الذين لا يخافون فيك لومة لائم، وقونا على ذلك ويسره لنا، وأعنا عليه. قال القرطبي في تفسيره: وصحبة الظالم على التقية مستثناة من النهي بحال الاضطرار. انتهى. وقال النيسابوري في تفسيره: قال المحققون: الركون المنهي عنه

فقال الرجل: يا رسول الله ألي هذه؟ قال: هي لمن عمل بها من أمتي. وأخرج أحمد، ومسلم، وأبو داود وغيرهم عن أبي أمامة: «أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أقم في حذ الله مرة أو مرتين، فأعرض عنه، ثم أقيمت الصلاة، فلما فرغ قال: أين الرجل؟ قال: أنا ذا، قال أتممت الوضوء وصليت معنا أنفاً؟ قال: نعم. قال: فإنك من خطيئتك كيوم ولدتك أمك فلا تعد، وأنزل الله حينئذ على رسوله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ﴾». وفي الباب أحاديث كثيرة بالفاظ مختلفة، ووردت أحاديث أيضاً: «إن الصلوات الخمس كفارات لما بينهن». وأخرج ابن أبي حاتم، عن الحسن، في قوله: ﴿نَلَكَ نَذْرٌ لِلذَّكَرِينَ﴾ قال: هم الذين ينكرون الله في السراء والضراء، والشدة والرخاء، والعافية والبلاء. وأخرج ابن المنذر، عن ابن جريج قال: لما نزع الذي قبل المرأة تذكر، فذلك قوله: ﴿نَذْرٌ لِلذَّكَرِينَ﴾.

قَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقَعًا بِبَهْتٍ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ آمَنَ مِنْهُمْ وَأَتَى الْذِكْرَ ظَلَمُوا مَا أَتَوْا بِهِ وَكَانُوا تَجَرِبِينَ ﴿١٠٠﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصِيعُونَ ﴿١٠١﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَاؤُونَ مَخَافَتَكَ ﴿١٠٢﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَوَعَّتْ كَلِمَةَ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٠٣﴾ وَكَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّئُ بِهِ مُوَدِّعًا وَجَاهِدًا فِي هَذِهِ آخِذٌ بِالْحَقِّ وَنَاصِيحَةٌ وَكَرِهِي لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ آمِنُوا عَلٰى مَكَاتِبِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَانظُرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَلَقَدْ عَهِدَ اللَّهُ لِلَّذِينَ تَلَذَّثُوا بِالْحَيَاةِ أَن يَمْسِكُوا بِالْأَرْوَاحِ وَأَن يَتَذَكَّرُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا قُلْ إِنَّمَا الْإِنسَانُ أُفْرَاتٌ مُّذْ بَدَأَهُ رَبَّهُ لِئَلَّا يَكْفُرَ بِالْحَقِّ وَتَبَيَّنَ الْفُتُونُ ﴿١٠٧﴾

هذا عود إلى أحوال الأمم الخالية لبيان أن سبب حلول عذاب الاستئصال بهم أنه ما كان فيهم من ينهى عن الفساد ويامر بالرشاد، فقال: ﴿فَلَوْلَا﴾ أي: فهلا ﴿كَانَ مِنَ الْقُرُونِ﴾ الكائنة ﴿مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقَعًا﴾ من الرأي والعقل والدين ﴿يَبْهَتُونَ﴾ قومهم ﴿عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ ويمنعونهم من ذلك، لكنهم ممن جمع الله له بين جودة العقل، وقوة الدين، وفي هذا من التوبيخ للكفار ما لا يخفى، والبقية في الأصل لما يستبقيه الرجل مما يخرج، وهو لا يستبقي إلا أجوده وأفضله، فصار لفظ البقية مثلاً في الجودة، والاستثناء في ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ منقطع: أي: لكن قليلاً ﴿مِمَّنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾ ينهون عن الفساد في الأرض. وقيل هو متصل لأن في حرف التحضيض معنى النفي، فكانه قال: ما كان في القرون أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلاً ممن أنجينا منهم، ومن في ممن أنجينا ببيانة لأنه لم ينج إلا الناهون؛ قيل: هؤلاء القليل هم قوم يونس لقوله فيما مر: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ [يونس: 98] وقيل: هم أتباع الأنبياء وأهل الحق من الأمم على العموم ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَوْا فِيهِ﴾ معطوف على مَقَرُّ يَتَضَيِّعُ الكلام، تقدير: إلا قليلاً ممن أنجينا منهم نهوا عن الفساد؛

نصيبهم غير منقوص﴾ قال: ما قَدَّرَ لهم من خير أو شر. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن زيد، في الآية قال: من العذاب. وأخرجنا عن أبي العالية. قال من الرزق. وأخرجنا أيضاً عن قتادة في قوله: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ قال: أمر الله نبيه أن يستقيم على أمره، ولا يطغى في نعمته، وأخرج أبو الشيخ، عن سفيان، في الآية قال: استقم على القرآن. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الحسن، قال: لما نزلت هذه الآية ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ قال: شمروا شمروا فما رؤي ضاحكاً. وأخرج ابن المنذر، عن ابن جريج ﴿وَمَنْ تَابَ مَعَكُمْ﴾ قال: آمن. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن العلاء بن عبد الله بن بدر، في قوله: ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾ قال: لم يرد أصحاب النبي ﷺ إنما عني الذين يجيئون من بعدهم. وأخرج أبو الشيخ، عن ابن عباس ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾ يقول: لا تظلموا. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن زيد، قال: الطغيان. خلاف أمره وأرتكاب معصيته. وأخرج ابن جريج، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ قال: يعني الركون إلى الشرك. وأخرج ابن جريج، وابن المنذر عنه ﴿وَلَا تَرْكَنُوا﴾ قال: لا تميلوا. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه، أيضاً قال: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا﴾ لا تدهنوا. وأخرج أبو الشيخ، عن عكرمة، في الآية قال: أن تطيعوهم أو تؤنؤهم أو تصطنعوهم. وأخرج ابن جريج، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ﴾ قال: صلاة المغرب والغداة ﴿وَزُلْفَىٰ مِنَ اللَّيْلِ﴾ قال: صلاة العتمة. وأخرجنا عن الحسن قال الفجر والعصر ﴿وَزُلْفَىٰ مِنَ اللَّيْلِ﴾ قال: هما زلفتان: صلاة المغرب وصلاة العشاء. قال: وقال رسول الله ﷺ:

«هما زلفتا الليل». وأخرج عبد الرزاق، وابن جريج، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد في الطرفين قال: صلاة الفجر، وصلاتي العشي، يعني الظهر والعصر ﴿وَزُلْفَىٰ مِنَ اللَّيْلِ﴾ قال: المغرب والعشاء. وأخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿وَزُلْفَىٰ مِنَ اللَّيْلِ﴾ قال: ساعة بعد ساعة، يعني صلاة العشاء الآخرة. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جريج، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس أنه كان يستحب تأخير العشاء، ويقرأ زلفاً من الليل. وأخرج ابن جريج، ومحمد بن نصر، وابن مردويه، عن ابن مسعود، في قوله: ﴿إِنْ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ قال: الصلوات الخمس. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وابن أبي شيبه، ومحمد بن نصر، وابن جريج، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس ﴿إِنْ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ قال: الصلوات الخمس، والباقيات الصالحات: الصلوات الخمس. وأخرج البخاري ومسلم، وأهل السنن وغيرهم عن ابن مسعود: أن رجلاً أصاب من امرأة قبله، فأتى النبي ﷺ، فنكر ذلك له كأنه يسأل عن كفارتها، فأنزلت عليه: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَىٰ مِنَ اللَّيْلِ﴾

الذي لا حق غيره، أو إلا من رحم ربك بالقناعة. والأولى تفسير لجعل الناس أمة واحدة بالمجموعة على الحق حتى يكون معنى الاستثناء في ﴿إلا من رحم ربك﴾ واضحاً غير محتاج إلى تكلف ﴿ولذلك﴾ أي: لما نكر من الاختلاف ﴿خلقهم﴾ أو ولرحمته خلقهم. وصحّ تنكير الإشارة إلى الرحمة لكون تانيثها غير حقيقي، والضمير في خلقهم راجع إلى الناس، أو إلى من في من رحم ربك؛ وقيل الإشارة بذلك إلى مجموع الاختلاف والرحمة، ولا مانع من الإشارة بها إلى شيئين كما في قوله: ﴿عوان بين ذلك﴾ [البقرة: 68]، ﴿وابتغ بين ذلك سبيلاً﴾ [الإسراء: 110] ﴿فبذلك فليفرحوا﴾ [يونس: 58]. قوله: ﴿وتعت كلمة ربك﴾ معنى تمت ثبتت، كما قدره في أزلها، وإذا تمت امتنعت من التغيير والتبديل، وقيل: الكلمة هي قوله: ﴿لأملأن جهنم من الجنة والنفس لجمعين﴾ أي: ممن يستحقها من الطائفتين، والتنوين في ﴿وكلاً﴾ للتعويض عن المضاف إليه، وهو منصوب بنقص. والمعنى: وكل نبا من أنباء الرسل مما يحتاج إليه نقص عليك: أي خبرك به. وقال الأخفش: ﴿كلاً﴾ حال مقدّمة كقولك: كلاً ضربت القوم، والأنباء الأخبار ﴿ما نثبت به فؤادك﴾ أي: ما نجعل به فؤادك مثبّطاً بزيادة يقينه بما قصصناه عليك، ووفور طمأنينته، لأن كثائر الآلة أثبت للقلب وأرسخ في النفس وأقوى للعلم، وجملة: ﴿ما نثبت﴾ بدل من أنباء الرسل، وهو بيان لكلاً، ويجوز أن يكون ﴿ما نثبت﴾ مفعولاً لنقص، ويكون ﴿كلاً﴾ مفعولاً مطلقاً، والتقدير: كل أسلوب من أساليب الاقتصاد نقص عليك ما نثبت به فؤادك ﴿وجاءك في هذه الحق﴾ أي: جاك في هذه السورة، أو في هذه الأنباء البراهين القاطعة الدالة على صحة المبدأ والمعاد ﴿وموعظة﴾ يتعظ بها الواقف عليها من المؤمنين ﴿ونذكر﴾ يتذكر بها من تفكر فيها منهم، وخصّ المؤمنين لكونهم المتأهلين للاتعاظ والتذكر؛ وقيل المعنى: وجاءك في هذه الدنيا الحق، وهو النبوة؛ وعلى التفسير الأول، يكون تخصص هذه السورة بمجيء الحق فيها مع كونه قد جاء في غيرها من السور، لقصد بيان اشتمالها على ذلك، لا بيان كونه موجوداً فيها بون غيرها ﴿وقل للذين لا يؤمنون﴾ بهذا الحق، ولا يتعظون، ولا يتذكرون ﴿اعملوا على مكانتكم﴾ على تمكنكم وحالكم وجهتكم، وقد تقدّم تحقيقه ﴿إنّا عاملون﴾ على مكانتنا وحالنا وجهتنا من الإيمان بالحق، والاتعاظ، والتذكر، وفي هذا تشديد للوعيد والتهديد لهم، وكذلك قوله: ﴿وانتظروا إنّا منتظرون﴾ فيه من الوعيد والتهديد ما لا يخفى. والمعنى: انتظروا عاقبة أمرنا فإنّا منتظرون عاقبة أمركم وما يحلّ بكم من عذاب الله وعقوبته ﴿ووه غيب السموات والأرض﴾ أي: علم جميع ما هو غائب عن العباد فيهما، وخصّ الغيب من كونه يعلم بما هو مشهود، كما يعلم بما هو مغيب، لكونه من العلم الذي لا يشاركه فيه غيره؛ وقيل: إن غيب السموات والأرض: نزول العذاب من السماء وطلوعه من الأرض،

والمعنى: أنه اتبع الذين ظلموا بسبب مباشرتهم الفساد وتركهم للنهي عنه ما أترفوا فيه. والمترف: الذي أبطرتة النعمة، يقال صبي مترف: منعم البدن، أي صاروا تابعين للنعم التي صاروا بها مترفين من خصب العيش، ورفاهية الحال وسعة الرزق، وآثروا ذلك على الاشتغال بأعمال الآخرة واستغفروا أعمارهم في الشهوات النفسانية؛ وقيل المراد بالذين ظلموا: تاركو النهي. وردّ بأنه يستلزم خروج مباشري الفساد عن الذين ظلموا وهم أشدّ ظلماً ممن لم يباشروا، وكان ذنبه ترك النهي. وقرأ أبو عمرو في رواية عنه: «واتبع الذين ظلموا» على البناء المفعول، ومعناه: اتبعوا جزء ما أترفوا فيه، وجملة: ﴿وكانوا مجرمين﴾ متضمنة لبيان سبب إهلاكهم، وهي معطوفة على أترفوا: أي وكان هؤلاء الذين اتبعوا ما أترفوا فيه مجرمين، والإجرام الأثام. والمعنى: أنهم أهل إجرام بسبب اتباعهم الشهوات، واشتغالهم بها عن الأمور التي يحق الاشتغال بها، ويجوز أن تكون جملة: ﴿وكانوا مجرمين﴾ معطوفة على واتبع الذين ظلموا: أي اتبعوا شهواتهم، وكانوا بذلك الاتباع مجرمين ﴿وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون﴾ أي: ما صحّ ولا استقام أن يهلك الله سبحانه أهل القرى بظلم يتلبسون به وهو الشرك، والحال أن أهلها مصلحون فيما بينهم في تعاطي الحقوق لا يظلمون الناس شيئاً. والمعنى: أنه لا يهلكهم بمجرد الشرك وحده حتى ينضمّ إليه الفساد في الأرض، كما أهلك قوم شعيب بنقص المكيال والميزان وبخس الناس أشياءهم، وأهلك قوم لوط بسبب ارتكابهم للفاحشة الشنعاء؛ وقيل إن قوله: ﴿بظلم﴾ حال من الفاعل. والمعنى: وما كان الله ليهلك القرى ظالماً هم حال كونهم مصلحين غير مفسدين في الأرض، ويكون المراد بالآية تنزيهه سبحانه وتعالى عن صدور ذلك منه بلا سبب يوجب، على تصوير ذلك بصورة ما يستحيل منه، وإلا فكل أفعاله كائنة ما كانت لا ظلم فيها، فإنه سبحانه ليس بظلام للعبيد. قال الزجاج: يجوز أن يكون المعنى: وما كان ربك ليهلك أحداً وهو يظلمه، وإن كان على نهاية الصلاح لأن تصرفه في ملكه، دليله قوله تعالى: ﴿إن الله لا يظلم الناس شيئاً﴾ [يونس: 44] وقيل المعنى: وما كان ليهلكهم بنزولهم وهم مصلحون: أي مخلصون في الإيمان، فالظلم المعاصي على هذا ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة﴾ أي: أهل دين واحد، إما أهل ضلالة، أو أهل هدى؛ وقيل معناه: جعلهم مجتمعين على الحق غير مختلفين فيه، أو مجتمعين على دين الإسلام دون سائر الأديان، ولكنه لم يشأ ذلك فلم يكن، ولهذا قال: ﴿ولا يزالون مختلفين﴾ في ذات بينهم على أديان شتى، أو لا يزالون مختلفين في الحق أو دين الإسلام؛ وقيل مختلفين في الرزق: فهذا غني. وهذا فقير ﴿إلا من رحم ربك﴾ بالهداية إلى الدين الحق، فإنهم لم يختلفوا، أو إلا من رحم ربك من المختلفين في الحق أو دين الإسلام، بهديته إلى الصواب الذي هو حكم الله، وهو الحق

يختلف، وفريقاً لا يرحم يختلف، فلنك قوله: ﴿فمنهم شقي وسعيد﴾ [هود: 105]. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن ابن جرير، في قوله: ﴿وكلنا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك﴾ لتعلم يا محمد ما لقيت الرسل قبلك من أمهم. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه من طرق، عن ابن عباس، قال: ﴿وجاءك في هذه الحق﴾ قال: في هذه السورة. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن أبي موسى الأشعري مثله. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن سعيد بن جبيرة مثله أيضاً. وأخرج أبو الشيخ عن الحسن مثله. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة، قال في هذه الدنيا. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة ﴿اعملوا على مكانتكم﴾ أي: منازلكم. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن جرير ﴿وانتظروا إنا منتظرين﴾ قال: يقول انتظروا مواعيد الشيطان إياكم على ما يزين لكم، وفي قوله: ﴿والله يرجع الأمر كله﴾ قال: فيقضي بينهم بحكم العدل. وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد المسند، وابن الضريس في فضائل القرآن، وابن جرير، وأبو الشيخ، عن كعب قال: فاتحة التوراة فاتحة الأنعام، وخاتمة التوراة خاتمة هود ﴿ووه غيب السموات والأرض﴾ إلى آخر الآية.

تفسير سورة يوسف (١)

وهي مكية كلها، وقيل: نزلت ما بين مكة والمدينة وقت الهجرة. وقال ابن عباس في رواية عنه وقاتلة: إلا أربع آيات. وأخرج النحاس وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة يوسف بمكة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. وأخرج الحاكم وصححه عن رفاعه بن رافع الزرقاني: أنه خرج هو وابن خالته معاذ بن عفراء حتى قدما مكة، ونكر قصة وفي آخرها أن رسول الله ﷺ علمهما سورة يوسف، و ﴿اقرأ باسم ربك﴾ [العلق: 1]، ثم رجعا. وأخرج البيهقي في الدلائل من طريق الكلبي عن أبي صالح، عن ابن عباس: «أن حبراً من اليهود دخل على رسول الله ﷺ، فوافقه وهو يقرأ سورة يوسف، فقال: يا محمد من علمكما؟ قال: الله علمنيها، فعجب الحبر لما سمع منه، فرجع إلى اليهود، فقال لهم: والله إن محمداً ليقرأ القرآن كما أنزل في التوراة، فانطلق بنفر منهم حتى دخلوا عليه فعرّفوه بالصفة، ونظروا إلى خاتم النبوة بين كتفيه، فجعلوا سمعهم إلى

والأول: أولى، وبه قال أبو علي الفارسي وغيره، وأضاف الغيب إلى المفعول توسعاً ﴿والله يرجع الأمر كله﴾ أي: يوم القيامة فيجازي كلأ بعمله. وقرأ نافع وحفص «يرجع» على البناء للمفعول. وقرأ الباقر على البناء للمفاعل ﴿فاعبده وتوكل عليه﴾ فإنه كافيك كل ما تكره، ومعطيك كل ما تحب، والفاء لترتيب الأمر بالعباد، والتوكل على كون مرجع الأمور كلها إلى الله سبحانه ﴿وما ربك بغافل عما تعملون﴾ بل عالم بجميع ذلك، ومجاز عليه إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. وقرأ أهل المدينة والشام وحفص ﴿تعملون﴾ بالفوقية على الخطاب. وقرأ الباقر بالتحتية.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن أبي مالك، في قوله: ﴿فلولا﴾ قال: فهلا. وأخرج ابن مردويه، عن أبي بن كعب، قال: أقراني رسول الله ﷺ: فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية، وأحلام، ينهون عن الفساد في الأرض. وأخرج أبو الشيخ، عن ابن جرير ﴿إلا قليلاً ممن أنجينا منهم﴾ يستقلهم الله من كل قوم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد ﴿وتتبع الذين ظلموا ما ترفوا فيه﴾ قال: في ملكهم وتجبرهم، وتركهم الحق. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ من طريق ابن جرير، قال: قال ابن عباس: أترفوا فيه أبطروا فيه، وأخرج الطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والديلمي عن جرير، قال: «سمعت رسول الله ﷺ يستل عن تفسير هذه الآية ﴿وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون﴾ فقال رسول الله ﷺ: وأهلها ينصف بعضهم بعضاً». وأخرجه ابن أبي حاتم، والخرائطي في مسأوي الأخلاق موقوفاً على جرير. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الضحاك ﴿ولو شاء ربك لجعل للناس أمة واحدة﴾ قال: أهل نين واحد أهل ضلالة أو أهل هدى. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس ﴿ولا يزالون مختلفين﴾ قال: أهل الحق وأهل الباطل ﴿إلا من رحم ربك﴾ قال: أهل الحق ﴿ولذلك خلقهم﴾ قال: للرحمة. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، عنه ﴿إلا من رحم ربك﴾ قال: إلا أهل رحمته فإنهم لا يختلفون. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه، قال: لا يزالون مختلفين في الأهواء. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن عطاء بن أبي رباح ﴿ولا يزالون مختلفين﴾ أي: اليهود والنصارى والمجوس والحنيفية، وهم الذين رحم ربك الحنيفية. وأخرج هؤلاء عن الحسن في الآية قال: الناس مختلفون على أنيان شتى إلا من رحم ربك، فمن رحم ربك غير مختلف ﴿ولذلك خلقهم﴾ قال: للاختلاف. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن مجاهد ﴿ولا يزالون مختلفين﴾ قال: أهل الباطل ﴿إلا من رحم ربك﴾ قال: أهل الحق ﴿ولذلك خلقهم﴾ قال: للرحمة. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن عكرمة نحوه. وأخرج عن الحسن قال: لا يزالون مختلفين في الرزق. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، ولذلك خلقهم قال: خلقهم فريقين فريقاً يرحم فلا

(1) (تنبيه) جرى المفسر رحمه الله في ضبط ألفاظ القرآن في تفسيره هذا على رواية نافع مع تعرضه للقراءات السبع وإثبتنا القرآن طبق رسم المصحف العثماني.

قصصاً أحسن القصص، فيكون بمعنى الاختصاص، أو هو بمعنى المفعول أي: المقصوص، ﴿بما أوحينا إليك﴾ أي: بإحاثنا إليك ﴿هذا القرآن﴾ وانتصاب القرآن على أنه صفة لاسم الإشارة، أو بدل منه، أو عطف بيان، وأجاز الزجاج الرفع على تقدير مبتدأ، وأجاز الفراء الجر، ولعل وجهه أن يقدّر حرف الجر في بما أوحينا داخلاً على اسم الإشارة، فيكون المعنى: نحن نقص عليك أحسن القصص بهذا القرآن، ﴿وإن كنت من قبيله لمن الغافلين﴾ إن هي المخففة من الثقلية بليل اللام الفارقة بينها وبين النافية، والضمير في من قبله عائد على الإحياء المفهوم من أوحينا، والمعنى: أنك قبل إحيائنا إليك من الغافلين عن هذه القصة.

واختلف في وجه كون ما في هذه السورة هو أحسن القصص، فقيل: لأن ما في هذه السورة من القصص يتضمن من العبر والمواظ والحكم ما لم يكن في غيرها؛ وقيل: لما فيها من حسن المحاورة وما كان من يوسف عليه السلام من الصبر على أذاهم وعفوه عنهم، وقيل: لأن فيها نكر الأنبياء والصالحين والملائكة والشياطين والجن والإنس والآنعام والطير وسير الملوك والمماليك والتجار والعلماء والجهال والرجال والنساء وحيلهن ومكرهن؛ وقيل: لأن فيها نكر الحبيب والمحبوب وما دار بينهما؛ وقيل: إن أحسن هنا بمعنى أعجب؛ وقيل: إن كل من نكر فيها كان ماله السعادة. قوله: ﴿إذ قال يوسف لأبيه﴾ إذ منصوب على الظرفية بفعل مقدر، أي: أنكر وقت قال يوسف، قرأ الجمهور (يوسف) بضم السين، وقرأ طلحة بن مصرف بكسرهما مع الهمز مكان الواو، وحكى ابن زيد الهمز وفتح السين، وهو غير منصرف للجملة والعلمية، وقيل: هو عربي. والأول أولى بليل عدم صرفه، ﴿لأبيه﴾ أي: يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ﴿يا أبت﴾ بكسر التاء في قراءة أبي عمرو وعاصم وحزمة والكسائي ونافع وابن كثير، وهي عند البصريين علامة التانيث، ولحقت في لفظ أب في النداء خاصة بدلاً من الباء وأصله يا أبي، وكسرهما للدلالة على أنها عوض عن حرف يناسب الكسر، وقرأ ابن عامر بفتحها، لأن الأصل عنده يا أبتا، ولا يجمع بين العوض والمعوّض، فيقال يا أبتي، وأجاز الفراء يا أبت بضم التاء، ﴿إني رأيت﴾ من الرؤيا النومية لا من الرؤيا البصرية كما يدل عليه ﴿لا تقصص رؤياك على إخوتك﴾. قوله: ﴿أحد عشر كوكبا﴾ قرئ بسكون العين تخفيفاً لتوالي الحركات، وقرأ بفتحها على الأصل ﴿والشمس والقمر﴾ إنما أخرهما عن الكواكب لإظهار مزيتها وشرفهما كما في عطف جبريل وميكائيل على الملائكة، وقيل: إن الواو بمعنى مع، وجملة ﴿رأيتهم لي ساجدين﴾ مستأنفة لبيان الحالة التي رآهم عليها، وأجريت مجرى العقلاء في الضمير المختص بهم لوصفها بوصف العقلاء، وهو كونها ساجدة، كذا قال الخليل وسيبويه، والعرب تجمع ما لا يعقل جمع من يعقل إذا أنزلوه منزلته، ﴿قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك﴾ الرؤيا

قراءته لسورة يوسف فتعجبوا منه، وأسلموا عند ذلك.. وأخرج الثعلبي عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «علموا أقاربكم سورة يوسف، فإنه أيما مسلم تلاها أو علمها أهله وما ملكت يمينه هو أن الله عليه سكرات الموت، وأعطاه القوة أن لا يحسد مسلماً». وفي إسناده سلام بن سالم، ويقال: ابن سليم المدائني، وهو متروك عن هارون بن كثير. قال أبو حاتم: مجهول، وقد نكر له الحافظ ابن عساكر متابعا من طريق القاسم بن الحكم عن هارون بن كثير، ومن طريق شبابة عن مجلز بن عبد الواحد البصري، عن علي بن زيد بن جدعان، وعن عطاء بن ميمون، عن نر بن حبيش، عن أبي بن كعب مرفوعاً فذكر نحوه، وهو منكر من جميع طرقه. قال القرطبي: قال سعد بن أبي وقاص: أنزل القرآن على رسول الله ﷺ فتلاه عليهم زماناً، فقالوا: لو حدثنا، فنزل قوله تعالى: ﴿الله نزل أحسن الحديث﴾ [الزمر: 23]. قال: قال العلماء: ونكر الله أقاصيص الأنبياء في القرآن، وكثرها بمعنى واحد في وجوه مختلفة، بالفاظ متباينة على درجات البلاغة. وقد نكر قصة يوسف ولم يكرها، فلم يقدر مخالف على معارضة ما تكرر، ولا على معارضة غير المتكرر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ الْكَافِرُ الْيَمِينُ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ عَنْ نَفْسٍ عَلَيْكَ أَحْسَنُ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ التَّعْبِيلِ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَبْنَؤُكَ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ يَجْنِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُرِيكَ بِمِصْرَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلٍ يَعْقُوبَ كَمَا أَتْنَاهَا عَلَى أَوَّلِكَ مِنْ قَبْلِ إِبراهيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾

قوله: ﴿الر﴾ قد تقدم الكلام فيه في فاتحة سورة يونس، والإشارة بقوله: ﴿ذلك﴾ إلى آيات السورة، والكتاب المبين السورة، أي: تلك الآيات التي أنزلت إليك في هذه السورة آيات السورة الظاهر أمرها في إعجاز العرب وتبكيتهن، والمبين من أبان بمعنى بان، أي: الظاهر أمره في كونه من عند الله وفي إعجازه، أو المبين بمعنى الواضح المعنى بحيث لا يلتبس على قارئه وسماعه، أو المبين لما فيه من الأحكام، ﴿إنما أنزلناه﴾ أي: الكتاب المبين حال كونه ﴿قرآنًا عربيًّا﴾، فعلى تقدير أن الكتاب السورة تكون تسميتها قرآنًا باعتبار أن القرآن اسم جنس يقع على الكل وعلى البعض، وعلى تقدير أن المراد بالكتاب كل القرآن، فتكون تسميته قرآنًا واضحة، وعربياً صفة قرآنًا أي: على لغة العرب، ﴿لعلكم تعقلون﴾ أي: لكي تعلموا معانيه، وتفهموا ما فيه ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص﴾ القصص تتبع الشيء، ومنه قوله تعالى: ﴿وقالت لأخته قصيه﴾ [القصص: 11]، أي: تتبعي أثره وهو مصدر، والتقدير: نحن نقص عليك

على طريق الإجمال، أو علم ذلك من طريق الوحي، أو عرفه بطريق الفراسة وما تقتضيه المخاليل اليوسفية.

وقد أخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ قال: بين الله حلاله وحرامه، وأخرج ابن جرير عن معاذ قال: بين الله الحروف التي سقطت عن اللسان الأعاجم، وهي ستة أحرف، وأخرج الحاكم عن جابر: أن رسول الله ﷺ تلا قرآناً عربياً، ثم قال رسول الله ﷺ: «لهم إسماعيل هذا اللسان العربي إلهاماً». وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد قال: نزل القرآن بلسان قريش، وهو كلامهم. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: قالوا يا رسول الله لو قصصت علينا، فنزلت ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾. وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود مثله، وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ قال: من الكتب الماضية وأمور الله السالفة في الأمم، ﴿وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي: من قبل هذا القرآن ﴿لَمَنْ الْغَافِلِينَ﴾. وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ قال: القرآن. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كُوكِباً﴾ قال: رؤيا الأنبياء وحى. وأخرج سعيد بن منصور، والبزار، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والعقيلي، وابن حبان في الضعفاء، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي عن جابر بن عبد الله قال: «جاء بستانى اليهودي إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد أخبرني عن الكواكب التي رآها يوسف ساجدة له ما أسماؤها؟ فسكت النبي ﷺ فلم يجبه بشيء، فنزل عليه جبريل فأخبره بأسمائها، فبعت رسول الله ﷺ إلى البستانى اليهودي فقال: هل أنت مؤمن إن أخبرتك بأسمائها؟ قال: نعم، قال: خرثان، والطارق، والنيال، ونو الكتفان، وقابس، ووثاب، وعمودان، والفيلق، والمصباح، والضروح، ونو الفرغ، والضياء، والنور: رآها في أفق السماء ساجدة له، فلما قص يوسف على يعقوب قال: هذا أمر مشئت يجمعه الله من بعد، فقال اليهودي: إي والله إنها لأسماؤها، هكذا ساقه السيوطي في الدر المنثور، وأما ابن كثير فجعل قوله: «فلما قص إلخ»، رواية منفردة وقال: تفرد بها الحكم بن ظهيرة الفزاري، وقد ضعفوه وتركه الاكثرون. وقال الجوزجاني: ساقط. وقال ابن الجوزي: هو موضوع. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿أَحَدَ عَشَرَ كُوكِباً﴾ قال: إخوته، والشمس قال: أمه، والقمر قال: أبوه. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وأبو الشيخ، عن قتادة نحوه. وأخرج ابن جرير عن السدي نحوه أيضاً. وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس ﴿وَكُنْكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ قال: يصطفيك. وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة مثله، وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد

مصدر رأى، في المنام رؤيا على وزن فعلى كالسقيا والبشرى، وألفه للتأنيث ولذلك لم يصرف، نهى يعقوب عليه السلام ابنه يوسف عن أن يقصّ رؤياه على إخوته، لأنه قد علم تأويلها وخاف أن يقصها على إخوته فيفهمون تأويلها، ويحصل منهم الحسد له، ولهذا قال: ﴿فِيكُونُوا لَكَ كِيداً﴾ وهذا جواب النهي وهو منصوب بإضمار أن، أي: فيفعلوا لك، أي: لأجلك كيداً مثبتاً راسخاً لا تقدر على التخلص منه، أو كيداً خفياً عن فهمك، وهذا المعنى الحاصل بزيادة اللام أكد من أن يقال: فيكيدوا كيداً؛ وقيل: إنما جيء باللام لتضمينه معنى الاحتيال المتعدي باللام، فيفيد هذا التضمن معنى الفعلين جميعاً الكيد والاحتيال كما هو القاعدة في التضمنين أن يقدر أحدهما أصلاً والآخر حالاً، وجملة ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ مستأنفة، كان يوسف عليه السلام قال: كيف يقع منهم، فنبهه بأن الشيطان يحملهم على ذلك، لأنه عدو للإنسان مظهر للعنوة مجاهر بها. قوله: ﴿وَكُنْكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ أي مثل ذلك الاجتباء البين الذي رأيته في النوم، من سجود الكواكب والشمس والقمر يجتبيك ربك، ويحقق فيك تأويل تلك الرؤيا، فيجعلك نبياً ويصطفيك على سائر العباد، ويسخرهم لك كما تسخرت لك تلك الأجرام التي رأيتهما في منامك فصارت ساجدة لك. قال النحاس: والاجتباء أصله من جبيت الشيء حصلته، ومنه جبيت الماء في الحوض جمعته، ومعنى الاجتباء: الاصطفاء، وهذا يتضمن الثناء على يوسف وتعبيد نعم الله عليه، ومنها ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ أي: تأويل الرؤيا. قال القرطبي: واجمعوا أن ذلك في تأويل الرؤيا، وقد كان يوسف عليه السلام أعلم الناس بتأويلها، وقيل المراد: ويعلمك من تأويل أحاديث الأمم والكتب، وقيل المراد به: إحوال إخوته إليه، وقيل: إنجازه من كل مكروه، وقيل: إنجازه من القتل خاصة، ﴿وَيَتِمَّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ﴾ فيجمع لك بين النبوة والملك كما تدل عليه هذه الرؤيا التي أراك الله، أو يجمع لك بين خيرى الدنيا والآخرة ﴿وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ﴾ وهم قرابته من إخوته وأولاده ومن بعدهم، وذلك أن الله سبحانه أعطاهم النبوة كما قاله جماعة من المفسرين، ولا يبعد أن يكون إشارة إلى ما حصل لهم بعد دخولهم مصر من النعم التي من جعلتها كون الملك فيهم مع كونهم أنبياء ﴿كَمَا أَتَمَمَّا عَلَى أَبَوَيْكَ﴾ أي: إتماماً مثل إتمامها على أبويك: وهي نعمة النبوة عليهما، مع كون إبراهيم اتخذ الله خليلاً، ومع كون إسحاق نجاه الله سبحانه من التبع وصار لهما الذرية الطيبة: وهم يعقوب، ويوسف، وسائر الأسباط، ومعنى ﴿مَنْ قَبْلُ﴾ من قبل هذا الوقت الذي أنت فيه، أو من قبلك، وإبراهيم وإسحق عطف بيان لأبويك، وعبر عنهما بالأبوين مع كون أحدهما جداً. وهو إبراهيم، لأن الجد أب، ﴿إِنْ رَبُّكَ عَلِيمٌ﴾ بكل شيء ﴿حَكِيمٌ﴾ في كل أفعاله، والجملة مستأنفة مقررة لمضمون ما قبلها تعليلاً له، أي: فعل ذلك لأنه عليم حكيم، وكان هذا كلام من يعقوب مع ولده يوسف تعبيراً لرؤياه

«ويعلمك من تأويل الأحاديث» قال: عبارة الرؤيا. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن زيد «ويعلمك من تأويل الأحاديث» قال: تأويل العلم والحلم، وكان يوسف من أعبر الناس. وأخرج ابن جرير عن عكرمة «كما تهما على أيوبك» قال: فنعمته على إبراهيم: أن نجاه من النار، وعلى إسحاق: أن نجاه من الذبح.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلْمُتَذَكِّرِينَ﴾ ١٠ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنَّا وَغَضِبَ عَلَيْهِ إِذْ بَايَأَ لِيَّيْكَ شَيْئًا ١١ أَتَيْنَاهُ يُوسُفُ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَبْلُغُ لَكُمْ رَبِّهَ أَيْكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَدِيدٍ قَوْمًا مُّصِلِينَ ١٢ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطَهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ١٣

أي: «لقد كان» في قصتهم علامات دالة على عظيم قدرة الله وبيع صنعه «للمسائلين» من الناس عنها، وقرأ أهل مكة (آية) على التوحيد، وقرأ الباقون على الجمع، واختار قراءة الجمع أبو عبيد. قال النحاس: وآية ما هنا قراءة حسنة؛ وقيل: المعنى لقد كان في يوسف وإخوته آيات دالة على نبوة محمد ﷺ للمسائلين له من اليهود، فإنه روي أنه قال له جماعة من اليهود وهو بمكة: أخبرنا عن رجل من الأنبياء كان بالشام أخرج ابنه إلى مصر فبكى عليه حتى عمي، ولم يكن بمكة أحد من أهل الكتاب ولا من يعرف خبر الأنبياء، وإنما وجهوا إليه من أهل المدينة من يسأله عن هذا، فانزل الله سورة يوسف جملة واحدة كما في التوراة. وقيل: معنى «آيات للمسائلين» عجب لهم، وقيل: بصيرة. وقيل: عبرة. قال القرطبي: وأسماؤهم يعني: إخوة يوسف: روبيل، وهو أكبرهم، وشمعون، ولاوي، ويهوذا، وريالون، ويشجر، وأهمم ليا بنت ليان وهي بنت خال يعقوب، وولد له من سريتين أربعة، وهم: دان، ونفتالي، وجاد، وأشر، ثم ماتت ليا فتزوج يعقوب أختها راحيل فولدت له يوسف، وبنيامين. وقال السهيلي: إن أم يوسف اسمها وقفا، وراحيل ماتت من نفاس بنيامين وهو أكبر من يوسف، «إذ قالوا ليوسف وإخوه» أي: وقت قالوا، والظرف متعلق بكان «أحب إلى لبينا منا» والمراد بقوله «ولخوه» هو بنيامين، وخصوه بكونه أخاه مع أنهم جميعاً إخوته، لأنه أخوه لأبويه كما تقدم، ووحد الخبر فقال: أحب مع تعدد المبتدأ، لأن الفعل التفضيل يستوي فيه الواحد وما فوقه إذا لم يعرف، واللام في ليوسف هي الموطئة للقسم، وإنما قالوا: هذه لأنه بلغهم خبر الرؤيا فأجمع رأيهم على كيدته، وجملة «ونحن عصابة» في محل نصب على الحال، والعصبة: الجماعة، قيل: وهي ما بين الواحد إلى العشرة، وقيل: إلى الخمسة عشر، وقيل: من العشرة إلى الأربعين ولا واحد لها من لفظها بل هي كالنفر والرهط، وقد كانوا عشرة، «إن لبنا» لفي ضلال مبين» أي: لفي ذهاب عن وجه التدبير بالترجيح لهما علينا وإثارهما دوننا مع استوائنا في الانتساب إليه، ولا يصح أن يكون مرادهم أنه في بيته في

ضلال مبين، «أقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً» أي قالوا: أفعلوا به أحد الأمرين: إما القتل، أو الطرح في أرض، أو المشير بالقتل بعضه والمشير بالطرح البعض الآخر، أو كان المتكلم بذلك واحد منهم فوافقه الباقون، فكانوا كالقائل في نسبة هذا المقول إليهم، وانتصاب أرضاً على الظرفية، والتذكير للإيهام: أي أرضاً مجهولة، وجواب الأمر «يخل لكم وجه أبيكم» أي: يصف ويخلص فيقبل عليكم ويحكم حياً كاملاً «وتكونوا» معطوف على يخل، ويجوز أن يكون منصوباً بإضمار أن «من بعده» أي: من بعد يوسف، والمراد بعد الفراغ من قتله أو طرحه، وقيل: من بعد الذنب الذي اقترفوه في يوسف «قوماً صالحين» في أمور دينكم وطاعة أبيكم، أو صالحين في أمور دنياكم لذهاب ما كان يشغلكم عن ذلك، وهو الحسد ليوسف وتكثر خطايركم بتأثيره عليكم هو وأخوه، أو المراد بالصالحين: التائبون من الذنب، «قال قائل منهم» أي: من الإخوة، قيل: هو يهوذا، وقيل: روبيل، وقيل: شمعون «لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابات الجب» قيل وجه الإظهار في لا تقتلوا يوسف استجلاب شفتهم عليه. قرأ أهل مكة وأهل البصرة وأهل الكوفة وأهل الشام (في غيابة الجب) بالإنفراد، وقرأ أهل المدينة (في غيابت) بالجمع، واختار أبو عبيد الإفراد وأنكر الجمع، لأن الموضع الذي القوه فيه واحد. قال النحاس: وهذا تضيق في اللغة، وغيابات على الجمع تجوز، والغيابة: كل شيء غيب عنك شيئاً، وقيل للقبر: غيابة، والمراد به هنا غور البئر الذي لا يقع البصر عليه، أو طاقة فيه. قال الشاعر:

ألا فلبئساً شهرين أو نصف ثالث إلى ذاكما قد غيبتنني غيابيا
والجب: البئر التي لم تطو، ويقال لها قبل الطي ركية، فإذا طويت قيل لها: بئر، سميت جباً لأنها قطعت في الأرض قطعاً، وجمع الجب جبب وجباب وأجباب، وجمع بين الغيابة والجبب مبالغة في أن يلقيه في مكان من الجب شديد الظلمة حتى لا يدركه نظر الناظرين، قيل: وهذه البئر بيت المقدس، وقيل: بالأردن، وجواب الأمر «يلتقطه بعض السيارة» قرأ مجاهد، وأبو رجاء، والحسن، وقتادة (تلتقطه) بالمثناة الفوقية، ووجه أن بعض السيارة سيارة، وحكي عن سيبويه سقطت بعض أصابعه. ومنه قول الشاعر:

أرى من السنين أخذني مني كما أخذ للسرار من الهلال
وقرأ الباقون (يلتقطه) بالتحتيبة، والسيارة: الجمع الذي يسيرون في الطريق، والالتقاط: هو أخذ شيء مشرف على الضياع، وكانهم أرادوا أن بعض السيارة إذا التقطه حمله إلى مكان بعيد بحيث يخفي عن أبيه ومن يعرفه، ولا يحتاجون إلى الحركة بانفسهم إلى المكان البعيد، فربما أن والدهم لا يأتون لهم بذلك، ومعنى: «إن كنتم فاعلين» إن كنتم عاملين بما أشرت به عليكم في أمره، كأنه لم يجزم بالأمر، وبإل وكله إلى ما يجمعون عليه كما يفعله المشير مع من استشاره. وفي هذا دليل على أن إخوة يوسف ما كانوا أنبياء، فإن الأنبياء لا يجوز عليهم التواطؤ على القتل لمسلم

أبانا مالك لا تامنا على يوسف ﴿أي: أي شيء لك لا تجعلنا أمنا عليه، وكانهم قد كانوا سالوه قبل ذلك أن يخرج معهم يوسف فأبى. وقرأ يزيد بن القعقاع، وعمرو بن عبيد، والزهرى (لا تامنا) بالإدغام بغير إشمام. وقرأ طلحة بن مصرف (لا تامنا) بتونين ظاهرتين على الأصل. وقرأ يحيى بن وثاب، وأبو رزين، والأعمش (لا تيمنا) وهو لغة تميم كما تقدم. وقرأ سائر القراء بالإدغام والإشمام ليدل على حال الحرف قبل إدغامه ﴿وإننا له لناصحون﴾ في حفظه وحيطته حتى نردّه إليك ﴿أرسله معنا غداً﴾ أي: إلى الصحراء التي أراؤا الخروج إليها، وغدا ظرف، والأصل عند سيبويه غداة. قال النضر بن شميل: ما بين الفجر وطلوع الشمس يقال له: غداة، وكذا يقال له بكرة ﴿فخرج ونلعب﴾ هذا جواب الأمر. قرأ أهل البصرة وأهل مكة وأهل الشام بالنون وإسكان العين كما رواه البعض عنهم. وقرءوا أيضاً بالاختلاس. وقرأ الباقر بن النون وكسر العين. والقراءة الأولى مأخوذة من قول العرب: رجع الإنسان أو البعير إذا اكل كيف شاء، أو المعنى: نتسع في الخصب، وكل مخصب راتع. قال الشاعر: فارعى فزاره لا هناك المرتع. ومنه قول الشاعر:

فارعى فزاره لا هناك المرتع

ومنه قول الشاعر:

ترتع مارتعت حتى إذا انكرت فإنما هي إقبال وإبهار
والقراءة الثانية مأخوذة من رعي الغنم. وقرأ مجاهد وقتادة (يرتع ويلعب) بالتحية فيهما، ورفع يلعب على الاستئناف، والضمير ليوسف. وقال القتيبي: معنى ترتع نتحارس ونحافظ ويرعى بعضنا بعضاً، من قولهم: رعاك الله أي: حفظك، ونلعب من اللعب. قيل لأبي عمرو بن العلاء: كيف قالوا ونلعب وهم أنبياء؟ فقال: لم يكونوا يومئذ أنبياء، وقيل: المراد به اللعب المباح من الأنبياء، وهو مجرد الانبساط، وقيل هو اللعب الذي يتعلمون به الحرب ويتقنون به عليه كما في قولهم: ﴿إننا ذهبنا نستبق﴾ لا اللعب المحظور الذي هو ضد الحق، ولذلك لم ينكر يعقوب عليهم لما قالوا: ونلعب، ومنه قوله ﷺ لجابر: «فها لا بكرأ تلاعبها وتلاعبك، فاجابهم يعقوب بقوله: ﴿إني ليحزنني أن تذهبوا به﴾ أي: ذهابكم به، واللام في ﴿ليحزنني﴾ لام الابتداء للتأكيد ولتخصيص المضارع بالحال، أخبرهم أنه يحزن لغيبه يوسف عنه لفرط محبته له وخوفه عليه، ﴿ولخاف أن ياكله الذئب﴾ أي: ومع ذلك أخاف أن ياكله الذئب. قال يعقوب: هذا تخوفاً عليه منهم، فكفى عن ذلك بالذئب، وقيل: إنه خاف أن ياكله الذئب حقيقة، لأن ذلك المكان كان كثير الذئب، ولو خاف منهم عليه أن يقتلوه لأرسل معهم من يحفظه. قال ثعلب: والذئب مأخوذ من تذابت الريح: إذا هاجت من كل وجه. قال: والذئب مهموز لأنه يجيء من كل وجه. وقد قرأ ابن كثير ونافع في رواية عنه بالهمز على الأصل، وكذلك أبو عمرو في رواية عنه وابن عامر، وعاصم، وحزمة.

ظلماً وبغياً، وقيل: كانوا أنبياء، وكان ذلك منهم زلة قدم وأوقعهم فيها التهاب نار الحسد في صدورهم واضطرام جمرات الغيظ في قلوبهم. ورد بأن الأنبياء معصومون عن مثل هذه المعصية الكثيرة المتباعدة في الكبر، مع ما في ذلك من قطع الرحم وعقوق الوالد وإفتراء الكذب، وقيل: إنهم لم يكونوا في ذلك الوقت أنبياء، بل صاروا أنبياء من بعد.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله ﴿آيات للسائلين﴾ قال: عبرة. وأخرج أيضاً عن قتادة في الآية يقول: من سأل عن ذلك فهو هكذا ما قص الله عليكم وأنبياءكم به. وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك نحوه. وأخرج ابن جرير عن ابن إسحاق قال: إنما قص الله على محمد ﷺ خبر يوسف وبغي إخوته عليه وحسداهم إياه حين ذكر رؤياه لما رأى رسول الله ﷺ من بغي قومه عليه وحسداهم إياه حين أكرمه الله بنبوته ليأتسى به. وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله ﴿إذ قالوا ليوسف وأخوه﴾ يعني: بنيامين هو أخوه لأبيه وأمه، وفي قوله ﴿ونحن عصبه﴾ قال: العصب ما بين العشرة إلى الأربعين. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن جرير، وأبو الشيخ عن ابن زيد قال: العصب الجماعة، ﴿إن أبانا لفي ضلال مبين﴾ قال: لفي خطأ من رايه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ في قوله ﴿قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف﴾ قال: قله كبيرهم الذي تخلف، قال: والجب بئر بالشام ﴿يلتقطه بعض السيارة﴾ قال: التقطه ناس من الأعراب. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه في قوله ﴿والقوه في غيابة الجب﴾ يعني: الركية. وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال: الجب البئر. وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ قال: هي بئر ببيت المقدس، يقول في بعض نواحيها. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال: الجب بحذاء طبرية بينه وبينها أميال.

قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمُرُنَا أَنْ تَرْجُوَ رَبَّنَا أَنْ تَرْجُوَ رَبَّنَا
عَدَا يَرْجِعْ وَيَكْفُرْ وَأَنَا كَذِبٌ أَشْهَرُ مِنْكُمْ ۖ قَالُوا بَلْ يَكْفُرُونَ
بِابْنِكُمْ الْأَكْثَرِ الْغَضَبِ ۖ وَتَسْتَكْبِرُ عَنْهُ ۚ قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ
الْكَذْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ۚ إِنَّا إِذَا لَخَبِيرُونَ ۚ قَالُوا دَهْبًا يَوْمَ ۚ وَاجْمَعُوا
أَنْ يَمْلِكُوا فِي بَيْتِ الْمَرْءِ ۚ وَارْتَبُوا بِأَنَّهُمْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِهِمْ ۚ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ
ۚ وَكَأَمْ أَبَاهُمْ عِشَاهُ يُكَوِّرُ ۚ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَبَبًا نَسِيحٌ
وَرَكْعَتَا يَوْسُفَ عِنْدَ مَتْنَعَا ۚ فَأَكَلَهُ الْكَذْبُ ۚ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ
كُنَّا صَادِقِينَ ۚ وَكَأَمْ عَلَى قَوْمِهِ يَدْرِي كَذِبٌ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمُ
أَنْفُسُكُمْ أَمْراً ۚ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۚ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ۚ

لما أجمع رأيهم على أن يلقيه في غيابات الجب جاءوا إلى أبيهم وخاطبوه بلفظ الأبوة استعطافاً له وتحريكاً للحن الذي جبلت عليه طبائع الآباء للأبناء. وتوسلاً بذلك إلى تمام ما يريدونه من الكيد الذي دبروه، واستفهموه استفهام المنكر لأمري ينبغي أن يكون الواقع على خلافه، فـ ﴿قالوا يا

وقرا الباقيون بالتخفيف. «وانتم عنه غافلون» لاشتغالكم بالرتع واللعب، أو لكونهم غير مهتمين بحفظه «قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبية» اللام هي الموطئة للقسم. والمعنى: والله لئن أكل الذئب والحال إن نحن عصبية أي: جماعة كثيرة عسرة «إنا إذا لخاسرون» أي: إنما في ذلك الوقت، وهو أكل الذئب له لخاسرون هالكون ضعفاً وعجزاً، أو مستحقون للهلاك لعدم الاعتداد بنا، وانتفاء القدرة على أيسر شيء وإقله، أو مستحقون لأن يدعى علينا بالخسار والذمار، وقيل: لخاسرون لجاهلون حقه، وهذه الجملة جواب القسم المقدر في الجملة التي قبلها «فلما ذهبوا به» من عند يعقوب «ولجمعوا» أمرهم «أن يجعلوه في غيابة الجب» قد تقدم تفسير الغيابة والجب قريباً، وجواب لما محذوف لظهوره ودلالة المقام عليه، والتقدير: فعلوا به ما فعلوا، وقيل: جوابه «قالوا يا إيلانا إنا ذهبنا نستيق» وقيل: الجواب المقدر جعلوه فيها، وقيل: الجواب لوحيها والوارى مقحمة، ومثله قوله تعالى: «فلما أسلما وتله للجبين * وناديناه» [الصافات: 103 - 104] أي: ناديناه «واوحيها إليه» أي: إلى يوسف تيسيراً له وتأنيساً لوحشته مع كونه صغيراً اجتمع على إنزال الضرر به عشرة رجال من إخوته، بقلوب غليظة فقد نزعت عنها الرحمة وسلبت منها الرقة، فإن الطبع البشري، دع عنك الدين يتجاوز عن ذنب الصغير ويفترقه لضعفه عن الدفع وعجزه عن أيسر شيء يراد منه، فكيف بصغير لا ذنب له، بل كيف بصغير هو أخ وله ولهم أب مثل يعقوب، فلقد أبعد من قال إنهم كانوا أنبياء في ذلك الوقت، فما هكذا عمل الأنبياء ولا فعل الصالحين. وفي هذا دليل على أنه يجوز أن يوحي الله إلى من كان صغيراً ويعطيه النبوة حينئذ كما وقع في عيسى ويحيى بن زكريا، وقد قيل: إنه كان ذلك الوقت قد بلغ مبالغ الرجال، وهو بعيد جداً، فإن من كان قد بلغ مبالغ الرجال لا يخاف عليه أن يأكله الذئب. «لنتبينهم بأمرهم هذا» أي: لتخبرن إخوتك بأمرهم هذا الذي فعلوه معك بعد خلوصك مما أرادوه بك من الكيد وأنزلوه عليك من الضرر، وجملة «وهم لا يشعرون» في محل نصب على الحال، أي: لا يشعرون بأنك أخوهم يوسف لاعتقادهم هلاكك بالقاتلهم لك في غيابة الجب، ولبعد عهدهم بك، ولكونك قد صرت عند ذلك في حال غير ما كنت عليه وخلاف ما عهدوه منك، وسيأتي ما قاله لهم عند دخولهم عليه بعد أن صار إليه ملك مصر. قوله: «وجاءوا إياهم عشاء يبكون» عشاء منتصب على الظرفية، وهو آخر النهار، وقيل: في الليل، ويبكون في محل نصب على الحال أي: باكين أو متباكين لأنهم لم يبكوا حقيقة، بل فعلوا فعل من يبكي ترويحاً لأنفسهم وتنفيهاً لمكرهم وغدرهم. فلما وصلوا إلى أبيهم «قالوا يا إيلانا إنا ذهبنا نستيق» أي: نتسابق في العدو أو في الرمي؛ وقيل: ننتضل، ويؤيده قراءة ابن مسعود (ننتضل). قال الزجاج: وهو نوع من المسابقة. وقال الأزهري: النضال في السهام،

والرهان في الخيل، والمسابقة تجمعهما. قال القشيري: نستيق، أي: في الرمي أو على الفرس أو على الأقدام. والغرض من المسابقة التدرّب بذلك في القتال «وتركنا يوسف عند متاعنا» أي: عند ثيابنا ليحرسها «فأكله للذئب» الفاء للتعقيب أي، أكله عقب ذلك. وقد اعتذروا عليه بما خافه سابقاً عليه، وربّ كلمة تقول لصاحبها دعني «وما انت بمؤمن لنا» بمصنق لنا في هذا العذر الذي أبدينا، والكلمة التي قلناها «ولو كنا» عندك أو في الواقع «صادقين» لما قد علق بقلبك من التهمة لنا في ذلك مع شدة محبتك له. قال الزجاج: والمعنى ولو كنا عندك من أهل الثقة والصدق ما صلقتنا في هذه القضية لشدة محبتك ليوسف. وكذا ذكره ابن جرير وغيره «وجاءوا على قميصه بدم كذب» على قميصه في محل نصب على الظرفية: أي جاءوا فوق قميصه بدم، ووصف الدم بأنه كذب مبالغة كما هو معروف في وصف اسم العين باسم المعنى، وقيل المعنى: بدم ذي كذب أو بدم مكذوب فيه. وقرأ الحسن وعائشة (بدم كذب) بالدال المهملة أي: بدم طري. يقال للدم الطري: كذب. وقال الشعبي: إنه المتغير، والكذب أيضاً البياض الذي يخرج في أظفار الأحداث، فيجوز أن يكون شبه الدم في القميص بالبياض الذي يخرج في الظفر من جهة اللونين. وقد استدل يعقوب على كذبهم بصحة القميص، وقال لهم: متى كان هذا الذئب حكيماً ياكل يوسف ولا يخرق القميص؟ ثم نكر الله سبحانه ما أجاب به يعقوب عليهم فقال: «قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً» أي: زينت وسهلت. قال النيسابوري: التسويل تقرير في معنى النفس مع الطمع في تمامه، وهو تفعليل من السؤل وهو الأمانة. قال الأزهري: وأصله مهموز غير أن العرب استثقلوا فيه الهمزة «فصبر جميل» قال الزجاج: أي: فشاني أو الذي اعتقده صبر جميل. وقال قطرب: أي: فصبري صبر جميل؛ وقيل: فصبر جميل أولى بي، قيل: والصبر الجميل هو الذي لا شكوى معه. قال الزجاج: قرأ عيسى بن عمر فيما زعم سهل بن يوسف (فصبراً جميلاً) قال: وكذا في مصحف أنس. قال المبرد: فصبر جميل بالرفع أولى من النصب، لأن المعنى: قال ربّ عندي صبر جميل، وإنما النصب على المصدر أي: فلأصبرن صبراً جميلاً. قال الشاعر:

شكا إليّ جملي طول السرى صبراً جميلاً فكلانا مبتلى

«والله المستعان» أي: المطلوب منه العون «على ما تصفون» أي: على إظهار حال ما تصفون، أو على احتمال ما تصفون، وهذا منه عليه السلام إنشاء لا إخبار.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: «أرسله معنا غداً يرتع ويلعب» قال: نسعى وننشط ونلهو. وأخرج أبو الشيخ، وابن مردويه، والسلفي في الطيوريات عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تلقوا الناس فيكنبوا، فإن بني يعقوب لم يعلموا أن الذئب ياكل الناس، فلما لقنهم أبوهم كذبوا، فقالوا: أكله الذئب».

الَّذِينَ لَا يَمْلِكُونَ ﴿١١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ؕ بَيَّنَّتْهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ فَخَرَىٰ
الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾

هذا شروع في حكاية خلاص يوسف وما كان بعد ذلك من خبره، وقد تقدم تفسير السيرة، والمراد بها هنا رفقة مارة تسير من الشام إلى مصر، فأخطئوا الطريق وهاموا حتى نزلوا قريباً من الجب، وكان في قفرة بعيدة من العمران. والوارد: الذي يرد الماء ليستقي للقوم، وكان اسمه فيما ذكر المفسرون مالك بن زعر من العرب العاربة ﴿فأنلى بلوه﴾ أي: أرسله، يقال: أنلى لبلوه إذا أرسلها ليملاها، ودلاها: إذا أخرجها، قاله الأصمعي وغيره. فتعلق يوسف بالحبل، فلما خرج اللؤلؤ من البئر أبصره الوارد ف (قال يا بشراي) هكذا قرأ أهل المدينة وأهل مكة وأهل البصرة، وأهل الشام بإضافة البشري إلى الضمير. وقرأ أهل الكوفة (يا بشري) غير مضاف، ومعنى مناداته للبشري: أنه أراد حضورها في ذلك الوقت، فكانه قال: هذا وقت مجيئك وأوان حضورك؛ وقيل: إنه نادى رجلاً اسمه بشري. والأول أولى. قال النحاس: والمعنى من نداء البشري التبشير لمن حضر، وهو أؤكد من قولك بشرته كما تقول يا عجباً أي: يا عجب هذا من أيامك فاحضر. قال: وهذا مذهب سيبويه ﴿واسرّوه﴾ أي: أسرّ الوارد وأصحابه الذين كانوا معه يوسف فلم يظهره لهم؛ وقيل: إنهم لم يخفوه، بل أخفوا وجدانه لهم في الجب، وزعموا أنه دفعه إليهم أهل الماء لبيعوه لهم بمصر؛ وقيل: ضمير الفاعل في أسرّوه لإخوة يوسف، وضمير المفعول ليوسف، وذلك أنه كان يأتيه أخوه بهذا كل يوم بطعام، فاتاه يوم خروجه من البئر فأخبر إخوته فاتوا الرفقة وقالوا: هذا غلام أبقي منا فاشتروه منهم، وسكت يوسف مخافة أن يأخضروه فيقتلوه، والأول أولى. وانتصاب بضاعة على الحال: أي أخفوه حال كونه بضاعة أي: متاعاً للتجارة، والبضاعة: ما يوضع من المال أي: يقطع منه لأنها قطعة من المال الذي يتجر به، قيل: قاله لهم الوارد وأصحابه أنه بضاعة استبضعناها من الشام مخافة أن يشاركهم فيه، وفي قوله: ﴿والله عليم بما يعملون﴾ وعيد شديد لمن كان فعله سبباً لما وقع فيه يوسف من المحن وما صار فيه من الابتذال بجري البيع والشراء فيه، وهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم: يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم كما قال نبينا ﷺ في وصفه بذلك. قوله: ﴿وشروه بثمن بخس دراهم معدودة﴾ يقال: شراه بمعنى اشتراه، وشراه بمعنى باع. قال الشاعر:

وشريت برداً ليتني من بعد برد كنت هامه
أي: بعته.

وقال آخر:

فلما شراها فاضت العين عبرة

أي اشتراها. والمراد هنا: وباعوه أي: باعه الوارد وأصحابه ﴿بثمن بخس﴾ أي: ناقص أو زائف، وقيل: يعود

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله: ﴿وإلهنا إليه﴾ الآية، قال: أوحى إلى يوسف وهو في الجب لتبشّر إخوتك بما صنعوا وهم لا يشعرون بذلك الوحي. وأخرج هؤلاء عن قتادة قال: أوحى الله إليه وحياً وهو في الجب أن سينبئهم بما صنعوا وهم أي: إخوته لا يشعرون بذلك الوحي. فهوّن ذلك الوحي عليه ما صنع به. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله: ﴿وهم لا يشعرون﴾ قال: لم يعلموا بوحي الله إليه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه قال: لما دخل إخوة يوسف على يوسف فعرفهم وهم له منكرون جيء بالصواع فوضعه على يده، ثم نقره فطن، فقال: إنه ليخبرني هذا الجاهل أنه كان لكم أخ من أبيكم يقال له: يوسف يذنيه دونكم، وأنكم انطلقتم به فالتقيتموه في غيبة الجب فاتيتم إياكم فقلت: إن الذئب أكله، وجئتم على قميصه بدم كذب، فقال بعضهم لبعض: إن هذا الجاهل ليخبره ويخبركم، فقال ابن عباس: فلا نرى هذه الآية نزلت إلا في ذلك لتبشّرهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه عن أبي بكر بن عياش قال: كان يوسف في الجب ثلاثة أيام، وأخرج أبو الشيخ عن الضحّاك ﴿وما أنت بمؤمن لنا﴾ قال: بمصدق لنا. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿وجاءوا على قميصه بدم كذب﴾ قال: كان دم سخله. وأخرج ابن جرير عن مجاهد مثله. وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس ﴿وجاءوا على قميصه بدم كذب﴾ قال: لما أتى يعقوب بقميص يوسف فلم ير فيه خرقاً قال: كذبتم لو كان كما تقولون أكله الذئب لخرق القميص. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله: ﴿بل سئلت لكم أنفسكم أمراً﴾ قال: أمرتكم أنفسكم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: ﴿بل سئلت لكم أنفسكم أمراً﴾ يقول: بل زينت لكم أنفسكم أمراً ﴿فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾ أي: على ما تكذبون. وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب الصبر، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن حبان بن أبي حيلة قال: «سئل رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿فصبر جميل﴾ قال: لا شكوى فيه، من بثّ لم يصبر»، وهو من طريق هشيم عن عبد الرحمن، عن حبان بن أبي حيلة، وهو مرسل. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله: ﴿فصبر جميل﴾ قال: ليس فيه جزع.

وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشِّرُهُ هَذَا عَلِمَ تَأْسِرُهُ
يَضْمَعُ وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ يَكْمُلُونَ ﴿١٣﴾ وَتَرَوْهُ بِحُجْرٍ يُخْرِجُ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةً
وَكُنَّاؤُهُ فِيهِ مِنَ الْزُّهْدِ ﴿١٤﴾ وَقَالَ الْإِنْسِي أَشْتَرْتُهُ مِنْ مَقَرٍّ لَا يُزَكِّيهِ
أَكْثَرِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَهُ أَوْ نَنْجِيَهُ وَلَكِنْ كَذَلِكَ مَكْنَأُ يُوشِىءُ فِي
الْأَرْضِ وَلِيُخْلِصَ مِنْ تَأْسِيرِ الْأَكَاوِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ

إلى إخوة يوسف على القول السابق، وقيل: عائد إلى الرفقة، والمعنى: اشتروه؛ وقيل: بخس ظلم، وقيل: حرام. قيل: باعوه بعشرين درهماً، وقيل: بأربعين، وديارهم بدل من ثمن أي: دنائير، ومعبودة وصف لدراهم، وفيه إشارة إلى أنها قليلة تعد ولا توزن، لأنهم كانوا لا يزنون ما دون أوقية وهي أربعون درهماً، **﴿وكانوا فيه من الزاهدين﴾** يقال: زهدت وزهدت بفتح الهاء وكسرهما. قال سيويو والكسائي: قال أهل اللغة: يقال: زهد فيه أي رغب عنه، وزهد عنه أي: رغب فيه. والمعنى: أنهم كانوا فيه من الراغبين عنه الذين لا يباليون به فلذلك باعوه بذلك الثمن البخس، وذلك لأنهم التقطوه، والملتقط للشيء متهاون به، والضمير من كانوا يرجع إلى ما قبله على حسب اختلاف الأقوال فيه **﴿وقال الذي اشتراه من مصر﴾** هو العزيز الذي كان على خزائن مصر، وكان وزيراً لملك مصر، وهو الريان بن الوليد من العملاقة، وقيل: إن الملك هو قرعون موسى، قيل: اشتراه بعشرين ديناراً، وقيل: تزايدوا في ثمنه فبلغ أضعاف وزنه مسكاً وعنبراً وحريراً وورقاً وذهباً ولآلئ وجواهر، فلما اشتراه العزيز قال: **﴿لامراته﴾** واللام متعلقة باشتراه **﴿أكرمي مثواه﴾** أي: منزله الذي يثوى فيه بالطعام الطيب واللباس الحسن. يقال: ثوى بالمكان أي: أقام به **﴿عسى أن ينفعنا﴾** أي: يكفينا بعض المهمات مما نحتاج إلى مثله فيه **﴿أو نتخذة ولداً﴾** أي: نبتناه فنجعله ولداً لنا. قيل: كان العزيز حصوراً لا يولد له، وقيل: كان لا يأتي النساء، وقد كان تفرس فيه أنه ينوب عنه فيما إليه من أمر المملكة. قوله: **﴿وكنك مكناً ليوسف﴾** الكاف في محل نصب على أنه نعت مصدر محنوف، والإشارة إلى ما تقدم من إنجائه من إخوته وإخراجه من الحب، وعطف قلب العزيز عليه أي: مثل ذلك التمكن البديع مكناً ليوسف حتى صار متمكناً من الأمر والنهي، يقال: مكنه فيه أي أثبت فيه، ومكن له فيه أي: جعل له فيه مكاناً، ولتقارب المعنيين يستعمل كل واحد منهما مكان الآخر. قوله: **﴿ولتعلمه من تأويل الأحاديث﴾** هو علة لمعلل محنوف كأنه قيل: فعلنا ذلك التمكن لتعلمه من تأويل الأحاديث، أو كان ذلك الإنجاء لهذه العلة، أو معطوف على مقدر، وهو أن يقال: مكناً ليوسف ليترتب على ذلك ما يترتب مما جرى بينه وبين امرأة العزيز، ولتعلمه من تأويل الأحاديث؛ ومعنى تأويل الأحاديث: تأويل الرؤيا فإنها كانت من الأسباب التي بلغ بها ما بلغ من التمكن، وقيل: معنى تأويل الأحاديث فهم أسرار الكتب الإلهية وسنن من قبله من الأنبياء، ولا مانع من حمل ذلك على الجميع **﴿والله غالب على أمره﴾** أي: على أمر نفسه لا يمتنع منه شيء، ولا يغالبه عليه غيره من مخلوقاته **﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾** [يس: 82]. ومن جملة ما يدخل تحت هذا العام كما يفيد ذلك إضافة اسم الجنس إلى الضمير ما يتعلق بيوسف عليه السلام من الأمور التي أرادها الله سبحانه في شأنه. وقيل: معنى **﴿والله غالب على أمره﴾**

أنه كان من أمر يعقوب أن لا يقص رؤيا يوسف على إخوته، فغلب أمر الله سبحانه حتى قصت عليهم حتى وقع منهم ما وقع، وهذا بعيد جداً **﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾** أي: لا يطلعون على غيب الله وما في طيه من الأسرار العظيمة والحكم النافعة، وقيل: المراد بالأكثر الجميع لأنه لا يعلم الغيب إلا الله؛ وقيل إن الله سبحانه قد يطلع بعض عبده على بعض غيبه كما في قوله: **﴿فلا يظهر على غيبه أحداً﴾** إلا من ارتضى من رسول [الجن: 26 - 27]. وقيل: المعنى ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن الله غالب على أمره وهم المشركون ومن لا يؤمن بالقدر. قوله: **﴿ولما بلغ أشده آتيناها حكماً وعلماً﴾** الأشد: قال سيويو: جمع واحدة شدة. وقال الكسائي: واحدة شد. وقال أبو عبيد: إنه لا واحد له من لفظه عند العرب، ويرد قول الشاعر:

عهدي به شد النهار كأنما خضب البنان ورأسه بالعظم والأشد: هو وقت استكمال القوة ثم يكون بعده النقصان. قيل: هو ثلاث وثلاثون سنة، وقيل بلوغ الحلم، وقيل: ثاني عشرة سنة، وقيل غير ذلك مما قد قدمنا بيانه في النساء والانعام. والحكم: هو ما كان يقع منه من الأحكام في سلطان ملك مصر، والعلم: هو العلم بالحكم الذي كان يحكمه؛ وقيل: العقل والفهم والنبوة؛ وقيل: الحكم هو النبوة، والعلم: هو العلم بالدين؛ وقيل: علم الرؤيا. ومن قال: إنه أوتي النبوة صبياً قال: المراد بهذا الحكم والعلم الذي آتاه الله هو الزيادة فيهما **﴿وكنك نجزي المحسنين﴾** أي: ومثل ذلك الجزء العجيب نجزي المحسنين، فكل من أحسن في عمله أحسن الله جزاءه. وجعل عاقبة الخير من جملة ما يجزيه به. وهذا عام يدخل تحته جزاء يوسف على صبره الحسن دخولاً أولاً. قال الطبري: هذا وإن كان مخرجه ظاهراً على كل محسن فالمراد به محمد ﷺ، يقول الله تعالى كما فعل هذا بيوسف ثم أعطيته ما أعطيته كذلك أنجيك من مشركي قومك الذين يقصدونك بالعداوة وأمكن لك في الأرض. والأولى ما ذكرناه من حمل العموم على ظاهره فيدخل تحته ما ذكره ابن جرير الطبري.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن المنذر، وأبو الشيخ عن الضحاك في قوله: **﴿وجاءت سيارة﴾** قال: جاءت سيارة فنزلت على الجب **﴿فأرسلوا وأردهم﴾** فاستسقى الماء فاستخرج يوسف، فاستبشروا بأنهم أصابوا غلاماً لا يعلمون علمه ولا منزلته من ربه، فزهوا فيه فباعوه، وكان يبيعه حراماً، وباعوه بديارهم معبودة. وأخرج عبد الرزاق، وابن بن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة **﴿فأرسلوا وأردهم﴾** يقول: فأرسلوا رسولهم **﴿قائلي بلوه﴾** فنشب الغلام باللو، فلما خرج **﴿قال يا بشراي هذا غلام﴾** تبشروا به حين استخرجوه، وهي بشر بيت المقدس معلوم مكانها. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن السدي في قوله: **﴿يا بشراي﴾** قال: كان اسم صاحبه بشري كما تقول يا زيد، وهذا على ما

تاويل الأحاديث قال: عبارة الرؤيا. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري في كتاب الأضداد، والطبراني في الأوسط، وابن مريويه عن ابن عباس في قوله: **﴿ولما بلغ أشده﴾** قال: ثلاثاً وثلاثين سنة. وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال: أربعين سنة. وأخرج عن عكرمة قال: خمساً وعشرين سنة. وأخرج عن السدي قال: ثلاثين سنة. وأخرج عن سعيد بن جبيرة قال: ثمانية عشر سنة. وأخرج عن ربيعة قال: الحلم. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن الشعبي نحوه. وأخرج ابن جرير عن الضحك قال: عشرين سنة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن مجاهد **﴿أتمناه حكماً وعلماً﴾** قال: هو الفقه العلم والعقل قبل النبوة. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس **﴿وكنك نجزي المحسنين﴾** قال: المهتدين.

وَرَوَدَتْهُ أَلْفِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَعَلَّقَتْ الْأَوْرَبَ وَكَانَتْ هَبَّتَ لَكَ قَالَ مَعَادُ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَنَاقِبِي إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَقَدْ هَمَّتْ بِوَيْهٍ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَجُلًا مِّنْ رَبِّهِ كَذَلِكَ لَصِرَتْ عَصَ السَّحَابِ وَالْفَحْشَاءُ إِنَّهُ مِّنْ عِبَادِكَ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٧﴾ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَيْصَمُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسَاجَنَ أَوْ عُلَّاقَ الْجِدِّ ﴿١٢٨﴾ قَالَ جَرِيْرٌ رَّوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِيهَا إِنْ كَانَتْ قَيْصَمُ قَدْ مَنَ بُلِّي فَصَدَّقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَذِبِينَ ﴿١٢٩﴾ وَإِنْ كَانَ قَيْصَمُ قَدْ مَنَ دُبُرٍ فَكَذَّبَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٣٠﴾ فَلَمَّا رَأَى قَيْصَمُ قَدْ مَنَ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِّنْ كَذِبِكُمْ إِنَّهُ كَذَبَكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٣١﴾ يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَٰذَا وَأَسْتَفْزِي لَدَيْكَ إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿١٣٢﴾

المراودة: الإرادة والطلب برفق ولين وقيل: هي مأخوذة من الرد أي: الفرق والتأني، يقال أرودتني: أمهلني، وقيل: المراودة مأخوذة من راد يروء إذا جاء وذهب. كان المعنى: أنها فعلت في مراودتها له فعل المخادع، ومنه الراشد لمن يطلب الماء والكلأ، وقد يخص بمحاولة الوقاع فيقال: راود فلان جاريته عن نفسها وراودته هي عن نفسه: إذا حاول كل واحد منهما الوطء والجماع، وهي مفاعلة، وأصلها أن تكون من الجانبين، فجعل السبب هنا في أحد الجانبين قائماً مقام المسبب، فكان يوسف عليه السلام لما كان ما أعطيه من كمال الخلق والزيادة في الحسن سبباً لمراودة امرأة العزيز له مراود. وإنما قال: **﴿التي هو في بيتها﴾** ولم يقل: امرأة العزيز، وزليخا قصداً إلى زيادة التقرير مع استهجان التصريح باسم المرأة والمحافظة على الستر عليها **﴿وغلقت الأبواب﴾** قيل: في هذه الصيغة ما يدل على التكثير، فيقال: غلق الأبواب، ولا يقال: غلق الباب، بل يقال: أغلق الباب، وقد يقال: أغلق الأبواب، ومنه قول الفرزدق في أبي عمرو بن العلاء:

ما زلت أغلق أبواباً وأقتحها حتى أتيت أبا عمرو بن عمار قيل: وكانت الأبواب سبعة. قوله: **﴿هيئ لك﴾**. قرأ أبو

فيه من البعد لا يتم إلا على قراءة من قرأ (يا بشري) بدون إضافة. وأخرج أبو الشيخ عن الشعبي نحوه. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: **﴿واسأوه بضاعة﴾** يعني: إخوة يوسف أسأروا شأنه وكتما أن يكون أخاهم، وكتم يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته واختار البيع فباعه إخوته بثمن بخس. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن مجاهد قال: أسأره للتجار بعضهم من بعض. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عنه **﴿واسأوه بضاعة﴾** قال: صاحب الدلو ومن معه، قالوا لأصحابهم: إنا استبضعناه خيفة أن يشركهم فيه إن علموا به، واتبعهم إخوته يقولون للملئى وأصحابه: استوثقوا منه لا يلبق حتى وقفوا بمصر، فقال: من يبتاعني ويبيشر، فابتاعه الملك والملك مسلم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن مجاهد في قوله: **﴿وشأوه﴾** قال: إخوة يوسف باعوه حين أخرجه الملئى لدلو. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ عن ابن عباس قال: بيع بينهم بثمن بخس، قال: حرام لم يحل لهم بيعه، ولا أكل ثمنه. وأخرج ابن جرير عن قتادة **﴿وشأوه بثمن بخس﴾** قال: هم السيارة. وأخرج أبو الشيخ عن علي بن أبي طالب أنه قضى في اللقيط أنه حر، وقرأ **﴿وشأوه بثمن بخس﴾**. وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال: البخس القليل. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن الشعبي مثله. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال: إنما اشتري يوسف بعشرين درهماً، وكان أهله حين أرسل إليهم بمصر ثلثمائة وتسعين إنساناً: رجالهم أنبياء، ونسأؤهم صنيقات، وأله ما خرجوا مع موسى حتى بلغوا ستمائة ألف وسبعين ألفاً. وقد روي في مقدار ثمن يوسف غير هذا المقدار مما لا حاجة إلى التطويل بذكره. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: **﴿وقال الذي لشقراه من مصر﴾** قال: كان اسمه قطيفير. وأخرج أبو الشيخ عن شعيب الجبائي: أن اسم امرأة العزيز زليخا. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن محمد بن إسحاق قال: الذي اشتراه أظفير بن روجب، وكان اسم امرأته راعيل بنت رعايل. وأخرج ابن جرير، وابن إسحاق، وأبو الشيخ عن ابن عباس قال: اسم الذي باعه من العزيز مالك بن ذعر. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه في قوله: **﴿أكرمي مثواه﴾** قال: منزلته. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن قتادة مثله. وأخرج سعيد بن منصور، وابن سعد، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال: أقرس الناس ثلاثة: العزيز حين تفرس في يوسف فقال لامراته: أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً، والمرأة التي أتت موسى فقالت لأبيها: يا أبت استأجره، وأبو بكر حين استخلف عمر. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله: **﴿ولنعلمه من**

بقوله: ﴿كُرْمِي مَثْوَاهُ﴾، فكيف أخونه في أهله وأحببكم إلى ما تريدون من ذلك؟ وقال الزجاج: إن الضمير لله سبحانه أي: إن الله ربي تولاني بلطفه فلا أركب ما حرّمه، وجملة ﴿إِنَّهُ لَا يَفْلَحُ الظَّالِمُونَ﴾ تعليل آخر للامتناع منه عن إجابتها، والفلاح: الظفر. والمعنى: أنه لا يظفر الظالمون بمطالبهم، ومن جملة الظالمين الواقعون في مثل هذه المعصية التي تطلبها امرأة العزيز من يوسف. قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ يقال: همّ بالامر إذا قصدته وعزم عليه. والمعنى: أنه همّ بمخالطتها كما همّت بمخالطته ومال كل واحد منهما إلى الآخر بمقتضى الطبيعة البشرية والجيلة الخلقية، ولم يكن من يوسف عليه السلام القصد إلى ذلك اختياريًا كما يفيد ما تقدّم من استعانته بالله، وإن ذلك نوع من الظلم. ولما كان الأنبياء معصومين عن الهمّ بالمعصية والقصد إليها شطح أهل العلم في تفسير هذه الآية بما فيه نوع تكلف، فمن ذلك ما قاله أبو حاتم قال: كنت أقرأ على أبي عبيدة غريب القرآن، فلما أتيت على ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ قال: هذا على التقديم والتأخير: كأنه قال: ولقد همّت به ولولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها. وقال أحمد بن يحيى ثعلب: أي همّت زليخا بالمعصية وكانت مصرّة، وهمّ يوسف ولم يوقع ما همّ به، فبين الهمين فرق، ومن هذا قول الشاعر:

هممت بهم من شنية لؤلؤ شفيت غليلات الهوى من فؤاديا
فهذا إنما هو حديث نفس من غير عزم، وقيل همّ بها أي: همّ بضربرها، وقيل: همّ بها بمعنى تمنى أن يتزوّجها. وقد ذهب جمهور المفسرين من السلف والخلف إلى ما قُدمنا من حمل اللفظ على معناه اللغوي، ويدل على هذا ما سيأتي من قوله: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ [يوسف: 52]، وقوله: ﴿وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي إِنْ النَّفْسُ لَأَمَارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: 53] ومجرد الهمّ لا ينافي العصمة، فإنها قد وقعت العصمة عن الوقوع في المعصية، وذلك المطلوب، وجواب لو في ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ محذوف: أي لولا أن رأى برهان ربه لفعل ما همّ به.

واختلف في هذا البرهان الذي رآه ما هو؟ فقيل: إن زليخا قامت عند أن همّت به وهمّ بها إلى صنم لها في زاوية البيت فسترته بثوب فقال: ما تصنعين؟ قالت: استحي من إلهي هذا أن يراني على هذه الصورة، فقال يوسف: أنا أولى أن استحي من الله تعالى. وقيل: إنه رأى في سقف البيت مكتوباً ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾ [الإسراء: 32] الآية؛ وقيل: رأى كفاً مكتوباً عليها ﴿وَإِنْ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ﴾ [الأنفطار: 10] وقيل إن البرهان هو تذكره عهد الله وميثاقه وما أخذه على عباده؛ وقيل: نودي يا يوسف أنت مكتوب في الأنبياء وتعمل عمل السفهاء؛ وقيل: رأى صورة يعقوب على الجدار عاصاً على أناملته يتوعده، وقيل غير ذلك مما يطول ذكره. والحاصل أنه رأى شيئاً حال بينه وبين ما همّ به قوله: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ الكاف نعت مصدر محذوف، والإشارة بذلك إلى الإراءة المنلول عليها

عمرو، وعاصم، والكسائي، وحمزة، والأعمش بفتح الهاء وسكون الياء وفتح التاء، وبها قرأ ابن مسعود، وابن عباس، وسعيد بن جبير، والحسن، ومجاهد، وعكرمة. قال ابن مسعود: لا تنطعوا في القراءة، فإنما هو مثل قول أحكم: هلمّ وتعال، وقرأ ابن أبي إسحاق النحوي بفتح الهاء وكسر التاء. وقرأ عبد الرحمن السلمي وابن كثير (هيت) بفتح الهاء وضم التاء، ومنه قول طرفة:

ليس قومي بالأبعدين إذا ما قال داع من العشيرة هيت
وقرأ أبو جعفر ونافع بكسر الهاء وسكون الياء وفتح التاء. وقرأ عليّ وابن عباس في رواية عنه وهشام بكسر الهاء وبعدها همزة ساكنة وضم التاء. وقرأ ابن عامر وأهل الشام بكسر الهاء وبالهزة وفتح التاء. ومعنى «هيت» على جميع القراءات معنى هلمّ وتعال، لأنها من أسماء الأفعال إلا في قراءة من قرأ بكسر الهاء بعدها همزة وتاء مضمومة. فإنها بمعنى: تهيات لك. وأنكر أبو عمرو هذه القراءة. وقال أبو عبيدة: سئل أبو عمرو عن قراءة من قرأ بكسر الهاء والهزة وضم التاء فقال: باطل جعلها بمعنى تهيات اذهب فاستعرض العرب حتى تنتهي إلى اليمن، هل تعرف أحداً يقول هكذا؟ وأنكرها أيضاً الكسائي. وقال النحاس: هي جيدة عند البصريين، لأنه يقال: هاء الرجل يهأ ويهيء هينة، ورجع الزجاج القراءة الأولى، وأنشد بيت طرفة المذكور هيتا بالفتح، ومنه قول الشاعر في علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

أبلغ أمير المؤمنين أخا السعراق إذا أتيتنا
إن السعراق وأهله سلم إليك فهيت هيتا
وتكون اللام في ﴿لك﴾ على القراءات الأولى التي هي فيها بمعنى اسم الفعل للبيان أي: لك. أقول هذا كما في هلمّ لك. قال النحويون: هيت جاء بالحركات الثلاث: فالفتح للخفة، والكسر لالتقاء الساكنين، والضم تشبيهاً بحيث، وإذا بين باللام نحو هيت لك فهو صوت قائم مقام المصدر كاف له أي: لك أقول هذا، وإن لم يبين باللام فهو صوت قائم مقام مصدر الفعل فيكون اسم فعل، إما خبر أي: تهيات، وإما أمر أي: أقبل. وقال في الصحاح: يقال هوت به وهيت به إذا صاح به ودعا، ومنه قول الشاعر:

يحبو بها كل فتى هيت

وقد روي عن ابن عباس والحسن أنها كلمة سريانية معناها أنها تدعوه إلى نفسها. قال أبو عبيدة: كان الكسائي يقول: هي لغة لأهل حوران وقعت إلى أهل الحجاز معناها تعال. قال أبو عبيدة: فسألت شيخاً عالماً من حوران فنكر أنها لغتهم ﴿قال معاذ الله﴾ أي: أعوذ بالله معاذاً مما دعوتني إليه، فهو مصدر منتصب بفعل محذوف مضاف إلى اسم الله سبحانه، وجملة ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنُ مَثْوَايَ﴾ تعليل للامتناع الكائن منه ببعض الأسباب التي هي أقرب إلى فهم امرأة العزيز، والضمير للشأن أي: إن الشأن ربي، يعني: العزيز أي سيدي الذي رباني وأحسن مثواي حيث أمرت

بقوله: ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ أو إلى التثبيت المفهوم من ذلك أي: مثل تلك الإراءة أزيناه، أو مثل تلك التثبيت ثبتناه ﴿وَلَنُصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ﴾ أي: كل ما يسوؤه، والفحشاء كل أمر مفرط القبح، وقيل: السوء الخيانة للعزیز في أهله، والفحشاء: الزنا؛ وقيل: السوء الشهوة، والفحشاء: المباشرة؛ وقيل: السوء الثناء القبيح. والاولى الحمل على العموم فيدخل فيه ما يدل عليه السياق دخولاً أولاً، وجملة ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ تعليل لما قبله. قرأ ابن عامر، وابن كثير، وأبو عمرو (المخلصين) بكسر اللام، وقرأ الآخرون بفتحها. والمعنى على القراءة الأولى أن يوسف عليه السلام كان ممن أخلص طاعته لله، وعلى الثانية أنه كان ممن استخلصه الله للرسالة، وقد كان عليه السلام مخلصاً مستخلصاً ﴿وَأَسْتَبْقَى الْبَابَ﴾ أي: تسابقاً إليه، فحذف حرف الجر وأوصل الفعل بالمفعول، أو ضمن الفعل معنى فعل آخر يتعدى بنفسه كابتدأ الباب، وهذا الكلام متصل بقوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَمْتُ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ وما بينهما اعتراض، ووجه تسابقهما أن يوسف يريد الفرار والخروج من الباب، وامرأة العزيز تريد أن تسبقه إليه لتمنعه، ووجد الباب هنا وجمعه فيما تقدم، لأن تسابقهما كان إلى الباب الذي يخلص منه إلى خارج الدار ﴿وَوَقَدْتُ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ﴾ أي: جذبت قميصه من روائه فانشق إلى أسفله، والقد: القطع، وأكثر ما يستعمل فيما كان طويلاً، والقط بالطاء يستعمل فيما كان عرضاً، وقع منها ذلك عند أن فرَّ يوسف لما رأى برهان ربه فأرادت أن تمنعه من الخروج بجذبها لقميصه ﴿وَوَلَّيْتُهَا سِيدَهَا لَدَى الْبَابِ﴾ أي: وجدا العزيز هنالك، وعني بالسيد: الزوج لأن القبط يسمون الزوج سيداً، وإنما لم يقل: سيدتهما، لأن ملكه ليوسف لم يكن صحيحاً فلم يكن سيداً له، وجملة ﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مِنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل: فما كان منهما عند أن ألغيا سيدها لدى الباب، وما استفهامية، والمراد بالسوء هنا الزنا؛ قالت هذه المقالة طلباً منها للحيلة وللستر على نفسها، فنسبت ما كان منها إلى يوسف أي: جزاء يستحقه من فعل مثل فعل هذا، ثم أجابت عن استفهامها بقولها: ﴿إِلَّا أَنْ يَسْجَنَ﴾ أي: ما جزاؤه إلا أن يسجن، ويحتمل أن تكون ما نافية أي: ليس جزاؤه إلا السجن أو العذاب الأليم؛ قيل: والعذاب الأليم هو الضرب بالسياط، والظاهر أنه ما يصنق عليه العذاب الأليم من ضرب أو غيره، وفي الإبهام للعذاب زيادة تهويل، وجملة ﴿قَالَ هِيَ رَأَوْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ مستأنفة كالجملة الأولى. وقد تقدم بيان معنى المراودة أي: هي التي طلبت مني ذلك ولم أرد بها سوءاً ﴿وَوَشَّهَدُ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا﴾ أي: من قرابتها، وسمي الحكم بينهما شهادة لما يحتاج فيه من التثبت والتأمل، قيل: لما التبس الأمر على العزيز احتاج إلى حاكم يحكم بينهما ليتبين له الصائق من الكاذب. قيل: كان ابن عم لها واقفاً مع العزيز في الباب، وقيل: ابن خال لها،

وقيل: إنه طفل في المهد تكلم. قال السهيلي: وهو الصحيح للحديث الوارد في ذلك عن النبي ﷺ في ذكر من تكلم في المهد، ونكر من جملتهم شاهد يوسف؛ وقيل: إنه رجل حكيم كان العزيز يستشيريه في أموره، وكان من قرابة المرأة ﴿إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ﴾ أي: فقال الشاهد هذه المقالة مستدلاً على بيان صنق الصابق منهما وكذب الكاذب بأن قميص يوسف إن كان مقطوعاً من قبل: أي من جهة القبيل ﴿فَصَدَقْتُ﴾ أي: فقد صدقت بأنه أراد بها سوءاً ﴿وَوَهُوَ مِنَ الْكَانِبِينَ﴾ في قوله إنها راودته عن نفسه. وقرأ يحيى بن يعمر وابن أبي إسحاق (من قبل) بضم اللام. وكذا قرأ (من دبر) قال الزجاج: جعلهما غائتين كقبيل وبعد كأنه قيل: من قبله ومن دبره، فلما حنف المضاف إليه: وهو مراد صار المضاف غاية بعد أن كان المضاف إليه هو الغاية ﴿وَأَنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ﴾ أي: من روائه ﴿فَكُنْتُ فِي دَعْوَاهَا عَلَيْهِ﴾ ﴿وَوَهُوَ مِنَ الصَّاقِينَ﴾ في دعواه عليها، ولا يخفى أن هاتين الجملتين الشرطيتين لا تلازم بين مقدميهما وتالييهما، لا عقلاً ولا عادة، وليس ها هنا إلا مجرد أمارة غير مطردة، إذ من الجائز أن تجذبه إليها وهو مقبل عليها فينقذ القميص من دبر، وأن تجذبه وهو مدير عنها فينقذ القميص من قبل ﴿فَلَمَّا رَأَى﴾ أي: العزيز ﴿قَمِيصَهُ﴾ أي: قميص يوسف ﴿قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ﴾ أي: هذا الأمر الذي وقع فيه الاختلاف بينكما، أو أن قولك: ﴿مَا جَزَاءُ مِنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً﴾ ﴿مَنْ كَيْدَكُنْ﴾ أي: من جنس كَيْدَكُنْ يا معشر النساء ﴿إِنْ كَيْدَكُنْ عَظِيمٌ﴾ والكيد: المكر والحيلة، ثم خاطب العزيز يوسف عليه السلام بقوله: ﴿يُوسُفُ اعْرَضْ عَنْ هَذَا﴾ أي: عن هذا الأمر الذي جرى واكتمه ولا تتحدث به، ثم أقبل عليها بالخطاب فقال: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَنَفْسِكَ﴾ الذي وقع منك ﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِسَبِّ ذَلِكَ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ أي: من جنسهم، والجملة تعليل لما قبلها من الأمر بالاستغفار ولم يقل من الخاطئات تغليبا للمنكر على المؤنث كما في قوله: ﴿وَكُنْتَ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ [التحریم: 12] ومعنى من الخاطئين من المتعمدين، يقال: خطئ إذا ائنب متعمداً، وقيل: إن القائل ليوسف وامرأة العزيز بهذه المقالة هو الشاهد الذي حكم بينهما.

وقد أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: ﴿وَرَأَوْنِي لَتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ قال: هي امرأة العزيز. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال: راودته حين بلغ مبلغ الرجال. وأخرج أبو عبيد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس في قوله: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ قال: هلم لك تدعوه إلى نفسها. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه قال: هلم لك بالقبطية، وأخرج ابن جرير عن الحسن قال: هي كلمة بالسريانية أي: عليك. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن سعيد بن جبیر قال: معناها تعال. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد: إنها لغة عربية تدعوه بها إلى نفسها.

لها كان حكيماً. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد قال: إنه ليس بإنسي ولا جنّي هو خلق من خلق الله. قلت: ولعله لم يستحضر قوله تعالى: ﴿من أهلها﴾.

﴿وَقَالَ يَتَوَلَّى فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرْوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ بِمَكَرِهِمْ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكِنًا وَآتَتْ كُلَّ وَجْهٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْتَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِينَ لَمْنَحْنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَوَدُّنِي عَنْ نَفْسِي فَوَسَّوْنِي لَأَمْلَأَنَّ جَنَّاتٍ مِنَّا مَا أَمْثَرُ كَيْسَئِنَّ وَلِكُنَّ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً يَوْمَ يُنْفَخُ الصُّفُوفُ إِنَّهُ يَمُوتُ يَوْمَئِذٍ وَلَآ تَصْرِفُ عَنْ فِعْلِهِ أَبْصَابٌ لِّبَنَاتِهِ وَكَانَ مِنَ الْبَاقِينَ﴾ ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ فَنُفِخَ عَنْهُمْ كَذِبُهُمْ إِنَّهُمْ هُمُ السَّيِّئَةُ الْكَلِيلَةُ﴾

يقال: (نسوة) بضم النون، وهي قراءة الأعمش والفضل وسليمان، ويقال: (نسوة) بكسر النون، وهي قراءة الباقيين، والمراد جماعة من النساء، ويجوز التذكير في الفعل المسند إليهن كما يجوز للتانيث. قيل: وهن امرأة ساقى العزيز وامرأة خبازة، وامرأة صاحب لوباه، وامرأة صاحب سجنه، وامرأة حاجبه. والفتى في كلام العرب: الشاب، والفتاة: الشابة، والمراد به هنا: غلامها، يقال: فتاي وفتاتي أي: غلامي وجاريتي، وجملة ﴿قد شغفها حباً﴾ في محل رفع على أنها خبر ثانٍ للمبتدأ، أو في محل نصب على الحال، ومعنى شغفها حباً: غلبها حبه، وقيل: نخل حبه في شغافها. قال أبو عبيدة: وشغاف القلب غلافه وهو جلدة عليه؛ وقيل: هو وسط القلب، وعلى هذا يكون المعنى: نخل حبه إلى شغافها فغلب عليه، وأنشد الأصمعي قول الراجل:

يتبعها وهي له شفاف

وقرأ جعفر بن محمد، وابن محيصن، والحسن (شغفها) بالعين المهلة. قال ابن الأعرابي: معناه أجرى حبه عليها. وقرأ غيرهم بالمعجمة. قال الجوهري: شغفه الحب أحرق قلبه. وقال أبو زيد: أمرضه. قال النحاس: معناه عند أكثر أهل اللغة: قد ذهب بها كل مذهب، لأن شغاف الجبال: أعاليها، وقد شغف بذلك شغفاً بإسكان الغين المعجمة: إذا ولع به، وأنشد أبو عبيدة بيت امرئ القيس:

أثقتلني من قد شغفت فؤادها كما شغف المهنوء الرجل الطائي

قال: فشبهت لوعة الحب بذلك. وقرأ الحسن (قد شغفها) بضم الغين. قال النحاس: وحكي قد شغفها بكسر الغين، ولا يعرف ذلك في كلام العرب إلا شغفها بفتح الغين؛ ويقال: إن الشغاف الجلدة اللاصقة بالكبد التي لا ترى، وهي الجلدة البيضاء، فكأنه لصق حبه بقلبها كصوق الجلدة بالكبد، وجملة ﴿إننا لنراها في ضلال مبين﴾ مقررة لمضمون ما قبلها. والمعنى: إننا لنراها أي: نعلمها في فعلها هذا، وهو المراودة لفتاها في ضلال عن طريق الرشد والصواب، مبين: واضح لا يلتبس على من نظر فيه ﴿فلما سمعت﴾ امرأة

وأخرج أبو عبيد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قرأ: (هت لك) مكسورة الهاء مضمومة التاء مهموزة قال: تهيات لك. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله: ﴿إنه ربي﴾ قال: سيدي، قال: يعني زوج المرأة. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه عن ابن عباس قال: لما همت به تزيت ثم استلقت على فراشها، وهم بها جلس بين رجلها رجل ثياب، فنودي من السماء يا ابن يعقوب لا تكن كطائر تنف ريشه فبقي لا ريش له، فلم يتعظ على النداء شيئاً حتى رأى برهان ربه جبريل في صورة يعقوب عاضاً على أصبعه ففرج فخرجت شهوته من أنامله فوثب إلى الباب فوجده مغلقاً، فرفع يوسف رجله فضرب بها الباب الأتني فأنفجر له واتبعته فادركته، فوضعت يديها في قميصه فشقت حتى بلغت عضلة ساقه فأنفيا سيدها لدى الباب. وأخرج أبو نعيم في الحلية عن علي بن أبي طالب في قوله: ﴿همت به وهم بها﴾ قال: طمعت فيه وطمع فيها، وكان فيه من الطمع أن هم أن يحل التكة، فقامت إلى صنم لها مكلل بالدر والياقوت في ناحية البيت فسترت بثوب أبيض بينها وبينه، فقال: أي شيء تصنعين؟ فقالت: استحي من إلهي أن يراني على هذه السوء، فقال يوسف: تستحين من صنم لا ياكل ولا يشرب، ولا استحي أنا من إلهي الذي هو قائم على كل نفس بما كسبت؟ ثم قال: لا تتألفيا مني أبداً، وهو البرهان الذي رأى. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله: ﴿ولو أن رأى برهان ربه﴾ قال: مثل له يعقوب، فضرب بيده في صدره فخرجت شهوته من أنامله. وقد أطل المفسرون في تعيين البرهان الذي رآه، واختلفت أقوالهم في ذلك اختلافاً كثيراً. وأخرج ابن جرير عن زيد بن ثابت قال: السيد الزوج، يعني في قوله: ﴿والأنفيا سيدها لدى الباب﴾. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد نحوه. وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس في قوله: ﴿إلا أن يسجن أو عذاب لليم﴾ قال: القيد. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله: ﴿وشهد شاهد من أهلها﴾ قال: صبي أنطقه الله كان في الدار. وأخرج أحمد، وابن جرير، والبيهقي، في الدلائل عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «تكلم أربعة وهم صغار: ابن ماشطة فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى ابن مريم». وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿وشهد شاهد من أهلها﴾ قال: كان رجلاً ذا حية. وأخرج الفريابي، وابن جرير، وأبو الشيخ عنه قال: كان من خاصة الملك. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن الحسن قال: هو رجل له فهم وعلم. وأخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم قال: ابن عم

والعزيز ﴿بِعَمْرِهِنَّ﴾ أي: بغيبتهنَّ إياها، سميت الغيبة مكرراً لاشتراكهما في الإخفاء، وقيل: أرسن أن يتوسلن بذلك إلى رؤية يوسف، فلهاذا سمي قولهنَّ مكرراً، وقيل: إنها أسرَّت عليهنَّ فافشَيْن سرّها فسمي ذلك مكرراً، ﴿أُرْسِلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ أي: تدعوهُنَّ إليها لينظرن إلى يوسف حتى يقعن فيما وقعت فيه ﴿واعتدت لهن متكا﴾ أي: هيات لهن مجالس يتكنن عليها، واعتدت من الاعتداء، وهو كل ما جعلته عدّة لشيء. وقرأ مجاهد وسعيد بن جبير (متكا) مخففاً غير مهموز، والتمك: هو الأترج بلغة القبط، ومنه قول الشاعر:

نشرب الإثم بالصواع جهارا وترى التمثك بيننا مستعارا
وقيل: إن ذلك هو لغة أزد شنوءة، وقيل: حكى ذلك عن الأخفش. وقال الفراء: إنه ماء الورد. وقرأ الجمهور (متكا) بالهمز والتشديد، وأصح ما قيل فيه: إنه المجلس، وقيل: هو الطعام، وقيل: المتكا كل ما اتكى عليه عند طعام أو شراب أو حديث. وحكى الفتيبي أنه يقال: اتكنا عند فلان أي: أكلنا، ومنه قول الشاعر:

فظللنا بنعمة واتكنا وشربنا الحلال من قلله
ويؤيد هذا قوله: ﴿وَأَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سَكِينًا﴾ فإن ذلك إنما يكون لشيء ياكلنه بعد أن يقطعه، والسكين تذكر وتؤنث، قاله الكسائي والفراء. قال الجوهري: والغالب عليه التذكير، والمراد من إعطائنا لكل واحدة سكيناً أن يقطعن ما يحتاج إلى التقطيع من الأطعمة، ويمكن أنها أرادت بذلك ما سيق منهنَّ من تقطيع أيديهنَّ ﴿وَوَقَّالَتْ﴾ ليوسف ﴿لَخَرَجَ عَلَيْهِنَّ﴾ أي: في تلك الحالة التي هنَّ عليها من الاتكاء والاكل وتقطيع ما يحتاج إلى التقطيع من الطعام. قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾ أي: عظمته، وقيل: أمنين، ومنه قول الشاعر:

فلمست لإنسي ولكن لملك تنزل من جود السماء يصوت
وقرأ الحسن (ما هذا بشراء) على أن الباء حرف جر، والشين مكسورة: أي ما هذا بعبد يشتري، وهذه قراءة ضعيفة لا تناسب ما بعدها من قوله: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾. وأعلم أنه لا يلزم من قول النسوة هذا أن الملائكة صورهم أحسن صور بني آدم، فإنهنَّ لم يقلنه للليل، بل حكمن على الغيب بمجرد الاعتقاد المرتكز في طباعهن وذلك ممنوع، فإن الله سبحانه يقول: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: 4]. وظاهر هذا أنه لم يكن شيء مثله من أنواع المخلوقات في حسن تقويمه وكمال صورته، فما قاله صاحب الكشف في هذا المقام هو من جملة تمصباته لما رسخ في عقله من أقوال المعتزلة، على أن هذه المسألة أعني: مسألة المفاضلة بين الملائكة والبشر ليست من مسائل الدين في ورد ولا صدر، فما أغنى عباد الله عنها وأحوجهم إلى غيرها من مسائل التكليف ﴿وَقَالَتْ فَلَنَنصِرَنَّكَ اللَّهُ الَّذِي لَمْتَنُنِي فِيهِ﴾ الإشارة إلى يوسف، والخطاب للنسوة أي: عبرتني فيه. قالت لهنَّ هذا لما رأت افتتانهنَّ بيوسف إظهاراً لعذر نفسها؛ ومعنى فيه أي: في حبه؛ وقيل: الإشارة

إذما رآين الفحل من فوق قلة سهلن وكبرن المعني المقطرا وقيل: حضن. قال الأزهري: أكبرن بمعنى حضن، والهاء للسلكت، يقال: أكبرت المرأة أي: دخلت في الكبر بالحيض، وقع منهنَّ ذلك دهشاً وفزعاً لما شاهدنه من جماله الفائق، وحسنه الرائق، ومن ذلك قول الشاعر:

ناتي للنساء على أطهارهن ولا ناتي النساء إذا أكبرن إكبارا
وانكر ذلك أبو عبيدة وغيره قالوا: ليس ذلك في كلام العرب. قال الزجاج: يقال أكبرنه ولا يقال حضنه، فليس الإكبار بمعنى الحيض. وأجاب الأزهري فقال: يجوز أن تكون هاء الوقف لا هاء الكناية. وقد زيف هذا بأن هاء الوقف تسقط في الوصل. وقال ابن الأنباري: إن الهاء كناية عن مصدر الفعل أي: أكبرن إكباراً بمعنى حضن حضناً ﴿وَوَقَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ أي: جرحنها، وليس المراد به القطع الذي تبين منه اليد، بل المراد به الخدش والحر، وذلك معروف في اللغة كما قال النحاس؛ يقال: قطع يد صاحبه إذا خدشها؛ وقيل: المراد بأيديهنَّ هنا أناملهنَّ، وقيل: اكمامهنَّ. والمعنى: أنه لما خرج يوسف عليهنَّ أعظمته ودهشن راعهنَّ حسنه حتى اضطربت أيديهنَّ فوق القطع عليها

والمعنى: أنه لطف به وعصمه عن الوقوع في المعصية، لأنه إذا صرف عنه كيدهم لم يقع شيء مما رمنه منه، ووجه إسناد الكيد قد تقدم، وجملة ﴿إنه هو السميع العليم﴾ تعليل لما قبلها من صرف كيد النسوة عنه أي: إنه هو السميع لدعوات الداعين له، العليم بأحوال الملتجئين إليه.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿قد شغفها﴾ قال: غلبها. وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عنه ﴿قد شغفها﴾ قال: قتلها حب يوسف، الشغف: الحب القاتل، والشغف: حب بون ذلك، والشغاف: حجاب القلب. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿قد شغفها﴾ قال: قد علقها. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿فلما سمعت بمكرهن﴾ قال: بحديثهن. وأخرج ابن أبي حاتم عن سفيان ﴿فلما سمعت بمكرهن﴾ قال: يعملن، وكل مكر في القرآن فهو عمل. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في قوله: ﴿واعتدت لهن متكاً﴾ قال: هيات لهن مجلساً، وكان سنتهم إذا وضعوا المائدة أعطوا كل إنسان سكيناً يأكل بها ﴿فلما رآينه﴾ قال: فلما خرج عليهن يوسف ﴿أكبرنه﴾ قال: أعظمه ونظرن إليه، وأقبلن يحززن أيديهن بالسكاكين وهن يحسبن أنهن يقطعن الطعام. وأخرج ابن جرير، وابن مروي عن ابن عباس ﴿واعتدت لهن متكاً﴾ قال: أعطتهن أترنجا، وأعطت كل واحدة منهن سكيناً، فلما رآين يوسف أكبرنه، وجعلن يقطعن أيديهن وهن يحسبن أنهن يقطعن الأترنج. وأخرج مسدد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مروي عنه: المتكا الأترنج، وكان يقرؤها خفيفة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد ﴿متكاً﴾ قال: طعاماً. وأخرج أبو عبيد، وابن المنذر عنه قال: هو الأترنج. وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: هو كل شيء يقطع بالسكين. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن الضحاك مثله. وأخرج أبو الشيخ من طريق عبد العزيز بن الوزير بن الكميت بن زيد قال: حدثني أبي، عن جدي يقول في قوله: ﴿فلما رآينه أكبرنه﴾ قال: أمنين. وأنشد:

ولما رآته الخيل من رأس شامق صهلن وأمنين المعنى المدفقا
وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق عبد الصمد بن علي بن عبد الله بن عباس، عن أبيه، عن جده ابن عباس في قوله: ﴿فلما رآينه أكبرنه﴾ قال: لما خرج عليهن يوسف حزن من الفرح، وذكر قول الشاعر الذي قُدمنا ذكره:

نأتي النساء لدى إظهارهن... البيت

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله: ﴿أكبرنه﴾ قال: أعظمه ﴿وقطعن أيديهن﴾ قال: حرّاً بالسكين حتى ألقينها ﴿وقلن حاشا لله﴾ قال: معاذ الله. وأخرج عبد الرزاق وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة

إلى الحب، والضمير له أيضاً، والمعنى: فذلك الحب الذي لمتنني فيه هو ذلك الحب، والأول أولى. ورجحه ابن جرير. وأصل اللوم: الوصف بالقبيح. ثم لما أظهرت عذر نفسها عند النسوة بما شاهدته مما وقعن فيه عند ظهوره لهن ضاق صدرها عن كتم ما تجده في قلبها من حبه، فافترت بذلك وصرحت بما وقع منها من المراودة له، فقالت: ﴿ولقد راوبته عن نفسه فاستعصم﴾ أي: استعف وامتنع مما أريده طالباً لعصمة نفسه عن ذلك، ثم توعدت إن لم يفعل ما تريده كاشفة لجلباب الحياء هاتكة لستر العفاف فقالت: ﴿ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين﴾ أي: لئن لم يفعل ما قد أمرته به فيما تقدم ذكره عند أن غلقت الأبواب وقالت: هيت لك ليسجنن أي: يعتقل في السجن وليكونن من الصاغرين الأذلاء لما يناله من الإهانة، ويسلب عنه من النعمة والعزة في زعمها، قرئ (ليكونن) بالتثنية والتخفيف، قيل: والتخفيف أولى لأن الذنوب كتبت في المصحف ألفاً على حكم الوقف. وذلك لا يكون إلا في الخفيفة، وأما ليسجنن فبالثقل لا غير؛ فلما سمع يوسف مقالها هذا، وعرف أنها عزمة منها مع ما قد علمه من نفاذ قولها عند زوجها العزيز قال مناجياً لربه سبحانه: ﴿رب السجن﴾ أي: يا رب السجن الذي أوعنتني هذه به ﴿الحب إلي مما يدعونني إليه﴾ من مؤاتاتها والوقوع في المعصية العظيمة التي تذهب بخير الدنيا والآخرة. قال الزجاج: أي دخول السجن، فحذف المضاف. وحكى أبو حاتم أن عثمان بن عفان رضي الله عنه قرأ (السجن) بفتح السين، وقرأ كذلك ابن أبي إسحاق وعبد الرحمن الأعرج، ويعقوب، وهو مصدر سجنه سجنناً، وإسناد الدعوة إليهن جميعاً، لأن النسوة رغبته في مطاوعتها وخوفنه من مخالفتها، ثم جرى على هذا في نسبة الكيد إليهن جميعاً، فقال: ﴿ولا تصرف عني كيدهن﴾ أما الكيد من امرأة العزيز فما قد قصه الله سبحانه في هذه السورة، وأما كيد سائر النسوة فهو ما تقدم من الترغيب له في المطاوعة والتخويف من المخالفة، وقيل: إنها كانت كل واحدة تخلو به وحدها وتقول له: يا يوسف اقض لي حاجتي فأتنا خير لك من امرأة العزيز، وقيل: إنه خاطب امرأة العزيز بما يصلح لخطاب جماعة النساء تعظيماً لها، أو عدولاً عن التصريح إلى التعريض، والكيد: الاحتيال. وجرم ﴿أصب إليهن﴾ على أنه جواب الشرط أي: أمل إليهن، من صبا يصبو: إذا مال واشتاق، ومنه قول الشاعر:

إلى هند صبا قلبي وهند حبها يصبي
﴿واكن من الجاهلين﴾ معطوف على أصب أي: أكن ممن يجهل ما يحرم ارتكابه ويقدم عليه، أو ممن يعمل عمل الجاهل. قوله: ﴿فاستجاب له ربه﴾ لما قال: ﴿ولا تصرف عني كيدهن﴾ كان ذلك منه تعرضاً للدعاء، وكأنه قال: اللهم اصرف عني كيدهن، فالاستجابة من الله تعالى له هي بهذا الاعتبار، لأنه لم يتقدم دعاء صريح منه عليه السلام،

التي فتحها الله عليهم بعد وصول يوسف إليهم ولم يجد ذلك فيهم بل كانت امرأته هي الغالبة على رأيه الفاعلة لما يطابق هواها في يوسف، وإنفاذاً ما تقدّم منها من الوعيد له بقولها: ﴿وَلَنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرَهُ بِهِ لَيْسَجُنَّ وَلِيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [يوسف: 32] قيل: وسبب ظهور هذا الرأي لهم في سجن يوسف أنهم أراؤا ستر القالة، وكنتم ما شاع في الناس من قصة امرأة العزيز معه؛ وقيل: إن العزيز قصد بسجنه الحيلولة بينه وبين امرأته لما علم أنها قد صارت بمكان من حبه لا تبالي معه بحمل نفسها عليه على أي صفة كانت؛ ومعنى قوله: ﴿حَتَّى حِينَ﴾ إلى مدة غير معلومة كما قاله أكثر المفسرين، وقيل: إلى انقطاع ما شاع في المدينة. وقال سعيد بن جبير: إلى سبع سنين، وقيل: إلى خمس، وقيل: إلى ستة أشهر، وقد تقدّم في البقرة الكلام في تفسير الحين وحتى بمعنى إلى. قوله: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٍ﴾ في الكلام حذف متقدّم عليه، والتقدير: وبدا لهم من بعد ما أراؤا الآيات ليسجنته حتى حين فسجنوه، ودخل معه السجن فتيان، ومع للمصاحبة، وفتيان تثنية فتى، وذلك يدل على أنهما عبدان له، ويحتمل أن يكون الفتى اسماً للخادم وإن لم يكن مملوكاً، وقد قيل: إن أحدهما خباز الملك، والآخر ساقيه، وقد كانا وضعا للملك سما لما ضمن لهما أهل مصر مالا في مقابلة ذلك، ثم إن الساقى رجع عن ذلك وقال للملك: لا تاكل الطعام فإنه مسموم، وقال الخباز: لا تشرب فإن الشراب مسموم، فقال الملك للساقى: اشرب فشرّب فلم يضره، وقال للخباز كل فابى، فجزّب الطعام على حيوان فهلك مكانه فحبسهما، وكان لدخولهما السجن مع دخول يوسف، وقيل: قبله، وقيل: بعده. قال ابن جرير: إنهما سالا يوسف عن علمه فقال: إني أعبر الرؤيا، فسألاه عن رؤيائهما كما قص الله سبحانه ﴿فَقَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ أي: رأيتني، والتعبير بالمضارع لاستحضار الصورة. والمعنى: إني أرايتي أعصر عنباً، فسماه باسم ما يثول إليه لكونه المقصود من العصر. وفي قراءة ابن مسعود (أعصر عنباً). قال الأصمعي: أخبرني المعتمر بن سليمان أنه لقي أعرابياً ومعه عنب، فقال له: ما معك؟ فقال خمر. وقيل: معنى أعصر خمرأى أي: عنب خمر، فهو على حذف المضاف، وهذا الذي رأى هذه الرؤيا هو الساقى، وهذه الجملة مستأنفة بتقدير سؤال، وكذلك الجملة التي بعدها وهي ﴿وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خَبِزًا﴾ ثم وصف الخبز هذا بقوله: ﴿تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ﴾ وهذا الراي لهذه الرؤيا هو الخباز، ثم قال لا يوسف جميعاً بعد أن قصا رؤيائهما عليه ﴿فَنَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ أي: بتأويل ما قصصناه عليك من مجموع المرتين، أو بتأويل المذكور لك من كلامنا؛ وقيل: إن كل واحد منهما قال له ذلك عقب قص رؤياه عليه، فيكون الضمير راجعاً إلى ما رآه كل واحد منهما؛ وقيل: إن الضمير في بتأويله موضوع موضع اسم الإشارة، والتقدير بتأويل ذلك ﴿إِنَّا نُرَاكَ مِنَ الْمَحْسُورِينَ﴾

في قوله ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا مَلِكٌ كَرِيمٌ﴾ قال: قلن ملك من الملائكة من حسنه. وأخرج أبو الشيخ عن منبه، عن أبيه قال: مات من النسوة التي قطعن أيديهن تسع عشرة امرأة كمداً. وأخرج أحمد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والحاكم عن أنس، عن النبي ﷺ قال: «أعطي يوسف وأمه شطر الحسن»، وقد رويت روايات عن جماعة من السلف في وصف حسن يوسف؛ والمبالغة في ذلك، ففي بعضها أنه أعطي نصف الحسن، وفي بعضها ثلثه، وفي بعضها ثلثيه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس ﴿فَاسْتَعْصَمَ﴾ قال: امتنع. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن قتادة ﴿فَاسْتَعْصَمَ﴾ قال: فاستعصى. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن زيد في قوله: ﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾ قال: إن لا تكن منك أنت القوي والمنعة لا تكن مني ولا عندي. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ ﴿أَصْبَحَ إِلَيْهِنَّ﴾ قال: اتبعهن. وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال: أطاوعهن.

ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْأَيَّاتِ لِيَسْجُنَهُ حَتَّى يَجِيءَ ۖ وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خَبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَاتَّبَعَتْ مَلَكَةً مَاءَ بَنَاتٍ إِتْرَيجِيَّةً وَمِنْهُنَّ رَجُلٌ قَدْ كَانَتْ تَأْتِيهِ بِالنَّاسِ مِنْ قَوْمٍ فَفَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْهَا وَكَانَ النَّاسُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ يَصْطَرِّجِي السَّجْنَ ۖ وَأَنَابَ مُتَرَفِفُونَ خَبْرَ أَبِي اللَّهِ الْوَلَدِ الْقَهَّارِ ﴿٣٥﴾ مَا تَقْدِرُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَبَّحْتُمُوهَا أَشْرَ وَابْتَازَكُم مَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنَّا لَعَالِمُ أَمْرِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ إِلَهٌ إِلَهٌ الْقِيمِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾

معنى ﴿بدا لهم﴾ ظهر لهم، والضمير للعزيز وأصحابه الذين يديرون الأمر معه ويشيرون عليه، وأما فاعل ﴿بدا لهم﴾ فقال سببويه: هو ليسجنته أي: ظهر لهم أن يسجنوه. قال المبرد: وهذا غلط لأن الفاعل لا يكون جملة، ولكن الفاعل ما دل عليه (بدا) وهو المصدر كما قال الشاعر: وحق لمن أبو موسى أبوه يوفقه الذي نصب الجبالا أي وحق الحق فحذف الفاعل لدلالة الفعل عليه وقيل: الفاعل المحذوف هو رأي أي: وظهر لهم رأي لم يكونوا يعرفونه من قبل، وهذا الفاعل حذف لدلالته ليسجنته عليه، واللام في ليسجنته جواب قسم محذوف على تقدير القول أي: ظهر لهم من بعد ما أراوا الآيات قائلين والله ليسجنته. وقرئ (لتسجنه) بالمشناة الفوقية على الخطب، إما للعزيز ومن معه، أو له وحده على طريق التعظيم، والآيات قيل: هي القميص وشهادة الشاهد وقطع الأيدي، وقيل: هي البركات

الناس كافة ببيعة الأنبياء إليهم وهدايتهم إلى ربهم وتبيين طرائق الحق لهم ﴿ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾ الله سبحانه على نعمه التي أنعم بها عليهم فيؤمنون به ويوحونو ويعملون بما شرع لهم. قوله: ﴿يا صاحبي السجن﴾ أرباب متفرقون خير لم الله الواحد القهار جعلهما مصاحبين للسجن لطول مقامهما فيه، وقيل: المراد يا صاحبي في السجن، لأن السجن ليس بمصحوب بل مصحوب فيه، وأن ذلك من باب يا سارق الليلة. وعلى الأول يكون من باب قوله: ﴿أصحاب الجنة أصحاب النار﴾ [الأعراف: 44] والاستفهام للإنكار مع التقريع والتوبيخ، ومعنى التفرق هنا هو التفرق في الذوات والصفات والعدد أي: هل الأرباب المتفرقون في نواتهم المختلفون في صفاتهم المتفاوتون في عددهم خير لكما يا صاحبي السجن، أم الله المعبود بحق المتفرد في ذاته وصفاته الذي لا ضد له ولا ند ولا شريك، القهار الذي لا يغالبه مغالب ولا يعانده معانده؟ أورد يوسف عليه السلام على صاحبي السجن هذه الحجة القاهرة على طريق الاستفهام، لأنهما كانا ممن يعبد الأصنام؛ وقد قيل: إنه كان بين أيديهما أصنام يعبدونها عند أن خاطبهما بهذا الخطاب، ولهذا قال لهما: ﴿ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتوهما﴾ أي: إلا أسماء فارغة سميتوهما ولا مسميات لها، وإن كنتم تزعمون أن لها مسميات، وهي الأكلة التي تعبدونها، لكنها لما كانت لا تستحق التسمية بذلك صارت الأسماء كأنها لا مسميات لها؛ وقيل: المعنى ما تعبدون من نون الله إلا مسميات أسماء سميتوهما أنتم وأبائكم من تلقاء أنفسكم، وليس لها من الإلهية شيء إلا مجرد الأسماء لكونها جمادات لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر؛ وإنما قال: ﴿ما تعبدون﴾ على خطاب الجمع وكذلك ما بعده من الضمائر، لأنه قصد خطاب صاحبي السجن ومن كان على دينهم، ومفعول سميتوهما الثاني محذوف أي: سميتوهما آلهة من عند أنفسكم ﴿ما أنزل الله بها﴾ أي: بتلك التسمية ﴿من سلطان﴾ من حجة تدل على صحتها ﴿إن الحكم إلا لله﴾ أي: ما الحكم إلا لله في العبادة، فهو الذي خلقكم وخلق هذه الأصنام التي جعلتموها معبودة بدون حجة ولا برهان، وجملة ﴿أمر ألا تعبدوا إلا إياه﴾ مستأنفة، والمعنى: أنه أمركم بتخصيصه بالعبادة دون غيره مما تزعمون أنه معبود، ثم بين لهم أن عبادة وحده دون غيره هي دين الله الذي لا دين غيره فقال: ﴿ذلك﴾ أي: تخصيصه بالعبادة ﴿الدين القيم﴾ أي: المستقيم الثابت ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أن ذلك هو دينه القويم، وصراطه المستقيم، لجهلكم وبعيدكم عن الحقائق.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن عكرمة قال: سألت ابن عباس عن قوله: ﴿ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات﴾ فقال: ما سألني عنها أحد قبلك، من الآيات قد القميص وأثرها في جسده، وأثر السكين، وقالت امرأة

أي: من الذين يحسنون عبارة الرؤيا، وكذا قال الفراء: إن معنى من المحسنين من العالمين الذين أحسنوا العلم. وقال ابن إسحاق: من المحسنين إلينا إن فسرت ذلك، أو من المحسنين إلى أهل السجن، فقد روي أنه كان كذلك، وجملة ﴿قال لا ياتيكما طعام ترزقانه إلا نباتكما بتأويله قبل أن ياتيكما﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر، ومعنى ذلك أنه يعلم شيئاً من الغيب، وأنه لا ياتيهما إلى السجن طعام إلا أخبرهما بما هيته قبل أن ياتيهما، وهذا ليس من جواب سؤالهما تعبير ما قصاه عليه، بل جعله عليه السلام مقمة قبل تعبيره لرؤياهما بياناً لعل مرتبته في العلم، وأنه ليس من المعبرين الذين يعبرون الرؤيا عن ظن وتخمين، فهو كقول عيسى عليه السلام ﴿وانبئكم بما تكلون﴾ [آل عمران: 49] وإنما قال يوسف عليه السلام لهما بهذا ليحصل الانقياد منهما له فيما يدعوهما إليه بعد ذلك من الإيمان بالله والخروج من الكفر، ومعنى ترزقانه: يجري عليهما من جهة الملك أو غيره، والجملة صفة لطعام، أو يرزقكما الله سبحانه، والاستثناء بقوله: ﴿إلا نباتكما بتأويله﴾ مفرغ من أعم الأحوال: أي لا ياتيكما طعام في حال من الأحوال إلا حال ما نباتكما أي: بينت لكما ماهيته وكيفيته قبل أن ياتيكما، وسماه تأويلاً بطريق المشكلة، لأن الكلام في تأويل الرؤيا، أو المعنى: إلا نباتكما بما يتوّل إليه الكلام من مطابقة ما أخبركما به للواقع، والإشارة بقوله: ﴿نلكما﴾ إلى التأويل، والخطاب للسائلين له عن تعبير رؤياهما ﴿مما علمني ربي﴾ بما أوحاه إليّ والهمني إياه لا من قبيل الكهانة والتنجيم ونحو ذلك مما يكثر فيه الخطأ، ثم بين لهما أن ذلك الذي ناله من هذه الرتبة العلية والعلوم الجمة هو بسبب ترك الملة التي لا يؤمن أهلها بالله ولا بالآخرة واتباعه لملة الأنبياء من آبائه فقال: ﴿إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله﴾ وهو كلام مستأنف يتضمن التعليل لما قبله، والمراد بالترك هو عدم التلبس بذلك من الأصل، لا أنه قد كان تلبس به، ثم تركه كما يدل عليه قوله: ﴿ما كان لنا أن نشرك بالله﴾ ثم وصف هؤلاء القوم بما يدل على تصلبهم في الكفر وتهالكهم عليه. فقال: ﴿وهم بالآخرة هم كافرون﴾ أي: هم مختصون بذلك دون غيرهم لإفراطهم في الكفر بالله. وقوله: ﴿واتبعتم﴾ معطوف على تركت، وسماه أباء جميعاً لأن الأجداد أباء، وقدم الجد الأعلى، ثم الجد الأقرب ثم الأب لكون إبراهيم هو أصل هذه الملة التي كان عليها أولاده ثم تلقاها عنه إسحاق ثم يعقوب، وهذا منه عليه السلام لترغيب صاحبيه في الإيمان بالله ﴿ما كان لنا أن نشرك بالله﴾ أي: ما صح لنا ذلك فضلاً عن وقوعه، والضمير في لنا له وللأنبياء المذكورين، والإشارة بقوله: ﴿ذلك﴾ إلى الإيمان المفهوم من قوله ما كان لنا أن نشرك بالله، و﴿من فضل الله علينا﴾ خبر اسم الإشارة أي: ناشئ من تفضلات الله علينا ولطفه بنا بما جعله لنا من النبوة المتضمنة للعصمة عن معاصيه، ومن فضل الله على

منعم عليه لا يدري، ويا ربّ حامل فقه غير فقيه. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: ﴿ءارباب متفرقون﴾ الآية، قال: لما عرف يوسف أن أحدهما مقتول دعاهما إلى حظهما من ربهما وإلى نصيبهما من آخرتهما. وأخرج أبو الشيخ عن ابن جريج في قوله: ﴿ذلك الدين القيم﴾ قال: العدل، فقال:

يَعْنِي السَّيِّئَ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَسَيِّئٌ رَيْدٌ حَرَمٌ وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الْفُلُورُ مِنْ رَأْسِهِ. فَوَيْلٌ لِلْأُمَرَاءِ الَّذِينَ يُولُوا شَيْئًا لِلَّذِينَ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿١٧﴾ قَالَ لِيذِي ظَنُّ أَنْتُمْ نَاجٍ مِنْهُمَا أَذْكَرُنِي مِنْ ذَلِكَ فَأَنْسَنِي السَّيِّئَ وَكَفَّرَ رَيْدَهُ. فَلَيْتَ لِي السَّيِّئَ بِشَيْءٍ سَيِّئٍ ﴿١٨﴾

هذا هو بيان ما طلباه منه من تعبير رؤياهما. والمراد بقوله: ﴿أما أحدهما﴾ هو الساقى، وإنما أبهم لكونه مفهوماً أو لكرامة التصريح للخبايا بأنه الذي سيصلب ﴿فيسقي ربه خمرأ﴾ أي: ماله، وهي عهته التي كان قائماً بها في خدمة الملك، فكانه قال: أما أنت أيها الساقى فستعود إلى ما كنت عليه ويدعو بك الملك ويطلقك من الحبس ﴿وأما الآخر﴾ وهو الخبايا ﴿فيسلب فتاكل الطير من رأسه﴾ تعبيراً لما رآه من أنه يحمل فوق رأسه خبزاً فتاكل الطير منه ﴿قضي الأمر الذي فيه تستفتيان﴾ وهو ما رآياه وقصاه عليه، يقال: استفتاه إذا طلب منه بيان حكم شيء سأل عنه مما أشكل عليه، وهما قد سألاه تعبيراً ما أشكل عليهما من الرؤيا ﴿وقال للذي ظن أنه ناجٍ منهما﴾ أي: قال يوسف، والظان هو أيضاً يوسف، والمراد بالظن العلم لأنه قد علم من الرؤيا نجا الشرابي وهلاك الخبايا، هكذا قال جمهور المفسرين وقيل: الظاهر على معناه، لأن عابر الرؤيا إنما يظن ظناً، والأول أولى وإنسب بحال الأنبياء. ولا سيما وقد أخبر عن نفسه عليه السلام بأنه قد أطلعه الله على شيء من علم الغيب كما في قوله: ﴿لا ياتيكم طعام ترزقانه﴾ [يوسف: 37] الآية، وجملة ﴿أذكرني عند ربك﴾ هي مقول القول أمره بأن يذكره عند سيده ويصفه بما شاهده منه من جودة التعبير والإطلاع على شيء من علم الغيب، وكانت هذه المقالة منه عليه السلام صادرة عن ذهول ونسيان عن نكر الله بسبب الشيطان، فيكون ضمير المفعول في أنساه عائداً إلى يوسف، هكذا قال بعض المفسرين ويكون المراد بربه في قوله: ﴿نكر ربه﴾ وهو الله سبحانه أي: إنساء الشيطان يوسف نكر الله تعالى في تلك الحال ﴿وقال للذي ظن أنه ناجٍ منهما﴾ يذكره عند سيده ليكون ذلك سبباً لانتباهه على ما أوقعه من الظلم البين عليه بسجنه بعد أن رأى من الآيات ما يدل على براءته. وذهب كثير من المفسرين إلى أن الذي أنساه الشيطان نكر ربه هو الذي نجا من الغلامين، وهو الشرابي، والمعنى: إنساء لشيطان الشرابي نكر سيده أي: نكره لسيده فلم يبلغ إليه ما أوصاه به يوسف من نكره عند سيده، ويكون المعنى: فأنساه الشيطان نكر إخباره بما أمره به

العزیز: إن أنت لم تسجنه ليصدقته الناس. وأخرج أبو الشيخ عن ابن زيد قال: من الآيات كلام الصبي. وأخرج ابن جرير عن قتادة قال: الآيات حرّهن أيبهن وقد القميص.

وأقول: إن كان المراد بالآيات: الآيات الدالة على براءته فلا يصح عدّ قطع أيدي النسوة منها، لأنه وقع منهن ذلك لما حصل لهن من الدهشة عند ظهوره لهن مع ما البسه الله سبحانه من الجمال الذي تنقطع عند مشاهدته عرى الصبر وتضعف عند رؤيته قوى التجلّد، وإن كان المراد الآيات الدالة على أنه قد أعطي من الحسن ما يسلب عقول المبصرين، ويذهب بإدراك الناظرين، فنعم يصح عدّ قطع الأيدي من جملة الآيات، ولكن ليس هذه الآيات هي المرادة هنا. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه عن ابن عباس قال: عوقب يوسف ثلاث مرات: أما أوّل مرة فبالحبس لما كان من همّه بها، والثانية لقوله: ﴿أذكرني عند ربك...﴾ فلبث في السجن بضع سنين [يوسف: 42] عوقب بطول الحبس، والثالثة حيث قال: ﴿أيتها العير إنكم لسارقون﴾ [يوسف: 70] فاستقبل في وجهه: ﴿إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل﴾ [يوسف: 77]. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وبخل معه السجن فتيان قال أحدهما﴾ خازن الملك على طعامه، والآخر ساقبه على شرابه. وأخرج ابن جرير عنه في قوله: ﴿إني أراني أعصر خمراً﴾ قال: عنياً. وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد ﴿نبئنا بتأويله﴾ قال: عبارته. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: ﴿إنا نراك من المحسنين﴾ قال: كان إحسانه فيما نكر لنا أنه كان يعزّي حزينهم ويداوي مريضهم. ورأوا منه عبادة واجتهاداً فأحبوه. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي في الشعب عن الضحاك قال: كان إحسانه أنه إذا مرض إنسان في السجن قام عليه، وإذا ضاق عليه المكان أوسع له، وإذا احتاج جمع له. وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال: دعا يوسف لأهل السجن فقال: اللهم لا تعمّ عليهم الأخبار وهونّ عليهم مرّ الأيام. وأخرج أبو عبيد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن جريج في قوله: ﴿لا ياتيكم طعام﴾ الآية، قال: كره العبارة لهما فأجابهما بغير جوابهما ليريحهما أن عنده علماً، وكان الملك إذا أراد قتل إنسان صنع له طعاماً معلوماً فأرسل به إليه، فقال يوسف: ﴿لا ياتيكم طعام ترزقانه﴾ إلى قوله: ﴿يشكرون﴾ فلم يدعه صاحباً الرؤية حت يعبر لهما، فكره العبارة فقال: ﴿يا صاحبي السجن ءأرباب متفرقون﴾ إلى قوله: ﴿ولكن أكثر للناس لا يعلمون﴾ قال: فلم يدعاه فعبّر لهما. وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: ﴿ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس﴾ قال: إن المؤمن ليشكر ما به من نعمة الله، ويشكر ما بالناس من نعم الله، نكر لنا أن أبا الدرداء كان يقول: يا ربّ شاكر نعمة غير

وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن قتادة فنحوه وهو مرسل أيضاً. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن أنس قال: أوحى إلى يوسف: من استنقذك من القتل حين هم إخوتك أن يقتلوك؟ قال: أنت يا رب، قال: فمن استنقذك من الجب إذ القوك فيه؟ قال: أنت يا رب، قال: فمن استنقذك من المرأة إذ همت بك؟ قال: أنت يا رب، قال: فما لك نسييتني ونكرت أسمى؟ قال: جزعا وكلمة تكلم بها لساني، قال: فوعزتي لأخلدك في السجن بضع سنين، فلبث فيه سبع سنين، وقد اختلف السلف في تقدير مدة لبثه في السجن على حسب ما قدمنا ذكره، فلم نشغلها هنا بذكر من قال بذلك ومن خرجه.

وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ يَسَوْنَ يَافُكُنَّ سَبْعَ عِجَافٍ وَسَبْعَ سُبُلَاتٍ خَمْرٍ وَأُخَرَ يَابَسَتْ يَأْتِيَنَّ الْمَلَأُ أَفْئُونِي فِي رُءُوسِي إِنْ كُنْتُ لِزَيْدًا مَمْرُومًا ﴿١٤﴾ قَالُوا أَضُنُّكَ أَهْلًا وَمَا نَحْنُ بِأَوْبِلِ الْأَهْلِ يَمِينِ ﴿١٥﴾ وَقَالَ الَّذِي نَمَّا مِنْهُمَا وَذَكَرَ بَدَأَ أَمْرًا أَنَا إِنِّي كُنْتُ بِتَارِيهِ فَأَرْسَلُونِي يُوسُفَ أَنَّهُ الْغَيِّبُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ يَسَوْنَ يَافُكُنَّ سَبْعَ عِجَافٍ وَسَبْعَ سُبُلَاتٍ خَمْرٍ وَأُخَرَ يَابَسَتْ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ دَنَاقًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرَوْهُ فِي سَبِيلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا نَأْكُلُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ بَاقِيَ مِنْ بَدْوِ ذَلِكَ سَبْعَ شِدَادٍ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا نَحْنُ حَافِظُونَ ﴿١٨﴾ ثُمَّ بَاقِيَ مِنْ بَدْوِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يَغَارُ النَّاسُ فَفِيهِ يَصِيرُونَ ﴿١٩﴾

المراد بالملك هنا: هو الملك الأكبر، وهو الريان بن الوليد الذي كان العزيز وزيراً له، رأى في نومه لما دنا فرج يوسف عليه السلام أنه خرج من نهر يابس «سبع بقرات سمان» جمع سمين وسمينة، في إثرهن سبع عجاف: أي: مهزليل، وقد أقبلت العجاف على السمان فاكلتهن. والمعنى: إني رأيت، ولكنه عبر بالمضارع لاستحضار الصورة، وكذلك قوله: «ياكلهن» عبر بالمضارع للاستحضار، والعجاف جمع عجفاء، وقياس جمعه عجف، لأن فعلاء وأفعلا لا تجمع على فعال، ولكنه عدل عن القياس حملاً على سمان «وسبع سنبلات» معطوف على سبع بقرات. والمراد بقوله: «خضر» أنه قد انعقد حبها، واليابسات التي قد بلغت حد الحصاد. والمعنى: وأرى سبعاً آخر يابسات، وكان قد رأى أن السبع السنبلات اليابسات قد أدركت الخضر والتوت عليها حتى غلبتها، ولعل عدم التعرض لنكر هذا في النظم القرآني للاكتفاء بما نكر من حال البقرات «يا أيها الصلاة» خطاب للأشرف من قومه «افتوني في رؤياي» أي: أخبروني بحكم هذه الرؤيا «إن كنتم للرؤيا تعبرون» أي: تعلمون عبارة الرؤيا، وأصل العبارة مشتقة من عبور النهر، فعبرت النهر: بلغت شاطئه، فعابر الرؤيا يخبر بما يتوول إليه أمرها. قال الزجاج: اللام في للرؤيا للتبيين أي: إن كنتم تعبرون. ثم بين فقال: (لرؤيا) وقيل: هو للتقوية، وتأخير الفعل العامل فيه لرعاية الفواصل. وجملة «قالوا اضغاث

يوسف مع خلوصه من السجن ورجوعه إلى ما كان عليه من القيام بسقي الملك، وقد رجح هذا بكون الشيطان لا سبيل له على الأنبياء. وأجيب بأن النسيان وقع من يوسف، ونسبته إلى الشيطان على طريق المجاز، والأنبياء غير معصومين عن النسيان إلا فيما يخبرون به عن الله سبحانه، وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فنذكروني». ورجح أيضاً بأن النسيان ليس بذنب، فلو كان الذي أنساه الشيطان ذكر ربه هو يوسف لم يستحق العقوبة على ذلك بلبثه في السجن بضع سنين، وأجيب بأن النسيان هنا بمعنى الترك، وأنه عوقب بسبب استعانته بغير الله سبحانه، ويؤيد رجوع الضمير إلى يوسف ما بعده من قوله: «فلبث في السجن بضع سنين» ويؤيد رجوعه إلى الذي نجا من الغلامين قوله فيما سيأتي «وقال الذي نجا منهما وانكر بعد أمة» سنة «فلبث» أي: يوسف «في السجن» بسبب ذلك القول الذي قاله للذي نجا من الغلامين، أو بسبب تلك الإنشاء «بضع سنين» البضع: ما بين الثلاث إلى التسع كما حكاه الهروي عن العرب. وحكي عن أبي عبيدة أن البضع: ما دون نصف العقد، يعني: ما بين واحد إلى أربعة؛ وقيل: ما بين ثلاث إلى سبع، حكاه قطرب. وحكى الزجاج أنه ما بين الثلاث إلى الخمس، وقد اختلف في تعيين قدر المدة التي لبث فيها يوسف في السجن ف قيل سبع سنين، وقيل: ثنتا عشرة سنة، وقيل: أربع عشرة سنة، وقيل: خمس سنين.

وقد أخرج ابن جرير عن عكرمة في قوله: «أما لحنكما» قال: إياه فقال: رأيت فيما يرى النائم أني غرست حبة من عنب فنبتت، فخرج فيه عناقيد فعصرتهن ثم سقيتهن الملك؛ فقال: تمكث في السجن ثلاثة أيام، ثم تخرج فتسقيه خمرًا. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن مسعود قال: ما رأى صاحباً يوسف شيئاً، إنما تحالماً ليحرباً علمه. فلما أزل رؤياهما قالاً: إنما كنا نلعب ولم نر شيئاً، فقال «قضى الأمر الذي فيه تستفتيان» يقول: وقعت العبارة فصار الأمر على ما عبر يوسف. وأخرج أبو عبيد، وابن المنذر، وأبو الشيخ عن أبي مجلز قال: كان أحد اللذين قصا على يوسف الرؤيا كاتباً. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن ابن سابط «وقال للذي ظن أنه ناج منهما اذكرني عند ربك» قال: عند ملك الأرض. وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب العقوبات، وابن جرير، والطبراني، وابن مردويه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لو لم يقل يوسف الكلمة التي قال ما لبث في السجن طول ما لبث حيث يبتغي الفرج من عند غير الله». وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وأبو الشيخ، عن عكرمة مرفوعاً نحوه، وهو مرسل، وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن أبي هريرة مرفوعاً نحوه. وأخرج أحمد في الزهد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن الحسن مرفوعاً نحوه، وهو مرسل.

(دأباً) بتحريك الهمزة، وكذا روى حفص عن عاصم وهما لغتا قال الفراء: حرك لأن فيه حرفاً من حروف الحلق، وكذلك كل حرف فتح أوله وسكن ثانيه فتثقيله جائز في كلمات معروفة. فعبر يوسف عليه السلام السبع البقرات السمان بسبع سنين فيها خصب، والعجاف بسبع سنين فيها جبد وهكذا عبر السبع السنبلات الخضراء والسبع السنبلات اليبسات، واستدل بالسبع السنبلات الخضراء على ما ذكره في التعبير من قوله: ﴿فَمَا حَصَنْتُمْ فَذُرُوهُ فِي سَنِبْلَةٍ﴾ أي: ما حصنتم في كل سنة من السنين المخصبة فذروا ذلك المحصول في سنبلة ولا تفصلوه عنها لئلا ياكله السوس إلا قليلاً مما تاكلون في هذه السنين المخصبة فإنه لا بد لكم من فصله عن سنبلة وإخراجه عنها، واقتصر على استثناء المأكول دون ما يحتاجون إليه من البذر الذي يبنونه في أموالهم لأنه قد علم من قوله تزرعون ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي: من بعد السبع السنين المخصبة ﴿سَبْعَ شَدَادٍ﴾ أي: سبع سنين مجدية يصعب أمرها على الناس ﴿يَأْكُلُنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ من تلك الحبوب المتروكة في سنبليها، وإسناد الأكل إلى السنين مجاز، والمعنى: ياكل الناس فيهن أو ياكل أهلن ما قدمتم لهن: أي: ما انخرتم لأجلهن فهو من باب: نهارة صائم، ومنه قول الشاعر:

نهارك يا مغرور سهو وغفلة وليلك نوم والردى لك لازم
﴿إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تَحْصِنُونَ﴾ أي: مما تحبسون من الحب لتزرعوا به، لأن في استبقاء البذر تحصين الأقوات. وقال أبو عبيدة: معنى تحصنون تحززون، وقيل: تنخرون، والمعنى واحد. قوله: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يَغَاثُ النَّاسُ﴾ وفيه يعصرون ﴿أي: من بعد السنين المجديات، فالإشارة إليهما، والعام السنة ﴿فِيهِ يَغَاثُ النَّاسُ﴾ من الإغاثة أو الفوث، والغيث المطر، وقد غاث الغيث الأرض أي: أصابها، وغاث الله البلاد يغيثها غوثاً: أمطرها، فمعنى يغاث الناس: يمحطرون ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ أي: يعصرون الأشياء التي تعصر كالعنب والسمنم والزيتون، وقيل: أراد حلب الألبان؛ وقيل: معنى يعصرون ينجون، مأخوذ من العصرة وهي المنجاة. قال أبو عبيدة: والعصر بالتحريك الملجأ والمنجاة، ومنه قول الشاعر:

صاديا يستغيث غير مفاث ولقد كان عصرة المنجود
واعترضت بفلان: التجأت به. وقرأ حمزة والكسائي (يعصرون) بقاء الخطاب. وقرأ (يعصرون) حرف المضارعة وفتح الصاد، ومعناه يمحطرون. ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَاجًا﴾ [التبا: 14].

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: قال يوسف للساقى: أنكرني عند ربك أي: الملك الأعظم ومظلمتي وحبسي في غير شيء، فقال: أقعل، فلما خرج الساقى رد على ما كان عليه ورضي عنه صاحبه وأنساه الشيطان نكر الملك الذي أمره يوسف أن يذكره له، فلبث يوسف بعد ذلك في السجن بضعة سنين، ثم إن الملك

أحلام ﴿مستأنفة جواب سؤال مقدر، والأضغاث جمع ضغث، وهو كل مختلط من بقل أو حشيش أو غيرهما، والمعنى: أخلط أحلام، والأحلام جمع حلم: وهي الرؤيا الكاذبة التي لا حقيقة لها كما يكون من حديث النفس ووسواس الشيطان، والإضافة بمعنى من، وجمعوا الأحلام ولم يكن من الملك إلا رؤيا واحدة مبالغة منهم في وصفها بالبطلان، ويجوز أن يكون رأى مع هذه الرؤيا غيرها مما لم يقصه الله علينا ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ﴾ قال الزجاج: المعنى بتأويل الأحلام المختلطة، نفوا عن أنفسهم علم ما لا تأويل له، لا مطلق العلم بالتأويل، وقيل: إنهم نفوا عن أنفسهم علم للتعبير مطلقاً، ولم يدعوا أنه لا تأويل لهذه الرؤيا، وقيل: إنهم قصدوا محوها من صدر الملك حتى لا يشتغل بها، ولم يكن ما ذكره من نفي العلم حقيقة ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا﴾ أي: من الغلامين، وهو الساقى الذي قال له يوسف: ﴿انكرني عند ربك﴾ [يوسف: 42] (وانكر بعد أمة) بالدال المهملة على قراءة الجمهور، وهي القراءة الفصيحة أي: تذكر الساقى يوسف وما شاهده منه من العلم بتعبير الرؤيا، وقرأ بالمعجمة: ومعنى ﴿بعد أمة﴾: بعد حين، ومنه ﴿إِلَى أمة معدودة﴾ [هود: 8] أي: إلى وقت. قال ابن درستويه: والأمة لا تكون على الحين إلا على حذف مضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، كانه قال: والله أعلم وانكر بعد حين أمة أو بعد زمن أمة، والأمة: الجماعة الكثيرة من الناس. قال الأخفش: هو في اللفظ واحد وفي المعنى جمع، وكل جنس من الحيوان أمة. وقرأ ابن عباس وعكرمة (بعد أمة) بفتح الهمزة وتخفيف الميم أي: بعد نسيان، ومنه قول الشاعر:

أمت وكنت لا أنسى حديثاً كذاك الدهر يودي بالعقول
ويقال أمة يامه أمة: إذا نسي. وقرأ الأشهب العقيلي (بعد أمة) بكسر الهمزة أي: بعد نعمة، وهي نعمة النجاة ﴿إِنَّا أَنْبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ﴾ أي: أخبركم به بسؤاله عنه من له علم بتأويله، وهو يوسف ﴿فَارْسُلُونَا﴾ خاطب الملك بلفظ التعظيم، أو خاطبه ومن كان عنده من الملأ، طلب منهم أن يرسلوه إلى يوسف ليقص عليه رؤيا الملك حتى يخبره بتأويلها فيعود بذلك إلى الملك ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا﴾ أي: يا يوسف، وفي الكلام حذف، والتقدير: فإرسلوه إلى يوسف فسار إليه، فقال له: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ إلى آخر الكلام، والمعنى: أخبرنا في رؤيا من رأى سبع بقرات إلخ وترك ذكر ذلك اكتفاء بما هو واثق به من فهم يوسف بأن ذلك رؤيا، وأن المطلوب منه تعبيرها ﴿لَعَلِّي أَرْجِعَ إِلَى النَّاسِ﴾ أي: إلى الملك ومن عنده من الملأ ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ما تأتي به من تأويل هذه الرؤيا أو يعلمون فضلك ومعرفتك لفن التعبير، وجملة ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ﴾ إلخ مستأنفة جواب سؤال مقدر كغيرها مما يرد هذا المورد ﴿سَبْعَ سنين دأباً﴾ أي: متواليه متتابعة، وهو مصدر، وقيل هو حال أي: دأبين، وقيل: صفة لسبع أي: دأبة. وحكى أبو حاتم عن يعقوب أنه قرأ

يَسْمَعُ لِي لَمْ أَكُنْهُ بِالْقَبْرِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْفَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾ وَمَا أُنَبِّئُكَ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَكْثَرُءَ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَجَعْتُ وَإِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤٧﴾ وَقَالَ إِلَيْكَ أَتَوَدُّ بِذِهِ اسْتَوْصِلُنِي نَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٤٨﴾ قَالَ لَتَمْلِكُنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَصِيصٌ عَلَيْهِ ﴿٤٩﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوهُ مِنْهَا حَيْثُ شَاءَ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَتَمَّرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٠﴾ وَكَأَجْرُ الْأَكْمَرَةِ حَبِيرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَنْقُورُونَ ﴿٥١﴾

قوله: ﴿وقال الملك لفتوني به﴾ في الكلام حذف قبل هذا، والتقدير: فذهب الرسول إلى الملك فأخبره بما أخبره به يوسف من تعبير تلك الرؤيا، وقال الملك لمن بحضرته اثنتوني به أي: بيوسف، رغب إلى رؤيته ومعرفة حاله بعد أن علم من فضله ما علمه من وصف الرسول له ومن تعبيره لرؤياه ﴿فلما جاءه﴾ أي: جاء إلى يوسف ﴿الرسول﴾ واستدعاه إلى حضرة الملك وأمره بالخروج من السجن ﴿قال﴾ يوسف للرسول ﴿ارجع إلى ربك﴾ أي: سيديك ﴿فأسأله ما بال للنسوة اللاتي قطعن لبيدين﴾ أمره بأن يسأل الملك عن ذلك وتوقف عن الخروج من السجن، ولم يسارع إلى إجابة الملك، ليظهر للناس براءة ساحته ونزاهة جانبه، وأنه ظلم بكيد امرأة العزيز ظلماً بيناً، ولقد أعطى عليه السلام من الحلم والصبر والأناة ما تضيق الأذهان عن تصوّره، ولهذا ثبت في الصحيح من قوله ﷺ: «ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي»، يعني: الرسول الذي جاء يدعوه إلى الملك، قال ابن عطية: هذا الفعل من يوسف أناة وصبراً، وطلباً لبراءة ساحته، وذلك أنه خشي أن يخرج وينال من الملك مرتبة، ويسكت عن أمر ذنبه فيراه الناس بتلك العين يقولون هذا الذي راود امرأة العزيز، وإنما قال: ﴿فأسأله ما بال للنسوة﴾ وسكت عن امرأة العزيز رعاية لتمام الملك العزيز، أو خوفاً منه من كيدها وعظيم شرّها، وذكر السؤال عن تقطيع الأيدي ولم يذكر مراودتهنّ له، تنزهاً منه عن نسبة ذلك إليهنّ، ولذلك لم ينسب المراودة فيما تقدّم إلى امرأة العزيز إلا بعد أن رمته بدائها وانسلت. وقد اكتفى هنا بالإشارة الإجمالية بقوله: ﴿إن ربي بكيبدين عليم﴾ فجعل علم الله سبحانه بما وقع عليه من الكيد منهجاً مغنياً عن التصريح، وجملته ﴿قال فما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل: فمأذا قال الملك بعد أن أبلغه الرسول ما قال يوسف؟ والخطب: الشأن العظيم الذي يحق له أن يخاطب فيه صاحبه خاصة. والمعنى: ما شأنكنّ إذا راودتن يوسف عن نفسه. وقد تقدّم معنى الملوادة، وإنما نسب إليهنّ الملوادة، لأن كل واحدة منهن وقع منها ذلك كما تقدّم؛ ومن جملة من شمله خطاب الملك امرأة العزيز، أو أراد بنسبة ذلك إليهنّ وقوعه منهنّ في الجملة كما كان من امرأة العزيز تحاشياً عن التصريح منه بنسبة ذلك إليها لكونها امرأة وزيره وهو

ريان بن الوليد رأى رؤياه التي أرى فيها فهلته وعرف أنها رؤيا واقعة ولم يدر ما تأويلها، فقال للملا حوله من أهل مملكته ﴿إني أرى سبع بقرات سمان ياكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وآخر يابس﴾ فلما سمع من الملك ما سمع منه ومسألته عن تأويلها نكر يوسف ما كان عبر له ولصاحبه وما جاء من ذلك على ما قال فقال: أنا أنبئكم بتأويله. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿اضفأ لحلام﴾ يقول: مشتبهة. وأخرج أبو يعلى، وابن جرير عنه قال: من الأحلام الكاذبة. وأخرج ابن جرير عن الضحّاك مثله. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ من طرق عن ابن عباس في قوله: ﴿وانكر بعد أمة﴾ قال: بعد حين. وأخرج ابن جرير عن مجاهد والحسن وعكرمة وعبد الله بن كثير والسدي مثله. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: بعد سنين. وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال: بعد أمة من الناس. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: ﴿فتتنا في سبع بقرات﴾ الآية، قال: أما السمان فسنون فيها خصب، وأما العجاف فسنون مجببة، وسبع سنبلات خضر هي السنون المخاصب تخرج الأرض نباتها ويزرعها وثمارها، وآخر يابسات المحول الجنوب لا تثبت شيئاً. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن عكرمة قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد عجب من يوسف وكرمه وصبره والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان، ولو كنت مكانه ما أخبرتهم حتى اشترط عليهم أن يخرجوني، ولقد عجب من يوسف وصبره وكرمه والله يغفر له حين أتاه الرسول، ولو كنت مكانه لبارتهم الباب ولكنه أراد أن يكون له العنبر». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿إلا قليلاً مما تحصنون﴾ يقول: تخزنون، وفي قوله: ﴿وفيه يعصرون﴾ يقول: الأعناب والدهن. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿فيه يفاث الناس﴾ يقول: يصيبهم فيه غيث ﴿وفيه يعصرون﴾ يقول: يعصرون وفيه العنب ويعصرون فيه الزبيب ويعصرون من كل الثمرات. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عنه أيضاً ﴿وفيه يعصرون﴾ قال: يحتلبون. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عنه أيضاً ﴿ثم ياتي من بعد ذلك علم﴾ قال: أخبرهم بشيء لم يسألوه عنه كأن الله قد علمه إياه فيه يفاث الناس بالمطر، وفيه يعصرون السمسسم دهنًا والعب خمرًا والزيتون زيتاً.

وقال لكلك اثنتوني به فلما جاءه الرسول قال أرجع إلى ربك فتسله ما بال النسوة اللاتي قطعن لبيدين إن ربي بكيبدين عليم ﴿٤٦﴾ قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حش لئو ما علمتنا عليه من سوء قال أمركت العزيز الفن حصص الحق أنا ردوكم عن نفسي ولئن لم الصديقين ﴿٤٧﴾ ذلك

ذلك **﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾** أي: إلا من رحم من النفوس فعصمها عن أن تكون أمانة بالسوء، أو إلا وقت رحمة ربي وعصمته لها، وقيل: الاستثناء منقطع؛ والمعنى: لكن رحمة ربي هي التي تكفها عن أن تكون أمانة بالسوء، وجملة **﴿إِنْ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾** تعليل لما قبلها أي: إن من شأنه كثرة المغفرة لعباده والرحمة لهم. قوله: **﴿وَقَالَ لِلْمَلِكِ اثْنُونِي بِهِ اسْتَخْلَصْهُ لِنَفْسِي﴾** الملك هو الريان بن الوليد لا العزيز كما تقدم؛ ومعنى **﴿اسْتَخْلَصْهُ لِنَفْسِي﴾**: أجعله خالصاً لي دون غيري، وقد كان قبل ذلك خالصاً للعزيز، والاستخلاص: طلب خلوص الشيء من شوائب الشركة، قال ذلك لما كان يوسف نفيساً، وعادة الملوك أن يجعلوا الأشياء النفيسة خالصة لهم دون غيرهم **﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾** في الكلام حذف، وتقديره فأتته به فلما كلمه أي: فلما كلم الملك يوسف ويحتمل أن يكون المعنى: فلما كلم يوسف الملك. قيل: والأول أولى، لأن مجالس الملوك لا يتكلم فيها ابتداء إلا هم بون من يدخل عليهم؛ وقيل: الثاني أولى لقول الملك **﴿قَالَ إِنَّكَ لِلْيَوْمِ لَكِينٌ مَكِينٌ أَمِينٌ﴾** فإن هذا يفيد أنه لما تكلم يوسف في مقام الملك جاء بما حبه إلى الملك، وقربه من قلبه، فقال له هذه المقالة، ومعنى مكين: ذو مكانة وأمانة بحيث يتمكن مما يريد من الملك ويأمنه الملك على ما يطلع عليه من أمره، أو على ما يكله إليه من ذلك. قيل: إنه لما وصل إلى الملك أجلسه على سريرته، وقال له: **﴿إِنِّي أَحِبُّ أَنْ أَسْمَعَ مِنْكَ تَعْبِيرَ رُؤْيَايَ﴾** فعبرها له بأكمل بيان وأتم عبارة، فلما سمع الملك منه ذلك قال له: **﴿إِنَّكَ لِلْيَوْمِ لَكِينٌ مَكِينٌ أَمِينٌ﴾** فلما سمع يوسف منه ذلك **﴿قَالَ لَجْعَلَنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾** أي: ولني أمر الأرض التي أمرها إليك وهي أرض مصر، أو لَجْعَلَنِي عَلَى حِفْظِ خَزَائِنِ الْأَرْضِ، وهي الأمكنة التي تخزن فيها الأموال طلب يوسف عليه السلام منه ذلك ليتوصل به إلى نشر العدل ورفع الظلم، ويتوصل به إلى دعاء أهل مصر إلى الإيمان بالله وترك عبادة الأوثان وفيه دليل على أنه يجوز لمن وثق من نفسه إذا دخل في أمر من أمور السلطان أن يرفع منار الحق ويهدم ما أمكنه من الباطل طلب ذلك لنفسه ويجوز له أن يصف نفسه بالأوصاف التي لها ترغيباً فيما يرومه، وتنشيطاً لمن يخاطبه من الملوك باللقاء مقاليد الأمور إليه وجعلها منوطاً به ولكنه يعارض هذا الجواز ما ورد عن نبينا ﷺ من النهي عن طلب الولاية والمنع من تولية من طلبها أو حرص عليها، والخزائن جمع خزانة، وهي اسم للمكان الذي يخزن فيه الشيء والحفيظ الذي يحفظ الشيء أي: **﴿إِنِّي حَفِيزٌ﴾** لما جعلته إليّ من حفظ الأموال لا أخرجها في غير مخرجها، ولا أصرفها في غير مصارفها **﴿عَلِيمٌ﴾** بوجود جمعها وتفريقها ومداخلها ومخرجها **﴿وَكُنْتُ مَكِينٌ لِيُوسُفَ﴾** أي: ومثل ذلك التمكين العجيب مكناً ليوسف في الأرض أي: جعلنا له مكاناً، وهو عبارة عن كمال قدرته ونفوذه وأمره ونهيه حتى صار الملك يصدر عن رأيه، وصار الناس يعملون على أمره ونهيه

العزيز، فاجبن عليه بقولهن: **﴿قُلْنَ حَاشَ اللَّهُ﴾** أي: معاذ الله **﴿وَمَا عَلَّمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾** أي: من أمر سيء ينسب إليه، فعند ذلك **﴿قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ﴾** منزلة لجانبه مقررة على نفسها بالمرادة له **﴿الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾** أي: تبين وظهر. وأصله حصّ، فقيل: حصص كما قيل في كبوا كيبكوا، قاله الزجاج، وأصل الحصّ: استئصال الشيء، يقال: حصّ شعره إذا استأصله، ومنه قول أبي قيس بن الأسلت: قد حصت البيضة رأسي فما أطمع نوماً غير تهجاء والمعنى أنه انقطع الحق عن الباطل بظهوره وبيانه، ومنه: فمن مبلغ عني خدائاً فإنه كنوب إذا ما حصص الحق ظالم وقيل: هو مشتق من الحصة. والمعنى: بانث حصّة الباطل. قال الخليل: معناه ظهر الحق بعد خفائه، ثم أوضحت ذلك بقولها: **﴿إِنَّا رَأَوْنَهُ عَنْ نَفْسِهِ﴾** ولم تقع منه المرادة لي أصلاً **﴿وَلَوْ أَنَّهُ لَصَادِقٌ﴾** فيما قاله من تبرئة نفسه ونسبة المرادة إليها، وأرادت بالآن زمان تكلمها بهذا الكلام. قوله: **﴿تِلْكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾** ذهب أكثر المفسرين إلى أن هذا من كلام يوسف عليه السلام. قال الفراء: ولا يبعد وصل كلام إنسان بكلام إنسان آخر إذا لبت القرينة الصارفة لكل منهما إلى ما يليق به، والإشارة إلى الحادثة الواقعة منه، وهي تثبته وتأيينه أي: فعلت ذلك ليعلم العزيز أنني لم أخنه في أهله بالغيب؛ والمعنى بظهر الغيب، والجار والمجرور في محل نصب على الحال أي: وهو غائب عني، أو وأنا غائب عنه. قيل: إنه قال ذلك وهو في السجن بعد أن أخبره الرسول بما قالت النسوة، وما قالت امرأة العزيز، وقيل: إنه قال ذلك وقد صار عند الملك، والأول أولى. وذهب الأقولون من المفسرين إلى أن هذا من كلام امرأة العزيز، والمعنى: تلك القول الذي قلته في تنزيهه، والإقرار على نفسي بالمرادة ليعلم يوسف أنني لم أخنه فأنسب إليه ما لم يكن منه وهو غائب عني، أو وأنا غائبة عنه **﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِفِينَ﴾** أي: لا يثبت ويسنده، أو لا يهديهم في كيدهم حتى يوقعوه على وجه يكون له تأثير يثبت به ويدوم وإذا كان من قول يوسف ففيه تعريض بامرأة العزيز حيث وقع منها الكيد والخيانة لزوجها، وتعريض بالعزيز حيث ساعدها على حبسه بعد أن علم براءته وزاهاه **﴿وَمَا لِبَرِّئٍ نَفْسِي﴾** إن كان من كلام يوسف فهو من باب الهمز للنفس، وعدم التزكية بها مع أنه قد علم هو وغيره من الناس أنه بريء وظهر ذلك ظهور الشمس، واقررت به المرأة التي ادّعت عليه الباطل، ونزمت النسوة اللاتي قطعن أيديهن، وإن كان من كلام امرأة العزيز فهو واقع على الحقيقة، لأنها قد اقرت بالذنب، واعترفت بالمرادة بالافتراء على يوسف. وقد قيل: إن هذا من قول العزيز وهو بعيد جداً؛ ومعناه: وما أبرئ نفسي من سوء الظن بيوسف، والمساعدة على حبسه بعد أن علمت ببراءته **﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾** أي: إن هذا الجنس من الأنفس البشرية شأنه الأمر بالسوء لميله إلى الشهوات، وتأثيرها بالطبع، وصعوبة قهرها، وكفها عن

وإنا ابن يعقوب نبي الله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن شيبه بن نعمة الضبي في قوله: ﴿اجعلني على خزائن الأرض﴾ يقول: على جميع الطعام. ﴿إني حفيظ﴾ لما استودعني ﴿عليهم﴾ بسني المجاعة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله: ﴿وكنك مكنيا ليوسف في الأرض﴾ قال: ملكناه فيها يكون فيها حيث يشاء من تلك الدنيا يصنع فيها ما يشاء. وأخرج أبو الشيخ عن زيد بن أسلم أن يوسف تزوج امرأة العزيز فوجدها بكراً، وكان زوجها عنيثا.

وَكَلَّمَ إِخْوَهُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَاهَزَهُمْ بِيَهْرِهِمْ قَالَ أَتُونِي بِأَنْتُمْ مِنْكُمْ أَمْ لَا تَزِرُ الْوِثْرَ الْكَبِيرَ وَأَنَا خَيْرُ الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ فَإِن لَّر تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٩٠﴾ فَأَلْأَوْ سَازُوهُ عَنْهُ آبَاءُ وَنَا لَقَعُونَهُ ﴿٩١﴾ وَقَالَ لِيَفِيضُوا أَجْمَلُوا بِمَعْنَاهُمْ فِي رِجَالِهِمْ لَمَّا هُمْ يَفْرُقُونَهَا إِذَا أُنْفِلُوا إِلَيْكَ أَهْلِيهِمْ لَمَّا هُمْ رَاجِعُونَ ﴿٩٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسَلَ مَنَّا أَحَاكَ نَكْشَلْ وَإِنَّا لَمُ لَحَافُونَ ﴿٩٣﴾ قَالَ هَلْ مَسَّكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمْسَكْتُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتْنَهُمْ وَجَدُوا بِمِصْرَتِهِمْ رَدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبُئُكَ هَذِهِ بَضْعَتُنَا رَدَّتْ إِلَيْنَا وَبِئْسَ الْهَبْلُ وَخَفِظَ أَحَاكَ وَزَادَ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلُ يَسِيرٍ ﴿٩٥﴾ قَالَ لَنَ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْثِرُوا مَوْتًا بِكَ اللَّهُ تَأْتِي بِهِ إِلَّا أَنْ يَحْمِلَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْتَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَيَّ مَا تَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٩٦﴾

قوله: ﴿وجاء إخوة يوسف﴾ أي: جاءوا إلى مصر من أرض كنعان ليبتاعوا لما أصابهم القحط ﴿فدخلوا﴾ على يوسف ﴿فعرّفهم﴾ لأنه فارقه رجلاً ﴿وهم له منكرون﴾ لأنهم فارقه صبياً يباع بالدرهم في أيدي السيارة بعد أن أخرجوه من الحب، ودخلوا عليه الآن وهو رجل عليه أبهة الملك، ورويق الرثاسة، وعنده الخدم والحشم. وقيل: إنهم أنكروه لكونه كان في تلك الحال على هيئة ملك مصر، ولبس تاجه وتطوق بطوقه، وقيل: كانوا بعيداً منه فلم يعرفوه، وقيل غير ذلك، ﴿ولما جهزهم بجهازهم﴾ المراد هنا أنه أعطاهم ما طلبوه من الميرة وما يصلحون به سفرهم من العدة التي يحتاجها المسافرين. يقال: جهزت القوم تجهيزاً إذا تكلفت لهم جهازاً للسفر. قال الأزهري: القراء كلهم على فتح الجيم، والكسر لغة جيدة. ﴿قال اتوني باخ لكم من أبيكم﴾ قيل: لا بد من كلام ينشأ عنه طلبه لهم بأن يأتوه باخ لهم من أبيهم. فروي أنه لما رآهم وكلموه بالعبرانية قال لهم: ما أنتم وما شأنكم فإني أنكركم؟ فقالوا: نحن قوم من أهل الشام جئنا نمتار ولنا أب شيخ صديق نبي من الأنبياء اسمه يعقوب. قال: كم أنتم؟ قالوا: عشرة وقد كنا اثني عشر، فذهب أخ لنا إلى البرية فهلك، وكان أحبنا إلى أبينا، وقد سكن بعده إلى أخ له أصغر منه هو باقى لديه يتسلى به، فقال لهم حينئذ: ﴿اتوني باخ لكم من أبيكم﴾ يعني: أخاه

﴿يتبوا منها حيث يشاء﴾ أي: ينزل منها حيث أراد ويتخذ مباءة، وهو عبارة عن كمال قدرته كما تقدم، وكأنه يتصرف في الأرض التي أمرها إلى سلطان مصر كما يتصرف الرجل في منزله. وقرأ ابن كثير بالنون، وقد استدل بهذه الآية على أنه يجوز تولي الأعمال من جهة السلطان الجائر بل الكافر لمن وثق من نفسه بالقيام بالحق. وقد قدمنا الكلام على هذا مستوفي في قوله سبحانه: ﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا﴾ [هود: 113] ﴿نصيب برحمتنا من نشاء﴾ من العباد فنرحمه في الدنيا بالإحسان إليه والإنعام عليه، وفي الآخرة بإدخاله الجنة وإنجائه من النار ﴿ولا نضيع أجر المحسنين﴾ في أعمالهم الحسنة التي هي مطلوب الله منهم أي: لا نضيع ثوابهم فيها، ومجازاتهم عليها ﴿ولا لاجر الآخرة﴾ أي: أجرهم في الآخرة، وأضيف الأجر إلى الآخرة للملائسة، وأجرهم هو الجزء الذي يجازيهم الله به فيها، وهو الجنة التي لا ينفذ نعيمها ولا تنقضي منتها ﴿خير للذين آمنوا﴾ باخ ﴿وكانوا يتقون﴾ الوقوع فيما حرمه عليهم، والمراد بهم المحسنون المتقدم ذكرهم، وفيه تنبيه على أن الإحسان المعتد به هو الإيمان والتقوى.

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿وما بال للنسوة﴾ قال: أراد يوسف العنبر قبل أن يخرج من السجن. وأخرج الغريبي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي في الشعب عنه قال: لما قالت امرأة العزيز: أنا راودته، قال يوسف: ﴿ذلك ليعلم أنني لم أكنه بالغيب﴾ فغمزه جبريل فقال: ولا حين هممت بها؟ فقال: ﴿وما لبرئ نفسي﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً: ﴿حصحص الحق﴾ قال: تبين. وأخرج ابن جرير عن مجاهد، وقتادة، والضحاك، وابن زيد، والسدي مثله. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي حاتم، عن حكيم بن حزام في قوله: ﴿ذلك ليعلم أنني لم أكنه بالغيب﴾ فقال له جبريل: ولا حين حلت السراويل؟ فقال عند ذلك ﴿وما لبرئ نفسي﴾. وأخرج ابن عبد الحكم في فتوح مصر من طريق الكلبي عن أبي صالح، عن ابن عباس في قوله: ﴿وقال الملك اتوني به استخلصه لنفسي﴾ قال: فأتاه الرسول فقال: ألق عنك ثياب السجن واللبس ثياباً جيداً وقم إلى الملك، فدعا له أهل السجن وهو يومئذ ابن ثلاثين سنة، فلما أتاه رأى غلاماً حدثاً، فقال: أيعلم هذا رؤيائي ولا يعلمها السحرة والكهنة؟ وأقعه قدامه وقال: لا تخف، وألبسه طوقاً من ذهب وثياب حرير، وأعطاه دابة مسروجة مزينة كدابة الملك، وضرب الطبل بمصر: إن يوسف خليفة الملك. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس قال: قال الملك ليوسف: إني أحب أن تخالطني في كل شيء إلا في أهلي. وإنا أنف أن تاكل معي، فغضب يوسف وقال: أنا أحق أن أنف، أنا ابن إبراهيم خليل الله، وأنا ابن إسحاق نبيح الله،

بنيامين الذي تقدّم ذكره، وهو أخو يوسف لأبيه وأمه، فوعده بذلك، فطلب منهم أن يتركوا أحدهم رهينة عنده حتى يأتوه بالأخ الذي طلبه، فافترعوا فاصابت القرعة شمعون فخلّفوه عنده، ثم قال لهم: ﴿إِنَّا تَرَوْنَ أَنِّي أُوْفِي الْكِيلَ﴾ أي: أتممه، وجاء بصيغة الاستقبال مع كونه قال لهم هذه المقالة بعد تجهيزهم للدلالة على أن ذلك عادته المستمرة، ثم أخبرهم بما يزيدهم وثوقاً به وتصديقاً لقوله، فقال: ﴿وَإِنَّا خَيْرُ الْمَنْزِلِينَ﴾ أي: والحال أنني خير المنزلين لمن نزل بي كما فعلته بكم من حسن الضيافة وحسن الإنزال. قال الزجاج: قال يوسف: ﴿وَإِنَّا خَيْرُ الْمَنْزِلِينَ﴾ لأنه حين أنزلهم أحسن ضيافتهم، ثم توعدهم إذا لم يأتوه به فقال: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرِبُونِ﴾ أي: فلا أبيكم شيئاً فيما بعد، وأما في الحال فقد أوفاهم كيلهم، ومعنى لا تقربون: لا تدخلون بلادي فضلاً عن أن أحسن إليكم وقيل: معناه لا أنزلكم عندي كما أنزلتكم هذه المرة، ولم يرد أنهم لا يقربون بلاده، وتقريبون مجزوم إما على أن لا ناهية أو على أنها نافية، وهو معطوف على محل الجزاء داخل في حكمه كأنه قال: فإن لم تأتوني تحرموا ولا تقربوا فلما سمعوا منه ذلك وعدوه بما طلبه منهم فـ ﴿قَالُوا سَرَاوُدَ عَنْهُ لِبَاهٍ﴾ أي: سنطلبه منه، ونجتهد في ذلك بما نقدر عليه، وقيل: معنى السراودة هنا المخادعة منهم لأبيهم والاحتتيال عليه حتى ينتزعوه منه ﴿وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ هذه السراودة غير مقصدين فيها. وقيل: معناه وإنّا لقادرون على ذلك، لا نتعاضد به ولا نتعاضمه ﴿وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ لَجِعِلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾. قرأ أهل المدينة وأبو عمرو وعاصم من رواية شعبة وابن عامر (لفتيته)، واختار هذه القراءة أبو حاتم والنحاس وغيرهما. وقرأ سائر الكوفيين (لفتيتان)، واختار هذه القراءة أبو عبيد، وفي مصحف عبد الله بن مسعود كالقراءة الآخرة. قال النحاس: لفتيتان مخالف للسواد الأعظم، ولا يترك السواد المجمع عليه لهذا الإسناد المنقطع وأيضاً فإن فتية أشبه من فتيتان، لأن فتية عند العرب لأقل العدد، وأمر القليل بأن يجعلوا البضاعة في الرحال أشبه. والجملة مستأنفة جواب سؤال كأنه قيل: فما قال يوسف بعد وعدهم له بذلك؟ فأجيب بأنه قال لفتيته. قال الزجاج الفتية والفتيان في هذا الموضع المماليك. وقال الثعلبي: هما لغتان جيتان مثل الصبيان والصبية. والمراد بالبضاعة هنا هي التي وصلوا بها من بلادهم ليشتروا بها الطعام، وكانت نعالاً وأناماً، فعل يوسف عليه السلام ذلك تفضلاً عليهم؛ وقيل: فعل ذلك ليرجعوا إليه مرة أخرى لعله أنهم لا يقبلون الطعام إلا بثمن قاله الفراء. وقيل: فعل ذلك ليستعينوا بها على الرجوع إليه لشراء الطعام؛ وقيل: إنه استقبح أن يأخذ من أبيه وإخوته ثمن الطعام، ثم علل يوسف عليه السلام ما أمر به من جعل البضاعة في رحالهم بقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ﴾ فجعل علة جعل البضاعة في الرحال هي

معرفتهم لها إذا انقلبوا إلى أهلهم، وذلك لأنهم لا يعلمون برد البضاعة إليهم إلا عند تفرغ الأوعية التي جعلوا فيها الطعام، وهم لا يفرغونها إلا عند الوصول إلى أهلهم، ثم علل معرفتهم للبضاعة المردودة إليهم المجعل في رحالهم بقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ فإنهم إذا عرفوا ذلك وعلموا أنهم أخذوا الطعام بلا ثمن، وإن ما دفعوه عوضاً عنه قد رجع إليهم، وتفضل به من وصلوا إليه عليهم نشطوا إلى العود إليه، ولا سيما مع ما هم فيه من الجذب الشديد والحاجة إلى الطعام وعدم وجوده لديهم، فإن ذلك من أعظم ما يدعوهم إلى الرجوع، وبهذا يظهر أن يوسف عليه السلام لم يرد البضاعة إليهم إلا لهذا المقصد، وهو رجوعهم إليه فلا يتم تحليل ردّها بغير ذلك، والرحال جمع رحل، والمراد به هنا ما يستصعبه الرجل معه من الأثاث. قال الواحدي: الرجل كل شيء معد للرحيل من وعاء للمتاع ومركب للبعير ومجلس ورسن انتهى. والمراد هنا الأوعية التي يجعلون فيها ما يمتارونه من الطعام. قال ابن الأنباري: يقال: للوعاء رحل وللبيت: رحل ﴿فَلَمَّا رَجِعُوا إِلَى آبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَنَعَنَا الْكِيلَ﴾ أرادوا بهذا ما تقدّم من قول يوسف لهم: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي﴾ أي: منع منا الكيل في المستقبل، وفيه دلالة على أن الامتياز مرة بعد مرة معهود فيما بينهم وبينه، ولعلمهم قالوا له بهذه المقالة قبل أن يفتحوا متاعهم ويعلموا بردّ بضاعتهم كما يفيد ذلك قوله فيما بعد ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ﴾ إلى آخره، ثم ذكرنا له ما أمرهم به يوسف، فقالوا: ﴿فَارْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا﴾ يعنون بنيامين و ﴿نَكْتَلُ﴾ جواب الأمر أي: نكتل بسبب إرساله معنا ما نريده من الطعام. قرأ أهل الحرمين، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم (نكتل) بالنون. وقرأ سائر الكوفيون بالياء التحتية. واختار أبو عبيد القراءة الأولى قال: ليكونون كلهم داخلين فيمن يكتال، وزعم أنه إذا كان بالياء كان للأخ وحده أي: يكتال أخونا بنيامين، واعترضه النحاس مما حاصله أن إسناد الكيل إلى الأخ لا ينافي كونه للجميع، والمعنى: يكتال بنيامين لنا جميعاً. قال الزجاج: أي إن أرسلته اكتلنا وإلا منعنا الكيل ﴿وَإِنَّا لَهُ﴾ أي: لأخيهم بنيامين ﴿لِحَافِظُونَ﴾ من أن يصيبه سوء أو مكروه، وجملة ﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمَّنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر كما تقدّم في نظائر ذلك في مواضع كثيرة، والمعنى: أنه لا يأمّنهم على بنيامين إلا كما أأمّنهم على أخيه يوسف وقد قالوا له في يوسف: ﴿وَإِنَّا لَهُ لِحَافِظُونَ﴾ كما قالوا هنا: ﴿وَإِنَّا لَهُ لِحَافِظُونَ﴾ ثم خانوه في يوسف فهو إن أمتهم في بنيامين خاف أن يخونوه فيه كما خانوه في يوسف ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حِفْظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ لعل هنا إضماراً والتقدير فتوكل يعقوب على الله ودفعه إليهم وقال: فالله خير حفظاً. قرأ أهل المدينة (حفظاً) وهو منتصب على التمييز، وهي قراءة أبي عمرو، وعاصم، وابن عامر. وقرأ سائر الكوفيين (حافظاً)، منتصب على الحال. وقال الزجاج:

اعطوه ما طلبه منهم من اليمين **﴿قال الله على ما نقول وكيل﴾** أي قال يعقوب: الله على ما قلناه من طلبتي الموتى منكم وإعطائكم لي ما طلبته منكم مطلع رقيب لا يخفي عليه منه خافية، فهو المعاقب لمن خاس في عهده وفجر في الحلف به، أو موكل إليه القيام بما شهد عليه منا.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس قال: إن إخوة يوسف لما دخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون، جاء بصواع الملك الذي كان يشرب فيه، فوضعه على يده فجعل ينقره ويطنّ، وينقره ويطنّ، فقال: إن هذا الجام ليخبرني عنكم خبراً. هل كان لكم أخ من أبيكم يقال له: يوسف؟ وكان أبوه يحبه ليوكم، وإنكم انطلقتم به فالحقتموه في الحبّ وأخبرتم إياكم أن الذنب أكله، وجئتم على قميصه بدم كذب؟ قال: فجعل بعضهم ينظر إلى بعض ويعجبون. وأخرج أبو الشيخ عن وهيب قال: لما جعل يوسف ينقر الصواع ويخبرهم قام إليه بعض إخوته فقال: انشدك بالله أن لا تكشف لنا عورة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: **﴿الفتوني باخ لكم من أبيكم﴾** قال: يعني بنيامين، وهو أخو يوسف لأبيه وأمه. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله: **﴿وإنّا خير للعزّلين﴾** قال: خير من يضيف بمصر. وأخرج ابن جرير عن قتادة في قوله: **﴿الفتيته﴾** أي: لغلمان **﴿لجعلوا بضاعتهم﴾** أي: أوراقتهم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: **﴿ما نبغي هذه بضاعتنا رئت إلينا﴾** يقولون: ما نبغي وراء هذا **﴿ونزداد كيل بعير﴾** أي: حمل بعير. وأخرج أبو عبيد، وابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد **﴿ونزداد كيل بعير﴾** قال: حمل حمار، قال: وهي لغة، قال أبو عبيد: يعني مجاهداً أن الحمار يقال له: في بعض اللغات بعير. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله: **﴿إلا أن يحاط بكم﴾** قال: تهلّكوا جميعاً. وفي قوله: **﴿فلما أتوه موثقهم﴾** قال: عهدهم. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: **﴿إلا أن يحاط بكم﴾** قال إلا أن تغلبوا حتى لا تطيقوا ذلك.

وَقَالَ بَنِيّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابِ رَبِّهِ وَأَدْخُلُوا مِنْ أَوْتَابِ مُصْرِفَةٍ وَمَا أَغْنَى عَنْكُمْ رَبُّكَ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ عَلَيْهِ تَكُونُكُمْ وَعَلَيْهِ تَكُونُكُمْ
الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ فَتْنَةٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهُ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لَمَّا عَلِمْتُ أُولَئِكَ أَكْثَرَ الْأَنْفَاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ أَعْرَضَ عَنْهُمْ أَكَاهُ فَالَ إِنَّهُنَّ أَهْلُكَ فَلَا يَنْتَفِعُونَ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِمَهَاجِرِهِمْ جَعَلَ السِّبْقَ فِي رِجْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَتَيْنَاهُ الْغَيْرُ لَكُمْ لَسْرُونَ ﴿٨٠﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْعَلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا نَقِيدُ صَوَاعَ الْمَلِكِ وَلَمَنْ جَاءَ بِهِ جِدْلٌ بَعِيرٌ وَأَنَا بِهِ رَعِيدٌ ﴿٨٢﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْتُمْ بِهِ الْيَوْمَ وَمَا كُنَّا سَرِقِينَ ﴿٨٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ

على البيان يعني: التمييز؛ ومعنى الآية: أن حفظ الله إياه خير من حفظهم له، لما وكل يعقوب حفظه إلى الله سبحانه حفظه وأرجعه إليه، ولما قال في يوسف: **﴿وأخاف أن يأكله الذنب﴾** [يوسف: 13] وقع له من الامتحان ما وقع. **﴿ولما فتحو ما بينهم﴾** أي: أوعية الطعام أو ما هو أعمّ من ذلك مما يطلق عليه لفظ المتاع سواء كان الذي فيه طعاماً أو غير طعام **﴿وجنوا بضاعتهم رئت إليهم﴾** أي: البضاعة التي حملوها إلى مصر ليتماروا بها، وقد تقدّم بيانها، وجملة **﴿قالوا يا إيلنا﴾** مستأنفة كما تقدّم **﴿ما نبغي﴾** ما استفهامية والمعنى: أي شيء نطلب من هذا الملك بعد أن صنع معنا ما صنع من الإحسان بردّ البضاعة والإكرام عند القدوم إليه، وتوفير ما أراده من المبرة، ويكون الاستفهام للإنكار، وجملة **﴿هذه بضاعتنا رئت إلينا﴾** مقرّرة لما دلّ عليه الاستفهام من الإنكار لطلب شيء مع كونها قد رئت إليهم؛ وقيل: إن (ما) في ما نبغي نافية أي: ما نبغي في القول وما نتزيد فيما وصفنا لك من إحسان الملك إلينا وإكرامه لنا، ثم برهنوا على ما لقوه من التزيد في وصف الملك بقولهم **﴿هذه بضاعتنا رئت إلينا﴾** فإن من تفضل عليهم بردّ تلك حقيق بالثناء عليه منهم، مستحق لما وصفوه به، ومعنى **﴿ونمير أهلنا﴾** تجلب إليهم الميرة وهي الطعام، والمائر الذي يأتي بالطعام. وقرأ السلمي بضم النون، وهو معطوف على مقدر يدلّ عليه السياق. والتقدير: هذه بضاعتنا رئت إلينا فنحن نستعين بها على الرجوع ونمير أهلنا **﴿ونحفظ لخانا﴾** بنيامين مما تخافه عليه **﴿ونزداد﴾** بسبب إرساله معنا **﴿كيل بعير﴾** أي: حمل بعير زائد على ما جئنا به هذه المرة، لأنه كان يكال لكل رجل وقر بعير، ومعنى **﴿نلك كيل يسير﴾** أن زيادة كيل بعير لأخيها يسهل على الملك، ولا يمتنع علينا من زيادته له لكونه يسيراً لا يتعاضمه ولا يضايقنا فيه، وقيل إن المعنى: ذلك المكيل لأجلنا قليل نريد أن ينضاف إليه حمل بعير لأخيها. واختار الزجاج الأوّل. وقيل: إن هذا من كلام يعقوب جواباً على ما قاله أولاده، **﴿ونزداد كيل بعير﴾** يعني: إن حمل بعير شيء يسير لا يخطر لأجله بالولد وهو ضعيف، لأن جواب يعقوب هو **﴿قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله﴾** أي: حتى تعطوني ما أثق به وأركن إليه من جهة الله سبحانه، وهو الحلف به، واللام في **﴿لتاتنني به﴾** جواب القسم، لأن معنى **﴿حتى تؤتون موثقاً من الله﴾**: حتى تحلفوا بالله لتاتني به أي: لتردّ بنيامين إليّ، والاستثناء بقوله: **﴿إلا أن يحاط بكم﴾** هو من أعمّ العام، لأن **﴿لتاتنني به﴾** وإن كان كلاماً مثبتاً فهو في معنى النفي، فكانه قال: لا تمنعون من إتياني به في حال من الأحوال لعله من الملل إلا لعلّة الإحاطة بكم، والإحاطة مأخوذة من إحاطة العدو، ومن أحاط به العدو فقد غلب أو هلك، فأخذ يعقوب عليهم العهد بأن ياتوه ببنيامين إلا أن تغلبوا عليه أو تهلّكوا بونه، فيكون ذلك عذراً لكم عندي **﴿فلما أتوه موثقهم﴾** أي:

إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ فَأُولَئِكَ جَزَاءُ مَنْ رَجَعُوا فِي رَعْلِهِمْ فَوُتُوا جَزَاءُ كَذَلِكَ
يَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ بَدَأَ بَآرِئَهُمْ قَبْلَ وَعْدِهِ أَخِي ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وَعْدِهِ
أَخِي كَذَلِكَ كَذَبَ الْيُوسُفُ مَا كَانَ لِأَخِي أَنْ يَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ
يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَتَكَ مِمَّنْ نَشَاءُ وَنُفِقُ كَفْلَ ذِي وَلَرٍ عَلَيْهِ ﴿٧٦﴾

لما تجهز أولاد يعقوب للمسير إلى مصر خاف عليهم أبوه أن تصيبهم العين لكونهم كانوا ذوي جمال ظاهر وثياب حسنة مع كونهم أولاد رجل واحد، فنهاهم أن يدخلوا مجتمعين من باب واحد لأن في ذلك مظنة لإصابة الأعين لهم، وأمرهم أن يدخلوا من أبواب متفرقة، ولم يكتف بقوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ﴾ عن قوله: ﴿وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ لأنهم لو دخلوا من بابين مثلاً كانوا قد امتثلوا النهي عن الدخول من باب واحد، ولكنه لما كان في الدخول من بابين مثلاً نوع اجتماع يخشى معه أن تصيبهم العين لأمرهم أن يدخلوا من أبواب متفرقة، قيل: وكانت أبواب مصر أربعة.

وقد أنكر بعض المعتزلة كآبي هاشم والبلخي أن للعين تأثيراً، وقالوا: لا يمتنع أن صاحب العين إذا شاهد الشيء وأعجب به كانت المصلحة له في تكليفه أن يغير الله ذلك الشيء حتى لا يبقى قلب ذلك المكلف معلقاً به. وليس هذا بمستنكر من هذين واتباعهما، فقد صار دفع آفة الكتاب والسنة بمجرد الاستبعادات العقلية دأبهم ودينهم، وأتى مانع من إصابة العين بتقدير الله سبحانه لذلك؟ وقد وردت الأحاديث الصحيحة بأن العين حق، وأصيب بها جماعة في عصر النبوة، ومنهم رسول الله ﷺ. وأعجب من إنكار هؤلاء لما وردت به نصوص هذه الشريعة ما يقع من بعضهم من الإزراء على من يعمل بالليل المخالف لمجرد الاستبعاد العقلي والتنطع في العبارات كالزخشري في تفسيره، فإنه في كثير من المواطن لا يقف على دفع ليل الشرع بالاستبعاد الذي يدعيه على العقل حتى يضم إلى ذلك الوقاحة في العبارة على وجه يوقع المقصرين في الأقوال الباطلة والمذاهب الزائفة. وبالجمله فقول هؤلاء مدفوع بالآلة المتكاثرة وإجماع من يعتد به من هذه الأمة سلفاً وخلفاً، وبما هو مشاهد في الوجود، فكم من شخص من هذا النوع الإنساني وغيره من أنواع الحيوان هلك بهذا السبب.

وقد اختلف العلماء فيمن عرف بالإصابة بالعين، فقال قوم: يمنع من الاتصال بالناس دفعاً لضرره بحبس أو غيره من لزوم بيته؛ وقيل: ينفي؛ وأبعد من قال إنه يقتل إلا إذا كان يعتمد ذلك وتتوقف إصابته على اختياره وقصده ولم ينزجر عن ذلك، فإنه إذا قتل كان له حكم القاتل. ثم قال يعقوب لأولاده ﴿وَمَا أَغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: لا أنفع عنكم ضرراً ولا أجلب إليكم نفعاً بتبديري هذا، بل ما قضاه الله عليكم فهو واقع لا محالة. قال الزجاج وابن الأنباري: لو سبق في علم الله أن العين تهلكهم مع الاجتماع

لأن تفرقهم كلجمعهم. وقال آخرون: ما كان يغني عنهم يعقوب شيئاً قط حيث أصابهم ما أصابهم مع تفرقهم من إضافة السرقة إليهم، ثم صرح يعقوب بأنه لا حكم إلا لله سبحانه فقال: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ لا لغيره ولا يشاركه فيه مشارك في ذلك ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في كل إيراد وإصدار لا على غيره أي: اعتمدت ووثقت ﴿وعليه﴾ لا على غيره ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ على العموم، ويدخل فيه أولاده بخلاً أولاً ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ﴾ أي: من الأبواب المتفرقة ولم يجتمعوا داخلين من باب واحد. وجواب لما ﴿مَا كَانَ يَغْنِي عَنْهُمْ﴾ ذلك الدخول ﴿مِنْ اللَّهِ﴾ أي: من جهته ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ من الأشياء مما قدره الله عليهم لأن الحذر لا يدفع القدر، والاستثناء بقوله: ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ منقطع؛ والمعنى: ولكن حاجة كانت في نفس يعقوب، وهي شفقتهم عليهم ومحبتهم لسلامتهم قضاها يعقوب أي: أظهرها لهم ووصاهم بها غير معتقد أن للتبدير الذي يبره لهم تأثيراً في دفع ما قضاه الله عليهم، وقيل: إنه خطر ببال يعقوب أن الملك إذا رآهم مجتمعين مع ما يظهر فيهم من كمال الخلقة. وسيما الشجاعة أوقع بهم حسداً وحقدًا أو خوفاً منهم، فأمرهم بالتفرق لهذه العلة. وقد اختار هذا النحس وقال: لا معنى للعين ما هنا، وفيه أن هذا لو كان هو السبب لأمرهم بالتفرق ولم يخص النهي عن ذلك بالاجتماع عند الدخول من باب واحد، لأن هذا الحسد أو الخوف يحصل باجتماعهم داخل المدينة كما يحصل باجتماعهم عند الدخول من باب واحد. وقيل: إن الفاعل في قضاها ضمير يعود إلى الدخول لا إلى يعقوب. والمعنى: ما كان الدخول يغني عنهم من جهة الله شيئاً، ولكنه قضى ذلك الدخول حاجة في نفس يعقوب لوقوعه حسب إرادته ﴿وَوَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لَمَّا عَلِمَهَا﴾ أي: وإن يعقوب لصاحب علم لأجل تعليم الله إياه بما أوحاه الله من أن الحذر لا يدفع القدر، وأن ما قضاه الله سبحانه فهو كائن لا محالة ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بذلك كما ينبغي، وقيل: لا يعلمون أن الحذر مندوب إليه وإن كان لا يغني من القدر شيئاً، والسيق يدفعه؛ وقيل: المراد بأكثر الناس المشركون ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ أَوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ أي: ضم إليه أخاه بنيامين، قيل: إنه أمر بإنزال كل اثنين في منزل فبقي أخوه منفرداً فضمه إليه و ﴿قَالَ إِنِّي أَنَا لَخُوكَ﴾ يوسف، قال له ذلك سرّاً، من دون أن يطلع عليه إخوته ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ أي: فلا تحزن ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: إخوتك من الأعمال الماضية التي عملوها؛ وقيل: إنه لم يخبره بأنه يوسف، بل قال له: إني أخوك مكان أخيك يوسف فلا تحزن بما كنت تلقاه منهم من الجفاء حسداً وبغياً؛ وقيل: إنه أخبره بما سيديره معهم من جعل السقاية في رحله، فقال: لا أبالي، وقيل: إنه لما أخبر يوسف أخاه بنيامين بأنه أخوه قال: لا ترنني إليهم، فقال قد علمت اغتنام أبنينا يعقوب فإذا حبستك عندي ازداد غمه، فأتى بنيامين فقال له يوسف: لا يمكن

حبسك عندي إلا بأن أنسبك إلى ما لا يجمل بك، فقال: لا أبالي، ففس الطاع في رحله، وهو المراد بالسقاية وأصلها المشربة التي يشرب بها جعلت صاعاً يكال به، وقيل: كان تسقى بها الدواب ويكال بها الحب، وقيل: كانت من فضة وقيل: كانت من ذهب، وقيل غير ذلك. وقد تقدم تفسير الجهاز والرحل. والمعنى: أنه جعل السقاية التي هو الصواع في رحل أخيه الذي هو الوعاء الذي يجعل فيه ما يشتره من الطعام من مصر **﴿ثم﴾** بعد ذلك **﴿أذن مؤذن﴾** أي: نادى منادٍ قائلاً **﴿إيتها العير﴾** قال الزجاج: معناه يا أصحاب العير. وكل ما امتير عليه من الإبل والحميز والبقال فهو عير؛ وقيل: هي قافلة الحمير. وقال أبو عبيدة: العير الإبل المرحولة المركوبة **﴿إنكم لسارقون﴾** نسبة السرق إليهم على حقيقتها، لأن المنادي غير عالم بما بده يوسف؛ وقيل: إن المعنى إن حالكم حال السارقين كون الصواع صار لديكم من غير رضا من الملك **﴿قالوا﴾** أي: إخوة يوسف **﴿واقبلوا عليهم﴾** أي حال كونهم مقبلين على من نادى منهم المنادي من أصحاب الملك **﴿ماذا تفقون﴾** أي: ما الذي فقدتموه، يقال: فقدت الشيء إذا عيمته بضياع أونحوه، فكانهم قالوا ماذا ضاع عليكم؟ وصيغة المستقبل لاستحضار الصورة **﴿قالوا﴾** في جوابهم **﴿نفقد صواع الملك﴾**. قرأ يحيى بن يعمر (صواع) بالغيث المعجمة. وقرأ أبو رجاء (صوع) بضم الصاد المهملة وسكون الواو بعدها عين مهملة. وقرأ أبي (صياح). وقرأ أبو جعفر صاع، وبها قرأ أبو هريرة. وقرأ الجمهور (صواع) بالصاد والعين المهملتين. قال الزجاج: الصواع هو الصاع بعينه، وهو ينكر ويؤنث، وهو السقاية، ومنه قول الشاعر:

نشرب الخمر بالصواع جهارا

﴿ولمن جاء به حمل بعير﴾ أي قالوا: ولمن جاء بالصواع من جهة نفسه حمل بعير. والبعير الجمل، وفي لغة بعض العرب أنه الحمار، والمراد بالحمل ها هنا ما يحمله البعير من الطعام، ثم قال المنادي **﴿ولنا به زعيم﴾** أي: بحمل البعير الذي جعل لمن جاء بالصواع قبل التفتيش للأوعية، والزعيم هو الكفيل، ولعل القائل نفقد صواع الملك هو المنادي، وإنما نسب القول إلى الجماعة لكونه واحداً منهم، ثم رجع الكلام إلى نسبة القول إلى المنادي وحده لأنه القائل بالحقيقة **﴿قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفقد في الأرض﴾** التاء بدل من واو القسم عند الجمهور، وقيل: من الباء، وقيل: أصل بنفسها، ولا تدخل إلا على هذا الاسم الشريف دون سائر أسمائه سبحانه، وقد نخلت نابراً على الرب، وعلى الرحمن، والكلام على هذا مستوفى في علم الإعراب؛ وجعلوا المقسم عليه هو علم يوسف وأصحابه بنزاهة جانبهم وطهارة نيلهم عن التلوث بقدر الفساد في الأرض الذي من أعظم أنواعه السرقة، لأنهم قد شاهدوا منهم في قلوبهم عليه المرة الأولى، وهذه المرة من التعفف والزهد عما هو دون السرقة بمراحل ما يستفاد منه العلم

الجازم بأنهم ليسوا بمن يتجاراً على هذا النوع العظيم من أنواع الفساد، ولو لم يكن من ذلك إلا ردهم لبضاعتهم التي وجبوا في رحالهم، والمراد بالأرض هنا أرض مصر، ثم أكدوا هذه الجملة التي أقسموا بالله عليها بقولهم: **﴿وما كنا سارقين﴾** لزيادة التبزي مما قرفوهم به والتنزه عن هذه النقيصة الخسيسة والزليلة الشنعاء **﴿قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين﴾** هذه الجملة مستأنفة كما تقدم غير مرة في نظائرها، والقائلون هم أصحاب يوسف، أو المنادي منهم وحده كما مر، والضمير في جزاؤه للصواع على حذف مضاف أي: فما جزاء سرقة الصواع عنكم، أو الضمير للسارق أي: فما جزاء سارق الصواع عنكم **﴿إن كنتم كاذبين﴾** فيما تدعون لأنفسكم من البراءة عن السرقة، وذلك بأن يوجد الصواع معكم، فأجاب أخوة يوسف و **﴿قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه﴾** أي: جزاء سرقة الصواع أو جزاء سارق الصواع. وجزاؤه مبتدأ، والجملة الشرطية: وهي من وجد في رحله فهو جزاؤه خبر المبتدأ على إقامة الظاهر مقام الضمير فيها، والأصل جزاؤه من وجد في رحله فهو، فيكون الضمير الثاني عائد إلى المبتدأ، والأول إلى من، ويجوز أن يكون خبر المبتدأ ومن وجد في رحله، والتقدير: جزاء السرقة للصواع أخذ من وجد في رحله، وتكون جملة فهو جزاؤه لتأكيد الجملة الأولى وتقريرها. قال الزجاج: وقوله: **﴿فهو جزاؤه﴾** زيادة في البيان أي: جزاؤه أخذ السارق فهو جزاؤه لا غير. قال المفسرون: وكان حكم السارق في آل يعقوب أن يسترق سنة فلذلك استفتوهم في جزائه **﴿كذلك نجزي الظالمين﴾** أي: مثل تلك الجزاء الكامل نجزي الظالمين لغيرهم من الناس بسرقة أمتعتهم، وهذه الجملة مؤكدة لما قبلها إذا كانت من كلام إخوة يوسف، ويجوز أن تكون من كلام أصحاب يوسف أي: كذلك نحن نجزي الظالمين بالسرق. ثم لما ذكروا جزاء السارق أرادوا أن يفتشوا أمتعتهم حتى يتبين الأمر، فأقبل يوسف على ذلك **﴿فبدأ به﴾** تفتيش **﴿أوعيتهم﴾** أي: أوعية الإخوة العشرة **﴿قبل وعاء أخيه﴾** أي: قبل تفتيشه لوعاء أخيه بنيامين دفعا للتهمة ورفعاً لما بده من الحيلة **﴿ثم استخرجها﴾** أي: السقاية أو الصواع، لأنه ينكر ويؤنث **﴿كذلك كنا ليوسف﴾** أي: مثل ذلك الكيد العجيب كدنا ليوسف يعني: علمناه إياه أوحيناه إليه، والكيد مبدؤه السعي في الحيلة والخديعة، ونهايته إلقاء المخدوع من حيث لا يشعر في أمر مكروه لا سبيل إلى دفعه، وهو محمول في حق الله سبحانه على النهاية لا على البداية. قال القتيبي: معنى كدنا ببرنا. وقال ابن الأنباري: أردنا. وفي الآية دليل على جواز التوصل إلى الأغراض الصحيحة بما صورته صورة الحيلة والمكيدة إذا لم يخالف ذلك شرعاً ثابتاً **﴿ما كان ليأخذ لخواه في دين الملك﴾** أي: ما كان يوسف ليأخذ أخاه بنيامين في دين الملك أي: ملك مصر، وفي شريعته التي كان عليها، بل كان دينه وقضاؤه أن يضرب السارق

ويغرم ضعف ما سرقه دون الاستعباد سنة كما هو دين يعقوب وشريعته. وحاصله أن يوسف ما كان يتمكن من إجراء حكم يعقوب على أخيه مع كونه مخالفاً لدين الملك وشريعته لولا ما كاد الله له وببره وأزاده حتى وجد السبيل إليه، وهو ما أجراه على السنن إخوته من قولهم: إن جزء السارق الاسترقاق، فكان قولهم هذا هو بمشيئة الله وتبديره، وهو معنى قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أي: إلا حال مشيئته وإذنه بذلك وإرادته له، وهذه الجملة: أعني ما كان ليأخذ أخاه إلخ تحليل لما صنعه الله من الكيد ليوسف أو تفسير له ﴿نُزِفَ دَرَجَاتٍ مِنْ نَشْأَةٍ﴾ بضروب العلوم والمعارف والعطايا والكرامات كما رفعا درجة يوسف بذلك ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ﴾ ممن رفعه الله بالعلم ﴿عَلِيمٍ﴾ أرفع رتبة منهم وأعلى درجة لا يبلغون مداه ولا يرتقون شأوه. وقيل: معنى ذلك أن فوق كل أهل العلم عليم وهو الله سبحانه.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَخْلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ﴾ قال: رهب يعقوب عليهم العين. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر عن محمد بن كعب قال: خشي عليهم العين. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، وأبو الشيخ عن النخعي في قوله: ﴿وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ قال: أحب يعقوب أن يلقي يوسف أخاه في خلوة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله: ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ قال: خيفة العين على بنيه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَنَوْ عِلْمٍ لِمَا عَلِمْنَاهُ﴾ قال: إنه لعامل بما علم، ومن لا يعمل لا يكون عالماً. وأخرج هؤلاء عنه في قوله: ﴿أَوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ قال: ضمه إليه، وفي قوله: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ قال: لا تحزن ولا تياس، وفي قوله: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ﴾ قال: قضى حاجتهم وكال لهم طعامهم، وفي قوله: ﴿جَعَلَ السَّقِيَّةَ﴾ قال: هو إناء الملك الذي يشرب منه ﴿فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ قال: في متاع أخيه. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن الأنباري في المصاحف عن ابن عباس في قوله: ﴿جَعَلَ السَّقِيَّةَ﴾ قال: هو الصواع، وكل شيء يشرب منه فهو صواع. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن زيد نحوه أيضاً. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله: ﴿لَبِثَ الْعَبْرَ﴾ قال: كانت للعبير حميراً. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَ بِهِ حَمَلٌ بِعِيرٍ﴾ قال: حمل حمار طعام، وهي لغة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَنَّا بِهِ زَعِيمٌ﴾ يقول: كفيل. وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير، ومجاهد، وقاتدة، والضحاك مثله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن الربيع بن أنس في قوله: ﴿مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ﴾ يقول: ما جئنا

لننقصي في الأرض. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله: ﴿فَمَا جَزَاؤُهُ﴾ قال: عرفوا الحكم في حكمهم فقالوا: من وجد في رحله فهو جزاؤه. وكان الحكم عند الأنبياء يعقوب وبنيه أن يؤخذ السارق بسرقة عبداً يسترق. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ﴾ قال: ذكر لنا أنه كان كلما فتح متاع رجل استغفر تأثماً مما صنع حتى بقي متاع الغلام قال: ما أظن أن هذا أخذ شيئاً. قالوا: بلى فاستبره. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الضحاك في قوله: ﴿كَذَلِكَ كُنَّا لِيُوسُفَ﴾ قال: كذلك صنعنا ليوسف ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ يقول: في سلطان الملك. قال: كان في دين ملكهم أنه من سرق أخذت منه السرقة ومثلها معها من ماله فيعطيه المسروق. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ يقول: في سلطان الملك. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ قال: إلا بركة كادها الله ليوسف فاعتل بها. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عنه في قوله: ﴿نُزِفَ دَرَجَاتٍ مِنْ نَشْأَةٍ﴾ قال: يوسف وإخوته أوتوا علماً فرفعنا يوسف في العلم فوقهم درجة. وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال: كنا عند ابن عباس فحدث بحديث، فقال رجل عنده: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ﴾ فقال ابن عباس: بشئ ما قلت، الله العليم الخبير، وهو فوق كل عالم. وأخرج ابن جرير عن محمد بن كعب قال: سأل رجل علياً عن مسألة، فقال فيها، فقال الرجل ليس هكذا ولكن كذا وكذا، قال علي: أصبت وأخطأت ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ﴾. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات عن عكرمة في قوله: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ﴾ قال: علم الله فوق كل عالم.

ط قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَنَا مِنْ قَبْلٍ فَأَسْرَفْنَا يَوْمَئِذٍ فِي نَفْسِهِمْ وَلَمْ يَبْهَرُوا لَهُمْ قَالَ أُنْتُمْ شَرُّ مَكَّانٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿١٧﴾ قَالُوا يَا أَبَتَاهُ الْعَبْرُ إِنَّ لَهُ أَبًا مِثْلًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٨﴾ قَالَ مَكَادُ اللَّهِ أَنْ تَأْخُذَ إِلَّا مَا وَدَعْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَفَٰئِلِسُونَ ﴿١٩﴾ فَلَمَّا اسْتَفْتَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا حَيْثُ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَلَمَسُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْتِيَ إِلَيَّ أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ بِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّجَمُوا إِلَيْهِ أَيْكُمُ فَقُولُوا يَا أَبَتَانَا إِنَّكَ ابْنُكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ لِي بِالْغَرَفَةِ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْكَافِرِ الَّتِي أَقْبَلْنَا بِهَا وَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٢٢﴾

قوله: ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ﴾ أي بنيامين ﴿فقد سرق أخ له

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَخْلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ﴾ قال: رهب يعقوب عليهم العين. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر عن محمد بن كعب قال: خشي عليهم العين. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، وأبو الشيخ عن النخعي في قوله: ﴿وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ قال: أحب يعقوب أن يلقي يوسف أخاه في خلوة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله: ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ قال: خيفة العين على بنيه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَنَوْ عِلْمٍ لِمَا عَلِمْنَاهُ﴾ قال: إنه لعامل بما علم، ومن لا يعمل لا يكون عالماً. وأخرج هؤلاء عنه في قوله: ﴿أَوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ قال: ضمه إليه، وفي قوله: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ قال: لا تحزن ولا تياس، وفي قوله: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ﴾ قال: قضى حاجتهم وكال لهم طعامهم، وفي قوله: ﴿جَعَلَ السَّقِيَّةَ﴾ قال: هو إناء الملك الذي يشرب منه ﴿فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ قال: في متاع أخيه. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن الأنباري في المصاحف عن ابن عباس في قوله: ﴿جَعَلَ السَّقِيَّةَ﴾ قال: هو الصواع، وكل شيء يشرب منه فهو صواع. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن زيد نحوه أيضاً. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله: ﴿لَبِثَ الْعَبْرَ﴾ قال: كانت للعبير حميراً. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَ بِهِ حَمَلٌ بِعِيرٍ﴾ قال: حمل حمار طعام، وهي لغة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَنَّا بِهِ زَعِيمٌ﴾ يقول: كفيل. وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير، ومجاهد، وقاتدة، والضحاك مثله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن الربيع بن أنس في قوله: ﴿مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ﴾ يقول: ما جئنا

من قبل ﴿ يعنون يوسف .

يوسف عليهم بقوله: ﴿ معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده ﴾ أي: نعوذ بالله معاذاً، فهو مصدر منصوب بفعل محذوف، والمستعذ بالله هو المعتصم به، وأن نأخذ منصوب بنزع الخافض، والأصل من أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده، وهو بنيامين لأنه الذي وجد الصواع في رحله فقد حلّ لنا استعباده بفتواكم التي أفتيتمونا بقولكم: ﴿ جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه ﴾. ﴿ إننا إذا لظالمون ﴾ أي: إننا إذا أخذنا غير من وجدنا متاعنا عنده لظالمون في دينكم وما تقتضيه فتواكم ﴿ فلما استغيثوا منه ﴾ أي: يشسوا من يوسف وإسعافهم منه إلى مطلبهم الذي طلبوه، والسين والتاء للمبالغة ﴿ خلصوا نجيا ﴾ أي: انفروا حال كونهم متناجين فيما بينهم، وهو مصدر يقع على الواحد والجمع كما في قوله: ﴿ وقربنا نجيا ﴾ [مريم: 52]. قال الزجاج: معناه انفروا وليس معهم أخوهم متناجين فيما يعملون به في ذهابهم إلى أبيهم من غير أخيهيم ﴿ قال كبيرهم ﴾، قيل: هو روبيل لأنه الأسن، وقيل: يهوذا لأنه الأوفر عقلاً، وقيل: شمعون لأنه رئيسهم ﴿ ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ﴾ أي: عهداً من الله في حفظ ابنه ورده إليه، ومعنى كونه من الله أنه بإذنه ﴿ ومن قبل ما فرطتم في يوسف ﴾ معطوف على ما قبله. والتقدير: ألم تعلموا أن أباكم وتعلموا تفرطكم في يوسف، ذكر هذا النحاس وغيره، ومن قبل متعلقة بتعلموا أي: وتعلموا تفرطكم في يوسف من قبل، على أن ما مصدرية، ويجوز أن تكون زائدة، وقيل: ما فرطتم مرفوع المحل على الابتداء، وخبره من قبل؛ وقيل: إن ما موصولة أو موصوفة، وكلاهما في محل النصب أو الرفع، وما ذكرناه هو الأولى، ومعنى فرطتم: قصرتم في شأنه، ولم تحفظوا عهد أبيكم فيه ﴿ فلن أبرح الأرض ﴾. يقال: أبرح أبرحاً وبروحاً، أي زال، فإذا نخله النفي صار مثبتاً أي: لن أبرح من الأرض، بل الزمها ولا أزال مقيماً فيها ﴿ حتى ياذن لي أبي ﴾ في مفارقتها والخروج منها، وإنما قال ذلك لأنه يستحي من أبيه أن يأتي إليه بغير ولده الذي أخذ عليهم الموثق بإرجاعه إليه إلا أن يحاط بهم كما تقدم، ﴿ لو يحكم الله لي ﴾ بمفارقتها والخروج منها، وقيل: المعنى أو يحكم الله لي بخلاص أخي من الأسر حتى يعود إلى أبي وأعود معه، وقيل: المعنى أو يحكم الله لي بالنصر على من أخذ أخي فأحاربه وأخذ أخي منه، أو أعجز فأنصرف بعد ذلك ﴿ وهو خير الحاكمين ﴾ لأن أحكامه لا تجري إلا على ما يوافق الحق، ويطابق الصواب، ثم قال كبيرهم مخاطباً لهم ﴿ ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق ﴾. قرأ الجمهور (سرق) على البناء للفاعل، وذلك لأنهم قد شاهدوا استخراج الصواع من وعائه. وقرأ ابن عباس والضحاك وأبو رزين على البناء للمفعول، وروى ذلك النحاس عن الكسائي. قال الزجاج: إن سرق يحتمل معنيين: أحدهما علم منه السرق، والآخر اتهام بالسرق ﴿ وما شاهدنا إلا بما علمنا ﴾ من استخراج

وقد اختلف المفسرون في هذه السرقة التي نسبوها إلى يوسف ما هي؟ فقيل: إنه كان ليوسف عمه هي أكبر من يعقوب، وكانت عندها منطقة إسحاق لكونها أسن أولاده وكانوا يتوارثونها فيأخذها الأكبر سنناً من ذكر أو أنثى، وكانت قد حضنت يوسف وأحبته حباً شديداً، فلما ترعرع قال لها يعقوب: سلمني يوسف إلي فاشفقت من فراقه واحتالت في بقاءه لديها، فجعلت المنطقة تحت ثيابه وحزمتها بها، ثم قالت: قد سرقت منطقة إسحاق فانظروا من سرقتها، فبحثوا عنها فوجدوها مع يوسف فأخذه عندها كما هو شرع الأنبياء في ذلك الوقت من آل إبراهيم. وقد سبق بيان شريعتهم في السرقة، وقيل: إن يوسف أخذ صنماً كان لجده أبي أمه فكسره وألقاه على الطريق تغييراً للمنكر. وحكي عن الزجاج أنه كان صنماً من ذهب. وحكى الواحدي عن الزجاج أنه قال: الله أعلم، أسرق أخ له أم لا؟ وحكى القرطبي في تفسيره عن الزجاج أنه قال: كذبوا عليه فيما نسبوه إليه، قلت: وهذا أولى، فما هذه الكنية بأول كذباتهم، وقد قنمنا ما يدفع قول من قال: إنهم قد كانوا أنبياء عند صدور هذه الأمور منهم. قوله: ﴿ فأسرها يوسف في نفسه ﴾ قال الزجاج وغيره: الضمير في أسرها يعود إلى الكلمة أو الجملة، كأنه قيل: فأسر الجملة في نفسه ﴿ ولم يبيدها لهم ﴾ ثم فسرها بقوله: ﴿ قال انتم شر مكاناً ﴾ وقد رد أبو علي الفارسي هذا فقال: إن هذا النوع من الإضمار على شريطة التفسير غير مستعمل؛ وقيل: الضمير عائد إلى الإجابة أي: أسر يوسف إجابتهم في ذلك الوقت إلى وقت آخر؛ وقيل: أسر في نفسه قولهم: إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل. وهذا هو الأولى، ويكون معنى ﴿ ولم يبيدها لهم ﴾ أنه لم يبد لهم هذه المقالة التي أسرها في نفسه بأن ينكر لهم صحتها أو بطلانها، وجملة ﴿ قال انتم شر مكاناً ﴾ مفسرة على القول الأول، ومستأنفة على القولين الآخرين، كأنه قيل: فماذا قال يوسف لما قالوا هذه المقالة؟ أي: انتم شر مكاناً أي: موضعاً ومنزلاً ممن نسبتموه إلى السرقة وهو بريء، فإنكم قد فعلتم ما فعلتم من إلقاء يوسف إلى الجب والكذب على أبيكم وغير ذلك من أفاعيلكم، ثم قال: ﴿ والله أعلم بما تصفون ﴾ من الباطل بنسبة السراق إلى يوسف، وأنه لا حقيقة لذلك، ثم أراونا أن يستطفوه ليطلق له أخاهم بنيامين يكون معهم يرجعون به إلى أبيهم لما تقدم من أخذه الميثاق عليهم بأن يردوه إليه، ﴿ فقولوا يا أباها العزيز إن له أبا شيخاً كبيراً ﴾ أي: إن لبنيامين هذا أباً متصفاً بهذه الصفة، وهي كونه شيخاً كبيراً لا يستطيع فراقه ولا يصبر عنه ولا يقدر على الوصول إليه ﴿ فخذ أحداً مكانه ﴾ يبقى لديك، فإن له منزلة في قلب أبيه ليست لواحد منا فلا يتضرر بفراق أحداً كما لا يتضرر بفراق بنيامين، ثم عللوا ذلك بقوله: ﴿ إننا نراك من المحسنين ﴾ إلى الناس كافة، وإلينا خاصة، فتمم إحسانك إلينا بإجابتنا إلى هذا المطلب، فاجاب

للفغيب حافظين» قال: ما كنا نعلم أن ابنك يسرق. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ﴾ قال: يعنون مصر. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة مثله.

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمَّا فَصَبِّرْ حَبِيبٌ عَنِ اللَّهِ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ وَيَوَلَّكَ اللَّهُ مَدِينًا وَعَنْ يُوسُفَ وَأَيَّامَاتٍ مِمَّا هُوَ كَاطِمٌ ﴿٨٨﴾ قَالُوا نَأْتِيَنَا تَذَكُّرٌ بِيُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَمًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٩﴾ إِنَّمَا أَشْكُوا بِنِيٍّ وَنَحْنُ إِلَى اللَّهِ وَآلِهِمْ وَكَلَّمَ اللَّهُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٠﴾ يَبْنِيْ أَدْبَارًا مِّنْكُمْ مِّنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِيَنَا مِنْ رِّزْقِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِيَنَّ مِنْ رِّزْقِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٩١﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَعْلَانَا الثَّرَى وَحَسَنَ يَسْتَعْمَلُ مَزِينَهُ قَالُوا لَنَا الْكِيلُ وَنَصَدَّقْ عَلَيْكَ إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَفِينَ ﴿٩٢﴾

قوله: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمَّا﴾ أي: زينت، والأمر هنا قولهم: ﴿إِنْ ابْنُكَ سَرَقَ﴾ [يوسف: 81] وما سرق في الحقيقة، وقيل: المراد بالأمر إخراجهم بنيامين، والمضي به إلى مصر طلباً للمنفعة فعاد ذلك بالمضرة؛ وقيل: التسويل التخيل أي: خيلت لكم أنفسكم أمراً لا أصل له؛ وقيل: الأمر الذي سَوَّلَتْ لهم أنفسهم فتياهم بأن السارق يؤخذ بسرقة، والإضراب هنا هو باعتبار ما أثبتوه من البراءة لأنفسهم، لا باعتبار أصل الكلام فإنه صحيح، والجملة مستأنفة مبنية على سؤال مقدر كغيرها. وجملة ﴿فَصَبِرْ جَمِيلٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ خبره محذوف أي: فأمرني صبر جميل أو فصبر جميل أجمل بي وأولى لي، والصبر الجميل هو الذي لا يبوح صاحبه بالشكوى بل يفوض أمره إلى الله ويسترجع، وقد ورد أن الصبر عند أول الصدمة ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ أي: بـيوسف وأخيه بنيامين، والآخ الثالث الباقي بمصر، وهو كبيرهم كما تقدّم، وإنما قال هكذا لأنه قد كان عنده أن يوسف لم يمت، وأنه باقٍ على الحياة وإن غاب عنه خبره ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ بحالي ﴿الْحَكِيمُ﴾ فيما يقضي به ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ أي: أعرض عنهم، وقطع الكلام معهم ﴿وَقَالَ يَا أَسْفَا عَلَى يُوسُفَ﴾. قال الزجاج: الأصل يا أسفي، فأبدل من الباء ألفاً لخفة الفتحة، والاسف: شدة الجزع؛ وقيل: شدة الحزن، ومنه قول كثير:

فيا أسفاً للقلب كيف انصراقه وللنفس لما سليت فتسلت
قال يعقوب هذه المقالة لما بلغ منه الحزن غاية مبالغة بسبب فراقه ليوسف، وانضمام فراقه لأخيه بنيامين، وبلوغ ما بلغه من كونه أسيراً عند ملك مصر، فتضاعفت أحزانه، وهاج عليه الوجد القديم بما أثاره من الخبر الأخير. وقد روي عن سعيد بن جبيرة: أن يعقوب لم يكن عنده ما ثبت

الصواع من وعائه، وقيل المعنى: ما شهدنا عند يوسف بأن السارق يسترق إلا بما علمنا من شريعتك وشريعة آبائك ﴿وَمَا كُنَّا لِلْفَغْيِ حَافِظِينَ﴾ حتى يتضح لنا هل الأمر على ما شاهدناه أو على خلافه؟ وقيل: المعنى ما كنا وقت أخذنا له منك ليخرجنا معنا إلى مصر للفغيب حافظين بأنه سيقع منه السرقة الذي افتضحنا به؛ وقيل: الفغيب هو الليل، ومرادهم أنه سرق وهم نيام؛ وقيل: مرادهم أنه فعل ذلك وهو غائب عنهم، فخفي عليهم فعله ﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ هذا من تمام قول كبيرهم لهم أي: قولوا لأبيكم أسأل القرية التي كنا فيها أي: مصر، والمراد أهلها أي: أسأل أهل القرية؛ وقيل: هي قرية من قرى مصر نزلوا فيها وامتاروا منها؛ وقيل: المعنى أسأل القرية نفسها وإن كانت جماداً فلأنه نبي الله، والله سبحانه سينطقها فتجيبك. ومما يؤيد هذا أنه قال سيوبويه: لا يجوز كلم هنذا ولنت تريد غلام هند ﴿وَالْعَبِيرَ الَّتِي أَتَيْنَا فِيهَا﴾ أي: وقولوا لأبيكم أسأل العبير التي أتينا فيها أي: أصحابها وكانوا قوماً معروفين من جيران يعقوب ﴿وَأَيْنَا لَصَالِقُونَ﴾ فيما قلنا، جاءوا بهذه الجملة مؤكدة هذا التأكيد لأن ما قد تقدّم منهم مع أبيهم يعقوب يوجب كمال الريبة في خبرهم هذا عند السامع.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد في قوله: ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ قال: يعنون يوسف. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال: سرق مكحلة لخالته، يعني: يوسف. وأخرج أبو الشيخ عن عطية قال: سرق في صباه ميلين من ذهب. وأخرج ابن مريويه عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «سرق يوسف صنماً لجده أبي أمه من ذهب وفضة فكسره وألقاه على الطريق فعيّره بذلك إخوته». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن سعيد بن جبيرة مثله غير مرفوع، وقد روى نحوه عن جماعة من التابعين. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿فَأَسْرَاهَا يُوسُفَ فِي نَفْسِهِ﴾ قال: أسرّ في نفسه قوله: ﴿أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ عن قتادة مثله. وأخرج ابن جرير عن ابن إسحاق في قوله: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ﴾ قال: أيسوا منه، ورواوا شئته في أمره. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وَأَخْرَجَ أَبْنَاءَ يَاقَانَ﴾ قال: وحدهم. وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله: ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ قال شمعون الذي تخلف أكبرهم عقلاً، وأكبر منه في الميلاد روبيل. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ هو روبيل، وهو الذي كان ناهم عن قتله وكان أكبر القوم. وأخرج ابن المنذر عن مجاهد في قوله: ﴿وَإِذْ يُحْكَمُ اللَّهُ لِي﴾ قال: أقاتل بسيفي حتى أقتل. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن أبي صالح نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن عكرمة ﴿وَمَا كُنَّا

إني امرؤ لَجَّ بي حب فأحرضني حتى بليت وحتى شفني السقم
ويقال: رجل محرض، ومنه قول الشاعر:
طلبت الخيل يوماً كاملاً ولو الفتة لأضحي محرراً
قال النحاس: وحكى أهل اللغة أحرضه الهم: إذا أسقمه،
ورجل حارص: أي أحقق. وقال الأخفش: الحارص الذاهب.
وقال ابن الأنباري: هو الهالك. والأولى تفسير الحرض هنا
بغير الموت والهلاك من هذه المعاني المذكورة حتى يكون
لقلوبه: ﴿أو تكون من الهالكين﴾ معنى غير معنى الحرض،
فالتأسيس أولى من التأكيد، ومعنى من الهالكين: من الميتين،
وغرضهم منع يعقوب من البكاء والحزن شفقة عليه وإن
كانوا هم سبب أحزانه ومنشأ همومه وغومه ﴿قال إنما
أشكو بني وحزني إلى الله﴾ هذه الجملة مستأنفة، كأنه
قيل: فما قال يعقوب لما قالوا له ما قالوا؟ والبث: ما يرد على
الإنسان من الأشياء التي يعظم حزن صاحبها بها حتى لا
يقدر على إخفائها، كذا قال أهل اللغة، وهو مأخوذ من بثته
أي: فرقته، فسميت المصيبة بثاً مجازاً، قال نو الرمة:
وقفت على ربع لمية يا فتى فما زلت أبكي عنده وأخطبه
واسقيه حتى كاد مما أبثه تكلمني أحجاره وملاعبه
وقد نكر المفسرون أن الإنسان إذا قدر على كتم ما نزل
به من المصائب كان ذلك حزناً، وإن لم يقدر على كتمه كان
ذلك بثاً، فالبث على هذا: أعظم الحزن وأصعبه، وقيل: البث
الهم؛ وقيل: هو الحاجة. وعلى هذا القول يكون عطف الحزن
على البث واضح المعنى. وأما على تفسير البث بالحزن
العظيم، فكأنه قال: إنما أشكو حزني العظيم وما دونه من
الحزن إلى الله لا إلى غيره من الناس. وقد قرئ (حزني)
بضم الحاء وسكون الزاي (وحزني) بفتحهما ﴿وَأَعْلَمَ مِنْ
الله ما لا تعلمون﴾ أي: أعلم من لطفه وإحسانه وثوابه على
المصيبة ما لا تعلمونه أنتم؛ وقيل: أراد علمه بأن يوسف
حي، وقيل: أراد علمه بأن رؤياه صادقة؛ وقيل: أعلم من
إجابة المضطرين إلى الله ما لا تعلمون ﴿يا بني اذهبوا
فتحسسوا من يوسف وأخيه﴾ التحسس بمهمات: طلب
الشيء بالحواس، مأخوذ من الحس، أو من الإحساس أي:
أذهبوا فتعرفوا خبر يوسف وأخيه وطلبوه، وقرئ بالجيم،
وهو أيضاً التطلب ﴿ولا تياسوا من روح الله﴾ أي: لا
تقنطوا من فرجه وتنفيسه. قال الأصمعي: الروح ما يجده
الإنسان من نسيم الهواء فيسكن إليه، والتكريب يدل على
الحركة والهزة، فكل ما يهتز الإنسان بوجوده ويلتذ به فهو
روح. وحكى الواحدي عن الأصمعي أيضاً أنه قال: الروح
الاستراحة من غم القلب. وقال أبو عمرو: الروح الفرج،
وقيل: الرحمة ﴿إنه لا يياس من روح الله إلا القوم
الكافرون﴾ لكنهم لا يعلمون بقدرة الله سبحانه، وعظيم
صنعه، وخفي الطافه. قوله: ﴿فلما دخلوا عليه﴾ أي: على
يوسف، وفي الكلام حذف، والتقدير: فذهبوا كما أمرهم
أبوهم إلى مصر ليتحسسوا من يوسف وأخيه، فلما دخلوا
على يوسف ﴿قالوا يا أيها العزيز﴾ أي: الملك الممتنع

في شريعتنا من الاسترجاع والصبر على المصائب، ولو كان
عنده ذلك لما قال: يا أسفا على يوسف. ومعنى المنادة
للاسف طلب حضوره، كأنه قال: تعال يا أسفي واقبل إلي
﴿وابيضت عيناه من الحزن﴾ أي: انقلب سواد عينيه
بياضاً من كثرة البكاء. قيل: إنه زال إدراكه بحاسة البصر
بالمرة، وقيل: كان يدرك إدراكاً ضعيفاً. وقد قيل في توجيه
ما وقع من يعقوب عليه السلام من هذا الحزن العظيم
المفضي إلى ذهاب بصره كلا أو بعضاً بأنه إنما وقع منه
ذلك لأنه علم أن يوسف حي، فخاف على دينه مع كونه
بارض مصر وأهلها حينئذ كفار، وقيل: إن مجرد الحزن ليس
بمحرم، وإنما المحرم ما يفضي منه إلى الوله وشق الثياب
والتكلم بما لا ينبغي، وقد قال النبي ﷺ عند موت ولده
إبراهيم: «تسمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول ما يسخط
الرب، وأنا عليك يا إبراهيم لمحزون». ويؤيد هذا قوله:
﴿فهو كظيم﴾ أي: مكظوم، فإن معناه: أنه مملوء من الحزن
ممسك له لا يبيته، ومنه كظم الغيظ وهو إخفاؤه، فالمكظوم
المسدود عليه طريق حزنه، من كظم السقاء: إذا سدّه على ما
فيه، والكظم بفتح الظاء: مخرج النفس، يقال: أخذ بالكظمه،
وقيل: الكظيم بمعنى الكاظم أي: المشتمل على حزنه الممسك
له، ومنه:

فإن ك كاظما لمصايب ناس فإني اليوم منطلق لسانني
ومنه ﴿والكاظمين الغيظ﴾ [آل عمران: 134]. وقال
الزجاج: معنى كظيم: محزون. وروي عن ابن عباس أنه قال:
معناه مغموم مكروب. قال بعض أهل اللغة: الحزن بالضم
والسكون: البكاء، وبفتحتين: ضد الفرج، وقال أكثر أهل اللغة:
هما لغتان بمعنى ﴿قالوا تالله تفتنوا تذكر يوسف﴾ أي: لا
تفتن، فحذف حرف النفي لعدم اللبس. قال الكسائي: فتات
وفتئت أفعل كذا أي: ما زلت. وقال الفراء: إن لا مضمرة أي:
لا تفتن. قال النحاس: والذي قال صحيح. وقد روي عن
الخليل وسيبويه مثل قول الفراء، وأشد الفراء محتجاً على
ما قاله:

فقلت يمين الله أبرح قاعدا ولو قطعوا رأسي لبيك وأوصالي
ويقال فتىء وفتا لغتان، ومنه قول الشاعر:

فما فتئت حتى كان غبارها سراق يوم ذي رباح ترفع
﴿حتى تكون حرضاً﴾ الحرض مصدر يستوي فيه
الواحد والجمع والمذكر والمؤنث والصفة المشبهة، حرض
بكسر الراء كدنف وبنف، وأصل الحرض: الفساد في الجسم
أو العقل من الحزن أو العشق أو الهرم، حكى ذلك عن أبي
عبيدة وغيره، ومنه قول الشاعر:

سرى همي فأمرضني وقد ما زانني مرضاً
كذلك الحب قبل الير م مما يورث الحرضاً
وقيل: الحرض ما دون الموت، وقيل: الهرم، وقيل:
الحارص: البالي الدائر. وقال الفراء: الحارص: الفساد الجسم
والعقل، وكذا الحرض. وقال مؤرج: هو الذائب من الهم، ويدل
عليه قول الشاعر:

قال: الميتين. وأخرج هؤلاء عن مجاهد نحوه. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: ﴿تَفْتَتُوا تَذْكُرَ يَوْسُفَ﴾ قال: لا تزال تذكر يوسف ﴿حَتَّى تَكُونَ حُرّاً﴾ قال: هراً ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ قال: أو تموت. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن الضحاک ﴿حَتَّى تَكُونَ حُرّاً﴾ قال: الحرص البالي ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ قال: من الميتين. وأخرج ابن جرير، وعبد الرزاق عن مسلم بن يسار يرفعه إلى النبي ﷺ قال: «من بث لم يصبر، ثم قرأ ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾» وأخرج ابن منده في المعرفة عن مسلم بن يسار عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ فنكره. وأخرج ابن مريويه عن حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً مثله. وأخرج ابن المنذر، وابن مريويه عن عبد الرحمن بن يعمر مرفوعاً مرسلًا. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي﴾ قال: همي. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿وَأَعْلَمَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قال: أعلم أن رؤيا يوسف صادقة وأني سأسجد له. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في قوله: ﴿وَلَا تَيَاسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ﴾ قال: من رحمة الله. وأخرج ابن جرير، عن الضحاک مثله. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن ابن زيد قال: من فرج الله يفرج عنكم الغم الذي أنتم فيه. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: ﴿مَسْنَا وَأَهْلْنَا الضَّرَّ﴾ قال: أي الضر في المعيشة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿بِبِضَاعَةٍ﴾ قال: دراهم ﴿مِزْجَاةٍ﴾ قال: كاسدة. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عنه قال: مزجاة رثة المتاع خلقة الحبل والغرارة والشيء. وأخرج أبو عبيد، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عنه أيضاً مزجاة قال: الورق الزيوف التي لا تنفق حتى يوضع منها. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ عن ابن جرير في قوله: ﴿وَتَصْنُقُ عَلَيْنَا﴾ قال: أريد علينا أخانا.

قَالَ هَلْ عَلِمْتَ مَا فَعَلْتُ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَشْرَ جَاهِلُوتُ ﴿١٨﴾ قَالُوا لَا نَكَ لَاتُ يَوْسُفَ قَالَ أَنَا يَوْسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مِنْ يَتَّى وَبَصِيرَةٍ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩﴾ قَالُوا أَنَا نَعْلَمُ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِيطِينَ ﴿٢٠﴾ قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ أَيُّومٌ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٢١﴾ أَذْهَبُوا بِمِصْصِي هَذَا فَأَلْفَوْهُ عَلَىٰ بَيْتِهِمْ وَبَنِيهِمْ وَأَتَوْفُوا بِأَمْلِكُمْ أَخْمِيكُمْ ﴿٢٢﴾ وَلَكِنَّا فَصَلَّيْنَا لِلَّهِ فَالْأَبْرُفُ إِلَىٰ لَأَجْدُ رِيحُ يَوْسُفَ لَوْلَا أَنْ تَقْبَلُوهُ ﴿٢٣﴾ قَالُوا اللَّهُ إِنَّكَ لَكَيْ سَلِيلُ الْكَذِبِ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنَِّّي أَعْلِمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ

القادر ﴿مَسْنَا وَأَهْلْنَا الضَّرَّ﴾ أي: الجوع والحاجة، وفيه دليل على أنه تجوز الشكوى عند الضرورة إذا خاف من إصابته على نفسه كما يجوز للعليل أن يشكو إلى الطبيب، ما يجده من العلة، وهذه المرة التي دخلوا فيها مصر هي المرة الثالثة كما يفيد ما تقدم من سياق الكتاب العزيز ﴿وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مِزْجَاةٍ﴾ البضاعة هي القطعة من المال يقصد بها شراء شيء، يقال: أبضعت الشيء واستبضعته: إذا جعلته بضاعة، وفي المثل: «كمستبضع التمر إلى هجر». والإجزاء: السوق بدفع. قال الواحدي: الإجزاء في اللغة السوق والدفع قليلاً قليلاً، ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَزِيحُ سَحَابًا﴾ [النور: 43]، والمعنى: أنها بضاعة تدفع ولا يقبلها التجار. قال ثعلب: البضاعة المزجاة الناقصة غير التامة. قال أبو عبيدة: إنما قيل للدرهم الربيثة مزجاة لأنها مربوطة مدفوعة غير مقبولة.

وختلف في هذه البضاعة ما هي؟ فقيل: كانت قديداً وحيساً، وقيل: صوف وسمن، وقيل: الحبة الخضراء والصنوبر، وقيل: دراهم ربيثة، وقيل: النعال والأدم. ثم طلبوا منه بعد أن أخبروه بالبضاعة التي معهم أن يوفي لهم الكيل أي: يجعله تاماً لا نقص فيه، وطلبوا منه أن يتصنق عليهم إما بزيادة يزيدا لهم على ما يقابل بضاعتهم، أو بالإغماض عن رداءة البضاعة التي جاءوا بها، وأن يجعلها كالْبِضَاعَةِ الجيدة في إيفاء الكيل لهم بها، وبهذا قال أكثر المفسرين؛ وقد قيل: كيف يطلبون التصنق عليهم وهم أنبياء والصنقة محرمة على الأنبياء. وأجيب باختصاص ذلك بنبينا ﷺ، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ بما يجعله لهم من الثواب الأخروي، أو التوسيع عليهم في الدنيا.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ قال: يوسف وأخيه وروبييل. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في الآية قال: يوسف وأخيه وكبيرهم الذي تخلف، وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس في قوله: ﴿يَا لَسْفَا عَلَى يَوْسُفَ﴾ قال: يا حزناً. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر عن قتادة مثله. وأخرجوا عن مجاهد قال: يا جزعاً. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ قال: حزين. وأخرج ابن المبارك، وعبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة قال: كظم على الحزن فلم يقل إلا خيراً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن عطاء الخراساني قال: كظيم مكروب. وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة مثله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن الضحاک قال: الكظيم الكمد. وأخرج ابن جرير عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله: ﴿نَاثَتْ تَفْتَتُوا تَذْكُرَ يَوْسُفَ﴾ قال: لا تزال تذكر يوسف ﴿حَتَّى تَكُونَ حُرّاً﴾ قال: دنفا من المرض ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَفْهِرْنَا دُونَنَا إِنَّا كُنَّا خُطُوبِينَ﴾ ﴿٧٧﴾ قَالَ سَوِّفَ اسْتَفْهِرَ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٧٨﴾

الاستفهام في قوله: ﴿هل علمتم﴾ للتوبيخ والتقريع، وقد كانوا عالمين بذلك، ولكنه أراد ما نكرناه، ويستفاد منه تعظيم الواقعة لكونه في قوة: ما أعظم الأمر الذي ارتكبتم من يوسف وأخيه، وما أقبح ما أقدمتم عليه؟ كما يقال للمذنب: هل تدري من عصيت؟ والذي فعلوا بيوسف هو ما تقم مما قصه الله سبحانه علينا في هذه السورة وأما ما فعلوا بأخيه، فقال جماعة من المفسرين: هو ما أدخلوه عليه من الغم بفراق أخيه يوسف، وما كان يناله منهم من الاحتقار والإهانة، ولم يستفهمهم عما فعلوا بأبيهم يعقوب مع أنه قد نالهم منهم ما قصه الله فيما سبق من صنوف الأذى. قال الواحدى: ولم ينكر أباه يعقوب مع عظم ما بذل عليه من الغم بفراقه تعظيماً له ورفعاً من قدره، وعلماً بأن ذلك كان بلاء له من الله عز وجل ليزيد في درجته عنده ﴿إِذْ أَتَمَّ جاهلون﴾ نفى عنهم العلم وأثبت لهم صفة الجهل، لأنهم لم يعملوا بما يقتضيه العلم، وقيل: إنه أثبت لهم صفة الجهل لقصد الاعتذار عنهم وتخفيف الأمر عليهم، فكأنه قال: إنما أقدمتم على ذلك الفعل القبيح المنكر وقت عدم علمكم بما فيه من الإثم وقصور معارفكم عن عاقبته، وما يترتب عليه، أو أراد أنهم عند ذلك في أوان الصبا وزمان الصغر، اعتذاراً لهم وبغياً لما يدهمهم من الخجل والحيرة مع علمه وعلمهم بأنهم كانوا في ذلك الوقت كباراً ﴿قَالُوا إِنَّكَ لَأَنْتَ يوسف﴾. قرأ ابن كثير (إنك) على الخبر بدون استفهام. وقرأ الباقون على الاستفهام التقريري، وكان ذلك منهم على طريق التعجب والاستغراب، قيل: سبب معرفتهم له بمجرد قوله لهم: ﴿ما فعلتم بيوسف ولخيه﴾ أنهم لما قال لهم ذلك تنبهوا وفهموا أنه لا يخاطبهم بمثل هذا إلا هو؛ وقيل: إنه لما قال لهم بهذه المقالة وضع التاج عن رأسه فعرّفوه، وقيل: إنه تبسم فعرّفوا ثناياه ﴿قَالَ إِنَّا يَوْسُفَ وَهَذَا لَخِي﴾ أجابهم بالاعتراف بما سألوه عنه. قال ابن الأنباري: أظهر الاسم فقال: أنا يوسف ولم يقل: أنا هو، تعظيماً لما وقع به من ظلم إخوته، كأنه قال: أنا المظلوم المستحل منه المحرم المراد قتله. فاكتفى بإظهار الاسم عن هذه المعاني، وقال: وهذا أخي مع كونهم يعرفونه ولا ينكرونه، لأن قصده وهذا أخي المظلوم كظلمي، ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بالخلاص مما ابتلينا به، وقيل: من الله علينا بكل خير في الدنيا والآخرة؛ وقيل: بالجمع بيننا بعد التفرق، ولا مانع من إرادة جميع ذلك ﴿إِنَّهُ مِنْ يَتَّى وَيَصْبِر﴾. قرأ الجمهور بالجزم على أن من شرطية. وقرأ ابن كثير بإثبات الياء في يتقي. كما في قول الشاعر:

الم يأتيك والأنباء تنمسي بما لاقت لبون بني زياد
وقيل إنه جعل من موصولة لا شرطية، وهو بعيد. والمعنى: إنه من يفعل التقوى أو يفعل ما يقيه عن الذنوب

ويصبر على المصائب ﴿فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ على العموم، فيدخل فيه ما يفيد السياق دخولاً أولياً، وجاء بالظاهر، وكان المقام مقام المضمهر، أي: أجرهم للدلالة على أن الموصوفين بالتقوى موصوفون بصفة الإحسان ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكِ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أي: لقد اختاركم وفصلكم علينا بما خصكم به من صفات الكمال، وهذا اعتراف منهم بفضلهم وعظيم قدره، ولا يلزم من ذلك أن لا يكونوا أنبياء، فإن درج الأنبياء متفاوتة، قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [البقرة: 253] ﴿وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ أي: وإن الشان لك. قال أبو عبيدة: خطئ وأخطأ بمعنى واحد. وقال الأزهري: المخطئ من أراد الصواب فصار إلى غيره، ومنه قولهم: المجتهد يخطئ ويصيب، والخاطئ من تعدى ما لا ينبغي. قالوا هذه المقالة المتضمنة للاعتراف بالخطأ والذنب استجلاباً لعفوه واستجداباً لصفحه ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾ التثريب التعيير والتوبيخ أي: لا تعيير ولا توبيخ، ولا لوم عليكم. قال الأصمعي ثبت عليه: قبحت عليه فعله. وقال الزجاج: المعنى لا إفساد لما بيني وبينكم من الحرمة وحق الأخوة، ولكم عندي الصلح والعفو، وأصل التثريب الإفساد، وهي لغة أهل الحجاز. وقال ابن الأنباري: معناه قد انقطع عنكم توبيخي عند اعترافكم بالذنب. قال ثعلب: ثرب فلان على فلان إذا عدت عليه ذنوبه، وأصل التثريب من الثرب، وهو الشحم الذي هو غاشية الكرش، ومعناه إزالة التثريب، كما أن التجليد والتقريع إزالة الجلد والقرع، وانتصاب اليوم بالتثريب أي: لا أثرب عليكم أو منتصب بالعامل المقتر في عليكم وهو مستقر أو ثابت أو نحوهما أي: لا تثريب مستقر أو ثابت عليكم. وقد جوز الأخفش الوقف على عليكم، فيكون اليوم متعلق بالفعل الذي يعده. وقد نكر مثل هذا ابن الأنباري، ثم دعا لهم بقوله: ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ على تقدير الوقف على اليوم، أو أخبرهم بأن الله قد غفر لهم ذلك اليوم على تقدير الوقف على عليكم ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ يرحم عباده رحمة لا يتراحمون بها فيما بينهم فيجازي محسنهم ويغفر لمسيئهم. قوله: ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا﴾ قيل: هذا القميص هو القميص الذي لبسه الله إبراهيم لما ألقى في النار وكساه إبراهيم إسحاق وكساه إسحاق يعقوب، وكان يعقوب أدرج هذا القميص في قضيه وعلقه في عنق يوسف لما كان يخاف عليه من العين، فأخبر جبريل يوسف أن يرسل به إلى يعقوب ليعود عليه بصره لأن فيه ريح الجنة، وريح الجنة لا يقع على سقيم إلا شفي ولا مبتلي إلا عوفي ﴿فَالْقَوَىٰ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾ أي: يصر بصيراً على أن «يأت» هي التي من أخوات كان. قال الفراء: يرجع بصيراً. وقال السدي: يعد بصيراً. وقيل: معناه يأت إلي مصر وهو بصير قد ذهب عنه العمى، ويؤيده قوله: ﴿وَوَاتُونِي بِأَهْلِكُمْ لَجْمَعِينَ﴾ أي: جميع من شمله لفظ الأهل من النساء والذرائع، قيل: كانوا نحو سبعين، وقيل: ثلاثة وتسعين

من أهله الذين قال لهم: إني لأجد ريح يوسف، ألم أتل لكم هذا القول فقلتم ما قلتم، ويكون قوله: ﴿إني أعلم من الله ما لا تعلمون﴾ كلاماً مبتدأ لا يتعلق بالقول، ويجوز أن تكون جملة ﴿إني أعلم من الله ما لا تعلمون﴾ مقول القول، ويريد بذلك إخبارهم بما قاله لهم سابقاً ﴿إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾ [يوسف: 86]، **﴿قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين﴾** طلبوا منه أن يستغفر لهم، واعترفوا بالذنوب، وفي الكلام حنف، والتقدير: ولما رجعوا من مصر ووصلوا إلى أبيهم قالوا هذا القول، فوعدهم بما طلبوه منه و قال سوف استغفر لكم ربي. قال الزجاج: أراد يعقوب أن يستغفر لهم في وقت السحر، لأنه أخلق بإجابة الدعاء، لا أنه بخل عليهم بالاستغفار، وقيل: أخره إلى ليلة الجمعة، وقيل: أخره إلى أن يستحل لهم من يوسف، ولم يعلم أنه قد عفا عنهم. وجملة **﴿إنه هو الغفور الرحيم﴾** تعليل لما قبله.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن عكرمة في قوله: **﴿لا تثريب﴾** قال: لا تعيير. وأخرج أبو الشيخ عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: قال: «لما فتح رسول الله ﷺ مكة التفت إلى الناس فقال: ماذا تقولون وماذا تظنون؟ فقالوا: ابن عم كريم، فقال: **﴿لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم﴾**. وأخرج ابن مريويه عن ابن عباس مرفوعاً نحوه. وأخرج البيهقي في الدلائل عن أبي هريرة مرفوعاً نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن عطاء الخراساني قال: طلب الحوائج إلى الشباب أسهل منها عند الشيوخ، ألم تر إلى قول يوسف **﴿لا تثريب عليكم اليوم﴾**؟ وقال يعقوب: **﴿سوف استغفر لكم ربي﴾**.

أقول: وفي هذا الكلام نظر فإنهم طلبوا من يوسف أن يعفو عنهم بقولهم: لقد أترك الله علينا، فقال: لا تثريب عليكم اليوم، لأن مقصودهم صدور العفو منه عنهم، وطلبوا من أبيهم يعقوب أن يستغفر الله لهم وهو لا يكون إلا بطلب ذلك منه إلى الله عز وجل، وبين المقامين فرق، فلم يكن وعد يعقوب لهم بخلأ عليهم بسؤال الله لهم، ولا سيما إذا صح ما تقدم من أنه أخر ذلك إلى وقت الإجابة. فإنه لو طلبه لهم في الحال لم يحصل له علم بالقبول.

وأخرج الحكيم الترمذي، وأبو الشيخ عن وهب بن منبه قال: لما كان من أمر إخوة يوسف ما كان، كتب يعقوب إلى يوسف وهو لا يعلم أنه يوسف: بسم الله الرحمن الرحيم، من يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم إلى عزيز آل فرعون، سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد: فإننا أهل بيت مولع بنا أسباب البلاء، كان جدِّي إبراهيم خليل الله ألقى في النار في طاعة ربه، فجعلها الله عليه برداً وسلاماً، وأمر الله جدِّي أن يذبح له أبي فقده الله بما فداه، وكان لي ابن وكان من أحب الناس إليَّ ففقدته، فأذهب حزني عليه نور بصري، وكان له أخ من أمه كنت إذا ذكرت ضمته إلى صصري فأذهب عني بعض وجدي، وهو المحبوس عندك

﴿ولما فصلت للغير﴾ أي: خرجت منطلقاً من مصر إلى الشام. يقال: فصل فصولاً، وفصلته فصلاً، لازم ومتعد، ويقال فصل من البلد فصولاً: إذا انفصل عنه وجاوز حيطانه **﴿قال ليوهم﴾** أي: يعقوب لمن عنده في أرض كنعان من أهله **﴿إني لأجد ريح يوسف﴾** قيل: إنها هاجت ريح فحملت ريح القميص إلى يعقوب مع طول المسافة، فأخبرهم بما وجد، ثم قال: **﴿لولا أن تفننوا﴾** لولا أن تنسبوني إلى الفند، وهو ذهاب العقل من الهرم، يقال: أقند الرجل إذا خرف وتغير عقله. وقال أبو عبيدة: لولا أن تسفهون، فجعل الفند السفه. وقال الزجاج: لولا أن تجهلون، فجعل الفند الجهل، ويؤيد قول من قال إنه السفه قول النابغة:

إلا سليمان إذ قال للمليك له قم في البرية فاحدها عن الفند
أي: امنعها عن السفه. وقال أبو عمرو الشيباني: التفنيد التقييح، ومنه قول الشاعر:

يا صاحبني دعا لومي وتفنيد فليس ما فات من أمري بمرنود
وقيل: هو الكذب، ومنه قول الشاعر:

هل في افتخار الكريم من أود أم هل لقول الصنيق من فند
وقال ابن الأعرابي **﴿لولا أن تفننوا﴾** لولا أن تضعفوا رأيي. وروي مثله عن أبي عبيدة. وقال الأخفش: التفنيد اللوم وضعف الرأي. وكل هذه المعاني راجع إلى التعجيز وتضعيف الرأي، يقال: فنده تفنيداً: إذا عجزه، وأقند: إذا تكلم بالخطأ، والفند: الخطأ من الكلام، ومما يدل على إطلاقه على اللوم قول الشاعر:

يا عاتلي دعا الملام وأقصرا طال الهوى وأطلتما التفنيدا
أخبرهم يعقوب بأن الصبا قد حملت إليه ريح حبيبته، وأنه لولا ما يخشاه من التفنيد لما شك في ذلك:

فإن الصباريح إذا ما تنفست على نفس مهموم تجلت هموما
إذا قلت هذا حين أسلو يهيجني نسيم الصبا من حيث ما يطالع الفجر
ولقد تهب لي الصبا من أرضها فيلذ من هبوبها ويطيب
﴿قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم﴾ أي: قال الحاضرون عنده من أهله: إنك يا يعقوب لفي ذهابك عن طريق الصواب الذي كنت عليه قديماً من إفراط حبك ليوسف لا تنساه، ولا تفتّر عنه، ولسان حال يعقوب يقول لهم:

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيتها
لا تعذل المشتاق في أشواقه حتى تكون حشك في أحشائه
وقيل: المعنى إنك لفي جنونك القديم، وقيل: في محبتك القديمة. قالوا له ذلك لأنه لم يكن قد بلغهم قنوم البشير **﴿فلما أن جاء البشير﴾** قال المفسرون: البشير هو يهوذا بن يعقوب، قال لإخوته: أنا جئته بالقميص ملطخاً بالدم، فأعطني اليوم قميصك لأخبره أنك حي، فأفرحه كما أحزنته **﴿لقاه على وجهه﴾** أي: ألقى البشير قميص يوسف على وجه يعقوب، أو لقاه يعقوب على وجه نفسه **﴿فارتد بصيراً﴾** الارتداد: انقلاب الشيء إلى حال قد كان عليها، والمعنى: عاد ورجع إلى حالته الأولى من صحة بصره **﴿قال ألم أقل لكم﴾** أي: قال يعقوب لمن كان عنده

قال: أخرهم إلى السحر، وكان يصلي بالسحر. وأخرج أبو الشيخ، وابن مردويه عنه قال: أخرهم إلى السحر لأن دعاء السحر مستجاب. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عنه أيضاً قال: قال النبي ﷺ في قصة «هو قول أخي يعقوب لبنيه: ﴿سوف أستغفر لكم ربي﴾»، يقول: حتى تأتي ليلة الجمعة.

فَكَانَ دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ فَأَوْبَقَ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ أَمِينٌ ﴿١٠٠﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْمَرْثَى وَحَنَّنَا لَهُمْ سَجْدًا وَقَالَ يَا بَنِيَّ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلْتُ رُبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ الْكِتَابِ وَجَدَ بِكُمْ مِنَ الْعَدُوِّ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رُبِّي لَطِيفٌ لَنَا نِشَاءً إِنَّهُ هُوَ الْغَلِيظُ الْمُكْرِمُ ﴿١٠١﴾ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ الْدُنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠٢﴾

قوله: ﴿فلما دخلوا على يوسف﴾ لعل في الكلام محنوفاً مقترناً، وهو فرحل يعقوب وأولاده وأهله إلى مصر فلما دخلوا على يوسف أوى إليه أبويه أي: ضمهما وأنزلهما عنده. قال المفسرون: المراد بالابوين هنا يعقوب وزوجته خالة يوسف، لأن أمه قد كانت ماتت في ولادتها لأخيه بنيامين كما تقدم؛ وقيل: أحيا الله له أمه تحقيقاً للرؤيا حتى سجدت له ﴿وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمين﴾ مما تكرهون، وقد كانوا فيما مضى يخافون ملوك مصر، ولا يدخلونها إلا بجواز منهم. قيل: والتقيد بالمشيئة عائد إلى الأمن، ولا مانع من عوده إلى الجميع، لأن دخولهم لا يكون إلا بمشيئة الله سبحانه، كما أنهم لا يكونون آمنين إلا بمشيئته؛ وقيل: إن التقيد بالمشيئة راجع إلى قوله: ﴿سوف أستغفر لكم ربي﴾ [يوسف: 98] وهو بعيد. وظاهر النظم القرآني: أن يوسف قال لهم هذه المقالة أي: ادخلوا مصر قبل دخولهم، وقد قيل في توجيه ذلك أنه تلقاهم إلى خارج مصر، فوقف منتظراً لهم في مكان أو خيمة، فدخلوا عليه فـ ﴿أوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر﴾ فلما دخلوا مصر ودخلوا عليه دخولا آخر في المكان الذي له بمصر ﴿رفع أبويه على العرش﴾ أي: أجلسهما معه على السرير الذي يجلس عليه كما هو عادة الملوك ﴿وخزوا له سجداً﴾ أي: الابوان والأخوة، والمعنى: أنهم خروا ليوسف سجداً، وكان ذلك جائزاً في شريعتهم منزلاً منزلة التحية؛ وقيل: لم يكن ذلك سجوداً بل هو مجرد إيماء، وكانت تلك تحيتهم، وهو يخالف معنى: وخزوا له سجداً، فإن الخور في اللغة المقيد بالسجود لا يكون إلا بوضع الوجه على الأرض؛ وقيل: الضمير في قوله: «له» راجع إلى الله سبحانه، أي: وخزوا لله سجداً، وهو بعيد جداً؛ وقيل: إن الضمير ليوسف، واللام للتعليل أي: وخزوا لأجله، وفيه أيضاً بعد وقال يوسف: ﴿يا ابت هذا تأويل رؤيائي﴾ يعني: التي تقدم ذكرها ﴿من قبل﴾ أي: من قبل هذا الوقت ﴿قد جعلها ربي حقاً﴾ بوقوع تأويلها على ما نلت عليه ﴿وقد أحسن بي إذ

في السرقة، وإنني أخبرك أنني لم أسرق، ولم ألد سارقاً؛ فلما قرأ يوسف الكتاب بكى وصاح وقال: ﴿انذهبوا بقميصي هذا فالقوه على وجه أبي يات بصيراً﴾. وأخرج أبو الشيخ عن أنس: أن رسول الله ﷺ قال في قوله: ﴿انذهبوا بقميصي هذا﴾ أن نمرود لما ألقى إبراهيم في النار نزل إليه جبريل بقميص من الجنة وطنفسة من الجنة، فالبسه القميص وأقعده على الطنفسة، وقعد معه يتحدث، فأوحى الله إلى النار ﴿كوني برداً وسلاماً﴾ [الأنبياء: 69]. ولولا أنه قال وسلاماً لأذاه البرد. وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس مرفوعاً: «إن الله كسا إبراهيم ثوباً من الجنة، فكساه إبراهيم إسحاق، وكساه إسحاق يعقوب، فأخذه يعقوب فجعله في قسبة من حديد وعلقه في عنق يوسف، ولو علم إخوته إذ القوه في الجب لأخذه؛ فلما أراد الله أن يرد يوسف على يعقوب كان بين رؤياه وتعبيره أربعون سنة أمر البشير أن يبشره من ثمان مراحل، فوجد يعقوب ريحه فقال: إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفننوا، فلما ألقاه على وجهه ارتد بصيراً، وليس يقع شيء من الجنة على عامة من عاهات الدنيا إلا أبرأها بلأمن الله». وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وأحمد في الزهد، وابن جرير وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿ولما فصلت العير﴾ قال: لما خرجت العير هاجت الريح، فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف فقال: ﴿إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفننوا﴾، تسفهون، فوجد ريحه من مسيرة ثمانية أيام. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عنه قال: وجد ريحه من مسيرة عشرة أيام. وأخرج ابن أبي حاتم من وجه آخر عنه قال: وجده من مسيرة ثمانين فرسخاً. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عنه أيضاً ﴿لولا أن تفننوا﴾ قال: تجهلون. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً: قال تكتبون. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد قال: تهرمون، يقولون: قد ذهب عقلك. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن الربيع قال: لولا أن تحمقون. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿إنك لفي ضلالك القديم﴾ يقول: خطئك القديم. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: جنونك القديم. وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال: حبك القديم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: البشير البريد. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن الضحاك مثله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن سفيان قال: البشير هو يهوذا بن يعقوب. وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال: لما أن جاء البشير إلى يعقوب فالقى عليه القميص قال: على أي نين خلقت يوسف؟ قال: على الإسلام، قال: الآن تمت النعمة. وأخرج أبو عبيد، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني عن ابن مسعود في قوله: ﴿سوف أستغفر لكم ربي﴾ قال: إن يعقوب أخر بنيهِ إلى السحر. وأخرج ابن المنذر، وابن مردويه عن ابن عباس

عمره عند أن ألقى في الحب سبع عشرة سنة، وكان في العبودية والسجن والملك ثمانين سنة إلى قدوم أبيه يعقوب عليه، ثم عاش بعد اجتماع شملهم حتى كمل عمره المقدار الذي سيأتي وتوفاه الله. قيل: لم يتمن الموت أحد غير يوسف لا نبي ولا غيره. وذهب الجمهور إلى أنه لم يتمن الموت بهذا الدعاء، وإنما دعا ربه أن يتوفاه على الإسلام ويلحقه بال صالحين من عباده عند حضور أجله.

وقد أخرج أبو الشيخ عن أبي هريرة قال: دخل يعقوب مصر في ملك يوسف وهو ابن مائة وثلاثين سنة، وعاش في ملكه ثلاثين سنة، ومات يوسف وهو ابن مائة وعشرين سنة. قال أبو هريرة: ويلغني أنه كان عمر إبراهيم خليل الله مائة وخمسة وتسعين سنة. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: «أَوَى إِلِيهِ أَبُويهِ» قال: أبوه وأمه ضمهما. وأخرج عن وهب قال: أبوه وخالته، وكانت توفيت أم يوسف في نفاس أخيه بنيامين. وأخرج أبو الشيخ نحوه عن سفيان بن عيينة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: «وَرَفَعَ أَبُويهِ عَلَى الْعَرْشِ» قال: السرير. وأخرج ابن أبي حاتم عن عدي بن حاتم في قوله: «وَأَخْرَجُوا لَهُ سِجْدًا» قال: كانت تحية من كان قبلكم فاعطاكم الله السلام مكانها. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة نحوه، وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن زيد قال: تلك سجود تشرفة كما سجلت الملائكة تشرفة لأم، وليس سجود عبادة. وأخرج أبو الشيخ عن قتادة في قوله: «إِنْ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ» قال: لطيف ليوسف وصنع له حين أخرجه من السجن، وجاء بأهله من البدو، ونزع من قلبه نزغ الشيطان وتحريشه على إخوته. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: ما سأل نبي الوفاة غير يوسف. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ عنه قال: اشتاق إلى لقاء الله وأحب أن يلحق به وبآبائه، فدعا الله أن يتوفاه، وأن يلحقه بهم. وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك في قوله: «وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ» قال: يعني إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عكرمة قال: يعني أهل الجنة.

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْكَلْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ اتَّخَذُوا أَمْهَاتَهُمْ وَهَمَّ يَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ وَمَا تَنْتَهِمُ عَلَيْهِ مِنْ آثَرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَكَانَ مِنْ آيَاتِهِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمْشُرُ عَلَيْهِمْ وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِآيَاتِهِ إِلَّا وَهُمْ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَفَلَمْ يَأْنِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ نَذِيرٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٣٥﴾ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعِيَ وَسَبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣٦﴾

الخطاب بقوله: «لَكَ» لرسول الله ﷺ وهو مبتدأ خبره «من أنباء الغيب»، و «نوحيه إليك» خبر ثان. قال

أخرجني من السجن» الأصل أن يتعدى فعل الإحسان إلي، وقد يتعدى بالياء كما في قوله تعالى: «ويوالوالدين إحسانا» [البقرة: 83 - الإسراء: 23]، وقيل: إنه ضمن أحسن معنى لطف أي: لطف بي محسناً، ولم ينكر إخراجي من الحب، لأن في نكره نوع تثريب للإخوة، وقد قال: لا تثريب عليكم. وقد تقدم سبب سجنه ومدة بقاءه فيه، وقد قيل: إن وجه عدم نكر إخراجي من الحب أن المنة كانت في إخراجي من السجن أكبر من المنة في إخراجي من الحب، وفيه نظر، «وجاء بكم من البدو» أي: البادية، وهي أرض كنعان بالشام، وكانوا أهل مواش وبرية، وقيل: إن الله لم يبعث نبياً من البادية، وأن المكان الذي كان فيه يعقوب يقال له: بدا، وإياه عني جميل بقوله:

وأنت الذي حبيب شعباً إلى بدا إلى وأوطاني بلادسواهما وفيه نظر «من بعد أن نزع الشيطان بيني وبين إخوتي» أي: أقصد بيننا وحمل بعضنا على بعض، يقال: نزع إذا نخسه، فاصله من نخس الدابة ليقوى مشيها. وأحال يوسف ذنب إخوته على الشيطان تركماً منه وتأثراً «إن ربي لطيف لما يشاء» اللطيف الرفيق، قال الأزهري: اللطيف من أسماء الله تعالى معناه الرفيق بعباده، يقال: لطف فلان بفلان يلفظ: إذا رفق به، وقال عمرو بن أبي عمرو: اللطيف الذي يوصل إليك أربك في لطف. قال الخطابي: اللطيف هو البر بعباده الذي يلفظ بهم من حيث لا يعلمون، ويسبب لهم مصالحهم من حيث لا يحتسبون، وقيل: اللطيف العالم بدقائق الأمور، ومعنى لما يشاء: لأجل ما يشاء حتى يجيء على وجه الصواب «إنه هو العليم الحكيم» أي: العليم بالأمور الحكيم في أفعاله. ولما أتم الله نعمته على يوسف عليه السلام بما خلصه منه من المحن العظيمة وبما خوله من الملك وعلمه من العلم، تأقت نفسه إلى الخير الآخروي الدائم الذي لا ينقطع، فقال: «رب قد آتيتني من الملك» من للتبعية أي: بعض الملك، لأنه لم يؤت كل الملك، إنما أوتي ملكاً خاصاً، وهو ملك مصر في زمن خاص «وعلمتني من تاويل الأحاديث» أي: بعضها، لأنه لم يؤت جميع علم التاويل سواء أريد به مطلق العلم والفهم، أو مجرد تاويل الرؤيا، وقيل: من للجنس كما في قوله: «فاجتنبوا الرجس من الأوثان» [الحج: 30] وقيل: زائدة أي: آتيتني الملك وعلمتني تاويل الأحاديث «فاطر السموات والأرض» منتصب على أنه صفة لرب، لكونه منادى مضافاً، ويجوز أن يكون انتصابه على أنه منادى بحرف مقترن أي: يا فاطر، والفاطر الخالق والمنشئ والمخترع والمبدع «أنت وليي» أي: ناصرني ومتولي أموري «في الدنيا والآخرة» تتوالاني فيهما «توفني مسلماً والحقني بال صالحين» أي: توفني على الإسلام لا يفارقني حتى أموت، والحق بال صالحين من النبيين من آبائي وغيرهم فاطر بثوابهم منك وبرجاتهم عنك. قيل: إنه لما دعا بهذا الدعاء توفاه الله عز وجل، وقيل: كان

مزينة بالكواكب النيرة السيارة والثواب، وفي الأرض من جبالها وقفارها وبحارها ونباتها وحيواناتها تلهم على توحيد الله سبحانه، وأنه الخالق لذلك، الرزاق له المحيي والمميت، ولكن أكثر الناس يمزون على هذه الآيات غير متأملين لها، ولا مفكرين فيها، ولا ملتفتين إلى ما تدل عليه من وجود خالقها، وأنه المتفرد بالالوهية مع كونهم مشاهدين لها **﴿يَمَزُونَ عليها وهم عنها معرضون﴾** وإن نظروا إليها بأعيانهم فقد أعرضوا عما هو الثمرة للنظر بالحقيقة، وهي التفكير والاعتبار والاستدلال. وقرأ عكرمة وعمرو بن فايد برفع الأرض على أنه مبتدأ، وخبره يمزون عليها. وقرأ السدي بنصب الأرض بتقدير فعل. وقرأ ابن مسعود (يمشون عليها) **﴿وما يؤمن أكثرهم بالله﴾** أي: وما يصنق ويقر أكثر الناس بالله من كونه الخالق الرزاق المحيي المميت **﴿إلا وهم مشركون﴾** بالله يعبدون معه غيره كما كانت تفعله الجاهلية، فإنهم مقرّون بالله سبحانه وبأنه الخالق لهم **﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله﴾** [الزخرف: 87]. **﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله﴾** [لقمان: 25] لكنهم كانوا يثبتون له شركاء فيعبدهم ليقربهم إلى الله **﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله﴾** [الزمر: 3] ومثل هؤلاء الذين اتخذوا أحيارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله المعتقدون في الاموات بأنهم يقدرون على ما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه كما يفعله كثير من عباد القبور، ولا ينافي هذا ما قيل من أن الآية نزلت في قوم مخصوصين، فالاعتبار بما يدل عليه اللفظ لا بما يفيد السبب من الاختصاص بمن كان سبباً لنزول الحكم **﴿افهموا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله﴾** الاستفهام للإنكار، والغاشية ما يفشاهم ويغمرهم من العذاب كقوله تعالى: **﴿يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾** [العنكبوت: 55] وقيل: هي الساعة، وقيل: الصواعق والقوارع، ولا مانع من الحمل على العموم **﴿أو تأتيهم الساعة بغتة﴾** أي: فجأة، وانتصاب بغتة على الحال. قال المبرد: جاء عن العرب حال بعد نكرة، وهو قولهم وقع أمر بغتة، يقال: بغتهم الأمر بغتاً وبغتة: إذا فاجأهم **﴿وهم لا يشعرون﴾** بإتيانه، ويجوز انتصاب بغتة على أنها صفة مصدر محذوف **﴿قل هذه سبيلي﴾** أي: قل يا محمد للمشركين هذه الدعوة التي ادعو إليها والطريقة التي أنا عليها سبيلي أي: طريقي وسنتي، فاسم الإشارة مبتدأ وخبره سبيلي، وفسر ذلك بقوله: **﴿ادعوا إلى الله على بصيرة﴾** أي: على حجة واضحة، والبصيرة المعرفة التي يتميز بها الحق من الباطل والجملة في محل نصب على الحال **﴿لنا ومن اتبعني﴾** أي: ويدعو إليها من اتبعني واهتدى بهديي. وقال الفراء: والمعنى ومن اتبعني يدعو إلى الله كما أدعو. وفي هذا دليل على أن كل متبع لرسول الله ﷺ حق عليه أن يقتدي به في الدعاء إلى الله أي: الدعاء إلى الإيمان به وتوحيده والعمل بما شرعه لعباده **﴿وسبحان**

الزجاج: ويجوز أن يكون ذلك بمعنى الذي ونوحيه إليك خبره أي: الذي من أنباء الغيب نوحيه إليك. والمعنى: الإخبار من الله تعالى لرسوله الله ﷺ بأن هذا الذي قصه عليه من أمر يوسف وإخوته من الأخبار التي كانت غائبة عن رسول الله ﷺ، فأوحاه الله إليه وأعلمه به ولم يكن عنده قبل الوحي شيء من ذلك، وفيه تعريض بكفار قريش، لأنهم كانوا مكذبين له **﴿بما جاء به جحوداً وعدائاً وحسداً مع كونهم يعلمون حقيقة الحال﴾** **﴿وما كنت لديهم﴾** أي: لدي إخوة يوسف **﴿إذ أجمعوا أمرهم﴾** إجماع الأمر: العزم عليه، أي: وما كنت لدى إخوة يوسف إذ عزموا جميعاً على إلقائه في الجب **﴿وهم﴾** في تلك الحالة **﴿يمكرون﴾** به، أي: بيوست في هذا الفعل الذي فعلوه به ويغيثونه الغوائل، وقيل: الضمير ليعقوب أي: يمكرون بيعقوب حين جاءه بقميص يوسف ملطخاً بالدم وقالوا: اكته النشب. وإذا لم يكن رسول الله ﷺ لديهم عند أن فعلوا ذلك، انتفى علمه بذلك مشاهدة، ولم يكن بين قوم لهم علم بأحوال الأمم السالفة ولا خالطهم ولا خالطوه، فانتفى علمه بذلك بطريق الرواية عن الغير، فلم يبق لعلمه بذلك طريق إلا مجرد الوحي من الله سبحانه، فهذا يستلزم الإيمان بما جاء به، فلما لم يؤمن بذلك من عاصره من الكفار، قال الله سبحانه ذكراً لهذا **﴿وما أكثر للناس ولو حرصت بمؤمنين﴾** أي: وما أكثر الناس المعاصرين لك يا محمد، أو ما أكثر الناس على العموم ولو حرصت على هدايتهم وبالغت في ذلك بمؤمنين بالله لتصميمهم على الكفر الذي هو دين آبائهم، يقال: حرص يحرص مثل حمد يحمده، يضرب، وفي لغة ضعيفة حرص يحرص مثل حمد يحمده، والحرص طلب الشيء باجتهاد. قال الزجاج: ومعناه وما أكثر الناس بمؤمنين ولو حرصت على أن تهديهم، لأنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء. قال ابن الأنباري: إن قريشاً واليهود سألت رسول الله ﷺ عن قصة يوسف وإخوته فشرحهما شرحاً شافياً، وهو يؤمل أن يكون ذلك سبباً لإسلامهم، فخالفوا ظنه، وحزن رسول الله ﷺ لذلك فعزاه الله بقوله: **﴿وما أكثر للناس﴾** الآية، **﴿وما تسألهم عليه من أجر﴾** أي: على القرآن وما تتلوه عليهم منه، أو على الإيمان وحرصك على وقوعه منهم أو على ما تحنّثهم به من هذا الحديث من أجر من مال يعطونك إياه ويجعلونه لك كما يفعله أحيارهم **﴿إن هو﴾** أي: القرآن أو الحديث الذي حنّثهم به **﴿إلا نكر للعالمين﴾** أي: ما هو إلا نكر للعالمين كافة لا يختص بهم وحدهم **﴿وكاين من آية في السموات والأرض﴾** قال الخليل وسيبويه، والأكثرون: إن كاين أصلها أي نخل عليها كاف التشبيه، لكنه انمحق عن الحرفين المعنى الإفرادي، وصار المجموع كاسم واحد بمعنى كم الخبرية، والأكثر إخال من في مميّزه، وهو تمييز عن الكاف لا عن أي كما في مثلك رجلاً. وقد مرّ الكلام على هذا مستوفى في آل عمران. والمعنى: كم من آية تلهم على توحيد الله كائنة في السموات من كونها منصوبة بغير عمد،

من النساء ولا من الجن، وهذا يرد على من قال: إن في النساء أربع نبيات: حواء، وآسية، ولم موسى، ومريم. وقد كان بعثة الأنبياء من الرجال دون النساء أمراً معروفاً عند العرب، حتى قال قيس بن عاصم في سجاح المتنبئة:

أضحت نبيتنا أنثى نطيف بها وأصبحت أنبياء الله نكرانا
فلعنة الله والأقوام كلهم على سجاح ومن باللوم أغرانا

﴿نوحى إليهم﴾ كما نوحى إليك ﴿من أهل القرى﴾ أي: المدائن دون أهل البادية لغلبة الجفاء والقسوة على البدو ولكون أهل الأمصار أتم عقلاً وأكمل حليماً وأجل فضلاً ﴿أفلم يسيرا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾ يعني: المشركين المنكرين لنبوة محمد ﷺ أي:

أفلم يسر المشركون هؤلاء فينظروا إلى مصارع الأمم الماضية فيعتبروا بهم حتى ينزعوا عما هم فيه من التكذيب ﴿ولدار الآخرة خير للذين اتقوا﴾ أي: لدار الساعة الآخرة، أو لحالة الآخرة على حذف الموصوف. وقال الفراء: إن الدار هي الآخرة، وأضيف الشيء إلى نفسه لاختلاف اللفظ كيوم الجمعة وصلاة الأولى ومسجد الجامع، والكلام في ذلك

مبين في كتب الإعراب، والمراد بهذه الدار: الجنة أي: هي خير للمتقين من دار الدنيا. وقرئ (ولدار الآخرة). وقرأ نافع وعاصم ويعقوب (أفلا تعقلون) بالتاء الفوقية على الخطاب. وقرأ الباقر بالتحية. ﴿حتى إذا استتسلسل الرسل﴾ هذه

الغاية المحذوف دل عليه الكلام، وتقديره: وما أرسلنا من قبلك يا محمد إلا رجالاً ولم تعجل أمهم الذين لم يؤمنوا بما جاءوا بالحقبة ﴿حتى إذا استتسلسل الرسل﴾ من النصر

بعقوبة قومهم، أو حتى إذ استتسلسل الرسل من إيمان قومهم لانهمالكهم في الكفر ﴿وظنوا أنهم قد كذبوا﴾ قرأ ابن عباس، وابن مسعود، وأبو عبد الرحمن السلمي، وأبو جعفر بن القعقاع، والحسن، وقتادة، وأبو رجاء العطاردي، وعاصم وحزمة والكسائي، ويحيى بن وثاب، والأعمش وخلف (كذبوا) بالتخفيف أي: ظن القوم أن الرسل قد كذبوهم فيما أخبروا به من العذاب ولم يصدقوا، وقيل: المعنى ظن القوم أن الرسل قد كذبوا فيما ادعوا من نصرهم، وقيل: المعنى وظن الرسل أنها قد كذبتهم أنفسهم حين حذبتهم بأنهم ينصرون عليهم، أو كذبهم رجالهم للنصر. وقرأ الباقر (كذبوا) بالتشديد، والمعنى عليها واضح أي: ظن الرسل بأن قومهم قد كذبوهم فيما وعدوهم به من العذاب، ويجوز في هذا أن يكون فاعل ظن القوم المرسل إليهم على معنى أنهم ظنوا أن الرسل قد كذبوا فيما جاءوا به من الوعد والوعيد. وقرأ مجاهد وحמיד (قد كذبوا) بفتح الكاف والذال مخففتين على معنى: وظن قوم الرسل أن الرسل قد كذبوا؛ وقد قيل: إن الظن في هذه الآية بمعنى اليقين، لأن الرسل قد تيقنوا أن قومهم كذبوهم، وليس ذلك مجرد ظن منهم. والذي ينبغي أن يفسر الظن باليقين في مثل هذه الصورة يفسر بمعناه الأصلي فيما يحصل فيه مجرد ظن فقط من الصور السابقة ﴿جاءهم نصرنا﴾ أي:

الله وما أنا من المشركين﴾ أي: وقل يا محمد لهم سبحانه الله وما أنا من المشركين بالله الذين يتخذون من دونه أنداداً.

قال ابن الأنباري: ويجوز أن يتم الكلام عند قوله ﴿ادعوا إلى الله﴾ ثم ابتداءً فقال: ﴿على بصيرة أنا ومن اتبعني﴾ وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو

الشيخ عن ابن عباس في قوله: ﴿وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون﴾ قال: هم بنو يعقوب إذ يمكرون بيوسف. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن قتادة في الآية يقول: وما كنت لديهم وهم يلقونه في غيابة الجب وهم يمكرون بيوسف. وأخرج أبو الشيخ عن الضحاک ﴿وكلين من آية﴾ قال: كم من آية في السماء يعني: شمسها وقمرها ونجومها وسحابها، وفي الأرض ما فيها من الخلق والأنهار والجبال والمدائن والقصور. وأخرج ابن

جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله: ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾ قال: سلهم من خلقهم ومن خلق السموات والأرض فسيقولون الله، فذلك

إيمانهم وهم يعبدون غيره. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ عن عطاء في قوله: ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾ قال: كانوا يعلمون

أن الله ربهم وهو خالقهم وهو رازقهم، وكانوا مع ذلك يشركون. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن الضحاک في الآية قال: كانوا يشركون به في تلبيتهم يقولون: لبيك اللهم

لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك. وأخرج أبو الشيخ عن الحسن في الآية قال: ذلك المنافق يعمل

بالرياء وهو مشرك بعمله. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿غاشية من عذاب الله﴾ قال: وقية تغشاهم. وأخرج ابن أبي حاتم

عن ابن عباس في قوله: ﴿هذه سبيلي﴾ قل: هذه دعوتي. وأخرج أبو الشيخ عنه ﴿قل هذه سبيلي﴾ قال: صلاتي. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن زيد في الآية قال:

أمري ومشيتي ومنهجي، وأخرجنا عن قتادة في قوله: ﴿على بصيرة﴾ أي: على هدى ﴿أنا ومن اتبعني﴾

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَا يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَكُنَّ الْأَخْزَرَةُ حَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَفَلَا يَتَّقُونَ ﴿٧٠﴾ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَرَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرًا مِنْ رَبِّهِمْ وَلَا يَرَوْا بَاسًا مِنَ الْقَوِيِّ الْمُتَمَرِّينَ ﴿٧١﴾ فَقَدْ كَانُوا فِي قَعَمِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرُونَ وَلَكِنَّ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٢﴾

قوله: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً﴾ هذا رد على من قال: ﴿لولا أنزل إليه ملك﴾ [الفرقان: 7] أي: لم نبعث من الأنبياء إلى من قبلهم إلا رجالاً لا ملائكة. فكيف ينكرون إرسالنا إياك. وتدل الآية على أن الله سبحانه لم يبعث نبياً

وقوم صالح والامم التي عذب الله. وأخرج البخاري وغيره من طريق عروة أنه سأل عائشة عن قول الله سبحانه **﴿حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا﴾** قال: قلت اكتبوا أم كتبوا؟ يعني: على هذه الكلمة مخففة أم مشددة، فقلت: بل كتبوا تعني بالتشديد. قلت: والله لقد استيقنوا أن قومهم كذبهم فما هو بالظن، قالت: أجل لعمري لقد استيقنوا بذلك، فقلت: لعلها، وظنوا أنهم قد كذبوا مخففة، قالت: معاذ الله لم تكن الرسل لتظن ذلك بريها، قلت: فما هذه الآية؟ قالت: هم أتباع الرسل الذين آمنوا بهم وصنقوهم وطال عليهم البلاء واستأخر عليهم النصر، حتى إذا استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذبهم جاءهم نصر الله عند ذلك. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه عن عبد الله بن أبي مليكة: أن ابن عباس قراها عليه (وظنوا أنهم قد كذبوا) مخففة يقول: أخلفوا. وقال ابن عباس: كانوا بشراً، وتلا **﴿حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله﴾** [البقرة: 214] قال ابن أبي مليكة: وأخبرني عروة عن عائشة أنها خالفت ذلك وأبته، وقالت: والله ما وعد الله رسوله من شيء إلا علم أنه سيكون قبل أن يموت، ولكنه لم يزل البلاء بالرسول حتى ظنوا أن من معهم من المؤمنين قد كذبهم، وكانت تقرؤها مثقلة. وأخرج ابن مردويه من طريق عروة عن عائشة: أن النبي ﷺ قرأ: (وظنوا أنهم قد كذبوا) مخففة. وأخرج أبو عبيد، وسعيد بن منصور، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه من طرق عن ابن عباس أنه كان يقرأ (قد كذبوا) مخففة. قال: يش الرسل من قومهم أن يستجيبوا لهم، وظن قومهم أن الرسل قد كذبهم بما جاءوا به **﴿جاءهم نصرنا﴾** قال: جاء الرسل نصرنا. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، وأبو الشيخ عن تميم بن حذلم قال: قرأت على ابن مسعود القرآن فلم يأخذ علي إلا حرفين **﴿كل أتوه داخرين﴾** [النمل: 87] فقال: أتوه مخففة، وقرأت عليه **﴿وظنوا أنهم قد كذبوا﴾** فقال: كذبوا مخففة. قال: استيأس الرسل من إيمان قومهم أن يؤمنوا بهم، وظن قومهم حين أبطا الأمر أنهم قد كذبوا. وأخرج ابن مردويه من طريق أبي الأحوص عنه قال: حفظت عن رسول الله ﷺ في سورة يوسف **﴿وظنوا أنهم قد كذبوا﴾** خفيفة. وللمسلف في هذا كلام يرجع إلى ما نكرناه من الخلاف عن الصحابة. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس **﴿ففتنجه من نشاء﴾** قال: فتنجي الرسل ومن نشاء **﴿ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين﴾** وذلك أن الله بعث الرسل يدعون قومهم، فأخبروهم أن من أطاع الله نجا ومن عصاه عذب وغوى. وأخرج أبو الشيخ عنه قال: **﴿جاءهم نصرنا﴾** العذاب. وأخرج أبو الشيخ عن السدي **﴿ولا يرد بأسنا﴾** قال: عذابه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: **﴿لقد كان في قصصهم﴾**

فجاء الرسل نصر الله سبحانه فجاء، أو جاء قوم الرسل الذين كتبهم نصر الله لرسله بإيقاع العذاب على المكذبين **﴿ففتنجه من نشاء﴾**. قرأ عاصم (فتنجي) بنون واحدة. وقرأ الباقون (فتنجي) بنونين، واختار أبو عبيدة القراءة الأولى، لأنها في مصحف عثمان كذلك. وقرأ ابن محيصن (فتنجا) على البناء للفاعل، فتكون من على القراءة الأولى في محل رفع على أنها نائب الفاعل، وتكون على القراءة الثانية في محل نصب على أنها مفعول، وعلى القراءة الثالثة في محل رفع على أنها فاعل، والذين نجاهم الله هم الرسل ومن آمن معهم، وهلك المكذبون **﴿ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين﴾** عند نزوله بهم، وفيه بيان من يشاء الله نجاه من العذاب وهم من عدا هؤلاء المجرمين **﴿لقد كان في قصصهم﴾** أي: قصص الرسل ومن بعثوا إليه من الأمم، أو في قصص يوسف وإخوته وأبيه **﴿عبرة لأولي الأبواب﴾** والعبرة: الفكرة والبصيرة المخلصة من الجهل والحيرة، وقيل: هي نوع من الاعتبار، وهي العبور من الطرف المعلوم إلى الطرف المجهول، وأولوا الأبواب هم نوا العقول السليمة الذين يعتبرون بعقولهم فينبون ما فيه مصالح دينهم، وإنما كان هذا القصص عبرة لما اشتمل عليه من الإخبارات المطابقة للواقع مع بعد المدة بين النبي ﷺ وبين الرسل الذين قص حبيثهم، ومنهم يوسف وإخوته وأبوه مع كونه لم يطلع على أخبارهم ولا اتصل بأخبارهم **﴿ما كان حيناً يفترى﴾** أي: ما كان هذا المقصود الذي يدل عليه ذكر القصص وهو القرآن المشتمل على ذلك حديثاً يفترى **﴿ولكن تصديق الذين بين يديه﴾** أي: ما قبله من الكتب المنزلة كالتوراة والإنجيل والزبور. وقرئ برفع (تصديق) على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: هو تصديق وتفصيل كل شيء من الشرائع المجملة المحتاجة إلى تفصيلها، لأن الله سبحانه لم يفتر في الكتاب من شيء؛ وقيل: تفصيل كل شيء من قصة يوسف مع إخوته وأبيه. قيل: وليس المراد به ما يقتضيه من العموم، بل المراد به الأصول والقوانين وما ينول إليها **﴿وهدي﴾** في الدنيا يهتدي به كل من أراد الله هدايته **﴿ورحمته﴾** في الآخرة يرحم الله بها عباده العاملين بما فيه شرط الإيمان الصحيح، ولهذا قال: **﴿لقوم يؤمنون﴾** أي: يصنفون به وبما تضمنه من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وشرائعه وقدره، وأما من عداهم فلا ينتفع به ولا يهتدي بما اشتمل عليه من الهدى، فلا يستحق ما يستحقونه.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً﴾** قال: أي ليسوا من أهل السماء كما قلت. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة في الآية قال: ما نعلم أن الله أرسل رسولا قط إلا من أهل القرى، لأنهم كانوا أعلم وأحل من أهل المعمور. وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله: **﴿كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾** قال: كيف عذب الله قوم نوح وقوم لوط

جبالاً ثوابت، واحدها راسية لأن الأرض ترسو بها أي: تثبت، والإرساء: الثبوت. قال عنتره:

فصرت عارفةً لذلك حرّة ترسو إذا نفس الجبان تطلع
وقال جميل:

لحبها والذي أرسى قواعده حتى إذا ظهرت آياته بطنا
«وانهاراً» أي: مياماً جارية في الأرض فيها منافع الخلق، أو المراد جعل فيها مجاري الماء «ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين» من كل الثمرات متعلق بالفعل الذي بعده أي: جعل فيها من كل الثمرات زوجين اثنين، الزوج يطلق على الاثنين، وعلى الواحد المزواج الآخر، والمراد هنا بالزوج الواحد، ولهذا أكد الزوجين بالاثنتين لنفع توهم أنه أريد بالزوج هنا الاثنين، وقد تقدّم تحقيق هذا مستوفي، أي: جعل كل نوع من أنواع ثمرات الدنيا صنفين، إما في اللونية: كالبياض والسود ونحوهما، أو في الطعمية كالخلو والحامض ونحوهما، أو في القدر كالصغير والكبير، أو في الكيفية كالحر والبرد. قال الفراء: يعني بالزوجين هنا الذكر والأنثى. والأول أولى «يفشى الليل للنهار» أي: يلبسه مكانه، فيصير أسود مظلماً بعدما كان أبيض منيراً شبه إزالة نور الهدى بالظلمة بتغطية الأشياء الحسية بالآغطية التي تسترهما، وقد سبق تفسير هذه في الأعراف «إن في ذلك آيات لقوم يتفكرون» أي: فيما نكر من مد الأرض وإثباتها بالجبال، وما جعله الله فيها من الثمرات المتزاوجة. وتعاقب النور والظلمة آيات بيينة للناظرين المتفكرين المعبرين «وفي الأرض قطع متجاورات» هذا كلام مستأنف مشتمل على نكر نوع آخر من أنواع الآيات. قيل وفي الكلام حذف أي: قطع متجاورت، وغير متجاورات كما في قوله: «سرابيل تقيكم الحر» [النحل: 81] أي: وتقيكم البرد. قيل: والمتجاورات المن وما كان عامراً، وغير المتجاورات: الصحارى وما كان غير عامر، وقيل: المعنى متجاورات متدنات، ترابها واحد وماؤها واحد، وفيها زرع وجنات، ثم تتفاوت في الثمار فيكون البعض حلواً والبعض حامضاً، والبعض طيباً والبعض غير طيب، والبعض يصلح فيه نوع والبعض الآخر نوع آخر «وجنات من أعناب» الجنات: البساتين، قرأ الجمهور برفع جنات على تقدير: وفي الأرض جنات، فهو معطوف على قطع متجاورات، أو على تقدير: وبينها جنات. وقرأ الحسن بالنصب على تقدير: وجعل فيها جنات، ونكر سبحانه الزرع بين الأعناب والنخيل، لأنه يكون في الخارج كثيراً كذلك، ومثله في قوله سبحانه «جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زراعاً» [الكهف: 32]. «صنوان وغير صنوان»، قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحفص (وذرع ونخيل صنوان وغير صنوان) برفع هذه الأربعة عطفاً على جنات. وقرأ الباقر بالجر عطفاً على أعناب. وقرأ مجاهد والسلمي بضم الصاد من صنوان. وقرأ الباقر بالكسر، وهما لغتان. قال أبو عبيدة: صنوان: جمع صنو، وهو أن يكون الأصل واحداً، ثم

يتفرع فيصير نخيلاً، ثم يحمل، وهذا قول جميع أهل اللغة والتفسير. قال ابن الأعرابي: الصنو: المثل، ومنه قوله ﷺ: «دم الرجل صنو أبيه». فمعنى الآية على هذا: أن أشجار النخيل قد تكون متمائلة وقد لا تكون. قال في الكشف: والصنوان جمع صنو، وهي النخلة لها رأسان وأصلها واحد، وقيل: الصنوان المجتمع، وغير الصنوان المتفرق. النحاس: وهو كذلك في اللغة، يقال للنخلة إذا كانت فيها نخلة أخرى أو أكثر: صنوان، والصنو: المثل، ولا فرق بين التثنية والجمع إلا بكسر النون في المثنى، وبما يقتضيه الإعراب في الجمع. «يسقى بماء واحد»، قرأ عاصم وابن عامر: (يسقى) بالتحية أي: يسقى ذلك كله. وقرأ الباقر بالفوقية بإرجاع الضمير إلى جنات، واختاره أبو حاتم وأبو عبيد وأبو عمرو، قال أبو عمرو: للتأنيث أحسن لقوله: «ونفضل بعضها على بعض في الأكل» ولم يقل: بعض. وقرأ حمزة والكسائي (يفضل) بالتحية كما في قوله: «يبدر الأمر بفصل الآيات» [الرعد: 2] وقرأ الباقر بالنون على تقدير: ونحن نفضل.

وفي هذا من الدلالة على بيع صنعه وعظيم قدرته ما لا يخفى على من له عقل، فإن القطع المتجاورة والجنات المتلاصقة المشتملة على أنواع النبات مع كونها تسقى بماء واحد وتتفاضل في الثمرات في الأكل، فيكون طعم بعضها حلواً والآخر حامضاً، وهذا في غاية الجودة، وهذا ليس بجيد، وهذا فائق في حسنه، وهذا غير فائق مما يقطع من تفكر واعتبر ونظر نظر العقلاء أن السبب المقتضي لاختلافها ليس إلا قدرة الصانع الحكيم جلّ سلطانه وتعالى شأنه، لأن تأثير الاختلاف فيما يخرج منها ويحصل من ثمراتها لا يكون في نظر العقلاء إلا لسببين: إما اختلاف المكان الذي هو المنبت، أو اختلاف الماء الذي تسقى به، فإذا كان المكان متجاوراً، وقطع الأرض متلاصقة، والماء الذي تسقى به واحداً، لم يبق سبب للاختلاف في نظر العقل إلا تلك القدرة الباهرة والصنع العجيب، ولهذا قال الله سبحانه: «إن في ذلك آيات لقوم يعقلون» أي: يعملون على قضية العقل وما يوجب غير مهملين لما يقتضيه من التفكير في المخلوقات والاعتبار في العبر الموجودة.

وقد أخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله: «الفر» قال: أنا الله أرى. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن مجاهد «الفر» فواتح يفتح بها كلامه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه في قوله: «تلك آيات الكتاب» قال: التوراة والإنجيل «والذي أنزل إليك من ربك الحق» قال: القرآن. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن قتادة نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: «رفع السفوات بغير عمد ترونها» قال: وما يدريك لعلها بعد لا ترونها. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وأبو الشيخ عنه في الآية قال: يقول لها عمد ولكن لا ترونها يعني: الأعماد. وأخرج ابن جرير عن إيس بن معاوية في الآية قال: السماء مقببة على الأرض مثل القبة. وأخرج ابن أبي حاتم

سُورَةٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿١٣﴾ اللَّهُ يَتَكَلَّمُ مَا يَشَاءُ كُلُّ شَيْءٍ وَإِنَّا نَسُجُدُ
لِلْأَرْضِ وَمَا تَزِدُّهُ وَسُكُنٌ عَنْهُ بِمِقْدَارٍ ﴿١٤﴾ عَلَيْهِ الْقَتِيبُ
وَالشَّهَادَةُ الْعَكْبَرُ الشَّمَالُ ﴿١٥﴾ سَوَاءٌ يَسْكُرُ مِنْ أَمْرٍ أَوْ قَوْلٍ وَمَنْ جَهَرَ
بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِاللَّيْلِ وَسَاوِيَهُ وَالنَّهَارِ ﴿١٦﴾ لَمْ تُفْقِتْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ
وَمَنْ خَلْفَهُ بِحَفَظَةٍ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يَغْفِرُ مَا يَقُولُ حَتَّى يَنْفِرُوا مَا
يَأْتِيهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ يَقُولُ شَيْئًا فَلَا مَرَدَ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ أَلَى ﴿١٧﴾

قوله: ﴿وَإِن تَعْجَب فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ أي: إن تعجب يا محمد من تكذيبهم لك بعد ما كنت عندهم من الصادقين فاعجب منه تكذيبهم بالبعث، والله تعالى لا يجوز عليه التعجب، لانه تغير النفس بشيء تخفى أسبابه وإنما نكر ذلك ليعجب منه رسوله واتباعه. قال الزجاج: أي هذا موضوع عجب أيضاً أنهم أنكروا البعث، وقد بين لهم من خلق السموات والأرض ما يدل على أن البعث أسهل في القدرة، وقيل الآية في منكري الصانع أي: إن تعجب من إنكارهم للصانع مع الآلة الواضحة بأن المتغير لا بد له من مغير، فهو محل التعجب، والأول أولى لقوله: ﴿وَإِذَا كُنَّا تَرَابًا إِنَّمَا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وهذه الجملة في محل رفع على البلية من قولهم، ويجوز أن تكون في محل نصب على أنها مقول القول والعجب على الأول كلامهم، وعلى الثاني تكلمهم بذلك، والعامل في «إذا» ما يفيد قوله: ﴿لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وهو نيبث أو نعاد، والاستفهام منهم للإنكار المفيد لكمال الاستبعاد، وتقديم الظرف في قوله: ﴿لَفِي خَلْقٍ﴾ لتأكيد الإنكار بالبعث، وكذلك تكرير الهمزة في قوله: ﴿لَفِي خَلْقٍ﴾. ثم لما حكى الله سبحانه ذلك عنهم حكم عليهم بأمر ثلاثة: الأول ﴿لَوْلَاكَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبِّهِمْ﴾ أي: أولئك المنكرون لقدرته سبحانه على البعث هم المتماثلون في الكفر الكاملون فيه، والثاني ﴿وَأَوْلَاكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ الأغلال: جمع غل، وهو طوق تشد به اليد إلى العنق أي: يغلق بها يوم القيامة، وقيل: الأغلال أعمالهم السيئة التي هي لازمة لهم لزوم الأطواق للأعناق، والثالث ﴿وَأَوْلَاكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لا ينفكون عنها بحال من الأحوال، وفي توسيط ضمير الفصل دلالة على تخصيص الخلود بمنكري البعث ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ السيئة العقوبة المهلكة، والحسنة: العافية والسلامة، قالوا هذه المقالة لفرط إنكارهم وشدة تصميمهم وتهالكهم على الكفر، وقيل: معنى الآية أنهم طلبوا العقوبة قبل الحسنه، وهي الإيمان ﴿وَقَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ﴾. قرأ الجمهور (مثلات) بفتح الميم وضم المثلة جمع مثله كسمرة، وهي العقوبة. قال ابن الأنباري: المثلة العقوبة التي تبقى في المعاقب شيئا بتغيير بعض خلقه من قولهم: مثل فلان بفلان إذا شأن خلقه بقطع أنفه وسمل عينيه ويقر بطنه. وقرأ الأعمش بفتح الميم وإسكان المثلة تخفيفاً لثقل الضمة، وفي لغة تميم بضم الميم والمثلة جميعاً، واحتلتها على لغتهم: مثلة، بضم الميم وسكون المثلة

عن ابن عباس قال: السماء على أربعة أملاك كل زاوية موكل بها ملك. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ في قوله: ﴿لَأَجَلَ مَسْمُومٍ﴾ قال: الدنيا. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله: ﴿يَسِيرُ الْأَمْرُ﴾ قال: يقضيه وحده. وأخرج ابن أبي حاتم عن عبد الله بن عمرو قال: الدنيا مسيرة خمسمائة عام، أربعمائة خراب، ومائة عمران في أيدي المسلمين من تلك مسيرة سنة. وقد روي عن جماعة من السلف في تلك تقديرات لم يات عليها دليل يصح. وأخرج ابن جرير عن علي بن أبي طالب قال: لما خلق الله الأرض قصصت وقالت: أي رب تجعل علي بني آدم يعملون علي الخطايا ويعملون علي الخبث، فأرسل الله فيها من الجبال ما ترون وما لا ترون، فكان إقرارها كاللحم ترجرج. وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد في قوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا زَوْجِينَ لِنَافِثِينَ﴾ قال: نكراً وأنثى من كل صنف. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: ﴿يَغْشَى اللَّيْلُ لِلنَّهَارِ﴾ أي: يلبس الليل للنهار. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قَطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٍ﴾ قال: يريد الأرض الطيبة العذبة التي يخرج نباتها بإذن ربها تجاورها السبخة القبيحة المالحة التي لا تخرج، وهما أرض واحدة، وماؤها شيء واحد، ملح أو عذب، ففصلت إحداهما على الأخرى. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن قتادة في الآية قال: قرئ (متجاورات) قريب بعضها من بعض. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في الآية قال: الأرض تنبت حلواً، والأرض تبنت حامضاً، وهي متجاورات تسقى بماء واحد. وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مروي عن البراء بن عازب في قوله: ﴿صَنَوَانٌ وَغَيْرُ صَنَوَانٍ﴾ قال: الصنوان ما كان أصله واحداً وهو متفرق، وغير صنوان التي تنبت وحدها، وفي لفظ: صنوان النخلة في النخلة ملتصقة، وغير صنوان النخل المتفرق. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿صَنَوَانٌ﴾ قال: مجتمع النخل في أصل واحد ﴿وَغَيْرُ صَنَوَانٍ﴾ قال: النخل المتفرق. وأخرج الترمذي وحسنه والبزار، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، وابن مروي عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَنُفُضِلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ﴾ قال: للنخل والفارسي والحلو والحامض. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في الآية قال: هذا حامض، وهذا حلو، وهذا بقل، وهذا فارسي.

﴿وَإِنْ سَجَبَ فَسَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَوَدَا كُنَّا تَرَابًا لَنَا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أَوْلَاكَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبِّهِمْ وَأَوْلَاكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأَوْلَاكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿١٣﴾ تَسْتَبِيلُكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَقْبَرَةٍ لَنَأْتِيَنَّ عَنْ ظَهِيرِهِ وِرْدًا رَبُّكَ لَشَهِيدٌ أَلْوَقَابِ ﴿١٤﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ

جداً، وما موصولة أي: يعلم الذي تحمله كل أنثى في بطنها من علقه، أو مضغة، أو ذكر، أو أنثى، أو صبيح، أو قبيح، أو سعيد، أو شقي. ويجوز أن تكون استفهامية أي: يعلم أي شيء في بطنها، وعلى أي حال هو. ويجوز أن تكون مصدرية أي: يعلم حملها **﴿وما تغيض الأرحام وما تزداد﴾** الغيض النقص أي: يعلم الذي تغيضه الأرحام أي: تنقصه، ويعلم ما تزداده. فقيل: المراد نقص خلقه الحمل وزيادته كنقص أصعب أو زيادتها وقيل: إن المراد نقص مدة الحمل على تسعة أشهر، أو زيادتها، وقيل: إذا حاضت المرأة في حال حملها كان ذلك نقصاً في ولدها، وقيل الغيض: ما تنقصه الأرحام من الدم، والزيادة ما تزداده منه، و «ما» في ما تغيض وما تزداد تحتل الثلاثة الوجوه المتقدمة في ما تحمل كل أنثى **﴿وكل شيء عنده بمقدار﴾** أي: كل شيء من الأشياء التي من جملتها الأشياء المذكورة عند الله سبحانه بمقدار، والمقدار: القدر الذي قدره الله، وهو معنى قوله سبحانه: **﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾** [القمر: 49] أي: كل الأشياء عند الله سبحانه جارية على قدره الذي قد سبق وفرغ منه، لا يخرج عن ذلك شيء **﴿عالم الغيب والشهادة﴾** أي: عالم كل غائب عن الحس، وكل مشهود حاضر، أو كل معدوم وموجود ولا مانع من حمل الكلام على ما هو أعم من ذلك **﴿الكبير المتعال﴾** أي: العظيم الذي كل شيء بونه، المتعالى عما يقوله المشركون، أو المستعلي على كل شيء بقدرته وعظمته وقهره، ثم لما ذكر سبحانه أنه يعلم تلك المغيبات لا يفارده شيء منها، بين أنه عالم بما يسرّونه في أنفسهم وما يجهرون به لغيره، وأن ذلك لا يتفاوت عنده فقال: **﴿سواء منكم﴾** من أسرّ القول ومن جهر به **﴿فهو يعلم ما أسرّه الإنسان كعلمه بما جهر به من خير وشر. وقوله: منكم متعلق بسواء على معنى يستوي منكم من أسرّ ومن جهر، أو سرّ من أسرّ وجهر من جهر ﴿ومن هو مستخف بالليل﴾** أي: مستتر في الظلمة الكائنة في الليل متوار عن الأعين. يقال: خفي الشيء واستخفى أي: استتر وتوارى **﴿وسارب بالنهار﴾** قال الكسائي: سرب يسرب سرباً وسروباً إذا ذهب. ومنه قول الشاعر:

وكل أناس قاربوا قيد فحلهم ونحن خلعنا قيده فهو سارب أي: ذهب. وقال القتيبي: سارب بالنهار متصرف في حوائجه بسرعة، من قولهم: أسرب الماء. قال الأصمعي حل سربه أي: طريقته. وقال الزجاج: معنى الآية الجاهر بنطقه، والمضمّر في نفسه، والظاهر في الطرقات والمستخفي في الظلمات علم الله فيهم جميعاً سوى، وهذا الصق بمعنى الآية كما تفيده المقابلة بين المستخفي والسارب فالمستخفي المستتر، والسارب البارز الظاهر **﴿له معقبات﴾** الضمير في «له» راجع إلى من في قوله: من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف أي: لكل من هؤلاء معقبات. والمعقبات المتناوبات التي يخلف كل واحد منها صاحبه ويكون بدلاً

مثل غرفة وغرفات. وحكي عن الأعمش في رواية أخرى أنه قرأ هذا الحرف بضمها على لغة تميم. والمعنى: أن هؤلاء يستعجلونك بإنزال العقوبة بهم، وقد مضت من قبلهم عقوبات أمثالهم من المكذبين، فما لهم لا يعتبرون بهم ويحذرون من حلول ما حلّ بهم، والجملة في محل نصب على الحال، وهذا الاستعجال من هؤلاء هو على طريقة الاستهزاء كقولهم: **﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك﴾** [الأنفال: 32] الآية. **﴿وإن ربك ل ذو مغفرة﴾** أي: لنؤ تجاوز عظيم **﴿للناس على ظلمهم﴾** أنفسهم باقترافهم الذنوب ووقوعهم في المعاصي إن تابوا عن ذلك، ورجعوا إلى الله سبحانه، والجارّ والمجرور أي: على ظلمهم في محل نصب على الحال أي: حال كونهم ظالمين، وعلى بمعنى مع أي: مع ظلمهم وفي الآية بشارة عظيمة ورجاء كبير، لأن من المعلوم أن الإنسان حال اشتغاله بالظلم لا يكون تائباً، ولهذا قيل: إنها في عصاة الموحدين خاصة، وقيل: المراد بالمغفرة هنا تأخير العقاب إلى الآخرة ليطابق ما حكاه الله من استعجال الكفار للعقوبة. وكما تفيده الجملة المذكورة بعد هذه الآية، وهي **﴿وإن ربك لشديد العقاب﴾** يعاقب العصاة المكذبين من الكافرين عقاباً شديداً على ما تقتضيه مشيئته في الدار الآخرة **﴿ويقول للذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربهم﴾** أي: هلا أنزل عليه آية غير ما قد جاء به من الآيات، وهؤلاء الكفار القائلون هذه المقالة هم المستعجلون للعذاب. قال الزجاج: طلبوا غير الآيات التي أتى بها فالتمسوا مثل آيات موسى وعيسى، فقال الله تعالى: **﴿إنما أنت منذر﴾** تنذرهم بالنار، وليس إليك من الآيات شيء. انتهى. وهذا مكابرة من الكفار وعناد، وإلا فقد أنزل الله على رسوله من الآيات ما يغني البعض منه، وجاء في **﴿إنما أنت منذر﴾** بصيغة الحصر لبيان أنه **﴿مرسل إنذار العباد، وبيان ما يحذرون عاقبته، وليس عليه غير ذلك، وقد فعل ما هو عليه، وإنذر أبلغ إنذار، ولم يدع شيئاً مما يحصل به ذلك إلا أتى به وأوضحه وكرره، فجزاه الله عن أمته خيراً﴾** **﴿ولكل قوم هاد﴾** أي: نبي يدعوهم إلى ما فيه هدايتهم ورشادهم. وإن لم تقع الهداية لهم بالفعل ولم يقبلوها، وآيات الرسل مختلفة هذا يأتي بآية أو آيات لم يأت بها الآخر بحسب ما يعطيه الله منها، ومن طلب من بعضهم ما جاء به البعض الآخر فقد بلغ في التعتن إلى مكان عظيم، فليس المراد من الآيات إلا الدلالة على النبوة لكونها معجزة خارجة عن القدرة البشرية، وذلك لا يختص بفرد منها، ولا بأفراد معينة. وقيل: إن المعنى ولكل قوم هاد، وهو الله عز وجل فإنه القادر على ذلك، وليس على أنبيائه إلا مجرد الإنذار **﴿الله يعلم ما تحمل كل أنثى﴾** الجملة مستأنفة مسوقة لبيان إحاطته بالعلم سبحانه، وعلمه بالغيب الذي هذه الأمور المذكورة منه، قيل: ويجوز أن يكون الاسم الشريف خبراً لمبتدأ محذوف أي: ولكل قوم هاد وهو الله، وجملة **﴿يعلم ما تحمل كل أنثى﴾** تفسير لهاد على الوجه الأخير، وهذا بعيد

منه، وهم الحفظة من الملائكة في قول عامة المفسرين. قال الزجاج: المعقبات ملائكة يأتي بعضهم يعقب بعض، وإنما قال: معقبات مع كون الملائكة نكوراً لأن الجماعة من الملائكة يقال لها: معقبة، ثم جمع معقبة على معقبات: نكر معناه الفراء؛ وقيل: أنث لكثرة ذلك منهم نحو نسابة وعلامة. قال الجوهري: والتعقب العود بعد البدء. قال الله تعالى: ﴿وَلِي مَدِينًا وَلَمْ يَعْقِبْ﴾ [النمل: 10 - القصص: 31] وقرئ (معاقيب) جمع معقب ﴿مَنْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ﴾ أي: من بين يدي من له المعقبات. والمراد إن الحفظة من الملائكة من جميع جوانبه، وقيل المراد بالمعقبات الأعمال، ومعنى من بين يديه ومن خلفه: ما تقدم منها وما تأخر ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي: من أجل أمر الله، وقيل: يحفظونه من بأس الله إذا أذن بالاستمهال له والاستغفار حتى يتوب. قال الفراء: في هذا قولان: أحدهما أنه على التقديم والتأخير، تقديره: له معقبات من أمر الله يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، والثاني أن كون الحفظة يحفظونه هو مما أمر الله به. قال الزجاج: المعنى حفظهم إياه من أمر الله أي: مما أمرهم به لا أنهم يقدرُونَ أن يدفعوا أمر الله. قال ابن الأنباري: وفي هذا قول آخر، وهو أن «من» بمعنى الباء أي: يحفظونه بأمر الله؛ وقيل: إن من بمعنى عن أي: يحفظونه عن أمر الله بمعنى من عند الله. لا من عند أنفسهم، كقوله: ﴿أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ﴾ [قريش: 4] أي: عن جوع وقيل: يحفظونه من ملائكة العذاب؛ وقيل: يحفظونه من الجن. واختار ابن جرير أن المعقبات الموكب بين أيدي الأمراء، على معنى أن ذلك لا يدفع عنه القضاء ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْيِرُ مَا بَقِيَهُمْ﴾ من النعمة والعافية ﴿حَتَّى يَغْيِرُوا مَا بَانَفْسَهُمْ﴾ من طاعة الله. والمعنى: أنه لا يسلب قوماً نعمة أنعم بها عليهم حتى يغيروا الذي بانفسهم من الخير والأعمال الصالحة، أو يغيروا الفطرة التي فطرهم الله عليها. قيل: وليس المراد، أنه لا ينزل بأحد من عباده عقوبة حتى يتقدم له ذنب، بل قد تنزل المصائب بذنوب الغير كما في الحديث «أنه سأل رسول الله سائل فقال: أتهلك وفيها الصالحون؟ قال: نعم إذا كثرت الخبث». ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا﴾ أي: ملاًكاً وعذاباً ﴿فَلَا مَرَدَ لَهُ﴾ أي فلا رد له. وقيل: المعنى إذا أراد الله بقوم سوءاً أعمى قلوبهم حتى يختاروا ما فيه البلاء ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ يلي أمرهم ويلتجئون إليه، فيلحق عنهم ما ينزل بهم من الله سبحانه من العقاب، أو من ناصر ينصرهم ويمنعهم من عذاب الله. والمعنى: أنه لا راد لعذاب الله ولا ناقص لحكمه.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن الحسن في قوله: ﴿وَإِنْ تَعْجَبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ قال: إن تعجب يا محمد من تكذيبهم إياك فعجب قولهم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن زيد في الآية قال: إن تعجب يا محمد من تكذيبهم، وهم رأوا من قدرة الله وأمره، وما ضرب لهم من الأمثال وأراهم من حياة الموتى والأرض الميتة ﴿فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ إِذْ كُنَّا تَرَابًا إِنَّا لَنَفِي خَلْقٍ جَبِيدٍ﴾ أو لا

يرون أنه خلقهم من نطفة، فالخلق من نطفة أشد من الخلق من تراب وعظام. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وَقَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ﴾ قال: العقوبات. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة في المثلثات قال: وقائع الله في الأمم فيمن خلا قبلكم. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: المثلثات ما أصاب القرون الماضية من العذاب. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن سعيد بن المسيب قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَإِنْ رَبُّكَ لَتَنُصِّرَنَّ لِلنَّاسِ عَلَى ظَلَمِهِمْ﴾ قال رسول الله ﷺ: «لولا عفو الله وتجاوزته ما هنا لأحد العيش: ولولا وعيده وعقابه لاتكل، كل أحد». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ قال: داع. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ قال: المنذر محمد ﷺ ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ نبي يدعوهم إلى الله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة قال: محمد المنذر والهادي الله عز وجل. وأخرج ابن جرير، وابن مروي عن ابن عباس نحوه. وأخرج ابن جرير عن مجاهد نحوه أيضاً. وأخرج ابن مروي عن ابن عباس قال: رسول الله ﷺ هو المنذر وهو الهادي. وأخرج ابن جرير عن عكرمة وأبي الضحى نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن مروي، وأبو نعيم في المعرفة، والديلمي، وابن عساکر، وابن النجار عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾: «وضع رسول الله ﷺ يده على صدره فقال: أنا المنذر، وأوما بيده إلى منكب علي فقال: أنت الهادي يا علي بك يهتدي المهتدون من بعدي». قال ابن كثير في تفسيره: وهذا الحديث فيه نكرة شديدة. وأخرج ابن مروي عن أبي برزة الأسلمي قال: سمعت رسول الله ﷺ فذكر نحوه. وأخرج ابن مروي والضياء في المختارة عن ابن عباس مرفوعاً نحوه أيضاً. وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد المسند، وابن أبي حاتم، والطبراني في الأوسط، والحاكم وصححه، وابن مروي، وابن عساکر عن علي بن أبي طالب في الآية نحوه أيضاً. وأخرج ابن جرير، عن الضحاك ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى﴾ قال: كل أنثى من خلق الله. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن سعيد بن جبيرة في الآية قال: هي يعلم نكراً هو أو أنثى ﴿وَمَا تَغْيِضُ الْأَرْحَامَ﴾ قال: هي المرأة ترى الدم في حملها. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله: ﴿وَمَا تَغْيِضُ الْأَرْحَامَ﴾ قال: خروج الدم ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ قال: استمسكه. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿وَمَا تَغْيِضُ الْأَرْحَامَ﴾ قال: أن ترى الدم في حملها ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ قال: في التسعة أشهر، وأخرج ابن أبي حاتم عن طريق الضحاك عنه في الآية قال: ما تزداد على تسعة، وما

ملائكة يحفظونه من أن تقع عليه حائط، أو ينزوي في بئر، أو ياكله سبع أو غرق أو حرق، فإذا جاء القدر خلوا بينه وبين القدر، وقد ورد في نكر الحفظة الموكلين بالإنسان أحاديث كثيرة منكرة في كتب الحديث.

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَكَمَافًا وَيُنِزِّلُ الْغَمَامَ الْإِنْفَالُ
 ١٧ وَيَسْخِرُ الرُّعْدَ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَكَةَ مِنْ زَيْفِيَةٍ وَيُرْسِلُ الرِّسَالَاتِ
 فَيُعِيدُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَمَالِ ١٨ لَمْ
 يَخْلُقْ الْإِنْسَانَ وَالَّذِينَ يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبُتُّوا إِلَى اللَّهِ
 يَتَّبِعُ مَا هُوَ يُفْعِلُ وَمَا تَعْلَمُ الْكُفُوفُ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ١٩ وَكَفَى بِعَدُوِّكَ
 السَّعْيَ وَالْأَرْضُ مَوْجُوعًا وَزَكَاةً وَيَسْفُتُ ٢٠ وَالْأَصْنَافُ ٢١ قُلْ مَنْ رَبُّ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْءٌ وَلَا ضَرٌّ
 قُلْ هَلْ يَسْعَى الْاَفْعَى وَالْبَحِيرُ أَمْ هَلْ يَسْعَى الْاَفْعَى وَالْبَحِيرُ أَمْ هَلْ يَسْعَى الْاَفْعَى وَالْبَحِيرُ
 خَلَقُوا كَلَفِيهِ فَتَنَّهُ الْاَفْعَى عَلَيْهِمْ قُلْ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَحْدُ الْقَهْرُ ٢٢
 أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا
 يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلْوٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ بَثَلٍ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ
 وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ
 يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ٢٣ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْاَحْسَنُ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا
 لَهُمْ لَوْ أَنَّ لَهُمْ فَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَاقْتَدَرُوا بِوَيْهِ أُولَئِكَ هُمُ السَّوْءُ
 الْحَسَابُ وَمَا وَهُمْ بِحَمِيمٍ وَبِشْرٍ لِهَآذِ ٢٤

لما خُوف سبحانه عبادَه بإنزال ما لا مرد له أتبعه بأمور ترجى من بعض الوجوه ويخاف من بعضها، وهي البرق والسحاب والرعد والصاعقة، وقد مر في أول البقرة تفسير هذه الألفاظ وأسبابها.

وقد اختلف في وجه انتصاب «خَوْفًا وَطَمَعًا» فقيل: على المصدرية أي: لتخافوا ولتطمعوا طمعا، وقيل: على العلة بتقدير إرادة الخوف والطمع لثلا يختلف فاعل الفعل المعمل وفاعل المفعول له، أو على الحالية من البرق، أو من المخاطبين بتقدير نوي خوف، وقيل غير ذلك مما لا حاجة إليه. قيل: والمراد بالخوف هو الحاصل من الصواعق، وبالطمع هو الحاصل في المطر، وقال الزجاج: الخوف للمسافر لما يتأذى به من المطر، والطمع للحاضر، لأنه إذا رأى البرق طمع في المطر الذي هو سبب الخصب «وينشئ السحاب الثقال» التعريف للجنس والواحدة سحابة، والثقال جمع ثقيلة، والمراد أن الله سبحانه يجعل السحاب التي ينشئها ثقالا بما يجعله فيها من الماء «ويسبح الرعد بحمده» أي: يسبح الرعد نفسه بحمد الله أي: متلبسا بحمده، وليس هذا بمستبعد، ولا مانع من أن ينطقه الله بذلك «ولن من شيء إلا يسبح بحمده» [الإسراء: 44]. وأما على تفسير الرعد بملك من الملائكة فلا استبعاد في ذلك، ويكون نكره على الأفراد مع نكر الملائكة بعده لمزيد خصوصية له، وعناية به، وقيل: المراد ويسبح سامعوا

تنقص من التسعة. وأخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ عنه أيضاً في الآية «ما تغيض الأرحام» قال: السقط «وما تزداد» ما زادت في الحمل على ما غاضت حتى ولبته تماماً، وذلك أن من النساء من تحمل عشرة أشهر، ومنهن من تحمل تسعة أشهر، ومنهن من تنقص، فذلك الغيض والزيادة التي ذكر الله، وكل ذلك يعلمه تعالى. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: «علم الغيب والشهادة» قال: السر والعلانية. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في قوله: «ومن هو مستخف بالليل» قال: راكب رأسه في المعاصي «وسارب بالنهار» قال: ظاهر بالنهار بالمعاصي. وأخرج أبو عبيد، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ عن ابن عباس «وسارب بالنهار» قال: الظاهر. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه في الآية قال: هو صاحب ربيعة مستخف بالليل، وإذا خرج بالنهار أرى الناس أنه بريء من الإثم. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني في الكبير، وابن مروي، وأبو نعيم في الدلائل من طريق عطاء بن يسار عن ابن عباس: أن سبب نزول الآية قوم عامر بن الطفيل، وأريد بن قيس على رسول الله ﷺ في القصة المشهورة، وأنه لما أصيب عامر بن الطفيل بالغدة نزل قوله تعالى: «الله يعلم ما تحمل كل أنثى» إلى قوله: «معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله» قال: المعقبات من أمر الله يحفظون محمداً ﷺ، ثم نكر أريد بن قيس وما قتله، فقال: «هو الذي يريكم البرق» إلى قوله: «وهو شديد المحال» وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مروي عن ابن عباس في قوله: «معقبات» الآية قال: هذه للنبي ﷺ خاصة. وأخرج ابن أبي حاتم عنه «يحفظونه من أمر الله» قال: ذلك الحفظ من أمر الله بامر الله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً «من أمر الله» قال: بإنزال الله. وأخرج ابن جرير عن قتادة مثله. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في الآية قال: ولي السلطان يكون عليه الحراس يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، يقول: يحفظونه من أمري، فإنني إذا أردت بقوم سوءاً فلا مرد له. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عنه في الآية قال: الملوك يتخون الحرس يحفظونه من أمامه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله يحفظونه من القتل، ألم تسمع أن الله يقول: «إذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له» أي: إذا أراد سوءاً لم يغن الحرس عنه شيئاً. وأخرج ابن جرير عن عكرمة في الآية قال: هؤلاء الأمراء. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: هم الملائكة تعقب بالليل تكتب على ابن آدم. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في الآية قال: ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، فإذا جاء قدر الله خلوا عنه. وأخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ عن علي في الآية قال: ليس من عبد إلا ومعه

يبلغ فاه. ولهذا قال: ﴿وَمَا هُوَ﴾ أي: الماء ﴿بِالْغَةِ﴾ أي: يبلغ فيه. قال الزجاج: إلا كما يستجاب للذي يبسط كفيه إلى الماء يدعو الماء إلى فيه، والماء لا يستجيب، أعلم الله سبحانه أن دعاءهم الأصنام كدعاء العطشان إلى الماء يدعو إلى بلوغ فمه، وما الماء بالغه. وقيل: المعنى أنه كياسط كفيه إلى الماء ليقبض عليه فلا يحصل في كفه شيء منه. وقد ضربت العرب لمن سعى فيما لا يدره مثلاً بالقبض على الماء كما قال الشاعر:

فأصبحت معاً كأن بيني وبينها من الود مثل القابض الماء باليد
وقال الآخر:

ومن يامن الدنيا يكن مثل قبض على الماء خائنه فروج الأصابع
وقال الفراء: إن المراد بالماء هنا ماء البئر لأنها معدن للماء، وأنه شبهه بمن مد يده إلى البئر بغير رشاء، ضرب الله سبحانه هذا مثلاً لمن يدعو غيره من الأصنام ﴿وَمَا دَعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أي: يضل عنهم تلك الدعاء فلا يجنون منه شيئاً، ولا ينفعهم بوجه من الوجوه بل هو ضائع ذاهب ﴿وَلَوْ يَسْجُدُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكِرْهاً﴾ إن كان المراد بالسجود معناه الحقيقي، وهو وضع الجبهة على الأرض للتعظيم مع الخضوع والتذلل، فنلك ظاهر في المؤمنين والملائكة ومسلمي الجن؛ ولما في الكفار فلا يصح تأويل السجود بهذا في حقهم، فلا بد أن يحمل للسجود المذكور في الآية على معنى حق لله السجود ووجب حتى يتأول السجود بالفعل وغيره، أو يفسر للسجود بالانقياد. لأن الكفار وإن لم يسجدوا لله سبحانه فهم منقادون لأمره، وحكمه فيهم بالصحة والمرض والحياة والموت والفقر والغنى. ويندل على إرادة هذا المعنى قوله: ﴿طَوْعاً وَكِرْهاً﴾ فإن الكفار ينقادون كرهاً كما ينقاد المؤمنون طوعاً، وهما منتصبان على المصدورية أي: انقياد طوع وانقياد كره، أو على الحال أي: طائعين وكارهين، وقال الفراء: الآية خاصة بالمؤمنين فإنهم يسجدون طوعاً، وبعض الكفار يسجدون إكراهاً وخوفاً كالمنافقين، فالآية محمولة على هؤلاء؛ وقيل: الآية في المؤمنين، فمنهم من سجد طوعاً لا يثقل عليه السجود، ومنهم من يثقل عليه لأن التزام التكليف مشقة ولكنهم يتحملون المشقة إيماناً بالله وإخلاصاً له ﴿وَوَظَلَّاهُمْ بِالْغَوِّ وَالْأَصَالِ﴾ وظلالهم جمع ظل، والمراد به ظل الإنسان الذي يتبعه، جعل ساجداً بسجوده حيث صار لازماً له لا ينكف عنه. قال الزجاج: وابن الأنباري: ولا يبعد أن يخلق الله للضلال أفهاماً تسجد بها لله سبحانه كما جعل للجبال أفهاماً حتى اشتغلت بتسبيحه، فظل المؤمن يسجد لله طوعاً. وظل الكافر يسجد لله كرهاً وخص الغنى والأصالة بالذكر لأنه يزداد ظهور الظلال فيهما، وهما ظرف للسجود المقدر أي: ويسجد ظلهم في هذين الوقتين، وقد تقدم تفسير الغنى والأصالة في الأعراف، وفي معنى هذه الآية قوله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ضَلَالَةً عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّداً لَهُ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾

الرعد، أي يقولون: سبحان الله والحمد لله ﴿وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ أي: ويسبح الملائكة من خيفة الله سبحانه؛ وقيل: من خيفة الرعد. وقد نكر جماعة من المفسرين أن هؤلاء الملائكة هم أعوان الرعد. وإن الله سبحانه جعل له أعواناً ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ من خلقه فيهلكه، وسياق هذه الأمور هنا للغرض الذي سيقت له الآيات التي قبلها، وهي الدلالة على كمال قدرته ﴿وَهُمْ يَجَانِلُونَ فِي اللَّهِ﴾ الضمير راجع إلى الكفار المخاطبين في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ﴾ أي: وهؤلاء الكفرة مع هذه الآيات التي أراهم الله يجادلون في شأن الله سبحانه فينكرون البعث تارة ويستعجلون العذاب أخرى، ويكذبون الرسل ويعصون الله، وهذه الجملة في محل نصب على الحال، ويجوز أن تكون مستأنفة ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمَحَالِ﴾ قال ابن الأعرابي: المحال المكر، والمكر من الله: التبرير بالحق. وقال النحاس: المكر من الله إيصال المكره إلى من يستحقه من حيث لا يشعر. وقال الأزهري: المحال القوة والشدة، والميم أصلية، وما حلت فلاناً محالاً أينما أشد. وقال أبو عبيد: المحال العقوبة والمكره. قال الزجاج: يقال ما حلته محالاً: إذا قايته حتى يتبين أيكأ أشد، والمحل في اللغة: الشدة. وقال ابن قتيبة: أي شديد الكيد، وأصله من الحيلة جعل الميم كميم المكان، وأصله من الكون، ثم يقال: تمكنت. قال الأزهري: غلط ابن قتيبة أن الميم فيه زائدة بل هي أصلية. وإذا رأيت الحرف على مثال فعال أوله ميم مكسورة فهي أصلية مثل مهاد وملاك ومراسي وغير ذلك من الحروف. وقرأ الأعرج (وهو شديد المحال) بفتح الميم. وقد فسرنا هذه القراءة بالحول..

وللصحابة والتابعين في تفسير المحال هنا أقوال ثمانية: الأول العداوة، الثاني الحول، الثالث الأخذ، الرابع الحقد، الخامس القوة، السادس الغضب، السابع الهلاك، الثامن الحيلة ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ إضافة الدعوة إلى الحق للملاسة أي: الدعوة الملاسة للحق المختصة به التي لا مدخل للباطل فيها بوجه من الوجوه كما يقال: كلمة الحق؛ والمعنى أنها دعوة مجابة واقعة في موقعها، لا كدعوة من نونه. وقيل: الحق هو الله سبحانه، والمعنى: أن الله سبحانه دعوة المدعو الحق وهو الذي يسمع فيجيب، وقيل: المراد بدعوة الحق ها هنا كلمة التوحيد والإخلاص، والمعنى: الله من خلقه أن يوحده ويخلصوا له. وقيل: دعوة الحق دعاؤه سبحانه عند الخوف فإنه لا يدعى فيه سواه كما قال تعالى: ﴿ضَلَّ مِنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: 67]. وقيل: الدعوة العبادة، فإن عبادة الله هي الحق والصديق ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾ أي: والألوهة الذين يدعونهم يعني: الكفار من دون الله عز وجل لا يستجيبون لهم بشيء مما يطلبونه منهم كائناتاً ما كان إلا استجابة كاستجابة الماء لمن بسط كفيه إليه من بعيد فإنه لا يجيبه، لأنه جماد لا يشعر بحاجته إليه، ولا يدري أنه طلب منه أن

جعلوا له شركاء الأصنام ونحوها، وهي بمعزل عن أن تكون كذلك، ثم أمره الله سبحانه بأن يوضح لهم الحق ويرشداهم إلى الصواب فقال: ﴿قُلْ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ كائنًا ما كان ليس لغيره في تلك مشاركة بوجه من الوجوه. قال الزجاج: والمعنى أنه خالق كل شيء مما يصح أن يكون مخلوقاً، ألا ترى أنه تعالى شيء وهو غير مخلوق ﴿وَهُوَ الْوَاحِدُ﴾ أي: المتفرد بالربوبية ﴿الْقَهَّارُ﴾ لما عداه، فكل ما عداه مريبوب مقهور مغلوب، ثم ضرب سبحانه مثلاً آخر للحق وذويه، وللباطل ومنتحليه فقال: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي: من جهتها، والتذكير للتكثير أو للتنوع ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ﴾ جمع وادٍ، وهو كل منفرج بين جبلين أو نحوهما. قال أبو علي الفارسي: لا نعلم فاعلاً جمع على أفعلة إلا هذا، وكأنه حمل على فاعيل فجمع على أفعلة مثل جريب وأجربة. كما أن فاعلاً حمل على فاعل، فجمع على أفعال مثل يتيم وأيتام وشريف وأشرف، كأصحاب وإنصار في صاحب وناصر. قال: وفي قوله: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ﴾ توسع أي: سال ماؤها، قال: ومعنى ﴿بِقُدْرِهَا﴾ بقدر مائها، لأن الأودية ما سالت بقدر أنفسها. قال الواحدي: والقدر مبلغ الشيء، والمعنى: بقدرها من الماء، فإن صغر الوادي قل الماء وإن اتسع كثر، وقال في الكشاف: بقدرها بمقدارها التي يعرف الله أنه نافع للممطور عليهم غير ضار. قال ابن الأنباري: شبه نزول القرآن الجامع للهدى والبيان بنزول المطر، إذ نفع نزول القرآن يعم كعموم نفع نزول المطر، وشبه الأودية بالقلوب: إذ الأودية يستكن فيها الماء كما يستكن القرآن والإيمان في قلوب المؤمنين ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا﴾ الزبد: هو الأبيض المرتفع المنتفخ على وجه السيل، ويقال له: الغشاء والرغوة، والرابي: العالي المرتفع فوق الماء. قال الزجاج: هو الطافي فوق الماء، وقال غيره: هو الزائد بسبب انتفاخه، من ربا يربو إذا زاد. والمراد من هذا تشبيه الكفر بالزبد الذي يعلو الماء، فإنه يضحل ويلحق بجنبات الوادي وتدفعه الرياح. فكنك يذهب الكفر ويضحل. وقد تم المثل الأول، ثم شرح سبحانه في نكر المثل الثاني فقال: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ﴾ من لا ابتداء الغاية أي: ومنه ينشأ زبد مثل زبد الماء، أو للتبويض بمعنى: وبعضه زبد مثله، والضمير للناس، أضمر مع عدم سبق الذكر لظهوره. هذا على قراءة (يوقدون) بالتحية، وبها قرأ حميد وابن محيصن، والأعمش، وحمزة، والكسائي، وحفص. وقرأ الباقون بالفوقية على الخطاب، واختار القراءة الأولى أبو عبيد، والمعنى: ومما توقدون عليه في النار فينوب من الأجسام المنطرفة الذائبة ﴿إِبْتِغَاءَ حِلْيَةٍ﴾ أي: لطلب اتخاذ حلية تتزينون بها وتتجملون كالذهب والفضة ﴿أَوْ مَتَاعٍ﴾ أي: أو طلب متاع تتمتعون به من الأواني والآلات المتخذة من الحديد والصفير والنحاس والرصاص ﴿زَبَدٌ مِثْلَهُ﴾ المراد بالزبد هنا الخبث، فإنه يعلو فوق ما أذيب من تلك الأجسام كما يعلو الزبد على الماء فالضمير في مثله يعود

[النحل: 48] وجاء بمن في من في السموات والأرض تغليياً للعقلاء على غيرهم، ولكن سجد غيرهم تبعاً لسجودهم. ومما يؤيد حمل السجود على الانقياد ما يفيد تقديمه على الفعل من الاختصاص، فإن سجد الكفار لأصنامهم معلوم، ولا يتقانون لهم كانقيادهم لله في الأمور التي يقرّون على أنفسهم بأنهم من الله كالخلق والحياة والموت ونحو ذلك ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أمر الله سبحانه رسوله أن يسأل الكفار من رب السموات والأرض؟ ثم لما كانوا يقرّون بذلك ويعترفون به كما حكاها الله سبحانه في قوله: ﴿لَنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: 9] وقوله: ﴿وَلَنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: 87] أمر رسوله ﷺ أن يجيب، فقال: ﴿قُلْ اللَّهُ﴾ فكانه حكى جوابهم وما يعتقونه، لأنهم ربما تلعموا في الجواب حذراً مما يلزمهم، ثم أمره بأن يلزمهم الحجة ويثبتهم فقال: ﴿قُلْ افْتَحْتُمْ مِنْ دُونِهِ أُولِيَاءَ﴾ والاستفهام للإنكار أي: إذا كان رب السموات والأرض هو الله كما تقرّون بذلك وتعترفون به كما حكاها سبحانه عنكم بقوله: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ سيقولون ﷻ [المؤمنون: 86 - 87] فما بالكم اتخذتم لأنفسكم من دونه أولياء عاجزين ﴿لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ نَفْعًا﴾ ينفعونها به ﴿وَلَا ضَرًّا﴾ يضرّون به غيرهم أو ينفعونه عن أنفسهم، فكيف ترجون منهم النفع والضرر وهم لا يملكونها لأنفسهم والجملة في محل نصب على الحال، ثم ضرب الله سبحانه لهم مثلاً وأمر رسوله ﷺ أن يقول لهم، فقال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ أي: هل يستوي الأعمى في دينه وهو الكافر، والبصير فيه وهو الموحد، فإن الأول جاهل لما يجب عليه وما يلزمه، والثاني عالم بذلك. قرأ ابن محيصن، وأبو بكر، والأعمش، وحمزة، والكسائي (أم هل يستوي الظلمات والنور) بالتحية، وقرأ الباقون بالفوقية، واختار القراءة الثانية أبو عبيد، والمراد بالظلمات الكفر، وبالنور الإيمان، والاستفهام للتقريع والتوبيخ أي: كيف يكونان مستويين وبينهما من التفاوت ما بين الأعمى والبصير، وما بين الظلمات والنور، ووجد النور وجمع الظلمة، لأن طريق الحق واحدة لا تختلف، وطرائق الباطل كثيرة غير محصورة ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ﴾ أم هي المنقطعة التي بمعنى بل والهزة أي: بل أجعلوا لله شركاء خلقوا كخلق، والاستفهام لإنكار الوقوع. قال ابن الأنباري: معناه أجعلوا لله شركاء خلقوا مثل ما خلق الله فتشابه خلق الشركاء بخلق الله عندهم أي: ليس الأمر على هذا حتى يشبه الأمر عليهم، بل إذا فكروا بعقولهم وجدوا الله هو المنفرد بالخلق، وسائر الشركاء لا يخلقون شيئاً، وجملة: ﴿خَلَقُوا كَخَلْقِهِ﴾ في محل نصب صفة لشركاء، والمعنى: أنهم لم يجعلوا لله شركاء متصفين بأنهم خلقوا كخلقهم ﴿فَتَشَابَهَ﴾ بهذا السبب ﴿الخلق عليهم﴾ حتى يستحقوا بذلك العبادة منهم، بل إنما

الشرطية، وهي ﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من أصناف الأموال التي يملكها العباد ويجمعونها بحيث لا يخرج عن ملكهم منها شيء ﴿وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾ أي: مثل ما في الأرض جميعاً كأننا معه ومنضمماً إليه ﴿لَا تَقْتَنُوا بِهِ﴾ أي: بمجموع ما نذكر وهو ما في الأرض ومثله، والمعنى: ليخلصوا به مما هم فيه من العذاب الكبير والهول العظيم، ثم بين الله سبحانه ما أعدّه لهم فقال: ﴿وَأُولَئِكَ﴾ يعني: الذين لم يستجيبوا ﴿لَهُمْ سُوءُ الْحَسَابِ﴾ قال الزجاج: لأن كفرهم أحبط أعمالهم، وقال غيره: سوء الحساب المناقشة فيه؛ وقيل: هو أن يحاسب الرجل بنذبه كله لا يغفر منه شيء ﴿وَمَا وَاهُمْ جَهَنَّمَ﴾ أي: مرجعهم إليها ﴿وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ أي: المستقر الذي يستقرون فيه. والمخصوص بالذم محنوف.

وقد أخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي يَرِيكُم الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ قال: خوفاً للمسافر يخاف أذاه ومشتقته وطمعاً للمقيم يطمع في رزق الله ويرجو بركة المطر ومنفعته، وأخرج أبو الشيخ عن الحسن قال: خوفاً لأهل البحر وطمعاً لأهل البر. وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك قال: الخوف ما يخاف من الصواعق والطمع: الغيث. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والخرائطي في مكارم الأخلاق، والبيهقي في سننه من طرق عن علي بن أبي طالب قال: البرق مخاريق من نار بأيدي ملائكة السحاب يزجرون به السحاب. وروي عن جماعة من السلف ما يوافق هذا ويخالفه، ولعلنا قد قدمنا في سورة البقرة شيئاً من ذلك. وأخرج أحمد عن شيخ من بني غفار قد صحب رسول الله ﷺ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله ينشئ السحاب فتنتطق أحسن النطق وتضحك أحسن الضحكة». قيل: والمراد بنطقها الرعد، وبضحكها البرق. وقد ثبت عند أحمد، والترمذي، والنسائي في اليوم والليلة، والحاكم في مستدركه من حديث ابن عمر قال: كان رسول الله ﷺ إذا سمع الرعد والصواعق قال: «اللهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك». وأخرج العقيلي وضعفه، وابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ينشئ الله السحاب ثم ينزل فيه الماء، فلا شيء أحسن من ضحكك، ولا شيء أحسن من نطقه، ومنطقه الرعد وضحكك البرق». وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله: «أن خزيمه بن ثابت، وليس بالأنصاري، سأل رسول الله ﷺ عن منشأ السحاب فقال: إن ملكاً موكلًا يلتم القاصية ويلحم الدانية في يده مخراق، فإذا رفع برقت وإذا زجر رعت، وإذا ضرب صعقت». وأخرج أحمد، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة، وابن مردويه، وأبو نعيم في الدلائل والضيء في المختارة عن ابن عباس قال: «أقبلت يهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم إنا نسألك عن خمسة

إلى زبداً رابياً، وارتفاع زبد على الابتداء وخبره مما يوقنون ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ أي: مثل ذلك الضرب البديع يضرب الله مثل الحق ومثل الباطل، ثم شرع في تقسيم المثل فقال: ﴿فَإِذَا الْزَبَدُ فِئْذِهِمْ جَفَاءً﴾ يقال: جفا الوادي بالهمز جفأ: إذا رمى بالغدر والزبد. قال الفراء: الجفاء الرمي. يقال: جفا الوادي غشاء جفأ: إذا رمى به، والجفاء بمنزلة الغشاء. وكذا قال أبو عمرو بن العلاء، وحكى أبو عبيدة أنه سمع روبة يقرأ جفلاً. قال أبو عبيدة: يقال: أجفلت القدر إذا قذفت بزبدتها. وأجفلت الريح السحاب إذا قطعت، قال أبو حاتم: لا يقرأ بقراءة روبة، لأنه كان ياكل الفأر. وأعلم أن وجه المماثلة بين الزبد في الزبد الذي يحمله السيل والزبد الذي يعلو الأجسام المنطوقة، أن تراب الأرض لما خالط الماء وحمله معه صار زبداً رابياً فوقه. وكذلك ما يوقد عليه في النار حتى ينوب من الأجسام المنطوقة، فإن أصله من المعادن التي تنبت في الأرض فيخالطها التراب، فإذا انبثت صار ذلك التراب الذي خالطها خبثاً مرتفعاً فوقها ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ منهما وهو الماء الصافي، والذائب الخالص من الخبث ﴿فَيَمِكْتُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: يثبث فيها. أما الماء فإنه يسلك في عروق الأرض فتنتفع الناس به، وأما ما أنيب من تلك الأجسام فإنه يصاغ حلية وأمتعة. وهذان مثلاًن ضربهما الله سبحانه للحق والباطل. يقول: إن الباطل وإن ظهر على الحق في بعض الأحوال وعلاه، فإن الله سبحانه سيمحقه ويبطله ويجعل العقوبة للحق وأهله كالزبد الذي يعلو الماء فيلقيه الماء ويضمحل وكخبث هذه الأجسام فإنه وإن علا عليها فإن الكبر يقنقه ويبيعه، فهذا مثل الباطل؛ وأما الماء الذي ينفع الناس وينبت المراعي فيمكث في الأرض، كذلك الصفو من هذه الأجسام فإنه يبقى خالصاً لا شوب فيه، وهو مثل الحق. قال الزجاج: فمثل المؤمن واعتقاده ونفع الإيمان كمثل هذا الماء المنتفع به في نبات الأرض وحياة كل شيء، وكمثل نفع الفضة والذهب وسائر الجواهر لأنها كلها تبقى منتفعاً بها، ومثل الكافر وكفره كمثل الزبد الذي يذهب جفاء، وكمثل خبث الحديد وما تخرجه النار من وسخ الفضة والذهب الذي لا ينتفع به. وقد حكينا عن ابن الأنباري فيما تقدم أنه شبه نزول القرآن إلى آخر ما ذكرناه فجعل ذلك مثلاً لضربه الله للقرآن ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ أي: مثل ذلك الضرب العجيب يضرب الله الأمثال في كل باب لكمال العناية بعباده واللفظ بهم، وهذا تأكيد لقوله: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾، ثم بين سبحانه من ضرب له مثل الحق ومثل الباطل من عباده، فقال: فيمن ضرب له مثل الحق ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أي: أجابوا لدعوتهم إذ دعاهم إلى توحيدهم وتصديق أنبيائهم والعمل بشرائعه، والحسنى صفة موصوف محنوف، أي: المثوبة الحسنى وهي الجنة، وقال سبحانه فيمن ضرب له مثل الباطل ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا﴾ لدعوتهم إلى ما دعاهم إليه، والموصول مبتدأ وخبره الجملة

وأبن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عنه أيضاً في قوله: **﴿انزل من السماء ماء﴾** الآية قال: هذا مثل ضربه الله احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكها، فاما الشك فلا ينفع معه العمل، وأما اليقين فينفع الله به أهله، وهو قوله: **﴿فاما الزبد فيذهب جفاء﴾** وهو الشك **﴿واما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض﴾** وهو اليقين، وكما يجعل الحلي في النار فيؤخذ خالصه ويترك خبثه، فكذا يقبل الله اليقين ويترك الشك. وأخرج هؤلاء عنه أيضاً: **﴿فسالت أوبى بقدرها﴾** قال: الصغير قدر صغره، والكبير قدر كبره.

﴿أَنْ سَمِعَ أَنَّهُ أَرَى إِلَهَكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقَّ كَنْ هُوَ أَحْسَنُ إِنَّمَا يَذْكُرُ أَوْلَا الْأَنْبِيَاءِ ١٨﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِهَدْيِ اللَّهِ وَلَا يَتَّبِعُونَ الْيَتَقَى ١٩ وَالَّذِينَ يَسْمَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَتَّبِعُونَ رِيسَهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ٢٠ وَالَّذِينَ صَبَرُوا أَبَیَّةً وَمِمَّا كَفَرُوا فَتَوَلَّوْا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ رَبًّا وَكَلَّيْنَا وَيَذَرُونَ ٢١ يَلْمِزُوا السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ كَمْ عُمَى الدَّارِ ٢٢ جَنَّ عَنْهُ يَتْلُونَ مِنَ صَلَاحٍ مِنْ مَكِّيَّةٍ وَأَنْدَجِمَهُمْ وَزَيَّنَتْهُمُ الْأَلْطَفُ بِدَعْوَانِهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ٢٣ سَلَّمَ عَلَيْهِمْ بِمَا صَبَرُوا فَمِمَّا عُمَى الدَّارِ ٢٤ وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَدُوٍّ يَتَّبِعُونَ وَيَقُولُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَتَّبِعُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ كَمْ السَّيِّئَةُ وَمِمَّا كَفَرُوا ٢٥

الهمزة في قوله: **﴿فمن يعلم﴾** للإنكار على من يتوهم المماثلة بين من يعلم أنما أنزله الله سبحانه إلى رسوله ﷺ من الحق الذي لا شك فيه ولا شبهة، وهو القرآن، وبين من هو أعمى لا يعلم ذلك، فإن الحال بينهما متباعد جداً كالمتباعد الذي بين الماء والزبد، وبين الخبث والخالص من تلك الأجسام، ثم بين سبحانه أنه إنما يقف على تفاوت المنزلتين، وتباين الرتبتين أهل العقول الصحيحة، فقال: **﴿إنما يتذكر أولوا الألباب﴾** ثم وصفهم بهذه الأوصاف المانحة، فقال: **﴿الذين يوفون بعهد الله﴾** أي: بما عقده من العهود فيما بينهم وبين ربهم، أو فيما بينهم وبين العباد **﴿ولا ينقضون الميثاق﴾** الذي وثقوه على أنفسهم، وأكثروه بالإيمان ونحوها، وهذا تعميم بعد التخصص، لأنه يدخل تحت الميثاق كل ما أوجب العبد على نفسه كالنذور ونحوها، ويحتمل أن يكون الأمر بالعكس فيكون من التخصص بعد التعميم على أن يراى بالعهد جميع عهود الله، وهي أوامره ونواهيه التي وصى بها عبده، ويدخل في ذلك الالتزامات التي يلزم بها العبد نفسه، ويراد بالميثاق ما أخذه الله على عباده حين أخرجهم من صلب آدم في عالم النذر المنكور في قوله سبحانه: **﴿وإذا أخذ ربك من بني آدم﴾** [الأعراف: 172] الآية: **﴿والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل﴾** ظاهره شمول كل ما أمر الله بصلته، ونهى عن قطعه من حقوق الله وحقوق عباده، ويدخل تحت تلك صلة الأرحام دخولاً أولياً، وقد قصره كثير من المفسرين على صلة الرحم، ولللفظ أوسع من ذلك **﴿ويخشون ربهم﴾** خشية تحملهم على فعل ما وجب، واجتناب ما لا يحل **﴿ويخافون سوء الحساب﴾**

أشياء، فإن أنبأتنا بهن عرفنا أنك نبي واتبعناك، فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بنيهِ إذ قال: الله على ما نقول وكيل، قال هاتوا، قالوا: أخبرنا عن علامة النبي؟ قال: تنام عيناه ولا ينام قلبه، قالوا: أخبرنا كيف تؤثث المرأة وكيف تنكح؟ قال: يلتقي الماءان، فإذا علا ماء الرجل ماء المرأة أنكرت، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل أنثت؛ قالوا: أخبرنا عما حرم إسرائيل على نفسه؟ قال: كان يشككي عرق النساء، فلم يجد شيئاً يلائمه إلا البان كذا وكذا: يعني: الإبل، فحرم لحومها قالوا: صلت، قالوا: أخبرنا ما هذا الرعد؟ قال: ملك من ملائكة الله موكل بالسحاب بيده مخراق من نار يزجر به السحاب يسوقه حيث أمره الله، قالوا: فما هذا الصوت الذي نسمع؟ قال: صوته، قالوا: صلت إنما بقيت واحدة، وهي التي نتابعك إن أخبرتنا، إنه ليس من نبي إلا له ملك ياتيه بالخبر، فأخبرنا من صاحبك؟ قال: جبريل، قالوا: جبريل ذلك ينزل بالخراب والقتال والعذاب عوداً، لو قلت ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والنبات والقطر لكان، فأنزل الله: **﴿قل من كان عدواً لجبريل﴾** [البقرة: 97] إلى آخر الآية. وأخرج البخاري في الأناب المفرد وابن أبي الدنيا في المطر، وابن جرير عن ابن عباس أنه كان إذا سمع صوت الرعد قال: سبحان الذي سبحت له، وقال: إن الرعد ملك ينطق بالغيث كما ينطق الراعي بغنمه. وقد روي نحو هذا عنه من طرق. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة أن الرعد صوت الملك، وكذا أخرج نحوه أبو الشيخ عن ابن عمر. وأخرج ابن المنذر، وابن مروي عن ابن عباس قال: الرعد ملك اسمه الرعد، وصوته هذا تسبيحه، فإذا اشتد زجره احتك السحاب واضطرم من خوفه فتخرج الصواعق من بينه، وأخرج ابن أبي حاتم، والخرائطي، وأبو الشيخ في العظمة عن أبي عمران الجوني قال: إن بحوراً من نار دون العرش يكون منها الصواعق. وأخرج أبو الشيخ عن السدي قال: الصواعق نار. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس **﴿وهو شديد للمحال﴾** قال: شديد القوة. وأخرج ابن جرير عن علي قال: شديد الأخذ. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عنه في قوله: **﴿له دعوة الحق﴾** قال: التوحيد: لا إله إلا الله. وأخرج عبد الرزاق، والغرياني، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي في الأسماء والصفات من طرق عن ابن عباس في قوله **﴿دعوة الحق﴾** قال: شهادة أن لا إله إلا الله. وأخرج ابن جرير عن علي في قوله: **﴿إلا كباسط كفيه إلى السماء ليبلغ فاه وما هو ببالغ﴾** قال: كان الرجل العطشان يمد يده إلى البئر ليرتفع الماء إليه وما هو ببالغ. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس في الآية قال: هذا مثل المشرك الذي عبد مع الله غيره، فمثله كمثل الرجل العطشان الذي ينظر إلى خياله في الماء من بعيد وهو يريد أن يتناول ولا يقدر عليه. وأخرج أبو الشيخ عنه في قوله: **﴿هل يستوي الأعمى والبصير﴾** قال: المؤمن والكافر. وأخرج ابن جرير،

الدار جاء سبحانه بهذه الجملة المتضمنة لمدح ما أعطاهم من عقبى الدار المتقّم نكرها للتغريب والتشويق، ثم اتبع أحوال السعداء بأحوال الأشقياء، فقال: **«وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ»** وقد مرّ تفسير عدم النقض وعدم القطع فعرف منهما تفسير النقض والقطع، ولم يتعرض لنفي الخشية والخوف عنهم وما بعدهما من الأوصاف المتقدّمة ليلخولها في النقض والقطع **«وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ»** بالكفر وارتكاب المعاصي والأضرار بالأنفس والأموال **«أُولَئِكَ»** الموصوفون بهذه الصفات الذميمة **«لَهُمْ»** بسبب ذلك **«اللعنة»**: أي: الطرد والإبعاد من رحمة الله سبحانه **«وَلَهُمْ سُوءُ الدَارِ»** أي: سوء عاقبة دار الدنيا، وهي النار أو عذاب النار.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله تعالى: **«فَمَنْ يَعْلَمْ لِمَا أُتْرِلَ إِلَيْكَ مِنْ رِبِكِ الْحَقِّ»** قال: هؤلاء قوم انتفعوا بما سمعوا من كتاب الله وعقلوه ووعوه **«كَمَنْ هُوَ أَعْمَى»** قال: عن الحق فلا يبصره ولا يعقله **«إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ»** فبين من هم، فقال: **«الَّذِينَ يُوَفُّونَ بِعَهْدِ اللَّهِ»**. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبّير **«أُولُوا الْأَلْبَابِ»** قال: من كان له لبّ أي: عقل. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة أن الله نكر الوفاء بالعهد والميثاق في بضع وعشرين آية من القرآن. وأخرج الخطيب، وابن عساكر عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: **«إِنَّ الْبِرَّ وَالصَّلَاةَ لِيُخَفِّفَانِ سُوءَ الْحِسَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»** ثم تلا رسول الله ﷺ: **«وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ»**. وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن جبّير في قوله: **«وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ»** يعني: من إيمان بالبينين وبالكاتب كلها **«وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ»** يعني: يخافون من قطيعة ما أمر الله به أن يوصل **«وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ»** يعني: شدة الحساب.

وقد ورد في صلة الرحم وتحريم قطعها لحديث كثيرة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، أبو الشيخ عن الضحاك **«وَيُؤْمِنُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ»** قال: يدفعون بالحسنة السيئة. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وابن أبي شيبة، وهناد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وأبو الشيخ عن ابن مسعود في قوله: **«جَنَّاتُ عَدْنٍ»** قال: بطنان الجنة، يعني: وسطها. وأخرج عبد بن حميد عن الحسن أن عمر قال لعقب: ما عدن؟ قال: هو قصر في الجنة لا يدخله إلا نبي أو صديق أو شهيد أو حكم عدل. وأخرج ابن مرويّه عن عليّ قال: قال رسول الله ﷺ: **«جَنَّةٌ عَدْنٌ قُضِيَ غَرَسُهُ اللَّهُ بِيَدِهِ»** ثم قال له: كن فكان. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد **«وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ»** قال: من آمن في الدنيا. وأخرج

وهو الاستقصاء فيه والمناقشة للعبد، فمن نوقش الحساب عذب، ومن حق هذه الخيفة أن يحاسبوا أنفسهم قبل أن يحاسبوا **«وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجهِ رَبِّهِمْ»** قيل: هو كلام مستأنف، وقيل: معطوف على ما قبله، والتعبير عنه بلفظ المضى للتنبيه على أنه ينبغي تحقيقه، والمراد بالصبر الصبر على الإتيان بما أمر الله به، واجتناب ما نهى عنه؛ وقيل: على الرزايا والمصائب، ومعنى كون ذلك الصبر لابتغاء وجه الله: أن يكون خالصاً له، لا شائبة فيه لغيره **«وَوَقَامُوا الصَّلَاةَ»** أي: فعلوها في أوقاتها على ما شرعه الله سبحانه في أنكارها وأركانها مع الخشوع والإخلاص، والمراد بها الصلوات المفروضة، وقيل أعم من ذلك **«وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ»** أي: أنفقوا بعض ما رزقناهم، والمراد بالسّر: صدقة النفل، والعلانية: صدقة الفرض؛ وقيل: السّر لمن لم يعرف بالمال، أو لا يتهم بترك الزكاة، والعلانية لمن كان يعرف بالمال أو يتهم بترك الزكاة **«وَيُؤْمِنُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ»** أي: يدفعون سيئة من أساء إليهم بالإحسان إليه كما في قوله تعالى: **«إِنْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ»** [المؤمنون: 96 - فصلت: 34]، أو يدفعون بالعمل الصالح العمل السيء، أو يدفعون الشرّ بالخير، أو المنكر بالمعروف، أو الظلم بالعفو، أو الذنب بالتوبة، ولا مانع من حمل الآية على جميع هذه الأمور، والإشارة بقوله: **«أُولَئِكَ»** إلى الموصوفين بالصفات المتقدّمة **«لَهُمْ عَقَبَى الدَّارِ»** عقبى مصدر كالعاقبة؛ والمراد بالدار الدنيا، وعقبها الجنة؛ وقيل: المراد بالدار الدار الآخرة، وعقبها الجنة للمطيعين، والنار للعصاة **«جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا»** بدل من عقبى الدار أي: لهم جنات عدن، ويجوز أن يكون مبتدأ، وخبره يدخلونها، والعن أصله الإقامة، ثم صار علماً لجنة من الجنان. قال القشيري: وجنات عدن: وسط الجنة وقصبتها وسقفها عرش الرحمن، ولكن في صحيح البخاري وغيره: «إذا سألتهم الله فاسأله الفريوس فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة». **«وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ»** يشمل الآباء والأمهات **«وَأَزْوَاجَهُمْ وَزُرِّيَّاتِهِمْ»** معطوف على الضمير في يدخلون، وجاز ذلك للفصل بين المعطوف والمعطوف عليه أي: ويدخلها أزواجهم وزرّيّاتهم، ونكر الصلاح دليل على أنه لا يدخل الجنة إلا من كان كذلك من قرابات أولئك، ولا ينفع مجرد كونه من الآباء أو الأزواج أو الزرية بدون صلاح **«وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ»** أي: من جميع أبواب المنازل التي يسكنونها، أو المراد من كل باب من أبواب التحف والهدايا من الله سبحانه **«سَلَامٌ عَلَيْكُمْ»** أي: قائلين سلام عليكم أي: سلمتم من الآفات أو دامت لكم السلامة **«بِمَا صَبَرْتُمْ»** أي بسبب صبركم وهو متعلق بالسلام أي: إنما حصلت لكم هذه السلامة بواسطة صبركم أو متعلق بعليكم، أو يحذوف أي: هذه الكرامة بسبب صبركم أو بدل ما احتملت من مشاقّ الصبر **«فَنَعَمْ عَقَبَى**

الآية تقديم وتأخير، والتقدير: الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض وفرحوا بالحياة الدنيا، فيكون وفرحوا معطوفاً على يفسدون **﴿وَمَا لِلْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾** أي: ما هي إلا شيء يستمتع به، وقيل: المتاع واحد الامتعة كالقصعة والسكرجة ونحوهما، وقيل: المعنى شيء قليل ذاهب، من متع النهار: إذا ارتفع فلا بد له من زوال، وقيل: زاد كزاد الراكب يتزود به منها إلى الآخرة **﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾** أي يقول: أولئك المشركون من أهل مكة هلا أنزل على محمد آية من ربه؟ وقد تقدم تفسير هذا قريباً، وتكرر في مواضع **﴿قُلْ إِنْ اللَّهُ يُضِلَّ مَنْ يَشَاءُ﴾** أمره الله سبحانه أن يجيب عليهم بهذا، وهو أن الضلال بمشيئة الله سبحانه، من شاء أن يضلّه ضلّ كما ضلّ هؤلاء القائلون «لولا أنزل عليه آية من ربه»، **﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مِنْ أَنْتَابٍ﴾** أي: ويهدي إلى الحق، أو إلى الإسلام، أو إلى جنبه عزّ وجلّ: **﴿مَنْ أَنْتَابَ﴾** أي: من رجع إلى الله بالتوبة والإقلاع عما كان عليه، واصل الإنابة الدخول في نوبة الخير. كذا قال النيسابوري، ومحل الذين آمنوا النصب على البلية من قوله: **﴿مَنْ أَنْتَابَ﴾** أي: أنهم هم الذين هداهم الله وأنابوا إليه، ويجوز أن يكون الذين آمنوا خبر مبتدأ محذوف أي: هم الذين آمنوا، أو منصوب على المدح **﴿وَتَطْمِئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾** أي: تسكن وتستأنس بذكر الله سبحانه بالسنتهم، كتلاوة القرآن والتسبيح والتحميد والتكبير والتوحيد، أو بسماع ذلك من غيرهم، وقد سمي سبحانه القرآن تذكراً قال: **﴿وَهَذَا نَذِيرٌ مِمَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾** [الأنبياء: 50]، وقال: **﴿إِنَّا نَحْنُ نُزِّلْنَا النُّكُرَ﴾** [الحجر: 9] قال الزجاج: أي إذا نكر الله وحده آمنوا به غير شاكين بخلاف من وصف بقوله: **﴿وَإِذَا نَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾** [الزمر: 45] وقيل: تطمئن قلوبهم بتوحيد الله، وقيل: المراد بالذكر هنا الطاعة، وقيل: بوعد الله، وقيل: بالحلف بالله، فإذا حلف خصمه بالله سكن قلبه، وقيل: بذكر رحمته، وقيل: بذكر دلائله الدالة على توحيده **﴿إِلَّا بِنُكْرِ اللَّهِ﴾** وحده دون غيره **﴿تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾** والنظر في مخلوقات الله سبحانه وبدائع صنعه وإن كان يفيد طمأنينة في الجملة، لكن ليست كهذه الطمأنينة، وكذلك النظر في المعجزات من الأمور التي لا يطيقها البشر، فليس إفانيتها للطمأنينة كإفادته نكر الله، فهذا وجه ما يفيد هذا التركيب من القصر **﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسَنَ مَا أَبَى﴾** الموصول مبتدأ خبره الجملة الدعائية، وهي طوبى لهم على التأويل المشهور، ويجوز أن يكون الموصول في محل نصب على المدح، وطوبى لهم خبر مبتدأ محذوف، ويجوز أن يكون الموصول بدلاً من القلوب على حذف مضاف أي: قلوب الذين آمنوا، قال أبو عبيدة، والزجاج، وأهل اللغة: طوبى فعلى من الطيب. قال ابن الأنباري: وتأويلها الحال المستطابة، وقيل: طوبى شجرة في الجنة، وقيل: هي

عبد الرزاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن أبي عمران الجوني في قوله: **﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ﴾** قال: على دينكم **﴿فَنَعَمْ عَقِبَى الدَّارِ﴾** قال: نعم ما أعقبكم الله من الدنيا في الجنة. وأخرج أحمد، والبخاري، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن حبان، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والحاكم، وصححه، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في شعب الإيمان عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ خَلَقَ اللَّهُ فَرَقَاءَ الْمَاهِجِينَ الَّذِينَ تَسَدُّ بِهِمُ الثُّغُورُ، وَتَتَقَيَّ بِهِمُ الْمَكَارِهِ، وَيَمُوتُ أَحَدُهُمْ وَحَاجَتُهُ فِي صَدْرِهِ لَا يَسْتَطِيعُ لَهَا قَضَاءً، فَيَقُولُ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ مَلَائِكَتِهِ: ائْتُوهُمْ فَيُحْيُوهُمْ، فَيَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: رَبَّنَا نَحْنُ سَكَانُ سَمَائِكَ وَخَيْرُكَ مِنْ خَلْقِكَ، اقْتَامَرْنَا أَنْ نَأْتِيَ هَؤُلَاءَ فَنَسْلَمَ عَلَيْهِمْ؟ قَالَ اللَّهُ: إِنْ هَؤُلَاءَ عِبَادِي كَانُوا يَعْبُدُونَنِي وَلَا يَشْرَكُونَ بِي شَيْئاً، وَتَسَدُّ بِهِمُ الثُّغُورُ، وَتَتَقَيَّ بِهِمُ الْمَكَارِهِ، وَيَمُوتُ أَحَدُهُمْ وَحَاجَتُهُ فِي صَدْرِهِ لَا يَسْتَطِيعُ لَهَا قَضَاءً، فَتَأْتِيهِمُ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ ذَلِكَ فَيَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ **﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنَعَمْ عَقِبَى الدَّارِ﴾**» وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن أبي أمامة: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيَكُونُ مَتَكُئاً عَلَى أَرِيكَةٍ إِذَا دَخَلَ الْجَنَّةَ وَعِنْدَهُ سَمَاطَانُ مِنْ خَدَمٍ وَعِنْدَ طَرَفِ السَّمَاطَيْنِ بَابٌ مَبُوبٌ، فَيَقْبَلُ الْمَلِكُ فَيَسْتَأْنِزُ، فَيَقُولُ أَقْصَى الْخَدَمِ لِلَّذِي يَلِيهِ: مَلِكٌ يَسْتَأْنِزُ، وَيَقُولُ الَّذِي يَلِيهِ: مَلِكٌ يَسْتَأْنِزُ، حَتَّى يَبْلُغَ الْمُؤْمِنَ، فَيَقُولُ: ائْتُونَا لَهُ، فَيَقُولُ أَقْرَبُهُمْ إِلَى الْمُؤْمِنِ: ائْتُونَا لَهُ، وَيَقُولُ الَّذِي يَلِيهِ لِلَّذِي يَلِيهِ: ائْتُونَا لَهُ حَتَّى يَبْلُغَ أَقْصَاهُمْ الَّذِي عِنْدَ الْبَابِ فَيَفْتَحُ لَهُ فَيَدْخُلُ وَيَسْلَمُ عَلَيْهِ، ثُمَّ يَنْصَرِفُ. وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ **﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾** قال: سوء العقابة.

اللَّهُ يَسُطُّ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا لِلْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴿١٥٠﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّكَ اللَّهُ يُمِيتُ مَنْ يَشَاءُ وَيُحْيِي وَإِلَيْهِ مَرْجِعُ كُلِّ شَيْءٍ قُلْ هُمْ لَكُمْ بِظَاهِرٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ قُلُوبَهُمْ ﴿١٥١﴾ أَلَمْ يَكُنِ اللَّهُ الَّذِي يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ أَلَمْ يَعْلَمِ الْقُلُوبُ ﴿١٥٢﴾ أَلَمْ يَكُنِ اللَّهُ الَّذِي يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ أَلَمْ يَعْلَمِ الْقُلُوبُ ﴿١٥٣﴾ أَلَمْ يَكُنِ اللَّهُ الَّذِي يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ أَلَمْ يَعْلَمِ الْقُلُوبُ ﴿١٥٤﴾ أَلَمْ يَكُنِ اللَّهُ الَّذِي يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ أَلَمْ يَعْلَمِ الْقُلُوبُ ﴿١٥٥﴾ أَلَمْ يَكُنِ اللَّهُ الَّذِي يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ أَلَمْ يَعْلَمِ الْقُلُوبُ ﴿١٥٦﴾ أَلَمْ يَكُنِ اللَّهُ الَّذِي يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ أَلَمْ يَعْلَمِ الْقُلُوبُ ﴿١٥٧﴾ أَلَمْ يَكُنِ اللَّهُ الَّذِي يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ أَلَمْ يَعْلَمِ الْقُلُوبُ ﴿١٥٨﴾ أَلَمْ يَكُنِ اللَّهُ الَّذِي يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ أَلَمْ يَعْلَمِ الْقُلُوبُ ﴿١٥٩﴾ أَلَمْ يَكُنِ اللَّهُ الَّذِي يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ أَلَمْ يَعْلَمِ الْقُلُوبُ ﴿١٦٠﴾

لما نكر الله سبحانه عاقبة المشركين بقوله: **﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾** كان لقائل أن يقول: قد نرى كثيراً منهم قد وفر الله له الرزق وبسط له فيه، فأجاب عن ذلك بقوله: **﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾** فقد يبسط الرزق لمن كان كافراً، ويقتره على من كان مؤمناً ابتلاءً وامتحاناً، ولا يدل البسط على الكرامة ولا القبض على الإهانة، ومعنى يقدر: يضيق، ومنه **﴿مَنْ قَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾** [الطلاق: 7] أي: ضيق؛ وقيل: معنى يقدر يعطي بقدر الكفاية، ومعنى الآية: أنه الفاعل لذلك وحده القادر عليه دون غيره **﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾** أي: مشركو مكة فرحوا بالدنيا وجهلوا ما عند الله، قيل: وفي هذه

أي: ألم يعلم، وأنشد في هذا أبو عبيدة قول مالك بن عوف النضري:

أقول لهم بالشعب إذ يأسرونني ألم تياسوا أني ابن فارس زهديم
أي: ألم تعلموا، فمعنى الآية على هذا: أقلم يعلم الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً من غير أن يشاهدوا الآيات، وقيل: إن الإيلاس على معناه الحقيقي أي: أقلم ييلاس الذين آمنوا من إيمان هؤلاء الكفار، لعلمهم أن الله تعالى لو أراد هدايتهم لهداهم، لأن المؤمنين تمنوا نزول الآيات التي اقترحها الكفار طمعاً في إيمانهم ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارَعَةٌ﴾ هذا وعيد للكفار على العموم أو لكفار مكة على الخصوص أي: لا يزال الذين كفروا تصيبهم بسبب ما صنعوا من الكفر والتكذيب للرسول قارعة أي: داهية تفجؤهم، يقال: قرعه الأمر إذا أصابه، والجمع قوارع، والأصل في القرع الضرب. قال الشاعر:

أقنى تلادي وما جمعت من نشب قرع القرانير أنواء الأباريق
والمعنى: أن الكفار لا يزالون كذلك حتى تصيبهم داهية مهلكة من قتل أو أسر أو جنب أو نحو ذلك من العذاب؛ وقد قيل: إن القارعة النكبة، وقيل: الطلائع والسرايا، ولا يخفى أن القارعة تطلق على ما هو أعم من ذلك ﴿وَإِذَا تَحَلَّى﴾ أي: القارعة ﴿قريباً من دارهم﴾ فيفزعون منها ويشاهدون من آثارها ما ترجف له قلوبهم وترعد منه بواجرهم، وقيل: إن الضمير في ﴿تَحَلَّى﴾ للنبي ﷺ، والمعنى: أو تحل أنت يا محمد قريباً من دارهم محاصراً لهم أخذاً بمخانتهم كما وقع منه ﷺ لاهل الطائف ﴿حتى يلقى وعد الله﴾ وهو موتهم، أو قيام الساعة عليهم، فإنه إذا جاء وعد الله المحتوم حل بهم من عذابه ما هو الغاية في الشدة؛ وقيل: المراد بوعد الله هنا الإذن منه بقتال الكفار، والأول أولى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْلِفُ لِمُعَادِهِ﴾ فما جرى به وعده فهو كائن لا محالة ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَأُ بِرَسُولٍ مِنْ قَبْلِكَ فَامْلَيْتَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ التنكير في رسل للتكثير أي: برسل كثيرة، والإملاء: الإمهال، وقد مرَّ تحقيقه في الأعراف ﴿ثُمَّ اخْتَنَمْتَهُمْ﴾ بالعذاب الذي أنزلته بهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ الاستفهام للتقريع والتهديد أي: فكيف كان عقابي لهؤلاء الكفار الذين استهزؤا بالرسول، فاملت لهم ثم اخنتهم، ثم استغفم سبحانه استفهاماً آخر للتوبيخ والتقريع يجري مجرى الحجاج للكفار واستركاك صنعهم والإزراء عليهم، فقال: ﴿أَقْمِنِ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ﴾ القائم الحفيظ والمتولي للأمور، وأراد سبحانه نفسه، فإنه المتولي لأمر خلقه المدير لأحوالهم بالآجال والأرزاق وإحصاء الأعمال على كل نفس من الأنفس كائنة ما كانت، والجواب محذوف أي: أقمن هو بهذه الصفة كمن ليس بهذه الصفة من معبوداتكم التي لا تنفع ولا تضر. قال الفراء: كانه في المعنى أقمن هو قائم على كل نفس بما كسبت كشركاؤهم الذين اتخوهم من دون الله، والمراد من الآية إنكار المماثلة بينهما؛ وقيل: المراد بمن هو قائم على كل

عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَوْفَ أَمَّا تَتَذَكَّرُونَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يُظَاهِرُونَ الْقَوْلَ بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿١٣١﴾ لَمْ يَكُنْ فِي الْبُيُوتِ الذِّنْيَا وَلَكِنَّهَا الْآخِرَةُ أَشَقُّ وَمَا لَمْ يَنْزِلْ مِنْ اللَّهِ مِنْ رَأْيٍ ﴿١٣٢﴾ مَثَلُ الْوَعْدَةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَقَرَّرُ مِنْ غَيْرِهَا الْآخِرَةُ أَكْثَرُ دَائِمٌ وَظَلْمًا تِلْكَ عَقَبُ الْوَيْلِ أَتَقْوُوا وَمَعَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿١٣٣﴾

قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ قيل: هذا متصل بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ نَزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ [الرعد: 7] وأن جماعة من الكفار سألوا رسول الله ﷺ أن يسير لهم جبال مكة حتى تنفسح فإنها أرض ضيقة، فأمره الله سبحانه بأن يجيب عليهم بهذا الجواب المتضمن لتعظيم شأن القرآن وفساد رأي الكفار حيث لم يقنعوا به وأصرُّوا على تعنتهم وطلبهم ما لو فعله الله سبحانه لم يبق ما تقتضيه الحكمة الإلهية من عدم إنزال الآيات التي يؤمن عندها جميع العباد. ومعنى سيَّرت به الجبال أي: بإنزاله وقرآته فسارت عن محل استقرارها ﴿وَإِذَا قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ﴾ أي: صدعت حتى صارت قطعاً متفرقة ﴿وَإِذَا كَلِمَ بِهِ الْعُمُوتَى﴾ أي: صاروا أحياء بقرآته عليهم، فكانوا يفهمونه عند تكليمهم به كما يفهمه الأحياء.

وقد اختلف في جواب لو ماذا هو؟ فقال الفراء: هو محذوف، وتقديره: لكان هذا القرآن، وروي عنه أنه قال: إن الجواب لكفروا بالرحمن أي: لو فعل بهم هذا لكفروا بالرحمن؛ وقيل: جوابه لما آمنوا كما سبق في قوله: ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: 111] وقيل: الجواب متقدم، وفي الكلام تقديم وتأخير أي: وهم يكفرون بالرحمن لو أن قرآنًا إلى آخره، وكثيراً ما تحنف العرب جواب لو إذا دل عليه سياق الكلام، ومنه قول امرئ القيس:

فلو أنها نفس تموت جميعاً ولكننا نفس تساقط أنفسنا
أي: لهان علي ذلك ﴿بَلِ اللَّهُ الْأَمْرُ جَمِيعاً﴾ أي: لو أن قرآنًا فعل به ذلك لكان هذا القرآن، ولكن لم يفعل بل فعل ما عليه الشأن الآن، فلو شاء أن يؤمنوا آمنوا وإذا لم يشأ أن يؤمنوا لم ينفع تسيير الجبال وسائر ما اقترحوه من الآيات، فالإضراب متوجه إلى ما يؤدى إليه كون الأمر لله سبحانه ويستلزمه من توقف الأمر على ما تقتضيه حكمته ومشيئته، ويدل على أن هذا هو المعنى المراد من ذلك قوله: ﴿أَقْلَمَ يِيَّاسُ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعاً﴾ . قال الفراء: قال الكلبي أقلم ييلاس بمعنى أقلم يعلم، وهي لغة النخع. قال في الصحاح: وقيل هي لغة هوازن، وبهذا قال جماعة من السلف. قال أبو عبيدة: أقلم يعلموا ويتبينوا. قال الزجاج: وهو مجاز لأن اليأس من الشيء عالم بأنه لا يكون، نظيره استعمال الرجاء في معنى الخوف، والنسيان في الترك لتضمنهما إيهاماً، ويؤيده قراءة علي، وابن عباس، وجماعة (أقلم يتبين)، ومن هذا قول رباح بن عدي: ألم ييلاس الأقوام أنني أنا ابنه وإن كنت عن أرض العشيرة ناثياً

نفوس الملائكة الموكلون ببني آدم، والأول أولى، وجملة ﴿وَجَعَلُوا لَهُ شُرَكَاءَ﴾ معطوفة على الجواب المقتر مبنية له أو حالية بتقدير قد أي: وقد جعلوا، أو معطوفة على ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَؤْا﴾ أي: استهزؤوا وجعلوا ﴿قُلْ سَمَوْهُمْ﴾ أي: قل يا محمد جعلتم له شركاء فسموهم من هم؟ وفي هذا تبكيت لهم وتوبيخ، لأنه إنما يقال هكذا في الشيء المستحقر الذي لا يستحق أن يلتفت إليه، فيقال: سمه إن شئت يعني: أنه أحقر من أن يسمى؛ وقيل: إن المعنى سموهم بالآلهة كما تزعمون، فيكون ذلك تهديداً لهم ﴿أَمْ تَتَّبِعُونَ﴾ أي: بل اتبثون الله ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ﴾ من الشركاء الذين تعبثونهم مع كونه العالم بما في السموات والأرض ﴿أَمْ بَظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ﴾ أي: بل اتسمونهم شركاء بظاهر من القول من غير أن تكون له حقيقة؛ وقيل: المعنى قل لهم اتبثون الله بباطل لا يعلمه أم بظاهر يعلمه؟ فإن قالوا: بباطل لا يعلمه فقد جاءوا بدعوى باطلة، وإن قالوا بظاهر يعلمه فقل لهم: سموهم، فإذا سموا اللات والعزى ونحوهما، فقل لهم إن الله لا يعلم لنفسه شريكاً، وإنما خص الأرض بنفي الشريك عنها، وإن لم يكن له شريك في غير الأرض، لأنهم ادَّعوا له شريكاً في الأرض؛ وقيل: معنى ﴿أَمْ بَظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ﴾ أم بزائل من القول باطل، ومنه قول الشاعر:

أعيرتنا البانها ولحومها ونلك عار يا ابن ربيعة ظاهر
أي: زائل باطل، وقيل: يكذب من القول، وقيل: معنى بظاهر من القول بحجة من القول ظاهرة على زعمهم ﴿يَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ﴾ أي: ليس لله شريك، بل زين للذين كفروا مكْرهم. وقرأ ابن عباس (زين) على البناء للفاعل على أن الذي زين لهم ذلك هو مكْرهم. وقرأ من عده بالبناء للمفعول، والمزِين هو الله سبحانه، أو الشيطان ويجوز أن يسمى المكر كُفْراً، لأن مكْرهم برسول الله ﷺ كان كُفْراً. وأما معناه الحقيقي فهو الكيد، أو التمويه بالباطيل ﴿وَصَبَّوْا عَلَى السَّبِيلِ﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم (صبَّوْا) على البناء للمفعول أي: صدهم الله، أو صدهم الشيطان. وقرأ الباقر على البناء للفاعل أي: صبَّوْا غيرهم، واختار هذه القراءة أبو حاتم، وقرأ يحيى بن وثاب بكسر الصاد ﴿وَمَنْ يَضِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ أي: يجعله ضالاً وتقتضي مشيئته إضلاله، فما له من هادٍ يهديه إلى الخير. قرأ الجمهور (هاد) من بون إثبات الياء على اللغة الكثيرة الفصيحة. وقرئ بإثباتها على اللغة القليلة، ثم بين سبحانه ما يستحقونه، فقال: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بما يصابون به من القتل والأسر وغير ذلك ﴿وَلِعَذَابٍ آخِرٍ أَشَقُّ﴾ عليهم من عذاب الحياة الدنيا ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ يقيهم عذابه، ولا عاصم يحصمهم منه، ثم لما ذكر سبحانه ما يستحقه الكفار من العذاب في الأولى والآخرة، ذكر ما أعدّه للمؤمنين، فقال: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: صفتها العجيبة الشأن التي هي في الغرابة كالمثل، قال

ابن قتبية: المثل الشبه في أصل اللغة، ثم قد يصير بمعنى صورة الشيء وصفته، يقال: مثلت لك كذا أي: صورته ووصفته، فأراد هنا بمثل الجنة وصورتها وصفتها، ثم ذكرها، فقال: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ وهو كالتفسير للمثل. قال سيبويه: وتقديره فيما قصصنا عليك مثل الجنة. وقال الخليل وغيره: إن مثل الجنة مبتدأ والخبر تجري. وقال الزجاج: إنه تمثيل للغائب بالشاهد، ومعناه مثل الجنة جنة تجري من تحتها الأنهار؛ وقيل: إن فائدة الخبر ترجع إلى ﴿أَكَلْهَا دَائِمٌ﴾ أي: لا ينقطع، ومثله قوله سبحانه: ﴿لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: 33] وقال الفراء: المثل مقحم للتأكيد، والمعنى: الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار، والعرب تفعل ذلك كثيراً ﴿ووظلها﴾ أي: كذلك دائم لا يتقلص ولا تتسخه الشمس، والإشارة بقوله: ﴿تَتَلَكَّ﴾ إلى الجنة الموصوفة بالصفات المتقدمة، وهو مبتدأ خبره ﴿عَقِبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أي: عاقبة الذين اتقوا المعاصي، ومنتهى أمرهم ﴿وَعَقِبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ ليس لهم عاقبة ولا منتهى إلا ذلك.

وقد أخرج الطبراني، وأبو الشيخ عن ابن عباس قال: قالوا للنبي ﷺ: إن كان كما تقول فارنا شيئاً من الموتى نكلمهم، وأفسح لنا هذه الجبال جبال مكة التي قد ضمنتنا، فنزلت: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مروي عن عطية العوفي قال: قالوا لمحمد ﷺ: لو سيرت لنا جبال مكة حتى تتسع فنحرت فيها، أو قطعت لنا الأرض كما كان سليمان يقطع لقومه بالريح، أو أحيت لنا الموتى كما كان يحيي عيسى الموتى لقومه، فانزل الله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ الآية إلى قوله: ﴿أَفَلَمْ يَيْئَسِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قال: أفلم يتبين الذين آمنوا، قالوا: هل تروي هذا الحديث عن أحد من أصحاب النبي ﷺ؟ قال: عن أبي سعيد الخدري: عن النبي ﷺ. وأخرجه أيضاً ابن أبي حاتم قال: حدثنا أبو زرعة، حدثنا منجاب بن الحارث، أخبرنا بشر بن عمار، حدثنا عمر بن حسان، عن عطية العوفي فنكره. وأخرج ابن جرير، وابن مروي عن طريق العوفي عن ابن عباس نحوه مختصراً. وأخرج أبو يعلى، وأبو نعيم في الدلائل، وابن مروي عن الزبير بن العوام في نكر سبب نزول الآية نحو ما تقدم مطولاً. وأخرج ابن إسحاق، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿يَلْ اللَّهُ الْأَمْرَ جَمِيعاً﴾ لا يصنع من ذلك إلا ما يشاء ولم يكن ليفعل. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿أَفَلَمْ يَيْئَسِ﴾ يقول: يعلم. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن طريق أخرى عنه نحوه. وأخرج أبو الشيخ عن ابن زيد نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن أبي العالية ﴿أَفَلَمْ يَيْئَسِ﴾ قال: قد يئس الذين آمنوا أن يهدوا ولو شاء الله لهدى الناس جميعاً. وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن مروي عن ابن عباس في قوله: ﴿تَصْصِيهِمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةً﴾ قال: السرايا. وأخرج

المعه من أهل الكتاب ساءهم قلة نكر الرحمن في القرآن مع كثرة نكره في التوراة، فأنزل الله **﴿قُلْ ادعوا الله أو ادعوا الرحمن﴾** [الإسراء: 110] ففرحوا بذلك، ثم لما بين ما يحصل بنزول القرآن من الفرح للبعض والإنكار للبعض صرح بما عليه رسول الله ﷺ، وأمره أن يقول لهم ذلك، فقال: **﴿قُلْ إِنَّمَا أَمَرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أَشْرِكَ بِهِ﴾** أي: لا أشرك به بوجه من الوجوه أي قل لهم: يا محمد إلزاماً للحجة ورداً للإنكار إنما أمرت فيما أنزل إليّ بعبادة الله وتوحيده، وهذا أمر اتفقت عليه الشرائع وتطابقت على عدم إنكاره جميع الملل المقتضية بالرسول، وقد اتفق القراء على نصب ولا أشرك به عطفاً على أعبد. وقرأ أبو خلود بالرفع على الاستئناف، وروى هذه القراءة عن نافع **﴿إِلَيْهِ ادْعُوا﴾** أي: إلى الله لا إلى غيره أو إلى ما أمرت به وهو عبادة الله وحده، والأول أولى لقوله: **﴿وَالِلَّهِ مَاب﴾** فإن الضمير لله سبحانه أي: إليه وحده: لا إلى غيره مرجعي. ثم نكر بعض فضائل القرآن، وأوعد على الإعراض عن اتباعه مع التعرض لرد ما أنكره من اشتماله على نسخ بعض شرائعهم فقال: **﴿وَعَذَابُكَ أَفْزَلُهُمْ حَكَمًا عَرَبِيًّا﴾** أي: مثل ذلك الإنزال البيوع أنزلنا القرآن مشتملاً على أصل الشرائع وفروعها؛ وقيل: المعنى: وكما أنزلنا الكتب على الرسل بلغاتهم كذلك أنزلنا عليك القرآن بلسان العرب، ويريد بالحكم ما فيه من الأحكام أو حكمة عربية مترجمة بلسان العرب، وانتصاب حكماً على الحال **﴿وَلَمَّا لَبِثْتُمْ أَهْوَاءَهُمْ﴾** التي يطلبون منك موافقتهم عليها كالاستمرار منك على التوجه إلى قبلتهم وعدم مخالفتك لشيء مما يعتقدونه **﴿بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾** الذي علمك الله إياه **﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ﴾** أي: من جنبه **﴿مَنْ وَلِي﴾** يلي أمرك وينصرك **﴿وَلَا وَاقٍ﴾** يقيك من عذابه، والخطاب لرسول الله ﷺ تعريض لأمته، واللام في ولئن اتبعت هي الموطئة للقسم، وما لك ساء مسد جواب القسم والشرط **﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رِسَالًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِيَّةً﴾** أي: إن الرسل الذين أرسلناهم قبلك هم من جنس البشر لهم أزواج من النساء ولهم ذرية تولدوا منهم ومن أزواجهم، ولم نرسل الرسل من الملائكة الذين لا يتزوجون ولا يكون لهم ذرية. وفي هذا رد على من كان ينكر على رسول الله ﷺ تزوجه بالنساء أي: أن هذا شأن رسل الله المرسلين قبل هذا الرسول فما بالك تنكرون عليه ما كانوا عليه **﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾** أي: لم يكن لرسول من الرسل أن يأتي بآية من الآيات، ومن جعلها ما اقترحه عليه الكفار إلا بإذن الله سبحانه، وفيه رد على الكفار حيث اقترحوا على رسول الله ﷺ من الآيات ما اقترحوا بما سبق نكره **﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾** أي: لكل أمر مما قضاه الله، أو لكل وقت من الأوقات التي قضى الله بوقوع أمر فيها كتاب عند الله يكتبه على عباده ويحكم به فيهم. وقال الفراء: فيه تقديم وتأخير. والمعنى: لكل كتاب أجل أي: لكل أمر كتبه الله أجل مؤجل ووقت معلوم كقوله

الطيالسي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عنه نحوه، وزاد **﴿أَوْ تَحُلْ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ﴾** قال: أنت يا محمد حتى يأتي وعد الله. قال: فتح مكة. وأخرج ابن مردويه عن أبي سعيد نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس **﴿قَارِعَةً﴾** قال: نكبة. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عن طريق العوفي عنه قارعة قال: عذاب من السماء، أو تحل قريباً من دارهم: يعني نزول رسول الله ﷺ بهم وقتاله أباءهم. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عنه أيضاً في قوله: **﴿إِفْمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾** قال: يعني بذلك نفسه. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن عطاء في الآية قال: الله تعالى قائم بالقيسط والعدل على كل نفس. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله: **﴿إِذَا بَظَاهَرٍ مِنَ الْقَوْلِ﴾** قال: الظاهر من القول هو الباطل. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن عكرمة في قوله: **﴿مِثْلُ الْجَنَّةِ﴾** قال: نعت الجنة، ليس للجنة مثل. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن إبراهيم التيمي في قوله: **﴿أَكَلَهَا دَاثِمٌ﴾** قال: لذاتها دائمة في أفواههم.

وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكَلَتْهُمْ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنْ الْأَحْزَابِ مَنْ يُبَكِّرُ بَعْضُهُمْ قُلْ إِنَّمَا أَمَرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أَشْرِكَ بِهِ إِلَهُهُ ادْعُوا إِلَهُهُ مَتَابِ ۖ وَكَذَلِكَ أُنْزِلَتْهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَكِنْ أَتَيْتُمْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكُمْ مِنَ الْوَحْيِ مَا لَكُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ۚ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَهَمَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ۚ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعْدَهُ ۚ إِنَّهُ لَمُكْتَبٌ ۝

اختلف المفسرون في تفسير الكتاب المذكور فقيل: هو التوراة والإنجيل، والذين يفرحون بما أنزل إلى رسول الله ﷺ هم من أسلم من اليهود والنصارى، وقيل: الذين يفرحون هم أهل الكتابين لكون ذلك موافقاً لما في كتبهم مصنفاً له، فعلى الأول يكون المراد بقوله: **﴿وَمِنْ الْأَحْزَابِ مَنْ يَنْكَرُ بَعْضُهُمْ﴾** من لم يسلم من اليهود والنصارى، وعلى الثاني يكون المراد به المشركين من أهل مكة ومن يمثلهم، أو يكون المراد به البعض من أهل الكتابين أي: من أحزابهما، فإنهم أنكروه لما يشتمل عليه من كونه ناسخاً لشرائعهم فيتوجه فرح من فرح به منهم إلى ما هو موافق لما في الكتابين، وإنكار من أنكر منهم إلى ما خالفهما، وقيل: المراد بالكتاب القرآن، والمراد بمن يفرح به المسلمون، والمراد بالأحزاب المتحزبون على رسول الله ﷺ من المشركين واليهود والنصارى، والمراد بالبعض الذي أنكروه من خالف ما يعتقدونه على اختلاف اعتقادهم. واعترض على هذا بأن فرح المسلمين بنزول القرآن معلوم فلا فائدة في نكره، وأجيب عنه بأن المراد زيادة الفرح والاستبشار، وقال كثير من المفسرين: إن عبد الله بن سلام والذين آمنوا

كل عبد. وأخرج ابن ماجه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه من طريق قتادة عن الحسن عن سمرة قال: نهى رسول الله ﷺ عن التبتل. وقرأ قتادة: **﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رِسَالًا مِنْ قَبْلِكَ﴾** الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه عن سعد بن هشام قال: دخلت على عائشة فقلت: إني أريد أن أتبتل؟ قالت: لا تفعل، أما سمعت الله يقول: **﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رِسَالًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَنْزُلًا وَذُرِّيَّةً﴾** وقد ورد في النهي عن التبتل والترغيب في النكاح ما هو معروف. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: قالت قريش حين أنزل: **﴿هَذَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَلْتَمِسَ بَايَةَ إِلَّا بِلَازَنِ اللَّهِ﴾** ما نراك يا محمد تملك من شيء، ولقد فرغ من الأمر، فانزلت هذه الآية تخويفاً لهم ووعيداً لهم **﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾** إنا إن شئنا أحدثنا له من أمرنا شيئاً، ويحدث الله في كل رمضان فيمحو ما يشاء ويثبت من أرزاق الناس ومصائبهم وما يعطيهم وما يقسم لهم. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وابن جرير، وابن نصر، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله: **﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾** قال: ينزل الله في كل شهر رمضان إلى سماء الدنيا، فيدير أمر السنة إلى السنة فيمحو ما يشاء ويثبت إلا الشقاوة والسعادة والحياة والموت. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه في الآية قال: هو الرجل يعمل الزمان بطاعة الله، ثم يعود لمعصية الله فيموت على ضلالة، فهو الذي يمحو، والذي يثبت الرجل يعمل بمعصية الله وقد سبق له خير حتى يموت على طاعة الله. وأخرج ابن جرير، ومحمد بن نصر، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عنه أيضاً في الآية قال: هما كتابان يمحو الله ما يشاء من أحدهما ويثبت، وعنده أم الكتاب أي: جملة الكتاب. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال: إن لله لوحاً محفوظاً مسيرة خمسمائة عام من درة بيضاء له دفتان من ياقوت، والدفتان لوحان: لله كل يوم ثلاث وستون لحظة يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب. وإسناده عند ابن جرير هكذا: حدثنا محمد بن شهر بن عسكر، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس فنكره. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والطبراني عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ينزل في ثلاث ساعات ييقن من الليل فيفتح الذكر في الساعة الأولى منها ينظر في الذكر الذي لا ينظر فيه أحد غيره فيمحو الله ما يشاء ويثبت» الحديث. وأخرج الطبراني في الأوسط، وابن مردويه بإسناد. قال السيوطي: ضعيف عن ابن عمر سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يمحو الله ما يشاء ويثبت إلا الشقاوة والسعادة والحياة والممات». وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس مرفوعاً نحوه. وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس قال: «لا ينفع الحذر من القدر، ولكن الله يمحو بالدعاء ما يشاء من القدر». وأخرج ابن جرير عن

سبحانه: **﴿لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ﴾** [الأنعام: 67] وليس الأمر على حسب إرادة الكفار واقتراحاتهم بل على حسب ما يشاءه ويختاره **﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾** أي: يمحو من ذلك الكتاب ويثبت ما يشاء منه. يقال: محوت الكتاب محواً إذا أذهبت أثره. قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم (ويثبت) بالتخفيف. وقرأ الباقون بالتشديد، واختار هذه القراءة أبو حاتم وأبو عبيد. وظاهر النظم القرآني العموم في كل شيء مما في الكتاب فيمحو ما يشاء محوه من شقاوة أو سعادة أو رزق أو عمر أو خير أو شر، ويبدل هذا بهذا، ويجعل هذا مكان هذا **﴿لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾** [الأنبياء: 23] وإلى هذا ذهب عمر بن الخطاب، وعبد الله بن مسعود، وابن عباس، وأبو وائل، وقتادة، والضحاك، وابن جريج وغيرهم؛ وقيل: الآية خاصة بالسعادة والشقاوة؛ وقيل: يمحو ما يشاء من ديوان الحفظة، وهو ما ليس فيه ثواب ولا عقاب ويثبت ما فيه الثواب والعقاب؛ وقيل: يمحو ما يشاء من الرزق؛ وقيل: يمحو من الأجل؛ وقيل: يمحو ما يشاء من الشرائع فينسخه ويثبت ما يشاء فلا ينسخه؛ وقيل: يمحو ما يشاء من ذنوب عباده ويترك ما يشاء؛ وقيل: يمحو ما يشاء من الذنوب بالتوبة ويترك ما يشاء منها مع عدم التوبة؛ وقيل: يمحو الآباء ويثبت الأبناء؛ وقيل: يمحو القمر ويثبت الشمس كقوله: **﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾** [الإسراء: 12] وقيل: يمحو ما يشاء من الأرواح التي يقبضها حال النوم فيميت صاحبها ويثبت ما يشاء فيرده إلى صاحبه؛ وقيل: يمحو ما يشاء من القرون ويثبت ما يشاء منها؛ وقيل: يمحو الدنيا ويثبت الآخرة؛ وقيل: غير ذلك مما لا حاجة إلى ذكره، والأول أولى كما تفيد ما في قوله؛ ما يشاء من العموم مع تقدم نكر الكتاب في قوله: **﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾** ومع قوله: **﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾** أي: أصله، وهو اللوح المحفوظ، فالمراد من الآية أنه يمحو ما يشاء مما في اللوح المحفوظ فيكون كالعدم، ويثبت ما يشاء مما فيه فيجري فيه قضاؤه وقدره على حسب ما تقتضيه مشيئته، وهذا لا ينافي ما ثبت عنه ﷺ من قوله: «جفّ القلم»، وذلك لأن المحو والإثبات هو من جملة ما قضاها الله سبحانه؛ وقيل: إن أم الكتاب هو علم الله تعالى بما خلق وما هو خالق.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: **﴿يُفْرَحُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾** قال: أولئك أصحاب محمد ﷺ فرحوا بكتاب الله وبرسوله وصنّفوا به **﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يَنْكَرُ بَعْضَهُ﴾** يعني: اليهود والنصارى والمجوس. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن ابن زيد في الآية قال: هؤلاء من آمن برسول الله ﷺ من أهل الكتاب يفرحون بذلك، ومنهم من يؤمن به، ومنهم من لا يؤمن به **﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يَنْكَرُ بَعْضَهُ﴾** قال: الأحزاب الأمم اليهود والنصارى والمجوس. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: **﴿وَالِيَهُ مَابِ﴾** قال: إليه مصير

قيس بن عباد قال: العاشر من رجب وهو يوم يحمو الله فيه ما يشاء. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الشعب عنه نحوه بأطول منه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن عمر بن الخطاب أنه قال وهو يطوف بالبيت: اللهم إن كنت كتبت علي شقوة أو نذبا فامحه، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت، وعندك أم الكتاب، فأجعله سعادة ومغفرة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني عن ابن مسعود نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في المنخل عن ابن عباس في قوله: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾ قال: يبذل الله ما يشاء من القرآن فينسخه، ويثبت ما يشاء فلا يبذله ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ يقول: وجملة ذلك عنده في أم الكتاب: الناسخ والمنسوخ، ما يبذل، وما يثبت كل ذلك في كتاب. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ قال: الذكر. وأخرج ابن المنذر عن مجاهد مثله. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير عن يسار، عن ابن عباس: أنه سأل كعباً عن أم الكتاب، فقال: علم الله ما هو خالق، وما خلقه عالمون، فقال لعلمه: كن كتاباً، فكان كتاباً.

وَأِنْ مَا نَهَيْتَكَ بَعْضَ آيَاتِي يَهْدِيهِمْ أَوْ تَرَفَّقْتَ فَلَمَّا عَلَيَكَ الْبَلَاءُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْفَعُهَا مَنْ أَرْضَها اللَّهُ يَحْكُمُ لَا مَوْجِبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١١﴾ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمَ مَا تَكْتُمُ كُلُّ نَفْسٍ وَنَجْوَى الْأَكْثَرِ لِمَنْ عِنْدَ الدَّارِ ﴿١٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿١٣﴾

﴿وإما نرينك﴾ ما زائدة وأصله: وإن ترك ﴿بعض الذي نعهدهم﴾ من العذاب كما وعيناهم بذلك بقولنا: ﴿لهم عذاب في الحياة الدنيا﴾ [الرعد: 34] ويقولنا: ﴿ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة﴾ [الرعد: 31]، والمراد أريناك بعض ما نعهدهم قبل موتك، أو توفيئك قبل إراءتك لذلك ﴿فإنما عليك البلاغ﴾ أي: فليس عليك إلا تبليغ أحكام الرسالة، ولا يلزمك حصول الإجابة منهم لما بلغته إليهم ﴿وعلينا الحساب﴾ أي: محاسبتهم بأعمالهم ومجازاتهم عليها، وليس ذلك عليك، وهذا تسلية من الله سبحانه لرسوله ﷺ وإخبار له أنه قد فعل ما أمره الله به، وليس عليه غيره، وإن من لم يجب دعوته، ويصدق نبوته فإله سبحانه محاسبه على ما اجترم واجترأ عليه من ذلك ﴿أولم يروا﴾ يعني أهل مكة، والاستفهام للإنكار أي: أولم ينظروا ﴿إننا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها﴾ أي: نأتي أرض الكفر كمكة ننقصها من أطرافها بالفتوح على المسلمين منها شيئاً فشيئاً. قال الزجاج: أعلم الله أن بيان ما وعد المشركين من قهرهم قد ظهر، يقول: أولم يروا أننا فتحنا على المسلمين من الأرض ما قد تبين لهم، فكيف لا يعتبرون؟ وقيل: إن معنى الآية: موت العلماء والصلحاء. قال القشيري: وعلى هذا فالأطراف الأشراف، وقد قال ابن الأعرابي: الطرف للرجل الكريم. قال

القرطبي: وهذا القول بعيد، لأن مقصود الآية: أننا أريناهم النقصان في أمرهم ليعلموا أن تأخير العقاب عنهم ليس عجزاً إلا أن يحمل على موت أحبار اليهود والنصارى، وقيل: المراد من الآية خراب الأرض المعمورة حتى يكون العمران في ناحية منها؛ وقيل: المراد بالآية هلاك من هلك من الأمم؛ وقيل: المراد نقص ثمرات الأرض؛ وقيل: المراد جور ولايتها حتى تنقص ﴿والله يحكم لا معقب لحكمه﴾ أي: يحكم ما يشاء في خلقه، فيرفع هذا ويضع هذا، ويحيي وهذا ويميت هذا، ويغني هذا ويفقر هذا، وقد حكم بعزة الإسلام وعلوه على الأديان، وجملة ﴿لا معقب لحكمه﴾ في محل نصب على الحال، وقيل: معترضة. والمعقب: الذي يكر على الشيء فيبطله، وحقيقته الذي يقفيه بالرد والإبطال. قال الفراء: معناه لا راد لحكمه، قال: والمعقب الذي يتبع الشيء فيستدركه، ولا يستدرك أحد عليه، والمراد من الآية أنه لا يتعقب أحد حكم الله سبحانه بنقص ولا تغيير ﴿وهو سريع الحساب﴾ فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته على السرعة ﴿وقد مكر الذين من قبلهم فإله المكر جميعاً﴾ أي: قد مكر للكفار الذين من قبل كفار مكة بمن أرسله الله إليهم من الرسل فكابوهم وكفروا بهم، وهذا تسلية من الله سبحانه لرسوله ﷺ حيث أخبره أن هذا بين الكفار من قديم الزمان مع رسل الله سبحانه، ثم أخبره بأن مكرهم هذا كالعدم، وإن المكر كله لله، فقال: ﴿فإله المكر جميعاً﴾ لا اعتداد بمكر غيره، ثم فسر سبحانه هذا المكر الثابت له دون غيره، فقال: ﴿يعلم ما تكسب كل نفس﴾ من خير وشر فيجازيها على ذلك، ومن علم ما تكسب كل نفس وأعد لها جزاءها كان المكر كله له، لأنه يأتيهم من حيث لا يشعرون. وقال الواحدي: إن مكر الماكرين مخلوق فلا يضرب إلا بإرادته؛ وقيل: المعنى فإله جزاء مكر الماكين ﴿وسيعلم الكافر لمن عقبي الدار﴾. قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (الكافر) بالإفراد، وقرأ الباقون (الكفار) بالجمع: أي: سيعلم جنس الكافر لمن العاقبة المحمودة من الفريقين في دار الدنيا، أو في الدار الآخرة، أو فيهما؛ وقيل المراد بالكافر، أبو جهل ﴿ويقول الذين كفروا لست مرسل﴾ أي: يقول المشركون أو جميع الكفار: لست يا محمد مرسل إلى الناس من الله، فأمره الله سبحانه بأن يجيب عليهم، فقال: ﴿قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم﴾ فهو يعلم صحة رسالتي، وصق دعواتي، ويعلم كذبكم ﴿ومن عنده علم الكتاب﴾ أي: علم جنس الكتاب كالطهارة والإنجيل، فإن أهلها العالمين بهما يعلمون صحة رسالة رسول الله ﷺ، وقد أخبر بذلك من أسلم منهم كعبد الله بن سلام، وسلمان الفارسي، وتعيم الداري ونحوهم، وقد كان المشركون من العرب يسألون أهل الكتاب ويرجعون إليهم، فأرشدهم الله سبحانه في هذه الآية إلى أن أهل الكتاب يعلمون ذلك؛ وقيل: المراد بالكتاب القرآن ومن عنده علم منه هم المسلمون؛ وقيل: المراد من عنده علم اللوح المحفوظ، وهو الله سبحانه،

يخرج بالكتاب المشتمل على ما شرعه الله لهم من الشرائع مما كانوا فيه من الظلمات إلى ما صاروا إليه من النور؛ وقيل: إن الظلمة مستعارة للبدعة، والنور مستعار للسنّة؛ وقيل: من الشك إلى اليقين، ولا مانع من إرادة جميع هذه الأمور، والباء في ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ متعلقة بتخرج، وأسند الفعل إلى النبي ﷺ لأنه الداعي والهادي والمنذر. قال الزجاج: بما أنك لك من تعليمهم ودعائهم إلى الإيمان ﴿إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ هو بدل من إلى النور بتكرير العامل كما يقع مثله كثيراً أي: لتخرج الناس من الظلمات إلى صراط العزيز الحميد، وهو طريقة الله الواضحة التي شرعها لعباده، وأمرهم بالمصير إليها والدخول فيها؛ ويجوز أن يكون مستأنفاً بتقدير سؤال كأنه قيل: ما هذا النور الذي أخرجهم إليه؟ فقيل: صراط العزيز الحميد، والعزيز هو القادر الغالب، والحميد هو الكامل في استحقاق الحمد ﴿اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ قرأ نافع وابن عامر بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: هو الله المتصف بملك ما في السموات وما في الأرض. وقرأ الجمهور بالجرّ على أنه عطف بيان لكونه من الأعلام الغالبة، فلا يصح وصف ما قبله به، لأن العلم لا يوصف به؛ وقيل: يجوز أن يوصف به من حيث المعنى. وقال أبو عمرو: إن قراءة الجرّ محمولة على التقديم والتأخير، والتقدير: إلى صراط الله العزيز الحميد. وكان يعقوب إذا وقف على الحميد رفع، وإذا وصل خفض. قال ابن الأنباري: من خفض وقف على وما في الأرض. ثم توعّد من لا يعترف ببروبيته فقال: ﴿وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ قد تقدم بيان معنى الويل، وأصله النصب كسائر المضارع، ثم رفع للدلالة على الثبات. قال الزجاج: هي كلمة تقال للعذاب والهلكة، فدعا سبحانه وتعالى بذلك على من لم يخرج من الكفار بهدية رسول الله ﷺ له بما أنزله الله عليه مما هو فيه من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان و﴿مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ متعلق بويل على معنى يولولون ويضجون من العذاب الشديد الذي صاروا فيه، ثم وصف هؤلاء الكفار بقوله: ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي: يؤثرونها لمحبتهم لها ﴿عَلَى الْآخِرَةِ﴾ الدائمة والنعيم الأبدي، وقيل: إن الموصول في موضع رفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف: أي: هم الذين؛ وقيل: الموصول مبتدأ وخبره أولئك، وجملة ﴿وَيَصْنَوْنَ﴾ وكذلك ويغيثون معطوفتان على يستحبون، ومعنى الصّد ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ صرف الناس عنه ومنعهم منه، وسبيل الله دينه الذي شرعه لعباده ﴿وَيُيَبِّغُونَهَا غُوجًا﴾ أي: يطلبون لها زيفاً وميلاً لموافقة أهوائهم وقضاء حاجاتهم وأغراضهم، والغوج بكسر العين في المعاني ويفتح العين في الأعيان وقد سبق تحقيقه. والأصل يبيغون لها فحذف الحرف وأوصل الفعل إلى الضمير، واجتماع هذه الخصال نهاية الضلال، ولهذا وصف ضلالهم بالبعد عن الحق فقال: ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ والإشارة إلى الموصوفين بتلك

الصفات القبيحة والبعد وإن كان من صفة الضال لكنه يجوز وصف الضلال به مجازاً لقصد المبالغة، ثم لما من على المكلفين بإنزال الكتاب وإرسال الرسول نكر من كمال تلك النعمة أن تلك المرسل بلسان قومه فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ أي: متلبساً بلسانهم متكلماً بلغتهم لأنه إذا كان كذلك فهم عنه المرسل إليهم ما يقوله لهم وسهل عليهم ذلك بخلاف ما لو كان بلسان غيرهم فإنهم لا يدرون ما يقول، ولا يفهمون ما يخاطبهم به حتى يتعلموا ذلك اللسان دهرًا طويلاً ومع ذلك فلا بد أن يصعب عليهم فهم تلك بعض صعوبة، ولهذا علل سبحانه ما امتن به على العباد بقوله: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ أي: ليوضح لهم ما أمرهم الله به من الشريعة التي شرعها لهم ووحّد اللسان لأن المراد بها اللغة. وقد قيل: في هذه الآية إشكال، لأن النبي ﷺ أرسل إلى الناس جميعاً بل إلى الجن والإنس ولغاتهم متباينة والسننهم مختلفة، وأجيب بأنه وإن كان مرسلًا إلى الثقلين كما مرّ لكن لما كان قومه العرب وكانوا أخصّ به وأقرب إليه كان إرساله بلسانهم أولى من إرساله بلسان غيرهم، وهم يبينونه لمن كان على غير لسانهم ويوضحونه حتى يصير فإهماله كفهمهم إيّاه، ولو نزل القرآن بجميع لغات من أرسل إليهم، وبينه رسول الله لكل قوم بلسانهم لكان ذلك مظنة للاختلاف وفتحاً لباب التنازع لأن كل أمة قد تدعي من المعاني في لسانها ما لا يعرفه غيرها، وربما كان ذلك أيضاً مفضياً إلى التحريف والتصحيف بسبب الدعاوي الباطلة التي يقع فيها المتعصبون، وجملة ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ مستأنفة أي: يضلّ من يشاء وإضلاله ويهدي من يشاء هدايته. قال الفراء: إذا نكر فعل وبعده فعل آخر فإن لم يكن النسق مشاكلاً للأول فالرفع على الاستئناف هو الوجه، فيكون معنى هذه الآية: وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم تلك الشرائع باللغة التي ألفوها وفهموها، ومع ذلك فإن المضلّ والهادي هو الله عزّ وجلّ؛ والبيان لا يوجب حصول الهداية إلا إذا جعله الله سبحانه واسطة وسبباً، وتقديم الإضلال على الهداية لأنه متقدّم عليها، إذ هو إبقاء على الأصل، والهداية إنشاء ما لم يكن ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغالبه مغالب ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يجري أفعاله على مقتضى الحكمة، ثم لما بيّن أن المقصود من بعثة نبينا ﷺ هو إخراج الناس من الظلمات إلى النور أراد أن يبين أن الغرض من إرسال الأنبياء لم يكن إلا ذلك، وخصّ موسى بالذكر لأن أمته أكثر الأمم المتقدّمة على هذه الأمة المحمدية فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ أي: متلبساً بها، والمراد بالآيات: المعجزات التي لموسى، ومعنى ﴿أَنْ يُخْرِجَ﴾ أي: لتخرج، لأن الإرسال فيه معنى القول، ويجوز أن يكون التقدير بأن أخرج، والمراد بقومه بنو إسرائيل بعد ملك فرعون ﴿مِنْ الظُّلُمَاتِ﴾ من الكفر أو من الجهل الذي قلوا بسببه: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾

تعالى في هذين الوقتين، فإن هذا التائن أيضاً نعمة وقيل: هو من قول الله سبحانه أي: وانكر يا محمد إذ تائن ربكم. وقرأ ابن مسعود (وإذ قال ربكم) والمعنى واحد كما تقدم، واللام في لئن شكرتم هي الموطئة للقسم، وقوله: **﴿لَازِيِنَكُمْ﴾** ساء مسد جوابي الشرط والقسم، وكذا اللام في **﴿وَلئن كُفرتُمْ﴾** وقوله: **﴿إِنْ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾** ساء مسد الجوابين أيضاً، والمعنى: لأن شكرتم إنعامي عليكم بما نكر لازينكم نعمة إلى نعمة تفضلاً مني، وقيل: لازينكم من طاعتي، وقيل: لازينكم من الثواب، والأول أظهر فالشك سبب المزيد، ولئن كُفرتُمْ ذلك وجحدتموه إن عذابي لشديد، فلا بد أن يصيبكم منه ما يصيب، وقيل: إن الجواب محذوف أي: ولئن كُفرتُمْ لأعذبكم، والمنكور تعليل للجواب المحذوف **﴿وقال موسى إن تكفروا أنتم في الأرض جميعاً﴾** أي: إن تكفروا نعمته تعالى أنتم وجميع الخلق ولم تشكروها **﴿فإن الله﴾** سبحانه **﴿لغني﴾** عن شكركم لا يحتاج إليه ولا يلحقه بذلك نقص **﴿حميد﴾** أي: مستوجب الحمد لذاته لكثرة إنعامه، وإن لم تشكروه، أو يحمده غيركم من الملائكة **﴿الم ياتكم نبا الذين من قبلكم﴾** يحتمل أن يكون هذا خطاباً من موسى لقومه، فيكون داخلاً تحت التذكير بأيام الله، ويحتمل أن يكون من كلام الله سبحانه ابتداء خطاباً لقوم موسى وتذكيراً لهم بالقرون الأولى وأخبارهم ومجيء رسل الله إليهم، ويحتمل أنه ابتداء خطاب من الله سبحانه لقوم محمد ﷺ تحذيراً لهم عن مخالفته، والنبا: الخبر، والجمع الأنباء، ومنه قول الشاعر:

الم تاتيكم والأنباء تنمي بما لاقت لبون بني زياد
و **﴿قوم نوح﴾** بدل من الموصول، أو عطف بيان **﴿وعاد وثمود والذين من بعدهم﴾** أي: من بعد هؤلاء المنكورين **﴿لا يعلمهم إلا الله﴾** أي: لا يحصي عددهم ويحيط بهم علماً إلا الله سبحانه، والموصول مبتدأ وخبره لا يعلمهم إلا الله والجملة معترضة، أو يكون الموصول معطوفاً على ما قبله ولا يعلمهم إلا الله اعتراض، وعدم العلم من غير الله إما أن يكون راجعاً إلى صفاتهم وأحوالهم وأخلاقهم ومدد أعمارهم أي: هذه الأمور لا يعلمها إلا الله ولا يعلمها غيره، أو يكون راجعاً إلى نواتهم أي: لا يعلم نوات أولئك الذين من بعدهم إلا الله سبحانه وجملة **﴿جاءتهم رسلهم بالبينات﴾** مستأنفة لبيان النبا المنكور في **﴿الم ياتكم نبا الذين من قبلكم﴾** أي: جاءتهم الرسل بالمعجزات الظاهرة وبالشرائع الواضحة **﴿فرئوا آياتهم في أفواههم﴾** أي جعلوا أيدي أنفسهم في أفواههم ليعضوها غيظاً مما جاءت به الرسل كما في قوله تعالى: **﴿عضوا عليكم الأنامل من الغيظ﴾** [آل عمران: 119] لأن الرسل جاءتهم بتسفيه أحلامهم وشمم أصنامهم؛ وقيل: إن المعنى أنهم أشاروا بأصابعهم إلى أفواههم لما جاءتهم الرسل بالبينات أي: اسكتوا واتركوا هذا الذي جئتم به تكليفاً لهم ورداً لقولهم؛ وقيل: المعنى أنهم أشاروا إلى أنفسهم وما يصدر عنها من

المقالة، وهي قولهم: **﴿إنا كفرنا بما أرسلتم به﴾** أي: لا جواب لكم سوى هذا الذي قلناه لكم بالسنتا هذه؛ وقيل: وضعوا أيديهم على أفواههم استهزاء وتجباً كما يفعله من غلبه الضحك من وضع يده على فيه؛ وقيل: المعنى رنوا على الرسل قولهم وكذبهم بأفواههم، فالضمير الأول للرسل والثاني للكفار؛ وقيل: جعلوا أيديهم في أفواه الرسل رداً لقولهم؛ فالضمير الأول على هذا للكفار والثاني للرسل؛ وقيل: معناه أرمئوا إلى الرسل أن اسكتوا؛ وقيل: أخذوا أيدي الرسل ووضعوها على أفواه الرسل ليسكتوهم ويقطعوا كلامهم؛ وقيل: إن الأيدي هنا النعم أي: رنوا نعم الرسل بأفواههم أي: بالنطق والتكذيب، والمراد بالنعم هنا ما جاءهم به من الشرائع. وقال أبو عبيدة: ونعم ما قال: هو ضرب مثل أي: لم يؤمنوا ولم يجيبوا، والعرب تقول للرجل إذا أمسك عن الجواب وسكت: قد ردَّ يده في فيه. وهكذا قال الأخفش، واعترض ذلك القتيبي فقال: لم يسمع أحد من العرب يقول ردَّ يده في فيه: إذا ترك ما أمر به، وإنما المعنى عضوا على الأيدي حقاً وغيظاً، كقول الشاعر:

يرنن في فيه غيظ الحسود حتى بعض علي الأكفا
وهذا هو القول الذي قلّمناه على جميع هذه الأقوال، ومنه قول الشاعر:

لو أن سلمى أبصرت تجدي عضت من الوجد بأطراف اليد
وهو أقرب التفسير للآية إن لم يصح عن العرب ما نكره أبو عبيدة والأخفش، فإن صح ما نكره ف تفسير الآية به أقرب **﴿وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به﴾** أي قال الكفار للرسل: إنا كفرنا بما أرسلتم به من البينات على زعمكم **﴿وإننا لفي شك مما تدعونا إليه﴾** أي: في شك عظيم مما تدعونا إليه من الإيمان بالله وحده وترك ما سواه **﴿مريب﴾** أي: موجب للريب، يقال: أربت إذا فعلت أمراً أوجب ريبة وشكاً، والريب قلق النفس وعدم سكونها. وقد قيل: كيف صرحوا بالكفر ثم امرهم على الشك؟ وأجيب بأنهم أرادوا إنا كافرون برسالتكم وإن نزلنا عن هذا المقام فلا أقل من أننا نشك في صحة نبوتكم، ومع كمال الشك لا مطمع في الاعتراف بنبوتكم، وجملة **﴿قالت رسلهم أفي الله شك﴾** مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل: فماذا قالت لهم الرسل؟ والاستفهام للتقريع والتوبيخ أي: أفي وحدانيته سبحانه شك، وهي في غاية الوضوح والجلالة، ثم إن الرسل نكروا بعد إنكارهم على الكفار ما يؤكد ذلك الإنكار من الشواهد الدالة على عدم الشك في وجوده سبحانه وحدانيته، فقالوا: **﴿فأطّر للسفوات والأرض﴾** أي: خالفهما ومخترعهما ومبدعهما وموجدتهما بعد العدم **﴿يدعوكم﴾** إلى الإيمان به وتوحيده **﴿ليغفر لكم من ذنوبكم﴾** قال أبو عبيدة: من زائدة، ووجه ذلك قوله في موضع آخر **﴿إن الله يغفر الذنوب جميعاً﴾** [الزمر: 53] وقال سيبويه: هي للتبعيض، ويجوز أن يذكر البعض ويراد منه الجميع؛ وقيل: التبعيض على حقيقته ولا يلزم من غفران جميع الذنوب لامة

عند الله من ذلك، ولكن يقول لئن شكرتم لأزيدنكم من طاعتي. وأخرج أحمد، والبيهقي عن أنس قال: «أتى النبي ﷺ سائل فامر له بتمرة فلم يأخذها، وأتاه آخر فامر له بتمرة فقبلها وقال: تمرة من رسول الله، فقال للجارية: اذهبي إلى أم سلمة فاعطيه الأربعين درهماً التي عندها، وفي إسناد أحمد عمارة بن زاذان، وثقه أحمد ويعقوب بن سفيان وابن حبان. وقال ابن معين: صالح. وقال أبو زرعة: لا بأس به. وقال أبو حاتم: يكتب حديثه ولا يحتج به ليس بالمتين. وقال البخاري: ربما يضطرب في حديثه. وقال أحمد: روي عنه أحاديث منكرة. وقال أبو داود: ليس بذلك، وضعفه الدارقطني. وقال ابن عدي: لا بأس به. وأخرج البخاري في تاريخه، والضياء المقدسي في المختارة عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من ألهم خمسة لم يحرم خمسة، وفيها: ومن ألهم الشكر لم يحرم الزيادة». وأخرج الحكيم الترمذي في نوابر الاغر أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع من أعطيهن لم يمنع من الله أربعاً. وفيها: ومن أعطي الشكر لم يمنع الزيادة؟» ولا وجه لتقييد الزيادة بالزيادة في الطاعة بل الظاهر من الآية العموم كما يفيد جعل الزيادة جزاء للشكر، فمن شكر الله على ما رزقه وسع الله عليه في رزقه، ومن شكر الله على ما أنعم عليه به من الصحة زاده الله صحة ونحو ذلك. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود أنه كان يقرأ: «والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله» ويقول: كذب النسابون. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر عن عمرو بن ميمون مثله. وأخرج ابن الضريس عن أبي مجلز قال: قال رجل لعلي بن أبي طالب: أنا أنسب الناس، قال: إنك لا تنسب الناس، فقال بلى: فقال له علي: أرايت قوله: «وعاداً وثموداً وأصحاب الرس وقروناً بين ذلك كثير» [الفرقان: 38] قال: أنا أنسب ذلك الكثير، قال: أرايت قوله: «والم ياتكم نبا النين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله» فسكت. وأخرج أبو عبيد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عروة بن الزبير قال: ما وجدنا أحداً يعرف ما وراء معد بن عدنان. وأخرج أبو عبيد، وابن المنذر عن ابن عباس قال: بين عدنان وإسماعيل ثلاثون لباً لا يعرفون. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه في قوله: «فروا أيديهم في أقوامهم» قال: لما سمعوا كتاب الله عجبوا ورجعوا بأيديهم إلى أقوامهم «وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعونا إليه مريب» يقولون: لا نصدقكم فيما جئتم به فإن عدناناً فيه شكاً قوياً. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وأبو عبيد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه عن ابن مسعود: فروا أيديهم في أقوامهم قال: عضوا عليها. وفي لفظ: على أناملهم غيظاً على رسلهم.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ نَتُودِدَنَّكُمْ فِي

محمد ﷺ غفران جميعها لغيرهم، وبهذه الآية احتج من جَوَزَ زيادة من في الإثبات؛ وقيل: من للبلد وليست بزيادة ولا تبعيضية أي: لتكون المغفرة بدلاً من الذنوب «ويؤخركم إلى أجل مسمى» أي: إلى وقت مسمى عنده سبحانه، وهو الموت فلا يعذبكم في الدنيا «قلوا إن أنتم إلا بشر مثلنا» أي: ما أنتم إلا بشر مثلنا في الهيئة والصورة، تاكلون وتشربون كما ناكل ونشرب ولستم ملائكة «تريدون أن تصفون» وصفوهم بالبشر أولاً، ثم بإرادة الصذل لهم عما كان يعبد آبائهم ثانياً أي: تريدون أن تصرفونا عن معبودات آبائنا من الأصنام ونحوها «فأتونا» إن كنتم صادقين بأنكم مرسلون من عند الله «يسلطان مبین» أي: بحجة ظاهرة تدل على صحة ما تدعونه، وقد جاؤهم بالسلطان المبين والحجة الظاهرة، ولكن هذا النوع من تعنتاتهم، ولون من تلوناتهم «قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم» أي: ما نحن في الصورة والهيئة إلا بشر مثلكم كما قلتم «ولكن الله يمين على من يشاء من عباده» أي: يتفضل على من يشاء منهم بالنبوة؛ وقيل: بالتوفيق والهداية «وما كان لنا أن نتاكم بسلطان» أي: ما صبح ولا استقام لنا أن نتاكم بحجة من الحجج «إلا بإذن الله» أي: إلا بمشيئته وليس ذلك في قدرتنا. قيل: المراد بالسلطان هنا هو ما يطلبه الكفار من الآيات على سبيل التعنت، وقيل أعم من ذلك، فإن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن «وعلى الله فليتوكل المؤمنون» أي: عليه وحده، وهذا أمر منهم للمؤمنين بالتوكل على الله نون من عداه، وكان الرسل قصصوا بهذا الأمر للمؤمنين الأمر لهم أنفسهم قصداً أولاً، ولهذا قالوا: «وما لنا ألا نتوكل على الله» أي: وأي عذر لنا في ألا نتوكل عليه سبحانه «وقد هدانا سبلاً» أي: والحال أنه قد فعل بنا ما يوجب توكلاً عليه من هدايتنا إلى الطريق الموصل إلى رحمته، وهو ما شرعه لعباده وأوجب عليهم سلوكه «ولنصبرن» على ما آتيتونا بما يقع منكم من التكذيب لنا والافتراءات الباطلة «وعلى الله» وحده نون من عداه «فليتوكل المتوكلون» قيل: المراد بالتوكل الأول استعداده، وبهذا السعي في بقاءه وثبوته؛ وقيل: معنى الأول إن الذين يطلبون المعجزات يجب عليهم أن يتوكلوا في حصولها على الله سبحانه لا علينا، فإن شاء سبحانه أظهرها وإن شاء لم يظهرها. ومعنى الثاني: إبداء التوكل على الله في دفع شر الكفار وسفاهتهم.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن الربيع في قوله: «وإذ تاذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم» قال: أخبرهم موسى عن ربه أنهم إن شكروا النعمة زادهم من فضله وأوسع لهم من الرزق وأظهرهم على العالم. وأخرج ابن جرير عن الحسن «لأزيدنكم» قال: من طاعتي. وأخرج ابن المبارك، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الشعب عن علي بن صالح مثله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن سفيان الثوري في الآية قال: لا تذهب أنفسكم إلى الدنيا فإنها أهون

للفريقين ﴿وخاب كل جبار عنيد﴾ الجبار المتكبر الذي لا يرى لأحد عليه حقاً، هكذا حكاه النحاس عن أهل اللغة، والعنيد المعاند للحق والمجانِب له، وهو مأخوذ من العند، وهو الناحية أي: أخذ في ناحية معرضاً. قال الشاعر:

إذا نزلت فاجعلوني وسطاً إنني كبير لا أطيق العندا
قال الزجاج: العنيد الذي يعدل عن القصد، وبمثله قال الهروي. وقال أبو عبيد: هو الذي عند وبغى، وقال ابن كيسان: هو الشامخ بأنفه؛ وقيل: المراد به العاصي؛ وقيل: الذي أبى أن يقول لا إله إلا الله؛ ومعنى الآية: أنه خسر وملك من كان متصفاً بهذه الصفة ﴿ومن ورائه جهنم﴾ أي: من بعده جهنم، والمراد بعد هلاكه على أن وراء ما هنا بمعنى بعد، ومنه قول النابغة:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب
أي: ليس بعد الله، ومثله قوله: ﴿وكان من ورائه عذاب غليظ﴾ أي: من بعده. كذا قال الفراء؛ وقيل: من ورائه أي: من أمامه. قال أبو عبيد: هو من أسماء الأضداد، لأن أحدهما ينقلب إلى الآخر، ومنه قول الشاعر:

ومن ورائك يوم أنت بالفه لا حاضر معجز عنه ولا بادي
وقال آخر:

أترجو بنو مروان سمي وطاعتي وقومي تميم والفلاة ورائيا
أي: أمامي، ومنه قوله تعالى: ﴿وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا﴾ [الكهف: 79]. أي: أمامهم، ويقول أبي عبيدة هذا قال قطرب. وقال الأخفش: هو كما يقال: هذا الأمر من ورائك أي: سوف يأتيك، وأنا من وراء فلان أي: في طلبه. وقال النحاس: من ورائه أي: من أمامه، وليس من الأضداد، ولكنه من توارى أي: استتر فصار جهنم من ورائه، لأنها لا ترى، وحكى مثله ابن الأنباري ﴿ويسقي من ماء صديد﴾ معطوف على مقتر جولياً عن سؤال سائل، كأنه قيل: فماذا يكون إن؟ قيل: يلقي فيها ويسقي، والصديد ما يسيل من جلود أهل النار واشتقاقه من الصد، لأنه يصد الناظرين عن رؤيته، وهو دم مختلط بقيق، والصديد صفة لماء، وقيل: عطف بيان منه ﴿ويتجرعه﴾ في محل جر على أنه صفة لماء، أو في محل نصب على أنه حال؛ وقيل: هو استئناف مبني على سؤال، والتجرع التحسي أي: يتحساه مرة بعد مرة لا مرة واحدة لمراته وحرارته ﴿ولا يكاد يسيغه﴾ أي: يبتله، يقال ساغ الشراب في الحلق يسوغ سوغاً: إذا كان سهلاً، والمعنى: ولا يقارب إساغته، فكيف تكون الإساغة؟ بل يغص به فيطول عذابه بالعطش تارة، ويشربه على هذه الحال أخرى؛ وقيل: إنه يسيغه بعد شدة وإبطاء، كقوله: ﴿وما كادوا يفعلون﴾ [البقرة: 71] أي: يفعلون بعد إبطاء، كما يدل عليه قوله تعالى في آية أخرى ﴿يصهر به ما في بطونهم﴾ [الحج: 20] ﴿ويأتيه الموت من كل مكان﴾ أي: تأتيه أسباب الموت من كل جهة من الجهات، أو من كل موضع من مواضع بنه. وقال الأخفش: المراد بالموت هنا البلى التي تصيب الكافر في النار، سماها

مَلَيْئاً فَأَرْجَى إِلَيْهِمْ رَهْمٌ لِّئَلَّا يَكُنَّ الظَّالِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَنُخْرِجَنَّكَ الْأَرْضَ مِنْ بَيْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَابِي وَغَابٍ وَغَابٍ كَلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٣٤﴾ بَيْنَ ذَٰلِكَ وَبَيْنَهُمْ رُسُلُكَ مِنْ ذَٰلِكَ مَا كُنْتُمْ لَتَاجِرُهُمْ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُمْ وَيَأْتِيهِ الْغُثُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿٣٥﴾ ثَمَلُ الْكُوفِ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَامًا أَشَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الصَّلَٰلُ الْيَبِيدُ ﴿٣٦﴾

قوله: ﴿وقال الذين كفروا﴾ هؤلاء القائلون هم طائفة المتمترين عن إجابة الرسل، واللام في «لنخرجنكم» هي الموطئة للقسم أي: والله لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا، لم يفتنوا بردهم لما جاءت به الرسل وعدم امتثالهم لما دعواهم إليه حتى اجترأوا عليهم بهذا، وخيروهم بين الخروج من أرضهم، أو العود في ملتهم الكفرية، وقد قيل: إن «أو» في «أو لتعودن» بمعنى حتى أو يعني: إلا أن تعودوا كما قاله بعض المفسرين، ورد بأنه لا حاجة إلى ذلك، بل أو على بابها للتخيير بين أحد الأمرين، وقد تقدم تفسير الآية في سورة الأعراف. قيل والعود هنا بمعنى الصيرورة لعصمة الأنبياء عن أن يكونوا على ملة الكفر قبل النبوة وبعدها؛ وقيل: إن الخطاب للرسل ولمن آمن بهم فغلب على اتباعهم ﴿فالوحي إليهم ربهم﴾ أي: إلى الرسل ﴿لنهلكن الظالمين﴾ أي قال لهم: لنهلكن الظالمين ﴿ولنسكننكم الأرض﴾ أي أرض هؤلاء الكفار الذين توعبكم بما توعدوا من الإخراج أو العود، ومثل هذه الآية قوله سبحانه: ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها﴾ [الأعراف: 137]. وقال: ﴿وأورثكم أرضهم وديارهم﴾ [الأحزاب: 27] وقرئ (ليهلكن) (وليسكننكم) بالتحية في الفعلين اعتباراً بقوله فالوحي، والإشارة بقوله: ﴿ذلك﴾ إلى ما تقدم من إهلاك الظالمين وإسكان المؤمنين في مسكنهم ﴿لمن خاف مقامي﴾ أي: موقعي، وذلك يوم الحساب، فإنه موقف الله سبحانه، والمقام بفتح الميم مكان الإقامة، وبالضم فعل الإقامة؛ وقيل: إن المقام هنا مصدر بمعنى القيام أي: لمن خاف قيامي عليه ومراقبتي له كقوله تعالى: ﴿أقمن هو قائم على كل نفس بما كسبت﴾ [الرعد: 33]. وقال الأخفش: ذلك لمن خاف مقامي أي: عذابي ﴿وخاف وعيد﴾ أي: خاف وعيدي بالعذاب، وقيل: بالقرآن وزوجره، وقيل: هو نفس العذاب، والوعيد الاسم من الوعد ﴿واستفتحوا﴾ معطوف على أوحى، والمعنى: أنهم استنصروا بالله على أعدائهم، أو سألوا الله القضاء بينهم، من الفتاحة وهي الحكومة؛ ومن المعنى الأول قوله: ﴿إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح﴾ [الأنفال: 19] أي: إن تستنصروا فقد جاءكم النصر؛ ومن المعنى الثاني قوله: ﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق﴾ [الأعراف: 89] أي: احكم، والضمير في استفتحوا للرسل؛ وقيل: للكفار، وقيل:

أَيُّهُ ۖ وَأَدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَلَّمُوا الصَّلَاتِ جَنَّتِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ يُحِبُّهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٦١﴾

قوله: ﴿إِلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ الرؤية هنا هي القلبية، والخطاب لرسول الله ﷺ تعريضاً لامته، أو الخطاب لكل من يصلح له. وقرأ حمزة والكسائي (خالق السموات) ومعنى بالحق: بالوجه الصحيح الذي يحق أن يخلقها عليه ليستدل بها على كمال قدرته. ثم بين كمال قدرته سبحانه واستغناؤه عن كل واحد من خلقه فقال: ﴿إِنْ يَشَاءُ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ فيعدم الموجودين ويوجد المعدمين ويهلك العصاة ويأتي بمن يطيعه من خلقه، والمقام يحتمل أن يكون هذا الخلق الجديد من نوع الإنسان، ويحتمل أن يكون من نوع آخر ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي: بممتنع، لأنه سبحانه قادر على كل شيء، وفيه أن الله تعالى هو الحقيق بأن يرجي ثوابه ويخاف عقابه، فلذلك اتبعه بنكر أحوال الآخرة فقال: ﴿وَبَرِّزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ أي: برزوا من قبورهم يوم القيامة، والبروز: الظهور، والبراز المكان الواسع لظهوره، ومنه امرأة برزة أي: تظهر للرجال؛ فمعنى برزوا ظهوراً من قبورهم. وعبر بالماضي عن المستقبل تنبيهاً على تحقيق وقوعه كما هو مقرر في علم المعاني، وإنما قال: وبرزوا الله مع كونه سبحانه علماً بهم لا تخفى عليه خافية من أحوالهم برزوا أو لم يبرزوا، لأنهم كانوا يستترون عن العيون عند فعلهم للمعاصي ويظنون أن ذلك يخفى على الله تعالى، فالكلام خارج على ما يعتقدونه ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ أي قال: الاتباع الضعفاء للرؤساء الأقوياء المتكبرين لما هم فيه من الرياسة ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً﴾ أي: في الدنيا، فكذبنا الرسل وكفرنا بالله متابعة لكم، والتبع جمع تابع، أو مصدر وصف به للمبالغة أو على تقدير نوي تبع، قال الزجاج: جمعهم في حشرهم فاجتمع التابع والمتبوع، فقال الضعفاء للذين استكبروا من أكابرهم عن عبادة الله: إنا كنا لكم تبعاً جمع تابع مثل خادم وخدم وحارس وحرس وراصد ورصد ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مَغْنُونُونَ﴾ أي: دافعون عنا من عذاب الله من شيء، من الأولى للبيان، والثانية للتبعض أي: بعض الشيء الذي هو عذاب الله؛ يقال: أغنى عنه إذا دفع عنه الأذى. وأغناه إذا أوصل إليه النفع ﴿قُلُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ﴾ أي: قال المستكبرون مجيبين عن قول المستضعفين، والجملة مستأنفة بتقدير سؤال كأنه قيل كيف أجابوا؟ أي لو هدانا الله إلى الإيمان لهديناكم إليه؛ وقيل: لو هدانا الله إلى طريق الجنة لهديناكم إليها؛ وقيل: لو نجانا الله من العذاب لنجيناكم منه ﴿سِوَاهُ عَلَيْنَا لِحُزْنِنَا أَمْ صَبْرِنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾ أي: مستوي علينا الجزع والصبر، والهزمة وأم لتأكيد التوسية في قوله: ﴿سِوَاهُ عَلَيْهِمُ النَّارُتُمْ أَمْ لَمْ تَنْتَرَهُمْ﴾ [البقرة: 6] ﴿وَمَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾ أي: من منجاة ومهرب من العذاب، يقال: حاص فلان عن كذا أي: فرّ وذاغ يحيص حيصاً

وحيصاً وحيصاناً، والمعنى: ما لنا وجه نتباعد به عن النار، ويجوز أن يكون هذا من كلام الفريقين، وإن كان الظاهر أنه كلام المستكبرين ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لِمَا قَضَى الْأَمْرُ﴾ أي: قال للفريقين هذه المقالة، ومعنى لما قضى الأمر: لما دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار على ما يأتي بيانه في سورة مريم. ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعْدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ وهو وعده سبحانه بالبعث والحساب، ومجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ﴿وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ أي: وعنتكم وعداً باطلاً، بأنه لا بعث ولا حساب ولا جنة ولا نار فأخلفتمكم ما وعدتكم به من ذلك. قال الفراء: وعد الحق هو من إضافة الشيء إلى نفسه كقولهم: مسجد الجامع. وقال البصريون: وعدهم وعد اليوم الحق ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي: تسلط عليكم بإظهار حجة على ما وعدتكم به وزينته لكم ﴿إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ أي: إلا مجرد دعائي لكم إلى الغواية والضلال بلا حجة ولا برهان، ودعوته إياهم ليست من جنس السلطان حتى تستثنى منه، بل الاستثناء منقطع أي: لكن دعوتكم فاستجبتكم لي أي: فسارعتكم إلى إجابتي؛ وقيل: المراد بالسلطان هنا القهر أي: ما كان لي عليكم من قهر يضطركم إلى إجابتي؛ وقيل هذا الاستثناء هو من باب:

تحية بينهم ضرب وجيع

مبالغة في نفية للسلطان عن نفسه كأنه قال: إنما يكون لي عليكم سلطان إذا كان مجرد الدعاء من السلطان، وليس منه قطعاً ﴿فَلَا تُلْهُمُونِي﴾ بما وقعت فيه بسبب وعدي لكم بالباطل وإخلافي لهذا الموعد ﴿وَلَوْلَوْمُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ باستجابتكم لي بمجرد الدعوة التي لا سلطان عليها ولا حجة، فإن من قبل المواعيد الباطلة والدعوى الزائفة عن طريق الحق فعلى نفسه جنى، ولمارنه قطع ولا سيما ودعوتي هذه الباطلة وموعدي الفاسد وقعا معارضين لوعده الله لكم وعد الحق ودعوته لكم إلى الدار السلام مع قيام الحجة التي لا تخفى على عاقل ولا تلتبس إلا على مخذول. وقريب من هذا من يقتدي بآراء الرجال المخالفة لما في كتاب الله سبحانه، ولما في سنة رسوله ﷺ ويؤثرها على ما فيها، فإنه قد استجاب للباطل الذي لم تقم عليه حجة ولا دل عليه برهان، وترك الحجة والبرهان خلف ظهره كما يفعله كثير من المقتدين بالرجال المتنكيين طريق الحق بسوء اختيارهم. اللهم غفراً ﴿مَا أَنَا بِمُصْرَخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرَخِي﴾ يقال: صرخ فلان إذا استغاث يصرخ صرخاً وصرخاً، واستصرخ بمعنى صرخ، والمصرخ المغيث، والمستصرخ المستغيث، يقال: استصرخني فأصْرَخْتُهُ، والصريخ: صوت المستصرخ، والصريخ أيضاً: الصارخ وهو المغيث والمستغيث، وهو من أسماء الأضداد كما في الصحاح. قال ابن الأعرابي: الصارخ: المستغيث، والمصرخ: المغيث، ومعنى الآية: ما أنا بمغيثكم مما أنتم فيه من العذاب، وما أنتم بمغيثي مما أنا فيه، وفيه إرشاد لهم إلى أن

الجمهور (ادخل) على البناء للمفعول، وقرأ الحسن (وأنزل) على الاستقبال والبناء للفاعل أي: وأنا أنزل الذين آمنوا، ثم نكر سبحانه خلودهم في الجنات وعدم انقطاع نعيمهم، ثم نكر أن ذلك بإذن ربهم أي: بتوقيفه ولطفه وهديته، هذا على قراءة الجمهور، وأما على قراءة الحسن فيكون (بإذن ربهم) متعلقاً بقوله: ﴿تَحْيِيهِمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ أي: تحية الملائكة في الجنة سلام بإذن ربهم، وقد تقدّم تفسير هذا في سورة يونس.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن قتادة في قوله: ﴿وَيَاتٍ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ قال: بخلق آخر. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن جريج في قوله: ﴿وَقَالَ الضُّعَفَاءُ﴾ قال: الاتباع ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ قال: للقادة. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم في قوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُنَا أَمْ صَبْرُنَا﴾ قال زيد بن أسلم: جزعوا مائة سنة، وصبروا مائة سنة. وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مريويه عن كعب بن مالك يرفعه إلى النبي ﷺ في قوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا﴾ الآية قال: «يقول أهل النار: هلموا فلنصبر، فيصبرون خمسمائة عام، فلما رأوا ذلك لا ينفعهم قالوا: هلموا فلنجزع، فيكوا خمسمائة عام، فلما رأوا ذلك لا ينفعهم قالوا: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُنَا أَمْ صَبْرُنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾. والظاهر أن هذه المراجعة كانت بينهم بعد دخولهم النار كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاوَجُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فُهِلْ أَنْتُمْ مَغْنَمُونَ عَنَا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ [غافر: 47 - 48] وأخرج ابن المبارك في الزهد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مريويه، وابن عساكر عن عقبة بن عامر يرفعه، ونكر فيه حديث الشفاعة، ثم قال: «ويقول الكافر عند ذلك: قد وجد المؤمنون من يشفع لهم، فمن يشفع لنا؟ ما هو إلا إبليس فهو الذي أضلنا، فيأتون إبليس فيقولون: قد وجد المؤمنون من يشفع لهم قم أنت فاشفع لنا فإنك أنت أضللتنا، فيقوم إبليس فيثور من مجلسه من أنثر ربح شهما لحد قط، ثم يعظم بهنهم، ويقول عند ذلك: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعْدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَيْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾» الآية، وضعف السيوطي إسناده، ولعل سبب ذلك كون في إسناده رشدين بن سعد عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم، عن نجين الحجزلي، عن عقبة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الحسن قال: إذا كان يوم القيامة قام إبليس خطيباً على منبر من نار فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعْدَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرَخِي﴾ قال: بناصري ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ قال: بطاعتكم إياي في الدنيا. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن الشعبي في هذه الآية قال: خطيبان يقومان يوم القيامة: إبليس، وعيسى، فأما إبليس فيقوم في حزبه فيقول: هذا القول يعني: المذكور في الآية، وأما عيسى فيقول: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكَنتَ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا

الشیطان في تلك الحالة مبتلى بما ابتلوا به من العذاب محتاج إلى من يغيثه ويخلصه مما هو فيه، فكيف يطعمون في إغاثته من هو محتاج إلى من يغيثه؟ ومما ورد مورد هذه الأقوال من قول العرب قول أمية بن أبي الصلت:

فلا تجزعوا إنني لكم غير مصرخ وليس لكم عندي غناء ولا نفر و (مصرخي) بفتح الياء في قراءة الجمهور. وقرأ الأعمش وحمزة بكسر الياء على أصل التقاء الساكنين. قال الفراء: قراءة حمزة وهم منه، وقل من سلم عن خطأ، وقال الزجاج: هي قراءة ربيعة ولا وجه لها إلا وجه ضعيف يعني: ما نكرناه من أنه كسرهما على الأصل في التقاء الساكنين. وقال قطرب: هذه لغة بني يربوع يزيبون على ياء الإضافة ياء، وأنشد الفراء فيما ورد على هذه القراءة قول الشاعر:

قلت لها ياتاه هل لك فيني قالت له ما أنت بالمرضي ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ لما كشف لهم القناع بأنه لا يغيث عنهم من عذاب الله شيئاً، ولا ينصرهم بنوع من أنواع النصر. صرح لهم بأنه كافر بإشراكهم له مع الله في الربوبية من قبل هذا الوقت الذي قال لهم الشيطان فيه هذه المقالة، وهو ما كان منهم في الدنيا من جعله شريكاً، ولقد قام لهم الشيطان في هذا اليوم مقاماً يقصم ظهورهم ويقطع قلوبهم، فأوضح لهم أولاً أن مواعيده التي كان يعدم بها في الدنيا باطلة معارضة لوعده الحق من الله سبحانه وأنه أخلفهم ما وعدهم من تلك المواعيد ولم يف لهم بشيء منها؛ ثم أوضح لهم ثانياً بأنهم قبلوا قوله بما لا يوجب القبول، ولا ينفق على عقل عاقل لعدم الحجة التي لا بد للعاقل منها في قبول قول غيره، ثم أوضح ثالثاً بأنه لم يكن منه إلا مجرد الدعوة العاطلة عن البرهان الخالية عن أيسر شيء مما يتمسك به العقلاء، ثم نعى عليهم رابعاً ما وقعوا فيه، وبنفع لومهم له وأمرهم بأن يلوموا أنفسهم، لأنهم هم الذين قبلوا الباطل البحت الذي لا يلتبس بطلانه على من له أدنى عقل؛ ثم أوضح لهم خامساً بأنه لا نصر عنده ولا إغاثة ولا يستطيع لهم نفعاً ولا يدفع عنهم ضرراً، بل هو مثلمهم في الوقوع في البلية والعجز عن الخلوص عن هذه المحنة؛ ثم صرح لهم سادساً بأنه قد كفر بما اعتقدوه فيه وأثبتوه له فتضاعفت عليهم الحسرات وتوالت عليهم المصائب، وإذا كان جملة ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ من تنمة كلامه كما ذهب إليه البعض فهو نوع سابغ من كلامه الذي خاطبهم به، فاثبت لهم الظلم، ثم نكر ما هو جزأهم عليه من العذاب الأليم، لا على قول من قال: إنه ابتداء كلام من جهة الله سبحانه. وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن ما مصدرية في «ما أشركتمون» وقيل: يجوز أن تكون موصولة على معنى إنني كفرت بالذي أشركتموني وهو الله عز وجل، ويكون هذا حكاية لكفره بالله عند أن أمره بالسجود لأدم ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ لما أخبر سبحانه بحال أهل النار أخبر بحال أهل الجنة. وقرأ

تطلقه حيناً وحيناً تراجع

قال النحاس: وهذا يبين لك أن الحين بمعنى الوقت. وقد ورد الحين في بعض المواضع يرد به أكثر كقوله: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ﴾ [الإنسان: 1]. وقد تقدم بيان أقوال العلماء في الحين في سورة البقرة في قوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مَسْكَنٌ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: 36]. وقال الزجاج: الحين الوقت طال أم قصر ﴿وَيُضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يتفكرون أحوال المبدأ والمعاد. ويدائع صنعه سبحانه الدالة على وجوده ووحدانيته، وفي ضرب الأمثال زيادة تنكير وتفهم وتصوير للمعاني ﴿وَمِثْلُ كَلِمَةِ خَبِيثَةٍ﴾ قد تقدم تفسيرها؛ وقيل: هي الكافر نفسه، والكلمة الطبية: المؤمن نفسه ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ أي: كمثل شجرة خبيثة. قيل: هي شجرة الحنظل؛ وقيل: هي شجرة الثوم، وقيل: الكمأة؛ وقيل: الطحلية؛ وقيل: هي الكشوث بالضم وآخره مثله، وهي شجرة لا ورق لها ولا عروق في الأرض. قال الشاعر:

وهي كشوث فلا أصل ولا ثمر

وقرئ (ومثلاً كلمة) بالنصب عطفاً على كلمة طيبة ﴿اجْتَنَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ﴾ أي: استوصلت واقتلعت من أصلها، ومنه قول الشاعر:

هو الجلاء الذي يجتث أصلكم

قال المؤرخ: أخذت جثتها وهي نفسها، والجثة: شخص الإنسان، يقال: جثه قلعه، واجتته: اقتلعه. ومعنى ﴿مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ﴾: أنه ليس لها أصل راسخ وعروق متمكنة من الأرض ﴿مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ أي: من استقرار على الأرض؛ وقيل: من ثبات على الأرض، كما أن الكافر وكلمته لا حجة له ولا ثبات فيه ولا خير يأتي منه أصلاً، ولا يصعد له قول طيب ولا عمل طيب ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ أي: بالحجة الواضحة، وهي الكلمة الطبية المتقدم نكرها، وقد ثبت في الصحيح أنها كلمة الشهادة «شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله» وذلك إذا قعد المؤمن في قبره قال النبي ﷺ: فذلك قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾، وقيل: معنى تثبتت الله لهم هو أن يديموا على القول الثابت، ومنه قول عبد الله بن رواحة:

يثبت الله ما أتاك من حسن تثبتت موسى ونصراً كألذي نصروا
ومعنى ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أنهم يستمرون على القول الثابت في الحياة الدنيا، قال جماعة: المراد بالحياة الدنيا في هذه الآية القبر لأن الموتى في الدنيا حتى يبعثوا، ومعنى ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ وقت الحساب. وقيل: المراد، بالحياة الدنيا وقت المساءلة في القبر، وفي الآخرة: وقت المساءلة يوم القيامة؛ والمراد أنهم إذا سئلوا عن معتقدهم ودينهم أوضحوا نك بالقول الثابت من دون تلعمث ولا تردد ولا جهل، كما يقول: من لم يوفق لا أدري، فيقال له: لا دريت ولا تليت ﴿يُوضِلُ اللَّهُ الْغُلَّامِينَ﴾ أي: يضلهم عن حجتهم التي هي القول الثابت فلا يقدرون على التكلم بها في قبورهم ولا عند

توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد» [المائدة: 117]. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿مَا لَنَا بِمَصْرُخِكُمْ وَمَا لَنَا بِمَصْرُخِي﴾ قال: ما أنا بنافعكم وما أنتم بنافعي ﴿إِنِّي كُفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾ قال شركه: عباته. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر عن قتادة ﴿مَا لَنَا بِمَصْرُخِكُمْ﴾ قال: ما أنا بمغيثكم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن جريج في قوله: ﴿تَحْيِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ قال: الملائكة يسلمون عليهم في الجنة.

أَنْ تَرَى كَيْفَ مَرَّبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿١٥﴾ تُوَفَّقُ أَصْلُهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَصْرِفُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٦﴾ وَمِثْلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿١٧﴾ يَثْبُتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَعْمَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿١٨﴾

لما نكر سبحانه مثل أعمال الكفار، وإنها كرماد اشتدت به الريح، ثم ذكر نعيم المؤمنين، وما جازاهم الله به من إدخالهم الجنة خالدين فيها، وتحية الملائكة لهم نكر تعالى ما هنا مثلاً للكلمة الطيبة، وهي كلمة الإسلام أي: لا إله إلا الله، أو ما هو أعم من ذلك من كلمات الخير، وذكر مثلاً للكلمة الخبيثة، وهي كلمة الشرك، أو ما هو أعم من ذلك من كلمات الشر، فقال مخاطباً لرسول الله ﷺ، أو مخاطباً لمن يصلح للخطاب: ﴿لَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ أي: اختار مثلاً وضعه في موضعه اللائق به، وانتصاب مثلاً على أنه مفعول ضرب وكلمة بدل منه، ويجوز أن تنتصب الكلمة على أنها عطف بيان لمثلاً، ويجوز أن تنتصب الكلمة بفعل مقتر أي: جعل كلمة طيبة كشجرة طيبة، وحكم بأنها مثلاً، ومحل كشجرة النصب على أنها صفة لكلمة، أو الرفع على تقدير مبتدأ أي: هي كشجرة، ويجوز أن تكون كلمة أول مفعولي ضرب، وأخرت عن المفعول الثاني، وهو مثلاً لثلاث تبعه عن صفتها، والأول أولى، وكلمة وما بعدها تفسير للمثل، ثم وصف الشجرة بقوله: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ أي: راسخ آمن من الانقلاص بسبب تمكنها من الأرض بعروقها ﴿وَفُرُوعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ أي: أعلاها ذاهب إلى جهة السماء مرتفع في الهواء، ثم وصفها سبحانه بأنها ﴿تُوَفِّي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ كل وقت ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ بإرادته ومشئته، قيل: وهي النخلة؛ وقيل غيرها. قيل: والمراد بكونها تؤتي أكلها كل حين أي: كل ساعة من الساعات من ليل أو نهار في جميع الأوقات من غير فرق بين شتاء وصيف؛ وقيل: المراد في أوقات مختلفة من غير تعيين؛ وقيل: كل غداة وعشية، وقيل: كل شهر؛ وقيل: كل ستة أشهر. قال النحاس: وهذه الأقوال متقاربة غير متناقضة لأن الخبر عند جميع أهل اللغة إلا من شذَّ منهم بمعنى الوقت يقع لقليل الزمان وكثيره، وأنشد الأصمعي قول النابغة:

عبيد، وابن أبي شيبه، وابن جرير، وابن المنذر عنه أيضاً قال: الحين هنا سنة. وأخرج البيهقي عنه أيضاً قال: الحين قد يكون غداة وعشية. وقد روي عن جماعة من السلف في هذا أقوال كثيرة. وأخرج البخاري، ومسلم، وأهل السنن، وغيرهم عن البراء بن عازب: أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم إذا سئل في القبر يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فذلك قوله سبحانه: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾». وأخرج ابن أبي شيبه، والبيهقي عن البراء بن عازب في قوله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية قال: التثبيت في الحياة الدنيا إذا جاء المملكان إلى الرجل في القبر فقالا: من ربك؟ فقال: ربي الله، قال: وما دينك؟ قال ديني الإسلام، قال: ومن نبيك؟ قال نبيي محمد ﷺ، فذلك التثبيت في الحياة الدنيا. وأخرج البيهقي عن ابن عباس نحوه. وأخرج الطبراني في الأوسط، وابن مردويه عن أبي سعيد في الآية قال: في الآخرة القبر، وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت: «قال النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية قال: هذا في القبر». وأخرج البيهقي من حديثه نحوه. وأخرج البزار عنها أيضاً قالت: «قلت: يا رسول الله تبثلي هذه الأمة في قبورها، فكيف بي وأنا امرأة ضعيفة؟ قال: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية»، وقد وردت أحاديث كثيرة في سؤال الملائكة للميت في قبره، وفي جوابه عليهم وفي عذاب القبر وفنتته، وليس هذا موضع بسطها، وهي معروفة.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَعَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿١٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَنَافَسَ الْأَقْرَارُ ﴿١٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِيُحْسِلُوا عَنْ سَيِّئِهِ قُلْ تَتَّبِعُوا فَإِنِ صِبْرَكُمْ إِلَى الْكَافِرِ ﴿٢٠﴾ قُلْ لِيَعْبُدُوا الَّذِينَ آمَنُوا يُعْبُدُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا زَكَاةً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ اللَّهِ فِي الْبُكُورِ وَالْآخِرِ إِنَّهُمْ كَانُوا مُتَعَبِينَ ﴿٢١﴾ أَنَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الْثَمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٢٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٢٣﴾ وَهُوَ الَّذِي يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ إِنَّكُمْ إِلَيْنَا تَرْجِعُونَ ﴿٢٤﴾﴾

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ هذا خطاب لرسول الله ﷺ أو لكل من يصلح له، وهو تعجيب من حال الكفار حيث جعلوا بدل نعمة الله عليهم الكفر أي: بدل شكرها الكفر بها، وذلك بتكذيبهم محمداً ﷺ حين بعثه الله منهم وأنعم عليهم به. وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أنهم كفار مكة وأن الآية نزلت فيهم، وقيل: نزلت في الذين قاتلوا رسول الله ﷺ يوم بدر، وقيل: نزلت في بطون قريش بني مخزوم وبني أمية؛ وقيل: نزلت في منتصرة العرب، وهم جيلة بن الأيهم وأصحابه، وفيه نظر، فإن جيلة وأصحابه لم يسلموا إلا في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ وقيل: إنها عامة في جميع المشركين؛ وقيل: المراد بتبديل نعمة الله

الحساب، كما أضلهم عن اتباع الحق في الدنيا. قيل: والمراد بالظالمين هنا الكفرة؛ وقيل كل من ظلم نفسه ولو بمجرد الإعراض عن البينات الواضحة فإنه لا يثبت في مواقف الفتن ولا يهتدي إلى الحق، ثم ذكر سبحانه أنه يفعل ما يشاء من التثبيت والخذلان لا راء لحكمه، ولا يسأل عما يفعل. قال الفراء: أي لا تنكر له قدرة ولا يسأل عما يفعل والإظهار في محل الإضمار في الموضعين لتربية المهابة كما قيل: والله أعلم.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن ابن عباس في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ قال: شهادة أن لا إله إلا الله ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ وهو المؤمن ﴿أَصْلَهَا ثَابِتٌ﴾ يقول: لا إله إلا الله ثابت في قلب المؤمن ﴿وَوُفِّرَهَا فِي السَّمَاءِ﴾ يقول: يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء ﴿وَمِثْلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ وهي الشرك ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ يعني: الكافر ﴿اجْتَنَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَالَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ يقول: الشرك ليس له أصل يأخذ به الكافر ولا برهان، ولا يقبل الله مع الشرك عملاً. وقد روي نحو هذا عن جماعة من التابعين ومن بعدهم. وأخرج الترمذي، والنسائي، والبزار، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن أنس قال: «أتى رسول الله ﷺ بقناع من بسر فقال: ﴿مِثْلُ كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ حتى بلغ ﴿تَوْتِي أَكَلَهَا كُلِّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ قال: هي النخلة ﴿وَمِثْلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ حتى بلغ ﴿مَالَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ قال: هي الحنظلة». وروي موقوفاً على أنس، قال الترمذي: الموقوف أصح. وأخرج أحمد وابن مردويه. قال السيوطي بسند جيد عن عمر، عن النبي ﷺ في قوله ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾: قال: «هي التي لا ينقص ورقها قال: هي النخلة». وأخرج البخاري وغيره من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ يوماً لأصحابه: «إن شجرة من الشجر لا يطرح ورقها مثل المؤمن، قال: فوقع الناس في شجرة البوادي. ووقع في قلبي أنها النخلة، فاستحييت حتى قال رسول الله ﷺ: «هي النخلة». وفي لفظ للبخاري قال: «أخبروني عن شجرة كالرجل المسلم لا يتحات ورقها ولا توتى أكلها كل حين»، فذكر نحوه. وفي لفظ لابن جرير وابن مردويه من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «هل تدرون مات الشجرة الطيبة؟ ثم قال: هي النخلة»، وروي نحو هذا عن جماعة من الصحابة والتابعين. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿تَوْتِي أَكَلَهَا كُلِّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ قال: كل ساعة بالليل والنهار والشتاء والصيف، وذلك مثل المؤمن يطيع ربه بالليل والنهار والشتاء والصيف. وأخرج ابن أبي حاتم عنه في الآية قال: يكون أخضر ثم يكون أصفر. وأخرج عنه أيضاً في قوله: ﴿كُلِّ حِينٍ﴾ قال: جذاذ النخل. وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿تَوْتِي أَكَلَهَا كُلِّ حِينٍ﴾ قال: تطعم في كل ستة أشهر. وأخرج أبو

على الظرف أي: وقت سرّ وقت علانية. قال الجمهور: السرّ ما خفي. والعلانية ما ظهر. وقيل: السرّ التطوُّع، والعلانية الغرض، وقد تقدم بيان هذا عند تفسير قوله: ﴿إِنْ تَبَدُّوا الصَّلَاتِ فَنَعْمَ أَمْرٌ﴾ [البقرة: 271]. ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمَ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالَ﴾ قال أبو عبيدة: البيع ما هنا الفداء والخلال المخالة، وهو مصدر. قال الواحدي: هذا قول جميع أهل اللغة، وقال أبو عليّ الفارسي: يجوز أن يكون جمع خلة مثل برمة وبرام وعليه وعلاب، والمعنى: أن يوم القيامة لا بيع فيه حتى يفتدي المقصر في العمل نفسه من عذاب الله بدفع عوض عن ذلك، وليس هناك مخاللة حتى يشفع الخليل لخليله وينقذه من العذاب، فأمرهم سبحانه بالإتفاق في وجوه الخير مما رزقهم الله ما داموا في الحياة الدنيا قاصرين على إنفاق أموالهم من قبل أن يأتي يوم القيامة، فإنهم لا يقدرون على ذلك بل لا مال لهم إذ ذاك، فالجملة أعني: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمَ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالَ﴾ لتأكيد مضمون الأمر بالإتفاق مما رزقهم الله، ويمكن أن يكون فيها أيضاً تأكيد لمضمون الأمر بإقامة الصلاة، وذلك لأن تركها كثيراً ما يكون سبب الاشتغال بالبيع ورعاية حقوق الأخلاء، وقد تقدم في البقرة تفسير البيع والخلال ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي: أبدعهما واخترعهما على غير مثال وخلق ما فيهما من الأجرام العلوية والسفلية. والاسم الشريف مبتدأ وما بعده خبره ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ المراد بالسمااء هنا جهة العلو، فإنه يدخل في ذلك الفلك عند من قال: إن ابتداء المطر منه. ويدخل فيه السحاب عند من قال: إن ابتداء المطر منها، وتدخل فيه الأسباب التي تثير السحاب كالرياح. وتكثير الماء هنا للتنوعية أي: نوعاً من أنواع الماء، وهو ماء المطر ﴿فَخَرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ﴾ أي: أخرج بذلك الماء من الثمرات المتنوعة رزقاً لبني آدم يعيشون به، و«من» في من الثمرات للبيان كقولك: أنفقت من الدراهم، وقيل: للتبويض لأن الثمرات منها ما هو رزق لبني آدم، ومنها ما ليس برزق لهم، وهو ما لا يأكلونه ولا ينتفعون به ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ﴾ فجرت على إراتكم واستعملتموها في مصالحكم. ولذا قال: ﴿لَتَجْرِي فِي الْبَحْرِ﴾ كما تريبون وعلى ما تطلبون ﴿بِأَمْرِهِ﴾ أي: بأمر الله ومشيطته، وقد تقدم تفسير هذا في البقرة ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْإِنْفَارَ﴾ أي: نللهما لكم بالركوب عليها والإجراء لها إلى حيث تريبون ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ لتنتفعوا بهما وتستضيئوا بضوئهما، وانتصاب «دائبين» على الحال. والدُّوب مرور الشيء في العمل على عادة جارية أي: دائبين في إصلاح ما يصلحانه من النبات وغيره؛ وقيل: دائبين في السير امتثالاً لأمر الله. والمعنى: يجريان إلى يوم القيامة لا يفتران ولا ينقطع سيرهما ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ يتعاقبان، فالنهار لسعيكم في أمور معاشكم وما تحتاجون إليه من أمور دنياكم. والليل لتسكنوا كما قال سبحانه: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ

كُفْراً أَنَّهُمْ لَمَّا كَفَرُوا سَلَبَهُمُ اللَّهُ ذَلِكَ فَصَارُوا مُتَبَكِّلِينَ بِهِ الْكَفَرِ ﴿وَأَحْلَوْا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ أي: أنزلوا قومهم بسبب ما زينوه لهم من الكفر دار البوار، وهي جهنم، والبوار الهلاك؛ وقيل هم قادة قريش أحلوا قومهم يوم بدر دار البوار أي: الهلاك وهو القتل الذي أصيبوا به، ومنه قول الشاعر:

فلم أرَ مثلهم أبطل حرب غداة الحرب إذ خيف البوار
والأول أولى لقوله: ﴿جَهَنَّمَ﴾ فإنه عطف بيان لدار البوار، و﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ في محل نصب على الحال، أو هو مستأنف لبيان كيفية حلولهم فيها ﴿وَيُفَسِّسُ لِقَارَارِ﴾ أي: بشس القرار قرارهم فيها، أو بشس المقر جهنم، فالمخصوص بالنم محذوف ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً﴾ معطوف على وأحلوا أي: جعلوا لله شركاء في الربوبية، أو في التسمية وهي الأصنام. قرأ ابن كثير وأبو عمرو (ليضلوا) بفتح الياء أي: ليضلوا أنفسهم عن سبيل الله، وتكون اللام للعاقبة أي: ليتعقب جهلهم لله أنداداً ضلالهم، لأن العاقل لا يريد ضلال نفسه، وحسن استعمال لام العاقبة هنا لأنها تشبه الغرض والغاية من جهة حصولها في آخر المراتب، والمشابهة لحد الأمور المصححة للمجاز. وقرأ الباقون بضم الياء ليقوموا قومهم في الضلال عن سبيل الله، فهذا هو الغرض من جعلهم لله أنداداً. ثم هذبه سبحانه، فقال لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا﴾ بما أنتم فيه من الشهوات، وما زينته لكم أنفسكم من كفران النعم وإضلال الناس ﴿فَإِنْ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ أي: مرئكم ومرجعكم إليها ليس إلا، ولما كان هذا حالهم، وقد صاروا لفرط تهالكهم عليه وانهمالكهم فيه لا يقلعون عنه، ولا يقبلون فيه نصح الناصحين جعل الأمر بمباشرة مكان النهي قربانه أيضاً لما تكون عليه عاقبتهم، وأنهم لا محالة صائرُونَ إلى النار فلا بدّ لهم من تعاطي الأسباب المقتضية لذلك، فجملة ﴿فَإِنْ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ تعليل للأمر بالتمتع، وفيه من التهديد ما لا يقادر قدره؛ ويجوز أن تكون هذه الجملة جواباً لمحذوف دلّ عليه سياق الكلام، كأنه قيل: فإن نمت على ذلك فإن مصيركم إلى النار، والأول أولى والنظم القرآني عليه أدلّ، وذلك كما يقال لمن يسعى في مخالفة السلطان: اصنع ما شئت من المخالفة، فإن مصيرك إلى السيف ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلَانِيَةً﴾ لما أمره بأن يقول للمبتكئين نعمة الله كُفْراً الجاعلين لله أنداداً ما قاله لهم أمره سبحانه أن يقول للطائفة المقابلة لهم، وهي طائفة المؤمنين هذا القول، والمقول محذوف دلّ عليه المذكور أي: قل لِعِبَادِيَ أَقِيمُوا وَانْفِقُوا وَيُقِيمُوا وَيَنْفِقُوا، فجزم يقيموا على أنه جواب الأمر المحذوف، وكذلك ينفقوا، نكر معنى هذا الفراء. وقال الزجاج: إن يقيموا مجزوم بمعنى اللام أي: ليقيموا فاسقطت اللام، ثم نكر وجهاً آخر للجزم مثل ما نكروه الفراء. وانتصاب سرّاً وعَلَانِيَةً، إما على الحال أي: مسرين ومعلنين، أو على المصدر أي: إنفاق سرّاً وإنفاق علانية، أو

ومعنى تهوي إليهم: تنزع إليهم، يقال: هوى نحوه إذا مال، وهوت الناقة تهوي هويًا فهي هاربة: إذا عدت عدوًا شديدًا كأنها تهوي في بئر، ويحتمل أن يكون المعنى: تجيء إليهم أو تسرع إليهم، والمعنى متقارب ﴿وَأَرْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ أي: أرزق نريتي الذين أسكنتهم هناك أو هم ومن يسكنهم من الناس من أنواع الثمرات التي تنبت فيه، أو تجلب إليه ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ نعمك التي أنعمت بها عليهم ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نَعْلَنُ﴾ أي: ما نكتمه وما نظهره، لأن الظاهر والمضمر بالنسبة إليه سبحانه سيان. قيل والمراد هنا بما نخفي ما يقابل ما نعلن، فالمعنى ما نظهره وما لا نظهره، وقدم ما نخفي على ما نعلن للدلالة على أنهما مستويان في علم الله سبحانه. وظاهر النظم القرآني عموم كل ما لا يظهر وما يظهر من غير تقييد بشيء معين من ذلك؛ وقيل المراد ما يخفيه إبراهيم من وجده بإسماعيل وأمه حيث أسكنهما بواو غير ذي زرع، وما يعلنه من ذلك؛ وقيل: ما يخفيه إبراهيم من الوجد ويعلنه من البكاء والدعاء، والمجيء بضمير الجماعة يشعر بأن إبراهيم لم يرد نفسه فقط، بل أراد جميع العباد، فكان المعنى: أن الله سبحانه يعلم بكل ما يظهره العباد وبكل ما لا يظهره. وأما قوله: ﴿وَمَا يُخْفِي عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ فقال جمهور المفسرين: هو من كلام الله سبحانه تصديقاً لما قاله إبراهيم من أنه سبحانه يعلم بما يخفيه العباد وما يعلنونه، فقال سبحانه: وما يخفي على الله شيء من الأشياء الموجودة كائناً ما كان، وإنما نكر السموات والأرض لأنها المشاهدة للعباد، ولأفعلمه سبحانه محيط بكل ما هو داخل في العالم، وكل ما هو خارج عنه لا تخفي عليه منه خافية. قيل: ويحتمل أن يكون هذا من قول إبراهيم تحقيقاً لقوله الأول، وتعميماً بعد التخصيص، ثم حمد الله سبحانه على بعض نعمه الواصلة إليه فقال: ﴿لِلْحَمْدِ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى كِبَرٍ عَلَى الْكَبِيرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ أي: وهب لي على كبر سني وسنّ أمراتي، قيل: ولد له إسماعيل وهو ابن تسع وتسعين سنة، وولد له إسحاق وهو ابن مائة واثنى عشرة سنة، قيل: و «على» هنا بمعنى مع أي: وهو لي مع كبري وبأسي عن الولد ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ أي: لمجيء الدعاء من قولهم سمع كلامه: إذا أجابه واعتد به وعمل بمقتضاه، وهو من إضافة الصفة المتضمنة للمبالغة إلى المفعول؛ والمعنى: إنك لكثير إجابة الدعاء لمن يدعوك، ثم سأل الله سبحانه بأن يجعله مقيم الصلاة محافظاً عليها غير مهمل لشيء منها، ثم قال: ﴿وَمَنْ ذُرِّيَّتِي﴾ أي: بعض ذريتي أي: أجعلني وأجعل بعض ذريتي مقيمين للصلاة، وإنما خص البعض من ذريته، لأنه علم أن منهم من لا يقيمها كما ينبغي. قال الزجاج: أي أجعل من ذريتي من يقيم الصلاة، ثم سأل الله سبحانه أن يتقبل دعاءه على العموم، وينخل في ذلك دعاؤه في هذا المقام دخولاً أولياً. قيل: والمراد بالدعاء هنا العبادة، فيكون المعنى: وتقبل عبادتي

أي: ذا أمن، وقدم طلب الأمن على سائر المطالب المذكورة بعده، لأنه إذا انتفى الأمن لم يفرغ الإنسان لشيء آخر من أمور الدين والدنيا، وقد تقدم تفسير مثل هذه الآية في البقرة عند قوله تعالى: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ [البقرة: 126] والفرق بين ما هنا وما هناك أن المطلوب هنا مجرد الأمن للبلد، والمطلوب هناك البلدية والأمن ﴿وَلَجُنُبِي وَيَنِي أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾، يقال: جنبته كذا وأجنبته وجنبته أي: باعدته عنه، والمعنى: باعدني، وابعاد بني عن عبادة الأصنام، قيل: أراد بنيه من صلبه وكانوا ثمانية، وقيل: أراد من كان موجوداً حال دعوته من بنيه وبني بنيه، وقيل: أراد جميع ذريته ما تناسلوا، ويؤيد ذلك ما قيل من أنه لم يعبد أحد من أولاد إبراهيم صنماً، والصنم هو التمثال الذي كانت تصنعه أهل الجاهلية من الأحجار ونحوها فيعبونه. وقرأ الجحدرى وعيسى بن عمر (ولجنبي) بقطع الهمزة على أن أصله اجنب ﴿رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾ أسند الإضلال إلى الأصنام مع كونها جمادات لا تعقل، لأنها سبب لضلالهم فكأنها أضلتهم، وهذه الجملة تعليل لدعائه لربه، ثم قال: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي﴾ أي: من تبع ديني من الناس فصار مسلماً موحداً ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ أي: من أهل ديني جعل أهل ملته كنفسه مبالغة ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ فلم يتتابعني ويدخل في ملتي ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قادر على أن تغفر له، قيل: قال هذا قبل أن يعلم أن الله لا يغفر أن يشرك به كما وقع منه الاستغفار لأبيه وهو مشرك، كذا قال ابن الأنباري، وقيل: المراد عصيانه هنا فيما دون الشرك، وقيل: إن هذه المغفرة مقيدة بالتوبة من الشرك، ثم قال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ قال الفراء: من للتبعيض أي: بعض ذريتي. وقال ابن الأنباري: إنها زائدة أي: أسكنت ذريتي، والأول أولى، لأنه إنما أسكن إسماعيل وهو بعض ولده ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ أي: لا زرع فيه، وهو وادي مكة ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ أي: الذي يحرم فيه ما يستباح في غيره؛ وقيل: إنه محرم على الجابرة، وقيل: محرم من أن تنتهك حرمة، أو يستخف به. وقد تقدم في سورة المائدة ما يغني عن الإعادة، ثم قال: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ اللام متعلقة بأسكنت أي: أسكنتهم ليقوموا الصلاة فيه، متوجهين إليه، متبركين به، وخصها دون سائر العبادات لمزيد فضلها، ولعل تكرير النداء لإظهار العناية الكاملة بهذه العبادة ﴿فَجَاعِلُ أَفْنَدَةِ مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ الأفئدة جمع فؤاد، وهو القلب، عبر به عن جميع البين، لأنه أشرف عضو فيه. وقيل: هو جمع وفد والأصل أفئدة فقدمت الفاء، وقلبت الواو ياء، فكانه قال: وجعل وفوداً من الناس تهوي إليهم، و «من» في من الناس للتبعيض؛ وقيل: زائدة، ولا يلزم منه أن يحج اليهود والنصارى ببخولهم تحت لفظ الناس، لأن المطلوب توجيه قلوب الناس إليهم للمسكون معهم والجلب إليهم لا توجيهها إلى الحج، ولو كان هذا مراداً لقال تهوي إليه، وقيل: من للابتداء كقولك: القلب مني سقيم، يريد قلبي،

يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار﴾ أي: يؤخر جزاءهم ولا يؤاخذهم بظلمهم. وهذه الجملة تعليل للنهي السابق. وقرأ الحسن والسلمي وهو رواية عن أبي عمرو بالنون في تؤخرهم. وقرأ الباقون بالتحته. واختارها أبو عبيد وأبو حاتم لقوله: ﴿ولا تحسبن الله﴾ ومعنى ﴿ليوم تشخص فيه الأبصار﴾ أي: ترفع فيه أبصار أهل الموقف، ولا تغمض من هول ما تراه في ذلك اليوم، هكذا قال الفراء. يقال: شخص الرجل بصره وشخص البصر نفسه إلى السماء من هول ما يرى، والمراد أن الأبصار بقيت مفتوحة لا تتحرك من شدة الحيرة والدهشة ﴿مهطعين﴾ أي: مسرعين من أطمع يهطع إطماعاً: إذا أسرع؛ وقيل: المهطع الذي ينظر في نل وخشوع. ومنه:

بسجلة دارهم ولقد أرامم بسجلة مهطعين إلى السماء
وقيل: المهطع الذي ينيم النظر. قال أبو عبيدة: قد يكون الوجهان جميعاً، يعني: الإسراع مع إدامة النظر؛ وقيل: المهطع الذي لا يرفع رأسه. وقال ثعلب: المهطع الذي ينظر في نل وخشوع؛ وقيل: هو السلاكت. قال النحاس: والمعروف في اللغة أطمع: إذا أسرع ﴿مقنعي رؤوسهم﴾ أي: رافعي رؤوسهم، وإقناع الرأس: رفعه، وأقنع صوته: إذا رفعه، والمعنى: أنهم يومئذ رافعون رؤوسهم إلى السماء ينظرون إليها نظر فزع وذل ولا ينظر بعضهم إلى بعض. وقيل: إن إقناع الرأس نكسه؛ وقيل: يقال أقنع: إذا رفع رأسه، وأقنع: إذا طأطأ نلة وخضوعاً، والآية محتملة للوجهين. قال المبرد: والقول الأول أعرف في اللغة. قال الشاعر:

انغض نحوي رأسه وأقنعا كأنما أبصر شيئاً أطمعا
﴿لا يرتد إليهم طرفهم﴾ أي: لا ترجع إليهم أبصارهم، وأصل الطرف: تحريك الأجفان، وسميت العين طرفاً لأنه يكون بها، ومن إطلاق الطرف على العين قول عنترة:

وأغض طرفي ما بدت لي جازتي حتى توارى جازتي ملأها
﴿واقفئتهم هواء﴾ الهواء في اللغة: المجرف الخالي الذي لم تشغله الأجرام. والمعنى: أن قلوبهم خالية عن العقل والفهم لما شاهدوا من الفزع والحيرة والدهش، وجعلها نفس الهوى مبالغة، ومنه قيل للأحمق والجبان: قلبه هواء أي: لا رأي فيه ولا قوة؛ وقيل: معنى الآية أنها خرجت قلوبهم عن مواضعها فصارت في الحناجر؛ وقيل: المعنى إن أفتدة الكفار في الدنيا خالية عن الخير؛ وقيل: المعنى واقفئتهم ذات هواء. ومما يقارب معنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً﴾ [القصص: 10]، أي: خالياً من كل شيء إلا من هم موسى ﴿وانذر الناس﴾ هذا رجوع إلى خطاب رسول الله ﷺ، وأمره الله سبحانه بأن ينذر الناس، والمراد الناس على العموم؛ وقيل: المراد كفار مكة؛ وقيل: الكفار على العموم. والأول أولى لأن الإنذار كما يكون للكافر يكون أيضاً للمسلم. ومنه قوله تعالى: ﴿إنما تنذر من اتبع الذکر﴾ [يس: 11]. ومعنى ﴿يوم يأتئهم العذاب﴾ يوم القيامة أي: خوفهم هذا اليوم، وهو يوم إتيان

العذاب، وإنما اقتصر على نكر إتيان العذاب فيه مع كونه يوم إتيان الثواب، لأن المقام مقام تهديد؛ وقيل: المراد به يوم موتهم، فإنه أول أوقات إتيان العذاب؛ وقيل المراد يوم هلاكهم بالعذاب العاجل، وانتصاب يوم على أنه مفعول ثانٍ لأنذر ﴿فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب﴾ المراد بالذين ظلموا ها هنا هم الناس أي: فيقولون، والعنول إلى الإظهار مكان الإضمار للإشعار بأن الظلم هو العلة فيما نزل بهم، هذا إذا كان المراد بالناس هم الكفار. وعلى تقدير كون المراد بهم من يعم المسلمين، فالمعنى: فيقول الذين ظلموا منهم وهم الكفار ربنا أخرنا أمهلنا إلى أجل قريب إلى أمد من الزمان معلوم غير بعيد ﴿نحب دعوتك﴾ أي: دعوتك لعبادك على السن أنبيائك إلى توحيدك ﴿ونتبع للرسول﴾ المرسلين منك إلينا فنعمل بما بلغوه إلينا من شرائعك، وتندارك ما فرط منا من الإهمال، وإنما جمع الرسل، لأن دعوتهم إلى التوحيد متفقة، فاتباع واحد منهم اتباع لجميعهم، وهذا منهم سؤال للرجوع إلى الدنيا لما ظهر لهم الحق في الآخرة ﴿ولو رنا لعابوا لما نهوا عنه﴾ [الأنعام: 28] ثم حكى سبحانه ما يجب به عنهم عند أن يقولوا هذه المقالة، فقال: ﴿أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال﴾ أي: فيقال لهم هذا القول توبيخاً وتقريعاً أي: أولم تكونوا أقسمتم من قبل هذا اليوم مالكم من زوال من دار الدنيا؛ وقيل: إنه لا قسم منهم حقيقة، وإنما كان لسان حالهم ذلك لاستغراقهم في الشهوات وإخلاصهم إلى الحياة الدنيا، وقيل: قسمهم هذا هو ما حكاه الله عنهم في قوله: ﴿واقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت﴾ [النحل: 38]، وجواب القسم ﴿مالك من زوال﴾ وإنما جاء بلفظ الخطاب في مالكم من زوال لمرعاة أقسمتم ولولا ذلك لقال: مالنا من زوال ﴿وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم﴾ أي: استقرتكم. يقال: سكن الدار وسكن فيها، وهي بلاد ثمود ونحوهم من الكفار الذين ظلموا أنفسهم بالكفر بالله والعصيان له ﴿وتبين لكم كيف فعلنا بهم﴾ قرأ عبد الرحمن السلمي (نبيين) بالنون والفعل المضارع. وقرأ من عداه بالتاء الفوقية والفعل الماضي أي: تبين لكم بمشاهدة الآثار كيف فعلنا بهم من العقوبة والعذاب الشديد بما فعلوه من الذنوب، وفاعل تبين ما نلت عليه الجملة المنكورة بعده أي: تبين لكم فعلنا العجيب بهم ﴿ووضربنا لكم الأمثال﴾ في كتب الله وعلى السن رسله إيضاحاً لكم وتقديراً وتكميلاً للحجة عليكم ﴿وقد مكروا مكروهم﴾ الجملة في محل نصب على الحال أي: فعلنا بهم ما فعلنا، والحال أنهم قد مكروا في رد الحق وإثبات الباطل مكروهم العظيم، الذي استفرغوا فيه وسعهم ﴿وعند الله مكروهم﴾ أي: وعند الله جزاء مكروهم، أو وعند الله مكتوب مكروهم فهو مجازيهم، أو وعند الله مكروهم الذي يمكروهم به على أن يكون المكر مضافاً إلى المفعول؛ قيل: والمراد بهم قوم محمد ﷺ مكروا بالنبي ﷺ حين هموا بقتله أو نفيه، وقيل: المراد ما

قوله: ﴿مَالِكُمْ مِنْ زَوَالٍ﴾ قال: بعث بعد الموت. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن الحسن في قوله: ﴿وَسُكُنْتُمْ فِي مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ قال: عملتم بمثل أعمالهم. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرَهُمْ﴾ يقول: ما كان مكرهم ﴿لَتَنْزُولٍ مِنْهُ لِلْجِبَالِ﴾. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرَهُمْ﴾ يقول: شكرهم كقوله: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا﴾ [مريم: 90]. وأخرج عبد بن حميد، ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري عن علي بن أبي طالب أنه قرأ هذه الآية: ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرَهُمْ لَتَنْزُولٍ مِنْهُ لِلْجِبَالِ﴾ ثم فسرها فقال: إن جباراً من الجبابرة قال: لا أنتهي حتى أنظر إلى ما في السماء، فأمر بفراخ النسر لتغلف اللحم حتى شبت وغلظت، وأمر بتابوت فنجر يسع رجلين، ثم جعل في وسطه خشبة، ثم ربط أرجلهم بأوتاد، ثم جوعهم، ثم جعل على رأس الخشبة لحماً، ثم نخل هو وصاحبه في التابوت، ثم ربطهم إلى قوائم التابوت، ثم خلى عنهم يربن اللحم، فذهبن به ما شاء الله، ثم قال لصاحبه: افتح فانظر ماذا ترى، ففتح فقال: انظر إلى الجبال كأنها الذباب، قال: أغلق فأغلق، فطن به ما شاء الله، ثم قال: افتح ففتح، فقال: انظر ماذا ترى، فقال: ما أرى إلا السماء وما أراها تزداد إلا بعداً، قال: صوب الخشبة فصوبها فانقضت تريد اللحم، فسمع الجبال هتاتها فكانت تنزل عن مراتبها. وقد روي نحو هذه القصة لبختنصر والنمرود من طرق ذكرها في الدر المنثور.

فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ خَائِفَ دَعْوِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٧﴾ يَوْمَ يُبَدِّلُ الْأَرْضَ عَيْرَ الْأَرْضِ وَالْعِشْرَ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٨﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٩﴾ سَرَابِلُهُمْ مِّنْ فَطْرَانٍ يَّتَشَقَّقْنَ وَجُوهُهُمْ آتَاةٌ ﴿١٠﴾ يُجْرَىٰ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١١﴾ هَذَا بَلَلٌ لِّلنَّارِ وَلَئِيْنُ دُؤِبُوا وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَفُونَ ﴿١٢﴾ وَلِيَذَّكَّرَ أَزْوَاجُ الْأَنْبِيَاءِ ﴿١٣﴾

﴿مخلف﴾ منتصب على أنه مفعول تحسبن، وانتصاب رسله على أنه مفعول وعده، قيل: وذلك على الاتساع، والمعنى: مخلف رسله وعده. قال القتيبي: هو من المقدم الذي يوضحه التأخير. والمؤخر الذي يوضحه التقديم وسواء في ذلك مخلف وعده رسله ومخلف رسله وعده، ومثل ما في الآية قول الشاعر:

ترى الثور فيها مدخل الظل رأسه وسائرته باد إلى الشمس لجمع
وقال الزمخشري: قدم الوعد ليعلم أنه لا يخلف الوعد أصلاً كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: 9 - الرعد: 31]. ثم قال رسله ليؤمنن أنه إذا لم يخلف وعده أحداً، وليس من شأنه إخلاف الموعدين، فكيف يخلفه رسله الذين هم خيرته وصفوته، والمراد بالوعد هنا هو ما وعدهم سبحانه بقوله: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: 51] و ﴿كَتَبَ اللَّهُ

وقع من النمرود حيث حاول الصعود إلى السماء، فاتخذ لنفسه تابوتاً وربط قوائمه بأربعة نسور ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرَهُمْ لَتَنْزُولٍ مِنْهُ لِلْجِبَالِ﴾ قرأ عمر، وعلي، وابن مسعود، وأبي (وإن كاد مكرهم) بالبدال المهملة مكان النون. وقرأ غيرهم من القراء (وإن كان) بالنون. وقرأ ابن محيص، وابن جريج، والكسائي (لتنزل) بفتح اللام على أنها لام الابتداء. وقرأ الجمهور بكسرها على أنها لام الجحود. قال ابن جرير: الاختيار هذه القراءة، يعني: قراءة الجمهور لأنها لو كانت زالت لم تكن ثابتة، فعلى قراءة الكسائي ومن معه تكون إن هي المخففة من الثقيلة. واللام هي الفارقة، وزوال الجبال مثل لعظم مكرهم وشنته، أي: وإن الشأن كان مكرهم معداً لذلك. قال الزجاج: وإن كان مكرهم يبلغ في الكيد إلى إزالة الجبال، فإن الله ينصر دينه؛ وعلى قراءة الجمهور يحتمل وجهين: أحدهما أن تكون إن هي المخففة من الثقيلة، والمعنى كما مر. والثاني أن تكون نافية واللام المكسورة لتأكيد النفي كقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيْمَانَكُمْ﴾ [البقرة: 143] والمعنى: ومحال أن تنزل الجبال بمكرهم، على أن الجبال مثل آيات الله وشرائعه الثابتة على حالها مدى الدهر، فالجمل على هذا حال من الضمير في مكروا لا من قوله: ﴿وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرَهُمْ﴾ أي: والحال أن مكرهم لم يكن لتنزل منه الجبال.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والخرائطي في مساوي الأخلاق عن ميمون بن مهران في قوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ قال: هي تعزية للمظلوم ووعيد للظالم. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ قال: شخصت فيه والله أبصارهم فلا تردت إليهم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿مُهْطِعِينَ﴾ قال: يعني بالإمطاع النظر من غير أن يطرف ﴿مُقْنَعِي رُؤُوسَهُمْ﴾ قال: الإقناع رفع رؤوسهم ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ قال: شاخصة أبصارهم ﴿وَوَافِقْتُهُمْ هَوَاءَ﴾ ليس فيها شيء من الخير، فهي كالخربة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن مجاهد مهطعين قال: مديمي النظر. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر عن قتادة مهطعين قال: مسرعين. وأخرج هؤلاء عن قتادة في قوله: ﴿وَوَافِقْتُهُمْ هَوَاءَ﴾ قال: ليس فيها شيء، خرجت من صدورهم فنشبت في حلقهم. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مرة وافتقتهم هواء قال: منخرقة لا تعي شيئاً. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وَلَنُنَزِّلُ النَّاسَ يَوْمَ يَقْتِهِمُ الْعَذَابُ﴾ يقول: أنزهرهم في الدنيا من قبل أن يأتيهم العذاب. وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال: ﴿يَوْمَ يَقْتِهِمُ الْعَذَابُ﴾ هو يوم القيامة. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس ﴿مَالِكُمْ مِنْ زَوَالٍ﴾ قال: عما أنتم فيه إلى ما تقولون. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في

نصب على الحال **﴿وتغشى وجوههم النار﴾** أي: تعلق وجوههم وتضرّبها؛ وخص الوجوه لأنها أشرف ما في البدن، وفيها الحواس الممرّكة، والجملة في محل نصب على الحال أيضاً، و **﴿ليجزى الله﴾** متعلق بمحذوف أي: يفعل ذلك بهم ليجزي **﴿كل نفس ما كسبت﴾** من المعاصي أي: جزاء موافقاً لما كسبت من خير أو شرّ **﴿إن الله سريع الحساب﴾** لا يشغله عنه شيء. وقد تقدّم تفسيره **﴿هذا بلاغ﴾** أي: هذا الذي أنزل إليك بلاغ أي: تبليغ وكفاية في الموعظة والتذكير. قيل إن الإشارة إلى ما ذكره سبحانه هنا من قوله: **﴿ولا تحسبن الله غافلاً﴾** إلى **﴿سريع الحساب﴾** [إبراهيم: 42 - 51] أي: هذا فيه كفاية من غير ما انطوت عليه السورة، وقيل: الإشارة إلى جميع السورة، وقيل: إلى القرآن، ومعنى **﴿للناس﴾** للكفار، أو لجميع الناس على ما قيل في قوله: **﴿وانذر الناس﴾** [إبراهيم: 44]، **﴿ولينذروا به﴾** معطوف على محذوف أي: لينصحووا و لينذروا به، والمعنى: وليخوفوا به، وقرئ (ولينذروا) بفتح الباء التحتية والذال المعجمة، يقال: نذرت بالشيء أنذر: إذا علمت به فاستعدت له **﴿وليعلموا أنما هو إله واحد﴾** أي: ليعلموا بالآلة التكوينية المذكورة سابقاً وحدانية الله سبحانه، وأنه لا شريك له **﴿ولينذركم ولوالباب﴾** أي: وليتعضّ أصحاب العقول، وهذه الآيات متعلقة بمحذوف، والتقدير: وكذلك أنزلنا، أو متعلقة بالبلاغ المذكور أي: كفاية لهم في أن ينصحووا وينذروا ويعلموا بما أقام الله من الحجج والبراهين وحدانيته سبحانه وأنه لا شريك له، وليتعضّ بذلك أصحاب العقول التي تعقل وتدرك.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: **﴿إن الله عزيز ذو انتقام﴾** قال: عزيز والله في أمره، يملئ وكيدته متين، ثم إذا انتقم انتقم بقدرته. وأخرج مسلم وغيره من حديث ثوبان قال: جاء رجل من اليهود إلى رسول الله ﷺ فقال: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض؟ فقال رسول الله ﷺ: في الظلمة دون الجسر. وأخرج مسلم أيضاً وغيره من حديث عائشة، قالت: «أنا أوّل من سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية **﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض﴾** قلت: أين الناس يومئذ؟ قال: على الصراط». وأخرج البزار، وابن المنذر، والطبراني في الأوسط، وابن مردويه، والبيهقي في البعث، وابن عساكر عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: في قول الله **﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض﴾** قال: «أرض بيضاء، كأنها فضة لم يسفك فيها دم حرام، ولم يعمل بها خطيئة». وأخرجه عبد الرزاق، وابن أبي شعبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ في العظمة، والحاكم وصححه، والبيهقي في البعث عنه موقوفاً نحوه، قال البيهقي: الموقوف أصح. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عن زيد بن ثابت قال: «أتى اليهود النبي ﷺ فقال: جاءوني يسألونني وسأخبرهم قبل أن يسألوني **﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض﴾** قال:

لاغلبن أنا ورسلي» [المجالة: 21]. وقرئ (مخلف وعده رسله) بجرّ رسله ونصب وعده. قال الزمخشري: وهذه القراءة في الضعف كمن قرأ: قتل أولادهم شركائهم **﴿إن الله عزيز﴾** غالب لا يغالبه أحد **﴿نو انتقام﴾** ينتقم من أعدائه لأوليائه والجملة تعليل للنهي، وقد مرّ تفسيره في أوّل آل عمران **﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض﴾** قال الزجاج: انتصاب يوم على البدل من يوم يأتيهم، أو على الظرف للانتقام. انتهى. ويجوز أن ينتصب بمقدّر يدل عليه الكلام أي: وانكروا وارتقبوا، والتبديل قد يكون في الذات كما في بذلت الدراهم بذنانير، وقد يكون في الصفات كما في بذلت الحلقة خاتماً، والآية تحتمل الأمرين، وقد قيل: المراد تغيير صفاتها، وبه قال الأكثر، وقيل تغيير ذاتها، ومعنى **﴿والسموات﴾** أي: وتبدل السموات غير السموات على الاختلاف الذي مرّ **﴿وبرزوا لله الواحد القهار﴾** أي: برزوا للعباد لله أو الظالمون كما يفيد السياق أي: ظهروا من قبورهم، أو ظهر من أعمالهم ما كانوا يكتُمونه، والتعبير على المستقبل بلفظ الماضي للتنبيه على تحقق وقوعه كما في قوله: **﴿ونفخ في الصور﴾** [الكهف: 99 - يس: 51] والواحد القهار المتفرد بالآلوهية الكثير القهر لمن عانده **﴿وقرى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد﴾** معطوف على برزوا أو على تبدل، والمجئء بالمضارع لاستحضار الصورة، والمجرمون هم المشركون، ويومئذ يعني: يوم القيامة، و **﴿مقرنين﴾** أي: مشبودين إما يجعل بعضهم مقروناً مع بعض، أو قرنوا مع الشياطين كما في قوله: **﴿نقيض له شيطاناً فهو له قرين﴾** [الزخرف: 36] أو جعلت أيديهم مقرونة إلى أرجلهم، والأصفاد: الأغلال، والقيود، والجار والمجرور متعلق بمقرنين أو حال من ضميره، يقال: صفدت صفاً أي: قيته، والاسم الصفد، فإذا أريت التكنيز قلت صفنته. قال عمرو بن كلثوم:

فأبوا بالنهب وبالسبيل
وابنا بالملوك مصفدين
وقال حسان بن ثابت:

من بين مأسور يشدّ صفاده
صقر إذا لاقى الكريهة حامى
ويقال: صفنته وأصفنته إذا أعطيته، ومنه قول النابغة:

ولم أعرض أبيت اللعن بالصفد

﴿سرايلهم من قطران﴾ السرايل: القمص، واحدها سربال، ومنه قول كعب بن مالك:

تلغاكم عصب حول النبيّ لهم
من نسج داود في الهيجا سرايل
والقطران: هو قطران الإبل الذي تهنا به أي: قمصانهم من قطران تطلى به جلودهم حتى يعود ذلك للطلاء كالسرايل؛ وخصّ القطران لسرعة اشتعال النار فيه مع نتن رائحته. وقال جماعة هو للنحاس أي: قمصانهم من نحاس. وقرأ عيسى بن عمر (من قطران) بفتح القاف وتسكين الطاء. وقرئ بكسر القاف وسكون الطاء، وقرئ بفتح القاف والطاء، رويت هذه القراءة عن ابن عباس، وأبي هريرة، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ويعقوب، وهذه الجملة في محل

شِجَ الْأَكْزَيْنَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُمْ فِي قُلُوبِ الْمُتَجَبِّينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَكْزَيْنَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِنْ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَهْرَجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سَكِرَاتُ مَا أَصْنَعْنَا بِالنَّفْسِ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّفْسَ لَكُمْ خَائِنَةً إِنَّهَا سَاجِدَةٌ لِلْإِنشَاءِ ثُمَّ نَبِّئُكُمْ بِقِصَّةِ رَجُلٍ لَمْ يَأْتِهِ رَسُولٌ وَلَكِنْ يَأْتِيهِ الرَّبُّ هَاتِفًا ﴿١٥﴾

قوله: ﴿الر﴾ قد تقدم الكلام في محله مستوفي، والإشارة بقوله: ﴿تلك﴾ إلى ما تضمنته السورة من الآيات والتعريف في الكتاب. قيل: هو للجنس، والمراد جنس الكتب المتقدمة؛ وقيل: المراد به القرآن، ولا يقدح في هذا نكر القرآن بعد الكتاب، فقد قيل: إنه جمع له بين الإسمين، وقيل: المراد بالكتاب هذه السورة، وتنكير القرآن للتفخيم أي: القرآن الكامل ﴿ربما يؤذ الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾ قرأ نافع وعاصم بتخفيف الباء من ربما. وقرأ الباقر بتثنيدها، وهما لغتان. قال أبو حاتم: أهل الحجاز يخفون، ومنه قول الشاعر:

ربما ضربت سيف صقيل بين بصرى وطعنة نجلاء
وتميم وربيعا يقتلونها. وقد تراء التاء الفوقية، وأصلها أن تستعمل في القليل، وقد تستعمل في الكثير. قال الكوفيون: أي يؤذ الكفار في أوقات كثيرة لو كانوا مسلمين. ومنه قول الشاعر:

رب رعد هرقته ذلك اليوم م وأسرى من معشر أقبال
وقيل: هي هنا للتقليل لأنهم ونوا ذلك في بعض المواضع لا في كلها لشغلهم بالعباد. قيل: وما هنا لحقت رب لتبنيها للدخول على الفعل؛ وقيل: هي نكرة بمعنى شيء، وإنما دخلت رب هنا على المستقبل مع كونها لا تدخل إلا على الماضي، لأن المترقب في أخباره سبحانه كالواقع المتحقق، فكانه قيل: ربما وذ الذين كفروا لو كانوا مسلمين أي: متقابين لحكمه مذعنين له من جملة أهله. وكانت هذه الودادة منهم عند موتهم أو يوم القيامة. والمراد أنه لما انكشف لهم الأمر واتضح بطلان ما كانوا عليه من الكفر وأن الدين عند الله سبحانه هو الإسلام لا دين غيره حصلت منهم هذه الودادة التي لا تسمن ولا تغني من جوع، بل هي لمجرد التحسر والتندم ولوم النفس على ما فرطت في جنب الله، وقيل: كانت هذه الودادة منهم عند معاينة حالهم وحال المسلمين؛ وقيل: عند خروج عصاة الموحدين من النار، والظاهر أن هذه الودادة كاشفة منهم في كل وقت مستمرة في كل لحظة بعد انكشاف الأمر لهم ﴿نذرهم ياكلوا ويتمتعوا﴾ هذا تهديد لهم أي: دعم عما أنت بصده من الأمر لهم والنهي، فهم لا يروعون أبداً ولا يخرجون من باطل ولا يدخلون في حق، بل مرهم بما هم فيه من الاشتغال بالاكل والتمتع بزهرة الدنيا، فإنهم كالانعام التي لا تهتم إلا بذلك ولا تشتغل بغيره، والمعنى: اتركهم على ما هم عليه من الاشتغال بالاكل ونحوه من متاع الدنيا ومن إلهاء الأمل لهم عن اتباعك فسوف يعلمون عاقبة أمرهم وسوء صنيعهم. وفي هذا من التهديد والزجر

أرض بيضاء كالفضة، فسألهم فقالوا: أرض بيضاء كالنقي. وأخرج ابن مردويه مرفوعاً عن علي نحو ما تقدم عن ابن مسعود. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عن أنس موقوفاً نحوه، وقد روي نحو ذلك عن جماعة من الصحابة، وثبت في الصحيحين من حديث سهل بن سعد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة نقي». وفيهما أيضاً من حديث أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفوها الجبار بيده» الحديث. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿مقرنين في الأصفاد﴾ قال: الكبول. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير عن قتادة ﴿في الأصفاد﴾ قال: القيود والأغلال. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة قال: في السلاسل. وأخرج ابن جرير وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿في الأصفاد﴾ يقول: في وثاق. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي ﴿سربيلهم﴾ قال: قمصهم. وأخرج ابن جرير عن ابن زيد مثله. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الحسن في قوله: ﴿من قطران﴾ قال: قطران الإبل. وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة في الآية قال: هذا القطران يطلى به حتى يشتعل ناراً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: هو النحاس المذاب. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة أنه قرأ ﴿من قطران﴾ فقال: القطر الصفر. والآن: الحار. وأخرج أبو عبيد، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر عن عكرمة نحوه. وأخرج مسلم وغيره عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران، ودرع من جرب». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله: ﴿هذا بلاغ للناس﴾ قال: القرآن ﴿ولينذروا به﴾ قال القرآن.

تفسير سورة الحجر

وهي مكية بالاتفاق كما قال القرطبي. وأخرج النحاس في ناسخه، وابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة الحجرة بمكة. وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير مثله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّيَّةَ مَائِدَتِ الْكَرْبِ وَثَرَانِ مِثْرَيْنِ ﴿١﴾ نَسِيتُ يَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَلَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمِ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَا أَفْكَامٍ مِنْ قَرِينٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَلُومٌ ﴿٤﴾ مَا تَشِيقُ مِنْ أُتْمَةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَحْزِنُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَوْ مَا تَأْتِيَنَا بِالْمَلَكُوتِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنْزِلُ الْمَلَكُوتَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا تُنْظَرُونَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاطِقُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي

بالحق ﴿قرئ﴾ (ما نزل) بالنون مبنياً للفاعل، وهو الله سبحانه فهو على هذا من التنزيل، والمعنى على هذه القراءة: قال الله سبحانه مجيباً على الكفار لما طلبوا إتيان الملائكة إليهم ما نزل نحن ﴿الملائكة إلا بالحق﴾ أي: تنزيلاً متلبساً بالحق الذي يحق عنده تنزيلنا لهم فيما تقتضيه الحكمة الإلهية والمشيتة الربانية وليس هذا الذي اقترحوه مما يحق عنده تنزيل الملائكة، وقرئ (نزل) مخففاً من الإنزال أي: ما نزل نحن الملائكة إلا بالحق، وقرئ (ما نزل) بالمعناة من فرق مضارعاً مثقلاً مبنياً للفاعل من التنزيل بحنف إحدى التامين أي: تنزل، وقرئ أيضاً بالفوقية مضارعاً مبنياً للمفعول، وقيل: معنى إلا بالحق إلا بالقرآن، وقيل: بالرسالة، وقيل: بالعذاب ﴿وما كانوا إذا منظرين﴾ في الكلام حنف، والتقدير: ولو أنزلنا الملائكة لعوجلوا بالعقوبة وما كانوا إذا منظرين، فالجملة المنكورة جزء للجملة الشرطية المحذوفة، ثم أنكر على الكفار استهزاءهم برسول الله ﷺ بقولهم ﴿يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون﴾ فقال سبحانه ﴿إنا نحن نزلنا الذكر﴾ أي: نحن نزلنا ذلك الذكر الذي أنكروه ونسبوك بسببه إلى الجنون ﴿وإننا له لحافظون﴾ عن كل ما لا يليق به من تصحيف وتحريف وزيادة ونقص ونحو ذلك. وفيه وعيد شديد للمكذبين به المستهزئين برسول الله ﷺ، وقيل: الضمير في له لرسول الله ﷺ، والأول أولى بالمقام. ثم نكر سبحانه أنه عادة أمثال هؤلاء الكفار مع أنبيائهم كذلك تسلياً لرسول الله ﷺ، فقال ﴿ولقد أرسلنا من قبلك﴾ أي: رسلاً، وحذف لدلالة الإرسال عليه أي: رسلاً كائنة من قبلك ﴿في شيع الأولين﴾ في أممهم وأتباعهم وسائر فرقهم وطوائفهم. قال الفراء: الشيع الأمة التابعة بعضهم بعضاً فيما يجتمعون عليه، وأصله من شاعه إذا تبعه، وإضافته إلى الأولين من إضافة الصفة إلى الموصوف عند بعض النحاة، أو من حذف الموصوف عند آخرين منهم ﴿وما ياتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون﴾ أي: ما يأتي رسول من الرسل شيعته إلا كانوا به يستهزئون كما يفعله هؤلاء الكفار مع محمد ﷺ، وجملة ﴿إلا كانوا به يستهزئون﴾ في محل نصب على الحال، أو في محل رفع على أنها صفة رسول، أو في محل جر على أنها صفة له على اللفظ لا على المحل ﴿كذلك نسله في قلوب المجرمين﴾ أي: مثل ذلك الذي سلكناه في قلوب أولئك المستهزئين برسولهم ﴿نسله﴾ أي: الذكر ﴿في قلوب المجرمين﴾، فالإشارة إلى ما دل عليه الكلام السابق من إلقاء الرحي مقروناً بالاستهزاء، والسلك إدخال الشيء في الشيء كالخيط في الخيط. قاله الزجاج قال: والمعنى كما فعل بالمجرمين الذين استهزؤوا نسلك الضلال في قلوب المجرمين، وجملة ﴿لا يؤمنون به﴾ في محل نصب على الحال من ضمير نسله أي: لا يؤمنون بالذكر الذي أنزلناه، ويجوز أن تكون مستأنفة لبيان ما قبلها فلا محل لها، وقيل إن الضمير في نسله للاستهزاء، وفي:

ما لا يقدر قدره، يقال: الهاء كذا أي: شغله، ولهي هو عن الشيء يلهى أي: شغلهم الأمل عن اتباع الحق، وما زالوا في الأعمال الفارغة والتمنيات الباطلة حتى أسفر الصبح لذي عينين وانكشف الأمر ورأوا العذاب يوم القيامة، فعند ذلك ينقون ويبال ما صنعوا. والأفعال الثلاثة مجزومة على أنها جواب الأمر، وهذه الآية منسوخة بآية السيف ﴿وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم﴾ أي: وما أهلكنا قرية من القرى بنوع من أنواع العذاب ﴿إلا ولها﴾ أي: لتلك القرية ﴿كتاب﴾ أي أجل مقتر لا تتقدم عليه ولا تتأخر عنه ﴿معلوم﴾ غير مجهول ولا منسي فلا يتصور التخلف عنه بوجه من الوجوه، وجملة ﴿لها كتاب﴾ في محل نصب على الحال من قرية وإن كانت نكرة لأنها قد صارت بما فيها من العموم في حكم الموصوفة، والواو للفرق بين كون هذه الجملة حالاً، أو صفة فإنها تعينها للحالية كقولك حالي رجل على كتفه سيف، وقيل: إن الجملة صفة لقرية. والواو لتأكيد اللصوق بين الصفة والموصوف ﴿ما تسبق من أمة أجلها﴾ أي: ما تسبق أمة من الأمم أجلها المضروب لها المكتوب في اللوح المحفوظ؛ والمعنى: أنه لا يأتي هلاكها قبل مجيء أجلها ﴿وما يستأخرون﴾ أي: وما يتأخرون عنه. فيكون مجيء هلاكهم بعد مضي الأجل المضروب له، وإيراد الفعل على صيغة جمع المذكر للحمل على المعنى مع التغليب ولرعاية الفواصل، ولذلك حذف الجار والمجرور، والجملة مبنية لما قبلها، فكانه قيل: إن هذا الإمهال لا ينبغي أن يفتر به العقلاء، فإن لكل أمة وقتاً معيناً في نزول العذاب لا يتقدم ولا يتأخر. وقد تقدم تفسير الأجل في أول سورة الأنعام. ثم لما فرغ من تهديد الكفار شرع في بيان بعض عتوهم في الكفر، وتماديهم في الغي مع تضمنه لبيان كفرهم بمن أنزل عليه الكتاب بعد بيان كفرهم بالكتاب، فقال ﴿وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر﴾ أي قال: كفار مكة مخاطبين لرسول الله ﷺ ومتهمين به حيث أثبتوا له إنزال الذكر عليه مع إنكارهم لذلك في الواقع أشد إنكار ونفيهم له أبلغ نفي، أو أرادوا: بيا أيها الذي نزل عليه الذكر في زعمه، وعلى وفق ما يدعيه ﴿إنك لمجنون﴾ أي: إنك بسبب هذه الدعوى التي تدعيها من كونك رسولاً لله مأموراً بتبليغ أحكامه لمجنون، فإنه لا يدعي مثل هذه الدعوى العظيمة عندهم من كان عاقلاً، فقولهم هذا لمحمد ﷺ هو كقول فرعون ﴿إن رسولك الذي أرسل إليكم لمجنون﴾ [الشعراء: 27] ﴿لو ما تأتينا بالملائكة﴾ لو ما حرف تحضيض مركب من لو المفيدة للتمني ومن ما المزيدة، ففقد المجموع الحث على الفعل الداخلة هي عليه؛ والمعنى: هلا تأتينا بالملائكة ليشهدوا على صلتك ﴿إن كنت من الصادقين﴾. قال الفراء: الميم في لو ما بدل من اللام في لولا. وقال الكسائي: لولا ولوما سواء في الخبر والاستفهام. قال النحاس: لوما ولولا وهما واحد؛ وقيل: المعنى لو ما تأتينا بالملائكة فيعاقبونا على تكذيبنا لك ﴿وما نزل الملائكة إلا

من النار. وأخرج سعيد بن منصور، وهناد بن السري في الزهد، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، والبيهقي في البعث والنشور عن ابن عباس قال: ما يزال الله يشفع ويدخل ويشفع ويرحم حتى يقول: من كان مسلماً فليدخل الجنة، فذلك قوله: **﴿رَبِّمَا يَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾**. وأخرج ابن المبارك في الزهد، وابن أبي شيبه، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في البعث عن ابن عباس وأنس أنهما تذاكرا هذه الآية **﴿رَبِّمَا يَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾** فقالا: هذا حيث يجمع الله من أهل الخطايا من المسلمين والمشركون في النار، فيقول المشركون: ما أغنى عنكم ما كنتم تعبدون، فيغضب الله لهم فيخرجهم بفضلهم ورحمته. وأخرج الطبراني في الأوسط، وابن مردويه بسند، قال السيوطي صحيح عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إن ناساً من أمتي يعذبون بنزوبهم فيكونون في النار ما شاء الله أن يكونوا، ثم يعيرهم أهل الشرك فيقولون: ما نرى ما كنتم فيه من تصديقكم نفعكم، فلا يبقى موحد إلا أخرجته الله من النار، ثم قرأ رسول الله ﷺ **﴿رَبِّمَا يَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾**. وأخرج ابن أبي حاتم في السنة، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي عن أبي موسى الأشعري مرفوعاً نحوه. وأخرج إسحاق بن راهويه، وابن حبان، والطبراني، وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً نحوه أيضاً. وأخرج هناد بن السري، والطبراني في الأوسط، وأبو نعيم عن أنس مرفوعاً نحوه أيضاً. وفي الباب أحاديث في تعيين هذا السبب في نزول هذه الآية. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله: **﴿نَزَّهْمُ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾** الآية قال: هؤلاء الكفرة. وأخرج أيضاً عن أبي مالك في قوله: **﴿نَزَّهْمُ﴾** قال: خل عنهم. وأخرج ابن جرير عن الزهري في قوله: **﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾** قال: نرى أنه إذا حضر أجله، فإنه لا يؤخر ساعة ولا يقدم، وأما ما لم يحضر أجله فإن الله يؤخر ما شاء ويقدم ما شاء. قلت: وكلام الزهري هذا لا حاصل له ولا مفاد فيه. وأخرج ابن جرير عن الضحاح في قوله: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾** قال: القرآن. وأخرج ابن أبي شيبه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: **﴿مَا نَنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾** قال: بالرسالة والعذاب. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله: **﴿وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ﴾** قال: وما كانوا لو نزلت الملائكة بمنظرين من أن يعذبوا. وأخرج ابن أبي شيبه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي حاتم عن مجاهد **﴿وَأَنَّا لَهُ لِحَافِظُونَ﴾** قال: عنفاً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **﴿فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ﴾** قال: أمم الأولين. وأخرج ابن أبي حاتم عن أنس في قوله: **﴿عَنْكَ نَسْلُكَ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾** قال: الشرك نسله في قلوب المشركون. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر،

لا يؤمنون به للذكر، وهو بعيد، والأولى أن الضميرين للذكر **﴿وَقَدْ خَلَّتْ سَنَةُ الْأَوَّلِينَ﴾** أي مضت طريقتهم التي سنها الله في إهلاكهم، حيث فعلوا ما فعلوا من التكذيب والاستهزاء. وقال الزجاج: وقد مضت سنة الله في الأولين بأن سلك الكفر والضلال في قلوبهم. ثم حكى الله سبحانه إصرارهم على الكفر وتصميمهم على التكذيب والاستهزاء، فقال: **﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ﴾** أي: على هؤلاء المعاندين لمحمد ﷺ المكذبين له المستهزئين به **﴿بَاباً مِنَ السَّمَاءِ﴾** أي: من أبوابها المعهودة ومكانهم من الصعود إليه **﴿فَفُتِلُوا فِيهِ﴾** أي: في ذلك الباب **﴿يَعْرِجُونَ﴾** يصعدون بآلة أو بغير آلة حتى يشاهدوا ما في السماء من عجائب الملكوت التي لا يجدها جاحد ولا يعاند عند مشاهدتها معاند؛ وقيل: الضمير في فتلوا للملائكة أي: فضل الملائكة يعرجون في ذلك الباب، والكفار يشاهدونهم وينظرون صعودهم من ذلك الباب **﴿فَلَقَالُوا﴾** أي: الكفار لفرط عنادهم وزيادة عتوهم **﴿إِنَّمَا سَكِرْتُ أَفْصَارُنَا﴾** قرأ ابن كثير (سكرت) بالتخفيف، وقرأ الباقون بالتشديد، وهو من سكر الشراب، أو من السكر، وهو سدها عن الإحساس، يقال: سكر النهر إذا سده وحبسه عن الجري. ورجح الثاني بقراءة التخفيف، وقال أبو عمرو بن العلاء: سكرت غشيت وغطيت، ومنه قول الشاعر:

وطلعت شمس عليها مغفر وجعلت عين الجوز تسكر
وبه قال أبو عبيد، وأبو عبيدة، وروي عن أبي عمرو أيضاً أنه من سكر الشراب أي: غشيهم ما غطى أبصارهم كما غشي السكران ما غطى عقله، وقيل: معنى سكرت حبست كما تقدم، ومنه قول أوس بن حجر:

فصرت على ليلة ساهره فليست بطلق ولا ساكره
قال النحاس: وهذه الأقوال متقاربة **﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾** أضربوا عن قولهم سكرت أبصارنا، ثم ادعوا أنهم مسحورون أي: سحرهم محمد ﷺ، وفي هذا بيان لعنادهم العظيم الذي لا يقلعهم عنه شيء من الأشياء كائناتاً ما كان، فإنهم إذا راوا آية توجب عليهم الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله نسبوا إلى أبصارهم أن إدراكها غير حقيقي لعارض السكر، أو أن عقولهم قد سحرت فصار إدراكهم غير صحيح، ومن بلغ في التعتن إلى هذا الحد فلا تنفع فيه موعظة، ولا يهتدي بآية.

وقد أخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله: **﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾** قال: التوراة والإنجيل. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم في **﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾** قال: الكتب التي كانت قبل القرآن **﴿وَقُرْآنَ مَبِينٍ﴾** قال: مبين والله هداه ورشده وخيره. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس، وابن مسعود، وأنس من أصحاب النبي ﷺ في قوله: **﴿رَبِّمَا يَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾** قال: ود المشركون يوم بدر حين ضربت أعناقهم فعرضوا على النار أنهم كانوا مؤمنين بمحمد ﷺ. وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود في الآية قال: هذا في الجهنميين إذا رأوهم يخرجون

وزيناها راجع إلى السماء أي: وزينا السماء بالشمس والقمر والنجوم والبروج للناظرين إليها، أو للمتفكرين المعتمدين المستقلين إذا كان من النظر، وهو الاستدلال ﴿وَحَفَظْنَاهَا﴾ أي: السماء ﴿مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ قال أبو عبيدة: الرجيم المرجوم بالنجوم، كما في قوله: ﴿رَجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: 5] والرجم في اللغة هو الرمي بالحجارة، ثم قيل: للعن والطرد والإبعاد رجم، لأن الرامي بالحجارة يوجب هذه المعاني ﴿إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَّ السَّمْعَ﴾ استثناء متصل أي: إلا ممن استرق السمع، ويجوز أن يكون منقطعاً أي: ولكن من استرق السمع ﴿فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مَبِينٌ﴾ والمعنى: حفظنا السماء من الشياطين أن تسمع شيئاً من الوحي وغيره إلا من استرق السمع فإنها تتبعه الشهب فتقتله أو تخبله، ومعنى فاتبعه: تبعه ولحقه أو أدركه. والشهاب: الكوكب أو النار المشتعلة الساطعة كما في قوله: ﴿بِشَهَابٍ قَبَسٍ﴾ [النمل: 7] قال ذو الرمة:

كأنه كوكب في إثر عفریت

وسمي الكوكب شهاباً لبريقه شبه النار، والمبين: الظاهر للمبصرين يروونه لا يلتبس عليهم. قال القرطبي: واختلف في الشهاب هل يقتل أم لا؟ فقال ابن عباس: الشهاب يجرح ويحرق ويخبل ولا يقتل، وقال الحسن وطائفة: يقتل. فعلى هذا القول في قتلهم بالشهب قبل إلقاء السمع إلى الجن قولان: أحدهما أنهم يقتلون قبل إلقاء السمع ما استرقوه من السمع إلى غيرهم فلا تصل أخبار السماء إلى غير الأنبياء، ولذلك انقطعت الكهانة. والثاني أنهم يقتلون بعد إلقاء السمع ما استرقوه من السمع إلى غيرهم من الجن، قال ذكره الماوردي، ثم قال: والقول الأول أصح. قال: واختلف هل كان رمي بالشهب قبل المبعث؟ فقال الأكثرون: نعم، وقيل: لا وإنما ذلك بعد المبعث. قال الزجاج: والرمي بالشهب من آيات النبي ﷺ مما حدث بعد مولده لأن الشعراء في القديم لم ينكروه في أشعارهم. قال كثير من أهل العلم: نحن نرى انقضاء الكواكب، فيجوز أن يكون ذلك كما نرى. ثم يصير ناراً إذا أدرك الشيطان، ويجوز أن يقال: يرمون بشعلة من نار الهواء فيخيل البناء أنه نجم يسري ﴿وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا﴾ أي: بسطانها وفرشناها كما في قوله: ﴿وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ سَاهَا﴾ [النازعات: 30]. وفي قوله: ﴿وَالْأَرْضُ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ [الذاريات: 48] وفيه رد على من زعم أنها كالكرة ﴿وَالْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ أي: جبال ثابتة لئلا تحرك بأهلها، وقد تقدم بيان ذلك في سورة الرعد. ﴿وَوَافَقْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٌ﴾ أي: أنبتنا في الأرض من كل شيء مقدر معلوم، فعبّر عن ذلك بالوزن لأنه مقدار تعرف به الأشياء ومنه قول الشاعر:

قد كنت قبل لائقكم ذامرةً عندي لكل مخاصم ميزانه
وقيل: معنى موزون مقسوم؛ وقيل: معبود، والمقصود من الإنبات الإنشاء والإيجاد؛ وقيل: الضمير راجع إلى الجبال أي: أنبتنا في الجبال من كل شيء موزون من الذهب

وابن أبي حاتم عن قتادة مثله. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر عن الحسن مثله أيضاً. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿وَقَدْ خَلَّتْ سَنَةُ الْأَوَّلِينَ﴾ قال: وقاش الله فيمن خلا من الأمم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن جريج في قوله: ﴿فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرِجُونَ﴾ قال ابن جريج: قال ابن عباس: فظلت الملائكة تعرج فنظروا إليهم لقالوا: ﴿إِنَّمَا سَكِرَتْ أَبْصَارُنَا﴾ قال: قريش تقول. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم في الآية عن ابن عباس أيضاً يقول: ولو فتحنا عليهم باباً من أبواب السماء فظلت الملائكة تعرج فيه يختفلون فيه ذاهبين وجائين لقال أهل الشرك: إنما أخذ أبصارنا وشبه علينا، وإنما سحرنا. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد سكرت أبصارنا قال: سكت، وأخرج ابن جرير عن قتادة نحوه قال: ومن قرأ (سكرت) مخففة، فإنه يعني: سحرت.

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَرَافَعْنَا فِيهَا لِلشَّيَاطِينِ ﴿١٧﴾ وَحَفَظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿١٨﴾ إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَّ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ يَهَابٌ تُبِيحٌ ﴿١٩﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ ثَمَرٍ مَوْزُونٍ ﴿٢٠﴾ وَجَعَلْنَا لِكُلِّ فِيهَا مَعْيِشًا وَمَنْ نَسْتَمُ لَكُمْ بَرَاقِينَ ﴿٢١﴾ وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ إِنَّمَا نَزَّلْنَاهُ بِأَنزِلِهِ وَإِلَّا يَذَّكَّرُ فَتَلَاُكُمْ أَمْ أَنَسْتَ لَكُمْ يَحْدِثِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَعْنُ تَحِيٍّ وَبَيْثٍ وَنَحْنُ الْكَافِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْبِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْبِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ بِحَشْرِهِمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾

لما ذكر سبحانه كفر الكافرين وعجزهم وعجز أصنامهم، ذكر قدرته الباهرة وخلقه البديع ليستدل بذلك على وحدانيته، فقال: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ الجعل إن كان بمعنى الخلق، ففي السماء متعلق به، وإن كان بمعنى التصيير ففي السماء خبره، والبروج في اللغة: القصور والمنازل، والمراد بها هنا منازل الشمس والقمر والنجوم السيارة، وهي الاثنا عشر المشهورة كما تدل على ذلك التجربة، والعرب تعد المعرفة بمواقع النجوم ومنازلها من أجل العلوم، ويستعملون بها على الطرقات والأوقات والخصب والجذب، وقالوا: الفلك اثنا عشر برجاً، وأسماء هذه البروج: الحمل، الثور، الجوزاء، السرطان، الأسد، السنبلة، الميزان، العقرب، القوس، الجدي، الدلو، الحوت. كل ثلاثة منها على طبيعة عنصر من العناصر الأربعة المشتغلين بهذا العلم، ويسمون الحمل والأسد والقوس مثلثة نارية، والثور والسنبلة والجدي مثلثة أرضية، والجوزاء والميزان والدلو مثلثة هوائية، والسرطان والعقرب والحوت مثلثة مائية. وأصل البروج الظهور، ومنه تبرج المرأة بإظهار زينتها. وقال الحسن وقاتدة: البروج النجوم، وسميت بذلك لظهورها وارتفاعها؛ وقيل: السبعة السيارة منها قاله أبو صالح؛ وقيل: هي قصور وبيوت في السماء فيها حرس، والضمير في

سبحانه: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَثَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ [الأعراف: 57] أي: حملت، وناقاة لاقح: إذا حملت الجنين في بطنها، وبه قال الفراء وابن قتيبة؛ وقيل: لواقح بمعنى ملقحة. قال ابن الأنباري: تقول العرب: أبقل النبت فهو باقل أي: مبقل؛ والمعنى: أنها تلقح الشجر أي: بقوتها؛ وقيل: معنى لواقح نوات لقح. قال الزجاج: معناه وذات لقحة، لأنها تعصر السحاب وتدره كما تدرُ اللقحة؛ يقال: راحم أي: ذو رمح، ولابن أي: ذو لبن، وتامر أي: ذو تمر. قال أبو عبيدة: لواقح بمعنى ملاقح، ذهب إلى أنها جمع ملقحة. وفي هذه الآية تشبيه الرياح التي تحمل الماء بالحامل، ولقاح الشجر بلقاح الحمل ﴿وَوَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي: من الحساب وكل ما علاك فاطلك فهو سماء، وقيل: من جهة السماء، والمراد بالماء هنا ماء المطر ﴿فَاسْقِينَاكُمُوهُ﴾ أي: جعلنا ذلك المطر لسقياكم ولشرب مواشيكم وأرضكم. قال أبو علي: يقال سقيته الماء إذا أعطيته قدر ما يروي؛ وأسقيته نهراً أي: جعلته شرباً له، وعلى هذا فاسقيناكموه أبلغ من سقيناكموه؛ وقيل: سقى وأسقى بمعنى واحد ﴿وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ أي ليست خزائنه عنكم، بل خزائنه عندنا، ونحن الخازنون له، فنفي عنهم سبحانه ما أثبت لنفسه في قوله: ﴿وَأَنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ وقيل المعنى: إن ما أنتم له بخازنين بعد أن أنزلناه عليكم؛ أي لا تقدرون على حفظه في الآبار والغدران والعيون، بل نحن الحافظون له فيها ليكون ذخيرة لكم عند الحاجة إليه ﴿وَأِنَّا لَنَحْنُ نَحْيِي وَنُمِيتُ﴾ أي نوجد الحياة في المخلوقات ونسلبها عنها متى شئنا، والغرض من ذلك الاستدلال بهذه الأمور على كمال قدرته عز وجل، وأنه القادر على البعث والنشور والجزاء لعباده على حسب ما يستحقونه وتقتضيه مشيئته، ولهذا قال: ﴿وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ أي للارض ومن عليها، لأنه سبحانه الباقي بعد فناء خلقه، الحي الذي لا يموت، الدائم الذي لا ينقطع وجوده ﴿وَاللَّهُ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: 180] ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ﴾ هذه اللام هي الموطئة للقسم، وهكذا اللام في ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾، والمراد من تقدم ولادة وموتاً، ومن تأخر فيها؛ وقيل من تقدم طاعة ومن تأخر فيها؛ وقيل من تقدم في صف القتال ومن تأخر؛ وقيل المراد بالمستقدمين الاموات، وبالمستأخرين الأحياء؛ وقيل المستقدمين هم الأمم المتقدمون على أمة محمد، والمستأخرون هم أمة محمد؛ وقيل المستقدمون من قتل في الجهاد، والمستأخرون من لم يقتل ﴿وَأَنْ رَبِّكَ هُوَ يُحْشِرُكُمْ﴾ أي هو المتولى لذلك القادر عليه دون غيره كما يفيد ضمير الفصل من الحصر. وفيه أنه سبحانه يجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، لأنه الأمر المقصود من الحشر ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ﴾ يجري الأمور على ما تقتضيه حكمته البالغة ﴿عَلِيمٌ﴾ أحاط علمه بجميع الأشياء لا يخفى عليه شيء منها، ومن كان كذلك فله القدرة البالغة على كل شيء مما وسعه علمه،

والفضة والنحاس والرصاص ونحو ذلك؛ وقيل: موزون بميزان الحكمة، ومقدر بقدر الحاجة، وقيل: الموزون هو المحكوم بحسنه كما يقال كلام موزون، أي: حسن ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ تعيشون بها من المطاعم والمشارب جمع معيشة، وقيل: هي الملابس؛ وقيل: هي التصرف في أسباب الرزق مدة الحياة. قال الماوردي: وهو الظاهر. قلت: بل القول الأول أظهر، ومنه قول جرير:

تكلفني معيشة آل زيد
ومن لي بالمرقق والضباب
﴿وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ معطوف على معاش أي: وجعلنا لكم فيها من لستم له برازقين، وهم الممالك والخدم والأولاد الذين رازقهم في الحقيقة هو الله، وإن ظن بعض العباد أنه الرازق لهم باعتبار استقلاله بالكسب، ويجوز أن يكون معطوفاً على محل لكم أي: جعلنا لكم فيها معاش وجعلنا لمن لستم له برازقين فيها معاش، وهم من تقدم ذكره، ويدخل في ذلك الدواب على اختلاف أجناسها، ولا يجوز العطف على الضمير المجرور في لكم لأنه لا يجوز عند الأكثر إلا بإعادة الجاز؛ وقيل: أراد الوحش ﴿وَأَنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ إن هي النافية ومن مزيدة للتأكيد، وهذا التركيب عام لوقوع النكرة في حيز النفي مع زيادة من، ومع لفظ شيء المتناول لكل الموجودات الصائق على كل فرد منها، فافاد ذلك أن جميع الأشياء عند الله خزائنها لا يخرج منها شيء، والخزائن جمع خزانة: وهي المكان الذي يحفظ فيه نفائس الأمور، ونكر الخزائن تمثيل لاقتداره على كل مقدور؛ والمعنى: أن كل الممكنات مقدورة ومملوكة يخرجها من العدم إلى الوجود بمقدار كيف شاء. وقال جمهور المفسرين: إن المراد بما في هذه الآية هو المطر، لأنه سبب الأرزاق والمعاش؛ وقيل: الخزائن المفاتيح أي: ما من شيء إلا عندنا في السماء مفاتيحه، والأولى ما نكرناه من العموم لكل موجود، بل قد يصدق الشيء على المعلوم على الخلاف المعروف في ذلك ﴿وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدْرِ مَعْلُومٍ﴾ أي ما ننزله من السماء إلى الأرض أو نوجده للعباد إلا بقدر معلوم، والقدر المقدار؛ والمعنى: أن الله سبحانه لا يوجد للعباد شيئاً من تلك الأشياء المذكورة إلا متلبساً تلك الإيجاد بمقدار معين حسبما تقتضيه مشيئته على مقدار حاجة العباد إليه كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يَنْزِلُ بِقَدْرِ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: 27]. وقد فسر الإنزال بالإعطاء، وفسر بالإنشاء، وفسر بالإيجاد، والمعنى متقارب، وجملة وما ننزله معطوفة على مقدر أي: وإن من شيء إلا عندنا خزائنه ننزله وما ننزله، أو في محل نصب على الحال ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ﴾ معطوف على ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ وما بينهما اعتراض. قرأ حمزة (الريح) بالتوحيد، وقرأ من عده (الرياح) بالجمع، وعلى قراءة حمزة فتكون اللام في الريح للجنس. قال الأزهري: وجعل الرياح لواقح لأنها تحمل السحاب: أي تقلعه وتصرفه، ثم تمر به فتنزله. قال الله

وجرى فيه حكمه سبحانه لا إله إلا هو.

وأخرج الطيالسي، وسعيد بن منصور، وأحمد، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن خزيمة، وابن حبان، والطبراني، والحاكم وصححه عن ابن عباس قال: «كانت امرأة تصلي خلف رسول الله ﷺ حسناء من أحسن النساء، فكان بعض القوم يتقدم حتى يكون في الصف الأول لثلاث يراها، ويستأخر بعضهم حتى يكون في الصف المؤخر، فإذا ركب نظر من تحت إبطيه، فأنزل الله ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾». وهذا الحديث هو من رواية أبي الجوزاء عن ابن عباس. وقد رواه عبد الرزاق، وابن المنذر من قول أبي الجوزاء قال الترمذي: وهذا أشبه أن يكون أصح. وقال ابن كثير: في هذا الحديث نكارة شديدة. وأخرج الحاكم، وابن مروي عن ابن عباس في الآية قال: المستقدمين الصفوف المقنمة، والمستأخرين: الصفوف المؤخرة. وقد وردت أحاديث كثيرة في أن خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها، وخير صفوف النساء آخرها، وشرها أولها. وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء ومقاتل بن حبان أن الآية في صفوف القتال. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن الحسن قال: المستقدمين في طاعة الله، والمستأخرين في معصية الله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مروي عن ابن عباس قال: يعني بالمستقدمين من مات، وبالمستأخرين من هو حي لم يموت. وأخرج هؤلاء عنه أيضاً قال: المستقدمين آدم ومن مضى من نريته، والمستأخرين في أصلاب الرجال. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر عن قتادة نحوه.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿١٩﴾ وَلَكِنَّ خَلْقَهُ مِنْ بَلِّ مِنْ نَارٍ الْكُوفُورِ ﴿٢٠﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٢١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقُولُوا لَهُ سُبْحَانَ اللَّهِ ﴿٢٢﴾ فَجَدَّ الْمَلَكَةُ كَلِمَةً أَجْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ إِنْ أَرَادْتَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ يَتْلُو مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مِنَ الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ قَالَ فَخَرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٢٧﴾ وَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٢٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ أَعْتَدْتَنِي لِلْآخِرَةِ ﴿٢٩﴾ وَأَعْتَدْتَنِي لِلْآخِرَةِ أَجْمَعِينَ ﴿٣٠﴾ إِنْ عَصَاكَ مِنْهُمْ الْمُتَلَوِّينَ ﴿٣١﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٣٢﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ شُلُونٌ ﴿٣٣﴾ إِنْ مِنْ أَتَمَّكَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِنْ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٥﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٣٦﴾

المراد بالإنسان في قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ هو آدم لأنه أصل هذا النوع، والصلصال قال أبو عبيدة: هو الطين المخلوط بالرمال الذي يتصلصل إذا حرك، فإذا طبع في النار فهو الفخار. وهذا قول أكثر المفسرين. وقال الكسائي: هو الطين الممتن، مأخوذ من قول العرب صل

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد في قوله: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ قال: كواكب. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة مثله. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي صالح قال: الكواكب العظام. وأخرج أيضاً عن عطية قال: قصوراً في السماء فيها الحرس. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة قال الرحيم: الملعون. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ اسْتَرْقَ السَّمْعَ﴾ أراد أن يخطف السمع كقوله: ﴿إِلَّا مَنْ خَطَفَ الْخُطْفَةَ﴾ [الصفات: 10]. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن الضحاك قال: كان ابن عباس يقول: «إن الشهاب لا تقتل، ولكن تحرق وتخبّل وتخرج من غير أن تقتل». وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه في قوله: ﴿وَاتَّبَعْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٌ﴾ قال: معلوم. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٌ﴾ قال: بقدر. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن زيد قال الأشياء التي توزن. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عكرمة قال: ما أنبتت الجبال مثل الكحل وشبهه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ يِرَازِقِينَ﴾ قال: اللوالب والأنعام. وأخرج هؤلاء عن منصور قال: الوحش. وأخرج البزار، وابن مروي، وأبو الشيخ في العظمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مخزائن الله الكلام، فإذا أراد شيئاً قال له: كن فكان». وأخرج ابن جرير عن ابن جريج في قوله: ﴿إِلَّا عَنِ خَزَائِنِهِ﴾ قال: المطر خاصة. وأخرج ابن المنذر عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: «ما نقص المطر منذ أنزل الله، ولكن تملط أرض أكثر مما تملط أخرى ثم قرأ: ﴿وَمَا نَنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن مروي عن ابن مسعود قال: «ما من عام يامطر من عام، ولكن الله يصرفه حيث يشاء، ثم قرأ ﴿وَأَنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عَنِ خَزَائِنِهِ وَمَا نَنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾». وأخرجه ابن مروي عنه مرفوعاً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني عن ابن مسعود في قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ﴾ قال: يرسل الله الريح فتحمل الماء فتلقح به السحاب فتندثر كما تندثر اللقحة ثم تملط. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن عبيد بن عمير قال: يبعث الله المباشرة فتقوم الأرض قماءً، ثم يبعث الميثرة فتثير السحاب فتجعله كسفاً ثم يبعث المؤلفة فتؤلف بينه فيجعله ركاباً، ثم يبعث اللواقح فتلقحه فتمطر. وأخرج ابن أبي الدنيا، وابن جرير، وأبو الشيخ في العظمة، وابن مروي، والبيهقي بسنو ضعيف عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «رياح الجنوب من الجنة، وهي الريح اللواقح التي ذكر الله في كتابه».

واللحم وأصل: إذا أنتن، مطبوخاً كان أو نيئاً. قال الحطيطي: ذلك فتنى يبذل ذا قدرة لا يفسد اللحم لديه الصلؤل والحما: الطين الأسود المتغير. أو الطين الأسود من غير تقييد بالمتغير. قال ابن السكيت: تقول منه حمات البثر حمأ بالتسكين: إذا نزعتم حماتها، وحمئت البثر حمأ بالتحريك: كثرت حماتها، وأحميتها إحماء: ألقيت فيها الحماة. قال أبو عبيدة: الحماة بسكون الميم مثل الحماة يعني بالتحريك، والجمع حمء مثل تمره وتمر، والحما المصدر مثل الهلع والجزع، ثم سمي به. والمسنون قال الفراء: هو المتغير، وأصله من سنتت الحجر على الحجر: إذا حككته، وما يخرج بين الحجرين يقال له: السنانة والسنين، ومنه قول عبد الرحمن بن حسان:

ثم حاصرتها إلى القبة الحمرا تمشي في ممرور وسننون أي: محكوك، ويقال: أسن الماء إذا تغير، ومنه قوله: ﴿لم يتسنه﴾ [البقرة: 259]. وقوله: ﴿ماء غير أسن﴾ [محمد: 15] وكلا الاشتقاقين يدل على التغير، لأن ما يخرج بين الحجرين لا يكون إلا منتناً. وقال أبو عبيدة: المسنون المصوب، وهو من قول العرب سنتت الماء على الوجه: إذا صيبته، والسنن الصب. وقال سيبويه: المسنون المصوب، مأخوذ من سنة الوجه، وهي صورته، ومنه قول ذي الرمة:

تريك سنة وجه غير مقرفة ملساء ليس بها خال ولا نذب وقال الأخفش: المسنون المنصوب القائم، من قولهم: وجه مسنون إذا كان فيه طول. والحاصل على هذه الأقوال أن التراب لما بل صار طيناً، فلما أنتن صار حمأ مسنوناً، فلما يش صار صلصالاً: فاصل الصلصال: هو الحمأ المسنون، ولهذا وصف بهما ﴿والجان خلقناه من قبل من نار السموم﴾ الجان أبو الجن عند جمهور المفسرين. وقال عطاء والحسن وقتادة ومقاتل: هو إبليس. وسمي جانا لتواريه عن الأعين. يقال: جن الشيء إذا ستره. فالجان يستر نفسه عن أعين بني آدم، ومعنى من قبل: من قبل خلق آدم، والسموم: الريح الحادة النافذة في المسام، تكون بالنهار وقد تكون بالليل، كذا قال أبو عبيدة، وذكر خلق الإنسان والجان في هذا الموضع للدلالة على كمال القدرة الإلهية، وبيان أن القادر على النشأة الأولى قادر على النشأة الأخرى ﴿وإذ قال ربك للملائكة﴾ الظرف منصوب بفعل مقدر أي: أنكر، بين سبحانه بعد نكوه لخلق الإنسان ما وقع عند خلقه له، وقد تقدم تفسير ذلك في البقرة، والبشر مأخوذ من البشرة، وهي ظاهر الجلد، وقد تقدم تفسير الصلصال والحمأ المسنون قريباً مستوفى ﴿فإذا سويته﴾ أي: سويت خلقه وعلنت صورته الإنسانية وكملت أجزائه ﴿ونفخت فيه من روحي﴾ النفخ: إجراء الريح في تجاويف جسم آخر؛ فمن قال: إن الروح جسم لطيف كالهواء فمعناه ظاهر، ومن قال: إنه جوهر مجرد غير متحيز ولا حال في متحيز. فمعنى النفخ عنده تهيئة البدن لتعلق النفس الناطقة به. قال النيسابوري: ولا خلاف في أن الإضافة في روعي للتشريف

والتكريم، مثل ناقة الله، وبيت الله. قال القرطبي: والروح جسم لطيف، أجرى الله العادة بأن يخلق الحياة في البدن مع تلك الجسم. وحقيقته إضافة خلق إلى خالق، فالروح خلق من خلقه أضافه إلى نفسه تشريفاً وتكريماً، قال: ومثله ﴿روح منه﴾ [النساء: 171]. وقد تقدم في النساء ﴿فقعوا له ساجدين﴾ الفاء تدل على أن سجودهم واجب عليهم عقب التسوية والنفع من غير تراخ، وهو أمر بالوقوع من وقع يقع. وفيه دليل على أن المأمور به هو السجود لا مجرد الانحناء كما قيل، وهذا السجود هو سجود تحية وتكريم لا سجود عبادة، وله أن يكرم من يشاء من مخلوقاته كيف يشاء بما يشاء؛ وقيل: كان السجود لله تعالى وكان آدم قبله لهم ﴿فسجد للملائكة كلهم أجمعون﴾ أخبر سبحانه بأن الملائكة سجدوا جميعاً عند أمر الله سبحانه لهم بذلك من غير تراخ، قال المبرد: قوله ﴿كلهم﴾ أزال احتمال أن بعض الملائكة لم يسجد، وقوله أجمعون تأكيد بعد تأكيد، ورجح هذا الزجاج. قال النيسابوري: وذلك لأن أجمع معرفة فلا يقع حالاً ولو صح أن يكون حالاً لكان منتصباً، ثم استثنى إبليس من الملائكة فقال: ﴿إلا إبليس إني أن يكون مع الساجدين﴾ قيل: هذا الاستثناء متصل لكونه كان من جنس الملائكة ولكنه أبى ذلك استكباراً واستعظاماً لنفسه وحسداً لآدم فحقت عليه كلمة الله؛ وقيل: إنه لم يكن من الملائكة ولكنه كان معهم فقلب اسم الملائكة عليه وأمر بما أمروا به، فكان الاستثناء بهذا الاعتبار متصلاً؛ وقيل: إن الاستثناء منفصل بناءً على عدم كونه منهم، وعدم تغليبهم عليه أي: ولكن إبليس أبى أن يكون مع الساجدين وقد تقدم الكلام في هذا في سورة البقرة، وجملة ﴿إني أن يكون مع الساجدين﴾ استئناف مبين لكيفية ما فيهم من الاستثناء من عدم السجود، لأن عدم السجود قد يكون مع التردد، فبين سبحانه أنه كان على وجه الإباء، وجملة ﴿قال يا إبليس مالك أن لا تكون مع الساجدين﴾ مستأنفة أيضاً جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: فماذا قال الله سبحانه لإبليس بعد أن أبى السجود؟ وهذا الخطاب له ليس للتشريف والتكريم، بل للتقريع والتوبيخ، والمعنى: أي غرض لك في الامتناع؟ وأي سبب حملك عليه على أن لا تكون مع الساجدين لآدم مع الملائكة وهم في الشرف وعلو المنزلة والقرب من الله بالمنزلة التي قد علمتها، وجملة ﴿قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون﴾ مستأنفة كالتي قبلها، جعل العلة لترك سجوده كون آدم بشراً مخلوقاً من صلصال من حمأ مسنون زعماً منه أنه مخلوق من عنصر أشرف من عنصر آدم، وفيه إشارة إجمالية في كونه خيراً منه. وقد صرح بذلك في موضع آخر، فقال: ﴿إنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾ [ص: 76]. وقال في موضع آخر: ﴿السجد لمن خلقت طيناً﴾ [الإسراء: 61]. واللام في لأسجد لتأكيد النفي أي: لا يصح ذلك مني، فأجاب الله سبحانه عليه بقوله: ﴿قال فأخرج منها

وقتادة، والحسن، وقيس بن عباد، وأبو رجاء، وحמיד، ويعقوب (هذا صراط علي) على أنه صفة مشبهة، ومعناه رفيع ﴿إِنْ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ المراد بالعباد هنا هم المخلصون، والمراد أنه لا تسلط له عليهم بإيقاعهم في ذنب يهلكون به ولا يتوبون منه، فلا ينافي هذا ما وقع من آدم وحواء ونحوهما، فإنه ذنب مغفور لوقوع التوبة عنه ﴿إِلَّا مَنْ تَبِعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ استثنى سبحانه من عباده هؤلاء. وهم المتبعون لإبليس من الغاوين عن طريق الحق الواقعين في الضلال، وهو موافق لما قاله إبليس اللعين من قوله: ﴿لَا غَوِيَّتَهُمْ لْجَمْعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمَخْلُصِينَ﴾، ويمكن أن يقال: إن بين الكلامين فرقاً فكلام الله سبحانه فيه نفي سلطان إبليس على جميع عباده إلا من اتبعه من الغاوين، فيدخل في ذلك المخلصون وغيرهم ممن لم يتبع إبليس من الغاوين؛ وكلام إبليس اللعين يتضمن إغواء الجميع إلا المخلصين، فيدخل فيهم من لم يكن مخلصاً ولا تابعاً لإبليس غاوياً. والحاصل أن بين المخلصين والغاوين التابعين لإبليس طائفة لم تكن مخلصاً ولا غاوية تابعة لإبليس؛ وقد قيل: إن الغاوين المتبعين لإبليس هم المشركون ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: 100]، ثم قال الله سبحانه متوعداً لاتباع إبليس ﴿وَأِنْ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ لْجَمْعِينَ﴾ أي: موعد المتبعين الغاوين، وأجمعين تأكيد للضمير أو حال ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ يدخل أهل النار منها وإنما كانت سبعة لكثرة أهلها ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ﴾ أي: من الاتباع القوة ﴿جِزْرَةٌ مَقْسُومٌ﴾ أي: قدر معلوم متميز عن غيره؛ وقيل: المراد بالأبواب الطباق طبق فوق طبق، وهي جهنم، ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير، ثم سقر ثم الجحيم، ثم الهاربة؛ فاعلاها للموحدين، والثانية لليهود، والثالثة للنصارى، والرابعة للصابئين، والخامسة للمجوس، والسادسة للمشركين، والسابعة للمنافقين، فجهنم أعلى الطباق، ثم ما بعدها تحتها، ثم كذلك، كذا قيل.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس قال: خلق الإنسان من ثلاث من طين لازب وصلصال وحماً مسنون، فالطين اللازب: اللازم الجيد، والصلصال: المنطق الذي يصنع منه الفخار، والحماً المسنون: الطين الذي فيه الحماة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مروي عنه قال: الصلصال الماء يقع على الأرض الطيبة ثم يحسر عنها فتشقق ثم تصير مثل الخزف الرقاق. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: الصلصال هو التراب اليابس الذي يبل بعد يسه. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: الصلصال طين خلط برمل. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: الصلصال الذي إذا ضربته صلصل. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: الصلصال الطين تعصر بيك فيخرج الماء من بين أصابعك. وأخرج ابن جرير، وابن

فإنك رجيم﴾ والضمير في منها، قيل عائذ إلى الجنة، وقيل: إلى السماء؛ وقيل: إلى زمرة الملائكة أي: فأخرج من زمرة الملائكة فإنك رجيم أي: مرجوم بالشبه؛ وقيل معنى رجيم ملعون أي: مطرود لأن من يطرد يرجم بالحجارة ﴿وَأَنْ عَلَيْكَ اللَّعْنَةُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ أي: عليك الطرد والإبعاد من رحمة الله سبحانه مستمراً عليك لازماً لك إلى يوم الجزاء، وهو يوم القيامة، وجعل يوم الدين غاية للعنة لا يستلزم انقطاعها في ذلك الوقت، لأن المراد بوامها من غير انقطاع، وذكر يوم الدين للمبالغة كما في قوله تعالى: ﴿مَا دامت السموات والأرض﴾ [هود: 107] أو أن المراد أنه في يوم الدين وما بعده يعذب بما هو أشد من اللعن من أنواع العذاب، فكأنه لا يجد له ما كان يجده قبل أن يمسسه العذاب ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي﴾ أي: أخرني وأمهلني ولا تمتني إلى يوم يبعثون أي: آمم ونزيت. طلب أن يبقى حياً إلى هذا اليوم لما سمع ذلك علم أن الله قد أخر عذابه إلى الدار الآخرة وكأنه طلب أن لا يموت أبداً، لأنه إذا أخر موته إلى ذلك اليوم فهو يوم لا موت فيه؛ وقيل: إنه لم يطلب أن لا يموت، بل طلب أن يؤخر عذابه إلى يوم القيامة ولا يعذب في الدنيا ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ لما سأل الانتظار أجابه الله سبحانه إلى ما طلبه وأخبره بأنه من جملة من أنظره ممن أخر آجالهم من مخلوقاته، أو من جملة من أخر عقوبتهم بما اقترعوا، ثم بين سبحانه الغاية التي أمهله إليها، فقال: ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ وهو يوم القيامة فإن يوم الدين ويوم يبعثون ويوم الوقت المعلوم كلها عبارات عن يوم القيامة؛ وقيل: المراد بالوقت المعلوم هو الوقت القريب من البعث، فعند ذلك يموت. ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لِأُزَيِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ الباء للقسمة، وما صدريه، وجواب القسم لأزين لهم أي: أقسم بإغواك إياي لأزين لهم في الأرض أي: ما داموا في الدنيا، والتزيين منه إما بتحسين المعاصي لهم وإيقاعهم فيها، أو يشغلهم بزيينة الدنيا عن فعل ما أمرهم الله به فلا يلتفتون إلى غيرها. وإقسامه ها هنا بإغواء الله له لا ينافي إقسامه في موضع آخر بعهدة الله التي هي سلطانه وقهره، لأن الإغراء له هو من جملة ما تصدق عليه العهدة ﴿وَلَا غَوِيَّتَهُمْ لْجَمْعِينَ﴾ أي: لأضلنهم عن طريق الهدى وأوقعهم في طريق الغواية وأحلمهم عليها ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمَخْلُصِينَ﴾ قرأ أهل المدينة وأهل الكوفة بفتح اللام أي: الذين استخلصتهم من العباد. وقرأ الباقون بكسر اللام أي: الذين أخلصوا لك العبادة فم يقصدوا بها غيرك ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي: حق علي أن أراعيه، وهو أن لا يكون لك على عبادي سلطان. قال الكسائي: هذا على الوعيد والتهديد، كقولك لمن تهدد: طريقك علي ومصيرك إلي، وكقوله: ﴿إِنْ رِيكَ لِالْمَرْصَادِ﴾ [الفجر: 14] فكان معنى هذا الكلام هذا طريق مرجعه إلي فأجازي كلا بعمله، وقيل: على هنا بمعنى إلى؛ وقيل: للمعنى على أن الصراط المستقيم بالبيان والحجة؛ وقيل: بالتوفيق والهداية. وقرأ ابن سيرين،

مَدْرَبًا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَيَرَاتِ ﴿١٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قومٌ مُشْكِرُونَ ﴿١٧﴾ قَالُوا بَلْ جِئْتَنَا بِمَا كَانُوا بِهِ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٨﴾ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَلِمَّا لَعَدْتَهُمْ ﴿١٩﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّجِبْ غَدْرَهُمْ وَلَا يَلْبُثْ يُسْكَرُ كَمَا دَأَّبْنَا مَنْ أَصْوَافَهُمْ وَاتَّقِ خَيْدَتَهُمْ فَهُمْ لَا يَخِفُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَفَّيْنَا عَنْ لُوطٍ ذَلِكَ الْأَمْرُ إِنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصَرِّجِينَ ﴿٢١﴾

قوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي: المتقين للشرك بالله كما قاله جمهور الصحابة والتابعين، وقيل هم الذين اتقوا جميع المعاصي في جنات وهي البساتين، وعيون وهي الأنهار. قرئ بضم العين من عيون على الأصل، وبالكسر مراعاة للياء، والتركيب يحتمل أن يكون لجميع المتقين جنات وعيون، أو لكل واحد منهم جنات وعيون، أو لكل واحد منهم جنة وعين ﴿أَدْخُلُوهَا﴾ قرأ الجمهور بلفظ الأمر على تقدير القول أي قيل لهم: ادخلوها. وقرأ الحسن وأبو العالية، وروي عن يعقوب بضم الهمزة مقطوعة، وفتح الخاء على أنه فعل مبني للمفعول أي: ادخلهم الله إياها. وقد قيل: إنهم إذا كانوا في جنات وعيون، فكيف يقال لهم بعد ذلك ادخلوها على قراءة الجمهور؟ فإن الأمر لهم بالدخول يشعر بأنهم لم يكونوا فيها، وأجيب بأن المعنى أنهم لما صاروا في الجنات، فإذا انتقلوا من بعضها إلى بعض يقال لهم عند الوصول إلى التي أرادوا الانتقال إليها: ادخلوها، ومعنى ﴿بِإِسْلَامٍ آمَنِينَ﴾ بسلامة من الآفات، وأمن من المخافات، أو مسلمين على بعضهم بعضاً، أو مسلماً عليهم من الملائكة، أو من الله عز وجل: ﴿وَنُزَعْنَا مَا فِي صُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ﴾ الغل: الحقد والعداوة، وقد مر تفسيره في الاعراف، وانتصاب ﴿إِخْوَانًا﴾ على الحال أي: إخوة في الدين والتعاطف ﴿عَلَى سُرَرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ أي: حال كونهم على سرر، وعلى صورة مخصوصة وهي التقابل، ينظر بعضهم إلى وجه بعض، والسرر جمع سرير، وقيل: هو المجلس الرفيع المهيأ للسرور، ومنه قولهم: سرر الوادي لأفضل موضع منه ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي: تعب وإعياء لعدم وجود ما يتسبب عنه ذلك في الجنة، لأنها نعيم خالص، ولذة محضة تحصل لهم بسهولة، وتوافيهم مطالبهم بلا كسب ولا جهد، بل بمجرد خور شهوة الشيء بقلوبهم يحصل ذلك الشيء عندهم صفوا عفوا ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرِجِينَ﴾ أبداً، وفي هذا الخلود الدائم وعلمهم به تمام اللذة وكمال النعيم، فإن علم من هو في نعمة ولذة بانقطاعها وعلمها بعد حين موجب لتنغص نعيمه وتكدر لذته. ثم قال سبحانه بعد أن قص علينا ما للمتقين عنده من الجزاء العظيم والاجر الجزيل ﴿نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أي: أخبرهم يا محمد أنني أنا الكثير المغفرة للذنوبهم، الكثير الرحمة لهم، كما حكمت به على نفسي: «إن رحمتي سبقت غضبي»، اللهم اجعلنا من عبادك الذين تفضلت عليهم بالمغفرة، وادخلتهم تحت واسع الرحمة. ثم إنه سبحانه لما أمر رسوله بأن يخبر عباده بهذه البشارة

المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿مَنْ حَمَا مَسْنُونٌ﴾ قال: من طين رطب. وأخرج هؤلاء عنه أيضاً ﴿مَنْ حَمَا مَسْنُونٌ﴾ قال: من طين منتن. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: الجان مسيح الجن كالقردة والخنازير مسيح الإنسان. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة قال: الجان: هو إبليس خلق من قبل آدم. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلِ مَنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ قال: من أحسن النار. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه قال: نار السموم الحارة التي تقتل. وأخرج الطيالسي، والغريابي، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود قال: السموم: التي خلق منها الجان جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم، ثم قرأ: ﴿وَالْجَانَّ، خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلِ مَنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ وأخرجه ابن مروي عنه مرفوعاً. وأخرج ابن أبي حاتم وابن مروي عن ابن عباس في قوله: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يَبْعَثُونَ﴾ قال: أراد إبليس لا يثوق الموت فقليل: إنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم، قال: النفخة الأولى يموت فيها إبليس، وبين النفخة والنفخة أربعون سنة. وأخرج أبو عبيد، وابن جرير، وابن المنذر عن ابن سيرين ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي: رفيع. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ بعدد أبواب جهنم كما تقدمنا. وأخرج ابن المبارك، وابن أبي شيبة، وأحمد في الزهد، وهناد، وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا في صفة النار، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في البعث من طرق عن علي قال: أبواب جهنم سبعة بعضها فوق بعض، فيملا الأول، ثم الثاني، ثم الثالث حتى: تملا كلها، وأخرج البخاري في تاريخه، والترمذي، وابن مروي عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «بجهنم سبعة أبواب، باب منها لمن سلّ السيف على أمّتي». وقد ورد في صفة النار أحاديث وأثار. وأخرج ابن مروي، والخطيب في تاريخه عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «في قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ قال: «جزء أشركوا بالله، وجزء شكوا في الله، وجزء غفلوا عن الله».

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ؕ آمِينَ ﴿١٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُورِهِمْ مِنْ عَلَىٰ إِخْرَاقًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿١٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرِجِينَ ﴿١٨﴾ تَبَوَّءُوا فِيهَا مَقْعَدَاتُ الزُّرْجِيِّ ﴿١٩﴾ وَأَنَّ عَنَّا يَوْمَ الْقَدَابِ الْأَلِيمِ ﴿٢٠﴾ وَنَبِّئُهُمْ عَنْ حَبِيبٍ إِذْ دَعَا إِلَىٰ دَعْوَانَا قَالُوا سَلْنَا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَكَلُونَ ﴿٢١﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نَحْنُ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ عَلَيْهِ ﴿٢٢﴾ قَالَ أَتَسْتَرْثَوْنَ عَلَىٰ أَنْ نَسْفِكَ الْكِبَرِ بِهِ تَبَيَّرُونَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْطَعُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّي إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٢٦﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٢٧﴾ إِلَّا مَا لُوطُ إِنَّا لَنَجْجِوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٢٨﴾ إِلَّا أُنْزِلَتْ

العظيمة، امره بأن ينكر لهم شيئاً مما يتضمن التخويف والتحذير حتى يجتمع الرجاء والخوف، ويتقابل التبشير والتحذير ليكونوا راجين خائفين فقال: **﴿وَأَنْ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾** أي: الكثير الإيلام، وعند أن جمع الله لعباده بين هذين الأمرين من التبشير والتحذير صاروا في حالة وسطاً بين اليأس والرجاء، وخير الأمور أوساطها، وهي القيام على قدمي الرجاء والخوف، وبين حالتي الأنس والهيبة، وجملة **﴿وَنَبِّئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾** معطوفة على جملة نبي عبادي أي: أخبرهم بما جرى على إبراهيم من الأمر الذي اجتمع فيه له الرجاء والخوف، والتبشير الذي خالطه نوع من الوجع ليعتبروا بذلك ويعلموا أنها سنة الله سبحانه في عبادته، وأيضاً لما اشتملت القصة على إنجاء المؤمنين وإهلاك الظالمين كان في ذلك تقريراً لكونه الغفور الرحيم وإن عذابه هو العذاب الأليم، وقد مرّ تفسير هذه القصة في سورة هود، وانتصاب **﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾** بفعل مضمر معطوف على **﴿نَبِّئِ عِبَادِي﴾** أي: وانكر لهم دخولهم عليه، أو في محل نصب على الحال. والضيف في الأصل مصدر، ولذلك وحد وإن كانوا جماعة، وسمي ضيفاً لإضافته إلى المضيف **﴿فَقَالُوا سَلَاماً﴾** أي: سلمنا سلاماً **﴿قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجُلُونَ﴾** أي: فزعون خائفون، وإنما قال هذا بعد أن قرّب إليهم العجل فرأهم لا ياكلون منه كما تقدم في سورة هود **﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾** [هود: 70] وقيل: أنكر السلام منهم لأنه لم يكن في بلادهم، وقيل: أنكر دخولهم عليه بغير استئذان **﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ﴾** أي قالت: الملائكة لا تخف. وقرئ (لا تاجل) ولا توجل من لوجه أي: أخافه، وجملة **﴿إِنَّا نَبِّشُرُكَ بِغَلَامٍ عَلِيمٍ﴾** مستأنفة لتعليل النهي عن الوجع، والعليم: كثير العلم، وقيل: هو الحليم كما وقع في موضع آخر من القرآن، وهذا الغلام: هو إسحاق كما تقدم في هود، ولم يسمه هنا ولا نكر التبشير ببعقوب لكتفاء بما سلف **﴿قَالَ لَبِشْرُتُمُونِي﴾** قرأ الجمهور بالف الاستفهام. وقرأ الأعمش (بشرتوني) بغير الالف **﴿عَلَىٰ أَنْ مَسْنِيَ الْكَبِيرِ﴾** في محل نصب على الحال أي: مع حالة الكبر والهرم **﴿فَبِمَ تَبَشِّرُونَ﴾** استفهام تعجب، كأنه عجب من حصول الولد له مع ما قد صار إليه من الهرم الذي جرت العادة بانه لا يولد لمن بلغ إليه، والمعنى: فبأي شيء تبشرون، فإن البشارة بما لا يكون عادة لا تصح. وقرأ نافع (تبشرون) بكسر النون والتخفيف وإبقاء الكسرة لتدل على الباء المحذوفة. وقرأ ابن كثير، وابن محيصن بكسر النون مشددة على إدغام النون في النون، وأصله تبشرونني. وقرأ الباقون (تبشرون) بفتح النون **﴿قَالُوا بِشْرُكَ بِالْحَقِّ﴾** أي: باليقين الذي لا خلف فيه، فإن ذلك وعد الله وهو لا يخلف الميعاد ولا يستحيل عليه شيء، فإنه القادر على كل شيء **﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾** هكذا قرأ الجمهور بثبات الالف. وقرأ الأعمش، ويحيى بن وثاب (من الكافرين) بغير الف،

وروي ذلك عن أبي عمرو أي: من الآيسين من ذلك الذي بشرناك به **﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾** قرئ بفتح النون من يقنط وبكسرهما وهما لغتان. وحكي فيه ضم النون، والضالون المكذبون، أو المخطئون الزاهبون عن طريق الصواب أي: إنما استبعت الولد لكبر سني لا لقنوطي من رحمة ربي؛ ثم سألهم عما لأجله أرسلهم الله سبحانه ف **﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ إِلَيْهَا الْمُرْسَلُونَ﴾** الخطب: الأمر الخطير والشأن العظيم أي: فما أمركم وشأنكم وما الذي جئتم به غير ما قد بشرتموني به، وكأنه قد فهم أن مجيئهم ليس لمجرد البشارة، بل لهم شأن آخر لأجله أرسلوا **﴿قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مَجْرُمِينَ﴾** أي: إلى قوم لهم إجرام، فيدخل تحت ذلك الشرك وما هو بونه، وهؤلاء القوم: هم قوم لوط، ثم استثنى منهم من ليسوا مجرمين فقال: **﴿إِلَّا آلَ لُوطَ﴾** وهو استثناء متصل، لأنه من الضمير في مجرمين، ولو كان من قوم لكان منقطعاً لكونهم قد وصفوا بكونهم مجرمين، وليس آل لوط مجرمين. ثم نكر ما سيخص به آل لوط من الكرامة لعدم دخولهم مع القوم في إجرامهم فقال: **﴿إِنَّا لَمُنْجُوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾** أي: آل لوط، وهم أتباعه وأهل بيته، وهذه الجملة مستأنفة على تقدير كون الاستثناء متصلاً كأنه قيل: ماذا يكون حال آل لوط؟ فقال: **﴿إِنَّا لَمُنْجُوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾** وأما على تقدير كون الاستثناء منقطعاً فهي خبر أي: لكن آل لوط ناجون من عذابنا. وقرأ حمزة والكسائي (لمنجومهم) بالتخفيف من أنجا. وقرأ الباقون بالتشديد من نجى. واختار هذه القراءة الأخيرة أبو عبيدة وأبو حاتم، والتنجية والإنجاء التخليص مما وقع فيه غيرهم **﴿إِلَّا أُمَّرَاتَهُ﴾** هذا الاستثناء من الضمير في منجوهم إخراجاً لها من التنجية أي: إلا أمارته فليست ممن تنجيه بل ممن نهلك؛ وقيل: إن الاستثناء من آل لوط باعتبار ما حكم لهم به من التنجية، والمعنى: قالوا: **﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مَجْرُمِينَ لَنَهْلِكَهُمْ إِلَّا آلَ لُوطَ إِنَّا لَمُنْجُوهُمْ إِلَّا أُمَّرَاتَهُ فَإِنَّهَا مِنَ الْهَالِكِينَ﴾** ومعنى **﴿قَدَرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾** قضينا وحكمنا أنها من الباقين في العذاب مع الكفرة، والغابر الباقي، قال الشاعر:

لا تكسح الشول بأغبارها إنك لا تسري من النتائج
والإغبار: بقايا اللبن. قال الزجاج: معنى قدرنا بمرنا وهو قريب من معنى قضينا وأصل التقدير: جعل الشيء على مقدار الكفاية. وقرأ عاصم من رواية أبي بكر والمفضل (قدرنا) بالتخفيف. وقرأ الباقون بالتشديد. قال الهروي: هما بمعنى، وإنما أسند التقدير إلى الملائكة من كونه مع فعل الله سبحانه لما لهم من القرب عند الله **﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطَ الْمُرْسَلُونَ﴾** هذه الجملة مستأنفة لبيان وإهلاك من يستحق الهلاك وتنجية من يستحق النجاة **﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مَنكُرُونَ﴾** أي قال لوط مخاطباً لهم: إنكم قوم منكرون أي: لا أعرفكم بل أنكركم **﴿قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كُفَرْنَا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾** أي: بالعذاب الذي كانوا يشكون فيه، فالإضراب هو عن مجيئهم بما ينكره؛ كأنهم قالوا: ما جئناك بما خطر

وبأن مروييه عن علي قال: إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان والزبير وطلحة فيمن قال الله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ﴾. وأخرج ابن مروييه، وابن عساكر من طريق الكلبي عن أبي صالح، عن ابن عباس في هذه الآية قال: نزلت في عشرة: أبي بكر وعمر، وعثمان وعلي، وطلحة والزبير، وسعد وسعيد، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن مسعود. وأخرجه ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي صالح موقوفاً عليه. وأخرج ابن أبي شيبة، وهناد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿وَعَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ قال: لا يرى بعضهم قفا بعض. وأخرجه ابن المنذر، وابن مروييه عن مجاهد، عن ابن عباس. وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو القاسم البغوي، وابن مروييه، وابن عساكر عن زيد بن أبي لؤي قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فتلا هذه الآية: ﴿إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ قال: المتحابون في الله في الجنة ينظر بعضهم إلى بعض. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ قال: المشقة والأذى. وأخرج ابن جرير، وابن مروييه من طريق عطاء بن أبي رباح عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: «اطلع علينا رسول الله ﷺ من الباب الذي يدخل منه بنو شيبه فقال: ألا أراكم تضحكون؟ ثم أدير حتى إذا كان عند الحجر رجع القهقري فقال: إني لما خرجت جاء جبريل فقال: يا محمد إن الله عز وجل يقول: لم تقنط عبادي؟ ﴿نَبِيُّ عِبَادِي أَنِي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾، وإن عذابي هو للعذاب الأليم». وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مصعب بن ثابت قال: «مرّ النبي ﷺ على ناس من أصحابه يضحكون فقال: انكروا الجنة وانكروا النار»، فنزلت: ﴿نَبِيُّ عِبَادِي أَنِي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾. وأخرج الطبراني، والبخاري، وابن مروييه عن عبد الله بن الزبير قال: مرّ النبي ﷺ فنكر نحوه. وأخرج البخاري، ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة فأمسك عنده تسعة وتسعين رحمة، وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة، فلو يعلم الكافر كل الذي عند الله من رحمته لم ييأس من الرحمة، ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب لم يامن من النار». وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة ﴿قَالُوا لَا تَوَجَّلْ﴾ لا تخف. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي ﴿مِنَ الْفَاطِنِينَ﴾ قال: الأيسين. وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة ﴿إِنهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ يعني: الباقيين في عذاب الله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مَّنْكَرُونَ﴾ قال: أنكرهم لوط، وفي قوله: ﴿بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ قال: بعذاب قوم لوط. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن قتادة ﴿بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ قال: يشككون. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة في قوله: ﴿وَاتَّبَعَ آبَارَهُمْ﴾ قال: أمر أن يكون خلف أهله يتبع آبائهم في آخرهم إذا مشوا. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي ﴿وَأَمَّا صُورُهُمْ﴾

ببلك من المكروه، بل جثثك بما فيه سرورك، وهو عذابهم الذي كنت تحذرهم منه وهم يكتبنوك ﴿وَاتَّبَعْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ أي: باليقين الذي لا مرية فيه ولا تردد، وهو العذاب النازل بهم لا محالة ﴿وَأَنَا لَصَادِقُونَ﴾ في ذلك الخبر الذي أخبرناك. وقد تقدم تفسير قوله: ﴿فَأَسْرَ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنْ الْخَلِيلِ﴾ في سورة هود ﴿وَاتَّبَعَ آبَارَهُمْ﴾ أي: كن من ورائهم تنوذهم لئلا يختلف منهم أحد فيناله العذاب ﴿وَلَا يَلْتَفَتُ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ أي: لا تلتفت أنت ولا يلتفت أحد منهم فيرى ما نزل بهم من العذاب، فيشتغل بالنظر في ذلك ويتباطأ عن سرعة السير والبعث عن ديار الظالمين؛ وقيل: معنى لا يلتفت لا يتخلف ﴿وَأَمَّا صُورُهُمْ﴾ أي: أوحينا إلى لوط ﴿تِلْكَ الْأُمُورُ﴾ وهو إهلاك قومه، ثم فسره بقوله: ﴿أَنْ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ﴾ قال الزجاج: موضع أن نصب، وهو بدل من ذلك الأمر، والدابر هو الآخر أي: أن آخر من يبقى منهم يهلك وقت الصبح، وانتصاب ﴿مُصْبِحِينَ﴾ على الحال أي: حال كونهم داخلين في وقت الصبح، ومثله ﴿فَقَطَّعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [الأنعام: 45].

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك في قوله: ﴿أَمْنِينَ﴾ قال: آمنوا الموت فلا يموتون ولا يكبرون ولا يسقمون ولا يعرون ولا يجوعون. وأخرج ابن جرير عن علي ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ﴾ قال: العداوة. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مروييه عن الحسن البصري قال: قال علي بن أبي طالب: فينا والله أهل الجنة نزلت: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾. وأخرج ابن عساكر، وابن مروييه عنه في الآية قال: نزلت في ثلاثة أحياء من العرب: في بني هاشم، وبني تميم، وبني عدي، في بني بكر وعمر. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن عساكر عن كثير النواء، قال: قلت لأبي جعفر إن فلاناً حدثني عن علي بن الحسين أن هذه الآية نزلت في أبي بكر وعمر وعلي ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ﴾ قال: والله إنها لفيهم أنزلت؛ وفيمن تنزل إلا فيهم؟ قلت: وأي غل هو؟ قال: غل الجاهلية، إن بني تميم وبني عدي وبني هاشم كان بينهم في الجاهلية، فلما أسلم هؤلاء القوم تحابوا، فأخذت أبا بكر الخاصرة، فجعل علي يسخن يده فيكمد بها خاصرة أبي بكر، فنزلت هذه الآية. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم، وابن مروييه عن علي من طرق أنه قال لابن طلحة: إني لأرجو أن أكون أنا وأبوك من الذين قال الله فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ﴾ الآية، فقال رجل من همدان: الله أعلم من ذلك، فصاح علي عليه صيحة تداعى لها القصر وقال: فيمن إن إن لم تكن نحن أولئك. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، والطبراني،

تؤمرون قال: أخرجهم الله إلى الشام. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن زيد **«وقضينا إليه تلك الأمر»** قال: أوحيناه إليه. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس **«أن دابر هؤلاء مقطوع»** يعني: استئصال هلاكهم.

وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٠﴾ قَالَ إِنَّ هَذِهِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦١﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَفْضَحُوا ﴿٦٢﴾ قَالُوا أَوْلَمْ تَنْهَكْ عَنِ الْكَلْبِيتِ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَذِهِ بَنَاتِي إِنْ كُنَّ فَعَلِينَ ﴿٦٤﴾ لَمْ تَكُنْ لِي سَكْرَتِي بِمَهْوَنٍ ﴿٦٥﴾ فَأَخَذْتَهُنَّ الصَّيْحَةَ مُثْرِقِينَ ﴿٦٦﴾ فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَابِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴿٦٧﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿٦٨﴾ وَرَأَاهَا لَيْسَ لِي مُعِيرٍ ﴿٦٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٠﴾

نكر سبحانه ما كان من قوم لوط عند وصول الملائكة إلى قريتهم فقال: **«وجاء أهل المدينة يستبشرون»** أي: أهل مدينة قوم لوط، وهي سلوم كما سبق، وجملة يستبشرون في محل نصب على الحال أي: مستبشرون باضياف لوط طمعاً في ارتكاب الفاحشة منهم فـ **«قال»** لهم لوط **«إن هؤلاء ضيفي»** وحد الضيف لأنه مصدر كما تقدم، والمراد اضيافي، وسماهم ضيفاً لأنه رآهم على هيئة الاضياف، وقومه رأوهم مردداً حسان الوجه، فلذلك طمعوا فيهم **«فلا تفضحون»** يقال: فضحه يفضحه فضيحة وفضحاً إذا أظهر من أمره ما يلزمه العار بإظهاره، والمعنى: لا تفضحون عندهم بتعرضكم لهم بالفاحشة فيعلمون أنني عاجز عن حماية من نزل بي، أو لا تفضحون بفضيحة ضيفي، فإن من فعل ما يفضح الضيف فقد فعل ما يفضح المضيف **«واتقوا الله»** في أمرهم **«ولا تخزون»** يجوز أن تكون من الخزي: وهو الذل والهوان، ويجوز أن يكون من الخزية وهي الحياء والخجل، وقد تقدم تفسير ذلك في هود **«قالوا»** أي: قوم لوط مجيبين له **«أولم تنهك عن للعالمين»** الاستفهام للإنكار، والواو للعطف على مقتر أي: ألم نتقّم إليك وننهك عن أن تكلمنا في شأن أحد من الناس إذا قصدناه بالفاحشة؟ وقيل: نهوه عن ضيافة الناس، ويجوز حمل ما في الآية على ما هو أعم من هذين الأمرين **«قال هؤلاء بناتي»** فتزوجوهن **«إن كنتم فاعلين»** ما عزمتم عليه من فعل الفاحشة بضيفي فهؤلاء بناتي تزوجوهن حالاً ولا تركبوا الحرام؛ وقيل أراد بيناته نساء قومه، لكون النبي بمنزلة الأب لقومه، وقد تقدم تفسير هذا في هود **«لعمركم إنهم لفي سكرتهم يعمهون»** العمر والعمر بالفتح والضم ولحد، لكنهم خصوا القسم بالمفتوح لإيثار الأخف فإنه كثير الدور على ألسنتهم، نكر ذلك الزجاج. قال القاضي عياض: اتفق أهل التفسير في هذا أنه قسم من الله جلّ جلاله بمدة حياة محمد ﷺ، وكذا حكى إجماع المفسرين على هذا المعنى أبو بكر بن العربي فقال: قال المفسرون بأجمعهم: أقسم الله تعالى ما هنا بحياة محمد ﷺ تشريعاً له. قال أبو الجوزاء: ما أقسم الله سبحانه بحياة

أحد غير محمد ﷺ لأنه أكرم البرية عنده. قال ابن العربي: ما الذي يتمتع أن يقسم الله سبحانه بحياة لوط ويبلغ به من التشريف ما شاء، وكل ما يعطيه الله تعالى للوط من فضل يؤتى ضعفه من شرف لمحمد ﷺ لأنه أكرم على الله منه أو لا تراه سبحانه أعطى إبراهيم الخلة وموسى التكليم، وأعطى ذلك لمحمد ﷺ فإذا أقسم الله سبحانه بحياة لوط فحياة محمد أرفع. قال القرطبي: ما قاله حسن فإنه يكون قسمه سبحانه بحياة محمد ﷺ كلاماً معترضاً في قصة لوط فإن قيل: قد أقسم الله سبحانه بالتين والزيتون وطور سينين، ونحو ذلك فما فيهما من فضل. وأجيب بأنه ما من شيء أقسم الله به إلا وفي ذلك دلالة على فضله على جنسه، ونكر صاحب الكشاف وأتباعه أن هذا القسم هو من الملائكة على إرادة القول أي: قالت الملائكة للوط: لعمرك، ثم قال: وقيل الخطاب لرسول الله ﷺ وأنه أقسم بحياته وما أقسم بحياة أحد قط كرامة له. انتهى. وقد كرر كثير من العلماء القسم بغير الله سبحانه، وجاءت بذلك الأحاديث الصحيحة في النهي عن القسم بغير الله فليس لعباده أن يقسموا بغيره، وهو سبحانه يقسم بما شاء من مخلوقاته **«لا يسأل عما يفعل وهم يسألون»** [الأنبياء: 23]. وقيل: الإقسام منه سبحانه بالتين والزيتون وطور سينين والنجم والضحى والشمس والليل ونحو ذلك هو على حذف مضاف هو المقسم به أي: وخالق التين وكذلك ما بعده، وفي قوله: **«لعمرك»** أي: وخالق عمرك، ومعنى **«إنهم لفي سكرتهم يعمهون»**: لفي غرايتهم يتحيرون، جعل الغواية لكونها تذهب بعقل صاحبها كما تذهب به الخمر سكرة والضمير لقريش على أن القسم بمحمد ﷺ، أو القوم لوط على أن القسم للرسول عليه السلام **«فأخذتهم الصيحة»** العظيمة أو صيحة جبريل حال كونهم **«مشركين»** أي: داخلين في وقت الشروق، يقال: أشرقت الشمس أي: أضاءت وشرقت إذا طلعت، وقيل: هما لغتان بمعنى واحد. وأشرق القوم إذا دخلوا في وقت شروق الشمس؛ وقيل: أراد شروق الفجر؛ وقيل: أول العذاب كان عند شروق الفجر وامتد إلى طلوع الشمس. والصيحة العذاب **«فجعلنا عاليها سافلها»** أي: عالي المدينة سافلها **«وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل»** من طين متحجر، وقد تقدم الكلام مستوفى على هذا في سورة هود **«إن في ذلك»** أي: في المنكور من قصتهم وبيان ما أصابهم **«آيات»** لعلامات يستدل بها **«للمتوسمين»** للمتفكرين الناظرين في الأمر ومنه قول زهير:

وفيهن ملهى للصديق ومنظر أنيق لعين الناظر المتوسم وقال الآخر:

أو كلما ربت عكاظ قبيلة بعثوا إلي عريغهم يتوسم وقال أبو عبيدة: للمتبصرين، وقال ثعلب: الواسم الناظر إليك من قرنك إلى قدمك، والمعنى متقارب، وأصل التوسم التثبت والتفكر، مأخوذ من الوسم وهو التأثير بحديدة في

وابن أبي حاتم عن قتادة قال: لطريق واضح.
 وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَطَائِفِينَ ﴿٧٨﴾ فَأَنْقَضْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّمَا لِإِيمَانِهِمْ
 ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْمَرْسِلِينَ ﴿٨٠﴾ وَأَنقَضْنَاهُمْ مَا كَانُوا يَكُونُونَ عَنْهَا
 مُرْضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يَتَوَكَّنُونَ مِنَ الْجِبَالِ يَوْمَ تَذُوبُهَا ﴿٨٢﴾ فَأَخَذْتُمُ الصَّيْحَةَ
 مُصْرِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَأَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَا عَلَّمْنَا النَّمْرُوتَ وَالْأَرْضَ
 وَمَا يَنْتَهِي إِلَا بِالْحَقِّ وَلَئِكَ السَّاعَةُ لَأَيَّةٌ فَأَمَّا صَنْعُ الْجَبِيلِ ﴿٨٥﴾ إِنَّ
 رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾

قوله: ﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ إن هي المخففة من
 الثقيلة، واسمها ضمير الشأن المحذوف أي: وإن الشأن كان
 أصحاب الأيكة. والأيكة الغيضة، وهي جماع الشجر، والجمع
 الأيك. ويروى أن شجرهم كان دوماً، وهو المقل، فالمعنى:
 وإن كان أصحاب الشجر مجتمع، وقيل: الأيكة اسم القرية
 التي كانوا فيها. قال أبو عبيدة: الأيكة وليكة مدينتهم كمكة
 وبكة، وأصحاب الأيكة هم قوم شعيب، وقد تقدم خبرهم،
 واقتصر الله سبحانه هنا على وصفهم بالظلم، وقد فصل
 ذلك الظلم فيما سبق، والضمير في ﴿وَإِنَّمَا لِإِيمَانِهِمْ﴾
 يرجع إلى مدينة قوم لوط، ومكان أصحاب الأيكة أي: وإن
 المكانين لطريق واضح، والإمام اسم لما يؤتم به، ومن جملة
 تلك الطريق التي تسلك، قال الفراء والزجاج: سمي الطريق
 إماماً لأنه يؤتم ويتبع. وقال ابن قتيبة: لأن المسافرين يأتهم به
 حتى يصل إلى الموضع الذي يريد، وقيل: الضمير للأيكة
 ومدين لأن شعبياً كان ينسب إليهما. ثم إن الله سبحانه ختم
 القصص بقصة ثمود فقال: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحَجَرِ
 الْمُرْسَلِينَ﴾ الحجر اسم لدير ثمود، قاله الأزهري. وهي ما
 بين مكة وتبوك. وقال ابن جرير: هي أرض بين الحجاز
 والشام. وقال: المرسلين، ولم يرسل إليهم إلا صالح، لأن من
 كذب واحداً من الرسل فقد كذب الباقين لكونهم متفقين في
 الدعوة إلى الله، وقيل: كذبوا صالحاً ومن تقدمه من الأنبياء،
 وقيل: كذبوا صالحاً ومن معه من المؤمنين ﴿وَأَتَيْنَاهُمُ
 آيَاتِنَا﴾ أي الآيات المنزلة على نبيهم، ومن جعلتها الناقة
 فإن فيها آيات جمة كخروجها من الصخرة وبنو نتاجها عند
 خروجها وعظمها وكثرة لبنها ﴿فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾
 أي: غير معتبرين، ولهذا عقروا الناقة وخالفوا ما أمرهم به
 نبيهم ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ النحت في
 كلام العرب: البري والنجر، نحت يَنْحِتُ بالكسر نحتاً أي:
 براء، وفي التنزيل ﴿اتَّعْبِدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [الصافات: 95].
 أي: تنجرون، وكانوا يتخنون لأنفسهم من الجبال بيوتاً أي:
 يخرقونها في الجبال، وانتصاب ﴿أَمْنِينَ﴾ على الحال. قال
 الفراء: أمنين من أن ينقع عليهم، وقيل: أمنين من الموت،
 وقيل: من العذاب ركناً منهم على قوتها وثاقتها
 ﴿فَأَخَذْتُمُ الصَّيْحَةَ مُصْبِحِينَ﴾ أي: داخلين في وقت
 الصبح، وقد تقدم ذكر الصيحة في الأعراف وفي هود،
 وتقدم أيضاً قريباً ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾
 أي: لم ينفع عنهم شيئاً من عذاب الله ما كانوا يكسبون من

جلد البعير ﴿وَإِنَّمَا لِبَسَائِلٍ مُّقِيمٌ﴾ يعني: قرى قوم لوط أو
 معدينتهم على طريق ثابت، وهي الطريق من المدينة إلى
 الشام، فإن السالك في هذه الطريق يَمُرُّ بتلك القرى ﴿إِنْ فِي
 ذَلِكَ﴾ المنكور من المدينة أو القرى ﴿لَايَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾
 يعتبرون بها فإن المؤمنين من العباد هم الذين يعتبرون بما
 يشاهدونه من الآثار.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله:
 ﴿وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ قال: استبشروا
 بأضياف نبي الله لوط حين نزلوا به لما أرادوا أن يأتوا إليهم
 من المنكر. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر،
 وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿أُولَئِكَ نَهْنَاكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾
 قال: يقولون: أولم نهناك أن تضيف أحداً أو تؤويه، ﴿قَالَ
 هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ أمرهم لوط بتزويج النساء
 وأراد أن يبقوا أضيافه ببناته. وأخرج ابن أبي شيبة، وأبو
 يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه،
 وأبو نعيم عن ابن عباس قال: ما خلق الله وما ذرأ وما برا
 نفساً أكرم عليه من محمد ﷺ، وما سمعت الله أقسم بحياة
 أحد غيره قال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾
 يقول: وحياتك يا محمد وعمرك وبقاؤك في الدنيا. وأخرج ابن
 جرير، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ قال: لعيشك.
 وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال: ما حلف الله بحياة
 أحد إلا بحياة محمد قال: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ الآية. وأخرج ابن جرير
 عن إبراهيم النخعي قال: كانوا يكرهون أن يقول الرجل
 لعمرى يرويه كقوله وحياتي. وأخرج ابن جرير، وابن أبي
 حاتم عن قتادة ﴿إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي: في
 ضلالهم يلعبون. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن
 الأعمش في الآية لفي غفلتهم يترددون. وأخرج ابن المنذر
 عن ابن جريج فأخذتهم الصيحة مثل الصاعقة، وكل شيء
 أهلك به قوم فهو صاعقة وصيحة. وأخرج ابن جرير عنه
 ﴿مُشْرِقِينَ﴾ قال: حين أشرقت الشمس. وأخرج ابن جرير،
 وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم عن ابن عباس في
 قوله: ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ﴾ قال: علامة أما ترى الرجل يرسل
 خاتمه إلى أهله، فيقول: هاتوا كذا وكذا، فإذا راوه عرفوا أنه
 حق. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه
 ﴿لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ قال: للناظرين. وأخرج عبد الرزاق، وابن
 جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة
 عن قتادة قال: للمتوسمين. وأخرج ابن جريج، وابن المنذر عن
 مجاهد قال: للمتفرسين، وأخرج البخاري في التاريخ،
 والترمذي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن السني، وأبو
 نعيم، وابن مردويه، والخطيب عن أبي سعيد الخدري قال:
 قال رسول الله ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور
 الله، ثم قرأ: ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٌ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾». وأخرج ابن
 أبي حاتم عن ابن عباس ﴿وَإِنَّمَا لِبَسَائِلٍ مُّقِيمٌ﴾ يقول:
 لبهالك. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن
 أبي حاتم عن مجاهد قال: لطريق مقيم. وأخرج ابن جرير،

البيهقي في الشعب عن ابن عباس مثله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد قال: هذه الآية قبل القتال. وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة مثله.

وَلَقَدْ مَآئِكَ سَمَاءً مِنَ الْمَنَافِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٥٧﴾ لَا تَدْنُ مِنْكَ إِلَّا مَا مَنَعَنَا بِهِ أَرْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْرَمُ عَلَيْهِمْ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْبَيِّنَاتِ ﴿٥٩﴾ كَمَا أَرْسَلْنَا عَلَى الْمُتَقَسِّمِينَ ﴿٦٠﴾ الَّذِينَ جَمَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٦١﴾ فَوَرَيْتُكَ لِنَشَاتِلُهُمْ آمَمِينَ ﴿٦٢﴾ عَنَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٣﴾ فَأَضَعُ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضُ عَنِ الشُّرَكِيِّينَ ﴿٦٤﴾ إِنَّا كُنْهَكَ السَّمْتَرِينَ ﴿٦٥﴾ الْيَوْتِ يَجْمَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ سَوْفَ يَمْلِكُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّكَ بِعَيْتِ مَدْرَكَ يَمًا يَكُونُونَ ﴿٦٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٦٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَقَّ بَابِكَ الْيَقِينِ ﴿٦٩﴾

اختلف أهل العلم في السبع المثاني ماذا هي؟ فقال جمهور المفسرين: إنها الفاتحة. قال الواحدي وأكثر المفسرين على أنها فاتحة الكتاب، وهو قول عمر، وعلي، وابن مسعود، والحسن، ومجاهد، وقتادة، والربيع، والكلبي. وزاد القرطبي أبا هريرة وأبا العالية، وزاد النيسابوري الضحاك وسعيد بن جبير. وقد روي ذلك من قول رسول الله ﷺ كما سيأتي بيانه فتعين المصير إليه. وقيل: هي السبع الطوال: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والسابعة الأنفال والتوبة، لأنها كسورة واحدة إذ ليس بينهما تسمية، روي هذا القول عن ابن عباس. وقيل: المراد بالمثاني السبعة الأحزاب فإنها سبع صحائف، والمثاني جمع مثناة من التثنية أو جمع مثنية. وقال الزجاج: تثني بما يقرأ بعدها معها، فعلى القول الأول يكون وجه تسمية الفاتحة مثاني أنها تثني أي: تكرر في كل صلاة، وعلى القول بأنها السبع الطوال فوجه التسمية إن العبر والأحكام والحدود كررت فيها، وعلى القول بأنها السبعة الأحزاب يكون وجه التسمية هو تكرير ما في القرآن من القصص ونحوها، وقد ذهب إلى أن المراد بالسبع المثاني القرآن كله الضحاك، وطاوس، وأبو مالك، وهو رواية عن ابن عباس واستدلوا بقوله تعالى: ﴿كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي﴾ [الزمر: 23] وقيل: المراد بالسبع المثاني أقسام القرآن وهي: الأمر، والنهي، والتبشير، والإنذار، وضرب الأمثال، وتعريف النعم، وأنباء قرون ماضية. قاله زيد بن أبي مريم، ولا يخفى عليك أن تسمية الفاتحة مثاني لا تستلزم نفي تسمية غيرها بهذا الاسم، وقد تقرر أنها المرادة بهذه الآية، فلا يقدح في ذلك صلق وصف المثاني على غيرها ﴿وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ﴾ معطوف على سبعة من المثاني، ويكون من عطف العام على الخاص لأن الفاتحة بعض من القرآن، وكذلك إن أريد بالسبع المثاني السبع الطوال لأنها بعض من القرآن، وأما إذا أريد بها السبعة الأحزاب أو جميع القرآن أو أقسامه، فيكون من باب عطف لحد الوصفين على الآخر، كما قيل في قول الشاعر:

الأموال والحصون في الجبال ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي: متلبسة بالحق، وهو ما فيهما من الفوائد والمصالح، وقيل: المراد بالحق مجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته كما في قوله سبحانه: ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ لِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النجم: 31]. وقيل: المراد بالحق الزوال لأنها مخلوقة وكل مخلوق زائل ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ﴾ وعند إتيانها ينتقم الله ممن يستحق العذاب، ويحسن إلى من يستحق الإحسان، وفيه وعيد للعصاة وتهديد، ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ بأن يصفح عن قومه، فقال: ﴿فَاصْفَحْ لِلصَّفْحِ الْجَمِيلِ﴾ أي: تجاوز عنهم راعف عفا حسناً؛ وقيل: فاعرض عنهم إعراضاً جميلاً ولا تعجل عليهم، وعاملهم معاملة الصفوح الحليم، قيل: وهذا منسوخ بآية السيف ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ أي: الخالق للخلق جميعاً العليم بأحوالهم وبالصالح والطالح منهم.

وقد أخرج ابن مردويه، وابن عساکر عن ابن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مَدِينَ وَأَصْحَابَ الْآيَةِ أَمْتَانِ بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِمَا شُعْبِيًّا». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس قال: أصحاب الآية هم قوم شعيب، والآية ذات أجام وشجر كانوا فيها. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: الآية الغيضة. وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال: أصحاب الآية أهل مدين، والآية الملتفة من الشجر. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: الآية مجمع الشيء. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال في قوله: ﴿وَلَهُمَا لِبَاسٌ مَبِينٌ﴾ طريق ظاهر. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في أصحاب الحجر قال: أصحاب الوادي. وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال: كان أصحاب الحجر ثمود وقوم صالح. وأخرج البخاري، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ لأصحاب الحجر: «لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ أَنْ يَصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ». وأخرج ابن مردويه عنه قال: «نَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَامَ غَزْوَةِ تَبُوكَ بِالْحَجَرِ عِنْدَ بَيْتِ ثَمُودَ، فَاسْتَقَى النَّاسُ مِنْ مِيَاهِ الْأَبَارِ الَّتِي كَانَتْ تَشْرَبُ مِنْهَا ثَمُودَ وَعَجَنُوا مِنْهَا وَنَصَبُوا الْقُدُورَ بِاللَّحْمِ، فَأَمَرَهُمْ بِإِهْرَاقِ الْقُدُورِ، وَعَلَفُوا الْعَجِينَ الْإِبِلَ، ثُمَّ ارْتَحَلَ بِهِمْ عَلَى الْبُثْرِ الَّتِي كَانَتْ تَشْرَبُ مِنْهَا النَّاقَةُ، وَنَهَاهُمْ أَنْ يَدْخُلُوا عَلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ عَذَّبُوا، فَقَالَ: إِنِّي أَخْشَى أَنْ يَصِيبَكُمْ مِثْلُ الَّذِي أَصَابَهُمْ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ». وأخرج ابن مردويه عن سبرة بن معبد أن النبي ﷺ قال بالحجر لأصحابه: «مَنْ عَمِلَ مِنْ هَذَا الْمَاءِ شَيْئًا فَلَيْلَتُهُ»، قال: ومنهم من عجن العجين، ومنهم من حاس الحيس. وأخرج ابن مردويه، وابن النجار عن علي في قوله: ﴿فَاصْفَحْ لِلصَّفْحِ الْجَمِيلِ﴾ قال: الرضا بغير عتاب. وأخرج

إلى الملك القرم وابن الهمام

ومما يقوي كون السبع المثاني هي الفاتحة أن هذه السورة مكية، وأكثر السبع الطوال منية، وكذلك أكثر القرآن وأكثر أقسامه، وظاهر قوله: **﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي﴾** أنه قد تقدم إتياء السبع على نزول هذه الآية، و«من» في من المثاني للتبعية أو البيان على اختلاف الأقوال، ذكر معنى ذلك الزجاج فقال: هي للتبعية إذا أردت بالسبع الفاتحة أو الطوال، وللبيان إذا أردت الإشباع. ثم لما بين لرسوله الله ﷺ ما أنعم به عليه من هذه النعمة الدينية نغره عن الذات العاجلة الزائلة فقال: **﴿لَا تَمَدَّنْ عَيْنِكَ إِلَى مَا مَتَعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾** أي: لا تطمح ببصرك إلى زخارف الدنيا طموح رغبة فيها وتمنّ لها، والأزواج الأصناف، قاله ابن قتيبة. وقال الجوهري: الأزواج القراء. قال الواحدي: إنما يكون مدأ عينيه إلى الشيء إذا دام النظر نحوه، وإدامة النظر إليه تدل على استحسانه وتمنيه. وقال بعضهم: معنى الآية لا تحسّنْ أحدًا على ما أوتي من الدنيا، وردّ بأن الحسد منهي عنه مطلقاً، وإنما قال في هذه السورة لا تمنّ بغير أو، لأنه لم يسبقه طلب بخلاف ما في سورة طه، ثم لما نهاه عن الالتفات إلى أموالهم وامتعتهم نهاه عن الالتفات إليهم فقال: **﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾** حيث لم يؤمنوا وصمموا على الكفر والعناد؛ وقيل: المعنى لا تحزن على ما متعوا به في الدنيا فك الآخرة. والأول أولى، ثم لما نهاه عن أن يمد عينيه إلى أموال الكفار ولا يحزن عليهم. وكان ذلك يستلزم التهاون بهم وبما معهم أمره أن يتواضع للمؤمنين، فقال: **﴿وَلَا تَخْضَخْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾** وخفض الجناح كناية عن التواضع ولين الجانب، ومنه قوله سبحانه: **﴿وَاخْفُضْ لَهَا جَنَاحَ الذَّلِّ﴾** [الإسراء: 24]. وقول الكميت:

خففت لهم مني جناحي مودة إلى كنف عطفاه أهل ومرحب

وأصله أن الطائر إذا ضم فرخه إلى نفسه بسط جناحه، ثم قبضه على الفرخ فجعل ذلك وصفاً لتواضع الإنسان لاتباعه؛ ويقال: فلان خافض الجناح أي: وقور ساكن، والجناحان من ابن آدم جانبيه، ومنه **﴿واضمم يدك إلى جناحك﴾** [طه: 22] ومنه قول الشاعر:

وحسبك فتنة لزعيم قوم يمدّ على أخي سقم جناحا

﴿وقل إني أنا النذير المبين﴾ أي: المنذر المظهر لقومه ما يصيبهم من عذاب الله **﴿كما أنزلنا على المقتسمين﴾** قيل: المفعول محذوف أي: مفعول أنزلنا، والتقدير: كما أنزلنا على المقتسمين عذاباً، فيكون المعنى: إني أنا النذير المبين لكم من عذاب مثل عذاب المقتسمين الذي أنزلناه عليهم كقوله تعالى: **﴿أَنْتَرَكْتُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادَ وَثُمُودَ﴾** [فصلت: 13]؛ وقيل: إن الكاف زائدة، والتقدير: إني أنا النذير المبين أنتركتم ما أنزلنا على المقتسمين من العذاب؛ وقيل: هو متعلق بقوله: **﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ﴾** أي: أنزلنا عليك مثل ما أنزلنا على أهل الكتاب وهم المقتسمون، والأولى أن يتعلق بقوله: **﴿إني أنا النذير المبين﴾** لأنه في قوة الأمر بالإنذار.

وقد اختلف في المقتسمين من هم؟ فقال الفراء: هم ستة عشر رجلاً بعثهم الوليد بن المغيرة أيام الموسم، فاقسموا أنقاب مكة وفجأها يقولون لمن دخلها: لا تغتروا بهذا الخارج فينا فإنه مجنون، وربما قالوا: ساحر وربما قالوا: شاعر وربما قالوا: كاهن، فقيل لهم: مقتسمين لأنهم اقتسموا هذه الطرق، وقيل: إنهم قوم من قريش اقتسموا كتاب الله، فجعلوا بعضه شعراً، وبعضه سحرًا، وبعضه كهانة، وبعضه أساطير الأولين، قاله قتادة. وقيل: هم أهل الكتاب، وسموا مقتسمين لأنهم كانوا يقتسمون القرآن استهزاء، فيقول بعضهم: هذه السورة لي وهذه لك، روي هذا عن ابن عباس؛ وقيل: إنهم قسموا كتابهم وفرقوه وبثّوه وحرقوه، وقيل: المراد قوم صالح تقاسموا على قتله فسموا مقتسمين كما قال تعالى: **﴿تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾** [النمل: 49]؛ وقيل: تقاسموا إيماناً تحالفوا عليها، قاله الأخفش؛ وقيل: إنهم العاص بن وائل، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل بن هشام والنضر بن الحارث وأمّية بن خلف، ومنبه بن الحجاج نكره الماوردي **﴿الذين جعلوا القرآن عضين﴾** جمع عضّة، وأصلها عضوة فعلة من عضى الشاة إذا جعلها أجزاء، فيكون المعنى على هذا: الذين جعلوا القرآن أجزاء متفرقة، بعضه شعر، وبعضه سحر، وبعضه كهانة ونحو ذلك؛ وقيل: هو مأخوذ من عضّته إذا بهت، فالمحذوف منه الهاء لا الواو، وجمعت العضّة على المعنيين جمع العقلاء لما لحقها من الحنف فجعلوا ذلك عوضاً عما لحقها من الحنف؛ وقيل: معنى عضين إيمانهم ببعض الكتاب وكفرهم ببعض، ومما يؤيد، أن معنى عضين التفريق، قول رؤية:

وليس بين الله بالعضيين

أي: بالمفروق، وقيل: العضّة والعضيين في لغة قريش السحر، وهم يقولون: للساحر عاضه، وللساحرة عاضهة، ومنه قول الشاعر:

أعوذ بربي من النافثات في عقد العاضهة والعضه
وفي الحديث أن رسول الله ﷺ لعن العاضهة والمستعضهة، وفسر بالساحرة والمستسحرة، والمعنى: أنهم أكثروا البهت على القرآن، وسموه سحرًا وكذبًا وأساطير الأولين، ونظير عضّة في النقصان شفة، والأصل شفة، وكذلك سنّة، والأصل سنهة. قال الكسائي: العضّة الكذب والبهتان، وجمعها عضون. وقال الفراء: إنه مأخوذ من العضاء، وهي شجر يؤذي ويجرح كالشوك، ويجوز أن يراد بالقرآن التوراة والإنجيل لكونهما مما يقرأ، ويراد بالمقتسمين هم اليهود والنصارى أي: جعلوهما أجزاء متفرقة، وهو أحد الأقوال المتقدمة **﴿فَوَرَبُّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾** أي: لنسأل هؤلاء الكفرة أجمعين يوم القيامة عما كانوا يعملون في الدنيا من الأعمال التي يحاسبون عليها ويسألون عنها؛ وقيل: إن المراد سؤالهم عن كلمة التوحيد، والعموم في عما كانوا يعملون، يفيد ما هو أوسع من ذلك؛ وقيل: إن المسؤولين ما هنا هم جميع المؤمنين والعصاة

غاية هي قوله **«حتى ياتيكم اليقين»** أي: الموت. قال الواحدي: قال جماعة المفسرين: يعني الموت لأنه موقن به. قال الزجاج: المعنى اعبد ربك أبداً، لأنه لو قيل: اعبد ربك بغير توقيت لجاز إذا عبد الإنسان مرة أن يكون طليعاً، فإذا قال: حتى ياتيكم اليقين، فقد أمره بالإقامة على العبادة أبداً ما دام حياً.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر عن عمر في قوله: **«ولقد آتيناك سبعاً من المثاني»** قال: السبع المثاني فاتحة الكتاب. وأخرجه سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والدارقطني وابن مردويه، والبيهقي من طرق عن علي بن مئله. وأخرجه ابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه عن ابن مسعود مثله وزاد: والقرآن العظيم سائر القرآن. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس في الآية قال: فاتحة الكتاب استثنائها الله لامة محمد، فرفعها في أم الكتاب فانخرها لهم حتى أخرجها ولم يعطها أحد قبل: قيل: فإين الآية السابعة؟ قال: **«بسم الله الرحمن الرحيم»**. وروي عنه نحو هذا من طرق. وأخرج ابن الضريس، وأبو الشيخ، وابن مردويه عن أبي هريرة قال: السبع المثاني فاتحة الكتاب. وأخرج ابن جرير عن أبي بن كعب قال: السبع المثاني **«الحمد لله رب العالمين»**. وروي نحو قول هؤلاء الصحابة عن جماعة من التابعين. وقد ثبت في صحيح البخاري من حديث أبي سعيد بن المعلى أنه قال له النبي ﷺ: **«ألا أعلمك أفضل سورة قبل أن أخرج من المسجد، فذهب النبي ﷺ ليخرج فذكرت: فقال: «الحمد لله رب العالمين» [الفاتحة: 1] هي السبع المثاني والقرآن العظيم»**. وأخرج البخاري أيضاً من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«أم القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم»**، فوجب بهذا المصير إلى القول بأنها فاتحة الكتاب، ولكن تسميتها بذلك لا ينافي تسمية غيرها به كما قدمنا. وأخرج ابن مردويه عن عمر قال في الآية: هي السبع الطوال. وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود مثله. وأخرج الفريابي، وأبو داود، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس قال في الآية: هي السبع الطوال. وأخرج الدارمي، وابن مردويه عن أبي بن كعب مثله. وروي نحو ذلك عن جماعة من التابعين. وأخرج ابن مردويه من طريق سعيد بن جبيرة عن ابن عباس قال: هي فاتحة الكتاب والسبع الطوال. وأخرج ابن جرير عنه في الآية قال: ما ثني من القرآن، ألم تسمع لقول الله: **«الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني»** [الزمر: 23]. وأخرج ابن جرير عن الضحاک قال: المثاني القرآن يذكر الله القصة الواحدة مراراً. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن زياد بن أبي مريم في الآية قال: أعطيتك سبعة أجزاء: مر، وأنه، وبشر وأنذر، وأضرب

والكفار، ويدل عليه قوله: **«ثم لتسألن يومئذ عن النعيم»** [التكاثر: 8]، وقوله: **«وقوفهم إنهم مسؤولون»** [الصفافات: 24]، وقوله: **«إن إلينا إيابهم»** ثم إن علينا حسابهم [الغاشية: 25 - 26]. ويمكن أن يقال: إن قصر هذا السؤال على المذكورين في السياق وصرف العموم إليهم لا ينافي سؤال غيرهم **«فاصدع بما تؤمر»** قال الزجاج: يقول أظهر ما تؤمر به، أخذ من الصديق وهو الصبح انتهى. وأصل الصدع الفرق والشق، يقال: صدعته فانصدع أي: انشق، وتصدع القوم أي: تفرقوا، ومنه **«يومئذ يصدعون»** [الروم: 43] أي: يتفرقون. قال الفراء: أراد فاصدع بالأمر أي: أظهر دينك فما مع الفعل على هذا بمنزلة المصدر، وقال ابن الأعرابي: معنى اصدع بما تؤمر أي: اقصد؛ وقيل: فاصدع بما تؤمر أي: فرق جمعهم وكلمتهم بأن تدعهم إلى التوحيد فإنهم يتفرقون، والأولى أن الصدع الإظهار، كما قاله الزجاج والفراء وغيرهم. قال النحويون: المعنى بما تؤمر به من الشرائع، وجوزوا أن تكون مصدرية أي: بأمرك وشأنك. قال الواحدي: قال المفسرون: أي أجهر بالأمر أي: بأمرك بعد إظهار الدعوة، وما زال النبي ﷺ مستخفياً حتى نزلت هذه الآية، ثم أمره سبحانه بعد أمره بالصدع بالإعراض وعدم الالتفات إلى المشركين، فقال: **«واعرض عن المشركين»** أي: لا تبال بهم ولا تلتفت إليهم إذا لاموك على إظهار الدعوة، ثم أكد هذا الأمر وثبت قلب رسوله بقوله: **«إنما كفيناك المستهزئين»** مع كونهم كانوا من أكابر الكفار، وأهل الشوكة فيهم فإذا كفاه الله أمرهم بقمعهم وتدميرهم كفاه أمر من هو دونهم بالأولى، وهؤلاء المستهزئون كانوا خمسة من رؤساء أهل مكة: الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب بن الحارث بن زمة، والأسود بن عبد يغوث، والحارث بن الطلائطة، كذا قال القرطبي ووافقه غيره من المفسرين. وقد أهلكهم الله جميعاً وكفاهم أمرهم في يوم واحد، ثم وصف هؤلاء المستهزئين بالشرك فقال: **«الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر»** فلم يكن ذنبهم مجرد الاستهزاء، بل لهم نيب آخر وهو الشرك بالله سبحانه، ثم توعدهم فقال: **«فسوف يعلمون»** كيف عاقبتهم في الآخرة وما يصيبهم من عقوبة الله سبحانه، ثم ذكر تسليية أخرى لرسول الله ﷺ بعد التسليية الأولى بكفايته شرهم ودفعه لمكرهم فقال: **«ولقد تعلم أنك ضيق صدرك بما يقولون»** من الأقوال الكفرية المتضمنة للطعن على رسول الله ﷺ بالسحر والجنون والكهانة والكنب. وقد كان يحصل ذلك مع رسول الله ﷺ بمقتضى الجيلة البشرية والمزاج الإنساني، ثم أمره سبحانه بأن يفزع لكشف ما نابه من ضيق الصدر إلى تسبيح الله سبحانه وحمده فقال: **«فسبح بحمد ربك»** أي: متلبساً بحمده أي: أفعّل التسبيح المتلبس بالحمد **«وكن من الساجدين»** أي: المصلين فإني إذا فعلت ذلك كشف الله همك وأذهب غمك وشرح صدرك، ثم أمره بعبادة ربه أي: بالدوام عليها إلى

الأمثال، وأعدد النعم، واتل نبأ القرآن. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿لَا تَعْدُنْ عَيْنُكَ﴾ قال: نهى الرجل أن يتعدى مال صاحبه، وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله: ﴿أَزُولُ جَانِبَهُمْ﴾ قال: الأغنياء الأمثال والأشباه. وأخرج ابن المنذر عن سفيان بن عيينة قال: من أعطي القرآن فمدَّ عينه إلى شيء مما صغر القرآن فقد خالف القرآن، ألم يسمع إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي﴾، وإلى قوله: ﴿وَيَرْزُقْ رِبَكَ خَيْرَ وَابْقَى﴾ [طه: 131] وقد فسر ابن عيينة أيضاً الحديث الصحيح: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»، فقال: إن المعنى يستغنى به. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة في قوله: ﴿وَإِخْلُصْ جَنَاحَكَ﴾ قال: اخضع. وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، والبخاري، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم، وابن مريويه من طرق عن ابن عباس في قوله: ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ الآية قال: هم أهل الكتاب جزءه أجزاء فأمّنوا ببعضه وكفروا ببعضه. وأخرج ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة عنه قال: عضين فوقاً. وأخرج ابن إسحاق، وابن أبي حاتم، وأبو نعيم، والبيهقي عن ابن عباس أنها نزلت في نفر من قريش كانوا يصنّون الناس عن رسول الله ﷺ منهم الوليد بن المغيرة. وأخرج الترمذي، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أنس عن النبي ﷺ في قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ قال: عن قول لا إله إلا الله. وأخرجه ابن أبي شيبة، والترمذي، وابن جرير، وابن المنذر من وجه آخر عن أنس موقوفاً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عمر مثله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿فَاصْطِدْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ فامضه، وفي علي بن أبي طلحة مقال معروف. وأخرج ابن جرير عن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود قال: ما زال النبي ﷺ مستخفياً حتى نزل ﴿فَاصْطِدْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ فخرج هو وأصحابه. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير عن ابن عباس في الآية قال: هذا أمر من الله لنبيه بتبليغ رسالته قومه وجميع من أرسل إليه. وأخرج ابن المنذر عنه ﴿فَاصْطِدْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ قال: أعلن بما تؤمر. وأخرج أبو داود في ناسخه، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿وَاعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ قال: نسخه قوله تعالى: ﴿فَانْقَلَبُوا إِلَى اللَّهِ﴾ [التوبة: 5]. وأخرج الطبراني في الأوسط، وابن مريويه، وأبو نعيم، والضياء في المختارة عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ قال: المستهزئون الوليد بن المغيرة، والأسود بن غوث، والأسود بن المطلب، والحاتر بن عيطل السهمي، والعاص بن وائل، وذكر قصة هلاكهم. وقد روي هذا عن جماعة من الصحابة مع زيادة في عددهم ونقص على طول في ذلك. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، والحاكم في التاريخ، وابن مريويه، والديلمي عن أبي مسلم

تفسير سورة النحل

وهي مكية كلها في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر. ورواه ابن مريويه عن ابن عباس وعن أبي الزبير. وأخرج النحاس من طريق مجاهد عن ابن عباس قال: سورة النحل نزلت بمكة سوى ثلاث آيات من آخرها فلأنهن نزلن بين مكة والمدينة في منصرف رسول الله ﷺ من أحد، قيل وهي قوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عَاقَبْتُمْ بِهِ﴾ [النحل: 126] الآية. وقوله: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [النحل: 127] في شأن التمثيل بحمزة وقتل أحد. وقوله: ﴿ثُمَّ إِنْ رَبُّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ [النحل: 110]. الآية؛ وقيل: الثالثة ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ إلى قوله: ﴿بِإِحْسَانٍ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 95 - 96].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَفَلَا أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْجُدُوا سَجْدَةً وَمَعْلَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يَزِيدُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْزِلُوا أَنْتُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَالْحَقَّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ حَصِيصٌ ﴿٤﴾ وَالْأَنفُسُ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَعُونَ رَبِّينَ تَرْجَعُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَوْتَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِلَيْلِهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَمُوفٌ رَجِيمٌ ﴿٧﴾ وَلَقِيلَ وَالْجَنَاحُ لَرَبِّكُمْ وَأَرْبَنَةٌ وَمَخْلُوقٌ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جُكَرٌ وَلَوْ شَاءَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾

قوله: ﴿قَتَى أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي: عقابه للمشركين، وقال جماعة من المفسرين: القيامة. قال الزجاج: هو ما وعدهم به من المجازاة على كفرهم، وعبر عن المستقبل بلفظ الماضي تنبيهاً على تحقق وقوعه؛ وقيل: إن المراد بأمر الله حكمه بذلك، وقد وقع وأتى، فأما المحكوم به فإنه لم يقع، لأنه سبحانه حكم بوقوعه في وقت معين، فقبل مجيء ذلك الوقت لا يخرج إلى الوجود؛ وقيل: إن المراد بإتيانه إتيان

مبادئه ومقدماته ﴿فلا تستعجلوه﴾ نهاهم عن استعجاله أي: فلا تطلبوا حضوره قبل تلك الوقت، وقد كان المشركون يستعجلون عذاب الله كما قال النضر بن الحارث ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك﴾ [الأنفال: 32]، الآية. والمعنى: قرب أمر الله فلا تستعجلوه، وقد كان استعجالهم له على طريقة الاستهزاء من نون استعجال على الحقيقة، وفي نهيمهم عن الاستعجال تهكم بهم ﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ أي: تنزه وترفع عن إشراكهم، أو عن أن يكون له شريك، وبشركهم فهنا هو ما وقع منهم من استعجال العذاب، أو قيام الساعة استهزاء وتكديبا، فإنه يتضمن وصفهم له سبحانه بأنه لا يقدر على ذلك، وأنه عاجز عنه والعجز وعدم القدرة من صفات المخلوق لا من صفات الخالق، فكان ذلك شركا ﴿ينزل الملائكة بالروح من أمره﴾ قرأ المفصل عن عاصم (تنزل الملائكة)، والأصل تنزل، فالفاعل مسند إلى الملائكة. وقرأ الأعمش (تنزل) على البناء للمفعول، وقرأ الجعفي عن أبي بكر عن عاصم (تنزل) بالنون، والفاعل هو الله سبحانه. وقرأ الباقون (ينزل الملائكة) بالياء التحتية إلا أن ابن كثير وأبا عمرو يسكنان النون، والفاعل هو الله سبحانه: ووجه اتصال هذه الجملة بما قبلها أنه ﷺ لما أخبرهم عن الله أنه قد قرب أمره، ونهاهم عن الاستعجال تركوا في الطريق التي علم بها رسول الله ﷺ بذلك، فأخبر أنه علم بها بالوحي على السن رسل الله سبحانه من ملائكته، والروح: الوحي، ومثله ﴿يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده﴾ [غافر: 15].

وسمي الوحي روحاً لأنه يحيي قلوب المؤمنين، فإن من جملة الوحي القرآن، وهو نازل من الدين منزلة الروح من الجسد؛ وقيل: المراد أرواح الخلائق؛ وقيل: الروح الرحمة، وقيل: الهداية لأنها تحيا بها القلوب كما تحيا الأبدان بالأرواح. قال الزجاج: الروح ما كان فيه من الله حياة بالإرشاد إلى أمره. وقال أبو عبيد: الروح هنا جبريل، وتكون الباء على هذا بمعنى مع، «ومن» في ﴿من أمره﴾ بيانية أي: بأشياء أو مبتدأ من أمره أو صفة للروح، أو متعلق ببنزل، ومعنى ﴿على من يشاء من عباده﴾ على من اختصه بذلك، وهم الأنبياء ﴿أن أنذروا﴾. قال الزجاج: ﴿أن أنذروا﴾ بدل من الروح أي: ينزلهم بأن أنذروا، وأن إما مفسرة لأن تنزل الوحي فيه معنى القول، وإما مخففة من الثقلية وضمير الشأن مقتر أي: بأن الشأن أقول لكم أنذروا أي: أعلموا الناس ﴿قته لا إله إلا أنا﴾ أي: مروهم بتوحيدي وأعلموهم ذلك مع تخويفهم، لأن في الإنذار تخويفاً وتهديداً، والضمير في أنه للشأن ﴿فأتقون﴾ الخطاب للمستعجلين على طريق الالتفات، وهو تحذير لهم من الشرك بالله، ثم إن الله سبحانه لما أرشدهم إلى توحيد نكر دلائل التوحيد فقال: ﴿خلق السموات والأرض بالحق﴾ أي: أوجدهما على هذه الصفة التي هما عليهما بالحق أي: للدلالة على قدرته ووحدانيته؛ وقيل: المراد بالحق هنا الفناء والزوال ﴿تعالى﴾ الله ﴿عما

يشركون﴾ أي: ترفع وتقدس عن إشراكهم أو عن شركة الذي يجعلونه شريكاً له، ثم لما كان نوع الإنسان أشرف أنواع المخلوقات السفلية قدمه وخصه بالذكر فقال: ﴿خلق الإنسان﴾ وهو اسم لجنس هذا النوع ﴿من نطفة﴾ من جماد يخرج من حيوان، وهو المنى فنقله أطواراً إلى أن كملت صورته، ونفخ فيه الروح وأخرجه من بطن أمه إلى هذه الدار فعاش فيها ﴿فإذا هو﴾ بعد خلقه على هذه الصفة ﴿خصيم﴾ أي: كثير الخصومة والمجادلة، والمعنى: أنه كالمخاصم لله سبحانه في قدرته، ومعنى ﴿مبين﴾ ظاهر الخصومة وأضحها، وقيل: يبين عن نفسه ما يخاصم به من الباطل، والمبين هو المفصح عما في ضميره بمنطقه ومثله قوله تعالى: ﴿أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين﴾ [يس: 77]. ثم عقب نكر خلق الإنسان بخلق الأنعام لما فيها من النفع لهذا النوع، فالامتنان بها أكمل من الامتنان بغيرها، فقال: ﴿والأنعام خلقها لكم﴾ وهي الإبل والبقر والغنم، وأكثر ما يقال: نعم وأنعام للإبل، ويقال للمجموع، ولا يقال للغنم مفردة، ومنه قول حسان: وكانت لا يزال بها أنيس خلال مروجها نعم وشاء فعطفت الشاء على النعم، وهي هنا الإبل خاصة. قال الجوهري: والنعم واحد الأنعام، وأكثر ما يقع هذا الاسم على الإبل. ثم لما أخبر سبحانه بأنه خلقها لبني آدم بين المنفعة التي فيها لهم فقال: ﴿فيها نفع﴾ النفع: السخانة، وهو ما استفدت به من أصوافها وأوبارها وأشعارها، والجملة في محل نصب على الحال ﴿ومنافع﴾ معطوف على نفع، وهي برها وركوبها ونتائجها والحرث بها ونحو ذلك. وقد قيل: إن النفع النتاج واللين. قال في الصحاح: النفع نتاج الإبل والبانها وما ينتفع به منها، ثم قال: والنفع أيضاً السخونة، وعلى هذا فإن أريد بالنفع المعنى الأول فلا بد من حمل المنافع على ما عدها مما ينتفع به منها، وإن حمل على المعنى الثاني كان تفسير المنافع بما ذكرناه واضحاً؛ وقيل: المراد بالمنافع النتاج خاصة؛ وقيل: الركوب ﴿ومنها تاكلون﴾ أي: من لحومها وشحومها؛ وخص هذه المنفعة بالذكر مع نسخها تحت المنافع لأنها أعظمها؛ وقيل: خصها لأن الانتفاع بلحمها وشحمها تعدم عنده عينها بخلاف غيره من المنافع التي فيها، وتقديم النظر المؤمن بالاختصاص للإشارة إلى أن الأكل منها هو الأصل، وبغيره نادر ﴿ولكم فيها جمال﴾ أي: لكم فيها مع ما تقدم ذكره جمال، والجمال: ما يتجمل به ويتزين، والجمال: الحسن، والمعنى هنا: لكم فيها تجمل وتزين عند الناظرين إليها ﴿حين تريحون وحين تسرحون﴾ أي: في هذين الوقتين، وهما وقت ردها من مراعيها، ووقت تسريحها إليها، فالروح رجوعها بالعشي من المراعي، والسراح مسيرها إلى مراعيها بالغداة، يقال: سرحت الإبل أسرحها سرحاً وسروحاً: إذا غدت بها إلى المرعى، وقدم الإراحة على التسريح لأن منظرها عند الإراحة أجمل، ونواتها أحسن

لكونها في تلك الحالة قد نالت حاجتها من الأكل والشرب، فعظمت بطونها وانتفخت ضرورها، وخصّ هذين الوقتين لانهما وقت نظر الناظرين إليها لأنها عند استقرارها في الحظائر لا يراها أحد، وعند كونها في مراعيها هي متفرقة غير مجمعة كل واحد منها يرى في جانب ﴿وتحمل أثقالكم﴾ الأثقال جمع ثقل، وهو متاع المسافرين من طعام وغيره، وسمي ثقلًا لأنه يثقل الإنسان حمله، وقيل: المراد أبدانهم ﴿إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشقّ الأنفس﴾ أي: لم تكونوا واصلين إليه لو لم يكن معكم إبل تحمل أثقالكم إلا بشقّ الأنفس لبعده عنكم، وعدم وجود ما يحمل ما لا بدّ لكم منه في السفر، وظاهره يتناول كل بلد بعيدة من غير تعيين؛ وقيل: المراد بالبلد مكة، وقيل: اليمن ومصر والشام لأنها متاجر العرب، وشقّ الأنفس: مشقتها. قرأ الجمهور بكسر الشين، وقرأ أبو جعفر بفتحها. قال الجوهري: والشقّ المشقة، ومنه قوله: ﴿لم تكونوا بالغيه إلا بشقّ الأنفس﴾ وحكى أبو عبيدة بفتح الشين، وهما بمعنى؛ ويجوز أن يكون المفتوح مصدرًا من شققت عليه أشق شقًا، والمكسور بمعنى النصف، يقال: أخذت شقّ الشاة وشقة الشاة، ويكون المعنى على هذا في الآية: لم تكونوا بالغيه إلا بذهاب نصف الأنفس من التعب، وقد امتنّ الله سبحانه على عباده بخلق الأنعام على العموم، ثم خصّ الإبل بالذكر لما فيها من نعمة حمل الأثقال دون البقر والغنم، والاستثناء من أعمّ العام أي: لم تكونوا بالغيه بشيء من الأشياء إلا بشقّ الأنفس ﴿والخيل والبغال والحمير﴾ بالنصب عطفًا على الأنعام أي: وخلق لكم هذه الثلاثة الأصناف، وقرأ ابن أبي عبيدة بالرفع فيها كلها؛ وسميت الخيل خيلًا لاختيالها في مشيها، ووحد الخيل خائل كضائن وحاد الضأن، وقيل: لا واحد له. ثم علل سبحانه خلق هذه الثلاثة الأنواع بقوله: ﴿لتركبوا﴾ وهذه العلة هي باعتبار معظم منافعها لأن الانتفاع بها في غير الركوب معلوم كالتحميل عليها ﴿و﴾ عطف ﴿زينة﴾ على محل لتركبوا، لأنه في محل نصب على أنه علة لخلقها، ولم يقل: لتزينا بها حتى يطابق لتركبوا، لأن الركوب فعل المخاطبين، والزينة فعل الزائن وهو الخالق، والتحقيق فيه أن الركوب هو المعتبر في المقصود، بخلاف الزينة فإنه لا يلتفت إليه أهل الهمم العالية لأنه يورث العجب، فكأنه سبحانه قال: خلقتها لتركبوا فتنبهوا عن أنفسكم بواسطتها ضرر الإعياء والمشقة، وأما التزينا بها فهو حاصل في نفس الأمر ولكنه غير مقصود بالذات. وقد استدل بهذه الآية القائلون بتحريم لحوم الخيل قائلين بأن التعليل بالركوب يدلّ على أنها مخلوقة لهذه المصلحة دون غيرها. قالوا: ويؤيد ذلك إفراد هذه الأنواع الثلاثة بالذكر وإخراجها عن الأنعام فيفيد ذلك اتحاد حكمها في تحريم الأكل. قالوا: ولو كان أكل الخيل جائزًا لكان ذكره، والامتنان به أولى من نكر الركوب، لأنه أعظم فائدة منه، وقد ذهب إلى هذا مالك وأبو حنيفة، وأصحابهما والأوزاعي،

ومجاهد وأبو عبيدة وغيرهم. وذهب الجمهور من الفقهاء والمحدثين وغيرهم إلى حل لحوم الخيل، ولا حجة لاهل القول الأوّل في التعليل بقوله: ﴿لتركبوا﴾ لأن نكر ما هو الأغلب من منافعها لا ينافي غيره، ولا نسلم أن الأكل أكثر فائدة من الركوب حتى ينكر ويكون نكده أقدم من نكر الركوب. وأيضًا لو كانت هذه الآية تدلّ على تحريم الخيل لملت على تحريم الحمر الأهلية، وحينئذٍ لا يكون ثم حاجة لتحديد التحريم لها عام خبير، وقد قلّمنا أن هذه السورة مكية، والحاصل أن الآية الصحيحة قد نلت على حلّ أكل لحوم الخيل، فلو سلمنا أن في هذه الآية متمسكًا للقائلين بالتحريم لكانت السنة المطهرة الثابتة رافعة لهذا الاحتمال، ودافعة لهذا الاستدلال، وقد أروحننا هذه المسألة في مؤلفاتنا بما لا يحتاج الناظر فيه إلى غيره ﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾ أي: يخلق ما لا يحيط علمكم به من المخلوقات غير ما قد عنده ها هنا؛ وقيل: المراد من أنواع الحشرات والهوامّ في أسافل الأرض، وفي البحر مما لم يره البشر ولم يسمعوا به؛ وقيل: هو ما أعدّ الله لعباده في الجنة وفي النار مما لم تره عين، ولم تسمع به آذن، ولا خطر على قلب بشر؛ وقيل: هو خلق السوس في النبات والود في الفواكه؛ وقيل: عين تحت العرش؛ وقيل نهر من النور؛ وقيل: أرض بيضاء، ولا وجه للاقتصار في تفسير هذه الآية على نوع من هذه الأنواع، بل المراد أنه سبحانه يخلق ما لا يعلم به العباد، فيشمل كل شيء لا يحيط علمهم به، والتعبير هنا بلفظ المستقبل لاستحضار الصورة، لأنه سبحانه قد خلق ما لا يعلم به العباد ﴿وعلى الله قصد السبيل﴾ القصد مصدر بمعنى الفاعل، فالمعنى وعلى الله قاصد السبيل أي: هداية قاصد الطريق المستقيم بموجب وعده المحتوم وتفضله الواسع؛ وقيل: هو على حذف مضاف، والتقدير: وعلى الله بيان قصد السبيل، والسبيل: الإسلام، وبينه بإرسال الرسل وإقامة الحجج والبراهين، والقصد في السبيل هو كونه موصلًا إلى المطلوب، فالمعنى: وعلى الله بيان الطريق الموصل إلى المطلوب ﴿ومنها جائر﴾ الضمير في «منها» راجع إلى السبيل بمعنى الطريق، لأنها تذكر وتؤنث، وقيل: راجع إليها بتقدير مضاف أي: ومن جنس السبيل جائر مائل عن الحق عادل عنه، فلا يهتدي به، ومنه قول امرئ القيس:

ومن الطريقة جائر وهدي قصد السبيل ومنه نوبخل وقيل: إن الطريق كناية عن صاحبها، والمعنى: ومنهم جائر عن سبيل الحق: أي عادل عنه، فلا يهتدي إليه، قيل: وهم أهل الأهواء المختلفة، وقيل: أهل الملل الكفرية، وفي مصحف عبد الله (ومنكم جائر)، وكذا قرأ عليّ ﴿ولو شاء لهداكم لجميعين﴾ أي: ولو شاء أن يهديكم جميعًا إلى الطريق الصحيح، والمنهج الحق لفعل ذلك، ولكنه لم يشأ، بل اقتضت مشيئته سبحانه إراءة الطريق والدلالة عليها ﴿وهيناه التجدين﴾ [البلد: 10]. وأما الإيصال إليها بالفعل

لحوم الحمر الأهلية وأثنى في الخيل». وأما ما أخرجه أبو عبيد، وأبو داود، والنسائي من حديث خالد بن الوليد قال: «نهى رسول الله ﷺ عن أكل كل ذي ناب من السباع، وعن لحوم الخيل والبغال والحمير»، ففي إسناده صالح بن يحيى بن أبي المقدام وفيه مقال. ولو فرضنا أن الحديث صحيح لم يقو على معارضة أحاديث الحلّ على أنه يكون أن هذا الحديث المصرّح بالتحريم متقدّم على يوم خيبر فيكون منسوخاً. وأخرج الخطيب وابن عساكر قال: قال رسول الله ﷺ في قوله: ﴿وَيَخْلُقْ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قال: «البرائين». وأخرج ابن مريويه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مما خلق الله أرضاً من لؤلؤة بيضاء». ثم ساق من أوصافها ما يدلّ على أن الحديث موضوع، ثم قال في آخره: «فذلك قوله ويخلق ما لا تعلمون». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ يقول: على الله أن يبين الهدى والضلالة ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ قال السبيل المتفرقة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ قال: على الله بيان حلاله، وحرامه، وطاعته، ومعصيته ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ قال: من السبل نكب عن الحق، قال: وفي قراءة ابن مسعود (ومنكم جائر). وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن الأنباري في المصاحف عن عليّ أنه كان يقرأ هذه الآية (ومنكم جائر).

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ
ثَمِيمٌ ﴿٦﴾ يُبَشِّرُ لَكُمْ بِهِ الرَّبَّحَ وَالْزَيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ
النَّارِثِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْيَمَلَ
وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالشُّجُومُ سَخَّرَتْ بِأَمْرِ رَبِّكَ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ
لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ حَبْلًا أَوْتَمَّهُ إِنَّكَ فِي
ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿٩﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا
مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلًا مَلَبَسُونَهَا وَرَبُّ الْمُلُوكِ
مُؤَيَّدٌ فِيهِ وَلْيَسْتَعِزُّوا مِنْ فَتْوَيْهِ وَلَكُمُ الشُّكُورُ ﴿١٠﴾ وَالْقَنْ فِي
الْأَرْضِ رَوَايَعٌ أَنْ يُغَيِّدَ بِكُمْ وَأَنْهَزَهَا وَبَسْبَلًا لَمَّا لَعْنُكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١١﴾
وَعَلَمَكُمُ الْوَيْجِلُ مِمَّا تَهْتَدُونَ ﴿١٢﴾ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ
﴿١٣﴾ وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ الَّتِي أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ تَعْدُوا رَحِمَةً رَبِّكُمْ ﴿١٤﴾ وَاللَّهُ
بِعَلْمِ مَا تُسْأَلُونَ بَعِيدٌ ﴿١٥﴾

لما استدل سبحانه على وجوده وإكمال قدرته وبيده صنعته بعجائب أحوال الحيوانات أراد أن يذكر الاستدلال على المطلوب بغرائب أحوال النيات فقال: ﴿هو الذي أنزل من السماء﴾ أي: من جهة السماء، وهي السحاب ﴿ماء﴾ أي: نوعاً من أنواع الماء، وهو المطر ﴿لكم منه شراب﴾ يجوز أن يتعلق لكم بانزال أو هو خبر مقدم، وشراب مبتدأ مؤخر، والجملة صفة لما ﴿ومنه﴾ في محل نصب على الحال، والشراب اسم لما يشرب كالطعام لما يطعم، والمعنى:

فذلك يستلزم أن لا يوجد في العباد كافر، ولا من يستحق النار من المسلمين، وقد اقتضت المشيئة الربانية أنه يكون البعض مؤمناً والبعض كافراً كما نطق بذلك القرآن في غير موضع.

وقد أخرج ابن مريويه عن ابن عباس قال: «لما نزل ﴿تَتَىٰ أَمْرَ اللَّهِ﴾ دُعي أصحاب رسول الله ﷺ حتى نزلت ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ فسكتوا». وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن أبي بكر بن حفص قال: لما نزلت ﴿تَتَىٰ أَمْرَ اللَّهِ﴾ قاموا، فنزلت ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾. وأخرج ابن مريويه من طريق الضحاك عن ابن عباس ﴿تَتَىٰ أَمْرَ اللَّهِ﴾ قال: خروج محمد ﷺ. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن جريج قال: «لما نزلت هذه الآية ﴿تَتَىٰ أَمْرَ اللَّهِ﴾ قال رجال من المنافقين بعضهم لبعض: إن هذا يزعم أن أمر الله أتى، فامسكوا عن بعض ما كنتم تعملون حتى تنظروا ما هو كائن، فلما رأوا أنه لا ينزل شيء قالوا: ما نراه نزل شيء، فنزلت ﴿اقْتَرِبُوا لِلنَّاسِ حَسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: 1] فقالوا: إن هذا يزعم مثلها أيضاً، فلما رأوا أنه لا ينزل شيء قالوا: ما نراه نزل شيء، فنزلت ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْمَدِينَةِ اتَّبَعُوا عِلْمَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ لَمَا كَانَ زُلْفَىٰ لَهُمْ﴾ [الأنبياء: 17]. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الضحاك في قوله: ﴿تَتَىٰ أَمْرَ اللَّهِ﴾ قال: الأحكام والحدود والفرائض. وأخرج هؤلاء عن ابن عباس في قوله: ﴿يُنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ بِالرُّوحِ﴾ قال: بالوحي. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة، وابن مريويه، والبيهقي عنه قال: الروح أمر من أمر الله وخلق من خلق الله، وصورهم على صورة بني آدم، وما ينزل من السماء ملك إلا ومعه واحد من الروح، ثم تلا ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾ [التبا: 38]. وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن ﴿يُنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ بِالرُّوحِ﴾ قال: القرآن. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا نَفْعٌ﴾ قال: الثياب ﴿وَمَنَافِعُ﴾ قال: ما تنتفعون به من الأطعمة والأشربة. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: نسل كل دابة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿وَتَحْمِلُ أَوَّلَاجُكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ﴾ يعني: مكة ﴿لَمْ تَكُونُوا بِالغِيَةِ إِلَّا بِشِقِ الْإِنْفُسِ﴾ قال: لو تكلفتموه لم تطيقوه إلا بجهد شديد.

وقد ورد في حلّ أكل لحوم الخيل أحاديث منها في الصحيحين وغيرهما، من حديث أسماء قالت: نحرنا فرساً على عهد رسول الله ﷺ فاكلناه. وأخرج أبو عبيد، وابن أبي شيبة، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن جابر قال: أطلعنا رسول الله ﷺ لحوم الخيل، ونهانا عن لحوم الحمر الأهلية. وأخرج أبو داود نحوه من حديثه أيضاً، وهما على شرط مسلم. وثبت أيضاً في الصحيحين من حديث جابر قال: «نهى رسول الله ﷺ عن

التسخير **﴿لآيَات لِقَوْم يَعْلَمُونَ﴾** أي: يعملون عقولهم في هذه الآثار الدالة على وجود الصانع وتفرده وعدم وجود شريك له، وذكر الآيات لأن الآثار العلوية أظهر دلالة على القدرة الباهرة، وأبين شهادة للكبرياء والعظمة، وجمعها ليطابق قوله مسخرات؛ وقيل: إن وجه الجمع هو أن كلا من تسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم آية في نفسها بخلاف ما تقدم من الإنبات فإنه آية واحدة، ولا يخلو كل هذا عن تكلف، والأولى أن يقال: إن هذه المواضع الثلاثة التي أفرد الآية في بعضها وجمعها في بعضها كل واحد منها يصلح للجمع باعتبار والإفراد باعتبار، فلم يجرها على طريقة واحدة افتناناً وتنبهاً على جواز الأمرين وحسن كل واحد منهما **﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾** أي: خلق يقال: ذرأ الله الخلق ينزروهم ذراً: خلقهم، فهو ذارئ، ومنه الذرية، وهي نسل الثقلين، وقد تقدم تحقيق هذا، وهو معطوف على النجوم رفعاً ونصباً أي: وسخر لكم ما ذرأ في الأرض، فالمعنى: أنه سبحانه سخر لهم تلك المخلوقات السماوية والمخلوقات الأرضية، وانتصاب مختلفاً ألوانه على الحال، والوانه: هيئاته ومناظره، فإن نزه هذه الأشياء على اختلاف الألوان والأشكال مع تساوي الكل في الطبيعة الجسمية آية عظيمة دالة على وجود الصانع سبحانه وتفرده **﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾** التسخير لهذه الأمور **﴿لآيَةً﴾** واضحة **﴿لِقَوْم يَعْلَمُونَ﴾** فلن من تذكر اعتبر، ومن اعتبر استدلل على المطلوب، قيل: وإنما خصَّ المقام الأوَّل بالتفكير لإمكان إيراد الشبهة المذكورة؛ وخصَّ المقام الثاني بالعقل لذكره بعد إمطة الشبهة وإراحة العلة، فمن لم يعترف بعدها بالوحدانية فلا عقل له؛ وخصَّ المقام الثالث بالتذكر لمزيد الدلالة، فمن شك بعد ذلك فلا حسن له، وفي هذا من التكلف ما لا يخفى. والأولى أن يقال هنا كما قلنا فيما تقدم في أفراد الآية في البعض وجمعها في البعض الآخر، وبيانه أن كلا من هذه المواضع الثلاثة يصلح لذكر التفكير ولذكر التعقل ولذكر التذكر لاعتبارات ظاهرة غير خفية، فكان في التعبير في كل موضع بواحد منها افتنان حسن لا يوجد في التعبير بواحد منها في جميع المواضع الثلاثة **﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ﴾** امتنَّ الله سبحانه بتسخير البحر بإمكان الركوب عليه واستخراج ما فيه من صيد وجواهر، لكونه من جملة النعم التي أنعم الله بها على عباده مع ما فيه من الدلالة على وحدانية الرب سبحانه وكمال قدرته، وقد جمع الله سبحانه لعباده في هذا المقام بين التذكير لهم بآياته الأرضية والسماوية والبحرية، فأرشدهم إلى النظر والاستدلال بالآيات المتنوعة المختلفة الأمكنة إتماماً للحجة، وتكميلاً للإنذار، وتوضيحاً لمنازع الاستدلال، ومناطات البرهان، ومواضع النظر والاعتبار، ثم ذكر العلة في تسخير البحر فقال: **﴿لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً﴾** المراد به السمك، ووصفه بالطراوة للإشعار بلطافته، والإرشاد إلى المسارعة بأكله لكونه مما يفسد بسرعة **﴿وَتُسَخَّرُوا مِنْهُ حَلِيباً﴾**

أن الماء النازل من السماء قسمان: قسم يشربه الناس، ومن جملة ماء الآبار والعيون، فإنه من المطر لقوله: **﴿فَسَلَكْهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ﴾** [الزمر: 21] وقسم يحصل منه شجر ترعاه المواشي. قال الزجاج: كل ما ينبت من الأرض فهو شجر، لأن التركيب يدل على الاختلاط، ومنه تشاجر القوم إذا اختلط أصوات بعضهم ببعض، ومعنى الاختلاط حاصل في العشب والكلأ وفيما له ساق. وقال ابن قتيبة: المراد من الشجر في الآية الكلأ، وقيل: الشجر كل ماله ساق كقوله تعالى: **﴿وَالنَّجْمِ وَالشَّجَرِ يَسْجُدَانِ﴾** [الرحمن: 6]. والعطف يقتضي التغاير، فلما كان النجم ما لا ساق له وجب أن يكون الشجر ماله ساق، وأجيب بأن عطف الجنس على النوع جائز **﴿فِيهِ تَسْمِيَةٌ﴾** أي: في الشجر ترعون مواشيك، يقال: سامت السائمة تسوم سوماً رعت فهي سائمة، وأسماها أي: أخرجتها إلى الرعي فأنما مسيم وهي مسامة وسائمة، وأصل السوم الإبعاد في المرعى. قال الزجاج: أخذ من السومة وهي العلامة، لأنها تؤثر في الأرض علامات برعيها **﴿يَنْبِتْ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ﴾** قرأ أبو بكر عن عاصم (نبت) بالنون، وقرأ الباقون بالياء التحتية أي: ينبت الله لكم بذلك الماء الذي أنزله من السماء، وقدم الزرع لأنه أصل الأغذية التي يعيش بها الناس، وأتبعه بالزيتون لكونه فاكهة من وجه وإداماً من وجه لكثرة ما فيه من الدهن، وهو جمع زيتونة، ويقال للشجرة نفسها: زيتونة؛ ثم ذكر النخيل لكونه غذاء وفاكهة ومن مع العنب أشرف الفواكه، وجمع الأعناب لاشتمالها على الأصناف المختلفة، ثم أشار إلى سائر الثمرات فقال: **﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾** كما أجمل الحيوانات التي لم ينكرها فيما سبق بقوله: **﴿وَيُخَلِّقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾** [النحل: 8] وقرأ أبي بن كعب (ينبت لكم به الزرع) يرفع الزرع وما بعده **﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾** أي: الإنزال والإنبات **﴿لآيَةً﴾** عظيمة دالة على كمال القدرة والتفرد بالربوبية **﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾** في مخلوقات الله ولا يهملون النظر في مصنوعاته **﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾** معنى تسخيرهما للناس تصييرهما نافعين لهم بحسب ما تقتضيه مصالحهم وتستدعي حاجاتهم، يتعاقبان دائماً كالعبد الطائع لسيده لا يخالف ما يأمر به ولا يخرج عن إرادته ولا يهمل السعي في نفعه، وكذا الكلام في تسخير الشمس والقمر والنجوم، فإنها تجري على نمط متحد يستدل بها العباد على مقادير الأوقات، ويهتدون بها ويعرفون أجزاء الزمان؛ ومعنى مسخرات مثللات. وقرأ ابن عامر وأهل الشام (والشمس والقمر والنجوم مسخرات) بالرفع على الابتداء والخبر. وقرأ الباقون بالنصب عطفًا على الليل والنهار، وقرأ حفص عن عاصم برفع النجوم على أنه مبتدأ وخبره مسخرات **﴿بِأَمْرِهِ﴾** وعلى قراءة النصب في مسخرات يكون حالاً مؤكدة، لأن التسخير قد فهم من قوله: **﴿وَسَخَّرَ﴾**؛ وقرأ حفص في رواية برفع مسخرات مع نصب ما قبله على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: هي مسخرات **﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾**

به في سفرهم ليلاً. وقرأ ابن وثاب (وبالنجم) بضم النون والجيم، ومراده النجوم فقصره، أو هو جمع نحو كسقف وسقف؛ وقيل: المراد بالنجم هنا الجدي والفرقدان قاله الفراء؛ وقيل: الشريا، وقيل: العلامات الجبال، وقيل: هي النجوم، لأن من النجوم ما يهتدى به، ومنها ما يكون علامة لا يهتدى بها. وذهب الجمهور إلى أن المراد في الآية الاهتداء في الأسفار؛ وقيل: هو الاهتداء إلى القبلة، ولا مانع من حمل ما في الآية على ما هو أعم من ذلك. قال الأخفش: ثم الكلام عند قوله «وعلامات». وقوله: «وبالنجم هم يهتدون» كلام منفصل عن الأول: ثم لما عند الآيات الدالة على الصانع ووحدانيته وكمال قدرته أراد أن يوبخ أهل الشرك والعناد فقال: «أفمن يخلق» هذه المصنوعات العظيمة ويفعل هذه الأفاعيل العجيبة «كمن لا يخلق» شيئاً منها ولا يقدر على إيجاد واحد منها، وهو هذه الأصنام التي تعبدونها وتجعلونها شركاء لله سبحانه، وأطلق عليها لفظ «من» إجراء لها مجرى أولى العلم جرياً على زعمهم بأنها آلهة، أو مشاكلة لقوله: «أفمن يخلق» لوقوعها في صحبته، وفي هذا الاستفهام من التقريع بالتوبيخ للكفار ما لا يخفى، وما أحقهم بذلك، فإنهم جعلوا بعض المخلوقات شريكاً لخالقها: «تعالى الله عما يشركون» [الأعراف: 190]. «أفلا تذكرون» مخلوقات الله الدالة على وجوده وتفزده بالربوبية وبديع صناعته فستدلون بها على ذلك، فإنها لوضوحها يكفي في الاستدلال بها مجرد التذكر لها؛ ثم لما فرغ من تعديد الآيات التي هي بالنسبة إلى المكلفين نعم قال: «وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها» وقد مر تفسير هذا في سورة إبراهيم، قال العقلاء: إن كل جزء من أجزاء الإنسان لو ظهر فيه أدنى خلل وأيسر نقص لنقص النعم على الإنسان، وتُمْنَى أن ينفق الدنيا لو كانت في ملكه حتى يزول عنه ذلك الخلل، فهو سبحانه يدير بدن هذا الإنسان على الوجه الملائم له، مع أن الإنسان لا علم له بوجود ذلك فكيف يطبق حصر بعض نعم الله عليه أو يقدر على إحصائها، أو يتمكن من شكر انماها؟

يا ربنا هذه نواصينا بيدك خاضعة لعظيم نعمك معترفة بالعجز عن بادية الشكر لشيء منها، لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك، ولا نطيق التعبير بالشكر لك، فتجاوز عنا واغفر لنا وأسل ذنوب سترك على عوارتنا فإنك إن لا تفعل ذلك نهلك بمجرد التقصير في شكر نعمك، فكيف بما قد فرط منا من التساهل في الائتمار بأوامرك والانتفاء عن مناهيك، وما أحسن ما قال من قال:

العفو يرجي من بني آدم فكيف لا يرجي من الرب
فقلت مثيلاً لهذا البيت الذي هو قصر مشيد:

فإنه أرفى بي منهم حسبي به حسبي به حسبي
وما أحسن ما ختم به هذا الامتنان الذي لا يلتبس على إنسان مشيراً إلى عظيم غفرانه وسعة رحمته فقال: «إن الله

تلبسونها» أي: لؤلؤاً ومرجاناً كما في قوله سبحانه: «يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان» [الرحمن: 22] وظاهر قوله: «تلبسونها» أنه يجوز للرجال أن يلبسوا اللؤلؤ والمرجان أي: يجعلونه حلية لهم كما يجوز للنساء، ولا حاجة لما تكلفه جماعة من المفسرين في تأويل قوله: «تلبسونها» بقوله تلبسه نسائهم، لأنهم من جملتهم، أو لكونهن يلبسها لأجلهم، وليس في الشريعة المظهرة ما يقتضي منع الرجال من التحلي باللؤلؤ والمرجان ما لم يستعمله على صفة لا يستعمل عليها إلا النساء خاصة، فإن ذلك ممنوع من جهة كونه تشبهاً بهن، وقد ورد الشرع بمعناه لا من جهة كونه حلية لؤلؤ أو مرجان «وترى للفك موخر فيه» أي: ترى السفن شواق للماء تنفعه بصدورها، ومخر السفينة: شقها الماء بصدورها. قال الجوهري: مخر السابح: إذا شق الماء بصدوره، ومخر الأرض: شقها للزراعة، وقيل: موخر جوارى، وقيل: معترضة، وقيل: تذهب وتجيء، وقيل: ملجئة. قال ابن جرير: المخر في اللغة: صوت هبوب الريح، ولم يقيد بكونه في ماء «وليتبغوا من فضله» معطوف على تستخرجوا، وما بينهما اعتراض، أو على علة محنوفة تقديره لتنتفعوا بذلك ولتبتغوا، أو على تقدير فعل ذلك لتبتغوا أي: لتتجروا فيه فيحصل لكم الريح من فضل الله سبحانه: «ولعلكم تشكروا» أي: إذا وجدتم فضله عليكم وإحسانه إليكم اعترفتم بنعمته عليكم فشكرتم ذلك باللسان والأركان. قيل: ولعل وجه تخصيص هذه النعمة بالتعقيب بالشكر من حيث أن فيها قطعاً لمسافة طويلة مع أحمال ثقيلة من غير مزاولة أسباب السفر، بل من غير حركة أصلاً مع أنها في تضاعيف المهالك، ويمكن أن يضم إلى ما نكر من قطع المسافة على الصفة المذكورة ما اشتمل عليه البحر من كون فيه أطيب مأكول وأنفس ملبوس وكثرة النعم مع نفاستها وحسن موقعها من أعظم الأسباب المستدعية للشكر الموجبة له، ثم أرفف هذه النعم الموجبة للتوحيد المفيدة للاستدلال على المطلوب بنعمة أخرى وآية كبرى فقال: «والقى في الأرض رواسي» أي: جبلاً ثابتة، يقال: رسا يرسو إذا ثبت وأقام، قال الشاعر:

فصبرت عارفة لئلك حرة ترسو إذا نفس الجبان تطلع
«إن تميد بكم» أي: كرامة أن تميد بكم على ما قاله البصريون، أو لئلا تميد بكم على ما قاله الكوفيون، والميد: الاضطراب يميناً وشمالاً، ماد الشيء يمد ميداً تحرك، ومادت الأغصان تمايلت، وماد الرجل تبخر «وأنهار» أي: وجعل فيها أنهاراً، لأن الإلقاء هنا بمعنى الجعل والخلق كقوله: «والقيت عليك محبة مني» [طه: 39]. «ووسيلاً» أي: وجعل فيها سبلاً وأظهرها وبيتها لأجل تهتدون بها في أسفاركم إلى مقاصدكم. والسبل: الطرق. «وعلامات» أي: وجعل فيها علامات وهي معالم الطرق. والمعنى: أنه سبحانه جعل للطرق علامات يهتدون بها «وبالنجم هم يهتدون» المراد بالنجم الجنس أي: يهتدون

والخطيب عن قتادة ﴿وسيلاً﴾ قال: طرقاً ﴿وعلامات﴾ قال: هي النجوم. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في الآية قال: علامات النهار الجبال. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر عن الكلبي ﴿وعلامات﴾ قال: الجبال. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مروي عن ابن عباس ﴿وعلامات﴾ يعني: معالم الطرق بالنهار ﴿وبالنجم هم يهتدون﴾ يعني بالليل. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿افمن يخلق كمن لا يخلق﴾ قال: الله هو الخالق الرزاق، وهذه الأوثان التي تعبد من دون الله تخلق ولا تخلق شيئاً ولا تملك لأهلها ضراً ولا نفعاً.

وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٦﴾ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْلِكُ مَا يَدْعُونَ ﴿١٧﴾ لَا يَشْعُرُونَ أَنَّ يَوْمَهُمْ شُكْرٌ وَهُمْ مُشْكِرُونَ ﴿١٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَأْتِيهِمْ يُسْرَتٌ وَمَا يَحْتَسِبُونَ إِنَّهُ لَا يُحِثُّ السُّكْرِيُّ ﴿١٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمَ مَاذَا أُنْزِلَ زَكَّرُوا قَالُوا أَسْطِطِرُّ الْأَزَلِيُّ ﴿٢٠﴾ يَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَهُمْ أَوْزَارُ الَّذِينَ يُعْلَنُهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ آلا سَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴿٢١﴾ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَالُوا يَنْصُرُنَا اللَّهُ بِنِجْمَتِهِمْ رَبِّ الْقَوَائِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ الْكَتْفُ مِن قَرْيَتِهِمْ وَأَنْتَهُمُ الْمَذَابُ مِن حَيْثُ لَا يَسْمُرُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَخْرُجُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ شُرَكَائِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ

شرح سبحانه في تحقيق كون الأصنام التي أشار إليها بقوله: ﴿كمن لا يخلق﴾ عاجزة على أن يصدر منها خلق شيء فلا تستحق عبادة فقال: ﴿والذين تدعون من دون الله﴾ أي: الألهة الذين يدعوهم الكفار من دون الله سبحانه صفتهم هذه الصفات المذكورة، وهي أنهم ﴿لا يخلقون شيئاً﴾ من المخلوقات أصلاً لا كبيراً ولا صغيراً ولا جليلاً ولا حقيراً ﴿وهم يخلقون﴾ أي: وصفتهم أنهم يخلقون، فكيف يتمكن المخلوق من أن يخلق غيره؟ ففي هذه الآية زيادة بيان لأنه أثبت لهم صفة النقصان بعد أن سلب عنهم صفة الكمال، بخلاف قوله: ﴿افمن يخلق كمن لا يخلق﴾ فإنه اقتصر على مجرد سلب صفة الكمال. وقراءة الجمهور (والذين تدعون) بالمشناة الفوقية على الخطاب مطابقة لما قبله. وروى أبو بكر عن عاصم، وروى هبيرة عن حفص (يدعون) بالتحية، وهي قراءة يعقوب، ثم نكر صفة أخرى من صفاتهم فقال: ﴿أموات غير أحياء﴾ يعني: أن هذه الأصنام أجسادها ميتة لا حياة بها أصلاً، فزيادة «غير أحياء» لبيان أنها ليست كبعض الأجساد التي تموت بعد ثبوت الحياة لها بل لا حياة لهذه أصلاً، فكيف يعبدونها وهم أفضل منها؟ لأنهم أحياء ﴿وما يشعرون أيان يعبثون﴾ الضمير في يشعرون للألهة، وفي يعبثون للكفار الذين يعبدون الأصنام، والمعنى: ما تشعرون هذه الجمادات من الأصنام أيان يبعث عبثهم من الكفار، ويكون هذا على طريقة التهكم بهم، لأن شعور الجماد مستحيل بما هو من

لغفور رحيم﴾ أي: كثير المغفرة والرحمة لا يؤاخذكم بالغفلة عن شكر نعمه، والقصور عن إحصائها، والعجز عن القيام بانهاها، ومن رحمته إدامتها عليكم وإرارها في كل لحظة وعند كل نفس تنتفسونها وحركة تتحركون بها. اللهم إني أشكرك عدد ما شكرك الشاكرون بكل لسان في كل زمان وعدد ما سيشكرك الشاكرون بكل لسان في كل زمان، فقد خصصتني بنعم لم أرها على كثير من خلقك، وإن رأيت منها شيئاً على بعض خلقك لم أر عليه بقيتها، فإني أطيق شكر وكيف أستطيع بادية أبنى شكر أدامها فكيف أستطيع أعلاها؟ فكيف أستطيع شكر نوع من أنواعها؟ ثم بين لعباده بانه عالم بجميع ما يصدر منهم لا تخفى عليه منه خافية فقال: ﴿والله يعلم ما تسرون﴾ أي: تضمرونه من الأمور ﴿وما تعلنون﴾ أي: تظهرونه منها، وفيه وعيد وتعرض وتوبيخ، وتنبية على أن الإله يجب أن يكون عالماً بالسر والعلانية لا كالأصنام التي يعبدونها، فإنها جمادات لا شعور لها بشيء من الظواهر فضلاً عن السرائر فكيف يعبدونها؟

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وما ذرا لكم في الأرض﴾ قال: ما خلق لكم في الأرض مختلفاً من النواب، والشجر والثمار نعم من الله متظاهرة فاشكروها لله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿لتأكلوا منه لحماً طرياً﴾ يعني: حيتان البحر ﴿وتستخرجوا منه حلية تلبسونها﴾ قال: هذا اللؤلؤ. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله: ﴿وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً﴾ قال: هو السمك وما فيه من النواب. وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي جعفر قال: ليس في الحلئ زكاة، ثم قرأ ﴿وتستخرجوا منه حلية تلبسونها﴾. أقول: وفي هذا الاستدلال نظر، والذي ينبغي التحويل عليه أن الأصل البراءة من الزكاة حتى يرد اللبيل بوجوبها في شيء من أنواع المال فتلزم، وقد ورد في الذهب والفضة ما هو معروف، ولم يرد في الجواهر على اختلاف أصنافها ما يدل على وجوب الزكاة فيها. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿مولخر﴾ قال: جوارى. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عكرمة ﴿مولخر﴾ قال: تشق الماء بصدرها. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الضحاك ﴿مولخر﴾ قال: السفينتان تجريان بريح واحدة مقبلة ومبدرة. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله: ﴿ولتبتغوا من فضله﴾ قال: هي التجارة. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿ورواسي﴾ قال: الجبال ﴿أن تميد بكم﴾ قال: حتى لا تميد بكم، كانوا على الأرض تمور بهم لا تستقر، فأصبحوا صباحاً وقد جعل الله الجبال، وهي الرواسي أوتاداً في الأرض. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله: ﴿وسيلاً﴾ قال: السبل هي الطرق بين الجبال. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم،

كاملة أي قالوا: هذه المقالة لكي يحملوا أوزارهم كاملة. لم يكفر منها شيء لعدم إسلامهم الذي هو سبب لتكفير الذنوب، وقيل: إن اللام هي لام العاقبة، لأنهم لم يصفوا القرآن بكونه أساطير لأجل يحملون الأوزار، ولكن لما كان عاقبتهم ذلك حسن التعليل به كقوله: ﴿ليكون لهم عتواً وحزناً﴾ [القصص: 8]. وقيل: هي لام الأمر ﴿ومن أوزار الذين يضلونهم﴾ أي: ويحملون بعض أوزار الذين أضلوهم لأن من سنَّ سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها؛ وقيل: من الجنس لا للتبعض أي: يحملون كل أوزار الذين يضلونهم، ومحل ﴿بغير علم﴾ النصب على الحال من فاعل «يضلونهم» أي: يضلون الناس جاهلين غير عالمين بما يدعونهم إليه، ولا عارفين بما يلزمهم من الآثام؛ وقيل: إنه حال من المفعول أي: يضلون من لا علم له، ومثل هذه الآية: ﴿وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم﴾ [المنكوت: 13]. وقد تقدّم في الأنعام الكلام على قوله: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ [الأنعام: 164] ﴿ألا ساء ما يزرّون﴾ أي: بشس شيئاً يزرّونه ذلك. ثم حكى سبحانه حال اضطرابهم من المتقدمين فقال: ﴿قد مكر الذين من قبلهم﴾ ذهب أكثر المفسرين إلى أن المراد به نمرود بن كنعان حيث بنى بناءً عظيماً ببابل، ورام الصعود إلى السماء ليقاتل أهلها، فاهبّ الله الريح، فخرّ ذلك البناء عليه وعلى قومه فهلكوا، والأولى أن الآية عامة في جميع المبطلين من المتقدمين الذين يحاولون إلحاق الضرر بالمحقين؛ ومعنى المكر هنا الكيد والتدبير الذي لا يطابق الحق، وفي هذا وعيد للكفار المعاصرين له ﷺ بأن مكرهم سيعود عليهم كما عاد مكر من قبلهم على أنفسهم ﴿فأتى الله بنيانهم﴾ أي: أتى أمر الله، وهو الريح التي أخربت بنيانهم. قال المفسرون: أرسل الله ريحاً فألقت رأس الصرح في البحر، وخرّ عليهم الباقي ﴿من القواعد﴾ قال الزجاج: من الأساطين، والمعنى: أنه أتاهم أمر الله من جهة قواعد ما فزعزعها ﴿فخرّ عليهم السقف من فوقهم﴾ قرأ ابن أبي هريرة، وابن محيصن (السقف) بضم السين والقاف جميعاً. وقرأ مجاهد بضم السين وسكون القاف، وقرأ الباقون (السقف) بفتح السين وسكون القاف، والمعنى: أنه سقط عليهم السقف، لأنه بعد سقوط قواعد البناء يسقط جميع ما هو معتمد عليها. قال ابن الأعرابي، وإنما قال من فوقهم ليعلمك أنهم كانوا حاليين تحته، والعرب تقول خرّ علينا سقف، ووقع علينا حائط إذا كان يملكه وإن لم يكن وقع عليه، فجاء بقوله: ﴿من فوقهم﴾ ليخرج هذا الشك الذي في كلام العرب، فقال: ﴿من فوقهم﴾ أي: عليهم وقع، وكانوا تحته فهلكوا، وما أفلتوا؛ وقيل: إن المراد بالسقف السماء أي: أتاهم العذاب من السماء التي فوقهم؛ وقيل: إن هذه الآية تمثيل لهلاكهم؛ والمعنى: أهلكهم فكانوا بمنزلة من سقط بنيانه عليه.

وقد اختلف في هؤلاء الذين خرّ عليهم السقف، فقيل: هو نمرود كما تقدّم، وقيل: إنه بختنصر وأصحابه، وقيل هم

الأمور الظاهرة فضلاً عن الأمور التي لا يعلمها إلا الله سبحانه، وقيل: يجوز أن يكون الضمير في يبعثون للألّة أي: وما تشعر هذه الأصنام إيان تبعث، ويؤيد ذلك ما روي أن الله يبعث الأصنام ويخلق لها أرواحاً معها شياطينها فيؤمر بالكل إلى النار، ويدل على هذا قوله: ﴿إنكم وما تعبون من دون الله حصب جهنم﴾ [الأنبياء: 98]. وقيل: قد تمّ الكلام عند قوله: ﴿وهم يخلقون﴾ ثم ابتداء فوصف المشركين بأنهم أموات غير أحياء وما يشعرون إيان يبعثون، فيكون الضميران على هذا للكفار، وعلى القول بأن الضميرين أو أحدهما للأصنام يكون التعبير عنها مع كونها لا تحقل بما هو للعقلاء جرياً على اعتقاد من يعبدونها بأنها تعقل. وقرأ السلمي (إيان) بكسر الهمزة، وهما لغتان، وهو في محل نصب بالفعل الذي قبله ﴿إلهمك إله واحد﴾ لما زيف سبحانه طريقة عبدة الأوثان صرح بما هو الحق في نفس الأمر، وهو وحدانيته سبحانه، ثم نكر ما لأجله أصرّ الكفار على شركهم فقال: ﴿فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة﴾ للوحدانية لا يؤثر فيها وعظ ولا ينفع فيها تنكير ﴿وهم مستكبرون﴾ عن قبول الحق، متعظمون عن الإذعان للصواب، مستمرون على الجحد ﴿لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾ قال الخليل: لا جرم كلمة تحقيق ولا تكون إلا جواباً أي: حقاً أن الله يعلم ما يسرون من أقوالهم وأفعالهم وما يعلنون من ذلك، وقد مرّ تحقيق الكلام في لا جرم ﴿إنه لا يحب المستكبرون﴾ أي: لا يحب هؤلاء الذين يستكبرون عن توحيد الله والاستجابة لأنبيائه، والجملة تعليل لما تضمنه الكلام المتقدم ﴿وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم﴾ أي: وإذا قال لهؤلاء الكفار المنكرين المستكبرين قائل ماذا أنزل ربكم؟ أي: أي شيء أنزل ربكم؟ أو ماذا الذي أنزل؟ قيل: القائل النضر بن الحارث والآية نزلت فيه؛ فيكون هذا القول منه على طريق التهكم؛ وقيل: القائل هو من يفد عليه؛ وقيل: القائل المسلمون، فأجاب المشركون المنكرون المستكبرون فـ ﴿قالوا أساطير الأولين﴾ بالرفع أي: ما تدعون أيها المسلمون نزوله أساطير الأولين، أو أن المشركين أرادوا السخرية بالمسلمين فقالوا: المنزل عليكم أساطير الأولين. وعلى هذا فلا يرد ما قيل من أن هذا لا يصلح أن يكون جواباً من المشركين، وإلا لكان المعنى الذي أنزله ربنا أساطير الأولين والكفار لا يقرّون بالإنزال، ووجه عدم وروده هو ما نكرناه؛ وقيل: هو كلام مستأنف أي: ليس ما تدعون إنزاله أيها المسلمون منزلاً بل هو أساطير الأولين؛ وقد جوّز على مقتضى علم النحو نصب أساطير وإن لم تقع القراءة به، ولا بد في النصب من التأويل الذي نكرنا أي: أنزل على دعوكم أساطير الأولين، أو يقولون ذلك من أنفسهم على طريق السخرية. والأساطير: الأباطيل والترفّات التي يتحدّث الناس بها عن القرون الأولى. وليس من كلام الله في شيء ولا مما أنزله الله أصلاً في زعمهم ﴿ليحملوا أوزارهم

وابن المنذر عن مجاهد نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿فَاتَىٰ اللَّهُ بَنِيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾ قال: أتاهم أمر الله من أصلها ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ والسقف: أعالي البيوت فانتكفت بهم بيوتهم، فاهلكهم الله ودمرهم ﴿وَوَاتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿تَشَاقُونَ فِيهِمْ﴾ قال: تخالفوني.

قَالَ الَّذِينَ أُرُوا إِلَهَهُمْ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَمَّ وَالشَّرَّ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ تَوَلَّوْهُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا إِلَهُكُمَا كُفًّا تَمَلَّ مِنْ سَوْءِ بَلِّكَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ فَأَدْعُوا أَرْوَاحَ جَهَنَّمَ خِيَلِكُمْ فِيهَا فَلَيْسَ مَوْتُ الْمُسْكِينِ ﴿١٩﴾ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَبَرٌ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَبَرٌ وَلَكُمْ دَارُ السَّعِيرِينَ ﴿٢٠﴾ جَعَلَتْ عَذَابُ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثُمَّ فِيهَا مَا يَشْكُرُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٢١﴾ الَّذِينَ تَوَلَّوْهُمْ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُوكَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾

قوله: ﴿قَالَ الَّذِينَ أُرُوا إِلَهُهُمْ﴾ قيل: هم العلماء قالوه لأممهم الذين كانوا يعظونهم ولا يلتفتون إلى وعظهم، وكان هذا القول منهم على طريق الشماتة؛ وقيل: هم الأنبياء، وقيل: الملائكة، والظاهر الأول لأن نكرهم بوصف العلم يفيد ذلك وإن كان الأنبياء والملائكة هم من أهل العلم، بل هم أعرق فيه لكن لهم وصف ينكرون به هو إشرف من هذا الوصف، وهو كونهم أنبياء أو كونهم ملائكة، ولا يقدح في هذا جواز الإطلاق، لأن المراد الاستدلال على الظهور فقط ﴿إِنَّ الْخِزْيَ الْيَمَّ﴾ أي: الذل والهوان والفضيحة يوم القيامة ﴿وَالسَّوءُ﴾ أي: العذاب ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ مختص بهم ﴿الَّذِينَ تَوَلَّوْهُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ قد تقدم تفسيره، والموصول في محل الجر على أنه نعت للكافرين، أو بدل منه، أو في محل نصب على الاختصاص، أو في محل رفع على تقدير مبتدأ أي: هم الذين تتوفاهم، وانتصاب ظالمي أنفسهم على الحال ﴿فَالْقَوَاعِدُ السَّلَامُ﴾ معطوف على ﴿فَيَقُولُ لَيْنِ شُرَكَائِي﴾ وما بينهما اعتراض أي: أقروا بالربوبية، وانقادوا عند الموت، ومعناه الاستسلام قاله قطرب، وقيل: معناه المسالمة أي: سالموا وتركوا المشاقة قاله الأخفش؛ وقيل: معناه الإسلام أي: أقروا بالإسلام وتركوا ما كانوا فيه من الكفر، وجملة ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ يجوز أن تكون تفسيراً للسلم على أن يكون المراد بالسلم الكلام الدال عليه، ويجوز أن يكون المراد بالسوء هنا الشرك، ويكون هذا القول منهم على وجه الجحود والكذب، ومن لم يجوز الكذب على أهل القيامة حمله على أنهم أراؤا أنهم لم يعملوا سوءاً في اعتقادهم وعلى حسب ظنونهم، ومثله قولهم: ﴿وَاللَّهُ رَيْنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: 23] فلما قالوا هذا أجاب عليهم أهل العلم بقولهم: ﴿بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ

الْمُقْسِمُونَ الَّذِينَ تَقَدَّمَ نَكَرَهُمْ فِي سُورَةِ الْحَجَرِ ﴿وَوَاتَاهُمُ الْعَذَابُ﴾ أي: الهلاك ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ به، بل من حيث أنهم في أمان، ثم بين سبحانه أن عذابهم غير مقصور على عذاب الدنيا. فقال: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَخْزِيهِمْ﴾ بإخلالهم النار، ويفضضهم بذلك ويهينهم، وهو معطوف على مقدر. أي هذا عذابهم في الدنيا، ثم يوم القيامة يخزيهم ﴿وَيَقُولُ﴾ لهم مع ذلك توبيخاً وتقريعاً ﴿لَيْنِ شُرَكَائِي﴾ كما تزعمون وتدعون، قرأ ابن كثير من رواية البزي (شركائي) من دون همز، وقرأ الباقر باللهمز، ثم وصف هؤلاء الشركاء بقوله: ﴿الَّذِينَ كُنْتُمْ تَشَاقُونَ فِيهِمْ﴾ قرأ نافع بكسر النون على الإضافة، وقرأ الباقر بفتحها أي: تخصمون الأنبياء والمؤمنين فيهم، وعلى قراءة نافع تخصمونني فيهم وتعالونني، ادعوم فلينبغوا عنكم هذا العذاب النازل بكم.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿لَا جُرمَ﴾ يقول: بلى، وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك ﴿لَا جُرمَ﴾ قال: يعني للحق. وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك قال: لا كذب. وأخرج مسلم، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه وغيرهم عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال نرة من كبر، ولا يدخل النار من كان في قلبه مثقال نرة من إيمان، فقال رجل: يا رسول الله الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً، فقال: إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمص الناس». وفي ذم الكبر ومدح التواضع أحاديث كثيرة، وكذلك في إخراج محبة حسن الثوب وحسن النعل، ونحو ذلك من الكبر أحاديث كثيرة. والحاصل أن النبي ﷺ قد بين ماهية الكبر أنه بطر الحق وغمص الناس، فهذا هو الكبر المنموم. وقد ساق صاحب الدر المنثور عند تفسيره لهذه الآية: أعني قوله سبحانه: ﴿إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ أحاديث كثيرة ليس هذا مقام إيرادها، بل المقام مقام نكر ماله علاقة بتفسير الكتاب العزيز. وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أن ناساً من مشركي العرب كانوا يقدعون بطريق من أتى نبي الله ﷺ، فإذا مرؤا سالوهم فأخبروهم بما سمعوا من النبي ﷺ فقالوا: إنما هو أساطير الأولين. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿يَلْبِغْلَهُمْ أَوْزَارُهُمْ﴾ الآية يقول يحملون مع ذنوبهم ذنوب الذين يضلونهم بغير علم وذلك مثل قوله سبحانه: ﴿وَأَنْتَقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: 13]. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد نحوه، وزاد ولا يخفف ذلك عن أطاعهم من العذاب شيئاً. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ قال: نمرود بن كنعان حين بنى الصرح. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير عن زيد بن أسلم أنه النمرود أيضاً. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير،

ومعناه يحتمل وجهين: أحدهما أن يكون السلام إنذاراً لهم بالوفاة. الثاني أن يكون تبشيراً لهم بالجنة لأن السلام أمان. وقيل: إن الملائكة يقولون: السلام عليك ولي الله إن الله يقرأ عليك السلام ﴿ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون﴾ أي: بسبب عملكم. قيل: يحتمل هذا وجهين: الأول أن يكون تبشيراً بدخول الجنة عند الموت، الثاني أن يقولوا ذلك لهم في الآخرة. ولا يناقض هذا دخول الجنة بالفضل كما في الحديث الصحيح: «سننوا وقاربوا واعلموا أنه لن يدخل أحد الجنة بعمله». قيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمطني الله برحمته». وقد قلّمنا البحث عن هذا.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وقيل للذين اتقوا﴾ قال: هؤلاء المؤمنون. يقال لهم: ﴿ماذا أنزل ربكم﴾ فيقولون: ﴿خيراً للذين أحسنوا﴾ أي: آمنوا بالله وكتبه وأمروا بطاعته وحثوا عباد الله على الخير ودعواهم إليه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿الذين تتوفاهم الملائكة طيبين﴾ قال: أحياء وأمواتاً قنر الله لهم ذلك.

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَنَّمُوا أَنَّهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أَتَرَكُوا كَلَّا اللَّهُ مَا عِدَّنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ قَوْمٍ نَحْنُ وَلَا آبَاءُنَا وَلَا حَرَمًا مِنْ دُونِهِ مِنْ قَوْمٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَعَلَّ عَلَى أَرْسُلٍ إِلَّا الْبَلَاءَ الْمُبِينَ ﴿٣٨﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصَّلَواتِ فَبُذِلُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّ عَلَيْهِ السَّلَوةُ فَبَدَّلُوا فِي الْأَرْضِ غَافِلِينَ ﴿٣٩﴾ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْمَثَلَاتِ الْكَبِيرَاتِ ﴿٤٠﴾ إِنَّ قَوْمَ عَادٍ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلْ وَفَّاءٌ عَلَيْهِمْ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ لَيْسَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَيَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٤﴾

قوله: ﴿هل ينظرون﴾ الآية هذا جواب شبهة أخرى لمنكري النبوة، فإنهم طلبوا من النبي ﷺ أن ينزل عليهم ملكاً من السماء يشهد على صدقه في ادعاء النبوة فقال: هل ينظرون في تصديق نبوتك؟ ﴿إلا أن تأتيهم الملائكة﴾ شاهدين بذلك، ويحتمل أن يقال: إنهم لما طعنوا في القرآن بأنه أساطير الأولين أو عدهم الله بقوله: ﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة﴾ لقبض أولاهم ﴿أو يأتي أمر ربك﴾ أي: عذابه في الدنيا المستأصل لهم، أو المراد بأمر الله القيامة. وقرأ الأعمش، وابن وثاب، وحمزة، والكسائي، وخلف (إلا أن يأتيهم الملائكة) بالياء التحتية وقرأ الباقر بالمشنة الفوقية؛ والمراد بكونهم ينظرون أي: ينتظرون إتيان الملائكة

بما كنتم تعملون﴾ أي: بلى كنتم تعملون السوء. إن الله عليم بالذي كنتم تعملونه فجازيكم عليه ولا ينفعكم هذا الكذب شيئاً ﴿فادخلوا أبواب جهنم﴾ أي: يقال لهم ذلك عند الموت. وقد تقدّم ذكر أبواب جهنم وأن جهنم درجات بعضها فوق بعض، و﴿خالدين فيها﴾ حال مقدرة لأن خلودهم مستقبل ﴿فللبئس مثوى المتكبرين﴾ المخصوص بالبذم محذوف، والتقدير: لبئس مثوى المتكبرين جهنم، والمراد بتكبرهم هنا هو تكبرهم عن الإيمان والعبادة كما في قوله: ﴿إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون﴾ [الصافات: 35]. ثم اتبع أوصاف الأشقياء بأوصاف السعداء، فقال: ﴿وقيل للذين اتقوا﴾ وهم المؤمنون ﴿ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً﴾ أي: أنزل خيراً. قال الثعلبي: فإن قيل: لم ارتفع الجواب في قوله: ﴿أساطير الأولين﴾ وانتصب في قوله: ﴿خيراً؟ فالجواب أن المشركين لم يؤمنوا بالتنزيل، فكانهم قالوا الذي يقولونه محمد هو أساطير الأولين، والمؤمنون آمنوا بالتنزيل، فقال: أنزل خيراً﴾ للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة﴾ قيل: هذا من كلام الله عز وجل، وقيل: هو حكاية لكلام الذين اتقوا، فيكون على هذا بدلاً من خيراً، وعلى الأول يكون كلاماً مستأنفاً مسوقاً للمدح للمتقين، والمعنى: للذين أحسنوا أعمالهم في الدنيا حسنة أي: مثوبة حسنة ﴿ولدار الآخرة﴾ أي: مثوبتها ﴿خيراً﴾ مما أوتوا في الدنيا ﴿ولنعلم دار المتقين﴾ دار الآخرة، فنحن المخصوص بالمدح لدلالة ما قبله عليه، وارتفاع ﴿جنات عدن﴾ على أنها مبتدا خبرها ما بعدها، أو خبر مبتداً محذوف، وقيل: يجوز أن تكون هي المخصوص بالمدح ﴿يدخلونها﴾ هو إما خبر المبتدا، أو خبر بعد خبر، وعلى تقدير تنكير عدن تكون صفة لجنات، وكذلك ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾ وقيل: يجوز أن تكون الجملتان في محل نصب على الحال على تقدير أن لفظ عدن علم، وقد تقدّم معنى جري الأنهار من تحت الجنات ﴿لهم فيها ما يشاءون﴾ أي: لهم في الجنات ما تقع عليه مشيئتهم صفوا عفوا يحصل لهم بمجرد ذلك ﴿كذلك يجزي الله المتقين﴾ أي: مثل ذلك الجزاء يجزيهم، والمراد بالمتقين كل من يتقي الشرك وما يوجب النار من المعاصي. والموصول في قوله: ﴿الذين تتوفاهم الملائكة طيبين﴾ في محل نصب نعت للمتقين المذكور قبله، قرأ الأعمش وحمزة (تتوفاهم) في هذا الموضع، وفي الموضع الأول بالياء التحتية، وقرأ الباقر بالمشنة الفوقية. واختار القراءة الأولى أبو عبيد مستدلاً بما روي عن ابن مسعود أنه قال: إن قريشاً زعموا أن الملائكة إناث فنكروهم أنتم. وطيبين فيه أقوال: طاهرين من الشرك، أو الصالحين، أو زاكية أفعالهم وأقوالهم، أو طيبين الأنفس ثقة بما يلقونه من ثواب الله، أو طيبة نفوسهم بالرجوع إلى الله، أو طيبين للوفاة أي: هي عليهم سهلة لا صعوبة فيها، وجملة ﴿يقولون سلام عليكم﴾ في محل نصب على الحال من الملائكة أي: قائلين سلام عليكم؛

إلى الضلال **﴿فمنهم﴾** أي: من هذه الأمم التي بعث الله إليها رسوله **﴿من هدى الله﴾** أي: أرشده إلى دينه وتوحيده وعبادته واجتناب الطاغوت **﴿ومنهم﴾** من حققت عليه الضلالة **﴿أي﴾** وجبت وثبتت لإصراره على الكفر والعناد. قال الزجاج: أعلم الله أنه بعث الرسل بالأمر بالعبادة وهو من وراء الإضلال والهداية، ومثل هذه الآية قوله تعالى: **﴿فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة﴾** [الأعراف: 30]. وفي هذه الآية التصريح بأن الله أمر جميع عباده بعبادته، واجتناب الشيطان وكل ما يدعو إلى الضلال، وأنهم بعد ذلك فريقان فمنهم من هدى ومنهم من حققت عليه الضلالة، فكان في ذلك دليل على أن أمر الله سبحانه لا يستلزم موافقة إرادته فإنه يأمر لكل بالإيمان، ولا يريد الهداية إلا للبعث، إذ لو أرادها للكل لم يكفر أحد، وهذا معنى ما حكيناه عن الزجاج هنا. **﴿فسيروا في الأرض﴾** سير معتبرين **﴿فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾** من الأمم السابقة عند مشاهدتكم لأثارهم كعاد وثمود أي: كيف صار آخر أمرهم إلى خراب الديار بعد هلاك الأبدان بالعذاب ثم خصص الخطاب برسوله ﷺ مؤكداً لما تقدم فقال: **﴿إن تحرص على هداهم﴾** أي: تطلب بجهنك ذلك **﴿فإن الله لا يهدي من يضل﴾** قرأ ابن مسعود وأهل الكوفة (لا يهدي) بفتح حرف المضارعة على أنه فعل مستقبل مسند إلى الله سبحانه أي: فإن الله لا يرشد من أضله، و «من» في موضع نصب على المفعولية. وقرأ الباقون (لا يهدي) بضم حرف المضارعة على أنه مبني للمجهول، واختار هذه القراءة أبو عبيد، وأبو حاتم على معنى أنه لا يهدي هاد كائن من كان، و «من» في موضع رفع على أنها نائب الفاعل المحذوف، فتكون هذه الآية على هذه القراءة كقوله في الآية الأخرى **﴿من يضل الله فلا هادي له﴾** [الأعراف: 186]. والعائد على القراءتين محذوف أي: من يضل. وروى أبو عبيد عن الفراء على القراءة الأولى أن معنى **﴿لا يهدي﴾** لا يهتدي كقوله تعالى: **﴿ومن لا يهدي﴾** إلا أن يهدي [يونس: 35]. بمعنى يهتدي. قال أبو عبيد: ولا نعلم أحداً روى هذا غير الفراء وليس بمتهم فيما يحكيه. قال النحاس: حكى عن محمد بن يزيد المبرد، كان معنى **﴿لا يهدي من يضل﴾** من علم ذلك منه وسبق له عنده **﴿وما لهم من ناصرين﴾** ينصرونهم على الهداية لمن أضله الله أو ينصرونهم بنفع العذاب عنهم، ثم نكر عناد قريش وإنكارهم للبعث فقال: **﴿واقسموا بالله جهد إيمانهم﴾** مصدر في موضع الحال أي: جاهدين **﴿لا يبعث الله من يموت﴾** من عباده، زعموا أن الله سبحانه عاجز عن بعث الأموات، فرد الله عليهم ذلك بقوله: **﴿بلى وعدا عليه حقاً﴾** هذا إثبات لما بعد النفي أي: بلى يبعثهم، و «وعدا» مصدر مؤكد لما دل عليه بلى وهو يبعثهم لأن البعث وعد من الله وعد عباده به، والتقدير وعد البعث وعداً عليه حقاً لا خلف فيه، و «حقاً» صفة لوعد، وكذا عليه فإنه صفة لوعد أي: كائنات عليه، أو نصب حقاً على المصدرية: أي حق حقاً **﴿ولكن أكثر الناس﴾**

أو إتيان أمر الله على التفسير الآخر أنهم قد فعلوا فعل من وجب عليه العذاب وصار منتظراً له، وليس المراد أنهم ينتظرون ذلك حقيقة، فإنهم لا يؤمنون بذلك ولا يصنقونه **﴿كذلك فعل الذين من قبلهم﴾** أي: مثل فعل هؤلاء من الإصرار على الكفر والتكذيب والاستهزاء فعل الذين خلوا من قبلهم من طوائف الكفار فاتاهم أمر الله فهلكوا **﴿وما ظلمهم الله﴾** ببتيميرهم بالعذاب فإنه أنزل بهم ما استحقوه بكفرهم **﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾** بما ارتكبوه من القبائح، وفيه أن ظلمهم مقصور عليهم باعتبار ما إليه يتول، وجملة **﴿فأصابهم سيئات ما عملوا﴾** معطوفة على فعل الذين من قبلهم، وما بينهما اعتراض. وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: كذلك فعل الذين من قبلهم فأصابهم سيئات ما عملوا وما ظلمهم الله، والمعنى: فأصابهم جزء سيئات أعمالهم، أو جزء أعمالهم السيئة **﴿وحاق بهم﴾** أي: نزل بهم على وجه الإحاطة **﴿ما كانوا به يستهزئون﴾** أي: للعذاب الذي كانوا به يستهزئون أو عقاب استهزائهم **﴿وقال الذين أشركوا﴾** هذا نوع آخر من كفرهم الذي حكاه الله عنهم، والمراد بالذين أشركوا هنا أهل مكة **﴿لو شاء الله ما عبثنا من دونه من شيء﴾** أي: لو شاء عدم عبادتنا لشيء غيره ما عبثنا ذلك **﴿نحن ولا آبائنا﴾** الذين كانوا على ما نحن عليه الآن من بين الكفر والشرك بالله. قال الزجاج: إنهم قالوا هذا على جهة الاستهزاء، ولو قالوه عن اعتقاد لكانوا مؤمنين، وقد مضى الكلام على مثل هذا في سورة الأنعام **﴿ولا حزمنا من دونه من شيء﴾** من السوائب والبائس ونحوهما، ومقصودهم بهذا القول المعلق بالمشيئة الطعن في الرسالة أي: لو كان ما قاله الرسول حقاً من المنع من عبادة غير الله، والمنع من تحريم ما لم يحرمه الله حاكياً ذلك عن الله لم يقع منا ما يخالف ما أراد منا فإنه قد شاء ذلك وما شاءه كان وما لم يشأه لم يكن، فلما وقع منا العبادة لغيره وتحريم ما لم يحرمه كان ذلك ليلياً على أن ذلك هو المطابق لمراده والموافق لمشيئته، مع أنهم في الحقيقة لا يعترفون بذلك ولا يقرّون به لكنهم قصدوا ما نكرنا من الطعن على الرسل **﴿كذلك فعل الذين من قبلهم﴾** من طوائف الكفر فإنهم أشركوا بالله وحرموا ما لم يحرمه وجالوا رسله بالباطل واستهزؤوا بهم، ثم قال: **﴿فهل على الرسل﴾** الذين يرسلهم الله إلى عباده بما شرعه لهم من شرائعه التي رأسها توحيده، وترك الشرك به **﴿إلا للبلاغ﴾** إلى من أرسلوا إليهم بما أمروا بتبليغه بلاغاً واضحاً يفهم المرسل إليهم ولا يلتبس عليهم، ثم إنه سبحانه أكد هذا وزاده إيضاحاً فقال: **﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً﴾** كما بعثنا في هؤلاء لإقامة الحجة عليهم **﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾** [الإسراء: 15] و «أن» في قوله: **﴿إن اعبدوا الله﴾** إما مصدرية أي: بعثنا بأن اعبدوا الله، أو مفسرة لأن في البعث معنى القول: **﴿واجتنبوا الطاغوت﴾** أي: اتركوا كل معبود سواه كالشيطان والكاهن والصنم وكل من دعا

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن المنذر عن أبي هريرة قال: قال الله تعالى سبني ابن آدم ولم يكن ينبغي له أن يسبني، وكذبني ولم يكن ينبغي له أن يكذبني، أما تكذبيبه إياي فقال: وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت، وقتل: بلى وعداً عليه حقاً. وأما سب إياي، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: 73]، وقلت: ﴿هُوَ اللَّهُ أَحَدُ اللَّهِ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: 1 - 4]، هكذا نكره أبو هريرة موقوفاً وهو في الصحيحين مرفوعاً بلفظ آخر. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ اللَّهُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ يقول: للناس عامة.

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا عَلِمُوا لَنَبِيِّنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا خَيْرَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١٢﴾ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُفِيسَ إِلَيْنَا فَكَتَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ بِالنَّبِيِّ وَالْزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ يُخَيِّرُ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٤﴾ أَفَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا السَّعَاتِ أَنْ خَيَّفَ اللَّهُ بِمِيقَاتِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِيلِهِمْ فَأَمَّا بِمَعْجِرَاتٍ ﴿١٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَحَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّؤُوفُ الرَّحِيمُ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ يَرْوُونَ إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ قَبْلِهِ يَتَمَتَّعُونَ وَاللَّهُ عَنِ الْيَقِينِ وَالشَّكَاكِلِ سَجَدًا لِلَّهِ وَهُمْ ذَخِرُونَ ﴿١٨﴾ وَلَقَدْ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ ذَاكِبٍ وَاللَّهُ يَكْتُبُ لَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ قَوَاهِمٍ وَيَقُولُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٢٠﴾

قد تقدم تحقيق معنى الهجرة في سورة النساء، وهي ترك الأهل والأوطان، ومعنى ﴿هاجروا في الله﴾ في شأن الله سبحانه وفي رضاه؛ وقيل: ﴿في الله﴾ في دين الله، وقيل: في بمعنى اللام أي: الله ﴿من بعد ما ظلموا﴾ أي: عذبوا وأهينوا فإن أهل مكة عذبوا جماعة من المسلمين حتى قالوا ما أرادوا منهم، فلما تركوهم هاجروا. وقد اختلف في سبب نزول الآية، فقيل: نزلت في صهيب وبلال وخباب وعمار. واعترض بأن السورة مكية، وذلك يخالف قوله: ﴿والذين هاجروا﴾. وأجيب بأنه يمكن أن تكون هذه الآية من جملة الآيات المدنية في هذه السورة كما قدمنا في عنوانها، وقيل: نزلت في أبي جندل بن سهيل، وقيل: نزلت في أصحاب محمد ﷺ لما ظلمهم المشركون بمكة وأخرجوهم حتى لحق طائفة منهم بالحبيشة.

﴿لنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ اختلف في معنى هذا على أقوال: فقيل: المراد نزولهم المدينة قاله ابن عباس، والحسن، والشعبي، وقتادة؛ وقيل: المراد الرزق الحسن قاله مجاهد؛ وقيل: النصر على عتوهم قاله الضحاك؛ وقيل: ما استولوا عليه من فتوح البلاد وصار لهم فيها من الولايات؛ وقيل: ما بقي لهم فيها من الثناء وصار لأولادهم من الشرف. ولا مانع من حمل الآية على جميع هذه الأمور؛

لا يعلمون﴾ أن ذلك يسير عليه سبحانه غير عسير. وقوله ﴿ليبين لهم﴾ أي: ليظهر لهم، وهو غاية لما دلَّ عليه بلى من البعث، والضمير في ﴿لهم﴾ راجع إلى من يموت، والموصول في قوله: ﴿الذي يختلفون فيه﴾ في محل نصب على أنه مفعول ليبين أي: الأمر الذي وقع الخلاف بينهم فيه، وبينه إذ ذاك يكون بما جأته به الرسل، ونزلت عليهم فيه كتب الله؛ وقيل: إن ليبين متعلق بقوله: ﴿ولقد بعثنا﴾ أي: بعثنا في كل أمة رسولا ليبين وهو بعيد ﴿وليعلم الذين كفروا﴾ بالله سبحانه وأنكروا البعث ﴿لأنهم كانوا كاذبين﴾ في جدالهم وإنكارهم البعث بقولهم: ﴿لا يبعث الله من يموت﴾، وجملة ﴿إنما قولنا لشيء إذا أمرناه أن نقول له كن فيكون﴾ مستأنفة لبيان كيفية الإبداء والإعادة بعد بيان سهولة البعث عليه سبحانه. قال الزجاج: أعلمهم بسهولة خلق الأشياء عليه فأخبر أنه متى أراد الشيء كان، وهذا كقوله: ﴿وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾ [البقرة: 117]. وقرأ ابن عامر، والكسائي (فيكون) بالنصب عطفاً على أن نقول. قال الزجاج: يجوز أن يكون نصباً على جواب كن. وقرأ الباقر بالرفع على معنى: فهو يكون. قال ابن الأنباري: أوقع لفظ الشيء على المعلوم عند الله تعالى قبل الخلق، لأنه بمنزلة ما قد وجد وشوهد. وقال الزجاج: إن معنى «لشيء» لأجل شيء فجعل اللام سببية؛ وقيل: هي لام التبليغ، كما في قوله: قلت له قم فقام، و ﴿إنما قولنا﴾ مبتدأ ﴿وأن نقول له كن﴾ خبره، وهذا الكلام من باب التمثيل على معنى: أنه لا يمتنع عليه شيء، وأن وجوده عند إرادته كوجود المأمورية عند أمر الأمر المطاع إذا ورد على المأمور المطيع، وليس هناك قول ولا مقول له ولا أمر ولا مأمور حتى يقال: إنه يلزم منه أحد محالين إما خطاب المعلوم، أو تحصيل لحاصل. وقد مضى تفسير ذلك في سورة البقرة مستوفى.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة﴾ قال: بالموت، وقال في آية أخرى ﴿ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة﴾ [الأنفال: 50]، وهو ملك الموت، وله رسل ﴿أو يأتي أمر ربك﴾ وذلك يوم القيامة. وأخرج ابن جرير عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله: ﴿فإن الله لا يهدي من يضل﴾ قال: من يضل الله لا يهديه أحد. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي العالية قال: كان لرجل من المسلمين على رجل من المشركين دين فاتاه يتقاضاه فكان فيما تكلم به: والذي أرجوه بعد الموت إنه لكذا وكذا، فقال له المشرك: إنك لتزعم أنك تبعث من بعد الموت، فأقسم بالله جهد يمينه لا يبعث الله من يموت، فأنزل الله ﴿واقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت﴾ الآية. وأخرج ابن العنقي، وابن مروي عن علي في قوله: ﴿واقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت﴾ قال: نزلت في.

يذكر بعلم، والبيّنات: الحجج والبراهين، والوزير: الكتب. وقد تقدّم الكلام على هذا في آل عمران ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ أي القرآن، ثم بين الغاية المطلوبة من الإنزال فقال: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ جميعاً ﴿مَا نَزَّلَ إِلَيْهِمْ﴾ في هذا الذكر من الأحكام الشرعية والوعد والوعيد ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: إرادة أن يتأملوا ويعملوا أفكارهم فيبتغوا ﴿إِقَامَ الَّذِينَ مَكُرُوا لِّلْسَيِّئَاتِ﴾ يحتمل أن تكون السيئات صفة مصدر محذوف أي: مكروا المكرات السيئات، وأن تكون مفعولة للمفعول المذكور على تضمينه معنى العمل أي: عملوا السيئات، أو صفة لمفعول مَقَرَّ أي: أقاموا الماكرون العقوبات السيئات، أو على حذف حرف الجرّ أي: مكروا بالسيئات ﴿أَنْ يَخْشَفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾ هو مفعول آمن، أو بدل من مفعوله على القول بأن مفعوله محذوف، وإن السيئات صفة للمحذوف، والاستفهام للتقريع والتوبيخ، ومكر السيئات: وسعيهم في إيذاء رسول الله ﷺ وإيذاء أصحابه على وجه الخفية، واحتياهم في إبطال الإسلام، وكيد أهله ﴿أَنْ يَخْشَفَ اللَّهُ بِهِمُ﴾ كما خسف بقارون، يقال: خسف المكان يخسف خسفاً: ذهب في الأرض، وخسف الله به الأرض خسوفاً أي: غاب به فيها، ومنه قوله: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ [القصاص: 81] وخسف هو في الأرض وخسف به ﴿أَوْ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ به في حال غفلتهم عنه كما فعل يقوم لوط وغيرهم، وقيل: يريد يوم بدر فإنهم أهلكوا ذلك اليوم ولم يكن في حسابانهم ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ﴾.

نكر المفسرون فيه وجوهاً، فقيل: المراد في أسفارهم ومتاجرهم فإنه سبحانه قادر على أن يهلكهم في السفر كما يهلكهم في الحضر، وهم لا يفوتونه بسبب ضريرهم في الأرض، وبعدهم عن الأوطان؛ وقيل: المراد في حال تقلبهم في قضاء أوطانهم بوجود الحيل، فيحول الله بينهم وبين مقاصدهم وحيلهم؛ وقيل: في حال تقلبهم في الليل على فرشهم، وقيل: في حال إقبالهم وإدبارهم، وذهابهم ومجيئهم بالليل والنهار، والقلب بالمعنى الأول مأخوذ من قوله: ﴿لَا يَغْرَنَكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ [آل عمران: 196]. وبالمعنى الثاني مأخوذ من قوله: ﴿وَقَلْبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ [التوبة: 48]. ﴿فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: بفائتين ولا ممتنعين ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ أي: حال تخوف وتوقع للبلایا بأن يكونوا متوقعين للعذاب حزينين منه غير غافلين عنه، فهو خلاف ما تقدم من قوله: ﴿أَوْ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾، وقيل: معنى ﴿عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ على تنقص. قال ابن الأعرابي: أي على تنقص من الأموال والأنفس والثمرات حتى أهلكهم. قال الواحدي: قال عامة المفسرين: على تَخَوُّفٍ قال: تنقص إما بقتل أو بموت، يعني: بنقص من أطرافهم ونواحيهم يأخذهم الأول فالأول حتى يأتي الأخذ على جميعهم. قال: والتخوف التنقص، يقال: هو يتخوف المال أي: يتنقصه، ويأخذ من أطرافه، انتهى.

ومعنى ﴿لَنُبَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ لنبيئهم مباءة حسنة أو تبوئة حسنة، فحسنة صفة مصدر محذوف ﴿وَلَا جُرَ الْآخِرَةِ﴾ أي: جزاء أعمالهم في الآخرة ﴿كَبِيرٍ﴾ من أن يعلمه أحد من خلق الله قيل أن يشاهده، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمَلَكًا كَبِيرًا﴾ [الإنسان: 20]. ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لو كان هؤلاء الظلمة يعلمون ذلك، وقيل إن الضمير في «يعلمون» راجع إلى المؤمنين أي: لو رأوا ثواب الآخرة وعابنوه لعلوا أنه أكبر من حسنة الدنيا ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ الموصول في محل نصب على المدح، أو الرفع على تقدير مبتدأ، أو هو بدل من الموصول الأول، أو من الضمير في «لَنُبَيِّنَنَّ لَهُمْ»، ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: على ربهم خاصة يتوكلون في جميع أمورهم معرضين عما سواه، والجملة معطوفة على الصلة أو في محل نصب على الحال ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ﴾. قرا حفص عن عاصم (نوحى) بالنون، وقرا الباقر (يوحى) بالياء التحتية، وهذه الآية رد على قريش حيث زعموا أن الله سبحانه أجل من أن يرسل رسولا من البشر، فرد الله عليهم بأن هذه عابته وسنته أن لا يرسل إلا رجلاً من البشر يوحى إليهم. وزعم أبو علي الجبائي أن معنى الآية أن الله سبحانه لم يرسل إلى الأنبياء بوحى إلا من هو على صورة الرجال من الملائكة. ويرد عليه بأن جبريل كان يأتي رسول الله ﷺ على صور مختلفة، ولما كان كفار مكة مقرّين بأن اليهود والنصارى هم أهل لعلم بما أنزل الله في التوراة والإنجيل صرف الخطاب إليهم وأمرهم أن يرجعوا إلى أهل الكتاب، فقال: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: فاسألوا أيها المشركون مؤمن أهل الكتاب إن كنتم لا تعلمون فإنهم سيخبرونكم أن جميع الأنبياء كانوا بشراً، أو أسألوا أهل الكتاب من غير تقييد بمؤمنهم كما يفيد الظاهر فإنهم كانوا يعترفون بذلك ولا يكتمونه؛ وقيل: المعنى فاسألوا أهل القرآن، و﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزَّبْرِ﴾ يتعلق بأرسلنا، فيكون دالاً في حكم الاستثناء مع رجلاً، وأنكر الفراء ذلك، وقال: إن صفة ما قبل إلا لا تتلخر إلا ما بعدها، لأن المستثنى عنه هو مجموع ما قبل: إلا مع صلته، كما لو قيل أرسلنا إلا رجلاً بالبيّنات، فلما لم يصّر هذا المجموع منكوراً بتمامه امتنع إدخال الاستثناء عليه؛ وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: وما أرسلنا من قبلك بالبيّنات والزبر إلا رجلاً؛ وقيل: يتعلق بمحذوف دل عليه المذكور أي: أرسلناهم بالبيّنات والزبر، ويكون جواباً عن سؤال مقتر كأنه قيل: لماذا أرسلهم؟ فقال: أرسلناهم بالبيّنات والزبر؛ وقيل: متعلق على أنه مفعوله والباء زائدة أي: إن كنتم لا تعلمون بالبيّنات والزبر؛ وقيل: متعلق بـرجلاً أي: رجلاً متلبسين بالبيّنات والزبر؛ وقيل: بنوحى أي: نوحى إليهم بالبيّنات والزبر؛ وقيل: منصوب بتقدير أعني، والباء زائدة، وأهل الذكر هم أهل الكتاب كما تقدّم. وقال الزجاج: أسألوا كل من

يقال: تخوفه الدهر وتخونه بالغاء والنون: تنقصه، قال نو الرمة:

لا بل هو الشوق من دار تخوفها مراسحاب ومرابارح ترب وقال لبيد:

تخوفها نزولي ولتحالي

أي: تنقص لحمها وشحمها قال الهيثم بن عدي: التخوف بالغاء للتقص لغة لأزد شنودة، وأنشد:

تخوف عبوم مالي وأمدي سلاسل في الحلق لها صليل وقيل: على تخوف على عجل قاله الليث بن سعد، وقيل: على تقريع بما قتموه من ذنوبهم، روي ذلك عن ابن عباس، وقيل: على تخوف أن يعاقب ويتجاوز قاله قتادة: ﴿فإن ريكم لرءوف رحيم﴾ لا يعاجل، بل يمهل راقية بكم ورحمة لكم مع استحقاقهم للعقوبة ﴿أولم يروا إلى ما خلق الله من شيء﴾ لما خوف سبحانه المالكين بما خوف أتبعه نكر ما يدل على كمال قدرته في تدبير أحوال العالم العلوي والسفلي ومكانهما، والاستفهام في ﴿أولم يروا﴾ للإنكار، وما مبهم مفسرة بقوله: «من شيء»، قرأ حمزة، والكسائي، وخلف، ويحيى بن وثاب، والأعمش (تروا) بالمثلثة الفوقية على أنه خطاب لجميع الناس؛ وقرأ الباقون بالتحته بارجاع الضمير إلى الذين مكروا السيئات، وقرأ أبو عمرو ويعقوب (تتفؤا ظلاله) بالمثلثة الفوقية، وقرأ الباقون بالتحته، واختارها أبو عبيد: أي يميل من جانب إلى جانب، ويكون أول النهار على حال ويتقلص، ثم يعود في آخر النهار على حالة أخرى. قال الأزهري: تفؤ الظلال رجوعها بعد انتصاف النهار، فالتفؤ لا يكون إلا بالعشي وما انصرف عنه الشمس والقمر، والذي يكون بالغدوة هو الظل. وقال ثعلب: أخبرت عن أبي عبيدة أن رؤية قال: كل ما كانت عليه الشمس فزالت عنه فهو فيء، وما لم تكن عليه الشمس فهو ظل، ومعنى ﴿من شيء﴾ من شيء له ظل، وهي الأجسام، فهو عام أريد به الخاص، وظلاله جمع ظل، وهو مضاف إلى مفرد لأنه واحد يراد به الكثرة ﴿عن اليمين والשמائل﴾ أي: عن جهة إيمانها وشمائلها أي: عن جانبي كل واحد منها. قال الفراء: وحد اليمين، لأنه أراد واحداً من نوات الأظلال، وجمع الشمائل لأنه أراد كلها، لأن ما خلق الله لفظه مفرد ومعناه جمع. وقال الواحدي: وحد اليمين والمراد به الجميع إيجازاً في اللفظ كقوله: ﴿يولون الديار﴾ [القمر: 45]، وثلث الشمائل على أن المراد به الجمع؛ وقيل: إن العرب إذا تكررت صيغتي جمع عبرت عن أحدهما بلفظ الواحد كقوله: ﴿وجعل الظلمات والنور﴾ [الأنعام: 1]، و﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم﴾ [البقرة: 7]، وقيل: المراد باليمين النقطة التي هي مشرق الشمس، وأنها واحدة. والشمائل عبارة عن الانحراف في فلك الإظلال بعد وقوعها على الأرض وهي كثيرة، وإنما عبر عن المشرق باليمين لأن أقوى جانبي الإنسان يمينه، ومنه تظهر الحركة القوية ﴿سجداً لله﴾ منتصب على الحال أي: حال كون الظلال

سجداً لله. قال الزجاج: يعني أن هذه الأشياء مجبولة على الطاعة، وقال أيضاً: سجود الجسم انقياده وما يرى من أثر الصنعة ﴿وهم داخرون﴾ في محل نصب على الحال أي: خاضعون صاغرون، والبخور: اللصغار والذل، يقال: نخر الرجل فهو داخر وأخذه الله. قال الشاعر:

فلم يبق إلا داخري مخيس ومتحجري غير أرضك في حجر ومخيس: اسم سجن كان بالعراق ﴿ووه يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة﴾ أي: له وحده يخضع وينقاد لا لغيره ما في السموات جميعاً، وما في الأرض من دابة تند على الأرض، والمراد به كل دابة. قال الأخفش: هو كقولك ما أتاني من رجل مثله، وما أتاني من الرجال مثله. وقد نخل في عموم ما في السموات وما في الأرض جميع الأشياء الموجودة فيهما، وإنما خص الدابة بالذكر لأنه قد علم من قوله: ﴿أولم يروا إلى ما خلق الله من شيء﴾ انقياد الجمادات، وعطف الملائكة على ما قبلهم تشريفاً لهم، وتحظيماً لخلوهم في المعطوف عليه ﴿وهم لا يستكبرون﴾ أي: والحال أنهم لا يستكبرون عن عبادة ربهم، والمراد الملائكة؛ ويحتمل أن تكون الجملة مستأنفة. وفي هذا رد على قريش حيث زعموا أن الملائكة بنات الله، ويجوز أن تكون حالاً من فاعل يسجد، وما عطف عليه أي: يسجد لله ما في السموات وما في الأرض والملائكة وهم جميعاً لا يستكبرون عن السجود ﴿يخافون ربهم من فوقهم﴾ هذه الجملة في محل نصب على الحال أي: حال كونهم يخافون ربهم من فوقهم، أو جملة مستأنفة لبيان نفي استكبارهم، ومن آثار الخوف عدم الاستكبار، ومن فوقهم متعلق بيخافون على حذف مضاف أي: يخافون عذاب ربهم من فوقهم، أو يكون حالاً من الرب أي: يخافون ربهم حال كونه من فوقهم، وقيل: معنى ﴿يخافون ربهم من فوقهم﴾ يخافون الملائكة فيكون على حذف المضاف: أي يخافون ملائكة ربهم كائنين من فوقهم وهو تكلف لا حاجة إليه، وإنما اقتضى مثل هذه التاويلات البعيدة المحاماة على مذاهب قد رسخت في الأذهان، وتقررت في القلوب، قيل: وهذه المخافة هي مخافة الإجلال، واختاره الزجاج فقال: ﴿يخافون ربهم﴾ خوف مجلين، ويدل على صحة هذا المعنى قوله: ﴿وهو القاهر فوق عباده﴾ [الأنعام: 61]. وقوله إخباراً عن فرعون ﴿وإننا فوقهم قاهرون﴾ [الأعراف: 127]. ﴿ويفعلون ما يؤمرون﴾ أي: ما يؤمرون به من طاعة الله يعني: الملائكة، أو جميع من تقدم ذكره، وحمل هذه الجمل على الملائكة أولى، لأن في مخلوقات الله من يستكبر عن عبادته، ولا يخافه ولا يفعل ما يؤمر به، كالكفار والعصاة الذين لا يتصفون بهذه الصفات وبإبليس وجنوده.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مريويه عن ابن عباس في قوله: ﴿والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا﴾ قال: هم قوم من أهل مكة هاجروا إلى رسول الله ﷺ بعد ظلمهم. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن أبي

حاتم، وابن عساكر عن داود بن أبي هند قال: نزلت هذه الآية في أبي جنبل بن سهيل. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ﴾ الآية قال: هؤلاء أصحاب محمد ظلمهم أهل مكة فأخرجوهم من ديارهم حتى لحق طوائف منهم بأرض الحبشة، ثم بواهم الله المدينة بعد ذلك فجعلها لهم دار هجرة، وجعل لهم أنصاراً من المؤمنين ﴿وَلَا جُرْ الْآخِرَةَ كَبِيرٌ﴾ قال: أي والله لما يصيبهم الله من جنته ونعمته كبر ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن الشعبي في قوله: ﴿فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ قال: المدينة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في الآية قال: لنزقنهم في الدنيا رزقاً حسناً. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: لما بعث الله محمداً رسولاً أتكرت العرب ذلك، فأنزل الله ﴿مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ﴾. وأخرج

الفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مروي عنه في قوله: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ الآية، يعني: مشركي قريش أن محمداً رسول الله في التوراة والإنجيل. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة قال: نزلت في عبد الله بن سلام ونفر من أهل التوراة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ قال: الآيات. ﴿وَالزَّبِيرُ﴾ قال: الكتب. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد في قوله: ﴿وَالْفَاغْنِ الَّذِينَ مَكْرُوا لِسِيَّاتِ﴾ قال: نمرود بن كنعان وقومه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال: أي الشرك. وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك قال: تكذيبهم الرسل، وإعمالهم بالمعاصي. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿أَوْ يَأْخُذْهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ﴾ قال: في اختلافهم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه ﴿فِي تَقْلِبِهِمْ﴾ قال: إن شئت أختته في سفره ﴿أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ يقول: على أثر موت صاحبه. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ قال: تنقص من أعمالهم. وأخرج ابن جرير عن عمر أنه سألهم عن هذه الآية ﴿أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ فقالوا: ما نرى إلا أنه عند تنقص ما يربده من الآيات. فقال: عمر ما أرى إلا أنه على ما ينقصون من معاصي الله، فخرج رجل ممن كان عند عمر فلقي أعرابياً، فقال يا فلان: ما فعل ربك؟ قال: قد تخيفته، يعني انتقصته، فرجع إلى عمر فأخبره، فقال: قد رأيته ذلك. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد في قوله: ﴿أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ قال: يأخذهم بنقص بعضهم بعضاً. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿يَتَّقِيؤْا﴾ قال: يتميل. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن قتادة في قوله: ﴿وَهُمْ دُلْخَرُونَ﴾ قال: صاغرون. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد مثله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي

حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وَهُوَ يَسْجُدُ﴾ الآية قال: لم يدع شيئاً من خلقه إلا عبده له طائفاً أو كراهياً. وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في الآية قال: يسجد من في السموات طوعاً ومن في الأرض طوعاً وكراهياً.

﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَذَكَّرُوا لِلْهَيْبِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَحِيدٌ فَإِنِّي فَأَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ﴾

﴿وَلَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الْوَيْلُ وَاصِباً أَفَعَبَرْتُمْ أَنْتُمْ تَقُولُونَ﴾ ﴿وَمَا يَكُنْ مِنْ يَتَذَكَّرُ فَمِنْ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الْمَوْتُ فَيَنْفَعُكُمْ﴾ ﴿ثُمَّ إِذَا كَفَسَ الْعَمَلُ عَنْكُمْ إِذَا فِرَاقُكُمْ بِرَبِّكُمْ يَنْشُرُونَ﴾ ﴿يَكُونُوا بِمَا أَنْفَعُهُمْ فَتَمَحُّوا سُرُورَ قَلْبِهِمْ﴾ ﴿وَيَحْمِلُونَ لَنَا أَوْثَقَ نَبِيّاً وَمَا رَزَقْنَاهُمْ نَأْلَهُ لَشَتَّى عَمَّا كُفِّرْتُمْ قَتَلْتُمْ﴾ ﴿وَيَحْمِلُونَ إِلَيْهِ الْكِنْتَ سَحَابَةً لَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ ﴿وَإِذَا بَشَّرَ أَحَدَهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَافٍ﴾ ﴿يَتَوَدَّى مِنَ الْغَوِيِّ مِنْ سَوْءٍ مَا يُخْرِ بِؤْسٍ إِلَيْكُمْ عَلَى هَوًى أَرَيْتُمْ فِي الشَّرَابِ إِلَّا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأُولَى وَهُوَ الْمَثَلُ الْأَكْبَرُ﴾ ﴿وَلَوْ يَرَى الْإِنْسَانُ أَنَّهُ يَطْلِيهِ مَا تَرَكَ عَاقِبَتَهُ مِنْ دَأْوِهِ وَلَكِنْ يُوَخَّضُهُمْ إِلَهُ أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ لَا يُسْتَنْجُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقِيمُونَ﴾ ﴿وَيَحْمِلُونَ فِيهِ مَا يَكُونُونَ وَيَعِثُ أَلْسِنُهُمُ الْكُذْبَ أَنْ لَهُمْ لُحْسٌ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ أَثَارٌ وَأَنَّهُمْ مُفْرَكُونَ﴾

لما بين سبحانه أن مخلوقاته السماوية والأرضية منقاد له، خاضعة لجلاله، اتبع ذلك بالنهي عن الشرك بقوله: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَذَكَّرُوا لِلْهَيْبِ اثْنَيْنِ﴾ إنما هو إله واحد ﴿فَنهى سبحانه عن اتخاذ إلهين، ثم أثبت أن الإلهية منحصرة في إله واحد وهو الله سبحانه، وقد قيل: إن التثنية في إلهين قد دلت على الاثنينية، والإفراد في إله قد دل على الوحدة، فما وجه وصف إلهين باثنين، ووصف إله واحد؟ فقيل في الجواب: إن في الكلام تقديمًا وتأخيرًا، والتقدير: لا تتخذوا اثنين إلهين إنما هو واحد إله، وقيل: إن التكرير لأجل المبالغة في التنفير عن اتخاذ الشريك، وقيل: إن فائدة زيادة اثنين هي أن يعلم أن النهي راجع إلى التعدد لا إلى الجنسية، وفائدة زيادة واحد دفع توهم أن المراد إثبات الإلهية بون الواحدية، مع أن الإلهية له سبحانه مسلمة في نفسها، وإنما خلاف المشركين في الواحدية. ثم نقل الكلام سبحانه من الغيبة إلى التكلم على طريقة الالتفات لزيادة الترهيب، فقال: ﴿فَلْيَايَ فَارْهَبُونَ﴾ أي: إن كنتم راهبين شيئاً فلْيَايَ فَارْهَبُونَ لا غيري، وقد مرَّ مثل هذا في أول البقرة. ثم لما قرَّر سبحانه وحدانيته، وأنه الذي يجب أن يخص بالرهبة منه والرغبة إليه، نكر أن الكل في ملكه وتحت تصرفه فقال: ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وهذه الجملة مقررة لمن تقدَّم في قوله: ﴿وَهُوَ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [النحل: 49] إلى آخره، وتقديم الخبر لإفادة الاختصاص ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً﴾ أي: ثابتاً واجباً دائماً لا يزول، والدين هو الطاعة والإخلاص. قال الفراء ﴿وَاصِباً﴾ معناه دائماً، ومنه قول الدؤالي:

في **﴿ليكفروا بما آتيناهم﴾** لام كي أي: لكي يكفروا بما آتيناهم من نعمة كشف الضر، حتى كأن هذا الكفر منهم الواقع في موضع الشكر الواجب عليهم غرض لهم ومقصد من مقاصدهم، وهذا غاية في العتو والعناد ليس وراءها غاية؛ وقيل: اللام للعاقبة يعني: ما كانت عاقبة تلك التضرعات إلا هذا الكفر. ثم قال سبحانه على سبيل التهديد والترهيب ملتفتاً من الغيبة إلى الخطاب **﴿فتمنعوا﴾** بما أنتم فيه من ذلك **﴿فسوف تعلمون﴾** عاقبة أمركم وما يحل بكم في هذه الدار وما تصيرون إليه في الدار الآخرة. ثم حكى سبحانه نوعاً آخر من قبائح أعمالهم فقال: **﴿ويجعلون لما لا يعلمون نصيباً مما رزقناهم﴾** أي: يقع منهم هذا الجعل بعد ما وقع منهم الجوار إلى الله سبحانه في كشف الضر عنهم وما يعقب كشفه عنهم من الكفر منهم بالله والإشراك به، ومع ذلك يجعلون لما لا يعلمون حقيقته من الجمادات والشياطين نصيباً مما رزقناهم من أموالهم يتقربون به إليه، وقيل: المعنى أنهم أي الكفار يجعلون للأصنام وهم لا يعلمون شيئاً لكونهم جمادات، ففاعل يعلمون على هذا هي الأصنام وأجراها مجرى العقلاء في جمعها بالوال والنون جرياً على اعتقاد الكفار فيها، وحاصل المعنى: ويجعل هؤلاء الكفار للأصنام التي لا تعقل شيئاً نصيباً من أموالهم التي رزقهم الله إياها **﴿تالله لتسألن عما كنتم تفترون﴾** هذا رجوع من الغيبة إلى الخطاب، وهذا السؤال سؤال توبيخ وتوبيخ **﴿عما كنتم تفترون﴾** تختلفونه من الكذب على الله سبحانه في الدنيا **﴿ويجعلون لله البنات﴾** هذا نوع آخر من فضائحهم وقبائحهم، وقد كانت خزاعة وكنانة تقول: الملائكة بنات الله **﴿سبحانه﴾** نزه سبحانه نفسه عما نسبته إليه هؤلاء الجفافة الذين لا عقول لهم صحيحة ولا أفهام مستقيمة **﴿إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل﴾** [الفرقان: 44] وفي هذا التنزيه تعجيب من حالهم **﴿ولهم ما يشتهون﴾** أي: ويجعلون لأنفسهم ما يشتهونه من البنين على أن «ما» في محل نصب بالفعل المقدر، ويجوز أن تكون في محل رفع على الابتداء. وإنكر النصب الزجاج قال: لأن العرب لا يقولون: جعل له كذا وهو يعني نفسه، وإنما يقولون: جعل لنفسه كذا، فلو كان منصوباً لقال: ولأنفسهم ما يشتهون. وقد أجاز النصب الفراء. ثم ذكر سبحانه كراهمتهم للإناث التي جعلوها لله سبحانه فقال: **﴿وإذا بشر أحدهم بالأنثى﴾** أي: إذا أخبر أحدهم بولادة بنت له **﴿ظلل وجهه مسوداً﴾** أي: متغيراً، وليس المراد السواد الذي هو ضد البياض، بل المراد الكناية بالسواد عن الانكسار والتغير بما يحصل من الغم، والعرب تقول لكل من لقي مكروهاً قد اسود وجهه غماً وحزناً قاله الزجاج. وقال المارودي: بل المراد سواد اللون حقيقة، قال: وهو قول الجمهور، والأول أولى، فإن المعلوم بالوجدان أن من غضب وحزن واغتم لا يحصل في لونه إلا مجرد التغير وظهور الكآبة والانكسار لا السواد الحقيقي، وجملة **﴿وهو كظيم﴾** في محل نصب

لا ابتغي الحمد القليل بقاؤه بزم يكون الدهر لجمع واصبا أي: دائماً. وروي عن الفراء أيضاً أنه قال: الواصب الخالص، والأول أولى، ومنه قوله سبحانه: **﴿ولهم عذاب واصب﴾** [الصافات: 9] أي دائم. وقال الزجاج: أي طاعته واجبة أبداً. ففسر الواصب بالواجب. وقال ابن قتيبة في تفسير الواصب: أي ليس أحد يطاع إلا انقطع ذلك بزوال أو بهلكة غير الله تعالى فإن الطاعة تدوم له، ففسر الواصب بالدائم، وإذا دام الشيء دوماً لا ينقطع فقد وجب وثبت، يقال: وصب الشيء يصب وصوباً فهو واصب: إذا دام، ووصب الرجل على الأمر: إذا واطب عليه؛ وقيل: الوصب التعب والإياء أي: يجب طاعة الله سبحانه وإن تعب العبد فيها وهو غير مناسب لما في الآية، والاستفهام في قوله: **﴿أفغير الله تتقون﴾** للتقريع والتوبيخ، وهو معطوف على مقدر كما في نظائره، والمعنى: إذا كان الدين: أي الطاعة واجباً له دائماً لا ينقطع كان المناسب لذلك تخصيص التقوى به وعدم إيقاعها لغيره. ثم امتزى سبحانه عليهم بأن جميع ما هم متقبلون فيه من النعم هو منه لا من غيره فقال: **﴿وما بكم من نعمة﴾** أي: ما يلبسكم من النعم على اختلاف أنواعها فمن الله أي: فهي منه، فتكون ما شرطية، ويجوز أن تكون موصولة متضمنة معنى الشرط، وبكم صلتها، ومن نعمة حال من الضمير في الجار والمجرور، أو بيان لما. وقوله: **﴿فمن الله﴾** الخبر، وعلى كون ما شرطية يكون فعل الشرط محذوفاً أي: ما يكن، والنعمة إما دينية وهي معرفة الحق لذاته ومعرفة الخير لأجل العمل به، وإما دنيوية نفسانية، أو بدنية أو خارجية كالساعات المالية وغيرها، وكل واحدة من هذه جنس تحته أنواع لا حصر لها، والكل من الله سبحانه فعلى العاقل أن لا يشكر إلا إياه، ثم بين تلون الإنسان بعد استغراقه في بحر النعم فقال: **﴿ثم إذا مسكم الضر فإليه تجارون﴾** أي: إذا مسكم الضر أي مس فإلى الله سبحانه لا إلى غيره تتضرعون في كشفه فلا كاشف له إلا هو، يقال جارٍ جارٍ في لسان العرب جواراً: إذا رفع صوته في تضرع. قال الأعشى يصف بقرة: فطافت ثلاثاً بين يوم وليلة وكان للنكير أن تطيف وتجارا والضر المرض والبلاء والحاجة والقحط وكل ما يتضرر به الإنسان **﴿ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم يربهم يشركون﴾** أي: إذا رفع عنكم ما نزل بكم من الضر «إذا فريق» أي: جماعة منكم يربهم الذين رفع الضر عنهم يشركون فيجعلون معه إلهاً آخر من صنم أو نحوه، والآية مسوقة للتعجيب من فعل هؤلاء حيث يضعون الإشراك بالله الذي أنعم عليهم بكشف ما نزل بهم من الضر مكان الشكر له، وهذا المعنى قد تقدم في الأنعام ويونس، ويأتي في سبحان. قال الزجاج: هذا خاص بمكر وكفر، وقابل كشف الضر عنه بالجدود والكفر، وعلى هذا فتكون من في منكم للتبعيض حيث كان الخطاب للناس جميعاً، والفريق هم الكفرة وإن كان الخطاب موجهاً إلى الكفار فمن للبيان، واللام

غيرهم فبشؤم ظلم الظالمين، والله الحكمة البالغة ﴿لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: 23]، ومثل هذا قوله: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: 25]. وفي معنى هذا أحاديث منها ما عند مسلم وغيره من حديث ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا أراد الله بقوم عذاباً أصاب العذاب من كان فيهم ثم بعثوا على نياتهم»، وكذلك حديث الجيش «الذين يخسف بهم في البيداء»، وفي آخره: أنهم يبعثون على نياتهم» وقد قلّمنا عند تفسير قوله سبحانه: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً﴾ [الأنفال: 25] الآية تحقيقاً حقيقاً بالمراجعة له ﴿وَلَكِنْ يُؤْخِرْهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ معلوم عنده وهو منتهى حياتهم وانقضاء أعمارهم أو أجل عذابهم، وفي هذا التأخير حكمة بالغة منها الإعذار إليهم وإرخاء العنان معهم، ومنها حصول من سبق في علمه من أولادهم ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ﴾ الذي سماه لهم حقت عليهم كلمة الله سبحانه في تلك الوقت من نون تقدّم عليه ولا تأخر عنه، والساعة المدة القليلة، وقد تقدّم تفسيرها هذا وتحقيقه، ثم ذكر نوعاً آخر من جهلهم وحمقهم فقال: ﴿وَيَجْعَلُونَ لَّهُ مَا يُكْرَهُونَ﴾ أي: ينسبون إليه سبحانه ما يكرهون نسبته إلى أنفسهم من البنات، وهو تكرير لما قد تقدّم لقصد التأكيد والتقرير، ولزيادة التوبيخ والتفريع ﴿وَتُصَفِّ السُّنْتَهُمُ لِلْكَذِبِ﴾ هذا من النوع الآخر الذي ذكره سبحانه من قبائحهم وهو أي: هذا الذي تصفه السنتهم من الكذب هو قولهم: ﴿أَن لَّهُمُ الْحَسَنَى﴾ أي: الخصلة الحسنى، أو العاقبة الحسنى. قال الزجاج: يصفون أن لهم مع قبح قولهم من الله الجزاء الحسن. قال الزجاج أيضاً والفراء: أبطل من قوله وتصف السنتهم الكذب قوله أن لهم الحسنى، والكذب منصوب على أنه مفعول نصف. وقرأ ابن عباس، وأبو العالية، ومجاهد، وابن محيصن (الكذب) برفع الكاف والذال والباء على أنه صفة للآلسن وهو جمع كذب، فيكون المفعول على هذا هو أن لهم الحسنى. ثم ردّ الله سبحانه عليهم بقوله: ﴿لَا جُرمَ أَن لَّهُمُ النَّارُ﴾ أي: حقاً أن لهم مكان ما جعلوه لأنفسهم من الحسنى النار، وقد تقدّم تحقيق هذا ﴿وَأَنَّهُمْ مَفْرُطُونَ﴾ قال ابن الأعرابي وأبو عبيدة: أي متروكون منسيون في النار، وبه قال الكسائي والفراء، فيكون مشتقاً من أفرطت فلاناً خلّفتي: إذا خلّفتها ونسيتها. وقال قتادة والحسن: معجلون إليها مقدّمون في دخولها من أفرطته أي: قُدمته في طلب الماء، والفراط هو الذي يتقدّم إلى الماء، والفراط المتقدّمون في طلب الماء، والوراد المتأخرون، ومنه قوله ﷺ: «أنا فرطكم على الحوض»، أي: متقدّمكم، قال القطامي:

فاستعجلونا وكانوا من صاحبنا كما تستعجل فرطاً لوراد
وقرأ نافع في رواية ورش (مفرطون) بكسر الراء وتخفيفها، وهي قراءة ابن مسعود وابن عباس؛ ومعناه: مسرفون في الذنوب والمعاصي؛ يقال: أفرط فلان على فلان: إذا أربى عليه وقال له أكثر مما قال من الشر. وقرأ أبو

على الحال أي: ممتلئ من الغم غيظاً وحنقاً. قال الأخفش: هو الذي يكظم غيظه ولا يظهره، وقيل: إنه المغموم الذي يطبق فاه من الغم، مأخوذ من الكظامة وهو سدّ فم البئر قاله علي بن عيسى، وقد تقدّم في سورة يوسف ﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ﴾ أي: يتغيب ويختفي ﴿مَنْ سَوءَ مَا بَشَرُ بِهِ﴾ أي: من سوء الحزن والعار والحياء الذي يلحقه بسبب حدوث البنت له ﴿أَيَمْسُكُهُ عَلَىٰ هُونٍ﴾ أي: لا يزال متردداً بين الأمرين: وهو إمساك البنت التي بشر بها، أو لفنتها في التراب ﴿عَلَىٰ هُونٍ﴾ أي: هوان، وكذا قرأ عيسى الثقفي. قال اليزيدي: والهون الهوان بلغة قريش، وكذا حكاه أبو عبيد عن الكسائي، وحكي عن الكسائي أنه البلاء والمشقة، قالت الخنساء:

نهين النفوس وهون النفوس يوم الكربة أبقي لها
وقال الفراء: الهون القليل بلغة تميم. وحكى النحاس عن الأعمش أنه قرأ (أيمسكه على سوء أم يسه في التراب) أي: يخفيه في التراب بالواد كما كانت تفعله العرب، فلا يزال الذي بشر بحدوث الأنثى متردداً بين هذين الأمرين، والتذكير في يمسه ويدسه مع كونه عبارة عن الأنثى لرعاية اللفظ. وقرأ الجحدري (أم يسهها في التراب) ويلزمه أن يقرأ أيمسكها، وقيل: نسها إخفاؤها عن الناس حتى لا تعرف كالمسدوس لإخفائه عن الأبصار ﴿إِلَّا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ حيث أضافوا البنات التي يكرهونها إلى الله سبحانه وأضافوا البنين المحبوبين عندهم إلى أنفسهم ومثل هذا قوله تعالى: ﴿الْكَمِ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَىٰ﴾ * تلك إذا قسمة ضيزى [النجم: 21 - 22]. ﴿لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مِثْلُ السَّوِّ﴾ أي: لهؤلاء الذين وصفهم الله سبحانه بهذه القبائح الفظيعة مثل السوء أي: صفة السوء من الجهل والكفر بالله؛ وقيل: هو وصفهم الله سبحانه بالصاحبة والولد؛ وقيل: هو حاجتهم إلى الولد ليقوم مقامهم واد البنات لنفع العار وخشية الإملاق؛ وقيل: العذاب والنار ﴿وَاللهُ الْمِثْلُ الْأَعْلَىٰ﴾ وهو أضداد صفة المخلوقين من الغنى الكامل والجدو الشامل والعلم الواسع، أو التوحيد وإخلاص العبادة، أو أنه خالق رازق قاهر مجاز؛ وقيل: شهادة أن لا إله إلا الله وقيل ﴿الله نور السموات والأرض مثل نوره﴾ [النور: 35]. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغالب فلا يضربه نسبتهم إليه ما لا يليق به ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أفعاله وأقواله. ثم لما حكى سبحانه عن القوم عظيم كفرهم بين سعة كرمه وحلمه حيث لم يعاجلهم بالعقوبة ولم يؤاخذهم بظلمهم، فقال: ﴿وَلَوْ يُوَازِئُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمُ﴾ والمراد بالناس هنا الكفار أو جميع العصاة ﴿مَا تَرَكَ عَلَيْهَا﴾ أي: على الأرض وإن لم يذكر فقد دل عليها ذكر الناس وذكر الدابة، فإن الجميع مستقرّون على الأرض، والمراد بالدابة الكافر، وقيل: كل ما دبّ؛ وقد قيل على هذا كيف يعمّ بالهلاك مع أن فيهم من لا ذنب له؟ وأجيب بإهلاك الظالم انتقاماً منه، وإهلاك غيره إن كان من أهل التكليف فلأجل توفير أجره، وإن كان من

الشعب عنه قال: كاد الجعل أن يعذب في جحره بذنوب ابن آدم. ثم قرأ ﴿وَلَوْ يُولَخَذُ اللَّهُ لِلنَّاسِ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾. وأخرج عبد بن حميد وابن أبي الدنيا عن أنس نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي الدنيا، وابن جرير، والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة أنه سمع رجلاً يقول: إن الظالم لا يضر إلا نفسه، قال أبو هريرة: بلى والله إن الحبارى لتموت هزلاً في وكرها من ظلم الظالم. وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك ﴿وَيَجْعَلُونَ لَكَ مَا يُكْرَهُونَ﴾ قال: يجعلون لي البنات ويكرهون ذلك لأنفسهم. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿وَيُوصَفُ لِسَنَّتِهِمْ لِلْكُذْبِ أَنْ لَهُمُ الْحَسَنَى﴾ قال: قول كفار قريش لنا البنون وله البنات. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد ﴿وَأَنَّهُمْ مَفْرُطُونَ﴾ قال: منسبون. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير نحوه. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر عن قتادة قال: معجلون. وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن نحوه.

ثُمَّ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَرَيْنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَكِنَّ عَذَابَ آيَةٍ ۖ وَمَا أَرْزَأْنَا مَلَكَ الْكِتَابِ إِلَّا شَيْئِينَ لَهُمْ أَلَيْسَ أَخْلَقُوا بِهِ وَهُنَّ وَرَحْمَةُ لِقَائِهِمْ يُؤْمِنُونَ ۚ وَاللَّهُ أَرْزَأَ مِنَ السَّمَاءِ مَا هَآخَا بِهِنَّ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَّبِعُونَ ۚ وَإِذْ لَكَ فِي الْأُمَمِ لَمَعَةٌ شَفِيعَةٌ بَيْنَ يَدَيْهِمْ وَبَيْنَ قَرْيَتِهِ وَدَمْرٌ لِّمَا خَالَصَ سَائِلُهُ لِلْقَادِرِينَ ۚ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّجِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَنَزَّلُ مِنْهُ سَكَّرَ وَرَزَقَ حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۚ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّفْلِ أَنْ أَجْلِبَ مِنَ الْجِبَالِ يَدَاكَ وَمَنْ الْكَبَرِ وَمَا يَعْشَوْنَ ۚ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاتَّقِيَنَّ سُبُلَ رَبِّكَ ذَلَّكَ يَخْرُجُ مِنْ بَطْنِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلَفٌ لَّوْنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۚ

بَيَّنَّ سَبْحَانَهُ أَنْ مِثْلَ صَنِيعِ قَرِيشٍ قَدْ وَقَعَ مِنْ سَائِرِ الْأُمَمِ، فَقَالَ: مَسْلِيًّا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ﴿تَنَاهَى لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أي: رسلاً ﴿فَرَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ﴾ الخبيثة ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ﴾ يحتمل أن يكون اليوم عبارة عن زمان الدنيا، فيكون المعنى: فهو قريشهم في الدنيا، ويحتمل أن يكون اليوم عبارة عن يوم القيامة وما بعده، فيكون للحال الآتية، ويكون الولي بمعنى الناصر، والمراد نفي الناصر عنهم على أبلغ الوجوه، لأن الشيطان لا يتصور منه النصرة أصلاً في الدار الآخرة، وإذا كان الناصر منحصرًا فيه لزم أن لا نصرة من غيره، ويحتمل أن يراد باليوم بعض زمان الدنيا، وهو على وجهين: الأول أن يراد البعض الذي قد مضى، وهو الذي وقع فيه التزيين من الشيطان للآدم الماضية فيكون على طريق الحكاية للحال الماضية. الثاني أن يراد البعض الحاضر، وهو وقت نزول

جعفر القاري (مفردون) بكسر الراء وتشديد هاء أي: مضيعون أمر الله، فهو من التفريط في الواجب. وقرأ الباقون (مفردون) بفتح الراء مخففاً، ومعناه: مقيمون إلى النار.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَأَصْبَآءُ﴾ قال: الدين الإخلاص، وواصباً دائماً. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي صالح ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَأَصْبَآءُ﴾ قال: لا إله إلا الله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿وَأَصْبَآءُ﴾ قال: دائماً. وأخرج الفريابي، وابن جرير عنه: قال: واجباً. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿تَجَارُونَ﴾ قال: تتضرعون دعاء. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال: تصيحون بالدعاء. وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله: ﴿فَتَمْتَعُوا فُسُوفَ تَعْلَمُونَ﴾ قال: وعيد. وأخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لَكَ مَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ الآية، قال: يعلمون أن الله خلقهم ويضرمهم وينفعهم، ثم يجعلون لما لا يعلمون أنه يضرهم ولا ينفعهم ﴿تَنْصِيباً مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة في الآية، قال: هم مشركو العرب جعلوا لأوثانهم وشياطينهم مما رزقهم الله وجزوا من أموالهم جزءاً فجعلوه لأوثانهم وشياطينهم. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في الآية، قال: هو قولهم هذا الله بزعيمهم وهذا لشركائنا. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لَكَ الْبَنَاتِ﴾ الآية، يقول: يجعلون لي البنات يرتضونهن لي ولا يرتضونهن لأنفسهم، وذلك أنهم كانوا في الجاهلية إذا ولد للرجل منهم جارية أمسكها على هوان أو بسها في التراب وهي حية. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الضحاك ﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ قال: يعني به البنين. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن جرير ﴿وَأَم يَحْسَبُ فِي التَّرَابِ﴾ قال: يثد ابتته. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله: ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ قال: بش ما حكموا، يقول: شيء لا يرضونه لأنفسهم فكيف يرضونه لي. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ قال: شهادة أن لا إله إلا الله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن ابن عباس ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ قال: يقول ليس كمثلته شيء. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ قال: ما سقام المطر. وأخرج أيضاً عن السدي نحوه. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن قتادة في الآية، قال: قد فعل ذلك في زمن نوح، أهلك الله ما على ظهر الأرض من دابة إلا ما حمل في سفينته. وأخرج أحمد في الزهد عن ابن مسعود قال: نذوب ابن آدم قتلت الجعل في جحره، ثم قال: أي والله زمن غرق قوم نوح. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في

مما في بطون ما نكرنا فهو على هذا عائد إلى المنكور. قال الفراء: وهو صواب. وقال المبرد: هذا فاش في القرآن كثير مثل قوله للشمس ﴿هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: 78] يعني: هذا الشيء الطالع، وكذلك ﴿وَإِنِّي مَرْسَلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ﴾ [النمل: 35]، ثم قال: ﴿فَلَمَّا جَاءَ سَلِيمَانُ﴾ [النمل: 36]، ولم يقل: جاءت لأن المعنى جاء الشيء الذي نكرنا انتهى، ومن ذلك قوله: ﴿كَلَّا إِنَّمَا تَنكُرُهُ * فَمَنْ شَاءَ نَكَرْهُ﴾ [عبس: 11 - 12] ومثله قول الشاعر:

مثل الفراخ نيفت حواصله

ولم يقل: حواصلها وقول الآخر:

وطاب إلحاق السلبان ويرد

ولم يقل: ويردت وحكي عن الكسائي أن المعنى مما في بطون بعضه وهي الإناث، لأن النكور لا ألبان لها، وبه قال أبو عبيدة: وحكي عن الفراء أنه قال: النعم والأنعام واحد ينكر ويؤنث، ولهذا تقول العرب: هذه نعم واردة، فرجع الضمير إلى لفظ النعم الذي هو بمعنى الأنعام، وهو كقول الزجاج ورجحه ابن العربي فقال: إنما يرجع التنكير إلى معنى الجمع، والتأنيث إلى معنى الجماعة، فنكره هنا باعتبار لفظ الجمع واثته في سورة المؤمنين باعتبار لفظ الجماعة ﴿مَنْ بَيْنَ فَوْثٍ وَدِمٍّ﴾ الفرث: الزيل الذي ينزل إلى الكرش، فإذا خرج منه لم يسم فرثاً يقال: أقرثت الكرش إذا أخرجت ما فيها. والمعنى: أن الشيء الذي تاكله يكون منه ما في الكرش، وهو الفرث ويكون منه الدم، فيكون أسفله فرثاً وأعلاه دماً وأوسطه ﴿لَبَنًا﴾ فيجري الدم في العروق واللبن في الضروع، ويبقى الفرث كما هو ﴿خَالِصًا﴾ يعني: من حمرة الدم وقذارة الفرث بعد أن جمعتهما وعاء واحد ﴿سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ أي: لنبيذاً هنيئاً لا يغص به من شربه: يقال: ساء الشراب يسوغ سوغاً أي: سهل منخله في الحلق ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ﴾ قال ابن جرير: التقدير، ومن ثمرات النخيل والأعناب ما تتخون، فحذف ما يدل على حذفه قوله: منه. وقيل: هو معطوف على الأنعام، والتقدير: وإن لكم من ثمرات النخيل والأعناب لعبرة، ويجوز أن يكون معطوفاً على مما في بطونه أي: نسقيكم مما في بطونه ومن ثمرات النخيل، ويجوز أن يتعلق بمحذوف دل عليه ما قبله، تقديره: ونسقيكم من ثمرات النخيل، ويكون على هذا ﴿تَتَخَوَّنُ مِنْهُ سَكْرًا﴾ بياناً للإسقاء وكشفاً عن حقيقة، ويجوز أن يتعلق بتخون، تقديره: ومن ثمرات النخيل والأعناب ثمر تتخون منه سكرًا، ويكون تكرير الظرف، وهو قوله منه للتأكيد كقولك زيد في الدار فيها، وإنما نكر الضمير في منه لأنه يعود إلى المنكور، أو إلى المضاف المحذوف، وهو العصير، كأنه قيل: ومن عصير ثمرات النخيل والأعناب تتخون منه، والسكر ما يسكر من الخمر، والرزق الحسن جميع ما يؤكل من هاتين الشجرتين كالتمر والبس والزبيب والخل، وكان نزول هذه الآية قبل تحريم الخمر: وقيل: إن السكر الخل بلغة الحبشة، والرزق

الآية. والمراد تزيين الشيطان لكفار قريش فيكون الضمير في «وليهم» لكفار قريش: أي فهو ولي هؤلاء اليوم، أو على حذف مضاف: أي: فهو ولي أمثال أولئك الأمم اليوم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: في الآخرة وهو عذاب النار. ثم نكر سبحانه أنه ما هلك من هلك إلا بعد إقامة الحجة عليهم وإزاحة العلة منهم فقال: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ وهذا خطاب لرسول الله ﷺ، والمراد بالكتاب القرآن، والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال أي: ما أنزلناه عليك لحال من الأحوال ولا لعل من اللعل إلا لعل التبیین لهم أي: للناس الذي اختلفوا فيه من التوحيد وأحوال البعث وسائر الأحكام الشرعية، ﴿وَوُحِّدَ﴾ انتصاب ﴿هَدًى وَرَحْمَةً﴾ على أنهما مفعول لهما معطوفان على محل لتبين، ولا حاجة إلى اللام، لأنهما فعلاً فاعل الفعل المعلل، بخلاف التبيين فإنه فعل المخاطب لا فعل المنزل ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بالله سبحانه ويصدقون ما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب. ثم عاد سبحانه إلى تقرير وجوده وتفرده بالإلهية بذكر آياته العظام فقال: ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي: من السحاب، أو من جهة العلو كما مر أي: نوعاً من أنواع الماء ﴿فَلَحَّيَّا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: أحيانا بالنبات بعد أن كانت يابسة لا حياة بها ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ الْإِنْزَالِ وَالْإِحْيَاءِ آيَةٌ﴾ أي: علامة دالة على وحدانيته وعلى بعثه للخلق ومجازاتهم ﴿لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ كلام الله ويفهمون ما يتضمنه من العبر، ويتفكرون في خلق السموات والأرض ﴿وَإِنْ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ﴾ الأنعام هي الإبل والبقر والغنم ويدخل في الغنم المعز، والعبرة أصلها تمثيل الشيء بالشيء ليعرف حقيقته بطريق المشاكلة، ومنه ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: 2]. وقال أبو بكر الوارق: العبرة في الأنعام تسخيرها لأربابها وطاعتها لهم، والظاهر أن العبرة هي قوله: ﴿نَسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بَطُونِهِ﴾ فتكون الجملة مستأنفة لبيان العبرة. قرأ أهل المدينة، وابن عامر، وعاصم في رواية أبي بكر (نسقيكم) بفتح النون من سقى يسقي. وقرأ الباقر وحفص عن عاصم بضم النون من أسقى يسقي، قيل: هما لغتان. قال البيد:

سقى قومي بني مجد وأسقى نعيمراً والقبائل من هلال
وقرئ بقاء الفوقية على أن الضمير راجع إلى الأنعام،
وقرئ بالتحية على إرجاع الضمير إلى الله سبحانه، وهما
ضعيفتان، وجميع القراء على القراءتين الأوليين، والفتح لغة
قريش، والضم لغة حمير؛ وقيل: إن بين سقى وأسقى فرقاً،
فإذا كان الشراب من يد الساقى إلى فم المسقى فيقال:
سقىته، وإن كان بمجرد عرضه عليه وتهيته له قيل: أسقاه.
والضمير في قوله: ﴿مِمَّا فِي بَطُونِهِ﴾ راجع إلى الأنعام.
قال سيبويه: العرب تخبر عن الأنعام بخبر الواحد، وقال
الزجاج: لما كان لفظ الجمع ينكر ويؤنث، فيقال: هو الأنعام،
وهي الأنعام جاز عود الضمير بالتنكير. وقال الكسائي معناه

الرزق في الجبال وخلال الشجر، أو اسلكي ما أكلت في سبل ربك أي: في مسالكه التي يحيل فيها بقدرته النور عسلاً، أو إذا أكلت الثمار في الأمكنة البعيدة فاسلكي إلى بيوتك راجعة سبل ربك لا تضلين فيها، وا تنصّب **«ثلاً»** على الحال من السبل، وهي جمع نلّول أي: منللة غير متوعدة، واختار هذا الزجاج وابن جرير؛ وقيل: حال من النحل يعني: مطيعة للتسخير وإخراج العسل من بطونها، واختار هذا ابن قتيبة، وجملة **«يخرج من بطونها»** مستأنفة عدل به عن خطاب النحل، تعديداً للنعم، وتعجيباً لكل سامع، وتنبيهاً على الغير، وإرشاداً إلى الآيات العظيمة الحاصلة من هذا الحيوان الشبيه بالذباب، والمراد بالـ **«شراب»** في الآية هو العسل، ومعنى **«مختلف ألوانه»** أن بعضه أبيض وبعضه أحمر وبعضه أزرق وبعضه أصفر باختلاف نوات النحل وألوانها وماكولاتها. وجمهور المفسرين على أن العسل يخرج من أقواء النحل؛ وقيل: من أسفلها؛ وقيل: لا يدري من أين يخرج منها، والضمير في قوله: **«فيه شفاء للناس»** راجع إلى الشراب الخارج من بطون النحل وهو العسل، وإلى هذا ذهب الجمهور. وقال الفراء وابن كيسان وجماعة من السلف: إن الضمير راجع إلى القرآن، ويكون التقدير فيما قصصنا عليكم من الآيات والبراهين شفاء للناس، ولا وجه للعدول عن الظاهر ومخالفة المرجع الواضح والسياق البين.

وقد اختلف أهل العلم هل هذا الشفاء الذي جعله الله في العسل عام لكل داء أو خاص ببعض الأمراض؟ فقالت طائفة: هو على العموم، وقالت طائفة: إن ذلك خاص ببعض الأمراض، ويدل على هذا أن العسل نكرة في سياق الإثبات فلا يكون عاماً، وتنكيره إن أريد به التعظيم لا يدل إلا على أن فيه شفاءً عظيماً لمرض أو أمراض، لا لكل مرض، فإن تنكير التعظيم لا يفيد العموم، والظاهر المستفاد من التجربة ومن قوانين علم الطب، أنه إذا استعمل منفرداً كان نواء لأمراض خاصة وإن خلط مع غيره كالمعاجين ونحوها كان مع ما خلط به نواء لكثير من الأمراض. وبالجملـة فهو من أعظم الأغذية وأنفع الأدوية، وقليل ما يجتمع هذان الأمران في غيره **«إن في ذلك»** المنكور من أمر النحل **«لآية لـلـقـوم يـتـفـكـرون»** أي: يعملون أفكارهم عند النظر في صنع الله سبحانه وعجائب مخلوقاته فإن أمر النحل من أعجيبها وأغربها وألقها وأحكمها.

وقد أخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وأبو داود في ناسخه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والنحاس، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه، وابن مرويـه عن ابن عباس أنه سئل عن قوله: **«تتخون منه سكرًا ورزقًا حسنًا»** قال: السكر ما حرم من ثمرتها، والرزق الحسن ما حل. وأخرج الفريابي، وابن أبي حاتم، وابن مرويـه عنه قال: السكر الحرام، والرزق الحسن زبيبه وخله وعنبه ومنافعه. وأخرج أبو داود في ناسخه، وابن

الحسن الطعام من الشجرتين؛ وقيل: السكر العصير الحلو الحلال، وسمي سكرًا لأنه قد يصير مسكرًا إذا بقي، فإذا بلغ الإسكار حرم. والقول الأول أولى وعليه الجمهور، وقد صرح أهل اللغة بأن السكر اسم للخمر، ولم يخالف في ذلك إلا أبو عبيدة فإنه قال: السكر الطعام، ومما يدل على ما قاله جمهور أهل اللغة قول الشاعر:

بش الصحاب وبش الشرب شربهم إذا جرى فيهم الهذي والسكر ومما يدل على ما قاله أبو عبيدة ما أنشده:

جعلت عيب الأكرمين سكرًا

أي: جعلت ذمهم طعاماً، ورجح هذا ابن جرير فقال: إن السكر ما يطعم من الطعام ويحل شربه من ثمار النخيل والأعناب وهو الرزق الحسن، فاللفظ مختلف والمعنى واحد مثل **«إنما أشكو بثي وحزني إلى الله»** [يوسف: 86]. قال الزجاج: قول أبي عبيدة هذا لا يعرف، وأهل التفسير على خلافه ولا حجة في البيت الذي أنشده لأن معناه عند غيره أنه يصف أنها تتخمر بعيوب الناس، وقد حمل السكر جماعة من الحنفية على ما لا يسكر من الأنبذة وعلى ما ذهب ثلثاه بالطبخ، قالوا: وإنما يمتن الله على عباده بما أحله لهم لا بما حرّمه عليهم، وهذا مردود بالأحاديث الصحيحة المتواترة على فرض تأخره عن آية تحريم الخمر. **«إن في ذلك لآية لـلـقـوم يـعـقـلـون»** أي لدلالة لمن يستعمل العقل ويعمل بما يقتضيه عند النظر في الآيات التكوينية **«وإوحى ربك إلى النحل»** قد تقدّم الكلام في الوحي وأنه يكون بمعنى الإلهام، وهو ما يخلقه في القلب ابتداء من غير سبب ظاهر، ومنه قوله سبحانه: **«ونفس وما سواها * فإلهما فجورها و تقواها»** [الشمس: 7 - 8]. ومن ذلك إلهام البهائم لفعل ما ينفعها وترك ما يضرها، وقرأ يحيى بن وثاب (إلى النحل) بفتح الحاء. قال الزجاج: وسمي نحلاً لأن الله سبحانه نخله العسل الذي يخرج منه. قال الجوهري: والنحل والنحلة الدبر يقع على الذكر والأنثى **«إن اتخذني من الجبال بيوتاً»** أي: بأن اتخذني على أن «أن» هي المصدرية، ويجوز أن تكون تفسيرية لأن في الإيحاء معنى القول، وإنث الضمير في اتخذني لكونه أحد الجائزين كما تقدّم، أو للحمل على المعنى أو لكون النحل جمعاً، وأهل الحجاز يؤنثون النحل «ومن» في من الجبال بيوتاً **«و»** كذا في **«من الشجر و»** كذا في **«مما يعرشون»** للتبعيض أي: مساكن توافقها وتليق بها في كوى الجبال وتجويف الشجر، وفي العروش التي يعرشها بنو آدم من الأجناح والحيطان وغيرها، وأكثر ما يستعمل فيما يكون من الخشب، يقال: عرش يعرش بكسر الراء وضمةـها. وبالضم قرأ ابن عامر وشعبة، وقرأ الباقون بالكسر. وقرئ أيضاً بيوتاً بكسر الياء وضمةـها **«ثم كلي من كل الثمرات»** من للتبعيض لأنها تاكل النور من الأشجار فإذا أكلتها **«فاسلكي سبل ربك»** أي: الطرق التي فهمك الله وعلمك، وأضافها إلى الرب لأنه خالقها وملهم النحل أن تسلكها أي: اسلكي طرق ربك لطلب

المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: السكر النبيذ، والرزق الحسن الزبيب. فنسختها هذه الآية ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾ [المائدة: 90]. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عنه أيضاً في الآية قال: فحرم الله بعد ذلك السكر مع تحريم الخمر لأنه منه، ثم قال: ﴿وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ فهو الحلال من الخل والزبيب والنبيذ وأشبهه ذلك، فأقره الله وجعله حلالاً للمسلمين. وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، وابن أبي حاتم عن ابن عمر أنه سئل عن السكر، فقال: الخمر بعينها. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر عن ابن مسعود قال: السكر خمر. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ قال: ألهمها. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلَالًا﴾ قال: طرقاً لا يتوعر عليها مكان سلكته. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن قتادة ذلاً قال: مطيعة. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال: ذليلة. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿يُخْرِجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابًا﴾ قال: العسل. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن مجاهد في الآية قال: هو العسل فيه الشفاء وفي القرآن. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن مسعود قال: إن العسل شفاء من كل داء، والقرآن شفاء لما في الصلور. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه عن ابن مسعود قال: عليكم بالشفاء من العسل والقرآن. وأخرج ابن ماجه، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب، وابن السني، وأبو نعيم، والخطيب عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالشفاء من العسل والقرآن». وقد رويت أحاديث في كون العسل شفاء: منها ما أخرجه البخاري من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «الشفاء في ثلاثة في شرطة محجم أو شربة عسل أو كية بنار وأنا أنهي أمتي عن الكي». وأخرج البخاري، ومسلم وغيرهما من حديث أبي سعيد: «أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن أخي استطلق بطنه، فقال: اسقه عسلاً فسقاه عسلاً، ثم جاء فقال: سقيته عسلاً فما زاده إلا استطلاقاً، قال إذهب فاسقه عسلاً فذهب فسقاه، ثم جاء فقال: ما زاده إلا استطلاقاً، فقال رسول الله ﷺ: صدق الله وكذب بطن أخيك اذهب فاسقه عسلاً، فذهب فسقاه عسلاً فبرأ».

لما نكر سبحانه بعض أحوال الحيوان وما فيها من عجائب الصنعة الباهرة، وخصائص القدرة القاهرة، أتبعه بعجائب خلق الإنسان وما فيه من العبر فقال: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾ ولم تكونوا شيئاً ﴿ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ﴾ عند انقضاء آجالكم ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يَرْدُ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمْرِ﴾ يقال: رذل يردل رذالة، والارذل والرذالة اردأ الشيء وألضعه. قال النيسابوري: وأعلم أن العقلاء ضبطوا مراتب عمر الإنسان في أربع: أولها سنّ النشوء، وثانيها سنّ الوقوف، وهو سنّ الشباب، وثالثها سنّ الانحطاط اليسير، وهو سنّ الكهولة، ورابعها سنّ الانحطاط الظاهر، وهو سنّ الشيخوخة؛ قيل: وأردل العمر هو عند أن يصير الإنسان إلى الخرف، وهو أن يصير بمنزلة الصبي الذي لا عقل له؛ وقيل: خمس وسبعون سنة، وقيل: تسعون سنة، ومثل هذه الآية قوله سبحانه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ ثم رددناه أسفل سافلين [التين: 4 - 5] ثم علل سبحانه رد من يرده إلى أردل العمر بقوله: ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ﴾ كان قد حصل له ﴿شَيْئًا﴾ من العلم لا كثيراً ولا قليلاً أو شيئاً من المعلومات إذا كان العلم هنا بمعنى المعلوم، وقيل: المراد بالعلم هنا العقل، وقيل: المراد لئلا يعلم زيادة على علمه الذي قد حصل له قبل ذلك. ثم لما بين سبحانه خلق الإنسان وتقلبه في أطوار العمر نكر طرفاً من أحواله لعله يتذكر عند ذلك فقال: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ فجعلكم متفاوتين فيه فوسع على بعض عباده حتى جعل له من الرزق ما يكفي الوفاً مؤلفاً من بني آدم، وضيقه على بعض عباده حتى صار لا يجد القوت إلا بسؤال الناس والتكفف لهم، وذلك لحكمة بالغة تقصر عقول العباد عن تعقلها والاطلاع على حقيقة أسبابها، وكما جعل التفاوت بين عباده في المال جعله بينهم في العقل والعلم والفهم وقوة البين وضعفه والحسن والقبح والصحة والسقم وغير ذلك من الأحوال، وقيل: معنى الآية: أن الله سبحانه أعطى الموالى أفضل مما أعطى ممالئكم بدليل قوله: ﴿فَمَا الَّذِينَ بَرَأْتِ رَبَّكَ عَلَيْهِمْ رِزْقَهُمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ أي: فما الذين فضلهم الله بسعة الرزق على غيرهم برأيت رزقهم الذي رزقهم الله إياه على ما ملكت أيمانهم من الممالك ﴿فَهُمْ﴾ أي: المالكون والمماليك ﴿فِيهِ﴾ أي: في الرزق ﴿سَوَاءٌ﴾ أي: لا يترؤنه عليهم بحيث يساوونهم، فالفاء على هذا للدلالة على أن التساوي مترتب على الترادف أي: لا يترؤنه عليهم رداً مستتبعاً للتساوي، وإنما يترؤن عليهم منه شيئاً يسيراً، وهذا مثل ضربه الله سبحانه بعبد الأصنام أي: إذا لم يكونوا عبيدكم معكم سواء ولا ترضون بذلك فكيف تجعلون عبيدي معي سواء والحال أن عبيدكم مساوون لكم في البشرية والمخلوقية، فلما لم تجعلوا عبيدكم مشاركين لكم في أموالكم، فكيف تجعلون بعض عباد الله سبحانه شركاء له فتعبدونهم معه، أو كيف تجعلون بعض مخلوقاته كالأصنام شركاء له في العبادة، نكر معنى هذا ابن جرير،

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يَرْدُ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمْرِ لِكَيْ لَا يَمْشِيَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ ذَكِيرٌ ﴿٩٠﴾ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ بَرَأْتِ رَبَّكَ عَلَيْهِمْ رِزْقَهُمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِعَيْنِكَ اللَّهُ يَجْمَعُ رِزْقَكُمْ وَاللَّهُ جَمَعَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩١﴾ وَاللَّهُ جَمَعَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٢﴾ وَبَيْنَ وَحَمْدِهِ وَرِزْقِكُمْ مِنَ اللَّيْلِ نَبَأَ الْبَطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبَيْنَهُمْ اللَّهُ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٩٣﴾ وَيَتَّبِعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٩٤﴾ فَلَا تَقْرَبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَمْشَىٰ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾

بنين، ومن البنين حفدة ﴿ورزقكم من الطيبات﴾ التي تستطيعونها وتستلونها ومن للتعبيض لأن الطيبات لا تكون مجتمعة إلا في الجنة، ثم ختم سبحانه الآية بقوله: ﴿أفبالباطل يؤمنون﴾ والاستفهام للإنكار التوبيخي، والفاء للعطف على مقتر أي: يكفرون بالله فيؤمنون بالباطل، وفي تقدم «الباطل» على الفعل دلالة على أنه ليس لهم إيمان إلا به، والباطل هو اعتقادهم في أصنامهم أنها تضر وتنفع؛ وقيل: الباطل ما زين لهم الشيطان من تحريم البحيرة والسائبة ونحوهما. قرأ الجمهور (يؤمنون) بالتحية، وقرأ أبو بكر بالفوقية على الخطاب ﴿وينعمة الله هم يكفرون﴾ أي: ما أنعم به عليهم مما لا يحيط به حصر، وفي تقديم النعمة وتوسط ضمير الفصل دليل على أن كفرهم مختص بذلك لا يتجاوز له لقصده المبالغة والتأكيد ﴿ويعبون من دون الله﴾ هو معطوف على يكفرون داخل تحت الإنكار التوبيخي إنكاراً منه سبحانه عليهم حيث يعبدون الأصنام، وهي لا تنفع ولا تضر، ولهذا قال ﴿ما لا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض شيئاً﴾ قال الأخفش: إن شيئاً بدل من الرزق. وقال الفراء: هو منصوب بإيقاع الرزق عليه، فجعل رزقاً مصدرأ عاملاً في شيئاً، والأخفش جعله اسماً للرزق؛ وقيل: يجوز أن يكون تأكيداً لقوله: «لا يملك، أي: لا يملك شيئاً من الملك، والمعنى: أن هؤلاء الكفار يعبدون معبودات لا تملك لهم رزقاً أي رزق، ومن السموات والأرض صفة للرزق أي: كائناً منهما، والضمير في ﴿ولا يستطيعون﴾ راجع إلى ما، وجمع جمع العقلاء بناءً على زعمهم الباطل، والفائدة في نفي الاستطاعة عنهم أن من لا يملك شيئاً قد يكون موصوفاً باستطاعة التملك بطريق من الطرق، فبين سبحانه أنها لا تملك ولا تستطيع؛ وقيل: يجوز أن يكون الضمير في يستطيعون للكفار أي: لا يستطيع هؤلاء الكفار مع كونهم أحياء متصرفين، فكيف بالجمادات التي لا حياة لها ولا تستطيع التصرف؟ ثم نهاهم سبحانه عن أن يشبهوه بخلقه، فقال: ﴿فلا تضربوا له الأمثال﴾ فإن ضارب المثل يشبه حالاً بحال وقصة بقصة. قال الزجاج: لا تجعلوا له مثلاً لأنه واحد لا مثل له، وكانوا يقولون: إن إله العالم أجل من أن يعبد الواحد منا، فكانوا يتوسلون إلى الأصنام والكواكب، كما أن أصاغر الناس يخدمون أكابر حضرة الملك، وأولئك الأكابر يخدمون الملك فنهوا عن ذلك، وعلل النهي بقوله: ﴿إن الله﴾ عليم ﴿بعلم﴾ ما عليكم من العبادة ﴿وانتم لا تعلمون﴾ ما في عبادتها من سوء العاقبة، والتعرض لعذاب الله سبحانه، أو أنتم لا تعلمون بشيء من ذلك، وفعلكم هذا هو عن توهم فاسد وخطر باطل وخيال مختل، ويجوز أن يراد فلا تضربوا له الأمثال إن الله يعلم كيف تضرب الأمثال وانتم لا تعلمون ذلك.

وقد أخرج ابن جرير عن علي في قوله: ﴿ومنكم من يرذ إلى أرذل العمر﴾ قال: خمس وسبعون سنة. وأخرج ابن

ومثل هذه الآية قوله سبحانه: ﴿ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم﴾ [الروم: 28] وقيل: إن الفاء في «فهم فيه سواء» بمعنى حتى ﴿أفبينعمة الله تجدون﴾ حيث تفعلون ما تفعلون من الشرك، والنعمة هي كونه سبحانه جعل المالكين مفضلين على المماليك. وقد قرئ (يجحدون) بالتحية والفوقية. قال أبو عبيدة، وأبو حاتم: وقراءة الغيبة أولى لقرب المخبر عنه، ولأنه لو كان خطاباً لكان ظاهره للمسلمين، والاستفهام للإنكار، والفاء للعطف على مقتر أي: يشركون به فيجحدون نعمته، ويكون المعنى على قراءة الخطاب أن المالكين ليسوا برادّي رزقهم على ممالكهم، بل أنا الذي أرزقهم وإياهم فلا يظنوا أنهم يعطونهم شيئاً، وإنما هو رزقي أجريه على أيديهم وهم جميعاً في ذلك سواء لا مزية لهم على ممالكهم، فيكون المعطوف عليه المقتر فعلاً يناسب هذا المعنى، كأن يقال: لا يفهمون ذلك فيجحدون نعمة الله. ثم ذكر سبحانه الحالة الأخرى من أحوال الإنسان فقال: ﴿والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً﴾ قال المفسرون: يعني النساء فإنه خلق حواء من ضلع آدم. أو المعنى: خلق لكم من جنسكم أزواجاً لتستأنسوا بها، لأن الجنس يأنس إلى جنسه ويستوحش من غير جنسه، ويسبب هذه الأنسة يقع بين الرجال والنساء ما هو سبب للنسل الذي هو المقصود بالزواج، ولهذا قال: ﴿وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة﴾ الحفدة جمع حافد، يقال: حفد يحفد حفداً وحفوداً: إذا أسرع، فكل من أسرع في الخدمة فهو حافد، قال أبو عبيدة: الحفد العمل والخدمة. قال الخليل بن أحمد: الحفدة عند العرب الخدم، ومن ذلك قول الشاعر وهو الأعشى:

كلفت مجهولنا نوقا يمانية إذ للحداة على إكتافها حنفوا
أي: الخدم والأعوان. وقال الأزهري: قيل الحفدة أولاد الأولاد، وروي عن ابن عباس، وقيل: الأختان. قاله ابن مسعود، وعلقمة، وأبو الضحى، وسعيد بن جبير، وإبراهيم النخعي، ومنه قول الشاعر:

فلو أن نفسي طلوعتني لأصبحت لها حفد مما تعد كثير
ولكنها نفس علي أبية عيوف لأصهار اللثام قنور

وقيل: الحفدة الأصهار. قال الأصمعي: الختن من كان من قبل المرأة كابنتها وأخيها وما أشبههما، والأصهار منهما جميعاً، يقال: أصهر فلان إلى بني فلان وصاهر؛ وقيل: هم أولاد امرأة الرجل من غيره، وقيل: الأولاد الذين يخدمونه؛ وقيل: البنات الخادמות لآبائهن. ورجح كثير من العلماء أنهم أولاد الأولاد، لأنه سبحانه امتن على عباده بأن جعل لهم من الأزواج بنين وحفدة، فالحفدة في الظاهر معطوفون على البنين، وإن كان يجوز أن يكون المعنى: جعل لكم من أزواجكم بنين وجعل لكم حفدة، ولكن لا يمتنع على هذا المعنى الظاهر أن يراد بالبنين من لا يخدم، وبالحفدة من يخدم الأب منهم، أو يراد بالحفدة البنات فقط، ولا يفيد أنهم أولاد الأولاد إلا إذا كان تقدير الآية: وجعل لكم من أزواجكم

اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٦﴾ وَاللَّهُ أَفْرَجَكُمْ مِنْ ظُلُمِ أَنْهَاجِكُمْ لَا تَقْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَكُمْ ثَنُوكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْكَبِيرِ سُخَّرَتْ فِي جَوْ السَّمْعِ مَا يُسَكِّنُ إِلَّا اللَّهُ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٨﴾

قوله: ﴿ضرب الله مثلاً﴾ لما قال سبحانه إن الله يعلم أي: بالمعلومات التي من جملتها كيف يضرب الأمثال وأنتم لا تعلمون؟ علمهم سبحانه كيف تضرب الأمثال فقال: ضرب الله مثلاً أي: نكر شيئاً يستدل به على تباين الحال بين جناب الخالق سبحانه، وبين ما جعلوه شريكاً له من الأصنام، ثم نكر ذلك فقال: ﴿عبداً مملوكاً﴾ والمثل في الحقيقة هي حالة للعبد عارضة له، وهي المملوكية والعجز عن التصرف، فقلوه: ﴿عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء﴾ تفسير للمثل وبدل منه، ووصفه بكونه مملوكاً لأن العبد والحر مشتركان في كون كل واحد منهما عبد الله سبحانه، ووصفه بكونه لا يقدر على شيء لأن المكاتب والمأذون يقدران على بعض التصرفات. فهذا الوصف لتمييزه عنهما ﴿ومن رزقناه﴾ من هي الموصولة، وهي معطوفة على عبداً أي: والذي رزقناه ﴿منها﴾ أي: من جهتنا ﴿رزقاً حسناً﴾ من الأحرار الذين يملكون الأموال ويتصرفون بها كيف شاءوا، والمراد بكون الرزق حسناً أنه مما يحسن في عيون الناس، لكونه رزقاً كثيراً مشتملاً على أشياء مستحسنة نفيسة تروق الناظرين إليها. والفاء في قوله: ﴿فهو ينفق منه﴾ لترتيب الإنفاق على الرزق أي: ينفق منه في وجوه الخير ويصرف منه إلى أنواع البر والمعروف، وانتصاب ﴿سراً وجهرًا﴾ على الحال أي: ينفق منه في حال السرّ وحال الجهر؛ والمراد بيان عموم الإنفاق للآوقات، وتقديم السرّ على الجهر مشعر بفضيلته عليه، وأن الثواب فيه أكثر؛ وقيل: إن «من» في ﴿ومن رزقناه﴾ موصوفة كانه قيل: وحرّاً رزقناه ليطابق عبداً ﴿هل يستون﴾ أي: الحرّ والعبد الموصوفان بالصفات المتقدمة، وجمع الضمير لمكان من، لأنه اسم مبهم يستوي فيه الواحد والاثنان والجمع والمذكر والمؤنث؛ وقيل: إنه أريد بالعبد والموصول الذي هو عبارة عن الحرّ الجنس؛ أي من اتصف بتلك الأوصاف من الجنسين، والاستفهام للإنكار أي: هل يستوي العبيد والأحرار الموصوفون بتلك الصفات مع كون كلا الفريقين مخلوقين لله سبحانه من جملة البشر، ومن المعلوم أنهم لا يستون عندهم، فكيف يجعلون لله سبحانه شركاء لا يملكون لهم ضرراً ولا نفعاً، ويجعلونهم مستحقين للعبادة مع الله سبحانه؟ وحاصل المعنى: أنه كما لا يستوي عندهم عبد مملوك لا يقدر من أمره على شيء ورجل حرّ قد رزقه الله رزقاً حسناً فهو ينفق منه، كذلك لا يستوي الربّ الخالق الرائق والجمادات من الأصنام التي تعبدها وهي لا تبصر ولا تسمع ولا تضرّ ولا تنفع؛ وقيل: المراد بالعبد المملوك في الآية هو الكافر المحروم من طاعة الله وعبوديته، والآخر

أبي حاتم عن السدي قال: هو الخرف. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عكرمة قال: من قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر، ثم قرأ ﴿لنكسلا يعلم بعد علم شيئاً﴾. وأخرج ابن أبي شيبة عن طاوس قال: العالم لا يخرف. وقد ثبت عنه ﷺ في الصحيح وغيره أنه كان يتعوذ بالله أن يرد إلى أرذل العمر. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿والله فضل بعضكم على بعض في الرزق﴾ قال: لم يكونوا ليشاركوا عبيدهم في أموالهم ونسائهم فكيف يشاركون عبيدي معي في سلطاني. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في الآية قال: هذا مثل لآلهة الباطل مع الله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً﴾ قال: خلق آدم، ثم خلق زوجته منه. وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، والبخاري في تاريخه، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه عن ابن مسعود في قوله: ﴿بنين وحفدة﴾ قال: الحفدة الاختان. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: الحفدة الأصهار، وأخرج عنه قال: الحفدة الولد وولد الولد. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: الحفدة بنو البنين. وأخرج ابن جرير، عن أبي جمره قال: سئل ابن عباس عن قوله: ﴿بنين وحفدة﴾ قال: من أعانك فقد حلفك، أما سمعت الشاعر يقول:

حدف الولائد حولهنّ وأسلمت بكفهنّ أزمة الأجمال
وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: الحفدة بنو امرأة الرجل ليسوا منه. وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة ﴿انقلب الباطل يؤمنون﴾ قال: الشرك. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال: هو الشيطان ﴿ويضعه الله﴾ قال: محمد. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿ويعبدون من دون الله﴾ الآية قال: هذه الأوثان التي تعبد من دون الله لا تملك لمن يعبدها ﴿ورزقاً من السموات والأرض﴾ ولا خيراً ولا حياة ولا نشوراً ﴿فلا تضربوا لله الأمثال﴾ فإنه أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله سبحانه: ﴿فلا تضربوا لله الأمثال﴾ يعني: اتخاذهم الأصنام، يقول: لا تجعلوا معي إلهاً غيري، فإنه لا إله غيري.

﴿ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ومن رزقناه رزقاً حسناً فهو ينفق منه سرّاً وجهرًا هل يستون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون﴾ ﴿وضرب الله مثلاً رجلين لهما حصصا أبهما لا يقدر على شيء وهو كلٌّ عن مولاهما أيضاً يوجهه لا يأتي بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم﴾ ﴿وقو عبث السوء والذين وما أمر الساعوا إلا لفتح البصر أو هو أقرب﴾

هذين المذكورين على امتناع التساوي بينه سبحانه وبين ما يجعلونه شريكاً له. ولما فرغ سبحانه من ذكر المثليين مدح نفسه بقوله: ﴿وَلَا يَغِيبُ لِّلْمُتَّقِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: يختص ذلك به لا يشاركه فيه غيره ولا يستقل به، والمراد علم ما غاب عن العباد فيهما، أو أراد بغيبيهما يوم القيامة لأن علمه غائب عن العباد، ومعنى الإضافة إليهما التعلق بهما. والمعنى: التوبيخ للمشركين والتقريع لهم أي: أن العبادة إنما يستحقها من كانت هذه صفته لا من كان جاهلاً عاجزاً لا يضُر ولا ينفع ولا يعلم بشيء من أنواع العلم ﴿وَمَا أَمَرَ السَّاعَةَ﴾ التي هي أعظم ما وقعت فيه المماراة من الغيوب المختصة به سبحانه ﴿إِلَّا كَلِمَاحَ الْبَصَرِ﴾ اللّمع النظر بسرعة، ولا بد فيه من زمان تنقلب فيه الحدة نحو المرئي وكل زمان قابل للتجزئة، ولذا قال: ﴿لَوْ هُوَ﴾ أي: أمرهما ﴿قَرِيبٌ﴾ وليس هذا من قبيل المبالغة، بل هو كلام في غاية الصق، لأن مدة ما بين الخطاب وقيام الساعة متناهية، ومنها إلى الأبد غير متناه، ولا نسبة للمتناهي إلى غير المتناهي؛ أو يقال: إن الساعة لما كانت آتية ولا بد جعلت من القرب كلمح البصر. وقال الزجاج: لم يرد أن الساعة تأتي في لمح البصر، وإنما وصف سرعة القدرة على الإتيان بها، لأنه يقول للشيء كن فيكون، وقيل: المعنى هي عند الله كذلك وإن لم تكن عند المخلوقين بهذه الصفة، ومثله قوله سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَنَرَاهُ قَرِيباً﴾ [المعارج: 6 - 7]. ولفظ أو في «أو هو أقرب» ليس للشك بل للتمثيل؛ وقيل: دخلت لشك المخاطب، وقيل: هي بمنزلة بل ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومجيء الساعة بسرعة من جملة مقدراته. ثم إنه سبحانه ذكر حالة أخرى للإنسان دالة على غاية قدرته ونهاية راقته فقال: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بَطُونِ أَمْهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً﴾ وهذا مطوف على قوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً﴾ منتظم معه في سلك أدلة التوحيد أي: أخرجكم من بطون أمهاتكم أطفالاً لا علم لكم بشيء، وجملة لا تعلمون شيئاً في محل نصب على الحال، وقيل: المراد لا تعلمون شيئاً مما أخذ عليكم من الميثاق، وقيل: لا تعلمون شيئاً مما قضي به عليكم من السعادة والشقاوة، وقيل: لا تعلمون شيئاً من منافعكم والأولى التعميم لتشمل الآية هذه الأمور وغيرها اعتباراً بعموم اللفظ، فإن شيئاً نكرة واقعة في سياق النفي. وقرأ الأعمش، وابن وثاب، وحزمة (أمهاتكم) بكسر الهمزة والميم هنا، وفي النور والزمر والنجم. وقرأ الكسائي بكسر الهمزة وفتح الميم. وقرأ الباقر بضم الهمزة وفتح الميم ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ أي: ركب فيكم هذه الأشياء، وهو معطوف على أخرجكم، وليس فيه دلالة على تأخير هذا الجعل عن الإخراج لما أن ملول الواو هو مطلق الجمع. والمعنى: جعل لكم هذه الأشياء لتحصلوا بها العلم الذي كان مسلوباً عنكم عند إخراجكم من بطون أمهاتكم وتعلموا بموجب ذلك العلم من شكر المنعم وعبادته والقيام بحقوقه،

هو المؤمن؛ والغرض أنهما لا يستويان في الرتبة والشرف، وقيل: العبد هو الصنم، والثاني عبد الصنم، والمراد أنهما لا يستويان في القدرة والتصرف، لأن الأول جماد، والثاني إنسان ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: الحمد لله كله، لأنه المنعم لا يستحق غيره من العباد شيئاً منه، فكيف تستحق الأصنام منه شيئاً ولا نعمة منها أصلاً لا بالأصالة ولا بالتوسط؛ وقيل: أراد الحمد لله على ما أنعم به على أوليائه من نعمة التوحيد؛ وقيل: أراد قل الحمد لله، والخطاب إما لمحمد ﷺ أو لمن رزقه الله رزقاً حسناً، وقيل: إنه لما ذكر مثلاً مطابقاً للغرض كاشفاً عن المقصود قال: الحمد لله أي: على قوة هذه الحجة ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك حتى يعينوا من تحقق له العبادة ويعرفوا المنعم عليهم بالنعمة الجليلة، ونفي العلم عنهم إما لكونهم من الجهل بمنزلة لا يفهمون بسببها ما يجب عليهم، أو هم يتركون الحق عناداً مع علمهم به فكانوا كمن لا علم له، وخص الأكثر بنفي العلم: إما لكونه يريد الخلق جميعاً، وأكثرهم المشركون، أو ذكر الأكثر وهو يريد الكل، أو المراد أكثر المشركين، لأن فيهم من يعلم ولا يعمل بموجب العلم. ثم ذكر سبحانه مثلاً ثانياً ضربه لنفسه، ولما يفيض على عباده من النعم اللينة والذنيوية، وللأصنام التي هي أموات لا تضر ولا تنفع فقال: ﴿وَضُرِبَ اللَّهُ مِثْلًا﴾ أي: مثلاً آخر أوضح مما قبله وأظهر منه، و﴿رَجُلَيْنِ﴾ بدل من مثل وتفسير له، والأبكم العبي المفعم؛ وقيل: هو الأقطع للسان الذي لا يحسن الكلام، وروى ثعلب عن ابن الأعرابي أنه الذي لا يسمع ولا يبصر، ثم وصف الأبكم فقال: ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ من الأشياء المتعلقة بنفسه أو بغيره لعدم فهمه وعدم قدرته على النطق، ومعنى ﴿كُلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ﴾ ثقيل على وليه وقرباته وعيال على من يلي أمره ويعوله ووبال على إخوانه، وقد يسمى اليتيم كلا لنقله على من يكفله، ومنه قول الشاعر:

أقول لمال الكل قبل شبابه إذا كان عظم الكل غير شديد
وفي هذا بيان لعدم قدرته على إقامة مصالح نفسه بعد ذكر عدم قدرته على شيء مطلقاً، ثم وصفه بصفة رابعة فقال: ﴿إِنَّمَا يُوْجِهُهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ أي: إذا وجهه إلى أي جهة لا يأت بخير قط. لأنه لا يفهم ولا يعقل ما يقال له ولا يمكنه أن يقول. وقرأ يحيى بن وثاب (إنما يوجه) على البناء للمجهول، وقرأ ابن مسعود (إنما توجه) على صيغة الماضي ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ﴾ في نفسه مع هذه الأوصاف التي اتصف بها ﴿وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ أي: يأمر الناس بالعدل مع كونه في نفسه ينطق بما يريد النطق به ويفهم. ويقدر على التصرف في الأشياء ﴿وَهُوَ﴾ في نفسه ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ على دين قويم وسيرة صالحة ليس فيه ميل إلى أحد جانبي الإفراط والتفريط، قابل أوصاف الأول بهذين الوصفين المذكورين للأخر، لأن حاصل أوصاف الأول عدم استحقاقه لشيء، وحاصل وصفي هذا أنه مستحق أكمل استحقاق، والمقصود الاستدلال بعدم تساوي

رجلين ﴿الآية في عثمان بن عفان ومولى له كافر، وهو أسيد بن أبي العيص كان يكره الإسلام، وكان عثمان ينفق عليه ويكفله ويكفيه المؤنة، وكان الآخر ينهأه عن الصدقة والمعروف، فنزلت فيهما. وأخرج ابن سعد، وابن أبي شيبه، والبخاري في تاريخه، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والضياء في المختارة عنه أيضاً في قوله: ﴿ومن يامر بالعدل﴾ قال: عثمان بن عفان. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿كل﴾ قال: الكل العيال، كانوا إذا ارتحلوا حملوه على بعير نلول، وجعلوا معه نفراً يسكونه خشية أن يسقط عليهم، فهو عناء وعذاب وغيال عليهم ﴿هل يستوي هو ومن يامر بالعدل وهو على صراط مستقيم﴾ يعني: نفسه. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وما أمر الساعة إلا كلمح البصر﴾ هو أن يقول: كن فهو كلمح البصر ﴿أو هو أقرب﴾ فالساعة كلمح البصر أو هي أقرب. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله: ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم﴾ قال: من الرحم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿في جو السماء﴾ أي: في كبد السماء.

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ اقْنَعِكُمْ وَأَوْسَاظَهَا وَأَسْعَاهَا إِنَّ اللَّهَ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَبْكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَبْكُمُ بِالْأَسْخِ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨١﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٨٢﴾ يَرْفُؤْنَ نَمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُحِزُّوْنَهَا وَأَكْثَرَهُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨٣﴾

قوله: ﴿والله جعل لكم﴾ معطوف على ما قبله وهذا المذكور من جملة أحوال الإنسان، ومن تعديد نعم الله عليه، والسكن مصدر يوصف به الواحد والجمع، وهو بمعنى مسكون أي: تسكنون فيها وتهبوا جوارحكم من الحركة. وهذه نعمة، فإن الله سبحانه لو شاء لخلق العبد مضطرباً دائماً كالافلاك، ولو شاء لخلقها ساكناً أبداً كالارض ﴿وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً﴾ لما ذكر سبحانه بيوت المدن، وهي التي للإقامة الطويلة عقبها بذكر بيوت البادية والرحلة أي: جعل لكم من جلود الأنعام، وهي الأنطاع والامم بيوتاً كالخيام والقباب ﴿تستخفونها﴾ أي: يخف عليكم حملها في الأسفار وغيرها، ولهذا قال: ﴿يوم ظعنكم﴾ والظعن بفتح العين وسكونها، وقرئ بهما: سير أهل البادية للانتجاع والتحول من موضع إلى موضع، ومنه قول عنتره:

ظعن الذين فراقهم اتوقع وجرى ببيتهم الغراب الأبقع
والظعن اليهودج أيضاً ﴿ومن اصوافها وأوبارها وأشعارها اثناً﴾ معطوف على «جعل» أي: وجعل لكم من اصواف الأنعام وأوبارها وأشعارها، والأنعام تعم الإبل والبقر والغنم كما تقدم، والاصواف للغنم، والأوبار للإبل،

والأفئدة جمع فؤاد، وهو وسط القلب منزل منه بمنزلة القلب من الصدر، وقد قُتِمَا الوجه في أفراد السمع وجمع الأبصار والأفئدة، وهو أن أفراد السمع لكونه مصدرًا في الأصل يتناول القليل والكثير ﴿لعلكم تشكرون﴾ أي: لكي تصرفوا كل آلة فيما خلقت له، فعند ذلك تعرفون مقدار ما أنعم الله به عليكم فتشكرونه، أو أن هذا الصرف هو نفس الشكر. ثم نكر سبحانه لئلا آخر على كمال قدرته، فقال: ﴿الم يروا إلى الطير مسخرات﴾ أي: الم ينظروا إليها حال كونها مسخرات أي: مثللات للطيران بما خلق الله لها من الاجنحة وسائر الأسباب المواتية لذلك كرقعة قوام الهواء وإلهامها بسط الجناح وقبضه كما يفعل السابح في الماء ﴿في جو السماء﴾ أي: في الهواء المتباعد من الأرض في سمت العلو، وإضافته إلى السماء لكونه في جانبها ﴿ما يمسكن﴾ في الجو ﴿إلا الله﴾ سبحانه بقدرته الباهرة، فإن ثقل أجسامها ورقة قوام الهواء يقتضيان سقوطها، لأنها لم تتعلق بشيء من فوقها ولا اعتمدت على شيء تحتها. وقرأ يحيى بن وثاب، والأعمش، وابن عامر، وحزمة، ويعقوب (الم تروا) بالفوقية على الخطاب، واختار هذه القراءة أبو عبيد. وقرأ الباقون بالتحتيه ﴿إن في ذلك لآيات﴾ أي: إن في ذلك التسخير على تلك الصفة آيات ظاهرات تدل على وحدانية الله سبحانه وقدرته الباهرة ﴿للقوم يؤمنون﴾ بالله سبحانه وبما جاءت به رسله من الشرائع التي شرعها الله.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً﴾ الآية قال: يعني الكافر أنه لا يستطيع أن ينفق نفقة في سبيل الله ﴿ومن رزقناه منا رزقاً حسناً﴾ الآية قال: يعني المؤمن وهذا المثل في النفقة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم نحوه باطول منه. وأخرج ابن أبي شيبه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في الآية، وفي قوله: ﴿مثلاً رجلين أحدهما أبكم﴾ قال: كل هذا مثل إله الحق وما تدعون من بونه الباطل. وأخرج ابن المنذر من طريق ابن جريج عن ابن عباس قال: في المثل الأول يعني بذلك الأكلة التي لا تملك ضرراً ولا نفعاً ولا تقدر على شيء يتفعا ﴿ومن رزقناه منا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سرّاً وجهراً﴾ قال: علانية الذي ينفق سرّاً وجهراً. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم وابن مردويه، وابن عساكر عنه قال: نزلت هذه الآية ﴿ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً﴾ في رجل من قريش وعبدته بن هشام بن عمرو، وهو الذي ينفق سرّاً وجهراً، وفي عبدة أبي الجوزاء الذي كان ينهأه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم﴾ الآية قال: يعني بالابكم الذي هو كل على مولاه الكافر ﴿ومن يامر بالعدل﴾ المؤمن، وهذا المثل في الأعمال. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وابن عساكر عنه أيضاً قال: نزلت هذه الآية ﴿وضرب الله مثلاً

الجراح، وقيل: الخطاب لأهل مكة أي: لعلمكم يا أهل مكة تخلصون لله الربوبية، والأولى للحمل على العموم، وإفراد النعمة هنا لأن المراد بها المصدر ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ أي: إن تولوا عنك ولم يقبلوا ما جئت به فقد تمهد عنك، فإنما عليك البلاغ لما أرسلت به إليهم المبين أي: الواضح، وليس عليك غير ذلك، وصرف الخطاب إلى رسول الله ﷺ تسلياً له، وجملة ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يَنْكُرُونَهَا﴾ استئناف لبيان توليهم أي: هم يعرفون نعمة الله التي عندها، ويعترفون بانها من عند الله سبحانه ثم ينكرونها بما يقع من أفعالهم القبيحة من عبادة غير الله ويقولون الباطلة، حيث يقولون: هي من الله ولكنها بشفاعة الأصنام، وحيث يقولون: إنهم ورثوا تلك النعم من آبائهم، وايضاً كونهم لا يستعملون هذه النعم في مرضاة الرب سبحانه، وفي وجوه الخير التي أمرهم الله بصرفها فيها؛ وقيل: نعمة الله نبوة محمد ﷺ كانوا يعرفونها ثم ينكرون نبوته ﴿وَكَثَرَهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ أي: الجاحلون لنعم الله أو الكافرون بالله، وعبر هنا بالكثرة عن الكل، أو أراد بالكثرة العقلاء نون الأطفال ونحوهم، أو أراد كفر الجحود ولم يكن كفر كلهم كذلك، بل كان كفر بعضهم كفر جهل، وكفر بعضهم بسبب تكذيب الرسول ﷺ مع اعترافهم بالله وعدم الجحد لربوبيته، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: 14].

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد سكتا قال: تسكتون فيها. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي نحوه قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتاً﴾ وهي خيام العرب ﴿تَسْتَخَفُونَهَا﴾ يقول: في الحمل ﴿وَمَتَاعاً﴾ يقول بلاغاً ﴿إِلَى حِينٍ﴾ قال: إلى الموت. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿تَسْتَخَفُونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ قال: بعض بيوت السيارة بنيانه في ساعة، وفي قوله: ﴿وَأَوْبَارَهَا﴾ قال: الإبل ﴿وَأَشْعَارَهَا﴾ قال: الغنم. وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿ثَانِثاً﴾ قال: الاثاث المتاع. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال: الاثاث المال ﴿وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ﴾ يقول: تنتفعون به إلى حين. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالاً﴾ قال: من الشجر ومن غيرها ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً﴾ قال: غارات يسكن فيها ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سُرَابِيلَ تَقِيَكُمُ الْحَرَّ﴾ قال: غارات يسكن فيها ﴿وَأَوْبَارَهَا﴾ قال: يعني الثياب، ﴿وَسُرَابِيلَ تَقِيَكُمُ بِالْحَرِّ﴾ قال: يعني الدروع والسلاح ﴿كَذَلِكَ يَتَمَنَّاهُ﴾ يعني: من الجراحات، وكان

والأشعار للمعز، وهي من جملة الغنم، فيكون نكر هذه الثلاثة على وجه التثنية كل واحد منها لواحد من الثلاثة، أعني: الإبل، ونوعي الغنم، والاثاث متاع البيت، وأصله الكثرة والاجتماع، ومنه شعر أثيث أي: كثير مجتمع، قال الشاعر: وفرع يزين لمتن أسود فاحم أثيث كقنو النخلة المتعطل قال الخليل اثاثاً أي: منضماً بعضه إلى بعض، من أث إذا أكثر، قال الفراء: لا واحد له، والمتاع: ما يتمتع به بأنواع التمتع، وعلى قول أبي زيد الأنصاري: إن الاثاث المال أجمع: الإبل والغنم والعبيد والمتاع، يكون عطف المتاع على الاثاث من عطف الخاص على العام، وقيل: إن الاثاث ما يكتسبه به الإنسان ويستعمله من الطعام والوطاء، والمتاع ما يفرش في المنازل ويتزين به، ومعنى ﴿إِلَى حِينٍ﴾ إلى أن تقضوا أوطاركم منه، أو إلى أن يبلى ويفنى، أو إلى الموت، أو إلى القيامة، ثم لما كان الإنسان قد لا يكون له خيام، أو ابنية يستظل بها لفقر، أو لعارض آخر فيحتاج إلى أن يستظل بشجر أو جدار أو غمام أو نحو ذلك نبه سبحانه على ذلك فقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالاً﴾ أي: أشياء تستظلون بها كالأشياء المنكورة، والحاصل أن الظلال تعم الأشياء التي تظل، ثم لما كان المسافر قد يحتاج إلى ركن يأوي إليه في نزوله، وإلى ما يدفع به عن نفسه آفات الحر والبرد، نبه سبحانه على ذلك فقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً﴾ وهي جمع كن: وهو ما يستكن به من المطر، وهي هنا الغيران في الجبال، جعلها الله سبحانه عدة للخلق يأوون إليها ويتحصنون بها ويعتزلون عن الخلق فيها ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سُرَابِيلَ﴾ جمع سربال، وهي القمصان والثياب من الصوف والقطن والكتان وغيرها. قال الزجاج: كل ما لبسته فهو سربال. ومعنى ﴿تَقِيَكُمُ الْحَرَّ﴾ تدفع عنكم ضرر الحر، وخص الحر ولم يذكر البرد لكتفاء بذكر أحد الضدين عن ذكر الآخر، لأن ما وقى من الحر وقى من البرد. ووجه تخصيص الحر بالذكر أن الوقاية منه كانت أهم عندهم من الوقاية من البرد لغلبة الحر في بلادهم ﴿وَسُرَابِيلَ تَقِيَكُمُ بِالْحَرِّ﴾ وهي الدروع والجواشن يتقون بها الطعن والضرب والرمي. والمعنى: لأنها تقيم لباس الذي يصل من بعضهم إلى بعض في الحرب ﴿كَذَلِكَ يَتَمَنَّاهُ نِعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: مثل ذلك الإتمام البالغ يتم نعمته عليكم، فإنه سبحانه قد من على عباده بصنوف النعم المنكورة ما هنا وبغيرها، وهو بفضل وإحسانه سيتم لهم نعمة الدين والدنيا ﴿لَعَلَّكُمْ تَسْلُمُونَ﴾ إرادة أن تسلموا، فإن من أمعن النظر في هذه النعم لم يسعه إلا الإسلام والانقياد للحق. وقرأ ابن محيصن، وحמיד (تتم نعمته) بتاءين فوقيتين على أن فاعله نعمته، وقرأ الباقر بالتحتية على أن الفاعل هو الله سبحانه. وقرأ ابن عباس، وعكرمة (تسلمون) بفتح لقاء واللام من السلامة من الجراح، وقرأ الباقر بضم لاء وكسر اللام من الإسلام. قال أبو عبيد: والاختيار قراءة العامة، لأن ما أنعم الله به علينا من الإسلام أفضل مما أنعم به من السلامة من

ابن عباس يقرؤها تسلمون كما قلّمنا، وإسناده ضعيف.

وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٤٥﴾ وَإِنَّا رَمَا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّا رَمَا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَلْقَا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّجْدَ وَسَجَلَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّقُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ يَذَنَّبُهُمْ عَذَابًا قَوَّ الْعَذَابَ بِمَا كَانُوا يُعِيدُونَ ﴿٤٩﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَرَجَسْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَرَزَقْنَاكَ عَلَى الْكِتَابِ بَيِّنَاتٍ لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ بِأَمْرٍ أَلَمْدَلِ وَالْإِنْسَانُ لِرَبِّهِ زَى الْقُرْفِ وَنَعَنَ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَنْظُرُكُمْ لَمَّا كُنْتُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾

لما بين سبحانه من حال هؤلاء أنهم عرفوا نعمة الله ثم أنكروها، وإن أكثرهم كافرون أتبعه بأصناف وعيد يوم القيامة، فقال: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ أي: وإنك يوم نبعث، أو يوم نبعث وقعوا فيما وقعوا فيه، وشهيد كل أمة نبيها يشهد لهم بالإيمان والتصديق، وعليهم بالكفر والجحود والتكذيب ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: في الاعتذار، إذ لا حجة لهم ولا عذر كقوله سبحانه: ﴿لَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: 36] أو في كثرة الكلام، أو في الرجوع إلى دار الدنيا، وإيراد ثم ها هنا للدلالة على أن ابتلاءهم بالمنع عن الاعتذار المنبئ عن الإقنات الكلي أشد من ابتلائهم بشهادة الأنبياء ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ لأن العتاب إنما يطلب لأجل العود إلى الرضا، فإذا كان على عزم السخط فلا فائدة في العتاب. والمعنى: أنهم لا يسترضون أي: لا يكلفون أن يرضوا ربهم، لأن الآخرة ليست بدار تكليف، ولا يتركون إلى رجوع الدنيا فيتوبون، وأصل الكلمة من العتب وهو الموجد، يقال: عتب عليه يعتب إذا وجد عليه، فإذا أقاض عليه ما عتب فيه عليه قيل: عاتبه، فإذا رجع إلى مسرته قيل: أعتبه، والاسم العتبي، وهو رجوع المعتوب عليه إلى ما يرضي العاتب قاله الهروي، ومنه قول النابغة:

فإن كنت مظلوماً فعبداً ظلّمته وإن كنت ذا عتبي فمعتباً يعتب
﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ﴾ أي: وإذا رأى الذين أشركوا العذاب الذي يستحقونه بشركتهم، وهو عذاب جهنم ﴿فَلَا يُخَفَّفُ﴾ ذلك العذاب ﴿عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي: ولا هم يمهلون ليتوبوا إذ لا توبة هنالك ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ﴾ أي: لصنامهم وأوثانهم التي عبدوها، لما تقرّر من أنهم يبعثون مع المشركين ليقال لهم من كان يعبد شيئاً فليتبّع، كما ثبت في الصحيح من قوله ﷺ: ﴿قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ﴾ أي: الذين كنا نعبدهم من دونك. قال أبو مسلم الأصفهاني: مقصود المشركين بهذا القول إحالة الذنب على تلك الأصنام

تعللاً بذلك واسترواحاً مع كونهم يعلمون أن العذاب واقع بهم لا محالة، ولكن الغريق يتعلق بكل ما تقع يده عليه ﴿فَالْقَوْلُ إِلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أي: ألقى أولئك الأصنام والأوثان والشياطين ونحوهم إلى المشركين القول ﴿إِنَّكُمْ لَكَانِبُونَ﴾ أي قالوا لهم: إنكم أيها المشركون لكانبون فيما تزعمون من إحالة الذنب علينا الذي هو مقصوبكم من هذا القول. فإن قيل: إن المشركين أشاروا إلى الأصنام ونحوها أن هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك، وقد كانوا صادقين في ذلك، فكيف كذبتهم الأصنام ونحوها؟ فالجواب بأن مرادهم من قولهم هؤلاء شركاؤنا، هؤلاء شركاء الله في المعبودية، فكذبتهم الأصنام في دعوى هذه الشراكة، والأصنام والأوثان وإن كانت لا تقدر على النطق فإن الله سبحانه ينطقها في تلك الحال لتخجيل المشركين وتوبيخهم، وهذا كما قالت الملائكة ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ [سبا: 41]. يعنون أن الجِنَّ هم الذين كانوا راضين بعبادتهم ثم ﴿وَالْقَوْلُ إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّجْدَ﴾ أي: ألقى المشركون يوم القيامة الاستسلام والانقياد لعذابه والخضوع لعزته، وقيل: استسلم العابد والمعبود وانقادوا لحكمه فيهم ﴿وَوَضَّلَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: ضاع وبطل ما كانوا يفترونه من أن الله سبحانه شركاء وما كانوا يزعمون من شفاعتهم لهم، وإن عبادتهم لهم تقربهم إلى الله سبحانه: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في أنفسهم ﴿وَوَضَّلُوا﴾ غيرهم ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: عن طريق الحق، وهي طريق الإسلام والإيمان بأن منعهم من سلوكها وحملهم على الكفر؛ وقيل: المراد بالصد عن سبيل الله: الصد عن المسجد الحرام، والأولى العموم. ثم أخبر عن هؤلاء الذين صنعوا هذا الصنع بقوله: ﴿وَرَبَّنَا هُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ أي: زأدهم الله عذاباً لأجل الإضلال لغيرهم فوق العذاب الذي استحقوه لأجل ضلالهم؛ وقيل: المعنى زنا القادة عذاباً فوق عذاب أتباعهم أي: أشد منه؛ وقيل: إن هذه الزيادة هي إخراجهم من النار إلى الزمهرير، وقيل غير ذلك ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ﴾ أي: نبياً يشهد عليهم ﴿مَنْ أَنْفَسَهُمْ﴾ من جنسهم، إتماماً للحجة وقطعاً للمعذرة، وهذا تكرير لما سبق لقصد التأكيد والتهديد ﴿وَجِئْنَا بِكَ يَا مُحَمَّدٌ شَهِيداً عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ أي: تشهد على هذه الأمم وتشهد لهم؛ وقيل: على أمك، وقد تقدّم مثل هذا في البقرة والنساء ﴿وَوَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ أي: القرآن، والجملة مستأنفة أو في محل نصب على الحال بتقدير قد ﴿تَبَيَّنَا لَكُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: بيانا له، والتاء للمبالغة، ونظيره من المصادر التلقاء، ولم يأت غيرهما. ومثل هذه الآية قوله سبحانه: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 38]. ومعنى كونه تبيناً لكل شيء أن فيه البيان لكثير من الأحكام، والإحالة فيما بقي منها على السنة، وأمرهم باتباع رسوله ﷺ فيما يأتي به من الأحكام، وطاعته كما في الآيات القرآنية الدالة على ذلك، وقد صح عنه ﷺ أنه قال: «إني أوتيت القرآن ومثله معه» ﴿وَهَذِي﴾ للعباد ﴿وَرَحْمَةً﴾ لهم

أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ قال: شهيدها نبيها على أنه قد بلغ رسالات ربه، قال الله ﴿وَجَعَلْنَا بَكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ قال: نكر لنا أن نبي الله ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية فاضت عيناه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿فَلَقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ﴾ قال: حثوهم. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج ﴿وَلَقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ﴾ قال: استسلموا. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة نحوه. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وهناد بن السري، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، والبيهقي في البعث والنشور عن ابن مسعود في قوله: ﴿زَيْنَاهُمْ عَذَابٌ فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ قال: زيدوا عقارب لها أنياب كالنخل الطوال. وأخرج ابن مريويه والخطيب عن البراء: «أن النبي ﷺ سئل عن قول الله تعالى: ﴿زَيْنَاهُمْ عَذَابٌ فَوْقَ الْعَذَابِ﴾، فقال: عقارب أمثال النخل الطوال ينشرونهم في جهنم». وأخرج أبو يعلى، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿زَيْنَاهُمْ عَذَابٌ فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ قال: خمسة أنهار من نار صيها الله عليهم يعذبون ببعضها بالليل، وبعضها بالنهار، وقد روى ابن مريويه من حديث جابر عن النبي ﷺ قال: «الزيادة خمسة أنهار تجري من تحت العرش على رؤوس أهل النار: ثلاثة أنهار على مقدار الليل، ونهران على مقدار النهار» فلذلك قوله: ﴿زَيْنَاهُمْ عَذَابٌ فَوْقَ الْعَذَابِ﴾. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال: إن الله أنزل في هذا الكتاب تبياناً لكل شيء، ولكن علمنا يقصر عما بين لنا في القرآن، ثم قرأ ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن الضريس في فضائل القرآن، ومحمد بن نصر في كتاب الصلاة، والطبراني والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود قال: من أراد العلم فليثور القرآن، فإن فيه علم الأولين والآخرين. وأخرج أحمد عن عثمان بن أبي العاص قال: «كنت عند رسول الله ﷺ جالساً إذ شخص بصره فقال: اتاني جبريل فأمروني أن أضع هذه الآية بهذا الموضع من السورة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ الآية». وفي إسناده شهر بن حوشب. وقال ابن كثير في تفسيره: إسناده لا بأس به. وقد أخرجه مطولاً أحمد، والبخاري في الألب، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مريويه من حديث ابن عباس. وحسن ابن كثير إسناده. وأخرج الباوردي، وابن السكن، وابن منده، وأبو نعيم في معرفة الصحابة عن عبد الملك بن عمير أن هذه الآية لما بلغت أكتف بن صيفي حكيم العرب قال: إني أراه يأمر بمكارم الأخلاق وينهى عن ملامتها، ثم قال لقومه: كونوا في هذا الأمر رؤوساً ولا تكونوا فيه أثنا، وكونوا فيه أولاً ولا تكونوا فيه آخراً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن

﴿وَيُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ خاصة بون غيرهم، أو يكون الهدى والرحمة والبشرى خاصة بهم، لأنهم المنتفعون بذلك. ثم لما نكر سبحانه أن في القرآن تبيان كل شيء نكر عقبة آية جامعة لأصول التكليف كلها تصديقاً لذلك فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾.

وقد اختلف أهل العلم في تفسير العدل والإحسان؛ ف قيل: العدل لا إله إلا الله، والإحسان أداء الفرائض، وقيل: العدل الفرض، والإحسان النافلة، وقيل: العدل استواء العلانية والسريّة، والإحسان أن تكون السريّة أفضل من العلانية، وقيل: العدل الإنصاف، والإحسان التفضل، والأولى تفسير العدل بالمعنى اللغوي وهو التوسط بين طرفي الإفراط والتفريط؛ فمعنى أمره سبحانه بالعدل أن يكون عباده في الدين على حالة متوسطة؛ ليست بمائلة إلى جانب الإفراط وهو الغلو المنموم في الدين، ولا إلى جانب التفريط وهو الإخلال بشيء مما هو من الدين؛ وأما الإحسان فمعناه اللغوي يرشد إلى أنه التفضل بما لم يجب كصدقة التطوع، ومن الإحسان فعل ما يثاب عليه العبد مما لم يوجبه الله عليه في العبادات وغيرها، وقد صحّ عن النبي ﷺ أنه فسر الإحسان بأن يعبد الله العبد حتى كأنه يراه، فقال في حديث ابن عمر الثابت في الصحيحين: «والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، وهذا هو معنى الإحسان شرعاً ﴿وَابْتَغِ الْقُرْبَى﴾ أي: إعطاء القرابة ما تدعو إليه حاجتهم، وفي الآية إرشاد إلى صلة الأقارب وترغيب في التصديق عليهم، وهو من باب عطف الخاص على العام إن كان إعطاء الأقارب قد نخل تحت العدل والإحسان؛ وقيل: من باب عطف المندوب على الواجب، ومثل هذه الآية قوله: ﴿وَأَتَاكَ الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ [الإسراء: 26]. وإنما خصّ نوي القربى لأن حقهم أكد، فإن الرحم قد اشتق اسمها من اسمه، وجعل صلتها من صلته وقطيعتها من قطيعته ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ﴾ هي الخصلة المتزايدة في القبح من قول أو فعل، وقيل: هي الزنا؛ وقيل: البخل ﴿وَالْمُنْكَرِ﴾ ما أنكره الشرع بالنهاي عنه، وهو يعم جميع المعاصي على اختلاف أنواعها، وقيل: هو الشرك ﴿وَوَالْبَغْيِ﴾ ف قيل هو الكبر، وقيل: الظلم، وقيل: الحقد، وقيل: التعدي، وحقيقته تجاوز الحد فيشمل هذه المنكورة ويندرج بجميع أقسامه تحت المنكر، وإنما خصّ بالذكر اهتماماً به لشدة ضرره ووبال عاقبته، وهو من الذنوب التي ترجع على فاعلها لقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا بِغْيَكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ [يونس: 23]، وهذه الآية هي من الآيات الدالة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم ختم سبحانه هذه الآية بقوله: ﴿يُعْظَمُ لَكُمْ تَنْكَرُونَ﴾ أي: يعظمكم بما نكره في هذه الآية مما أمركم به ونهاكم عنه، فإنها كافية في باب الوعظ والتنكير، لعلكم تتكفرون إرادة أن تتنكبوا ما ينغي تنكروه فتتعتظوا بما وعظكم الله به.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن

المضاف إلى اسم الله سبحانه من العموم الشامل لجميع عهود الله، ولو فرض أن السبب خاص بعهد من العهود لم يكن ذلك موجباً لقصره على السبب، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وفسره بعضهم باليمين، وهو مدفوع بذكر الوفاء بالآيمان بعده حيث قال سبحانه: ﴿وَلَا تَقْضُوا الْإِيمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ أي: بعد تشييدها وتغليظها وتوثيقها، وليس المراد اختصاص النهي عن النقض بالآيمان المؤكدة، لا بغيرها مما لا تأكيد فيه، فإن تحريم النقض يتناول الجميع، ولكن في نقض اليمين المؤكدة من الإثم فوق الإثم الذي في نقض ما لم يوكد منها، يقال: وكذاك توكيذا وتأكيداً، وهما لغتان. وقال الزجاج: الأصل الواو والهزمة بدل منها، وهذا العموم مخصوص بما ثبت في الأحاديث الصحيحة من قوله ﷺ: «من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه»، حتى بالغ في ذلك ﷺ فقال: «والله لا أحلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير وكفرت عن يميني». وهذه الألفاظ ثابتة في الصحيحين وغيرهما، ويخص أيضاً من هذا العموم يمين اللغو لقوله سبحانه: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ [البقرة: 225 - المائدة: 89] ويمكن أن يكون التقييد بالتوكيد هنا لإخراج إيمان اللغو، وقد تقدم بسط الكلام على الآيمان في البقرة ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمْ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ أي: شهيداً، وقيل: حافظاً، وقيل: ضامناً، وقيل: رقيباً لأن الكفيل يراعي حال المكفول به، وقيل: إن توكيد اليمين هو حلف الإنسان على الشيء الواحد مراراً. وحكى القرطبي عن ابن عمر أن التوكيد هو أن يحلف مرتين، فإن حلف واحدة فلا كفارة عليه ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ فيجازيكم بحسب ذلك، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وفيه ترغيب وترهيب. ثم أكد وجوب الوفاء وتحريم النقض فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَضَتْ غَزْلَهُمَا﴾ أي لا تكونوا فيما تصنعون من النقض بعد التوكيد كالتي نقضت غزلها أي: ما غزلته ﴿مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ أي: من بعد إبرام الغزل وإحكامه، وهو متعلق بنقضت ﴿أَنْكَائًا﴾ جمع نكث بكسر النون ما ينكث فتلته. قال الزجاج: انتصب أنكائاً على المصدر، لأن معنى نقضت نكثت؛ ورد بأن أنكائاً ليس بمصدر، وإنما هو جمع كما ذكرنا. وقال الواحدي: هو منصوب على أنه مفعول ثانٍ كما تقول كسرتة أقطاعاً وأجزاء: أي جعلته أقطاعاً وأجزاء، ويحتمل أن يكون حالاً. قال ابن قتيبة: هذه الآية متعلقة بما قبلها، والتقدير: وأوفوا بعهد الله ولا تنقضوا الآيمان، فإنكم إن فعلتم ذلك كنتم مثل امرأة غزلت غزلاً وأحكمته ثم جعلته أنكائاً، وجملة «تَتَخَذُونَ آيْمَانَكُمْ خُلَاً بَيْنَكُمْ» في محل نصب على الحال. قال الجوهري: والدخل المكر والخديعة، وقال أبو عبيدة: كل أمر لم يكن صحيحاً فهو دخل، وقيل: الدخا ما أدخل في الشيء على فساد. وقال الزجاج: غشاً وغلاً ﴿إِنْ تَكُونُ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ أي: بأن تكون جماعة هي

عباس في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ قال: شهادة أن لا إله إلا الله، والإحسان أداء الفرائض ﴿وَالِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ قال: إعطاء نوي الأرحام الحق الذي أوجب الله عليك بسبب القرابة والرحم ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ﴾ قال: الزنا ﴿وَالْمُنْكَرِ﴾ قال: الشرك ﴿وَالْبَغْيِ﴾ قال: الكبير والظلم ﴿يُعْظَمُكُمْ﴾ قال: يوصيكم ﴿بِأَعْلَمِكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. وأخرج سعيد بن منصور، والبخاري في الألب، ومحمد بن نصر في الصلاة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب قال: أعظم آية في كتاب الله ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: 255]. واجمع آية في كتاب الله للخير والشر الآية التي في النحل ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾. وأكثر آية في كتاب الله تفويضاً ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً﴾ ويرزقه من حيث لا يحتسب [الطلاق: 2 - 3]. وأشد آية في كتاب الله رجاء ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الزمر: 53] الآية. وأخرج البيهقي في الشعب عن الحسن أنه قرأ هذه الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ إلى آخرها ثم قال: إن الله عز وجل جمع لكم الخير كله والشر كله في آية واحدة، فوالله ما ترك العدل والإحسان من طاعة الله شيئاً إلا جمعه، ولا ترك الفحشاء والمنكر والبغي من معصية الله شيئاً إلا جمعه. وأخرج البخاري في تاريخه من طريق الكلبي عن أبيه قال: مر علي بن أبي طالب بقوم يتحدثون فقال: فيم أنتم؟ قالوا: نتذكر المروءة، فقال: أو ما كفاكم الله عز وجل ذلك في كتابه إذ يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ فاعل العدل والإنصاف، والإحسان التفضل، فما بقي بعد هذا؟

وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَضَتْ غَزْلَهُمَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا تَتَّخِذُونَ بَيْنَكُمْ بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ مِّنْ أُمَّةٍ لِّمَا يُلَوعُكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلِكَيْتَنَ لَّكَرُيَوْمٍ أَعْلَمُ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُبْذِلَ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَالًا بَيْنَكُمْ فَفَزَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ بُرُؤِهِمْ وَذُوقُوا أَلَمَهُ يَمَّا مَدَدْتُمُ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكِنَّ عَذَابَ عَظِيمٍ ﴿١٩﴾ وَلَا تَشْرَوْا بِمَهْدِ اللَّهِ تَشْرَاءَ قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ حَرُّ لَّكَرُيَوْمٍ كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢١﴾

خص سبحانه من جملة المأمورات التي تضمنها قوله:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ الوفاء بالعهد فقال: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ وظاهره العموم في كل عهد يقع من الإنسان من غير فرق بين عهد البيعة وغيره، وخص هذا العهد المذكور في هذه الآية بعض المفسرين بالعهد الكائن في بيعة النبي ﷺ على الإسلام وهو خلاف ما يفيد العهد

السيء في الدنيا أو في الآخرة، أو فيهما بما صدقتم ﴿عن سبيل الله﴾ أي: بسبب صدوقكم أنتم عن سبيل الله وهو الإسلام، أو بسبب صدقكم لغيركم عن الإسلام، فإن من نقض البيعة وأردت اقتدى به غيره في ذلك فكان فعله سنة سيئة عليه وزرها ووزر من عمل بها ولهذا قال: ﴿ولكم عذاب عظيم﴾ أي: متبالم في العظم، وهو عذاب الآخرة إن كان المراد بما قبله عذاب الدنيا. ثم نهاهم سبحانه عن الميل إلى عرض الدنيا والرجوع عن العهد لأجله فقال: ﴿ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً﴾ أي: لا تأخذوا في مقابلة عهدكم عوضاً يسيراً حقيراً، وكل عرض بنوي وإن كان في الصورة كثيراً فهو لكونه ذاهباً زائلاً يسير، ولهذا ذكر سبحانه بعد تقليل عرض الدنيا خيرية ما عند الله فقال: ﴿إنما عند الله هو خير لكم﴾ أي: ما عنده من النصر في الدنيا والفنائم والرزق الواسع، وما عنده في الآخرة من نعيم الجنة الذي لا يزول ولا ينقطع هو خير لهم، ثم علل النهي عن أن يشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً وأن ما عند الله هو خير لهم بقوله: ﴿إن كنتم تعلمون﴾ أي: إن كنتم من أهل العلم والتمييز بين الأشياء. ثم نكر لئلا قاطعاً على حقارة عرض الدنيا وخيرية ما عند الله فقال: ﴿وما عنكم ينقد وما عند الله باق﴾ ومعلوم لكل عاقل أن ما ينقد ويزول وإن بلغ في الكثرة إلى أي مبلغ فهو حقير يسير، وما كان يبقى ولا يزول فهو كثير جليل، أما نعيم الآخرة فظاهر، وأما نعيم الدنيا الذي أنعم الله به على المؤمنين فهو وإن كان زائلاً لكنه لما كان متصلاً بنعيم الآخرة كان من هذه الحثية في حكم الباقي الذي لا ينقطع، ثم قال: ﴿ولنجزيهن اللذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ اللام هي الموطئة أي: لنجزيهن بسبب صبرهم على ما نالهم من مشاق التكاليف وجهاد الكافرين والصبر على ما ينالهم منهم من الإيذاء بأحسن ما كانوا يعملون من الطاعات. قيل: وإنما خصّ أحسن أعمالهم، لأن ما عداه وهو الحسن مباح، والجزاء إنما يكون على الطاعة، وقيل: المعنى ولنجزيهن بجزاء أشرف وأوفر من عملهم كقوله: ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها﴾ [الأنعام: 160]، أو لنجزيهن بحسب أحسن أفراد أعمالهم على معنى لنعطينهم بمقابلة الفرد الأعلى من أعمالهم المذكورة ما نعطيه بمقابلة الفرد الأعلى منها من الجزاء الجزيل، لا أننا نعطي الأجر بحسب أفرادها المتفاوتة في مراتب الحسن بأن نجزي الحسن منها بالأجر الحسن، والأحسن بالأحسن، كذا قيل. قرأ عاصم وابن كثير (لنجزين) بالنون. وقرأ الباقون بالياء التحتية.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن مزينة بن جابر في قوله: ﴿ووافوا بعهد الله إذا عاهدتم﴾ قال: أنزلت هذه الآية في بيعة رسول الله ﷺ، كأن من أسلم بايع على الإسلام، فقال: ﴿ووافوا بعهد الله﴾ الآية، فلا يحملكم قلة محمد وأصحابه وكثرة المشركين أن تنقضوا البيعة التي بايعتم على الإسلام. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن

أربى من جماعة أي: أكثر عدداً منها وأوفر مالاً. يقال: ربا الشيء يربو إذا كثر، قال الفراء: المعنى لا تغدروا بقوم لقلنتهم وكثرتكم أو لقلنتكم وكثرتهم وقد عززتموهم بالآيمان. قيل: وقد كانت قريش إذا رأوا شوكة في أعادي حلفائهم نقضوا عهدهم وحالفوا أعداءهم، وقيل: هو تحذير للمؤمنين أن يغتروا بكثرة قريش وسعة أموالهم فينقضوا بيعة النبي ﷺ ﴿إنما يبلوكم الله به﴾ أي: يختبركم بكونكم أكثر وأوفر لينظر هل تتمسكون بحبل الوفاء أم تنقضون اغتراراً بالكثرة؟ فالضمير في به راجع إلى مضمون جملة: أن تكون أمة هي أربى من أمة أي: إنما يبلوكم الله بتلك الكثرة ليعلم ما تصنعون، أو إنما يبلوكم الله بما يأمركم وينهاكم ﴿وليبيِّنَ لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون﴾ فيوضح الحق والمحقين ويرفع درجاتهم، ويبين الباطل والمبطلين فينزل بهم من العذاب ما يستحقونه، وفي هذا إنذار وتحذير من مخالفة الحق والركون إلى الباطل، أو بين لكم ما كنتم تختلفون فيه من البعث والجنة والنار. ثم بين سبحانه أنه قادر على أن يجمع المؤمنين والكافرين على الوفاء أو على الإيماَن فقال: ﴿ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة﴾ متفقة على الحق ﴿ولكن﴾ بحكم الإلهية ﴿يضل من يشاء﴾ بخلافه إياهم عدلاً منه فيهم ﴿ويهدي من يشاء﴾ بتوفيقه إياهم فضلاً منه عليهم ﴿ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون﴾ [الأنبياء: 23]. ولهذا قال: ﴿ولتسألن عما كنتم تعملون﴾ من الأعمال في الدنيا، واللام في وليبيِّنَ لكم، وفي ولتسألن هما الموطئتان للقسم. ثم لما نهاهم سبحانه عن نقض مطلق الإيماَن نهاهم عن نقض إيمان مخصوصة فقال: ﴿ولا تتخذوا إيمانكم دخلاً بينكم﴾ وهي إيمان البيعة. قال الواحدي: قال المفسرون: وهذا في نهى الذين بايعوا رسول الله ﷺ عن نقض العهد على الإسلام ونصرة الدين، واستلوا على هذا التخصيص بما في قوله: ﴿فتزل قدم بعد ثبوتها﴾ من المبالغة، وبما في قوله: ﴿وتنوقوا السوء بما صدقتم﴾ لأنهم إذا نقضوا العهد مع رسول الله ﷺ صوّأ غيرهم عن النحول في الإسلام. وعلى تسليم أن هذه الإيماَن مع رسول الله ﷺ هي سبب نزول هذه الآية، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. وقال جماعة من المفسرين: إن هذا تكرير لما قبله لقصد التأكيد والتقرير، ومعنى ﴿فتزل قدم بعد ثبوتها﴾ فتزل قدم من اتخذ يمينه دخلاً عن محجة الحق بعد ثبوتها عليها ورسوخها فيها، قيل: وأقر القدم للإيذان بأن زلزل قدم واحد أي قدم كانت عزّت أو هانت محنور عظيم، فكيف بأقدام كثيرة؟ وهذا استعارة للمستقيم الحال يقع في شرّ عظيم ويسقط فيه لأن القدم إذا زلت نقلت الإنسان من حال خير إلى حال شرّ، ويقال لمن أخطأ في شيء: زلت به قدمه، ومنه قول الشاعر:

تداركتما عبساً وقد ثلّ عرشها ونبيان قد زلت بأقدامها النعل
﴿وتنوقوا السوء بما صدقتم﴾ أي: تنوقوا العذاب

وقيل: بالتوفيق إلى الطاعة، قاله الضحاك. وقيل: الحياة الطيبة هي حياة الجنة، روي عن مجاهد وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وحكي عن الحسن أنه قال: لا تطيب الحياة لأحد إلا في الجنة، وقيل: الحياة الطيبة هي السعادة، روي ذلك عن ابن عباس. وقيل: هي المعرفة بالله، حكي ذلك عن جعفر الصادق. وقال أبو بكر الوراق: هي حلوة الطاعة. وقال سهل بن عبد الله التستري: هي أن ينزع عن العبد تدبير نفسه ويرد تدبيره إلى الحق؛ وقيل: هي الاستغناء عن الخلق والافتقار إلى الحق، وأكثر المفسرين على أن هذه الحياة الطيبة هي في الدنيا لا في الآخرة، لأن حياة الآخرة قد نكرت بقوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وقد قَدَّمْنَا قريباً تفسير الجزء بالأحسن، ووجد الضمير في لنحيينه وجمعه في ولنجزينهم حملاً على لفظ من، وعلى معناه. ثم لما نكر سبحانه العمل الصالح والجزاء عليه أتبعه بذكر الاستعانة التي تخلص بها الأعمال الصالحة عن الوسواس الشيطانية فقال: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ والفاء لترتيب الاستعانة على العمل الصالح، وقيل: هذه الآية متصلة بقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: 89]. والتفسير: فإذا أخذت في قراءته فاستعذ بالله: قال الزجاج وغيره من أئمة اللغة: معناه إذا أردت أن تقرأ القرآن فاستعذ وليس معناه استعذ بعد أن تقرأ القرآن، ومثله: إذا أكلت فقل: بسم الله. قال الواحدي: وهذا إجماع الفقهاء أن الاستعانة قبل القراءة، إلا ما روي عن أبي هريرة، وابن سيرين، ودأود، ومالك، وحزمة من القراء فلنهم قالوا: الاستعانة بعد القراءة، ذهبوا إلى ظاهر الآية، ومعنى فاستعذ بالله: سأل سبيلاً أن يعينك من الشيطان الرجيم أي: من وسأوسه، وتخصيص قراءة القرآن من بين الأعمال الصالحة بالاستعانة عند إرادتها للتنبيه على أنها لسائر الأعمال الصالحة عند إرادتها أهم، لأنه إذا وقع الأمر بها عند قراءة القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه كانت عند إرادة غيره أولى، كذا قيل. وتوجيه الخطاب إلى رسول الله ﷺ للإشعار بأن غيره أولى منه بفعل الاستعانة، لأنه إذا أمر بها لنفع وسأوس الشيطان مع عصمته، فكيف بسائر أمته؟ وقد ذهب الجمهور إلى أن الأمر في الآية للتنبيه. وروي عن عطاء الوجوب أخذاً بظاهر الأمر. وقد تقدم الكلام في الاستعانة مستوفى في أول هذا التفسير، والضمير في ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ﴾ للشان أو للشيطان أي: ليس له تسلط ﴿عَلَى﴾ إغواء ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ وحكي الواحدي عن جميع المفسرين أنهم فسروا السلطان بالحجة، وقالوا: المعنى ليس له حجة على المؤمنين في إغوائهم ودعائهم إلى الضلالة؛ ومعنى ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يفوضون أمورهم إليه في كل قول وفعل، فإن الإيمان بالله والتوكل عليه يمنعان الشيطان من وسوسته لهم، وإن وسوس لأحد منهم لا تؤثر فيه وسوسته، وهذه

أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿وَلَا تَتْلُوا الْقُرْآنَ بِالْإِيمَانِ بَعْدَ تَوَكُّدِهَا﴾ يقول: بعد تغليظها. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن قتادة نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير نحوه. وأخرج ابن مردويه عن طريق عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس أن سعيدة الأسدية كانت تجمع الشعر والليف، فنزلت فيها هذه الآية ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقِضُوا عَهْدَهُمْ﴾ وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي بكر بن حفص مثله، وفي الروايتين جميعاً أنها كانت مجنونة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن السدي في سبب نزول الآية قال: كانت امرأة بمكة تسمى خرقاء كانت تغزل فإذا أبرمت غزلها نقضته. وأخرج ابن جرير عن عبد الله بن كثير معناه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنْ تَكُونُ أُمَّةٌ مِنْ أُمَّةٍ﴾ قال: ناس أكثر من ناس. وأخرجوا عن مجاهد في الآية قال: كانوا يحالفون الحلفاء فيجسسون أكثر منهم وأعد، فينقضون حلف هؤلاء ويحالفون هؤلاء الذين هم أعد فنهوا عن ذلك.

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿١٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا بَدَأْنَا بِآيَةٍ نَّكَاتٍ ؕ آيَةً ۖ وَاللَّهُ أَصْلَمُ بِمَا يَشْرِكُونَ ؕ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُنْجِيٌّ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ يَلْمِزُ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ نَمَرْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّإِسَاءِ الْبِرِّ يَتَّبِعُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ إِنَّمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٢٥﴾

هذا شروع في ترغيب كل مؤمن في كل عمل صالح، وتعميم للوعد؛ ومعنى ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾ من عمل عملاً صالحاً أي: عمل كان، وزيادة التمييز بذكر أو أنشئ مع كون لفظ «من» شاملاً لهما لقصد التأكيد والمبالغة في تقرير الوعد؛ وقيل: إن لفظ «من» ظاهر في الذكور، فكان في التنصيص على الذكر والأنثى بيان لشموله للنوعين، وجملة ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ في محل نصب على الحال، جعل سبحانه الإيمان قيداً في الجزء المنكسر لأن عمل الكافر لا اعتداد به لقوله سبحانه: ﴿وَقَدَّمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: 23]. ثم نكر سبحانه الجزء لمن عمل ذلك العمل الصالح فقال: ﴿فَلَنَحْيِيَنَّهُ حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾ وقد وقع الخلاف في الحياة الطيبة بماذا تكون؟ فقيل: بالرزق الحلال، روي ذلك عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، وعطاء، والضحاك؛ وقيل: بالقناعة، قاله الحسن البصري، وزيد بن وهب، وهب بن منبه. وروي أيضاً عن عليّ وابن عباس؛

اسمه يعيش، عبد لبني الحضرمي، وكان يقرأ الكتب الأعجمية، وقيل: غلام لبني عامر بن لؤي، وقيل: هما غلامان: اسم أحدهما يسار، واسم الآخر جبر، وكانا صيقلين يعملان السيوف، وكانا يقرآن كتاباً لهم؛ وقيل: كانا يقرآن التوراة والإنجيل، وقيل: عنوا سلمان الفارسي؛ وقيل: عنوا نصرانياً بمكة اسمه بلعام، وكان يقرأ التوراة؛ وقيل: عنوا رجلاً نصرانياً كان اسمه أبا ميسرة يتكلم بالرومية، وفي رواية اسمه عداس. قال النحاس: وهذه الأقوال غير متناقضة، لأنه يجوز أنهم زعموا أنهم جميعاً يعلمونه، ولكن لا يمكن الجمع باعتبار قول من قال إنه سلمان، لأن هذه الآية مكية، وهو إنما أتى إلى النبي ﷺ بالمدينة. ثم أجاب سبحانه عن قولهم هذا فقال: ﴿لسان الذي يلحدون إليه أعجمي﴾ الإحاد: الميل، يقال: لحد وألحد أي: مال عن القصد. وقد تقدّم في الأعراف. وقرأ حمزة والكسائي (يلحدون) بفتح الياء والحاء. وقرأ من عداهما بضم الياء وكسر الحاء أي: لسان الذين يميلون إليه ويزعمون أنه يعلمك أعجمي، يقال: رجل أعجم وامرأة عجماء أي: لا يفصحان، والعجمة الإخفاء، وهي ضدّ البيان، والعرب تسمي كل من لا يعرف لغتهم ولا يتكلم بها أعجمياً. قال الفراء: الأعجم الذي في لسانه عجمة وإن كان من العرب، والأعجمي: هو العجمي الذي أصله من العجم. وقال أبو علي الفارسي: العجمي المنسوب إلى العجم الذي لا يفصح سواء كان من العرب أو من العجم، وكذلك الأعجم، والأعجمي المنسوب إلى العجم وإن كان فصيحاً ﴿وهذا لسان عربي مبين﴾ الإشارة إلى القرآن، وسماه لساناً لأن العرب تقول للقصيد والبيت: لساناً، ومنه قول الشاعر:

لسان الشر تهنيهاً لينا وخنت وما حسبتك أن تخونا
أو أُرَادَ باللسان البلاغة فكانه قال: وهذا القرآن ذو بلاغة عربية وبيان واضح، فكيف تزعمون أن بشراً يعلمه من العجم؟ وقد عجزتم أنتم عن معارضة سورة منه، وأنتم أهل اللسان العربي ورجال الفصاحة وقادة البلاغة، وهاتان الجملتان مستانفتان سيقتا لإبطال طعنهم ونفع كذبهم. ولما ذكر سبحانه جوابهم وبخهم وهذّمهم فقال: ﴿إن الذين لا يؤمنون بآيات الله﴾ أي: لا يصدقون بها ﴿لا يهديهم الله﴾ إلى الحق الذي هو سبيل النجاة هداية موصلة إلى المطلوب لما علم من شقاوتهم ﴿ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ بسبب ما هم عليه من الكفر والتكذيب بآيات الله. ثم لما وقع منهم نسبة الافتراء إلى رسول الله ﷺ ردّ عليهم بقوله: ﴿إنما يفترى للكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله﴾ فكيف يقع الافتراء من رسول الله ﷺ، وهو رأس المؤمنين بها، والداعين إلى الإيمان بها، وهؤلاء الكفار هم الذين لا يؤمنون بها، فهم المفترون للكذب. قال الزجاج: المعنى إنما يفترى الكذب الذين إذا رأوا الآيات التي لا يقدّر عليها إلا الله كذبوا بها هؤلاء أكذب الكذبة، ثم سماهم الكاذبين. فقال: ﴿واولئك﴾ أي: المتصفون بذلك ﴿هم الكاذبون﴾ أي: إن

الجملة تعليل للأمر بالاستعانة، وهؤلاء الجامعون بين الإيمان والتوكل هم الذين قال فيهم إبليس: ﴿إلا عبادك منهم المخلصين﴾ [الحجر: 40] وقال الله فيهم: ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين﴾ [الحجر: 42] ثم حصر سبحانه سلطان الشيطان، فقال: ﴿إنما سلطانه﴾ أي: تسلطه على الإغواء ﴿على الذين يتولونه﴾ أي: يتخذونه ولياً ويطيعونه في وساوسه ﴿والذين هم به مشركون﴾ الضمير في به يرجع إلى الله تعالى أي: الذين هم بالله مشركون؛ وقيل: يرجع إلى الشيطان؛ والمعنى: والذين هم من أجله وبسبب وسوسته مشركون بالله ﴿وإذا بئنا آية مكان آية﴾ هذا شروع منه سبحانه في حكاية شبه كفرية ودفعها. ومعنى التبديل: رفع الشيء مع وضع غيره مكانه، وتبديل الآية رفعها بأخرى غيرها، وهو نسخها بآية سواها، وقد تقدّم الكلام في النسخ في البقرة ﴿قلوا﴾ أي: كفار قريش الجاهلون بالحكمة في النسخ ﴿إنما أنت﴾ يا محمد ﴿مفتر﴾ أي: كاذب مختلق على الله متقول عليه بما لم يقل حيث تزعم أنه أمرك بشيء. ثم تزعم أنه أمرك بخلافه، فردّ الله سبحانه عليهم بما يفيد جهلهم فقال: ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ شيئاً من العلم أصلاً، أو لا يعلمون بالحكمة في النسخ، فإنه مبني على المصالح التي يعلمها الله سبحانه، فقد يكون في شرع هذا الشيء مصلحة مؤقتة بوقت، ثم تكون المصلحة بعد ذلك الوقت في شرع غيره، ولو انكشف الخطأ لهؤلاء الكفرة لعرفوا أن ذلك وجه الصواب ومنهج العدل والرفق واللطف. ثم بين سبحانه لهؤلاء المعترضين على حكمة النسخ الزاعمين أن ذلك لم يكن من عند الله، وأن رسوله ﷺ افتراه فقال: ﴿قل نزل﴾ أي: القرآن المملول عليه بذكر الآية. ﴿روح القدس﴾ أي: جبريل، والقدس: للتطهير؛ والمعنى: نزل الروح المطهر من أدناس البشرية، فهو من إضافة موصوف إلى الصفة ﴿من ربك﴾ أي: ابتداء تنزيله من عنده سبحانه، و ﴿بالحق﴾ في محل نصب على الحال أي: متلبساً بكونه حقاً ثابتاً لحكمة بالغة ﴿ليثبت الذين آمنوا﴾ على الإيمان، فيقولون: كل من الناسخ والمنسوخ من عند ربنا، ولأنهم أيضاً إذا عرفوا ما في النسخ من المصالح ثبتت أقدامهم على الإيمان ورسخت عقائدهم. وقرئ (ليثبت) من الإثبات ﴿وهدى وبشرى للمسلمين﴾ وهما معطوفان على محل ليثبت أي: تثبيتاً لهم وهداية وبشارة، وفيه تعريض بحصول أضداد هذه الخصال لغيرهم. ثم ذكر سبحانه شبهة أخرى من شبههم فقال: ﴿ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر﴾ اللام هي الموطئة أي: ولقد نعلم أن هؤلاء الكفار يقولون: إنما يعلم محمداً القرآن بشر من بني آدم غير ملك. وقد اختلف أهل العلم في تعيين هذا البشر الذي زعموا عليه ما زعموا، فقيل: هو غلام الفاكه بن المغيرة، واسمه جبر، وكان نصرانياً فاسلم، وكان كفار قريش إذا سمعوا من النبي ﷺ أخبار القرون الأولى مع كونه أمياً، قالوا: إنما يعلمه جبر، وقيل:

السيوف بمكة، وكانا يقرآن الإنجيل، فربما مر بهما النبي ﷺ وهما يقرآن فيقف ويستمع، فقال المشركون: إنما يتعلم منهما، فنزلت هذه الآية.

مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْثَرَهُ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٥١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٥٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَمَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَتِمَّهِمْ وَأَصْرَهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٥٣﴾ لَا حَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَيْرُونَ ﴿١٥٤﴾ ثُمَّ إِنَّكَ رَأَيْتَ ثَمَرَهُمْ حَاجِرًا مِنْ بَعْدِ مَا قُتِلُوا ثُمَّ جُنُودًا مُصَّرِفًا إِنَّكَ رَأَيْتَ مِنْ بَيْنِهِمْ لِقَا فُؤَادٍ رَجِيزٍ ﴿١٥٥﴾ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَدِّلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُؤْتِي كُلُّ نَفْسٍ مَاعِجَتَ وَهْمٍ لَا تَبْلُغُونَ ﴿١٥٦﴾

قوله: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ﴾ قد اختلف أهل العلم في إعرابه، فذهب الأكثرون على أنه بدل إما من ﴿إِنْ﴾ الذين لا يؤمنون بآيات الله ﴿النمل: 104﴾ وما بينهما اعتراض، والمعنى: إنما يفترى الكذب من كفر، واستثنى منهم المكره فلا يدخل تحت حكم الافتراء. ثم قال: ﴿وَلَكِنْ مِنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾ أي: اعتقده وطابت به نفسه واطمان إليه ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ وإما من المبتدأ الذي هو ﴿أُولَئِكَ﴾ [النحل: 105] أو من الخبر الذي هو ﴿الْكَاذِبُونَ﴾ [النحل: 105]، وذهب الزجاج إلى الأول. وقال الأخفش: إن «من» مبتدأ وخبره محذوف اكتفي منه بخبر من الثانية كقولك: من يأتنا منكراً نكرمه؛ وقيل: هو أي: «من» في «من كفر» منصوب على الذم؛ وقيل: إن من شرطية والجواب محذوف لأن جواب «من شرح» دال عليه، وهو كقول الأخفش، وإنما خالفه في إطلاق لفظ الشرط على من والجواب على خبرها، فكانه قيل على هذا من كفر بالله فعليهم غضب إلا من أكره، ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب، وإنما صح استثناء المكره من الكافر مع أنه ليس بكافر لأنه ظهر منه بعد الإيمان ما لا يظهر إلا من الكافر لولا الإكراه. قال القرطبي: أجمع أهل العلم على أن من أكره على الكفر حتى خشى على نفسه القتل أنه لا إثم عليه إن كفر وقلبه مطمئن بالإيمان، ولا تبين منه زوجته، ولا أظهر الكفر كان مرتداً في الظاهر، وفيما بينه وبين الله على الإسلام، وتبين منه امرأته ولا يصلى عليه إن مات ولا يرث أباه إن مات مسلماً، وهذا القول مردود على قائله مدفوع بالكتاب والسنة، وذهب الحسن البصري، والأوزاعي، والشافعي، وسحنون إلى أن هذه الرخصة المذكورة في هذه الآية إنما جاءت في القول، وأما في الفعل فلا رخصة، مثل أن يكره على السجود لغير الله ويدفعه ظاهر الآية، فإنها عامة فيمن أكره من غير فرق بين القول والفعل، ولا دليل لهؤلاء القاصرين للآية على القول، وخصوص السبب لا

الكذب نعت لازم لهم وعادة من عانتهم فهم الكاملون في الكذب، إذ لا كذب أعظم من تكذيبهم بآيات الله.

وقد أخرج عبد الرزاق، والغريابي، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه سئل عن الحياة الطيبة المذكورة في الآية فقال: الحياة الطيبة الرزق الحلال في هذه الحياة الدنيا، وإذا صار إلى ربه جازاه بأحسن ما كان يعمل. وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال: الكسب الطيب والعمل الصالح. وأخرج العسكري في الأمثال عن علي في الآية قال: القناعة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب عن طريق عن ابن عباس قال: القنوع، قال: «وكان رسول الله ﷺ يدعو اللهم قنعني بما رزقتني وبارك لي فيه، واخلف علي كل غائبة لي بخير». وأخرج أحمد، ومسلم، والترمذي، وابن ماجه عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «قد أفلح من أسلم، ورزق كفافاً، وقنعه الله بما آتاه». وأخرج الترمذي، والنسائي من حديث فضالة بن عبيد أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «قد أفلح من هدي إلى الإسلام، وكان عيشه كفافاً وقنع به». وأخرج عبد الرزاق في المصنف وابن المنذر عن عطاء قال: الاستعانة واجبة لكل قراءة في الصلاة وغيرها من أجل قوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾. وقد ورد في مشروعية الاستعانة عند التلاوة ما لعنا قد قدمنا ذكره. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ يقول: سلطان الشيطان على من تولى الشيطان وعمل بمعصية الله. وأخرج أبو داود في ناسخه، وابن مروي، والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذَا بَلَغْنَا آيَةَ مَكَانٍ آيَةٍ﴾ وقوله: ﴿ثُمَّ إِنْ رِبْكَ لِلنَّاسِ هَاجِرًا مِنْ بَعْدِ مَا قُتِلُوا﴾ قال: عبد الله بن سعد بن أبي سرح كان يكتب لرسول الله ﷺ فإنه فازله الشيطان فلحق بالكفار، فأمر به رسول الله ﷺ أن يقتل يوم الفتح، فاستجار له عثمان رسول الله ﷺ فأجاره. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿وَإِذَا بَلَغْنَا آيَةَ مَكَانٍ آيَةٍ﴾ قال: هو كقوله: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسَخْهَا﴾ [البقرة: 106]. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مروي عن قال السيوطي بسند ضعيف عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يعلم بمكة قينا اسمه بلعام، وكان أعجمياً، فكان المشركون يرون رسول الله ﷺ يدخل عليه ويخرج من عنده، فقالوا: إنما يعلمه بلعام، فأنزل الله ﷻ ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ﴾ الآية. وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقي في شعب الإيمان عنه في الآية، قال: قالوا إنما يعلم محمداً عبد بن الحضرمي وهو صاحب الكتب، فأنزل الله ﷻ هذه الآية. وأخرج آدم بن أبي إياس، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن عبد الله بن مسلم الحضرمي قال: كان لنا عبدان من أهل عين التمر، يقال لأحدهما: يسار والآخر جبر، وكان يصنعان

رحيم به، والضمير في بعدها يرجع إلى الفتنة أو إلى المهاجرة والجهاد والصبر، أو إلى الجميع ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُل نَفْسٌ تَجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ قال الزجاج: يوم تأتي منتصب بقوله: رحيم، أو بإضمار انكر، أو نكرهم، أو أنذرهم، وقد استشكل إضافة ضمير النفس إلى النفس، ولا بد من التغاير بين المضاف والمضاف إليه، وأجيب بأن المراد بالنفس الأولى جملة بدن الإنسان، وبالنفس الثانية الذات؛ فكان قيل: يوم يأتي كل إنسان يجادل عن ذاته لا يهيم غيرها، ومعنى المجادلة عنها الاعتذار عنها، فهو مجادل ومخاصم عن نفسه لا يتفرغ غيرها يوم القيامة.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس قال: لما أراد رسول الله ﷺ أن يهاجر إلى المدينة قال لأصحابه: «تفرقوا عني فمن كانت به قوة فليأتني إلى آخر الليل، ومن لم تكن به قوة فليذهب في أول الليل، فإذا سمعتم بي قد استقرت بي الأرض فالحقوا بي، فأصبح بلال المؤمن، وخباب، وعمار، وجارية من قریش كانت أسلمت، فأخذهم المشركون وأبو جهل، فعرضوا على بلال أن يكفر فابى، فجعلوا يضعون درعاً من حديد في الشمس ثم يلبسونها إياه، فإذا لبسوها إياه قال: أحد أحد، وأما خباب فجعلوا يجزونه في الشوك، وأما عمار فقال لهم كلمة أعجبتهم تقية، وأما الجارية فوجد لها أبو جهل أربع أوتاد، ثم مدها فأنزل الحرية في قبلها حتى قتلها، ثم خلوا عن بلال وخباب وعمار فلحقوا برسول الله ﷺ فأخبروه بالذي كان من أمرهم، واشتد على عمار الذي كان تكلم به. فقال له رسول الله ﷺ: كيف كان قلبك حين قلت الذي قلت؟ أكان منشراحاً بالذي قلت أم لا؟ قال لا، فأنزل الله ﴿إِلَّا مَنْ كَرِهَ وَكَلْبَهُ مَطْمَئِنَّ بِالْإِيمَانِ﴾. وأخرج عبد الرزاق، وابن سعد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي، وابن عساکر من طريق أبي عبيدة بن محمد بن عمار عن أبيه قال: أخذ المشركون عمار بن ياسر فلم يتركوه حتى سب النبي ﷺ. وذكر آلهتهم بخير فتركوه، فلما أتى النبي ﷺ قال: ما وراءك؟ قال: شر ما تركت حتى نلت منك ونكرت آلهتهم بخير، قال: كيف تجد قلبك؟ قال: مطمئناً بالإيمان. قال: إن علموا فعد. فنزلت ﴿إِلَّا مَنْ كَرِهَ وَكَلْبَهُ مَطْمَئِنَّ بِالْإِيمَانِ﴾. قال: ذاك عمار بن ياسر. ولكن من شرح بالكفر صدراً. عبد الله بن أبي سرح. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن عساکر عن أبي مالك في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ كَرِهَ وَكَلْبَهُ مَطْمَئِنَّ بِالْإِيمَانِ﴾. قال: نزلت في عمار بن ياسر، وفي الباب روايات مصرحة بأنها نزلت في عمار بن ياسر. وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن سيرين قال: نزلت هذه الآية ﴿إِلَّا مَنْ كَرِهَ وَكَلْبَهُ مَطْمَئِنَّ بِالْإِيمَانِ﴾ في عياش بن أبي ربيعة. وأخرج ابن مردويه من طريق عكرمة عن ابن عباس قال: في سورة النحل ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ثم نسخ واستثنى من ذلك فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا

اعْتَبَارَ بِهِ مَعَ عُمُومِ اللَّفْظِ كَمَا تَقَرَّرَ فِي عِلْمِ الْأَصُولِ، وَجُمْلَةً وَوَقَلْبَهُ مَطْمَئِنَّ بِالْإِيمَانِ﴾ في محل نصب على الحال من المستثنى أي: إلا من كفر بإكراه، والحال أن قلبه مطمئن بالإيمان لم تتغير عقيدته، وليس بعد هذا الوعيد العظيم وهو الجمع للمرتدين بين غضب الله وعظيم عذابه، والإشارة بقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ إلى الكفر بعد الإيمان، أو إلى الوعيد بالغضب والعذاب، والباء في ﴿بِأَنَّهُمْ اسْتَحْبَبُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ للسببية أي: ذلك بسبب تأثيرهم للحياة الدنيا ﴿عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ معطوف على ﴿بِأَنَّهُمْ اسْتَحْبَبُوا﴾ أي: ذلك بأنهم استحبوا، وبأن الله لا يهدي القوم الكافرين إلى الإيمان به، ثم وصفهم بقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ أي: الموصوفون بما نكر من الأوصاف القبيحة ﴿الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَتِمْ وَأَبْصَارَهُمْ﴾ فلم يفهموا المواعظ ولا سمعوها، ولا أبصروا الآيات التي يستدل بها على الحق، وقد سبق تحقيق الطبع في أول البقرة، ثم أثبت لهم صفة نقص غير الصفة المتقدمة فقال: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ عما يرد بهم، وضمير الفصل يفيد أنهم متناهون في الغفلة، إذ لا غفلة أعظم من غفلتهم هذه ﴿لَا جُرمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي: الكاملون في الخسران البالغون إلى غاية منه ليس فوقها غاية، وقد تقدم تحقيق الكلام في معنى ﴿لَا جُرمَ﴾ في مواضع منها ما هو في هذه السورة ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ من دار الكفر إلى دار الإسلام، وخبر إن محذوف، والتقدير لغفور رحيم، وإنما حذف لدلالة خبر إن ربك المتأخرة عليه؛ وقيل: الخبر هو للذين هاجروا أي: إن ربك لهم بالولاية والنصرة لا عليهم، وفيه بعد؛ وقيل: إن خبرها هو قوله ﴿لِغُفُورٍ رَحِيمٍ﴾، وإن ربك الثانية تأكيد للاولى. قال في الكشف: ثم، ها هنا للدلالة على تباعد حال هؤلاء، يعني: الذين نزلت الآية فيهم عن حال أولئك، وهم عمار وأصحابه، ويدل على ذلك ما روي أنها نزلت في عبد الله بن أبي سرح، وسيأتي بيان ذلك ﴿مَنْ بَعْدَ مَا فَتَنَّا﴾ أي: فتنهم الكفار بتعذيبهم لهم ليرجعوا في الكفر، وقرئ (فتنوا) على البناء للفاعل أي: الذين فتنوا المؤمنين وعذبوهم على الإسلام ﴿ثُمَّ جَاهِدُوا﴾ في سبيل الله وصبروا على ما أصابهم من الكفار، وعلى ما يلقونه من مشاق التكليف ﴿لِغُفُورٍ رَحِيمٍ﴾ أي: كثير الغفران والرحمة لهم، ومعنى الآية على قراءة من قرأ (فتنوا) على البناء للفاعل واضح ظاهر أي: إن ربك لهؤلاء الكفار الذين فتنوا من أسلم وعذبوهم ثم جاهدوا وصبروا لغفور رحيم، وأما على قراءة البناء للمفعول وهي قراءة الجمهور، فالمعنى: أن هؤلاء المفتونين الذين تكلموا بكلمة الكفر مكرهين وصنورهم غير منشرح للكفر إذا صلحت أعمالهم وجاهدوا في الله وصبروا على المكاره لغفور لهم رحيم بهم؛ وأما إذا كان سبب الآية هذه هو عبد الله بن أبي سرح الذي ارتد عن الإسلام ثم رجع بعد ذلك إلى الإسلام، فالمعنى: أن هذا المفتون في دينه بالردة إذا أسلم وجاهد وصبر فإله غفور له

يفيد ذلك، ومكة تدخل في هذا العموم البليّ دخولاً أولياً، وأيضاً يكون الوعيد أبلغ، والمثل أكمل، وغير مكة مثلاً، وعلى فرض إرادتها في المثل إنذار لغيرها من مثل عاقبتها، ثم وصف القرية بأنها **«كانت آمنة»** غير خائفة **«مطمئنة»** غير منزعجة أي: لا يخاف أهلها ولا ينزعجون **«بإتيها رزقها»** أي: ما يرتزق به أهلها **«ورغداً»** وإسماً **«من كل مكان»** من الأمكنة التي يجلب ما فيها إليها **«فكفرت»** أي: كفر أهلها **«بأنعم الله»** التي أنعم بها عليهم، والأنعم جمع نعمة كالإشّد جمع شدة، وقيل: جمع نعى مثل يؤسى وأبؤس. وهذا الكفر منهم هو كفرهم بالله سبحانه وتكذيب رسله **«فأذاقها الله»** أي: أذاق أهلها **«لباس الجوع والخوف»** سمي ذلك لباساً لأنه يظهر به عليهم من الهزال وشحوبة اللون وسوء الحال ما هو كاللباس، فاستعير له اسمه وأوقع عليه الإذاعة، وأصلها الذوق بالفهم، ثم استعيرت لمطلق الاتصال مع إنبائها بشدة الإصابة لما فيها من اجتماع الإبراكين: إدراك اللبس، والذوق. روي أن ابن الراوندي الزنديق قال لابن الأعرابي إمام اللغة والأدب: هل يذاق اللباس؟ فقال له ابن الأعرابي: لا بأس أيها النسناس، هب أن محمداً ما كان نبياً أما كان عربياً؟ كنه طعن في الآية بأن المناسب أن يقال: فكساها الله لباس الجوع أو فأذاقها الله طعم الجوع، فرد عليه ابن الأعرابي: وقد أجاب علماء البيان أن هذا من تجريد الاستعارة، وذلك أنه استعار اللباس لما غشي الإنسان من بعض الحوادث كالجوع والخوف لاشتماله عليه اشتمال اللباس على اللابس، ثم نكر الوصف ملائماً للمستعار له وهو الجوع والخوف، لأن إطلاق الذوق على إدراك الجوع والخوف جرى عندهم مجرى الحقيقة، فيقولون: ذاق فلان اليأس والضرر وأذاقه غيره، فكانت الاستعارة مجردة. ولو قال فكساها كانت مرشحة. قيل: وترشيح الاستعارة وإن كان مستحسنًا من جهة المبالغة إلا أن للتجريد ترجيحاً من حيث إنه روعي جانب المستعار له فإزداد الكلام وضوحاً؛ وقيل: إن أصل الذوق بالفهم ثم قد يستعار فيوضع موضع التعرف والاختبار، ومن ذلك قول الشاعر:

ومن ينق الدنيا فإني طعمتها وسيق إلينا عذبا وعذابها
وقرأ حفص بن غياث ونصر بن عاصم وابن أبي إسحاق وأبو عمرو فيما روى عنه عبد الوارث ينصب (الخوف) عطفًا على لباس، وقرأ الباقرين بالضم عطفًا على الجوع، قال الفراء: كل الصفات أجريت على القرية إلا قوله: **«يصنعون»** تنبيهاً على أن المراد في الحقيقة أهلها **«ولقد جاءهم»** يعني: أهل مكة **«رسول منهم»** من جنسهم يعرفونه ويعرفون نسبه، فامرهم بما فيه نفعهم ونهاهم عما فيه ضررهم **«فكتبوه»** فيما جاء به **«فأخذهم العذاب»** النازل بهم من الله سبحانه، والحال أنهم في حال أخذ العذاب لهم **«ظالمون»** لأنفسهم بإيقاعها في العذاب الأبدي ولغيرهم بالإضرار بهم وصدّهم عن سبيل الله، وهذا

من بعد ما فتنوا الآية قال: وهو عبد الله بن أبي سرح الذي كان يكتب لرسول الله ﷺ، فأزله الشيطان فلحق بالكفار. فأمر به النبي ﷺ أن يقتل يوم فتح مكة، فاستجار له عثمان بن عفان فأجاره النبي ﷺ، وأخرج ابن جرير عن عكرمة والحسن مثله. وأخرج ابن مريويه، والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية **«ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا»** فيمن كان يفتي من أصحاب النبي ﷺ. وأخرج ابن مريويه عنه قال: كان قوم من أهل مكة قد أسلموا وكانوا يستخفون بالإسلام فنزلت فيهم **«ثم إن ربك للذين هاجروا»** الآية، فكتبوا إليهم بذلك إن الله قد جعل لكم مخرجاً فأخرجوا، فأمرهم المشركون فقاتلوهم فنجوا من نجا، وقتل من قتل. وأخرج ابن أبي شيبة عن الحسن أن عيوناً لمسيمة أخنوا رجلين من المسلمين فاتوه بهما، فقال لأحدهما: اتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم. قال: اتشهد أنني رسول الله؟ فاهوى إلى أنفيه فقال: إني أصم، فأمر به فقتل؛ وقال للآخر: اتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم، قال: اتشهد أنني رسول الله؟ قال: نعم، فأرسله فاتى النبي ﷺ فقال له: أما صاحبك فمضى على إيمانه، وأما أنت فأخذت بالرخصة، وهو مرسل.

وَرَبَّيْ اللَّهِ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَعْسُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٧﴾ تَكَلَّوْا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَتَّى تَلْبِسُوا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُمِلَ إِلَيْهِ مِنْ شَيْءٍ أَشْطَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا عَادَ ذَلِكَ أَنَّ عَفْوَ رَبِّهِمْ ﴿١٩﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْزَعُوا إِلَى اللَّهِ الْكَذِبُ إِنَّ الَّذِينَ يَفْزَعُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَقْبَلُونَهُ ﴿٢٠﴾ مَتَّعَ قَلِيلَ رَجُلٍ زَكَاةً أَلِيمًا ﴿٢١﴾ وَكَانَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَا فَصَحْنَا عَنْكَ مِنْ جَدٍّ وَمَا ظَنَنْتَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّنَا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَلْسِنَةً جَمْعَةً ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَسْلَمُوا إِنَّ رَبَّنَا مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٣﴾

قوله: **«وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً»** قد قلّمنا أن ضرب مضمن معنى جعل حتى تكون قرية المفعول الأول ومثلاً المفعول الثاني، وإنما تأخرت قرية لثلا يقع الفصل بينها وبين صفاتها. وقلّمنا أيضاً أنه يجوز أن يكون ضرب على بابه غير مضمن ويكون مثلاً مفعوله الأول وقرية بدلاً منه. وقد اختلف المفسرون هل المراد بهذه القرية قرية معينة، أو المراد قرية غير معينة، بل كل قوم أنعم الله عليهم فأبطرتهم النعمة؟ فذهب الأكثر إلى الأول وصرحوا بأنها مكة، وذلك لما دعا عليهم رسول الله ﷺ وقال: «اللهم أشد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف»، فابتلوا بالقحط حتى أكلوا العظام، والثاني أرجح لأن تنكير قرية

﴿ما قصصنا عليك﴾ بقولنا: ﴿حرّمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرّمنا عليهم شحومها﴾ [الأنعام: 146]، الآية، ﴿من قبل﴾ متعلق بقصصنا أو بحرّمنا ﴿وما ظلمناهم﴾ بذلك التحريم بل جزيناهم ببغيهم ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ حيث فعلوا أسباب ذلك فحرّمنا عليهم تلك الأشياء عقوبة لهم. ثم بيّن سبحانه أن الافتراء على الله سبحانه ومخالفة أمره لا يمنعه من التوبة وحصول المغفرة فقال: ﴿ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة﴾ أي: متلبسين بجهالة، وقد تقدّم تفسير هذه الآية في سورة النساء ﴿ثم تابوا من بعد ذلك﴾ أي: من بعد عملهم للسوء، وفيه تأكيد فإن ثم قد نلت على البعدية فأكدها بزيادة نكر البعدية ﴿واصلحوا﴾ أعمالهم التي كان فيها فساد بالسوء الذي عملوه، ثم كرّر ذلك تأكيداً وتقريباً فقال: ﴿إن ربك من بعدها﴾ أي: من بعد التوبة ﴿لغفور رحيم﴾ كثير الغفران واسع الرحمة.

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿وضرب الله مثلاً قرية﴾ قال: يعني مكة. وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن عطية في الآية مثله وزاد فقال: ألا ترى أنه قال ﴿ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه﴾. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن شهاب قال: القرية التي قال الله ﴿كانت آمنة مطمئنة﴾ هي يثرب. قلت: ولا أدري أي دليل له على هذا التعيين، ولا أي قرية قامت له على ذلك، ومتى كفرت دار الهجرة ومسكن الأنصار بأنعم الله، وأي وقت أذاقها الله لباس الجوع والخوف، وهي التي تنفي خبثها كما ينفي الكير خبث الحديد كما صحّ ذلك عن الصابق المصنوق. وصحّ عنه أيضاً أنه قال: «والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون». وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿ولا تقولوا لما تصف السنتكم الكذب﴾ الآية، قال: في البحيرة والسائبة. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي نضرة قال: قرأت هذه الآية في سورة النحل ﴿ولا تقولوا لما تصف السنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام﴾ إلى آخر الآية، فلم أزل أخاف الفتيا إلى يومي هذا. قلت: صدق رحمه الله، فإن هذه الآية تتناول بعموم لفظها فتيا من أفتى بخلاف ما في كتاب الله أو في سنة رسوله ﷺ، كما يقع كثيراً من المؤثرين للرأي المقدمين له على الرواية، أو الجاهلين لعلم الكتاب والسنة كالمقلدة، وإنهم لحقيقون بأن يحال بينهم وبين فتاويهم ويمنعوا من جهالاتهم، فإنهم أفتوا بغير علم من الله ولا هدى ولا كتاب منير فضلوا وأضلوا، فهم ومن يستفتيهم كما قال القائل:

كبهيمة عمياء قاد زمامها أعمى على عوج الطريق الجائر

وأخرج الطبراني عن ابن مسعود قال: عسى رجل أن يقول: إن الله أمر بكذا أو نهى عن كذا، فيقول الله عز وجل له: كذبت؛ لو يقول: إن الله حرّم كذا أو أحلّ كذا، فيقول الله

الكلام من تمام المثل المضروب، وقيل: إن المراد بالعذاب هنا هو الجوع الذي أصابهم، وقيل: القتل يوم بدر، ثم لما وعظهم الله سبحانه بما نكروه من حال أهل القرية المنكورة أمرهم أن ياكلوا مما رزقهم الله من الغنائم ونحوها، وجاء بالفاء للإشعار بأن ذلك متسبب عن ترك الكفر. والمعنى: أنكم لما آمنتم وتركتم الكفر فكلوا الحلال الطيب وهو الغنمة وارتكوا الخبائث وهو الميتة والدم ﴿واشكروا نعمة الله﴾ التي أنعم بها عليكم واعرفوا حقها ﴿إن كنتم إياه تعبدون﴾ ولا تعبدون غيره، أو إن صحّ زعمكم أنكم تقصدون بعبادة الأكلة التي زعمتم عبادة الله تعالى، وقيل: إن الفاء في فكلوا داخلة على الأمر بالشكر، وإنما انخلت على الأمر بالاكل لأن الاكل نزيعة إلى الشكر ﴿إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله﴾ كرّر سبحانه نكر هذه المحرمات في البقرة والمائدة والأنعام وفي هذه السورة قطعاً للأعذار وإزالة للشبهة، ثم ذكر الرخصة في تناول شيء مما نكر فقال: ﴿فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم﴾ وقد تقدّم الكلام على جميع ما هو منكر هنا مستوفى. ثم زيف طريقة الكفار في الزيادة على هذه المحرمات كالبحيرة والسائبة وفي نقصان عنها كتحليل الميتة والدم فقال: ﴿ولا تقولوا لما تصف السنتكم الكذب﴾ قال الكسائي، والزجاج: ما هنا مصدرية وانتصاب الكذب بلا تقولوا أي: لا تقولوا الكذب لأجل وصف السنتكم، ومعناه: لا تحرموا ولا تحللوا لأجل قول تنطق به السنتكم من غير حجة، ويجوز أن تكون ما موصولة والكذب منتصب بتصف أي: لا تقولوا للذي تصف السنتكم الكذب فيه ﴿هذا حلال وهذا حرام﴾ فحنف لفظه فيه لكونه معلوماً، فيكون قوله هذا حلال وهذا حرام بدلاً من الكذب، ويجوز أن يكون في الكلام حذف بتقدير القول: أي ولا تقولوا لما تصف السنتكم فتقول: هذا حلال وهذا حرام، أو قائلة: هذا حلال وهذا حرام، ويجوز أن ينتصب الكذب أيضاً بتصف وتكون ما مصدرية أي: لا تقولوا هذا حلال وهذا حرام لوصف السنتكم الكذب. وقرئ (الكذب) بضم الكاف والذال والباء على أنه نعت للألسنة، وقرأ الحسن بفتح الكاف وكسر الذال والباء نعتاً لما. وقيل: على البديل من ما أي: ولا تقولوا الكذب الذي تصفه السنتكم هذا حلال وهذا حرام، واللام في ﴿لتفتروا على الله الكذب﴾ هي لام العاقبة لا لام العرض أي: فيتعقب ذلك افتراءكم على الله الكذب بالتحليل والتحريم وإسناد ذلك إليه من غير أن يكون منه ﴿إن الذين يفترون على الله الكذب﴾ أي افتراء كان ﴿لا يفلحون﴾ بنوع من أنواع الفلاح، وهو الفوز بالمطلوب، وارتفاع ﴿متاع قليل﴾ على أنه خبر مبتدأ محذوف. قال الزجاج: أي متاعهم متاع قليل، أو هو مبتدأ خبره محذوف أي: لهم متاع قليل ﴿ولهم عذاب اليم﴾ يرتئون إليه في الآخرة. ثم خصّ محرّمات اليهود بالذكر فقال: ﴿وعلى الذين هادوا حرّمنا﴾ أي: حرّمنا عليهم خاصة بون غيرهم

إبراهيم ﴿ وأصل الملة اسم لما شرعه الله لعباده على لسان نبي من أنبيائه؛ وقيل: والمراد هنا اتباع النبي ﷺ لملة إبراهيم في التوحيد والدعوة إليه. وقال ابن جرير: في التبزي من الأوثن والتئين بدين الإسلام؛ وقيل: في مناسك الحج؛ وقيل: في الأصول دون الفروع؛ وقيل: في جميع شريعته إلا ما نسخ منها، وهذا هو الظاهر، وقد أمر النبي ﷺ بالاعتداء بالأنبياء مع كونه سيدهم، فقال تعالى: ﴿فبهدهم اقتده﴾ [الأنعام: 90]، وانتصاب ﴿حنيفاً﴾ على الحال من إبراهيم، وجاز مجيء الحال منه، لأن الملة كالجزء منه. وقد تقرّر في علم النحو أن الحال من المضاف إليه جائز إذا كان يقتضي المضاف العمل في المضاف إليه أو كان جزءاً منه أو كالجزء ﴿وما كان من المشركين﴾ وهو تكرير لما سبق للنتيجة التي نكرناها ﴿إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه﴾ أي: إنما جعل وبالسبت وهو المسخ على الذين اختلفوا فيه، أو إنما جعل فرض تعظيم السبت وترك الصيد فيه على الذين اختلفوا فيه لا على غيرهم من الأمم.

وقد اختلف العلماء في كيفية الاختلاف الكائن بينهم في السبت، فقالت طائفة: إن موسى أمرهم بيوم الجمعة وعينه لهم وأخبرهم بفضيلته على غيره، فخالفوه وقالوا: إن السبت أفضل، فقال الله له: دعهم وما اختاروا لأنفسهم. وقيل: إن الله سبحانه أمرهم بتعظيم يوم في الأسبوع، فاختلف اجتهداهم فيه، فعينت اليهود السبت لأن الله سبحانه فرغ فيه من الخلق، وعينت النصارى يوم الأحد لأن الله بدأ فيه الخلق، فالزم الله كلا منهم ما أدى إليه اجتهداه، وعين لهذه الأمة الجمعة من غير أن يكلمهم إلى اجتهداهم فضلاً منه ونعمة. ووجه اتصال هذه الآية بما قبلها أن اليهود كانوا يزعمون أن السبت من شرائع إبراهيم، فأخبر الله سبحانه أنه إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه ولم يجعله على إبراهيم ولا على غيره ﴿وإن ربك ليحكم بينهم﴾ أي: بين المختلفين فيه ﴿يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ فيجازي كلا فيه بما يستحقه ثواباً وعقاباً، كما وقع منه سبحانه من المسخ لطائفة منهم والنجية لأخرى، ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يدعو أمته إلى الإسلام فقال ﴿ادع إلى سبيل ربك﴾ وحذف المفعول للتعميم لكونه يبعث إلى الناس كافة، وسبيل الله هو الإسلام ﴿بالحكمة﴾ أي: بالمقالة المحكمة الصحيحة، قيل: وهي الحج القطعية المفيدة لليقين ﴿والموعظة الحسنة﴾ وهي المقالة المشتملة على الموعظة الحسنة التي يستحسنها السامع وتكون في نفسها حسنة باعتبار انتفاع السامع بها. قيل: وهي الحج الظنية الإقناعية الموجبة للتصديق بمقدمات مقبولة؛ قيل: وليس للدعوة إلا هاتان الطريقتان، ولكن الداعي قد يحتاج مع الخصم الأدل إلى استعمال المعارضة والمناقضة ونحو ذلك من الجدل، ولهذا قال سبحانه: ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ أي: بالطريق التي هي أحسن طرق المجادلة، وإنما

له: كذبت. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن الحسن في قوله: ﴿وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك﴾ قال: في سورة الأنعام. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة مثله، وقال حيث يقول: ﴿وعلى الذين هادوا﴾ إلى قوله: ﴿وإنما لصالحون﴾ [الأنعام: 146].

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٠﴾ نَاجِرًا لِّأَسْمَائِهِ أَجْنَبًا وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٣١﴾ وَمَآ تَنَّبَتْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَئِنَّ فِي الآخِرَةِ لَكِنَ الْفَتَلِينَ ﴿١٣٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ ائْتَمَلُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٣٤﴾ أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ صَلَ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنْتَهِينَ ﴿١٣٥﴾ وَإِنَّ عَاقِبَتَهُمْ لَءَفْوَافِرٌ يَمْشُونَ مَا مَرْغَبُكَ مِنْ صِرَاطٍ هُوَ خَيْرٌ لِّلصَّالِحِينَ ﴿١٣٦﴾ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي شَيْءٍ مِّمَّا يَتَكَبَّرُونَ ﴿١٣٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٣٨﴾

لما فرغ سبحانه من دفع شبه المشركين وإبطال مطاعنهم، وكان إبراهيم عليه السلام من الموحدين وهو قدوة كثير من النبيين نكره الله في آخر هذه السورة فقال: ﴿إن إبراهيم كان أمة﴾ قال ابن الأعرابي: يقال للرجل العالم أمة، والأمة الرجل الجامع للخير. قال الواحدي: قال أكثر أهل التفسير: أي معلماً للخير، وعلى هذا فمعنى كون إبراهيم كان أمة أنه كان معلماً للخير أو جامعاً لخصال الخير أو عالماً بما علمه الله من الشرائع؛ وقيل: أمة بمعنى مأموم أي: يؤمه الناس لياخذوا منه الخير كما قال سبحانه: ﴿إنني جاعلك للناس إماماً﴾ [البقرة: 124] والقانت المطيع، وقد تقدّم بيان معاني القنوت في البقرة، والحنيف للمائل عن الأديان الباطلة إلى دين الحق، وقد تقدّم بيانه في الأنعام. ﴿ولم يك من المشركين﴾ بالله كما تزعمه كفار قريش أنه كان على دينهم الباطل ﴿شاكراً لأنعمه﴾ التي أنعم الله بها عليه وإن كانت قليلة كما يدل عليه جمع القلة فهو شاكر لما كثر منها بالأولى ﴿لجنته﴾ أي: اختاره للنبوّة واختصه بها ﴿وهده إلى صراط مستقيم﴾ وهو ملة الإسلام ودين الحق ﴿وأتيناه في النبويا حسنة﴾ أي: خصلة حسنة أو حالة حسنة؛ وقيل هي الولد الصالح؛ وقيل: الثناء الحسن؛ وقيل: النبوّة؛ وقيل: الصلاة منا عليه في التشهد؛ وقيل: هي أنه يتولاه جميع أهل الأديان، ولا مانع أن يكون ما أتاه الله شاملاً لذلك كله ولما عده من خصال الخير ﴿وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ حسبما وقع منهم السؤال لربه حيث قال: ﴿والحقتي بالصالحين﴾ واجعل لي لسان صدق في الآخرين * واجعلني من ورثة جنة النعيم. [الشعراء: 83 - 85]. ﴿ثم أوحينا إليك﴾ يا محمد مع علوّ درجتك وسموّ منزلتك وكونك سيد ولد آدم ﴿أن تتبع ملة

والقيام بما أمروا بها منها؛ وقيل: المعنى إن الله مع الذين اتقوا الزيادة في العقوبة، والذين هم محسنون في أصل الانتقام فيكون الأوّل إشارة إلى قوله: ﴿فَعَقِبُوا بِمَثَلِ مَا عَاقَبْتُمْ بِهِ﴾ والثاني إشارة إلى قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾، وقيل: ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ إشارة إلى التعظيم لأمر الله ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ إشارة إلى الشفقة على عباد الله تعالى.

وقد أخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد، بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مروي عن ابن مسعود: أنه سئل عن الأمة ما هي؟ فقال: الذي يعلم الناس الخير، قالوا: فما القانت؟ قال: الذي يطيع الله ورسوله. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ﴾ قال: كان على الإسلام ولم يكن في زمانه من قومه أحد على الإسلام غيره، فلذلك قال الله: ﴿كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ﴾. وأخرج ابن المنذر عنه في قوله: ﴿كَانَ أُمَّةً﴾ قال: إماماً في الخير ﴿قَانِتًا﴾ قال: مطيعاً. وأخرج ابن مروي عن انس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد تشهد له أمة إلا قبل الله شهادتهم. والأمة: الرجل فما فوقه، إن الله يقول ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ والأمة الرجل فما فوقه». وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مروي، والبيهقي عن ابن عمر قال: صلى جبريل بإبراهيم الظهر والعصر بعرفات، ثم وقف حتى إذا غابت الشمس نفع به، ثم صلى المغرب والعشاء بجمع ثم صلى الفجر به كاسرع ما يصلي أحكم من المسلمين ثم وقف به حتى إذا كان كابطاً ما يصلي أحد من المسلمين نفع به. ثم رمى الجمرة ثم نبح ثم حلق ثم أقاض به إلى البيت فطاف به، فقال الله لنبيه: ﴿ثُمَّ لَوْحِينَا إِلَيْكَ أَنْ تَبْعَ مَلَأَ إِبْرَاهِيمَ حَنِينًا﴾. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿إِنَّمَا جَعَلَ السَّبَبَ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ قال: أراد الجمعة فأخذوا السبب مكانها. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن طريق السدي عن أبي مالك وسعيد بن جبير في الآية قال: باستحلالهم إياه، رأى موسى رجلاً يحمل حطباً يوم السبت فضرب عنقه، وفي الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم. ثم هذا يومهم الذي فرض عليهم يعني: الجمعة، فاختلّفوا فيه فهدانا الله له فلاناس فيه لنا تبع، اليهود غداً والنصارى بعد غده». وأخرج مسلم وغيره من حديث حنيفة نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿وَجَاءَ لَهُمْ بِالْبَاقِ هِيَ أَحْسَنُ﴾ قال: أعرض عن أذاهم إليك. وأخرج الترمذي وحسنه، وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند، والنسائي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن خزيمة في الفوائد، وابن

أمر سبحانه بالمجالبة الحسنة لكون الداعي محقاً وغرضه صحيحاً، وكان خصمه مبطلاً وغرضه فاسداً ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ لما حث سبحانه على الدعوة بالطرق المذكورة بيّن أن الرشد والهداية ليس إلى النبي ﷺ وإنما ذلك إليه تعالى فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ﴾ أي: هو العالم بمن يضل ومن يهتدي ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ أي: بمن يبصر الحق فيقصده غير متعنت، وإنما شرع لك الدعوة وأمرك بها قطعاً للمعذرة وتتميماً للحجة وإزالة للشبهة، وليس عليك غير ذلك، ثم لما كانت الدعوة تتضمن تكليف المدعوين بالرجوع إلى الحق فإن أبوا قوتلوا، أمر الداعي بأن يعدل في العقوبة فقال: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ أي: أرتب المعاقبة ﴿فَعَقِبُوا بِمَثَلِ مَا عَاقَبْتُمْ بِهِ﴾ أي: بمثل ما فعل بكم لا تجاوزوا ذلك. قال ابن جرير: أنزلت هذه الآية فيمن أصيب بظلامه أن لا ينال من ظالمه إذا تمكن إلا مثل ظلامته لا يتعداها إلى غيرها، وهذا صواب، لأن الآية وإن قيل إن لها سبباً خاصاً كما سيأتي، فالاعتبار بعموم اللفظ، وعمومه يؤدّي هذا المعنى الذي نكره، وسمى سبحانه الفعل الأوّل الذي هو فعل البادئ بالشر عقوبة، مع أن العقوبة ليست إلا فعل الثاني وهو المجازي للمشكلة. وهي باب معروف وقع في كثير من الكتاب العزيز. ثم حث سبحانه على العفو فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ أي: لئن صبرتم عن المعاقبة بالممثل فالصبر خير لكم من الانتصاف، ووضع الصابرين موضع الضمير، ثناء من الله عليهم بأنهم صابرون على الشدائد. وقد ذهب الجمهور إلى أن هذه الآية محكمة لأنها واردة في الصبر عن المعاقبة والثناء على الصابرين على العموم، وقيل: هي منسوخة بآيات القتال، ولا وجه لذلك. ثم أمر الله سبحانه رسوله بالصبر فقال: ﴿وَاصْبِرْ﴾ على ما أصابك من صنوف الأذى ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ أي: بتوقيفه وتثبيتته، والاستثناء مفرغ من أعم الأشياء أي: وما صبرك مصحوباً بشيء من الأشياء إلا بتوقيفه لك، وفيه تسليّة للنبي ﷺ. ثم نهاه عن الحزن فقال: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على الكافرين في إعراضهم عنك، أو لا تحزن على قتلى أحد، فإنهم قد أقضوا إلى رحمة الله. ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ قرأ الجمهور بفتح الضاد، وقرأ ابن كثير بكسرها. قال ابن السكيت: هما سواء، يعني: المفتوح والمكسور. وقال الفراء: الضيق بالفتح ما ضاق عنه صدرك، والضيق بالكسر ما يكون في الذي يتسع مثل الدار والثوب، وكذا قال الأخفش، وهو من الكلام المقلوب، لأن الضيق وصف للإنسان يكون فيه ولا يكون الإنسان فيه، وكأنه أراد وصف الضيق بالعظم حتى صار كالشيء المحيط بالإنسان من جميع جوانبه، ومعنى مما يَمْكُرُونَ: من مكروهم لك فيما يستقبل من الزمان. ثم ختم هذه السورة بأية جامعة لجميع المأمورات والمنهيات فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أي: اتقوا المعاصي على اختلاف أنواعها ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ بتأدية الطاعات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُنَّ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَوَحَّيْنَاهُ هُنَا لِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّا نَخْلُقُ مَا يَشَاءُونَ مِنْ دُخَانٍ فَصَبِّحُوا لَهُ وَلَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ شَاكِرِينَ ﴿٢﴾

قوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ هو مصدر سبح، يقال: سبح يسبح تسبيحاً وسبحاناً، مثل كفر اليمين تكفيراً وكفراناً، ومعناه التنزيه والبراءة لله من كل نقص. وقال سيبويه: العامل فيه فعل لا من لفظه، والتقدير أنزه الله تنزيهاً، فوقع سبحان مكان تنزيهاً، فهو على هذا مثل قعد القرفصاء واشتمل الصماء؛ وقيل: هو علم للتسبيح كعثمان للرجل، وانتصابه بفعل مضمّر متروك إظهاره تقديره أسبح الله سبحان، ثم نزل منزلة الفعل وسدّ مسدّه، وقد قلّمنا في قوله: ﴿سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا﴾ [البقرة: 32]. طرّقاً من الكلام المتعلق بسبحان. والإسراء قيل: هو سير الليل، يقال: سرى وأسرى، كسقى وأسقى لغتان، وقد جمع بينهما الشاعر في قوله:

حي النضير وردية الخدر أسرت إلي ولم تكن تسري
وقيل هو سير أوّل الليل خاصة، وإذا كان الإسراء لا يكون إلا في الليل فلا بدّ للتصريح بنكر الليل بعده من فائدة، فقيل: أراد بقوله ليلًا تقليل مدة الإسراء وأنه أسرى به في بعض الليل من مكة إلى الشام مسافة أربعين ليلة. ووجه دلالة ليلًا على تقليل المدة ما فيه من التذكير الدالّ على البعضية، بخلاف ما إذا قلت: سريت الليل فإنه يفيد استيعاب السير له جميعاً. وقد استدلل صاحب الكشاف على إفادة ليلًا للبعضية بقراءة عبد الله وحذيفة (من الليل). وقال الزجاج: معنى أسرى بعبد ليلًا سير عبده يعني: محمداً ليلًا، وعلى هذا فيكون معنى أسرى معنى سير فيكون للتقدير بالليل فائدة، وقال: بعبد ولم يقل: بنبيه أو رسوله أو بمحمد تشريعاً له ﷺ. قال أهل العلم: لو كان غير هذا الاسم أشرف منه لسماه الله سبحانه به في هذا المقام العظيم والحالة العلية:

لا تدعني لإبباعيها فإنه لشرف أسمائي
ادعاء بأسماء نبأ في قبائلها كان أسماء أضحت بعض أسمائي
﴿من المسجد الحرام﴾ قال الحسن وقتادة: يعني المسجد نفسه وهو ظاهر القرآن. وقال عامة المفسرين: أسرى برسول الله ﷺ من دار أم هانئ، فحملوا المسجد الحرام على مكة أو الحرم لإحاطة كل واحد منهما بالمسجد الحرام، أو لأن الحرم كله مسجد. ثم نكر سبحانه الغاية التي أسرى برسوله ﷺ إليها فقال: ﴿إلى المسجد الأقصى﴾ وهو بيت المقدس، وسمي الأقصى لبعده المسافة بينه وبين المسجد الحرام ولم يكن حينئذ وراءه مسجد، ثم وصف المسجد الأقصى بقوله: ﴿الذي باركنا حوله﴾ بالثمار والأنهار والأنبياء والصالحين، فقد بارك الله سبحانه حول

حبان، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مريويه، والبيهقي في الدلائل، والضياء في المختارة عن أبي بن كعب قال: لما كان يوم أحد أصيب من الأنصار أربعة وستون رجلاً، ومن المهاجرين ستة منهم حمزة فمئلوا بهم، فقلت الأنصار: لئن أصبنا منهم يوماً مثل هذا لنربين عليهم، فلما كان يوم فتح مكة أنزل الله تعالى: ﴿وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصائرين﴾ فقال رسول الله ﷺ: «نصبر ولا نعاقب، كفوا عن القوم إلا أربعة». وأخرج ابن سعد، والبخاري، وابن المنذر، والطبراني، والحاكم وصححه، وأبو نعيم في المعرفة، وابن مريويه، والبيهقي في الدلائل عن أبي هريرة: «أن النبي ﷺ وقف على حمزة حيث استشهد، فنظر إلى منظر لم ينظر إلى شيء قط كان أوجع لقلبه منه، ونظر إليه قد مثل به، فقال: رحمة الله عليك، فإنك كنت ما علمت وصلاً للرحم فعولاً للخير، ولو لا حزن من بعك عليك لسرني أن أتركك حتى يحشرك الله من أرواح شتى، أما والله لأمثلن بسبعين منهم مكانك، فنزل جبريل والنبي ﷺ واقف بخواتيم سورة النحل ﴿وإن عاقبتهم﴾ الآية، فكفر النبي ﷺ عن يمينه وأمسك عن الذي أراد وصبر». وأخرج ابن المنذر، والطبراني، وابن مريويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس مرفوعاً نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن مريويه عن ابن عباس في قوله: ﴿وإن عاقبتهم﴾ الآية، قال: هذا حين أمر الله نبيه أن يقتل من قاتله، ثم نزلت براءة وانسلاخ الأشهر الحرم فهذا منسوخ. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الحسن في قوله: ﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾ قال: اتقوا فيما حرم عليهم وأحسنوا فيما افترض عليهم.

تفسير سورة الإسراء

قوله عز وجل: ﴿وإن كانوا يستفزونك﴾ [الإسراء: 76] نزلت حين جاء رسول الله ﷺ وفد ثقيف، وحين قالت اليهود: ليست هذه بأرض الأنبياء، وقوله: ﴿وقل رب أسألني مدخل صدق﴾ [الإسراء: 80] وقوله: ﴿إن ريك أحاط بالناس﴾ [الإسراء: 60]، وزاد مقاتل قوله: ﴿إن الذين أوتوا العلم من قبلة﴾ [الإسراء: 107]. وأخرج النحاس، وابن مريويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة بني إسرائيل بمكة. وأخرج ابن مريويه عن ابن الزبير مثله. وأخرج البخاري، وابن الضريس، وابن مريويه عن ابن مسعود قال: في بني إسرائيل والكهف ومريم، إنهن من العتاق الأول وهن من تلاميذ. وأخرج أحمد، والترمذي، وحسنه، والنسائي، والحاكم، وابن مريويه، عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يقرأ كل ليلة بني إسرائيل والزمر. وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي عمرو الشيباني قال: صلى بنا عبد الله الفجر قرأ السورتين الأخيرة منهما بنو إسرائيل.

باربع، ولم تفرض الصلاة إلا ليلة الإسراء. وقد استدل بهذا ابن عبد البر على ذلك، وقد اختلفت الرواية عن الزهري. ومن قال بأن الإسراء كان قبل الهجرة بسنة الزهري في رواية عنه، وكذلك الحربي فإنه قال: أسري بالنبي ﷺ ليلة سبع وعشرين من ربيع الأول قبل الهجرة بسنة. وقال ابن القاسم في تاريخه: كان الإسراء بعد مبعثه بثمانية عشر شهراً. قال ابن عبد البر: لا أعلم أحداً من أهل السير قال بمثل هذا. وروي عن الزهري أنه أسري به قبل مبعثه بسبعة أعوام، وروي عنه أنه قال: كان قبل مبعثه بخمس سنين. وروي يونس عن عروة عن عائشة أنها قالت: توفيت خديجة قبل أن تفرض الصلاة.

«وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ» أي: التوراة، قيل: والمعنى كَرَّمْنَا محمداً بالمعراج وأكرمنا موسى بالكتاب **«وَجَعَلْنَاهُ»** أي: ذلك الكتاب؛ وقيل: موسى **«هَذَا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ»** يهتدون به **«أَنْ لَا تَتَخَنَوْا»**. قرأ أبو عمر بالياء التحتية، وقرأ الباقون بالفوقية أي: لئلا يتخنوا. والمعنى: أتينا الكتاب لهداية بني إسرائيل لئلا يتخنوا **«مَنْ دُونِي وَكَيْلًا»** قال الفراء: أي كفيلاً بأمرهم، وروي عنه أنه قال: كافيًا؛ وقيل: أي متوكلون عليه في أمورهم، وقيل: شريكاً، ومعنى الوكيل في اللغة من توكل إليه الأمور **«ذرية من حملنا مع نوح»** نصب على الاختصاص أو النداء، نكرم سبحانه إنعامه عليهم في ضمن إنجاء آبائهم من الغرق، ويجوز أن يكون المفعول الأول لقوله **«أَنْ لَا تَتَخَنَوْا»** أي: لا تتخنوا ذرية من حملنا مع نوح من نوني وكيلًا كقوله: **«وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَخَنُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا»** [آل عمران: 80]. وقرئ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أو بدل من فاعل تتخنوا، وقرأ مجاهد بفتح الذال، وقرأ زيد بن ثابت بكسرهما، والمراد بالذرية هنا جميع من في الأرض لأنهم من ذرية من كان في السفينة؛ وقيل: موسى وقومه من بني إسرائيل وهذا هو المناسب لقراءة النصب على النداء والنصب على الاختصاص، والرفع على البدل وعلى الخبر فإنها كلها راجعة إلى بني إسرائيل المذكورين، وأما على جعل النصب على أن ذرية هي المفعول الأول لقوله **«لَا تَتَخَنَوْا»**، فالأولى تفسير الذرية بجميع من في الأرض من بني آدم **«إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا»** أي: نوحاً، وصفه الله بكثرة الشكر وجعله كالعلة لما قبله إذ إذاً يكون الشكر من أعظم أسباب الخير، ومن أفضل الطاعات حثاً لذريته على شكر الله سبحانه.

وقد أخرج ابن مردويه عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، قال: أسري بالنبي ﷺ ليلة سبع عشرة من شهر ربيع الأول قبل الهجرة بسنة. وأخرج البيهقي في الدلائل عن ابن شهاب قال: أسري برسول الله ﷺ إلى بيت المقدس قبل خروجه إلى المدينة بسنة. وأخرج البيهقي عن عروة مثله. وأخرج البيهقي أيضاً عن السدي قال: أسري برسول الله ﷺ قبل مهاجرة بسنة عشر شهراً. وأخرج ابن أبي

المسجد الأقصى ببركات الدنيا والآخرة، وفي باركننا بعد قوله أسري التفات من الغيبة إلى التكلم. ثم ذكر العلة التي أسرى به لاجلها فقال: **«لَنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا»** أي: ما أراه الله سبحانه في تلك الليلة من العجائب التي من جعلتها قطع هذه المسافة الطويلة في جزء من الليل **«إِنَّهُ»** سبحانه **«هُوَ السَّمِيعُ»** بكل مسموع، ومن جملة ذلك قول رسوله ﷺ **«الْبَصِيرُ»** بكل مبصر، ومن جملة ذلك ذات رسوله وأفعاله.

وقد اختلف أهل العلم هل كان الإسراء بجسده ﷺ مع روحه أو بروحه فقط؛ فذهب معظم السلف والخلف إلى الأول، وذهب إلى الثاني طائفة من أهل العلم منهم عائشة، ومعاوية، والحسن، وابن إسحاق، وحكاها ابن جرير عن حنيفة بن اليمان، وذهبت طائفة إلى التفصيل فقالوا: كان الإسراء بجسده يقظة إلى بيت المقدس وإلى السماء بالروح، واستلبوا على هذا التفصيل بقوله: **«إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى»**، فجعله غاية للإسراء بذاته ﷺ، فلو كان الإسراء من بيت المقدس إلى السماء وقع بذاته لذكره، والذي يلت عليه الأحاديث الصحيحة الكثيرة هو ما ذهب إليه معظم السلف والخلف من أن الإسراء بجسده وروحه يقظة إلى بيت المقدس، ثم إلى السموات، ولا حاجة إلى التأويل وصرف هذا النظم القرآني وما يماثله من الفاظ الأحاديث إلى ما يخالف الحقيقة، ولا مقتضى لذلك إلا مجرد الاستبعاد وتحكيم محض العقول القاصرة عن فهم ما هو معلوم من أنه لا يستحيل عليه سبحانه شيء، ولو كان ذلك مجرد رؤيا كما يقوله من زعم أن الإسراء كان بالروح فقط، وأن رؤيا الأنبياء حق لم يقع التكنيب من الكفرة للنبي ﷺ عند إخباره لهم بذلك حتى ارتد من ارتد ممن لم يشرح بالإيمان صدرًا، فإن الإنسان قد يرى في نومه ما هو مستبعد، بل ما هو محال ولا ينكر ذلك أحد؛ وأما التمسك لمن قال بأن هذا الإسراء إنما كان بالروح على سبيل الرؤيا بقوله: **«وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ»** [الإسراء: 60] فعلى تسليم أن المراد بهذه الرؤيا هو هذا الإسراء فالتصريح الواقع هنا بقوله: **«سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا»** والتصريح في الأحاديث الصحيحة الكثيرة بأنه أسرى به لا تقتصر عن الاستدلال بها على تأويل هذه الرؤيا الواقعة في الآية برؤية العين، فإنه قد يقال لرؤية العين رؤيا، وكيف يصح حمل هذا الإسراء على الرؤيا مع تصريح الأحاديث الصحيحة بأن النبي ﷺ ركب البراق؛ وكيف يصح وصف الروح بالركوب؛ وهكذا كيف يصح حمل هذا الإسراء على الرؤيا مع تصريحه ﷺ بأنه كان عند أن أسري به بين النائم واليقظان.

وقد اختلف أيضاً في تاريخ الإسراء، فروي أن ذلك كان قبل الهجرة إلى المدينة بسنة. وروي أن الإسراء كان قبل الهجرة بأعوام. ووجه ذلك أن خديجة صلت مع النبي ﷺ وقد ماتت قبل الهجرة بخمس سنين، وقيل: بثلاث؛ وقيل:

لهم في التوراة، والمراد بالأرض أرض الشام وبيت المقدس؛ وقيل: أرض مصر، واللام في لتفسدن جواب قسم محذوف. قال النيسابوري: أو أجري القضاء المبتوت مجرى القسم كانه قيل: واقسمنا لتفسدن. وانتصاب ﴿مرتين﴾ على أنه صفة مصدر محذوف، أو على أنه في نفسه مصدر عمل فيه ما هو من غير جنسه، والمرة الأولى قتل شعيا أو حبس أرمياء أو مخالفة أحكام التوراة، والثانية قتل يحيى بن زكريا والعزم على قتل عيسى ﴿ولتعلن علواً كبيراً﴾ هذه اللام كاللام التي قبلها أي: لتستكبرن عن طاعة الله ولتستعلن على الناس بالظلم والبغي مجاوزين للحد في ذلك ﴿فلذا جاء وعد أولاهما﴾ أي: أولى المرتين المذكورتين ﴿نبعثنا عليكم عبداً لنا أولي بأس شديد﴾ أي: قوة في الحروب وبطش عند اللقاء. قيل: هو بختنصر وجنوده؛ وقيل: جالوت؛ وقيل: جند من فارس؛ وقيل: جند من بابل ﴿فجاسوا خلال الديار﴾ أي: عاثوا وتردوا، يقال: جاسوا وهاسوا وداسوا بمعنى، نكروا ابن غريب والقتيبي. قال الزجاج: معناه طافوا خلال الديار هل بقي أحد لم يقتلوه؟ قال: والجوس طلب الشيء باستقصاء. قال الجوهري: الجوس مصدر قولك جاسوا خلال الديار أي: تخلوها كما يجوس الرجل للأخبار أي: يطلبها، وكذا قال أبو عبيدة. وقال: ابن جرير: معنى جاسوا طافوا بين الديار يطلبونهم ويقتلونهم ذاهبين وجلئين. وقال الفراء: معناه قتلوهم بين بيوتهم وأنشد لصان:

ومنا الذي لاقي بسيف محمد فجالس به الأعداء عرض العساكر
وقال قطرب: معناه نزلوا. وأنشد قول الشاعر:

فجسنا ليارهم عنوة وأبنا بساداتهم موثقين

وقرأ ابن عباس (فجاسوا) بالحاء المهملة. قال أبو زيد: الحوس والجوس والعوس والهوس: الطوف بالليل، وقيل: الطوف بالليل هو الجوسان محرراً، كذا قال أبو عبيدة. وقرئ (خلل الديار) ومعناه معنى خلال وهو وسط الديار ﴿وكان﴾ ذلك ﴿وعداً مفعولاً﴾ أي: كائنات لا محالة ﴿ثم ردنا لكم الكرة عليهم﴾ أي: الدولة والغلبة والرجعة وذلك عند توبتهم. قيل: وذلك حين قتل داود جالوت، وقيل: حين قتل بختنصر ﴿وامدناكم بأموال وينين﴾ بعد نهب أموالكم وسبي أبنائكم حتى عاد أمركم كما كان ﴿ووجعناكم أكثر نفيراً﴾ قال أبو عبيدة: النفير العدد من الرجال؛ فالمعنى: أكثر رجالاً من عدوكم، والنفير من ينفر مع الرجل من عشيرته، يقال: نفير ونافر مثل قدير وقدر، ويجوز أن يكون النفير جمع نفر ﴿إن أحسنتم﴾ أي: أفعالكم وأقوالكم على الوجه المطلوب منكم ﴿لأحسنتم لأنفسكم﴾ لأن ثواب ذلك عائد إليكم ﴿وإن أساتم﴾ أفعالكم وأقوالكم فأوقعتموها لا على الوجه المطلوب منكم ﴿فلها﴾ أي: فعليتها. ومثله قول الشاعر:

فخر صريعاً لليدين وللغم

أي: على اليدين وعلى الغم. قال ابن جرير: اللام بمعنى

حاتم عن السدي في قوله: ﴿الذي باركنا حوله﴾ قال: أتبتنا حوله الشجر. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿واتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل﴾ قال: جعله الله هدى يخرجهم من الظلمات إلى النور وجعله رحمة لهم. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿الآن اتخذوا من دوني كيبلاً﴾ قال: شريكاً. وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿نزية من حملنا مع نوح﴾ قال: هو على النداء يا نزية من حملنا مع نوح. وأخرج ابن مريويه عن عبد الله بن زيد الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿نزية من حملنا مع نوح، ما كان مع نوح إلا أربعة أولاد: حام، وسام، ويافث، وكوش، فذلك أربعة أولاد انتسلوا هذا الخلق.﴾ وأعلم أنه قد أطل كل من المفسرين كابن كثير والسيوطي وغيرهما في هذا الموضع بذكر الأحاديث الواردة في الإسراء على اختلاف ألفاظها، وليس في ذلك كثير فائدة، فهي معروفة في موضعها من كتب الحديث، وهكذا أطلوا بذكر فضائل المسجد الحرام والمسجد الأقصى، وهو مبحث آخر، والمقصود في كتب التفسير ما يتعلق بتفسير ألفاظ الكتاب العزيز، وذكر أسباب النزول، وبيان ما يؤخذ منه من المسائل الشرعية، وما عدا ذلك فهو فضلة لا تدعو إليه حاجة.

وَقَفَّيْنَا لَكَ فِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿١﴾ فَلَمَّا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴿٢﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَوْكَبَ عَلَيْهِمْ وَأَوْدَعْنَاهُمْ فِي الْأَنْجَارِ وَأَتَوْنَا نَقَبَاتِهِمْ فَأَرْسَلْنَا رِجَالَنَا لِيُخْرِجُوهُمْ مِنْ أَسْنَمِهِمْ لِيُفْشِرُوا فِي الْأَرْضِ يُسَبِّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَأَنْتُمْ كَاذِبُونَ ﴿٣﴾ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٤﴾ عَنِ الرَّجُلِ إِنْ يَحْمِلْ كُرْسِيُّكَ إِنْ عَظَمْتَ عَلَيْنَا وَحَمَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَوِيرًا ﴿٥﴾ إِنَّ هَذَا الْقَوْمَ يَكُونُ لِيَ لِيَوْمِ الْحَكِيمِ ﴿٦﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَتَيْنَاهُم مِمَّا أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٧﴾ وَيَعْنِي الْإِنْسَانَ بِالْخَرِّ دَعَاهُ وَالْخَرُّ كَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴿٨﴾

قوله: ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب﴾ أي: أعلمنا وأخبرنا، أو حكمنا وأتممنا، وأصل القضاء: الإحكام للشيء والفراغ منه؛ وقيل: أوحينا، ويدل عليه قوله: ﴿إلى بني إسرائيل﴾، ولو كان بمعنى الإعلام والإخبار لقال قضينا بني إسرائيل، ولو كان بمعنى حكمنا لقال على بني إسرائيل، ولو كان بمعنى أتممنا لقال لبني إسرائيل، والمراد بالكتاب: التوراة، ويكون إنزالها على نبيه موسى كإنزالها عليهم لكونهم قومه؛ وقيل: المراد بالكتاب اللوح المحفوظ. وقرأ أبو العالية وسعيد بن جبير (في الكتب). وقرأ عيسى الثقفي (لتفسدن في الأرض) بفتح المثناة، ومعنى هذه القراءة قريب من معنى قراءة الجمهور، لأنهم إذا أفسدوا فسدوا في نفوسهم، والمراد بالفساد مخالفة ما شرعه الله

للمؤمنين ﴿قَرَأَ حَمْزَةً وَالْكَسَاثِي (يَبْشُر) بَفَتْحِ الْيَاءِ وَضَمِ الشَّيْنِ. وَقَرَأَ الْبَاقُونَ بِضَمِ الْيَاءِ وَكَسَرَ الشَّيْنِ مِنَ التَّبْشِيرِ أَي: يَبْشُرُ بِمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْوَعْدِ بِالْخَيْرِ أَجْلاً وَعَاجِلاً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ الَّتِي أُرْشِدُ إِلَى عَمَلِهَا الْقُرْآنُ ﴿أَنَّ لَهُمْ لَجْراً كَبِيراً﴾ أَي: بَأَنَّ لَهُمْ ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ وَأَحْكَامُهَا الْمَبِينَةُ فِي الْقُرْآنِ ﴿اعْتَنَيْنَا لَهُمْ عَذَاباً لَئِيماً﴾ وَهُوَ عَذَابُ النَّارِ، وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ مَعْطُوفَةٌ عَلَى جُمْلَةٍ يَبْشُرُ بِتَقْدِيرٍ يَخْبِرُ أَي: وَيَخْبِرُ بِأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ؛ وَقِيلَ: مَعْطُوفَةٌ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿أَنَّ لَهُمْ لَجْراً كَبِيراً﴾، وَيَرَادُ بِالتَّبْشِيرِ مُطْلَقُ الْإِخْبَارِ، أَوْ يَكُونُ الْمُرَادُ مِنْهُ مَعْنَاهُ الْحَقِيقِيُّ، وَيَكُونُ الْكَلَامُ مُشْتَمِلاً عَلَى تَبْشِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِبِشَارَتَيْنِ: الْأُولَى مَا لَهُمْ مِنَ الثَّوَابِ، وَالثَّانِيَةِ مَا لِعَادَتِهِمْ مِنَ الْعِقَابِ ﴿وَيُودِعُ الْإِنْسَانَ بِالْشَّرِّ﴾ الْمُرَادُ بِالْإِنْسَانِ هُنَا الْجِنْسُ لَوُقُوعِ هَذَا الدَّعَاءِ مِنْ بَعْضِ أَقْرَانِهِ، وَهُوَ دَعَاءُ الرَّجُلِ عَلَى نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ عِنْدَ الضَّجَرِ بِمَا لَا يَحِبُّ أَنْ يَسْتَجَابَ لَهُ ﴿دُعَاةُ بِالْخَيْرِ﴾ أَي: مِثْلُ دُعَائِهِ لِرَبِّهِ بِالْخَيْرِ لِنَفْسِهِ وَلِأَهْلِهِ كَطَلْبِ الْعَاقِبَةِ وَالرِّزْقِ وَنَحْوِهِمَا، فَلَوْ اسْتَجَابَ اللَّهُ دُعَاءَهُ عَلَى نَفْسِهِ بِالْشَّرِّ هَلَكَ، لَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَجِبْ تَفَضُّلاً مِنْهُ وَرَحْمَةً، وَمِثْلُ ذَلِكَ ﴿وَلَوْ يَعْبُدُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ﴾ [يُونُس: 11]. وَقَدْ تَقَدَّمَ؛ وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالْإِنْسَانِ هُنَا الْقَائِلُ هَذِهِ الْمَقَالَةُ هُوَ الْكَافِرُ يَدْعُو لِنَفْسِهِ بِالْشَّرِّ، وَهُوَ اسْتَعْجَالُ الْعَذَابِ دُعَاءُ بِالْخَيْرِ كَقَوْلِ الْقَائِلِ: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَامْطُرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْنَتَا بَعْدَ الْيَمِّ﴾ [الْأَنْفَال: 32]. وَقِيلَ: هُوَ أَنْ يَدْعُو فِي طَلْبِ الْمَحْظُورِ كَدُعَائِهِ فِي طَلْبِ الْمَبَاحِ، وَحَذَفَتْ الْوَاوُ مِنْ وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ فِي رَسْمِ الْمَصْحَفِ لَعَدَمِ التَّلَفُّظِ بِهَا لَوُقُوعِ اللَّامِ السَّاكِنَةِ بَعْدَهَا كَقَوْلِهِ: ﴿سُدْنُ الْزِيَانِيَةِ﴾ [الْمَلِك: 18]. ﴿وَيَمِحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾ [الشُّورَى: 146] ﴿وَسَوْفَ يُوْثِقُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النِّسَاء: 24] وَنَحْوَ ذَلِكَ. ﴿وَوَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولاً﴾ أَي: مَطْبُوعاً عَلَى الْعَجَلَةِ، وَمَنْ عَجَلَتْهُ أَنَّهُ يَسْأَلُ الشَّرَّ كَمَا يَسْأَلُ الْخَيْرَ؛ وَقِيلَ: إِشَارَتُهُ إِلَى أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ نَهَضَ قَبْلَ أَنْ تَكْمَلَ فِيهِ الرُّوحُ، وَالْمُنَاسِبُ لِلسِّيَاقِ هُوَ الْأَوَّلُ.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ قَالَ: أَعْلَمْنَاهُمْ. وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْهُ قَالَ: أَخْبَرَنَاهُمْ. وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْهُ أَيْضاً ﴿قَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾: قَضَيْنَا عَلَيْهِمْ. وَأَخْرَجَ ابْنُ عَسْكَرٍ فِي تَارِيخِهِ عَنْ عَلِيٍّ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَتَفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ قَالَ: الْأُولَى قَتْلُ زَكَرِيَّا، وَالْآخِرَةُ قَتْلُ يَحْيَى. وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ فِي الْآيَةِ قَالَ: كَانَ أَوَّلُ الْفَسَادِ قَتْلُ زَكَرِيَّا، فَبَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَلَكَ النَّبِطِ، ثُمَّ لَزِمَ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَجَهُّزُوا فَغَزَوْا النَّبِطَ فَصَانَبُوا مِنْهُمْ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿فَرَدَيْنَا لَكُمْ لُكْرَهُ عَلَيْهِمْ﴾. وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: بَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فِي الْأُولَى جَالُوتَ، وَبَعَثَ عَلَيْهِمْ فِي

إِلَى أَي: فَالْيَا بِمَا تَرْجِعُ الْإِسَاءَةَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَانَ رَبُّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ [الزَّلْزَلَةُ: 5] أَي: إِلَيْهَا؛ وَقِيلَ: الْمَعْنَى فَلَهَا الْجَزَاءُ أَوْ الْعِقَابُ. وَقَالَ الْحُسَيْنُ بْنُ الْفَضْلِ: فَلَهَا رَبُّ يَغْفِرُ الْإِسَاءَةَ، وَهَذَا الْخَطَابُ قِيلَ هُوَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْمَلَابِثِينَ لَمَّا نَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ، وَقِيلَ: لِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْكَاسَنِينَ فِي زَمَنِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَمَعْنَاهُ: إِعْلَامُهُمْ مَا حَلَّ بِسَلَفِهِمْ فَلْيَرْتَقِبُوا مِثْلَ ذَلِكَ، وَقِيلَ: هُوَ خُطَابٌ لِمَشْرُكِي قُرَيْشٍ ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ أَي: حَضَرَ وَقْتُ مَا وَعَدُوا مِنْ عِقَابِ الْعَمَلِ الْآخِرَةِ، وَالْمَرَّةُ الْآخِرَةُ هِيَ قَتْلُهُمْ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا كَمَا سَبَقَ، وَقِصَّةُ قَتْلِهِ مُسْتَوْفَاةٌ فِي الْإِنْجِيلِ وَاسْمُهُ فِيهِ يُوْحَنَّا، قَتَلَهُ مَلِكٌ مِنْ مَلُوكِهِمْ بِسَبَبِ امْرَأَةٍ حَمَلَتْهُ عَلَى قَتْلِهِ، وَاسْمُ الْمَلِكِ لَاحَتْ قَالَ ابْنُ قَتَيْبَةَ. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: هِيرُوسُ، وَجَوَابُ إِذَا مُحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ بَعَثْنَاهُمْ لِدَلَالَةِ جَوَابِ إِذَا الْأُولَى عَلَيْهِ، ﴿وَلْيَسْأَلُوا وَجُوهَهُمْ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِهَذَا الْجَوَابِ الْمُحْذُوفِ أَي: لِيَفْعَلُوا بِكُمْ مَا يَسُوءُ وَجُوهَكُمْ حَتَّى تَظْهَرَ عَلَيْكُمْ أَثَارُ الْمَسَاءَةِ وَتَتَبَيَّنَ فِي وَجُوهِهِمُ الْكَآبَةُ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالْوُجُوهِ السَّادَةِ مِنْهُمْ. وَقَرَأَ الْكَسَاثِي (لَنْسُوءَ) بِالْفَتْحِ عَلَى أَنَّ الضَّمِيرَ لِلَّهِ سَبْحَانَهُ. وَقَرَأَ أَبِي (لَنْسُوءَ) بِبَنُونِ التَّكْيِيدِ، وَقَرَأَ أَبُو بَكْرٍ، وَالْأَعْمَشُ، وَابْنُ وَثَّابٍ، وَحَمْزَةُ، وَابْنُ عَامِرٍ لَيْسُوءَ بِالتَّحْتِيَةِ وَالْإِفْرَادِ. قَالَ الزَّجَّاجُ: كُلُّ شَيْءٍ كَسَرْتَهُ وَفَتَقْتَهُ فَقَدْ تَبَرَّتْهُ، وَالضَّمِيرُ لِلَّهِ أَوْ الْوَعْدُ ﴿وَلْيَخْلُوا لِلْمَسْجِدِ﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى لَيْسُوءَ ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلْيَتَبَرَّأُوا﴾ أَي: يَدْمُرُوا وَيَهْلِكُوا، وَقَالَ قُطْرُبٌ: يَهْدُمُوا، وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

فَمَا لِلنَّاسِ إِلَّا عَمَلَانِ فَعَامِلٌ يَتَبَرَّأُ مَا بَيْنِي وَأَخْرَافُ
وَقَرَأَ الْبَاقُونَ بِالتَّحْتِيَةِ وَضَمِ الْهَمْزَةِ وَثَبَاتٌ وَأَوْ بَعْدَهَا عَلَى أَنَّ الْفَاعِلَ عِبَادُ لَنَا ﴿مَا عَلُوا﴾ أَي: مَا غَلَبُوا عَلَيْهِ مِنْ بِلَائِكُمْ أَوْ مَدَّةِ عُلُومِهِمْ ﴿تَتَبَرَّأُوا﴾ أَي: تَتَمَرَّأُوا، ذَكَرَ الْمَصْدَرُ إِزَالَةَ لِلْشَّكِّ وَتَحْقِيقاً لِلْخَبَرِ ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ﴾ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ بَعْدَ انْتِقَامِهِ مِنْكُمْ فِي الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ ﴿وَأَنْ عَذَّبَكُمْ﴾ لِلثَّلَاثَةِ ﴿عَذَّبْنَا﴾ إِلَى عِقَابِكُمْ. قَالَ أَهْلُ السِّيَرِ: ثُمَّ إِنَّهُمْ عَادُوا إِلَى مَا لَا يَنْبَغِي وَهُوَ تَكْنِيبُ مُحَمَّدٍ ﷺ وَكَتْمَانِ مَا وَرَدَ مِنْ بَعْثِهِ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ فَعَادَ اللَّهُ إِلَى عِقَابِهِمْ عَلَى أَيْدِي الْعَرَبِ، فَجَرَى عَلَى بَنِي قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرِ وَبَنِي قَيْنِقَاعَ وَخَيْبَرَ مَا جَرَى مِنَ الْقَتْلِ وَالسَّبْيِ وَالْإِجْلَاءِ وَضَرْبِ الْجَزْيَةِ عَلَى مَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ، وَضَرْبِ الثَّلَّةِ وَالْمَسْكَنَةِ ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ وَهُوَ الْمَحْبَسُ فَهُوَ فَعِيلٌ بِمَعْنَى فَاعِلٌ أَوْ مَفْعُولٌ. وَالْمَعْنَى: أَنَّهُمْ مَحْبُوسُونَ فِي جَهَنَّمَ لَا يَخْلُصُونَ عَنْهَا أَبَداً. قَالَ الْجَوْهَرِيُّ: حَصَرَهُ يَحْصِرُهُ حَصْرًا: ضَيَّقَ عَلَيْهِ وَلَحَاطَ بِهِ؛ وَقِيلَ: فَرَأَشَأَ وَمَهَادَأَ، وَأَرَادَ عَلَى هَذَا بِالْحَصِيرِ الْحَصِيرَ الَّذِي يَغْرِشُ النَّاسَ ﴿إِنْ هَذَا لِلْقُرْآنِ يَهْدِي لِمَتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ يَعْنِي: الْقُرْآنُ يَهْدِي النَّاسَ الطَّرِيقَةَ الَّتِي هِيَ أَقْوَمُ مِنْ غَيْرِهَا مِنَ الطَّرِيقِ وَهِيَ مِلَّةُ الْإِسْلَامِ، فَالَّتِي هِيَ أَقْوَمُ صِفَةً لِمَوْصُوفٍ مُحْذُوفٍ وَهِيَ الطَّرِيقُ. وَقَالَ الزَّجَّاجُ: لِلْحَالِ الَّتِي هِيَ أَقْوَمُ الْحَالَاتِ، وَهِيَ تَوْحِيدُ اللَّهِ وَالْإِيمَانُ بِرَسُولِهِ، وَكَذَا قَالَ الْفَرَاءُ. ﴿وَيَبْشُرُ

عنقه ﴿أي: ما طار له في علم الله، وفي عنقه عبارة عن اللزوم كلزوم القلادة العنق من بين ما يليس. قال الزجاج: نكر العنق عبارة عن اللزوم كلزوم القلادة العنق﴾ **ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً** ﴿قرأ ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وابن محيصن، وأبو جعفر، ويعقوب (ويخرج) بالمثناة التحتية المفتوحة وبالراء المضمومة على معنى ويخرج له الطائر. «وكتاباً» منصوب على الحال، ويجوز أن يكون المعنى: يخرج لها الطائر فيصير كتاباً. وقرأ يحيى بن وثاب (يخرج) بضم الياء وكسر الراء: أي: يخرج الله. وقرأ شيبه ومحمد بن السميع. وروي أيضاً عن أبي جعفر (يخرج) بضم الياء وفتح الراء على البناء للمفعول أي: ويخرج له الطائر كتاباً. وقرأ الباقر (ونخرج) بالنون على أن المخرج هو الله سبحانه وكتاباً مفعول به، واحتج أبو عمرو لهذه القراءة بقوله تعالى ﴿الزمناء﴾. وقرأ أبو جعفر، والحسن، وابن عامر (يلقاه) بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف، وقرأ الباقر بفتح الياء وسكون اللام وتخفيف القاف. وإنما قال سبحانه: ﴿يلقاه منشوراً﴾ تعجيلاً للبشرى بالحسنة وللتوبيخ على السيئة ﴿اقرأ كتابك﴾ أي نقول له: اقرأ كتابك، أو قائلين له، قيل: يقرأ نك الكتاب من كان قارئاً، ومن لم يكن قارئاً ﴿كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾ الباء في بنفسك زائدة وحسيباً تمييز أي: حاسباً. قال سيبويه: ضريب القادح بمعنى ضاربها، وصريم بمعنى صارم، ويجوز أن يكون الحسيب بمعنى الكافي، ثم وضع موضع الشهيد فعذي بعلى، والنفس بمعنى الشخص، ويجوز أن يكون الحسيب بمعنى المحاسب كالشريك والجليس ﴿من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه﴾ بين سبحانه أن ثواب العمل الصالح وعقاب ضده يختصان بفاعلهما لا يتعدان منه إلى غيره، فمن اهتدى بفعل ما أمره الله به وترك ما نهى الله عنه، فإنما تعود منفعة ذلك إلى نفسه، ﴿ومن ضل﴾ عن طريق الحق فلم يفعل ما أمر به، ولم يترك ما نهى عنه ﴿فإنما يضل عليها﴾ أي: فإن وبال ضلاله واقع على نفسه لا يجاوزها، فكل أحد محاسب عن نفسه مجزي بطاعته معاقب بمعصيته، ثم أكد هذا الكلام بأبلغ تأكيد فقال: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾. والوزر الإثم، يقال: وزر يزر وزراً ووزرة، أي: إثمًا، والجمع أوزار، والوزر الثقل. ومنه ﴿يحملون أوزارهم على ظهورهم﴾ [الأنعام: 31] أي: أثقال ذنوبهم ومعنى الآية: لا تحمل نفس حاملة للوزر وزر نفس أخرى حتى تخلص الأخرى عن وزرها وتتخذ به الأولى، وقد تقدم مثل هذا في الأنعام. قال الزجاج في تفسير هذه الآية: إن الأثم والمنذب لا يؤاخذ بذنوب غيره ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾ لما نكر سبحانه اختصاص المهتدي بهديته والضال بضلاله، وعدم مؤاخذه الإنسان بجناية غيره، نكر أنه لا يعذب عباده إلا بعد الإعذار إليهم بإرسال رسله، وإنزال كتبه، فبين سبحانه أنه لم يتركهم سدى، ولا يؤاخذهم قبل إقامة الحجة عليهم، والظاهر أنه لا

يعذبهم لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا بعد الإعذار إليهم بإرسال الرسل، وبه قالت طائفة من أهل العلم. وذهب الجمهور إلى أن المنفي هنا هو عذاب الدنيا لا عذاب الآخرة ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا﴾ اختلف المفسرون في معنى أمرنا على قولين: الأول أن المراد به الأمر الذي هو نقيض النهي، وعلى هذا اختلفوا في المأمور به، فالأكثر على أنه الطاعة والخير. وقال في الكشف: معناه أمرناهم بالفسق ففسقوا، وأطال الكلام في تقرير هذا وتبعه المقتدون به في التفسير، وما نكره هو ومن تابعه معارض بمثل قول القائل أمرته فعصاني، فإن كل من يعرف اللغة العربية يفهم من هذا أن المأمور به شيء غير المعصية، لأن المعصية منافية للأمر مناقضة له، فكذلك أمرته ففسق يدل على أن المأمور به شيء غير الفسق، لأن الفسق عبارة عن الإتيان بحد المأمور به، فكونه فسقاً ينافي كونه مأموراً به ويناقضه. القول الثاني أن معنى ﴿أمرنا متركفياً﴾ أكثرنا فساقها. قال الواحدي: تقول العرب أمر القوم إذا كثروا وأمرهم الله إذا أكثرهم. وقد قرأ أبو عثمان النهدي، وأبو رجاء، وأبو العلية، والربيع، ومجاهد، والحسن (أمرنا) بتشديد الميم أي: جعلناهم أمراء مسلمين. وقرأ الحسن أيضاً، وقتادة، وأبو حيوة الشامي، ويعقوب، وخارجه عن نافع وحمام بن سلمة عن ابن كثير وعليّ وابن عباس (أمرنا) بالمد والتخفيف أي: أكثرنا جبابرتها وأمراءها قاله الكسائي. وقال أبو عبيدة: أمرته بالمد وأمرته لغتان بمعنى كثرت، ومنه الحديث: «خير المال مهرة مأمورة» أي: كثيرة النجاس والنسل، وكذا قال ابن عزيز. وقرأ الحسن أيضاً، ويحيى بن يعمر (أمرنا) بالقصر وكسر الميم على معنى فعلنا، ورويت هذه القراءة عن ابن عباس. قال قتادة والحسن: المعنى أكثرنا. وحكي نحوه أبو زيد وأبو عبيد وأنكره الكسائي وقال: لا يقال من الكثرة إلا أمرنا بالمد. قال في الصحاح: وقال أبو الحسن أمر ماله بالكسر أي: كثر، وأمر القوم أي: كثروا، ومنه قول لبيد: إن يغبطوا يهبطوا وإن أمروا يوماً يكن لهلك والفند وقرأ الجمهور (أمرنا) من الأمر، ومعناه ما قدمنا في القول الأول، ومعنى ﴿متركفياً﴾ المنعمون الذين قد أبطرتهم النعمة وسعة العيش، والمفسرون يقولون في تفسير المترفين: إنهم الجبارون المتسلطون والملوك الجاثرون، قالوا: وإنما خصوا بالذكر لأن من عداهم أتباع لهم، ومعنى فسقوا فيها: خرجوا عن الطاعة وتمرضوا في كفرهم لأن الفسوق الخروج إلى ما هو أقبح ﴿فحق عليها القول﴾ أي ثبت وتحقق عليهم العذاب بعد ظهور فسقهم ﴿فأمروناها تدميراً﴾ أي: تدميراً عظيماً لا يوقف على كنهه لشدة وعظم موقعه، وقد قيل في تأويل أمرنا بأنه مجاز عن الأمر الحامل لهم على الفسق، وهو إدرار النعم عليهم، وقيل أيضاً: إن المراد بأمرنا أن نهلك قرية أنه قرب إهلاك قرية، وهو عدول عن الظاهر بدون ملجئ إليه. ثم نكر سبحانه أن هذه عاقبته الجارية مع القرون الخالية فقال: ﴿وكم أهلكنا من القرون﴾

فقال: «هم من آبائهم، ثم سألته بعد ذلك فقال: الله أعلم بما كانوا عاملين، ثم سألته بعد ما استحکم الإسلام فنزلت ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ فقال: هم على الفطرة. أو قال: في الجنة». قال السيوطي: وسنده ضعيف. وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما: «أن النبي ﷺ سئل فقيل له: «يا رسول الله إنا نصيب في البيات من نراي المشركين، قال: هم منهم». وفي ذلك أحاديث كثيرة وبحث طويل. وقد ذكر ابن كثير في تفسير هذه الآية غالب الأحاديث الواردة في أطفال المشركين، ثم نقل كلام أهل العلم في المسألة فليرجع إليه. وأخرج إسحاق بن راهويه، وأحمد، وابن حبان، وأبو نعيم في المعرفة، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في كتاب الاعتقاد عن الأسود بن سريع أن النبي ﷺ قال: «أربعة يحتجون يوم القيامة: رجل أصم لا يسمع شيئاً، ورجل أحمق، ورجل هرم، ورجل مات في الفترة، ثم قال: فيأخذ الله موثقهم لطيعته ويرسل إليهم رسولاً أن خلوا النار، قال: فوالذي نفس محمد بيده لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً، ومن لم يدخلها يسحب إليها»، وإسناده عند أحمد، هكذا حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا معاذ بن هشام، حدثني أبي عن أبي قتادة، عن الأحنف بن قيس، عن الأسود بن سريع. وأخرج نحوه إسحاق بن راهويه، وأحمد، وابن مردويه عن أبي هريرة، وهو عند أحمد بالإسناد المذكور عن قتادة، عن الحسن، عن أبي رافع، عن أبي هريرة. وأخرج قاسم بن أصبغ، والبزار، وأبو يعلى، وابن عبد البر في التمهيد عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ فنذكر نحوه. وجعل مكان الأحق المعنوه. وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول، والطبراني وأبو نعيم عن معاذ بن جبل عن رسول الله ﷺ قال: «يؤتى يوم القيامة بالممسوح عقلاً وبالهالك في الفترة، وبالهالك صغيراً» فنذكر معناه مطولاً. وأخرج ابن جرير من طريق ابن جريج عن ابن عباس في قوله: ﴿أمرنا مترفياً﴾ قال: بطاعة الله فعصوا. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة مثله. وأخرج ابن أبي حاتم عن شهر بن حوشب قال: سمعت ابن عباس يقول في الآية: ﴿أمرنا مترفياً﴾ بحق فخالفوه، فحق عليهم بذلك التتمير. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات عنه في الآية قال: سلطنا شرارنا فعصوا فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم بالعذاب وهو كقوله: ﴿وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها﴾ [الأنعام: 123]. وأخرج البخاري، وابن مردويه عن ابن مسعود قال: كنا نقول للحبي إذا كثروا في الجاهلية قد أمر بنو فلان.

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْمَالَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٨﴾ كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاؤِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاؤُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿١٩﴾ أَنْتَرُ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ

أي: كثيراً ما أهلكنا منهم، فكم مفعول أهلكنا، ومن القرون بيان لكم وتمييز له: أي: كم من قوم كفروا من بعد نوح كعاد وثمود، فحل بهم البوار ونزل بهم سوط العذاب؛ وفيه تخويف لكفار مكة. ثم خاطب رسوله بما هو رديع للناس كافة فقال: ﴿وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً﴾ قال الفراء: إنما يجوز إسخال الباء في المرفوع إذا كان يمدح به صاحبه أو يذم به، كقولك: كفاك، وأكرم به رجلاً، وطاب بطعامك طعاماً، ولا يقال: قام بأخيك وأنت تريد قام أخوك. وفي الآية بشارة عظيمة لأهل الطاعة وتخويف شديد لأهل المعصية، لأن العلم التام والخبرة الكاملة والبصيرة النافذة تقتضي إيصال الجزاء إلى مستحقه بحسب استحقاقه، ولا ينافيه مزيد التفضل على من هو أهل لذلك، والمراد بكونه سبحانه خبيراً بصيراً أنه محيط بحقائق الأشياء ظاهراً وباطناً لا تخفى عليه منها خافية.

وقد أخرج البيهقي في دلائل النبوة، وابن عساكر عن سعيد المقبري: «أن عبد الله بن سلام سأل النبي ﷺ عن السواد الذي في القمر، فقال: كانا شمسين، قال الله ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل﴾ فالسواد الذي رايت هو المحو. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس، عن النبي ﷺ معنى هذا بأطول منه. قال السيوطي: وإسناده وأو. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري في المصاحف عن علي في قوله: ﴿فمحونا آية الليل﴾ قال: هو السواد الذي في القمر. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وجعلنا آية النهار مبصرة﴾ قال: منيرة ﴿لتنبؤوا فضلاً من ربكم﴾ قال: جعل لكم سبجاً طويلاً. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿فصلناه﴾ قال: بيناه. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، وابن جرير بسند حسن عن جابر سمعت رسول الله ﷺ يقول: «طائر كل إنسان في عنقه». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ألزمناه طائره في عنقه﴾ قال: سعائته وشقاوته وما قدر الله له وعليه فهو لازمه أين كان. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر عن أنس في قوله: ﴿طائره﴾ قال: كتابه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: عمله. ﴿ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً﴾ قال: هو عمله الذي أحصى عليه، فأخرج له يوم القيامة ما كتب له من العمل فقرأه منشوراً. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿اقرأ كتابك﴾ قال: سيقرا يومئذ من لم يكن قارئاً في الدنيا. وأخرج ابن عبد البر في التمهيد عن عائشة في قوله: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ قال: سألت خديجة^(١) عن أولاد المشركين

(١) يعني: رسول الله ﷺ.

وَالْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢٠﴾ لَا يَجْمَلُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا مَعَهُ
فَتَقَعْدُ مَذْمُومًا مَعْدُولًا ﴿٢١﴾ وَمَنْ رَزَقَ رَبُّكَ إِلَّا رِزْقًا وَآلَ الْوَالِدَيْنِ
إِسْتِنَاءً إِنَّمَا يَلْتَمِزُ عِنْدَكَ الْكَسْبُ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَمَّا أَتَى
وَلَا تَنْهَرْمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٢﴾ وَأَخْوَفُ لَهُمَا جَنَاحُ الذَّلِيلِ مِنَ
الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتُ صَبِيحًا ﴿٢٣﴾

قوله: ﴿من كان يريد للعاجلة﴾ هذا تأكيد لما سلف من جملة كل إنسان الزمناه، ومن جملة من امتدى، والمراد بالعاجلة: المنفعة العاجلة أو الدار العاجلة، والمعنى: من كان يريد بأعمال البر أو بأعمال الآخرة ذلك، فيدخل تحته الكفرة والفسقة والمراوم والمناقون ﴿عجلنا له﴾ أي: عجلنا لذلك المريد ﴿فيها﴾ أي: في تلك العاجلة، ثم قيد المعجل بـ ﴿قيلين: الأول﴾ قوله: ﴿ما نشاء﴾ أي: ما يشاء الله سبحانه تعجيله له منها، لا ما يشاءه ذلك المريد، ولهذا ترى كثيراً من هؤلاء المريدين للعاجلة يريدون من الدنيا ما لا ينالون ويتمنون ما لا يصلون إليه، والقيد الثاني قوله: ﴿لمن نريد﴾ أي: لمن نريد التعجيل له منهم ما اقتضته مشيئتنا، وجملة لمن نريد بدل من الضمير في له بإعادة الجار بدل البعض من الكل. لأن الضمير يرجع إلى من وهو للعموم، وهذه الآية تقيد الآيات المطلقة كقوله سبحانه: ﴿من كان يريد حشر الدنيا نؤته منها﴾ [الشورى: 20]. وقوله: ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون﴾ [هود: 15]. وقد قيل: إنه قرئ (ما يشاء) بالياء التحتية، ولا ندري من قرأ بذلك من أهل الشواذ، وعلى هذه القراءة فقول: الضمير لله سبحانه أي: ما يشاءه الله فيكون معناها معنى القراءة بالنون، وفيه بعد لمخالفته لما قبله، وهو عجلنا وما بعده وهو لمن نريد؛ وقيل: الضمير راجع إلى «من» في قوله: ﴿من كان يريد﴾ فيكون ذلك مقيداً بقوله لمن ﴿نريد﴾ أي: عجلنا له ما يشاءه، لكن بحسب إرادتنا فلا يحصل لمن أراد العاجلة ما يشاءه إلا إذا أراد الله له ذلك، ثم بعد هذا كله فمن وراء هذه الطلبة الفارغة التي لا تأثير لها إلا بالقيدين المنكوبين عذاب الآخرة الدائم، ولهذا قال: ﴿ثم جعلنا له جهنم﴾ أي: جعلنا له بسبب تركه لما أمر به من العمل للآخرة وإخلاصه عن الشوائب عذاب جهنم على اختلاف أنواعه ﴿بصلها﴾ في محل نصب على الحال أي: يدخلها ﴿مذمومةً منحورة﴾ أي: مطرودة من رحمة الله مبعدة عنها، فهذه عقوبته في الآخرة مع أنه لا ينال من الدنيا إلا ما قدره الله سبحانه له، فإين حال هذا الشقي من حال المؤمن التقى؟ فإنه ينال من الدنيا ما قدره الله له وأراد به بلا هلع منه ولا جزع، مع سكون نفسه واطمئنان قلبه وثقته بربه، وهو مع ذلك عامل للآخرة منتظر للجزاء من الله سبحانه، وهو الجنة، ولهذا قال: ﴿ومن أراد الآخرة﴾ أي: أراد بأعماله الدار الآخرة ﴿وسعى لها سعيها﴾ أي: السعي الحقيقي بها اللائق بطالها، وهو الإتيان بما أمر به وترك ما نهى عنه خالصاً لله غير مشوب، وكان

الإتيان به على القانون الشرعي من دون ابتداع ولا هوى ﴿وهو مؤمن﴾ بالله إيماناً صحيحاً، لأن العمل الصالح لا يستحق صاحبه الجزاء عليه إلا إذا كان من المؤمنين: ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾ [المائدة: 27]، والجملة في محل نصب على الحال، والإشارة بقوله: ﴿فأولئك﴾ إلى المريدين للآخرة الساعين لها سعيها وخبره ﴿كان سعيهم مشكوراً﴾ عند الله أي: مقبولاً غير مردود، وقيل: مضاعفاً إلى تضاعف كثيرة، فقد اعتبر سبحانه في كون السعي مشكوراً أموراً ثلاثة: الأول إرادة الآخرة، الثاني أن يسعى لها السعي الذي يحق لها، والثالث أن يكون مؤمناً. ثم بين سبحانه كمال راقته وشمول رحمته فقال: ﴿كلاً نمدّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك﴾ التنوين في «كلاً» عوض عن المضاف إليه، والتقدير كل واحد من الفريقين نمدّ أي: نزيده من عطائنا على تلاحق من غير انقطاع، نرزق المؤمنين والكفار وأهل الطاعة وأهل المعصية، لا تؤثر معصية العاصي في قطع رزقه وما به الإمداد هو ما عجله لمن يريد الدنيا، وما أتمم به في الأولى والأخرى على من يريد الآخرة، وفي قوله: ﴿من عطاء ربك﴾ إشارة إلى أن ذلك بمحض التفضل وهو متعلق بمنذ ﴿وما كان عطاء ربك محظوراً﴾ أي: ممنوعاً، يقال: حظره يحظره حظراً منعه، وكل ما حال بينك وبين شيء فقد حظره عليك، ومن «هؤلاء» بدل من «كلاً» وهؤلاء معطوف على البديل. قال الزجاج: أعلم الله سبحانه أنه يعطي المسلم الكافر وأنه يرزقهما جميعاً للفريقين فقال: ﴿هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك﴾، وانظر كيف فضلنا بعضهم على بعض الخطاب لمحمد ﷺ، ويحتمل أن يكون لكل من له أهلية النظر والاعتبار، وهذه الجملة مقررة لما مر من الإمداد وموضحة له، والمعنى: انظر كيف فضلنا في العطايا العاجلة بعض العباد على بعض، فمن غني وفقير، وقوي وضعيف، وصحيح ومريض وعاقل وأحمق وذلك لحكمة بالغة تقصر العقول عن إدراكها ﴿وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً﴾ وذلك لأن نسبة التفاضل في درجات الآخرة إلى التفاضل في درجات الدنيا كنسبة الآخرة إلى الدنيا، وليس للدنيا بالنسبة إلى الآخرة مقدار، فلماذا كانت الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً؟ وقيل: المراد أن المؤمنين يدخلون الجنة والكافرين يدخلون النار فتظهر فضيلة المؤمنين على الكافرين. وحصل المعنى أن التفاضل في الآخرة ودرجاتها فوق التفاضل في الدنيا ومراتب أهلها فيها من بسط وقبض ونحوهما، ثم لما أجمل سبحانه أعمال البر في قوله: ﴿وسعى لها سعيها وهو مؤمن﴾ أخذ في تفصيل ذلك مبتدئاً بأشرفها الذي هو التوحيد فقال: ﴿لا تجعل مع الله إلهاً آخر﴾ والخطاب للنبي ﷺ والمراد به أمته تهيجاً وإلهاباً، أو لكل متأهل له صالح لتوجيهه إليه، وقيل: هو على إضمار القول، والتقدير: قل لكل مكلف لا تجعل، وانتصاب تعقد على جواب النهي، والتقدير: لا يكون منك جعل فقعود؛

والاجتماع فقط، وفي أف لغات: ضم الهمزة مع الحركات الثلاث في الغاء، وبالتنوين وعدمه، ويكسر الهمز والفاء بلا تنوين، وأقي ممالاً، وأفة بالهاء. قال الفراء: تقول العرب: فلان يتأفف من ريح وجدها أي: يقول أف أف. وقال الأصمعي: الأف وسخ الآن، والثف وسخ الأظفار، يقال لك: عند استقذار الشيء ثم كثر حتى استعملوه في كل ما يتأفون به. وروى ثعلب عن ابن الأعرابي أن الأفف الضجر، وقال القتيبي: أصله أنه إذا سقط عليه تراب ونحوه نفخ فيه ليزيله، فالصوت الحاصل عند تلك النفخة هو قول القائل أف، ثم توسعوا فنكروه عند كل مكروه يصل إليهم. وقال الزجاج: معناه النتن. وقال أبو عمرو بن العلاء: الأف وسخ بين الأظفار والثف قلامتها. والحاصل أنه اسم فعل ينبئ عن التضجر والاستئثار، أو صوت ينبئ عن ذلك، فنهى الولد عن أن يظهر منه ما يدل على التضجر من أبويه أو الاستئثار لهما، وبهذا النهي يفهم النهي عن سائر ما يؤذيهما بفحوى الخطاب أو بلحنه كما هو متقرر في الأصول ﴿ولا تنهرهما﴾ النهر: الزجر والغلظة، يقال: نهره وانتهره: إذا استقبله بكلام يزجره. قال الزجاج: معناه لا تكلمهما ضجراً صائحاً في وجوههما ﴿وقل لهما﴾ بدل التأنيب والنهر ﴿قولاً كريماً﴾ أي: ليلاً لطيفاً أحسن ما يمكن التعبير عنه من لطف القول وكرامته مع التأنيب والحياء والاحتشام ﴿ولخفض لها جناح لذل من الرحمة﴾ نكر القفال في معنى خفض الجناح وجهين: الأول أن الطائر إذا أراد ضم فراخه إليه للتربية خفض لها جناحه، فلها صار خفض الجناح كناية عن حسن التدبير، فكانه قال للولد: اكفل والدك بأن تضمهما إلى نفسك كما فعلا ذلك بك في حال صغرك. والثاني أن الطائر إذا أراد الطيران والارتفاع نشر جناحه، وإذا أراد النزول خفض جناحه، فصار خفض الجناح كناية عن التواضع وترك الارتفاع؛ وفي إضافة الجناح إلى الذل وجهان: الأول أنها كإضافة حاتم إلى الجود في قولك حاتم الجود، فالأصل فيه الجناح الذليل، والثاني سلوك سبيل الاستعارة كأنه تخيل للذل جناحاً ثم أثبت لذلك الجناح خفضاً. وقرأ الجمهور (الذل) بضم الذال من ذل يذل ذلاً ونلة ونملة فهو ذليل. وقرأ سعيد بن جبيرة، وعروة بن الزبير بكسر الذال، وروى ذلك عن ابن عباس وعاصم، من قولهم دابة نلول بنية لذل أي: منقادة سهلة لا صعوبة فيها، ومن الرحمة فيه معنى التعليل أي: من أجل فرط الشفقة والعطف عليهما لكبرهما وافتقارهما اليوم لمن كان أفقر خلق الله إليهما بالأمس، ثم كانه قال له سبحانه: ولا تكثف برحمتك التي لا دوام لها ﴿و﴾ لكن ربّ ارحمهما كما ربياني صغيراً والكاف في محل نصب على أنه صفة لمصدر محذوف أي: رحمة مثل تربيتيها لي أو مثل رحمتيها لي، وقيل: ليس المراد رحمة مثل الرحمة بل الكاف لاقترانها في

ومعنى تقعد تصير، من قولهم: شحذ الشفرة حتى قعدت كأنها خربة، وليس المراد حقيقة القعود المقابل للقيام؛ وقيل: هو كناية عن عدم القدرة على تحصيل الخيرات، فإن السعي فيه إنما يتأتى بالقيام، والعجز عنه يلزمه أن يكون قاعداً عن الطلب؛ وقيل: إن من شأن المذموم المخلول أن يقعد نادماً مفكراً على ما فرط منه، فالقعود على هذا حقيقة، وانتصاب ﴿مذموماً مخذولاً﴾ على خبرية تقعد أو على الحال: أي فتصير جامعاً بين الأمرين الذم لك من الله ومن ملائكته، ومن صالحى عباده، والخذلان لك منه سبحانه، أو حال كونك جامعاً بين الأمرين. ثم لما نكر ما هو الركن الأعظم وهو للتوحيد أتبعه سائر الشعائر والشرائع فقال: ﴿وقضى ربك﴾ أي: أمر أمراً جزمياً، وحكماً قطعاً، وحثماً مبرماً ﴿أن لا تعبدوا﴾ أي: بأن لا تعبدا، فتكون «أن» ناصبة، ويجوز أن تكون مفسرة ولا نهى. وقرأ (ووصى ربك) أي: وصى عباده بعبادته وحده، ثم أرفقه بالأمر ببرّ الوالدين فقال: ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ أي: وقضى بأن تحسنوا بالوالدين إحساناً، أو وأحسنوا بهما إحساناً، ولا يجوز أن يتعلق بالوالدين بإحساناً، لأن المصدر لا يتقدم عليه ما هو متعلق به. قيل: ووجه نكر الإحسان إلى الوالدين بعد عبادة الله سبحانه أنهم السبب الظاهر في وجود المتولد بينهما، وفي جعل الإحسان إلى الأبوين قريناً لتوحيد الله وعبادته من الإعلان بتأكد حقهما والعناية بشأنهما ما لا يخفى، وهكذا جعل سبحانه في آية أخرى شكرهما مقترناً بشكره فقال: ﴿إن أشكر لي ولوالديك﴾ [لقمان: 14]. ثم خص سبحانه حالة الكبر بالذكر لكونها إلى البر من الولد أحوج من غيرها فقال: ﴿إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما﴾ إما مركبة من إن الشرطية وما الإبهامية لتأكيد معنى الشرط ثم انخلت نون التوكيد في الفعل لزيادة التقرير كأنه قيل: إن هذا الشرط مما سيقع البتة عادة. قال النحويون: إن الشرط يشبه النهي من حيث الجزم وعدم الثبوت، فلماذا صح دخول النون المؤكدة عليه. وقرأ حمزة والكسائي (يبلغان). قال الفراء: ثنى لأن الوالدين قد نكرا قبله فصار الفعل على عدهما، ثم قال: ﴿لأحدهما أو كلاهما﴾ على الاستثناف، وأما على قراءة (يبلغن) فأحدهما فاعل بالاستقلال وقوله: ﴿أو كلاهما﴾ فاعل أيضاً لكن لا بالاستقلال بل بتبعية العطف، والأولى أن يكون أحدهما على قراءة (يبلغان) بدل من الضمير الراجع إلى الوالدين في الفعل ويكون وكلاهما عطفاً على البديل، ولا يصح جعل كلاهما تأكيداً للضمير لاستلزام العطف المشاركة، ومعنى عندك في كنفك وكفالتك، وتوحيد الضمير في عندك ولا تقل وما بعدهما للإشعار بأن كل فرد من الأفراد منهى بما فيه النهي، ومأمور بما فيه الأمر، ومعنى ﴿فلا تقل لهما أف﴾ لا تقل لواحد منهما في حالتي الاجتماع والانفراد، وليس المراد حالة

﴿وقضى ربك﴾ قال: أمر. وأخرج ابن المنذر عن مجاهد في الآية قال: عهد ربك. وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله: ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ يقول: براء. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿فلا تقل لهما آف﴾ لما تميظ عنهما من الأذى: الخلاء والبول كما كانا لا يقولانه فيما كانا يميظان عنك من الخلاء والبول. وأخرج الديلمي عن الحسين بن علي مرفوعاً: «لو علم الله شيئاً من العقوق أننى من آف لحرمه». وأخرج ابن أبي حاتم عن زهير بن محمد في قوله: ﴿وقل لهما قولاً كريماً﴾ قال: إذا دعواك فقل: لبيكما وسعديكما. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال: قولاً ليناً سهلاً. وأخرج البخاري في الآب، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عروة في قوله: ﴿واخفض لهما جناح الذل﴾ قال: يلين لهما حتى لا يمتنع من شيء أحباه. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في الآية قال: اخضع لوالديك كما يخضع العبد للمسيد لفظ الغليظ. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿وقل رب ارحمهما﴾ ثم أنزل الله بعد هذا ﴿وما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى﴾ [التوبة: 113]. وأخرج البخاري في الآب المفرد، وأبو داود، وابن جرير، وابن المنذر من طرق عنه نحوه، وقد ورد في بَرِّ الوالدين أحاديث كثيرة ثابتة في الصحيحين وغيرهما، وهي معروفة في كتب الحديث.

رَبُّكَ أَغْلَرِ بِمَا فِي نَفْسِكَ إِنْ تَكُونُ صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِ غَفُورًا ﴿١٠﴾ وَأَمَّا ذَا الْقَرْعَةِ فَحَقُّهُ وَالْمَشْرِكِينَ وَأَبْنَ السَّيِّدِ لَا تَنْدِرُ بَدْرًا ﴿١١﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَذُورًا ﴿١٢﴾ زَايَا تَرَوْنَهُمْ أَيْقَنَ رَجُوعَ رَبِّكَ رَجُوعًا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مِّنْسُورًا ﴿١٣﴾ وَلَا تَجْعَلْ بَيْنَكَ مَثَلًا لِّإِي عَمَلِكَ وَلَا تَسْطِطْ عَلَى السَّيِّئِ فَتَقْدَمَ مَوْلَا تَحْسُورًا ﴿١٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَسِطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٥﴾ وَلَا تَقْرَأُوا الزِّكْرَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿١٦﴾ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِرَبِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مُضِرًّا ﴿١٧﴾

قوله: ﴿ربكم أعلم بما في نفوسكم﴾ أي: بما في ضمائرکم من الإخلاص وعدمه في كل الطاعات، ومن التوبة من الذنب الذي فرط منكم أو الإصرار عليه، ويندرج تحت هذا العموم ما في النفس من البرِّ والعقوق اندراجاً أولياً؛ وقيل: إن الآية خاصة بما يجب للابوين من البرِّ، ويحرم على الأولاد من العقوق، والأول أولى اعتباراً بعموم اللفظ، فلا تخصصه دلالة السياق ولا تقيده ﴿إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾ قاصدين الصلاح، والتوبة من الذنب والإخلاص للطاعة فلا يضرکم ما وقع من الذنب الذي تبتم عنه ﴿فإنه كان

الوجود فلتقع هذه كما وقعت تلك. والتربية التنمية، ويجوز أن يكون الكاف للتعليل أي: لأجل تربيتكما لي كقوله: ﴿وانكروه كما هداكم﴾ [البقرة: 198]. ولقد بالغ سبحانه في التوصية بالوالدين مبالغته تقشعر لها جلود أهل العقوق وتقف عندهما شعورهم.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن الضحاک في قوله: ﴿من كان يريد العاجلة﴾ قال: من كان يريد بعمله الدنيا عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد﴾ ذاك به. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو نعيم في الحلية عن الحسن في قوله: ﴿علا نمذ﴾ الآية قال: كل يرزق الله في الدنيا البرِّ والفاجر. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في الآية قال: يرزق الله من أراد الدنيا ويرزق من أراد الآخرة. وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاک قال: ﴿محظوراً﴾ ممنوعاً. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن زيد مثله. وأخرج الطبراني، وابن مروي، وأبو نعيم في الحلية عن سلمان عن النبي ﷺ قال: «ما من عبد يريد أن يرتفع في الدنيا درجة فارتفع بها إلا وضعه الله في الآخرة درجة أكبر منها وأطول، ثم قرأ ﴿وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً﴾»، وهو من رواية زاذان عن سلمان. وثبت في الصحيحين: «أن أهل الدرجات العلى ليرون أهل عليين كما يرون الكوكب الغابر في أفق السماء». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ممنوما﴾ يقول: ملوماً. وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن الأنباري في المصاحف من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قرأ: (ووصى ربك)، مكان وقضى، وقال: التزقت الواو والصاد وأنتم تفرعونها (وقضى ربك). وأخرج ابن أبي حاتم من طريق الضحاک عنه مثله. وأخرج أبو عبيد، وابن منيع، وابن المنذر، وابن مروي عن طريق ميمون بن مهران عنه أيضاً مثله وزاد ولو نزلت على القضاء ما اشرك به أحد. وأقول: إنما يلزم هذا لو كان القضاء بمعنى الفراغ من الأمر، وهو وإن كان أحد معاني مطلق القضاء، كما في قوله: ﴿قضى الأمر الذي فيه تستفتيان﴾ [يوسف: 41]. وقوله: ﴿فإذا قضيت مناسكتكم﴾ [البقرة: 200]. ﴿فإذا قضيت الصلاة﴾ [النساء: 103]. ولكنه ما هنا بمعنى الأمر، وهو أحد معاني القضاء والأمر لا يستلزم ذلك، فإنه سبحانه قد أمر عباده بجميع ما أوجبه، ومن جملة ذلك إفراده بالعبادة وتوحيده وذلك لا يستلزم أن لا يقع الشرك من المشركين، ومن معاني مطلق القضاء معاني آخر غير هذين المعنيين كالقضاء بمعنى الخلق، ومنه ﴿فقتضاهن سبع سموات﴾ [فصلت: 12]. وبمعنى الإرادة كقوله: ﴿إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾ [آل عمران: 47 - مريم: 35]. وبمعنى العهد كقوله: ﴿وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر﴾ [القصص: 44]. وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله:

وابن السبيل لأمر اضطرك إلى تلك الإعراض ﴿ابتغاء رحمة من ربك﴾ أي لفقد رزق من ربك ولكنه أقام المسبب الذي هو ابتغاء رحمة الله مقام السبب الذي هو فقد الرزق لأن فاقد الرزق مبتغى له، والمعنى: وإن أعرضت عنهم لفقد رزق من ربك ترجو أن يفتح الله به عليك ﴿فقل لهم قولا ميسورا﴾ أي: قولا سهلاً ليناً كالوعد الجميل أو الاعتذار المقبول. قال الكسائي: يسرت له القول أي: لينته. قال الفراء: معنى الآية إن تعرض عن السائل إضاعة وإعساراً فقل لهم: قولا ميسوراً عدهم عدة حسنة ويجوز أن يكون المعنى: وإن تعرض عنهم ولم تنفعهم لعدم استطاعتك فقل لهم قولا ميسوراً، وليس المراد هنا الإعراض بالوجه. وفي هذه الآية تأنيب من الله سبحانه لعباده إذا سألهم سائل ما ليس عندهم كيف يقولون؟ ربما يرنون، ولقد أحسن من قال:

إن لا يكن ورق يوماً أجود بها للسائلين فإني لين العود لا يدعم السائلون الخير من خلقي إنا نوال وإنا حسن مردود لما نكر سبحانه ألب المنع بعد النهي عن التبذير بين ألب الإنفاق فقال: ﴿ولا تجعل يديك مغلولاً إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط﴾ وهذا النهي يتناول كل مكلف سواء كان الخطاب للنبي ﷺ تعريضاً لأمته وتعليماً لهم أو الخطاب لكل من يصلح له من المكلفين. والمراد النهي للإنسان بأن يمسك إمساكاً يصير به مضيقاً على نفسه وعلى أهله ولا يوسع في الإنفاق توسيعاً لا حاجة إليه بحيث يكون به مسرفاً، فهو نهى عن جانبي الإفراط والتفريط. ويتحصل من ذلك مشروعية التوسط، وهو يدل الذي ننب الله إليه:

ولا تك فيها مفرطاً أو مفرطاً كلا طرفي قصد الأمور نديم وقد مثل الله سبحانه في هذه الآية حال الشحيح بحال من كانت يده مغلولاً إلى عنقه بحيث لا يستطيع التصرف بها، ومثل حال من يجاوز الحد في التصرف بحال من يبسط يده بسطاً لا يتعلق بسببه فيها شيء مما تقبض الأيدي عليه، وفي هذا التصوير مبالغة بليغة. ثم بين سبحانه غائلة الطرفين المنهي عنهما فقال: ﴿فتتعد ملوماً﴾ عند الناس بسبب ما أنت عليه من الشح ﴿محسوراً﴾ بسبب ما فعلته من الإسراف أي: منقطعاً عن المقاصد بسبب الفقر، والمحسور في الأصل: المنقطع عن السير، من حصره السفر إذا بلغ منه، والبعير الحسير هو الذي ذهب قوته فلا انبعاث به، ومنه قوله تعالى: ﴿ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾ [الملك: 4]. أي: كليل منقطع؛ وقيل: معناه نادماً على ما سلف، فجعله هذا القاتل من الحسرة التي هي الندامة، وفيه نظر لأن الفاعل من الحسرة حسران. ولا يقال محسور إلا للملوم. ثم سلى رسوله والمؤمنين بأن الذين يرهقهم من الإضافة ليس لهوانهم على الله سبحانه، ولكن لمشيئة الخالق الرازق فقال: ﴿إن ربك ييسر للرزق لمن يشاء ويقدر﴾ أي: يوسع على بعض ويضيقه على بعض لحكمة بالغة لا تكون من وسع له رزقه مكرماً عنده، ومن

للأوليين غفوراً﴾ أي: الرجاعين عن الذنوب إلى التوبة، وعن عدم الإخلاص إلى محض الإخلاص غفوراً لما فرط منهم من قول أو فعل أو اعتقاد، فمن تاب تاب الله عليه، ومن رجع إلى الله رجع الله إليه. ثم ذكر سبحانه التوصية بغير الوالدين من الأقارب بعد التوصية بهما فقال: ﴿وأت ذا القربى حقه﴾ والخطاب إما لرسول الله ﷺ تهيباً وإلهاباً لغيره من الأمة، أو لكل من هو صالح لذلك من المكلفين كما في قوله: ﴿وقضى ربك﴾ [الإسراء: 23] والمراد بذى القربى ذو القربة، وحققهم هو صلة الرحم التي أمر الله بها، كرز التوصية فيها. والخلاف بين أهل العلم في وجوب النفقة للقرابة، أو لبعضهم كالوالدين على الأولاد. والأولاد على الوالدين معروف، والذي ينبغي الاعتماد عليه وجوب صلتهم بما تبلغ إليه القدرة وحسبما يقتضيه الحال ﴿والمسكين﴾ معطوف على ذا القربى، وفي هذا العطف لبيل على أن المراد بالحق الحق المالي ﴿وابن السبيل﴾ معطوف على المسكين، والمعنى: وأت من اتصف بالمسكنة، أو بكونه من أبناء السبيل حقه. وقد تقدم بيان حقيقة المسكين وابن السبيل في البقرة، وفي التوبة، والمراد في هذه الآية التصق عليهما بما بلغت إليه القدرة من صدقة النفل، أو مما فرضه الله لهما من صدقة الفرض، فإنهما من الأصناف الثمانية التي هي مصرف الزكاة. ثم لما أمر سبحانه بما أمر به ها هنا نهى عن التبذير فقال: ﴿ولا تبذر تبذيراً﴾ التبذير تفريق المال كما يفرق البذر كيفما كان من غير تعمد لمواقعه، وهو الإسراف المذموم لمجاورته للحد المستحسن شرعاً في الإنفاق، أو هو الإنفاق في غير الحق، وإن كان يسيراً. قال الشافعي: التبذير إنفاق المال في غير حقه، ولا تبذير في عمل الخير. قال القرطبي بعد حكايته القول الشافعي هذا: وهذا قول الجمهور. قال أشهب عن مالك: التبذير هو أخذ المال من حقه، ووضعه في غير حقه، وهو الإسراف، وهو حرام لقوله: ﴿إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين﴾ فإن هذه الجملة تعليل للنهي عن التبذير، والمراد بالأخوة المماثلة التامة، وتجنب مماثلة الشيطان ولو في خصلة واحدة من خصاله واجب، فكيف فيما هو أعم من ذلك كما يدل عليه إطلاق المماثلة، والإسراف في الإنفاق من عمل الشيطان، فإذا فعله أحد من بني آدم فقد أطاع الشيطان واقتدى به ﴿وكان للشيطان لربه كفوراً﴾ أي: كثير الكفران عظيم التمرد عن الحق، لأنه مع كفره لا يعمل إلا شراً، ولا يأمر إلا بعمل الشر، ولا يوسوس إلا بما لا خير فيه. وفي هذه الآية تسجيل على المبذرين بمماثلة الشياطين، ثم التسجيل على جنس الشيطان بأنه كفور، فاقترض ذلك أن المنذر مماثل للشيطان، وكل مماثل للشيطان له حكم الشيطان. وكل شيطان كفور، فالمبذر كفور ﴿وما تعرضن عنهم﴾ قد تقدم قريباً أن أصل «إما» هذه مركب من إن الشرطية وما الإبهامية، وإن نخول نون التأكيد على الشرط لمشابهته للنهي؛ أي: إن أعرضت عن ذي القربى والمسكين

ضيقة عليه هائناً لديه. قيل ويجوز أن يراد أن البسط والقبض إنما هما من أمر الله الذي لا تغنى خزائنه. فاما عبادته فعليهم أن يقتصدوا. ثم علل ما ذكره من البسط للبعض والتضييق على البعض بقوله: ﴿إنه كان بهعباده خبيراً بصيراً﴾ أي: يعلم ما يسترون وما يعلنون، لا يخفى عليه من ذلك خافية، فهو الخبير بأحوالهم البصير بكيفية تدبيرهم في أرزاقهم، وفي هذه الآية دليل على أنه المتكفل بأرزاق عباده، فلذلك قال بعدما: ﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق﴾ ألقى الرجل لم يبق له إلا الملقات: وهي الحجارة العظام الملس، قال الهذلي يصف صائداً:

أتبع لها أقيدر نوخشف إناسمت على الملقات ساما
الأقيدر تصغير الأقد: وهو الرجل القصير، والخشف من الثياب الخلق، وسامت مرت، ويقال: ألقى إذا افتقر و سلب الدهر ما بيده. قال أوس:

وألقى ما عندي خطوب تنبل

نهاهم الله سبحانه عن أن يقتلوا أولادهم خشية الفقر، وقد كانوا يفعلون ذلك، ثم بين لهم أن خوفهم من الفقر حتى يبلغوا بسبب ذلك إلى قتل الأولاد لا وجه له، فإن الله سبحانه هو الرزاق لعباده يرزق الأبناء كما يرزق الآباء فقال: ﴿نحن نرزقهم وإياكم﴾ ولستم لهم برازقين حتى تصنعوا بهم هذا الصنع، وقد مر مثل هذه الآية في الانعام ثم علل سبحانه النهي عن قتل الأولاد لذلك بقوله: ﴿إن قتلهم كان خطئاً كبيراً﴾. قرأ الجمهور بكسر الخاء وسكون الطاء وبالهزم للمقصود. وقرأ ابن عامر (خطأ) بفتح الخاء والطاء والقصر في الهمز، يقال: خطئ في بيته خطأ: إذا أثم، وأخطأ: إذا سلك سبيلاً خطأ عامداً أو غير عامد. قال الأزهري، خطئ يخطئ خطأ مثل أثم يآثم إثمًا: إذا تعمد الخطأ، وأخطأ: إذا لم يتعمد، أخطأ وخطأ، قال الشاعر:

يعيني إنما خطاء وصدا علي وإنما أهلكت مالي
والخطأ الاسم يقوم مقام الأخطاء، وفيه لغتان القصر، وهو الجيد، والمد وهو قليل. وقرأ ابن كثير بكسر الخاء وفتح الطاء ومد الهمز⁽¹⁾. قال النحاس: ولا أعرف لهذه القراءة وجهاً، وكذلك جعلها أبو حاتم غلطاً. وقرأ الحسن (خطأ) بفتح الخاء والطاء منونة من غير همز. ولما نهى سبحانه عن قتل الأولاد المستدعي لإفناء النسل نكر النهي عن الزنا المفضي إلى ذلك لما فيه من اختلاط الأنساب فقال: ﴿ولا تقربوا الزنى﴾ وفي النهي عن قربانه بمباشرة مقدماته نهى عنه بالأولى، فإن الوسيلة إلى الشيء إذا كانت حراماً كان المتوصل إليه حراماً بفحوى الخطاب، والزنى فيه لغتان: المد، والقصر. قال الشاعر:

كانت فريضة ما تقول كما كان الزنا فريضة الرجم
ثم علل النهي عن الزنا بقوله: ﴿إنه كان فاحشاً﴾ أي:

وألقى ما عندي خطوب تنبل

نهاهم الله سبحانه عن أن يقتلوا أولادهم خشية الفقر، وقد كانوا يفعلون ذلك، ثم بين لهم أن خوفهم من الفقر حتى يبلغوا بسبب ذلك إلى قتل الأولاد لا وجه له، فإن الله سبحانه هو الرزاق لعباده يرزق الأبناء كما يرزق الآباء فقال: ﴿نحن نرزقهم وإياكم﴾ ولستم لهم برازقين حتى تصنعوا بهم هذا الصنع، وقد مر مثل هذه الآية في الانعام ثم علل سبحانه النهي عن قتل الأولاد لذلك بقوله: ﴿إن قتلهم كان خطئاً كبيراً﴾. قرأ الجمهور بكسر الخاء وسكون الطاء وبالهزم للمقصود. وقرأ ابن عامر (خطأ) بفتح الخاء والطاء والقصر في الهمز، يقال: خطئ في بيته خطأ: إذا أثم، وأخطأ: إذا سلك سبيلاً خطأ عامداً أو غير عامد. قال الأزهري، خطئ يخطئ خطأ مثل أثم يآثم إثمًا: إذا تعمد الخطأ، وأخطأ: إذا لم يتعمد، أخطأ وخطأ، قال الشاعر:

يعيني إنما خطاء وصدا علي وإنما أهلكت مالي
والخطأ الاسم يقوم مقام الأخطاء، وفيه لغتان القصر، وهو الجيد، والمد وهو قليل. وقرأ ابن كثير بكسر الخاء وفتح الطاء ومد الهمز⁽¹⁾. قال النحاس: ولا أعرف لهذه القراءة وجهاً، وكذلك جعلها أبو حاتم غلطاً. وقرأ الحسن (خطأ) بفتح الخاء والطاء منونة من غير همز. ولما نهى سبحانه عن قتل الأولاد المستدعي لإفناء النسل نكر النهي عن الزنا المفضي إلى ذلك لما فيه من اختلاط الأنساب فقال: ﴿ولا تقربوا الزنى﴾ وفي النهي عن قربانه بمباشرة مقدماته نهى عنه بالأولى، فإن الوسيلة إلى الشيء إذا كانت حراماً كان المتوصل إليه حراماً بفحوى الخطاب، والزنى فيه لغتان: المد، والقصر. قال الشاعر:

كانت فريضة ما تقول كما كان الزنا فريضة الرجم
ثم علل النهي عن الزنا بقوله: ﴿إنه كان فاحشاً﴾ أي:

(1) (وقوله ومد الهمز) صوابه: وحدها للهمز. اهـ.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿إن تكونوا صالحين﴾ قال: تكون الباهرة من الولد إلى الوالد، فقال الله: ﴿إن تكونوا صالحين﴾ إن تكن النية صادقة ﴿فإنه كان للأوابين غفوراً﴾ للباعدة التي بدرت منه، وأخرج ابن أبي الدنيا، والبيهقي في الشعب عنه في قوله: ﴿إنه كان للأوابين غفوراً﴾ قال، الرجاعين إلى الخير. وأخرج سعيد بن منصور، وهناد، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن الضحاک في

منصور، وابن أبي شيبة، والبخاري في الأنب، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم، وصححه، والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود في قوله: ﴿وَلَا تَبْذُرْ﴾ والتبذير: قال: التبذير إغراق المال في غير حقه. وأخرج ابن جرير عنه قال: كنا أصحاب محمد نتحدث أن التبذير النفقة في غير حقه. وأخرج سعيد بن منصور، والبخاري في الأنب، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّ الْمُبْذِرِينَ﴾ قال: هم الذين ينفقون المال في غير حقه. وأخرج البيهقي في الشعب عن علي قال: ما أنفقت على نفسك وأهل بيتك في غير سرف ولا تبذير وما تصدقت فلك، وما أنفقت رياء وسمعة فذلك حظ الشيطان. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مروي عن ابن عباس في قوله: ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مِّسُورًا﴾ قال: العدة. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر عن سيار أبي الحكم قال: أتى رسول الله ﷺ بَرٌّ من العراق، وكان معطاء كريماً فقسمه بين الناس، فبلغ ذلك قوماً من العرب، فقالوا: إنا نأتي النبي ﷺ نسأله، فوجوه وقد فرغ منه، فأنزل الله ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ قال: محبوسة ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا﴾ يلومك الناس ﴿مَحْسُورًا﴾ ليس بينك شيء. أقول: ولا أدري كيف هذا؟ فالآية مكية، ولم يكن إذ ذاك عرب يقصون رسول الله ﷺ ولا يحمل إليه شيء من العراق ولا مما هو أقرب منه، على أن فتح العراق لم يكن إلا بعد موته ﷺ. وأخرج ابن جرير عن المنهال بن عمرو: «بعثت امرأة إلى النبي ﷺ بابنها فقالت: قل له: اكسني ثوباً، فقال: ما عندي شيء، فقالت: ارجع إليه فقل له: اكسني قميصك، فرجع إليه فنزع قميصه فاعطاها إياه، فنزلت ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً﴾ الآية». وأخرج ابن مروي عن ابن مسعود نحوه. وأخرج ابن مروي عن أبي أمامة أن النبي ﷺ قال لعائشة وضرب بيده: «أنفقي ما على ظهر كفي، قالت: إن لا يبقى شيء. قال: ذلك ثلاث مرات، فأنزل الله ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً﴾ الآية»، ويقدر في ذلك أنه ﷺ لم يتزوج بعائشة إلا بعد الهجرة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً﴾ قال: يعني بذلك البخل. وأخرج عنه في الآية قال: هذا في النفقة يقول: لا تجعلها مغلولة لا تبسطها بخير، ولا تبسطها كل البسط، يعني: التبذير ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا﴾، يلوم نفسه على ما فاتته من ماله ﴿مَحْسُورًا﴾ ذهب ماله كله. وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله: ﴿إِنْ رَيْكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ قال: ينظر له، فإن كان الغنى خيراً له أغناه، وإن كان الفقر خيراً له أفقره. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ قال: مخافة الفقر والفاقة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه في قوله: ﴿خَطَا﴾ قال: خطيئة. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا﴾ قال: يوم نزلت هذه

الآية قال: الرجاعين من الذنب إلى التوبة، ومن السيئات إلى الحسنات. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿لِلأُولَئِينَ﴾ قال: للمطيعين المحسنين. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الشعب عنه قال: للتوابين. وأخرج البخاري في تاريخه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿وَأَتَٰ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ قال: أمره بأحقّ الحقوق، وعلمه كيف يصنع إذا كان عنده، وكيف يصنع إذا لم يكن عنده؟ فقال: ﴿وَمَا تَعْرَضُنَّ عَنْهُمْ لِإِقْتَاءِ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ قال: إذا سألك وليس عندك شيء انتظرت رزقاً من الله ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مِّسُورًا﴾ يكون إن شاء الله يكون شبه العدة. قال سفيان: والعدة من النبي ﷺ دين. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في الآية قال: هو أن تصل ذا القرابة وتطعم المسكين وتحسن إلى ابن السبيل. وأخرج ابن جرير عن علي بن الحسين أنه قال لرجل من أهل الشام: أقرأت القرآن؟ قال: نعم، قال: فما قرأت في بني إسرائيل ﴿وَأَتَٰ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ قال: وإنكم للقرابة التي أمر الله أن يؤتي حقهم؟ قال: نعم. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في الآية، قال: والقرى قرى بني عبد المطلب.

وأقول: ليس في السياق ما يفيد هذا التخصيص، ولا دلّ على ذلك دليل، ومعنى النظم القرآني واضح إن كان الخطاب مع كل من يصلح له من الأمة، لأن معناه أمر كل مكلف متمكن من صلة قرابته بأن يعطيهم حقهم وهو الصلة التي أمر الله بها. وإن كان الخطاب للنبي ﷺ، فإن كان على وجه التعريض لأمره فالأمر فيه كالأول، وإن كان خطاباً له من دون تعريض، فأمته أسوته، فالأمر له ﷺ بإيتاء ذي القرى حقه أمر لكل فرد من أفراد أمته، والظاهر أن هذا الخطاب ليس خاصاً بالنبي ﷺ بليل ما قبل هذه الآية، وهي قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبِّيكَ أَتَعْبُدُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ وما بعدها، وهي قوله: ﴿وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيرًا إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾.

وفي معنى هذه الآية الدالة على وجوب صلة الرحم أحاديث كثيرة. وأخرج أحمد، والحاكم وصححه عن أنس: «أن رجلاً قال: يا رسول الله إني ذو مال كثير وذو أهل وولد وحاضرة، فأخبرني كيف أنفق وكيف أصنع؟ قال: تخرج الزكاة المفروضة، فإنها طهرة تطهرك وتصل أقاربك وتعرف حقّ السائل والجار والمسكين، فقال: يا رسول الله أقتل لي؟ قال: فأت ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً. قال: حسبي يا رسول الله». وأخرج البزار، وأبو يعلى، وابن أبي حاتم، وابن مروي عن أبي سعيد الخدري قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَأَتَٰ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ دعا رسول الله ﷺ فاطمة فاعطاها فلك. وأخرج ابن مروي عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿وَأَتَٰ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ أقطع رسول الله ﷺ فاطمة فلك. قال ابن كثير بعد أن ساق حديث أبي سعيد هذا ما لفظه: وهذا الحديث مشكل لو صح إسناده، لأن الآية مكية، وفلك إنما فتحت مع خيبر سنة سبع من الهجرة، فكيف يلتئم هذا مع هذا، انتهى. وأخرج الفريابي، وسعيد بن

يصلحه، وذلك يستلزم مباشرته، فقال: ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي: إلا بالخصلة التي هي أحسن الخصال، وهي حفظه وطلب الربح فيه والسعي فيما يريد به. ثم ذكر الغاية التي للنهي عن قربان مال اليتيم فقال: ﴿حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ أي: لا تقربوه إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ اليتيم أشده، فإذا بلغ أشده كان لكم أن تدفعوه إليه، أو تتصرفوا فيه بإنه، وقد تقدّم الكلام على هذا مستوفى في الأنعام ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ قد مضى الكلام فيه في غير موضع. قال الزجاج: كل ما أمر الله به ونهى عنه فهو من العهد، فيدخل في ذلك ما بين العبد وربّه، وما بين العباد بعضهم البعض. والوفاء بالعهد هو القيام بحفظه على الوجه الشرعي والقانون المرضي، إلا إذا دلّ دليل خاص على جواز النقص وإن العهد كان مسؤولاً أي: مسؤولاً عنه، فالمسؤول هنا هو صاحبه، وقيل: إن العهد يسأل تبكيتاً لناقضه ﴿وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ إِذَا كَلْتُمْ﴾ أي: أتموا الكيل ولا تخسروه وقت كيلكم للناس ﴿وَوُزَنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ قال الزجاج: هو ميزان العدل أي: ميزان كان من موازين الدراهم وغيرها، وفيه لغتان: ضم القاف، وكسرهما، وقيل هو القيان المسمى بالقرسطون؛ وقيل هو العدل نفسه، وهي لغة الروم، وقيل: لغة سريانية. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم في رواية أبي بكر (القسطاس) بضم القاف، وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم بكسر القاف، والإشارة بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ إلى إيفاء الكيل والوزن، وهو مبتدأ وخبره ﴿خَيْرٌ﴾ أي: خير لكم عند الله وعند الناس يتأثر عنه حسن النكر وترغيب الناس في معاملة من كان كذلك ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي: أحسن عاقبة، من آل إذا رجع. ثم أمر سبحانه بإصلاح اللسان والقلب فقال: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي: لا تتبع ما لا تعلم، من قولك: قفوت فلاناً إذا اتبعت أثره، ومنه قافية الشعر لأنها تقفو كل بيت، ومنه القبيلة المشهورة بالقافة لأنهم يتبعون آثار أقدام الناس. وحكى ابن جرير عن فرقة أنها قالت: قفا وقاف مثل عثا وعث. قال منذر بن سعيد البلوطي: فقال وقاف، مثل جذب وجذب. وحكى الكسائي عن بعض القراء أنه قرأ (تقف) بضم القاف وسكون الفاء. وقرأ الفراء بفتح القاف وهي لغة لبعض العرب، وإنكرها أبو حاتم وغيره. ومعنى الآية: النهي عن أن يقول الإنسان ما لا يعلم أو يعمل بما لا علم له به، وهذه قضية كلية، وقد جعلها جماعة من المفسرين خاصة بأمور: فقيل: لا تنم لحداً بما ليس لك به علم؛ وقيل: هي في شهادة الزور؛ وقيل: هي في القنف. وقال القتيبي: معنى الآية: لا تتبع الحدس والظنون، وهذا صواب، فإن ما عدا ذلك هو العلم؛ وقيل: المراد بالعلم هنا هو الاعتقاد الراجح المستفاد من مستند قطعياً كان أو ظنياً. قال أبو السعود في تفسيره: واستعماله بهذا المعنى مما لا ينكر شيوعه. وأقول: إن هذه الآية قد دلت على عدم جواز العمل بما ليس بعلم، ولكنها عامة مخصصة بالآلة الواردة بجواز العمل بالظن كالعمل

الآية لم يكن حدود، فجاءت بعد ذلك الحدود في سورة النور. وأخرج أبو يعلى، وابن مردويه عن أبي بن كعب أنه قرأ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّنا إِنَّه كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ إلا من تاب فإن الله كان غفوراً رحيمًا، فنكر لعمر فأتاه فسأله، فقال: أخذتها من في رسول الله وليس لك عمل إلا الصفق باليقيع. وقد ورد في التهريب عن فاحشة الزنا أحاديث كثيرة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن الضحاك في قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ﴾ الآية قال: هذا بمكة ونبي الله ﷺ بها، وهو أول شيء نزل من القرآن في شأن القتل، كان المشركون من أهل مكة يغتالون أصحاب رسول الله ﷺ فقال الله: من قتلتم من المشركين، فلا يحملكم قتله إليكم على أن تقتلوا له أباً أو أخاً أو واحداً من عشيرته وإن كانوا مشركين، فلا تقتلوا إلا قاتلكم، وهذا قبل أن تنزل براءة، وقيل: إن يؤمر بقتال المشركين فنلك قوله: ﴿فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّه كَانَ مَنْصُورًا﴾ يقول: لا تقتل غير قاتلك، وهي اليوم على ذلك الموضع من المسلمين لا يحل لهم أن يقتلوا إلا قاتلهم. وأخرج البيهقي في سننه عن زيد بن أسلم أن الناس في الجاهلية كانوا إذا قتل الرجل من القوم رجلاً لم يرضوا حتى يقتلوا به رجلاً شريفاً إذا كان قاتلهم غير شريف لم يقتلوا قاتلهم وقتلوا غيره، فوعظوا في ذلك بقول الله سبحانه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ﴾ إلى قوله: ﴿فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ﴾. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيه سُلْطَانًا﴾ قال: بينة من الله أنزلها يطلبها ولي المقتول القود أو العقل، وذلك السلطان. ولخرج ابن أبي حاتم من طريق مجاهد عنه ﴿فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ﴾ قال: لا يكثر في القتل. وأخرج ابن المنذر من طريق أبي صالح عنه أيضاً: لا يقاتل إلا قاتل رحمه.

وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَتْ مَسْئَلَةً ﴿١٨﴾ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ إِذَا كَلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿١٩﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئَلَةٌ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَنسَ فِي الْأَرْضِ مَرًّا إِنَّكَ لَن تَحْقِرَ الْأَرْضَ وَكَانَ بَلْعَ الْجِبَالِ طَوًى ﴿٢١﴾ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُومًا ﴿٢٢﴾ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا جَمَلُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا مَخْرَ فَلَنَفِي فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا ﴿٢٣﴾ أَفَأَسْفَرَكُمْ إِلَيْنَا وَأَعَذَّ مِنَ الْمُلْكِ كَذِبًا إِنَّمَا أَنْتُمْ لِقَوْلِهِمْ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٢٥﴾

لما ذكر سبحانه النهي عن إتلاف النفوس أتبعه بالنهي عن إتلاف الأموال، وكان أهمها بالحفظ والرعاية مال اليتيم فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾. والنهي عن قربانه مبالغة في النهي عن المباشرة له وإتلافه، ثم بين سبحانه أن النهي عن قربانه، ليس المراد منه النهي عن مباشرته فيما يصلحه ويفسده بل يجوز لولي اليتيم أن يفعل في مال اليتيم ما

وقيل: التكبر في المشي؛ وقيل: تجاوز الإنسان قدره؛ وقيل: الخيلاء في المشي؛ وقيل: البطر والأشر؛ وقيل: النشاط. والظاهر أن المراد به هنا الخيلاء والفخر، قال الزجاج في تفسير الآية: لا تمش في الأرض مختلاً فخوراً، وذكر الأرض مع أن المشي لا يكون إلا عليها أو على ما هو معتمد عليها تأكيداً وتقريراً، ولقد أحسن من قال:

ولا تمش فوق الأرض إلا تواضعا فكم تحتها قوم هم منك أرفع
وإن كنت في عز وحز ومنعة فكم مات من قوم هم منك أرفع
والمرح مصدر وقع حالاً أي: ذا مرح. وفي وضع المصدر موضع الصفة نوع تأكيد. وقرأ الجمهور (مرحاً) بفتح الراء على المصدر. وحكى يعقوب عن جماعة كسرهما على أنه اسم فاعل، ثم علل سبحانه هذا النهي فقال: ﴿إنك لن تخرق الأرض﴾ يقال: خرق الثوب أي: شقه، وخرق الأرض قطعها، والخرق الواسع من الأرض، والمعنى: أنك لن تخرق الأرض بمشيك عليها تكبراً، وفيه تهكم بالمختال المتكبر ﴿ولن تبلغ الجبال طولا﴾ أي: ولن تبلغ قدرتك إلى أن تطاول الجبال حتى يكون عظم جثتك حاملاً لك على الكبر والاختيال، فلا قوة لك حتى تخرق الأرض بالمشي عليها، ولا عظم في بدنك حتى تطاول الجبال، فما الحامل لك على ما أنت فيه؟ وطولاً مصدر في موضع الحال أو تمييز أو مفعول له؛ وقيل: المراد بخرق الأرض نقبها لا قطعها بالمسافة. وقال الأزهري: خرقها قطعها، قال النحاس: وهذا أبين كأنه مأخوذ من الخرق، وهو الفتحة الواسعة، ويقال: فلان أخرق من فلان: أي أكثر سفراً، والإشارة بقوله: ﴿كل ذلك﴾ إلى جميع ما تقدم نكره من الأوامر والنواهي، أو إلى ما نهى عنه فقط من قوله: ﴿ولا تقف﴾ ﴿ولا تمش﴾ قرأ عاصم، وابن عامر، وحزمه، والكسائي، ومسروق (سيته) على إضافة سيء إلى الضمير، ويؤيد هذه القراءة قوله: ﴿مكروها﴾ فإن السيء هو المكروه. ويؤيدها أيضاً قراءة أبي: (كان سيئاته)، واختار هذه القراءة أبو عبيد. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو (سيئة) على أنها واحدة السيئات، وانتصابها على خبرية كان، ويكون مكروهاً صفة لسيئة على المعنى، فإنها بمعنى سيئة، أو هو بدل من سيئة؛ وقيل: هو خبر ثانٍ لكان حملاً على لفظ كل، ورجع أبو علي الفارسي البذل، وقد قيل في توجيهه بغير هذا مما فيه تعسف لا يخفى. قال الزجاج: والإضافة أحسن، لأن ما تقدم من الآيات فيها سيء وحسن، فسيئة المكروه ويقوي ذلك التذكير في المكروه، قال: ومن قرأ بالتونين جعل «كل ذلك» إحاطة بالمنهي عنه نون الحسن. المعنى: كل ما نهى الله عنه كان سيئة وكان مكروهاً. قال: والمكروه على هذه القراءة بدل من السيئة وليس بنعت، والمراد بالمكروه عند الله هو الذي يبغضه ولا يرضاه، لا أنه غير مراد مطلقاً، لقيام الألفة القاطعة على أن الأشياء واقعة ببرادته سبحانه، وذكر مطلق الكراهة مع أن في الأشياء المتقدمة ما هو من الكبائر إشعاراً بأن مجرد الكراهة عنده تعالى يوجب انزجار السامع

بالعام وبخبر الواحد والعمل بالشهادة والاجتهاد في القبلية وفي جزاء الصيد ونحو ذلك، فلا تخرج من عمومها ومن عموم ﴿إن الظن لا يغني من الحق شيئاً﴾ [يونس: 36]. إلا ما قام دليل جواز العمل به، فالعمل بالرأي في مسائل الشرع إن كان لعدم وجود الدليل في الكتاب والسنة، فقد رخص فيه النبي ﷺ كما في قوله ﷺ لمعاذ لما بعثه قاضياً: «بم تقضي؟ قال بكتاب الله، قال: فإن لم تجد، قال: فبسنة رسول الله، قال: فإن لم تجد، قال: اجتهد رأيي». وهو حديث صالح للاحتجاج به كما أوضحنا ذلك في بحث مفرد. وأما التوثب على الرأي مع وجود الدليل في الكتاب أو السنة، ولكنه قصر صاحب الرأي عن البحث فجاء برأيه فهو داخل تحت هذا النهي بخلاً أولياً، لأنه محض رأي في شرع الله، وبالناس عنه غنى بكتاب الله سبحانه وسنة رسوله ﷺ ولم تدع إليه حاجة، على أن الترخيص في الرأي عند عدم وجود الدليل إنما هو رخصة للمجتهد يجوز له أن يعمل به، ولم يدل دليل على أنه يجوز لغيره العمل به وينزله منزلة مسائل الشرع، وبهذا يتضح لك أتم اتضاح ويظهر لك اكتمل ظهور أن هذه الآراء المدونة في الكتب الفروعية ليست من الشرع في شيء، والعامل بها على شفا جرف هار، فالمجتهد المستكثر من الرأي قد قفا ما ليس له به علم، والمقلد المسكين العامل برأيي ذلك المجتهد قد عمل بما ليس له به علم ولا لمن قلده ﴿ظلمت بعضها فوق بعض﴾ [النور: 40]. وقد قيل: إن هذه الآية خاصة بالعقائد ولا دليل على ذلك أصلاً. ثم علل سبحانه النهي عن العمل بما ليس بعلم بقوله: ﴿إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً﴾ إشارة إلى الأعضاء الثلاثة، وأجريت مجرى العقلاء لما كانت مسئولة عن أحوالها شاهدة على أصحابها. وقال الزجاج: إن العرب تعبر عما يعقل وعما لا يعقل بأولئك، وأنشد ابن جرير مستدلاً على جواز هذا قول الشاعر:

نم المنازل بعد منزلة اللوى والعيش بعد أولئك الأيام
واعترض بأن الرواية بعد أولئك الأقوام، وتبعه غيره على هذا الخطأ كصاحب الكشاف. والضمير في كان من قوله: ﴿كان عنه مسؤولاً﴾ يرجع إلى كل، وكذا الضمير في عنه، وقيل: الضمير في كان يعود إلى القافي الملل عليه بقوله: ﴿ولا تقف﴾. وقوله: «عنه» في محل رفع لإسناد مسؤولاً إليه، ورد بما حكاه النحاس من الإجماع على عدم جواز تقديم القائم مقام الفاعل إذا كان جاراً أو مجروراً. قيل: والأولى أن يقال: إنه فاعل مسؤولاً المحذوف، والمنكوب مفسر له. ومعنى سؤال هذه الجوارح أنه يسأل صاحبها عما استعملها فيه لأنها آلات، والمستعمل لها هو الروح الإنساني، فإن استعملها في الخير استحق الثواب، وإن استعملها في الشر استحق العقاب؛ وقيل: إن الله سبحانه ينطق الأعضاء هذه عند سؤالها فتخبر عما فعله صاحبها ﴿ولا تمش في الأرض مرحاً﴾ المرح قيل: هو شدة الفرح،

ينزعون عن هذه الغواية ولا وازع لهم يزعهم إلى الهداية.

وقد أخرج ابن جرير عن قتادة في قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ قال: كانوا لا يخالطونهم في مال ولا ماكل ولا مركب حتى نزلت ﴿وَلَا تَخَالَطُوهُمْ فِإِخْوَانِكُمْ﴾ [البقرة: 220]. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة في قوله: ﴿إِنْ لِّلْعَهْدِ كَانَ مَسْئُولًا﴾ قال: يسأل الله ناقض العهد عن نقضه. وأخرج ابن المنذر عن ابن جرير في الآية قال: يسأل عهده من أعطاه إياه. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة في قوله: ﴿وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ إِذَا كَلْتُمْ﴾ يعني: لغيركم ﴿وَوَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ﴾ يعني: للميزان، وبلغه الروم الميزان القسطاس ﴿وَلَكَّ خَيْرٌ﴾ يعني: وفاء الكيل والميزان خير من النقصان ﴿وَوَاحِشَن تَأْوِيلًا﴾ عاقبة. وأخرج ابن أبي شيبة، والفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: القسطاس العدل بالرومية. وأخرج ابن المنذر عن الضحاك قال: القسطاس القبان. وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال: الحديد. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تَقْفُ﴾ قال: لا تقل. وأخرج ابن جرير عنه قال: لا ترم أحدا بما ليس لك به علم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن الحنفية في الآية قال: شهادة الزور. وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله: ﴿إِنْ لِّلْسَمْعِ وَالبَصَرِ وَالبُغُودِ كُل لَوْلُكَّ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ يقول: سمعه وبصره وفؤاده تشهد عليه. وأخرج الفريابي عن ابن عباس في قوله: ﴿كُل لَوْلُكَّ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ قال: يوم القيامة اكلتك كل أم لا؟. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ قال: لا تمش فخرا وكبرا، فإن ذلك لا يبلغ بك الجبال ولا أن تخرق الأرض بفخر وكبرك. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: إن التوراة في خمس عشرة آية من بني إسرائيل ثم تلا ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿مُحْجَرًا﴾ قال: مطرودا.

قُلْ لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتُلُوا إِلَىٰ رُءُوسِهِمْ سَبِيلًا ۚ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿١٧﴾ سَبِّحْ لَهُ الشُّعْرُوتُ السَّيِّعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبُحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّكُمْ كَانُمْرًا مَّشْهُورًا ﴿١٨﴾ وَلَئِنْ قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِّرْتُمْ بَكَرُوا لِلْآفَاقِ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسٍ أَغْمُوسًا ﴿٢٠﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ إِنَّكُمْ لَعِنَائِهِمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٢١﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ إِنَّكُمْ لَعِنَائِهِمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٢٢﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ مَرَبُّوكَ لَكَ الْأَمْثَالُ فَمَبْلُغُوا فَلَا يَسْتَوِيحُونَ سَبِيلًا ﴿٢٣﴾

قوله: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾. قرأ ابن كثير، وحفص (يقولون) بالياء التحتية، وقرأ الباقون بالفوقية على الخطاب للقاتلين بأن مع الله آلهة أخرى، وإن جواب

واجتنابه لذلك. والحاصل أن في الخصال المتقدمة ما هو حسن وهو المأمور به، وما هو مكروه وهو المنهي عنه، فعلى قراءة الإضافة تكون الإشارة بقوله: ﴿كُلُّ لُكَّ﴾ إلى جميع الخصال حسننها ومكروها، ثم الإخبار بأن ما هو سيء من هذه الأشياء وهو المنهي عنه مكروه عند الله، وعلى قراءة الأفراد من بون إضافة تكون الإشارة إلى المنهيات، ثم الإخبار عن هذه المنهيات بأنها سيئة مكروهة عند الله ﴿وَلَكَّ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ رِيكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ الإشارة إلى ما تقدم ذكره من قوله: ﴿لَا تَجْعَلْ﴾ إلى هذه الغاية وترتقي إلى خمسة وعشرين تكليفاً، ﴿مَعَا أَوْحَى إِلَيْكَ رِيكَ﴾ أي: من جنسه أو بعض منه، وسمي حكمة لأنه كلام محكم، وهو ما علمه من الشرائع أو من الأحكام المحكمة التي لا يتطرق إليها الفساد، وعند الحكماء أن الحكمة عبارة عن معرفة الحق لذاته، و من الحكمة، متعلق بمحذوف وقع حالاً أي: كائناً من الحكمة، أو بدل من الموصول بإعادة الجار، أو متعلق بأوحي. ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ كرر سبحانه النهي عن الشرك تأكيداً وتقريباً وتنبيهاً عن أنه رأس خصال الدين وعمته. قيل: وقد راعى سبحانه في هذا التأكيد بقيقة قربت على الأول كونه مضموماً مخذولاً، وذلك إشارة إلى حال الشرك في الدنيا، ورتب على الثاني أنه يلقي ﴿فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّحْجُورًا﴾ وذلك إشارة إلى حاله في الآخرة، وفي القعود هناك، والإلقاء هنا إشارة إلى أن للإنسان في الدنيا صورة اختيار بخلاف الآخرة، وقد تقدم تفسير المعلوم والممحور ﴿فَاصْصَاكُم بِرِيكَ بِالْبَيْنِ وَاتَّخِذْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاءً﴾ قال أبو عبيدة: أصفاكم خصكم، وقال الفضل: أخلصكم، وهو خطاب للكفار القائلين بأن الملائكة بنات الله، وفيه توبيخ شديد وتقريع بالغ لما كان يقوله هؤلاء الذين هم كالأنعام بل هم أضل، والفاء للعطف على مقتر كنظائره مما قد كررناه. ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ﴾ يعني: القائلين بأن لهم الذكر والله الإنك ﴿قَوْلًا عَظِيمًا﴾ بالغاً في العظم والجراءة على الله إلى مكان لا يقار قدره ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾ أي: بينا ضروب القول فيه من الأمثال وغيرها، أو كررنا فيه؛ وقيل: وفي، زائدة، والتقدير ولقد صرَّفنا هذا القرآن. والتصريف في الأصل صرف الشيء من جهة إلى جهة؛ وقيل: معنى التصريف المغايرة أي: غايرنا بين المواقف ليتذكروا ويعتبروا، وقراءة الجمهور (صرَّفنا) بالتشديد، وقرأ الحسن بالتخفيف، ثم علل تعالى ذلك فقال: ﴿لِيَذْكُرُوا﴾ أي: ليتعلموا ويتدبروا بعقولهم ويتفكروا فيه حتى يفقهوا على بطلان ما يقولونه. قرأ يحيى بن وثاب، والأعمش، وحمزة، والكسائي (ليذكروا) مخففاً، والباقيون بالتشديد، واختار أبو عبيد لما تفيد من معنى التذكير، وجملة ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ في محل نصب على الحال أي: والحال أن هذا التصريف والتذكير ما يزيدهم إلا تباعداً عن الحق وغفلة عن النظر في الصواب لأنهم قد اعتقدوا في القرآن أنه حيلة وسحر وكهانة وشعر، وهم لا

كانوا يسمعون تسبيح الطعام، وهم ياكلون مع رسول الله ﷺ، وهكذا حديث حنين الجذع، وحديث أن حجراً بمكة كان يسلم على النبي ﷺ، وكلها في الصحيح ومن ذلك تسبيح الحصى في كفه ﷺ، ومداقة عموم هذه الآية بمجرّد الاستبعايات ليس دأب من يؤمن بالله سبحانه ويؤمن بما جاء من عنده، ومعنى ﴿إلا يسبح بحمده﴾ إلا يسبح متلبساً بحمده ﴿ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾. قرأ الحسن، وأبو عمرو، ويعقوب، وحفص، وحمزة، والكسائي، وخلف (تسبح) بالمشنة الفوقية على الخطاب، وقرأ الباقر بالتحية، واختار هذه القراءة أبو عبيدة ﴿إنه كان حليماً غفوراً﴾ فمن حلمه الإمهال لكم وعدم إنزال عقوبته عليكم، ومن مغفرته لكم أنه لا يؤاخذ من تاب منكم. ولما فرغ سبحانه من الإلهيات شرع في نكر بعض من آيات القرآن وما يقع من سامعيه فقال: ﴿وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً﴾ جعلنا بينك يا محمد وبين المشركين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً أي: إنهم لإعراضهم عن قراءتك وتغافلهم عنك كمن بينك وبينه حجاب يمرّون بك ولا يرونك، ذكر معناه الزجاج وغيره، ومعنى مستوراً ساتر. قال الأخفش: أراد ساتراً، والفاعل قد يكون في لفظ المفعول كما تقول: إنك لمشووم وميمون، وإنما هو شائم ويامن؛ وقيل: معنى مستوراً ذا ستر، كقولهم: سيل مفعم: أي: نو إفعام، وقيل: هو حجاب لا تراه الأعين فهو مستور عنها، وقيل: حجاب من لونه حجاب فهو مستور بغيره، وقيل: المراد بالحجاب المستور الطبع والختم ﴿وجعلنا على قلوبهم أكنة﴾ الأكنة: جمع كنان. وقد تقدّم تفسيره في الأنعام، وقيل: هو حكاية لما كانوا يقولونه من قولهم: ﴿قلوبنا غلف﴾ [البقرة: 88] ﴿وفي آذاننا وقرّ ومن بيننا وبينك حجاب﴾ [فصلت: 5]. و ﴿أن يفقهوه﴾ مفعول لأجله أي: كراهة أن يفقهوه، أو لئلا يفقهوه أي: يفهموا ما فيه من الأوامر والنواهي والحكم والمعاني ﴿وفي آذانهم وقرّاً﴾ أي: صمماً وثقلًا، وفي الكلام حذف، والتقدير: إن يسمعوه. ومن قبائح المشركين أنهم كانوا يحبون أن ينكر آلهتهم كما ينكر الله سبحانه فإذا سمعوا نكر الله بون نكر آلهتهم نفروا عن المجلس، ولهذا قال الله: ﴿وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده﴾ أي: واحداً غير مشفوع بنكر آلهتهم، فهو مصدر وقع موقع الحال ﴿ولمّا على أبنائهم نفوراً﴾ هو مصدر، والتقدير: هربوا نفوراً، أو نفروا نفوراً، وقيل: جمع نافر كقاعد وقعود. والأوّل أولى. ويكون المصدر في موضع الحال أي: ولما نافرين ﴿نحن أعلم بما يستمعون به﴾ أي: يستمعون إليك متلبسين به من الاستخفاف بك وبالقرآن واللغو في نكرك لربك وحده، وقيل: الباء زائدة والظرف في ﴿إذ يستمعون إليك﴾ متعلق بأعلم أي: نحن أعلم وقت يستمعون إليك بما يستمعون به، وفي تأكيد للوعيد، وقوله: ﴿وإن هم نجوى﴾ متعلق بأعلم أيضاً أي: ونحن أعلم بما يتناجون به فيما بينهم وقت تناجيههم، وقد

عن مقاتلهم الباطلة وجزاء للو ﴿لا تبغوا إلى ذي العرش﴾ وهو الله سبحانه ﴿سبيلاً﴾ طريقاً للمغالبة والممانعة كما تفعل الملوك مع بعضهم البعض من المقاتلة والمصالاة؛ وقيل: معناه إن لا تبغوا إلى الله القربة والزلفة عنده، لأنهم بونه، والمشركون إنما اعتقدوا أنها تقربهم إلى الله. والظاهر المعنى الأول، ومثل معناه قوله سبحانه: ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾ [الأنبياء: 22]. ثم نزه تعالى نفسه، فقال: ﴿سبحانه﴾ والتسبيح التنزيه، وقد تقدّم ﴿وتعالى﴾ متباعد ﴿عما يقولون﴾ من الأقوال الشنيعة والفرية العظيمة ﴿علواً﴾ أي: تعالياً، ولكنه وضع العلو موضع التعالي كقوله: ﴿وإن أنبئك من الأرض نباتاً﴾ [نوح: 17]. ثم وصف العلو بالكبر مبالغة في النزاهة، وتنبيهاً على أن بين الواجب لذاته والممكن لذاته، وبين الغني المطلق، والفقر المطلق مباينة لا تعقل الزيادة عليها، ثم بين سبحانه جلالة ملكه وعظمة سلطانه فقال: ﴿يسبح له السفوات السبع والأرض ومن فيهن﴾ قرئ بالمشنة التحتية في (يسبح)، وبالفوقية، وقال: «فيهن» بضمير العقلاء لإسناده إليها التسبيح الذي هو فعل العقلاء، وقد أخبر سبحانه عن السموات والأرض بأنّها تسبحه، وكذلك من فيها من مخلوقاته الذين لهم عقول وهم الملائكة والإنس والجن وغيرهم من الأشياء التي لا تعقل، ثم زاد ذلك تعميماً وتأكيداً فقال: ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾ فشمّل كل ما يسمى شيئاً كائناً ما كان، وقيل: إنه يحمل قوله: ﴿ومن فيهن﴾ على الملائكة والثقلين، ويحمل ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾ على ما عدا ذلك من المخلوقات.

وقد اختلف أهل العلم في هذا العموم هل هو مخصوص أم لا؟ فقلت طائفة: ليس بمخصوص، وحملوا التسبيح على تسبيح الدلالة لأن كل مخلوق يشهد على نفسه ويدل غيره بأن الله خالق قادر. وقالت طائفة: هذا التسبيح على حقيقته والعموم على ظاهره. والمراد أن كل المخلوقات تسبح لله سبحانه هذا التسبيح الذي معناه التنزيه وإن كان البشر لا يسمعون ذلك ولا يفهمونه، ويؤيد هذا قوله سبحانه: ﴿ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ فإنه لو كان المراد تسبيح الدلالة لكان أمراً مفهوماً لكل أحد، وأجيب بأن المراد بقوله ﴿لا تفقهون﴾ الكفار الذين يعرضون عن الاعتبار. وقلت طائفة: إن هذا العموم مخصوص بالملائكة والثقلين بون الجمادات، وقيل: خاص بالأجسام النامية فيدخل النباتات، كما روي هذا القول عن عكرمة والحسن وخصا تسبيح النباتات بوقت نموها لا بعد قطعها. وقد استدلل لذلك بحديث: «أن النبي ﷺ مرّ على قبرين» وفيه «ثم دعا بعسيب رطب فشقه اثنتين، وقال: إنه يخفف عنهما ما لم يببسا». ويؤيد حمل الآية على العموم قوله: ﴿إنّا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق﴾ [ص: 18]. وقوله: ﴿ولن منها لما يهبط من خشية الله﴾ [البقرة: 74]. وقوله: ﴿وتخر الجبال هداً﴾ [مريم: 90]، ونحو ذلك من الآيات. وثبت في الصحيح أنهم

قال ابن كثير إسناده فيه ضعف. وأخرج البخاري ومسلم وغيرهم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قرصت نملة نبيا من الأنبياء فأمر بقوية النمل فأحرقت فأوحى الله إليه من أجل نملة واحدة أحرقت أمة من الأمم تسبح». وأخرج النسائي، وأبو الشيخ، وابن مردويه عن ابن عمر قال: «نهى رسول الله ﷺ عن قتل الضفدع وقال: نقيقتها تسبح». وأخرج أبو الشيخ في العظمة، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: «**وإن من شيء إلا يسبح بحمده**» قال: الزرع يسبح وأجره لصاحبه والثوب يسبح ويقول الوسخ إن كنت مؤمنا فاغسلني إنني. وأخرج أبو الشيخ عنه قال: كل شيء يسبح إلا الكلب والحمار. وأخرج ابن راهويه في مسنده من طريق الزهري قال: أتى أبو بكر بغراب وافر الجناحين، فجعل ينشر جناحيه ويقول: ما صيد من صيد ولا عضد من شجرة إلا بما ضيعت من التسبيح. وأخرجه أحمد في الزهد، وأبو الشيخ عن ميمون بن مهران قال: أتى أبو بكر الصديق فنكره من قوله غير مرفوع. وأخرجه أبو نعيم في الحلية، وابن مردويه من حديث أبي هريرة بنحوه. وأخرج ابن مردويه من حديث ابن مسعود بمعنى بعضه. وأخرج أبو الشيخ من حديث أبي الدرداء بمعناه. وأخرج ابن عساکر من حديث أبي رهم نحوه. وأخرج ابن المنذر عن الحسن قال: هذه الآية في التوراة كقدر ألف آية **«وإن من شيء إلا يسبح بحمده»** قال: في التوراة تسبح له الجبال ويسبح له الشجر، ويسبح له كذا ويسبح له كذا. وأخرج أحمد، وأبو الشيخ عن ابن عباس قال: صلى داود ليلة حتى أصبح، فلما أصبح وجد في نفسه سرورا فتأنته ضفدعة يا داود كنت أداب منك قد أغفيت إغفاء. وأخرج البيهقي في الشعب عن صدقة بن يسار قال: كان داود في محرابه فأبصر بودة صغيرة ففكر في خلقها وقال: ما يعبا الله بخلق هذه، فأنطقها الله فقالت: يا داود أعجبك نفسك، لانا على قدر ما آتاني الله أنكره وأشكره منك على ما آتاك الله، قال الله: **«وإن من شيء إلا يسبح بحمده»** وفي الباب أحاديث وروايات عن السلف فيها التصريح بتسبيح جميع المخلوقات. وأخرج أبو يعلى، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي عن أسماء بنت أبي بكر قال: «لما نزلت **«تبت يدا أبي لهب»** [المسد: 1] أقبلت العوراء أم جميل ولها ولولة، وفي يدها فهر وهي تقول:

مزمماً أبينا وبينه قلينا
وأمره عصينا

ورسول الله جالس وأبو بكر إلى جنبه، فقال أبو بكر: لقد أقبلت هذه وأنا أخاف أن تراك، فقال: إنها لن تراني، وقرأ قرأنا اعتصم به كما قال تعالى: **«وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستورا»** فجاءت حتى قامت على أبي بكر فلم تر النبي ﷺ فقالت: يا أبا بكر بلغني أن صاحبك هجاني، فقال أبو بكر: لا ورب هذا

كانوا يتناجون بينهم بالكذب والاستهزاء، يقول بدل من «إذ هم نجوى». **«إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً»** أي: يقول كل منهم للآخرين عند تناجيهم: ما تتبعون إلا رجلاً مسحوراً فاختلط عقله وزال عن حد الاعتدال. قال ابن الأعرابي: المسحور الذاهب العقل الذي أفسد من قولهم: طعم مسحور إذا أفسد عمله، وأرض مسحورة أصابها من المطر أكثر مما ينبغي فافسدها؛ وقيل: المسحور المخدوع، لأن السحر حيلة وخديعة، وذلك لأنهم زعموا أن محمداً ﷺ كان يتعلم من بعض الناس، وكانوا يخدعونه بذلك التعليم. وقال أبو عبيدة: معنى مسحوراً أن له سحراً أي: رثة، فهو لا يستغني عن الطعام والشراب فهو مثلكم، وتقول العرب للجبان: قد انتفخ سحره، وكل من كان ياكل من أمني أو غيره مسحور، ومنه قول امرئ القيس:

أرانا موضعين لأمر غيب ونسحر بالطعام وبالشراب
أي: نغذي ونعقل. قال ابن قتيبة: لا أدري ما حمله على هذا التفسير المستكره مع أن السلف فسروه بالوجوه الواضحة **«انظر كيف ضربوا لك الأمثال»** أي قالوا: تارة إنك كاهن وتارة ساحر، وتارة شاعر، وتارة مجنون **«فصلوا»** عن طريق الصواب في جميع ذلك **«فلا يستطيعون سبيلاً»** إلى الهدى أو إلى الطعن الذي تقبله العقول ويقع التصديق له لا أصل الطعن، فقد فعلوا منه ما قدروا عليه؛ وقيل: لا يستطيعون مخرجاً لتناقض كلامهم كقولهم: ساحر مجنون.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة في قوله: **«إذا لا تبغوا إلى ذي العرش سبيلاً»** قال: على أن يزيلوا ملكه. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في الأسماء والصفات عن عبد الرحمن بن قرط: «أن رسول الله ﷺ ليلة أسري به إلى المسجد الأقصى كان جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره، فطارا به حتى بلغ السموات العلى، فلما رجع قال: سمعت تسبيحاً من السموات العلى مع تسبيح كثيراً سبحت السموات العلى من ذي المهابة مشفقات لذي العلو بما علا، سبحان العلي الأعلى سبحانه وتعالى». وأخرج ابن مردويه عن أنس: «أن رسول الله ﷺ قال وهو جالس مع أصحابه إذ سمع هدة فقال: أطلت السماء ويحق لها أن تئط، والذي نفس محمد بيده ما فيها موضع شبر إلا فيه جبهة ملك ساجد يسبح بحمده». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بشيء أمر به نوح ابنه؟ إن نوحاً قال لابنه: يا بني أترك أن تقول: سبحان الله، فإنها صلاة الخلائق، وتسبيح الخلق، وبها يرزق الخلق» قال الله تعالى: **«وإن من شيء إلا يسبح بحمده»**. وأخرج أحمد، وابن مردويه من حديث ابن عمر نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي أمامة قال: ما من عبد سبّ تسبيحة إلا سبّ ما خلق الله من شيء، قال الله **«وإن من شيء إلا يسبح بحمده»**

عجبتم من إنشاء الله لكم عظماً ولحمًا فكونوا أنتم حجارة أو حديدًا إن قدرتم على ذلك، وقال علي بن عيسى: معناه إنكم لو كنتم حجارة أو حديدًا لم تقوتوا الله عز وجل إذا أرلكم. إلا أنه خرج مخرج الأمر لأنه أبلغ في الإلزام؛ وقيل: معناه لو كنتم حجارة أو حديدًا لأعابكم كما بدلكم ولأماكم ثم أحياكم، قال النحاس: وهذا قول حسن، لأنهم لا يستطيعون أن يكونوا حجارة أو حديدًا، وإنما المعنى أنهم قد أقروا بخالقهم وأنكروا البعث، فقيل لهم: استشعروا أن تكونوا ما شئتم، فلو كنتم حجارة أو حديدًا لبعثتم كما خلقتكم أول مرة. قلت: وعلى هذا الوجه قررنا جواب الشبهة قبل هذا **﴿أو خلقاً مما يكبر في صدوركم﴾** أي: يعظم عندكم مما هو أكبر من الحجارة والحديد مباينة للحياة فإنكم مبعوثون لا محالة، وقيل: المراد به السموات والأرض والجبال لعظمها في النفوس. وقال جماعة من الصحابة والتابعين: المراد به الموت، لأنه ليس شيء أكبر في نفس ابن آدم منه. والمعنى: لو كنتم الموت لأماكم الله ثم بعثكم. ولا يخفى ما في هذا من البعد، فإن معنى الآية الترقى من الحجارة إلى الحديد، ثم من الحديد إلى ما هو أكبر في صدور القوم منه، والموت نفسه ليس بشيء يعقل ويحسن حتى يقع الترقى من الحديد إليه **﴿فسيقولون من يعيدنا﴾** إذا كنا عظاماً ورفاتاً، أو حجارة أو حديدًا مع ما بين الحالتين من التفاوت **﴿قل الذي فطركم أول مرة﴾** أي: يعيدكم الذي خلقكم واخترعكم عند ابتداء خلقكم من غير مثال سابق ولا صورة متقدمة **﴿فسيقضون إليك رءوسهم﴾** أي: يحركونها استهزاء، يقال: قض رأسه ينقض وينقض وينقض رأسه يحركه كالمتعجب، ومنه قول الرازي:

أنقض نحوي رأسه وأننعا

وقول الرازي الآخر:

ونقضت من هرم أسنانها

وقال آخر:

لما رأني أنقضت لي رأسها

﴿ويقولون متى هو﴾ أي: البعث والإعادة استهزاء منهم وسخرية **﴿قل عسى أن يكون قريباً﴾** أي: هو قريب، لأن عسى في كلام الله واجب الوقوع، ومثله **﴿وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً﴾** [الأحزاب: 63]، وكل ما هو آت قريب **﴿يوم يدعوكم﴾** الظرف منتصب بفعل مضمّر أي: أنكر، أو بدل من قريباً، أو التقدير: يوم يدعوكم كان ما كان، الدعاء النداء إلى المحشر بكلام يسمعه الخلائق، وقيل: هو الصيحة التي تسمعونها، فتكون داعية لهم إلى الاجتماع في أرض المحشر **﴿فتستجيبون بحمده﴾** أي: متقائين له حامدين لما فعله بكم، فهو في محل نصب على الحال. وقيل المعنى: فتستجيبيون والحمد لله كما قال الشاعر:

وإني بحمد الله لا ثوب فأخر لبست ولا من غيرة أتقنع
وقد روي أن الكفار عند خروجهم من قبورهم يقولون:

البيت ما هجك، فأنصرفت وهي تقول: قد علمت قريش أبي بنت سيدها، وقد رويت هذه القصة بألفاظ مختلفة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: **﴿وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً﴾** قال: الحجاب المستور أكنة على قلوبهم أن يفقهوه وأن ينتفعوا به أطاعوا الشيطان فاستحوذ عليهم. وأخرج ابن أبي حاتم عن زهير بن محمد في الآية قال: ذاك رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن على المشركين بمكة سمعوا قراءته ولا يرونه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: **﴿ولوا على أنهارهم نغوراً﴾** قال: الشياطين. وأخرج ابن مردويه عنه في قوله: **﴿إذ يستمعون إليك﴾** قال: عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل.

وَقَالُوا أَوَآدَا كُنَّا عِظَمًا وَرَفَاتًا أَوَآدَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿١٧﴾ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿١٨﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْتُمُونَ فِي بُحُورٍ فَسَيَكُونُ مِنْ يَدِيدًا قُلْ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْخِضُ إِلَيْكُمْ رُءُوسُهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴿١٩﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِمْ وَتَقُولُونَ إِنْ لَيْتَ إِلَّا تَنِيلًا ﴿٢٠﴾ وَقُلْ لِيَأْمُرُوا الَّذِينَ فِي أَهْسَنِ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَتْ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ﴿٢١﴾ زَيْكُورُ أَمَرَ بِكُرٍ إِنْ بَشَأَ رَبِّكُمْ أَوْ إِنْ بَشَأَ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٢٢﴾ وَزَيْكُورُ أَمَرَ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ الْأَحْيَاءِ عَلَى بَعْضٍ وَإِنَّا لَذَوُّرُ ﴿٢٣﴾

لما فرغ سبحانه من حكاية شبه القوم في النبوات حكى شبهتهم في أمر المعاد فقال: **﴿وقالوا أإذا كنا عظاماً ورفاتاً﴾** والاستفهام للاستنكار والاستبعاد. وتقرير الشبهة أن الإنسان إذا مات جفت عظامه وتناثرت وتفرقت في جوانب العالم، واختلطت بسائطها بأمثالها من العناصر، فكيف يعقل بعد ذلك اجتماعها بأعيانها، ثم عود الحياة إلى ذلك المجموع، فأجاب سبحانه عنهم بأن إعادة بدن الميت إلى حال الحياة أمر ممكن، ولو فرضتم أن بدنه قد صار أبعد شيء من الحياة ومن رطوبة الحي كالحجارة والحديد، فهو كقول القائل: أطمع في وأنا ابن فلان، فيقول: كن ابن السلطان أو ابن من شئت فساطب منك حقي. والرفات: ما تكسر وبلي من كل شيء كالفتات والحطام والرضاض، قاله أبو عبيدة، والكسائي، والفراء، والأفخش. تقول: منه رقت الشيء رقتاً أي: حطم فهو مرفوت. وقيل: الرفات الغبار، وقيل: التراب **﴿إنا لمبعوثون خلقاً جديداً﴾** كرر الاستفهام الدال على الاستنكار والاستبعاد تأكيداً وتقريراً، والعامل في إذا هو ما دل عليه لمبعوثون، لا هو نفسه، لأن ما بعد إن والهمزة واللام لا يعمل فيما قبلها، والتقدير: إذا كنا عظاماً ورفاتاً نبعث إنا لمبعوثون، وانتصاب خلقاً على المصبرية من غير لفظه، أو على الحال أي: مخلوقين، وجديداً صفة له **﴿قل كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً﴾** آخر **﴿مما يكبر في صدوركم﴾** قال ابن جرير: معناه إن

ثم نكر ما فضل به داود، فقال: ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زُوبَرَ﴾ أي: كتاباً مزبوراً. قال الزجاج: أي فلا تنكروا تفضيل محمد وإعطاءه القرآن فقد أعطى الله داود زبوراً.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَرَفَاتًا﴾ قال: غباراً. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿وَرَفَاتًا﴾ قال: تراباً، وفي قوله: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حديدًا﴾ قال: ما شئتم فكونوا، فسيعيبكم الله كما كنتم. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عمر في قوله: ﴿أَوْ خَلَقْنَا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُورِكُمْ﴾ قال: الموت، لو كنتم موتاً لأحييتكم. وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن جرير، والحاكم عن ابن عباس مثله. وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن الحسن مثله أيضاً. وأخرج عبد الله بن أحمد، وابن جرير، وابن المنذر عن سعيد بن جبيرة نحوه، وزاد قال: فكونوا الموت إن استطعتم فإن الموت سيموت. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿فَسَيَنْفِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ قال: سيحركونها لستهزاء. وأخرج ابن المنذر عن مجاهد في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ﴾ قال: الإعادة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ قال: بأمره. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة في الآية قال: يخرجون من قبورهم وهم يقولون: سبحانك اللهم وبحمك. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ قال: بمعرفته وطاعته في أنفسهم، وقلت حين عاينوا يوم القيامة. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن سيرين في قوله: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ قال: لا إلا الله. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في الآية قال: يعفو عن السيئة. وأخرج ابن جرير عن الحسن قال: يقول له يرحمك الله يغفر الله لك. وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال: نزع الشيطان تحريشه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زُوبَرَ﴾ قال: كنا نحدث أنه دعاء علمه داود وتحميد وتمجيد لله عز وجل ليس فيه حلال ولا حرام ولا فرائض ولا حدود. وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس قال: الزبور ثناء على الله ودعاء وتسبيح. قلت: الأمر كما قاله قتادة والربيع فإننا وقفنا على الزبور فوجدناه خطاباً يخطبها داود عليه السلام ويخاطب بها ربه سبحانه عند دخوله الكنيسة، وجملته مائة وخمسون خطبة كل خطبة تسمى مزموراً بفتح الميم الأولى وسكون الزاي وضم الميم الثانية: وآخره راء، ففي بعض هذه الخطب يشكو داود على ربه من أعدائه ويستنصره عليهم، وفي بعضها يحمده الله ويمجده ويثني عليه بسبب ما وقع من النصر عليهم والغلبة لهم، وكان عند

سبحانك وبحمك؛ وقيل: المراد بالدعاء هنا البعث والاستجابة أنهم يبعثون، فالمعنى: يوم يبعثكم فتبعثون متقنين ﴿وَتُظَنُّونَ إِنْ لَبِثُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: تظنون عند البعث أنكم ما لبثتم في قبوركم إلا زمناً قليلاً، وقيل: بين النفختين، وذلك أن العذاب يكف عن المعذبين بين النفختين، وذلك أربعون عاماً ينأمنون فيها، فلذلك ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مِنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ [يس: 52]، وقيل: إن الدنيا تحقرت في أعينهم وقلت حين رأوا يوم القيامة، فقالوا هذه المقالة.

﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي قل: يا محمد لعبادي المؤمنين: إنهم يقولون عند محاورتهم للمشركين الكلمة التي هي أحسن من غيرها من الكلام الحسن كقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَجَانِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: 46]. وقوله: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا﴾ [طه: 44] لأن المخاشنة لهم ربما تتفرهم عن الإجابة أو تؤدي إلى ما قال سبحانه: ﴿وَلَا تَسْبُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسْبُوا اللَّهَ عَدُوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: 108]. وهذا كان قيل نزول آية السيف، وقيل: المعنى قل لهم يأمر الله وينهى عما نهى عنه، وقيل: هذه الآية للمؤمنين فيما بينهم خاصة، والأول أولى كما يشهد به السبب الذي سنذكره إن شاء الله ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بالفساد وإلقاء العداوة والإغواء. قال البيهقي: يقال نزغ بيننا أي: أقسد. وقال غيره: النزغ الإغواء ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ أي: متظاهراً بالعداوة مكاشفاً بها، وهو تعليل لما قبله، وقد تقدم مثل هذا في البقرة ﴿رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ لَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ قيل: هذا خطاب للمشركين. والمعنى: إن يشأ يوفقكم للإسلام فيرحمكم أو يميتهكم عن الشرك فيعذبكم، وقيل: هو خطاب للمؤمنين أي: إن يشأ يرحمكم بأن يحفظكم من الكفار أو إن يشأ يعذبكم بتسلطهم عليكم؛ وقيل: إن هذا تفسير للكلمة التي هي أحسن ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا﴾ أي: ما وكلنا في منعمهم من الكفر، وقسره على الإيمان؛ وقيل: ما جعلناك كفيلاً لهم تؤخذ بهم، ومنه قول الشاعر:

نكرت أبا أروى فبثت كأنني برد الأمور الماضية وكيلى
أي: كفيل. ﴿وَرَبِّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أعلم بهم ذاتاً وحالاً واستحقاقاً، وهو أعم من قوله: ﴿رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ لأن هذا يشمل كل ما في السموات والأرض من مخلوقاته، وذلك خاص ببني آدم أو ببعضهم، وهذا كالتوطئة لقوله: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي: أن هذا التفضيل عن علم منه بمن هو أعلى رتبة وبمن نونه، وبمن يستحق مزيد الخصوصية بتكثير فضائله وفوائده. وقد تقدم هذا في البقرة. وقد اتخذ الله إبراهيم خليلاً، وموسى كليماً، وجعل عيسى كلمته وروحه، وجعل لسليمان ملكاً عظيماً، وغفر لمحمد ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وجعله سيد ولد آدم. وفي هذه الآية دفع لما كان ينكره الكفار مما يحكيه رسول الله ﷺ من ارتفع درجته عند ربه عز وجل،

عذابه ﴿ كما يخافه غيرهم ﴾ [إن عذاب ربك كان محذورا] تحليل لقوله يخافون عذابه أي: إن عذابه سبحانه حقيق بأن يحذره العباد من الملائكة والأنبياء وغيرهم. ثم بين سبحانه مآل الدنيا وأهلها فقال: ﴿ وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة ﴾ [إن نافية، ومن للاستغراق أي: ما من قرية، أي قرية كانت من قرى الكفار. قال الزجاج: أي ما من أهل قرية إلا سيهلكون إما بموت وإما بعذاب يستاصلهم، فالمراد بالقرية أهلها، وإنما قيل: قبل يوم القيامة لأن الإهلاك يوم القيامة غير مختص بالقرى الكافرة، بل يعم كل قرية لانقضاء عمر الدنيا؛ وقيل: الإهلاك المصالحة والتعذيب للمطالعة، والأول أولى لقوله: ﴿ وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾ [القصص: 59]. ﴿ كان ذلك ﴾ المنكور من الإهلاك، والتعذيب ﴿ في الكتاب ﴾ أي: اللوح المحفوظ ﴿ مسطورا ﴾ أي: مكتوبا، والسطر الخط وهو في الأصل مصدر، والسطر بالتحريك مثله. قال جرير:

من شاء بليعته مالي وخلفته ما تكمل النعيم في بيوتنا سطرا
والخلفة بضم الخاء خيار المال، والسطر جمع أسطر، وجمع السطر بالسكون أسطر ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات ولا أن نكذب بها الأولون ﴾ قال المفسرون: إن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً وأن ينحي عنهم جبال مكة، فأتاه جبريل فقال: إن شئت كان ما سأل قومك، ولكنهم إن لم يؤمنوا بها يمهلوا وإن شئت استأنيت بهم، فأنزل الله هذه الآية. والمعنى: وما معنا من إرسال الآيات التي سألوها إلا تكذيب الأولين، فإن أرسلناها وكذب بها هؤلاء عوجلوا ولم يمهلوا كما هو سنة الله سبحانه في عباده، فالمنع مستعار بترك، والاستثناء مفرغ من أعم الأشياء أي: ما تركنا إرسالها لشيء من الأشياء إلا تكذيب الأولين، فإن كذب بها هؤلاء كما كذب بها أولئك لاشتراكهم في الكفر والعناد حل بهم ما حل بهم، و «أن» الأولى في محل نصب بإيقاع المنع عليها، و «أن» الثانية في محل رفع، والباء في بالآيات زائدة. والحاصل أن المنع من إرسال الآيات التي اقترحوها هو أن الاقتراح مع التكذيب موجب للهلاك الكلي وهو الاستئصال، وقد عزمنا على أن نؤخر أمر من بعث إليهم محمد ﷺ إلى يوم القيامة؛ وقيل معنى الآية: إن هؤلاء الكفار من قريش ونحوهم مقلدون لأبائهم فلا يؤمنون البتة كما لم يؤمن أولئك، فيكون إرسال الآيات ضائعا، ثم إنه سبحانه استشهد على ما نكر بقصة صالح ونافثة، فلإنهم لما اقترحوا عليه ما اقترحوا من الناقة وصفتها التي قد بينت في محل آخر وأعطاهم الله ما اقترحوا فلم يؤمنوا استؤصلوا بالعذاب، وإنما خص قوم صالح بالاستشهاد، لأن آثار إهلاكهم في بلاد العرب قريبة من قريش وأمثالهم يبصرها صانهم وواردهم فقال: ﴿ وواتينا نعوذ الناقة مبصرة ﴾ أي: ذات إبصار يدركها الناس بأبصارهم كقوله: ﴿ وجعلنا آية النهار مبصرة ﴾ [الإسراء: 12] أو أسند إليها حال من يشاهدها مجازا، أو

الخطبة يضرب بالقيثارة، وهي آلة من آلات الملاهي. وقد نكر السيوطي في الدر المنثور ها هنا روايات عن جماعة من السلف ينكرون ألفاظا وقفوا عليها في الزبور ليس لها كثير فائدة، فقد أغنى عنها وعن غيرها ما اشتمل عليه القرآن من المواعظ والزواجر.

قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ رَزَقْتُمْ مِنْ دُونِي فَلَا يَمْلِكُونَ كَتْفَ الْعَرْشِ عَنْكُمْ وَلَا يَخَافُونَ ۝ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ۝ وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْفِتْنَةِ أَوْ مَعَذِرُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ۝ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولُونَ وَمَتَيْنَا نَعُودَ الْفَاقَةِ مَجْرَءَ فَظْلَامِهِمْ وَمَا تَرَسَّلَ إِلَّا نَحْمِيهَا ۝ وَإِلَّا فَلَنَا لَكِ إِنَّ رَبَّكَ هَاطِكٌ بِالنَّارِ وَمَا جَعَلْنَا آيَاتِنَا إِلَى آيَاتِكَ إِلَّا فَتْنَةً لِّلنَّاسِ وَآلِجَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ فِي الْآخِرَةِ وَنَحْنُ بِهِمْ قَوَّامُونَ إِلَّا لَطِيفُنَا كَرِيمٌ ۝

قوله: ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه ﴾ هذا رد على طائفة من المشركين كانوا يعبدون تماثيل على أنها صور الملائكة، وعلى طائفة من أهل الكتاب كانوا يقولون بإلهية عيسى ومريم وعزير، فأمر الله سبحانه رسوله ﷺ بأن يقول لهم: ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهة من دون الله؛ وقيل: أراد بالذين زعمتم نفرا من الجن عندهم ناس من العرب، وإنما خصصت الآية بمن نكرنا لقوله: ﴿ يبتغون إلى ربهم الوسيلة ﴾، فإن هذا لا يليق بالجمادات ﴿ فلا يملكون كشف الضر عنكم ﴾ أي: لا يستطيعون ذلك، والمعبود الحق هو الذي يقدر على كشف الضر، وعلى تحويله من حال إلى حال، ومن مكان إلى مكان، فوجب القطع بأن هذه التي تزعمونها آلهة ليست بآلهة، ثم إنه سبحانه أكد عدم اقتدارهم ببيان غاية افتقارهم إلى الله في جلب المنافع ونبغ المضار، فقال: ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة ﴾ فأولئك مبتدا والذين يدعون صفة، وضمير الصلة محذوف أي: يدعونهم، وخبر المبتدا يبتغون إلى ربهم الوسيلة، ويجوز أن يكون الذين يدعون خبر المبتدا أي: الذين يدعون عباده إلى عبادتهم، ويكون يبتغون في محل نصب على الحال. وقرأ ابن مسعود (تدعون) بالفوقية على الخطاب. وقرأ الباقون بالتحية على الخبر؛ ولا خلاف في يبتغون أنه بالتحية. والوسيلة القربة بالطاعة والعبادة أي: يتضرعون إلى الله في طلب ما يقربهم إلى ربهم، والضمير في ربهم يعود إلى العابدین أو المعبودين ﴿ إيهم أقرب ﴾ مبتدا وخبر. قال الزجاج: المعنى إيهم أقرب بالوسيلة إلى الله أي: يتقرب إليه بالعمل الصالح، ويجوز أن يكون بدلا من الضمير في يبتغون أي: يبتغي من هو أقرب إليه تعالى الوسيلة، فكيف بمن دونه؟ وقيل: إن يبتغون مضمن معنى يحرصون أي: يحرصون إيهم أقرب إليه سبحانه بالطاعة والعبادة ﴿ ويرجون رحمته ﴾ كما يرجوها غيرهم ﴿ ويخافون

حصل من المساءة لرسول الله ﷺ، أو يحمل على أنه قد كان أخبر الناس بها فافتتنوا، وقيل: إن الله سبحانه أراه في المنام مصارع قريش حتى قال: والله لكانني أنظر إلى مصارع القوم وهو يومئ إلى الأرض ويقول: هذا مصرع فلان، هذا مصرع فلان، فلما سمع قريش ذلك جعلوا رؤياه سخرية ﴿والشجرة الملعونة في القرآن﴾ عطف على الرؤيا، قيل: وفي الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: وما جعلنا الرؤيا التي أريناك والشجرة الملعونة في القرآن إلا فتنة للناس. قال جمهور المفسرين: وهي شجرة الزقوم، والمراد بلعننا لعن أكلها كما قال سبحانه: ﴿إن شجرة الزقوم * طعام الأثيم﴾ [الدخان: 43 - 44]. وقال الزجاج: إن العرب تقول: لك طعام مكروه ملعون، ومعنى الفتنة فيها أن أبا جهل وغيره قالوا: زعم صاحبكم أن نار جهنم تحرق الحجر، ثم يقول: نبت فيها الشجر، فأنزل الله هذه الآية. وروي أن أبا جهل أمر جارية فأحضرت تمرًا وزيدًا وقال لأصحابه: تزعموا. وقال ابن الزبيري: كثر الله من الزقوم في داركم فإنه التمر بالزبد بلغة اليمن، وقيل: إن الشجرة الملعونة هي الشجرة التي تلتوي على الشجر فتقتلها، وهي شجرة الكشوث؛ وقيل: هي الشيطان؛ وقيل: لليهود؛ وقيل: بنو أمية ﴿ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً﴾ أي: نخوفهم بالآيات فما يزيدهم التخويف إلا طغياناً متجاوزاً للحد متمادياً غاية التمادي فما يفيدهم إرسال الآيات إلا الزيادة في الكفر، فعند ذلك نفعل بهم ما فعلناه بمن قبلهم من الكفار، وهو عذاب الاستئصال ولكننا قد قضينا بتأخير العقوبة.

وقد أخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، والبخاري، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم، وابن مردويه، وأبو نعيم في الدلائل عن ابن مسعود في قوله: ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من بونه فلا يكون كشف الضم عنكم ولا تحويلاً﴾ قال: كان نفر من الإنس يعبدون نفراً من الجن فأسلم نفر من الجن وتمسك الإنسيون بعبادتهم، فأنزل الله ﴿أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة﴾ كلاهما، يعني: الفعلان بالياء التحتية، وروي نحو هذا عن ابن مسعود من طرق أخرى. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال: كان أهل الشرك يعبدون الملائكة والمسيح وعزيراً. وروي عنه من وجه آخر بلفظ عيسى وأمه وعزير. وروي عنه أيضاً من وجه آخر بلفظ هم: عيسى وعزير، والشمس والقمر. وأخرج الترمذي، وابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «سلوا الله لي الوسيلة، قالوا: وما الوسيلة؟ قال: القرب من الله، ثم قرأ ﴿يبتغون إلى ربهم الوسيلة﴾ لهم أقرب» وأخرج ابن أبي حاتم عن إبراهيم التيمي في قوله: ﴿كان ذلك في الكتاب مسطوراً﴾ قال: في اللوح المحفوظ. وأخرج أحمد، والنسائي، والبزار، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني،

أنها جعلتهم ذوي إيصار، من أبصره جعله بصيراً. وقرأ على صيغة المفعول. وقرأ بفتح الميم والصاد وانتصابها على الحال. وقرأ برفعها على أنها خبر مبتدأ محذوف، والجملة معطوفة على محذوف يقتضيه سياق الكلام أي: فكذبوها وأتينا ثمود الناقة، ومعنى ﴿فظلموا بها﴾ فظلموا بتكذيبها أو على تضمين ظلموا معنى جحدوا أو كفروا أي: فجحدوا بها أو كفروا بها ظالمين ولم يكتفوا بمجرد الكفر أو الجحد ﴿وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً﴾ اختلف في تفسير الآيات على وجه: الأول أن المراد بها العبر والمعجزات التي جعلها الله على أيدي الرسل من دلائل الإنذار تخويفاً للمكذبين؛ الثاني أنها آيات الانتقام تخويفاً من المعاصي؛ الثالث تقلب الأحوال من صغر إلى شباب ثم إلى كهول ثم إلى شيب ليعتبر الإنسان بتقلب أحواله فيخاف عاقبة أمره؛ الرابع آيات القرآن، الخامس الموت الذريع والمناسب للمقام أن تفسر الآيات المذكورة بالآيات المقترحة أي: لا نرسل الآيات المقترحة إلا تخويفاً من نزول العذاب، فإن لم يخافوا وقع عليهم، والجملة مستأنفة لا محل لها، ويجوز أن تكون في محل نصب على الحال من ضمير ظلموا بها أي: فظلموا بها ولم يخافوا، والحال أن ما نرسل بالآيات التي هي من جملتها إلا تخويفاً. قال ابن قتبية: وما نرسل بالآيات المقترحة إلا تخويفاً من نزول العذاب العاجل. ولما ذكر سبحانه الامتناع من إرسال الآيات المقترحة على رسوله للمصارف المذكور قوي قلبه بوعده النصر والغلبة فقال: ﴿وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس﴾ الظرف متعلق بمحذوف أي: انكر إذ قلنا لك أي: أنهم في قبضته وتحت قدرته، فلا سبيل لهم إلى الخروج مما يريده بهم لإحاطته لهم بعلمه وقدرته، وقيل: المراد بالناس أهل مكة، وإحاطته بهم إهلاكه إياهم أي: إن الله سيهلكهم، وغير بالماضي تنبيهاً على تحقق وقوعه، وذلك كما وقع يوم بدر ويوم الفتح، وقيل: المراد أنه سبحانه عصمه من الناس أن يقتلوه حتى يبلغ رسالة ربه ﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس﴾ لما بين سبحانه أن إنزال الآيات يتضمن التخويف ضم إليه ذكر آية الإسراء، وهي المنكورة في صدر السورة، وسماها رؤيا لأنها وقعت بالليل، أو لأن الكفرة قالوا لعلها رؤيا، وقد قمنا في صدر السورة وجهاً آخر في تفسير هذه الرؤيا، وكانت الفتنة ارتداد قوم كانوا أسلموا حين أخبرهم النبي ﷺ أنه أسري به، وقيل: كانت رؤيا نوم، وإن النبي ﷺ رأى أنه يدخل مكة فافتتن المسلمون لذلك، فلما فتح الله مكة نزل قوله تعالى: ﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق﴾ [الفتح: 27] وقد تعقب هذا بأن هذه الآية مكية، والرؤيا المنكورة كانت بالمدينة، وقيل: إن هذه الرؤيا المنكورة في هذه الآية هي أنه رأى بني مروان ينزون على منبره نزل القردة فسأه ذلك، فقيل: إنما هي الدنيا أعطوها فسري عنه، وفيه ضعف، فإنه لا فتنة للناس في هذه الرؤيا إلا أن يراد بالناس رسول الله ﷺ وحده، ويراد بالفتنة ما

عن الحسين بن علي نحوه مرفوعاً وهو مرسل. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي، وابن عساكر عن سعيد بن المسيب نحوه وهو مرسل. وأخرج ابن مردويه عن عائشة أنها قالت لمروان بن الحكم: سمعت رسول الله ﷺ يقول لأبيك وجنك: «إنكم الشجرة الملعونة في القرآن» وفي هذا نكارة لقولها: يقول لأبيك وجنك ولعل جد مروان لم يدرك زمن النبوة. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال: إن رسول الله ﷺ أرى أنه دخل مكة هو وأصحابه، وهو يومئذ بالمدينة فسار إلى مكة قبل الأجل فرددته المشركون، فقال ناس: قد رده، وقد كان حدثنا أنه سيخلها، فكانت رجعت فتنتهم وقد تعارضت هذه الأسباب، ولم يمكن الجمع بينها فالواجب المصير إلى الترجيح والراجح كثرة وصحة هو كون سبب نزول هذه الآية قصة الإسراء فيتعين ذلك. وقد حكى ابن كثير إجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك في الرؤيا، وفي تفسير الشجرة وأنها شجرة الزقوم، فلا اعتبار بغيرهم معهم. وأخرج ابن إسحاق، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في البعث عن ابن عباس قال: قال أبو جهل لما نكر رسول الله ﷺ شجرة الزقوم تخويفاً لهم: يا معشر قريش هل تدرون ما شجرة الزقوم التي يخوفكم بها محمد؟ قالوا لا قال: عجوة يثرب بالزبد. والله لئن استمكننا منها لخزقمناها تزقماً. قال الله سبحانه: «إن شجرة الزقوم * طعام الأثيم» [البخار: 43 - 44]، وأنزل «والشجرة الملعونة في القرآن» الآية. وأخرج ابن المنذر عنه في قوله: «والشجرة الملعونة» قال: ملعونة لأنه قال: «طلعها كانه رؤوس الشياطين» [الصفات: 65]. والشياطين ملعونون.

وَلَوْ أَنَّا كُنَّا نَسْمَعُ لَأَدَمَ فَسَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ مَا سَجُدُ لِمَنْ خَلَقَ طِينًا ﴿١٧﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أُخِّرْتُ إِلَى يَوْمِ الْآخِرَةِ لَأَسْخِرَنَّ دُرِّيَّتَهُ إِلَّا لَيْلًا ﴿١٨﴾ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَمَكُّ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴿١٩﴾ وَأَسْتَفْزِزُ مَنِ اسْتَعْمَلَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَبْلَبَ عَلَيْهِمْ صَوْتِكَ وَرَجَّلِكَ وَشَارَكَهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ عِبَادِي لَئِنْ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ رَصِيدًا ﴿٢١﴾

لما نكر سبحانه أن الرسول ﷺ كان في بلية عظيمة من قومه ومحنة شديدة، أراد أن يبين أن جميع الأنبياء كانوا كذلك، حتى أن هذه عادة قديمة سنّها إبليس اللعين، وأيضاً لما نكر أن الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ذكرها هنا ما يحقق ذلك فقال: «وإن قلنا للملائكة اسجدوا لآدم» هذه القصة قد ذكرها الله سبحانه في سبعة مواضع: في البقرة، والاعراف، والحجر، وهذه السورة، والكهف، وطه، وص، وقد تقدّم تفسيرها مبسوطاً فلنقتصر هنا على تفسير ما لم يتقدّم ذكره من الألفاظ، فقوله: «طيفاً» منتصب بنزع

والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل، والضياء في المختارة عن ابن عباس قال: «سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً، وإن ينحي عنهم الجبال فيزعموا، فقيل له: إن شئت أن تستاني بهم وإن شئت أن نؤتيهم الذي سألوا، فإن كفروا أهلكوا كما أهلك من قبلهم من الأمم، قال: لا بل أستاذني بهم، فأنزل الله ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات﴾» الآية. وأخرج أحمد، والبيهقي من طريق أخرى عنه نحوه. وأخرج البيهقي في الدلائل عن الربيع بن أنس قال: قال الناس لرسول الله ﷺ لو جئتنا بآية كما جاء بها صالح والنبیون؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن شقتم دعوت الله فأنزلها عليكم، فإن عصيتم هلكتم، فقالوا: لا نريداه». وأخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس ﴿وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً﴾ قال: الموت. وأخرج سعيد بن منصور، وأحمد في الزهد، وابن جرير، وابن المنذر عن الحسن قال: هو الموت الذريع. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الحسن في قوله: ﴿وإن قلنا لك إن ربك أحاط بالناس﴾ قال: عصمك من الناس. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن مجاهد في الآية قال: فهم في قبضته. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وأحمد، والبخاري، والترمذي، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس في قوله: ﴿وما جعلنا للرؤيا﴾ الآية قال: هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به إلى بيت المقدس، وليست برؤيا منام ﴿والشجرة الملعونة في القرآن﴾ قال: هي شجرة الزقوم. وأخرج أبو سعيد، وأبو يعلى، وابن عساكر عن أم هانئ: أن رسول الله ﷺ لما أسري به أصبح يحدث نفراً من قريش وهم يستهزئون به، فطلبوا منه آية فوصف لهم بيت المقدس، وذكر لهم قصة العير، فقال الوليد بن المغيرة: هذا ساحر، فأنزل الله إليه ﴿وما جعلنا للرؤيا﴾ الآية. وأخرج ابن جرير عن سهل بن سعد قال: رأى رسول الله ﷺ بني فلان يزنون على منبره نزو القردة فسأه ذلك فما استجمع ضاحكاً حتى مات. فأنزل الله ﴿وما جعلنا للرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس﴾. قال ابن كثير بعد أن ساق إسناده: وهذا السند ضعيف جداً. وذكر من جملة رجال السند محمد بن الحسن بن زيان وهو متروك وشيخه عبد المهيمن بن عباس بن سهل بن سعد ضعيف جداً. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمرو أن النبي ﷺ قال: «رايت ولد الحكم بن أبي العاص على المنابر كأنهم القردة، فأنزل الله ﴿وما جعلنا للرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس، والشجرة الملعونة﴾» يعني: الحكم وولده. وأخرج ابن أبي حاتم عن يعلى بن مرة قال: قال رسول الله ﷺ: «رايت بني أمية على منابر الأرض وسيملكونكم فتجدونهم أرباب سوء، واهتم رسول الله ﷺ لذلك، فأنزل الله الآية». وأخرج ابن مردويه

الخافض أي: من طين، أو على الحال. قال الزجاج: المعنى لمن خلقته طيناً، وهو منصوب على الحال ﴿أرايتك﴾ أي: أخبرني عن هذا الذي فضلته علي لم فضلته؟ وقد ﴿خلقتني من نار وخلقته من طين﴾ [الأعراف: 12] فحذف هذا للعلم به ﴿لاحتنكن ذريته﴾ أي: لاستولين عليهم بالإغواء والإضلال قال الواحدي: أصله من احتنك الجراد الزرع، وهو أن تستأصله بأحنائها وتفسده، هذا هو الأصل، ثم سمي الاستيلاء على الشيء وأخذه كله احتناكاً؛ وقيل معناه: لاسوقنهم حيث شئت وأقوينهم حيث أردت، من قولهم حنكت الفرس أحنكه حنكاً: إذا جعلت في فيه الرسن، والمعنى الأول أنسب بمعنى هذه الآية، ومنه قول الشاعر:

أشكو إليك سنة قد أجمعت جهداً إلى جهد بنا وأصعقت واحتنكت أموالنا واختلفت

أي: استأصلت أموالنا، واللام في ﴿لئن أخرجتني﴾ هي الموطئة، وإنما أقسم اللعين هذا القسم على أنه سيفعل بذرية آدم ما نكره لعلم قد سبق إليه من سمع استرقه، أو قاله لما ظنه من قوة نفوذ كيده في بني آدم، وأنه يجري منهم في مجاري الدم، وأنهم بحيث يروج عندهم كيده وتنفق لديهم وسوسته إلا من عصم الله، وهم المرابون بقوله: ﴿إلا قليلاً﴾ وفي معنى هذا الاستثناء قوله سبحانه: ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ ويؤيد ما نكرناه قوله تعالى: ﴿ولقد صدق عليهم إبليس ظنه﴾ [سبا: 20]. فإنه يفيد أنه قال ما قاله هنا اعتماداً على الظن، وقيل: إنه استنبط ذلك من قول الملائكة ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها﴾ [البقرة: 30]، وقيل: علم ذلك من طبع البشر لما ركب فيهم من الشهوات، أو ظن ذلك لأنه وسوس لأدم، فقبل منه ذلك ولم يجد له عذماً، كما روي عن الحسن ﴿قال اذهب فمن تبعك منهم﴾ أي: أطاعك ﴿فإن جهنم جزأؤكم﴾ أي: إبليس ومن أطاعه ﴿جزأة موفوراً﴾ أي: وأقرأ مكملاً، يقال: وفرت أقره وفراً، وفرت المال بنفسه يفر وفوراً، فهو أقر، فهو مصدر، ومنه قول زهير:

ومن يجعل المعروف من دون عرضه يفره ومن لا يثقي الشتم يشتم ثم كثر سبحانه الإمهال لإبليس اللعين فقال: ﴿ولستفزز من استطعت منهم بصوتك﴾ أي: استزعج واستخف من استطعت من بني آدم، يقال: أقره واستقره أي: أزعجه واستخفه، والمعنى: استخفهم بصوتك داعياً لهم إلى معصية الله، وقيل: هو الغناء واللغو واللعب والمزامير ﴿ولجلب عليهم بخليل ورجلك﴾ قال الفراء وأبو عبيدة: أجلب من الجلبة والصباح أي: صبح عليهم. وقال الزجاج أي: أجمع عليهم كل ما تقدر من مكاييدك، فالإجلاط الجمع. والباء في «بخليلك» زائدة. وقال ابن السكيت: الإجلاب الإعانة، والخيل تقع على الفرسان كقوله ﷺ: «يا خيل الله اركبي»، وتقع على الأفراس، والرجل يسكون الجيم: جمع رجل كتاجر وتجر، وصاحب وصحب. وقرا حفص بكسر الجيم على أنه صفة. قال أبو زيد: يقال رجل ورجل، بمعنى راجل، فالخيل

والرجل كناية عن جميع مكاييد الشيطان، أو المراد كل راكب وراجل في معصية الله ﴿وشاركهم في الأموال والأولاد﴾ أما المشاركة في الأموال، فهي كل تصرف فيها يخالف وجه الشرع سواء كان أخذاً من غير حق، أو وضعاً في غير حق كالغصب والسرقة والربا، ومن ذلك تبتيك أذان الأنعام وجعلها بحيرة وسائبة، والمشاركة في الأولاد دعوى الولد بغير سبب شرعي، وتحصيله بالزنا وتسميتهم بعبد اللات وعبد العزى، والإساءة في تربيتهم على وجه يلفون فيه خصال الشر وأفعال السوء ويدخل فيه ما قتلوا من أولادهم خشية إملاق، وواد البنات وتصيير أولادهم على الملة الكفرية التي هم عليها، ومن ذلك مشاركة الشيطان للمجامع إذا لم يسم، ثم قال: ﴿وعدهم﴾ قال الفراء: قل لهم لا جنة ولا نار. وقال الزجاج: وعدهم بأنهم لا يبعثون ﴿وما يعدهم الشيطان إلا غروراً﴾ أي: باطلاً، وأصل الغرور تزيين الخطأ بما يومه الصواب؛ وقيل معناه: وعدهم النصرة على من خالفهم، وهذه الأوامر للشيطان من باب التهديد والوعيد الشديد، وقيل: هي على طريقة الاستخفاف به وبمن تبعه ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ يعني: عباده المؤمنين كما في غير هذا الموضع من الكتاب العزيز من أن إضافة العباد إليه يراد بها المؤمنون لما في الإضافة من التشريف، وقيل: المراد جميع العباد بليل الاستثناء بقوله في غير هذا الموضع ﴿إلا من أتبعك من الغافرين﴾ [الحجر: 42] والمراد بالسلطان التسلط ﴿وكفى بربك وكيلًا﴾ يتولكون عليه، فهو الذي ينفع عنهم كيد الشيطان ويعصمهم من إغوائه.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: قال إبليس إن آدم خلق من تراب من طين خلق ضعيفاً وإنني خلقت من نار، والنار تحرق كل شيء ﴿لاحتنكن ذريته إلا قليلاً﴾ فصنق ظنه عليهم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه ﴿لاحتنكن ذريته﴾ قال: لاستولين. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد ﴿لاحتنكن ذريته﴾ قال: لأحتوينهم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن زيد قال: لأضلنهم. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿موفوراً﴾ قال: وأقرأ. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ولستفزز من استطعت منهم بصوتك﴾ قال: صوته كل داع دعا إلى معصية الله ﴿ولجلب عليهم بخليل﴾ قال: كل راكب في معصية الله ﴿ورجلك﴾ قال كل راجل في معصية الله ﴿وشاركهم في الأموال﴾ قال: كل مال في معصية الله ﴿والأولاد﴾ قال: كل ما قتلوا من أولادهم وأتوا فيهم الحرام. وأخرج الفريابي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عنه في الآية قال: كل خيل تسير في معصية الله، وكل مال أخذ بغير حقه، وكل ولد زنا. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال: ﴿الأموال﴾ ما كانوا يحرمون من أنعامهم ﴿والأولاد﴾ أولاد

انهدم أصلها، وعين خاسف أي: غائرة حذقتها في الرأس، وخسفت عين الماء: إذا غار ماؤها، وخسفت الشمس: إذا غابت عن الأرض وجانب البر ناحية الأرض، وسماء جانباً، لأنه يصير بعد الخسف جانباً، وإيضاً فإن البحر جانب من الأرض والبر جانب؛ وقيل: إنهم كانوا على ساحل البحر، وساحله جانب البر فكانوا فيه آمنين من مخاوف البحر، فحذرهم ما آمنوه من البر كما حذرهم ما خافوه من البحر ﴿أَوْ يَرْسَلْ عَلَيْكُمُ حَاصِبًا﴾ قال أبو عبيدة والقتيبي: الحصب الرمي أي: ريحاً شديدة حاصبة، وهي التي ترمي بالحصى الصغار. وقال الزجاج: الحاصب التراب الذي فيه حصباء، فالحاصب نو الحصباء كاللابن، والتامر؛ وقيل: الحاصب حجارة من السماء تحصبهم كما فعل بقوم لوط، ويقال للسحابة التي ترمي بالبرد حاصب، ومنه قول الفرزدق:

مستقبلين جبال الشام تضرينا بحاصب كنييف القطن منثور
﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾ أي: حافظاً ونصيراً يمنعكم من بأس الله ﴿إِنَّمَا أَمْنُهُمْ أَنْ يَعْصِيَهُمْ فِيهِ تَارَةٌ أُخْرَى﴾ أي: في البحر مرة أخرى بأن يقوي نواصيكم ويوفر حوائجكم إلى ركوبه، وجاء بفي ولم يقل إلى البحر للدلالة على استقرارهم فيه ﴿فَيَرْسَلْ عَلَيْكُمُ حَاصِبًا مِنَ الرِّيحِ﴾ القاصف: الريح الشديدة التي تكسر بشدة، من قصف الشيء يقصفه أي: كسره بشدة، والقصف: الكسر، أو هو الريح التي لها قصف أي: صوت شديد من قولهم رعد قاصف أي: شديد الصوت ﴿فَيَغْرِقْكُمْ﴾ قرأ أبو جعفر، وشيبة، ورويس، ومجاهد (فتغرقكم) بالثاء الفوقية على أن فاعله الريح. وقرأ الحسن وقتادة، وابن وردان (فيغرقكم) بالتحية والتشديد في الراء. وقرأ أبو جعفر أيضاً (الرياح). وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالنون في جميع هذه الأفعال. وقرأ الباقر بالباء التحتية في جميعها أيضاً، والباء في بما كفرتم للسببية أي: بسبب كفركم ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلِيًا بِهِ تَبِيْعًا﴾ أي: ثائراً يطالبنا بما فعلنا. قال الزجاج: لا تجدوا من يتبعنا بإنكار ما نزل بكم. قال النحاس: وهو من الثار، وكذا يقال لكل من طلب بثار أو غيره تببع وتابع. ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ هذا إجمال لنذكر النعمة التي أنعم الله بها على بني آدم أي: كرمناهم جميعاً، وهذه الكرامة يدخل تحتها خلقهم على هذه الهيئة الحسنة وتخصيصهم بما خصهم به من المطاعم والمشارب والملابس على وجه لا يوجد لسائر أنواع الحيوان مثله. وحكى ابن جرير عن جماعة أن هذا التكريم هو أنهم يكلون بأيديهم، وسائر الحيوانات تاكل بالفم، وكذا حكاة النحاس. وقيل: ميزهم بالنطق والعقل والتمييز، وقيل: أكرمهم الرجال بالحي والنساء بالنواجب. وقال ابن جرير: أكرمهم بتسليطهم على سائر الخلق وتسخير سائر الخلق لهم، وقيل: بالكلام والخط والفهم، ولا مانع من حمل التكريم المذكور في الآية على جميع هذه الأشياء. وأعظم خصال التكريم العقل، فإن به تسلطوا على سائر

الزنا. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال: ﴿الْأَمْوَالُ﴾ البحيرة والسائبة والوصيلة لغير الله ﴿وَالْأَوْلَادُ﴾ سموا عبد الحارث وعبد شمس.

رَبُّكُمْ إِلَهِ يَرْجِي لَكُمْ الْقُلُوبَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَنَبَّهُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُمْ كَانَتْ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّا سَأَلْنَا الْبَحْرَ مَدًّا مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُنَا فَلَمَّا تَخَضَعُوا لِلَّهِ أَعَزَّكُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿٧٢﴾ أَفَأَمْسَرَ أَنْ يَخِيفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٧٣﴾ أَمْ أَمْسَرَ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِبًا مِنْ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلِيًا بِهِ يُنصِّمُ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَخَلَقْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ ثَمَرِ الْأَشْيَاءِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٥﴾

قوله: ﴿رَبِّكُمْ الَّذِي يَرْجِي لَكُمْ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ﴾ الإجزاء: السوق والإجراء والتسيير، ومنه قوله سبحانه ﴿إِنَّمَا تَرَى أَنَّ اللَّهَ يَرْجِي سَحَابًا﴾ [النور: 43]. وقول الشاعر:
يا أيها الركاب المزجي مطيته سائل بني أسد ما هذه الصور
وقول الآخر:

عونا تزجي خلفها أطفالها

والمعنى: أن الله سبحانه يسيّر الفلك في البحر بالريح والفلك ما هنا جمع، وقد تقدم، والبحر هو الماء الكثير عذبا كان أو مالحاً، وقد غلب هذا الاسم على المشهور ﴿لَتَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: من رزقه الذي تفضل به على عباده أو من الربح بالتجارة، ومن زائدة أو للتبعيض، وفي هذه الآية تنكير لهم بنعم الله سبحانه عليهم حتى لا يعبدوا غيره ولا يشركوا به أحداً، وجملة ﴿إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ تعليل لما تقدم أي: كان بكم رحيماً فهداكم إلى مصالح بنيائكم ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ﴾ يعني: خوف الغرق ﴿فَإِنَّ الْبَحْرَ ضَلَّ مِنْ تَدْعُونَ﴾ من الأكلية وذهب عن خواطركم، ولم يوجد لإغاثتكم ما كنتم تدعون من دونه من صنم، أو جن، أو ملك، أو بشر ﴿إِلَّا إِلَهُهُ﴾ وحده فإنكم تعتقدون رجاءكم برحمته وإغاثته، والاستثناء منقطع، ومعنى الآية: أن الكفار إنما يعتقدون في أصنامهم وسائر معبوداتهم أنها نافعة لهم في غير هذه الحالة، فاما في هذه الحالة فإن كل واحد منهم يعلم بالفطرة علماً لا يقدر على مدافعتها أن الأصنام ونحوها لا فعل لها ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ عن الإخلاص لله وتوحيده ورجعتم إلى دعاء أصنامكم والاستغاثة بها ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ أي: كثير الكفران لنعمة الله، وهو تعليل لما تقدمه، والمعنى: أنهم عند الشدائد يتمسكون برحمة الله، وفي الرخاء يعرضون عنه. ثم أنكر سبحانه عليهم سوء معاملتهم قاتلاً: ﴿إِنَّمَا أَمْنُهُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ﴾ الهمزة للإنكار والفاء للعطف على محذوف تقديره أنجوتهم فأمتمتم فحكمكم ذلك على الإعراض، فبين لهم أنه قادر على هلاكهم في البر وإن سلموا من البحر. والخسف أن تنهار الأرض بالشيء، يقال: بثر خسياف إذا

وأخرجه البيهقي من وجه آخر عن ابن عمرو موقوفاً قال: وهو الصحيح. وأخرج البيهقي في الشعب عن أبي هريرة قال: المؤمن أكرم على الله من ملائكة. وأخرج الطبراني عن ابن عمرو، عن النبي ﷺ قال: «إن الملائكة قالت: يا رب أعطيت بني آدم الدنيا ياكلون فيها ويشربون ويلبسون ونحن نسبح بحمك ولا ناكل ولا نشرب ولا نلهو، فكما جعلت لهم الدنيا فاجعل لنا الآخرة، قال: لا أجعل صالح نزية من خلقت بيدي كمن قلت له كن فكان». وأخرجه عبد الرزاق، وابن جرير عن زيد بن أسلم قال: قالت الملائكة. وإسناد الطبراني هكذا: حدثنا أحمد بن محمد بن صدقة البغدادي، حدثنا إبراهيم بن عبد الله بن خالد المصيصي، حدثنا حجاج بن محمد، حدثنا أبو غسان محمد بن مطرف، عن صفوان بن سليم، عن عطاء بن يسار، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ فنكره. وأخرج ابن عساکر من طريق عروة بن رويم قال: حدثني أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ، فنكر نحو حديث ابن عمرو الأول مع زيادة. وأخرج نحوه البيهقي أيضاً في الأسماء والصفات من وجه آخر عن عروة بن رويم عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ فنكره. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب من طرق عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ قال: جعلناهم ياكلون بأيديهم وسائر الخلق ياكلون بأقوامهم. وأخرج الحاكم في التاريخ، والديلمي عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «الكرامة الأكل بالأصابع».

يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِيمَانِهِمْ مَنَ أَوَّلَ كِتَابِهِ يَسْمِعُهُ فَأُولَئِكَ يَفْرَحُونَ كِتَابَهُ وَلَا يَفْلَحُونَ نَسِيبًا ﴿١٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿١٧٢﴾ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُوكَ عَنِ الذِّكْرِ أَوْحِينَآ إِلَيْكَ لَيَفْتِنَنَّ عَلَيْنَا عِزْرَهُ وَإِذَا أَتَاهُ دُونُكَ خَلِيلًا ﴿١٧٣﴾ وَلَوْلَا أَن تَبْنَتَكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿١٧٤﴾ إِذَا لَأَقْنَتَكَ ضَعْفَ الْحِجْرِ وَضَعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿١٧٥﴾ وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُفْزِعُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبِثُونَ خَلْقَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٧٦﴾ سَنَنَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسِتِنَا حَوِيلًا ﴿١٧٧﴾

قوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِيمَانِهِمْ﴾ قال الزجاج: يعني يوم القيامة، وهو منصوب على معنى أذكر يوم ندعوا. وقرئ (يدعو) بالياء التحتية على البناء للفاعل و (يدعى) على البناء للمفعول، والياء في إمامهم للإلصاق كما تقول: أدعوك باسمك، ويجوز أن تكون متعلقة بمحنوف هو حال، والتقدير: ندعو كل أناس متلبسين بإمامهم أي: يدعون وإمامهم فيهم نحو ركب بجنوده، والأول أولى. والإمام في اللغة كل ما يؤتم به من نبي أو مقدم في الدين أو كتاب.

وقد اختلف المفسرون في تعيين الإمام الذي تدعى كل أناس به، فقال ابن عباس، والحسن، وقتادة، والضحاك إنه كتاب كل إنسان الذي فيه عمله أي: يدعى كل إنسان بكتاب

الحيوانات، ويميزوا بين الحسن والقيبح، وتوسعوا في المطاعم والمشارب، وكسبوا الأموال التي تسببوا بها إلى تحصيل أمور لا يقدر عليها الحيوان، وبه قدروا على تحصيل الآنية التي تمنعهم مما يخافون، وعلى تحصيل الآسية التي تقيهم الحر والبرد، وقيل تركيهمهم: هو أن جعل محمداً ﷺ منهم ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ هذا تخصيص لبعض أنواع التكريم، حملهم سبحانه في البر على الدواب، وفي البحر على السفن، وقيل: حملناهم فيهما حيث لم نخسف بهم ولم نفرقهم ﴿وَوَرِّقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي: لنئذ المطاعم والمشارب وسائر ما يستلذونه وينتفعون به ﴿وَوَفَّضْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ أجعل سبحانه هذا الكثير ولم يبين أنواعه فأفاد ذلك أن بني آدم فضلهم سبحانه على كثير من مخلوقاته. وقد جعل بعض أهل العلم الكثير هنا بمعنى الجميع وهو تعسف لا حاجة إليه.

وقد شغل كثير من أهل العلم بما لم تكن إليه حاجة ولا تتعلق به فائدة، وهو مسألة تفضيل الملائكة على الأنبياء أو الأنبياء على الملائكة، ومن جملة ما تمسك به مفضلو الأنبياء على الملائكة هذه الآية، ولا دلالة لها على المطلوب لما عرفت من إجمال الكثير وعدم تبيينه، والتعصب في هذه المسألة هو الذي حمل بعض الأشاعرة على تفسير الكثير هنا بالجميع حتى يتم له التفضيل على الملائكة، وتمسك بعض المعتزلة بهذه الآية على تفضيل الملائكة على الأنبياء. ولا دلالة بها على ذلك، فإنه لم يقم دليل على أن الملائكة من القليل الخارج عن هذا الكثير، ولو سلمنا ذلك فليس فيما خرج عن هذا الكثير ما يفيد أنه أفضل من بني آدم، بل غاية ما فيه أنه لم يكن الإنسان مفضلاً عليه. فيحتمل أن يكون مساوياً للإنسان، ويحتمل أن يكون أفضل منه، ومع الاحتمال لا يتم الاستدلال، والتأكيد بقوله: ﴿تَفْضِيلًا﴾ يدل على عظم هذا التفضيل وأنه بمكان مكين، فعلى بني آدم أن يتلقوه بالشكر ويحذروا من كفرانه.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿يَزْجِي﴾ قال: يجري، وأخرجوا عن قتادة قال: يسيرها في البحر. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿حَاصِبًا﴾ قال: مطر الحجارة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة قال: حجارة من السماء. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس ﴿قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ﴾ قال: التي تغرق. وأخرج أبو عبيد، وابن المنذر، عن عبد الله بن عمرو قال: القاصف والعاصف في البحر. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿قَاصِفًا﴾ قال: عاصفاً، وفي قوله: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ قال: نصيراً. وأخرج الطبراني، والبيهقي في الشعب، والخطيب في تاريخه عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من شيء أكرم على الله يوم القيامة من ابن آدم قيل: يا رسول الله ولا الملائكة؟ قال: ولا الملائكة، الملائكة مجبورون بمنزلة الشمس والقمر».

الفراء عن بعض العرب أنه سمعه يقول: ما أسود شعره، ومن ذلك قول الشاعر:

أما الملوك فأتت اليوم الأهمم لؤما وأبعضهم سربال طباح
والبحث مستوفي في النحو. وقرأ أبو بكر، وحمزة، والكسائي، وخلف (أعمى) بالإمالة في الموضعين. وقرأهما أبو عمرو ويعقوب والباقون بغير إمالة، وأمال أبو عبيد الأول دون الثاني **﴿واضل سبيلاً﴾** يعني: أن هذا أضل سبيلاً من الأعمى لكونه لا يجد طريقاً إلى الهداية، بخلاف الأعمى فقد يهتدي في بعض الأحوال. ثم لما عدد سبحانه في الآيات المتقدمة أقسام النعم على بني آدم أرفه بما يجري مجرى التحذير من الاغترار بوساوس الأشقياء فقال: **﴿وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك﴾** إن هي المخفة من الثقلة، واسمها ضمير شأن محذوف، واللام هي الفارقة بينها وبين النافية، والمعنى: وإن الشأن قاربوا أن يخدعوك فانتين، وأصل الفتنة الاختبار، ومنه فتن الصائغ الذهب، ثم استعمل في كل من أزال الشيء عن حذو وجهته، وذلك لأن في إعطائهم ما سألوه مخالفة لحكم القرآن واقتراء على الله سبحانه من تبديل الوعد بالوعد وغير ذلك **﴿عن الذي أوحينا إليك﴾** من الأوامر والنواهي والوعد والوعيد **﴿لنتفري علينا غيرة﴾** لنتقول علينا غير الذي أوحينا إليك مما اقترحه عليك كفار قريش **﴿وإذا لاتخذوك خليلاً﴾** أي: لو اتبعت أهواءهم لاتخذوك خليلاً لهم أي: والوك وصافوك، مأخوذ من الخلطة بفتح الخاء **﴿ولو لا أن ثبثناك﴾** على الحق وعصمتناك عن موافقتهم **﴿لقد كنت تركن إليهم﴾** لقاربت أن تميل إليهم أننى ميل، والركون هو الميل اليسير، ولهذا قال: **﴿شيئاً قليلاً﴾** لكن أركنته **﴿العصمة﴾** فمنعته من أن يقرب من أننى مراتب الركون إليهم، فضلاً عن نفس الركون، وهذا دليل على أنه **﴿ما هم بل جابتهم﴾** ذكر معناه القشيري وغيره، وقيل: المعنى وإن كانوا ليخبرون عنك بأنك ملت إلى قولهم، فنسب فعلهم إليه مجازاً واتساعاً كما تقول للرجل: كدت تقتل نفسك أي: كاد الناس يقتلونك بسبب ما فعلت، ذكر معناه المهدي. ثم توعده سبحانه في ذلك أشد الوعيد فقال: **﴿إذا لأنفكناك ضعف الحياة وضعف الممات﴾** أي: لو قاربت أن تركن إليهم، أي: مثلي ما يعذب به غيرك ممن يفعل هذا الفعل في الدارين، والمعنى: عذاباً ضعفاً في الحياة وعذاباً ضعفاً في الممات أي: مضاعفاً، ثم حذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه وأضيفت، وذلك لأن خطأ العظيم عظيم كما قال سبحانه: **﴿يا نساء النبي من يات منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين﴾** [الأحزاب: 30]. وضعف الشيء مثلاً، وقد يكون الضعف النصيب كقوله: **﴿لكل ضعف﴾** [الأعراف: 38] أي: نصيب. قال الرازي: حاصل الكلام أنك لو مكنت خواطر الشيطان من قلبك وعقدت على الركون همك لاستحققت تضعيف العذاب عليك في الدنيا والآخرة ولصار عذابك مثلي عذاب المشرك في الدنيا ومثلي عذابه في الآخرة **﴿ثم لا تجد لك علينا﴾**

عمله، ويؤيد هذا قوله: **﴿فأما من أوتي كتابه﴾** [الحاقة: 19]. الآية، وقال ابن زيد: الإمام هو الكتاب المنزل عليهم فيدعى أهل التوراة بالتوراة، وأهل الإنجيل بالإنجيل، وأهل القرآن بالقرآن، فيقال: يا أهل التوراة يا أهل الإنجيل يا أهل القرآن. وقال مجاهد وقتادة: إمامهم نبيهم فيقال: هاتوا متبوعي إبراهيم، هاتوا متبوعي موسى، هاتوا متبوعي عيسى، هاتوا متبوعي محمد، وبه قال الزجاج. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: المراد بالإمام إمام عصرهم، فيدعى أهل كل عصر بإمامهم الذي كانوا ياتَمرون بأمره وينتهون بنهيهِ. وقال الحسن وأبو العلية: المراد بإمامهم أعمالهم، فيقال مثلاً: أين المجاهدون، أين الصابرون، أين الصائمون، أين المصلون؟ ونحو ذلك. وروي عن ابن عباس وأبي هريرة. وقال أبو عبيدة، المراد بإمامهم صاحب مذهبهم، فيقال مثلاً: أين التابعون للعالم فلان بن فلان، وهذا من البعد بمكان. وقال محمد بن كعب: بإمامهم بأهانتهم، على أن إمام جمع أم كخف وخفاف، وهذا بعيد جداً. وقيل: الإمام هو كل خلق يظهر من الإنسان حسن كالعلم والكرم والشجاعة، أو قبيح كاضدادها، فالداعي إلى تلك الأفعال خلق باطن هو كالإمام نكر معناه الرازي في تفسيره **﴿فمن أوتي كتابه بيمينه﴾** من أولئك المدعوين، وتخصيص اليمين بالذكر للتشريف والتبشير **﴿فأولئك﴾** الإشارة إلى من باعتبار معناه. قيل: ووجه الجمع الإشارة إلى أنهم مجتمعون على شأن جليل، أو الإشعار بأن قراءتهم لكتبهم تكون على وجه الاجتماع لا على وجه الانفراد **﴿يقراءون كتابهم﴾** الذي أوتوه **﴿ولا يظلمون قليلاً﴾** أي: لا ينقصون من أجورهم قدر فتيل، وهو القشرة التي في شق النواة، أو هو عبارة عن أقل شيء، ولم ينكر أصحاب الشمال تصريحاً، ولكنه نكر سبحانه ما يدل على حالهم القبيح فقال: **﴿ومن كان في هذه أعمى﴾** أي: من كان من المدعوين في هذه الدنيا أعمى أي: فاقد البصيرة. قال النيسابوري: لا خلاف أن المراد بهذا العمى عمى القلب، وأما قوله: **﴿فهو في الآخرة أعمى﴾** فيحتمل أن يراد به عمى البصر كقوله: **﴿ونحشره يوم القيامة أعمى﴾** قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً [طه: 124 - 125] وفي هذا زيادة العقوبة، ويحتمل أن يراد عمى القلب؛ وقيل: المراد بالآخرة عمل الآخرة أي: فهو في عمل، أو في أمر الآخرة أعمى؛ وقيل: المراد من عمي عن النعم التي أنعم الله بها عليه في الدنيا فهو عن نعم الآخرة أعمى؛ وقيل: من كان في الدنيا لتي تقبل فيها التوبة أعمى فهو في الآخرة التي لا توبة فيها أعمى؛ وقيل: من كان في الدنيا أعمى عن حجب الله فهو في الآخرة أعمى، وقد قيل: إن قوله: **﴿فهو في الآخرة أعمى﴾** أقبل تفضيل أي: أشد عمى وهذا مبني على أنه من عمى القلب إذ لا يقال ذلك في عمى العين. قال الخليل وسيبويه: لأنه خلقه بمنزلة اليد والرجل، فلا يقال ما أعماه كما لا يقال ما أيداه. وقال الأخفش: لا يقال فيه ذلك لأنه أكثر من أجرف. وقد حكى

بهذا وبارك لنا في هذا، حتى يأتيتهم فيقول: أبشروا لكل رجل منكم مثل هذا، وأما الكافر فيسود وجهه ويمد له في جسمه ستين نراعاً على صورة آدم، ويلبس تاجاً فيراه أصحابه فيقولون: نعوذ بالله من شر هذا، اللهم لا تاتنا بهذا، قال: فيأتيتهم فيقولون: اللهم اخزه، فيقول: أبعدكم الله، فإن لكل رجل منكم مثل هذا، قال البزار بعد إخراج: لا يروى إلا من هذا الوجه. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى﴾ يقول: من كان في الدنيا أعمى عما يرى من قدرتي من خلق السماء والأرض والجبال والبحار والناس والدواب واشباه هذا ﴿فَهُوَ﴾ عما وصفت له ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾ ولم يره ﴿أَعْمَى وَاضِلٌ سَبِيلًا﴾ يقول: أبعد حجة. وأخرج الفريابي، وابن أبي حاتم من طريق عكرمة عنه نحو هذا. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه أيضاً يقول: من عمي عن قدرة الله في الدنيا فهو في الآخرة أعمى. وأخرج ابن إسحاق، وابن أبي حاتم، وابن مروي عنه أيضاً قال: «إن أمية بن خلف وأبا جهل بن هشام ورجلاً من قريش أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: تعال فتمسح ألهتنا وندخل معك في دينك، وكان رسول الله ﷺ يشد عليه فراق قومه ويحب إسلامهم فرق لهم، فأنزل الله ﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَفْتَنُونَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿نَصِيرًا﴾». وأخرج ابن مروي عن طريق الكلبي عن ياذان، عن جابر بن عبد الله مثله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة قال: «كان رسول الله ﷺ يستلم الحجر، فقالوا لا ندعك تستلمه حتى تستلم بألهتنا، فقال رسول الله ﷺ: وما علي لو فعلت والله يعلم مني خلافة؟ فأنزل الله ﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَفْتَنُونَكُمْ﴾ الآية». وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن شهاب نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم عن جبيرة بن نفير: «أن قريشاً أتوا النبي ﷺ فقالوا له: إن كنت أرسلت إلينا فاطرد الذين اتبعوك من سقاط الناس ومواليهم لتكون نحن أصحابك، فركن إليهم، فأوحى الله إليه ﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَفْتَنُونَكُمْ﴾ الآية». وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي قال: أنزل الله ﴿وَالنَّجْمَ إِذَا هَوَى﴾ [النجم: 1]. فقرأ عليهم رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى﴾ [النجم: 19]. فالتقى عليه الشيطان: تلك الغرائق العلى. وإن شفاعتهم لترتجى، فقرأ النبي ﷺ ما بقي من السورة وسجد، فأنزل الله ﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَفْتَنُونَكُمْ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ الآية، فما زال مهموماً مغموماً حتى أنزل الله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى﴾ [الحج: 52]. الآية. وأخرج ابن جرير، وابن مروي عن ابن عباس: «أن ثقيفاً قالوا للنبي ﷺ: أجلنا سنة حتى يهدي لألهتنا، فإذا قبضنا الذي يهدي للآلهة أحرزناه ثم أسلمنا وكسرنا الآلهة فهم أن يؤجلهم، فنزلت ﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَفْتَنُونَكُمْ﴾ الآية». وأخرج ابن جرير عنه في قوله: ﴿ضَعُفَ الْحَيَاةُ وَضَعُفَ الْمَمَاتُ﴾ يعني: ضعف عذاب الدنيا والآخرة. وأخرج البيهقي عن الحسن في الآية قال: هو عذاب القبر.

نصيراً﴾ ينصرك فيرفع عنك هذا العذاب. قال النيسابوري: أعلم أن القرب من الفتنة لا يدل على الوقوع فيها، والتهديد على المعصية لا يدل على الإقدام عليها، فلا يلزم من الآية طعن في العصمة ﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَفْتَنُونَكُمْ﴾ الكلام في هذا كالكلام في ﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَفْتَنُونَكُمْ﴾ أي: وإن الشان أنهم قاربوا أن يزعموك من أرض مكة لتخرج عنها، ولكنه لم يقع ذلك منهم، بل منعهم الله منه حتى هاجر بالمر ربه بعد أن هموا به، وقيل: إنه أطلق الإخراج على إرادة الإخراج تجويزاً ﴿وَإِذَا لَا يَلْبِثُونَ خَلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ معطوف على ليستفتونك أي: لا يبقون بعد إخراجك إلا زمناً قليلاً، ثم عوقبوا عقوبة تستأصلهم جميعاً. وقرأ عطاء بن أبي رباح (لا يلبثوا) بتشديد الباء الموحدة. وقرأ (لا يلبثوا) بالنصب على إعمال إن على أن الجملة معطوف على جملة ﴿وَإِنْ كَانُوا﴾ لا على الخبر فقط. وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو بكر، وأبو عمرو (خلفك) ومعناه بعدك. وقرأ ابن عامر، وحفص، وحمزة، والكسائي (خلافك) ومعناه أيضاً بعدك. وقال ابن الأنباري: خلافك بمعنى مخالفتك، واختار أبو حاتم القراءة الثانية لقوله: ﴿فَرَحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ [التوبة: 81] ومما يدل على أن خلاف بمعنى بعد قول الشاعر:

غفت الديار خلائقها فكانما بسط الشواطئ بينهم حصيرا
يقال: شطبت المرأة الجريد إذا شققته لتعمل منه الحصير. قال أبو عبيدة: ثم تلقى الشاطئة إلى المثقبة ﴿سَنَةً مِنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ سنة منتصبة على المصدرية أي: سن الله سنة. وقال الفراء: أي يعذبون كسنة من قد أرسلنا فلما سقط الخافض عمل الفعل. وقيل المعنى: سنننا سنة من قد أرسلنا. قال الزجاج: يقول إن سنننا هذه السنة فيمن أرسلنا قبلك إليهم أنهم إذا أخرجوا نبيهم من بين أظهرهم أو قتلوه أن ينزل العذاب بهم ﴿وَلَا تَجِدْ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ أي: ما أجرى الله به العادة لم يتمكن أحد من تحويله ولا يقدر على تغييره.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مروي عن ابن عباس في قوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنْثَى بِإِمامِهِمْ﴾ قال: إمام هدى وإمام ضلالة. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مروي، والخطيب في تاريخه عن أنس في الآية قال: نبيهم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد مثله. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في الآية قال: بكتاب أعمالهم. وأخرج ابن مروي عن علي في الآية قال: يدعى كل قوم بإمام زمانهم، وكتاب ربهم وسنة نبيهم. وأخرج الترمذي وحسنه، والبزار، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مروي عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنْثَى بِإِمامِهِمْ﴾ قال: «يدعى أحدهم فيعطى كتابه بيمينه ويمد له في جسمه ستين نراعاً ويبيض وجهه، ويجعل على رأسه تاج من لؤلؤ يتلأل، فينطلق إلى أصحابه فيروونه من بعيد فيقولون: اللهم اثنتا

قولين: أحدهما أنه زوال الشمس عن كبد السماء، قاله عمر وابنه، وأبو هريرة، وأبو برزة، وابن عباس، والحسن، والشعبي، وعطاء، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، وأبو جعفر الباقري، واختاره ابن جرير. والقول الثاني: أنه غروب الشمس، قاله علي، وابن مسعود، وأبي بن كعب، وروي عن ابن عباس، قال الفراء: بلوك الشمس: من لبت زوالها إلى غروبها. قال الأزهري: معنى البلوك في كلام العرب الزوال، ولذلك قيل للشمس إذا زالت نصف النهار: دالكة، وقيل لها إذا أقلت: دالكة، لأنها في الحالتين زائلة. قال: والقول عندي أنه زوالها نصف النهار لتكون الآية جامعة للصلوات الخمس، والمعنى: أقم الصلاة من وقت بلوك الشمس ﴿إلى غسق الليل﴾ فيدخل فيها الظهر والعصر وصلات غسق الليل، وهما العشاءان، ثم قال: ﴿وقرآن الفجر﴾ هذه خمس صلوات. وقال أبو عبيد: بلوكها غروبها، وبلكت براح يعني: الشمس أي: غابت، وأشد قطرب على هذا قول الشاعر:

هذا مقام قدمي براح ببت حتى دلكت براح
اسم من أسماء الشمس على وزن حذام وقطام، ومن ذلك قول ذي الرمة:

مصاييح ليست باللواتي تقودها نجوم ولا بالآفلات النواك
أي: الغوارب، وغسق الليل اجتماع الظلمة. قال الفراء والزجاج: يقال غسق الليل وأغسق: إذا أقبل بظلامه، قال أبو عبيد: الغسق سواد الليل. قال قيس بن الرقيات:

إن هذا الليل قد غسقا واستكنت الهيم والأرقا

وقيل: غسق الليل مغيب الشفق، ومنه قول زهير:

طلت تجود يداها وهي لاهية حتى إذا جعجع الإظلام والغسق

وأصل الكلمة من السيلان يقال: غسقت إذا سالت. وحكى الفراء غسق الليل وأغسق، وظلم وأظلم، ورجى وأجى وغبش وأغبش، وقد استدلل بهذه الغاية أعني قوله: ﴿إلى غسق الليل﴾ من قال إن صلاة الظهر يتمدأ وقتها من الزوال إلى الغروب، روي ذلك عن الأوزاعي، وأبي حنيفة وجوزة مالك والشافعي في حال الضرورة، وقد وردت الأحاديث الصحيحة المتواترة عن رسول الله ﷺ في تعيين أوقات الصلوات، فيجب حمل مجمل هذه الآية على ما بينته السنة فلا تطيل بذكر ذلك. قوله: ﴿وقرآن الفجر﴾ انتصاب قرآن لكونه معطوفاً على الصلاة أي: وأقم قرآن الفجر، قاله الفراء. وقال الزجاج والبصريون: انتصابه على الإغراء أي: فعليك قرآن الفجر. قال المفسرون: المراد بقرآن الفجر صلاة الصبح. قال الزجاج: وفي هذه فائدة عظيمة تدل على أن الصلاة لا تكون إلا بقراءة حتى سميت الصلاة قرآناً، وقد نلت الأحاديث الصحيحة على أنه لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب، وفي بعض الأحاديث الخارجة من مخرج حسن وقرآن معها، وورد ما يدل على وجوب الفاتحة في كل ركعة، وقد حررت في مؤلفاتي تحريراً مجزئاً، ثم علل سبحانه ذلك بقوله: ﴿إن قرآن الفجر كان مشهوداً﴾ أي: تشهد ملائكة الليل وملائكة النهار كما ورد ذلك في الحديث الصحيح،

وأخرج أيضاً عن عطاء مثله. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة قال: قال المشركون للنبي ﷺ كانت الأنبياء تسكن الشام، فما لك والمدينة؟ فهم أن يشخص، فأنزل الله ﴿وإن كادوا ليستفزونك من الأرض﴾ الآية. وأخرج ابن جرير عن حزمي أنه بلغه أن بعض اليهود فذكر نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، والبيهقي في الدلائل، وابن عساکر عن عبد الرحمن بن غنم أن اليهود أتوا النبي ﷺ فقالوا: إن كنت نبياً فالحق بالشام فإن الشام أرض المحشر وأرض الأنبياء فصلى النبي ﷺ ما قالوا فتحزى غزوة تبوك لا يريد إلا الشام، فلما بلغ تبوك أنزل الله عليه آيات من سورة بني إسرائيل بعدما ختمت السورة ﴿وإن كادوا ليستفزونك﴾ إلى قوله: ﴿تحويلاً﴾ فأمره بالرجوع إلى المدينة، وقال فيها محياك وفيها ممالك ومنها تبعث، وقال له جبيرة: سل ربك فإن لكل نبي مسألة فقال: ما تأمرني أن أسأل؟ قال: ﴿قل رب انخليني منخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لئلك سلطاناً نصيراً﴾ فهؤلاء نزلن عليه في رجعتهم من تبوك. قال ابن كثير: وفي هذا الإسناد نظر، والظاهر أنه ليس بصحيح فإن النبي ﷺ لم يغز تبوك عن قول اليهود، وإنما غزاها امتثالاً لقوله: ﴿قاتلوا الذين يلونكم من الكفار﴾ [التوبة: 123]. وغزاها ليقبض وينتقم ممن قتل أهل مؤتة من أصحابه. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وإن كادوا ليستفزونك من الأرض﴾ قال: هم أهل مكة بإخراج النبي ﷺ من مكة وقد فعلوا بعد ذلك، فأهلكهم الله يوم بدر ولم يلبثوا بعده إلا قليلاً حتى أهلكهم الله يوم بدر، وكذلك كانت سنة الله في الرسل إذا فعل بهم قومهم مثل ذلك. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وإذا لا يلبثون خلفك إلا قليلاً﴾ قال: يعني بالقليل يوم أخذهم ببدر، فكان ذلك هو القليل الذين لبثوا بعده.

أَمَّا الْقَوْلُ لَدَوْلِهِ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُ غَسَقَ اللَّيْلَ وَقَرَأَنَ الْقُرْآنَ فَأَنَّ أَفْجَرَ
كَانَ مَشْهُودًا (٧٨) وَمِنْ أَلَيْلٍ فَتَهَاجَدَ بِهِ فَاغْلَبَهُ لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ
مَقَامًا مَحْمُودًا (٧٩) وَقُلْ رَبِّ أَدْعُنِي مَنَحْ صِدْقِي وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقِي وَأَجْعَلْ
لِي مِنْ أَدْنِكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا (٨٠) وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ
زَهُوقًا (٨١) وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَرْيَدُ الْغَافِلِينَ
إِلَّا خَسَارًا (٨٢) وَإِذَا أَمْسَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَمْرٌ مِّنْ نَّجْوَاهُ فَلْيَرْجُئْهُ وَلَا تَسْأَلْهُ الشَّرُّ كَانَ
يُؤَسِّرًا (٨٣) قُلْ كَلَّا يَسْمَعُ عَلَى شَاكِرٍ فَرِيضَتُكُمْ أَعْمَى بَلْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا (٨٤)
وَيَسْأَلُوكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْآيَاتِ إِلَّا قَلِيلًا (٨٥)

لما ذكر سبحانه الإلهيات والمعاد والجزاء أرفعها بذكر أشرف الطاعات، وهي الصلاة، فقال: ﴿أقم الصلاة لبلوك الشمس﴾. وقد أجمع المفسرون على أن هذه الآية المراد بها الصلوات المفروضة.

وقد اختلف العلماء في البلوك المذكور في هذه الآية على

وبذلك قال جمهور المفسرين **﴿ومن الليل فتهجد به نافلة لك﴾** من للتبعض، وانتصابه على الظرفية بمضمر أي: قم بعض الليل فتهجد به، والضمير المجزور راجع إلى القرآن وما قيل من أنه منتصب على الإغراء، والتقدير عليك بعض الليل فبعيد جداً، والتهجد مأخوذ من الهجد. قال أبو عبيدة وابن الأعرابي: هو من الأضداد، لأنه يقال: هجد الرجل إذا نام، وهجد إذا سهر فمن استعماله في السهر قول الشاعر:

الا زارت وأهل منى هجود فليت خيالها بمنى يعود
يعني: منتبهين، ومن استعماله في النوم قول الآخر:

الاطرقتنا والرفاق هجود فباتت بعلات النوال تجود
يعني: نياماً. وقال الأزهري: الهجد في الأصل هو النوم بالليل، ولكن جاء الفعل فيه لأجل التجنب ومنه تأثم وتخرج أي: تجنب الإثم والحرج، فالتهجد من تجنب الهجد، فقام بالليل. وروي عن الأزهري أيضاً أنه قال: التهجد القائم إلى الصلاة من النوم هكذا حكى عنه الواحدي، فقيد التهجد بالقيام من النوم، وهكذا قال مجاهد، وعلمقة، والأسود فقالوا: التهجد بعد النوم. قال الليث: تهجد إذا استيقظ للصلاة **﴿نافلة لك﴾** معنى النافلة في اللغة الزيادة على الأصل، فالمعنى أنها للنبي ﷺ نافلة زائدة على الفرائض، والأمر بالتهجد وإن كان ظاهره الوجوب لكن التصريح بكونه نافلة قرينة صارفة للأمر، وقيل: المراد بالنافلة هنا أنها فريضة زائدة على الفرائض الخمس في حقه ﷺ، ويدفع ذلك التصريح بلفظ النافلة، وقيل: كانت صلاة الليل فريضة في حقه ﷺ، ثم نسخ الوجوب فصار قيام الليل تطوعاً، وعلى هذا يحمل ما ورد في الحديث أنها عليه فريضة، ولأمرته تطوع. قال الواحدي: إن صلاة الليل كانت زيادة للنبي ﷺ خاصة لرفع الدرجات، لا للكفارات، لأنه غفر له من ذنبه ما تقدم وما تأخر، وليس لنا بنافلة لكثرة ذنوبنا إنما نعمل لكفارتها، قال: وهو قول جميع المفسرين. والحاصل أن الخطاب في هذه الآية وإن كان خاصاً بالنبي ﷺ في قوله **﴿أقم الصلاة﴾**، فالأمر له أمر لأمرته، فهو شرع عام، ومن ذلك الترغيب في صلاة الليل، فإنه يعلم جميع الأمة، والتصريح بكونه نافلة يدل على عدم الوجوب، فالتهجد من الليل منسوب إليه ومشروع لكل مكلف. ثم وعده سبحانه على إقامة الفرائض والنوافل فقال: **﴿عسى أن يبيئك ربك مقاماً محموداً﴾** قد ذكرنا في مواضع أن عسى من الكريم إطماع وأجب الوقوع، وانتصاب **﴿مقاماً﴾** على الظرفية بإضمار فعل، أو بتضمين البيعت معنى الإقامة، ويجوز أن يكون انتصابه على الحال أي: يبيئك ذا مقام محمود؛ ومعنى كون المقام محموداً: أنه يحمد كل من علم به. وقد اختلف في تعيين هذا المقام على أقوال: الأول أنه المقام الذي يقومه النبي ﷺ للشفاعة يوم القيامة للناس ليريحهم ربه سبحانه مما هو فيه، وهذا القول هو الذي بكت عليه الأئمة الصحيحة في تفسير الآية، وحكاها ابن جرير عن أكثر أهل

التأويل، قال الواحدي: وإجماع المفسرين على أن المقام

المحمود هو مقام الشفاعة. القول الثاني: أن المقام المحمود إعطاء النبي ﷺ لواء الحمد يوم القيامة. ويمكن أن يقال إن هذا لا يناقض القول الأول، إذ لا منافاة بين كونه قائماً مقام الشفاعة وببده لواء الحمد. القول الثالث: أن المقام المحمود هو أن الله سبحانه يجلس محمداً ﷺ معه على كرسيه، حكاها ابن جرير عن فرقة منهم مجاهد، وقد ورد في ذلك حديث. وحكى النقاش عن أبي داود السجستاني أنه قال: من أنكر هذا الحديث فهو عندنا منهم ما زال أهل العلم يتحدثون بهذا الحديث. قال ابن عبد البر: مجاهد وإن كان أحد الأئمة بالتأويل، فإن له قولين مهجورين عند أهل العلم: أحدهما هذا، والثاني في تأويل **﴿وجوه يومئذ ناضرة﴾** * إلى ربه ناظرة **﴿[القيامة: 22 - 23]**. قال: معناه تنتظر الثواب، وليس من النظر. انتهى. وعلى كل حال فهذا القول غير منافٍ للقول الأول لإمكان أن يقعه الله سبحانه هذا المقعد ويشفع تلك الشفاعة. القول الرابع: أنه مطلق في كل مقام يجلب الحمد من أنواع الكرامات، نكره صاحب الكشاف والمفتون به في التفسير، ويجب عنه بأن الأحاديث الصحيحة الواردة في تعيين هذا المقام المحمود متواترة، فالمصور إليها متعين، وليس في الآية عموم في اللفظ حتى يقال: الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ومعنى قوله وهو مطلق في كل ما يجلب الحمد أنه عام في كل ما هو كذلك، ولكنه يعبر عن العام بلفظ المطلق، كما نكره في ذبح البقرة، ولهذا قال هنا. وقيل: المراد الشفاعة، وهي نوع واحد مما يتناولها يعني: لفظ المقام، والفرق بين العموم البدلي والعموم الشمولي معروف، فلا نطيل بذكره **﴿وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق﴾**. قرأ الجمهور (مدخل صدق ومخرج صدق) بضم الميمين. وقرأ الحسن، وأبو العالية، ونصر بن عاصم بفتحهما، وهما مصدران بمعنى الإدخال والإخراج، والإضافة إلى الصدق لأجل المبالغة نحو حاتم الجود أي: إدخالاً يستأهل أن يسمى إدخالاً، ولا يرى فيه ما يكره. قال الواحدي: وإضافتهما إلى الصدق مدح لهما، وكل شيء أضفته إلى الصدق فهو مدح.

وقد اختلف المفسرون في معنى الآية، فقيل: نزلت حين أمر بالهجرة، يريد إدخال المدينة والإخراج من مكة واختاره ابن جرير، وقيل: المعنى أمتني إماتة صدق وأبعثني يوم القيامة مبعث صدق، وقيل: المعنى أدخلني فيما أمرتني به، وأخرجني مما نهيتني عنه، وقيل: إدخاله موضع الأمن وإخراجه من بين المشركين، وهو كالقول الأول، وقيل: المراد إدخال عز وإخراج نصر، وقيل: المعنى أدخلني في الأمر الذي أكرمتني به من النبوة مدخل صدق، وأخرجني منه إذا أمتني مخرج صدق، وقيل: أدخلني القبر عند الموت مدخل صدق، وأخرجني منه عند البعث مخرج صدق، وقيل: أدخلني حيثما أدخلتني بالصدق، وأخرجني بالصدق. وقيل: الآية عامة في كل ما تتناوله من الأمور فهي دعاء، ومعناها ربّ أصلح لي وردي في كل الأمور وصدري عنها **﴿ولجعل لي**

والارتياب موضع اليقين والاطمئنان **﴿إِلَّا خُسَارًا﴾** أي: هلاكاً، لأن سماع القرآن يفيظهم ويحنتهم ويدعوهم إلى زيادة ارتكاب القبايح تمزداً وعناداً، فعند ذلك يهلكون؛ وقيل: الخسار النقص كقوله: **﴿فَزَانَتْهُمْ رَجْسًا إِلَىٰ رَجْسِهِمْ﴾** [التوبة: 125]. ثم نبّه سبحانه على فتح بعض ما جبل عليه الإنسان من الطبايع المذمومة فقال: **﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ﴾** أي: على هذا الجنس بالنعم التي توجب الشكر كالصحة والغنى **﴿أَعْرَضَ﴾** عن الشكر لله والذكر له **﴿وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ﴾** النأي البعد والباء للتعنية أو للمصاحبة، وهو تأكيد للإعراض، لأن الإعراض عن الشيء هو أن يوليه عرض وجهه أي: ناحيته، والنأي بالجانب أن يلوي عنه عطفه ويوليه ظهره، ولا يبعد أن يراد بالإعراض هنا الإعراض عن الدعاء والابتغال الذي كان يفعله عند نزول البلوى والمحنة به، ويراد بالنأي بجانبه التكبر والبعد بنفسه عن القيام بحقوق النعم. وقرأ ابن عامر في رواية ابن نكوان وأبو جعفر (نأى) مثل باع بتأخير الهمزة على القلب، وقرأ حمزة (نأى) بلاملة الفتحتين ووافقه الكسائي، وأمال شعبة والسوسي الهمزة فقط. وقرأ الباقون بالفتح فيهما **﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾** من مرض أو فقر **﴿كَانَ يَفُوسًا﴾** شديد اليأس من رحمة الله، والمعنى: أنه إن فاز بالمطلوب الدنيوي وظفر بالمقصود نسي المعبود، وإن فاته شيء من ذلك استولى عليه الأسف، وغلب عليه القنوط، وكلتا الخصلتين قبيحة مذمومة ولا ينافي ما في هذه الآية قوله تعالى: **﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُوْ دَعَاءٍ عَرِيضٍ﴾** [فصلت: 51]. ونظائره، فإن ذلك شأن بعض آخر منهم غير البعض المذكور في هذه الآية، ولا يبعد أن يقال لا منافاة بين الآيتين فقد يكون مع شدة يأسه وكثرة قنوطه كثير الدعاء بلسانه **﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكَلَتِهِ﴾** الشاكلة قال الفراء: الطريقة، وقيل: الناحية، وقيل: الطبيعة، وقيل: الدين، وقيل: النية، وقيل: الجبلة، وهي مأخوذة من الشكل، يقال: لست على شكلي ولا على شاكلكي، والشكل: هو المثل والنظير. والمعنى: أن كل إنسان يعمل على ما يشكل أخلاقه التي ألفها، وهذا نمٌ للكافر ومدح للمؤمن **﴿فَرَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾** لأنه الخالق لكم، العالم بما جبلتم عليه من الطبايع وما تباينت في من الطرائق، فهو الذي يميز بين المؤمن الذي لا يعرض عند النعمة ولا ييأس عند المحنة، وبين الكافر الذي شأنه البطر للنعم والقنوط عند النقم. ثم لما انجرّ الكلام إلى ذكر الإنسان وما جبل عليه، ذكر سبحانه سؤال السائلين لرسول الله ﷺ عن الروح فقال: **﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾** قد اختلف الناس في الروح المسؤول عنه، فقيل: هو الروح المدبر للبدن الذي تكون به حياته، وبهذا قال أكثر المفسرين. قال الفراء: الروح الذي يعيش به الإنسان لم يخبر الله سبحانه به أحداً من خلقه، ولم يعط علمه أحداً من عباده فقال: **﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾** أي: إنكم لا تعلمونه، وقيل: الروح المسؤول عنه جبريل، وقيل: عيسى، وقيل:

من لبيك سلطاناً نصيراً، أي: حجة ظاهرة قاهرة تنصرني بها على جميع من خالفني، وقيل: اجعل لي من لبيك ملكاً وعزاً قوياً وكأنه ﷺ علم أنه لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان فسال سلطاناً نصيراً. وبه قال الحسن وقتادة واختاره ابن جرير. قال ابن كثير: وهو الأرجح لأنه لا بد مع الحق من قهر لمن عاداه ونأواه، ولهذا يقول تعالى: **﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مِنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾** [الحديد: 25] وفي الحديث: «إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن»، أي: ليمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام ما لا يمنع كثيراً من الناس بالقرآن، وما فيه من الوعيد الأكيد والتهديد الشديد، وهذا هو الواقع. انتهى. **﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾** المراد بالحق الإسلام، وقيل: القرآن، وقيل: الجهاد ولا مانع من حمل الآية على جميع ذلك وعلى ما هو حق كائناً ما كان، والمراد بالباطل الشرك، وقيل: الشيطان ولا يبعد أن يحمل على كل ما يقابل الحق من غير فرق بين باطل وباطل. ومعنى زهق بطل واضمح، ومنه زهوق النفس وهو بطلانها **﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾** أي: إن هذا شأنه فهو يبطل ولا يثبت، والحق ثابت دائماً **﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾** قرأ الجمهور (ننزل) بالنون⁽¹⁾. وقرأ أبو عمرو بالتخفيف. وقرأ مجاهد بالياء التحتية والتخفيف، ورواه المروزي عن حفص، ومن لا ابتداء الغاية، ويصح أن تكون لبيان الجنس. وقيل: للتبعيض وأنكره بعض المفسرين لاستلزامه أن بعضه لا شفاء فيه، وردّه ابن عطية بأن المبعوض هو إنزاله.

واختلف أهل العلم في معنى كونه شفاء على القولين: الأول أنه شفاء للقلوب بزوال الجهل عنها وذهاب الريب وكشف الغطاء عن الأمور الدالة على الله سبحانه. القول الثاني أنه شفاء من الأمراض الظاهرة بالرقى والتعوذ ونحو ذلك، ولا مانع من حمل الشفاء على المعنيين من باب عموم المجاز، أو من باب حمل المشترك على معنويه. ثم ذكر سبحانه أنه رحمة للمؤمنين لما فيه من العلوم النافعة المشتملة على ما فيه صلاح الدين والدنيا، ولما في تلاوته وتدبره من الأجر العظيم الذي يكون سبباً لرحمة الله سبحانه ومغفرته ورضوانه، ومثل هذه الآية قوله تعالى: **﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾** [فصلت: 44]. ثم لما ذكر سبحانه ما في القرآن من المنفعة لعباده المؤمنين ذكر ما فيه لمن عداهم من المضرة عليهم فقال: **﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خُسَارًا﴾** أي: ولا يزيد القرآن كله أو كل بعض منه الظالمين الذي وضعوا التكذيب موضع التصديق، والشك

(1) (قوله بالنون) صوابه بالنون والتشديد. اهـ مصحح القرآن.

القرآن، وقيل: ملك من الملائكة عظيم الخلق، وقيل: خلق كخلق بني آدم، وقيل: غير ذلك مما لا طائل تحته ولا فائدة في إيراده، والظاهر القول الأول، وسيأتي نكر سبب نزول هذه الآية، وبيان السائلين لرسول الله ﷺ عن الروح، ثم الظاهر أن السؤال عن حقيقة الروح، لأن معرفة حقيقة الشيء أهم وأقدم من معرفة حال من أحواله، ثم أمره سبحانه أن يجيب على السائلين له عن الروح فقال: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ من بيانية، والأمر الشأن والإضافة للاختصاص، أي: هو من جنس ما استأثر الله بعلمه من الأشياء التي لم يعلم بها عباده، وقيل: معنى ﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ من وحيه وكلامه لا من كلام البشر، وفي هذه الآية ما يزجر الخائضين في شأن الروح المتكلفين لبيان ما هيئته وليضاح حقيقة أبلغ زجر ويردعهم أعظم ردع، وقد أطلوا المقال في هذا البحث بما لا يتم له المقام، وغالبه بل كله من الفضول الذي لا يأتي بنفع في دين ولا دنيا.

وقد حكى بعض المحققين أن أقوال المختلفين في الروح بلغت إلى ثمانية عشر مائة قول، فانظر إلى هذا الفضول الفارغ والتعب العاطل عن النفع، بعد أن علموا أن الله سبحانه قد استأثر بعلمه ولم يطلع عليه أنبياءه ولا أنن لهم بالسؤال عنه ولا البحث عن حقيقته فضلاً عن أممهم المقتدين بهم، فيأخذ العجب حيث تبلغ أقوال أهل الفضول إلى هذا الحد الذي لم تبلغه ولا بعضه في غير هذه المسألة مما أنن الله بالكلام فيه، ولم يستأثر بعلمه. ثم ختم سبحانه هذه الآية بقوله سبحانه: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: أن علمكم الذي علمكم الله، ليس إلا المقدار القليل بالنسبة إلى علم الخالق سبحانه، وإن أوتي حظاً من العلم وإفراً، بل علم الأنبياء عليهم السلام ليس هو بالنسبة إلى علم الله سبحانه إلا كما يأخذ الطائر في منقاره من البحر، كما في حديث موسى والخضر عليهم السلام.

وقد أخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مروي عن ابن مسعود قال: ﴿بُلوک الشمس﴾ غروبها، تقول العرب إذا غربت الشمس: دلكت الشمس. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن علي قال: بُلوكها غروبها. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس، قال: ﴿بُلُوكُ الشَّمْسِ﴾ لزوال الشمس. وأخرج البزار، وأبو الشيخ، وابن مروي، والبيهقي عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «بُلوك الشمس زوالها». وضعف السيوطي إسناده. وأخرجه مالك في الموطأ، وعبد الرزاق، والفريابي، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عمر من قوله. وأخرج عبد الرزاق عنه قال: «بُلوك الشمس زياعها بعد نصف النهار». وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير عن ابن عباس قال: بُلوكها زوالها. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر عنه في قوله: ﴿بُلُوكُ الشَّمْسِ﴾ قال: إذا فاء

الفاء. وأخرج ابن جرير عن أبي مسعود وعقبة بن عمرو قالاً: قال رسول الله ﷺ: «أتاني جبريل لبلوك الشمس حين زالت فصلى بي الظهر». وأخرج ابن جرير عن أبي برزة الأسلمي قال: كان رسول الله ﷺ يصلي الظهر إذا زالت الشمس، ثم تلا ﴿اقم الصلاة للبلوك للشمس﴾. وأخرج ابن مروي عن حديث أنس نحوه. ومما يستشهد به على أن بلوك الزوال وسط النهار ما أخرجه ابن جرير عن جابر قال: «دعوت رسول الله ﷺ ومن شاء من أصحابه يطعمون عندي، ثم خرجوا حين زالت الشمس، فخرج النبي ﷺ فقال: أخرج يا أبا بكر فهذا حين دلكت الشمس»، وفي إسناده رجل مجهول ولكنه أخرجه عنه من طريق أخرى عن سهل بن بكر، عن أبي عوانة، عن الأسود بن قيس، عن نبيح العنبري، عن جابر فذكر نحوه مرفوعاً. وأخرج الطبراني عن ابن مسعود في قوله: ﴿إلى غسق الليل﴾ قال: إلى العشاء الآخرة. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال: ﴿غسق الليل﴾ اجتماع الليل وظلمته. وأخرج ابن جرير عنه قال: ﴿غسق الليل﴾ بؤ الليل. وأخرج عبد الرزاق عن أبي هريرة قال: بلوك الشمس إذا زالت الشمس عن بطن السماء وغسق الليل غروب الشمس. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿وقرآن الفجر﴾ قال: صلاة الصبح. وأخرج أحمد، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مروي، والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً﴾ قال: تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار تجتمع فيها، وهو في الصحيحين عنه مرفوعاً بلفظ تجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر، ثم يقول أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم ﴿وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً﴾. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني عن ابن مسعود موقوفاً نحوه. وأخرج الحكيم الترمذي، وابن جرير، والطبراني، وابن مروي عن أبي الدرداء قال: «قرأ رسول الله ﷺ ﴿إن قرآن الفجر كان مشهوداً﴾ قال: تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مروي عن ابن عباس في قوله: ﴿نافلة لك﴾ يعني: خاصة للنبي ﷺ، أمر بقيام الليل وكتب عليه. وأخرج الطبراني في الأوسط، والبيهقي في سننه عن عائشة أن النبي ﷺ قال: «ثلاث هن علي فرائض وهن لكم سنة: الوتر والسواك، وقيام الليل». وأخرج أحمد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مروي عن أبي امامة في قوله: ﴿نافلة لك﴾ قال: كانت للنبي ﷺ نافلة ولكم فضيلة، وفي لفظ: إنما كانت النافلة خاصة لرسول الله ﷺ. وأخرج أحمد، والترمذي وحسنه، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مروي، والبيهقي عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾ وسئل عنه، قال: هو المقام المحمود الذي أشفع فيه لامتي. وأخرج أحمد،

متكئاً على العسيب فظننت أنه يوحى إليه، فقال: **«ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما لوتيتهم من العلم إلا قليلاً»**. وأخرج أحمد، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن المنذر، وابن حبان، وأبو الشيخ في العظمة، والحاكم وصححه، وابن مريويه، وأبو نعيم، والبيهقي عن ابن عباس قال: قالت قريش لليهود أعطونا شيئاً نسال هذا الرجل، قالوا: سلوه عن الروح، فنزلت **«ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما لوتيتهم من العلم إلا قليلاً»** قالوا: أوتينا علماً كثيراً، أوتينا التوراة، ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً فانزل الله **«قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن أنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً»** [الكهف: 109]. وفي الباب أحاديث وأثر.

وَلَمَّا شَفَعْنَا لَنُدْهِبَ بِالزَّوَى أَرْحَمَ إِلَهِكَ ثُمَّ لَا يَحْدُكَ لَكَ بِهِ عَيْنًا وَكَيْلًا ﴿١٧٩﴾ لَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنْ قَضَيْتُمْ كَاتَ عَلَيْكَ كَيْدًا ﴿١٨٠﴾ قُلْ لَّيْنِ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِشَيْءٍ هَذَا الْفَرَقَانِ لَا يَأْتُونَ بِشَيْءٍ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ يَتَعَيْنُ ظَهْرَ الْآخَرِ ﴿١٨١﴾ وَلَقَدْ سَرَقْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كَثُورًا ﴿١٨٢﴾ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى تَنْزِلَ لَنَا مِنَ السَّمَاءِ بَيِّنَاتٌ يَنْزِلُهَا أَوْ تَكُونَ لَكَ بَيِّنَاتٌ مِنْ رَبِّكَ تَخْزِيهِمْ أَوْ تَرْفَعَهُمْ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ بِرُؤْيَاكَ حَتَّى نُنْزِلَ عَلَيْكَ كِتَابًا تَقْرَأُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا مَرْسُولًا ﴿١٨٣﴾

لما بين سبحانه أنه ما آتاهم من العلم إلا قليلاً بين أنه لو شاء أن يأخذ منهم هذا القليل لفعل، فقال: **«ولمئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك»** واللام هي الموطنة، ولنذهبن جواب القسم ساء مسد جواب الشرط. قال الزجاج: معناه لو شئنا لمحوانه من القلوب ومن الكتب حتى لا يوجد له أثر. انتهى. وعبر عن القرآن بالموصول تفخيماً لشانه **«ثم لا تجد لك به»** أي: بالقرآن **«علينا وكيلاً»** أي: لا تجد من يتوكل علينا في رد شيء منه بعد أن ذهبنا به، والاستثناء بقوله: **«إلا رحمة من ربك»** إن كان متصلاً فمعناه إلا أن يرحمك ربك فلا تذهب به، وإن كان منقطعاً فمعناه لكن لا يشأ ذلك رحمة من ربك، أو لكن رحمة من ربك تركته غير مذهب به **«إن فضله كان عليك كبيراً»** حيث جعلك رسولا وأنزل عليك الكتاب وصيرك سيد ولد آدم، وأعطاك المقام المحمود وغير ذلك مما أنعم به عليه. ثم احتج سبحانه على المشركين بإعجاز القرآن فقال: **«قل لمن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن»** المنزل من عند الله الموصوف بالصفات الجليلة من كمال البلاغة وحسن النظم وجزالة اللفظ **«لا يأتون بمثله»** أظهر في مقام الإضمار، ولم يكتف بان يقول: لا يأتون به على أن الضمير راجع إلى المثل المنكور، لنفع توهم أن

وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مريويه عن كعب بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «يبعث الناس يوم القيامة فأكون أنا وأمتي على تل ويكسوني ربي حلة خضراء، ثم يؤذن لي فاقول ما شاء الله أن أقول، فذلك المقام المحمود». وأخرج البخاري وغيره عن ابن عمر قال: إن كل أمة يوم القيامة تتبع نبيها، يقولون: يا فلان اشفع، يا فلان اشفع حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي ﷺ، فذلك يوم يبعثه الله مقاماً محموداً. وأخرج عنه نحوه مرفوعاً، والأحاديث في هذا الباب كثيرة جداً ثابتة في الصحيحين وغيرهما فلا نطيل بذكرها، ومن رام الاستيفاء نظر في أحاديث الشفاعة في الأمهات وغيرها، وأخرج الطبراني في قوله: **«عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً»** قال: يجلسه فيما بينه وبين جبريل ويشفع لأمته، فذلك المقام المحمود. وأخرج الديلمي عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً، قال: يجلسني معه على السرير». وينبغي الكشف عن إسناد هذين الحديثين. وأخرج أحمد، والترمذي، وصححه، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مريويه، وأبو نعيم، والبيهقي، والضياع في المختارة عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ بمكة ثم أمر بالهجرة، فانزل الله **«وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً»**. وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقي في الدلائل عن قتادة في قوله: **«وقل رب أدخلني»** الآية قال: أخرجه الله من مكة مخرج صدق، وأدخله المدينة مدخل صدق. قال: وعلم نبي الله أنه لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان فسال سلطاناً نصيراً لكتاب الله وحنوده وفرائضه وإقامة كتاب الله، فإن السلطان عزة من الله جعلها بين أظهر عباده، ولولا ذلك لا غار بعضهم على بعض، وأكل شديدهم ضعيفهم. وأخرج الخطيب عن عمر بن الخطاب قال: والله لما يزع الله بالسلطان أعظم مما يزع بالقرآن. وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال: «دخل النبي ﷺ مكة وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب، فجعل يطعننها بعود في يده ويقول: **«جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً»** **«جاء الحق وما يبدي الباطل وما يعيد»** [سبا: 49]». وفي الباب أحاديث. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: **«وإنى بجانبه»** قال: تباعد. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **«كان يئوساً»** قال: قنوطاً، وفي قوله: **«كل يعمل على شاكلته»** قال: على ناحيته. وأخرج هناد، وابن المنذر عن الحسن قال: على شاكلته: على نيته. وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال: «كنت أمشي مع النبي ﷺ في خرب المدينة وهو متكئ على عسيب، فمر بقوم من اليهود فقال بعضهم لبعض: اسألوه عن الروح، فقال بعضهم: لا تسألوه، فقالوا: يا محمد ما الروح؟ فما زال

القطعة من الشيء، يقال: أعطني كسفة من ثوبك، والجمع كسف وكسف، ويقال: الكسف والكسفة واحد، وانتصاب كسفاً على الحال، والكاف في كما زعمت في محل نصب على أنه صفة مصدر محذوف أي: إسقاطاً مماثلاً لما زعمت، يعنون بذلك قول الله سبحانه ﴿إِنْ نَشَأْ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء﴾ [سبا: 9]. قال أبو علي: الكسف بالسكون، الشيء المقطوع كالطحن للمطحون واشتقاقه على ما قال أبو زيد من كسفت الثوب كسفاً إذا قطعت. وقال الزجاج: من كسفت الشيء إذا غطيته كانه قيل: أو تسقطها طبقاً علينا ﴿أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً﴾.

اختلف المفسرون في معنى ﴿قبيلاً﴾ فقيل: معناه معانية، قاله قتادة وابن جريج، واختاره أبو علي الفارسي فقال: إذا حملته على المعانية كان القبيل مصدراً كالنكير والنكير. وقيل: معناه كقبلاً قاله الضحاک، وقيل: شهيداً قاله مقاتل، وقيل هو جمع القبيلة أي: تأتي بأصناف الملائكة قبيلة قبيلة قاله مجاهد وعطاء، وقيل: ضمناً، وقيل: مقابلاً كالعشير والمعاشر ﴿أو يكون لك بيت من زخرف﴾ أي: من ذهب، وبه قرأ ابن مسعود، وأصله الزينة، والمزخرف المزين، وزخارف الماء طرائقه، وقال الزجاج: هو الزينة فرجع إلى الأصل معنى الزخرف، وهو بعيد لأنه يصير المعنى: أو يكون لك بيت من زينة ﴿أو ترقى في السماء﴾ أي: تصعد في معارجها يقال: رقيت في السلم إذا صعدت وارتقيت مثله ﴿ولن تؤمن لرقيق﴾ أي: لأجل رقيق، وهو مصدر نحو مضى يمضي مضياً وهو يهوي هويًا ﴿حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه﴾ أي: حتى تنزل علينا من السماء كتاباً يصنقك ويدل على نبوتك نقرؤه جميعاً، أو يقرؤه كل واحد منا، وقيل معناه: كتاباً من الله إلى كل واحد منا كما في قوله: ﴿بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفاً منسورة﴾ [الم نشر: 52] فأمر سبحانه رسوله ﷺ أن يأتي بما يفيد التعجب من قولهم، والتنزيه للرب سبحانه عن اقتراحاتهم القبيحة فقال: ﴿قل سبحانه ربي﴾ أي: تنزيهاً لها عن أن يعجز عن شيء. وقرأ أهل مكة والشام (قال سبحانه ربي) يعني النبي ﷺ ﴿هل كنت إلا بشراً﴾ من البشر لا ملكاً حتى أصعد السماء ﴿رسولاً﴾ مأموراً من الله سبحانه بلإلا عكم، فهل سمعتم أيها المقترحون لهذه الأمور أن بشراً قدر على شيء منها؟ وإن أربتم أني أطلب ذلك من الله سبحانه حتى يظهرها على يدي، فالرسول إذا أتى بمعجزة واحدة كفاء ذلك، لأنها بها يتبين صدقه، ولا ضرورة إلى طلب الزيادة، وأنا عبد مأمور ليس لي أن اتحكم على ربي بما ليس بضروري، ولا دعت إليه حاجة، ولو لزممتني الإجابة لكل متعنت لاقتراح كل معاند في كل وقت اقتراحات، وطلب لنفسه إظهار آيات، فتعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً، وتنزه عن تعنتاتهم، وتقدس عن اقتراحاتهم.

وقد أخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم

يكون له مثل معين، وللإشعار بأن المراد نفي المثل على أي صفة كان، وهو جواب قسم محذوف كما تدل عليه اللام الموطئة، وساد مسدّ جواب الشرط، ثم أوضح سبحانه عجزهم عن المعارضة سواء كان المتصدي لها كل واحد منهم على الانفراد، أو كان المتصدر بها المجموع بالمظاهرة فقال: ﴿ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾ أي: عوناً ونصيراً، وجواب لو محذوف، والتقدير: ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً لا يأتون بمثله، فثبت أنهم لا يأتون بمثله على كل حال، وقد تقدّم وجه إعجاز القرآن في أوائل سورة البقرة في هذه الآية ردّ لما قاله الكفار ﴿لو نشاء لقلنا مثل هذا﴾ وإكذاب لهم. ثم بين سبحانه أن الكفار مع عجزهم عن المعارضة استمروا على كفرهم وعدم إيمانهم فقال: ﴿ولقد صرّفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل﴾ أي: ردنا القول فيه بكلّ مثل يوجب الاعتبار من الآيات والعبر والترغيب والترهيب والأوامر والنواهي وأقاصيص الأولين والجنة والنار والقيامة ﴿فأبى أكثر الناس إلا كفوراً﴾ يعني: من أهل مكة، فإنهم جحدوا وأنكروا كون القرآن كلام الله بعد قيام الحجة عليهم، واقترحوا من الآيات ما ليس لهم، وأظهر في مقام الإضمار حيث قال: فأبى أكثر الناس تأكيداً أو توضيحاً، ولما كان «أبى» مؤولاً بالنفي أي: ما قبل أو لم يرض صح الاستثناء منه قوله: ﴿إلا كفوراً﴾ وقالوا لن نؤمن لك﴾ أي قال رؤساء مكة كعتبة وشيبة ابني ربيعة وأبي سفيان والنضر بن الحارث، ثم علقوا نفي إيمانهم بغاية طلبوها فقالوا: ﴿حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً﴾. قرأ حمزة، والكسائي، وعاصم (حتى تفجر) مخففاً مثل تقتل. وقرأ الباقون بالتشديد، ولم يختلفوا في (فتفجر الأنهار) أنها مشددة، ووجه ذلك أبو حاتم بأن الأولى بعدها ينبوع وهو واحد، والثانية بعدها الأنهار وهي جمع. وأجيب عنه بأن ينبوع وإن كان واحداً في اللفظ فالمراد به الجمع، فإن ينبوع العين التي لا تنضب. ويردّ بأن ينبوع عين الماء والجمع الينابيع، وإنما يقال للعين ينبوع إذا كانت غزيرة من شأنها النبوع من غير انقطاع والياء زائدة كيحبوب من عبّ الماء ﴿أو تكون لك جنة﴾ أي: بستان تستر أشجاره أرضه. والمعنى هب أنك لا تفجر الأنهار لأجلنا ففجرها من أجلك بأن تكون لك جنة ﴿من نخيل وعنب فتفجر الأنهار﴾ أي: تجريها بقوة ﴿خلالها تفجيراً﴾ أي: وسطها تفجيراً كثيراً ﴿أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً﴾ قرأ مجاهد (أو تسقط) مسنداً إلى السماء. وقرأ من عداها (أو تسقط) على الخطاب أي: أو تسقط أنت يا محمد السماء. والكسف بفتح السين جمع كسفة. وهي قراءة نافع وابن عامر، وعاصم، والكسفة القطعة. وقرأ الباقون «كسفاً» بإسكان السين. قال الأخفش: من قرأ بإسكان السين جعله واحداً ومن قرأ بفتحها جعله جمعاً. قال المهدوي: ويجوز أن يكون على قراءة الكون جمع كسفة، ويجوز أن يكون مصدراً. قال الجوهري: الكسفة

جنس الملائكة امرين: الأول كون سكان الأرض ملائكة، والثاني كونهم ماشين على الأقدام غير قادرين على الطيران بأجنحتهم إلى السماء، إذ لو كانوا قادرين على ذلك لطاروا إليها، وسمعوها من أهلها ما يجب معرفته وسماعه فلا يكون في بعثة الملائكة إليهم فائدة. وانتصاب بشراً وملكاً على أنهما مفعولان للفعلين، ورسولاً في الموضوعين وصف لهما. وجوز صاحب الكشاف أن يكونا حالين في الموضوعين من رسولاً فيهما وقرّاه صاحب الكشاف، ولعل وجه ذلك أن الإنكار يتوجه إلى الرسول المتصف بالبشرية في الموضوع الأول، فيلزم بحكم التقابل أن يكون الآخر كذلك، ثم ختم الكلام بما يجري مجرى التهديد، فقال: ﴿قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم﴾ أي قل لهم: يا محمد من جهتك كفى بالله وحده شهيداً على إبلاغي إليكم ما أمرني به من أمور الرسالة، وقال: بيني وبينكم ولم يقل: بيننا تحقيقاً للمفارقة الكلية، وقيل: إن إظهار المعجزة على وفق دعوى النبي شهادة من الله له على الصنق، ثم علل كونه سبحانه شهيداً كافياً بقوله: ﴿إنه كان بعباده خبيراً بصيراً﴾ أي: عالماً بجميع أحوالهم محيطاً بظواهرها وبواطنها بصيراً بما كان منها وما يكون، ثم بين سبحانه أن الإقرار والإنكار مستندان إلى مشيئته فقال: ﴿ومن يهد الله فهو المهتدي﴾ أي: من يرد الله هدايته فهو المهتدي إلى الحق أو إلى كل مطلوب ﴿ومن يضل الله﴾ أي: يرد إضلاله ﴿فلن تجد لهم أولياء﴾ ينصرونهم ﴿من دونه﴾ يعني: الله سبحانه، ويهدونهم إلى الحق الذي أضلهم الله عنه أو إلى طريق النجاة، وقوله: ﴿فهو المهتدي﴾ حملاً على لفظ «من»، وقوله: ﴿فلن تجد لهم﴾ حملاً على المعنى، والخطاب في قوله: ﴿فلن تجد﴾ إما للنبي ﷺ، أو لكل من يصلح له ﴿ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم﴾ هذا الحشر على الوجوه فيه وجهان للمفسرين: الأول أنه عبارة عن الإسراع بهم إلى جهنم، من قول العرب: قد مرّ القوم على وجوههم: إذا أسرعوا. الثاني أنهم يسحبون يوم القيامة على وجوههم حقيقة كما يفعل في الدنيا بمن يبالغ في إهانتهم وتعذيبهم، وهذا هو الصحيح، لقوله تعالى: ﴿يوم يسحبون في النار على وجوههم﴾ [القمر: 48]. ولما صح في السنة كما سيأتي، ومحل على وجوههم النصب على الحال من ضمير المفعول و﴿عمياً﴾ منتصب على الحال ﴿وبكماً وصماً﴾ معطوفان عليه، والأكبم: الذي لا ينطق، والأصم: الذي لا يسمع، وهذه هيئة يبعثون عليها في أقبح صورة، وأشنع منظر، قد جمع الله لهم بين عمى البصر وعدم النطق وعدم السمع مع كونهم مسحوبين على وجوههم، ثم من وراء ذلك ﴿ماواهم جهنم﴾ أي: المكان الذي يأوون إليه، والجملة في محل نصب على الحال أو هي مستأنفة لا محل لها ﴿كلما خبت زناهم سعيراً﴾ أي: كلما سكن لهبها، يقال: خبت النار تخبو خبوا: إذا خمدت وسكن لهبها. قال ابن قتيبة: ومعنى زناهم سعيراً تسعراً، وهو التلهب. وقد قيل: إن في

خبو النار تخفيفاً لعذاب أهلها، فكيف يجمع بينه وبين قوله: ﴿لا يخفف عنهم العذاب﴾ [البقرة: 162]؟ وأجيب بأن المراد بعدم التخفيف أنه لا يتخلل زمان محسوس بين الخبو والتسعر، وقيل: إنها تخبو من غير تخفيف عنهم من عذابها ﴿ذلك﴾ أي: العذاب ﴿جزأؤهم﴾ الذي أوجب الله لهم واستحقوه عنده، والباء في قوله: ﴿بأنهم كفروا بإياتنا﴾ للسببية أي: بسبب كفرهم بها فلم يصنقوا بالآيات التنزيلية ولا تفكروا في الآيات التكوينية، واسم الإشارة مبتدأ وخبره جزأؤهم، و﴿بأنهم كفروا﴾ خبر آخر، ويجوز أن يكون جزأؤهم مبتدأ ثانياً، وخبره ما بعده، والجملة خبر المبتدأ الأول. ﴿وقالوا انذا كنا عظاماً ورفاتاً﴾ الهمزة للإنكار، وقد تقدم تفسير الآية في هذه السورة، وخلقاً في قوله: ﴿إننا لمبعوثون خلقاً جديداً﴾ مصدر من غير لفظه أو حال أي: مخلوقين، فجاء سبحانه بحجة تنفعهم عن الإنكار وتردّهم عن الجحود. فقال: ﴿أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم﴾ أي: من هو قادر على خلق هذا، فهو على إعادة ما هو أدون منه أقدر، وقيل: المراد أنه قادر على إنشائهم وإيجاد غيرهم، وعلى القول الأول يكون الخلق بمعنى الإعادة، وعلى هذا القول هو على حقيقته، وجملة ﴿وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه﴾ عطف على ﴿أولم يروا﴾، والمعنى: قد علموا ببليلى العقل أن من قدر على خلق السموات والأرض فهو قادر على خلق أمثالهم، لأنهم ليسوا بأشدّ خلقاً منهم كما قال: ﴿أنتم أشد خلقاً أم السماء﴾ [النازعات: 27] ﴿وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه﴾ وهو الموت أو القيامة، ويحتمل أن تكون الواو للاستئناف، وقيل: في الكلام تقديم وتأخير أي: أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه قادر على أن يخلق مثلهم ﴿فقل للظالمون ألا كفوراً﴾ أي: أبى المشركون إلا جحوداً، وفيه وضع الظاهر موضع المضمر للحكم عليهم بالظلم ومجاوزة الحد، ثم لما وقع من هؤلاء الكفار طلب إجراء الأنهار والعيون في أراضيهم لتتسع معاشيهم، بين الله سبحانه أنهم لا يقنعون، بل يبقون على بخلهم وشحهم فقال: ﴿قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي﴾ «أنتم» مرتفع على أنه فاعل فعل محذوف يفسره ما بعده أي: لو تملكون أنتم تملكون على أن الضمير المنفصل مبدل من الضمير المتصل وهو الواو، وخزائن رحمته سبحانه: هي خزائن الأرزاق. قال الزجاج: أعلمهم الله أنهم لو ملكوا خزائن الأرزاق لأمسكوا شحاً وبخلًا، وهو خشية الإنفاق أي: خشية أن ينفقوا فيفتقروا، في حذف الفعل الذي ارتفع به أنتم، وإيراد الكلام في صورة المبتدأ والخبر دلالة على أنهم هم المختصون بالشح. قال أهل اللغة: أنفق وأصرم وأعدم واقتتر: بمعنى قلّ ماله، فيكون المعنى: لأمسكتكم خشية قلّ المال ﴿وكان الإنسان قتوراً﴾ أي: بخيلاً مضيقاً عليه. يقال: قتر على عياله يقتري ويقتتر قتراً وقتوراً: ضيق عليهم في النفقة، ويجوز أن يراد وكان

بها. قال أكثر المفسرين: الآيات التسع: هي الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والعصا، واليد، والسنين، ونقص الثمرات. وجعل الحسن مكان السنين ونقص الثمرات البحر والجبل. وقال محمد بن كعب القرظي: هي الخمس التي في الأعراف، والبحر، والعصا، والحجر، والطمس على أموالهم. وقد تقدم الكلام على هذه الآيات مستوفى، وسيأتي حديث صفوان بن عسال في تعداد هذه الآيات التسع ﴿فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ قرأ ابن عباس وابن زهنيك (فسأل) على الخير أي: سأل موسى فرعون أن يخلي بني إسرائيل ويطلق سبيلهم ويرسلهم معه، وقرأ الآخرون (فاسأل) على الأمر أي: سلم يا محمد حين ﴿جاءهم﴾ موسى، والسؤال سؤال استشهاد لمزيد الطمأنينة والإيقان، لأن الآلة إذا تضافرت كان ذلك أقوى والمسؤولون مؤمنو بني إسرائيل كعبد الله بن سلام وأصحابه ﴿فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورٌ﴾ الفاء هي الفصيحة أي: فإظهار موسى عند فرعون ما أتياه من الآيات البينات وبلغه ما أرسل به فقال له فرعون، والمسحور: الذي سحر فخلط عقله. وقال أبو عبيدة والفراء: هو بمعنى الساحر، فوضع المفعول موضع الفاعل، ف ﴿فَقَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلُ هَؤُلَاءَ﴾ يعني: الآيات التي أظهرها، وأنزل بمعنى أوجد ﴿إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَافِرٍ﴾ أي: دلالات يستدل بها على قدرته ووحدانيته، وانتصاب بصائر على الحال. قرأ الكسائي بضم التاء من علمت على أنها لموسى، وروي ذلك عن علي، وقرأ الباقون بفتحها على الخطاب لفرعون. ووجه القراءة الأولى أن فرعون لم يعلم ذلك، وإنما علمه موسى. ووجه قراءة الجمهور أن فرعون كان عالماً بذلك كما قال تعالى: ﴿وَجَدْنَاهَا بِهَا وَاسْتَيْقَنْتَاهَا أَنفُسَهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: 14]. قال أبو عبيدة: المأخوذ به عندنا فتح التاء، وهو الأصح للمعنى، لأن موسى لا يقول: علمت أنا وهو الداعي، وروي نحو هذا عن الزجاج. ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورٌ﴾ الظن هنا بمعنى اليقين، والثبور الهلاك والخسران. قال الكمي:

وراء قضاة في الأيا من رأى مثبور وثابر
أي: مخسور وخاسر، وقيل: المثبور الملعون، ومنه قول الشاعر:

يا قومنا لا ترموا حزيناً سفهاً إن السفاه وإن البغي مثبور
أي: ملعون، وقيل: المثبور ناقص العقل، وقيل: هو الممنوع من الخير، يقال: ما شربك عن كذا: ما منعك منه، حكاه أهل اللغة، وقيل: المسحور ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِرَ مِنْ الْأَرْضِ﴾ أي أراد فرعون أن يخرج بني إسرائيل وموسى ويزعجهم من الأرض، يعني: أرض مصر بليلعدهم عنها، وقيل: أراد أن يقتلهم وعلى هذا يراد بالأرض مطلق الأرض، وقد تقدم قريباً معنى الاستفزاز ﴿فَإِغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾ فوقع عليه وعليهم الهلاك بالغرق، ولم يبق منهم أحداً ﴿وَوَلَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْأَرْضَ﴾

الإنسان قنوراً أي: قليل المال، والظاهر أن المراد المبالغة في وصفه بالشح، لأن الإنسان ليس بقليل المال على العموم. بل بعضهم كثير المال، إلا أن يراد أن جميع النوع الإنساني قليل المال بالنسبة إلى خزائن الله وما عنده. وقد اختلف في هذه الآية على قولين: أحدهما أنها نزلت في المشركين خاصة، وبه قال الحسن، والثاني أنها عامة وهو قول الجمهور حكاية الماوردي.

وقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن انس قال: «قيل يا رسول الله: كيف يحشر الناس على وجوههم قال: الذي أمشاهم على أرجلهم قادر أن يمشيهم على وجوههم». وأخرج أبو داود، والترمذي وحسنه، وابن جرير، وابن مروي، والبيهقي عن أبي هريرة. قال: قال رسول الله ﷺ: «يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أصناف: صنف مشاة، وصنف ركباناً، وصنف على وجوههم»، ثم ذكر نحو حديث انس. وفي الباب أحاديث. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس، في قوله: ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ قال: يعني أنهم وقودها. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق علي بن أبي طلحة عنه في قوله: ﴿كُلَّمَا خَبِتْ﴾ قال: سكنت. وأخرج هؤلاء عنه أيضاً في الآية قال: كلما أحرقتهم سعرتهم خطياً، فإذا أحرقتهم فلم يبق منهم شيء صارت جمراً تتوهج فذلك خبوها، فإذا بلكوا خلقاً جديداً عاوتهم. وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء في قوله: ﴿خِزَانِنَ رَحْمَةٍ رَّبِّي﴾ قال: الرزق. وأخرج أيضاً عن عكرمة في قوله: ﴿إِنَّا لَمَسْكَنَتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ﴾ قال: إذا ما اطعمتم أحداً شيئاً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ﴾ قال: الفقر ﴿وَوَكَانَ الْإِنْسَانُ قَنُورًا﴾ قال: بخيلاً. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ﴾ قال: خشية الفاقة ﴿وَوَكَانَ الْإِنْسَانُ قَنُورًا﴾ قال: بخيلاً ممسكاً.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ يَسَعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَعَلَّ يَدَ إِسْرَافِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورٌ ﴿١٧١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلُ هَؤُلَاءَ إِلَّا رَبِّي أَسْمَنُ مِنَ الْأَرْضِ بِصَافِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ بِفِرْعَوْنِ مَثْبُورًا ﴿١٧٢﴾ فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِرَ مِنْ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ﴿١٧٣﴾ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَافِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرِ جِئْنَا بِكَ لَيْلِيًا ﴿١٧٤﴾ وَيَلْحَقُ أَنْزَلْنَاهُ وَلَاحِقَ نَزْلٍ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٧٥﴾ وَوَرَاكَ قَهْقَرُهُ لِنَفْثِمَ عَلَىٰ أَنْفَاسٍ عَلَىٰ مَكِّهِ وَزَلَّزَلْنَاهُ لِنَزِيلِكَ ﴿١٧٦﴾ فَلَمَّا مَسُوا بِرَأْسِهِمْ لَأَ الْإِنِّ أَرْوَاهُ الْوَلَمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُسَلِّ عَلَيْهِمْ يُخْرِجُونَ الْإِنْدَادَ فَنَسَجًا ﴿١٧٧﴾ وَوَقُلُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا وَعْدَ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٧٨﴾ وَنَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَنَزَّاطٌ ﴿١٧٩﴾ وَنَزَّاهُ حُشُوعًا ﴿١٨٠﴾

قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ﴾ أي: علامات دالة على نبوته، قيل: وجه اتصال هذه الآية بما قبلها أن المعجزات المذكورة كانت مساوية لتلك الأمور التي اقترحتها كفار قريش، بل أقوى منها، فليس عدم الاستجابة لما طلبوه من الآيات إلا لعدم المصلحة في استئصالهم إن لم يؤمنوا

نوفل، وعبد الله بن سلام ﴿إِذَا يَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ أي: القرآن ﴿يَخْرُجُونَ لِلْأَنْفَاقِ سَجْدًا﴾ أي: يسقطون على وجوههم ساجدين لله سبحانه، وإنما قيد الخُرُور، وهو السقوط بكونه للأنفاق أي: عليها، لأن النقن: وهو مجتمع للحيين أول ما يحاذي الأرض. قال الزجاج: لأن النقن مجتمع للحيين، وكما يبتدئ الإنسان بالخرور للسجود، فأول ما يحاذي الأرض به من وجهه النقن، وقيل: المراد تعفير الحية في التراب، فإن ذلك غاية الخضوع، وإيثار اللام في الأنفاق على الدلالة على الاختصاص، فكانهم خصوا أنفانهم بالخرور، أو خصوا الخُرور بأنفانهم، وقيل: الضمير في قوله ﴿مَنْ قَبْلَهُ﴾ راجع إلى النبي ﷺ، والأولى ما نكرناه من رجوعه إلى القرآن لدلالة السياق على ذلك، وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ. وحاصلها أنه إن لم يؤمن به هؤلاء الجهال الذين لا علم عندهم ولا معرفة يكتب الله ولا بانيائهم، فلا تبال بذلك، فقد آمن به أهل العلم وخشعوا له وخضعوا عند تلاوته عليهم خضوعاً ظهر أثره البالغ بكونهم يخرجون على أنفانهم سجداً لله ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾ أي: يقولون في سجودهم تنزيهاً لربنا عما يقوله الجاهلون من التكذيب أو تنزيهاً له عن خلف وعده ﴿إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ إن هذه هي المخففة من الثقيلة، واللام هي الفارقة. ثم ذكر أنهم خروا لأنفانهم ولكن فقال: ﴿وَيَخْرُجُونَ لِلْأَنْفَاقِ يَبْكُونَ﴾ وكُذِرَ نكر الخُرور للأنفاق لاختلاف السبب، فإن الأول لتعظيم الله سبحانه وتنزيهه، والثاني للبكاء بتأثير مواعظ القرآن في قلوبهم ومزيد خشوعهم، ولهذا قال: ﴿وَيُزِيدُهُمْ﴾ أي: سماع القرآن، أو القرآن بسماعهم له ﴿خُشُوعًا﴾ أي: لين قلب ورطوبة عين.

وقد أخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿تَسْعَ آيَاتٍ﴾ فنكر ما نكرناه عن أكثر المفسرين. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه قال: يده، وعصاه ولسانه، والبحر، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم. وأخرج الطيالسي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وأحمد، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن ماجه، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن قانع، والحاكم وصححه، وأبو نعيم، والبيهقي، وابن مردويه عن صفوان بن عسال: «أن يهوديين قال أحدهما لصاحبه: انطلق بنا إلى هذا النبي نسأله، فأتياه فسألاه عن قول الله ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ فقال: لا تشرکوا بالله شيئاً، ولا تزنا، ولا تسرقوا، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تسرقوا، ولا تسحروا، ولا تمشوا بيريء إلى سلطان فيقتله، ولا تاكلوا الربا، ولا تقذفوا محصنة، أو قال: لا تفروا من الزحف، شك شعبة، عليكم يا يهود خاصة أن لا تعتدوا في السبت، فقبلاً بيده ورجليه وقالوا: نشهد أنك نبي الله، قال: فما يمنعكما أن تسلما؟ قالوا: إن داود دعا الله أن يزال في ذريته نبي، وإننا نخاف أن أسلمنا أن يقتلنا اليهود».

أي: من بعد إغراقه ومن معه، والمراد بالأرض هنا: أرض مصر التي أراد أن يستقرهم منها ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ أي الدار الآخرة وهو القيامة، أو الكثرة الآخرة، أو الساعة الآخرة ﴿جَعَلْنَا بَكُمْ لَقِيفًا﴾ قال الجوهري: اللقيف ما اجتمع من الناس من قبائل شتى، يقال: جاء القوم بلفهم ولفيفهم أي: باخلاطهم، فالمراد هنا جعلنا بكم من قبوركم مختلطين من كل موضع، قد اختلط المؤمن بالكافر. قال الأصمعي: اللقيف جمع وليس له واحد، وهو مثل الجمع ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ الضمير يرجع إلى القرآن، ومعنى ﴿بِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ﴾ أوحيناه متلبساً بالحق، ومعنى ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ أنه نزل وفيه الحق، وقيل: الباقي، وبالحق الأول بمعنى مع أي: مع الحق أنزلناه كقولهم: ركب الأمير بسيفه أي: مع سيفه، وبالحق نزل أي: بمحمد كما تقول نزلت يزيد. وقال أبو علي الفارسي: الباء في الموضعين بمعنى مع، وقيل: يجوز أن يكون المعنى: وبالحق قدرنا أن ينزل وكذلك نزل، أو ما أنزلناه من السماء إلا محفوظاً، وما نزل على الرسول إلا محفوظاً من تخطيط الشياطين، والتقديم في الموضعين للتخصص. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ أي: مبشراً لمن أطاع بالجنة ونذيراً مخوفاً لمن عصى بالنار ﴿وَوَرَأَيْنَا فَرقَانَهُ﴾ انتصاب قرأناً بفعل مضمر يفسره ما بعده، قرأ علي، وابن عباس، وابن مسعود، وأبي بن كعب، وقتادة، وأبو رجاء، والشعبي (فرقناه) بالتشديد أي: أنزلناه شيئاً بعد شيء لا جملة واحدة. وقرأ الجمهور (فرقناه) بالتخفيف أي: بيناه وأوضحناه، وفرقنا فيه بين الحق والباطل. وقال الزجاج: فرقه في التنزيل ليفهمه الناس. قال أبو عبيد: التخفيف أعجب إليّ، لأن تفسيره بيناه، وليس للتشديد معنى إلا أنه نزل متفرقاً. ويؤيده ما رواه ثعلب عن ابن الأعرابي أنه قال: فرقت مخففاً بين الكلام، وفرقت مشدداً بين الأجسام، ثم ذكر سبحانه العلة لقوله: ﴿فرقناه﴾، فقال: ﴿لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكْثٍ﴾ أي: على تطول في المدة شيئاً بعد شيء على القراءة الأولى، أو أنزلناه آية آية، وسورة سورة. ومعناه على القراءة الثانية على مكث أي: على ترسل وتمهل في التلاوة، فإن ذلك أقرب إلى الفهم وأسهل للحفظ. وقد اتفق القراء على ضم الميم في (مكث) إلا ابن محيصن فإنه قرأ بفتح الميم ﴿وَوَرَأَيْنَا فَرقَانَهُ﴾ التأكيد بالمصدر للمبالغة، والمعنى: أنزلناه منجماً مفزقاً لما في ذلك من المصلحة، ولو أخذوا بجميع الفرائض في وقت واحد لنفروا ولم يطيقوا ﴿قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا﴾ أمر الله سبحانه نبيه ﷺ أن يقول للكافرين المقترحين للآيات: آمنوا به أو لا تؤمنوا، فسواء إيمانكم به وامتناعكم عنه لا يزيد ذلك ولا ينقصه. وفي هذا وعيد شديد لأمره ﷺ بالإعراض عنهم واحتقارهم، ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي: أن العلماء الذين قرءوا الكتب السابقة قبل إنزال القرآن وعرفوا حقيقة الوحي وأمارات النبوة كزيد بن عمرو بن نفيل، وورقة بن

وأخرج ابن أبي الدنيا في ذم الغضب عن أنس بن مالك أنه سئل عن قوله: **﴿وإني لأظنك يا فرعون مثبوراً﴾** قال: مخالفاً، وقال: الأنبياء أكرم من أن تلعن أو تسب. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس «مثبوراً» قال: ملعوناً. وأخرج الشيرازي في الألقاب، وابن مردويه عنه قال: قليل العقل. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً «لغيفاً» قال: جميعاً. وأخرج النسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس أنه قرأ: (وقرأنا فرقناه) مثقلاً قال: نزل القرآن إلى السماء الدنيا في ليلة القدر من رمضان جملة واحدة، فكان المشركون إذا أحسوا شيئاً أحدث لهم جواباً، ففرقه الله في عشرين سنة. وقد روي نحو هذا عنه من طرق. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه أيضاً **﴿فرقناه﴾** قال: فصلناه على مكث بامد **﴿يخزؤون للأنقان﴾** يقول: للوجوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد **﴿إذا يتلى عليهم﴾** قال: كتابهم.

قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيُّمَا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوا يَمَّا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ وَقُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَخْذُ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلَكُوتِ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَئِنْ لَمْ يَنْزِلْ وَكَيْدُهُ لَبِئْسَ مَا يَكُونُ ﴿٢٠﴾

أراد سبحانه أن يعلم عباده كيفية الدعاء والخشوع فقال: **﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن﴾** ومعناه: انهما مستويان في جواز الإطلاق وحسن الدعاء بهما، ولهذا قال: **﴿أيما ما تدعوا فله الأسماء الحسنى﴾** التثوين في أيما عوض عن المضاف إليه، وما مزيدة لتوكيد الإبهام في أيما، والضمير في له راجع إلى المسمى، وكان أصل الكلام: أيما ما تدعوا فهو حسن، فوضع موضعه فله الأسماء الحسنى للمبالغة، وللدلالة على أنها إذا حسنت أسماءه كلها حسن هذان الإسمان، ومعنى حسن الأسماء استقلالها بنعوت الجلال والإكرام، نكر معنى هذا النيسابوري وتبعه أبو السعود. قال الزجاج: أعلمهم الله أن دعاءهم الله ودعاءهم الرحمن يرجعان إلى قول واحد، وسيأتي ذكر سبب نزول الآية، وبه يتضح المراد منها، ثم نكر كيفية أخرى للدعاء فقال: **﴿ولا تجهروا بصلاتك ولا تخافت بها﴾** أي: بقراءة صلاتك على حذف المضاف للعلم بأن الجهر والمخافتة من نعوت الصوت، لا من نعوت أفعال الصلاة، فهو من إطلاق الكل وإرادة الجزء، يقال: خفت صوته خفوتاً: إذا انقطع كلامه وضعف وسكن، وخفت الزرع إذا ذبل، وخافت الرجل بقرائه: إذا لم يرفع بها صوته، وقيل معناه: لا تجهروا بصلاتك كلها ولا تخافت بها كلها، والأول أولى **﴿وابتغ بين ذلك﴾** أي: الجهر والمخافتة المداول عليها بالفعلين **﴿سبيلاً﴾** أي: طريقاً متوسطاً بين الأمرين فلا تكن مجهورة ولا مخافتاً بها، وعلى التفسير الثاني يكون معنى ذلك النهي عن الجهر بقراءة الصلوات كلها، والنهي عن المخافتة بقراءة الصلوات كلها، والأمر بجعل البعض منها مجهوراً به، وهو صلاة الليل والمخافتة

بصلاة النهار، وذهب قوم إلى أن هذه الآية منسوخة بقوله: **﴿ادعوا ربكم تضرعاً وخفية﴾** [الأعراف: 55] ولما أمر أن لا ينكر ولا ينادى إلا بأسمائه الحسنى نبه على كيفية الحمد له فقال: **﴿وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً﴾** كما تقول اليهود والنصارى، ومن قال من المشركين: إن الملائكة بنات الله، تعالى عن ذلك علواً كبيراً **﴿ولم يكن له شريك في الملك﴾** أي: مشارك له في ملكه وربوبيته كما تزعمه الثنوية ونحوهم من الفرق القائلين بتعدد الآلهة **﴿ولم يكن له ولي من الدن﴾** أي: لم يحتج إلى موالاة أحد لئلا يلحقه فهو مستغنى عن الولي والنصير. قال الزجاج: أي لم يحتج أن ينتصر بغيره، وفي التعرض في إثناء الحمد لهذه الصفات الجليلة إيذان بأن المستحق للحمد من له هذه الصفات، لأنه القادر على الإيجاد وإفاضة النعم لكون الولد مجبنة ومبذلة، ولأنه أيضاً يستلزم حدوث الأب لأنه متولد من جزء من أجزائه، والمحدث غير قادر على كمال الإنعام، والشركة في الملك إنما تتصور لمن لا يقدر على الاستقلال به، ومن لا يقدر على الاستقلال عاجز فضلاً عن تمام ما هو له، فضلاً عن نظام ما هو عليه، وإيضاً الشركة موجبة للتنازع بين الشريكين فقد يمنعه الشريك من إفاضة الخير إلى أوليائه ومؤيديه إلى الفساد **﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾** [الأنبياء: 22]. والمحتاج إلى ولي يمنعه من الدن وينصره على من أراد إذلاله ضعيف لا يقدر على ما يقدر عليه من هو مستغنى بنفسه **﴿وكبره تكبيراً﴾** أي: عظمه تعظيماً وصفه بأنه أعظم من كل شيء.

وقد أخرج ابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس قال: «صلى رسول الله ﷺ بمكة ذات يوم فقال في دعائه: يا الله يا رحمن، فقال المشركون: انظروا إلى هذا الصابئ ينهانا أن ندعو إلهين، وهو يدعو إلهين، فأنزل الله **﴿قل ادعوا الله أو ادعوا للرحمن﴾**» الآية. وأخرج ابن أبي حاتم عن إبراهيم النخعي قال: إن اليهود سألوا رسول الله ﷺ عن الرحمن، وكان لهم كاهن باليمامة يسمونه الرحمن، فنزلت الآية. وهو مرسل. وأخرج ابن جرير عن مكحول: «أن النبي ﷺ كان يتجهد بمكة ذات ليلة يقول في سجوده: يا رحمن يا رحيم، فسمعه رجل من المشركين فلما أصبح قال لأصحابه: إن ابن أبي كبشة يدعو الليلة للرحمن الذي باليمن، وكان رجل باليمن يقال له: رحمن، فنزلت. وأخرج البيهقي في الدلائل من طريق نهشل بن سعيد عن الضحاك، عن ابن عباس قال: «سئل رسول الله ﷺ عن قول الله: **﴿قل ادعوا الله أو ادعوا للرحمن أيما ما تدعوا﴾** إلى آخر الآية، فقال رسول الله ﷺ: هو أمان من السرقة». وإن رجلاً من المهاجرين من أصحاب رسول الله ﷺ تلاها حيث أخذ مضجعه، فدخل عليه سارق فجمع ما في البيت وحمله والرجل ليس بنائم حتى انتهى إلى الباب فوجد الباب مردوداً، فوضع الكارة، ففعل ذلك ثلاث مرات، فضحك صاحب الدار ثم قال: إني حصنت بيتي. وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن

«نكر لنا أن رسول الله ﷺ كان يعلم أهله هذه الآية: **الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً**» إلى آخرها الصغير من أهله والكبير». وأخرج عبد الرزاق في المصنف عن عبد الكريم بن أبي أمية قال: «كان رسول الله ﷺ يعلم الغلام من بني هاشم إذا أفصح سبع مرات **الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً**» إلى آخر السورة». وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف من طريق عبد الكريم، عن عمرو بن شعيب فنكره. وأخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة من طريق عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده.

تفسير سورة الكهف

قال القرطبي: وهي مكية في قول جميع المفسرين. ودوي عن فرقة أن أول السورة نزل بالمدينة إلى قوله: **«جرزاً»** والأول أصح انتهى. ومن القائلين إنها مكية جميعها ابن عباس، أخرجه عنه للنحاس وابن مروييه ومنهم ابن الزبير، أخرجه عنه ابن مروييه. وقد ورد في فضلها أحاديث: منها ما أخرجه أحمد، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي وغيرهم، عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ قال: «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من فتنة الدجال». وأخرج أحمد، ومسلم، والنسائي، وابن حبان، عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف عصم من فتنة الدجال». وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن البراء قال: «قرأ رجل سورة الكهف وفي الدار دابة، فجعلت تنفر، فنظر فإذا ضبابية أو سحابة قد غشيت، فنكر ذلك للنبي ﷺ، فقال: اقرأ فلان، فإن السكينة نزلت للقرآن»، وهذا الذي كان يقرأ هو أسيد بن حضير كما بيّنه الطبراني. وأخرج الترمذي وصححه عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ ثلاث آيات من أول سورة الكهف عصم من فتنة الدجال». وفي قراءة العشر الآيات من أولها لو من آخرها أحاديث. وأخرج ابن مروييه والضياء في المختارة عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ الكهف يوم الجمعة فهو معصوم إلى ثمانية أيام من كل فتنة تكون، فإن خرج الدجال عصم منه». وأخرج الطبراني في الأوسط، والحاكم وصححه، وابن مروييه، والبيهقي، والضياء، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الكهف كانت له نوراً من مقامه إلى مكة، ومن قرأ عشر آيات من آخرها ثم خرج الدجال لم يضره». وأخرج الحاكم وصححه من حديث أبي سعيد، أن النبي ﷺ قال: «من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين». وأخرجه البيهقي أيضاً في السنن من هذا الوجه ومن وجه آخر. وأخرج ابن مروييه عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة سطع له نور من تحت قدمه إلى عنان السماء يضيء له يوم القيامة وغفر له ما بين الجمعتين». وأخرج ابن مروييه عن

عباس في قوله: **«ولا تجهر بصلاتك»** الآية قال: نزلت ورسول الله ﷺ متوارٍ، فكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فإذا سمع ذلك المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به، فقال الله لنبيه: **«ولا تجهر بصلاتك»** أي: بقرءاتك، فيسمع المشركون، فيسبوا القرآن **«ولا تخافت بها»** عن أصحابك، فلا تسمعهم القرآن حتى يأخونه عنك **«وابتغ بينك سبيلاً»** يقول: بين الجهر والمخافة. وأخرج ابن مروييه عنه قال كان نبي الله ﷺ يجهر بالقراءة بمكة فيؤذى، فأنزل الله **«ولا تجهر بصلاتك»**. وأخرج ابن أبي شيبة عنه أيضاً نحوه. وأخرج أبو داود في ناسخه عنه نحوه. وأخرج الطبراني، وابن مروييه عنه أيضاً قال: كان مسيلة الكذاب قد سمي الرحمن، فكان النبي ﷺ إذا صلى فجهر ببسم الله الرحمن الرحيم قال المشركون: ينكر إله اليمامة، فأنزل الله **«ولا تجهر بصلاتك»**. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في الشعب عن محمد بن سيرين قال: نبئت أن أبا بكر كان إذا قرأ خفص، وكان عمر إذا قرأ جهر، فقيل لأبي بكر: لم تصنع هذا؟ قال: أنا أتاجي ربي، وقد عرف حاجتي، وقيل لعمر: لم تصنع هذا؟ قال: أطرد الشيطان وأرقت الوسنان، فلما نزل **«ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها»** قيل لأبي بكر: أرفع شيئاً، وقيل لعمر أخفض شيئاً. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، والبخاري، ومسلم وغيرهم عن عائشة قالت: إنما نزلت هذه الآية **«ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها»** في الدعاء. وأخرج ابن جرير، والحاكم عنها قالت: نزلت في التشهد. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن منيع، وابن جرير، ومحمد بن نصر، وابن المنذر، وابن مروييه عن ابن عباس مثل حديث عائشة الأول. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي قال: إن اليهود والنصارى قالوا: اتخذ الله ولداً، وقالت العرب: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك، وقال الصابئون والمجوس: لولا أولياء الله لنزل. فأنزل الله هذه الآية **«قل الحمد لله»** إلى آخرها. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: **«ولم يكن له ولي من الدن»** قال: لم يحالف أحداً ولم يبتغ نصر أحد. وأخرج أحمد، والطبراني عن معاذ بن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «آية العز **«الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً»**، الآية كلها. وأخرج أبو يعلى وابن السني عن أبي هريرة قال: «خرجت أنا ورسول الله ﷺ ويده في يدي، فأتى علي رجل رث الهيئة فقال: أي فلان ما بلغ بك ما أرى؟ قال: السقم والضر، قال: ألا أعلمك كلمات تذهب عنك السقم والضر؟ توكلت على الحي الذي لا يموت، **«الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً»** إلى آخر الآية، فأتى عليه رسول الله ﷺ وقد حسنت حاله فقال: مهيم؟ قال: لم أزل أقول الكلمات التي علمتني». وفي لفظ أن النبي ﷺ علم ذلك أبا هريرة. قال ابن كثير: وإسناده ضعيف وفي متنه نكارة. وأخرج ابن جرير عن قتادة قال:

والتقدير: أنزل على عبده الكتاب قيماً ولم يجعل له عوجاً، ثم أراد سبحانه أن يفصل ما أجمله في قوله قيماً فقال: ﴿لِيُنْذِرَ بِلِسَانٍ شهِيداً﴾ وحذف المنذر للعلم به مع قصد التعميم، والمعنى لينذر الكافرين، والبأس العذاب، ومعنى ﴿لِنُفَعِّهُ﴾ صابراً من لئنه نازلاً من عنده، روى أبو بكر، عن عاصم: أنه قرأ من لئنه بأشمام الدال الضمة، وبكسر النون والهاء، وهي لغة الكلابيين، وروى أبو زيد عن جميع القراء فتح اللام وضم الدال وسكون النون ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾، قرئ يبشر بالتشديد والتخفيف، وأجرى الموصول على موصوفه المنكور، لأن مدار قبول الأعمال هو الإيمان ﴿إِنَّ لَهُمْ لَجْراً حَسَناً﴾ وهو الجنة حال كونهم ﴿مُحْسِنِينَ فِيهِ﴾ أي: في تلك الأجر ﴿أَبْدِئاً﴾ أي: مكثاً دائماً لا انقطاع له، وتقديم الإنذار على التبشير لإظهار كمال العناية بزجر الكفار ثم كرر الإنذار ونكر المنذر لخصوصه وحذف المنذر به، وهو البأس الشديد، لتقدم ذكره فقال: ﴿وَيُنْذِرُ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً﴾ وهم: اليهود والنصارى وبعض كفار قريش، القائلون بأن الملائكة بنات الله، فذكر سبحانه أولاً قضية كلية، وهي إنذار عموم الكفار، ثم عطف عليها قضية خاصة هي بعض جزئيات تلك الكلية، تنبيهاً على كونها أعظم جزئيات تلك الكلية، فافاد ذلك أن نسبة الولد إلى الله سبحانه أقيح أنواع الكفر ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: بالولد، أو اتخاذ الله إياه، ومن مزيدة لتأكيد النفي، والجملة في محل نصب على الحال أو هي مستأنفة، والمعنى: ما لهم بذلك علم أصلاً ﴿وَلَا يُبْشِرُهُمْ﴾ علم، بل كانوا في زعمهم هذا على ضلالة، وقلدهم أبناءهم فضلوها جميعاً ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ انتصاب كلمة على التمييز، وقرئ بالرفع على الفاعلية، قال الفراء: كبرت تلك الكلمة كلمة، وقال الزجاج: كبرت مقاتلتهم كلمة، والمراد بهذه الكلمة هي: قولهم اتخذ الله ولداً، ثم وصف الكلمة بقوله: ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ وفائدة هذا الوصف استعظام اجترائهم على التفوه بها، والخارج من الفم وإن كان هو مجرد الهوى، لكن لما كانت الحروف والاصوات كيفيات قائمة بالهوى أسند إلى الحال ما هو من شأن المحل. ثم زاد في تقبيح ما وقع منهم فقال: ﴿إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كُنْياً﴾ أي: ما يقولون إلا كنياً لا مجال للصق فيه بحال، ثم سلى رسوله ﷺ بقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ﴾ قال الأخفش والفراء: البخع الجهد، وقال الكسائي: بخعت الأرض بالزراعة إذا جعلتها ضعيفة بسبب متابعة الحرثة، وبخع الرجل نفسه إذا نهكها وقال أبو عبيدة: معناه: مهلك نفسك، ومنه قول ذي الرمة:

ألا إياها ذا الباخع لو وجد نفسه

فيكون المعنى على هذه الأقوال لعلك مجهد نفسك أو مضعفاً أو مهلكها ﴿عَلَى آثَارِهِمْ﴾ على فراقهم ومن بعد توليهم وإعراضهم ﴿إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَيْثِ﴾ أي: القرآن وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله. وقرئ بفتح

عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بسورة ملا عظمتها ما بين السماء والأرض ولكاتبها من الأجر مثل ذلك من قرأها يوم الجمعة غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى وزيادة ثلاثة أيام، ومن قرأ الخمس الأواخر منها عند نومه بعثه الله من أي الليل شاء؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: سورة أصحاب الكهف». وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن مغفل قال: قال رسول الله ﷺ: «البيت الذي تقرأ فيه سورة الكهف لا يدخله شيطان تلك الليلة». وفي الباب أحاديث وآثار وفيما أوردناه كفاية مغنية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِجْباً ۖ فَتَمَّا يَنْزِيلُ الْكِتَابَ نَجْعِدَا فِي لَدُنْهُ وَيُخَوِّشُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الصَّلَاحَاتِ أَنْ لَهُمْ عِجْباً حَسَناً ۚ تَنكِيْتُ فِيهِ أُبْدِئاً ۚ وَنُذِرُ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً ۚ تَالَهُمْ يَوْمَ مِنْ عِندِ رَبِّهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كُذُوباً ۚ فَلَمَّا بَلَغَ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً ۚ إِنَّا جَعَلْنَا مَآعِزَ الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِيُكُونُوا فِيهَا أَهْناً ۚ وَجَعَلْنَا بَيْنَ وَجْهَيْهَا سَبِيلاً ۚ وَجَعَلْنَا جُرْأً ۚ

علم عباده كيف يحمدونه على إفاضة نعمه عليهم، ووصفه بالموصول يشعر بعلية ما في حيز الصلة لما قبله ووجه كون إنزال الكتاب، وهو القرآن نعمة على رسول الله ﷺ كونه اطلع بواسطته على أسرار التوحيد، وأحوال الملائكة والأنبياء، وعلى كيفية الأحكام الشرعية التي تعبد الله وتعبد أمته بها، وكذلك العباد كان إنزال الكتاب على نبيهم نعمة لهم لمثل ما نكرناه في النبي: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عَوْجاً﴾ أي: شيئاً من العوج بنوع من أنواع الاختلال في اللفظ والمعنى، والعوج بالكسر في المعاني، وبالفصح في الأعيان كذا قيل، ويرد عليه قوله سبحانه: ﴿لَا تَرَى فِيهَا عَوْجاً وَلَا أَمْتاً﴾ [طه: 107]، يعني: الجبال، وهي من الأعيان. قال الزجاج: المعنى في الآية لم يجعل فيها اختلافاً كما قال: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً﴾ [النساء: 82]. والقيم المستقيم الذي لا ميل فيه، أو القيم بمصالح العباد الدينية والنيوية، أو القيم على ما قبله من الكتب السماوية مهيمناً عليها، وعلى الأول يكون تأكيداً لما دل عليه نفي العوج، فرب مستقيم في الظاهر لا يخلو عن أدنى عوج في الحقيقة، وانتصاب قيماً بمضمر: أي جعله قيماً، ومنع صاحب الكشف أن يكون حالاً من الكتاب، لأن قوله ولم يجعل معطوف على أنزل فهو داخل في حيز الصلة، فجعله حالاً من الكتاب فاصل بين الحال وذو الحال ببعض الصلة. وقال الأصفهاني: هما حالان متواليان إلا أن الأول جملة والثاني مفرد، وهذا صواب لأن قوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ﴾ لم يكن معطوفاً على ما قبله بل الواو للحال، فلا فصل بين الحال وذو الحال ببعض الصلة، وقيل: إن قيماً حال من ضمير لم يجعل له، وقيل في الكلام تقديم وتأخير،

من أصحاب الكهف المختلفين في مدة لبثهم. ومعنى أحصى: أضيف. وكأنه وقع بينهم تنازع في مدة لبثهم في الكهف، فبعثهم الله ليتبين لهم ذلك، ويظهر من ضبط الحساب ممن لم يضبطه، وما في ﴿لَمَّا لَبِثُوا﴾ مصدرية أي: أحصى للبتهم، وقيل: اللام زائدة، وما بمعنى الذي، و﴿أَمَدًا﴾ تمييز، والأمد الغاية، وقيل: إن أحصى أفعل تفضيل. ورد بأنه خلاف ما تقرر في علم الإعراب، وما ورد من الشاذ لا يقاس عليه كقولهم: أقلس من ابن المنلق، وأعدى من الجرب. وأجيب بأن أفعل التفضيل من المزيد قياس مطرد عند سيوبه وابن عصفور، وقيل: إن الحزبين هم أصحاب الكهف اختلّفوا بعد انتباههم كم لبثوا، وقيل: إن أصحاب الكهف حزب وأصحابهم حزب. وقال الفراء: إن طائفتين من المسلمين في زمان أصحاب الكهف اختلّفوا في مدة لبثهم

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَاهَهُم بِالْحَقِّ﴾ هذا شروع في تفصيل ما أجمل في قوله: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ﴾ أي: نحن نخبرك بخبرهم بالحق أي: قصصناه بالحق، أو متلبساً بالحق ﴿إِنَّهُمْ فَتْيَةٌ﴾ أي: أحداث شبان، و﴿أَمَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾ صفة لفتية والجملة مستأنفة بتقدير سؤال، والفتية جمع قلة، و﴿زَيْنَاهُمْ هَدَى﴾ بالتثنية والتوفيق، وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿وَوَرِثْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أي: قويناهما بالصبر على هجر الأهل والأوطان، وفرّق الخلان والأخذان ﴿إِذْ قَامُوا﴾ الظرف منصوب بربطنا. واختلف أهل التفسير في هذا القيام على أقوال فقيل: إنهم اجتمعوا وراء المدينة من غير ميعاد، فقال رجل منهم هو أكبر القوم: إني لأجد في نفسي شيئاً، إن ربي ربّ السموات والأرض، فقالوا: ونحن أيضاً كذلك نجد في أنفسنا، فقاموا جميعاً ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قاله مجاهد. وقال أكثر المفسرين: إنه كان لهم ملك جبار يقال له: يقانوس، وكان يدعو الناس إلى عبادة الطواغيت، فثبت الله هؤلاء الفتية وعصمهم حتى قاموا بين يديه ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وقال عطاء ومقاتل: إنهم قالوا ذلك عند قيامهم من النوم ﴿لَنْ نَدْعُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا﴾ أي: لن نعبد معبوداً آخر غير الله لا اشتراكاً ولا استقلالاً ﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذْ شَطَطًا﴾ أي: قولاً ذا شطط، أو قولاً هو نفس الشطط لقصد المبالغة بالوصف بالمصدر، واللام هي: الموطئة للقسم، والشطط: الغلو ومجاوزة الحد. قال أعشى بن قيس:

أَتَنْتَهُونَ وَلَنْ يَنْهَى نَوِي شَطَطُ كَالطَّعْنِ يَذْهَبُ فِيهِ الزَّيْتُ وَالْفَتْلُ
﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ هَؤُلَاءِ مبتدأ، وخبره اتَّخَذُوا، وقومنا عطف بيان، وفي هذا الإخبار معنى للإنكار، وفي الإشارة إليهم تحقير لهم ﴿لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيْنَ﴾ أي: هلا يأتون بحجة ظاهرة تصلح للمسك بها ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فزعم أن له شريكاً في العبادة أي: لا أحد أظلم منه ﴿وَإِذْ اعْتَرِثْتُمُوهُمْ﴾ أي: فارقتموهم وتنجيتم عنهم جانباً أي: عن العابدين للأصنام، وقوله: ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ معطوف على

﴿وَعَجِبًا﴾ منتصبه على أنه خبر كان أي: ذات عجب، أو موصوفة بالعجب مبالغة، ومن آياتنا في محل نصب على الحال، و﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ﴾ ظرف لحسبت أو لفعل مقتر، وهو أنكر أي: صاروا إليه وجعلوه ماوهم، والفتية: هم أصحاب الكهف، والكهف هو الغار الواسع في الجبل، فإن كان صغيراً سمي غاراً، والرقيم قال كعب والسدي: إنه اسم القرية التي خرج منها أصحاب الكهف. وقال سعيد بن جبير ومجاهد: إنه لوح من حجارة أو رصاص رقت فيه أسماؤهم جعل على باب الكهف. قال الفراء: ويروى أنه إنما سمي رقيماً لأن أسماءهم كانت مرقومة فيه. والرقم الكتابة. وروي مثل ذلك عن ابن عباس. ومنه قول العجاج في أرجوزة له:

ومستقري المصحف الرقيم

وقيل: إن الرقيم اسم كلبهم، وقيل: هو اسم الوادي الذي كانوا فيه، وقيل: اسم الجبل الذي فيه الغار. قال الزجاج: أعلم الله سبحانه أن قصة أصحاب الكهف ليست بعجبية من آيات الله، لأن خلق السموات والأرض وما بينهما أعجب من قصة أصحاب الكهف ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ أي: من عندك، ومن ابتدائية متعلقة بآياتنا، أو لمحذوف وقع حالاً، والتثنية في رحمة: إما للتعظيم أو للتوزيع، وتقديم من لَدُنْكَ للاختصاص أي: رحمة مختصة بأنها من خزائن رحمتك، وهي: المغفرة في الآخرة والأمن من الأعداء، والرزق في الدنيا ﴿وَهِيَئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ أي: أصلح لنا، من قولك هيأت الأمر فتها، والمراد بأمرهم: الأمر الذي هم عليه وهو مفارقتهم للكفار، والرشد نقيض الضلال، ومن للابتداء. ويجوز أن تكون للتجريد كما في قولك: رأيت منك رشداً. وتقدم المجرورين للاهتمام بهما ﴿فَضْرِبْنَا عَلَى أَذَانِهِمْ﴾ قال المفسرون: أنماهم. والمعنى: سدنا أذانهم بالنوم الغالب عن سماع الأصوات، والمفعول محذوف أي: ضربنا على أذانهم الحجاب تشبيهاً للإنامة الثقيلة المانعة من وصول الأصوات إلى الأذان بضرب الحجاب عليها، و﴿فِي الْكَهْفِ﴾ ظرف لضربنا، وانتصاب ﴿سِنِينَ﴾ على الظرفية، و﴿عُدَدًا﴾ صفة لسنين أي: نوات عدد على أنه مصدر أو بمعنى معودة على أنه لمعنى المفعول، ويستفاد من وصف السنين بالعدد الكثرة. قال الزجاج: إن الشيء إذا قلّ فهم مقدار عدده فلم يحتج إلى العدد، وإن كثر احتاج إلى أن يعدّ وقيل: يستفاد منه التقليل لأن الكثير قليل عند الله ﴿وَإِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعْمُونَ﴾ [الحج: 47] ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾ أي: أيقظناهم من تلك النوم ﴿لِنَعْلَمَ﴾ أي: ليظهر معلومنا، وقرئ بالتحية مبتدأ للفعل على طريقة الالتفات، و﴿إِنِّي الْحَزِينُ﴾ مبتدأ معلق عنه العلم لما في أي من الاستفهام، وخبره ﴿أَحْصَى﴾ وهو فعل ماض، قيل: والمراد بالعلم الذي جعل علة للبعث هو: الاختبار مجازاً فيكون المعنى بعثناهم لنعاملهم معاملة من يختبرهم، والأولى ما ذكرناه من أن المراد به ظهور معلوم الله سبحانه لعباده، والمراد بالحزبين الفرقتان من المؤمنين والكافرين

إطلاق الفجوة وعدم تقييدها بكونها إلى جهة كذا، ومما يدل على أن الفجوة المكان الواسع قول الشاعر:

ألبست قومك مخزاةً ومنقصاً حتى أبيحوا وخلوا فجوة الدار
ثم أثنى سبحانه عليهم بقوله: ﴿من يهد الله﴾ أي: إلى الحق ﴿فهو المهدى﴾ الذي ظفر بالهدى وأصاب الرشيد والفلاح ﴿ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً﴾ أي: ناصراً يهديه إلى الحق كنقيانوس وأصحابه. ثم حكى سبحانه طرفاً آخر من غرائب أحوالهم فقال: ﴿وتحسبهم ليقاظاً﴾ جمع يقظ بكسر القاف وفتحها ﴿وهم رقود﴾ أي: نيام، وهو جمع راقد كقعود في قاعد. قيل: وسبب هذا الحساب أن عيونهم كانت مفتحة وهم نيام. وقال الزجاج: لكثرة تقلبهم ﴿ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال﴾ أي: نقلبهم في رقبتهم إلى الجهتين لئلا تاكل الأرض أجسادهم ﴿وكلبهم باسط ذراعيه﴾ حكاية حال ماضية، لأن اسم الفاعل لا يعمل إذا كان بمعنى المضى كما تقرر في علم النحو. قال أكثر المفسرين: هربوا من ملكهم ليلاً، فمرؤا براع معه كلب فتبعهم. والوصيد، قال أبو عبيد وأبو عبيدة هو فناء الباب، وكذا قال المفسرون، وقيل: العتبة، ورد بان الكهف لا يكون له عتبة ولا باب، وإنما أراد أن الكلب موضع العتبة من البيت ﴿ولو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً﴾ قال الزجاج: فراراً منصوب على المصدرية بمعنى: التولية، والفرار: الهرب ﴿ولملأناهم﴾ قرئ بتشديد اللام وتخفيفها ﴿منهم رعباً﴾ قرئ بسكون العين وضمها أي: خوفاً يملأ الصدر، وانتصاب رعباً على التمييز، أو على أنه مفعول ثانٍ، وسبب الرعب الهيئة التي ألبسهم الله إياها، وقيل: طول أظفارهم وشعورهم وعظم أجرامهم ووحشة مكانهم، ويدفعه قوله تعالى: ﴿لبئنا يوماً أو بعض يوم﴾ فإن ذلك يدل على أنهم لم ينكروا من حالهم شيئاً، ولا وجبوا من أظفارهم وشعورهم ما يدل على طول المدة ﴿وكنكك بعثناهم ليتساءلوا بينهم﴾ الإشارة إلى المنكور قبله أي: وكما فعلنا بهم ما فعلنا من الكرامات بعثناهم من نومهم، وفيه تنكير لقدرته على الإماتة والبعث جميعاً، ثم ذكر الأمر الذي لأجله بعثهم فقال: ليتساءلوا بينهم أي: ليقع التساؤل بينهم والاختلاف والتنازع في مدة البعث لما يترتب على ذلك من انكشاف الحال وظهور القدرة الباهرة، والاقتصار على علة التساؤل لا ينفي غيرها، وإنما أفرده لاستتباعه لسائر الآثار، وجملة ﴿قال قائل منهم كم لبثتم﴾ مبنية لما قبلها من التساؤل أي: كم مدة لبثكم في النوم؟ قالوا ذلك لأنهم رأوا في أنفسهم غير ما يعهونه في العادة ﴿قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم﴾ أي: قال بعضهم جواباً عن سؤال من سأل منهم، قال المفسرون: إنهم نخلوا الكهف غفوة، وبعثهم الله سبحانه آخر النهار، فلذلك قالوا يوماً، فلما رأوا الشمس قالوا أو بعض يوم، وكان قد بقيت بقية من النهار، وقد مرّ مثل هذا الجواب في قصة عزيز في البقرة ﴿قالوا ربكم أعلم بما لبثتم﴾ أي: قال البعض الآخر هذا القول إما على طريق

الاستدلال، أو كان ذلك إلهاماً لهم من الله سبحانه أي: إنكم لا تعلمون مدة لبثكم، وإنما يعلمها الله سبحانه ﴿فابعثوا أحدهم برقم هذه إلى المدينة﴾ أعرضوا عن التنازع في مدة البعث، وأخذوا في شيء آخر، كأنه قال القائل منهم: أتركوا ما أنتم فيه من المحاورة، وخذوا في شيء آخر مما يهمكم، والفاء للسببية، والورق: الفضة مضرورية أو غير مضرورية. وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر والكسائي وحفص عن عاصم بكسر الراء، وقرأ أبو عمرو وحمرزة، وأبو بكر عن عاصم بسكونها، وقرئ بكسر الراء وإدغام القاف في الكاف. وقرأ ابن محيصن بكسر الواو وسكون الراء. وفي حملهم لهذه الورق معهم دليل على أن إمساك بعض ما يحتاج إليه الإنسان لا ينافي التوكل على الله، والمدينة دقوسوس، وهي مدينة التي كانوا فيها، ويقال لها اليوم: طرسوس، كذا قال الواحدي ﴿فلينظر إليها إزكى طعاماً﴾ أي: ينظر أي أهلها أطيب طعاماً، وأحل مكسباً، أو أرخص سعراً، وقيل: يجوز أن يعود الضمير إلى الأطعمة المدلول عليها في المقام كما يقال: زيد طيب أبا علي أن الأب هو زيد، وفيه بعد. واستدل بالآية على حل نباح أهل الكتاب لأن عامة أهل المدينة كانوا كفاراً، وفيهم قوم يخفون إيمانهم، ووجه الاستدلال أن الطعام يتناول اللحم كما يتناول غيره مما يطلق عليه اسم الطعام ﴿وليطلب﴾ أي: يتنق النظر حتى لا يعرف أو لا يغبن، والأول أولى، ويؤيده ﴿ولا يشعرن بكم أحداً﴾ أي: لا يفعلن ما يؤدي إلى الشعور ويتسبب له، فهذا النهي يتضمن التأكيد للأمر بالتلطف. ثم علل ما سبق من الأمر والنهي فقال: ﴿إنهم إن يظهروا عليكم﴾ أي: يطلعو عليكم ويعلموا بمكانكم، يعني: أهل المدينة ﴿يرجموكم﴾ يقتلوك بالرجم، وهذه القتل هي أخبث قتلة. وكان ذلك كان عادة لهم، ولهذا خصه من بين أنواع ما يقع به القتل ﴿أو يعيدوكم في ملتهم﴾ أي: يرثوكم إلى ملتهم التي كنتم عليها قبل أن يهيبكم الله، أو المراد بالعود هنا: لصيرورة على تقدير أنهم لم يكونوا على ملتهم، وإيثار كلمة في على كلمة إلى للدلالة على الاستقرار ﴿ولن تفلحوا إذا أبدا﴾ في إنن معني الشرط. كأنه قال: إن رجعتم إلى دينهم فلن تفلحوا إذا أبدا، لا في الدنيا ولا في الآخرة.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿تزاور﴾ قال: تميل، وفي قوله: ﴿تقرضهم﴾ قال: تترهم. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿تقرضهم﴾ قال: تتركهم ﴿وهم في فجوة منه﴾ قال: المكان الداخل. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير، قال: الفجوة: الخلوة من الأرض، ويعني بالخلوة: الناحية من الأرض. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مروي عن ابن عباس في قوله: ﴿ونقلبهم﴾ الآية قال: ستة أشهر على ذي الجنب اليمين، وستة أشهر على ذي الجنب الشمال. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر عن سعيد بن جبير في الآية قال: كي لا تاكل الأرض

سبحانه: حاكياً لقول المتنازعين فيهم وفي عددهم، وفي مدة لبثهم، وفي نحو ذلك مما يتعلق بهم ﴿رَبِّهِمْ أَعْلَمَ بِهِمْ﴾ من هؤلاء المتنازعين فيهم، قالوا: ذلك تفويضاً للعلم إلى الله سبحانه، وقيل: هو من كلام الله سبحانه، رداً لقول المتنازعين فيهم أي: دعوا ما أنتم فيه من التنازع، فإني أعلم بهم منكم، وقيل: إن الظرف في ﴿إِذْ يَتَنَازَعُونَ﴾ متعلق بمحذوف هو أنكر، ويؤيده أن الإعرار ليس في زمن التنازع بل قبله، ويمكن أن يقال: إن أولئك القوم ما زالوا متنازعين فيما بينهم قرناً بعد قرن، منذ أروا إلى الكهف إلى وقت الإعرار، ويؤيد ذلك أن خبرهم كان مكتوباً على باب الغار، كتبه بعض المعاصرين لهم من المؤمنين الذين كانوا يخفون إيمانهم كما قاله المفسرون: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً﴾ نكر اتخاذ المسجد يشعر بأن هؤلاء الذين غلبوا على أمرهم هم المسلمون، وقيل: هم أهل السلطان، والملك من القوم المنكودين فإنهم الذين يغلبون على أمر من عداهم، والأول أولى. قال الزجاج: هذا يدل على أنه لما ظهر أمرهم غلب المؤمنون بالبعث والنشور. لأن المساجد للمؤمنين ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ هؤلاء القائلون بأنهم ثلاثة أو خمسة أو سبعة، هم المتنازعون في عددهم في زمن رسول الله ﷺ من أهل الكتاب والمسلمين، وقيل: هم أهل الكتاب خاصة، وعلى كل تقدير فليس المراد أنهم جميعاً قالوا جميع ذلك، بل قال بعضهم بكذا، وبعضهم بكذا، وبعضهم بكذا ثلاثة رابعهم كلبهم أي: هم ثلاثة أشخاص، وجملة رابعهم كلبهم في محل نصب على الحال أي: حال كون كلبهم جاعلهم أربعة بانضمامهم إليهم ﴿وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ الكلام فيه كالكلام فيما قبله، وانتصاب ﴿رَجُماً بِالْغَيْبِ﴾ على الحال أي: راجمين أو على المصدر أي: يرجمون رجماً، والرجم بالغيب هو القول بالظن والحسن من غير يقين، والموصوفون بالرجم بالغيب هم كلا الفريقين القائلين بأنهم ثلاثة، والقائلين بأنهم خمسة ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامَنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ كان قول هذه الفرقة أقرب إلى الصواب بدلالة عدم إسخالهم في سلك الراجمين بالغيب. قيل: وإظهار الواو في هذه الجملة يدل على أنها مرادة في الجملتين الأولى. قال أبو علي الفارسي: قوله رابعهم كلبهم، وسادسهم كلبهم جملتان استغني عن حرف العطف فيهما بما تضمنتا من ذكر الجملة الأولى وهي قوله ثلاثة، والتقدير: هم ثلاثة، هكذا حكاه الواحدي عن أبي علي، ثم قال: وهذا معنى قول الزجاج في دخول الواو في وثامنهم وإخراجها من الأول، وقيل: هي مزيدة للتوكيد، وقيل: إنها واو الثمانية، وإن نكره متداول على السن العرب إذا وصلوا إلى الثمانية كما في قوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر: 73] وقوله: ﴿ثِيَابَ وَأَبْكَاراً﴾ [التحريم: 5]، ثم أمر الله نبيه ﷺ أن يخبر المختلفين في عددهم بما يقطع التنازع بينهم فقال: ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَنَتِهِمْ﴾ منكم أيها المختلفون ثم أثبت علم ذلك

لحومهم. وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد أن اسم كلبهم: قطمورا. وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال: اسمه قطمير. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس في قوله: ﴿بِالْوَصِيدِ﴾ قال: بالفناء. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه قال: بالباب. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿أَزْكَىٰ طَعَاماً﴾ قال: أحل نبيحة، وكانوا ينبحون للطواغيت. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه ﴿أَزْكَىٰ طَعَاماً﴾ يعني: أطهر، لأنهم كانوا ينبحون للطواغيت.

وَكَذَلِكَ أَثَرْنَا عَلَيْهِمْ لَيَعْلَمَنَّ أَنَّكَ وَدَّ اللَّهُ حَقَّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً ۚ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجُماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَإِنَّمَا كَلْبُكُمْ عَلَىٰ رَيْبٍ أَعْلَمَ بِهِمْ مَا يَسْمَعُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تَحْزَنْ فِيهِمْ إِلَّا مَرَّةً ظَهَرَ وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُم أَحَدًا ۚ وَلَا تَقُولَنَّ لِيْشَافِيءُ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ عَبْدًا ۚ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَذَكَرَ رَبَّكَ إِذَا نَبِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِي رَّبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ۚ وَلِئَوَّلِيَّ كَهْفِهِمْ ثَلَاثٌ وَانْفِرْ سِينَةً وَانْزَادُوا تَمَامًا ۚ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسَ لَهُ غَيْبٌ أَسْمَوَاتٍ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ۝

قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: وكما أتمناهم وبعثناهم، أعرنا عليهم أي: أطلعنا الناس عليهم وسمي الإعلام إعراراً، لأن من كان غافلاً عن شيء فعثر به نظر إليه وعرفه، فكان الإعرار سبباً لحصول العلم ﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: ليعلم الذين أعرهم الله عليهم أن وعد الله بالبعث حق. قيل: وكان ملك ذلك العصر ممن ينكر البعث، فأراه الله هذه الآية. قيل: وسبب الإعرار عليهم أن ذلك الرجل الذي بعثه بالورق، وكانت من ضربة نقيانوس إلى السوق، لما أطلع عليها أهل السوق اتهموه بأنه وجد كنزاً، فذهبوا به إلى الملك، فقال له: من أين وجدت هذه الدراهم؟ قال: بعث بها أمس شيئاً من التمر، فعرف الملك صدقه، ثم قص عليه القصة فركب الملك وركب أصحابه معه حتى وصلوا إلى الكهف ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي: وليعلموا أن القيامة لا شك في حصولها، فإن من شاهد حال أهل الكهف علم صحة ما وعد الله به من البعث ﴿إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ الظرف متعلق بأعرنا أي: أعرنا عليهم وقت التنازع والاختلاف بين أولئك الذين أعرهم الله في أمر البعث، وقيل: في أمر أصحاب الكهف في قدر مكثهم، وفي عددهم، وفيما يفعلونه بعد أن أطلعوا عليهم ﴿فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا﴾ لئلا يتطرق الناس إليهم، وذلك أن الملك وأصحابه لما وقفوا عليهم وهم أحياء أمات الله الفتية، فقال بعضهم: ابنوا عليهم بنياناً يستريحهم عن أعين الناس، ثم قال

أي: عسى أن يهيني ربي عند هذا النسيان لشيء آخر بدل هذا المنسي، وأقرب منه رشداً وأدنى منه خيراً ومنفعة، والأول أولى **﴿وليتوا في كهفهم ثلثمائة سنين وازدادوا تسعا﴾** قرأ الجمهور بتثنية مائة ونصب سنين، فيكون سنين على هذه القراءة بدلاً أو عطف بيان. وقال الفراء وأبو عبيدة والزجاج والكسائي: فيه تقديم وتأخير، والتقدير سنين ثلثمائة، ورجح الأول أبو علي الفارسي. وقرأ حمزة والكسائي بإضافة مائة إلى سنين، وعلى هذه القراءة تكون سنين تمييزاً على وضع الجمع موضع الواحد في التمييز كقوله تعالى: **﴿بالأخسرين أعمالاً﴾** [الكهف: 103] قال الفراء: ومن العرب من يضع سنين موضع سنة. قال أبو علي الفارسي: هذه الأعداد التي تضاف في المشهور إلى الأحاد نحو ثلثمائة رجل وثوب قد تضاف إلى المجموع وفي مصحف⁽¹⁾ عبد الله (ثلثمائة سنة). وقال الأخفش: لا تكاد العرب تقول مائة سنين. وقرأ الضحاك (ثلثمائة سنون) بالواو. وقرأ الجمهور (تسعا) بكسر التاء. وقرأ أبو عمرو بفتحها، وهذا إخبار من الله سبحانه بمدة لبثهم. قال ابن جرير: إن بني إسرائيل اختلفوا فيما مضى لهم من المدة بعد الإعتار عليهم، فقال بعضهم: إنهم لبثوا ثلثمائة سنة وتسع سنين، فأخبر الله نبيه ﷺ أن هذه المدة في كونهم نياماً، وأن ما بعد ذلك مجهول للبشر، فأمر الله أن يرَدَّ علم ذلك إليه، فقال: **﴿قل الله أعلم بما لبثوا﴾** قال ابن عطية: فقول على هذا: لبثوا الأول يريد في يوم الكهف، ولبثوا الثاني يريد بعد الإعتار عليهم إلى مدة محمد ﷺ، أو إلى أن ماتوا. وقال بعضهم: إنه لما قال: **﴿وازدادوا تسعا﴾** لم يدر الناس أمي ساعات أم أيام أم جمع أم شهور أم أعوام؟ واختلف بنو إسرائيل بحسب ذلك، فأمر الله برد العلم إليه في التسع، فهي على هذا مبهمة. والأول أولى، لأن الظاهر من كلام العرب المفهوم بحسب لغتهم أن التسع أعوام، بليل أن العدد في هذا الكلام للسنين لا للشهور ولا للأيام ولا للساعات. وعن الزجاج أن المراد: ثلثمائة سنة شمسية وثلثمائة وتسع سنين قمرية، وهذا إنما يكون من الزجاجة على جهة التقريب. ثم أكد سبحانه اختصاصه بعلم ما لبثوا بقوله: **﴿له غيب السفوات والأرض﴾** أي: ما خفي فيهما وغاب من أحوالهما ليس لغيره من ذلك شيء، ثم زاد في المبالغة والتأكيد فجاء بما يدل على التعجب من إدراكه للمبصرات والمسموعات فقال: **﴿أبصر به وأسمع﴾** فأناد هذا التعجب على أن شأنه سبحانه في علمه بالمبصرات والمسموعات خارج عما عليه إدراك المدركين، وأنه يستوي في علمه الغائب والحاضر، والخفي والظاهر، والصغير والكبير، واللطيف والكثيف، وكان أصله ما أبصره وما أسمع، ثم نقل إلى صيغة الأمر للإنشاء، والباء زائدة عند

لقليل من الناس فقال: **﴿ما يعلمهم﴾** أي: يعلم نواتهم فضلاً عن عددهم، أو ما يعلم عددهم على حذف المضاف **﴿إلا قليل﴾** من الناس، ثم نهى الله سبحانه رسوله ﷺ عن الجدل مع أهل الكتاب في شأن أصحاب الكهف فقال: **﴿فلا تمار فيهم﴾** المراء في اللغة: الجدل يقال: ماري يماري ممرارة ومراءً أي: جادل، ثم استثنى سبحانه من المراء ما كان ظاهراً واضحاً فقال: **﴿إلا مراءً ظاهراً﴾** أي: غير متعمق فيه وهو أن يقص عليهم ما أوحى الله إليه فحسب. وقال الرازي: هو أن لا يكنهم في تعيين ذلك العدد، بل يقول: هذا التعيين لا دليل عليه، فوجب التوقف، ثم نهى سبحانه عن الاستفتاء في شأنهم فقال: **﴿ولا تستفت فيهم منهم أحدا﴾** أي: لا تستفت في شأنهم من الخائضين فيهم أحداً منهم، لأن المفتي يجب أن يكون أعلم من المستفتي، وها هنا الأمر بالعكس، ولا سيما في واقعة أهل الكهف، وفيما قص الله عليك في ذلك ما يغنيك عن سؤال من لا علم له **﴿ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا﴾** أي: لأجل شيء تعزم عليه فيما يستقبل من الزمان، فعبر عنه بالغد، ولم يرد الغد بعينه، فيدخل فيه الغد دخولاً أولياً. قال الواحدي: قال المفسرون: لما سألت اليهود النبي ﷺ عن خبر الفتية فقال: أخبركم غداً، ولم يقل إن شاء الله، فاحتبس الوحي عنه حتى شق عليه، فأنزل الله هذه الآية يأمره بالاستثناء بمشيئة الله يقول: إذا قلت لشيء: إني فاعل ذلك غداً، فقل: إن شاء الله. وقال الأخفش والمبرد والكسائي والفراء: لا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن تقول إن شاء الله، فأضمر القول ولما حنف تقول نقل شاء إلى لفظ الاستقبال، قيل: وهذا الاستثناء مفرغ أي: لا تقولن ذلك في حال من الأحوال، إلا حال ملابسته لمشيئة الله وهو أن تقول إن شاء الله، أو في وقت من الأوقات إلا وقت أن يشاء الله أن تقوله مطلقاً، وقيل: الاستثناء جار مجرى التابيد كأنه قيل: لا تقولنه أبداً كقوله: **﴿وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله﴾** [الأعراف: 89]. لأن عودهم في ملتهم مما لا يشاؤه الله **﴿وانكر ربك إذا نسيت﴾** الاستثناء بمشيئة الله أي: فقل إن شاء الله، سواء كانت المدة قليلة أو كثيرة.

وقد اختلف أهل العلم في المدة التي يجوز إلحاق الاستثناء فيها بعد المستثنى منه على أقوال معروفة في مواضعها وقيل: المعنى **﴿وانكر ربك﴾** بالاستغفار **﴿إذا نسيت وقل عسى أن يهيني ربي لأقرب من هذا رشداً﴾** المشار إليه بقوله من هذا هو نبي أصحاب الكهف أي: قل يا محمد عسى أن يوفقني ربي لشيء أقرب من هذا النبأ من الآيات والدلائل الدالة على نبوتي. قال الزجاج: عسى أن يعطيني ربي من الآيات والدلالات على النبوة ما يكون أقرب في الرشد وأدنى من قصة أصحاب الكهف، وقد فعل الله به ذلك حيث آتاه من علم غيوب المرسلين وخبرهم ما كان أوضح في الحجة وأقرب إلى الرشد من خبر أصحاب الكهف، وقيل: الإشارة إلى قوله: **﴿وانكر ربك إذا نسيت﴾**

(1) لم تثبت هذه القراءة في كتب القراءات، أفاد ذلك العلامة سيدنا حسين هادي القاري، عفاه الله.

والمعنى: إنك إن لم تتبع القرآن وتعمل بأحكامه لن تجد معدلاً تعدل إليه ومكاناً تميل إليه. وهذه الآية آخر قصة أهل الكهف. ثم شرح سبحانه في نوع آخر كما هو دأب الكتاب العزيز فقال: **﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾** قد تقدم في الأنعام نهيه **﴿عَنْ طَرْدِ فَقَرَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يَقُولُ:﴾** **﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾** [الأنعام: 52] وأمره سبحانه ههنا بأن يحبس نفسه معهم، فصبر النفس هو حبسها، وذكر الغداة والعشي كناية عن الاستمرار على الدعاء في جميع الأوقات، وقيل: في طرفي النهار، وقيل المراد: صلاة العصر والفجر. وقرأ نصر بن عاصم ومالك بن دينار وأبو عبد الرحمن وابن عامر (بالغداة) بالواو، واحتجوا بأنها في المصحف كذلك مكتوبة بالواو. قال النحاس: وهذا لا يلزم لكتبهم الحياة والصلاة بالواو، ولا تكاد العرب تقول: الغداة، ومعنى **﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾**: أنهم يريدون بدعائهم رضى الله سبحانه، والجملة في محل نصب على الحال، ثم أمره سبحانه بالمراقبة لأحوالهم فقال: **﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾** أي: لا تتجاوز عينك إلى غيرهم. قال الفراء: معناه لا تصرف عينك عنهم، وقال الزجاج: لا تصرف بصرك إلى غيرهم من نوي الهيئات والزينة، واستعماله بعن لتضمنه معنى النبؤ، من عدوته عن الأمر أي: صرفته منه، وقيل: معناه لا تحتقرهم عينك **﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾** أي: مجالسة أهل الشرف والغنى، والجملة في محل نصب على الحال أي: حال كونك مريداً لذلك، هذا إذا كان فاعل تريد هو النبي **﴿ﷺ﴾**، وإن كان الفاعل ضميراً يعود إلى العيينين، فالتقدير: مريدة زينة الحياة الدنيا، وإسناد الإرادة إلى العيينين مجاز، وتوحيد الضمير للتلازم كقول الشاعر:

لَمَنْ زَحْلَوْتُهُ زَلَّ بِهَا الْعَيْنَانِ تَنْهَلُ
﴿وَلَا تَطْعُ مِنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ أي: جعلناه غافلاً بالختم عليه، نهى رسول الله **﴿ﷺ﴾** عن طاعة من جعل الله قلبه غافلاً عن نكره كأولئك الذين طلبوا منه أن ينحي الفقراء عن مجلسه، فإنهم طلبوا تخية الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه وهم غافلون عن نكره الله، ومع هذا فهم ممن اتبع هواه وأثره على الحق فاختر الشرك على التوحيد **﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فَرْطًا﴾** أي: متجاوزاً عن جد الاعتدال، من قولهم: فرس فرط إذا كان متقدماً للخليل فهو على هذا من الإفراط وقيل هو: من التفريط، وهو التقصير والتضييع. قال الزجاج: ومن قدم العجز في أمره أضاعه وأهلكه، ثم بين سبحانه لنبيه **﴿ﷺ﴾** ما يقوله لأولئك الغافلين، فقال: **﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾** أي قل لهم: إن ما أوحى إليك وأمرت بتلاوته هو الحق الكائن من جهة الله، لا من جهة غيره حتى يمكن فيه التبديل والتغيير، وقيل: المراد بالحق الصبر مع الفقراء. قال الزجاج: أي الذين اتيتكم به **﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾** يعني: لم آتكم به من قبل نفسي إنما آتيتكم به من الله **﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ﴾** قيل: هو

سرايق، ومنه قول رؤبة:

يا حكم بن المنذر بن جارود سرايق المجد عليك ممدود
وقال الشاعر:

هو المخلخ النعمان بيتاً سماؤه صور الفيول بعد بيت مسروق
يقوله سلام بن جندل لما قتل ملك الفرس ملك العرب النعمان بن المنذر تحت أرجل الفيلة. وقال ابن الأعرابي: سرايقها سورها. وقال القتيبي: السرايق الحجرة التي تكون حول الفسطاط. والمعنى: أنه أحاط بالكفار سرايق النار على تشبيه ما يحيط بهم من النار بالسرايق المحيط بمن فيه **﴿وَأَنْ يَسْتَغِيثُوا﴾** من حر النار **﴿يَغَاثُوا بِمَاءِ كَالْمُهْلِ﴾** وهو: الحديد المذاب. قال الزجاج: إنهم يغاثون بماء كالرصاص المذاب أو الصفر، وقيل: هو بردي الزيت. وقال أبو عبيدة والأخفش: هو كل ما أتى من جواهر الأرض من حديد ورصاص ونحاس. وقيل: هو ضرب من القطران. ثم وصف هذا الماء الذي يغاثون به بأنه **﴿يَشْوِي لَوْجُوهُ﴾** إذا قدم إليهم صارت وجوههم مشوية لحرارته **﴿بِئْسَ الشَّرَابُ﴾** شرابهم هذا **﴿وَسَاءَتْ﴾** النار **﴿مَرْتَفَقًا﴾** متكأ، يقال: ارتفعت أي: اتكأت، وأصل الارتفاق نصب المرفق، ويقال: ارتفق الرجل إذا نام على مرفقه، وقال القتيبي: هو المجلس، وقيل، المجتمع. **﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾** هذا شروع في وعد المؤمنين بعد الفراغ من وعيد الكافرين، والمعنى: إن الذين آمنوا بالحق الذي أوحى إليك وعملوا الصالحات من الأعمال **﴿إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾** هذا خبر إن الذين آمنوا، والعائد محذوف أي: من أحسن منهم عملاً، وجملة **﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾** استئناف لبيان الأجر، والإشارة إلى من تقدم ذكره، وقيل: يجوز أن يكون أولئك خبر إن الذين آمنوا، وتكون جملة **﴿إِنَّا لَا نَضِيعُ﴾** اعتراضاً، ويجوز أن يكون أولئك خبراً بعد خبر، وقد تقدم الكلام في جنات عدن، وفي كيفية جري الأنهار من تحتها **﴿يُحَلِّلونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾** قال الزجاج: أساور جمع أسورة، وأسورة جمع سوار، وهي زينة تلبس في الزند من اليد وهي من زينة الملوك، قيل: يحلى كل واحد منهم ثلاثة أسورة: واحد من فضة واحد من لؤلؤ واحد من ذهب، وظاهر الآية أنها جميعها من ذهب، ويمكن أن يكون

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر عن ابن عباس مثله. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه من طريق عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده في قوله: **«وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ»** الآية قال: نزلت في صلاة الصبح وصلاة العصر. وأخرج ابن مردويه من طريق جويبر، عن الضحّاك، عن ابن عباس في قوله: **«وَلَا تَطْعَمْ مِنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا»** قال: نزلت في أمية بن خلف، وذلك أنه دعا النبي ﷺ إلى أمر كرهه الله من طرد الفقراء عنه وتقريب صناديد أهل مكة، فأنزل الله هذه الآية، يعني: من ختمنا على قلبه يعني: التوحيد **«وَاتَّبَعَ هَوَاهُ»** يعني الشرك **«وَكَانَ أَمْرُهُ فَرْطًا»** يعني: فرطاً في أمر الله وجهالة بالله. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن بريدة قال: نخل عيينة بن حصن على النبي ﷺ في يوم حار، وعنده سلمان عليه جبة صوف، فصار منه ريح العرق في الصوف، فقال عيينة: يا محمد إذا نحن أتيناك فأخرج هذا وضرباه من عنك لا يؤنينا، فإذا خرجنا فانت وهم أعلم، فأنزل الله: **«وَلَا تَطْعَمْ مِنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ»** الآية. وقد ثبت في صحيح مسلم في سبب نزول الآية المتضمنة لمعنى هذه الآية، وهي قوله تعالى: **«وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ»** [الأنعام: 52]، عن سعد بن أبي وقاص قال: كنا مع النبي ﷺ ستة نفر، فقال المشركون للنبي ﷺ: **«اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا»** قال: وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان نسيت اسمهما، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، فحث نفسه، فأنزل الله **«وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ»** [الأنعام: 52] الآية. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: **«وَكَانَ أَمْرُهُ فَرْطًا»** قال: ضياعاً. وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة **«وَقُلْ لِلْحَقِّ»** قال: هو القرآن. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله: **«فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ»** يقول: من شاء الله له الإيمان آمن، ومن شاء له الكفر كفر، وهو قوله: **«وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ»** [التكوير: 29]. وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال في الآية: هذا تهديد ووعد. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً في قوله: **«أَحَاطَ بِهِمْ سُرَاتُهَا»** قال: حاط من نار. وأخرج أحمد، والترمذي، وابن أبي النديا، وابن جرير، وأبو يعلى، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: **«لسرّاتق النار أربعة جدر، كثافة كل جدار منها مسيرة أربعين سنة»**. وأخرج أحمد، والبخاري، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن يعلى بن أمية قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن البحر هو من جهنم، ثم تلا «نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَاتُهَا»**. وأخرج أحمد، والترمذي، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في البعث عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في قوله:

قول القائل هذا جمعاً بين الآيات لقوله سبحانه في آية أخرى: **«أَسْأُورُ مِنْ فُضَّةٍ»** [الإنسان: 21]، ولقوله في آية أخرى: **«وَلَوْلَاؤُا»** [الحج: 23]. و«من» في قوله: **«مَنْ أَسْأُورُ»** للابتداء، وفي من ذهب للبيان. وحكى الفراء يحلون بفتح الباء وسكون الحاء وفتح اللام، يقال: حليت المرأة تحلى فهي حالية إذا لبست الحلي **«وَيَلْبِسُونَ ثِيَاباً خَضِرًا مِنْ سَنَدَسٍ وَاسْتَبْرَقٍ»** قال الكسائي: السندس الرقيق واحده سندسة، والاستبرق ما ثخن وكذا قال المفسرون، وقيل: الاستبرق هو النيباج كما قال الشاعر:

وَاسْتَبْرَقَ النَّيْبَاجَ طَوْرًا لِبَاسَهَا

وقيل: هو المنسوج بالذهب. قال القتيبي: هو فارسي معرب. قال الجوهري: وتصغيره أبيرق، وخصّ الأخضر لانه الموافق للبصر ولكونه أحسن الألوان **«مَتَكْنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَاثِكِ»** قال الزجاج: الأراثك جمع أريكة، وهي السرر في الحجال، وقيل: هي أسرة من ذهب مكللة بالدرّ والياقوت، وأصل اتكا اوتكا، وأصل متكنين موتكنين، والاتكاء التحامل على الشيء **«نَعَمَ الثَّوَابُ»** ذلك الذي أثابهم الله به **«وَحَسُنَتْ»** تلك الأراثك **«مَرْتَفَقًا»** أي متكاً وقد تقدّم قريباً.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: **«مَلْتَحَدًا»** قال: ملتجأ. وأخرج ابن مردويه، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في الشعب عن سلمان قال: «جاءت المؤلفة قلوبهم: عيينة بن بدر، والأقرع بن حابس قالوا: يا رسول الله لو جلست في صدر المجلس وتغييت عن هؤلاء وأرواح جبابهم، يعنون: سلمان وأبا نر وفقراء المسلمين وكانت عليهم جباب الصوف، جالسناك وحائثناك وأخذنا عنك، فأنزل الله **«وَوَاتِلْ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ»** إلى قوله: **«إِنَّا اعْتَدْنَا لِلْظَّالِمِينَ نَارًا»**، زاد أبو الشيخ عن سلمان: «أن رسول الله ﷺ قام يلتمسهم حتى أصابهم في مؤخر المسجد يذكرّون الله تعالى فقال: الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع رجال من أمتي، معكم المحيا والممات». وأخرج ابن جرير، والطبراني، وابن مردويه عن عبد الرحمن بن سهل بن حنيف قال: «نزلت على رسول الله ﷺ وهو في بعض أبياته **«وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ»** فخرج يلتمسهم فوجد قومًا يذكرّون الله منهم ثائر الرأس وحاف الجلد وذو الثوب الخلق، فلما رآهم جلس معهم وقال: الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أصبر نفسي معهم». وأخرج البزار عن أبي سعيد وأبي هريرة قال: «جاء رسول الله ﷺ ورجل يقرأ سورة الحجر أو سورة الكهف فسكت، فقال رسول الله ﷺ: هذا المجلس الذي أمرت أن أصبر نفسي معهم»، وفي الباب روايات. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن نافع قال: أخبرني عبد الله بن عمر في هذه الآية: **«وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ»** أنهم الذين يشهدون الصلوات الخمس.

قوله: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَجُلَيْنِ﴾ هذا المثل ضربه الله سبحانه لمن يتعزّز بالدنيا ويستنكف عن مجالسة الفقراء فهو على هذا متصل بقوله: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ﴾.

وقد اختلف في الرجلين هل هما مقدّران أو محققان؟ فقال بالأوّل: بعض المفسرين. وقال بالآخر: بعض آخر. واختلفوا في تعيينهما، فقيل: هما أخوان من بني إسرائيل، وقيل: هما أخوان مخزوميان من أهل مكة: أحدهما مؤمن، والآخر كافر، وقيل: هما المذكوران في سورة الصافات في قوله: ﴿قال قاتل منهم إني كان لي قرين﴾ [الصافات: 51]. وانتصاب مثلاً ورجلين على أنهما مفعولان اضرب، قيل: الأوّل هو الثاني والثاني هو الأوّل ﴿جعلنا لأحدهما جنتين﴾ هو الكافر، و﴿من أعناب﴾ بيان لما في الجنتين أي: من كروم متنوعة ﴿وحققناهما بنخل﴾ الحف الإحاطة، ومنه ﴿حافين من حول العرش﴾ [الزمر: 75] ويقال: حف القوم بفلان يحفون حفاً أي: أطافوا به، فمعنى الآية: وجعلنا النخل مطيافاً للجنتين من جميع جوانبهما ﴿وجعلنا بينهما زرعاً﴾ أي: بين الجنتين، وهو وسطهما، ليكون كل واحد منهما جامعاً للأقوات والفواكه، ثم أخبر سبحانه عن الجنتين بأن كل واحدة منهما كانت تؤذي حملها وما فيها، فقال: ﴿كلتا الجنتين أتت أكلها﴾ أخبر عن كلتا بآتت، لأن لفظه مفرد، فراعى جانب اللفظ. وقد ذهب البصريون إلى أن كلتا وكلا اسم مفرد غير مثني. وقال الفراء: هو مثني. وهو مأخوذ من كل فحقت اللام وزيدت الألف للتثنية. وقال سيبويه: ألف كلتا للتانيث، والتاء بدل من لام الفعل، وهي لو، والأصل كلوا. وقال أبو عمرو: التاء ملحقة وكلهما هو: ثمرهما، وفيه دلالة على أنه قد صار صالحاً للأكل. وقرأ عبد الله بن مسعود (كل الجنتين أتت أكله) ﴿ولم تظلم منه شيئاً﴾ أي: لم تنقص من أكلها شيئاً، يقال: ظلمه حقه أي: نقصه، ووصف الجنتين بهذه الصفة للإشعار بأنهما على خلاف ما يعتاد في سائر البساتين فإنها في الغالب تكثر في عام، وتقل في عام ﴿وفجرنا خلالهما نهراً﴾ أي: أجرنا وشققنا وسط الجنتين نهراً ليسقيهما دائماً من غير انقطاع، وقرأ (فجرنا) بالتشديد للمبالغة، وبالتخفيف على الأصل ﴿وكان له﴾ أي: لصاحب الجنتين ﴿ثمر﴾ قرأ أبو جعفر وشيبة وعاصم ويعقوب وابن أبي إسحاق (ثمر) بفتح التاء والميم. وكذلك قرعوا في قوله: ﴿أحيط بثمره﴾ وقرأ أبو عمرو بضم التاء وإسكان الميم فيهما. وقرأ الباقر بضمهما جميعاً في الموضعين. قال الجوهري: الثمرة واحدة الثمر، وجمع الثمر ثمار مثل جبل وجبال. قال الفراء: وجمع الثمار ثمر، مثل كتاب وكتب، وجمع الثمر أثمار، مثل عنق وأعناق، وقيل: الثمر جميع المال من الذهب والفضة والحيوان وغير ذلك، وقيل: هو الذهب والفضة خالصة ﴿فقال لصاحبه﴾ أي: قال صاحب الجنتين الكافر لصاحبه المؤمن ﴿وهو يحاوره﴾ أي: والكافر يحاور المؤمن، والمعنى: يراجعه الكلام ويجالوه، والمحاوره المراجعة، والتحاوّر التجاوب

﴿بماء كالمهل﴾ قال: «كعكر الزيت، فإذا قرّب إليه سقطت فروة وجهه فيه». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿كالمهل﴾ قال: أسود كعكر الزيت. وأخرج ابن أبي شيبة، وهناد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عطية قال: سئل ابن عباس عن المهل فقال: ماء غليظ كدردي الزيت. وأخرج هناد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني عن ابن مسعود: أنه سئل عن المهل، فدعا بذهب وفضة فأنابه، فلما ذاب قال: هذا أشبه شيء بالمهل الذي هو شراب أهل النار ولونه لون السماء، غير أن شراب أهل النار أشدّ حرّاً من هذا. وأخرج ابن جرير عن ابن عمر قال: هل تدرون ما المهل؟ المهل سهل الزيت، يعني: آخره. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿وساءت مرتفعاً﴾ قال: مجتمعاً. وأخرج البخاري، ومسلم عن أبي هريرة، أن النبي ﷺ قال: «تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء». وأخرج البيهقي عن أبي الخير مرثد بن عبد الله قال: في الجنة شجرة تثبت السندس منه يكون ثياب أهل الجنة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير عن عكرمة قال: الإستبرق الديباج الغليظ. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن أبي حاتم عن مجاهد مثله. وأخرج ابن أبي حاتم عن الهيثم بن مالك الطائفي قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليتكئ المتكأ مقدار أربعين سنة ما يتحوّل منه ولا يمله، يأتيه ما اشتته نفسه ولذت عينه». وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: الأرائك السرر في جوف الحجال عليها الفرش منصود في السماء فرسخ. وأخرج البيهقي في البعث عنه قال: لا تكون أريكة حتى يكون السرير في الحجلة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن عكرمة، أنه سئل عن الأرائك فقال: هي الحجال على السرر.

﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأحدهما جنتين مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ ﴿كَلَّا لَتَنَتَنِيَّ مَائَتَ أَكْهَامٍ وَلَمْ نَقْلِرْ بِهِ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا﴾ ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن يَبْدُءَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَرَّتْ يَدَايَ فَخَلَقَكَ مِنْ ثَرَابٍ ثُمَّ مِنْ طُفْءٍ ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا﴾ ﴿لَيْكُنَا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أَشْرُكَ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ تَرَكُنَّ أَنَّ أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَلَوْلَا﴾ ﴿فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَيُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاءً غَورًا فَلَنْ نَسْتَلِيعَ لَهُ مَلَكًا﴾ ﴿وَأَحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَتَقَى فِيهَا وَهُوَ حَاوِرٌ عَلَى عُرْوَتِهَا يَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أَشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَصْرُفُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَبِهًا﴾ ﴿هَئِلَكَ الْوَلِيَّةُ فَلَهُ الْخَافُ هُوَ خَيْرٌ نَوَابًا وَخَيْرٌ عَقَبًا﴾

لأنها قد حذفت الألف من أنا فجاءوا بها عوضاً، قال: وفي قراءة أبي (لكن أنا هو الله ربي) وقرأ ابن عامر والمثنى عن نافع، وورش عن يعقوب (لكننا) في حال الوصل والوقف معاً بإثبات الألف، ومثله قول الشاعر:

أنا سيف العشيرة فاعرفوني فإنني قد تنزيت السنما

ومنه قول الأعشى:

فكيف أنا والحن القوافي ويعد الشيب يكفي ذاك عارا

ولا خلاف في إثباتها في الوقف، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي وأبو العالية، وروي عن الكسائي (لكن هو الله ربي) ثم نفى عن نفسه الشرك بالله، فقال: ﴿ولا أشرك بربي أحداً﴾ وفيه إشارة إلى أن أخاه كان مشركاً، ثم أقبل عليه يلومه فقال: ﴿ولولا إذ بخلت جنتك قلت ما شاء الله﴾ لولا للتحضيض أي: هلاً قلت عندما بخلتها هذا القول. قال الفراء والزجاج: ما في موضع رفع على معنى الأمر ما شاء الله أي: هلاً قلت حين بخلتها الأمر بمشيئة الله، وما شاء الله كان، ويجوز أن تكون ما مبتدأ والخبر مقدر أي: ما شاء الله كائن، ويجوز أن تكون ما شرطية والجواب محذوف أي: أي شيء شاء الله كان ﴿لا قوة إلا بالله﴾ أي: هلاً قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله، تحضيضاً له على الاعتراف بأنها وما فيها بمشيئة الله، إن شاء أبقاهما وإن شاء أبقاها، وعلى الاعتراف بالعجز، وأن ما تيسر له من عمارتها إنما هو بمعونة الله لا بقوته وقدرته. قال الزجاج: لا يقوى أحد على ما في يده من ملك ونعمة إلا بالله، ولا يكون إلا ما شاء الله. ثم لما علمه الإيمان وتفويض الأمور إلى الله سبحانه أجابه على افتخاره بالمال والنفر فقال: ﴿إن ترني لنا أقل منك مالا وولداً﴾ المفعول الأول ياء الضمير، وأنا ضمير فصل، وأقل المفعول الثاني للرؤية إن كانت علمية، وإن جعلت بصرية كان انتصاب أقل على الحال، ويجوز أن يكون أنا تأكيد لياء الضمير، وانتصاب مالا وولداً على التمييز ﴿فعمسى ربي أن يؤتيني خيراً من جنتك﴾ هذا جواب الشرط أي: إن ترني أفقر منك، فإنا أرجو أن يرزقني الله سبحانه جنة خيراً من جنتك في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما ﴿ويرسل عليها حساباً﴾ أي: ويرسل على جنتك حساباً، والحسبان مصدر، بمعنى الحساب كالغفران أي: مقدراً قدره الله عليها، ووقع في حسابه سبحانه، وهو الحكم بتخريبها. قال الزجاج: الحسبان من الحساب أي: يرسل عليها عذاب الحساب، وهو حساب ما كسبت يدك. وقال الأخفش: حساباً أي: مرامي ﴿ومن السماء﴾ واحداً حسباناً، وكذا قال أبو عبيدة والقتيبي. وقال ابن الأعرابي: الحسبان السحابة، والحسبانة الوسادة، والحسبانة الصاعقة، وقال النضر بن شميل: الحسبان سهام يرمي بها الرجل في جوف قصبه تنزع في قوس، ثم يرمي بعشرين منها دفعة، والمعنى: يرسل عليها مرامي من عذابه: إما برد، وإما حجارة أو غيرهما مما يشاء من أنواع العذاب. ومنه قول أبي زياد الكلبي:

﴿أنا أكثر منك مالا واعرز نفراً﴾ النفر الرهط، وهو ما دون العشرة، وأراد ما هنا الاتباع والخدم والأولاد ﴿وبخل جنته﴾ أي: بخل الكافر جنة نفسه. قال المفسرون: أخذ بيد أخيه المسلم، فأنخله جنته يطوف به فيها، ويريه عجائبها، وإفراد الجنة هنا يحتمل أن وجهه كونه لم يدخل أخاه إلا واحدة منهما، أو لكونهما لما اتصلا كانا كواحدة، أو لأنه أدخله في واحدة، ثم واحدة أو لعدم تعلق الغرض بذكرهما. وما أبعد ما قاله صاحب الكشف: أنه وحد الجنة للدلالة على أنه لا نصيب له في الجنة التي وعد المؤمنين، وجملة ﴿وهو ظالم لنفسه﴾ في محل نصب على الحال أي: وذلك الكافر ظالم لنفسه بكفره وعجبه ﴿قال ما أظن أن تبديد هذه فبدأ﴾ أي: قال الكافر لفرط غفلته وطول أملة: ما أظن أن تفنى هذه الجنة التي تشاهدنا ﴿وما أظن الساعة قائمة﴾ أنكر البعث بعد إنكاره لفناء جنته. قال الزجاج: أخبر أخاه بكفره بفناء الدنيا وقيام الساعة ﴿ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً﴾ اللام هي الموطئة للقسم، والمعنى: أنه إن يرد إلى ربه فرضاً وتقديراً كما زعم صاحبه، واللام في ﴿لأجدن﴾ جواب القسم، والشرط أي: لأجدن يومئذ خيراً من هذه الجنة، في مصاحف مكة والمدينة والشام (خيراً منهما) وفي مصاحف أهل البصرة والكوفة (خيراً منها) على الأفراد، و ﴿منقلباً﴾ منتصب على التمييز أي: مرجعاً وعاقبة قال هذا قياساً للغائب على الحاضر، وأنه لما كان غنياً في الدنيا، سيكون غنياً في الآخرة، اغتراراً منه بما صار فيه من الغنى الذي هو استدراج له من الله ﴿قال له صاحبه﴾ أي: قال للكافر صاحبه المؤمن حال محاورته له منكرراً عليه ما قاله ﴿أكفرت بالذي خلقك من تراب﴾ بقولك ﴿وما أظن الساعة قائمة﴾ وقال خلقك: من تراب أي: جعل أصل خلقك من تراب حيث خلق لباك آدم منه، وهو أصلك، وأصل البشر لكل فرد حظ من ذلك، وقيل: يحتمل أنه كان كافراً بالله فأنكر عليه ما هو عليه من الكفر، ولم يقصد أن الكفر حدث له بسبب هذه المقالة ﴿ثم من نقطة﴾ وهي المادة القريبة ﴿ثم سواك رجلاً﴾ أي: صيرك إنساناً نكراً وعدل أعضائك وكملك، وفي هذا تلويح بالدليل على البعث، وأن القادر على الابتداء قادر على الإعادة، وانتصاب رجلاً على الحال أو التمييز ﴿لكننا هو الله ربي﴾ كذا قرأ الجمهور بإثبات الألف بعد لكن المشددة. وأصله لكن أنا حذفت الهمزة والقيت حركتها على النون الساكنة قبلها فصار لكننا، ثم استثقلوا اجتماع النونين فسكنت الأولى وادغمت الثانية، وضمير هو للشان، والجملة بعده خبره والمجموع خبر أنا، والراجع ياء الضمير، وتقدير الكلام: لكن أنا الشأن الله ربي. قال أهل العربية: إثبات ألف أنا في الوصل ضعيف. قال النحاس: مذهب الكسائي والفراء والمازني أن الأصل لكن أنا، وذكر نحو ما قدمنا. وروي عن الكسائي أن الأصل لكن الله هو ربي أنا. قال الزجاج: إثبات الألف في لكننا في الإدراج جيد

أصاب الأرض حسبان

أي: جراد **﴿فتصبح صعيداً زلقاً﴾** أي: فتصبح جنة الكافر بعد إرسال الله سبحانه عليها حسباناً صعيداً أي: أرضاً لا نبات بها وقد تقدم تحقيقه، زلقاً أي: تزل فيها الأقدام لملاستها، يقال: مكان زلق بالتحريك أي: نحض، وهو في الأصل مصدر قولك زلقت رجله تزلق زلقاً وإزلقها غيره، والمزلفة الموضع الذي لا يثبت عليه قدم، وكذا الزلاقة، وصف الصعيد بالمصدر مبالغة، أو أريد به المفعول، وجملة **﴿أو يصبح ماؤها غوراً﴾** معطوفة على الجملة التي قبلها والغور: الغائر. وصف الماء بالمصدر مبالغة، والمعنى: أنها تصير عادمة للماء بعد أن كانت واجدة له، وكان خلالها ذلك النهر يسقيها دائماً، ويجيء الغور بمعنى: الغروب، ومنه قول أبي نؤيب:

هل الدهر إلا ليلة ونهارها وإلا طلوع الشمس ثم غيارها

﴿فلن تستطيع له طلباً﴾ أي: لن تستطيع طلب الماء الغائر فضلاً عن وجوده ورده ولا تقدر عليه بحيلة من الحيل، وقيل: المعنى فلن تستطيع طلب غيره عوضاً عنه. ثم أخبر سبحانه عن وقوع ما رجاه ذلك المؤمن وتوقعه من إهلاك جنة الكافر فقال: **﴿وأحيط بثمره﴾** قد قمنا اختلاف القراء في هذا الحرف وتفسيره، وأصل الإحاطة من إحاطة العدو بالشخص كما تقدم في قوله: **﴿إلا أن يحاط بكم﴾** [يوسف: 66]، وهي عبارة عن إهلاكه وإفناؤه، وهو معطوف على مقدر كأنه قيل: فوقع ما توقعه المؤمن وأحيط بثمره **﴿فأصبح يقلب كفيه﴾** أي: يضرب إحدى يديه على الأخرى وهو كناية عن الندم، كأنه قيل: فأصبح يندم **﴿على ما أنفق فيها﴾** أي: في عمارتها وإصلاحها من الأموال، وقيل: المعنى يقلب ملكه فلا يرى فيه عوض ما أنفق، لأن الملك قد يعبر عنه باليد من قولهم في يده مال، وهو بعيد جداً، وجملة **﴿وهي خاوية على عروشها﴾** في محل نصب على الحال أي: والحال أن تلك الجنة ساقطة على دعائهم التي تعتمد بها الكروم أو ساقط بعض تلك الجنة على بعض، مأخوذ من خوت النجوم تخوى إذا سقطت ولم تمطر في نواتها، ومنه قوله تعالى: **﴿فقلت بيوثهم خاوية بما ظلموا﴾** [النمل: 52] قيل: وتخصيص ماله عروش بالذكر بون النخل والزرع لأنه الأصل، وأيضاً إهلاكها مغن عن نكر إهلاك الباقي، وجملة **﴿ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحداً﴾** معطوفة على يقلب كفيه، أو حال من ضميره أي: وهو يقول تمنى عند مشاهدته لهلاك جنته بأنه لم يشرك بالله حتى تسلم جنته من الهلاك، أو كان هذا القول منه على حقيقته، لا لما فاتته من الغرض النبوي، بل لقصد التوبة من الشرك والندم على ما فرط منه **﴿ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله﴾** فئدة اسم كان وله خبرها، وينصرونه صفة لفئة أي: فئة ناصرة، ويجوز أن تكون ينصرونه الخبر، ورجح الأول سببويه ورجح الثاني المبرز، واحتج بقوله: **﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾** [الإخلاص: 4] والمعنى: أنه لم تكن له فرقة

وجماعة يلتجئ إليها وينتصر بها، ولا نفعه النفر الذين افتخر بهم فيما سبق **﴿وما كان﴾** في نفسه **﴿مفتصراً﴾** أي: ممتنعاً بقوته عن إهلاك الله لجنته، وانتقامه منه **﴿هناك للولاية لله الحق﴾** قرأ أبو عمرو والكسائي الحق بالرفع نعتاً للولاية، وقرأ أهل المدينة وأهل مكة وعاصم وحمزة الحق بالجر نعتاً لله سبحانه. قال الزجاج: ويجوز النصب على المصدر والتوكيد كما تقول هذا لك حقاً. وقرأ الأعمش وحمزة والكسائي الولاية بكسر الواو، وقرأ الباقر بفتحها، وهما لغتان بمعنى، والمعنى هنالك أي: في ذلك المقام النصر لله وحده لا يقدر عليها غيره، وقيل: هو على التقديم والتأخير أي: الولاية لله الحق هنالك **﴿هو خير ثواباً وخير عقاباً﴾** أي: هو سبحانه خير ثواباً لأوليائه في الدنيا والآخرة **﴿وخير عقاباً﴾** أي: عقابة، قرأ الأعمش وعاصم وحمزة (عقياً) يسكنون القاف، وقرأ الباقر بضمها، وهما بمعنى واحد أي: هو خير عقابة لمن رجاه وآمن به، يقال: هذا عقابة أمر فلان، وعقابه: أي أخراه.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله: **﴿جعلنا لأحدهما جنتين﴾** قال: الجنة هي البستان، فكان له بستان واحد وجدار واحد، وكان بينهما نهر، فلذلك كانا جنتين، ولذلك سماه جنة من قبل الجدار الذي عليها. وأخرج ابن أبي حاتم عن يحيى بن أبي عمرو الشيباني قال: نهر أبي قرطس نهر الجنتين. قال ابن أبي حاتم: وهو نهر مشهور بالرملة. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس **﴿ولم تظلم منه شيئاً﴾** قال: لم تنقص، كل شجر الجنة أطعم. وأخرج ابن أبي حاتم عن طريق علي بن أبي طلحة عنه **﴿وكان له ثمر﴾** يقول: مال. وأخرج أبو عبيد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة: قال: قرأها ابن عباس **﴿وكان له ثمر﴾** بالضم، وقال: هي أنواع المال. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد **﴿وكان له ثمر﴾** قال: ذهب وفضة. وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة **﴿وهو ظالم لنفسه﴾** يقول: كفور لنعمة ربه. وأخرج ابن أبي حاتم عن أسماء بنت عميس قالت: علمني رسول الله ﷺ كلمات أقولهن عند الكرب: «الله الله ربي لا أشرك به شيئاً». وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن يحيى بن سليم الطائفي عن نكره قال: «طلب موسى من ربه حاجة فابطأت عليه فقال: ما شاء الله، فإذا حاجته بين يديه، فقال: يا رب إنني أطلب حاجتي منذ كذا وكذا أعطيتها الآن، فأوحى الله إليه: يا موسى، أما علمت أن قولك ما شاء الله أنجح ما طلبت به الحوائج». وأخرج أبو يعلى، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أتم الله على عبد نعمة في أهل أو مال أو ولد فيقول ما شاء الله لا قوة إلا بالله إلا دفع الله عنه كل آفة حتى تأتيه منيته، وقرأ: **﴿ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله﴾**»، وفي إسناده عيسى بن عون، عن عبد الملك بن زرارة، عن أنس. قال أبو الفتح الأزدي:

كانوا يفتخرون بالمال والغنى والابناء فاخبرهم سبحانه أن ذلك مما يترزين به في الدنيا لا مما ينفع في الآخرة، كما قال في الآية الأخرى ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: 15]. وقال: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عِدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: 14]. ولهذا عقب هذه الزينة الدنيوية بقوله: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ أي: أعمال الخير، وهي ما كان يفعله فقراء المسلمين من الطاعات ﴿خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ أي: أفضل من هذه الزينة بالمال والبنين ثواباً، وأكثر عائدة ومنفعة لاهلها ﴿وَأَخَيْرٌ أَمْلاً﴾ أي: أفضل أملاً، يعني: أن هذه الأعمال الصالحة لاهلها من الأمل أفضل مما يؤمله أهل المال والبنين، لأنهم ينالون بها في الآخرة أفضل مما كان يؤمله هؤلاء الأغنياء في الدنيا، وليس في زينة الدنيا خير حتى تفضل عليها الآخرة، ولكن هذا التفضيل خرج مخرج قوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا﴾ [الفرقان: 24]. والظاهر أن الباقيات الصالحات كل عمل خير فلا وجه لقصرها على الصلاة كما قال بعض، ولا لقصرها على نوع من أنواع الذكر كما قاله بعض آخر، ولا على ما كان يفعله فقراء المهاجرين باعتبار السبب، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وبهذا تعرف أن تفسير الباقيات الصالحات في الأحاديث بما سيأتي لا ينافي إطلاق هذا اللفظ على ما هو عمل صالح من غيرها.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن علي قال: ﴿المال والبنون﴾ حرث الدنيا والعمل الصالح حرث الآخرة، وقد جمعهما الله لأقوام. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ قال: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر. وأخرج سعيد بن منصور، وأحمد، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «استكثروا من الباقيات الصالحات، قيل: وما هن؟ يا رسول الله؟ قال: التكبير والتهليل والتسبيح والتحميد ولا حول ولا قوة إلا بالله»، وأخرج الطبراني وابن شاهين وابن مردويه عن أبي الدرداء مرفوعاً بلفظ: «سبحان الله والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، هن الباقيات الصالحات». وأخرج النسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني في الصغير، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي عن أبي هريرة مرفوعاً: «خذوا جنتكم، قيل: يا رسول الله من أي عدو قد حضر؟ قال: بل جنتكم من النار قول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، فإنهن يأتين يوم القيامة مقدمات معقبات ومجنبات، وهي الباقيات الصالحات». وأخرج سعيد بن منصور، وأحمد، وابن مردويه عن النعمان بن بشير، أن رسول الله ﷺ قال: «ألا وإن سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله الباقيات الصالحات». وأخرج ابن مردويه نحوه من حديث أنس مرفوعاً، وزاد التكبير وسماهن الباقيات الصالحات. وأخرج ابن مردويه نحوه من حديث أبي

عيسى بن عون، عن عبد الملك بن زرارة، عن أنس لا يصح حديثه. وأخرج ابن أبي حاتم من وجه آخر، عن أنس نحوه موقوفاً. وأخرج البيهقي في الشعب عنه نحوه مرفوعاً. وأخرج أحمد من حديث أبي هريرة قال: قال لي نبي الله ﷺ: «ألا أنك على كنز من كنوز الجنة تحت العرش؟ قلت: نعم، قال: أن تقول لا قوة إلا بالله». وقد ثبت في الصحيح من حديث أبي موسى، أن النبي ﷺ قال له: «ألا أنك على كنز من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله»، وقد وردت أحاديث وأثار عن السلف في فضل هذه الكلمة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَتَصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ قال: مثل الجز. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿حَسْبَانَا مِنَ السَّمَاءِ﴾ قال: عذاباً فتصبح صعيداً زلقاً أي: قد حصدا ما فيها فلم يترك فيها شيء ﴿وَأَوْ يَصْبِحُ مَاؤُهَا غُورًا﴾ أي: ذاهباً قد غار في الأرض ﴿وَلَوْحِيطٌ بِشْمِرِهِ فَاصْبِحْ يَقْلَبُ كَفِيهَ﴾ قال: يصفق ﴿عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا﴾ متلهفاً على ما فاتته.

وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَلَّا أَنْزَلْنَاهُ مِنْ السَّمَاءِ فَاتَخَلَّتْ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ﴿١٦﴾ أَمَّا وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿١٧﴾

ثم ضرب سبحانه مثلاً آخر لجبابرة قريش فقال: ﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: انكر لهم ما يشبه الحياة الدنيا في حسناتها ونضارتها وسرعة زوالها لئلا يركنوا إليها، وقد تقدم هذا المثل في سورة يونس، ثم بين سبحانه هذا المثل فقال: ﴿كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ ويجوز أن يكون هذا هو المفعول الثاني لقوله أضرب على جعله بمعنى: صير ﴿فَاتَخَلَّتْ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ أي: اختلط بالماء نبات الأرض حتى استوى؛ وقيل: المعنى إن النبات اختلط بعضه ببعض حين نزل عليه الماء، لأن النبات إنما يختلط ويكثر بالمطر، فتكون الباء في به سببية ﴿فَاصْبِحْ﴾ النباتات ﴿هَشِيمًا﴾ الهشيم الكسير، وهو من النبات ما تكسر بسبب انقطاع الماء عنه وتفتت، ورجل هشيم ضعيف البدن، وتهشم عليه فلان إذا تعطف. واهتشم ما في ضرع الناقة إذا احتلبه، وهشم الثريد كسره وثرده، ومنه قول ابن الزبير:

عمرو الذي هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف
﴿تَذَرُوهُ الرِّيحَ﴾ تفرقه. قال أبو عبيدة وابن قتيبة: تذروه تنسفه. وقال ابن كيسان: تذهب به وتجيء، والمعنى متقارب. وقرا طلحة بن مصرف (تذرية الريح) قال الكسائي: وفي قراءة عبد الله (تذرية) يقال: ذرته الريح تذروه، وأذرته تذريه. وحكى الفراء: أذريت الرجل عن فرسه أي: قلبته ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾ أي: على كل شيء من الأشياء يحييه ويفنيه بقدرته لا يعجز عن شيء ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا﴾ هذا رد على الرؤساء الذين

لرسول الله ﷺ، أو لكل من يصلح للرؤية، ومعنى بروجها. ظهورها وزوال ما يستترها من الجبال والشجر والبنيان، وقيل المعنى ببروجها: بروز ما فيها من الكنوز والأموال كما قال سبحانه: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [الإنشاق: 4]، وقال: ﴿وَأَخْرَجْتَ الْأَرْضَ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: 2]، فيكون المعنى: وترى الأرض بارزة ما في جوفها ﴿وَوَحْشَرْنَاهُمْ﴾ أي: الخلائق، ومعنى الحشر الجمع أي: جمعناهم إلى الموقف من كل مكان ﴿فَلَمْ نَغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ فلم نترك منهم أحداً، يقال: غادره وأغدره إذا تركه، قال عنتره:

غادرته متعفراً أوصاله والقوم بين مجرّ ومجنّدل
أي: تركته، ومنه الغدر، لأن الغادر ترك الوفاء للمغدور، قالوا: وإنما سمي الغدير غديراً، لأن الماء ذهب وتركه، ومنه غداثر المرأة لأنها تجعلها خلفها ﴿وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا﴾ انتصاب صفّاً على الحال أي: مصفوفين كل أمة وزمرة صف، وقيل: عرضوا صفّاً واحداً كما في قوله: ﴿ثُمَّ اثْنُوا صَفًّا﴾ [طه: 64] أي جميعاً، وقيل: قياماً، وفي الآية تشبيه حالهم بحال الجيش الذي يعرض على السلطان ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ هو على إضمار القول أي: قلنا لهم لقد جئتمونا، والكاف في كما خَلَقْنَاكُمْ نعت مصدر محذوف أي: مجيئاً كائناتكم كما جئتمونا عند أن خلقناكم أَوَّلَ مَرَّةٍ، أو كائناتكم كما خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أي: حفاة عراة غرلاً، كما ورد ذلك في الحديث. قال الزجاج أي: بعثناكم واعينكم كما خلقناكم، لأن قوله لقد جئتمونا معناه: بعثناكم ﴿بَلْ زَعَمْتَ أَنْ لَنْ نَجْعَلَ لَكُم مَوْعِدًا﴾ هذا إضراب وانتقال من كلام إلى كلام للتقريع والتوبيخ، وهو خطاب لمنكري البعث أي: زعمتم في الدنيا أن لن تبعثوا، وأن لن نجعل لكم موعداً نجازيكم بأعمالكم وننجز ما وعناكم به من البعث والعذاب، وجملة ﴿وَوَضَعَ الْكِتَابَ﴾ معطوفة على عرضوا، والمراد بالكتاب: صحائف الأعمال، وأقرده لكون التعريف فيه للجنس، والوضع إما حسي بأن يوضع صحيفة كل واحد في يده: السعيد في يمينه، والشقي في شماله، أو في الميزان. وإما عقلي أي: أظهر عمل كل واحد من خير وشرّ بالحساب الكائن في ذلك اليوم ﴿فَتَرَى الْمَجْرِمِينَ مَشْفُوقِينَ مِمَّا فَبِهِ﴾ أي: خائفين وجلين مما في الكتاب الموضوع لما يتعقب ذلك من الافتضاح في ذلك الجمع. والمجازاة بالعذاب الأليم ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا﴾ يدعون على أنفسهم بالويل لوقوعهم في الهلاك، ومعنى هذا النداء قد تقدّم تحقيقه في المائدة ﴿يَا هَذَا الْكِتَابُ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ أي: أي شيء له لا يترك معصية صغيرة ولا معصية كبيرة إلا حواها وضبطها واثبتها ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا﴾ في الدنيا من المعاصي الموجبة للعقوبة، أو وجدوا جزاء ما عملوا ﴿حَاضِرًا﴾ مكتوباً مثبتاً ﴿وَلَا يَظْلَمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ أي: لا يعاقب أحداً من عباده بغير ذنب، ولا ينقص فاعل الطاعة من أجره الذي يستحقه، ثم إنه سبحانه عاد إلى الردّ على أرباب الخيلاء من

هريرة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن مردويه من حديث عائشة مرفوعاً نحوه، وزالت: «ولا حول ولا قوة إلا بالله». وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه من حديث عليّ مرفوعاً نحوه. وأخرج ابن مردويه من طريق الضحّاك عن ابن عباس مرفوعاً فنكر نحوه يون الحوقلة. وأخرج الطبراني عن سعد بن جنادة مرفوعاً نحوه. وأخرج البخاري في تاريخه، وابن جرير عن ابن عمر من قوله نحوه. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس من قوله نحوه. وكل هذه الأحاديث مضرة بانها الباقيات الصالحات، وأما ما ورد في فضل هذه الكلمات من غير تقييد بكونها المرادة في الآية فأحاديث كثيرة لا فائدة في ذكرها هنا. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة قال: كل شيء من طاعة الله، فهو من الباقيات الصالحات.

وَيَوْمَ نُسِرَ الْجِبَالُ وَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٦٧﴾ وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتَ أَنْ لَنْ نَجْعَلَ لَكُم مَوْعِدًا ﴿٦٨﴾ وَوَضَعَ الْكِتَابَ قَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفُوقِينَ مِمَّا فَبِهِ وَيَقُولُونَ يُؤْتَيْنَا مَا لَمْ نَحْشَرْ لَكُم مِّنْ شَيْءٍ وَلَا يَذَرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٦٩﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلْمُغْلِبِينَ أَشْجُلًا يَأْتُونَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِلَيْهِ كَانَ مِنَ الْجَنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَسْتَعِذُّونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أُولَئِكَ مِنْ دُونِكُمْ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٧٠﴾ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ مُحِيزِينَ الْعَمَلِينَ عَصَا ﴿٧١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا مُرْكَزِي الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴿٧٢﴾ وَرَأَى الْمَجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاعِدُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٧٣﴾

وقوله: ﴿وَيَوْمَ نُسِرَ الْجِبَالُ﴾ قرأ الحسن وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر تسير بمثناة فوقية مضمومة وفتح الياء التحتية على البناء للمفعول، ورفع الجبال على النيابة عن الفاعل. وقرأ ابن محيصن ومجاهد (تسير) بفتح التاء الفوقية والتخفيف على أن الجبال فاعل. وقرأ الباقون (نسير) بالنون على أن الفاعل هو الله سبحانه والجبال منصوبة على المفعولية، ويناسب القراءة الأولى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سِيرَتْ﴾ [التكوير: 3]، ويناسب القراءة الثانية قوله تعالى: ﴿وتسير الجبال سيرا﴾ [الطور: 10]، واختار القراءة الثالثة أبو عبيدة لأنها المناسبة لقوله: ﴿وَوَحْشَرْنَاهُمْ﴾ قال بعض النحويين: التقدير والباقيات الصالحات خير عند ربك يوم نُسِرَ الجبال، وقيل: العامل في الظرف فعل محذوف، والتقدير: وانكر يوم نُسِرَ الجبال، ومعنى تسير الجبال: إزالتها من أماكنها وتسجيرها كما تسير السحاب، ومنه قوله تعالى: ﴿وهي تمرّ من السحاب﴾ [النمل: 88]، ثم تعود إلى الأرض بعد أن جعلها الله كما قال: ﴿وبست الجبال بساً﴾ فكانت هباءً منبثاً. [الواقعة: 5 - 6]. والخطاب في قوله: ﴿وترى الأرض بارزة﴾ [الكهف: 47]

﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [القصص: 35] أي: سنعينك ونقويك به، ويقال: أعضدت بفلان إذا استعنت به، ونكر العضد على جهة المثل، وخصّ المضلين بالذكر لزيادة الذم والتوبيخ. والمعنى: ما استعنت على خلق السموات والأرض بهم ولا شاورتهم وما كنت متخذ الشياطين أو الكافرين أعواناً، ووجد العضد لموافقة الفواصل، وقرأ أبو جعفر الجعدي (وما كنت) بفتح اللام على أن الخطاب للنبي ﷺ أي: وما كنت يا محمد متخذاً لهم عضداً ولا صرح لك ذلك، وقرأ الباقر بن بضم اللام. وفي عضد لغات ثمان أقصحتها فتح العين وضمّ الضاد، وبها قرأ الجمهور. وقرأ الحسن «عضد» بضم العين والضاد. وقرأ عكرمة بضم العين وإسكان الضاد، وقرأ الضحّاك بكسر العين وفتح الضاد، وقرأ عيسى بن عمر بفتحهما، ولغة تميم فتح العين وسكون الضاد. ثم عاد سبحانه إلى ترويههم بأحوال القيامة فقال: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ قرأ حمزة ويحيى بن وثاب وعيسى بن عمر نقول بالنون، وقرأ الباقر بالباء التحتية أي: انكر يوم يقول الله عز وجل للكفار توبيحاً لهم وتقريباً نادوا شركائهم الذين زعمتم أنهم ينفعونكم ويشفعون لكم، وأضافهم سبحانه إلى نفسه جرياً على ما يعتقده المشركون، تعالى الله عن ذلك ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ أي: فعلوا ما أمرهم الله به من دعاء الشركاء ﴿فَلَمَّ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ إذ ذاك أي: لم يقع منهم مجرد الاستجابة لهم، فضلاً عن أن ينفعهم أو يدفعوا عنهم ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقاً﴾ أي: جعلنا بين هؤلاء المشركين وبين من جعلوهم شركاء لله موبقاً، نكر جماعة من المفسرين أنه اسم وإن عريق فرق الله به تعالى بينهم، وعلى هذا فهو اسم مكان. قال ابن الأعرابي: كل حاجز بين شيئين فهو موبق. وقال الفراء: الموبق المهلك. والمعنى: جعلنا تواصلهم في الدنيا مهلكاً لهم في الآخرة، يقال: وبق يوبق فهو وبق. هكذا نكره الفراء في المصادر. وحكى الكسائي وبقي بيق وبوقاً فهو وباق، والمراد بالمهلك على هذا: هو عذاب النار يشتركون فيه. والأول أولى، لأن من جملة من زعموا أنهم شركاء لله الملائكة وعزير والمسيح، فالموبق هو المكان الحائل بينهم. وقال أبو عبيدة: الموبق هنا الموعد للهلاك، وقد ثبت في اللغة أوبقه بمعنى: أهلكه، ومنه قول زهير:

ومن يشترى حسن الثناء بماله يصن عرضه عن كل شناعة موبق
ولكن المناسب لمعنى الآية: هو المعنى الأول ﴿وَوَرَاءَ الْمَجْرُمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا﴾ المجرمون موضوع موضع الضمير للإشارة إلى زيادة الذم لهم بهذا الوصف المسجل عليهم به، والظن هنا بمعنى اليقين. والمواقعة المخالطة بالوقوع فيها، وقيل: إن الكفار يرون النار من مكان بعيد فيظنون ذلك ظناً ﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفاً﴾ أي: معدلاً يعبدون إليه، أو انصرافاً، لأن النار قد أحاطت بهم من كل جانب. قال الواحدي: المصريف الموضع الذي ينصرف إليه. وقال القتيبي: أي معدلاً ينصرفون إليه،

قريش، فنكر قصة آدم واستكبار إبليس عليه فقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ أي: وانكر وقت قولنا لهم اسجدوا سجود تحية وتكريم، كما مرّ تحقيقه ﴿فَسَجَدُوا﴾ طاعة لأمر الله وامثالاً لطلبه السجود ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ فإنه أبى واستكبر ولم يسجد، وجملة ﴿كَانَ مِنَ الْجِنَّ﴾ مستأنفة لبيان سبب عصيانه وأنه كان من الجنّ ولم يكن من الملائكة فلهذا عصى. ومعنى ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾: أنه خرج عن طاعة ربه. قال الفراء: العرب تقول فسقت الرطبة عن قشرها لخروجها منه. قال النحاس: اختلف في معنى ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ على قولين: الأول مذهب الخليل وسيبويه أن المعنى: أتاه الفسق لما أمر فعصى فكان سبب الفسق أمر ربه، كما تقول: أطعته عن جوع. والقول الآخر قول قطرب: أن المعنى على حذف المضاف أي: فسق عن ترك أمره، ثم إنه سبحانه عجب من حال من أطاع إبليس في الكفر والمعاصي وخالف أمر الله فقال: ﴿افْتَحِزْنَاهُ وَذُرَيْتَهُ أُولِيَاءَ﴾ كأنه قال: أعقيب ما وجد منه من الإياء والفسق تتخونونه وتتخونون ذريته أي: أولاده؛ وقيل: أتباعه مجازاً أولياء ﴿مَنْ دُونِي﴾ فتطيعونهم بدل طاعتي وتستبدلونهم بي، والحال أنهم أي: إبليس وذريته ﴿لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ أي: أعداء وأقرده لكونه اسم جنس، أو لتشبيهه بالمصادر كما في قوله: ﴿فَبَانَهُمْ عَدُوٌّ لِي﴾ [الشعراء: 77]. وقوله: ﴿هُمْ الْعَدُوٌّ﴾ [المنافقون: 4] أي: كيف تصنعون هذا الصنع وتستبدلون بمن خلقكم وأنتم عليكم بجميع ما أنتم فيه من النعم؟ بمن لم يكن لكم منه منفعة قط، بل هو عدو لكم يتربص حصول ما يضركم في كل وقت ﴿يَبْسُ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ أي: الواضعين للشيء في غير موضعه المستبدلين بطاعة ربه طاعة الشيطان، فيبس ذلك البذل الذي استبدلوه بدلاً عن الله سبحانه ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال أكثر المفسرين: إن الضمير للشركاء، والمعنى: أنهم لو كانوا شركاء لي في خلق السموات والأرض وفي خلق أنفسهم لكانوا مشاهدين خلق ذلك مشاركين لي فيه، ولم يشاهدوا ذلك ولا أشهدتهم إياه أنا فليسوا لي بشركاء. وهذا استدلال بانتفاء الملزوم المساوي على انتفاء اللازم، وقيل: الضمير للمشركين الذين التمسوا طرد فقراء المؤمنين، والمراد: أنهم ما كانوا شركاء لي في تبدير العالم بليل أني ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ﴿وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ﴾ وما اعتضدت بهم بل هم كسائر الخلق، وقيل: المعنى أن هؤلاء الظالمين جاهلون بما جرى به القلم في الأزل، لأنهم لم يكونوا مشاهدين خلق العالم، فكيف يمكنهم أن يحكموا بحسن حالهم عند الله، والأول من هذه الوجوه أولى لما يلزم في الوجهين الآخرين من تفكيك الضميرين، وهذه الجملة مستأنفة لبيان عدم استحقاقهم للاتخاذ المذكور، وقرأ أبو جعفر (ما أشهدناهم) وقرأ الباقر (ما أشهدتهم) ويؤيده ﴿وَمَا كُنْتُ مَتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ والعضد يستعمل كثيراً في معنى العون، وذلك أن العضد قوام اليد، ومنه قوله:

وقيل: ملجأ يلجأون إليه. والمعنى متقارب في الجميع.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ قال: ليس عليها بناء ولا شجر. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن مريويه عن ابن عباس في قوله: ﴿لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ قال: الصغيرة التبسم، والكبيرة الضحك. وزاد ابن أبي الدنيا وابن أبي حاتم عنه قال: الصغيرة التبسم بالاستهزاء بالمؤمنين، والكبيرة القهقهة بذلك. وأقول: صغيرة وكبيرة نكرتان في سياق النفي، فيدخل تحت ذلك كل ذنب يتصف بصغر، وكل ذنب يتصف بالكبر، فلا يبقى من الذنوب شيء إلا أحصاه الله وما كان من الذنوب ملتبساً بين كونه صغيراً أو كبيراً، فذلك إنما هو بالنسبة إلى العباد لا بالنسبة إلى الله سبحانه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ في العظمة، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس قال: إن من الملائكة قبيلة يقال لهم: الجن فكان إبليس منهم، وكان يوسوس ما بين السماء والأرض، فعصى فسخط الله عليه فمسخه الله شيطاناً رجيماً. وأخرج ابن جرير عنه في قوله: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ قال: كان خازن الجنان، فسمي بالجان. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه أيضاً قال: إن إبليس كان من أشرف الملائكة وأكرمهم قبيلة، وكان خازناً على الجنان. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الحسن قال: قاتل الله أقواماً زعموا أن إبليس كان من الملائكة، والله يقول: كان من الجن. وأخرج ابن جرير، وابن الأنباري عنه أنه قال: ما كان من الملائكة طرفة عين، إنه لأصل الجن كما أن آدم أصل الإنس. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله: ﴿مَا أَشْهَبَتْهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال: يقول: ما أشبهت الشياطين الذين اتخذتم معي هذا ﴿وَمَا كُنْتُ مَتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضْداً﴾ قال: الشياطين عضداً، قال: ولا اتخذتهم عضداً على شيء عضدوني عليه فاعانوني. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقاً﴾ يقول: مهلكاً. وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن مجاهد مثله. وأخرج أبو عبيد، وهناد، وابن المنذر عنه قال: وإله في جهنم. وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن جرير وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في البعث عن أنس في الآية قال: وإله في جهنم من قبيح دم. وأخرج أحمد في الزهد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن ابن عمرو قال: هو وإله عقيق في النار فرق الله به يوم القيامة بين أهل الهدى وأهل الضلالة، وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿فَقُتِلُوا أَنَّهُمْ مَوَاقِعُهَا﴾ قال: علموا.

وَلَقَدْ مَرْفَعًا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَلَأَ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ
فِتْنًا جَدًّا ﴿٣٤﴾ وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ
إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ فُبُلَّا ﴿٣٥﴾ وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ

إِلَّا مَبْتَلِينَ وَمُتَرَبِّينَ وَمَنْ عَدِلَ الْأَمْرُ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ يُدْخِلُهُمْ فِي النَّارِ
وَأَخْرَجُوا مِنْهَا ﴿٣٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ
عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاؤُهُ إِنَّا جَمَعْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ
وَقَرًّا وَلَنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٣٧﴾ وَرَبُّكَ الْمَقُورُ ذُو
الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَسَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ أَنْ
يَهْدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيِلًا ﴿٣٨﴾ وَلَقَدْ أَلْقَيْنَا آيَاتِنَا عَلَى الْكَافِرِينَ لَعَلَّكَ تَلْمِزُهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا
لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴿٣٩﴾

لما نكر سبحانه افتخار الكفرة على فقراء المسلمين بأموالهم وعشائهم، وأجابهم عن ذلك وضرب لهم الأمثال الواضحة، حكى بعض أموال الآخرة فقال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ أي: كَرَرْنَا وَرَبَّنَا ﴿فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ﴾ أي لاجلهم ولرعاية مصلحتهم ومنفعتهم ﴿مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ من الأمثال التي من جملتها الأمثال المذكورة في هذه السورة، وقد تقدّم تفسير هذه الآية في سورة بني إسرائيل، وحين لم يترك الكفار ما هم فيه من الجدل بالباطل، ختم الآية بقوله ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءً جَدَلًا﴾ قال الزجاج: المراد بالإنسان الكافر، واستدل على أن المراد الكافر بقوله تعالى: ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ﴾ وقيل المراد به في الآية: النضر بن الحارث، والظاهر العموم وأن هذا النوع أكثر الأشياء التي يتأتى منها الجدل جدلاً، ويؤيد هذا ما ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث علي: «أن النبي ﷺ طرده فاطمة ليلاً، فقال: ألا تصلين؟ فقلت: يا رسول الله إنما أنفسنا بيد الله إن شاء أن يبعثنا بعثنا، فانصرف حين قلت ذلك ولم يرجع إلي شيئاً، ثم سمعته يضرب فخذه ويقول: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءً جَدَلًا﴾، وانتصاب جدلاً على التمييز. ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ قد تقدّم الكلام على مثل هذا في سورة بني إسرائيل، ونكرنا أنَّ (أن) الأولى في محل نصب، والثانية في محل رفع، والهدى: القرآن ومحمد ﷺ، والناس هنا هم أهل مكة، والمعنى على حذف مضاف أي: ما منع الناس من الإيمان والاستغفار إلا طلب إتيان سنة الأولين، أو انتظار إتيان سنة الأولين، وزاد الاستغفار في هذه السورة لأنه قد نكر هنا ما فرط منهم من الذنوب التي من جملتها جدالهم بالباطل، وسنة الأولين هو أنهم إذا لم يؤمنوا عذبوا عذاب الاستئصال. قال الزجاج: سنّتهم هو قولهم: ﴿إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ﴾ [الأنفال: 32] الآية ﴿لَوْ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ أي: عذاب الآخرة ﴿فَيَقُولُوا﴾ قال الفراء: إن قبلاً جمع قبيل أي: متفرقاً يتلو بعضه بعضاً، وقيل: عياناً، وقيل: فجأة. ويناسب ما قاله الفراء قراءة أبي جعفر وعاصم والأعمش وحزمة والكسائي ويحيى بن وثاب وخلف ﴿فَيَقُولُوا﴾ بضمين فإنه جمع قبيل، نحو سبيل وسبل، والمراد: أصناف العذاب، ويناسب التفسير الثاني أي: عياناً،

﴿وجعلنا لمهلكم موعداً﴾ أي: وقتاً معيناً، وقرأ عاصم⁽¹⁾ مهلكهم بفتح الميم واللام، وهو مصدر هلك، وأجاز الكسائي والفراء كسر اللام وفتح الميم، وبذلك قرأ حفص، وقرأ الجمهور بضم الميم وفتح اللام، وقال الزجاج مهلك: اسم للزمان، والتقدير: لوقت مهلكهم.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿إلا أن تأتيهم سنة الأولين﴾ قال: عقوبة الأولين. وأخرج ابن أبي حاتم عن الأعمش في قوله: ﴿قبلاً﴾ قال: جهاراً. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: فجأة. وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿ونسى ما قدمت يداه﴾ قال: نسي ما سلف من الذنوب الكثيرة. وأخرج أيضاً عن ابن عباس ﴿بما كسبوا﴾ يقول: بما عملوا. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي ﴿بل لهم موعد﴾ قال: الموعد يوم القيامة. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله ﴿موثلاً﴾ قال: ملجأ. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿موثلاً﴾ قال: محرراً.

وَلَا قَالَتْ مُوسَى إِفْنَيْتَهُ لَا أَتَّبِعُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمْ مَجْمَعُ الْيَحْرَيْنِ أَوْ أَمْنِيَّ حَقًّا ﴿١٦٠﴾ لَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نِسَاءَ خُوتُمَا أَخَذَتْ سَيْلَهُ فِي الْيَمِّ مَرًا ﴿١٦١﴾ لَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنَةٍ إِنَّا غَدَاةٌ لَّكَ لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَسَاءً ﴿١٦٢﴾ قَالَتْ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْتَيْنَا إِلَى الْخَصْرِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْكَلِمَةَ وَمَا أَصْبِيهِ إِلَّا أَنْتَ لَئِن لَّمْ أَتِ بِكَ بِهَا فَسَمِيعُكَ فِي الْبَحْرِ ﴿١٦٣﴾ قَالَتْ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا بِهَا فَصَمَتْ ﴿١٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عَيْنِنَا وَعِلْمَةً ﴿١٦٥﴾ مِنْ لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿١٦٦﴾ قَالَ لَمْ يَأْتِكَ إِلَهُكَ أَن تَعْلَمَ مِنَّا عِلْمَتَ رُسُلِنَا ﴿١٦٧﴾ قَالَتْ إِنَّكَ لَنْ تَسْطِيعَ مَعِيَ سَفَرًا ﴿١٦٨﴾ وَكَفَىٰ نَصِيرَةً لَّكَ مَا رَأَىٰ نَحْبُكَ بِهٖ خُبْرًا ﴿١٦٩﴾ قَالَتْ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَائِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿١٧٠﴾ قَالَتْ إِنِّي أَتَّبَعْتُنِي فَلَا تَسْتَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿١٧١﴾

الطرف في قوله: ﴿وإذا قال﴾ متعلق بفعل محنوف هو أنكر. قيل: وجه ذكر هذه القصة في هذه السورة: أن اليهود لما سألوا النبي ﷺ عن قصة أصحاب الكهف وقالوا: إن أخبركم فهو نبي وإلا فلا. ذكر الله قصة موسى والخضر تنبيهاً على أن النبي لا يلزمه أن يكون عالماً بجميع القصص والأخبار. وقد اتفق أهل العلم على أن موسى المذكور هو موسى بن عمران النبي المرسل إلى فرعون، وقالت فرقة: لا التفات إلى ما تقولونه منهم نوف البكالي: إنه ليس ابن عمران، وإنما هو موسى بن ميثي بن يوسف بن يعقوب، وكان نبياً قبل موسى بن عمران، وهذا باطل قد رده السلف الصالح من الصحابة ومن بعدهم كما في صحيح البخاري وغيره، والمراد بفتاه هنا هو: يوشع بن نون. قال الواحدي:

قراءة الباقي بكسر القاف وفتح الباء أي: مقابلة ومعانية، وقرئ بفتححتين على معنى أو يأتيهم العذاب مستقبلاً، وانتصابه على الحال. فحاصل معنى الآية أنهم لا يؤمنون ولا يستغفرون إلا عند نزول عذاب الدنيا المستاصل لهم، أو عند إتيان أصناف عذاب الآخرة أو معانيته ﴿وما ترسل المرسلين﴾ من رسلنا إلى الأمم ﴿إلا﴾ حال كونهم ﴿مبشرين﴾ للمؤمنين ﴿ومنذرين﴾ للكافرين. فالاستثناء مفرغ من أعم العام، وقد تقدم تفسير هذا ﴿ويجادل الذين كفروا بالباطل ليلحضوا به الحق﴾ أي: ليزيلوا بالجدال بالباطل الحق ويبطلون وأصل الحضر الزلق يقال: حضت رجله أي: زلقت تحض تحضاً، وحضت الشمس عن كبد السماء زالت، وحضت حجته بحوضاً بطلت، ومن ذلك قول طرفة:

أبا منذر رمت الوفاء فهبطت وحلت كما حاد البعير عن النحض ومن مجادلة هؤلاء الكفار بالباطل قولهم للرسول ﴿ما أنتم إلا بشر مثلنا﴾ [يس: 15]. ونحو ذلك ﴿واتخذوا آياتي﴾ أي: القرآن ﴿وما أنذروا﴾ به من الوعيد والتهديد ﴿هزوا﴾ أي: لعباً وباطلاً، وقد تقدم هذا في البقرة ﴿ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها﴾ أي: لا أحد أظلم لنفسه ممن وعظ بآيات ربه التنزيلية أو التكوينية أو مجموعهما فتهاون بها وأعرض عن قبولها، ولم يتدبرها حق التدبر ويتفكر فيها حق التفكير ﴿ونسى ما قدمت يداه﴾ من الكفر والمعاصي، فلم يتب عنها. قيل: والنسيان هنا بمعنى الترك، وقيل: هو على حقيقته ﴿إننا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه﴾ أي: أغطية، والأكنة جمع كنان، والجملة تعليل لإعراضهم ونسيانهم. قال الزجاج: أخبر الله سبحانه أن هؤلاء طبع على قلوبهم ﴿وفي آذانهم وقرأ﴾ أي: وجعلنا في آذانهم ثقلًا يمنع من استماعه، وقد تقدم تفسير هذا في الأنعام ﴿وان تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبدا﴾ لأن الله قد طبع على قلوبهم بسبب كفرهم ومعاصيهم ﴿وربك الغفور ذو الرحمة﴾ أي: كثير المغفرة، وصاحب الرحمة التي وسعت كل شيء فلم يعاجلهم بالعقوبة، ولهذا قال: ﴿ولو يؤلذهم بما كسبوا﴾ أي: بسبب ما كسبوه من المعاصي التي من جعلتها الكفر والمجالب والإعراض ﴿لعجل لهم للعذاب﴾ لاستحقاقهم لذلك ﴿بل﴾ جعل ﴿لهم موعد﴾ أي: أجل مقرر لعذابهم، قيل: هو عذاب الآخرة، وقيل: يوم بدر ﴿لن يجنوا من نونه ميثلاً﴾ أي: ملجأ يلجئون إليه. وقال أبو عبيدة: منجأ، وقيل: ميثلاً، ومنه قول الشاعر:

لا والله نفسك خليتها للعاصريين ولم تكلم

وقال الأعشى:

وقد لخالس رب البيت غفلته وقد يحاذر مني ثم ما يثل

أي ما ينجو ﴿وتلك القرى﴾ أي: قرى عاد وثمود وأمثالها ﴿أهلكناهم﴾ هذا خبر اسم الإشارة والقرى صفته، والكلام على حذف مضاف أي: أهل القرى أهلكناهم ﴿لما ظلموا﴾ أي: وقت وقوع الظلم منهم بالكفر والمعاصي

(1) (قوله عاصم) صوابه: أبو بكر عن عاصم، اهـ. مصحح القرآن.

لجمعوا على أنه يوشع بن نون، وقد مضى ذكره في المائدة، وفي آخر سورة يوسف، ومن قال: إن موسى هو ابن ميثى قال: إن هذا الفتى لم يكن هو يوشع بن نون. قال الفراء: وإنما سمي فتى موسى لأنه كان ملازماً له يأخذ عنه العلم ويخدمه، ومعنى ﴿لَا يُبْرَحُ﴾ لا أزال، ومنه قوله: ﴿لَنْ نُبْرَحَ﴾ عليه عاكفين [طه: 91]. ومنه قول الشاعر:

وأبرح ما أدام الله قومي بحمد الله منتطقاً مجيداً
ويبرح إذا كان بمعنى زال فهو من الأفعال الناقصة، وخبره هنا محذوف اعتماداً على دلالة ما بعده وهو ﴿حتى أبلغ مجمع البحرين﴾ قال الزجاج: لا أبرح بمعنى لا أزال، وقد حذف الخبر لدلالة حال السفر عليه، ولأن قوله: ﴿حتى أبلغ﴾ غاية مضرورية، فلا بد لها من ذي غاية، فالمعنى: لا أزال أسير إلى أن أبلغ، ويجوز أن يراد لا يبرح مسيري حتى أبلغ، وقيل: معنى لا أبرح لا أفارقك حتى أبلغ مجمع البحرين، وقيل: يجوز أن يكون من برح التام، بمعنى: زال يزال، ومجمع البحرين ملتقاهما. قيل: المراد بالبحرين بحر فارس والروم؛ وقيل: بحر الأردن وبحر القلزم، وقيل: مجمع البحرين عند طنجة، وقيل: بإفريقية. وقالت طائفة: المراد بالبحرين موسى والخضر، وهو من الضعف بمكان. وقد حكى عن ابن عباس ولا يصح ﴿أو امضي حقيلاً﴾ أي: أسير زماناً طويلاً. قال الجوهري: الحقب بالضم ثمانون سنة. وقال النحاس: الذي يعرفه أهل اللغة أن الحقب والحقبه زمان من الدهر مبهم غير محدد، كما أن رهطاً وقوماً منهم غير محدد، وجمعه أحقاب. وسبب هذه العزيمة على السير من موسى عليه السلام ما روي أنه سئل موسى من أعلم الناس؟ فقال: أنا، فأوحى الله إليه: إن أعلم منك عبد لي عند مجمع البحرين ﴿فلما بلغا﴾ أي: موسى وفتاه ﴿مجمع بينهما﴾ أي: بين البحرين، وأضيف مجمع إلى الظرف توسعاً وقيل: البين: بمعنى الافتراق أي: البحران المفترقان يجتمعان هناك، وقيل: الضمير لموسى والخضر أي: وصلا الموضع الذي فيه اجتماع شملهما، ويكون البين على هذا بمعنى الوصل، لأنه من الأضداد، والأول أولى ﴿نسيا حوتهما﴾ قال المفسرون: إنهما تزودا حوتاً مملحاً في زنبيل، وكانا يصيبان منه عند حاجتهما إلى الطعام، وكان قد جعل الله فقدانه أمانة لهما على وجدان المطلوب. والمعنى: أنهما نسيا بفقد أمره، وقيل: الذي نسي إنما هو فتى موسى، لأنه وكل أمر الحوت إليه، وأمره أن يخبره إذا فقده، فلما انتهيا إلى ساحل البحر وضع فتاه المكتل الذي فيه الحوت فأحياه الله، فتحرك واضطرب في المكتل، ثم انسرب في البحر، ولهذا قال: ﴿فاتخذ سبيله في البحر سرباً﴾ انتصاب سرباً على أنه المفعول الثاني لاتخذ، أي اتخذ سبيلاً سرباً، والسرب التنق الذي يكون في الأرض للضب ونحوه من الحيوانات، وذلك أن الله سبحانه أمسك جرية الماء على الموضع الذي انسرب فيه الحوت فصار كالطاق فشبه مسلك الحوت في البحر مع بقائه وانجياي الماء عنه

بالسرب الذي هو الكوة المحفورة في الأرض. قال الفراء: لما وقع في الماء جمد مذهبه في البحر فكان كالسرب، فلما جاوزا ذلك المكان الذي كانت عنده الصخرة وذهب الحوت فيه انطلقا، فأصابهما ما يصيب المسافرين من النصب والكلال، ولم يجدوا النصب حتى جاوزا الموضع الذي فيه الخضر، ولهذا قال سبحانه: ﴿فلما جاوزا﴾ أي: مجمع البحرين الذي جعل موعداً للملاقاة ﴿قال لفتاه أتنا غداً﴾ وهو ما يؤكل بالغداة، وأراد موسى أن يأتيه بالحوت الذي حملاه معهما ﴿لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً﴾ أي: تعباً وإعياء، قال المفسرون: الإشارة بقوله سفرنا هذا إلى السفر الكائن منهما بعد مجاوزة المكان المذكور، فإنهما لم يجدوا النصب إلا في ذلك يوم ما قبله ﴿قال أرايت إذ أويئنا إلى الصخرة﴾ أي: قال فتى موسى لموسى، ومعنى الاستفهام تعجيبه لموسى مما وقع له من النسيان هناك مع كون ذلك الأمر مما لا ينسى، لأنه قد شاهد أمراً عظيماً من قدرة الله الباهرة، ومفعول أرايت محذوف لدلالة ما ذكره من النسيان عليه، والتقدير: أرايت ما دهاني، أو نابني في ذلك الوقت والمكان. وتلك الصخرة كانت عند مجمع البحرين الذي هو الموعد، وإنما ذكرها نون أن يذكر مجمع البحرين لكونها متضمنة لزيادة تعيين المكان، لاحتمال أن يكون المجمع مكاناً متسعاً يتناول مكان الصخرة وغيره، ووقع النسيان على الحوت نون الغداء الذي تقدم ذكره لبيان أن ذلك الغداء المطلوب هو ذلك الحوت الذي جعله زاداً لهما، وأمانة لوجدان مطلوبهما. ثم ذكر ما يجري مجرى السبب في وقوع ذلك النسيان فقال: ﴿وما أنساه إلا الشيطان﴾ بما يقع منه من الوسوسة، و ﴿أن أنكره﴾ بدل اشتمال من الضمير في أنساه، وفي مصحف عبد الله: وما أنساه أن أنكره إلا الشيطان ﴿واتخذ سبيله في البحر عجباً﴾ انتصاب عجباً على أنه المفعول الثاني كما مر في سرباً، والظرف في محل نصب على الحال، يحتمل أن يكون هذا من كلام يوشع، أخبر موسى أن الحوت اتخذ سبيله عجباً للناس، وموضع التعجب أن يحيا حوت قد مات وأكل شقه، ثم يثب إلى البحر ويبقى أثر جريته في الماء لا يحو أثرها جريان ماء البحر، ويحتمل أن يكون من كلام الله سبحانه لبيان طرف آخر من أمر الحوت، فيكون ما بين الكلامين اعتراضاً ﴿قال ذلك ما كنا نبغي﴾ أي: قال موسى لفتاه: ذلك الذي ذكرت من فقد الحوت في ذلك الموضع هو الذي كنا نطلبه، فإن الرجل الذي نريده هو هنالك ﴿فارتداً على آثارهما قصصاً﴾ أي: رجعا على الطريق التي جاءا منها يقصان أثرهما لئلا يخطئا طريقهما، وانتصاب قصصاً على أنه مصدر لفعل محذوف، أو على الحال أي: قاصين أو مقتصين، والقصص في اللغة اتباع الأثر ﴿فوجدنا عبداً من عبادنا﴾ هو الخضر في قول جمهور المفسرين، وعلى ذلك نلت الأحاديث الصحيحة، وخالف في ذلك من لا يعتد بقوله، فقال: ليس هو الخضر بل عالم آخر؛ قيل: سمي الخضر لأنه

السؤال عنها مما قبلها.

وقد أخرج الدارقطني في الأفراد، وابن عساكر من طريق مقاتل بن سليمان عن الضحاك، عن ابن عباس قال: الخضر ابن آدم لصليبه ونسيء له في أجله حتى يكذب الدجال. وأخرج البخاري وغيره عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إنما سمي الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء، فإذا هي تهتز من خلفه خضراء». وأخرج ابن عسكرك من حديث ابن عباس. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن عسكرك عن مجاهد: «إنما سمي الخضر لأنه إذا صلى أخضر ما حوله». وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن زيد في قوله: «لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين» قال: حتى أنتهي. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: «مجمع البحرين» قال: بحر فارس والروم، وهما نحو المشرق والمغرب. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الربيع بن أنس مثله. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي بن كعب قال: «مجمع البحرين» إفريقية. وأخرج ابن أبي حاتم، عن محمد بن كعب قال: طنجة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: «أو أمضي حقبا» قال: سبعين خريفاً. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه قال: دهرأ. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة في قوله: «نسيأ حوتهما» قال: كان مملوحاً مشقوق البطن. وأخرج ابن المنذر عنه في قوله: «فاتخذ سبيله في البحر سرباً» قال: أثره يابس في البحر كأنه في حجر. وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: «فارتداً على آثارهما قصصاً» قال: عودهما على بدنهما. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: «أتيناها رحمة من عندنا» قال: أعطيناها الهدى والنبوة.

واعلم أنها قد رويت في قصة الخضر مع موسى المذكورة في الكتاب العزيز أحاديث كثيرة، وأتمها وأكملها ما روي عن ابن عباس ولكنها اختلفت بعض الألفاظ، وكلها مروية من طريق سعيد بن جبيرة عنه، وبعضها في الصحيحين وغيرهما، وبعضها في أحدهما، وبعضها خارج عنهما. وقد رويت من طريق العوفي عنه كما أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، ومن طريق هارون بن عنترة، عن أبيه، عنه عند ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والخطيب، وابن عساكر، فلنقتصر على الرواية التي هي أتم الروايات الثابتة في الصحيحين، ففي ذلك ما يغني عن غيره، وهي: قال سعيد بن جبيرة: قلت لابن عباس: إن نوحاً البكالي يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس موسى صاحب بني إسرائيل، قال ابن عباس: كذب عدو الله. حدثنا أبي بن كعب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل، فاستل أي الناس أعلم؟ فقال: أنا، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه، فأوحى الله إليه إن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك، قال موسى: يا رب فكيف لي به؟ قال:

كان إذا صلى أخضر ما حوله، قيل واسمه بلياً بن ملكان. ثم وصفه الله سبحانه فقال: «أتيناها رحمة من عندنا» قيل: الرحمة هي النبوة، وقيل: النعمة التي أنعم الله بها عليه «وعلّمناه من لدنا علماً» وهو ما علمه الله سبحانه من علم الغيب الذي استأثر به، وفي قوله من لدنا تفخيم لشأن ذلك العلم، وتعظيم له. قال الزجاج: وفيما فعل موسى وهو من جملة الأنبياء من طلب العلم، والرحلة في ذلك ما يدل على أنه لا ينبغي لأحد أن يترك طلب العلم وإن كان قد بلغ نهايته، وإن يتواضع لمن هو أعلم منه. ثم قص الله سبحانه علينا ما دار بين موسى والخضر بعد اجتماعهما فقال: «قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشداً» في هذا السؤال ملاطفة ومبالغة في حسن الأدب، لأنه استأنته أن يكون تابعاً له على أن يعلمه مما علمه الله من العلم. والرشد الوقوف على الخير وإصابة الصواب، وانتصابه على أنه مفعول ثانٍ لتعلمني أي: علماً ذا رشد أرشد به، وقرئ رشداً بفتححتين، وهما لغتان كالبلخل والبلخل. وفي الآية دليل على أن المتعلم تبع للعالم وإن تفاوتت المراتب، وليس في ذلك ما يدل على أن الخضر أفضل من موسى، فقد يأخذ الفاضل عن الفاضل وقد يأخذ الفاضل عن المفضول إذا اختلف أحدهما بعلم لا يعلمه الآخر، فقد كان علم موسى علم الأحكام الشرعية والقضاء بظاهرها، وكان علم الخضر علم بعض الغيب ومعرفة البواطن «قال إنك لن تستطيع معي صبراً» أي: قال الخضر لموسى: إنك لا تطيق أن تصبر على ما تراه من علمي، لأن الظواهر التي هي علمك لا توافق ذلك، ثم أكد ذلك مشيراً إلى علة عدم الاستطاعة، فقال: «وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً» أي: كيف تصبر على علم ظاهره منكرو، وأنت لا تعلم، ومثلك مع كونك صاحب شرع لا يسوغ له السكوت على منكر والإقرار عليه، وخبراً منتصب على التمييز أي: لم تحط به خبرك والخبر: العلم بالشيء، والخبر بالأمور هو العالم بخفاياها، وبما يحتاج إلى الاختبار منها «قال ستجبنني إن شاء الله صابراً» أي: قال موسى للخضر: ستجبنني صابراً معك، ملتزماً طاعتك «ولا أعصي لك أمراً» فجملة ولا أعصي معطوفة على صابراً، فيكون التقيد بقوله: إن شاء الله شاملاً للصبر ونفي المعصية، وقيل: إن التقيد بالمشيئة مختص بالصبر، لأنه أمر مستقبل لا يدرى كيف يكون حاله فيه، ونفي المعصية معزوم عليه في الحال، ويجاب عنه بأن الصبر، ونفي المعصية متفقان في كون كل واحد منهما معزوم عليه في الحال، وفي كون كل واحد منهما لا يدرى كيف حاله فيه في المستقبل. «قال فإن تبععتني فلا تسألني عن شيء» مما تشاهده من أفعالي المخالفة لما يقتضيه ظاهر الشرع الذي بعثك الله به «حتى أحدث لك منه ذكراً» أي: حتى أكون أنا المبتدئ لك بذكره، وبيان وجهه وما يتول إليه، وهذه الجملة المعنونة بقال وقال مستأنفة، لأنها جوابات عن سؤالات مقترنة كل واحدة ينشأ

﴿قَالَ﴾ موسى: قوم آتيناكم فلم يطعمونا ولم يضيّفونا ﴿لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ * قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَانِيكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: وَبَدَأَ أَنَّ مُوسَى كَانَ صَبِرَ حَتَّى يَقْصُ اللَّهُ عَلَيْنَا مِنْ خَيْرِهِمَا﴾. قَالَ سَعِيدُ بْنُ جَبْرِ: وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقْرَأُ ﴿وَكَانَ أَمَامَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾. وَكَانَ يَقْرَأُ ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ كَافِرًا وَكَانَ لِبَوَاهِ مُؤْمِنِينَ﴾ وَبَقِيَّةُ رَوَايَاتِ سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ أَبِي بَنْ كَعْبٍ هِيَ مُوَافِقَةٌ لِهَذِهِ الرِّوَايَةِ فِي الْمَعْنَى وَإِنْ تَفَاوُتَتْ الْأَلْفَاظُ فِي بَعْضِهَا فَلَا فَائِدَةَ فِي الْإِطَالَةِ بِذِكْرِهَا، وَكَذَلِكَ رَوَايَاتُ غَيْرِ سَعِيدٍ عَنْهُ.

فَانْطَلَقَ حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَلِّمُنِي بِمَا نَجِيتُ وَلَا تُؤَفِّقُنِي مِنْ أَمْرِ عَشْرٍ ﴿٧٣﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَبَيَا قَرْيَةً فَقَالَ أَلَمَكَ نَقَسًا رَكِبْتَ يُبَدِّلُ نَافِيسَ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧٤﴾ * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِنْ سَأَلْتَهُ عَنْ نَفْسِهِ فَقَدْ فَلَكَ صَبِيحَتِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عَذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا بَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَا أَهْلُهَا فَأَنبَأُوا أَنِ يُضَيِّقُهُمَا فُوجِدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَنَزَّلْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَانِيكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْتَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْكَلْبُ فَكَانَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ فَمَجِئْنَا بِهَا مَطْفِئًا رَكُفًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رَحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخَيَّرَا كَرَاهًا رَحِمَهُ مِنْ رَبِّكَ وَمَا قُلْتُمْ عَنْ أَمْرِ ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾

قوله: ﴿فَانْطَلَقَا﴾ أي: موسى والخضر على ساحل البحر يطلبان السفينة، فمَرَّتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ فَكَلِمَهُمَا أَنْ يَحْمِلُوهُمَا فَحَمَلُوهُمَا ﴿حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾: قِيلَ: قَلَعَ لَوْحًا مِنَ الْوَاهِحَا، وَقِيلَ: لَوْحِينَ مِمَّا يَلِي الْمَاءَ، وَقِيلَ: خَرَقَ جِدَارَ السَّفِينَةِ لِيُعِيبَهَا وَلَا يَتَسَارَعَ الْغُرُقُ إِلَى أَهْلِهَا ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿لِخَرَقَتِهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ أي: لَقَدْ أَتَيْتَ أَمْرًا عَظِيمًا، يُقَالُ: أَمَرَ الْأَمْرَ إِذَا كَبُرَ، وَالْأَمْرُ الْأَسْمُ مِنْهُ. وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: الْأَمْرُ الدَّاهِيَةُ الْعَظِيمَةُ وَاتَّشَدَّ:

قَدْ لَقِيَ الْاِقْرَانُ مِنْ نِيْكَرٍ دَاهِيَةٍ دَهِيًا وَإِمْرًا-إِمْرًا وَقَالَ الْقَتِيبِيُّ: الْأَمْرُ الْعَجَبُ. وَقَالَ الْأَخْفَشُ: أَمَرَ أَمْرَهُ يَأْمُرُ إِذَا اشْتَدَّ، وَالْأَسْمُ الْأَمْرُ. قَرَأَ حَمْزَةً وَالْكَسَاثِي «لِيُغْرِقَ أَهْلَهَا» بِالْيَاءِ التَّحْتِيَةِ الْمَفْتُوحَةِ، وَرَفَعَ أَهْلَهَا عَلَى أَنَّهُ فَاعِلٌ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ بِالْفَوْقِيَةِ الْمَضْمُونَةِ وَنَصَبَ أَهْلَهَا عَلَى الْمَفْعُولِيَةِ ﴿قَالَ﴾ أي: الخضر ﴿لَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ أَنْكَرَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِهِ لَهُ سَابِقًا ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ ف ﴿قَالَ﴾ لَهُ مُوسَى ﴿لَا تُؤَلِّمُنِي

تَأْخُذْ مَعَكَ حَتَّى تَفْتَحَهُ فِي مَكْتَلٍ فَحَيْثُمَا فَتَحْتَ الْحَوْتَ فَهُوَ ثُمَّ، فَأَخَذَ حَتَّى فَجَعَلَهُ فِي مَكْتَلٍ. ثُمَّ انْطَلَقَ وَانْطَلَقَ مَعَهُ فَتَاهُ يَوْشَعَ بْنِ نُونٍ حَتَّى أَتَيَا الصَّخْرَةَ وَضَعَا رُءُوسَهُمَا فَنَامَا، وَاضْطَرَبَ الْحَوْتَ فِي الْمَكْتَلِ فَخَرَجَ مِنْهُ فَسَقَطَ فِي الْبَحْرِ فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا، وَأَمَسَكَ اللَّهُ عَنِ الْحَوْتَ جَرِيَةِ الْمَاءِ، فَصَارَ عَلَيْهِ مِثْلُ الطَّاقِ، فَلَمَّا اسْتَيْقِظَ نَسِيَ صَاحِبَهُ أَنْ يُخْبِرَهُ بِالْحَوْتَ، فَنَاطَلَقَا بِقِيَةِ يَوْمِهِمَا وَلِيْلَتِهِمَا، حَتَّى إِذَا كَانَا مِنَ الْعَدَدِ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ: ﴿أَتَنَا غَدَاؤُنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ قَالَ: وَلَمْ يَجِدْ مُوسَى النَّصَبَ حَتَّى جَاوَزَ الْمَكَانَ الَّذِي أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ، فَقَالَ لَهُ فَتَاهُ: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ قَالَ: فَكَانَ لِلْحَوْتَ سَرَبًا، وَلِمُوسَى وَفَتَاهُ عَجَبًا، فَقَالَ مُوسَى: ﴿تِلْكَ مَا كُنَّا نَبْغِي فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ قَالَ سَفِيَانُ: يَزْعُمُ نَاسٌ أَنَّ تِلْكَ الصَّخْرَةَ عِنْدَهَا عَيْنُ الْحَيَاةِ لَا يَصِيبُ مَاءُهَا مِيتًا إِلَّا عَاشَ، قَالَ: وَكَانَ الْحَوْتَ قَدْ أَكَلَ مِنْهُ. فَلَمَّا قَطَرَ عَلَيْهِ الْمَاءُ عَاشَ، قَالَ: فَجَعَا يَقْصَانِ اثْرَهُمَا حَتَّى انْتَهَيَا إِلَى الصَّخْرَةِ، فَإِذَا رَجُلٌ مَسْجِيٌّ يَثُوبُ فَنَسَلَمَ عَلَيْهِ مُوسَى، فَقَالَ الْخَضِرُ: وَإِنِّي بِأَرْضِكَ السَّلَامُ؟ قَالَ: أَنَا مُوسَى. قَالَ: مُوسَى نَبِيَّ إِسْرَائِيلَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: أَتَيْتَكَ لِتُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلِمْتَ وَرَشَدًا، قَالَ: إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا، يَا مُوسَى إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنَ اللَّهِ عِلْمِيهِ لَا تَعْلَمُهُ أَنْتَ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ مِنَ اللَّهِ عِلْمَكَ اللَّهُ لَا أَعْلَمُهُ، قَالَ مُوسَى: سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا، فَقَالَ لَهُ الْخَضِرُ: ﴿فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ نَكَرًا﴾ فَنَاطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ فَمَرَّتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ فَكَلِمَهُمَا أَنْ يَحْمِلُوهُمَا، فَعَرَفُوا الْخَضِرَ فَحَمَلُوهُ بِغَيْرِ تَوَلٍّ، فَلَمَّا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ لَمْ يَفْجَأْ إِلَّا وَالْخَضِرُ قَدْ قَلَعَ لَوْحًا مِنَ الْوَاهِ السَّفِينَةَ بِالْقُدُومِ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: قَوْمَ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ عَمِدْتَ إِلَى سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا؟ قَالَ: أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا، قَالَ: لَا تُؤَلِّمُنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عَسْرًا. قَالَ: وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَانَتْ الْأُولَى مِنْ مُوسَى نَسِيَانًا. قَالَ: وَجَاءَ عَصْفُورٌ فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ فَتَنَقَّرَ فِي الْبَحْرِ نَقْرَةً، فَقَالَ لَهُ الْخَضِرُ: مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا مِثْلُ مَا نَقَصَ هَذَا الْعَصْفُورُ الَّذِي وَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ. ثُمَّ خَرَجَا مِنَ السَّفِينَةِ فَبَيْنَمَا هُمَا يَمْشِيَانِ عَلَى السَّاحِلِ إِذْ أَبْصَرَ الْخَضِرُ غُلَامًا يَلْعَبُ مَعَ الْغُلَامَانِ فَأَخَذَ الْخَضِرُ رَأْسَهُ بِيَدِهِ فَأَقَاتَلَهُ بِيَدِهِ فَقَتَلَهُ، فَقَالَ مُوسَى: ﴿اقْتُلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ * قَالَ لَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا. قَالَ: وَهَذِهِ أَشَدُّ مِنَ الْأُولَى ﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتَهُ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عَذْرًا﴾ * فَنَاطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَبَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَا أَهْلُهَا فَايْبُوا أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا فُوجِدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ ﴿قَالَ: مِثْلُ، فَقَالَ الْخَضِرُ بِيَدِهِ هَكَذَا فَأَقَامَهُ، ف

حتى إذا أتيا أهل قرية. قيل: هي أيلة؛ وقيل: انطاكية؛ وقيل: برقة؛ وقيل: قرية من قرى أنربيجان؛ وقيل: قرية من قرى الروم. **﴿استطعما أهلها﴾** هذه الجملة في محل الجر على أنها صفة لقرية، ووضع الظاهر موضع المضمحل لزيادة التأكيد، أو لكرامة اجتماع الضميرين في هذه الكلمة لما فيه من الكلفة، أو لزيادة التشنيع على أهل القرية بإظهارهم **﴿فأبوا أن يضيفوهما﴾** أي: أبوا أن يعطوهما ما هو حق واجب عليهم من ضيافتهما، فمن استدلل بهذه الآية على جواز السؤال وحل الكفية فقد أخطأ خطأ بيناً، ومن ذلك قول بعض الأبناء الذين يسألون الناس:

فإن ردت فما في الرد منقصه علي قد رد موسى قبل والخضر وقد ثبت في السنة تحريم السؤال بما لا يمكن دفعه من الأحاديث الصحيحة الكثيرة **﴿فوجدوا فيها﴾** أي: في القرية **﴿جداراً يريد أن ينقض﴾** إسناد الإرادة إلى الجدار مجاز. قال الزجاج: الجدار لا يريد إرادة حقيقية إلا أن هيئة السقوط قد ظهرت فيه كما تظهر أفعال المريد القاصدين فوصف بالإرادة، ومنه قول الراعي:

في مهمه فلتت به هاماتها فلق الفؤوس إذا ربن نصولا ومعنى الانقضا: السقوط بسرعة، يقال: انقض الحائط إذا وقع، وانقض الطائر إذا هوى من طيرانه فسقط على شيء، ومعنى فأقامه: فسواه، لأنه وجده ماثلاً فردّه كما كان؛ وقيل: نقضه وبناه؛ وقيل: أقامه بعمود. وقد تقدّم في الحديث الصحيح أنه مسح بيده **﴿قال﴾** موسى **﴿لو شئت لاتخذت عليه لجر﴾** أي: على إقامته وإصلاحه، تحريضاً من موسى للخضر على أخذ الأجر. قال الفراء: معناه لو شئت لم تقمه حتى يقرؤنا فهو الأجر، قرأ أبو عمرو، ويعقوب، وابن كثير، وابن محيصن، واليزيدي، والحسن (لتخذت) يقال: تخذ فلان يتخذ تخذاً مثل اتخذ. وقرأ الباقر (لتخذت) **﴿قال﴾** الخضر **﴿هَذَا فراق بيني وبينك﴾** على إضافة فراق إلى الظرف اتساعاً أي: هذا الكلام والإنكار منك على ترك الأجر هو المفرق بيننا. قال الزجاج: المعنى هذا فراق بيننا أي: هذا فراق اتصالنا، وكَرَّرَ بين تأكيداً، ولما قال الخضر لموسى بهذا أخذ في بيان الوجه الذي فعل بسببه تلك الأفعال التي أنكرها موسى فقال: **﴿سانبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبر﴾** والتأويل: رجوع الشيء إلى ماله. ثم شرع في البيان له فقال: **﴿إما السفينة﴾** يعني: التي خرقتها **﴿فكانت لمساكين﴾** لضعفاء لا يقدرّون على دفع من أراد ظلمهم **﴿يعملون في البحر﴾** ولم يكن لهم مال غير تلك السفينة يكرّونها من الذين يركبون البحر ويأخذون الأجرة، وقد استدلل الشافعي بهذه الآية على أن الفقير أسوأ حالاً من المسكين **﴿فأردت أن أعيبها﴾** أي: أجعلها ذات عيب بنزع ما نزعته منها **﴿وكان وراهم ملك﴾** قال المفسرون: يعني أمامهم، ووراء يكون بمعنى أمام، وقد مرّ الكلام على هذا في قوله: **﴿ومن ورائه عذاب غليظ﴾** [إبراهيم: 17]. وقيل: أراد خلفهم، وكان طريقهم في الرجوع

بما نسيته. يحتمل أن تكون ما مصدرية، أي: لا تؤاخذني بنسياني أو موصولة أي: لا تؤاخذني بالذي نسيته، وهو قول الخضر **﴿فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً﴾** فالنسيان إما على حقيقته على تقدير أن موسى نسي ذلك، أو بمعنى: الترك على تقدير أنه لم ينس ما قاله له، ولكنه ترك العمل به **﴿ولا ترهقني من أمري عسراً﴾** قال أبو زيد: أرهقته عسراً إذا كلفته ذلك والمعنى: عاملني باليسر لا بالعسر. وقرئ عسراً بضمّتين **﴿فانطلقا﴾** حتى إذا لقيا غلاماً فقتله. أي: الخضر، ولفظ الغلام يتناول الشاب البالغ كما يتناول الصغير، قيل: كان الغلام يلعب مع الصبيان فاقبل الخضر رأسه **﴿قال﴾** موسى **﴿اقتلت نفساً زكية بغير نفس﴾** قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر، وأويس بالغ بعد الزاي وتخفيف الياء اسم فاعل. وقرأ الباقر بتشديد الياء من نون الف، الزكّية: البريئة من الذنوب. قال أبو عمرو: الزكّية التي لم تذهب، والزكّية التي أذنبت ثم تابت. وقال الكسائي: الزكّية والزكّية لغتان. وقال الفراء: الزكّية والزكّية مثل القاسية والقسية، ومعنى **﴿بغير نفس﴾**: بغير قتل نفس محرّمة حتى يكون قتل هذه قصاصاً **﴿لقد جئت شيئاً نكراً﴾** أي: فظيماً منكراً لا يعرف في الشرع. قيل: معناه أنكروا الأمر الأوّل لكون القتل لا يمكن تداركه، بخلاف نزع اللوح من السفينة فإنه يمكن تداركه بإرجاعه، وقيل: النكر أقل من الأمر، لأن قتل نفس واحدة أهون من إغراق أهل السفينة. قيل: استبعد موسى أن يقتل نفساً بغير نفس، ولم يتأول للخضر بأنه يحلّ القتل بأسباب أخر **﴿قال﴾** الخضر **﴿لم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً﴾** زاد هنا لفظ لك، لأن سبب العتاب أكثر، وموجبه أقوى، وقيل: زاد لفظ لك لقصد التأكيد كما تقول لمن توبخه: لك أقول وإياك أعني **﴿قال﴾** موسى **﴿إن سألتك عن شيء بعدها﴾** أي: بعد هذه المرة، أو بعد هذه النفس المقتولة **﴿فلا تصاحبني﴾** أي: لا تجعلني صاحباً لك، نهاء عن مصاحبتهم مع حرصه على التعلم لظهور عنده، ولذا قال: **﴿قد بلغت من لحي عذراً﴾** يريد أنك قد أعذرت حيث خالفك ثلاث مرّات، وهذا كلام نادم شديد الندامة، اضطره الحال إلى الاعتراف وسلوك سبيل الإنصاف. قرأ الأعرج (تصحبني) بفتح التاء والباء وتشديد النون. وقرأ الجمهور (تصاحبني) وقرأ يعقوب (تصحبني) بضم التاء وكسر الحاء ورواها سهل عن أبي عمرو. قال الكسائي: معناه لا تتركني أصحابك. وقرأ الجمهور (للني) بضم الدال إلا أن نافعاً وعاصماً خففاً النون، وشدها الباقر. وقرأ أبو بكر عن عاصم (للني) بضم اللام وسكون الدال. قال ابن مجاهد: وهي غلط. قال أبو علي: هذا التغليب لعله من جهة الرواية، فأما على قياس العربية فصحيحة. وقرأ الجمهور (عذراً) بسكون الدال. وقرأ عيسى بن عمر بضم الدال. وحكى الداني أن أبيتاً روى عن النبي ﷺ بكسر الراء وياء بعدها بإضافة العذر إلى نفسه **﴿فانطلقا﴾**

﴿وكان ليهما صالحاً﴾ فكان صلاحه مقتضياً لرعاية وليه وحفظ مالهما، قيل: هو الذي دفنه؛ وقيل: هو الأب السابع من عند الدافن له، وقيل: العاشر ﴿فأراد ربك﴾ أي: مالك ومدير أمرك، وأضاف الرب إلى ضمير موسى تشريفاً له ﴿أن يبلغا لشدهما﴾ أي: كمالهما وتمام نموهما ﴿ويستخرجا كنزهما﴾ من ذلك الموضع الذي عليه الجدار، ولو انقضّ لخرج الكنز من تحته ﴿رحمة من ربك﴾ لهما، وهو مصدر في موضع الحال أي: مرحومين من الله سبحانه ﴿وما فعلته عن أمري﴾ أي: عن اجتهادي ورأيي، وهو تأكيد لما قبله، فقد علم بقوله فأراد ربك أنه لم يفعله الخضر عن أمر نفسه ﴿نلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً﴾ أي: نلك المذكور من تلك البيانات التي بينها لك وأوضحت وجوها تأويل ما ضاق صبرك عنه ولم تطق السكوت عليه، ومعنى التأويل هنا: هو المال الذي آلت إليه تلك الأمور، وهو اتضاح ما كان مشتبهاً على موسى وظهور وجهه، وحذف التاء من تسطع تخفيفاً.

وقد أخرج عبد الرزاق، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿لقد جئت شيئاً إمراً﴾ يقول: نكراً. وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد نحوه. وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿إمراً﴾ قال: عجباً. وأخرج ابن جرير، عن أبي بن كعب في قوله: ﴿لا تؤاخذني بما نسيت﴾ قال: لم ينس، ولكنها من معاريض الكلام. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي العالية قال: كان الخضر عبداً لا تراه الأعين، إلا من أراد الله أن يريه إياه، فلم يره من القوم إلا موسى، ولو رآه القوم لحالوا بينه وبين خرق السفينة وبين قتل الغلام. وأقول: ينبغي أن ينظر من أين له هذا؟ فإن لم يكن مستنده إلا قوله: ﴿لو رآه القوم إلخ﴾، فليس ذلك بموجب لما نكره، أما أولاً: فإن من الجائز أن يفعل ذلك من غير أن يراه أهل السفينة وأهل الغلام، لا لكونه لا تراه الأعين، بل لكونه فعل ذلك من غير اطلاعهم. وأما ثانياً: فيمكن أن أهل السفينة وأهل الغلام قد عرفوه وعرفوا أنه لا يفعل ذلك إلا بأمر من الله كما يفعل الأنبياء، فسلموا لأمر الله. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس في قوله: ﴿نفساً زاكية﴾ قال: مسلمة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة، قال: لم تبلغ الخطايا. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، عن الحسن نحوه. وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿شيئاً نكراً﴾ قال: النكر أنكروا من العجب. وأخرج أحمد، عن عطاء قال: كتب نجدة الحروري إلى ابن عباس يسأله عن قتل الصبيان، فكتب إليه: إن كنت الخضر تعرف الكافر من المؤمن فاقتلهم. وزاد ابن أبي شيبة من طريق أخرى عنه: «ولكنك لا تعلم، قد نهى رسول الله ﷺ عن قتلهم فاعتزلهم». وأخرج مسلم، وأبو داود، والترمذي، وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند، وابن مروي، عن أبي بن كعب، عن النبي ﷺ قال: «الغلام الذي

عليه، وما كان عندهم خبر بأنه ﴿يلخذ كل سفينة غصبا﴾ أي: كل سفينة صالحة لا معيبة، وقد قرئ بزيادة صالحة روي ذلك عن أبي وابن عباس. وقرأ جماعة بتشديد السين من مساكين، واختلف في معناها، فقيل: هم ملاحو السفينة، وذلك أن المساك هو الذي يمسك السفينة، والأظهر قراءة الجمهور بالتخفيف ﴿وأما الغلام﴾ يعني: الذي قتله ﴿فكان لبواه مؤمناً﴾ أي: ولم يكن هو كذلك ﴿فخشينا أن يرهقهما﴾ أي: يرهق الغلام أبويه، يقال رهقه أي: غشيه، وأرهقه أغشاه. قال المفسرون: معناه خشينا أن يحملهما حبه على أن يتبعاه في دينه، وهو الكفر، و ﴿طغيانا﴾ مفعول يرهقهما ﴿وكفراً﴾ معطوف عليه، وقيل: المعنى فخشينا أن يرهق الولدين طغياناً عليهما وكفراً لنعمتهما بعقوقه. قيل: ويجوز أن يكون فخشينا من كلام الله، ويكون المعنى: كرهنا كراهة من خشى سوء عاقبة أمره فغيره، وهذا ضعيف جداً، فالكلام كلام الخضر. وقد استشكل بعض أهل العلم قتل الخضر لهذا الغلام بهذه العلة، فقيل: إنه كان بالغاً وقد استحق ذلك بكفره؛ وقيل: كان يقطع الطريق فاستحق القتل لذلك، ويكون معنى فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً: أن الخضر خاف على الأبوين أن ينبا عنه ويتعصبا له فيقعوا في المعصية، وقد يؤدى ذلك إلى الكفر والارتداد. والحاصل أنه لا إشكال في قتل الخضر له إذا كان بالغاً كافراً أو قاطعاً للطريق هذا فيما تقتضيه الشريعة الإسلامية، ويمكن أن يكون للخضر شريعة من عند الله سبحانه تسوّغ له ذلك، وأما إذا كان الغلام صبياً غير بالغ، فقيل: إن الخضر علم بإعلام الله له أنه لو صار بالغاً لكان كافراً يتسبب عن كفره بإضلال أبويه وكفرهما، وهذا وإن كان ظاهر الشريعة الإسلامية بإباه، فإن قتل من لا ذنب له ولا قد جرى عليه قلم التكليف لخشية أن يقع منه بعد بلوغه ما يجوز به قتله لا يحل في الشريعة المحمدية، ولكنه حل في شريعة أخرى، فلا إشكال. وقد ذهب الجمهور إلى أن الخضر كان نبياً ﴿فأردنا أن يبينلهم ربهما خيراً منه﴾ قرأ الجمهور بفتح الباء الموحدة وتشديد الدال. وقرأ عاصم وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب بسكون الباء وتخفيف الدال، والمعنى: أردنا أن يرزقهما الله بدل هذا الولد ولداً خيراً منه ﴿زكاة﴾ أي: نبينا وصالحاً وطهارة من الذنوب ﴿واقرب رحماً﴾ قرأ ابن عباس، وحزمة، والكسائي، وابن كثير، وابن عامر (رحماً) بضم الحاء. وقرأ الباقر بسكونها، ومعنى الرحم: الرحمة، يقال: رحمه الله رحمة ورحمى، والألف للثانيث ﴿وأما الجدار﴾ يعني: الذي أصلحه ﴿فكان لغلامين يتيمين في المدينة﴾ هي القرية المذكورة سابقاً، وفيه جواز إطلاق اسم المدينة على القرية لغة ﴿وكان تحته كنز لهما﴾ قيل: كان مالا جسيماً كما يفيد اسم الكنز، إذ هو المال المجموع. قال الزجاج: المعروف في اللغة أن الكنز إذا أقرد فمعناه: المال المنفون، فإذا لم يكن مالا قيل: كنز علم وكنز فهم؛ وقيل: لوح من ذهب، وقيل: صحف مكتوبة

قتله الخضر طبع يوم طبع كافراً، ولو أشرك لأرهق أبويه طغياناً وكفراً». وأخرج أبو داود، والترمذي، وعبد الله بن أحمد والبزار، وابن المنذر، والطبراني، وابن مردويه، عن أبي: «أن النبي ﷺ قرأ ﴿مَنْ لَبِنِي عَذْرَاءٌ﴾ مثقلة». وأخرج ابن مردويه عن أبي: «أن النبي ﷺ قرأ ﴿أَنْ يَضِيفُوهُمَا﴾ مشددة». وأخرج ابن الأنباري في المصاحف، وابن مردويه عن أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ: «أنه قرأ ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ﴾ فهمه، ثم قعد بينيه». قلت: رواية الصحيحين التي قدمناها أنه مسحه بيده أولى. وأخرج الفريابي في معجمه، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن أبي: «أن النبي ﷺ قرأ ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَخَذْتَ عَلَيْهِ لَجْراً﴾ مخففة». وأخرج ابن أبي شيبة، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، والحاكم وصححه، وابن مردويه، عن ابن عباس، عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «رحمة الله علينا وعلى موسى. لو صبر لقصَّ الله علينا من خبره، ولكن ﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتِكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تَصَاحِبْنِي﴾». وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، عن ابن عباس: «أن النبي ﷺ كان يقرأ ﴿وَكَانَ أَمَامَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ غَضْباً﴾». وأخرج ابن الأنباري، عن أبي بن كعب أنه قرأها كذلك. وأخرج أبو عبيد، وابن المنذر، عن أبي الزاهرية قال: كتب عثمان (وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصباً). وأخرج أبو عبيد، وسعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري، عن ابن عباس أنه كان يقرأ (وأما الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين). وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن قتادة قال: هي في مصحف عبد الله (فخاف ربك أن يرهقهما طغياناً وكفراً). وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿خَيْرٌ أَمِنْهُ زَكَاةٌ﴾ قال: ديناً ﴿وَأَقْرَبُ رَحْماً﴾ قال: مودة، فأبدل جارية ولدت نبياً. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾ قال: كان الكنز لمن قبلنا وحرّم علينا، وحرّمت الغنيمة على من كان قبلنا وأحلّت لنا، فلا يعجب الرجل، فيقول: فما شأن الكنز، أحلّ لمن قبلنا وحرّم علينا؟ فإن الله يحلّ من أمره ما يشاء ويحرّم ما يشاء، وهي السنن والفرائض، يحلّ لامة ويحرّم على أخرى. وأخرج البخاري في تاريخه، والترمذي وحسنه، والبزار، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾ قال: ذهب وفضة. وأخرج الطبراني عن أبي الدرداء في قوله: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾ قال: أحلت لهم الكنوز وحرّمت عليهم الغنائم، وأحلّت لنا الغنائم وحرّمت علينا الكنوز. وأخرج البزار، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن أبي ذر رفعه قال: «إن الكنز الذي ذكره الله في كتابه لوح من ذهب مصمت فيه: عجبت لمن أبقن بالقدر ثم نصب، وعجبت

القرنين خيراً. وذلك بطريق الوحي المتكلم. ثم شرع سبحانه في بيان ما أمر به رسوله أن يقوله لهم من أنه سيتلو عليهم منه نكراً فقال: ﴿إنا مكنأ له في الأرض﴾ أي: أقدرنه بما مهدنا له من الأسباب، فجعلنا له مكنة وقدرة على التصرف فيها، وسهلّ عليه المسير في مواضعها، ونلّ له طرقها حتى تمكن منها أين شاء وكيف شاء؟ ومن جملة تمكينه فيها أنه جعل له الليل والنهار سواء في الإضاءة ﴿وأتبعناه من كل شيء﴾ مما يتعلق بمطلوبه ﴿سبباً﴾ أي: طريقاً يتوصل بها إلى ما يريده ﴿فأتبع سبباً﴾ من تلك الأسباب. قال المفسرون: والمعنى طريقاً تؤديه إلى مغرب الشمس. قال الزجاج: فأتبع سبباً من الأسباب التي أوتي، وذلك أنه أوتي من كل شيء سبباً فأتبع من تلك الأسباب التي أوتي سبباً في المسير إلى المغرب، وقيل: أتبع من كل شيء علماً يتسبب به إلى ما يريد؛ وقيل: بلاغاً إلى حيث أراد؛ وقيل: من كل شيء يحتاج إليه الخلق؛ وقيل: من كل شيء تستعين به الملوك من فتح المدائن وقهر الأعداء. وأصل السبب الحبل فاستعين لكل ما يتوصل به إلى شيء. قرأ ابن عامر، وأهل الكوفة، وعاصم، وحمرزة، والكسائي (فأتبع) بقطع الهمزة، وقرأ أهل المدينة وأهل مكة وأبو عمرو بوصلها. قال الأخفش: تبعته وأتبعته بمعنى. مثل ردفته وأردفته، ومنه قوله: ﴿فأتبعه شهاب ثاقب﴾ [الصفاء: 10]. قال النحاس: واختار أبو عبيدة قراءة أهل الكوفة، قال: لأنها من السير. وحكى هو والأصمعي أنه يقال: تبعته وأتبعته إذا سار ولم يلحقه، وأتبعه إذا لحقه. قال أبو عبيدة: ومثله ﴿فأتبعوهم مشرقين﴾ [الشعراء: 60]. قال النحاس: وهذا من الفرق وإن كان الأصمعي قد حكاه فلا يقبل إلا يعلم أو ليل، وقوله عز وجل: ﴿فأتبعوهم مشرقين﴾ [الشعراء: 60] ليس في الحديث أنهم لحقوهم، وإنما الحديث لما خرج موسى وأصحابه من البحر وحصل فرعون وأصحابه في البحر انطبق عليهم البحر. والحق في هذا أن تبع وأتبع وأتبع لغات بمعنى واحد، وهو بمعنى: السير ﴿حتى إذا بلغ مغرب الشمس﴾ أي: نهاية الأرض من جهة المغرب، لأن من وراء هذه النهاية البحر المحيط، وهو لا يمكن المضى فيه ﴿وجدها تغرب في عين حمئة﴾ قرأ ابن عامر، وعاصم، وحمرزة، والكسائي حامية: أي: حارة. وقرأ الباقر (حمئة) أي: كثيرة الحماة، وهي الطينة السوداء، تقول: حمئت البثر حمماً بالتسكين إذا نزع حماتها، وحمات البثر حماتها بالتحريك كثرت حماتها، ويجوز أن تكون حامية من الحماة، فخففت الهمزة وقلبت ياء، وقد يجمع بين القراءتين فيقال: كانت حارة وذات حماة. قيل: ولعل ذا القرنين لما بلغ ساحل البحر المحيط رأها كذلك في نظره، ولا يبعد أن يقال: لا مانع من أن يمكنه الله من عبور البحر المحيط حتى يصل إلى تلك العين التي تغرب فيها الشمس، وما المانع من هذا بعد أن حكى الله عنه أنه بلغ مغرب الشمس، ومكن له في الأرض والبحر من جعلتها، ومجرد الاستبعاد لا يوجب حمل

تشهد به كتب التاريخ؛ قال: فوجب القطع بأن ذا القرنين هو الإسكندر، قال: وفيه إشكال لأنه كان تلميذاً لأرسطاطاليس الحكيم، وكان على مذهبه، فتعظيم الله إياه يوجب الحكم بأن مذهب أرسطاطاليس حق وصديق، وذلك مما لا سبيل إليه. قال النيسابوري: قلت: ليس كل ما ذهب إليه الفلاسفة باطلاً فلعله أخذ منهم ما صفا وترك ما كدر والله أعلم. ورجح ابن كثير ما ذكره السهيلي أنهما اثنان كما قدّمنا ذلك، وبين أن الأول طاف بالبيت مع إبراهيم أول ما بناه وآمن به وأتبعه وكان وزيره الخضر. وأما الثاني فهو الإسكندر المقدوني اليوناني، وكان وزيره الفيلسوف المشهور أرسطاطاليس، وكان قبل المسيح بنحو من ثلثمائة سنة. فاما الأول المنكور في القرآن فكان في زمن الخليل، هذا معنى ما ذكره ابن كثير في تفسيره روياً له عن الأزرقي وغيره؛ ثم قال: وقد ذكرنا طرفاً صالحاً في أخباره في كتاب البداية والنهاية بما فيه كفاية. وحكى أبو السعود في تفسيره عن ابن كثير أنه قال: وإنما بينا هذا يعني: أنهما اثنان، لأن كثيراً من الناس يعتقد أنهما واحد، وأن المنكور في القرآن العظيم هو هذا المتأخر، فيقع بذلك خطأ كبير وفساد كثير، كيف لا، والأول كان عبداً صالحاً مؤمناً، وملكاً عادلاً، ووزيره الخضر، وقد قيل: إنه كان نبياً، وأما الثاني فقد كان كافراً، ووزيره أرسطاطاليس الفيلسوف، وكان ما بينهما من الزمان أكثر من ألفي سنة، فأين هذا من ذلك؟ انتهى. قلت: لعله نكر هذا في الكتاب الذي ذكره سابقاً، وسماه بالبداية والنهاية ولم يقف عليه، والذي يستفاد من كتب التاريخ هو أنهما اثنان كما نكره السهيلي والأزرقي وابن كثير وغيرهم لا كما نكره الرازي وأدعى أنه الذي تشهد به كتب التواريخ، وقد وقع الخلاف هل هو نبي أم لا؟ وسيأتي ما يستفاد منه المطلوب آخر هذا البحث إن شاء الله.

وأما السبب الذي لأجله سمي ذا القرنين، فقال الزجاج والأزهري: إنما سمي ذا القرنين، لأنه بلغ قرن الشمس من مطلعها، وقرن الشمس من مغربها؛ وقيل: إنه كان له ضفيريّتان من شعر، والصفائر تسمى قرونًا، ومنه قول الشاعر:

فلثمت فاما أخذاً بقرونها شرب النزيف ببرد ماء الحشرج
والحشرج ماء من مياه العرب؛ وقيل: إنه رأى في أول ملكه كائنه قابض على قرني الشمس فسمي بذلك، وقيل: كان له قرنان تحت عمامته؛ وقيل: إنه دعا إلى الله فشجبه قومه على قرنه، ثم دعا إلى الله فشجوه على قرنه الآخر، وقيل: إنما سمي بذلك لأنه كريم الطرفين من أهل بيت شرف من قبل أبيه وأمه، وقيل: لأنه انقرض في وقته قرنان من الناس وهو حي، وقيل: لأنه كان إذا قاتل قاتل بيديه وركابيه جميعاً، وقيل: لأنه أعطي علم الظاهر والباطن، وقيل: لأنه دخل النور والظلمة، وقيل: لأنه ملك فارس والروم، وقيل: لأنه ملك الروم والترك، وقيل: لأنه كان لتاجه قرنان. قوله: ﴿قل سائلوا عليكم منه نكراً﴾ أي: سألوا عليكم أيها السائلون من ذي

المانع شرعاً ولا عقلاً من وصوله إليه كما أوضحناه فيما سبق **﴿وجودها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً﴾** يستترهم، لا من البيوت ولا من اللباس، بل هم حفاة عراة لا يلبسون إلى شيء من العمارة. قيل: لأنهم بارض لا يمكن أن يستقر عليها البناء **﴿كنكك﴾** وقد أحطنا بما لديه خبراً. أي: كذلك أمر ذي القرنين أتبع هذه الأسباب حتى بلغ، وقد علمنا حين ملكناه ما عنده من الصلاحية لذلك الملك والاستقلال به؛ وقيل: المعنى لم نجعل لهم ستراً مثل ذلك الستر الذي جعلنا لكم من الأبنية والثياب، وقيل: للمعنى كذلك بلغ مطلع الشمس مثل ما بلغ من مغربها، وقيل: المعنى كذلك تطلع على قوم مثل تلك القبيل الذي تغرب عليهم، فقضي في هؤلاء كما قضي في أولئك من تعذيب الظالمين والإحسان إلى المؤمنين، ويكون تأويل الإحاطة بما لديه في هذه الوجوه على ما يناسب ذلك كما قلنا في الوجه الأول.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال: «قالت اليهود للنبي ﷺ: يا محمد إنك إنما تذكر إبراهيم وموسى وعيسى والنبيين، إنك سمعت نكرهم منا، فأخبرنا عن نبي لم يذكره الله في التوراة إلا في مكان واحد، قال: ومن هو؟ قالوا: ذو القرنين، قال: ما بلغني عنه شيء، فخرجوا فرحين قد غلبوا في أنفسهم، فلم يبلغوا باب البيت حتى نزل جبريل بهؤلاء الآيات **﴿ويسالونك عن ذي القرنين﴾**». وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أدري أتبع كان نبياً أم لا؟ وما أدري أنو القرنين كان نبياً أم لا؟ وما أدري الحدود كفارات لأهلها أم لا؟»، وأخرج ابن مردويه عن سالم بن أبي الجعد قال: سئل علي عن ذي القرنين أنبي هو؟ قال: سمعت نبيكم ﷺ يقول: «هو عبد ناصح لله فنصحه». وأخرج ابن عبد الحكم في فتوح مصر، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري في المصاحف، وابن أبي عاصم في السنة، وابن مردويه من طريق أبي الطفيل: أن ابن الكواء سأل علي بن أبي طالب عن ذي القرنين أنبياً كان أم ملكاً؟ قال: لم يكن نبياً ولا ملكاً، ولكن كان عبداً صالحاً أحب الله فأحبه الله، ونصح لله فنصحه الله، بعثه الله إلى قومه فضربوه على قرنه فمات، ثم أحياه الله لجهادهم، ثم بعثه الله إلى قومه فضربوه على قرنه الآخر فمات، فأحياه الله لجهادهم، فلذلك سمي ذا القرنين، وإن فيكم مثله. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عمرو قال: نو القرنين نبي. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الأخرس بن حكيم، عن أبيه، أن النبي ﷺ سئل عن ذي القرنين فقال: «هو ملك مسح الأرض بالأسباب». وأخرج ابن عبد الحكم في فتوح مصر، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة عن خالد بن معدان الكلاعي مرفوعاً مثله. وأخرج ابن عبد الحكم، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري في كتاب الأضداد، وأبو الشيخ عن عمر بن

القرآن على خلاف ظاهره **﴿وجود عندها قوماً﴾** الضمير في عندها إما للعين أو للشمس. قيل: هم قوم لباسهم جلود الوحش، وكانوا كفاراً، فخيرهم الله بين أن يعذبهم وبين أن يتركهم، فقال: **﴿إما أن تعذب، وإما أن تتخذ فيهم حسناً﴾** أي: إما أن تعذبهم بالقتل من أول الأمر، وإما أن تتخذ فيهم أمراً ذا حسن أو أمراً حسناً مبالغاً بجعل المصدر صفة للامر، والمراد: دعوتهم إلى الحق وتعليمهم الشرائع. **﴿قال﴾** ذو القرنين مختاراً للدعوة التي هي الشق الأخير من الترييد **﴿إما من ظلم﴾** نفسه بالإصرار على الشرك ولم يقبل دعوتي **﴿فسوف نعذبه﴾** بالقتل في الدنيا **﴿ثم يرد إلى ربه﴾** في الآخرة **﴿فيعذبه﴾** فيها **﴿عذاباً نكراً﴾** أي: منكرأ فظيماً. قال الزجاج: خيرهم الله بين الأمرين. قال النحاس: ورد علي بن سليمان قوله لأنه لم يصح أن ذا القرنين نبي فيخاطب بهذا، فكيف يقول لربه عز وجل **﴿ثم يرد إلى ربه﴾** وكيف يقول: **﴿فسوف نعذبه﴾** فيخاطبه بالنون، قال: والتقدير قلنا: يا محمد قالوا: يا ذا القرنين. قال النحاس: وهذا الذي نكره لا يلزم لجواز أن يكون الله عز وجل خاطبه على لسان نبي في وقته، وكان ذا القرنين خاطب أولئك القوم فلا يلزم ما نكره. ويمكن أن يكون مخاطباً للنبي الذي خاطبه الله على لسانه، أو خاطب قومه الذين وصل بهم إلى ذلك الموضع. قال ثعلب: إن في قوله: **﴿إما أن تعذب وإما أن تتخذ﴾** في موضع نصب، ولو رفعت لكان صواباً بمعنى فاما هو كقول الشاعر:

فسيروا فإما حجة تقضيانها وإما مقيل صالح وصديق
﴿وإما من آمن﴾ بالله وصلق دعوتي **﴿وعمل﴾** عملاً **﴿صالحاً﴾** مما يقتضيه الإيمان **﴿فله جزاء الحسنى﴾** قرأ أهل المدينة وأبو عمرو وعاصم وابن كثير وابن عامر (فله جزاء) بالرفع على الابتداء أي: جزاء الخصلة الحسنى عند الله، أو الفعلة الحسنى وهي الجنة قاله الفراء. وإضافة الجزاء إلى الحسنى التي هي الجنة كإضافة حق اليقين ودار الآخرة، ويجوز أن يكون هذا الجزاء من ذي القرنين أي: أعطيه وأفضل عليه، وقرأ سائر الكوفيين (فله جزاء الحسنى) بنصب جزاء وتنوينه. قال الفراء: انتصابه على التمييز. وقال الزجاج: هو مصدر في موضع الحال أي مجزياً بها جزاء. وقرأ ابن عباس ومسروق بنصب (جزاء) من غير تنوين. قال أبو حاتم: هي على حذف التنوين لالتقاء الساكنين. قال النحاس: وهذا عند غيره خطأ لأنه ليس موضع حذف تنوين لالتقاء الساكنين. وقرئ برفع (جزاء) منوناً على أنه مبتدأ، والحسنى بدل منه والخبر الجاز والمجرور **﴿وسنقول له من أمرنا يسراً﴾** أي: مما نأمر به قولاً ذا يسر ليس بالصعب الشاق، أو أطلق عليه المصدر مبالغاً **﴿ثم تتبع سبباً﴾** أي: طريقاً آخر غير الطريق الأولى وهي التي رجع بها من المغرب وسار فيها إلى المشرق **﴿حتى إذا بلغ مطلع الشمس﴾** أي: الموضع الذي تطلع عليه الشمس أولاً من معمور الأرض، أو مكان طلوعها لعلم

الترمذي، وأبو داود الطيالسي، وابن جرير، وابن المنذر عن أبي بن كعب أن النبي ﷺ: «كان يقرأ ﴿في عين حمفة﴾». وأخرج الطبراني، والحاكم، وابن مردويه عن ابن عباس مرفوعاً مثله.

ثُمَّ أُنْبِئَ سَبَّاحًا ﴿١٧﴾ حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿١٨﴾ قَالُوا يَا بَنَا الْعَرَبَيْنِ إِنَّا يَا جَبَّارُ وَمُجَرِّجُ مَقِيدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ يَجْعَلُ لَكَ حَرْمًا عَلَا أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿١٩﴾ قَالَ مَا مَكْنِي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٢٠﴾ آتُونِي زُبُرَ الْحَبْلِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَّيْنِ قَالَ أُنْشِئُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٢١﴾ فَمَا اسْتَطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَمْ يَقْبَا ﴿٢٢﴾ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٢٣﴾

ثم حكى سبحانه سفر ذي القرنين إلى ناحية أخرى، وهي ناحية القطر الشمالي بعد تهية أسبابه فقال: ﴿ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا﴾ أي: طريقاً ثالثاً معترضاً بين المشرق والمغرب ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحفص، وابن محيصن، ويحيى اليزيدي، وأبو زيد، عن المفضل بفتح السين. وقرأ الباقون بضمها. قال أبو عبيدة وابن الأنباري وأبو عمرو بن العلاء: السد إن كان خلق الله سبحانه فهو بضم السين حتى يكون بمعنى مفعول أي: هو مما فعله الله وخلقه، وإن كان من عمل العباد فهو بالفتح حتى يكون حدثاً. وقال ابن الأعرابي: كل ما قابلك فسد ما وراءه فهو سدٌ وسد نحو الضعف والضعف، والفقر والفقر، والسدان هما جبلان من قبل أرمينية وأنربيجان، وانتصاب بين على أنه مفعول به كما ارتفع بالفاعلية في قوله: ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: 94]. وقيل: موضع بين السدين هو منقطع أرض الترك مما يلي المشرق لا جبلاً أرمينية وأنربيجان. وحكى ابن جرير في تاريخه أن صاحب أنربيجان أيام فتحها وجه إنساناً من ناحية الجزر فشاهده، ووصف أنه بنيان رفيع وراء خندق وثيق منيع، و ﴿وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا﴾ أي: من ورائهما مجازاً عنهما، وقيل: أمامهما ﴿قَوْمًا لَا يَكُونُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ قرأ حمزة والكسائي (يفقهون) بضم الياء وكسر القاف من أفقه إذا أبان أي: لا يبينون لغيرهم كلاماً، وقرأ الباقون بفتح الياء والقاف أي: لا يفهمون كلام غيرهم، والقراءتان صحيحتان، ومعناهما: لا يفهمون عن غيرهم ولا يفهمون غيرهم، لأنهم لا يعرفون غير لغة أنفسهم ﴿قَالُوا﴾ أي: هؤلاء القوم الذين لا يفهمون قولاً، قيل: إن فهم ذي القرنين لكلامهم من جملة الأسباب التي أعطاه الله، وقيل: إنهم قالوا ذلك لترجمانهم، فقال لذي القرنين بما قالوا له ﴿يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنْ يَأْجُوجُ وَمَاجُوجُ مَفْسُودُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ ياجوج وماجوج اسمان عجميان بدليل منع صرفهما، وبه قال الأكثر. وقيل: مشتقان من أج الظلم في مشبه إذا هرول، وتأججت النار إذا تلهبت، قراهما الجمهور بغير همز، وقرأ عاصم بالهمز. قال ابن الأنباري:

الخطاب: أنه سمع رجلاً ينادي بمنى يا ذا القرنين، فقال عمر: ها أنتم قد سمعتم بأسماء الأنبياء فما بالك وأسماء الملائكة؟ وفي الباب غير ما نكرناه مما يغني عنه ما قد أوردناه. وقد أخرج ابن عبد الحكم في فتوح مصر، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي في الدلائل عن عقبة بن عامر الجهني حديثاً يتضمن: «أن نقرأ من اليهود سألوا النبي ﷺ عن ذي القرنين، فأخبرهم بما جاءوا له ابتداء، وكان فيما أخبرهم به أنه كان شاباً من الروم، وأنه بنى الإسكندرية، وأنه علا به ملك في السماء، وذهب به إلى السد، وإسناده ضعيف، وفي متنه نكارة، وأكثر ما فيه أنه من أخبار بني إسرائيل، نكر معنى هذا ابن كثير في تفسيره وعزاه إلى ابن جرير والأموي في مغازيه، ثم قال بعد ذلك: والعجب أن أبا زرعة الداري مع جلالة قدره ساقه بتمامه في كتابه دلائل النبوة، انتهى. وقد ساقه بتمامه السيوطي في الدر المنثور، وساق أيضاً خبراً طويلاً عن وهب بن منبه وعزاه إلى ابن إسحاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والشيرازي في الألقاب، وأبي الشيخ، وفيه أشياء منكورة جداً، وكذلك نكر خبراً طويلاً عن محمد الباقر أخرجه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ، ولعل هذه الأخبار ونحوها منقولة عن أهل الكتاب، وقد أمرنا بأن لا تصدقهم ولا نكذبهم فيما ينقلونه إلينا. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ قال: علماء. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن أبي هلال: أن معاوية بن أبي سفيان قال لكعب الأحبار: أنت تقول إن ذا القرنين كان يربط خيله بالثرية، قال له كعب: إن كنت قلت ذلك فإن الله قال: ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق عثمان بن أبي حاصر، أن ابن عباس نكر له: أن معاوية بن أبي سفيان قرأ الآية التي في سورة الكهف ﴿تَغْرِبُ فِي عَيْنِ حَامِيَةٍ﴾ قال ابن عباس: فقلت لمعاوية: ما نقرأها إلا (حمئة) فسأل معاوية عبد بن عمرو كيف تقرؤها؟ فقال عبد الله: كما قرأتها، قال ابن عباس: فقلت لمعاوية: في بيتي نزل القرآن، فأرسل إلى كعب، فقال له: أين تجد الشمس تغرب في التوراة؟ فقال له كعب: سل أهل العربية فإنهم أعلم بها، وأما أنا فإنني أجد في التوراة في ماء وطن، وأشار بيده إلى المغرب. قال ابن أبي حاصر: لو أنني عند كما أيتك بكلام تزداد به بصيرة في حمئة. قال ابن عباس: وما هو؟ قلت: فيما نأثر قول تبع فيما نكر به ذا القرنين في كلفه بالعلم واتباعه إياه:

قد كان ذو القرنين عمر مسلماً ملكاً نزل له الملوك وتحشد فأتى المشرق والمغرب يبتغي أسباب ملك من حكيم مرشد فرأى مغيب الشمس عند غروبها في عين ذي خلب وثاط خرمد فقال ابن عباس: ما الخلب؟ قلت: الطين بكلامهم، قال: فما الثاط؟ قلت: الحمأة. قال: فما الخرمد؟ قلت: الأسود، فدعا ابن عباس غلاماً فقال: اكتب ما يقول هذا الرجل. وأخرج

يقال: ردمت الثلثة أردمها بالكسر ردماً أي: سدتها، والردم أيضاً الاسم، وهو السد، وقيل: الردم أبلغ من السد، إذ السد كل ما يسد به، والردم: وضع الشيء على الشيء من حجارة أو تراب أو نحوهما حتى يقوم من ذلك حجاب منيع، ومنه ردم ثوبه: إذا رقعته برقاع متكاثفة بعضها فوق بعض، ومنه قول عنتره:

هل غادر الشعراء من مترنم

أي: من قول يركب بعضه على بعض ﴿آتوني زير الحديد﴾ أي: أعطوني ونلوني، وزير الحديد جمع زبرة، وهي القطعة. قال الخليل: الزبرة من الحديد القطعة الضخمة. قال الفراء: معنى ﴿آتوني زير الحديد﴾ آتوني بها فلما ألقيت الياء زربت ألفاً، وعلى هذا فانتصاب زير بنزع الخافض ﴿حتى إذا ساوى بين الصدفين﴾ والصدفان: جانبا الجبل. قال الأزهري: يقال لجانبي الجبل صدفان إذا تحانيا لتصانفهما أي: تلاقيهما، وكذا قال أبو عبيدة والهروي. قال الشاعر:

كلا الصدفين ينفذه سناهما تود مثل مصباح الظلام
وقد يقال: لكل بناء عظيم مرتفع صنف، قاله أبو عبيدة. قرأ نافع، وحزمة، والكسائي، وحفص الصدفين بفتح الصاد والدال. وقرأ ابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو، ويعقوب، واليزيدي، وابن محيصن بضم الصاد والدال. وقرأ عاصم في رواية أبي بكر بضم الصاد وسكون الدال. وقرأ ابن الماجشون بفتح الصاد وضم الدال، واختار القراءة الأولى أبو عبيد لأنها أشهر اللغات. ومعنى الآية: أنهم أعطوه زير الحديد، فجعل بيني بها بين الجبلين حتى ساواهما ﴿قال انفضخوا﴾ أي قال للعملة: انفضخوا على هذه الزير بالكيران ﴿حتى إذا جعله ناراً﴾ أي: جعل تلك المنفوخ فيه، وهو الزير ناراً أي: كالنار في حرها وإسناد الجمل إلى ذي القرنين مجاز لكونه الأمر بالنفخ. قيل: كان يأمر بوضع طاقة من الزير والحجارة ثم يوقد عليها الحطب والفحم بالمنافخ حتى تحمي، والحديد إذا أوقد عليه صار كالنار، ثم يؤتى بالنحاس المذاب فيفرغه على تلك الطاقة، وهو معنى قوله: ﴿قال آتوني أفرغ عليه قطراً﴾ قال أهل اللغة: القطر النحاس الذائب، والإفراغ: الصب، وكذا قال أكثر المفسرين. وقالت طائفة: القطر الحديد المذاب. وقالت فرقة أخرى منهم ابن الأنباري: هو الرصاص المذاب ﴿فما استطاعوا﴾ أصله استطاعوا، فلما اجتمع المتقاربان، وهما التاء والطاء خففوا بالحنف. قال ابن السكيت: يقال: ما أستطيع، وما أسطيع، وما أستطيع، وبالتخفيف قرأ الجمهور، وقرأ حمزة وحده (فما استطاعوا) بتشديد الطاء كأنه أراد استطاعوا فادغم التاء في الطاء وهي قراءة ضعيفة الوجه، قال أبو علي الفارسي: هي غير جائزة. وقرأ الأعمش (فما استطاعوا) على الأصل، ومعنى ﴿أن يظهره﴾ أن يعلوه أي: فما استطاع بأجوج ومالجوج أن يعلوا على تلك الردم لارتفاعه وملاسته ﴿وما استطاعوا له نقباً﴾ يقال نقبت الحائط: إذا خرقت فيه خرقة

وجه مزمزما وإن لم يعرف له أصل أن العرب قد همزت حروفاً لا يعرف للهمز فيها أصل كقولهم: كباث ورثاث واستشفاث الريح. قال أبو علي: يجوز أن يكونا عربيين، فمن همز فهو على وزن يفعل مثل يربوع، ومن لم يهمز أمكن أن يكون خفف الهمزة فقبلها ألفاً مثل رأس. وأما مالجوج، فهو مفعول من أج، والكلمتان من أصل واحد في الاشتقاق. قال: وترك الصرف فيهما على تقدير كونهما عربيين للتأنيث والتعريف كأنه اسم للقبيلة.

واختلف في نسبهم؛ فقيل: هم من ولد يافث بن نوح، وقيل: يأجوج من الترك ومالجوج من الجبل والدليم. وقال كعب الأحبار: احتلم آدم فاختلط ماؤه بالتراب فخلقوا من ذلك الماء. قال القرطبي: وهذا فيه نظر، لأن الأنبياء لا يحتملون، وإنما هم من ولد يافث، كذلك قال مقاتل وغيره.

وقد وقع الخلاف في صفتهم؛ فمن الناس: من يصفهم بصغر الجثث وقصر القامة، ومنهم من يصفهم بكبر الجثث وطول القامة، ومنهم: من يقول: لهم مخالب كمخالب السباع، وإن منهم: صنفاً يفتش إحدى أنفيه ويلتحف بالأخرى، ولأهل العلم من السلف ومن بعدهم أخبار مختلفة في صفاتهم وأفعالهم.

واختلف في إفسادهم في الأرض؛ فقيل: هو أكل بني آدم؛ وقيل: هو الظلم والغشم والقتل وسائر وجوه الإفساد؛ وقيل: كانوا يخرجون إلى أرض هؤلاء القوم الذين شكواهم إلى ذي القرنين في أيام الربيع فلا يدعون فيها شيئاً أخضر إلا أكلوه ﴿فهل تجعل لك خراجاً﴾ هذا الاستفهام من باب حسن الأدب مع ذي القرنين. وقرئ (خراجاً). قال الأزهري: الخراج يقع على الضريبة ويقع على مال الفيء، ويقع على الجزية وعلى الفلّة. والخراج أيضاً اسم لما يخرج من الفرائض في الأموال، والخرج المصدر. وقال قطرب: الخرج الجزية والخراج في الأرض، وقيل: الخرج ما يخرج كل أحد من ماله، والخراج ما يجبيه السلطان؛ وقيل: هما بمعنى واحد ﴿على أن تجعل بيننا وبينهم سداً﴾ أي: ردماً حاجزاً بيننا وبينهم. وقرئ سداً بفتح السين. قال الخليل وسيبويه: الضم هو الاسم، والفتح المصدر. وقال الكسائي: الفتح والضم لغتان بمعنى واحد، وقد سبق قريباً ما حكيناه عن أبي عمرو بن العلاء، وأبي عبيدة، وابن الأنباري من الفرق بينهما. وقال ابن أبي إسحاق: ما رأته عينك فهو سد بالضم، وما لا ترى فهو سد بالفتح، وقد قدمنا بيان من قرأ بالفتح وبالضم في السنين ﴿قال ما مكني فيه ربي﴾ أي قال لهم ذو القرنين: ما بسطه الله لي من القدرة والملك ﴿خير﴾ من خرجكم، ثم طلب منهم المعاونة له فقال: ﴿فاعينوني بقوة﴾ أي: برجال منكم يعملون بأيديهم، أو أعينوني بألات البناء، أو بمجموعهما. قال الزجاج: يعمل تعملونه معي. قرأ ابن كثير وحده (ما مكنتي) بنونين، وقرأ الباقون بنون واحدة ﴿لجعل بينكم وبينهم ردماً﴾ هذا جواب الأمر، والردم: ما جعل بعضه على بعض حتى يتصل. قال الهروي:

فيستقون المياه. ويتحصن الناس منهم في حصونهم، فيرمون بسهامهم إلى السماء فترجع مخضبة بالدماء، فيقولون قهرنا من في الأرض وعلونا من في السماء قسراً وعلوا، فيبعث الله عليهم نغفاً في أفتانهم فيهلكون، قال رسول الله ﷺ: فالذي نفس محمد بيده إن دواب الأرض لتسمن وتيطر وتشكر شكراً من لحومهم». وقد ثبت في الصحيحين من حديث زينب بنت جحش قالت: «استيقظ رسول الله ﷺ من نومه وهو محمّر وجهه وهو يقول: لا إله إلا الله، ويل للعرب من شرّ قد اقترب، فتح اليوم من رجم يأجوج ومأجوج مثل هذه وحلق، قلت: يا رسول الله انهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم، إذا كثرت الخبث». وأخرجنا نحوه من حديث أبي هريرة مرفوعاً. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿فَهَلْ نجعل لك خراجاً﴾ قال: أجراً عظيماً. وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿رِمْماً﴾ قال: هو كشد الحجاب. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿زَبر الحديد﴾ قال: قطع الحديد. وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه ﴿بين الصدفين﴾ قال: الجبلين. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: رؤوس الجبلين. وأخرج هؤلاء عن ابن عباس في قوله: ﴿قطراً﴾ قال: النحاس. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿فما استطاعوا أن يظهروه﴾ قال: أن يرتقوه. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال: أن يعلوه. وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿جعلناه نكاء﴾ قال: لا أدري الجبلين يعني به أم بينهما.

﴿وَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجٌ فِي بَعْضٍ وَنُفِثَ فِي السُّورِ نَجْمُهُمْ جَمًّا﴾^(١١) وَرَكْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرَسًا^(١٢) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غَنَاقٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْمَعُونَ مَعًا^(١٣) أَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَجْعَلُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا^(١٤) قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا^(١٥) الَّذِينَ سَلَ سَعِيمٍ فِي لَهْوِهِمُ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا^(١٦) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّائِهِمْ وَلَقَدْ لَعَنَّاهُمْ فَزَلُّوا زَلًّا مُّزْمًا^(١٧) فَجَاءَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ زُلْزَلًا^(١٨) لَئِنْ لَئِنْ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا^(١٩) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَمُوتُونَ فِيهَا

جَزْأً

قوله: ﴿وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض﴾ هذا من كلام الله سبحانه بعد انقضاء كلام ذي القرنين، والضمير في بعضهم ليأجوج ومأجوج أي: تركنا بعض يأجوج ومأجوج يوم مجيء الوعد، أو يوم خروج يأجوج ومأجوج يموج في بعض آخر منهم، يقال ماج الناس: إذا دخل بعضهم في بعض حيارى كموج الماء. والمعنى: أنهم يضطربون ويختلطون، وقيل: الضمير في بعضهم للخلق، واليوم يوم القيامة أي: جعلنا بعض الخلق من الجن والإنس يموج في بعض، وقيل: المعنى وتركنا يأجوج ومأجوج يوم

فخلص إلى ما وراءه. قال الزجاج: ما قدرنا أن يعلوا عليه لارتفاعه وانملأه، وما استطاعوا أن ينقبوه من أسفله لشنته وصلابته ﴿قال هذا رحمة من ربي﴾ أي: قال ذو القرنين مشيراً إلى السد: هذا السد رحمة من ربي أي: أثر من آثار رحمته لهؤلاء المتجاوزين للسد ولمن خلفهم ممن يخشى عليه معرفتهم لو لم يكن ذلك السد؛ وقيل: الإشارة إلى التمكن من بنائه ﴿فإذا جاء وعد ربي﴾ أي: أجل ربي أن يخرجوا منه، وقيل هو مصدر بمعنى المفعول، وهو يوم القيامة ﴿جعلناه نكاء﴾ أي: مستويّاً بالأرض ومنه قوله: ﴿حتى إذا نكت الأرض نكاً﴾ [الفجر: 21]. قال الترمذي: أي مستويّاً، يقال ناقة نكاء: إذا ذهب سنامها. وقال القتيبي: أي جعله منكوكاً ملصقاً بالأرض. وقال الحلبي: قطعاً منكسراً. قال الشاعر:

هل غير غلرك غلراً فانهدم

قال الأزهري: نكته أي: بقفته. ومن قرأ نكاه بالمد وهو عاصم وحزمة والكسائي أراد التشبيه بالناقعة النكاه، وهي التي لا سنام لها أي: مثل نكاه، لأن السد مذكر فلا يوصف بنكاه. وقرأ الباقون (نكاً) بالتثنية على أنه مصدر، ومعناه ما تقدم، ويجوز أن يكون مصدراً بمعنى الحال أي: منكوكاً ﴿وكان وعد ربي حقاً﴾ أي: وعده بالثواب والعقاب، أو الوعد المعهود حقاً ثابتاً لا يتخلف. وهذا آخر قول ذي القرنين.

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿حتى إذا بلغ بين السنين﴾ قال: الجبلين أرمينية وأنديجان. أخرج أيضاً عن ابن جريج ﴿لا يكدون يفقهون قولاً﴾ قال: الترك. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم صححه، وابن مروي عن ابن عباس قال: يأجوج ومأجوج شبر وشبران وأطولهم ثلاثة أشبار؛ وهم من ولد آدم. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر والطبراني وابن مروي، والبيهقي في البعث، وابن عساکر عن ابن عمرو عن النبي ﷺ قال: «إن يأجوج ومأجوج من ولد آدم ولو أرسلوا لأفسدوا على الناس معاشهم، ولا يموت منهم رجل إلا ترك من نريته ألفاً فصاعداً، وإن من ورائهم ثلاث أسم: تاويل، وتاريس، ومنسك». وأخرج النسائي من حديث عمرو بن أوس عن أبيه مرفوعاً: «أنه لا يموت رجل منهم إلا ترك من نريته ألفاً فصاعداً». وأخرج أحمد، والترمذي وحسنه، وابن ماجه، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مروي، والبيهقي في البعث عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض يحفرون السد كل يوم، حتى إذا كانوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم: ارجعوا فستفتحونه غداً، فيعودون إليه أشد ما كان، حتى إذا بلغت منتهم وأراد الله أن يبعثهم على الناس حفروا، حتى إذا كانوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم: ارجعوا فستفتحونه غداً إن شاء الله، ويستثنى فيعودون إليه وهو كهيشته حين تركوه، فيحفرون ويخرجون على الناس

﴿وَأُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ ويجوز أن يكون في محل جرّ على أنه نعت للأخسرين أو بدل منه، ويكون الجواب أيضاً هو أولئك وما بعده، وأول هذه الوجوه هو أولاهما، وجملة ﴿وَهُمْ يُحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يَحْسِنُونَ صَنْعاً﴾ في محل نصب على الحال من فاعل ضلّ أي: والحال أنهم يظنون أنهم محسنون في ذلك منتفعون بآثاره، وتكون جملة ﴿وَأُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ مستأنفة مسوقة لتكميل الخسران وبيان سببه، هذا على الوجه الأول الراجح لا على الوجوه الأخرى، فإنها هي الجواب كما قدمنا، ومعنى كفرهم بآيات ربهم: كفرهم بدلائل توحيده من الآيات التكوينية والتنزيلية، ومعنى كفرهم بقلائه: كفرهم بالبعث وما بعده من أمور الآخرة، ثم رتب على ذلك قوله: ﴿فَحَبِطَتِ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي: التي عملوها مما يظنونه حسناً، وهو خسران وضلال، ثم حكم عليهم بقوله: ﴿فَلَا تَقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ أي: لا يكون لهم عندنا قدر ولا نعيأ بهم، وقيل: لا يقام لهم ميزان توزن به أعمالهم، لأن ذلك إنما يكون لأهل الحسنات والسيئات من الموحدين، وهؤلاء لا حسنات لهم. قال ابن الأعرابي: العرب تقول ما لفلان عندنا وزن أي: قدر لخسته، ويوصف الرجل بأنه لا وزن له لخفته، وسرعة طيشه، وقلة تثبته. والمعنى على هذا أنهم لا يعتدّ بهم ولا يكون لهم عند الله قدر ولا منزلة، وقرأ مجاهد (يقيم) بالياء التحتية أي: فلا يقيم الله، وقرأ الباقر بالنون. ثم بيّن سبحانه عاقبة هؤلاء وما يثول إليه أمرهم فقال: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: الذي نكرناه من أنواع الوعيد جزأؤهم، ويكون قوله: جهنم عطف بيان للجزاء، أو جملة جزأؤهم جهنم مبتدأ وخبر والجملة خبر ذلك، والسبب في ذلك أنهم ضمو إلى الكفر اتخاذ آيات الله واتخاذ رسله هزواً، فالباء في ﴿بِمَا كَفَرُوا﴾ للسببية، ومعنى كونهم هزواً: أنهم مهزوء بهم. وقد اختلف السلف في تعيين هؤلاء الأخسرين أعمالاً، فقيل: اليهود والنصارى، وقيل: كفار مكة، وقيل: الخوارج، وقيل: الرهبان أصحاب الصوامع، والأولى حمل الآية على العموم لكل من اتصف بتلك الصفات المذكورة. ثم نكر سبحانه بعد هذا الوعيد لهؤلاء الكفار الوعد للمؤمنين فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: جمعوا بينهما حتى كانوا على ضد صفة من قبلهم ﴿كَانَتْ لَهُمْ﴾ قال ابن الأنباري: كانت فيما سبق من علم الله كانت لأهل طاعته ﴿جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ قال المبرد: الفردوس فيما سمعت من كلام العرب الشجر الملتف والأغلب عليه العنب. واختار الزجاج ما قاله مجاهد: إن الفردوس البستان باللغة الرومية، وقد تقدّم بيان النزول، وانتصابه على أنه خبر كان. والمعنى: كلنت لهم ثمار جنة الفردوس نزلاً معداً لهم مبالغة في إكرامهم، وانتصاب ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ على الحال، وكذلك جملة ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ في محل نصب على الحال، والحول مصدر أي: لا يطلبون تحولاً عنها إذ هي أعزّ من أن يطلبوا غيرها، أو تشتاق أنفسهم إلى سواها. قال ابن الأعرابي وابن قتيبة

كمال السدّ وتمايم عمارته بعضهم يموج في بعض، وقد تقدّم تفسير ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ في الانعام، قيل: هي النفخة الثانية بليليل قوله بعد: ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً﴾ فإن الفاء تشعر بذلك، ولم يذكر النفخة الأولى لأن المقصود هنا نكر أحوال القيامة.

والمعنى: جمعنا الخلائق بعد تلاشي أبدانهم ومصيرها تراباً جمعاً تاماً على أكمل صفة وأبدع هيئة وأعجب أسلوب ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضاً﴾ المراد بالعرض هنا الإظهار أي: أظهرنا لهم جهنم حتى شاهدوها يوم جمعنا لهم، وفي ذلك وعيد للكفار عظيم لما يحصل معهم عند مشاهدتها من الفزع والروعة ثم وصف الكافرين المنكوبين بقوله: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غَطَاءٍ عَنْ نَكْرِي﴾ أي: كانت أعْيُنُهُمْ في الدنيا في غطاء وهو ما غطى الشيء وستره من جميع الجوانب عن نكري عن سبب نكري وهو الآيات التي يشاهدها من له تفكر واعتبار، فينكر الله بالتوحيد والتمجيد، فاطلق المسبب على السبب، أو عن القرآن العظيم، وتامل معانيه وتدبر فوائده. ثم لما وصفهم سبحانه بالعمى عن الدلائل التكوينية أو التنزيلية أو مجموعهما، أراد أن يصفهم بالصمم عن استماع الحق فقال: ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَمِعُونَ سَمْعاً﴾ أي: لا يقدرون على الاستماع لما فيه الحق من كلام الله وكلام رسوله، وهذا أبلغ مما لو قال: وكانوا صماً، لأن الأصم قد يستطيع السمع إذا صح به، وهؤلاء لا استطاعة لهم بالكلية، وفي نكر غطاء الأعين وعدم استطاعة السماع تمثيل لتعميهم عن المشاهدة بالأبصار وإعراضهم عن الآلة السمعية ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الحسبان هنا بمعنى الظن. والاستفهام للتقريع والتوبيخ والفاء للعطف على مقتر كنظائره. والمعنى: أظنوا أنهم ينتفعون بما عبيده مع إعراضهم عن تدبر آيات الله وتمردهم عن قبول الحق، ومعنى ﴿أَن يَتَخَنَّوْا عِبَادِي مِنْ دُونِي﴾ أي: يتخونهم من نون الله، وهم الملائكة والمسيح والشياطين ﴿أُولَئَاءِ﴾ أي: محبوبين، قال الزجاج: المعنى: ليحسبون أن ينفعهم ذلك؟ وقرئ (أفحسب) بسكون السين، ومعناه، أكافيهم ومحسبهم أن يتخونهم أولياء على أنه مبتدأ وخبر، يريد أن ذلك لا يكفيهم ولا ينفعهم عند الله كما حسبوا ﴿إِنَّا أَعْتَصَمْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾ أي: هيأتها لهم نزلاً يتمتعون به عند ورودهم. قال الزجاج: النزول المأوى والمنزل، وقيل: إنه الذي يعدّ للضيف، فيكون تهكماً بهم كقوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: 21]. والمعنى: إن جهنم معدّة لهم عندنا كما يعدّ المنزل للضيف ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ انتصاب أعمالاً على التمييز والجمع للدلالة على إرادة الأنواع منها، ومحل الموصول وهو ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، كأنه قيل: من هم؟ فقيل: هم الذين ضلّ سعيهم، والمراد بضلال السعي: بطلانه وضياعه، ويجوز أن يكون في محل نصب على الذم، ويكون الجواب

أبي هريرة: «أن رجلاً قال: يا رسول الله الرجل يجاهد في سبيل الله وهو يبغى عرضاً من الدنيا؟ فقال: لا أجر له، فاعظم الناس ذلك، فعاد الرجل فقال: لا أجر له». وأخرج ابن أبي الدنيا في الإخلاص، وابن جرير في تهذيبه، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي عن شاذ بن أوس قال: كنا نعد الرياء على عهد رسول الله ﷺ الشرك الأصغر. وأخرج الطيالسي، وأحمد، وابن أبي الدنيا، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي عن شاذ بن أوس أيضاً قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من صلى يرائي فقد أشرك، ومن صام يرائي فقد أشرك، ومن تصدق يرائي فقد أشرك، ثم قرأ ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ الآية». وأخرج الطيالسي، وأحمد، وابن مردويه، وأبو نعيم عن شاذ أيضاً قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يقول: أنا خير قسيم لمن أشرك بي، من أشرك بي شيئاً فإن عمله قليله وكثيره لشريكه الذي أشركه أنا عنه غني». وأخرج أحمد، والحكيم الترمذي، وابن جرير في تهذيبه، والحاكم وصححه، والبيهقي عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الشرك الخفي، أن يقوم الرجل يصلي لماكن رجل». وأخرج أحمد، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، والبيهقي عن شاذ بن أوس سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أتخوف على أمتي الشرك والشهوة الخفية، قلت: أتشرك أمتك من بعدك؟ قال: نعم، أما إنهم لا يعبدون شمساً ولا قمراً ولا حجراً ولا وثناً، ولكن يراعون للناس بأعمالهم، قلت: يا رسول الله ما الشهوة الخفية؟ قال: يصبح أحدهم صائماً فتعرض له شهوة من شهواته فيترك صومه ويواقع شهوته». وأخرج أحمد، ومسلم، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ عن ربه أنه قال: «أنا خير الشركاء، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري فانا بريء منه، وهو للذي أشرك»، وفي لفظ: «فمن أشرك بي أحداً فهو له كله». وفي الباب أحاديث كثيرة في التحذير من الرياء وأنه الشرك الأصغر، وأن الله لا يقبله، وقد استوفاهما صاحب الدر المنثور في هذا الموضع فليرجع إليه، ولكنها لا تدل على أنه المراد بالآية، بل الشرك الجلي يدخل تحتها دخولاً أولياً، وعلى فرض أن سبب النزول هو الرياء كما يشير إلى ذلك ما قدمنا، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما هو مقرر في علم الأصول.

وقد ورد في فضائل هذه الآية بخصوصها ما أخرجه الطبراني، وابن مردويه عن أبي حكيم قال: قال رسول الله ﷺ: «لو لم ينزل على أمتي إلا خاتمة سورة الكهف لكتبتهم». وأخرج ابن راهويه، والبزار، والحاكم وصححه، والشيخرازي في الألقاب، وابن مردويه عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ في ليلة ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ الآية، كان له نور من عدن أبين إلى مكة حشوه الملائكة». قال ابن كثير بعد إخراجها: غريب جداً.

والكسائي (قبل أن ينفذ) بالتحتية، وقرأ الباقر بالفوقية، ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يسلك مسلك التواضع، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي: إن حالي مقصور على البشرية لا يتخطاها إلى الملكية، ومن كان هكذا فهو لا يدعي الإحاطة بكلمات الله إلا أنه امتاز عنهم بالوحي إليه من الله سبحانه فقال: ﴿يُوحَى إِلَيَّ﴾ وكفى بهذا الوصف فارقاً بينه وبين سائر أنواع البشر، ثم بين أن الذي أوحى إليه هو قوله: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ لا شريك له في ألوهيته، وفي هذا إرشاد إلى التوحيد، ثم أمرهم بالعمل الصالح والتوحيد فقال: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ الرجاء توقع وصول الخير في المستقبل، والمعنى: من كان له هذا الرجاء الذي هو شأن المؤمنين ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ وهو ما دلّ الشرع على أنه عمل خير يثاب عليه فاعله ﴿وَلَا يَشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ من خلقه سواء كان صالحاً، أو طالحاً، حيواناً أو جماداً، قال الماوردي: قال جميع أهل التأويل في تفسير هذه الآية: إن المعنى لا يرائي بعمله أحداً. وأقول: إن دخول الشرك الجلي الذي كان يفعله المشركون تحت هذه الآية هو المقدم على دخول الشرك الخفي الذي هو الرياء، ولا مانع من دخول هذا الخفي تحتها، إنما المانع من كونه هو المراد بهذه الآية.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿لِكَلِمَاتٍ رَبِّي﴾ يقول: علم ربي. وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال: يقول: ينفذ ماء البحر قبل أن ينفذ كلام الله وحكمته. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ الآية قال: أنزلت في المشركين الذين عبدوا مع الله إلهاً غيره، وليست هذه في المؤمنين. وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقي عن ابن عباس قال: «قال رجل: يا نبي الله إني أقف المواقف ابتغي وجه الله، وأحب أن يرى موطني، فلم يرد عليه شيئاً حتى نزلت هذه الآية ﴿وَلَا يَشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾». وأخرج ابن منده، وأبو نعيم في الصحابة، وابن عساكر من طريق السدي الصغير عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: كان جندب بن زهير إذا صلى أو صام أو تصدق فنكر بخير ارتاح له، فزاد في ذلك لقالة الناس فلا يريد به الله، فنزل في ذلك ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ الآية. وأخرج ابن المنذر عن مجاهد قال: «قال رجل: يا رسول الله اعتق وأحب أن يرى، وأتصدق وأحب أن يرى، فنزلت: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ الآية، وهو مرسل. وأخرجه هناد في الزهد عنه أيضاً. وأخرج ابن سعد، وأحمد، والترمذي، وابن ماجه، والبيهقي في الشعب عن أبي سعيد بن أبي فضالة الأنصاري وكان من الصحابة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه، نادى مناد: من كان أشرك في عمل عمله الله أحداً فليطلب ثوابه من عند غير الله، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك». وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقي عن

الحسن جماعة. وقيل في تأويلها: أنه كان يشمّ الرفع فقط. وظهر الدال من هجاء ضاد نافع، وأبو جعفر، وابن كثير، وعاصم، ويعقوب، وهو اختيار أبي عبيد وأدغمها الباقون. وقد قيل في توجيه هذه القراءات: أن التفخيم هو الأصل، والإمالة فرع عنه، فمن قرأ بتفخيم الهاء والياء فقد عمل بالأصل، ومن أمالهما فقد عمل بالفرع، ومن أمال أحدهما وفخم الآخر فقد عمل بالأمرين، وقد تقدم الكلام في هذه الحروف الواقعة في فواتح السورة مستوفي في أوائل سورة البقرة، ومحل هذه الفتحة إن جعلت اسماً للسورة على ما عليه الأكثر الرفع على أنها مبتدأ خبرها ما بعدها، قاله الفراء. واعترضه الزجاج فقال: هذا محال لأن كَهَيْعَصَ ليس هو مما أنبأنا الله عزّ وجلّ به عن زكرياء، وقد أخبر الله تبارك وتعالى عنه وعما بشر به، وليس كَهَيْعَصَ من قصته، أو على أنها خبر مبتدأ محذوف، وإن جعلت مسرودة على نمط التعنيد، فقله: ﴿نَكَرَ رَحِمَتِ رَبِّكَ﴾ خبر لمبتدأ محذوف أي: هذا نكر رحمة ربك؛ وقيل: هو مبتدأ خبره محذوف أي: فيما يتلى عليك نكر رحمة ربك. قال الزجاج: نكر مرتفع بالمضمر، والمعنى: هذا الذي نتلوه عليك نكر رحمة ربك ﴿عَبْدَهُ زَكْرِيَاءَ﴾ يعني: إجابته إياه حين دعاه وسأله الولد، وانتصاب عبده على أنه مفعول للرحمة قاله الأخفش، وقيل: للذكر. ومعنى نكر الرحمة بلوغها وإصابتها، كما يقال: نكرني معروف فلان أي: بلغني. وقرأ يحيى بن يعمر (نكر) بالنصب، وقرأ أبو العالية عبده بالرفع على أن المصدر مضاف إلى المفعول، وفاعل النكر هو عبده، وزكرياء على القراءتين عطف بيان له أو بدل منه، وقرأ الكلبي (نكر) على صيغة الفعل الماضي مشدداً ومخففاً على أن الفاعل عبده، وقرأ ابن معمر على الأمر، وتكون الرحمة على هذا عبارة عن زكرياء، لأن كل نبي رحمة لأمته ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ خَفِيًّا﴾ العامل في الظرف رحمة، وقيل: نكر، وقيل: هو بدل اشتمال من زكرياء. واختلف في وجه كون دناؤه خفياً؛ فقيل: لأنه أبعد عن الرياء، وقيل: أخفاه، لئلا يلام على طلبه للولد في غير وقته، ولكونه من أمور الدنيا، وقيل: أخفاه مخافة من قومه؛ وقيل: كان ذلك منه لكونه قد صار ضعيفاً هرمًا لا يقدر على الجهر ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ هذه الجملة مفسرة لقوله: نادى ربه، يقال: وهن يهن وهناً إذا ضعف فهو وهن، وقرئ بالحركات الثلاث. أراد أن عظامه فترت وضعفت قوته، وذكر العظم، لأنه عمود البدن، وبه قوامه، وهو أصل بنائه، فإذا وهن تداعى وتساقطت قوته ولأن أشد ما في الإنسان صلبه، فإذا وهن كان ما وراءه أوهن، ووحد العظم قصداً إلى الجنس المفيد لشمول الوهن لكل فرد من أفراد العظام ﴿وَأَشْثَلَ الرَّاسِ شَيْبًا﴾ قرأ أبو عمرو بإدغام السين في الشين، والباقون بعدهم، والاشتعال في الأصل انتشار شعاع النار، فشبه به انتشار بياض شعر الرأس في سواده بجامع البياض والإنارة، ثم أخرجه مخرج الاستعارة بالكناية، بأن

وأخرج ابن الضريس عن أبي الدرداء قال: من حفظ خاتمة الكهف كان له نور يوم القيامة من لدن قرنه إلى قدمه. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عن معاوية بن أبي سفيان أنه تلا هذه الآية ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ وقال: إنها آخر آية نزلت من القرآن. قال ابن كثير: وهذا أثر مشكل، فإن هذه الآية هي آخر سورة الكهف، والكهف كلها مكية، ولعل معاوية أضاف أنه لم ينزل بعدها ما ينسخها ولا يغير حكمها، بل هي مثبتة محكمة، فاشتبه ذلك على بعض الرواة فروى بالمعنى على ما فهمه.

تفسير سورة مريم

أخرج النحاس، وابن مردويه عن ابن عباس قال: أنزلت بمكة سورة ﴿كَهَيْعَصَ﴾. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير قال: نزلت سورة مريم بمكة. وأخرج ابن مردويه عن عائشة مثله. وأخرج أحمد، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الدلائل عن ثَمَّة سلمة أن النجاشي قال لجعفر بن أبي طالب: هل معك مما جاء به يعني: رسول الله ﷺ عن الله شيء؟ قال: نعم، فقرأ عليه صدراً من ﴿كَهَيْعَصَ﴾ فبكى النجاشي حتى أخضلت لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة. وقد نكر ابن إسحاق القصة بطولها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كَهَيْعَصَ ﴿١﴾ وَكَرَّ رَحِمَتِ رَبِّكَ عَبْدُ زَكِرِيَّا ﴿٢﴾ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِدَ مِن وَدَّيْ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ وَلَدًا ﴿٥﴾ يَرْبُّنِي رَبِّ رَبِّ مِن دَالِي يَتَّقُونَ وَأَجْسَلُهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَزَكِّيًّا إِنَّا نَبِّئُكَ بِظُلْمٍ آسَمُ يَبُوءُ لَمْ يَحْمِلْهُم مِّن قَبْلُ شَيْئًا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي يَكُونُ لِي عِلْمٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً قَالَ يَا زَبَدٌ لَا تُكَلِّمُ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾

قوله: ﴿كَهَيْعَصَ﴾ قرأ أبو جعفر هذه الحروف مقطعة، ووصلها الباقون، وأمال أبو عمرو الهاء وفتح الياء، وعكس ذلك ابن عامر وحمزة، وأمالهما جميعاً الكسائي وأبو بكر وخلف، وقرأهما بين اللفظين أهل المدينة وفتحهما الباقون. وعن خارجة أن الحسن كان يضم كاف، وحكي عن غيره أنه كان يضم ها. وقال أبو حاتم: لا يجوز ضم الكاف ولا الهاء ولا الياء. قال النحاس: قراءة أهل المدينة من أحسن ما في هذا، والإمالة جائزة في ها وفي يا وقد اعترض على قراءة

قال ابن جرير: وكان اسم امرأته أشاع بنت فاقود بن ميل، وهي أخت حنة، وحنة هي أم مريم. وقال القتيبي: هي أشاع بنت عمران، فعلى القول يكون يحيى بن زكرياء ابن خالة أم عيسى، وعلى القول الثاني يكونان ابني خالة كما ورد في الحديث الصحيح **«فهب لي من ليلتك ولياً»** أي: أعطني من فضلك ولياً، ولم يصرح بطلب الولد لما علم من نفسه بأنه قد صار هو وامرأته في حالة لا يجوز فيها حدوث الولد بينهما وحصوله منهما. وقد قيل: إنه كان ابن بضع وتسعين سنة، وقيل: بل أراد بالولي الذي طلبه هو الولد، ولا مانع من سؤال من كان مثله لما هو خارق للعادة، فإن الله سبحانه قد يكرم رسله بما يكون كذلك، فيكون من جملة المعجزات الدالة على صبقهم **«يرثني ويرث من آل يعقوب»** قرأ أهل الحرمين والحسن وعاصم وحمره وابن محيصن واليزيدي ويحيى بن المبارك⁽¹⁾ بالرفع في الفعلين جميعاً على أنهما صفتان للولي وليسا بجواب للدعاء. وقرأ يحيى بن يعمر وأبو عمرو ويحيى بن وثاب والأعمش والكسائي بالجزم فيهما على أنهما جواب للدعاء. ورجح القراءة الأولى أبو عبيد وقال: هي أصوب في المعنى، لأنه طلب ولياً هذه صفة فقال: هب لي الذي يكون وارثي. ورجح ذلك النحاس وقال: لأن جواب الأمر عند النحويين فيه معنى الشرط والمجازاة، تقول: أطلع الله يهلك الجنة أي: إن طعنه يدخلك الجنة، وكيف يخبر الله سبحانه بهذا، أعني كونه أن يهب له ولياً يرثه، وهو أعلم بذلك، والورثة هنا هي وراثة العلم والنبوة على ما هو الأرجح كما سلف. وقد ذهب أكثر المفسرين إلى أن يعقوب المذكور هنا هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم. وزعم بعض المفسرين أنه يعقوب بن ماثان أخو عمران بن ماثان، وبه قال الكلبي ومقاتل، وآل يعقوب هم خاصته الذين يؤول أمرهم إليه للقربة أو الصبحة أو الموافقة في الدين، وقد كان فيهم أنبياء وملوك، وقرئ يرثني وارث من آل يعقوب على أنه فاعل يرثني. وقرئ (وارث آل يعقوب) أي: أنا. وقرئ (أو يرث آل يعقوب) بلفظ التصغير على أن هذا المصغر فاعل يرثني، وهذه القراءات في غاية الشنوذ لفظاً ومعنى **«وإجعله ربّ رضيعاً»** أي مرضياً في أخلاقه وأفعاله؛ وقيل: راضياً بقضائك وقدرك؛ وقيل: رجلاً صالحاً ترضى عنه؛ وقيل: نبياً كما جعلت آباءه أنبياء **«يا زكرياء إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى»** قال جمهور المفسرين: إن هذا النداء من الله سبحانه، وقيل: إنه من جهة الملائكة، لقوله في آل عمران **«فإنه من الملائكة»** [آل عمران: 39]، وفي الكلام حذف أي: فاستجاب له دعاءه، فقال: يا زكرياء، وقد تقدّم في آل عمران وجه التسمية بيحيى وزكرياء. قال الزجاج: سمي يحيى لأنه حيي بالعلم والحكمة التي أوتيتها **«لم نجعل له من قبل**

حذف المشبه به وأداة التشبيه، وهذه الاستعارة من أبدع الاستعارات وأحسنها. قال الزجاج: يقال للشيب إذا كثّر جداً: قد اشتعل رأس فلان، وأنشد للبيد:

فإن ترى رأسي أمسى واضحاً سلط الشيب عليه فاشتعل وانتصاب شيباً على التمييز قاله الزجاج. وقال الأخفش: انتصابه على المصدر، لأن معنى اشتعل: شاب. قال النحاس: قول الأخفش أولى لأنه مشتق من فعل، والمصدرية أظهر فيما كان كذلك، وكان الأصل اشتعل شيب رأسي، فأسند الاشتعال إلى الرأس لإفادة الشمول **«ولم أكن بدعائك رب شقياً»** أي: لم أكن بدعائي إياك خائباً في وقت من الأوقات، بل كلما دعوتك استجبت لي.

قال العلماء: يستحب للمرء أن يجمع في دعائه بين الخضوع، وذكر نعم الله عليه كما فعل زكرياء ما هنا، فإن في قوله: **«وهن العظم مني واشتعل لرأس شيباً»** غاية الخضوع والتذلل وإظهار الضعف والقصور عن نيل مطالبه، وبلوغ مأربه، وفي قوله: **«ولم أكن بدعائك ربّ شقياً»** ذكر ما عوّده الله من الإنعام عليه بإجابة أدعيته، يقال شقي بكذا أي: تعب فيه ولم يحصل مقصوده منه **«وإني خفت للموالي من ورثتي»** قرأ عثمان بن عفان ومحمد بن علي بن الحسين وأبوه علي ويحيى بن يعمر (خفت) بفتح الخاء وتشديد الفاء وكسر التاء وفاعله **«الموالي»** أي: قلوا وعجزوا عن القيام بأمر الدين بعدي، أو انقطعوا بالموت، مأخوذاً من خفت القوم إذا ارتحلوا، وهذه قراءة شاذة بعيدة عن الصواب. وقرأ الباقر (خفت) بكسر الخاء وسكون الفاء على أن فاعله ضمير يعود إلى زكرياء، ومفعوله الموالي، ومن ورثتي متعلق بمحذوف لا بخفت، وتقديره: خفت فعل الموالي من بعدي. قرأ الجمهور (ورثتي) بالهمز والمدّ وسكون الياء، وقرأ ابن كثير بالهمز والمدّ وفتح الياء. وروي عنه أنه قرأ بالقصر مفتوح للياء، مثل عصاي، والموالي هنا: هم الأقارب الذين يرثون وسائر العصابات من بني العمّ ونحوهم، والعرب تسمي هؤلاء موالي، قال الشاعر:

مهلاً بني عمنا مهلاً موالي لا تنشروا بيننا ما كان مدفوناً قيل: الموالي الناصرون له. واختلفوا في وجه المخافة من زكرياء لمواليه من بعده، فقيل: خاف أن يرثوا ماله، وأراد أن يرثه ولده، فطلب من الله سبحانه أن يرثه ولداً، وقال آخرون: إنهم كانوا مهملين لأمر الدين، فخاف أن يضيع الدين بموته، فطلب ولياً يقوم به بعد موته، وهذا القول أرجح من الأول لأن الأنبياء لا يورثون وهم أجل من أن يعتنوا بأمر الدنيا، فليس المراد هنا وراثة المال، بل المراد: وراثة العلم والنبوة والقيام بأمر الدين. وقد ثبت عن نبينا ﷺ أنه قال: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة» **«وكانت امرأتي عاقراً»** العاقر: هي التي لا تلد لكبر سنّها، والتي لا تلد أيضاً لغير كبر وهي المرادة هنا، ويقال: للرجل الذي لا يلد عاقر أيضاً، ومنه قول عامر بن الطفيل:

لبئس الفتى إن كنت أعور عاقراً

(1) (قوله واليزيدي ويحيى بن المبارك). الصواب ويحيى بن المبارك اليزيدي اهـ. مصصح القرآن.

سمياً﴾ قال أكثر المفسرين: معناه لم نسّم أحداً قبله يحيى. وقال مجاهد وجماعة: معنى ﴿لم نجعل له من قبل سمياً﴾ أنه لم يجعل له مثلاً ولا نظيراً، فيكون على هذا مأخوذ من المساماة أو السمو، وردّ هذا بأنه يقتضي تفضيله على إبراهيم وموسى، وقيل: معناه لم تلد عاقر مثله، والأوّل أولى. وفي إخباره سبحانه بأنه لم يسمّ بهذا الاسم قبله أحد فضيلة له من جهتين: الأولى أن الله سبحانه هو الذي تولى تسميته به، ولم يكلها إلى الأبوين. والجهة الثانية أن تسميته باسم لم يوضع لغيره يفيد تشريفه وتعظيمه ﴿قال رب أنى يكون لي غلام﴾ أي: كيف أو من أين يكون لي غلام؟ وليس معنى هذا الاستفهام الإنكار، بل التعجب من قدرة الله وبديع صنعه، حيث يخرج ولداً من امرأة عاقر وشيخ كبير، وقد تقدّم الكلام على مثل هذا في آل عمران ﴿وقد بلغت من الكبر عتياً﴾ يقال: عتأ الشيخ يعتو عتياً إذا انتهى سنه وكبر، وشيخ عات إذا صار إلى حال اليبس والجفاف، والأصل عتوا لأنه من نوات الواو فابلوله ياء لكونها أخف، ومثل ما في الآية قول الشاعر:

إنما يعنر الوليد ولا يعنر من كان في الزمان عتياً
وقرأ يحيى بن وثاب وحمة والكسائي وحفص والأعمش (عتياً) بكسر العين، وقرأ الباقر بن ميمون والعمري (عتياً) بمحذوف العين، وقرأ الباقون بضم العين وهما لغتان، ومحل جملة ﴿وكانت امرأتى عاقراً﴾ النصب على الحال من ضمير المتكلم، ومحل جملة ﴿وقد بلغت من الكبر عتياً﴾ النصب أيضاً على الحال، وكلا الجملتين لتأكيد الاستبعاد والتعجب المستفاد من قوله: ﴿أنى يكون لي غلام﴾ أي: كيف يحصل بيننا ولد الآن، وقد كانت امرأتى عاقراً لم تلد في شبابها وشبابي وهي الآن عجوز، وأنا شيخ هرم؟ ثم أجاب الله سبحانه على هذا السؤال المشعر بالتعجب والاستبعاد بقوله: ﴿قال كذلك قال ربك﴾ الكاف في محل رفع أي: الأمر كذلك، والإشارة إلى ما سبق من قول زكريا، ثم ابتدأ بقوله: ﴿قال ربك﴾ ويحتمل أن يكون محله النصب على المصدرية أي: قال قولاً مثل ذلك، والإشارة بذلك إلى مبهم يفسره قوله: ﴿هو علي هين﴾ وأما على الاحتمال الأوّل فتكون جملة ﴿هو علي هين﴾ مستأنفة مسوقة لإزالة استبعاد زكريا بعد تقريره أي: قال هو مع بعده عندك علي هين، وهو فيعمل من هان الشيء يهون إذا لم يصعب ولم يمتنع من المراد. قال الفراء: أي خلقه علي هين ﴿وقد خلقك من قبل ولم تك شيئاً﴾ هذه الجملة مقرّرة لما قبلها. قال الزجاج: أي فخلق الولد لك كخلقك، والمعنى: أن الله سبحانه خلقه ابتداءً وأوجده من عدم المحض، فإيجاد الولد له بطريق التوالد المعتاد أهون من ذلك وأسهل منه، وإنما لم ينسب ذلك إلى آدم عليه السلام لكونه المخلوق من عدم حقيقة بأن يقول: وقد خلقت أباك آدم من قبل ولم يك شيئاً، للدلالة على أن كل فرد من أفراد البشر له حظ من إنشاء آدم من عدم. قرأ أهل المدينة وأهل مكة والبصرة وعاصم وابن عامر (وقد خلقك من

قبل) وقرأ سائر الكوفيين (وقد خلقناك من قبل) ﴿قال رب اجعل لي آية﴾ أي: علامة تذلني على وقوع المسؤول وتحققه وحصول الحبل، والمقصود من هذا السؤال تعريفه وقت العلوق حيث كانت البشارة مطلقة عن تعيينه. قال ابن الأنباري: وجه ذلك أن نفسه تانت إلى سرعة الأمر، فسأل الله آية يستدل بها على قرب ما به عليه، وقيل: طلب آية تدل على أن البشرى من الله سبحانه لا من الشيطان، لأن إبليس أوهمه بذلك، كذا قال الضحك والسدي وهو بعيد جداً ﴿قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليالٍ سوياً﴾ قد تقدّم تفسير هذا في آل عمران مستوفى، وانتصاب سوياً على الحال، والمعنى: آيتك أن لا تقدّر على الكلام والحال أنك سوي الخلق ليس بك آفة تمنعك منه، وقد دل بذكر الليالي هنا والأيام في آل عمران أن المراد ثلاثة أيام ولياليهنّ ﴿فخرج على قومه من المحراب﴾ وهو مصلاه، واشتقاقه من الحرب، كأن ملازمه يحارب الشيطان، وقيل: من الحرب محرّكاً، كان ملازمه يلقي حرباً وتعباً ونصباً ﴿فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشياً﴾ قيل معنى أوحى: أوماً بدليل قوله في آل عمران ﴿إلا رمزاً﴾ [آل عمران: 41]؛ وقيل: كتب لهم في الأرض وبالأوّل قال الكلبي، والقرطبي، وقتادة، وابن منبه، وبالثاني قال مجاهد، وقد يطلق الوحي على الكتابة ومنه قول ذي الرمة:

سوى الأربع للدم اللواتي كانها بقية وحي في بطون الصحائف
وقال عنتر:

كوحى صحائف من عهد كسرى فأمهاها لأعجم طمطمى
و «أنه في قوله: ﴿أن سبحوا﴾ مصدرية أو مفسرة، والمعنى: فأوحى إليهم بأن صلوا أو أي: صلوا، وانتصاب بكرة وعشياً على الظرفية. قال الفراء: العشي يؤنث، ويجوز تنكيره إذا أبهم. قال: وقد يقال العشي جمع عشية، قيل: والمراد صلاة الفجر والعصر، وقيل: المراد بالتسبيح هو قولهم سبحان الله في الوقتين أي: نزهوا ربكم طرفي النهار. وقد أخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الأسماء والصفات والضيء في المختارة عن ابن عباس في قوله: ﴿كهيعص﴾ كبير هاد أمين عزيز صادق، وفي لفظ كاف بدل كبير. وأخرج عبد الرزاق، وأدم بن أبي إياس، وعثمان بن سعيد الدارمي في التوحيد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس ﴿كهيعص﴾ قال: كاف من كريم، وهاء من هاد، وياء من حكيم، وعين من عليم، وصاد من صادق. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود وناس من الصحابة ﴿كهيعص﴾ هو الهاء المقطع، الكاف من الملك، والهاء من الله، والياء والعين من العزيز، والصاد من المصور. وأخرج ابن مردويه عن الكلبي أنه سئل عن ﴿كهيعص﴾ فحدث عن أبي صالح، عن أم هانئ، عن

اليهم قال: كتب لهم كتاباً. وأخرج ابن أبي الدنيا، والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله: ﴿أَنْ سَبِّحُوا﴾ قال: أمرهم بالصلاة ﴿بكرة وعشيا﴾

يَتَجَنَّ حُدَّ الْحَكْتَبِ بِقَوِّهِ وَأَيُّنَهُ أَلْفَكُمْ حَيْثَا ① وَحَتَا ② مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً ③ وَكَانَتْ تَقِيًّا ④ وَبَرًّا ⑤ بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَنَارًا غَصِيًّا ⑥ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَئِذٍ يَوْمَ مَوْتِهِ يَوْمَ يَبْعَثُ حَيًّا ⑦

قوله: ﴿يا يحيى﴾ ها هنا حذف، وتقديره: وقال الله للمولود: يا يحيى، أو فولد له مولود فبلغ المبلغ الذي يجوز أن يخاطب فيه، فقلنا له: يا يحيى. وقال الزجاج: المعنى فوهبنا له وقلنا له: يا يحيى. والمراد بالكتاب: التوراة لأنه المعهود حينئذ، ويحتمل أن يكون كتاباً مختصاً به وإن كنا لا نعرفه الآن، والمراد بالأخذ: إما الأخذ الحسي أو الأخذ من حيث المعنى، وهو القيام بما فيه كما ينبغي، وذلك بتحصيل ملكة تقتضي سهولة الإقدام على المأمور به، والإحجام عن المنهي عنه، ثم أكده بقوله: ﴿قُوَّةً﴾ أي: بجذ وعزيمة واجتهاد ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ المراد بالحكم: الحكمة، وهي الفهم للكتاب الذي أمر بأخذه وفهم الأحكام الدينية، وقيل: هي العلم وحفظه والعمل به؛ وقيل: النبوة؛ وقيل: العقل، ولا مانع من أن يكون الحكم صالحاً لحمله على جميع ما نكر. قيل: كان يحيى عند هذا الخطاب له ابن سنتين، وقيل: ابن ثلاث ﴿وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا﴾ معطوف على الحكم. قال جمهور المفسرين: الحنان الرحمة والشفقة والعطف والمحبة، وأصله توفان النفس، مأخوذ من حنين الناقة على ولدها. قال أبو عبيدة: تقول حنانك يا رب وحنانك يا رب بمعنى واحد، يريد رحمتك، قال طرفة:

أبا منفر أفنيت فاستبق بعضنا حنانك بعض الشر أهون من بعض
وقال امرؤ القيس:

ويمنحها بنو سلخ بن بكر معيزهم حنانك ذا الحنان
قال ابن الأعرابي: الحنان مشدداً من صفات الله عز وجل، والحنان مخففاً: العطف والرحمة، والحنان الرزق والبركة. قال ابن عطية: والحنان: في كلام العرب أيضاً: ما عظم من الأمور في ذات الله، ومنه قول زيد بن عمرو بن نفيل: والله لئن قتلتم هذا العبد لاتخذن قبره حناناً، يعني: بلالاً، لما مر به، وهو يعنّب، وقيل: إن القائل لذلك هو ورقة بن نوفل. قال الأزهرى: معنى ذلك لاترحمنّ عليه، ولأتعطفنّ عليه لأنه من أهل الجنة، ومثله قول الحطية:

تحنن عليّ هداك المليك فلن لكل مقام مقالاً
ومعنى ﴿من لدنا﴾ من جنابنا، قيل: ويجوز أن يكون المعنى: أعطيناه رحمة من لدنا كائنة في قلبه يتحنن بها على الناس، ومنهم أبواه وقرباته حتى يخلصهم من الكفر ﴿وَزَكَاةً﴾ معطوف على ما قبله، والزكاة التطهير والبركة والتنمية والبرّ أي: جعلناه مباركاً للناس يهديهم إلى الخير؛ وقيل: زكيناها بحسن الثناء عليه كتركزية الشهود، وقيل: صدقة تصدقنا به على أبويه قاله ابن قتيبة ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾

رسول الله ﷺ قال: وكاف هاد عالم صانع. وأخرج عثمان بن سعيد الدارمي، وابن ماجه، وابن جرير عن فاطمة ابنة عليّ قالت: كان علي يقول: يا كَهَيْصَ اغفر لي. وأخرج أبو الشيخ في العظمة، وابن مريويه من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس في ﴿كَهَيْصَ﴾ قال: الكاف الكافي، والهاء الهادي، والعين العالم، والصاد الصانع. وأخرج أبو عبيد، وابن المنذر، عن السديّ قال: كان ابن عباس يقول في كَهَيْصَ وحمّ ويس وأشباه هذا: هو اسم الله الأعظم. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: هو قسم أقسم الله به، وهو من أسماء الله.

وكما وقع الخلاف في هذا وأمثاله بين الصحابة وقع بين من بعدهم ولم يصح مرفوعاً في ذلك شيء، ومن روي عنه من الصحابة في ذلك شيء فقد روى عن غيره ما يخالفه، وقد يروى عن الصحابي نفسه التفاسير المتخالفة المتناقضة في هذه الفواتح فلا يقوم شيء من ذلك حجة، بل الحق الوقف، ورد العلم في مثلها إلى الله سبحانه، وقد قدّمنا تحقيق هذا في فاتحة سورة البقرة. وأخرج أحمد، وأبو يعلى، والحاكم وصححه، وابن مريويه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: كان آخر أنبياء بني إسرائيل زكريا بن أزر بن مسلم من نرية يعقوب دعا ربه سرّاً ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهِنَ الْعَظْمِ مِنِّي﴾ إلى قوله: ﴿خَفْتُ الْمَوَالِيَ﴾ قال: وهم العصابة ﴿يُرِثُنِي﴾ يرث نبوتيّ ونبوة آل يعقوب، فنأثته الملائكة، وهو جبريل: إن الله يبشرك ﴿بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى﴾ فلما سمع النداء جاءه الشيطان فقال: يا زكريا إن الصوت الذي سمعت ليس من الله إنما هو من الشيطان سخر بك، فشك وقال: ﴿إِنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ يقول: من أين يكون وقد بلغني الكبر وامراتي عقر، قال الله: ﴿وَوَدَّ خَلَقْتِكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكْ شَيْئاً﴾ وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَوَدَّ خَفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَثَتِي﴾ قال: الورثة وهم عصابة الرجل. وأخرج الفريابي عنه قال: كان زكريا لا يولد له فسال ربه فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثَ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ قال: يرث مالي ويرث من آل يعقوب النبوة. وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله: ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ قال: مثلاً. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وأبو داود، وابن جرير، والحاكم وصححه، وابن مريويه عنه قال: لا أبري كيف كان رسول الله ﷺ يقرأ هذا الحرف عتياً أو عسياً. وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء في قوله: ﴿عَتِيًّا﴾ قال: لبث زماناً في الكبر. وأخرج أيضاً عن السديّ قال: هرمأ. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿أَلَا تَكَلَّمُ لِلنَّاسِ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ قال: اعتقل لسانه من غير مرض، وفي لفظ من غير خرس، أخرجه ابن المنذر، وابن أبي حاتم. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿فَاوْحَى﴾

عَلَّمَا زَكِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْدٍ وَلِنَجْمِكُمُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿١٩﴾ ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهَا مَكَانًا قَفِيًّا ﴿٢٠﴾ فَالْتَجَأَتْ إِلَى الْعَمَاسِ إِلَى جَنْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ بَلَّتَنِي وَثُ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مِّنْهُمْ ﴿٢١﴾ فَذَرَتْهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنَ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحِيَّكَ سَرِيًّا ﴿٢٢﴾ وَهَزَقْنَا لَكَ إِلَيْنَا النَّخْلَةَ سَلَقَطَ عَلَيْكَ رُطْبًا جَيِّدًا ﴿٢٣﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ لَكَا فَعُولِي إِنِّي تَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ الْإِنْسِيَ﴾ ﴿٢٤﴾

قوله: ﴿وانكر في الكتاب مريم﴾ هذا شروع في ابتداء خلق عيسى، والمراد بالكتاب: هذه السورة أي: انكر يا محمد للناس في هذه السورة قصة مريم، ويجوز أن يراد بالكتاب جنس القرآن، وهذه السورة منه، ولما كان النكر لا يتعلق بالاعيان احتج إلى تقدير مضاف يتعلق به النكر، وهو قصة مريم، أو خبر مريم ﴿إِذْ اقْتَبَضْتَ﴾ العامل في الظرف هو ذلك المضاف المقترن، ويجوز أن يجعل بدل اشتمال من مريم، لأن الأزمان مشتملة على ما فيها، ويكون المراد بمريم: خبرها، وفي هذا الإبدال دلالة على تفخيم شأن الوقت لوقوع قصتها العجيبة فيه، والنبد الطرح والرمي. قال الله سبحانه ﴿فَنَبِّئُوهُ وِرَاءَ ظَهْرِهِمْ﴾ [آل عمران: 187]. والمعنى: أنها تحت وتباعث. وقال ابن قتيبة: اعتزلت وقيل: انفردت، والمعاني متقاربة. واختلفوا في سبب انتباذها فقيل: لأجل أن تعبد الله سبحانه؛ وقيل لتطهر من حيضها، و ﴿مِنْ أَهْلِهَا﴾ متعلق بانتبذت، وانتصاب ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ على المفعولية للفعل المذكور أي: مكاناً من جانب الشرق، والشرق بسكون الراء: المكان الذي تشرق فيه الشمس، وإنما خص المكان بالشرق لأنهم كانوا يعظمون جهة الشرق لأنها مطلع الأنوار، حكى معناه ابن جرير.

وقد اختلف الناس في نبوة مريم، فقيل: إنها نبية بمجرّد هذا الإرسال إليها ومخاطبتها للملك؛ وقيل: لم تكن نبية، لأنه إنما كلمها الملك وهو على مثال البشر. وقد تقدّم الكلام في هذا في آل عمران ﴿فَلْتَخَذْتِ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ أي: اتخذت من دون أهلها حجاباً يستترها عنهم لئلا يروها حال العبادة. أو حال التطهر من الحيض، والحجاب الستر والحاجز ﴿فَارْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ هو جبريل عليه السلام، وقيل: هو روح عيسى، لأن الله سبحانه خلق الأرواح قبل الأجساد، والأول أولى لقوله: ﴿فَقَسَّمْنَا لَهَا بِشَرًّا سَوِيًّا﴾ أي: تمثل جبريل لها بشراً مستوي الخلق لم يفقد من نعوت بني آدم شيئاً. قيل: وجه تمثل الملك لها بشراً أنها لا تطيق أن تنظر إلى الملك وهو على صورته، فلما رآته في صورة إنسان حسن كامل الخلق قد خرق عليها الحجاب ظننت أنه يريد بها بسوء، فاستعانت بالله منه و ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ تَقِيًّا﴾ أي: ممن يتقي الله ويخافه، وقيل: إن تقياً اسم صالح فتعزّلت منه تعجباً، وقيل:

أي: متجنباً لمعاصي الله مطيعاً له. وقد روي أنه لم يعمل معصية قط ﴿وَيُورَا بِاللَّهِ﴾ معطوف على تقياً، البر هنا بمعنى: البار، فعل بمعنى فاعل، والمعنى: لطيفاً بهما محسناً إليهما ﴿وَلَمْ يَكُنْ جَبَاراً عَصِيًّا﴾ أي: لم يكن متكبراً ولا عاصياً لوالديه أو لربه، وهذا وصف له عليه السلام بلين الجانب وخفض الجناح ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ﴾ قال ابن جرير وغيره: معناه أمان عليه من الله. قال ابن عطية: والأظهر عندي أنها التحية المتعارفة، فهي أشرف وأنبه من الأمان، لأن الأمان متحصل له بنفي العصيان عنه، وهو أقل درجاته، وإنما الشرف في أن يسلم الله عليه، ومعنى ﴿يَوْمٌ وَلَدَتْهُ﴾ أنه آمن من الشيطان وغيره في ذلك اليوم، أو أن الله حياه في ذلك اليوم، وهكذا معنى ﴿يَوْمٌ يَمُوتُ﴾ وهكذا معنى ﴿يَوْمٌ يَبْعَثُ حَيًّا﴾ قيل: أوحش ما يكون الإنسان في ثلاثة مواطن: يوم ولد لأنه خرج مما كان فيه، ويوم يموت لأنه يرى قوماً لم يكن قد عرفهم وأحكاماً ليس له بها عهد، ويوم يبعث لأنه يرى هول يوم القيامة. فخص الله سبحانه يحيى بالكرامة والسلامة في المواطن الثلاثة.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ قال: بجدة ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ قال: الفهم. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة قال: يقول: أعمل بما فيه من فرائض. وأخرج ابن المنذر عن مالك بن دينار قال: اللب. وأخرج أبو نعيم، والديلمي، وابن مردويه، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ قال: أعطي الفهم والعبادة وهو ابن سبع سنين. وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن أبي حاتم عن قتادة: بدلة وهو ابن ثلاث سنين. وأخرج الحاكم في تاريخه من طريق نهشل بن سعد، عن الضحك، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الغلمان ليحيى بن زكريا: اذهب بنا نلعب، فقال يحيى: ما للعب خلقنا، اذهبوا نصلي فهو قول الله ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾». وأخرج ابن مردويه، والبيهقي في الشعب، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ القرآن قبل أن يحتلم فهو ممن أوتي الحكم صبيّاً». وأخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس موقوفاً. وأخرج عبد الرزاق، والفريري، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في الأسماء والصفات من طريق عكرمة عن ابن عباس في قوله: ﴿وَحَنَانًا﴾ قال: لا أدري ما هو إلا أنني أظنه يعطف الله على عبده بالرحمة، وقد فسرهما جماعة من السلف بالرحمة. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَزَكَاتَ﴾ قال: بركة، وفي قوله: ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ قال: طهر فلم يعمل بذنّب.

وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿٢٠﴾ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿٢١﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ تَقِيًّا ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ

عن عاصم، وقرأ الحسن بغير همز، وفي مصحف أبي (فلما أجاها) قال في الكشف: إن أجاها منقول من جاء، إلا أن استعماله قد تعين بعد النقل إلى معنى الإلجاء، وفيه بعد، والظاهر أن كل واحد من الفعلين موضوع بوضع مستقل، والمخاض مصدر مخضت المرأة تمخض مخضاً ومخاضاً إذا لنا ولادها. وقرأ الجمهور بفتح الميم، وقرأ ابن كثير بكسرهما، والجذع ساق النخلة اليابسة، كأنها طلبت شيئاً تستند إليه وتتعلق به كما تتعلق الحامل لشدة وجع الطلق بشيء مما تجده عندها، والتعريف إما للجنس أو للعهد **﴿قالت يا ليتني مت قبل هذا﴾** أي: قبل هذا الوقت، تمت الموت لأنها خافت أن يظن بها السوء في بينها، أو لئلا يقع قوم بسببها في البهتان **﴿وكنتم نسيا﴾** النسي في كلاب العرب: الشيء الحقيق الذي من شأنه أن ينسى ولا يذكر ولا يتكلم لفقده كالولد والحبل، ومنه قول الكميت:

أجعلنا خسر الكلب قضاة ولسنا بنسي في معد ولا نخل
وقال الفراء: النسي ما تلقى المرأة من خرق اعتلالها، فتقول مريم **﴿نسياً منسيا﴾** أي: حيضة ملقاة، وقد قرئ بفتح النون وكسرهما، وهما لغتان مثل الحجر والحجر، والوتر والوتر. وقرأ محمد بن كعب القرظي (نساء) بالهمز مع كسر النون. وقرأ نوف البكالي بالهمز مع فتح النون. وقرأ بكر بن حبيب (نسياً) بفتح النون وتشديد الياء بدون همز، والمنسي المتروك الذي لا يذكر ولا يخطر ببال أحد من الناس **﴿فناداهما من تحتها﴾** أي: جبريل لما سمع قولها، وكان أسفل منها تحت الأكمة، وقيل: تحت النخلة، وقيل المنادي هو عيسى. وقد قرئ بفتح الميم من (من) وكسرهما. وقوله: **﴿ألا تحزني﴾** تفسير للنداء أي: لا تحزني أو المعنى بأن لا تحزني على أنها المصدرية **﴿قد جعل ربك تحتك سرياً﴾** قال جمهور المفسرين: السري النهر الصغير، والمعنى: قد جعل ربك تحت قدمك نهراً. قيل: كان نهراً قد انقطع عنه الماء، فأرسل الله فيه الماء لمريم، وأحيا به ذلك الجذع اليابس الذي اعتمدت عليه حتى أرق وأثمر، وقيل: المراد بالسري هنا عيسى، والسري: العظيم من الرجال، ومنه قولهم فلان سري أي: عظيم، ومن قوم سراة أي: عظام **﴿وهزي إليك بجذع النخلة﴾** الهز التحريك، يقال: هزه فاهتز، والباء في جذع النخلة مزيدة للتوكيد. وقال الفراء: العرب تقول هزه وهز به، والجذع هو أسفل الشجرة. قال قطرب: كل خشبة في أصل شجرة فهي جذع، ومعنى إليك: إلى جهتك، وأصل تساقط تتساقط فادغم التاء في السين. وقرأ حمزة والأعمش (تساقط) مخففاً. وقرأ عاصم في رواية حفص والحسن بضم التاء مع التخفيف وكسر القاف. وقرئ (تتساقط) بإظهار التاءين. وقرئ بالتحنية مع تشديد السين. وقرئ (تسقط، ويسقط). وقرأ الباقون بإدغام التاء في السين. فمن قرأ بالفوقية جعل الضمير للنخلة، ومن قرأ بالتحنية جعل الضمير للجذع، وانتصاب **﴿وطبأ﴾** على بعض هذه القراءات للتمييز، وعلى

إنه اسم رجل فاجر معروف في ذلك الوقت، والأول أولى. وجواب الشرط محذوف أي: فلا تتعرض لي **﴿قال إنما أنا رسول ربك﴾** أي: قال لها جبريل: إنما أنا رسول ربك الذي استعنت به، ولست ممن يتوقع منه ما خطر ببالك من إرادة السوء **﴿لاهب لك غلاماً زكياً﴾** جعل الهبة من قبله لكونه سبباً فيها من جهة كون الإعلام لها من جهته، أو من جهة كون النفخ قام به في الظاهر. وقرأ أبو عمرو، ويعقوب، وورش، عن نافع (ليهب) على معنى أرسلني ليهب لك، وقرأ الباقون بالهمز. والزكي الطاهر من الذنوب الذي ينمو على النزاهة والعفة، وقيل: المراد بالزكي النبي **﴿قالت اني يكون لي غلام ولم يمسسني بشر﴾** أي: لم يقربني زوج ولا غيره **﴿ولم اك بغياً﴾** البغي هي الزانية التي تبغي الرجال. قال المبرد: أصله بغوي على فعول قلبت الواو ياء ثم ادغمت في الياء وكسرت الغين للمناسبة. وقال ابن جني: إنه فعيل، وزيادة نكر كونها لم تك بغياً مع كون قولها لم يمسسني بشر يتناول الحلال والحرام لقصد التأكيد تنزيهاً لجانبها من الفحشاء، وقيل: ما استبعت من قدرة الله شيئاً، ولكن أرادت كيف يكون هذا الولد هل من قبل زوج تتزوجه في المستقبل أم يخلقه الله سبحانه ابتداءً؟ وقيل: إن المس عبارة عن النكاح الحلال، وعلى هذا لا يحتاج إلى بيان وجه قولها: ولم اك بغياً، وما ذكرناه من شموله أولى باستعمالات أهل اللغة، وما يوجد في محاوراتهم مما يطول تعداده **ا هـ. ﴿ولنجعله آية للناس﴾** أي: ولنجعل هذا الغلام أو خلقه من غير أب آية للناس يستدلون بها على كمال القدرة، وهو علة لمعلل محذوف، والتقدير خلقناه لنجعله، أو معطوف على علة أخرى مضمرة تتعلق بما يدل عليه قوله سبحانه: **﴿وهو علي هين﴾** وجملة **﴿قال كذلك قال ربك هو علي هين﴾** مستأنفة، والقائل هو الملك، والكلام فيها كالكلام فيما تقدم من قول زكرياء. وقوله: **﴿ورحمة منا﴾** معطوف على آية أي: ولنجعله رحمة عظيمة كائنة منا للناس لما ينالونه منه من الهداية والخير الكثير، لأن كل نبي رحمة لأمته **﴿وكان أمراً مقضياً﴾** أي: وكان ذلك المنكور أمراً مقترراً قد قدره الله سبحانه وجف به القلم **﴿فحملته﴾** ها هنا كلام مطوي، والتقدير: فاطمأت إلى قوله فدنا منها فنفخ في جيب درعها فوصلت النفخة إلى بطنها فحملته، وقيل: كانت النفخة في ذيلها، وقيل: في قمها. قيل: إن وضعها كان متصلاً بهذا الحمل من غير مضي مدة للحمل، ويدل على ذلك قوله: **﴿فانتبذت به مكاناً قصياً﴾** أي: تنحت واعتزلت إلى مكان بعيد، والقصي هو البعيد. قيل: كان هذا المكان وراء الجبل؛ وقيل: أبعد مكان في تلك الدار، وقيل: أقصى الوادي، وقيل: إنها حملت به ستة أشهر، وقيل: ثمانية أشهر، وقيل: سبعة **﴿فأجاهها المخاض إلى جذع النخلة﴾** أي: أجاها واضطرها، ومنه قول زهير:

أجاهته المخافة والرجاء

وقرأ شبلى (فأجاها) من المفاجأة، ورويت هذه القراءة

البعض الآخر على المفغولية لتساقط. قال المبرد والأخفش: يجوز انتصاب رطباً بهزّي أي: هزّي إليك رطباً **﴿جنيّاً﴾** بجذع النخلة أي: على جذعها، وضعفه الزمخشري، والجني المأخوذ طرياً، وقيل: هو ما طلب وصلح للاجتماع، وهو فعيل بمعنى مفعول. قال الفراء: الجني والمجني واحد، وقيل: هو فعيل بمعنى فاعل أي: رطباً طرياً طيباً **﴿فكلي واشربي﴾** أي: من ذلك الرطب وذلك الماء، أو من الرطب وعصيره، وقدم الأكل مع أن ذكر النهر مقدّم على الرطب، لأن احتياج النفساء إلى أكل الرطب أشدّ من احتياجها إلى شرب الماء، ثم قال: **﴿وقرّي عيناً﴾** قرأ الجمهور بفتح القاف. وحكى ابن جرير أنه قرئ بكسرها، قال: وهي لغة نجد. والمعنى: طيبي نفساً وارفضي عنك الحزن، وهو مأخوذ من القرّ والقرّة وهما البرد، والمسرور بارد القلب ساكن الجوارح، وقيل: المعنى وقرّي عيناً برؤية الولد الموهوب لك. وقال الشيباني: معناه ناسي. قال أبو عمرو: أقر الله عينه أي: أنام عينه وأذهب سهره **﴿فإما ترين من البشر أحداً﴾** أصله ترعيين، مثل تسمعين خففت الهمزة وسقطت النون للجزم وياء الضمير للسالكين بعد لحوق نون التوكيد، ومثل هذا مع عدم لحوق نون التوكيد قول ابن دريد:

أما ترى رأسي حاكى لونه طرة صبح تحت أثيال اللجى
وقرأ طلحة، وأبو جعفر، وشيبة (تريين) بسكون الياء وفتح النون مخففة. قال أبو الفتح: وهي شاذة، وجواب الشرط **﴿فقولي﴾** إني نذرت للرحمن صوماً أي قولي إن طلب منك الكلام أحد من الناس إني نذرت للرحمن صوماً أي: صمتاً؛ وقيل: المراد به الصوم الشرعي، وهو الإمساك عن المفطرات، والأول أولى. وفي قراءة أبيّ (إني نذرت للرحمن صوماً صمتاً) بالجمع بين اللفظين، وكذا روي عن أنس، وروي عنه أنه قرأ «صوماً وصمتاً» بالواو، والذي عليه جمهور المفسرين أن الصوم هنا الصمت، ويدل عليه **﴿فلن أكلم اليوم إنسياً﴾** ومعنى الصوم في اللغة: أوسع من المعنيين. قال أبو عبيدة: كل ممسك عن طعام أو كلام أو سير فهو صائم. وقراءة أبيّ تدل على أن المراد بالصوم هنا الصمت، لأنه تفسير للصوم. وقراءة أنس تدل على أن الصوم هنا غير الصمت كما تفيده الواو. ومعنى **﴿فلن أكلم اليوم إنسياً﴾** أنها لا تكلم أحداً من الإنس بعد إخبارهم بهذا الخبر، بل إنما تكلم الملائكة وتتاجي ربه؛ وقيل: إنها لم تخبرهم هنا باللفظ، بل بالإشارة المفيدة للنذر.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **﴿انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً﴾** قال: مكاناً أظلالها الشمس أن يراها أحد منهم. وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه قال: إنما اتخذت النصرى المشرق قبلة، لأن مريم اتخذت من أهلها مكاناً شرقياً، فاتخذوا ميلاده قبلة، وإنما سجدت اليهود على حرف حين نتق فوقهم الجبل، فجعلوا ينحرفون وهم ينظرون إليه، يتخوفون أن يقع عليهم، فسجدوا سجدة رضيها الله،

فاتخذوها سنة. وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقي في الأسماء والصفات، وابن عساكر من طريق السدي عن أبي مالك عن ابن عباس. وعن مرة عن ابن مسعود قال: خرجت مريم بنت عمران إلى جانب المحراب لحيض أصابها، فلما طهرت إذا هي برجل معها **﴿فتمثل لها بشراً﴾** ففرغت و **﴿قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً﴾** فخرجت وعليها جلبابها، فأخذ بكما فنفع في جنب درعها، وكان مشقوقاً من قدامها، فدخلت النفخة صدرها فحملت، فأنبتها أختها امرأة زكريا ليلة تزورها، فلما فتحت لها الباب التزمتها، فقالت امرأة زكريا: يا مريم أشعرت أني حبلى، قالت مريم: أشعرت أني حبلى، فقالت امرأة زكريا: فإني وجدت ما في بطني سجد للذي في بطنك، فذلك قوله تعالى: **﴿مصداقاً بكلمة من الله﴾** [آل عمران: 39]. فولدت امرأة زكريا يحيى، ولما بلغ أن تضع مريم خرجت إلى جانب المحراب **﴿فاجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتني مت قبل هذا﴾** الآية **﴿فناداها﴾** جبريل **﴿من تحتها الا تحزني﴾** فلما ولدت ذهب الشيطان، فأخبر بني إسرائيل أن مريم ولدت، فلما أرادوها على الكلام أشارت إلى عيسى فتكلم ف **﴿قال إني عبد الله أتاني الكتاب﴾** الآيات، ولما ولد لم يبق في الأرض صنم إلا خرّ لوجهه. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في مريم قال: حين حملت وضعت. وأخرج ابن عساكر عنه قال: وضعت لثمانية أشهر. وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: **﴿فارسلنا إليها روحنا﴾** قال: جبريل. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر عن سعيد بن جبير نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عطاء نحوه أيضاً. وأخرج ابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في الأسماء والصفات، وابن عساكر عن أبي بن كعب في الآية قال: تمثل لها روح عيسى في صورة بشر فحملته، قال: حملت الذي خاطبها لدخل في فيها. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: **﴿مكاناً قصياً﴾** قال: نائياً. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه في قوله: **﴿إلى جذع النخلة﴾** قال: كان جذعاً يابساً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه أيضاً في قوله: **﴿وكننت نسياً منسياً﴾** قال: لم أخلق ولم أك شيئاً. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عكرمة **﴿وكننت نسياً منسياً﴾** قال: حيضة ملقاة. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن مجاهد نحوه. وأخرج عبد بن حميد، عن نوف البكالي، والضحاك مثله. وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة في قوله: **﴿فناداها من تحتها﴾** قال: الذي ناداها جبريل. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس قال: الذي ناداها من تحتها جبريل، ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها. وقد اختلفت الروايات عن السلف، هل هذا المنادي هو جبريل أو عيسى. وأخرج عبد بن حميد، عن أبي بكر بن عياش قال: قرأ عاصم بن أبي النجود **﴿فناداها من تحتها﴾** بالنصب، قال: وقال عاصم: من قرأ

وقيل: كان لها أخ من أبيها اسمه هارون؛ وقيل: هارون هذا رجل صالح في تلك الوقت؛ وقيل: بل كان في ذلك الوقت رجل فاجر اسمه هارون، فنسبوا إليه على وجه التعبير والتوبيخ، حكاه ابن جرير ولم يسم قائله وهو ضعيف ﴿مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا﴾ هذا فيه تقريره لما تقدم من التعبير والتوبيخ، وتنبيه على أن الفاحشة من نزية الصالحين مما لا ينبغي أن تكون ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ أي إلى عيسى، وإنما اكتفت بالإشارة ولم تامله بالنطق، لأنها نذرت للرحمن صوماً عن الكلام كما تقدم، هذا على تقدير أنها كانت إذ ذاك في أيام نذرها، وعلى تقدير أنها قد خرجت من أيام نذرها، فيمكن أن يقال: إن اقتصرها على الإشارة للمبالغة في إظهار الآية العظيمة، وإن هذا المولود يفهم الإشارة ويقتدر على العبارة ﴿قَالُوا كَيْفَ نَكَلِمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ هذا الاستفهام للإنكار والتعجب من إشارتها إلى ذلك المولود بأن يكلمهم. قال أبو عبيدة: في الكلام حشو زائد. والمعنى: كيف نكلم صبيّاً في المهد كقول الشاعر:

وجيران لنا كانوا كرام

وقال الزجاج: الأجود أن تكون من في معنى الشرط والجزاء، والمعنى: من يكون في المهد صبيّاً فكيف نكلمه. ورجحه ابن الأنباري وقال: لا يجوز أن يقال إن كان زائدة وقد نصبت صبيّاً، ويجب عنه بأن القائل بزياتها يجعل الناصب له الفعل، وهو نكلم كما سبق تقديره، وقيل: إن كان هنا هي التامة التي بمعنى الحثوث والوجود. وردّ بأنها لو كانت تامة لاستغنت عن الخبر، والمهد هو شيء معروف يتخذ لتتويم الصبي. والمعنى: كيف نكلم من سبيله أن يتوّم في المهد لصغره، وقيل: هو هنا حجر الأم، وقيل: سرير كالمهد، فلما سمع عيسى كلامهم ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ فكان أول ما نطق به الاعتراف بالعبودية لله ﴿آتَانِي الْكِتَابُ﴾ أي: الإنجيل أي: حكم لي بليتاني الكتاب والنبوة في الأزل، وإن لم يكن قد نزل عليه في تلك الحال ولا قد صار نبياً؛ وقيل: إنه آتاه الكتاب وجعله نبياً في تلك الحال، وهو بعيد ﴿وجعلني مباركاً أين ما كنت﴾ أي: حيثما كنت، والبركة أصلها من برك البعير، والمعنى: جعلني ثابتاً في دين الله، وقيل: البركة هي الزيادة والعلو، فكانه قال: جعلني في جميع الأشياء زائداً عالياً منجهاً، وقيل: معنى المبارك النفع للعباد، وقيل: المعلم للخير، وقيل: الأمر بالمعروف الناهي عن المنكر ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ﴾ أي: أمرني بها ﴿وَالزَّكَاةِ﴾ زكاة المال، أو تطهير النفس ﴿وَمَا دُمْتُ حَيًّا﴾ أي: مدة دوام حياتي، وهذه الأفعال الماضية هي من باب تنزيل ما لم يقع منزلة الواقع تنبيهاً على تحقق وقوعه لكونه قد سبق في القضاء المبرم ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ معطوف على مباركاً، واقتصر على البرّ بوالدته لأنه قد علم في تلك الحال أنه لم يكن له أب، وقرئ (وبراً) بكسر الباء على أنه مصدر وصف به مبالغة ﴿وَلَمْ يجعلني جباراً شقيّاً﴾ الجبار المتعظم الذي لا يرى لأحد عليه حقاً، والشقي العاصي لربه،

بالنصب فهو عيسى، ومن قرأ بالخفض فهو جبريل. وأخرج الطبراني، وابن مرويّه، وابن النجار عن ابن عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿إِنَّ السَّرِيَّ الَّذِي قَالَ اللَّهُ لَمَرْيَمَ: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكُ سَرِيًّا﴾ نَهْرٌ أَخْرَجَهُ اللَّهُ لَهَا لِتَشْرَبَ مِنْهُ.﴾ وفي إسناده أيوب بن نهيك الجبلي قال فيه أبو حاتم الرازي: ضعيف، وقال أبو زوعة: منكر الحديث، وقال أبو فتح الأزدي: متروك الحديث، وقال الطبراني بعد إخراج هذا الحديث: إنه غريب جداً. وأخرج الطبراني في الصغير، وابن مرويّه عن البراء بن عازب عن النبي ﷺ في قوله: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكُ سَرِيًّا﴾ قال: النهر. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم وصححه، والحاكم، وابن مرويّه عن البراء قال في الآية: هو الجدول، وهو النهر الصغير، فظهر بهذا أن الموقوف أصح. وقد روي عن جماعة من التابعين أن السري هو عيسى. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿رُطِبًا جَنِيًّا﴾ قال: طريا. وأخرج ابن المنذر، وابن مرويّه في قوله: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ قال: صمتاً. وأخرج عبد بن حميد، وابن الأنباري عنه أنه قرأ (صوماً صمتاً).

فَأَتَتْ بِرَحْمَتِهَا حَمْلَهُ قَالُوا يَبْرَأَ لَدَّ حَبَشَ شَيْئًا رَبًّا ۖ يَتَأَخَذُ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوهُ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّهُ بَغِيًّا ۖ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نَكَلِمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ۖ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَمَّنْتُ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي بَيْنَكَ وَمَجْلَىٰ مَبَارَكًا إِنَّمَا كُنْتُ نَذْرًا لِّرَبِّي وَأَلَزَكُوهُ مَا دُمْتُ حَيًّا ۖ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۖ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ۖ

لما اطمانت مريم عليها السلام بما رأت من الآيات وفرغت من نفاسها ﴿أَتَتْ بِهِ﴾ أي: بعيسى، وجملة ﴿تَحْمِلُهُ﴾ في محل نصب على الحال، وكان إتيانها إليهم من المكان القصي التي انتبذت فيه، فلما راوا الولد معها حزنوا، وكانوا أهل بيت صالحين ﴿فَقَالُوا﴾ منكرين لذلك ﴿يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ﴾ أي: فعلت ﴿شَيْئًا فَرِيًّا﴾ قال أبو عبيدة: الفرّي العجيب النادر، وكذا قال الأخفش. والفرّي القطع، كانه مما يخرق العادة، أو يقطع بكونه عجيباً نادراً. وقال قطرب: الفرّي الجديد من الأسقية أي: جئت بأمر بليغ جديد لم تسبقني إليه. وقال سعيد بن مسعدة: الفرّي المخلوق المفتعل، يقال: فريت وأفريت بمعنى واحد، والولد من الزنا كالشيء المفترى، قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِيَنَّ بِهِمَا مِنْ يَفْتِرَيْنِ بَيْنَ يَدَيْهِمْ وَأَرْجُلَهُمَا﴾ [المتحنته: 12] وقال مجاهد: الفرّي العظيم ﴿يَا لَخْتُ هَارُونَ﴾.

قد وقع الخلاف في معنى هذه الأخوة، وفي هارون المذكور من هو؟ فقيل: هو هارون أخو موسى، والمعنى: إن من كانت نظنها مثل هارون في العبادة كيف تأتي بمثل هذا؛ وقيل: كانت مريم من ولد هارون أخى موسى، فقيل: لها يا لخت هارون، كما يقال لمن كان من العرب: يا أخا العرب؛

الحق، قاله الكسائي. وسمي قول الحق كما سمي كلمة الله، والحق هو الله عز وجل. وقال أبو حاتم: المعنى هو قول الحق، وقيل التقدير: هذا لكلام قول الحق، وهو من باب إضافة الموصوف إلى الصفة مثل حق اليقين، وقيل: الإضافة للبيان، وقرئ (قال الحق) وروي ذلك عن ابن مسعود، وقرأ الحسن (قول الحق) بضم القاف، والقول والقول والقال والمقال بمعنى واحد، و «الذي فيه يمترون» صفة لعيسى أي: ذلك عيسى ابن مريم الذي فيه يمترون قول الحق، ومعنى يمترون: يختلفون على أنه من الممارسة، أو يشكو على أنه من المرية. وقد وقع الاختلاف في عيسى؛ فقالت اليهود هو ساحر، وقالت النصارى: هو ابن الله «وما كان لله أن يتخذ من ولد» أي: ما صح ولا استقام ذلك، فإن في محل رفع على أنها اسم كان. قال الزجاج: من في «من ولد» مؤكدة تدل على نفي الواحد والجماعة، ثم نزه سبحانه نفسه فقال: «سبحانه» أي: تنزهه وتقدس عن مقالتهم هذه، ثم صرح سبحانه بما هو شأنه تعالى سلطانه فقال: «إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون» أي: إذا قضى أمراً من الأمور فيكون حينئذ بلا تأخير. وقد سبق الكلام على هذا مستوفى في البقرة، وفي إيراده في هذا الموضع تبكيت عظيم للنصارى أي: من كان هذا شأنه كيف يتوهم أن يكون له ولد؟ «وأن الله ربي وربكم فاعبدوه» قرأ أهل المدينة وابن كثير وأبو عمرو بفتح أن، وقرأ ابن عامر وأهل الكوفة بكسرها، وهو من تمام كلام عيسى، وقرأ أبي (إن الله) بغير واو، قال الخليل وسيبويه: في توجيه قراءة النصب بأن المعنى: ولأن الله ربي وربكم، وأجاز الفراء أن يكون في موضع خفض عطفاً على الصلاة، وجوز أبو عمرو بن العلاء عطفه على أمراً «هذا صراط مستقيم» أي: هذا الذي نكرته لكم من أنه ربي وربكم، هو الطريق القيم الذي لا اعوجاج فيه ولا يضل سالكه «فاختلف الأحزاب من بينهم» من زائد للتوكيد، والأحزاب اليهود والنصارى أي: فاختلقت الفرق من أهل الكتاب في أمر عيسى، فاليهود قالوا إنه ساحر كما تقدم، وقالوا إنه ابن يوسف النجار، والنصارى اختلفت فرقه في عيسى، فقالت النسطورية منهم: هو ابن الله، وقالت الملكية: هو ثالث ثلاثة، وقالت اليعقوبية: هو الله تعالى فاقترطت النصارى وغلطت، وفترطت اليهود وقصرت «فويل للذين كفروا» وهم المختلفون في أمره «من مشهد يوم عظيم» أي: من شهود يوم القيامة وما يجري فيه من الحساب والعقاب، أو من مكان الشهود فيه، أو من شهادة ذلك اليوم عليهم، وقيل: المعنى فويل لهم من حضورهم المشهد العظيم الذي اجتمعوا فيه للتشاور «اسمع بهم وأبصر» قال أبو العباس: العرب تقول هذا في موضع التعجب، فيقولون: اسمع تريد وأبصر به أي: ما أسمعه وأبصره، فعجب الله سبحانه نبيه ﷺ منهم «يوم ياتوننا» أي: للحساب والجزاء «لكن الظالمون اليوم» أي: في الدنيا «في ضلال مبين» أي: واضح ظاهر ولكنهم

وقيل الخائب، وقيل العاق «والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً» قال المفسرون: السلام هنا بمعنى السلامة أي: السلامة علي يوم ولدت، فلم يضرنى الشيطان في ذلك الوقت ولا أغوانني عند الموت ولا عند البعث؛ وقيل: المراد به التحية. قيل: واللام للجنس، وقيل: للعهد أي: وذلك السلام الموجه إلى يحيى في هذه المواطن الثلاثة موجه إليّ. قيل: إنه لم يتكلم المسيح بعد هذا الكلام حتى بلغ المدة التي تتكلم فيها الصبيان في العادة.

وقد أخرج سعيد بن منصور، وابن عساكر، عن ابن عباس في قوله: «فانت به قومها تحمله» قال: بعد أربعين يوماً بعد ما تعالت من نفاسها. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، ومسلم، والترمذي، والنسائي وغيرهم عن المغيرة بن شعبة قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى أهل نجران، فقالوا: أرايت ما تقرءون؟ يا لخت هارون. وموسى قبل عيسى بكذا وكذا، قال: فرجعت فنكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم؟» وهذا التفسير النبوي يغني عن سائر ما روي عن السلف في ذلك. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أنس قال: كان عيسى قد درس الإنجيل وأحكامها في بطن أمه، فنلك قوله: «إني عبد الله أتاني الكتاب». وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله: «أتاني الكتاب» الآية، قال: قضى أن أكون كذلك. وأخرج الإسماعيلي في معجمه، وأبو نعيم في الحلية، وابن مردويه، وابن النجار عن أبي هريرة قال: «قال النبي ﷺ في قول عيسى: «وجعلني مباركاً أين ما كنت» قال: جعلني نفاعاً للناس أينما اتجهت». وأخرج ابن عدي، وابن عساكر عن ابن مسعود عن النبي ﷺ في قوله: «وجعلني مباركاً» قال: معلماً ومؤنباً. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: «ولم يجعلني جباراً شقياً» يقول: عصياً.

ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٢٠﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٢١﴾ وَلِلَّهِ اللَّهُ رَبُّ رَبِّكُمْ فَاَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٢٢﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢٣﴾ آمَنَ يَوْمَ وَيُؤْمَرُ يَوْمَ بِاتِّوَاتِنَا لَكِنَّ الْظَالِمِينَ الْيَوْمَ فِي سَكَلٍ مُبِينٍ ﴿٢٤﴾ وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ لَنَسْفَعُ بِالنَّارِ الْأَكْمَرُ وَمَنْ فِي غَفْلَةٍ وَمَنْ لَا يُؤْمِنُ ﴿٢٥﴾ إِنَّا نَحْنُ رَبُّ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٢٦﴾

الإشارة بقوله: «ذلك» إلى المتصف بالأوصاف السابقة. قال الزجاج: ذلك الذي قال إني عبد الله عيسى ابن مريم، لا ما تقوله النصارى من أنه ابن الله وأنه إله. وقرأ ابن عامر، وعاصم، ويعقوب «قول الحق» بالنصب. وقرأ الباقر بالرفع. فوجه القراءة الأولى أنه منتصب على المدح، أو على أنه مصدر مؤكد لقال: إني عبد الله قاله الزجاج. ووجه القراءة الثانية أنه نعت لعيسى أي: ذلك عيسى ابن مريم قول

هذا الموت، وكلهم قد رآه، فيؤمر به فينبج ويقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ الآية، وأشار بيده قال: أهل الدنيا في غفلة». وأخرج النسائي، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، عن أبي هريرة مرفوعاً نحوه. وأخرج ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، قال: يوم الحسرة هو من أسماء يوم القيامة، وقرأ ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فُرِطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ [الزمر: 56]. وعليه هذا ضعيف، والآية التي استدل بها ابن عباس لا تدل على المطلوب لا بمطابقة ولا تضمن ولا التزام.

وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبراهيمَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَبْنَوتُ لِيَمْ تَعْبُدَ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُفْقِ عَنكَ شَيْئاً ۚ يَبْنَوتُ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْغَيْبِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاذْهَبْ أَهْلِكَ حِرْطاً سَوِيّاً ۚ يَبْنَوتُ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّهُ الشَّيْطَانُ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً ۚ يَبْنَوتُ إِنِّي أَخَافُ أَن يَبْسُكَ عَذَابِي مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونُ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً ۚ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنتَ عَنِ الْهَيْجَةِ يَبْتَازُهُمْ لِيَن لَرْتَنَتَهُ لَأَرْجَمَنَّكَ وَأَهْجُرَنِي مَيْكاً ۚ قَالَ سَلَّمَ عَلَيْكَ سَأَسْتَفِيرُكَ رَفِيقاً ۚ إِنَّهُ كَانَتْ بِي حَوِيّاً ۚ وَأَعَزَّلَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَيْئاً ۚ فَلَمَّا أَغْرَقَهُم مَّا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَنَّا لَهُمْ إِنِشْحَ وَيَقُوبُ وَكَلَّ جَلَنَّا نَبِيّاً ۚ وَفَمَنَّا لَهُمْ مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلَيْكَ ۚ

قوله: ﴿وَأَنكَرُ﴾ معطوف على وأنذر، والمراد بذكر الرسول إياه في الكتاب أن يتلو ذلك على الناس كقوله: ﴿وَاتِلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبراهيمَ﴾ [الشعراء: 69]. وجملة ﴿إِنَّهُ كَانَ صَدِيقاً نَبِيّاً﴾ تعليل لما تقدم من الأمر لرسول الله ﷺ بأن ينكره، وهي معترضة ما بين البذل والمبدل منه، والصديق كثير الصديق، وانتصاب نبياً على أنه خير آخر لكان أي: أنكر إبراهيم الجامع لهذين الوصفين، و ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾ بدل اشتمال من إبراهيم، وتعليق الذكر الوقت مع أن المقصود تنكير ما وقع فيه من الحوادث للمبالغة، وأبو إبراهيم هو أزر على ما تقدم تقريره، التاء في يا أبت عوض عن الياء، ولهذا لا يجتمعان، والاستفهام في ﴿لَمْ تَعْبُدْ﴾ للإنكار والتوبيخ ﴿وَمَا لَا يَسْمَعُ﴾ ما تقول من الثناء عليه والدعاء له ﴿وَلَا يَبْصُرُ﴾ ما تفعله من عبادته ومن الأفعال التي تفعلها مريداً بها الثواب، يجوز أن يحمل نفي السمع والبصير على ما هو أعم من ذلك أي: لا يسمع شيئاً من المسموعات، ولا يبصر شيئاً من المبصرات ﴿وَلَا يَغْنِي عَنْكَ شَيْئاً﴾ من الأشياء، فلا يجلب لك نفعاً ولا يدفع عنك ضرراً، وهي الأصنام التي كان يعبدونها أزر. أورد إبراهيم عليه السلام على أبيه الدلائل والنصائح، وصنّر كلا منها بالدعاء المتضمن للرفق واللين استمالة لقلبه، وامتنالاً لأمربه، ثم كرّر دعوته إلى الحق فقال: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ فأخبر أنه قد وصل إليه من العلم نصيب لم يصل إلى أبيه، وأنه قد تجدد له حصول ما يتوصل به منه إلى الحق ويقتدر

اغفلوا التفكير. والاعتبار والنظر في الآثار ﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ أي: يوم يتحسرون جميعاً، فالمسيء يتحسر على إساءته، والمحسن على عدم استكثاره من الخير ﴿إِذْ قَضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي: فرغ من الحساب وطويت الصحف، وصار أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار، وجملة ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ في محل نصب على الحال أي: غافلين عما يعمل بهم، وكذلك جملة ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ في محل نصب على الحال ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ أي: نميت سكانها فلا يبقى بها أحد يرث الأموات، فكانه سبحانه ورث الأرض ومن عليها حيث أماتهم جميعاً ﴿وَالَّذِينَ يَرْجِعُونَ﴾ أي: يردون إلينا يوم القيامة فنجازي كلا بعمله، وقد تقدم مثل هذا في سورة الحجر.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿قَوْلَ الْحَقِّ﴾ قال: الله الحق عز وجل. وأخرج عبد الرزاق وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿الَّذِي فِيهِ يَمْعُرُونَ﴾ قال: اجتمع بنو إسرائيل وأخرجوا منهم أربعة نفر من كل قوم عالمهم، فامتروا في عيسى حين رفع، فقال أحدهم: هو الله هبط إلى الأرض وأحيا من أحياء، وأمات من أمات، ثم صعد إلى السماء، وهم اليعقوبية؛ فقالت الثلاثة: كذبت، ثم قال اثنان منهم للثالث: قل فيه، فقال: هو ابن الله، وهم النسطورية، فقال اثنان كذبت؛ ثم قال أحد الاثنين للآخر: قل فيه، فقال: هو ثالث ثلاثة، الله إله، وعيسى إله، وأمه إله، وهم الإسرائيلية، وهم ملوك النصارى، فقال الرابع: كذبت، هو عبد الله ورسوله وروحه من كلمته، وهم المسلمون، فكان لكل رجل منهم أتباع على ما قال فاقتتلوا، فظفروا على المسلمين، فذلك قول الله سبحانه: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: 21]. قال قتادة: وهم الذين قال الله: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ قال: اختلفوا فيه فصاروا أحزاباً، فاختصم القوم، فقال المرء المسلم: أنشيكم بالله هل تعلمون أن عيسى كان يطعم الطعام وأن الله لا يطعم؟ قالوا: اللهم نعم، قال: فهل تعلمون أن عيسى كان ينام وأن الله لا ينام؟ قالوا: اللهم نعم، فخصمهم المسلمون فاقتتل القوم، فنذكر لنا أن اليعقوبية ظهرت يومئذ وأصيب المسلمون، فأنزل الله ﴿قَوْلِ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ يقول الكفار يومئذ: أسمع شيء وأبصره، وهم اليوم لا يسمعون ولا يبصرون. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ قال: ذلك يوم القيامة. وأخرج البخاري، ومسلم وغيرهما عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، وجاء بالموت كأنه كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار فيقال: يا أهل الجنة هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون وينظرون إليه فيقولون: نعم هذا الموت، وكلهم قد رآه، ثم ينادى يا أهل النار هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون وينظرون فيقولون: نعم

قوله: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَاهَا إِيَّاهُ﴾ [التوبة: 114] وجملة ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ تحليل لما قبلها؛ والمعنى: سأطلب لك المغفرة من الله، فإنه كان بي كثير البرّ والطف. يقال: حفي به وتحفّى إذا برّه. قال الكسائي: يقال حفي بي حفاوة وحفوة. وقال الفراء: إنه كان بي حفياً أي: عالماً لطيفاً يجيبني إذا دعوته. ثم صرح الخليل بما تضمنه سلامه من التوديع والمشاركة فقال: ﴿وَأَعْتَزَلَكَ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: أهاجر بديني عنكم وعن معبوداتكم حيث لم تقبلوا نصحي ولا نجعت فيكم دعوتي ﴿وَادْعُوا رَبِّي﴾ وحده ﴿عَسَى أَنْ لَا أَكُونَ بِدَعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ أي: خائباً، وقيل: عاصياً. قيل: أراد بهذا الدعاء: هو أن يهب الله له ولداً وأهلاً يستأنس بهم في اعتزاله ويطمان إليهم عند وحشته؛ وقيل: أراد دعاءه لأبيه بالهداية، وعسى للشك لأنه كان لا يدري هل يستجاب له فيه أم لا، والأوّل أولى لقوله: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ أي: جعلنا هؤلاء الموهوبين له أهلاً ولداً بدل الأهل الذين فارقهم ﴿وَوَكَّلْنَا نَبِيًّا﴾ أي: كل واحد منهما، وانتصاب كلا على أنه المفعول الأوّل لجعلنا قدّم عليه للتخصيص، لكن بالنسبة إليهم أنفسهم لا بالنسبة إلى من عداهم أي: كل واحد منهم جعلنا نبياً، لا بعضهم دون بعض ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا﴾ بأن جعلناهم أنبياء، ونكر هذا بعد التصريح بجعلهم أنبياء لبيان أن النبوة هي من باب الرحمة؛ وقيل: المراد بالرحمة هنا المال؛ وقيل: الأولاد، وقيل: الكتاب، ولا يبعد أن يندرج تحتها جميع هذه الأمور ﴿وَوَجَّعْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ لسان الصديق الثناء الحسن، عبر عنه باللسان لكونه يوجد به كما عبر باليد عن العطية، وإضافته إلى الصديق ووصفه بالعلوّ للدلالة على أنهم أحقاء بما يقال فيهم من الثناء على السن العباد.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿لَارْجِمَنَّكَ﴾ قال: لأشتمنك ﴿وَوَاهِجْرَنِي مَلِيًّا﴾ قال: حيناً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه ﴿وَوَاهِجْرَنِي مَلِيًّا﴾ قال: اجتنبني سوياً. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً في الآية قال: اجتنبني سالماً قبل أن تصيبك مني عقوبة. وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبيرة وعكرمة ﴿مَلِيًّا﴾ دهرأ. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد عن قتادة قال: سالماً. وأخرج عبد بن حميد عن الحسن مثله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ قال: لطيفاً. وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ قال: يقول: وهبنا له إسحاق ويعقوب ابن ابنه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿وَوَجَّعْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ قال: الثناء الحسن.

وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذْ نَبَّأَ أَنَّهَا وَكَّلْنَا بِهَا رُسُلَنَا بَيِّنَاتٍ وَذَرَيْنَاهَا مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَفَرَّقْنَاهُ يَمِينًا وَهَبْنَا لَهَا مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿١٧﴾

به على إرشاد الضالّ، ولهذا أمره باتّباعه فقال: ﴿فَاتَّبَعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ مستوياً موصلاً إلى المطلوب منجياً من المكروه، ثم أكد ذلك بنصيحة أخرى زاجرة له عما هو فيه فقال: ﴿يَا أَبْتَ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ أي: لا تطعه فإن عبادة الأصنام هي من طاعة الشيطان، ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ حين ترك ما أمر به من السجود لأنم، ومن أطاع من هو عاص لله سبحانه فهو عاص لله، والعاصي حقيق بأن تسلب عنه النعم وتحلّ به النقم. قال الكسائي: العصي والعاصي بمعنى واحد. ثم بين له الباعث على هذه النصائح فقال: ﴿يَا أَبْتَ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمْسَكَ عَذَابُ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ قال الفراء: معنى أخاف هنا: أعلم. وقال الأكثرين: إن الخوف هنا محمول على ظاهره، لأن إبراهيم غير جازم بموت أبيه على الكفر، إذ لو كان جازماً بذلك لم يشتغل بنصحه، ومعنى الخوف على الغير: هو أن يظنّ وصول الضرر إلى ذلك الغير ﴿فَتَكُونُ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ أي: إنك إذا أطعت الشيطان كنت معه في النار واللعة، فتكون بهذا السبب مولى، أو تكون بسبب موالاته في العذاب معه، وليس هناك ولاية حقيقية لقوله سبحانه: ﴿الْأَخْلَاءَ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [الزخرف: 67]. وقيل: الولي بمعنى التالي، وقيل: الولي بمعنى القريب أي: تكون للشيطان قريباً منه في النار، فلما مرّت هذه النصائح النافعة والمواظف المقبولة بسمع أرز قابلها بالغلظة والفظاظة والقسوة، فـ ﴿قَالَ أَرَأَيْبَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمَ﴾ والاستفهام للتقريع والتوبيخ والتعجيب، والمعنى: أتعرض أنت عن ذلك ومنصرف إلى غيره؟ ثم توعده فقال: ﴿لَنْ لَمْ تَنْتَهَ لَارْجِمَنَّكَ﴾ أي: بالحجارة؛ وقيل: باللسان، فيكون معناه: لأشتمنك؛ وقيل: معناه لأضربنك، وقيل: لأظهرنّ أملك ﴿وَوَاهِجْرَنِي مَلِيًّا﴾ أي: زماناً طويلاً. قال الكسائي: يقال هجرته ملياً وملاوة وملاوة، بمعنى: الملاوة من الزمان، وهو الطويل، ومنه قول مهلهل:

فَتَصَدَّعَتْ صَمَّ الْجِبَالِ لِمَوْتِهِ وَبَكَتْ عَلَيْهِ الْمَرَمَلَاتُ مَلِيًّا
وقيل: معناه اعتزلني سالم العرض لا تصيبك مني معرة، واختار هذا ابن جرير، فملياً على هذا منتصب على الحال من إبراهيم وعلى القول الأوّل منتصب على الظرفية، فلما رأى إبراهيم إصرار أبيه على العناد ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ﴾ أي: تحية توديع ومشاركة كقولهم: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: 63]. وقيل: معناه أمنة مني لك، قاله ابن جرير، وإنما أمنة مع كفره لأنه لم يؤمر بقتاله، والأوّل أولى، وبه قال الجمهور؛ وقيل: معناه الدعاء له بالسلامة، استمالة له ورقفاً به ثم وعده بأن يطلب له المغفرة من الله سبحانه تالفاً له وطمعاً في لئنه وذهاب قسوته:

والشيخ لا يترك أخلاقه حتى يورى في ثرى رمسه
وكان منه هذا الوعد قبل أن يعلم أنه يموت على الكفر، وتحق عليه الكلمة، ولهذا قال الله سبحانه في موضع آخر: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: 114]. بعد

وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِذْ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِذْ نَزَّلَهُ اللَّهُ صِدْقًا نَبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ آمَنَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجِبِينَ إِنَّا نَقُلُّ عَلَىٰ عِلْمٍ مَا نَبَأْتَ الْكَافِرِينَ إِذْ أَخْرَجُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَبُغِبَ إِكْرَامُ ﴿٥٨﴾ خَلَقَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفًا أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَةَ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُلَاقُونَ فِيهَا كَرْهًا ﴿٦٠﴾ جَنَّاتٌ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُمْ كَانُوا وَعْدُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لِقَاءً وَلَا سُلَكًا وَلَهُمْ فِيهَا زَوْجَةٌ بَكَرٌ وَمَشِيًّا ﴿٦١﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٢﴾

قفي سبحانه قصة إبراهيم بقصة موسى لأنه تلوّه في الشرف. وقدمه على إسماعيل لثلاثا يفصل بينه وبين نكر يعقوب أي: وأقرأ عليهم من القرآن قصة موسى ﴿إنه كان مخلصاً﴾ قرأ أهل الكوفة بفتح اللام أي: جعلناه مختاراً وأخلصناه، وقرأ الباقون بكسرهما أي: أخلص العبادة والتوحيد لله غير مراء للعباد ﴿وكان رسولاً نبياً﴾ أي: أرسله الله إلى عباده فأنبأهم عن الله بشرائعه التي شرعها لهم، فهذا وجه نكر النبي بعد الرسول مع استلزام الرسالة للنبوّة، فكانه أراد بالرسول معناه اللغوي لا الشرعي، والله أعلم. وقال النيسابوري: الرسول الذي معه كتاب من الأنبياء، والنبي الذي ينبي عن الله عز وجل وإن لم يكن معه كتاب، وكان المناسب نكر الأعم قبل الأخص، إلا أن رعية الفاصلة اقتضت عكس ذلك كقوله في طه: ﴿بربّ هارون وموسى﴾ [طه: 70]. انتهى ﴿ونابيهما من جانب لطور اليمين﴾ أي: كلمناه من جانب الطور، وهو جبل بين مصر ومدين اسمه زبير، ومعنى اليمين: أنه كان ذلك الجانب عن يمين موسى، فإن الشجرة كانت في ذلك الجانب والنداء وقع منها، وليس المراد يمين الجبل نفسه. فإن الجبال لا يمين لها ولا شمال؛ وقيل: معنى اليمين الميمون، ومعنى النداء: أنه تمثل له الكلام من ذلك الجانب ﴿وقرّيناه نجياً﴾ أي: أنبأناه بتقريب المنزلة حتى كلمناه، والنجي بمعنى المناجي كالجلسيس والتدبير، فالتقريب هنا هو تقريب للتشريف والإكرام، مثلت حاله بحال من قرّبه الملك لمناجاته. قال الزجاج: قرّبه منه في المنزلة حتى سمع مناجاته؛ وقيل: إن الله سبحانه رفعه حتى سمع صريف القلم. روي هذا عن بعض السلف ﴿ووهبنا له من رحمتنا﴾ أي: من نعمتنا، وقيل: من أجل رحمتنا، و﴿هارون﴾ عطف بيان، و﴿نبياً﴾ حال منه، وذلك حين سأل ربه قال: ﴿واجعل لي وزيراً من أهلي﴾ هارون أخي [طه: 29 - 30]. ووصف الله سبحانه إسماعيل بصديق الوعد مع كونه جميع الأنبياء كذلك، لأنه كان مشهوراً بذلك مبالغاً فيه، ونأهيك بأنه وعد الصبر من نفسه على الذبح فوقى بذلك، وكان ينتظر لمن وعده بوعده الأيام والليالي، حتى قيل: إنه انتظر لبعض من وعده حولاً. والمراد

بإسماعيل هنا: هو إسماعيل بن إبراهيم، ولم يخالف في ذلك إلا من لا يعتد به فقال: هو إسماعيل بن حزقييل، بعثه الله إلى قومه فسلخوا جلدة رأسه، فخير الله فيما شاء من عذابهم، فاستغفاه ورضي بثوابه، وقد استدلل بقوله تعالى في إسماعيل ﴿وكان رسولاً نبياً﴾ على أن الرسول لا يجب أن يكون صاحب شريعة فإن أولاد إبراهيم كانوا على شريعته، وقيل: إنه وصفه بالرسالة لكون إبراهيم أرسله إلى جرحم ﴿وكان يامر أهله بالصلاة والزكاة﴾ قيل: المراد بأهله هنا أمته، وقيل: جرحم، وقيل: عشيرته كما في قوله: ﴿وانذر عشيرتاك الأقربين﴾ [الشعراء: 214] والمراد بالصلاة والزكاة هنا، هما العبادتان للشريعتان، ويجوز أن يراد معناهما اللغوي ﴿وكان عند ربه مرضياً﴾ أي: رضى زاكياً صالحاً. قال الكسائي والفراء: من قال مرضي بنى على رضيت، قالوا: وأهل الحجاز يقولون: مرضؤ ﴿وانكر في الكتاب إدريس﴾ اسم إدريس أخنوخ، قيل: هو جد نوح، فإن نوحاً هو ابن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ، وعلى هذا فيكون جد أبي نوح نكره الثعلبي وغيره، وقد قيل: إن هذا خطأ، وامتناع إدريس للعجوة والعلمية. وهو أول من خط بالقلم ونظر في النجوم والحساب، وأول من خاط الثياب. قيل وهو أول من أعطى النبوة من بني آدم. وقد اختلف في معنى قوله: ﴿ورفعناه مكاناً علياً﴾ فقيل: إن الله رفعه إلى السماء الرابعة، وقيل: إلى السادسة، وقيل: إلى الثانية. وقد روى البخاري في صحيحه من حديث الإسراء وفيه: ومنهم إدريس في الثانية، وهو غلط من رواية شريك بن عبد الله بن أبي نمر. والصحيح أنه في السماء الرابعة كما رواه مسلم في صحيحه من حديث أنس بن مالك عن النبي ﷺ، وقيل: إن المراد برفعه مكاناً علياً: ما أعطيه من شرف النبوة، وقيل: إنه رفع إلى الجنة ﴿أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين﴾ الإشارة إلى المذكورين من أول السورة إلى هنا، والموصول صفته، ومن النبيين بيان للموصول، و﴿من ذرية آدم﴾ بدل منه بإعادة الخافض، وقيل: إن من في من ذرية آدم للتبويض ﴿وممن حملنا مع نوح﴾ أي: من ذرية من حملنا معه وهم من عدا إدريس، فإن إبراهيم كان من ذرية سام بن نوح ﴿وممن ذرية إبراهيم﴾ وهم الباقون ﴿وإسرائيل﴾ أي: ومن ذرية إسرائيل، ومنهم موسى وهارون ويحيى وعيسى، وقيل: إنه أراد بقوله: ﴿من ذرية آدم﴾ إدريس وحده، وأراد بقوله: ﴿وممن حملنا مع نوح﴾ إبراهيم وحده، وأراد بقوله: ﴿وممن ذرية إبراهيم﴾ إسماعيل وإسحاق ويعقوب، وأراد بقوله: ﴿وممن ذرية إسرائيل﴾ موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى ﴿وممن هدينا﴾ أي: من جملة من هدينا إلى الإسلام ﴿ولجبتيناه بالإيمان﴾ إذا تلتى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً، وهذا خبر لأولئك، ويجوز أن يكون الخبر هو الذين أنعم الله عليهم. وهذا استئناف لبيان خشوعهم لله وخشيتهم منه. وقد تقدّم في سبحان بيان

معنى خَرُّوا سجداً يقال: بكى يبكي بكاءً وبكياً. قال الخليل: إذا قصرت البكاء فهو مثل الحزن أي: ليس معه صوت، ومنه قول الشاعر:

بكت عيني وحوّلها بكاءها وما يغني البكاء ولا العويل
وسجدا منصوب على الحال. قال الزجاج: قد بين الله أن الأنبياء كانوا إذا سمعوا آيات الله بكوا وسجدوا. وقد استدلل بهذه الآية على مشروعية سجود التلاوة، ولما مدح هؤلاء الأنبياء بهذه الأوصاف ترغيباً لغيرهم في الاقتداء بهم وسلوك طريقهم ذكر أصدادهم تنفيراً للناس عن طريقهم فقال: ﴿فخلف من بعدهم خلف﴾ أي: عقب سوء. قال أهل اللغة: يقال لعقب الخير خلف بفتح اللام، ولعقب الشر خلف بسكون اللام، وقد قدمنا الكلام على هذا في آخر الأعراف ﴿أضاعوا الصلاة﴾ قال الأكثر: معنى ذلك أنهم أخروها عن وقتها؛ وقيل: أضاعوا الوقت وقيل: كفروا بها وجحدوا وجوبها؛ وقيل: لم يأتوا بها على الوجه المشروع. والظاهر أن من أخر الصلاة عن وقتها أو ترك فرضاً من فروضها أو شرطاً من شروطها أو ركناً من أركانها فقد أضاعها، ويدخل تحت الإضاعة من تركها بالمرّة أو جحدها دخولاً أولاً.

واختلفوا فيمن نزلت هذه الآية؟ فقيل: في اليهود؛ وقيل: في النصارى؛ وقيل: في قوم من أمة محمد ﷺ يأتون في آخر الزمان، ومعنى ﴿ولتبعضوا الشهوات﴾ أي: فعلوا ما تشتهيهم أنفسهم وترغب إليه من المحرمات كشرب الخمر والزنا ﴿فسوف يلحقون غيا﴾ الغي هو الشر عند أهل اللغة كما أن الخير هو الرشاد. والمعنى: أنهم سيلقون شرّاً لا خيراً؛ وقيل: الغي الضلال، وقيل: الخيبة، وقيل: هو اسم وإو في جهنم؛ وقيل: في الكلام حذف، والتقدير: سيلقون جزاء الغي كذا قال الزجاج، ومثله قوله سبحانه: ﴿يلق أثاماً﴾ [الفرقان: 68]، أي: جزاء أثام ﴿إلا من تاب وأمن وعمل صالحاً﴾ أي: تاب مما فرط منه من تضییع الصلوات واتباع الشهوات فرجع إلى طاعة الله وأمن به وعمل عملاً صالحاً، وفي هذا الاستثناء دليل على أن الآية في الكفرة لا في المسلمين ﴿فأولئك يخلون الجنة﴾ قرأ أبو جعفر وشيبة، وابن كثير، وابن محيصن وأبو عمرو ويعقوب وأبو بكر (يخلون) بضم الياء وفتح الخاء، وقرأ الباقر بفتح الياء وضم الخاء ﴿ولا يظلمون شيئاً﴾ أي: لا ينقص من أجورهم شيء وإن كان قليلاً، فإن الله سبحانه يوفي إليهم أجورهم، وانتصاب ﴿جنات عدن﴾ على البدل من الجنة، بدل البعض لكون جنات عدن بعض من الجنة. قال الزجاج: ويجوز جنات عدن بالرفع على الابتداء، وقرئ كذلك. قال أبو حاتم: ولولا الخط لكان جنة عدن يعني: بالإنفراد مكان الجمع وليس هذا بشيء، فإن الجنة اسم لمجموع الجنات التي هي بمنزلة الأنواع للجنس. وقرئ بنصب الجنات على المدح، وقد قرئ جنة بالإنفراد ﴿التي وعد للرحمن عبياده بالغيب﴾ هذه الجملة صفة لجنات عدن، وبالغيب في محل نصب على الحال من الجنات، أو من عباده أي: متلبسة، أو

متلبسين بالغيب، وقرئ بصرف عدن، ومنعها على أنها علم لمعنى العدن وهو الإقامة، أو علم لأرض الجنة ﴿إنه كان وعده ملتياً﴾ أي: موعوده على العموم، فتدخل فيه الجنات دخولاً أولاً. قال الفراء: لم يقل آتياً، لأن كل ما أتاك فقد أتيتك، وكذا قال الزجاج ﴿لا يسمعون فيها لغواً﴾ هو الهذر من الكلام الذي يلغى ولا طائل تحته، وهو كناية عن عدم صدور اللغو منهم؛ وقيل: اللغو كل ما لم يكن فيه ذكر الله ﴿إلا سلاماً﴾ هو استثناء منقطع أي: سلام بعضهم على بعض، أو سلام الملائكة عليهم. وقال الزجاج: السلام اسم جامع للخير، لأنه يتضمن السلامة، والمعنى: أن أهل الجنة لا يسمعون ما يؤلمهم وإنما يسمعون ما يسلمهم ﴿ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا﴾ قال المفسرون: ليس في الجنة بكرة ولا عشاء، ولكنهم يؤتون رزقهم على مقدار ما يعرفون من الغداء والعشاء ﴿فذلك الجنة التي نورت من عبائنا من كان تقياً﴾ أي: هذه الجنة التي وصفنا أحوالها نورثها من كان من أهل التقوى كما يبقى على الوارث مال مورثه. قرأ يعقوب (نورث) بفتح الواو وتشديد الراء، وقرأ الباقر بالتخفيف، وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: نورث من كان تقياً من عبائنا.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿وكان رسولاً نبياً﴾ قال: النبي الذي يكلم وينزل عليه ولا يرسل، ولفظ ابن أبي حاتم: الأنبياء الذين ليسوا برسل يوحى إلى أحدهم ولا يرسل إلى أحد. والرسل: الأنبياء الذين يوحى إليهم ويرسلون. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿جانب طور الأيمن﴾ قال: جانب الجبل الأيمن ﴿وقربناه نجياً﴾ قال: نجا بصنقه. وأخرج عبد بن حميد عن أبي العالية قال: قربه حتى سمع صريف القلم، وروي نحو هذا عن جماعة من التابعين. وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن ابن عباس في الآية قال: حتى سمع صريف القلم يكتب في اللوح. وأخرجه الديلمي عنه مرفوعاً. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون﴾ قال: كان هارون أكبر من موسى، ولكن إنما وهب له نبوته. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ورفعناه مكاناً علياً﴾ قال: كان إدريس خياطاً، وكان لا يغرز غرزة إلا قال: سبحان الله، وكان يعسى حين يمسي وليس على الأرض أفضل عملاً منه، فاستأن ملك من الملائكة ربه فقال: يا ربّ ائذن لي فأهبط إلى إدريس، فأتته له فأتى إدريس فقال: إنني جئتكم لأخدمكم، قال: كيف تخدمني وأنت ملك وأنا إنسان؟ ثم قال إدريس: هل بينك وبين ملك الموت شيء؟ قال الملك: ذاك أخي من الملائكة، قال: هل تستطيع أن تنفعي؟ قال: أما يؤخر شيئاً أو يقدمه فلا، ولكن سأكلمه لك فيرفق بك عند الموت، فقال: اركب بين جنباهي، فركب إدريس فصعد إلى

يلقون غيابة قال: خسراً. وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وهناد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، والبيهقي في البعث من طرق عن ابن مسعود في قوله: ﴿فسوف يلقون غيابة﴾ قال: الغي نهر، أو وادٍ في جهنم من قبح بعيد القعر خبيث الطعام، يقذف فيه الذين يتبعون الشهوات. وقد قال بآئه وادٍ في جهنم البراء بن عازب. وروى ذلك عنه ابن المنذر والطبراني. وأخرج ابن جرير، والطبراني، وابن مردويه والبيهقي عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أن صخرة زنة عشر عشر أواق قذف بها من شفير جهنم ما بلغت قعرها سبعين خريفاً، ثم تنتهي إلى غي وثام، قلت: وما غي وثام؟ قال: نهران في أسفل جهنم يسيل فيهما صديد أهل النار، وهما اللذان نكر الله في كتابه ﴿فسوف يلقون غيابة﴾ ومن يفعل ذلك يلق اثاماً﴾ [الفرقان: 68]. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «الغي وادٍ في جهنم». وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿لا يسمعون فيها لغواً﴾ قال: باطلاً. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿بكرة وعشيا﴾ قال: يؤتون به في الآخرة على مقدار ما كانوا يؤتون به في الدنيا. وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول من طريق إبان، عن الحسن وأبي قلابة قالاً: قال رجل: يا رسول الله هل في الجنة من ليل؟ قال: وما هي بك على هذا؟ قال: سمعت الله ينكر في الكتاب ﴿ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا﴾ فقلت: الليل من البكرة والعشي، فقال رسول الله ﷺ: «ليس هناك ليل، وإنما هو ضوء ونور، يرد الغلو على الرواح والرواح على الغلو، تأتيهم طرف الهدايا من الله لمواقيت الصلاة التي كانوا يصلون فيها في الدنيا، وتسلم عليهم الملائكة، وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «ما من غداة من غدوات الجنة، وكل الجنة غدوات، إلى أنه يزف إلى ولي الله فيها زوجة من الحور العين وأندانهن التي خلقت من الزعفران»، قال بعد إخراجه: قال أبو محمد: هذا حديث منك.

وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَمْ يَكُنْ آيَاتِنَا وَمَا خَلَقْنَا وَمَا بَرَكْ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ ذِيًّا ۖ رَبُّكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاسْطَجِرْهُ لِيُنْزِلَ عَلَيْكَ مِنْ سَمَاءٍ ۖ يَقُولُ الْإِنْسَانُ لَوْ كُنَّا مَا مِثْلَ لَسَوْفَ أُخْرِجَ حَيًّا ۖ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ۖ فَوَرَبُّكَ لَخَشِيعُهُمْ وَالْغَاطِيْنَ ثُمَّ لَتَحْمِلَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثًّا ۖ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَهْبَئًا شَدِيدًا ۖ لَنَنْزِعَنَّ مِنَ الَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِمَا صَبَّاهُمْ ۖ وَإِنْ يَنْسَكُوا لَا نَارِدُهُمْ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ۖ ثُمَّ نَسْجِي الَّذِينَ أَقْرَبُوا وَنَذَرُ الْغَالِيِينَ فِيهَا جِثًّا ۖ

قوله: ﴿وما ننزل﴾ أي: قال الله سبحانه: قل يا جبريل وما ننزل، وذلك أن رسول الله ﷺ استبطا نزول جبريل عليه، فأمر جبريل أن يخبره بأن الملائكة ما تنزل عليه إلا

السماء العليا فلقي ملك الموت وإبريس بين جناحيه، فقال له الملك: إن لي إليك حاجة، قال: علمت حاجتك تكلمني في إبريس، وقد محي اسمه من الصحيفة فلم يبق من أجله إلا نصف طرفة عين، فمات إبريس بين جناحي الملك. وأخرج ابن أبي شيبة في المصاحف، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: سألت كعباً فذكر نحوه، فهذا هو من الإسرائيليات التي يرويها كعب. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس قال: «رفع إبريس إلى السماء السادسة». وأخرج الترمذي وصححه، وابن المنذر، وابن مردويه قال: حدثنا أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «لما عرج بي رأيت إبريس في السماء الرابعة». وأخرج ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في الآية قال: رفع إبريس كما رفع عيسى ولم يمض. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال: إبريس هو إلياس. وحسنه السيوطي. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله: ﴿أولئك الذين أنعم الله عليهم﴾ إلى آخره، قال: هذه تسمية الأنبياء الذين نكرمهم؛ أما من نرية آدم: فإبريس ونوح، وأما من حمل مع نوح فإبراهيم، وأما نرية إبراهيم: فإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، وأما نرية إسرائيل: فموسى، وهارون، وزكريا، ويحيى، وعيسى. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله: ﴿فخلف من بعدهم خلف﴾ قال: هم اليهود والنصارى. وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد في الآية قال: هم من هذه الأمة يتركبون في الطرق كما تراكب الأنعام لا يستحيون من الناس، ولا يخافون من الله في السماء. وأخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود في قوله: ﴿أضاعوا للصلاة﴾ قال: ليس إضاععتها تركها قد يضيع الإنسان الشيء ولا يتركها، ولكن إضاعتها: إذا لم يصلها لوقتها. وأخرج أحمد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عن أبي سعيد الخدري: «سمعت رسول الله ﷺ وتلا هذه الآية ﴿فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات﴾ الآية قال: يكون خلف من بعد ستين سنة أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ﴿فسوف يلقون غيابة﴾ ثم يكون خلف يقرءون القرآن لا يعنو ترقيقهم، ويقرأ القرآن ثلاثة: مؤمن، ومناق، وفاجر». وأخرج أحمد، والحاكم وصححه عن عتبة بن عامر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سيهلك من أمتي أهل الكتاب وأهل اللين، قلت: يا رسول الله ما أهل الكتاب؟ قال: قوم يتعلمون الكتاب يجادلون به الذين آمنوا، قلت: ما أهل اللين؟ قال: قوم يتبعون الشهوات ويضيعون الصلوات». وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، والحاكم وصححه عن عائشة أنها كانت ترسل بالصدقة لأهل الصدقة وتقول: لا تعطوا منها بربرياً ولا بربرية، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «هم الخلف الذين قال الله: ﴿فخلف من بعدهم خلف﴾». وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿فسوف

على أبلغ وجه واكمله ﴿ويقول الإنسان ائذا ما مت لسوف اخرج حياً﴾ قرأ الجمهور على الاستفهام، وقرأ ابن نكوان إذا ما مت على الخبر، والمراد بالإنسان ها هنا: الكافر، لأن هذا الاستفهام هنا للإنكار والاستهزاء والتكذيب بالبعث؛ وقيل: اللام في الإنسان للجنس بأسره وإن لم يقل هذه المقالة إلا البعض، وهم الكفرة فقد يسند إلى الجماعة ما قام بواحد منهم، والمراد بقوله اخرج أي: من القبر، والعامل في الظرف فعل دل عليه اخرج، لأن ما بعد اللام لا يعمل فيما قبلها ﴿أو لا يذكر الإنسان ائنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً﴾ الهمزة للإنكار التوبيخي، والاول لعطف الجملة التي بعدها على الجملة التي قبلها، والمراد بالذكر هنا إعمال الفكر أي: الا يتفكر هذا الجاحد في أول خلقه فيستدل بالابتداء على الإعادة، والابتداء أعجب وأغرب من الإعادة، لأن النشأة الأولى هي إخراج لهذه المخلوقات من العدم إلى الوجود ابتداءً واختراعاً، لم يتقدم عليه ما يكون كالمثال له، وأما النشأة الآخرة فقد تقدم عليها النشأة الأولى فكانت كالمثال لها، ومعنى ﴿من قبل﴾ قبل الحالة التي هو عليها الآن، وجملة «ولم يك شيئاً» في محل نصب على الحال أي: والحال أنه لم يكن حينئذ شيئاً من الأشياء أصلاً، فأعادته بعد أن كان شيئاً موجوداً أسهل وأيسر. قرأ أهل مكة وأبو عمرو وأبو جعفر وأهل الكوفة إلا عاصماً (أو لا يذكر) بالتشديد، وأصله يتذكر. وقرأ شيبه ونافع وعاصم وابن عامر (ينكر) بالتخفيف، وفي قراءة أبي (أو لا يتذكر). ثم لما جاء سبحانه وتعالى بهذه الحجة التي أجمع العقلاء على أنه لم يكن في حجج البعث حجة أقوى منها، اكدها بالقسم باسمه سبحانه مضافاً إلى رسوله تشريفاً له وتعظيماً، فقال: ﴿فمؤيداً لنحشروهم﴾ ومعنى لنحشروهم: لنسوقهم إلى المحشر بعد إخراجهم من قبورهم أحياء كما كانوا، والوار في قوله: ﴿والشياطين﴾ للعطف على المنصوب، أو بمعنى مع. والمعنى: أن هؤلاء الجاحدين يحشروهم الله مع شياطينهم الذين أغوهم وأضلّوهم، وهذا ظاهر على جعل اللام في الإنسان للمعهد، وهو الإنسان الكافر، وأما على جعلها للجنس فكونه قد وجد في الجنس من يحشر مع شيطانه ﴿ثم لنحشروهم حول جهنم جثياً﴾ الجثي جمع جث، من قولهم جثا على ركبتيه يجثو جثواً، وهو منتصب على الحال أي: جاثين على ركبهم لما يصيبهم من هول الموقف وروعة الحساب، أو لكون الجثي على الركب شأن أهل الموقف كما في قوله سبحانه: ﴿وترى كل أمة جاثية﴾ [الجاثية: 28]. وقيل: المراد بقوله جثياً جماعات، وأصله جمع جثوة، والجثوة هي المجموع من التراب أو الحجارة. قال طرفة:

أرى جثوتين من تراب عليهما صفائح صم من صفيح منضد
﴿ثم لننزعن من كل شيعة﴾ الشيعة الفرقة التي تبعت نبياً من الأديان، وخصص ذلك الزمخشري فقال: هي الطائفة التي شاعت أي: تبعت غلوياً من الغواة قال الله تعالى: ﴿إن

بأمر الله. قيل: احتبس جبريل عن رسول الله ﷺ أربعين يوماً؛ وقيل: خمسة عشر؛ وقيل: اثني عشر؛ وقيل: ثلاثة أيام؛ وقيل: إن هذا حكاية عن أهل الجنة، وأنهم يقولون عند دخولها: وما ننزل هذه الجنان ﴿إلا بأمر ربك﴾ والأول أولى بدلالة ما قبله، ومعناه يحتمل وجهين: الأول وما ننزل عليك إلا بأمر ربك لنا بالنزول. والثاني وما ننزل عليك إلا بأمر ربك الذي يأمر بك به بما شرعه لك ولأمتك، والنزول على مهل، وقد يطلق على مطلق النزول. ثم أكد جبريل ما أخبر به النبي ﷺ فقال: ﴿له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك﴾ أي: من الجهات والأماكن، أو من الأزمنة الماضية والمستقبلية، وما بينهما من الزمان أو المكان الذي نحن فيه، فلا نقدر على أن نتنقل من جهة إلى جهة، أو من زمان إلى زمان إلا بأمر ربك ومشيتته، وقيل: المعنى له ما سلف من أمر الدنيا وما يستقبل من أمر الآخرة وما بين ذلك، وهو ما بين النفختين؛ وقيل: الأرض التي بين أيدينا إذا نزلنا، والسماء التي وراءنا وما بين السماء والأرض، وقيل: ما مضى من أعمارنا وما غير منها والحالة التي نحن فيها. وعلى هذه الأقوال كلها يكون المعنى: أن الله سبحانه هو المحيط بكل شيء لا يخفى عليه خافية، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة، فلا تقدم على أمر إلا بإذنه. وقال: وما بين ذلك، ولم يقل وما بين ذلك لأن المراد: وما بين ما ذكرنا كما في قوله سبحانه: ﴿عوان بين ذلك﴾ [البقرة: 68]. ﴿وما كان ربك نسياً﴾ أي: لم ينسك وإن تأخر عنك الوحي، وقيل: المعنى إنه عالم بجميع الأشياء لا ينسى منها شيئاً؛ وقيل: المعنى وما كان ربك ينسى الإرسال إليك عند الوقت الذي يرسل فيه رسله ﴿رب السفوات والأرض وما بينهما﴾ أي: خالقهما وخالق ما بينهما، والملكها ومالك ما بينهما، ومن كان هكذا فلننسيان محال عليه. ثم أمر الله نبيه ﷺ بعبادته والصبر عليها فقال: ﴿فابعده واصطبر لعبائته﴾ والفاء للسببية لأن كونه رب العالمين سبب موجب لأن يعبد، وعدى فعل الصبر باللام دون على التي يتعدى بها لتضمنه معنى الثبات ﴿هل تعلم له سميّاً﴾ الاستفهام للإنكار. والمعنى: أنه ليس له مثل ولا نظير حتى يشاركه في العبادة، فيلزم من ذلك أن تكون غير خالصة له سبحانه، فلما انتفى المشارك استحق الله سبحانه أن يفرد بالعبادة وتخلص له، هذا مبني على أن المراد بالسمي هو الشريك في المسمى؛ وقيل: المراد به الشريك في الاسم كما هو الظاهر من لغة العرب، فقيل: المعنى إنه لم يسم شيئاً من الأصنام ولا غيرها بالله قط، يعني: بعد دخول الألف واللام التي عوضت عن الهمزة ولزمت، وقيل: المراد هل تعلم أحداً اسمه الرحمن غيره؟ قال الزجاج: تأويله والله أعلم: هل تعلم له سميّاً يستحق أن يقال له خالق وقادر وعالم بما كان وبما يكون، وعلى هذا لا سمي لله في جميع أسمائه، لأن غيره وإن سمي بشيء من أسمائه، قلله سبحانه حقيقة ذلك الوصف، والمراد بنفي العلم المستفاد من الإنكار هنا: نفي المعلوم

[القصص: 23]. فإن المراد أشرف عليه لا أنه دخل فيه، ومنه قول زهير:

فلما وردن الماء زرقا حمامه وضعن عصي الحاضر المتخيم
ولا يخفى أن القول بأن الورد هو المرور على الصراط، أو الورد على جهنم وهي خادمة فيه جمع بين الآلة من الكتاب والسنة، فينبغي حمل هذه الآية على ذلك، لأنه قد حصل الجمع بحمل الورد على دخول النار مع كون الداخل من المؤمنين مبعداً من عذابهما، أو بحمله على المضى فوق الجسر المنصوب عليها، وهو الصراط ﴿كَانَ عَلَى رِبِكَ حَقْماً مَقْضِيّاً﴾ أي: كان ورودهم المذكور أمراً محتوماً قد قضى سبحانه أنه لا بد من وقوعه لا محالة، وقد استبليت المعتزلة بهذه الآية على أن العقاب واجب على الله، وعند الإشاعة أن هذا مشبه بالواجب من جهة استحالة تطرق الخلف إليه ﴿لَمْ نُنْجِ الَّذِينَ تَقَوَّاهُ﴾ أي: اتقوا ما يوجب النار، وهو الكفر بالله ومعاصيه، وترك ما شرعه، وأوجب العمل به. قرأ عاصم الجحدري ومعاوية بن قرة (ننجي) بالتخفيف من أنجي، وبها قرأ حميد ويعقوب والكسائي، وقرأ الباقر بالتشديد، وقرأ ابن أبي ليلى ﴿لَمْ نَذَرْ﴾ بفتح الذاء من ثم، والمراد بالظالمين: الذين ظلموا أنفسهم بفعل ما يوجب النار، أو ظلموا غيرهم بمظلمة في النفس أو المال أو العرض، والجني جمع جاث، وقد تقدم قريباً تفسير الجثي وأعرابه.

وقد أخرج البخاري وغيره عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل: «ما يمنحك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟ فنزلت ﴿وَمَا تَنْتَظِرُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ إلى آخر الآية. وزاد ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وكان ذلك الجواب لمحمد. وأخرج ابن مريويه من حديث أنس قال: «سئل رسول الله ﷺ أي البقاع أحب إلى الله، وأيها أبغض إلى الله؟ قال: ما أري حتى أسأل، فنزل جبريل، وكان قد أبطا عليه، فقال: لقد أبطأت علي حتى ظننت أن بربي علي موحدة، فقال: ﴿وَمَا تَنْتَظِرُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾». وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن عكرمة قال: «أبطا جبريل على النبي ﷺ أربعين يوماً ثم نزل، فقال له النبي ﷺ: ما نزلت حتى اشتقت إليك، فقال له جبريل: أنا كنت إليك أشوق، ولكني مأمور، فأوحى الله إلى جبريل أن قل له: ﴿وَمَا تَنْتَظِرُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾». وهو مرسل. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: أبطأت الرسل على رسول الله ﷺ، ثم أتاه جبريل فقال له: «ما حبسك عني؟ قال: وكيف ناتيك وأنت لا تقصون أظفاركم ولا تنقون براجمكم ولا تأخون شواربكم ولا تستاكون؟ وقرأ ﴿وَمَا تَنْتَظِرُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾». وهو مرسل أيضاً. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير «له ما بين أيدينا» قال: من أمر الآخرة ﴿وَمَا خَلَفْنَا﴾ قال: من أمر الدنيا ﴿وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ قال: ما بين الدنيا والآخرة. وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة ﴿وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ قال: ما

الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً [الأنعام: 159]. ومعنى ﴿إِيَّاهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيّاً﴾ من كان أعصى لله وأعتى فإنه ينزع من كل طائفة من طوائف الغي والفساد أعصاهم وأعتاهم، فإذا اجتمعوا طرحهم في جهنم. والعتي ها هنا مصدر كالعتو، وهو التمرّد في العصيان، وقيل: المعنى لننزعن من أهل كل دين قانتهم ورؤساهم في الشر. وقد اتفق القراء على قراءة أيهم بالضم إلا هارون الغازي فإنه قرأها بالفتح. قال الزجاج: في رفع أيهم ثلاثة أقوال: الأول قول الخليل بن أحمد إنه مرفوع على الحكاية. والمعنى: ثم لننزعن من كل شيعة الذين يقال لهم أيهم أشد، وأنشد الخليل في ذلك قول الشاعر:

وقد أبيت من الفتاة بمنزل فابيت لاحرج ولا محروم
أي: فابيت بمنزلة الذي يقال له هو لا حرج ولا محروم. قال النحاس: ورأيت أبا إسحاق يعني: الزجاج يختار هذا القول ويستحسنه. القول الثاني قول يونس: وهو أن لننزعن بمنزلة الأفعال التي تلتق وتعلق، فهذا الفعل عنده معلق عن العمل في أي، وخصص الخليل وسيبويه وغيرهما التعليق بأفعال الشك ونحوها مما لم يتحقق وقوعه. القول الثالث قول سيبويه: إن أيهم ها هنا مبني على الضم، لأنه خالف أخواته في الحذف، وقد غلط سيبويه في قوله هذا جمهور النحويين حتى قال الزجاج: ما تبين لي أن سيبويه غلط في كتابه إلا في موضعين هذا أحدهما، وللنحويين في إعراب أيهم هذه في هذا الموضع كلام طويل ﴿لَمْ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيّاً﴾ يقال: صلى يصلي صلياً مثل مضى الشيء يمضي مضياً، قال الجوهري: يقال صليت الرجل نأراً إذا أسخفته النار وجعلته يصلها، فإن القيت إلقاءً كأنك تريد الإحراق قلت: أصلية بالالف وصلية تصلية ومنه ﴿وَيُصَلِّى سَعِيرًا﴾ [الإنشاق: 12]. ومن خفف فهو من قولهم: صلي فلان النار بالكسر يصلى صلياً احترق، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيّاً﴾ قال العجاج:

والله لولا النار أن تصلها

ومعنى الآية: أن هؤلاء الذين هم أشد على الرحمن عتياً هم أولى بصليها أو صليهم أولى بالنار ﴿وَأَن مِّنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ الخطاب للناس من غير التفات، أو للإنسان المذكور، فيكون التفاتاً أي: ما منكم من أحد إلا واردها أي: واصلها.

وقد اختلف الناس في هذا الورد، فقيل: الورد الدخول ويكون على المؤمنين برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم. وقالت فرقة: الورد هو المرور على الصراط؛ وقيل: ليس الورد الدخول إنما هو كما يقول: وردت البصرة ولم أسخها، وقد توقف كثير من العلماء عن تحقيق هذا الورد، وحمله على ظاهره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحَسَنَىٰ أُولَٰئِكَ مِنْهَا مُبْعَوُونَ﴾ [الأنبياء: 101]. قالوا: فلا يدخل النار من ضمن الله أن يبعده عنها، ومما يدل على أن الورد لا يستلزم الدخول قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾

بين النفختين. وأخرج ابن المنذر عن أبي العالية مثله. وأخرج البزار، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والطبراني، والبيهقي، والحاكم وصححه عن أبي الدرداء رفع الحديث قال: «ما أحل الله في كتابه فهو حلال، وما حرم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عافية. فاقبلوا من الله عافيته، فإن الله لم يكن لينسى شيئاً، ثم تلا ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾». وأخرج ابن مردويه من حديث جابر مثله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ قال: هل تعرف للرب شيئاً أو مثلاً؟ وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب عنه: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾؟ قال: ليس أحد يسمى الرحمن غيره، وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً في الآية قال: يا محمد هل تعلم لإلهك من ولد؟ وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ﴾ قال: العاص بن وائل، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿جَثِيًّا﴾ قال: قعوداً، وفي قوله: ﴿عَتِيًّا﴾ قال: معصية. وأخرج ابن جرير عنه في قوله: ﴿عَتِيًّا﴾ قال: عصياً. وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿ثُمَّ لَنُنْزِعَنَّ﴾ قال: لننزعن من أهل كل دين قادتهم ورؤوسهم في الشر. وأخرج ابن أبي حاتم، والبيهقي في البعث عن ابن مسعود قال: نحشر الأول على الآخر حتى إذا تكاملت العدة أثارهم جميعاً، ثم بدأ بالأكابر فالأكابر جرماً، ثم قرأ ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿عَتِيًّا﴾. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله: ﴿ثُمَّ لَنُحْشِرَنَّ﴾ قال: لنحشرهم بالذين هم أولى بها صلياً. قال: يقول إنهم أولى بالخلود في جهنم. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، والحكيم الترمذي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي عن أبي سمية قال: اختلفنا في الورد، فقال بعضنا: لا يدخلها مؤمن، وقال بعضنا: يدخلونها جميعاً ﴿ثُمَّ نُنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ فلقيت جابر بن عبد الله فنكرت له، فقال وأهوى بأصبعه إلى أذنيه صمّاً: إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمن برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم حتى إن للنار ضجيجاً من بردها ﴿ثُمَّ نُنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنُذِرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جَثِيًّا﴾». وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وهناد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن مجاهد قال: خاصم نافع بن الأزرق وابن عباس، فقال ابن عباس: الورد الدخول، وقال نافع: لا، فقرأ ابن عباس ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: 98]. وقال: وردوا أم لا؟ وقرأ ﴿يَقْدِمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ [هود: 98]. أوردوا أم لا؟ أما أنا وأنت فسندخلها فانظر هل نخرج منها أم لا؟ وأخرج الحاكم عن ابن مسعود في قوله: ﴿وَأَنْ تَعْلَمَ لَهُ سَمِيًّا﴾ قال: وإن منكم إلا داخلها. وأخرج هناد، والطبراني عنه في الآية قال: وردوا

الصراط. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، والترمذي، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي، وابن الأنباري، وابن مردويه عن ابن مسعود في قوله: ﴿وَأَنْ تَعْلَمَ لَهُ سَمِيًّا﴾ قال: قال رسول الله ﷺ: «ليرد الناس كلهم النار، ثم يصدرون عنها بأعمالهم، فأولهم كلمع البرق، ثم كالريح، ثم كحضر الفرس، ثم كالراكب في رحله، ثم كشذ الرحل، ثم كمشيه». وقد روي نحو هذا من حديث ابن مسعود من طرق. وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿وَأَنْ تَعْلَمَ لَهُ سَمِيًّا﴾ يقول: مجتاز فيها. وأخرج مسلم وغيره عن أم مبشر قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل النار أحد شهد بداراً والحبيبية. قالت حفصة: أليس الله يقول: ﴿وَأَنْ تَعْلَمَ لَهُ سَمِيًّا﴾؟ قلت: ألم تسمعيه يقول: ﴿ثُمَّ نُنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾». وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يموت لمسلم ثلاثة من الولد فيلج النار إلا تحلة القسم»، ثم قرأ سفيان ﴿وَأَنْ تَعْلَمَ لَهُ سَمِيًّا﴾. وأخرج أحمد، والبخاري في تاريخه، وأبو يعلى، والطبراني، وابن مردويه عن معاذ بن أنس عن رسول الله ﷺ قال: «من حرس من وراء المسلمين في سبيل الله متطوعاً لا يأخذه سلطان لم ير النار بعينيه إلا تحلة القسم، فإن الله يقول: ﴿وَأَنْ تَعْلَمَ لَهُ سَمِيًّا﴾». والأحاديث في تفسير هذه الآية كثيرة جداً. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿حَتَّمَا مَقْضِيًّا﴾ قال: قضاء من الله. وأخرج الخطيب في تالي التلخيص عن عكرمة حتماً مقضياً قال: قسماً واجباً. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَنُذِرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جَثِيًّا﴾ قال: باقين فيها.

وَإِذَا تَنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مَائِدَاتُنَا يَنَسُوْنَ قَالَ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا لِلَّذِيْنَ اٰمَنُوْا ائْتِ الْفَرِيقَيْنِ حَرْبًا مَّعًا وَاَحْسَنُ نَزْوً ۚ وَكَوْضِلْنَا قُلُوْبُهُمْ يَنْ فَرِقْنٰهُمْ اَحْسَنُ اَنْتَا وَرَبِّيَ ۙ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلٰلَةِ فَلْيَمْدَدْ لَهُ اَزْحَمُنْ مَدًى حَتّٰى اِذَا رَاَوْا مَا يُوعَدُوْنَ اِنَّمَا اَلْعَذَابُ وِلٰيَاتُ السَّاعَةِ فَيَسْمِعُوْنَ مَنْ هُوَ مِنْهُمْ كَقَالُوْا وَاصْبِرْ جُنْدًا ۙ وَيَزِيْدُ اللّٰهُ الَّذِيْنَ اٰهْتَدَوْا هُدًى وَّالَّذِيْنَ اٰفْلَحَتْ اَلْمَلٰٓئِكَةُ حَرّٰى عِنْدَ رَبِّكَ نَوَاجِدًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ۙ اَنۡزَلَتْ اَلَّذِيْ كَفَرَ بِاٰيٰتِنَا وَقَالَ لَاۤ اُوْبِعُكَ مَالًا وَّلَدًا ۙ اَطْلُعِ الْغَيْبَ اَوْ اَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمٰنِ عَهْدًا ۙ كَلَّا سَتَكُنُّبَ مَآ يَقُوْلُ وَنَسُوْا لَمْ يَنْ اَلْعَذَابُ مَدًى ۙ وَرَبُّهُمْ مَّا يَقُوْلُ وَيَاۤاَيُّهَا فَرْدًا ۙ

الضمير في ﴿عليهم﴾ راجع إلى الكفار الذين سبق ذكرهم في قوله: ﴿إِذَا مَا مَاتَ لِسَوْفَ أُخْرِجَ حَيًّا﴾ [مريم: 66] أي: هؤلاء إذا قرئ عليهم القرآن تعذبوا بالندى، وقالوا: لو كنتم على الحق وكنا على الباطل لكان حالكم في الدنيا أظلم من حالنا. ولم يكن بالعكس، لأن الحكيم لا يلبق به أن يهين أوليائه ويعز أعداءه، ومعنى البيئات: الواضحات التي لا تلتبس معانيها؛ وقيل: ظاهرات الإعجاز، وقيل: إنها حجج وبراهين، والأول أولى. وهي حال مؤكدة لأن آيات الله لا تكون إلا واضحة، ووضع الظاهر موضع المضمهر في قوله:

من كان مستقراً في الضلالة ﴿فليمد له الرحمن مداً﴾ هذا وإن كان على صيغة الأمر، فالمراد به الخبر، وإنما خرج مخرج الأمر لبيان الإمهال منه سبحانه للعصاة، وأن ذلك كائن لا محالة لتقطع معانير أهل الضلال، ويقال لهم يوم القيامة ﴿أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر﴾ [فاطر: 37]. أو للاستدراج كقوله سبحانه: ﴿إنما نملئ لهم ليزدانوا إثمًا﴾ [آل عمران: 178]. وقيل: المراد بالآية الدعاء بالممد والتنقيس. قال الزجاج: تأويله أن الله جعل جزاء ضلالتهم أن يتركه ويمدّه فيها، لأن لفظ الأمر يؤكد معنى الخبر كان المتكلم يقول: أفعل ذلك وأمر به نفسي ﴿حتى إذا رآوا ما يوعدون﴾ يعني: الذين مدّ لهم في الضلالة، وجاء بضمير الجماعة اعتباراً بمعنى من، كما أن قوله: ﴿كان في الضلالة فليمد له﴾ اعتبار بلفظها، وهذه غاية للمدّ، لا لقول المفتخرين إذ ليس فيه امتداد ﴿إما العذاب وإما الساعة﴾ هذا تفصيل لقوله ما يوعدون أي: هذا الذي توعدون هو أحد أمرين إما العذاب في الدنيا بالقتل والأسر، وإما يوم القيامة وما يحلّ بهم حينئذٍ من العذاب الآخري ﴿فسيعلمون من هو شرّ مكاناً وأضعف جنداً﴾ هذا جواب الشرط، وهو جواب على المفتخرين أي: هؤلاء القائلون: أي الفريقين خير مقاماً، إذا عاينوا ما يوعدون به من العذاب الدنيوي بأيدي المؤمنين، أو الآخري، فسيعلمون عند ذلك من هو شرّ مكاناً من الفريقين، وأضعف جنداً منهما: أي أنصاراً وأعواناً. والمعنى: أنهم سيعلمون عند ذلك أنهم شرّ مكاناً لا خير مكاناً، وأضعف جنداً لا أقوى ولا أحسن من فريق المؤمنين، وليس المراد أن للمفتخرين هنالك جنداً ضعفاء، بل لا جند لهم أصلاً كما في قوله سبحانه: ﴿ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرًا﴾ [الكهف: 43] ثم لما أخبر سبحانه عن حال أهل الضلالة، أراد أن يبين حال أهل الهداية فقال: ﴿ويزيد الله الذين اهتدوا هدى﴾ وذلك أن بعض الهدى يجزّ إلى البعض الآخر، والخير يدعو إلى الخير؛ وقيل: المراد بالزيادة العبادة من المؤمنين، والوأي في «ويزيد» للاستئناف، والجملة مستأنفة لبيان حال المهتدين؛ وقيل: الواو للعطف على فليمد؛ وقيل: للعطف على جملة من كان في الضلالة. قال الزجاج: المعنى أن الله يجعل جزاء المؤمنين أن يزيدهم يقيناً كما جعل جزاء الكافرين أن يمدّهم في ضلالتهم ﴿والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً﴾ هي الطاعات المؤدية إلى السعادة الأبدية، ومعنى كونها خيراً عند الله ثواباً: أنها أنفع عائدة مما يتمتع به الكفار من النعم الدنيوية ﴿وخير مرداً﴾ المردّ ها هنا مصدر كالردّ، والمعنى: وخير مرداً للثواب على فاعلها ليست كأعمال الكفار التي خسروا فيها، والمردّ المرجع والعاقبة والتفضل للتهكم بهم للقطع بأن أعمال الكفار لا خير فيها أصلاً. ثم أرفف سبحانه مقالة أولئك المفتخرين بأخرى مثلها على سبيل التعجب فقال: ﴿أفرايت الذي كفر بأياتنا﴾ أي: أخبرني بقصة هذا الكافر وأذكر حديثه عقب

﴿قال الذين كفروا﴾ للإشعار بأن كفرهم هو السبب لصور هذا القول عنهم، وقيل: المراد بالذين كفروا هنا هم المتمردون المصرون منهم، ومعنى قالوا ﴿للذين آمنوا﴾ قالوا: لأجلهم، وقيل: هذه اللام هي لام التبليغ كما في قوله: ﴿وقال لهم نبيهم﴾ [البقرة: 247 و248] أي: خاطبهم بذلك وبلغوا القول إليهم ﴿أي الفريقين خير مقاماً﴾ المراد بالفريقين: المؤمنون والكافرون، كأنهم قالوا: أفرقنا خير أم فريقكم؟ قرأ ابن كثير، وابن محيصن، وحמיד، وشبل بن عباد مقاماً بضم الميم وهو موضع الإقامة، ويجوز أن يكون مصدرًا بمعنى: الإقامة، وقرأ الباقرين بالفتح أي: منزلاً ومسكناً وقيل: المقام الموضع الذي يقام فيه بالأمور الجليلة والمعنى: أي الفريقين أكبر جاهاً وأكثر أنصاراً وأعواناً، والندى والنادي: مجلس القوم ومجتمعهم، ومنه قوله تعالى: ﴿تأتون في ناديكم المنكر﴾ [العنكبوت: 29]. ونداه جالسه في النادي، ومنه دار النوبة، لأن المشركين كانوا يتشاورون فيها في أمورهم، ومنه أيضاً قول الشاعر:

أنادي به آل الوليد جعفرًا

﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن﴾ القرن: الأمة والجماعة ﴿هم أحسن ثناءً ورثياً﴾ الأثاث المال أجمع: الإبل والغنم والبقر والعبيد والمتاع وقيل: هو متاع البيت خاصة، وقيل: هو الجنيّد من الفرش؛ وقيل: اللباس خاصة. واختلفت القراءات في (ورثياً) فقرأ أهل المدينة وابن نكوان (ورثياً) بياء مشددة، وفي ذلك وجهان: أحدهما أن يكون من رأيت ثم خففت الهمزة فأبدل منها ياء وأدغمت الياء في الياء، والمعنى على هذه القراءة: هم أحسن منظرًا وبه قول جمهور المفسرين، وحسن المنظر يكون من جهة حسن اللباس؛ أو حسن الأبدان وتنعمها، أو مجموع الأمرين. وقرأ أهل الكوفة وأبو عمرو وابن كثير (ورثياً) بالهمز، وحكاها ورش عن نافع، وهشام عن ابن عامر، ومعناها معنى القراءة الأولى. قال الجوهري: من همز جعله من المنظر من رأيت، وهو ما رآته العين من حال حسنة وكسوة ظاهرة، وأنشد أبو عبيدة لمحمد بن نمير الثقفي:

أشأقتك الظعائن يوم بانوا بني الرثي الجميل من الأثاث ومن لم يهمز: إما أن يكون من تخفيف الهمزة، أو يكون من رويت ألوانهم أو جلودهم رثياً أي: امتلات وحسنت. وقد ذكر الزجاج معنى هذا كما حكاه عنه الواحدي. وحكى يعقوب أن طلحة بن مصرف قرأ بياء واحدة خفيفة، فقيل: إن هذه القراءة غلط، ووجهها بعض النحويين أنه كان أصلها الهمزة فقلبت ياء ثم حذفت إحدى الياءين، وروي عن ابن عباس أنه قرأ بالزاي مكان الراء، وروي مثل ذلك عن أبي بن كعب، وسعيد بن جبير، والأعصم المكي واليزيدي، والنزي الهيئة والحسن. قيل: ويجوز أن يكون من زويت أي: جمعت، فيكون أصلها زوياً فقلبت الواو ياء، والنزي محاسن مجموعة ﴿قل من كان في الضلالة﴾ أمر الله سبحانه رسوله الله ﷺ أن يجيب على هؤلاء المفتخرين بحظوظهم الدنيوية أي:

حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿خَيْرَ مَقَامًا﴾ قال: المنازل
 ﴿وَلِحَسَنَ نَّدِيًا﴾ قال: المجالس، وفي قوله: ﴿أَحْسَنَ أَثْنًا﴾
 قال: المتاع والمال ﴿وَرُثِيًا﴾ قال: المنظر. وأخرج ابن أبي
 شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن
 مجاهد في قوله: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدَدْ لَهُ
 الرَّحْمَنُ مَذًّا﴾ فليدعه الله في طغيانه؛ وأخرج ابن أبي شيبة،
 وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن حبيب بن أبي ثابت قال في
 حرف أبي: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَإِنَّهُ يَزِيدُهُ اللَّهُ ضَلَالَةً﴾.
 وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما في قوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي
 كَفَرَ﴾ من حديث خباب بن الارت قال: كنت رجلاً قتيلاً وكان
 لي على العاص بن وائل دين، فأتيته أتقاضاه فقال: لا والله
 لا أقضيك حتى تكفر بمحمد، فقلت: والله لا أكفر بمحمد
 حتى تموت ثم تبعث، قال: فإني إذا متُّ ثم بعثت جئتني ولي
 ثم مال وولد فأعطيك، فأنزل الله فيه هذه الآية. وأخرج ابن
 أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ
 عَهْدًا﴾ قال: لا إله إلا الله يرجو بها. وأخرج ابن المنذر، وابن
 أبي حاتم عنه في قوله: ﴿وَوَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ قال: ماله وولده.

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ
 بِبِعَادِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ
 تَوَهُّمًا أَمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْلَمُ عَلَيْهِمْ سِمْطًا يَمُدُّ لَهُمْ عَصًا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ تُحْشَرُ السَّمَوَاتُ
 إِلَى الرَّحْمَنِ وَقَدَّارًا ﴿٨٥﴾ وَتُسَوَّى السُّجُومُ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِذَا ﴿٨٦﴾ لَا يَمْلِكُونَ
 الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾
 لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِثًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَطَفَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ
 وَرَخِرَ لَهَا لَدُنْهَا ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَكُنِ لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَنْزِلَ
 وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِنْ كُلُّ نَفْسٍ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِ الرَّحْمَنِ عَسَا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ
 أَنصَبْنَاهُ وَعَدْنَاهُ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ إِلَيْهِ يَوْمَ الْفِتْنَةِ فَرَدًا ﴿٩٥﴾

حتى سبحانه ما كان عليه هؤلاء الكفار الذين تمنوا ما لا
 يستحقونه، وتآلوا على الله سبحانه من اتخاذهم الآلهة من
 دون الله لأجل يتعززون بذلك. قال الهروي: معنى ﴿لِيَكُونُوا
 لَهُمْ عِزًّا﴾ ليكونوا لهم أعواناً. قال الفراء: معناه ليكونوا لهم
 شفعاء في الآخرة، وقيل: معناه ليتعززوا بهم من عذاب الله
 ويمتنعوا بها ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِبِعَادَتِهِمْ﴾ أي: ليس الأمر
 كما ظنوا وترحموا، والضمير في الفعل إما للآلهة أي:
 ستجحد هذه الأصنام عبادة الكفار لها يوم ينطقها الله
 سبحانه، لأنها عند أن عبودها جمادات لا تعقل ذلك، وإما
 للمشركين أي: سيجحد المشركون أنهم عبدوا الأصنام،
 ويدل على الوجه الأول قوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾
 [القصص: 63]. وقوله: ﴿فَالْقُلُوبُ إِلَيْهِمُ الْقَوْلُ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾
 [النحل: 86]. ويدل على الوجه الثاني قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ رَبُّنَا
 مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: 23] وقرأ ابن أبي نهيك (كلا)
 بالتثنية، وروي عنه مع ذلك ضم الكاف وفتحها فعلى الضم
 هي بمعنى جميعاً وانتصابها بفعل مضمر كأنه قال:
 سيكفرون كلا سيكفرون بعبادهم، وعلى الفتح يكون مصدراً

حديث أولئك، وإنما استعملوا رأيتم بمعنى أخبر، لأن رؤية
 الشيء من أسباب صحة الخبر عنه، والآيات تعم كل آية
 ومن جملتها آية البعث، والفاء للعطف على مقدر يدل عليه
 المقام أي: أنظرت فرأيت، واللام في ﴿لَاؤَتَيْنِ مَالًا وَوَلَدًا﴾
 هي الموطئة للقسم، كأنه قال: والله لأؤتين في الآخرة مالا
 وولداً أي: أنظر إلى حال هذا الكافر وتعجب من كلامه وتاليه
 على الله مع كفره به وتكذيبه بآياته. ثم أجاب سبحانه عن
 قول هذا الكافر بما يدفعه ويبطله، فقال: ﴿إِطْلَعْ عَلَى
 الْعِيقِبِ﴾ أي: أعلم ما غاب عنه حتى يعلم أنه في الجنة
 ﴿أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ بذلك، فإنه لا يتوصل إلى
 العلم إلا بإحدى هاتين الطريقتين؛ وقيل: المعنى أنظر في
 اللوح المحفوظ؛ أم اتخذ عند الرحمن عهداً؛ وقيل: معنى أم
 اتخذ عند الرحمن عهداً؟ أم قال: لا إله إلا الله فأرحمه بها؛
 وقيل: المعنى أم قدم عملاً صالحاً فهو يرجوه، وإطلع مأخوذ
 من قولهم: إطلع الجبل إذا ارتقى إلى أعلاه. وقرأ حمزة،
 والكسائي، ويحيى بن وثاب، والأعمش (وولداً) بضم الواو،
 والباقون بفتحها، فقيل: هما لغتان معناهما واحد، يقال: ولد
 وولد كما يقال: عدم وعدم، قال الحارث بن حلزة:

ولقد رأيت معاشراً قد ندموا مالا وولداً
 وقال آخر:

فليت فلاناً كان في بطن أمه وليت فلاناً كان ولد حمار
 وقيل: الولد بالضم للجمع وبالفتح للواحد. وقد ذهب
 الجمهور إلى أن هذا الكافر أراد بقوله: لاؤتين مالا وولداً
 أنه يؤتى ذلك في الدنيا. وقال جماعة: في الجنة، وقيل:
 المعنى إن أقيمت على دين أبائي لاؤتين؛ وقيل: المعنى لو
 كنت على باطل لما أوتيت مالا وولداً ﴿كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا
 يَقُولُ﴾ كلا حرف ردع وزجر أي: ليس الأمر على ما قال
 هذا الكافر من أنه يؤتى المال والولد سيكتب ما يقول أي:
 سنحفظ عليه ما يقوله فنجازيه في الآخرة، أو سنظهر ما
 يقول، أو سننتقم منه انتقام من كتبت معصيته ﴿وَنُمَدُّ لَهُ
 مِنَ الْعَذَابِ مَذًّا﴾ أي: نزيد عذاباً فوق عذابه مكان ما
 يدعيه لنفسه من الإمداد بالمال والولد، أو نطوّل له من
 العذاب ما يستحقه وهو عذاب من جمع بين الكفر
 والاستهزاء ﴿وَوَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ أي: نيمته فنرثه المال
 والولد الذي يقول إنه يؤثاه. والمعنى: مسمى ما يقول
 ومصادقه، وقيل: المعنى نحرمة ما تمناه ونعطيه غيره
 ﴿وَيَاتِينَا فَرْدًا﴾ أي: يوم القيامة لا مال له ولا ولد، بل
 نسلبه ذلك، فكيف يطعم في أن تؤثيه؛ وقيل: المراد بما
 يقول نفس القول لا مسماه، والمعنى: إنما يقول هذا القول
 ما دام حياً، فإذا أمتناه حلنا بيته وبين أن يقوله ويأتينا
 رافضاً له منفرداً عنه، والأول أولى.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن
 مجاهد في قوله: ﴿إِذَا الْفَرِيقَيْنِ خَيْرَ مَقَامًا﴾ قال: قریش
 تقوله لها ولأصحاب محمد. وأخرج الفريابي، وسعيد بن
 منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي

لفعل محذوف تقديره: كل هذا الرأي كلا، وقراءة الجمهور هي الصواب، وهي حرف ردع وزجر ﴿ويكونون عليهم ضداً﴾ أي: تكون هذه الأكلة التي ظنوها عذراً لهم ضداً عليهم أي: ضداً للعز وضد العزّ النذل هذا على الوجه الأول، وأما على الوجه الثاني فيكون المشركون للأكلة ضداً وأعداء يكفرون بها بعد أن كانوا يحبونها ويؤمنون بها ﴿إلم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين﴾ ذكر الزجاج في معنى هذا وجهين: أحدهما أن معناه خلينا بين الكافرين وبين الشياطين فلم نعصمهم منهم ولم نعدهم، بخلاف المؤمنين الذين قيل فيهم ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ [الإسراء: 65]. الوجه الثاني أنهم أرسلوا عليهم وقبضوا لهم بكفرهم قال: ﴿ومن يعيش عن ذكر الرحمن نقبض له شيطاناً﴾ [الزخرف: 36]. فمعنى الإرسال ها هنا: التسليط ومن ذلك قوله سبحانه لإبليس ﴿واستقرز من استطعت منهم بصوتك﴾ [الإسراء: 64]. ويؤيد الوجه الثاني تمام الآية، وهو ﴿تؤزهم أزاً﴾ فإن الأز والهز والاستفزاز معناها: التحريك والتهيج والإزعاج، فأخبر الله سبحانه أن الشياطين تحرك الكافرين وتبجهم وتغويهم، وذلك هو التسليط لها عليهم، وقيل: معنى الأز الاستعجال، وهو مقارب لما ذكرنا لأن الاستعجال تحريك وتهيج واستفزاز وإزعاج، وسياق هذه الآية لتحجيب رسول الله ﷺ من حالهم وللتنبية له على أن جميع ذلك بلإضلال الشياطين وإغوائهم، وجملة: ﴿تؤزهم أزاً﴾ في محل نصب على الحال، أو مستأنفة على تقدير سؤال يدل عليه المقام؛ كأنه قيل: ماذا تفعل الشياطين بهم؟ ﴿فلا تعجل عليهم﴾ بأن تطلب من الله إهلاكهم بسبب تصميمهم على الكفر وعنادهم للحق وتمردهم عن داعي الله سبحانه، ثم علل سبحانه هذا النهي بقوله: ﴿إنما نعد لهم عداً﴾ يعني: نعد الأيام والليالي والشهور والسنين من أعمارهم إلى انتهاء آجالهم؛ وقيل: نعد أنفاسهم؛ وقيل خطواتهم؛ وقيل: لحظاتهم؛ وقيل: الساعات. وقال قطرب: نعد أعمالهم؛ وقيل: المعنى لا تعجل عليهم فإنما تؤخرهم ليزدانوا إثماً. ثم لما قرّر سبحانه أمر الحشر وأجاب عن شبهة منكره أراد أن يشرح حال المكلفين حينئذ، فقال: ﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً﴾ الظرف منصوب بفعل مقتر أي: انكر يا محمد يوم الحشر؛ وقيل: منصوب بالفعل الذي بعده، ومعنى حشرهم إلى الرحمن: حشرهم إلى جنته ودار كرامته، كقوله: ﴿إني ذاهب إلى ربي﴾ [الصافات: 99] والوفد جمع وافد كالركب جمع راكب وصحب جمع صاحب، يقال: وفد وفد وفداً إذا خرج إلى ملك أو أمر خطير كذا قال الجوهري ﴿ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً﴾ السوق: الحث على السير، والورد: العطاش قاله الأخفش وغيره. وقال الفراء وابن الأعرابي: هم المشاة، وقال الأزهري: هم المشاة العطاش كالإبل ترد الماء؛ وقيل وردا أي: للورد، كقولك جئتكم إكراماً أي: للإكرام، وقيل: أقراداً. قيل: ولا تناقض بين هذه الأقوال فهم يساقون مشاة عطاشاً أقراداً، وأصل الورد

الجماعة التي ترد الماء من طير أو إبل أو قوم أو غير ذلك. والورد الماء الذي يورد، وجملة ﴿لا يملكون الشفاعة﴾ مستأنفة لبيان بعض ما يكون في ذلك اليوم من الأمور، والضمير في يملكون راجع إلى الفريقين؛ وقيل: للمتقين خاصة؛ وقيل: للمجرمين خاصة، والأول أولى. ومعنى لا يملكون الشفاعة: أنهم لا يملكون أن يشفعوا لغيرهم؛ وقيل: لا يملك غيرهم أن يشفع لهم، والأول أولى ﴿إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً﴾ هذا الاستثناء متصل على الوجه الأول أي: لا يملك الفريقان المذكوران الشفاعة إلا من استعد لذلك بما يصير به من جملة الشافعين لغيرهم بأن يكون مؤمناً متقياً، فهذا معنى اتخاذ العهد عند الله؛ وقيل: معنى اتخاذ العهد أن الله أمره بذلك كقولهم: عهد الأمير إلى فلان إذا أمره به؛ وقيل: معنى اتخاذ العهد شهادة أن لا إله إلا الله؛ وقيل: غير ذلك. وعلى الاتصال في هذا الاستثناء يكون محل من في من اتخذ الرفع على البذل، أو النصب على أصل الاستثناء. وأما على الوجه الثاني فالاستثناء منقطع لأن التقدير: لا يملك المجرمون الشفاعة ﴿إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً﴾ وهم المسلمون؛ وقيل: هو متصل على هذا الوجه أيضاً، والتقدير: لا يملك المجرمون الشفاعة إلا من كان منهم مسلماً ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً﴾ قرأ يحيى بن وثاب، والأعمش، وحمزة، والكسائي (ولداً) بضم الواو وإسكان اللام. وقرأ الباقر في الأربعة المواضع المذكورة في هذه السورة بفتح الواو واللام، وقد قدّمنا الفرق بين القراءتين، والجملة مستأنفة لبيان قول اليهود والنصارى ومن يزعم من العرب أن الملائكة بنات الله، وفي قوله: ﴿لقد جئتم شيئاً ادّك﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب، وفيه رد لهذه المقالة الشنعاء، والإن كما قال الجوهري: الداهية والأمر الفظيع، وكذلك الآية، وجمع الآلة أد. يقال: أنت فلاناً الداهية تؤده أداء بالفتح. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي (ادّاً) بفتح الهمزة، وقرأ الجمهور بالكسر، وقرأ ابن عباس وأبو العالية (ادّاً) مثل ماداً، وهي مأخوذة من الثقل، يقال: أدّه الحمل يؤده: إذا أثقله. قال الواحدي ﴿لقد جئتم شيئاً ادّك﴾ أي: عظيماً في قول الجميع، ومعنى الآية: قلتم قولاً عظيماً؛ وقيل: الإدّ العجب، والإدّة الشدة، والمعنى متقارب والتركيب يور على الشدة والثقل ﴿يكاد السفوات يقطرن منه﴾ قرأ نافع، والكسائي، وحفص، ويحيى بن وثاب (يكاد) بالتحية، وقرأ الباقر بالفوقية وقرأ نافع وابن كثير وحفص⁽¹⁾ (يتفطرن) بالتاء الفوقية، وقرأ حمزة وابن عامر وأبو عمرو وأبو بكر والمفضل (يتفطرن) بالتحية من الانفطار، واختار هذه القراءة أبو عبيد لقوله: ﴿إذا السماء انفطرت﴾ [الانفطار: 1]. وقوله: ﴿السماء منفطر به﴾ [المزمل: 18]. وقرأ ابن مسعود (يتصدعن) والانفطار

(1) (قوله وحفص) صوابه والكسائي وحفص، اهـ مصصح القرآن.

هذا الباب كثيرة جداً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في البعث عن ابن عباس **﴿ورد﴾** قال: عطاشاً. وأخرج ابن المنذر عن أبي هريرة مثله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله: **﴿إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً﴾** قال: شهادة أن لا إله إلا الله، وتبرأ من الحول والقوة، ولا يرجو إلا الله. وأخرج ابن مردويه عنه في الآية قال: من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن ابن مسعود أنه قرأ **﴿إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً﴾** قال: إن الله يقول يوم القيامة: من كان له عندي عهد فليقم، فلا يقوم إلا من قال هذا في الدنيا، قولوا: اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة إني أعهد إليك في الحياة الدنيا أنك إن تكلمني إلى عملي تقربني من الشر وتباعني من الخير، وإني لا أتق إلا برحمتك، فأجعله لي عنك عهداً تؤيدني إلي يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من أدخل على مؤمن سروراً فقد سرتني، ومن سرتني فقد اتخذ عند الرحمن عهداً، ومن اتخذ عند الرحمن عهداً فلا تمسه النار، إن الله لا يخلف الميعاد». وأخرج الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «من جاءنا بالصلوات الخمس يوم القيامة قد حافظ على وضوئها ومواقيتها وركوعها وسجودها لم ينقص منها شيئاً جاء وله عند الله عهد أن لا يعذبه، ومن جاء قد انتقص منهم شيئاً فليس له عند الله عهد، إن شاء رحمه وإن شاء عذبه». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **﴿ولقد جئتم شيئاً ثكلاً﴾** قال: قولاً عظيماً، وفي قوله: **﴿يكاد السفوات﴾** قال: إن الشرك فرغت منه السموات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثقليين وكانت تزول منه لعظمة الله سبحانه، وكما لا ينفع مع الشرك إحسان المشرك كذلك يرجو أن يغفر الله ذنوب الموحدين، وفي قوله: **﴿وتخز الجبال هداً﴾** قال: هداماً. وأخرج ابن المبارك، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وأحمد في الزهد، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة، والطبراني، والبيهقي في الشعب من طريق عوف عن ابن مسعود قال: إن الجبل ليانادي الجبل باسمه، يا فلان هل مر بك اليوم أحد ذكر الله؟ فإذا قال نعم استبشر. قال عوف: أفيسمعن الزور إذا قيل ولا يسمعن الخير؟ هنّ للخير أسمع، وقرأ **﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً﴾** الآيات.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ۖ
فَأَمَّا يُشْرِكُهُمْ فَبِإِغْوَاكَ لِشُيَاطِينِكُمْ وَيُشِيرُ لَهُمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ
أَمْ لَكُمْ قُلُوبٌ غَافِلَةٌ ۚ يَوْمَ لَا تُغْنِي عَنْكُمْ كِبَاسُهُمْ وَلَهُمْ آتٌ آخِرٌ ۚ
أَمْ لَكُمْ أَعْيُنٌ مَغْفُورَةٌ ۚ يَوْمَ لَا تُغْنِي عَنْكُمْ كِبَاسُهُمْ وَلَهُمْ آتٌ آخِرٌ ۚ

ذكر سبحانه من أحوال المؤمنين بعض ما خصهم به بعد ذكره لقبايح الكافرين فقال: **﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا**

والتفطر التشقق **﴿وتنشق الأرض﴾** أي: وتكاد أن تنشق الأرض، وكرر الفعل للتأكيد لأن تتفطر وتنشق معناهما واحد **﴿وتخز الجبال﴾** أي تسقط وتنهدم، وانتصاب **﴿هَذَا﴾** على أنه مصدر مؤكد لأن الخور في معناه، أو هو مصدر لفعل مقدر أي: وتنهد هذا، أو على الحال أي: مهودة، أو على أنه مفعول له أي: لأنها تنهد. قال الهروي: يقال هدني الأمر وهذ ركني أي: كسرني وبلغ مني. قال الجوهري: هذ البناء يهذه هذا كسره وضعضعه، وهذته المصيبة أوهنت ركته، وإنهد الجبل أي: انكسر والهذة صوت وقع الحائط، كما قال ابن الأعرابي، ومحل **﴿أن دعوا للرحمن ولداً﴾** الجر بدلاً من الضمير في منه. وقال القراء: في محل نصب بمعنى لأن دعوا. وقال الكسائي: هو في محل خفض بتقدير الخافض، وقيل: في محل رفع على أنه فاعل هذا. والدعاء بمعنى التسمية أي: سموا للرحمن ولداً، أو بمعنى النسبة أي: نسبوا له ولداً **﴿وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً﴾** أي: لا يصلح له ولا يليق به لاستحالة ذلك عليه لأن الولد يقتضي الجنسية والحدوث، والجملة في محل نصب على الحال أي: قالوا اتخذ الرحمن ولداً، أو أن دعوا للرحمن ولداً، والحال أنه ما يليق به سبحانه ذلك **﴿إن كل من في السموات والأرض﴾** أي: ما كل من في السموات والأرض **﴿إلا﴾** وهو **﴿آتي﴾** الله يوم القيامة مقراً بالعبودية خاضعاً لئلا كما قال: **﴿وكل أتوه داخرين﴾** [النمل: 87] أي: صاغرين. والمعنى: أن الخلق كلهم عبيده فكيف يكون واحد منهم ولداً له؟ وقرئ (آت) على الأصل **﴿ولقد لخصاصهم﴾** أي: حصرهم وعلم عندهم **﴿وعندهم عذاب﴾** أي: عذاب أشخاصهم بعد أن حصرهم فلا يخفى عليه أحد منهم **﴿وكلهم آتية يوم القيامة فرداً﴾** أي: كل واحد منهم يأتيه يوم القيامة فرداً لا ناصر له ولا مال معه كما قال سبحانه **﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون﴾** [الشعراء: 88].

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **﴿ويكونون عليهم ضداً﴾** قال: أعواناً. وأخرج عبد بن حميد عنه **﴿ضداً﴾** قال: حصرة. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: **﴿تؤزهم أزا﴾** تغويهم إغواء. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً **﴿تؤزهم أزا﴾** قال: تحرض المشركين على محمد وأصحابه. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال: تزعجهم إزعاجاً إلى معاصي الله، وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم والبيهقي في البعث عن ابن عباس **﴿وفداً﴾** قال: ركبناً. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر عن أبي هريرة **﴿وفداً﴾** قال: على الإبل. وفي الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يحشر الناس يوم القيامة على ثلاث طرائق: راغبين وراهبين واثنان على بعير وثلاثة على بعير وأربعة على بعير وعشرة على بعير، وتحشر بقيتهم النار تقيل معهم حيث قالوا، وتبيت معهم حيث باتوا». والاحاديث في

وأخرج الحكيم الترمذي، وابن مروييه عن علي قال: «سألت رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ ما هو؟ قال: المحبة الصادقة في صدور المؤمنين». وثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أحب الله عبداً نادى جبريل إني قد أحببت فلاناً فأحبه، فينادي في السماء، ثم ينزل له المحبة في أهل الأرض فذلك قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ وإذا أبغض الله عبداً نادى جبريل إني قد أبغضت فلاناً، فينادي في أهل السماء، ثم ينزل له البغضاء في الأرض». والأحاديث والآثار في هذا الباب كثيرة. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدُنَّا﴾ قال: فجاراً. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الحسن قال: صماً. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿هَلْ تَحَسُّهُمْ مِنْ لَدُنْكَ﴾ قال: هل ترى منهم من أحد. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿رُكَّازًا﴾ قال: صوتاً.

تفسير سورة طه

قال القرطبي: مكية في قول الجميع. وأخرج النحاس، وابن مروييه، عن ابن عباس قال: نزلت سورة طه بمكة. وأخرج ابن مروييه عن ابن الزبير مثله. وأخرج الدارمي، وابن خزيمة في التوحيد، والعقيلي في الضعفاء، والطبراني في الأوسط، وابن عدي، وابن مروييه، والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى قرأ طه ويس قبل أن يخلق السموات والأرض بالقي عام، فلما سمعت الملائكة القرآن قالت: طوبى لامة ينزل عليها هذا، وطوبى لأجواف تحمل هذا، وطوبى لالسننة تكلمت بهذا». قال ابن خزيمة بعد إخراجها: حديث غريب، وفيه نكارة، وإبراهيم بن مهاجر وشيخه تكلم فيهما، يعني: إبراهيم بن مهاجر بن سمار وشيخه عمر بن حفص بن نكوان وهما من رجال إسناده. وأخرج ابن مروييه عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ قال: «أعطيت السورة التي ذكرت فيها الانعام من الذكر الأول، وأعطيت سورة طه والطواشين من ألواح موسى، وأعطيت فواتح القرآن وخواتيم البقرة من تحت العرش، وأعطيت المفصل نافلة». وأخرج ابن مروييه، عن أبي أمامة، عن النبي ﷺ قال: «كل قرآن يوضع عن أهل الجنة فلا يقرءون منه شيئاً إلا سورة طه ويس، فإنهم يقرءون بهما في الجنة». وأخرج الدارقطني في سننه عن أنس بن مالك، فنكر قصة عمر بن الخطاب مع أخته وخباب وقراءتهما طه، وكان ذلك بسبب إسلام عمر، والقصة مشهورة في كتب السير.

الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً أي: حباً في قلوب عباده يجعله لهم من دون أن يطلبوه بالأسباب التي توجب ذلك كما يقذف في قلوب أعدائهم الرعب، والسين في سيجعل للدلالة على أن ذلك لم يكن من قبل وأنه مجعول من بعد نزول الآية. وقريئ (وداً) بكسر الواو، والجمهور من السبعة وغيرهم على الضم. ثم ذكر سبحانه تعظيم القرآن خصوصاً هذه السورة لاشتمالها على التوحيد والنبوة، وبيان حال المعاندين فقال: ﴿فَإِنَّمَا يَسِرَّنَا بِلِسَانِكَ﴾ أي: يسرنا القرآن بإنزالنا له على لفتك، وفصلناه وسهلناه، والباء بمعنى على، والفاء لتعليل كلام ينساق إليه النظم كأنه قيل: بلغ هذا المنزل أو بشر به أو أنذر ﴿فَإِنَّمَا يَسِرَّنَا﴾ الآية. ثم علل ما نكوه من التيسير فقال: ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: المتلبسين بالتقوى، المتصفين بها ﴿وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدُنَّا﴾ اللذ جمع الألد، وهو الشديد الخصومة. ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَّا الْخَصَامَ﴾ [البقرة: 204]. قال الشاعر:

أبيت نجياً للهموم كائنني لخاصم أقواماً نوي جدل لداً
وقال أبو عبيدة: اللد الذي لا يقبل الحق ويدعي الباطل؛ وقيل: اللد الصم؛ وقيل: الظلمة ﴿وَكُمُ أَهْلَكُنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ أي: من أمة وجماعة من الناس، وفي هذا وعد لرسول الله ﷺ بهلاك الكافرين ووعيد لهم ﴿هَلْ تَحَسُّهُمْ مِنْ لَدُنْكَ﴾ هذه الجملة مقررة لمضمون ما قبلها أي: هل تشعر بأحد منهم أو تراه ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رُكَّازًا﴾ الركن الصوت الخفي، ومنه ركن الرمح إذا غيب طرفه في الأرض. قال طرفة:

وصافتها سمع التوجس للسرى لركن خفي أولصوت مفند
وقال نو الرمة:

إذا توجس ركزاً مقفرنس بنبأة الصوت ما في سمعه كذب
أي: في استماعه كذب بل هو صائق الاستماع، والنس الحائق، والنبأة الصوت الخفي. وقال البيهقي وأبو عبيد: الركن ما لا يفهم من صوت أو حركة.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن مروييه، عن عبد الرحمن بن عوف أنه لما هاجر إلى المدينة وجد في نفسه على فراق أصحابه بمكة منهم: شيبه بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، وأميه بن خلف، فأنزل الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الآية، قال ابن كثير: وهو خطأ، فإن السورة مكية بكما لم ينزل شيء منها بعد الهجرة، ولم يصح سند ذلك. وأخرج الطبراني، وابن مروييه عن ابن عباس قال: نزلت في علي بن أبي طالب ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ قال: محبة في قلوب المؤمنين. وأخرج ابن مروييه، والديلمي عن البراء قال: قال رسول الله ﷺ لعلي: «قل اللهم اجعل لي عنك عهداً، واجعل لي عنك وداً واجعل لي في صدور المؤمنين مودة، فأنزل الله الآية في علي». وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير عن ابن عباس ﴿وَدًّا﴾ قال: محبة في الناس في الدنيا.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طه ﴿مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿١﴾ إِلَّا تَذَكُّرًا لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢﴾ تَزِيلًا مِّنْ عَن قُلُقِ الْأَرْضِ ۖ وَاسْتَوْتِ بِالنَّاسِ ۖ الرَّحْمَنُ عَلَى الْمَرْشِ أَسْرَبًا ﴿٣﴾ لَّكَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴿٤﴾ وَإِنْ يُجْهَرُ بِالنُّزُولِ فَإِنَّهُ يَسْمَعُ الْبَاسِ وَآخِرُ ۖ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴿٥﴾ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿٦﴾ إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا مَّا لَمْ يَذْكُرْ مَعَهَا يَبْقَيْنَ ۖ أَوْ أُرْسِلُ إِلَى الْكَافِرِ ۖ هَدَىٰ ﴿٧﴾ فَلَمَّا أَنهَا نُورٌ يُّبَوِّسُ ﴿٨﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ ۖ فَاسْلُطْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّكَ بِأَلْوَادِ النَّفْسِ طَوِي ۖ ﴿٩﴾ وَإِنَّا فَتَقَرَّرْنَا فَاسْتَبَعْنَا لِمَا يُوْحَىٰ ﴿١٠﴾ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١١﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ ۖ أَكَادُ لُغُوبًا إِنِّي جَزِيءٌ ۖ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٢﴾ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَزَكَا ﴿١٣﴾

قوله: ﴿طه﴾ قرا بإمالة الهاء وفتح الطاء أبو عمرو وابن أبي إسحاق، وأمالهما جميعاً أبو بكر وحمرزة، والكسائي، والأعمش. وقراهما أبو جعفر وشيبة ونافع بين اللفظين، واختار هذه القراءة أبو عبيد. وقرا الباقرين بالتخفيف. قال الثعلبي: وهي كلها لغات صحيحة فصيحة. وقال النحاس: لا وجه للإمالة عند أكثر أهل العربية لعلتين: الأولى أنه ليس ها هنا ياء ولا كسرة حتى تكون الإمالة، والعللة الثانية أن الطاء من موانع الإمالة.

وقد اختلف أهل العلم في معنى هذه الكلمة على أقوال: الأول أنها من المتشابه الذي لا يفهم المراد به. والثاني أنها بمعنى. يا رجل في لغة عك، وفي لغة عك. قال الكلبي: لو قلت لرجل من عك يا رجل لم يجب حتى تقول طه، وأنشد ابن جرير في ذلك:

دعوت بطة في القتال فلم يجب فخفضت عليه أن يكون موثلاً
ويروى مزايلاً، وقيل: إنها في لغة عك بمعنى يا حبيبي. وقال قطرب: هي كذلك في لغة طي أي: بمعنى يا رجل، وكذلك قال الحسن وعكرمة؛ وقيل: هي كذلك في اللغة السريانية، حكاه المهدوي. وحكى ابن جرير أنها كذلك في اللغة النبطية، وبه قال السدي وسعيد بن جبیر. وحكى الثعلبي عن عكرمة أنها كذلك في لغة الحبشة، ورواه عن عكرمة، ولا مانع من أن تكون هذه الكلمة موضوعة لذلك المعنى في تلك اللغات كلها إذا صح النقل. القول الثالث: أنها اسم من أسماء الله سبحانه. والقول الرابع: أنها اسم للنبي ﷺ. القول الخامس: أنها اسم للسورة. القول السادس: أنها حروف مقطعة يدل كل واحد منها على معنى. ثم اختلفوا في هذه المعاني التي تدل عليها هذه الحروف على أقوال كلها متكلفة متعسفة. القول السابع: أن معناها طوبى لمن اهتدى. القول الثامن: أن معناها: طم الأرض يا محمد. قال ابن الأنباري: وذلك أن النبي ﷺ كان يتحمل مشقة الصلاة حتى كانت قدماه تتورم ويحتاج إلى الترويح، فقيل له: طم الأرض أي: لا تتعب حتى تحتاج إلى الترويح. وحكى القاضي عياض في الشفاء عن الربيع بن أنس قال: كان النبي ﷺ

إذا صلى قام على رجل ورفع الأخرى، فانزل الله ﴿طه﴾ يعني: طم الأرض يا محمد، وحكى عن الحسن البصري أنه قرا طه على وزن دع امر بالوطء، والأصل طه فقلبت الهمزة هاء. وقد حكى الواحدي عن أكثر المفسرين أن هذه الكلمة معناها: يا رجل، يريد النبي ﷺ قال: وهو قول الحسن، وعكرمة، وسعيد بن جبیر، والضحاك، وقتادة، ومجاهد وابن عباس في رواية عطاء والكلبي غير أن بعضهم يقول: هي بلسان الحبشة والنبطية والسريانية، ويقول الكلبي: هي بلغة عك. قال ابن الأنباري: بلغة قريش وافقت تلك اللغة في هذا المعنى، لأن الله سبحانه لم يخاطب نبيه بلسان غير قريش انتهى. وإذا تقرر أنها لهذا المعنى في لغة من لغات العرب كانت ظاهرة المعنى واضحة الدلالة خارجة عن فواتح السور التي قدما بيان كونها من المتشابه في فاتحة سورة البقرة، وهكذا إذا كانت لهذا المعنى في لغة من لغات العجم واستعملتها العرب في كلامها في تلك المعنى كسائر الكلمات العجمية التي استعملتها العرب الموجودة في الكتاب العزيز، فإنها صارت بذلك الاستعمال من لغة العرب، وجملة ﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ مستأنفة مسوقة لتسلية رسول الله ﷺ عما كان يعتريه من جهة المشركين من التعب، والشقاء يجيء في معنى التعب. قال ابن كيسان: وأصل الشقاء في اللغة العناء والتعب، ومنه قول الشاعر:

نوال العقل يشقى في النعيم بعقله وإخوان الجهالة في الشقاوة ينعم
والمعنى: ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب بفرط تأسفك عليهم وعلى كفرهم، وتحسرك على أن يؤمنوا، فهو كقوله سبحانه: ﴿فلعلك باخع نفسك﴾ [الكهف: 6]. قال النحاس: بعض التحويين يقول: هذه اللام في «لتشقى» لام النفي، وبعضهم يقول: لام الجحود. وقال ابن كيسان: هي لام الخفض، وهذا التفسير للآية هو على قول من قال: إن طه كسائر فواتح السور التي ذكرت تعديداً لأسماء الحروف، وإن جعلت اسماً للسورة كان قوله: ﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ خبراً عنها، وهي في موضع المبتدأ، وأما على قول من قال: إن معناها يا رجل، أو بمعنى الأمر بوطء الأرض فتكون الجملة مستأنفة لصرفه ﷺ عما كان عليه من المبالغة في العبادة، وانتصاب ﴿إلا تذكرة﴾ على أنه مفعول له لأنزلنا كقولك: ما ضربتك للتأنيب إلا إشفافاً عليك. وقال الزجاج: هو بدل من لتشقى أي: ما أنزلناه إلا تذكرة. وأنكره أبو علي الفارسي من جهة أن التذكرة ليست بشقاء، قال: وإنما هو منصوب على المصدرية أي: أنزلناه لتذكرك به تذكرة، أو على المفعول من أجله أي: ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى به، ما أنزلناه إلا للتذكرة، وانتصاب ﴿تنزيلاً ممن خلق الأرض والسماوات العللا﴾ على المصدرية أي: أنزلناه تنزيلاً؛ وقيل: بدل من قوله تذكرة؛ وقيل: هو منصوب على المدح، وقيل: منصوب بيخشي أي: يخشى تنزيلاً من الله على أنه مفعول به، وقيل: منصوب على الحال بتأوله باسم الفاعل. وقرا أبو حيوة الشامي (تنزيل) بالرفع على معنى هذا تنزيل؛ ومنم خلق

ومتعلق بتنزيلاً؛ أو محذوف هو صفة له، وتخصيص خلق الأرض والسموات لكونهما أعظم ما يشاهده العباد من مخلوقاته عز وجل، والعلی: جمع العليا أي: المرتفعة كجمع كبرى وصغرى على كبر وصغر. ومعنى الآية إخبار العباد عن كمال عظمته سبحانه وعظيم جلاله، وارتفاع **«الرحمن»** على أنه خبر مبتدأ محذوف كما قال الأخفش، ويجوز أن يكون مرتفعاً على المدح أو على الابتداء. وقرئ بالجر، قال الزجاج: على البذل ممن، وجوز النحاس أن يكون مرتفعاً على البذل من المضممر في خلق، وجملة **«على العرش استوى»** في محل رفع على أنها خبر لمبتدأ محذوف، أو على أنها خبر الرحمن عند من جعله مبتدأ. قال أحمد بن يحيى: قال ثعلب: الاستواء الإقبال على الشيء، وكذا قال الزجاج والفراء، وقيل: هو كناية عن الملك والسلطان، والبحث في تحقيق هذا يطول، وقد تقدم البحث عنه في الأعراف. والذي ذهب إليه أبو الحسن الأشعري أنه سبحانه مستوي على عرشه بغير حد ولا كيف، وإلى هذا القول سبقه الجماهير من السلف الصالح الذي يروون لصفات كما وردت من دون تحريف ولا تأويل **«له ما في السموات وما في الأرض»** أي: أنه مالك كل شيء ومديره. **«وما بينهما»** من الموجودات **«وما تحت للثرى»** الثرى في اللغة: التراب الندي أي: ما تحت التراب من شيء. قال الواحدي: والمفسرون يقولون: إنه سبحانه أراد الثرى الذي تحت الصخرة التي عليها الثور الذي تحت الأرض ولا يعلم ما تحت الثرى إلا الله سبحانه **«وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى»** الجهر بالقول هو رفع الصوت به والسر ما حث به الإنسان غيره وأسرّه إليه، والأخفى من السرّ هو ما حث به الإنسان نفسه وأخبره بهاله. والمعنى: إن تجهر بذكر الله ودعائه فاعلم أنه غني عن ذلك، فإنه يعلم السرّ وما هو أخفى من السرّ، فلا حاجة لك إلى الجهر بالقول، وفي هذا معنى النهي عن الجهر كقوله سبحانه: **«وانكسر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة»** [الأعراف: 205]. وقيل: لسرّ ما أسرّ الإنسان في نفسه، والأخفى منه هو ما خفي على ابن آدم مما هو فاعله وهو لا يعلمه، وقيل: السرّ ما أضمره الإنسان في نفسه، والأخفى منه ما لم يكن ولا أضمره أحد، وقيل: لسرّ سرّ الخلاق، والأخفى منه سرّ الله عز وجل، وأنكر ذلك ابن جرير وقال: إن الأخفى ما ليس في سرّ الإنسان وسيكون في نفسه. ثم ذكر أن الموصوف بالعبادة على الوجه المذكور هو الله سبحانه المنزه عن الشريك المستحق لتسميته بالأسماء الحسنی فقال: **«الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنی»** فالله خبر مبتدأ محذوف أي: الموصوف بهذه الصفات الكمالية الله، وجملة لا إله إلا هو مستأنفة لبيان اختصاص الإلهية به سبحانه أي: لا إله في الوجود إلا هو، وهكذا جملة له الأسماء الحسنی مبنية لاستحقاقه تعالى للأسماء الحسنی، وهي التسعة والتسعون التي ورد بها الحديث الصحيح.

وقد تقدم بيانها في قوله سبحانه: **«الله الأسماء الحسنی»** [الأعراف: 180] من سورة الأعراف، الحسنی تانيث الأحسن، والأسماء مبتدأ وخبرها الحسنی، ويجوز أن يكون الله مبتدأ وخبره الجملة التي بعده، ويجوز أن يكون بدلاً من الضمير في يعلم. ثم قرّر سبحانه أمر التوحيد بذكر قصة موسى المشتملة على القدرة الباهرة، والخبر الغريب، فقال: **«وهل لك حديث موسى»** الاستفهام للتقرير، ومعناه: اليس قد أتاك حديث موسى، وقيل: معناه قد أتاك حديث موسى، وقال الكلبي: لم يكن قد أتاه حديث موسى إذ ذلك. وفي سياق هذه القصة تسلية للنبي ﷺ لما يلاقيه من مشاق أحكام النبوة، وتحمل أثقالها ومقاساة خطوبها، وإن ذلك شأن الأنبياء قبله. والمراد بالحديث القصة الواقعة لموسى. و**«إذ رأى ناراً»** ظرف للحديث، وقيل: العامل فيه مقدر أي: أنكر؛ وقيل: يقدر مؤخراً أي: حين رأى ناراً كان كيت وكيت، وكانت رؤيته للنار في ليلة مظلمة لما خرج مسافراً إلى أمه بعد استنذانه لشعيب **«فف»** لما رآها **«قال لأهله امكثوا»** والمراد بالأهل هنا: امرأته، والجمع لظاهر لفظ الأهل أو للتفخيم؛ وقيل: المراد بهم المرأة والولد والخادم، ومعنى امكثوا: اقيموا مكانكم، وعبر بالمكان دون الإقامة، لأن الإقامة تقتضي الدوام، والمكان ليس كذلك. وقرأ حمزة (لأهله) بضم الهاء، وكذا في القصص. قال النحاس: وهذا على لغة من قال: مررت بهو يا رجل فجاء به على الأصل وهو جائز إلا أن حمزة خالف أصله في هذين الموضعين خاصة **«إني أنست ناراً»** أي: أبصرت، يقال: أنست الصوت سمعته، وأنست الرجل أبصرته؛ وقيل: الإنسان الإبصار البين؛ وقيل: الإنسان مختص بإبصار ما يؤنس، والجملة تعليل للأمر بالمكان، ولما كان الإتيان بالقبس، ووجود الهدى متوقعين بني الأمر على الرجاء فقال: **«لعلني أتيتكم منها بقبس»** أي: أجيتكم من النار بقبس، والقبس شعلة من النار، وكذا المقباس، يقال: قبست منه ناراً أقبس قبساً فأقبسني أي: أعطاني وكذا اقتبست. قال اليزيدي: أقبست الرجل علماً وقبسته ناراً، فإن كنت طلبتها له قلت: أقبسته. وقال الكسائي: أقبسته ناراً وعلماً سواء، قال: وقبسته أيضاً فيهما **«أو لجد على النار هدى»** أي: هادياً يهديني إلى الطريق ويدلني عليها. قال الفراء: أراد هادياً، فنكره بلفظ المصدر، أو عبر بالمصدر لقصد المبالغة على حذف المضاف أي: ذا هدى، وكلمة أو: في الموضعين لمنع الخلط بين الجمع، وحرف الاستعلاء للدلالة على أن أهل النار مستعلون على أقرب مكان إليها **«فلما أتاهم نودي»** أي: فلما أتى النار التي أنسها **«نودي»** من الشجرة، كما هو مصرح بذلك في سورة القصص أي: من جهتها، ومن ناحيتها **«يا موسى إني أنا ربك»** أي: نودي، فقيل: يا موسى. وقرأ أبو عمرو، وابن كثير، وأبو جعفر، وابن محيصن، وحמיד، واليزيدي (إني) بفتح الهمزة. وقرأ الباقر بكسرها أي: باني **«فخالع نعليك»** أمره الله

القرطبي: وكذا رواه ابن الأنباري في كتاب الرد قال: حذّني أبي، حذّنا محمد بن الجهم، حذّنا الفراء، حذّنا الكسائي فنكره. قال النحاس: وأجود من هذا الإسناد ما رواه يحيى القطان، عن الثوري، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير أنه قرأ (أخفيها) بضم الهمزة. قال ابن الأنباري: قال الفراء: ومعنى قراءة الفتح أكاد أظهرها، من خفيت الشيء إذا أظهرته أخفيه. قال القرطبي: وقد قال بعض اللغويين: يجوز أن يكون أخفيها بضم الألف معناه أظهرها، لأنه يقال: خفيت الشيء وأخفيته من حروف الأضداد يقع على السستر والإظهار. قال أبو عبيدة: خفيت وأخفيت بمعنى واحد. قال النحاس: وهذا حسن، وقد أنشد الفراء وسيبويه ما يدل على أن معنى أخفاه أظهر، وذلك قول امرئ القيس:

فإن تكتموا الداء لانخفه وإن تبعثوا الحرب لانقعد
أي: وإن تكتموا الداء لا تظهره. وقد حكى أبو عبيدة عن أبي الخطاب أنه بضم النون من نخفه، وقال: امرؤ القيس:

خفاهن من أنفاقهن كأنما خطاهن برق من غشي مخلب
أي: أظهرهن. وقد زيف النحاس هذا القول وقال: ليس المعنى على أظهرها، ولا سيما وأخفيها قراءة شاذة، فكيف ترد القراءة الصحيحة الشائعة. وقال ابن الأنباري: في الآية تفسير آخر، وهو أن الكلام ينقطع على أكاد، وبعده مضمّر أي: أكاد آتي بها، ووقع الابتداء بأخفيها لتجزي كل نفس بما تسعى، ومثله قول عمير بن ضابئ البرجمي:

هممت ولم أفعل وكنت وليتني تركت على عثمان تبكي حلاله
أي: وكنت أفعّل، واختار هذا النحاس. وقال أبو علي الفارسي: هو من باب السلب وليس من الأضداد، ومعنى أخفيها: أزيل عنها خفاءها، وهو سترها، ومن هذا قولهم أشكيتني أي: أزلت شكواها. وحكى أبو حاتم عن الأخفش أن أكاد زائدة للتأكيد، قال: ومثله ﴿إذا أخرج يده لم يكد يراها﴾ [النور: 40]. ومثله قول الشاعر:

سريع إلى الهياج شك سلاحه فما أن يكاد قرنه يتنفس
قال: والمعنى أكاد أخفيها أي: أقارب ذلك، لأنك إذا قلت: كاد زيد يقوم جاز أن يكون قام وأن يكون لم يقم، ودلّ على أنه قد أخفاهما بدلالة غير هذه الآية على هذا، وقوله: ﴿لتجزي كل نفس بما تسعى﴾ متعلق بآتية، أو بأخفيها، وما مصدرية أي: لتجزي كل نفس بسعيها، والسعي وإن كان ظاهراً في الأفعال، فهو هنا يعمّ الأفعال والتروك، للقطع بأن تارك ما يجب عليه معاقب بتركه مأخوذ به ﴿فلا يصننك عنها﴾ أي: لا يصرفنك عن الإيمان بالساعة، والتصديق بها، أو عن نكرها ومراقبتها ﴿من لا يؤمن بها﴾ من الكفرة، وهذا النهي وإن كان للكافر بحسب الظاهر، فهو في الحقيقة نهى له ﷺ عن الانصداد، أو عن إظهار اللين للكافرين فهو من باب: لا أرينكها هنا، كما هو معروف، وقيل: الضمير في عنها للصلاة وهو بعيد، وقوله: ﴿وأتبع هواه﴾ معطوف على ما قبله أي: من لا يؤمن، ومن اتبع هواه أي: هوى نفسه بالانتهماك في اللذات الحسية الفانية

سبحانه بخلع نعليه، لأن ذلك أبلغ في التواضع، وأقرب إلى التشريف والتكريم وحسن التائب؛ وقيل: إنهما كانا من جلد حمار غير مدبوغ، وقيل: معنى الخلع للنعلين: تفريغ القلب من الأهل والمال، وهو من بدع التفسير. ثم علل سبحانه الأمر بالخلع فقال: ﴿إنك بالواد المقدس طوى﴾ المقدس: المطهر، والقدس: الطهارة، والأرض المقدسة: المطهرة، سميت بذلك لأن الله أخرج منها الكافرين وعمرها بالمؤمنين، وطوى اسم للوادي. قال الجوهري: وطوى اسم موضع بالشام يكسر طأوه ويضم، يصرف ولا يصرف، فمن صرفه جعله اسم وادٍ ومكان وجعله نكرة ومن لم يصرفه جعله بلدة، وبقعة وجعله معرفة، وقرأ عكرمة (طوى) بكسر الطاء، وقرأ الباقون بضمها؛ وقيل: إن طوى كنّى من الطي مصدر لنودي، أو للمقدس أي: نودي ندائين، أو قدس مرة بعد أخرى ﴿وإنّا اخترتك﴾ قرأ أهل المدينة، وأهل مكة، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم، والكسائي (وإنّا اخترتك) بالإنفراد. وقرأ حمزة (وإنّا اخترتك) بالجمع. قال النحاس: والقراءة الأولى أولى من جهتين: إحداهما أنها أشبه بالخط، والثانية أنها أولى بنسق الكلام لقوله: ﴿يا موسى إنّي أنا ربك﴾، ومعنى اخترتك: اصطفتك للنبوة والرسالة، والفاء في قوله: ﴿فاستمع لما يوحي﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها وما موصولة أو مصدرية أي: فاستمع للذي يوحي إليك، أو للوحي، وجملة ﴿إنّي أنا الله﴾ بدل من ما في لما يوحي. ثم أمره سبحانه بالعبادة فقال: ﴿فاعبدي﴾ والفاء هنا كالفاء التي قبلها لأن اختصاص الإلهية به سبحانه موجب لتخصيصه بالعبادة ﴿واقم للصلاة لذكرك﴾ خصّ الصلاة بالذكر مع كونها داخلة تحت الأمر بالعبادة، لكونها أشرف طاعة وأفضل عبادة، وعلل الأمر بإقامة الصلاة بقوله لذكرك أي: لتذكرني فإن الذكر الكامل لا يتحقق إلا في ضمن العبادة والصلاة، أو المعنى: لتذكرني فيهما لاشتغالهما على الأنكار، أو المعنى: أقم الصلاة متى نكرت أن عليك صلاة، وقيل: المعنى لأنك بالمدح في عليين، فالمصدر على هذا يحتمل الإضافة إلى الفاعل أو إلى المفعول، وجملة ﴿إن الساعة آتية﴾ تعليل لما قبلها من الأمر أي: إن الساعة التي هي وقت الحساب والعقاب آتية، فاعمل الخير من عبادة الله والصلاة.

ومعنى ﴿أكاد أخفيها﴾ مختلف فيه. قال الواحدي: قال أكثر المفسرين: أخفيها من نفسي، وهو قول سعيد بن جبير، ومجاهد، وقتادة. وقال المبرد وقطرب: هذا على عادة مخاطبة العرب يقولون إذا بالغوا في كتمان الشيء كتمته حتى من نفسي أي: لم أطلع عليه أحداً؛ ومعنى الآية: أن الله بالغ في إخفاء الساعة، فنكره بأبلغ ما تعرفه العرب. وقد روي عن سعيد بن جبير أنه قرأ (أخفيها) بفتح الهمزة ومعناه أظهرها، وكذا روى أبو عبيد، عن الكسائي، عن محمد بن سهل، عن وفاء بن إياس، عن سعيد بن جبير. قال النحاس: وليس لهذه الرواية طريق غير هذا. قال

﴿فتردى﴾ أي: فتهلك لأن انصدأك عنها بصد الكفارين لك مستلزم للهلاك ومستتبع له.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب، وابن عساكر عن ابن عباس، أن النبي ﷺ: «لَوْلَ مَا نَزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ كَانَ يَقُومُ عَلَى صَدْرِ قَدَمَيْهِ إِذَا صَلَّى، فَانْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾». وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عنه قال: قالوا لقد شقي هذا الرجل بربه، فانزل الله هذه الآية. وأخرج ابن عساكر عنه أيضاً قال: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يَرْبِطُ نَفْسَهُ بِحَبْلِ لَثَلَا يَنَامُ، فَانْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ». وأخرج البزار عن علي قال: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَرَاوُحَ بَيْنَ قَدَمَيْهِ يَقُومُ عَلَى كُلِّ رَجُلٍ حَتَّى نَزَلَتْ ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾» وحسن السيوطي إسناده. وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً بأطول منه. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: إن رسول الله ﷺ ربما قرأ القرآن إذا صلى، فقام على رجل واحدة، فانزل الله ﴿طه﴾ برجليك فما أنزلنا عليك القرآن لتشقى. وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه عنه في قوله: ﴿طه﴾ قال: يا رجل. وأخرج الحارث بن أبي أسامة، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: ﴿طه﴾ بالنبطية. أي: طأ يا رجل. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: هو كقولك أقعد. وأخرج ابن جرير وابن مردويه عنه قال: ﴿طه﴾ بالنبطية يا رجل. وأخرج ابن جرير عنه قال: ﴿طه﴾ يا رجل بالسريانية. وأخرج الحاكم عنه أيضاً قال: ﴿طه﴾ هو كقولك يا محمد بلسان الحبش. وفي هذه الروايات عن ابن عباس اختلاف وتداخل. وأخرج ابن مردويه عن أبي الطفيل قال: قال رسول الله ﷺ: «إِن لِي عِنْدَ رَبِّي عَشْرَةَ أَسْمَاءَ، قَالَ أَبُو الطَّفِيلِ: حَفِظْتُ مِنْهَا ثَمَانِيَةَ: مُحَمَّدٌ، وَأَبُو الْقَاسِمِ، وَالْفَاتِحُ، وَالْخَاتِمُ، وَالْمَاحِي، وَالْعَاقِبُ، وَالْحَاشِرُ. وَزَعَمَ سَيْفُ بْنُ أَبِي جَعْفَرٍ قَالَ لَهُ الْأَسْمَانُ الْبَاقِيَانِ: طه وَيسر. وأخرج البيهقي في الدلائل عن ابن عباس في قوله: ﴿طه﴾ * ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ قال: يا رجل ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى، وكان يقوم الليل على رجله فهي لغة لك إن قلت لعكي: يا رجل لم يلتفت، وإذا قلت طه: التفت إليك. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس قال: ﴿طه﴾ قسم أقسم الله به، وهو من أسمائه. وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وَمَا تَحْتِ الثُّرَى﴾ قال: الثرى كل شيء مبتل. وأخرج أبو يعلى عن جابر: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَتَلَ مَا تَحْتَ هَذِهِ الْأَرْضِ؟ قَالَ: الْمَاءُ، قِيلَ: فَمَا تَحْتَ الْمَاءِ؟ قَالَ: ظِلْمَةٌ، قِيلَ: فَمَا تَحْتَ الظِّلْمَةِ؟ قَالَ: الْهَوَاءُ، قِيلَ: فَمَا تَحْتَ الْهَوَاءِ؟ قَالَ: الثُّرَى، قِيلَ: فَمَا تَحْتَ الثُّرَى؟ قَالَ: انْقَطَعَ عِلْمُ الْمَخْلُوقِينَ عِنْدَ عِلْمِ الْخَالِقِ». وأخرج ابن مردويه عنه نحوه بأطول منه. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله ﴿وَيَعْلَمُ السِّرَّ وَالْخَفَى﴾ قال: السِّرُّ مَا أَسْرَهُ ابْنُ آدَمَ فِي نَفْسِهِ وَخَفَى مَا خَفَى عَنِ ابْنِ آدَمَ مِمَّا هُوَ فَاعِلُهُ قَبْلَ أَنْ يَعْمَلَهُ، فَإِنَّهُ يَعْلَمُ ذَلِكَ كُلَّهُ فِيمَا

مضى من ذلك وما بقي علم واحد وجميع الخلائق عنده في ذلك كنفس واحدة وهو كقوله: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بِعَنكُمْ إِلَّا كُنُفُسٌ وَاحِدَةٌ﴾ [لقمان: 28]. وأخرج الحاكم وصححه عنه في الآية قال: السِّرُّ مَا عَلِمْتَهُ أَنْتَ، وَخَفَى مَا قَذَفَ اللَّهُ فِي قَلْبِكَ مِمَّا لَمْ تَعْلَمْهُ. وأخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وأبو الشيخ في العظمة، والبيهقي بلفظ يعلم ما تسر في نفسك ويعلم ما تعمل غداً. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿أَوْ اجِدْ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ يقول: من يدل على الطريق. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن علي في قوله: ﴿فَاخْلَعْ ثَعْلِيكَ﴾ قال: كانتا من جلد حمار ميت فقيل له: اخلعهما. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ قال المبارك: طوى قال اسم الوادي. وأخرج ابن أبي حاتم عنه ﴿بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ يعني: الأرض المقدسة، وذلك أنه من بواديها ليلاً فطوى يقال: طويت وادي كذا وكذا. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً في قوله: ﴿طُوًى﴾ قال: طوى الوادي. وفي الصحيحين وغيرهما من حديث أنس، أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا رَقَدَ أَحَدُكُمْ عَنِ الصَّلَاةِ أَوْ غَفَلَ عَنْهَا فَلْيَصِلْهَا إِذَا نَكَرَهَا، فَإِنَّ اللَّهَ قَالَ: ﴿اقْمِ الصَّلَاةَ لَذِكْرِي﴾». وأخرج الترمذي، وابن ماجه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبان، وابن مردويه من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ نَسِيَ صَلَاةً فَلْيَصِلْهَا إِذَا نَكَرَهَا، فَإِنَّ اللَّهَ قَالَ: ﴿اقْمِ الصَّلَاةَ لَذِكْرِي﴾». وكان ابن شهاب يقرؤها (للذكرى). وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿أَكَادُ أَخْفِيهَا﴾ قال: لا أظهر عليها أحداً غيبي. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: ﴿أَكَادُ أَخْفِيهَا﴾ من نفسي.

وَمَا تَلَكَ بِبَيْمِيكَ يَمْشِي ۖ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَوَّلَ مَا عَلَّمَهَا وَأَفْشَى بِهَا عَلَيَّ غَنِي وَلِي فِيهَا مَرَاتِبٌ أُخْرَى ۖ قَالَ أَلَيْسَ يَمْشِي ۖ تَأْتِيهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْتَعِي ۖ قَالَ غَدَا وَلَا تَحْتَفُ سَمْعُهَا سَمِعَتْهَا الْأَوَّلَى ۖ وَأَضْمَمَ يَدَكَ إِلَى حَنَاجِكَ تَخْرُجُ بَيْضَةً مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ أَيْهَ أُخْرَى ۖ لِرَبِّكَ مِنْ مَائِيَةِ الْكَذِبِ ۖ أَذْهَبَ إِلَى فَرْعُونَ إِنَّهُ طَعَنَ ۖ قَالَ رَبِّ أَسْرِخْ لِي صَدْرِي ۖ نَكَّرَ لِي أَمْرِي ۖ وَأَسْأَلُ عُقْدَةً مِنْ لَسَانِي ۖ يَقْتَضِيهَا قَوْلِي ۖ وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَمَلِي ۖ هَزُونُ أَيْ: أَشَدُّ بِهِ أَرَى ۖ وَأَفْرَكُهُ فِي أَمْرِي ۖ كَيْ نَسِيكَ كَيْدًا ۖ وَتَذَكَّرُهُ كَيْدًا ۖ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَعِيرًا ۖ

قوله: ﴿وَمَا تَلَكَ بِبَيْمِيكَ يَا مُوسَى﴾ قال الزجاج والفراء: إن تلك اسم ناقص وصلت بيمينك أي: ما التي بيمينك؟ وروي عن الفراء أنه قال: تلك بمعنى هذه، ولو قال ما ذلك لجاز أي: ما ذلك الشيء؟ وبالأول قال الكوفيون. قال الزجاج: ومعنى سؤال موسى عما في يده من العصا: للتنبيه له عليها لتقع المعجزة بها بعد التثبيت فيها والتأمل لها. قال الفراء: ومقصود السؤال تقرير الأمر حتى يقول موسى: هي

قومه ﴿[الأعراف: 155]﴾. قال: ويجوز أن يكون مصدرًا لأن معنى سنعيدها سنسيرها، ويجوز أن يكون المصدر بمعنى اسم الفاعل أي: سائرة، أو بمعنى اسم المفعول أي: مسيرة. والمعنى: سنعيدها بعد أخذك لها إلى حالتها الأولى التي هي العسوية. قيل: إنه لما قيل له: لا تخف بلغ من عدم الخوف إلى أن كان يدخل يده في فمها ويأخذ بلحيتها ﴿واضمم يدك إلى جناحك﴾ قال الفراء والزجاج: جناح الإنسان عضده، وقال قطرب: جناح الإنسان جنبه. وعبر عن الجنب بالجناح لأنه في محل الجناح؛ وقيل: إلى بمعنى مع، أي: مع جناحك، وجواب الأمر ﴿تخرج بيضاء﴾ أي: تخرج يدك حال كونها بيضاء، ومحل ﴿من غير سوء﴾ التنبص على الحال أي: كائنة من غير سوء، والسوء العيب، كني به عن البرص أي: تخرج بيضاء ساطعاً نورها تضيء بالليل والنهار كسوء الشمس من غير برص، وانتصاب ﴿آية أخرى﴾ على الحال أيضاً أي: معجزة أخرى غير العصا. وقال الأخفش: إن آية منتصبة على أنها بدل من بيضاء. قال النحاس: وهو قول حسن. وقال الزجاج: المعنى آيتك أو نؤتيك آية أخرى لأنه لما قال: ﴿تخرج بيضاء﴾ دل على أنه قد أتاه آية أخرى، ثم علل سبحانه ذلك بقوله: ﴿لنريك من آياتنا الكبرى﴾ قيل والتقدير: فعلنا ذلك لنريك، ومن آياتنا متعلق بمحذوف وقع حالاً، والكبرى معناها العظمى، وهو صفة لموصوف محذوف، والتقدير: لنريك من آياتنا الآية الكبرى أي: لنريك بهاتين الآيتين يعني: اليد والعصا بعض آياتنا الكبرى، فلا يلزم أن تكون اليد هي الآية الكبرى وحدها حتى تكون أعظم من العصا، فيرد على ذلك أنه لم يكن في اليد إلا تغير اللون فقط بخلاف العصا، فإن فيها مع تغير اللون الزيادة في الحجم وخلق الحياة والقدرة على الأمور الخارقة. ثم صرح سبحانه بالغرض المقصود من هذه المعجزات فقال: ﴿أذهب إلى فرعون﴾ وخصه بالذكر لأن قومه تبع له، ثم علل ذلك بقوله ﴿إنه طغي﴾ أي: عصى وتكبر وكفر وتجبر وتجاوز الحد، وجملة ﴿قال رب اشرح لي صدري﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل: فماذا قال؟ ومعنى شرح الصدر: توسيعه، تضرع عليه السلام إلى ربه وأظهر عجزه بقوله: ﴿ويضيّق صدري ولا ينطق لساني﴾ [الشعراء: 13]، ومعنى تيسير الأمر: تسهيله ﴿واحلل عقدة من لساني﴾ يعني: العجمة التي كانت فيه من الجمرة التي ألقاها فيه وهو طفل أي: أطلق عن لساني العقدة التي فيه، قيل: أذهب الله سبحانه تلك العقدة جميعها بليل قوله: ﴿قد أوتيت سؤلّك يا موسى﴾ [طه: 36]. وقيل: لم تذهب كلها لأنه لم يسأل حل عقدة لسانه بالكلية، بل سأل حل عقدة تمنع الإفهام بليل قوله: ﴿من لساني﴾ أي: كائنة من عقد لساني، ويؤيد ذلك قوله: ﴿هو أقصع مني لساناً﴾ [القصص: 34]. وقوله حكاية عن فرعون: ﴿ولا يكاد يبين﴾ [الزخرف: 52]، وجواب الأمر قوله: ﴿يفقهوا قولي﴾ أي: يفهموا كلامي، والفقه في كلام العرب الفهم، ثم خص به علم

عصاي لتثبيت الحجة عليه بعد ما اعترف، وإلا فقد علم الله ما هي في الأزل، ومحل «ما» الرفع على الابتداء، وتلك خبره، وبيمينك في محل نصب على الحال إن كانت تلك اسم إشارة على ما هو ظاهر اللفظ، وإن كانت اسماً موصولاً كان بيمينك صلة للموصول ﴿قال هي عصاي﴾ قرأ ابن أبي إسحاق (عصى) على لغة هنيل. وقرأ الحسن ﴿عصاي﴾ بكسر الياء للقاء الساكنين ﴿أتوكا عليها﴾ أي: اتحامل عليها في المشي واعتمدها عند الإعياء والوقوف ومنه الاتكاء ﴿واهش بها على غمي﴾ هش بالعصا بهش هشاً: إذا خبط بها الشجر ليسقط منه الورق. قال الشاعر:

أهش بالعصا على أغنامي من ناعم الأورك والسنامل
وقرأ النخعي أهس بالسرين المهمل، وهو زجر الغنم، وكذا قرأ عكرمة، وقيل: هما لغتان بمعنى واحد ﴿ولي فيها مآرب أخرى﴾ أي: حوائج واحدها ماربة وماربة مثلث الراء، كذا قال ابن الأعرابي وقطرب، نكر تفصيل منافع العصا، ثم عقبه بالإجمال.

وقد تعرض قوم لتعداد منافع العصا فنكروا من ذلك أشياء: منها قول بعض العرب: عصاي أركزها لصلاتي، وأعدّها لعداتي، وأسوق بها دابتي، وأقوى بها على سفري، وأعتمد بها في مشيتي، ليتسع خطوي، وأثب بها النهر، وتؤمنني العثر، وألقي عليها كسائي، فتقيني الحر، وتقيني من القر، وتدني إليّ ما بعد مني، وهي تحمل سفرتي، وعلاقة إداوتي، أعصي بها عند الضراب، وأقرع بها الأبواب، وأقي بها عقور الكلاب، وتتوب عن الرمح في الطعان، وعن السيف عند منازلة الأقران، ورثتها عن أبي وأورثها بعدي بني، انتهى.

وقد وقفت على مصنف في مجلد لطيف في منافع العصا لبعض المتأخرين، وذكر فيه أخباراً وأشعاراً وقوائد لطيفة ونكتاً رشيقة. وقد جمع الله سبحانه لموسى في عصاه من البراهين العظام والآيات الجسام ما أمن به من كيد السحرة ومعرة المعاندين، واتخذها سليمان لخطبته وموعظته وطول صلاته، وكان ابن مسعود صاحب عصا النبي ﷺ وعزته، وكان يخطب بالقضيب وكذلك الخلفاء من بعده، وكان عادة العرب العرباء أخذ العصا والاعتماد عليها عند الكلام، وفي المحافل والخطب ﴿قال ألقها يا موسى﴾ هذه جملة مستأنفة جواب سؤال مقدر، أمره سبحانه بإلقائها ليريه ما جعل له فيها من المعجزة الظاهرة ﴿فألقها﴾ موسى على الأرض ﴿فإذا هي حية تسعى﴾ وذلك بقلب الله سبحانه لأوصافها وأعراضها حتى صارت حية تسعى أي: تمشي بسرعة وخفة، قيل: كانت عصا ذات شعبتين فصار الشعبتان فما وبقيها جسم حية تنتقل من مكان إلى مكان وتلتقم الحجارة مع عظم جرمها وفظاعة منظرها، فلما رآها كذلك خاف وفزع وولى مديراً ولم يعقب، فعند ذلك ﴿قال﴾ سبحانه ﴿خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى﴾ قال الأخفش والزجاج: التقدير إلى سيرتها، مثل ﴿واختار موسى

وأخرجنا عنه أيضاً ﴿مَنْ غَيْرُ سَوْءٍ﴾ قال: من غير برص. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيْرًا مِنْ أَهْلِي﴾ هَارُونَ أَخِي. قال: كان أكبر من موسى. وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ قال: نبي هارون سَاعَتَهُ حِينَ نَبِيْ مُوسَى.

قَالَ قَدْ أُوتِيََتْ سُوْلُكَ بِمُوسَى ۖ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ۖ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ تُبْرِئَ فِي أَنْتَابِهِ فِي الْقَابِئِ فِي الْيَمِّ فَلْيَقْبَلْ أَلَيْمٌ وَأَسْأَلِ بِأَخْذِهِ عَدُوِّي وَعَدُوِّي لَمْ يَأْتِ عَلَيْكَ حَبَّةٌ يَمِيٍّ وَلَمْ يَصْنَعْ عَلَيَّ عَيْبٌ ۖ إِذْ تَشْتَقِي لَمَنْتَكَ فَقَوْلُ هَذَا أَكْثَرُ عَلَيَّ مِنْ يَكْفُلِكَ مَرْمَعَتَكَ إِنَّكَ أَيْتُكَ كَنْ نَفَرٍ عَيْنًا وَلَا حَزَنٍ ۖ وَكَذَلِكَ فَكَيْفَ نَفَسَ فَجَنَّتْكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَكَتْ فَوَاقُ فُلَيْتَ سَيِّئَةٍ فِي أَهْلِ مَدْيَنٍ ثُمَّ جِئْتَ عَلَيَّ قَدَرٍ بِمُوسَى ۖ وَأَسْأَلُكَ لِنَفْسِي ۖ أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَحْرُوكَ بِكَائِي وَلَا لَيْبًا فِي ذِكْرِي ۖ أَذْهَبًا إِلَيَّ فَرَسَوْنَ إِنَّهُ طَعَنَ ۖ فَقَوْلَا لَمْ قَوْلًا لَنَا لَمْ يَذْكُرْ أَوْ يَحْنُ ۖ

لما سأل موسى ربه سبحانه أن يشرح صدره وييسر له أمره ويحل عقدة من لسانه ويجعل له وزيراً من أهله أخبره الله سبحانه بأنه قد أجاب ذلك الدعاء، فقال: ﴿قَدْ أُوتِيََتْ سُوْلُكَ يَا مُوسَى﴾ أي: أعطيت ما سألت، والسؤال المسؤول أي: المطلوب كقولك: خبر بمعنى مخبر، وزيادة قوله يا موسى لتشریفه بالخطاب مع رعاية الفواصل، وجملة ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى﴾ كلام مستأنف لتقوية قلب موسى بتذكيره نعم الله عليه، واليمن: الإحسان والإفضال. والمعنى: ولقد أحسننا إليك مرة أخرى قبل هذه المرة، وهي حفظ الله سبحانه له من شر الأعداء كما بينه سبحانه ها هنا، وأخرى تانيث آخر بمعنى غير ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مَا يُوحَى﴾ أي: منّا ذلك الوقت وهو وقت الإيحاء فإذا ظرف للإيحاء، والمراد بالإيحاء إليها: إما مجرد الإلهام لها أو في النوم بأن أراها ذلك أو على لسان نبي أو على لسان ملك، لا على طريق النبوة كالوحي إلى مريم أو بإخبار الأنبياء المتقدمين بذلك وانتهى الخبر إليها، والمراد بما يوحى: ما سيأتي من الأمر لها، أبهمه أولاً وفسره ثانياً تفخيماً لسانه، وجملة ﴿أَنْ أَقْضِيَهُ فِي الْقَابِئِ﴾ مفسرة لأن الوحي فيه معنى القول، أو مصدرية على تقدير بأن أقضيه، والقذف ها هنا الطرح أي: طرحه في التابوت وقد مر تفسير التابوت في البقرة في قصة طالوت ﴿فَأَقْضِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ أي: اطرّحه في البحر، واليم: البحر أو النهر الكبير. قال الفراء: هذا أمر وفيه المجازاة أي: أقضيه يلقه اليم بالساحل والأمر للبحر مبني على تنزيله منزلة من يفهم ويميز، لما كان إلقاؤه إياه بالساحل أمراً واجب الوقوع، والساحل هو شط البحر، سمي ساحلاً لأن الماء سحله قاله ابن دريد، والمراد هنا: ما يلي الساحل من البحر لا نفس الساحل، والضمائر هذه كلها لموسى لا للتابوت، وإن كان قد لقي معه لكن المقصود هو موسى مع كون الضمائر قبل هذا وبعده له، وجملة ﴿يَاخُذْهُ عَدُوِّي وَعَدُوِّي لَهُ﴾ جواب الأمر بالإلقاء، والمراد بالعدو:

الشريعة والعالم به فقيه، قاله الجوهري ﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيْرًا مِنْ أَهْلِي﴾ هَارُونَ أَخِي. الوزير: المايز كالأكيل المايز لأنه يحمل عن السلطان وزره أي: ثقله. قال الزجاج: واشتقاقه في اللغة من الوزر، وهو الجبل الذي يعتصم به لينجى من الهلكة، والوزير الذي يعتمد الملك على رايه في الأمور ويلتجئ إليه. وقال الأصمعي: هو مشتق من الموازنة، وهي المعاونة، وانتصاب وزيراً وهارون على انهما مفعولا أجعل؛ وقيل مفعولاه: لي وزيراً، ويكون هارون عطف بيان للوزير، والأول أظهر، ويكون لي متعلقاً بمحنوف أي: كائناً لي، ومن أهلي صفة لوزيراً، وأخي بدل من هارون. قرا الجمهور (أشدد) بهمزة وصل، و (أشركه) بهمزة قطع كلاهما على صيغة الدعاء أي: يا رب احكم به قوتي واجعله شريكاً في أمر الرسالة، والأزر القوة، يقال: أزره أي: قواه، وقيل: الظهر أي: أشدد به ظهري، وقرا ابن عامر ويحيى بن الحرث، وأبو حيوة، والحسن، وعبد الله بن أبي إسحاق (أشدد) بهمزة قطع (وأشركه) بضم الهمزة أي: أشدد أنا به أزي وأشركه أنا في أمرى. قال النحاس: جعلوا الفعلين في موضع جزم جواباً لقوله أجعل لي وزيراً، وقرا بفتح الياء من أخي ابن كثير وأبو عمرو ﴿كَيْ نَسِيْحُ كَثِيْرًا وَنَذْكُرُكَ كَثِيْرًا﴾ هذا التسييح والذكر هما الغاية من الدعاء المتقدم، والمراد: التسييح هنا باللسان، وقيل: المراد به الصلاة، وانتصاب كثيراً في الموضعين على أنه نعت مصدر محنوف، أو لزمان محنوف ﴿إِنَّكَ كُنْتَ بَنًا بِصِيْرًا﴾ البصير المبصر والبصير العالم بخفيات الأمور، وهو المراد هنا أي: إنك كنت بنا عالماً في صغرنا فأحسننا إلينا فأحسن إلينا أيضاً كذلك الآن.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في عصا موسى قال: أعطاه ملك من الملائكة إذ توجه إلى مدین فكانت تضیی له باللیل، ویضرب بها الأرض فتخرج له النبات، ویهش بها على غنمه ورق الشجر. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله: ﴿وَأَهْشُ بِهَا عَلَى غَنَمِي﴾ قال: أضرب بها الشجر فيتساقط منه الورق على غنمي، وقد روي نحو هذا عن جماعة من السلف. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم في قوله: ﴿وَلِي فِيهَا مَأْرَبٌ﴾ قال: حواشي. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي نحوه، وأخرج أيضاً عن قتادة قال: كانت تضیی له باللیل، وكانت عصا آدم عليه السلام. وأخرج أيضاً عن ابن عباس في قوله: ﴿فَالْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حِيَّةٌ تَسْعَى﴾ قال: ولم تكن قبل ذلك حية فمرت بشجرة فاكلتها، ومرت بصخرة فابتلعها، فجعل موسى يسمع وقع الصخرة في جوفها فولى مديراً فنودي أن يا موسى خذها، فلم يأخذها، ثم نودي الثانية أن خذها ولا تخف، فقيل له في الثالثة: إنك من الأمنين فأخذها. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه ﴿سَنُعِيْدُهَا سِيْرَتَهَا الْأُولَى﴾ قال: حالتها الأولى.

فرعون، فإن أم موسى لما ألقيته في البحر وهو الذليل المعروف، وكان يخرج منه نهر إلى دار فرعون فساقه الله في ذلك النهر إلى داره، فأخذ الثابتوت فوجد موسى فيه؛ وقيل: إن البحر ألقاه بالساحل فنظره فرعون فأمر من يأخذه، وقيل: وجده ابنة فرعون، والأول أولى **﴿وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾** أي: ألقى الله على موسى محبة كائنة منه تعالى في قلوب عباده لا يراه أحد إلا أحبه؛ وقيل: جعل عليه مسحة من جمال لا يراه أحد من الناس إلا أحبه. وقال ابن جرير: المعنى والقيت عليك رحمتي؛ وقيل: كلمة **﴿مَنْ﴾** متعلقة بالقيت، فيكون المعنى: ألقى الله عليك محبة أي: أحببتك، ومن أحبه الله أحب الناس **﴿وَلِتَصْنَعْ عَلَيَّ عَيْنِي﴾** أي: ولتربي وتغذي بمرأى مني، يقال صنع الرجل جاريته: إذا رباهما، وصنع فرسه: إذا داوم على علفه والقيام عليه، وتفسير **﴿عَلَيَّ عَيْنِي﴾** بمرأى مني صحيح. قال النحاس: وذلك معروف في اللغة، ولكن لا يكون في هذا تخصيص لموسى، فإن جميع الأشياء بمرأى من الله. وقال أبو عبيدة وابن الأنباري: إن المعنى لتغذي على محبتي وإرانتني، تقول: اتخذ الأشياء على عيني أي: على محبتي. قال ابن الأنباري: العين في هذه الآية يقصد بها قصد الإرادة والاختيار، من قول العرب: غدا فلان على عيني أي: على المحبة مني. قيل: واللام متعلقة بمحذوف أي: فعلت ذلك لتصنع؛ وقيل: متعلقة بالقيت، وقيل: متعلقة بما بعده أي: لتصنع على عيني قدرنا مشي أختك. وقرأ ابن القعقاع (ولتصنع) بإسكان اللام على الأمر، وقرأ أبو نهيك بفتح التاء. والمعنى: ولتكون حركتك وتصرفك بمشيئتي، وعلى عين مني **﴿إِذْ تَمْشِي لَخْتِكَ﴾** ظرف للقيت، أو لتصنع، ويجوز أن يكون بدلاً من **﴿إِذْ أَوْحَيْنَا﴾** وأخته اسمها مريم **﴿فَتَقُولُ هَلْ أُنْكِمَ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ﴾** وذلك أنها خرجت متعرفة لخبره فوجدت فرعون وإمراته أسية يطلبان له مرضعة، فقالت لهما هذا القول أي: هل أنلكم على من يضمه إلى نفسه ويربيه، فقالا لها: ومن هو؟ قالت: أمي، فقالا: هل لها لبن؟ قالت نعم لبن أخي هارون، وكان هارون أكبر من موسى بسنة، وقيل: بأكثر، فجاءت الأم فقبل ثديها، وكان لا يقبل ثدي مرضعة غيرها، وهذا هو معنى **﴿فَرَجَعْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّكَ﴾** وفي مصحف أبي (فردناك)، والفاء فصيحة **﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾** قرأ ابن عامر في رواية عبد الحميد عنه (كي تقر) بكسر القاف، وقرأ الباقر بفتحها. قال الجوهري: قررت به عينا قرّة وقرورا، ورجل قرير العين، وقد قرّت عينه تقر وتقر، نقيض سخت، والمراد بقرّة العين: السرور برجوع ولدها إليها بعد أن طرحته في البحر وعظم عليها فراقه **﴿وَلَا تَحْزَنْ﴾** أي: لا يحصل لها ما يكثر ذلك السرور من الحزن بسبب من الأسباب، ولو أراد الحزن بالسبب الذي قرّت عينها بزواله لقدم نفي الحزن على قرّة العين، فيحمل هذا النفي للحزن على ما يحصل بسبب يطرا بعد ذلك، ويمكن أن يقال: إن الواو لما كانت لمطلق الجمع كان هذا الحمل غير متعين،

وقيل: المعنى ولا تحزن أنت يا موسى بفقد إشفاقها، وهو تحسف **﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾** المراد بالنفس هنا: نفس القبطي الذي وكزه موسى فقتل عليه، وكان قتله له خطأ **﴿فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾** أي: الغم الحاصل معك من قتله خوفاً من العقوبة الآخرة أو الننيوية أو منهما جميعاً؛ وقيل: الغم هو القتل بلغة قريش، وما أبعد هذا **﴿وَوَفَّقْنَاكَ فِتْنَةً﴾** الفتنة تكون بمعنى المحنة، وبمعنى الأمر الشاق، وكل ما يبئلى به الإنسان، والفتن يفتن أي: يبتليناك ابتلاء، واختبرناك اختباراً، ويجوز أن يكون جمع فتنة على ترك الاعتداد بقاء التأنيت كحجور في حجرة وبدور في بدرة أي: خلصناك مرة بعد مرة مما وقعت فيه من المحن التي سبق نكرها قبل أن يصطفيه الله لرسالته، ولعل المقصود بذكر تنجيته من الغم الحاصل له بذلك السبب وتنجيته من المحن هو الامتنان عليه بصنع الله سبحانه له وتقوية قلبه عند ملاقة ما سيق له من ذلك مع فرعون وبني إسرائيل **﴿فَلَبِثْتُ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَن﴾** قال الفراء: تقدير الكلام وفتنناك فتناً، فخرجت إلى أهل مدين فلبثت سنين ومثل هذا الحذف كثير في التنزيل، وكذا في كلام العرب فإنهم يحذفون كثيراً من الكلام إذا كان المعنى معروفاً، ومدين هي بلد شعيب، وكانت على ثماني مراحل من مصر، هرب إليها موسى فأقام بها عشر سنين، وهي أتم الأجلين، وقيل: أقام عند شعيب ثمان وعشرين سنة منها عشر مهر امراته ابنة شعيب، ومنها ثماني عشرة سنة بقي فيها عنده حتى ولد له، والفاء في **﴿فَلَبِثْتُ﴾** تدل على أن المراد بالمحن المنكورة هي ما كان قبل لبثه في أهل مدين **﴿ثُمَّ جِئْتُ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَى﴾** أي: في وقت سبق في قضائي وقدري أن أكلمك وأجعلك نبياً، أو على مقدار من الزمان يوحى فيه إلى الأنبياء، وهو رأس أربعين سنة، أو على موعد قد عرفته بإخبار شعيب لك به. قال الشاعر:

نال الخلافة إذ كانت له قدراً كما أتى ربه موسى على قدر

وكلمة ثم المفيدة للتراخي للدلالة على أن مجيئه عليه السلام كان بعد مدة، وذلك بسبب ما وقع له من ضلال الطريق وتفرق غنمه ونحو ذلك **﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾** الاصطناع: اتخاذ الصنعة، وهي الخير تسديه إلى إنسان، والمعنى: اصطنتك لوحوي ورسالتني لتتصرف على إرانتني. قال الزجاج: تأويله اخترتك لإقامة حجتني، وجعلتك بيني وبين خلقي، وصرت بالتبليغ عني بالمنزلة التي أكون أنا بها لو خاطبتهم واحتجت عليهم. قيل: وهو تمثيل لما حوّل الله سبحانه من الكرامة العظمى بتقريب الملك لبعض خواصه **﴿إِذْ هَبْنَاكَ أَخُوكَ﴾** أي: وليذهب أخوك، وهو كلام مستأنف مسوق لبيان ما هو المقصود من الاصطناع ومعنى **﴿بِآيَاتِي﴾** بمعجزاتي التي جعلتها لك آية، وهي التسع الآيات **﴿وَلَا تُنْيَا فِي نَكْرِي﴾** أي: لا تضعفا ولا تقترأ، يقال: ونى يني ونياً، إذا ضعف. قال الشاعر:

فما ونى محمد مذ أن غفر له الإله ما مضى وما غبر

قال الفراء: في نكري وعن نكري سواء والمعنى: لا تقصرا عن نكري بالإحسان إليكما، والإنعام عليكما ونكر النعمة شكرها. وقيل: معنى ﴿لا تنفيا﴾ لا تبطلنا في تبليغ الرسالة، وفي قراءة ابن مسعود ﴿لا تهنا في نكري﴾ ﴿أذهباً إلى فرعون إنه طغي﴾ هذا أمر لهما جميعاً بالذهاب، وموسى حاضر وهارون غائب تلقياً لموسى، لانه الأصل في أداء الرسالة، وعلل الأمر بالذهاب بقوله: ﴿إنه طغي﴾ أي: جاوز الحد في الكفر والتمرد، وخص موسى وحده بالأمر بالذهاب فيما تقدم، وجمعهما هنا تشريفاً لموسى بإفراده، وتأكيداً للأمر بالذهاب بالتكرير؛ وقيل: إن في هذا ليللاً على أنه لا يكفي ذهاب أحدهما، وقيل الأول: أمر لموسى بالذهاب إلى كل الناس، والثاني: أمر لهما بالذهاب إلى فرعون. ثم أمرهما سبحانه بإلانة القول له لما في ذلك من التأثير في الإجابة، فإن التخشين بادئ بدء يكون من أعظم أسباب النفور والتصلب في الكفر، والقول اللين هو الذي لا خشونة فيه، يقال: لأن الشيء يلين ليناً، والمراد تركهما للتعنيف كقولهما: ﴿هل لك إلى أن تزكي﴾ [الأنعام: 18]. وقيل: القول اللين هو الكنية له، وقيل: أن يعدها بنعيم الدنيا إن أجاب، ثم علل الأمر بإلانة القول له بقوله: ﴿لعله يتذكر أو يخشى﴾ أي: باشرا ذلك مباشرة من يرجو ويطمع، فالرجاء راجع إليهما كما قاله جماعة من النحويين: سيئويه وغيره. وقد تقدم تحقيقه في غير موضع قال الزجاج: ﴿لعل﴾ لفظة طمع وترج، فخاطبهم بما يعقلون، وقيل: لعل ها هنا بمعنى الاستفهام. والمعنى: فانظرا هل يتذكر أو يخشى؛ وقيل: بمعنى كي. والتذكر: النظر فيما بلغاه من الذكر وإمعان الفكر فيه حتى يكون ذلك سبباً في الإجابة، والخشية هي خشية عقاب الله الموعود به على لسانهما، وكلمة أو لمنع الخلّ دون الجمع.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله: ﴿فَأَقْذِفْهُ فِي الْيَمِّ﴾ قال: هو النيل. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ قال: كان كل من رآه القيت عليه منه محبته. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن سلمة بن كهيل قال: حببتك إلى عبادي. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي عمران الجوني في قوله: ﴿وَلِتَصْنَعْ عَلَيَّ عَيْنِي﴾ قال: تربي بعين الله. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال: لتغذي على عيني. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في الآية قال: يقول أنت بعيني إذ جعلتك أمك في التابوت، ثم في البحر، وإن تمشي أختك. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مروي، والخطيب عن ابن عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما قتل موسى الذي قتل من آل فرعون خطأ يقول الله سبحانه: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾ قال: من قتل النفس ﴿وَفَنَّاكَ فُتُونًا﴾ قال: أخلصناك

فَلَا رَيْبَ إِنَّا نَعْلَمُ أَنْ يُدْعَىٰ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يُلَاقَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمِعُ وَأَذِّنُ ﴿٥٢﴾ فَأَيُّهَا قَوْمَا قُولُوا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكُمَا فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَغْلِبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيْنَا مَنْ أَتَانَا الْمَلَكُ ﴿٥٣﴾ إِنَّا قَدْ لَوَّحِي إِلَيْنَا أَنَّ الْمَذَابَ عَلَيْنَا كَذَبَ وَتَوَكَّلْ ﴿٥٤﴾ قَالَ فَمَنْ رَزَقْنَاهُ يَتِيمَتَيْنِ ﴿٥٥﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٥٧﴾ قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي يَسِّرَ لَا يَعْصِلُ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴿٥٨﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَرَجَعَهَا لَكُمْ فِيهَا شِبْلًا وَارْتَلِ مِنَ السَّلَامَةِ مَاءً فَأَمْرُهُمْ بِهِ أَزْوَجًا مِنْ نَبَاتٍ شَقِ ﴿٥٩﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَانِ ﴿٦٠﴾ ﴿٦١﴾ ﴿٦٢﴾ ﴿٦٣﴾ ﴿٦٤﴾ ﴿٦٥﴾ ﴿٦٦﴾ ﴿٦٧﴾ ﴿٦٨﴾ ﴿٦٩﴾ ﴿٧٠﴾ ﴿٧١﴾ ﴿٧٢﴾ ﴿٧٣﴾ ﴿٧٤﴾ ﴿٧٥﴾ ﴿٧٦﴾ ﴿٧٧﴾ ﴿٧٨﴾ ﴿٧٩﴾ ﴿٨٠﴾ ﴿٨١﴾ ﴿٨٢﴾ ﴿٨٣﴾ ﴿٨٤﴾ ﴿٨٥﴾ ﴿٨٦﴾ ﴿٨٧﴾ ﴿٨٨﴾ ﴿٨٩﴾ ﴿٩٠﴾ ﴿٩١﴾ ﴿٩٢﴾ ﴿٩٣﴾ ﴿٩٤﴾ ﴿٩٥﴾ ﴿٩٦﴾ ﴿٩٧﴾ ﴿٩٨﴾ ﴿٩٩﴾ ﴿١٠٠﴾ ﴿١٠١﴾ ﴿١٠٢﴾ ﴿١٠٣﴾ ﴿١٠٤﴾ ﴿١٠٥﴾ ﴿١٠٦﴾ ﴿١٠٧﴾ ﴿١٠٨﴾ ﴿١٠٩﴾ ﴿١١٠﴾ ﴿١١١﴾ ﴿١١٢﴾ ﴿١١٣﴾ ﴿١١٤﴾ ﴿١١٥﴾ ﴿١١٦﴾ ﴿١١٧﴾ ﴿١١٨﴾ ﴿١١٩﴾ ﴿١٢٠﴾ ﴿١٢١﴾ ﴿١٢٢﴾ ﴿١٢٣﴾ ﴿١٢٤﴾ ﴿١٢٥﴾ ﴿١٢٦﴾ ﴿١٢٧﴾ ﴿١٢٨﴾ ﴿١٢٩﴾ ﴿١٣٠﴾ ﴿١٣١﴾ ﴿١٣٢﴾ ﴿١٣٣﴾ ﴿١٣٤﴾ ﴿١٣٥﴾ ﴿١٣٦﴾ ﴿١٣٧﴾ ﴿١٣٨﴾ ﴿١٣٩﴾ ﴿١٤٠﴾ ﴿١٤١﴾ ﴿١٤٢﴾ ﴿١٤٣﴾ ﴿١٤٤﴾ ﴿١٤٥﴾ ﴿١٤٦﴾ ﴿١٤٧﴾ ﴿١٤٨﴾ ﴿١٤٩﴾ ﴿١٥٠﴾ ﴿١٥١﴾ ﴿١٥٢﴾ ﴿١٥٣﴾ ﴿١٥٤﴾ ﴿١٥٥﴾ ﴿١٥٦﴾ ﴿١٥٧﴾ ﴿١٥٨﴾ ﴿١٥٩﴾ ﴿١٦٠﴾ ﴿١٦١﴾ ﴿١٦٢﴾ ﴿١٦٣﴾ ﴿١٦٤﴾ ﴿١٦٥﴾ ﴿١٦٦﴾ ﴿١٦٧﴾ ﴿١٦٨﴾ ﴿١٦٩﴾ ﴿١٧٠﴾ ﴿١٧١﴾ ﴿١٧٢﴾ ﴿١٧٣﴾ ﴿١٧٤﴾ ﴿١٧٥﴾ ﴿١٧٦﴾ ﴿١٧٧﴾ ﴿١٧٨﴾ ﴿١٧٩﴾ ﴿١٨٠﴾ ﴿١٨١﴾ ﴿١٨٢﴾ ﴿١٨٣﴾ ﴿١٨٤﴾ ﴿١٨٥﴾ ﴿١٨٦﴾ ﴿١٨٧﴾ ﴿١٨٨﴾ ﴿١٨٩﴾ ﴿١٩٠﴾ ﴿١٩١﴾ ﴿١٩٢﴾ ﴿١٩٣﴾ ﴿١٩٤﴾ ﴿١٩٥﴾ ﴿١٩٦﴾ ﴿١٩٧﴾ ﴿١٩٨﴾ ﴿١٩٩﴾ ﴿٢٠٠﴾ ﴿٢٠١﴾ ﴿٢٠٢﴾ ﴿٢٠٣﴾ ﴿٢٠٤﴾ ﴿٢٠٥﴾ ﴿٢٠٦﴾ ﴿٢٠٧﴾ ﴿٢٠٨﴾ ﴿٢٠٩﴾ ﴿٢١٠﴾ ﴿٢١١﴾ ﴿٢١٢﴾ ﴿٢١٣﴾ ﴿٢١٤﴾ ﴿٢١٥﴾ ﴿٢١٦﴾ ﴿٢١٧﴾ ﴿٢١٨﴾ ﴿٢١٩﴾ ﴿٢٢٠﴾ ﴿٢٢١﴾ ﴿٢٢٢﴾ ﴿٢٢٣﴾ ﴿٢٢٤﴾ ﴿٢٢٥﴾ ﴿٢٢٦﴾ ﴿٢٢٧﴾ ﴿٢٢٨﴾ ﴿٢٢٩﴾ ﴿٢٣٠﴾ ﴿٢٣١﴾ ﴿٢٣٢﴾ ﴿٢٣٣﴾ ﴿٢٣٤﴾ ﴿٢٣٥﴾ ﴿٢٣٦﴾ ﴿٢٣٧﴾ ﴿٢٣٨﴾ ﴿٢٣٩﴾ ﴿٢٤٠﴾ ﴿٢٤١﴾ ﴿٢٤٢﴾ ﴿٢٤٣﴾ ﴿٢٤٤﴾ ﴿٢٤٥﴾ ﴿٢٤٦﴾ ﴿٢٤٧﴾ ﴿٢٤٨﴾ ﴿٢٤٩﴾ ﴿٢٥٠﴾ ﴿٢٥١﴾ ﴿٢٥٢﴾ ﴿٢٥٣﴾ ﴿٢٥٤﴾ ﴿٢٥٥﴾ ﴿٢٥٦﴾ ﴿٢٥٧﴾ ﴿٢٥٨﴾ ﴿٢٥٩﴾ ﴿٢٦٠﴾ ﴿٢٦١﴾ ﴿٢٦٢﴾ ﴿٢٦٣﴾ ﴿٢٦٤﴾ ﴿٢٦٥﴾ ﴿٢٦٦﴾ ﴿٢٦٧﴾ ﴿٢٦٨﴾ ﴿٢٦٩﴾ ﴿٢٧٠﴾ ﴿٢٧١﴾ ﴿٢٧٢﴾ ﴿٢٧٣﴾ ﴿٢٧٤﴾ ﴿٢٧٥﴾ ﴿٢٧٦﴾ ﴿٢٧٧﴾ ﴿٢٧٨﴾ ﴿٢٧٩﴾ ﴿٢٨٠﴾ ﴿٢٨١﴾ ﴿٢٨٢﴾ ﴿٢٨٣﴾ ﴿٢٨٤﴾ ﴿٢٨٥﴾ ﴿٢٨٦﴾ ﴿٢٨٧﴾ ﴿٢٨٨﴾ ﴿٢٨٩﴾ ﴿٢٩٠﴾ ﴿٢٩١﴾ ﴿٢٩٢﴾ ﴿٢٩٣﴾ ﴿٢٩٤﴾ ﴿٢٩٥﴾ ﴿٢٩٦﴾ ﴿٢٩٧﴾ ﴿٢٩٨﴾ ﴿٢٩٩﴾ ﴿٣٠٠﴾ ﴿٣٠١﴾ ﴿٣٠٢﴾ ﴿٣٠٣﴾ ﴿٣٠٤﴾ ﴿٣٠٥﴾ ﴿٣٠٦﴾ ﴿٣٠٧﴾ ﴿٣٠٨﴾ ﴿٣٠٩﴾ ﴿٣١٠﴾ ﴿٣١١﴾ ﴿٣١٢﴾ ﴿٣١٣﴾ ﴿٣١٤﴾ ﴿٣١٥﴾ ﴿٣١٦﴾ ﴿٣١٧﴾ ﴿٣١٨﴾ ﴿٣١٩﴾ ﴿٣٢٠﴾ ﴿٣٢١﴾ ﴿٣٢٢﴾ ﴿٣٢٣﴾ ﴿٣٢٤﴾ ﴿٣٢٥﴾ ﴿٣٢٦﴾ ﴿٣٢٧﴾ ﴿٣٢٨﴾ ﴿٣٢٩﴾ ﴿٣٣٠﴾ ﴿٣٣١﴾ ﴿٣٣٢﴾ ﴿٣٣٣﴾ ﴿٣٣٤﴾ ﴿٣٣٥﴾ ﴿٣٣٦﴾ ﴿٣٣٧﴾ ﴿٣٣٨﴾ ﴿٣٣٩﴾ ﴿٣٤٠﴾ ﴿٣٤١﴾ ﴿٣٤٢﴾ ﴿٣٤٣﴾ ﴿٣٤٤﴾ ﴿٣٤٥﴾ ﴿٣٤٦﴾ ﴿٣٤٧﴾ ﴿٣٤٨﴾ ﴿٣٤٩﴾ ﴿٣٥٠﴾ ﴿٣٥١﴾ ﴿٣٥٢﴾ ﴿٣٥٣﴾ ﴿٣٥٤﴾ ﴿٣٥٥﴾ ﴿٣٥٦﴾ ﴿٣٥٧﴾ ﴿٣٥٨﴾ ﴿٣٥٩﴾ ﴿٣٦٠﴾ ﴿٣٦١﴾ ﴿٣٦٢﴾ ﴿٣٦٣﴾ ﴿٣٦٤﴾ ﴿٣٦٥﴾ ﴿٣٦٦﴾ ﴿٣٦٧﴾ ﴿٣٦٨﴾ ﴿٣٦٩﴾ ﴿٣٧٠﴾ ﴿٣٧١﴾ ﴿٣٧٢﴾ ﴿٣٧٣﴾ ﴿٣٧٤﴾ ﴿٣٧٥﴾ ﴿٣٧٦﴾ ﴿٣٧٧﴾ ﴿٣٧٨﴾ ﴿٣٧٩﴾ ﴿٣٨٠﴾ ﴿٣٨١﴾ ﴿٣٨٢﴾ ﴿٣٨٣﴾ ﴿٣٨٤﴾ ﴿٣٨٥﴾ ﴿٣٨٦﴾ ﴿٣٨٧﴾ ﴿٣٨٨﴾ ﴿٣٨٩﴾ ﴿٣٩٠﴾ ﴿٣٩١﴾ ﴿٣٩٢﴾ ﴿٣٩٣﴾ ﴿٣٩٤﴾ ﴿٣٩٥﴾ ﴿٣٩٦﴾ ﴿٣٩٧﴾ ﴿٣٩٨﴾ ﴿٣٩٩﴾ ﴿٤٠٠﴾ ﴿٤٠١﴾ ﴿٤٠٢﴾ ﴿٤٠٣﴾ ﴿٤٠٤﴾ ﴿٤٠٥﴾ ﴿٤٠٦﴾ ﴿٤٠٧﴾ ﴿٤٠٨﴾ ﴿٤٠٩﴾ ﴿٤١٠﴾ ﴿٤١١﴾ ﴿٤١٢﴾ ﴿٤١٣﴾ ﴿٤١٤﴾ ﴿٤١٥﴾ ﴿٤١٦﴾ ﴿٤١٧﴾ ﴿٤١٨﴾ ﴿٤١٩﴾ ﴿٤٢٠﴾ ﴿٤٢١﴾ ﴿٤٢٢﴾ ﴿٤٢٣﴾ ﴿٤٢٤﴾ ﴿٤٢٥﴾ ﴿٤٢٦﴾ ﴿٤٢٧﴾ ﴿٤٢٨﴾ ﴿٤٢٩﴾ ﴿٤٣٠﴾ ﴿٤٣١﴾ ﴿٤٣٢﴾ ﴿٤٣٣﴾ ﴿٤٣٤﴾ ﴿٤٣٥﴾ ﴿٤٣٦﴾ ﴿٤٣٧﴾ ﴿٤٣٨﴾ ﴿٤٣٩﴾ ﴿٤٤٠﴾ ﴿٤٤١﴾ ﴿٤٤٢﴾ ﴿٤٤٣﴾ ﴿٤٤٤﴾ ﴿٤٤٥﴾ ﴿٤٤٦﴾ ﴿٤٤٧﴾ ﴿٤٤٨﴾ ﴿٤٤٩﴾ ﴿٤٥٠﴾ ﴿٤٥١﴾ ﴿٤٥٢﴾ ﴿٤٥٣﴾ ﴿٤٥٤﴾ ﴿٤٥٥﴾ ﴿٤٥٦﴾ ﴿٤٥٧﴾ ﴿٤٥٨﴾ ﴿٤٥٩﴾ ﴿٤٦٠﴾ ﴿٤٦١﴾ ﴿٤٦٢﴾ ﴿٤٦٣﴾ ﴿٤٦٤﴾ ﴿٤٦٥﴾ ﴿٤٦٦﴾ ﴿٤٦٧﴾ ﴿٤٦٨﴾ ﴿٤٦٩﴾ ﴿٤٧٠﴾ ﴿٤٧١﴾ ﴿٤٧٢﴾ ﴿٤٧٣﴾ ﴿٤٧٤﴾ ﴿٤٧٥﴾ ﴿٤٧٦﴾ ﴿٤٧٧﴾ ﴿٤٧٨﴾ ﴿٤٧٩﴾ ﴿٤٨٠﴾ ﴿٤٨١﴾ ﴿٤٨٢﴾ ﴿٤٨٣﴾ ﴿٤٨٤﴾ ﴿٤٨٥﴾ ﴿٤٨٦﴾ ﴿٤٨٧﴾ ﴿٤٨٨﴾ ﴿٤٨٩﴾ ﴿٤٩٠﴾ ﴿٤٩١﴾ ﴿٤٩٢﴾ ﴿٤٩٣﴾ ﴿٤٩٤﴾ ﴿٤٩٥﴾ ﴿٤٩٦﴾ ﴿٤٩٧﴾ ﴿٤٩٨﴾ ﴿٤٩٩﴾ ﴿٥٠٠﴾ ﴿٥٠١﴾ ﴿٥٠٢﴾ ﴿٥٠٣﴾ ﴿٥٠٤﴾ ﴿٥٠٥﴾ ﴿٥٠٦﴾ ﴿٥٠٧﴾ ﴿٥٠٨﴾ ﴿٥٠٩﴾ ﴿٥١٠﴾ ﴿٥١١﴾ ﴿٥١٢﴾ ﴿٥١٣﴾ ﴿٥١٤﴾ ﴿٥١٥﴾ ﴿٥١٦﴾ ﴿٥١٧﴾ ﴿٥١٨﴾ ﴿٥١٩﴾ ﴿٥٢٠﴾ ﴿٥٢١﴾ ﴿٥٢٢﴾ ﴿٥٢٣﴾ ﴿٥٢٤﴾ ﴿٥٢٥﴾ ﴿٥٢٦﴾ ﴿٥٢٧﴾ ﴿٥٢٨﴾ ﴿٥٢٩﴾ ﴿٥٣٠﴾ ﴿٥٣١﴾ ﴿٥٣٢

قد افراط العليج علينا وعجل

ومعنى **﴿وَإِنْ يَطْفِئْ﴾** قد تقدم قريباً. وجملة **﴿قَالَ لَا تَخَافَا﴾** مستأنفة جواب سؤال مقدر، نهى لهما عن الخوف الذي حصل معهما من فرعون. ثم علل ذلك بقوله: **﴿إِنِّي مَعَكُمَا﴾** أى: بالانصر لهما، والمعونة على فرعون، ومعنى

شيء فيما خلق له، وأما على القراءة الآخرة، فيكون الفعل صفة للمضاف أو للمضاف إليه أي: أعطى كل شيء خلقه الله سبحانه ولم يخله من عطائه، وعلى هذه القراءة يكون المفعول الثاني محذوفاً أي: أعطى كل شيء خلقه ما يحتاج إليه، فيوافق معناها معنى القراءة الأولى **﴿قال فما بال القرون الأولى﴾** لما سمع فرعون ما احتج به موسى في ضمن هذا الكلام على إثبات الربوبية كما لا يخفى من أن الخلق والهداية ثابتان بلا خلاف، ولا بدّ لهما من خالق وهادٍ، وذلك الخالق والهادي هو الله سبحانه لا ربّ غيره. قال فرعون: فما بال القرون الأولى فإنها لم تقرّ بالربّ الذي تدعو إليه يا موسى بل عبت الأوثان ونحوها من المخلوقات، ومعنى البال: الحال والشأن أي: ما حالهم وما شأنهم؟ وقيل: إن سؤال فرعون عن القرون الأولى مغالطة لموسى لما خاف أن يظهر لقومه أنه قد قهره بالحجة أي: ما حال القرون الماضية، وماذا جرى عليهم من الحوادث؟ فاجابه موسى، **﴿قال علمها عند ربي﴾** أي: إن هذا الذي سألت عنه ليس مما نحن بصدد، بل هو من علم الغيب الذي استأثر الله به لا تعلمه أنت ولا أنا. وعلى التفسير الأوّل يكون معنى **﴿علمها عند ربي﴾** أن علم هؤلاء الذين عبدوا الأوثان ونحوها محفوظ عند الله في كتابه سيجازيهم عليها، ومعنى كونها في كتاب أنها مثبتة في اللوح المحفوظ. قال الزجاج: المعنى أن أعمالهم محفوظة عند الله يجازي بها، والتقدير: علم أعمالها عند ربي في كتاب.

وقد اختلف في معنى **﴿لا يضل ربي ولا ينسى﴾** على أقوال الأول: أنه ابتداء كلام تنزيهه تعالى عن هاتين الصفتين. وقد تمّ الكلام عند قوله في كتاب كذا قال الزجاج. قال: ومعنى **﴿لا يضل﴾** لا يهلك من قوله: **﴿إنذا ضللنا في الأرض﴾** [السجدة: 10]. **﴿ولا ينسى﴾** شيئاً من الأشياء، فقد نزّهه عن الهلاك والنسيان. القول الثاني: أن معنى **﴿لا يضل﴾** لا يخطئ. القول الثالث: أن معناه لا يغيب. قال ابن الأعرابي: أصل الضلال الغيبوبة. القول الرابع: أن المعنى لا يحتاج إلى كتاب، ولا يضلّ عنه علم شيء من الأشياء، ولا ينسى ما علمه منها، حكى هذا عن الزجاج أيضاً. قال النحاس: وهو أشبهها بالمعنى. ولا يخفى أنه كقول ابن الأعرابي. القول الخامس: أن هاتين الجملتين صفة للكتاب، والمعنى: أن الكتاب غير ذاهب عن الله ولا هو ناس له **﴿الذي جعل لكم الأرض مهداً﴾** الموصول في محل رفع على أنه صفة لربي متضمنة لزيادة البيان، ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف، أو في محل نصب على الحال. قرأ الكوفيون (مهداً) على أنه مصدر لفعل مقدر أي: مهداً مهداً، أو على تقدير مضاف محذوف: أي ذات مهد، وهو اسم لما يمهّد كالفرش لما يفرش. وقرأ الباقون (مهداً) واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم لا لاتفاقهم على قراءة **﴿الم نجعل الأرض مهداً﴾** [النبا: 6]. قال النحاس: والجمع أولى من المصدر، لأن هذا الموضع ليس موضع المصدر إلا على

﴿اسمع وأرأ﴾ إدراك ما يجري بينهما وبينه بحيث لا يخفى عليه سبحانه منه خافية، وليس بغافل عنهما، ثم أمرهما بإتيانه الذي هو عبارة عن الوصول إليه بعد أمرهما بالذهاب إليه فلا تكرر **﴿فقلوا إنا رسولا ربك﴾** أرسلنا إليك **﴿فأرسل معنا بني إسرائيل﴾** أي: خلّ عنهم وأطلقهم من الأسر **﴿ولا تعذبهم﴾** بالبقاء على ما كانوا عليه وقد كانوا عند فرعون في عذاب شديد: ينبح أبناءهم، ويستحيي نساءهم، ويكلفهم من العمل ما لا يطيقونه، ثم أمرهما سبحانه أن يقولوا لفرعون **﴿قد جئناك بأية من ربك﴾** قيل: هي العصا واليد؛ وقيل إن فرعون قال لهما: وما هي؟ فادخل موسى يده في جيب قميصه، ثم أخرجها لها شعاع كشعاع الشمس، فعجب فرعون من ذلك، ولم يره موسى العصا إلا يوم الزينة **﴿والسلام على من اتبع الهدى﴾** أي: السلامة. قال الزجاج: أي من اتبع الهدى سلم من سخط الله عزّ وجلّ ومن عذابه، وليس بتحية. قال: والدليل على ذلك أنه ليس بابتداء لقاء ولا خطاب. قال الفراء: السلام على من اتبع الهدى، ولمن اتبع الهدى سواء **﴿إننا قد أوحى إلينا﴾** من جهة الله سبحانه **﴿أن العذاب على من كذب وتولى﴾** المراد بالعذاب: الهلاك والدمار في الدنيا والخلود في النار، والمراد بالتكذيب: التكذيب بأيات الله وبرسله، والتولي: الإعراض عن قبولها والإيمان بها **﴿قال فمن ربكما يا موسى﴾** أي: قال فرعون لهما: فمن ربكما؟ فأضاف الربّ إليهما ولم يصفه إلى نفسه لعدم تصديقه لهما ولجده للربوبية، وخص موسى بالدعاء لكونه الأصل في الرسالة؛ وقيل: لمطابقة رؤوس الآي **﴿قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه﴾** أي: قال موسى مجيباً له، وربنا مبتدأ، وخبره **﴿الذي أعطى كل شيء خلقه﴾**، ويجوز أن يكون ربنا خبر مبتدأ محذوف، وما بعده صفته، قرأ الجمهور (خلقه) بسكون اللام، وروى زائدة عن الأعمش أنه قرأ خلقه بفتح اللام على أنه فعل، وهي قراءة ابن أبي إسحاق، ورواها نصير عن الكسائي. فعلى القراءة الأولى يكون خلقه ثاني مفعولي أعطى. والمعنى: أعطى كل شيء صورته وشكله الذي يطابق المنفعة المنوطة به المطابقة له كاليد للبطش، والرجل للمشي واللسان للنطق، والعين للنظر، والآنن للسمع، كذا قال الضحّاك وغيره. وقال الحسن وقتادة: أعطى كل شيء صلاحه وهده لما يصلحه. وقال مجاهد: المعنى لم يخلق خلق الإنسان في خلق البهائم، ولا خلق البهائم في خلق الإنسان، ولكن خلق كل شيء ففكره تقديراً، ومنه قول الشاعر:

وله في كل شيء خلقه وكذا الله ما شاء فعل
وقال الفراء: المعنى خلق للرجل المرأة، ولكل نكر ما يوافقه من الإناث، ويجوز أن يكون خلقه على القراءة الأولى هو المفعول الأوّل لأعطى أي: أعطى خلقه كل شيء يحتاجون إليه، ويرتفقون به، ومعنى **﴿ثم هدى﴾** أنه سبحانه هداهم إلى طرق الانتفاع بما أعطاهم فانتفعوا بكل

موسى، والتي جاء بها غيره من الأنبياء، وأن موسى قد كان عرّفه جميع معجزاته ومعجزات سائر الأنبياء، والأول أولى، وقيل: المراد بالآيات حجج الله سبحانه الدالة على توحيده **﴿فكذب وأبى﴾** أي: كذب فرعون موسى وأبى عليه أن يجيبه إلى الإيمان، وهذا يدل على أن كفر فرعون كفر عناد لأنه رأى الآيات وكذب بها كما في قوله: **﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً﴾** [النمل: 14]. وجملة **﴿قال لجنّتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى﴾** مستأنفة جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل: فماذا قال فرعون بعد هذا؟ والهمزة للإنكار لما جاء به موسى من الآيات أي: جئت يا موسى لتروهم الناس بأنك نبيّ يجب عليهم اتباعك، والإيمان بما جئت به، حتى تتوصل بذلك الإيهام الذي هو شعبة من السحر إلى أن تغلب على أرضنا وتخرجنا منها. وإنما ذكر الملعون الإخراج من الأرض لتنفير قومه عن إجابة موسى، فإنه إذا وقع في آذانهم وتقرّر في أفعالهم أن عاقبة إجابتهم لموسى الخروج من ديارهم وأوطانهم كانوا غير قابلين لكلامه ولا ناظرين في معجزاته ولا ملتفتين إلى ما يدعو إليه من الخير **﴿فلنلقينك بسحر مثله﴾** الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها واللام هي الموطئة للقسم أي: والله لنعارضنك بمثل ما جئت به من السحر، حتى يتبين للناس أن الذي جئت به سحر يقدر على مثله الساحر **﴿فلجعل بيننا وبينك موعداً﴾** هو مصدر أي: وعداً؛ وقيل: اسم مكان أي: لجعل لنا يوماً معلوماً، أو مكاناً معلوماً لا نخلفه. قال القشيري: والأظهر أنه مصدر، ولهذا قال: **﴿لا نخلفه﴾** أي: لا نخلف ذلك الوعد، والإخلاف أن تعد شيئاً ولا تنجزه. قال الجوهري: الميعاد المواعدة والوقت والموضع، وكذلك الموعد. وقرأ أبو جعفر بن القعقاع وشيبة والأعرج **﴿لا نخلفه﴾** بالجزم على أنه جواب لقوله اجعل. وقرأ الباقر بالرفع على أنه صفة لموعد أي: لا تخلف ذلك الوعد **﴿نحن ولا أنت﴾** وفوّض تعيين الموعد إلى موسى إظهاراً لكمال اقتداره على الإتيان بمثل ما أتى به موسى، وانتصاب **﴿مكاناً سوى﴾** بفعل مقدّر يدل عليه المصدر، أو على أنه بدل من موعد. قرأ ابن عامر وعاصم وحمرزة (سوى) بضم السين، وقرأ الباقر بكسرهما وهما لغتان. واختار أبو عبيد، وأبو حاتم كسر السين لأنها اللغة العالية الفصيحة؛ والمراد: مكاناً مستويّاً، وقيل: مكاناً منصفاً عدلاً بيننا وبينك. قال سيبويه: يقال سَوَى وسَوَى أي: عدل، يعني: عدلاً بين المكانين. قال زهير:

أرونا خطة لا ضيم فيها يسوى بيننا فيها السواء
قال أبو عبيدة والقتيبي: معناه مكاناً وسطاً بين الفريقين، وأنشد أبو عبيدة لموسى بن جابر الحنفي:

وإن أبانا كان حلّ ببلدة سوى بين قيس قيس غيلان والفرز
والفرز سعد بن زيد مناة. ثم واعده موسى بوقت معلوم ف**﴿قال موعدكم يوم الزينة﴾** قال مجاهد وقتادة ومقاتل والسدي: كان ذلك يوم عيد يتزينون فيه، وقال سعيد بن جبير: كان ذلك يوم عاشوراء، وقال الضحّاك: يوم السبت؛

حنف المضاف. قيل: يجوز أن يكون مهاداً مفرداً كالفراش، ويجوز أن يكون جمعاً، ومعنى الهاد: الفرّاش فالمهاد جمع المهدي أي: جعل كل موضع منها مهدياً لكل واحد منكم **﴿وسلك لكم فيها سبلاً﴾** السلك: إدخال الشيء في الشيء. والمعنى: أدخل في الأرض لأجلكم طرقاً تسلكونها وسهلاً لكم. وفي الآية الأخرى **﴿الذي جعل لكم الأرض مهاداً وجعل لكم فيها سبلاً لعلكم تهتدون﴾** [الزخرف: 10]. ثم قال سبحانه ممتناً على عباده **﴿وانزل من السماء ماء﴾** هو ماء المطر، قيل: إلى هنا انتهى كلام موسى، وما بعده هو **﴿فأخرجنا به أنولاً﴾** من نبات شتى من كلام الله سبحانه؛ وقيل: هو من الكلام المحكي عن موسى معطوف على أنزل، وإنما التفت إلى التكلم للتنبية إلى ظهور ما فيه من الدلالة على كمال القدرة. ونوقش بأن هذا خلاف الظاهر مع استلزامه فوت الالتفات لعدم اتحاد المتكلم، ويجب عنه بأن الكلام كله محكي عن واحد هو موسى، والحاكي للجميع هو الله سبحانه والمعنى: فأخرجنا بذلك الماء بسبب الحرث والمعالجة أنولاً أي: ضرورياً وأشجاراً من أصناف النبات المختلفة وقوله من نبات صفة لأنولاً، أو بيان له، وكذا شتى صفة أخرى له، أي: متفرقة جمع شتيت. وقال الأخفش: التقدير أنولاً شتى من نبات. قال: وقد يكون النبات شتى، فيجوز أن يكون شتى نعتاً لأنولاً، ويجوز أن يكون نعتاً للنبات، يقال امر شت أي: متفرق، وشت الأمر شتاً وشتاتاً تفرّق واشتت مثله، والشتيت المتفرق، قال رؤية: جاءت معاً وأطرفت شتيتاً

وجملة **﴿كلوا وارعوا﴾** في محل نصب على الحال بتقدير القول أي: قائلين لهم ذلك، والأمر للإباحة، يقال: رعت الماشية الكلاً ورعاها صاحبها رعية أي: أسامها وسرحها يجيء لازماً ومتعياً، والإشارة بقوله: **﴿إن في تلك آيات لاولي النهى﴾** إلى ما تقدم ذكره في هذه الآيات، والنهي العقول جمع نهية، وخص نوي النهى لأنهم الذين ينتهي إلى رأيهم؛ وقيل: لأنهم ينهون النفس عن القبائح، وهذا كله من موسى احتجاجاً على فرعون في إثبات الصانع جواباً لقوله: **﴿فمن ريكما يا موسى﴾** والضمير في **﴿منها خلقناكم﴾** وما بعده راجع إلى الأرض المذكورة سابقاً. قال الزجاج وغيره: يعني أن آدم خلق من الأرض وأولاده منه؛ وقيل: المعنى أن كل نطفة مخلوقة من التراب في ضمن خلق آدم، لأن كل فرد من أقراد البشر له حظ من خلقه **﴿وفيها﴾** أي: في الأرض **﴿نعبيدكم﴾** بعد الموت فتنبئون فيها وتتفرق أجزاءكم حتى تصير من جنس الأرض، وجاء بفي نون إلى للدلالة على الاستقرار **﴿ومنها﴾** أي: من الأرض **﴿نخرجكم تارة أخرى﴾** أي: بالبعث والنشور وتاليف الأجسام وردّ الأرواح إليها على ما كانت عليه قبل الموت، والتارة كالمرة **﴿ولقد أريناه آياتنا كلها﴾** أي: أرينا فرعون وعرفناه آياتنا كلها، والمراد بالآيات هي: الآيات التسع المذكورة في قوله: **﴿ولقد آتينا موسى تسع آيات﴾** [الإسراء: 101]. على أن الإضافة للعهد؛ وقيل المراد جميع الآيات التي جاء بها

ونك قوله: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾. وأخرج أحمد، والحاكم عن أبي أمامة قال: لما وضعت أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ في القبر قال رسول الله ﷺ: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾، «بسم الله وفي سبيل الله وعلى ملة رسول الله». وفي حديث في السنن: «أنه أخذ قبضة من التراب فإلقاها في القبر وقال: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾»، ثم أخرى وقال: ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾»، ثم أخرى وقال: ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾ قال: يوم عاشوراء. وأخرج ابن المنذر عن ابن عمرو نحوه.

فَقَوْلُ فِرْعَوْنَ فَجَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَقْبَلَ ﴿١٥﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَنْتَوُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيَسْحَتَكُمْ يَذَابُ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى ﴿١٦﴾ فَتَنَزَّعُوا أَمْرَهُمْ يَنْتَهَرُ وَأَسْرُوا النَّجْوَى ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرَانِ بُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكَ مِنْ أَرْضِكَ بِغَيْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقِكَ الْكَلْبُ ﴿١٨﴾ فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتَوُا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَمَلَ ﴿١٩﴾ قَالُوا يَتَّبِعُونَ إِمَّا أَنْ تَكُونَ مِنْ أَقْلٍ ﴿٢٠﴾ قَالَ بَلْ أَتَوْا لِذَا جَاءَهُمْ وَعَبِيتُمْ مُبِلٌ ﴿٢١﴾ وَإِلَيْهِ مِنْ عِزِّهِمْ آتٍ تَوْنٌ ﴿٢٢﴾ فَأَوَّحَى فِي قُلُوبِهِمْ خُفْيَةً مَوْسَى ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا لَا تَخَفُ ﴿٢٤﴾ بَلَغْتَ أَتَى الْأَعْلَى ﴿٢٥﴾ وَالْقِيَمَةَ لَقَفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَفِيرٌ وَلَا يُبْلِغُ السَّيْرُ حَيْثُ أَنْتَ ﴿٢٦﴾ فَأَتَوْنِ السَّحْرَةَ فَجَاءُوا قَالُوا أَمَّا رَبٌّ هُوَ رَبُّ مُوسَى ﴿٢٧﴾

قوله: ﴿فَقَوْلَى فِرْعَوْنَ﴾ أي: انصرف من ذلك المقام ليهيئ ما يحتاج إليه مما تواعدا عليه؛ وقيل: معنى تولى أعرض عن الحق، والأول أولى ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُ﴾ أي: جمع ما يكيد به من سحره وحيلته، والمراد أنه جمع السحرة، قيل: كانوا اثنين وسبعين، وقيل: أربعمائة؛ وقيل: اثنا عشر ألفاً، وقيل: أربعة عشر ألفاً، وقال ابن المنذر: كانوا ثمانين ألفاً ﴿ثُمَّ لَتَى﴾ أي: أتى الموعد الذي تواعدا إليه مع جمعه الذي جمعه، وجملة ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى﴾ مستأنفة جواب سؤال مقترن ﴿وَيُلْكَمُ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ دعا عليهم بالويل، ونهاهم عن افتراء الكذب، قال الزجاج: هو منصوب بمحذوف، والتقدير الزمهم الله ويلاً. قال: ويجوز أن يكون نداء كقوله: ﴿يَا وَيْلَنَا مِنْ بَعْثِنَا مِنْ مَرْقِنَا﴾ [يس: 52]. ﴿فَيَسْحَتُكُمْ بِعَذَابٍ﴾ السحت الاستئصال، يقال: سحتت شجرة وأسحت بمعنى، وأصله استقصاء الشعر. وقرأ الكوفيون إلا شعبة (فيسحتكم) بضم حرف المضارعة من أسحت، وهي لغة بني تميم، وقرأ الباقون بفتح من سحت، وهي لغة الحجاز وانتصابه على أنه جواب للنهي ﴿وَقَدْ خَابَ مِنْ افْتَرَى﴾ أي: خسر وهلك، والمعنى: قد خسر من افترى على الله أي: كذب كان ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ أي: السحرة لما سمعوا كلام موسى تناظروا وتشارروا وتجادلوا أطراف الكلام في ذلك ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى﴾ أي: من موسى، وكانت نجواهم هي قولهم: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرَانِ﴾ وقيل: إنهم

وقيل: يوم النبروز؛ وقيل: يوم كسر الخليج. وقرأ الحسن والأعمش، وعيسى الثقفي، والسلمي، وهبيرة عن حفص (يوم الزينة) بالنصب، ورويت هذه القراءة عن أبي عمرو أي: في يوم الزينة إنجاز موعدها. وقرأ الباقون بالرفع على أنه خبر موعدهم، وإنما جعل الميعاد زماناً بعد أن طلب منه فرعون أن يكون مكاناً سوى، لأن يوم الزينة يدل على مكان مشهور يجتمع فيه الناس ذلك اليوم، أو على تقدير مضاف محذوف أي: موعدهم مكان يوم الزينة ﴿وَأَنْ يَحْشُرَ النَّاسَ ضَحَى﴾ معطوف على يوم الزينة فيكون في محل رفع، أو على الزينة فيكون في محل جر، يعني: ضحى ذلك اليوم، والمراد بالناس: أهل مصر. والمعنى: يحشرون إلى العيد وقت الضحى، وينظرون في أمر موسى وفرعون. قال الفراء: المعنى إذا رايت الناس يحشرون من كل ناحية ضحى فذلك الموعد. قال: وجرت عانيتهم بحشر الناس في ذلك اليوم. والضحى قال الجوهري: ضحوة النهار بعد طلوع الشمس ثم بعده الضحى، وهو حين تشرق الشمس، وخص الضحى لأنه أول النهار، فإذا امتد الأمر بينهما كان في النهار متسع. وقرأ ابن مسعود والجحدري (وأن يحشر) على البناء للفاعل أي: وأن يحشر الله الناس ضحى. وروي عن الجحدري أنه قرأ (وأن تحشر) بالنون وقرأ بعض القراء بالتاء الفوقية أي: وأن تحشر أنت يا فرعون، وقرأ الباقون بالتحية على البناء للمفعول.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفِرَّطَ عَلَيْنَا﴾ قال: يعجل ﴿أَوْ أَنْ يَطْفَى﴾ قال: يعتدي. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله: ﴿أَسْمِعْ وَأَرَى﴾ قال: أسمع ما يقول وأرى ما يجاوبكما به، فأوحى إليكما فتجاوبانه. وأخرج ابن أبي شيبه، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال: لما بعث الله موسى إلى فرعون قال: رب أي شيء أقول؟ قال: قل أهيا شراهما. قال الأعشى: تفسير ذلك الحَيِّ قبل كل شيء، والحَيِّ بعد كل شيء. وجود السيوطي إسناده، وسبقه إلى تجويد إسناده ابن كثير في تفسيره. وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿عَلَى مِنْ كَذِبٍ وَقَوْلَى﴾ قال: كذب بكتاب الله وتولى عن طاعة الله. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الاسماء والصفات عن ابن عباس في قوله: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ قال: خلق لكل شيء زوجة ﴿ثُمَّ هَدَى﴾ قال: هداة لمنكحه ومطعمه ومشربه ومسكنه. وأخرج ابن جريج، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي﴾ قال: لا يخطئ. وأخرج ابن جريج، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿مَنْ نَبَاتِ شَتَّى﴾ قال: مختلف. وفي قوله: ﴿لَا أُولِي لَنْهَى﴾ قال: لأولي التقى. وأخرج ابن المنذر عنه ﴿لَا أُولِي لَنْهَى﴾ قال: لأولي الحجا والعقل. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن عطاء الخراساني قال: إن الملك ينطلق فيأخذ من تراب المكان الذي يدفن فيه فينثره على النطفة، فيخلق من التراب ومن النطفة،

وكانت التثنية لا تغير الواحد أجريت التثنية مجرى الواحد فثبت الألف في الرفع والنصب والجر، فهذه أقوال تتضمن توجيه هذه القراءة توجه تصحح به وتخرج به عن الخطأ، وبذلك يندفع ما روي عن عثمان وعائشة أنه غلط من الكاتب للمصحف **﴿يريدان أن يخرجكما من أرضكم﴾** وهي أرض مصر **﴿بسحرهما﴾** الذي أظهره **﴿ويذهبا بطريقتكم للمثلى﴾** قال الكسائي: بطريقتكم بسنتكم، والمثلى نعت كقولك: امرأة كبرى، تقول العرب: فلان على الطريقة المثلى يعنون على الهدى المستقيم. قال الفراء: العرب تقول هؤلاء طريقة قومهم وطرائق قومهم لأشرافهم، والمثلى تانيث الأمثل، وهو الأفضل، يقال: فلان أمثل قومه أي: أفضلهم، وهم الأمثل. والمعنى: أنهما إن يغلبا بسحرهما مال إليهما السادة والأشراف منكم، أو يذهبا بمذهبيكم الي هو أمثل المذاهب **﴿فاجمعوا كيحكم﴾** الإجماع الأحكام، والعزم على الشيء قاله الفراء. تقول: أجمعت على الخروج مثل أزمعت. وقال الزجاج: معناه ليكن عزمكم كلكم كالكلد مجمعا عليه، وقد اتفق القراء على قطع الهمزة في أجمعوا إلا أبا عمرو، فإنه قرأ بوصلها وفتح الميم من الجمع. قال النحاس: وفيما حكى لي عن محمد بن يزيد المبرد أنه قال: يجب على أبي عمرو أن يقرأ بخلاف هذه القراءة، وهي القراءة التي عليها أكثر الناس **﴿ثم ائتوا صفاء﴾** أي: مصطفىين مجتمعين ليكون أنظم لأمرهم وأشد لهيبته، وهذا قول جمهور المفسرين. وقال أبو عبيدة: الصف موضع الجمع ويسمى المصلى الصف. قال الزجاج: وعلى هذا معناه: ثم ائتوا الموضوع الذي تجتمعون فيه لعيدكم وصلاتكم، يقال: أتيت الصف بمعنى أتيت المصلى، فعلى التفسير الأول يكون انتصاب صفا على الحال، وعلى تفسير أبي عبيدة يكون انتصابه على المفعولية. قال الزجاج: يجوز أن يكون المعنى ثم ائتوا والناس مصطفىون، فيكون على هذا مصدرا في موضع الحال، ولذلك لم يجمع، وقرأ بكسر الهمزة بعدها ياء، ومن ترك الهمزة أبدل منها ألفا **﴿وقد أفلح اليوم من استعلى﴾** أي: من غلب، يقال: استعلى عليه إذا غلبه، وهذا كله من قول السحرة بعضهم لبعض؛ وقيل: من قول فرعون لهم، وجملة **﴿قالوا: يا موسى إما أن تلقى﴾** مستأنفة جواباً لسؤال مقدر، كأنه قيل: فماذا فعلوا بعدما قالوا فيما بينهم ما قالوا؟ فقيل: قالوا يا موسى إما أن تلقى، وإن مع ما في حيزها في محل نصب بفعل مضمّر أي: اختر إلقاءك أولاً أو إلقاءنا، ويجوز أن تكون في محل رفع على أنها وما بعدها خبر مبتدأ محذوف، أي: الأمر إلقاءك، أو إلقاءنا، ومفعول تلقى محذوف، والتقدير: إما أن تلقى ما تلقىه أولاً **﴿وإما أن تكون﴾** نحن **﴿أول منلقى﴾** ما يلقيه، أو أول من يفعل الإلقاء، والمراد: إلقاء العصي على الأرض، وكانت السحرة معهم عصي، وكان موسى قد ألقي عصاه يوم دخل على فرعون، فلما أراد السحرة معارضته قالوا له هذا القول، فـ **﴿قال﴾** لهم موسى **﴿بإلقاء القوا﴾** أمرهم بالإلقاء أولاً

تتأجروا فيما بينهم فقالوا: إن كان ما جاء به موسى سحراً فسنغلبه، وإن كان من عند الله فسيكون له أمر؛ وقيل: الذي أسروه أنه إذا غلبهم اتبعوه قاله الفراء والزجاج؛ وقيل: الذي أسروه أنهم لما سمعوا قول موسى ويلكم لا تفتروا على الله، قالوا: ما هذا بقول ساحر. والنجوى المناجاة يكون اسماً ومصدراً.

قرأ أبو عمرو **﴿إن هذين لساحران﴾** بتشديد الحرف الداخل على الجملة وبالياء في اسم الإشارة على إعمال إن عملها المعروف، وهو نصب الاسم ورفع الخبر، ورويت هذه القراءة عن عثمان، وعائشة وغيرهما من الصحابة، وبها قرأ الحسن، وسعيد بن جبير، والنخعي وغيرهم من التابعين، وبها قرأ عاصم الجحدري، وعيسى بن عمر كما حكاها النحاس، وهذه القراءة موافقة للإعراب الظاهر مخالفة لرسم المصحف فإنه مكتوب بالألف. وقرأ الزهري، والخليل بن أحمد، والمفضل، وأبان، وابن محيصن، وابن كثير، وعاصم في رواية حفص عنه (إن هذان) بتخفيف إن على أنها نافية، وهذه القراءة موافقة لرسم المصحف وللإعراب، وقرأ ابن كثير مثل قراءتهم إلا أنه يشدد النون من هذان. وقرأ المنينيون والكوفيون وابن عامر (إن هذان) بتشديد إن وبالألف، فوافقوا الرسم وخالفوا الإعراب الظاهر. وقد تكلم جماعة من أهل العلم في توجيه قراءة المنينيين والكوفيين وابن عامر، وقد استوفى نكر ذلك ابن الأنباري والنحاس، فقيل إنها لغة بني الحارث بن كعب، وختم وكثانة يجعلون رفع المثني ونصبه وجره بالألف، ومنه قول الشاعر:

فاطرق إطراق الشجاع ولو يرى مساعفاً لناباه الشجاع لصمما
وقول الآخر:

تزوّد منابيين أنناه ضربة

وقول الآخر:

إن أباهما وأبا أباهما قد بلغنا في المجد غايتها
ومما يؤيد هذا تصريح سيبويه، والأخفش، وأبي زيد، والكسائي، والفراء إن هذه القراءة على لغة بني الحارث بن كعب، وحكى أبو عبيدة عن أبي الخطاب أنها لغة بني كنانة، وحكى غيره أنها لغة خثعم، وقيل: إن إن بمعنى نعم ما هنا كما حكاها الكسائي عن عاصم، وكذا حكاها سيبويه. قال النحاس: رأيت الزجاج والأخفش يذهبان إليه، فيكون التقدير: نعم هذان لساحران، ومنه قول الشاعر:

ليت شعري هل للمحب شفاء من جوى حبهن إن اللقاء
أي: نعم اللقاء. قال الزجاج: والمعنى في الآية: أن هذا لهما ساحران، ثم حذف المبتدأ وهو هما، وانكره أبو علي الفارسي وأبو الفتح بن جني؛ وقيل: إن الألف في هذا مشبهة بالألف في يفعلان فلم تغير؛ وقيل: إن الهاء مقترنة أي: إنه هذان لساحران حكاها الزجاج عن قدماء النحويين، وكذا حكاها ابن الأنباري. وقال ابن كيسان: إنه لما كان يقال هذا بالألف في الرفع والنصب والجر على حال واحدة،

هارون على موسى في حكاية كلامهم رعاية لفواصل الآي وعناية بتوافق رؤوسها.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿فَيَسْحَتُكُمْ بِعَذَابٍ﴾ قال: يهلككم. أخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد عن قتادة ﴿فَيَسْحَتُكُمْ﴾ قال: يستأصلكم. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن أبي صالح قال: فيذبحكم. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن علي ﴿وَيَذْهَبُ بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾ قال: يصرفا وجوه الناس إليهما. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في الآية قال: يقول: أمثلكم، وهم بنو إسرائيل. وأخرج عبد بن حميد، وعبد الرزاق في قوله: ﴿تَلْقَفُ مَا يَصْنَعُونَ﴾ ما يافكون، عن قتادة قال: ألقاهما موسى فتحوّلت حية تاكل حبالهم وما صنعوا. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن عكرمة أن سحرة فرعون كانوا تسعمائة، فقالوا لفرعون: إن يكن هذان ساحران فإننا نغلبهما فإنه لا أسحر منا، وإن كانا من رب العالمين فإنه لا طاقة لنا برب العالمين، فلما كان من أمرهم أن خروا سجداً أراهم الله في سجودهم منازلهم التي إليها يصيرون فعندما ﴿قَالُوا لَنْ نُوْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ إلى قوله: ﴿وَاللهُ خَيْرُ وَابِقِي﴾.

قَالَ آمَنْتُمْ لَمْ قُلْ أَنْ مَادَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَأَصْلَبُكُمْ فِي جُدُوعِ النَّحْلِ وَلَنَقْلَنَّ إِنِّمَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴿٦١﴾ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقَاضِي هَذِهِ الْغَيْرَةَ الذَّنْبِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِنَقْتَرِ مَا خَطَبْنَا وَمَا أَكْرَهْنَا عَلَيْهِ مِنْ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿٦٣﴾ إِنَّهُمْ مِنْ يَأْتِ رَبَّهُمْ خَيْرًا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ لَئِنْ يَمُوتُوا فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴿٦٤﴾ وَكَانَ يَأْتِيهِمْ مُؤْتَاةً غَدِيرًا فَذَلِكِ الْغَدِيرُ لَأَمْلَأَنَّ مِنْهُ جَنَّتَ غَدِيرٍ نَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَلِيلِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴿٦٥﴾

قوله: ﴿قال آمنتم له﴾ يقال: آمن له وآمن به، فمن الأول قوله: ﴿فأمن له لوط﴾ [العنكبوت: 26]، ومن الثاني، قوله في الأعراف: ﴿آمنتم به قبل أن أنزل لكم﴾ [الأعراف: 123]. وقيل: إن الفعل هنا متضمن معنى الاتباع. وقرئ على الاستفهام التوبيخي أي: كيف آمنتم به من غير إذن مني لكم بذلك ﴿إنه لكبيركم الذي علمكم السحر﴾ أي: إن موسى لكبيركم أي: أسحركم وأعلامكم درجة في صناعة السحر، أو معلمكم وأستاذكم كما يدل عليه قوله: ﴿الذي علمكم السحر﴾ قال الكسائي: الصبي بالحجاز إذا جاء من عند معلمه قال: جئت من عند كبري. وقال محمد بن إسحاق: إنه لعظيم السحر. قال الواحدي: والكبير في اللغة الرئيس، ولهذا يقال للمعلم الكبير. أراد فرعون بهذا القول أن يسلخ الشبهة على الناس حتى لا يؤمنوا، وإلا فقد علم أنهم لم يتعلموا من موسى، ولا كان رئيساً لهم، ولا بينه وبينهم مواصلة ﴿فلاقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف﴾ أي: والله لأفعلن

لتكون معجزته أظهر إذا ألقوا هم ما معهم ثم يلقي هو عصاه فتبتلع ذلك، وإظهاراً لعدم المبالاة بسحروهم ﴿فإذا حبالهم وعصيتهم﴾ في الكلام حذف، والتقدير: فآلقوا فإذا حبالهم، والفاء فصيحة، وإذا للمفاجأة أو ظرفية. والمعنى: فآلقوا ففاجأ موسى وقت أن ﴿يخيل إليه﴾ سعي حبالهم وعصيتهم، وقرأ الحسن (عصيتهم) يضم العين وهي لغة بني تميم، وقرأ الباقون بكسرهما اتباعاً لكسرة الصاد، وقرأ ابن عباس، وابن نكوان، وروح، عن يعقوب (تخيل) بالمشثاء، لأن العصي والحبال مؤنثة، وذلك أنهم لطحوها بالزئبق، فلما أصابها حر الشمس ارتعشت واهتزت، وقرئ (نخيل) بالنون على أن الله سبحانه هو المخيل لذلك، وقرئ (يخيل) بالياء التحتية مبنياً للفاعل على أن المخيل هو الكيد، وقيل: المخيل هو أنها تسعى، فإن في موضع رفع أي: يخيل إليه سعيها، نكر معناه الزجاج. وقال الفراء: إنها في موضع نصب أي: بانها ثم حذف الباء. قال الزجاج: ومن قرأ بالتاء يعني: الفوقية جعل أن في موضع نصب أي: تخيل إليه ذات سعي. قال: ويجوز أن يكون في موضع رفع بدلاً من الضمير في تخيل، وهو عائد على الحبال والعصي، والبديل فيه بدل اشتمال، يقال: خيل إليه إذا شبه له وأدخل عليه البهمة والشبهة ﴿فأجوس في نفسه خيفة موسى﴾ أي: أحس؛ وقيل: وجد؛ وقيل: أضمر؛ وقيل: خاف، وذلك لما يعرض من الطباع البشرية عند مشاهدة ما يخشى منه؛ وقيل: خاف أن يفتتن الناس قبل أن يلقي عصاه؛ وقيل: إن سبب خوفه هو أن سحروهم كان من جنس ما أراهم في العصا، فخاف أن يلتبس أمره على الناس فلا يؤمنوا، فاذبح الله سبحانه ما حصل معه من الخوف بما بشره به بقوله: ﴿قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى﴾ أي: المستعلي عليهم بالظفر والغلبة، والجملة تعليل للنهي عن الخوف ﴿والق ما في يمينك﴾ يعني: العصا، وإنما أبهمها تعظيماً وتفخيماً، وجزم ﴿تلقف ما صنعوا﴾ على أنه جواب الأمر قرئ بتشديد القاف، والأصل تتلقف فحذف إحدى التاءين، وقرئ تلقف بكسر اللام من لقفه إذا ابتلعه بسرعة، وقرئ (تلقف) بالرفع على تقدير فإنها تتلقف، ومعنى ﴿ما صنعوا﴾ الذي صنعوه من الحبال والعصي. قال الزجاج: القراءة بالجزم جواب الأمر، ويجوز الرفع على معنى الحال. كأنه قال: ألقها متلقفة، وجملة ﴿إنما صنعوا كيد ساحر﴾ تعليل لقوله تلقف، وارتفاع كيد على أنه خبر لأن، وهي قراءة الكوفيين إلا عاصماً. وقرأ هؤلاء ﴿سحر﴾ بكسر السين وسكون الحاء، وإضافة الكيد إلى السحر على الاتساع من غير تقدير، أو بتقدير ذي سحر. وقرأ الباقون (كيد ساحر) ﴿ولا يفلح الساحر حيث أتى﴾ أي: لا يفلح جنس الساحر حيث أتى وابن توجه، وهذا من تمام التعليل ﴿فالقي السحرة سجداً﴾ أي: فالقي ذلك الأمر الذي شاهدوه من موسى والعصا السحرة سجداً لله تعالى، وقد مر تحقيق هذا في سورة الأعراف ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ إنما قدم

ألا من لنفس لا تموت فينقضى شقاها ولا تحيا حياة لها طعم وهذه الآية من جملة ما حكاها الله سبحانه من قول السحرة: وقيل: هو ابتداء كلام، والضمير في إنه على هذا الوجه للشأن ﴿ومن ياتنه مؤمناً قد عمل الصالحات﴾ أي: ومن يات ربه مصنفًا به قد عمل الصالحات أي: الطاعات، والموصوف محنوف، والتقدير الأعمال الصالحات، وجملة قد عمل في محل نصب على الحال وهكذا مؤمناً منتصب على الحال، والإشارة بـ ﴿هاولئك﴾ إلى من باعتبار معناه ﴿لهم الدرجات العلى﴾ أي: المنازل الرفيعة التي قصرت دونها الصفات ﴿جنان عدن﴾ بيان للدرجات أو بدل منها، والعن الإقامة وقد تقدم بيانه، وجملة ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾ حال من الجنات، لأنها مضافة إلى عدن، وعدن علم للإقامة كما سبق، وانتصاب ﴿خالدين فيها﴾ على الحال من ضمير الجماعة في لهم أي: ماكثين دائمين، ﴿و﴾ الإشارة بـ ﴿بذلك﴾ إلى ما تقدم لهم من الأجر، وهو مبتدأ، و ﴿جزاء من تركي﴾ خبره أي: جزاء من تطهر من الكفر والمعاصي الموجبة للنار.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وما أكرهتنا عليه من السحر﴾ قال: أخذ فرعون أربعين غلاماً من بني إسرائيل، فأمر أن يعلموا السحر بالقمر⁽¹⁾، قال: علموهم تعليماً لا يغلبهم أحد في الأرض. قال ابن عباس: فهم من الذين آمنوا بموسى، وهم الذين قالوا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي في قوله: ﴿والله خير وأبقي﴾ قال: خير منك إن أطيع وأبقي منك عذاباً إن عصى. وأخرج أحمد، ومسلم، وابن أبي حاتم، وابن مريويه عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ خطب فأتى على هذه الآية ﴿إنه من يات ربه مجرمًا فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى﴾ فقال رسول الله ﷺ: «أما أهلها الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، وأما الذين ليسوا بأهلها فإن النار تميتهم إماتة، ثم يقوم الشفعاء فيشفعون، فيؤتى بهم ضبائر على نهر يقال له: الحياة أو الحيوان، فينبتون كما ينبت الغطاء في حميل السيل». وأخرج أبو داود، وابن مريويه عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهل الدرجات العلى ليراهم من تحتهم كما ترون الكوكب الدرّي في أفق السماء، وإن أبا بكر وعمر منهم وأنعماء، وفي الصحيحين بلفظ: «إن أهل عليين ليرون من فوقهم كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء».

وَقَدْ أَرْحَيْتَ إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِرِبَادِي فَأَتْرِبَ لَمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ۖ فَاَتْبَعَهُمْ فَرَعُونَ بِحُيُورِهِمْ فَتَقَسَّيَهُمْ مِنْ أَيْتَمٍ مَّا عَشِيَهِمْ ۗ وَأَسْلَفَ فَرَعُونَ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ۖ يَنْبَغِي لِإِسْرَائِيلَ قَدْ أَفْجَيْتَكُم مِّنْ مَّدْرَكٍ ۚ وَعَدْنَكُمْ جَنَّةَ الْأَعْلَىٰ ۚ إِنَّكُم مِّنْ أَكْذِبِينَ ۚ وَتَزَلَّزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءُ وَالسَّلَوىٰ ۚ كُؤُوفًا

بكم ذلك، والتقطيع للأيدي والأرجل من خلاف هو قطع اليد اليمنى والرجل اليسرى، ومن للابتداء ﴿وواصلينكم في جنوع النخل﴾ أي: على جنوعها كقوله: ﴿إم لهم سلم يستمعون فيه﴾ [الطور: 38]. أي: عليه، ومنه قول سويد بن أبي كاهل:

هم صلبوا العبدى في جذع نخلة فلا عطست شيبان إلا بأجدعا وإنما أثر كلمة ﴿في﴾ للدلالة على استقرارهم عليها كاستقرار المظروف في الظرف ﴿ولتعلمن إينا أشد عذاباً وأبقي﴾ أراد لتعلمن هل أنا أشد عذاباً لكم أم موسى؟ ومعنى أبقي: أنوم، وهو يريد بكلامه هذا الاستهزاء بموسى، لأن موسى لم يكن من التعذيب في شيء، ويمكن أن يريد العذاب الذي توعدهم به موسى إن لم يؤمنوا، وقيل: أراد بموسى رب موسى على حذف المضاف ﴿قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات﴾ أي: لن نختارك على ما جاءنا به موسى من البينات الواضحة من عند الله سبحانه كاليد والعصا، وقيل: إنهم أرادوا بالبينات ما راوه في سجودهم من المنازل المعدة لهم في الجنة ﴿والذي فطرنا﴾ معطوف على ما جاءنا أي: لن نختارك على ما جاءنا به موسى من البينات وعلى الذي فطرنا أي: خلقنا، وقيل هو قسم أي: والله الذي فطرنا لن نؤثرك، أو لا نؤثرك، وهذان الوجهان في تفسير الآية نكرهما الفراء والزجاج ﴿فاقض ما أنت قاض﴾ هذا جواب منهم لفرعون لما قال لهم لا قطعن إلخ، والمعنى: فاصنع ما أنت صانع، واحكم ما أنت حاكم، والتقدير: ما أنت صانعه ﴿إنما تقضي هذه الحياة الدنيا﴾ أي: إنما سلطانتك علينا ونفوذ أمرك فينا في هذه الدنيا ولا سبيل لك علينا فيما بعدها، فاسم الإشارة في محل نصب على الظرفية أو على المفعولية وما كافة، وأجاز الفراء الرفع على أن تجعل ما بمعنى الذي أي: أن الذي تقضيه هذه الحياة الدنيا فقضاؤك وحكمك منحصر في ذلك ﴿إننا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا﴾ التي سلفت منا من الكفر وغيره ﴿وما أكرهتنا عليه من السحر﴾ معطوف على خطايانا أي: ويغفر لنا الذي أكرهتنا عليه من عمل السحر في معارضة موسى فما في محل نصب على المفعولية؛ وقيل: هي نافية، قال النحاس: والأول أولى. قيل: ويجوز أن يكون في محل رفع بالابتداء والخبر مقرر أي: وما أكرهتنا عليه من السحر موضوع عنا ﴿والله خير وأبقي﴾ أي: خير منك ثواباً وأبقي منك عقاباً، وهذا جواب قوله: ولتعلمن إينا أشد عذاباً وأبقي ﴿إنه من يات ربه مجرمًا فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى﴾ المجرم هو المتلبس بالكفر والمعاصي، ومعنى لا يموت فيها ولا يحيى أنه لا يموت فيستريح ولا يحيى حياة تنفعه. قال المبرد: لا يموت ميتة مريحة ولا يحيا حياة ممتعة، فهو يالم كما يالم الحي ويبلغ به حال الموت في المكروه إلا أنه لا يبطل فيها عن إحساس الألم، والعرب تقول: فلان لا حي ولا ميت إذا كان غير منتفع بحياته، وأنشد ابن الأنباري في مثل هذا:

(1) فرما: مدينة بقرى مصر - لسان العرب (ج 12 ص 453).

بعضه. فهذه العبارة للدلالة على أن الذي غرقهم بعض الماء، والاول أولى لما يدل عليه من التهويل والتعظيم. وقرئ فغشاهم من اليم ما غشاهم أي: غطاهم ما غطاهم ﴿واضل فرعون قومه وما هدى﴾ أي: أضلهم عن الرشده، وما هداهم إلى طريق النجاة لأنه قدر أن موسى ومن معه لا يفوتونه لكونهم بين يديه يمشون في طريق يابسة، وبين أيديهم البحر، وفي قوله: ﴿وما هدى﴾ تأكيد لإضلاله، لأن المضل قد يرشد من يضلّه في بعض الأمور ﴿يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم﴾ ذكر سبحانه ما أنعم به على بني إسرائيل بعد إنجائهم، والتقدير قلنا لهم بعد إنجائهم: يا بني إسرائيل، ويجوز أن يكون خطاباً لليهود المعاصرين لنبينا ﷺ لأن النعمة على الآباء معدودة من النعم على الأبناء، والمراد بعنودهم هنا: فرعون وجنوده، وذلك بإغراق قومه في البحر بمرأى من بني إسرائيل ﴿وواعظناكم جانب الطور الأيمن﴾ انتصاب جانب على أنه مفعول به، لا على الظرفية لأنه مكان معين غير مبهم، وإنما تنتصب الامكنة على الظرفية إذا كانت مبهمة. قال مكي: وهذا أصل لا خلاف فيه. قال النحاس: والمعنى أمرنا موسى أن يأمركم بالخروج معه لتكلمه بحضرتكم فتسمعوا الكلام، وقيل: وعد موسى بعد إغراق فرعون أن يأتي جانب الطور، فالوعد كان لموسى، وإنما خاطبوا به لأن الوعد كان لأجلهم. وقرأ أبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب (ووعظناكم) بغير ألف، واختاره أبو عبيدة، لأن الوعد إنما هو من الله لموسى خاصة والمواعدة لا تكون إلا من اثنين، وقد قدمنا في البقرة هذا المعنى، والأيمن منصوب على أنه صفة للجانب، والمراد: يمين الشخص، لأن الجبل ليس له يمين ولا شمال، فإذا قيل: خذ عن يمين الجبل بمعناه: عن يمينك من الجبل. وقرئ بجزر الأيمن على أنه صفة للمضاف إليه ﴿ونزلنا عليكم المن والسلوى﴾ قد تقدم تفسير المن بالترنجيبين والسلوى بالسماوي وأوضحنا ذلك بما لا مزيد عليه، وإنزال ذلك عليهم كان في التيه ﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ أي: وقلنا لهم كلوا والمراد بالطيبات: المستلذات؛ وقيل: الحلال على الخلاف المشهور في ذلك. وقرأ حمزة، والكسائي، والأعمش: قد أنجيتكم من عدوكم ووعظتكم جانب الطور كلوا من طيبات ما رزقتمكم بتاء المتكلم في الثلاثة. وقرأ الباقر بنون العظمة فيها ﴿ولا تطغوا فيه﴾ الطغيان التجاوز أي: لا تتجاوزوا ما هو جائز إلى ما لا يجوز؛ وقيل: المعنى لا تجحوا نعمة الله فتكونوا طائغين؛ وقيل: لا تكفروا النعمة ولا تنسوا شكرها، وقيل: لا تحصوا المنعم أي: لا تحملنكم السعة والعافية على المعصية، ولا مانع من حمل الطغيان على جميع هذه المعاني فإن كل واحد منها يصدق عليه أنه طغيان ﴿فيحل عليكم غضبي﴾ هذا جواب النهي أي: يلزمكم غضبي وينزل بكم، وهو مأخوذ من حلول الدين أي: حضور وقت أدائه ﴿ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى﴾ قرأ الأعمش ويحيى بن وثاب والكسائي (فيحل)

طَيْبَتَ مَا رَزَقْنَكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى ﴿١٠١﴾ وَإِنِّي لَأَنذَرُ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَآمَنَ مِلْحَمَاتٍ مِّنِّي ﴿١٠٢﴾ وَمَا أَعْجَلَكُ عَنْ قَوْلِكَ يُسْوِئُونَ ﴿١٠٣﴾ قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَعْيُنِي وَصَحَلَتْ لَكَ رَبِّ لِرَبِّ لِيَرْحَمَنِي ﴿١٠٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَسْلَمْنَا النَّامِرِيُّ ﴿١٠٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا قَالَ يَقُولُونَ لِمَ يَبْعَثُ رَبُّكُمْ وَعدًا حَسَنًا أَفَلَا عَلَىٰكُمْ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴿١٠٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا ثَوَاجِدًا مِّن رَّبِّنَا أَلَمْ نَقُولْ لَكَ الْإِنشَاءُ ﴿١٠٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ صِغْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِنَّهُ مُوسَىٰ فَنَاسَىٰ ﴿١٠٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُرْجَعُ إِلَيْهِمْ فَوْلا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ سَرٌّ وَلَا نَعَمٌ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلِ يَقُولُ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿١١٠﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَنكِيبَ حَتَّىٰ يُرْجَعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿١١١﴾

هذا شروع في إنجاء بني إسرائيل وإهلاك عدوهم، وقد تقدم في البقرة، وفي الأعراف، وفي يونس، واللام في لقد هي الموطئة للقسم، وفي ذلك من التأكيد ما لا يخفى، و ﴿أن﴾ في أن أسر بعبادي، إما المفسرة لأن في الوحي معنى القول، أو مصدرية أي: بأن أسر أي: أسر بهم من مصر. وقد تقدم هذا مستوفى ﴿فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً﴾ أي: اجعل لهم طريقاً، ومعنى يبساً: يابساً وصف به الفاعل مبالغة، وذلك أن الله تعالى أيبس لهم تلك الطريق حتى لم يكن فيها ماء ولا طين. وقرئ (يبساً) يسكون الباء على أنه مخفف من يبسا المحرك، أو وجمع يابس كصحب في صاحب، وجملة ﴿لا تخاف دركاً﴾ في محل نصب على الحال أي: أماناً من أن يدرككم العدو، أو صفة أخرى لطريق، والدرك اللحاق بهم من فرعون وجنوده. وقرأ حمزة (لا تخف) على أنه جواب الأمر، والتقدير: إن تضرب لا تخف، ولا تخشى على هذه القراءة مستأنف أي: ولا أنت تخشى من فرعون أو من البحر. وقرأ الجمهور (لا تخاف) وهي أرجح لعدم الجزم في تخشى، ويجوز أن تكون هذه الجملة على قراءة الجمهور صفة أخرى لطريق أي: لا تخاف منه ولا تخشى منه ﴿فاتبعهم فرعون بجنوده﴾ اتبع هنا مطاوع تبع، يقال: اتبعته إذا تبعته، وذلك إذا سبقك فلحقته، فالمعنى: تبعهم فرعون ومعه جنوده، وقيل: الباء زائدة والأصل اتبعهم جنوده أي: أمرهم أن يتبعوا موسى وقومه، وقرئ ﴿فاتبعهم﴾ بالتشديد أي: لحقهم بجنوده وهو معهم كما يقال: ركب الأمير بسيفه أي: معه سيفه، ومحل بجنوده النصب على الحال أي: سابقاً جنوده معه ﴿فغشيهم من اليم ما غشيهم﴾ أي: غلامهم وأصابهم ما غلامهم وأصابهم، والتكرير للتعظيم والتهويل كما في قوله: ﴿الحاقة﴾ ما الحاقة ﴿الحاقة: 1 - 2﴾. وقيل: غشيهم ما سمعت قصته. وقال ابن الأنباري: غشيهم البعض الذي غشيهم، لأنه لم يغشهم كل ماء البحر، بل الذي غشيهم

أسفاً قيل: وكان الرجوع إلى قومه بعد ما استوفى أربعين يوماً: ذا القعدة، وعشر ذي الحجة، والأسف الشديد الغضب؛ وقيل: الحزين، وقد مضى في الأعراف بيان هذا مستوفى **﴿قال يا قوم لم يعنكم ربكم وعداً حسناً﴾** الاستفهام للإنكار التوبيخي، والوعد الحسن وعدهم بالجنة إذا أقاموا على طاعته، ووعدهم أن يسمعهم كلامه في التوراة على لسان موسى ليعملوا بما فيها، فيستحقوا ثواب عملهم، وقيل: وعدهم النصر والظفر؛ وقيل هو قوله: **﴿واني لغفار لمن تاب﴾** الآية، **﴿اقطال عليكم العهد﴾** الفاء للعطف على مقتر أي: أو عنكم ذلك، فطال عليكم الزمان فنسيتم **﴿أم أريدكم أن يحلّ عليكم غضب من ربكم﴾** أي: يلزمكم وينزل بكم، والغضب: العقوبة والنقمة، والمعنى: أم أريدكم أن تفعلوا فعلاً يكون سبب حلول غضب الله عليكم **﴿فأخلفتم موعدي﴾** أي: موعنكم إياي، فالمصدر مضاف إلى المفعول، لأنهم وعدوه أن يقيموا على طاعة الله عز وجل إلى أن يرجع إليهم من الطور، وقيل: وعدوه أن يأتوا على أثره إلى الميقات، فتوقفوا فأجابوه، و **﴿قالوا ما أخلفنا موعدك﴾** الذي وعدناك **﴿بملكنا﴾** بفتح الميم، وهي قراءة نافع وأبي جعفر، وعاصم، وعيسى بن عمر، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بكسر الميم، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم لأنها على اللغة العالية الفصيحة، وهو مصدر ملكت الشيء أملكه ملكاً، والمصدر مضاف إلى الفاعل والمفعول محذوف أي: بملكنا أمورنا، أو بملكنا الصواب، بل أخطأنا ولم نملك أنفسنا وكنا مضطرين إلى الخطأ، وقرأ حمزة والكسائي (بملكنا) بضمّ الميم، والمعنى بسلطاننا أي: لم يكن لنا ملك فنخلف موعدك؛ وقيل: إنّ الفتح والكسر والضم في بملكنا كلها لغات في مصدر ملكت الشيء **﴿وولكنا حملنا أوزاراً من زينة القوم﴾** قرأنا نافع وابن كثير، وابن عامر، وحفص وأبو جعفر ورويس (حملنا) بضم الحاء وتشديد الميم، وقرأ الباقون بفتح الحاء والميم مخففة، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم لأنهم حملوا حلية القوم معهم باختيارهم، وما حملوها كرهاً، فإنهم كانوا استعاروها منهم حين أرادوا الخروج مع موسى، وأوهموهم أنهم يجتمعون في عيد لهم أو وليمة، وقيل: هو ما أخذوه من آل فرعون لما قنقهم البحر إلى الساحل، وسميت أوزاراً أي: آثاماً، لأنه لا يحلّ لهم أخذها، ولا تحلّ لهم الغنائم في شريعتهم والأوزار في الأصل: الأثقال كما صرح به أهل اللغة، والمراد بالزينة هنا: الحلي **﴿فقدفناها﴾** أي: طرحناها في النار طلباً للخلاص من إثمها، وقيل: المعنى طرحناها إلى السامريّ لتبقى لديه حتى يرجع موسى فيرى فيها رايه **﴿فكنكك القى السامري﴾** أي: فمثل ذلك القذف ألقاه السامريّ، قيل: إن السامريّ قال لهم حين استبطن القوم رجوع موسى: إنما احتبس عنكم لأجل ما عنديكم من الحليّ، فجمعوه وبفعوه إليه، فرمى به في النار وصاغ لهم منه عجلًا، ثم ألقى عليه قبضة من أثر الرسول وهو جبريل، فصار **﴿عجلًا جسداً**

بضم الحاء وكذلك قرعوا يحلل بضم اللام الأولى، وقرأ الباقون بالكسر فيهما وهما لغتان. قال الفراء: والكسر أحب إلي من الضم لأن الضم من الحلول بمعنى الوقوع، ويحل بالكسر يجب، وجاء التفسير بالجوب لا بالوقوع، ونكر نحو هذا أبو عبيدة وغيره. ومعنى **﴿فقد هوى﴾** فقد هلك. قال الزجاج **﴿فقد هوى﴾** أي: صار إلى الهلوة، وهي قعر النار من هوى يهوى هويًا أي: سقط من علو إلى سفلى، وهوى فلان أي: مات **﴿واني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً﴾** أي: لمن تاب من الذنوب التي أعظمها الشرك بالله، وآمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وعمل عملاً صالحاً مما ندب إليه الشرع وحسنه **﴿ثم اهتدي﴾** أي: استقام على ذلك حتى يموت كذا قال الزجاج وغيره؛ وقيل: لم يشك في إيمانه، وقيل: أقام على السنة والجماعة، وقيل: تعلم العلم ليهتدي به؛ وقيل: علم أن لذلك ثواباً وعلى تركه عقاباً، والأول أرجح مما بعده **﴿وما أعجلك عن قومك يا موسى﴾** هذا حكاية لما جرى بين الله سبحانه وبين موسى عند موافاته الميقات. قال المفسرون: وكانت المواعدة أن يوافي موسى وجماعة من وجوه قومه، فسار موسى بهم، ثم عجل من بينهم شوقاً إلى ربه، فقال الله له: ما أعجلك؟ أي: ما الذي حملك على العجلة، حتى تركت قومك وخرجت من بينهم، فاجاب موسى عن ذلك **﴿قال هم أولاء على أثري﴾** أي: هم بالقرب مني، تابعون لأثري واصلون بعدي؛ وقيل: لم يرد أنهم يسيرون خلفه، بل أراد أنهم بالقرب منه ينتظرون عوده إليهم، ثم قال مصرحاً بسبب ما سأل الله عنه فقال: **﴿وعجلت إليك رب لترضى﴾** أي: لترضى عني بمسارعتي إلى امتثال أمرك أو لتزداد رضا عني بذلك. قال أبو حاتم: قال عيسى بن عمر: بنو تميم يقولون: (أولاء) مقصورة، وأهل الحجاز يقولون (أولاء) ممدودة. وقرأ ابن أبي إسحاق، ونصر، ورويس عن يعقوب (على أثري) بكسر الهمزة وإسكان اللام، وقرأ الباقون بفتحها وهما لغتان. ومعنى عجلت إليك: عجلت إلى الموضوع الذي أمرتني بالمصير إليه لترضى عني، يقال: رجل عجل وعجول وعجلان: بين العجلة، والعجلة خلاف البطء، وجملة **﴿قال فإننا قد فتننا قومك من بعدك﴾** مستأنفة جواب سؤال مقتر، كأنه قيل فماذا قال الله له؟ فقيل: قال: إننا قد فتننا قومك من بعدك أي: ابتليناهم واختبرناهم والقيناهم في فتنة ومحنة. قال ابن الأنباري: صيرناهم مفتونين أشقياء بعبادة العجل من بعد انطلاقك من بينهم، وهم الذين خلفهم مع هارون **﴿وأضلهم السامري﴾** أي: دعاهم إلى الضلالة، وكان من قوم يعبدون البقر، فنخل في دين بني إسرائيل في الظاهر وفي قلبه ما فيه من عبادة البقر، وكان من قبيلة تعرف بالسامرة، وقال لمن معه من بني إسرائيل: إنما تخلف موسى عن الميعاد الذي بينكم وبينه لما صار معكم من الحليّ، وهي حرام عليكم وأمرهم بإلقائها في النار، فكان من أمر العجل ما كان **﴿فرجع موسى إلى قومه غضبان**

صالحاً قال: أدنى الفرائض **﴿ثم اهتدى﴾** قال: لم يشكك. وأخرج سعيد بن منصور، والفريابي عنه أيضاً **﴿وإني لغفار لمن تاب﴾** قال: من تاب من الذنب، وأمن من الشرك، وعمل صالحاً فيما بينه وبين ربه **﴿ثم اهتدى﴾** علم أن لعمله ثواباً يجزى عليه. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جببر **﴿ثم اهتدى﴾** قال: ثم استقام لزم السنة والجماعة. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، والبيهقي في البعث من طريق عمرو بن ميمون عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: تعجل موسى إلى ربه، فقال الله: **﴿وما أعجلك عن قومك يا موسى﴾** الآية، قال: فرأى في ظل العرش رجلاً فعجب له، فقال: من هذا يا رب؟ قال: لا أحدثك من هو، لكن سأخبرك بثلاث فيه: كان لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله، ولا يقرّ والديه، ولا يمشي بالنعيم. وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن عليّ قال: لما تعجل موسى إلى ربه عمد السامريّ فجمع ما قدر عليه من حلّي بني إسرائيل فضربه عجلًا، ثم ألقي القبض في جوفه فإذا هو عجل جسد له خوار، فقال لهم السامريّ: هذا إلهكم وإله موسى، فقال لهم هارون: يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً، فلما أن رجع موسى أخذ برأس أخيه، فقال له هارون ما قال، فقال موسى للسامريّ: ما خطبك؟ قال: **﴿قبضت قبضة من اثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لي نفسي﴾** فعمد موسى إلى العجل، فوضع موسى عليه المبارد فبرده بها وهو على شط نهر فما شرب أحد من ذلك الماء ممن كان يعبد ذلك العجل إلا اصفرّ وجهه مثل الذهب، فقالوا لموسى: ما توبتنا؟ قال: يقتل بعضكم بعضاً، فأخنوا السكاكين فجعل الرجل يقتل أخاه وأباه وابنه ولا يبالي بمن قتل حتى قتل منهم سبعون ألفاً، فأوحى الله إلى موسى مرهم فليرفعوا أيديهم، فقد غفرت لمن قتل وتبت على من بقي، والحكايات لهذه القصة كثيرة جداً. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **﴿بملكنا﴾** قال: بأمرنا. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر عن قتادة **﴿بملكنا﴾** قال: بطاقتنا. وأخرج ابن أبي حاتم عن السديّ مثله. وأخرج أيضاً عن الحسن قال: بسلطاننا. وأخرج الفريابي وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **﴿هذا إلهكم وإله موسى فنسي﴾** قال: فنسي موسى أن ينكر لكم أن هذا إلهه.

قَالَ يَهْرُونَ مَا مَلَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ مُلُوكًا ۖ أَلَا تَتَّبِعُونَ أَفَصَبِتَ أَتَرَى ۚ
 ١٧ قَالَ يَنْبَغُ لَّا تَأْخُذَ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ
 بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْفَعْ قَوْلِي ۚ قَالَ مَا خَطْبُكَ يٰسَمِيرِيُّ ۚ قَالَ
 بَعَثْتُ بِمَا لَمْ يَنْصُرُوا يَوْمَ فَتَنَّاكَ فَزَعَةً مِّنْ أَثَرِ الرُّسُولِ فَجَبَدْتُهَا
 وَكَذَّبْتُكُمْ لِي نَفْسِي ۚ فَكَاذِبٌ فَارْتَدَّ لَكَ فِي الْحَيَوةِ أَن تَقُولَ
 لَا يَسَاسَ وَلَئِن لَّا مَوْعِدًا لَّنْ تَحْقُقَنَّ إِنَّا نُنْصِرُكَ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلَمْتَ عَلَيْهِ
 عَاكِفًا لَّنَحْرَقَنَّهُ فَنُؤْتِيَنَّكَ فِي آيَاتِنَا سَبْعًا ۚ إِنَّكَ إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي

له خوار ۖ أي: يخور كما يخور الحي من العجول، والخوار صوت البقر، وقيل: خواره كان بالريح، لأنه كان عمل فيه خروقاً. فإذا دخلت الريح في جوفه خار ولم يكن فيه حياة، **﴿فقالوا هذا إلهكم وإله موسى﴾** أي: قال السامريّ ومن وافقه هذه المقالة **﴿فنسي﴾** أي: فضل موسى ولم يعلم مكان إلهه هذا، وذهب يطلبه في الطور، وقيل: المعنى فنسي موسى أن ينكر لكم أن هذا إلهه وإلهكم، وقيل: الناسي هو السامريّ أي: ترك السامريّ ما أمر به موسى من الإيمان وضلّ، كذا قال ابن الأعرابي **﴿أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا﴾** أي: أفلا يعتبرون ويفكرون في أن هذا العجل لا يرجع إليهم قولا أي: لا يردّ عليهم جواباً، ولا يكلمهم إذا كلموه، فكيف يتوهمون أنه إله وهو عاجز عن المكالمة، فإن في «ألا يرجع» هي المخففة من الثقلية، وفيها ضمير مقتر يرجع إلى العجل، ولهذا ارتفع الفعل بعدها، ومنه قول الشاعر:

في فتية من سيوف الهند قد علموا أن هالك كل من يحفى وينتعل
 أي: أنه هالك. وقرئ بنصب الفعل على أنها الناصبة، وجملة **﴿ولا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً﴾** معطوفة على جملة لا يرجع أي: أفلا يرون أنه لا يقدر على أن يدفع عنهم ضرراً ولا يجلب إليهم نفعاً **﴿ولقد قال لهم هارون من قبل﴾** اللام هي الموطئة للقسم والجملة مؤكدة لما تضمنته الجملة التي قبلها من الإنكار عليهم والتوبيخ لهم أي: ولقد قال لهم هارون من قبل أن يأتي موسى ويرجع إليهم **﴿يا قوم إنما فتنتم به﴾** أي: وقعت في الفتنة بسبب العجل وابتليتم به وضللت عن طريق الحق لأجله، قيل: ومعنى القصر المستفاد من إنما هو أن العجل صار سبباً لفتنتهم لا لرشادهم وليس معناه أنهم فتنوا بالعجل لا بغيره **﴿وإن ربكم للرحمن فاتبعوني واطيعوا أمري﴾** أي: ربكم الرحمن لا العجل، فاتبعوني في أمري لكم بعبادة الله، ولا تتبعوا السامريّ في أمره لكم بعبادة العجل، واطيعوا أمري لا أمره **﴿قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى﴾** أجابوا هارون عن قوله المتقدم بهذا الجواب المتضمن لعصيان، وعدم قبول ما ندعاهم إليه من الخير وحذرهم عنه من الشرّ أي: لن نزال مقيمين على عبادة هذا العجل، حتى يرجع إلينا موسى، فينظر هل يقرّرنا على عبادته أو ينهانا عنها، فعند ذلك اعتزلهم هارون في اثني عشر ألفاً من المنكرين لما فعله السامريّ.

وقد أخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب في قوله: **﴿يبسا﴾** قال: يابساً ليس فيه ماء ولا طين. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس **﴿ولا تخاف دركا﴾** من آل فرعون **﴿ولا تخشى﴾** من البحر غرقاً. وأخرجاً عنه أيضاً في قوله: **﴿فقد هوى﴾** شقي. وأخرجاً عنه أيضاً **﴿وإني لغفار لمن تاب﴾** قال: من الشرك **﴿وآمن﴾** قال: وحده الله **﴿وعمل**

لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رِيعَ كُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿١٤٢﴾ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴿١٤٣﴾ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ﴿١٤٤﴾ خَلِيلِينَ فِيهِمْ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا ﴿١٤٥﴾

جملة: ﴿قال يا هارون﴾ مستأنفة جواب سؤال مقتر، والمعنى: أن موسى لما وصل إليهم أخذ بشعور رأس أخيه هارون وبليحيته وقال: ﴿ما منعك﴾ من اتباعي وللحق بي عند أن وقعوا في هذه الضلالة وبخلوا في الفتنة، وقيل: معنى ﴿ما منعك أن لا تتبعني﴾ ما منعك من اتباعي في الإنكار عليهم؛ وقيل: معناه هلا قاتلتهم إذ قد علمت أنني لو كنت بينهم لقاتلتهم؛ وقيل: معناه هلا فارقتهم، ولا في ﴿أن لا تتبعني﴾ زائدة، وهو في محل نصب على أنه مفعول ثانٍ لمنع أي: أي شيء منعك حين رؤيتك لضلالهم من اتباعي، والاستهتام في ﴿افحصيت أمري﴾ للإنكار والتوبيخ، والفاء للعطف على مقتر كنظائره، والمعنى: كيف خالفت أمري لك بالقيام لله ومناذرة من خالف دينه وأقامت بين هؤلاء الذين اتخذوا العجل إلهاً، وقيل: المراد بقوله أمري هو قوله الذي حكى الله عنه: ﴿وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين﴾ [الأعراف: 142]. فلما أقام معهم ولم يبلغ في الإنكار عليهم نسبه إلى عصيانه ﴿قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا براسي﴾ قرئ بالفتح والكسر للميم، وقد تقدم الكلام على هذا في سورة الأعراف، ونسبه إلى الأم مع كونه أخاه لأبيه وأمه عند الجمهور استعطاقاً له وترقيقاً لقلبه، ومعنى ﴿ولا براسي﴾ ولا بشعر راسي أي: لا تفعل هذا بي عقوبة منك لي، فإن لي عنراً هو ﴿إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل﴾ أي: خشيت أن خرجت عنهم وتركتهم أن يتفرقوا فتقول إني فرقت جماعتهم وذلك لأن هارون لو خرج لاتبعه جماعة منهم وتخلف مع السامري عند العجل آخرون، وربما أقضى ذلك إلى القتال بينهم، ومعنى ﴿ولم ترقب قولي﴾ ولم تعمل بوصيتي لك فيهم، إني خشيت أن تقول فرقت بينهم وتقول لم تعمل بوصيتي لك فيهم وتحفظها، ومراده بوصية موسى له هو قوله: ﴿اخلفني في قومي وأصلح﴾ [الأعراف: 142]. قال أبو عبيد: معنى ﴿ولم ترقب قولي﴾ ولم تنتظر عهدي وقنومي لأنك امرتني أن أكون معهم، فاعتذر هارون إلى موسى ما هنا بهذا، واعتذر إليه في الأعراف بما حكاه الله عنه هناك حيث قال: ﴿إن القوم استضعفوني وكابوا يقتلونني﴾ [الأعراف: 150]. ثم ترك موسى الكلام مع أخيه وخطب السامري فـ ﴿قال فما خطبك يا سامري﴾ أي ما شأنك وما الذي حملك على ما صنعت ﴿قال بصرت بما لم يبصروا به﴾ أي: قال السامري مجيباً على موسى: رأيت ما لم يروا أو علمت بما لم يعلموا وفطنت لما لم يفتنوا له، وأراد بذلك أنه رأى جبريل على فرس الحياة فالقى في ذهنه أن يقبض قبضة من أثر الرسول، وإن ذلك الأثر لا يقع على جماد إلا صار

حياً. وقرأ حمزة، والكسائي، والأعمش، وخلف (ما لم تبصروا به) بالمشناة من فوق على الخطاب، وقرأ الباقون بالتحنية، وهي أولى، لأنه يبعد كل البعد أن يخاطب موسى بذلك ويدعي لنفسه أنه علم ما لم يعلم به موسى، وقرئ بضم الصاد فيهما وبكسرهما في الأول وفتحها في الثاني، وقرأ أبي بن كعب، وابن مسعود، والحسن، وقتادة (فقبضت قبضة) بالصاد المهملة فيهما، وقرأ الباقون بالصاد المعجمة فيهما، والفرق بينهما أن القبض بالمعجمة هو الأخذ بجميع الكف، وبالمهملة بأطراف الأصابع، والقبضة بضم القاف: القدر المقبوض. قال الجوهري: هي ما قبضت عليه من شيء، قال: وربما جاء بالفتح، المرة من القبض، ثم أطلقت على المقبوض وهو معنى القبضة بضم القاف، ومعنى ﴿من أثر الرسول﴾ من المحل الذي وقع عليه حافر فرس جبريل، ومعنى ﴿فتبينتها﴾ فطرحتها في الحلي المذابة المسبوكة على صورة العجل ﴿وكذلك سؤلت لي نفسي﴾ قال الأخفش أي: زينت أي: ومثل ذلك التسويل سؤلت لي نفسي، وقيل: معنى سؤلت لي نفسي: حنننتني نفسي، فلما سمع موسى منه ذلك ﴿قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس﴾ أي: فاذهب من بيننا وأخرج عنا فإن لك في الحياة أي: ما دمت حياً، وأطول حياتك أن تقول لا مساس، المساس مأخوذ من المماساة أي: لا يمسك أحد ولا تمس أحد، لكن لا بحسب الاختيار منك، بل بموجب الاضطراب الملجئ إلى ذلك، لأن الله سبحانه أمر موسى أن ينفي السامري عن قومه، وأمر بني إسرائيل أن لا يخالطوه ولا يقربوه ولا يكلموه عقوبة له. قيل: إنه لما قال له موسى ذلك هرب، فجعل يهيم في البرية مع السباع والوحش لا يجد أحداً من الناس يمسه حتى صار كمن يقول لا مساس لبعده عن الناس وبعد الناس عنه، كما قال الشاعر:

حمل رايت بها قناعاً عسا حتى تقول الأزد لا مساسا
قال سيبيويه: وهو مبني على الكسر. قال الزجاج: كسرت السين لأن الكسرة من علامة التانيث. قال الجوهري في الصحاح: وأما قول العرب لا مساس مثل قطام فإنما مبني على الكسر لأنه معول عن المصدر، وهو المس. قال النحاس: وسمعت علي بن سليمان يقول: سمعت محمد بن يزيد المبرد يقول: إذا اعتل الشيء من ثلاث جهات وجب أن يبني، وإذا اعتل من جهتين وجب أن لا ينصرف، لأنه ليس بعد الصرف إلا البناء، فمساس يراك اعتل من ثلاث جهات: منها أنه معول، ومنها أنه مؤنث، ومنها أنه معرفة، فلما وجب البناء فيه وكانت الألف قبل السين ساكنة كسرت السين لالتقاء الساكنين. وقد رأيت أبا إسحاق يعني: الزجاج ذهب إلى أن هذا القول خطأ والغزم أبا العباس إذا سميت امرأة بفرعون أن يبنيه وهذا لا يقوله أحد. وقد قرأ بفتح الميم أبو حيوة والباقيون بكسرهما. وحاصل ما قيل في معنى لا مساس ثلاثة أوجه: الأول: أنه حرّم عليه مماسة الناس،

أنها نعت لمصدر محذوف أي: كما قصصنا عليك خبر موسى كذلك نقص عليك **﴿من أنباء ما قد سبق﴾** أي: من أخبار الحوادث الماضية في الأمم الخالية لتكون تسلية لك ودلالة على صدقك، ومن للتبعيض أي: بعض أخبار ذلك **﴿وقد أتيناك من لدنا ذكراً﴾** المراد بالذكر: القرآن، وسمي ذكراً لما فيه من الموجبات للذكر والاعتبار، وقيل: المراد بالذكر الشرف كقوله: **﴿وإنه لذكر لك ولقومك﴾** [الزخرف: 44]. ثم تودع سبحانه المعرضين على هذا الذكر فقال: **﴿من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزراً﴾** أي: أعرض عنه فلم يؤمن به ولا عمل بما فيه؛ وقيل: أعرض عن الله سبحانه، فإن المعرض عنه يحمل يوم القيامة وزراً أي: إثمًا عظيمًا وعقوبة ثقيلة بسبب إعراضه **﴿خالدين فيه﴾** أي في الوزر، والمعنى: أنهم يقيمون في جزائه، وانتصاب خالدين على الحال **﴿وساء لهم يوم القيامة حملًا﴾** أي: بئس الحمل يوم القيامة، والمخصوص بالذم محذوف أي: ساء لهم حملًا وزرهم، واللام للبيان كما في هيت لك.

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله: **﴿يا هارون ما منعك﴾** إلى قوله: **﴿أفقصيت أمري﴾** قال: أمره موسى أن يصلح ولا يتبع سبيل المفسدين. فكان من إصلاحه أن ينكر العجل. وأخرج عنه أيضاً في قوله: **﴿ولم ترقب قلبي﴾** قال: لم تنتظر قلبي ما أنا صانع، وقال ابن عباس: لم ترقب لم تحفظ قلبي. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: **﴿وإن لك في الحياة أن تقول لا مساس﴾** قال: عقوبة له **﴿وإن لك موعداً لن تخلفه﴾** قال: لن تغيب عنه. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **﴿وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفاً﴾** قال: أمت **﴿لنحرقنه﴾** قال: بالنار **﴿ثم لننسفنه في اليوم﴾** قال: لنذريه في البحر. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه كان يقرأ **﴿لنحرقنه﴾** خفيفة ويقول: إن الذهب والفضة لا تحرق بالنار، بل تسحل بالمبرد ثم تلقى على النار فتصير رماداً. وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال: **﴿اليوم﴾** البحر. وأخرج أيضاً عن علي قال: **﴿اليوم﴾** النهر. وأخرج أيضاً عن قتادة في قوله: **﴿وسع كل شيء علماً﴾** قال: ملا. وأخرج أيضاً عن ابن زيد في قوله: **﴿من لدنا ذكراً﴾** قال: القرآن. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد **﴿وزراً﴾** قال: إثمًا. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **﴿وساء لهم يوم القيامة حملًا﴾** يقول: بئس ما حملوا.

يَوْمَ يَنْفُخُ فِي الصُّورِ وَنَحْنُ الْمُنْجِبِينَ يَوْمَئِذٍ رَفَعًا ۚ يَخْضَعُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَيْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ۚ مَنِ احْتَمَىٰ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَيْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ۚ وَنَسُوتُكَ عَنِ الْبَلَاءِ فَقُلْ يَنْسِفُ رَبِّي سَمًا ۖ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَنْعًا ۚ لَا تَرَىٰ فِيهَا عِصْيًا وَلَا أُصْنًا ۚ يَوْمَئِذٍ يُبْعَثُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُمْ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا سَمْعَ وَلَا هَمًّا ۚ يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ

وكان إذا ماسه أحد حمّ الملس والممسوس، فلذلك كان يصيح إذا رأى أحداً لا مساس. والثاني: أن المراد منع الناس من مخالطته، واعترض بأن الرجل إذا صار مهجوراً فلا يقول هو لا مساس، وإنما يقال له، وأجيب بأن المراد الحكاية أي: أجعلك يا سامري بحيث إذا أخبرت عن حالك قلت لا مساس. والقول الثالث: أن المراد انقطاع نسله، وأن يخبر بأنه لا يتمكن من ملامسة المرأة قاله أبو مسلم وهو ضعيف جداً. ثم نكر حاله في الآخرة فقال: **﴿وإن لك موعداً لن تخلفه﴾** أي: لن يخلفك الله ذلك الموعد، وهو يوم القيامة، والموعد مصدر أي: إن لك وعداً لعذابك، وهو كائن لا محالة، قال الزجاج أي: يكافئك الله على ما فعلت في القيامة والله لا يخلف الميعاد. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو، ويعقوب، وابن محيصن، واليزيدي، والحسن لن تخلفه بكسر اللام، وله على هذه القراءة معنيان: أحدهما ستأتيه وإن تجده مخلفاً كما تقول أحملتني أي: وجنته محموداً. والثاني على التهديد أي: لا بد لك من أن تصير إليه. وقرأ ابن مسعود (لن نخلفه) بالنون أي: لن يخلفه الله. وقرأ الباقر بفتح اللام، وبالفوقية مبنياً للمفعول، معناه ما قدمناه **﴿وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفاً﴾** ظلت أصله ظلمت فحذفت اللام الأولى تخفيفاً، والعرب تفعل ذلك كثيراً. وقرأ الأعمش بلامين على الأصل. وفي قراءة ابن مسعود (ظلت) بكسر الظاء. والمعنى: انظر إلى إلهك الذي بمت وأقمت على عبادته، والعاكف الملازم **﴿لنحرقنه﴾** قرأ الجمهور بضم النون وتشديد الراء من حرّقه يحرقه. وقرأ الحسن بضم النون وسكون الحاء وتخفيف الراء من أحرّقه يحرقه. وقرأ علي، وابن عباس، وأبو جعفر، وابن محيصن، وأشب، والعقيلي (لنحرقنه) بفتح النون وضم الراء مخففة من حرقت الشيء أحرّقه حرقاً إذا برسته وحككت بعضه ببعض أي: لنذريه بالمبارد، ويقال للمبرد: المحرق. والقراءة الأولى أولى، ومعناها الإحراق بالنار، وكذا معنى القراءة الثانية، وقد جمع بين هذه الثلاث القراءات بأنه أحرّق، ثم برد بالمبرد، وفي قراءة ابن مسعود (لننبحنه) ثم لنحرقنه، واللام هي الموطئة للقسام **﴿ثم لننسفنه في اليوم نسفاً﴾** النسف نفذ الشيء ليذهب به الريح. قرأ أبو رجا (لننسفنه) بضم السين، وقرأ الباقر بكسرها، وهما لغتان. والمنسف ما ينسف به الطعام، وهو شيء منصوب الصدر أعلاه مرتفع، والنسافة ما يسقط منه **﴿إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو﴾** لا هذا العجل الذي فتنتم به السامري **﴿وسع كل شيء علماً﴾** قرأ الجمهور وسع بكسر السين مخففة. وهو متعد إلى مفعول واحد، وهو كل شيء، وانتصاب علماً على التمييز المحوّل عن الفاعل أي: وسع علمه كل شيء. وقرأ مجاهد وقاتة وسع بتشديد السين وفتحها فيتعدى إلى مفعولين، ويكون انتصاب علماً على أنه المفعول الأول وإن كان متأخراً، لأنه في الأصل فاعل، والتقدير: وسع علمه كل شيء، وقد مرّ نحو هذا في الأعراف **﴿كذلك نقص عليك﴾** الكاف في محل نصب على

الشَّمْعَةُ إِلَّا مَنْ أَدْنَىٰ لَهُ الرَّمَنُ وَرَفَعَهُ لَمْ يَلَا مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ. عَلَّمَ ۞ وَعَنَتِ الزُّجُجُ لِأَيِّ الْقُبُورِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ۞ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْتِرٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا ضَعْفًا ۞

الظرف وهو «يوم ينفخ» متعلق بمقدر هو انكر؛ وقيل: هو بدل من يوم القيامة، والأول أولى. قرأ الجمهور (ينفخ) بضم الياء التحتية مبنياً للمفعول، وقرأ أبو عمرو وابن أبي إسحاق بالنون مبنياً للفاعل، واستدل أبو عمرو على قراءته هذه بقوله: (ونحشر) فإنه بالنون. وقرأ ابن هرمز (ينفخ) بالتحية مبنياً للفاعل على أن الفاعل هو الله سبحانه أو إسرافيل، وقرأ أبو عياض (في الصور) بفتح الواو جمع صورة، وقرأ الباقون بسكون الواو. وقرأ طلحة بن مصرف والحسن «ينحشر» بالياء التحتية مبنياً للمفعول ورفع (المجرمين) وهو خلاف رسم المصحف وقرأ الباقون بالنون، وقد سبق تفسير هذا في الأنعام، والمراد بالمجرمين المشركون والعصاة المأخوذون بذنوبهم التي لم يغفرها الله لهم، والمراد بـ «يومئذٍ» يوم النفخ في الصور، وانتصاب زرقاً على الحال من المجرمين أي: زرق العين، والزرقه الخضرة في العين كعين السنور والعرب تتشام بزرقه العين، وقال الفراء: زرقاً أي: عمياء. وقال الأزهري: عطاشاً، وهو قول الزجاج لأن سواد العين يتغير بالعطش إلى الزرقه، وقيل إنه كني بقوله زرقاً عن الطمع الكاذب إذا تعقبته الخيبة؛ وقيل: هو كناية عن شحوص البصر من شدة الحوص، ومنه قول الشاعر:

لقد زرت عينك يا بن معكير كما كل شبي من اللؤم لزرق
والقول الأول أولى، والجمع بين هذه الآية وبين قوله: «ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً» [الإسراء: 97]. ما قيل من أن ليوم القيامة حالات ومواطن تختلف فيها صفاتهم ويتنوع عندها عذابهم، وجملة «يتخافتون بينهم» في محل نصب على الحال، أو مستأنفة لبيان ما هم فيه في ذلك اليوم، والخفت في اللغة السكون، ثم قيل لمن خفض صوته: خفته. والمعنى يتساررون أي: يقول بعضهم لبعض سراً «إن لبئتم إلا عشراً» أي: ما لبئتم في الدنيا إلا عشر ليالٍ؛ وقيل: في القبور، وقيل: بين النفختين. والمعنى: أنهم يستقصرون مدة مقامهم في الدنيا، أو في القبور، أو بين النفختين لشدة ما يرون من أهوال القيامة؛ وقيل: المراد بال عشر عشر ساعات، ثم لما قالوا هذا القول قال الله سبحانه: «نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة» أي: أعلمهم قولاً وأكملهم رأياً وأعلمهم عند نفسه «إن لبئتم إلا يوماً» أي: ما لبئتم إلا يوماً واحداً، ونسبة هذا القول إلى أمثلهم، لكونه أدل على شدة الهول، لا لكونه أقرب إلى الصديق «ويسألونك عن الجبال» أي: عن حال الجبال يوم القيامة، وقد كانوا سألوا النبي ﷺ عن ذلك، فأمره الله سبحانه أن يجيب عنهم فقال:

«فقل ينسفها ربي نسفاً» قال ابن الأعرابي وغيره: يقلعها قلعاً من أصولها، ثم يصيرها رملاً يسيل سيلاً، ثم يسيرها كالصوف المنفوش تطيرها الرياح هكذا وهكذا، ثم كالبهاء المنثور. والفاء في قوله: «فقل» الجواب شرط مقدر، والتقدير: إن سألك فقل، أو للمسارعة إلى إلزام السائلين، والضمير في قوله: «فيذرها» راجع إلى الجبال باعتبار مواضعها أي: فيذر مواضعها بعد نسف ما كان عليها من الجبال «قاعاً صاففاً» قال ابن الأعرابي: القاع الصفصف الأرض الملساء بلا نبات ولا بناء، وقال الفراء: القاع مستنقع الماء، والصفصف القرعاء الملساء التي لا نبات فيها. وقال الجوهري: القاع المستوي من الأرض، والجمع أقوع وأقواء وقيعان. والظاهر من لغة العرب أن القاع الموضع المنكشف، والصفصف المستوي الأملس، وأنشد سيبويه:

وكم لئن بيتك من صفصف وبكداك رمل وأعقادها
وانتصاب قاعاً على أنه مفعول ثانٍ ليزر على تضمينه معنى التصيير، أو على الحال، والصفصف صفة له، ومحل «لا ترى فيها عوجاً» النصب على أنه صفة ثانية لقاعاً، والضمير راجع إلى الجبال بذلك الاعتبار، والعوج بكسر العين التعوج، قاله ابن الأعرابي. والامت التلال الصغار، والامت في اللغة المكان المرتفع، وقيل: العوج الميل والامت الأثر مثل الشراك؛ وقيل: العوج الوادي، والامت الرابية، وقيل: هما الارتفاع، وقيل: العوج الصدوع، والامت الأكمة؛ وقيل: الامت الشقوق في الأرض؛ وقيل: الامت أن يغلظ في مكان وينق في مكان. ووصف مواضع الجبال بالعوج بكسر العين ها هنا ينفذ ما يقال: إن العوج يكسر العين في المعاني ويفتحها في الأعيان، وقد تكلف لذلك صاحب الكشف في هذا الموضع بما عنه غني، وفي غيره سعة «يومئذٍ يتبعون الداعي لا عوج له» أي: يوم نسف الجبال يتبع الناس داعي الله إلى المحشر. وقال الفراء: يعني صوت المحشر؛ وقيل: الداعي هو إسرافيل إذا نفخ في الصور لا عوج له أي: لا معدل لهم عن دعوته فلا يقدرين على أن يزيغوا عنه، أو ينحرفوا منه بل يسرعون إليه كذا قال أكثر المفسرين؛ وقيل لا عوج لدعائه «وخشعت الأصوات للرحمن» أي: خضعت لهيبته؛ وقيل ذلت؛ وقيل: سكنت، ومنه قول الشاعر:

لما أتى خبر الزبير تواضعت سور المدينة والجبال الخشع
«فلا تسمع إلا همساً» الهمس الصوت الخفي. قال أكثر المفسرين: هو صوت نقل الأقدام إلى المحشر، ومنه قول

الشاعر:

وهن يمشين بنا هميسا

يعني صوت أخفاف الإبل.

وقال رؤية يصف نفسه:

ليث يبق الأسد الهموسا ولا يهاب الفيل والجاموسا
يقال للأسد الهموس، لأنه يهمس في الظلمة أي: يطأ وطناً خفياً. والظاهر أن المراد هنا كل صوت خفي سواء كان

بالقدم، أو من الفم، أو غير ذلك، ويؤيده قراءة أبي بن كعب (فلا ينطقون إلا همساً) «يومئذ لا تنفع الشفاعة» أي: يوم يقع ما نكر لا تنفع الشفاعة من شافع كائنًا من كان «إلا من أذن له الرحمن» أي: إلا شفاعة من أذن له الرحمن أن يشفع له «ورضي له قولاً» أي: رضي قوله في الشفاعة أو رضي لأجله قول الشافع. والمعنى: إنما تنفع الشفاعة لمن أذن له الرحمن في أن يشفع له، وكان له قول يرضي، ومثل هذه الآية قوله: «لا يشفعون إلا لمن ارتضى» [الأنبياء: 28]. وقوله: «لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً» [مريم: 87]. وقوله: «فما تنفعهم شفاعة الشافعين» [المنثر: 48]. «يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم» أي: ما بين أيديهم من أمر الساعة، وما خلفهم من أمر الدنيا، والمراد هنا: جميع الخلق؛ وقيل: المراد بهم الذين يتبعون الداعي، وقال ابن جرير: الضمير يرجع إلى الملائكة، أعلم الله من يعبدونها أنها لا تعلم ما بين أيديها وما خلفها «ولا يحيطون به علماً» أي: بالله سبحانه، لا تحيط علومهم بذاته، ولا بصفاته، ولا بمعلوماته؛ وقيل: الضمير راجع إلى ما في الموضوعين فإنهم لا يعلمون جميع ذلك «ووعنت الوجوه للحي القيوم» أي: نلت وخضعت، قاله ابن الأعرابي. قال الزجاج: معنى عنت في اللغة: خضعت، يقال: عنى يعنو عنوا إذا خضع. ومنه قيل للأسير: عان، ومنه قول أمية بن أبي الصلت:

ملك على عرش السماء مهيم
لعرته تعنو الوجوه وتسجد

وقيل: هو من العناء، بمعنى التعب «وقد خاب من حمل ظلماً» أي: خسر من حمل شيئاً من الظلم؛ وقيل: هو الشرك «ومن يعمل من الصالحات» أي: الأعمال الصالحة «وهو مؤمن» بالله، لأن العمل لا يقبل من غير إيمان، بل هو شرط في القبول «فلا يخاف ظلماً» يصاب به من نقص ثواب في الآخرة «ولا هضماً» الهضم النقص والكسر يقال هضمت لك من حقي أي: حططته وتركته، وهذا بهضم الطعام أي: ينقص ثقله، وامرأة هضيم الكشح أي: ضامرة البطن، وقرأ ابن كثير ومجاهد لا يخف بالجزم جواباً لقوله: (ومن يعمل من الصالحات) وقرأ الباقون (يخاف) على الخبر.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أن رجلاً أتاه، فقال: رأيت قوله: «ونحشر للمجرمين يومئذ زرقاً» وأخرى عمياً قال: إن يوم القيامة فيه حالات يكونون في حال زرقاً، وفي حال عمياً. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: «يتخافتون بينهم» قال: يتساررون. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله: «أمثلهم طريقة» قال: أوفاهم عقلاً، وفي لفظ قال: أعلمهم في نفسه. وأخرج ابن المنذر، وابن جريج قال: قالت قريش: كيف يفعل ربك بهذه الجبال يوم القيامة؟ فنزلت «ويسألونك عن الجبال» الآية. وأخرج ابن المنذر، وابن

وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْذَرُونَ
لَمْ يُدْرِكُوا أَنَّهُ آنَكَ الْآخِرُ وَلَا تَعْلَمُ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقَعِّدَ
إِلَيْكَ وَحْيَهُ وَقَدْ رِئِيَ رِزْقِي عَلَيَّ ۖ وَلَقَدْ عَلِمْنَا لَكَ آدَمَ مِنْ قَبْلِ نَسُو
وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ۖ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا
إِبْلِسَ ۖ إِنَّكَ أَهْلَكَ عَدُوًّا لَكَ وَلِرِجْلِكَ فَلَا تُخْرِجْكَ مِنْ
الْجَنَّةِ فَتَشْفَعُ ۖ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوزَ فِيهَا وَلَا تَقَرَّى ۖ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا

وَلَا تَصْحَى ۖ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَذَكَّرُ هَلْ أَدَّبَكَ عَلَى شَجَرَةٍ
الْأَلْوَدِ وَمَلِكٍ لَا يَكُنْ ۖ فَأَكْثَرَ مِمَّا قَدَّرْتَ فَمَا سَوَاءُ نَهْمَا وَكَلِمَتَا عَجِبَتَانِ
عَلَيْهِمَا مِنْ رَزَقٍ الْجَنَّةِ وَصَصَى آدَمَ رَبَّهُ فَغَوَى ۖ ثُمَّ انجَبَتْهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ
وَعَدَى ۖ ۞

قوله: ﴿وَكُنْكَ أَنْزَلْنَاهُ﴾ معطوف على قوله: ﴿كُنْكَ﴾
نقص عليك ﴿طه: 99﴾ أي: مثل تلك الإنزال أنزلناه أي:
القرآن حال كونه ﴿قَرَأْنَا عَرَبِيًّا﴾ أي: بلغة العرب ليفهموه
﴿وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ﴾ بينا فيه ضرباً من الوعيد
تخويفاً وتهديداً أو كررنا فيه بعضاً منه ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾
أي: كي يخافوا الله فيجتنبوا معاصيه ويحذروا عقابه ﴿أَوْ﴾
يحدث لهم نكرهٌ أي: اعتباراً واعتلاطاً، وقيل: ورعاً، وقيل:
شرفاً، وقيل: طاعة وعبادة، لأن النكر يطلق عليها. وقرأ
الحسن (أو نحدث) بالنون ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ لما
بين للعباد عظيم نعمته عليهم بإنزال القرآن نزه نفسه عن
مماثلة مخلوقاته في شيء من الأشياء أي: جلَّ الله عن إلحاد
الملحدين وعما يقول المشركون في صفاته فإنه الملك القهري
بيده الثواب والعقاب وأنه الحق أي: ذو الحق ﴿وَلَا تَعْجَلْ
بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ أي: يتم إليك
وحيه. قال المفسرون: كان النبي ﷺ يبادر جبريل فيقرأ
قبل أن يفرغ جبريل من الوحي حرصاً منه على ما كان
ينزل عليه منه فنهاه الله عن ذلك، ومثله قوله: ﴿لَا تَحْرُكْ بِهِ
لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ [القيامة: 16]. على ما يأتي إن شاء الله؛
وقيل: المعنى ولا تلقه إلى الناس قبل أن يأتيك بيان تأويله،
وقرأ ابن مسعود، ويعقوب، والحسن، والأعمش (من قبل أن
نقضي) بالنون ونصب وحيه ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ أي:
سل ربك زيادة العلم بكتابه ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ الْإِلَهِ
هِيَ الْمَوْطِئَةُ لِلْقِسْمِ، وَالْجَمْلَةُ مُسْتَانَفَةٌ مَقَرَّةٌ لِمَا قَبْلُهَا مِنْ
تَصْرِيفِ الْوَعِيدِ أَي: لَقَدْ أَمَرْنَاهُ وَوَصَيْنَاهُ، وَالْمَعْهُودُ مُحْنُوفٌ،
وَهُوَ مَا سَيَأْتِي مِنْ نَهْيِهِ عَنِ الْأَكْلِ مِنَ الشَّجَرَةِ، وَمَعْنَى
﴿مَنْ قَبْلُ﴾ أَي: مِنْ قَبْلِ هَذَا الزَّمَانِ ﴿فَنَسِيَ﴾ قَرَأَ الْأَعْمَشُ
بِإِسْكَانِ الْيَاءِ، وَالْمُرَادُ بِالنِّسْيَانِ هُنَا: تَرَكَ الْعَمَلَ بِمَا وَقَعَ بِهِ
الْعَهْدُ إِلَيْهِ فِيهِ، وَبِهِ قَالَ أَكْثَرُ الْمَفْسَرِينَ؛ وَقِيلَ: النَّسْيَانُ عَلَى
حَقِيقَتِهِ، وَأَنَّهُ نَسِيَ مَا عَاهَدَ اللَّهُ بِهِ إِلَيْهِ وَيَنْتَهِي عَنْهُ، وَكَانَ آدَمُ
مَأْخُوداً بِالنِّسْيَانِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، وَلِنْ كَانَ النَّسْيَانُ مَرْفُوعاً
عَنْ هَذِهِ الْأَمَةِ، وَالْمُرَادُ مِنَ الْآيَةِ تَسْلِيَةِ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى الْقَوْلِ
الْأَوَّلِ أَي: أَنْ طَاعَةَ بَنِي آدَمَ لِلشَّيْطَانِ أَمْرٌ قَدِيمٌ، وَأَنْ هَؤُلَاءِ
الْمُعَاصِرِينَ لَهُ إِنْ نَقَضُوا 'عَهْدَ فَقْدِ نَقْضِ آبُوهُمْ آدَمَ، كَذَا
قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ وَالْقَشِيرِيُّ، وَاعْتَرَضَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ قَائِلاً بَأَنَّ
كَوْنَ آدَمَ مِمَّاثِلاً لِلْكَافِرِ الْجَاهِلِينَ بِاللَّهِ لَيْسَ بِشَيْءٍ، وَقَرَأَ
(فَنَسِيَ) بِضَمِّ النَّوْنِ وَتَشْدِيدِ السِّينِ مَكْسُورَةً مَبْنِيًّا لِلْمَفْعُولِ
أَي: فَنَسَاهُ إِبْلِيسُ ﴿وَلَمْ تَجِدْ لَهُ عِزْماً﴾ الْعِزْمُ فِي اللُّغَةِ
تَوَطُّينُ النَّفْسِ عَلَى الْفِعْلِ وَالتَّصْمِيمُ عَلَيْهِ، وَالْمَضْيُ عَلَى
الْمُعْتَقَدِ فِي أَيْ شَيْءٍ كَانَ، وَقَدْ كَانَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ وَطِنَ
نَفْسَهُ عَلَى أَنْ لَا يَأْكُلَ مِنَ الشَّجَرَةِ وَصَمَّ عَلَى ذَلِكَ، فَلَمَّا

وسوس إليه إبليس لانت عريكته وفتر عزمه وأدركه ضعف
البشر؛ وقيل: العزم الصبر أي: لم نجد له صبراً عن أكل
الشجرة. قال النحاس: وهو كذلك في اللغة، يقال لفلان عزم
أي: صبر وثبات على التحفظ عن المعاصي حتى يسلم منها،
ومنه ﴿كما صبر أولوا العزم من الرسل﴾ [الأحقاف: 35].
وقيل المعنى ولم نجد له عزمًا على الذنب، وبه قال ابن
كيسان، وقيل: ولم نجد له رأياً معزوماً عليه، وبه قال ابن
قتيبة. ثم شرع سبحانه في كيفية ظهور نسيانه وفقدان
عزمه، والعامل في إذ مقتر أي: ﴿وَوَيْلٌ لَكَ مِنَ الْهَوَى﴾ انكر ﴿إِذْ قُلْنَا
لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ وتعليق الذكر بالوقت مع أن
المقصود نكر ما فيه من الحوادث للمبالغة، لأنه إذا وقع
الامر بنكر الوقت كان نكر ما فيه من الحوادث لازماً بطريق
الأولى وقد تقدم تفسير هذه القصة في البقرة مستوفى،
ومعنى ﴿فَتَشَقَّى﴾ فنتعب في تحصيل ما لا بد منه في
المعاش كالحرق والزرع، ولم يقل فتشقى، لأن الكلام من
أول القصة مع آدم وحده، ثم علل ما يوجب ذلك النهي بما
فيه الراحة الكاملة عن التعب والاهتمام فقال: ﴿إِنْ لَكَ أَنْ لَا
تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرِى﴾ أي: في الجنة. والمعنى: أن لك فيها
تمتعا بأنواع المعاش وتنعماً بأصناف النعم من المأكَل
الشهية والملابس البهية، فإنه لما نفى عنه الجوع والعري
أفاد ثبوت الشبع والاكتماء له، وهكذا قوله: ﴿وَأَنْتَ لَا تَظْمَأُ
فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾ فإن نفي الظما يستلزم حصول الرِّيِّ
وجود المسكن الذي يدفع عنه مشقة الضحو يقال: ضحى
الرجل يضحى ضحواً: إذا برز للشمس فاصابه حرّها، فنكر
سبحانه ما هنا أنه قد كفاه الاشتغال بامر المعاش وتعب
الكد في تحصيله، ولا ريب أن أصول المتاعب في الدنيا هي
تحصيل الشبع والرِّيِّ والكسوة والكفن، وما عدا هذه
فضولات يمكن البقاء بدونها، وهو إعلام من الله سبحانه
لآدم أنه إن أطاعه فله في الجنة هذا كله، وإن ضيع وصيته
ولم يحفظ عهده أخرجه من الجنة إلى الدنيا فيحبل به التعب
والنصب بما يدفع الجوع والعري والظما والضحو، فالمراد
بالشقاء: شقاء الدنيا كما قاله كثير من المفسرين لا شقاء
الآخرى. قال الفراء: هو أن يأكل من كذب يديه، وقرأ أبو عمرو
والكوفيون إلا عاصماً (ولئك لتظما) بفتح أن، وقرأ الباقون
بكسرها على العطف على إن لك ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ
الشَّيْطَانُ﴾ قد تقدم تفسيره في الأعراف في قوله:
﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ [الأعراف: 20] أي: أنهى إليه
وسوسته، وجملة ﴿قَالَ يَا آدَمُ﴾ إلى آخره إما بدل من
وسوس أو مستأنفة بتقدير سؤال كأنه قيل: فماذا قال له في
وسوسته؟ و ﴿شَجَرَةُ الْخُلْدِ﴾ هي الشجرة التي من أكل
منها لم يمت أصلاً ﴿وَمُلْكٌ لَا يَبْلَى﴾ أي: لا يزول ولا
ينقضي ﴿فَلَاكُلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوَاتُهُمَا﴾ قد تقدم تفسير
هذا وما بعده في الأعراف. قال الفراء: ومعنى طفقاً في
العربية: اقتبلا، وقيل: جعلاً يلصقان عليهما من ورق التين
﴿وَعَصَى آدَمَ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ أي: عصاه بالأكل من الشجرة

﴿ونحشره يوم القيامة أعمى﴾ قال: عمى عليه كل شيء إلا جهنم، وفي لفظ: لا يبصر إلا النار. وأخرج ابن أبي حاتم عن سفيان في قوله: ﴿وكذلك نجزي من أسرف﴾ قال: من أشرك بالله.

أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ﴿١٧٧﴾ وَلَا كَلِمَةً سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٧٨﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَكَ لِكُلِّ رُغْفٍ ﴿١٧٩﴾ وَلَا تَمَدَّنْ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِيَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقَ رَبِّكَ حِزْرًا وَابْتَغِ الْوَعْدَ الْأَخِيرَ الَّذِي لَهُمْ لَعْنَةُ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ يَصْرِفُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْأَسْوَءِ وَاسْطَرِجِئًا لَا يُنْفِقُونَ رِزْقًا عَنْ رِزْقِكَ وَأَلْفَبُوا لَلْفُقَرَاءِ ﴿١٨٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا بَأْتِنَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّنَا أَوْ لَمْ تَأْتِهِمْ بَيْنَهُ مَا فِي الصَّحُفِ الْأُولَى ﴿١٨١﴾ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعُ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نُنْزَلَ وَنُخْرَفَ ﴿١٨٢﴾ قُلْ كُلُّ مُرْسِلٍ فَارِيسًا فَتَقَالُوا مِنْ أَصْحَابِ الْأَسْرَىٰ وَمَنْ أَهْلَكُنَا ﴿١٨٣﴾

قوله: ﴿أفلم يهد لهم﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ، والفاء للعطف على مقدر، كما مر غير مرة، والجملة مستأنفة لتقرير ما قبلها وفاعل يهد هو الجملة المذكورة بعدها، والمفعول محذوف، وانكر البصريون مثل هذا لأن الجمل لا تقع فاعلاً، وجوز غيرهم. قال القفال: جعل كثرة ما أهلك من القرون مبيناً لهم. قال النحاس: وهذا خطأ لأن كم استفهام، فلا يعمل فيها ما قبلها. وقال الزجاج: المعنى أو لم يهد لهم الأمر بإهلاكنا من أهلكنا، وحقيقته تدل على الهدى، فالفاعل هو الهدى، وقال: ﴿كم﴾ في موضع نصب بإهلاكنا وقيل: إن فاعل يهد ضمير لله أو للرسول، والجملة بعده تفسره، ومعنى الآية على ما هو الظاهر: أفلم يتبين لأهل مكة خبر من ﴿أهلكنا قبلهم من القرون﴾ حال كون القرون ﴿يمشون في مساجدهم﴾ ويتقبلون في ديارهم، أو حال كون هؤلاء يمشون من مساكن القرون الذين أهلكناهم عند خروجهم للتجارة وطلب المعيشة، فيرون بلاد الأمم الماضية، والقرون الخالية خالية خاربة من أصحاب الحجر وشمود وقرى قوم لوط فإن ذلك مما يوجب اعتبارهم لئلا يحل بهم مثل ما حل بأولئك، وقرأ ابن عباس والسلمي (نهد) بالنون، والمعنى على هذه القراءة واضح، وجملة ﴿إن في تلك الآيات لآيات لولي النهى﴾ تعليل للإنكار وتقدير للهداية، والإشارة بقوله ذلك إلى مضمون كم أهلكنا إلى آخره. والنهى: جمع نهية، وهي العقل أي: لنزوي العقول التي تنهى أربابها عن القبيح ﴿ولو لا كلمة سبقت من ربك﴾ أي: ولو لا الكلمة السابقة، وهي وعد الله سبحانه بتأخير عذاب هذه الأمة إلى الدار الآخرة ﴿لكان﴾ عقاب ذنوبهم إلزاماً أي: لازماً لهم، لا ينفك عنهم بحال ولا يتأخر. وقوله: ﴿وإنجل مسمى﴾ معطوف على كلمة، قاله الزجاج وغيره، والأجل المسمى هو: يوم القيامة، أو يوم بدر، واللام مصدر لازم، قيل: ويجوز عطف وأجل مسمى على الضمير المستتر في

في الدنيا ﴿قال كذلك﴾ أي: مثل ذلك فعلت أنت، ثم فسره بقوله: ﴿فإنك آياتنا ففسيتها﴾ أي: أعرضت عنها، وتركتها، ولم تنظر فيها ﴿وكذلك اليوم تنسى﴾ أي: مثل ذلك النسيان الذي كنت فعلته في الدنيا تنسى أي: تترك في العمى والعذاب في النار، قال الفراء: يقال إنه يخرج بصيراً من قبره فيعمى في حشره ﴿وكذلك نجزي من أسرف﴾ أي مثل ذلك الجزاء نجزيه والإسراف: الانهمك في الشهوات، وقيل: الشرك ﴿ولم يؤمن بآيات ربه﴾ بل كذب بها ﴿وللعذاب الآخرة أشد﴾ أي: أقطع من المعيشة الضنكى ﴿وابقى﴾ أي: أوم وأثبت لأنه لا ينقطع.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، والطبراني، وأبو نعيم في الحلية، وابن مردويه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من أتبع كتاب الله هداة الله من الضلالة في الدنيا، ووقاه سوء الحساب يوم القيامة»، وذلك أن الله يقول: ﴿فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى﴾ وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، ومحمد بن نصر، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب من طرق عن ابن عباس قال: أجاز الله تابع القرآن من أن يضل في الدنيا أو يشقى في الآخرة، ثم قرأ ﴿فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى﴾ قال: لا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، ومسدد في مسنده، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً في قوله: ﴿معيشة ضنكاً﴾ قال: عذاب القبر. ولفظ عبد الرزاق قال: يضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه. ولفظ ابن أبي حاتم قال: ضمة القبر. وفي إسناده ابن لهيعة، وفيه مقال معروف. وقد روي موقوفاً. قال ابن كثير: الموقوف أصح. وأخرج البزار، وابن أبي حاتم، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله: «﴿فإن له معيشة ضنكاً﴾ قال: المعيشة الضنكى أن يسلط عليه تسعة وتسعون حية ينهشون لحمه حتى تقوم الساعة». وأخرج ابن أبي الدنيا، والحكيم الترمذي، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبان، وابن مردويه، والبيهقي عن أبي هريرة مرفوعاً نحوه بأطول منه. قال ابن كثير: رفعه منكر جداً. وأخرج ابن أبي شيبة، والبزار، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله: ﴿فإن له معيشة ضنكاً﴾ قال: عذاب القبر. قال ابن كثير بعد إخراجه: إسناده جيد. وأخرج هناد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، والطبراني، والبيهقي عن ابن مسعود في قوله: ﴿فإن له معيشة ضنكاً﴾ قال: عذاب القبر. ومجموع ما نكرنا هنا يرجع تفسير المعيشة الضنكى بعذاب القبر. وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، والبيهقي في كتاب عذاب القبر عن ابن مسعود أنه فسر المعيشة الضنكى بالشقاء. وأخرج هناد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله:

الرزق الآخروي لا النبوي، وإن كان حلالاً طيباً ﴿ما عنكم ينفذ وما عند الله باقي﴾ [النحل: 96]. ﴿وامرأهك بالصلاة﴾ أمره الله سبحانه بأن يامر أهله بالصلاة، والمراد بهم: أهل بيته، وقيل: جميع أمته ولم يذكرها هنا الأمر من الله بالصلاة، بل قصر الأمر على أهله، إما لكون إقامته لها أمراً معلوماً، أو لكون أمره بها قد تقدّم في قوله: ﴿وسبح بحمد ربك﴾ إلى آخر الآية، أو لكون أمره بالأمر لأهله أمراً له، ولهذا قال: ﴿واصطر عليها﴾ أي: اصبر على الصلاة، ولا تشتغل عنها بشيء من أمور الدنيا ﴿لا نسالك رزقاً﴾ أي: لا نسالك أن ترزق نفسك ولا أهلك، وتشتغل بذلك عن الصلاة ﴿نحن نرزقك﴾ ونرزقهم ولا نكلفك ذلك ﴿والعاقبة للتقوى﴾ أي: العاقبة المحمودة، وهي الجنة لأهل التقوى على حذف المضاف كما قال الأخفش، وفيه دليل على أن التقوى هي ملاك الأمر وعليها تدور دوائر الخير ﴿وقالوا لولا ياتينا بأية من ربك﴾ أي قال كفار مكة: هلا ياتينا محمد بأية من آيات ربه كما كان يأتي بها من قبله من الأنبياء؟ وذلك كالناقة والعصا، أو هلا ياتينا بأية من الآيات التي قد اقترحناها عليه؟ فأجاب الله سبحانه وتعالى عليهم بقوله: ﴿أو لم ياتهم بيته ما في الصحف الأولى﴾ يريد بالصحف الأولى: التوراة والإنجيل والزبور وسائر الكتب المنزلة، وفيها التصريح بنبوته والتبشير به، وذلك يكفي، فإن هذه الكتب المنزلة هم معترفون بصحتها وصحتها، وفيها ما يدفع إنكارهم لنبوته، ويبطل تعنتاتهم وتعسفاتهم، وقيل: المعنى أو لم ياتهم إهلاكنا للأسم الذين كفروا واقترحوا الآيات، فما يؤمنهم إن انتهت الآيات التي اقترحوها أن يكون حالهم كحالهم، وقيل: المراد أو لم تاتهم آية هي أم الآيات وأعظمها في باب الإعجاز يعني: القرآن، فإنه برهان لما في سائر الكتب المنزلة. وقرأ أبو جعفر، وشيبة، ونافع، وأبو عمرو، ويعقوب، وابن أبي إسحاق، وحفص (أو لم تاتهم) بالياء الفوقية وقرأ الباقون بالتحتيّة لأن معنى البينة البيان والبرهان، فنكروا الفعل اعتباراً بمعنى البينة، واختار هذه القراءة أبو عبيد، وأبو حاتم. قال الكسائي: ويجوز بينة بالتثنية. قال النحاس: إذا نَوّنت بينة ورفعت جعلت ما بدلاً منها، وإذا نصبت فعلى الحال. والمعنى: أو لم ياتهم ما في الصحف الأولى مبيناً، وهذا على ما يقتضيه الجواز النحوي وإن لم تقع القراءة به ﴿ولو أنا اهلكناهم بعذاب من قبله﴾ أي: من قبل بعثة محمد ﷺ أو من قبل إتيان البينة لنزول القرآن ﴿لقالوا﴾ يوم القيامة ﴿ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا﴾ أي: هلا أرسلت إلينا رسولا إلى الدنيا ﴿فنتبع آياتك﴾ التي يأتي بها الرسول ﴿من قبل أن نذل﴾ بالعذاب في الدنيا ﴿ونخزي﴾ بدخول النار، وقرئ (نذل ونخزي) على البناء للمفعول، وقد قطع الله معذرة هؤلاء الكفرة بإرسال الرسول إليهم قبل إهلاكهم ولهذا حكى الله عنهم أنهم ﴿قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء﴾ [الملك: 9]، ﴿قل كل متربص

كان العائد إلى الأخذ العاجل المفهوم من السياق تنزيلاً للفصل بالخبر منزلة التأكيد أي: لكن الأخذ العاجل ﴿ولجل مسمى﴾ لازمين لهم كما كانوا لازمين لعاد وثمود، وفيه تعسف ظاهر. ثم لما بين الله سبحانه أنه لا يهلكهم بعذاب الاستئصال أمره بالصبر فقال: ﴿فاصبر على ما يقولون﴾ من أنك ساحر كذاب، ونحو ذلك أن مطاعنهم الباطلة، والمعنى: لا تحتفل بهم، فإن لعذابهم وقتاً مضروباً لا يتقدم ولا يتأخر؛ وقيل: هذا منسوخ بآية القتال ﴿وسبح بحمد ربك﴾ أي: متلبساً بحمده، قال أكثر المفسرين: والمراد الصلوات الخمس كما يفيد قوله: ﴿قبل طلوع الشمس﴾ فإنه إشارة إلى صلاة الفجر ﴿وقبل غروبها﴾ فإنه إشارة إلى صلاة العصر ﴿ومن آناء الليل﴾ العتمة، والمراد بالآناء: الساعات، وهي جمع إنبي بالكسر والقصر، وهو الساعة، ومعنى ﴿فسبح﴾ أي: فصل ﴿واطراف النهار﴾ أي: المغرب والظهر لأن الظهر في آخر طرف النهار الأول، وأول طرف النهار الآخر؛ وقيل: إن الإشارة إلى صلاة الظهر هي بقوله: ﴿وقبل غروبها﴾ لأنها هي وصلاة العصر قبل غروب الشمس؛ وقيل: المراد بالآية صلاة التطوع، ولو قيل ليس في الآية إشارة إلى الصلاة بل المراد التسبيح في هذه الأوقات أي: قول القائل سبحان الله، لم يكن ذلك بعيداً من الصواب، والتسبيح وإن كان يطلق على الصلاة ولكنه مجاز، والحقيقة أولى إلا لقرينة تصرف ذلك إلى المعنى المجازي، وجملة ﴿لعلك ترضى﴾ متعلقة بقوله فسبح أي: سبح في هذه الأوقات رجاء أن تنال عند الله سبحانه ما ترضى به نفسك، هذا على قراءة الجمهور، وقرأ الكسائي وأبو بكر عن عاصم (ترضى) بضم التاء مبنياً للمفعول أي: يرتضيك ربك ﴿ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم﴾ قد تقدم تفسير هذه الآية في الحجر. والمعنى: لا تطل نظر عينيك، وأزواجاً مفعول متعنا، وزهرة منصوبة على الحال، أو بفعل محذوف أي: جعلنا أو أعطينا، نكر معنى هذا الزجاج؛ وقيل: هي بدل من الهاء في به باعتبار محله، وهو النصب لا باعتبار لفظه، فإنه مجرور كما تقول مررت به أخاك. ورجح الفراء النصب على الحال، يجوز أن تكون بدلاً، ويجوز أن تكون منتصبة على المصدر مثل صبغة الله ووعد الله ﴿وزهرة الحياة الدنيا﴾ زينتها وبهجتها بالنبات وغيره. وقرأ عيسى بن عمر (زهرة) بفتح الهاء، وهي نور النبات، واللام في ﴿لنفقتهم﴾ فيه متعلق بمتعنا أي: لنجعل ذلك فتنه لهم وضلالة، ابتلاء منا لهم كقوله: ﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم﴾ [الكهف: 7]، وقيل: لنعذبهم؛ وقيل: لنشد عليهم في التكليف ﴿وورق ربك خير وأبقى﴾ أي: ثواب الله، وما أشخّر لصالحي عباده في الآخرة خير مما رزقهم في الدنيا على كل حال، وأيضاً فإن ذلك لا ينقطع، وهذا ينقطع، وهو معنى وأبقى، وقيل: المراد بهذا الرزق ما يفتح الله على المؤمنين من الغنائم ونحوها. والأول أولى لأن الخيرية المحققة والدوام الذي لا ينقطع إنما يتحققان في

فتربصوا﴾ أي: قل لهم يا محمد كل واحد منا ومنكم متربص أي: منتظر لما يقول إليه الأمر فتربصوا أنتم ﴿فستعلمون﴾ عن قريب ﴿من أصحاب الصراط السوي﴾ أي: فستعلمون بالنصر والعاقبة من هو من أصحاب الصراط المستقيم ﴿ومن اهتدى﴾ من الضلالة ونزع عن الغواية، ومن في الموضعين في محل رفع بالابتداء. قال النحاس: والغراء يذهب إلى أن معنى ﴿من أصحاب الصراط السوي﴾ من لم يضل، وإلى أن معنى ﴿من اهتدى﴾ من ضل ثم اهتدى؛ وقيل: من في الموضعين في محل نصب، وكذا قال الغراء. وحكي عن الزجاج أنه قال: هذا خطأ لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله. وقرأ أبو رافع (فسوف تعلمون) وقرأ يحيى بن يعمر، وعاصم الجحدري (السوي) على فعلى، وردت هذه القراءة بأن تانيث الصراط شاذ؛ وقيل: هي بمعنى الوسط والعدل اهـ.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وابن المنذر، عن ابن عباس في قوله: ﴿أفلم يهد لهم﴾ ألم نبين لهم ﴿حكم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم﴾ نحو عاد وثمود ومن أهلك من الأمم وفي قوله: ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً وأجل مسمى﴾ يقول: هذا من مقاييم الكلام، يقول لولا كلمة وأجل مسمى لكان لزاماً. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي نحوه. وأخرج ابن المنذر عن مجاهد قال: الأجل المسمى الكلمة التي سبقت من ربك. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿لن كان لزاماً﴾ قال موتاً. وأخرج الفريابي، وعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿وسبح بحمد ربك﴾ الآية قال: هي الصلاة المكتوبة. وأخرج الطبراني، وابن مريويه، وابن عساكر عن جرير عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس﴾ قال: قبل طلوع الشمس صلاة الصبح، وقبل غروبها صلاة العصر. وفي الصحيحين وغيرهما من حديث جرير قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا عن صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا، وقرأ ﴿وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها﴾. وفي صحيح مسلم، وسنن أبي داود، والنسائي عن عمارة بن ربيعة سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لن يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها». وأخرج ابن أبي شيبة، وابن راهويه، والبخاري، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، والخراطي، وأبو نعيم عن أبي رافع قال: «أضاف النبي ﷺ ضيفاً، ولم يكن عند النبي ﷺ ما يصلحه، فأرسلني إلى رجل من اليهود أن يبعنا أو سلفنا نقيماً إلى هلال رجب، فقال: لا إلا برهن، فأتيت النبي ﷺ فأخبرته، فقال: أما والله إني لأمين في السماء أمين في الأرض، ولئن أسلفني وباعني لأتيت إليه، اذهب بدرعي

الجديد، فلم أخرج من عنده حتى نزلت هذه الآية ﴿ولا تمدن عينيك﴾. كانه يعزيه عن الدنيا. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح الله لكم من زهرة الدنيا، قالوا: وما زهرة الدنيا يا رسول الله؟ قال: بركات الأرض». وأخرج ابن مريويه، وابن عساكر، وابن النجار، عن أبي سعيد الخدري قال: لما نزلت ﴿وأمر أهلك بالصلاة﴾ كان النبي ﷺ يجيء إلى باب علي صلاة الغداة ثمانية أشهر يقول: الصلاة رحمكم الله ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾ [الأحزاب: 33]. وأخرج ابن مريويه عن أبي الحمراء نحوه. وأخرج أحمد في الزهد، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الشعب عن ثابت، قال: «كان النبي ﷺ إذا أصابت أهله خصاصة نادى أهله: يا أهلاه صلوا صلوا، قال ثابت: وكانت الأنبياء إذا نزل بهم أمر فزعوا إلى الصلاة. وأخرج أبو عبيد، وسعيد بن منصور، وابن المنذر، والطبراني في الأوسط، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في الشعب بإسناد. قال السيوطي صحيح عن عبد الله بن سلام قال: كان النبي ﷺ إذا نزلت بأهله شدة أو ضيق أمرهم بالصلاة، وقرأ ﴿وأمر أهلك بالصلاة﴾ الآية.

تفسير سورة الأنبياء

وأخرج البخاري وغيره عن ابن مسعود قال: بنو إسرائيل والكهف ومريم والأنبياء هم من العتاق الأول، وهم من تلادي. وأخرج ابن مريويه، وأبو نعيم في الحلية عن عامر بن ربيعة أنه نزل به رجل من العرب، فأكرم عامر مثواه، وكلم فيه رسول الله ﷺ، فجاءه الرجل فقال: إني استقطعت رسول الله ﷺ وأبياً ما في العرب وإن أفضل منه، وقد أردت أن أقطع لك منه قطعة تكون لك ولعقبك من بعك، فقال عامر: لا حاجة لي في قطعك، نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا ﴿فقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُجَدِّدٍ إِلَّا آسَفُوا وَمِنْ يَلْمِزُونَ ﴿٢﴾ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّ النَّارَ لَبَؤُا هَٰذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ الْبَٰسَ أَنْ لَا بُدَّ لَكُمْ بِهِ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي بِعِلْمِ الْفُورِ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّجِيعُ الْغَلِيظُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوا أَخُفَّتْ أَعْيُنُ كُلِّ أَقْرَبَةٍ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ قَلْبَانَا بِأَيِّهِ كَمَا أَزِيلُ الْوُكُورَ ﴿٥﴾ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يَقُولُونَ ﴿٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نَحْنُ أَنْزَلْنَاهُ الْكِتَابَ لِيُنذِرَ لِمَنْ كَثُرَ لَا تَلْمِزُوكَ ﴿٧﴾ وَمَا جَاءَنَّهُمْ جَسَدًا إِلَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمِنْ نَصَائِهِ أَهْلَكْنَاهُ الْمُفْرِقِينَ ﴿٩﴾

(لاهية) بالرفع كما قرئ محدث بالرفع ﴿وَأَسْرَ النَجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ النجوى اسم من التناجي، والتناجي لا يكون إلا سرّاً، فمعنى إسرار النجوى: المبالغة في الإخفاء. وقد اختلف في محل الموصول على أقوال: فقيل إنه في محل رفع بدل من الواو في أسروا، قاله المبرد وغيره؛ وقيل: هو في محل رفع على النظم؛ وقيل: هو فاعل لفعل محذوف، والتقدير: يقول الذين ظلموا، واختار هذا النحاس، وقيل: في محل نصب بتقدير أعني وقيل: في محل خفض على أنه بدل من الناس ذكر ذلك المبرد؛ وقيل: هو في محل رفع على أنه فاعل أسروا على لغة من يجوز الجمع بين فاعلين كقولهم: اكلوني البراغيث، ذكر ذلك الأخفش، ومثله ﴿ثم عموا وصموا كثير منهم﴾ [المائدة: 71]. ومنه قول الشاعر:

فاهتئين البغال للأغراض

وقول الآخر:

ولكن نابي أبوه وأمه بحرران يعصرن السليط أقاربه
وقال الكسائي: فيه تقديم وتأخير أي: والذين ظلموا أسروا النجوى. قال أبو عبيدة: أسروا هنا من الأضداد: يحتمل أن يكون بمعنى أخفوا كلامهم، ويحتمل أن يكون بمعنى أظهروه وأعلنوه ﴿هل هذا إلا بشر مثلكم﴾ هذه الجملة بتقدير القول قبلها أي: قالوا هل هذا الرسول إلا بشر مثلكم لا يتميز عنكم بشيء؟ ويجوز أن تكون هذه الجملة بدلاً من النجوى، وهل بمعنى النفي أي: وأسروا هذا الحديث، والهمزة في ﴿افقتلون السحر﴾ للإنكار، والفاء للعطف على مقدّر كنظاره، وجملة ﴿وانتم تبصرون﴾ في محل نصب على الحال. والمعنى: إذا كان بشراً مثلكم، وكان الذي جاء به سحراً، فكيف تجيبونه إليه وتتبعونه، فاطلع الله نبيه ﷺ على ما تناجوا به، وأمره الله سبحانه أن يجيب عليهم فقال: ﴿قل ربي يعلم القول في السماء والأرض﴾ أي: لا يخفى عليه شيء مما يقال فيهما، وفي مصحف أهل الكوفة (قال ربي) أي: قال محمد ربي يعلم القول، فهو عالم بما تناجيت به. قيل: القراءة الأولى أولى، لأنهم أسروا هذا القول، فاطلع الله رسوله ﷺ على ذلك وأمره أن يقول لهم هذا. قال النحاس: والقراءتان صحيحتان، وهما بمنزلة آيتين ﴿وهو السميع﴾ لكل ما يسمع ﴿العليم﴾ بكل معلوم، فيدخل في ذلك ما أسروا بخلاً أولياً ﴿بل قالوا أضغاث أحلام﴾ قال الزجاج: أي قالوا الذي تاتي به أضغاث أحلام. قال القتيبي: أضغاث الأحلام الرؤيا الكاذبة. وقال اليزيدي: الأضغاث ما لم يكن له تأويل، وهذا إضراب من جهة الله سبحانه حكاية لما وقع منهم، وانتقال من حكاية قولهم السابق إلى حكاية هذا القول. ثم حكى سبحانه إضرابهم عن قولهم: أضغاث أحلام، قال: ﴿بل افترأه﴾ أي: بل قالوا افترأه من تلقاء نفسه من غير أن يكون له أصل. ثم حكى سبحانه عنهم أنهم أضربوا عن هذا وقالوا: ﴿بل هو شاعر﴾ وما أتى به من جنس الشعر، وفي هذا الاضطراب منهم، والتلون والتردد أعظم دليل على أنهم جاهلون بحقيقة

يقال: قرب الشيء واقترب وقد اقترب الحساب أي: قرب الوقت الذي يحاسبون فيه. قال الزجاج: المعنى ﴿اقترب للناس﴾ وقت ﴿حسابهم﴾ أي: القيامة كما في قوله: ﴿اقتربت الساعة﴾ [القدر: 1]. واللام في الناس متعلقة بالفعل، وتقديرها هي ومجربوها على الفاعل لإخلال الروعة، ومعنى اقترب وقت الحساب: نذوه منهم، لأنه في كل ساعة أقرب إليهم من الساعة التي قبلها؛ وقيل: لأن كل ما هو أقرب، وموت كل إنسان قيام ساعته، والقيامة أيضاً قريبة بالإضافة إلى ما مضى من الزمان، فما بقي من الدنيا أقل مما مضى. والمراد بالناس: العموم؛ وقيل: المشركون مطلقاً؛ وقيل: كفار مكة، وعلى هذا الوجه قيل: المراد بالحساب: عذابهم يوم بدر، وجملة ﴿وهم في غفلة معرضون﴾ في محل نصب على الحال أي: هم في غفلة بالدنيا معرضون عن الآخرة، غير متأهبين بما يجب عليهم من الإيمان بالله، والقيام بفرائضه، والانزجار عن مناهيه ﴿ما ياتيهم من نكر من ربهم محدث﴾ من لا ابتداء الغاية، وقد استدل بوصف النكر لكونه محدثاً على أن القرآن محدث، لأن النكر هنا هو القرآن. وأجيب بأنه لا نزاع في حدوث المركب من الأصوات والحروف، لأنه متجدد في النزول. فالمعنى محدث تنزيهه، وإنما النزاع في الكلام النفسي، وهذه المسئلة أعني: قدم القرآن وحيث قد ابتلي بها كثير من أهل العلم والفضل في الدولة المأمونية والمعتصمية والواثقية، وجرى للإمام أحمد بن حنبل ما جرى من الضرب الشديد والحبس الطويل، وضرب بسببها عنق محمد بن نصر الخزاعي، وصارت فتنة عظيمة في ذلك الوقت وما بعده، والقصة أشهر من أن تذكر، ومن أحب الوقوف على حقيقتها طالع ترجمة الإمام أحمد بن حنبل في كتاب النبلاء لمؤرخ الإسلام الذهبي. ولقد أصاب أئمة السنة بامتناعهم من الإجابة إلى القول بخلق القرآن وحيث وحفظ الله بهم أمة نبيه عن الابتداع، ولكنهم رحمهم الله جاوزوا ذلك إلى الجزم بقدومه ولم يقتصروا على ذلك حتى كفروا من قال بالحدث، بل جاوزوا ذلك إلى تكفير من قال لفظي بالقرآن مخلوق، بل جاوزوا ذلك إلى تكفير من وقف، وليتهم لم يجاوزوا حد الوقف وإرجاع العلم إلى علام الغيوب، فإنه لم يسمع من السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى وقت قيام المحنة وظهور القول في هذه المسئلة شيء من الكلام، ولا نقل عنهم كلمة في ذلك، فكان الامتناع من الإجابة إلى ما دعوا إليه، والتمسك بأذيال الوقف، وإرجاع علم ذلك إلى عالمه هو الطريقة المثلى، وفيه السلامة والخلوص من تكفير طوائف من عباد الله، والأمر لله سبحانه. وقوله: ﴿إلا لستمعوه﴾ استثناء مفرغ في محل نصب على الحال، وجملة ﴿وهم يلعبون﴾ في محل نصب على الحال أيضاً من فاعل لستمعوه، و﴿لاهية قلوبهم﴾ حال أيضاً والمعنى: ما ياتيهم من نكر من ربهم محدث في حال من الأحوال إلا في الاستماع مع اللعب والاستهزاء ولهوة القلوب، وقرئ

جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام ﴿١﴾ أي: إن الرسل أسوة لسائر أفراد بني آدم في حكم الطبيعة يأكلون كما يأكلون ويشربون كما يشربون، والجسد جسم الإنسان. قال الزجاج: هو واحد، يعني: الجسد ينبت عن جماعة أي: وما جعلناهم نوي أجساد لا يأكلون الطعام فجعله لا يأكلون الطعام صفة لجسداً أي: وما جعلناهم جسداً مستغنياً عن الأكل، بل هو محتاج إلى ذلك ﴿وما كانوا خالدين﴾ بل يموتون كما يموت غيرهم من البشر، وقد كانوا يعتقدون أن الرسل لا يموتون، فأجاب الله عليهم بهذا، وجعله ﴿ثم صدقناهم الوعد﴾ معطوفة على جملة يدل عليها السياق، والتقدير: أوحينا إليهم ما أوحينا، ثم صدقناهم الوعد أي: أنجزنا وعدهم الذي وعدناهم بإنجائهم وإهلاك من كنهم، ولهذا قال سبحانه ﴿فنجيناهم ومن نشاء﴾ من عبادنا المؤمنين، والمراد: إنجائهم من العذاب وإهلاك من كفر بالعذاب الدنيوي، والمراد بـ ﴿المسرفين﴾ المجاوزون للحد في الكفر والمعاصي، وهم المشركون.

وقد أخرج النسائي عن أبي سعيد النبي ﷺ في قوله: ﴿وهم في غفلة معرضون﴾ قال: في الدنيا. وأخرج ابن مريويه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في الآية قال: من أمر الدنيا. وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿بل قالوا أضغاث أحلام﴾ أي: فعل الأحلام إنما هي رؤيا رأها ﴿بل افترأه بل هو شاعر﴾ كل هذا قد كان منه ﴿فليأتنا بآية كما أرسل الأولون﴾ كما جاء عيسى وموسى بالبينات والرسول ﴿ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها﴾ أي: أن الرسل كانوا إذا جاءوا قومهم بالبينات فلم يؤمنوا لم ينظروا. وأخرج ابن جرير عن قتادة قال: قال أهل مكة للنبي ﷺ: إذا كان ما تقوله حقاً ويسرك أن تؤمن فحول لنا الصفا ذهباً، فأتاه جبريل فقال: إن شئت كان الذي سالك قومك، ولكنه إن كان ثم لم يؤمنوا لم ينظروا، وإن شئت استأنيت بقومك، قال: بل استأنيت بقومي، فأنزل الله ﴿ما آمنت قبلهم﴾ الآية. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام﴾ يقول: لم نجعلهم جسداً ليس يأكلون الطعام، إنما جعلناهم جسداً يأكلون الطعام.

لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ كَتَاتِبًا بِرُوحِنَا قَالُوا أَأَنبَأُكَ اللَّهُ تَقُولُونَ ﴿١﴾ وَكَم قَسَمْنَا مِنْ قَبْلِكَ أَنْ أَتِيَنَّا قَوْمًا مِنْكُمْ قَوْمًا مَعْرُوفِينَ ﴿٢﴾ فَلَمَّا أَحْسَرُوا فَاسْتَأْذَنُوا فَهُمْ يُنَادُونَ ﴿٣﴾ لَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَثَّلُوا لَهُمْ قَوْمًا مَعْرُوفِينَ ﴿٤﴾ لَكُمْ شَتَاؤُنَ ﴿٥﴾ قَالُوا يَوْمَئِذٍ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٦﴾ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَتُهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حُمَاقًا خَسِيفَةً ﴿٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا آسَمَةً وَلَا أَرْضَ وَمَا يَنْهَى لَيْسِينَ ﴿٨﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَخْلَعَهُمْ لَخَلَعْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا مُنْظِرِينَ ﴿٩﴾ بَلْ نَقْذِرُ الْبَلَّ عَلَى الْبَاطِلِ فَإِذَا هُوَ رَاقٍ ﴿١٠﴾ وَلَكُمْ أَلْوَيْنَ وَمَا نَمُوتُونَ ﴿١١﴾ وَلَكُمْ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْأَلُهُمْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحِيرُونَ ﴿١٢﴾ يَسْجُدُونَ لِلَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَا يَقْرَءُونَ ﴿١٣﴾ أَرَأَيْتُمْ أَهْلَ الْإِيمَةِ مَنْ

ما جاء به، لا يدرون ما هو ولا يعرفون كنهه؟ أو كانوا قد علموا أنه حق، وأنه من عند الله، ولكن أرادوا أن يدفعوه بالصدر ويرمونه بكل حجر ومدر، وهذا شأن من غلبته الحجة وقهره البرهان. ثم بعد هذا كله، قالوا: ﴿فليأتنا بآية﴾ وهذا جواب شرط محذوف أي: إن لم يكن كما قلنا: فليأتنا بآية ﴿كما أرسل الأولون﴾ أي: كما أرسل موسى بالعصا وغيرها، وصالح بالناق، ومحل الكاف الجر صفة لآية، ويجوز أن يكون نعت مصدر محذوف، وكان سؤالهم هذا سؤال تعنت، لأن الله سبحانه قد أعطاهم من الآيات ما يكفي، ولو علم الله سبحانه أنهم يؤمنون إذا أعطاهم ما يقترحوه لأعطاهم ذلك، كما قال: ﴿ولو علم الله فيهم خيراً لاسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون﴾ [الأنفال: 23]. قال الزجاج: اقترحوا الآيات التي لا يقع معها إهمال، فقال الله مجيباً لهم ﴿ما آمنت قبلهم من قرية﴾ أي: قبل مشركي مكة ومعنى من قرية: من أهل قرية، ووصف القرية بقوله: ﴿أهلكناها﴾ أي: أهلكنا أهلها، أو أهلكناها بإهلاك أهلها، وفيه بيان أن سنة الله في الأمم السالفة أن المقترحين إذا أعطوا ما اقترحوه، ثم لم يؤمنوا نزل بهم عذاب الاستئصال لا محالة، ومن في من قرية مزيدة للتأكيد. والمعنى: ما آمنت قرية من القرى التي أهلكناها بسبب اقتراحهم قبل هؤلاء، فكيف نعطيهم ما يقترحون، وهم أسوة من قبلهم، والهزمة في ﴿افهم يؤمنون﴾ للتقريع والتوبيخ، والمعنى: إن لم تؤمن أمة من الأمم المهلكة عند إعطاء ما اقترحوا، فكيف يؤمن هؤلاء لو أعطوا ما اقترحوا، ثم أجاب سبحانه عن قولهم: هل هذا إلا بشر مثلكم بقوله: ﴿وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً يوحي إليهم﴾ أي: لم نرسل قبلك إلى الأمم السابقة إلا رجالاً من البشر، ولم نرسل إليهم ملائكة كما قال سبحانه: ﴿قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً﴾ [الإسراء: 95]. وجملة يوحى إليهم مستأنفة لبيان كيفية الإرسال، ويجوز أن تكون صفة لرجالاً أي: متصفين بصفة الإحياء إليهم. قرأ حفص، وحزمة، والكسائي (نوحى) بالنون، وقرأ الباقون بالياء التحتية. ثم أمرهم الله بأن يسألوا أهل الذكر إن كانوا يجهلون هذا فقال: ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾ وأهل الذكر هم أهل الكتابين: اليهود والنصارى، ومعنى إن كنتم لا تعلمون: إن كنتم لا تعلمون أن رسل الله من البشر، كذا قال أكثر المفسرين. وقد كان اليهود والنصارى لا يجهلون ذلك ولا ينكرونه، وتقدير الكلام: إن كنتم لا تعلمون ما نكر فاسألوا أهل الذكر. وقد استدل بالآية على أن التقليد جائز وهو خطأ، ولو سلم لكان المعنى سؤالهم عن النصوص من الكتاب والسنة، لا عن الرأي البحت، وليس التقليد إلا قبول قول الغير دون حجة. وقد أوضحنا هذا في رسالة بسيطة: سميناهم «القول المفيد في حكم التقليد» ثم لما فرغ سبحانه من الجواب عن شبهتهم أكد كون الرسل من جنس البشر فقال: ﴿وما

نزول العذاب بكم. قال المفسرون وأهل الأخبار: إن المراد بهذه الآية أهل حضور من اليمن، وكان الله سبحانه قد بعث إليهم نبياً اسمه شعيب بن مهدم، وقبره بجبل من جبال اليمن يقال: له ضين وبينه وبين حضور نحو بريد، قالوا: وليس هو شعيباً صاحب مدين. قلت: وآثار القبر بجبل ضين موجودة، والعمامة من أهل تلك الناحية يزعمون أنه قبر

قدم بن قادم ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أي قالوا: لما قالت لهم الملائكة لا تركضوا يا ويلنا أي: بإهلاكنا إنا كنا ظالمين لأنفسنا مستوجبين العذاب بما قَدَّمنا، فاعترفوا على أنفسهم بالظلم الموجب للعذاب ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ﴾ أي: ما زالت هذه الكلمة دعواهم أي: دعوتهم، والكلمة هي قولهم يا ويلنا أي: يدعون بها ويرثونها ﴿حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً﴾ أي: بالسيف كما يحصد الزرع بالمنجل، والحصيد هنا بمعنى المحصود، ومعنى ﴿خَامِسِينَ﴾ أنهم ميتون، من خمت النار إذا طفئت، فشبه خمود الحياة بخمود النار، كما يقال لمن مات قد طفى ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ أي: لم نخلقهما عبثاً ولا باطلاً، بل للتنبيه على أن لهما خالقاً قادراً يجب امتثال أمره، وفيه إشارة إجمالية إلى تكوين العالم، والمراد بما بينهما سائر المخلوقات الكائنة بين السماء والأرض على اختلاف أنواعها وتباين أجناسها ﴿لَوْ أَرَادْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوًا﴾ اللهو ما يتلهى به، قيل: اللهو الزوجة والولد؛ وقيل: الزوجة فقط؛ وقيل: الولد فقط. قال الجوهري: قد يكتنى باللهو عن الجماع، ويدل على ما قاله قول امرئ القيس:

الازمعت بسباسة اليوم أنني كبرت ولا يحسن اللهو أمثالي

ومنه قول الآخر:

وفيهن ملهى للصديق ومنظر

والجملة مستأنفة لتقرير مضمون ما قبلها، وجواب لو قوله: ﴿لَا تَخْذَنَاهُ مِن لِّغَاءٍ﴾ أي من عندنا ومن جهة قدرتنا لا من عندكم. قال المفسرون: أي من الحور العين، وفي هذا رد على من قال بإضافة الصاحبة والولد إلى الله، تعالى عن ذلك علواً كبيراً، وقيل: أراد الرد على من قال: الأصنام أو الملائكة بنات الله. وقال ابن قتيبة: الآية رد على النصارى ﴿إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ قال الواحدي قال المفسرون: ما كنا فاعلين. قال الفراء، والمبرد، والزجاج: يجوز أن تكون إن للنفي كما ذكره المفسرون أي: ما فعلنا ذلك ولم نتخذ صاحبة ولا ولداً؛ ويجوز أن تكون للشرط أي: إن كنا ممن يفعل ذلك لا تخذناه من لنا. قال الفراء: وهذا أشبه الوجهين بمذهب العربية ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ﴾ هذا إضراب عن اتخاذ اللهو أي: دع ذلك الذي قالوا فإنه كذب وباطل، بل شأنا أن نرمي بالحق على الباطل ﴿فَيُدْخِغُهُمْ﴾ أي: يقهره، وأصل الدغ شج الرأس حتى يبلغ الدماغ، ومنه الدامغة. قال الزجاج: المعنى نذهبه ذهاب الصغار والإنزال، وذلك أن أصله إصابة الدماغ بالضرب. قيل أراد بالحق

الْأَرْضِ هُمْ يُبْشِرُونَ ﴿١٦﴾ لَوْ كَانَ فِيهَا إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسَبِّحْهُنَّ اللَّهُ رَبِّ الْعَرْشِ عَظِيمًا ﴿١٧﴾ لَا يَسْتَلُ عَنَّا يَمُوتُ وَهُمْ يُسْتَلُونَ ﴿١٨﴾ أَرَأَيْتُمْ إِنْ دُوبُوا إِلَهًا فَلَهُ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا يُذَكِّرُ مَنْ قَبْلَ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ لَمَقِّ فِهِمْ مُبْشِرُونَ ﴿١٩﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي ﴿٢٠﴾

نبه عباده على عظيم نعمته عليهم بقوله: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا﴾ يعني: القرآن ﴿فِيهِ نَذَرُكُمْ﴾ صفة لكتابنا، والمراد بالذکر هنا الشرف أي: فيه شرفكم كقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: 44]. وقيل: فيه نذركم أي: نكر أمر دينكم، وأحكام شرعكم وما تصيرون إليه من ثواب أو عقاب، وقيل: فيه حديثكم. قاله مجاهد؛ وقيل: مكارم أخلاقكم ومحاسن أعمالكم؛ وقيل: فيه العمل بما فيه حياتكم، قاله سهل بن عبد الله، وقيل: فيه موعظتكم، والاستفهام في ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ للتوبيخ والتقريع أي: أفلا تعقلون أن الأمر كذلك، أو لا تعقلون شيئاً من الأشياء التي من جملتها ما نكر، ثم أودعهم وحذرهم ما جرى على الأمم المكتبة، فقال: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ كم في محل نصب على أنها مفعول قصمنا، وهي الخبرية المفيدة للتكثير، والقسم كسر الشيء، وبه، يقال: قصمت ظهر فلان إذا كسرته، واقتصمت سنة إذا انكسرت. والمعنى هنا: الإهلاك والعذاب، وأما القسم بالفداء فهو الصدع في الشيء من غير بينونة، وجملة ﴿كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ في محل جر صفة لقريّة، وفي الكلام مضاف محذوف أي: وكم قصمنا من أهل قرية كانوا ظالمين أي: كافرين بالله مكذبين بآياته، والظلم في الأصل وضع الشيء في غير موضعه، وهم وضعوا الكفر في موضع الإيمان ﴿وَوَإِنَّا نَأْتِيهِمْ بَعْدَ آخِرِينَ﴾ أي: أوجدنا وأحدثنا بعد إهلاك أهلها قوماً ليسوا منهم ﴿فَلَمَّا أَحْسَسُوا بِأَسَاسِنَا﴾ أي: أدركوا أو رلوا عذابنا، وقال الأخفش: خافوا وتوقعوا، أو البأس العذاب الشديد ﴿إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكضُونَ﴾ الركض الفرار والهرب والانهمام، وأصله من ركض الرجل الدابة برجليه، يقال: ركض الفرس إذا كده بساقيه، ثم كثر حتى قيل ركض الفرس إذا عدا، ومنه ﴿ارْكضْ بِرَجْلِكَ﴾ [ص: 42] والمعنى: أنهم يهربون منها راكضين دوابهم، فقيل لهم: ﴿لَا تَرْكضُوا﴾ أي: لا تهربوا. قيل: إن الملائكة نادتهم بذلك عند قرارهم، وقيل: إن القائل لهم ذلك هم من هنالك من المؤمنين استهزاء بهم وسخرية منهم ﴿وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ أي: إلى نعمكم التي كانت سبب بطركم وكفركم، والمترف المنعم، يقال: أترف فلان أي: وسع عليه في معاشه ﴿وَمَسَاكِنَكُمْ﴾ أي: وارجعوا إلى مساكنكم التي كنتم تسكنونها وتفتخرون بها ﴿لَعَلَّكُمْ تَسْأَلُونَ﴾ أي: تقصدون للسؤال والتشاور والتبشير في المهمات، وهذا على طريقة التهكم بهم والتوبيخ لهم؛ وقيل: المعنى لعلكم تسألون عما نزل بكم من العقوبة فتخبرون به؛ وقيل: لعلكم تسألون أن تؤمنوا كما كنتم تسألون ذلك قبل

تعدّد الألهة، فقال: ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾ أي: لو كان في السموات والأرض آلهة معبودون غير الله لفسدتا أي: لبطلتا، يعني: السموات والأرض بما فيهما من المخلوقات. قال الكسائي، وسيبويه، والأخفش، والزجاج، وجمهور النحاة: إن إلا هنا ليست للاستثناء بل بمعنى غير صفة لألهة، ولذلك ارتفع الاسم الذي بعدها وظهر فيه إعراب غير التي جاءت إلا بمعناها، ومنه قول الشاعر:

وكل أخ مفارقه أخوه لعمر أبيك إلا الفرقدان

وقال الفراء: إن إلا هنا بمعنى سوى، والمعنى: لو كان فيهما آلهة سوى الله لفسدتا، ووجه الفساد أن كون مع الله إلهاً آخر يستلزم أن يكون كل واحد منهما قادراً على الاستبداد بالتصرف، فيقع عند ذلك التنازع والاختلاف ويحدث بسببه الفساد. **هـ** ﴿فسبحان الله ربّ العرش عما يصفون﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها من ثبوت الوجدانية بالبرهان: أي تنزّه عزّ وجلّ عما لا يليق به من ثبوت الشريك له، وفيه إرشاد للعباد أن ينزهوا الربّ سبحانه عما لا يليق به ﴿لا يسأل عما يفعل﴾ هذه الجملة مستأنفة مبيّنة أنه سبحانه لقوة سلطانه وعظيم جلاله لا يسأله أحد من خلقه عن شيء من قضائه وقدره **وهم** أي: العباد **يسألون** عما يفعلون أي: يسألهم الله عن ذلك لأنهم عبيده، وقيل: إن المعنى أنه سبحانه لا يؤاخذ على أفعاله وهم يؤاخذون. قيل والمراد بذلك أنه سبحانه بين لعباده أن من يسأل عن أعماله كالنبي والملائكة لا يصلح لأن يكون إلهاً **أم اتخذا من دونه آلهة** أي: بل اتخذا، وفيه إضراب وانتقال من إظهار بطلان كونها آلهة بالبرهان السابق إلى إظهار بطلان اتخاذها آلهة مع توبيخهم بطلب البرهان منهم، ولهذا قال: ﴿قل هاتوا برهانكم﴾ على دعوى أنها آلهة، أو على جواز اتخاذ آلهة سوى الله، ولا سبيل لهم إلى شيء من ذلك، لا من عقل ولا نقل، لأن لبيل العقل قد مرّ بيانه، وأما دليل النقل فقد أشار إليه بقوله: ﴿هذا نكر من معي ونكر من قبلي﴾ أي: هذا الوحي الوارد في شأن التوحيد المتضمن للبرهان القاطع نكر أمّتي ونكر الأمم السالفة وقد أقمته عليكم وأوضحته لكم، فأتقيموها أنتم برهانكم، وقيل: المعنى هذا القرآن وهذه الكتب التي أنزلت قبلي فانظروا هل في واحد منها أن الله أمر باتخاذ إله سواه. قال الزجاج: قيل لهم: هاتوا برهانكم بأن رسولاً من الرسل أنبا أمّته بأن لهم إلهاً غير الله، فهل في نكر من معي ونكر من قبلي إلا توحيد الله؟ وقيل: معنى الكلام الوعيد والتهديد أي: افعلا ما شئتم فعن قريب ينكشف الغطاء. وحكى أبو حاتم: إن يحيى بن يعمر وطلحة بن مصرف قرأ: هذا نكر من معي ونكر من قبلي بالتثنية وكسر الميم، وزعم أنه لا وجه لهذه القراءة. وقال الزجاج في توجيه هذه القراءة: إن المعنى هذا نكر مما أنزل إليّ ومما هو معي ونكر من قبلي، وقيل نكر كل من قبلي أي: جئت بما جاءت به الأنبياء من قبلي. ثم لما توجهت الحجة عليهم نهم بالجهل بمواضع

الحجة **هـ** وبالباطل شبههم، وقيل: الحق المواعظ، والباطل المعاصي، وقيل: الباطل الشيطان، وقيل: كنهم. ووصفهم الله سبحانه بغير صفاته **﴿فإذا هو زاهق﴾** أي: زائل ناهب؛ وقيل: هالك تالف، والمعنى متقارب، وإذا هي الفجائية **﴿ولكم الويل مما تصفون﴾** أي: العذاب في الآخرة بسبب وصفكم الله بما لا يجوز عليه؛ وقيل: الويل وإد في جهنم، وهو وعيد لقريش بأن لهم من العذاب مثل الذي لأولئك، ومن هي التعليلية **﴿وله من في السموات والأرض﴾** عبيداً وملكا، وهو خالقهم ورازقهم ومالكهم، فكيف يجوز أن يكون له بعض مخلوقاته شريكاً يعبد كما يعبد، وهذه الجملة مقررة لما قبلها **﴿ومن عنده﴾** يعني: الملائكة، وفيه ردّ على القائلين بأن الملائكة بنات الله، وفي التعبير عنهم بكونهم عنده إشارة إلى تشريفهم وكرامتهم، وأنهم بمنزلة المقربين عند الملوك، ثم وصفهم بقوله: **﴿لا يستكبرون عن عبادته﴾** أي: لا يتعاضمون ولا يأنفون عن عبادة الله سبحانه والتذلّل له **﴿ولا يستحسرون﴾** أي: لا يعيون، مأخوذ من الحسير، وهو البعير المنقطع بالإعياء والتعب، يقال: حسر البعير يحسر حسوراً أعياء وكل، واستحسر وتحسر مثله وحسرت أنا حسراً، يتعدى ولا يتعدى. قال أبو زيد: لا يكون، وقال ابن الأعرابي: لا يفشلون. قال الزجاج: معنى الآية أن هؤلاء الذين نكرتم أنهم أولاد الله عباد الله لا يأنفون عن عبادته ولا يتعظمون عنها كقوله: ﴿إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته﴾ [الأعراف: 206]. وقيل: المعنى لا ينقطعون عن عبادته وهذه المعاني متقاربة **﴿يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾** أي: ينزهون الله سبحانه دائماً لا يضعفون عن ذلك ولا يسمون؛ وقيل: يصلون الليل والنهار. قال الزجاج: مجرى التسبيح منهم كمجرى النفس منا لا يشغلنا عن النفس شيء، فكذلك تسبيحهم دائم، وهذه الجملة إما مستأنفة جواب سؤال مقدر، أو في محل نصب على الحال **﴿أم اتخذا آلهة من الأرض﴾** قال المفضل: مقصود هذا الاستفهام الجحد أي: لم يتخذا آلهة تقدر على الإحياء، وأم هي المنقطعة، والهمزة لإنكار الوقوع. قال المبريد: إن أم هنا بمعنى هل أي: هل اتخذ هؤلاء المشركون آلهة من الأرض يحيون الموتى، ولا تكون أم هنا بمعنى بل، لأن ذلك يوجب لهم إنشاء الموتى إلا أن تقتّر أم مع الاستفهام، فتكون أم المنقطعة، فيصح المعنى، ومن الأرض متعلق باتخذا، أو بمحذوف هو صفة لألهة، ومعنى **﴿هم ينشرون﴾** هم يبعثون الموتى، والجملة صفة لألهة، وهذه الجملة هي التي يدور عليها الإنكار والتجهيل، لا نفس الاتخاذ، فإنه واقع منهم لا محالة. والمعنى: بل اتخذا آلهة من الأرض هم خاصة مع حقارتهم ينشرون الموتى، وليس الأمر كذلك، فإن ما اتخذاها آلهة بمعزل عن ذلك. قرأ الجمهور (ينشرون) بضم الياء وكسر الشين من أنشره أي: أحياء، وقرأ الحسن بفتح الياء أي: يحيون ولا يموتون، ثم إنه سبحانه أقام البرهان على بطلان

قال الله ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ﴾ إلى قوله: ﴿خَامِسِينَ﴾ قلت: وقرئ حضور معروفة الآن بينها وبين مدينة صنعاء نحو بريد في جهة الغرب منها. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿حَصِيداً خَامِسِينَ﴾ قال: كخمود النار إذا طفت. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله: ﴿لَوْ أَرَبْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لِهَوَاهُ﴾ قال: للهر الولد. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، عن الحسن في قوله: ﴿لَوْ أَرَبْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لِهَوَاهُ﴾ قال: للنساء. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ يقول: لا يرجعون. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ قال: بعباده ﴿وَهُمْ يَسْأَلُونَ﴾ قال: عن أعمالهم. وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاک نحوه. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر عن ابن عباس قال: ما في الأرض قوم أبغض إلي من القدرية، وما ذاك إلا أنهم لا يعلمون قدرة الله، قال الله: ﴿لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يَسْأَلُونَ﴾.

الحق فقال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ﴾ وهذا إضراب من جهته سبحانه وانتقال من تبيكيتهم بمطالبتهم بالبرهان إلى بيان أنه لا يؤثر فيهم إقامة البرهان، لكونهم جاهلين للحق لا يميزون بينه وبين الباطل. وقرأ ابن محيصن، والحسن (الحق) بالرفع على معنى هذا الحق، أو هو الحق، وجملة ﴿فَهُمْ مَعْرُضُونَ﴾ تعليل لما قبله من كون أكثرهم لا يعلمون أي: فهم لأجل هذا الجهل المستولي على أكثرهم معرضون عن قبول الحق مستمزون على الإعراض عن التوحيد واتباع الرسول، فلا يتأملون حجة، ولا يتدبرون في برهان، ولا يتفكرون في دليل ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا يُوحِي إِلَيْهِ﴾ قرا حفص، وحزمة، والكسائي (نوحى) بالنون، وقرأ الباقون بالياء أي: نوحى إليه ﴿إِنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ وفي هذا تقرير لأمر التوحيد وتأكيد لما تقدم من قوله: ﴿هَذَا نَذْرٌ مِنْ مَعِي﴾ وختم الآية بالأمر لعباده بعبادته، فقال: ﴿فَاعْبُدُونِ﴾ فقد اتضح لكم دليل العقل، ودليل النقل وقامت عليكم حجة الله.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مروي، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ نَذْرُكُمْ﴾ قال: شرفكم. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الحسن في الآية قال: فيه حديثكم. وفي رواية عنه قال: فيه دينكم. وأخرج ابن مروي عن طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: بعث الله نبياً من حمير يقال له: شعيب، فوثب إليه عبد فضربه بعضاً، فسار إليهم بختنصر فقاتلهم فقتلهم حتى لم يبق منهم شيء، وفيهم أنزل الله ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا﴾ إلى قوله: ﴿خَامِسِينَ﴾. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر عن الكلبي في قوله: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ﴾ قال: هي حضور بني أزد، وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿وَارْجِعُوا إِلَى مَا أَتَرَقْتُمْ فِيهِ﴾ قال: أرجعوا إلى نوركم وأموالكم. وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿فَمَا زَلَّتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ﴾ قال: هم أهل حضور كانوا قتلوا نبيهم، فأرسل الله عليهم بختنصر فقتلهم، وفي قوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِسِينَ﴾ قال: بالسيف ضرب الملائكة وجوههم حتى رجعوا إلى مساكنهم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن وهب، قال: حدثني رجل من الجزيريين قال: كان اليمن قريتان، يقال لإحدهما حضور وللأخرى قلابة، فبطروا وأترفوا حتى ما كانوا يخلقون لبوابهم، فلما أترفوا بعث الله إليهم نبياً فدعاهم فقتلوه، فآلئى الله في قلب بختنصر أن يغزوهم، فجهز لهم جيشاً، فقاتلوهم فهزموا جيشه فرجعوا منهزمين إليه، فجهز إليهم جيشاً آخر أكثف من الأول، فهزموه أيضاً، فلما رأى بختنصر ذلك غزاها هو بنفسه، فقاتلوهم فهزمهم حتى خرجوا منها يركضون، فسمعوا منادياً يقول: ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أَتَرَقْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنُكُمْ﴾ فرجعوا، فسمعوا صوتاً منادياً يقول: يا لثارات النبي قتلوا بالسيف، فهي التي

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلِداً سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿١٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يُسْمَكُونَ ﴿١٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَنْشُورُونَ ﴿١٨﴾ إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِمْ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ أَوَلَمْ يَرِ الْآلِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يَوْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا جِبَالًا سُبُكًا لَكُمْ هُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفَافًا مَعْقُوطًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِنَا مُعْرِضُونَ ﴿٢٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ النَّارَ وَالنَّارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٢٣﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِشَرِّكَ قَبْلَكَ الْخَلْقَ أَفْئِينَ وَتَ هُمْ لِلْخَالِقِينَ ﴿٢٤﴾ كُلٌّ نَفْسٌ ذَائِقَةُ الْمَرْئِ وَبَلَّوْهُمْ بِالْأَسْرِ وَالْفَقْرِ فَتَنَّا وَاتَّبَعُوا رُغْمَتَهُمْ ﴿٢٥﴾

قوله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلِداً﴾ هؤلاء القائلون هم خزاعة، فإنهم قالوا: الملائكة بنات الله؛ وقيل: هم اليهود، ويصح حمل الآية على كل من جعل لله ولداً. وقد قالت اليهود: عزيز ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله. وقالت طائفة من العرب: الملائكة بنات الله. ثم نزه عز وجل نفسه، فقال: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أي: تنزيهاً له عن ذلك، وهو مقول على السنة العباد. ثم أضرِب عن قولهم وأبطله فقال: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ أي: ليسوا كما قالوا، بل هم عباد الله سبحانه مكرمون بكرامته لهم، مقربون عنده. وقرئ (مكرمون) بالتحشيد، وأجاز الزجاج والفراء نصب عباد على معنى: بل اتخذ عبداً، ثم وصفهم بصفة أخرى فقال: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ أي: لا يقولون شيئاً حتى يقوله أو يأمرهم به. كذا قال ابن قتيبة وغيره، وفي هذا دليل على كمال طاعتهم وانقيادهم. وقرئ (لا يسبقونه) بضم الباء من سبقته أسبقه ﴿وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ أي: هم العاملون بما

الزجاج: كل مخترق بين جبلين فهو فج و **﴿سبلاً﴾** تفسير للفجاج، لأن الفج قد لا يكون طريقاً نافذاً مسلوفاً **﴿لعلهم يهتدون﴾** إلى مصالح معاشهم، وما تدعو إليه حاجاتهم **﴿وجعلنا السماء سقفا محفوظاً﴾** عن أن يقع ويسقط على الأرض كقوله: **﴿ويمسك السماء أن تقع على الأرض﴾** [الحج: 65]. وقال الفراء: محفوظاً بالنجوم من الشيطان كقوله: **﴿وحفظنا ما من كل شيطان رجيم﴾** [الحجر: 17]. وقيل: محفوظاً لا يحتاج إلى عماد؛ وقيل: المراد بالمحفوظ هنا المرفوع؛ وقيل: محفوظاً عن الشر والمعاصي، وقيل: محفوظاً عن الهدم والنقض **﴿وهم عن آياتها معرضون﴾** أضاف الآيات إلى السماء، لأنها مجعولة فيها، وذلك كالشمس والقمر ونحوهما، ومعنى الإعراض أنهم لا يتنبهون فيها، ولا يتفكرون فيما توجه به من الإيمان **﴿وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر﴾** هذا تكثير لهم بنعمة أخرى مما أنعم به عليهم، وذلك بأنه خلق لهم الليل ليسكنوا فيه، والنهار ليتصرفوا فيه في معيشتهم، وخلق الشمس والقمر أي: جعل الشمس آية النهار، والقمر آية الليل، ليعلموا عدد الشهور والحساب كما تقدم بيانه في سبحان **﴿كل في فلك يسبحون﴾** أي: كل واحد من الشمس والقمر والنجوم في فلك يسبحون أي: يجرون في وسط الفلك، ويسيرون بسرعة كالسباح في الماء، والجمع في الفعل باعتبار المطالع، قال سيبويه: إنه لما أخبر عنهم بفعل من يعقل، وجعلهم في الطاعة بمنزلة من يعقل، جعل الضمير عنهم ضمير العقلاء، ولم يقل يسبحون أو تسبح، وكذا قال الفراء. وقال الكسائي: إنما قال يسبحون لأنه رأس آية، والفلك واحد أقلاك النجوم، وأصل الكلمة من الدوران، ومنه فلك المغزل لاستدارتها **﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد﴾** أي: نوام البقاء في الدنيا **﴿أفأنت مت﴾** بأجلك المحتوم **﴿فهم الخالدون﴾** أي: أفهم الخالدون. قال الفراء: جاء بالفاء لتدل على الشرط لأنه جواب قولهم سيموت. قال: ويجوز حذف الفاء وإضمارها، والمعنى: إن مت فهم يموتون أيضاً، فلا شماتة في الموت. وقرئ (مت) بكسر الميم وضمها لغتان: وكان سبب نزول هذه الآية قول المشركين فيما حكاه الله عنهم: **﴿إم يقولون شاعر نترصد به ريب المتنون﴾** [الطور: 30] **﴿كل نفس ذائقة الموت﴾** أي: زائقة مفارقة جسدها، فلا يبقى أحد من نوات الأنفس المخلوقة كائناً ما كان **﴿ونبيلوكم بالشر والخير فتنة﴾** أي: نخبركم بالشدّة والرخاء، لننظر كيف شكركم وصبركم. والمراد: أنه سبحانه يعاملهم معاملة من يبلوهم، وفتنة مصدر لنبلوكم من غير لفظه **﴿والينا ترجعون﴾** لا إلى غيرنا فنجازيكم بأعمالكم إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وقد خرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة قال: قالت اليهود إن الله عز وجل صاهر الجن فكانت بنينهم الملائكة، فقال الله تكليفاً لهم **﴿بل عباد مكرمون﴾** أي: الملائكة ليس كما قالوا، بل عباد أكرمهم بعبادته **﴿لا يسبقونه بالقول﴾**

يامرهم الله به، التابعون له المطيعون لربهم **﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾** هذه الجملة تعليل لما قبلها أي: يعلم ما عملوا وما هم عاملون، أو يعلم ما بين أيديهم وهو الآخرة، وما خلفهم وهو الدنيا، ووجه التعليل أنهم إذا علموا بأنه عالم بما قنموا وأخروا، لم يعملوا عملاً ولم يقولوا قولاً إلا بأمره **﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾** أي: يشفع الشافعون له، وهو من رضي عنه؛ وقيل: هم أهل لا إله إلا الله، وقد ثبت في الصحيح أن الملائكة يشفعون في الدار الآخرة **﴿وهم من خشيته مشفقون﴾** أي: من خشيتهم منه، فالمصدر مضاف إلى المفعول، والخشية الخوف مع التعظيم، والإشفاق الخوف مع التوقع والحذر أي: لا يامنون مكر الله **﴿ومن يقل منهم إني إله من دونه﴾** أي: من يقل من الملائكة إني إله من دون الله. قال المفسرون: عني بهذا إبليس، لأنه لم يقل أحد من الملائكة إني إله إلا إبليس؛ وقيل: الإشارة إلى جميع الأنبياء **﴿فذلك نجزيه جهنم﴾** أي: فذلك القائل على سبيل الغرض والتقدير: نجزيه جهنم بسبب هذا القول الذي قاله، كما نجزي غيره من المجرمين **﴿كذلك نجزي الظالمين﴾** أي: مثل ذلك الجزاء الفظيع نجزي الظالمين، أو مثل ما جعلنا جزاء هذا القائل جهنم، فكذلك نجزي الظالمين الواضعين الإلهية والعبادة في غير موضعها، والمراد بالظالمين: المشركون **﴿أو لم ير الذين كفروا﴾** الهمة للإنكار، والواو للعطف على مقدر، والرؤية هي القلبية أي: ألم يتفكروا أو لم يعلموا **﴿أن السموات والأرض كانتا رتقاً﴾** قال الأخفش: إنما قال كانتا، لأنهما صنفان أي: جماعتا السموات والأرضين كما قال سبحانه: **﴿إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا﴾** [فاطر: 41] وقال الزجاج: إنما قال كانتا لأنه يعبر عن السموات بلفظ الواحد، لأن السموات كانت سماء واحدة، وكذلك الأرضون، والرتق، السد ضد الفتق، يقال: رتقت الفتق ارتقه فارتقت أي: التام، ومنه الرتقاء للمنضمة الفرج يعني: إنهما كانتا شيئاً واحداً ملتزقتين ففصل الله بينهما، وقال رتقاً ولم يقل رتقين لأنه مصدر، والتقدير: كانتا نواتي رتق، ومعنى **﴿فففتقناهما﴾** ففصلناهما أي: فصلنا بعضهما من بعض، فرفعنا السماء، وأبقينا الأرض مكانها **﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾** أي: أحيينا بالماء الذي ننزله من السماء كل شيء، فيشمل الحيوان والنبات، والمعنى: أن الماء سبب حياة كل شيء؛ وقيل: المراد بالماء هنا النطفة، وبه قال أكثر المفسرين، وهذا احتجاج على المشركين بقدرة الله سبحانه وبديع صنعه، وقد تقدم تفسير هذه الآية، والهمة في **﴿فلا يؤمنون﴾** للإنكار عليهم، حيث لم يؤمنوا مع وجود ما يقتضيه من الآيات الربانية **﴿وجعلنا في الأرض رواسي﴾** أي: جبلاً ثوابت **﴿أن عميد بهم﴾** العميد التحرك والدوران أي: لئلا تتحرك وتورد بهم، أو كرامة ذلك، وقد تقدم تفسير ذلك في النحل مستوفى **﴿وجعلنا فيها﴾** أي: في الرواسي، أو في الأرض **﴿فجاجاً﴾** قال أبو عبيدة: هي المسالك. وقال

مَنْ يَكْفُرْكُمْ بِالْآيِلِ وَالْأَنْهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿١٧﴾ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٨﴾

قوله: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: المستهزئين من المشركين ﴿إِنْ يَتَخَذُونَكَ إِلَّا هُزْؤًا﴾ أي: ما يتخذونك إلا مهزوءاً بك، والهزؤ السخرية، وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر: 95] والمعنى: ما يفعلون بك إلا اتخذوك هزواً ﴿هَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ هو على تفسير القول أي: يقولون هذا الذي، فعلى هذا هو جواب إذا، ويكون قوله: ﴿إِنْ يَتَخَذُونَكَ إِلَّا هُزْؤًا﴾ اعتراضاً بين الشرط وجوابه، ومعنى ينكروها: يعيبها. قال الزجاج: يقال فلان يذكر الناس أي: يفتابهم، وينكروهم بالعيوب، وفلان يذكر الله أي: يصفه بالتعظيم ويثني عليه، وإنما يحذف مع الذكر ما عقل معناه، وعلى ما قالوا لا يكون للذكر في كلام العرب العيب، وحيث يراد به العيب يحذف منه السوء، قيل: ومن هذا قول عنتره:

لا تنكري مهري وما اطعمته فيكون جلدك مثل جلد الأجر
أي: لا تعيبي مهري، وجملة ﴿وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ هُم كَافِرُونَ﴾ في محل نصب على الحال أي: وهم بالقرآن كافرون، أو هم يذكرون الرحمن الذي خلقهم كافرون، والمعنى: أنهم يعييبون على النبي ﷺ أن يذكر آلِهَتَهُم التي لا تضر ولا تنفع بالسوء، والحال أنهم يذكرون الله سبحانه بما يليق به من التوحيد، أو القرآن كافرون، فهم أحق بالعيب لهم والإنكار عليهم، فالضمير الأول مبتدأ خبره كافرون، ويذكر متعلق بالخبر، والضمير الثاني تأكيد ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَجَلٍ﴾ أي: جعل لفرط استعجاله كأنه مخلوق من العجل. قال الفراء: كأنه يقول بنيته وخلقته من العجلة وعلى العجلة. وقال الزجاج: خوطبت العرب بما تعقل، والعرب تقول للذي يكثر منه الشيء خلقت منه كما تقول: أئت من لعب، وخلقت من لعب، تريد المبالغة في وصفه بذلك. ويدل على هذا المعنى قوله: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: 11]. والمراد بالإنسان: الجنس، وقيل: المراد بالإنسان آدم، فإنه لما خلقه الله ونفخ فيه الروح صار الروح في رأسه، فذهب لينهض قبل أن تبلغ الروح إلى رجليه فوق، فقيل: خلق الإنسان من عجل، كذا قال عكرمة وسعيد بن جبير، والسدي، والكلبي، ومجاهد، وقال أبو عبيدة وكثير من أهل المعاني: العجل الطين بلغة حمير. وأنشدوا:

والنخل تنبت بين الماء والعجل

وقيل: إن هذه الآية نزلت في النضر بن الحارث، وهو القاتل: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ﴾ [الأنفال: 32]. وقيل: نزلت في قريش لأنهم استعجلوا العذاب. وقال الأخفش: معنى خلق الإنسان من عجل أنه قيل له كن فكان؛ وقيل: إن هذه الآية من المقلوب أي: خلق العجل من الإنسان وقد حكى هذا عن أبي عبيدة والنحاس، والقول الأول أولى

يثنى عليهم ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ﴾ قال: لا تشفع الملائكة يوم القيامة ﴿إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى﴾ قال: لأهل التوحيد. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى﴾ قال: لأهل التوحيد لمن رضي عنه. وأخرج عبد بن حميد عن الحسن في الآية قال: قول لا إله إلا الله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في البعث عن ابن عباس في الآية قال: الذين ارتضاهم لشهادة أن لا إله إلا الله. وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقي في البعث عن جابر أن رسول الله ﷺ تلا قوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى﴾ قال: إن شفاعتي لأهل الكبائر من امتي. وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، والحاكم وصححه، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله: ﴿كَانُوا رِثْقًا فَفْتَنَّاهُمْ﴾ قال: فتنت السماء بالغيث، وفتنت الأرض بالنبات. وأخرج ابن أبي حاتم عنه ﴿كَانُوا رِثْقًا﴾ قال: لا يخرج منها شيء، ونكر مثل ما تقدم. وأخرجه ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو نعيم في الحلية عنه أيضاً من طريق أخرى. وأخرج ابن جرير عنه ﴿كَانُوا رِثْقًا﴾ قال: ملتصقين. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي العالية في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ قال: نطفة الرجل. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وعن ابن عباس ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سِبَالًا﴾ قال: بين الجبال. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿كُلٌّ فِي فَكٍّ﴾ قال: دوران ﴿يَسْبَحُونَ﴾ قال: يجرون. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة عنه ﴿كُلٌّ فِي فَكٍّ﴾ قال: فلك كفلكة المغزل ﴿يَسْبَحُونَ﴾ قال: يدورون في أبواب السماء، كما تنور الفلكة في المغزل. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: هو فلك السماء. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي عن عائشة قالت: نخل أبو بكر على النبي ﷺ وقد مات فقبله وقال: وإنبياء وأخيلاه وأصفياه، ثم تلا: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ الآية، وقوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: 30]. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ قال: نبئليكم بالشدة والرخاء، والصحة والسقم، والغنى والفقر، والحلال والحرام، والطاعة والمعصية والهدى والضلالة.

وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَخَذُونَكَ إِلَّا هُزْؤًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٧﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَجَلٍ سَأَلْتُمْكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَجِيبُونَ ﴿١٨﴾ وَتَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩﴾ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهِمْ أَلَسَاءٌ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُعْمَرُونَ ﴿٢٠﴾ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ رَدًّا وَلَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ أَسْتَوْدَعُوا رَسُولًا مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذَ بِآيَاتِنَا سَخَرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٢﴾ قُلْ

إن سلمي وأه يكلؤها ضنت بشيء ما كان يرزؤها أي: قل يا محمد لأولئك المستهزئين بطريق التفرغ والتوبيخ: من يحرسكم ويحفظكم بالليل والنهار من بأس الرحمن وعذابه الذي تستحقون حلوله بكم ونزوله عليكم؟ وقال الزجاج: معناه من يحفظكم من بأس الرحمن. وقال الفراء: المعنى من يحفظكم مما يريد الرحمن إنزاله بكم من عقوبات الدنيا والآخرة. وحكى الكسائي والفراء: من يكلؤكم بفتح اللام وإسكان الواو **﴿بل هم عن نكر ربه معرضون﴾** أي: عن نكره سبحانه فلا ينكرونه ولا يخطرونه ببالهم، بل يعرضون عنه، أو عن القرآن، أو عن مواعظ الله، أو عن معرفته **﴿أم لهم آلهة تمنعهم من نونا﴾** أم هي المنقطعة التي بمعنى بل، والهزمة للإضراب والانتقال عن الكلام السابق المشتمل على بيان جهلهم بحفظه سبحانه إياهم إلى توبيخهم وتقريعهم باعتمادهم على من هو عاجز عن نفع نفسه، والدفع عنها. والمعنى: بل لهم آلهة تمنعهم من عذابنا؛ وقيل: فيه تقديم وتأخير، والتقدير: أم لهم آلهة من نونا تمنعهم. ثم وصف آلهتهم هذه التي زعموا أنها تنصرهم بما يدل على الضعف والعجز فقال: **﴿لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يصحبون﴾** أي: هم عاجزون عن نصر أنفسهم فكيف يستطيعون أن ينصروا غيرهم ولا هم منا يصحبون أي: ولا هم يجارون من عذابنا. قال ابن قتيبة: أي لا يجيرهم منا أحد، لأن المجير صاحب الجار، والعرب تقول: صحبك الله أي: حفظك وأجارك، ومنه قول الشاعر:

ينادي بأعلى صوته متعوذاً ليصحب منا والرماح بواني
تقول العرب: أنا لك جار وصاحب من فلان أي: مجير منه. قال المازني: هو من أصحبت الرجل إذا منعته.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال: «مر النبي ﷺ على أبي سفيان وأبي جهل وهما يتحدثان، فلما رآه أبو جهل ضحك وقال لأبي سفيان: هذا نبي بني عبد مناف، فغضب أبو سفيان فقال: ما تنكرون أن يكون لبني عبد مناف نبي، فسمعها النبي ﷺ، فرجع إلى أبي جهل فوقع به وخوفه وقال: ما أراك منتهياً حتى يصيبك ما أصاب عمك، وقال لأبي سفيان: أما إنك لم تقل ما قلت إلا حمية»، فنزلت هذه الآية **﴿وإذا رآك الذين كفروا﴾**. قلت: ينظر من الذي روى عنه السدي. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر عن عكرمة قال: لما نفخ في أذن الروح صار في رأسه فعطس فقال: الحمد لله، فقالت الملائكة: يرحمك الله، فذهب لينهض قبل أن تمور في رجليه فوقه، فقال الله: **﴿خلق الإنسان من عجل﴾**. وقد أخرج نحو هذا ابن جرير، وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير. وأخرج نحوه أيضاً ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة عن مجاهد، وكذا أخرج ابن المنذر عن ابن جريج. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: **﴿قل من يكلؤكم﴾** قال: يحرسكم، وفي

﴿سأوريكم آياتي﴾ أي: سأريكم نعماتي منكم بعذاب النار **﴿فلا تستعجلون﴾** أي: لا تستعجلوني بالإتيان به، فإنه نازل بكم لا محالة، وقيل: المراد بالآيات ما دل على صدق محمد ﷺ من المعجزات وما جعله الله له من العاقبة المحمودة، والأول أولى، ويدل عليه قولهم: **﴿متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾** أي: متى حصول هذا الوعد، الذي تعنا به من العذاب، قالوا ذلك على جهة الاستهزاء والسخرية؛ وقيل: المراد بالوعد هنا القيامة، ومعنى **﴿إن كنتم صادقين﴾** إن كنتم يا معشر المسلمين صادقين في وعيدكم، والخطاب للنبي ﷺ وللمؤمنين الذين يتلون الآيات القرآنية المنزلة بمجيء الساعة وقرب حضور العذاب، وجملة **﴿لو يعلم الذين كفروا﴾** وما بعدها مقرر لما قبلها أي: لو عرفوا ذلك الوقت، وجواب لو محذوف، والتقدير: لو علموا الوقت الذي **﴿لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون﴾** لما استعجلوا الوعد. وقال الزجاج: في تقدير الجواب لعلموا صدق الوعد؛ وقيل: لو علموه ما أقاموا على الكفر. وقال الكسائي: هو تنبيه على تحقيق وقوع الساعة أي: لو علموه علم يقين لعلموا أن الساعة آتية، ويدل عليه قوله: **﴿بل تأتيهم بغتة﴾** وتخصيص الوجوه والظهور بالذكر بمعنى القدام والخلف لكونهما أشهر الجوانب الجوانب في استلزام الإحاطة بها للإحاطة بالكل بحيث لا يقدرون على دفعها من جانب من جوانبهم، ومحل حين لا يكفون النصب على أنه مفعول العلم، وهو عبارة عن الوقت الموعود الذي كانوا يستعجلونه، ومعنى ولا هم ينصرون: ولا ينصروهم أحد من العباد فيدفع ذلك عنهم، وجملة بل تأتيهم بغتة معطوفة على يكفون أي: لا يكفونها بل تأتيهم العدة أو النار أو الساعة بغتة أي: فجأة **﴿فتبتهم﴾** قال الجوهري: بته بهتاً أخذ بهتاً، وقال الفراء فتبتهم أي: تحيرهم؛ وقيل: فتفجؤهم **﴿فلا يستطيعون ردها﴾** أي: صرفها عن وجوههم ولا عن ظهورهم فالضمير راجع إلى النار؛ وقيل: راجع إلى الوعد بتأويله بالعدة؛ وقيل: راجع إلى الحين بتأويله بالساعة **﴿ولا هم ينظرون﴾** أي: يمهلون ويؤخرون لتوبة واعتذار، وجملة **﴿ولقد استهزئ برسك من قبلك﴾** مسوقة لتسلي رسول الله ﷺ وتعزيتة، كأنه قال: إن استهزأ بك هؤلاء فقد فعل ذلك بمن قبلك من الرسل على كثرة عددهم وخطر شأنهم **﴿فحاق بالذين سخروا منهم﴾** أي: أحاط ودار بسبب تلك بالذين سخروا من أولئك الرسل وهزئوا بهم **﴿ما كانوا به يستهزئون﴾** ما موصولة، أو مصدرية أي: فأحاط بهم الأمر الذي كانوا يستهزئون به، أو فأحاط بهم استهزؤهم أي: جزأه على وضع السبب موضع المسبب، أو نفس الاستهزاء، إن أريد به العذاب الآخروي **﴿قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن﴾** أي: يحرسكم ويحفظكم والكلاء الحراسة والحفظ، يقال: كلاء الله كلاء بالكسر أي: حفظه وحرسه. قال ابن هرة:

قراءة العامة، وقرأ الباقون بفتح الياء وفتح الميم ورفع الصم على أنه الفاعل ﴿وَلِئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ المراد بالنفحة. القليل، مأخوذ من نفح المسك قاله ابن كيسان، ومنه قول الشاعر:

وعمرة من سروات النسا ء تنفح بالمسك أردناها

وقال المبرد: النفحة الدفعة من الشيء التي دون معظمه، يقال: نفحه نفحة بالسيف إذا ضربه ضربة خفيفة؛ وقيل: هي النصيب، وقيل هي الطرف. والمعنى متقارب: أي ولئن مسهم أقل شيء من العذاب ﴿يَلْقَوْنَ فِيهَا قُلُوبًا تَلْقَىٰ فُجُورًا﴾ أي: ليدعون على أنفسهم بالويل والهلاك ويعترفون عليها بالظلم ﴿وَنُفِخَ فِي السُّنُوفِ﴾ أي: نفخ في النفوس يوم القيامة. الموازين جمع ميزان، وهو يدل على أن هناك موازين، ويمكن أن يراك ميزان واحد، عبر عنه بلفظ الجمع، وقد ورد في السنة في صفة الميزان ما فيه كفاية، وقد مضى في الأعراف، وفي الكهف في هذا ما يغني عن الإعادة. والقسط صفة للموازين. قال الزجاج: قسط مصدر يوصف به، تقول: ميزان قسط وموازين قسط. والمعنى: نوات قسط، والقسط العدل. وقرئ (القسط) بالصاد والطاء، ومعنى ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ لآل من يوم القيامة؛ وقيل: اللام بمعنى في أي: في يوم القيامة ﴿فَلَا تَظْلِمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ أي: لا ينقص من إحسان محسن ولا يزداد في إساءة مسيء ﴿وَأَنْ كَانَ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ﴾ قرأ نافع وشيبة وأبو جعفر برفع ميثقال على أن كان تامة؛ أي: إن وقع أو وجد ميثقال حبة. وقرأ الباقون بنصب الميثقال على تقدير: وإن كان العمل المدلول عليه بوضع الموازين ميثقال حبة، كذا قال الزجاج. وقال أبو علي الفارسي: وإن كان الظلامة ميثقال حبة. قال الواحدي: وهذا أحسن لتقدم قوله: فلا تظلم نفس شيئاً، وميثقال الشيء ميزانه أي: وإن كان في غاية الخفة والحقارة، فإن حبة الخردل مثل في الصغر ﴿أَتَيْنَاهَا بِهَا﴾ قرأ الجمهور بالقصر أي: أحضرناها وجئنا بها للمجازاة عليها، وبها أي: بحبة الخردل. وقرأ مجاهد وعكرمة (أتينا) بالمد على معنى جازينا بها، يقال أتى يؤاتي مؤاتاة جازى ﴿وَكُفِيَ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ أي: كفى بنا محصين، والحسب في الأصل معناه العد؛ وقيل: كفى بنا عالمين، لأن من حسب شيئاً علمه وحفظه؛ وقيل: كفى بنا مجازين على ما قُدموه من خير وشر. ثم شرع سبحانه في تفصيل ما أجمله سابقاً بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نَحْنُ إِلَيْهِمْ﴾ [الأنبياء: 7]. فقال: ﴿وَلَقَدْ أَتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفِرْقَانِ وَضِيَاءَ وَنُوحًا﴾ المراد بالفرقان هنا: التوراة. لأن فيها الفرق بين الحلال والحرام، وقيل: الفرقان هنا هو النصر على الأعداء كما في قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَىٰ عِبْنَانَا يَوْمَ الْفِرْقَانِ﴾ [الأنفال: 41]. قال الثعلبي: وهذا القول أشبه بظاهر الآية، ومعنى وضياء: أنهم استضاءوا بها في ظلمات الجهل والغواية، ومعنى ﴿وَنُوحًا﴾ الموعظة أي: أنهم يتعظون بما فيها، وخصّ المتقين لأنهم الذين ينتفعون بذلك، ووصفهم بقوله:

قوله: ﴿وَلَا هُمْ مِنْ يَصْحَابُونَ﴾ قال: لا ينصرون. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا هُمْ مِنْ يَصْحَابُونَ﴾ قال: لا يجارون. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه في الآية: قال لا يمتنعون.

بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَلَعَتْ عَلَيْهِمُ السَّاعَةُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّ نَارِي الْأَرْضِ نَفْثُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنَّمَا أُذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُدْعَوْنَ ﴿١١﴾ وَلَكِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَكُونُنَّ يَوْمَئِذٍ لَنَا كُفًَّا عَلَيْهِمْ ﴿١٢﴾ وَنُفِخَ فِي السُّنُوفِ الْقِطْعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَلَا تُطْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفِرْقَانِ وَضِيَاءَ وَنُوحًا لِكُلِّ قَوْمٍ ﴿١٤﴾ أَلَيْسَ بِمُتَشَوِّطٍ رَبُّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿١٥﴾ وَهَذَا ذِكْرُ مَنَازِلِ أَنْزَلْنَاهُ أَفَانْتُمْ لَمْ تَكُونُوا ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَلَىٰ ﴿١٧﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿١٨﴾ قَالُوا وَبَدَّأَ آبَاؤُنَا مَا لَنَا بِعِبَادِكُمْ شَأْنٌ قَالُوا لَقَدْ كُنتُمْ أَتْرَابًا وَكُنْتُمْ فِي شَكَلٍ مِثْلِ هَؤُلَاءِ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّامِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ بَلْ زَكَّيْتُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْأَدْنَىٰ فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذِكْرِ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾

لما أبطل كون الأصنام نافعة أضرب عن ذلك منتقلاً إلى بيان أن ما هم فيه من الخير والتمتع بالحياة العاجلة هو من الله، لا من مانع يمنهم من الهلاك، ولا من ناصر ينصرهم على أسباب التمتع فقال: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ﴾ يعني: أهل مكة متعمهم الله بما أنعم عليهم ﴿حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ فاغترتوا بذلك وظنوا أنهم لا يزالون كذلك، فرد سبحانه عليهم قائلًا: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾ أي: أقل ينظرون فيرون ﴿إِنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ أي: أرض الكفر ننقصها بالظهور عليها من أطرافها فنفتحها بلدًا بعد بلد وأرضاً بعد أرض، وقيل: ننقصها بالقتل والسبي، وقد مضى في الردع الكلام على هذا مستوفى، والاستفهام في قوله: ﴿أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ للإنكار، والفاء للعطف على مقدر كمنظائره أي: كيف يكونون غالبين بعد نقصنا لأرضهم من أطرافها؟ وفي هذا إشارة إلى أن الغالبين هم المسلمون ﴿قُلْ إِنَّمَا أُذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾ أي: أخوفكم وأحذركم بالقرآن، وذلك شائي وما أمرني الله به، وقوله: ﴿وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ﴾ إما من تنمة الكلام الذي أمر النبي ﷺ أن يقول لهم، أو من جهة الله تعالى. والمعنى: أن من أصم الله سمعه وختم على قلبه وجعل على بصره غشاوة لا يسمع الدعاء. قرأ أبو عبد الرحمن السلمي ومحمد بن السميع (ولا يسمع) بضم الياء وفتح الميم على ما لم يسم فاعله. وقرأ ابن عامر، وأبو حيوة، ويحيى بن الحارث بالتاء الفوقية مضمومة وكسر الميم أي: إنك يا محمد لا تسمع هؤلاء. قال أبو علي الفارسي. ولو كان كما قال ابن عامر لكان إذا ما تنذرهم فيحسن نظم الكلام، فاما ﴿إِذَا مَا يَنْذُرُونَ﴾ فحسن أن يتبع

زعم أنه لم يقف على ليليل يخالفها، إما لقصور منه أو لتقصير في البحث فوجد ذلك الدليل من وجده وأبرزه واضح المنار:

كأنه علم في رأسه نار

وقال: هذا كتاب الله أو هذه سنة رسوله، وأنشدهم:

دعوا كل قول عند قول محمد فما آمن في دينه كمخاطر
فقالوا كما قال الأول:

ما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وأن ترشد غزية أرشد
وقد أحسن من قال:

يا بى الفتى لا اتباع الهوى ومنهج الحق له واضح
ثم لما سمع أولئك مقالة الخليل **﴿قالوا اجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين﴾** أي: أجاد أنت فيما تقول أم أنت لاعب مازح قال: مضرباً عما بنوا عليه مقالاتهم من التقليد **﴿بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن﴾** أي: خلقهن وأبدعهن **﴿وانا على نذركم﴾** الذي نذركه لكم من كون ربكم هو رب السموات والأرض بون ما عداه **﴿من الشاهدين﴾** أي: العالمين به المبرهنين عليه، فإن الشاهد على الشيء هو من كان عالماً به مبرهنًا عليه مبينًا له.

وقد أخرج أحمد، والترمذي، وابن جرير في تهذيبه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عن عائشة: «أن رجلاً قال: يا رسول الله إن لي مملوكين يكذبونني ويخونونني ويعصونني وأضربهم وأشتهم فكيف أنا منهم؟ فقال له رسول الله ﷺ: يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك وعقابك إياهم، فإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلاً لك، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم كان كفافاً لا عليك ولا لك، وإن كان عقابك إياهم من مفرقتهم اقتصر لهم منك الفضل، فجعل الرجل يبكي ويهتف، فقال رسول الله ﷺ: أما تقرأ كتاب الله **﴿ونضع للموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾** فقال له الرجل: يا رسول الله ما أجد لي ولهم خيراً من مفارقتهم أشبهك أنهم أحرار». رواه أحمد هكذا: حدثنا أبو نوح الأقراد، أخبرنا ليث بن سعد عن مالك بن أنس، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة فنكره، وفي معناه أحاديث. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر عن ابن عباس أنه كان يقرأ: **﴿ولقد أتينا موسى وهارون الفرقان وضياء﴾**. وأخرج عبد بن حميد عن أبي صالح **﴿ولقد أتينا موسى وهارون الفرقان﴾** قال: التوراة. وأخرج ابن جرير عن قتادة نحوه. وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال: **﴿الفرقان﴾** الحق. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة **﴿وهذا نكر مبارك﴾** أي: القرآن. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: **﴿ولقد أتينا إبراهيم رشده﴾** قال: هديناه صغيراً. وفي قوله: **﴿ما هذه التماثيل﴾** قال: الأصنام.

وَتَالُوهُ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَمَكُمْ بَدَأَ كُتُوبًا مَدِينٍ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جَذَاءً إِلَّا

﴿الذين يخشون ربهم بالغيب﴾ لأن هذه الخشية تلازم التقوى. ويجوز أن يكون الموصول بدلاً من المتقين أو بياناً له، ومحل بالغيب النصب على الحال أي: يخشون عذابه وهو غائب عنهم، أو هم غائبون عنه لأنهم في الدنيا، والعذاب في الآخرة. وقرأ ابن عباس وعكرمة (ضياء) بغير واو. قال الفراء: حذف الواو والمجيء بها واحد، واعترضه الزجاج بأن الواو تجيء لمعنى فلا تزداد **﴿وهم من الساعة مشفقون﴾** أي: وهم من القيامة خائفون وجلون، والإشارة بقوله: **﴿وهذا نكر مبارك﴾** إلى القرآن. قال الزجاج: المعنى وهذا القرآن نكر لمن تذكر به وموعظة لمن انتعظ به. والمبارك كثير البركة والخير. وقوله: **﴿انزلناه﴾** صفة ثانية للذكر، أو خبر بعد خبر، والاستفهام في قوله: **﴿انزلناه﴾** له منكره للإينكار لما وقع منهم من الإنكار أي: كيف تنكرون كونه منزلاً من عند الله مع اعترافكم بأن التوراة منزلة من عنده **﴿ولقد أتينا إبراهيم رشده﴾** أي: الرشد اللائق به وبإيمانه من الرسل، ومعنى **﴿من قبل﴾** أنه أعطى رشده قبل إيتاء موسى وهرون التوراة. وقال الفراء: المعنى أعطيناه هداً من قبل النبوة أي: وفقناه للنظر والاستدلال لما جئ عليه الليل فرأى الشمس والقمر والنجم، وعلى هذا أكثر المفسرين، وبالأول قال أقلهم **﴿وكننا به عالمين﴾** أنه موضع لإيتاء الرشد، وأنه يصلح لذلك، والظرف في قوله: **﴿إذ قال لأبيه﴾** متعلق بآتيناه أو بمحنوف أي: أنكر حين قال، وأبوه هو آزر **﴿وقومه﴾** نمرود ومن اتبعه، والتمثاليل الأصنام، وأصل التمثال الشيء المصنوع مشابهاً لشيء من مخلوقات الله سبحانه، يقال مثلث الشيء بالشيء: إذا جعلته مشابهاً له، واسم ذلك الممثل تمثال، أنكر عليهم عبادتها بقوله: **﴿ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون﴾** والركوف عبارة عن اللزوم والاستمرار على الشيء، واللام في لها للاختصاص، ولو كانت للتعبية لجيء بكلمة على أي: ما هذه الأصنام التي أنتم مقيمون على عبادتها؟ وقيل: إن الركوف مضمن معنى العبادة **﴿قالوا وجدنا آبائنا لها عاكبين﴾** أجابوه بهذا الجواب الذي هو العصا التي يتوكأ عليها كل عاجز، والحبل الذي يتشبث به كل غريق، وهو التمسك بمجرد تقليد الآباء أي: وجدنا آبائنا يعبدونها فعبدناها اقتداء بهم ومشياً على طريقته، وهكذا يجيب هؤلاء المقلدة من أهل هذه الملة الإسلامية، وإن العالم بالكتاب والسنة إذا أنكر عليهم العمل بمحض الرأي المدفوع بالدليل قالوا هذا قد قال به إمامنا الذي وجدنا آبائنا له مقلدين وبراهين آخزين، وجوابهم هو ما أجاب به الخليل ما هنا **﴿قال لقد كنتم أنتم وأباؤكم في ضلال مبين﴾** أي: في خسران واضح ظاهر لا يخفى على أحد ولا يلتبس على ذي عقل، فإن قوم إبراهيم عبدوا الأصنام التي لا تضر ولا تنفع ولا تسمع ولا تبصر، وليس بعد هذا الضلال ضلال، ولا يساوي هذا الخسران خسران، وهؤلاء المقلدة من أهل الإسلام استقبلوا بكتاب الله وبسنة رسوله كتاباً قد نوتت فيه اجتهادات عالم من علماء الإسلام

للمستفهمين لهم، وهذا القائل هو الذي سمع إبراهيم يقول: ﴿تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾ ومعنى ﴿يُنْكِرُهُمْ﴾ يعيبهم، وقد سبق تحقيق مثل هذه العبارة، وجملة ﴿يُنْقَلِبُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ صفة ثانية لفتى. قال الزجاج: وارتفع إبراهيم على معنى: يقال له هو إبراهيم، فهو على هذا خبر مبتدأ محذوف، وقيل: ارتفاعه على أنه مفعول ما لم يسم فاعله، وقيل: مرتفع على النداء.

ومن غرائب التدقيقات النحوية، وعجائب التوجيهات الإعرابية، أن الأعلام الشنمري الأشبيلي قال: إنه مرتفع على الإهمال، قال ابن عطية: ذهب إلى رفعه بغير شيء. والفتى: هو الشاب، والفتاة الشابة ﴿قَالُوا فَاتُوا بِهِ عَلَى عَيْنِ النَّاسِ﴾ القائلون هم السائلون، أمروا بعضهم أن يأتي به ظاهراً بمرأى من الناس. قيل: إنه لما بلغ الخبر نمرود وأشراف قومه كرهوا أن يأخضروه بغير بينة، فقالوا هذه المقالة ليكون ذلك حجة عليه يستحلون بها منه ما قد عزموا على أن يفعلوه به، ومعنى ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ لعلمهم يحضرون عقابه حتى ينزجر غيره عن الاقتداء به في مثل هذا؛ وقيل: لعلمهم يشهدون عليه بأنهم رأوه يكسر الأصنام، أو لعلمهم يشهدون طعنه على أصنامهم، وجملة ﴿قَالُوا أَتَتَّ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْثَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر، وفي الكلام حذف تقديره: فجاء إبراهيم حين أتوا به فاستفهموه هل فعل ذلك لإقامة الحجة عليه في زعمهم ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ أي: قال إبراهيم مقيماً للحجة عليهم مبتكراً لهم، بل فعله كبيرهم هذا مشيراً إلى الصنم الذي تركه ولم يكسره ﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ أي: إن كانوا ممن يمكنه النطق ويقرر على الكلام ويفهم ما يقال له، فيجيب عنه بما يطابقه، أراد عليه الصلاة والسلام أن يبين لهم أن من لا يتكلم ولا يعلم ليس بمستحق للعبادة، ولا يصح في العقل أن يطلق عليه أنه إله. فأخرج الكلام مخرج التعريض لهم بما يوقعهم في الاعتراف بأن الجمادات التي عبدوها ليست بآلهة، لأنهم إذا قالوا إنهم لا ينطقون، قال لهم: فكيف تعبون من يعجز عن النطق، ويقصر عن أن يعلم بما يقع عنده في المكان الذي هو فيه؟ فهذا الكلام من باب فرض الباطل مع الخصم حتى تلزمه الحجة ويعترف بالحق، فإن ذلك أقطع لشبهته وأدفع لمكابرته؛ وقيل: أراد إبراهيم عليه السلام بنسبة الفعل إلى ذلك الكبير من الأصنام أنه فعل ذلك لأنه غار وغضب من أن يعبد وتعبد الصغار معه إرشاداً لهم إلى أن عبادة هذه الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر ولا تتفعل ولا تدفع لا تستحسن في العقل مع وجود خالقها وخالقهم، والأول أولى. وقرأ ابن السميغ بل فعله بتشديد اللام على معنى بل فعل الفاعل كبيرهم ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: رجع بعضهم إلى بعض رجوع المنقطع عن حجته المتفطن لصحة حجة خصمه المراجع لعقله، وذلك أنهم تنبهوا وفهموا عند هذه المقالة بينهم وبين إبراهيم أن من لا يقدر على دفع المضرة عن

كبيرهم فم فعلهم إليه يرجعون ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿قَالُوا قَاتِلُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ قَالُوا أَأَتَتْكَ هَذِهِ نِسَاءُكَ يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَتَشْتَكُونَ إِنْ كُنَّا نَبْقِطُونَ ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ثُمَّ تَكُونُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَبْقِطُونَ ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ أَوَلَمْ تَكُونُوا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ فَلَمَّا يَنْتَازِ كُونِي رَبِّكَ وَسَلِّمْنَا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾

قوله: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾ أخبرهم أنه سينتقل من المحاجة باللسان إلى تغيير المنكر بالفعل ثقة بالله سبحانه ومحاماة على دينه، والكيد المكر يقال: كاده يكديه كيداً ومكيدة، والمراد هنا الاجتهاد. في كسر الأصنام قيل: إنه عليه الصلاة والسلام قال ذلك سرّاً؛ وقيل: سمعه رجل منهم ﴿يَعِدُ أَنْ تَوَلَّوْا مُبِيرِينَ﴾ أي: بعد أن ترجعوا من عبادتها ذاهبين منطلقين. قال المفسرون: كان لهم عيد في كل سنة يجتمعون فيه، فقالوا لإبراهيم: لو خرجت معنا إلى عينا أعجبك ديننا، فقال إبراهيم هذه المقالة. والفاء في قوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ جَذَاذًا﴾ فصيحة أي: فولوا، فجعلهم جذاذاً الجذ: القطع والكسر، يقال: جذت الشيء قطعت وكسرت، الواحد جذاذة، والجذاذ والجذاذ ما كسر منه. قال الجوهري: قال الكسائي: ويقال لجذارة الذهب الجذاذ لأنها تكسر. قرأ الكسائي، والأعمش، وابن محيصن (جذاذاً) بكسر الجيم أي: كسراً وقطعاً، جمع جنيذ: وهو الهشيم، مثل خفيف وخفاف، وظريف وظراف. قال الشاعر:

جذذ الأصنام في محرابها ذاك في الله العلي المقدر
وقرأ الباقون بالضم، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم أي: الحطام والرقاق، فعال بمعنى مفعول، وهذا هو الكيد الذي وعدهم به. وقرأ ابن عباس وأبو السماك (جذاذاً) بفتح الجيم ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ﴾ أي: للأصنام ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى إبراهيم ﴿يَرْجِعُونَ﴾ فيحاجهم بما سيأتي فيحجهم؛ وقيل: لعلمهم إلى الصنم الكبير يرجعون فيسألونه عن الكسر، لأن من شأن المعبود أن يرجع إليه في المهمات، فإذا رجعوا إليه لم يجدوا عنده خبراً، فيعلمون حينئذ أنها لا تجلب نفعاً ولا تدفع ضرراً، ولا تعلم بخير ولا شر، ولا تخبر عن الذي ينوبها من الأمر، وقيل: لعلمهم إلى الله يرجعون، وهو بعيد جداً ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِالْهَيْثَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ في الكلام حذف، والتقدير: فلما رجعوا من عيدهم ورأوا ما حدث بآلهتهم قالوا هذه المقالة، والاستفهام للتوبيخ، وقيل: إن من ليست استفهامية، بل هي مبتدأ وخبرها إنه لم الظالمين أي: فاعل هذا ظالم، والأول أولى لقولهم: ﴿سَمِعْنَا فَتًى﴾ إلخ، فإنه قال بهذا بعضهم مجيباً

نفسه ولا على الإضرار بمن فعل به ما فعله إبراهيم بتلك الأصنام، يستحيل أن يكون مستحقاً للعبادة، ولهذا ﴿قالوا إنكم أنتم الظالمون﴾ أي: قال بعضهم لبعض: أنتم الظالمون لأنفسكم بعبادة هذه الجُمادات، وليس الظالم من نسبتم الظلم إليه بقولكم: إنه لمن الظالمين ﴿ثم نكسوا على رؤوسهم﴾ أي: رجعوا إلى جهلهم وعنادهم، شبه سبحانه عودهم إلى الباطل بصيرورة أسفل الشيء أعلاه، وقيل المعنى: أنهم طأطأوا رؤوسهم خجلة من إبراهيم، وهو ضعيف لأنه لم يقل نكسوا رؤوسهم بفتح الكاف وإسناد الفعل إليهم حتى يصح هذا التفسير، بل قال: نكسوا على رؤوسهم، وقرئ نكسوا بالتشديد، ثم قالوا بعد أن نكسوا مخاطبين لإبراهيم ﴿لقد علمت ما هؤلاء ينطقون﴾ أي: قائلين لإبراهيم لقد علمت أن النطق ليس من شأن هذه الأصنام، ﴿قال﴾ إبراهيم مبكثاً لهم ومزرياً عليهم ﴿افتعبلون من نون الله ما لا ينفعكم شيئاً﴾ من النفع ﴿ولا يضركم﴾ بنوع من أنواع الضرر، ثم تضجر عليه السلام منهم، فقال: ﴿إف لكم ولما تعبدون من دون الله﴾ وفي هذا تحقير لهم ولمعبوداتهم، واللام في لكم لبيان المتأفف به أي: لكم ولألهتكم، والتأفف صوت يدل على التضجر ﴿أفلا تعقلون﴾ أي: ليس لكم عقول تفكرون بها، فتعلمون هذا الصنع القبيح الذي صنعتموه ﴿قالوا حرّقوه﴾ أي: قال بعضهم لبعض لما أعيتهم الحيلة في نفع إبراهيم، وعجزوا عن مجالته، وضائق عليهم مسالك المناظرة: حرّقوا إبراهيم انصرافاً منهم إلى طريق الظلم والغشم، وميلاً منهم إلى إظهار الغلبة بأي وجه كان، وعلى أي أمر اتفق، ولهذا قالوا: ﴿وانصروا ألهتكم إن كنتم فاعلين﴾ أي: انصروها بالانتقام من هذا الذي فعل بها ما فعل إن كنتم فاعلين للنصر وقيل: هذا القاتل هو نمرود، وقيل: رجل من الأكراد ﴿قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾ في الكلام حنف تغنيده فاضرموا النار، وذهبوا بإبراهيم إليها، فعند ذلك قلنا: يا نار كوني ذات بردٍ وسلام، وقيل: إن انتصاب سلاماً على أنه مصدر لفعل محذوف أي: وسلمنا سلاماً عليه ﴿وارأوا به كيداً﴾ أي: مكرًا ﴿فجعلناهم الأخسرين﴾ أي: أخسر من كل خاسر، وربنا مكرهم عليهم، فجعلنا لهم عاقبة السوء، كما جعلنا لإبراهيم عاقبة الخير.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال: لما خرج قوم إبراهيم إلى عيدهم مَرُّوا عليه، فقالوا: يا إبراهيم ألا تخرج معنا؟ قال: إني سقيم، وقد كان بالأمس، قال: ﴿تالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين﴾ فسمعه أناس منهم. فلما خرجوا انطلق إلى أهله، فأخذ طعاعاً ثم انطلق إلى آلِهِمْ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ، فقال: ألا تاكلون؟ فكسرهما إلا كبيرهم. ثم ربط في يده الذي كسر به آلِهِمْ، فلما رجع القوم من عيدهم دخلوا، فإذا هم بآلِهِمْ قد كسرت، وإذا كبيرهم في يده الذي كسر الأصنام، قالوا: من فعل هذا بآلِهِمْ؟ فقال

الذين سمعوا إبراهيم يقول: ﴿تَاللهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾ ﴿سَمِعْنَا قُتِي يَنْكُرُهُمْ﴾ فجاءلهم عند ذلك إبراهيم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿جَذَاذًا﴾ قال: حطاماً. وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال: فتأتاً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه أيضاً ﴿بِئْسَ فَعْلُهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ قال: عظيم آلهتهم. وأخرج أبو داود، والترمذي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لم يكن إبراهيم في شيء قط إلا في ثلاث كلهن في الله: قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ ولم يكن سقيماً، وقوله لسارة أختي، وقوله: ﴿بِئْسَ فَعْلُهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾». وهذا الحديث هو في الصحيحين من حيث أبي هريرة بأطول من هذا. وقد روى نحو هذا أبو يعلى من حديث أبي سعيد. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: لما جمع لإبراهيم ما جمع، وألقي في النار جعل خازن المطر يقول: متى أؤمر بالمطر فأرسله؟ فكان أمر الله أسرع، قال الله ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا﴾ فلم يبق في الأرض نار إلا طفتت. وأخرج أحمد، وابن ماجه، وابن حبان، وأبو يعلى، وابن أبي حاتم، والطبراني عن عائشة، أن رسول الله ﷺ قال: «إن إبراهيم حين ألقى في النار لم تكن دابة إلا تطفئ عنه النار، غير الوزغ فإنه كان ينفخ على إبراهيم، فأمر رسول الله ﷺ بقتله». وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف، وابن المنذر عن ابن عمر، قال: أول كلمة قالها إبراهيم حين ألقى في النار «حسبنا الله ونعم الوكيل». وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله: ﴿يَا نَارُ كُونِي﴾ قال: كان جبريل هو الذي ناداه. وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: لو لم يتبع بردها سلاماً لمات إبراهيم من بردها. وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، وأحمد في الزهد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن علي بن نحوه. وأخرج ابن جرير عن معتمر بن سليمان التيمي، عن بعض أصحابه قال: جاء جبريل إلى إبراهيم وهو يوثق ليلقى في النار. فقال: يا إبراهيم ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر عن مكعب قال: ما أحرقت النار من إبراهيم إلا وثاقه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن المنهال بن عمرو قال: أخبرني أن إبراهيم ألقى في النار، فكان فيها إمام خمسين وإمام أربعين، قال: ما كنت إماماً وليالي قط أطيب عيشاً إذ كنت فيها، ودنت أن عيشي وحياتي كلها مثل عيشي إذ كنت فيها.

وَنَجِّنَهُ وَلَوْلَا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَعَيْنَا لَهُ
إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۚ وَلَا جَمْعًا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً
يَعْبُدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ
الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا آيَاتُنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجِّنَهُ مِنَ
الْعَرَبِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ لِنَفْسِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سُوءٍ فَكَيِّدِينَ ﴿٧٤﴾
وَأَعْلَنَّا فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذْ سَاوَى مِنْ قَبْلُ

بالطوفان، والكرب الغم الشديد، والمراد بأهله: المؤمنون منهم **﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾** أي: نصرناه نصراً مستتباً للانتقام من القوم المنكرين؛ وقيل: المعنى منعناه من القوم. وقال أبو عبيدة: من بمعنى على، ثم علل سبحانه ذلك بقوله: **﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾** أي: لم تترك منهم أحداً، بل أغرقنا كبيرهم وصغيرهم بسبب إصرارهم على الذنب.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن أبي بن كعب في قوله: **﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾** قال: الشام. وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي مالك نحوه. وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس قال: لوط كان ابن أخي إبراهيم. وأخرج ابن جرير عنه **﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ﴾** قال: ولدًا **﴿وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾** قال: ابن الابن. وأخرج ابن جرير عن قتادة نحوه. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الحكم نحوه أيضاً. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد **﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ﴾** قال: أعطيناه **﴿وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾** قال: عطية.

وَأَوْرَثَهُ وَتِلْكَ آيَاتُ الْكُرْآنِ الَّتِي نَقُتُّ فِيهَا عَمَّا يُوقِنُ
وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٦﴾ فَهَمَّ نَهَا سُلَيْمَانَ وَكَوْنًا حَكَمًا
وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجَبَالَ يُسَبِّحُونَ وَاللَّيْلُ وَكُنَّا فَعِيلِينَ ﴿٧٧﴾
وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِنُخْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ
﴿٧٨﴾ وَلَسَلِمْنَا إِلَى السَّيْلِ عِلْمَهُ بِأَمْرِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا
بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ ﴿٧٩﴾ وَفَرَسَ الشَّيْطَانُ مِنْ يَوْصُوتَ لَمْ يَمْلُوكَ عَمَلًا
دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَفِظِينَ ﴿٨٠﴾ وَأَوْرَثَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي سَأَلْتُ
الْعِزَّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨١﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ
وَأَعْنَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمَنْ هُمْ مَعَهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَكَرَّمْنَا لِعِيسَى
وَأَلَسَّيْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِذْ نَادَى مِنْ مُنْجِبًا فَطَنَّ أَنْ لَنْ
نَقُورَ عَلَيْهِ فَنَكْثَ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ
مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٢﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَجَعَلْنَاهُ مِنَ الْغُفَّارِ وَكَذَلِكَ نُشَوِّحُ
الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٣﴾

قوله: **﴿وداود﴾** معطوف على نوحاً ومعطوف لعامله المذكور، أو المقدر كما مر **﴿وسليمان﴾** معطوف على داود، والظرف في **﴿إذ يحكمان﴾** متعلق بما عمل في داود أي: وانكرهما وقت حكمهما. والمراد من نكرهما: نكر خبرهما. ومعنى **﴿في الحرث﴾** في شأن الحرث، قيل: كان زرعاً، وقيل: كرمًا، واسم الحرث يطلق عليهما **﴿إذ نفثت فيه﴾** أي: تفرقت وانتشرت فيه **﴿غشم للقوم﴾** قال ابن السكيت: النفث بالتحريك أن تنتشر الغم بالليل من غير راع **﴿وكنا لحكمهم شاهدين﴾** أي: لحكم الحاكمين، وفيه جواز إطلاق الجمع على الاثنين، وهو مذهب طائفة من أهل العربية كالزمخشري والرضي، وتقدمهما إلى القول به الفراء؛ وقيل:

فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَجَعَلْنَاهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾

قد تقدم أن لوطاً هو ابن أخي إبراهيم، فحكى الله سبحانه ما هنا أنه نجى إبراهيم ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين. قال المفسرون: وهي أرض الشام، وكنا بالعراق، وسماها سبحانه مباركة لكثرة خصبها وثمارها وأنها راء، ولأنها معادن الأنبياء، وأصل البركة ثبوت الخير، ومنه برك البعير إذا لزم مكانه فلم يبرح وقيل: الأرض المباركة مكة، وقيل: بيت المقدس لأن منها بعث الله أكثر الأنبياء، وهي أيضاً كثيرة الخصب، وقد تقدم تفسير العالمين. ثم قال سبحانه ممتناً على إبراهيم **﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾** النافلة الزيادة، وكان إبراهيم قد سأل الله سبحانه أن يهب له ولداً، فوهب له إسحاق، ثم وهب لإسحاق يعقوب من غير دعاء، فكان ذلك نافلة أي: زيادة، وقيل: المراد بالنافلة هنا العطية قاله الزجاج؛ وقيل: النافلة هنا ولد الولد، لأنه زيادة على الولد، وانتصاب نافلة على الحال. قال الفراء: النافلة يعقوب خاصة، لأنه ولد الولد **﴿وكلا جعلنا صالحين﴾** [الأنبياء: 72] أي: وكل واحد من هؤلاء الأربعة: إبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب، لا بعضهم لون بعض جعلناه صالحاً عاملاً بطاعة الله تاركاً لمعاصيه، وقيل: المراد بالصلاح هنا النبوة **﴿وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا﴾** أي: رؤساء يقتدى بهم في الخيرات وأعمال الطاعات ومعنى بأمرنا بأمرنا لهم بذلك أي: بما أنزلنا عليهم من الوحي **﴿وأوحينا إليهم فعل الخيرات﴾** أي: أن يفعلوا الطاعات، وقيل: المراد بالخيرات شرائع النبوات **﴿وكانوا لنا عابدين﴾** أي: كانوا لنا خاصة بون غيرنا مطيعين، فاعلين لما نأمرهم به، تاركين ما نهاهم عنه **﴿ولوطاً آتيناه حكماً وعلماً﴾** انتصاب لوطاً بفعل مضمر دل عليه قوله آتيناه أي: وآتيناه لوطاً آتيناه، وقيل: بنفس الفعل المذكور بعده، وقيل: بمحذوف هو انكر، والحكم النبوة، والعلم المعرفة بأمر الدين، وقيل: الحكم هو فصل الخصومات بالحق، وقيل: هو الفهم **﴿ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث﴾** القرية هي سدوم كما تقدم، ومعنى تعمل الخبائث: يعمل أهلها الخبائث، فوصفت القرية بوصف أهلها، والخبائث التي كانوا يعملونها هي اللواط والضرط وخذف الحصى كما سيأتي، ثم علل سبحانه ذلك بقوله: **﴿إنهم كانوا قوم سوء فسقين﴾** أي: خارجين عن طاعة الله، والفسوق الخروج كما تقدم **﴿وأنزلناه في رحمتنا﴾** بإنجاننا إياه من القوم المنكرين، ومعنى في رحمتنا: في أهل رحمتنا؛ وقيل: في النبوة؛ وقيل: في الإسلام، وقيل: في الجنة **﴿إنه من الصالحين﴾** الذين سبقت لهم منا الحسنى **﴿ونوحاً إذ نادى﴾** أي: وانكر نوحاً إذ نادى ربه **﴿من قبل﴾** أي: من قبل هؤلاء الأنبياء المذكورين **﴿فاستجبنا له﴾** دعاءه **﴿فنجيناه وأهله من الكرب العظيم﴾** أي: من الغرق

ذهب جمهور العلماء إلى العمل بما تضمنه هذا الحديث. وذهب أبو حنيفة، وأصحابه، وجماعة من الكوفيين إلى أن هذا الحكم منسوخ، وإن البهائم إذا أقسدت زرعاً في ليل أو نهار أنه لا يلزم صاحبها شيء، وأدخلوا فسادها في عموم قول النبي ﷺ: «جرح العجماء جبار»، قياساً لجميع أفعالها على جرحها. ويجاب عنه بأن هذا القياس فاسد الاعتبار، لأنه في مقابلة النص، ومن أهل العلم من ذهب إلى أنه يضمن ربّ الماشية ما أقسدت من غير فرق بين الليل والنهار. ويجاب عنه بحديث البراء ومما يدل على أن هذين الحكمين من داود وسليمان كانا بوحى من الله سبحانه لا باجتهاد. قوله: «وَكَلَّا أَتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا» فإن الله سبحانه أخبرنا بأنه أعطى كل واحد منهما هذين الأمرين، وهما إن كانا خاصين فصدقهما على هذه القضية التي حكاها الله سبحانه عنهما مقدّم على صدقهما على غيرها، وإن كانا عامين فهذا الفرد من الحكم والعلم، وهو ما وقع من كل واحد منهما في هذه القضية أحق أفراد ذلك العام بدخوله تحته ودلالته عليه، ومما يستفاد من ذلك نفع ما عسى يوهمه تخصيص سليمان بالتفهم، من عدم كون حكم داود حكماً شرعياً أي: وكل واحد منهما أعطيناه حكماً وعلماً كثيراً، لا سليمان وحده. ولما مدح داود وسليمان على سبيل الاشتراك، نكر ما يختص بكل واحد منهما، فبدأ بـداود فقال: «وسخرنا مع داود للجبال يسبحن» التسبيح إما حقيقة أو مجاز، وقد قال بالأول جماعة وهو الظاهر. وذلك أن داود كان إذا سبح سبحت الجبال معه؛ وقيل: إنها كانت تصلي معه إذا صلى، وهو معنى التسبيح. وقال بالمجاز جماعة آخرون، وحملوا التسبيح على تسبيح من رآها تعجباً من عظيم خلقها وقدره خالقها، وقيل: كانت الجبال تسير مع داود، فكان من رآها سائرة معه سبح «والطير» معطوف على الجبال، وقرئ بالرفع على أنه مبتدأ وخبره محنوف أي: والطير مسخرات، ولا يصح العطف على الضمير في يسبحن لعدم التأكيد والفصل «وَكُنَّا فَاعِلِينَ» يعني: ما نكر من التفهم، وإيتاء الحكم والتسخير «وعلمناه صنعة لبوس لكم» اللبوس عند العرب: السلاح كله درعاً كان أو جوشناً، أو سيفاً، أو رمحاً. قال الهذلي:

وعندي لبوس في اللباس كأنه

إلخ، والمراد في الآية: الدروع خاصة، وهو بمعنى الملبوس، كالركوب والحلوى، والجار والمجرور أعني لكم متعلق بـعلمنا «ليحصنكم من بأسكم» قرأ الحسن، وأبو جعفر، وابن عامر، وحفص، وروح (لتحصنكم) بالياء الفوقية، بإرجاع الضمير إلى الصنعة، أو إلى اللبوس بتأويل الدرع. وقرأ شيبه، وأبو بكر، والمفضل، وابن أبي إسحاق (لتحصنكم) بالنون بإرجاع الضمير إليه سبحانه. وقرأ الباقون بالياء بإرجاع الضمير إلى اللبوس، أو إلى داود، أو إلى الله سبحانه. ومعنى «من بأسكم» من حريكم، أو من وقع السلاح فيكم «فهل أنتم شاكرون» لهذه النعمة التي

المراد الحاكمان والمحكوم عليه. ومعنى شاهدين: حاضرين، والجملة اعتراضية، وجملة «ففهمناها سليمان» معطوفة على إذ يحكمان، لأنه في حكم الماضي، والضمير في فهمناها يعود إلى القضية المفهومة من الكلام، أو الحكومة المدلول عليها بذكر الحكم. قال المفسرون: دخل رجلان على داود، وعنده ابنه سليمان: أحدهما صاحب حرث، والآخر صاحب غنم، فقال صاحب الحرث: إن هذا انفلتت غنمه ليلاً فوقعت في حرثي فلم تبق منه شيئاً، فقال: لك رقاب الغنم، فقال سليمان: أو غير ذلك، ينطلق أصحاب الكرم بالغنم فيصيّبون من ألبانها ومنافعها ويقوم أصحاب الغنم على الكرم حتى إذا كان كليله نفشت فيه نفع هؤلاء إلى هؤلاء غنمهم، ونفع هؤلاء إلى هؤلاء كرمهم، فقال داود: القضاء ما قضيت، وحكم بذلك. قال النحاس: إنما قضى داود بالغنم لصاحب الحرث لأن ثمنها كانا قريباً منه، وأما في حكم سليمان فقد قيل: كانت قيمة ما نال من الغنم، وقيمة ما أقسدت الغنم سواء. قال جماعة من العلماء: إن داود حكم بوحى، وحكم سليمان بوحى نسخ الله به حكم داود، فيكون التفهم على هذا بطريق الوحي. وقال الجمهور: إن حكمهما كان باجتهاد، وكلام أهل العلم في حكم اجتهاد الأنبياء معروف، وهكذا ما ذكره أهل العلم في اختلاف المجتهدين، وهل كل مجتهد مصيب، أو الحق مع واحد؟ وقد استدلل المستدلون بهذه الآية على أن كل مجتهد مصيب، ولا شك أنها تدل على رفع الإثم عن المخطئ، وأما كون كل واحد منهما مصيباً، فلا تدل عليه هذه الآية ولا غيرها، بل صرح الحديث المتفق عليه في الصحيحين وغيرهما أن الحاكم إذا اجتهد فأصاب فله أجران، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر، فسماه النبي ﷺ مخطئاً، فكيف يقال إنه مصيب لحكم الله موافق له، فإن حكم الله سبحانه واحد لا يختلف باختلاف المجتهدين، ولا لزم توقف حكمه عن وجلّ على اجتهادات المجتهدين، واللازم باطل فالملزوم مثله. وأيضاً يستلزم أن تكون العين التي اختلف اجتهاد المجتهدين فيها بالحل والحرمة حلالاً حراماً في حكم الله سبحانه. وهذا اللازم باطل بالإجماع، فالملزوم مثله. وأيضاً يلزم أن حكم الله سبحانه لا يزال يتجدد عند وجود كل مجتهد له اجتهاد في تلك الحادثة، ولا ينقطع ما يريده الله سبحانه فيها إلا بانقطاع المجتهدين واللازم باطل فالملزوم مثله. وقد أوضحنا هذه المسألة بما لا مزيد عليه في المؤلف الذي سميناه «القول المفيد في حكم التقليد» وفي «أب الطلب» ومنتهى الأرب، فمن أحب الوقوف على تحقيق الحق فليرجع إليهما. فإن قلت: فما حكم هذه الحادثة التي حكم فيها داود وسليمان في هذه الشريعة المحمية، والملة الإسلامية؟ قلت: قد ثبت عن النبي ﷺ من حديث البراء أنه شرع لأمته أن على أهل الماشية حفظها بالليل، وعلى أصحاب الحوائط حفظها بالنهار، وأن ما أقسدت الموالشي بالليل مضمون على أهلها، وهذا الضمان هو مقدار الذهاب عيناً أو قيمة. وقد

وانتخبنا بها عليكم، والاستفهام في معنى الأمر. ثم ذكر سبحانه ما خص به سليمان. فقال: ﴿ولسليمان الريح﴾ أي: وسخرنا له الريح ﴿عاصفة﴾ أي: شديدة الهبوب. يقال: عصفت الريح أي: اشتدت، فهي ريح عاصف وعصوف، وانتصاب الريح على الحال. وقرأ عبد الرحمن الأعرج، والسلمي، وأبو بكر (ولسليمان الريح) برفع الريح على القطع مما قبله، ويكون مبتدأ وخبره تجري. وأما على قراءة النصب فيكون محل ﴿تجري بأمرة﴾ النصب أيضاً على الحالية، أو على البلية ﴿إلى الأرض التي باركنا فيها﴾ وهي أرض الشام كما تقدم ﴿وكنّا بكل شيء عالمين﴾ أي: بتدبير كل شيء ﴿ومن الشياطين﴾ أي: وسخرنا من الشياطين ﴿من يغوصون له﴾ في البحار ويستخرجون منها ما يطلبه منهم؛ وقيل: إن من مبتدأ وخبره ما قبله، والغوص النزول تحت الماء، يقال: غاص في الماء، والغواص: الذي يغوص في البحر على اللؤلؤ ﴿ويعملون عملاً دون ذلك﴾ قال الفراء: أي سوى ذلك؛ وقيل: يراد بذلك المحارب والتماثيل وغير ذلك مما يسخرهم فيه ﴿وكنّا لهم حافظين﴾ أي: لأعمالهم. وقال الفراء: حافظين لهم من أن يهربوا أو يتمنعوا، أو حفظناهم من أن يخرجوا عن أمره. قال الزجاج: كان يحفظهم من أن يفسدوا ما عملوا، وكان دأبهم أن يفسدوا بالليل ما عملوا بالنهار ﴿وأيوب إذ نادى ربه﴾ معطوف على ما قبله، والعامل فيه: إما المذكور أو المقدر كما مر، والعامل في الظرف وهو إذ نادى ربه هو العامل في أيوب ﴿إني مسني الضر﴾ أي: بأنني مسني الضر. وقرئ بكسر (إني).

واختلف في الضر الذي نزل به ماذا هو؟ فقيل: إنه قام ليصلي فلم يقدر على النهوض، وقيل: إنه أقر بالعجز، فلا يكون ذلك منافياً للصبر، وقيل: انقطع الوحي عنه أربعين يوماً، وقيل: إن بودة سقطت من لحمه، فأخذها وردّها في موضعها فاكلت منه، فصاح مسني الضر؛ وقيل: كان البود تناول ببنه فيصبر حتى تناولت بودة قلبه، وقيل: إن ضرّه قول إبليس لزوجه اسجدي لي، فخاف ذهاب إيمانها، وقيل إنه تقدره قومه؛ وقيل: أراد بالضرّ السمات، وقيل: غير ذلك. ولما نادى ربه متضرّعاً إليه وصفه بغاية الرحمة فقال: ﴿وانت أرحم الراحمين﴾ فأخبر الله سبحانه باستجابته لدعائه، فقال: ﴿فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر﴾ أي: شفاه الله مما كان به وأعاضه بما ذهب عليه، ولهذا قال سبحانه: ﴿وأتيناها أهله ومثلهم معهم﴾ قيل: تركهم الله عزّ وجلّ له، وأعطاه مثلهم في الدنيا. قال النحاس: والإسناد بذلك صحيح، وقد كان مات أهله جميعاً إلا امرأته، فأحياهم الله في أقل من طرف البصر، وآتاه مثلهم معهم؛ وقيل: كان ذلك بأن ولد له ضعف الذين أماتهم الله، فيكون معنى الآية على هذا: أتيناها أهله ومثلهم معهم، وانتصاب ﴿رحمة من عندنا﴾ على العلة أي: أتيناها ذلك لرحمتنا له ﴿ونذكرى للعابدين﴾ أي: وتذكّرة لغيره من العابدين ليصبروا كما صبر.

واغضب أن تهجى تميم بعامر
أي آنف ﴿فظنّ أن لن نقدر عليه﴾ قرأ الجمهور (نقدر) بفتح النون وكسر الدال.

واختلف في معنى الآية على هذه القراءة، فقيل: معناها أنه وقع في ظنه أن الله تعالى لا يقدر على معاقبته. وقد حكى هذا القول عن الحسن وسعيد بن جبير، وهو قول مردود، فإن هذا الظنّ بالله كفر؛ ومثل ذلك لا يقع من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وذهب جمهور العلماء أن معناها: فظنّ أن لن تضيق عليه، كقوله: ﴿يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ [الرعد: 26]، أي: يضيق، ومنه قوله: ﴿ومن قدر

عليه رزقه» [الطلاق: 7]. يقال: قدر وقدر وقتر وقتر أي: ضيق، وقيل: هو من القدر الذي هو القضاء والحكم أي: فظن أن لن نقضي عليه العقوبة، قاله قتادة ومجاهد، واختاره الفراء والزجاج، مأخوذ من القدر وهو الحكم دون القدرة والاستطاعة. قال أحمد بن يحيى ثعلب: هو من التقدير ليس من القدرة، يقال منه: قدر الله لك الخير يقدره قدرًا، وأنشد ثعلب:

فليست عشيات اللوى يرواج لنا أبداً ما أبرم السلم النضر
ولا عائد ذلك الزمان الذي مضى تباركت ما تقدر مع ذلك الشكر
أي: ما تقدره وتقضي به، ومما يؤيد ما قاله هؤلاء قراءة عمر بن عبد العزيز والزهري (فظن أن لن نقدر) بضم النون وتشديد الدال من التقدير. وحكى هذه القراءة الماوردي عن ابن عباس، ويؤيد ذلك أيضاً قراءة عبيد بن عمير وقاتدة والأعرج (أن لن يقدر) بضم الياء والتشديد مبنياً للمفعول، وقرأ يعقوب، وعبد الله بن أبي إسحاق، والحسن (يقدر) بضم الياء وفتح الدال مخففاً مبنياً للمفعول.

وقد اختلف العلماء في تأويل الحديث الصحيح في قول الرجل الذي لم يعمل خيراً قط لأهله أن يحرقوه إذا مات، ثم قال: فوالله لأن قدر الله علي الحديث كما اختلفوا في تأويل هذه الآية، والكلام في هذا يطول وقد ذكرنا ما هنا ما لا يحتاج معه الناظر إلى غيره، والغاء في قوله: «فنادى في الظلمات» فصيحة أي: كان ما كان من التقام الحوت له، فنادى في الظلمات، والمراد بالظلمات: ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت، وكان نداؤه: هو قوله: «أن لا إله إلا الله أنت سبحانك إني كنت من الظالمين» أي: بأن لا إله إلخ، ومعنى سبحانك: تنزيهاً لك من أن يعجزك شيء، إني كنت من الظالمين الذين يظلمون أنفسهم، قال الحسن وقاتدة: هذا القول من يونس اعتراف بذنبه وتوبة من خطيئته، قال ذلك وهو في بطن الحوت. ثم أخبر الله سبحانه بأنه استجاب له فقال: «فاستجبنا له» دعاه الذي دعانا به في ضمن اعترافه بالذنب على اللطف وجه «ونجينا من الغم» بإخراجنا له من بطن الحوت حتى قذفه إلى الساحل «وكنك ننجي للمؤمنين» أي: نخلصهم من مهم بما سبق من عملهم وما أعدناه لهم من الرحمة، وهذا هو معنى الآية الأخرى، وهي قوله: «فلولا أنه كان من المسبحين * للبت في بطنه إلى يوم يبعثون» [الصافات: 143 - 144] قرأ الجمهور (ننجي) بنونين. وقرأ ابن عامر نجي بنون واحدة وجيم مشددة وتسكين الياء على الفعل الماضي وإضمار المصدر، وكنك نجي النجاة المؤمنين كما تقول ضرب زيداً أي: ضرب الضرب زيداً، ومنه قول الشاعر:

ولو ولت فقيرة جروكلب لسب بلك الجرو الكلاب
هكذا قال في توجيه هذه القراءة الفراء وأبو عبيد وثعلب، وخطاها أبو حاتم والزجاج وقالوا: هي لحن لأنه نصب اسم ما لم يسم فاعله، وإنما يقال: نجي المؤمنون. ولأبي عبيدة قول آخر، وهو أنه ادغم النون في الجيم وبه قال القتيبي.

واعترضه النحاس فقال: هذا القول لا يجوز عند أحد من النحويين لبعد مخرج النون من مخرج الجيم فلا يدغم فيها، ثم قال النحاس: لم أسمع في هذا أحسن من شيء سمعته من علي بن سليمان الأخفش قال: الأصل ننجي، فحذف إحدى النونين لاجتماعهما كما يحذف إحدى التاءين لاجتماعهما نحو قوله تعالى: «ولا تفرقوا» [آل عمران: 103]. والأصل: ولا تفرقوا. قلت: وكذا الواحدي عن أبي علي الفارسي أنه قال: إن النون الثانية تخفى مع الجيم، ولا يجوز تبينها، فالتبس على السامع الإخفاء بالإدغام، فظن أنه إدغام، ويدل على هذا إسكانه الياء من نجي ونصب المؤمنين، ولو كان على ما لم يسم فاعله ما سكن الياء ولوجب أن يرفع المؤمنين. قلت: ولا نسلم قوله إنه لا يجوز تبينها فقد بينت في قراءة الجمهور، وقرأ محمد بن السميع وأبو العالية (وكنك نجي المؤمنين) على البناء للفاعل أي: نجي الله المؤمنين.

وقد أخرج ابن جرير عن مرة في قوله: «إذ يحكمان في الحرث» قال: كان الحرث نباتاً فنفتت فيه ليلاً فاختمصوا فيه إلى داود، فقضى بالغنم لأصحاب الحرث. فمروا على سليمان فنكروا ذلك له. فقال: لا، تدفع الغنم فيصيبون منها ويقوم هؤلاء على حرثهم، فإذا كان كما كان ربوا عليهم فنزلت «ففهمناها سليمان» وقد روي هذا عن مرة عن ابن مسعود. وأخرج ابن جرير، والحاكم وابن مروي، والبيهقي في سننه عن ابن مسعود في قوله: «وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث» قال: كرم قد أثبتت عناقيده فافسدت الغنم، فقضى داود بالغنم لصاحب الكرم، فقال سليمان: غير هذا يا نبي الله قال: وما ذاك؟ قال: يدفع الكرم إلى صاحب الغنم فيقوم عليه حتى يعود كما كان، وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها، حتى إذا عاد الكرم كما كان دفعت الكرم إلى صاحبه والغنم إلى صاحبها، فذلك قوله: «ففهمناها سليمان». وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن مسروق نحوه، وأخرج ابن جرير عن ابن عباس نحوه، ولكنه لم يذكر الكرم. وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مروي عنه نحوه بأطول منه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً «نفثت» قال: رعت. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، وأبو داود، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مروي عن حرام بن محيصة: أن ناقة للبراء بن عازب بخلت حائطاً فافسدت فيه، فقضى رسول الله ﷺ أن على أهل الحوائط حفظها بالنهار، وأن ما افسدت المواشي بالليل ضامن على أهلها. وقد علل هذا الحديث، وقد بسطنا الكلام عليه في شرح المنتقى. وأخرج ابن مروي عن حديث عائشة نحوه، وزاد في آخره، ثم تلا هذه الآية «وداود وسليمان» الآية. وفي الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما امرأتان معهما ابناهما جاء الذئب فأخذ

أحد الاثنين، فتحاكما إلى داود فقضى به للكبرى، فخرجتا فدعاهما سليمان فقال: هاتوا السكين أشقه بينهما، فقالت الصغرى: رحمك الله، هو ابنها لا تشقه، فقضى به للصغرى، وهذا الحديث وإن لم يكن داخلاً فيما حكته الآية من حكمهما لكنه من جملة ما وقع لهما. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة عن قتادة في قوله: ﴿وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجَبَالَ يَسْبِغْنَ وَالطَّيْرَ﴾ قال: يصلين مع داود إذا صلى ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ﴾ قال: كانت صفائح، فأول من سردها وحلقها داود عليه السلام. وأخرج ابن أبي شيبة، والحاكم وصححه عن ابن عباس قال: كان سليمان يوضع له ستمائة ألف كرسي، ثم يجيء أشراف الجن فيجلسون مما يلي أشراف الإنس ثم يدعو الطير فتظلمهم، ثم يدعو الريح فتحملمهم تسير مسيرة شهر في الغداة الواحدة. وأخرج ابن عساکر، والبيهقي، وابن النجار عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله لأيوب: تدري ما جرمك عليّ حتى ابتليتك؟ قال: لا يا رب، قال: لأنك دخلت على فرعون فداهنت عنده في كلمتين». وأخرج ابن عساکر عن ابن عباس قال: إنما كان نذّب أيوب أنه استعان به مسكين على ظالم يدرؤه فلم يعنه، ولم يأمر بالمعروف، ولم ينه الظالم عن ظلم المسكين فابتلاه الله، وفي إسناده جويرير. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، في الزهد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو نعيم في الحلية عن عبد الله بن عبيد بن عمير قال: «كان لأيوّب أخوان جاء يوماً فلم يستطيعا أن يندوا منه من ريحه، فقاما من بعيد، فقال أحدهما للآخر: لو كان علم الله من أيوب خيراً ما ابتلاه بهذا، فجزع أيوب من قولهما جزعاً لم يجزع من شيء قط مثله، فقال: اللهم إن كنت تعلم أنني لم أبت ليلة قط شبهان، وأنا أعلم مكان جائع فصنّقتني فصنّقت من السماء وهما يسمعان، ثم قال: اللهم إن كنت تعلم أنني لم ألبس قميصاً قط وأنا أعلم مكان عار فصنّقتني، فصنّقت من السماء وهما يسمعان ثم خرّ ساجداً وقال: اللهم بعزتك لا أرفع رأسي حتى تكشف عني، فما رفع رأسه حتى كشف الله عنه». وقد رواه ابن أبي حاتم من وجه آخر مرفوعاً بنحو هذا. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُ مَعَهُمْ﴾ قال: قيل: له يا أيوب إن أهلك لك في الجنة، فإن شئت أتيناك لهم، وإن شئت تركناهم لك في الجنة وعوضناك مثلهم، قال: لا، بل أتركهم لي في الجنة، قال: فتركوا له في الجنة وعوض مثلهم في الدنيا. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني عن الضحاک قال: بلغ ابن مسعود أن مروان قال في هذه الآية: ﴿وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُ مَعَهُمْ﴾ قال: أوتي أهلاً غير أهله، فقال ابن مسعود: بل أوتي أهله بأعيانهم ومثلهم معهم. وأخرج ابن أبي الدنيا، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن أبي

حاتم، والرويانى، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إن أيوب لبث به بلاؤه ثماني عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا من أخص إخوانه، كانا يغنوان إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه ذات يوم: تعلم والله لقد أنذبت أيوب نذياً ما أنذبه أحد، قال: وما ذاك؟ قال: منذ ثماني عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف عنه ما به، فلما راحا إلى أيوب لم يصبر الرجل حتى نكر له ذلك، فقال أيوب: لا أدرى ما يقول غير أن الله يعلم أنني أمرُ بالرجلين يتنازعا ينكران الله فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما كراهة أن ينكر الله إلا في حق وكان يخرج لحاجته فإذا قضى حاجته أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها، فأوحى الله إلى أيوب في مكانه أن ﴿اركض برجلك هذا فغتسل بارد وشراب﴾ [ص: 42]، فاستبطأته فتلقته وأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء وهو أحسن ما كان، فلما رآته قالت: أي بارك الله فيك هل رأيت نبي الله المبتلي، والله على ذلك ما رأيت رجلاً أشبه به منك إذ كان صحيحاً؟ قال: فإني أنا هو، قال: وكان له أندران: أندر للقمح، وأندر للشعير، فبعث الله سحابتين، فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض. وأفرغت الأخرى في أندر الشعير اللوز حتى فاض». وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿هَذَا الْكُفْلُ﴾ قال: رجل صالح غير نبي تكفل لنبي قومه أن يكفيه أمر قومه ويقيمهم له ويقضي بينهم بالعدل، ففعل ذلك، فسمي ذا الكفل. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كان في بني إسرائيل قاضٍ فضره الموت، فقال: من يقوم مقامى على أن لا يغضب؟ فقال رجل: أنا، فسمي ذا الكفل، فكان ليلة جميعاً يصلي، ثم يصبح صائماً فيقضي بين الناس، ونكر قصة. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي موسى الأشعري قال: ما كان ذو الكفل نبياً، ولكن كان في بني إسرائيل رجل صالح يصلي كل يوم صلاة فتوفي، فتكفل له ذو الكفل من بعده، فكان يصلي كل يوم مائة صلاة، فسمي ذا الكفل. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، والترمذي وحسنه، وابن المنذر، وابن حبان، والطبراني، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي في شعب الإيمان من طريق سعد مولى طلحة، عن ابن عمر، عن رسول الله ﷺ قال: «كان الكفل من بني إسرائيل لا يتورع من نذبه عمله فاتته امرأة فاعطاها ستين ديناراً على أن يطأها، فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته ارتعدت وبكت، فقال: ما يبكيك أكرهتك؟ قالت: لا ولكنه عمل ما عملته قط، وما حملني عليه إلا الحاجة، فقال: تفعلين أنت هذا وما فعلته أذهبي فهي لك، وقال: والله لا أعصي الله بعدها أبداً، فمات من ليلته فأصبح مكتوب على باب: إن الله قد غفر للكفل». وأخرجه الترمذي وحسنه، والحاكم، وابن مردويه من طريق سعد مولى طلحة.

وحسبي إن لم ترزقني ولداً فإنني أعلم أنك لا تضع دينك وأنه سيقوم بذلك من عبادك من تختاره له وترضيه للتبليغ **﴿فاستجبنا له﴾** دعاءه **﴿ووهبنا له يحيى﴾** وقد تقدم مستوفى في سورة مريم **﴿وواصلحنا له زوجة﴾** قال أكثر المفسرين: إنها كانت عاقراً فجعلها الله ولوداً. فهذا هو المراد بإصلاح زوجة، وقيل: كانت سيئة الخلق فجعلها الله سبحانه حسنة الخلق، ولا مانع من إرادة الأمرين جميعاً، وذلك بأن يصلح الله سبحانه ذاتها، فتكون ولوداً بعد أن كانت عاقراً، ويصلح أخلاقها فتكون أخلاقها مرضية بعد أن كانت غير مرضية، وجملة **﴿إنهم كانوا يسارعون في الخيرات﴾** للتعليل لما قبلها من إحسانه سبحانه إلى أنبيائه عليهم الصلاة والسلام، فالضمير المذكور راجع إليهم، وقيل: هو راجع إلى زكريا وأمراته ويحيى. ثم وصفهم الله سبحانه بأنهم كانوا يدعونه **﴿رغباً ورهباً﴾** أي: يتضرعون إليه في حال الرخاء وحال الشدة؛ وقيل: الرغبة رفع بطون الأكف إلى السماء، والرغبة رفع ظهورها، وانتصاب رغباً ورهباً على المصدرية أي: يرغبون رغباً ويرهبون رهباً، أو على العلة أي: للرغب والرهب، أو على الحال أي: راغبين وراهبين. وقرأ طلحة بن مصرف (ويبدعون) بنون واحدة، وقرأ الأعمش بضم الراء فيهما وإسكان ما بعده، وقرأ ابن وثاب بفتح الراء فيهما مع إسكان ما بعده، ورويت هذه القراءة عن أبي عمرو، وقرأ الباقر بفتح الراء وفتح ما بعده فيهما **﴿وكانوا لنا خاشعين﴾** أي: متواضعين متضرعين **﴿والتي أحصنت فرجها﴾** أي: وانكر خبرها، وهي مريم، فإنها أحصنت فرجها من الحلال والحرام ولم يمسسها بشر، وإنما نكرها مع الأنبياء وإن لم تكن منهم لأجل نكر عيسى، وما في ذكر قصتها من الآية الباهرة **﴿ففنفخنا فيها من روحنا﴾** أضاف سبحانه الروح إليه، وهو للملك تشريفاً وتعظيماً، وهو يريد روح عيسى **﴿وجعلناها وابنها آية للعالمين﴾** قال الزجاج: الآية فيهما واحدة لأنها ولبتة من غير فعل، وقيل: إن التقدير على مذهب سيبويه: وجعلناها آية وجعلنا ابنها آية كقوله سبحانه: **﴿وإله ورسوله أحق أن يرضوه﴾** [التوبة: 62]. والمعنى: إن الله سبحانه جعل قصتهما آية تامة مع تكرار آيات كل واحد منهما، وقيل: أراد بالآية الجنس الشامل، لما لكل واحد منهما من الآيات، ومعنى أحصنت: عفت فامتنعت من الفاحشة وغيرها، وقيل: المراد بالفرج جيب القميص أي: أنها طاهرة الأثواب، وقد مضى بيان مثل هذا في سورة النساء ومريم. ثم لما نكر سبحانه الأنبياء بين أنهم كلهم مجتمعون على التوحيد فقال: **﴿إن هذه أممتكم أمة واحدة﴾** والامة اللين كما قال ابن قتيبة، ومنه **﴿إننا وجدنا آبائنا على أمة﴾** [الزخرف: 22]، أي: على دين، كأنه قال: إن هذا دينكم دين واحد لا خلاف بين الأمم المختلفة في التوحيد، ولا يخرج عن ذلك إلا الكفرة المشركون بالله، وقيل: المعنى إن هذه الشريعة التي بينتها لكم في كتابكم شريعة واحدة، وقيل: المعنى إن هذه ملتكم ملة واحدة، وهي

وأخرجه ابن مردويه من طريق نافع عن ابن عمرو قال فيه: ذو الكفل. وأخرج ابن جرير، والبيهقي في الاسماء والصفات عن ابن عباس في قوله: **﴿وذا النون إذ ذهب مغاضباً﴾** يقول: غضب على قومه **﴿فظن أن لن نقدر عليه﴾** يقول: أن لن نقضي عليه عقوبة ولا بلاء فيما صنع بقومه في غضبه عليهم وفراره، قال: وعقوبته أخذ النون إياه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي، عن ابن عباس في قوله: **﴿فظن أن لن نقدر عليه﴾** قال: ظن أن لن يأخذه العذاب الذي أصابه. وأخرج أحمد في الزهد، وابن أبي الدنيا، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن ابن مسعود **﴿فنادى في الظلمات﴾** قال: ظلمة الليل، وظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر. وأخرج أحمد، والترمذي، والنسائي، والحاكم الترمذي في نوادر الأصول، والبخاري، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عن سعد بن أبي وقاص سمعت رسول الله ﷺ قال: «دعوة ذي النون إذ هو في بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط إلا استجاب له». وأخرج ابن جرير عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اسم الله الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى دعوة يونس بن متى، قلت: يا رسول الله، هل ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين؟ قال: هي ليونس خاصة وللمؤمنين عامة إذا دعوا به، ألم تسمع قول الله: **﴿وكنك نجي المؤمنين﴾** فهو شرط من الله لمن دعاه». وأخرج الحاكم من حديثه أيضاً نحوه، وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينبغي لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متى». وروي أيضاً في الصحيح وغيره من حديث ابن مسعود، وروي أيضاً في الصحيحين من حديث أبي هريرة.

وَزَكَرَيْكَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ **﴿فاستجبنا له﴾** ورغبنا له ويحون وأصلحنا له زيجاً، إنهم كانوا يسرعون في الخيرات ويتعوتوا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين **﴿والتي أحصنت فرجها﴾** فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين **﴿إن هذه أممتكم أمة واحدة﴾** وأما ربيكم فأعبدوني **﴿وتطعوا أمرهم﴾** يتهم كلاً لإسنا رجسوت **﴿فمن يمل من الصلح﴾** وهو مؤمن فلا كفران ليعبه وإن لم يكن **﴿كثيرين﴾** وحكم على قريته أهلكتها أنهم لا يرجسوت **﴿حوت إذا فحيت﴾** يأجوج ومأجوج وهم بين كلى حطب يسألون **﴿واقرب الأعداء﴾** فإذا هم شخصة أنصرت الذين كفروا يوتننا قد كفى في عقابهم من هذا بل كفى عليهم **﴿ووزكريا﴾** أي: وانكر خبر زكريا وقت ندائه لربه قال: **﴿رب لا تذرني فرداً﴾** أي: منفرداً وحيداً لا ولد لي. وقد تقدم الكلام على هذه الآية في آل عمران **﴿وانت خير الوارثين﴾** أي: خير من يبقى بعد كل من يموت، فانت

الفارسي: إن في الكلام إضماراً، أي: وحرام على قرية حكماً باستئصالها، أو بالختم على قلوب أهلها، أن يتقبل منهم عمل لأنهم لا يرجعون، أي: لا يتوبون ﴿حتى إذا فتحت ياجوج وماجوج﴾ حتى هذه هي التي يحكى بعدها الكلام، وياجوج وماجوج قبيلتان من الإنس، والمراد بفتح ياجوج وماجوج: فتح السد الذي عليهم، على حذف المضاف، وقيل: إن حتى هذه هي التي للغاية. والمعنى: أن هؤلاء المذكورين سابقاً مستمرّون على ما هم عليه إلى يوم القيامة، وهي يوم فتح سد ياجوج وماجوج ﴿وهم من كل حذب ينسلون﴾ الضمير لياجوج وماجوج والحذب كل أكمة من الأرض مرتفعة والجمع أحداً، مأخوذ من حدة الأرض، ومعنى ﴿ينسلون﴾ يسرعون؛ وقيل: يخرجون. قال الزجاج: والنسلان مشية النثب إذا أسرع. يقال: نسل فلان في العدو ينسل بالكسر والضم نسلًا ونسلاً ونسلاناً أي: أن ياجوج وماجوج من كل مرتفع من الأرض يسرعون المشي ويتفرقون في الأرض، وقيل: الضمير في قوله وهم: لجميع الخلق، والمعنى: أنهم يحشرون إلى أرض الموقف وهم يسرعون من كل مرتفع من الأرض. وقرأ بضم السين. حكى ذلك المصنف عن ابن مسعود. وحكى هذه القراءة أيضاً الثعلبي، عن مجاهد، وأبي الصهباء ﴿واقترب الوعد﴾ عطف على فتحت، والمراد: ما بعد الفتح من الحساب. وقال الفراء والكسائي وغيرهما: المراد بالوعد الحق: القيامة والوعد زائدة؛ والمعنى: حتى إذا فتحت ياجوج وماجوج اقترب الوعد الحق وهو القيامة، فاقترب جواب إذا، وأنشد الفراء:

فلما أجزنا ساحة الحي وانتحي

أي: انتحي، ومنه قوله تعالى: ﴿وتله للجبين * وناديناه﴾ [الصافات: 103 - 104]. وأجاز الفراء أن يكون جواب إذا ﴿فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا﴾ وقال البصريون: الجواب محذوف، والتقدير: قالوا يا ويلنا. وبه قال الزجاج، والضمير في ﴿فإذا هي﴾ للقصة، أو مبهم يفسره ما بعده، وإذا للمفاجأة؛ وقيل: إن الكلام تم عند قوله هي، والتقدير: فإذا هي، يعني: القيامة بارزة واقعة كأنها آتية حاضرة، ثم ابتدا فقال: شاخصة أبصار الذين كفروا على تقديم الخبر على المبتدأ أي: أبصار الذين كفروا شاخصة، و﴿يا ويلنا﴾ على تقدير القول: ﴿قد كنا في غفلة من هذا﴾ أي: من هذا الذي دهمنا من العتب والحساب ﴿بل كنا ظالمين﴾ أضربوا عن وصف أنفسهم بالغفلة أي: لم تكن غافلين بل كنا ظالمين لأنفسنا بالكذب وعدم الانقياد للرسول.

وقد أخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله: ﴿واصلحنا له زوجة﴾ قال: كان في لسان امرأة زكريا طول فاصلحه الله. وروي نحو ذلك عن جماعة من التابعين. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في الآية قال: وهبنا له ولداً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة قال: كانت عاقراً فجعلها الله ولوداً وهب له منها يحيى، وفي قوله: ﴿وكانوا لنا خاشعين﴾ قال: أذلاء.

ملة الإسلام. وانتصاب أمة واحدة على الحال أي: متفقة غير مختلفة، وقرأ (إن هذه أمتكم) بنصب أمتكم على البذل من اسم إن والخبر أمة واحدة. وقرأ برفع (أمتكم) ورفع (أمة) على أنهما خبران؛ وقيل: على إضمار مبتدأ أي: هي أمة واحدة. وقرأ الجمهور برفع (أمتكم) على أنه الخبر ونصب (أمة) على الحال كما قدمنا. وقال الفراء والزجاج: على القطع بسبب مجيء النكرة بعد تمام الكلام ﴿وانا ربكم فاعبدون﴾ خاصة لا تعبدوا غيري كأنما ما كان ﴿وتقطعوا أمرهم بينهم﴾ أي: تفرقوا فرقا في الدين حتى صار كالقطع المنفردة. وقال الأخفش: اختلفوا فيه، وهو كالقول الأول. قال الأزهرى: أي تفرقوا في أمرهم، فنصب أمرهم بحذف في، والمقصود بالآية المشركون، نهم الله بمخالفة الحق واتخاذهم آلهة من دون الله؛ وقيل: المراد جميع الخلق وأنهم جعلوا أمرهم في أديانهم قطعا وتقسوه بينهم، فهذا موحد، وهذا يهودي، وهذا نصراني، وهذا مجوسي، وهذا عابد وثن. ثم أخبر سبحانه بأن مرجع الجميع إليه فقال: ﴿كل إلينا راجعون﴾ أي: كل واحد من هذه الفرق راجع إلينا بالعبث، لا إلى غيرنا ﴿فمن يعمل من الصالحات﴾ أي: من يعمل بعض الأعمال الصالحة، لا كلها، إذ لا يطيق ذلك أحد ﴿وهو مؤمن﴾ بالله ورسله واليوم الآخر ﴿فلا كفران لبعثه﴾ أي: لا جحد لعمله، ولا تضییع لجزائه، والكفر ضد الإيمان، والكفر أيضاً جحد النعمة وهو ضد الشكر، يقال: كفر كفوراً وكفراناً، وفي قراءة ابن مسعود (فلا كفر لبعثه) ﴿وانا له كاتبون﴾ أي: لسعيه حافظون، ومثله قوله سبحانه: ﴿إني لا أضیع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى﴾ [آل عمران: 195].

﴿وحرام على قرية أهلكناها﴾، قرأ زيد بن ثابت وأهل المدينة (وحرام) وقرأ أهل الكوفة (وحرمة) وقد اختار القراءة الأولى أبو عبيد وأبو حاتم، ورويت القراءة الثانية عن عليّ وابن مسعود وابن عباس؛ وهما لغتان مثل حلّ وحلال. وقرأ سعيد بن جبیر (وحرمة) بفتح الحاء وكسر الراء وفتح الميم. وقرأ عكرمة وأبو العالية (حرم) بضم الراء وفتح الحاء والميم، ومعنى ﴿أهلكناها﴾ قَدَرْنَا إهلاكها، وجملة ﴿أنهم لا يرجعون﴾ في محل رفع على أنه مبتدأ وخبره حرام، أو على أنه فاعل له ساد مسدّ خبره. والمعنى: وممتنع ألبتة عدم رجوعهم إلينا للجزاء، وقيل: إن «لا» في لا يرجعون زائدة أي: حرام على قرية أهلكناها أن يرجعوا بعد الهلاك إلى الدنيا، واختار هذا أبو عبيدة؛ وقيل: إن لفظ حرام هنا بمعنى الواجب أي: واجب على قرية، ومنه قول الخنساء: وإن حراماً لا أرى الدهر بلكيا على شجوه إلا بكيت على صخر وقيل: حرام أي: ممتنع رجوعهم إلى التوبة، على أن لا زائدة. قال النحاس: والآية مشكلة ومن أحسن ما قيل فيها وأجله ما رواه ابن عيينة، وابن علية، وهشيم، وابن إريس، ومحمد بن فضل، وسليم بن حبان، ومعلی، عن داود بن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس في معنى الآية قال: واجب أنهم لا يرجعون أي: لا يتوبون. قال الزجاج وأبو علي

وَأَن أَدْرَيْتَ أَقْرَبَ أَمْ بَعِيدَ مَا تُؤْتُونَكَ ﴿١٤٦﴾ إِنَّهُمْ يَمْلِكُ الْجَهَنَّمَ
الْقَوْلَ وَيَمْلِكُ مَا تَكْشُرُونَ ﴿١٤٧﴾ وَأَن أَدْرَيْتَ لَعَلَّكُمْ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَنْعٌ إِلَّا جِئْنَا
﴿١٤٨﴾ قُلْ رَبِّ أَعْمُرْ بِطَاعَتِي وَرَبَّنَا الرَّحْمَنُ أَسْتَعِثُّ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٤٩﴾

بَيَّن سبحانه حال معبودهم يوم القيامة فقال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ﴾ وهذا خطاب منه سبحانه لأهل مكة، والمراد بقوله وما تعبدون: الأصنام التي كانوا يعبدون. قرأ الجمهور (حصب) بالصاد المهملة أي: وقود جهنم وحطبها، وكل ما أوقدت به النار أو هيئتها به فهو حصب، كذا قال الجوهري، قال أبو عبيدة: كل ما قنفته في النار فقد حصبته به، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: 24]. وقرأ علي بن أبي طالب، وعائشة (حطب جهنم) بالطاء، وقرأ ابن عباس (حضب) بالضاد المعجمة. قال الفراء: نكر لنا أن الحضب في لغة أهل اليمن الحطب، ووجه إلقاء الأصنام في النار مع كونها جمادات لا تعقل ذلك ولا تحس به: التبيكيت لمن عبدها وزيادة التوبيخ لهم وتضاعف الحسرة عليهم، وقيل: إنها تحمى فتلصق بهم زيادة في تعذيبهم، وجملة ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ إما مستأنفة أو بدل من حصب جهنم، والخطاب لهم ولما يعبدون تغليبا، واللام في لها للتقوية لضعف عمل اسم الفاعل، وقيل: هي بمعنى على، والمراد بالورد هنا: الدخول. قال كثير من أهل العلم: ولا يدخل في هذه الآية عيسى وعزير والملائكة، لأن «ماء لمن لا يعقل، ولو أراد العموم لقال: ومن يعبدون. قال الزجاج: ولأن المخاطبين بهذه الآية مشركو مكة بون غيرهم ﴿لَوْ كَانَ هَؤُلَاءَ آلِهَةً مَا وَدَّوهُمْ﴾ أي: لو كانت هذه الأصنام آلهة كما تزعمون ما وددوها أي: ما ورد العابدون هم والمعبودون النار، وقيل: ما ورد العابدون فقط، لكنهم وددوها فلم يكونوا آلهة، وفي هذا تبيكيت لعباد الأصنام وتوبيخ شديد ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي: كل العابدون والمعبودين في النار خالدون لا يخرجون منها ﴿لَهُمْ فِيهَا زُفِيرٌ﴾ أي: لهؤلاء الذين وردوا النار، والزفير صوت نفس المغمو، والمراد هنا الأنين والتنفس الشديد، وقد تقدم بيان هذا في هود ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي: لا يسمع بعضهم زفير بعض لشدة الهول، وقيل: لا يسمعون شيئا؛ لأنهم يحشرون صما كما قال سبحانه: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمياً﴾ ويكما وصماً [الإسراء: 97] وإنما سلبوا السماع، لأن فيه بعض ترويح وتانس، وقيل: لا يسمعون ما يسرهم، بل يسمعون ما يسوءهم، ثم لما بيَّن سبحانه حال هؤلاء الأشقياء شرع في بيان حال السعداء فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ الْحَسَنِ﴾ أي: الخصلة الحسنى التي هي أحسن الخصال وهي السعادة؛ وقيل: التوفيق، أو التبشير بالجنة، أو نفس الجنة ﴿أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ إشارة إلى الموصوفين بتلك الصفة ﴿عَنْهَا﴾ أي: عن جهنم ﴿مُبْعَدُونَ﴾ لأنهم قد صاروا في الجنة ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن جريج في قوله: ﴿يُدْعَوْنَ رَغَباً وَرَهَباً﴾ قال: رغباً في رحمة الله ورهباً من عذاب الله. وأخرج ابن مريويه عن جابر بن عبد الله قال: سئل رسول الله ﷺ عن قول الله سبحانه: ﴿يُدْعَوْنَ رَغَباً وَرَهَباً﴾ قال: رغباً هكذا ورهباً هكذا وبسط كفيه، يعني: جعل ظهرهما للأرض في الرغبة وعكسه في الرهبة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو نعيم في الحلية، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب عن عبد الله بن عكيم قال: خطبنا أبو بكر الصديق فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد فإني أوصيكم بتقوى الله، وأن تثبتوا عليه بما هو له أهل، وأن تخلطوا الرغبة بالرغبة، فإن الله أثنى على زكريا وأهل بيته فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ قال: إن هذا بينكم بيئاً واحداً. وأخرج ابن جرير عن مجاهد مثله. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة نحوه. وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في قوله: ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ قال: تقطعوا اختلافوا في الدين. وأخرج الفريابي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله: ﴿وَحَرِّمْنَا عَلَى الْقُرْبَى أَهْلَكُنَّاهَا﴾ قال: وجب إهلاكها ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ قال: لا يتوبون. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مريويه عن ابن عباس أنه كان يقرأ: ﴿وَحَرِّمْنَا عَلَى الْقُرْبَى أَهْلَكُنَّاهَا﴾ كما قال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [آيس: 31]. وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة وسعيد بن جبيرة مثله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿مَنْ كَلَّ حَصْبٍ﴾ قال: شرف ﴿يَنْفُسُلُونَ﴾ قال: يقبلون، وقد ورد في صفة ياجوج ومأجوج وفي وقت خروجهم أحداث كثيرة لا يتعلق بذكرها ما هنا كثير فائدة.

إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ ﴿١٤٦﴾ لَوْ كَانَتْ هَؤُلَاءَ آِلِهَةً مَا وَدَّوهُمْ وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٤٧﴾ لَهُمْ فِيهَا زُفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٤٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحَسَنَةُ أُولَئِكَ عَنَّا مُبْعَدُونَ ﴿١٤٩﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَةً وَهُمْ فِي مَا تَأْتَتْ أَفْسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٥٠﴾ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَقُ الْأَكْبَرُ وَتَلَقَّيْنَاهُ أَلَلَّيْكُمُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٥١﴾ يَوْمَ تَقْلَى السَّمَاءُ كَلْفِي السَّجَلِ لِلْكَشْرِ كَمَا بَدَأْنَا أَزْلَ خَلْقِي تُبْدِيهِ وَعَدَا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٥٢﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُرِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٥٣﴾ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاءً لِقَوْمٍ عَلِيدٍ ﴿١٥٤﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٥٥﴾ قُلْ إِنَّمَا يَوْحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٥٦﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَإٍ

حسبها ﴿الحسن والحسيس الصوت تسمعه من الشيء يمر قريباً منك. والمعنى: لا يسمعون حركة النار وحركة أملها، وهذه الجملة بدل من مبعوثين، أو حال من ضميره ﴿وهم فيما لشتتحت أنفسهم خالدون﴾ أي: دائمون، وفي الجنة ما تشتهي الأنفس وتلذذ به الأعين كما قال سبحانه: ﴿ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون﴾ [فصلت: 31]. ﴿لا يحزنهم الفزع الأكبر﴾ قرأ أبو جعفر، وابن محيصن (لا يحزنهم) بضم الياء وكسر الزاي، وقرأ الباقر (لا يحزنهم) بفتح الياء وضم الزاي. قال اليزيدي: حزنه لغة قريش، وأحزنه لغة تميم، والفزع الأكبر: أهوال يوم القيامة من البعث والحساب والعقاب ﴿وتلقاهم الملائكة﴾ أي: تستقبلهم على أبواب الجنة يهنئونهم ويقولون لهم ﴿هذا يومكم الذي كنتم توعدون﴾ أي: توعدون به في الدنيا وتبشرون بما فيه، هكذا قال جماعة من المفسرين إن المراد بقوله: ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى﴾ إلى هنا هم كافة الموصوفين بالإيمان والعمل الصالح، لا المسيح وعزير والملائكة، وقال أكثر المفسرين: إنه لما نزل ﴿إنكم وما تعبدون﴾ الآية، أتى ابن الزبير إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد الست تزعم أن عزيراً رجل صالح، وأن عيسى رجل صالح، وأن مريم امرأة صالحة؟ قال: بلى، فقال: فإن الملائكة، وعيسى وعزيراً ومريم يعبدون من دون الله، فهؤلاء في النار، فأنزل الله ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى﴾ وسيأتي بيان من أخرج هذا قريباً إن شاء الله ﴿يوم تطوي السماء كطي السجل للكتاب﴾ قرأ أبو جعفر بن القعقاع، وشيبة، والأعرج، والزهري (تطوي) بمثناة فوقية مضمومة ورفع السماء، وقرأ مجاهد (يطوي) بالتحية المفتوحة مبنياً للفعل على معنى يطوي الله السماء وقرأ الباقر (تطوي) بنون العظمة وانتصاب يوم بقوله: ﴿نعيدته﴾ أي: نعيده يوم تطوي السماء؛ وقيل: هو بدل من الضمير المحذوف في توعدون، والتقدير: الذي كنتم توعدونه يوم تطوي، وقيل: بقوله لا يحزنهم الفزع؛ وقيل: بقوله تلقاهم، وقيل: متعلق بمحذوف، وهو أنكر، وهذا أظهر وأوضح، والطّي ضد النشر؛ وقيل: المحو، والمراد بالسماء الجنس، والسجل الصحيفة أي: طياً كطي الطومار؛ وقيل: السجل الصلح، وهو مشتق من المساجلة وهي المكاتبة، وأصلها من السجل، وهو اللؤلؤ، يقال: ساجلت الرجل إذا نزعته لؤلؤاً ونزع لؤلؤاً، ثم استعيرت للمكاتبة والمراجعة في الكلام، ومنه قول الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب: من يساجلني يساجل ماجداً يملأ اللؤلؤ إلى عقد الكرب وقرأ أبو زرعة بن عمرو وابن جرير ﴿السجل﴾ بضم السين والجيم وتشديد اللام، وقرأ الأعمش وطلحة بفتح السين وإسكان الجيم وتخفيف اللام، والطّي في هذه الآية يحتمل معنيين أحدهما: الطّي الذي هو ضدّ النشر، ومنه قوله: ﴿والسموات مطويات بيمينه﴾ [الزمر: 67]. والثاني:

الإخفاء والتعمية والمحو، لأن الله سبحانه يحو ويطمس رسومها ويكثر نجومها؛ وقيل: السجل اسم ملك، وهو الذي يطوي كتب بني آدم، وقيل: هو اسم كاتب لرسول الله ﷺ، والأول أولى. قرأ الأعمش، وحفص، وحمرزة، والكسائي، ويحيى، وخلف (للكتب) جمعاً، وقرأ الباقر (للكتاب) وهو متعلق بمحذوف حال من السجل أي: كطي السجل كائناً للكتب أو صفة له أي: الكائن للكتب، فإن الكتب عبارة عن الصحائف وما كتب فيها، فسجلها بعض أجزاءها، وبه يتعلق الطّي حقيقة. وأما على القراءة الثانية فالكتاب مصدر، واللام للتعليل أي: كما يطوي الطومار للكتابة أي: ليكتب فيه، أو لما يكتب فيه من المعاني الكثيرة، وهذا على تقدير أن المراد بالطّي المعنى الأول، وهو ضدّ النشر ﴿كما بدأننا أول خلق نعيده﴾ أي: كما بدأنهم في بطون أمهاتهم وأخرجناهم إلى الأرض حفاة عراة غرلاً كذلك نعيدهم يوم القيامة، فأول خلق مفعول نعيد مقدراً يفسره نعيده المنكسر، أو مفعول لبدأننا، وما كافة أو موصولة، والكاف متعلقة بمحذوف أي: نعيد مثل الذي بدأننا نعيده، وعلى هذا الوجه يكون أول ظرف لبدأننا، أو حال، وإنما خص أول الخلق بالذكر تصويراً للإيجاد عن العدم، والمقصود بيان صحة الإعادة بالقياس على المبدأ لشمول الإمكان الذاتي لهما، وقيل معنى الآية: نهلك كل نفس كما كان أول مرة، وعلى هذا فالكلام متصل بقوله: ﴿يوم تطوي السماء﴾ وقيل: المعنى نغير السماء، ثم نعيدها مرة أخرى بعد طيها وزوالها، والأول أولى، وهو مثل قوله: ﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة﴾ [الأنعام: 94]. ثم قال سبحانه: ﴿وعداً علينا إنا كنا فاعلين﴾ انتصاب وعداً على أنه مصدر أي: وعدنا وعداً علينا إنجازه والوفاء به. وهو البعث والإعادة، ثم أكد سبحانه ذلك بقوله: ﴿إنا كنا فاعلين﴾. قال الزجاج: معنى إنا كنا فاعلين: إنا كنا قادرين على ما نشاء، وقيل: إنا كنا فاعلين ما وعدناكم، ومثله قوله: ﴿كان وعده مفعولاً﴾ [الزمر: 18]. ﴿ولقد كتبنا في الزبور﴾ الزبور في الأصل الكتب، يقال: زبرت أي: كتبت، وعلى هذا يصح إطلاق الزبور على التوراة والإنجيل، وعلى كتاب داود المسمى بالزبور، وقيل: المراد به هنا كتاب داود، ومعنى ﴿من بعد الذكر﴾ أي: اللوح المحفوظ، وقيل: هو التوراة أي: والله لقد كتبنا في كتاب داود من بعد ما كتبنا في التوراة أو من بعد ما كتبنا في اللوح المحفوظ ﴿إن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾. قال الزجاج: الزبور جميع الكتب: التوراة والإنجيل والقرآن، لأن الزبور والكتاب في معنى واحد، يقال زبرت وكتبت، ويؤيد ما قاله قراءة حمزة في الزبور بضم الزاي، فإنه جمع زبر. وقد اختلف في معنى ﴿يرثها عبادي الصالحون﴾ فقيل: المراد أرض الجنة، واستدل القائلون بهذا بقوله سبحانه: ﴿وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض﴾ [الزمر: 74]. وقيل: هي الأرض المقدسة؛ وقيل: هي أرض الأمم الكافرة يرثها نبينا ﷺ وأمه بفتحها؛ وقيل:

إلى حين﴾ أي: وتمتيع إلى وقت مقدّر تقتضيه حكمته. ثم حكى سبحانه وتعالى دعاء نبيه ﷺ بقوله: ﴿قال رب احكم بالحق﴾ أي: احكم بيني وبين هؤلاء المكذّبين بما هو الحق عندك ففوّض الأمر إليه سبحانه، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع، وابن محيصن (رب) بضم الباء. قال النحاس: وهذا لحن عند النحويين لا يجوز عندهم رجل أقبل حتى يقول يا رجل. وقرأ الضحاك، وطلحة، ويعقوب (احكم) بقطع الهمزة وفتح الكاف وضم الميم أي: قال محمد ربي أحكم بالحق من كل حاكم. وقرأ الجحدري (احكم) بصيغة الماضي أي: أحكم الأمور بالحق. وقرأ قل بصيغة الأمر أي: قل يا محمد. قال أبو عبيدة: الصفة هنا أقيمت مقام الموصوف، والتقدير: ربّ احكم بحكمك الحق، وربّ في موضع نصب، لأنه منادى مضاف إلى الضمير، وقد استجاب سبحانه دعاء نبيه ﷺ فعذبهم ببدر، ثم جعل العقوبة والغلبة والنصر لعباده المؤمنين والحمد لله ربّ العالمين. ثم قال سبحانه متمماً لتلك الحكاية ﴿وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون﴾ من الكفر والتكذيب، قربنا مبتدأ وخبره الرحمن أي: هو كثير الرحمة لعباده، والمستعان خبر آخر أي: للمستعان به في الأمور التي من جملتها ما تصفونه من أن الشوكة تكون لكم، ومن قولكم: ﴿هل هذا إلا بشر مثلكم﴾ [الأنبياء: 3] وقولكم: ﴿اتخذ الرحمن ولدًا﴾ [الأنبياء: 26 - مريم: 88] وكثيراً ما يستعمل الوصف في كتاب الله بمعنى الكذب كقوله: ﴿ولكم الويل مما تصفون﴾ [الأنبياء: 18]، وقوله: ﴿سيجزّيهم وصفهم﴾ [الأنعام: 139] وقرأ المفضل، والسلمي (على ما يصفون) بالياء التحتية. وقرأ الباقر بالفوقية على الخطاب.

وقد أخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وأبو داود في ناسخه، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مرويّه من طرق عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها وارثون﴾ قال المشركون: فالملائكة، وعيسى، وعزير يعبدون من دون الله، فنزلت ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون﴾ عيسى، وعزير، والملائكة. وأخرج ابن مرويّه، والضياء في المختارة عنه قال: جاء عبد الله بن الزبير إلى النبي ﷺ فقال: تزعم أن الله أنزل عليك هذه الآية ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها وارثون﴾ قال ابن الزبير: قد عبت الشمس والقمر والملائكة وعزير وعيسى ابن مريم كل هؤلاء في النار مع آلهتنا، فنزلت: ﴿ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون﴾ وقالوا آلهتنا خير أم هو ما ضربه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون﴾ [الزخرف: 57 - 58]. ثم نزلت: ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون﴾. وأخرج أبو داود في ناسخه، وابن المنذر، والطبراني من وجه آخر عنه أيضاً نحوه بأطول منه. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله: ﴿إن

المراد بذلك بنو إسرائيل بلبيل قوله سبحانه: ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها﴾ [الأعراف: 137] والظاهر أن هذا تبشير لامة محمد ﷺ بوراثه أرض الكافرين، وعليه أكثر المفسرين. وقرأ حمزة (عبادي) بتسكين الباء، وقرأ الباقر بتحريكها ﴿إن في هذا لبلغا﴾ أي: فيما جرى ذكره في هذه السورة من الوعظ والتنبيه لبلغا لكفاية، يقال: في هذا الشيء بلاغ وبلغة وتبلغ أي: كفاية؛ وقيل: الإشارة بقوله: ﴿إن في هذا﴾ إلى القرآن ﴿للقوم عابدين﴾ أي: مشغولين بعبادة الله مهتمين بها، والعبادة هي الخضوع والتذلّل، وهم أمة محمد ﷺ، ورأس العبادة الصلاة ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ أي: وما أرسلناك يا محمد بالشرائع والأحكام إلا رحمة لجميع الناس، والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال والعلل أي: ما أرسلناك لعل من العلل إلا لرحمتنا الواسعة، فإن ما بعثت به سبب لسعادة الدارين. قيل: ومعنى كونه رحمة للكفار: أنهم آمنوا به من الخسف والمسح والاستئصال، وقيل: المراد بالعالمين المؤمنون خاصة، والأول أولى بلبيل قوله سبحانه: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾ [الأنفال: 33]. ثم بيّن سبحانه أن أصل تلك الرحمة هو التوحيد والبراءة من الشرك فقال: ﴿قل إنما يوحى إليّ إنما إلهكم إله واحد﴾ إن كانت «ماء موصولة فالمعنى: أن الذي يوحى إليّ هو أن وصفه تعالى مقصور على الوجدانية لا يتجاوزها إلى ما يناقضها أو يضادها، وإن كانت «ماء» كافة فالمعنى: أن الوحي إليّ مقصور على استئثار الله بالوحدة، ووجه ذلك أن القصر أبداً يكون لما يلي إنما، فإنما الأولى لقصر الوصف على الشيء كقولك إنما يقوم زيد أي: ما يقوم إلا زيد، والثانية لقصر الشيء على الحكم كقولك إنما زيد قائم أي: ليس به إلا صفة القيام ﴿فهل أنتم مسلمون﴾ متقانون مخلصون للعبادة ولتوحيد الله سبحانه ﴿فإن تولوا﴾ أي: عرضوا عن الإسلام ﴿فقل لهم﴾ ﴿أنفثكم على سواء﴾ أي: أعلمتكم أنا وإياكم حرب لا صلح بيننا كائنين على سواء في الإعلام لم أخصّ به بعضكم دون بعض كقوله سبحانه: ﴿وما تخافون من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء﴾ [الأنفال: 58] أي: أعلمهم أنك نقضت العهد نقضاً سوّيت بينهم فيه. وقال الزجاج: المعنى أعلمتكم ما يوحى إليّ على استواء في العلم به، ولا أظهر لأحد شيئاً كتمته على غيره ﴿وإن أدري أقرب أم بعيد ما توعدون﴾ أي: ما أدري أما توعدون به قريب حصوله أم بعيد، وهو غلبة الإسلام وأهله على الكفر وأهله؛ وقيل: المراد بما توعدون القيامة؛ وقيل: أنثتكم بالحرب ولكن لا أدري ما يؤن لي في محاربتكم ﴿إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون﴾ أي: يعلم سبحانه ما تجاهرون به من الكفر والطعن على الإسلام وأهله وما تكتمونه من ذلك وتخفونه ﴿وإن أدري لعله فتنة لكم﴾ أي: ما أدري لعل الإمهال فتنة لكم واختبار ليرى كيف صنعكم ﴿ومتاح

جعفر ابن جرير للإنكار على هذا الحديث ورده أتم رده، وقال: ولا تعرف في الصحابة أحداً اسمه سَجَلٌ، وكتاب النبي ﷺ كانوا معروفين، وليس فيهم أحد اسمه السجل وصلى رحمه الله في ذلك وهو من أقوى الأئمة على نكارة هذا الحديث. وأما من نكر في أسماء الصحابة هذا فإنما اعتمد على هذا الحديث لا على غيره والله أعلم. قال: والصحيح عن ابن عباس: أن السجل هو الصحيفة، قاله علي بن أبي طلحة والعمري عنه. ونص على ذلك مجاهد وقتادة وغير واحد، واختاره ابن جرير لأنه المعروف في اللغة، فعلى هذا يكون معنى الكلام: يوم تطوي السماء كطي السجل للكتاب أي: على الكتاب، يعني: المكتوب كقوله: ﴿فلما أسلما وتله للجبين﴾ [الصفحات: 103]، أي: على الجبين، وله نظائر في اللغة والله أعلم. قلت: أما كون هذا هو الصحيح عن ابن عباس فلا، فإن علي بن أبي طلحة والعمري ضعيفان، فالأولى التعويل على المعنى اللغوي والمصير إليه. وقد أخرج النسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وابن عساکر، عن ابن عباس قال: ﴿السجل﴾ هو الرجل، زاد ابن مردويه بلغة الحبشة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في تفسير الآية قال: كطي الصحيفة على الكتاب. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس في قوله: ﴿كما بدنا أول خلق نعيده﴾ يقول: نهلك كل شيء كما كان أول مرة. وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر﴾ قال: القرآن ﴿أن الأرض﴾ قال: أرض الجنة. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً ﴿ولقد كتبنا في الزبور﴾ قال: الكتب ﴿من بعد الذكر﴾ قال: التوراة وفي إسناده العمري. وأخرج سعيد بن منصور عنه أيضاً، قال: الزبور والتوراة والإنجيل والقرآن، والذكر: الأصل الذي نسخت منه هذه الكتب الذي في السماء والأرض: أرض الجنة. وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾ قال: أرض الجنة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في الآية قال: أخبر الله سبحانه في التوراة والزبور وسابق علمه قبل أن تكون السموات والأرض أن يورث أمة محمد الأرض، ويدخلهم الجنة، وهم الصالحون، وفي قوله: ﴿لبلاغاً لقوم عابدين﴾ قال: عالمين، وفي إسناده علي بن أبي طلحة. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر عن أبي هريرة ﴿إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين﴾ قال: الصلوات الخمس. وأخرج ابن مردويه، وأبو نعيم، والديلمي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿في قول الله ﴿إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين﴾ قال: في الصلوات الخمس شغلاً للعبادة. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس: «أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية ﴿لبلاغاً لقوم عابدين﴾ قال: هي الصلوات الخمس في المسجد الحرام جماعة». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس في قوله: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ قال: من آمن

الذين سبق لهم منا الحسنى﴾ قال: عيسى وعزير والملائكة. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً في قوله: ﴿حصب جهنم﴾ قال: شجر جهنم، وفي إسناده العمري. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه من وجه آخر أن ﴿حصب جهنم﴾ وقودها. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: هو حطب جهنم بالزنجية. وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله: ﴿لا يسمعون حسيسها﴾ قال: حيات على الصراط تقول حس حس. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي عثمان النهدي في قوله: ﴿لا يسمعون حسيسها﴾ قال: حيات على الصراط تلسعنهم، فإذا لسعنهم قالوا: حس حس. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير عن محمد بن حاطب قال: سئل علي عن هذه الآية ﴿إن الذين سبق لهم منا الحسنى﴾ قال: هو عثمان وأصحابه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿لا يسمعون حسيسها﴾ يقول: لا يسمع أهل الجنة حسيس النار إذا نزل منزلهم من الجنة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿لا يحزنهم الفزع الأكبر﴾ قال: النفخة الأخيرة، وفي إسناده العمري. وأخرج أحمد، والترمذي وحسنه عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة على كتابان المسك لا يهلهم الفزع الأكبر يوم القيامة: رجل أم قوماً وهم له راضون، ورجل كان يؤمن في كل يوم وليلة. وعبد أدى حق الله وحق مواليه». وأخرج عبد بن حميد، عن علي في قوله: ﴿كطي للسجل﴾ قال: ملك. وأخرج عبد بن حميد، عن عطية مثله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عمر قال: السجل ملك، فإذا صعد بالاستغفار قال: اكتبوها نوراً. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن عساکر، عن أبي جعفر الباقر قال: السجل ملك. وأخرج أبو داود، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن منده في المعرفة، وابن مردويه، والبيهقي في سننه وصححه، عن ابن عباس قال: السجل كاتب للنبي ﷺ. وأخرج ابن المنذر، وابن عدي، وابن عساکر، عن ابن عباس قال: كان لرسول الله ﷺ كاتب يسمى السجل، وهو قوله: ﴿يوم تطوي السماء كطي للسجل للكتاب﴾ قال: كما يطوي السجل الكتاب كذلك تطوي السماء. وأخرج ابن منده، وأبو نعيم في المعرفة، وابن مردويه، والخطيب، وابن عساکر عن ابن عمر قال: كان للنبي ﷺ كاتب يقال له السجل، فأنزل الله ﴿يوم تطوي السماء كطي للسجل للكتاب﴾ قال ابن كثير في تفسيره بعد إخراج هذا الحديث: وهذا منكر جداً من حديث نافع عن ابن عمر لا يصح أصلاً. قال: وكذلك ما تقدم عن ابن عباس من رواية أبي داود وغيره لا يصح أيضاً. وقد صرح جماعة من الحفاظ بوضعه، وإن كان في سنن أبي داود منهم شيخنا الحافظ الكبير أبو الحجاج المزي، وقد أقررت بهذا الحديث جزءاً له على حدة، والله الحمد. قال: وقد تصدى الإمام أبو

الحجّ على القرآن بسجديتين». وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، والإسماعيلي، وابن مردويه، والبيهقي عن عمر: أنه كان يسجد سجديتين في الحجّ وقال: إن هذه السورة فضّلت على سائر القرآن بسجديتين. وقد روي عن كثير من الصحابة أن فيها سجديتين، وبه يقول ابن المبارك، والشافعي، وأحمد، وإسحاق. وقال بعضهم: إن فيها سجدة واحدة، وهو قول سفيان الثوري، وأخرجه ابن أبي شيبة، عن ابن عباس، وإبراهيم النخعي.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حملها رَوَى النَّاسُ سُكْرَىٰ وَهَاهُمْ سُكْرَىٰ وَإِلَيْكُمْ عَذَابُ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ وَنَآئِلًا مِّنْ يُجْزَلُ فِي اللَّهِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ نَّكِيبٌ ﴿٣﴾ عَلَيْهِ أَتَمُّ مِن قَوْلِهِ فَإِنَّهُ يُسَلِّمُ وَيَهْدِي إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ ﴿٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْآيَاتِ الَّتِي آنزَلْنَا عَلَيْكُمْ مِّن قُرْآنٍ ثُمَّ مِن ثَلَاثَةٍ يُثْبِتُ فَذَرْهُمْ مِنَ الْآيَاتِ لَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ وَهُوَ عَزِيزٌ أَلْفَاظُ مَا تَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ يُخَرِّجُكُمْ فَأُولَٰئِكَ يَتَلَوْنَ مَا كُنتُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يَرْدُ إِلَىٰ أَزْدَلِ الْأُمُورِ لَيْسَ لَهُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ كَامِدَةً فَإِنَّا أَنزَلْنَاهَا إِلَىٰ الْآبِئَاتِ وَبَنَاتٍ وَنَآئِلًا مِّنْ يُجْزَلُ فِي اللَّهِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ نَّكِيبٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ فِي الْفُجُورِ

لما أنجز الكلام في خاتمة السورة المتقدمة إلى نكر الإعادة وما قبلها وما بعدها، بدأ سبحانه في هذه السورة بذكر القيامة وأهلها حثا على التقوى التي هي أنفع زاد فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُم﴾ أي: احذروا عقابه بفعل ما أمركم به من الواجبات وترك ما نهاكم عنه من المحرمات، ولفظ الناس يشمل جميع المكلفين من الموجودين ومن سيوجد على ما تقرر في موضعه، وقد قُتِلْنَا طرفاً من تحقيق ذلك في سورة البقرة، وجملة ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ تحليل لما قبلها من الأمر بالتقوى، والزلزلة شدة الحركة، وأصلها من زلّ عن الموضع أي: زال عنه وتحرك، وزلزل الله قدمه أي: حركها، وتكرير الحرف يدل على تأكيد المعنى، وهو من إضافة المصدر إلى فاعله، وهي على هذا الزلزلة التي هي أحد أشرط الساعة التي تكون في الدنيا قبل يوم القيامة، هذا قول الجمهور؛ وقيل: إنها تكون في النصف من شهر رمضان، ومن بعدها طلوع الشمس من مغربها، وقيل: إن المصدر هنا مضاف إلى الظرف، وهو الساعة إجراء له مجرى المفعول، أو بتقدير في كما في قوله: ﴿بَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [سبا: 33]. وهي المنكورة في قوله: ﴿إِنَّا زَلَزَلْنَا الْأَرْضَ زَلْزَالَةً﴾ [الزلزلة: 1]. وقيل: وفي التعبير عنها بالشئ إيدان بأن العقول قاصرة عن إدراك كونها ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾

تمت له الرحمة في الدنيا والآخرة، ومن لم يؤمن عوفي مما كان يصيب الأمم في عاجل الدنيا من العذاب من الخسف والمسح والقنف. وأخرج مسلم عن أبي هريرة قال: «قيل: يا رسول الله ادع الله على المشركين، قال: إني لم أبعث لعناً، وإنما بعثت رحمة». وأخرج الطيالسي، وأحمد، والطبراني، وأبو نعيم في الدلائل عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله بعثني رحمة للعلمين وهدى للمتقين». وأخرج أحمد، والطبراني، عن سلمان، أن رسول الله ﷺ قال: «أيا رجل من امتي سببته سبة في غضبي أو لعنته لعنة، فإنما أنا رجل من ولد آدم أغضب كما يغضبون، وإنما بعثني رحمة للعالمين، فاجعلها عليه صلاة يوم القيامة». وأخرج البيهقي في الدلائل، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما أنا رحمة مهداة». وقد روي معنى هذا من طرق. وأخرج ابن أبي خيثمة، وابن عساكر، عن الربيع بن أنس قال: لما أسري بالنبي ﷺ رأى فلاناً، وهو بعض بني أمية على المنبر يخطب الناس، فسق ذلك على رسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿وَإِن أَدْرِي لَعَلَّه فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ يقول: هذا الملك. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿وَإِن أَدْرِي لَعَلَّه فِتْنَةٌ لَّكُمْ﴾ يقول: ما أخبركم به من العذاب والساعة، لعل تأخير ذلك عنكم فتنة لكم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه في قوله: ﴿قُلْ رَبِّ لِحُكْمِ بِالْحَقِّ﴾ قال: لا يحكم الله إلا بالحق، وإنما يستعجل بذلك في الدنيا يسأل ربه.

تفسير سورة الحج

اختلف أهل العلم، هل هي مكية أو مدنية؟ فأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة الحجّ بالمدينة. وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير مثله. وأخرج ابن المنذر عن قتادة قال: نزل بالمدينة من القرآن الحجّ غير أربع آيات مكيات: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ إلى ﴿عَذَابٌ يَوْمَ عَقِيمٍ﴾، وحكى القرطبي عن ابن عباس أنها مكية سوى ثلاث آيات؛ وقيل: أربع آيات إلى قوله: ﴿عَذَابٌ لَّحْرِيقٍ﴾، وحكى عن النقاش أنه نزل بالمدينة منها عشر آيات. قال القرطبي وقال الجمهور: إن السورة مختلطة، منها مكي، ومنها مدني. قال: وهذا هو الصحيح. قال العزيزي: وهي من أعاجيب السور نزلت ليلاً ونهاراً، سفرأ وحضرأ، مكية ومدنية، سلمياً وحربياً، ناسخاً ومنسوخاً، محكماً ومتشابهاً، وقد ورد في فضلها ما أخرجه أحمد، وأبو داود، والترمذي، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي في سننه عن عتبة بن عامر قال: «قلت: يا رسول الله أفضلت سورة الحجّ على سائر القرآن بسجديتين؟ قال: نعم، فمن لم يسجدَهما فلا يقرأهما». قال الترمذي: هذا حديث ليس إسناده بالقوي. وأخرج أبو داود في المراسيل، والبيهقي عن خالد بن معدان، أن رسول الله ﷺ قال: فضّلت سورة

الشیطان بوصفین: الأول أنه مريد، والثاني ما أفاذه جملة كتب عليه إلخ، وجملة ﴿ويهديه إلى عذاب السعير﴾ معطوفة على جملة يضلّه أي: يحمله على مباشرة ما يصير به في عذاب السعير. ثم ذكر سبحانه ما هو المقصود من الاحتجاج على الكفار بعد فراغه من تلك المقدمة، فقال: ﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث﴾ قرأ الحسن (البعث) بفتح العين وهي لغة، وقرأ الجمهور بالسكون، وشكهم يحتمل أن يكون في وقوعه أو في إمكانه. والمعنى: إن كنتم في شك من الإعادة فانظروا في مبدأ خلقكم أي: خلق أبيكم آدم ليزول عنكم الريب ويرتفع الشك وتدحض الشبهة الباطلة ﴿فإننا خلقناكم من تراب﴾ في ضمن خلق أبيكم آدم ﴿ثم﴾ خلقناكم ﴿من نطفة﴾ أي: من مني، سمي نطفة لقلته، والنطفة: اللقليل من الماء. وقد يقع على الكثير منه، والنطفة: القطرة، يقال: نطف ينطف أي: قطر، وليلة نطوف أي: دائمة القطر ﴿ثم من علقية﴾ والعلقة: الدم الجامد، والعلق: الدم العبيط أي: الطري أو المتجمد؛ وقيل: الشديد الحمرة والمراد: الدم الجامد المتكون من المنى ﴿ثم من مضغة﴾ وهي القطعة من اللحم قدر ما يبيض الماضغ تتكون من العلقية ﴿مخلقة﴾ بالجر صفة لمضغة أي: مستبينة الخلق ظاهرة التصوير ﴿وغير مخلقة﴾ أي: لم يستبين خلقها ولا ظهر تصويرها، قال ابن الأعرابي: مخلقة يزيد قد بدا خلقه، وغير مخلقة لم تصوّر. قال الأكثر: ما أكمل خلقه ينفخ الروح فيه فهو المخلقة وهو الذي ولد لتام، وما سقط كان غير مخلقة أي: غير حيّ بكمال خلقته بالروح. قال الفراء: مخلقة تامّ الخلق، وغير مخلقة: السقط، ومنه قول الشاعر:

أقي غير المخلقة للبكاء فإين الحزم ويحك والحياء واللام في ﴿لننبين لكم﴾ متعلق بخلقنا أي: خلقناكم على هذا النمط البديع لنبين لكم كمال قدرتنا بتصريفنا أطوار خلقكم ﴿ونقر في الأرحام ما نشاء﴾ روى أبو حاتم، عن أبي زيد، عن المفضل، عن عاصم أنه قرأ بنصب نقر عطفاً على نبين، وقرأ الجمهور (نقر) بالرفع على الاستئناف أي: ونحن نقر. قال الزجاج: نقر بالرفع لا غير، لأنه ليس المعنى فعلنا ذلك لنقر في الأرحام ما نشاء، ومعنى الآية: وثبت في الأرحام ما نشاء فلا يكون سقطاً ﴿إلى أجل مسمى﴾ وهو وقت الولادة، وقال ما نشاء ولم يقل من نشاء، لأنه يرجع إلى الحمل وهو جماد قبل أن ينفخ فيه الروح، وقرئ (لنبين) - ويقر - و - يخرجكم) بالتحية في الأفعال الثلاثة، وقرأ ابن أبي وثاب (ما نشاء) بكسر النون ﴿ثم نخرجكم طفلاً﴾ أي: نخرجكم من بطون أمهاتكم طفلاً أي: أطفالاً، وإنما أفردته إرادة للجنس الشامل للموحد والمتعدد. قال الزجاج: طفلاً في معنى أطفالاً، ودلّ عليه نكر الجماعة يعني: في نخرجكم، والعرب كثيراً ما تطلق اسم الواحد على الجماعة، ومنه قول الشاعر:

يلحنني من حبيها ويلمنني إن العوائل لسن لي بأمير

انتصاب الظرف بما بعده، والضمير يرجع إلى الزلزلة أي: وقت رؤيتكم لها تذهل كل ذات رضاع عن رضيعها وتغفل عنه. قال قطرب: تذهل تشتغل، وأنشد قول الشاعر:

ضرب يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله وقيل: تنسى، وقيل: تلهو؛ وقيل: تسلو، وهذه معانيها متقاربة. قال المبرد: إن «ما» فيما أرضعت بمعنى المصدر أي: تذهل عن الإرضاع، قال: وهذا يدل على أن هذه الزلزلة في الدنيا، إذ ليس بعد القيامة حمل وإرضاع، إلا أن يقال: من ماتت حاملاً فتضع حملها للهول، ومن ماتت مرضعة بعثت كذلك، ويقال: هذا مثل كما يقال: ﴿يوماً يجعل ولدان شبيهاً﴾ [المزمل: 17]. وقيل: يكون مع النفخة الأولى، قال: ويحتمل أن تكون الساعة عبارة عن أهوال يوم القيامة، كما في قوله: ﴿مستهم البأساء والضراء وزلزلوا﴾ [البقرة: 214]. ومعنى ﴿وتضع كل ذات حمل حملها﴾ أنها تلقي جنينها لغير تمام من شدة الهول، كما أن المرضعة تترك ولدها بغير رضاع لذلك ﴿وترى الناس سكارى﴾ قرأ الجمهور بفتح التاء والراء خطاب لكل واحد أي: يراهم الراي كأنهم سكارى ﴿وما هم بسكارى﴾ حقيقة، قرأ حمزة، والكسائي (سكرى) بغير ألف، وقرأ الباقون بإثباتها وهما لغتان يجمع بهما سكران، مثل كسلى وكسالى، ولما نفى سبحانه عنهم السكر أوضح السبب الذي لأجله شابهوا السكارى فقال: ﴿ولكن عذاب الله شديد﴾ فبسبب هذه الشدة والهول العظيم طاشت عقولهم، واضطربت أفعالهم فصاروا كالسكارى، بجامع سلب كمال التمييز وصحة الإدراك وقرئ (وترى) بضم التاء وفتح الراء مسنداً إلى المخاطب من رأيته أي: تظنهم سكارى. قال الفراء: ولهذه القراءة وجه جيد في العربية، ثم لما أراد سبحانه أن يحتج على منكري البعث قديم قبل ذلك مقدمة تشمل أهل الجدل كلهم فقال: ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم﴾ وقد تقدم إعراب مثل هذا التركيب في قوله: ﴿ومن الناس من يقول﴾ [البقرة: 8]. ومعنى ﴿في الله﴾ في شأن الله وقدرته، ومحل ﴿بغير علم﴾ النصب على الحال. والمعنى: أنه يخاصم في قدرة الله فيزعم أنه غير قادر على البعث بغير علم يعلمه، ولا حجة يدلي بها ﴿ويبتع﴾ فيما يقوله ويتعاطاه ويحتج به ويجادل عنه ﴿كل شيطان مريد﴾ أي: متمرّد على الله وهو العاتي، سمي بذلك لخلوه عن كل خير، والمراد: إبليس وجنوده أو رؤساء الكفار الذين يدعون أشياءهم إلى الكفر. وقال الواحدي: قال المفسرون: نزلت في النضر بن الحارث وكان كثير الجدل، وكان ينكر أن الله يقدر على إحياء الأموات؛ وقيل: نزلت في الوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة ﴿كتب عليه أنه من تولاه﴾ أي: كتب على الشيطان: وفاعل كتب أنه من تولاه، والضمير للشان أي: من اتخذه ولياً ﴿فانه يضلّه﴾ أي: فشان الشيطان أن يضلّه عن طريق الحق، فقوله أنه يضلّه جواب الشرط إن جعلت من شرطية أو خبر الموصول إن جعلت موصولة، فقد وصف

الحق، وأنه المتفرد بإحياء الموتى، وأنه قاهر على كل شيء من الأشياء. والمعنى: أنه المتفرد بهذه الأمور وإنها من شأنه لا يدعي غيره أنه يقدر على شيء منها، فدلَّ سبحانه بهذا على أنه الحق الحقيقي الغني المطلق، وأن وجود كل موجود مستفاد منه، والحق هو: الموجود الذي لا يتغير ولا يزول، وقيل ذو الحق على عباده، وقيل: الحق في أفعاله. قال الزجاج: ذلك في موضع رفع أي: الأمر ما وصفه لكم وبين بأن الله هو الحق. قال: ويجوز أن يكون ذلك نصباً، ثم أخبر سبحانه بأن **«الساعة آتية»** أي: في مستقبل الزمان، قيل: لا بد من إضمار فعل أي: ولتعلموا أن الساعة آتية **«لا ريب فيها»** أي: لا شك فيها ولا تردد، وجملة **«لا ريب فيها»** خبر ثانٍ للساعة، أو في محل نصب على الحال. ثم أخبر سبحانه عن البعث فقال: **«وإن الله يبعث من في القبور»** فيجازيهم بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وإن ذلك كائن لا محالة.

وقد أخرج سعيد بن منصور، وأحمد، وعبد بن حميد، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه من طرق عن الحسن وغيره عن عمران بن حصين قال: «لما نزلت **«يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم»** إلى قوله **«ولكن عذاب الله شديد»** أنزلت عليه هذه وهو في سفر، فقال: أتدرون أي يوم ذلك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: ذلك يوم يقول الله لأبم ابعث بعث النار، قال: يا رب وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين إلى النار، واحداً إلى الجنة، فأنشأ المسلمون ييكون، فقال رسول الله ﷺ: قاربوا وسندوا وأبشروا، فإنها لم تكن نبوة قط إلا كان بين يديها جاهلية فتنوخذ العدة من الجاهلية، فإن تمت وإلا كملت من المنافقين، وما مثلكم والامم إلا كمثل الرقعة في نزار الدابة، أو كالشامة في جنب البعير، ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة فكبروا، ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة فكبروا، ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة فكبروا، قال: ولا أدري قال الثلثين أم لا. وأخرج الترمذي وصححه، وابن جرير، وابن المنذر عن عمران بن حصين مرفوعاً نحوه، وقال في آخره: «اعملوا وأبشروا فوالذي نفس محمد بيده إنكم لمع خليقتين ما كانتا مع شيء إلا كثرتاه يأجوج ومأجوج، ومن مات من بني آدم ومن بني إبليس، فسري عن القوم بعض الذي يجنون قال: اعملوا وأبشروا، فوالذي نفس محمد بيده ما أنتم في الناس إلا كالشامة في جنب البعير، أو كالرقعة في نزار الدابة». وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن أنس مرفوعاً نحوه. وأخرج البزار، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن أنس مرفوعاً نحوه أيضاً، وفي الصحيحين وغيرهما عن أبي سعيد الخدري قال: قال النبي

وقال المبرد: هو اسم يستعمل مصدر كالأرض، والعدل فيقع على الواحد والجمع، قال الله سبحانه: **«وإن الطفل الذين لم يظهروا»** [النور: 31]. قال ابن جرير: هو منصوب على التمييز كقوله: **«فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً»** [النساء: 4]. وفيه بعد، والظاهر انتصابه على الحال بالتأويل المذكور، والطفل يطلق على الصغير من وقت انفصاله إلى البلوغ **«ثم لتبلغوا أشنكم»** قيل: هو علة لنخرجكم معطوف على علة أخرى مناسبة له، كانه قيل: نخرجكم لتكبروا شيئاً فشيئاً ثم لتبلغوا إلى الأشد، وقيل: إن ثم زائدة، والتقدير: لتبلغوا؛ وقيل: إنه معطوف على نبين، والأشد هو كمال العقل وكمال القوة والتمييز. قيل: وهو ما بين الثلاثين إلى الأربعين. وقد تقدم الكلام في هذا مستوفى في الأنعام **«وومنكم من يتوفى»** يعني: قبل بلوغ الأشد، وقرئ يتوفى مبنياً للفاعل. وقرأ الجمهور (يتوفى) مبنياً للمفعول **«وومنكم من يرد إلى أرذل العمر»** أي: أخسه وألونه، وهو الهرم والخرف حتى لا يعقل، ولهذا قال سبحانه: **«لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً»** أي شيئاً من الأشياء، أو شيئاً من العلم، والمعنى: أنه يصير من بعد أن كان ذا علم بالأشياء وفهم لها، لا علم له ولا فهم، ومثله قوله: **«لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم»** ثم رددناه أسفل سافلين [التين: 4 - 5]. وقوله: **«ومن نعلمه ننكسه في الخلق»** [يس: 68]. **«ووترى الأرض هامدة»** هذه حجة أخرى على البعث، فإنه سبحانه احتج بإحياء الأرض بإنزال الماء على إحياء الأموات، والهامدة اليابسة التي لا تثبت شيئاً، قال ابن قتيبة: أي ميتة يابسة كالنار إذا طفت؛ وقيل: دارسة، والهمود النروس، ومنه قول الأسي: **«قلت قتيبة ما لجسمك شاحباً وارى ثيابك باليات همودا»**

وقيل: هي التي ذهب عنها الندى؛ وقيل: هالكة، ومعاني هذه الأقوال متقاربة **«فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت»** المراد بالماء هنا: المطر، ومعنى: اهتزت تحركت، والاهتزاز شدة الحركة، يقال هزرت الشيء فاهتز أي: حركته فتحرك والمعنى: تحركت بالنبات، لأن النبات لا يخرج منها حتى يزول بعضها من بعض إزالة حقيقة، فسماه اهتزازاً مجازاً. وقال المبرد: المعنى اهتزت نباتها فحنف المضاف، واهتزازه شدة حركته، والاهتزاز في النبات أظهر منه في الأرض، ومعنى ربت ارتفعت، وقيل: انتفتحت. والمعنى واحد، وأصله الزيادة، يقال: ربا الشيء يربو ربواً إذا زاد ومنه الربا والربوة. وقرأ يزيد بن القعقاع وخالد بن إلياس (وربات) أي: ارتفعت حتى صارت بمنزلة الرابية، وهو الذي يحفظ القوم على مكان مشرف يقال له رابية ورابية وربية **«وانبتت»** أي: أخرجت **«من كل زوج بهيج»** أي: من كل صنف حسن ولون مستحسن، والبهجة الحسن، وجملة **«ذلك بأن الله هو الحق»** مستأنفة، لما نكر افتقار الموجودات إليه سبحانه وتسخيرها على وفق إرادته واقتداره. قال بعد ذلك هذه المقالات، وهي إثبات أنه سبحانه

في الله، فيدخل في ذلك كل مجالل في ذات الله، أو صفاته أو شرائعه الواضحة، و «بغير علم» في محل نصب على الحال أي: كائناً بغير علم. قيل: والمراد بالعلم هو العلم الضروري، وباللهي هو العلم النظري الاستدلالي. والأولى حمل العلم على العموم، وحمل الهدى على معناه اللغوي، وهو الإرشاد. والمراد بالكتاب المنير هو: القرآن، والمنير: النير البين الحجة الواضح البرهان، وهو وإن دخل تحت قوله: «بغير علم» فإفراده بالنكر كإفراد جبريل بالنكر بعد ذكر الملائكة، وذلك لكونه الفرد الكامل الفائق على غيره من أفراد العلم. وأما من حمل العلم على الضروري والهدى على الاستدلالي، فقد حمل الكتاب هنا على الدليل السمعي، فتكون الآية متضمنة لنفي الدليل العقلي ضرورياً كان أو استدلالياً، ومتضمنة لنفي الدليل النقلي بإقسامه، وما نكرناه أولى. قيل: والمراد بهذا المجالل في هذه الآية هو المجالل في الآية الأولى. أعني قوله: «ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد» [الحج: 3] وبذلك قال كثير من المفسرين، والتكرير للمبالغة في الذم كما تقول للرجل تنم وتوبخه أنت فعلت هذا أنت فعلت هذا؟ ويجوز أن يكون التكرير لكونه وصفه في كل آية بزيادة على ما وصفه به في الآية الأخرى، فكأنه قال: ومن الناس من يجادل في الله ويتبع كل شيطان مريد بغير علم «ولا هدى ولا كتاب منير» ليضل عن سبيل الله - هـ وقيل: الآية الأولى في المقلدين اسم فاعل. والثانية في المقلدين اسم مفعول. ولا وجه لهذا كما أنه لا وجه لقول من قال: إن الآية الأولى خاصة بإضلال المتبوعين لتابعيهم، والثانية عامة في كل إضلال وجدال، وانتصاب «ثاني عطفه» على الحال من فاعل يجادل، والعطف الجانب، وعطف الرجل جانباه من يمين وشمال، وفي تفسيره وجهان: الأول أن المراد به من يلوي عنقه مرحاً وتكبراً، نكر معناه الزجاج. قال: وهذا يوصف به المتكبر. والمعنى: ومن الناس من يجادل في الله متكبراً. قال المبرد: العطف ما انتفى من العنق والوجه الثاني أن المراد بقوله: «ثاني عطفه» الإعراض أي: معرضاً عن النكر، كذا قال الفراء والمفضل وغيرهما كقوله تعالى: «ولي مستكبراً كان لم يسعها» [لقمان: 7]. وقوله: «لولا رؤوسهم» [المنافقون: 45]. وقوله: «أعرض ونأى بجانيه» [الإسراء: 83]. واللام في «ليضل عن سبيل الله» متعلق بتجادل أي: إن غرضه هو الإضلال عن السبيل وإن لم يعترف بذلك. وقرئ ليضل بفتح الباء على أن تكون اللام هي لام العقوبة كأنه جعل ضلاله غاية لجده، وجملة «وله في الدنيا خزي» مستأنفة مبينة لما يحصل له بسبب جداله من العقوبة. والخزي النذل، وذلك بما يناله من العقوبة في الدنيا من العذاب المعجل وسوء النكر على السن الناس؛ وقيل: الخزي الننيوي هو القتل كما وقع في يوم بدر «وننطقه يوم القيامة عذاب الحريق» أي: عذاب النار المحرقة، والإشارة بقوله: «ذلك» إلى ما تقدم من العذاب الننيوي

فذكر نحوه، وفي آخره فقال: «من يأجوج ومأجوج ألف ومنكم واحد، وهل أنتم في الأمم إلا كالشجرة السوداء في الثور الأبيض، أو كالشجرة البيضاء في الثور الأسود». وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: «كتب عليه» قال: كتب على الشيطان. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد مثله «أنه من تولاه» قال: اتبعه. وأخرج البخاري، ومسلم، وأهل السنن وغيرهم، عن ابن مسعود قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصابق المصدوق: «إن أحكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الله إليه الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد، فوالذي لا إله غيره إن أحكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا نراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا نراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها». والأحاديث في هذا الباب كثيرة جداً. وأخرج ابن أبي حاتم وصححه، عن ابن عباس في قوله: «مخلقة وغير مخلقة» قال: المخلقة ما كان حياً، وغير المخلقة ما كان سقطاً. وروي نحو هذا عن جماعة من التابعين. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: «من كل زوج بهيج» قال: حسن. وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، عن معاذ بن جبل قال: من علم أن الله عز وجل حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور دخل الجنة.

وَمَنْ آتَيْنَا مِنْ بَنِيكُمْ عَلَى اللَّهِ يَغْيِرْ عَلَيَّ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٌ مُبِينٌ ۖ ثَانِي عَظْفِهِ ۖ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَمْ يَكُنْ فِي الدُّنْيَا خَيْرٌ وَنُذِرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْخَرِيقِ ۖ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُظَاهِرُ الْمُتَّبِعِينَ ۖ وَمَنْ آتَيْنَا مِنْ بَنِيكُمْ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَإِنْ آسَأَ خَيْرَ آسَأَ يَدٌ وَلَنْ آسَأَهُ وَنُنْذِرُهُ أَنْتَقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ ۖ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلَانِ ۖ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَمَا لَا يَضُرُّهُمْ ۚ وَمَا لَا يَنْفَعُهُمْ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعيدُ ۖ الَّذِينَ يَدْعُونَ لَمَنْ سَضَرَهُمْ أَقْرَبَ مِنْ نَفْعِهِ ۚ لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْعَمِيرُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ۚ مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَمُوتَ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَطْعَمْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُدْهِئُ كَيْدُ مَا يَبْغِي ۚ وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ يَتَذَكَّرُ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ ۚ

قوله: «ومن الناس من يجادل في الله» أي: في شأن الله، كقول من قال: إن الملائكة بنات الله، والمسيح ابن الله، وعزير ابن الله. قيل: نزلت في النضر بن الحارث؛ وقيل: في أبي جهل؛ وقيل: هي عامة لكل من يتصدى لإضلال الناس وإغواشهم، وعلى كل حال فالاعتبار بما يدل عليه اللفظ وإن كان السبب خاصاً. ومعنى اللفظ: ومن الناس فريق يجادل

والأخروي، وهو مبتدأ خبره ﴿بِمَا قَدَّمْت يَدَاكَ﴾. والباء للسببية أي: تلك العذاب النازل بك بسبب ما قَدَّمْت يداك من الكفر والمعاصي، وعبر باليد عن جملة البدن لكون مباشرة المعاصي تكون بها في الغالب، ومحل أن وما بعدها في قوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِغَلَامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ الرفع على أنها خبر مبتدأ محذوف أي: والأمر أنه سبحانه لا يعذب عباده بغير نذير. وقد مرَّ الكلام على هذه الآية في آخر آل عمران فلا نعيده ﴿وَمَنْ لِلنَّاسِ مِنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ هذا بيان لشقاق أهل الشقاق. قال الواحدي: قال أكثر المفسرين: الحرف الشك، وأصله من حرف الشيء وهو طرفه، مثل حرف الجبل والحائط، فإن القائم عليه غير مستقر والذي يعبد الله على حرف قلق في دينه على غير ثبات وطمانينة كالذي هو على حرف الجبل ونحوه يضطرب اضطراباً ويضعف قيامه، فقليل للشاك في دينه: إنه يعبد الله على حرف، لأنه على غير يقين من وعده ووعيده، بخلاف المؤمن لأنه يعبد على يقين وبصيرة فلم يكن على حرف، وقيل: الحرف الشرط أي: ومن الناس من يعبد الله على شرط، والشرط هو قوله: ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ﴾ أي: خير دنيوي من رضاء وعافية وخصب وكثرة مال، ومعنى اطمأن به: ثبت على دينه واستمر على عبادته، أو اطمأن قلبه بذلك الخير الذي أصابه ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ أي: شيء يفتن به من مكروه يصيبه في أهله أو ماله أو نفسه ﴿فَنُفِلَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ أي: ارتدَّ ورجع إلى الوجه الذي كان عليه من الكفر، ثم بيَّن حاله بعد انقلابه على وجهه فقال: ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ أي: ذهباً منه وفقدهما، فلا حظ له في الدنيا من الغنيمة والثناء الحسن، ولا في الآخرة من الأجر وما أعدّه الله للصالحين من عبادته. وقرأ مجاهد، وحמיד بن قيس، والأعرج، والزهرري، وابن أبي إسحاق (خاسرا الدنيا والآخرة) على صيغة اسم الفاعل منصوباً على الحال. وقرئ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف. والإشارة بقوله: ﴿تِلْكَ﴾ إلى خسران الدنيا والآخرة وهو مبتدأ وخبره ﴿وَهُوَ لِلْخَسِرَانِ الْمَبِينُ﴾ أي: الواضح الظاهر الذي لا خسران مثله ﴿يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نُنْفَعُهُ﴾ أي: هذا الذي انقلب على وجهه ورجع إلى الكفر يدعو من دُونِ اللَّهِ أي: يعبد متجاوزاً عبادة الله إلى عبادة الأصنام ما لا يضرُّه إن ترك عبادته، ولا ينفعه إن عبده لكون ذلك المعبود جامداً لا يقدر على ضرٍّ ولا نفع، والإشارة بقوله: ﴿تِلْكَ﴾ إلى الدعاء المفهوم من الفعل وهو يدعو، واسم الإشارة مبتدأ وخبره ﴿هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ أي: عن الحق والرشد مستعار من ضلال من سلك غير الطريق فصار بضلاله بعيداً عنها. قال الفراء: البعيد الطويل ﴿يَدْعُو لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾ يدعو بمعنى: يقول، والجملة مقررّة لما قبلها من كون ذلك الدعاء ضلالاً بعيداً. والأصنام لا نفع فيها بحال من الأحوال بل هي ضرر بحت لمن يعبدها، لأنه دخل النار بسبب عبادتها، وإيراد صيغة التفضيل مع عدم

النفع بالمرّة للمبالغة في تقييح حال ذلك الداعي، أو ذلك من باب ﴿وَأَنَا أَوْلَىٰ بِكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبا: 24] واللام هي الموطنة للقسم، ومن موصولة أو موصوفة، وضرُّه مبتدأ خبره أقرب، والجملة صلة الموصول. وجملة ﴿لِبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلِبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾ جواب القسم، والمعنى: أنه يقول ذلك للكافر يوم القيامة لمعبوده الذي ضرُّه أقرب من نفعه: لبئس المولى أنت لبئس العشير، والمولى الناصر، والعشير الصاحب، ومثل ما في هذه الآية قول عنترة: يدعون عنتر والرماح كأنها أشطان بشر في لبنان الأدهم وقال الزجّاج: يجوز أن يكون يدعو في موضع الحال، وفيه هاء محذوفة أي: ذلك هو الضلال البعيد يدعو، وعلى هذا يوقف على يدعو، ويكون قوله: ﴿لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾ كلاماً مستأنفاً مرفوعاً بالابتداء، وخبره لبئس المولى. قال: وهذا لأن اللام لليمين والتوكيد فجعلها أول الكلام. وقال الزجّاج والفراء: يجوز أن يكون يدعو مكررة على ما قبلها على جهة تكثير هذا الفعل الذي هو الدعاء أي: يدعو ما لا يضرُّه ولا ينفعه يدعو مثل ضريت زيداً ضريت. وقال الفراء، والكسائي، والزجّاج: معنى الكلام القسم، واللام مقدّمة على موضعها، والتقدير: يدعو من لضرُّه أقرب من نفعه، فمن في موضع نصب بيّدعو، واللام جواب القسم وضرُّه مبتدأ، وأقرب خبره، ومن التصرف في اللام بالتقديم والتأخير قول الشاعر:

خالي لانت ومن جرير خاله ينل العلاء ويكرم الأخوالا
أي: لخالي أنت. قال النحاس: وحكى لنا علي بن سليمان عن محمد بن يزيد قال: في الكلام حذف، والمعنى: يدعو لمن ضرُّه أقرب من نفعه إلهاً. قال النحاس: ولحسب هذا القول غلطاً عن محمد بن يزيد، ولعل وجهه أن ما قيل اللام هذه لا يعمل فيما بعدها. وقال الفراء أيضاً: والقفال اللام صلة أي: زائدة، والمعنى: يدعو من ضرُّه أقرب من نفعه أي: يعبد، وهكذا في قراءة عبد الله بن مسعود بحذف اللام، وتكون اللام في (لبئس المولى) وفي (لبئس العشير) على هذا موطئة للقسم ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ لما فرغ من نكر حال المشركين، ومن يعبد الله على حرف نكر حال المؤمنين في الآخرة، وأخبر أنه يدخلهم هذه الجنات المتصفة بهذه الصفة، وقد تقدّم الكلام في جري الأنهار من تحت الجنات، وبيّنا أنه إن أريد بها الأشجار المتكاثفة الساترة لما تحتها، فجرّان الأنهار من تحتها ظاهر، وإن أريد بها الأرض فلا بد من تقدير مضاف أي: من تحت أشجارها ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ هذه الجملة تعليل لما قبلها أي: يفعل ما يريد من الأفعال ﴿لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء: 23]. فيثبت من يشاء ويعذب من يشاء ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ قال النحاس: من أحسن ما قيل في هذه الآية أن المعنى: من كان يظن أن لن ينصر الله محمداً ﷺ وأنه يتهاى له أن يقطع النصر الذي

والفضة، فنزلت ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾. وأخرج الثريائي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنَّ لَن يَنْصُرَهُ اللَّهُ﴾ قال: من كان يظن أن لن ينصر الله محمداً في الدنيا والآخرة ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ﴾ قال: فليربط بحبل ﴿إِلَى السَّمَاءِ﴾ قال: إلى سماء بيته السقف ﴿ثُمَّ لِيَقْطَعْ﴾ قال: ثم يقطع به حتى يموت. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عنه قال: ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنَّ لَن يَنْصُرَهُ اللَّهُ﴾ يقول: أن لن يرزقه الله ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾ فليأخذ حبلاً فليربطه في سماء بيته فليختنق به ﴿فَلْيَنْظُرْ هَلْ يَذْهَبُنْ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾ قال: فليظنر هل ينفعه ذلك أو يأتيه برزق.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَتَوْا اللَّهَ بِعَمَلٍ يَبْغُونَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّجَرُ وَالتَّحِيطُ وَالْحِجَابُ وَالَّذِينَ يُكْفِّرُونَ عَنْ عَذَابِ اللَّهِ وَكَيْفَ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن شُكُورٍ إِنَّ اللَّهَ بِفَعْلٍ مَا يَشَاءُ ﴿١٨﴾ هَٰذَا زَبَانُ الْحَمِيمِ ﴿١٩﴾ كَذَّبُوا فَلْيَقْطَعْ لَهُمُ بَنَاتُ مِن نَّارٍ يَصُبُّ مِن قَوْقُ رُءُوسِهِمْ لَمْ يَسْمِعُوا يَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢١﴾ وَلَمْ يَنْتَفِعْ بِهَا مِن حَرِّهَا ﴿٢٢﴾ كَلَّا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا وَهُمْ لَا يُخْرِجُونَ ﴿٢٣﴾ أَعْبُدُوا فِيهَا ذُوقُوا عَذَابَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُجْرُونَ فِيهَا مِن نَّحْوِ مَا أَمَّا زَيْنَ أَكْرَمٍ مِّنَ ذَهَبٍ يَّزُولُ وَرُؤُوسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٥﴾ وَهُدًى إِلَى الْكَلْبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدًى إِلَى مَرْكَبٍ لَّكَلْبٍ ﴿٢٦﴾

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: بالله ويرسلوه، أو بما نكر من الآيات البينات ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ هم اليهود المنتسبون إلى ملة موسى ﴿وَالصَّابِئِينَ﴾ قوم يعبدون النجوم؛ وقيل: هم من جنس النصارى وليس ذلك بصحيح بل هم فرقة معروفة لا ترجع إلى ملة من الملل المنتسبة إلى الأنبياء ﴿وَالنَّصَارَى﴾ هم المنتسبون إلى ملة عيسى ﴿وَالْمَجُوسَ﴾ هم الذين يعبدون النار، ويقولون: إن للعالمين أصلين: النور والظلمة؛ وقيل: هم قوم يعبدون الشمس والقمر؛ وقيل: هم قوم يستعملون النجاسات؛ وقيل: هم قوم من النصارى اعتزلوهم ولبسوا المسوح، وقيل: إنهم أخنوخ بعض دين اليهود وبعض دين النصارى ﴿وَالَّذِينَ أَتَوْا اللَّهَ بِعَمَلٍ يَبْغُونَهُ﴾ الذين يعبدون الأصنام، وقد مضى تحقيق هذا في البقرة، ولكنه سبحانه قدّم هنالك النصارى على الصابئين، وأخّره عنهم هنا. فقيل: وجه تقديم النصارى هنالك: أنهم أهل كتاب دون الصابئين، ووجه تقديم الصابئين هنا: أن زمنهم متقدم على زمن النصارى، وجملة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ في محل رفع على أنها خبر لأنّ المنقمة، ومعنى الفصل: أنه سبحانه يقضي بينهم فيدخل المؤمنين منهم

أوتيه ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾ أي: فليطلب حيلة يصل بها إلى السماء ﴿ثُمَّ لِيَقْطَعْ﴾ أي: ثم ليقطع النصر إن تهاى له ﴿فَلْيَنْظُرْ هَلْ يَذْهَبُنْ كَيْدُهُ﴾ وحيلته ﴿مَا يَغِيظُ﴾ من نصر النبي ﷺ؛ وقيل: المعنى من كان يظن أن لن ينصر الله محمداً حتى يظهره على الدين كله فليمت غيظاً، ثم فسره بقوله: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾ أي: فليشد حبلاً في سقف بيته ﴿ثُمَّ لِيَقْطَعْ﴾ أي: ثم ليمد الحبل حتى ينقطع فيموت مختنقاً، والمعنى: فليختنق غيظاً حتى يموت، فإن الله ناصره ومظهره، ولا ينفعه غيظه؛ ومعنى فليظنر هل يذهب كيدُهُ أي: صنيعه وحيلته ما يغيظ أي: غيظه، وما مصدرية؛ وقيل: إن الضمير في ينصره يعود إلى من، والمعنى: من كان يظن أن الله لا يرزقه فليقتل نفسه، وبه قال أبو عبيدة؛ وقيل: إن الضمير يعود إلى الدين أي: من كان يظن أن لن ينصر الله دينه. وقرأ الكوفيون بإسكان اللام في ﴿ثُمَّ لِيَقْطَعْ﴾ قال النحاس: وهذه القراءة بعيدة من العربية ﴿وَكُلُّكَ لَنَزْلُهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي: مثل تلك الإنزال البين انزلناه آيات واضحة ظاهرة الدلالة على ملولاتها ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَرِيدُ﴾ هدايته ابتداء أو زيادة فيها لمن كان مهدياً من قبل.

وقد أخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿ثَانِي عَطْفُهُ﴾ قال: لاري عنقه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، والسدي، وابن يزيد، وابن جريج: أنه المعرض. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم في قوله: ﴿ثَانِي عَطْفُهُ﴾ قال: أنزلت في النضر بن الحارث. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال: هو رجل من بني عبد الدار. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه ﴿ثَانِي عَطْفُهُ﴾ قال: مستكبراً في نفسه. وأخرج البخاري، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ قال: كان الرجل يقدم المدينة، فإن ولدت امرأته غلاماً وأنتجت خيله قال: هذا بين صالح، وإن لم تلد امرأته ولم تنتج خيله قال: هذا دين سوء. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه عنه بسند صحيح قال: كان ناس من الأعراب يأتون النبي ﷺ يسلمون، فإذا رجعوا إلى بلادهم فإن وجدوا عام غيث وعام خصب وعام ولاد حسن قالوا: إن ديننا هذا لصالح فتمسكوا به، وإن وجدوا عام جيب وعام ولاد سوء وعام قحط قالوا: ما في ديننا هذا خير، فأنزل الله ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عنه أيضاً نحوه، وفي إسناده العوفي. وأخرج ابن مردويه أيضاً من طريقه أيضاً عن أبي سعيد قال: «أسلم رجل من اليهود فذهب بصره وماله وولده فتشاهم بالإسلام، فأتى النبي ﷺ فقال: أقلني، قال: إن الإسلام لا يقال، فقال: لم أصب من ديني هذا خيراً ذهب بصري ومالي ومات ولدي، فقال: يا يهودي الإسلام يسبك الرجال كما تسبك النار خبث الحديد والذهب

لعقوبته؛ وقيل: المراد بالخصمين هم: الذين برزوا يوم بدر، فمن المؤمنين حمزة وعلي وعبيدة، ومن الكافرين عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة. وقد كان أبو نر رضي الله عنه يقسم أن هذه الآية نزلت في هؤلاء المتبارزين كما ثبت عنه في الصحيح، وقال بمثل هذا: جماعة من الصحابة، وهم أعراف من غيرهم بأسباب النزول. وقد ثبت في الصحيح أيضاً عن علي أنه قال: فينا نزلت هذه الآية. وقرأ ابن كثير **﴿هَٰذَا﴾** بتشديد النون، وقال سبحانه: **﴿اٰخِصْمُوْهُمْ﴾** ولم يقل اختصموا. قال الفراء: لأنهم جمع، ولو قال اختصموا لجان، ومعنى **﴿فِي رَبِّهِمْ﴾** في شأن ربهم أي: في دينه، أو في ذاته، أو في صفاته، أو في شريعته لعباده، أو في جميع ذلك. ثم فصل سبحانه ما أجمله في قوله: **﴿يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾** فقال: **﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ﴾** قال الأزهرى: أي سويت وجعلت لبوساً لهم، شبهت النار بالثياب لأنها مشتملة عليهم كاشتغال الثياب، وعبر بالماضي عن المستقبل تنبيهاً على تحقق وقوعه؛ وقيل: إن هذه الثياب من نحاس قد آتيت فصار كالنار، وهي السراويل المذكورة في آية أخرى؛ وقيل: المعنى في الآية: أحاطت النار بهم. وقرأ **﴿قُطِعَتْ﴾** بالتخفيف ثم قال سبحانه **﴿يَصْبُغُ مِنْ فَوْقٍ رَعْسَهُمُ الْحَمِيمُ﴾** والحميم هو الماء الحار المغلي بنار جهنم، والجملة مستأنفة أو هي خبر ثانٍ للموصول **﴿يَصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ﴾** الصهر الإنابة، والصهارة ما ذاب منه، يقال: صهرت الشيء فانصهر أي: أثبتته فذاب فهو صهير، والمعنى: أنه يذاب بذلك الحميم ما في بطونهم من الأمعاء والأحشاء **﴿وَالْجُلُودُ﴾** معطوفة على ما أي: ويصهر به الجلود، والجملة في محل نصب على الحال؛ وقيل: إن الجلود لا تذاب، بل تحرق، فيقدر فعل يناسب ذلك، ويقال: وتحرق به الجلود كما في قول الشاعر:

علفتها تبناً وماءً بارداً

أي: وسقيتها ماء، ولا يخفى أنه لا ملجئ لهذا، فإن الحميم إذا كان يذيب ما في البطن فيأذيته للمجلد الظاهر بالأولى **﴿وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حديدٍ﴾** المقامع جمع مقمعة ومقمع قمعته ضربته بالمقمعة، وهي قطعة من حديد. والمعنى: لهم مقامع من حديد يضربون بها أي: للكفرة، وسميت المقامع مقامع لأنها تقع المضروب أي: تذلل. قال ابن السكيت: أقمعت الرجل عني إقماً: إذا أطلع عليك فربدتك عنك **﴿عَلَمُوا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾** أي: من النار **﴿أَعِيدُوا فِيهَا﴾** أي: في النار بالضرب بالمقامع، و **﴿مِنْ غَمٍّ﴾** بدل من الضمير في منها بإعادة الجار أو مفعول له أي: لأجل غم شديد من غموم النار **﴿وَنُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾** هو بتقدير القول أي: أعيدوا فيها؛ وقيل لهم نوقوا عذاب الحريق أي: العذاب المحرق، وأصل الحريق الاسم من الاحتراق، تحرق الشيء بالنار واحترق حرقاً واحتراقاً، والنوق مماساة يحصل معها إدراك الطعم، وهو هنا توسع، والمراد به: إدراك الألم. قال الزجاج: وهذا لأحد الخصمين.

الجنة والكافرين منهم النار؛ وقيل: الفصل هو أن يميز المحق من المبطل بعلامة يعرف بها كل واحد منهما، وجملة **﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾** تحليل لما قبلها أي: أنه سبحانه على كل شيء من أفعال خلقه وأقوالهم شهيد لا يعزب عنه شيء منها، وأنكر الفراء أن تكون جملة **﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾** خبراً لأن المتقدمة. وقال لا يجوز في الكلام: إن زيداً إن أخاه منطلق، وردّ الزجاج ما قاله الفراء، وأنكره وأنكر ما جعله ماثلاً للآية، ولا شك في جواز قولك: إن زيداً إن الخير عنده، وإن زيداً إنه منطلق، ونحو ذلك **﴿لَهُمْ تَرَانِ﴾** الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض **﴿الرُّؤْيَا﴾** هنا هي القلبية لا البصرية أي: ألم تعلم، والخطاب لكل من يصلح له، وهو من تتأتى منه الرؤية، والمراد بالسجود هنا هو: الانقياد الكامل، لا سجد الطاعة الخاصة بالعقلاء، سواء جعلت كلمة من خاصة بالعقلاء، أو عامة لهم ولغيرهم، ولهذا عطف **﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنَّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالتَّوَابُ﴾** على من، فإن ذلك يفيد أن السجود هو الانقياد لا الطاعة الخاصة بالعقلاء، وإنما أورد هذه الأمور بالذكر مع كونها داخلية تحت من، على تقدير جعلها عامة لكون قيام السجود بها مستبعداً في العادة، وارتفاع **﴿كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ﴾** بفعل مضمّر يدل عليه المذكور أي: ويسجد له كثير من الناس؛ وقيل: مرتفع على الابتداء وخبره محذوف وتقديره: وكثير من الناس يستحق الثواب، والأول أظهر. وإنما لم يرتفع بالعطف على من، لأن سجد هؤلاء الكثير من الناس هو سجد الطاعة الخاصة بالعقلاء، والمراد بالسجود المتقدم هو: الانقياد، فلو ارتفع بالعطف على من لكان في ذلك جمع بين معنيين مختلفين في لفظ واحد. وأنت خبير بأنه لا ملجئ، إلى هذا بعد حمل السجود على الانقياد، ولا شك أنه يصح أن يراد من سجد كثير من الناس هو انقيادهم لا نفس السجود الخاص، فارتفاعه على العطف لا بأس به، وإن أبى ذلك صاحب الكشاف ومتابعوه، وأما قوله: **﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾** فقال الكسائي والفراء: إنه مرتفع بالابتداء وخبره ما بعده؛ وقيل: هو معطوف على كثير الأول ويكون للمعنى: وكثير من الناس يسجد وكثير منهم يأبى ذلك، وقيل: المعنى وكثير من الناس في الجنة وكثير حق عليه العذاب هكذا حكاه ابن الأنباري **﴿وَمَنْ يَهِنْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مَكْرَمٍ﴾** أي: من أهانه الله بأن جعله كفراً شقياً، فما له من مكرم يكرمه فيصير سعيداً عزيزاً. وحكى الأخفش والكسائي والفراء أن المعنى: ومن يهين الله فما له من مكرم أي: إكرام **﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُشَاءُ﴾** من الأشياء التي من جملتها ما تقدم ذكره من الشقاوة والسعادة والإكرام والإهانة **﴿هَٰذَا خِصْمَانِ﴾** الخصمان أحدهما أنجس الفرق: اليهود، والنصارى، والصابئون، والمجوس والذين أشركوا، والخصم الآخر: للمسلمون، فهما فريقان مختصمان. قاله الفراء وغيره؛ وقيل: المراد بالخصمين الجنة والنار. قالت الجنة: خلقتني لرحمتي، وقالت النار: خلقتني

نَرَ أَنَّهُ كَانَ يَقْسِمُ قَسَمًا أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿هَٰذَا خَصَمَانُ﴾ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي الثَّلَاثَةِ وَالثَّلَاثَةِ الَّذِينَ بَارَزُوا يَوْمَ بَدْرٍ، وَهُمْ: حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ وَعَبِيدَةُ بْنُ الْحَارِثِ، وَعَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَعُتْبَةُ، وَشَيْبَةُ ابْنِ رَبِيعَةَ وَالْوَلِيدُ بْنُ عُتْبَةَ، قَالَ عَلِيٌّ: وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يَجْثُو فِي الْخَصُومَةِ عَلَى رُكْبَتَيْهِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ مِنْ حَدِيثِ عَلِيٍّ. وَأَخْرَجَهُ ابْنُ مَرْثُومٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ بِنَحْوِهِ، وَهَكَذَا رَوَى عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ التَّابِعِينَ. وَأَخْرَجَ عَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ، وَابْنُ جُرَيْرٍ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿قَطَعْتَ لَهُمْ ثِيَابَ مِنْ نَارٍ﴾ قَالَ: مِنْ نَحَاسٍ، وَلَيْسَ مِنَ الْآيَةِ شَيْءٌ إِذَا حُمِيَ أَشَدَّ حَرًّا مِنْهُ، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿يَصْبُ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ قَالَ: النَّحَاسُ يَذَابُ عَلَى رُءُوسِهِمْ، وَقَوْلِهِ: ﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ﴾ قَالَ: تَسِيلُ أَمْعَاؤُهُمْ، وَ﴿الْجُلُودُ﴾ قَالَ: تَنْتَابِرُ جُلُودُهُمْ. وَأَخْرَجَ عَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ، وَالتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ فِي زَوَائِدِ الزَّهْدِ، وَابْنُ جُرَيْرٍ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَالحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ، وَابْنُ نَعِيمٍ فِي الْحَلِيقَةِ، وَابْنُ مَرْثُومٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ ﴿يَصْبُ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ الْحَمِيمَ لِيَصْبُ عَلَى رُءُوسِهِمْ فَيَنْفِذُ الْجَمْعَةَ حَتَّى يَخْلُصَ إِلَى جَوْفِهِ، فَيَسْلُتُ مَا فِي جَوْفِهِ حَتَّى يَمْرُقَ مِنْ قَتْمِهِ وَهُوَ الصَّهْرُ، ثُمَّ يَعَادُ كَمَا كَانَ». وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ﴾ قَالَ: يَمْشُونَ وَأَمْعَاؤُهُمْ تَنْسَاقُ وَجُلُودُهُمْ. وَفِي قَوْلِهِ ﴿وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ﴾ قَالَ: يَضْرِبُونَ بِهَا، فَيَقَعُ كُلُّ عَضْوٍ عَلَى حَيَالِهِ فَيَدْعُونَ بِالْوَيْلِ وَالتَّيُّورِ. وَأَخْرَجَ ابْنُ جُرَيْرٍ عَنْهُ فِي الْآيَةِ قَالَ: يَسْقُونَ مَاءً إِذَا نَخَلَ فِي بُطُونِهِمْ أَذَابَهَا وَالْجُلُودُ مَعَ الْبُطُونِ. وَأَخْرَجَ أَحْمَدُ، وَابْنُ يَعْلَى، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَالحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ، وَابْنُ مَرْثُومٍ، وَالبَيْهَقِيُّ فِي الْبَعْثِ وَالنَّشُورِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَوْ أَنَّ مَقْعًا مِنْ حَدِيدٍ وَضَعَ فِي الْأَرْضِ فَاجْتَمَعَ الثَّقَلَانُ مَا أَقْلَوْهُ مِنَ الْأَرْضِ، وَلَوْ ضَرَبَ الْجَبَلَ بِمَقْعٍ مِنْ حَدِيدٍ لَنَفَقَتْ ثُمَّ عَادَ كَمَا كَانَ». وَأَخْرَجَ ابْنُ الْمُبَارَكِ، وَسَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ، وَهَنَادٌ، وَعَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ، وَابْنُ جُرَيْرٍ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَالحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ عَنْ سَلْمَانَ قَالَ: النَّارُ سُودَاءُ مَظْلَمَةٌ لَا يُضِيءُ لَهَا بَهَا وَلَا جَمْرُهَا، ثُمَّ قَرَأَ ﴿كَلِمًا أَرَادُوا أَنْ يَخْرِجُوا مِنْهَا مَنْ غَمَّ أَعْيَدُوا فِيهَا﴾. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا عَنْ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ لَبَسَ الْحَرِيرَ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَلْبَسْهُ فِي الْآخِرَةِ». وَفِي الْبَابِ أَحَادِيثُ. وَأَخْرَجَ ابْنُ جُرَيْرٍ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَهَدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ قَالَ: الْهَمُّوْا. وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ قَالَ: هَدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ فِي الْخَصُومَةِ إِذْ قَالُوا: اللَّهُ مَوْلَانَا وَلَا مَوْلَى لَكُمْ. وَأَخْرَجَ ابْنُ الْمُنْذَرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ أَبِي خَالِدٍ فِي الْآيَةِ قَالَ: الْقُرْآنُ ﴿وَهَدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ قَالَ: الْإِسْلَامُ. وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ، وَابْنُ أَبِي

وَقَالَ فِي الْخَصْمِ الْآخَرِ وَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَخْلُ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فَبَيَّنَّ سَبْحَانَهُ حَالَ الْمُؤْمِنِينَ بَعْدَ بَيَانِهِ لِحَالِ الْكَافِرِينَ. ثُمَّ بَيَّنَّ اللَّهُ سَبْحَانَهُ بَعْضَ مَا أَعَدَّ لَهُمْ مِنَ النِّعَمِ بَعْدَ دُخُولِهِمُ الْجَنَّةَ فَقَالَ: ﴿يَحِلُّونَ فِيهَا﴾ قَرَأَ الْجُمْهُورُ (يَحِلُّونَ) بِالْتَّشْدِيدِ وَالتَّنْبَاءِ لِلْمَفْعُولِ، وَقُرِئَ مَخْفَفًا أَيَّ: يَحْلِيهِمْ اللَّهُ أَوْ الْمَلَائِكَةُ بِأَمْرِهِ. وَمَنْ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَنْ أَسَاوِرُ﴾ لِلتَّبَعِيضِ أَيَّ: يَحِلُّونَ بَعْضُ أَسَاوِرَ، أَوْ لِلْبَيَانِ، أَوْ زَائِدَةٌ، وَمَنْ فِي ﴿مَنْ ذَهَبُ﴾ لِلْبَيَانِ، وَالْأَسَاوِرُ جَمْعُ أَسْوَرَةٍ وَالْأَسْوَرَةُ جَمْعُ سَوَارٍ، وَفِي السَّوَارِ لَفْتَانٌ: كَسَرُ السَّيْنِ وَضَمُّهَا، وَفِيهِ لَفَةٌ ثَالِثَةٌ، وَهِيَ أَسَاوِرَ. قَرَأَ نَافِعٌ، وَابْنُ كَثِيرٍ، وَعَاصِمٌ، وَشَيْبَةُ (وَلَوْلَوْ) بِالنَّصْبِ عَظْفٌ عَلَى مَحَلِّ أَسَاوِرَ أَيَّ: وَيَحِلُّونَ لَوْلَوْ، أَوْ يَفْعَلُ مَقْتَرٌ يَنْصِبُهُ، وَهَكَذَا قَرَأَ بِالنَّصْبِ يَعْقُوبُ، وَالجَحْدَرِيُّ، وَعِيسَى بْنُ عَمَرَ، وَهَذِهِ الْقِرَاءَةُ هِيَ الْمَوَافَقَةُ لِرِسْمِ الْمُصْحَفِ فَإِنَّ هَذَا الْحَرْفَ مَكْتُوبٌ فِيهِ بِالْأَلْفِ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ بِالْجَرِّ عَظْفًا عَلَى أَسَاوِرَ أَيَّ: يَحِلُّونَ مِنْ أَسَاوِرَ وَمِنْ لَوْلَوْ، وَاللَّوْلُوْا مَا يَسْتَخْرِجُ مِنَ الْبَحْرِ مِنْ جَوْفِ الصَّفْرِ. قَالَ الْقُشَيْرِيُّ: وَالْمُرَادُ تَرْصِيعُ السَّوَارِ بِاللَّوْلُوْا، وَلَا يَبْعَدُ أَنْ يَكُونَ فِي الْجَنَّةِ سَوَارٌ مِنْ لَوْلُوْا مَصْمُتٌ كَمَا أَنَّ فِيهَا أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ أَيَّ: جَمِيعٌ مَا يَلْبَسُونَهُ حَرِيرٌ كَمَا تَفْعِيدهُ هَذِهِ الْإِضَافَةُ، وَيَجُوزُ أَنْ يَرَادَ: أَنَّ هَذَا النُّوعَ مِنَ الْمَلْبُوسِ الَّذِي كَانَ مُحَرَّمًا عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا حَلَالٌ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ، وَأَنَّهُ مِنْ جَمَلَةٍ مَا يَلْبَسُونَهُ فِيهَا، فَقِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْإِنْسَانُ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَعْطَى مَا تَشْتَهِيهِ نَفْسُهُ وَيُنَالُ مَا يَرِيدُهُ ﴿وَهَدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ أَيَّ: أَرشَدُوا إِلَيْهِ، قِيلَ: هُوَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَقِيلَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ وَقِيلَ: الْقُرْآنُ؛ وَقِيلَ: هُوَ مَا يَأْتِيهِمْ مِنَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ مِنَ الْبَشَارَاتِ. وَقَدْ رَدَّ فِي الْقُرْآنِ مَا يَدُلُّ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ الْمَجْمَلِ هُنَا، وَهُوَ قَوْلُهُ سَبْحَانَهُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَهُ﴾ [الزمر: 74]، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا﴾ [الاعراف: 43]، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ [فاطر: 34]، وَمَعْنَى ﴿وَهَدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ أَنَّهُمْ أَرشَدُوا إِلَى الصِّرَاطِ الْمَحْمُودِ وَهُوَ طَرِيقُ الْجَنَّةِ، أَوْ صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي هُوَ بَيْنَهُ الْقَوِيمُ، وَهُوَ الْإِسْلَامُ.

وَقَدْ أَخْرَجَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ، وَعَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ، وَابْنُ جُرَيْرٍ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ ﴿وَالصَّابِغِينَ﴾ قَالَ: هُمْ قَوْمٌ يَعْبُدُونَ الْمَلَائِكَةَ، وَيَصْلُونَ الْقِبْلَةَ، وَيَقْرَءُونَ الزَّبُورَ ﴿وَالْمَجُوسَ﴾ عِبَادَةُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالتَّنِيرَانِ، ﴿وَالَّذِينَ اشْرَكُوا﴾ عِبَادَةُ الْأَوْثَانِ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾ قَالَ: الْأَدْيَانُ سِتَّةٌ، فَخَمْسَةٌ لِلشَّيْطَانِ، وَبَيْنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عِكْرَمَةَ فِي الْآيَةِ قَالَ: فَصَلَ قَضَاءَهُ بَيْنَهُمْ فَجَعَلَ الْخَمْسَةَ مُشْتَرَكَةً وَجَعَلَ هَذِهِ الْأُمَّةَ وَاحِدَةً. وَأَخْرَجَ ابْنُ مَرْثُومٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: الَّذِينَ هَانُوا: الْيَهُودُ، وَالصَّابِغُونَ: لَيْسَ لَهُمْ كِتَابٌ، وَالْمَجُوسُ: أَصْحَابُ الْأَصْنَامِ، وَالْمَشْرُكُونَ: نَصَارَى الْعَرَبِ. وَأَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ، وَمُسْلِمٌ وَغَيْرُهُمَا عَنْ أَبِي

عمرو في الوقف، وحذفها نافع في الوصل والوقف. قال القرطبي: وأجمع الناس على الاستواء في المسجد الحرام نفسه.

واختلفوا في مكة فذهب مجاهد، ومالك إلى أن دور مكة ومنازلها يستوي فيها المقيم والطائر؛ وذهب عمر بن الخطاب، وابن عباس، وجماعة إلى أن للقادم أن ينزل حيث وجد، وعلى رب المنزل أن يؤويه شاء أم أبى. وذهب الجمهور إلى أن دور مكة ومنازلها ليست كالمسجد الحرام، ولاهله منع الطائر من النزول فيها. والحاصل أن الكلام في هذا راجع إلى أصليين: الأصل الأول ما في هذه الآية هل المراد بالمسجد الحرام المسجد نفسه، أو جميع الحرم، أو مكة على الخصوص؟ والثاني هل كان فتح مكة صلحاً أو عنوة؟ وعلى فرض أن فتحها كان عنوة هل أقرها النبي ﷺ في يد أهلها على الخصوص؟ أو جعلها لمن نزل بها على العموم؟ وقد أوضحنا هذا في شرحنا على المنتقى بما لا يحتاج الناظر فيه إلى زيادة ﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب اليم﴾ مفعول يرد محذوف لقصد التعميم، والتقدير: ومن يرد فيه مراداً أي: مراد بإلحاد أي: يعول عن القصد، والإلحاد في اللغة الميل إلا أنه سبحانه بين هنا أنه الميل بظلم.

وقد اختلف في هذا الظلم ماذا هو؟ فقيل: هو الشرك؛ وقيل: الشرك والقتل؛ وقيل: صيد حيواناته وقطع أشجاره، وقيل: هو الحلف فيه بالآيمان الفاجرة، وقيل: المراد المعصي فيه على العموم، وقيل: المراد بهذه الآية أنه يعاقب بمجرد الإرادة للمعصية في ذلك المكان. وقد ذهب إلى هذا ابن مسعود، وابن عمر، والضحاك، وابن زيد وغيرهم حتى قالوا: لو هُم الرجل في الحرم يقتل رجل بعدن لعُذِّبَ الله. والحاصل أن هذه الآية نلت على أن من كان في البيت الحرام مأخوذاً بمجرد الإرادة للظلم، فهي مخصصة لما ورد من أن الله غفر لهذه الأمة ما حلت به أنفسها إلا أن يقال إن الإرادة فيها زيادة على مجرد حديث النفس، وبالجمله فالبحث عن هذا وتقرير الحق فيه على وجه يجمع بين الألة ويرفع الإشكال يطول جداً، ومثل هذه الآية حديث: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار، قيل يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: إنه كان حريصاً على قتل صاحبه». فدخل النار هنا بسبب مجرد حرصه على قتل صاحبه. وقد أفرنا هذا البحث برسالة مستقلة، والباء في قوله: ﴿وبالإلحاد﴾ إن كان مفعول يرد محذوفاً كما نكرنا فليست بزيادة؛ وقيل: إنها زائدة هنا كقول الشاعر:

نحن بنو جعدة أصحاب الفلج نضرب بالسيف ونرجو بالفرج
أي: نرجو الفرج، ومثله:

ألم يأتيك والانباء تنمى بما لاقت لبون بني زياد
أي: ما لاقت، ومن القائلين بأنها زائدة الاخفش، والمعنى عنده: ومن يرد فيه إلحاداً بظلم. وقال الكوفيون: دخلت الباء لأن المعنى بأن يلحد، والباء مع أن تدخل وتحذف، ويجوز

حاتم عن الضحاك في الآية قال: الإسلام. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال: لا إله إلا الله، والله أكبر، والحمد لله الذي قال: ﴿إليه يصعد الكلم الطيب﴾ [فاطر: 10].

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُدْرِ فِيهِ بِالْعَمَاءِ يُعْلِمِ نَذَقَهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿١٥﴾ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتِ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهَّرَ بَيْتَ الْبَلَاءِ وَالْقَابِ وَالرَّصِيعِ الشَّجْوِ ﴿١٦﴾ وَأِذْنِي فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَبِيقٍ ﴿١٧﴾ لِيُخْبِرُوا مَتَّعْتُمْ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا أَنَّمَا اللَّهُ فِي آيَاتِهِ مُسْتَوْسِنٌ عَلَى مَا نَزَّلْنَاهُمْ مِنْ بَيْمَاتِهِ الْأَنْفُسُ فَكُفِّرُوا بِنَهَا وَلِطَمُوا الْأَنْفُسَ الْفَقِيرَ ﴿١٨﴾ ثُمَّ لَبَّيْكُمْ فَتَحْنَاهُمْ وَسُورُوا نُذَوُّهُمْ وَلَبَّيْكُمْ بِالْبَيْتِ الْعَرَبِيِّ ﴿١٩﴾

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ عطف المضارع على الماضي، لأن المراد بالمضارع: ما مضى من الصد، ومثل هذا قوله: ﴿الذين كفروا وصنوا عن سبيل الله﴾ [محمد: 1 - النحل: 88]، أو المراد بالصد ما هنا الاستمرار لا مجرد الاستقبال، فصح بذلك عطفه على الماضي، ويجوز أن تكون الواو في ويصدون واو الحال أي: كفروا والحال أنهم يصدون؛ وقيل: الواو زائدة والمضارع خبر إن والأولى أن يقدر خبر إن بعد قوله: ﴿وبالباد﴾ وذلك نحو خسروا أو هلكوا. وقال الزجاج: إن الخبر نذقه من عذاب اليم. ورد بأنه لو كان خبراً لأن لم يجزم أيضاً لو كان خبراً لأن لبقى للشرط وهو ﴿ومن يرد﴾ بغير جواب فالأولى أنه محذوف كما نكرنا والمراد بالصد: المنع وبسبيل الله دينه أي: يمنعون من أراد الدخول في دين الله والمسجد الحرام، معطوف على سبيل الله قيل: المراد به المسجد نفسه كما هو الظاهر من هذا النظم القرآني، وقيل: الحرم كله، لأن المشركين صنوا رسول الله ﷺ وأصحابه عنه يوم الحديبية؛ وقيل: المراد به: مكة بليل قوله: ﴿الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد﴾ أي: جعلناه للناس على العموم يصلون فيه ويطوفون به مستويين فيه العاكف، وهو المقيم فيه الملازم له والباد أي الواصل من البادية، والمراد به: الطائر عليه من غير فرق بين كونه من أهل البادية أو من غيرهم وانتصاب سواء على أنه المفعول الثاني لجعلناه، وهو بمعنى مستويين، والعاكف مرتفع به، وصف المسجد الحرام بذلك لزيادة التقرع والتوبيخ للصائين عنه، ويحتمل أن يكون انتصاب ﴿سواء﴾ على الحال. وهذا على قراءة النصب، وبها قرأ حفص عن عاصم، وهي قراءة الأعمش، وقرأ الجمهور برفع (سواء) على أنه مبتدأ وخبره (العاكف) أو على أنه خبر مقدم، والمبتدأ (العاكف) أي: العاكف فيه والبادي سواء، وقرئ بنصب (سواء) وجز (العاكف) على أنه صفة للناس أي: جعلناه للناس العاكف والبادي سواء، وثابت الباء في البادي ابن كثير وصلاً ووقفاً، وحذفها أبو

وقرأ ابن أبي إسحاق في كل القرآن بكسرهما **﴿يَتَوَكَّ﴾** رجلاً. هذا جواب الأمر، وعده الله إجابة الناس له إلى حج البيت ما بين رجل وراكب، فعني رجلاً: مشاة جمع رجل؛ وقيل: جمع رجل. وقرأ ابن أبي إسحاق (رجلاً) بضم الراء وتخفيف الجيم، وقرأ مجاهد (رجالي) على وزن فعالي مثل كسالي، وقدم الرجال على الركبان في الذكر لزيادة تعيهم في المشي، وقال: ياتوك وإن كانوا ياتون البيت، لأن من أتى الكعبة حاجاً فقد أتى إبراهيم، لأنه أجاب نداه **﴿وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾** عطف على رجالاً أي: وركباناً على كل بعير، والضامر البعير المهزول الذي أتعبه السفر، يقال: ضمير يضمير ضموراً، ووصف الضامر بقوله: **﴿يَاتِينَ﴾** باعتبار المعنى، لأن ضامر في معنى ضومر، وقرأ أصحاب ابن مسعود، وابن أبي عبيدة، والضحاك (ياتون) على أنه صفة لرجلاً. والفج الطريق الواسع الجمع فجاج، والعميق البعيد، واللام في **﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾** متعلقة بقوله ياتوك؛ وقيل: بقوله وآئن، والشهود الحضور، والمنافع هي تعم منافع الدنيا والآخرة، وقيل: المراد بها المناسك، وقيل: المغفرة؛ وقيل: التجارة كما في قوله: **﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾** [البقرة: 198]. **﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ﴾** أي: يذكروا عند ذبح الهدايا والضحايا اسم الله؛ وقيل: إن هذا الذكر كناية عن الذبح لأنه لا ينفك عنه. والأيام المعلومات هي أيام النحر كما يفيد ذلك قوله: **﴿عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾** وقيل: عشر ذي الحجة. وقد تقدم الكلام في الأيام المعلومات والمعنودات في البقرة فلا نعيده، والكلام في وقت ذبح الأضحية معروف في كتب الفقه وشروح الحديث، ومعنى: على ما رزقهم: على ذبح ما رزقهم من بهيمة الأنعام، وهي الإبل والبقر والغنم، وبهيمة الأنعام هي الأنعام فالإضافة في هذا كالإضافة في قولهم: مسجد الجامع وصلاة الأولى **﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾** الأمر هنا للنذير عند الجمهور، وذهبت طائفة إلى أن الأمر للوجوب، وهذا التفات من الغيبة إلى الخطاب **﴿وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْفَقِيرِ﴾** البائس ذو البؤس وهو شدة الفقر فنذكر الفقير بعده لمزيد الإيضاح، والأمر هنا للوجوب؛ وقيل: للنذير **﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾** المراد بالقضاء هنا هو التوبة أي: ليؤدوا إزالة وسخهم، لأن التفث هو الوسخ والقذارة من طول الشعر والأظفار، وقد أجمع المفسرون كما حكاها النيسابوري على هذا. قال الزجاج: إن أهل اللغة لا يعرفون التفث. وقال أبو عبيدة: لم يأت في الشعر ما يحتج به في معنى التفث. وقال المبرد: أصل التفث في اللغة كل قانورة تلحق الإنسان، وقيل: قضاؤه أدبه لأنه لأن الحاج مغبر شعث لم يدهن ولم يستحد، فإذا قضى نسكه وخرج من إحرامه حلق شعره ولبس ثيابه، فهذا هو قضاء التفث. قال الزجاج: كأنه خروج من الإحرام إلى الإحلال **﴿وَلْيُوفُوا نُصُورَهُمْ﴾** أي: ما يندرون به من البر في حجه، والأمر للوجوب، وقيل: المراد بالنذور هنا: أعمال الحج **﴿وَلْيُطِئُوا بِالْبَيْتِ﴾**

أن يكون التقدير: ومن يرد الناس بالحاد؛ وقيل: إن يرد مضمن معنى يهيم، والمعنى: ومن يهيم فيه بالحاد. وأما الباء في قوله بظلم فهي للسببية، والمعنى: ومن يرد فيه بالحاد بسبب الظلم، ويجوز أن يكون بظلم بدلاً من بالحاد بإعادة الجاز ويجوز أن يكونا حالين مترانفين **﴿وَإِذَا بَوَّلْنَا لِبِرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾** أي: وانكر وقت ذلك، يقال بوائه منزلاً وبوائ له كما يقال مكنتك ومكنت لك. قال الزجاج: معناه جعلنا مكان البيت مبواً لإبراهيم، ومعنى بوائنا: بينا له مكان البيت، ومثله قول الشاعر:

كمن من أخ لي ماجد بوائه بيدي لحداً
وقال الفراء: إن اللام زائدة ومكان ظرف أي: أنزلناه فيه **﴿أَلَا تَشْرِكُ بِي شَيْئاً﴾** قيل: إن هذه هي مفسرة لبوائنا لتضمنه معنى تعبدنا، لأن التبوئة هي للعبادة. وقال أبو حاتم: هي مصدرية أي: لأن لا تشرك بي؛ وقيل: هي المخففة من الثقيلة، وقيل: هي زائدة؛ وقيل: معنى الآية: وأوحينا إليه أن لا تعبد غيري. قال المبرد: كأنه قيل له وحني في هذا البيت، لأن معنى لا تشرك بي وحني **﴿وُطِّهرَ بَيْتِي﴾** من الشرك وعبادة الأوثان. وفي الآية طعن على ما أشرك من قطن البيت أي: هذا كان الشرط على أبيكم فمن بعده وأنتم فلم تفوا بل أنشركم. وقالت فرقة: الخطاب بقوله: **﴿أَلَا تَشْرِكُ﴾** لمحمد ﷺ وهذا ضعيف جداً. ومعنى **﴿وُطِّهرَ بَيْتِي﴾** تطهيره من الكفر والأوثان والدماء وسائر النجاسات، وقيل: عني به التطهير عن الأوثان فقط، وذلك أن جرمها والعمالة كانت لهم أصنام في محل البيت، وقد مر في سورة براءة ما فيه كفاية في هذا المعنى، والمراد بالقائمين هنا: هم المصلون **﴿وَوَكَرُّوا الرُّكْعَ السُّجُودَ﴾** بعده لبيان أركان الصلاة دلالة على عظم شأن هذه العبادة، وقرن الطواف بالصلاة لأنهما لا يشرعان إلا في البيت، فالطواف عنده والصلاة إليه **﴿وَآذِنُ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾** قرأ الحسن وابن محيصن (وآذن) بتخفيف الذال والمد. وقرأ الباقون بتشديد الذال، والأذان الإعلام، وقد تقدم في براءة.

قال الواحدي: قال جماعة المفسرين: لما فرغ إبراهيم من بناء البيت جاءه جبريل فأمره أن يؤذن في الناس بالحج، فقال: يا رب من يبلغ صوتي؟ فقال الله سبحانه: آذن وعليّ البلاغ، فعلا المقام فأشرف به حتى صار كاعلى الجبال، فأدخل أصبعيه في آذنيه وأقبل بوجهه يميناً وشمالاً وشرقاً وغرباً وقال: يا أيها الناس كتب عليكم الحج إلى البيت فأجيبوا ربكم، فأجابه من كان في أصلاب الرجال وأرحام النساء: لبيك اللهم لبيك؛ وقيل: إن الخطاب لنبينا محمد ﷺ. والمعنى: أعلمهم يا محمد بوجوب الحج عليهم، وعلى هذا فالخطاب لإبراهيم انتهى عند قوله: **﴿وَالرُّكْعَ السُّجُودَ﴾** وقيل: إن خطابه انقضى عند قوله: **﴿وَإِذَا بَوَّلْنَا لِبِرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾** وإن قوله: **﴿أَنْ لَا تَشْرِكُ بِي﴾** وما بعده خطاب لنبينا محمد ﷺ، وقرأ الجمهور (بالحج) بفتح الحاء،

الأنصار، فافتخروا في الأنساب، فغضب عبد الله بن أنيس، فقتل الأنصاري ثم ارتد عن الإسلام وهرب إلى مكة، فنزلت فيه **﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم﴾** يعني: من لجأ إلى الحرم بإلحاد، يعني: بميل عن الإسلام. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: **﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم﴾** قال: بشرك. وأخرج عبد بن حميد، والبخاري في تاريخه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن يعلى بن أمية، عن رسول الله ﷺ قال: «احتكار الطعام في الحرم إلحاد فيه». وأخرج سعيد بن منصور، والبخاري في تاريخه، وابن المنذر عن عمر بن الخطاب قال: احتكار الطعام بمكة إلحاد بظلم. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن ابن عمر قال: بيع الطعام بمكة إلحاد. وأخرج البيهقي في الشعب عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «احتكار الطعام بمكة إلحاد». وأخرج ابن جرير، والحاكم وصححه، عن علي قال: لما أمر إبراهيم ببناء البيت خرج معه إسماعيل وهاجر. فلما قدم مكة رأى على رابية في موضع البيت مثل الغمامة فيه مثل الرأس، فكلمه فقال: يا إبراهيم ابن علي ظلي أو على قدري ولا تزد ولا تنقص، فلما بنى خرج وخلف إسماعيل وهاجر، وذلك حين يقول الله: **﴿وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت﴾** الآية. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عطاء **﴿والقائمين﴾** قال: المصلين عنده. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، عن قتادة معناه. وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف، وابن منيع، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في السنن عن ابن عباس قال: لما فرغ إبراهيم من بناء البيت قال: رب قد فرغت، فقال: **﴿أذن في الناس بالحج﴾** قال: رب وما يبلغ صوتي؟ قال أنن وعليّ البلاغ، قال: رب كيف أقول؟ قال: قل: يا أيها الناس كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق فسمعه من في السماء والأرض، ألا ترى أنهم يجيئون من أقصى الأرض يلبنون. وفي الباب آثار عن جماعة من الصحابة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس **﴿ليشهدوا منافع لهم﴾** قال: أسواقاً كانت لهم، ما نكر الله منافع إلا الدنيا. وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال: منافع في الدنيا ومنافع في الآخرة، فاما منافع الآخرة فرضوان الله، واما منافع الدنيا فمما يصيبون من لحوم البدن في تلك اليوم والذبايح والتجارات. وأخرج أبو بكر المروزي في كتاب العينين عنه أيضاً قال: الأيام المعلومات: أيام العشر. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: الأيام المعلومات: يوم النحر وثلاثة أيام بعده. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال: أيام التشريق. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عنه أيضاً في الأيام المعلومات قال: قبل يوم التروية بيوم، ويوم التروية ويوم عرفة. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال: اللياس الزمن. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن ابن عمر

العتيق **﴿هذا الطواف هو طواف الإفاضة﴾** قال ابن جرير: لا خلاف في ذلك بين المتأولين، والعتيق القديم كما يفيد قوله سبحانه: **﴿إن أول بيت وضع للناس﴾** [آل عمران: 96] الآية، وقد سمي العتيق لأن الله اعتقه أن يتسلط عليه جبار؛ وقيل: لأن الله يعتق فيه رقاب المذنبين من العذاب؛ وقيل: لأنه اعتق من غرق الطوفان؛ وقيل: العتيق الكريم.

وقد أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس في قوله: **﴿والمسجد الحرام﴾** قال: الحرم كله، وهو المسجد الحرام **﴿سواء العاكف فيه والباد﴾** قال: خلق الله فيه سواء. وأخرج ابن أبي شيبة عن سعيد بن جبيرة مثله. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في الآية قال: هم في منازل مكة سواء، فينبغي لأهل مكة أن يوسعوا لهم حتى يقضوا مناسكهم. وقال البادي وأهل مكة سواء، يعني: في المنزل والحرم. وأخرج ابن أبي شيبة عن عبد الله بن عمرو قال: من أخذ من أجور بيوت مكة إنما ياكل في بطونه ناراً. وأخرج ابن سعد عن عمر بن الخطاب، أن رجلاً قال له عند المروة: يا أمير المؤمنين أقطعني مكاناً لي ولعقبتي، فأعرض عنه عمر وقال: هو حرم الله سواء العاكف فيه والباد. وأخرج ابن أبي شيبة عن عطاء قال: كان عمر يمنع أهل مكة أن يجعلوا لها أبواباً حتى ينزل الحاج في عرصات الدور. وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه قال السيوطي بإسناد صحيح عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ في قوله الله: **﴿سواء العاكف فيه والباد﴾** قال: سواء المقيم والذي يدخل». وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر، أن النبي ﷺ قال: «مكة مباحة لا تؤجر بيوتها ولا تباع رباعها». وأخرج ابن أبي شيبة، وابن ماجه، عن علقمة بن نضلة قال: توفي رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وما تدعى رباع مكة إلا السواشب، من احتاح سكن ومن استغنى أسكن. رواه ابن ماجه، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن عيسى بن يونس، عن عمر بن سعيد بن أبي حفرة، عن عثمان بن أبي سليمان، عن علقمة فنكره. وأخرج الدارقطني عن ابن عمر مرفوعاً: «من أكل كراء بيوت مكة أكل ناراً». وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وابن راهويه، وأحمد، وعبد بن حميد، والبزار، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن ابن مسعود رفعه في قوله: **﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم﴾** قال: لو أن رجلاً هم فيه بإلحاد وهو يعدن أبين لأذاقه الله عذاباً أليماً. قال ابن كثير: هذا الإسناد صحيح على شرط البخاري، ووقفه أشبه من رفعه، ولهذا صمم شعبة على وقفه. وأخرج سعيد بن منصور، والطبراني عن ابن مسعود في الآية قال: من هم بخطيئة فلم يعملها في سوى البيت لم تكتب عليه حتى يعملها، ومن هم بخطيئة في البيت لم يمته الله من الدنيا حتى ينيقه من عذاب اليم. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في عبد الله بن أنيس: أن رسول الله ﷺ بعثه مع رجلين، أحدهما مهاجر والآخر من

قال: التفت المناسك كلها. وأخرج هؤلاء عن ابن عباس نحوه. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: التفت حلق الراس، والأخذ من العارضين، ونتف الإبط، وحلق العانة، والوقوف بعرفة، والسعي بين الصفا والمروة، ورمي الجمار، وقص الأظفار، وقص الشارب والذبح. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه **﴿وَلِيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾** هو طواف الزيارة يوم النحر، وورد في وجه تسمية البيت بالعتيق آثار عن جماعة من الصحابة، وقد أشرنا إلى ذلك سابقاً، وورد في فضل الطواف أحاديث ليس هذا موضع ذكرها.

ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظِمَ حُرْمَتَ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ مِنْ رِزْوَةٍ أَجَلَتْ لَكُمْ أَنْتُمْ إِلَّا مَا يَتَلَّ عَلَىكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّبْرِ ﴿١٦﴾ حُفَّةً لِلَّهِ خَيْرٌ مَثْرَكِينَ بِهِ وَمَنْ يَثْرِكْ بِاللَّهِ كُنَّا خَرًّا مِنْ أَسْمَاءَ تَخْطِفُ السُّبُرَ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِينٍ ﴿١٧﴾ ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظِمَ تَعَكُّرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَعَوِّدِ الْقُلُوبِ ﴿١٨﴾ لَكُنْ فِيهَا مَنَافِعٌ إِلَّا أَمَلٌ سُمِّيَ ثُمَّ يَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿١٩﴾ وَلِكُلِّ أَمَلٍ جَمَلًا مَسَكًا يَذْكُرُوا أَسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُهُمُ اللَّهُ وَجَدَ فَلَهُ أَسْلَمُوا وَيَتَرُ السَّحَابِينَ ﴿٢٠﴾ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ حَلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمُ وَالْمُتَّبِعِينَ الصَّلَاةَ وَمَا رَزَقَهُمْ يَفْخَرُونَ ﴿٢١﴾

محل ﴿ذلك﴾ الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: الأمر ذلك، أو مبتدأ خبره محذوف أو في محل نصب بفعل محذوف أي: افعلوا ذلك، والمشار إليه هو ما سبق من أعمال الحج، وهذا وأمثاله يطلق للفصل بين الكلامين أو بين طرفي كلام واحد، والحرمان جمع حرمة. قال الزجاج: الحرمة ما وجب القيام به وحرمة التفريط فيه، وهي في هذه الآية ما نهى عنها ومنع من الوقوع فيها. والظاهر من الآية عموم كل حرمة في الحج وغيره كما يفيد اللفظ وإن كان السبب خاصاً، وتعظيمها ترك ملاستها **﴿فهو خير له﴾** أي: فالتعظيم خير له **﴿عند ربه﴾** يعني: في الآخرة من التهاون بشيء منها؛ وقيل: إن صيغة التفضيل هنا لا يراد بها معناها الحقيقي، بل المراد: أن ذلك التعظيم خير ينتفع به، فهي عدة بخير **﴿ولحلت لكم الأنعام﴾** وهي الإبل والبقر والغنم **﴿إلا ما يتلى عليكم﴾** أي: في الكتاب العزيز من المحرمات، وهي الميتة وما ذكر معها في سورة المائدة؛ وقيل في قوله: **﴿إلا ما يتلى عليكم﴾** أي: في الكتاب العزيز من الرجس: القذر، والوثن: التمثال، وأصله من وثن الشيء أي: أقام في مقامه، وسمي الصليب وثناً لأنه ينصب ويركز في مقامه، فلا يبرح عنه والمراد اجتناب عبادة الأوثان، وسماها رجساً لأنها سبب الرجس وهو العذاب؛ وقيل: جعلها سبحانه رجساً حكماً، والرجس النجس، وليست النجاسة وصفاً ذاتياً لها ولكنها وصف شرعي، فلا تزول إلا بالإيمان كما أنها لا

تزال النجاسة الحسية إلا بالماء. قال الزجاج: من هنا لتخليص جنس من أجناس أي: فاجتنبوا الرجس الذي هو وثن **﴿واجتنبوا قول الزور﴾** الذي هو الباطل، وسمي زوراً لأنه مائل عن الحق، ومنه قوله تعالى: **﴿تزاور عن كنههم﴾** [الكهف: 17]. وقولهم مدينة زوراء أي: مائلة، والمراد هنا: قول الزور على العموم، وأعظمه الشرك بالله بأي لفظ كان. وقال الزجاج: المراد بقول الزور ما هنا: تحليلهم بعض الأنعام وتحريمهم بعضها، وقولهم: **﴿هذا حلال وهذا حرام﴾** [النحل: 116]؛ وقيل: المراد به شهادة الزور، وانتصاب **﴿حنفاء﴾** على الحال أي: مستقيمين على الحق، أو مانئين إلى الحق. ولفظ حنفاء من الأضداد يقع على الاستقامة، ويقع على الميل؛ وقيل: معناه حجاجاً، ولا وجه لهذا **﴿غير مشركين به﴾** هو حال الأول أي: غير مشركين به شيئاً من الأشياء كما يفيد الحذف من العموم، وجملة **﴿ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء﴾** مبتدأة مؤكدة لما قبلها من الأمر بالاجتناب، ومعنى خر من السماء: سقط إلى الأرض أي: انحط من رفيع الإيمان إلى حضيض الكفر **﴿فتخطفه الطير﴾**، يقال: خطفه يخطفه إذا سلبه، ومنه قوله: **﴿يخطف أبصارهم﴾** [البقرة: 20]. أي: تخطف لحمه وتقطعه بمخالبها. قرأ أبو جعفر ونافع بتشديد الطاء وفتح الخاء، وقرأ بكسر الخاء والطاء وبكسر التاء مع كسرهما **﴿أو تهوي به الريح﴾** أي: تقذفه وترمي به **﴿في مكان سحيق﴾** أي: بعيد، يقال: سحق يسحق سحقاً فهو سحيق إذا بعد، قال الزجاج: أعلم الله أن بعد من أشرك به من الحق كبعد ما خر من السماء، فتذهب به الطير أو هوت به الريح في مكان بعيد **﴿ذلك ومن يعظم شعائر الله﴾** الكلام في هذه الإشارة قد تقدم قريباً والشعائر جمع الشعيرة، وهي كل شيء فيه الله تعالى شعار، ومنه شعار القوم في الحرب، وهو علامتهم التي يتعارفون بها، ومنه إشعار البدن، وهو الطعن في جانبها الأيمن، فشعائر الله أعلام دينه، وتدخل الهدايا في الحج بخلاً أولياً، والضمير في قوله: **﴿فإنها من تقوى القلوب﴾** راجع إلى الشعائر بتقدير مضاف محذوف أي: فإن تعظيمها من تقوى القلوب أي: من أفعال القلوب التي هي من التقوى، فإن هذا التعظيم ناشئ من التقوى **﴿لكم فيها منافع﴾** أي: في الشعائر على العموم، أو على الخصوص، وهي البدن كما يدل عليه السياق. ومن منافعها الركوب والدّر والنسل والصوف وغير ذلك **﴿إلى أجل مسمى﴾** وهو وقت نحرها **﴿ثم محلها إلى البيت العتيق﴾** أي: حيث يحل نحرها، والمعنى: أنها تنتهي إلى البيت وما يليه من الحرم، فمنافعهم الدينية المستفادة منها مستمرة إلى وقت نحرها، ثم تكون منافعها بعد ذلك دينية، وقيل: إن محلها هنا مأخوذ من إحلال الحرم، والمعنى: أن شعائر الحج كلها من الوقوف بعرفة ورمي الجمار والسعي تنتهي إلى طواف الإفاضة بالبيت، فالبيت على هذا مراد بنفسه **﴿ولكل أمة جعلنا منسكاً﴾** المنسك

معاصيه كلها. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: **﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان﴾** يقول: اجتنبوا طاعة الشيطان في عبادة الأوثان **﴿واجتنبوا قول الزور﴾** يعني: الافتراء على الله والتكذيب به. وأخرج أحمد، والترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه عن أيمن بن حريم قال: قام رسول الله ﷺ خطيباً فقال: «يا أيها الناس عدلت شهادة الزور شركاً بالله ثلاثاً، ثم قرأ **﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور﴾**». قال أحمد: غريب إنما نعرفه من حديث سفيان بن زياد. وقد اختلف عنه في رواية هذا الحديث، ولا نعرف لأيمن بن حريم سماعاً من النبي ﷺ. وقد أخرجه أحمد، وعبد بن حميد، وأبو داود، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب من حديث حريم. وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي بكره قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثاً، قلنا: بلى يا رسول الله، قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وكان متكئاً، فجلس فقال: ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور، فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت». وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **﴿حنفاء﴾** غير مشركين به. قال: حجاجاً لله غير مشركين به، وذلك أن الجاهلية كانوا يحجون مشركين، فلما أظهر الله الإسلام، قال الله للمسلمين: حجوا الآن غير مشركين بالله. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي بكر الصديق نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **﴿ومن يعظم شعائر الله﴾** قال: البين. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس **﴿ومن يعظم شعائر الله﴾** قال: الاستسمان والاستحسان والاستعظام، وفي قوله: **﴿لكم فيها منافع إلى أجل مسمى﴾** قال: إلى أن تسمى بذنا. وأخرج هؤلاء عن مجاهد نحوه، وفيه قال: ولكم فيها منافع إلى أجل مسمى، في ظهورها وألبانها وأويلها وأشعارها وأصوافها إلى أن تسمى هدياً، فإذا سميت هدياً ذهب المنافع **﴿ثم محلها﴾** يقول: حين تسمى **﴿إلى البيت العتيق﴾**. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن عكرمة قال: إذا نخلت الحرم فقد بلغت محلها. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **﴿ولكل أمة جعلنا منسكاً﴾** قال: عيداً. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في الآية قال: إهراق الدماء. وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: نبأ. وأخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم في الآية قال: مكة لم يجعل الله لامة قط منسكاً غيرها. وقد وردت أحاديث في الأضحية ليس هذا موضع نكرها. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: **﴿ويبشر المخبتين﴾** قال: للمطمنئين. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا في ذم الغضب، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في شعب الإيمان عن

ها هنا المصدر من نسك ينسك إذا نبج القربان، والذبيحة نسكة، وجمعها نسك. وقال الأزهري: إن المراد بالمنسك في الآية: موضع النحر، ويقال: منسك بكسر السين وفتحها لغتان قرأ بالكسر الكوفيون إلا عاصماً وقرأ الباقون بالفتح. وقال الفراء: المنسك في كلام العرب: الموضع المعتاد في خير أو شر، وقال ابن عرفة: **﴿ولكل أمة جعلنا منسكاً﴾** أي: مذهباً من طاعة الله. وروي عن الفراء أن المنسك العيد؛ وقيل: الحج، والأول أولى لقوله: **﴿لينكروا اسم الله﴾** إلى آخره، والامة: الجماعة المجتمعة على مذهب واحد، والمعنى: وجعلنا لكل أهل دين من الأتيان نبأ ينبحونه وبما يريقونه، أو متعبداً أو طاعة أو عيداً أو حجاً يحجونه، لينكروا اسم الله وحده ويجعلوا نسكهم خاصاً به **﴿على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾** أي: على نبج ما رزقهم منها، وفيه إشارة إلى أن القربان لا يكون إلا من الأنعام بون غيرها، وفي الآية دليل على أن المقصود من الذبح المنكور هو نكر اسم الله عليه. ثم أخبرهم سبحانه بتفردة بالإلهية وأنه لا شريك له، والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، ثم أمرهم بالإسلام له، والانقياد لطاعته وعبادته، وتقديم الجار والمجرور على الفعل للقصر، والفاء هنا كالفاء التي قبلها، ثم أمر رسوله ﷺ بأن يبشر **﴿المخبتين﴾** من عباده أي: المتواضعين الخاشعين المخلصين، وهو مأخوذ من الخبيت، وهو المنخفض من الأرض، والمعنى: بشرهم يا محمد بما أعد الله لهم من جزيل ثوابه وجليل عطائه؛ وقيل: إن المخبتين هم الذين لا يظلمون غيرهم وإذا ظلمهم غيرهم لم ينتصروا، ثم وصف سبحانه هؤلاء المخبتين بقوله: **﴿الذين إذا نكروا الله وجلت قلوبهم﴾** أي: خافت وحذرت مخالفتها، وحصول الوجل منهم عند الذكر له سبحانه دليل على كمال يقينهم وقوة إيمانهم، ووصفهم بالصبر **﴿على ما أصابهم﴾** من البلياء والمحن في طاعة الله ثم وصفهم بإقامة **﴿الصلاة﴾** أي: الإتيان بها في أوقاتها على وجه الكمال. قرأ الجمهور والمقيمي الصلاة بالجر على ما هو الظاهر، وقرأ أبو عمرو بالنصب على توهم بقاء النون، وأنشد سيبويه على ذلك قول الشاعر:

الحافظ عورة العشيرة

البيت بنصب عورة، وقيل: لم يقرأ بهذه القراءة أبو عمرو، وقرأ ابن محيصن (والمقيمين) بإثبات النون على الأصل، ورويت هذه القراءة عن ابن مسعود، ثم وصفهم سبحانه بقوله: **﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾** أي: يتصدقون به وينفقونه في وجوه البر، ويضعونه في مواضع الخير، ومثل هذه الآية قوله سبحانه: **﴿إنما المؤمنون الذين إذا نكروا الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون﴾** [الأنفال: 2].

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: **﴿حرمات الله﴾** قال: الحرم مكة والحج والعمرة وما نهى الله عنه من

المسألة. وبالأول قال زيد بن أسلم وابنه وسعيد بن جبيرة والحسن، وروي عن ابن عباس. وبالثاني قال عنزة وقتادة. وأما المعتز، فقال محمد بن كعب القرظي، ومجاهد، وإبراهيم، والكلبي، والحسن: أنه الذي يتعرض من غير سؤال؛ وقيل: هو الذي يعتريك ويسالك. وقال مالك: أحسن ما سمعت أن القانع الفقير، والمعتز: الزائر. وروي عن ابن عباس: أن كلاهما الذي لا يسأل، ولكن القانع الذي يرضى بما عنده ولا يسأل، والمعتري الذي يتعرض لك ولا يسالك. وقرأ الحسن والمعتزى ومعناه كمعنى المعتز، ومنه قول زهير:

على مكثريهم رزق من يعتريهم وعند المقلين السملحة والبذل

يقال: عتراه واعتراه وعزاه: إذا تعرض لما عنده أو طلبه، نكره النحس ﴿كنك سخرناها لكم﴾ أي: مثل ذلك التسخير البديع سخرناها لكم، فصارت تنقاد لكم إلى مواضع نحرها فتنحرونها وتنتفعون بها بعد أن كانت مسخرة للحمل عليها والركوب على ظهرها والحلب لها ونحو ذلك ﴿لعلكم تشكرون﴾ هذه النعمة التي أنعم الله بها عليكم ﴿لكن ينال الله لحومها ولا يماؤها﴾ أي: لن يصعد إليه ولا يبلغ رضاه ولا يقع موقع القبول منه لحوم هذه الإبل التي تتصدقون بها ولا يماؤها التي تنصب عند نحرها من حيث إنها لحوم ودماء ﴿ولكن يناله﴾ أي: يبلغ إليه تقوى قلوبكم، ويصل إليه إخلاصكم له وإرادتكم بذلك وجهه، فإن ذلك هو الذي يقبله الله ويجازي عليه؛ وقيل: المراد أصحاب اللحوم والدماء أي: لن يرضى المضحون والمتقربون إلى ربهم باللحوم والدماء ولكن بالتقوى. قال الزجاج: أعلم الله أن الذي يصل إليه تقواه وطاعته فيما يأمر به، وحقيقة معنى هذا الكلام تعود إلى القبول، وذلك أن ما يقبله الإنسان يقال قد ناله ووصل إليه، فخطب الله الخلق كعادتهم في مخاطبتهم ﴿كنك سخرها لكم﴾ كرر هذا للتذكير، ومعنى ﴿لتكبروا الله على ما هداكم﴾ هو قول الناحر: الله أكبر عند النحر، فنكر في الآية الأولى الأمر بنكر اسم الله عليها، ونكر هنا التكبير للدلالة على مشروعية الجمع بين التسمية والتكبير، وقيل: المراد بالتكبير وصفه سبحانه بما يدل على الكبرياء، ومعنى ﴿على ما هداكم﴾ على ما أرشدكم إليه من علمكم بكيفية التقرب بها، وما مصرية، أو موصولة ﴿وبشر المحسنين﴾ قيل: المراد بهم المخلصون؛ وقيل: الموحون. والظاهر أن المراد بهم كل من يصدر منه من الخير ما يصح به إطلاق اسم المحسن عليه.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن عبد الله بن عمر قال: لا نعلم البدين إلا من الإبل والبقر. وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال: البدين ذات الجوف. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: ليس البدين إلا من الإبل، وأخرجوا عن الحكم نحوه، وأخرجوا عن عطاء نحو ما قال ابن عمر. وأخرج ابن أبي شيبة عن سعيد بن المسيب نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن نحوه

عمرو بن لؤس قال: المختبون في الآية الذين لا يظلمون الناس، وإذا ظلموا لم ينتصروا.

وَالَّذِينَ جَاءَنَّهُمْ لُحْمٌ مِنْ شَكْرِ اللَّهِ لُحْمٌ فِيهَا خَيْرٌ فَادْكُرُوا أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافً فَإِذَا وَجَعَتْ جُوفُهَا تَكَلَّوْا بِهَا وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَزَ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِمَلَكُمُ فَتَشْكُرُونَ ﴿٣١﴾ لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحْمُهَا وَلَا دِمَاؤها وَلَكِنْ يَنَالُهُ الْقَوِيُّ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَنَبِّئِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٢﴾

قرأ ابن أبي إسحاق ﴿وللبدين﴾ بضم الباء والدال، وقرأ الباكون بإسكان الدال وهما لغتان، وهذا الاسم خاص بالإبل، وسميت بدنة لأنها تبدين، والبدينة: السمن. وقال أبو حنيفة ومالك: إنه يطلق على غير الإبل، والأول أولى لما سيأتي من الأوصاف التي هي ظاهرة في الإبل، ولما تنفيده كتب اللغة من اختصاص هذا الاسم بالإبل. وقال ابن كثير في تفسيره: واختلفوا في صحة إطلاق البدنة على البقرة على قولين: أحدهما أنه يطلق عليها ذلك شرعاً كما صح في الحديث ﴿جعلناها لكم﴾ وهي ما تقدم بيانه قريباً ﴿لكم فيها خير﴾ أي: منافع دينية ونبوية كما تقدم ﴿فانكروا اسم الله عليها﴾ أي: على نحرها ومعنى ﴿صواف﴾ أنها قائمة قد صفت قوائمها، لأنها تنحدر قائمة معقولة، وأصل هذا الوصف في الخيل يقال: صفت الفرس فهو صافن إذا قام على ثلاث قوائم وثني الرابعة. وقرأ الحسن، والأعرج، ومجاهد، وزيد بن أسلم، وأبو موسى الأشعري (صوافي) أي: خوالصه لا تشركون به في التسمية على نحرها أحداً، وواحد صواف صافة، وهي قراءة الجمهور. وواحد صوافي صافية، وقرأ ابن مسعود، وابن عمر، وابن عباس، وأبو جعفر، ومحمد بن علي (صوافن) بالنون جمع صافنة، والصفانة هي التي قد رفعت إحدى يديها بالعقل لثلاً تضطرب، ومنه قوله تعالى: ﴿الصفافن الجياد﴾ [ص: 31]. ومنه قول عمرو بن كلثوم:

تركنا الخيل عاكفة عليه مقلدة أعتتها صافونا

وقال الآخر:

الف الصفون فما يزال كانه مما يقوم على الثلاث كسير

﴿فإذا وجبت جنوبها﴾ الوجوب السقوط أي: فإذا سقطت بعد نحرها، وذلك عند خروج روحها ﴿فكلوا منها﴾ ذهب الجمهور أن هذا الأمر للنبي ﴿واطعموا القانع والمعتز﴾ هذا الأمر قيل: هو للنبي كالأول، وبه قال مجاهد، والنخعي، وابن جرير، وابن سريج، وقال الشافعي وجماعة: هو للوجوب.

واختلف في القانع من هو؟ فقيل: هو السائل، يقال: قنع الرجل بفتح النون يقنع بكسرهما إذا سأل، ومنه قول الشماخ: لمال المرء يصلحه فيغني مفاتره أعف من القنوع أي السؤال؛ وقيل: هو المتعفف عن السؤال المستغني ببلغة، ذكر معناه الخليل. قال ابن السكيت: من العرب من ذكر القنوع بمعنى القناعة، وهي الرضا والتعفف وترك

ابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس قال: **«الذين أخرجوا من ديارهم»** أي: من مكة إلى المدينة بغير حق، يعني: محمداً ﷺ وأصحابه. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن عثمان بن عفان قال: فينا نزلت هذه الآية **«الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق»** والآية بعدها أخرجنا من ديارنا بغير حق، ثم مكناهم في الأرض أقمنا الصلاة وآتينا الزكاة وأمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر فهي لي ولأصحابي. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن علي بن أبي طالب قال: إنما أنزلت هذه الآية في أصحاب محمد **«ولو لا دفع الله للناس»** الآية قال: لو لا دفع الله بأصحاب محمد عن التابعين لهدمت صوامع. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **«لهدمت صوامع»** الآية قال: الصوامع التي تكون فيها الرهبان، والبيع مساجد اليهود وصلوات كنائس النصارى، والمساجد مساجد المسلمين. وأخرج عنه قال: البيع بيع النصارى، وصلوات كنائس اليهود. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم في قوله: **«الذين إن مكناهم في الأرض»** قال: أرض المدينة **«أقاموا للصلاة»** قال: المكتوبة **«وأتوا الزكاة»** قال: المفروضة **«وأمروا بالمعروف»** قال: بلا إله إلا الله **«ونهبوا عن المنكر»** قال: عن الشرك بالله **«ووشع عاقبة الأمور»** قال: وعند الله ثواب ما صنعوا.

وَلَا يَكْذِبُونَ فَبَدَّ كَذِبَتْ قُلُوبُهُمْ قَوْمٌ نَبُذَ وَعَادُ وَنَسُوا ١٧ وَفَوَّ ١٨
إِزْهَمَ وَفَوَّ ١٩ لَوْ ٢٠ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى فَأَمَلَتْ لِلْكَافِرِينَ نَرُ
أَعْدَتْهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ٢١ فَكَانَ مِنْ قَرِيبٍ أَعْلَنَتْهَا رَبِّي
ظِلْمَةً فَهِيَ خَاسِيَةٌ عَلَى عُرْسِكُمْ وَيَبْرُ مَعْطَلَةٌ وَفَصَّرَ مَشِيدِ ٢٢ أَفَلَمْ
يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَلَيْسَ لَا
نَعَى الْأَبْصَرُ وَلَكِنَّ نَعَى الْقُلُوبِ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ٢٣ وَتَسْتَعْلِفُكَ بِالْعَذَابِ
وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَنَّ سَكْوًا مِمَّا تَدْعُونَ ٢٤
وَكَانَ مِنْ قَرِيبٍ أَمَلَتْ لَهَا وَهِيَ ظَلَمَةٌ ثُمَّ أَخَذَهَا وَإِنَّ الْمَصِيرَ ٢٥
قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا آتَاكُمُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ٢٦ تَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ٢٧ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي مَائِنَاتِنَا مُعْرِضِينَ أُولَئِكَ
أَصْحَابُ الْإِجِيمِ ٢٨

قوله: **«وإن يَكْذِبُونَ»** إلخ هذه تسلية لرسول الله ﷺ وتعزية له متضمنة للوعد له بإهلاك المكذبين له كما أهلك سبحانه المكذبين لمن كان قبله. وفيه إرشاد له ﷺ إلى الصبر على قومه والاقتداء بمن قبله من الأنبياء في ذلك، وقد تقدم نكر هذه الأمم وما كان منهم ومن أنبيائهم وكيف كانت عاقبتهم وإنما غير النظم في قوله: **«وكذب موسى»** فجاء بالفعل مبنيًا للمفعول، لأن قوم موسى لم يكنوه وإنما كذبه غيرهم من القبط **«فأما ليت للكافرين»** أي: أخرت عنهم العقوبة وأمهلتهم والفاء لترتيب الإمهال على التكذيب

بإستيلاء أهل الشرك على أهل الملل، فالصوامع: هي صوامع الرهبان؛ وقيل: صوامع الصابئين، والبيع: جمع بيعة، وهي كنيسة النصارى، والصلوات هي كنائس اليهود، واسمها بالعبرانية صلواتًا بالمثلثة فعربت، والمساجد هي مساجد المسلمين، وقيل: المعنى لولا هذا الدفع لهدمت في زمن موسى الكنائس، وفي زمن عيسى الصوامع والبيع، وفي زمن محمد المساجد. قال ابن عطية: هذا أصوب ما قيل في تأويل الآية؛ وقيل: المعنى ولولا دفع الله ظلم الظلمة بعذر الولاة؛ وقيل: لولا دفع الله العذاب بدعاء الأخيار؛ وقيل: غير ذلك. والصوامع: جمع صومعة، وهي بناء مرتفع، يقال: صمغ الثريدة؛ إذا رفع رأسها، ورجل أصمغ القلب أي: حاذ الفطنة، والأصمغ من الرجال: الحديد القول؛ وقيل: الصغير الأذن. ثم استعمل في المواضع التي يؤذن عليها في الإسلام. وقد ذكر ابن عطية في صلوات تسع قراءات، ووجه تقديم مواضع عبادات أهل الملل على موضع عبادة المسلمين كونها أقدم بناءً وأسبق وجوداً. والظاهر من الهدم المذكور معناه الحقيقي كما نكره الزجاج وغيره، وقيل: المراد به المعنى المجازي، وهو تعطلها من العبادة، وقرئ (لهدمت) بالتشديد، وانتصاب كثيراً في قوله: **«يذكر فيها اسم الله كثيراً»** على أنه صفة لمصدر محذوف أي: نكراً كثيراً، أو وقتاً كثيراً، والجملة صفة للمساجد؛ وقيل: لجميع المذكورات **«وليتصرن الله من ينصره»** اللام هي جواب لقسم محذوف أي: والله ليتصرن الله من ينصره، والمراد بمن ينصر الله: من ينصر دينه وأولياءه، والقوي القادر على الشيء، والعزیز الجليل الشريف قاله الزجاج، وقيل: الممتنع الذي لا يرام ولا يدافع ولا يمانع، والموصول في قوله: **«الذين إن مكناهم في الأرض»** في موضع نصب صفة لمن في قوله من ينصره قاله الزجاج؛ وقال غيره: هو في موضع جر صفة لقوله للذين يقاتلون؛ وقيل: المراد بهم المهاجرون والأنصار والتابعون لهم بإحسان؛ وقيل: أهل الصلوات الخمس؛ وقيل: ولاية العدل؛ وقيل: غير ذلك، وفيه إيجاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على من مكناه الله في الأرض وأقدره على القيام بذلك. وقد تقدم تفسير الآية، ومعنى **«وشع عاقبة الأمور»** أن مرجعها إلى حكمه وتبديره دون غيره.

وقد أخرج عبد الرزاق، وأحمد، وعبد بن حميد، والترمذي وحسنه، والنسائي، وابن ماجه، والبزار، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: لما أخرج النبي ﷺ من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبينهم - **«إنا لله وإنا إليه راجعون»** [البقرة: 156] - ليهلكن القوم، فنزلت **«إن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا»** الآية. قال ابن عباس: وهي أول آية نزلت في القتال. قال الترمذي: حسن، وقد رواه غير واحد عن الثوري، وليس فيه ابن عباس انتهى. وقد روي نحو هذا عن جماعة من التابعين. وأخرج

البئر المذكورة في إباحته بعد الأنس، وإقفاره بعد العمران، وإن أحداً لا يستطيع أن يدنو منه على أميال، لما يسمع فيه من عزيف الجن والأصوات المنكرة بعد النعيم والعيش الرغد وبهاء الملك، وانتظام الأهل كالسلك فباووا وما عابوا، فنكرهم الله سبحانه في هذه الآية موعظة وعبرة. قال: وقيل: إنهم الذين أهلكهم بختنصر على ما تقدم في سورة الأنبياء في قوله: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ﴾ [الأنبياء: 11]. ففتعلت بثرهم وخربت قصورهم انتهى. ثم أنكر سبحانه على أهل مكة عدم اعتبارهم بهذه الآثار قائلاً: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ حثاً لهم على السفر ليرى مصارع تلك الأمم فيعتبروا، ويحتمل أن يكونوا قد سافروا ولم يعتبروا، فهذا أنكر عليهم، كما في قوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ لِمَظْهَرٍ مِنْهُمْ﴾ وبالليل أقلا تعقلون [الصفات: 137 - 138]. ومعنى ﴿فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ أنهم بسبب ما شاهدوا من العبر تكون لهم قلوب يعقلون بها ما يجب أن يتعقلوه وأسند التعقل إلى القلوب لأنها محل العقل، كما أن الآذان محل السمع؛ وقيل: إن العقل محله الدماغ ولا مانع من ذلك، فإن القلب هو الذي يبعث على إدراك العقل وإن كان محله خارجاً عنه.

وقد اختلف علماء المعقول في محل العقل وماهيته اختلافاً كثيراً لا حاجة إلى التطويل بذكره ﴿أَوِ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ أي: ما يجب أن يسمعه مما تلاه عليهم أنبيأؤهم من كلام الله، وما نقله أهل الأخبار إليهم من أخبار الأمم المهلكة ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ﴾ قال الفراء: الهاء عماد يجوز أن يقال: فإنه، وهي قراءة عبد الله بن مسعود، والمعنى واحد، التذكير على الخبر، والتأنيث على الأبصار أو القصة أي: فلن الأبصار لا تعمي، أو فإن القصة لا تعمي الأبصار أي: أبصار العيون ﴿وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ فِي الْصُّدُورِ﴾ أي: ليس الخلل في مشاعرهم، وإنما هو في عقولهم أي: لا تترك عقولهم مواطن الحق ومواضع الاعتبار. قال الفراء والزجاج: إن قوله التي في الصدور من التوكيد الذي تزيده العرب في الكلام كقوله: ﴿عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة: 196]، ﴿وَيَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ [آل عمران: 167]، و﴿يُطِيرُ بِجَنَاحِهِ﴾ [الأنعام: 38]. ثم حكى سبحانه عن هؤلاء ما كنوا عليه من التكذيب والاستهزاء فقال: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ لأنهم كانوا منكرين لمجيئه أشد إنكار، فاستعجلهم له هو على طريقة الاستهزاء والسخرية، وكانهم كانوا يقولون ذلك عند سماعهم لما تقوله الأنبياء عن الله سبحانه من الوعد منه عز وجل بوقوعه عليهم وحلوله بهم، ولهذا قال: ﴿وَلَنْ يَخْلَفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ قال الفراء: في هذه الآية وعيد لهم بالعذاب في الدنيا والآخرة. وذكر الزجاج وجهاً آخر فقال: أعلم أن الله لا يوفته شيء، وإن يوماً عنده ألف سنة في قدرته واحد، ولا فرق بين وقوع ما يستعجلون به من العذاب وتأخره في القدرة، إلا أن الله تفضل بالإمهال انتهى. ومحل جملة: ولن يخلف الله وعده

﴿لَمْ أَخَذْتَهُمْ﴾ أي: أخذت كل فريق من المكذبين بالعذاب بعد انقضاء مدة الإمهال ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ هذا الاستفهام للتقرير أي: فأنظر كيف كان إنكاري عليهم وتغيير ما كانوا فيه من النعم وإهلاكهم، والنكير اسم من المنكر. قال الزجاج: أي ثم أخذتهم فانكرت أبلغ إنكار. قال الجوهري: النكير والإنكار تغيير المنكر. ثم نكر سبحانه كيف عذب أهل القرى المكذبة فقال: ﴿وَوَكَلَيْنَ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ أي: أهلكنا أهلها، وقد تقدم الكلام على هذا التركيب في آل عمران، وقرأ أهلكتها، وجملة ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ حالية، وجملة ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾ عطف على أهلكناها، لا على ظالمة لأنها حالية، والعذاب ليس في حال الظلم، والمراد بنسبة الظلم إليها: نسبتها إلى أهلها والخواء بمعنى: السقوط أي: فهي ساقطة ﴿عَلَى عُرُوشِهَا﴾ أي: على سقوفها، وذلك بسبب تعطل سكانها حتى تهدمت فسقطت حيطانها فوق سقوفها، وقد تقدم تفسير هذه الآية في البقرة ﴿وَيُؤْتِرُ مَعْطَلَةٌ﴾ معطوف على قرية، والمعنى: وكم من أهل قرية، ومن أهل بئر معطلة هكذا قال الزجاج. وقال الفراء: إنه معطوف على عروشها، والمراد بالمعطلة: المتروكة، وقيل: الخالية عن أهلها لهلاكهم، وقيل: الغائرة، وقيل معطلة من الدلاء والأرشية، والقصر المشيد هو المرفوع البنيان كذا قال قتادة والضحاك، ويدل عليه قول عدي بن زيد:

شاده مرمرًا ورجله كلسا فللطير في نراه وكور شاده أي: رفعه. وقال سعيد بن جبير، وعطاء، وعكرمة، ومجاهد: المراد بالمشيد: المجصص، مأخوذ من الشيد، وهو الجص، ومنه قول الرازي:

لا تحسبني وإن كنت أمراً غمراً كحبة الماء بين الطين والشيد وقيل: المشيد الحصين قاله الكلبي. قال الجوهري: المشيد المعمول بالمشيد، والشيد بالكسر كل شيء طليت به الحائط من جص أو بلاط، وبالفتح المصدر، تقول: شاده يشيده جصصه، والمشيد بالتشديد المطول. قال الكسائي: للواحد من قوله تعالى: ﴿فِي بَرُوجٍ مُشِيدَةٍ﴾ [النساء: 78]. والمعنى المعني: وكم من قصر مشيد معطل مثل البئر المعطلة؟ ومعنى التعطيل في القصر هو: أنه معطل من أهله، أو من آلاته، أو نحو ذلك. قال القرطبي في تفسيره: ويقال: إن هذه البئر والقصر بحضرموت معروفان، فالقصر مشرف على قلة جبل لا يرتقى إليه بحال، والبئر في سفحه لا تفرّج الرياح شيئاً سقط فيها إلا أخرجته، وأصحاب القصر ملوك الحضرم، وأصحاب البئر ملوك البنو. حكى الثعلبي وغيره: أن البئر كان بعدن من اليمن في بلد يقال: لها حضرواء، نزل بها أربعة آلاف ممن آمن بصالح ونجا من العذاب ومعهم صالح فمات صالح، فسمي المكان حضر موت، لأن صالحاً لما حضره مات فبنوا حضرواء وقعدوا على هذه البئر وأمروا عليهم رجلاً، ثم نكر قصة طويلة، وقال بعد ذلك: وأما القصر المشيد فقصر بناه شداد بن عاد بن إرم، لم يبن في الأرض مثله فيما نكروا وزعموا، وحاله أيضاً كحال هذه

يوم القيامة. وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال: الدنيا جمعة من جمع الآخرة سبعة آلاف سنة، فقد مضى منها ستة آلاف. وأخرج ابن عدي والديمي عن انس مرفوعاً نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس **﴿معاجزين﴾** قال: مراغمين. وأخرج ابن جرير عنه أنه قال: مشاقين.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ مَأْيَتَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٩﴾ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَاسٍ ﴿٧٠﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْوَحْيَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخَفَّيَ لَهُمْ قُلُوبُهُمْ وَلَئِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧١﴾ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَقِيبٍ ﴿٧٢﴾ أَلَمْ تَأْتِيَهُمُ الْبُيُوتُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَخْلَعُ مِنْكُمْ بَنِينَ فَكَانُوا سَائِرَةً وَهُمْ فِي هَيَوَاءٍ مُنْقَلَبَةٍ ﴿٧٣﴾ وَلَئِنَّ اللَّهَ لَكَنَافٌ عَذَابٍ مُهِينٌ ﴿٧٤﴾

قوله: **﴿من رسول ولا نبي﴾** قيل: الرسول الذي أرسل إلى الخلق بإرسال جبريل إليه عياناً ومحاورته شفاهاً، والنبي الذي يكون إلهاماً أو مناماً؛ وقيل: الرسول من بعث بشرع وأمر بتبليغه، والنبي: من أمر أن يدعو إلى شريعة من قبله، ولم ينزل عليه كتاب، ولا بدّ لهما جميعاً من المعجزة الظاهرة **﴿إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته﴾** معنى تمنى: تشهى وهيا في نفسه ما يهواه. قال الواحدي: وقال المفسرون: معنى تمنى تلا. قال جماعة المفسرين في سبب نزول هذه الآية: أنه ﷺ لما شقّ عليه إعراض قومه عنه تمنى في نفسه أن لا ينزل عليه شيء ينفروهم عنه لحرصه على إيمانهم، فكان ذات يوم جالساً في ناي من أنديتهم وقد نزل عليه سورة **﴿والنجم إذا هوى﴾** [النجم: 1]. فاخذ يقرؤها عليهم حتى بلغ قوله: **﴿أفرأيتم اللات والعزى﴾** ومنورة الثالثة الأخرى: [النجم: 19 - 20]. وكان ذلك التمني في نفسه، فجرى على لسانه مما لقيه الشيطان عليه «تلك الغرائق العلى، وإن شفاعتها لترتجى»، فلما سمعت قريش ذلك فرحوا ومضى رسول الله ﷺ في قراءته حتى ختم السورة، فلما سجد في آخرها سجد معه جميع من في النادي من المسلمين والمشركين، فنفرقت قريش مسرودين بذلك وقالوا: قد نكر محمد ألّهتنا بأحسن النكر، فاتاه جبريل فقال: ما صنعت؟ تلوت على الناس ما لم أتك به عن الله، فحزن رسول الله ﷺ وخاف خوفاً شديداً، فانزل الله هذه الآية، هكذا قالوا.

ولم يصح شيء من هذا، ولا ثبت بوجه من الوجوه، ومع عدم صحته بل بطلانه فقد دفعه المحققون بكتاب الله سبحانه، قال الله: **﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل﴾** * لاخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين **﴿[الحاقة: 44 - 46].﴾**

النصب على الحال أي: والحال أنه لا يخلف وعده أبداً، وقد سبق الوعد فلا بدّ من مجيئه حتماً، أو هي اعتراضية مبينة لما قبلها، وعلى الأوّل تكون جملة **﴿وإن يوماً عند ربك كالف سنة مما تعدون﴾** مستأنفة، وعلى الثاني تكون معطوفة على الجملة التي قبلها مسوقة لبيان حالهم في الاستعجال، وخطابهم في ذلك ببيان كمال حلمه لكون المدة القصيرة عنده كالمدة الطويلة عندهم كما في قوله: **﴿إنهم يرونه بعيداً﴾** * ونراه قريباً **﴿[المعارج: 6 - 7].﴾** قال الفراء: هذا وعيد لهم بامتداد عذابهم في الآخرة أي: يوم من أيام عذابهم في الآخرة كالف سنة؛ وقيل: المعنى وإن يوماً من الخوف والشدة في الآخرة كالف سنة من سني الدنيا فيها خوف وشدة، وكذلك يوم النعيم قليلاً. قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي (مما يعنون) بالتحية، واختار هذه القراءة أبو عبيد لقوله: **﴿ويستعجلونك﴾** وقرأ الباقرن بالفوقية على الخطاب، واختارها أبو حاتم **﴿وكلمين من قرية أمليت لها وهي ظالمة ثم اخذتها وإني المصير﴾** هذا إعلام منه سبحانه أنه أخذ قوماً بعد الإملاء والتأخير. قيل: وتكرير هذا مع نكره قبله للتأكيد، وليس بتكرار في الحقيقة، لأن الأوّل سيق لبيان الإملاء مناسباً لقوله: **﴿فكيف كان نكير﴾** ولهذا عطف بالفاء بدلاً عن ذلك، والثاني سيق لبيان الإملاء مناسباً لقوله: **﴿ولن يخلف الله وعده وإن يوماً عند ربك كالف سنة﴾** فكأنه قيل: وكم من أهل قرية كانوا مثلكم ظالمين قد أمهلتهم حيناً، ثم أخذتهم بالعذاب ومرجع الكل إلى حكمي. فجملة: **﴿وإني المصير تنذير لتقرير ما قبلها﴾** ثم أمره الله سبحانه أن يخبر الناس بأنه تنذير لهم بين يدي الساعة مبين لهم ما نزل إليهم، فمن آمن وعمل صالحاً فاز بالمغفرة والرزق الكريم وهو الجنة، ومن كان على خلاف ذلك فهو في النار وهم الذين سعوا في آيات الله معاجزين، يقال: عاجزه سابقه، لأن كل واحد منهما في طلب إعجاز الآخر، فإذا سبقه قيل: أعجزه وعجزه، قاله الأخفش؛ وقيل: معنى معاجزين: ظانين ومقترين أن يعجزوا الله سبحانه ويفوتوه فلا يعذبهم، قاله الزجاج؛ وقيل: معاندين، قاله الفراء.

وقد أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد، وابن المنذر عن قتادة في قوله: **﴿فهي خاوية على عروشها﴾** قال: خربة ليس فيها أحد **﴿وبشر معطلة﴾** عطلتها أهلها وتركوها **﴿وقصر مشيد﴾** قال: شيدوه وحصنوه فهلكوا وتركوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس **﴿وبشر معطلة﴾** قال: التي تركت لا أهل لها. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه **﴿وقصر مشيد﴾** قال: هو المجصص. وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد نحوه. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد عن عطاء نحوه أيضاً. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **﴿وإن يوماً عند ربك كالف سنة مما تعدون﴾** قال: من الأيام الستة التي خلق الله فيها السموات والأرض. وأخرج ابن المنذر عن عكرمة، قال في الآية: هو

وقوله: ﴿وما ينطق عن الهوى﴾ [النجم: 3]. وقوله: ﴿ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم﴾ [الإسراء: 74]. فنفى المقاربة للركون فضلاً عن الركون. قال البزار: هذا حديث لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ بإسناد متصل. وقال البيهقي: هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل، ثم أخذ يتكلم أن رواية هذه القصة مطعون فيها. وقال إمام الأئمة ابن خزيمة: إن هذه القصة من وضع الزناينة. قال القاضي عياض في الشفاء: إن الأمة أجمعت فيما طريقه البلاغ أنه معصوم فيه من الإخبار عن شيء بخلاف ما هو عليه، لا قصداً ولا عمداً ولا سهواً ولا غلطاً. قال ابن كثير: قد نكر كثير من المفسرين ما هنا قصة الغرائيق، وما كان من رجوع كثير من المهاجرين إلى أرض الحبشة ظناً منهم أن مشركي قريش قد أسلموا، ولكنها من طرق كلها مرسلة، ولم أرها مسندة من وجه صحيح، وإذا تقرر لك بطلان ذلك عرفت أن معنى ﴿تمنى﴾ قرأ وتلا كما قمنا من حكاية الواحد لذلك عن المفسرين. وكذا قال البغوي: إن أكثر المفسرين قالوا معنى ﴿تمنى﴾ تلا وقرأ كتاب الله، ومعنى ﴿لقى الشيطان في أمنيته﴾ أي: في تلاوته وقرآته. قال ابن جرير: هذا القول أشبه بتأويل الكلام، ويؤيد هذا ما تقدم في تفسير قوله: ﴿لا يعلمون الكتاب إلا أمانى﴾ [البقرة: 78]. وقيل: معنى ﴿تمنى﴾ حدث، ومعنى ﴿لقى الشيطان في أمنيته﴾ في حديثه، روي هذا عن ابن عباس، وقيل: معنى ﴿تمنى﴾ قال. فحاصل معنى الآية: أن الشيطان أوقع في مسامع المشركين ذلك من نون أن يتكلم به رسول الله ﷺ ولا جرى على لسانه، فتكون هذه الآية تسلية لرسول الله ﷺ أي: لا يهولك ذلك ولا يحزنك، فقد أصاب مثل هذا من قبلك من المرسلين والأنبياء، وعلى تقدير أن معنى تمنى حدث نفسه كما حكاه الفراء والكسائي فإنهما قالا: تمنى إذا حدث نفسه، فالمعنى: أنه إذا حدث نفسه بشيء تكلم به الشيطان وألقاه في مسامع الناس من نون أن يتكلم به رسول الله ﷺ ولا جرى على لسانه. قال ابن عطية: لا خلاف أن إلقاء الشيطان إنما هو لألفاظ مسموعة وقعت بها الفتنة. وقد قيل في تأويل الآية: إن المراد بالغرائيق الملائكة، ويرد بقوله: ﴿فينسخ الله ما يلقي الشيطان﴾ أي: يبطله، وشفاعة الملائكة غير باطلة؛ وقيل: إن ذلك جرى على لسانه ﷺ سهواً ونسياناً وهما مجوزان على الأنبياء، ويرد بأن السهو والنسيان فيما طريقه البلاغ غير جائز كما هو مقرر في مواضعه، ثم لما سلاه الله سبحانه بهذه التسلية وأنها قد وقعت لمن قبله من الرسل والأنبياء بين سبحانه أنه يبطل ذلك ولا يثبت ولا يستمر تغيير الشيطان به فقال: ﴿فينسخ الله ما يلقي الشيطان﴾ أي: يبطله ويجعله ذاهباً غير ثابت ﴿ثم يحكم الله آياته﴾ أي: يثبتها ﴿والله عليم حكيم﴾ أي: كثير العلم والحكمة في كل أقواله وأفعاله، وجملة ﴿ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة﴾ للتعليل أي: ذلك الإلقاء الذي يليقه الشيطان فتنة أي: ضلالة ﴿للذين في قلوبهم مرض﴾ أي:

شك ونفاق ﴿والقاسية قلوبهم﴾ هم المشركون، فإن قلوبهم لا تلين للحق أبداً ولا ترجع إلى الصواب بحال، ثم سجل سبحانه على هاتين الطائفتين: وهما من في قلبه مرض، ومن في قلبه قسوة بأنهم ظالمون فقال: ﴿وانظر للظالمين لفي شقاق بعيد﴾ أي: عداوة شديدة، ووصف الشقاق بالبعد مبالغة، والموصوف به في الحقيقة من قام به. ولما بين سبحانه أن ذلك الإلقاء كان فتنة في حق أهل النفاق والشك والشرك، بين أنه في حق المؤمنين العالمين بالله العارفين به سبب لحصول العلم لهم بأن القرآن حق وصديق فقال: ﴿وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك﴾ أي: الحق النازل من عنده؛ وقيل: إن الضمير في أنه راجع إلى تمكين الشيطان من الإلقاء، لأنه مما جرت به عادته مع أتباعه، ولكنه يرد هذا قوله: ﴿فيؤمنوا به﴾ فإن المراد الإيمان بالقرآن أي: يثبتوا على الإيمان به ﴿فتخبت له قلوبهم﴾ أي: تخشع وتسكن وتتقاه، فإن الإيمان به وإحبات القلوب له لا يمكن أن يكونا تمكين من الشيطان بل للقرآن ﴿وان الله لهاد للذين آمنوا﴾ في أمور دينهم ﴿إلى صراط مستقيم﴾ أي: طريق صحيح لا عوج به. وقرأ أبو حيوة ﴿وان الله لهاد للذين آمنوا﴾ بالتثنية ﴿ولا يزال الذين كفروا في مرية منه﴾ أي: في شك من القرآن؛ وقيل: في الدين الذي يدل عليه نكر الصراط المستقيم؛ وقيل: في إلقاء الشيطان، فيقولون: ما باله نكر الأصنام بخير ثم رجع عن ذلك؟ وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي (في مرية) بضم الميم ﴿حتى تأتيهم الساعة﴾ أي: القيامة ﴿بغتة﴾ أي: فجأة ﴿لو يأتهم عذاب يوم عقيم﴾ وهو يوم القيامة لأنه لا يوم بعده، فكان بهذا الاعتبار عقيماً، والعقيم في اللغة من لا يكون له ولد، ولما كانت الأيام تتوالى جعل ذلك كهية الولادة، ولما لم يكن بعد ذلك اليوم يوم وصف بالعقم؛ وقيل: يوم حرب يقتلون فيه كيوم بدر، وقيل: إن اليوم وصف بالعقم، لأنه لا رافة فيه ولا رحمة، فكانه عقيم من الخير، ومنه قوله تعالى: ﴿إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم﴾ [الذاريات: 41]، أي: التي لا خير فيها ولا تأتي بمطر ﴿الملك يومئذ لله﴾ أي: للسلطان القاهر والاستيلاء التام: يوم القيامة لله سبحانه وحده لا منازع له فيه ولا مدافع له عنه، وجملة ﴿يحكم بينهم﴾ مستأنفة جواباً عن سؤال مقرر، ثم فسر هذا الحكم بقوله سبحانه: ﴿فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم﴾ أي: كائنون فيها مستقرّون في أرضها منغمسون في نعيمها ﴿والذين كفروا وكتبوا بآياتنا﴾ أي: جمعوا بين الكفر بالله والتكذيب بآياته ﴿فأولئك لهم عذاب مهين﴾ أي: عذاب متصف بأنه مهين للمعذبين بالغ منهم المبلغ العظيم.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن الأنباري في المصاحف، عن عمرو بن دينار قال: كان ابن عباس يقرأ: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ولا محدث﴾. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف مثله،

ذَٰلِكَ يَأْتِ اللَّهَ رُبُّهُ الْيَسَّرَ فِي الْهَآرِ وَيُؤَيِّسُ الْهَآرَ فِي الْيَسَّرِ وَأَنَّ
 اللَّهُ سَيِّعُ بَصِيرَ ﴿١٩﴾ ذَٰلِكَ يَأْتِ اللَّهَ هُوَ الْهَآرُ وَأَنَّ مَا يَكُونُ مِنْ
 دُونِهِ هُوَ الْبَطْلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ
 أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصَيِّغُ الْأَرْضَ تُخْضِرُ بِهَا اللَّهُ لُطَيْفٌ خَبِيرٌ
 ﴿٢١﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْأَرْضَ كَانَتْ خَالِيَةً فَجَاءَهُ جَبْرِيلُ فَقَالَ: اقْرَأْ
 مَا فِي السَّمَكِ وَأَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ يَهْدِي لِمَنْ يَشَاءُ
 سَبِيلَهُ ﴿٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَجَاءَهُ جَبْرِيلُ فَقَالَ: اقْرَأْ
 مَا فِي السَّمَكِ وَأَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ يَهْدِي لِمَنْ يَشَاءُ
 سَبِيلَهُ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَجَاءَهُ جَبْرِيلُ فَقَالَ: اقْرَأْ
 مَا فِي السَّمَكِ وَأَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ يَهْدِي لِمَنْ يَشَاءُ
 سَبِيلَهُ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَجَاءَهُ جَبْرِيلُ فَقَالَ: اقْرَأْ
 مَا فِي السَّمَكِ وَأَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ يَهْدِي لِمَنْ يَشَاءُ
 سَبِيلَهُ ﴿٢٥﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَجَاءَهُ جَبْرِيلُ فَقَالَ: اقْرَأْ
 مَا فِي السَّمَكِ وَأَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ يَهْدِي لِمَنْ يَشَاءُ
 سَبِيلَهُ ﴿٢٦﴾

أفرد سبحانه المهاجرين بالذكر تخصيصاً لهم بمزيد الشرف، فقال: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قال بعض المفسرين: هم الذين هاجروا من مكة إلى المدينة. وقال بعضهم: الذين هاجروا من الأوطان في سرية أو عسكر، ولا يبعد حمل ذلك على الأمرين، والكل من سبيل الله ﴿ثُمَّ قَتَلُوا أَوْ مَاتُوا﴾ أي: في حال المهاجرة، واللام في ﴿لِيُرْزَقْنَهُمْ﴾ الله رزقاً حسناً ﴿جَوَابَ قَسَمِ مُحذوف، والجملة خبر الموصول بتقدير القول، وانتصاب رزقاً على أنه مفعول ثانٍ أي: مرزوقاً حسناً، أو على أنه مصدر مؤكدة، والرزق الحسن هو نعيم الجنة الذي لا ينقطع، وقيل هو الغنيمة لأنه حلال؛ وقيل: هو العلم والفهم كقول شعيب: ﴿ورزقني منه رزقاً حسناً﴾ [هود: 88]. قرأ ابن عامر وأهل الشام (ثم قتلوا) بالتشديد على التكرير، وقرأ الباقر بالتخفيف ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ فإنه سبحانه يرزق بغير حساب، وكل رزق يجري على يد العباد لبعضهم البعض، فهو منه سبحانه، لا رازق سواه ولا معطي غيره، والجملة تنبيل مقرر لما قبلها، وجملة ﴿لِيُدْخِلَنَّهُمْ مُّخَلَّاتٍ بِرِضْوَانِهِ﴾ مستأنفة، أو بدل من جملة ليرزقهم الله، قرأ أهل المدينة (مخللاً) بفتح الميم، وقرأ الباقر بضمها، وهو اسم مكان أريد به الجنة، وانتصابه على أنه مفعول ثانٍ أو مصدر ميمي مؤكد للفعل المذكور، وقد مضى الكلام على مثل هذا في سورة سبحان. وفي هذا من الامتنان عليهم والتبشير لهم ما لا يقدر قدره، فإن المدخل الذي يرضونه هو الأوفى لنفوسهم والأقرب إلى مطلبهم، على أنهم يرون في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وذلك هو الذي يرضونه وفوق الرضا ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ بدرجات العاملين ومراتب استحقاقهم ﴿حَلِيمٌ﴾ عن تفریط المفرطين منهم لا يعاجلهم بالعقوبة، والإشارة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى ما تقدم، قال الزجاج: أي الأمر ما قصصنا عليكم من إنجاز الوعد للمهاجرين خاصة إذا قتلوا أو ماتوا، فهو على هذا خير مبتداً محذوف، ومعنى ﴿وَمَنْ عَاقَبْ بِمِثْلِ مَا عَاقَبَ بِهِ﴾ من جازى الظالم بمثل ما ظلمه، وسمي الابتداء باسم الجزاء مشكلة كقوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: 40]. وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ

وزاد فنسخت محذوف، قال: والمحدثون: صاحب يس، ولقمان، ومؤمن آل فرعون، وصاحب موسى. وأخرج البزار، والطبراني، وابن مردويه، والضياء في المختارة. قال السيوطي بسند رجاله ثقات من طريق سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: إن رسول الله ﷺ قرأ ﴿اقْرَأْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ ومنزلة الثالثة الأخرى ﴿[النجم: 19 - 20] تلك الغرائق العلى وإن شفاعتهن لترتجى. ففرح المشركون بذلك وقالوا: قد نكر آلهتنا، فجاءه جبريل فقال: اقرأ علي ما جئت به، فقرأ: ﴿اقْرَأْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ ومنزلة الثالثة الأخرى ﴿[النجم: 19 - 20] تلك الغرائق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى، فقال: ما أتيتكم بهذا، هذا من الشيطان، فأنزل الله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، قال السيوطي بسند صحيح عن سعيد بن جبير، قال: قرأ رسول الله ﷺ بمكة النجم، فنكر نحوه، ولم ينكر ابن عباس، وكذا رواه ابن أبي حاتم، عن أبي العالقة، والسدي، عن سعيد مرسل. ورواه عبد بن حميد، عن السدي، عن أبي صالح مرسل. ورواه ابن أبي حاتم عن ابن شهاب مرسل. وأخرج ابن جرير، عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام نحوه مرسل. أيضاً. والحاصل أن جميع الروايات في هذا الباب إما مرسل أو منقطعة لا تقوم الحجة بشيء منها. وقد أسلفنا عن الحفاظ في أول هذا البحث ما فيه كفاية، وفي الباب روايات من أحب الوقوف على جميعها فلينظرها في الدر المنثور للسيوطي، ولا يأتي التحويل بنكرها هنا بفائدة، فقد عرفنا أنها جميعها لا تقوم بها الحجة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿حَتَّىٰ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ يقول: إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه. وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك، قال: يعني بالتمني التلوة والقراءة، ألقى الشيطان في أمنيته: في تلاوته ﴿فَيَنسُخُ اللَّهُ﴾ ينسخ جبريل بأمر الله ما ألقى الشيطان على لسان النبي. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿إِذَا تَمَنَّى﴾ قال: تكلم ﴿فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ قال: كلامه. وأخرج ابن مردويه، والضياء في المختارة، عن ابن عباس في قوله: ﴿عَذَابٌ يَوْمَ عَقِيمٍ﴾ قال: يوم بدر. وأخرج ابن مردويه عن أبي بن كعب نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير: عذاب يوم عقيم، قال: يوم بدر. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير وعكرمة مثله. وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد في الآية قال: يوم القيامة لا ليلة له. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير مثله. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن الضحاك مثله. وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٢٤﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٢٧﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٢٩﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٣٠﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٣١﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٣٤﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٣٩﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٤٠﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٤١﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٤٢﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٤٣﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٤٤﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٤٥﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٤٦﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٤٧﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٤٨﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٤٩﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٥١﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٥٢﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٥٣﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٥٤﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٥٥﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٦٠﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٦١﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٦٢﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٦٥﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٦٩﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٧٠﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٧٥﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٧٦﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٧٧﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٧٨﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٧٩﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٨٠﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٨٢﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٨٣﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٨٤﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٨٦﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٨٧﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٨٨﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٨٩﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٩٠﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٩١﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٩٢﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٩٣﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٩٤﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٩٥﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٩٦﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٩٧﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٩٨﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٩٩﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿١٠٠﴾

في الكلام: إن الله ينزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة أي: ذات خضرة كما تقول مبقلة ومسبعة أي: نوات بقل وسباع، وهو عبارة عن استعجالها أثر نزول الماء بالنبات واستمرارها كذلك عادة، وصيغة الاستقبال لاستحضار صورة الاخضرار مع الإشعار بتجدد الإنزال واستمراره، وهذا المعنى لا يحصل إلا بالمستقبل، والرفع هنا متعين لأنه لو نصب لانعكس المعنى المقصود من الآية فينقلب إلى نفي الاخضرار، والمقصود إثباته. قال ابن عطية: هذا لا يكون يعني: الاخضرار في صباح ليلة المطر إلا بمكة وتهامة. والظاهر أن المراد بالاخضرار اخضرار الأرض في نفسها لا باعتبار النبات فيها كما في قوله: ﴿فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت﴾ [فصلت: 39]. والمراد بقوله: ﴿إن الله لطيف﴾ أنه يصل علمه إلى كل دقيق وجليل؛ وقيل: لطيف بأرزاق عباده؛ وقيل: لطيف باستخراج النبات، ومعنى ﴿خبير﴾ أنه ذو خبرة بتبديل عباده وما يصلح لهم، وقيل: خبير بما ينطوون عليه من القنوط عند تأخير المطر؛ وقيل: خبير بحاجتهم وفاقتهم ﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾ خلقاً وملكاً وتصرفاً وكلهم محتاجون إلى رزقه ﴿وإن الله لهو الغني﴾ فلا يحتاج إلى شيء ﴿الحميد﴾ المستوجب للحمد في كل حال ﴿ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض﴾ هذه نعمة أخرى نكرها الله سبحانه، فأخبر عباده بأنه سخر لهم ما يحتاجون إليه من الدواب والشجر والانهار وجعله لمنافعهم ﴿والفلك﴾ عطف على ما، أو على اسم أن أي: وسخر لكم الفلك في حال جريها في البحر، وقرأ عبد الرحمن الأعرج ﴿والفلك﴾ بالرفع على الابتداء وما بعده خبره، وقرأ الباقون بالنصب. ومعنى ﴿تجري في البحر بأمرة﴾ أي: بتقديره، والجملة في محل نصب على الحال على قراءة الجمهور ﴿ويمسك السماء أن تقع على الأرض﴾ أي: كرامة أن تقع، وذلك بأنه خلقها على صفة مستلزمة للإمسك، والجملة معطوفة على تجري ﴿إلا بإنه﴾ أي: بإرادته ومشئته، وذلك يوم القيامة ﴿إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾ أي: كثير الرأفة والرحمة حيث سخر هذه الأمور لعباده وهيا لهم أسباب المعاش، وأمسك السماء أن تقع على الأرض فتهلكهم تفضلاً منه على عباده وإنعاماً عليهم. ثم ذكر سبحانه نعمة أخرى فقال: ﴿وهو الذي أحياكم﴾ بعد أن كنتم جماداً ﴿ثم يميتكم﴾ عند انقضاء أعماركم ﴿ثم يحييكم﴾ عند البعث للحساب والمقاب ﴿وإن الإنسان لَكفور﴾ أي: كثير الجحود لنعم الله عليه مع كونه ظاهرة غير مستترة، ولا ينافي هذا خروج بعض الأفراد عن هذا الجحد، لأن المراد وصف جميع الجنس بوصف من يوجد فيه ذلك من أفراده مبالغة.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه عن سلمان الفارسي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من مات مرابطاً أجرى الله عليه مثل تلك الأجر، وأجرى عليه الرزق وأمن من الفتانين، واقرأوا إن شئتم ﴿والذين هاجروا في سبيل الله

عليكم﴾ [البقرة: 194]. والعقوبة في الأصل إنما تكون بعد فعل تكون جزاء عنه، والمراد بالمثالية أنه اقتصر على المقدار الذي ظلم به ولم يزد عليه، ومعنى ﴿ثم بغى عليه﴾ أن الظالم له في الابتداء عاوده بالمظلمة بعد تلك المظلمة الأولى، قيل: المراد بهذا البغي: هو ما وقع من المشركين من إزعاج المسلمين من أوطانهم بعد أن كتبوا نبيهم وآثروا من آمن به، واللام في ﴿لينصرن الله﴾ جواب قسم محذوف أي: لينصرن الله المبغى عليه على الباغي ﴿إن الله لعفو غفور﴾ أي: كثير العفو والغفران للمؤمنين فيما وقع منهم من الذنوب؛ وقيل: العفو والغفران لما وقع من المؤمنين من ترجيح الانتقام على العفو؛ وقيل: إن معنى ﴿ثم بغى عليه﴾ أي: ثم كان المجازي مبغياً عليه أي: مظلوماً، ومعنى ثم تفاوت الرتبة، لأن الابتداء بالقتال معه نوع ظلم كما قيل في أمثال العرب: البادي أظلم؛ وقيل: إن هذه الآية مدنية، وهي في القصص والجراحات، والإشارة بقوله: ﴿ذلك بأن الله يوليح الليل في النهار﴾ إلى ما تقدم من نصر الله سبحانه للمبغى عليه، وهو مبتدأ وخبره جملة بأن الله يوليح، والباء للسببية أي: ذلك بسبب أنه سبحانه قادر، ومن كمال قدرته إيلاج الليل في النهار والنهار في الليل، وعبر عن الزيادة بالإيلاج، لأن زيادة أحدهما تستلزم نقصان الآخر، والمراد تحصيل أحد العرضين في محل الآخر. وقد مضى في آل عمران معنى هذا الإيلاج ﴿وإن الله سميع﴾ يسمع كل مسموع ﴿بصير﴾ يبصر كل مبصر، أو سميع للأقوال مبصر للأفعال، فلا يعزب عنه مثقال ذرة، والإشارة بقوله: ﴿ذلك بأن الله هو الحق﴾ إلى ما تقدم من اتصافه سبحانه بكمال القدرة الباهرة والعلم التام أي: هو سبحانه ذو الحق، فبينه حق، وعبادته حق ونصره لأولياته على أعدائه حق، ووعدته حق، فهو عز وجل في نفسه وإفعاله وصفاته حق ﴿وإن ما تدعون من بونه هو الباطل﴾ قرأ نافع، وابن كثير، وابن عامر، وشعبة تدعون بالفوقية على الخطاب للمشركين، واختار هذه القراءة أبو حاتم. وقرأ الباقون بالتحية على الخبر، واختار هذه القراءة أبو عبيدة. والمعنى: إن الذين تدعونهم إليها، وهي الأصنام هو الباطل الذي لا ثبوت له ولا لكونه إلهاً ﴿وإن الله هو العلي﴾ أي: العالي على كل شيء بقدرته المتقدس على الأشباه والاناداء المتمتزة عما يقول الظالمون من الصفات ﴿الكبير﴾ أي: ذو الكبرياء، وهو عبارة عن كمال ذاته وتفردّه بالإلهية، ثم ذكر سبحانه بليلاً بيناً على كمال قدرته، فقال: ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة﴾ الاستفهام للتقرير، والفاء للعطف على أنزل، وارتفع الفعل بعد الفاء لكون استفهام التقرير بمنزلة الخبر كما قاله الخليل وسيبويه. قال الخليل: المعنى أنزل من السماء ماء فكان كذا وكذا، كما قال الشاعر:

ألم تسأل الربيع فينطق وهل يخبرك اليوم ببيد سملق
معناه: قد سألته فنطق. قال الفراء: ألم تر خبر كما تقول

عاد سبحانه إلى بيان أمر التكليف مع الزجر لمعاصري رسول الله ﷺ من أهل الأديان عن منازعته فقال: ﴿لِكُلِّ أمة جعلنا منسكاً﴾ أي: لكل قرن من القرون الماضية وضعنا شريعة خاصة، بحيث لا تتخطى أمة منهم شريعتها المعينة لها إلى شريعة أخرى، وجملة ﴿وهم ناسكوه﴾ صفة لمنسكاً، والضمير لكل أمة أي: تلك الأمة هي العاملة به لا غيرها، فكانت التوراة منسك الأمة التي كانت من مبعث موسى إلى مبعث عيسى، والإنجيل منسك الأمة التي من مبعث عيسى إلى مبعث محمد ﷺ، والقرآن منسك المسلمين. والمنسك مصدر لا اسم مكان كما يدل عليه هم ناسكوه، ولم يقل ناسكون فيه؛ وقيل: المنسك موضع أداء الطاعة، وقيل: هو الذبائح، ولا وجه للتخصيص، ولا اعتبار بخصوص السبب، والفاء في قوله: ﴿فلا ينافي عنك في الأمر﴾ لترتيب النهي على ما قبله، والضمير راجع إلى الأمم الباقية آثارهم أي: قد عينا لكل أمة شريعة، ومن جملة الأمم هذه الأمة المحمدية، وذلك موجب لعدم منازعة من بقي منهم لرسول الله ﷺ ومستلزم لطاعتهم إياه في أمر الدين، والنهي إما على حقيقته، أو كناية عن نهيه ﷺ عن الالتفات إلى نزاعهم له. قال الزجاج: إنه نهى له ﷺ عن منازعتهم أي: لا تنازعهم أنت كما تقول لا يخاصمك فلان أي: لا تخصمه، وكما تقول لا يضاربك فلان أي: لا تضاربه، وذلك أن المفاعلة تقتضي العكس ضمناً، ولا يجوز لا يضربك فلان وأنت تريد لا تضربه. وحكي عن الزجاج أنه قال في معنى الآية: فلا ينافي عنك أي: فلا يجادلنك. قال: ودل على هذا ﴿وإن جادلوك﴾ وقرأ أبو مجلز (فلا ينافي عنك في الأمر) أي: لا يستخفك ولا يغلبك على دينك. وقرأ الباقون (ينازعك) من المنازعة ﴿وادع إلى ربك﴾ أي: وادع هؤلاء المنازعين أو ادع الناس على العموم إلى دين الله وتوحيده والإيمان به ﴿إنك لملى هدى مستقيم﴾ أي: طريق مستقيم لا اعوجاج فيه ﴿وإن جادلوك﴾ أي: وإن أبوا إلا الجدل بعد البيان لهم وظهور الحجة عليهم ﴿فقل الله أعلم بما تعملون﴾ أي: فكل أمرهم إلى الله وقل لهم هذا القول المشتمل على الوعيد ﴿الله يحكم بينكم﴾ أي: بين المسلمين والكافرين ﴿يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون﴾ من أمر الدين فيتبين حينئذ الحق من الباطل، وفي هذه الآية تعليم لهذه الأمة بما ينبغي لهم أن يجيبوا به من أراد الجدل بالباطل، وقيل: إنها منسوخة بآية السيف، وجملة ﴿لم تعلم﴾ مستأنفة مقررة لمضمون ما قبلها، والاستفهام للتقرير أي: قد علمت يا محمد وتيقنت ﴿أن الله يعلم ما في السموات والأرض﴾ ومن جملة ذلك ما أنتم فيه مختلفون ﴿إن ذلك﴾ الذي في السماء والأرض من معلوماته ﴿في كتاب﴾ أي: مكتوب عنده في أم الكتاب ﴿إن ذلك على الله يسير﴾ أي: إن الحكم منه سبحانه بين عباده فيما يختلفون فيه يسير عليه غير عسير، أو إن إحاطة علمه بما في السماء والأرض يسير عليه ﴿ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً﴾

ثم قتلوا أو ماتوا﴾ إلى قوله: ﴿حليم﴾. وإسناد ابن أبي حاتم هكذا: حدثنا المسيب بن واضح، حدثنا ابن المبارك، عن عبد الرحمن بن شريح، عن عبد الكريم بن الحارث عن أبي عقبة، يعني: أبا عبيدة بن عقبة قال: قال شرحبيل بن السمط: طال رباطنا وإقامتنا على حصن بارض الروم، فمر بي سلمان يعني: الفارسي قال: سمعت رسول الله ﷺ فذكره. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن فضالة بن عبيد الأنصاري الصحابي أنه كان برويس، فمروا بجنازتين أحدهما قتيل والآخر متوفى، فمال الناس عن القتل، فقال فضالة: مالي أرى الناس مالوا مع هذا وتركوا هذا؟ فقالوا: هذا القتل في سبيل الله، فقال: والله ما أبالي من أي حفرتيها بعثت اسمعوا كتاب الله ﴿ولذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا﴾ الآية. وإسناده عند ابن أبي حاتم هكذا: حدثنا أبو زرعة عن زيد بن بشر، أخبرني ضمام أنه سمع أبا قبيل وربيعاً بن سيف المغافري يقولان: كنا برويس ومعنا فضالة بن عبيد الأنصاري صاحب رسول الله ﷺ فنكره. قلت: ويؤيد هذا قول الله سبحانه: ﴿ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يترك الموت فقد وقع أجره على الله﴾ [النساء: 100]. وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل في قوله: ﴿ومن عاقب بمثل ما عوقب به﴾ قال: إن النبي ﷺ بعث سرية في ليلتين بقيتا من المحرم فلقوا المشركين، فقال المشركون بعضهم لبعض: قاتلوا أصحاب محمد فإنهم يحرمون القتال في الشهر الحرام، وإن أصحاب محمد ناشوهم ونكروهم بالله أن يعرضوا لقتالهم فإنهم لا يستحلون القتال في الشهر الحرام إلا من إبادهم، وإن المشركين بدعوا فقاتلوهم، فاستحل أصحاب قتالهم عند ذلك فقاتلوهم ونصرهم الله عليهم. وهو مرسل. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله: ﴿ومن عاقب﴾ الآية قال: تعاون المشركون على النبي ﷺ وأصحابه فأخرجوه، فوعده الله أن ينصره، وهو في القصص أيضاً. وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿وأن ما تدعون من دونه هو الباطل﴾ قال: الشيطان. وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله: ﴿إن الإنسان لَكفور﴾ قال: يعد المصيبات وينسى النعم.

لِكُلِّ أمة جَعَلْنَا مَنَسَكاً مَّا نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُكَ فِي الْأَمْرِ وَأَدْعُ إِلَى رِبِّكَ إِنَّكَ لَرَكْلٌ لَّسَّ هَذِهِ سُنَّتِي ۖ وَإِنْ جَدَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ۖ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ إِنَّمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۖ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۖ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ ۖ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۖ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَعِيمٍ ۖ وَإِذَا تَلَّكُنَّ عَلَى أَنْفُسِكُمْ يَتَذَكَّرُ ۖ فَرَفَّ فِي وَجْهِهِ الْغَيْثُ ۖ كَفَرُوا أَتَشْكُرُ مَكَادُوكَ بِسَطْوَتِكَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۖ قُلْ أَفَأَنْتُمْ بَشَرٌ مِنْ ذَلِكُمْ أَلَّا تَرَوْا وَعَدَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَتَنَصَّرُونَ ۖ

قبل أن يخلق الخلق وهو على العرش: اكتب، قال: ما اكتب؟ قال: علمي في خلقي إلى يوم تقوم الساعة، فجرى القلم بما هو كائن في علم الله إلى يوم القيامة، فذلك قوله للنبي ﷺ ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني: ما في السموات السبع والأرضين السبع ﴿إِنْ تِلْكَ﴾ العلم ﴿فِي كِتَابٍ﴾ يعني: في اللوح المحفوظ مكتوب قبل أن يخلق السموات والأرضين ﴿إِنْ تِلْكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ يعني: هين. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿يَكُونُونَ يَسْطُونَ﴾ يبطشون.

يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضَرْبَ مَثَلٍ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَنفَعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَصْلَحُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْتَأْذِنُوا لَلْذُبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِئُهُ مِنْهُ شَيْءٌ أَطْلُبُ السَّلَاطِينَ ﴿٧٦﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٧﴾ اللَّهُ يَصْطَلِي بِنُورِ الْحِكْمَةِ مِثْلًا وَلَوْ أَنَّ النَّاسَ لَكَافُونَ سَكِينٌ بَصِيرٌ ﴿٧٨﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَوْ أَنَّ اللَّهَ تَرَى الْأَعْمُورَ ﴿٧٩﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا آتِمْزًا وَكُنُوزًا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَالْفَصَالُ الْحَبَرُ لَمَّا كُنْتُمْ ثَغِيرًا ﴿٨٠﴾ وَجَنِّدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ بَلَاغُ الْبَيِّنَاتِ لِيُزَيِّنَ هُوَ سَمْتَكُمْ السَّالِطِينَ مِنْ قَبْلِ وَبِئْسَ مَا كُنَّا لَكُمْ لَبِيسًا لَكُمْ لَبِيسٌ شَدِيدٌ عَلَى النَّاسِ فَاقْبِسُوا الْحَكْمَةَ وَإِنَّا لَكَاظِمُونَ وَاعْبُدُوا اللَّهَ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَرِيقٌ مِنَ الْمَوْتُومِ وَرِيقٌ مِنَ النَّاصِرِ ﴿٨١﴾

قوله: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ ضَرْبَ مَثَلٍ﴾ هذا متصل بقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ [الحج: 71] قال الاخفش: ليس ثم مثل، وإنما المعنى: ضربوا لي مثلاً ﴿فَاسْتَمِعُوا﴾ قولهم، يعني: أن الكفار جعلوا لله مثلاً بعبادتهم غيره، فكانه قال: جعلوا لي شبيهاً في عبادتي فاستمعوا خبر هذا الشبه. وقال الفتيبي: إن المعنى يا أيها الناس مثل من عبد آلهة لم تستطع أن تخلق نبياً، وإن سلبها شيئاً لم تستطع أن تستنقذه منه. قال النحاس: المعنى ضرب الله عز وجل لما يعبدونه من دونه مثلاً. قال: وهذا من أحسن ما قيل فيه أي: بين الله لكم شبيهاً ولمعبودكم. وأصل المثل جملة من الكلام متعلقة بالرضا والقبول مسيرة في الناس مستغربة عندهم، وجعلوا مضربها مثلاً لموردها، ثم قد يستعبرونها للقصة أو الحالة أو الصفة المستغربة لكونها مماثلة لها في الغرابة كهذه القصة المذكورة، في هذه الآية. والمراد بما يدعون من دون الله: الأصنام التي كانت حول الكعبة وغيرها؛ وقيل: المراد بهم السادة الذين صرفوهم عن طاعة الله لكونهم أهل الحل والعقد فيهم؛ وقيل: الشياطين الذين حملوهم على معصية الله، والأول أوفق بالمقام وأظهر في التمثيل، والذباب اسم للواحد يطلق على الذكر والأنثى، وجمع القلة

هذا حكاية لبعض فضائحهم أي: إنهم يعبدون أصناماً لم يتمسكوا في عبادتها بحجة نيرة من الله سبحانه ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ من ليل عقل يدل على جواز ذلك بوجه من الوجوه ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ ينصروهم ويدفع عنهم عذاب الله، وقد تقدم الكلام على هذه الآية في آل عمران، وجملة ﴿وَإِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٌ﴾ معطوفة على يعبدون، وانتصاب بينات على الحال أي: حال كونها وأضحات ظاهرات الدلالة ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْمُنْكَرِ﴾ أي: الأمر الذي ينكر، وهو غضبهم وعبوسهم عند سماعها، أو المراد بالمنكر الإنكار أي: تعرف في وجوههم إنكارها، وقيل: هو التجبر والترفع، وجملة ﴿يَكُونُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَقُولُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل: ما ذلك المنكر الذي يعرف في وجوههم؟ فقيل: يكونون يسطون أي: يبطشون، والسطوة شدة البطش، يقال: سطا به يسطو إذا بطش به بضرب، أو شتم، أو أخذ باليد، وأصل السطو القهر.

وهكذا ترى أهل البدع المضلة إذا سمع الواحد منهم ما يتلوه العالم عليهم من آيات الكتاب العزيز، أو من السنة الصحيحة مخالفاً لما اعتقده من الباطل والضلالة رأيت في وجهه من المنكر ما لو تمكن من أن يسطو بذلك العالم لافعل به ما لا يفعله بالمشركون، وقد رأينا وسمعنا من أهل البدع ما لا يحيط به الوصف، والله ناصر الحق ومظهر الدين وداحض الباطل ودافع البدع وحافظ المتكلمين بما أخذه عليهم المبينين للناس ما نزل إليهم، وهو حسينا ونعم الوكيل، ثم أمر رسوله أن يرد عليهم، فقال: ﴿قُلْ أَفَأَنْتُمْ كُنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ لَكُمْ﴾ الذي فيكم من الغيظ على من يتلو عليكم آيات الله ومقاربتكم للوثوب عليهم، وهو النار التي أعدّها الله لكم، فالنار مرتفعة على أنها خبر لمبتدأ محذوف، والجملة جواب سؤال مقدر كأنه قيل: ما هذا الأمر الذي هو شر مما نكابه ونناهده عند سماعنا ما تتلوه علينا؟ فقال: هو ﴿النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وقيل: إن النار مبتدأ وخبره جملة وعدّها الله الذين كفروا، وقيل: المعنى أفأخبركم بشر مما يلحق تالي القرآن منكم من الأذى والتوعد لهم والتوثب عليهم، وقرئ النار بالنصب على تقدير أعني، وقرئ بالجر بدلاً من شر ﴿وَبِئْسَ لِلْمُصِيرِ﴾ أي: الموضع الذي تصيرون إليه، وهو النار.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿هَمَّ نَاسُكُوهُ﴾ قال: يعني هم ذابحوه ﴿فَلَا يَنَازِعُكَ فِي الْأَمْرِ﴾ يعني: في أمر الذبح. وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد نحوه أيضاً. وأخرج ابن المنذر عن مجاهد قال: ﴿فَلَا يَنَازِعُكَ فِي الْأَمْرِ﴾ قول أهل الشرك: أما ما نبح الله بيمينه فلا تاكلوه، وأما ما نبحتم بأيديكم فهو حلال. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مريويه عن ابن عباس قال: خلق الله اللوح المحفوظ لمسيرة مائة عام، وقال للقلم

فعلتم هذه كلها رجوتهم الفلاح. وهذه الآية من مواطن سجود التلاوة عند الشافعي ومن وافقه، لا عند أبي حنيفة ومن قال بقوله، وقد تقدم أن هذه السورة فضلت بسجنتين، وهذا دليل على ثبوت السجود عند تلاوة هذه الآية. ثم أمرهم بما هو سنام الدين وأعظم أعماله، فقال: **﴿وجاهدوا في الله﴾** أي: في ذاته ومن أجله، والمراد به الجهاد الأكبر، وهو الغزو للكفار ومدافعهم إذا غزوا بلاد المسلمين، وقيل: المراد بالجهاد هنا امتثال ما أمرهم الله به في الآية المتقدمة، أو امتثال جميع ما أمر به ونهى عنه على العموم، ومعنى **﴿حق جهاده﴾** المبالغة في الأمر بهذا الجهاد، لأنه أضاف الحق إلى الجهاد، والأصل إضافة الجهاد إلى الحق أي: جهاداً خالصاً لله، فعكس ذلك لقصد المبالغة، وأضاف الجهاد إلى الضمير اتساعاً، أو لاختصاصه به سبحانه من حيث كونه مفعولاً له ومن أجله؛ وقيل: المراد بحق جهاده هو أن لا تخافوا في الله لومة لائم؛ وقيل: المراد به استفرار ما في وسعهم في إحياء دين الله. وقال مقاتل والكلبي: إن الآية منسوخة بقوله تعالى: **﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾** [التغابن: 16]. كما أن قوله: **﴿اتقوا الله حق تقاته﴾** [آل عمران: 102] منسوخ بذلك، ورد ذلك بأن التكليف مشروط بالقدرة، فلا حاجة إلى المصير إلى النسخ، ثم عظم سبحانه شأن المكلفين بقوله: **﴿هو اجتباكم﴾** أي: اختاركم لدينه، وفيه تشريف لهم عظيم. ثم لما كان في التكليف مشقة على النفس في بعض الحالات قال: **﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾** أي: من ضيق وشدة.

وقد اختلف العلماء في هذا الحرج الذي رفعه الله فقيل: هو ما أحله الله من النساء مثنى وثلاث ورباع وملك اليمين؛ وقيل: المراد قصر الصلاة، والإقطار للمسافر، والصلاة بالإيماء على من لا يقدر على غيره، وإسقاط الجهاد عن الأعرج والعمى والمريض، واعتقار الخطأ في تقديم الصيام وتأخيرها لاختلاف الأهلة، وكذا في الفطر والأضحية؛ وقيل: المعنى أنه سبحانه ما جعل عليهم حرجاً بتكليف ما يشق عليهم، ولكن كلفهم بما يقدرون عليه، ورفع عنهم التكليف التي فيها حرج، فلم يتعبدوا بها كما تعبد بها بني إسرائيل؛ وقيل: المراد بذلك أنه جعل لهم من الذنب مخرجاً بفتح باب التوبة وقبول الاستغفار والتكفير فيما شرع فيه الكفارة والأرش، أو القصاص في الجنايات، ورد المال أو مثله أو قيمته في الغصب ونحوه. والظاهر أن الآية أعم من هذا كله، فقط حط سبحانه ما فيه مشقة من التكليف على عباده: إما بإسقاطها من الأصل وعدم التكليف بها كما كلف بها غيرهم، أو بالتخفيف وتجويز العدول إلى بدل لا مشقة فيه، أو بمشروعية التخلص عن الذنب بالوجه الذي شرعه الله، وما أتفع هذه الآية وأجل موقعها وأعظم فائدتها، ومثلها قوله سبحانه: **﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾** [التغابن:

أذية، والكثرة نبان مثل غراب وأغربة وغريان. وقال الجوهري: الذباب معروف الواحد ذبابة. والمعنى: لن يقدروا على خلقه مع كونه صغير الجسم حقير الذات، وجملة **﴿ولو اجتمعوا له﴾** معطوفة على جملة أخرى شرطية محذوفة أي: لو لم يجتمعوا له لن يخلقوه ولو اجتمعوا له، والجواب محذوف والتقدير لن يخلقوه وهما في محل نصب على الحال أي: لن يخلقوه على كل حال. ثم بين سبحانه كمال عجزهم وضعف قدرتهم فقال: **﴿وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه﴾** أي: إذا أخذ منهم الذباب شيئاً من الأشياء لا يقدرن على تخليصه منه لكمال عجزهم وقرط ضعفهم، والاستنقاذ والإنقاذ التخلص، وإذا عجزوا عن خلق هذا الحيوان الضعيف، وعن استنقاذ ما أخذهم عليهم فهم عن غيره مما هو أكبر منه جرماً وأشد منه قوة أعجز وأضعف، ثم عجب سبحانه من ضعف الأصنام والذباب، فقال: **﴿ضعف الطالب والمطلوب﴾** فالصنم كالتطالب من حيث إنه يطلب خلق الذباب أو يطلب استنقاذ ما سلبه منه، والمطلوب الذباب؛ وقيل: الطالب عابد الصنم، والمطلوب الصنم، وقيل: الطالب الذباب والمطلوب الأكلة. ثم بين سبحانه أن المشركين الذين عبدوا من دون الله آلهة عاجزة إلى هذه الغاية في العجز ما عرفوا الله حق معرفته فقال: **﴿ما قدروا الله حق قدره﴾** أي: ما عظموه حق تعظيمه ولا عرفوه حق معرفته، حيث جعلوا هذه الأصنام شركاء له مع كون حالها هذا الحال، وقد تقدم في الانعام **﴿إن الله لقوي﴾** على خلق كل شيء **﴿عزيز﴾** غالب لا يغالبه أحد، بخلاف آلهة المشركين، فإنها جماد لا تعقل ولا تنفع ولا تضر ولا تقدر على شيء. ثم أراد سبحانه أن يرد عليهم ما يعتقدونه في النبوات والإلهيات فقال: **﴿الله يصطفي من الملائكة رسلاً﴾** كجبريل، وإسرافيل وميكائيل وعزرائيل **﴿و﴾** يصطفي أيضاً رسلاً **﴿من الناس﴾** وهم الأنبياء، فيرسل الملك إلى النبي، والنبي إلى الناس، أو يرسل الملك لقبض أرواح مخلوقاته، أو لتحصيل ما ينفعكم، أو لإنزال العذاب عليهم **﴿إن الله سميع﴾** لأقوال عباده **﴿بصير﴾** بمن يختاره من خلقه **﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾** أي: ما قدموا من الأعمال وما يتركونه من الخير والشر كقوله تعالى: **﴿ونكتب ما قدموا وآثارهم﴾** [يس: 12]. **﴿والى الله ترجع الأمور﴾** لا إلى غيره، ولما تضمن ما نكره من أن الأمور ترجع إليه الزجر لعباده عن معاصيه، والحض لهم على طاعته صرح بالمقصود فقال: **﴿يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا﴾** أي: صلوا الصلاة التي شرعها الله لكم، وخص الصلاة لكونها أشرف العبادات. ثم عمم فقال: **﴿واعبدوا ربكم﴾** أي: افعلوا جميع أنواع العبادة التي أمركم الله بها **﴿وافعلوا الخير﴾** أي: ما هو خير، وهو أعم من الطاعة الواجبة والمنوبة، وقيل: المراد بالخير هنا المنوبات. ثم علل ذلك بقوله: **﴿لعلكم تفلحون﴾** أي: إذا

16] وقوله: ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ [البقرة: 185]. وقوله: ﴿ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به﴾ [البقرة: 286]. وفي الحديث الصحيح أنه سبحانه قال: قد فعلت كما سبق بيانه في تفسير هذه الآية، والأحاديث في هذا كثيرة، وانتصاب ملة في ﴿ملة أبيكم إبراهيم﴾ على المصدرية بفعل دل عليه ما قبله أي: وسع عليكم دينكم توسعة ملة أبيكم إبراهيم. وقال الزجاج: المعنى اتبعوا ملة أبيكم إبراهيم. وقال الفراء: انتصب على تقدير حذف الكاف أي: كملة، وقيل: التقدير وأفعولوا الخير كفعل أبيكم إبراهيم، فأقام الملة مقام الفعل؛ وقيل: على الإغراء، وقيل على الاختصاص، وإنما جعله سبحانه أباهم لأنه أبو العرب قاطبة، ولأن له عند غير العرب الذين لم يكونوا من نريته حرمة عظيمة كحرمة الأب على الابن لكونه أبا لنبيهم ﷺ. **هو سماكم المسلمين من قبل﴾** أي: في الكتب المتقدمة **﴿وفي هذا﴾** أي: القرآن، والضمير لله سبحانه؛ وقيل: راجع إلى إبراهيم. والمعنى هو أي: إبراهيم سماكم المسلمين من قبل النبي ﷺ، وفي هذا أي: في حكمه أن من اتبع محمداً فهو مسلم. قال النحاس: وهذا القول مخالف لقول علماء الأمة. ثم علل سبحانه ذلك بقوله: **﴿ليكون الرسول شهيداً عليكم﴾** أي: بتبليغه إليكم **﴿وتكونوا شهداء على الناس﴾** أن رسلكم قد بلغتكم، وقد تقدم بيان معنى هذه الآية في البقرة. ثم أمرهم بما هو أعظم الأركان الإسلامية فقال: **﴿فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾** وتخصيص الخصلتين بالذكر لمزيد شرفهما **﴿واعتصموا بالله﴾** أي: اجعلوه عصمة لكم مما تحذرون، والتجئوا إليه في جميع أموركم، ولا تطلبوا ذلك إلا منه **﴿هو مولاكم﴾** أي: ناصركم ومتولي أموركم بيقينها وجليلها **﴿فنعم المولى ونعم النصير﴾** أي: لا مماثل له في الولاية لأموركم والنصرة على أعدائكم؛ وقيل: المراد بقوله: **﴿اعتصموا بالله﴾** تمسكوا بدين الله؛ وقيل: تقوا به تعالى.

وقد أخرج ابن مريويه عن ابن عباس في قوله: **﴿يا أيها الناس ضرب مثل﴾** قال: نزلت في صنم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه **﴿ضعف الطالب والمطلوب﴾** قال: الطالب أهلتهم، والمطلوب الذئب. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن عكرمة في قوله: **﴿لا يستتقنوه منه﴾** قال: لا تستنقذ الأصنام ذلك الشيء من الذئب. وأخرج الحاكم وصححه عنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله اصطفى موسى بالكلام، وإبراهيم بالخلة». وأخرج أيضاً عن أنس وصححه أن النبي ﷺ قال: «موسى بن عمران صفي الله». وأخرج ابن مريويه عن عبد الرحمن بن عوف قال: قال لي عمر: ألسنا كنا نقرأ فيما نقرأ: وجاهدوا في الله جهاده في آخر الزمان كما جاهدتم في أوله؟ قلت: بلى فمتى هذا يا أمير المؤمنين؟ قال: إذا كانت

بنو أمية الأمراء، وبنو المغيرة الوزراء، وأخرجه البيهقي في الدلائل عن المسور بن مخرمة قال: قال عمر لعبد الرحمن بن عوف فنكره. وأخرج الترمذي وصححه، وابن حبان، وابن مريويه والعسكري في الأمثال عن فضالة بن عبيد قال: قال رسول الله ﷺ: «المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله». وأخرج ابن جرير، والحاكم وصححه، وابن مريويه عن عائشة: أنها سألت النبي ﷺ عن هذه الآية **﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾** قال: الضيق. وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد قال: قال أبو هريرة لابن عباس: أما علينا في الدين من حرج في أن نسرق أو نزني؟ قال: بلى، قال: فما جعل عليكم في الدين من حرج، قال: الإصر الذي كان على بني إسرائيل وضع عنكم. وأخرج ابن أبي حاتم من طريق ابن شهاب، أن ابن عباس كان يقول: **﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾** توسعة الإسلام، ما جعل الله من التوبة والكفارات. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق عثمان بن يسار عن ابن عباس **﴿ما جعل عليكم في الدين من حرج﴾** قال: هذا في هلال رمضان إذا شك فيه الناس، وفي الحج إذا شكوا في الأضحية، وفي الفطر وأشباهه. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر من طريق سعيد بن جبير: أن ابن عباس سئل عن الحرج فقال: ادع لي رجلاً من هذيل، فجاءه فقال: ما الحرج فيكم؟ قال: للحرجة من الشجر التي ليس فيها مخرج، فقال ابن عباس: الذي ليس له مخرج. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، والبيهقي في سننه من طريق عبيد الله بن أبي يزيد، أن ابن عباس سئل عن الحرج فقال: ها هنا أحد من هذيل؟ قال رجل: أنا، فقال: ما تعنون الحرجة فيكم؟ قال: الشيء الضيق، قال: هو ذلك. وأخرج البيهقي في سننه عن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر قال: قرأ عمر بن الخطاب هذه الآية **﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾** ثم قال لي: ادع لي رجلاً من بني مدلج، قال عمر: ما الحرج فيكم؟ قال: الضيق. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله: **﴿ملة أبيكم﴾**. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس في قوله: **﴿سماكم المسلمين من قبل﴾** قال الله عز وجل: سماكم. وروي نحوه عن جماعة من التابعين. وأخرج الطيالسي، وأحمد والبخاري في تاريخه، والترمذي وصححه، والنسائي، وأبو يعلى، وابن خزيمة، وابن حبان، والبخاري، والبارودي، وابن قانع، والطبراني، والحاكم، وابن مريويه، والبيهقي في شعب الإيمان، عن الحارث الأشعري عن رسول الله ﷺ قال: «من دعا بدعوة الجاهلية فإنه من جثي جهنم»، قال رجل: يا رسول الله وإن صام وصلى؟ قال: نعم، فادعوا بدعوة الله التي سماكم بها المسلمين والمؤمنين عباد الله.»

وقد أخرج ابن مريويه عن ابن عباس في قوله: **﴿يا أيها الناس ضرب مثل﴾** قال: نزلت في صنم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه **﴿ضعف الطالب والمطلوب﴾** قال: الطالب أهلتهم، والمطلوب الذئب. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن عكرمة في قوله: **﴿لا يستتقنوه منه﴾** قال: لا تستنقذ الأصنام ذلك الشيء من الذئب. وأخرج الحاكم وصححه عنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله اصطفى موسى بالكلام، وإبراهيم بالخلة». وأخرج أيضاً عن أنس وصححه أن النبي ﷺ قال: «موسى بن عمران صفي الله». وأخرج ابن مريويه عن عبد الرحمن بن عوف قال: قال لي عمر: ألسنا كنا نقرأ فيما نقرأ: وجاهدوا في الله جهاده في آخر الزمان كما جاهدتم في أوله؟ قلت: بلى فمتى هذا يا أمير المؤمنين؟ قال: إذا كانت

تفسير سورة المؤمنون

وقد أخرج أحمد، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه وغيرهم عن عبد الله بن السائب قال: صلى النبي ﷺ بمكة الصبح فاستفتح سورة المؤمنين، حتى إذا جاء ذكر موسى وهارون، أو ذكر عيسى أخذته سعدة فركع. وأخرج البيهقي من حديث أنس، عن النبي ﷺ أنه قال: «لما خلق الله الجنة قال لها تكلمي، فقالت: قد أفلح المؤمنون». وأخرجه أيضاً ابن عدي والحاكم. وأخرج الطبراني في السنة، وابن مردويه من حديث ابن عباس مثله. وقد ورد في فضائل العشر الآيات من أول هذه السورة ما سيأتي قريباً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَائِفُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُرْضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ ذَوُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرْتُونَ الْآلُونَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾

قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ قال الفراء: قد ما هنا يجوز أن تكون تأكيداً لفلاح المؤمنين، ويجوز أن تكون تقريباً للماضي من الحال، لأن قد تقرب الماضي من الحال حتى تلحقه بحكمه، ألا تراهم يقولون: قد قامت الصلاة قبل حال قيامها، ويكون المعنى في الآية: أن الفلاح قد حصل لهم، وأنهم عليه في الحال، والفلاح الظفر بالمراد والنجاة من المكروه: وقيل: البقاء في الخير، وأفلق إذا دخل في الفلاح، ويقال: أفلقه إذا أصاره إلى الفلاح، وقد تقدم بيان معنى الفلاح في أول البقرة. وقرأ طلحة بن مصرف (قد أفلق) بضم الهمزة وبناء الفعل للمفعول. وروي عنه أنه قرأ (أفلقوا المؤمنين) على الإبهام والتفسير، أو على لغة أكلوني البراغيث. ثم وصف هؤلاء المؤمنين بقوله ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَائِفُونَ﴾ وما عطف عليه، والخشوع منهم من جعله من أفعال القلوب كالخوف والرهبة، ومنهم من جعله من أفعال الجوارح كالسكون وترك الالتفات والعبث، وهو في اللغة السكون والتواضع والخوف والتخل.

وقد اختلف الناس في الخشوع هل هو من فرائض الصلاة أو من فضائلها؟ على قولين: قيل: الصحيح الأول، وقيل: الثاني. وادعى عبد الواحد بن زيد إجماع العلماء على أنه ليس للعبد إلا ما عقل من صلاته، حكاه النيسابوري في تفسيره. قال: وما يدل على صحة هذا القول قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [النساء: 82]. والتدبر لا يتصور بدون الوقوف على المعنى، وكذا قوله: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ

لذكري﴾ [طه: 14]. والغفلة تضاد الذكر، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: 205]. وقوله: ﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: 43]. نهي للسكران والمستغرق في هموم الدنيا بمنزلة. واللغو، قال الزجاج: هو كل باطل ولهو وهزل ومعصية وما لا يجمل من القول والفعل، وقد تقدم تفسيره في البقرة. وقال الضحاک: إن اللغو هنا الشرك. وقال الحسن: إنه المعاصي كلها. ومعنى إعراضهم عنه: تجنبهم له وعدم التفاتهم إليه، وظاهره اتصافهم بصفة الإعراض عن اللغو في كل الأوقات، فيدخل وقت الصلاة في ذلك دخولاً أولياً كما تفيد الجملة الإسمية، وبناء الحكم على الضمير، ومعنى فعلهم للزكاة: تأديتهم لها، فعبّر عن التأدية بالفعل لأنها مما يصدق عليه الفعل، والمراد بالزكاة هنا: المصدر لأنه الصادر عن الفاعل، وقيل: يجوز أن يراد بها العين على تقدير مضاف أي: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ﴾ لتأدية ﴿الزكاة فاعلون والذين هم لفروجهم حافظون﴾ الفرج يطلق على فرج الرجل والمرأة، ومعنى حفظهم لها: أنهم ممسكون لها بالعفاف عما لا يحل لهم. قيل: والمراد هنا الرجال خاصة دون النساء بلبيل قوله ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ للإجماع على أنه لا يحل للمرأة أن يطأها من تملكه. قال الفراء: إن على في قوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ﴾ بمعنى: من. وقال الزجاج: المعنى أنهم يلامون في إطلاق ما حظر عليهم فامروا بحفظه إلا على أزواجهم ودل على المحذوف ذكر اللوم في آخر الآية، والجملة في محل نصب على الحال، وقيل: إن الاستثناء من نفي الإرسال المفهوم من الحفظ أي: لا يرسلونها على أحد إلا على أزواجهم؛ وقيل: المعنى إلا والين على أزواجهم وقوامين عليهم، من قولهم كان فلان على فلانة فمات عنها فحلف عليها فلان. والمعنى: أنهم لفروجهم حافظون في جميع الأحوال إلا في حال تزوجهم أو تسريهم، وجملة ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ في محل جر عطفاً على أزواجهم، وما مصدرية، والمراد بذلك الإماء، وعبر عنهن بما التي لغير العقلاء، لأنه اجتمع فيهن الأنوثة المنبئة عن قصور العقل وجواز البيع والشراء فيهن كسائر السلع، فاجراهن بهذين الأمرين مجرى غير العقلاء، وجملة ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ تعليل لما تقدم مما لا يجب عليهم حفظ فروجهم منه ﴿فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعَادُونَ﴾ الإشارة إلى الزوجات وملك اليمين، ومعنى العادون: المجاوزون إلى ما لا يحل لهم، فسمى سبحانه من نكح ما لا يحل عانياً، ووراء هنا بمعنى: سوى وهو مفعول ابتغى. قال الزجاج: أي فمن ابتغى ما بعد ذلك فمفعول الابتغاء محذوف، ووراء ظرف.

وقد نلت هذه الآية على تحريم نكاح المتعة، واستدل بها بعض أهل العلم على تحريم الاستمناة لأنه من الوراء لما ذكر، وقد جمعنا في تلك رسالة سمينها (بلوغ المني في حكم الاستمناة)، وذكرنا فيها ألة المنع والجواز وترجيح الراجح منهما ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لَأَمَانَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ

راعون ﴿قرأ الجمهور (لأماناتهم) بالجمع. وقرأ ابن كثير بالإفراد. والأمانة ما يؤتمنون عليه، والعهد ما يعاهدون عليه من جهة الله سبحانه أو جهة عباده، وقد جمع العهد والأمانة كل ما يتحمله الإنسان من أمر الدين والدنيا، والأمانة أعم من العهد، فكل عهد أمانة، ومعنى راعون: حافظون ﴿والذين هم على صلواتهم يحافظون﴾ قرأ الجمهور (صلواتهم) بالجمع. وقرأ حمزة والكسائي (صلاتهم) بالإفراد، ومن قرأ بالإفراد فقد أراد اسم الجنس وهو في معنى الجمع والمحافظة على الصلاة إقامتها والمحافظة عليها في أوقاتها وإتمام ركوعها وسجودها وقرائمتها والمشروع من أنكارها. ثم مدح سبحانه هؤلاء فقال: ﴿اولئك هم الوارثون﴾ أي: الألقاء بأن يسموا بهذا الاسم دون غيرهم. ثم بين الميراث بقوله: ﴿الذين يرثون الفريوس﴾ وهو أوسط الجنة، كما صرح تفسيره بذلك عن رسول الله ﷺ. والمعنى: أن من عمل بما نكر في هذه الآيات فهو الوارث الذي يرث من الجنة ذلك المكان، وفيه استعارة لاستحقاقهم الفريوس بأعمالهم؛ وقيل: المعنى أنهم يرثون من الكفار منازلهم حيث فرقوها على أنفسهم، لأنه سبحانه خلق لكل إنسان منزلاً في الجنة ومنزلاً في النار. ولفظ الفريوس لغة رومية معربة، وقيل: فارسية؛ وقيل: حبشية؛ وقيل: هي عربية؛ وجملة ﴿هم فيها خالدون﴾ في محل نصب على الحال المقترنة، أو مستأنفة لا محل لها، ومعنى الخلود: أنهم يدومون فيها لا يخرجون منها ولا يموتون فيها، وتأنيت الضمير مع أنه راجع إلى الفريوس لأنه بمعنى الجنة.

وقد أخرج عبد الرزاق، وأحمد، وعبد بن حميد، والترمذي، والنسائي، وابن المنذر، والعقيلي، والحاكم وصححه، والبيهقي في الدلائل، والضياء في المختارة عن عمر بن الخطاب قال: «كان إذا أنزل على رسول الله ﷺ الوحي يسمع عند وجهه ككوي النحل، فأنزل الله عليه يوماً فمكثنا ساعة، فسرني عنه فاستقبل القبلة فقال: اللهم زينا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وأرضنا وارض عنا، ثم قال: لقد أنزل عليّ عشر آيات من أقامهن دخل الجنة، ثم قرأ ﴿قد افلح المؤمنون﴾ حتى ختم العشر». وفي إسناده يونس بن سليم الإيلي. قال النسائي: لا نعرف أحداً رواه عن ابن شهاب إلا يونس بن سليم ويونس لا نعرفه. وأخرج البخاري في الألب المفرد، والنسائي، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مروي، والبيهقي في الدلائل عن يزيد بن بابنوس قال: قلنا لعائشة: كيف كان خلق رسول الله ﷺ؟ قالت: كان خلقه القرآن، ثم قالت: تقرأ سورة المؤمنین؟ فقرأ ﴿قد افلح المؤمنون﴾ حتى بلغ العشر، فقالت: هكذا كان خلق رسول الله ﷺ. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، والبيهقي في سننه عن محمد بن سيرين قال: نبئت أن رسول الله ﷺ كان إذا صلى رفع بصره إلى السماء، فنزلت ﴿الذين هم في

صلاتهم خاشعون﴾. وأخرجه عبد الرزاق عنه، وزاد: فأمره بالخشوع فرمى ببصره نحو مسجده. وأخرجه عنه أيضاً عبد بن حميد، وأبو داود في المراسيل، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في السنن بلفظ: كان إذا قام في الصلاة نظر هكذا، وهكذا، يميناً وشمالاً، فنزلت ﴿الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾ فحنى رأسه. وروي عنه من طرق مرسلاً هكذا. وأخرجه الحاكم وصححه، وابن مروي، والبيهقي في سننه عنه عن أبي هريرة أن النبي ﷺ كان إذا صلى رفع بصره إلى السماء، فنزلت ﴿الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾ فطأ رأسه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن سيرين بلفظ: كان أصحاب رسول الله ﷺ يرفعون رؤوسهم وأبصارهم إلى السماء في الصلاة يلتفتون يميناً وشمالاً، فأنزل الله ﴿قد افلح المؤمنون﴾ الذين هم في صلاتهم خاشعون، فمالوا برؤوسهم فلم يرفعوا أبصارهم بعد ذلك في الصلاة، ولم يلتفتوا يميناً وشمالاً. وأخرج ابن المبارك في الزهد، وعبد الرزاق، والفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن المنذر، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه عن علي: أنه سئل عن قوله: ﴿الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾ قال: الخشوع في القلب وأن تلين كتفك للمرأة المسلم، وأن لا تلتفت في صلاتك. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾ قال: خائفون ساكنون. وقد ورد في مشروعية الخشوع في الصلاة والنهي عن الالتفات وعن رفع البصر إلى السماء أحاديث معروفة في كتب الحديث. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿والذين هم عن اللغو معرضون﴾ قال: الباطل. وأخرج عبد الرزاق، وأبو داود في ناسخه عن القاسم بن محمد: أنه سئل عن المتعة فقال: إني لأرى تحريمها في القرآن، ثم تلا ﴿والذين هم لفروجهم حافظون﴾ إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والطبراني عن ابن مسعود أنه قيل له: إن الله يكثر نكر الصلاة في القرآن ﴿الذين هم على صلاتهم داثمون﴾ [المعارج: 23]. ﴿والذين هم على صلواتهم يحافظون﴾ قال: ذلك على مواقيتها، قالوا: ما كنا نرى ذلك إلا على تركها، قال: تركها كفر. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، والحاكم وصححه عن أبي هريرة في قوله: ﴿اولئك هم الوارثون﴾ قال: يرثون مساكنهم ومساكن إخوانهم التي أعدت لهم لو أطاعوا الله. وأخرج سعيد بن منصور، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مروي، والبيهقي في البعث عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وله منزلان: منزل في الجنة، ومنزل في النار، فإذا مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله، فذلك قوله: ﴿اولئك هم الوارثون﴾». وأخرج عبد بن حميد، والترمذي

وقد أخرج عبد الرزاق، وأحمد، وعبد بن حميد، والترمذي، والنسائي، وابن المنذر، والعقيلي، والحاكم وصححه، والبيهقي في الدلائل، والضياء في المختارة عن عمر بن الخطاب قال: «كان إذا أنزل على رسول الله ﷺ الوحي يسمع عند وجهه ككوي النحل، فأنزل الله عليه يوماً فمكثنا ساعة، فسرني عنه فاستقبل القبلة فقال: اللهم زينا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وأرضنا وارض عنا، ثم قال: لقد أنزل عليّ عشر آيات من أقامهن دخل الجنة، ثم قرأ ﴿قد افلح المؤمنون﴾ حتى ختم العشر». وفي إسناده يونس بن سليم الإيلي. قال النسائي: لا نعرف أحداً رواه عن ابن شهاب إلا يونس بن سليم ويونس لا نعرفه. وأخرج البخاري في الألب المفرد، والنسائي، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مروي، والبيهقي في الدلائل عن يزيد بن بابنوس قال: قلنا لعائشة: كيف كان خلق رسول الله ﷺ؟ قالت: كان خلقه القرآن، ثم قالت: تقرأ سورة المؤمنین؟ فقرأ ﴿قد افلح المؤمنون﴾ حتى بلغ العشر، فقالت: هكذا كان خلق رسول الله ﷺ. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، والبيهقي في سننه عن محمد بن سيرين قال: نبئت أن رسول الله ﷺ كان إذا صلى رفع بصره إلى السماء، فنزلت ﴿الذين هم في

عنها بالقرار الذي هو مصدر مبالغة، ومعنى ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا للنطفة علقَةً﴾ أي: أنه سبحانه أحال النطفة البيضاء علقه حمراء ﴿فَخَلَقْنَا العلقة مضغة﴾ أي: قطعة لحم غير مخلقة ﴿فَخَلَقْنَا المضغة عظاماً﴾ أي: جعلها الله سبحانه متصلة لتكون عموداً للبدن على أشكال مخصوصة ﴿فَكَسَوْنَا العظام لحماً﴾ أي: أنبت الله سبحانه على كل عظم لحماً على المقدار الذي يليق به ويناسبه ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ﴾ أي: نفخنا فيه الروح بعد أن كان جماداً؛ وقيل: أخرجه إلى الدنيا؛ وقيل: هو نبات الشعر؛ وقيل: خروج الأسنان؛ وقيل: تكميل القوى المخلوقة فيه، ولا مانع من إرادة الجميع، والمجيء بثم لكمال التفاوت بين الخليقين ﴿فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ أي: استحق التعظيم والشأن؛ وقيل: مأخوذ من البركة أي: كثر خيره وبركته؛ والخلق في اللغة التقدير، يقال: خلقت الأيام: إذا قسته لتقطع منه شيئاً، فمعنى أحسن الخالقين: اتقن الصانعين المقدرين، ومنه قول الشاعر:

ولانت تفري ما خلقت وبعد - ض القوم يخلق ثم لا يفري
﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيُوتُونَ﴾ الإشارة بقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيُوتُونَ﴾ أي: ثم إنكم بعد تلك الأمور لميوتون صائرون إلى الموت لا محالة ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَبْعُهُونَ﴾ من قبوركم إلى المحشر للحساب والعقاب. واللام في ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ جواب لقسم محذوف، والجملة مبتدأة مشتملة على بيان خلق ما يحتاجون إليه بعد بيان خلقهم، والطرائق هي السموات. قال الخليلي والفراء والزجاج، سميت طرائق لأنه طوبق بعضها فوق بعض كمطارقة النعل. قال أبو عبيدة: طارقت الشيء جعلت بعضه فوق بعض، والعرب تسمي كل شيء فوق شيء طريقة؛ وقيل: لأنها طرائق الملائكة، وقيل: لأنها طرائق الكواكب ﴿وَمَا كُنَّا عَنْ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ المراد بالخلق هنا المخلوق أي: وما كنا عن هذه السبع الطرائق وحفظها عن أن تقع على الأرض بغافلين. وقال أكثر المفسرين: المراد الخلق كلهم بغافلين بل حفظنا السموات عن أن تسقط، وحفظنا من في الأرض أن تسقط السماء عليهم فتهلكهم أو تميد بهم الأرض، أو يهلكون بسبب من الأسباب المستأصلة لهم، ويجوز أن يراد نفي الغفلة عن القيام بمصالحهم وما يعيشون به، ونفي الغفلة عن حفظهم ﴿وَوَإِنَّا لَنَازِلُنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ هذا من جملة ما امتن الله سبحانه به على خلقه، والمراد: بالماء ماء المطر، فإن به حياة الأرض وما فيها من الحيوان، ومن جملة ذلك ماء الأنهار النازلة من السماء والعيون، والآبار المستخرجة من الأرض، فإن أصلها من ماء السماء؛ وقيل: أراد سبحانه في هذه الآية الأنهار الأربعة: سيحان، وجيحان، والفرات، والنيل، ولا وجه لهذا التخصيص؛ وقيل: المراد به الماء العذب، ولا وجه لذلك أيضاً فليس في الأرض ماء إلا وهو من السماء، ومعنى ﴿بِقَدَرٍ﴾ بتقدير منا أو بمقدار يكون به

وقال: حسن صحيح غريب عن انس، فنكر قصة، وفيها إن النبي ﷺ قال: الفردوس ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها، ويدل على هذه الوراثة المذكورة هنا قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: 63]. وقوله: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْنَاهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 43]. ويشهد لحديث أبي هريرة هذا ما في صحيح مسلم عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «يجيء يوم القيامة ناس من المسلمين بنزوب أمثال الجبال، فيغفرها الله لهم ويضعها على اليهود والنصارى». وفي لفظ له قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة دفع الله إلى كل مسلم يهودياً أو نصرانياً، فيقول: هذا فكلك من النار».

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي رَقٍّ مَرْكَبٍ ﴿٢﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿٣﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَنَيُّوتُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَبْعُهُونَ ﴿٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ ﴿٦﴾ وَمَا كُنَّا عَنْ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِالْأَرْضِ نَزْلًا عَلَى رَعَابٍ بِهَ تَنبُرُونَ ﴿٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَبَ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٩﴾ وَسَجَّرَ لَكُمْ فِيهَا مَطَرٍ سِينَةً تَنبُتُ بِالْأَعْنَبِ وَصِهْرٍ لِلْأَكَلِينَ ﴿١٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْهَامِ لَبَرةً تُشْفِيكُمْ يَوْمًا بِمَطَرِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَهِجٌ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَالِجِ مَحْمُوتُونَ ﴿١٢﴾

لما حث سبحانه عباده على العبادة ووعدهم الفردوس على فعلها، عاد إلى تقرير المبدأ والمعاد ليتمكن ذلك في نفوس المكلفين فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ إلى آخره، واللام جواب قسم محذوف، والجملة مبتدأة، وقيل: معطوفة على ما قبلها، والمراد بالإنسان: الجنس لأنهم مخلوقون في ضمن خلق أبيهم آدم؛ وقيل: المراد به آدم، والسلالة فعالة من السل، وهو استخراج الشيء من الشيء، يقال: سللت الشعرة من العجين، والسيف من الغمد فانسل، فالنطفة سلالة، والولد سليل، وسلالة أيضاً، ومنه قول الشاعر:

فجاءت به غضب الأيام غضنفرا - سلالة فرج كان غير حصين
وقول الآخر:

وهل هند إلا مهرة عربية - سلالة أفراس تحللها بغل
و ﴿مِنْ﴾ في ﴿مِنْ سَلَالَةٍ﴾ ابتدائية متعلقة بخلقنا، وفي ﴿مِنْ طِينٍ﴾ بيانية متعلقة بمحذوف، وقع صفة لسلالة أي: كائنة من طين، والمعنى: أنه سبحانه خلق جوهر الإنسان أولاً من طين، لأن الأصل آدم، وهو من طين خالص وأولاده من طين ومني؛ وقيل: السلالة الطين إذا عسرتة انسل من بين أصابعك؛ فالذي يخرج هو السلالة، قاله الكلبي ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ﴾ أي: الجنس باعتبار أفراد الذين هم بنو آدم، أو جعلنا نسله على حثف مضاف إن أريد بالإنسان آدم ﴿نُطْفَةٍ﴾ وقد تقدم تفسير النطفة في سورة الحج، وكذلك تفسير العلقة والمضغة. والمراد بالقرآن المكين: الرَّحْم، وعبر

الباء الموحدة. والمعنى على القراءة الأولى: أنها تنبت في نفسها متلبسة بالدهن، وعلى القراءة الثانية: الباء بمعنى مع، فهي للمصاحبة. قال أبو علي الفارسي: تنبت جناحها ومعه الدهن، وقيل: الباء زائدة. قاله أبو عبيدة، ومثله قول الشاعر:

هـن الحرائر لاريات أحمره سود المحاجر لا يقرآن بالسور
وقال آخر:

نضرب بالسيف ونرجو بالفرج

وقال الفراء والزجاج: إن نبت وأنبت بمعنى، والأصمعي ينكر أنبت، ويرد عليه قول زهير:

رأيت نوي الحاجات حول بيوتهم قطيناً لهم حتى إذا نبت البقل
أي: نبت. وقرأ الزهري، والحسن، والأعرج (تنبت) بضم المثناة وفتح الموحدة. قال الزجاج وابن جني أي: تنبت ومعها الدهن، وقرأ ابن مسعود (تخرج) بالدهن، وقرأ زب بن حبيش (تنبت الدهن) بحذف حرف الجر. وقرأ سليمان بن عبد الملك والأشهب بالدهان ﴿وصبغ للأكلين﴾ معطوف على الدهن أي: تنبت بالشيء الجامع بين كونه دهناً يدهن به. وكونه صبغاً يؤتم به. قرأ الجمهور (صبغ) وقرأ قوم (صباغ) مثل ليس ولباس، وكل إناء يؤتم به فهو صبغ وصباغ، وأصل الصبغ ما يكون به الثوب، وشبه الإدام به لأن الخبز يكون بالإدام كالمصبوغ به ﴿وإن لكم في الأنعام لعبرة﴾ هذه من جملة النعم التي امتن الله بها عليهم، وقد تقدم تفسير الأنعام في سورة النحل. قال النيسابوري في تفسيره: ولعل القصد بالأنعام هنا إلى الإبل خاصة لأنها هي المحمول عليها في العادة، ولأنه قرنوها بالفلك وهي سفائن البر، كما أن الفلك سفائن البحر. وبين سبحانه أنها عبرة، لأنها مما يستدل بخلقها وأفعالها على عظيم القدرة الإلهية، ثم فصل سبحانه ما في هذه الأنعام من النعم بعد ما ذكره من العبرة فيها للعباد فقال: ﴿ننسيكم مما في بطونها﴾ يعني سبحانه: اللبن المتكوّن في بطونها المنصب إلى ضروعها، فإن في انعقاد ما تاكله من العلف واستحالتة إلى هذا الغذاء اللذيذ، والمشروب النفيس اعظم عبرة للمعتبرين، وأكبر موعظة للمتعتلين. قرئ (ننسيكم) بالنون على أن الفاعل هو الله سبحانه، وقرئ بالتاء الفوقية على أن الفاعل هو الأنعام، ثم نكر ما فيها من المنافع إجمالاً فقال: ﴿ولكم فيها منافع كثيرة﴾ يعني: في ظهورها والبانها وأولادها وأصوافها وأشعارها، ثم نكر منفعة خاصة فقال: ﴿ومنها تاكلون﴾ لما في الأكل من عظيم الانتفاع لهم، وكذلك نكر الركوب عليها لما فيه من المنفعة العظيمة فقال: ﴿وعليها وعلى الفلك تحملون﴾ أي: وعلى الأنعام، فإن أريد بالأنعام الإبل والبقر والغنم، فالمراد وعلى بعض الأنعام، وهي الإبل خاصة، وإن أريد بالأنعام الإبل خاصة، فالمعنى واضح. ثم لما كانت الأنعام هي غالب ما يكون الركوب عليه في

صلاح الزرائع والثمار، فإنه لوكثر لكان به هلاك ذلك، ومثله قوله سبحانه: ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾ [الحجر: 21] ومعنى ﴿ففسكناه في الأرض﴾ جعلناه مستقرّاً فيها ينتفعون به وقت حاجتهم إليه كالماء الذي يبقى في المستنقعات والغدران ونحوها ﴿وإننا على ذهاب به لقادرون﴾ أي: كما قدرنا على إنزاله فنحن قادرون على أن نذهب به بوجه من الوجوه، ولهذا التنكير حسن موقع لا يخفى، وفي هذا تهديد شديد لما يدل عليه من قدرته سبحانه على إذهابه وتغييره حتى يهلك الناس بالعطش وتهلك مواشيهم، ومثله قوله: ﴿قل رأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن ياتيكم بماء معين﴾ [الملك: 30] ثم بين سبحانه ما يتسبب عن إنزال الماء فقال: ﴿فإنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب﴾ أي: أوجدنا بذلك الماء جنات من النوعين المذكورين ﴿لكم فيها﴾ أي: في هذه الجنات ﴿فواكه كثيرة﴾ تتفكهون بها وتتطعمون منها، وقيل: المعنى ومن هذه الجنات وجوه أرزاقكم ومعاشكم كقوله: فلان ياكل من حرفة كذا، وهو بعيد، واقتصر سبحانه على النخيل والأعناب، لأنها الموجودة بالطائف والمدينة وما يتصل بذلك. كذا قال ابن جرير، وقيل: لأنها أشرف الأشجار ثمرة وأطيبها منفعة وطعماً ولذة. قيل: المعنى بقوله: ﴿لكم فيها فواكه﴾ أن لكم في هذه الجنات فواكه من غير العنب والنخيل؛ وقيل: المعنى لكم في هذين النوعين خاصة فواكه، لأن فيهما أنواعاً مختلفة متفاوتة في الطعم واللون.

وقد اختلف أهل الفقه في لفظ الفاكهة على ماذا يطلق؟ اختلافاً كثيراً، وإحسن ما قيل: إنها تطلق على الثمرات التي ياكلها الناس، وليست بقوت لهم ولا طعام ولا إدام، واختلف في البقول هل تدخل في الفاكهة أم لا؟ وانتصاب شجرة على العطف على جنات، وأجاز الفراء الرفع على تقدير: وتم شجرة فتكون مرتفعة على الابتداء وخبرها محذوف مقتر قبلها، وهو الظرف المذكور. قال الواحدي: والمفسرون كلهم يقولون: إن المراد بهذه الشجرة شجرة الزيتون، وخصت بالذكر لأنه لا يتعاهدها أحد بالسقي، وهي التي يخرج الدهن منها، فنكرها الله سبحانه امتناناً منه على عباده بها، ولأنها أكرم الشجر وأعمها نفعاً وأكثرها بركة، ثم وصف سبحانه هذه الشجرة بأنها ﴿تخرج من طور سيناء﴾ وهو جبل ببيت المقدس، والطور الجبل في كلام العرب؛ وقيل: هو مما عذب من كلام العجم. واختلف في معنى سيناء، فقيل: هو الحسن؛ وقيل: هو المبارك، وذهب الجمهور إلى أنه اسم للجبل كما تقول جبل أحد؛ وقيل: سيناء حجر بعينه أضيف الجبل إليه لوجوده عنده، وقيل: هو كل جبل يحمل الثمار. وقرأ الكوفيون (سيناء) بفتح السين، وقرأ الباقون بكسر السين، ولم يصرف لأنه جعل اسماً للبقعة، وزعم الأخفش أنه أعجمي. وقرأ الجمهور (تنبت بالدهن) بفتح المثناة وضمّ الباء الموحدة، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بضمّ المثناة وكسر

المعنى أي: واسلك أهلك ﴿إلا من سبق عليه القول منهم﴾ أي: القول بإهلاكهم منهم ﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا﴾ بالدعاء لهم بإنجائهم، وجملة ﴿إنهم مغرقون﴾ تعليل للنهي عن المخاطبة أي: إنهم مقضي عليهم بالإغراق لظلمهم، ومن كان هكذا فهو لا يستحق الدعاء له ﴿فإذا استويت﴾ أي: علوت ﴿أنت ومن معك﴾ من أهلك وأتباعك ﴿على الفلك﴾ راكبين عليه ﴿فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين﴾ أي: حال بيتنا وبينهم، وخلصنا منهم، كقوله: ﴿فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين﴾ [الأنعام: 45]. وقد تقدم تفسير هذه القصة في سورة هود على التمام والكمال، وإنما جعل سبحانه استواءهم على السفينة نجاة من الغرق جزماً، لأنه قد سبق في علمه أن ذلك سبب نجاتهم من الظلمة، وسلامتهم من أن يصلبوا بما أصيبوا به من العذاب. ثم أمره أن يسأل ربه ما هو أنفع له وأتم فائدة فقال: ﴿وقل رب أنزلني منزلاً مباركاً﴾ أي: أنزلني في السفينة. قرأ الجمهور منزلاً بضم الميم وفتح الزاي على أنه مصدر. وقرأ زرّ بن حبیش، وأبو بكر، عن عاصم، والمفضل بفتح الميم وكسر الزاي على أنه اسم مكان. فعلى القراءة الأولى: أنزلني إنزالاً مباركاً، وعلى القراءة الثانية: أنزلني مكاناً مباركاً. قال الجوهري: والمنزل بفتح الميم والزاي النزول، وهو الحلول، تقول: نزلت نزولاً ومنزلاً. قال الشاعر:

إن نكرتك الدار منزلها جمل بكيت فدمع العين منحدر سجل
بنصب منزلها، لأنه مصدر، قيل: أمره الله سبحانه بأن يقول هذا القول عند دخوله السفينة؛ وقيل: عند خروجه منها، والآية تعليم من الله لعباده إذا ركبوا ثم نزلوا أن يقولوا هذا القول: ﴿وولنت خير العنزليين﴾ هذا ثناء منه على الله عز وجل إثر دعائه له. قال الواحدي: قال المفسرون: إنه أمر أن يقول عند استوائه على الفلك: الحمد لله، وعند نزوله منها: رب أنزلني منزلاً مباركاً، والإشارة بقوله: ﴿إن في ذلك﴾ إلى ما تقدم مما قصه الله علينا من أمر نوح عليه السلام: والآيات الدلالات على كمال قدرته سبحانه، والعلامات التي يستدل بها على عظيم شأنه ﴿وإن كنا لمبتلين﴾ أي: لمختبرين لهم بإرسال الرسل إليهم، ليظهر المطيع والعاصي للناس أو للملائكة. وقيل: المعنى إنه يعاملهم سبحانه معاملة المختبر لأحوالهم، تارة بالإرسال، وتارة بالعذاب ﴿ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين﴾ أي: من بعد إهلاكهم. قال أكثر المفسرين: إن هؤلاء الذين أنشأهم الله بعدهم هم عاد قوم هود، لمجيء قصتهم على إثر قصة نوح في غير هذا الموضع، ولقوله في الأعراف ﴿وانكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح﴾ [الأعراف: 69]. وقيل: هم ثمود لأنهم الذين أهلكوا بالصيحة. وقد قال سبحانه في هذه القصة: ﴿فأخذتهم الصيحة﴾ [الحجر: 73 و83]. وقيل: هم أصحاب مدين قوم شعيب لأنهم ممن أهلك بالصيحة ﴿فأرسلنا فيهم رسولاً﴾ عدى فعل الإرسال بفي مع أنه يتعدى بإلى، للدلالة

لكونه وصفاً لإله على المحل، لأنه مبتدأ خبره لكم أي: ما لكم في الوجود إله غيره سبحانه، وقرئ بالجزء اعتباراً بلفظ إله ﴿أفلا تتقون﴾ أي: أفلا تخافون أن تتركوا عبادة ربكم الذي لا يستحق العبادة غيره، وليس لكم إله سواه؛ وقيل: المعنى أفلا تخافون أن يرفع عنكم ما خولكم من النعم ويسلبها عنكم، وقيل: المعنى أفلا تقون أنفسكم عذابه الذي تقتضيه ذنوبكم ﴿فقال الملا الذين كفروا من قومه﴾ أي: قال أشراف قومه الذين كفروا به ﴿ما هذا إلا بشر مثلكم﴾ أي: من جنسكم في البشرية، لا فرق بينكم وبينه ﴿يريد أن يتفضل عليكم﴾ أي: يطلب الفضل عليكم بأن يسوكم حتى تكونوا تابعين له متقابين لأمره، ثم صرّحوا بأن البشر لا يكون رسولاً فقالوا: ﴿ولو شاء الله لأنزل ملائكة﴾ أي: لو شاء الله إرسال رسول لأرسل ملائكة، وإنما عبر بالإنزال عن الإرسال لأن إرسالهم إلى العباد يستلزم نزولهم إليهم ﴿ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين﴾ أي: بمثل دعوى هذا المدعي للنبوّة من البشر، أو بمثل كلامه، وهو الأمر بعبادة الله وحده أو ما سمعنا ببشر يدعي هذه الدعوى في آبائنا الأولين أي: في الأمم الماضية قبل هذا؛ وقيل: الباء في بهذا زائدة أي: ما سمعنا هذا كائناً في الماضين، قالوا: هذا اعتماداً منهم على التقليد واعتصاماً بحبله، ولم يقنعوا بذلك حتى ضموا إليه الكتب البحت، والبهت الصراح فقالوا: ﴿إن هو إلا رجل به جنة﴾ أي: جنون لا يدري ما يقول: ﴿فتريصوا به حتى حين﴾ أي: انتظروا به حتى يستبين أمره، بأن يفيق من جنونه فيترك هذه الدعوى، أو حتى يموت فتستريحوا منه. قال الفراء: ليس يريد بالحين هنا وقتاً بعينه إنما هو كقولهم: دعه إلى يوم ما، فلما سمع عليه الصلاة والسلام كلامهم وعرف تمانيتهم على الكفر وإصرارهم عليه ﴿قال رب أنصرني﴾ عليهم فانتقم منهم بما تشاء وكيف تريد، والباء في ﴿بما كذبون﴾ للسببية أي: بسبب تكذيبهم إياي ﴿فأوحينا إليه﴾ عند ذلك أي: أرسلنا إليه رسولاً من السماء ﴿أن اصنع الفلك﴾ وأن هي مفسرة لما في الوحي من معنى القول ﴿بإعيفنا﴾ أي: متلبساً بحفظنا وكلاءتنا، وقد تقدم بيان هذا في هود. ومعنى ﴿ووحينا﴾ أمرنا لك وتعليمنا إياك لكيفية صنعها، والفاء في قوله: ﴿فإذا جاء أمرنا﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها من صنع الفلك، والمراد بالأمر: العذاب ﴿وفار التنور﴾ معطوف على الجملة التي قبله عطف النسق؛ وقيل: عطف البيان أي: إن مجيء الأمر هو فور التنور أي: تنور آدم الصائر إلى نوح أي: إذا وقع ذلك ﴿فأسلك فيها من كل زوجين اثنين﴾ أي: أدخل فيها، يقال: سلكه في كذا أدخله، وأسلكته أدخلته. قرأ حفص (من كل) بالتنوين، وقرأ الباقون بالإضافة، ومعنى القراءة الأولى: من كل أمة زوجين، ومعنى الثانية من كل زوجين، وهما أمة الذكر والأنثى اثنين، وانتصاب ﴿أهلك﴾ بفعل معطوف على فاسلك، لا بالعطف على زوجين، أو على اثنين على القراءتين لادائه إلى اختلاف

حياتنا الدنيا﴾ أي: ما الحياة إلا حياتنا الدنيا، لا الحياة الآخرة التي تعدنا بها، وجملة ﴿نموت ونحيا﴾ مفسرة لما أدعوه من قصرهم حياتهم على حياة الدنيا. ثم صرحوا بنفي البعث، وإن الوعد به منه افتراء على الله فقالوا: ﴿وما نحن بمبعوثين إن هو إلا رجل افترى على الله كذباً﴾ أي: ما هو فيما يدعيه إلا مفتر للكذب على الله ﴿وما نحن له بمؤمنين﴾ أي: بمصدقين له فيما يقوله: ﴿قال رب انصرني﴾ أي: قال نبيهم لما علم بأنهم لا يصنقونه البتة: رب انصرني عليهم وانتقم لي منهم بسبب تكذيبهم إياي ﴿قال عما قليل ليصبحن نادمين﴾ أي: قال الله سبحانه مجيباً لدعائه وأعداً له باليقول لما دعا به: عما قليل من الزمان ليصبحن نادمين على ما وقع منهم من التكذيب والعناد والإصرار على الكفر، و«ما» في عما قليل مزيدة بين الجار والمجرور للتوكيد لقلة الزمان كما في قوله: ﴿فيما رحمة من الله﴾ [آل عمران: 159]، ثم أخبر سبحانه بأنهم ﴿اختنتم للصيحة﴾ وحق بهم عذابه ونزل عليهم سخطه. قال المفسرون: صاح بهم جبريل صيحة واحدة مع الريح التي أهلكهم الله بها فماتوا جميعاً؛ وقيل: للصيحة هي نفس العذاب الذي نزل بهم، ومنه قول الشاعر:

صاح الزمان بال بركة صيحة خزا الشئتها على الأنقان
والبلاء في الحق متعلق بالأخذ، ثم أخبر سبحانه عما صاروا إليه بعد العذاب النازل بهم فقال: ﴿فجعلناهم غناء﴾ أي: كغناء السيل الذي يحمله والغناء: ما يحمل السيل من بالي الشجر والحشيش والقصب ونحو ذلك مما يحمله على ظاهر الماء. والمعنى: صيرهم هلكى فيبسوا كما يبس الغناء ﴿فبعداً للقوم الظالمين﴾ انتصاب بعداً على المصدرية وهو من المصائر التي لا ينكر فعلها معها أي: بعنوا بعداً، واللام لبيان من قيل له ذلك.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿فأسلك فيها﴾ يقول: أجعل معك في السفينة ﴿من كل زوجين اثنين﴾. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿وقل رب أنزلني منزلاً مباركاً﴾ قال لنوح حين أنزل من السفينة. وأخرج هؤلاء عن قتادة في الآية قال: يعلمكم سبحانه كيف تقولون إذا ركبتم، وكيف تقولون إذا نزلتم. أما عند الركوب ﴿فسبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين﴾ وإنا إلى ربنا لمنقلبون [الزخرف: 13-14]. و﴿بسم الله مجراها ومرساها﴾ ابن جرير، وعبد بن حميد، [هود: 41]. وعند النزول ﴿رب أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين﴾. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك في قوله: ﴿قرناً﴾ قال: أمة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿هيهات هيهات﴾ قال: بعيد بعيد. وأخرج ابن جرير عنه في قوله: ﴿فجعلناهم غناء﴾ قال: جعلوا كالشيء الميت البالي من الشجر.

ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَيْنِهِمْ قَرُونًا كَذَّبَتْ ﴿٢٤﴾ مَا تَبَيَّنَ مِنْ أَثَرِ آلِهَةٍ وَمَا

على أن هذا الرسول المرسل إليهم نشأ فيهم بين أظهرهم، يعرفون مكانه ومولده، ليكون سكوتهم إلى قوله أكثر من سكوتهم إلى من يأتيهم من غير مكانهم، وقيل: وجه التعدية للفعل المذكور بقي أنه ضمن معنى القول أي: قلنا لهم على لسان الرسول ﴿اعبدوا الله﴾ ولهذا جيء بأن المفسرة. والأول أولى لأن تضمين أرسلنا معنى قلنا لا يستلزم تعديته بفي، وجملة ﴿ما لكم من إله غيره﴾ تعليل للأمر بالعبادة ﴿افلا تتقون﴾ عذابه الذي يقتضيه شرككم ﴿وقال الملا من قومه﴾ أي: أشراقهم وقادتهم. ثم وصف الملا بالكفر والتكذيب فقال: ﴿الذين كفروا وكتبوا بلباء الآخرة﴾ أي: كذبوا بما في الآخرة من الحساب والعقاب، أو كذبوا بالبعث ﴿واترقناهم﴾ أي: وسعنا لهم نعم الدنيا فبطروا بسبب ما صاروا فيه ﴿في الحياة الدنيا﴾ من كثرة الأموال ورفاهة العيش ﴿ما هذا إلا بشر مثلكم﴾ أي: قال الملا لقومهم هذا القول، وصفوه بمساواتهم في البشرية، وفي الأكل ﴿مما تاكلون منه﴾ والشرب مما تشربون منه، وذلك يستلزم عندهم أنه لا فضل له عليهم. قال الفرّاء: إن معنى ﴿ويشرب مما تشربون﴾ على حنف منه أي: مما تشربون منه وقيل: إن ما مصدريّة، فلا تحتاج إلى عائذ ﴿ولئن اطعتم بشراً مثلكم﴾ فيما نكر من الأوصاف ﴿إنكم لخاصرون﴾ أي: مغبونون بترككم آلهتكم واتباعكم إياه من غير فضيلة له عليكم، والاستفهام في قوله: ﴿إيعنكم أنكم إذا متم﴾ للإنكار، والجملة مستأنفة مقررة لما قبلها من تقبيح اتباعهم له. قرئ بكسر الميم من متم، من مات يمات كخاف يخاف. وقرئ بضمها من مات يموت: كقال يقول: ﴿وكنتم تراباً وعظاماً﴾ أي: كان بعض أجزاءكم تراباً، وبعضها عظماً نخرة لا لحم فيها ولا أعصاب عليها، قيل: وتقديم التراب لكونه أبعد في عقولهم؛ وقيل: المعنى كان متقومكم تراباً ومتأخروكم عظماً ﴿إنكم مخرجون﴾ أي: من قبوركم أحياء كما كنتم، قال سيبويه: إن الأولى في موضع نصب بوقوع إيعنكم عليها، وإن الثانية بدل منها. وقال الفرّاء والجزمي والمبرد: إن أن الثانية مكررة للتوكيد، وحسن تكريرها لطول الكلام، وبمثله قال الزجاج. وقال الاخفش: أن الثانية في محل رفع بفعل مضمر أي: يحدث إخراجكم كما تقول: اليوم القتال، فالمعنى: اليوم يحدث القتال ﴿هيهات هيهات لما توعدون﴾ أي: بعد ما توعدون، أو بعيد ما توعدون، والتكرير للتأكيد. قال ابن الأنباري: وفي هيهات عشر لغات ثم سردها، وهي مبينة في علم النحو. وقد قرئ ببعضها، واللام في لما توعدون لبيان المستبعد كما في قوله: ﴿هيت لك﴾ [يوسف: 23]، كله قيل: لماذا هذا الاستبعاد؟ فقيل: لما توعدون. والمعنى: بعد إخراجكم للوعد الذي توعدون، هذا على أن هيهات اسم فعل، وقال الزجاج: هو في تقدير المصدر أي: البعد لما توعدون، أو بعد لما توعدون على قراءة من نون فتكون على هذا مبتدأ خبره لما توعدون. ثم بين سبحانه إترافهم بأنهم قالوا: ﴿إن هي إلا

ومنه قول ابن زيد في مقصوده:

ولنما المرء حديث بعده فكأن حديثاً حسناً لمن روى
﴿فبعداً لقوم لا يؤمنون﴾ وصفهم هنا بعدم الإيمان،
 وفيما سبق قريباً بالظلم لكون كل من الوصفين صامداً عن
 كل طائفة من الطائفتين، أو لكون هؤلاء لم يقع منهم إلا
 مجرد عدم التصديق، وأولئك ضموا إليه تلك الأقوال الشنيعة
 التي هي من أشد الظلم واقطعه. ثم حكى سبحانه ما وقع
 من فرعون وقومه عند إرسال موسى وهارون إليهم فقال:
﴿ثم أرسلنا موسى وإخاه هارون بآياتنا﴾ هي التسع
 المتقدم نكراها غير مرة، ولا يصح عد قلق البحر منها هنا.
 لأن المراد: الآيات التي كذبوا بها واستكبروا عنها. والمراد
 بالسلطان المبين: الحجة الواضحة البينة. قيل: هي الآيات
 التسع نفسها والعطف من باب

إلى الملك القرم وابن الهمام

وقيل: أراد العصي لأنها أم الآيات، فيكون من باب عطف
 جبريل على الملائكة؛ وقيل: المراد بالآيات: التي كانت لهما،
 وبالسُّلطان الدلائل المبين: التسع الآيات، والمراد بالملا في
 قوله: **﴿إلى فرعون وملائه﴾** هم الأشراف منهم كما سبق
 بيانه غير مرة **﴿فاستكبروا﴾** أي: طلبوا الكبر وتكفؤه فلم
 ينقادوا للحق **﴿وكانوا قوماً عالين﴾** قاهرين للناس بالبغي
 والظلم، مستعلين عليهم، متطاولين كبراً وعناداً وتمرداً،
 وجملة **﴿فقالوا اتؤمن لبشرين مثلاً﴾** معطوفة على جملة
﴿استكبروا﴾ وما بينهما اعتراض، والاستفهام للإنكار أي:
 كيف نصنق من كان مثلاً في البشرية، والبشر يطلق على
 الواحد كقوله: **﴿بشراً سوياً﴾** [مريم: 17]. كما يطلق على
 الجمع كما في قوله: **﴿فإما ترى من البشر أحداً﴾** [مريم:
 26]. فتشيت هنا هي باعتبار المعنى الأول، وأفرده المثل لأنه
 في حكم المصدر، ومعنى **﴿وقومهما لنا عابدون﴾** أنهم
 مطيعون لهم متقانون لما يأمرونهم به كانقياد العبيد. قال
 المبرد: العابد المطيع الخاضع. قال أبو عبيدة: العرب تسمي
 كل من دان لملك عابداً له، وقيل: يحتمل أنه كان يدعي
 الإلهية فدعى الناس إلى عبادته فأطاعوه، واللام في **﴿لنا﴾**
 متعلقة بعابدون، قدمت عليه لرعاية الفواصل، والجملة حالية
﴿فكذبوهما﴾ أي: فأصروا على تكذيبهما **﴿فكانوا من
 المهلكين﴾** بالغرق في البحر. ثم حكى سبحانه ما جرى
 على قوم موسى بعد إهلاك عدوهم فقال: **﴿ولقد آتينا
 موسى الكتاب﴾** يعني: التوراة، وخص موسى بالذكر لأن
 التوراة أنزلت عليه في الطور، وكان هارون خليفته في قومه
﴿لعلهم يهتدون﴾ أي: لعل قوم موسى يهتدون بها إلى
 الحق، ويعملون بما فيها من الشرائع، فجعل سبحانه إيتاء
 موسى إياها إيتاء لقومه، لأنها وإن كانت منزلة على موسى
 فهي لإرشاد قومه. وقيل: إن ثم مضافاً محذوفاً أقيم
 المضاف إليه مقامه أي: آتينا قوم موسى الكتاب؛ وقيل: إن
 الضمير في **﴿لعلهم﴾** يرجع إلى فرعون وملائه، وهو وهم
 لأن موسى لم يؤت التوراة إلا بعد إهلاك فرعون وقومه كما

يَسْتَحْزِرُونَ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولًا تَرَاهُ كُلَّ مَآجَاءٍ أَنَّهُ رَسُولُنَا كَذَّبُوهُ فَأَتَيْنَا بَعْضَهُمْ
 بَصًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَكَادِيثَ قَبْعًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَإِخَاهُ
 هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٣٣﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَنَجَّيْنَاهُ فَاَسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا
 عَالِينَ ﴿٣٤﴾ فَقَالُوا أَتَأْتِيَنَا السُّحْرُ وَنُنْصِتُ لَهُمْ لَنَا عِبْدُونَ ﴿٣٥﴾ نَكْذِبُهُمْ وَكُنَّا
 مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَمَّا هَمَّ يَهْدُونَ ﴿٣٧﴾ وَهَلَّلْنَا بَيْنَ
 مَرْيَمَ وَلَهُمَا نَافَةٌ وَأَوْفَيْنَاهُمَا إِلَى رَبِّهِمَا ذَاتِ قُرْبَرٍ وَمَعِينٍ ﴿٣٨﴾ بِآيَاتِنَا أَرْسَلْنَا
 مِنْ الْكَلْبِ وَنُفِثُوا وَاصْبِرُوا صَابِرًا إِلَى مَا تَعْمَلُونَ عَلَيْهِمْ ﴿٣٩﴾ وَلَنْ هَذِيقَهُمْ أَشْكَرَ أَنَّهُ
 وَجِدَهُ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٤٠﴾ فَتَقَطَّعُوا أَرْهَرَهُمْ بَيْنَهُمْ ذُرًّا كُلَّ حَزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ
 فَرَجَحُوا ﴿٤١﴾ فَذَرَهُمْ فِي خَيْرَتِهِمْ حَتَّى جِيءَ ﴿٤٢﴾ أَتَحْسِبُونَ أَنَّمَا نُؤْتُهُمْ يَوْمَ دِينِ
 رَبِّكَ ﴿٤٣﴾ سَاعَةً لَمْ يَكُنْ فِي الْغُيُوبِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٤﴾

قوله: **﴿ثم أنشأنا من بعدهم﴾** أي: من بعد إهلاكهم
﴿قروناً آخرين﴾ قيل: هم قوم صالح ولوط وشعيب كما
 وردت قصتهم على هذا الترتيب في الأعراف وهود، وقيل:
 هم بنو إسرائيل. والقرون الأمم، ولعل وجه الجمع هنا
 للقرون والأفراد فيما سبق قريباً أنه أراد هنا أمماً متعدداً
 وهناك أمة واحدة. ثم بين سبحانه كمال علمه وقدرته في
 شان عبادته فقال: **﴿ما تسبق من أمة لجلها وما
 يستأخرون﴾** أي: ما تتقدم كل طائفة مجتمعة في قرن
 آجلها المكتوبة لها في الهلاك ولا تتأخر عنها، ومثل ذلك
 قوله تعالى: **﴿فيذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا
 يستقدمون﴾** [الأعراف: 34]. ثم بين سبحانه أن رسله كانوا
 بعد هذه القرون متواترين، وأن شان أممهم كان واحداً في
 التكذيب لهم فقال: **﴿ثم أرسلنا رسلاً تترأف﴾** والجملة
 معطوفة على الجملة التي قبلها بمعنى أن إرسال كل رسول
 متأخر عن إنشاء القرن الذي أرسل إليه، لا على معنى أن
 إرسال الرسل جميعاً متأخر عن إنشاء تلك القرون جميعاً،
 ومعنى **﴿تترأف﴾** تتواتر واحداً بعد واحد ويتبع بعضهم
 بعضاً، من الوتر وهو الفرد. قال الأصمعي: واترت كتبي
 عليه: أتبع بعضها بعضاً إلا أن بين كل واحد منها وبين
 الآخر مهلة. وقال غيره: المتواترة المتتابعة بغير مهلة. قرأ
 ابن كثير، وابن عمرو (تتري) بالتثنية على أنه مصدر. قال
 النحاس: وعلى هذا يجوز تتري بكسر التاء الأولى. لأن
 معنى ثم أرسلنا: واترنا، ويجوز أن يكون في موضع الحال
 أي: متواترين **﴿كلما جاء أمة رسولها كذبوه﴾** هذه الجملة
 مستأنفة مبنية لمجيء كل رسول لأمته على أن المراد
 بالمجيء: التبليغ **﴿فأتبعنا بعضهم بعضاً﴾** أي: في الهلاك
 بما نزل بهم من العذاب **﴿وجعلناهم أحاديث﴾** الأحاديث
 جمع أحوثة، وهي ما يتحدث به الناس كالأعاجيب جمع
 أعجوبة، وهي ما يتعجب الناس منه. قال الأخفش: إنما يقال
 جعلناهم أحاديث في الشر ولا يقال في الخير، كما يقال:
 صار فلان حديثاً أي: عبرة، وكما قال سبحانه في آية أخرى
﴿فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق﴾ [سبا: 19]. قلت:
 وهذه الكلية غير مسلمة فقد يقال: صار فلان حديثاً حسناً،

ريكم المختص بالربوبية أي: لا تفعلوا ما يوجب العقوبة عليكم مني بأن تشاركوا بي غيري، أو تخالفوا ما أمرتكم به أو نهيتكم عنه. ثم نكر سبحانه ما وقع من الأمم من مخالفتهم لما أمرهم به الرسل فقال: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ والفاء لترتيب عصيانهم على ما سبق من الأمر بالتقوى، والضمير يرجع إلى ما يدل عليه لفظ الأمة، والمعنى: أنهم جعلوا بينهم مع اتحادهم قطعاً متفرقة مختلفة. قال المبرد: زبراً فرقاً قطعاً مختلفة، واحدها زبور، وهي الفرقة والطائفة، ومثله الزبرة وجمعها زبر، فوصف سبحانه الأمم بأنهم اختلفوا، فاتبع فرقة التوراة، وفرقة الزبور، وفرقة الإنجيل ثم حرقوا وبذلوا، وفرقة مشركة تبعوا ما رسمه لهم آبائهم من الضلال. قرئ (زبراً) بضم الباء جمع زبور، وقرئ بفتحها أي: قطعاً كقطع الحديد ﴿كُلَّ حَزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فُرِحُونَ﴾ أي: كل فريق من هؤلاء المختلفين بما لديهم أي: بما عندهم من الدين فرحون أي: معجبون به ﴿فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: اتركهم في جهلهم، فليسوا باهل للهداية، ولا يضق صدرك بتأخير العذاب عنهم، فلكل شيء وقت، شبه سبحانه ما هم فيه من الجهل بالماء الذي يغمر من دخل فيه، والغمرة في الأصل ما يغمر ويعلوك، وأصله الستر، والغمر: الماء الكثير لأنه يغطي الأرض، وغمر الرداء هو الذي يشمل الناس بالعطاء، ويقال للحقد: الغمر، والمراد هنا: الحيرة والغفلة والضلالة، والآية خارجة مخرج التهديد لهم، لا مخرج الأمر له ﷺ بالكف عنهم، ومعنى ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ حتى يحضر وقت عذابهم بالقتل، أو حتى يموتوا على الكفر فيعذبون في النار ﴿إِنْ حَسِبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّاءٍ وَبَنِينٍ﴾ أي: أيحسبون أنما نعطيهم في هذه الدنيا من الأموال والبنين ﴿نَسَارِعُ﴾ به ﴿لَهُمْ﴾ فيما فيه خيرهم وإكرامهم، والهمزة للإنكار، والجواب عن هذا مقتر يدل عليه قوله: ﴿بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ لأنه عطف على مقتر ينسحب إليه الكلام أي: كلا لا نفعل ذلك بل هم لا يشعرون بشيء أصلاً كالبهائم التي لا تفهم ولا تعقل، فإن ما حوّلناهم من النعم وأمدناهم به من الخيرات إنما هو استدراج لهم ليزدادوا إثماً كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا نُمَلِّئُهُمْ لِيُزَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران: 178]. قال الزجاج: المعنى نسارع لهم به في الخيرات، فحذفت به، و (ما) في إنما موصولة، والرباط هو هذا المحذوف. وقال الكسائي: إن إنما هنا حرف واحد فلا يحتاج إلى تقدير رابط. قيل: يجوز الوقف على بنين؛ وقيل: لا يحسن لأن يحسبون يحتاج إلى مفعولين، فتمام المفعولين في الخيرات. قال ابن الأنباري: وهذا خطأ لأن ما كفاة. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، وعبد الرحمن بن أبي بكرة (يسارع) بالياء التحتية على أن فاعله ما يدل عليه أمدنا، وهو الإمداء، ويجوز أن يكون المعنى: يسارع الله لهم. وقرأ الباقون (نسارع) بالنون. قال الثعلبي: وهذه القراءة هي الصواب لقوله نمدّم. وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن

قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾ [القصص: 43]. ثم أشار سبحانه إلى قصة عيسى إجمالاً فقال: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَامَهُ آيَةً﴾ أي: علامة تدل على عظيم قدرتنا، وبيع صنعنا، وقد تقدّم الكلام على هذا في آخر سورة الأنبياء في تفسير قوله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 91]. ومعنى قوله: ﴿وَأَوْيَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رُبُوعٍ﴾ إلى مكان مرتفع أي: جعلناهما يأويان إليها. قيل: هي أرض دمشق، وبه قال عبد الله بن سلام وسعيد بن المسيب، ومقاتل، وقيل: بيت المقدس، قاله قتادة وكعب؛ وقيل: أرض فلسطين، قاله السدي ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ أي: ذات مستقر يستقر عليه ساكنوه ﴿وَمَعِينٍ﴾ أي: وماء معين. قال الزجاج: هو الماء الجاري في العين، فالعيم على هذا زائدة كزيادتها في منبع؛ وقيل: هو فعل بمعنى مفعول. قال علي بن سليمان الأخفش: معن الماء: إذا جرى فهو معين وممعون وكذا قال ابن الأعرابي؛ وقيل: هو مأخوذ من المعاون، وهو النفع، ويمثل ما قال الزجاج قال الفراء: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ قال الزجاج: هذه مخاطبة لرسول الله ﷺ ودل الجمع على أن الرسل كلهم كذا أمروا؛ وقيل: إن هذه المقالة خوطب بها كل نبي، لأن هذه طريقتهم التي ينبغي لهم الكون عليها، فيكون المعنى: وقلنا يا أيها الرسل خطاباً لكل واحد على انفراد، لاختلاف أزمנתهم. وقال ابن جرير: إن الخطاب لعيسى. وقال الفراء: هو كما تقول للرجل الواحد كفوا عنا، والطيبات: ما يستطاب ويستلذ، وقيل: هي الحلال، وقيل: هي ما جمع الوصفين المذكورين. ثم بعد أن أمرهم بالاكل من الطيبات أمرهم بالعمل الصالح فقال: ﴿وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ أي: عملاً صالحاً وهو ما كان موافقاً للشرع، ثم علل هذا الأمر بقوله: ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ لا يخفى علي شيء منه، وإني مجازيك على حسب أعمالكم إن خيراً فخير، وإن شراً فشر ﴿وَإِنْ هَذِهِ أَمْتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ هذا من جملة ما خوطب به الأنبياء، والمعنى: أن هذه ملتكم وشريعتكم أيها الرسل ملة واحدة، وشرعية متحدة يجمعها أصل هو أعظم ما بعث الله به أنبياءه وأنزل فيه كتبه، وهو دعاء جميع الأنبياء إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وقيل: المعنى إن هذا الذي تقدّم نكره هو بينكم وملتكم فالزموه على أن المراد بالأمة هنا: الدين كما في قوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: 22]. ومنه قول النابغة:

حلفت فلم أترك لنفسي ريبة وهل يائمن نومة وهو طائع
قرئ بكسر (إن) على الاستئناف المقرر لما تقدّمه، وقرئ بفتحها وتشديد ها. قال الخليل: هي في موضع نصب لما زال الخافض أي: أنا عالم بأن هذا بينكم الذي أمرتكم أن تؤمنوا به. وقال الفراء: إن متعلقة بفعل مضمّر، وتقديره: واعلموا أن هذه أمتكم. وقال سيبويه: هي متعلقة باتقون، والتقدير: فاتقون لأن أمتكم أمة واحدة، والفاء في ﴿فَاتَّقُونَ﴾ لترتيب الأمر بالتقوى على ما قبله من كونه

قَدْ كَانَتْ مَائِي تُلْزَمُ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُ عَلَى أَغْلَبِكُمْ نَزْكَوْنَ ﴿١١﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سِرًّا تَهْجُرُونَ ﴿١٢﴾

لما نفي سبحانه الخيرات الحقيقية عن الكفرة المتنعمين اتبع ذلك بنكر من هو اهل للخيرات عاجلاً وأجلاً فوصفهم بصفات أربع: الأولى قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ الإشفاق: الخوف، تقول أنا مشفق من هذا الأمر أي: خائف. قيل: الإشفاق هو الخشية، فظاهر ما في الآية التكرار. وأجيب بحمل خشية على العذاب أي: من عذاب ربهم خائفون، وبه قال الكلبي ومقاتل. وأجيب أيضاً بحمل الإشفاق على ما هو اثر له: وهو الدوام على الطاعة أي: الذين هم من خشية ربهم دائمون على طاعته. وأجيب أيضاً بأن الإشفاق كمال الخوف فلا تكرار؛ وقيل: هو تكرار للتأكيد. والصفة الثانية قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يَوْمَنُونَ﴾ قيل: المراد بالآيات هي التنزيلية؛ وقيل: هي التكوينية؛ وقيل: مجموعهما، قيل: وليس المراد بالإيمان بها هو التصديق بوجودها فقط. فإن ذلك معلوم بالضرورة ولا يوجب المدح، بل المراد: التصديق بكونها دلائل وأن منلوها حق. والصفة الثالثة قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ أي: يتركون الشرك تركاً كلياً ظاهراً وباطناً. والصفة الرابعة قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ أي: يعطون ما أعطوا وقلوبهم خائفة من أجل ذلك الإعطاء يظنون أن ذلك لا ينجيهم من عذاب الله، وجملة ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ في محل نصب على الحال أي: والحال أن قلوبهم خائفة أشد الخوف. قال الزجاج: قلوبهم خائفة لأنهم إلى ربهم راجعون، وسبب الوجع هو أن يخافوا أن لا يقبل منهم ذلك على الوجه المطلوب، لا مجرد رجوعهم إليه سبحانه، وقيل: المعنى أن من اعتقد الرجوع إلى الجزاء والحساب وعلم أن المجازي والمحاسب هو الرب الذي لا تخفى عليه خافية لم يخل من وجل. قرأت عائشة، وابن عباس، والنخعي ﴿يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾ مقصوراً من الإتيان. قال الفراء: ولو صحت هذه القراءة لم تخالف قراءة الجماعة لأن من العرب من يلزم في الهمز الألف في كل الحالات. قال النحاس: ومعنى هذه القراءة يعملون ما عملوا والإشارة بقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ إلى المتصفين بهذه الصفات، ومعنى ﴿يسارعون في الخيرات﴾ يبادرون بها. قال الفراء والزجاج: ينافسون فيها، وقيل: يسابقون، وقرئ (يسرعون) ﴿وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ اللام للتنوية، والمعنى: هم سابقون إياها، وقيل: اللام بمعنى إلى كما في قوله: ﴿بِأَن رَّبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: 5]. أي: أوحى إليها، وأنشد سيبويه قول الشاعر:

تجانف عن أهل اليمامة يا فتى وما قصدت من أهلها السوائكا
أي: إلى سوائكا، وقيل: المفعول محذوف، والتقدير: وهم سابقون الناس لأجلها. ثم لما انجر الكلام إلى نكر أعمال المكلفين نكر لهما حكمين: الأول قوله: ﴿وَلَا تَكُلِفْ نَفْسًا إِلَّا

عِيسَى فِي قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَاءً﴾ قال: يتبع بعضهم بعضاً. وفي لفظ قال: بعضهم على إثر بعض. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ قال: ولسقه من غير أب. وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس آية قال: عبرة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿وَأَوْيَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ﴾ قال: الربوة المستوية، والمعين: الماء الجاري، وهو النهر الذي قال الله: ﴿قَدْ جَعَلْنَا رِبَكُ تَحْتَكُ سَرِيًّا﴾ [مريم: 24]. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه ﴿وَأَوْيَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ﴾ قال: هي المكان المرتفع من الأرض، وهو أحسن ما يكون فيه النبات ﴿ذَاتِ قُرَارٍ﴾ ذات خصب، والمعين: الماء الظاهر. وأخرج وكيع، والفريابي وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وتمام الرازي، وابن عساکر. قال السيوطي بسند صحيح عن ابن عباس في قوله: ﴿إِلَى رَبْوَةٍ﴾ قال: أنبئنا أنها دمشق. وأخرج ابن عساکر، عن عبد الله بن سلام مثله. وكذا أخرجه ابن أبي حاتم عنه. وأخرج ابن عساکر عن أبي أمامة مرفوعاً نحوه، وإسناده ضعيف. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني في الأوسط، وابن مريويه، وابن عساکر عن مرة النهزي، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الربوة الرملية». وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم في الكنى، وابن عساکر عن أبي هريرة قال: هي الرملية من فلسطين. وأخرجه ابن مريويه من حديثه مرفوعاً. وأخرج الطبراني، وابن السكن، وابن منده، وأبو نعيم، وابن عساکر عن الأقرب بن شفي العكي مرفوعاً نحوه. وأخرج أحمد ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾. وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: 172]. ثم نكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام يمدّ يديه إلى السماء: يا ربّ يا ربّ، فأتى يستجاب لذلك. وأخرج سعيد بن منصور عن حفص الفزاري في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ قال: ذلك عيسى بن مريم ياكل من غزل أمه. وأخرجه عبيد الله بن الصبية عن حفص مرفوعاً، وهو مرسل لأن حفصاً تابعي.

إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿١٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿١٤﴾ أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿١٥﴾ وَلَا تَكُلِفْ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَبَيِّنُ الْحَقَّ وَلَا يَظْلُمُونَ ﴿١٦﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَيْرِ مَنَ وَهَذَا أَهْمَلُ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمَلُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعِلَاقِ إِذَا هُمْ يَجْتَرُونَ ﴿١٨﴾ لَا تَجْعَلُوا أَيْدِيَكُمْ مِمَّا لَا تَبْرُرُونَ ﴿١٩﴾

والشقاوة لا محيص لهم عن ذلك. ثم رجع سبحانه إلى وصف الكفار فقال: ﴿حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب﴾ حتى هذه هي التي يبتدأ بعدها الكلام، والكلام هو الجملة الشرطية المذكورة، وهذه الجملة مبنية لما قبلها، والضمير في مترفيهم راجع إلى من تقدم ذكره من الكفار، والمراد بالمترفين: المتنعمين منهم، وهم الذين أمدهم الله بما تقدم ذكره من المال والبنين، أو المراد بهم: الرؤساء منهم. والمراد بالعذاب هو: عذابهم بالسيف يوم بدر، أو بالجوع بدعاء النبي ﷺ عليهم حيث قال: اللهم أشد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف؛ وقيل المراد بالعذاب: عذاب الآخرة، ورجح هذا بأن ما يقع منهم من الجوار إنما يكون عند عذاب الآخرة، لأنه الاستغاث بالله ولم يقع منهم ذلك يوم بدر ولا في سني الجوع. ويجاب عنه بأن الجوار في اللغة الصراخ والصياح. قال الجوهري: الجوار مثل الخوار، يقال: جار الثور يجار أي: صاح. وقد وقع منهم ومن أهلهم وأولادهم عند أن عذبوا بالسيف يوم بدر، وبالجوع في سني الجوع، وليس الجوار ما هنا مقيد بالجوار الذي هو التضرع بالدعاء حتى يتم ما ذكره ذلك القائل، وجملة ﴿إذا هم يجارون﴾ جواب الشرط، وإذا هي الفجائية، والمعنى: حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب فاجئوا بالصراخ، ثم أخبر سبحانه أنه يقال لهم حينئذٍ على جهة التبكيت ﴿لا تجاروا لليوم﴾ فالقول مضمّر، والجملة مسوقة لتبكيتهم وإقناطهم وقطع أطماعهم، وخصص سبحانه المترفين مع أن العذاب لاحق بهم جميعاً واقع على مترفيهم وغير مترفيهم لبيان أنهم بعد النعمة التي كانوا فيها صاروا على حالة تخالفها وتباينها، فانتقلوا من النعيم التام إلى الشقاء الخالص، وخصّ اليوم بالذكر للتحويل، وجملة ﴿إنكم منا لا تنصرون﴾ تعليل للنهي عن الجوار، والمعنى: إنكم من عذابنا لا تمنعون ولا ينفعكم جزعكم؛ وقيل: المعنى إنكم لا يلحقكم من جهتنا نصرة تمنعكم مما دهمكم من العذاب. ثم عند سبحانه عليهم قبائحهم توبيخاً لهم فقال: ﴿قد كانت آياتي تتلى عليكم﴾ أي: في الدنيا، وهي آيات القرآن ﴿فكنتم على أعقابكم تنكصون﴾ أي: ترجعون وراءكم، وأصل النكوص أن يرجع القهقري، ومنه قول الشاعر:

زعموا أنهم على سبيل الحق وإننا نكص على الأعقاب

وهو هنا استعارة للإعراض عن الحق، وقرا علي بن أبي طالب (علي أباركم) بدل ﴿على أعقابكم تنكصون﴾ بضم الكاف، وعلى أعقابكم متعلق بتنكصون، أو متعلق بمحذوف وقع حالاً من فاعل تنكصون ﴿هستكبرين به﴾ الضمير في به راجع إلى البيت العتيق، وقيل: للحرم، والذي سوغ الإضمار قبل الذكر اشتغالهم بالاستكبار به وافتخارهم بولايته والقيام به، وكانوا يقولون: لا يظهر علينا أحد لانا أهل الحرم وخدامه. وإلى هذا ذهب جمهور المفسرين، وقيل: الضمير عائد إلى القرآن. والمعنى: أن سماعه يحدث لهم كبراً وطغياناً فلا يؤمنون به. قال ابن عطية: وهذا قول جيد.

وسعها: الوسع هو الطاقة، وقد تقدم بيان هذا في آخر سورة البقرة. وفي تفسير الوسع قولان: الأول أنه الطاقة كما فسره بذلك أهل اللغة. الثاني أنه نون الطاقة، وبه قال مقاتل والضحاك والكلبي. والمعترضة قولوا: لأن الوسع إنما سمي وسعاً لأنه يتسع على فاعله فعله ولا يضيق عليه، فمن لم يستطع الجلوس فليوم إيماء، ومن لم يستطع الصوم فليفطر. وهذه الجملة مستأنفة للتحريض على ما وصف به السابقون من فعل الطاعات المؤدي إلى نيل الكرامات ببيان سهولته وكونه غير خارج عن حد الوسع والطاقة، وإن ذلك عادة الله سبحانه في تكليف عباده، وجملة ﴿ولينا كتاب ينطق بالحق﴾ من تمام ما قبلها من نفي التكليف بما فوق الوسع والمراد بالكتاب: صحائف الأعمال أي: عندنا كتاب قد أثبت فيه أعمال كل واحد من المكلفين على ما هي عليه، ومعنى ﴿ينطق بالحق﴾ يظهر به الحق المطابق للواقع من نون زيادة ولا نقص، ومثله قوله سبحانه: ﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾ [الجاثية: 29]. وفي هذا تهديد للعصاة وتأنيس للمطيعين من الحيف والظلم، وقيل: المراد بالكتاب اللوح المحفوظ، فإنه قد كتب فيه كل شيء، وقيل: المراد بالكتاب: القرآن، والأول أولى. وفي هذه الآية تشبيه للكتاب بمن يصدر عنه البيان بالنطق بلسانه، فإن الكتاب يعرب عما فيه كما يعرب الناطق المحق، وقوله: ﴿بالحق﴾، يتعلق بينطق، أو بمحذوف هو حال من فاعله أي: ينطق ملتبساً بالحق، وجملة ﴿وهم لا يظلمون﴾ مبنية لما قبلها من تفضله وعمله في جزاء عباده أي: لا يظلمون بنقص ثواب أو بزيادة عقاب، ومثله قوله سبحانه: ﴿ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ريك أحداً﴾ [الكهف: 49]، ثم أضرب سبحانه عن هذا فقال: ﴿بل قلوبهم في غمرة من هذا﴾ والضمير للكفار أي: بل قلوب الكفار في غمرة غامرة لها عن هذا الكتاب الذي ينطق بالحق، أو عن الأمر الذي عليه المؤمنون، يقال غمره الماء: إذا غطاه، ونهر غمر: يغطي من دخله، والمراد بها هنا: الغطاء والغفلة أو الحيرة والعمى، وقد تقدم الكلام على الغمرة قريباً ﴿ولهم أعمال من دون ذلك﴾ قال قتادة ومجاهد أي: لهم خطايا لا بد أن يعملوها من نون الحق. وقال الحسن وابن زيد: المعنى ولهم أعمال ربيثة لم يعملوها من نون ما هم عليه لا بد أن يعملوها فيدخلون بها النار، فالإشارة بقوله: ﴿ذلك﴾ إما إلى أعمال المؤمنين، أو إلى أعمال الكفار أي: لهم أعمال من نون أعمال المؤمنين التي نكرها الله، أو من نون أعمال الكفار التي تقدم نكرها من كون قلوبهم في غفلة عظيمة مما نكر، وهي فنون كفرهم ومعاصيهم التي من جملتها ما سيأتي من طعنهم في القرآن. قال الواحدي: إجماع المفسرين وأصحاب المعاني على أن هذا إخبار عما سيعملونها من أعمالهم الخبيثة التي كتبت عليهم لا بد لهم أن يعملوها، وجملة ﴿هم لها عاملون﴾ مقررّة لما قبلها أي: واجب عليهم أن يعملوها فيدخلوا بها النار لما سبق لهم من

وأخرج سعيد بن منصور، وأحمد، وعبد بن حميد، والبخاري في تاريخه، وابن المنذر، وابن أبي شيبة، وابن الأنباري في المصاحف، والدارقطني في الأفراد، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن عبيد بن عمير، أنه سأل عائشة كيف كان رسول الله ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾؟ قالت: أيتما أحب إليكم؟ قلت: والذي نفسي بيده لأحدهما أحب إلي من الدنيا وما فيها جميعاً، قالت: أيهما؟ قلت: ﴿الَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾ فقالت: أشهد أن رسول الله ﷺ كان يقرأها كذلك، وكذلك أنزلت، ولكن الهجاء حُرِّف. وفي إسناده إسماعيل بن علي وهو ضعيف. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿أُولَئِكَ يَسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ قال: سبقت لهم السعادة من الله. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿بَلْ قُلُوبِهِمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا﴾ يعني بالغمرة: الكفر والشك ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ﴾ يقول: أعمال سيئة دون الشرك ﴿وَهُمْ لَهَا عاملون﴾ قال: لا بد لهم أن يعملوها. وأخرج النسائي عنه: ﴿حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب﴾ قال: هم أهل بدر. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿إِذَا هُمْ يَجَارُونَ﴾ قال: يستغيثون، وفي قوله: ﴿فَكَنتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تُنْكصُونَ﴾ قال: تدبرون، وفي قوله: ﴿سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾ قال: تسمرون حول البيت وتقولون هجراً. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ﴾ قال: بحرم الله أنه لا يظهر عليهم فيه أحد. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عنه أيضاً: ﴿سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾ قال: كانت قريش يتحلقون حلقاً يتحشون حول البيت. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه عنه: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾ قال: كان المشركون يهجون برسول الله ﷺ في القول في سمرهم. وأخرج النسائي، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن ابن عباس قال: إنما كره السمر حين نزلت هذه الآية: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾.

وقال النحاس: القول الأول أولى وبينه بما ذكرنا. فعلى القول الأول يكون به متعلقاً بمستكبرين، وعلى الثاني يكون متعلقاً بـ ﴿سَامِرًا﴾ لأنهم كانوا يجتمعون حول البيت بالليل يسمرون، وكان عامة سمرهم نكر القرآن والطعن فيه، والسامر كالحاضر في الإطلاق على الجمع. قال الواحدي: السامر الجماعة يسمرون بالليل أي: يتحشون، ويجوز أن يتعلق ﴿بِهِ﴾ بقوله: ﴿تَهْجُرُونَ﴾ والهجر بالفتح الهنيان أي: تهنون في شأن القرآن، ويجوز أن يكون من الهجر بالضم، وهو للفحش. وقرأ ابن مسعود، وابن عباس، وابن عمر، وأبو حنيفة (سمرًا) بضم السين وفتح الميم مشددة، وقرأ زيد بن علي وأبو رجاء (سمارًا) ورويت هذه القراءة عن ابن عباس، وانتصاب سماراً على الحال إما من فاعل تنكصون، أو من الضمير في مستكبرين؛ وقيل: هو مصدر جاء على لفظ الفاعل، يقال: قوم سامر، ومنه قول الشاعر:

كان لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر
قال الراغب: ويقال: سامر وسمار، وسمر وسامرون. قرأ الجمهور (تهجرون) بفتح التاء المثناة من فوق وضم الجيم. وقرأ نافع، وابن محيصن بضم التاء وكسر الجيم من أخرج أي: أفحش في منطقه. وقرأ زيد بن علي، وابن محيصن، وأبو نهيك بضم التاء وفتح الهاء وكسر الجيم مشددة مضارع هجر بالتشديد. وقرأ ابن أبي عاصم كالجمهور إلا أنه بالياء التحتية، وفيه التثاق.

وقد أخرج الفريابي، وأحمد، وعبد بن حميد، والترمذي، وابن ماجه، وابن أبي الدنيا في نعت الخائفين، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عن عائشة قالت: «قلت: يا رسول الله، قول الله ﷻ ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾ أم الرجل يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو مع ذلك يخاف الله؟ قال: لا، ولكنه الرجل يصوم ويتصدق ويصلي، وهو مع ذلك يخاف الله أن لا يتقبل منه». وأخرج ابن أبي الدنيا، وابن جرير، وابن الأنباري في المصاحف، وابن جرير، وابن مردويه عن أبي هريرة قال: قالت عائشة: يا رسول الله، فنكر نحوه. وأخرج عبد الرزاق عن ابن عباس في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾ قال: يعطون ما أعطوا. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾ قال: يعملون خائفين. وأخرج الفريابي، وابن جرير عن ابن عمر: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾ قال: الزكاة. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر عن عائشة: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾ قالت: هم الذين يخشون الله ويطيعونه. وأخرج عبد بن حميد عن ابن أبي مليكة قال: قالت عائشة: لأن تكون هذه الآية كما قرأ أحب إلي من حمر النعم، فقال لها ابن عباس: ما هي؟ قالت: ﴿الَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾ وقد قمنا نكر قراءتها ومعناها. وأخرج سعيد بن منصور، وابن مردويه عنها، عن النبي ﷺ أنه قرأ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾ مقصوداً من المجيء.

أَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَا يَأْتِي مِثْلَهُمْ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥٨﴾ أَمْ لَمْ يَبْقُرُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَمْ يَكُونُوا ﴿١٥٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ الْبَاقِ وَأَكْثَرُهمُ الْبَاقِ كَرِهُونَ ﴿١٦٠﴾ وَلَوْ أُنْزِلَتْ أَوَّلَهُمْ لَقَدْ عَلِمْتُمُ الْغَيْبَ وَالْأَرْضَ وَمَنْ فِيهَا بَلْ أَنْتُمْ بِآيَاتِهِمْ إِذْ كُفِرْتُمْ عَنْ دُرُوبِهِمْ مُتَعَبَرُونَ ﴿١٦١﴾ أَمْ تَتْلُوهُمْ حَرَمًا مَتَرًا رَبِّكَ عَزَّ وَجَلَّ وَالْأَوَّلِينَ ﴿١٦٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١٦٣﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١٦٦﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١٦٧﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١٦٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١٦٩﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١٧٠﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١٧١﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١٧٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١٧٣﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١٧٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١٧٦﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١٧٧﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١٨٠﴾

قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهُ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: 22] وقد ذهب إلى القول الأول الأكثرون، ولكنه يرد عليه أن المراد بالحق هنا هو: الحق المذكور قبله في قوله: ﴿بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ﴾ ولا يصح أن يكون المراد به هنالك الله سبحانه، فالأولى تفسير الحق هنا وهناك بالصدق الصحيح من الدين الخالص من شرع الله، والمعنى: ولو ورد الحق متابعاً لاهوائهم موافقاً لفاسد مقاصدهم لحصل الفساد، والمراد بقوله: ﴿وَمَنْ فِيهِمْ﴾ من في السموات والأرض من المخلوقات. وقرأ ابن مسعود (وما بينهما) وسبب فساد المكلفين من بني آدم ظاهر، وهو ذنوبهم التي من جعلتها الهوى المخالف للحق، وإما فساد ما عداهم فعلى وجه التبع لأنهم مدبرون في الغالب بنوي العقول فلما فسدوا فسدوا. ثم ذكر سبحانه أن نزول القرآن عليهم من جملة الحق فقال: ﴿بَلْ آتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ والمراد بالذكر هنا القرآن أي: بالكتاب الذي هو فخرهم وشرافهم، ومثله قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَنُكَرِّكُكَ وَلِقَوْمُكَ﴾ [الزخرف: 44]. والمعنى: بل آتيناهم بفخرهم وشرافهم الذي كان يجب عليهم أن يقبلوه، ويقبلوا عليه. وقال قتادة: للمعنى بذكرهم الذي نكر فيه ثوابهم وعقابهم. وقيل: المعنى بذكر ما لهم به حاجة من أمر الدين. وقرأ أبو حيوة والجحدري ﴿آتَيْنَاهُمْ﴾ بقاء الخطاب أي: آتيتهم يا محمد. وقرأ عيسى بن عمر (بذكرهم) وقرأ قتادة (نذكرهم) بالنون والتشديد من التنكير، وتكون الجملة على هذه القراءة في محل نصب على الحال، وقيل: الذكر هو الوعظ والتحذير ﴿فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ معرضون﴾ أي: هم بما فعلوا من الاستكبار والنكوص عن هذا الذكر المختص بهم معرضون لا يلتفتون إليه بحال من الأحوال، وفي هذا التركيب ما يدل على أن إعراضهم مختص بذلك لا يتجاوز به إلى غيره. ثم بين سبحانه أن دعوة نبيه ﷺ ليست مشوبة باطماع الدنيا فقال: ﴿وَأَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً﴾ وأم هي المنقطعة، والمعنى: لم يزعمون أنك تسألهم خرجاً تأخذه على الرسالة، والخرج الأجر والجعل، فتركوا الإيمان بك وبما جئت به لأجل ذلك، مع أنهم يعلمون أنك لم تسألهم ذلك ولا طلبته منهم ﴿فَخَرَجَ رِبْكَ خَيْرٌ﴾ أي: فوز ربك الذي يرزقك في الدنيا وأجره الذي يعطيك في الآخرة خير لك مما ذكر. قرأ حمزة، والكسائي، والأعمش، ويحيى بن وثاب (أم تسألهم خراجاً) وقرأ الباقون (خرجا) وكلهم قرءوا ﴿فَخَرَجَ﴾ إلا ابن عامر وأبا حيوة فإنهما قرآ (فخرج) بغير الف، والخرج هو الذي يكون مقابلاً للدخل، يقال لكل ما تخرجه إلى غيرك: خرجاً، والخراج غالب في الضريبة على الأرض. قال المبرد: الخرج عمرو بن العلاء عن الفرق بين الخرج والخراج فقال: الخراج ما لزمك، والخرج ما تبرعت به. وروي عنه أنه قال: الخرج من الرقاب، والخراج من الأرض ﴿وَهُوَ خَيْرٌ لِلرَّازِقِينَ﴾ هذه الجملة مقررة لما قبلها من كون خراجه سبحانه خير.

وَالْأَنْبِيَاءَ وَالْأَفْيِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَكَرَكَ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُشْرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ تَتَوَلَّاتِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ أَتَلَا تَقُولُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا يَنْدَل مَا قَالَ الْآذُنُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَوَآدَا مِثْنًا وَكُنَّا تَرَاكُ وَعِظْنَا أَنَا لَنَجْعُوهُنَّ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَمَلَائِكُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾

قوله: ﴿أَفَلَمْ يَنْتَبِرُوا لِلْحَقِّ﴾ بين سبحانه أن سبب إقدامهم على الكفر هو أحد هذه الأمور الأربعة: الأول عدم التنبير في القرآن، فإنهم لو تدبروا معانيه لظهر لهم صدقه وأمنوا به وبما فيه، والهمزة للإنكار والغاء للعطف على مقدر أي: فعلوا ما فعلوا فلم ينتبروا، والمراد بالقول: القرآن، ومثله: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [النساء: 82 - محمد: 24]. والثاني قوله: ﴿إِمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ أم هي المنقطعة أي: بل آجاءهم من الكتاب ما لم يأت آباءهم الأولين، فكان ذلك سبباً لاستنكارهم للقرآن، والمقصود تقرير أنه لم يأت آباءهم الأولين رسول، فلذلك أنكروه، ومثله قوله: ﴿لَنَتَذَكَّرَ قَوْمًا مَا أَنْذَرْنَا آبَاؤُهُمْ﴾ [يس: 6]. وقيل: إنه أتى آباءهم الأقدمين رسل أرسلهم الله إليهم. كما هي سنة الله سبحانه في إرسال الرسل إلى عباده، فقد عرف هؤلاء ذلك، فكيف كتبوا هذا القرآن، وقيل: للمعنى لم جاءهم من الأمن من عذاب الله ما لم يأت آباءهم الأولين كإسماعيل ومن بعده. والثالث قوله: ﴿وَأَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مَنكَرُونَ﴾ وفي هذا إضراب وانتقال من التوبيخ بما تقدم إلى التوبيخ بوجه آخر أي: بل ألم يعرفوه بالأمانة والصدق فأنكروه، ومعلوم أنهم قد عرفوه بذلك. والرابع قوله: ﴿وَأَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ وهذا أيضاً انتقال من توبيخ إلى توبيخ أي: بل اتقولون به جنة أي: جنون، مع أنهم قد علموا أنه أرجح الناس عقلاً، ولكنه جاء بما يخالف هواهم فنفقوه وجنوه تعصباً وحمية. ثم أضرب سبحانه عن ذلك كله فقال: ﴿بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ﴾ أي: ليس الأمر كما زعموا في حق القرآن والرسول، بل جاءهم ملتبساً بالحق، والحق هو الدين القويم، ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ لما جبلوا عليه من التعصب، والانحراف عن الصواب، والبعد عن الحق، فلذلك كرهوا هذا الحق الواضح الظاهر، وظاهر النظم أن أقلهم كانوا لا يكرهون الحق، ولكنهم لم يظهروا الإيمان خوفاً من الكافرين له، وجملة ﴿وَلَوْ لَتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ﴾ مستأنفة مسوقة لبيان أنه لو جاء الحق على ما يهوىونه ويريدونه لكان ذلك مستلزماً للفساد العظيم، وخروج نظام العالم عن الصلاح بالكية، وهو معنى قوله: ﴿لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ قال أبو صالح، وابن جريج، ومقاتل والسدي: الحق هو الله، والمعنى: لو جعل مع نفسه كما يحبون شريكاً لفسدت السموات والأرض. وقال الفراء والزجاج: يجوز أن يكون المراد بالحق للقرآن أي: لو نزل القرآن بما يحبون من الشرك لفسد نظام العالم، وقيل: المعنى ولو كان الحق ما يقولون من اتحاد الألهة مع الله لاختلفت الألهة، ومثل ذلك

تَقَدَّمَ تحقيقه ﴿وَالِيهِ تَحْشَرُونَ﴾ أي: تجمعون يوم القيامة بعد تفرقكم ﴿وَهُوَ الَّذِي يَحْيِي وَيَمِيتُ﴾ على جهة الانفراد والاستقلال، وفي هذا تذكير لنعمة الحياة، وبيان الانتقال منها إلى الدار الآخرة ﴿وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ قال الفراء: هو الذي جعلهما مختلفين يتعاقبان ويختلفان في السواد والبياض، وقيل: اختلافهما نقصان أحدهما وزيادة الآخر؛ وقيل: تكررهما يوماً بعد يوم وليلة بعد ليلة ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ كنه قدرته وتتفكرون في ذلك. ثم بين سبحانه أنه لا شبهة لهم في إنكار البعث إلا التشبث بحبل التقليد المبني على مجرد الاستبعاد فقال: ﴿جِيلٌ قَالُوا مِثْلُ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ أي: أبأؤهم والموافقون لهم في دينهم. ثم بين ما قاله الأولون فقال: ﴿قَالُوا أَتُحَدِّثُنَا أَمْرًا وَعَظْمًا ثَلَاثًا مَبْعُوثُونَ﴾ فهذا مجرد استبعاد لم يتعلقوا فيه بشيء من الشبهة، ثمكملوا ذلك القول بقولهم: ﴿لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ﴾ أي: وعداً هذا البعث ووعده آبائنا الكائنون من قبلنا فلم نصدقه كما لم يصدق من قبلنا، ثم صرّحوا بالتكذيب وفروا إلى مجرد الزعم الباطل فقالوا: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: ما هذا إلا أكاذيب الأولين التي سطروها في الكتب جمع أسطورة كالحوتة، والأساطير الأباطيل والترهات والكتب.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي صالح في قوله: ﴿أَم لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ﴾ قال: عرفوه ولكنهم حسوه. وفي قوله: ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ﴾ قال: الحق الله عز وجل. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿جِيلٌ قَالُوا مِثْلُ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ قال: بينا لهم. وأخرجوا عنه في قوله: ﴿عَنِ الصِّرَاطِ لَنُنَاكِحَنَّ﴾ قال: عن الحق لحائثون. وأخرج النسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: جاء أبو سفيان إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد أنشدك الله والرحم فقد أكلنا العلهز يعني: الوبر بالدم، فأنزل الله ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ وأصل الحديث في الصحيحين: «أن رسول الله ﷺ دعا على قريش حين استعصوا فقال: اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف» الحديث. وأخرج ابن جرير، وأبو نعيم في المعرفة، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس: أن ابن أثال الحنفي لما أتى رسول الله ﷺ فأسلم وهو أسير فخلى سبيله لحق بليمة. فحال بين أهل مكة وبين الميرة من اليمامة حتى أكلت قريش العلهز فجاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال: أليس تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين؟ قال: بلى. قال: فقد قتلت الآباء بالسيف والابناء بالجوع، فأنزل الله ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ﴾ الآية. وأخرج العسكري في المواعظ عن علي بن أبي طالب في قوله: ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ قال: أي لم يتواضعوا في الدعاء ولم يخضعوا،

ثم لما أثبت سبحانه لرسوله من الآلة الواضحة المقتضية لقبول ما جاء به ونفى عنه أضداد ذلك قال: ﴿وَأَنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: إلى طريق واضحة تشهد العقول بأنها مستقيمة غير معوجة، والصراط في اللغة الطريق، فسمي الدين طريقاً لأنها تؤدي إليه. ثم وصفهم سبحانه بأنهم على خلاف ذلك فقال: ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَابُونَ﴾ يقال: نكب عن الطريق ينكب نكوباً: إذا عدل عنه ومال إلى غيره، والنكوب والنكب العلول والميل، ومنه النكباء للريح بين ريحين، سميت بذلك لعدولها عن المهاب، وعن الصراط متعلقيناكبون، والمعنى: أن هؤلاء الموصوفين بعدم الإيمان بالآخرة عن ذلك الصراط أو جنس الصراط لعادلون عنه. ثم بين سبحانه أنهم مصرّون على الكفر لا يرجعون عنه بحال فقال: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ﴾ أي: من قحط وجبب ﴿لَلْجَوِ فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ أي: لتمانوا في طغيانهم وضلالهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يترنّون ويتنكبّون ويخطبون، وأصل اللجاج التماذي في العناد، ومنه اللجة بالفتح لترنّد الصوت، ولجة البحر ترنّد أمواجه، ولجة الليل ترد ظلامه، وقيل: المعنى لو رددناهم إلى الدنيا ولم نخلهم النار وامتحانهم للجو في طغيانهم ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ﴾ جملة مستأنفة مسوقة لتقرير ما قبلها. والعذاب قيل: هو الجوع الذي أصابهم في سني القحط؛ وقيل: المرض، وقيل: القتل يوم بدر، واختاره الزجاج؛ وقيل: الموت، وقيل: المراد من أصابه العذاب من الأمم الخالية ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أي: ما خضعوا ولا تنلّوا، بل أقاموا على ما كانوا فيه من التمرد على الله والانهمك في معاصيه ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ أي: وما يخشعون لله في الشدائد عند إصابتها لهم، ولا يدعونه لرفع ذلك ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ قيل: هو عذاب الآخرة؛ وقيل: قتلهم يوم بدر بالسيف؛ وقيل: القحط الذي أصابهم؛ وقيل: فتح مكة ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبَسَّلُونَ﴾ أي: متحيرين، لا يدرون ما يصنعون، والإبلاس التحير والإياس من كل خير. وقرأ السلمي (مبلسون) بفتح اللام من أبلسه أي: أدخله في الإبلاس، وقد تقدّم في الانعام ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ امتنّ عليهم ببعض النعم التي أعطاهم، وهي نعمة السمع والبصر ﴿وَالْأَفْئِدَةَ﴾ فصارت هذه الأمور معهم ليسمعوا المواعظ وينظروا العبر ويتفكروا بالآفئدة فلم ينتفعوا بشيء من ذلك لإصرارهم على الكفر ويعدهم عن الحق، ولم يشكروه على ذلك ولهذا قال: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي: شكراً قليلاً حقيراً غير معتد به باعتبار تلك النعم الجليلة، وقيل: المعنى أنهم لا يشكرونه البتة، لا أن لهم شكراً قليلاً. كما يقال لجاحد النعمة: ما أقل شكره أي: لا يشكر، ومثل هذه الآية قوله: ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ﴾ [الاحقاف: 26]. ﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: بكم فيها كما تبث الحبوب لتنبث وقد

أحدًا من عذاب الله ولا يقدر على نصره وإغاثنه، يقال: أجرت فلاناً: إذا استغاث بك فحميته، وأجرت عليه: إذا حميت عنه ﴿قُلْ فإني تسحرون﴾ قال الفراء والزجاج أي: تصرفون عن الحق وتخدعون، والمعنى: كيف يخيل لكم الحق باطلاً والمسيح فاسداً، والخادع لهم هو الشيطان أو الهوى أو كلاهما. ثم بين سبحانه أنه قد بالغ في الاحتجاج عليهم فقال: ﴿بَلْ آتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ﴾ أي: الأمر الواضح الذي يحق اتباعه ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فيما ينسبونه إلى الله سبحانه من الولد والشريك، ثم نفاهما عن نفسه فقال: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ من في الموضعين زائدة لتأكيد النفي. ثم بين سبحانه ما يستلزمه ما يدعيه الكفار من إثبات الشريك، فقال: ﴿إِذَا لَهِجَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خُلِقَ﴾ وفي الكلام حذف تقديره لو كان مع الله آلهة لانفرد كل إله بخلقه واستبد به وامتناز ملكه عن ملك الآخر، ووقع بينهم التطالب والتحارب والتغالب ﴿وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي: غلب القوي على الضعيف وقهره وأخذ ملكه كعادة الملوك من بني آدم، وحينئذ فنلك الضعيف المغلوب لا يستحق أن يكون إلهاً، وإذا تقرر عدم إمكان المشاركة في ذلك، وأنه لا يقوم به إلا واحد تعين أن يكون هذا الواحد هو الله سبحانه، وهذا الدليل كما دل على نفي الشريك فإنه يدل على نفي الولد، لأن الولد ينازع أباه في ملكه. ثم نزه سبحانه نفسه فقال: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ أي: من الشريك والولد وإثبات ذلك لله عز وجل ﴿عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي: هو مختص بعلم الغيب والشهادة، وأما غيره فهو وإن علم الشهادة لا يعلم الغيب. قرأ نافع، وأبو بكر، وحزمة، والكسائي (عالم) بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: هو عالم. وقرأ الباقون بالجر على أنه صفة لله أو بدل منه. وروي عن يعقوب أنه كان يخفض إذا وصل ويرفع إذا ابتدأ ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ معطوف على معنى ما تقدم كانه قال: علم الغيب فتعالى، كقولك: زيد شجاع فعظمت منزلته أي: شجع فعظمت، أو يكون على إضمار القول أي: أقول فتعالى الله، والمعنى: أنه سبحانه متعال عن أن يكون له شريك في الملك ﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ﴾ أي: إن كان ولا بد أن تريني ما يوعدون من العذاب المستأصل لهم ﴿وَرَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: قل يا رب فلا تجعلني. قال الزجاج: أي إن أنزلت بهم النعمة يا رب فاجعلني خارجاً عنهم، ومعنى كلامه هذا: أن النداء معترض، و «ما» في إِمَّا زائدة أي: قل رب إن تريني، والجواب فلا تجعلني، ونكر الرب مرتين: مرة قبل الشرط ومرة بعده مبالغة في التضرع. وأمره الله أن يسأله أن لا يجعله في القوم الظالمين مع أن الأنبياء لا يكونون مع القوم الظالمين أبداً، تعليماً له ﷺ من ربه كيف يتواضع؟ وقيل: يهضم نفسه، أو لكون شؤم الكفر قد يلحق من لم يكن من أهله كقوله: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا

ولو خضعوا لله لاستجاب لهم. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن مريويه عن ابن عباس في قوله: ﴿حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ قال: قد مضى، كان يوم بدر.

قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٩﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ رَبُّ الْأَرْضِ الْعَظِيمِ ﴿٩٠﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْقِطُ ﴿٩١﴾ قُلْ مَنْ يُبْدِي مَلَكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُخْفِيهِ وَلَا يَحِصُّ عَلَيْهِ إِلَّا كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٢﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْعَفُونَ ﴿٩٣﴾ بَلْ آتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يَتَذَكَّرُونَ ﴿٩٤﴾ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّعَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَوْلَا سَفَهُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿٩٥﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَمَلَّكْ عَمَّا يَتَرَكُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٧﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٨﴾ وَإِنَّا عَلَمٌ أَنَّ تُرِيدُ مَا نَقْدُهُمْ لَقَدْ رَوْنُ ﴿٩٩﴾ أَتَقَعُ بِالْأَيْمَانِ أَحْسَنَ السَّيِّئَةِ مَنْ أَعْلَمَ بِمَا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ﴿١٠١﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿١٠٢﴾

أمر الله سبحانه نبيه ﷺ أن يسأل الكفار عن أمور لا عذر لهم من الاعتراف فيها، ثم أمره أن ينكر عليهم بعد الاعتراف منهم ويوبخهم فقال: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا﴾ أي: قل يا محمد لأهل مكة هذه المقالة، والمراد بمن في الأرض: الخلق جميعاً، وعبر عنهم بمن تغليباً للعلاء ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ شيئاً من العلم، وجواب الشرط محذوف أي: إن كنتم تعلمون فأخبروني، وفي هذا تلويح بجهلهم وفراط غباوتهم ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أي: لا بد لهم أن يقولوا ذلك، لأنه معلوم ببديهة العقل، ثم أمره سبحانه أن يقول لهم بعد اعترافهم ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ترغيباً لهم في التدبر وإمعان النظر والفكر، فإن ذلك مما يقودهم إلى اتباع الحق وترك الباطل، لأن من قدر على ذلك ابتداء قدر على إحياء الموتى ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴿جاء سبحانه باللام نظراً إلى معنى السؤال، فلن قولك: من ربه، ولمن هو في معنى واحد، كقولك: من رب هذه الدار؟ فيقال: زيد، ويقال: لزيد. وقرأ أبو عمرو، وأهل العراق (سَيَقُولُونَ لِلَّهِ) بغير لام نظراً إلى لفظ السؤال، وهذه القراءة أوضح من قراءة الباقيين باللام، ولكنه يؤيد قراءة الجمهور أنها مكتوبة في جميع المصاحف باللام بدون ألف، وهكذا قرأ الجمهور في قوله: (قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ باللام نظراً إلى معنى السؤال كما سلف. وقرأ أبو عمرو وأهل العراق بغير لام نظراً إلى لفظ السؤال، ومثل هذا قول الشاعر:

إذا قيل من رب المزالف والقرى رب الجياد الجرد قيل لخالد

أي: لمن المزالف، والملوك الملك، وزيادة التاء للمبالغة، نحو جبروت ورهبوت، ومعنى ﴿وَهُوَ يُجِيرُ﴾ أنه يغيث غيره إذا شاء ويمنعه ﴿وَلَا يَجَارُ عَلَيْهِ﴾ أي: لا يمنع أحد

من غضبه وعقابه وشرّ عبادته، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون»، قال: فكان عبد الله بن عمرو يعلمها من بلغ من ولده أن يقولها عند نومه، ومن كان منهم صغيراً لا يعقل أن يحفظها كتبها له فعلقها في عنقه. وفي إسناده محمد بن إسحاق، وفيه مقال معروف. وأخرج أحمد عن الوليد بن الوليد أنه قال: «يا رسول الله إني أجد وحشة، قال: إذا أخذت مضجعتك فقل: أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه وشرّ عبادته، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون، فإنه لا يحضرك، وبالحرى لا يضرك».

حَقَّ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿١٩٠﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ قَائِلُهَا مِنْ رَبِّهِمْ بَرُءٌ مِنْهُمْ يُبَشِّرُ الْمُنَافِقِينَ ﴿١٩١﴾ فَمَنْ أَتَاهُمْ فِي الْأَنْصَارِ فَلَا أَنْسَابَ يَنْتَهَرُ يَوْمَئِذٍ وَلَا يُنْسَأُ لَهُمْ ﴿١٩٢﴾ تَمَنَّى مَوَازِينَهُ فَأَوَّلَتْكَ هُمُ الْمُتَغْلِبُونَ ﴿١٩٣﴾ وَتَمَنَّى خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأَوَّلَتْكَ الْآيِينَ خَرُّوا أَسْفَهًا فِي جَهَنَّمَ خَالِدِينَ ﴿١٩٤﴾ تَلَفَّحَ وَجُوهُهُمُ النَّارَ وَهُمْ فِيهَا كَالْعِجَرِ ﴿١٩٥﴾ أَلَمْ تَكُنْ أَتَى تَتْلُو مَقَالِكَ فَكُفِّرْ بَهَا كُذُوبًا ﴿١٩٦﴾ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٩٧﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٩٨﴾ قَالَ أَتَسْتَأْذِنُ فِيهَا وَلَا تَكْفُرُونَ ﴿١٩٩﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا يَنْسُوا أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ بَيْتُ الْمَسْجِدِ فَكُنْهُمْ يَوْمَ يُنْفَخُ الْفُجَارُ فَتُخَرِّجُهُمْ إِلَى جَزَائِهِمْ يَوْمَ جَاءَ سَبْعُونَ أَلْفًا ﴿٢٠٠﴾ قُلْ كَمْ لَيْسَتْ فِي الْأَرْضِ عِندَ رَبِّينَا ﴿٢٠١﴾ قَالُوا لَيْسَ بِنَا وَبِأَنْبِيَائِهِمْ يَوْمَ قَسَمْنَا لَكَ ﴿٢٠٢﴾ قُلْ إِنْ لَيْسَتْ إِلَّا لَيْلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ لَا تُبْشَرُونَ ﴿٢٠٤﴾ تَتَمَلَّكُ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْمَرْشِدِ الْكَبِيرِ ﴿٢٠٥﴾ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّهُمْ لَا يَفْهَمُونَ ﴿٢٠٦﴾ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿٢٠٧﴾

﴿حَقِّي﴾ هي الابتدائية دخلت على الجملة الشرطية، وهي مع ذلك غاية لما قبلها متعلقة بقوله لكانبون وقيل: يبصرون، والمراد بمجيء الموت: مجيء علاماته ﴿قَالَ رَبِّ ارْجِعُونَ﴾ أي: قال ذلك الأحد الذي حضره الموت تحسراً وتحزناً على ما فرط منه رب أرجعون أي: ربوني إلى الدنيا، وإنما قال: أرجعون بضمير الجماعة لتعظيم المخاطب، وقيل: هو على معنى تكرير الفعل أي: أرجعني أرجعني أرجعني، ومثله قوله: ﴿الْقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾ [ق: 24]. قال المازني: معناه ألق ألق، وهكذا قيل في قول امرئ القيس:

قفا نيك من نكرى حبيب ومنزل
ومنه قول الحجاج:

يا حرسى لضرباً عنقه

ومنه قول الشاعر:

ولو شئت حرمت للنساء سواكم

وقول الآخر:

الافارجموني يا إله محمد

وقيل: إنهم لما استغاثوا بالله قال قائلهم رب، ثم رجع إلى

منكم خاصة﴾ [الأنفال: 25]، ثم لما كان المشركون ينكرون العذاب، ويسخرون من النبي ﷺ إذا نكر لهم ذلك أكد سبحانه وقوعه بقوله: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُرِيكَ مَا نَعْدُهُمْ لِقَادِرُونَ﴾ أي: أن الله سبحانه قادر على أن يري رسوله عذابهم، ولكنه يؤخره لعلمه بأن بعضهم سيؤمن، أو لكون الله سبحانه لا يعذبهم والرسول فيهم، وقيل: قد أراه الله سبحانه ذلك يوم بدر ويوم فتح مكة، ثم أمره سبحانه بالصبر إلى أن ينقضي الأجل المضروب للعذاب فقال: ﴿إِنْفَعُ بِالنَّفْسِ هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ﴾ أي: انفع بالخصلة التي هي أحسن من غيرها، وهي الصلح والإعراض عما يفعله الكفار من الخصلة السيئة وهي الشرك. قيل: وهذه الآية منسوخة بآية السيف؛ وقيل: هي محكمة في حق هذه الأمة فيما بينهم، منسوخة في حق الكفار ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ أي: ما يصفونك به مما أنت على خلافه، أو بما يصفون من الشرك والتكذيب، وفي هذا وعيد لهم بالعقوبة. ثم علمه سبحانه ما يقويه على ما أرشده إليه من العفو والصفح ومقابلة السيئة بالحسنة فقال: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ الهمزات جمع همزة، وهي في اللغة النغمة باليد أو بغيرها، وهمزات الشياطين نزغاتهم ووساوسهم كما قاله المفسرون، يقال: همزه ولمزه ونخسه أي: دفعه، وقيل: الهمز كلام من وراء الفقا، واللمز المواجهة، وفيه إرشاد لهذه الأمة إلى التعوذ من الشيطان، ومن همزات الشياطين سورات الغضب التي لا يملك الإنسان فيها نفسه ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُوا﴾ أمره سبحانه أن يتعوذ بالله من حضور الشياطين بعد ما أمره أن يتعوذ من همزاتهم، والمعنى: وأعوذ بك أن يكونوا معي في حال من الأحوال، فإنهم إذا حضروا الإنسان لم يكن لهم عمل إلا الوسوسة والإغراء على الشر والصرف عن الخير. وفي قراءة أبي (وقل رب عاذاً بك من همزات الشياطين * وعائذاً بك رب أن يحضرون).

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ قال: خزائن كل شيء. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عنه ﴿إِنْفَعُ بِالنَّفْسِ هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ﴾ يقول: اعرض عن أذاهم إياك. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عطاء ﴿إِنْفَعُ بِالنَّفْسِ هِيَ أَحْسَنُ﴾ قال: بالسلام. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو نعيم في الحلية عن أنس في قوله: ﴿إِنْفَعُ بِالنَّفْسِ هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ﴾ قال: قول الرجل لأخيه ما ليس فيه، فيقول إن كنت كاذباً فانا أسأل الله أن يغفر لك، وإن كنت صادقاً فانا أسأل الله أن يغفر لي. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وأبو داود، والترمذي وحسنه، والنسائي، والبيهقي في الأسماء والصفات عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: «كان رسول الله ﷺ يعلمنا كلمات نقولهن عند النوم من الفزع: بسم الله أعوذ بكلمات الله التامة

الجملة في محل نصب على الحال، والكالم: الذي قد تشمرت شفاته وبيت أسنانه، قاله الزجاج. ودهر كالم أي: شديد. قال أهل اللغة: الكلوخ تكثير في عبوس، وجملة ﴿ألم تكن آياتي تتلى عليكم﴾ هي على إضمار القول أي: يقال لهم ذلك توبيخاً وتقريعاً أي: ألم تكن آياتي تتلى عليكم في الدنيا ﴿فكنتم بها تكذبون﴾ وجملة ﴿قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا﴾ مستانفة جواب سؤال مقدر أي: غلبت علينا لذاتنا وشهواتنا، فسمي ذلك شقوة، لأنه يؤول إلى الشقاء. قرأ أهل المدينة⁽¹⁾ وأبو عمرو، وعاصم (شقوتنا) وقرأ الباقون (شقواتنا) وهذه القراءة مروية عن ابن مسعود والحسن ﴿وكنتم قوماً ضالين﴾ أي: بسبب ذلك فإنهم ضلوا عن الحق بتلك الشقوة. ثم طلبوا ما لا يجابون إليه فقالوا: ﴿ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون﴾ أي: فإن عدنا إلى ما كنا عليه من الكفر وعدم الإيمان فإنا ظالمون لأنفسنا بالعود إلى ذلك، فاجاب الله عليهم بقوله: ﴿قال لخصنوا فيها ولا تكلمون﴾ أي: اسكنوا في جهنم. قال المبرد: الخسن إبعاد بمكروه، وقال الزجاج: تباعدوا تباعد سخط وأبعدوا بعد الكلب. فالمعنى على هذا: أبعادوا في جهنم، كما يقال للكلب اخسأ أي: ابعد، خسأت الكلب خساً طرته، ولا تكلمون في إخراجكم من النار ورجوعكم إلى الدنيا، أو في رفع العذاب عنكم، وقيل: المعنى لا تكلمون رأساً. ثم علل ذلك بقوله: ﴿إنه كان فريق من عبادي يقولون﴾ وهم المؤمنون وقيل: الصحابة، يقولون: ﴿ربنا آمنا فاعفر لنا وارحمنا وإنت خير الراحمين﴾ قرأ الجمهور (إنه كان فريق) بكسر إن استئنافاً تعليلياً، وقرأ أبي بفتحها ﴿فاتخذتموهم سخرياً﴾ قرأ نافع، وحزمة، والكسائي بضم السين. وقرأ الباقون بكسرها. وفرق بينهما أبو عمرو فجعل الكسر من جهة الهزء، والضم من جهة السخرية. قال النحاس: ولا يعرف هذا الفرق الخليل، ولا سيبويه، ولا الكسائي، ولا الفراء، وحكى الثعلبي عن الكسائي: أن الكسر بمعنى الاستهزاء والسخرية بالقول، والضم بمعنى التسخير والاستبعاد بالفعل ﴿حتى اتسوكم نكري﴾ أي: اتخذتموهم سخرياً إلى هذه الغاية فإنهم نسوا نكر الله لشدة اشتغالهم بالاستهزاء ﴿وكنتم منهم تضحكون﴾ في الدنيا، والمعنى: حتى نسيتم نكري باشتغالكم بالسخرية والضحك، فنسب ذلك إلى عباده المؤمنين لكونهم السبب، وجملة ﴿إني جزيتهم اليوم بما صبروا﴾ مستانفة لتقرير ما سبق، والباء في بما صبروا للسببية ﴿أنهم هم الفائزون﴾ قرأ حمزة والكسائي بكسر الهمزة على الاستئناف، وقرأ الباقون بالفتح أي: لأنهم الفائزون، ويجوز أن يكون منصوباً على أنه المفعول الثاني للفعل ﴿قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين﴾ للقائل هو: الله عز وجل وتذكيراً لهم كم لبثوا! لما سألوا الرجوع إلى

مخاطبة الملائكة فقال: ﴿ارجعون لعلي أعمل صالحاً﴾ أي: أعمل عملاً صالحاً في الدنيا إذا رجعت إليهما من الإيمان وما يتبعه من أعمال الخير، ولما تمنى أن يرجع ليعمل رد الله عليه ذلك بقوله: ﴿علا إنها كلمة هو قائلها﴾ فناء بكلمة الردع والزجر، والضمير في إنها يرجع إلى قوله: ﴿رب ارجعون﴾ أي: إن هذه الكلمة هو قائلها لا محالة، وليس الأمر على ما يظن من أنه يجاب إلى الرجوع إلى الدنيا، أو المعنى: أنه لو أجيب إلى ذلك لما حصل منه الوفاء كما في قوله: ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه﴾ [الأنعام: 28]. وقيل: إن الضمير في قائلها يرجع إلى الله أي: لا خلف في خبره، وقد أخبرنا بأنه لا يؤخر نفساً إذا جاء أجلها ﴿ومن ورائهم برزخ﴾ أي: من أمامهم وبين أيديهم والبرزخ هو: الحاجز بين الشيئين. قاله الجوهري.

وختلف في معنى الآية، فقال الضحاك ومجاهد وابن زيد: حاجز بين الموت والبعث. وقال الكلبي: هو الأجل ما بين النفختين، وبينهما أربعون سنة. وقال السدي: هو الأجل، و ﴿إلى يوم يبعثون﴾ هو يوم القيامة ﴿فإذا نفخ في الصور﴾ قيل: هذه هي النفخة الأولى؛ وقيل: الثانية، وهذا أولى، وهي النفخة التي تقع بين البعث والنشور؛ وقيل: المعنى فإذا نفخ في الأجساد أرواحها، على أن الصور جمع صورة، لا القرن ويدل على هذا قراءة ابن عباس، والحسن (الصور) بفتح الواو مع ضم الصاد جمع صورة. وقرأ أبو رزين بفتح الصاد والواو. وقرأ الباقون بضم الصاد وسكون الواو، وهو القرن الذي ينفخ فيه ﴿فلا تساب بينهم يومئذ﴾ أي: لا يتفخرون بالأنساب وينكرونها لما هم فيه من الحيرة والدهشة ﴿ولا يتساءلون﴾ أي: لا يسأل بعضهم بعضاً، فإن لهم إذ ذاك شغلاً شاعلاً، ومنه قوله تعالى: ﴿يوم يفز المراء من أخيه * وأمه وأبيه * وصاحته وبنيه﴾ [عبس: 34 - 36]. وقوله: ﴿ولا يسأل حميم حميماً﴾ [المعارج: 10]. ولا ينافي هذا ما في الآية الأخرى من قوله: ﴿واقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾ [الصفات: 27]. فإن ذلك محمول على اختلاف المواقف يوم القيامة، فالإثبات باعتبار بعضها، والنفي باعتبار بعض آخر كما قررناه في نظائر هذا، مما أثبت تارة ونفي أخرى ﴿فمن ثقلت موازينه﴾ أي: موازيناته من أعماله الصالحة ﴿فأولئك هم المفلحون﴾ أي: الفائزون بمطالبهم المحبوبة، الناجون من الأمور التي يخافونها ﴿ومن خفت موازينه﴾ وهي أعماله الصالحة ﴿فأولئك الذين خسروا أنفسهم﴾ أي: ضيعوها وتركوا ما ينفعها ﴿في جهنم خالدون﴾ هذا بدل من صلة الموصول، أو خبر ثانٍ لاسم الإشارة، وقد تقدم الكلام على هذه الآية مستوفى فلا نعيده، وجملة ﴿تلفج وجوههم للنار﴾ مستانفة، ويجوز أن تكون في محل نصب على الحال، أو تكون خبراً آخر لأولئك، والتلفج الإحراق، يقال: تلفحت النار، إذا أحرقته، ولفحت بالسيف: إذا ضربته، وخص الوجوه لأنها أشرف الأعضاء ﴿وهم فيها كالحون﴾ هذه

(1) قوله: أهل المدينة: صوابه أهل الحجاز اهـ مصحح القرآن.

الدنيا بعد أن أخبرهم بأن ذلك غير كائن كما في قوله: اخسئوا فيها، والمراد بالأرض: هي الأرض التي طلبوا الرجوع إليها، ويحتمل أن يكون السؤال عن جميع ما لبثوه في الحياة وفي القبور، وقيل: هو سؤال عن مدة لبثهم في القبور لقوله: في الأرض، ولم يقل على الأرض، وردّ بمثل قوله تعالى: ﴿ولا تفسدوا في الأرض﴾ [الأعراف: 56 و85]. وانتصاب عند سنين على التمييز، لما في كم من الإيهام، وسنين بفتح النون على أنها نون الجمع، ومن العرب من يخفضها وينونها ﴿قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم﴾ استقصوا مدة لبثهم لما هم فيه من العذاب الشديد، وقيل: إن العذاب رفع عنهم بين النفختين، ففسدوا ما كانوا فيه من العذاب في قبورهم، وقيل: أنساهم الله ما كانوا فيه من العذاب من النفخة الأولى إلى النفخة الثانية. ثم لما عرفوا ما أصابهم من النسيان لشدة ما هم فيه من الهول العظيم أحوالوا على غيرهم فقالوا: ﴿فاسأل العائنين﴾ أي: المتمكنين من معرفة العدد، وهم الملائكة، لأنهم الحفظة العارفون بأعمال العباد وأعمالهم، وقيل: المعنى فاسأل الحاسبين العارفين بالحساب من الناس. وقرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي (قل كم لبثتم في الأرض) على الأمر، والمعنى: قل يا محمد للكفار، أو يكون أمراً للملك يسؤالهم، أو التقدير: قولوا كم لبثتم، فأخرج الكلام مخرج الأمر للواحد، والمراد: الجماعة. وقرأ الباقر (قال كم لبثتم) على أن القائل هو الله عز وجل أو الملك ﴿قال إن لبثتم إلا قليلاً﴾ قرأ حمزة والكسائي (قل إن لبثتم) كما في الآية الأولى، وقرأ الباقر قال على الخبر، وقد تقدّم توجيه القراءتين أي: ما لبثتم في الأرض إلا لبثاً قليلاً ﴿لو أنكم كنتم تعلمون﴾ شيئاً من العلم، والجواب محذوف أي: لو كنتم تعلمون لعلمتم اليوم قلة لبثكم في الأرض أو في القبور أو فيهما، فكل ذلك قليل بالنسبة إلى لبثهم. ثم زاد سبحانه في توبيخهم فقال: ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً﴾ الهمة للتوبيخ والتقرير، والغاء للعطف على مقدّم كما تقدّم بيانه في مواضع أي: ألم تعلموا شيئاً فحسبتم، وانتصاب عبثاً على الحال أي: عبثين، أو على العلة أي: للعبث. قال بالأول سيبويه وقطرب، وبالثاني أبو عبيدة. وقال أيضاً: يجوز أن يكون منتصباً على المصدرية، وجملة ﴿وانكم إلينا لا ترجعون﴾ معطوفة على أنما خلقناكم عبثاً، والعبث في اللغة: اللعب، يقال: لعبت لعباً فهو عبث أي: لالع، وأصله من قولهم لعبت الأقط أي: خلطته، والمعنى: أفحسبتم أن خلقنا لكم للإعمال كما خلقت البهائم ولا ثواب ولا عقاب، وأنكم إلينا لا ترجعون بالبعث والنشور فنجازيكم بأعمالكم، قرأ حمزة والكسائي (ترجعون) بفتح الفوقية وكسر الجيم مبنياً للفاعل، وقرأ الباقر على البناء للمفعول، وقيل: إنه يجوز عطف وانكم إلينا لا ترجعون على عبثاً على معنى: أنما خلقناكم للعبث ولعدم الرجوع. ثم نزه سبحانه نفسه فقال: ﴿فتعالى الله﴾ أي: تنزه عن الأولاد والشركاء أو عن أن يخلق شيئاً عبثاً، أو

عن جميع ذلك، وهو ﴿الملك﴾ الذي يحق له الملك على الإطلاق ﴿الحق﴾ في جميع أفعاله وأقواله ﴿لا إله إلا هو ربّ العرش الكريم﴾ فكيف لا يكون إلهاً ورباً، لما هو دون العرش الكريم من المخلوقات، ووصف العرش بالكريم لنزول الرحمة والخير منه، أو باعتباره من استوى عليه، كما يقال: بيت كريم: إذا كان ساكنوه كراماً. قرأ أبو جعفر، وابن محيصن، وإسماعيل، وأبان بن ثعلب (الكريم) بالرفع على أنه نعت لربّ، وقرأ الباقر بالجرّ على أنه نعت للعرش. ثم زيف ما عليه أهل الشرك توبيخاً لهم وتقريعاً فقال: ﴿ومن يدع مع الله إلهاً آخر﴾ يعبد مع الله أو يعبد وحده، وجملة ﴿لا برهان له به﴾ في محل نصب صفة لقوله إلهاً، وهي صفة لازمة جيء بها للتأكيد، كقوله: ﴿يطير بجناحيه﴾ [الأنعام: 38] والبرهان: الحجة الواضحة والليل الواضح، وجواب الشرط قوله: ﴿فإنما حسابه عند ربه﴾ وجملة لا برهان له به معترضة بين الشرط والجزاء، كقولك: من أحسن إلى زيد لا أحقّ منه بالإحسان، فالله مثيبه، وقيل: إن جواب الشرط قوله: لا برهان له به على حذف فاء الجزاء كقول الشاعر:

من يفعل الحسنات الله يشكرها

﴿إنه لا يفلح الكافرون﴾ قرأ الحسن وقتادة بفتح (أن) على التعليل، وقرأ الباقر بالكسر على الاستئناف، وقرأ الحسن (لا يفلح) بفتح الياء واللام مضارع فليح بمعنى أفلح. ثم ختم هذه السورة بتعليم رسوله ﷺ أن يدعو بالمغفرة والرحمة فقال: ﴿وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين﴾ أمره سبحانه بالاستغفار لتقدي به أمته، وقيل: أمره بالاستغفار لأمته. وقد تقدّم بيان كونه أرحم الراحمين، ووجه اتصال هذا بما قبله أنه سبحانه لما شرح أحوال الكفار أمر بالانقطاع إليه والالتجاء إلى غفرانه ورحمته.

وقد أخرج ابن أبي الدنيا في نكر الموت، وابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال: إذا أدخل الكافر في قبره فيرى مقعده من النار ﴿قال ربّ أرجعون﴾ أتوب أعمل صالحاً، فيقال له: قد عمرت ما كنت معمراً، فيضيق عليه قبره، فهو كالمنهوش ينازع ويفزع تهوي إليه حيات الأرض وعقاربها. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن جريج قال: زعموا أن النبي ﷺ قال لعائشة: إن المؤمن إذا عاين الملائكة قالوا: نرجعك إلى الدنيا، فيقول: إلى دار الهموم والأحزان، بل قدما إلى الله، وأما الكافر فيقولون له: نرجعك، فيقول: ربّ أرجعون ﴿علي أعمل صالحاً فيما تركت﴾ وهو مرسل. وأخرج الديلمي عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: إذا حضر الإنسان الوفاة يجمع له كل شيء يمنعه عن الحق فيجعل بين عينيه. فعند ذلك يقول: ربّ أرجعون لعلّي أعمل صالحاً فيما تركت. وأخرج البيهقي في الاسماء والصفات من طريق عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿أعمل صالحاً﴾ قال: أقول لا إله إلا الله. وأخرج ابن أبي حاتم عن عائشة

السورة في اللغة اسم للمنزلة الشريفة، ولذلك سميت السورة من القرآن سورة، ومنه قول زهير:
 ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك نونها يتنذب
 أي: منزلة. قرأ الجمهور (سورة) بالرفع وفيه وجهان: أحدهما: أن تكون خبراً لمبتدأ محذوف أي: هذه سورة، ورجحه الزجاج، والفراء، والمبرد، قالوا: لأنها نكرة، ولا يبدأ بالنكرة في كل موضع. والوجه الثاني أن يكون مبتدأ وجاز الابتداء بالنكرة لكونها موصوفة بقوله ﴿انزلناها﴾ والخبر ﴿الزانية والزاني﴾ ويكون المعنى: السورة المنزلة المفروضة كذا وكذا، إذ السورة عبارة عن آيات مسرودة لها مبدأ ومختتم، وهذا معنى صحيح، ولا وجه لما قاله الأولون من تعليل المنع من الابتداء بها كونها نكرة فهي نكرة مخصصة بالصفة، وهو مجمع على جواز الابتداء بها. وقيل: هي مبتدأ محذوف الخبر على تقدير: فيما أوحينا إليك سورة، ورد بأن مقتضى المقام ببيان شأن هذه السورة الكريمة، لبيان أن في جملة ما أوحى إلى النبي ﷺ سورة شأنها كذا وكذا. وقرأ الحسن بن عبد العزيز، وعيسى الثقفي، وعيسى الكوفي، ومجاهد، وأبو حيوة، وطلحة بن مصرف بالنصب، وفيه أوجه: الأول أنها منصوبة بفعل مقرر غير مفسر بما بعده، فتقديره اتل سورة، أو اقرأ سورة. والثاني أنها منصوبة بفعل مضمّر يفسره ما بعده على ما قيل في باب اشتغال الفعل عن الفاعل بضميره أي: أنزلنا سورة أنزلناها، فلا محل لأنزلناها هاهنا؛ لأنها جملة مفسرة، بخلاف الوجه الذي قبله، فإنها في محل نصب على أنها صفة لسورة. الوجه الثالث أنها منصوبة على الإغراء أي: نونك سورة، قاله صاحب الكشف. ورده أبو حيان بأنه لا يجوز حذف أداة الإغراء. الرابع أنها منصوبة على الحال من ضمير أنزلناها، قال الفراء: هي حال من لها، والألف، والحال من المكنى يجوز أن تتقدم عليه، وعلى هذا فالضمير في أنزلناها ليس عائداً على سورة، بل على الأحكام، كأنه قيل: أنزلنا الأحكام حال كونها سورة من سور القرآن. قرأ ابن كثير، وأبو عمرو (وفرّضناها) بالتشديد، وقرأ الباقون بالتخفيف. قال أبو عمرو: فرّضناها بالتشديد أي: قطعناها في الإنزال نجماً نجماً، والفرض القطع، ويجوز أن يكون التشديد للتكثير، أو للمبالغة، ومعنى التخفيف: أوجبناها وجعلناها مقطوعاً بها، وقيل: الزمانك العمل بها، وقيل: قرّنا ما فيها من الحدود، والفرض التقدير، ومنه ﴿إن الذي فرض عليك القرآن﴾ [القصص: 85] ﴿وانزلنا فيها آيات بينات﴾ أي: أنزلنا في غضوننا وتضاعيفها، ومعنى كونها بينات: أنها واضحة الدلالة على ملولها، وتكرير أنزلنا لكمال العناية بإنزال هذه السورة، لما اشتملت عليه من الأحكام ﴿الزانية والزاني﴾ هذا شروع في تفصيل ما أجمل من الآيات البينات، والارتفاع على الابتداء، والخبر ﴿فاجلدوا كل واحد منهما﴾، أو على الخبرية لسورة كما تقدّم، والزنا هو وطء الرجل للمرأة في فرجها من غير نكاح، ولا شبهة نكاح.

وقيل: هو إيلاج فرج في فرج مشتبه طبعاً محرّم شرعاً، والزانية هي المرأة المطاوعة للزنا الممكنة منه كما تنبئ عنه الصيغة لا المكروهة، وكذلك الزاني، وبخول الفاء في الخبر لتضمن المبتدأ معنى الشرط على مذهب الأخفش، وأما على مذهب سيوبه فالخبر محذوف، والتقدير: فيما يتلى عليكم حكم الزانية، ثم بين ذلك بقوله ﴿فاجلدوا﴾، والجلد الضرب، يقال: جلده إذا ضرب جلده، مثل بطنه إذا ضرب بطنه، ورأسه إذا ضرب رأسه، وقوله ﴿مائة جلدة﴾ هو حدّ الزاني الحر البالغ البكر، وكذلك الزانية، وثبت بالسنة زيادة على هذا الجلد، وهي: تفریب عام، وأما المملوك، والمملوكة، فجلد كلّ واحد منهما خمسون جلدة لقوله سبحانه: ﴿فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب﴾ [النساء: 25] وهذا نص في الإماء، وألحق بهنّ العبيد لعدم الفارق، وأما من كان محصناً من الأحرار، فعليه الرجم بالسنة الصحيحة المتواترة، وبإجماع أهل العلم بل وبالقرآن المنسوخ لفظه الباقي حكمه وهو ﴿الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما بلة﴾. وزاد جماعة من أهل العلم مع الرجم جلد مائة، وقد أوضحنا ما هو الحق في ذلك في شرحنا للمنتقى، وقد مضى الكلام في حدّ الزنا مستوفى، وهذه الآية ناسخة لآية الحبس وآية الأذى اللتين في سورة النساء. وقرأ عيسى بن عمر الثقفي، ويحيى بن يعمر، وأبو جعفر، وأبو شيبة (الزانية والزاني) بالنصب، قيل: وهو القياس عند سيوبه؛ لأنه عنده كقولك: زيداً أضرب. وأما الفراء، والمبرد، والزجاج، فالرفع عندهم أوجه وبه قرأ الجمهور. ووجه تقديم الزانية على الزاني هاهنا أن الزنا في ذلك الزمان كان في النساء أكثر حتى كان لهنّ رايات تنصب على أبوابهنّ ليعرفهنّ من أراد الفاحشة منهنّ. وقيل: وجه التقديم أن المرأة هي الأصل في الفعل، وقيل: لأن الشهوة فيها أكثر، وعليها أغلب، وقيل: لأن العار فيهنّ أكثر إذ موضوعهنّ الحجة، والصيانة، فقدّم ذكر الزانية تغليظاً، واهتماماً. والخطاب في هذه الآية للأنثى ومن قام مقامهم، وقيل: للمسلمين أجمعين، لأن إقامة الحدود واجبة عليهم جميعاً، والإمام ينوب عنهم، إذ لا يمكنهم الاجتماع على إقامة الحدود ﴿ولا تلخّنكم بهما رافة في دين الله﴾ يقال: راف رافة على وزن فعلة، ورافة على وزن فعالة، مثل النشأة، والنشأة وكلاهما بمعنى: الرقة، والرحمة. وقيل: هي أرق الرحمة. وقرأ الجمهور (رافة) بسكون الهمزة، وقرأ ابن كثير بفتحها، وقرأ ابن جريج (رافة) بالمد كفعالة، ومعنى: (في دين الله) في طاعته، وحكمه، كما في قوله: ﴿ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك﴾ [يوسف: 76]، ثم قال: مثبتاً للمأمورين ومهيّجاً لهم ﴿إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ كما تقول للرجل تحضه على أمر: إن كنت رجلاً فافعل كذا أي: إن كنتم تصنفون بالتوحيد، والبعث الذي فيه جزاء الأعمال فلا تعطّلوا الحدود ﴿وليشهد عذبهما طائفة من المؤمنين﴾ أي: ليحضره زيادة في التنكيل بهما،

وشيوخ العار عليهما، وإشهار فضيلتهما، والطائفة الفرقة التي تكون حافة حول الشيء، من الطوف، وأقل الطائفة ثلاثة، وقيل: اثنان، وقيل: واحد، وقيل: أربعة، وقيل: عشرة.

ثم نكر سبحانه شيئاً يختص بالزاني، والزانية، فقال **﴿الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة﴾**.

قد اختلف أهل العلم في معنى هذه الآية على أقوال: الأول: أن المقصود منها تشنيع الزنا، وتشنيع أهله، وأنه محرم على المؤمنين، ويكون معنى الزاني لا ينكح: الوطء لا العقد أي: الزاني لا يزني إلا بزانية، والزانية لا تزني إلا بزاني، وزاد نكر المشركة والمشرک لكون الشرك أعم في المعاصي من الزنا. ورد هذا الزجاج وقال: لا يعرف النكاح في كتاب الله إلا بمعنى التزويج، ويرد هذا الرد بأن النكاح بمعنى الوطء ثابت في كتاب الله سبحانه، ومنه قوله: **﴿حتى تنكح زوجاً غيره﴾** [البقرة: 230] فقد بينه النبي ﷺ، بأن المراد به الوطء، ومن جملة القائلين بأن معنى الزاني لا ينكح إلا زانية: الزاني لا يزني إلا بزانية، سعيد بن جبیر، وابن عباس، وعكرمة، كما حكاه ابن جرير عنهم، وحكاه الخطابي عن ابن عباس. القول الثاني: أن الآية هذه نزلت في امرأة خاصة كما سيأتي بيانه فتكون خاصة بها كما قاله الخطابي. القول الثالث: أنها نزلت في رجل من المسلمين، فتكون خاصة به قاله مجاهد. الرابع: أنها نزلت في أهل الصفة، فتكون خاصة بهم قاله أبو صالح. الخامس: أن المراد بالزاني والزانية المحدودان حكاه الزجاج، وغيره عن الحسن قال: وهذا حكم من الله، فلا يجوز لزان محدود أن يتزوج إلا محدودة. وروي نحوه عن إبراهيم النخعي، وبه قال بعض أصحاب الشافعي. قال ابن العربي: وهذا معنى لا يصح نظراً كما لم يثبت نقلاً. السادس: أن الآية هذه منسوخة بقوله سبحانه: **﴿وانكحوا الأيامي منكم﴾** [النور: 32] قال النحاس: وهذا القول عليه أكثر العلماء. القول السابع: أن هذا الحكم مؤسس على الغالب، والمعنى: أن غالب الزناة لا يرغب إلا في الزواج بزانية مثله، وغالب الزواني لا يرغب إلا في الزواج بزاني مثله، والمقصود زجر المؤمنين عن نكاح الزواني بعد زجرهم عن الزنا، وهذا أرجح الأقوال، وسبب النزول يشهد له كما سيأتي.

وقد اختلف في جواز تزوج الرجل بامرأة قد زنى هو بها، فقال الشافعي، وأبو حنيفة: بجواز ذلك. وروي عن ابن عباس، وروي عن عمر، وابن مسعود، وجابر: أنه لا يجوز. قال ابن مسعود: إذا زنى الرجل بالمرأة ثم نكحها بعد ذلك فهما زانيان أبداً، وبه قال مالك، ومعنى **﴿وحرم تلك على المؤمنين﴾** أي: نكاح الزواني، لما فيه من التشبه بالفسقة، والتعرض للتممة، والطنع في النسب. وقيل: هو مكروه فقط، وعبر بالتحريم عن كراهة التزويج بمبالغة في الزجر.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله **﴿سورة أنزلناها وفرضناها﴾** قال: بينهاها. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن

حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق عبيد الله بن عبد الله بن عمر: أن جارية لابس عمر زنت فضرب رجلها وظهرها، فقلت: **﴿ولا تآخذنكم بهما رافة في عين الله﴾** قال: يا بني رأيتني أخذتني بها رافة؟ إن الله لم يامرني أن أقتلها، ولا أن أجلد رأسها، وقد أوجعت حيث ضربت. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم. عن ابن عباس **﴿وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين﴾** قال: الطائفة الرجل فما فوقه. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وأبو داود في ناسخه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، والضياء المقدسي في المختارة من طريق سعيد بن جبیر عن ابن عباس في قوله **﴿الزاني لا ينكح﴾** قال: ليس هذا بالنكاح، ولكن الجماع، لا يزني بها حين يزني إلا زان، أو مشرك **﴿وحرم تلك على المؤمنين﴾** يعني: الزنا. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، عن مجاهد في قوله **﴿الزاني لا ينكح إلا زانية﴾** قال: كن نساء في الجاهلية بغيات، فكانت منهن امرأة جميلة تدعى أم جميل، فكان الرجل من المسلمين يتزوج إحداهن لتنفق عليه من كسبه، فنهى الله سبحانه أن يتزوجهن أحد من المسلمين، وهو مرسل. وأخرج عبد بن حميد، عن سليمان بن يسار نحوه مختصراً. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن عطاء، عن ابن عباس قال: كانت بغايا في الجاهلية بغايا آل فلان، وبغايا آل فلان، فقال الله **﴿الزاني لا ينكح إلا زانية﴾** الآية، فأحكم الله ذلك في أمر الجاهلية، وروي نحو هذا عن جماعة من التابعين. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، عن الضحاک في الآية قال: إنما عني بذلك الزنا، ولم يعن به التزويج. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن سعيد بن جبیر نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة، عن عكرمة نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي، عن ابن عباس في هذه الآية قال: الزاني من أهل القبلة لا يزني إلا بزانية مثله من أهل القبلة، أو مشركة من غير أهل القبلة، والزانية من أهل القبلة لا تزني إلا بزاني مثله من أهل القبلة، أو مشرك من غير أهل القبلة، وحرم الزنا على المؤمنين. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، وأبو داود في ناسخه، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في سننه، عن عبد الله بن عمرو قال: كانت امرأة يقال لها: أم مهزول، وكانت تسافح، وتشتري أن تنفق عليه، فأراد رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أن يتزوجها، فأنزل الله **﴿الزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك﴾**. وأخرج عبد بن حميد، وأبو داود، والترمذي وحسنه، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: كان رجل يقال له: مرثد، يحمل الأسارى من مكة حتى يأتي بهم المدينة، وكانت امرأة بغية يقال لها: عناق، وكانت صديقة له، ونكر

والأنفس المحصنات، ويؤيد هذا قوله تعالى في آية أخرى: ﴿وَالْمَحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: 24] فإن البيان يكونهن من النساء يشعر بأن لفظ المحصنات يشمل غير النساء، وإلا لم يكن للبيان كثير معنى، وقيل: أراد بالمحصنات الفروج كما قال: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ [الأنبياء: 91] فتنال الآية الرجال والنساء. وقيل: إن لفظ المحصنات، وإن كان للنساء لكنه هاهنا يشمل النساء والرجال تغليبا، وفيه أن تغليب النساء على الرجال غير معروف في لغة العرب، والمراد بالمحصنات هنا العفاف، وقد مضى في سورة النساء نكر الإحصان، وما يحتمله من المعاني. وللعلماء في الشروط المعتبرة في المقنوف والقائف أبحاث مطولة مستوفاة في كتب الفقه، منها ما هو مأخوذ من ليل، ومنها ما هو مجرد رأي بحث. قرأ الجمهور (والمحصنات) بفتح الصاد، وقرأ يحيى بن وثاب بكسرها. وذهب الجمهور من العلماء: أنه لا حدّ على من قذف كافراً أو كافرة. وقال الزهري، وسعيد بن المسيب، وابن أبي ليلى: إنه يجب عليه الحدّ. وذهب الجمهور أيضاً: أن العبد يجلد أربعين جلدة. وقال ابن مسعود، وعمر بن عبد العزيز، وقبيصة: يجلد ثمانين. قال القرطبي: وأجمع العلماء على: أن الحرّ لا يجلد للعبد إذا افترى عليه لتباين مرتبتهما، وقد ثبت في الصحيح عنه ﷺ: أن من قذف مملوكه بالزنا أقيم عليه الحدّ يوم القيامة إلا أن يكون كما قال، ثم ذكر سبحانه شرطاً لإقامة الحدّ على من قذف المحصنات فقال ﴿ثم لم يأتوا بأربعة شهداء﴾ أي: يشهدون عليهم بوقوع الزنا منه، ولفظ «ثم» يدلّ على: أنه يجوز أن تكون شهادة الشهود في غير مجلس القذف، وبه قال الجمهور، وخالف في ذلك مالك. وظاهر الآية: أنه يجوز أن يكون الشهود مجتمعين ومفترقين، وخالف في ذلك الحسن، ومالك، وإذا لم تكمل الشهود أربعة كانوا قذفة يحتوّن حدّ القذف. وقال الحسن، والشعبي: إنه لا حدّ على الشهود، ولا على المشهود عليه، وبه قال أحمد، وأبو حنيفة، ومحمد بن الحسن. ويردّ ذلك ما وقع في خلافة عمر رضي الله عنه من جلده للثلاثة الذين شهدوا على المغيرة بالزنا، ولم يخالف في ذلك أحد من الصحابة رضي الله عنه. قرأ الجمهور (بأربعة شهداء) بإضافة أربعة إلى شهداء، وقرأ عبد الله بن مسلم بن يسار، وأبو زرعة بن عمرو بتثوين أربعة.

وقد اختلف في إعراب شهداء على هذه القراءة، فقيل: هو تمييز. وردَّ بأن المميز من ثلاثة إلى عشرة يضاف إليه العدد كما هو مقرر في علم النحو. وقيل: إنه في محل نصب على الحال. وردَّ بأن الحال لا يجيء من النكرة التي لم تخصص. وقيل: إن شهداء في محل جرّ نعتاً لأربعة، ولما كان فيه ألف التانيث لم ينصرف. وقال النحاس: يجوز أن يكون شهداء في موضع نصب على المفعولية أي: ثم لم يحضروا أربعة شهداء. وقد قوى ابن جني هذه القراءة، ويدفع ذلك قول سيبويه: إن تنوين العدد، وترك إضافته إنما يجوز في الشعر.

قصة وفيها: «فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله أنكح عناقاً؟ فلم يرد علي شيئاً حتى نزلت ﴿الزاني لا ينكح إلا زانية﴾ الآية، فقال رسول الله ﷺ: «يا مرثد ﴿الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زانٍ أو مشرك وحرم تلك على المؤمنين﴾ فلا تنكحها، وأخرج ابن جرير، عن عبد الله بن عمرو في الآية قال: كنّ نساء معلومات، فكان الرجل من فقراء المسلمين يتزوّج المرأة منهم لتتفق عليه، فنهاهم الله عن ذلك. وأخرج أبو داود في ناسخه، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي عن ابن عباس: أنها نزلت في بغايا معلنات كنّ في الجاهلية وكنّ زواني مشركات، فحرم الله نكاحهنّ على المؤمنين. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه من طريق شعبة مولى ابن عباس قال: كنّت مع ابن عباس، فأتاه رجل، فقال: إني كنت أتبع امرأة، فاصبت منها ما حرم الله علي، وقد رزقني الله منها توية، فارتدت أن أتزوجها، فقال الناس: ﴿الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة﴾، فقال ابن عباس: ليس هذا موضع هذه الآية، إنما كنّ نساء بغايا متعلّقات يجعلنّ على أبوابهنّ رايات يأتيهنّ الناس يعرفنّ بذلك، فانزل الله هذه الآية، تزوّجها فما كان فيها من إثم فعلي. وأخرج أبو داود، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن عديّ، وابن مردويه، والحاكم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «لا ينكح الزاني المجلود إلا مثله». وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر عن علي بن أبي طالب: أن رجلاً تزوّج امرأة، ثم إنه زنى فاقم عليه الحد، فجاؤا به إلى علي ففرق بينه وبين امراته، وقال: لا تتزوّج إلا مجلودة مثلك.

[illegible]

قوله ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ﴾ استعمار الرمي للشتم بفاحشة الزنا لكونه جنابة بالقول كما قال النابغة:

وجرح اللسان كجرح اليد

وقال آخر:

رماني بامرِ كنت عنه والدي برياً ومن أجل الطوى رماني
ويسمى هذا الشتم بهذه الفاحشة الخاصة قذفاً، والمراد
بالمحصنات النساء، وخصهن بالذكر لأن قذفهن أشنع،
والعار فيهن أعظم، ويلحق الرجال بالنساء في هذا الحكم بلا
خلاف بين علماء هذه الأمة، وقد جمعنا في ذلك رسالة ربنا
بها على بعض المتأخرين من علماء القرن الحادي عشر لما
نازع في ذلك. وقيل: إن الآية تعم الرجال، والنساء، والتقدير:

بكونه قديماً لها لا تنفي كونه قديماً لما قبلها، غاية الأمر، أن تقيد الأخيرة بالقيد المتصل بها أظهر من تقيد ما قبلها به، ولهذا كان مجعاً عليه، وكونه أظهر لا ينافي قوله فيما قبلها ظاهراً. وقد أطال أهل الأصول الكلام في القيد الواقع بعد جمل بما هو معروف عند من يعرف ذلك الفرق، والحق هو هذا، والاحتجاج بما وقع تارة من القيود عائداً إلى جميع الجمل التي قبله، وتارة إلى بعضها لا تقوم به حجة، ولا يصلح للاستدلال، فإنه قد يكون ذلك لدليل كما وقع هنا من الإجماع على عدم رجوع هذا الاستثناء إلى جملة الجلد. ومما يؤيد ما قررناه ويقويه أن المانع من قبول الشهادة، وهو الفسق المتسبب عن القنف قد زال، فلم يبق ما يوجب الرد للشهادة.

واختلف العلماء في صورة توبة القائف، فقال عمر بن الخطاب، والشعبي، والضحاك، وأهل المدينة: إن توبته لا تكون إلا بأن يكذب نفسه في ذلك القنف الذي وقع منه، وأقيم عليه الحد بسبببه. وقالت فرقة منهم مالك، وغيره: إن توبته تكون بأن يحسن حاله، ويصلح عمله، ويندم على ما فرط منه، ويستغفر الله من ذلك، ويعزم على ترك العود إلى مثله. وإن لم يكذب نفسه، ولا رجع عن قوله. ويؤيد هذا الآيات والأحاديث الواردة في التوبة، فإنها مطلقة غير مقيدة بمثل هذا القيد.

وقد أجمعت الأمة على أن التوبة تمحو الذنب، ولو كان كفراً فتمحو ما هو دون الكفر بالأولى هكذا حكى الإجماع القرطبي. قال أبو عبيد: الاستثناء يرجع إلى الجمل السابقة، وليس من رمى غيره بالزنا بأعظم جرماً من مرتكب الزنا، والزاني إذا تاب قبلت شهادته، لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، وإذا قيل الله التوبة من العبد كان العباد بالقبول أولى، مع أن مثل هذا الاستثناء موجود في مواضع من القرآن منها قوله: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ [المائدة: 33. 34] ولا شك أن هذا الاستثناء يرجع إلى الجميع. قال الزجاج: وليس القائف بأشدد جرماً من الكافر، فحقه إذا تاب وأصلح أن تقبل شهادته، قال: وقوله ﴿إِنَّمَا﴾ أي: ما دام قائفًا، كما يقال لا تقبل شهادة الكافر أبداً فإن معناه: ما دام كافراً. انتهى. وجملة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ تعليل لما تضمنه الاستثناء من عدم المؤاخذه للقائف بعد التوبة، وصيرورته مغفوراً له، مرحوماً من الرحمن الرحيم، غير فاسق، ولا مردود الشهادة، ولا مرفوع العدالة. ثم ذكر سبحانه بعد ذكره لحكم القنف على العموم حكم نوع من أنواع القنف، وهو قنف الزوج للمرأة التي تحتها بعقد النكاح فقال ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾ أي: لم يكن لهم شهود يشهدون بما رموهن به من الزنا إلا أنفسهم بالرفع على البذل من شهداء. قيل: ويجوز النصب على خبر يكن. قال الزجاج: أو على الاستثناء على الوجه المرجوح ﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ﴾ قرأ الكوفيون برفع

ثم بين سبحانه ما يجب على القائف فقال ﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ الجلد الضرب كما تقدم، والمجالد المضاربة في الجلود، أو بالجلود، ثم استعير للضرب بالعصى، والسيف، وغيرهما، ومنه قول قيس بن الخطيم: أجالدهم يوم الحديقة حاسراً كان يدي بالسيف مخراق لاعب وقد تقدم بيان الجلد قريباً، وانتصاب ثمانين كانتصاب المصادر، وجملة منتصبة على التمييز، وجملة ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ معطوفة على اجلدوا أي: فاجمعوا لهم بين الأمرين: الجلد، وترك قبول الشهادة، لأنهم قد صاروا بالقنف غير عدول بل فسقة كما حكم الله به عليهم في آخر هذه الآية. واللام في لهم متعلقة بمحذوف هو: حال من شهادة ولو تأخرت عليها لكانت صفة لها، ومعنى ﴿أَبَدًا﴾: ما داموا في الحياة، ثم بين سبحانه حكمهم بعد صدور القنف منهم، وإصرارهم عليه، وعدم رجوعهم إلى التوبة، فقال ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ وهذه جملة مستأنفة مقررة لما قبلها، والفسق هو الخروج عن الطاعة، ومجاوزة الحد بالمعصية، وجوز أبو البقاء أن تكون هذه الجملة في محل نصب على الحال. ثم بين سبحانه أن هذا التأييد لعدم قبول شهادتهم هو مع عدم التوبة فقال ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ وهذه الجملة في محل نصب على الاستثناء، لأنه من موجب، وقيل: يجوز أن يكون في موضع خفض على البذل، ومعنى التوبة قد تقدم تحقيقه، ومعنى ﴿مَنْ بَعْدَ ذَلِكَ﴾: من بعد إقرارهم لذنب القنف، ومعنى ﴿وَأَصْلَحُوا﴾: إصلاح أعمالهم التي من جعلتها ذنب القنف، ومداركة ذلك بالتوبة، والانقياد للحد.

وقد اختلف أهل العلم في هذا الاستثناء هل يرجع إلى الجملتين قبله؟ وهي: جملة عدم قبول الشهادة، وجملة الحكم عليهم بالفسق، أم إلى الجملة الأخيرة؟ وهذا الاختلاف بعد اتفاقهم على أنه لا يعود إلى جملة الجلد بل يجلد التائب كالمصر، وبعد إجماعهم أيضاً على أن هذا الاستثناء يرجع إلى جملة الحكم بالفسق، فحل الخلاف هل يرجع إلى جملة عدم قبول الشهادة أم لا؟ فقال الجمهور: إن هذا الاستثناء يرجع إلى الجملتين، فإذا تاب القائف قبلت شهادته، وزال عنه الفسق، لأن سبب ردها هو ما كان متصفاً به من الفسق بسبب القنف، فإذا زال بالتوبة بالإجماع كانت الشهادة مقبولة. وقال القاضي شريح، وإبراهيم النخعي، والحسن البصري، وسعيد بن جبير، ومكحول، وعبد الرحمن بن زيد، وسفيان الثوري، وأبو حنيفة: إن هذا الاستثناء يعود إلى جملة الحكم بالفسق، لا إلى جملة عدم قبول الشهادة، فيرتفع بالتوبة عن القائف وصف الفسق، ولا تقبل شهادته أبداً. وذهب الشعبي، والضحاك إلى التفصيل فقالا: لا تقبل شهادته، وإن تاب إلا أن يعترف على نفسه بأنه قد قال البهتان، فحينئذ تقبل شهادته. وقول الجمهور هو الحق؛ لأن تخصيص التقييد بالجملة الأخيرة دون ما قبلها مع كون الكلام واحداً في واقعة شرعية من متكلم واحد خلاف ما تقتضيه لغة العرب، وأولوية الجملة الأخيرة المتصلة بالقيد

من تاب، وأصلح، فشهادته في كتاب الله تقبل. وفي الباب روايات عن التابعين. وقصة قنف المغيرة في خلافة عمر مروية من طرق معروفة. وأخرج البخاري، والترمذي، وابن ماجه، عن ابن عباس: «أن هلال بن أمية قنف امرأته عند النبي ﷺ بشريك بن سحماء، فقال النبي ﷺ: البينة، والآن حد في ظهرك، فقال: يا رسول الله إذا رأى أحدنا على امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البينة؟ فجعل رسول الله ﷺ يقول: البينة والآن حد في ظهرك، فقال هلال: والذي بعثك بالحق إني لصائق، ولينزلن الله ما يبدرني ظهري من الحد، ونزل جبريل فأنزل عليه ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ حتى بلغ ﴿إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فانصرف النبي ﷺ فارسل إليهما، فجاء هلال فشهد، والنبي ﷺ يقول: الله يعلم أن أحكما كاتب فهل منكما تائب؟ ثم قامت فشهدت، فلما كانت عند الخامسة وقفوها، وقالوا إنها موجبة، فتلكأت ونكصت حتى ظننا أنها ترجع، ثم قالت: لا أقضح قومي سائر اليوم، فمضت، فقال النبي ﷺ: أبصروها، فإن جاءت به أكحل العينين سابغ الاليتين خدج الساقين فهو لشريك بن سحماء، فجاءت به كذلك، فقال النبي ﷺ: لولا ما مضى من كتاب الله لكان لي ولها شأن»، وأخرج هذه القصة أبو داود الطيالسي، وعبد الرزاق، وأحمد، وعبد بن حميد، وأبو داود، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، عن ابن عباس مطولة. وأخرجها البخاري، ومسلم، وغيرهما، ولم يسموا الرجل ولا المرأة. وفي آخر القصة: أن النبي ﷺ قال له: «أذهب فلا سبيل لك عليها، فقال: يا رسول الله مالي، قال: لا مال لك، وإن كنت صدقت عليها، فذاك أبعد لك منها». وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما، عن سهل بن سعد قال: «جاء عويمر إلى عاصم بن عدي، فقال: سل رسول الله ﷺ أرأيت رجلاً وجد مع امرأته رجلاً فقتله، أيقتل به أم كيف يصنع؟ فسأل عاصم رسول الله ﷺ: فعاب رسول الله ﷺ المسائل، فقال عويمر: والله لأتقين رسول الله ﷺ لأسأله، فاتاه، فوجده قد أنزل عليه، فدعا بهما، فلأعن بينهما. قال عويمر: إن انطلقت بها يا رسول الله لقد كذبت عليها، ففارقها قبل أن يأمره رسول الله ﷺ، فصارت سنة للمتلاعنين، فقال رسول الله ﷺ: أبصروها، فإن جاءت به أسحم أدعج العينين عظيم الاليتين، فلا أراه إلا قد صلق، وإن جاءت به أحيمر كانه وحره، فلا أراه إلا كاذباً، فجاءت به مثل النعت المكروه»، وفي الباب أحاديث كثيرة، وفيما ذكرنا كفاية. وأخرج عبد الرزاق عن عمر بن الخطاب، وعلي، وابن مسعود، قالوا: لا يجتمع المتلاعنان أبداً.

إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ لَّنْكَ لَا تَمْسُوهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْثَبَ مِنَ الْإِفْكِ وَالَّذِي قَوْلُ كِبَرٍ مِّنْهُمْ لَمْ يَدَّبَّ عَظِيمٌ ﴿١٧﴾ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ أَنفُسَهُمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِنْدَ اللَّهِ

(أربع) على أنها خبر لقوله ﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ﴾ أي: شهادة أحدهم التي تزيل عنه حد الكذف أربع شهادات. وقرأ أهل المدينة، وأبو عمرو (أربع) بالنصب على المصدر. ويكون ﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي: فالواجب شهادة أحدهم، أو مبتدأ محذوف الخبر أي: فشهادة أحدهم واجبة. وقيل: إن أربع منصوب بتقدير: فعليهم أن يشهد أحدهم أربع شهادات وقوله: ﴿بِاللَّهِ﴾ متعلق بشهادة أو بشهادات، وجملة ﴿إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ هي المشهود به، وأصله على أنه فحذف الجار وكسرت إن، وعلق العامل عنها ﴿وَالْخَامِسَةَ﴾ قرأ السبعة وغيرهم (الخامسة) بالرفع على الابتداء، وخبرها ﴿أَنْ لَعَنَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ وقرأ أبو عبد الرحمن، وطلحة، وعاصم في رواية حفص (والخامسة) بالنصب على معنى وتشهد الشهادة الخامسة، ومعنى ﴿إِنْ كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ أي: فيما رماها به من الزنا. قرأ الجمهور بتشديد (إن) من قوله ﴿أَنْ لَعَنَ اللَّهُ﴾ وقرأ نافع بتخفيفها، فعلى قراءة نافع يكون اسم أن ضمير الشأن، ولعنة الله مبتدأ، وعليه خبره، والجملة خبر أن، وعلى قراءة الجمهور تكون لعنة الله اسم أن، قال سيوي: لا تخفف أن في الكلام، ويعددها الأسماء إلا وأنت تريد الثقيلة. وقال الأخفش: لا أعلم للثقلة إلا أجود في العربية ﴿ويُدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابُ﴾ أي: عن المرأة، والمراد بالعذاب الننيوي: وهو الحد، وفاعل يدرا قوله ﴿أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ﴾ والمعنى: أنه ينفع عن المرأة الحد شهادتها أربع شهادات بالله: أن الزوج ﴿لَمِنَ الْكَافِرِينَ وَالْخَامِسَةَ﴾ بالنصب عطفاً على أربع أي: وتشهد الخامسة، كذلك قرأ حفص، والحسن، والسلمي، وطلحة، والأعمش، وقرأ الباقون بالرفع على الابتداء، وخبره ﴿أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ الزَّوْجُ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فيما رماها به من الزنا، وتخصيص الغضب بالمرأة للتغليظ عليها لكونها أصل الفجور ومأنته، ولأن النساء يكثرن اللعن في العادة، ومع استكثارهن منه لا يكون له في قلوبهن كبير موقع بخلاف الغضب ﴿وَلَوْلَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتَهُ﴾ جواب لولا محذوف. قال الزجاج: المعنى: ولولا فضل الله لنال الكاذب منهما عذاب عظيم. ثم بين سبحانه كثير توبته على من تاب، وعظيم حكمته البالغة فقال ﴿وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ أي: يعود على من تاب إليه، ورجع عن معاصيه بالتوبة عليه، والمغفرة له، حكيم فيما شرع لعباده من اللعان، وفرض عليهم من الحدود.

وقد أخرج أبو داود في ناسخه، وابن المنذر، عن ابن عباس في قوله ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ قال: تاب الله عليهم من الفسوق، وأما الشهادة فلا تجوز. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، عن عمر بن الخطاب، أنه قال لأبي بكر: إن تبت قبلت شهادتك. وأخرج ابن مريويه عنه قال: توبتهم إكذابهم أنفسهم، فإن أكتبوا أنفسهم قبلت شهادتهم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال:

بضم الكاف. قال الفراء: وهو وجه جيد، لأن العرب تقول: فلان تولى عظيم كذا وكذا أي: أكبره، وقرأ الباقون بكسرهما. قيل: هما لغتان، وقيل: هو بالضم معظم الإفك، وبالكسر البداية به، وقيل: هو بالكسر الإثم. فالمعنى: إن الذي تولى معظم الإفك من العصابة له عذاب عظيم في الدنيا، أو في الآخرة، أو فيهما.

واختلف في هذا الذي تولى كبره من عصابة الإفك من هو منهم؛ فقيل: هو عبد الله بن أبي، وقيل: هو حسان، والأول هو الصحيح. وقد روى محمد بن إسحاق وغيره أن النبي ﷺ جلد في الإفك رجلين وامرأة، وهم مسطح بن أثانة، وحسان بن ثابت، وحمنة بنت جحش. وقيل: جلد عبد الله بن أبي، وحسان بن ثابت، وحمنة بنت جحش، ولم يجلد مسطحاً، لأنه لم يصرح بالكذب، ولكن كان يسمع ويشيع من غير تصريح. وقيل: لم يجلد أحداً منهم. قال القرطبي: المشهور من الأخبار، والمعروف عند العلماء: أن الذين حنوا: حسان، ومسطح، وحمنة. ولم يسمع بحد لعبد الله بن أبي، ويؤيد هذا ما في سنن أبي داود عن عائشة، قالت: لما نزل عنري، قام النبي ﷺ فذكر ذلك، وتلا القرآن، فلما نزل من المنبر أمر بالرجلين والمرأة فضربوا حدهم، وسماهم: حسان، ومسطح بن أثانة، وحمنة بنت جحش.

واختلفوا في وجه تركه ﷺ لجلد عبد الله بن أبي، فقيل: لتوفير العذاب العظيم له في الآخرة، وحد من عداه ليكون ذلك تكفيراً لذنوبهم كما ثبت عنه ﷺ في الحدود أنه قال: «إنها كفارة لمن أقيمت عليه». وقيل: ترك حده تالفاً لقومه، واحتراماً لابنه، فإنه كان من صالح المؤمنين، وإطفاء لنائرة الفتنة، فقد كانت ظهرت مباهيها من سعد بن عباد ومن معه كما في صحيح مسلم. ثم صرف سبحانه الخطاب عن رسول الله ﷺ ومن معه إلى المؤمنين بطريق الالتفات فقال «لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً» «لولا» هذه هي التحضيضية تأكيداً للتوبيخ، والتقريع، ومبالغة في معاتبتهم أي: كان ينبغي للمؤمنين حين سمعوا مقالة أهل الإفك أن يقيسوا ذلك على أنفسهم، فإن كان ذلك يبعد فيهم، فهو: في أم المؤمنين أبعاد. قال الحسن: معنى بأنفسهم باهل دينهم، لأن المؤمنين كنفس واحدة لا ترى إلى قوله: «لولا تقتلوا أنفسكم» [النساء: 29]. قال الزجاج: ولذلك يقال للقوم الذين يقتل بعضهم بعضاً: إنهم يقتلون أنفسهم. قال الميرد: ومثله قوله سبحانه «فأقتلوا أنفسكم» [البقرة: 54] قال النحاس: بأنفسهم بإخوانهم، فوجب الله سبحانه على المسلمين إذا سمعوا رجلاً يقتل أحداً، وينكره بقبيح لا يعرفونه به أن ينكروا عليه ويكتبوه. قال العلماء: إن في الآية نليلاً على أن درجة الإيمان والعفاف لا يزيلها الخبر المحتمل وإن شاع «وقالوا هذا إفك مبين» أي: قال المؤمنون عند سماع الإفك: هذا إفك ظاهر مكشوف، وجملة «لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء» من تمام ما يقوله المؤمنون أي وقالوا: هلا

هم الكذبةون ﴿١٧﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَكْتُمْ فِي مَا أَفْسَفْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٨﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَتَّبِعُونَهُ هَيْجًا وَهَمًّا عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ مَا يَكُونُ لَكُمْ أَنْ تَتَّكُمَ عَلَيْهَا سَبْحًا مِثْلَ هَذَا بَشَرًا عَظِيمٌ ﴿٢٠﴾ يَتَّبِعُكُمْ اللَّهُ أَنْ تَعْرُدُوا لِإِثْلِهِ طَبَالًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢١﴾ وَبَيَّنَّ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَظِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ زَوَّجَ رَجُلَيْكُمْ ﴿٢٤﴾ بَنَاتِهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُلُوتِ الْقَيْطَانِ وَنَنْبَغِ خُلُوتِ الْقَيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْعَنَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ لَعَنَ اللَّهُ لَكُورًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾

خبر إن من قوله «إن الذين جاءوا بالإفك» هو: «عصبة»، و«منكم» صفة لعصبة، وقيل: هو «لا تحسبوه شراً لكم»، ويكون عصبة بدلا من فاعل جاءوا. قال ابن عطية: وهذا أنسق في المعنى، وأكثر فائدة من أن يكون الخبر عصبة، وجملة لا تحسبوه، وإن كانت طلبية، فجعلها خبراً يصح بتقدير كما في نظائر ذلك، والإفك أسوأ الكذب وأقبحه، وهو مأخوذ من أفك الشيء إذا قلبه عن وجهه. فالإفك هو: الحديث المقلوب، وقيل: هو البيهتان وأجمع المسلمون على أن المراد بما في الآية ما وقع من الإفك على عائشة أم المؤمنين، وإنما وصفه الله بأنه إفك، لأن المعروف من حالها رضي الله عنها خلاف ذلك، قال الواحدي: ومعنى القلب في هذا الحديث الذي جاء به أولئك النفر: أن عائشة رضي الله عنها كانت تستحق الثناء بما كانت عليه من الحصانة، وشرف النسب والسبب لا القنف، فالذين رموها بالسوء قلبوا الأمر عن وجهه، فهو إفك قبيح، وكذب ظاهر، والعصبة: هم الجماعة من العشرة إلى الأربعين، والمراد بهم هنا عبد الله بن أبي رأس المنافقين، زيد بن رفاع، وحسان بن ثابت، ومسطح بن أثانة، وحمنة بنت جحش، ومن ساعدهم. وقيل: العصبة من الثلاثة إلى العشرة، وقيل: من عشرة إلى خمسة عشر، وأصلها في اللغة الجماعة الذين يتعصب بعضهم لبعض، وجملة «لا تحسبوه شراً لكم» إن كانت خبراً لئن فظاهر، وإن كان الخبر عصبة كما تقدم، فهي مستأنفة، فخطب بها النبي ﷺ، وعائشة، وصفوان بن المعطل الذي قنف مع أم المؤمنين، وتسلية لهم، والشر ما زاد ضره على نفعه، والخير ما زاد نفعه على ضره، وأما الخير الذي لا شر فيه فهو: الجنة، والشر الذي لا خير فيه فهو: النار، ووجه كونه خيراً لهم أنه يحصل لهم به الثواب العظيم مع بيان براءة أم المؤمنين، وصيرورة قصتها هذه شرعاً عاماً «لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم» أي: بسبب تكلمه بالإفك «والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم» قرأ الحسن، والزهري، وأبو رجا، وحמיד الأعرج، ويعقوب، وابن أبي عمير، ومجاهد، وعمر بن عبد الرحمن

راجع إلى الحديث الذي وقع الخوض فيه والإنذاعة له **﴿وتحسبونه هيناً﴾** أي: شيئاً يسيراً لا يلحقكم فيه إثم، وجملة **﴿وهو عند الله عظيم﴾** في محل نصب على الحال أي: عظيم نذبه وعقابه **﴿ولولا﴾** إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا **﴿هذا عتاب لجميع المؤمنين﴾** أي: هلا إذا سمعتم حديث الإفك قلتم تكنياً للخاصين فيهم المفتزين له ما ينبغي لنا، ولا يمكننا أن نتكلم بهذا الحديث، ولا يصدر ذلك منا بوجه من الوجوه، ومعنى قوله **﴿سبحانك هذا بهتان عظيم﴾** التعجب من أولئك الذين جاءوا بالإفك، وأصله التنزيه لله سبحانه، ثم كثر حتى استعمل في كل متعجب منه، والبهتان هو: أن يقال في الإنسان ما ليس فيه أي: هذا كذب عظيم لكونه قيل في أم المؤمنين رضي الله عنها، وصدوره مستحيل شرعاً من مثلها. ثم وعظ سبحانه الذين خاضوا في الإفك فقال **﴿يعظكم الله أن تعوبوا لمثله لبدأ﴾** أي: ينصحكم الله، أو يحرم عليكم، أو ينهاكم كرامة أن تعوبوا، أو من أن تعوبوا، أو في أن تعوبوا لمثل هذا القذف مدة حياتكم **﴿إن كنتم مؤمنين﴾** فإن الإيمان يقتضي عدم الوقوع في مثله ما تمت، وفيه تهيج عظيم وتقريع بالغ **﴿ويبين الله لكم الآيات﴾** في الأمر والنهي لتعملوا بذلك، وتتأبوا بأدب الله، وتتزجروا عن الوقوع في محاربه **﴿والله عليم﴾** بما تبون وتخفون **﴿حكيم﴾** في تدبيراته لخلقه. ثم هذ سبحانه القاذفين، ومن أراد أن يتسامع الناس بعيوب المؤمنين، ونذوبهم فقال: **﴿إن الذين يحبون أن تشيع للفاحشة في الذين آمنوا﴾** أي: يحبون أن تفشو الفاحشة وتنتشر، من قولهم: شاع الشيء شيوعاً، وشيعاً، وشيعاناً: إذا ظهر وانتشر، والمراد بالذين آمنوا المحصنون العفيفون، أو كل من اتصف بصفة الإيمان، والفاحشة هي: فاحشة الزنا، أو القول السيئ **﴿لهم عذاب اليم في الدنيا﴾** بإقامة الحد عليهم **﴿والآخرة﴾** بعذاب النار **﴿والله يعلم﴾** جميع المعلومات **﴿وانتم لا تعلمون﴾** إلا ما علمكم به وكشفه لكم، ومن جملة ما يعلمه الله عظم نذبه القذف، وعقوبة فاعله **﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته﴾** هو: تكرير لما تقدم تنكيراً للمنة منه سبحانه على عباده بترك المعالجة لهم **﴿وان الله رؤوف رحيم﴾** ومن رافته بعباده أن لا يعاجلهم بنذوبهم، ومن رحمته لهم أن يتقدم إليهم بمثل هذا الإعذار، والإنذار، وجملة: **﴿وان الله رؤوف رحيم﴾** معطوفة على فضل الله، وجواب لولا محذوف لدلالة ما قبله عليه أي: لعاجلكم بالعقوبة **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان﴾** الخطوات جمع خطوة، وهي: ما بين القدمين، والخطوة بالفتح المصدر أي: لا تتبعوا مسالك الشيطان ومذاهبه، ولا تسلكوا طرائقه التي يدعوكم إليها. قرأ الجمهور (خطوات) بضم الخاء، والطاء، وقرأ عاصم، والأعمش بضم الخاء، وإسكان الطاء. **﴿من يتبع خطوات الشيطان فإنه يامر بالفحشاء والمنكر﴾** قيل: جزاء الشرط محذوف أقيم مقامه ما هو علة له، كأنه قيل: فقد ارتكب

جاء الخائضون بأربعة شهداء يشهدون على ما قالوا **﴿فإذا لم يأتوا بالشهداء فاولئك﴾** أي: الخائضون في الإفك **﴿عند الله هم الكاذبون﴾** أي: في حكم الله تعالى هم الكاذبون الكاملون في الكذب **﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة﴾** هذا خطاب للسامعين، وفيه زجر عظيم **﴿ولولا﴾** هذه هي لامتناع الشيء لوجود غيره **﴿لمسكم فيما أفضتم فيه﴾** أي: بسبب ما خضتم فيه من حديث الإفك، يقال أفاض في الحديث، واندفع وخاض. والمعنى: لولا أنني قضيت عليكم بالفضل في الدنيا بالنعم التي من جعلتها الإسهال، والرحمة في الآخرة بالعفو، لعاجلتكم بالعقاب على ما خضتم فيه من حديث الإفك. وقيل: المعنى لولا فضل الله عليكم لمسكم العذاب في الدنيا والآخرة معاً، ولكن برحمته ستر عليكم في الدنيا، ويرحم في الآخرة من أتاه تائباً **﴿إذ تلقونه بالسنتكم﴾** الظرف منصوب بـمسكم، أو بأفضتم، قرأ الجمهور: **﴿إذ تلقونه﴾** من التلقي، والأصل تتلقونه، فحذف إحدى التاءين. قال مقاتل، ومجاهد: المعنى يرويه بعضكم عن بعض. قال الكلبى: وذلك أن الرجل منهم يلقي الرجل فيقول: بلغني كذا، وكذا، ويتلقونه تلقياً. قال الزجاج: معناه يلقيه بعضكم إلى بعض. وقرأ محمد بن السميع بضم التاء، وسكون اللام، وضم القاف، من الإلقاء، ومعنى هذه القراءة واضح. وقرأ لبي، وابن مسعود (تتلقونه) من التلقي، وهي كقراءة الجمهور. وقرأ ابن عباس، وعائشة، وعيسى بن عمر، ويحيى بن يعمر، وزيد بن علي بفتح التاء، وكسر اللام، وضم القاف، وهذه القراءة مأخوذة من قول العرب، ولقي يلق ولقاءً: إذا كذب. قال ابن سيده: جاءوا بالمتعدي شاهداً على غير المتعدي. قال ابن عطية: وعندي أنه أراد يلقون فيه، فحذف حرف الجر، فاتصل الضمير. قال الخليل، وأبو عمرو: أصل الولي الإسراع، يقال: جاءت الإبل تلق أي: تسرع، ومنه قول الشاعر:

لما رأوا جيشاً عليهم قد طرق
جاءوا بأسراب من الشام ولق

وقال الآخر:

جاءت به عيس من الشام تلق

قال أبو البقاء: أي: يسرعون فيه. قال ابن جرير: وهذه اللفظة أي: تلقونه على القراءة الأخيرة مأخوذة من الولي، وهو: الإسراع بالشيء بعد الشيء كعد في إثر عد، وكلام في إثر كلام. وقرأ زيد بن أسلم، وأبو جعفر (تألقونه) بفتح التاء، وهمزة سالكة، ولام مكسورة، وقاف مضمومة من الألق، وهو: الكذب، وقرأ يعقوب (تتلقونه) بكسر التاء من فوق بعدها ياء تحتية سالكة، ولام مفتوحة، وقاف مضمومة، وهو: مضارع ولق بكسر اللام، ومعنى: **﴿وتقولون﴾** باقواهم ما ليس لكم به علم **﴿أن قولهم هذا مختص بالافواه من غير أن يكون واقعاً في الخارج معتقداً في القلوب﴾** وقيل: إن نكر الافواه للتأكيد كما في قوله: **﴿يطير بجناحيه﴾** [الأنعام: 38]، ونحوه، والضمير في تحسبونه

عبد الله بن أبي، قال: فقال لي: فما كان جرمه؟ قلت: حدثني شيخان من قومك أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام أنهما سمعا عائشة تقول: كان مسيئاً في أمري. وقال يعقوب بن شيبه في مسنده: حدثنا الحسن بن علي الحلواني، حدثنا الشافعي، حدثنا عمي قال: دخل سليمان بن يسار على هشام بن عبد الملك فقال له: يا سليمان الذي تولى كبره من هو؟ قال: عبد الله بن أبي. قال: كذبت هو علي. قال: أمير المؤمنين أعلم بما يقول، فدخل الزهري فقال: يا ابن شهاب من الذي تولى كبره؟ فقال: ابن أبي. قال: كذبت هو علي. قال: أنا أكذب؟ لا أبا لك، والله لو نادى منا من السماء أن الله قد أحل الكذب ما كذبت، حدثني عروة، وسعيد، وعبد الله، وعلقمة عن عائشة: أن الذي تولى كبره عبد الله بن أبي، وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن مسروق قال: دخل حسان بن ثابت على عائشة فشبه وقال:

حصان رزان ما تزن برية وتصبح غرشي من لحوم الغوافل
قالت: لكنك لست كذلك، قلت: تدعين مثل هذا يدخل عليك،
وقد أنزل الله ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾
فقلت: وأي عذاب أشد من العمى؟ وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وابن عساکر عن بعض الأنصار: أن امرأة أبي أيوب قالت له حين قال أهل الإفك ما قالوا: ألا تسمع ما يقول الناس في عائشة؟ قال: بلى وذلك الكذب، أكنت أنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا والله، قال: فعائشة والله خير منك، وأطيب، إنما هذا كذب وإفك باطل، فلما نزل القرآن نكر الله من قال من الفاحشة ما قال من أهل الإفك. ثم قال: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خِيراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾ أي: كما قال أبو أيوب، وصاحبته. وأخرج الواقدي، والحكم، وابن عساکر عن أفلح مولى أبي أيوب: أن أم أيوب، فنكر نحوه. وأخرج ابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه عن ابن عباس ﴿يُعْظَمُكَ اللَّهُ أَنْ تُعَوِّدُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا﴾ قال: يحرّج الله عليكم. وأخرج البخاري في الأدب، والبيهقي في شعب الإيمان، عن علي بن أبي طالب قال: للقاتل الفاحشة، والذي شيع بها في الإثم سواء. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله ﴿مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ قال: ما اهتدى أحد من الخلاق لشيء من الخير.

١ وَلَا يَأْتِي أَوْلَا الْفَضْلِ وَكَرَّ السَّعَى أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْكَافِرِينَ
وَالْمُنَافِقِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَيَعْمَلُوا بِمِصْحُومٍ إِلَّا عُدُّوا أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ
غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَزُومُكَ الْمُصْحَفَاتِ الْمُتَوَسِّطَاتِ لِيُؤْمِنُوا فِي
الْذُّنْبِ وَالْآخِرَةِ وَلَمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٨﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ
وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَمْسَلُونَ ﴿١٩﴾ يُوعَذِّبُهُمْ اللَّهُ وَيَنْهَى عَنْهُمْ الْبَغْيَ وَيَسْلُطُونَ أَنَّ اللَّهَ
هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٠﴾ لَقَدْ يَنْشَأُ لِلْحَبِيثِينَ وَالْحَبِيثِينَ وَالْحَبِيثِينَ وَالْحَبِيثِينَ

الفحشاء والمنكر لأن دأبه أن يستمرّ أمراً لغيره بهما، والفحشاء ما أقرط قبحه، والمنكر ما ينكره الشرع، وضمير إنه للشيطان، وقيل: للشان، والأولى أن يكون عائداً إلى من يتبع خطوات الشيطان، لأن من اتبع الشيطان صار مقتدياً به في الأمر بالفحشاء والمنكر ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ قد تقدّم بيانه، وجواب لولا هو قوله ﴿مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ أي: لولا التفضيل، والرحمة من الله ما طهر أحد منكم نفسه من نفسها ما دام حياً. قرأ الجمهور (زكى) بالتخفيف، وقرأ الأعمش، وابن محيصن، وأبو جعفر بالتشديد أي: ما طهره الله. وقال مقاتل: أي: ما صلح. والأولى تفسير زكى بالتطهر والتطهير، وهو الذي نكره ابن قتبية. قال الكسائي: إن قوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطَاوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ معترض، وقوله ﴿مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ جواب لقوله: أولاً، وثانياً، ولولا فضل الله. وقرأه التخفيف أرجح لقوله ﴿وَلَكِنْ اللَّهُ يَزَكِي مِنْ يَشَاءُ﴾ أي: من عباده بالتفضل عليهم، والرحمة لهم ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لما يقولونه ﴿عَلِيمٌ﴾ بجميع المعلومات، وفيه حدّ بالغ على الإخلاص، وتهيج عظيم لعباده التائبين، ووعيد شديد لمن يتبع الشيطان، ويحب أن تشيع الفاحشة في عباد الله المؤمنين، ولا يزر نفسه بزواج الله سبحانه.

وقد أخرج البخاري، ومسلم، وأهل السنن، وغيرهم حديث عائشة الطويل في سبب نزول هذه الآيات بالفاظ متعدّدة، وطرق مختلفة. حاصله: أن سبب النزول هو: ما وقع من أهل الإفك الذين تقدّم نكرهم في شأن عائشة رضي الله عنها، وذلك أنها خرجت من هوجها تلتمس عقداً لها انقطع من جزع، فرحلوا، وهم يظنون أنها في هوجها، فرجعت، وقد ارتحل الجيش، واليهود معهم، فاقامت في ذلك المكان، ومزّ بها صفوان بن المعطل، وكان متأخراً عن الجيش، فأتاها راحلته، وحملها عليها؛ فلما رأى ذلك أهل الإفك قالوا ما قالوا، فبرأها الله مما قالوه. هذا حاصل القصة مع طولها، وتشعب أطرافها فلا نطول بذكر ذلك. وأخرج عبد الرزاق، وأحمد، وعبد بن حميد، وأهل السنن الأربع، وابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن عائشة قالت: لما نزل عذري قام رسول الله ﷺ على المنبر فنكر ذلك، وتلا القرآن، فلما نزل أمر برجلين وامرأة فضربوا حذم. قال الترمذي: هذا حديث حسن. ووقع عند أبي داود تسميتهم: حسان بن ثابت، ومسطح بن أثانة، وحممة بنت جحش. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس قال: الذين افتروا على عائشة عبد الله بن أبي سلول، ومسطح، وحسان، وحممة بنت جحش. وأخرج البخاري، وابن المنذر، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن الزهري قال: كنت عند الوليد بن عبد الملك، فقال: الذي تولى كبره منهم علي، فقلت لا، حدثني سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، وعلقمة بن وقاص، وعبد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود كلهم سمع عائشة تقول: الذي تولى كبره منهم

لِلْمُتَّقِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ لِلَّهِ الْمُلْكُ كُلُّ شَيْءٍ قَدْ أَفْضَلْنَا لَكُمْ فِيهِ نَسِيئًا لَكُمْ وَلَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٣٦﴾

قوله ﴿ولا ياتل﴾ أي: يحلف، وزنه يفتعل من الالية، وهي اليمين، ومنه قول الشاعر:
تلى ابن أوس حلفاً ليرئني إلى نسوة كاتهن مفاد
وقول الآخر:

قليل الاليا حافظ ليمينه وإن بدرت منه الالية برت
يقال: اثتلى ياتلي إذا حلف. ومنه قوله سبحانه: ﴿للذين يؤتون من نساءهم﴾ [البقرة: 226] وقالت فرقة: هو: من ألوت في كذا إذا قصرت، ومنه لم آل جهداً: أي: لم أقصر، وكذا منه قوله: ﴿لا يالونكم خبالاً﴾ [آل عمران: 118] ومنه قول الشاعر:

وما المرء ما دامت حشاشة نفسه بمسرك أطراف الخطوب ولا آل
والأول أولى بليل سبب للنزول، وهو ما سيأتي، والمراد بالفضل الغنى والسعة في المال ﴿إن يؤتوا أولى القرى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله﴾ أي: على أن لا يؤتوا. قال الزجاج: أن لا يؤتوا فحذف لا، ومنه قول الشاعر:
فقلت يمين الله أبرح قاعداً ولو قطعوا رأسي لبيك وأوصالي
وقال أبو عبيدة: لا حاجة إلى إضمار لا، والمعنى: لا يحلفوا على أن لا يحسنوا إلى المستحقين للإحسان الجامعين لتلك الأوصاف، وعلى الوجه الآخر يكون المعنى: لا يقصروا في أن يحسنوا إليهم، وإن كانت بينهم شحنة للذنوب اقترفوها، وقرأ أبو حيو (إن تؤتوا) بقاء الخطاب على الالتفات. ثم علمهم سبحانه أبناً آخر، فقال: ﴿وليغفوا﴾ عن ذنبهم الذي أنذبه عليهم، وجناباتهم التي اقترفوها، من عفا الرابع: أي: نرس، والمراد مجو الذنب حتى يغفو كما يغفو أثر الربيع ﴿وليصفحوا﴾ بالإغضاء عن الجاني، والإغضاء عن جنابته، وقرئ بالقوقية في الفعلين جميعاً. ثم نكر سبحانه ترغيباً عظيماً لمن عفا وصفح، فقال ﴿الا تحبون أن يغفر الله لكم﴾ بسبب عفوكم وصفحكم عن الفاعلين للإساءة عليكم ﴿والله غفور رحيم﴾ أي: كثير المغفرة والرحمة لعباده مع كثرة ذنوبهم، فكيف لا يقتدي العباد بربهم في العفو والصفح عن المسيئين إليهم ﴿إن الذين يرمون المحصنات﴾ قد مر تفسير المحصنات، ونكرنا الإجماع على أن حكم المحصنين من الرجال حكم المحصنات من النساء في حد القذف.

وقد اختلف في هذه الآية هل هي خاصة أو عامة؟ فقال سعيد بن جببر: هي خاصة فيمن رمى عائشة رضي الله عنها. وقال مقاتل: هي خاصة بعبد الله بن أبي رأس المنافقين. وقال الضحك، والكلبى: هذه الآية هي في عائشة وسائر أزواج النبي ﷺ، نون سائر المؤمنين والمؤمنات، فمن قذف إحدى أزواج النبي ﷺ، فهو من أهل هذه الآية. قال الضحك: ومن أحكام هذه الآية: أنه لا توبة لمن رمى إحدى أزواجه ﷺ، ومن قذف غيره فقد جعل الله له التوبة كما تقدم في قوله: ﴿إلا الذين تابوا﴾ [النور: 5]. وقيل: إن

هذه الآية خاصة بمن أصر على القذف ولم يتب، وقيل: إنها تعم كل قائف ومقذوف من المحصنات والمحصنين، واختاره النحس، وهو: الموافق لما قرره أهل الأصول من أن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. وقيل: إنها خاصة بمشركي مكة، لأنهم كانوا يقولون للمرأة إذا خرجت مهاجرة: إنما خرجت لتفجر. قال أهل العلم: إن كان المراد بهذه الآية المؤمنون من القنفة، فالمراد باللعنة الإبعاد، وضرب الحد، وهجر سائر المؤمنين لهم، وزوالهم عن رتبة العدالة، والبعد عن الثناء الحسن على السنة المؤمنين، وإن كان المراد بها من قذف عائشة خاصة كانت هذه الأمور في جانب عبد الله بن أبي رأس المنافقين، وإن كانت في مشركي مكة فإنهم ملعونون ﴿في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم﴾، والمراد بالغفلات اللاتي غفلن عن الفاحشة بحيث لا تخطر ببالهن، ولا يفتن لها، وفي ذلك من الدلالة على كمال النزاهة وطهارة الجيب ما لم يكن في المحصنات، وقيل: من السليمان الصدور النقيات القلوب ﴿يوم تشهد عليهم السنتهم﴾ هذه الجملة مقررة لما قبلها مبنية لوقت حلول ذلك العذاب بهم، وتعيين اليوم لزيادة التهويل بما فيه من العذاب الذي لا يحيط به وصف. وقرأ الجمهور (يوم تشهد) بالقوقية، واختار هذه القراءة أبو حاتم، وقرأ الأعمش، ويحيى بن وثاب، وحزمة، والكسائي، وخلف بالتحية، واختار هذه القراءة أبو عبيد، لأن الجار والمجرور قد حال بين الاسم والفعل. والمعنى: تشهد السنة بعضهم على بعض في ذلك اليوم، وقيل: تشهد عليهم السنتهم في ذلك اليوم بما تكلموا به ﴿وليبيهم وأرجلهم﴾ بما عملوا بها في الدنيا، وإن الله سبحانه ينطقها بالشهادة عليهم، والمشهود محنوف، وهو: ذنوبهم التي اقترفوها أي: تشهد هذه عليهم بذنوبهم التي اقترفوها، ومعاصيهم التي عملوها ﴿يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق﴾ أي: يوم تشهد عليهم جوارحهم بأعمالهم القبيحة يعطيهم الله جزاءهم عليها موقراً، فالمراد بالبين هاهنا الجزاء، وبالحق الثابت الذي لا شك في ثبوته. قرأ زيد بن علي (يوفيههم) مخففاً من أوفى، وقرأ من عاده بالتشديد من وفى. وقرأ أبو حيو، ومجاهد (الحق) بالرفع على أنه نعت له، وروي ذلك عن ابن مسعود. وقرأ الباقر بالنصب على أنه نعت لدينهم. قال أبو عبيدة: ولولا كراهة خلاف الناس لكان الوجه الرفع؛ ليكون نعتاً لله عز وجل، ولتكون موافقة لقراءة أبي، وذلك أن جرير بن حازم قال: رايت في مصحف أبي (يوفيههم الله الحق دينهم). قال النحاس: وهذا الكلام من أبي عبيدة غير مرضي؛ لأنه احتج بما هو مخالف للسواد الأعظم، ولا حجة أيضاً فيه؛ لأنه لو صح أنه في مصحف أبي كذلك جاز أن يكون دينهم بدلاً من الحق ﴿ويعلمون أن الله هو الحق للمبين﴾ أي: ويعلمون عند معابنتهم لذلك، ووقوعه على ما نطق به الكتاب العزيز: أن الله هو: الحق الثابت في ذاته، وصفاته، وأفعاله، المبين المظهر للأشياء كما هي في أنفسها، وإنما سمي سبحانه

﴿هو أزكى لكم﴾ أي: أفضل ﴿واظهر﴾ من التنفس بالمشاحة على النحول لما في ذلك من سلامة الصدر، والبعد من الريبة، والفرار من الدناءة ﴿والله بما تعملون عليكم﴾ لا تخفى عليه من أعمالكم خافية ﴿ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم﴾ أي: لا جناح عليكم في النحول بغير استئذان إلى البيوت التي ليست بمسكونة.

وقد اختلف الناس في المراد بهذه البيوت، فقال محمد بن الحنفية، وقتادة، ومجاهد: هي الفنايق التي في الطرق السابلة الموضوعة لأين السبيل يأوي إليها. وقال ابن زيد، والشعبي: هي حوانيت القيساريات، قال الشعبي: لأنهم جاءوا ببيوعهم، فجعلوها فيها، وقالوا: للناس هلم. وقال عطاء: المراد بها الخرب التي يدخلها الناس للبول، والغائط، ففي هذا أيضاً متاع. وقيل: هي بيوت مكة. روي ذلك عن محمد ابن الحنفية أيضاً، وهو موافق لقول من قال: إن الناس شركاء فيها، ولكن قد قيد سبحانه هذه البيوت المذكورة هنا بأنها غير مسكونة. والمتاع: المنفعة عند أهل اللغة، فيكون معنى الآية: فيها منفعة لكم، ومنه قوله: ﴿ومتعوهم﴾ [البقرة: 236] وقولهم: أمتع الله بك، وقد فسر الشعبي المتاع في كلامه المتقنم بالاعيان التي تباع. قال جابر بن زيد: وليس المراد بالمتاع الجهاز، ولكن ما سواه من الحاجة. قال النحاس: وهو حسن موافق للغة ﴿والله يعلم ما تبدون وما تكتمون﴾ أي: ما تظهرون وما تخفون، وفيه وعيد لمن لم يتأب بأداب الله في دخول بيوت الغير.

وقد أخرج الفريابي، وابن جرير من طريق عدي بن ثابت عن رجل من الأنصار قال: قالت امرأة: يا رسول الله إني أكون في بيتي على الحالة التي لا أحب أن يراني عليها أحد، ولد ولا والد، فيأتيني الأب فيدخل علي، فكيف أصنع؟ ولفظ ابن جرير: وإنه لا يزال يدخل علي رجل من أهلي، وأنا على تلك الحالة، فنزلت ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم﴾ الآية. وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري في المصاحف، وابن منده في غرائب شعبة، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب، والضياء في المختارة من طرق عن ابن عباس في قوله ﴿حتى تستأنسوا﴾ قال: أخطأ الكاتب حتى تستأننوا ﴿وتسلموا على أهلها﴾. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، والبيهقي، عن إبراهيم النخعي قال في مصحف عبد الله (حتى تسلموا على أهلها وتستأننوا). وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر عن عكرمة مثله. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن مردويه، عن ابن عباس قال: الاستئناس: الاستئذان. وأخرج ابن أبي شيبة، والحكيم الترمذي، والطبراني، وابن مردويه، وابن أبي حاتم، عن أبي أيوب قال: قلت: يا رسول الله أرأيت قول الله تعالى ﴿حتى تستأنسوا﴾

على حالة قد لا يحب أن يراه عليها غيره، فنهى الله سبحانه عن دخول بيوت الغير إلى غاية، هي قوله ﴿حتى تستأنسوا﴾، والاستئناس: الاستعلام، والاستخبار أي: حتى تستعلموا من في البيت، والمعنى: حتى تعلموا أن صاحب البيت قد علم بكم، وتعلموا أنه قد أنن بدخولكم، فإذا علمتم ذلك دخلتم، ومنه قوله: ﴿فإن أنستم منهم رشداً﴾ [النساء: 6] أي: علمتم. قال الخليل: الاستئناس الاستكشاف، من أنس الشيء إذا أبصره كقوله: ﴿إني أنست ناراً﴾ [طه: 10، النمل: 7] أي: أبصرت. وقال ابن جرير: إنه بمعنى وتؤنسوا أنفسكم. قال ابن عطية: وتصريف الفعل يأبى أن يكون من أنس. ومعنى كلام ابن جرير هذا: أنه من الاستئناس الذي هو خلاف الاستيحاش، لأن الذي يطرق باب غيره لا يدري أيؤنن له أم لا؟ فهو كالمستوحش حتى يؤنن له، فإذا أنن له استأنس، فنهى سبحانه عن دخول تلك البيوت حتى يؤنن للداخل. وقيل: هو من الإنس، وهو: أن يتعرف هل ثم إنسان أم لا؟ وقيل: معنى الاستئناس: الاستئذان أي: لا تدخلوها حتى تستأننوا. قال الواحدي: قال جماعة المفسرين: حتى تستأننوا، ويؤيده ما حكاه القرطبي عن ابن عباس، وأبي، وسعيد بن جبير: أنهم قرءوا (حتى تستأننوا). قال مالك فيما حكاه عنه ابن وهب: الاستئناس فيما يرى، والله أعلم الاستئذان، وقوله ﴿وتسلموا على أهلها﴾ قد بينه النبي ﷺ كما سيأتي بأن يقول: «السلام عليكم النخل؟ مرة، أو ثلاثاً كما سيأتي».

واختلفوا هل يقدم الاستئذان على السلام، أو العكس، فقيل: يقدم الاستئذان، فيقول: أدخل سلام عليكم، لتقديم الاستئناس في الآية على السلام. وقال الكثيرون: إنه يقدم السلام على الاستئذان فيقول: السلام عليكم النخل، وهو الحق، لأن البيان منه ﷺ للآية كان هكذا. وقيل: إن وقع بصره على إنسان قنم السلام، وألا قنم الاستئذان ﴿لنكم خير لكم﴾ الإشارة إلى الاستئناس، والتسليم أي: دخولكم مع الاستئذان، والسلام خير لكم من الدخول بغتة ﴿لعلكم تذكرون﴾ أن الاستئذان خير لكم، وهذه الجملة متعلقة بمقتر أي: أمرتم بالاستئذان، والمراد بالذكر الاتعاظ، والعمل بما أمروا به ﴿فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم﴾ أي: إن لم تجدوا في البيوت التي لغيركم أحداً ممن يستأنن عليه فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم بدخولها من جهة من يملك الإنن. وحكى ابن جرير عن مجاهد أنه قال: معنى الآية فإن لم تجدوا فيها أحداً أي: لم يكن لكم فيها متاع، وضعفه، وهو حقيق بالضعف، فإن المراد بالأحد المنكور أهل البيوت الذين يأننون للغير بدخولها، لا متاع الداخلين إليها ﴿وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا﴾ أي: إن قال لكم أهل البيت: ارجعوا، فارجعوا، ولا تعاونوهم بالاستئذان مرة أخرى، ولا تنتظروا بعد ذلك أن يأننوا لكم بعد أمرهم لكم بالرجوع. ثم بين سبحانه: أن الرجوع أفضل من الإلحاح، وتكرار الاستئذان، والعودة على الباب فقال:

جُوبُونَ وَلَا يُبْدِيكَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِمُعَلَّمِينَ أَوْ مَابِطِينَ أَوْ مَابِطِينَ
بُعُولَتِهِمْ أَوْ أَكْبَاهِهِمْ أَوْ أَبْنَاءَ بُعُولَتِهِمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ
بَنِي أَخَوَاتِهِمْ أَوْ إِسَاءِيَهُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ أَوْ التَّائِبِينَ غَيْرَ أُولَى الْأَرْوَاحِ
مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الْطِفْلِ الْأَدِيمِ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَتِ الْإِسَاءِ وَلَا يَضْرِبُوا
بِأَرْجُلِهِمْ لِمَعْلَمٍ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِمْ وَتَوَرَّأُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا إِنَّهُ السَّمُوتُوتُ
لَمَكْرُوفٌ تَقْلُوتُ

لما نكر سبحانه حكم الاستئذان، أتبعه بنكر حكم النظر
على العموم، فيندرج تحته غَضُ البصر من المستأذن، كما
قال ﷺ: «إنما جعل الإن من أجل البصر»، وخص
المؤمنين مع تحريمه على غيرهم، لكون قطع ذرائع الزنا
التي منها النظر هم أحق من غيرهم بها، وأولى بذلك ممن
سواهم. وقيل: إن في الآية تليلاً على أن الكفار غير
مخاطبين بالشرعيات كما يقوله بعض أهل العلم، وفي الكلام
حنف، والتقدير «قل للمؤمنين» غرضاً «بغضوا»،
ومعنى غَضُ البصر: إطباق الجفن على العين بحيث تمتنع
الرؤية، ومنه قول جرير:

فغَضُ الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلاباً
وقول عنتر:

وأغَضُ طرفي ما بدت لي جارتني حتى توارى جارتني ماواها
و«من» في قوله «من لبصارهم» هي: التبعية، واليه
ذهب الآخرون، وبينوه بأن المعنى: غَضُ البصر عما يحرم،
والاقتصار به على ما يحل. وقيل: وجه التبعية: أنه يعفى
للناظر أول نظرة تقع من غير قصد. وقال الأخفش: إنها
زائدة، وأنكر ذلك سيبويه. وقيل: إنها لبيان الجنس قاله أبو
البقاء. واعترض عليه: بأنه لم يتقدم مبهم يكون مفسراً بمن،
وقيل: إنها لا ابتداء الغاية قاله ابن عطية، وقيل: الغض
النقصان، يقال: غَضُ فلان من فلان أي: وضع منه، فالبصر
إذا لم يمكن من عمله، فهو: مغضوض منه، ومقصور، فتكون
«من» صلة للغض، وليست لمعنى من تلك المعاني الأربعة.
وفي هذه الآية دليل على تحريم النظر إلى غير من يحل
النظر إليه، ومعنى «ويحفظوا فروجهم»: أنه يجب عليهم
حفظها عما يحرم عليهم. وقيل: المراد ستر فروجهم عن أن
يراهم من لا تحل له رؤيتها، ولا مانع من إرادة المعنيين،
فالكل يدخل تحت حفظ الفرج. قيل: وجه المجيء بمن في
الإبصار دون الفروج أنه موسع في النظر فإنه لا يحرم منه
إلا ما استثنى، بخلاف حفظ الفرج فإنه مضيق فيه، فإنه لا
يحل منه إلا ما استثنى. وقيل: الوجه أن غَضُ البصر كله
كالمتعذر، بخلاف حفظ الفرج فإنه ممكن على الإطلاق،
والإشارة بقوله «تلك» إلى ما نكر من الغض، والحفظ،
وهو مبتدأ، وخبره «أزكى لهم» أي: أظهر لهم من نس
الريبة، وأطيب من التلبس بهذه النية «إن الله خير بما
يصنعون» لا يخفى عليه شيء من صنعهم، وفي ذلك
وعيد لمن لم يغض بصره، ويحفظ فرجه «وقول للمؤمنات
يغضضن من لبصارهن» خص سبحانه الإناث بهذا

وتسلموا على أهلها» هذا التسليم عرفناه فما الاستئناس؟
قال: يتكلم الرجل بتسبيحة، وتكبير، وتحميدة، ويتحنن،
فيؤذن أهل البيت. قال ابن كثير: هذا حديث غريب. وأخرج
الطبراني عن أبي أيوب: أن النبي ﷺ قال: «الاستئناس أن
يدعو الخادم حتى يستأنس أهل البيت الذين يسلم عليهم». وأخرج
ابن سعد، وأحمد، والبخاري في الألب، وأبو داود،
والترمذي، والنسائي، والبيهقي في الشعب من طريق كلفة:
«أن صفوان بن أمية بعثه في الفتح بلبا، وضغابيس، والنبي
ﷺ بأعلى الوادي، قال: فدخلت عليه، ولم أسلم، ولم
أستأن، فقال النبي ﷺ: أرجع، فقل: السلام عليكم أدخل؟»
قال الترمذي: حسن غريب لا نعرفه إلا من حديثه. وأخرج
ابن أبي شيبة، وأحمد، والبخاري في الألب، وأبو داود،
والبيهقي في السنن من طريق ربعي، قال: «حدثنا رجل من
بني عامر استأذن على النبي ﷺ، وهو في بيت، فقال: الحج؟
فقال النبي ﷺ: لخائمه: أخرج إلى هذا فعلمه الاستئذان،
فقل له: قل: السلام عليكم أدخل؟». وأخرج ابن جرير عن
عمر بن سعيد الثقفي نحوه مرفوعاً، ولكنه قال: «إن النبي
ﷺ قال لامة له يقال لها روضة: قومي إلى هذا فعلميه». وأخرج
البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أبي سعيد الخدري
قال: كنت جالساً في مجلس من مجالس الأنصار، فجاء أبو
موسى فزماً، فقلنا له: ما أزعك قال: أمرني عمر أن أتبه،
فاتيتي، فاستأذنت ثلاثاً، فلم يؤذن لي، فقال: ما منعك أن
تأتيني؟ فقلت: قد جئت، فاستأذنت ثلاثاً، فلم يؤذن لي، وقد
قال رسول الله ﷺ: إذا استأذن أحدكم ثلاثاً، فلم يؤذن له،
فليرجع: قال: لتأتيني على هذا بالبيتة، فقالوا: لا يقوم إلا
أصفر القوم، فقام أبو سعيد معه ليشهد له، فقال عمر لأبي
موسى: إني لم أتهمك، ولكن الحديث عن رسول الله ﷺ
شديد. وفي الصحيحين، وغيرهما من حديث سهل بن سعد
قال: «اطلع رجل من حجر في حجرة النبي ﷺ، ومعه
مدري يحك بها رأسه، قال: لو أعلم أنك تنظر لطمعت بها في
عينك، إنما جعل الاستئذان من أجل البصر». وفي لفظ: «إنما
جعل الإن من أجل البصر». وأخرج أبو يعلى، وابن جرير،
وابن مردويه، عن أنس قال: قال رجل من المهاجرين: لقد
طلبت عمري كله في هذه الآية، فما أدركتها أن استأذن على
بعض إخواني، فيقول لي أرجع، فأرجع، وأنا مغتبط لقوله
«وان قيل لكم راجعوا فارجعوا هو أزكى لكم». وأخرج
البخاري في الألب، وأبو داود في الناسخ والمنسوخ، وابن
جرير عن ابن عباس قال: «يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا
بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها»،
فنسخ، واستثنى من ذلك، فقال «ليس عليكم جناح أن
تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم».

قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَحُتُّوا مِنْ أَصْحَابِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَكُمْ إِنَّ
اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٥٥﴾ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَحْضُنْنَ مِنْ أَصْحَابِهِمْ وَيَحْفَظْنَ
فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ عَنَّا

الخطاب على طريق التأكيد لدخولهن تحت خطاب المؤمنين تغليباً كما في سائر الخطابات القرآنية، وظهر التضعيف في يَغْضُضْنَ، ولم يظهر في يَغْضُوا، لأن لام الفعل من الأوّل متحرّكة، ومن الثاني ساكنة، وهما في موضع جزم جواباً للأمر، وبدأ سبحانه بالغضّ في الموضعين قبل حفظ الفرج، لأن النظر وسيلة إلى عدم حفظ الفرج، والوسيلة مقدّمة على المتوسل إليه، ومعنى: يَغْضُضْنَ من أبصارهنّ كمعنى: يَغْضُوا من أبصارهم، فيستدلّ به على تحريم نظر النساء إلى ما يحرم عليهنّ، وكذلك يجب عليهنّ حفظ فروجهنّ على الوجه الذي تقدّم في حفظ الرجال لفروجهم ﴿وَلَا يَبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ أي: ما يزيّن به من الحلية، وغيرها، وفي النهي عن إبداء الزينة نهي عن إبداء مواضعها من أبدانهنّ بالأولى. ثم استثنى سبحانه من هذا النهي، فقال ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾.

واختلف الناس في ظاهر الزينة ما هو؟ فقال ابن مسعود، وسعيد بن جبير: ظاهر الزينة هو الثياب، وزاد سعيد بن جبير: الوجه. وقال عطاء، والأوزاعي: الوجه والكفان. وقال ابن عباس، وقتادة، والمسور بن مخرمة: ظاهر الزينة هو: الكحل، والسواك، والخضاب إلى نصف الساق، ونحو ذلك، فإنه يجوز للمرأة أن تبديه. وقال ابن عطية: إن المرأة لا تبدي شيئاً من الزينة، وتخفي كل شيء من زينتها، ووقع الاستثناء فيما يظهر منها بحكم الضرورة. ولا يخفى عليك أن ظاهر النظم القرآني النهي عن إبداء الزينة إلّا ما ظهر منها كالجلباب، والخمار، ونحوهما مما على الكف، والقدمين من الحلية، ونحوها، وإن كان المراد بالزينة مواضعها كان الاستثناء راجعاً إلى ما يشق على المرأة ستره كالقدمين والقدمين، ونحو ذلك. وهكذا إذا كان النهي عن إظهار الزينة يستلزم النهي عن إظهار مواضعها بفحوى الخطاب، فإنه يحمل الاستثناء على ما ذكرناه في الموضعين؛ وأما إذا كانت الزينة تشمل مواضع الزينة، وما تزيّن به النساء فالأمر واضح، والاستثناء يكون من الجميع. قال القرطبي في تفسيره: الزينة على قسمين: خلقية، ومكتسبة؛ فالخلقية: وجهها فإنه أصل الزينة، والزينة المكتسبة ما تحاوله المرأة في تحسين خلقها كالثياب، والحلي، والكحل، والخضاب، ومنه قوله تعالى ﴿خَنَوا زِينَتَكُمْ﴾ [الأعراف: 31] وقول الشاعر:

يَا خَنَ زِينَتَهُنَّ أَحْسَنَ مَا تَرَى وَإِنَّا عَطَلْنَ فَهِنَّ خَيْرَ عَوَاطِلِ
﴿وَلِيُضْرِبْنَ بِخُمْرِهِنَّ عَلَى جَبْهُنَّ﴾ قرا الجمهور بإسكان اللام التي للأمر. وقرا أبو عمرو بكسرها على الأصل؛ لأن أصل لام الأمر الكسر، ورويت هذه القراءة عن ابن عباس. والخمر جمع خمار، وهو ما تغطي به المرأة رأسها، ومنه اختمرت المرأة، وتخمرت. والجبوب: جمع جبب، وهو: موضع القطع من الدرع، والقميص، مأخوذ من الجوب، وهو: القطع. قال المفسرون: إن نساء الجاهلية كنّ يسلمن خمرهنّ من خلفهنّ، وكانت جيبوهنّ من قدام واسعة، فكان

تنكشف نحورهنّ، وقلائدهنّ، فأمرن: أن يضربن مقانعهنّ على الجيوب لتستر بذلك ما كان يبدي، وفي لفظ الضرب مبالغة في الإلقاء الذي هو: الإصااق. قرا الجمهور (بخمرهنّ) بتحريك الميم، وقرا طلحة بن مصرف يسكونها. وقرا الجمهور (جيبوهنّ) بضم الجيم، وقرا ابن كثير، وبعض الكوفيين بكسرها، وكثير من متقدمي النحويين لا يجوزون هذه القراءة. وقال الزجاج: يجوز: أن يبدل من الضمة كسرة، فأما ما روي عن حمزة من الجمع بين الضم والكسر فمحال لا يقدر أحد أن ينطق به إلّا على الإماء، وقد فسّر الجمهور الجيوب بما قُدمنا، وهو: المعنى الحقيقي، وقال مقاتل: إن معنى على جيبوهنّ: على صدورهنّ، فيكون في الآية مضاف محذوف أي: على مواضع جيبوهنّ، ثم كرر سبحانه النهي عن إبداء الزينة لأجل ما سينكره من الاستثناء، فقال ﴿وَلَا يَبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبَعُولَتِهِنَّ﴾ البعل هو: الزوج، والسيد في كلام العرب، وقدم البعولة لأنهم المقصولون بالزينة، ولأن كل بدن الزوجة والسرية حلال لهم، ومثله قوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ * إلّا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين [المؤمنون: 5 - 6]، ثم لما استثنى سبحانه الزوج أتبعه باستثناء ذوي المحارم، فقال ﴿أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءَهُنَّ﴾ إلى قوله ﴿أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ﴾ فجوز للنساء أن يبدين الزينة لهؤلاء لكثرة المخالطة، وعدم خشية الفتنة لما في الطباع من النفرة عن القرائب. وقد روي عن الحسن والحسين رضي الله عنهما: أنهما كانا لا ينظران إلى أمهات المؤمنين ذهاباً منهما إلى أن أبناء البعولة لم ينكروا في الآية التي في أزواج النبي ﷺ وهي قوله: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَ فِي آبَائِهِنَّ﴾، [الأحزاب: 55] والمراد بأبناء بعولتهنّ نكود أولاد الأزواج، ويدخل في قوله ﴿أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ﴾ أولاد الأولاد، وإن سفلوا، وأولاد بنتهنّ، وإن سفلوا، وكذا آباء البعولة، وآباء الآباء، وآباء الأمهات، وإن علوا، وكذلك أبناء البعولة، وإن سفلوا، وكذلك أبناء الإخوة، والأخوات. وذهب الجمهور إلى أن العمّ والخال كسائر المحارم في جواز النظر إلى ما يجوز لهم، وليس في الآية ذكر الرضاع، وهو كالنسب. وقال الشعبي، وعكرمة: ليس العمّ والخال من المحارم، ومعنى ﴿أَوْ نَسَائِهِنَّ﴾ هنّ: المختصات بهنّ الملابس لهنّ بالخدمة، أو الصحبة، ويدخل في تلك الإماء، ويخرج من تلك نساء الكفار من أهل الذمة، وغيرهم، فلا يحل لهنّ أن يبدين زينتهنّ لهنّ لأنهن لا يتحرّجن عن وصفهنّ للرجال. وفي هذه المسألة خلاف بين أهل العلم، وإضافة النساء إليهنّ تدل على اختصاص تلك بالمؤمنات ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ ظاهر الآية يشمل العبيد، والإماء من غير فرق بين أن يكونوا مسلمين أو كافرين، وبه قال جماعة من أهل العلم، وإليه ذهب عائشة، وأمّ سلمة، وابن عباس، ومالك، وقال سعيد بن المسيب: لا تفرّقكم هذه الآية ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ إنما عني بها الإماء، ولم يعن بها العبيد. وكان الشعبي يكره أن ينظر

يسمعه من الرجال، فيعلمون أنها ذات خلخال. قال الزجاج: وسماع هذه الزينة أشد تحريكاً للشهوة من إبدائها. ثم أرشد عباده إلى التوبة عن المعاصي، فقال سبحانه ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ فيه الأمر بالتوبة، ولا خلاف بين المسلمين في وجوبها، وأنها فرض من فرائض الدين، وقد تقدّم الكلام على التوبة في سورة النساء. ثم ذكر ما يرغبهم في التوبة، فقال ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ أي: تفوزون بسعادة الدنيا، والآخرة، وقيل: إن المراد بالتوبة هنا هي عما كانوا يعملونه في الجاهلية، والأول أولى لما تقرر في السنة أن الإسلام يجب ما قبله.

وقد أخرج ابن مريويه عن علي بن أبي طالب قال: «مرّ رجل على عهد رسول الله ﷺ في طريق من طرقات المدينة، فنظر إلى امرأة، ونظرت إليه، فوسوس لهما الشيطان: أنه لم ينظر أحدهما إلى الآخر إلا إغجاباً به، فبينما الرجل يمشي إلى جنب حائط، وهو ينظر إليها، إذ استقبله الحائط، فشق أنفه، فقال: والله لا أغسل الدمّ حتى آتي رسول الله ﷺ، فأعلمه أمري، فاتاه، فقصّ عليه قصته، فقال النبي ﷺ: هذا عقوبة ذنبك، وأنزل الله ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ قال: يعني من شهواتهم مما يكره الله. وأخرج ابن أبي شيبة، وأبو داود، والترمذي، والبيهقي في سننه عن بريدة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تتبع النظرة النظرة، فإن الأولى لك وليست لك الآخرة». وفي مسلم، وأبي داود، والترمذي، والنسائي، عن جرير البجلي قال: «سألت رسول الله ﷺ عن نظرة الفجأة، فأمرني أن أصرف بصري»، وفي الصحيحين، وغيرهما من حديث أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والجلوس على الطرقات، قالوا: يا رسول الله ما لنا بد من مجالسنا نتحدث فيها، فقال: إن أبيتم فأعطوا الطريق حقه، قالوا: وما حقه يا رسول الله؟ قال: غضّ البصر، وكفّ الأذى، وردّ السلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر». وأخرج البخاري، وأهل السنن، وغيرهم عن بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده قال: «قلت: يا رسول الله عوراتنا ما نأتي منها، وما نذر؟ قال: احفظ عورتك إلا من زوجتك، أو ما ملكت يمينك، قلت: يا نبي الله إذا كان القوم بعضهم في بعض، قال: إن استطعت أن لا يراها أحد فلا يرينها، قلت: إذا كان أحدهما خالياً، قال: فالله أحق أن يستحيا منه من الناس». وفي الصحيحين، وغيرهما من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كتب الله على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين النظر، وزنا اللسان النطق، وزنا الأنفين السماع، وزنا اليدين البطش، وزنا الرجلين الخطو، والنفس تتمنى، والفرج يصنق ذلك أو يكنبه». وأخرج الحاكم وصححه عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «النظرة سهم من سهام إبليس مسمومة، فمن تركها من خوف الله أثابه الله إيماناً يجد حلالته في قلبه»، والأحاديث في هذا الباب كثيرة.

المملوك إلى شعر مولاته، وهو قول عطاء، ومجاهد، والحسن، وابن سيرين، وروي عن ابن مسعود، وبه قال أبو حنيفة، وابن جريج ﴿أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ﴾ قرأ الجمهور (غير) بالجر. وقرأ أبو بكر، وابن عامر بالنصب على الاستثناء، وقيل: على القطع، والمراد بالتابعين: هم الذين يتبعون القوم فيصيبون من طعامهم لا همة لهم إلا ذلك، ولا حاجة لهم في النساء، قاله مجاهد، وعكرمة، والشعبي، ومن الرجال في محل نصب على الحال. وأصل الإربة، والإرب، والمأربة: الحاجة، والجمع: مأرب: أي: حوائج، ومنه قوله سبحانه: ﴿وَلِي فِيهَا مَأْرَبٌ آخَرَى﴾ [طه: 18] ومنه قول طرفة:

إذا المرء قال الجهل والحب والخفا تقدّم يوماً ثم ضاعت مأربه
وقيل: المراد بغير أُولِي الإربة من الرجال الحمقى الذين لا حاجة لهم في النساء، وقيل: للبله، وقيل: للعنين، وقيل: الخصي، وقيل: المخنث، وقيل: الشيخ الكبير، ولا وجه لهذا التخصيص، بل المراد بالآية ظاهرهما، وهم: من يتبع أهل البيت، ولا حاجة له في النساء، ولا يحصل منه ذلك في حال من الأحوال، فيدخل من هؤلاء من هو بهذه الصفة ويخرج من عدها ﴿أَوِ الطِّفْلَ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ الطفل يطلق على المفرد، والمثنى، والمجموع، أو المراد به هنا الجنس الموضوع موضع الجمع بدلالة وصفه بوصف الجمع، وفي مصحف أبي (أو الأطفال) على الجمع، يقال للإنسان طفلاً: ما لم يراهق الحلم، ومعنى ﴿لَمْ يَظْهَرُوا﴾: لم يطلعوا، من الظهور بمعنى الاطلاع، قاله ابن قتيبة. وقيل معناه: لم يبلغوا حدّ الشهوة، قاله الفراء والزجاج، يقال: ظهرت على كذا: إذا غلبته، وقهرته. والمعنى: لم يطلعوا على عورات النساء ويكشفوا عنها للجماع، أو لم يبلغوا حدّ الشهوة للجماع. قراءة الجمهور (عورات) بسكون الواو تخفيفاً، وهي لغة جمهور العرب. وقرأ ابن عامر في رواية بفتحها. وقرأ بذلك ابن أبي إسحاق، والأعمش. ورويت هذه القراءة عن ابن عباس، وهي لغة هذيل بن مبركة، ومنه قول الشاعر الذي أنشده الفراء:

أخوب بيضات رائح متأوب رفيق لمسح المنكبين سبور
واختلف العلماء في وجوب ستر ما عدا الوجه والكفين من الأطفال، فقيل: لا يلزم لأنه لا تكليف عليه، وهو الصحيح؛ وقيل: يلزم لأنها قد تشتهي المرأة. وهكذا اختلف في عورة الشيخ الكبير الذي قد سقطت شهوته، والأولى بقاء الحرمة كما كانت، فلا يحل النظر إلى عورته، ولا يحل له أن يكشفها.

وقد اختلف العلماء في حدّ العورة، قال القرطبي: أجمع المسلمون على أن السوءتين عورة من الرجل، والمرأة، وأن المرأة كلها عورة إلا وجهها، ويديها على خلاف في ذلك. وقال الأكثر: إن عورة الرجل من سترته إلى ركبته ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ أي: لا تضرب المرأة برجلها إذا مشت لئلا يسمع صوت خلخالها من

قال ﴿وَلَا يَبْدِيَنَّ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ﴾ الآية، والزينة التي تبديها لهؤلاء قرطها، وقلائتها، وسوارها، فأما خلخالها، ومعصدها، ونحرها، وشعرها، فإنها لا تبديه إلا لزوجها. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس ﴿أَوْ نَسَائِهِنَّ﴾ قال: هن: المسلمات لا تبديه اليهودية ولا نصرانية، وهو النحر، والقرط، والوشاح، وما يحرم أن يراه إلا محرم. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، والبيهقي في سننه، عن عمر بن الخطاب: أنه كتب إلى أبي عبيدة: أما بعد، فإنه بلغني أن نساء من نساء المسلمين يدخلن الحمامات مع نساء أهل الشرك، فإنه من قبلك عن ذلك، فإنه لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن ينظر إلى عورتها إلا أهل ملتها. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، عن ابن عباس قال: لا بأس أن يرى العبد شعر سيئته. وأخرج أبو داود، وابن مريويه، والبيهقي عن أنس: «أن النبي ﷺ أتى فاطمة بعبء قد وهب لها، وعلى فاطمة ثوب إذا قنع به رأسها لم يبلغ رجلها، وإذا غطت به رجلها لم يبلغ رأسها، فلما رأى النبي ﷺ ما تلقى قال: إنه ليس عليك بأس إنما هو أبوك وغلامك»، وإسناده في سنن أبي داود هكذا، حدثنا محمد بن عيسى، حدثنا أبو جميع سالم بن دينار، عن ثابت، عن أنس فنكره. وأخرج عبد الرزاق، وأحمد عن أم سلمة: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا كان لإحدكن مكاتب، وكان له ما يؤدي، فلتحتجب منه»، وإسناده أحمد هكذا: حدثنا سفيان بن عيينة، عن الزهري، عن نبيهان: أن أم سلمة، فنكره. وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير عن ابن عباس في قوله ﴿أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرَ أُولَى الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ﴾ قال: هذا الذي لا تستحي منه النساء. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه عن ابن عباس في الآية قال: هذا الرجل يتبع القوم، وهو مغفل في عقله، لا يكثر للنساء، ولا يشتبه النساء. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه في الآية قال: كان الرجل يتبع الرجل في الزمان الأول لا يغار عليه، ولا ترهب المرأة أن تضع خمارها عنده، وهو الأحق الذي لا حاجة له في النساء. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في الآية قال: هو المخنث الذي لا يقوم زبه. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، والبيهقي، عن عائشة قالت: كان رجل يدخل على أزواج النبي ﷺ مخنث، فكانوا يدعونه من غير أولي الإربة، «فدخل النبي ﷺ يوماً وهو عند بعض نسائه، وهو ينعت امرأة قال: إذا أقبلت أقبلت بارب، وإذا أدبرت أدبرت بشمان، قال النبي ﷺ: ألا أرى هذا يعرف ما ما هنا لا يدخلن عليكم، فحجبوه». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بَارِجَهُنَّ﴾ وهو: أن تقرر الخلخال بالآخر عند الرجال، أو يكون في رجلها

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل قال: بلغنا، والله أعلم: أن جابر بن عبد الله الأنصاري حدث أن أسماء بنت يزيد كانت في نخل لها لبني حارثة، فجعل النساء يدخلن عليها غير متزرات فيبصو ما في أرجلهن، يعني: الخلخال، وتبصو صدورهن ونوائيهن، فقالت أسماء: ما أقبح هذا، فانزل الله ذلك ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ بُصَارِهِنَّ﴾ الآية، وفيه مع كونه مرسلًا مقاتل. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مريويه عن ابن مسعود في قوله ﴿وَلَا يَبْدِيَنَّ زِينَتَهُنَّ﴾ قال: الزينة السوار، والدمالج، والخلخال، والقرط، والقلادة، ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ قال: الثياب والجلباب. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر عنه قال: الزينة زينتان زينة ظاهرة، وزينة باطنة لا يراها إلا الزوج، فاما الزينة الظاهرة، فالثياب، واما الزينة الباطنة، فالكحل، والسوار، والخاتم. ولفظ ابن جرير: فالظاهرة منها الثياب، وما خفي الخلخالان، والقرطان، والسواران. وأخرج ابن المنذر عن أنس في قوله ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ قال: الكحل والخاتم. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في سننه عن ابن عباس ﴿وَلَا يَبْدِيَنَّ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ قال: الكحل، والخاتم، والقرط، والقلادة. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد عنه قال: هو خضاب الكف، والخاتم. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد عن ابن عمر قال: الزينة الظاهرة الوجه والكفان. وأخرج ابن عباس قال: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ وجهها، وكفاهما، والخاتم، وأخرج أيضاً عنه قال: رقة الوجه وباطن الكف. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، والبيهقي في سننه عن عائشة: أنها سئلت عن الزينة الظاهرة قالت: القلب، والفتخ، وضمت طرف كمها. وأخرج أبو داود، وابن مريويه، والبيهقي عن عائشة: «أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على النبي ﷺ وعليها ثياب رقاق، فأعرض عنها وقال: يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم تصلح أن يرى منها إلا هذا، وأشار إلى وجهه وكفه». قال أبو داود، وأبو حاتم الرازي، هذا مرسل لأنه من طريق خالد بن دريك عن عائشة، ولم يسمع منها. وأخرج البخاري، وأبو داود، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مريويه، والبيهقي في سننه عن عائشة: قالت: رحم الله نساء المهاجرات الأولات لما أنزل الله ﴿وَلِيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ شققن أكثف مروطهن، فاختمن به. وأخرج ابن جرير، والحاكم وصححه، وابن مريويه عنها بلفظ: أخذ النساء أزهرن، فشققنها من قبل الخواشي، فاختمن بها. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا يَبْدِيَنَّ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾، والزينة الظاهرة الوجه، وكحل العينين، وخضاب الكف، والخاتم، فهذا تظهره في بيتها لمن دخل عليها، ثم

يكره عبده وأمته على النكاح. وقال مالك: لا يجوز. ثم رجع سبحانه إلى الكلام في الأحرار، فقال ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: لا تمتنعوا من تزويج الأحرار بسبب فقر الرجل والمرأة، أو أحدهما، فإنهم إن يكونوا فقراء يغنيهم الله سبحانه، ويتفضل عليهم بذلك. قال الزجاج: حث الله على النكاح، وأعلم أنه سبب لغنى الفقير، ولا يلزم أن يكون هذا حاصلًا لكل فقير إذا تزوج، فإن ذلك مقيد بالمشيئة. وقد يوجد في الخارج كثير من الفقراء لا يحصل لهم الغنى إذا تزوجوا. وقيل: المعنى إنه يغنيه بغنى النفس، وقيل: المعنى إن يكونوا فقراء إلى النكاح يغنيهم الله من فضله بالحلال ليتعففوا عن الزنا. والوجه الأول أولى، ويدل عليه قوله سبحانه: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عِيْلَةَ فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ﴾ [التوبة: 28]، فيحمل المطلق هنا على المقيد هناك، وجملة ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ مؤكدة لما قبلها، ومقررة لها، والمراد: أنه سبحانه ذو سعة لا ينقص من سعة ملكه غنى من يغنيه من عباده عليم بمصالح خلقه، يغني من يشاء، ويفقر من يشاء. ثم نكر سبحانه حال العاجزين عن النكاح بعد بيان جواز مناكحتهم إرشادًا لهم إلى ما هو الأولى، فقال ﴿وَلْيُاسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ استعفف طلب أن يكون عفيفاً أي: ليطلب العفة عن الزنا والحرام من لا يجد نكاحاً أي: سبب نكاح، وهو المال. وقيل: النكاح هنا ما تنكح به المرأة من المهر والنفقة كاللحاف اسم لما يلتحف به، واللباس اسم لما يلبس، وقيد سبحانه هذا النهي بتلك الغاية، وهي ﴿حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: يرزقهم رزقاً يستغنون به، ويتمكنون بسببه من النكاح، وفي هذه الآية ما يدل على تقييد الجملة الأولى. وهي: أن يكونوا فقراء يغنيهم الله بالمشيئة كما نكرنا، فإنه لو كان وعداً حتماً لا محالة في حصوله لكان الغنى والزواج متلازمين، وحينئذ لا يكون للأمر بالاستعفاف مع الفقر كثير فائدة، فإنه سيغني عند تزوجه لا محالة، فيكون في تزوجه مع فقره تحصيل للغنى، إلا أن يقال: إن هذا الأمر بالاستعفاف للعاجز عن تحصيل مبادئ النكاح، ولا ينافي ذلك وقوع الغنى له من بعد أن ينكح، فإنه قد صدق عليه أنه لم يجد نكاحاً إذا كان غير واجد لأسبابه التي يتحصل بها، وأعظمها المال. ثم لما رغب سبحانه في تزويج الصالحين من العبيد والإماء، أرشد المالكيين إلى طريقة يصير بها المملوك من جملة الأحرار، فقال ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ الموصول في محل رفع على الابتداء، ويجوز أن يكون في محل نصب على إضمار فعل يفسره ما بعده أي: وكتبوا الذين يبتغون الكتاب، والكتاب مصدر كتب كالمكاتبة، يقال: كاتب، يكتب، كتاباً، ومكاتبة، كما يقال: قاتل، يقاتل، قتلاً، ومقاتلة. وقيل: الكتاب ها هنا اسم عين للكتاب الذي يكتب فيه الشيء، وذلك لأنهم كانوا إذا كاتبوا العبد كتبوا عليه، وعلى أنفسهم بذلك كتاباً، فيكون المعنى الذين يطلبون كتاب المكاتبة. ومعنى المكاتبة في الشرع: أن يكتب الرجل

خلاخل فتحرركهن عند الرجال، فنهى الله عن ذلك، لأنه من عمل الشيطان.

وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَانَ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِيهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ وَلْيُتَعَفَّفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاثُرُهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِنَكُمْ عَلَى إِلَهٍ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِيَبْتَلِيَ عَنْ يَمِينِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرِهِنَّ عَزِيزٌ رَحِيمٌ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَمَثَلًا لِمَنِ الْآيَاتُ خُلُوًا مِنْ بَلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾

لما أمر سبحانه بغض الأَبصار، وحفظ الفروج أرشد بعد ذلك إلى ما يحل للمعبود من النكاح الذي يكون به قضاء الشهوة، وسكون دواعي الزنا، ويسهل بعده غض البصر عن المحرمات، وحفظ الفرج عما لا يحل، فقال ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ﴾ الأيم التي لا زوج لها بكرة كانت أو ثيباً، والجمع إيامى، والأصل إيايم، والأيم بتشديد الياء، ويشمل الرجل والمرأة. قال أبو عمرو، والكسائي: اتفق أهل اللغة على أن الأيم في الأصل هي: المرأة التي لا زوج لها بكرة كانت أو ثيباً. قال أبو عبيد: يقال رجل أيم، وامرأة أيم، وأكثر ما يكون في النساء، وهو كالمستعار في الرجال، ومنه قول أمية ابن أبي الصلت:

لله زبني علي أيم منهم ونكح

ومنه أيضاً قول الآخر:

لقد امت حتى لامني كل صاحب رجاء سليمي أن تلجم كما امت والخطاب في الآية للأولياء، وقيل: للأزواج، والأول أرجح، وفيه دليل على أن المرأة لا تنكح نفسها، وقد خالف في ذلك أبو حنيفة.

واختلف أهل العلم في النكاح هل مباح، أو مستحب، أو واجب؛ فذهب إلى الأول الشافعي، وغيره، وإلى الثاني مالك، وأبو حنيفة، وإلى الثالث بعض أهل العلم على تفصيل لهم في ذلك، فقالوا: إن خشي على نفسه الوقوع في المعصية وجب عليه، وإلا فلا. والظاهر أن القائلين بالإباحة والاستحباب لا يخالفون في الوجوب مع تلك الخشية، وبالجملة، فهو مع علمها سنة من السنن المؤكدة لقوله ﷺ في الحديث الصحيح بعد ترغيبه في النكاح: «ومن رغب عن سنتي فليس مني». ولكن مع القدرة عليه، وعلى مؤنه كما سيأتي قريباً، والمراد بالأيمى هنا الأحرار، والأحرار، وأما المماليك فقد بين ذلك بقوله ﴿وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ قرأ الجمهور (عبانكم)، وقرأ الحسن (عبيكم). قال الفراء: ويجوز (وإماءكم) بالنصب برده على الصالحين، والصالح هو الإيمان. ونكر سبحانه الصلاح في المماليك دون الأحرار لأن الغالب في الأحرار الصلاح بخلاف المماليك، وفيه دليل على أن المملوك لا يزوج نفسه، وإنما يزوجه ماله. وقد ذهب الجمهور إلى أنه يجوز للسيد أن

عبيده على مال يؤديه منجماً، فإذا أدّاه فهو حرّ، وظاهر قوله **﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾**: أن العبد إذا طلب الكتابة من سيده وجب عليه أن يكتبه بالشرط المذكور بعده، وهو **﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً﴾**، والخير هو: القدرة على أداء ما كُتِبَ عليه، وإن لم يكن له مال، وقيل: هو المال فقط، كما ذهب إليه مجاهد، والحسن، وعطاء، والضحاك، وطاوس، ومقاتل. وذهب إلى الأول ابن عمر، وابن زيد، واختاره مالك، والشافعي، والفراء، والزجاج. قال الفراء: يقول إن رجوتهم عندهم وفاء وتانية للمال. وقال الزجاج: لما قال «فيهم» كان الأظهر الاكتساب، والوفاء، وإداء الأمانة، وقال النخعي: إن الخير الدين والأمانة. وروي مثل هذا عن الحسن. وقال عبيدة السلماني: إقامة الصلاة. قال الطحاوي: وقول من قال: إنه المال لا يصح عندها، لأن العبد مال لمولاه، فكيف يكون له مال؟ قال: والمعنى عندها: إن علمتم فيهم الدين والصنق. قال أبو عمر بن عبد البر: من لم يقل إن الخير هنا المال أنكر أن يقال: إن علمتم فيهم مالا، وإنما يقال: علمت فيه الخير، والصلاح، والأمانة، ولا يقال: علمت فيه المال. هذا حاصل ما وقع من الاختلاف بين أهل العلم في الخير المذكور في هذه الآية. وإذا تقرّر لك هذا، فاعلم: أنه قد ذهب ظاهر ما يقتضيه الأمر المذكور في الآية من الوجوب. عكرمة، وعطاء، ومسروق، وعمر بن دينار، والضحاك، وأهل الظاهر، فقالوا: يجب على السيد أن يكتب مملوكه إذا طلب منه ذلك، وعلم فيه خيراً. وقال الجمهور من أهل العلم: لا يجب ذلك، وتمسكوا بالإجماع على أنه لو سأل العبد سيده، أن يبيعه من غيره لم يجب عليه ذلك، ولم يجبر عليه، فكذا الكتابة لأنها معاوضة.

ولا يخفك أن هذه حجة واهية، وشبهة داحضة، والحق ما قاله الأولون، وبه قال عمر بن الخطاب، وابن عباس واختاره ابن جرير. ثم أمر سبحانه الموالي بالإحسان إلى المكاتبين، فقال **﴿وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾** ففي هذه الآية: الأمر للمالكين بإعانة المكاتبين على مال الكتابة، إما بأن يعطوهم شيئاً من المال، أو بأن يحطوا عنهم مما كوتبوا عليه، وظاهر الآية عدم تقدير ذلك بمقدار، وقيل: الثلث، وقيل: الربع، وقيل: العشر، ولعل وجه تخصيص الموالي بهذا الأمر هو كون الكلام فيهم، وسياق الكلام معهم فإنهم المأمورون بالكتابة. وقال الحسن، والنخعي، وبريدة: إن الخطاب بقوله: **﴿وَأَتَوْهُمْ لَجَمِيعِ النَّاسِ﴾** وقال زيد بن أسلم: إن الخطاب للولادة؛ بأن يعطوا المكاتبين من مال الصدقة حظهم كما في قوله سبحانه: **﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾** [البقرة: 177، التوبة: 60]، وللمكاتب أحكام معروفة إذا وفى ببعض مال الكتابة. ثم إنه سبحانه لما أرشد الموالي إلى نكاح الصالحين من المماليك، نهى المسلمين عما كان يفعله أهل الجاهلية من إكراه إماتهم على الزنا، فقال **﴿وَلَا تَكْرَهُوا قِتْيَاتَكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾** والمراد بالفتيات هنا الإماء، وإن كان الفتى والفتاة قد يطلقان على الأحرار في مواضع آخر. والبغاء: الزنا،

مصدر بغت المرأة تبغي بغاء إذا زنت، وهذا مختص بزنا النساء، فلا يقال للرجل إذا زنا: إنه بغى، وشرط الله سبحانه هذا النهي بقوله **﴿إِنْ أُرِدْنَ تَحَصُّناً﴾**؛ لأن الإكراه لا يتصور إلا عند إرادتهم للتحصن، فإن من لم ترد التحصن لا يصح أن يقال لها: مكرهه على الزنا، والمراد بالتحصن هنا: التعفف، والتزوج. وقيل: إن هذا القيد راجع إلى الأيامي. قال الزجاج، والحسن بن الفضل: في الكلام تقديم وتأخير أي: وأنكحوا الأيامي، والصالحين من عبايتكم، وإمائكم إن أردن تحصناً. وقيل: هذا الشرط ملغى. وقيل: إن هذا الشرط باعتبار ما كانوا عليه، فإنهم كانوا يكرهونهن، وهن يردن التعفف، وليس لتخصص النهي بصورة إرادتهن التعفف. وقيل: إن هذا الشرط خرج مخرج الغالب؛ لأن الغالب: أن الإكراه لا يكون إلا عند إرادة التحصن، فلا يلزم منه جواز الإكراه عند عدم إرادة التحصن، وهذا الوجه أقوى هذه الوجوه، فإن الأمة قد تكون غير مريدة للحلال، ولا للحرام كما فيمن لا رغبة لها في النكاح، والصغيرة، فتوصف بأنها مكرهه على الزنا مع عدم إرادتها للتحصن، فلا يتم ما قيل: من أنه لا يتصور الإكراه إلا عند إرادة التحصن، إلا أن يقال: إن المراد بالتحصن هنا مجزئ التعفف، وأنه لا يصح على من كانت تريد الزواج أنها مريدة للتحصن، وهو بعيد، فقد قال الحبر ابن عباس: إن المراد بالتحصن التعفف، والتزوج، وتابعه على ذلك غيره، ثم علل سبحانه هذا النهي بقوله: **﴿لَتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾**، وهو: ما تكسبه الأمة بفرجها، وهذا التعليل أيضاً خارج مخرج الغالب، والمعنى: أن هذا العرض هو الذي كان يحملهم على إكراه الإماء على البغاء في الغالب، لأن إكراه الرجل لأمة على البغاء لا لفائدة له أصلاً لا يصدر مثله عن العقلاء، فلا يدل هذا التعليل على أنه يجوز له أن يكرهها، إذا لم يكن مبتغياً بإكراهها عرض الحياة الدنيا. وقيل: إن هذا التعليل للإكراه هو باعتبار أن عانتهم كانت كذلك، لا أنه مدار للنهي عن الإكراه لهن، وهذا يلاقي المعنى الأول، ولا يخالفه **﴿وَمَنْ يَكْرَهُهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾** هذا مقرر لما قبله، ومؤكّد له، والمعنى: أن عقوبة الإكراه راجعة إلى المكرهين لا إلى المكرهات، كما تدلّ عليه قراءة ابن مسعود، وجابر بن عبد الله، وسعيد بن جبير: (فإن الله غفور رحيم لهن). قيل: وفي هذا التفسير بعد، لأن المكرهه على الزنا غير آئمة. واجيب: بأنهن، وإن كانت مكرهه، فربما لا تخلو في تضاعيف الزنا عن شائبة مطاوعة إما بحكم الجيلة البشرية، أو يكون الإكراه قاصراً عن حدّ الإلجاء المزيل للاختيار. وقيل: إن المعنى: فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم لهن، إما مطلقاً، أو بشرط التوبة. ولما فرغ سبحانه من بيان تلك الأحكام، شرع في وصف القرآن بصفات ثلاث: الأولى: أنه **﴿آيَاتٌ مُبِينَاتٌ﴾** أي: واضحات في أنفسهم، أو موضحات، فتدخل الآيات المذكورة في هذه الصورة دخولاً أولياً. والصفة الثانية: كونه **﴿مُفْلَاحاً﴾** من الذين خلوا من قبل هؤلاء أي: مثلاً

كائناً من جهة أمثال الذين مضوا من القصص العجيبة، والأمثال المضروبة لهم في الكتب السابقة، فإن العجب من قصة عائشة رضي الله عنها، هو كالعجب من قصة يوسف ومريم، وما اتهم به، ثم تبين بطلانه، وبرأتهما سلام الله عليهما. والصفة الثالثة: كونه **﴿موعظة﴾** ينتفع بها المقتون خاصة، فيقتنون بما فيه من الأوامر، وينزجرون عما فيه من النواهي. وأما غير المتقين، فإن الله قد ختم على قلوبهم، وجعل على أبصارهم غشاوة عن سماع المواعظ، والاعتبار بقصص الذين خلوا، وفهم ما تشتمل عليه الآيات البينات.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله **﴿وانكحوا الأيامى﴾** الآية، قال: أمر الله سبحانه بالنكاح، ورغبهم فيه، وأمرهم أن يزوجوا أحرارهم، وعبيدهم، ووعدهم في ذلك الغنى، فقال **﴿إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله﴾**. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي بكر الصديق قال: أطيعوا الله فيما أمركم من النكاح ينجز لكم ما وعدكم من الغنى، قال تعالى **﴿إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله﴾**. وأخرج عبد الرزاق في المصنف، وعبد بن حميد، عن قتادة قال: نكر لنا: أن عمر بن الخطاب قال: ما رأيت كرجل لم يلتمس الغنى في الباء، وقد وعد الله فيها ما وعد، فقال **﴿إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله﴾**. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، عنه نحوه من طريق أخرى. وأخرج ابن جرير، عن ابن مسعود نحوه. وأخرج البزار، والدارقطني في العلل، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي من طريق عروة عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: **﴿انكحوا النساء، فإنهن يأتينكم بالمال﴾**. وأخرجه ابن أبي شيبة، وأبو داود في مراسيله، عن عروة مرفوعاً إلى النبي ﷺ، ولم يذكر عائشة، وهو مرسل. وأخرج عبد الرزاق، وأحمد، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم وصححه، والبيهقي في السنن، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **﴿ثلاثة حق على الله عونهم: النكاح يريد العفاف، والمكاتب يريد الأداء، والغاзи في سبيل الله﴾**، وقد ورد في الترغيب في مطلق النكاح أحاديث كثيرة ليس هذا موضع نكرها. وأخرج الخطيب في تاريخه عن ابن عباس في قوله: **﴿وليس تغف للنين لا يجنون نكاحاً﴾** قال: ليتزوج من لا يجد فإن الله سيفنيه، وأخرج ابن السكن في معرفة الصحابة، عن عبد الله بن صبيح، عن أبيه قال: كنت مملوكاً لحويطب بن عبد العزى، فسلته الكتابة، فأبى، فنزلت **﴿والذين يبتغون الكتاب﴾** الآية. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير عن أنس بن مالك قال: سألني سيرين المكاتب، فأبيت عليه، فأتى عمر بن الخطاب، فأقبل عليّ بالدرة، وقال: كاتبه، وتلا **﴿فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً﴾**، فكاتبته. قال ابن كثير: إن إسناده صحيح. وأخرج أبو داود في المراسيل، والبيهقي في سننه، عن يحيى بن أبي كثير قال: قال رسول الله ﷺ: **﴿فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً﴾** قال: إن علمتم فيهم

حرفة، ولا ترسلوهم كلاً على الناس. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن ابن عباس **﴿إن علمتم فيهم خيراً﴾** قال: المال. وأخرج ابن مردويه عن علي مثله. وأخرج البيهقي، عن ابن عباس في الآية قال: أمانة ووفاء. وأخرج عنه أيضاً قال: إن علمت مكاتبك يقضيك. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عنه في الآية قال: إن علمتم لهم حيلة، ولا تلقوا مؤنتهم على المسلمين **﴿وأتوهم من مال الله الذي آتاكم﴾** يعني: ضعوا عنهم من مكاتبهم. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي، عن نافع قال: كان ابن عمر يكره أن يكاتب عبده إذا لم تكن له حرفة، ويقول: يطعمني من أوساخ الناس. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة قال: قال ابن عباس في قوله **﴿وأتوهم من مال الله﴾** الآية: أمر المؤمنين أن يعينوا في الرقاب. وقال علي بن أبي طالب: أمر الله السيد أن يدع للمكاتب الربع من ثمنه. وهذا تعليم من الله ليس بفريضة، ولكن فيه أجر. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والرويان في مسنده، والضياء المقدسي في المختارة، عن بريدة في الآية قال: حث الناس عليه أن يعطوه. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، ومسلم، والبزار، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي من طريق أبي سفيان، عن جابر بن عبد الله قال: كان عبد الله بن أبي يقول لجارية له: اذهبي فابغينا شيئاً، وكانت كارهة، فأنزل الله (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن لهن غفور رحيم) هكذا كان يقرؤها، ونكر مسلم في صحيحه عن جابر: أن جارية لعبد الله بن أبي: يقال لها: مسيكة، وأخرى يقال لها: أميمة، فكان يريد هما على الزنا، فشكنا ذلك إلى النبي ﷺ، فأنزل الله **﴿ولا تكرهوا فتياتكم﴾** الآية. وأخرج البزار، وابن مردويه، عن أنس نحو حديث جابر الأول. وأخرج ابن مردويه، عن علي بن أبي طالب في الآية قال: كان أهل الجاهلية يبيعن إماءهم، فنهوا عن ذلك في الإسلام. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه، عن ابن عباس قال: كانوا في الجاهلية يكرهون إماءهم على الزنا، يأخذون أجورهن، فنزلت الآية. وقد ورد النهي منه ﷺ عن مهر البغي، وكسب الحجام، وحلوان الكاهن.

❊ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَيْفَ تَكُونُ فِيهِ نِصَاحُ الْوَيْحِ فِي كِتَابِهِ الرَّجَاءُ كَأَنَّا كَرِهَ يُوقِدُ مِنْ شَجَرٍ مُبَارَكٍ زَيْتُونٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُوقِيهِ وَكَوْنَهُ تَمَسَّهُ نَارٌ لَوْ أَنَّ نُورَ بَيْتِ اللَّهِ لَشَوْهَ مَنْ يَدَاهُ وَمَضِيْبُ اللَّهِ الْأَمْثَلُ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ يَكُلُّ شَيْءٍ عَلَيْهِ ❶ فِي يَوْمٍ إِذْ قَالَ اللَّهُ أَنْ تَرْفَعَ وَيُكْرَهَ فِيهَا أَسْمُ سَبَّحَ لَمْ فِيهَا بِالْقُدُّو وَالْأَصَالِ ❷ يَكُلُّ لَمْ تَلِيهِمْ بِشَرٍّ وَلَا بَعْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَلَئِنْ أَسْلَمُوا وَلَئِنْ أَلْكَرُوا يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ❸ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا

عِلْوًا وَزَيْدُهُمْ مِنْ تَضْلِيلِهِ وَاللَّهُ بِرُؤُوفٍ مِّنْ بَيْنَاءٍ يَّغَيِّرُ حِسَابَ ﴿٧٨﴾

لما بين سبحانه من الأحكام ما بين أريف ذلك بكونه سبحانه في غاية الكمال، فقال ﴿الله نور السموات والأرض﴾، وهذه الجملة مستأنفة لتقرير ما قبلها، والاسم الشريف مبتدأ، ونور السموات والأرض خبره، إما على حذف مضاف: أي: ذو نور السموات، والأرض، أو لكون المراد المبالغة في وصفه سبحانه بأنه نور لكمال جلاله، وظهور علته، وبسطه أحكامه، كما يقال: فلان نور البلد، وقمر الزمن، وشمس العصر، ومنه قول النابغة:

فإنك شمس والملوك كوكب
إذا ظهرت لم يبق فيهن كوكب

وقول الآخر:

هلا قصت من البلاد لمفضل
ومن ذلك قول الشاعر:

إذا سار عبد الله من مروليلة
فقد سار منها نورها وجمالها

وقول الآخر:

نسب كان عليه من شمس الضحى
نوراً ومن فلق الصباح عموداً

ومعنى النور في اللغة: الضياء، وهو: الذي يبين الأشياء، ويرى الأبصار حقيقة ما تراه، فيجوز إطلاق النور على الله سبحانه على طريقة المدح، ولكونه أوجد الأشياء المنورة، وأوجد أنوارها، ونورها، ويدل على هذا المعنى قراءة زيد بن علي، وأبي جعفر، وعبد العزيز المكي ﴿الله نور السموات والأرض﴾ على صيغة الفعل الماضي، وفاعله ضمير يرجع إلى الله، والسموات مفعوله؛ فمعنى ﴿الله نور السموات والأرض﴾ إنه سبحانه صيرهما منيرتين باستقامة أحوال أهلها، وكمال تبديره عز وجل لمن فيهما، كما يقال: الملك نور البلد، هكذا قال الحسن، ومجاهد، والأزهري، والضحاك، والقرظي، وابن عرفة، وابن جرير، وغيرهم، ومثله قول الشاعر:

وأنت لنا نور وغيث وعصمة
ونبت لمن يرجو نذك وريف

وقال هشام الجواليقي، وطائفة من المجسمة: إنه سبحانه نور لا كالأنوار، وجسم لا كالأجسام، وقوله ﴿مثل نوره﴾ مبتدأ، وخبره ﴿كمشكاة﴾ أي: صفة نوره الفاضل عنه، الظاهر على الأشياء كمشكاة، والمشكاة الكوة في الحائط غير النافذة، كذا حكاه الواحدي عن جميع المفسرين، وحكاه القرطبي عن جمهورهم. ووجه تخصيص المشكاة: أنها أجمع للضوء الذي يكون فيه من مصباح، أو غيره، وأصل المشكاة الوعاء يجعل فيه الشيء. وقيل: للمشكاة عمود القنديل الذي فيه الفتيلة. وقال مجاهد: هي القنديل. والأول أولى، ومنه قول الشاعر:

كان عينيه مشكأتان في جحر

ثم قال ﴿فيها مصباح﴾ وهو السراج ﴿المصباح في زجاجة﴾ قال الزجاج: النور في الزجاج، وضوء النار أبين منه في كل شيء، وضوءه يزيد في الزجاج، ووجه ذلك: أن الزجاج جسم شفاف يظهر فيه النور أكمل ظهور. ثم وصف الزجاج، فقال ﴿الزجاجة كأنها كوكب دري﴾ أي: منسوب

إلى الدرّ لكون فيه من الصفاء والحسن ما يشابه الدرّ. وقال الضحاك: للكوكب الدرّ الزهرة. قرأ أبو عمرو (دري) بكسر الدال. قال أبو عمرو: لم أسمع أعرابياً يقول: إلا كأنه كوكب دري بكسر الدال، أخذه من نرات النجوم تدرا إذا اننفعت. وقرأ حمزة بضم الدال مهموزاً، وأنكره الفراء، والزجاج، والمبرد. وقال أبو عبيد: إن ضمنت الدال وجب أن لا تهمز، لأنه ليس في كلام العرب. والدرّاري هي المشهورة من الكوكب كالمشتري، والأزهري، والمريخ، وما يضاهاها من الثوابت. ثم وصف المصباح بقوله ﴿يوقد من شجرة مباركة﴾ ومن هذه هي الابتدائية: أي: ابتداء إيقاد المصباح منها، وقيل: هو على تقدير مضاف أي: يوقد من زيت شجرة مباركة، والمباركة: الكثيرة المنافع. وقيل: المنعمة، والزيتون من أعظم الثمار نماء، ومنه قول أبي طالب، يرثي مسافر بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس:

ليت شعري مسافر بن أبي عمرو
وليت يقولها المحزون

بورك الميت الغريب كما
بورك نبع الرمان والزيتون

قيل: ومن بركتها أن أغصانها تورق من أسفلها إلى أعلاها، وهي إدام، ودهان، ولباغ، ووقود، وليس فيها شيء إلا وفيه منفعة، ثم وصفها بأنها ﴿لا شرقية ولا غربية﴾.

وقد اختلف المفسرون في معنى هذا الوصف، فقال عكرمة، وقتادة، وغيرهم: إن الشرقية هي التي تصيبها الشمس إذا شرقت، ولا تصيبها إذا غربت. والغربية هي التي تصيبها إذا غربت، ولا تصيبها إذا شرقت. وهذه الزيتونة هي في صحراء بحيث لا يسترها عن الشمس شيء لا في حال شروقها، ولا في حال غروبها، وما كانت من الزيتون هكذا، فثمرها أجود. وقيل: إن المعنى: إنها شجرة في نوبة قد أحاطت بها، فهي غير منكشفة من جهة الشرق، ولا من جهة الغرب، حكى هذا ابن جرير عن ابن عباس. قال ابن عطية: وهذا لا يصح عن ابن عباس، لأن الثمرة التي بهذه الصفة يفسد جناها، وذلك مشاهد في الوجود. ورجح القول الأول الفراء، والزجاج. وقال الحسن: ليست هذه الشجرة من شجر الدنيا، وإنما هو مثل ضربه الله لنوره، ولو كانت في الدنيا لكانت إما شرقية وإما غربية. قال الثعلبي: قد أقصص القرآن بأننا من شجر الدنيا، لأن قوله: ﴿زيتونة﴾ بدل من قوله: ﴿شجرة﴾. قال ابن زيد: إنها من شجر الشام، فإن الشام لا شرقي، ولا غربي، والشام هي الأرض المباركة. وقد قرئ (توقد) بالناء الفوقية على أن الضمير راجع إلى الزجاجية نون المصباح، وبها قرأ الكوفيون. وقرأ شيبه، ونافع، وأيوب، وسلام، وابن عامر، وأهل الشام، وحفص: (يوقد) بالتحنية مضمومة، وتخفيف القاف، وضم الدال. وقرأ الحسن، والسلمي، وأبو عمرو بن العلاء، وأبو جعفر (توقد) بالفوقية مفتوحة، وفتح الواو، وتشديد القاف، وفتح الدال على أنه فعل ماضٍ من توقد يتوقد، والضمير في هاتين القراءتين راجع إلى المصباح. قال النحاس: وهاتان القراءتان متقاربتان؛ لأنهما جميعاً للمصباح، وهو أشبه بهذا الوصف

الكعبة، ومسجد قباء، ومسجد المدينة، ومسجد بيت المقدس، قاله ابن زيد. والقول الأول أظهر لقوله ﴿يسبح له فيها بالغدق والآصال﴾، والباء من بيوت تضم، وتكسر كل ذلك ثابت في اللغة، ومعنى ﴿أن الله أن ترفع﴾: أمر وقضى، ومعنى ﴿ترفع﴾: تبنى، قاله مجاهد، وعكرمة، وغيرهما، ومنه قوله سبحانه: ﴿وإن يرفع إبراهيم القواعد من البيت﴾ [البقرة: 127]، وقال الحسن البصري، وغيره: معنى ترفع تعظم، ويرفع شأنها، وتطهر من الانجاس، والاقذار، ورجحه الزجاج وقيل: المراد بالرفع هنا مجموع الأمرين، ومعنى ﴿يذكر فيها اسمه﴾: كل نكر لله عز وجل، وقيل: هو التوحيد، وقيل: المراد تلاوة القرآن، والأول أولى ﴿يسبح له فيها بالغدق والآصال﴾ * رجال: ﴿قرأ ابن عامر، وأبو بكر (يسبح) بفتح الباء الموحدة مبنياً للمفعول، وقرأ الباقر بكسرهما مبنياً للفاعل إلا ابن وثاب، وأبا حية، فإنهما قرأا بالياء الفوقية، وكسر الموحدة، فعلى القراءة الأولى يكون القائم مقام الفاعل أحد المجرورات الثلاثة، ويكون رجال مرفوع على أحد وجهين: إما بفعل مقدر، وكأنه جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: من يسبحه؟ فقيل يسبحه رجال. الثاني: أن رجال مرتفع على أنه خبر مبتدأ محذوف. وعلى القراءة الثانية يكون رجال فاعل يسبح، وعلى القراءة الثالثة يكون الفاعل أيضاً رجال، وإنما أنث الفعل لكون جمع التكسير يعامل معاملة المؤنث في بعض الأحوال.

واختلف في هذا التسبيح ما هو؟ فالأكثر حملوه على الصلاة المفروضة، قالوا: الغدق صلاة الصبح، والآصال صلاة الظهر، والعصر، والعشاءين، لأن اسم الآصال يشملها، ومعنى بالغدق والآصال: بالغداة والعشي، وقيل: صلاة الصبح، والعصر، وقيل: المراد صلاة الضحى، وقيل: المراد بالتسبيح هنا معناه الحقيقي، وهو: تنزيه الله سبحانه عما لا يليق به في ذاته، وصفاته، وأفعاله، ويؤيد هذا نكر الصلاة والزكاة بعده، وهذا أرجح مما قبله، لكونه المعنى الحقيقي مع وجود دليل يدل على خلاف ما ذهب إليه الأولون، وهو ما نكرناه ﴿لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله﴾ هذه الجملة صفة لرجال أي: لا تشغلهم التجارة والبيع عن الذكر، وخص التجارة بالذكر؛ لأنها أعظم ما يشتغل به الإنسان عن الذكر. وقال الفراء: للتجارة لأهل الجلب، والبيع ما باعه الرجل على يده، وخص قوم التجارة هاهنا بالشراء لذكر البيع بعدها، ويمثل قول الفراء. قال الواقي: فقال: التجار هم: الجلاب المسافرون، والباعة هم المقيمون، ومعنى ﴿عن ذكر الله﴾: هو ما تقدم في قوله ﴿ويذكر فيها اسمه﴾، وقيل: المراد الأذان، وقيل: عن ذكره باسمائه الحسنى أي: يوحونه، ويمجبنونه. وقيل: المراد عن الصلاة، ويرد ذكر الصلاة بعد الذكر هنا، والمراد بإقام الصلاة إقامتها لمواقيتها من غير تأخير، وحذفت التاء؛ لأن الإضافة تقوم مقامها في ثلاث كلمات جمعها الشاعر في قوله:

لأنه الذي ينير، ويضيء، وإنما الزجاجاة وعاء له. وقرأ نصر بن عاصم بكراءة أبي عمرو ومن معه إلا أنه ضم الدال على أنه فعل مضارع، وأصله تتوقد. ثم وصف الزيتونة بوصف آخر، فقال: ﴿يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار﴾ قرأ الجمهور (تمسسه) بالفوقية، لأن النار مؤنثة. قال أبو عبيد: إنه لا يعرف إلا هذه القراءة. وحكى أبو حاتم: أن السدي روى عن أبي مالك، عن ابن عباس: أنه قرأ «يمسسه» بالتحية لكون تأنث النار غير حقيقي. والمعنى: أن هذا الزيت في صفائه وإنارته يكاد يضيء بنفسه من غير أن تمسه النار أصلاً، وارتفع «نور» على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: هو نور، و«على نور» متعلق بمحذوف، هو صفة لنور مؤكدة له، والمعنى: هو نور كائن على نور. قال مجاهد: والمراد النار على الزيت. وقال الكلبي: المصباح نور، والزجاجاة نور. وقال السدي: نور الإيمان، ونور القرآن ﴿يهدى الله لنوره من يشاء﴾ من عبادته أي: هداية خاصة موصلة إلى المطلوب، وليس المراد بالهداية هنا مجرد الدلالة ﴿ويضرب الله الأمثال للناس﴾ أي: يبين الأشياء بأشبابها، ونظائرهما تقريباً لها إلى الأفهام وتسهيلاً لإدراكها، لأن إبراز المعقول في هيئة المحسوس، وتصويره بصورته يزيده وضوحاً وبياناً ﴿والله بكل شيء عليم﴾ لا يغيب عنه شيء من الأشياء معقولا كان أو محسوساً، ظاهراً، أو باطناً. واختلف في قوله ﴿في بيوت أذن الله أن ترفع﴾ بما هو متعلق؛ فقيل: متعلق بما قبله أي: كمشكاة في بعض بيوت الله، وهي المساجد، كأنه قيل: مثل نوره كما ترى في المسجد نور المشكاة التي من صفتها كيت وكيت، وقيل: متعلق بمصباح. وقال ابن الأنباري: سمعت أبا العباس يقول: هو حال للمصباح، والزجاجاة، والكوكب، كأنه قيل: وهي في بيوت، وقيل: متعلق بتوقد أي: توقد في بيوت، وقد قيل: متعلق بما بعده، وهو يسبح أي: يسبح له رجال في بيوت، وعلى هذا يكون قوله ﴿فيها﴾ تكريراً كقولك، زيد في الدار جالس فيها. وقيل: إنه منفصل عما قبله، كأنه قال: الله في بيوت أذن الله أن ترفع. قال الحكيم الترمذي: وبذلك جاءت الأخبار أنه من جلس في المسجد فإنما يجالس ربه. وقد قيل: على تقدير تعلقه بمشكاة، أو بمصباح، أو بتوقد ما الوجه في توحيد المصباح، والمشكاة، وجمع البيوت؟ ولا تكون المشكاة الواحدة، ولا المصباح الواحد إلا في بيت واحد. ولجيب: بأن هذا من الخطاب الذي يفتح أركه بالتوحيد، ويختم بالجمع كقوله سبحانه: ﴿يا أيها النبي إذا طلقتم النساء﴾ [الطلاق: 1]، ونحوه. وقيل معنى في بيوت: في كل واحد من البيوت، فكانه قال: في كل بيت، أو في كل واحد من البيوت. واختلف الناس في البيوت، على أقوال: الأول: أنها المساجد، وهو قول مجاهد، والحسن، وغيرهما. الثاني: أن المراد بها بيوت بيت المقدس، روي ذلك عن الحسن. الثالث: أنها بيوت النبي ﷺ، روي عن مجاهد. الرابع: هي البيوت كلها، قاله عكرمة. الخامس: أنها المساجد الأربعة

غربية» إنها التي في سفح جبل لا تصيبها الشمس إذا طلعت ولا إذا غربت «يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور» فنلك مثل قلب المؤمن نور على نور. وأخرج عبد بن حميد، وابن الأنباري في المصاحف، عن الشعبي قال: في قراءة أبي بن كعب (مثل نور المؤمن كمشكاة). وأخرج ابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، عن ابن عباس في الآية قال: يقول مثل نور من آمن بالله كمشكاة، وهي الكؤد. وأخرج ابن أبي حاتم عنه «مثل نوره» قال: هي خطا من الكاتب هو أعظم من أن يكون نوره مثل نور المشكاة، قال: مثل نور المؤمن كمشكاة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الاسماء والصفات عنه أيضاً «الله نور السموات والأرض» قال: هادي أهل السموات والأرض «مثل نوره» مثل هداية في قلب المؤمن «كمشكاة» يقول: موضع الفتيلة كما يكاد الزيت الصافي يضيء قبل أن تمسه النار، فإذا مسته النار ازداد ضوءاً على ضوئه، كذلك يكون قلب المؤمن بالهدى قبل أن يأتيه العلم، فإذا جاءه العلم ازداد هدى على هدى، ونوراً على نور، وفي إسناده علي بن أبي طلحة، وفيه مقال. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مروييه، عن أبي بن كعب «الله نور السموات والأرض» مثل نوره» قال: هو المؤمن الذي قد جعل الإيمان والقرآن في صدره، فضرب الله مثله، فقال «نور السموات والأرض مثل نوره» فبدأ بنور نفسه، ثم نكر نور المؤمن، فقال: مثل نور من آمن به، فكان أبي بن كعب يقرؤها (مثل نور من آمن به) فهو: المؤمن، جعل الإيمان والقرآن في صدره «كمشكاة» قال: قصير المؤمن المشكاة «فيها مصباح المصباح» النور، وهو القرآن والإيمان الذي جعل في صدره «في زجاجة» و«الزجاجة» قلبه «كانها كوكب دري» يقول كوكب مضيء «يوقد من شجرة مباركة»، والشجرة المباركة: أصل الميثاق الإخلاص لله وحده، وعبائته لا شريك له «زيتونة لا شرقية ولا غربية» قال: فمثله كمثل شجرة التفت بها الشجر، فهي خضراء ناعمة لا تصيبها الشمس على أي حال كانت، لا إذا طلعت ولا إذا غربت، فكنك هذا المؤمن قد أجير من أن يضل شيء من الفتن. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مروييه، عن ابن عباس: أن اليهود قالوا لمحمد: كيف يخلص نور الله من دون السماء؟ فضرب الله مثل ذلك لنوره، فقال «الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة» المشكاة كوة البيت فيها مصباح، وهو: السراج يكون في الزجاجة، وهو: مثل ضربه الله لطاعته، فسمى طاعته نوراً، ثم سماها أنواعاً شتى «لا شرقية ولا غربية» قال: وهي: وسط الشجر لا تنالها الشمس إذا طلعت، ولا إذا غربت، وذلك أجود الزيت «يكاد زيتها يضيء»، بغير نار «نور على نور» يعني بذلك: إيمان العبد وعلمه «يهدي الله لنوره من يشاء» وهو مثل

ثلاثة تحنفت تلتها مضافة عند جمع النحاة وهي إذا شئت أبوعنرها وليت شعري وإقام الصلاة وأنشد الفراء في الاستشهاد للحنف المذكور في هذه الآية قول الشاعر:

إن الخليط أجودا البين وانجربوا وأخلفوك عد الأمر الذي وعدوا أي: عدة الأمر، وفي هذا البيت دليل على أن الحنف مع الإضافة لا يختص بتلك الثلاثة المواضع. قال الزجاج: وإنما حذفت الهاء لأنه يقال: أقمت الصلاة إقامة، وكان الأصل إقواماً، ولكن قلبت الواو ألفاً، فاجتمعت ألفان فحذفت إحداهما لالتقاء الساكنين، فبقي أقمت الصلاة إقاماً، فانبخلت الهاء عوضاً من المحذوف، وقامت الإضافة هاهنا في التعويض مقام الهاء المحذوفة، وهذا إجماع من النحويين. انتهى. وقد احتاج من حمل نكر الله على الصلاة المفروضة: أن يحمل إقام الصلاة على تانيثها في أوقاتها فراراً من التكرار، ولا ملجئ إلى ذلك، بل يحمل النكر على معناه الحقيقي كما قدّمنا. والمراد بالزكاة المذكورة هي: المفروضة، وقيل: المراد بالزكاة طاعة الله، والإخلاص، إذ ليس لكل مؤمن مال «يخافون يوماً» أي: يوم القيامة، وانتصابه على أنه مفعول للفعل لا ظرف له، ثم وصف هذا اليوم بقوله «تتقلب فيه القلوب والأبصار» أي: تضطرب، وتتحوّل، قيل: المراد بتقلب القلوب انتزاعها من أمكنتها إلى الحناجر فلا ترجع إلى أمكنتها، ولا تخرج، والمراد بتقلب الأبصار هو: أن تصير عمياء بعد أن كانت مبصرة. وقيل: المراد بتقلب القلوب أنها تكون متقلبة بين الطمع في النجاة، والخوف من الهلاك، وإما تقلب الأبصار فهو: نظرها من أي ناحية يؤخنون، وإلى أي ناحية يصيرون. وقيل: المراد تحوّل قلوبهم وأبصارهم عما كانت عليه من الشك إلى اليقين، ومثله قوله: «فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد» [ق: 22] فما كان يراه في الدنيا غياً يراه في الآخرة رشداً. وقيل: المراد التقلب على جمر جهنم، وقيل: غير ذلك: «ليجزئهم الله أحسن ما عملوا» متعلق بمحذوف أي: يفعلون ما يفعلون من التسبيح، والذكر، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة: ليجزيهم الله أحسن ما عملوا أي: أحسن جزاء أعمالهم حسبما وعدهم من تضعيف ذلك إلى عشرة أمثاله، وإلى سبعمائة ضعف، وقيل: المراد بما في هذه الآية ما يتفضل سبحانه به عليهم زيادة على ما يستحقونه، والأول أولى لقوله «ويزيدهم من فضله» فإن المراد به التفضل عليهم بما فوق الجزاء الموعود به «والله يرزق من يشاء بغير حساب» أي: من غير أن يحاسبه على ما أعطاه، أو أن عطاه سبحانه لا نهاية له، والجملة مقررّة لما سبقها من الوعد بالزيادة.

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله «الله نور السموات والأرض» قال: يدبر الأمر فيهما نجومهما، وشمسهما، وقمرهما. وأخرج الفريابي عنه في قوله «الله نور السموات والأرض» مثل نوره» الذي أعطاه المؤمن «كمشكاة»، وقال في تفسير «زيتونة لا شرقية ولا

المؤمن. وأخرج الطبراني، وابن عدي، وابن مريويه، وابن عساكر، عن ابن عمر في قوله ﴿كَمْشَاكَ فِيهَا مَصْبَاحٌ﴾ قال: المشكاة جوف محمد ﷺ، والزجاجة قلبه، والمصباح النور الذي في قلبه. ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ الشجرة إبراهيم ﴿زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ لا يهودية ولا نصرانية، ثم قرأ ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: 67]. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، عن شمر بن عطية قال: جاء ابن عباس إلى كعب الأحبار: فقال: حنثني عن قول الله ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نَوْرِهِ﴾ قال: مثل نور محمد ﷺ كَمْشَاكَ قَالَ: الْمَشَاكَ الْكَوَّةُ ضَرْبُهَا اللَّهُ مِثْلًا لِقَمَةِ فِيهَا مَصْبَاحٌ، وَالْمَصْبَاحُ قَلْبُهُ ﴿وَالْمَصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾، وَالزُّجَاجَةُ صَدْرُهُ ﴿كَأَنَّهُ كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ شبه صدر محمد ﷺ بالكوكب الدُرِّيَّ، ثم رجع المصباح إلى قلبه، فقال: ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ - يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ﴾ قال: يكاد محمد ﷺ يبين للناس، ولو لم يتكلم أنه نبي، كما يكاد الزيت أن يضيء، ولو لم تمسه نار.

وأقول: إن تفسير النظم القرآني بهذا ونحوه مما تقدّم عن أبي بن كعب، وابن عباس، وابن عمر رضي الله عنهم ليس على تقتضيه لغة العرب، ولا ثبت عن رسول الله ﷺ ما يجوز العُدول عن المعنى العربي إلى هذه المعاني التي هي شبيهة بالانفاذ والتعمية، ولكن هؤلاء الصحابة، ومن وافقهم ممن جاء بعدهم استبعدوا تمثيل نور الله سبحانه بنور المصباح في المشكاة، ولهذا قال ابن عباس: هو أعظم من أن يكون نوره مثل نور المشكاة كما قَدَّمْنَا عنه، ولا وجه لهذا الاستبعاد. فلما قد قَدَّمْنَا في أوّل البحث ما يرفع الإشكال ويوضح ما هو المراد على أحسن وجه، وأبلغ أسلوب، وعلى ما تقتضيه لغة العرب، ويفيده كلام الفصحاء، فلا وجه للعُدول عن الظاهر، لا من كتاب، ولا من سنة، ولا من لغة. وأما ما حكى عن كعب الأحبار في هذا كما قَدَّمْنَا، فإن كان هو سبب عدول أولئك الصحابة الأجلاء عن الظاهر في تفسير الآية، فليس مثل كعب رحمه الله ممن يقتدى به في مثل هذا. وقد نهبناك فيما سبق: أن تفسير الصحابي إذا كان مستنده الرواية عن أهل الكتاب كما يقع ذلك كثيرا، فلا تقوم به الحجة، ولا يسوغ لأجله العُدول عن التفسير العربي، نعم إن صحت قراءة أبي بن كعب، كانت هي المستند لهذه التفاسير المخالفة للظاهر، وتكون كالزيادة المبينة للمراد، وإن لم تصح، فالوقوف على ما تقتضيه قراءة الجمهور من السبعة، وغيرهم ممن قبلهم، وممن بعدهم هو المتعين. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس ﴿فِي بَيْتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعُ﴾ قال: هي المساجد تكرم، وينهى عن اللغو فيها، ويذكر فيها اسم الله، يتلى فيها كتابه ﴿يَسْبَحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ صلاة الغداة، وصلاة العصر، وهما أوّل ما فرض الله من الصلاة فأحب أن

يذكرهما، ويذكر بهما عباده. وقد ورد في تعظيم المساجد، وتنزيهها عن القذر، وتنظيفها، وتطيبها أحاديث ليس هذا موضع نكرها. وأخرج، ابن أبي شيبة، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس قال: إن صلاة الضحى لفي القرآن، وما يغوص عليها إلى غواص في قوله ﴿فِي بَيْتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعُ وَيُذَكَّرُ فِيهَا لِسْمُهُ يَسْبَحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مريويه، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ في قوله ﴿رَجَالٌ لَا تُلْهِيمُ تِجَارَةً وَلَا بَيْعَ عَنْ نَكْرٍ اللَّهِ﴾ قال: هم الذين يضرّبون في الأرض يبتغون من فضل الله. وأخرج ابن مريويه، والبيهقي، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ في قوله ﴿لَا تُلْهِيمُ تِجَارَةً وَلَا بَيْعَ عَنْ نَكْرٍ اللَّهِ﴾ قال: هم الذين يبتغون من فضل الله. وأخرج ابن مريويه، عن ابن عباس في الآية، قال: كانوا رجلاً يبتغون من فضل الله يشترون ويبيعون، فإذا سمعوا النداء بالصلاة أقروا ما في أيديهم، وقاموا إلى المسجد، فصلوا. وأخرج ابن أبي حاتم، والحاكم، والبيهقي في الشعب، عنه في الآية، قال: ضرب الله هذا المثل قوله ﴿كَمْشَاكَ﴾ لأولئك القوم الذين لا تلهيهم تجارة، ولا بيع عن ذكر الله، وكانوا أبحر الناس، وأبيعهم، ولكن لم تكن تلهيهم تجارتهم، ولا بيعهم عن ذكر الله. وأخرج، عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه أيضاً ﴿عَنْ نَكْرٍ اللَّهِ﴾ قال: عن شهود الصلاة. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عمر: أنه كان في السوق، فاقبضت الصلاة فأغلغوا حوانيتهم، ثم دخلوا المسجد، فقال ابن عمر فيهم: نزلت ﴿رَجَالٌ لَا تُلْهِيمُ تِجَارَةً وَلَا بَيْعَ عَنْ نَكْرٍ اللَّهِ﴾. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، والطبراني، والبيهقي في الشعب، عن ابن مسعود: أنه رأى ناساً من أهل السوق سمعوا الأذان، فتركوا أمتعتهم، فقال: هؤلاء الذين قال الله فيهم ﴿لَا تُلْهِيمُ تِجَارَةً وَلَا بَيْعَ عَنْ نَكْرٍ اللَّهِ﴾. وأخرج هناد بن السري في الزهد، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، والبيهقي في الشعب، ومحمد بن نصر في الصلاة، عن أسماء بنت يزيد قالت: قال رسول الله ﷺ: «يجمع الله يوم القيامة الناس في صعيد واحد يسمعون الداعي، وينفذهم البصر، فيقوم مناو، فينادي: أين الذين كانوا يحملون الله في السراء والضراء؟ فيقومون، وهم قليل، فيدخلون الجنة بغير حساب؛ ثم يعود فينادي: أين الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع؟ فيقومون، وهم قليل فيدخلون الجنة بغير حساب؛ ثم يعود فينادي: ليقم الذين كانوا لا تلهيهم تجارة، ولا بيع عن ذكر الله، فيقومون، وهم قليل فيدخلون الجنة بغير حساب، ثم يقوم سائر الناس، فيحاسبون». وأخرج الحاكم وصححه، وابن مريويه، والبيهقي في الشعب، عن عتبة بن عامر مرفوعاً نحوه.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَهْلَانَهُمْ كَثِيرًا يُحِبُّونَهُ بِحَسَبِ الظَّنِّ مَاءَ حَرِّ إِذَا جَاءَهُمْ لَوْ يَجِدُهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوَقَّعَهُمْ كَسَابًا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٠١﴾ أَوْ كَقُلُوبٍ فِي بَحْرِ لُجِّي بِشَنَةِ مَوْجٍ مِنْ قَوِيٍّ مَوْجٍ مِنْ قَوِيٍّ مَخَابُ

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَهْلَانَهُمْ كَثِيرًا يُحِبُّونَهُ بِحَسَبِ الظَّنِّ مَاءَ حَرِّ إِذَا جَاءَهُمْ لَوْ يَجِدُهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوَقَّعَهُمْ كَسَابًا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٠١﴾ أَوْ كَقُلُوبٍ فِي بَحْرِ لُجِّي بِشَنَةِ مَوْجٍ مِنْ قَوِيٍّ مَوْجٍ مِنْ قَوِيٍّ مَخَابُ

واحد مما نكر، والضمير في علم يرجع إلى كل، والمعنى: إن كل واحد من هذه المسبحات لله قد علم صلاة المصلي، وتسبيح المسيح. وقيل: المعنى أن كل مصل، ومسيح قد علم صلاة نفسه، وتسبيح نفسه. قيل: والصلاة هنا بمعنى التسبيح، وكرّر للتأكيد، والصلاة قد تسمى تسبيحاً. وقيل: المراد بالصلاة هنا الدعاء أي: كل واحد قد علم دعاءه، وتسبيحه. وفائدة الإخبار بأن كل واحد قد علم ذلك، أن صدور هذا التسبيح هو عن علم قد علمها الله ذلك، والهمها إليه، لا أن صدوره منها على طريقة الإتفاق بلا روية، وفي ذلك زيادة دلالة على بيع صنع الله سبحانه، وعظيم شأنه، كونه جعلها مسبحة له عالمة بما يصدر منها غير جاهلة له **﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾** هذه الجملة مقررة لما قبلها أي: لا تخفى عليه طاعتهم، ولا تسبيحهم، ويجوز أن يكون الضمير في «علم» الله سبحانه أي: كل واحد من هذه المسبحة قد علم الله صلاته له، وتسبيحه إياه، والأول أرجح لاتفاق القراء على رفع كل، ولو كان الضمير في علم الله لكان نصب كل أولى. ونكر بعض المفسرين: أنها قراءة طائفة من القراء علم على البناء للمفعول. ثم بين سبحانه: أن المبدأ منه، والمعاد إليه، فقال **﴿وَاللَّهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾** أي: له لا لغيره **﴿وَاللَّهِ الْمَصِيرُ﴾** لا إلى غيره، والمصير: الرجوع بعد الموت. وقد تقدم تفسير مثل هذه الآية في غير موضع. ثم نكر سبحانه دليلاً آخر من الآثار العلوية، فقال **﴿لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَزْجِي سَحَابًا﴾** الإجزاء: السوق قليلاً قليلاً، ومنه قول النابغة:

إني أتيتك من أهلي ومن وطني أرْجِي حشاشة نفس ما بها رمق
وقوله أيضاً:

أسرت عليه من الجوزاء سارية يزجي السماك عليه جامد البرد
والمعنى: أنه سبحانه يسوق السحاب سوقاً رقيقاً إلى حيث يشاء **﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُمْ﴾** أي: بين أجزائه، فيضم بعضه إلى بعض، ويجمعه بعد تفرقه ليقوى، ويتصل، ويكتف، والأصل في التاليف الهمز. وقرأ ورش، وقالون عن نافع (يولف) بالواو تخفيفاً، والسحاب واحد في اللفظ، ولكن معناه جمع، ولهذا دخلت «بين» عليه لأن أجزائه في حكم المفردات له. قال الفراء: إن الضمير في بينه راجع إلى جملة السحاب، كما تقول: الشجر قد جلست بينه، لأنه جمع، وأورد الضمير باعتبار اللفظ **﴿ثُمَّ يُجْعَلُهُ رُكَّامًا﴾** أي: متراكماً يركب بعضه بعضاً. والركم: جمع الشيء، يقال: ركم الشيء يركمه ركاماً أي: جمعه، وألقى بعضه على بعض وارتكم الشيء، وتراكم إذا اجتمع، والركمة: الطين المجموع، والركام: الرمل المتراكب **﴿فَتَرَى الْوَيْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾** الويَق: المطر عند جمهور المفسرين، ومنه قول الشاعر:

فلا مزنة وبقت وبقتها ولا أرض أبقل إقبالها
وقال امرؤ القيس:

ندفعهما وبق وسح وديمه وسكب وتوكاف وتنهملان
يقال: وبقت السحاب فهي: وائقة، وويق المطر يدق أي:

مقتر دَلَّ عليه المقام أي: إذا أخرج الحاضر في هذه الظلمات أو من ابتلى بها. قال الزجاج، وأبو عبيدة: المعنى لم يرها، ولم يكد. وقال الفراء: إن كاد زائدة. والمعنى: إذا أخرج يده لم يرها، كما تقول ما كنت أعرفه. وقال المبرد: يعني: لم يرها إلا من بعد الجهد. قال النحاس: أصح الأقوال في هذا أن المعنى: لم يقارب رؤيتها، فإن لم يرها رؤية بعيدة، ولا قريبة، وجملة **﴿وَمَنْ لَمْ يُجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا﴾** فما له من نور **﴿مُقرَّر﴾** لما قبلها من كون أعمال الكفرة على تلك الصفة، والمعنى: ومن لم يجعل الله له هداية، فما له من هداية. قال الزجاج: ذلك في الدنيا، والمعنى: من لم يهده الله لم يهتد، وقيل: المعنى: من لم يجعل له نوراً يمشي به يوم القيامة، فما له من نور يهتدي به إلى الجنة **﴿لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجِي لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾** قد تقدم تفسير مثل هذه الآية في سورة سبحة، والخطاب لكل من له أهلية النظر، أو للرسول ﷺ، وقد علمه من جهة الاستدلال؛ ومعنى **﴿لَمْ تَرَ﴾**: ألم تعلم، والهمزة للتقرير أي: قد علمت علماً يقينياً شبيهاً بالمشاهدة، والتسبيح التنزيه في ذاته، وأفعاله، وصفاته عن كل ما لا يليق به، ومعنى **﴿مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾**: من هو مستقرّ فيهما من العقلاء، وغيرهم، وتسبيح غير العقلاء ما يسمع من أصواتها، ويشاهد من أثر الصنعة البديعة فيها. وقيل: إن التسبيح هنا هو الصلاة من العقلاء، والتنزيه من غيرهم. وقد قيل: إن هذه الآية تشمل الحيوانات، والجمادات، وأن آثار الصنعة الإلهية في الجمادات ناطق، ومخبر باتصافه سبحانه بصفات الجلال، والكمال، وتنزهه عن صفات النقص، وفي ذلك تقريع للكفار، وتوبيخ لهم حيث جعلوا الجمادات التي من شأنها التسبيح لله سبحانه شركاء له يعبدونها كعبادة عز وجل. وبالجملة، فإنه ينبغي حمل التسبيح على ما يليق بكل نوع من أنواع المخلوقات على طريقة عموم المجاز. قرأ الجمهور (والطير صافات) بالرفع للطير، والنصب لصافات على أن الطير معطوفة على من، وصفات منتصب على الحال. وقرأ الأعرج (والطير) بالنصب على المفعول معه، وصفات حال أيضاً. قال الزجاج: وهي أجود من الرفع. وقرأ الحسن، وخارجة عن نافع (والطير صافات) برفعهما على الابتداء، والخبر، ومفعول صافات محذوف أي: أجنحتها، وخص الطير بالذكر مع دخولها تحت من في السموات، والأرض لعدم استمرار استقرارها في الأرض، وكثرة لبثها في الهواء، وهو ليس من السماء، ولا من الأرض، ولما فيها من الصنعة البديعة التي تقدر بها تارة على الطيران، وتارة على المشي بخلاف غيرها من الحيوانات، ونكر حالة من حالات الطير، وهي كون صدور التسبيح منها حال كونها صافات لأجنحتها؛ لأن هذه الحالة هي أغرب أحوالها، فإن استقرارها في الهواء مسبحة من نون تحريك لأجنحتها، ولا استقرار على الأرض من أعظم صنع الله الذي اتقن كل شيء. ثم زاد في البيان فقال **﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾** أي: كل

وقال امرؤ القيس:

يضيء سناؤه أو مصابيح راهب أمان السليط في الذبال المفتل
فالسنا بالقصر ضوء البرق، وبالمذ الرفعة، كذا قال
المبرد، وغيره. وقرأ طلحة بن مصرف، ويحيى بن وثاب
(سنا برق) بالمذ على المبالغة في شدة الضوء، والصفاء،
فأطلق عليه اسم: الرفعة، والشرف. وقرأ طلحة، ويحيى أيضاً
بضم الباء من برقه، وفتح الراء. قال أحمد بن يحيى ثعلب:
وهي على هذه القراءة جمع برق. وقال النحاس: البرقة
المقدار من البرق، والبرقة الواحدة. وقرأ الجحدري، وابن
القعقاع (يذهب) بضم الباء، وكسر الهاء من الإذهب. وقرأ
الباقون (سنا) بالقصر (وبرقه) بفتح الباء، وسكون الراء،
(ويذهب) بفتح الباء والهاء من الذهاب، وخطأ قراءة
الجحدري، وابن القعقاع الأخفش، وأبو حاتم. ومعنى ذهب
البرق بالأبصار: خطفه إياها من شدة الإضاءة، وزيادة
البرق، والباء في الأبصار على قراءة الجمهور للإلصاق،
وعلى قراءة غيرهم زائدة. «يقلب الله الليل والنهار» أي:
يعاقب بينهما، وقيل يزيد في أحدهما، وينقص الآخر، وقيل:
يقلبهما باختلاف ما يقدره فيهما من خير وشر، ونفع وضر،
وقيل: بالحر والبرد، وقيل: المراد بذلك تغيير النهار بظلمة
السحاب مرة، وبضوء الشمس أخرى، وتغيير الليل بظلمة
السحاب تارة، وبضوء القمر أخرى، والإشارة بقوله «إن في
ذلك لعبرة لأولي الأبصار» إلى ما تقدم، ومعنى العبرة:
الدلالة الواضحة التي يكون بها الاعتبار، والمراد بأولي
الأبصار كل من له بصر يبصر به. ثم ذكر سبحانه دليلاً
ثالثاً من عجائب خلق الحيوان، وبيد صنعته، فقال «والله
خلق كل دابة من ماء» قرأ يحيى بن وثاب، والأعمش،
وحمزة، والكسائي (والله خالق كل دابة)، وقرأ الباقرن
(خلق)، والمعنيان صحيحان، والدابة: كل ما دب على الأرض
من الحيوان، يقال: دب يذب، فهو: داب، والهاء للمبالغة،
ومعنى «من ماء»: من نطفة، وهي المنى، كذا قال الجمهور.
وقال جماعة: إن المراد الماء المعروف، لأن أدم خلق من
الماء، والطين. وقيل: في الآية تنزيل الغالب منزلة الكل على
القول الأول، لأن في الحيوانات ما يتولد لا عن نطفة، ويخرج
من هذا العموم الملائكة، فإنهم خلقوا من نور، والجآن، فإنهم
خلقوا من نار. ثم فصل سبحانه أحوال كل دابة، فقال
«فمنهم من يمشي على بطنه»، وهي الحيات، والحوت،
والدود، ونحو ذلك «ومنهم من يمشي على رجلين»
الإنسان، والطير «ومنهم من يمشي على أربع» سائر
الحيوانات، ولم يتعرض لما يمشي على أكثر من أربع ألقته،
وقيل: لأن المشي على أربع فقط، وإن كانت القوائم كثيرة،
وقيل: لعدم الاعتداد بما يمشي على أكثر من أربع، ولا وجه
لهذا، فإن المراد التنبيه على بديع الصنع، وكمال القدرة،
فكيف يقال: لعدم الاعتداد بما يمشي على أكثر من أربع؟
وقيل: ليس في القرآن ما يدل على عدم المشي على أكثر من
أربع، لأنه لم ينف ذلك، ولا جاء بما يقتضي الحصر، وفي

قطر يقطر، وقيل: إن الودق البرق، ومنه قول الشاعر:

أثرن عجاجة وخرجن منها خروج الودق من خلل السحاب
والأول أولى. ومعنى «من خلاله»: من فتوقه التي هي
مخارج القطر، وجملة «يخرج من خلاله» في محل
نصب على الحال، لأن الرؤية هنا هي للبصرية. وقرأ ابن
عباس، وابن مسعود، والضحاك، وأبو العالية (من خلله)
على الإفراد. وقد وقع الخلاف في خلال، هل هو مفرد
كحجاب؟ أو جمع كجبال؟ «وينزل من السماء من جبال
فيها من برد» المراد بقوله: من سماء: من عال، لأن
السماء قد تطلق على جهة العلو، ومعنى من جبال: من
قطع عظام تشبه الجبال، ولفظ «فيها» في محل نصب على
الحال، و«من» في من برد للتبويض، وهو مفعول ينزل.
وقيل: إن المفعول محذوف، والتقدير: ينزل من جبال فيها
من برد برداً. وقيل: إن «من» في من برد زائدة، والتقدير:
ينزل من السماء من جبال فيها برد. وقيل: إن في الكلام
مضاعفاً محذوفاً أي: ينزل من السماء قدر جبال، أو مثل
جبال من برد إلى الأرض. قال الأخفش: إن «من» في من
جبال، وفي من برد زائدة في الموضعين، والجبال، والبرد
في موضع نصب أي: ينزل من السماء برداً يكون كالجبال.
والحاصل: أن «من» في من السماء لابتداء الغاية بلا
خلاف، و«من» في من جبال فيها ثلاثة أوجه: الأول لابتداء
الغاية، فتكون هي ومجرورها بدلاً من الأولى بإعادة
الخافض بدل اشتغال الثاني: أنها للتبويض فتكون على هذا
هي ومجرورها في محل نصب على أنها مفعول الإنزال،
كأنه قال: وينزل بعض جبال. الثالث: أنها زائدة أي: ينزل
من السماء جبلاً. وأما «من» في من برد، ففيها أربعة
أوجه: الثلاثة المتقدمه. والرابع: أنها لبيان الجنس، فيكون
التقدير على هذا الوجه: وينزل من السماء بعض جبال التي
هي البرد. قال الزجاج: معنى الآية: وينزل من السماء من
جبال برد فيها كما تقول: هذا خاتم في يدي من حديد أي:
خاتم حديد في يدي، لأنك إذا قلت: هذا خاتم من حديد،
وخاتم حديد كان المعنى واحداً. انتهى. وعلى هذا يكون من
برد في موضع جر صفة لجبال كما كان من حديد صفة
لخاتم، ويكون مفعول ينزل من جبال، ويلزم من كون
الجبال برداً: أن يكون المنزل برداً. ونكر أبو البقاء: أن
التقدير: شيئاً من جبال، فحذف الموصوف، واكتفى بالصفة
«فيصيب به من يشاء» أي: يصيب بما ينزل من البرد
من يشاء أن يصيبه من عباده «ويصرفه عن يشاء»
منهم، أو يصيب به مال من يشاء، ويصرفه عن مال من
يشاء، وقد تقدم الكلام عن مثل هذا في البقرة «يكاد سنا
برقه يذهب بالأبصار» السنا الضوء أي: يكاد ضوء
البرق الذي في السحاب يذهب بالأبصار من شدة بريقه،
وزيادة لمعنه، وهو كقوله: «يكاد البرق يخطف أبصارهم»
[البقرة: 20] قال الشماخ:

وما كانت إذا رفعت سناها ليبصر ضوءها إلا البصير

إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٦﴾ وَنَّ يُطِيعُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَى اللَّهَ وَيَتَّقُوهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿١٧﴾ * وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَنْ تُرْمَازَ بِكُمْ فَيُخْرِجَنَّكُمْ عَنْ دِينِكُمْ أَوْ تَقْسِمُوا طَاعَةَ مَرْثُومَةٍ إِنْ لَمْ يَكُنْ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ قُلْ أَلْبِيعُوا اللَّهَ وَأَلْبِيعُوا الرُّسُلَ قُلْتُ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ مَا حَلَّ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٩﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفْنَا الْأَنْبِيَاءَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيَسَكُنَ فِي دِينِهِمُ الْكُوفُ ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيَسَدِّدَنَّ مِنْ بَعْدِ خُوفِهِمْ أَسْأَافَ بَعْدُؤُنِي لَا يَشْكُرُونَ فِي شَيْءٍ وَنَ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٢٠﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَلْبِيعُوا الرُّسُلَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢١﴾ لَا تَحْسَبِ الَّذِينَ كَفَرُوا مَعْزُومِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا فِيهِمْ أَنَارُ وَلَيْسَ الْأَمِيرُ ﴿٢٢﴾

شرح سبحانه في بيان احوال من لم تحصل له الهداية إلى الصراط المستقيم، فقال ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرُّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾، هؤلاء هم المنافقون الذين يظهرون الإيمان، ويبطنون الكفر، ويقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، فإنهم كما حكي الله عنهم هانئا ينسبون إلى أنفسهم الإيمان بالله، وبِالرُّسُولِ والطاعة لله ورسوله نسبة بمجرد اللسان، لا عن اعتقاد صحيح، ولهذا قال ﴿لَمْ يَقُولُوا فَرِيقَ مِنْهُمْ﴾ أي: من هؤلاء المنافقين القائلين هذه المقالة ﴿مِنْ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي: من بعد ما صدر عنهم ما نسبوه إلى أنفسهم من دعوى الإيمان، والطاعة، ثم حكم عليهم سبحانه وتعالى بعدم الإيمان، فقال ﴿وَمَا لَوْلَا لَكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ما لَوْلَا القائلون هذه المقالة بالمؤمنين على الحقيقة، فيشمل الحكم بنفي الإيمان لجميع القائلين، ويندرج تحتهم من تولى اندراجاً أولياً، وقيل: إن الإشارة بقوله ﴿لَوْلَا لَكُمْ﴾ راجع إلى من تولى، والأول أولى. والكلام مشتمل على حكمين: الحكم الأول على بعضهم بالتولي، والحكم الثاني على جميعهم بعدم الإيمان. وقيل: أراد بمن تولى: من تولى عن قبول حكمه ﷺ، وقيل: أراد بذلك رؤساء المنافقين، وقيل: أراد بتولي هذا الفريق رجوعهم إلى السابقين، ولا ينافي ما تحتمله هذه الآية باعتبار لفظها ورودها على سبب خاص، كما سيأتي بيانه. ثم وصف هؤلاء المنافقين بأن فريقاً منهم يعرضون عن إجابة الدعوى إلى الله، وإلى رسوله في خصوصياتهم، فقال ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: ليحكم الرسول بينهم، فالضمير راجع إليه؛ لأنه المباشر للحكم، وإن كان الحكم في الحقيقة لله سبحانه، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ [التوبة: 62]. وإذاه في قوله ﴿وَإِذَا فَرِيقَ مِنْهُمْ مَعْزُومُونَ﴾ هي الفجائية أي: فجاء فريق منهم الإعراض عن المحاكمة إلى الله، والرسول، ثم ذكر سبحانه: أن إعراضهم إنما هو إذا كان الحق عليهم، وأما إذا كان لهم فإنهم يذعنون لعلمهم بأن رسول الله ﷺ لا يحكم إلا بالحق، فقال ﴿وَإِنْ يَكُنْ لَهُمْ

مصحف أبي (ومنهم من يمشي على أكثر من أربع، فعم بهذه الزيادة جميع ما يمشي على أكثر من أربع، كالسرطان، والعنكب، وكثير من خشاش الأرض) ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ مما نكره هانئا، ومما لم ينكره، كالجمادات مركبها وبسيطها، ناميها وغير ناميها ﴿إِنْ لَمْ يَكُنْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يعجزه شيء بل الكل من مخلوقاته داخل تحت قدرته سبحانه ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبِينَاتٍ﴾ أي: القرآن، فإنه قد اشتمل على بيان كل شيء، وما فرطنا في الكتاب من شيء، وقد تقدم بيان مثل هذا في غير موضع ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ بتوفيقه للنظر الصحيح، وإرشاده إلى التامل الصائق ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ إلى طريق مستوي لا عوج فيه، فيتوصل بذلك إلى الخير التام، وهو نعيم الجنة.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ﴾ قال: هو مثل ضربه الله كرجل عطش، فاشتد عطشه، فرأى سراباً، فحسبه ماء، فطلبه، فظن أنه قدر عليه حتى أتى، فلما أتاه لم يجده شيئاً، وقبض عند ذلك، يقول: الكافر كذلك السراب إذا أتاه الموت لم يجد عمله يغني عنه شيئاً، ولا ينفعه إلا كما نفع السراب العطشان ﴿أَوْ كظلمات في بحر لجي﴾ قال: يعني بالظلمات: الأعمال، وبالبحر اللجي قلب الإنسان ﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ﴾ يعني بذلك: الغشاوة التي على القلب، والسمع، والبصر. وأخرج ابن جرير عنه ﴿بِقِيَعَةٍ﴾: بارض مستوية. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق السدي، عن أبيه، عن أصحاب النبي ﷺ قال: فإن الكفار يبعثون يوم القيامة ورداً عطاشاً، فيقولون: أين الماء؟ فيتمثل لهم السراب، فيحسبون ماء، فينطلقون إليه، فيجدون الله عنده، فيوفيه حساباً، والله سريع الحساب، وفي إسناد السدي عن أبيه، وفيه مقال معروف. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة في قوله ﴿كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ قال: الصلاة للإنسان، والتسبيح لما سوى ذلك من خلقه. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه في قوله ﴿وَالطَّيْرُ صَافَاتٍ﴾ قال: بسط أجنحتهن. وأخرج عبد بن حميد، عن قتادة نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقُهُ﴾ يقول: ضوء برق. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، عن ابن عباس قال: كل شيء يمشي على أربع إلا الإنسان. وأقول: هذه الطيور على اختلاف أنواعها تمشي على رجلين، وهكذا غيرها، كالنعامة، فإنها تمشي على رجلين، وليست من الطير، فهذه الكلية المروية عنه رضي الله عنه لا تصح.

وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرُّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَلَنْ يَكُنْ لَهُمْ لَقَى يَأْتُوا إِلَيْهِ مُدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ إِنْ قُلُوبُهُمْ مَرَسَتْ أَنْ أَتَوْا بِمَعَاذٍ أَنْ يَحْفَظَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٦﴾

الآقطار الإسلامية، فليرجع إليهما. ثم لما نكر ما كان عليه أهل النفاق أتبع بما يجب على المؤمنين أن يفعلوه إذا دعوا إلى حكم الله، ورسوله، فقال ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ قرأ الجمهور بنصب (قول) على أنه خبر كان، واسمها أن يقولوا. وقرأ علي، والحسن، وابن أبي إسحاق برفع (قول) على أنه الاسم، وأن المصدرية، وما في حيزها الخبر، وقد رجحت القراءة الأولى بما تقرر عند النحاة من: أنه إذا اجتمع معرفتان، وكانت إحدهما أعرف جعلت التي هي أعرف اسماً. وأما سيبويه فقد خير بين كل معرفتين، ولم يفرق هذه التفرقة، وقد قلنا الكلام على الدعوة إلى الله، ورسوله للحكم بين المتخاصمين، ونكرنا من تجب الإجابة إليه من القضاة، ومن لا تجب ﴿أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أي: أن يقولوا هذا القول لا قولاً آخر، وهذا وإن كان على طريقة الخبر، فليس المراد به ذلك، بل المراد به تعليم الألب الشرعي عند هذه الدعوة من أحد المتخاصمين للآخر. والمعنى أنه ينبغي للمؤمنين أن يكونوا هكذا بحيث إذا سمعوا الدعاء المذكور قابله بالطاعة، والإنعان. قال مقاتل، وغيره: يقولون سمعنا قول النبي ﷺ، وأطعنا أمره، وإن كان ذلك فيما يكرهونه، ويضرونهم، ثم أثنى سبحانه عليهم بقوله ﴿وَأُولَئِكَ﴾ أي: للمؤمنون الذين قالوا هذا القول ﴿هُمْ الْمَفْلُحُونَ﴾ أي: الفائزون بخير الدنيا، والآخرة، ثم أرف الثناء عليهم بشيء آخر، فقال ﴿وَمَن يَطْعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيُخَشِ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾، وهذه الجملة مقررة لما قبلها من حسن حال المؤمنين، وترغيب من عداهم إلى الدخول في عدادهم، والمتابعة لهم في طاعة الله ورسوله، والخشية من الله عز وجل، والتقوى له. قرأ حفص (ويته) بإسكان القاف على نية الجزم. وقرأ الباقون بكسرها، لأن جزم هذا الفعل بحذف آخره، وأسكن الهاء أبو عمرو، وأبو بكر، واختلس الكسرة يعقوب، وقالون عن نافع، والمثنى عن أبي عمرو، وحفص، وأشبع كسرة الهاء الباقون. قال ابن الأنباري: وقراءة حفص هي على لغة من قال: لم أر زيدا، ولم أشر طعاماً يسقطون الباء للجزم، ثم يسكنون الحرف الذي قبلها، ومنه قول الشاعر:

قالت سلمي اشتري لنا ديقاً

وقول الآخر:

عجبت لمولود وليس له أب وذئ وليد لم يلد له أبوان
وأصله يلد بكسر اللام، وسكون الدال للجزم، فلما سكن اللام التقى ساكنان، فلو حرك الأول؛ لرجع إلى ما وقع الفرار منه، فحرك ثانيهما، وهو: الدال. ويمكن أن يقال: إنه حرك الأول على أصل التقاء الساكنين، وبقي السكون على الدال لبيان ما عليه أهل هذه اللغة، ولا يضرب الرجوع إلى ما وقع الفرار منه، فهذه الحركة غير تلك الحركة، والإشارة بقوله: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ إلى الموصوفين بما نكر من الطاعة، والخشية، والتقوى أي: هم الفائزون بالنعيم الدنيوي،

الحق يأتوا إليه مذعنين﴾ قال الزجاج: الإنعان الإسراع مع الطاعة، يقال: أنعن لي بحقي أي: طالعني لما كنت التمس منه، وصار يسرع إليه، وبه قال مجاهد. وقال الأخفش، وابن الأعرابي: مذعنين مقررين. وقال النقاش: مذعنين: خاضعين. ثم قسم الأمر في إعراضهم عن حكومته إذا كان الحق عليهم، فقال ﴿إِنِّي قُلُوبُهُم مَّرْضٌ﴾، وهذه الهمزة للتوبيخ، والتقريع لهم، والمرض النفاق أي: لكان هذا الإعراض منهم بسبب النفاق الكائن في قلوبهم ﴿إِنَّمَا ارْتَبَاوْا﴾، وشكوا في أمر نبوته ﷺ، وعذله في الحكم ﴿إِنَّمَا يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ﴾، والحييف الميل في الحكم؛ يقال: حاف في قضيته أي: جار فيما حكم به، ثم أضرب عن هذه الأمور التي صدرها بالاستفهام الإنكاري، فقال ﴿بَلْ لَّوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: ليس ذلك لشيء مما ذكر، بل لظلمهم، وعنادهم؛ فإنه لو كان الإعراض لشيء مما ذكر لما أتوا إليه مذعنين إذا كان الحق لهم، وفي هذه الآية دليل على وجوب الإجابة إلى القاضي العالم بحكم الله العادل في حكمه؛ لأن العلماء ورثة الأنبياء، والحكم من قضاة الإسلام العالمين بحكم الله العارفين بالكتاب، والسنة، العادلين في القضاء. هو: حكم بحكم الله، وحكم رسوله، فالداعي إلى التحاكم إليهم قد دعا إلى الله، وإلى رسوله أي: إلى حكمهما. قال ابن خويزمندان: واجب على كل من دعي إلى مجلس للحكم أن يجيب ما لم يعلم أن الحاكم فاسق. قال القرطبي: في هذه الآية دليل على وجوب إجابة الداعي إلى الحاكم، لأن الله سبحانه ذم من دعي إلى رسوله ليحكم بينه وبين خصمه بالتيب الذم، فقال ﴿إِنِّي قُلُوبُهُم مَّرْضٌ﴾ الآية. انتهى. فإن كان القاضي مقصراً لا يعلم بأحكام الكتاب، والسنة، ولا يعقل حجج الله، ومعاني كلامه، وكلام رسوله، بل كان جاهلاً جهلاً بسيطاً، وهو من لا علم له بشيء من ذلك، أو جهلاً مركباً، وهو: من لا علم عنده بما نكرنا، ولكنه قد عرف بعض اجتهادات المجتهدين، وأطلع على شيء من علم الرأي، فهذا في الحقيقة جاهل، وإن اعتقد أنه يعلم بشيء من العلم، فاعتقاده باطل؛ فمن كان من القضاة هكذا، فلا تجب الإجابة إليه؛ لأنه ليس ممن يعلم بحكم الله ورسوله حتى يحكم به بين المتخاصمين إليه، بل هو من قضاة الطاغوت، وحكام الباطل، فإن ما عرفه من علم الرأي إنما رخص في العمل به للمجتهد الذي هو منسوب إليه عند عدم الدليل من الكتاب، والسنة، ولم يرخص فيه لغيره ممن يأتي بعده. وإذا تقرر لديك هذا، وفهمته حق فهمه علمت: أن التقليد، والإنساب إلى عالم من العلماء دون غيره، والتقليد بجميع ما جاء به من رواية، ورأي، وإهمال ما عداه من أعظم ما حدث في هذه الملة الإسلامية من البدع المضلة، والفوارق الموحشة، فإننا لله وإنا إليه راجعون. وقد أوضحنا هذا في مؤلفنا الذي سميناه: [القول المفيد في حكم التقليد] وفي مؤلفنا الذي سميناه: [أدب الطلب] ومنتهى الأرب، فمن أراد أن يقف على حقيقة هذه البدعة التي طبقت

المبين: التبليغ الواضح، أو الموضح. قيل: يجوز أن يكون قوله ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ ماضياً، وتكون الواو لضمير الغائبين، وتكون هذه الجملة الشرطية مما أمر به رسول الله ﷺ أن يقول لهم، ويكون في الكلام التفات من الخطاب إلى الغيبة، والأول أرجح. ويؤيده الخطاب في قوله ﴿وَعَلَيْكُمْ مَا حَمَلْتُمْ﴾، وفي قوله ﴿وَإِنْ تَطِيعُوا تَهْتَدُوا﴾، ويؤيده أيضاً قراءة البزي (فإن تولوا) بتشديد التاء، وإن كانت ضعيفة لما فيها من الجمع بين ساكنين ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ هذه الجملة مقررة لما قبلها من أن طاعتهم لرسول الله ﷺ سبب لهديتهم، وهذا وعد من الله سبحانه لمن آمن بالله، وعمل الأعمال الصالحات بالاستخلاف لهم في الأرض لما استخلف الذين من قبلهم من الأمم، وهو وعد يعم جميع الأمة. وقيل: هو خاص بالصحاب، ولا وجه لذلك، فإن الإيمان، وعمل الصالحات لا يختص بهم، بل يمكن وقوع ذلك من كل واحد من هذه الأمة، ومن عمل بكتاب الله، وسنة رسوله، فقد أطاع الله ورسوله، واللام في ﴿لِيَسْتَخْلَفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ جواب لقسم محذوف، أو جواب للوعد بتزويله منزلة القسم، لأنه ناجز لا محالة، ومعنى ﴿لِيَسْتَخْلَفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾: ليجعلهم فيها خلفاء يتصرفون فيها تصرف الملوك في مملوكاتهم، وقد أبعد من قال: إنها مختصة بالخلفاء الأربعة، أو بالمهاجرين، أو بأن المراد بالأرض أرض مكة، وقد عرفت أن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وظاهر قوله ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ النَّبِيُّ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ كل من استخلفه الله في أرضه، فلا يخص ذلك ببني إسرائيل، ولا أمة من الأمم دون غيرها. قرأ الجمهور ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ﴾ بفتح الفوقية على البناء للفاعل. وقرأ عيسى بن عمر، وأبو بكر، والمفضل، عن عاصم بضمها على البناء للمفعول، ومحل الكاف النصب على المصدرية أي: استخلفاً كما استخلف، وجملة ﴿وَلِيُمْكِنَنَّ لَهُمْ دِينُهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾ معطوفة على ليستخلفنهم داخلية تحت حكمه كائنة من جملة الجواب، والمراد بالتمكين هنا: التثبيت، والتقرير أي: يجعله الله ثابتاً مقرراً، ويوسع لهم في البلاد، ويظهر دينهم على جميع الأديان، والمراد بالدين هنا: الإسلام، كما في قوله: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: 3] ذكر سبحانه وتعالى الإستخلاف لهم أولاً، وهو جعلهم ملوكاً، وذكر التمكين ثانياً، فافاد ذلك أن هذا الملك ليس على وجه العروض، والطوبى، بل على وجه الاستقرار، والثبات، بحيث يكون الملك لهم، ولعقبهم من بعدهم، وجملة ﴿وَلِيُمْكِنَنَّ لَهُمْ دِينُهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾ معطوفة على التي قبلها. قرأ ابن كثير، وابن محيصن، ويعقوب، وأبو بكر (ليبيلنهم) بالتخفيف من أبيل، وهي قراءة الحسن، واختارها أبو حاتم. وقرأ الباقر بالتشديد من بئل، واختارها أبو عبيد، وهما لغتان، وزيادة البناء تدل على زيادة المعنى، فقراءة التشديد أرجح من قراءة التخفيف. قال النحاس: وزعم أحمد بن

والأخروي لا من عداهم. ثم حكى سبحانه عن المنافقين أنهم لما كرهوا حكمه أقسموا بأنه لو أمرهم بالخروج إلى الغزو لخرجوا، فقال: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ أي: لئن أمرتهم بالخروج إلى الجهاد ليخرجن، وجهد أيمانهم منتصب على أنه مصدر مؤكد للفعل المحذوف الناصب له أي: أقسموا بالله يجهدون أيمانهم جهداً. ومعنى ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾: طاقة ما قدروا أن يحلفوا، مأخوذ من قولهم جهد نفسه: إذا بلغ طاقتها، وأقصى وسعها. وقيل: هو منتصب على الحال والتقدير: مجتهدين في أيمانهم، كقولهم: أفعل ذلك جهنك، وطاقتك، وقد خلط الزمخشري الوجهين، فجعلهما واحداً. وجواب القسم قوله ﴿لَيَخْرُجُنَّ﴾، ولما كانت مقاتلتهم هذه كاذبة، وأيمانهم فاجرة رد الله عليهم، فقال ﴿قُلْ لَا تَقْسَمُوا﴾ أي: رد عليهم زاجراً لهم، وقيل لهم: لا تقسموا أي: لا تحلفوا على ما تزعمونه من الطاعة، والخروج إلى الجهاد إن أمرتم به، وهما نتم الكلام. ثم ابتداء، فقال ﴿طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾، وارتفاع طاعة على أنها خير مبتدأ محذوف أي: طاعتهم طاعة معروفة بأنها طاعة نفاقية لم تكن عن اعتقاد، ويجوز أن تكون طاعة مبتدأ، لأنها قد خصصت بالصفة، ويكون الخبر مقررأ أي: طاعة معروفة أولى بكم من أيمانكم، ويجوز أن ترتفع بفعل محذوف أي: لتكن منكم طاعة، أو لتوجد، وفي هذا ضعف لأن الفعل لا يحذف إلا إذا تقرر ما يشعر به. وقرأ زيد بن علي، والترمذي (طاعة) بالنصب على المصدر لفعل محذوف أي: أطيعوا طاعة ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الأعمال، وما تضمنونه من المخالفة لما تنطق به السننكم، وهذه الجملة تعليل لما قبلها من كون طاعتهم طاعة نفاق. ثم أمر الله سبحانه نبيه ﷺ: أن يأمرهم بطاعة الله ورسوله، فقال ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ طاعة ظاهرة، وباطنة بخلوص اعتقاد، وصحة نية، وهذا التكرير منه تعالى لتأكيد وجوب الطاعة عليهم، فإن قوله ﴿قُلْ لَا تَقْسَمُوا طَاعَةً مَعْرُوفَةً﴾ في حكم الأمر بالطاعة، وقيل: إنهما مختلفان، فالأول نهي بطريق الرد، والتوبيخ، والثاني أمر بطريق التكليف لهم، والإيجاب عليهم ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ خطاب للمأمورين، وأصله، فإن تتولوا، فحذف إحدى التامين تخفيفاً، وفيه رجوع من الخطاب مع رسول الله ﷺ إلى الخطاب لهم لتأكيد الأمر عليهم، والمبالغة في العناية بهديتهم إلى الطاعة، والانقياد، وجواب الشرط قوله ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حَمَلْتُمْ﴾ أي: فاعلموا أنما على النبي ﷺ ما حمل مما أمر به من التبليغ، وقد فعل، وعليكم ما حملتم أي: ما أمرتم به من الطاعة، وهو وعيد لهم، كأنه قال لهم: فإن توليتهم، فقد صرتم حاملين للحمل الثقيل ﴿وَإِنْ تَطِيعُوا﴾ فيما أمركم به، ونهاكم عنه ﴿تَهْتَدُوا﴾ إلى الحق، وترشدوا إلى الخير، وتفوزوا بالأجر، وجملة ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ مقررة لما قبلها، واللام إما للعهد، فيراد بالرسول نبينا ﷺ، وإما للجنس، فيراد كل رسول، والبلاغ

وبين الرجل خصومة، أو منازعة على عهد رسول الله ﷺ، فإذا دعي إلى النبي ﷺ، وهو محقّ أذعن، وعلم أن النبي ﷺ سيقضي له بالحق، وإذا أراد أن يظلم فدعي إلى النبي ﷺ أعرض، وقال: أنطلق إلى فلان، فأنزل الله سبحانه **﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾** إلى قوله **﴿هُمْ الظالمون﴾**، فقال رسول الله ﷺ: «من كان بينه وبين أخيه شيء، فدعاه إلى حكم من حكام المسلمين، فلم يجب، فهو ظالم لا حق له». قال ابن كثير بعد أن ساق هذا المتن ما لفظه: وهذا حديث غريب، وهو مرسل. وقال ابن العربي: هذا حديث باطل، فأما قوله: فهو ظالم، فكلام صحيح. وأما قوله: فلا حق له، فلا يصح. ويحتمل أن يريد أنه على غير الحق. انتهى. وأقول: أما كون الحديث مرسلًا، فظاهر. وأما دعوى كونه باطلاً، فمحتاجة إلى برهان، فقد أخرجه ثلاثة من أئمة الحديث عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم كما نكرناه، ويبعد كل البعد أن يتفق عليهم ما هو باطل، وإسناده عند ابن أبي حاتم هكذا: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا مبارك، حدثنا الحسن، فنكره. وليس في هؤلاء كذاب، ولا وضاع. ويشهد له ما أخرجه الطبراني، عن الحسن، عن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من دعي إلى سلطان، فلم يجب، فهو ظالم لا حق له». انتهى. ولا يخفك أن قضاة العدل، وحكام الشرع الذين هم على الصفة التي قلّمنا لك قريباً هم سلاطين الدين المترجمون عن الكتاب، والسنة، المبيّنون للناس ما نزل إليهم. وأخرج ابن مريويه، عن ابن عباس قال: أتى قوم النبي ﷺ، فقالوا: يا رسول الله لو أمرتنا أن نخرج من أموالنا لخرجنا، فأنزل الله **﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾** الآية. وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل في الآية قال: ذلك في شأن الجهاد، قال: يأمرهم أن لا يحلفوا على شيء **﴿طاعة معروفة﴾** قال: أمرهم أن يكون منهم طاعة معروفة للنبي ﷺ من غير أن يقسموا. وأخرج ابن المنذر، عن مجاهد **﴿طاعة معروفة﴾** يقول: قد عرفت طاعتهم أي: إنكم تكتبون به. وأخرج مسلم، والترمذي، وغيرهما، عن علقمة بن وائل الحضرمي، عن أبيه قال: «قدم زيد بن أسلم على رسول الله ﷺ، فقال: أرايت إن كان علينا أمراء يأخذون منا الحق، ولا يعطونا؟ قال: فإنما عليهم ما حملوا، وعليكم ما حملتم». وأخرج ابن جرير، وابن قانع، والطبراني عن علقمة بن وائل الحضرمي، عن سلمة بن يزيد الجعفي قال: قلت: يا رسول، فذكر نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن الزبير، عن جابر أنه سئل: إن كان عليّ إمام فاجر، فلقيت معه أهل ضلالة أقاتل أم لا؟ قال: قاتل أهل الضلالة أينما وجبتهم، وعلى الإمام ما حمل، وعليكم ما حملتم. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مريويه عن البراء في قوله **﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾** الآية. قال: فينا نزلت، ونحن في خوف شديد. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن أبي العالية قال: «كان النبي ﷺ، وأصحابه بمكة نحواً من عشر سنين

يحيى ثعلب أن بين التخفيف والتثقيل فرقاً، وأنه يقال: بكتته أي: غيرته، وأبيلته: أزلته، وجعلت غيره، قال النحاس، وهذا القول صحيح. والمعنى: أنه سبحانه يجعل لهم مكان ما كانوا فيه من الخوف من الأعداء أمناً، ويذهب عنهم أسباب الخوف الذي كانوا فيه بحيث لا يخشون إلا الله سبحانه، ولا يرجون غيره. وقد كان المسلمون قبل الهجرة، وبعد ما بقليل في خوف شديد من المشركين، لا يخرجون إلا في السلاح، ولا يمسون ويصبحون إلا على ترقب لنزول المضرة بهم من الكفار، ثم صاروا في غاية الأمن، والدعة، وأذل الله لهم شياطين المشركين، وفتح عليهم البلاد، ومهد لهم في الأرض، ومكنهم منها، فله الحمد، وجملة **﴿يَعْبُدُونِي﴾** في محل نصب على الحال، ويجوز أن تكون مستأنفة مسوقة للثناء عليهم، وجملة **﴿لَا يَشْرَكُونَ بِي شَيْئاً﴾** في محل نصب على الحال من فاعل **﴿يَعْبُدُونِي﴾** أي: يعبدونني، غير مشركين بي في العبادة شيئاً من الأشياء، وقيل: معناه لا يرامون بعبادتي أحداً، وقيل: معناه لا يخافون غيري، وقيل: معناه لا يحبون غيري **﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾** أي: من كفر هذه النعم بعد ذلك الوعد الصحيح، أو من استمر على الكفر، أو من كفر بعد إيمان، فأولئك الكافرون، هم الفاسقون: أي: الكاملون في الفسق. وهو الخروج عن الطاعة، والطفيان في الكفر، وجملة **﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾** معطوفة على مقتر يدل عليه ما تقدّم، كأنه قيل لهم: فأمّنوا، وأعملوا صالحاً، وأقيموا الصلاة، وقيل: معطوف على **﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ﴾**، وقيل التقدير: فلا تكفروا، وأقيموا الصلاة. وقد تقدّم الكلام على إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وكرّر الأمر بطاعة الرسول للتأكيد، وخصه بالطاعة، لأن طاعته طاعة لله، ولم ينكر ما يطيعونه فيه لقصد التعميم كما يشعر به الحنف على ما تقرّر في علم المعاني من أن مثل هذا الحنف مشعر بالتعميم **﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾** أي: أفعّلوا ما نكر من إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الرسول راجين أن يرحمكم الله سبحانه **﴿لَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مَعْجَازِينَ فِي الْأَرْضِ﴾** قرأ ابن عامر، وحمزة، وأبو حيوه (لا يحسبن) بالتحية بمعنى: لا تحسبن الذين كفروا، وقرأ الباقر بالفوقية أي: لا تحسبن يا محمد، والموصول المفعول الأول، ومعجزين الثاني، لأن الحساب يتعدى إلى مفعولين، قاله الزجاج، والفراء، وأبو علي. وأما على القراءة الأولى، فيكون المفعول الأول محذوفاً أي: لا يحسبن الذين كفروا أنفسهم. قال النحاس: وما علمت أحداً بصرياً، ولا كوفياً، إلا وهو يخطئ قراءة حمزة، ومعجزين معناه: فائتين. وقد تقدّم تفسيره، وتفسير ما بعده.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله **﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾** الآية قال: أناس من المنافقين أظهروا الإيمان، وهم في ذلك يصنّون عن سبيل الله وطاعته، وجهاد مع رسوله ﷺ. وأخرجوا أيضاً عن الحسن قال: إن الرجل كان يكون بينه،

تَأْكُلُوا جِيسًا أَوْ أَشْيَاءَ فَإِنَّا مَخَافَتُهُ بُرُوءًا فَلْيُمُؤْمِرُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ خِيَرَةً
مِّنْ عِندِ اللَّهِ يُبْرِكْ عَلَيْكُمْ كَذَلِكَ يَتَّبِعُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ
لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣١﴾

لما فرغ سبحانه من ذكر ما ذكره من دلائل التوحيد
رجع إلى ما كان فيه من الاستئذان، فنكره هاهنا على وجه
اخص، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيْسَ تَانْتَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ
أَيْمَانُكُمْ﴾ والخطاب للمؤمنين، وتدخل المؤمنات فيه تغليبا
كما في غيره من الخطابات. قال العلماء: هذه الآية خاصة
ببعض الأوقات. واختلوا في المراد بقوله ﴿لَيْسَ تَانْتَكُمْ﴾
على أقوال: الأول: أنها منسوخة، قاله سعيد بن المسيب.
وقال سعيد بن جبير: إن الأمر فيها للنبأ لا للوجوب. وقيل:
كان ذلك واجبا حيث كانوا لا أبواب لهم، ولو عاد الحال لعاد
الوجوب، حكاه المهدوي عن ابن عباس. وقيل: إن الأمر
هاهنا للوجوب، وإن الآية محكمة غير منسوخة، وإن حكمها
ثابت على الرجال والنساء؛ قال القرطبي: وهو قول أكثر أهل
العلم. وقال أبو عبد الرحمن السلمي: إنها خاصة بالنساء.
وقال ابن عمر: هي خاصة بالرجال دون النساء. والمراد
بقوله ﴿مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ العبيد، والإماء، والمراد بالذين لم يبلغوا
الحلم الصبيان منكم أي: من الأحرار، ومعنى ﴿ثَلَاثَ
مَرَّاتٍ﴾: ثلاثة أوقات في اليوم والليلة، وعبر بالمرات عن
الأوقات لأن أصل وجوب الاستئذان هو بسبب مقارنة تلك
الأوقات لمرور المستأذنين بالمخاطبين لا نفس الأوقات،
وانتصاب ثلاث مرات على الظرفية الزمانية أي: ثلاثة أوقات،
ثم فسر تلك الأوقات بقوله ﴿مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ﴾ إلخ، أو
منسوب على المصدرية أي: ثلاث استئذانات؛ ورجح هذا أبو
حيان، فقال: والظاهر من قوله ﴿ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾ ثلاث
استئذانات، لأنك إذا قلت ضربتك ثلاث مرات لا يفهم منه إلا
ثلاث ضربات. ويرد: بأن الظاهر هنا متروك للقرينة
المنكورة، وهو التفسير بالثلاثة الأوقات. قرأ الحسن، وأبو
عمرو في رواية (الحلم) بسكون اللام، وقرأ الباقر بضمها.
قال الأخفش: الحلم من حلم الرجل بفتح اللام، ومن الحلم
حلم بضم اللام يحلم بكسر اللام، ثم فسر سبحانه الثلاث
المرات، فقال ﴿مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ﴾، وذلك لأنه وقت
القيام عن المضاجع، وطرح ثياب النوم، وليس ثياب اليقظة،
وربما بيت عريانا، أو على حال لا يحب أن يراه غيره فيها،
ومحله النصب على أنه بدل من ثلاث، ويجوز أن يكون في
محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: هي من قبل،
وقوله ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ﴾ معطوف
على محل ﴿مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ﴾، و«من» في ﴿مِنْ
الظَّهِيرَةِ﴾ للبيان، أو بمعنى: في، أو بمعنى: اللام. والمعنى:
حين تضعون ثيابكم التي تلبسونها في النهار من شدة حر
الظهيرة، وذلك عند انتصاف النهار، فإنهم قد يتجرسون عن
الثياب لأجل القيلولة. ثم ذكر سبحانه الوقت الثالث، فقال
﴿وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ﴾، وذلك لأنه وقت التجرد عن

يدعون إلى الله وحده، وعبادته وحده لا شريك له سرًا، وهم
خائفون لا يؤمرون بالقتال، حتى أمروا بالهجرة إلى المدينة،
فقدموا المدينة، فامرهم الله بالقتال، وكانوا بها خائفين
يمسسون في السلاح، ويصبحون في السلاح، فغلبوا بذلك ما
شاء الله، ثم إن رجلاً من أصحابه قال: يا رسول الله ﷺ أريد
الدهر نحن خائفون هكذا؟ ما يأتي علينا يوم نأمن فيه،
ونضع فيه السلاح؟ فقال رسول الله ﷺ: لن تغربوا إلا
يسيراً حتى يجلس الرجل منكم في الملاء العظيم محتبياً
ليست فيهم حديدة، فانزل الله ﴿وَعِدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ إلى آخر
الآية، فظهر الله نبيه ﷺ على جزيرة العرب، فأمروا،
ووضعوا السلاح. ثم إن الله قبض نبيه، فكانوا كذلك آمنين
في إمارة أبي بكر، وعمر، وعثمان حتى وقعوا فيما وقعوا،
وكفروا النعمة، فانخل الله عليهم الخوف الذي كان رفع
عنهم، وأتخنوا الحجر، والشرط، وغيروا، فغير ما بهم.
وأخرج ابن المنذر، والطبراني في الأوسط، والحاكم
وصححه، وابن مروي، والبيهقي في الدلائل، والضياء في
المختارة عن أبي بن كعب. قال: لما قدم رسول الله ﷺ
المدينة، وأوتهم الانتصار رمتهم العرب عن قوس واحد،
فكانوا لا يبيتون إلا في السلاح، ولا يصبحون إلا فيه،
فقالوا: اترونا أنا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف
إلا الله، فنزلت ﴿وَعِدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ﴾ الآية. وأخرج عبد بن حميد، عن ابن عباس
﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يَشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ قال: لا يخافون أحداً
غيري. وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبه، وعبد بن حميد،
وابن المنذر عن مجاهد مثله، قال ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ
فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ العاصون. وأخرج عبد بن حميد عن
أبي العالية قال: كفر بهذه النعمة، ليس الكفر بالله. وأخرج
عبد بن حميد عن قتادة ﴿مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ قال:
سابقين في الأرض.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيْسَ تَانْتَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ
مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَبَيْنَ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَمِنْ بَعْدِ
صَلَاةِ الْعِشَاءِ تِلْكَ عَوَازُ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُ
مُطَوَّقَاتٌ عَلَيْكُمْ بِمَتْعَتِكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ
عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ
﴿٣٣﴾ وَالْقُرْآنُ مِنَ الْبَيِّنَاتِ الَّتِي لَا رَيْبَ فِيهَا كَمَا بَيَّنَّاهُمْ عَلَيْهَا جُنَاحٌ أَنْ
يَضَعَنَّ ثِيَابَهُمْ عَلَىٰ مَتْنِفِ رِزْقٍ وَأَنْ يَسْتَعِفَّنَّ خَيْرٌ لَهُمْ وَاللَّهُ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى
الْمُرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَنفُسِ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ
أَوْ بُيُوتِ إِهْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ
أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ حَلَائِكُمْ أَوْ
مِنْ مَلَائِكَةٍ مِّنْكُمْ أَوْ مَدِينَةٍ أَوْ مَدِينَةٍ أَوْ مَدِينَةٍ أَوْ مَدِينَةٍ أَوْ مَدِينَةٍ

عليكم، وفي بعضكم لاختلاف العاملين. ومعنى طوافون عليكم أي: يطوفون عليكم، ومنه الحديث في الهرة: «إنما هي من الطوافين عليكم، أو الطوافات» أي: هم خدمكم فلا بأس أن يدخلوا عليكم في غير هذه الأوقات بغير إذن، ومعنى **«بعضكم على بعض»**: بعضكم يطوف، أو طائف على بعض، وهذه الجملة بدل مما قبلها، أو مؤكدة لها. والمعنى: أن كلا منكم يطوف على صاحبه العبيد على الموالي، والموالي على العبيد، ومنه قول الشاعر:

ولما قرعنا النبع بالنبع بعضه ببعض أبت عيدانه أن تكسرا
وقرأ ابن أبي عبيدة (طوافين) بالنصب على الحال كما تقدم عن الفراء، وإنما أباح سبحانه الدخول في غير تلك الأوقات الثلاثة بغير استئذان، لأنها كانت العادة أنهم لا يكشفون عوراتهم في غيرها، والإشارة بقوله **«كذلك يبين الله لكم الآيات»** إلى مصدر الفعل الذي بعده، كما في سائر المواضع في الكتاب العزيز أي: مثل تلك التبيين يبين الله لكم الآيات الدالة على ما شرعه لكم من الأحكام **«والله عليم حكيم»** كثير العلم بالمعلومات، وكثير الحكمة في أفعاله **«وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم»** بين سبحانه هاهنا حكم الأطفال الأحرار إذا بلغوا الحلم بعد ما بين فيما مرّ حكم الأطفال الذين لم يبلغوا الحلم في أنه لا جناح عليهم في ترك الاستئذان فيما عدا الأوقات الثلاثة، فقال **«فليستأنوا»** يعني: الذين بلغوا الحلم إذا دخلوا عليكم **«كما استأذن الذين من قبلهم»**، والكاف نعت مصدر محذوف أي: استئذنان كما استأذن الذين من قبلهم، والموصول عبارة عن الذين قيل لهم: **«لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا»** [النور: 27] الآية. والمعنى: أن هؤلاء الذين بلغوا الحلم يستأذنون في جميع الأوقات كما استأذن الذين من قبلهم من الكبار الذين أمروا بالاستئذان من غير استثناء، ثم كرر ما تقدم للتأكيد، فقال **«كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم»** وقرأ الحسن (الحلم)، فحذف الضمة لثقلها. قال عطاء: واجب على الناس أن يستأنوا إذا احتلوا أحراراً كانوا أو عبيداً. وقال الزمري: يستأذن الرجل على أمه، وفي هذا المعنى نزلت هذه الآية، والمراد بالقواعد من النساء: العجائز التي قعدن عن الحيض، والولد من الكبر، واحتلتها قاعد بلا هاء ليدلّ حذفها على أنه قعود الكبر، كما قالوا: امرأة حامل ليدلّ بحذف الهاء على أنه حمل حبل، ويقال: قاعدة في بيتها، وحاملة على ظهرها. قال الزجاج: هن اللاتي قعدن عن التزويج، وهو معنى قوله **«اللّاتي لا يرجون نكاحاً»** أي: لا يطمعن فيه لكبرهن. وقال أبو عبيدة: اللاتي قعدن عن الولد، وليس هذا بمستقيم، لأن المرأة تقعد عن الولد، وفيها مستمتع. ثم نكر سبحانه حكم القواعد، فقال **«فليس عليهم جناح أن يضعن ثيابهن»** أي: الثياب التي تكون على ظاهر البنين كالجلباب ونحوه، لا الثياب التي على العورة الخاصة، وإنما جاز لهنّ ذلك لانصراف الانفس عنهنّ إذ لا رغبة للرجال فيهنّ، فأباح

الثياب، والخلو بالاهل، ثم أجمل سبحانه هذه الأوقات بعد التفصيل، فقال **«ثلاث عورات لكم»** قرأ الجمهور (ثلاث عورات) برفع ثلاث، وقرأ حمزة، وأبو بكر عن عاصم بالنصب على البديل من ثلاث مرات. قال ابن عطية: إنما يصح البديل بتقدير أوقات ثلاث عورات، فحذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه، ويحتمل: أنه جعل نفس ثلاث مرات نفس ثلاث عورات مبالغة؛ ويجوز أن يكون ثلاث عورات بدلاً من الأوقات المذكورة أي: من قبل صلاة الفجر إلخ؛ ويجوز أن تكون منصوبة بإضمار فعل أي: أعني، ونحوه، وأما الرفع فعلى أنه خبر مبتدأ محذوف أي: هنّ ثلاث. قال أبو حاتم: النصب ضعيف مردود. وقال الفراء: الرفع أحب إليّ، قال: وإنما اخترت الرفع لأن المعنى هذه الخصال ثلاث عورات. وقال الكسائي: إن ثلاث عورات مرتفعة بالإبتداء، والخبر ما بعدها. قال: والعورات الساعات التي تكون فيها العورة. قال الزجاج: للمعنى: ليستأذنكم أوقات ثلاث عورات، فحذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه، وعورات جمع عورة، والعورة في الأصل الخلل، ثم غلب في الخلل الواقع فيما يهّم حفظه، ويتعين ستره أي: هي ثلاث أوقات يختل فيها الستر. وقرأ الأعمش (عورات) بفتح الواو، وهي لغة هذيل، وتميم، فإنهم يفتحون عين فعلات سواء كان واواً، أو ياء، ومنه:

أخو بيضات رايح متأوب رفيق بمسح المنكبين سبوح وقوله:

أبو بيضات رايح أو مبعد عجلان نازلا وغير مزود
ولكم متعلق بمحذوف، هو صفة لثلاث عورات أي: كائنة لكم، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان علة وجوب الاستئذان **«ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن»** أي: ليس على المماليك، ولا على الصبيان جناح أي: إثم في الدخول بغير استئذان لعدم ما يوجب من مخالفة الأمر، والإطلاع على العورات. ومعنى بعدهنّ: بعد كل واحدة من هذه العورات الثلاث، وهي الأوقات المتخللة بين كلّ اثنين منها، وهذه الجملة مستأنفة مقرّرة للأمر بالاستئذان في تلك الأحوال خاصة، ويجوز أن تكون في محل رفع صفة لثلاث عورات على قراءة الرفع فيها. قال أبو البقاء: **«بعدهن»** أي: بعد استئذانهم فيهنّ، ثم حذف حرف الجرّ والمجرور فبقي بعد استئذانهم، ثم حذف المصدر، وهو الاستئذان، والضمير المتصل به. ورد: بأنه لا حاجة إلى هذا للتقدير الذي نكره، بل المعنى: ليس عليكم جناح، ولا عليهم أي: العبيد، والإماء، والصبيان جناح في عدم الاستئذان بعد هذه الأوقات المذكورة، وارتقاء **«طوافون»** على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: هم طوافون عليكم، والجملة مستأنفة مبينة للعذر المرخص في ترك الاستئذان. قال الفراء: هذا كقولك في الكلام هم خدمكم، وطوافون عليكم، وأجاز أيضاً نصب طوافين لانه نكرة، والمضمر في **«عليكم»** معرفة، ولا يجيز البصريون أن تكون حالاً من المضمرين اللذين في

وبيوت الامهات، ومن بعدهم. قال النحاس: وعارض بعضهم هذا، فقال: هذا تحكم على كتاب الله سبحانه بل الأولى في الظاهر أن يكون الابن مخالفاً لهؤلاء. ويجاب عن هذه المعارضة بأن رتبة الأولاد بالنسبة إلى الآباء لا تنقص عن رتبة الآباء بالنسبة إلى الأولاد، بل للآباء مزيد خصوصية في أموال الأولاد لحديث: «انت، ومالك لابي»، وحديث: «ولد الرجل من كسبه»، ثم قد نكر الله سبحانه هاهنا بيوت الإخوة، والأخوات، بل بيوت الأعمام، والعمات، بل بيوت الأخوال، والخالات، فكيف ينفي سبحانه الحرج عن الأكل من بيوت هؤلاء، ولا ينفيه عن بيوت الأولاد؟ وقد قيد بعض العلماء جواز الأكل من بيوت هؤلاء بالإذن منهم. وقال آخرون: لا يشترط الإذن. قيل: وهذا إذا كان الطعام مبنولاً، فإن كان محرراً نونهم لم يجز لهم أكله. ثم قال سبحانه ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ مَفَاتِحَهُ﴾ أي: البيوت التي تملكون التصرف فيها بإذن أربابها، وذلك كالوكلاء، والعبيد، والخزائن، فإنهم يملكون التصرف في بيوت من أنن لهم بدخول بيته، وإعطائهم مفاتيحه. وقيل: المراد بها بيوت المماليك. قرأ الجمهور (ملكتم) بفتح الميم، وتخفيف اللام. وقرأ سعيد بن جبير بضم الميم، وكسر اللام مع تشديدها. وقرأ أيضاً (مفاتيحه) بياء بين التاء، والحاء. وقرأ قتادة (مفاتيحه) على الإفراد، والمفاتيح جمع مفتاح، والمفاتيح جمع مفتاح ﴿أَوْ صَدِيقَكُمْ﴾ أي: لا جناح عليكم أن تاكلوا من بيوت صديقكم، وإن لم يكن بينكم وبينه قرابة، فإن الصديق في الغالب يسمح لصديقه بذلك، وتطليب به نفسه، والصديق يطلق على الواحد، والجمع، ومنه قول جرير:

دعون الهوى ثم أرتمين قلوبنا بأسهم أعداء ومن صديق ومثله العدو، والخليفة، والقطين، والعشير، ثم قال سبحانه ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا﴾ من بيوتكم ﴿جَمِيعاً أَوْ لَشْتًا﴾ انتصاب جميعاً واشتاتاً على الحال. والاشتات جمع شت، والشت المصدر بمعنى: التفرق، يقال: شت القوم أي: تفرقوا، وهذه الجملة كلام مستأنف مشتمل على بيان حكم آخر من جنس ما قبله أي: ليس عليكم جناح أن تاكلوا من بيوتكم مجتمعين، أو متفرقين، وقد كان بعض العرب يتحرّج أن ياكل وحده حتى يجد له أكلاً يؤاكله، فياكل معه، وبعض العرب كان لا ياكل إلا مع ضيف، ومنه قول حاتم:

إذا ما صنعت الزاد فالتمس لي أكلاً فإني لست أكله وحدي ﴿فَإِذَا نَخَلْتُمْ بُيُوتًا﴾ هذا شروع في بيان أنب آخر أنب به عباده أي: إذا نخلتم بيوتاً غير البيوت التي تقدّم ذكرها ﴿فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: على أهلها الذين هم بمنزلة أنفسكم. وقيل: المراد البيوت المذكورة سابقاً. وعلى القول الأول، فقال الحسن، والنخعي: هي المساجد، والمراد سلموا على من فيها من صنفكم، فإن لم يكن في المساجد أحد، فقليل يقول: السلام على رسول الله، وقيل يقول: السلام عليكم مريداً للملائكة، وقيل يقول: السلام علينا، وعلى عباد الله الصالحين. وقال بالقول الثاني: أغني: أنها البيوت

الله سبحانه لهنّ ما لم يبيحه لغيرهنّ، ثم استثنى حالة من حالاتهنّ، فقال ﴿غَيْرِ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾ أي: غير مظهرات للزينة التي أمرن بإخفائها في قوله ﴿وَلَا يَبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ [النور: 31]، والمعنى: من غير أن يربن بوضع الجلابيب إظهار زينتهنّ، ولا متبرّجات بالترزين لينظر إليهنّ الرجال. والتبرّج: الكشف، والظهور للعيون، ومنه ﴿بروج مشيدة﴾ [النساء: 78] وبروج السماء، ومنه قولهم: سفينة بارجة أي: لا غطاء عليها ﴿وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ أي: وأن يتركن وضع الثياب فهو خير لهنّ من وضعها. وقرأ عبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب، وابن عباس: (أن يضعن من ثيابهن) بزيادة من، وقرأ ابن مسعود (وأن يعفنن) بغير سين ﴿وَاللَّهِ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ كثير السماع والعلم، أو بليغهما ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ اختلف أهل العلم في هذه الآية هل هي محكمة، أو منسوخة؟ قال بالأول جماعة من العلماء، وبالثاني جماعة. قيل: إن المسلمين كانوا إذا غزوا خلفوا زناهم، وكانوا ينفعون إليهم مفاتيح أبوابهم، ويقولون لهم: قد أحلنا لكم أن تاكلوا مما في بيوتنا، فكانوا يتحرّجون من ذلك وقالوا: لا ندخلها، وهم غيب، فنزلت هذه الآية رخصة لهم: فمعنى الآية: نفي الحرج عن الزماني في أكلهم من بيوت أقاربهم، أو بيوت من ينفق إليهم المفتاح إذا خرج للغزو. قال النحاس: وهذا القول من أجل ما روي في الآية لما فيه من الصحابة، والتابعين من التوقيف. وقيل: إن هؤلاء المذكورين كانوا يتحرّجون من مؤاكلة الأصحاء حذاراً من استقذارهم إياهم، وخوفاً من تأنيهم بأفعالهم، فنزلت. وقيل: إن الله رفع الحرج عن الأعمى فيما يتعلق بالتكليف الذي يشترط فيه البصر، وعن الأعرج فيما يشترط في التكليف به القدرة الكاملة على المشي على وجه يتعذر الإتيان به مع العرج، وعن المريض فيما يؤثر المرض في إسقاطه، وقيل: المراد بهذا الحرج المرفوع عن هؤلاء هو المرج في الغزو أي: لا حرج على هؤلاء في تأخيرهم عن الغزو. وقيل: كان الرجل إذا أدخل أحداً من هؤلاء الزمناء إلى بيته، فلم يجد فيه شيئاً يطعمهم إياه ذهب بهم إلى بيوت قرابته، فيتخرج الزماني من ذلك، فنزلت. ومعنى قوله ﴿وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ عليكم، وعلى من يماثلكم من المؤمنين ﴿أَنْ تَأْكُلُوا﴾ أنتم، ومن معكم، وهذا ابتداء كلام أي: ولا عليكم أيها الناس. والحاصل: أن رفع الحرج عن الأعمى، والأعرج، والمريض إن كان باعتبار مؤاكلة الأصحاء، أو دخول بيوتهم، فيكون ﴿وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ متصلاً بما قبله، وإن كان رفع الحرج عن أولئك باعتبار التكليف التي يشترط فيها وجود البصر، وعدم العرج، وعدم المرض، فقوله ﴿وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ ابتداء كلام غير متصل بما قبله. ومعنى ﴿مَنْ بِيُوتَكُمْ﴾: البيوت التي فيها متاعهم، وأهلهم، فيدخل بيوت الأولاد، كذا قال المفسرون، لأنها داخلة في بيوتهم لكون بيت ابن الرجل بيته، فلذا لم يذكر سبحانه بيوت الأولاد، وذكر بيوت الآباء،

يدخل عليه صبي، ولا خادم إلا بإذنه حتى يصلي الغداة، وإذا خلا بأهله عند الظهر، فمثل ذلك، ورخص لهم في الدخول فيما بين ذلك بغير إذن، وهو قوله **﴿ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن﴾**، فأما من بلغ الحلم، فإنه لا يدخل على الرجل، وأهله إلا بإذن على كل حال، وهو قوله **﴿وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأنوا كما يستأنن الذين من قبلهم﴾**. وأخرج أبو داود، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في السنن بسند صحيح من طريق عكرمة عنه أيضاً: أن رجلاً سأل عن الاستئذان في الثلاث العورات التي أمر الله بها في القرآن، فقال ابن عباس: وإن الله ستير يحب السترة، وكان الناس ليس لهم ستور على أبوابهم، ولا حجاب في بيوتهم، فربما فجا الرجل خامه، أو ولده، أو يقيم في حجره، وهو على أهله، فامرهم الله أن يستأنوا في تلك العورات التي سمى الله، ثم جاء الله بعد بالاستور، فبسط عليهم في الرزق، فاتخذوا الستور، واتخذوا الحجاب، فرأى الناس أن ذلك قد كفاهم من الاستئذان الذي أمروا به. وأخرج ابن أبي شيبة، والبخاري في الأدب، وابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عمر في قوله **﴿ليستأننكم الذين ملكت إيمانكم﴾** قال: هي على الذكور نون الإنك، ولا وجه لهذا التخصيص، فالاطلاع على العورات في هذه الأوقات كما يكرهه الإنسان من الذكور يكرهه من الإناث. وأخرج ابن مردويه عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن بعض أزواج النبي ﷺ في الآية قالت: نزلت في النساء أن يستأنن علينا. وأخرج الحاكم وصححه عن علي في الآية قال: النساء، فإن الرجال يستأننون. وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي عبد الرحمن السلمي في هذه الآية قال: هي في النساء خاصة، الرجال يستأننون على كل حال بالليل، والنهار. وأخرج الفريابي، عن موسى بن أبي عائشة قال: سألت الشعبي عن هذه الآية أمسوخة هي؟ قال: لا. وأخرج سعيد بن منصور، والبخاري في الأدب، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن عطاء: أنه سأل ابن عباس: أئستأنن على أختي؟ قال: نعم، قلت: إنها في حجري، وإنني أتفق عليها، وإنها معي في البيت أئستأنن عليها؟ قال: نعم، إن الله يقول **﴿ليستأننكم الذين ملكت إيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم﴾** الآية، فلم يؤمر هؤلاء بالإنن إلا في هؤلاء العورات الثلاث، قال: **﴿وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأنوا كما يستأنن الذين من قبلهم﴾** فالإنن واجب على كل خلق الله أجمعين. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، والبيهقي في سننه عن ابن مسعود قال: عليكم إنن على أمهاتكم. وأخرج سعيد بن منصور، والبخاري في الأدب عنه قال: يستأنن الرجل على أبيه، وأمه، وأخيه، وأخته. وأخرج ابن أبي شيبة، والبخاري في الأدب، عن جابر نحوه. وأخرج ابن جرير، والبيهقي في السنن عن عطاء بن يسار: «أن رجلاً قال: يا رسول الله أئستأنن على

المذكورة سابقاً جماعة من الصحابة، والتابعين، وقيل: المراد بالبيوت هنا هي كل البيوت المسكونة، وغيرها، فيسلم على أهل المسكونة، وأما غير المسكونة فيسلم على نفسه. قال ابن العربي: القول بالعموم في البيوت هو الصحيح، وانتصاب **﴿تحية﴾** على المصدرية، لأن قوله: **﴿فسلموا﴾** معناه: فحيوا أي: تحية ثابتة **﴿من عند الله﴾** أي: إن الله حياكم بها. وقال الفراء: أي: إن الله أمركم أن تفعلوها طاعة له، ثم وصف هذه التحية، فقال **﴿مباركة﴾** أي: كثيرة البركة والخير دائمتها **﴿طيبة﴾** أي: تطيب بها نفس المستمع، وقيل: حسنة جميلة. وقال الزجاج: أعلم الله سبحانه أن السلام مبارك طيب لما فيه من الأجر والثواب، ثم كرر سبحانه، فقال: **﴿كذلك يبين الله لكم الآيات﴾** تأكيداً لما سبق. وقد قَدَّمنا أن الإشارة بذلك إلى مصدر الفعل **﴿لعلكم تعقلون﴾** تعليل لذلك التبيين برجاء تعقل آيات الله سبحانه، وفهم معانيها.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن مقاتل بن حيان قال: بلغنا أن رجلاً من الأنصار، وأمراته أسماء بنت مرشدة صنعا للنبي ﷺ طعاماً، فقالت أسماء: يا رسول الله ما أتبع هذا إنه ليدخل على المرأة وزوجها، وهما في ثوب واحد غلامهما بغير إذن، فأنزل الله في ذلك **﴿يا أيها الذين آمنوا ليستأننكم الذين ملكت إيمانكم﴾** يعني: العبيد والإماء **﴿والذين لم يبلغوا الحلم منكم﴾** قال: من أحراركم من الرجال والنساء. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في هذه الآية قال: كان أناس من أصحاب رسول الله ﷺ يعجبهم أن يواقعوا نساءهم في هذه الساعات ليغتسلوا، ثم يخرجوا إلى الصلاة، فامرهم الله أن يأمروا المملوكين، والغلمان، أن لا يدخلوا عليهم في تلك الساعات إلا بإذن. وأخرج ابن مردويه عن ثعلبة القرظي، عن عبد الله بن سويد قال: سألت رسول الله ﷺ عن العورات الثلاث، فقال: إذا أنا وضعت ثيابي بعد الظهيرة لم يلج علي أحد من الخدم من الذين لم يبلغوا الحلم، ولا أحد لم يبلغ الحلم من الأحرار إلا بإذن، وإذا وضعت ثيابي بعد صلاة العشاء، ومن قبل صلاة الصبح. وأخرجه عبد بن حميد، والبخاري في الأدب، عن عبد الله بن سويد من قوله. وأخرج نحوه أيضاً ابن سعد عن سويد بن النعمان. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وأبو داود، وابن مردويه، والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال: إنه لم يؤمن بها أكثر الناس يعني: آية الإنن، وإنني لأمر جاريتي هذه، لجارية قصيرة قائمة على رأسه أن تستأنن علي. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، قال: ترك الناس ثلاث آيات لم يعملوا بهن **﴿يا أيها الذين آمنوا ليستأننكم الذين ملكت إيمانكم﴾** والآية التي في سورة النساء **﴿وإذا حضر القسمة﴾** [النساء: 8] الآية، والآية التي في الحجرات **﴿إن أكرمكم عند الله اتقاكم﴾** [الحجرات: 13]. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في السنن عنه أيضاً في الآية قال: إذا خلا الرجل بأهله بعد العشاء فلا

بيننا بالباطل، والطعام هو أفضل الأموال، فلا يحل لأحد منا أن ياكل عند أحد، فكف الناس عن ذلك، فأنزل الله **﴿ليس على الأعمى حرج﴾** إلى قوله **﴿أو ما ملكتكم مفاتيحه﴾**، وهو: الرجل يوكل الرجل بضيعته، والذي رخص الله أن ياكل من ذلك الطعام، والتتمر، ويشرب اللبن، وكانوا أيضاً يتحرجون أن ياكل الرجل الطعام وحده حتى يكون معه غيره، فرخص الله لهم فقال **﴿ليس عليكم جناح أن تاكلوا جميعاً أو اشتاتاً﴾**. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن الضحاك قال: كان أهل المدينة قبل أن يبعث النبي ﷺ لا يخالطهم في طعامهم أعمى، ولا مريض، ولا أعرج لا يستطيع المزاحمة على الطعام، فنزلت رخصة في مؤاكلتهم. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وأبو داود في مراسيله، وابن جرير، والبيهقي، عن الزهري: أنه سئل عن قوله **﴿ليس على الأعمى حرج﴾** ما بال الأعمى، والأعرج، والمريض نكروا هنا؟ فقال: أخبرني عبيد الله بن عبد الله: أن المسلمين كانوا إذا غزوا خلفوا زمنام، وكانوا يدفعون إليهم مفاتيح أبوابهم يقولون: قد أحللتنا لكم أن تاكلوا مما في بيوتنا، وكانوا يتحرجون من ذلك يقولون: لا ندخلها، وهم غيب، فأنزل الله هذه الآية رخصة لهم. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة قال: كان هذا الحي من بني كنانة بن خزيمة يرى أحدهم أن عليه مخزاة أن ياكل وحده في الجاهلية، حتى إن كان الرجل يسوق الزود الحفل، وهو جاثع حتى يجد من يؤاكله ويشاربه، فأنزل الله **﴿ليس عليكم جناح أن تاكلوا جميعاً أو اشتاتاً﴾**، وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن عكرمة، وأبي صالح قالوا: كانت الانصار إذا نزل بهم الضيف لا ياكلون حتى ياكل الضيف معهم، فنزلت رخصة لهم. وأخرج الثعلبي عن ابن عباس في الآية، قال: خرج الحارث غزياً مع رسول الله ﷺ، وخلف على أهله خالد بن يزيد، فخرج أن ياكل من طعامه، وكان مجهوداً، فنزلت. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله **﴿أو صديقكم﴾** قال: إذا دخلت بيت صديقك من غير مؤامرتك، ثم أكلت من طعامه بغير إذنك لم يكن بذلك بأس. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن زيد في قوله **﴿أو صديقكم﴾** قال: هذا شيء قد انقطع، إنما كان هذا في أوله، ولم يكن لهم أبواب، وكانت الستور مرخاة، فربما نخل الرجل البيت، وليس فيه أحد، فربما وجد الطعام، وهو جاثع فسوغه الله أن ياكله. وقال: ذهب ذلك اليوم البيوت فيها أهلها، فإذا خرجوا أغلقوا، فقد ذهب ذلك. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله **﴿فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم﴾** يقول: إذا دخلتم بيوتكم، فسلموا على أنفسكم **﴿تحية من عند الله﴾**، وهو السلام، لأنه اسم الله، وهو: تحية أهل الجنة. وأخرج البخاري، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مروي عن طريق أبي الزبير عن جابر بن عبد الله قال: إذا دخلت على أهلك، فسلم عليهم تحية من عند

أبي؟ قال: نعم، قال: إني معها في البيت، قال: استأذن عليها، قال: إني خادمها فاستأذن عليها كلما دخلت؟ قال: أحب أن تراها عريانة؟ قال: لا، قال: فاستأذن عليها، وهو مرسل. وأخرج ابن أبي شيبة نحوه عن زيد بن أسلم: أن رجلاً سأل النبي ﷺ، وهو أيضاً مرسل. وأخرج أبو داود، والبيهقي في السنن، عن ابن عباس **﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن﴾** [النور: 31] الآية، فنسخ، واستثنى من ذلك **﴿والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحاً﴾** الآية. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في السنن عنه قال: هي المرأة لا جناح عليها أن تجلس في بيتها بدرع وخمار، وتضع عليها الجلاب ما لم تتبرج بما يكرهه الله، وهو قوله **﴿فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة﴾**. وأخرج أبو عبيد في فضائله، وابن الأنباري في المصاحف، والبيهقي عن ابن عباس: أنه كان يقرأ **﴿أن يضعن من ثيابهن﴾** ويقول: هو: الجلاب. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، عن ابن عمر في الآية قال: تضع الجلاب. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في السنن عن ابن مسعود **﴿أن يضعن ثيابهن﴾** قال: الجلاب، والرداء. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: لما نزلت **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تاكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾** [النساء: 29] قالت الانصار: ما بالمدينة مال أعز من الطعام كانوا يتحرجون أن ياكلوا مع الأعمى يقولون: إنه لا يبصر موضع الطعام، وكانوا يتحرجون الأكل مع الأعرج يقولون: الصحيح يسبقه إلى المكان، ولا يستطيع أن يزاحم، ويتحرجون الأكل مع المريض يقولون: لا يستطيع أن ياكل مثل الصحيح، وكانوا يتحرجون أن ياكلوا في بيوت اقاربهم، فنزلت **﴿ليس على الأعمى﴾** يعني: في الأكل مع الأعمى. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مقسم نحوه. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن مجاهد قال: كان الرجل يذهب بالأعمى، أو الأعرج، أو المريض إلى بيت أبيه، أو بيت أخيه، أو بيت عمه، أو بيت عمته، أو بيت خاله، أو بيت خالته، فكان الزمنى يتحرجون من ذلك يقولون: إنما يذهبون بنا إلى بيوت غيرهم، فنزلت هذه الآية رخصة لهم. وأخرج البزار، وابن أبي حاتم، وابن مروي، وابن النجار، عن عائشة قالت: كان المسلمون يرغبون في التغير مع رسول الله ﷺ، فيدفعون مفاتيحهم إلى أمثائهم، ويقولون لهم: قد أحللتنا لكم أن تاكلوا مما احتجتم إليه، فكانوا يقولون: إنه لا يحل لنا أن ناكل إنهم أنثوا لنا من غير طيب نفس، وإنما نحن زمنى، فأنزل الله **﴿ولا على أنفسكم أن تاكلوا﴾** إلى قوله **﴿أو ما ملكتكم مفاتيحه﴾**. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن ابن عباس قال: لما نزلت **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تاكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾** [النساء: 29] قال المسلمون: إن الله قد نهانا أن ناكل أموالنا

عقبة بن عامر قال: رأيت رسول الله ﷺ، وهو يقرأ هذه الآية في خاتمة سورة النور، وهو جاعل على أصبعيه تحت عينيه يقول: بكل شيء بصير.

تفسير سورة الفرقان

وهي مكية كلها في قول الجمهور، وكذا أخرجه ابن الضريس، والنحاس، وابن مريويه من طرق عن ابن عباس. وأخرجه ابن مريويه، عن ابن الزبير. قال القرطبي: وقال ابن عباس، وقتادة: إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة، وهي: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [الفرقان: 68، 69، 70] الآيات. وأخرج مالك، والشافعي، والبخاري، ومسلم، وابن حبان، والبيهقي في سننه، عن عمر بن الخطاب قال: «سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ﷺ، فاستمعت لقراءته، فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله ﷺ، فكنت أساوره في الصلاة، فتصبرت حتى سلم، فلبثته بردائه، فقلت: من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ؟ قال: أقرانيها رسول الله ﷺ، فقلت: كذبت، فإن رسول الله ﷺ قد أقرانيها على غير ما قرأت، فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ، فقلت: إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرأنيها، فقال رسول الله ﷺ: أرسله، أقرئنا هشام، فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ، فقال رسول الله ﷺ: كذلك أنزلت، ثم قال: أقرئنا عمر، فقرأت القراءة التي أقراني، فقال رسول الله ﷺ: كذلك أنزلت، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقروا ما تيسر منه».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مَلَأُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَغَلَاقُ كُلُّ شَيْءٍ قَدَرًا نَدِيرًا ﴿٢﴾ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ سَرًّا وَلَا نَجْوًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا تُشْرِكُوا ﴿٣﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِلَهُكَ اتَّخَذْتَهُ وَمَأْتَاهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوا اسْتَطِيرَ الْأَنْفَالُ كَسَبَتْهَا ذِي شُلٍّ عَلَيْهِ بُكْرَةٌ وَأَصْلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا ذَكِيمًا ﴿٦﴾

تكلم سبحانه في هذه السورة على التوحيد؛ لأنه أقدم، وأهم، ثم في النبوة لأنها الوسطة، ثم في المعاد لأنه الخاتمة. وأصل تبارك مأخوذ من البركة، وهي: النماء والزيادة، حسية كانت أو عقلية. قال الزجاج: تبارك تفاعل، من البركة. قال: ومعنى البركة: الكثرة من كل ذي خير، وقال الفراء: إن تبارك وتقدس في العربية واحد، ومعناها: العظمة. وقيل: المعنى تبارك عطاؤه أي: زاده، وكثر، وقيل: المعنى دام

قال أبو عبيدة، والأخفش: «عن» في هذا الموضع زائدة. وقال الخليل، وسيبويه: ليست بزائدة، بل هي بمعنى بعد، كقوله: «ففسق عن أمر ربه» [الكهف: 5] أي: بعد أمر ربه، والاولى ما نكرناه من التضمين ﴿إِلَّا إِنَّ شَيْءًا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من المخلوقات بأسرها، فهي ملكه ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا لَنْتَمُ عَلَيْهِ﴾ أيها العباد من الأحوال التي أنتم عليها، فيجازيكم بحسب ذلك، ويعلم ما هنا بمعنى علم ﴿وَيَوْمَ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ﴾ معطوف على ما أنتم عليه أي: يعلم ما أنتم عليه، ويعلم يوم يرجعون إليه، فيجازيكم فيه بما عملتم، وتعليق علمه سبحانه بيوم يرجعون لا بنفس رجوعهم لزيادة تحقيق علمه، لأن العمل بوقت وقوع الشيء يستلزم العلم بوقوعه على إبلغ وجه ﴿فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ أي: يخبرهم بما عملوا من الأعمال التي من جعلتها مخالفة الأمر، والظاهر من السياق: أن هذا الوعيد للمنافقين ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه شيء من أعمالهم.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن المنذر، والبيهقي في الدلائل، عن عروة، ومحمد بن كعب القرظي قالا: لما أقبلت قريش عام الأحزاب نزلوا بمجمع الأسياال من رومة بئر بالمدينة، قائدها أبو سفيان، وأقبلت غطفان حتى نزلوا بنقمة إلى جانب أحد، وجاء رسول الله ﷺ الخبر، فغضب الخندق على المدينة، وعمل فيه المسلمون، وأبطأ رجال من المنافقين، وجعلوا يؤرؤن بالضغيف من العمل، فيتسللون إلى أهلهم بغير علم من رسول الله ﷺ، ولا إن، وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجة التي لا بد منها ينكر ذلك لرسول الله ﷺ، ويستأننه في اللحق لحاجته، فيأذن له، فإذا قضى حاجته رجع، فأنزل الله في أولئك ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِأَنَّهُ﴾ الآية. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير في الآية قال: هي في الجهاد، والجمعة، والعديد. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم في قوله ﴿عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ قال: من طاعة الله عام. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مريويه، وأبو نعيم في الدلائل، عنه في قوله ﴿لَا تَجْعَلُوا دَعَاءَ الرَّسُولِ﴾ الآية قال: يعني: كدعاء أحكم إذا دعا أخاه باسمه، ولكن وقروه، وقولوا له: يا رسول الله يا نبي الله. وأخرج عبد الغني بن سعيد في تفسيره، وأبو نعيم في الدلائل عنه أيضاً في الآية قال: لا تصيحوا به من بعيد: يا أبا القاسم، ولكن كما قال الله في الحجرات: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغْضُونَ أَسْوَاطَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: 3]. وأخرج أبو داود في مراسيله، عن مقاتل، قال: كان لا يخرج أحد لرعاف، أو أحداث حتى يستأذن النبي ﷺ يشير إليه بأصبعه التي تلي الإبهام، فيأذن النبي ﷺ يشير إليه بيده، وكان من المنافقين من يثقل عليه الخطبة، والجلوس في المسجد، فكان إذا استأذن رجل من المسلمين قام المنافق إلى جنبه يستتر به حتى يخرج. فأنزل الله ﴿الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذٍ﴾ الآية. وأخرج أبو عبيد في فضائله، والطبراني، قال: السيوطي بسنن حسن، عن

وانفسهم ضرراً ولا نفعاً اي: لا يقدرّون على أن يجلبوا لانفسهم نفعاً، ولا يدفعوا عنها ضرراً، وقدم نكر الضرر لأن نفعه أهم من جلب النفع، وإذا كانوا بحيث لا يقدرّون على الدفع والنفع فيما يتعلق بانفسهم، فكيف يمكن ذلك لمن يعبدهم؟ ثم زاد في بيان عجزهم، فنصص على هذه الأمور، فقال **«ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً»** اي: لا يقدرّون على إماتة الأحياء، ولا إحياء الموتى، ولا يعثّم من القبور، لأن النشور الإحياء بعد الموت، يقال: أنشّر الله الموتى، فنشروا، ومنه قول الأعشى:

حتى يقول الناس مमारوا يا عجباً للمميت الناشر
ولما فرغ من بيان التوحيد، وتزييف مذاهب المشركين شرع في نكر شبه منكري النبوة، فالشبهة الأولى ما حكاها عنهم بقوله **«وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك»** اي: كذب **«افتراء»** اي: اختلقه محمد ﷺ، والإشارة بقوله **«هذا»** إلى القرآن **«واعلم أنه عليه»** اي: على الاختلاق **«قوم آخرون»** يعنون: من اليهود. قيل: وهم: أبو فكيهة يسار مولى الحضرمي، وعداس مولى حويطب بن عبد العزى، وجبر مولى ابن عامر، وكان هؤلاء الثلاثة من اليهود، وقد مرّ الكلام على مثل هذا في النحل. ثم ردّ الله سبحانه عليهم، فقال **«فقد جاءو ظلماً وزوراً»** اي: فقد قالوا ظلماً هاتلاً عظيماً، وكنياً ظاهراً، وانتصاب ظلماً بجاءوا، فإن جاء قد يستعمل استعمال أتى، ويعدى تعديته. وقال الزجاج: إنه منسوب بنزع الخافض، والأصل جاءوا بظلم. وقيل: هو منتصب على الحال، وإنما كان ذلك منهم ظلماً، لأنهم نسبوا القبيح إلى من هو مبرأ منه، فقد وضعوا الشيء في غير موضعه، وهذا هو الظلم، وأما كون ذلك منهم زوراً، فظاهر لأنهم قد كذبوا في هذه المقالة. ثم نكر الشبهة الثانية، فقال **«وقالوا أساطير الأولين»** اي: أحاديث الأولين، وما سطره من الأخبار، قال الزجاج: واحد الأساطير أسطورة مثل أحاديث وأحوتة، وقال غيره: أساطير جمع أسطار مثل أقاويل وأقوال **«اكتتبها»** اي: استكتبها، أو كتبها لنفسه، ومحل اكتتبها النصب على أنه حال من أساطير، أو محله الرفع على أنه خبر ثانٍ، لأن أساطير مرتفع على أنه خبر مبتدأ محذوف اي: هذه أساطير الأولين اكتتبها، ويجوز أن يكون أساطير مبتدأ، واكتتبها خبره، ويجوز أن يكون معنى (اكتتبها): جمعها من الكتب، وهو: الجمع، لا من الكتابة بالقلم، والأول أولى. وقرأ طلحة (اكتتبها) مبنيًا للمفعول، والمعنى: اكتتبها له كاتب، لأنه كان أمياً لا يكتب، ثم حذفت اللام، فأقضى الفعل إلى الضمير، فصار اكتتبها إياه، ثم بنى الفعل للضمير الذي هو إياه، فانقلب مرفوعاً مستترأ بعد أن كان منصوباً بارزاً، كذا قال في الكشف، واعترضه أبو حيان **«فهي تملى عليه»** اي: تلقى عليه تلك الأساطير بعد ما اكتتبها، ليحفظها من أقواه من يملئها عليه من ذلك المكتتب لكونه أمياً لا يقدر على أن يقرأها من ذلك المكتوب بنفسه، ويجوز: أن يكون المعنى، اكتتبها: أراد اكتتبها **«فهي تملى عليه»** لأنه يقال: أملت عليه، فهو يكتب **«بكرة»**

وثبت. قال النحاس: وهذا أولاً في اللغة، والاشتقاق من برك الشيء إذا ثبت، ومنه برك الجمل، اي: دام، وثبت. واعترض ما قاله الفراء: بأن التقديس إنما هو من الطهارة، وليس من ذا في شيء. قال العلماء: هذه اللفظة لا تستعمل إلا لله سبحانه، ولا تستعمل إلا بلفظ الماضي، والفرقان القرآن، وسمي فرقاناً: لأنه يفرق بين الحق والباطل بأحكامه، أو بين الحق والمبطل، والمراد بعبدته: نبينا ﷺ. ثم علل التنزيل **«ليكون للعالمين نذيراً»** فإن النذارة هي الغرض المقصود من الإنزال، والمراد محمد ﷺ، أو للفرقان، والمراد بالعالمين هنا الإنس والجن، لأن النبي ﷺ مرسل إليهما، ولم يكن غيره من الأنبياء مرسلًا إلى الثقلين، والنذير: المنذر اي: ليكون محمد منذرًا، أو ليكون إنزال القرآن منذرًا، ويجوز: أن يكون النذير هنا بمعنى المصير للمبالغة اي: ليكون إنزاله إنذاراً، أو ليكون محمد إنذاراً، وجعل الضمير للنبي ﷺ أولى، لأن صدور الإنذار منه حقيقة، ومن القرآن مجاز، والحمل على الحقيقة أولى، ولكونه أقرب منكور. وقيل: إن رجوع الضمير إلى الفرقان أولى لقوله تعالى: **«إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم»** [الإسراء: 9]، ثم إنه سبحانه وصف نفسه بصفات أربع: الأولى **«له ملك للسموات والأرض»** دون غيره، فهو المتصرف فيهما، ويحتمل: أن يكون الموصول الآخر بدلاً، أو بياناً للموصول الأول، والوصف أولى، وفيه تنبيه على افتقار الكل إليه في الوجود، وتوابعه من البقاء، وغيره، والصفة الثانية **«ولم يتخذ ولداً»**، وفيه ردّ على النصارى، واليهود. والصفة الثالثة **«ولم يكن له شريك في الملك»**، وفيه ردّ على طوائف المشركين من الوثنية، والثنية، وأهل الشرك الخفي. والصفة الرابعة **«وخلق كل شيء»** من الموجودات **«فقدّره تقديراً»** اي: قدر كل شيء مما خلق بحكمته على ما أراد، وهياه لما يصلح له. قال الواحدي: قال المفسرون: قدر له تقديراً من الأجل والرزق، فجرت المقادير على ما خلق. وقيل: أريد بالخلق هنا مجرد الإحداث، والإيجاد مجازاً من غير ملاحظة معنى التقدير، وإن لم يخل عنه في نفس الأمر، فيكون المعنى: أوجد كل شيء، فقدّره لئلا يلزم التكرار، ثم صرح سبحانه بتزييف مذاهب عبدة الأوثان، فقال **«واتخذوا من دونه آلهة»**، والضمير في اتخذوا للمشركين، وإن لم يتقدم لهم نكر، لدلالة نفي الشريك عليهم اي: اتخذ المشركون لانفسهم متجاوزين الله آلهة **«لا يخلقون شيئاً»**، والجملة في محل نصب صفة لآلهة اي: لا يقدرّون على خلق شيء من الأشياء، وغلب العقلاء على غيرهم، لأن في معبودات الكفار الملائكة، وعزير، والمسيح **«وهم يخلقون»** اي: يخلقهم الله سبحانه. وقيل: عبر عن الآلهة بضمير العقلاء جرياً على اعتقاد الكفار أنها تضرّ وتنفع. وقيل: معنى **«وهم يخلقون»**: أن عبيتهم يصوّرونهم. ثم لما وصف سبحانه نفسه بالقدرة الباهرة وصف آلهة المشركين بالعجز البالغ، فقال **«ولا يملكون»**

كَانَ عَلَى رَيْكَ وَعَدَا مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾

لما فرغ سبحانه من نكر ما طعنوا به على القرآن ذكر ما طعنوا به على رسول الله ﷺ، فقال ﴿وَقَالُوا مَا هَذَا لِلرَّسُولِ﴾ وفي الإشارة هنا تصغير لشان المشار إليه، وهو رسول الله ﷺ، وسموه: رسولا استهزاء وسخرية ﴿يَا كَلَّ الطَّعَامِ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ أي: ما باله ياكل الطعام كما ناكل، ويتردد في الأسواق لطلب المعاش كما نتردد، وزعموا أنه كان يجب أن يكون ملكاً مستغنياً عن الطعام والكسب، وما الاستفهامية في محل رفع على الابتداء، والاستفهام للاستنكار، أو خبر المبتدأ لهذا الرسول، وجملة ﴿يَا كَلَّ﴾ في محل نصب على الحال، وبها تتم فائدة الإخبار كقوله: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّنْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ [المندر: 49]، والإنكار متوجه إلى السبب مع تحقق المسبب، وهو: الأكل والمشى، ولكنه استبعد تحقق ذلك لانقضاء سببه عندهم تهكماً واستهزاء، والمعنى: أنه إن صَحَّ ما يدعيه من النبوة، فما باله لم يخالف حاله حالنا ﴿يَلُولَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ طلبوا: أن يكون النبي ﷺ مصحوباً بملك يعضده ويساعده، تنزلوا عن اقتراح أن يكون الرسول ﷺ ملكاً مستغنياً عن الأكل والكسب، إلى اقتراح أن يكون معه ملك يصنقه، ويشهد له بالرسالة، قرأ الجمهور: (فيكون) بالنصب على كونه جواب التحضيض. وقرئ (فيكون) بالرفع على أنه معطوف على أنزل، وجاز عطفه على الماضي، لأن المراد به المستقبل ﴿أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ﴾ معطوف على أنزل، ولا يجوز عطفه على فيكون، والمعنى: أو هلا يلقي إليه كنز، تنزلوا من مرتبة نزول الملك معه، إلى اقتراح أن يكون معه كنز يلقي إليه من السماء؛ ليستغني به عن طلب الرزق ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ قرأ الجمهور (تكون) بالمشناة الفوقية، وقرأ الأعمش، وقتادة: (يكون) بالتحية، لأن تانيت الجنة غير حقيقي. وقرأ (تاكل) بالنون حمزة، وعلي، وخلف، وقرأ الباقر (ياكل) بالمشناة التحتية أي: بستان ناكل نحن من ثماره، أو ياكل هو وحده منه؛ ليكون له بذلك مزية علينا حيث يكون أكله من جنته. قال النحاس: والقراءتان حسنتان، وإن كانت القراءة بالياء أبين، لأنه قد تقدم نكر النبي ﷺ وحده، فعود الضمير إليه بين ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ المراد بالظالمون هنا: هم القائلون بالمقالات الأولى، وإنما وضع الظاهر موضع المضمع مع الوصف بالظلم للتسجيل عليهم به أي: ما تتبعون إلا رجلاً مغلوباً على عقله بالسحر، وقيل: إذا سحر، وهي الرثة أي: بشراً له رثة لا ملكاً، وقد تقدم بيان مثل هذا في سبحانه ﴿انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ ليتوصلوا بها إلى تكذيبك، والأمثال هي الأقوال النادرة، والاقتراحات الغريبة، وهي ما نكروه ما هنا ﴿فَضْلُوا﴾ عن الصواب فلا يجدون طريقاً إليه، ولا وصلوا إلى شيء منه، بل جاءوا بهذه المقالات الزائفة التي لا تصدر عن أبنئ العقلاء، وأقلهم تمييزاً، ولهذا قال ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ أي: لا يجدون

وأصيلاً غنوة، وعشياً: كأنهم قالوا: إن هؤلاء يعلمون محمداً طرفي النهار، وقيل: معنى بكرة وأصيلاً: دائماً في جميع الأوقات، فأجاب سبحانه عن هذه الشبهة بقوله ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: ليس ذلك مما يفترى ويفعل بإعانة قوم، وكتابة آخرين من الأحاديث الملقفة، وأخبار الأولين، بل هو أمر سماوي أنزله الذي يعلم كل شيء لا يغيب عنه شيء من الأشياء، فلماذا عجزتم عن معارضته، ولم تأتوا بسورة منه، وخص السِّرَّ للإشارة إلى انطواء ما أنزله سبحانه على أسرار بيعة لا تبلغ إليها عقول البشر، والسِّرُّ الغيب أي: يعلم الغيب الكائن فيهما، وجملة ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ تعليل لتأخير العقوبة أي: إنكم وإن كنتم مستحقين لتعجيل العقوبة بما فعلونه من الكذب على رسوله، والظلم له، فإنه لا يعجل عليكم بذلك، لأنه كثير المغفرة والرحمة.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس ﴿تَبَارَكَ﴾ تفاعل من البركة. وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله ﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ قال: يهود ﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ قال: كذباً. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ هو: القرآن فيه حلالة، وحرامه، وشرائعه، ودينه، وفرق الله بين الحق، والباطل ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ قال: بعث الله محمداً ﷺ نذيراً من الله، لينذر الناس بأس الله، وقوائمه بمن خلا قبلكم ﴿وَوُخِّلَ كُلُّ شَيْءٍ فَقْدَرُهُ تَقْدِيرًا﴾ قال: بين لكل شيء من خلقه صلاحه، وجعل ذلك بقدر معلوم ﴿وَوَلْتَحْنُوا مِنْ نُونٍ لَهْفَةٍ﴾ قال: هي الأوثان التي تعبد من نون الله ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يَخْلُقُونَ﴾ وهو الله الخالق الرائق، وهذه الأوثان تخلق ولا تخلق شيئاً، ولا تضر ولا تنفع، ولا تملك موتاً، ولا حياة، ولا نشوراً يعني: بعثاً ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هذا قول مشركي العرب ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ﴾ مر الكذب ﴿وَأَفْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ﴾ أي: على حديثه هذا، وأمره ﴿قَوْمٌ آخَرُونَ * أساطير الأولين﴾ كتب الأولين، وأحاديثهم.

وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَسُولٌ يَأْكُلُ الظَّالِمَاتِ وَيَتَّبِعُ فِي الْأَشْرَافِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٣٧﴾ أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا سَاحِرًا ﴿٣٨﴾ أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٣٩﴾ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ كَذَّبَ جَمَلُ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ فُصُورًا ﴿٤٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا وَيَسِيرًا ﴿٤١﴾ إِذَا رَأَوْهُمُ بَيْنَ يَدَيْهِمْ حَمِيمًا قَالُوا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَتَيْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ سَاحِرُونَ ﴿٤٢﴾ لَا تَدْعُهُمْ الْيَوْمَ ثُبُورًا وَجِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿٤٣﴾ قُلْ أَتَدْعُونَ خَيْرًا أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ أَلَّتْ وَجُوهَ الْمُتَّقِينَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَصِيرًا ﴿٤٤﴾ ثُمَّ فِيهَا مَا يَكْفُرُونَ خَلِيلًا

أي: قرن كل واحد منهم إلى شيطانه، وقد تقدّم الكلام على مثل هذا في سورة إبراهيم **﴿دعوا هنالك﴾** أي: في ذلك المكان الضيق **﴿ثبورا﴾** أي: ملاكاً. قال الزجاج: وانتصابه على المصدرية أي: ثبّرنا ثبوراً، وقيل: منتصب على أنه مفعول له، والمعنى: أنهم يتمنون هنالك الهلاك، وينادونه لما حلّ بهم من البلاء، فأجيب عليهم بقوله **﴿لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً﴾** أي: فيقال لهم هذه المقالة، والقاتل لهم هم الملائكة أي: اتركوا دعاء ثبور واحد، فإن ما أنتم فيه من الهلاك لكبر من ذلك، وأعظم، كذا قال الزجاج **﴿وادعوا ثبوراً كثيراً﴾** والثبور مصدر يقع على القليل والكثير، فلماذا لم يجمع، ومثله ضربته ضرباً كثيراً، وقعد قعدوا طويلاً، فالكثره ما هنا هي بحسب كثرة الدعاء المتعلق به، لا بحسب كثرة في نفسه، فإنه شيء واحد، والمعنى: لا تدعوا على أنفسكم بالثبور دعاء واحداً، وادعوه أدعية كثيرة، فإن ما أنتم فيه من العذاب أشدّ من ذلك لطول مدّته، وعدم تناهيه، وقيل: هذا تمثيل وتصوير لحالهم بحال من يقال له ذلك من غير أن يكون هناك قول، وقيل: إن المعنى: إنكم وقعتم فيما ليس بثوركم فيه واحداً بل هو ثبور كثير، لأن العذاب أنواع، والأولى أن المراد بهذا الجواب عليهم الدلالة على خلود عذابهم، وإقناطهم عن حصول ما يتمنونه من الهلاك المنجي لهم مما هم فيه. ثم وبّخهم الله سبحانه توبيخاً بالغا على لسان رسوله، فقال **﴿قل أنلك خير لم جنة الخلد التي وعد المتقون﴾** والإشارة بقوله ذلك إلى السعير المتصف بتلك الصفات العظيمة أي: اتلك السعير خير أم جنة الخلد، وفي إضافة الجنة إلى الخلد إشعار بدوام نعيمها، وعدم انقطاعه، ومعنى **﴿التي وعد للمتقون﴾**: التي وعدوا المتقون، والمجيء بلفظ خير هنا مع أنه لا خير في النار أصلاً، لأن العرب قد تقول ذلك، ومنه ما حكاه سيبويه عنهم: أنهم يقولون: السعادة أحب إليك أم الشقاوة؟ وقيل: ليس هذا من باب التفضيل، وإنما هو كقولك: عنده خير. قال النحاس: وهذا قول حسن كما قال:

تهجوه ولست له بكفء فشركما لخيركما الفداء
ثم قال سبحانه **﴿كانت لهم جزاء ومصيراً﴾** أي: كانت تلك الجنة للمتقين جزاء على أعمالهم، ومصيراً يصيرون إليه **﴿لهم فيها ما يشاءون﴾** أي: ما يشاءونه من النعيم، وضروب الملاذ كما في قوله: **﴿ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم﴾** [فصلت: 31]، وانتصاب خالدين على الحال، وقد تقدم تحقيق معنى الخلود. **﴿كان على ربك وعداً مسؤولاً﴾** أي: كان ما يشاءونه، وقيل: كان الخلود، وقيل: كان الوعد الملل على بقوله **﴿وعد المتقون﴾** ومعنى الوعد المسؤول: الوعد المحقق بأن يسأل ويطلب كما في قوله: **﴿ربنا وآتانا وعدتنا على رسلك﴾** [آل عمران: 194]، وقيل: إن الملائكة تسأل لهم الجنة كقوله: **﴿وادخلهم جنات عدن التي وعدتهم﴾** [غافر: 8]، وقيل: المراد به الوعد الواجب وإن لم يسأل.

إلى القدر في نبوة هذا النبي طريقاً من الطرق **﴿تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك﴾** أي: تكاثر خير الذي إن شاء جعل لك في الدنيا معجلاً خيراً من ذلك الذي اقترحوه. ثم فسر الخير، فقال **﴿جنات تجري من تحتها الأنهار﴾**، فجنات بدل من خيراً **﴿ويجعل لك قصوراً﴾** معطوف على موضع جعل، وهو الجزم، وبالجزم قرأ الجمهور. وقرأ ابن كثير، وابن عامر، وأبو بكر برفع (يجعل) على أنه مستأنف، وقد تقرّر في علم الإعراب: أن الشرط إذا كان ماضياً جاز في جوابه الجزم والرفع، فجاز أن يكون جعل ما هنا في محل جزم ورفع، فيجوز فيما عطف عليه أن يجزم ويرفع. وقرئ بالنصب، وقرئ بإدغام لام لك في لام يجعل لاجتماع المثليين. وقرئ بترك الإدغام: لأن الكلمتين منفصلتان، والقصر البيت من الحجارة؛ لأن الساكن به مقصور عن أن يوصل إليه، وقيل: هو بيت الطين، وبيوت الصوف والشعر. ثم أضرب سبحانه عن توبيخهم بما حكاه عنهم من الكلام الذي لا يصدر عن العقلاء، فقال **﴿بل كنزبوا بالساعة﴾** أي: بل أتوا بأعجب من ذلك كله. وهو تكنيهم بالساعة، فلماذا لا ينتفعون بالدلائل، ولا يتأملون فيها. ثم ذكر سبحانه ما أعدّه لمن كذب بالساعة، فقال **﴿واعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً﴾** أي: ناراً مشتعلة متسعة، والجملة في محل نصب على الحال أي: بل كنزبوا بالساعة، والحال أنا اعتدنا. قال أبو مسلم: اعتدنا أي: جعلناه عتيداً، وعداً لهم **﴿إذا رآتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً﴾** هذه الجملة الشرطية في محل نصب صفة لسعيماً لأنه مؤنث بمعنى: النار، قيل: معنى إذا رآتهم: إذا ظهرت لهم، فكانت بمرأى الناظر في البعد، وقيل: للمعنى: إذا رآتهم خزنتها، وقيل: إن الرؤية منها حقيقية، وكذلك التغيظ والزفير، ولا مانع من أن يجعلها الله سبحانه مدركة هذا الإدراك. ومعنى **﴿من مكان بعيد﴾**: أنها رآتهم، وهي بعيدة عنهم، قيل: بينها وبينهم مسيرة خمسمائة عام. ومعنى التغيظ: أن لها صوتاً يدل على التغيظ على الكفار، أو لغيانها صوتاً يشبه صوت المغتاط. والزفير: هو الصوت الذي يسمع من الجوف. قال الزجاج: المراد: سماع ما يدل على الغيظ، وهو الصوت أي: سمعوا لها صوتاً يشبه صوت التغيظ. وقال قطرب: أراد علموا لها تغيظاً، وسمعوا زفيراً كما قال الشاعر:

منقلداً سيفاً ورمحاً

أي: وحاملاً رمحاً، وقيل: للمعنى: سمعوا فيها تغيظاً وزفيراً للمعذبين كما قال: **﴿لهم فيها زفير وشهيق﴾** [هود: 106]، وفي اللام متقاربان، تقول: افعل هذا في الله والله **﴿وإذا لقوا منها مكاناً ضيقاً﴾** وصف المكان بالضيق للدلالة على زيادة الشدة، وتنامي البلاء عليهم، وانتصاب **﴿مقرنين﴾** على الحال أي: إذا لقوا منها مكاناً ضيقاً حال كونهم مقرنين قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم بالجوامع مصفدين بالحديد، وقيل: مكتفين، وقيل: قرنوا مع الشياطين

إيلس في تفسيره عن ابن عباس في قوله ﴿إِذَا رَأَوْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ قال: من مسيرة مائة عام، وذلك إذا أتى بجهنم تقاد بسبعين ألف زمام يشد بكل زمام سبعون ألف ملك لو تركت لأتت على كل برّ وفاجر ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغِيظًا وَزَفِيرًا﴾ تزفر زفرة لا تبقى قطرة من دمع إلا بدت، ثم تزفر الثانية، فتقطع القلوب من أماكنها، وتبلغ القلوب الحناجر. وأخرج ابن أبي حاتم عن يحيى بن أسيد: أن رسول الله ﷺ سئل عن قول الله ﴿وَإِذَا لَقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضيقًا مُقْرِنِينَ﴾ قال: والذي نفسي بيده إنهم ليستكروهم في النار كما يستكروه التودد في الحائط. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿وَدَعُوا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ قال: ويلًا ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا﴾ يقول: لا تدعوا اليوم ويلًا واحدًا. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، والبزار، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مروي، والبيهقي في البعث. قال السيوطي بسند صحيح عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يَكْسِي حُلَّتَهُ مِنَ النَّارِ إِبْلِيسَ، فَيُضَعُّهَا عَلَى حَاجِبِيهِ، وَيُسْحِبُهَا مِنْ خَلْفِهِ، وَذَرِيَّتَهُ مِنْ بَعْدِهِ، وَهُوَ يَنَادِي يَا ثُبُورَاهُ، وَيَقُولُونَ يَا ثُبُورَهُمْ حَتَّى يَقِفَ عَلَى النَّاسِ، فَيَقُولُ: يَا ثُبُورَاهُ، وَيَقُولُونَ: يَا ثُبُورَهُمْ، فَيَقَالُ لَهُمْ ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾. وإسناد أحمد هكذا: حدثنا عفان عن حميد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن أنس: أن رسول الله ﷺ، فنكره. وفي علي بن زيد بن جعدان مقال معروف. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مُسْوُوًّا﴾ يقول: سلوا الذي وعدتكم تتجزوه.

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ رَبَّنَا يَسْأَلُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ مَا أَسْأَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ مَسْأَلُوا الرَّسِيلَ ﴿٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَلْبِسُنَا لَكَ أَنْ تَنْجِدَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ تَضَعُهُمْ وَابَّةَهُمْ حَتَّى تُلَاقُوا نَارُكَ وَكَانُوا قَوْمًا بَوْرًا ﴿٨﴾ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ صَرَفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمِ نَفْسًا عَذَابًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَشْرَبُونَ فِي الْآثَرَاتِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ يَتَعَصَى لِبَعْضٍ يَظُنُّ أَسْبَغُ مِنْهُ وَكَانَ رَبُّكَ بِبَصِيرَةٍ ﴿١٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكُ أَوْ يَأْتِيَنَا رِسَالٌ فَتَدْعُنَا أَشْكِرَ بَرَاءً فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿١١﴾ يَوْمَ يَرَوُ الْمَلَكُ لَا يَشْرَى يَوْمَ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ جَعَلْنَا جَنَّةَ جَنَّةً وَمَا عَلَّمْنَا مِنْ عَمَلٍ تَجْعَلُنَا مِنَّا جَنَّةً نَشْرَى ﴿١٢﴾ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ خَيْرٌ مِمَّنْ شَرُوا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿١٣﴾

قوله ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ الظرف منصوب بفعل مضمر أي: وانكر، وتعليق التنكير باليوم مع أن المقصود ذكر ما فيه للمبالغة والتأكيد كما مر مراراً. قرأ ابن محيصن، وحميد، وابن كثير، وحفص، ويعقوب، وأبو عمرو في رواية الدوري (يحشرهم) بالياء التحتية، واختارها أبو عبيد، وأبو حاتم لقوله في أول الكلام ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ﴾ [الفرقان: 16]،

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس: أن عتبة بن ربيعة، وأبا سفيان بن حرب، والنضر بن الحارث، وأبا البحتري، والأسود بن عبد المطلب، وزمعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبا جهل بن هشام، وعبد الله بن أبي أمية، وأمّية بن خلف، والعاص بن وائل، ونبيه بن الحجاج، ومنبه بن الحجاج اجتمعوا، فقال بعضهم لبعض: ابعدوا إلى محمد، وكلموه، وخاصموه حتى تعذروا منه، فبعثوا إليه إن أشرف قومك قد اجتمعوا لك؛ ليكلموك، قال: فجاهم رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد إنا بعثنا إليك؛ لنعذر منك، فلما كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا، وإن كنت تطلب به الشرف، فنحن نسؤلك، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك، فقال رسول الله ﷺ: «ما بي مما تقولون، ما جئتمكم بما جئتمكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله يعثني إليكم رسولا، وأنزل علي كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فيبلغتكم رسالة ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتمكم به، فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم، قالوا: يا محمد، فلما كنت غير قابل منا شيئاً مما عرضنا عليك، أو قالوا: فإذا لم تفعل هذا، فسل لنفسك، وسل ربك: أن يبعث معك ملكاً يصلحك بما تقول، ويراجعنا عنك، وسله أن يجعل لك جناتاً، وقصوراً من ذهب، وفضة تغنيك عما نراك تبتغي، فإنك تقوم بالأسواق، وتلتبس المعاش كما تلتسمه، حتى تعرف فضلك، ومنزلتك من ربك إن كنت رسولاً كما تزعم، فقال لهم رسول الله ﷺ: ما أنا بفاعل، ما أنا بالذي يسأل ربه هذا، وما بعثت إليكم بهذا، ولكن الله يعثني بشيراً، ونذيراً، فأنزل الله في ذلك ﴿وَقَالُوا مَا هَذَا الرَّسُولُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾ [الفرقان: 20] أي: جعلت بعضكم لبعض بلاء؛ لتصبروا، ولو شئت أن أجعل الدنيا مع رسلي، فلا يخالفون لفعلت. وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبة في المصنف، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مروي عن خزيمة قال: قيل للنبي ﷺ: إن شئت أعطيتك من خزائن الأرض، ومفاتيحها ما لم يعط نبي قبلك، ولا نعطها أحداً بعدك، ولا ينقصك ذلك مما لك عند الله شيئاً، وإن شئت جمعتها لك في الآخرة، فقال: أجمعوها لي في الآخرة، فأنزل الله سبحانه ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا﴾. وأخرج نحوه عنه ابن مروي عن طريق أخرى. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن طريق خالد بن نريك عن رجل من الصحابة قال: قال النبي ﷺ: «من يقل علي ما لم أقل، أو ادعى إلى غير والديه، أو انتهى إلى غير مواليه، فليتبوأ بين عيني جهنم مقعداً، قيل يا رسول الله: وهل لها من عينين؟ قال: نعم، أما سمعت الله يقول ﴿إِذَا رَأَوْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾». وأخرج آدم بن أبي

ووسعت عليهم الرزق، وأطلت لهم العمر حتى غفلوا عن نكرتك، ونسوا موعظتك، والتدبر لكتابتك، والنظر في عجائب صنعك، وغرائب مخلوقاتك. وقرأ أبو عيسى الأسود القارئ (ينبغي) مبنياً للمفعول. قال ابن خالويه: زعم سيبويه أنها لغة، وقيل: المراد بنسيان الذكر هنا هو ترك الشكر ﴿وكانوا قوماً بوراً﴾ أي: وكان هؤلاء الذين أشركوا بك، وعبدوا غيرك في قضائك الأزل قوماً بوراً أي: هلكى، مأخوذ من البوار، وهو الهلاك. يقال: رجل باثر، وقوم بور، يستوي فيه الواحد والجماعة، لأنه مصدر يطلق على القليل والكثير، ويجوز أن يكون جمع باثر. وقيل: البوار الفساد. يقال: بارت بضاعته أي: فسدت، وأمر باثر أي: فاسد، وهي لغة الأزد. وقيل: المعنى: لا خير فيهم، مأخوذ من بوار الأرض، وهو تعطيلها من الزرع، فلا يكون فيها خير، وقيل: إن البوار الكساد، ومنه بارت السلعة إذا كسدت ﴿فقد كنزكم بما تقولون﴾ في الكلام حذف، والتقدير: فقال الله عند تبدي المعبوبين مخاطباً للمشركون العابدين لغير الله فقد كنزكم أي: فقد كنزكم المعبوبون بما تقولون أي: في قولكم إنهم آلهة ﴿فما يستطيعون﴾ أي: الآلهة ﴿صرفاً﴾ أي: دفعاً للعذاب عنكم بوجه من الوجوه، وقيل: حيلة ﴿ولا نصراً﴾ أي: ولا يستطيعون نصركم، وقيل: المعنى: فما يستطيع هؤلاء الكفار لما كتبهم المعبوبون صرفاً للعذاب الذي عندهم الله به، ولا نصراً من الله، وهذا الوجه مستقيم على قراءة من قرأ (تستطيعون) بالفوقية، وهي قراءة حفص، وقرأ الباقرن بالتحية، وقال ابن زيد: المعنى: فقد كنزكم أيها المؤمنون هؤلاء الكفار بما جاء به محمد ﷺ، وعلى هذا، فمعنى بما تقولون: ما تقولونه من الحق، وقال أبو عبيد: المعنى: فما يستطيعون لكم صرفاً عن الحق الذي هداكم الله إليه، ولا نصراً لأنفسهم بما ينزل بهم من العذاب بتكذيبهم إياكم. وقرأ الجمهور (بما تقولون) بالتاء الفوقية على الخطاب. وحكى الفراء: أنه يجوز أن يقرأ (فقد كنزكم) مخففاً بما يقولون، أي: كنزكم في قولهم، وكذا قرأ بالياء التحتية مجاهد، والبزي ﴿ومن يظلم منكم نفاقه عذاباً كبيراً﴾ هذا وعيد لكل ظالم، ويدخل تحته الذين فيهم السياق بخلاً أولياً، والعذاب الكبير عذاب النار، وقرئ (ينقه) بالتحية، وهذه الآية وأمثالها مقيدة بعدم التوبة. ثم رجع سبحانه إلى خطاب رسوله موضحاً لبطلان ما تقدم من قوله: ﴿ياكل الطعام ويمشي في الأسواق﴾ [الفرقان: 7] فقال ﴿وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق﴾ قال الزجاج: الجملة الواقعة بعد إلا صفة لموصوف محذوف، والمعنى: وما أرسلنا قبلك أحداً من المرسلين إلا أكليين ومشين، وإنما حذف الموصوف: لأن في قوله: ﴿من المرسلين﴾ دليلاً عليه، نظيره ﴿وما منا إلا له مقام معلوم﴾ [الصافات: 164] أي: وما منا أحد. وقال الفراء: لا محل لها من الإعراب، وإنما هي صلة لموصول محذوف هو المفعول، والتقدير: إلا من أنهم فالضمير في أنهم وما

والباقرن بالنون على التعظيم ما عدا الأعرج، فإنه قرأ (نحشرهم) بكسر الشين في جميع القرآن. قال ابن عطية: هي قليلة في الاستعمال قوية في القياس، لأن يفعل بكسر العين في المتعدي أقيس من يفعل بضمها، وردّه أبو حبان باستواء المضموم والمكسور إلا أن يشتهر أحدهما، اتبع ﴿وما يعبدون من دون الله﴾ معطوف على مفعول نحشر، وغلب غير العقلاء من الأصنام والأوثان، ونحوها على العقلاء من الملائكة، والجن، والمسيح تنبيهاً على أنها جميعاً مشتركة في كونها غير صالحة لكونها آلهة، أو لأن من يعبد من لا يعقل أكثر ممن يعقل من يعقل منها، فغلبيت اعتباراً بكثرة من يعبد، وقال مجاهد، وابن جريج: المراد: الملائكة، والإنس، والجن، والمسيح، وعزير بنليل خطابهم وجوابهم فيما بعد. وقال الضحاك، وعكرمة، والكلبي: المراد: الأصنام خاصة، وإنها وإن كانت لا تسمع ولا تتكلم، فإن الله سبحانه يجعلها يوم القيامة سامعة ناطقة، ﴿فيقول﴾ أنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل ﴿قرأ ابن عامر، وأبو حية، وابن كثير، وحفص⁽¹⁾، (فنقول) بالنون، وقرأ الباقرن بالياء التحتية، واختارها أبو عبيد كما اختار القراءة بها في نحشرهم، وكذا أبو حاتم. والاستفهام في قوله ﴿أنتم أضللتم﴾ للتوبيخ والتقريع، والمعنى: إكان ضلالهم بسببكم وبدعوتكم لهم إلى عبادتكم، أم هم ضلوا عن سبيل الحق بأنفسهم لعدم التفكير فيما يستدل به على الحق، والتدبر فيما يتوصل به إلى الصواب، وجملة ﴿قالوا سبحانه﴾ مستأنفة جواب سؤال مقتر، ومعنى ﴿سبحانك﴾: التعجب مما قيل لهم لكونهم ملائكة، أو أنبياء معصومين، أو جمادات لا تعقل أي: تنزيهاً لك. ﴿ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك أولياء﴾ أي: ما صح، ولا استقام لنا أن نتخذ من دونك أولياء، فنعبدكم، فكيف ندعو عبادك إلى عبادتنا نحن مع كوننا لا نعبد غيرك، والولي يطلق على التابع كما يطلق على المتبوع، هذا معنى الآية على قراءة الجمهور (نتخذ) مبنياً للفاعل. وقرأ الحسن، وأبو جعفر (نتخذ) مبنياً للمفعول أي: ما كان ينبغي لنا أن يتخذنا المشركون أولياء من دونك. قال أبو عمرو بن العلاء، وعيسى بن عمر: لا تجوز هذه القراءة، ولو كانت صحيحة لحنفت من الثانية، قال أبو عبيدة: لا تجوز هذه القراءة لأن الله سبحانه نكر «من» مرتين، ولو كان كما قرأ لقال: أن نتخذ من دونك أولياء. وقيل: إن «من» الثانية زائدة، ثم حكى عنهم سبحانه: بأنهم بعد هذا الجواب نكروا سبب ترك المشركين للإيمان، فقال ﴿ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر﴾ وفي هذا ما يدل على أنهم هم الذين ضلوا السبيل، ولم يضلهم غيرهم، والمعنى: ما أضللناهم، ولكنك يا رب متعتهم، ومتعت آباءهم بالنعم،

(1) (قوله وابن كثير وحفص) المشهور عنهما قراءتها بالياء التحتية

أي: لا أبالي، وقيل: المعنى: لا يخافون لقاء ربهم كقول الشاعر:

إذا لست النحل لم يرج لسعها وخالفها في بيت نوب عوامل
أي: لم يخف، وهي لغة تهامة. قال الفراء وضع الرجاء موضع الخوف، وقيل: لا ياملون، ومنه قول الشاعر:

أترجومة قتلت حسينا شفاعة جده يوم الحساب
والحمل على المعنى الحقيقي أولى، فالمعنى: لا ياملون لقاء ما وعدنا على الطاعة من الثواب، ومعلوم أن من لا يرجو الثواب لا يخاف العقاب ﴿لولا أنزل علينا الملائكة﴾ أي: هلا أنزلوا علينا، فيخبرونا أن محمداً صادق، أو هلا أنزلوا علينا رسلاً يرسلهم الله ﴿أو نرى ربنا﴾ عياناً، فيخبرنا بأن محمداً رسول، ثم أجاب سبحانه عن شبهتهم هذه، فقال ﴿لقد استكبروا في أنفسهم وعتو عتواً كبيراً﴾ أي: أضمرُوا الاستكبار عن الحق والعناد في قلوبهم كما في قوله: ﴿إن في صنودهم إلا كبر ما هم بباليغيه﴾ [غافر: 56]،

والعتو مجاوزة الحد في الطغيان، والبلوغ إلى أقصى غايته، ووصفه بالكبر لكون التكلم بما تكلموا به من هذه المقالة الشنيعة في غاية الكبر والعظم، فإنهم لم يكتفوا بإرسال البشر حتى طلبوا إرسال الملائكة إليهم، بل جاوزوا ذلك إلى التخيير بينه وبين مخاطبة الله سبحانه، ورؤيته في الدنيا من دون أن يكون بينهم وبينه ترجمان، ولقد بلغ هؤلاء الرذالة بأنفسهم مبلغاً هي أحقر، وأقل، وأرذل من أن تكون من أهله، أو تعد من المستعئين له، وهكذا من جهل قدر نفسه، ولم يقف عند حده، ومن جهلت نفسه قدره رأى غيره منه ما لا يرى، وانتصاب ﴿يوم يرون الملائكة﴾ بفعل محنوف أي: وأنكر يوم يرون الملائكة رؤية ليست على الوجه الذي طلبوه، والصورة التي اقترحوها، بل على وجه آخر، وهو يوم ظهورهم لهم عند الموت، أو عند الحشر، ويجوز أن يكون انتصاب هذا الظرف بما يدل عليه قوله ﴿لا بشرى يومئذ للمجرمين﴾ أي: يمنعون البشرى يوم يرون، أو لا توجد لهم بشرى فيه، فاعلم سبحانه بأن الوقت الذي يرون فيه الملائكة، وهو وقت الموت، أو يوم القيامة قد حرمهم الله البشرى. قال الزجاج: المجرمون في هذا الموضع الذين اجترموا الكفر بالله ﴿ويقولون حجراً محجوراً﴾ أي: ويقول الكفار عند مشاهدتهم للملائكة، حجراً محجوراً، وهذه كلمة كانوا يتكلمون بها عند لقاء عتو، وهجوم نازلة يضعونها موضع الاستعانة، يقال للرجل: اتفعل كذا، فيقول: حجراً محجوراً أي: حراماً عليك التعرض لي. وقيل: إن هذا من قول الملائكة أي: يقولون للكفار: حراماً محرماً أن يدخل أحكم الجنة، ومن ذلك قول الشاعر:

ألا أصبحت أسماء حجراً محرماً وأصبحت من أننى حمومتها حماء
أي: أصبحت أسماء حراماً محرماً، وقال آخر:

حتت إلى النخلة القصوى فقلت لها حجر حرام إلا تلك الدهاريس
وقد نكر سيبويه في باب: المصائر المنصوبة بأفعال متروك إظهارها هذه الكلمة، وجعلها من جملتها ﴿وقدمنا

بعده راجع إلى من المقترنة، ومثله قوله تعالى: ﴿وإن منكم إلا وأردها﴾ [مريم: 71] أي: إلا من يردّها، وبه قرأ الكسائي، قال الزجاج: هذا خطأ؛ لأن من الموصولة لا يجوز حذفها. وقال ابن الأنباري: إنها في محل نصب على الحال، والتقدير: إلا وأنهم، فالمحنوف عنده الواو، قرأ الجمهور (إلا أنهم) بكسر إن لوجود اللام في خبرها كما تقرّر في علم النحو، وهو مجمع عليه عندهم. قال النحاس: إلا أن علي بن سليمان الأخفش حكى لنا عن محمد بن يزيد المبرد: أنه قال: يجوز في إن هذه الفتحة، وإن كان بعدها اللام، وأحسبه وهماً، وقرأ الجمهور (يمشون) بفتح الياء، وسكون الميم، وتخفيف الشين. وقرأ علي، وابن عوف، وابن مسعود بضم الياء، وفتح الميم، وضم الشين المشددة، وهي بمعنى القراءة الأولى، قال الشاعر:

أمشي باعطان المياه واتقي قلائص منها صعبة وركوب
وقال كعب بن زهير:

منه تظل سباع الحي ضامرة ولا تمشي بوابه الأراجيل
﴿وجعلنا بعضهم لبعض فتنة﴾ هذا الخطاب عام للناس، وقد جعل سبحانه بعض عباده فتنة لبعض، فالصحيح فتنة للمريض، والغني فتنة للفقير، وقيل: المراد باليعض الأول كفار الأمم، وباليعض الثاني الرسل. ومعنى الفتنة: الابتلاء والمحنة. والأول أولى، فإن البعض من الناس ممتحن بالبعض مبتلى به؛ فالمرريض يقول: لم لم أجعل كالصحيح؟ وكذا كل صاحب آفة، والصحيح مبتلى بالمرريض، فلا يضجر منه، ولا يحقره، والغني مبتلى بالفقر يواسيه، والفقير مبتلى بالغني يحسده، ونحو هذا مثله، وقيل: المراد بالآية: أنه كان إذا أراد الشريف أن يسلم، ورأى الوضع قد أسلم قبله أنف، وقال: لا أسلم بعده، فيكون له علي السابقة والفضل، فيقيم على كفره، فلذلك افتتان بعضهم لبعض، واختار هذا الفراء، والزجاج. ولا وجه لقصر الآية على هذا، فإن هؤلاء إن كانوا سبب للنزول، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. ثم قال سبحانه بعد الإخبار بجعل البعض للبعض فتنة ﴿لتصبرون﴾ هذا الاستفهام للتقرير، وفي الكلام حذف تقديره، أم لا تصبرون أي: اتصبرون على ما ترون من هذه الحال الشديدة، والابتلاء العظيم. قيل: موقع هذه الجملة الاستفهامية ما هنا موقع قوله: ﴿أيكم أحسن عملاً﴾ في قوله ﴿ليليولكم أيكم أحسن عملاً﴾ [هود: 7]، ثم وعد الصابرين بقوله ﴿وكان ربك بصيراً﴾ أي: بكل من يصبر ومن لا يصبر، فيجازي كلا منهما بما يستحقه. وقيل: معنى اتصبرون: اصبروا مثل قوله: ﴿فهل أنتم منتهون﴾ [المائدة: 91] أي: انتهوا ﴿وقال الذين لا يرجون لقاءنا﴾ هذه المقالة من جملة شبههم التي قنحوا بها في النبوة، والجملة معطوفة على ﴿وقالوا مال هذا﴾ [الفرقان: 7] أي: وقال المشركون الذين لا يبالون بلقاء الله كما في قول الشاعر:

لعمرك ما أرجو إذا كنت مسلماً على أي جنب كان في الله مصرعي

شدة الكفر. وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ﴾ قال: يوم القيامة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عطية العوفي نحوه. وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد ﴿وَيَقُولُونَ حَجَرًا مَحْجُورًا﴾ قال: عودًا معاذًا، الملائكة تقولوه. وفي لفظ قال: حراماً محرماً أن تكون البشرية في اليوم إلا للمؤمنين. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق عطية العوفي، عن أبي سعيد الخدري في قوله ﴿وَيَقُولُونَ حَجَرًا مَحْجُورًا﴾ قال: حراماً محرماً أن نبشركم بما نبشر به المتقين. وأخرج عبد الرزاق، وابن

جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن الحسن، وقتادة ﴿وَيَقُولُونَ حَجَرًا مَحْجُورًا﴾ قالوا: هي كلمة كانت العرب تقولها، كان الرجل إذا نزلت به شدة قال: حَجَرًا مَحْجُورًا حراماً محرماً. وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿وَقَدْ بَعَثْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ﴾ قال: بعثنا إلى ما عملوا من خير ممن لا يتقبل منه في الدنيا. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن علي بن أبي طالب في قوله ﴿هَبَاءٌ مَنْثُورَةٌ﴾ قال: الهباء شعاع الشمس الذي يخرج من الكوة. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن علي بن أبي طالب قال: الهباء وهي الغبار يسطع، ثم يذهب، فلا يبقى منه شيء، فجعل الله أعمالهم كذلك. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: الهباء الذي يطير من النار إذا اضطربت يطير منها الشرر، فإذا وقع لم يكن شيئاً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه قال: هو ما تسفي الرياح وتبثه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: هو الماء المهرق. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ قال: في الغرف من الجنة. وأخرج ابن المبارك في الزهد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، عن ابن مسعود قال: لا ينصرف النهار من يوم القيامة حتى يقيط هؤلاء وهؤلاء، ثم قرأ ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾.

وَيَوْمَ تَشَقُّ السَّمَاءُ وَرُفَّتِ الْمَلَائِكَةُ تَرْيَلًا ﴿١٧﴾ الْمَلَكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَذَابًا ﴿١٨﴾ وَيَوْمَ نَبَسَ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَكَلِّفُنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَيْلًا ﴿١٩﴾ يَتَوَلَّى لَيِّنِي لَوْ أَخَذْتُ فَلَانًا عَلَيَّ ﴿٢٠﴾ لَقَدْ أَسْأَلْتُ عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّكُّ لِي لِأَسْأَلَنَّ حَذُولًا ﴿٢١﴾ وَقَالَ الرَّسُولُ يَذَرُكَ إِنَّ قَوْمَكَ أَخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿٢٢﴾ كَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكُنَّ مِرْيَكًا هَادِيًا وَصِيرًا ﴿٢٣﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٢٤﴾ لَا تَأْتِيكَ بِسْمَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَاحْسَنَ تَقْوِيمًا ﴿٢٥﴾ الَّذِينَ يَحْسُرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ سَرُّ

إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ هذا وعيد آخر، وذلك أنهم كانوا يعملون أعمالاً لها صورة الخير: من صلة الرحم، وإغاثة الملهوف، وإطعام الطعام، وأمثالها، ولم يمنع من الإثابة عليها إلا الكفر الذي هم عليه، فمثلت حالهم وأعمالهم بحال قوم خالفوا سلطانهم، واستعصوا عليه، فقدم إلى ما معهم من المتاع، فأنقده، ولم يترك منها شيئاً، وإلا فلا تقوم ها هنا. قال الواحدي: معنى قدما: عمدنا وقصدنا، يقال: قدم فلان إلى أمر كذا إذا قصد، أو عمد، ومنه قول الشاعر:

وقدم الخوراج الضلال إلى عباد ربهم فقالوا
إن نساءكم لنا حلال

وقيل: هو قديم الملائكة أخبر به عن نفسه تعالى، والهباء واحده هبأة، والجمع هبَاء. قال النضر بن شميل: الهباء التراب الذي تطيره الريح كأنه نخان. وقال الزجاج: هو ما يدخل من الكوة مع ضوء الشمس يشبه الغبار، وكذا قال الأزهرى: والمنثور المفرق، والمعنى: أن الله سبحانه أحبط أعمالهم حتى صارت بمنزلة الهباء المنثور، لم يكف سبحانه بتشبيهه علمهم بالهباء حتى وصفه بأنه متفرق متبدد؛ وقيل: إن الهباء ما أذرته الرياح من يابس أوراق الشجر، وقيل: هو الماء المهرق، وقيل: الرماد. والأول هو الذي ثبت في لغة العرب، ونقله العارفون بها، ثم ميز سبحانه حال الأبرار من حال الفجار، فقال ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا﴾ أي: أفضل منزلاً في الجنة ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ أي: موضع قائلة، وانتصاب مستقراً على التمييز. قال الأزهرى: القيلولة عند العرب الاستراحة نصف النهار إذا اشتد الحر، وإن لم يكن مع ذلك يوم. قال النحاس: والكوفيون يجيزون: العسل أحلى من الخل.

وقد أخرج الفريابي، وابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله ﴿يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ الآية قال: عيسى، وعزير، والملائكة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس ﴿قَوْمًا بُورًا﴾ قال: هلكى. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، عن الحسن في قوله ﴿وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ﴾ قال: هو: الشريك. وأخرج ابن جرير عن ابن جريج قال: يشرك. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لِيَأْكُلُوا الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ يقول: إن الرسل قبل محمد ﷺ كانوا بهذه المنزلة يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ قال: بلاء. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الشعب عن الحسن ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ قال: يقول الفقير: لو شاء الله لجعلني غنياً مثل فلان، ويقول السقيم: لو شاء الله لجعلني صحيحاً مثل فلان، ويقول الأعمى: لو شاء الله لجعلني بصيراً مثل فلان. وأخرج ابن المنذر، عن ابن عباس في قوله ﴿وَعَتُوا عَتَاً كَبِيراً﴾ قال:

مَكَانًا وَأَصْلٌ سَبِيلًا ﴿٢٥﴾

كل ظالم يرد ذلك المكان، وينزل تلك المنزل، ولا ينافيه ورود الآية على سبب خاص، فالإعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب **﴿يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً﴾** «يقول» في محل نصب على الحال، ومقول القول هو: يا ليتني، إلخ، والمنادى محنوف أي: يا قوم ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً طريقاً، وهو طريق الحق، ومشيت فيه حتى أخلص من هذه الأمور المضلة، والمراد: اتباع النبي ﷺ فيما جاء به **﴿يا ويلتي ليتني لم اتخذ فلاناً خليلاً﴾** دعاء على نفسه بالويل والثبور على مخاللة الكافر الذي أضله في الدنيا، وفلان كناية عن الأعلام. قال النيسابوري: زعم بعض أئمة اللغة أنه لم يثبت استعمال فلان في الفصح إلا حكاية، لا يقال: جاءني فلان. ولكن يقال: قال زيد: جاءني فلان، لأنه اسم اللفظ الذي هو علم الاسم، وكذلك جاء في كلام الله. وقيل: فلان كناية عن علم نكور من يعقل، وفلانة عن علم إناثهم. وقيل: كناية عن نكرة من يعقل من النكور. وفلانة عمن يعقل من الإناث، وأما فلان وفلانة فكناية عن غير العقلاء، وفل يختص بالنداء إلا في ضرورة كقول الشاعر:

في لجة أمسك فلاناً عن فل

وقوله:

حنّاني عن فلان وفل

وليس فل مرخماً من فلان خلافاً للفراء. وزعم أبو حيان أن ابن عصفور، وابن مالك، وهما في جعل فلان كناية علم من يعقل. وقرأ الحسن (يا ويلتي) بالياء الصريحة، وقرأ النوري بالإمالة. قال أبو علي: يترك الإمالة أحسن، لأن أصل هذه اللفظة الياء، فأبليت الكسرة فتحة، والياء التاء فراراً من الياء، فمن أمال رجع إلى الذي فر منه **﴿لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني﴾** أي: والله لقد أضلني هذا الذي اتخذته خليلاً عن القرآن، أو عن الموعدة، أو كلمة الشهادة، أو مجموع ذلك. بعد إذ جاءني، وتمكنت منه، وقدرت عليه **﴿وكان الشيطان للإنسان خذولاً﴾** الخذل ترك الإغاثة، ومنه خذلان إبليس للمشركين حيث يوالونه، ثم يتركهم عند استغاثتهم به، وهذه الجملة مقررة لمضمون ما قبلها، ويحتمل أن تكون من كلام الله تعالى، أو من تمام كلام الظالم، وأنه سمى خليله شيطاناً بعد أن جعله مضلاً. أو أراد بالشيطان إبليس لكونه الذي حمله على مخاللة المضلين **﴿وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً﴾** معطوف على **﴿وقال الذين لا يرجون لقاءنا﴾** [الفرقان: 21]، والمعنى: إن قومي اتخذوا هذا القرآن الذي جئت به إليهم، وأمرتني بإبلاغه، وأرسلتني به مهجوراً متروكاً لم يؤمنوا به، ولا قبلوه بوجه من الوجوه، وقيل: هو من هجر إذا هذى. والمعنى: أنهم اتخذوه هجراً، وهنيئناً. وقيل: معنى **﴿مهجوراً﴾**: مهجوراً فيه، ثم حذف الجار، وهجرهم فيه قولهم: إنه سحر، وشعر، وأساطير الأولين، وهذا القول يقوله الرسول ﷺ يوم القيامة: وقيل: إنه حكاية لقوله ﷺ في الدنيا **﴿وكنك جعلنا لكل نبي عدواً من**

قوله **﴿ويوم تشق السماء بالغمام﴾** وصف سبحانه ما هنا بعض حوادث يوم القيامة، والتشقق التفتح، قرأ عاصم، والأعشى، ويحيى بن وثاب، وحزمة، والكسائي، وأبو عمرو (تشقق) بتخفيف الشين، وأصله تشقق، وقرأ الباقون بتشديد الشين على الإدغام. واختار القراءة الأولى أبو عبيد، واختار الثانية أبو حاتم، ومعنى تشققها بالغمام: أنها تشقق عن الغمام. قال أبو علي الفارسي: تشقق السماء، وعليها غمام كما تقول: ركب الأمير بسلاحه أي: وعليه سلاحه، وخرج بثيابه أي: وعليه ثيابه. ووجه ما قاله: أن الباء وعن يتعاقبان كما تقول: رميت بالقوس. وعن القوس، ويدوي أن السماء تشقق عن سحب رقيق أبيض، وقيل: إن السماء تشقق بالغمام الذي بينها وبين الناس. والمعنى: أنه يتشقق السحاب بتشقق السماء، وقيل: إنها تشقق لنزول الملائكة، كما قال سبحانه بعد هذا **﴿ونزل الملائكة تزيلاً﴾** وقيل: إن الباء في بالغمام سببية أي: بسبب الغمام، يعني: بسبب طلوعه منها كأنه الذي تشقق به السماء، وقيل: إن الباء متعلقة بمحنوف أي: ملتبسة بالغمام. قرأ ابن كثير (ونزل الملائكة) مخففاً، من الإنزال بنون بعدها نون ساكنة، (وزاي) مخففة بكسرة مضارع أنزل، والملائكة منصوبة على المفعولية. وقرأ الباقون من السبعة (ونزل) بضم النون، وكسر الزاي المشددة ماضياً مبنياً للمفعول، وقرأ ابن مسعود، وأبو رجاء (نزل) بالتشديد ماضياً مبنياً للمفاعل، وفاعله الله سبحانه، وقرأ أبي بن كعب (أنزل الملائكة)، ويدوي عنه: أنه قرأ (تنزلت الملائكة)، وقد قرئ في الشواذ بغير هذه، وتأكيد هذا الفعل بقوله **﴿تنزيلاً﴾** يدل على أن هذا التنزيل على نوع غريب، ونمط عجيب. قال أهل العلم: إن هذا تنزيل رضا ورحمة لا تنزيل سخط وعذاب **﴿الملك يومئذ الحق للرحمن﴾** الملك مبتدأ، والحق صفة له وللرحمن. الخبر كذا قال الزجاج: أي: الملك الثابت الذي لا يزول للرحمن يومئذ، لأن الملك الذي يزول وينقطع ليس بملك في الحقيقة، وفائدة التقييد بالظرف أن ثبوت الملك المنكور له سبحانه خاصة في هذا اليوم. وأما فيما عداه من أيام الدنيا، فلغيره ملك في الصورة، وإن لم يكن حقيقاً. وقيل: إن خبر المبتدأ هو الظرف، والحق نعت للملك. والمعنى: الملك الثابت للرحمن خاص في هذا اليوم **﴿وكان يوماً على الكافرين عسيراً﴾** أي: وكان هذا اليوم مع كون الملك فيه لله وحده شديداً على الكفار لما يصابون به فيه، وينالهم من العقاب بعد تحقيق الحساب، وأما على المؤمنين فهو يسير غير عسير، لما ينالهم فيه من الكرامة والبشرى العظيمة **﴿ويوم يعض الظالم على يديه﴾** الظرف منصوب بمحنوف أي: وانكر، كما انتصب بهذا المحنوف الظرف الأول، أعني: يوم تشقق، ويوم يعض الظالم على يديه، الظاهر أن العض هنا حقيقة، ولا مانع من ذلك، ولا موجب لتأويله. وقيل: هو كناية عن الغيظ والحسرة، والمراد بالظالم

نريعته، ويبطل شبهته، ويحسم مائته. ومعنى ﴿لحسن تفسيراً﴾: جئتكم بأحسن تفسير، فأحسن تفسيراً معطوف على الحق، والإستثناء بقوله ﴿إِلَّا جُفْنَاكَ﴾ مفرغ، والجمله في محل نصب على الحال أي: لا يأتونك بمثل إلا في حال إيتائنا إياك ذلك. ثم أورد هؤلاء الجهلة، ونهمهم، فقال ﴿الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم﴾ أي: يحشرون كائنين على وجوههم، والموصول مبتدأ، وخبره: أولئك، أو هو خبر مبتدأ محذوف أي: هم الذين، ويجوز نصبه على الذم. ومعنى ﴿يحشرون على وجوههم﴾: يسحبون عليها إلى جهنم ﴿أولئك شر مكاناً﴾ أي: منزلاً ومصيراً ﴿وأفضل سيلاً﴾، وأخطأ طريقاً، وذلك لأنهم قد صاروا في النار. وقد تقدم تفسير مثل هذه الآية في سورة سبحان، وقد قيل: إن هذا متصل بقوله: ﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً﴾ [الفرقان: 24].

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن أبي الدنيا، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم عن ابن عباس في قوله ﴿يوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً﴾ قال: يجمع الله الخلق يوم القيامة في صعيد واحد: الجن، والإنس، والبهائم، والسباع، والطير، وجميع الخلق، فتتشقق السماء الدنيا، فينزل أهلها، وهم أكثر ممن في الأرض من الجن، والإنس، وجميع الخلق، فيحيطون بالجن، والإنس، وجميع الخلق، فيقول أهل الأرض: أفيكم ربنا؟ فيقولون: لا، ثم تنشق السماء الثانية، ونكر مثل ذلك، ثم كذلك في كل سماء إلى السماء السابعة، وفي كل سماء أكثر من السماء التي قبلها، ثم ينزل ربنا في ظلل من الغمام وحوله الكروبيون، وهم أكثر من أهل السموات السبع، والإنس، والجن، وجميع الخلق لهم قرون ككعوب الققاء، وهم تحت العرش، لهم زجل بالتسبيح، والتلهيل، والتقدس لله تعالى، ما بين إخمص قدم أحدهم إلى كعبه مسيرة خمسمائة عام، ومن ركبته إلى فخذيه مسيرة خمسمائة عام، ومن فخذيه إلى رقبته مسيرة خمسمائة عام، وما فوق ذلك مسيرة خمسمائة عام. وإسناده عند ابن جرير هكذا قال: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثني الحجاج بن مبارك بن فضالة عن علي بن زيد بن جدعان، عن يوسف بن مهران: أنه سمع ابن عباس، فنكره. وأخرجه ابن أبي حاتم بإسناد هكذا: قال: حدثنا محمد بن عمار بن الحارث مأمول، حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد به. وأخرج ابن مردويه، وأبو نعيم في الدلائل بسند، قال السيوطي: صحيح من طريق سعيد بن جبير، عن ابن عباس: أن أبا معيط كان يجلس مع النبي ﷺ بمكة لا يؤذيه، وكان رجلاً حليماً، وكان بقية قريش إذا جلسوا معه آذوه، وكان لأبي معيط خليل غائب عنه بالشام، فقالت قريش: صبا أبو معيط، وقدم خليله من الشام ليلاً، فقال لامراته: ما فعل محمد مما كان عليه؟ فقالت: أشد ما كان أمراً، فقال: ما فعل خليلي أبو معيط؟ فقالت: صبا، فبات بليلة سوء، فلما أصبح أتاه أبو معيط، فحياه، فلم يرد عليه

للمجرمين﴾ هذا تسليية من الله سبحانه لرسوله ﷺ، والمعنى: أن الله سبحانه جعل لكل نبي من الأنبياء الداعين إلى الله علواً يعابيه من مجرمي قومه، فلا تجزع يا محمد، فإن هذا دأب الأنبياء قبلك، وأصبر كما صبروا ﴿وكفى بربك هانئاً ونصيراً﴾ قال المفسرون: الباء زائدة أي: كفى ربك، وانتصاب نصيراً وهانئاً على الحال، أو التمييز أي: يهدي عباده إلى مصالح الدين، والدنيا، وينصرهم على الأعداء ﴿وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة﴾ هذا من جملة اقتراحاتهم وتعنتاتهم أي: ملا نزل الله علينا هذا القرآن بفعلة واحدة غير منجم. واختلف في قائل هذه المقالة: فقيل: كفار قريش، وقيل: اليهود، قالوا: ملا أتيتنا بالقرآن جملة واحدة كما أنزلت التوراة، والإنجيل، والزبور، وهذا زعم باطل، يدعى بالهضبة، فإن هذه الكتب نزلت مفرقة كما نزل القرآن، ولكنهم معاندون، أو جاهلون لا يدرون بكيفية نزول كتب الله سبحانه على أنبيائه، ثم رد الله سبحانه عليهم، فقال ﴿كنكذب به فؤاكن﴾ أي: نزلنا القرآن كذلك مفرقاً، والكاف في محل نصب على أنها نعت مصدر محذوف، وذلك إشارة إلى ما يفهم من كلامهم أي: مثل ذلك التنزيل المفرق الذي قبحوا فيه، واقترحوا خلافة: نزلناه لتقوي بهذا التنزيل على هذه الصفة فؤاكن، فإن إنزاله مفرقاً منجماً على حسب الحوائث أقرب إلى حفظك له، وفهمك لمعانيه، وذلك من أعظم أسباب التثبيت، واللام متعلقة بالفعل المحذوف الذي قدرناه. وقال أبو حاتم: إن الاخفش قال: إنها جواب قسم محذوف. قال: وهذا قول مرجوح. وقرأ عبد الله (ليثبت) بالتحية أي: الله سبحانه، وقيل: إن هذه الكلمة أعني: كنكذب، هي من تمام كلام المشركين، والمعنى كذلك أي: كالتوراة، والإنجيل، والزبور، فيوقف على قوله ﴿كنكذب﴾، ثم يبتدأ بقوله: ﴿لنثبت به فؤاكن﴾ على معنى: أنزلناه عليك متفرقاً لهذا الغرض. قال ابن الأنباري: وهذا أجود وأحسن. قال النحاس: وكان ذلك أي: إنزال القرآن منجماً من أعلام النبوة لأنهم لا يسألونه عن شيء إلا أجيبوا عنه، وهذا لا يكون إلا من نبي، فكان ذلك تثبيتاً لفؤاده وأقشنتهم. ﴿ورتلناه ترتيلاً﴾ هذا معطوف على الفعل المقتر أي: كذلك نزلناه ورتلناه ترتيلاً، ومعنى الترتيل: أن يكون آية بعد آية، قاله النخعي، والحسن، وقتادة. وقيل: إن المعنى بيانه تبيناً، حكى هذا عن ابن عباس. وقال مجاهد: بعضه في إثر بعض. وقال السدي: فصلناه تفصيلاً. قال ابن الأعرابي: ما أعلم الترتيل إلا التحقيق والتبيين. ثم نكر سبحانه أنهم محجوجون في كل ألوان مدفوع قولهم بكل وجه، وعلى كل حالة، فقال ﴿ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً﴾ أي: لا يأتيك يا محمد المشركون بمثل من أمثالهم التي من جملتها اقتراحاتهم المتعنتة إلا جئناك في مقابلة مثلمهم بالجواب الحق الثابت الذي يبطل ما جاءوا به من المثل ويدمغه وينفعه. فالمراد بالمثل هنا السؤال، والإقتراح، و «بالحق» جوابه الذي يقطع

وللناس آية أي: عبرة لكل الناس على العموم يتعظ بها كل مشاهد لها، وسامع لخبرها ﴿واعتدنا للظالمين﴾ المراد بالظالمين قوم نوح على الخصوص. ويجوز أن يكون المراد كل من سلك مسلكهم في التكذيب والعذاب الأليم: هو عذاب الآخرة، وانتصاب ﴿عاداً﴾ بالعطف على قوم نوح، وقيل: على محل الظالمين، وقيل: على مفعول جعلناهم ﴿وثمود﴾ معطوف على عاداً، وقصة عاد وثمود قد نكرت فيما سبق ﴿وأصحاب الرّسّ﴾ الرّسّ في كلام العرب: البئر التي تكون غير مطوية، والجمع رساس كذا قال أبو عبيدة، ومنه قول الشاعر:

وهم سائر إلى أرضهم تنابله يحفرون الرّساسا
قال السّدي: هي بئر بإنطاكية قتلوا فيها حبیباً النّجار، فنسبوا إليها، وهو صاحب رّسّ الذي ﴿قال يا قوم اتبعوا المرسلين﴾ [يس: 20] وكذا قال مقاتل، وعكرمة، وغيرهما. وقيل: هم قوم بآنربيجان قتلوا أنبياءهم، فجفت أشجارهم وزرعهم، فماتوا جوعاً وعطشاً. وقيل: كانوا يعبدون الشجر، وقيل: كانوا يعبدون الأصنام، فأرسل الله إليهم شعيباً، فكذبوه، وآثوه. وقيل: هم قوم أرسل الله إليهم نبياً، فاكلوه، وقيل: هم أصحاب الأخدود. وقيل: إن الرّسّ هي البئر المعطلة التي تقدّم نكرها، وأصحابها أهلها. وقال في الصحاح: والرّسّ اسم بئر كانت لبقية ثمود، وقيل: الرّسّ ماء ونخل لبني أسد، وقيل: الثلج المتركم في الجبال. والرّسّ: اسم واد، ومنه قول زهير:

بكرن بكوراً واستحرن بسحرة فهنّ لولدي الرّسّ كاليد للنفم
والرّسّ أيضاً: الإصلاح بين الناس، والإفساد بينهم، فهو: من الأضداد. وقيل: هم أصحاب حنظلة بن صفوان، وهم الذين ابتلاهم الله بالطائر المعروف بالعتقاء ﴿وقروناً﴾ بين ذلك كثيراً، معطوف على ما قبله، والقرون جمع قرن أي: أهل قرون، والقرن مائة سنة. وقيل: مائة وعشرون. وقيل: القرن أربعون سنة، والإشارة بقوله ﴿بين ذلك﴾ إلى ما تقدّم نكره من الأمم. وقد ينكر الذاكر أشياء مختلفة، ثم يشير إليها بذلك ﴿وكلا ضربنا له الأمثال﴾ قال الزجاج: أي: وأنذرنا كلا ضربنا لهم الأمثال، وبيننا لهم الحجة، ولم نضرب لهم الأمثال الباطلة كما يفعله هؤلاء الكفرة، فجعله منصوباً بفعل مضمر يفسره ما بعده، لأن حذرنا، ونكرنا، وأنذرنا في معنى: ضربنا، ويجوز أن يكون معطوفاً على ما قبله، والتّوئين عوض عن المضاف إليه المحذوف، وهو الأمم أي: كل الأمم ضربنا لهم الأمثال ﴿و﴾، أما ﴿كلاً﴾ الأخرى: فهي منصوبة بالفعل الذي بعدها، والتّعبير: الإهلاك بالعذاب. قال الزجاج: كل شيء كسرتة وفتنته فقد تبرته. وقال المؤرج، والأخفش: معنى ﴿تبرنا تتيبراً﴾: انمرنا تمييراً لبنت الباء من الدال والميم ﴿ولقد اتوا على القرية لتي أمطرت مطر السوء﴾ هذه جملة مستأنفة مبيّنة لمشاهدتهم لأثار هلاك بعض الأمم. والمعنى: ولقد اتوا أي: مشركو مكة على قرية قوم لوط التي أمطرت مطر السوء،

وهو الحجارة أي: هلكت بالحجارة التي أمطروا بها، وانتصاب مطر على المصيرية، أو على أنه مفعول ثانٍ: إذ المعنى: أعطيتها، وأوليتها مطر السوء، أو على أنه نعت مصدر محذوف أي: إمطاراً مثل مطر السوء، وقرأ أبو السمال (السوء) بضم السين، وقد تقدّم تفسير السوء في براءة ﴿أفلم يكونوا يرونها﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ؛ أي: يرون القرية المذكورة عند سفرهم إلى الشام للتجارة، فإنهم يمزّون بها، والفاء للعطف على مقدّر أي: لم يكونوا ينظرون إليها، فلم يكونوا يرونها ﴿بل كانوا لا يرجون نشوراً﴾ أضرب سبحانه عما سبق من عدم رؤيتهم لتلك الآثار إلى عدم رجاء البعث منهم المستلزم لعدم رجائهم للجزاء، ويجوز أن يكون معنى يرجون: يخافون ﴿وإذا راوك إن يتخونك إلا هزوا﴾ أي: ما يتخونك إلا هزوا أي: مهزواً بك، قصر معاملتهم له على اتخاذهم إياه هزواً، فجواب «إذا» هو ﴿إن يتخونك﴾ وقيل: الجواب محذوف، وهو قالوا ﴿أهذا الذي﴾ وعلى هذا، فتكون جملة ﴿إن يتخونك إلا هزوا﴾ معترضة، والأوّل أولى. وتكون جملة ﴿أهذا الذي بعث الله رسولا﴾ في محل نصب على الحال بتقدير القول: أي: قائلين أهذا؟ إلخ، وفي اسم الإشارة دلالة على استحقارهم له، وتهكمهم به، والعائد محذوف أي: بعثه الله، وانتصاب رسولا على الحال أي: مرسلأ، واسم الإشارة مبتدأ، وخبره الموصول، وصلته ﴿إن كاد ليضلنا عن آلهتنا﴾ أي: قالوا: إن كاد هذا الرسول ليضلنا: ليصرفنا عن آلهتنا، فنترك عبادتها، وإن هنا هي المخففة، وضمير الشأن محذوف أي: إنه كاد أن يصرفنا عنها ﴿لولا أن صبرنا عليها﴾ أي: حبسنا أنفسنا على عبادتها، ثم إنه سبحانه أجاب عليهم، فقال ﴿وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلاً﴾ أي: حين يرون عذاب يوم القيامة الذي يستحقونه ويستوجبونه بسبب كفرهم من هو أضلّ سبيلاً أي: أبعد طريقاً عن الحق والهدى، أم أم المؤمنين؟ ثم بين لهم سبحانه أنه لا تمسك لهم فيما ذهبوا إليه سوى التقليد واتباع الهوى، فقال معجباً لرسول الله ﷺ ﴿أرايت من اتخذ إلهه هواه﴾ قَم المفعول الثاني للعناية كما تقول: علمت منطلقاً زيداً أي: اطاع هواه طاعة كطاعة الإله أي: انظر إليه يا محمد، وتعجب منه. قال الحسن: معنى الآية: لا يهوى شيئاً إلا أتبعه ﴿أفانت تكون عليه كيداً﴾ الاستفهام للإنكار والاستبعاد أي: أفانت تكون عليه حفيظاً وكفيلاً حتى ترده إلى الإيمان، وتخرجه من الكفر، ولست تقدر على ذلك ولا تطيقه، فليست الهداية والفضالة موكولتين إلى مشيئتكم، وإنما عليكم البلاغ. وقد قيل: إن هذه الآية منسوخة بآية القتال. ثم انتقل سبحانه من الإنكار الأول إلى إنكار آخر، فقال ﴿لم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون﴾ أي: اتحسب أن أكثرهم يسمعون ما تتلو عليهم من آيات القرآن، ومن المواظ، أو يعقلون معاني ذلك، ويفهمونه حتى تعتني بشأنهم، وتطمع في إيمانهم، وليسوا كذلك، بل هم بمثالة

أي: نقضته، وأرسلته، ورجل مسبوت أي: معمود الخلقه. وقيل: للنوم ثبات، لأنه بالتمدد يكون، وفي التمدد معنى الراحة. وقيل: السبت القطع، فالنوم انقطاع عن الإشتغال، ومنه سبت اليهود لانقطاعهم عن الإشتغال. قال الزجاج: السبات النوم، وهو أن ينقطع عن الحركة، والروح في بدنه أي: جعلنا نومكم راحة لكم. وقال الخليل: السبات نوم ثقيل أي: جعلنا نومكم ثقيلاً ليكمل الإجمام والراحة **﴿وجعل النهار شعوراً﴾** أي: زمان بعث من ذلك السبات، شبه اليقظة بالحياة كما شبه النوم بالسبات التشبيه بالمات. وقال في الكشف: إن السبات الموت، واستدل على ذلك بكون النشور في مقابلته **﴿وهو الذي أرسل الرياح نشراً بين يدي رحمته﴾** قرئ (الريح)، وقرئ (بشرأ) بالباء الموحدة، وبالنون. وقد تقدم تفسير هذه الآية مستوفى في الأعراف **﴿وانزلنا من السماء ماء طهوراً﴾** أي: يطهر به كما يقال: وضوء للماء الذي يتوضأ به. قال الأزهري: الطهور في اللغة الطاهر المطهر، والطهور ما يطهر به. قال ابن الأنباري: الطهور بفتح الطاء الاسم، وكذلك الوضوء، والوقود، وبالضم المصدر، هذا هو المعروف في اللغة؛ وقد ذهب الجمهور إلى أن الطهور هو الطاهر المطهر، ويؤيد ذلك كونه بناء مبالغة. وروي عن أبي حنيفة أنه قال: الطهور هو الطاهر، واستدل لذلك بقوله تعالى: **﴿وسقاهم ربهم شراباً طهوراً﴾** [الإنسان: 21] يعني: طاهراً، ومنه قول الشاعر:

خليلي هل في نظرة بعد توبة أدوي بها قلبي علي فجور
إلى رجح الأكفال غيد من الظبي عذاب الشنايا ريقهن طهور
فوصف الرقيق بأنه طهور، وليس بمطهر، ورجح القول الأول ثعلب، وهو راجح لما تقدم من حكاية الأزهري لذلك عن أهل اللغة. وأما وصف الشاعر للرقيق بأنه طهور، فهو على طريق المبالغة، وعلى كل حال، فقد ورد الشرع بأن الماء طاهر في مظهر نفسه مطهر لغيره، قال الله تعالى: **﴿وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به﴾** [الأنفال: 11] وقال النبي ﷺ: «مخلق الماء طهوراً»، ثم ذكر سبحانه علة الإنزال، فقال: **﴿لنحیی به﴾** أي: بالماء المنزل من السماء **﴿بلدة ميثاً﴾** وصف البلدة بميثاً، وهي صفة للمذكور؛ لأنها بمعنى البلد. وقال الزجاج: أراد بالبلد المكان، والمراد بالإحياء هنا إخراج النبات من المكان الذي لا نبات فيه **﴿ونسقيه مما خلقنا نعاماً وإناسي كثيراً﴾** أي: نسقي ذلك الماء، قرأ أبو عمرو، وعاصم في رواية عنهما، وأبو حيان، وابن أبي عتبة بفتح النون من (نسقيه)، وقرأ الباقر بضمها، ومنه في **﴿مما خلقنا﴾** للإبتداء، وهي متعلقة بنسقيه، ويجوز أن تتعلق بمحذوف على أنه حال، والآنعام قد تقدم الكلام عليها، والآناسي جمع إنسان على ما ذهب إليه سيبويه. وقال الفراء، والمبرد، والزجاج: إنه جمع إنسي، والمفراء قول آخر: إنه جمع إنسان، والأصل أناسين مثل سرحان، وسراحين، وبستان، وبساتين، فجعلوا الباء عوضاً من النون **﴿ولقد صرفناه بينهم لينكروا﴾** ضمير صرفناه

قال أبو عبيدة: الظل بالغداة، والفيء بالعشي، لأنه يرجع بعد زوال الشمس، سمي فيئاً لأنه فاء من المشرق إلى جانب المغرب. قال حميد بن ثور يصف سرحة، وكنى بها عن امرأة:

فلا الظل من برد الضحى تستطيعه ولا الفيء من برد العشي تنوق
وقال ابن السكيت: الظل ما نسخته الشمس، والفيء ما نسخ الشمس. وحكى أبو عبيدة عن رؤية قال: كل ما كانت عليه الشمس، فزالت عنه، فهو فيء وظل، وما لم تكن عليه الشمس، فهو ظل. انتهى. وحقيقة الظل أنه أمر متوسط بين الضوء الخالص والظلمة الخالصة، وهذا المتوسط هو أعدل من الطرفين، لأن الظلمة الخالصة يكرهاها الطبع، وينفر عنها الحس، والضوء الكامل لقوته يبهز الحس البصري، ويؤذي بالتسخين، ولذلك وصفت الجنة به بقوله: **﴿وظل معبود﴾** [الواقعة: 30]، وجملة **﴿ولو شاء لجعله ساكناً﴾** معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه أي: لو شاء الله سبحانه سكونه لجعله ساكناً ثابتاً دائماً مستقراً لا تنسخه الشمس. وقيل: المعنى: لو شاء لمنع الشمس الطلوع، والأول أولى. والتعبير بالسكون عن الإقامة، والاستقرار سائغ، ومنه قولهم: سكن فلان بلد كذا: إذا أقام به، واستقر فيه. وقوله **﴿ثم جعلنا الشمس عليه ليلاً﴾** معطوف على قوله **﴿ثم جعلنا للظل﴾** داخل في حكمه أي: جعلناهما علامة يستدل بها بأحوالها على أحواله، وذلك لأن الظل يتبعها كما يتبع الدليل في الطريق من جهة أنه يزيد بها وينقص، ويمتد ويتقلص، وقوله **﴿ثم قبضناه﴾** معطوف أيضاً على **﴿ثم جعلنا للظل﴾** داخل في حكمه. والمعنى: ثم قبضنا ذلك الظل المدود، ومحوانه عند إيقاع شعاع الشمس موقعه بالتدريج حتى انتهى ذلك الإنزال إلى العدم والإضمحلال. وقيل: المراد في الآية قبضه عند قيام الساعة بقبض أسبابه، وهي الأجرام النيرة. والأول أولى. والمعنى: إن الظل يبقى في هذا الجو من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، فإذا طلعت الشمس صار الظل مقبوضاً، وخلفه في هذا الجو شعاع الشمس، فأشرقت على الأرض، وعلى الأشياء إلى وقت غروبها، فإذا غربت، فليس هناك ظل، إنما فيه بقية نور النهار وقال قوم: قبضه بغروب الشمس، لأنها إذا لم تغرب، فالظل فيه بقية، وإنما يتم زواله بمجيء الليل، وبخول الظلمة عليه. وقيل: المعنى: ثم قبضنا ضياء الشمس بالفيء **﴿قبضاً يسيراً﴾**، ومعنى **﴿إيناً﴾**: أن مرجعه إليه سبحانه كما أن حوثه منه قبضاً يسيراً أي: على تدريج قليلاً قليلاً بقدر ارتفاع الشمس، وقيل: يسيراً سريعاً، وقيل: المعنى يسيراً علينا أي: يسيراً قبضه علينا ليس بعسير **﴿وهو الذي جعل لكم الليل لباساً﴾** شبه سبحانه ما يستر من ظلام الليل باللباس الساتر. قال ابن جرير: وصف الليل باللباس تشبيهاً من حيث أنه يستر الأشياء، ويغشاها، واللام متعلقة بجعل **﴿والنوم سباتاً﴾** أي: وجعل النوم سباتاً أي: راحة لكم، لأنكم تنقطعون عن الإشتغال، وأصل السبات التمدد، يقال: سبت المرأة شعرها

واضطرب، ومنه قوله: ﴿فني أمر مريج﴾ [ق: 5] وقال الأزهري: ﴿مرج البحرين﴾ خلى بينهما، يقال: مرجت الدابة: إذا خليتها ترعى. وقال ثعلب: المرج الإجراء، فقوله ﴿مرج البحرين﴾ أي: أجرامهما. قال الأخفش: ويقول قوم: أمرج البحرين مثل مرج، فعل وأفعل بمعنى: ﴿هَذَا عَذَبُ فِرَاتٍ﴾ الفرات البليغ العنوبة، وهذه الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: كيف مرجهما؟ فقيل: هذا عذب، وهذا ملح، ويجوز أن يكون في محل نصب على الحال. قيل: سمي الماء الحلو فراتاً، لأنه يفرغ العطش أي: يقطعه، ويكسره ﴿وهَذَا ملح لجاج﴾ أي: بليغ الملوحة، هذا معنى الأجاج، وقيل: الأجاج البليغ في الحرارة، وقيل: البليغ في المرارة، وقرا طلحة (ملح) بفتح الميم، وكسر اللام ﴿وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً﴾ البرزخ الحاجز، والحائل الذي جعله الله بينهما من قدرته يفصل بينهما، ويمنعهما التمازج، ومعنى ﴿حجراً محجوراً﴾: سترأ مستوراً يمنع أحدهما من الاختلاط بالآخر، فالبرزخ الحاجز، والحجز المانع. وقيل: معنى ﴿حجراً محجوراً﴾: هو ما تقدم من أنها كلمة يقولها المتعبد، كان كل واحد من البحرين يتعوذ من صاحبه، ويقول له هذا القول، وقيل: حداً محدوداً. وقيل: المراد من البحر العذب الأنهار العظام كالنيل، والفرات، وجيحون، ومن البحر الأجاج البحار المشهورة، والبرزخ بينهما الحائل من الأرض. وقيل: معنى ﴿حجراً محجوراً﴾: حراماً محرماً أن يعذب هذا المالح بالعذب، أو يملح هذا العذب بالمالح، ومثل هذه الآية قوله سبحانه في سورة الرحمن: ﴿مرج البحرين يلتقيان﴾ بينهما برزخ لا يبغيان [الرحمن: 19، 20] ثم نكر سبحانه حالة من أحوال خلق الإنسان والماء، فقال ﴿وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً﴾ والمراد بالماء هنا ماء النطفة أي: خلق من ماء النطفة إنساناً، فجعله نسباً وصهراً. وقيل: المراد بالماء الماء المطلق الذي يراد في قوله: ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾ [الأنبياء: 30]، والمراد بالنسب هو الذي لا يحل نكاحه. قال الفراء، والزجاج: واشتقاق الصهر من صهرت الشيء: إذا خلطته، وسميت المناكح صهراً لاختلاط الناس بها. وقيل: الصهر قرابة النكاح: فقرابة الزوجة هم الأختان، وقرابة الزوج هم الأحماء، والأصهار تعهما، قاله الأصمعي. قال الواحدي: قال المفسرون: النسب سبعة أصناف من القرابة يجمعها قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ إلى قوله ﴿وَأُمَّهَاتُ نَسَائِكُمْ﴾ [النساء: 23] ومن هنا إلى قوله ﴿وَلَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأَخْتَيْنِ﴾ [النساء: 23] تحريم بالصهر، وهو الخلطة التي تشبه القرابة، حرم الله سبعة أصناف من النسب، وسبعة من جهة الصهر، قد اشتملت الآية المذكورة على ستة منها، والسابعة قوله: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: 22]، وقد جعل ابن عطية، والزجاج، وغيرهما الرضاع من جملة النسب، ويؤيده قوله ﷺ: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب». ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ أي: بليغ القدرة عظيمها، ومن

ذهب الجمهور إلى أنه راجع إلى ما نكر من الدلائل أي: كَرَرْنَا أحوال الإِظْلال، ونكر إنشاء السحاب، وإنزال المطر في القرآن، وفي سائر الكتب السماوية، ليتفكروا ويعتبروا ﴿فَابْيَأِ كَثْرًا﴾ هم إلا كُفْران النعمة وجدها. وقال آخرون: إنه يرجع إلى اقرب المذكورات، وهو المطر أي: صرفنا المطر بينهم في البلدان المختلفة، فنزيد منه في بعض البلدان، وننقص في بعض آخر منها، وقيل: الضمير راجع إلى القرآن، وقد جرى نكره في أول السورة حيث قال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: 1]، وقوله: ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ [الفرقان: 29]، وقوله: ﴿اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: 30] والمعنى: ولقد كَرَرْنَا هذا القرآن بإنزال آياته بين الناس؛ لينكروا به، ويعتبروا بما فيه، فابْيَأِ أكثرهم ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾ به، وقيل: هو راجع إلى الريح، وعلى رجوع الضمير إلى المطر؛ فقد اختلف في معناه، فقيل: ما نكرناه. وقيل: صرفناه بينهم وإبلاً وطشاً وطلاً ورذاذاً، وقيل: تصريفه تنويع الإنتفاع به في الشرب، والسقي، والزراعات به، والطهارات. قال عكرمة: إن المراد بقوله ﴿فَابْيَأِ أَكْثَرَ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ هو قولهم: في الأنواء مطرنا بنوء كذا، قال النحاس: ولا نعلم بين أهل التفسير اختلافاً أن الكفر هنا قولهم: مطرنا بنوء كذا. وقرا عكرمة (صرفناه) مخففاً، وقرا الباقر بالتثنية. وقرا حمزة، والكسائي (لينكروا) مخففة الذال من النكر، وقرا الباقر بالتثنية من التذكير ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾ أي: رسولاً ينذرهم كما قسمنا المطر بينهم، ولكننا لم نفعل ذلك بل جعلنا نذيراً واحداً، وهو أنت يا محمد، فقابل ذلك بشكر النعمة ﴿فَلَا تَطْعَ الْكَافِرِينَ﴾ فيما يدعونك إليه من اتباع آلهتهم، بل اجتهد في الدعوة، وثبت فيها، والضمير في قوله ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ راجع إلى القرآن أي: جاهدكم بالقرآن، واتل عليهم ما فيه من القوارع، والزواجر، والأوامر، والنواهي. وقيل: الضمير يرجع إلى الإسلام، وقيل: بالسيف، والأوّل أولى. وهذه السورة مكية، والأمر بالقتال إنما كان بعد الهجرة. وقيل: الضمير راجع إلى ترك الطاعة المفهوم من قوله ﴿فَلَا تَطْعَ الْكَافِرِينَ﴾ وقيل: الضمير يرجع إلى ما دل عليه قوله ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾، لأنه سبحانه لو بعث في كل قرية نذيراً لم يكن على كل نذير إلا مجاهدة القرية التي أرسل إليها، وحين اقتصر على نذير واحد لكل القرى، وهو محمد ﷺ، فلا جرم اجتمع عليه كل المجاهدات، فكبر جهاده وعظم، وصار جامعاً لكل مجاهدة، ولا يخفى ما في هذين الوجهين من البعد. ثم نكر سبحانه دليلاً رابعاً على التوحيد، فقال ﴿وهو الذي مرج البحرين﴾ مرج خلى، وخلط، وأرسل، يقال: مرجت الدابة، وأمرجتها: إذا أرسلتها في المرعى، وخليتها تذهب حيث تشاء. قال مجاهد: أرسلهما، وقاض أحدهما إلى الآخر. وقال ابن عرفة: خلطهما، فهما يلتقيان، يقال: مرجته: إذا خلطته، ومرج الدين والأمر: اختلط

يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٩٢﴾

لما نكر سبحانه دلائل التوحيد عاد إلى نكر قبائح الكفار، وفصائح سيرتهم، فقال ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ﴾ إن عبوده ﴿وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ إن تركوه ﴿وَوَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ الظهير المظاهر أي: المعاون على ربه بالشرك والعداوة، والمظاهرة على الرب هي المظاهرة على رسوله، أو على دينه. قال الزجاج: لأنه يتابع الشيطان، ويعاونه على معصية الله، لأن عبادتهم للأصنام معاونة للشيطان. وقال أبو عبيدة: المعنى: وكان الكافر على ربه هيناً ثليلاً، من قول العرب ظهرت به أي: جعلته خلف ظهره لم تلتفت إليه، ومنه قوله: ﴿وَاتَخَذْتُمُوهُمْ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا﴾ [هود: 92] أي: هيناً، ومنه أيضاً قول الفرزدق:

تميم بن بدر لا تكونن حاجتي بظهر فلأيمعا علي جوابها وقيل: إن المعنى: وكان الكافر على ربه الذي يعبده، وهو الصنم قوياً غالباً يعمل به ما يشاء، لأن الجماد لا قدرة له على دفع ونفع، ويجوز أن يكون الظهير جمعاً كقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: 4]، والمعنى: أن بعض الكفرة مظاهر لبعض على رسول الله، أو على دين، والمراد بالكافر هنا الجنس، ولا ينافيه كون سبب النزول هو كفر معين كما قيل: إنه أبو جهل. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ أي: مبشراً للمؤمنين بالجنة، ومنذراً للكافرين بالنار ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي: قل لهم يا محمد: ما أسألكم على القرآن من أجر، أو على تبليغ الرسالة المنلول عليه بالإرسال، والاستثناء في قوله ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ منقطع أي: لكن من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً فليفعل، وقيل: هو متصل. والمعنى: إلا من شاء أن يتقرب إليه سبحانه بالطاعة، وصور ذلك بصورة الأجر من حيث أنه مقصود الحصول. ولما بين سبحانه أن الكفار متظاهرون على رسول الله، وأمره أن لا يطلب منهم أجراً البتة، أمره أن يتوكل عليه في دفع المضار، وجلب المنافع، فقال ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ وخص صفة الحياة إشارة إلى أن الحي هو الذي يوثق به في المصالح، ولا حياة على الدوام إلا الله سبحانه دون الأحياء المنقطعة حياتهم، فإنهم إذا ماتوا ضاع من يتوكل عليهم، والتوكل: اعتماد العبد على الله في كل الأمور ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ أي: نزهه عن صفات نقصان، وقيل: معنى سبح: صل، والصلاة تسمى تسبيحاً ﴿وَكُفِّ بِهِ بِغُيُوبِ عِبَادِهِ خَيْرًا﴾ أي: حسبك، وهذه كلمة يراد بها المبالغة كقولك: كفى بالله ربا، والخير المطلق على الأمور بحيث لا يخفى عليه منها شيء، ثم زاد في المبالغة، فقال ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ قد تقدم تفسير هذا في الأعراف، والموصول في محل جر على أنه صفة للحي، وقال: بينهما، ولم يقل: بينهما؛ لأنه أراد النوعين، كما قال القطامي:

لم يحزنك أن جبال قيس وتغلب قد ثباتنا انقطاعاً

جملة قدرته الباهرة خلق الإنسان، وتقسيمه إلى القسمين المنكورين.

وقد أخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله ﴿لَمْ تَر إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ قال: بعد الفجر قبل أن تطلع الشمس. وأخرج ابن أبي حاتم عنه بلفظ: ﴿لَمْ تَر﴾: أنك إذا صليت الفجر كان بين مطلع الشمس إلى مغربها ظلاً؛ ثم بعث الله عليه الشمس ليلاً، فقبض الظل. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في الآية قال: مد الظل ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ قال: دائماً ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ لَبِيبًا﴾ يقول: طلوع الشمس ﴿ثُمَّ قَبِضْنَاهُ لِيَنَّا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ قال: سريعاً. وأخرج أهل السنن، وأحمد، وغيرهم من حديث أبي سعيد قال: قيل: يا رسول الله أنتوضأ من بئر بضاعة؟ وهي بئر يلقي فيها الحيز، ولحوم الكلاب، والنتن، فقال: إن الماء طهور لا ينجسه شيء. وفي إسناد هذا الحديث كلام طويل قد استوفيناه في شرحنا على المنتقى. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال: ما من عام بأقل مطراً من عام، ولكن الله يصرفه حيث يشاء، ثم قرأ هذه الآية ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس في قوله ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ﴾ قال: بالقرآن. وأخرج ابن جرير عنه ﴿هُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ يعني: خلط أحدهما على الآخر، فليس يفسد العنب المالح، وليس يفسد المالح العنب. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله ﴿وَجَجْرًا مَحْجُورًا﴾ يقول: حجر أحدهما عن الآخر بامرهم وقضائهم. وأخرج عبد بن حميد، عن عبد الله بن المغيرة قال: سئل عمر بن الخطاب عن ﴿نَسِيبًا وَصَهْرًا﴾، فقال: ما أراكم إلا وقد عرفتم النسب، وأما الصهر: فالأختان، والمصحابة.

وَيَسْتَدِينُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٩٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٩٤﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٩٥﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بُدْثِي بِرَأْيِهِ خَيْرًا ﴿٩٦﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَتَنَلْ يَوْمَ خَيْرًا ﴿٩٧﴾ وَلَئِنْ قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ تُفَرُّوًا ﴿٩٨﴾ نَسَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴿٩٩﴾ يُدَوِّرُ الَّذِي جَعَلَ الْيَلَّ وَالْأَنهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْصَرَّ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿١٠٠﴾ وَيَسَاءُ الرَّحْمَنُ الَّذِي يَشْهَدُ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَلِإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿١٠١﴾ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ بَرْهَةً سِجْجًا مِنَّا وَفِيمَا وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّكَ عَذَابُهَا كَانَ عَرَامًا ﴿١٠٢﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿١٠٣﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ

أولى. ثم نكر سبحانه ما لو تفكروا فيه لعرفوا وجوب السجود للرحمن، فقال «تبارك الذي جعل في السماء بروجا» المراد بالبروج بروج النجوم أي: منازلها الإثنا عشر، وقيل: هي النجوم الكبار، والأول أولى. وسميت بروجاً، وهي القصور العالية؛ لأنها للكواكب كالمنازل الرفيعة لمن يسكنها، واشتقاق البرج من التبرج، وهو الظهور. «وجعل فيها سراجاً» أي: شمساً، ومثله قوله تعالى: «وجعل الشمس سراجاً» [نوح: 16] قرأ الجمهور (سراجاً) بالإنفراد. وقرأ حمزة، والكسائي (سرجاً) بالجمع أي: النجوم العظام الواقعة، ورجح القراءة الأولى أبو عبيد. قال الزجاج: في تأويل قراءة حمزة، والكسائي أراد الشمس والكواكب «وقمراً منيراً» أي: ينير الأرض إذا طلع، وقرأ الأعمش (قمرأ) بضم القاف، وإسكان الميم، وهي قراءة ضعيفة شاذة «وهو الذي جعل الليل والنهار خلفه» قال أبو عبيدة: الخلف كل شيء بعد شيء: الليل خلفه للنهار، والنهار خلفه لليل، لأن أحدهما يخلف الآخر، ويأتي بعده؛ ومنه خلفه النبات، وهو: ورق يخرج بعد الورق الأول في الصيف، ومنه قول زهير بن أبي سلمى:

بها العين والأرام يمشين خلفه وأطلاهما ينهضن من كل مجثم
قال الفراء في تفسير الآية: يقول: يذهب هذا، ويجيء هذا، وقال مجاهد: خلفه من الخلاف، هذا أبيض، وهذا أسود. وقيل: يتعاقبان في الضياء والظلام، والزيادة والنقصان. وقيل: هو من باب حذف المضاف أي: جعل الليل، والنهار نوي خلفه أي: اختلاف «لمن أراد أن ينكر» قرأ حمزة مخففاً، وقرأ الجمهور بالتشديد، فالقراءة الأولى من النكر لله، والقراءة الثانية من التذكير له. وقرأ أبي بن كعب (يتنكر)، ومعنى الآية: أن المتنكر المعتبر إذا نظر في اختلاف الليل والنهار علم أنه لا بد في انتقالهما من حال إلى حال من ناقل «أو أراد شكوراً» أي: أراد أن يشكر الله على ما أودعه في الليل والنهار من النعم العظيمة، والألطف الكثيرة. قال الفراء: وينكر ويتنكر يأتیان بمعنى واحد. قال الله تعالى: «وانكروا ما فيه» [البقرة: 63]. وفي حرف عبد الله (وينكروا ما فيه) «ووعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً» هذا كلام مستأنف مسوق لبيان صالحى عباد الله سبحانه، وعباد الرحمن مبتدأ، وخبره الموصول مع صلته، والهنون مصدر، وهو السكينة والوقار. وقد ذهب جماعة من المفسرين إلى أن الهون متعلق بيمشون أي: يمشون على الأرض مشياً هوناً. قال ابن عطية: ويشبه أن يتأول هذا على أن تكون أخلاق تلك الماشي هوناً مناسبة لمشيته، وأما أن يكون المراد صفة المشيء وحده، فباطل، لأنه رب ماش هوناً رويده، وهو نذب أطلس، وقد كان رسول الله ﷺ يتكفا في مشيه كأنما يمشي في صيب «وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً» نكر سبحانه أنهم يتحملون ما يرد عليهم من أذى أهل الجهل والسفه، فلا يجهلون مع من يجهل، ولا

فإن قيل: يلزم أن يكون خلق العرش بعد خلق السموات، والأرض كما تفيد، ثم، فيقال: إن كلمة ثم لم تدخل على خلق العرش بل على رفعه على السموات، والأرض، «والرحمن» مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف، وهو صفة أخرى للحي، وقد قرأه الجمهور بالرفع، وقيل: يجوز أن يكون بدلاً من الضمير في استوى، أو يكون مبتدأ وخبره الجملة أي: فاسأل على رأي الأخفش، كما في قول الشاعر:

وقائلة خولان فأنكح فنتاتهم

وقرأ زيد بن علي (الرحمن) بالجر على أنه نعت للحي، أو للموصول «فاسأل به خبيراً» الضمير في «به» يعود إلى ما نكر من خلق السموات والأرض، والاستواء على العرش. والمعنى: فاسأل بتفاصيل ما نكر إجمالاً من هذه الأمور. وقال الزجاج، والأخفش: الباء بمعنى عن أي: فاسأل عنه، كقوله «سأل سائل بعذاب واقع» [المعارج: 1] وقول امرئ القيس:

هلا سالت الخليل يا ابنة مالك إن كنت جاهلة بما لم تعلم
وقال امرئ القيس:

فإن تسألوني بالنساء فإنني خبير بالواء النساء طبيب
والمراد بالخبير الله سبحانه؛ لأنه لا يعلم تفاصيل تلك المخلوقات إلا هو، ومن هذا قول العرب: لو لقيت فلاناً للقيك به الأسد أي: للقيك بلقائك إياه الأسد، فخبيراً منتصب على المفعولية، أو على الحال المؤكدة، واستضعف الحالية أبو البقاء، فقال: يضعف أن يكون خبيراً حالاً من فاعل أسأل، لأن الخبير لا يسأل إلا على جهة التوكيد، كقوله: «وهو الحق مصدقاً» [البقرة: 91، فاطر: 31] قال: ويجوز أن يكون حالاً من الرحمن إذا رفعته باستوى. وقال ابن جرير: يجوز أن تكون الباء في به زائدة. والمعنى: فاسأله حال كونه خبيراً. وقيل: قوله: به يجري مجرى القسم كقوله: «واتقوا الله الذي تسألون به» [النساء: 1]، والوجه الأول أقرب هذه الوجوه، ثم أخبر سبحانه عنهم بأنهم جهلوا معنى الرحمن فقال «وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن» قال المفسرون: إنهم قالوا ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة، يعنون مسيلة. قال الزجاج: الرحمن اسم من أسماء الله، فلما سمعوه أنكروا، فقالوا: وما الرحمن «أنسجد لما تأمرنا»، والاستفهام للإنكار أي: لا نسجد للرحمن الذي تأمرنا بالسجود له، ومن قرأ بالتحية، فالمعنى: أنسجد لما يأمرنا محمد بالسجود له. وقد قرأ المننيون، والبصريون «لما تأمرنا» بالوقية، واختار هذه القراءة أبو عبيد، وأبو حاتم، وقرأ الأعمش، وحمزة، والكسائي بالتحية. قال أبو عبيد: يعنون الرحمن. قال النحاس: وليس يجب أن يتأول على الكوفيين في قراءتهم هذا التأويل البعيد، ولكن الأولى: أن يكون التأويل لهم اسجدوا لما يأمرنا النبي ﷺ، فتصح القراءة على هذا، وإن كانت الأولى أبين. «وزادهم نفوراً» أي: زادهم الأمر بالسجود نفوراً عن الدين، وبعداً عنه، وقيل: زادهم نكر الرحمن تباعداً من الإيمان، كذا قال مقاتل، والأول

فإنهم يخرجون، والمقام للكفار، فإنهم يخلدون، وساءت من أفعال الذم كبثست، ويجوز أن يكون هذا من كلام الله سبحانه، ويجوز أن يكون حكاية لكلامهم. ثم وصفهم سبحانه بالتوسط في الإنفاق، فقال **﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يَسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾** قرأ حمزة، والكسائي، والأعمش، وعاصم، ويحيى بن وثاب (يقترؤا) بفتح التحتية، وضم الفوقية، من قتر يقرر، كقعد يقعد، وقرأ أبو عمرو، وابن كثير بفتح التحتية، وكسر التاء الفوقية، وهي لغة معروفة حسنة، وقرأ أهل المدينة، وابن عامر، وأبو بكر، عن عاصم بضم التحتية، وكسر الفوقية. قال أبو عبيدة: يقال: قتر الرجل على عياله يقرر، ويقرر قترأ، واقتير يقرر إقتارأ، ومعنى الجميع: التضيق في الإنفاق. قال النحاس: ومن أحسن ما قيل في معنى الآية: أن من أنفق في غير طاعة الله، فهو الإسراف، ومن أمسك عن طاعة الله، فهو الإقتار، ومن أنفق في طاعة الله، فهو القوام. وقال إبراهيم النخعي: هو الذي لا يجيع ولا يعرى، ولا ينفق نفقة، يقول الناس قد أسرف. وقال يزيد بن أبي حبيب: أولئك أصحاب محمد كانوا لا ياكلون طعاماً للثمن واللذة، ولا يلبسون ثوباً للجمال، ولكن كانوا يريدون من الطعام ما يسد عنهم الجوع، ويقويهم على عبادة الله، ومن اللباس ما يستر عورتهم، ويقويه الحر والبرد. وقال أبو عبيدة: لم يزيئوا على المعروف، ولم يبخلوا بكوله: **﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾** [الإسراء: 29] قرأ حسان بن عبد الرحمن (وكان بين ذلك قواماً) بكسر القاف، وقرأ الباقر بفتحها، فقيل: هما بمعنى، وقيل: القوام بالكسر: ما يوم عليه الشيء ويستقر، وبالفتح: العدل، والإستقامة، قاله ثعلب. وقيل: بالفتح: العدل بين الشئيين، وبالكسر: ما يقام به الشيء لا يفضل عنه ولا ينقص. وقيل: بالكسر: السداد، والمبلغ، واسم كان مقرراً فيها أي: كان إنفاقهم بين ذلك قواماً، وخبرها قواماً، قاله الفراء. وروي عن الفراء قول آخر، وهو أن اسم كان بين ذلك، وتبنى «بين» على الفتح؛ لأنها من الظروف المفتوحة. وقال النحاس: ما أدري ما وجه هذا، لأن «بين» إذا كانت في موضع رفع رفعت.

وقد أخرج ابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله **﴿وَكَانَ الْكَافِرَ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيْرًا﴾** يعني: أبا الحكم الذي سماه رسول الله ﷺ أبا جهل بن هشام. وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله **﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾** قال: قل لهم يا محمد: لا أسألكم على ما أدعوكم إليه من أجر، يقول عرض من عرض الدنيا. وأخرج الخطيب في كتاب النجوم عنه أيضاً في قوله **﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾** قال: هي هذه الإثنا عشر برجاً أولها: الحمل، ثم الثور، ثم الجوزاء، ثم السرطان، ثم الأسد، ثم السنبلة، ثم الميزان، ثم العقرب، ثم القوس، ثم الجدي، ثم الدلو، ثم الحوت. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً **﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خُلْفَةً﴾** قال: أبيض وأسود. وأخرج ابن جرير،

يسافهون أهل السفه. قال النحاس: ليس هذا السلام من التسليم إنما هو من التسلم، تقول العرب: سلاماً أي: تسليماً منك أي: براءة منك، منصوب على أحد أمرين: إما على أنه مصدر لفعل محذوف أي: قالوا: سلمنا سلاماً، وهذا على قول سيبويه، أو على أنه مفعول به أي: قالوا: هذا اللفظ، ورجحه ابن عطية. وقال مجاهد: معنى سلاماً: سداداً أي: يقول للجاهل كلاماً ينفعه به برفق ولين. قال سيبويه: لم يؤمر المسلمون يومئذ أن يسلموا على المشركين لكنه على قوله تسليماً منكم، ولا خير، ولا شر بيننا وبينكم. قال المبرد: كان ينبغي أن يقال: لم يؤمر المسلمون يومئذ بحريهم، ثم أمروا بحريهم. وقال محمد بن يزيد: أخطأ سيبويه في هذا وأساء العبارة. قال النحاس: ولا نعلم لسيبويه كلاماً في معنى الناسخ، والمنسوخ إلا في هذه الآية، لأنه قال في آخر كلامه: فنسختها آية السيف. وقول: هكذا يكون كلام الرجل إذا تكلم في غير علمه، ومشى في غير طريقته، ولم يؤمر المسلمون بالسلام على المشركين، ولا نهوا عنه. بل أمروا بالصفح، والهجر الجميل، فلا حاجة إلى دعوى النسخ. قال النضر بن شميل: حدثني الخليل قال: أتيت أبا ربيعة الأعرابي، وكان من أعلم من رأيت. فإذا هو على سطح، فسلمنا، فرد علينا السلام، وقال لنا: استنوا، فبقينا متحيرين، ولم ندر ما قال، فقال لنا أعرابي إلى جنبه: أمركم أن ترتفعوا. قال الخليل: هو من قول الله: **﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾** [البقرة: 29] قال: فصعدنا إليه، فقال: هل لكم في خبز فطير، ولبن هجير؟ فقلنا: الساعة فارقناه، فقال: سلاماً، فلم ندر ما قال، فقال الأعرابي: إنه سالمكم متاركة لا خير فيها ولا شر. قال الخليل: هو من قول الله **﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾** والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً، البيوتة: هي أن يدرك الليل نمت أو لم تتم. قال الزجاج: من أدركه الليل، فقد بات، نام أو لم ينام، كما يقال: بات فلان قلقاً، والمعنى يبيتون لربهم سجداً على وجوههم، وقياماً على أقدامهم، ومنه قول امرئ القيس:

فبتنا قياماً عند راس جواننا يزولنا عن نفسه ونزاوله
﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ أي: هم مع طاعتهم مشفقون وجلون خائفون من عذابها، والغرام اللازم الدائم، ومنه سمي الغريم لملازمته، ويقال: فلان مغرم بكذا أي: ملازم له موالع به، هذا معناه في كلام العرب، كما نكره ابن الأعرابي، وابن عرفة، وغيرهما، ومنه قول الأعشى:

إن يعاقب يكن غراماً وإن يعط جزيلاً فإنه لا يبالي
وقال الزجاج: الغرام أشد العذاب. وقال أبو عبيدة: هو الهلاك. وقال ابن زيد: الشر، وجملة **﴿إِنَّهَا سَاعَتٌ مُّسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾** تعليل لما قبلها، والمخصوص محذوف: أي: هي، وانتصاب مستقراً على الحال، أو التمييز، وكذا مقام، قيل: هما مترادفان، وإنما عطف أحدهما على الآخر لاختلاف لفظيهما، وقيل: بل هما مختلفان معنى: فالمستقر للعصاة،

جزائه. وقرأ الحسن (يلق أياً ما) جمع يوم يعني: شدايد، والعرب تعبر عن ذلك بالأيام، وما أظن هذه القراءة تصح عنه **﴿يضاعف له العذاب﴾** قرأ نافع، وابن عامر، وحمزة، والكسائي (يضاعف ويخلد) بالجزم، وقرأ ابن كثير (يضعف) بتشديد العين، وطرح الألف، والجزم، وقرأ طلحة بن سليمان (تضعف) بضم النون، وكسر العين المشددة، والجزم، وهي: قراءة أبي جعفر، وشيبة. وقرأ عاصم في رواية أبي بكر بالرفع في الفعلين على الإستئناف. وقرأ طلحة بن سليمان (وتخلد) بالفوقية خطاباً للكافر. وروي عن أبي عمرو أنه قرأ (ويخلد) بضم الياء التحتية، وفتح اللام. قال أبو علي الفارسي: وهي غلط من جهة الرواية، ووجه الجزم في يضاعف: أنه بدل من يلقي لاتحادهما في المعنى، ومثله قول الشاعر:

إِنْ عَلِيَ اللَّهُ أَنْ تَبَايَعَا تُوْخَذَرُكُهَا أَوْ تَجِيءَ طَائِعَا
والضمير في قوله **﴿ويخلد فيه﴾** راجع إلى العذاب المضاعف أي: يخلد في العذاب المضاعف **﴿مهاناً﴾** نليلاً حقيراً **﴿إلا من تاب وأمن وعمل عملاً صالحاً﴾** قيل: هو استثناء متصل، وقيل: منقطع. قال أبو حيان: لا يظهر الإتصال؛ لأن المستثنى منه محكوم عليه بأنه يضاعف له العذاب، فيصير التقدير: **﴿إلا من تاب، وأمن، وعمل عملاً صالحاً، فلا يضاعف له العذاب، ولا يلزم من انتفاء التضعيف انتفاء العذاب غير المضعف﴾** قال: والأولى عندي: أن تكون منقطعاً أي: لكن من تاب. قال القرطبي: لا خلاف بين العلماء أن الاستثناء عام في الكافر والزاني. واختلفوا في القاتل من المسلمين. وقد تقدم بيانه في النساء والمائدة، والإشارة بقوله **﴿فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات﴾** إلى المكورين سابقاً، ومعنى: تبديل السيئات حسنات: أنه يحو عنهم المعاصي، ويثبت لهم مكانها طاعات. قال النحاس: من أحسن ما قيل في ذلك: أنه يكتب موضع كافر مؤمن، وموضع عاص مطيع. قال الحسن: قوم يقولون التبديل في الآخرة، وليس كذلك إنما التبديل في الدنيا يبدل الله لهم إيماناً مكان الشرك، وإخلاصاً من الشك، وإحساناً من الفجور. قال الزجاج: ليس يجعل مكان السيئة الحسنة، ولكن يجعل مكان السيئة التوبة، والحسنة مع التوبة. وقيل: إن السيئات تبدل بحسنات، وبه قال جماعة من الصحابة، ومن بعدهم. وقيل: التبديل عبارة عن الغفران أي: يغفر الله لهم تلك السيئات، لا أن يبدلها حسنات. وقيل: المراد بالتبديل: أن يوفقه لأضداد ما سلف منه **﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾** هذه الجملة مقررة لما قبلها من التبديل **﴿ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً﴾** أي: من تاب عما اقترف، وعمل عملاً صالحاً بعد ذلك، فإنه يتوب بذلك إلى الله متاباً أي: يرجع إليه رجوعاً صحيحاً قوياً. قال الفقهاء: يحتمل أن تكون الآية الأولى فيمن تاب من المشركين. ولهذا قال **﴿إلا من تاب وأمن﴾**، ثم عطف عليه من تاب من المسلمين، واتباع توبته عملاً صالحاً، فله حكم التائبين أيضاً. وقيل: أي:

وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً يقول: من فاته شيء من الليل أن يعمل أدركه بالنهار، ومن النهار أدركه بالليل. وأخرج الطيالسي، وابن أبي حاتم، عن الحسن: أن عمر أطل صلاة الضحى، فقيل له: صنعت اليوم شيئاً لم تكن تصنعه، فقال: إنه بقي علي من وردي شيء، فأحببت أن أتمه، أو قال: أقضيه، وتلا هذه الآية **﴿وهو الذي جعل الليل والنهار خلفاً﴾** الآية. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله **﴿ووعباد الرحمن﴾** قال: هم: المؤمنون **﴿الذين يمشون على الأرض هوناً﴾** قال: بالطاعة، والعفاف، والتواضع. وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال **﴿هوناً﴾** علماً وحلماً. وأخرج عبد بن حميد عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ في قوله **﴿إن عذابها كان غراماً﴾** قال: الدائم. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله **﴿الذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا﴾** قال: هم المؤمنون لا يسرفون فينفقوا في معصية الله، ولا يقترون فيمنعوا حقوق الله.

وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۖ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ۖ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۖ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ۖ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَرُونَ أَرْؤُسَهُمْ وَلَا يَقُولُوا مُرًا حَرَامًا ۖ وَالَّذِينَ إِذَا دُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ۖ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَدْرَاجِنَا ذُرِّيَّتَيْنَا فَسَرَّ أَعْيُنُ وَاجْعَلْ لَنَا لِقَائِكَ إِحْسَانًا أَوْ تُهْلِكَ ۖ يَمْزِنَ اللَّهُ أَنْفُسَهُمْ يَمْزِنُ لَهُمْ صَرًّا وَظُهُورًا ۖ فِيهَا نَبَيَّةٌ وَسَلَامًا ۖ حَكِيمَةً فِيهَا فَسَنَةٌ مُسْتَفْهِمَةٌ وَفُتَاهَا ۖ قُلْ مَا يَسْبُوَنَّكُمْ رَوْحًا وَلَا دُكْرًا ۖ فَدَعَاكُمْ فَعَدَّ كَذِبًا ۖ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَكَاةٍ ۖ

قوله **﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر﴾** لما فرغ من نكر إتيانهم بالطاعات شرع في بيان اجتنابهم للمعاصي، فقال: والذي لا يدعون مع الله سبحانه رباً من الأرباب. والمعنى: لا يشركون به شيئاً، بل يوحّدونه، ويخلصون له العبادة والدعوة **﴿ولا يقتلون النفس التي حرم الله﴾** أي: حرم قتلها **﴿إلا بالحق﴾** أي: يحق أن تقتل به النفوس من كفر بعد إيمان، أو زنا بعد إحسان، أو قتل نفس بغير نفس **﴿ولا يزنون﴾** أي: يستحلون الفروج المحرمة بغير نكاح، ولا ملك يمين **﴿ومن يفعل ذلك﴾** أي: شيئاً مما نكر **﴿يلق﴾** في الآخرة **﴿أثاماً﴾**، والأثام في كلام العرب: العقاب. قال الفراء: أثمه الله يؤثمه أثاماً، وأثاماً أي: جزاءه جزاء الإثم. وقال عكرمة، ومجاهد: إن أثاماً وإد في جهنم جعله الله عقاباً للكفرة. وقال السدي: جبل فيها. وقرئ (يلق) بضم الياء، وتشديد القاف. قال أبو مسلم: والأثام والإثم واحد، والمراد هنا جزاء الأثام، فأطلق اسم الشيء على

عينك أي: صانف فؤادك ما يحبه، وقال المفضل: في قرّة العين ثلاثة أقوال: أحدهما برد دمعها، لأنه دليل السرور والضحك، كما أن حرّه دليل الحزن والغم. والثاني نومها، لأنه يكون مع فراغ الخاطر، وذهاب الحزن، والثالث حصول الرضا **﴿ولجعلنا للمتقين إماماً﴾** أي: قدوة يقتدى بنا في الخير، وإنما قال: إماماً، ولم يقل: أئمة، لأنه أريد به الجنس كقوله: **﴿ثم نخرجكم طفلاً﴾** [الحج: 5] قال الفراء: قال: إماماً، ولم يقل أئمة؛ كما قال للإثنين **﴿إنا رسول رب العالمين﴾** [الشعراء: 16] يعني: أنه من الواحد الذي أريد به الجمع. وقال الأخفش: الإمام جمع أم من أم يأم، جمع علي فعال، نحو صاحب وصحاب، وقائم وقيام. وقيل: إن إماماً مصدر، يقال: أم فلان فلاناً إماماً، مثل الصيام والقيام. وقيل: أرادوا جعل كل واحد منا إماماً، وقيل: أرادوا جعلنا إماماً واحداً لاتحاد كلمتنا، وقيل: إنه من الكلام المقلوب، وأن المعنى: ولجعل المتقين لنا إماماً، وبه قال مجاهد. وقيل: إن هذا الدعاء صادر عنهم بطريق الإنفراد، وأن عبارة كل واحد منهم عند الدعاء: واجعلني للمتقين إماماً، ولكنها حكيت عبارات الكل بصيغة المتكلم مع الغير لقصد الإيجاز كقوله: **﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً﴾** [المؤمنون: 51]، وفي هذا إبقاء إماماً على حاله، ومثل ما في الآية قول الشاعر:

يا عاذلاتي لا تزيني ملامتي إن العوائل ليس لي بأمين
أي: أمانة. قال القفال: وعندي أن الإمام إذا ذهب به مذهب الاسم وحده كأنه قيل: جعلنا حجة للمتقين، ومثله البينة: يقال: هؤلاء بينة فلان. قال النيسابوري: قيل: في الآية دلالة على أن الرياسة الدينية مما يجب أن تطلب، ويرغب فيها، والأقرب: أنهم سألوا الله أن يبلغهم في الطاعة المبلغ الذي يشار إليهم، ويقتدى بهم، والإشارة بقوله **﴿ولئك يجزون الغرفة بما صبروا﴾** إلى المتصفيين بتلك الصفات، وهو مبتدأ وخبره ما بعده، والجمل مستأنفة. وقيل: إن «ولئك» وما بعده خبر لقوله: **﴿وعباد الرحمن﴾** [الفرقان: 63] كذا قال الزجاج، والغرفة: الدرجة الرفيعة، وهي أعلى منازل الجنة وأفضلها، وهي في الأصل لكل بناء مرتفع، والجمع غرف. وقال الضحاك: الغرفة الجنة، والباء في **﴿بما صبروا﴾** سببية، وما مصدرية أي: يجزون الغرفة بسبب صبرهم على مشاق التكليف **﴿ويلقون فيها تحية وسلاماً﴾** قرأ أبو بكر، والمفضل، والأعمش، ويحيى بن وثاب، وحمزة، والكسائي، وخلف (يلقون) بفتح الياء، وسكون اللام، وتخفيف القاف، واختار هذه القراءة الفراء، قال: لأن العرب تقول: فلان يلقي بالسلام، والتحية، والخير وقل ما يقولون: يلقي. وقرأ الباقون بضم الياء وفتح اللام، وتشديد القاف، واختار هذه القراءة أبو عبيد، وأبو حاتم لقوله: **﴿ولقاهم نضرة وسروراً﴾** [الإنسان: 11]، والمعنى: أنه يحيي بعضهم بعضاً، ويرسل إليهم الرب سبحانه بالسلام، قيل: التحية البقاء الدائم، والملك العظيم، وقيل: هي

من تاب بلسانه، ولم يحقق التوبة بفعله، فليست تلك التوبة نافعة، بل من تاب وعمل صالحاً، فحقق توبته بالأعمال الصالحة، فهو الذي تاب إلى الله متاباً أي: تاب حق التوبة، وهي النصوح، ولذلك أكد بالمصدر، ومعنى الآية: من أراد التوبة، وعزم عليها، فليتب إلى الله، فالخبر في معنى الأمر كذا قيل لئلا يتحد الشرط والجزاء، فإنه لا يقال: من تاب، فإنه يتوب، ثم وصف سبحانه هؤلاء التائبين العاملين للصالحات، فقال **﴿والذين لا يشهدون الزور﴾** أي: لا يشهدون الشهادة الكاذبة، أو لا يحضرون الزور، والزور: هو الكذب والباطل، ولا يشاهدونه، وإلى الثاني ذهب جمهور المفسرين. قال الزجاج: الزور في اللغة الكذب، ولا كذب فوق الشرك بالله. قال الواحدي: أكثر المفسرين على أن الزور هنا بمعنى الشرك. والحاصل أن يشهدون إن كان من الشهادة ففي الكلام مضاف محذوف أي: لا يشهدون شهادة الزور، وإن كان من الشهود والحضور، كما ذهب إليه الجمهور، فقد اختلفوا في معناه، فقال قتادة: لا يساعدون أهل الباطل على باطلهم، وقال محمد ابن الحنفية لا يحضرون اللهو والغناء، وقال ابن جريج: الكذب. وروي عن مجاهد أيضاً والأولى عدم التخصيص بنوع من أنواع الزور، بل المراد الذين لا يحضرون ما يصدق عليه اسم الزور كائن ما كان **﴿وإذا مروا باللغو مروا كراماً﴾** أي: معرضين عنه غير ملتفتين إليه، واللغو كل ساقط من قول أو فعل. قال الحسن: اللغو المعاصي كلها، وقيل: المراد مروا بنوي للغو، يقال: فلان يكرم عما يشينه أي: يتنزهه، ويكرم نفسه عن الدخول في اللغو، والاختلاط بأمله **﴿والذين إذا نكروا بإيات ربهم﴾** أي: بالقرآن، أو بما فيه موعظة وعبرة **﴿لم يخروا عليها صماً وعمياناً﴾** أي: لم يقعوا عليها حال كونهم صماً وعمياناً، ولكنهم اكبوا عليها سامعين مبصرين، وانتفعوا بها. قال ابن قتيبة: المعنى: لم يتغافلوا عنها، كأنهم صم لم يسمعوها، وعمي لم يبصروها. قال ابن جرير: ليس ثم خور، بل كما يقال: قعد يبكي، وإن كان غير قاعد. قال ابن عطية: كان المستمع للذكر قائم، فإذا أعرض عنه كان ذلك خوراً، وهو السقوط على غير نظام. قيل: المعنى: إذا تليت عليهم آيات الله وجلت قلوبهم، فخروا سجداً وبكياً، ولم يخروا عليها صماً وعمياناً. قال الفراء: أي: لم يقعوا على حالهم الأول كأن لم يسمعوها. قال في الكشف: ليس بنفي للخور، وإنما هو إثبات له، ونفي للصمم والعمى، وأراد أن النفي متوجه إلى القيد لا إلى المقيد **﴿والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا ونزرياتنا قرّة أعين﴾** من ابتدائية، أو بيانية. قرأ نافع، وابن كثير، وابن عباس، والحسن (ونزياتنا) بالجمع، وقرأ أبو عمرو وحمزة، والكسائي، وطلحة، وعيسى (ونزيتنا) بالإنفراد، والنزية تقع على الجمع، كما في قوله: **﴿نزية ضعافاً﴾** [النساء: 9]، وتقع على الفرد كما في قوله: **﴿نزية طيبة﴾** [آل عمران: 38]، وانتصاب قرّة أعين على المفعولية، يقال: قرّت عينه قرّة. قال الزجاج: يقال: أقر الله

بعضكم ببعض، كقول أبي نؤيب:

فما جاء به عابية لزأما كما يتفجر الحوض اللفيف
يعني: بالزأما الذي يتبع بعضه بعضاً، وباللفيف
المتساقط من الحجارة المنهدمة. وحكى أبو حاتم عن أبي
زيد قال: سمعت أبا السمك يقرأ (لزأماً) بفتح اللام. قال أبو
جعفر: يكون مصدر لزأ، والكسر أولى.

وقد أخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن ابن مسعود
قال: سئل رسول الله ﷺ: أي الذنب أكبر؟ قال: «أن تجعل الله
نداً، وهو خلقك. قلت: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن
يطعم معك، قلت: ثم أي؟ قال: «أن تزاني حيلة جارك، فأنزل
الله تصديق ذلك ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلَا
يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾». وأخرج،
وغيرهما أيضاً عن ابن عباس: أن ناساً من أهل
الشرك قد قتلوا فاكثروا، وزنوا فاكثروا، ثم أتوا محمداً ﷺ،
فقالوا: إن الذي تقول، وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما
عملنا كفارة، فنزلت ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ﴾ الآية، ونزلت
﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ [الزمر: 53]
الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن
عبد الله بن عمرو في قوله ﴿يَلْقَ أَثَاماً﴾ قال: وأو في
جهنم. وأخرج ابن مريويه عن ابن عباس قال: لما نزلت
﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ﴾ الآية اشتد ذلك على
المسلمين، فقالوا: ما منا أحد إلا أشرك، وقتل، وزنى، فأنزل
الله ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ الآية، يقول
لهؤلاء الذين أصابوا هذا في الشرك، ثم نزلت هذه الآية ﴿إِلَّا
مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُولَئِكَ يَبْدُلُ اللَّهُ
سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾، فأبيلهم الله بالكفر الإسلام، وبالعصية
الطاعة، وبالإتكار المعرفة، وبالجهالة العلم. وأخرج ابن
المنذر، والطبراني، وابن مريويه عن ابن عباس قال: قرأناها
على عهد رسول الله ﷺ سنين ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ
إِلَهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا
يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً﴾، ثم نزلت ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ
وَأَمَنَ﴾، فما رأيت رسول الله ﷺ فرح بشيء قط فرحه بها،
وفرحه بـ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً﴾ [الفتح: 1]، وأخرج ابن
جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله ﴿فَأُولَئِكَ
يَبْدُلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ قال: هم المؤمنون كانوا من
قبل إيمانهم على السيئات، فرغب الله بهم عن ذلك، فحولهم
إلى الحسنات، فأبيلهم مكان السيئات الحسنات. وأخرج
أحمد، وهناد، والترمذي، وابن جرير، والبيهقي في الأسماء
والصفات عن أبي نؤيب قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى
بالرجل يوم القيامة، فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه،
فيعرض عليه صغارها، وينحى عنه كبارها، فيقال: عملت
يوم كذا كذا، وهو يقر، ليس ينكر، وهو مشفق من الكيثر أن
تجيء، فيقال: أعطوه بكل سيئة عملها حسنة»، والأحاديث
في تكفير السيئات، وتبديلها بالحسنات كثيرة. وأخرج ابن
مريويه عن ابن عباس في قوله ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَوْنَ

بمعنى السلام، وقيل: إن الملائكة تحييهم وتسلم عليهم،
والظاهر: أن هذه التحية والسلام هي من الله سبحانه لهم،
ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾
[الأحزاب: 44]، وقيل: معنى التحية: الدعاء لهم بطول الحياة.
ومعنى السلام: الدعاء لهم بالسلامة من الآفات، وانتصاب
﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ على الحال أي: مقيمين فيها من غير موت
﴿حَسَنَتٌ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ أي: حسنت الغرفة مستقراً
يستقرون فيه، ومقاماً يقيمون به، وهذا في مقابل ما تقدم
من قوله ﴿سَاعَتٌ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: 66] ﴿قُلْ مَا
يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دَعَاؤُكُمْ﴾ بين سبحانه أنه غني عن
طاعة الكل، وإنما كلهم لينتفعوا بالتكليف، يقال: ما عبات
بفلان: أي: ما باليت به، ولا له عندي قدر، وأصل يعبا من
العبء، وهو الثقل. قال الخليل: ما أعبا بفلان أي: ما أصنع
به كأنه يستقله ويستحقه، ويدعي أن وجوده وعلمه سواء،
وكذا قال أبو عبيدة. قال الزجاج: ﴿مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي﴾ يريد:
أي وزن يكون لكم عنده. والعبء: الثقل، وما استفهامية، أو
نافية، وصرح الفراء: بأنها استفهامية. قال ابن السجري:
وحقيقة القول عندي: أن موضع «ما» نصب، والتقدير: أي
عبء يعبا بكم أي: أي مبالاة يبالي بكم ﴿لَوْلَا دَعَاؤُكُمْ﴾:
أي: لولا دعاؤكم ليأه، لتعبوه، وعلى هذا، فالمصدر الذي هو
الدعاء مضاف إلى مفعوله، وهو اختيار الفراء، وفاعله
محذوف، وجواب لولا محذوف: تقديره لولا دعاؤكم لم يعبا
بكم، ويؤيد هذا قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا
لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56]، والخطاب لجميع الناس، ثم خص
الكفار منهم، فقال ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾. وقرأ ابن الزبير (فقد كذب
الكافرون)، وفي هذه القراءة دليل بين على أن الخطاب
لجميع الناس. وقيل: إن المصدر مضاف إلى الفاعل أي: لولا
استغاثتكم إليهم في الشدائد. وقيل: المعنى: ما يعبا بكم أي:
بمغفرة ذنوبكم لولا دعاؤكم الألهة معه. وحكى ابن جني: أن
ابن عباس قرأ كقراءة ابن الزبير. وحكى الزمهراري،
والنحاس: أن ابن مسعود قرأ كقراءتهما، وممن قال: بأن
الدعاء مضاف إلى الفاعل القتيبي، والفارسي قال: والأصل
لولا دعاؤكم آلهة من دونه، وجواب لولا محذوف تقديره على
هذا الوجه: لولا دعاؤكم لم يعذبكم، ويكون معنى ﴿فَقَدْ
كَذَّبْتُمْ﴾ على الوجه الأول: فقد كذبتم بما دعيتم إليه، وعلى
الوجه الثاني: فقد كذبتم بالتوحيد. ثم قال سبحانه ﴿فَسَوْفَ
يَكُونُ لَكُمْ أَعْتَابٌ﴾ أي: فسوف يكون جزاء التكنيب لازماً لكم،
وجمهور المفسرين على أن المراد باللزأ هنا: ما لزم
المشركين يوم بدر، وقالت طائفة: هو عذاب الآخرة. قال أبو
عبيدة: لزأماً فيصلاً أي: فسوف يكون فيصلاً بينكم وبين
المؤمنين. قال الزجاج: فسوف يكون تكذيبكم لزأماً يلزمكم،
فلا تعطون التوبة، وجمهور القراء على كسر اللام من لزأماً،
وأنشد أبو عبيدة لصخر:

فلما ينجو من خسف أرض
قال ابن جرير لزأماً: عذاباً دائماً، وهلاكاً مغبناً يلحق

بأليمين من ذكر من الرمنى حسدوا إلا كانوا عنه مبرزين ﴿١٠﴾ فقد كذبوا فسأليهم
أنبؤا ما كانوا يدعون يستهزئون ﴿١١﴾ أولم يروا إلى الأرض كزأبنا فيها من كل فج
كبر ﴿١٢﴾ إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ﴿١٣﴾ وإن ربك لهو العزيز
الرحيم ﴿١٤﴾ ولما نادى ربك موسى أن اتى القوم الظالمين ﴿١٥﴾ قوم فرعون ألا
يتقون ﴿١٦﴾ قال رب إنى أخاف أن يكذبون ﴿١٧﴾ ويحيى صدى ولا يطأ
لسانى فأرسل إلى هرون ﴿١٨﴾ ولستم على دئب فأتوا أن يقتلون ﴿١٩﴾ قال كلاً
فأخبرنا وبأيتنا إنا معكم مستمعون ﴿٢٠﴾ فأبى فرعون فقولا إنا رسول رب
الغالبين ﴿٢١﴾ أن أرسل منا بى إسرائيل ﴿٢٢﴾ قال أترى ربك فى وليدا وكنت
فىنا من شركه سجيناً ﴿٢٣﴾ فقلت فقلت ألى فقلت رأيت من الكافرين
﴿٢٤﴾ قال فلنأى إذا رأنا من الضالين ﴿٢٥﴾ ففرت منكم لنا خفتكم فوهب لى ربى
حكماً وجملى من المرسلين ﴿٢٦﴾ ولما بقىة تنها على أن عبث بى إسرائيل ﴿٢٧﴾

قوله ﴿طسم﴾ قرأ الاعمش، ويحيى بن وثاب، وأبو بكر،
والمفضل، وحزمة، والكسائي، وخلف بإمالة الطاء، وقرأ نافع،
وأبو جعفر، وشيبة، والزهرى بين اللفظين، واختار هذه
القراءة أبو عبيد، وأبو حاتم، وقرأ الباقر بالفتح مشبعا.
وقرأ المنبذين، وأبو عمرو، وعاصم، والكسائي بإدغام النون
من «طسن» في الميم، وقرأ الاعمش، وحزمة بإظهارها، قال
الثعلبي: الإدغام اختار أبو عبيد، وأبو حاتم. قال النحاس:
وحكى الزجاج في كتابه فيما يجري وما لا يجري: أنه يجوز
أن يقال: (طاسين ميم) بفتح النون، وضم الميم كما يقال:
هذا معدى كرب. وقرأ عيسى، ويروى عن نافع بكسر الميم
على البناء. وفي مصحف عبد الله بن مسعود (ط س م)
هكذا حروفاً مقطعة، فيوقف على كل حرف وقفة يتميز بها
عن غيره، وكذلك قرأ أبو جعفر، ومحلها الرفع على الابتداء
إن كان اسماً للسورة كما ذهب إليه الأكثر، أو على أنه خبر
مبتدأ محذوف، ويجوز أن يكون في محل نصب بتقدير:
انكر، أو اقرأ. وأما إذا كان مسروداً على نمط التعديد كما
تقدم في غير موضع من هذا التفسير، فلا محل له من
الإعراب. وقد قيل: إنه اسم من أسماء الله سبحانه، وقيل:
اسم من أسماء القرآن، والإشارة بقوله ﴿تلك آيات الكتاب
المبين﴾ إلى السورة، ومحلها الرفع على أنها وما بعدها
خبر للمبتدأ إن جعلنا طسم مبتدأ، وإن جعلناه خبراً لمبتدأ
محذوف، فمحلها الرفع على أنه مبتدأ خبره ما بعده، أو خبر
مبتدأ محذوف، أو بدل من طسم، والمراد بالكتاب هنا: القرآن،
والمبين المبين المظهر، أو البين الظاهر إن كان من أبان
بمعنى بان ﴿لعلك باخع نفسك﴾ أي: قاتل نفسك ومهلكها
﴿الآ يكونوا مؤمنين﴾ أي: لعدم إيمانهم بما جئت به
والبخع في الأصل: أن يبلغ بالبنح للتخاع بالنون قلموس،
وهو عرق في القفا، وقد مضى تحقيق هذا في سورة
الكهف، وقرأ قتادة (باخع نفسك) بالإضافة، وقرأ الباقر
بالقطع قال: الفراء أن في قوله ﴿الآ يكونوا مؤمنين﴾ في
موضع نصب: لأنها جزء قال النحاس: وإنما يقال: إن
مكسورة لأنها جزء هكذا التعارف، والقول في هذا ما قاله

للزور ﴿١﴾ قال: إن الزور كان صنماً بالمدينة يلعبون حوله كل
سبعة أيام، وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا مزوا به مزوا
كراماً لا ينظرون إليه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن
أبي حاتم عن ابن عباس ﴿والذين يقولون ربنا هب لنا من
أزواجنا ونذرنا قرّة أعين﴾ قال: يعنون: من يعمل
بالطاعة، فتقر به أعيننا في الدنيا، والآخرة ﴿ولجعلنا
للمتقين إماماً﴾ قال: أئمة هدى يهتدى بنا، ولا تجعلنا أئمة
ضلالة، لأنه قال لاهل السعادة: ﴿ولجعلناهم أئمة يهدون
بأمرنا﴾ [الأنبياء: 73]، ولاهل الشقاوة ﴿ولجعلناهم أئمة
يدعون إلى النار﴾ [القصاص: 41]. وأخرج الحكيم الترمذي
عن سهل بن سعد، عن النبي ﷺ في قوله ﴿أولئك
يجزون للغرفة﴾ قال: الغرفة من ياقوتة حمراء، أو زبرجدة
خضراء، أو درة بيضاء. ليس فيها فصم ولا وسم. وأخرج
ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في
قوله ﴿قل ما يعيا بكم ربي لولا دعاؤكم﴾ يقول: لولا
إيمانكم، فأخبر الله أنه لا حاجة له بهم إذ لم يخلقهم
مؤمنين، ولو كانت له بهم حاجة لحبب إليهم الإيمان كما
حببه إلى المؤمنين ﴿فسوف يكون لزاماً﴾ قال: موتاً.
وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن
الانباري عنه: أنه كان يقرأ ﴿فقد كذب الكافرون فسوف
يكون لزاماً﴾ وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي
حاتم، عن ابن الزبير أنه قرأها كذلك. وأخرج عبد بن حميد،
وابن جرير، وابن مرويّه ﴿فسوف يكون لزاماً﴾ قال: القتل
يوم بدر، وفي الصحيحين عنه قال: «خمس قد مضين:
الدخان، والقمر، والزلزوم، والبطشة، والزام».

تفسير سورة الشعراء

وهي مكية عند الجمهور. وكذا أخرج ابن مرويّه عن ابن
عباس، وابن الزبير. وأخرج النحاس عن ابن عباس قال:
سورة الشعراء أنزلت بمكة سوى خمس آيات من آخرها
نزلت بالمدينة، وهي: ﴿والشعراء يتبعهم الغاؤون﴾
[الشعراء: 224] إلى آخرها. وأخرج القرطبي في تفسيره عن
البراء: أن النبي ﷺ قال: «إن الله أعطانى السبع الطوال مكان
التوراة، وأعطانى المثني مكان الإنجيل، وأعطانى الطواسين
مكان الزبور، وفضلني بالحواميم، والمفصل ما قرأه نبي
قبلي». وأخرج أيضاً عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ:
«أعطيت السورة التي تنكر فيها البقرة من الذكر الأول،
وأعطيت فواتح القرآن، وخواتيم سورة البقرة من تحت
العرش، وأعطيت المفصل ثلثة». قال ابن كثير في تفسيره:
وقع في تفسير مالك المروي عنه تسميتها بسورة الجمعة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طسم ﴿١﴾ تلك آيات الكتاب المبين ﴿٢﴾ لعلك باخع نفسك ألا يكرؤا
مؤمنين ﴿٣﴾ إنكنا نزلنا عليهم من آياتنا ما لم يظنوا أنهم لعلهم ﴿٤﴾ وما

هذا وعيد شديد، وقد مر تفسير مثل هذا في سورة الأنعام. ثم نكر سبحانه ما يدل على كمال قدرته من الأمور الحسية التي يحصل بها للمتأمل فيها، والتأمل إليها، والمستدل بها أعظم دليل، وأوضح برهان، فقال ﴿أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم﴾ الهمة للتوبيخ، والوإاء للعطف على مقدر كما في نظائره، فنَبَّه سبحانه على عظمته وقدرته، وأن هؤلاء المكذبين المستهزئين لو نظروا حق النظر لعلموا أنه سبحانه الذي يستحق أن يعبد، والمراد بالزوج هنا الصنف، وقال الفراء: هو اللون، وقال الزجاج: معنى زوج نوع، وكريم، محمود، والمعنى: من كل زوج نافع لا يقدر على إنباته إلا رب العالمين، والكريم في الأصل: الحسن الشريف، يقال: نخلة كريمة: أي كثيرة الثمرة، ورجل كريم: شريف فاضل، وكتاب كريم: إذا كان مرضياً في معانيه، والنبات الكريم هو المرضي منافعه، قال الشعبي: الناس مثل نبات الأرض، فمن صار منهم إلى الجنة، فهو كريم، ومن صار منهم إلى النار، فهو لثيم، والإشارة بقوله ﴿إن في تلك لآية﴾ إلى المنكور قبله أي: إن فيما نكر من الإنبات في الأرض لدلالة بينة، وعلامة واضحة على كمال قدرة الله سبحانه، وبيع صنعة، ثم أخبر سبحانه: بأن أكثر هؤلاء مستمرّ على ضلالته مصمم على جحوده، وتكذيبه، واستهزائه، فقال ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ أي: سبق علمي فيهم أنهم سيكونون هكذا، وقال سيبويه: إن «كان» هنا صلة ﴿وإن ربك لهُوَ العزيز الرحيم﴾ أي: الغالب القاهر لهؤلاء بالانتقام منهم مع كونه كثير الرحمة، ولذلك أمهلهم، ولم يعاجلهم بالعقوبة، أو المعنى: أنه منتقم من أعدائه رحيم بأوليائه. وجملة ﴿وإذ نادى ربك موسى﴾ إلخ، مستأنفة مسوقة لتقرير ما قبلها من الإعراض، والتكذيب، والاستهزاء، والعامل في الظرف محذوف تقديره: وأتت إذ نادى، أو انكر، والنداء: الدعاء، و «أن» في قوله ﴿إن أتت القوم الظالمين﴾ يجوز أن تكون مفسرة، وأن تكون مصدرية، ووصفهم بالظلم: لأنهم جمعوا بين الكفر الذي ظلموا به أنفسهم، وبين المعاصي التي ظلموا بها غيرهم كاستعباد بني إسرائيل، ونهب أبنائهم، وانتصاب ﴿قوم فرعون﴾ على أنه بدل، أو عطف بيان من القوم الظالمين، ومعنى ﴿اللاتقون﴾: ألا يخافون عقاب الله سبحانه، فيصرفون عن أنفسهم عقوبة الله بطاعته، وقيل المعنى: قل لهم: ألا تتقون، وجاء بالياء التحية: لأنهم غيب وقت الخطاب، وقرأ عبيد بن عمير، وأبو حازم (ألا تتقون) بالفوقية: أي: قل لهم ذلك، ومثله ﴿قل للملئتين كفروا ستغلبون﴾ [آل عمران: 12] بالتحية والفوقية، ﴿قال رب إني أخاف أن يكتنبن﴾ أي: قال موسى هذه المقالة، والمعنى: أخاف أن يكتنبن في الرسالة ﴿ويضيق صدري ولا ينطق لساني﴾ معطوفان على أخاف أي: يضيق صدري لتكنيهم إياي، ولا ينطق لساني بتأنيء الرسالة، قرأ الجمهور برفع ﴿يضيق﴾، (ولا ينطق) بالعطف على أخاف

الزجاج في كتابه في القرآن إنها في موضع نصب مفعول لأجله، والمعنى: لعلك قاتل نفسك لتركهم الإيمان، وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ؛ لأنه كان حريصاً على إيمان قومه شديد الأسف لما يراه من إعراضهم، وجملة ﴿إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما سبق من التسلية، والمعنى: إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية تلجئهم إلى الإيمان، ولكن قد سبق القضاء بأن لا ننزل ذلك، ومعنى ﴿فطلت أعناقهم لها خاضعين﴾: أنهم صاروا متقايين لها أي: فتطل أعناقهم إلخ، قيل: وأصله، فظلوا لها خاضعين، فاقحمت الأعناق لزيادة التقرير والتصوير، لأن الأعناق موضع الخضوع، وقيل: إنها لما وضعت الأعناق بصفات العقلاء لجريت مجراهم، ووصفت بما يوصفون به. قال عيسى بن عمر: خاضعين، وخاضعة هنا سواء، واختاره المبرد، والمعنى: أنها إذا نلت رقابهم نلوا، فالإخبار عن الرقاب إخبار عن أصحابها، ويسوغ في كلام العرب: أن يترك الخبر عن الأول، ويخبر عن الثاني، ومنه قول الراجز: طول الليالي أسرعت في نقضي طوين طولي وطوين عرضي فأخبر عن الليالي، وترك الطول، ومنه قول جرير:

أرى مَـ السنين أحنن مني كما أخذ السرار من الهلال
وقال أبو عبيد، والكسائي: إن المعنى: خاضعياً هم، وضعفه النحاس، وقال مجاهد: أعناقهم كبراًؤهم، قال النحاس: وهذا معروف في اللغة، يقال: جاءني عنق من الناس أي: رؤساء منهم. وقال أبو زيد، والأخفش: أعناقهم جماعاتهم، يقال: جاءني عنق من الناس أي: جماعة ﴿وما يأتينهم من نكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين﴾ بين سبحانه أنه مع اقتداره على أن يجعلهم ملجئين إلى الإيمان يأتينهم بالقرآن حالاً بعد حال، وأن لا يجد لهم موعظة وتذكيراً إلا جندوا ما هو نقيض المقصود، وهو الإعراض، والتكذيب، والاستهزاء، و «من» في ﴿من نكر﴾ مزيدة لتأكيد العموم، ومن في ﴿من ربهم﴾ لابتداء الغاية، والاستثناء مفرغ من أعمّ العامّ محله النصب على الحالية من مفعول يأتينهم، وقد تقدّم تفسير مثل هذه الآية في سورة الأنبياء ﴿فقد كتبوا﴾ أي: بالذكر الذي يأتينهم تكنيهاً صريحاً، ولم يكتفوا بمجرد الإعراض، وقيل: إن الإعراض بمعنى التكذيب، لأن من أعرض عن شيء ولم يقبله، فقد كُتِبَ، وعلى هذا، فيكون نكر التكذيب للدلالة على صدور ذلك منهم على وجه التصريح والأول أولى، فالإعراض عن الشيء عَمِ الالتفات إليه. ثم انتقلوا عن هذا إلى ما هو أشد منه، وهو التصريح بالتكذيب، ثم انتقلوا عن التكذيب إلى ما هو أشد منه، وهو الاستهزاء كما يدل عليه قوله ﴿فسياتينهم أنباء ما كانوا به يستهزئون﴾، والأنباء هي ما يستحقونه من العقوبة أجلاً وعاجلاً، وسميت أنباء لكونها مما أنبأ عنه القرآن، وقال ﴿ما كانوا به يستهزئون﴾، ولم يقل: ما كانوا عنه معرضين، أو ما كانوا به يكتنبن، لأن الاستهزاء أشد منهم، ومستلزم لهما، وفي

لتضمن الإرسال المفهوم من الرسول معنى القول **﴿قال ألم نريك فينا وليداً﴾** أي: قال فرعون لموسى بعد أن أتياه، وقال له ما أمرهما الله به، ومعنى «فينا»: أي: في حجرنا ومنازلنا، أراد بذلك المنّ عليه، والاحتقار له أي: ربيناك لدينا صغيراً، ولم نقتلك فيمن قتلنا من الأطفال **﴿ولبثت فينا من عمرك سنين﴾**، فمتى كان هذا الذي تدعيه؟ قيل: لبث فيهم ثماني عشرة سنة، وقيل: ثلاثين سنة، وقيل: أربعين سنة. ثم قرّر بقتل القبطي، فقال **﴿وفعلت فعلتك التي فعلت﴾** الفعلة بفتح الفاء: المَرّة من الفعل، وقرأ الشعبي (فعلتك) بكسر الفاء، والفتح أولى؛ لأنها للمرة الواحدة لا للنوع، والمعنى: أنه لما عدّد عليه النعم نكر له ذنوبه، وأراد بالفعل قتل القبطي، ثم قال **﴿وأنت من الكافرين﴾** أي: من الكافرين للنعمة حيث قتلت رجلاً من أصحابي، وقيل: المعنى: من الكافرين بأن فرعون إله، وقيل: من الكافرين بالله في زعمه؛ لأنه كان معهم على دينهم، والجملة في محل نصب على الحال **﴿قال فعلتها إذن وأنا من الضالين﴾** أي: قال موسى مجيباً لفرعون: فعلت هذه الفعلة التي نكرت، وهي قتل القبطي، وأنا إذ ذاك من الضالين أي: الجاهلين. فنفى عليه السلام عن نفسه الكفر، وأخبر أنه فعل ذلك على الجهل قبل أن يأتيه العلم الذي علمه الله، وقيل: المعنى: من الجاهلين أن تلك الوكزة تبلغ القتل، وقال أبو عبيدة: من الناسين **﴿ففررت منكم لما خفتكم﴾** أي: خرجت من بينكم إلى مدين كما في سورة القصص، **﴿فوهب لي ربي حكماً﴾** أي: نبوة، أو علماً وفهماً. وقال الزجاج: المراد بالحكم تعليمه التوراة التي فيها حكم الله **﴿وجعلني من المرسلين﴾** وتلك نعمة تمنها عليّ أن عبدت بني إسرائيل **﴿قيل: هذا الكلام من موسى على جهة الإقرار بالنعمة، كأنه قال: نعم تلك التربية نعمة تمنّ بها عليّ، ولكن لا يدفع ذلك رسالتي، وبهذا قال الفراء، وابن جرير. وقيل: هو من موسى على جهة الإنكار: أي: اتّمنّ عليّ بأن ربيتني وليداً، وأنت قد استعبدت بني إسرائيل وقتلتهم، وهم قومي؟ قال الزجاج: المفسرون أخرجوا هذا على جهة الإنكار: بأن يكون ما نكر فرعون نعمة على موسى، واللفظ لفظ خبر، وفيه تبيك للمخاطب على معنى: أنك لو كنت لا تقتل أبناء بني إسرائيل لكانت أُمي مستغنية عن ذنبي في اليوم، فكانك تمنّ عليّ ما كان بلاؤك سبباً له، ونكر نحوه الأزهري بأبسط منه، وقال المبرد: يقول التربية كانت بالسبب الذي نكرت من التعبد أي: تربيتك إياي كنت لأجل التملك، والقهر لقومي، وقيل: إن في الكلام تقدير الاستفهام أي: أو تلك نعمة؟ قاله الأخفش، وأنكره النحاس. قال الفراء: ومن قال: إن الكلام إنكار قال معناه: أو تلك نعمة؟ ومعنى **﴿أن عبدت بني إسرائيل﴾** أن اتخذتهم عبيداً، يقال: عبيته وأعبيته بمعنى، كذا قال الفراء، ومحلّه الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف بدل من نعمة، والجر بإضمار الباء، والنصب بحذفها.**

كما نكرنا، أو على الاستثناء، وقرأ يعقوب، وعيسى بن عمر، وأبو حيو بنصبهما عطفاً على يكتبون، قال الفراء: كلا القراءتين له وجه، قال النحاس الوجه: الرفع، لأن النصب عطف على يكتبون، وهذا بعيد **﴿فأرسل إلى هرون﴾** أي: أرسل إليه جبريل بالوحي؛ ليكون معي رسولاً موازراً مظاهراً معاوناً، ولم ينكر الموازنة هنا، لأنها معلومة من غير هذا الموضع كقوله في طه: **﴿واجعل لي وزيراً﴾** [طه: 29]، وفي القصص **﴿أرسله معي رداً يصنّفني﴾** [القصص: 34]. وهذا من موسى عليه السلام من باب طلب المعاونة له بإرسال أخيه، لا من باب الاستعفاء من الرسالة، ولا من التوقف عن المسارعة بالامتثال **﴿ولهم عليّ نيب فلخاف أن يقتلون﴾** الذنب هو قتله للقبطي، وسماه نيباً بحسب زعمهم: فخاف موسى أن يقتلوه به، وفيه دليل على أن الخوف قد يحصل مع الأنبياء فضلاً عن الفضلاء، ثم لجابه سبحانه بما يشتمل على نوع من الردع، وطرف من الزجر **﴿قال كلا فاذهباً بأياتنا﴾**، وفي ضمن هذا الجواب إجابة موسى إلى ما طلبه من ضم أخيه إليه كما يدلّ عليه توجيه الخطاب إليهما كأنه قال: ارتدع يا موسى عن ذلك، واذهب أنت ومن استدعيته، ولا تخف من القبط **﴿إننا معكم مستمعون﴾**، وفي هذا تعليل للردع عن الخوف، وهو كقوله سبحانه: **﴿إنني معكما أسمع وأرى﴾** [طه: 46]، وأراد بذلك سبحانه تقوية قلوبهما، وأنه متولّ لحفظهما، وكلاهما، وأجرامهما مجرى الجمع فقال: **﴿معكم﴾** لكن الاثنين أقلّ الجمع على ما ذهب إليه بعض الأئمة، أو لكونه أراد موسى وهرون ومن أرسلوا إليه، ويجوز أن يكون المراد هما مع بني إسرائيل، ومعكم، ومستمعون خبران، لأنّ أو الخبر مستمعون، ومعكم متعلق به، ولا يخفى ما في المعية من المجاز: لأن المصاحبة من صفات الأجسام، فالمراد معية النصره والمعونة **﴿فأتيا فرعون فقولا إننا رسول رب العالمين﴾** الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، ووجد الرسول هنا، ولم يثنه كما في قوله: **﴿إننا رسولا ربك﴾** [طه: 47]؛ لأنه مصدر بمعنى: رسالة، والمصدر يوحد، وأما إذا كان بمعنى المرسل، فإنه يثنى مع المثنى، ويجمع مع الجمع، قال أبو عبيدة: رسول بمعنى رسالة، والتقدير على هذا: إننا نوا رسالة ربّ العالمين، ومنه قول الشاعر:

ألا أبلغ لباعمرورسولا فإنني عن فتاحتكم غنى أي: رسالة. وقال العباس بن مرداس:

ألا من مبلغ عني خفافا رسولا بيت أهلك منتهاها

أي: رسالة. قال أبو عبيدة أيضاً، ويجوز أن يكون الرسول بمعنى الاثنين والجمع، تقول العرب: هذا رسولي ووَكيلي، وهذان: رسولي ووَكيلي، وهؤلاء: رسولي ووَكيلي، ومنه قوله تعالى: **﴿فإنهم عدو لي﴾** [الشعراء: 77]، وقيل معناه: إن كل واحد منا رسول رب العالمين، وقيل: إنهما لما كانا متعاضدين متساندين في الرسالة كانا بمنزلة رسول واحد، و «إن» في قوله **﴿أن أرسل معنا بني إسرائيل﴾** مفسرة

هي حية تسعى ﴿طه: 21﴾، وفي موضع بالجان، فقال: ﴿كانها جان﴾ [القصص: 31، النمل: 10]، والجان هو المائل إلى الصغر، والشعبان هو المائل إلى الكبر، والحية جنس يشمل الكبير والصغير، ومعنى ﴿فماذا تمارون﴾: ما رأيكم فيه، وما مشورتكم في مثله؟ فإظهار لهم الميل إلى ما يقولونه تألفاً لهم، واستجلاباً لمؤنتهم، لأنه قد أشرف ما كان فيه من دعوى الربوبية على الزوال، وقارب ما كان يفرز به عليهم الاضمحلال، وإلا، فهو اكبريتها، وأعظم كبراً من أن يخاطبهم مثل هذه المخاطبة المشعرة بأنه فرد من أفرادهم، وواحد منهم، مع كونه قبل هذا الوقت يدعى أنه إلههم، ويدعون له بذلك، ويصنقونه في دعواه، ومعنى ﴿أرجه ولخاه﴾: آخر أمرهما، من أرجائه إذا أخرته، وقيل: المعنى: احبسهما ﴿وابعث في المداخن حاشرين﴾، وهم الشرط الذين يحشرون الناس أي: يجمعونهم ﴿ياتوك بكل سحار عليم﴾ هذا ما أشاروا به عليه، والمراد بالسحار العليم: الفائق في معرفة السحر وصنعتة ﴿فجمع للسحرة لميقات يوم معلوم﴾ هو يوم الزينة كما في قوله: ﴿قال موعنكم يوم الزينة﴾ [طه: 59] ﴿وقيل للناس هل أنتم مجتمعون﴾ حثاً لهم على الاجتماع؛ ليشاهدوا ما يكون من موسى والسحرة، ولمن تكون الغلبة، وكان ذلك ثقة من فرعون بالظهور، وطلباً أن يكون بمجمع من الناس حتى لا يؤمن بموسى أحد منهم، فوقع ذلك من موسى الموقع الذي يريده، لأنه يعلم أن حجة الله هي الغلبة، وحجة الكافرين هي الداحضة، وفي ظهور حجة الله بمجمع من الناس زيادة في الاستظهار للمحققين، والانتقار للمبطلين، ومعنى ﴿لعلنا نتبع السحرة﴾: نتبعهم في دينهم ﴿إن كانوا هم الغالبين﴾، والمراد باتباع السحرة في دينهم هو البقاء على ما كانوا عليه، لأنه بين السحرة إذ ذاك، والمقصود المخالفة لما دعاهم إليه موسى، فعند ذلك طلب السحرة من فرعون الجزاء على ما سيفعلونه ف ﴿قالوا لفرعون لئن لنا لأجر﴾ أي: لجزاء تجزيها به من مال، أو جاه، وقيل: أرادوا إن لنا ثواباً عظيماً، ثم قيدوا ذلك بظهور غلبتهم لموسى، فقالوا ﴿إن كنا نحن الغالبين﴾، فوافقتهم فرعون على ذلك، و ﴿قال نعم وإنكم إذن لمن المقربين﴾ أي: نعم لكم ذلك عندي مع زيادة عليه، وهي كونكم من المقربين لدي ﴿قال لهم موسى القوا ما أنتم ملقون﴾، وفي آية أخرى ﴿قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما نكون نحن الملقين﴾ [الأعراف: 115]، فيحمل ما هنا على أنه قال لهم: القوا بعد أن قالوا هذا القول، ولم يكن ذلك من موسى عليه السلام أمراً لهم بفعل السحر، بل أراد أن يقرهم بالحجة، ويظهر لهم أن الذي جاء به ليس هو من الجنس الذي أرادوا معارضته به ﴿قالوا حبالبهم وعصيتهم وقالوا﴾ عند الإلقاء ﴿بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون﴾ يحتل قولهم بعزة فرعون، وجهين: الأول أنه قسم، وجوابه إنا نحن الغالبون، والثاني متعلق بمحنوف، والباء للسببية أي: تغلب بسبب عزته، والمراد بالعزة العظمة

﴿فالتقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يافكون﴾ قد تقدم تفسير هذا مستوفى. والمعنى: أنها تلقف ما صدر منهم من الإفك بإخراج الشيء عن صورته الحقيقية ﴿فالتقى السحرة ساجدين﴾ أي: لما شاهدوا ذلك، وعلموا أنه صنع صانع حكيم ليس من صنيع البشر، ولا من تمويه السحرة، آمنوا بالله، وسجدوا له، وأجابوا دعوة موسى، وقبلوا نبوته، وقد تقدم بيان معنى التقى، ومن فاعله لوقوع التصريح به، وعند سجودهم ﴿قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهرون﴾ رب موسى عطف ببيان لرب العالمين، وأضافوه سبحانه إليهما؛ لأنهما القائمان بالدعوة في تلك الحال. وفيه تبيكت لفرعون بأنه ليس برب، وأن الرب في الحقيقة هو هذا، فلما سمع فرعون ذلك منهم، ورأى سجودهم لله ﴿قال آمنتم له قبل أن آذن لكم﴾ أي: بغير إذن مني، ثم قال مغالطاً للسحرة الذين آمنوا، وموهماً للناس: أن فعل موسى سحر من جنس ذلك السحر ﴿إنه لكبيركم الذي علمكم السحر﴾ وإنما اعترف له بكونه كبيرهم مع كونه لا يحب الاعتراف بشيء يرتفع به شأن موسى، لأنه قد علم كل من حضر أن ما جاء به موسى أبهر مما جاءوا به السحرة، فأراد أن يشكك على الناس بأن هذا الذي شاهدتم، وإن كان قد فاق على ما فعله هؤلاء السحرة، فهو فعل كبيرهم، ومن هو استاذهم الذي أخذوا عنه هذه الصناعة، فلا تظنوا أنه فعل لا يقدر عليه البشر، وأنه من فعل الرب الذي يدعو إليه موسى، ثم توعد أولئك السحرة الذين آمنوا بالله لما قهرتهم حجة الله، فقال ﴿فلسوف تعلمون﴾ أجمل التهديد أولاً للتهويل، ثم فصله، فقال ﴿لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم لجمعين﴾، فلما سمعوا ذلك من قوله ﴿قالوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون﴾ أي: لا ضرر علينا فيما يلحقنا من عقاب الدنيا، فإن ذلك يزول، ونقلب بعده إلى ربنا، فيعطينا من النعيم الدائم ما لا يحده ولا يوصف. قال الهروي: لا ضير، ولا ضرر، ولا ضرر بمعنى واحد، وأنشد أبو عبيدة:

فإنك لا يضرك بعدحول أطبى كان أمك أم حمار
قال الجوهري: ضاره يضره، ويضيره ضيراً، وضوراً
أي: ضره. قال الكسائي: سمعت بعضهم يقول: لا ينفعني ذلك ولا يضرني ﴿إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا﴾، ثم عللوا هذا بقولهم ﴿إن كنا أول المؤمنين﴾ بنصب أن أي: لأن كنا أول المؤمنين. وأجاز الفراء، والكسائي كسرهما على أن يكون مجازاة، ومعنى ﴿أول المؤمنين﴾: أنهم أول من آمن من قوم فرعون بعد ظهور الآية. وقال الفراء: أول مؤمني زمانهم، وأنكره الزجاج، وقال: قد روي أنه آمن معهم ستمائة ألف وسبعون ألفاً، وهم الشرنمة القليلون الذين عناهم فرعون بقوله: ﴿إن هؤلاء لشرذمة قليلون﴾ [الشعراء: 54].

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله ﴿فالتقى عصاه فإذا هي شعبان مبين﴾ يقول: مبين له خلق حية

وحانرون، وحنرون بضم الذال، حكى تلك الاخفش. قال الفراء: الحانر الذي يحنرك الآن، والحنر المخلوق كذلك لا تلقاه إلا حنراً. وقال الزجاج: الحانر المستعد، والحنر المتيقظ، وبه قال الكسائي، ومحمد بن يزيد، قال النحاس: (حنرون) قراءة المدينيين، وأبي عمرو، و (حانرون) قراءة أهل الكوفة، قال: وأبو عبيدة يذهب إلى أن معنى حنرون، وحانرون واحد، وهو قول سيبويه، وأنشد سيبويه:

حذر أسيلاً لا تضير وحائر مـ ليس ينجيهِ من الأقدار
﴿فأخرجناهم من جنات وعيون * وكنوز ومقام كريم﴾
يعني: فرعون وقومه أخرجهم الله من أرض مصر، وفيها الجنات، والعيون، والكنوز، وهي جمع جنة، وعين، وكنز، والمراد بالكنوز الخزائن. وقيل: النفاثن، وقيل: الأنهار، وفيه نظر؛ لأن العيون المراد بها عند جمهور المفسرين عيون الماء، فيبخل تحتها الأنهار.

واختلف في المقام الكريم: فقيل: المنازل الحسان، وقيل: المناير، وقيل: مجالس الرؤساء، والأمراء، وقيل: مرابط الخيل، والأول أظهر، ومن ذلك قول الشاعر:

وفيه مقامات حسان وجوها وأنسية ينتابها القول والفعل
﴿كنكك وأورثناها بني إسرائيل﴾
يحتمل أن يكون كذلك في محل نصب أي: لأخرجناهم مثل ذلك الإخراج الذي وصفنا، ويحتمل أن يكون في محل جر على الوصفية أي: مقام كريم مثل ذلك المقام الذي كان لهم، ويحتمل الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: الأمر كذلك؛ ومعنى ﴿وأورثناها بني إسرائيل﴾: جعلناها ملكاً لهم، وهو معطوف على فأخرجناهم ﴿فالتبعوهم مشرقين﴾ قراءة الجمهور بقطع الهمزة، وقرأ الحسن، والحارث الثيناري بوصلها، وتشديد التاء أي: فلحقوهم حال كونهم مشرقين أي: داخلين في وقت الشروق، يقال: شرقت الشمس شروقاً إذا طلعت كاصبح وأمسى أي: نخل في هذين الوقتين، وقيل: داخلين نحو المشرق كأنجد وأتهم، وقيل: ﴿معنى مشرقين﴾: مضيين. قال الزجاج: يقال: شرقت الشمس إذا طلعت، وأشرقت إذا أضاعت ﴿فلما تراءى للجمعان﴾ قرأ الجمهور (تراءى) بتخفيف الهمزة، وقرأ ابن وثاب، والأعمش من غير همز، والمعنى: تقابل بحيث يرى كل فريق صاحبه، وهو تفاعل من الرؤية، وقرأ (تراءى الفشتان) ﴿قال أصحاب موسى إنا لمدركون﴾ أي: سيدركنا جمع فرعون، ولا طاقة لنا بهم، قرأ الجمهور (إنا لمدركون) اسم مفعول من أدرك، ومنه ﴿حتى إذا أدركه الغرق﴾ [يونس: 90]، وقرأ الأعرج، وعبيد بن عمير بفتح الدال مشددة، وكسر الراء. قال الفراء: هما بمعنى واحد. قال النحاس: ليس كذلك يقول النحويون الحذاق، إنما يقولون: مدركون بالتخفيف ملحوق، وبالتشديد مجتهدون في لحاقهم. قال: وهذا معنى قول سيبويه، وقال الزمخشري: إن معنى هذه القراءة: إنا لمتتابعون في الهلاك على أيديهم حتى لا يبقى منا أحد ﴿قال كلا إن معي ربي سيهدين﴾ قال موسى هذه المقالة

﴿ونزع يده﴾ يقول، وأخرج موسى يده من جيبه ﴿فإذا هي بيضاء﴾ تلعب ﴿لنناظرين﴾ لمن ينظر إليها ويرامها. وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في قوله ﴿وقيل للناس هل أنتم مجتمعون﴾ قال: كانوا بالإسكندرية. قال: ويقال: بلغ ذنب الحية من وراء البحيرة يومئذ. قال: وهربوا، وأسلموا فرعون، وهمت به، فقال: خذها يا موسى، وكان مما بلى الناس به منه أنه كان لا يضع على الأرض شيئاً أي: يومهم أنه لا يحدث، فأحدث يومئذ تحت. وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في قوله ﴿لاضير﴾ قال: يقولون: لا يضرنا الذي تقول، وإن صنعت بنا، وصلبتنا ﴿إنا إلى ربنا منقلبون﴾ يقولون: إنا إلى ربنا راجعون، وهو مجازينا بصبرنا على عقوبتك إيانا، وثباتنا على توحيد، والبراءة من الكفر، وفي قوله ﴿إن كنا أول للمؤمنين﴾ قالوا: كانوا كذلك يومئذ أول من آمن بآياته حين راوها.

﴿وَلَوْ كُنَّا إِلَّا مَوْسَىٰ أَوْ هَارُونَ إِذْ نَاوَاكَ أَفْكَرَ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿فَأَرْسَلَ رَسُولَهُ فِي الْمَلَكَيْنِ هَارُونَ وَشَاعَانَ﴾ ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلَةٌ﴾ ﴿وَلَهُمْ لَنَا طَلُوتٌ﴾ ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ إِبْرَاهِيمُ﴾ ﴿فَأَخْرَجَهُمْ مِنْ جَنَّتِ وَتَوَّابُونَ﴾ ﴿وَكُنُوزٌ يَنْفَعُ كَرِيمًا﴾ ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ شُرَيْرِينَ﴾ ﴿فَلَمَّا تَرَاكَ الْجِبَانَ﴾ ﴿قَالَ آمَحَدُ مَوْسَىٰ إِنَّا لَنَدْرُكَهُ﴾ ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مَوْسَىٰ أَنْ اضْرِب بِصَاحِكِ الْيَمِّ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿وَأَرْسَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ الْأَخْيَرِينَ﴾ ﴿وَأَبَيْنَا مَوْسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمِينَ﴾ ﴿ثُمَّ أَفْرَقْنَا الْأَخْيَرِينَ﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَمَوْعِظٌ لِلْمُتَذَكِّرِينَ﴾

قوله ﴿إن أسر بعبادي﴾ أمر الله سبحانه موسى أن يخرج ببني إسرائيل ليلاً، وسماهم عباده؛ لأنهم آمنوا بموسى، وبما جاء به، وقد تقدم تفسير مثل هذا في سورة الاعراف، وجملة ﴿إنكم متبعون﴾ تعليل للأمر المتقدم أي: يتبعكم فرعون وقومه ليرتوكم، و ﴿فارسل فرعون في المداثر حاشرين﴾، وذلك حين بلغه مسيرهم، والمراد بالحاشرين: الجامعون للجيش من الامكنة التي فيها أتباع فرعون، ثم قال فرعون لقومه بعد اجتماعهم لديه ﴿إن هؤلاء لشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ يريد بني إسرائيل، والشِرْذِمَةُ الجمع الحقيق القليل، والجمع شرانم، قال الجوهرى: الشِرْذِمَةُ الطائفة من الناس، والقطعة من الشيء، وثوب شرانم أي: قطع، ومنه قول الشاعر:

جاء الشتاء وقميصي لخلق شرانم يضحك منها الخلاق
قال الفراء: يقال: عصبه قليلة، وقليلون، وكثيرون، قال المبرد: الشِرْذِمَةُ القطعة من الناس غير الكثير، وجمعها الشرانم، قال الواحدي: قال المفسرون: وكان الشِرْذِمَةُ الذين قللهم فرعون ستمائة ألف، ولا يحصى عدد أصحاب فرعون ﴿وإنهم لنا لغافلون﴾ يقال: غافلي كذا، وأغافلي، والغيط الغضب، ومنه التغيظ، والاختياط أي: غافلون بخروجهم من غير إذن مني ﴿وإننا لجميع حذرون﴾ قرئ حنرون،

ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كانوا ستمائة ألف، وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كان أصحاب موسى الذين جازوا البحر اثني عشر سبطاً، فكان في كل طريق اثنا عشر ألفاً كلهم ولد يعقوب». وأخرج ابن مروي عنه أيضاً بسند. قال السيوطي: واه، قال: قال رسول الله ﷺ: «كان فرعون عدو الله حيث أغرقه الله هو وأصحابه في سبعين قائداً مع كل قائد سبعون ألفاً، وكان موسى مع سبعين ألفاً حيث عبروا البحر». وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: كان طلائع فرعون الذين بعثهم في أثرهم ستمائة ألف ليس فيها أحد إلا على بهيم.

وأقول: هذه الروايات المضطربة قد روي عن كثير من السلف ما يماثلها في الاضطراب والاختلاف، ولا يصح منها شيء عن النبي ﷺ. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس «ومقام كريم» قال: المنابر. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه في قوله «كالطود» قال: كالجبل. وأخرج ابن جرير، وشيبة، وابن المنذر عن ابن مسعود مثله، وأخرج ابن جرير عن ابن عباس «ووزلنا» قال: قربنا. وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن أبي موسى، عن رسول الله ﷺ قال: «إن موسى لما أراد أن يسير ببني إسرائيل أضل الطريق، فقال لبني إسرائيل: ما هذا؟ فقال له علماء بني إسرائيل: إن يوسف لما حضره الموت أخذ علينا موثقاً أن لا نخرج من مصر حتى ننقل تابوته معنا، فقال لهم موسى: أيكم يدرى أين قبره؟ فقالوا: ما يعلم أحد مكان قبره إلا عجوز لبني إسرائيل، فأرسل إليها موسى، فقال: لدينا على قبر يوسف؟ فقالت: لا والله حتى تعطيني حكمي، قال: وما حكمك؟ قالت: أن أكون معك في الجنة، فكانه ثقل عليه ذلك، فقليل له: أعطها حكمها، فأعطاهما حكمها، فانطلقت بهم إلى بحيرة مستنقعة ماء، فقالت لهم: انضبوا عنها الماء، ففعلوا، قالت: احفروا، فحفروا، فاستخرجوا قبر يوسف، فلما احتملوه إذا الطريق مثل ضوء النهار».

وَأَتَى عَلَيْهِمْ بَأْسُ إِزْرَافٍ ٧٠ إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ٧١ قَالُوا تَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلْ مَا عَنكَوْنَ ٧٢ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُوهُمْ ٧٣ أَوْ يَنْفَعُونَكَ أَوْ يَضُرُّونَ ٧٤ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ٧٥ قَالَ أَرَأَيْتُمْ تَمَّا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ٧٦ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْلَامُونَ ٧٧ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ٧٨ أَلَيْسَ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَآلِيَ هُوَ يَطْمَعُونَ ٧٩ وَإِذَا مَرَسَتْ فَأَوَّ بِشْفِيتِ ٨٠ وَالَّذِي يُبْسِي لِي لَحْمِي ٨١ وَالَّذِي أَلْمَعَ أَنْ يَقُولَ لِي خَلِّقْ يَوْمَ الْآزْمَةِ ٨٢ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْ بِالْعَصِيلِينَ ٨٣ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ٨٤ لِكَيْلَا يَكُنْ مِنِّي جَنُودُ النَّيْمِ ٨٥ وَأَعِزِّ لِي لَيْلِي إِنَّكَ كَانَتْ مِنَ الْمَلَأَيْنِ ٨٦ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُنْفَخُونَ ٨٧ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ٨٩ وَأَزَلَمَتْ الْكَلْبَةُ لِلنَّيْمِ ٩٠ وَوَزَّتْ الْحَرَمُ لِلنَّيْمِ ٩١ وَقِيلَ لَمْ أَتِ مَا كُنْتُ تَعْبُدُونَ ٩٢ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَضُرُّونَ أَوْ يَنْفَعُونَ ٩٣ فَكَبَّرُوا بِهَا هُمْ وَالْقَارُونَ ٩٤ وَخَدُّوا

زجراً لهم وردعاً، والمعنى: أنهم لا يدركونكم، ونكرهم وعد الله بالهداية والظفر، والمعنى: إن معي ربي بالنصر والهداية، سيهدين أي: يدلني على طريق النجاة، فلما عظم البلاء على بني إسرائيل، ورأوا من الجيوش ما لا طاقة لهم به، وأمر الله سبحانه موسى أن يضرب البحر بعصاه، وذلك قوله «فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر» لما قال موسى «إن معي ربي سيهدين» بين الله سبحانه له طريق الهداية، فأمره بضرب البحر، وبه نجا بنو إسرائيل، وهلك عدوهم، والفاء في «فانفلق» فصيحة: أي: فاضرب، فانفلق، فصار اثني عشر قلماً بعدد الأسباط، وقام الماء عن يمين الطريق وعن يساره كالجبل العظيم، وهو معنى قوله «فكان كل فرق كالطود العظيم»، والفرق القطعة من البحر، وقرئ: (فلق) بلام بدل الراء، والطود الجبل قال امرؤ القيس: فبينما المرء في الأحياء طود رماء الناس عن كذب فمالا وقال الأسود بن يعفر:

حلوا بانقرة يسيل عليهم ماء الفرات يجي من لطواد
«ووزلنا ثم الآخرين» أي: قربناهم إلى البحر يعني: فرعون وقومه. قال الشاعر:

وكل يوم مضى أوليلة سلفت فيها النفوس إلى الأجل تزلزل
قال أبو عبيدة: وزلنا جمعنا، ومنه قيل لليلة المزلفة: ليلة جمع، و «ثم» ظرف مكان للبعد. وقيل: إن المعنى: وزلنا قربنا من النجاة، والمراد بالآخرين موسى وأصحابه، والأول أولى، وقرأ الحسن، وأبو حيوة، (وزلنا) ثلاثياً، وقرأ أبي، وابن عباس، وعبد الله بن الحارث (وازلنا) بالقاف أي: أزللنا، وأهلكنا من قولهم: أزلقت الفرس إذا ألقت ولدها «وأنحينا موسى ومن معه لجمعين» بمرودهم في البحر بعد أن جعله الله طرقاً يشون فيها «ثم أغرقنا الآخرين» يعني: فرعون وقومه أغرقهم الله بطابق البحر عليهم بعد أن دخلوا فيه متبعين موسى وقومه، والإشارة بقوله «إن في ذلك لآية» إلى ما تقدم ذكره مما صدر بين موسى وفرعون إلى هذه الغاية، ففي ذلك آية عظيمة وقدره باهرة من أدل العلامات على قدرة الله سبحانه، وعظيم سلطانه «وما كان أكثرهم مؤمنين» أي: ما كان أكثر هؤلاء الذين مع فرعون مؤمنين، فإنه لم يؤمن منهم فيما بعد إلا القليل كحزقيل، وابنته، وأسفة امرأة فرعون، والعجوز التي لبت على قبر يوسف، وليس المراد أكثر من كان مع فرعون عند لحاقه بموسى، فإنهم هلكوا في البحر جميعاً بل المراد من كان معه من الأصل، ومن كان متابعاً له، ومنتسباً إليه، هذا غاية ما يمكن أن يقال، وقال سيبويه وغيره: إن «كان» زائدة، وأن المراد الإخبار عن المشركين بعد ما سمعوا الموعظة «وإن ربك لهُوَ العزيز الرحيم»، أي: المنتقم من أعدائه الرحيم بأوليائه.

وقد أخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود في قوله «إن هؤلاء لشرنمة قليلون» قال: ستمائة ألف وسبعون ألفاً. وأخرج

ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود في قوله «إن هؤلاء لشرنمة قليلون» قال: ستمائة ألف وسبعون ألفاً. وأخرج

إِلَيْسَ أَجْمَعُونَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا وَمَنْ بِمَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٠﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَإِىَّ مَبْلَكِينَ ﴿٦١﴾ إِذْ نَسُوبُكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٢﴾ وَمَا أَهْلَكَا إِلَّا الْمَتْرُورُونَ ﴿٦٣﴾ فَمَا نَا مِنْ شَائِعِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَا صَبِيحِيكُمْ ﴿٦٥﴾ قُلْ أَأَنْتَا كَرَّرْتَ فَتَكُونُ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنِّي فِي ذَلِكَ لِآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُكُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ رَبُّكَ هُوَ الْمَرْيُومُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾

قوله ﴿وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ﴾ معطوف على العامل في قوله: ﴿وَإِذَا نَادَى رَبُّكَ مُوسَى﴾ [الشعراء: 10]، وقد تقدّم، والمراد بنبا إبراهيم خبره أي: اقتصص عليهم يا محمد خبر إبراهيم وحديثه، و ﴿إِذْ قَالَ﴾ منصوب بنبا إبراهيم أي: وقت قوله ﴿لَأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾، وقيل: إذ بدل من نبا بدل اشتغال، فيكون العامل فيه اتل، والأول أولى. ومعنى ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾: أي شيء تعبدون؟ وهو يعلم أنهم يعبدون الأصنام، ولكنه أراد إلزامهم الحجة ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظُرُ لَهَا عَافِيَةً﴾ أي: فنقيم على عبادتها مستمرا لا في وقت معين، يقال: ظلّ يفعل كذا: إذا فعله نهائيا، وبات يفعل كذا: إذا فعله ليلا، فظاهره: أنهم يستمرون على عبادتها نهائيا لا ليلا، والمراد من العكوف لها الإقامة على عبادتها، وإنما قال لها لإفادة أن ذلك العكوف لأجلها، فلما قالوا هذه المقالة قال إبراهيم منبهاً على فساد مذهبهم ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾ قال الاخفش: فيه حذف، والمعنى: هل يسمعون منكم، أو هل يسمعون دعاءكم. وقرأ قتادة (هل يسمعونكم) بضم الباء أي: هل يسمعونكم أصواتهم وقت دعائكم لهم ﴿لَوْ يَنْفَعُونَكُمْ﴾ بوجه من وجوه النفع ﴿أَوْ يَضُرُّونَ﴾ أي: يضرّونكم إذا تركتم عبادتكم، وهذا الاستفهام للتقرير، فإنها إذا كانت لا تسمع، ولا تنفع، ولا تضرّ، فلا وجه لعبادتها، فإذا قالوا: نعم هي كذلك، أقروا بأن عبادتكم لها من باب اللعب والعبث، وعند ذلك تقوم الحجة عليهم، فلما أورد عليهم الخليل هذه الحجة الباهرة لم يجدوا لها جواباً إلا رجوعهم إلى التقليد البحت، وهو أنهم وجدوا آباءهم كذلك يفعلون أي: يفعلون لهذه العبادة لهذه الأصنام مع كونها بهذه الصفة التي هي سلب السمع والنفع والضرر عنها، وهذا الجواب هو العصي التي يتوكأ عليها كل عاجز، ويمشي بها كل أعرج، ويغترّ بها كل مغرور، وينخدع لها كل مخدوع؛ فإنك لو سألت الآن هذه المقلدة للرجال التي طبقت الأرض بطولها، والعرض، وقلت لهم: ما الحجة لهم على تقليد فرد من أفراد العلماء، والأخذ بكل ما يقوله في الدين، وبيّنته من الراي المخالف للدليل لم يجدوا غير هذا الجواب، ولا فاهوا بسواه، وأخذوا يعبدون عليك من سبقهم إلى تقليد هذا من سلفهم، واقتداء بأقواله وأفعاله، وهم قد ملئوا صدورهم هيبة، وضائق أذهانهم عن تصوّرهم، وظنوا أنهم خير أهل الأرض، وأعلمهم، وأورعهم، فلم يسمعوا لناصح نصحاء، ولا لداع إلى الحق دعاء، ولو فطنوا لوجدوا أنفسهم في غرور عظيم، وجهل شنيع، وإنهم كالبهيمة العمياء، ولولئك الأسلاف كالعمي الذين يقنونون البهائم العمي، كما قال الشاعر:

كبهيمة عمياء قاد زمامها أعمى على عوج الطريق الحائر فعليك أيها العامل بالكتاب والسنة المبرأ من التعصب والتعسف: أن تورد عليهم حجج الله، وتقيم عليهم براهينه، فإنه ربما انتقاد لك منهم من لم يستحكم داء التقليد في قلبه، وأما من قد استحكم في قلبه هذا الداء، فلو أوردت عليه كل حجة، وأقمت عليه كل برهان لما أعارك إلا أننا صماء، وعينا عمياء، ولكنك قد قمت بواجب البيان الذي أوجبه عليك القرآن، والهداية بيد الخلاق العليم ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: 56]. ولما قال هؤلاء المقلدة هذه المقالة ﴿قَالَ﴾ الخليل ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ أنتم وأبائكم الأقدمون؟ أي: فهل أبصرتم، وتفكرتم ما كنتم تعبدون من هذه الأصنام التي لا تسمع، ولا تنفع، ولا تضرّ حتى تعلموا أنكم على ضلالة وجهالة، ثم أخبرهم بالبراءة من هذه الأصنام التي يعبدونها. فقال ﴿فَأَنبَهُمْ عَنْدُوا لِي﴾، ومعنى كونهم عدواً له مع كونهم جماداً: أنه إن عبدهم كانوا له عدواً يوم القيامة. قال الفراء: هذا من المقلوب أي: فإني عدو لهم؛ لأن من عاديته عاداك، والعدو كالصديق يطلق على الواحد، والمثنى، والجماعة، والمذكر، والمؤنث، كذا قال الفراء. قال علي بن سليمان: من قال: عدوة الله، فأنثب الهاء، قال: هي بمعنى المعادية، ومن قال: عدو، للمؤنث والجمع جعله بمعنى النسب. وقيل: المراد بقوله ﴿فَأَنبَهُمْ عَنْدُوا لِي﴾ أبائهم الأقدمون لأجل عبادتهم الأصنام، وردّ بيان الكلام مسوقاً فيما عبده لا في العابدين، والاستثناء في قوله ﴿إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ منقطع أي: لكن ربّ العالمين ليس كذلك، بل هو وليي في الدنيا والآخرة. قال الزجاج: قال النحويون: هو استثناء ليس من الأول، وإجازة الزجاج أيضاً أن يكون من الأول على أنهم كانوا يعبدون الله عزّ وجلّ، ويعبدون معه الأصنام، فأعلمهم أنه تبرأ مما يعبدون إلا الله. قال الجرجاني: تقديره: أفرايتم ما كنتم تعبدون أنتم وأبائكم الأقدمون إلا ربّ العالمين، فإنهم عدو لي، فجعله من باب التقديم والتأخير، وجعل إلا بمعنى دون وسوى كقوله: ﴿لَا يَنْفَعُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ [الدخان: 56] أي: دون الموتة الأولى. وقال الحسن بن الفضل: إن المعنى: إلا من عبد ربّ العالمين، ثم وصف ربّ العالمين بقوله ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ أي: فهو يرشّني إلى مصالح الدين والدنيا. وقيل: إن الموصول مبتدأ، وما بعده خبره، والأول أولى. ويجوز أن يكون الموصول بدلاً من ربّ، وأن يكون عطف بيان له، وأن يكون منصوباً على المدح بتقدير أعني، أو أمدح، وقد وصف الخليل ربه بما يستحق العبادة لأجله، فإن الخلق، والهداية، والرزق يدلّ عليه قوله ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾، ودفع ضرّ المرض، وجلب نفع الشفاء، والإماتة، والإحياء، والمغفرة للذنوب، كلها نعم يجب على المنعم عليه ببعضها فضلاً عن كلها أن يشكر المنعم بجميع أنواع الشكر التي أعلاها، وأولاها العبادة، ويدخل هذه الضمائر في صدور هذه الجمل

تبين له أنه عدو الله تبرأ منه، وقد تقدم تفسير هذا مستوفى في سورة التوبة، وسورة مريم، ومعنى ﴿من الضالين﴾: من المشركين الضالين عن طريق الهداية، وكان زائدة على مذهب سيبويه كما تقدم في غير موضع ﴿ولا تخزني يوم يبعثون﴾ أي: لا تخزني على رؤوس الأشهاد بمعاصيتي، أو لا تعذبني يوم القيامة، أو لا تخزني بتعذيب أبي، أو ببعثه في جملة الضالين، والإخزاء يطلق على الخزي، وهو الهوان، وعلى الخزية، وهي الحياء، و﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون﴾ بدل من يبعثون أي: يوم لا ينفع فيه المال والبنون أحداً من الناس، والابن هو أخض القرابة، وأولاهم بالحماية والدفع، والنفع، فإذا لم ينفع، فغيره من القرابة، والأعوان بالأولى. وقال ابن عطية: إن هذا وما بعده من كلام الله، وهو ضعيف، والاستثناء بقوله ﴿إلا من أتى الله بقلب سليم﴾ قيل: هو منقطع أي: لكن من أتى الله بقلب سليم. قال في الكشف: إلا حال من أتى الله بقلب سليم، فقدّر مضافاً محذوفاً. قال أبو حيان: ولا ضرورة تدعو إلى ذلك. وقيل: إن هذا الاستثناء بدل من المفعول المحذوف، أو مستثنى منه، إذ التقدير لا ينفع مال، ولا بنون أحداً من الناس إلا من كانت هذه صفته، ويحتمل أن يكون بدلاً من فاعل ينفع، فيكون مرفوعاً. قال أبو البقاء: فيكون التقدير: إلا مال من أو بنو من، فإنه ينفع.

واختلف في معنى القلب السليم، فقيل: السليم من الشرك، فأما الذنوب، فليس يسلم منها أحد، قاله أكثر المفسرين. وقال سعيد بن المسيب: القلب السليم الصحيح، وهو قلب المؤمن، لأن قلب الكافر والمنافق مريض، وقيل: هو القلب الخالي عن البدعة المطمئن إلى السنة، وقيل: السالم من آفة المال والبنين. وقال الضحاك: السليم الخالص. وقال الجنيدي: السليم في اللغة اللين، فمعناه: أنه قلب كاللين من خوف الله تعالى، وهذا تحريف وتعكيس لمعنى القرآن. قال الرازي: أصح الأقوال: أن المراد منه سلامة النفس عن الجهل والأخلاق الرذيلة ﴿وازلفت الجنة للمتقين﴾ أي: قربت، وأدنت لهم؛ لينخلوها. وقال الزجاج: قرب دخولهم إياها، ونظرهم إليها ﴿وبرزت الجحيم للغاوين﴾ أي: جعلت بارزة لهم، والمراد بالغاوين: الكافرون، والمعنى: أنها أظهرت قبل أن يدخلها المؤمنون، ليشهد حزن الكافرين، ويكثر سرور المؤمنين ﴿وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون﴾ من دون الله من الأصنام والأنداد ﴿هل ينصرونكم﴾ فينبغون عنكم العذاب ﴿أو ينتصرون﴾ بنفعه عن أنفسهم. وهذا كله توبيخ وتقريع لهم، وقرأ مالك بن دينار (وبرزت) بفتح الباء، والراء مبنياً للمفاعل ﴿فكبحكبا﴾ فيها هم والغاوين، أي: ألقا في جهنم هم يعني: المعبوبين، والغاوين يعني: العابدين لهم. وقيل: معنى كبحكبا: قتلوا على رؤوسهم. وقيل: ألقي بعضهم على بعض، وقيل: جمعوا، مأخوذاً من الكيكة، وهي الجماعة قاله الهروي. وقال النحاس: هو مشتق من كوكب الشيء أي: معظمه، والجماعة

للدلالة على أنه الفاعل لذلك دون غيره، وأسند المرض إلى نفسه دون غيره من هذه الأفعال المنكورة رعاية للألب مع الرب، وإلا فالمرض، وغيره من الله سبحانه، ومراده بقوله ﴿ثم يحيين﴾ البعث، وحذف الباء من هذه الأفعال لكونها رؤوس الآي. وقرأ ابن أبي إسحاق هذه الأفعال كلها بإثبات الباء، وإنما قال عليه الصلاة والسلام: ﴿والذي اطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين﴾ هضمًا لنفسه، وقيل: إن الطمع هنا بمعنى اليقين في حقه، وبمعنى الرجاء في حق سواه. وقرأ الحسن، وابن أبي إسحاق (خطيائي) قالوا: ليست خطيئته واحدة. قال النحاس: خطيئة بمعنى خطايا في كلام العرب. قال مجاهد: يعني بخطيئته: قوله: ﴿هل فعله كبيرهم هذا﴾ [الأنبياء: 63]، وقوله: ﴿إني سقيم﴾ [الصفات: 89]، وقوله إن سارة أخته، زاد الحسن: وقوله للكوكب: ﴿هذا ربي﴾ [الأنعام: 77 - 78]، وحكى الواحدي عن المفسرين: أنهم فسروا الخطايا بما فسرهما به مجاهد. قال الزجاج: الأنبياء بشر، ويجوز أن تقع عليهم الخطيئة إلا أنهم لا تكون منهم الكبيرة؛ لأنهم معصومون، والمراد بيوم الدين: يوم الجزاء للعباد بأعمالهم، ولا يخفى أن تفسير الخطايا بما ذكره مجاهد، ومن معه ضعيف، فإن تلك معاريض، وهي أيضاً إنما صدرت عنه بعد هذه المقالة الجارية بينه وبين قومه. ثم لما فرغ الخليل من الثناء على ربه، والاعتراف بنعمه عقبه بالدعاء؛ ليقندي به غيره في ذلك. فقال: ﴿رب هب لي حكماً﴾، والمراد بالحكم العلم والفهم، وقيل: النبوة والرسالة، وقيل: المعرفة بحدود الله، وإحكامه إلى آخره ﴿والحقني بالصالحين﴾ يعني: بلنبيين من قبلي، وقيل: بأهل الجنة ﴿ولجعل لي لسان صديق في الآخرين﴾ أي: لجعل لي ثناء حسناً في الآخرين الذين يأتون بعدي إلى يوم القيامة. قال القتيبي: وضع اللسان موضع القول على الاستعارة، لأن القول يكون به، وقد تكنى العرب بها عن الكلمة، ومنه قول الأعشى:

إني اتتني لسان لا أسر بها

وقد أعطى الله سبحانه إبراهيم ذلك بقوله ﴿وتركنا عليه في الآخرين﴾ [الصفات: 108] فإن كل أمة تتمسك به وتعلمه. وقال مكي: قيل: معنى سؤاله: أن يكون من ذريته في آخر الزمان من يقوم بالحق، فأجيب دعوته في محمد ﷺ، ولا وجه لهذا التخصيص. وقال القشيري: أراد الدعاء الحسن إلى قيام الساعة، ولا وجه لهذا أيضاً، فإن لسان الصديق أعم من ذلك ﴿ولجعلني من ورثة جنة النعيم﴾ من ورثة يحتمل أن يكون مفعولاً ثانياً، وأن يكون صفة لمحذوف هو المفعول الثاني أي: وارثاً من ورثة جنة النعيم، لما طلب عليه السلام بالدعوة الأولى سعادة الدنيا طلب بهذه الدعوة سعادة الآخرة، وهي جنة النعيم، وجعلها مما يورث تشبيهاً لغنيمة الآخرة بغنيمة الدنيا، وقد تقدم تفسير معنى الورثة في سورة مريم ﴿واغفر لأبي إنه كان من الضالين﴾ كان أبوه قد وعده أنه يؤمن به، فاستغفر له، فلما

الآخرين﴾ قال: اجتماع أهل الملل على إبراهيم. وأخرج عنه أيضاً ﴿واغفر لأبي﴾ قال: امنن عليه بتوبة يستحق بها مغفرتك. وأخرج البخاري، وغيره من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «يلقى إبراهيم أباه أزر يوم القيامة، وعلى وجه أزر قفرة وغبرة، فيقول له إبراهيم: ألم اقل لك لا تعصني، فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: رب إنك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون، فأتى خزي أخزى من أبي الأبعد؟ فيقول الله: إني حرمت الجنة على الكافرين، ثم يقول: يا إبراهيم ما تحت رجلك؟ فإذا هو بنخ مطلق، فيؤخذ بقواشمه فيلقى في النار»، والنخ هو الذكر من الضباع، فكأنه حوّل أزر إلى صورة نخب. وقد أخرجه النسائي باطول من هذا. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله ﴿إلا من لقي الله بقلب سليم﴾ قال: شهادة أن لا إله إلا الله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه ﴿فكبكبوا فيها﴾ قال: جمعوا فيها هم والغاؤون﴾ قال: مشركو العرب والألوهة. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿قلو أن لنا كزّة﴾ قال: رجعة إلى الدنيا ﴿فنكون من المؤمنين﴾ حتى تحل لنا الشفاعة كما حلت لهؤلاء.

كذبت قوم نوح المرسلين ﴿١٥٠﴾ إذ قال لهم نوحهم فزع ألا تنفون ﴿١٥١﴾ إن لكم رسول أمين ﴿١٥٢﴾ فأتقوا الله وليعلموا ﴿١٥٣﴾ وما أنشأكم عليه من نبي إن نجرى إلا على ربي المكين ﴿١٥٤﴾ فأتقوا الله وليعلموا ﴿١٥٥﴾ قالوا أنؤمن لك ونكفك ألاذكون ﴿١٥٦﴾ قال وما علي بما كانوا يملكون ﴿١٥٧﴾ إن حسابهم إلا على ربي لو تشعروا ﴿١٥٨﴾ وما أنا ببالد المؤمنين ﴿١٥٩﴾ إن أنا إلا نذير مبين ﴿١٦٠﴾ قالوا إن لمرسلنا بشارتنا كنكون من المرسلين ﴿١٦١﴾ قال ربي إن قومي كذبون ﴿١٦٢﴾ فأنه يني ويسمهم قوماً وكفى بين المرسلين ﴿١٦٣﴾ فأنه يني ومنهم في آفاق السحرة ﴿١٦٤﴾ ثم أفرقاً بعد الباقين ﴿١٦٥﴾ إن في ذلك لآية وما كان آتكم مؤيدين ﴿١٦٦﴾ ولله ركة لهم القوي الرحيم ﴿١٦٧﴾ كذبت عاد المرسلين ﴿١٦٨﴾ إذ قال لهم نوحهم فزع ألا تنفون ﴿١٦٩﴾ إن لكم رسول أمين ﴿١٧٠﴾

قوله: ﴿كذبت قوم نوح المرسلين﴾ انث الفعل لكونه مسنداً إلى قوم، وهو في معنى الجماعة، أو الأمة، أو القبيلة، وأوقع التكنيب على المرسلين، وهم لم يكنوا إلا الرسول المرسل إليهم، لأن من كذب رسولا، فقد كذب الرسل، لأن كل رسول يأمر بتصديق غيره من الرسل. وقيل: كذبوا نوحاً في الرسالة، وكذبوه فيما أخبرهم به من مجيء المرسلين بعده ﴿إذ قال لهم أخوهم نوح﴾ أي: أخوهم من أبيهم، لا أخوهم في الدين. وقيل: هي أخوة المجانسة، وقيل: هو من قول العرب: يا أخا بني تميم، يريدون واحداً منهم ﴿ألا تنفون﴾ أي: ألا تنفون الله بترك عبادة الأصنام، وتجيبون رسوله الذي أرسله إليكم ﴿إني لكم رسول أمين﴾ أي: إني لكم رسول من الله أمين فيما أبلغكم عنه، وقيل: أمين فيما بينكم، فإنهم كانوا قد عرفوا أمانته وصدقته ﴿فأتقوا الله وأطيعوه﴾ أي: اجعلوا طاعة الله وقاية لكم من عذابه،

من الخيل كوكب، وكبكبة، وقيل: دهموا، وهذه المعاني متقاربة، وأصله ككبوا بباءين الأولى مشددة من حرفين، فأبدل من الباء الوسطى الكاف. وقد رجح الزجاج أن المعنى: طرح بعضهم على بعض. ورجح ابن قتيبة أن المعنى: القوا على رؤوسهم. وقيل: الضمير في ككبوا لقريش، والغاؤون الألوهة، والمراد بجنود إبليس شياطينه الذين يغفون العباد، وقيل: ذريته، وقيل: كل من يدعو إلى عبادة الأصنام، و﴿لجمعون﴾ تأكيد للضمير في ككبوا، وما عطف عليه، وجملة ﴿قالوا وهم فيها يختصمون﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: ماذا قالوا حين فعل بهم ما فعل، ومقول القول ﴿تالله إن كنا لفي ضلال مبين﴾ وجملة: ﴿وهم فيها يختصمون﴾ في محل نصب على الحال أي: قالوا هذه المقالة حال كونهم في جهنم مختصمين، وإن في ﴿إن كنا﴾ هي المخففة من الثقيلة، واللام فارقة بينها وبين النافية أي: قالوا تالله إن الشأن كوننا في ضلال واضح ظاهر، والمراد بالضلال هنا: الخسار، والتبarr، والحيرة عن الحق، والعامل في الظرف، أعني: ﴿إذ نسويكم يرب العالمين﴾ هو كونهم في الضلال المبين. وقيل: العامل هو الضلال، وقيل: ما يدل عليه الكلام، كأنه قيل: ضللنا وقت تسويتنا لكم رب العالمين. وقال الكوفيون: إن «إن» في ﴿إن كنا﴾ نافية، واللام بمعنى إلا أي: ما كنا إلا في ضلال مبين. والأول أولى، وهو مذهب البصريين ﴿فمالنا من شافعين﴾ يشفعون لنا من العذاب كما للمؤمنين ﴿ولا صديق حميم﴾ أي: ذي قرابة، والحميم القريب الذي تودّه، ويونك، ووجد الصديق لما تقدّم غير مرة أنه يطلق على الواحد، والإثنين، والجماعة، والمنكر، والمؤنث، والحميم مأخوذ من حامة الرجل أي: اقربائه، ويقال: حم الشيء وأحم إذا قرب منه، ومنه الحمى؛ لأنه يقرب من الأجل. وقال علي بن عيسى: إنما سمي القريب حميماً؛ لأنه يحمي لغضب صاحبه، فجعله مأخوذاً من الحمية ﴿قلو أن لنا كزّة فنكون من المؤمنين﴾ هذا منهم على طريق التمني الدال على كمال التحسر كأنهم قاوا: فليت لنا كزّة أي: رجعة إلى الدنيا، وجواب التمني، فنكون من المؤمنين أي: نصير من جملتهم، والإشارة بقوله ﴿إن في ذلك لآية﴾ إلى ما تقدّم نكره من نبي إبراهيم، والآية العبرة، والعلامة، والتنويع يدل على التعظيم والتفخيم ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ أي: أكثر هؤلاء الذين يتلو عليهم رسول الله ﷺ نبي إبراهيم، وهم قريش، ومن دان بدينهم. وقيل: وما كان أكثر قوم إبراهيم بمؤمنين، وهو ضعيف؛ لأنهم كلهم غير مؤمنين ﴿وإن ربك لهُو العزيز الرحيم﴾ أي: هو القاهر لأعدائه الرحيم بأوليائه، أو الرحيم للأعداء بتأخير عقوبتهم، وترك معاجلتهم.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، عن ابن عباس في قوله ﴿والحقني بالصالحين﴾ يعني: بأهل الجنة. وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله ﴿ولجعل لي لسان صدق في

معه في الفلك المشحون» أي: السفينة المملوءة، والشحن ملء السفينة بالناس، والدواب، والمتاع «ثم أغرقنا بعد الباقين» أي: ثم أغرقنا بعد إنجائهم الباقين من قومه «إن في ذلك آية» أي: علامة وعبرة عظيمة «وما كان أكثرهم مؤمنين» كان زائدة عند سيبويه، وغيره على ما تقدم تحقيقه «وإن ربك لهو العزيز الرحيم» أي: القاهر لأعدائه، الرحيم بأوليائه. «كنبت عاد للموسلين» أنت الفعل باعتبار إسناده إلى القبيلة، لأن عاداً اسم أبيهم الأعلى. ومعنى تكذيبهم الموسلين مع كونهم لم يكنوا إلاج رسولاً واحداً قد تقدم وجهه في قصة نوح قريباً «إذا قال لهم أخوهم مود ألا تتقون» الكلام فيه كالكلام في قول نوح المتقدم قريباً، وكذا قوله «إني لكم رسول أمين * فأتقوا الله وأطيعون * وما نسألكم عليه من أجر إن لجرى إلا على رب العالمين» الكلام فيه كالذي قبله سواء «أتقون بكل ريع آية تعبثون» الريح المكان المرتفع من الأرض جمع رיעة، يقال: كم ريع أرضك؟ أي: كم ارتفاعها. قال أبو عبيدة: الريح الارتفاع جمع رיעة. وقال قتادة، والضحاك، والكلبي: الريح الطريق، وبه قال مقاتل، والسدي، وإطلاق الريح على ما ارتفع من الأرض معروف عند أهل اللغة، ومنه قول ذي الرمة:

طراق الخوافي مشرف فوق رיעة بذي ليلة في ريشه يترقرق
وقيل: الريح الجبل، واحده رיעة، والجمع أرياع. وقال مجاهد: هو الفج بين الجبلين، وروي عنه أنه الثانية الصغيرة، وروي عنه: أيضاً أنه المنطرة. ومعنى الآية: أنكم تبثون بكل مكان مرتفع علماً تعبثون ببنيانه، وتلبثون بالمارة، وتسخرون منهم، لأنكم تشرفون من ذلك البناء المرتفع على الطريق، فتؤننون المارة، وتسخرون منهم. وقال الكلبي: إنه عبث العشارين بأموال من يمر بهم حكاية الماوردي. قال ابن الأعرابي: الريح الصومعة، والريح البرج يكون في الصحراء، والريح التل العالي، وفي الريح لغتان كسر الراء، وفتحها «وتتخذون مصانع» المصانع: هي الابنية التي يتخذها الناس منازل. قال أبو عبيدة: كل بناء مصنعة منه، وبه قال الكلبي، وغيره، ومنه قول الشاعر:

تركن ديارهم منهم قفارا وهذ من المصانع والبروجا
وقيل: هي الحصون المشيدة، قاله مجاهد، وغيره، وقال الزجاج: إنها مصانع الماء التي تجعل تحت الأرض ولحدها مصنعة، ومصنع، ومنه قول لبيد:

بلينا وما تبلى النجوم الطوالع وتبقى الجبال بعنا والمصانع
وليس في هذا البيت ما يدل صريحاً على ما قاله الزجاج، ولكنه قال الجوهري: المصنعة بضم النون الحوض يجمع فيه ماء المطر، والمصانع الحصون. وقال عبد الرزاق: المصانع عندنا بلغة اليمن القصور العالية. ومعنى «لعلكم تخلصون» راجع أن تخلصوا، وقيل: إن لعل هنا للاستفهام التوبيخي أي: هل تخلصون، كقولهم: لعلك تشتمني أي: هل

وأطيعون فيما أمركم به عن الله من الإيمان به وترك الشرك، والقيام بفرائض الدين «وما نسألكم عليه من أجر» أي: ما أطلب منكم أجراً على تبليغ الرسالة، ولا أطمع في ذلك منكم «إن لجرى» الذي أطلبه وأريده «إلا على رب العالمين» أي: على ما لجرى إلا عليه، وكثر قوله «فاتقوا الله وأطيعون» للتأكيد والتقرير في النفوس مع كونه علق كل واحد منهم بسبب، وهو الأمانة في الأول، وقطع الطمع في الثاني، ونظيره قولك: ألا تتقي الله في عقوقي، وقد رببتك صغيراً، ألا تتقي الله في عقوقي، وقد علمتك كبيراً، وقدم الأمر بتقوى الله على الأمر بطاعته، لأن تقوى الله علة لطاعته «قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرثلون» الاستفهام للإنكار أي: كيف نتبعك ونؤمن لك، والحال أن قد اتبعك الأرثلون، وهم جمع أرذل، وجمع التكسير أرذل، والأنثى رنلى، وهم الأقلون جاهاً ومالا، والرذالة الخسة والنلة، استرذلوهم لقلّة أموالهم وجاههم، أو لاتضاع انسابهم. وقيل: كانوا من أهل الصناعات الخسيسة، وقد تقدم تفسير هذه الآيات في هود. وقرأ ابن مسعود، والضحاك، ويعقوب الحضرمي: «واتباعك الأرثلون» قال النحاس: وهي قراءة حسنة، لأن هذه الواو تتبعها الأسماء كثيراً، واتباع جمع تابع، فأجابهم نوح بقوله «وما علمي بما كانوا يعملون» كان زائدة، والمعنى: وما علمي بعملهم أي: لم أكلف العلم بأعمالهم. إنما كلفت أن ادعوه إلى الإيمان، والإعتبار به، لا بالحرف، والصنائع، والفقر، والغنى، وكانهم أشاروا بقولهم «واتبعك الأرثلون» إلى أن إيمانهم لم يكن عن نظر صحيح، فأجابهم بهذا. وقيل: المعنى: إني لم أعلم أن الله سيهديهم ويضلّكم «إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرو» أي: ما حسابهم، والتفتيش عن ضمائرهم وأعمالهم إلا على الله لو كنتم من أهل الشعور والفهم، قرأ الجمهور (تشعرون) بالفوقية، وقرأ ابن أبي عبلة، وابن السميع، والأعرج، وأبو زرعة بالتحية، كأنه ترك الخطاب للكفار، والتفت إلى الإخبار عنهم. قال الزجاج: والصناعات لا تضر في باب الديانات، وما أحسن ما قال «وما لنا بطارد للمؤمنين» هذا جواب من نوح على ما ظهر من كلامهم من طلب الطرد لهم «إن أنا إلا نثير مبین» أي: ما أنا إلا نثير موضح لما أمرني الله سبحانه بإبلاغه إليكم، وهذه الجملة كالعلة لما قبلها «قالوا لنن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين» أي: إن لم تترك عيب ديننا، وسبب آلهتنا لتكونن من المرجومين بالحجارة، وقيل: من المشتمين، وقيل: من المقتولين، فعلوا بعد تلك المحاورة بينهم وبين نوح إلى التجبر والتوعد، فلما سمع نوح قولهم هذا «قال رب إن قومى كفبون» أي: أصروا على تكذبي، ولم يسمعوا قولي، ولا أجابوا دعائي «فافتح بيني وبينهم فتحاً» الفتح الحكم أي: احكم بيني وبينهم حكماً، وقد تقدم تحقيق معنى الفتح «ونجني ومن معي من المؤمنين» فلما دعا ربه بهذا الدعاء استجاب له، فقال «فانجيناه ومن

فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥٩﴾

أي وعظك، وعذمه ﴿سواء﴾ عندنا لا نبالي بشيء منه، ولا نلتفت إلى ما تقول. وقد روى العباس عن أبي عمرو. وروى بشر عن الكسائي ﴿أوعظت﴾ بإدغام الظاء في التاء، وهو بعيد، لأن حرف الظاء حرف إطباق إنما يدغم فيما قرب منه جذاً، وروى ذلك عن عاصم، والأعمش، وأبن محيصن. وقرأ الباقر بإظهار الظاء ﴿إِنَّ هَذَا إِذَا خَلَقَ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: ما هذا الذي جئتنا به، ودعوتنا إليه من الدين إلا خلق الأولين أي: عانيتهم التي كانوا عليها. وقيل: المعنى: ما هذا الذي نحن عليه إلا خلق الأولين وعانيتهم، وهذا بناء على ما قاله الفراء، وغيره: إن معنى: ﴿خلق الأولين﴾: عادة الأولين. قال النحاس: خلق الأولين عند الفراء بمعنى: عادة الأولين. وحكى لنا محمد بن الوليد عن محمد بن محمد بن يزيد قال ﴿خلق الأولين﴾ مذهبهم، وما جرى عليه أمرهم. والقولان متقاربان. قال: وحكى لنا محمد بن يزيد: أن معنى ﴿خلق الأولين﴾: تكذيبهم. قال مقاتل: قالوا: ما هذا الذي تدعونا إليه إلا كذب الأولين. قال الواحدي: وهو قول ابن مسعود، ومجاهد. قال: والخلق، والإختلاق الكذب، ومنه قوله: ﴿وتخلقون إفكاً﴾ [العنكبوت: 17] قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي، ويعقوب (خلق الأولين) بفتح الخاء، وسكون اللام. وقرأ الباقر بضم الخاء، واللام. قال الهروي: معناه على القراءة الأولى: اختلاقهم، وكذبهم. وعلى القراءة الثانية: عانيتهم، وهذا التفصيل لا بد منه. قال ابن الأعرابي: الخلق الدين، والخلق الطبع، والخلق المروءة. وقرأ أبو قلابة بضم الخاء، وسكون اللام، وهي تخفيف لقراءة الضم لهما، والظاهر: أن المراد بالآية هو قول من قال: ما هذا الذي نحن عليه إلا عادة الأولين، وفعلهم، ويؤيده قولهم ﴿وما نحن بمعنيين﴾ أي: على ما نفعل من البطش، ونحوه مما نحن عليه الآن ﴿فكننوه فاهلكناهم﴾ أي: بالريح كما صرح القرآن في غير هذا الموضع بذلك ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ تقدم تفسير هذا قريباً في هذه السورة. ثم لما فرغ سبحانه من نكر قصة هود وقومه، نكر قصة صالح وقومه، وكانوا يسكنون الحجر، فقال ﴿كنيت نعوذ﴾ إلى قوله ﴿إلا على رب العالمين﴾ قد تقدم تفسيره في قصة هود المنكورة قبل هذه القصة ﴿اتتركون في ما ها هنا آمنين﴾ الاستفهام للإنكار. أي: اتتركون في هذه النعم التي أعطاكم الله آمنين من الموت والعذاب، باقين في الدنيا. ولما أبهم النعم في هذا فسرهما بقوله ﴿في جنات وعيون * وزروع ونخل طلعها هضيم﴾، والهضيم النضيج الرخص اللين اللطيف، والطلع ما يطلع من الثمر، وذكر النخل مع دخوله تحت الجنات لفضله على سائر الأشجار، وكثيراً ما ينكرون الشيء الواحد بلفظ يعمه وغيره، كما يذكرون النعم، ولا يقصدون إلا الإبل، وهكذا ينكرون الجنة، ولا يريدون إلا

تشتمني. وقال الفراء: كي تخلصون لا تتفكرون في الموت، وقيل: المعنى كأنكم باقون مخلصون. قرأ الجمهور (تخلصون) مخففاً. وقرأ قتادة بالتشديد. وحكى النحاس: أن في بعض القراءات (كأنكم مخلصون)، وقرأ ابن مسعود (كي تخلصوا) ﴿وإذا بطشتم ببطشتم جبارين﴾ البطش السطوة والأخذ بالعنف. قال مجاهد، وغيره: البطش العسف قتلاً بالسيف، وضرباً بالسطو. والمعنى: فعلتم ذلك ظلماً، وقيل: هو القتل على العصب قاله الحسن، والكلي. قيل: والتقدير: وإذا أربتم البطش، لئلا يتحد الشرط، والجزاء، وانتصاب جبارين على الحال. قال الزجاج: إنما أنكر عليهم ذلك؛ لأنه ظلم، وأما في الحق، فالبطش بالسطو والسيف جائز. ثم لما وصفهم بهذه الأوصاف القبيحة الدالة على الظلم، والعتو، والتمرد، والتجبر أمرهم بالتقوى، فقال ﴿فاتقوا الله واطيعوا﴾ أجل التقوى ثم فصلها بقوله ﴿والتقوا الذي آمنكم بما تعلمون * آمنكم بانهام وبنيين﴾، وأعاد الفعل للتقرير والتأكيد ﴿وجنات وعيون﴾ أي: بساتين، وأنهار وأبيار. ثم وعظهم، وحذرهم، فقال ﴿إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾ إن كفرتم، وأصررت على ما أنتم فيه ولم تشكروا هذه النعم، والمراد بالعذاب العظيم الدنيوي والأخروي.

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس ﴿قالوا انؤمن لك﴾ أي: أنصنقك؟ وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ولتبعل الارئلون﴾ قال: الحواكون. وأخرج أيضاً عن قتادة قال: سفلة الناس، وأرائلهم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿الفلك المشحون﴾ قال: الممتلئ. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه، أنه قال: «أترون ما المشحون؟ قلنا: لا، قال: هو الموقر». وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال: هو المثلث. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً ﴿بكل ريع﴾ قال: طريق ﴿آية﴾ قال: علماً ﴿تعبثون﴾ قال: تلعبون. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿بكل ريع﴾ قال: شرف. وأخرجوا أيضاً عنه ﴿لعلكم تخلصون﴾ قال: كأنكم تخلصون. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿جبارين﴾ قال: أقوياء.

قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَزَّتْ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿٥٩﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿٦٠﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ سَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿٦٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَالْيَاقُونَ ﴿٦٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَهِئَاءَ مَأمِينِينَ ﴿٦٨﴾ فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ ﴿٦٩﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَتَجْعَلُونَ رِيبَ الْجِبَالِ بُرُوقاً قَرُونٍ ﴿٧١﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَالْيَاقُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تَطِيعُوا أَمْرَ النَّاسِ فِي شَيْءٍ يَمْسِكُ فِي الْأَرْضِ وَلَا بَصِيرَةٌ ﴿٧٣﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿٧٤﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ هَئِذَا نَأْتِيكُم بِطَلْحٍ مِثْلِ نَضِرٍ وَلَكِنَّ رَبَّكُم يَوْمَ تَمُوتُ ﴿٧٦﴾ وَلَا تَسْمَعُوا لِمَنْ يُشْوِرُ فَاْخَذَكُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ ﴿٧٧﴾ فَمَقْرِبُهَا فَاصْبِرُوا نَادِينَ ﴿٧٨﴾

النخل. قال زهير:

كان عيني في غربي مقبلة من النواضع تسقي جنة سحفاً
وسحفاً جمع سحوق، ولا يوصف به إلا النخل. وقيل:
المراد بالجنات غير النخل من الشجر، والأول أولى. وحكى
المالودي في معنى هضيم اثني عشر قولاً أحسنها ولوفقها
للغة ما نكرناه ﴿وتنحتون من الجبال بيوتاً فرهين﴾
النحت: النجر، والبري، نحته ينحته بالكسر براه، والنحات
البراية، وكانوا ينحتون بيوتهم من الجبال لما طالت أعمارهم،
وتهنم بناؤهم من الممر. قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن
ذكوان⁽¹⁾ (فرهين) بغير ألف. وقرأ الباقر (فارهين) بالألف.
قال أبو عبيدة، وغيره: وهما بمعنى واحد. والفرة: النشاط،
وفرق بينهما أبو عبيد، وغيره، فقالوا: (فارهين) حائقتين
بنحتها، وقيل: متجبرين، (وفرهين) بطرين اشترين، وبه قال
مجاهد، وغيره. وقيل: شرهين. وقال الضحاك: كيسين. وقال
قتادة: معجبين ناعمين آمنين، وبه قال الحسن. وقيل:
فرحين، قاله الأخفش. وقال ابن زيد: أقوياء ﴿فاتقوا الله
واطيعون﴾ ولا تطيعوا أمر المسرفين ﴿أي: المشركين،
وقيل: الذين عقروا الناقة، ثم وصف هؤلاء المسرفين بقوله
﴿الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون﴾ أي: ذلك
دابهم يفعلون الفساد في الأرض، ولا يصدر منهم الصلاح
البتة ﴿قالوا إنما أنت من المسحرين﴾ أي: الذين أصيبوا
بالمسح قاله مجاهد، وقتادة. وقيل: المسحر هو المعلل
بالطعام والشراب قاله الكلبي، وغيره، فيكون المسحر الذي
له سحر، وهو الرقة، فكانهم قالوا: إنما أنت بشر مثلنا تاكل
وتشرب. قال الفراء: أي: إنك تاكل تاكل الطعام والشراب،
وتسحر به، ومنه قول امرئ القيس، أو لبيد:

فإن تسلينا فميم نحن فلإننا عصافير من هذا الانام المسحر
وقال امرؤ القيس أيضاً:

أرانا موضعين لحتم غيب ونسحر بالطعام وبالشراب
قال المؤرج: المسحر المخلوق بلغة ربيعة ﴿ما أنت إلا
بشر مثلنا فات بآية إن كنت من الصائقين﴾ في قوله،
ودعواك ﴿قال هذه ناقة﴾ الله ﴿لها شرب ولكم شرب يوم
معلوم﴾ أي: لها نصيب من الماء، ولكم نصيب منه معلوم
ليس لكم أن تشربوا في اليوم الذي هو نصيبها، ولا هي
تشرب في اليوم الذي هو نصيبكم. قال الفراء: الشرب الحظ
من الماء. قال النحاس: فأما المصدر، فيقال: فيه شرب شرباً،
وشرباً، وأكثرها المضموم، والشرب يفتح الشين جمع
شارب، والمراد هنا لشرب بالكسر، وبه قرأ الجمهور فيها،
وقرأ ابن أبي عبيدة بالضم فيهما ﴿ولا تمسوها بسوء
فياخذكم عذاب يوم عظيم﴾ أي: لا تمسوها بعقر، أو
ضرب، أو شيء مما يسوؤها، وجواب النهي، فياخذكم

﴿فيعقروها فاصبحوا ناعمين﴾ على عقروها، لما عرفوا أن
العذاب نازل بهم، وذلك أنه أنظرهم ثلاثاً، فظهرت عليهم
العلامة في كل يوم، وندموا حيث لا ينفع الندم، لأن ذلك
لا يجدي عند معاناة العذاب، وظهور آثاره ﴿فاخذهم
العذاب﴾ الذي وعدهم به. وقد تقدم تفسير قوله ﴿إن في
لكم لآية وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ وإن ربك لهو
العزیز الرحيم﴾ في هذه السورة، وتقدم أيضاً تفسير قصة
صالح وقومه في غير هذه السورة.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن
عباس ﴿ونخل طلعتها هضيم﴾ قال: معشب. وأخرج ابن
جرير، وابن أبي حاتم عنه قال: أئنع وبلغ. وأخرج ابن أبي
حاتم عنه أيضاً قال: أرطب، واسترخى. وأخرج ابن جرير،
وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله ﴿فرهين﴾
قال: حائقتين. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه قال
﴿فرهين﴾ اشترين. وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن
جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: شرهين.
وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والخطيب،
وابن عسكرك من طرق عن ابن عباس في قوله ﴿إنما أنت
من المسحرين﴾ قال: من المخلوقين، وأنشد قول لبيد بن
ربيعة:

فإن تسلينا فميم نحن.....
وأخرج عبد بن حميد عنه أيضاً في قوله ﴿لها شرب﴾
قال: إذا كان يوماً أصدر لها لبناً ما شاموا.

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَيْهِ^(١) إِذْ قَالَ لَهُمُ تُؤْمِنُ رَبُّكَ آلَا تَنْقُرُونَ^(٢) وَإِن لَّكُمْ
رَسُولٌ أَمِينٌ^(٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا^(٤) وَكَأَنتُمْ كَوَافِرُونَ^(٥) وَكَأَنتُمْ كَوَافِرُونَ^(٦) وَكَأَنتُمْ كَوَافِرُونَ^(٧)
إِنَّا عَلَّيْنَا رَبَّ الْمَالِكِينَ^(٨) أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْمَنَافِيِّ^(٩) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ
لَكُمْ رِبَّكُمْ مِنْ زَوْجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ^(١٠) قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْهَ بَنُوؤُنَا لَنَكُونَنَّ
مِنَ الْمُتَحَرِّينَ^(١١) قَالَ إِنِّي لَمَكْرُومٌ مِنَ الْغَالِينَ^(١٢) رَبِّ بَنِي وَأَهْلِ يَمَا سَمَلُونَ^(١٣)
فَنَجَّيْتَهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ^(١٤) إِلاَّ عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِ^(١٥) ثُمَّ دَرَكْنَا الْآخَرِينَ^(١٦)
وَأَسْرَكْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَلَّ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ^(١٧) إِذْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ^(١٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَمَوْعِدٌ يُعْتَدُ^(١٩) كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ
الْمُرْسَلِينَ^(٢٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَنْقُرُونَ^(٢١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ^(٢٢) فَاتَّقُوا
اللَّهَ وَأَطِيعُوا^(٢٣) وَكَأَنتُمْ كَوَافِرُونَ^(٢٤) وَإِنَّا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَحَرِّينَ^(٢٥) وَكَأَنتُمْ كَوَافِرُونَ^(٢٦)
أَوْفُوا بِالْعَهْدِ^(٢٧) وَأَلْقُوا مِنْ أَكْبَادِكُمْ^(٢٨) وَارْزُقُوا بِالْفَنَائِينِ^(٢٩) وَارْزُقُوا بِالْفَنَائِينِ^(٣٠)
وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَمْنُوا فِي الْأَرْضِ مُبِيدِينَ^(٣١) وَاتَّقُوا الْيَوْمَ
الْعَظِيمَ^(٣٢) وَكَأَنتُمْ كَوَافِرُونَ^(٣٣) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ^(٣٤) وَمَا أَنْتَ إِلَّا
بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِنْ نَطَّلُكَ لَئِنْ الْكَذِبِينَ^(٣٥) فَاسْتَطَوَّعْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ
إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ^(٣٦) قَالَ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَا سَمَلُونَ^(٣٧) كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ
عَذَابٌ بِئَرٌ^(٣٨) لَّئِنْ كَانَ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ^(٣٩) إِذْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ^(٤٠) وَإِنَّ رَبَّكَ لَمَوْعِدٌ يُعْتَدُ^(٤١)

(1) قوله وابن ذكوان: الصواب ذكر نافع بدلاً عنه كما هو المشهور

تخفيفاً ألقيت حركتها على اللام. قال الخليل: الآية غيضة تنبت السدر، والأراك، ونحوهما من ناعم الشجر ﴿إِذْ قَالَ لَهُمُ شَعِيبُ الْآتَتُونَ﴾ لم يقل أخوهم كما قال في الأنبياء قبله؛ لأنه لم يكن من أصحاب الآية في النسب، فلما نكر مدين قال أخاهم شعيباً؛ لأنه كان منهم، وقد مضى تحقيق نسبه في الأعراف، وقد تقدم تفسير قوله ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولُ أَمِينٍ﴾ إلى قوله تعالى ﴿إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ في هذه السورة. قوله ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ أي: أتموا الكيل لمن أراد، وعامل به، ولا تكونوا من المخسرين: الناقصين للكيل والوزن، يقال: أخسرت الكيل والوزن: أي: نقصته، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَالَرُومَ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: 3]، ثم زاد سبحانه في البيان، فقال ﴿وَوَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ أي: أعطوا الحق بالميزان السوي؛ وقد مرّ بيان تفسير هذا في سورة سبحان، وقد قرئ (بالقسطاس) مضموماً، ومكسوراً ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ البخس النقص، يقال: بخسه حق: إذا نقصه أي: لا تنقصوا الناس حقوقهم التي لهم، وهذا تعميم بعد التخصيص، وقد تقدم تفسيره في سورة هود، وتقدم أيضاً تفسير ﴿وَلَا تَعْلُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ فيها، وفي غيرها ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأُولِينَ﴾ قرأ الجمهور بكسر الجيم، والباء، وتشديد اللام، وقرأ أبو حصين، والأعمش، والحسن، والأعرج، وشيبة بضمهما، وتشديد اللام، وقرأ السلمي بفتح الجيم مع سكون الباء، والجبلبة الخليفة قاله مجاهد، وغيره يعني: الأمم المتقدمة، يقال: جبل فلان على كذا أي: خلق. قال النحاس: الخلق يقال له: جبل بكسر الحرفين الأولين، وبضمهما مع تشديد اللام فيهما، وبضم الجيم، وسكون الباء، وضمه وفتحها، قال الهروي: الجبلبة، والجبلبة، والجبل، والجبل لغات، وهو: الجمع ذو العدد الكثير من الناس، ومنه قوله تعالى: ﴿جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ [يس: 62] أي: خلقاً كثيراً، ومن ذلك قول الشاعر:

والمسرت أعظم حاثث فيما يمر على الجبلية
﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمَسْحُورِينَ﴾ وما أنت إلا بشر مثلنا، قد تقدم تفسيره مستوفى في هذه السورة ﴿وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَافِرِينَ﴾ إن هي المخففة من الثقيلة عملت في ضمير شأن مقدر، واللام هي الفارقة أي: فيما تدعيه علينا من الرسالة، وقيل: هي النافية، واللام بمعنى إلا أي: ما نظنك إلا من الكافرين، والأوّل أولى ﴿فَاسْقُطْ عَلَيْنَا كَسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ كان شعيب يتوعدهم بالعذاب إن لم يؤمنوا، فقالوا له هذا القول نعتاً، واستبعاداً، وتعجيزاً. والكسف: القطعة. قال أبو عبيدة: الكسف جمع كسفة مثل سدر، وسدر. قال الجوهري: الكسفة القطعة من الشيء، يقال: أعطني كسفة من ثوبك، والجمع كسف، وقد مضى تحقيق هذا في سورة سبحان ﴿إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في دعوكم ﴿قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الشرك، والمعاصي، فهو مجازيكم

قومهم، وهي قصة لوط. وقد تقدم تفسير قوله ﴿إِذْ قَالَ لَهُمُ﴾ إلى قوله ﴿إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ في هذه السورة، وتقدم أيضاً تفسير قصة لوط مستوفى في الأعراف، قوله ﴿آتَتُونَ لِلزَّكَرَانِ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ الزكران جمع الذكر ضدّ الأنثى، ومعنى تاتون: تتكونون الزكران من العالمين، وهم بنو آدم، أو كل حيوان، وقد كانوا يفعلون ذلك بالغرباء على ما تقدم في الأعراف ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رِبْكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ أي: وتتركون ما خلقه الله لأجل استمتاعكم به من النساء، وأراد بالازواج جنس الإناث ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ أي: مجاوزون للحد في جميع المعاصي، ومن جعلتها هذه المعصية التي ترتكبوها من الزكران ﴿قَالُوا لَنْ لَمْ تَنْفَعْ يَا لُوطُ﴾ عن الإنكار علينا، وتقبيح أمرنا ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَخْرُجِينَ﴾ من بلدنا المنفيين عنها ﴿قَالَ إِنِّي لَعَمْرُكُمُ﴾، وهو ما أنتم فيه من إتيان الزكران ﴿مِنْ الْقَالِينَ﴾ المبغضين له، والقلبي البغض، قلبيته أقلية قلا، وقلاء، ومنه قول الشاعر:

فلست بمقلبي الخلال ولا قالي

وقال الآخر:

ومالك عندي إن نأيت قلاء

ثم رغب عليه الصلاة والسلام عن محاورتهم، وطلب من الله عز وجل أن ينجيهم، فقال ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ أي: من عملهم الخبيث، أو من عقوبته التي ستصيبهم، فأجاب الله سبحانه دعاءه، وقال ﴿فَنَجِّنَاهُ وَأَهْلَهُ لَجْمَعِينَ﴾ أي: أهل بيته، ومن تابعه على دينه، وأجاب دعوته ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾ هي: امرأة لوط، ومعنى ﴿مِنَ الْغَابِرِينَ﴾: من الباقيين في العذاب. وقال أبو عبيدة: من الباقيين في الهرم أي: بقيت حتى هرمت. قال النحاس: يقال للذاهب غابر، وللباقي غابر. قال الشاعر:

لا تكسع الشول باغبارها إنك لا تسدي من الناتج

والأغبار بقية الألبان، وتقول العرب: ما مضى، وما غير أي: ما مضى، وما بقي ﴿ثُمَّ بَمَرْنَا الْآخِرِينَ﴾ أي: أهلكتناهم بالخسف، والحصب ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ يعني: الحجارة ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ المخصوص بالذم محنوف، والتقدير مطرهم، وقد تقدم تفسير ﴿إِنْ فِي نَفْسِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وإن ربك لهو العزيز الرحيم. في هذه السورة ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ قرأ نافع، وابن كثير، وابن عامر (ليكة) بلام واحدة، وفتح التاء جعلوه اسماً غير معرّف بال مضافاً إليه أصحاب، وقرأ الباقيون (الأيكة) معرّفاً، والأيكة الشجر الملتف، وهي الغيضة، وليكة اسم للقرية، وقيل: هما بمعنى واحد اسم للغريضة. قال القرطبي: فأما ما حكاه أبو عبيد من: أن ليكة اسم القرية التي كانوا فيها، وأن الأيكة اسم البلد كله، فشيء لا يثبت، ولا يعرف من قبله، ولو عرف لكان فيه نظر، لأن أهل العلم جميعاً على خلافه. قال أبو علي الفارسي: الأيكة تعريف أيكة، فإذا حذفت الهمزة

على ذلك إن شاء، وفي هذا تهديد شديد ﴿فَكُنْ بِهِ﴾، فاستمروا على تكذيبه، وأصروا على ذلك ﴿فَلَاخْذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظَّلَّةِ﴾، والظلة السحاب، أقامها الله فوق رؤوسهم، فامطرت عليهم ناراً، فهلكوا، وقد أصابهم الله بما اقترحوا، لأنهم إن أرادوا بالكشف القطعة من السحاب، فظاهر، وإن أرادوا بها القطعة من السماء، فقد نزل عليهم العذاب من جهتها، وأضاف العذاب إلى يوم الظلة لا إلى الظلة تنبيهاً على أن لهم في ذلك اليوم عذاباً غير عذاب الظلة، كذا قيل. ثم وصف سبحانه هذا العذاب الذي أصابهم بقوله ﴿إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ﴾ لما فيه من الشدة عليهم التي لا يقادر قدرها، وقد تقدم تفسير قوله ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وإن ربك لهو العزيز الرحيم في هذه السورة مستوفى، فلا نعيده، وفي هذا التكرير لهذه الكلمات في آخر هذه القصص من التهديد، والزجر، والتقريع، والتأكيد ما لا يخفى على من يفهم مواقع الكلام، ويعرف أساليبه.

وقد أخرج الفريابي، وابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿وَيَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ قال: تركتم أقبال النساء إلى أدبار الرجال، وأدبار النساء. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن عكرمة نحوه، وأخرج أيضاً عن قتادة ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾ قال: هي: امرأة لوط غبرت في عذاب الله. وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد (ليكة) قال: هي الأيكة. وأخرج إسحاق بن بشر، وابن عساكر عن ابن عباس في قوله ﴿كُتِبَ لِأَصْحَابِ الْآيَةِ لِلْمُرْسَلِينَ﴾ قال: كانوا أصحاب غيضة من ساحل البحر إلى مدين ﴿وَإِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾، ولم يقل أخوهم شعيب. لأنه لم يكن من جنسهم ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ كيف لا تتقون، وقد علمتم أني رسول أمين لا تعتبرون من هلاك مدين، وقد أهلكوا فيما يأتون، وكان أصحاب الآية مع ما كانوا فيه من الشرك استنوا بسنة أصحاب مدين، فقال لهم شعيب ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم على ما أَدْعُوكُمْ إليه ﴿مَنْ لَجِرْ﴾ في العاجل من أموالكم ﴿إِنْ لَجِرْ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأُولِينَ﴾ يعني: القرون الأولين الذي أهلكوا بالمعاصي، ولا تهلكوا مثلهم ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ يعني من المخلوقين ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَافِرِينَ﴾ فأسقط علينا كسفاً من السماء، يعني: قطعاً من السماء ﴿فَلَاخْذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظَّلَّةِ﴾ أرسل الله إليهم سموماً من جهنم، فاطاف بهم سبعة أيام حتى انضجهم الحر، فحميت بيوتهم، وغلت مياههم في الآباء، والعيون، فخرجوا من منازلهم، ومحلتهم هاربيين، والسموم معهم، فسلط الله عليهم الشمس من فوق رؤوسهم، فغشيتهم حتى تقلقت فيها جماجمهم، وسلط الله عليهم الرمضاء من تحت أرجلهم حتى تساقطت لحوم أرجلهم، ثم نشأت لهم ظلة

كالسحابة السوداء، فلما رأوها يستغيثون بظلمها حتى إذا كانوا جميعاً أطبقت عليهم، فهلكوا، ونجى الله شعباً والذين آمنوا معه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه قال ﴿الْجِبِلَّةَ الْأُولِينَ﴾ الخلق الأولين. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم عنه أيضاً أنه سئل عن قوله ﴿فَلَاخْذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظَّلَّةِ﴾ قال: بعث الله عليهم حرّاً شديداً، فأخذ بانفاسهم، فدخلوا أجواف البيوت، فدخل عليهم أجوافها، فأخذ بانفاسهم، فخرجوا من البيوت هرباً إلى البرية، فبعث الله عليهم سحابة، فآظلتهم من الشمس، فوجدوا لها برداً ولذة، فنادى بعضهم بعضاً حتى إذا اجتمعوا تحتها أسقط الله عليهم ناراً، فذلك عذاب يوم الظلة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم عنه أيضاً قال: من حدثك من العلماء عذاب يوم الظلة، فكذب. أقول: فما نقول له رضي الله عنه فيما حدثنا به من ذلك مما نقلناه عنه ها هنا، ويمكن أن يقال: إنه لما كان هو البحر الذي علمه الله تأويل كتابه بدعوة نبيه ﷺ كان مختصاً بمعرفة هذا الحديث دون غيره من أهل العلم، فمن حدث بحديث عذاب الظلة على وجه غير هذا الوجه الذي حدثنا به، فقد وصانا بتكذيبه، لأنه قد علمه، ولم يعلمه غيره.

وَلَمْ يَنْزِلْ رَبِّي الْعَالَمِينَ ﴿١٠٠﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٠١﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٠٢﴾ بِلَاغٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ لِيَ ذُرِّيَّتَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ ﴿١٠٤﴾ أُولَىٰ بِكَ لَمَّ عَالِيَهُنَّ أَنْ يَعْلَمَنَّ عِلْمَكَ تَوَاتُؤَ الْإِسْرَةِ ﴿١٠٥﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجِينَ ﴿١٠٦﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهُدًى مُّذِيهِ ﴿١٠٧﴾ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُتَكِبِينَ ﴿١٠٨﴾ لَا تَحْمِلُوكَ بِهِ حَقًّا يَوْمَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿١٠٩﴾ فَإِنَّهُمْ بَاقِعَةٌ وَمَنْ لَا يَشْعُرْ بِكَ ﴿١١٠﴾ يَقُولُ هَلْ مِنْ شُرَكَائِي أَتَعْبُدُونَ ﴿١١١﴾ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١١٣﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١١٤﴾ وَمَا أَفْلَحْنَا مِنْ قُرَيْبَةٍ إِلَّا مَا مَدَدْنَاهُ ﴿١١٥﴾ ذِكْرًا وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا نَزَّلْنَا مِنَ السَّيْطَانِ ﴿١١٧﴾ وَمَا يَدْعِي هُمْ وَمَا يَسْتَعِينُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَرُونَ ﴿١١٩﴾ فَلَا تَنْفَعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُكْوَنُ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ ﴿١٢٠﴾ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿١٢١﴾ وَخُفِضَ جَنَاحُكَ لِمَنِ أَبْعَدُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ﴿١٢٢﴾ فَإِنْ عَصَاكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ وَوَكَّلْ عَلَى الْمُرِيرِ الرَّحِيمِ ﴿١٢٤﴾ الَّذِي يَرْبِكَ جِوْنُ نَعْمٍ ﴿١٢٥﴾ وَتَقَبَّلَكَ فِي السَّجْدِينَ ﴿١٢٦﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْغَلِيظُ ﴿١٢٧﴾ هَلْ أَتَيْتُكُمْ عَنْ مَن نَزَّلَ السَّيْطَانِ ﴿١٢٨﴾ نَزَلَ عَلَىٰ كُلِّ فَأَلٍ أَسِيرٍ ﴿١٢٩﴾ يَلْقَوْنَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿١٣٠﴾ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿١٣١﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿١٣٢﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿١٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَدْرٍ مَا ظَلَمُوا ﴿١٣٤﴾ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿١٣٥﴾

قوله ﴿وَإِنَّهُ لَنَزَّلَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ الضمير يرجع إلى ما نزل عليه من الأخبار أي: وإن هذه الأخبار، أو وإن القرآن، وإن لم يجر له نكر للعلم به، قيل: وهو على تقدير مضاف محذوف أي: نو تنزيل، وأما إذا كان تنزيل بمعنى

منزل، فلا حاجة إلى تقدير مضاف، قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وحفص عن عاصم ﴿نزل﴾ مخففاً، وقرأه الباقون مشدداً، و ﴿والروح الأمين﴾ على القراءة الثانية منصوب على أنه مفعول به، وقد اختار هذه القراءة أبو حاتم، وأبو عبيد، والروح الأمين جبريل، كما في قوله: ﴿قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك﴾ [البقرة: 97]، ومعنى ﴿على قلبك﴾: أنه تلاه على قلبه، ووجه تخصيص القلب، لأنه أول مترك من الحواس الباطنة. قال أبو حيان: إن على قلبك، ولتكون متعلقان بنزل، وقيل: يجوز أن يتعلقا بتنزيل، والأول أولى، وقرئ (نزل) مشدداً مبنياً للمفعول، والفاعل هو الله تعالى، ويكون الروح على هذه القراءة مرفوعاً على النيباء ﴿لتكون من المنذرين﴾ علة للإنزال أي: أنزله، لتنذرهم بما تضمنه من التحذيرات، والإنذارات، والعقوبات ﴿يلسان عربي مبين﴾ متعلق بالمنذرين أي: لتكون من المنذرين بهذا اللسان، وجوز أبو البقاء أن يكون بدلاً من «به»، وقيل: متعلق بنزل، وإنما أخر للاعتناء بذكر الإنذار، وإنما جعل الله سبحانه القرآن عربياً بلسان الرسول العربي لئلا يقول مشركو العرب: لسانا فهم ما تقوله بغير لساننا، فقطع بذلك حججهم، وأزاح علتهم، ودفع معذرتهم ﴿وإنه لفي زبر الأولين﴾ أي: إن هذا القرآن باعتبار أحكامه التي أجمعت عليها الشرائع في كتب الأولين من الأنبياء، والزبر الكتب، الواحد زبور، وقد تقدم الكلام على تفسير مثل هذا. وقيل: الضمير لرسول الله ﷺ، وقيل: المراد بكون القرآن في زبر الأولين أنه مذكور فيها هو نفسه، لا ما اشتمل عليه من الأحكام، والأول أولى ﴿أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل﴾ الهمزة للإنكار، والواو للعطف على مقدر كما تقدم مراراً، والآية العلامة والدلالة أي: ألم يكن لهؤلاء علامة دالة على أن القرآن حق، وأنه تنزيل رب العالمين. وأنه في زبر الأولين، أن يعلمه علماء بني إسرائيل على العموم، أو من آمن منهم كعبد الله بن سلام، وإنما صارت شهادة أهل الكتاب حجة على المشركين؛ لأنهم كانوا يرجعون إليهم، ويصدقونهم. قرأ ابن عامر (تكن) بالفوقية، وآية بالرفع على أنها اسم كان، وخبرها أن يعلمه إلخ، ويجوز أن تكون تامة، وقرأ الباقون (يكن) بالتحية، وآية بالنصب على أنها خبر يكن، واسمها أن يعلمه إلخ، قال الزجاج: أن يعلمه اسم يكن، وآية خبره. والمعنى: أو لم يكن لهم علم علماء بني إسرائيل أن محمداً نبي حق علامة ودلالة على نبوته، لأن العلماء الذين آمنوا من بني إسرائيل كانوا يخبرون بوجود نكره في كتبهم، وكذا قال الفراء، ووجها قراءة الرفع بما نكرنا. وفي قراءة ابن عامر نظر، لأن جعل النكرة اسماً، والمعرفة خبراً غير سائغ، وإن ورد شاذاً في مثل قول الشاعر:

فلايك موقف منك الوداعا

وقول الآخر:

وكلن مزاجها عسل وماء

ولا وجه لما قيل: إن النكرة قد تخصصت بقولهم ﴿لهم﴾؛ لأنه في محل نصب على الحال، والحال صفة في المعنى، فأحسن ما يقال في التوجيه: ما قلنا نكره من أن يكن تامة ﴿ولو نزلناه على بعض الأعجمين﴾ أي: لو نزلنا القرآن على الصفة التي هو عليها على رجل من الأعجمين الذي لا يقدرون على التكلم بالعربية ﴿فقراه عليهم﴾ قراءة صحيحة ﴿ما كانوا به مؤمنين﴾ مع انضمام إعجاز القراءة من الرجل الأعجمي للكلام العربي إلى إعجاز القرآن. وقيل: المعنى: ولو نزلناه على بعض الأعجمين بلغة العجم، فقراه عليهم بلغة لم يؤمنوا به، وقالوا: ما نفقه هذا، ولا نفهمه، ومثل هذا قوله: ﴿ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته﴾ [فصلت: 44] يقال: رجل أعجم، وأعجمي إذا كان غير فصيح للسان، وإن كان عربياً، ورجل عجمي إذا كان أصله من العجم، وإن كان فصيحاً، إلا أن الفراء أجاز أن يقال: رجل عجمي بمعنى أعجمي، وقرأ الحسن (على بعض الأعجميين)، وكذلك قرأ الجحدري. قال أبو الفتح بن جني: أصل الأعجمين: الأعجميين، ثم حذف ياء النسب، وجعل جمعه بالياء والنون بليلاً عليها ﴿كنك سلكناه في قلوب المجرمين﴾ أي: مثل تلك السلك سلكناه أي: أسلكناه في قلوبهم يعني: القرآن حتى فهموا معانيه، وعرفوا فصاحته، وأنه معجز. وقال الحسن، وغيره: سلكنا الشرك والتكذيب في قلوب المجرمين، وقال عكرمة: سلكنا القسوة، والأول أولى، لأن السياق في القرآن، وجملة ﴿لا يؤمنون﴾ تحتمل وجهين: الأول الاستثنا على جهة البيان والإيضاح لما قبلها. والثاني: أنها في محل نصب على الحال من الضمير في سلكناه، ويجوز أن يكون حالاً من المجرمين. وأجاز الفراء الجزم في لا يؤمنون، لأن فيه معنى الشرط، والمجازاة، وزعم أن من شأن العرب إذا وضعت لا موضع كيلاً مثل هذا ربما جزمت ما بعدها، وربما رفعت، فتقول: ربطت الفرس لا ينفلت بالرفع، والجزم؛ لأن معناه: إن لم أربطه ينفلت، وأنشد لبعض بني عقيل:

وحتى رأينا أحسن الفعل بيننا مسلكه لا يقرب الشر قارب بالرفع، ومن الجزم قول الآخر:

لطل ما حللتماها لا ترد فخلياها والسخال تبترد قال النحاس: وهذا كله في لا يؤمنون خطأ عند البصريين، ولا يجوز الجزم بلا جازم ﴿حتى يروا العذاب الأليم﴾ أي: لا يؤمنون إلى هذه الغاية، وهي مشاهدتهم للعذاب الأليم ﴿فيآتيهم﴾ العذاب ﴿بغتة﴾ أي: فجأة ﴿و﴾ الحال أن ﴿لهم﴾ لا يشعرون ﴿بآتيانه﴾، وقرأ الحسن، (فتأتيهم) بالفوقية: أي: الساعة، وإن لم يتقدم لها نكر، لكنه قد دل العذاب عليها ﴿فيقولوا هل نحن مفظرون﴾ أي: مؤخرون، وممهلون، قالوا هذا تحسراً على ما فات من الإيمان، وتعميلاً للرجعة إلى الدنيا، لاستدراك ما فرط منهم. وقيل: إن المراد بقولهم: ﴿هل نحن مفظرون﴾ الاستعجال للعذاب على طريقة الاستهزاء لقوله ﴿أبعداينا

يستعجلون»، ولا يخفى ما في هذا من البعد والمخالفة للمعنى الظاهر، فإن معنى **«هل نحن منظرون»**: طلب النظرة، والإمهال، وأما قوله **«فيعذبنا يستعجلون»**، فالمراد به الرد عليهم، والإنكار لما وقع منهم من قولهم: **«أمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب اليم»** [الأنفال: 32]، وقولهم: **«فأتنا بما تعدنا»** [الأعراف: 70، هود: 32، الأحقاف: 22] **«فأرأيت إن متعناهم سنين»** الاستفهام للإنكار، والفاء للعطف على مقدر يناسب المقام كما مر في غير موضع، ومعنى رأيت: أخبرني، والخطاب لكل من يصلح له أي: أخبرني إن متعناهم سنين في الدنيا متطاوله، وطولنا لهم الأعمار **«ثم جاءهم ما كانوا يوعدون»** من العذاب، والهلاك **«ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون»** ما هي الاستفهامية، والمعنى: أي شيء أغنى عنهم كونهم تمتعين ذلك التمتع الطويل، و «ما» في **«ما كانوا يمتعون»** يجوز أن تكون المصدرية، ويجوز أن تكون الموصولة، والاستفهام للإنكار التقريري، ويجوز أن تكون الأولى نافية، والمفعول محذوف أي: لم يغن عنهم تمتيعهم شيئاً، وقرئ (يمتعون) بإسكان الميم، وتخفيف التاء من أمتع الله زيداً بكذا **«وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون»** من مزيدة للتأكيد أي: وما أهلكنا قرية من القرى إلا لها منذرون. وجملة **«إلا لها منذرون»** يجوز أن تكون صفة لقرية، ويجوز أن تكون حالاً منها، وسوّغ ذلك سبق النفي، والمعنى: ما أهلكنا قرية من القرى إلا بعد الإنذار إليهم، والإعذار بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وقوله **«نكزي»** بمعنى تنكرة، وهي في محل نصب على العلة، أو المصدرية. وقال الكسائي: نكزي في موضع نصب على المصدرية أي: الفراء، والزجاج: إنها في موضع نصب على المصدرية أي: ينكزون نكزي. قال النحاس: وهذا قول صحيح، لأن معنى **«إلا لها منذرون»**: إلا لها منكرون. قال الزجاج: ويجوز أن يكون نكزي في موضع رفع على أنها خبر مبتدأ محذوف أي: إنذارنا نكزي، أو ذلك نكزي. قال ابن الأنباري: المعنى: هي نكزي، أو ينكروهم نكزي، وقد رجح الأخفش أنها خبر مبتدأ محذوف **«وما كنا ظالمين»** في تعنيهم، فقد قنمنا الحجة إليهم، وأنذرناهم، وأعزنا إليهم **«وما تنزلت به الشياطين»** أي: بالقرآن، وهذا رد لما زعمه الكفرة في القرآن أنه من قبيل ما يلقيه الشياطين على الكهنة **«وما ينبغي لهم»** ذلك، ولا يصح منهم **«وما يستطيعون»** ما نسب الكفار إليهم أصلاً **«إنهم عن السمع»** للقرآن، أو لكلام الملائكة **«لمعزولون»** محجوبون مرجومون بالشبه. وقرأ الحسن، وابن السميع، والأعمش (وما تنزلت به الشياطين) بالواو، والنون إجراء له مجرى جمع السلامة. قال النحاس: وهذا غلط عند جميع النحويين. قال: وسمعت علي بن سليمان يقول: سمعت محمد بن يزيد يقول: هذا من غلط العلماء، وإنما يكون بشبهة لما رأى الحسن في آخره، ياء، وتوناً، وهو في موضع رفع اشتبه عليه بالجمع السالم،

فغلط. قال الفراء: غلط الشيخ يعني: الحسن، فقيل: ذلك للنخضر بن شميل، فقال: إن جاز أن يحتج بقول روبة، والعجاج، ونويهما، جاز أن يحتج بقول الحسن، وصاحبه يعني: محمد بن السميع مع أنا نعلم أنهما لم يقرأ بذلك إلا، وقد سمعا فيه شيئاً. وقال المؤرج: إن كان الشيطان من شاط يشيط كان لقراءتهما وجه. قال يونس بن حبيب: سمعت أعرابياً يقول: دخلنا بساتين من ورائها بساتون. ثم لما قرّر سبحانه حقية القرآن، وأنه منزل من عنده أمر نبيه ﷺ بدعاء الله وحده، فقال **«فلا تدع مع الله إلهاً آخر فتكون من المعبين»**، وخطاب النبي ﷺ بهذا مع كونه منزماً عنه معصوماً منه لحث العباد على التوحيد، ونهيهم عن شوائب الشرك، وكأنه قال: أنت أكرم الخلق علي، وأعزهم عندي، ولو اتخلت معي إلهاً لعنبتك، فكيف بغيرك من العباد **«وانظر عشيرتك الأقربين»** خص الأقربين: لأن الاهتمام بشأنهم أولى، وهدايتهم إلى الحق أقدم، قيل: هم قريش، وقيل: بنو عبد مناف، وقيل: بنو هاشم. وقد ثبت في الصحيح: أن هذه الآية لما نزلت دعا النبي ﷺ قريشاً، فاجتمعوا، فعم، وخص، فنلك منه ﷺ بيان للعشيرة الأقربين، وسياتي بيان ذلك **«ولخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين»** يقال: خفض جناحه إذا آلنه، وفيه استعارة حسنة. والمعنى: ألن جناحك، وتواضع لمن اتبعك من المؤمنين، وأظهر لهم المحبة، والكرامة، وتجاوز عنهم **«فإن عصوك»** أي: خالفوا أمرك، ولم يتبعوك **«فقل إني بريء مما تعملون»** أي: من عملكم، أو من الذي تعملونه، وهذا يدل على أن المراد بالمؤمنين المشارفون للإيمان المصنفون باللسان، لأن المؤمنين الخالص لا يعصونه، ولا يخالفونه، ثم بين له ما يعتمد عليه عند عصيانهم له، فقال **«فتوكل على العزيز الرحيم»** أي: فوِّض أمورك إليه، فإنه القادر على قهر الأعداء، وهو: الرحيم للولياء، قرأ نافع، وابن عامر (فتوكل) بالفاء، وقرأ الباقون (وتوكل) بالواو، فعلى القراءة الأولى يكون ما بعد الفاء كالجزء مما قبلها مترتباً عليه، وعلى القراءة الثانية يكون ما بعد الواو معطوفاً على ما قبلها عطف جملة على جملة من غير ترتيب **«الذي يراك حين تقوم»** أي: حين تقوم إلى الصلاة وحده في قول أكثر المفسرين، وقال مجاهد: حين تقوم حيثما كنت **«وتقلب في الساجدين»** أي: ويراك إن صليت في الجماعة راكعاً، وساجداً، وقائماً، كذا قال أكثر المفسرين. وقيل: يراك في الموحدين من نبي إلى نبي حتى أخرجك في هذه الأمة. وقيل: المراد بقوله **«يراك»** حين تقوم قيامه إلى التهجد، وقوله **«وتقلب في الساجدين»** يريد ترنك في تصفح أحوال المجتهدين في العبادة، وتقلب بصرك فيهم، كذا قال مجاهد **«إنه هو السميع»** لما تقول **«العليم»** به. ثم أكد سبحانه معنى قوله **«وما تنزلت به الشياطين»**، وبينه، فقال **«هل أنبئكم على من تنزل الشياطين»** أي: على من تنزل، فحذف إحدى التاءين، وفيه بيان استحالة تنزل

والشياطين على رسول الله ﷺ ﴿تَنْزِلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾، والأفَّاك الكثير الإفك، والأثيم كثير الإثم، والمراد بهم كل من كان كاهناً، فإن الشياطين كانت تسترقق السمع، ثم يأتون إليهم، فيلقونهم إليهم، وهو معنى قوله ﴿يَلْقَوْنَ السَّمْعَ﴾ أي: ما يسمعون مما يسترققونه، فتكون جملة ﴿يَلْقَوْنَ السَّمْعَ﴾ على هذا راجعة إلى الشياطين في محل نصب على الحال أي: حال كون الشياطين ملقنين السمع أي: ما يسمعون من الملائكة الأعلى إلى الكهان. ويجوز أن يكون المعنى: إن الشياطين يلقون السمع أي: ينصتون إلى الملائكة الأعلى: ليسترققوا منهم شيئاً، ويكون المراد بالسمع على الوجه الأول المسموع، وعلى الوجه الثاني نفس حاسة السمع. ويجوز أن تكون جملة ﴿يَلْقَوْنَ السَّمْعَ﴾ راجعة إلى كل أفَّاك أثيم على أنها صفة، أو مستأنفة، ومعنى الإلقاء: أنهم يسمعون ما تلقونه إليهم الشياطين من الكلمات التي تصق الواحدة منها، وتكذب المائة الكلمة كما ورد في الحديث، وجملة ﴿وَكَثَرَهُمْ كَانِبُونَ﴾ راجعة إلى كل أفَّاك أثيم أي: وأكثر هؤلاء الكهنة كانبون فيما يلقونه من الشياطين، لأنهم يضمون إلى ما يسمعون كثيراً من أكانيبيهم المختلفة، أو أكثرهم كانبون فيما يلقونه من السمع أي: المسموع من الشياطين إلى الناس، ويجوز أن تكون جملة ﴿وَكَثَرَهُمْ كَانِبُونَ﴾ راجعة إلى الشياطين أي: وأكثر الشياطين كانبون فيما يلقونه إلى الكهنة مما يسمعون، فإنهم يضمون إلى ذلك من عند أنفسهم كثيراً من الكذب، وقد قيل: كيف يصح على الوجه الأول وصف الأفَّاكين بأن أكثرهم كانبون بعد ما وصفوا جميعاً بالإفك. وأجيب: بأن المراد بالأفَّاك الذي يكثر الكذب لا الذي لا يتنطق إلا بالكذب. فالمراد بقوله ﴿وَكَثَرَهُمْ كَانِبُونَ﴾ أنه قل من يصنق منهم فيما يحكي عن الشياطين، والغرض الذي سيق لأجله هذا الكلام رد ما كان يزعمه المشركون من كون النبي ﷺ من جملة من يلقي إليه الشيطان السمع من الكهنة ببيان أن الأغلب على الكهنة الكذب، ولم يظهر من أحوال محمد ﷺ إلا الصدق، فكيف يكون كما زعموا، ثم إن هؤلاء الكهنة يعظمون الشياطين، وهذا النبي المرسل من عند الله برسالاته إلى الناس يذمهم، ويلعنهم، ويأمر بالتعوذ منهم. ثم لما كان قد قال قائل من المشركين: إن النبي ﷺ شاعر، بين سبحانه حال الشعراء، ومنافاة ما هم عليه لما عليه النبي ﷺ، فقال ﴿وَالشَّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ والمعنى: أن الشعراء يتبعهم أي: يجاريهم، ويسلك مسلكهم، ويكون من جملتهم، الغاؤون أي: الضالون عن الحق، والشعراء جمع شاعر، والغاؤون جمع غاو، وهم ضلال الجن والإنس، وقيل: الزائلون عن الحق، وقيل: الذين يروون الشعر المشتمل على الهجاء، وما لا يجوز، وقيل: المراد شعراء الكفار خاصة، قرأ الجمهور (والشعراء) بالرفع على أنه مبتدأ، وخبره ما بعده، وقرأ عيسى بن عمر (الشعراء) بالنصب على الاشتغال، وقرأ نافع، وشيبة، والحسن، والسلمي (يتبعهم) بالتخفيف،

وقرأ الباقون بالتشديد، ثم بين سبحانه قبائح شعراء الباطل، فقال ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾، والجملة مقررّة لما قبلها، والخطاب لكل من تتأتى منه الرؤية، يقال: هام يهيم هيماً، وهيماناً إذا ذهب على وجهه أي: ألم تر أنهم في كل فَنٍّ من فنون الكذب يخوضون، وفي كل شعب من شعاب الزور يتكلمون، فتارة يمزقون الأعراض بالهجاء، وتارة من المجون بكل ما يمجج السمع، ويستقبحه العقل، وتارة يخوضون في بحر السفاهة والوقاحة، ويذمون الحق، ويمنحون الباطل، ويرغبون في فعل المحرمات، ويدعون الناس إلى فعل المنكرات كما تسمعه في أشعارهم من مدح الخمر، والزنا، واللواط، ونحو هذه الرذائل الملعونة، ثم قال سبحانه ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ أي: يقولون فعلنا، وفعلنا، وهم كذبة في ذلك، فقد يلون بكلامهم على الكرم، والخير، ولا يفعلونه، وقد ينسبون إلى أنفسهم من أفعال الشر ما لا يقدرّون على فعله كما تجده في كثير من أشعارهم من الدعاوى الكاذبة، والزور الخالص المتضمن لقنّف المحسنات، وأنهم فعلوا بهنّ كذا، وكذا، وذلك كذب محض، واقتراء بحت.. ثم استثنى سبحانه الشعراء المؤمنين الصالحين الذين أغلب أحوالهم تحري الحق والصدق، فقال ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: دخلوا في حزب المؤمنين، وعملوا بأعمالهم الصالحة، ﴿وَوَنُكِرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ في أشعارهم ﴿وَوَافَتْهُمْ أَهْلُهَا﴾ أي: كمن يهجو منهم من هجاء، أو ينتصر لعلم، أو فاضل كما كان يقع من شعراء النبي ﷺ، فإنهم كانوا يهجون من يهجو، ويحمون عنه، وينذون عن عرضه، ويكافحون شعراء المشركين، وينافحونهم، ويخل في هذا من انتصر بشعره لأهل السنة، وكافح أهل البدعة، وزيف ما يقوله شعراؤهم من مدح بدعتهم، وهجو السنة المطهرة، كما يقع ذلك كثيراً من شعراء الرافضة، ونحوهم، فإن الانتصار للحق بالشعر، وتزييف الباطل به من أعظم المجاهدة، وفاعله من المجاهدين في سبيل الله المنتصرين لدينه القائمين بما أمر الله بالقيام به.

واعلم أن الشعر في نفسه ينقسم إلى أقسام، فقد يبلغ ما لا خير فيه منه إلى قسم الحرام، وقد يبلغ ما فيه خير منه إلى قسم الواجب، وقد وردت أحاديث في ذمه، ونم الاستكثار منه، ووردت أحاديث أخر في إباحته، وتجويزه، والكلام في تحقيق ذلك يطول، وسنذكر في آخر البحث ما ورد في ذلك من الأحاديث. ثم ختم سبحانه هذه السورة بأية جامعة للوعيد كله، فقال ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾، فإن في قوله ﴿سَيَعْلَمُ﴾ تهويلاً عظيماً، وتهويداً شديداً، وكذا في إطلاق الذين ظلموا، وإيهام أي منقلب ينقلبون، وخصص هذه الآية بعضهم بالشعراء، ولا وجه لذلك، فإن الاعتبار بعموم اللفظ، وقوله ﴿أَيَّ مُنْقَلَبٍ﴾ صفة لمصدر محنوف أي: ينقلبون منقلباً أي منقلب، وقدم لتضمنه معنى الاستفهام، ولا يعمل فيه سيعلم، لأن

ها هنا؟ فوالله ما يخفى عليّ خشوعكم، ولا ركوعكم، وإنّي لأراكم من وراء ظهري». وأخرج ابن أبي عمر العدني في مسنده، والبخاري، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، وأبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس في قوله **﴿وَتَقْلِبُ فِي السَّاجِدِينَ﴾** قال: من نبيّ إلى نبيّ حتى أخرجت نبياً وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، وأبو نعيم عنه في الآية نحوه. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن عائشة قالت:

«سأل أناس النبي ﷺ عن الكهان قال: إنهم ليسوا بشيء، قالوا: يا رسول الله إنهم يحنّون أحياناً بالشئ يكون حقاً؟ قال: تلك الكلمة من الحق يخطئها الجني، فيقذفها في آذن وليه، فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة»، وفي لفظ للبخاري «فيزبدون معها مائة كذبة». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس قال: تهاجى رجلان على عهد رسول الله ﷺ أحدهما: من الانصار، والآخر من قوم آخرين، وكان مع كلّ واحد منهما غواة من قومه، وهم السفهاء، فأنزل الله **﴿وَالشَّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾** الآيات. وأخرج ابن سعد، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وابن عسكرك عن عروة قال: لما نزلت **﴿وَالشَّعْرَاءُ﴾** إلى قوله **﴿مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾** قال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله قد علم الله أنّي منهم، فأنزل الله **﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾** إلى قوله **﴿يُنْقَلِبُونَ﴾**، ودوي نحو هذا من طرق. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس **﴿يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾** قال: هم: الكفار يتبعون ضلال الجنّ، والإنس **﴿فِي كُلِّ وَاوٍ يَهْمُونَ﴾** قال: في كلّ لغو يخوضون **﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾** أكثر قولهم يكذبون، ثم استثنى منهم، فقال **﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَنَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾** قال: ردوا على الكفار كانوا يهجون المؤمنين. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه عنه أيضاً **﴿وَالشَّعْرَاءُ﴾** قال: المشركون منهم الذين كانوا يهجون النبي ﷺ **﴿يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾** قال: قال غواة الجنّ في كلّ وادٍ يهيمون في كلّ فنّ من الكلام يأخذون. ثم استثنى، فقال **﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾** الآية، يعني حسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك كانوا ينبون عن النبي ﷺ، وأصحابه بهجاء المشركين. وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن أبي حاتم عنه **﴿الغَاوُونَ﴾** قال: هم الرواة. وأخرج ابن مردويه، وابن عسكرك عنه أيضاً **﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾** الآية قال: أبو بكر، وعمر، وعليّ، وعبد الله بن رواحة. وأخرج أحمد، والبخاري في تاريخه، وأبو يعلى، وابن مردويه عن كعب بن مالك: «أنه قال للنبي ﷺ: إن الله قد أنزل في الشعراء ما أنزل، فكيف ترى فيه؟ فقال: إن المؤمن يجاهد بسيفه، ولسانه، والذي نفسي بيده لكنّ ما ترمونهم به نضح النبل». وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد عن أبي سعيد قال: «بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ إذا عرض شاعر ينشد، فقال النبي ﷺ: لأنّ

الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله، بل هو معلق عن العمل فيه. وقرأ ابن عباس، والحسن (أي منفلت ينفلتون) بالفاء مكان القاف، والتاء مكان الباء من الانفلات بالنون، والفاء الفوقية، وقرأ الباقر بالقاف، والباء من الانقلاب بالنون، والقاف، والموحدة، والمعنى على قراءة ابن عباس، والحسن: أن الظالمين يطمعون في الانفلات من عذاب الله، والانفكاك منه، ولا يقدرّون على ذلك.

وقد أخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة **﴿وَأَنَّهُ لَنَتَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾** قال: هذا القرآن **﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾** قال: جبريل. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس **﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾** قال: جبريل. وأخرج أبو الشيخ في العظمة، وابن مردويه عنه، عن النبي ﷺ في قوله **﴿الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾** قال: الروح الأمين جبريل، رأيت له ستمائة جناح من لؤلؤ قد نشرها فيها مثل ريش الطواويس. وأخرج ابن النجار في تاريخه عن ابن عباس في قوله **﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾** قال: بلسان قريش، ولو كان غير عربيّ ما فهموه. وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب عن بريدة في قوله **﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾** قال: بلسان جرهم. وأخرج مثله أيضاً عنه ابن المنذر، وابن أبي حاتم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس قال: كان عبد الله بن سلام من علماء بني إسرائيل، وكان من خيارهم، فأمن بكتاب محمد، فقال لهم الله **﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾**. وأخرج البخاري، مسلم، وغيرهما عن أبي هريرة قال: «لما نزلت هذه الآية **﴿وَأَنذَرْتُ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾** دعا رسول الله ﷺ قريشاً، وعم، وخص، فقال: يا معشر قريش اتقوا أنفسكم من النار، فإنّي لا أملك لكم ضرراً، ولا نفعاً، يا معشر بني كعب بن لؤي اتقوا أنفسكم من النار، فإنّي لا أملك لكم ضرراً، ولا نفعاً، يا معشر بني كعب بن لؤي اتقوا أنفسكم من النار، فإنّي لا أملك لكم ضرراً، ولا نفعاً، يا معشر بني قصي اتقوا أنفسكم من النار، فإنّي لا أملك لكم ضرراً، ولا نفعاً، يا معشر بني عبد المطلب اتقوا أنفسكم من النار، فإنّي لا أملك لكم ضرراً، ولا نفعاً، يا فاطمة بنت محمد اتقوا أنفسكم من النار، فإنّي لا أملك لك ضرراً، ولا نفعاً، إلّا أنّ لكم رحماً، وسأبها ببلاها، وفي الباب أحاديث من طريق جماعة من الصحابة. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله **﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾** قال: للصلاة. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عنه **﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾** * **﴿وَتَقْلِبُ فِي السَّاجِدِينَ﴾** يقول: قيامك، وركوعك، وسجودك. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه أيضاً **﴿وَتَقْلِبُ فِي السَّاجِدِينَ﴾** قال: يراك، وأنت مع الساجدين تقوم، وتقدم معهم، وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً في قوله **﴿وَتَقْلِبُ فِي السَّاجِدِينَ﴾** قال: كان النبي ﷺ إذا قام إلى الصلاة يرى من خلفه كما يرى من بين يديه. ومنه الحديث في الصحيحين، وغيرهما عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «هل ترون قبلي

الكلام». قال القرطبي: رواه إسماعيل عن عبد الله بن عون الشامي، وحديثه عن أهل الشام صحيح، فيما قال يحيى بن معين، وغيره. قال: وروى عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «الشعر بمنزلة الكلام حسنة كحسن الكلام، وقبيحة كقبيح الكلام». وأخرج مسلم من حديث عمرو بن الشريد عن أبيه قال: «رأيت رسول الله ﷺ، فقال: هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت؟ قلت: نعم. قال: هيه، فأنشدته بيتاً، فقال: هيه، ثم أنشدته بيتاً، فقال: هيه حتى أنشدته مائة بيت». وأخرج ابن أبي حاتم عن فضالة بن عبيد في قوله «وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون» قال: هؤلاء الذين يخربون البيت.

تفسير سورة النمل

قال القرطبي: وهي مكية كلها في قول الجميع. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: أنزلت سورة النمل بمكة، وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طسَ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ① هُكَى وَفُكَى لِلْمُؤْمِنِينَ ②
الَّذِينَ يُعِيشُونَ صَلَواتَهُ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ③ إِنَّ الَّذِينَ لَا
يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زُتُوا هُمْ أَصْحَابُهَا ④ هُمْ يَمُوتُونَ ⑤ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ
الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ ⑥ تِلْكَ نَاقَةُ الْعَرَبِ مِنْ أَدْنَى حِكْمِ
عَلِيمٍ ⑦ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ إِنِّي أَنَا نَذِيرٌ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَأَنِصِرْ ⑧ وَأَنصِرْ
قَبِيلَكَ لَعَلَّكَ تُقَاتِلُونَ ⑨ فَلَمَّا جَاءَهَا نَذِيرٌ أَنَّهُ يَأْتِيكَمْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا
وَسَمِعَ اللَّهُ رَبَّ الْعَالَمِينَ ⑩ يَوْمَئِذٍ أَنَا اللَّهُ الْغَنِيُّ الْحَكِيمُ ⑪ وَأَنَّى عَصَا
فَلَمَّا رَأَوْهَا تَبَخَّرُوا ⑫ وَأَنَّى جَاءَهَا وَلَمْ يَتَذَكَّرْ ⑬ وَأَنَّى عَصَا لَدَى
الْمُرْسَلِينَ ⑭ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حِسَابًا بَعْدَ مَا نُوهِى عَنْهُ رَبِّهِمْ ⑮ وَأَدْبَلَ
يَدَيْهِ فِي جَيْدِ حِمْلِهِ يَعْصَلُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ فِي بَيْتِهِ الْكَافِرُونَ ⑯ وَفَوَيْدُ اللَّهِ كَأَنَّهُ
قَوْمٌ قَنِيضُونَ ⑰ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا أَنشَأَ مِجْرَاءَ كَافِرًا هَذَا يَتَحَفَّضُونَ ⑱ وَحَمْدُ
يَا وَاسْتَفْتَنَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ فَلَمَّا فَانَظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَذَابُ الْمُنْفَكِينَ ⑲

قوله ﴿طس﴾ قد مرَّ الكلام مفصلاً في فواتح السور، وهذه الحروف إن كانت اسماً للسورة، فمحلها الرفع على الابتداء، وما بعده خبره، ويجوز أن يكون خبر مبتداً محذوف أي: هذا اسم هذه السورة، وإن لم تكن هذه الحروف اسماً للسورة، بل مسروبة على نمط التعديد، فلا محل لها، والإشارة بقوله ﴿تلك﴾ إلى نفس السورة، لأنها قد تكررت إجمالاً بذكر اسمها، واسم الإشارة مبتداً، وخبره ﴿آيات القرآن﴾، والجملة خبر المبتداً الأول على تقدير أنه مرتفع بالإبتداء «وكتاب مبين» قرا الجمهور بجر كتاب عطفاً على القرآن أي: تلك آيات القرآن، وآيات كتاب مبين، ويحتمل

يمتلئ جوف أحدكم قبحاً خيراً له من أن يمتلئ شعراً». وأخرج الديلمي عن ابن مسعود مرفوعاً الشعراء الذين يموتون في الإسلام يأمرهم الله أن يقولوا شعراً يتغنى به الحور العين لأزواجهن في الجنة، والذين ماتوا في الشرك يدعون بالويل، والثبور في النار. وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من الشعر لحكمة» قال: وإتاه قريظة بن كعب، وعبد الله بن رواحة، وحسان بن ثابت، فقالوا: إنا نقول الشعر، وقد نزلت هذه الآية، فقال رسول الله ﷺ: «اقرأوا، فقرأوا ﴿والشعراء﴾ إلى قوله ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ فقال: أنتم هم ﴿ونكروا الله كثيراً﴾، فقال: أنتم هم. ﴿وانتصروا من بعد ما ظلموا﴾ فقال: أنتم هم، وأخرج ابن سعد، وابن أبي شيبه عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت: «اهج المشركين، فإن جبريل معك». وأخرج ابن سعد عن البراء بن عازب قال: «قيل: يا رسول الله إن أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب يهجوك، فقام ابن رواحة فقال: يا رسول الله ائذن لي فيه، فقال: أنت الذي تقول ثبت الله؟ فقال: نعم يا رسول، قلت: ثبت الله ما أعطاك من حسن تثبيت موسى ونصراً مثل ما نصراً قال: وأنت، ففعل الله بك مثل ذلك، ثم وثب كعب فقال: يا رسول الله ائذن لي فيه؟ فقال: أنت الذي تقول همت؟ قال: نعم يا رسول الله، قلت:

همت سخينة أن تغالب ربها فلتغلب مغالب الغلاب فقال: أما إن الله لم ينس ذلك لك، ثم قام حسان، فقال: يا رسول الله ائذن لي فيه، وأخرج لساناً له أسود، فقال: يا رسول الله لو شئت لفريت به المراد، ائذن لي فيه، فقال: اذهب إلى أبي بكر، فليحذك حديث القوم، وإياهم، وأحسابهم، وأهجم، وجبريل معك. وأخرج أحمد، وابن سعد عن أبي هريرة قال: مرَّ عمر بحسان، وهو ينشد في المسجد، فلحظ إليه، فنظر إليه، فقال: قد كنت أنشد فيه، وفيه من هو خير منك، فسكت، ثم التفت حسان إلى أبي هريرة فقال: أنشدك بالله هل سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أجب عني اللهم أيده بروح القدس؟» قال: نعم. وأخرج ابن سعد من حديث جابر مرفوعاً نحوه. وأخرج ابن أبي شيبه عن بريدة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من الشعر حكماً». وأخرج ابن أبي شيبه عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ: «إن من الشعر حكماً، ومن البيان سحراً». وأخرج مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن يمتلئ جوف أحدكم قبحاً يريه، خير من أن يمتلئ شعراً». وفي الصحيح من حديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن يمتلئ جوف أحدكم قبحاً خيراً له من أن يمتلئ شعراً». قال في الصحاح: وروى القتيح جوفه يريه، وريا: إذا أكله، قال القرطبي: روى إسماعيل بن عباس عن عبد الله بن عون، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «حسن الشعر كحسن الكلام، وقبيح الشعر كقبيح

والإشارة بقوله ﴿وَأُولَئِكَ﴾ إلى المذكورين قبله، وهو مبتدأ خبره ﴿لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ قيل: في الدنيا كالقتل والأسر، ووجه تخصيصه بعذاب الدنيا قوله بعده ﴿وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسُونَ﴾ أي: هم أشد الناس خسراناً، وأعظمهم خيبة، ثم مهد سبحانه مقدمة نافعة لما سيذكره بعد ذلك من الأخبار العجيبة، فقال ﴿وَأُولَئِكَ لَتَقُلُّوا لَلْقُرْآنِ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ أي: يلقي عليك، فتلقاه، وتأخذه من لدن كثير الحكمة والعلم، قيل: إن لدن هاهنا بمعنى: عند. وفيها لغات كما تقدم في سورة الكهف ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لَأَهْلِهِ﴾ الظرف منصوب بمضمر، وهو أنكر. قال الزجاج: موضع «إِذْ» نصب، المعنى: أنكر إذ قال موسى أي: أنكر قصته إذ قال لأهله، والمراد بأهله: امرأته في مسيره من مدين إلى مصر، ولم يكن معه إذ ذاك إلا زوجته بنت شعيب، فكفى عنها بلفظ الأهل الدال على الكثرة، ومثله قوله: ﴿مَكْتُوبًا﴾ [طه: 10، القصص: 29]، ومعنى ﴿إِنِّي أَنَسْتُ نَارًا﴾: أبصرتها «سَاتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبِيرٍ» السنين تدل على بعد مسافة النار «وَأَتَيْكُمْ بِشَهَابٍ قَبَسٍ» قرا عاصم، وحمزة، والكسائي بتنوين شهاب، وقرأ الباقون بإضافته إلى قبس، فعلى القراءة الأولى يكون قبس بدلاً من شهاب، أو صفة له؛ لأنه بمعنى مقبوس، وعلى القراءة الثانية الإضافة للبيان، والمعنى على القراءتين: أتاكم بشعلة نار مقبوسة أي: مأخوذة من أصلها. قال الزجاج: من نَوَّنَ جعل قبس من صفة شهاب، وقال الفراء: هذه الإضافة كالإضافة في قولهم: مسجد الجامع، وصلاة الأولى، أضاف الشيء إلى نفسه لاختلاف أسمائه. وقال النحاس: هي إضافة النوع إلى الجنس كما تقول: ثوب خز، وخاتم حديد، قال: ويجوز في غير القرآن بشهاب قبساً على أنه مصدر، أو بيان، أو حال ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أي: رجاء أن تستغفروا بها. أو لكي تستغفروا بها من البرد، يقال: صلي بالنار، واصطلى بها إذا استغفا بها. قال الزجاج: كل أبيض ذي نور، فهو: شهاب. وقال أبو عبيدة: الشهاب النار، ومنه قول أبي التيج: كانما كان شهاباً وأقدأ أضاء ضوءاً ثم صار خامداً وقال ثعلب: أصل الشهاب عود في أحد طرفيه جمرة، والآخر لا نار فيه، والشهاب الشعاع المضيء، وقيل: للكوكب شهاب، ومنه قول الشاعر:

في كفه صعدة مثقفة فيها سنان كشعلة القبس
﴿فَلَمَّا جَاءَهَا﴾ أي: جاء النار موسى ﴿نُودِيَ أَنْ يَبْرُكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمِنْ حَوْلِهَا﴾ أن هي المفسرة لما في النداء من معنى للقول، أو هي المصدرية أي: بأن يبرك، وقيل: هي المخففة من الثقيلة. قال الزجاج: أن في موضع نصب أي: بأن قال، ويجوز أن يكون في موضع رفع اسم ما لم يسم فاعله. والأولى أن النائب ضمير يعود إلى موسى. وقرأ أبي، وابن عباس، ومجاهد (أن يبركت النار ومن حولها) حكى ذلك أبو حاتم. وحكى الكسائي عن العرب: باركك الله، وبارك فيك، وبارك عليك، وبارك لك، وكذلك حكى هذا الفراء. قال

أن يكون المراد بقوله ﴿وَكِتَابٍ﴾ القرآن نفسه، فيكون من عطف بعض الصفات على بعض مع اتحاد الملل، وإن يكون المراد بالكتاب اللوح المحفوظ، أو نفس السورة، وقرأ ابن أبي عبة (وكتاب مبين) برفعهما عطفاً على آيات. وقيل: هو على هذه القراءة على تقدير مضاف محذوف، وإقامة المضاف إليه مقامه أي: وآيات كتاب مبين، فقد وصف الآيات بالوصفين: القرآنية الدالة على كونه مقروءاً مع الإشارة إلى كونه قرآنًا عربياً معجزاً، والكتابية الدالة على كونه مكتوباً مع الإشارة إلى كونه متصفاً بصفة الكتب المنزلة، فلا يكون على هذا من باب عطف صفة على صفة مع اتحاد الملل، ثم ضم إلى الوصفين وصفاً ثالثاً، وهي: الإبانة لمعانيه لمن يقرؤه، أو هو: من أبان بمعنى: بان، معناه: واتضح إعجازه بما اشتمل عليه من البلاغة. وقدم وصف القرآنية هنا نظراً إلى تقدم حال القرآنية على حال الكتابة، وأخره في سورة الحجر، فقال: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مَبِينٍ﴾ [الحجر: 1] نظراً إلى حالته التي قد صار عليها، فإنه مكتوب، والكتابة سبب القراءة، والله أعلم. وأما تعريف القرآن هنا، وتنكير الكتاب، وتعريف الكتاب في سورة الحجر، وتنكير القرآن، فلصلاحيه كل واحد منهما للتعريف، والتنكير «هَذِي» وبشرى للمؤمنين. في موضع نصب على الحال من الآيات، أو من الكتاب أي: تلك آيات هادية ومبشرة، ويجوز أن يكون في محل رفع على الابتداء أي: هو هدى، أو هما خبران آخران لتلك، أو هما مصدران منصوبان بفعل مقتر أي: يهدي هدى، ويبشر بشرى. ثم وصف المؤمنين الذي لهم الهدى والبشرى، فقال ﴿الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾، والموصول في محل جز، أو يكون بدلاً، أو بياناً، أو منصوباً على المدح، أو مرفوعاً على تقدير مبتدأ. والمراد بالصلاة الصلوات الخمس، والمراد بالزكاة الزكاة المفروضة، وجملة ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ في محل نصب على الحال، وكثر الضمير للدلالة على الحصر أي: لا يوقن بالآخرة حق الإيقان إلا هؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل الصالح، وجعل الخبر مضارعاً للدلالة على التجدد في كل وقت، وعدم الإنقطاع. ثم لما نكر سبحانه أهل السعادة نكر بعدهم أهل الشقاوة، فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾، وهم الكفار أي: لا يصدقون بالبعث ﴿زَيْنَا لَهُمْ أَعْمَالُهُمْ﴾ قيل: المراد زين الله لهم أعمالهم السيئة حتى رأوها حسنة. وقيل: المراد أن الله زين لهم الأعمال الحسنة، ونكر لهم ما فيها من خيري الدنيا، والآخرة، فلم يقبلوا ذلك. قال الزجاج: معنى الآية: أنا جعلنا جزاءهم على كفرهم أن زيننا لهم ما هم فيه ﴿فَهُمْ يَعْصُونَ﴾ أي: يتربصون فيها متحيرين على الإستمرار لا يهتدون إلى طريقة، ولا يقفون على حقيقة. وقيل: معنى يَعْصُونَ: يتملكون. وقال قتادة: يلعبون، وفي معنى التحير. قال الشاعر:

ومهمه أطرافه في مهمه أعمى الهدى الحائر في العمه

﴿وانخل يدك في جيبك﴾ المراد بالجيب هو المعروف، وفي القصص ﴿اسلك يدك في جيبك﴾ [القصص: 32]، وفي انخل من المبالغة ما لم يكن في اسلك ﴿تخرج بيضاء من غير سوء﴾ أي: من غير برص، أو نحوه من الآفات، فهو احتراس. وقوله: ﴿تخرج﴾ جواب انخل يدك. وقيل: في الكلام حذف تقديره: انخل يدك تدخل، وأخرجها تخرج، ولا حاجة لهذا الحذف، ولا ملجئ إليه. قال المفسرون: كانت على موسى مدرعة من صوف لا كم لها ولا إزار، فأنخل يده في جيبه وأخرجها، فإذا هي تبرق كالبرق، وقوله ﴿ففي تسع آيات﴾ قال أبو البقاء: هو في محل نصب على الحال من فاعل تخرج، وفيه بعد. وقيل: متعلق بمحذوف أي: اذهب في تسع آيات. وقيل: متعلق بقوله: ﴿ولق عصاك﴾، وانخل يدك في جملة تسع آيات، أو مع تسع آيات. وقيل: المعنى: فهما آيتان من تسع يعني: العصا واليد، فتكون الآيات إحدى عشرة: هاتان، والفلق، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والطمسة، والجذب في بوابيهم، والنقصان في مزارعهم. قال النحاس: أحسن ما قيل فيه أن هذه الآية يعني: اليد داخلة في تسع آيات، وكذا قال المهدوي، والقشيري. قال القشيري: تقول خرجت في عشرة نفر، وأنت أحدهم أي: خرجت عاشر عشرة، ففي بمعنى: من لقربها منها، كما تقول: خذ لي عسراً من الإبل فيها فحلان أي: منها. قال الأصمعي في قول امرئ القيس:

وهل ينعمن من كان آخرعهده ثلاثون شهراً في ثلاثة أحوال
في بمعنى من، وقيل: في بمعنى مع ﴿إلى فرعون وقومه﴾ قال الفراء: في الكلام إضمار أي: إنك مبعوث، أو مرسل إلى فرعون وقومه، وكذا قال الزجاج. ﴿إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾ الجملة تعليل لما قبلها ﴿فلما جاءتهم آياتنا مبصرة﴾ أي: جاءتهم آياتنا التي على يد موسى حال كونها مبصرة أي: واضحة بينة كأنها لفرط وضوحها تبصر نفسها كقوله: ﴿وأتينا ثمود الناقة مبصرة﴾ [الإسراء: 59] قال الأخفش: ويجوز أن تكون بمعنى مبصرة على أن اسم الفاعل بمعنى اسم المفعول، وقد تقدم تحقيق الكلام في هذا. وقرأ علي بن الحسين، وقتادة (مبصرة) بفتح الميم، والصاد أي: مكاناً يكثر فيه التبصر، كما يقال: الولد مجبنة ومبجلة ﴿قالوا هذا سحر مبين﴾ أي: لما جاءتهم قالوا هذا القول أي: سحر واضح. ﴿ووجدوا بها واستيقنتها أنفسهم﴾ أي: كذبوا بها حال كون أنفسهم مستيقنة لها، قالوا للحال، وانتصاب ﴿ظلماتاً وعلواً﴾ على الحال أي: ظالمين عالين، ويجوز أن ينتصبا على العلة أي: الحامل لهم على ذلك الظلم والعلو. ويجوز أن يكونا نعت مصدر محذوف أي: ﴿وجدوا بها﴾ جحوداً ظلاماً وعلواً. قال أبو عبيدة: والباء في (وجدوا بها) زائدة أي: ووجدوها. قال الزجاج: التقدير: ووجدوا بها ظلاماً وعلواً: شركاً، وتكبراً عن أن يؤمنوا بما جاء به موسى، وهم يعلمون أنها من عند الله ﴿فانظروا﴾ يا محمد ﴿كيف كان عاقبة المفسدين﴾ أي: تفكر في ذلك، فإن فيه معتبراً

ابن جرير: قال: يورك من في النار، ولم يقل: يورك على النار، على لغة من يقول: باركك الله أي: يورك على من في النار، وهو: موسى، أو على من في قرب النار لا أنه كان في وسطها. وقال السدي: كان في النار ملائكة، والنار هنا هي مجرد نور، ولكنه ظن موسى أنها نار، فلما وصل إليها وجدها نوراً. وحكي عن الحسن، وسعيد بن جبير: أن المراد بمن في النار هو الله سبحانه أي: نوره. وقيل: يورك ما في النار من أمر الله سبحانه الذي جعلها على تلك الصفة. قال الواحدي: ومذهب المفسرين: أن المراد بالنار النور، ثم نزه سبحانه نفسه، فقال ﴿وسبحان الله رب العالمين﴾، وفيه تعجيب لموسى من ذلك ﴿يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم﴾ الضمير للشأن، أنا الله العزيز الغالب القاهر الحكيم في أمره وفعله. وقيل: إن موسى قال: يا رب من الذي ناداني؟ فأجابه الله سبحانه بقوله: إنه أنا الله، ثم أمره سبحانه: بأن يلقي عصاه؛ ليعرف ما أجراه الله سبحانه على يده من المعجزة الخارقة، وجملة ﴿ولق عصاك﴾ معطوفة على يورك، وفي الكلام حذف، والتقدير: فإلقاها من يده، فصارت حية ﴿فلما رآها تهتز كأنها جان﴾ قال الزجاج: صارت العصا تتحرك كما يتحرك الجان، وهي الحية البيضاء، وإنما شبهها بالجان في خفة حركتها، وشبهها في موضع آخر بالثعبان لعظمها، وجمع الجان جنان، وفي الحية الخفيفة الصغيرة الجسم. وقال الكلبى: لا صغيرة ولا كبيرة ﴿ولى مبشراً﴾ من الخوف ﴿ولم يعقب﴾ أي: لم يرجع. يقال: عقب فلان إذا رجع، وكل راجع معقب، وقيل: لم يقف، ولم يلتفت. والأول أولى، لأن التعقيب هو: الكر بعد الفر، فلما وقع منه ذلك قال الله سبحانه ﴿يا موسى لا تخف﴾ أي: من الحية وضررها ﴿إني لا يخاف لدي المرسلون﴾ أي: لا يخاف عندي من أرسلته برسالتني، فلا تخف أنت. قيل: ونفي الخوف عن المرسلين ليس في جميع الأوقات، بل في وقت الخطاب لهم؛ لأنهم إذ ذاك مستغرقون. ثم استثنى استثناء منقطعاً، فقال ﴿إلا من ظلم ثم بدل حسناً بعد سوء فإني غفور رحيم﴾ أي: لكن من أذن في ظلم نفسه بالمعصية ﴿ثم بدل حسناً﴾ أي: توبة وندماً ﴿بعد سوء﴾ أي: بعد عمل سوء ﴿فإني غفور رحيم﴾، وقيل: الاستثناء من مقتر محذوف أي: لا يخاف لدي المرسلون، وإنما يخاف غيرهم ممن ظلم إلا من ظلم ثم بدل إلخ، كذا قال الفراء. قال النحاس: الاستثناء من محذوف محال، لأنه استثناء من شيء لم ينكر. وروي عن الفراء أنه قال: إلا بمعنى الواو. وقيل: إن الاستثناء متصل من المذكور لا من المحذوف. والمعنى: إلا من ظلم من المرسلين بإتيان الصفات التي لا يسلم منها أحد، واختار هذا النحاس، وقال: علم من عصي منهم، فاستثناه فقال: إلا من ظلم، وإن كنت قد غفرت له كآدم، وداود، وإخوة يوسف، وموسى بقتله القبطي. ولا مانع من الخوف بعد المغفرة، فإن نبينا ﷺ الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، كان يقول: «ودبت أني شجرة تعضده»

للمعتبرين. وقد كان عاقبة أمرهم الإغراق لهم في البحر على تلك الصفة الهائلة.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله ﴿فلما جاءها نودي أن بورك من في النار﴾ يعني: تبارك وتعالى نفسه كان نور رب العالمين في الشجرة ﴿ومن حولها﴾ يعني: الملائكة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في الآية قال: كان الله في النور نودي من النور ﴿ومن حولها﴾ قال: الملائكة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عنه أيضاً قال: ناداه الله، وهو في النور. وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن المنذر عنه أيضاً ﴿أن بورك من في النار﴾ قال: بوركت النار. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة قال: في مصحف أبي بن كعب: (بوركت النار ومن حولها)، أما النار، فيزعمون: أنها نور رب العالمين. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿أن بورك﴾ قال: قُتِس. وأخرج عبد بن حميد، وابن ماجه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة، والبيهقي في الأسماء والصفات من طريق أبي عبيدة، عن أبي موسى الأشعري قال: قام فينا رسول الله ﷺ، فقال: «إن الله لا ينাম، ولا ينبغي له أن ينام. يخفض القسط، ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور لو رفع لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه بصره. ثم قرأ أبو عبيدة ﴿أن بورك من في النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين﴾». والحديث أصله مخرَج في صحيح مسلم من حديث عمرو بن مرة. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كانت على موسى جبة من صوف لا تبلغ مرفقيه، فقال له: أدخل يدك في جيبك، فدخلها. وأخرج ابن المنذر عنه في قوله ﴿ولستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً﴾ قال: تكبراً، وقد استيقنتها أنفسهم، وهذا من التقديم والتأخير.

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالَ الْخَمْدُ لِلَّهِ أَلَيْسَ لَنَا بِكَبِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأَوْفَيْنَا مَن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْبَاقِي ﴿١٦﴾ وَخَيْرٌ لِّسُلَيْمَانَ جُودٌ مِّنْ أَلْبِينِ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّى إِذَا أَتَا عَلَىٰ أَوَّاهٍ النَّعْلُ قَالَ نَمْطُهُ يَأَيُّهَا النَّعْلُ ادْخُلَا مَنَاسِكَكُمْ لَا يَبْطُلَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُودُهُ وَهُوَ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّ سَاجِداً مِّنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْفُونِي أَنْ أَشْكُرَ بِمَنَاسِكَكَ أَلَيْسَ أَتَمَمْتَ عَلَيَّ ذِكْرَكَ وَلَئِنْ لَّا أَهَلَّ سَلَامًا تُرِيدَنِي وَادْخُلِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَذَّةَ أَنَّمَا كَانَ مِنَ الطَّيْرِ ﴿٢٠﴾ لِأَعْمَىٰ مَذَابًا ضَالِماً أَوْ لَأَنَّخَتَنَهُ أَوْ لِيَأَيُّنِي بِسُلْطَانِي ثُبِينِ ﴿٢١﴾ فَكَتَّ عَيْنَ بَيْبُو فَقَالَ أَهْلَطُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ. وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَايَ بَيْنِ ﴿٢٢﴾ إِنِّي بَدَدْتُ امْرَأَةً بِلَيْكُمُهَا وَأَوْفَيْتُ مَن كُلِّ شَيْءٍ وَلَمَّا عَزَّ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّيْءِ مِن دُونِ

اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْيُنَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ الذِّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَا يَسْجُدُونَ لِلَّهِ الَّذِي يَخْرِجُ الْحَبَّ مِنَ الشَّجَرِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُرَىٰ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾

لما فرغ سبحانه من قصة موسى شرع في قصة داود، وابنه سليمان، وهذه القصص وما قبلها وما بعدها هي كالبیان، والتقرير لقوله: ﴿وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم﴾ [النمل: 6]، والتنوين في ﴿علماً﴾ إما للنوع أي: طائفة من العلم، أو للتعظيم أي: علماً كثيراً، والواو في قوله ﴿وقال الحمد لله﴾ للعطف على محذوف، لأن هذا المقام مقام الفاء، فالتقدير: ولقد آتيناها علماً، فعملاً به، وقالوا: الحمد لله، ويؤيده أن الشكر باللسان إنما يحسن إذا كان مسبوقاً بعمل القلب، وهو العزم على فعل الطاعة، وترك المعصية ﴿الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين﴾ أي: فضلنا بالعلم، والنبوة، وتسخير الطير، والجن، والإنس، ولم يفضلوا أنفسهم على الكل تواضعاً منهم. وفي الآية دليل على شرف العلم، وارتفاع محله، وأن نعمة العلم من أجل النعم التي ينعم الله بها على عباده، وأن من أوتيها فقد أوتي فضلاً على كثير من العباد، ومنع شرفاً جليلاً ﴿وورث سليمان داود﴾ أي: ورثه العلم والنبوة. قال قتادة، والكلبي: كان لداود تسعة عشر ولداً نكراً، فورث سليمان من بينهم نبوته، ولو كان المراد وراثة المال لم يخص سليمان بالذكر؛ لأن جميع أولاده في ذلك سواء، وكذا قال جمهور المفسرين، فهذه الوراثة هي وراثة مجازية كما في قوله ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء»، ﴿وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير﴾ قال سليمان: هذه المقالة مخاطباً للناس تحذيراً بما أنعم الله به عليه، وشكر النعمة التي خصه بها، وقدم منطق الطير، لأنها نعمة خاصة به لا يشاركه فيها غيره. قال الفراء: منطق الطير كلام الطير، فجعل كمنطق الرجل، وأنشد قول حميد بن ثور:

عجيب لها أن يكون غناؤها فصيحاً ولم يفر بمنطقها فماً ومعنى الآية: فهنما ما يقول الطير. قال جماعة من المفسرين: إنه علم منطق جميع الحيوانات، وإنما ذكر الطير؛ لأنه كان جنداً من جنده يسير معه لتظليله من الشمس. وقال قتادة، والشعبي: إنما علم منطق الطير خاصة، ولا يعترض ذلك بالنملة، فإنها من جملة الطير، وكثيراً ما تخرج لها أجنحة، فتطير، وكذلك كانت هذه النملة التي سمع كلامها، وفهمه، ومعنى ﴿وألوتينا من كل شيء﴾: كل شيء تدعو إليه الحاجة: كالعلم، والنبوة، والحكمة، والمال، وتسخير الجن، والإنس، والطير، والرياح، والوحش، والدواب، وكل ما بين السماء والأرض. وجاء سليمان بنون العظمة، والمراد نفسه بياناً لحاله من كونه مطاعاً لا يخالف، لا تكبراً وتعظيماً لنفسه، والإشارة بقوله ﴿إن هذا﴾ إلى ما تقدم نكره من التعليم، والإيتاء ﴿لهو الفضل المبين﴾ أي: الظاهر الواضح الذي لا يخفى على أحد، أو المظهر لفضيلتنا

ويحتمل أن يكون جواباً للأمر. قال أبو حيان: أما تخريجه على جواب الأمر، فلا يكون إلا على قراءة الأعمش، فإنه قرأ (لا يحطكم) بالجزم بدون نون التوكيد، وأما مع وجود نون التوكيد، فلا يجوز ذلك إلا في الشعر. قال سيبويه: وهو قليل في الشعر، شبهوه بالنهاي حيث كان مجزوماً. وقرأ أبي (ادخلوا مسكنكم)، وقرأ شهر بن حوشب (مسكنكم) وقرأ الحسن، وأبو رجاء، وقتادة وعيسى الهمداني (لا يحطمنكم) بضم الياء، وفتح الحاء، وتشديد الطاء، وقرأ ابن أبي إسحاق، ويعقوب، وأبو عمرو في رواية بسكون نون التوكيد، وجملة **﴿وهم لا يشعرون﴾** في محل نصب على الحال من فاعل يحطمنكم أي: لا يشعرون بحطكم، ولا يعلمون بمكانكم، وقيل: إن المعنى: والنمل لا يشعرون أن سليمان يفهم مقاتلتها، وهو بعيد **﴿فتبسم ضاحكاً من قولها﴾** قرأ ابن السميع (ضحكاً)، وعلى قراءة الجمهور يكون ضاحكاً حالاً مؤكدة؛ لأنه قد فهم الضحك من التبسم، وقيل: هي حال مقترنة؛ لأن التبسم أول الضحك، وقيل: لما كان التبسم قد يكون للغضب كان الضحك مبيهاً له، وقيل: إن ضحك الأنبياء هو التبسم لا غير، وعلى قراءة ابن السميع يكون ضحكاً مصدرأ منصوباً بفعل محذوف، أو في موضع الحال، وكان ضحك سليمان تعجباً من قولها، وفهمها، واهتدائها إلى تحذير النمل **﴿وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي﴾** قد تقدم بيان معنى أوزعني قريباً في قوله: **﴿فهم يوزعون﴾** [النمل: 17، فصلت: 19] قال في الكشاف: وحقيقة أوزعني: اجعلني أزع شكر نعمك عندي، وأكفه، وأزبطه لا ينفلت عني حتى لا أنفك شاكراً لك. انتهى. قال الواحدي: أوزعني أي: ألهمني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي، يقال: فلان موزع بكذا أي: مولع به. انتهى. قال القرطبي: وأصله من وزع، فكانه قال: كفني عما يسخطك. انتهى. والمفعول الثاني لأوزعني هو: أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وقال الزجاج: إن معنى أوزعني: امنعني أن أكفر نعمتك، وهو تفسير باللازم، ومعنى **﴿وعلى والدي﴾**: الدعاء منه بأن يوزعه الله شكر نعمته على والديه كما أوزعه شكر نعمته عليه، فإن الإنعام عليهما إنعام عليه، وذلك يستوجب الشكر منه الله سبحانه، ثم طلب أن يضيف الله له لواحق نعمه إلى سوابقها، ولا سيما النعم الدينية، فقال **﴿وإن أعمل صالحاً ترضاه﴾** أي: عملاً صالحاً ترضاه مني، ثم دعا أن يجعله الله سبحانه في الآخرة داخلاً في زمرة الصالحين فإن ذلك هو الغاية التي يتعلق الطلب بها، فقال **﴿وانخليني برحمتك في عبادك الصالحين﴾**، والمعنى: ادخليني في جملتهم، وأثبت اسمي في أسمائهم، واحشروني في زمرةهم إلى دار الصالحين، وهي الجنة، اللهم وإني أدعوك بما دعاك به هذا النبي الكريم، فتقبل ذلك مني، وتفضل علي به، فإنني وإن كنت مقصراً في العمل، ففضلك هو سبب الفوز بالخير، فهذه الآية منادية بأعلى صوت، وأوضح بيان بأن دخول الجنة التي هي دار المؤمنين

﴿وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير﴾ الحشر الجمع أي: جمع له جنوده من هذه الأجناس. وقد أطال المفسرون في نكر مقدار جنده، وبالغ كثير منهم مبالغة تستبعد العقل، ولا تصح من جهة النقل، ولو صحت لكان في القدرة الربانية ما هو أعظم من ذلك وأكثر **﴿فهم يوزعون﴾** أي: لكل طائفة منهم وزعة تروء، أولهم على آخرهم، فيقفون على مراتبهم، يقال: وزعه يزعه وزعاً: كفه، والوازع في الحرب الموكل بالصفوف يزع من تقدم منهم أي: يرده، ومنه قول النابغة:

على حين عانت المشيب على الصبا وقلت المأصص والشيب وازع
وقول الآخر:

ومن لم يزع له وبه وحياؤه فليس له من شيب فؤيده وازع
وقول الآخر:

ولا يزع النفس للجوج عن الهوى من الناس إلا وافر العقل كامله
وقيل: من التوزيع بمعنى التفريق، يقال: القوم أوزاع أي: طوائف **﴿حتى إذا أتوا على واد النمل﴾** حتى هي التي يبتدأ بعدها الكلام، ويكون غاية لما قبلها، والمعنى: فهم يوزعون إلى حصول هذه الغاية، وهو إتيانهم على واد النمل أي: فهم يسيرون ممنوعاً بعضهم من مفارقة بعض حتى إذا أتوا إلخ، وعلى واد النمل، متعلق باتوا، وعدّي بعلى؛ لأنهم كانوا محمولين على الريح فهم مستعلون. والمعنى: أنهم قطعوا الوادي، وبلغوا آخره، ووقف القراء جميعهم على واد بدون ياء اتباعاً للرسم حيث لم تحذف لالتقاء الساكنين كقوله: **﴿الذين جابوا الصخر بالواد﴾** [الفجر: 9] إلا الكسائي، فإنه وقف بالياء، قال: لأن الموجب للحذف إنما هو التقاء الساكنين بالوصل. قال كعب: واد النمل بالطائف. وقال قتادة، ومقاتل: هو بالشام **﴿قالت نملة﴾** هذا جواب إذا، كأنها لما رأتهم متوجهين إلى الوادي فرت، ونبهت سائر النمل منادية لها قائلة **﴿يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم﴾** جعل خطاب النمل كخطاب العقلاء لفهمها لذلك الخطاب، والمساكن هي الأمكنة التي يسكن النمل فيها.

قيل: وهذه النملة التي سمعها سليمان هي أنثى بلبل تأنث الفعل المسند إليها. ورد هذا أبو حيان، فقال: لحاق التاء في قالت لا يدل على أن النملة مؤنثة، بل يصح أن يقال في المنكر: قالت، لأن نملة، وإن كانت بالتاء، فهي مما لا يتميز فيه المنكر من المؤنث بتذكير الفعل ولا بتأنيثه، بل يتميز بالإخبار عنه بأنه نكر، أو أنثى، ولا يتعلق بمثل هذا كثير فائدة، ولا بالتعرض لاسم النملة، ولما نكر من القصص الموضوع، والأحاديث المكتوبة. وقرأ الحسن، وطلحة، ومعر بن سلمة، وقرأ سليمان التيمي بضم الميم، وفتح النون بزنة رجل وسمرة. وقرأ سليمان التيمي بضميتين فيهما. **﴿لا يحطمنكم سليمان وجنوده﴾** الحطم الكسر، يقال: حطمته حطماً أي: كسرتة كسراً، وتحطم تكسر، وهذا النهي هو في الظاهر للنمل، وفي الحقيقة لسليمان، فهو من باب: لا أرينك هاهنا، ويجوز أن يكون بدلاً من الأمر،

مكوثاً كقعد يقعد قعوداً. وقيل: إن الضمير في مكث لسليمان. والمعنى: بقي سليمان بعد التفقد والتوعد زماناً غير طويل، والأول أولى **﴿فقال لحطت بما لم تحط به﴾** أي: علمت ما لم تعلمه من الأمر، والإحاطة العلم بالشيء من جميع جهاته، ولعل في الكلام حنفاً، والتقدير: فمكث الهدهد غير بعيد، فجاء، فعوتب على مغيبه، فقال معتذراً عن ذلك: **﴿لحطت بما لم تحط به﴾**. قال الفراء: ويجوز إدغام التاء في الطاء، فيقال: أحط، وإدغام الطاء في التاء، فيقال: لحت **﴿ووجئتكم من سبا بنبا يقين﴾** قرأ الجمهور (من سبا) بالصرف على أنه اسم رجل، نسب إليه قوم، ومنه قول الشاعر:

الوارلون وتيم في نرى سبا قد غص أعناقهم جلد الجواميس
وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو بفتح الهمزة، وترك الصرف على أنه اسم مدينة، وأنكر الزجاج أن يكون اسم رجل، وقال: سبا اسم مدينة تعرف بمارب اليمن بينهما وبين صنعاء ثلاثة أيام. وقيل: هو اسم امرأة سميت بها المدينة. قال القرطبي: والصحيح أنه اسم رجل كما في كتاب الترمذي من حديث فروة بن مسيك المرادي. قال ابن عطية: وخفي هذا على الزجاج، فخطب خطب عشواء. وزعم الفراء: أن الرؤاسي سأل أبا عمرو بن العلاء عن سبا، فقال: ما أري ما هو؟ قال النحاس: وأبو عمرو أجل من أن يقول هذا، قال: والقول في سبا ما جاء التوقيف فيه أنه في الأصل اسم رجل، فإن صرفته، فلأنه قد صار اسماً للحي، وإن لم تصرفه جعلته اسماً للقبيلة مثل ثمود، إلا أن الإختيار عند سيبويه الصرف. انتهى.

وأقول: لا شك أن سبا اسم لمدينة باليمن كانت فيها بلقيس، وهو أيضاً اسم رجل من قحطان، وهو سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود، ولكن المراد هنا أن الهدهد جاء إلى سليمان بخبر ما عاينه في مدينة سبا مما وصفه، وسيأتي في آخر هذا البحث من المأثور ما يوضح هذا، ويؤيده، ومعنى الآية: أن الهدهد جاء سليمان من هذه المدينة بخبر يقين، والنبا هو الخبر الخطير الشأن، فلما قال الهدهد لسليمان ما قال، قال له سليمان: وما ذاك؟ فقال **﴿إني وجدت امرأة تملكهم﴾**، وهي: بلقيس بنت شرجيل، وجدها الهدهد تملك أهل سبا، والجملة هذه كالبیان، والتفسير للجملة التي قبلها أي: تلك النبا اليقين هو كون هذه المرأة تملك هؤلاء **﴿ووليت من كل شيء﴾** فيه مبالغة، والمراد: أنها أوتيت من كل شيء من الأشياء التي تحتاجها، وقيل: المعنى: أوتيت من كل شيء في زمانها شيئاً، فحنف شيئاً؛ لأن الكلام قد دل عليه **﴿ولها عرش عظيم﴾** أي: سرير عظيم، ووصفه بالعظم؛ لأنه كما قيل: كان من ذهب طوله ثمانون ذراعاً، وعرضه أربعون ذراعاً، وارتفاعه في السماء ثلاثون ذراعاً مكلل بالدر، والياقوت الأحمر، والزبرجد الأخضر. وقيل: المراد بالعرش هنا الملك، والأول أولى لقوله **﴿ليكم ياتيني بعروشها﴾** قال ابن عطية: واللازم من الآية أنها امرأة ملكة على مدائن اليمن ذات ملك

بالتفضل منك لا بالعمل منهم كما قال رسولك الصادق المصدق فيما ثبت عنه في الصحيح: «سَدُوا، وقاربوا، واعلموا أنه لن يدخل أحد الجنة بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته»، فإذا لم يكن إلا بفضلك الواسع، فترك طلبه منك عجز، والتفريط في التوسل إليك بالإيصال إليه تضييع. ثم شرع سبحانه في ذكر قصة بلقيس، وما جرى بينها وبين سليمان، وذلك بدلالة الهدهد، فقال **﴿وتفقد الطير﴾** التفقد طلب ما غاب عنك، وتعريف أحواله، والطير اسم جنس لكل ما يطير، والمعنى أنه تطلب ما فقد من الطير، وتعريف حال ما غاب منها، وكانت الطير تصحبه في سفره، وتظله بأجنحتها **﴿فقال مالي لا أرى للهدهد لم كان من الغائبين﴾** أي: ما للهدهد لا أراه؟ فهذا الكلام من الكلام المقلوب الذي تستعمله العرب كثيراً، وقيل: لا حاجة إلى أنعاء القلب، بل هو استفهام عن المانع له من رؤية الهدهد، كأنه قال: مالي لا أراه هل ذلك لسائر يستره عني، أو لشيء آخر؟ ثم ظهر له أنه غائب، فقال: أم كان من الغائبين، وأم هي المتقطعة التي بمعنى الإضراب قرأ ابن كثير⁽¹⁾، وابن محيصن، وهشام، وأيوب (مالي) بفتح الياء، وكذلك قرؤوا في يس **﴿وما لي لا أعبد الذي فطرني﴾** [يس: 22] بفتح الياء، وقرأ بإسكانها في الموضعين حمزة، والكسائي، ويعقوب، وقرأ الباقون بفتح التي في يس، وإسكان التي هنا. قال أبو عمرو: لأن هذه التي هنا استفهام، والتي في يس نفى، واختار أبو حاتم، وأبو عبيد الإسكان **﴿لا عذبة عذاباً شديد أو لا نبهته﴾**.

اختلفوا في هذا العذاب الشديد ما هو؟ فقال مجاهد، وابن جريج: هو أن ينتف ريشه جميعاً. وقال يزيد بن رومان: هو أن ينتف ريش جناحيه، وقيل: هو أن يحبسه مع أضداده، وقيل: أن يمنعه من خدمته، وفي هذا دليل على أن العقوبة على قدر الذنب لا على قدر الجسد. وقوله: **﴿عذاباً﴾** اسم مصدر، أو مصدر على حذف الزوائد كقوله: **﴿أنتبكم من الأرض نباتاً﴾** [نوح: 17]. **﴿أو لياتيني بسُلطان مبین﴾** قرأ ابن كثير وحده بنون التأكيد المشددة بعدما نون الوقاية، وقرأ الباقون بنون مشددة فقط، وهي نون التوكيد، وقرأ عيسى بن عمر بنون مشددة مفتوحة غير موصولة بالياء، والسلطان المبين هو الحجة البينة في غيبته **﴿فمكث غير بعيد﴾** أي: للهدهد مكث زماناً غير بعيد. قرأ الجمهور (مكث) بضم الكاف، وقرأ عاصم وحده بفتحها، ومعناه في القراءتين: أقام زماناً غير بعيد. قال سيبويه: مكث يمكث

(1) (قوله قرأ ابن كثير إلخ) فيه مخالفة للمشهور، وهو أن ابن كثير وابن محيصن وهشام وأيوب وعاصم والكسائي يقرؤون بفتح الياء في الموضعين، وحمزة ويعقوب واليزار يقرؤون بإسكانها فيهما، والباقيون بفتح التي في يس وإسكان التي هنا، فليعلم اهـ مصحح القرآن.

عظيم، وسرير عظيم، وكانت كافرة من قوم كفار ﴿وجنتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله﴾ أي: يعبدونها متجاوزين عبادة الله سبحانه، قيل: كانوا مجوساً، وقيل: زنادقة ﴿وزين لهم للشيطان أعمالهم﴾ التي يعملونها، وهي عبادة الشمس، وسائر أعمال الكفر ﴿فصدهم عن السبيل﴾ أي: صدّهم الشيطان بسبب ذلك التزيين عن الطريق الواضح، وهو الإيمان بالله وتوحيده ﴿فهم لا يهتدون﴾ إلى ذلك ﴿ألا يسجدوا﴾ قرأ الجمهور بتشديد (الأ). قال ابن الأنباري: الوقف على فهم لا يهتدون غير تامّ عند من شدّد الأ، لأن المعنى: وزين لهم الشيطان ألا يسجدوا. قال النحاس: هي أن دخلت عليها لا، وهي في موضع نصب. قال الأخفش: أي: زين لهم أن لا يسجدوا لله بمعنى لئلا يسجدوا لله. وقال الكسائي: هي في موضع نصب بصدّهم أي: فصدهم ألا يسجدوا بمعنى لئلا يسجدوا، فهو على الوجهين مفعول له. وقال اليزيدي: إنه بدل من أعمالهم في موضع نصب. وقال أبو عمرو: في موضع خفض على البديل من السبيل. وقيل: العامل فيها لا يهتدون أي: فهم لا يهتدون أن يسجدوا لله، وتكون لا على هذا زائدة كقوله: ﴿وما منعك أن لا تسجد﴾ [الأعراف: 12]، وعلى قراءة الجمهور ليس هذه الآية موضع سجدة، لأن ذلك إخبار عنهم بترك السجود: إما بالتزيين، أو بالصدّ، أو بمنع الامتداء، وقد رجح كونه علة للصدّ الزجاج، ورجع الفراء كونه علة لزّين، قال: زين لهم أعمالهم لئلا يسجدوا، ثم حذفت اللام. وقرأ الزهري، والكسائي بتخفيف (الأ). قال الكسائي: ما كنت أسمع الأشياخ يقرؤونها إلا بالتخفيف على نية الأمر، فتكون «الأ» على هذه القراءة حرف، تنبيه واستفتاح، وما بعدها حرف نداء، واسجدوا فعل أمر، وكان حق الخط على هذه القراءة أن يكون هكذا ألا يا اسجدوا، ولكن الصحابة رضي الله عنهم أسقطوا الألف من يا، وهمزة الوصل من اسجدوا خطأ، ووصلوا الياء بسين اسجدوا، فصارت صورة الخط ألا يسجدوا، والمندادى محذوف، وتقديره: ألا يا هؤلاء اسجدوا، وقد حذفت العرب المندادى كثيراً في كلامها، ومنه قول الشاعر:

ألا يا أسلمي يا دارمي على البلى ولا زال منها لأبجرعائك القطر
وقول الآخر:

ألا يا أسلمي تمت أسلمي تمت أسلمي ثلاث تحيات وإن لم تكلم
وقول الآخر أيضاً:

ألا يا أسلمي يا هند هند بني بكر

وهو كثير في أشعارهم. قال الزجاج: وقراءة التخفيف تقتضي وجوب السجود لوزن قراءة التشديد، واختار أبو حاتم، وأبو عبيد قراءة التشديد. قال الزجاج: ولقراءة التخفيف وجه حسن إلا أن فيها انقطاع الخبر عن أمر سبأ، ثم الرجوع بعد ذلك إلى نكرهم. والقراءة بالتشديد خبر يتبع بعضها بعضاً لا انقطاع في وسطه، وكذا قال النحاس، وعلى هذه القراءة تكون جملة ﴿ألا يسجدوا﴾ معترضة من كلام

الهدد، أو من كلام سليمان، أو من كلام الله سبحانه. وفي قراءة عبد الله بن مسعود (هل لا تسجدوا) بالفوقية، وفي قراءة أبي ﴿ألا تسجدوا﴾ بالفوقية أيضاً ﴿الذي يخرج الخبء في السموات والأرض﴾ أي: يظهر ما هو مخبوء ومخفي فيهما، يقال: خبأت الشيء أخبئته خبأ، والخبء ما خبأته. قال الزجاج: جاء في التفسير أن الخبء هاهنا بمعنى: القطر من السماء، والنبات من الأرض. وقيل: خبء الأرض كنوزها، ونباتها. وقال قتادة: الخبء السرّ. قال النحاس: أي: ما غاب في السموات والأرض. وقرأ أبي، وعيسى بن عمر (الخب) بفتح الباء من غير همز تخفيفاً، وقرأ عبد الله، وعكرمة، ومالك بن دينار (الخب) بالالف. قال أبو حاتم: وهذا لا يجوز في العربية. وردّ عليه بأن سيبويه حكى عن العرب: أن الألف تبدل من الهمزة إذا كان قبلها ساكن. وفي قراءة عبد الله «يخرج الخب من السموات والأرض». قال الفراء: ومن وفي يتعاقبان، والموصول يجوز أن يكون في محل جرّ نعتاً لله سبحانه، أو بدلاً منه، أو بيانا له، ويجوز أن يكون في محل نصب على المدح، ويجوز أن يكون في محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، وجملة ﴿ويعلم ما تخفون وما تعلنون﴾ معطوفة على يخرج، قرأ الجمهور بالتحية في الفعلين، وقرأ الجحدري، وعيسى بن عمر، وحفص، والكسائي بالفوقية للخطاب، أما القراءة الأولى فلكون الضمائر المتقدمة ضمائر غيبة، وأما القراءة الثانية فلكون قراءة الزهري، والكسائي فيها الأمر بالسجود، والخطاب لهم بذلك، فهذا عندهم من تمام تلك الخطاب. والمعنى: أن الله سبحانه يخرج ما في هذا العالم الإنساني من الخفاء يعلمه له كما يخرج ما خفي في السموات والأرض. ثم بعد ما وصف الربّ سبحانه بما تقدّم مما يدلّ على عظيم قدرته، وجليل سلطانه، ووجوب توحّده، وتخصيصه بالعبادة، قال ﴿الله لا إله إلا هو ربّ العرش العظيم﴾ قرأ الجمهور (العظيم) بالجرّ نعتاً للعرش، وقرأ ابن محيصن بالرفع نعتاً للربّ، وخصّ العرش بالذكر: لأنه أعظم المخلوقات كما ثبت ذلك في المرفوع إلى رسول الله ﷺ.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن عمر بن عبد العزيز: أنه كتب إن الله لم ينعم على عبد نعمة، فحمد الله عليها إلا كان حمده أفضل من نعمته لو كنت لا تعرف ذلك إلا في كتاب الله المنزل. قال الله عزّ وجلّ ﴿ولقد آتينا داود وسليمان علماً وقالوا الحمد لله الذي فضّلنا على كثير من عباده المؤمنين﴾ وأي نعمة أفضل مما أعطى داود وسليمان.

أقول: ليس في الآية ما يدلّ على ما فهمه رحمه الله، والذي تدلّ عليه أنهما حمداً الله سبحانه على ما فضلهما به من النعم، فمن أين تدلّ على أن حمده أفضل من نعمته. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿وورث سليمان داود﴾ قال: ورثه نبوّته، وملكه، وعلمه. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد في الزهد، وابن أبي حاتم عن أبي الصديق الناجي قال: «خرج سليمان بن داود

لهم. والنظر هو التأمل والتصفح، وفيه إرشاد إلى البحث عن الأخبار، والكشف عن الحقائق، وعدم قبول خبر المخبرين تقليداً لهم، واعتماداً عليهم إذا تمكن من ذلك بوجه من الوجوه. ثم بيّن سليمان هذا النظر الذي وعد به، فقال: **«أذهب بكتابي هذا فالقه إليهم»** أي: إلى أهل سبأ. قال الزجاج: في آله خمسة أوجه: إثبات الياه في اللفظ، وحذفها، وإثبات الكسرة للدلالة عليها، ويضم الهاء وإثبات الواو، ويحذف الواو وإثبات الضمة للدلالة عليها، ويسكان الهاء. وقرأ بهذه اللغة الخامسة أبو عمرو، وحزمة، وأبو بكر. وقرأ قالون بكسر الهاء فقط من غير ياء. وروي عن هشام وجهان: إثبات الياه لفظاً، وحذفها مع كسر الهاء. وقرأ الباقون بإثبات الياه في اللفظ. وقوله **«بكتابي هذا»** يحتمل أن يكون اسم الإشارة صفة للكتاب، وأن يكون بدلاً منه، وأن يكون بياناً له، وخص الهدد بإرساله بالكتاب؛ لأنه المخبر بالقصة، ولكونه رأى منه من مخايل الفهم والعلم ما يقتضي كونه أهلاً للرسالة **«ثم قول عنهم»** أي: تنح عنهم، أمره بذلك لكون التنحي بعد نفع الكتاب من أحسن الآداب التي يتأبى بها رسول الملوك، والمراد للتنحي إلى مكان يسمع فيه حديثهم حتى يخبر سليمان بما سمع، وقيل: معنى التولي: الرجوع إليه، والأول أولى لقوله **«فانظر ماذا يرجعون»** أي: تأمل، وتفكر فيما يرجع بعضهم إلى بعض من القول، وما يترجعونه بينهم من الكلام **«قالت»** أي: بلقيس **«يا أيها الملأ إني ألقي إلي كتاب كريم»** في الكلام حذف، والتقدير: فذهب الهدد، فالقاه إليهم، فسمعها تقول: يا أيها الملأ إلخ، ووصفت الكتاب بالكريم لكونه من عند عظيم في نفسها، ف عظمتة إجلالاً لسليمان، وقيل: وصفت بذلك لاشتماله على كلام حسن، وقيل: وصفت بذلك لكونه وصل إليها مختوماً بخاتم سليمان، وكرامة الكتاب ختمه كما روي ذلك مرفوعاً، ثم بينت ما تضمنه هذا الكتاب، فقالت **«إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم»** أي: وإن ما اشتمل عليه من الكلام، وتضمنه من القول مفتتح بالتسمية، وبعد التسمية **«أن لا تغلوا علي»** أي: لا تتكبروا كما يفعله جبابرة الملوك، وإن هي المفسرة، وقيل: مصدرية، ولا ناهية، وقيل: نافية، ومحل الجملة الرفع على أنها بدل من كتاب، أو خبر مبتدأ محذوف أي: هو أن لا تغلوا. قرأ الجمهور (إنه من سليمان وإنه) بكسرهما على الاستثنا، وقرأ عكرمة، وابن أبي عبيدة بفتحهما على إسقاط حرف الجر، وقرأ أبي (إن من سليمان وإن بسم الله) بحذف الضميرين، وإسكان النونين على أنهما مفسرتان، وقرأ عبد الله بن مسعود (ولنه من سليمان) بزيادة الواو، وروي ذلك أيضاً عن أبي، وقرأ أشهب العقيلي، وابن السميع (أن لا تغلوا) بالغين المعجمة من الغل، وهو تجاوز الحد في الكبر **«واتوني مسلمين»** أي: منقابين للدين مؤمنين بما جئت به **«قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري»** الملأ أشرف القوم، والمعنى: يا أيها الأشرف أشيروا علي، وبيّنا

لي الصواب في هذا الأمر، وأجيبوني بما يقتضيه الحزم، وعبرت عن المشورة بالفتوى لكون في ذلك حلّ لما أشكل من الأمر عليها، وفي الكلام حذف، والتقدير: فلما قرأت بلقيس الكتاب جمعت أشرف قومها، وقالت لهم: يا أيها الملأ إني ألقي إلي، يا أيها الملأ أفتوني، وكزّر «قالت» لمزيد العناية بما قالته لهم، ثم زانت في التأنيب، واستجلاب خواطرهم، ليمحضوها للنصح، ويشيروا عليها بالصواب، فقالت **«ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون»** أي: ما كنت مبرمة أمراً من الأمور حتى تحضروا عندي، وتشيروا علي. ف **«قالوا»** مجيبين لها **«نحن أولوا قوة»** في العدد والعدة **«وولولوا بأس شديد»** عند الحرب، واللقاء لنا من الشجاعة والنجدة ما نمنع به أنفسنا، وبلدنا، ومملكتنا، ثم فوّضوا الأمر إليها لعلمهم بصحة رأيها، وقوة عقلها، فقالوا **«والأمر إليك»** أي: موكل إلى رايك ونظرك **«فانظري ماذا تأمرين»** أي: تأملي ماذا تأمرينا به، فنحن سامعون لأمرك مطيعون له، فلما سمعت تفويضهم الأمر إليها **«قالت إن للملوك إذا دخلوا قرية أفسسوها»** أي: إذا دخلوا قرية من القرى خربوا مبانيها، وغيروا معانيها، وأتلفوا أموالها، وفرّقوا شمل أهلها **«وجعلوا أعزة أهلها أذلة»** أي: أهانوا أشرفها، وحطوا مراتبهم، فصاروا عند ذلك أذلة، وإنما يفعلون ذلك لأجل أن يتم لهم الملك، وتستحكم لهم الوطأة، وتتقرّر لهم في قلوبهم المهابة. قال الزجاج: أي: إذا دخلوها عنوة عن قتال وغلبة، والمقصود من قولها هذا تحذير قومها من مسير سليمان إليهم، ودخوله بلادهم، وقد صبقها الله سبحانه فيما قالت، فقال سبحانه **«وكنكك يفعلون»** أي: مثل ذلك الفعل يفعلون. قال ابن الأنباري: الوقف على قوله **«وجعلوا أعزة أهلها أذلة»** وقف تام، فقال الله عز وجل تحقيقاً لقولها **«وكنكك يفعلون»**، وقيل: هذه الجملة من تمام كلامها، فتكون من جملة مقول قولها، وعلى القول الأول تكون هذه الجملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب. ثم لما قدّمت لهم هذه المقدّمة، وبيّنت لهم ما في دخول الملوك إلى أرضهم من المفسدة، أوضحت لهم وجه الرأي عندها، وصرحت لهم بصوابه، فقالت **«وإني مرسلة إليهم بهدية»** أي: إني لأجرب هذا الرجل بإرسال رسلي إليه بهدية مشتملة على نفائس الأموال، فإن كان ملكاً أرضيانه بذلك، وكفيينا أمره، وإن كان نبياً لم يرضه ذلك، لأن غاية مطلبة، ومنتهى أربه هو الدعاء إلى الدين، فلا ينجينا منه إلا إجابته، ومتابعته، والتدين بدينه، وسلوك طريقته، ولهذا قالت **«فناظرة به يرجع المرسلون»** الفاء للعطف على مرسله، وبم متعلق بيرجع، والمعنى: إني ناظرة فيما يرجع به رسلي المرسلون بالهدية من قبول أو ردّ فعاملة بما يقتضيه ذلك، وقد طوّلت المفسرون في نكر هذه الهدية، وسيأتي في آخر البحث بيان ما هو أقرب ما قيل إلى الصواب، والصحة **«فلما جاء سليمان»** أي: فلما جاء رسولها المرسل بالهدية سليمان، والمراد بهذا المضمهر الجنس، فلا يناقني كونهم

إياها، ويعدّه الهدهد بالكتاب، وعلى هذا جمهور المتأولين. وقيل: استدعاء العرش قبل وصولها؛ ليربها القدرة التي هي من عند الله، ويجعله ليلاً على نبوته، وقيل: أراد أن يختبر عقلها، ولهذا **﴿قال فكروا لها عرشها﴾** إلخ، وقيل: أراد أن يختبر صدق الهدهد في وصفه للعرش بالعظم، والقول الأول هو الذي عليه الأكثر **﴿قال عفريت من الجنّ أنا أتيك به قبل أن تقوم من مقامك﴾** قرأ الجمهور بكسر العين، وسكون الفاء، وكسر الراء، وسكون المثناة التحتية، وبالتاء، وقرأ أبو رجاء، وعيسى الثقفي، وابن السميع، وأبو الشمال (عفريه) بفتح التحتية بعدها تاء تانيث منقلبة هاء، رويت هذه القراءة عن أبي بكر الصديق. وقرأ أبو حيان بفتح العين، والعفريت المارد الغليظ الشديد. قال النحاس: يقال للشديد إذا كان معه خبث ودهاء: عفر، وعفريه، وعفريت، وقال قتادة: هو الداهية، وقيل: هو رئيس الجنّ، قال ابن عطية: وقرأت فرقة (عفر) بكسر العين جمعه على عفار، ومما ورد من أشعار العرب مطاباً لقراءة الجمهور ما أنشده الكسائي:

فقال شيطان لهم عفريت مالككم مكث ولا تبسيت
ومما ورد على القراءة الثانية قول ذي الرمة:

كانه كوكب في إثر عفريه مصوب في سواد الليل منقضب
ومعنى قول العفريت: أنه سيأتي بالعرش إلى سليمان قبل أن يقوم من مجلسه الذي يجلس فيه للحكومة بين الناس **﴿ولاني عليه لقوي أمين﴾** إني لقويّ على حمله أمين على ما فيه. قيل: اسم هذا العفريت كوند نكرة النحاس عن وهب بن منبه، وقال السهيلي: نكوان، وقيل: اسمه دعوان، وقيل: صخر. وقوله **﴿أتيك﴾** فعل مضارع، وأصله **﴿أتيك بهمزتين، فابللت الثانية ألفاً، وقيل: هو اسم فاعل﴾** **﴿قال لذي عنده علم من الكتاب أنا أتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك﴾** قال أكثر المفسرين: اسم هذا الذي عنده علم من الكتاب أصف بن برخيا، وهو من بني إسرائيل، وكان وزيراً لسليمان، وكان يعلم اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى. قال ابن عطية، وقالت فرقة: هو سليمان نفسه، ويكون الخطاب على هذا للعفريت: كان سليمان استبطاً ما قاله العفريت، فقال له تحقيراً له **﴿أنا أتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك﴾**، وقيل: هو جبريل، وقيل: الخضر، والأول أولى. وقد قيل غير ذلك بما لا أصل له. والمراد بالطرف تحريك الأجفان، وفتحها للنظر، وارتداده انضمامها. وقيل: هو بمعنى المطروف أي: الشيء الذي ينظره، وقيل: هو نفس الجفن عبر به عن سرعة الأمر كما تقول لصاحبك: افعل ذلك في لحظة. قاله مجاهد. وقال سعيد بن جبير: إنه قال لسليمان: انظر إلى السماء، فما طرف حتى جاء به، فوضعه بين يديه، والمعنى: حتى يعود إليك طرفك بعد مدّه إلى السماء، والأول أولى هذه الأقوال. ثم الثالث **﴿فلما رآه مستقراً عنده﴾** قيل: في الآية حذف، والتقدير: فأنزله لسليمان، فدعا الله، فأتى به، فلما رآه

جماعة كما يدل عليه قولها: «هم يرجع المرسلون»، وقرأ عبد الله (فلما جاءوا سليمان) أي: الرسل، وجملة **﴿قال لتمدون بمال﴾** مستأنفة جواب سؤال مقتر، والاستفهام للاستنكار أي: قال: منكرراً لإمدادهم له بالمال مع علوّ سلطانه وكثرة ماله. وقرأ حمزة بإدغام نون الإعراب في نون الوقاية، والباقون بنونين من غير إدغام، وأما الياء، فإن نافعاً، وأبا عمرو، وحمزة يثبتونها وصلّاً، ويحذفونها وقفاً، وابن كثير يثبتها في الحالين، والباقون يحذفونها في الحالين. وروي عن نافع: أنه يقرأ بنون واحدة **﴿فلما أتاني الله خير مما أتاكم﴾** أي: ما أتاني من النبوة، والملك العظيم، والأموال الكثيرة خير مما أتاكم من المال الذي هذه الهدية من جملته. قرأ أبو عمرو، ونافع، وحفص (أتاني الله) بياء مفتوحة، وقرأ يعقوب بإثباتها في الوقف، وحذفها في الوصل، وقرأ الباقون بغير ياء في الوصل والوقف، ثم إنه أضرب عن الإنكار المتقدم، فقال **﴿هل أنتم بهيكتكم تفرحون﴾** توبيخاً لهم بفرحهم بهذه الهدية فرح فخر وخيلاء، وأما أنا فلا أفرح بها، وليست الدنيا من حاجتي، لأن الله سبحانه قد أعطاني منها ما لم يعطه أحداً من العالمين، ومع ذلك أكرمني بالنبوة. والمراد بهذا الإضراب من سليمان بيان السبب الحامل لهم على الهدية مع الإزراء بهم، والخط عليهم **﴿ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها﴾** أي: قال سليمان للرسول: ارجع إليهم أي: إلى بلقيس وقومها، وخطب المفرد ها هنا بعد خطابه للجماعة فيما قبل، إما لأن الذي سيرجع هو الرسول فقط، أو خص أمير الرسل بالخطاب هنا، وخطبهم معه فيما سبق افتتاناً في الكلام. وقرأ عبد الله بن عباس (ارجعوا)، وقيل: إن الضمير يرجع إلى الهدهد، واللام في لئأتينهم جواب قسم محذوف. قال النحاس: وسمعت ابن كيسان يقول: هي لام تأكيد ولام أمر ولام خفض، وهذا قول الحذاق من النحويين لأنهم يرون الشيء إلى أصله، وهذا لا يتهيأ إلا لمن درّب في العربية، ومعنى **﴿لا قبل لهم﴾**: لا طاقة لهم بها، والجملة في محل جرّ صفة لجنود **﴿ولنخرجنهم﴾** معطوف على جواب القسم أي: لنخرجنهم من أرضهم التي هم فيها **﴿أنلة﴾** أي: حال كونهم أنلة بعد ما كانوا أعزّة، وجملة **﴿وهم صاغرون﴾** في محل نصب على الحال، قيل: وهي حال مؤكدة؛ لأن الصغار هو النلة، وقيل: إن المراد بالصغار هنا الأسر، والاستعباد، وقيل: إن الصغار الإهانة التي تسبب عنها النلة. ولما رجع الرسول إلى بلقيس تجهزت للمسير إلى سليمان، وأخبر جبريل سليمان بذلك، فـ **﴿قال﴾** سليمان **﴿يا أيها لعلما أتيكم يأتيني بعرشها﴾** أي: عرش بلقيس الذي تقدّم وصفه بالعظم **﴿قيل أن يأتوني مسلمين﴾** أي: قيل أن تاتيني هي وقومها مسلمين. قيل: إنما أراد سليمان أخذ عرشها قبل أن يصلوا إليه، ويسلموا، لأنها إذا أسلمت، وأسلم قومها لم يحل أخذ أموالهم بغير رضاهم. قال ابن عطية: وظاهر الروايات أن هذه المقالة من سليمان هي بعد مجيء هديتها، وردّه

شبية في المصنف، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله **﴿وإني مرسله إليهم بهيمة﴾** قال: أرسلت بلبنة من ذهب، فلما قدموا إذا حيطان المدينة من ذهب فذلك قوله **﴿اتمذنون بمال﴾** الآية. وقال ثابت البناني: أهدت له صفائح الذهب في أروعة الديباج. وقال مجاهد: جوارى لباسهن لباس الغلمان، وغلمان لباسهم لباس الجوارى. وقال عكرمة: أهدت مائتي فرس على كل فرس غلام وجارية، وعلى كل فرس لون ليس على الآخر. وقال سعيد بن جبير: كانت الهدية جواهر، وقيل غير ذلك مما لا فائدة في التطويل بذكره. وأخرج ابن المنذر من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله **﴿قيل إن ياتوني مسلمين﴾** قال: طائعتين. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه قال: اسم العفريت صخر. وأخرج ابن أبي شيبه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً **﴿قيل أن تقوم من مقامك﴾** قال: من مجلسك. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً **﴿قال الذي عنده علم من الكتاب﴾** قال: هو آصف بن برخيا، وكان صديقاً يعلم الاسم الأعظم. وأخرج أبو عبيد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: في قراءة ابن مسعود (قال الذي عنده علم من الكتاب أنا أنظر في كتاب ربي ثم أتيك به قبل أن يرد إليك طرفك) قال: فتكلم ذلك العالم بكلام دخل العرش في نفق تحت الأرض حتى خرج إليهم. وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس في قوله **﴿قيل إن يردك إليك طرفك﴾** قال: قال لسليمان: انظر إلى السماء، قال: فما أطرف حتى جاءه به، فوضعه بين يديه. وأخرج ابن أبي شيبه، وابن المنذر، وابن عساكر عن ابن عباس قال: لم يجر عرش صلحية سبأ بين الأرض والسماء، ولكن انشقت به الأرض، فجري تحت الأرض حتى ظهر بين يدي سليمان.

قَالَ تَكْرُؤًا لِمَا عَرَفْنَا نَهْطَ أَنْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرَشُكَ قَالَتْ كَلَّهْ هُوَ وَأَوْرَثَنَا الْمَلِكُ مِنْ قَبْلِهَا وَكَأَنَّ سُلَيْمَانَ ﴿١٧﴾ وَصَدَقًا مَا كَانَتْ تُقَدِّمُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّمَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿١٨﴾ قِيلَ لَهَا أَنْذِلِ الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَبِطَتْ لَهْفَةً وَكُنَفَتْ عَنْ سَاقِيهَا قَالَتْ إِنَّكُمْ صَرَحٌ مَرْدٌ مِنْ قَوَارِيرٍ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْمَلَائِكَةِ ﴿١٩﴾

قوله: **﴿نكروا لها عرشها﴾** التكرير التغيير، يقول: غيروا سريرها إلى حال تنكره إذا رآته. قيل: جعل أعلاه أسفله، وأسفله أعلاه، وقيل: غير بزيادة ونقصان. قال الفراء، وغيره: إنما أمر بتكريره؛ لأن الشياطين قالوا له: إن في عقلها شيئاً، فأراد أن يمتحنها، وقيل: خافت الجن أن يتزوج بها سليمان، فيولد له منها ولد فييقون مسخرين لآل سليمان أبداً، فقالوا لسليمان: إنها ضعيفة العقل، ورجلها كرجل الحمار، وقوله **﴿تنظرو﴾** بالجزم على أنه جواب الأمر، وبالجزم قرأ الجمهور، وقرأ أبو حيان بالرفع على الاستئناف **﴿اتهتدي﴾** إلى معرفته، أو إلى الإيمان بالله **﴿أم تكون من الذين لا يهتدون﴾** إلى ذلك **﴿فلما جاءت﴾** أي: بلقيس إلى سليمان

سليمان مستقراً عنده أي: رأى العرش حاضراً لديه **﴿قال هذا من فضل ربي ليبلوني أشكر أم أكفر﴾** الإشارة بقوله **﴿هذا﴾** إلى حضور العرش، ليبلوني أي: ليختبرني أشكره بذلك، وأعترف أنه من فضله من غير حول مني ولا قوة، أم أكفر بترك الشكر وعدم القيام به. قال الأخفش: المعنى: لينظر أشكر أم أكفر، وقال غيره: معنى **﴿ليبلوني﴾**: ليتعبدني، وهو مجاز، والأصل في الابتلاء الاختبار **﴿ومن شكر فإنما يشكر لنفسه﴾**؛ لأنه استحق بالشكر تمام النعمة ودوامها، والمعنى: أنه لا يرجع نفع ذلك إلا إلى الشاكر **﴿ومن كفر﴾** بترك الشكر **﴿فإن ربي غني﴾** عن شكره **﴿كريم﴾** في ترك المعالجة بالعقوبة بنزع نعمه عنه، وسلبه ما أعطاه منها، وأم في **﴿أم أكفر﴾** هي المتصلة.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله **﴿أذهب بكتابي هذا فإلقه إليهم ثم تول عنهم﴾** يقول: كن قريباً منهم **﴿فانظر ماذا يرجعون﴾** فانطلق بالكتاب حتى إذا توسط عرشها ألقى الكتاب إليها، فقرأ عليها، فإذا فيه **﴿إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم﴾**، وأخرج ابن مريويه عنه **﴿كتاب كريم﴾** قال: مختم، وأخرج ابن أبي حاتم عن ميمون بن مهران: أن النبي ﷺ كان يكتب: «باسمك اللهم» حتى نزلت **﴿إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم﴾**. وأخرج أبو داود في مراسيله عن أبي مالك مرفوعاً مثله. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله **﴿افتوني في أمري﴾** قال: جمعت رؤوس مملكتها فشاورتهم في رأيها، فأجمع رأيهم ورأيها على أن يغزوه، فسارت حتى إذا كانت قريبة قالت: أرسل إليهم بهيمة، فإن قبلها، فهو ملك أقاتله، وإن ردها تابعت، فهو: نبي، فلما نلت رسلها من سليمان علم خبرهم، فأمر الشياطين، فمؤموا ألف قصر من ذهب وقضة، فلما رأت رسلها قصور الذهب قالوا: ما يصنع هذا بهيبتنا، وقصوره ذهب وقضة، فلما دخلوا عليه بهيبتها **﴿قال اتمذنون بمال﴾**، ثم قال سليمان: **﴿ليكم ياتيني بعرشها قبل أن ياتوني مسلمين﴾** فقال كاتب سليمان: أرفع بصرك، فرفع بصره، فلما رجع إليه طرفه فإذا هو بسرير **﴿قال نكروا لها عرشها﴾** فنزع منه فصوصه، ومرافقه، وما كان عليه من شيء **﴿قيل﴾** لها **﴿أهكذا عرشك﴾** قالت كآته هو **﴿[النمل: 42] وأمر الشياطين ففعلوا لها صرحاً ممرداً من قوارير، وجعل فيها تماثيل السمك، فـ ﴿قيل لها ادخلي الصرح﴾ [النمل: 44] فكشفت عن ساقها فإذا فيها شعر، فعند ذلك أمر بصنعة الثورة فصنعت، فقيل لها ﴿إنه صرح ممرّد من قوارير قالت ربّ إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله ربّ العالمين﴾ [النمل: 44]. وأخرج ابن أبي شيبه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله **﴿إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدها﴾** قال: إذا أخذوها عنوة أخربوها. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: يقول الربّ تبارك وتعالى: **﴿وكنلك يفعلون﴾**. وأخرج ابن أبي**

القصة من جملة بيان قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: 6] و ﴿صَالِحًا﴾ عطف بيان، و ﴿إِنْ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ تفسير للرسالة، وإن هي المفسرة، ويجوز أن تكون مصدرية أي: بأن اعبدوا الله، وإذا في ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ﴾ هي الفجائية أي: ففاجئوا التفرق، والاختصاص، والمراد بالفريقان المؤمنون منهم، والكافرون، ومعنى الاختصاص: أن كل فريق يخاصم على ما هو فيه، ويزعم أن الحق معه، وقيل: إن الخصومة بينهم في صالح هل هو مرسل أم لا؟ وقيل: أحد الفريقين صالح، والفريق الآخر جميع قومه، وهو ضعيف ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ أي: قال صالح للفريق الكافر منهم منكراً عليهم: لم تستعجلون بالسَّيِّئَةِ قبل الحسنة؟ قال مجاهد: بالعذاب قبل الرحمة. والمعنى: لم تؤخروا الإيمان الذي يجلب إليكم الثواب، وتقدمون الكفر الذي يجلب إليكم العقوبة؟ وقد كانوا لفرط كفرهم يقولون: اثنتا يا صالح بالعذاب ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ﴾ هلا تستغفرون الله، وتتوبون إليه من الشرك ﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾ رجاء أن ترحموا، أو كي ترحموا فلا تعذبوا، فإن استعجال الخير أولى من استعجال الشر، ووصف العذاب بأنه سيئة مجازاً، إما لأن العقاب من لوازمه، أو لأنه يشبهه في كونه مكروهاً، فكان جوابهم عليه بعد هذا الإرشاد الصحيح، والكلام اللين أنهم ﴿قَالُوا أَطِيرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ﴾ أصله تطيرنا، وقد قرئ بذلك، والتطير التشاؤم: أي: تشاءمنا منك، وبمن معك ممن أجابك، ويدخل في دينك، وذلك لأنه أصابهم قط فتشاءموا بصالح، وقد كانت العرب أكثر الناس طيرة، وإشقاهاً بها، وكانوا إذا أربوا سفراً أو أمراً من الأمور نفروا طائراً من وكره فإن طار يمنة ساروا، وفعلوا ما عزموا عليه، وإن طار يسرة تركوا ذلك فلما قالوا ذلك ﴿قَالَ﴾ لهم صالح ﴿طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: ليس ذلك بسبب الطير الذي تتشاءمون به، بل سبب ذلك عند الله، وهو ما يقترنه عليكم، والمعنى: أن الشؤم الذي أصابكم هو من عند الله بسبب كفركم، وهذا كقوله تعالى: ﴿يَطِيرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ إِلَّا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: 131]، ثم أوضح لهم سبب ما هم فيه بأوضح بيان، فقال: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ أي: تمتحنون، وتختبرون وقيل: تعذبون بذنوبكم، وقيل: يفتنكم غيركم، وقيل: يفتنكم الشيطان بما تقعون فيه من الطيرة، أو بما لأجله تطيرون، فأضرب عن ذكر الطائر إلى ما هو السبب الداعي إليه ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ التي فيها صالح، وهو الحجر ﴿تِسْعَةَ رَهْطٍ﴾ أي: تسعة رجال من أبناء الأشراف، والرهط اسم للجماعة، فكانهم كانوا رؤساء يتبع كل واحد منهم جماعة، والجمع أرهط، وأراهط، وهؤلاء التسعة هم أصحاب قدار عاقر الناقة، ثم وصف هؤلاء بقوله ﴿يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يَصْلَحُونَ﴾ أي

شأنهم، وعملهم الفساد في الأرض الذي لا يخالطه صلاح، وقد اختلف في أسماء هؤلاء التسعة اختلافاً كثيراً لا حاجة إلى التطويل بذكره ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ﴾ أي: قال بعضهم لبعض: احلفوا بالله، هذا على أن تقاسموا فعل أمر، ويجوز أن يكون فعلاً ماضياً مفسراً لقولوا: كأنه قيل: ما قالوا؟ فقال: تقاسموا، أو يكون حالاً على إضمار قد أي: قالوا ذلك متقاسمين، وقرأ ابن مسعود (يفسدون في الأرض ولا يصلحون * تقاسموا بالله) وليس فيها قالوا، واللام في ﴿لَنَنْبِئْتَنَّهُ وَاهِلَهُ﴾ جواب القسم أي: لنأتيه بغته في وقت البياض، فنقتله واهله ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لَوْلِيهِ﴾ قرأ الجمهور بالنون للمتكلم في لنبيئته، وفي لنقولن، واختار هذه القراءة أبو حاتم. وقرأ حمزة، والكسائي بالفاء فيهما على خطاب بعضهم لبعضهم، واختار هذه القراءة أبو عبيد، وقرأ مجاهد، وحמיד بالتحية فيهما، والمراد بولي صالح رهطه ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلَكَ أَهْلَهُ﴾ أي: ما حضرنا قتله، ولا ندري من قتله، وقتل أهله، ونفيهم لشهودهم لمكان الهلاك يدل على نفي شهودهم لنفس القتل بالأولى، وقيل: إن المهلك بمعنى الإهلاك، وقرأ حفص⁽¹⁾، والسلمي مهلك بفتح الميم، واللام، وقرأ أبو بكر، والمفضل بفتح الميم، وكسر اللام ﴿وَإِنَّا لَصَاقِقُونَ﴾ فيما قلناه. قال الزجاج: وكان هؤلاء النفر تحالفوا أن يبيتوا صالحاً وأهله، ثم ينكروا عند أوليائه أنهم ما فعلوا ذلك، ولا رأوه، وكان هذا مكرراً منهم، ولهذا قال الله سبحانه ﴿وَمَكْرُوهٌ مَكْرَأٌ﴾ أي: بهذه المحالفة ﴿وَمَكْرُوهٌ مَكْرَأٌ﴾ جازيناهم بفعلهم، فأهلكناهم ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بمكر الله بهم ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ﴾ أي: انظر ما انتهى إليه أمرهم الذي بنوه على المكر، وما أصابهم بسببه ﴿إِنَّا لَمُرْنَاهُمْ وَقَوْمُهُمْ لَجَمْعِينِ﴾ قرأ الجمهور بكسر همزة أنا، وقرأ حمزة، والكسائي، والأعمش، والحسن، وابن أبي إسحاق، وعاصم بفتحها، فمن كسر جعله استئنافاً. قال الفراء، والزجاج: من كسر استأنف، وهو يفسر به ما كان قبله، كأنه جعله تابعاً للعاقبة، كأنه قال: العاقبة إنا لمُرناهم، وعلى قراءة الفتح يكون التقدير بأننا لمُرناهم، أو لانا لمُرناهم، وكان تامة، وعاقبة فاعل لها، أو يكون بدلاً من عاقبة، أو يكون خبر مبتدأ محذوف أي: هي أنا لمُرناهم، ويجوز أن تكون كان ناقصة، وكيف خبرها، ويجوز أن يكون خبرها أنا لمُرنا. قال أبو حاتم: وفي حرف أبي (أن لمُرناهم). والمعنى في الآية: أن الله مَرَّ التسعة لرهط المذكورين، وبمر

(1) (قوله وقرأ حفص إلخ) في العبارة قلب إذ المشهور أن حفصاً والسلمي قرأ بفتح الميم وكسر اللام وإبا بكر والمفضل بفتحهما ولعله سهو اهـ مصحح القرآن.

قومهم الذين لم يكونوا معهم عند مباشرتهم لذلك، ومعنى التأكيد بأجمعين: أنه لم يشذ منهم أحد ولا سلم من العقوبة فرد من أفرادهم، وجملة **﴿فَتِلْكَ بَيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ﴾** مقررة لما قبلها. قرأ الجمهور (خاوية) بالنصب على الحال. قال الزجاج: للمعنى: فانظر إلى بيوتهم حال كونها خاوية، وكذا قال الفراء، والنحاس: أي: خالية عن أهلها خراباً ليس بها ساكن. وقال الكسائي وإبو عبيدة: نصب خاوية على القطع، والأصل فتلك بيوتهم الخاوية، فلما قطع منها الألف، واللام نصبت كقوله: **﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً﴾** [النحل: 52]. وقرأ عاصم بن عمر، ونصر بن عاصم، والجحدري، وعيسى بن عمر برفع (خاوية) على أنه خبر اسم الإشارة، وبيوتهم بدل، أو عطف بيان، أو خبر لاسم الإشارة، وخاوية خبر آخر، والباء في **﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾** للسببية أي: بسبب ظلمهم **﴿إِنْ فِي ذَلِكَ﴾** التدمير، والإهلاك **﴿لَآيَةً﴾** عظيمة **﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾** أي: يتصفون بالعلم بالآشياء **﴿وَوَانْجَيْنَا الْفَيْنَ أَمْوَالاً﴾** وهم صالح، ومن آمن به **﴿وَوَكُنَّا نُوايِقُونَ﴾** الله، ويخافون عذابه.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس **﴿طَائِرُكُمْ﴾** قال: مصائبكم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه في قوله **﴿وَوَكُنَّا فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةً رَهْطاً﴾** قال: هم الذين عقروا الناقة، وقالوا حين عقروها: نبيت صالحاً وأهله، فنقتلهم، ثم نقول لأوليائه صالح: ما شهدنا من هذا شيئاً، وما لنا به علم فنمرهم الله أجمعين.

وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْغِضُونَ ﴿١﴾
لَكُمْ تَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ ۚ أَتَنْتَهِمُونَ ﴿٢﴾ مَا كُنَّا جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ كَانُوا أَخْرَجُوا مَا لَوْطٌ مِنْ قَرْنَيْكُمُ ۖ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْغِضُونَ ﴿٣﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ النَّارِ ﴿٤﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا مُثَوِّبًا ﴿٥﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٦﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٧﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٨﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٩﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٠﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿١١﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٢﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٣﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٤﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٥﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٦﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٧﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٨﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٩﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٢٠﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٢١﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٢٢﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٢٣﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٢٤﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٢٦﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٢٧﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٢٨﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٣٠﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٣١﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٣٢﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٣٣﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٣٤﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٣٥﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٣٦﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٣٧﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٣٨﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٣٩﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٤٠﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٤١﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٤٢﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٤٣﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٤٤﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٤٥﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٤٦﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٤٧﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٤٨﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٤٩﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٥٠﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٥١﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٥٢﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٥٣﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٥٤﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٥٥﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٥٦﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٥٧﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٥٨﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٥٩﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٦٠﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٦١﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٦٢﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٦٤﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٦٥﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٦٦﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٦٨﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٦٩﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٧٠﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٧١﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٧٢﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٧٣﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٧٤﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٧٥﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٧٦﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٧٧﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٧٨﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٧٩﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٨٠﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٨١﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٨٢﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٨٣﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٨٤﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٨٥﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٨٦﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٨٧﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٨٨﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٨٩﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٩٠﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٩١﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٩٢﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٩٣﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٩٤﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٩٥﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٩٦﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٩٧﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٩٨﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٩٩﴾ قُلِ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٠٠﴾

انتصاب لوطاً: بفعل مضمر معطوف على أرسلنا أي: وأرسلنا لوطاً، و **﴿إِذْ قَالَ﴾** ظرف للفعل المقدر، ويجوز أن يقدر انكر؛ والمعنى: وأرسلنا لوطاً وقت قوله **﴿لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾** أي: الفعلة المتنامية في القبح، والشناعة، وهم أهل سدوم، وجملة **﴿وَوَانْجَيْنَا بَيُوتَهُمْ﴾** في محل نصب على الحال متضمنة لتأكيد الإنكار أي: وأنتم تعلمون أنها فاحشة. وذلك أعظم لتوبيخكم، على أن تبصرون من بصر القلب، وهو العلم، أو بمعنى: النظر، لأنهم كانوا لا يستترون حال فعل الفاحشة عتواً، وتمرداً، وقد تقدّم تفسير هذه القصة في الأعراف مستوفى **﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً﴾** فيه تكرير للتوبيخ مع التصريح بأن تلك الفاحشة هي اللواط، وانتصاب شهوة على العلة أي: للشهوة، أو على أنه صفة لمصدر محذوف: أي: إتياناً شهوة، أو أنه بمعنى الحال أي: مشتتهين لهم **﴿مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾** أي: متجاوزين النساء اللاتي هن محل لذلك **﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُجَاهِلُونَ﴾** التحريم، أو العقوبة على هذه المعصية، واختار الخليل، وسيبويه تخفيف الهمزة من أنكم **﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْغِضُونَ﴾** قرأ الجمهور بنصب (جواب) على أنه خبر كان، واسمها **﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾** أي: **﴿إِلَّا قَوْلُهُمْ﴾**. وقرأ ابن أبي إسحاق برفع (جواب) على أنه اسم كان، وخبرها ما بعده، ثم عللوا ما أمروا به بعضهم بعضاً من الإخراج بقولهم: إنهم أناس يتطهرون أي: يتزهدون عن أنبار الرجال، قالوا ذلك استهزاء منهم بهم **﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾** من العذاب **﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ النَّارِ﴾** أي: قدرنا أنها من الباقيين في العذاب، ومعنى قدرنا: قضينا، قرأ الجمهور قدرنا بالتشديد، وقرأ عاصم^(١) بالتخفيف. والمعنى واحد مع دلالة زيادة البناء على زيادة المعنى **﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾** هذا التأكيد يدل على شدة المطر، وأنه غير معهود **﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ﴾** المخصوص بالذم محذوف أي: ساء مطر المنذرين مطرهم، والمراد بالمنذرين الذين اتنذروا، فلم يقبلوا، وقد مضى بيان هذا كله في الأعراف، والشعراء **﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ﴾** قال الفراء: قال أهل المعاني: قيل: للوط قل: الحمد لله على هلاكهم، وخالفه جماعة فقالوا: إن هذا خطاب لنبينا ﷺ، أي: قيل: الحمد لله على هلاك كفار الأمم الخالية، وسلام على عباده **﴿الَّذِينَ اصْطَفَى﴾** قال النحاس: وهذا أولى؛ لأن القرآن منزل على النبي ﷺ، وكل ما فيه فهو مخاطب به إلا ما لم يصح معناه إلا لغيره. قيل: والمراد بعباده الذين اصطفى: أمة محمد ﷺ، والأولى حمله على العموم، فيدخل في ذلك الأنبياء وأتباعهم **﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾** أي: الله الذي نكرت أفعاله وصفاته الدالة على

(١) (قوله) وقرأ عاصم) وقرأ أبو بكر عن عاصم اهـ مصحح

عظيم قدرته خير أما يشركون به من الأصنام، وهذه الخيرية ليست بمعناها الأصلي. بل هي كقول الشاعر:

اتهجوه ولست له بكفء
نشركم بالخير كما الفداء

فيكون ما في الآية من باب التهكم بهم، إذ لا خير فيهم أصلاً. وقد حكى سيبويه أن العرب تقول: السعادة أحب إليك أم الشقاوة، ولا خير في الشقاوة أصلاً. وقيل: المعنى: أثواب الله خير، أم عقاب ما تشركون به؟ وقيل: قال لهم ذلك جرياً على اعتقادهم، لأنهم كانوا يعتقدون أن في عبادة الأصنام خيراً. وقيل: المراد من هذا الاستفهام الخبر. قرأ الجمهور (تشركون) بالفوقية على الخطاب، وهي اختيار أبي عبيد، وأبي حاتم. وقرأ أبو عمرو، وعاصم، ويعقوب (يشركون) بالتحية، ودام، في ﴿أما يشركون﴾ هي المتصلة، وأما في قوله ﴿أمن خلق السموات والأرض﴾ فهي المنقطعة. وقال أبو حاتم: تقديره «ألهمتكم خير أم من خلق السموات والأرض، وقدر على خلقهن؟ وقيل: المعنى: أعبادة ما تعبدون من أوثانكم خير، أم عبادة من خلق السموات، والأرض؟ فتكون أم على هذا متصلة، وفيها معنى التوبيخ، والتهكم كما في الجملة الأولى. وقرأ الأعمش (أمن) بتخفيف الميم ﴿وانزل لكم من السماء ماء﴾ أي: نوعاً من الماء، وهو المطر ﴿فانبتنا به حنائق﴾ جمع حنيقة. قال الفراء: الحنيقة البستان الذي عليه حائط، فإن لم يكن عليه حائط، فهو البستان، وليس بحنيقة. وقال قتادة، وعكرمة: الحنائق النخل ﴿ذات بهجة﴾ أي: ذات حسن، ورونق. والبهجة: هي الحسن الذي يتبهج به من رآه، ولم يقل: نوات بهجة على الجمع، لأن المعنى: جماعة حنائق ﴿ما كان لكم أن تنبتوا شجرها﴾ أي: ما صحت لكم أن تفعلوا ذلك، ومعنى هذا النفي: الحظر، والمنع من فعل هذا أي: ما كان للبشر، ولا يتهاى لهم ذلك، ولا يدخل تحت مقدرتهم لعجزهم عن إخراج الشيء من العدم إلى الوجود. ثم قال سبحانه موبخاً لهم، ومقرعاً ﴿إله مع الله﴾ أي: هل معبود مع الله الذي تقمّ ذكر بعض أفعاله حتى يقرن به، ويجعل شريكاً له في العبادة، وقرئ ﴿إلهاً مع الله﴾ بالنصب على تقدير: أتدعون إلهاً. ثم اضرب عن قريحهم وتوبيخهم بما تقمّ، وانتقل إلى بيان سوء حالهم مع الالتفات من الخطاب إلى الغيبة، فقال ﴿بل هم قوم يعطلون﴾ أي: يعطلون بالله غيره، أو يعطلون عن الحق إلى الباطل، ثم شرع في الاستدلال بأحوال الأرض وما عليها، فقال ﴿أمن جعل الأرض قراراً﴾ القرار المستقر أي: نجاها، وسواها بحيث يمكن الاستقرار عليها. وقيل: هذه الجملة وما بعدها من الجمل الثلاث بدل من قوله: ﴿أمن خلق السموات والأرض﴾، ولا ملجئ لذلك، بل هي وما بعدها إضراب وانتقال من التوبيخ والتقريع بما قبلها إلى التوبيخ والتقريع بشيء آخر ﴿وجعل خلالها أنهاراً﴾ الخلال: الوسط. وقد تقمّ تحقيقه في قوله: ﴿وفجرنا خلالها نهراً﴾ [الكهف: 33] ﴿وجعل لها رواسي﴾ أي: جبلاً ثوابت تمسكها، وتمنعها من الحركة ﴿وجعل بين

البحرين حاجزاً﴾ الحاجز: المانع أي: جعل بين البحرين من قدرته حاجزاً. والبحران هما العنب والمالح، فلا يختلط أحدهما بالآخر فلا هذا يغير ذلك، ولا ذاك يخل في هذا، وقد مرّ بيانه في سورة الفرقان ﴿إله مع الله﴾ أي: إذا ثبت أنه لا يقدر على ذلك إلا الله فهل إله في الوجود يصنع صنعه، ويخلق خلقه؟ كيف يشركون به ما لا يضر ولا ينفع ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ توحيد ربهم، وسلطان قدرته ﴿أمن يجيب المضطر إذا دعاه﴾ هذا استدلال منه سبحانه بحاجة الإنسان إليه على العموم، والمضطر اسم مفعول من الاضطراب: وهو المكروب المجهود الذي لا حول له ولا قوة. وقيل: هو المذنّب، وقيل: هو الذي عراه ضرر من فقر، أو مرض، فالجاء إلى التضرع إلى الله. واللام في المضطر لجنس لا للاستغراق، فقد لا يجاب دعاء بعض المضطرين لمانع يمنع من ذلك بسبب يحدثه العبد يحول بينه وبين إجابة دعائه، ولا فقد ضمن الله سبحانه إجابة دعاء المضطر إذا دعاه، وأخبر بذلك عن نفسه، والوجه في إجابة دعاء المضطر أن تلك الاضطراب الحاصل له يتسبب عنه الإخلاص، وقطع النظر عما سوى الله، وقد أخبر الله سبحانه بأنه يجيب دعاء المخلصين له الدين، وإن كانوا كافرين، فقال: ﴿حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيئنا من هذه النكون من الشاكركين﴾ [يونس: 22] وقال: ﴿فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون﴾ [العنكبوت: 65] فأجابهم عند ضرورتهم، وإخلاصهم مع علمه بأنهم سيعوبون إلى شركهم ﴿ويكشف السوء﴾ أي: الذي يسوء العبد من غير تعيين، وقيل: هو الضرر، وقيل: هو الجور ﴿ويجعلكم خلفاء الأرض﴾ أي: يخلف كل قرن منكم القرن الذي قبله بعد انقراضهم، والمعنى: يهلك قرناً، وينشئ آخرين، وقيل: يجعل أولادكم خلفاً منكم، وقيل: يجعل المسلمين خلفاً من الكفار ينزلون أرضهم، ويأمرهم ﴿إله مع الله﴾ الذي يوليكم هذه النعم الجسام ﴿قليلاً ما تذكرون﴾ أي: تذكرنا قليلاً ما تذكرون. قرأ الجمهور بالفوقية على الخطاب. وقرأ أبو عمرو، وهشام، ويعقوب بالتحية على الخبر رداً على قوله: ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ واختار هذه القراءة أبو حاتم ﴿أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر﴾ أي: يرشدكم في الليالي المظلمة إذا سافرتهم في البر، أو البحر. وقيل: المراد: مفاز البر التي لا أعلام لها، ولجج البحار، وشبهها بالظلمات لعدم ما يهتدون به فيها ﴿ومن يرسل الرياح نشرأ بين يدي رحمته﴾ والمراد بالرحمة هنا المطر أي: يرسل الرياح بين يدي المطر، وقبل نزوله ﴿إله مع الله﴾ يفعل ذلك، ويوجده ﴿تعالى الله عما يشركون﴾ أي: تنزه، وتقنّس عن وجود ما يجعلونه شريكاً له ﴿أمن يبدؤا الخلق ثم يعيده﴾ كانوا يقرّون بأن الله سبحانه هو الخالق، فالزمهم الإعادة أي: إذا قدر على الابتداء

منها» أي: بل هم اليوم في الدنيا في شك من الآخرة، ثم أضرب عن ذلك إلى ما هو أشد منه، فقال ﴿بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ فلا يدركون شيئاً من دلائلها لاختلال بصائرهم التي يكون بها الإدراك، وعمون جمع عم: وهو من كان أعمى القلب، والمراد بيان جهلهم بها على وجه لا يهتدون إلى شيء مما يوصل إلى العلم بها، فمن قال: إن معنى الآية الأولى أعني ﴿بَلْ أَذَارِكْ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ﴾: أنه كمل علمهم، وتم مع المعينة فلا بد من حمل قوله: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ﴾ إلخ على ما كانوا عليه في الدنيا، ومن قال: إن معنى الآية الأولى: الاستهزاء بهم، والتبكيك لهم لم يحتج إلى تعييد قوله ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ﴾ إلخ بما كانوا عليه في الدنيا. وبهذا يتضح معنى هذه الآيات، ويظهر ظهوراً بيّناً.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والبخاري، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾: قال: هم أصحاب محمد ﷺ اصطفاهم الله لنبيه، وروي مثله عن سفيان الثوري. والأولى ما قدمناه من التعميم، فيدخل في ذلك أصحاب نبينا ﷺ بخلاً أولياً، وأخرج أحمد، وأبو داود، والنسائي، والطبراني عن رجل من بلجهم قال: «قلت: يا رسول الله إلى ما تدعو؟ قال: أدعو الله وحده الذي إن مسك ضر، فدعوته كشفه عنك»، هذا طرف من حديث طويل. وقد رواه أحمد من وجه آخر فبين اسم الصحابي فقال: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا يونس، حدثنا عبيد بن عبيدة الهجيمي عن أبيه، عن أبي تميم الهجيمي، عن جابر بن سليم الهجيمي. ولهذا الحديث طرق عند أبي داود، والنسائي. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما من حديث عائشة قالت: «ثلاث من تكلم بواحدة منهم، فقد أعظم على الله الفرية»، وقالت في آخره: «ومن زعم أنه يخبر الناس بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية، والله تعالى يقول ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿بَلْ أَذَارِكْ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ﴾: قال: حين لا ينفع العلم. وأخرج أبو عبيد في فضائله، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عنه: أنه قرأ (بل أدرك علمهم في الآخرة) قال: لم يدرك علمهم. قال أبو عبيد: يعني: أنه قرأها بالاستفهام. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿بَلْ أَذَارِكْ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ يقول: غاب علمهم.

قدر على الإعادة ﴿وَمَنْ يَرْزُقْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ بالمطر، والنبات أي: هو خير أم ما تجعلونه شريكاً له مما لا يقدر على شيء من ذلك ﴿وَاللهُ مَعَ اللَّهِ﴾ حتى تجعلونه شريكاً ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: حجتكم على أن الله سبحانه شريكاً، أو هاتوا حجتكم أن ثم صانعاً يصنع كصنعه، وفي هذا تبكيك لهم، وتهكم بهم ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي: لا يعلم أحد من المخلوقات الكائنة في السموات، والأرض الغيب الذي استأثر الله بعلمه، والاستثناء في قوله ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ منقطع أي: لكن الله يعلم ذلك، ورفع ما بعد إلا مع كون الاستثناء منقطعاً هو على اللغة التميمية كما في قولهم: إلا العافير والالعيس

وقيل: إن فاعل يعلم هو ما بعد إلا، ومن في السموات مفعوله، والغيب بدل من أي: لا يعلم غيب من في السموات، والأرض إلا الله، وقيل: هو استثناء متصل من «من». وقال الزجاج: إلا الله بدل من «من». قال الفراء: وإنما رفع ما بعد إلا لأن ما بعدها خبر كقولهم: ما ذهب أحد إلا أبوك، وهو كقول الزجاج. قال الزجاج: ومن نصب نصب على الاستثناء ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي: لا يشعرون متى ينشرون من القبور، وأيان مركبة من أي، وإن. وقد تقدم تحقيقه، والضمير للكفرة. وقرأ السلمي (أيان) بكسر الهمزة، وهي لغة بني سليم، وهي منصوبة بيبعثون، ومعلقة ليشعرون، فتكون هي وما بعدها في محل نصب بنزع الخافض أي: وما يشعرون بوقت بعثهم، ومعنى ﴿أَيَّانَ﴾: معنى متى ﴿بَلْ أَذَارِكْ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ﴾. قرأ الجمهور (أدراك)، وأصل أدراك تدارك أدغمت التاء في الدال، وجيء بهمزة الوصل ليتمكن الابتداء بالساكن. وقرأ أبو جعفر، وابن كثير، وأبو عمر، وحמיד (بل أدرك) من الإدراك. وقرأ عطاء بن يسار، وسليمان بن يسار، والأعمش (بل أدرك) بفتح لام بل، وتشديد الدال. وقرأ ابن محيصن (بل أدرك) على الاستفهام. وقرأ ابن عباس، وأبو رجاء وشيبة، والأعمش، والأعرج (بلى أدراك) بلبات الباء في بل، وبهمزة قطع وتشديد الدال. وقرأ أبي (بل تدارك)، ومعنى الآية: بل تكامل علمهم في الآخرة: لأنهم رأوا كل ما وعدوا به، وعاینوه. وقيل: معناها: تتابع علمهم في الآخرة، والقراءة الثانية معناها: كمل علمهم في الآخرة مع المعينة، وذلك حين لا ينفعهم العلم: لأنهم كانوا في الدنيا مكذبين. وقال الزجاج: إنه على معنى الإنكار، واستدل على ذلك بقوله فيما بعد ﴿بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ أي: لم يدرك علمهم علم الآخرة، وقيل: المعنى: بل ضل، وغاب علمهم في الآخرة فليس لهم فيها علم، ومعنى القراءة الثالثة كمعنى القراءة الأولى، فافتعل، وتفاعل قد يجيئان لمعنى، والقراءة الرابعة هي بمعنى الإنكار. قال الفراء: وهو وجه حسن كأنه وجهه إلى المكذبين على طريق الاستهزاء بهم، وفي الآية قراءات أخر لا ينبغي الاشتغال بذكرها وتوجيهها ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ﴾

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوَلَمْ كُنَّا أَهْلًا مَحْشُورِينَ ﴿٧٦﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا مَثَلًا هَذَا وَإِنَّا بِهَذَا لَوَاسِعُونَ ﴿٧٧﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٧٨﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي سَبِيلِهِمْ سَيِّئًا يَمْكُرُونَ ﴿٧٩﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٠﴾ قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ رَدْدٌ لَّكُمْ بَعْضُ الَّذِي سْتَعْمِلُونَ ﴿٨١﴾ وَإِنْ رَجَعْتَ إِلَىٰ فَضْلِي عَلَىٰ الْكَافِرِينَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِنْ رَجَعْتَ إِلَىٰ فَضْلِي سُدُّوهُمْ

التي تعدنا به ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في ذلك ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدْفَ لَكُمْ﴾ يقال: ردف الرجل، وأردفته إذا ركبت خلفه، ودفه إذا أتبعه، وجاء في أثره، والمعنى: قل: يا محمد لهؤلاء الكفار عسى أن يكون هذا العذاب الذي به توعدون تبعمكم، ولحقكم، فتكون اللام زائدة للتأكيد، أو بمعنى اقترب لكم، ودنا لكم، فتكون غير زائدة. قال ابن شجرة: معنى ردف لكم: تبعمكم، قال: ومنه ردف المرأة؛ لأنه تبع لها من خلفها، ومنه قول أبي نؤيب:

عاد السواد بياضاً في مفارقه لا مرحباً بياض الشيب إذ ردفنا
قال الجوهري: وأردف لفة في ردفه مثل تبعه وأتبعه بمعنى. قال خزيمة بن مالك بن نهد:

إذا الجوزاء أرففت الشريا ظننت بال فاطمة للظنونا
قال الفراء: ردف لكم: دنا لكم، ولهذا قيل: لكم. وقرأ الأعرج (ردف لكم) بفتح الدال، وهي لفة، والكسر أشهر. وقرأ ابن عباس (أزف لكم)، وارتفاع ﴿بعض الذي تستعجلون﴾ أي: على أنه فاعل ردف، والمراد بعض الذي تستعجلونه من العذاب أي: عسى أن يكون قد قرب، ودنا، وأزف بعض ذلك، قيل: هو عذابهم بالقتل يوم بدر، وقيل: هو عذاب القبر. ثم نكر سبحانه فضله في تأخير العذاب، فقال ﴿وَأَنْ رَّبِّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ في تأخير العقوبة، والأولى أن تحمل الآية على العموم، ويكون تأخير العقوبة من جملة أفضاله سبحانه وإنعامه ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ فضله، وإنعامه، ولا يعرفون حق إحسانه، ثم بين أنه مطلع على ما في صدورهم، فقال ﴿وَأَنْ رَّبِّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ أي: ما تخفيه. قرأ الجمهور (تكن) بضم التاء من كن. وقرأ ابن محيصن، وابن السميع، وحيد بفتح التاء، وضم الكاف، يقال: كنته بمعنى سترته، وخفيت أثره ﴿وَمَا يَعْلَنُونَ﴾ وما يظهرون من أقوالهم وأفعالهم ﴿وَمَا مِنْ غَائِثَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مَبِينٍ﴾ قال المفسرون: ما من شيء غائب، وأمر يغيب عن الخلق في السماء، والأرض إلا في كتاب مبين إلا هو مبين في اللوح المحفوظ، وغائبة هي من الصفات الغالبة، والتاء للمبالغة. قال الحسن: الغائبة هنا هي: القيامة. وقال مقاتل: علم ما يستعجلون من العذاب هو مبين عند الله، وإن غاب عن الخلق. وقال ابن شجرة: الغائبة هنا جميع ما أخفى الله عن خلقه، وغيبه عنهم مبين في أم الكتاب، فكيف يخفى عليه شيء من ذلك، ومن جملة ذلك ما يستعجلونه من العذاب فإنه موقت بوقت، وموَّجَل بأجل علمه عند الله فكيف يستعجلونه قبل أجله المضروب له؟ ﴿إِنْ هَذَا الْقُرْآنُ يَقْصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وذلك لأن أهل الكتاب تفرقوا فرقا، وتحزَّبوا أحزاباً يطعن بعضهم على بعض، ويتبرأ بعضهم من بعض، فنزل القرآن مبيناً لما اختلفوا فيه من الحق، فلو أخذوا به لوجدوا فيه ما يرفع اختلافهم وينفع تفرقهم ﴿وَإِنَّهُ لَهْدَى وَرَحْمَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: وإن القرآن لهدي، ورحمة لمن آمن بالله، وتابع رسوله،

وَمَا يُؤْمِنُونَ ﴿وَمَا مِنْ عَلَامَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي عَلَى بَيِّنٍ إِسْرَافِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿وَأَنَّهُ لَهْدَى وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ إِنَّ رَحْمَتَكَ بِنُفْسِ يَتِيمٍ بِحَكِيمٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتُ وَلَا تَسْمِعُ الْقَبْرُ الْآلِهَةَ إِذَا نَوَلُوا مَدِيرِينَ ﴿وَمَا آتَى يَهْدَى الْعُمِّيَّ عَنْ صَلَاتِهِمْ إِنْ تُسْمِعْ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْمِعُونَ﴾ ﴿وَلَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾

لما نكر سبحانه أن المشركين في شك من البعث، وأنهم عمون عن النظر في دلائله أراد أن يبين غاية شبههم، وهي مجرد استبعاد إحياء الأموات بعد صيرورتهم تراباً، فقال ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآيَاتُنَا آتِنَا لَمُخْرَجُونَ﴾. والعامل في إذا محذوف دل عليه مخرجون تقديره أتبع، أو نخرج إذا كنا، وإنما لم يعمل فيه مخرجون لتوسط همزة الاستفهام، وإن ولام الإبتداء بينهما. قرأ أبو عمرو باستفهامين إلا أنه خفف الهمزة. وقرأ عاصم، وحمزة باستفهامين، إلا أنهما حققا الهمزتين. وقرأ نافع بهمزة. وقرأ ابن عامر، وورش⁽¹⁾، ويعقوب (إذا) بهزتين (وإننا) بنونين على الخبر، ورجح أبو عبيد قراءة نافع، ورد على من جمع بين استفهامين؛ ومعنى الآية: أثم استنكروا واستبعدوا أن يخرجوا من قبورهم أحياء بعد أن قد صاروا تراباً، ثم اكذبوا ذلك الاستبعاد بما هو تكذيب للبعث، فقالوا: ﴿لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا﴾ يعنون: البعث ﴿نَحْنُ وَآيَاتُنَا مِنْ قَبْلُ﴾ أي: من قبل وعد محمد لنا، والجملة مستأنفة مسوقة لتقرير الإنكار مصدرة بالقسم لزيادة التقرير ﴿إِنْ هَذَا﴾ الوعد بالبعث ﴿إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أحاديثهم وأكاذيبهم الملفقة، وقد تقدّم تحقيق معنى الأساطير في سورة المؤمنون، ثم أوعدهم سبحانه على عدم قبول ما جاءت به الأنبياء من الإخبار بالبعث. فأمرهم بالنظر في أحوال الأمم السابقة المكذبة للأنبياء، وما عوقبوا به، وكيف كانت عاقبتهم، فقال ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ بما جاءت به الأنبياء من الإخبار بالبعث، ومعنى النظر هو مشاهدة آثارهم بالبصر فإن في المشاهدة زيادة اعتبار. وقيل: المعنى: فانظروا بقلوبكم، وبصائركم كيف كان عاقبة المكذبين لرسولهم، والأول أولى لأمرهم بالسير في الأرض ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ لما وقع منهم من الإصرار على الكفر ﴿وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ﴾ الضيق: الحرج، يقال: ضاق الشيء ضيقاً بالفتح، وضيقاً بالكسر قرئ بهما، وهما لغتان. قال ابن السكيت: يقال: في صدر فلان ضيق، وضيق، وهو ما تضيق عنه الصدور. وقد تقدّم تفسير هذه الآية في آخر سورة النحل ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ أي: بالعذاب

(1) (قوله وورش) صوابه والكسائي اهـ مصحح القرآن.

والمعاني متقاربة. وقيل: المراد بالقول ما نطق به القرآن من مجيء الساعة وما فيها من فنون الأموال التي كانوا يستعملونها، وقيل: وقع القول بموت العلماء، وذهاب العلم، وقيل: إذا لم يأمروا بالمعروف، وينهوا عن المنكر. والحاصل أن المراد بوقع وجب، والمراد بالقول مضمونه، أو أطلق المصدر على المفعول أي: المقول، وجواب الشرط ﴿لنخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم﴾.

واختلف في هذه الدابة على أقوال، فقيل: إنها فصيلة ناقة صالح يخرج عند اقتراب القيامة، ويكون من أشرط الساعة. وقيل: هي دابة ذات شعر، وقوائم طوال يقال لها: الجساسة. وقيل: هي دابة على خلقة بني آدم، وهي في السحاب، وقوائمها في الأرض. وقيل: رأسها رأس ثور، وعينها عين خنزير، وأنفها أنف فيل، وقرنها قرن إبل، وعنقها عنق نعام، وصدرها صدر أسد، ولونها لون نمر، وخاصرتها خاصرة هرة، ونبتها نذب كبش، وقوائمها قوائم بعير، بين كل مفصل ومفصل اثنا عشر ذراعاً. وقيل: هي الثعبان المشرف على جدار الكعبة التي اقتلعها العقاب حين أرادت قريش بناء الكعبة، والمراد أنها هي التي تخرج في آخر الزمان، وقيل: هي دابة ما لها نذب، ولها لحية، وقيل: هي إنسان ناطق متكلم ينظر أهل البدع، ويراجع الكفار، وقيل: غير ذلك مما لا فائدة في التطويل بذكره، وقد رجح القول الأول القرطبي في تفسيره.

واختلف من أي موضع تخرج؟ فقيل: من جبل الصفا بمكة، وقيل: تخرج من جبل أبي قبيس. وقيل: لها ثلاث خرجات: خرجة في بعض البوادي حتى يتقاتل عليها الناس، وتكثر الدماء، ثم تكمن، وتخرج في القرى، ثم تخرج من أعظم المساجد، وأكرمها، وأشرفها، وقيل: تخرج من بين الركن والمقام، وقيل: تخرج في تهامة، وقيل: من مسجد الكوفة من حيث فار التنور، وقيل من أرض الطائف، وقيل: من صخرة من شعب أجباد، وقيل: من صدع في الكعبة.

واختلف في معنى قوله: «تكلمهم» فقيل: تكلمهم ببطلان الأديان سوى دين الإسلام، وقيل: تكلمهم بما يسوؤهم، وقيل: تكلمهم بقوله تعالى ﴿إِنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يوقنون﴾ أي: بخروجها؛ لأن خروجها من الآيات. قرأ الجمهور «تكلمهم» من التكليم، ويدل على قراءة أبي (تنبئهم)، وقرأ ابن عباس، وأبو زرعة، وأبو رجا، والحسن: (تكلمهم) بفتح الفوقية، وسكون الكاف من الكلم، وهو الجرح. قال عكرمة: أي: تسمهم وسماءً، وقيل: تجرحهم، وقيل: إن قراءة الجمهور مأخوذة من الكلم بفتح الكاف، وسكون اللام، وهو الجرح، والتشديد للتكثير، قاله أبو حاتم. قرأ الجمهور: (إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون) بكسر إن على الاستئناف، وقرأ الكوفيون، وابن أبي إسحاق بفتح «أن». قال الأخفش: المعنى على قراءة الفتح (بأن الناس)، وكذا قرأ ابن مسعود (بأن الناس) بلباء. وقال أبو عبيد: موضعها نصب بوقوع الفعل عليها أي: تخبرهم أن الناس، وعلى هذه

وخص المؤمنين؛ لأنهم المنتفعون به، ومن جملتهم من آمن من بني إسرائيل ﴿إِنَّ رِيكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ﴾ أي: يقضي بين المختلفين من بني إسرائيل بما يحكم به من الحق، فيجازي المحق، ويعاقب المبطل، وقيل: يقضي بينهم في الدنيا، فيظهر ما حرقوه. قرأ الجمهور (بحكمه) بضم الحاء، وسكون الكاف. وقرأ جناح بكسرها، وفتح الكاف جمع حكمة ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ العزيز الذي لا يغالب، والعليم بما يحكم به، أو الكثير العلم، ثم أمره سبحانه بالتوكل، وقلة العبالة، فقال ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ والفاء لترتيب الأمر على ما تقدم ذكره، والمعنى: فوَضَّ إِلَيْهِ أَمْرَكَ، واعتمد عليه فإنه ناصر. ثم علل ذلك بعلمين: الأول قوله ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ أي: الظاهر، وقيل: المظهر. والعلة الثانية قوله ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى﴾ لأنه إذا علم أن حالهم كحال الموتى في انتفاء الجدى بالسماح، أو كحال الصم الذين لا يسمعون، ولا يفهمون، ولا يهتدون صار ذلك سبباً قوياً في عدم الاعتداد بهم، شبه الكفار بالموتى الذين لا حس لهم، ولا عقل، وبالصم الذين لا يسمعون المواعظ، ولا يجيبون الدعاء إلى الله. ثم ذكر جملة لتكميل التشبيه، وتأكيده، فقال ﴿إِذَا وَلَوْ سَدُّوا عَنْكَ آيَاتِنَا﴾ أي: إذا عرضوا عن الحق إعراضاً تاماً، فإن الأصم لا يسمع الدعاء إذا كان مقبلاً فكيف إذا كان معرضاً عنه مولياً مديراً. وظاهر نفى إسماع الموتى العموم، فلا يخص منه إلا ما ورد بلبيل كما ثبت في الصحيح: أنه ﷺ خاطب القتلى في قليب بدر، فقيل له: يا رسول الله إنما تكلم أجساداً لا أرواح لها، وكذلك ما ورد من أن الميت يسمع خفق نعال المشيعين له إذا انصرفوا. وقرأ ابن محيصن، وحמיד، وابن كثير، وابن أبي إسحاق (لا يسمع) بالتحية مفتوحة، وفتح الميم، وفاعله الصم. وقرأ الباقر (تسمع) بضم الفوقية، وكسر الميم من اسمع. قال قتادة: الأصم إذا ولى مديراً، ثم نابته لم يسمع، كذلك الكافر لا يسمع ما يدعى إليه من الإيمان. ثم ضرب العمى مثلاً لهم، فقال ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعَمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ﴾ أي: ما أنت بمُرشد من أعماء الله عن الحق إرشاداً يوصله إلى المطلوب منه، وهو: الإيمان، وليس في وسعك ذلك، ومثله قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: 56] قرأ الجمهور بإضافة هادي إلى العمى. وقرأ يحيى بن الحارث، وأبو حيان (بهاد العمى) بثنوين هاء. وقرأ حمزة (تهدي) فعلاً مضارعاً، وفي حرف عبد الله (وما أن تهدي العمى) ﴿إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُوْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ أي: ما تسمع إلا من يؤمن لا من يكفر، والمراد بمن يؤمن بالآيات من يستحق القرآن، وجملة ﴿فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ تحليل للإيمان: أي: فهم متفانون مخلصون. ثم هدد العباد بذكر طرف من أشرط الساعة وأموالها، فقال ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾.

واختلف في معنى وقوع القول عليهم، فقال قتادة: وجب الغضب عليهم. وقال مجاهد: حق القول عليهم بأنهم لا يؤمنون، وقيل: حق العذاب عليهم، وقيل: وجب السخط،

قال: «تخرج الدابة من أعظم المساجد حرمة». وأخرج سعيد بن منصور، ونعيم بن حماد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: تخرج من بعض أودية تهامة. وأخرج الطيالسي، وأحمد، ونعيم بن حماد، والترمذي وحسنه، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم، وابن مروي، والبيهقي في البعث عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تخرج دابة الأرض ومعها عصا موسى، وخاتم سليمان، فتجلى وجه المؤمن بالخاتم، وتخطم أنف الكافر بالعصا، حتى يجتمع الناس على الخوان يعرف المؤمن من الكافر»، وأخرج الطيالسي، ونعيم بن حماد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في البعث عن حنيفة بن أسيد الغفاري قال: «ذكر رسول الله ﷺ الدابة، فقال: لها ثلاث خرجات من الدهر. وذكر نحو ما قدمنا في حديث طويل. وفي صفتها، ومكان خروجها، وما تصنعه، ومتى تخرج أحاديث كثيرة بعضها صحيح، وبعضها حسن، وبعضها ضعيف. وأما كونها تخرج، وكونها من علامات الساعة، فالأحاديث الواردة في ذلك صحيحة. ومنها ما هو ثابت في الصحيح كحديث حنيفة مرفوعاً: «لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات، وذكر منها الدابة فإنه في صحيح مسلم، وفي السنن الأربعة، وكحديث: «باروا بالأعمال قبل طلوع الشمس من مغربها، والدجال، والدابة» فإنه في صحيح مسلم أيضاً من حديث أبي هريرة مرفوعاً، وكحديث ابن عمر مرفوعاً «إن أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى» فإنه في صحيح مسلم أيضاً.

وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مَّمَّنْ يَكُذِّبُ وَيُمَادُّهُمْ يَوْمَئِذٍ هَوِّنًا
إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكُذِّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّا أَنْ كُنْتُمْ تَقُولُونَ ﴿٨٧﴾
وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٨٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ
لَيْسَ كُنَّا فِيهِ وَالْقَهَّارُ مُبِينًا إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَيَوْمَ
يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ
أَفْتَرُ دَاخِرِينَ ﴿٩٠﴾ رَرَى الْجِبَالَ كَحِجَابٍ جَامِدٍ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ
الَّذِي أَنْفَخَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُمْ خَبِيرٌ بِمَا فَعَلَ كُلُّ ﴿٩١﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ
مِمَّا يَتَّبِعُهُمْ تَبَى فَرَجَ يَوْمَئِذٍ أَمْرُهُمْ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ كُتِبَتْ رِجْوَاهُمْ فِي النَّارِ
هَلْ تَحْزَنُونَ ﴿٩٣﴾ أَلَا مَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ ﴿٩٤﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ تَبْدَأَ رَبُّكَ هَكَذَا
الَّذِي أَلْزَمَ حَرَمَهَا وَلَمْ كُلَّ شَيْءٍ وَأَمْرُهُ أَنْ تَكُونُ مِنَ الْتَوَلَّيْنَ ﴿٩٥﴾ رَأَى
أَنْتَوَالْفَرَّاءَ مَنْ أَهْتَكَنَ فَوَسَّاسٌ يَتَوَلَّى لِنَفْسِهِ وَمَنْ صَبَّلَ فَقَدْ إِتْمَأْنَا مِنْ
الْأَنْدَادِ ﴿٩٦﴾ وَلَمْ لَقَدْ لِلَّهِ سِرٌّ كَرِيمٌ يَكُونُ مَعْرُوفَةً وَمَا رَكَ يَفْعَلُ عَمَّا
تَقُولُونَ ﴿٩٧﴾

ثم نكر سبحانه طرفاً مجملاً من أهوال يوم القيامة. فقال
﴿ويوم نحشر من كل أمة فوجاً﴾ العامل في الظرف فعل
محذوف خوطب به النبي ﷺ، والحشر الجمع. قيل: والمراد

القراءة فالذي تكلم الناس به هو قوله: ﴿إن الناس كانوا
بآياتنا لا يوقنون﴾ كما قدمنا الإشارة إلى ذلك. وأما على
قراءة الكسر فالجملة مستأنفة كما قدمنا، ولا تكون من كلام
الدابة. وقد صرح بذلك جماعة من المفسرين، وجزم به
الكسائي، والفراء. وقال الأخفش: إن كسر «إن» هو على
تقدير القول أي: تقول لهم ﴿إن الناس﴾ إلخ، فيرجع معنى
القراءة الأولى على هذا إلى معنى القراءة الثانية، والمراد
بالناس في الآية: هم الناس على العموم، فيدخل في ذلك كل
مكلف، وقيل: المراد الكفار خاصة، وقيل: كفار مكة، والأول
أولى.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن
عباس في قوله: ﴿عسى أن يكون ردف لكم﴾ قال: اقترب
لكم. وأخرج ابن أبي حاتم عنه ﴿وإن ربك ليعلم ما تكن
صدورهم وما يعلنون﴾ قال: يعلم ما عملوا بالليل والنهار.
وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿وما من
غائبة﴾ الآية يقول: ما من شيء في السماء والأرض سراً
ولا علانية إلا يعلمه. وأخرج ابن المبارك في الزهد، وعبد
الرزاق، والفريابي، وابن أبي شيبة، ونعيم بن حماد، وعبد بن
حميد، وابن أبي الدنيا، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم،
وابن مروي عن ابن عمر في قوله ﴿وإذا وقع القول
عليهم﴾ الآية قال: إذا لم يأمروا بمعروف، ولم ينهوا عن
منكر. وأخرجه ابن مروي عنه مرفوعاً. وأخرج عبد بن
حميد، وابن جرير عن أبي العالية: أنه فسر ﴿وقع القول
عليهم﴾ بما أوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من
قد آمن. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في
قوله ﴿دابة من الأرض تكلمهم﴾ قال: تحذهم. وأخرج ابن
جرير عنه قال: كلامها تنبهم أن الناس كانوا بآياتنا لا
يوقنون. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم
عن أبي داود نفعي الأعمى قال: سألت ابن عباس عن قوله
﴿تكلمهم﴾ يعني: هل هو من التكليم باللسان، أو من الكلم،
وهو الجرح، فقال: كل ذلك والله تفعل تكلم المؤمن، وتكلم
الكافر أي: تجرحه. وأخرج عبد بن حميد، وابن مروي عن
ابن عمر في الآية قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس ذلك
حديث، ولا كلام، ولكنها سمة تسم من أمرها الله به، فيكون
خروجها من الصفا ليلة منى، فيصحبون بين رأسها ولذنها
لا يبعض داحض، ولا يجرح جارح، حتى إذا فرغت مما
أمرها الله به فهلك من هلك، ونجا من نجا، كان أول خطوة
تضعها بإنطاكية». وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس قال:
الدابة ذات وبر وریش، مؤلفة فيها من كل لون، لها أربع
قوائم تخرج بعقب من الحاج. وأخرج أحمد، وابن مروي
عن أبي أمامة، عن النبي ﷺ قال: «تخرج الدابة فتقسم على
خراطيمهم، ثم يعمرن فيكم حتى يشتري الرجل الدابة،
فيقال له: ممن اشتريتها؟ فيقول: من الرجل المخطم». وأخرج
ابن مروي عن ابن عباس: «إن للدابة ثلاث خرجات»، ونكر
نحو ما قدمنا. وأخرج ابن مروي عن حنيفة بن أسيد رفعه

بهذا الحشر هو حشر العذاب بعد الحشر الكلي الشامل لجميع الخلق، ومن لا ابتداء الغاية، والفوج: الجماعة كالزمرة، و «من» في «ممن يكتب بآياتنا» بيانية «فهم يوزعون» أي: يحبس أولهم على آخره، وقد تقدّم تحقيقه في هذه السورة مستوفى، وقيل معناه: يدفعون، ومنه قول الشماخ:

وسمه وزعنا من خميس جحفل

ومعنى الآية: وانكر يا محمد يوم نجمع من كل أمة من الأمم جماعة مكتبين بآياتنا فهم عند ذلك الحشر يرد أولهم على آخرهم، أو يدفعون أي: أنكر لهم هذا، أو بينه تحذيراً لهم، وترهيباً «حتى إذا جاءوا» إلى موقف الحساب قال الله لهم توبيحاً، وتقريعاً «اكتبتم بآياتي» التي أنزلتها على رسلي، وأمرتهم بإبلاغها إليكم «و» الحال أنكم «لم تحيطوا بها علماء» بل كذبتم بها بادئ بدء جاهلين لها غير ناظرين فيها، ولا مستدلين على صحتها، أو بطلانها ترمداً، وعناداً، وجرة على الله وعلى رسله، وفي هذا مزيد تقريع وتوبيخ، لأن من كذب بشيء، ولم يحط به علماء فقد كذب في تكذيبه، ونادى على نفسه بالجهل، وعدم الإنصاف، وسوء الفهم، وقصور الإدراك، ومن هذا القبيل من تصدى لزم علم من العلوم الشرعية، أو لزم علم هو مقنعة من مقدماتها، ووسيلة يتوصل بها إليها، ويفيد زيادة بصيرة في معرفتها، وتعقل معانيها كعلوم اللغة العربية بأسرها، وهي اثنا عشر علماً، وعلم أصول الفقه فإنه يتوصل به إلى استنباط الأحكام الشرعية عن أنلتها التفصيلية مع اشتماله على بيان قواعد اللغة الكلية، وهكذا كل علم من العلوم التي لها مزيد نفع في فهم كتاب الله، وسنة رسوله، فإنه قد نادى على نفسه بأرفع صوت بأنه جاهل مجادل بالباطل طاعن على العلوم الشرعية، مستحق لأن تنزل به قارعة من قوارع العقوبة التي تزجره عن جهله، وضلاله، وطعنه على ما لا يعرفه، ولا يعلم به، ولا يحيط بكنهه حتى يصير عبرة لغيره، وموعظة يتعظ بها أمثاله من ضعف العقول، وركك الأديان، ورعاع المتلبسين بالعلم زوراً، وكذباً، ولم في قوله «إم ماذا كنتم تعملون» هي المنقطعة، والمعنى: أم أي شيء كنتم تعملون حتى شغلكم ذلك عن النظر فيها، والتفكير في معانيها، وهذا الاستفهام على طريق التبكيت لهم «ووقع للقول عليهم» قد تقدّم تفسيره قريباً، والباء في «بما ظلموا» للسببية أي: وجب القول عليهم بسبب الظلم الذي أعظم أنواعه الشرك بالله «فهم لا ينطقون» عند وقوع القول عليهم أي: ليس لهم عذر ينطقون به، أو لا يقدرون على القول لما يرونه من الهول العظيم. وقال أكثر المفسرين: يختم على أفواههم فلا ينطقون، ثم بعد أن خوفهم بأهوال القيامة نكر سبحانه ما يصلح أن يكون دليلاً على التوحيد، وعلى الحشر، وعلى النبوة مبالغة في الإرشاد، وإبلاء للمعذرة، فقال «إلم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصراً» أي: جعلنا الليل للسكون، والاستقرار، والنوم، وذلك بسبب ما فيه من الظلمة فإنهم لا يسعون فيه

للمعاش، والنهار مبصراً، ليبصروا فيه ما يسعون له من المعاش الذي لا بد له منهم، ووصف النهار بالإبصار، وهو وصف للناس مبالغة في إضاءته كأنه يبصر ما فيه. قيل: في الكلام حذف، والتقدير: وجعلنا الليل مظلماً ليسكنوا، وحذف مظلماً لدلالة مبصراً عليه، وقد تقدّم تحقيقه في الإسراء وفي يونس «إن في ذلك» المنكور «آيات» أي: علامات ودلالات «للقوم يؤمنون» بالله سبحانه. ثم نكر سبحانه علامة أخرى للقيامة فقال: «ويوم ينفخ في الصور» هو معطوف على «ويوم نحشر» منصوب بنصبه المتقّم. قال الفراء: إن المعنى: ولكم يوم ينفخ في الصور، والأول أولى. والصور: قرن ينفخ فيه إسرافيل، وقد تقدّم في الأنعام استيفاء الكلام عليه. والنفخات في الصور ثلاث: الأولى نفخة الفزع، والثانية نفخة الصعق، والثالثة نفخة البعث. وقيل: إنها نفختان، وإن نفخة الفزع إما أن تكون راجعة إلى نفخة الصعق، أو إلى نفخة البعث، واختار هذا القشيري، والقرطبي، وغيرهما. وقال الماوردي: هذه النفخة المذكورة هنا يوم النشور من القبور «ففزع من في السموات ومن في الأرض» أي: خافوا، وانزعجوا لشدة ما سمعوا، وقيل: المراد بالفزع هنا: الإسراع، والإجابة إلى النداء من قولهم: فزعت إليك في كذا: إذا أسرعت إلى إجابتك، والأول أولى بمعنى الآية. وإنما عبر بالماضي مع كونه معطوفاً على مضارع للدلالة على تحقق الوقوع حسبما نكره علماء البيان. وقال الفراء: هو محمول على المعنى: لأن المعنى إذا نفخ «إلا من شاء الله» أي: إلا من شاء الله أن لا يفزع عند تلك النفخة.

واختلف في تعيين من وقع الاستثناء له، فقيل: هم الشهداء، والأنبياء، وقيل: الملائكة، وقيل: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت، وقيل: الحور العين، وقيل: هم المؤمنون كافة بليل قوله فيما بعد «من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون»، ويمكن أن يكون الاستثناء شاملاً لجميع المذكورين فلا مانع من ذلك «وكل تنوه داخرين» قرأ الجمهور (آتوه) على صيغة اسم الفاعل مضافاً إلى الضمير الراجع إلى الله سبحانه. وقرأ الأعمش، ويحيى بن وثاب، وحزمة، وحفص عن عاصم (آتوه) فعلاً ماضياً، وكذا قرأ ابن مسعود. وقرأ قتادة (وكل آتاه). قال الزجاج: إن من قرأ على الفعل الماضي فقد وحد على لفظ كل، ومن قرأ على اسم الفاعل فقد جمع على معناه، وهو غلط ظاهر، فإن كلا القراءتين لا توحيد فيها، بل التوحيد في قراءة قتادة فقط، ومعنى «داخرين»: صاغرين ذليلين، وهو منصوب على الحال، قرأ الجمهور (داخرين)، وقرأ الأعرج (داخرين) بغير ألف، وقد مضى تفسير هذا في سورة النحل «وترى للرجال تحسبها جامدة» معطوف على «ينفخ». والخطاب لرسول الله ﷺ، أو لكل من يصلح للرؤية، و«تحسبها جامدة» في محل نصب على الحال من ضمير ترى، أو من مفعوله، لأن الرؤية بصرية. وقيل: هي بدل من

الجملة الأولى، وفيه ضعف، وهذه هي العلامة الثالثة لقيام الساعة، ومعنى (تحسبها جامدة): أي: قائمة ساكنة، وجملة ﴿وهي تمز من السحاب﴾ في محل نصب على الحال: أي: وهي تسير سيراً حثيثاً كسير السحاب التي تسيرها الرياح. قال القتيبي: وذلك أن الجبال تجمع، وتسير، وهي في رؤية العين كالقائمة، وهي تسير. قال القشيري: وهذا يوم القيامة، ومثله قوله تعالى: ﴿وسيرت الجبال فكانت سراباً﴾ [النبأ: 20] قرأ أهل الكوفة (تحسبها) بفتح السين، وقرأ الباقون بكسرها ﴿صنع الله الذي اتقن كل شيء﴾ انتصاب صنع على المصدرية عند الخليل، وسيبويه، وغيرهما أي: صنع الله ذلك صنعا، وقيل: هو مصدر مؤكد لقوله: ﴿ويوم ينفخ في الصور﴾، وقيل: منصوب على الإغراء أي: انظروا صنع الله، ومعنى ﴿الذي اتقن كل شيء﴾: الذي أحكمه، يقال: رجل تقن أي: حانق بالاشياء، وجملة ﴿إنه خبير بما تفعلون﴾ تعليل لما قبلها من كونه سبحانه صنع ما صنع، واتقن كل شيء، والخبير: المطلع على الظواهر، والضمائر. قرأ الجمهور بالتاء الفوقية على الخطاب، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وهشام بالتحية على الخبر ﴿من جاء بالحسنة فله خير منها﴾ الألف، واللام للجنس أي: من جاء بجنس الحسنة فله من الجزاء والثواب عند الله خير منها أي: أفضل منها، وأكثر، وقيل: خير حاصل من جهتها، والأول أولى. وقيل: المراد بالحسنة هنا: لا إله إلا الله، وقيل: هي الإخلاص، وقيل: أداء الفرائض، والتعميم أولى، ولا وجه للتخصيص، وإن قال به بعض السلف. قيل: وهذه الجملة بيان لقوله ﴿إنه خبير بما تفعلون﴾، وقيل: بيان لقوله ﴿وكل أتوه دلوخين﴾. قرأ عاصم، وحزمة، والكسائي (وهم من فزع) بالتثنية، وفتح ميم (يومئذ). وقرأ نافع بفتحها من غير تنوين، وقرأ الباقون بإضافة فزع إلى يومئذ. قال أبو عبيد: وهذا أعجب إليّ لأنه أعم التأويلين؛ لأن معناه: الأمن من فزع جميع ذلك اليوم، ومع التنوين يكون الأمن من فزع دون فزع. وقيل: إنه مصدر يتناول الكثير فلا يتم الترجيح بما ذكر، فتكون القراءة بمعنى واحد. وقيل: المراد بالفزع ما هنا هو الفزع الأكبر المذكور في قوله: ﴿لا يحزنهم الفزع الأكبر﴾ [الأنبياء: 103]، ووجه قراءة نافع أنه نصب يوم على الظرفية لكن الإعراب فيه غير متمكن، ولما كانت إضافة الفزع إلى ظرف غير متمكن بني، وقد تقدم في سورة هود كلام في هذا مستوفى ﴿ومن جاء بالسبيته فكبت وجوههم في النار﴾. قال جماعة من الصحابة، ومن بعدهم حتى قيل: إنه مجمع عليه بين أهل التأويل: إن المراد بالسبيته هنا الشرك، ووجه التخصيص قوله ﴿فكبت وجوههم في النار﴾، فهذا الجزء لا يكون إلا بمثل سبيته الشرك، ومعنى ﴿فكبت وجوههم في النار﴾: أنهم كبوا فيها على وجوههم، والقوا فيها، وطرحوا عليها، يقال: كببت الرجل: إذا القيته لوجهه، فانكب، واكب، وجملة ﴿هل تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾ بتقدير القول أي: يقال ذلك، والقائل

خزنة جهنم أي: ما تجزون إلا جزاء عملكم ﴿إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها﴾ لما فرغ سبحانه من بيان أحوال المبدأ، والمعاد أمر رسوله ﷺ أن يقول لهم هذه المقالة أي: قل يا محمد: إنما أمرت أن أخص الله بالعبادة، وحده لا شريك له، والمراد بالبلدة: مكة، وإنما خصها من بين سائر البلاد لكون فيها بيت الله الحرام، ولكونها أحب البلاد إلى رسوله، والموصول صفة للرب، وهكذا قرأ الجمهور. وقرأ ابن عباس، وابن مسعود التي حرمها على أن الموصول صفة للبلدة، ومعنى ﴿حرمها﴾: جعلها حراماً آمناً لا يسفك فيها دم، ولا يظلم فيها أحد، ولا يصطاد صيدها، ولا يختلى خلاها ﴿وله كل شيء﴾ من الأشياء خلقاً، وملكاً، وتصرفاً أي: وله كل شيء ﴿وامرت أن أكون من المسلمين﴾ أي: المتقنين لأمر الله المستسلمين له بالطاعة، وامتنال أمره، واجتناب نهيه، والمراد بقوله: ﴿أن أكون﴾ أن أثبت على ما أنا عليه ﴿وان اتلوا القرآن﴾ أي: أداوم تلاوته، وأواظب على ذلك. قيل: وليس المراد من تلاوة القرآن هنا إلا تلاوة الدعوة إلى الإيمان، والأول أولى ﴿فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه﴾ لأن نفع ذلك راجع إليه أي: فمن اهتدى على العموم، أو فمن اهتدى بما أتله عليه، فعمل بما فيه من الإيمان بالله، والعمل بشرائعه. قرأ الجمهور (وان اتلوا) بآثبات الواو بعد اللام على أنه من التلاوة، وهي القراءة، أو من التلو، وهو الاتباع. وقرأ عبد الله (وان اتل) بحذف الواو أمراً له ﷺ كذا وجهه الفراء. قال النحاس: ولا نعرف أحداً قرأ هذه القراءة، وهي مخالفة لجميع المصاحف ﴿ومن ضل فقل إنما أنا من المذنبين﴾ أي: ومن ضل بالكفر، وأعرض عن الهدية، فقل له: إنما أنا من المذنبين، وقد فعلت بإبلاغ ذلك إليكم، وليس عليّ غير ذلك. وقيل: الجواب محذوف أي: فويل ضلاله عليه، وأقيم إنما أنا من المذنبين مقامه لكونه كالعلة له ﴿وقل الحمد لله﴾ على نعمه التي أنعم بها عليّ من النبوّة والعلم، وغير ذلك، وقوله ﴿سيريكم آياته﴾ هو من جملة ما أمر به النبي ﷺ أن يقوله أي: سيريكم الله آياته في أنفسكم، وفي غيركم ﴿فتعرفونها﴾ أي: تعرفون آياته، ودلائل قدرته، ووحدانيته، وهذه المعرفة لا تنفع الكفار؛ لأنهم عرفوها حين لا يقبل منهم الإيمان، وذلك عند حضور الموت. ثم ختم السورة بقوله: ﴿وما ربك بغافل عما تعملون﴾، وهو كلام من جهته سبحانه غير داخل تحت الكلام الذي أمر النبي ﷺ أن يقوله، وفيه ترهيب شديد، وتهديد عظيم، قرأ أهل المدينة، والشام، وحفص عن عاصم (تعملون) بالفوقية على الخطاب، وقرأ الباقون بالتحية.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿دلخين﴾ قال: صاغرين. وأخرج هؤلاء عنه في قوله ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة﴾ قال: قائمة ﴿صنع الله الذي اتقن كل شيء﴾ قال: أحكم. وأخرج ابن أبي جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله ﴿صنع الله الذي اتقن كل شيء﴾ قال: أحسن كل شيء خلقه، وأوتقه.

رسول الله ﷺ يقرأه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّانِ الرَّحِيمِ

طَسَّرَ ① يَتَكَّمُ الْكَتَبُ الْكَلِيمَ ② نَتَلَوُا عَلَيْكَ مِنْ نَبِيٍّ مُوسَى
وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ③ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ
أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضِيعُ ظِلَالَهُ مِنْهُمْ بِدِينِهِ أَتَيْنَاهُمْ وَنَسْتَعِينُهُ فَنَسَاءَهُمْ إِنَّهُمْ
كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ④ وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِفُوا فِي الْأَرْضِ
وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً وَنَصْلَاهُمْ الْأُزْيُوتَ ⑤ وَنَسْجِنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنَرَى
فِرْعَوْنَ وَمَنْدَنَ وَمُؤَدَّيْهِمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ⑥ وَأَوْحَيْنَا إِلَى
أُورِ مَوْسَى أَنْ أَرْضِيَهُ فَإِذَا خَفِيَ عَلَيْهِ قَابِلُهُ فِي آيَةٍ وَلَا تَحَافَى وَلَا تَحْزَنُ
إِنَّا نَادَوْهُ لِإِبْرَاهِيمَ وَمَعْلُومُ بَرِّكَ الْأَرْسِيَّةِ ⑦ فَالْتَقَطْنَا مَالَ فِرْعَوْنَ
لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَمَنْدَنَ وَمُؤَدَّيْهِمَا كَانُوا
خَاطِبِينَ ⑧ وَقَالَتْ أُمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَّ لَا تَفْشَلُوهُ عَسَى أَنْ
يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُمْ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ⑨ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِقًا
إِنْ كَادَتْ لَتُبْدَى بِهِ لَوْلَا أَنْ رَفَعْنَا عَلَى قَلْبِهَا لَيُحْكِرَنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
⑩ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ⑪
وَعَرَّضْنَاهُ عَلَى الْأَرْوَاحِ مِنْ قَبْلِ فَتَاتَ هَلْ أَتَاكَ عَلَى آفَلِي يَبْتَ يَكْفُلُونَهُ
لَكَمْ وَهُمْ لَمْ يَشْعُرُوا ⑫ فَرَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَهُ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا
تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ⑬

الكلام في فاتحة هذه السورة قد مر في فاتحة الشعراء وغيرها، فلا نعيد، وكذلك مر الكلام على قوله ﴿تلك آيات الكتاب المبين﴾ فاسم الإشارة مبتدأ خبره ما بعده، أو خبر مبتدأ محذوف، وآيات بدل من اسم الإشارة، ويجوز أن يكون ﴿تلك﴾ في موضع نصب بنتلو، والمبين المشتمل على بيان الحق من الباطل. قال الزجاج: مبين الحق من الباطل، والحلال من الحرام، وهو من أبان بمعنى أظهر ﴿ونتلو﴾ عليك من نبي موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون، أي: نوحى إليك من خبرهما ملتبساً بالحق، وخص المؤمنين؛ لأن التلاوة إنما ينتفع بها المؤمن، وقيل: إن مفعول نتلو محذوف، والتقدير: نتلو عليك شيئاً من نبيهما، ويجوز أن تكون من زيادة على رأي الأخفش أي: نتلو عليك نبي موسى وفرعون، والأولى أن تكون للبيان على تقدير المفعول كما نكر، أو للتبعض، ولا ملجئ للحكم بزيادتها، والحق الصلح، وجملة ﴿إن فرعون علا في الأرض﴾ وما بعدها مستأنفة مسوقة لبيان ما أجمل من النبا. قال المفسرون: معنى علا: تكبر، وتجبر بسلطانه، والمراد بالأرض أرض مصر. وقيل: معنى علا: ادعى الربوبية، وقيل: علا عن عبادة ربه ﴿وجعل أهلك شيعاً﴾ أي: فرقاً، وأصنافاً في خدمته يشايعونه على ما يريد، ويطيعونه، وجملة ﴿يستضعف طائفة منهم﴾ مستأنفة مسوقة لبيان حال الأهل الذين جعلهم فرقاً وأصنافاً، ويجوز أن تكون في محل نصب على الحال من فاعل جعل أي: جعلهم شيعاً حال كونهم مستضعفاً طائفة

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن مروي عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: ﴿من جاء بالحسنة فله خير منها﴾ قال: هي: لا إله إلا الله، ﴿ومن جاء بالسيسة فكبت وجوههم في النار﴾ قال: هي: الشرك، وإذا صح هذا عن رسول الله ﷺ فالمراد إليه في تفسير كلام الله سبحانه متعين، ويحمل على أن المراد قال: لا إله إلا الله بحقها، وما يجب لها، فيدخل تحت ذلك كل طاعة، ويشهد له ما أخرجه الحاكم في الكنى عن صفوان بن عسال قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿إذا كان يوم القيامة: جاء الإيمان والشرك يجثوان بين يدي الله سبحانه، فيقول الله للإيمان: انطلق أنت وأهلك إلى الجنة، ويقول للشرك: انطلق أنت وأهلك إلى النار، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿من جاء بالحسنة فله خير منها﴾ يعني: قول: لا إله إلا الله، ﴿ومن جاء بالسيسة﴾ يعني: الشرك ﴿فكبت وجوههم في النار﴾. وأخرج ابن مروي عن حديث أبي هريرة، وأنس نحوه مرفوعاً. وأخرج أبو الشيخ، وابن مروي، والديلمي عن كعب بن عجرة، عن النبي ﷺ: ﴿من جاء بالحسنة﴾، يعني: شهادة أن لا إله إلا الله ﴿فله خير منها﴾ يعني: بالخير الجنة ﴿ومن جاء بالسيسة﴾ يعني: الشرك ﴿فكبت وجوههم في النار﴾، وقال: هذه تنجي، وهذه تردى. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في الأسماء والصفات، والخراطي في مكارم الأخلاق عن ابن مسعود ﴿من جاء بالحسنة﴾ قال: لا إله إلا الله، ﴿من جاء بالسيسة﴾ قال: بالشرك. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم ﴿فله خير منها﴾ قال: له منها خير، يعني: من جهتها. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿فله خير منها﴾ قال: ثواب. وأخرج أيضاً عنه أيضاً قال: البلدة مكة.

تفسير سورة القصص

وأخرج ابن الضريس، وابن النجار، وابن مروي، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: نزلت سورة القصص بمكة. وأخرج ابن مروي عن ابن الزبير مثل ذلك: قال القرطبي، قال ابن عباس، وقتادة: إنها نزلت بين مكة والمدينة. وقال ابن سلام: بالجحفة وقت هجرة رسول الله ﷺ، وهي قوله عز وجل: ﴿إن الذي فرض عليك القرآن لراك إلى معاد﴾ [القصص: 85] وقال مقاتل: فيها من المني الذين آتيناهم الكتاب، إلى قوله: ﴿لا نبتغي الجاهلين﴾ [القصص: 52 - 55]. وأخرج أحمد، والطبراني، وابن مروي: قال السيوطي: سنده جيد عن معد يكره قال: آتينا عبد الله بن مسعود، فسألناه أن يقرأ علينا طسّم المائتين، فقال: ما هي معي، ولكن عليكم بمن أخذها من رسول الله ﷺ خباب بن الارت، فاتيت خباباً، فقلت: كيف كان رسول الله ﷺ يقرأ طسّم أو طس؟ فقال: كل كان

والأبرص، والأعمى كما في الحديث الثابت في الصحيحين، وغيرهما، وقد سلمت على عمران بن حصين الملائكة كما في الحديث الثابت في الصحيح، فلم يكن بذلك نبياً، وإن في ﴿إِنْ أَرْضِعِيهِ﴾ هي المفسرة، لأن في الوحي معنى القول، ويجوز أن تكون مصدرة أي: بأن أرضعيه، وقرأ عمر بن عبد العزيز بكسر نون أن، ووصل همزة أرضعيه فالكسر لالتقاء الساكنين، وحذف همزة الوصل على غير القياس ﴿فَإِذَا خَفْتُ عَلَيْهِ﴾ من فرعون بأن يبلغ خبره إليه ﴿فَالْقِيَّةِ فِي الْيَمِّ﴾، وهو بحر النيل، وقد تقدم بيان الكيفية التي القته في اليَمِّ عليها في سورة طه ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي﴾ أي: لا تخافي عليه الغرق، أو الضيعة، ولا تحزني لفراقه ﴿إِنَّا رَأَوْهُ إِلَيْكَ﴾ عن قريب على وجه تكون به نجاته ﴿وَجَاعَلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ الذين نرسلهم إلى العباد، والفاء في قوله ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ﴾ هي الفصيحة، والالتقاط: إصابة الشيء من غير طلب، والمراد بآل فرعون هم الذين أخذوا التابوت الذي فيه موسى من البحر، وفي الكلام حذف، والتقدير: فالتقته في اليَمِّ بعد ما جعلته في التابوت، فالتقطه من وجده من آل فرعون، واللام في ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ لام العقوبة، ووجه ذلك أنهم إنما أخذوه؛ ليكون لهم ولداً، وقرّة عين لا ليكون عدوّاً فكان عاقبة ذلك إنه كان لهم عدوّاً وحزناً، ولما كانت هذه العداوة نتيجة لفعلهم، وثمرة له شبهت بالداعي الذي يفعل الفاعل الفعل لأجله، ومن هذا قول الشاعر:

لنوا للموت وابنوا للخراب

قول الآخر:

وللمنايا تربي كل مرضعة وبورنا لخراب الدهر نبيها
قرأ الجمهور (وحزناً) بفتح الحاء، والزاي، وقرأ الأعمش، ويحيى بن وثاب، وحمزة، والكسائي، وخلف (وحزناً) بضم الحاء، وسكون الزاي، واختار القراءة الأولى أبو عبيدة، وأبو حاتم، وهما لغتان كالعدم، والعدم، والرشد، والرشد، والسقم، والسقم، وجملة ﴿إِنْ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجَنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِلِينَ﴾ لتعليل ما قبلها، أو للاعتراض لقصد التأكيد؛ ومعنى ﴿خَاطِلِينَ﴾: عاصين آثمين في كل أفعالهم، وأقوالهم، وهو مأخوذ من الخطأ المقابل للصواب، وقرئ (خاطين) بياء من دون همزة، فيحتمل أن يكون معنى هذه القراءة معنى قراءة الجمهور، ولكنها خففت بحذف الهمزة، ويحتمل أن تكون من خطأ يخطو: أي: تجاوز الصواب ﴿وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قَرَتْ عَيْنِي لِي وَلَكَ﴾ أي: قالت امرأة فرعون لفرعون، وارتفاع قرّة على أنه خبر مبتدأ محذوف، قاله الكسائي، وغيره. وقيل: على أنه مبتدأ، وخبره ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ قاله الزجاج، والأول أولى. وكان قولها لهذا القول عند رؤيتها له لما وصل إليها، وأخرجته من التابوت، وخاطبت بقولها: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ فرعون، ومن عنده من قومه، أو فرعون وحده على طريقة التعظيم له. وقرأ عبد الله بن مسعود (وقالت امرأة فرعون لا تقتلوه قرّة عين لي ولك)،

منهم، ويجوز أن تكون صفة لطائفة، والطائفة هم بنو إسرائيل، وجملة ﴿يَنْبَغُ لِأَبْنَاءِهِمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ بدل من الجملة الأولى، ويجوز أن تكون مستأنفة للبيان، أو حالاً، أو صفة كالتي قبلها على تقدير عدم كونها بدلاً منها، وإنما كان فرعون ينبغ أبناءهم، ويترك النساء، لأن المنجمين في ذلك العصر أخبروه أنه يذهب ملكه على يد مولود من بني إسرائيل. قال الزجاج: والعجب من حمق فرعون، فإن الكاهن الذي أخبره بذلك إن كان صادقاً عنده فما ينفع القتل، وإن كان كاذباً فلا معنى للقتل ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمَفْسُودِينَ﴾ في الأرض بالمعاصي والتجبر، وفيه بيان أن القتل من فعل أهل الإفساد ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ﴾ جاء بصيغة المضارع لحكاية الحالة الماضية، واستحضار صورتها أي: نريد أن نتفضل عليهم بعد استضعافهم، والمراد بهؤلاء بنو إسرائيل، والواو في ﴿وَنُرِيدُ﴾ للعطف على جملة ﴿إِنْ فِرْعَوْنَ عَلَا﴾، وإن كانت الجملة المعطوف عليها اسمية، لأن بينهما تناسباً من حيث أن كل واحدة منهما للتفسير والبيان، ويجوز أن تكون حالاً من فاعل يستضعف بتقدير مبتدأ أي: ونحن نريد أن نمُنَّ على الذين استضعفوا في الأرض كما في قول الشاعر:

نجرت وأرمنتهم ملكاً

والأول أولى ﴿وَنَجْعَلُهُمْ أُتَمَّةً﴾ أي: قادة في الخير، ودعاة إليه، وولاء على الناس، وملوكاً فيهم ﴿وَنَجْعَلُهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ لملك فرعون، ومسالك القبط، وأملاكهم، فيكون ملك فرعون فيهم، ويسكنون في مساكنه، ومسالك قومه، وينتفعون بأملكه، وأملكهم ﴿وَنُمَكِّنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: نجعلهم مقتدرين عليها، وعلى أهلها مسطرين على ذلك يتصرفون به كيف شاءوا. قرأ الجمهور (نمكّن) بدون لام، وقرأ الأعمش (لنمكّن) بلام العلة ﴿وَنُورِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجَنُودَهُمَا﴾ قرأ الجمهور (نرى) بنون مضمومة، وكسر الراء على أن الفاعل هو الله سبحانه. وقرأ الأعمش، ويحيى بن وثاب، وحمزة، والكسائي، وخلف (ويرى) بفتح الياء للتحية، والراء، والفاعل فرعون. والقراءة الأولى الصق بالسياق؛ لأن قبلها نريد، ونجعل، ونمكّن بالنون. ولجاز الفراء (ويرى فرعون) بضم الياء للتحية، وكسر الراء أي: ويرى الله فرعون، ومعنى ﴿مِنْهُمْ﴾: من أولئك المستضعفين ﴿مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ الموصول هو المفعول الثاني على القراءة الأولى، والمفعول الأوّل على القراءة الثانية، والمعنى: أن الله يريهم، أو يرون هم الذي كانوا يحذرون منه، ويجتهدون في دفعه من ذهاب ملكهم، وهلاكهم على يد المولود من بني إسرائيل المستضعفين ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ أي: ألهمناها، وقذفنا في قلبها، وليس ذلك هو الوحي الذي يوحى إلى الرسل، وقيل: كان ذلك رؤيا في منامها، وقيل: كان ذلك بملك أرسله الله يعلمها بذلك.

وقد أجمع العلماء على أنها لم تكن نبية، وإنما كان إرسال الملك إليها عند من قال به على نحو تكليم الملك للأقرع،

الربط على القلب: إلهام الصبر، وتقويته، وجواب لولا محنوف أي: لولا أن ربطنا على قلبها لأبنت، واللام في و **«لنكون من المؤمنين»** متعلق بربطنا، والمعنى: ربطنا على قلبها؛ لتكون من المصنفين بوعد الله، وهو قوله **«إنا رآه إليك»** قيل: والباء في **«لنبتدي به»** زائدة للتأكيد، والمعنى: لتبديه كما تقول: أخذت الحب، وبالحبل. وقيل: المعنى: لتبدي القول به **«وقالت لأخته قصيه»** أي: قالت أم موسى لأخت موسى، وهي مريم قصيه أي: تتبعي أثره، وأعرفي خبره، وانظري أين وقع، وإلى من صار؟ يقال: قصصت الشيء: إذا اتبعت أثره متعرفاً لحاله **«فبصرت به عن جنب»** أي: أبصرته عن بعد، وأصله عن مكان جنب، ومنه الأجنب. قال الشاعر:

فلا تحرميني نائلاً عن جنبية فإني امرؤ وسط الديار غريب
وقيل: المراد بقوله **«عن جنب»** عن جانب، والمعنى: أنها أبصرت إليه متجانفة مخالطة، ويؤيد ذلك قراءة النعمان بن سالم (عن جانب)، ومحلّ عن جنب النصب على الحال إما من الفاعل أي: بصرت به مستخفية كائنة عن جنب، وإما من المجرور أي: بعيداً منها. قرأ الجمهور: (بصرت) به بفتح الباء، وضم الصاد، وقرأ قتادة بفتح الصاد، وقرأ عيسى بن عمر بكسرهما. قال المبرد: أبصرته، وبصرت به بمعنى، وقرأ الجمهور (عن جنب) بضمين، وقرأ قتادة، والحسن، والأعرج، وزيد بن عليّ بفتح الجيم، وسكون النون، وروي عن قتادة أيضاً: أنه قرأ بفتحهما. وروي عن الحسن أيضاً أنه قرأ بضم الجيم، وسكون النون، وقال أبو عمرو بن العلاء: إن معنى **«عن جنب»**: عن شوق. قال: وهي لغة جذام يقولون: جنبت إليك أي: اشتقت إليك **«وهم لا يشعرون»** أنها تقصه، وتتبع خبره، وأنها أخته **«وحزنا عليه المراضع»** المراضع جمع مرضع أي: منعه أن يرضع من المرضعات. وقيل: المراضع جمع مرضع بفتح الضاد، وهو الرضاع، أو موضعه، وهو الثدي، ومعنى **«من قبل»**: من قبل أن نرّده إلى أمه، أو من قبل أن تأتيه أمه، أو من قبل قصصها لأثره، وقد كانت امرأة فرعون طلبت لموسى المرضعات ليرضعه، فلم يرضع من واحدة منهم **«ف»** عند ذلك **«قالت»** أي: أخته لما رأت امتناعه من الرضاع **«هل أنلكم على أهل بيت يكفلونه لكم»** أي: يضمنون لكم القيام به، وإرضاعه **«وهم له ناصحون»** أي: مشفقون عليه لا يقصرون في إرضاعه، وتربيته، وفي الكلام حذف، والتقدير: فقالوا لها: من هم؟ فقالت: أمي، فقيل لها: وهل لأمك لبن؟ قالت: نعم لبن أخي هارون: فليلتهم على أم موسى، فدفعوه إليها، فقبل ثديها، ورضع منه، وذلك معنى قوله سبحانه **«فردناها إلى أمه كي تقر عينها»** بولدها **«ولا تحزن»** على فراقه **«ولتعلم أن وعد الله»** أي: جميع وعده، ومن جملة ذلك ما وعدهما بقوله **«إنا رآه إليك»**، **«حق»** لا خلف فيه واقع لا محالة **«ولكن أكثرهم لا يعلمون»** أي: أكثر آل فرعون لا يعلمون بذلك، بل كانوا

ويجوز نصب قرّة بقوله **«لا تقتلوه»** على الاشتغال. وقيل: إنها قالت: لا تقتلوه فإن الله أتى به من أرض بعيدة، وليس من بني إسرائيل، ثم عللت ما قالت بالترجي منها لحصول النفع منه لهم، أو التنبي له، فقالت: **«عسى أن ينفعنا»** فنصيب منه خيراً **«أو نتخذة ولداً»** وكانت لا تلد، فاستوهبته من فرعون، فوهبه لها، وجملة **«وهم لا يشعرون»** في محل نصب على الحال أي: وهم لا يشعرون أنهم على خطأ في التقاطه، ولا يشعرون أن هلاكهم على يده: فتكون حالاً من آل فرعون، وهي من كلام الله سبحانه. وقيل: هي من كلام المرأة أي: وبنو إسرائيل لا يدرون أنا التقطناه، وهم لا يشعرون، قال الكلبي، وهو بعيد جداً. وقد حكى الفراء عن السدي، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس أن قوله **«لا تقتلوه»** من كلام فرعون، واعترضه بكلام يرجع إلى اللفظ، ويكفي في رده ضعف إسناده **«وأصبح فراد أم موسى فارغاً»** قال المفسرون: معنى ذلك: أنه فارغ من كل شيء إلا من أمر موسى كأنها لم تهتم بشيء سواه. قال أبو عبيدة: خالياً من ذكر كل شيء في الدنيا إلا من ذكر موسى، وقال الحسن، وابن إسحاق، وابن زيد: فارغاً مما أوحى إليها من قوله **«ولا تخافي ولا تحزني»**، وذلك لما سؤل الشيطان لها من غرقه، وهلاكه. وقال الأخفش: فارغاً من الخوف، والغم، لعلمها أنه لم يفرق بسبب ما تقدّم من الوحي إليها، وروي مثله عن أبي عبيدة أيضاً. وقال الكسائي: ناسياً ذاهلاً، وقال العلاء بن زياد: نافراً. وقال سعيد بن جبير: والها كانت تقول: وإبناه من شدة الجزع، وقال مقاتل: كانت تصيح شفقة عليه من الغرق، وقيل: المعنى: أنها لما سمعت بوقوعه في يد فرعون طار عقلها من فرط الجزع، والدمش، قال النحاس: وأصح هذه الأقوال الأولى، والذين قالوه أعلم بكتاب الله، فإذا كان فارغاً من كل شيء إلا من ذكر موسى فهو فارغ من الوحي، وقول من قال: فارغاً من الغم غلط قبيح؛ لأن بعده **«إن كانت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها»** وقرأ فضالة بن عبيد الأنصاري، ومحمد بن السميّغ، وأبو العالية، وابن محيصن (فزعا) بالفاء، والزاي، والعين المهملة من الفزع أي: خائفاً وجللاً، وقرأ ابن عباس (قرعا) بالقاف المفتوحة، والراء المهملة المكسورة، والعين المهملة من قرع رأسه: إذا انحسر شعره، ومعنى **«وأصبح»**: وصار، كما قال الشاعر:

مضى الخلفاء في أمر رشيد وأصبحت المدينة للوليد
«إن كانت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها» أن هي: المخففة من الثقيلة، واسمها ضمير شأن محنوف أي: إنها كانت لتظهر أمر موسى، وأنه أبناها من فرط ما دهمها من الدهش، والخوف، والحزن، من بدا يبدو: إذا ظهر، وأبدى يبيدي: إذا أظهر، وقيل: الضمير في به عائد إلى الوحي الذي أوحى إليها، والأول أولى. وقال الفراء: إن كانت لتبدي باسمه لضيق صدرها لولا أن ربطنا على قلبها. قال الزجاج: ومعنى

في غفلة عن القدر، وسر القضاء، أو أكثر الناس لا يعلمون بذلك، أو لا يعلمون أن الله وعدما بأن يرده إليها.

وقد أخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد **﴿وجعل أهلها شيعاً﴾** قال: فرق بينهم. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن قتادة **﴿وجعل أهلها شيعاً﴾** قال: يستعبد طائفة منهم، ويبيع طائفة، ويقتل طائفة، ويستحي طائفة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب في قوله **﴿ونريد أن نمنن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة﴾** قال: يوسف ولده. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله **﴿ونريد أن نمنن على الذين استضعفوا في الأرض﴾** قال: هم: بنو إسرائيل **﴿ونجعلهم أئمة﴾** أي: ولاية الأمر **﴿ونجعلهم الوارثين﴾** أي: الذين يرثون الأرض بعد فرعون وقومه **﴿ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون﴾** قال: ما كان القوم حذروه. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **﴿ولوحينا إلى أم موسى﴾** أي: الهيمناها الذي صنعت بموسى. وأخرج ابن أبي حاتم عن الأعمش قال: قال ابن عباس في قوله **﴿فإذا خفت عليه﴾** قال: أن يسمع جيرانك صوته. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود في قوله **﴿وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً﴾** قال: فرغ من ذكر كل شيء من أمر الدنيا إلا من ذكر موسى. وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه من طرق عن ابن عباس في قوله **﴿وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً﴾** قال: خالياً من كل شيء غير ذكر موسى. وفي قوله **﴿إن كادت لتبدي به﴾** قال: تقول: يا ابناء. وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عنه في قوله **﴿وقالت لأخته قصيه﴾** أي: اتبعني أثره **﴿فبصرت به عن جنب﴾** قال: عن جانب. وأخرج الطبراني، وابن عسكرك عن أبي أمامة: «أن رسول الله ﷺ قال لخبيجة: أما شعرت أن الله زوجني مريم بنت عمران، وكلثوم أخت موسى، وامرأة فرعون؟ قالت: هنيئاً لك يا رسول الله»، وأخرجه ابن عسكرك عن ابن أبي رؤاد مرفوعاً بأطول من هذا، وفي آخره: أنها قالت: بالرفاء، والبنين. وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله **﴿وحرمنا عليه المراضع من قبل﴾** قال: لا يؤتى بمراضع فيقبلها.

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ مَاتَتْهُ هَكَأَ وَطِئًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٧﴾ وَخَلَّ الْمَوْتَةُ عَنْ جَنِّ غَفَلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَةِ وَهَٰذَا مِنْ مَّوَدَّةِ فَاسْتَفْتَىٰ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ هَٰذَا مِنْ حَبْلِ الشَّنَظْلِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌ مُّبِينٌ ﴿٨﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْمَتُورُ الرَّجِيُّ ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ

يَمَا أَعْمَتَ طَرَفًا أَلَّا أَكُونَ عَلَيْهِمَا لَشَجَرَيْنِ ﴿٧﴾ فَأَمْسَحَ فِي الْمَوْتَةِ حَافِيًا بِرَقَبَةٍ فَلَمَّا آتَىٰ السَّجَنُ وَالْأَرْضَ بَسَّصَهُمْ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَنَوَىٰ شِيئٌ ﴿٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْطَلِقَ أَلْفَىٰ هُوَ عَدُوًّا لَّهُمَا قَالِ يَتَمَوَّجُ أَتَرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَرْضِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٩﴾ رَجَا رَجُلٌ مِّنْ أَهْلِ الْمَوْتَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَتَمَوَّجُ إِنَّكَ الْمَلَكُ بَاتَمَرُونَ بِكَ لِفَتْنٍ لَّكَ فَخَرَجَ إِلَىٰكَ مِنَ الْتَصْحِينَ ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا حَافِيًا بِرَقَبَةٍ قَالَ رَبِّ يَجْنِي مِنَ الْقَوَرِ الْفَلِيلِينَ ﴿١١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ بَلَغَ مَدِينَةَ قَالَ عَنِّي رَجُلٌ أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ النَّبِيلِ ﴿١٢﴾ وَلَمَّا وَدَّ مَاءَ مَدِينَةٍ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْكُرُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا شَيْءَ حَتَّىٰ يُصَدِّرَ الرَّجَاءُ وَأَوْرَثَنَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿١٣﴾ فَسَخَّرَ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿١٤﴾

قوله **﴿ولما بلغ أشده﴾** قد تقدم الكلام في بلوغ الأشد في الأنعام، وقد قال ربيعه، ومالك: هو الحلم لقوله تعالى: **﴿حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا﴾** [النساء: 6] الآية، وأقصاه أربع وثلاثون سنة كما قال مجاهد، وسفيان الثوري، وغيرهما. وقيل: الأشد ما بين الثمانية عشر إلى الثلاثين، والاستواء من الثلاثين إلى الأربعين، وقيل: الاستواء هو بلوغ الأربعين، وقيل: الاستواء إشارة إلى كمال الخلقة، وقيل: هو بمعنى واحد، وهو ضعيف؛ لأن العطف يشعر بالمغايرة **﴿أتيتناه حكماً وعلماً﴾** الحكم الحكمة على العموم، وقيل: النبوة، وقيل: الفقه في الدين، والعلم الفهم قاله السدي. وقال مجاهد: الفقه. وقال ابن إسحاق: العلم بدينه، ودين آبائه، وقيل: كان هذا قبل النبوة، وقد تقدم بيان معنى ذلك في البقرة **﴿وكنكك نجزي للمحسنين﴾** أي: مثل ذلك الجزء الذي جزيانا أم موسى لما استسلمت لأمر الله، وألقت ولدها في البحر، وصنعت بوعد الله نجزي المحسنين على إحسانهم، والمراد العموم **﴿ويخل المدينة﴾** أي: ودخل موسى مدينة مصر الكبرى، وقيل: مدينة غيرها من مدائن مصر، ومحل قوله **﴿على حين غفلة من أهلها﴾** النصب على الحال إما من الفاعل أي: مستخفياً، وإما من المفعول. قيل: لما عرف موسى ما هو عليه من الحق في دينه عاب ما عليه قوم فرعون، وفشا ذلك منه، فأخافوه، فخافهم، فكان لا يدخل المدينة إلا مستخفياً. قيل: كان دخوله بين العشاء والمعتمة، وقيل: رقت القائلة. قال الضحاك: طلب أن يدخل المدينة وقت غفلة أهلها، فدخل على حين علم منهم، فكان يقتتلان هذا من شيعته **﴿أي: ممن شايعه على دينه، وهم بنو إسرائيل ﴿وهذا من عدوه﴾** أي: من المعادين له على دينه، وهم قوم فرعون **﴿فاستغاثه الذي من شيعته﴾** أي: طلب منه أن ينصره، ويعينه على خصمه **﴿على الذي من عدوه﴾** فأغاثه؛ لأن نصر المظلوم واجب في جميع الملل. قيل: أراد القبطي أن يسخر الإسرائيلي؛ ليحمل حطباً لمطبخ فرعون، فأبى عليه، واستغاث بموسى **﴿فوكزه موسى﴾**

انعم به عليه: هو ما آتاه من الحكم، والعلم، أو بالمغفرة، أو بالجميع، وأراد بمظاهرة المجرمين: إما صحبة فرعون، والانتظام في جملة في ظاهر الأمر، أو مظاهرتة على ما فيه إثم. قال الكسائي، والفراء: ليس قوله **﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهيراً للمجرمين﴾** خبراً بل هو دعاء أي: فلا تجعلني يا رب ظهيراً لهم. قال الكسائي، وفي قراءة عبد الله: (فلا تجعلني يا رب ظهيراً للمجرمين) وقال الفراء: المعنى: اللهم فلن أكون ظهيراً للمجرمين. وقال النحاس: إن جعله من باب الخبر أوفى وأشبه بنسق الكلام **﴿فأصبح في المدينة خائفاً يترقب﴾** أي: دخل في وقت الصباح في المدينة التي قتل فيها القبطي، وخائفاً خبر أصبح، ويجوز أن يكون حالاً، والخبر في المدينة، ويتربح يجوز أن يكون خبراً ثانياً، وأن يكون حالاً ثانياً، وأن يكون بدلاً من خائفاً، ومفعول يتربح محذوف، والمعنى: يتربح المكروه، أو يتربح الفرح **﴿فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه﴾** «إذا» هي الفجائية، والموصول مبتدأ، وخبره يستصرخه أي: فإذا صاحبه الإسرائيلي الذي استغاث بالأمس يقاتل قبطياً آخر، أراد أن يسخره ويظلمه كما أراد القبطي الذي قد قتله موسى بالأمس، والاستصرخ الاستغاثة، وهو من الصراخ، وذلك أن المستغيث يصوت، ويصرخ في طلب الغوث، ومنه قول الشاعر:

كنا إذا ما اتاننا صارخ فزع كان الجواب له قرع الظنابيب
﴿قال له موسى إنك لغوي مبين﴾ أي: بين الغواية، وذلك أنك تقاتل من لا تقدر على مقاتلته، ولا تطبيقه، وقيل: إنما قال له هذه المقالة؛ لأنه تسبب بالأمس لقتل رجل يريد اليوم أن يتسبب لقتل آخر **﴿فلما أن أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما﴾** أي: يبطش بالقبطي الذي هو عدو لموسى، وللإسرائيلي حيث لم يكن على بينهما، وقد تقدم معنى يبطش، واختلاف القراءة فيه **﴿قال يا موسى اتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس﴾** القائل هو الإسرائيلي لما سمع موسى يقول له **﴿إنك لغوي مبين﴾** ورأه يريد أن يبطش بالقبطي ظن أنه يريد أن يبطش به، فقال لموسى **﴿اتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس﴾** فلما سمع القبطي ذلك أقشاه، ولم يكن قد علم أحد من أصحاب فرعون أن موسى هو الذي قتل القبطي بالأمس حتى أفضى عليه الإسرائيلي، هكذا قال جمهور المفسرين. وقيل: إن القائل **﴿اتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس﴾** هو القبطي، وكان قد بلغه الخبر من جهة الإسرائيلي، وهذا هو الظاهر، وقد سبق ذكر القبطي قبل هذا بلا فصل؛ لأنه هو المراد بقوله **﴿عدو لهما﴾**، ولا موجب لمخالفة الظاهر حتى يلزم عنه أن المؤمن بموسى المستغيث به المرة الأولى، والمرة الأخرى هو الذي أفضى عليه، وأيضاً إن قوله **﴿إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض﴾** لا يليق صوره مثله إلا من كافر، وإن في قوله **﴿إن تريد﴾** هي النافية أي: ما تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض، قال الزجاج: الجبار في اللغة

الوكز الضرب بجمع الكف، وهكذا للوكز، واللهز. وقيل: للوكز على اللحي، والوكز على القلب. وقيل: ضربه بعصاه. وقرأ ابن مسعود (فلنكزه)، وحكى الثعلبي: أن في مصحف عثمان (فنكزه) بالنون، قال الأصمعي: نكزه بالنون: ضربه، وبنفعه. قال الجوهري: للوكز الضرب على الصدر. وقال أبو زيد: في جميع الجسد يعني: أنه يقال له: لكز، واللهز الضرب بجميع اليدين في الصدر، ومثله عن أبي عبيدة **﴿فقضى عليه﴾** أي: قتله، وكل شيء أتيت عليه، وفرغت منه: فقد قضيت عليه، ومنه قول الشاعر:

قد عضه فقضى عليه الأشجع

قيل: لم يقصد موسى قتل القبطي، وإنما قصد دفعه، فاتى ذلك على نفسه، ولهذا قال **﴿هذا من عمل الشيطان﴾** وإنما قال بهذا القول مع أن المقتول كافر حقيق بالقتل؛ لأنه لم يكن إذ ذاك مأموراً بقتل الكفار. وقيل: إن تلك الحالة حالة كف عن القتال لكونه مأموناً عندهم، فلم يكن له أن يقتلهم. ثم وصف الشيطان بقوله **﴿إنه عدو مضل مبين﴾** أي: عدو للإنسان يسعى في إضلاله، ظاهر العداوة والإضلال. وقيل: إن الإشارة بقوله **﴿هذا﴾** إلى عمل المقتول لكونه كافراً مخالفاً لما يريده الله. وقيل: إنه إشارة إلى المقتول نفسه يعني: أنه من جند الشيطان وحزبه. ثم طلب من الله سبحانه: أن يغفر له ما وقع منه **﴿قال رب إني ظلمت نفسي فأغفر لي فغفر﴾** الله **﴿له﴾** ذلك **﴿إنه هو الغفور الرحيم﴾** ووجه استغفاره أنه لم يكن لنبي أن يقتل حتى يؤمر، وقيل: إنه طلب المغفرة من تركه للأولى كما هو سنة المرسلين، أو أراد إني ظلمت نفسي بقتل هذا الكافر، لأن فرعون لو يعرف ذلك لقتلني به، ومعنى **﴿فأغفر لي﴾**: فاستر ذلك علي لا تطلع عليه فرعون، وهذا خلاف الظاهر فإن موسى عليه السلام ما زال نائماً على ذلك خائفاً من العقوبة بسببه: حتى إنه يوم القيامة عند طلب الناس الشفاعة منه يقول: إني قتلت نفساً لم أؤمر بقتلها، كما ثبت ذلك في حديث الشفاعة الصحيح، وقد قيل: إن هذا كان قبل النبوة، وقيل: كان ذلك قبل بلوغه سن التكليف، وإنه كان إذ ذاك في اثنتي عشرة سنة، وكل هذه التأويلات البعيدة محافظة على ما تقرر من عصمة الأنبياء، ولا شك أنهم معصومون من الكبائر، والقتل الواقع منه لم يكن عن عمد فليس بكبيرة، لأن الوكزة في الغالب لا تقتل. ثم لما أجاب الله سؤاله، وغفر له ما طلب منه مغفرته **﴿قال رب بما أنعمت علي﴾** هذه الباء يجوز أن تكون باء القسم، والجواب مقدر أي: أقسم بإنعامك علي لاتوبن، وتكون جملة **﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهيراً للمجرمين﴾** كالتفسير للجواب وكأنه أقسم بما أنعم الله عليه أن لا يظاهر مجرماً. ويجوز أن تكون هذه الباء هي باء السببية متعلقة بمحذوف أي: اعصمني بسبب ما أنعمت به علي، ويكون قوله **﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهيراً﴾** مترتباً عليه، ويكون في ذلك استعطاف لله تعالى، وتوصل إلى إنعامه بإنعامه، و«ما» في قوله **﴿بما أنعمت﴾** إما موصولة، أو مصدرية، والمراد بما

أي: أحبس، وأمنع، وورد الذود بمعنى الطرد، ومنه قول الشاعر:

لقد سلبت عصاك بنو تميم فما تدري بأي عصي تذود

أي: تطرد **﴿قال ما خطبك﴾** أي: قال موسى للمراتين: ما شأنكما لا تسقيان غنمكما مع الناس؟ والخطب الشأن، قيل: وإنما يقال: ما خطبك لمصاب، أو مضطهد؛ أو لمن يأتي بمنكر **﴿قالتا لا نسقي حتى يصدر للرعاء﴾** أي: إن عانتنا الثاني حتى يصدر الناس عن الماء، وينصرفوا منه حذراً من مخالطتهم، أو عجزاً عن السقي معهم. قرأ الجمهور (يصدر) بضم الياء، وكسر الدال مضارع أصدر المتعدي بالهمزة. وقرأ ابن عامر، وأبو عمرو، وأبو جعفر بفتح الياء، وضم الدال من صدر يصدر لازماً، فالمفعول على القراءة الأولى محذوف أي: يرجعون مواشيهم، والرعاء جمع راع.. قرأ الجمهور (الرعاء) بكسر الراء. وقرأ أبو عمرو في رواية عنه بفتحها. قال أبو الفضل: هو مصدر أقيم مقام الصفة، فلذلك استوى فيه الواحد، والجمع. وقرأ (الرعاء) بالضم اسم جمع. وقرأ طلحة بن مصرف (تسقى) بضم النون من أسقى **﴿ولبونا شيخ كبير﴾** عالي السن، وهذا من تمام كلامهما أي: لا يقدر أن يسقي ماشيته من الكبر، فلذلك احتجنا، ونحن امرأتان ضعيفتان أن نسقي الغنم لعدم وجود رجل يقوم لنا بذلك فلما سمع موسى كلامهما سقى لهما رحمة لهما أي: سقى أغنامهما لأجلهما، ثم لما فرغ من السقي لهما **﴿تولى إلى الظل﴾** أي: انصرف إليه، فجلس فيه، قيل: كان هذا الظل ظل سمرة هناك. ثم قال لما أصابه من الجهد، والتعب منادياً لربه **﴿إني لما أنزلت إلي من خير﴾** أي: خير كان **﴿فقير﴾** أي: محتاج إلى ذلك، قيل: أراد بذلك الطعام، واللام في **﴿لما أنزلت﴾** معناها: إلى. قال الأخفش: يقال: هو فقير له، وإليه.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والمحامي في أماليه من طريق مجاهد عن ابن عباس في قوله **﴿ولما بلغ أشده﴾** قال: ثلاثاً وثلاثين سنة **﴿واستوى﴾** قال: أربعين سنة. وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب المعمرين من طريق الكلبي عن أبي صالح عنه قال: الأشد ما بين الثماني عشرة إلى الثلاثين، والاستواء ما بين الثلاثين إلى الأربعين، فإذا زاد على الأربعين أخذ في النقصان. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طرق عنه أيضاً في قوله **﴿يدخل المدينة على حين غفلة من أهلها﴾** قال: نصف النهار. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم من طريق ابن جريج عن عطاء الخراساني، عنه أيضاً في الآية قال: ما بين المغرب والعشاء. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً **﴿هذا من شيعته﴾** قال: إسرائيلي **﴿وهذا من عدوه﴾** قال: قبطي **﴿فاستغاثه الذي من شيعته﴾** الإسرائيلي **﴿على الذي من عدوه﴾** القبطي **﴿فوكزه موسى فقضى عليه﴾** قال: فمات. قال: فكبر ذلك على موسى. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عنه

الذي لا يتواضع لأمر الله، والقاتل بغير حق جبار. وقيل: الجبار الذي يفعل ما يريد من الضرب، والقتل، ولا ينظر في العواقب، ولا يدفع بالتي هي أحسن **﴿وما تريد أن تكون من المصلحين﴾** أي: الذين يصلحون بين الناس **﴿وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى﴾** قيل: المراد بهذا الرجل حزقيل، وهو مؤمن آل فرعون، وكان ابن عم موسى، وقيل: اسمه شمعون، وقيل: طالوت، وقيل: شمعان. والمراد بأقصى المدينة: آخرها وأبعدها، ويسعى يجوز أن يكون في محل رفع صفة لرجل، ويجوز أن يكون في محل نصب على الحال، لأن لفظ رجل، وإن كان نكرة فقد تخصص بقوله: **﴿من أقصى المدينة﴾**، **﴿قال يا موسى إن الملا ياتمرن بك ليقتلوك﴾** أي: يتشاورون في قتلك، ويتآمرون بسببك. قال الزجاج: يأمر بعضهم بعضاً بقتلك، وقال أبو عبيد: يتشاورون فيك؛ ليقتلوك؛ يعني: أشرف قوم فرعون. قال الأزهرى: ائتمر القوم، وتآمروا أي: أمر بعضهم بعضاً، نظيره قوله: **﴿وئاتمروا بينكم بمعروف﴾** [الطلاق: 6] قال النمر بن تولب:

أرى الناس قد احثوا شيمة وفي كل حائشة يؤتمر **﴿فأخرج إني لك من الناصحين﴾** في الأمر بالخروج، واللام للبيان؛ لأن معمول المجبور لا يتقدم عليه **﴿فخرج منها خائفاً يترقب﴾** فخرج موسى من المدينة حال كونه خائفاً من الظالمين مترقباً لحوقهم به، وإدراكهم له، ثم دعا ربه بأن ينجيه مما خافه قائلاً **﴿رب نجني من القوم الظالمين﴾** أي: خلصني من القوم الكافرين، وانفعهم عني، وحلّ بيني وبينهم **﴿ولما توجه تلقاء مدين﴾** أي: نحو مدين قاصداً لها. قال الزجاج: أي: سلك في الطريق الذي تلقاء مدين فيها. انتهى. يقال: داره تلقاء دار فلان، وأصله من اللقاء، ولم تكن هذه القرية داخلة تحت سلطان فرعون، ولهذا خرج إليها **﴿قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل﴾** أي: يرشدني نحو الطريق المستوية إلى مدين **﴿ولما ورد ماء مدين﴾** أي: وصل إليه، وهو الماء الذي يستقون منه **﴿وجد عليه أمة من الناس يسقون﴾** أي: وجد على الماء جماعة كثيرة من الناس يسقون مواشيهم، ولفظ الورود قد يطلق على الدخول في المورد، وقد يطلق على البلوغ إليه، وإن لم يدخل فيه، وهو المراد هنا، ومنه قول زهير:

فلما وردنا الماء زرقا حمامه

وقد تقدم تحقيق معنى الورود في قوله: **﴿وإن منكم إلاّ واردها﴾** [مريم: 71] وقيل: مدين اسم للقبيلة لا للقرية، وهي غير منصرفة على كلا التقديرين **﴿ووجد من دونهم﴾** أي: من نون الناس الذين يسقون ما بينهم وبين الجهة التي جاء منها، وقيل: معناه: في موضع أسفل منهم **﴿لمراتين تذودان﴾** أي: تحبسان أغنامهما من الماء حتى يفرغ الناس، ويخلو بينهما وبين الماء، ومعنى الذود: الدافع، والحبس، ومنه قول الشاعر:

أبيت على باب القوافي كأنما أئود بها سرباً من الوحش نزعاً

ايضاً في قوله ﴿فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ﴾ قال: هو صاحب موسى الذي استنصره بالأمس. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عكرمة قال: الذي استنصره هو الذي استصرخه. وأخرج ابن المنذر عن الشعبي قال: من قتل رجلين فهو جبار، ثم تلا هذه الآية ﴿إِنْ تَرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ﴾، وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن عكرمة قال: لا يكون الرجل جباراً حتى يقتل نفسين. وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن المنذر عن ابن عباس قال: خرج موسى خائفاً يترقب جاعاً ليس معه زاد حتى انتهى إلى ماء مدين، ﴿وَعَلَيْهِ أَمَةٌ مِنَ النَّاسِ يَشْفُونَ﴾، وامرأتان جالستان بشياهما، فسألها ﴿مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يَصْدُرَ الرَّعَاءُ وَلَبِونا شَيْخَ كَبِيرٍ﴾ قال: فهل قربكما ماء؟ قالتا: لا، إلا بشر عليها صخرة قد غطيت بها لا يطبقها نفر، قال: فانطلقنا، فاريانيها، فانطلقنا معه، فقال بالصخرة بيده، فتحاها، ثم استقى لهم سجلاً واحداً فسقى الغنم، ثم أعاد الصخرة إلى مكانها ﴿ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظَّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾، فسمعتا، قال: فرجعنا إلى أبيهما، فاستنكر سرعة مجيئهما، فسألها، فأخبرتاها، فقال لإحدهما: انطلق، فادعيه، فأتت. ﴿فَقَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص: 25] فمشت بين يديه، فقال لها: امشي خلفي، فإني امرؤ من عنصر إبراهيم لا يحل لي أن أرى منك ما حرّم الله عليّ، ولرشيبي الطريق ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتُ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ * قالت إحدهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القويّ الأمين ﴿[القصص: 25 - 26] قال لها أبوها: ما رأيت من قوّته، وأمانته؟ فأخبرته بالأمر الذي كان، قالت: أما قوّته، فإنه قلب الحجر وحده، وكان لا يقلبه إلا الغفر. وأما أمانته، فقال: امشي خلفي، ولرشيبي الطريق؛ لأنني امرؤ من عنصر إبراهيم لا يحل لي منك ما حرّم الله. قيل لابن عباس: أيّ الأجلين قضى موسى؟ قال: أبرهما، وأوفاهما. وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبة في المصنف، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن عمر بن الخطاب قال: إن موسى لما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون، فلما فرغوا أعلوا الصخرة على البئر، ولا يطبق رفعها إلا عشرة رجال، فإذا هو بامرأتين، قال: ما خطبكما؟ فحثّتاها، فأتى الحجر، فرفعه وحده، ثم استقى، فلم يستق إلا ذنوباً واحداً حتى رويت الغنم، فرجعت المرأتان إلى أبيهما، فحثّتاها، وتولى موسى إلى الظل، فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾. قال: ﴿فَجِئْتَهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ [القصص: 25] واضعة ثوبها على وجهها ليست بسلف من النساء خراجة ولاجة ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص: 25] فقام معها موسى، فقال لها: امشي خلفي، وانعتي لي الطريق، فإني أكره أن يصيب الريح ثيابك

فتصف لي جسدك، فلما انتهى إلى أبيها قصّ عليه، فقالت إحدهما: يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القويّ الأمين، قال: يا بنية ما علمك بأمانته، وقوّته؟ قالت: أما قوّته فرفعه الحجر، ولا يطيقه إلا عشرة رجال، وأما أمانته، فقال: امشي خلفي، وانعتي لي الطريق فإني أكره أن تصيب الريح ثيابك، فتصف لي جسدك، فزاده ذلك رغبة فيه. ﴿فَقَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَتُكَلِّمَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ﴾ إلى قوله: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القصص: 27] أي: في حسن الصحبة، والوفاء بما قلت ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿تِلْكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجْلِينَ قَضَيْتَ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ [القصص: 28] قال: نعم قال: ﴿وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص: 28] فزوّجه، وأقام معه يكفيه، ويعمل في رعاية غنمه، وما يحتاج إليه، وزوجه صفورا، واختها شرفاً، وهما اللتان كانتا تتوددان. قال ابن كثير بعد إخراجها لطرق من هذا الحديث: إن إسناده صحيح. والسلف من النساء الجريئة السليطة. وأخرج أحمد في الزهد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ قال: ورد الماء حيث ورد، وإنه لتتراءى خضرة البقل في بطنه من الهزال. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه قال: خرج موسى من مصر إلى مدين، وبينه وبينها ثمان ليال، ولم يكن له طعام إلا ورق الشجر، وخرج حافياً، فما وصل إليها حتى وقع خفّ قدمه، وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه أيضاً قال ﴿تَتَذَوَّدَانِ﴾ تحبسنان غنمهما حتى ينزع للناس، ويخلو لهما البئر. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، والضياء في المختارة عنه أيضاً قال: لقد قال موسى: ربّ إنني لما أنزلت إليّ من خير فقير، وهو أكرم خلقه عليه، ولقد افترق إلى شقّ تمرّة، ولقد لصق بطنه بظهره من شدّة الجوع. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: ما سأل إلا الطعام. وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: سأل فلاناً من الخبز يشدّ بها صلبه من الجوع.

فَجِئْتَهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتُ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَأْتِيكِ اسْتِجْرَاءُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِنْ اسْتِجْرَاءِ الْقَوَى الْأَيَّامِ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَتُكَلِّمَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَّ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حِجَّتِي فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَجَنِّ عَيْنُكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجْلِينَ قَضَيْتَ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الثَّوَرِ كَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلَّيْكُمْ يَأْتِيكُمْ مِنْهَا بَخْرٌ أَوْ كَنْزُورٌ مِنْ النَّارِ لَكُمْ مَصْطَلُوكَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّا أَنْتَهَى ذُورُكَ مِنْ شَطْرِ الْأَوْدِ الْأَيْمَنِ فِي الْغَوِيِّ الْمَبْرُكَيْنِ مِنَ الشَّجَرِ أَنْ يَمْشِيَ عَلَى نَارٍ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْمَكِينِ ﴿٣٠﴾ وَأَنَّ إِلَهِي عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تُهَلِّلُ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَّى مُعَبِّبٌ يَتَمَوْعُ

تجعل ثوابي أن ترعى غنمي ثمانين سنين، ومحل ﴿على أن تلجرنى﴾ للنصب على الحال، وهو مضارع أجرته، ومفعوله الثاني محذوف أي نفسك ﴿ثمانين حجج﴾ ظرف. قال المبرد: يقال: أجزت داري ومملوكي غير مملود ومملوداً، والأول أكثر ﴿فإن لقمتم عشرأ فمن عندك﴾ أي: إن أتممت ما استلجرتك عليه من الرعي عشر سنين فمن عندك أي: تفضلاً منك لا إلزاماً مني لك، جعل ما زاد على الثمانين الأعوام إلى تمام عشرة أعوام، موكولاً إلى المروءة. ومحل ﴿فمن عندك﴾ الرفع على تقدير مبتدأ أي: فهي من عندك ﴿وما أريد أن أشق عليك﴾ بالزمام إتمام العشرة الأعوام، واشتقاق المشقة من الشق أي: شق ظنه نصفين، فتارة يقول: أطيق، وتارة يقول: لا أطيق. ثم رغبة في قبول الإجارة، فقال ﴿ستجني إن شاء الله من الصالحين﴾ في حسن الصحبة والوفاء، وقيل: أراد الصلاح على العموم، فيدخل صلاح المعاملة في تلك الإجارة تحت الآية دخولاً أولياً، وقيد ذلك بالمشيئة تفويضاً للامر إلى توفيق الله ومعونته. ثم لما فرغ شعيب من كلامه قرره موسى فـ ﴿قال ذلك بيني وبينك﴾ واسم الإشارة مبتدأ، وخبره ما بعده، والإشارة إلى ما تعاقدا عليه، وجملة ﴿أيما الأجلين قضيت﴾ شرطية، وجوابها ﴿فلا عدوان عليّ﴾، والمراد بالأجلين: الثمانية الأعوام، والعشرة الأعوام، ومعنى ﴿قضيت﴾: وفيت به، وأتممته، والأجلين مخفوض بإضافة أي إليه، وما زائدة. وقال ابن كيسان: «ما» في موضع خفض بإضافة أي إليها، وهـ الأجلين بدل منها، وقرأ الحسن (أيما) بسكون الياء، وقرأ ابن مسعود (أي الأجلين ما قضيت)، ومعنى ﴿فلا عدوان عليّ﴾: فلا ظلم عليّ بطلب الزيادة على ما قضيت من الأجلين أي: كما لا أطلب بالزيادة على الثمانية الأعوام لا أطلب بالنقصان على العشرة. وقيل: المعنى كما لا أطلب بالزيادة على العشرة الأعوام لا أطلب بالزيادة على الثمانية الأعوام، وهذا أظهر. وأصل العدوان تجاوز الحد في غير ما يجب. قال المبرد: وقد علم موسى أنه لا عدوان عليه إذا أتمهما، ولكنه جمعهما؛ ليجعل الأول كالآتم في الوفاء. قرأ الجمهور (عدوان) بضم العين. وقرأ أبو حنيفة بكسرهما ﴿والله على ما نقول وكيل﴾ أي: على ما نقول من هذه الشروط الجارية بيننا شاهد وحفيظ، فلا سبيل لأحدنا إلى الخروج عن شيء من ذلك. قيل: هو من قول موسى، وقيل: من قول شعيب، والأول أولى لوقوعه في جملة كلام موسى ﴿فلما قضى موسى الأجل﴾ هو أكملهما، وأوفاهما، وهو العشرة الأعوام، كما سيأتي آخر البحث، والفاء فصيحة ﴿وسار باهله﴾ إلى مصر، وفيه دليل على أن الرجل يذهب بأمله حيث شاء ﴿أنس من جانب للطور ناراً﴾ أي: أبصر من الجهة التي تلي الطور ناراً، وقد تقدم تفسير هذا في سورة طه مستوفى ﴿قال لاهله امكثوا إني آنست ناراً لعلني آتيكم منها بخبر﴾ وهذا تقدم تفسيره أيضاً في سورة طه، وفي سورة النمل

أَقِيلَ وَلَا عَقَبَ إِلَيْكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴿٢٨﴾ أَسْأَلُكَ بِكَ فِي جَيْدِكَ فَخْرَ يَمَّةَ مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ وَأَسْمُ إِلَيْكَ جَنَاحُكَ مِنَ الرَّمْيِ فَذَلِكَ بِرُؤْسَانِ مِنْ رَيْكَ إِنْ فَرَعُونَ وَمَلَايِيَّةَ إِنَّهُمْ كَأَنَّا نَوْنًا فَنَرِيكَ ﴿٢٩﴾

قوله: ﴿فجاءته إحداهما تمشي على استحياء﴾ في الكلام حنف يدل عليه السياق. قال الزجاج: تقديره، فذهبتا إلى أبيهما سريعتين، وكانت عانتها الإبطاء في السقي، فحننهما بما كان من الرجل الذي سقى لهما، فأمر الكبرى من بنتيه، وقيل: الصغرى أن تدعوه له، فجاءته. وذهب أكثر المفسرين إلى أنهما ابنتا شعيب، وقيل: هما ابنتا أخي شعيب، وأن شعيباً كان قد مات. والأول أرجح، وهو ظاهر القرآن. ومحل ﴿تمشي﴾ النصب على الحال من فاعل جاءت، ﴿وعلى استحياء﴾ حال أخرى أي: كائنة على استحياء حالتي المشي والمجيء فقط، وجملة ﴿قالت إن لبي يدعوك﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: ماذا قالت له لما جاءته ﴿ليجزيك أجر ما سقيت لنا﴾ أي: جزاء سقيك لنا ﴿فلما جاءه وقص عليه القصص﴾ القصص مصدر سمي به المفعول أي: المقصوص يعني: أخبره بجميع ما اتفق له من عند قتله القبطي إلى عند وصوله إلى ماء مدين ﴿قال﴾ شعيب ﴿لا تخف نجوت من القوم الظالمين﴾ أي: فرعون، وأصحابه، لأن فرعون لا سلطان له على مدين، وللرازي في هذا الموضع إشكالات باردة جداً لا تستحق أن تذكر في تفسير كلام الله عز وجل، والجواب عليها يظهر للمقصر فضلاً عن الكامل، وأشف ما جاء به أن موسى كيف أجاب الدعوة المعللة بالجزاء لما فعله من السقي. ويجاب عنه بأنه اتبع سنة الله في إجابة دعوة نبي من أنبياء الله، ولم تكن تلك الإجابة لأجل أخذ الأجر على هذا العمل، ولهذا ورد أنه لما قدم إليه الطعام قال: إنا أهل بيت لا نبيع ليننا بملء الأرض ذهباً ﴿قالت إحداهما يا أبت استاجرهم﴾ القائلة هي التي جاءت أي: استاجره ليرعى لنا الغنم، وفيه دليل على أن الإجارة كانت عندهم مشروعة. وقد اتفق على جوازها، ومشروعيتها جميع علماء الإسلام إلا الأصم فإنه عن سماع أئلهما أصم، وجملة ﴿إن خير من استلجرت للقي الامين﴾ تحليل لما وقع منها من الإرشاد لأبيها إلى استئجار موسى أي: إنه حقيق باستئجاره لكونه جامعاً بين خصلتي القوة والأمانة. وقد تقدم في المروي عن ابن عباس، وعمر: أن أباهما سألها عن وصفها له بالقوة والأمانة، فأجابته بما تقدم قريباً ﴿قال إني أريد أن أنكحك إحدى لبنتي هاتين﴾ فيه مشروعية عرض ولي المرأة لها على الرجل، وهذه سنة ثابتة في الإسلام، كما ثبت من عرض عمر لابنته حفصة على أبي بكر، وعثمان، والقصة معروفة، وغير ذلك مما وقع في أيام الصحابة أيام النبوة، وكذلك ما وقع من عرض المرأة لنفسها على رسول الله ﷺ ﴿على أن تلجرنى ثمانين حجج﴾ أي: على أن تكون أجيراً لي ثمانين سنين. قال الفراء: يقول: على أن

أراد بالجنح عصاه، وقال بعض أهل المعاني: الرهب الكم بلغة حمير، وبني حنيفة. قال الأصمعي: سمعت أعرابياً يقول لأخر: أعطني ما في رهبك، فسأله عن الرهب، فقال: الكم. فعلى هذا يكون أضمم إليك يدك، وأخرجها من الكم **﴿فَذَانُكَ﴾** إشارة إلى العصا واليد **﴿بِرَهَانَانِ﴾** من ريك إلى فرعون وملائه **﴿أي: حجتان نيرتان، وديلان واضحان، قرأ الجمهور (فَذَانُكَ) بتخفيف النون، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو بتشديدها، قيل: والتشديد لغة قريش. وقرأ ابن مسعود، وعيسى بن عمر، وشبل، وأبو نوفل بياء تحتية بعد نون مكسورة، والياء بدل من من إحدى النونين، وهي لغة هذيل، وقيل: لغة تميم، وقوله ﴿مَنْ رِيكَ﴾ متعلق بمحذوف أي: كائنان منه، وكذلك قوله ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمُلَائِهِ﴾ متعلق بمحذوف أي: مرسلان، أو واصلان إليهم **﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾** متجاوزين الحد في الظلم خارجين عن الطاعة أبلغ خروج، والجملة تعليل لما قبلها.**

وقد أخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن أبي حاتم من طريق عبد الله بن أبي الهذيل عن عمر بن الخطاب في قوله **﴿تَمْشِي عَلَىٰ اسْتِحْيَاءٍ﴾** قال: جاءت مستترة بكم نزعها على وجهها. وأخرج ابن المنذر عن أبي الهذيل موقوفاً عليه. وأخرج ابن عسكرك عن أبي حازم قال: لما نزل موسى على شعيب إذا هو بالعشاء، فقال له شعيب: كل، قال موسى: أعوذ بالله، قال: ولم؟ ألسنت بجائع؟ قال: بلى، ولكن أخاف أن يكون هذا عوضاً عما سقيت لهما، وأنا من أهل بيت لا نبيع شيئاً من عمل الآخرة بملء الأرض ذهباً، قال: لا والله، ولكنها عادتني، وعادة آبائي، نقرى الضيف، ونطعم الطعام، فجلس موسى، فأكلك. وأخرج ابن أبي حاتم عن مالك بن أنس: أنه بلغه أن شعيباً هو الذي قص عليه القصص. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود قال: كان صاحب موسى أثرون بن أخي شعيب النبي. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: الذي استأجر موسى يثرب صاحب مدين. وأخرج ابن المنذر، وابن مريويه عنه قال: كان اسم ختن موسى يثربي. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الحسن قال: يقول أناس: إنه شعيب، وليس بشعيب، ولكنه سيد الماء يومئذ. وأخرج ابن ماجه، والبخاري، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مريويه عن عتبة بن المنذر السلمي قال: «كنا عند رسول الله ﷺ، فقرأ سورة طسّم حتى إذا بلغ قصة موسى قال: إن موسى أجز نفسه ثمانين سنين، أو عشرين على عفة فرجه وطعام بطنه، فلما وفى الأجل قيل: يا رسول الله أي الأجلين قضى موسى؟ قال: أبزهما، وأوفاهما، فلما أراد فراق شعيب أمر امرأته: أن تسأل أباهما أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به، فأعطاهما ما ولدت غنمه»، الحديث بطوله. وفي إسناده مسلمة بن علي الحسني الدمشقي البلاطي، ضعفه الأئمة. وقد روي من وجه آخر، وفيه نظر. وإسناده عند ابن أبي

﴿أَوْ جَنُودَ﴾ قرأ الجمهور بكسر الجيم، وقرأ حمزة، ويحيى بن وثاب بضمها، وقرأ عاصم، والسلمي، ونز بن حبيش بفتحها. قال الجوهري: الجنوة والجنوة، والجنوة الجمرة، والجمع جذى، وجذى، وجذى. قال مجاهد: في الآية أن الجنوة قطعة من الجمر في لغة جميع العرب. وقال أبو عبيدة: هي القطعة الغليظة من الخشب كان في طرفها ناراً، ولم يكن، ومما يؤيد أن الجنوة الجمرة قول السلمي:

وبللت بعد المسك والبان شقوة نخان الجذا في رأس أشمط شاحب

﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أي: تستدفنون بالنار **﴿فَلَمَّا قَتَلَاهَا﴾** أي: أتى النار التي أبصرها، وقيل: أتى الشجرة، والأول أولى لعدم تقدم الذكر للشجرة **﴿بَنُودِي﴾** من شاطئ الواد الأيمن من لابتداء الغاية، والأيمن صفة للشاطئ، وهو من اليمن، وهو البركة، أو من جهة اليمن المقابل لليسار بالنسبة إلى موسى أي: الذي يلي يمينه نون يساره، وشاطئ الوادي طرفة، وكذا شطه. قال الراغب: وجمع الشاطئ أشطاء، وقوله **﴿فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ﴾** متعلق بنودي، أو بمحذوف على أنه حال من الشاطئ، **﴿وَمِنْ الشَّجَرَةِ﴾** بدل لشمال من شاطئ الواد، لأن الشجرة كانت نابتة على الشاطئ. وقال الجوهري: يقول: شاطئ الأودية، ولا يجمع. قرأ الجمهور (في البقعة) بضم الباء، وقرأ أبو سلمة، والأشهب العقيلي بفتحها، وهي لغة حكاها أبو زيد **﴿إِنْ يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾** أن هي المفسرة، ويجوز أن تكون هي المخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، وجملة النداء مفسرة له، والأول أولى. قرأ الجمهور بكسر همزة (إني) على إضمار القول، أو على تضمين النداء معناه. وقرئ بالفتح، وهي قراءة ضعيفة، وقوله **﴿وَأَنْ لِّقِ عَصَاكَ﴾** معطوف على **﴿إِنْ يَا مُوسَىٰ﴾** وقد تقدم تفسير هذا، وما بعده في طه، والنمل، وفي الكلام حذف، والتقدير: فلما قاما، فصارت ثعباناً، فامتزت **﴿فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾** في سرعة حركتها مع عظم جسمها **﴿وَلَىٰ مُبِيرٌ﴾** أي: منهزم، وانتصاب مبيراً على الحال وقوله **﴿وَلَمْ يَعْقِبْ﴾** في محل نصب أيضاً على الحال: أي: لم يرجع **﴿يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾** قد تقدم تفسير جميع ما ذكر هنا مستوفى فلا نعيده، وكذلك قوله **﴿إِسْلَكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوَاءٍ وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾** جناح الإنسان عضده، ويقال لليد كلها: جناح أي: أضمم إليك يديك الميسورتين؛ لتتقي بهما الحية كالخائف الفرع، وقد عبر عن هذا المعنى بثلاث عبارات: الأولى اسلك يدك في جيبك، والثانية: واضمم إليك جناحك، والثالثة: أدخل يدك في جيبك. ويجوز أن يراد بالضم التجلد والثبات عند انقلاب العصا ثعباناً، ومعنى **﴿مَنْ لِّلرَّهْبِ﴾**: من أجل الرهب، وهو الخوف. قرأ الجمهور (الرهب) بفتح الراء والهاء، واختار هذه القراءة أبو عبيد، وأبو حاتم، وقرأ حفص، والسلمي، وعيسى بن عمر، وابن أبي إسحاق بفتح الراء، وإسكان الهاء. وقرأ ابن عامر، والكوفيون إلّا حفصاً بضم الراء، وإسكان الهاء. وقال الفراء:

حاتم هكذا: حدثنا أبو زرعة عن يحيى بن عبد الله بن بكير، حدثني ابن لهيعة عن الحارث بن يزيد الحضرمي، عن علي بن رباح اللخمي قال: سمعت عتبة بن المنذر السلمي صاحب رسول الله ﷺ فنكره. وابن لهيعة ضعيف، وينظر في بقية رجال السند. وأخرج ابن جرير عن انس طرفاً منه موقوفاً عليه. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة في المصنف، وعبد بن حميد، والبخاري، وابن المنذر، وابن مردويه من طرق عن ابن عباس: أنه سئل: أي الأجلين قضى موسى؟ فقال: قضى أكثرهما، وأطيبهما، إن رسول الله إذا قال فعل. وأخرج البزار، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه عنه نحوه، وقوله: إن رسول الله إذا قال فعل فيه نظر، فإن موسى لم يقل إنه سيقضي أكثر الأجلين بل قال: أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علي. وقد روى عن رسول الله ﷺ: أن موسى قضى أتم الأجلين من طرق. وأخرج الخطيب في تاريخه عن أبي نر قال: قال لي رسول الله ﷺ: «إذا سئلت أي الأجلين قضى موسى؟ فقل: خيرهما، وأبرهما، وإن سئلت أي المرأتين تزوج؟ فقل: الصغرى منهما، وهي التي جاءت فقالت: يا أبت استأجره». وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال لي جبريل: يا محمد إن سالك اليهود أي الأجلين قضى موسى؟ فقل: أوفاهما، وإن سالك أيهما تزوج؟ فقل: الصغرى منهما». وأخرج البزار، وابن أبي حاتم، والطبراني في الأوسط، وابن مردويه، قال السيوطي بسند ضعيف عن أبي نر: «أن النبي ﷺ سئل: أي الأجلين قضى موسى؟ قال: أبرهما، وأوفاهما، قال: وإن سئلت أي المرأتين تزوج؟ فقل: الصغرى منهما، قال البزار: لا نعلم يروي عن أبي نر إلا بهذا الإسناد، وقد رواه ابن أبي حاتم من حديث عويد بن أبي عمران، وهو ضعيف. وأما روايات أنه قضى أتم الأجلين فلها طرق يقوي بعضها بعضاً. وأخرج ابن أبي حاتم من طريق السدي قال: قال ابن عباس: لما قضى موسى الأجل سار بأهله، فضل الطريق، وكان في الشتاء فرغت له نار، فلما رآها ظن أنها نار، وكانت من نور الله **﴿فقال لاهله امكثوا إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بخبر﴾** فإن لم أجد خبراً آتيكم بشهاب قبس **﴿لعلكم تصطلون﴾** من البرد. وأخرج ابن أبي حاتم عنه **﴿لعلي آتيكم منها بخبر﴾** لعلي أجد من يلني على الطريق، وكانوا قد ضلوا الطريق. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله **﴿أوجنوه﴾** قال: شهاب. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله **﴿نودي من شاطئ الواد﴾** قال: كان النداء من السماء الدنيا، وظاهر القرآن يخالف ما قاله رضي الله عنه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه عن عبد الله بن مسعود قال: نكرت لي الشجرة التي أوى إليها موسى، فسرت إليها يومي وليلتي حتى صبحتها، فإذا هي سمرة خضراء ترف، فصليت على النبي ﷺ، وسلمت، فاهوى إليها بعيري وهو

جائع، فأخذ منها ملأناً فيه فلاكه فلم يستطع أن يسيفه، فللقطه، فصليت على النبي، وسلمت، ثم انصرفت. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله **﴿واضمم إليك جناحك﴾** قال: يلك.

قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَعَاذُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿٣٢﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿٣٣﴾ قَالَ سَنُنْذِرُ عَصِيْدَكَ بِأُخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكَ سُلْطٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكَ ﴿٣٤﴾ بِكَذِبَتْنَا أَتَمَّا وَمَنْ أَتَّبَعَكَ الْغٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا يَتَذَكَّرُ أَلَمْ يَأْتِ الْيَسْبُورَ وَمَا سَكِنًا بِهَذَا فِي آيَاتِنَا الْأُولَى ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَى رَبِّ أَعْلَمْ بِمَا هَلَكَ مَنْ مِّنْ عِبَادِي وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ وَرَبُّونَا إِلَهُكُمُ الْمَلَأَ مَا وَعَدْتُ لَكُمْ مِنْ إِلٰهِ عَزِيزٌ فَارْجِعْ لِي يَهْتَكِرَ عَلَى الْغٰلِبِينَ فَاكْبَسْ لِي مَرَحًا لَّعَلِّي أَمْلِكُ إِلٰهَ رَبِّكَ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ مِنَ الْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَشَرُّهُ فِي الْأَرْضِ يَكْفُرُ الْآخِرَ وَظَنُوا أَنَّهُمْ إِلٰهًا لَا يَمُوتُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَعَزَّهُمْ وَحُرُودُ فَنَذَرْنَهُمْ فِي الْآخِرَةِ فَنَنْظُرُ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يُكَذِّبُونَ إِلَى الْآخِرِ وَلَيَوْمَ الْآيَةِ لَا يُصْرُونَ ﴿٤١﴾ وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لِنَفْسِنَا وَلَيَوْمَ الْآيَةِ هُمْ مِنَ الْغٰثِقِينَ ﴿٤٢﴾ وَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَدَا مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾

لما سمع موسى قول الله سبحانه **﴿فذاذك برهانا إلى فرعون﴾** [القصص: 32] طلب منه سبحانه أن يقوي قلبه، **﴿فقال رب إني قتلته منهم نفساً﴾** يعني: القبطي الذي وكزه، فقضى عليه **﴿فأخاف أن يقتلون﴾** بها **﴿ولخي هرون هو أفصح مني لساناً﴾** لأنه كان في لسان موسى حبة كما تقدم بيانه، والفصاحة لغة الخلو، يقال: فصح البن، وأقصح فهو: فصيح أي: خلص من الرغوة، ومنه فصح الرجل: جادت لغته، وأقصح: تكلم بالعربية. وقيل: الفصحح الذي ينطق، والأعجم الذي لا ينطق. وأما في اصطلاح أهل البيان فالفصاحة: خلوص الكلمة عن تنافر الحروف، والغرابة، ومخالفة القياس، وفصاحة الكلام: خلوصه من ضعف التأليف، والتعقيد. وانتصاب **﴿ردءاً﴾** على الحال، والردء المعين، من أرداته أي: أعنته، يقال: فلان ردء فلان: إذا كان ينصره، ويشد ظهره، ومنه قول الشاعر:

لم تر أن أصرم كان رديني وخير الناس في قل وما
وحذفت الهمزة تخفيفاً في قراءة نافع، وأبي جعفر، ويجوز أن يكون ترك الهمز من قولهم: أردى على المائة: إذا زاد عليها، فكان المعنى: أرسله معي زيادة في تصديقي، ومنه قول الشاعر:

واسمر خطياً كان كعبه نوى القسب قد أرى ناعاً على العشر
وروي البيت في الصحاح بلفظ قد أرى، والقسب الصلب، وهو الثمر اليابس الذي يتفتت في الفم، وهو صلب النواة **﴿يصنقني﴾** قرأ عاصم، وحمزة (يصنقني) بالرفع

واحد، يقال: طلع الجبل، واطلع **﴿واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق﴾** المراد بالأرض أرض مصر، والاستكبار التعظم بغير استحقاق، بل بالعنوان؛ لأنه لم يكن له حجة يدفع بها ما جاء به موسى، ولا شبهة ينصبها في مقابلة ما أظهره من المعجزات **﴿وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون﴾** أي: فرعون، وجنوده، والمراد بالرجوع البعث، والمعاد، قرأ نافع، وشيبة، وابن محيصن، وحميد، ويعقوب، وحمزة، والكسائي **﴿لا يرجعون﴾** بفتح الياء، وكسر الجيم مبنياً للفاعل. وقرأ الباقر بضم الياء، وفتح الجيم مبنياً للمفعول، واختار القراءة الأولى أبو حاتم، واختار القراءة الثانية أبو عبيد **﴿فلأخذهما وجنوده﴾** بعد أن عتوا في الكفر، وجاوزوا الحد فيه **﴿فنبئناهم في اليم﴾** أي: طرحناهم في البحر، وقد تقدم بيان الكلام في هذا **﴿فانظر كيف كان عاقبة الظالمين﴾** الخطاب لنبيينا محمد ﷺ أي: انظر يا محمد كيف كان آخر أمر الكافرين حين صاروا إلى الهلاك **﴿وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار﴾** أي: صيرناهم رؤساء متبوعين مطاعين في الكافرين فكانهم بإصرارهم على الكفر، والتمادي فيه يدعون أتباعهم إلى النار؛ لأنهم اقتتوا، وسلكوا طريقتهم تقليداً لهم. وقيل: المعنى: إنه ياتم بهم أي: يعتبر بهم من جاء بعدهم، ويتعظ بما أصيبوا به، والأول أولى **﴿ويوم القيامة لا ينصرون﴾** لا ينصرهم أحد، ولا يمنعه من عذاب الله **﴿واتبعناهم في هذه الدنيا لعنة﴾** أي: طرداً وإبعاداً، أو أمرنا العباد بلعنهم، فكل من نكرهم لعنهم، والأول أولى **﴿ويوم القيامة هم من المقبوحين﴾** المقبوح المطرود المبعد. وقال أبو عبيدة، وابن كيسان: معناه من المهلكين الممقوتين. وقال أبو زيد: قبح الله فلاناً قبحاً، وقبوحاً أبعد من كل خير. قال أبو عمرو: قبحت وجهه بالتخفيف بمعنى قبحت بالتشديد، ومثله قول الشاعر: لا تقبح الله السراجم كلها وقبح يربوعاً وقبح دارما وقيل: المقبوح المشوه الخلقة، والعامل في يوم محذوف يفسره من المقبوحين، والتقدير: وقبحوا يوم القيامة، أو هو معطوف على موضع في هذه الدنيا أي: واتبعناهم لعنة يوم القيامة، أو معطوف على لعنة على حذف مضاف أي: ولعنة يوم القيامة **﴿ولقد آتينا موسى الكتاب﴾** يعني: التوراة **﴿من بعد ما أهلكنا للقرن الأولى﴾** أي: قوم نوح، وعاد، وثمود، وغيرهم، وقيل: من بعد ما أهلكنا فرعون، وقومه، وخسفنا بقارون، وانتصاب **﴿ببصائر الناس﴾** على أنه مفعول له، أو حال أي: آتينا الكتاب لأجل يتبصر به الناس، أو حال كونه بصائر الناس يبصرون به الحق، ويهتدون إليه، وينفنون أنفسهم به من الضلالة بالإمتهاد به **﴿ورحمته﴾** لهم من الله رحمهم بها **﴿لعلهم يتذكرون﴾** هذه النعم، فيشكرون الله، ويؤمنون به، ويجيبون داعيه إلى ما فيه خير لهم.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس **﴿ردها يصنقني﴾** كي يصنقني.

على الاستئناف، أو الصفة لردها، أو الحال من مفعول أرسله، وقرأ الباقر بالجزم على جواب الأمر، وقرأ أبي، وزيد بن علي (يصدقون) أي: فرعون وملؤه **﴿إني أخاف أن يكذبون﴾** إذا لم يكن معي فرون لعدم انطلاق لساني بالمحاجة **﴿قال سنشد عضدك بأخيك﴾** أي: نقويك به، فشد العضد كناية عن التقوية، ويقال في دعاء الخير: شد الله عضدك، وفي ضده: فت الله في عضدك. قرأ الجمهور (عضدك) بفتح العين. وقرأ الحسين، وزيد بن علي بضمها. وروي عن الحسن أيضاً أنه قرأ بضممة وسكون. وقرأ عيسى بن عمر بفتحهما **﴿ونجعل لكما سلطاناً﴾** أي: حجة، وبرهاناً، أو تسلطاً عليه، وعلى قومه **﴿فلا يصلون إليكما﴾** بالآذى، ولا يقدرن على غلبتكما بالحجة، و**﴿بآياتنا﴾** متعلق بمحذوف أي: تمتنعان منهم بآياتنا، أو اذهبا بآياتنا. وقيل: الباء للقسمة، وجوابه يصلون، وما أضعف هذا القول. وقال الأخفش، وابن جرير: في الكلام تقديم وتأخير، والتقدير **﴿انتما ومن اتبعكما الغالبون﴾** بآياتنا، وأول هذه الوجوه أولاهما، وفي **﴿انتما ومن اتبعكما الغالبون﴾** تبشير لهما، وتقوية لقلوبهما **﴿فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات﴾** البينات الواضحات الدالة، وقد تقدم وجه إطلاق الآيات، وهي جمع على العصا، واليد في سورة طه **﴿قالوا ما هذا إلا سحر مفترى﴾** أي: مختلق مكنوب اختلقته من قبل نفسك **﴿وما سمعنا بهذا﴾** الذي جئت به من دعوى النبوة، أو ما سمعنا بهذا السحر **﴿في آياتنا الأولين﴾** أي: كائنات، أو واقعاً في آياتنا الأولين **﴿وقال موسى ربّي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده﴾** يريد نفسه، وإنما جاء بهذه العبارة لئلا يصرح لهم بما يريد قبل أن يوضح لهم الحجة، والله أعلم. قرأ الجمهور (وقال موسى) بالواو، وقرأ مجاهد، وابن كثير، وابن محيصن (قال موسى) بلا واو، وكذلك هو في مصاحف أهل مكة. وقرأ الكوفيون إلا عاصماً (ومن يكون عاقبة الدار) بالتحية على أن اسم يكون عاقبة الدار. والتذكير لوقوع الفصل، ولأنه تانيث مجازي، وقرأ الباقر (تكون) بالفوقية، وهي أوضح من القراءة الأولى، والمراد بالدار هنا الدنيا، وعاقبتها هي الدار الآخرة، والمعنى: لمن تكون له العاقبة المحمودة، والضمير في **﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾** للشأن أي: إن الشأن أنه لا يفلح الظالمون أي: لا يفوزون بمطلب خير، ويجوز أن يكون المراد بعاقبة الدار خاتمة الخير، وقال فرعون: **﴿يا ليها للعلا ما علمت لكم من إله غيري﴾** تمسك اللعين بمجرد الدعوى الباطلة مغالطة لقومه منه، وقد كان يعلم أنه ربه الله عز وجل، ثم رجع إلى تكبره، وتجبره، وإيهام قومه بكمال اقتداره فقال **﴿فاوقد لي يا هامان على الطين﴾** أي: اطبخ لي الطين حتى يصير أجراً **﴿فاجعل لي صرحاً﴾** أي: اجعل لي من هذا الطين الذي توقد عليه حتى يصير أجراً صرحاً أي: قصرأ عالياً **﴿لعلني أطلع إلى إله موسى﴾** أي: أصعد إليه **﴿وإني لأظنه من الكاذبين﴾** والطلوع، والإطلاع

قال: يا رب أرنيهم، فقال الله: إنك لن تدرهم، وإن شئت ناديتهم فأسمعتك صوتهم، قال: بلى يا رب، فقال الله: يا أمة محمد، فأجابوا من أصلاب آياتهم، فيكون معنى الآية على هذا: ما كنت يا محمد بجانب الطور إذ كلمنا موسى، فنادينا أمتك، وسيأتي ما يدل على هذا، ويقويه، ويرجح في آخر البحث إن شاء الله **﴿ولكن رحمة من ربك﴾** أي: ولكن فعلنا ذلك رحمة منا بكم، وقيل: ولكن أرسلنا بالقرآن رحمة لكم، وقيل: علمناك، وقيل: عرفناك، قال الأخفش: هو منصوب يعني: رحمة على المصدر أي: ولكن رحمتك رحمة. وقال الزجاج: هو مفعول من أجله زأي: فعلنا ذلك بك لأجل الرحمة. قال النحاس: أي: لم تشهد قصص الأنبياء، ولا تليت عليك، ولكن بعثناك، وأوحيناها إليك للرحمة. وقال الكسائي: هو خبر لكان مقترنة أي: ولكن كان ذلك رحمة، وقرأ عيسى بن عمر، وأبو حيو (رحمة) بالرفع على تقدير: ولكن أنت رحمة. وقال الكسائي: الرفع على أنها اسم كان المقترنة، وهو بعيد إلا على تقدير أنها تامة، واللام في **﴿لتنذر قوماً ما اتاهم من نذير من قبلك﴾** متعلق بالفعل المقتر على الاختلاف في تقديره، والقوم هم أهل مكة، فإنه لم يأتهم نذير ينذرهم قبله **﴿﴾**، وجملة **﴿ما اتاهم﴾** عطف إلخ، صفة لقوماً **﴿لنعلم يتذكرون﴾** أي: يتعظون بلفظنا **﴿ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت ليهم﴾** لولا هذه هي الامتناعية، وإن وما في حيزها في موضع رفع بالابتداء، وجوابها محذوف، قال الزجاج: وتقديره ما أرسلنا إليهم رسلاً: يعني: أن الحامل على إرسال الرسل هو إزالة عنهم، فهو كقوله سبحانه: **﴿لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾** [النساء: 165] وقدره ابن عطية لعاجلناهم بالعقوبة، ووافقه على هذا التقدير الواحدي فقال: والمعنى: لولا أنهم يحتجون بترك الإرسال إليهم لعاجلناهم بالعقوبة بكفرهم، وقوله **﴿فيقولوا﴾** عطف على تصيبهم، ومن جملة ما هو في حيز لولا أي: فيقولوا **﴿ربنا لولا أرسلت إلينا رسلاً﴾** ولولا هذه الثانية هي التحضيضية أي: فلا أرسلت إلينا رسلاً من عندك، وجوابها هو **﴿فتنبئ آياتك﴾** وهو منصوب بإضمار أن لكونه جواباً للتحضيض، والمراد بالآيات: الآيات التنزيلية الظاهرة الواضحة، وإنما عطف القول على تصيبهم لكونه هو السبب للإرسال، ولكن العقوبة لما كانت هي السبب للقول، وكان وجوده بوجودها جعلت العقوبة كأنها هي السبب لإرسال الرسل بواسطة القول **﴿وونكون من المؤمنين﴾** بهذه الآيات، ومعنى الآية: أنا لو عذبناهم لقالوا: طال العهد بالرسل، ولم يرسل الله إلينا رسلاً، ويظنون أن ذلك عذر لهم، ولا عذر لهم بعد أن بلغتهم أخبار الرسل، ولكننا أكملنا الحجة، وأزحنا العلة، وأتممنا البيان بإرسالك يا محمد إليهم **﴿فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا لوأتي مثل ما لوأتي موسى﴾** أي: فلما جاء أهل مكة الحق من عند الله، وهو محمد **﴿﴾**، وما أنزل عليه من القرآن قالوا تعنتاً منهم وجداً بالباطل: فلا لوأتي

هذا الرسول مثل ما لوأتي موسى من الآيات التي من جملتها التوراة المنزلة عليه جملة واحدة، فأجاب الله عليهم بقوله **﴿أولم يكفروا بما لوأتي موسى من قبل﴾** أي: من قبل هذا القول، أو من قبل ظهور محمد؛ والمعنى: أنهم قد كفروا بآيات موسى كما كفروا بآيات محمد، وجملة **﴿قالوا سحران تظاهرا﴾** مستأنفة مسوقة لتقرير كفرهم، وعنادهم، والمراد بقولهم **﴿ساحران﴾**: موسى، ومحمد، والتظاهر التعاون أي: تعاوننا على السحر، والضمير في قوله: **﴿أولم يكفروا﴾** لكفار قريش، وقيل: هو لليهود، والأول أولى، فإن اليهود لا يصفون موسى بالسحر إنما يصفه بذلك كفار قريش وأمثالهم، إلا أن يراد من أنكر نبوة موسى كفرعون وقومه، فإنهم وصفوا موسى وهرون بالسحر. ولكنهم ليسوا من اليهود. ويمكن أن يكون الضمير لمن كفر بموسى، ومن كفر بمحمد، فإن الذين كفروا بموسى وصفوه بالسحر، والذين كفروا بمحمد وصفوه أيضاً بالسحر. وقيل: المعنى: أولم يكفر اليهود في عصر محمد بما لوأتي موسى من قبله بالبطارة بعيسى ومحمد. قرأ الجمهور (ساحران)، وقرأ الكوفيون (سحران) يعنون: التوراة، والقرآن، وقيل: الإنجيل، والقرآن. قال بالأول الفراء، وقال بالثاني أبو زيد. وقيل: إن الضمير في **﴿أولم يكفروا﴾** لليهود، وأنهم عنوا بقولهم: «ساحران، عيسى، ومحمد» **﴿وقالوا إنا بكل كافرون﴾** أي: بكل من موسى، ومحمد، أو من موسى، وهرون، أو من موسى، وعيسى على اختلاف الأقوال، وهذا على قراءة الجمهور، ولما على القراءة الثانية فالمراد التوراة، والقرآن، أو الإنجيل، والقرآن. وفي هذه الجملة تقرير لما تقدمها من وصف النبيين بالسحر. أو من وصف الكتابين به، وتأكيد لذلك. ثم أمر الله سبحانه نبيه أن يقول لهم قولاً يظهر به عجزهم، فقال **﴿قل فاتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما تتبعه﴾** أي: قل لهم يا محمد: فاتوا بكتاب هو أهدى من التوراة، والقرآن، وأتبعه جواب الأمر، وقد جزمه جمهور القراء لذلك. وقرأ زيد بن علي برفع **﴿تبعه﴾** على الاستئناف أي: فانا أتبعه. قال الفراء: إنه على هذه القراءة صفة للكتاب، وفي هذا الكلام تهكم به. وفيه أيضاً دليل على أن قراءة الكوفيين أقوى من قراءة الجمهور؛ لأنه رجح الكلام إلى الكتابين لا إلى الرسولين، ومعنى **﴿إن كنتم صائقين﴾**: إن كنتم فيما وصفتم به الرسولين، أو الكتابين صائقين **﴿فإن لم يستجيبوا لك﴾** أي: لم يفعلوا ما كلفتهم به من الإتيان بكتاب هو أهدى من الكتابين، وجواب الشرط **﴿فاعلم أنما يتبعون أهواءهم﴾** أي: آراءهم الزائفة، واستحساناتهم الزائفة بلا حجة، ولا برهان، وقيل: المعنى: فإن لم يستجيبوا لك بالإيمان بما جئت به، وتعدية يستجيبوا باللام هو أحد الجائزين **﴿ومن أضل ممن تتبع هواه بغير هدى من الله﴾** أي: لا أحد أضل منه، بل هو الفرد الكامل في الضلال **﴿إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾** لأنفسهم بالكفر، وتكذيب الأنبياء، والإعراض عن آيات الله **﴿ولقد وصلنا لهم**

القول ﴿قرأ الجمهور﴾ (وصلنا) بتشديد الصاد، وقرأ الحسن بتخفيفها، ومعنى الآية: اتبعنا بعضه بعضاً، وبعثنا رسولا بعد رسول. وقال أبو عبيدة، والأخفش: معناه: أتممنا. وقال ابن عيينة، والسدي، بينا. وقال ابن زيد: وصلنا لهم خير الدنيا بخير الآخرة حتى كأنهم عاينوا الآخرة في الدنيا، والأولى أولى، وهو مأخوذ من وصل الحبال بعضها ببعض، ومنه قول الشاعر:

قل لبني مروان ما بال نمتي بحبل ضعيف لا تزال توصل
وقال امرؤ القيس:

يقلب كفيه بخيط موصل

والضمير في «لهم» عائد إلى قريش، وقيل: إلى اليهود، وقيل: للجميع **﴿لعلهم يتذكرون﴾** فيكون التذكير سبباً لإيمانهم مخافة أن ينزل بهم ما نزل بمن قبلهم **﴿الذين آتيناهم الكتاب من قبله﴾** أي: من قبل القرآن، والموصول مبتدأ، وخبره **﴿هم به يؤمنون﴾** أخبر سبحانه أن طائفة من بني إسرائيل آمنوا بالقرآن كعبد الله بن سلام، وسائر من أسلم من أهل الكتاب، وقيل: الضمير في **﴿من قبله﴾** يرجع إلى محمد ﷺ، والأول أولى. والضمير في «به» راجع إلى القرآن على القول الأول، وإلى محمد على القول الثاني **﴿وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به﴾** أي: وإذا يتلى القرآن عليهم قالوا: صدقنا به **﴿إنه الحق من ربنا﴾** أي: الحق الذي نعرفه المنزل من ربنا **﴿إننا كنا من قبله مسلمين﴾** أي: مخلصين لله بالتوحيد، أو مؤمنين بمحمد، وبما جاء به لما تعلمه من نكره في التوراة، والإنجيل من التبشير به، وأنه سيبعث آخر الزمان، وينزل عليه القرآن، والإشارة بقوله: **﴿أولئك يؤتون أجرهم مرتين﴾** إلى الموصوفين بتلك الصفات، والباء في **﴿بما صبروا﴾** للسببية أي: بسبب صبرهم، وثباتهم على الإيمان بالكتاب الأول، والكتاب الآخر، وبالنبي الأول، والنبي الآخر **﴿ويدعرون بالحسنة السيئة﴾** النداء النفع أي: يدفعون بالاحتمال، والكلام الحسن ما يلاقونه من الأدنى. وقيل: يدفعون بالطاعة المعصية، وقيل: بالتوبة، والاستغفار من الذنوب، وقيل: بشهادة أن لا إله إلا الله الشرك **﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾** أي: ينفقون أموالهم في الطاعات، وفيما أمر به الشرع. ثم مدحهم سبحانه بإعراضهم عن اللغو، فقال: **﴿وإذا سمعوا اللغو اعرضوا عنه﴾** تركوا، وتركوا، وتأنبوا بأدب الشرع، ومثله قوله سبحانه: **﴿وإذا مرؤا باللغو مرؤا كراماً﴾** [الفرقان: 172]، واللغو هنا هو ما يسمعون من المشركين من الشتم لهم ولدينهم، والاستهزاء بهم **﴿وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم﴾** لا يلحقنا من ضرر كفرهم شيء، ولا يلحقكم من نفع إيماننا شيء **﴿سلام عليكم﴾** ليس المراد بهذا السلام سلام التحية، ولكن المراد به سلام التاركة، ومعناه: أمنة لكم منا، وسلامة لا نجاريكم، ولا نجاريكم فيما أنتم فيه. قال الزجاج: وهذا قبل الأمر بالقتال **﴿لا نبتغي للجاهلين﴾** أي: لا نطلب صحبتهم. وقال مقاتل: لا نريد أن نكون من أهل

الجهل والسفه. وقال الكلبي: لا نحب دينكم الذي أنتم عليه **﴿إنك لا تهدي من أحببت﴾** من الناس، وليس ذلك إليك **﴿ولكن الله يهدي من يشاء﴾** هدايته **﴿وهو أعلم بالمهتدين﴾** أي: القابلين للهداية المستعنيين لها، وهذه الآية نزلت في أبي طالب كما ثبت في الصحيحين، وغيرهما، وقد تقدم ذلك في براءة. قال الزجاج: أجمع المفسرون على أنها نزلت في أبي طالب، وقد تقرر في الأصول: أن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فيدخل في ذلك أبو طالب دخولا أولاً **﴿وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا﴾** أي: قال مشركو قريش، ومن تابعهم: إن ندخل في دينك يا محمد نتخطف من أرضنا أي: يتخطفنا العرب من أرضنا يعنيون: مكة، ولا طاقة لنا بهم، وهذا من جملة أعارهم الباطلة، وتعلاتهم العاطلة، والتخطف في الأصل هو الانتزاع بسرعة. قرأ الجمهور (نتخطف) بالجزم جواباً للشرط، وقرأ المنقري برفع على الاستئناف. ثم رد الله ذلك عليهم رداً مصتراً باستفهام التوبيخ، والتقريع، فقال **﴿أولم نعمن لهم حرماً آمناً﴾** أي: ألم نجعل لهم حرماً ذا أمن. قال أبو البقاء: عداه بنفسه؛ لأنه بمعنى جعل لهم حرماً بذلك في قوله: **﴿أولم يروا أننا جعلنا حرماً﴾** [العنكبوت: 67]، ثم وصف هذا الحرم بقوله **﴿يجبى إليه ثمرات كل شيء﴾** أي: تجمع إليه الثمرات على اختلاف أنواعها من الأراضي المختلفة، وتحمل إليه. قرأ الجمهور (يجبى) بالتحنية اعتباراً بتذكير كل شيء، ووجود الحائل بين الفعل، وبين ثمرات، وأيضاً ليس تأنيث ثمرات بحقيقي، واختار قراءة الجمهور أبو عبيد لما نكرنا، وقرأ نافع بالفوقية اعتباراً بثمرات. وقرأ الجمهور أيضاً (ثمرات) بفتحتين، وقرأ (إبان) بضميتين، جمع ثمر بضميتين، وقرئ بفتح الثاء، وسكون الميم **﴿ورزقاً من لنا﴾** منتصب على المصدرية؛ لأن معنى **﴿يجبى﴾**: نرزقهم، ويجوز أن ينتصب على أنه مفعول له لفعل محذوف أي: نسوقه إليهم رزقاً من لنا، ويجوز أن ينتصب على الحال أي: رازقين **﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾** لفرط جهلهم، ومزيد غفلتهم، وعدم تفكيرهم في أمر معادهم ورشادهم، لكونهم ممن طبع الله على قلبه، وجعل على بصره غشاوة.

وقد أخرج الفريابي، والنسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مروي، وأبو نعيم، والبيهقي معاً في الدلائل عن أبي هريرة في قوله **﴿وما كنت بجانب الطور إذ نادينا﴾** قال: نودوا يا أمة محمد أعطيتكم قبل أن تسألوني، واستجبت لكم قبل أن تدعوني. وأخرجه ابن مروي عن وجه آخر عن أبي هريرة مرفوعاً. وأخرجه عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن عساكر عنه من وجه آخر بنحوه. وأخرج ابن مروي، وأبو نعيم في الدلائل، وأبو نصر السجزي في الإبانة، والديلمي عن عمرو بن عيسى قال: «سألت النبي ﷺ عن قوله **﴿وما كنت بجانب الطور إذ نادينا﴾** ما كان النداء، وما كانت الرحمة؟ قال: كتبه الله قبل

إِلَّا وَأَعْلَاهَا عَلِيمُونَ ﴿١٥﴾ وَمَا أُرْسِيَتْ مِنْ تَحْتِهِ فَتَنَعَ الْحَيَوَى الدُّنْيَا وَرَبَّنْهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ آمَنَ وَعَدْنَاهُ وَعَدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَنَعْنَاهُ مَنَعَ الْحَيَوَى الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿١٧﴾ وَيَوْمَ يُبَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿١٨﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَشْعُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٢٠﴾ وَيَوْمَ يُبَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ فَمِيتَ عَلَيْهِمْ أَلْيَسَاءَ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَسَوْفَ أُنْزِلُ إِلَيْهِ مِنَ الْمُغْثِينَ ﴿٢٣﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٤﴾ وَرَبُّكَ يَقْدِرُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْخِصْمَةُ الْأُولَى وَالْآخِرَةُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الرَّحِيمُ ﴿٢٦﴾

قوله ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ﴾ أي: من أهل قرية كانوا في خفض عيش، ودعة، ورخاء، فوقع منهم البطر، فاهلكوا. قال الزجاج: البطر الطغيان عند النعمة. قال عطاء: عاشوا في البطر فلكلوا رزق الله، وعبدوا الأصنام. قال الزجاج، والمازني: معنى ﴿بَطَرَتْ مَعِيشَتُهَا﴾ بطرت في معيشتها، فلما حذفت «في» تعدى الفعل كقوله: ﴿وَأَخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ﴾ [الأعراف: 155] وقال الفراء: هو منصوب على التفسير كما تقول: أبطرك مالك، وبطرت، ونظيره عنده قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: 130] ونصب المعارف على التمييز غير جائز عند البصريين، لأن معنى التفسير: أن تكون النكرة دالة على الجنس. وقيل: إن معيشتها منصوبة ببطرت على تضمينه معنى جهلت ﴿فَقَتْلِكَ مَسَاكِنَهُمْ لَمْ تَسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: لم يسكنها أحد بعدهم إلا زمنًا قليلًا، كالذي يمر بها مسافرًا فإنه يلبث فيها يومًا أو بعض يوم، أو لم يبق من يسكنها فيها إلا أيامًا قليلة لشؤم ما وقع فيها من معاصيهم. وقيل: إن الاستثناء يرجع إلى المساكين أي: لم تسكن بعد هلاك أهلها إلا قليلًا من المساكين، وأكثرها خراب، كذا قال الفراء، وهو قول ضعيف ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ منهم لأنهم لم يتركوا وراثًا يرث منازلهم، وأموالهم، ومحل جملة ﴿لَمْ تَسْكَنْ﴾ الرفع على أنها خبر ثان لاسم الإشارة، ويجوز أن تكون في محل نصب على الحال ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مَهْلِكُ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يُلْقُوا عَلَيْهِمْ أَنْبَاءَنَا﴾ أي: وما صح، ولا استقام أن يكون الله مهلك القرى الكافرة: أي: الكافر أهلها حتى يبعث في أممها رسولاً ينذرهم، ويتلو عليهم آيات الله الناطقة بما أوجب الله عليهم، وما أعده من الثواب للطيع، والعقاب للعاصي، ومعنى ﴿أُمَمٍ﴾: أكبرها، وأعظمها، وخص الأعظم منها بالبعثة إليها، لأن فيها أشراف القوم، وأهل الفهم، والرأي، وفيها الملوك والأكابر، فصارت بهذا الاعتبار كالأم لما حولها من القرى. وقال الحسن: أم القرى أولها. وقيل: المراد بأم القرى هنا مكة، كما في قوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ

أُنْخِلَ خَلْقَهُ بِالْفِي عَامٍ، ثُمَّ وَضَعَهُ عَلَى عَرْشِهِ، ثُمَّ نَادَى: يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي، أَعْطَيْتُكُمْ قَبْلَ أَنْ تَسْأَلُونِي، وَغَفَرْتُ لَكُمْ قَبْلَ أَنْ تَسْتَغْفِرُونِي، فَمَنْ لَقِينِي مِنْكُمْ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدِي وَرَسُولِي صَادِقًا، أَخْلَعْتُ الْجَنَّةَ. وَأَخْرَجَ الْخَلْفِي فِي الدِّيَارِ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ مَرْفُوعًا مِثْلَهُ. وَأَخْرَجَ ابْنُ مَرْبُوءٍ، وَابْنُ نَعِيمٍ عَنْ حَزِيفَةَ فِي قَوْلِهِ ﴿وَمَا كُنْتُ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَاقِمُنَا﴾ مَرْفُوعًا، قَالَ: «نُودُوا يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ مَا دَعَوْتُمُونَا إِذْ اسْتَجَبْنَا لَكُمْ، وَلَا سَأَلْتُمُونَا إِذْ أَعْطَيْنَاكُمْ». وَأَخْرَجَ ابْنُ مَرْبُوءٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مَرْفُوعًا: «إِنَّ اللَّهَ نَادَى: يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ أَجِيبُوا رَبِّكُمْ، قَالَ: فَأَجَابُوا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ، وَارْحَامِ أُمَّهَاتِهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَقَالُوا: لَبِيكَ أَنْتَ رَبَّنَا حَقًّا، وَنَحْنُ عِبِيدُكَ حَقًّا، قَالَ: صَلَقْتُمْ أَنَا رَبِّكُمْ، وَأَنْتُمْ عِبِيدِي حَقًّا، قَدْ غَفَرْتُ عَنْكُمْ قَبْلَ أَنْ تَدْعُونِي، وَأَعْطَيْتُكُمْ قَبْلَ أَنْ تَسْأَلُونِي، فَمَنْ لَقِينِي مِنْكُمْ بِشَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ نَخِلُ الْجَنَّةَ». وَأَخْرَجَ ابْنُ مَرْبُوءٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْمَالِكُ فِي الْفِتْرَةِ يَقُولُ: رَبِّ لَمْ يَأْتِنِي كِتَابٌ، وَلَا رَسُولٌ، ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ الْآيَةَ. وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَابْنُ مَرْبُوءٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّا بِكُلِّ كَافِرٍ نَظَاهِرٌ﴾. يَعْنِي: بِالْكَتَابَيْنِ: التَّوْرَةِ، وَالْفُرْقَانِ. وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ، وَابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ الْمُنْذِرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَابْنُ الْقَاسِمِ الْبَغَوِيُّ، وَابْنُ وَرْدٍ، وَابْنُ قَانِعٍ الثَّلَاثَةُ فِي مَعْجَمِ الصَّحَابَةِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَابْنُ مَرْبُوءٍ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ عَنْ رِفَاعَةَ الْقُرْظِيِّ قَالَ: نَزَلَتْ ﴿وَلَقَدْ وَصَلْنَا لَهُمْ لِلْقَوْلِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لَوْلَا يَتُوتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ فِي عَشْرَةِ رَهْطٍ أَنَا أَحَدُهُمْ. وَأَخْرَجَ ابْنُ مَرْبُوءٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ قَالَ: يَعْنِي: مَنْ آمَنَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ. وَأَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ، وَمُسْلِمٌ، وَغَيْرُهُمَا عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلَاثَةٌ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِالْكِتَابِ الْأَوَّلِ، وَالْآخِرِ، وَرَجُلٌ كَانَتْ لَهُ أُمَّةٌ، فَأَتَاهَا، فَاحْسَنَ تَانِيَهَا، ثُمَّ اعْتَقَهَا، وَتَزَوَّجَهَا، وَعِيدَ مُلُوكَ أَحْسَنَ عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَنَصَحَ لِسَيِّدِهِ». وَأَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ، وَمُسْلِمٌ، وَغَيْرُهُمَا مِنْ حَدِيثِ الْمَسِيْبِ، وَمُسْلِمٌ، وَغَيْرُهُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ نَزَلَتْ فِي أَبِي طَالِبٍ لَمَّا امْتَنَعَ مِنَ الْإِسْلَامِ. وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَابْنُ مَرْبُوءٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ نَاسًا مِنْ قُرَيْشٍ قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ: «إِنْ نَتَّبَعُكَ يَتَخَفَتُنَا النَّاسُ»، فَنَزَلَتْ ﴿وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ الْآيَةَ. وَأَخْرَجَ عَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ، وَابْنُ الْمُنْذِرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْهُ ﴿يَجِبُ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ قَالَ: ثَمَرَاتُ الْأَرْضِ.

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَبَلَكَ مَسْكَنُهُمْ لَمْ تَسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكَفَّا عَنْ الْوَارِثِينَ ﴿٢٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مَهْلِكُ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يُلْقُوا عَلَيْهِمْ أَنْبَاءَنَا وَمَا كُنَّا مَهْلِكُ الْقُرَى

القول أي: حقت عليهم كلمة العذاب، وهم رؤساء الضلال الذين اتخذوهم أرباباً من دون الله، كذا قال الكلبي. وقال قتادة: هم الشياطين **﴿ربنا هؤلاء الذين أغويانا﴾** أي: دعوناهم إلى الغواية يعنون: الاتباع **﴿أغويناهم كما غوينا﴾** أي: أضللناهم كما ضللنا **﴿تبرأنا إليك﴾** منهم، والمعنى: أن رؤساء الضلال، أو الشياطين تبرؤوا ممن أطاعهم. قال الزجاج: برئ بعضهم من بعض، وصاروا أعداء كما قال الله تعالى: **﴿الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو﴾** [الزخرف: 67] وهؤلاء مبتدأ، والذين أغويانا صفة، والعائد محذوف أي: أغويناهم، والخبر أغويناهم، وكما أغويانا نعت مصدر محذوف. وقيل: إن خبر هؤلاء هو الذين أغويانا، وأما أغويناهم كما غوينا فكلام مستأنف لتقرير ما قبله، ورجح هذا أبو علي الفارسي، واعترض الوجه الأول، وردّ اعتراضه أبو البقاء **﴿ما كانوا إيانا يعبدون﴾** وإنما كانوا يعبدون أهواءهم، وقيل: إن «ما» في ما كانوا مصدريه أي: تبرأنا إليك من عبادتهم إيانا، والأول أولى **﴿وقيل ادعوا شركاءكم﴾** أي: قيل للكفار من بني آدم هذا القول، والمعنى: استغيثوا باللهتم التي كنتم تعبدونهم من دون الله في الدنيا؛ لينصروكم، ويفغوا عنكم **﴿فدعوه﴾** عند ذلك **﴿فلم يستجيبوا لهم﴾** ولا نفعوهم بوجه من وجه النفع **﴿ورأوا العذاب﴾** أي: التابع، والمتبوع قد غشيهم **﴿لو أنهم كانوا يهتدون﴾** قال الزجاج: جواب لو محذوف، والمعنى: لو أنهم كانوا يهتدون لأنجاهم ذلك، ولم يروا العذاب، وقيل: المعنى: لو أنهم كانوا يهتدون ما دعوهم، وقيل: المعنى: لو أنهم كانوا يهتدون في الدنيا لعلموا أن العذاب حق. وقيل: المعنى: لو كانوا يهتدون لوجه من وجه الحيل لدفعوا به العذاب. وقيل: قد أن لهم أن يهتدوا لو كانوا يهتدون، وقيل: غير ذلك. والأول أولى، ويوم في قوله **﴿ويوم ينالنيهم فيقول ماذا لجيتكم المرسلين﴾** معطوف على ما قبله أي: ما كان جوابكم لمن أرسل إليكم من النبيين لما بلغوكم رسالاتي **﴿فعصيت عليهم الأنبياء يومئذ﴾** أي: خفيت عليهم الحجج حتى صاروا كالعمي الذين لا يهتدون، والأصل فعموا عن الأنبياء، ولكنه عكس الكلام للمبالغة، والأنبياء الأخبار، وإنما سمى حججهم أخباراً؛ لأنها لم تكن من الحجج في شيء، وإنما هي أقاصيص، وحكايات **﴿فهم لا يتساءلون﴾** لا يسأل بعضهم بعضاً، ولا ينطقون بحجة، ولا يدرون بما يجيبون، لأن الله قد أعذر إليهم في الدنيا فلا يكون لهم عذر، ولا حجة يوم القيامة. قرأ الجمهور (عصيت) بفتح العين، وتخفيف الميم. وقرأ الأعمش، وجناح بن حبيش بضم العين وتشديد الميم **﴿فأما من تاب وأمن وعمل صالحاً فعسى أن يكون من المفّلحين﴾** أن تاب من الشرك، وصنّق بما جاء به الرسل، وأدّى الفرائض، واجتنب المعاصي فعسى أن يكون من المفّلحين أي: الفائزين بمطالبهم من سعادة الدارين، وعسى وإن كانت في الأصل للرجاء فهو من الله واجب على ما هو عادة الكرام. وقيل: إن الترجي هو من التائب المذكور لا من

وضع للناس **﴿آل عمران: 96﴾** الآية، وقد تقدّم بيان ما تضمنته هذه الآية في آخر سورة يوسف، وجملة **﴿يتلوا عليهم آياتنا﴾** في محل نصب على الحال أي: تالياً عليهم، ومخبراً لهم أن العذاب سينزل بهم إن لم يؤمنوا **﴿وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون﴾** هذه الجملة معطوفة على الجملة التي قبلها، والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال أي: وما كنا مهلكين لأهل القرى بعد أن نبعث إلى أمها رسولا يدعوهم إلى الحق إلا حال كونهم ظالمين قد استحقوا الإهلاك لإصرارهم على الكفر بعد الإعذار إليهم، وتأكيد الحجة عليهم كما في قوله سبحانه: **﴿وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون﴾** [هود: 117]، ثم قال سبحانه **﴿وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها﴾** الخطاب لكفار مكة أي: وما أعطيتم من شيء من الأشياء فهو متاع الحياة الدنيا تتمتعون به مدة حياتكم، أو بعض حياتكم، ثم تزولون عنه، أو يزول عنكم، وعلى كل حال فذلك إلى فناء، وانقضاء **﴿وما عند الله﴾** من ثوابه، وجزائه **﴿خير﴾** من تلك الزائل الفاني؛ لأنه لذة خالصة عن شوب الكدر **﴿وابقي﴾** لأنه يوم أبداً، وهذا ينقضي بسرعة **﴿أفلا تعقلون﴾** أن الباقي أفضل من الفاني، وما فيه لذة خالصة غير مشوبة أفضل من اللذات المشوبة بالكدر المنغصة بعوارض البلى، والقلب، وقرئ بنصب (متاع) على المصدرية أي: فتمتعون متاع الحياة، قرأ أبو عمرو (يعقلون) بالتحية، وقرأ الباقون بالفوقية على الخطاب، وقراءتهم أرجح لقوله **﴿وما أوتيتم﴾**. **﴿أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقية﴾** أي: وعدناه بالجنة، وما فيها من النعم التي لا تحصى فهو لاقية أي: مدركه لا محالة فإن الله لا يخلف الميعاد **﴿كمن متعناه متاع الحياة الدنيا﴾** فأعطي منها بعض ما أراد مع سرعة زواله، وتنغيصه **﴿ثم هو يوم القيامة من المحضرين﴾** هذا معطوف على قوله: **﴿متعناه﴾** داخل معه في حيز الصلة مؤكداً لإنكار التشابه، ومقرر له، والمعنى: ثم هذا الذي متعناه هو يوم القيامة من المحضرين النار، وتخصيص المحضرين بالذين أحضروا للعذاب اقتضاه المقام، والاستفهام للإنكار أي: ليس حالهما سواء، فإن الموعود بالجنة لا بد أن يظفر بما وعد به مع أنه لا يفوته نصيبه من الدنيا، وهذا حال المؤمن. وأما حال الكافر فإنه لم يكن معه إلا مجرد التمتع بشيء من الدنيا يستوي فيه هو والمؤمن، وينال كل واحد منهما حظه منه، وهو صائر إلى النار، فهل يستويان؟ قرأ الجمهور (ثم هو) بضم الهاء، وقرأ الكسائي، وقالون بسكون الهاء إجراء لثم مجرى الواو، والفاء، وانتصاب «يوم» في قوله **﴿ويوم ينالنيهم﴾** بالعطف على يوم القيامة، أو بإضمار أنكر أي: يوم ينادي الله سبحانه هؤلاء المشركين **﴿فيقول﴾** لهم **﴿إني شركائي الذين كنتم تزعمون﴾** أنهم ينصرونكم، ويشفعون لكم، ومفعولاً يزعمون محذوفان أي: تزعمونهم شركائي لدلالة الكلام عليهما **﴿قال الذين حقّ عليهم**

ما كانوا، وأعطش ما كانوا، وأعزى ما كانوا، فمن أطعم له عزَّ وجلَّ أطعمه الله، ومن كسا الله عزَّ وجلَّ كساه الله، ومن سقى الله عزَّ وجلَّ سقاه الله، ومن كان في رضا الله كان الله على رضاه. وخرج القرطبي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد **(فعميت عليهم الأنبياء)** قال: الحجج **(فهم لا يتساءلون)** قال: بالأنساب. وقد ثبت عنه ﷺ في الصحيح تعليم الاستخارة، وكيفية صلاتها، ودعائها، فلا تطول بذكره.

قُلْ أُوْهِدَتْ لِيْ جَسَدٌ اِلٰهٌ مَّطْبُوعٌ اَيْلَ سَرْمَدٍ اِلَّا يَوْمَ الْقِيٰمَةِ مَنَ اِلٰهٌ عَزَّ
 اَلَّهُ بِأَيْكُمْ بِضَبِّهِ اَفَلَا تَسْمَعُوْنَ ﴿١٦﴾ قُلْ اُوْهِدَتْ لِيْ جَسَدٌ اِلٰهٌ
 مَّطْبُوعٌ اَلْهَارَ مَكْرَمًا اِلَّا يَوْمَ الْقِيٰمَةِ مَنَ اِلٰهٌ عَزَّ اَلَّهُ بِأَيْكُمْ بِضَبِّهِ
 تَسْكُوْنَ يٰٓاَفَلَا تَعْبُرُوْنَ ﴿١٧﴾ وَمَن زَعَمَ جَسَدٌ لِّكَ اَيْلَ وَالْهَارَ
 اَتَسْكُوْنَ فِيْهِ وَلِيْسَتُوْا مِنْ فَنَائِهِ وَلَكِنَّهُ تَكْفُوْرٌ ﴿١٨﴾ يَوْمَ يَبْدُوْهُمْ
 اَنَّهُمْ شُرَكَاءُ الْاَيْلِ كَثُوْرٌ وَرَعُوْمٌ ﴿١٩﴾ وَزَعَمَ مِنْ كُلِّ اَمْرٍ مَّهِدًا
 فَنَقَلْنَا مَاوًا بِرَمْنِكُمْ فَمَلِكُوْا اَنَ الْحَقُّ لِلّٰهِ وَرَحِلَ مِنْهُمْ مَا كَانُوْا يَفْعَلُوْنَ
 ﴿٢٠﴾ اِنَّ قُرْءَانَ كَانَ مِنْ قَوْمٍ مُّؤْمِنٍ بَقِيَّتِهِمْ وَآيَاتِهِ مِنْ الْكُفُوْرِ مَا
 اِلَّا مَقَاصِفٌ لِّسَوَا بِالْمُصْبَةِ اَوَّلِي الْقُوَّةِ اِذْ قَالَ لَمْ يُوْمَرْ اَنْ تَقْرَأَ اِنَّ اِلٰهَ لَا يَهْدُ
 الشَّرِيْعِيْنَ ﴿٢١﴾ وَابْتَغِ فِيمَا اٰتٰكَ اَللّٰهُ الْاٰخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيْبَكَ
 مِنَ الْاٰثِمٰتِ وَرَاسِمٍ كَمَا اَحْسَنَ اَللّٰهُ اِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْاَرْضِ
 اِنَّ اِلٰهَ لَا يَهْدُ الْمُتَّبِعِيْنَ ﴿٢٢﴾ قَالَ اِنَّمَا اُوْهِدْتُ عَلٰى رَجُلٍ عِيْشَ اَوَّلٍ يَلْمُ اَنَ
 اَللّٰهُ مَا اَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُوْنِ مَنَ هُوَ اَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَكَثَرٌ جَمًا وَلَا
 يَسْتَلْ مِنْ دُوْنِهِمْ الْمُجْرِمُوْنَ ﴿٢٣﴾ فَفَرَّجَ عَلٰى قَوْمِهِ فِي رَجِيْعِهِ قَالَ اَلَيْلِكَ
 يُرِيْدُوْنَ الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا يَبْتَغِيْ لَهَا رِثًا مَّا اُرُوْكَ قُرْءَانُهُ اِنَّمَا لَدُوْ حَقُّ
 عَظِيْمٍ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ اَلَيْلِكَ اَوَّلُوْا اِلَاجًا وَلَكُمْ قَوْلًا اِلٰهٌ عَزَّ لِمَنَ اَمَرَ
 وَتَعْمَلُ صَالِحًا وَلَا يُلْقِيْهَا اِلَّا الْمُصْبِرُوْنَ ﴿٢٥﴾ فَسَنَنَّا بِهٖ وَيَدَايِهِ الْاَرْضَ
 فَمَا كَانَ لَمَنْ يَنْفَرُ يَضْرِبُوْهُ مِنْ دُوْنِ اَللّٰهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُتَّبِعِيْنَ ﴿٢٦﴾
 وَاصْبَحَ اَلَيْلِكَ تَتَوَّأ مَاكَرًا بِالْاَرْضِ يَغْلُوْنَ وَيَكَاكُ اَللّٰهُ يَسْطُلُ الزُّوْفَ
 لِمَنَ يَكْفُرُ مِنْ جَاوِدٍ وَتَقْدِرُ لَوْلَا اَنْ مَّنَ اَللّٰهُ عَلَيْنَا لَنَسَفَ بَنًا وَكَثَاكَةً لَا يَخْلُقُ
 الْكُفُوْرَ ﴿٢٧﴾ اِنَّكَ اَنْتَ الْاٰخِرَةُ بِجَسَدِهَا لَدَيْنَ لَا يُرِيْدُوْنَ مَلُوْا فِي الْاَرْضِ وَلَا
 سَنًا وَالْوَقِيَّةَ الْيَقِيْنَ ﴿٢٨﴾ مَنَ جَاءَ بِالْمُسُوْدَةِ فَلَمْ يَحْزِنْ بِهَا وَمَنَ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ
 فَلَا يَجْرِيْ اَلَيْلِكَ عَمَلُوْا السَّعٰتِ اِلَّا مَا كَانُوْا يَسْمَلُوْنَ ﴿٢٩﴾ اِنَّ اَللّٰهَ قَرَضَ
 عَلَيْنَا الْقُرْءَانَ لَرَادِّكَ اِلَ مَاوًا قُلْ يٰٓاَهْلُمَّ مَنَ جَاءَ بِالْحَقِّ وَالْحَقُّ وَمَنَ هُوَ فِي
 حَسْبِلٍ مُّبِيْنٍ ﴿٣٠﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَرْجُوْنَ اَنْ يَلْقٰ اِلَيْكَ الْكِتٰبُ اِلَّا رَحْمَةً مِنْ
 رَبِّكَ فَلَا تَكُوْنُ طَهْرًا لِلْكَافِرِيْنَ ﴿٣١﴾ وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ اٰيٰتِ اَللّٰهِ بَعْدَ اِذْ
 اُنْزِلَتْ اِلَيْكَ وَادْعَ اِلَ رَبِّكَ وَلَا تَكُوْنُ مِنَ الشَّرَكِيْنَ ﴿٣٢﴾ وَلَا تَتَّبِعْ مَعَ
 اَللّٰهِ اَلْمَآخِرَ لَا اِلٰهَ اِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ اِلَّا وَجْهَهُ لَهٗ اَلْمُلْكُ وَلَدٰوِيْهِ
 رُحْمٰوْنِ ﴿٣٣﴾

قوله ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ أي: لخبروني ﴿إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلُ سَرْمَدًا﴾ السرمد الدائم المستمر، من السرد، وهو

جَهة الله سبحانه ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي: يخلقه ﴿وَيَخْتَارُ﴾ ما يشاء أن يختاره ﴿لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: 23] وهذا متصل بذكر الشركاء الذين عيّنهم، واختاروهم أي: الاختيار إلى الله ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ أي: التخير، وقيل: المراد من الآية: أنه ليس لأحد من خلق الله أن يختار، بل الاختيار هو إلى الله عزّ وجلّ. وقيل: إن هذه الآية جواب عن قوله: ﴿لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْفَرِيقَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: 31] وقيل: هذه الآية جواب عن اليهود حيث قالوا: لو كان الرسول إلى محمد غير جبريل لأمنا به.

قال الزجاج: الوقف على «ويختار» تام على أن ما نافية. قال: ويجوز أن تكون «ما» في موضع نصب بيختار، والمعنى: ويختار الذي كان لهم فيه الخيرة. والصحيح الأول لإجماعهم على الوقف. وقال ابن جرير: إن تقدير الآية، يختار لولايته الخيرة من خلقه، وهذا في غلبة من الضعف. وجوز ابن عطية أن تكون «كان» تامة، ويكون لهم الخيرة جملة مستأنفة. وهذا أيضاً بعيد جداً. وقيل: إن «ما» مصدرية أي: يختار اختيارهم، والمصدر واقع موقع المفعول به أي: ويختار مختارهم، وهذا كالتفسير لكلام ابن جرير، والراجح أول هذه التفسيرات، ومثله قوله سبحانه: ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة﴾ [الأحزاب: 36] والخيرة التخير، كالطيرة فإنها التطير، اسمان يستعملان استعمال المصدر، ثم نزه سبحانه نفسه، فقال ﴿سبحان الله﴾ أي: تنزه تنزهاً خالصاً به من غير أن ينزاعه منازع، ويشاركه مشارك ﴿وتعالى عما يشركون﴾ أي: عن الذين يجعلونهم شركاء له، أو عن إشراكهم ﴿ووبك يعلم ما تكن صدورهم﴾ أي: تخفيه من الشرك، أو من عدواة رسول الله ﷺ، أو من جميع ما يخفونه مما يخالف الحق ﴿وما يعلمون﴾ أي: يظهره من ذلك، قرأ الجمهور (تكن) بضم التاء الفوقية، وكسر الكاف. وقرأ ابن محيصن، وحמיד بفتح الفوقية، وضم الكاف. ثم تمدح سبحانه وتعالى بالوحدانية، والتفرد باستحقاق الحمد، فقال ﴿وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى﴾ أي: للنسب «والآخرة» أي: الدار الآخرة ﴿وله الحكم﴾ يقضي بين عباده بما شاء من غير مشارك ﴿وليه ترجعون﴾ بالبعث، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، لا ترجعون إلى غيره.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وابن مريويه عن ابن عباس في قوله ﴿وَمَا كُنَّا بِمُهْلَكِي الْفَرَى إِلَّا وَاهِلَهَا ظَالِمُونَ﴾ قال: قال الله لم نهلك قرية بليمان، ولكنه أهلك القرى بظلم إذا ظلم أهلها، ولو كانت مكة أمنت لم يهلكوا مع من هلك، ولكنهم كذبوا، وظلموا فبئسك هلكوا. وأخرج مسلم، والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله عز وجل: يا ابن آدم مرضت فلم تعطني» الحديث بطوله. وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن عبد بن عبيد بن عمير قال: «يحشر الناس يوم القيامة لجور

المتابعة، فالميم زائدة، ومنه قول طرفة:

لعمرك ما أمرى عليك بغمة نهاري ولا ليلى عليك بسرمد
وقيل: إن ميمه أصلية، ووزنه فعل لا فعل، وهو الظاهر،
بيّن لهم سبحانه أنه مهّد لهم أسباب المعيشة؛ ليقوموا
بشكر النعمة، فإنه لو كان الدهر الذي يعيشون فيه ليلاً دائماً
إلى يوم القيامة لم يتمكنوا من الحركة فيه، وطلب ما لا بدّ
لهم منه مما يقوم به العيش من المطاعم، والمشارب،
والملابس، ثم امتنّ عليهم، فقال ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ
بِضِيَاءٍ﴾ أي: هل لكم إله من الآلهة التي تعبونها بقدر على
أن يرفع هذه الظلمة الدائمة عنكم بضياء أي: بنور تطلبون
فيه المعيشة، وتبصرون فيه ما تحتاجون إليه، وتصلح به
ثماركم، وتنمو عنده زرائعكم، وتعيش فيه بوابكم ﴿إفلا
تسمعون﴾ هذا الكلام سماع فهم وقبول، وتدبر وتفكر. ثم
لما فرغ من الامتنان عليهم بوجود النهار امتنّ عليهم بوجود
الليل، فقال ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمِداً
إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي: جعل جميع الدهر الذي تعيشون فيه
نهاراً إلى يوم القيامة ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ
تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ أي: تستقرون فيه من النصب، والتعب،
وتستريحون مما تزاولون من طلب المعاش، والكسب ﴿إفلا
تبصرون﴾ هذه المنفعة العظيمة إبصار متعظ متيقظ حتى
تنزجروا عما أنتم فيه من عبادة غير الله، وإذا أقروا بأنه لا
يقدر على ذلك إلا الله عزّ وجل فقد لزمتهم الحجة، وبطل ما
يتمسكون به من الشبه الساقطة، وإنما قرن سبحانه بالضياء
قوله ﴿إفلا تسمعون﴾ لأن السمع يدرك ما لا يدرك البصر
من درك منافعه، ووصف فوائده، وقرن بالليل قوله ﴿إفلا
تبصرون﴾ لأن البصر يدرك ما لا يدرك السمع من ذلك
﴿وَمَنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ أي:
في الليل ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: في النهار بالسعي
في المكاسب ﴿وَلِتُشْكِرُوا﴾ أي: ولكي تشكروا نعمة
الله عليكم، وهذه الآية من باب اللف، والنشر، كما في قول
امرئ القيس:

كلُّ قلوب الطير رطباً ولباساً لدى وكرها العناب والحشف البالي
واعلم أنه وإن كان السكون في النهار ممكناً، وطلب الرزق
في الليل ممكناً، وذلك عند طلوع القمر على الأرض، أو عند
الاستضاءة بشيء بما له نور كالسراج، لكن ذلك قليل نادر
مخالف لما يالغه العباد فلا اعتبار به ﴿وَيَوْمَ يَنَادِيهِمْ فَيَقُولُ
أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ كرّر سبحانه هذا
لاختلاف الحالتين؛ لأنهم ينادون مرة، فيدعون الأصنام،
وينادون أخرى، فيسكتون، وفي هذا التكرير أيضاً تقرير بعد
تقرير، وتوبيخ بعد توبيخ، وقوله ﴿وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ
شَهِيداً﴾ عطف على ينادي، وجاء بصيغة الماضي للدلالة
على التحقق، والمعنى: وأخرجنا من كل أمة من الأمم شهيداً
يشهد عليهم. قال مجاهد: هم الأنبياء، وقيل: عدول كل أمة،
والأول أولى. ومثله قوله سبحانه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ
أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً﴾ [النساء: 41] ثم

بين سبحانه ما يقوله لكل أمة من هذه الأمم بقوله ﴿فَقُلْنَا
هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أي: حجتكم، ولبليكم بأن معي شركاء،
فعند ذلك اعترفوا، وخرسوا عن إقامة البرهان، ولذا قال
﴿فَعْمَلُوا أَنْ لِحَقِّ اللَّهِ﴾ في الإلهية، وأنه وحده لا شريك له
﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: غاب عنهم وبطل،
وذهب ما كانوا يختلقونه من الكذب في الدنيا بأن الله شركاء
يستحقون العبادة. ثم عقب سبحانه حديث أهل الضلال
بقصة قارون لما اشتهلت عليه من بديع القدرة، وعجيب
الصنع، فقال ﴿إِنْ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾ قارون
على وزن فاعول اسم أعجمي ممتنع للعجمة، والعلمية،
وليس بعربي مشتق من قرنت. قال الزجاج: لو كان قارون
من قرنت الشيء لانصرف. قال النخعي، وقتادة، وغيرهما:
كان ابن عم موسى، وهو قارون بن يصهر بن قاهث بن
لاوي بن يعقوب، وموسى هو ابن عمران بن قاهث. وقال
ابن إسحاق: كان عم موسى لآب وام، فجعله أخا لعمران،
وهما ابنا قاهث. وقيل: هو ابن خالة موسى، ولم يكن في
بني إسرائيل اقرباً للتوراة منه، فنافق كما نافق السامري،
وخرج عن طاعة موسى، وهو معنى قوله: ﴿فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾
أي: جاوز الحد في التجبر والتكبر عليهم، وخرج عن طاعة
موسى، وكفر بالله. قال الضحاك: بغىه على بني إسرائيل
استخفافه بهم لكثرة ماله، ولده. وقال قتادة: بغى بنسبته
ما آتاه الله من المال إلى نفسه لعلمه، وحيلته. وقيل: كان
عاملاً لفرعون على بني إسرائيل، فتعدّى عليهم، وظلمهم،
وقيل: كان بغيه بخير ذلك مما لا يناسب معنى الآية
﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ﴾ جمع كنز، وهو المال المخزّر. قال
عطاء: أصاب كنزاً من كنوز يوسف. وقيل: كان يعمل
الكيمياء، وهما في قوله: ﴿هَذَا إِنْ مَفَاتِحُ﴾ موصولة صلتها
إِنَّ، وما في حيزها، ولهذا كسرت. ونقل الأخفش الصغير عن
الكوفيين منع جعل المكسورة، وما في حيزها صلة الذي،
واستقبح ذلك منهم لوروده في الكتاب العزيز في هذا
الموضع، والمفاتيح جمع مفتاح بالكسر، وهو ما يفتح به،
وقيل: المراد بالمفاتيح: الخزائن، فيكون ولحدها مفتاح بفتح
الميم. قال الواحدي: إن المفاتيح الخزائن في قول أكثر
المفسرين كقوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ [الأنعام: 59] قال:
وهو اختيار الزجاج، فإنه قال: الأشبه في التفسير أن مفاتيحه
خزائن ماله. وقال آخرون: هي جمع مفتاح، وهو ما يفتح به
الباب، وهذا قول قتادة، ومجاهد ﴿لِتَنُوتُوا بِالْعِصْبَةِ أُولَى
لِلْقُوَّةِ﴾ هذه الجملة خبر إن، وهي واسمها، وخبرها صلة ما
الموصولة، يقال: ناء بحمله: إذا نهض به مثقالاً، ويقال: ناء
بي الحمل: إذا أثقلني، والمعنى: يتقلهم حمل المفاتيح. قال أبو
عبيدة: هذا من المقلوب، والمعنى: لتنوء بها العصبة أي:
تنهض بها. قال أبو زيد: نؤت بالحمل: إذا نهضت به. قال
الشاعر:

إنّا وجئنا خلفاً بئس الخلف عبداً إذا ما ناء بالحمل وقف
وقال الفراء: معنى تنوء بالعصبة: تميلهم بثقلها كما يقال:

معرفة الكنوز، والدفائن، وقيل: علم الكيمياء، وقيل: المعنى: إن الله أتاني هذه الكنوز على علم منه باستحقاقي إياها لفضل علمه مني. واختار هذا الزجاج، وإنكر ما عداه. ثم ردَّ الله عليه قوله هذا، فقال ﴿أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشدَّ منه قوَّةً وأكثر جمعا﴾ المراد بالقرون الأمم الخالية، ومعنى أكثر جمعا: أكثر منه جمعا للمال، ولو كان المال، أو القوَّة يدلان على فضيلة لما أهلكهم الله. وقيل: القوَّة الآلات. والجمع الأعوان. وهذا الكلام خارج مخرج التقريع والتوبيخ لقارون، لأنه قد قرأ التوراة، وعلم علم القرون الأولى، وإهلاك الله سبحانه لهم ﴿ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون﴾ أي: لا يسألون سؤال استعتاب كما في قوله: ﴿ولا هم يستعتبون﴾ [النحل: 84، الروم: 57] ﴿وما هم من المعتبين﴾ [فصلت: 24] وإنما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ، كما في قوله: ﴿فوريك لنساءنهم إجمعين﴾ [الحجر: 92] وقال مجاهد: لا تسأل الملائكة غدا عن المجرمين؛ لأنهم يعرفون بسيماهم، فإنهم يحشرون سود الوجوه زرق العين. وقال قتادة: لا يسأل المجرمون عن ذنوبهم لظهورها، وكثرتها، بل يدخلون النار. وقيل: لا يسأل مجرمو هذه الأمة عن ذنوب الأمم الخالية ﴿فخرج على قومه في زينته﴾ الغاء للعطف على «قال»، وما بينهما اعتراض، و﴿في زينته﴾ متعلق بخرج، أو بمحذوف هو حال من فاعل خرج. وقد ذكر المفسرون في هذه الزينة التي خرج فيها روايات مختلفة، والمراد أنه خرج في زينة أنبهر لها من رآها، ولهذا تمنى الناظرون إليه أن يكون لهم مثله كما حكى الله عنهم بقوله: ﴿قال الذين يريدون الحياة الدنيا وزينتها﴾ يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم﴾ أي: نصيب وأقر من الدنيا. واختلف في هؤلاء القائلين بهذه المقالة، فقيل: هم من مؤمني ذلك الوقت، وقيل: هم قوم من الكفار ﴿وقال الذين أوتوا العلم﴾، وهم: أحبار بني إسرائيل قالوا للذين تمنوا ﴿ويلكم ثواب الله خير﴾ أي: ثواب الله في الآخرة خير مما تمنونه ﴿ولمن آمن وعمل صالحا﴾ فلا تمنوا عرض الدنيا الزائل الذي لا يدوم ﴿ولا يلقاها﴾ أي: هذه الكلمة التي تكلم بها الأحبار، وقيل: الضمير يعود إلى الأعمال الصالحة، وقيل: إلى الجنة ﴿إلا الصابرون﴾ على طاعة الله، والمصابرون أنفسهم عن الشهوات ﴿فخسفنا به وبداره الأرض﴾ يقال: خسف المكان يخسف خسفاً، ذهب في الأرض. وخسف به الأرض خسفاً: أي: غاب به فيها، والمعنى: أن الله سبحانه غيبه، وغيب داره في الأرض ﴿فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله﴾ أي: ما كان له جماعة يدفعون ذلك عنه ﴿وما كان﴾ هو في نفسه ﴿من المنتصرين﴾ من الممتنعين مما نزل به من الخسف ﴿وأصبح النذين تمنوا مكانه بالأمس﴾ أي: منذ زمان قريب ﴿يقولون ويكان الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر﴾ أي: يقول كل واحد منهم متنمنا على ما

يذهب بالبوُس، ويذهب البوُس، وذهبت به، وأذهبت، وجئت به، وأجأت، ونؤت به، وإنأته، واختار هذا النحس، وبه قال كثير من السلف. وقيل: هو مأخوذ من النأي، وهو البعد، وهو بعيد. وقرأ بديل بن ميسرة (لينوء) بالياء أي: لينوء الواحد منها، أو المذكور، فحمل على المعنى، والمراد بالعصبة الجماعة التي يتعصب بعضها لبعض. قيل: هي من الثلاثة إلى العشرة، وقيل: من العشرة إلى الخمسة عشر، وقيل: ما بين العشرة إلى العشرين، وقيل: من الخمسة إلى العشرة، وقيل: أربعون، وقيل: سبعون، وقيل: غير ذلك ﴿إذ قال له قومه لا تفرح﴾ الظرف منصوب بتنوء، وقيل: بآتيانه، وقيل: ببغى. وردَّهما أبو حبان بأن الإتياء، واليغى لم يكونا ذلك الوقت، وقال ابن جرير: هو متعلق بمحذوف، وهو أنكر، والمراد بقومه هنا: هم المؤمنون من بني إسرائيل. وقال الفراء: هو موسى، وهو جمع أريد به الولد، ومعنى لا تفرح: لا تبطر، ولا تاشر ﴿إن الله لا يحب الفرحين﴾ البطرين الأشرين الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم. قال الزجاج: المعنى: لا تفرح بالمال، فإن الفرح بالمال لا يؤدي حقه، وقيل: المعنى: لا تفسد كقول الشاعر: إذا أنت لم تبجح تؤذي أمانة وتحمل أخرى اقرحتك اللوائع أي: أقسدتك. قال الزجاج: الفرحين، والفارحين سواء. وقال الفراء: معنى الفرحين: الذين هم في حال الفرح، والفارحين الذين يفرحون في المستقبل. وقال مجاهد: معنى لا تفرح: لا تبغ إن الله لا يحب الفرحين الباغين. وقيل: معناه: لا تبخل إن الله لا يحب الباخلين ﴿وليتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة﴾ أي: واطلب فيما أعطاك الله من الأموال الدار الآخرة، فأنفقه فيما يرضاه الله لا في التجبر، واليغى. وقرئ (واتبع). ﴿ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾. قال جمهور المفسرين: وهو أن يعمل في دنياه لأخرفته، ونصيب الإنسان عمره، وعمله الصالح. قال الزجاج: معناه: لا تنس أن تعمل لأخرتك، لأن حقيقة نصيب الإنسان من الدنيا الذي يعمل به لأخرفته. وقال الحسن، وقتادة: معناه: لا تضع حظك من دنياك في تمتع بالحلال، وطلبك إياه، وهذا الصق بمعنى النظم القرآني ﴿ولحسن كما أحسن الله إليك﴾ أي: أحسن إلى عباد الله كما أحسن الله إليك بما أنعم به عليك من نعم الدنيا، وقيل: أطع الله، وعبده كما أنعم عليك، ويؤيده ما ثبت في الصحيحين، وغيرهما: «أن جبريل سأل رسول الله ﷺ عن الإحسان فقال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، ﴿ولا تبغ للفساد في الأرض﴾ أي: لا تعمل فيها بمعاصي الله ﴿إن الله لا يحب المفسدين﴾ في الأرض ﴿قال إنما أوتيته على علم عندي﴾ قال قارون هذه المقالة ردًا على من نصحه بما تقدَّم أي: إنما أعطيت ما أعطيت من المال لأجل علمي، فقوله: ﴿على علم﴾ في محل نصب على الحال، وعندي إما ظرف لأوتيته، وإما صلة للعلم، وهذا العلم الذي جعله سبباً لما ناله من الدنيا. قيل: هو علم التوراة، وقيل: علمه بوجوه المكاسب، والتجارا، وقيل:

فرط منه من التمني. قال النحاس: أحسن ما قيل في هذا ما قاله الخليل، وسيبويه، ويونس، والكسائي: أن القوم تنبهوا، فقالوا: وي. والمتنم من العرب يقول في خلال نومه: وي. قال الجوهري: وي كلمة تعجب، ويقال: ويك، وقد تنخل وي على كان المخففة، والمشبدة ويكان الله. قال الخليل: هي مفصولة تقول: وي، ثم تتبدئ، فيقول كان. وقال الفراء: هي كلمة تقرير كقولك: أما ترى صنع الله، وإحسانه، وقيل: هي كلمة تنبيه بمنزلة لا. وقال قطرب: إنما هو ويك، فأسقط لامه، ومنه قول عنترة:

ولقد شفا نفسي وأبرأ سقمها قول الفولرس ويك عنتر أقدم وقال ابن الأعرابي: معنى ﴿ويكان الله﴾: أعلم أن الله. وقال القتيبي: معناها بلغة حمير: رحمة، وقيل: هي بمعنى ألم تر. وروي عن الكسائي أنه قال: هي كلمة تجع ﴿لولا أن من الله علينا﴾ برحمته، وعصمنا من مثل ما كان عليه قارون من البطر، والبيغي، ولم يؤاخذنا بما وقع منا من ذلك التمني ﴿لخسف بنا﴾ كما خسف به. قرأ حفص (لخسف) مبنياً للفاعل، وقرأ الباقون مبنياً للمفعول ﴿ويكانه لا يفلح الكافرون﴾ أي: لا يفوزون مبنياً لمطلب من مطالبهم ﴿تلك الدار الآخرة﴾ أي: الجنة، والإشارة إليها لقصد التعظيم لها، والتفخيم لشأنها كأنه قال: تلك التي سمعت بخبرها، وبلغك شأنها ﴿نجعلها للذين لا يربون علواً في الأرض﴾ أي: رفعة، وتكبراً على المؤمنين ﴿ولا فساداً﴾ أي: عملاً بمعاصي الله سبحانه فيها، وذكر العلو، والفساد منكرين في حيز النفي يدل على شمولهما لكل ما يطلق عليه أنه علو، وإنه فساد من غير تخصيص بنوع خاص، أما الفساد فظاهر أنه لا يجوز شيء منه كائناً ما كان، وأما العلو فالممنوع منه ما كان على طريق التكبر على الغير، والتطاول على الناس، وليس منه طلب العلو في الحق، والرئاسة في الدين، ولا محبة اللباس الحسن، والمركوب الحسن، والمنزل الحسن ﴿من جاء بالحسنة فله خير منها﴾ وهو أن الله يجازيه بعشر أمثاله إلى سبعمائة ضعف ﴿ومن جاء بالسيئة فلا يجزى للذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون﴾ أي: إلا مثل ما كانوا يعملون، فنحن المضاف، وإقيم المضاف إليه مقامه، وقد تقدم بيان معنى هذه الآية في سورة النمل ﴿إن الذي فرض عليك القرآن﴾ قال المفسرون: أي: أنزل عليك القرآن. وقال الزجاج: فرض عليك العمل بما يوجبه القرآن، وتقدير الكلام: فرض عليك أحكام القرآن، وفرائضه ﴿لرائك إلى معاد﴾ قال جمهور المفسرين: أي: إلى مكة. وقال مجاهد، وعكرمة، والزهرى، والحسن: إنَّ المعنى: لرائك إلى يوم القيامة، وهو اختيار الزجاج، يقال: بيني وبينك المعاد أي: يوم القيامة، لأن الناس يعونون فيه أحياء. وقال أبو مالك، وأبو صالح: لرائك إلى معاد إلى الجنة. وبه قال أبو سعيد الخدري، وروي عن مجاهد. وقيل: ﴿إلى معاد﴾ إلى الموت ﴿قل ربي أعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين﴾ هذا جواب لكفار مكة لما قالوا للنبي ﷺ: إنك في

ضلال، والمراد من جاء بالهدى هو النبي ﷺ، ومن هو في ضلال مبين المشركين، والأولى حمل الآية على العموم، وأن الله سبحانه يعلم حال كل طائفة من هاتين الطائفتين، ويجازيها بما تستحقه من خير وشر ﴿وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب﴾ أي: ما كنت ترجو أن نرسلك إلى العباد، وننزل عليك القرآن. وقيل: ما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب بربك إلى معادك، والاستثناء في قوله ﴿إلا رحمة من ربك﴾ منقطع أي: لكن إلقاؤه عليك رحمة من ربك، ويجوز أن يكون متصلاً حملاً على المعنى، كأنه قيل: وما ألقى إليك الكتاب إلا لأجل الرحمة من ربك. والأول أولى، وبه جزم الكسائي والفراء ﴿فلا تكونن ظهيراً للكافرين﴾ أي: عوناً لهم، وفيه تعريض بغيره من الأمة. وقيل: المراد لا تكونن ظهيراً لهم بمداراتهم ﴿ولا يصننك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك﴾ أي: لا يصننك يا محمد الكافرون، وأقوالهم، وكذبهم، وأذاهم عن تلاوة آيات الله، والعمل بها بعد إذ أنزلها الله إليك، وفرضت عليك. قرأ الجمهور بفتح الياء، وضم الصاد من صده يصده. وقرأ عاصم⁽¹⁾ بضم الياء، وكسر الصاد، من أصده بمعنى صده ﴿وادمع إلى ربك﴾ أي: ادع الناس إلى الله، وإلى توحيده، والعمل بفرائضه، واجتناب معاصيه ﴿ولا تكونن من المشركين﴾ وفيه تعريض بغيره كما تقدم، لأنه لا يكون من المشركين بحال من الأحوال، وكذلك قوله ﴿ولا تدع مع الله شيئاً آخر﴾ فإنه تعريض لغيره. ثم وحد سبحانه نفسه، ووصفها بالبقاء والدوام، فقال ﴿لا إله إلا هو كل شيء﴾ من الأشياء كائناً ما كان ﴿هالك إلا وجهه﴾ أي: إلا ذاته. قال الزجاج: وجهه منصوب على الاستثناء، ولو كان في غير القرآن كان مرفوعاً بمعنى كل شيء غير وجهه هالك، كما قال الشاعر:

وكل أخ مفارقه أخوه لعمر أبليك إلا السفرقدان والمعنى كل أخ غير الفرقدين مفارقه أخوه ﴿له الحكم﴾ أي: القضاء النافذ يقضي بما شاء، ويحكم بما أراد ﴿وإليه ترجعون﴾ عند البعث؛ ليجزي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، لا إله غيره سبحانه وتعالى.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿سرمد﴾ قال: دائماً. وأخرج ابن أبي حاتم عنه ﴿ووضل عنهم﴾ يوم القيامة ﴿ما كانوا يفترون﴾ قال: يكذبون في الدنيا. وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مريويه عنه أيضاً ﴿إن قارون كان من قوم موسى﴾ قال: كان ابن عمه، وكان يتبع العلم حتى جمع علماً فلم يزل في أمره ذلك حتى بغى على موسى، وحسده، فقال له موسى: إن الله أمرني أن أخذ الزكاة، فأبى، فقال: إن موسى يريد أن ياكل أموالكم

(1) قوله (وقرأ عاصم إلخ) أي غير المشهور عنه اهـ مصحح القرآن.

جاءكم بالصلاة، وجاءكم بأشياء، فاحتلمتموها، فتحتملون أن تعطوه أموالكم؟ فقالوا: لا نحتمل فما ترى؟ فقال لهم: أرى أن أرسل إلى يحيى من بغايا بني إسرائيل، فنرسلها إليه، فترمي به لأنه أرادها على نفسها، فأرسلوا إليها، فقالوا لها: نعطيك حكمك على أن تشهدي على موسى أنه فجر بك، قالت: نعم، فجاء قارون إلى موسى فقال: اجمع بني إسرائيل فأخبرهم بما أمرك ربك، قال: نعم، فجمعهم فقالوا له: ما أمرك ربك؟ قال: أمرني أن تعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئاً، وأن تصلوا الرحم وكذا، وأمرني إذا زنا، وقد أحصن أن يرجم، قالوا: وإن كنت أنت. قال: نعم، قالوا: فإنك قد زنت. قال: أنا؟ فأرسلوا للمرأة فجاءت، فقالوا: ما تشهدين على موسى؟ فقال لها موسى: انشكك بالله إلا ما صدقت، قالت: أما إذا نشدتنني بالله فإنهم دعوني، وجعلوا لي جعلاً على أن أقنك بنفسي، وأنا أشهد أنك بريء، وأنت رسول الله، فخر موسى ساجداً بيكي، فأوحى الله إليه: ما يبيك؟ قد سلطتك على الأرض، فمرها فتطيعك، فرفع رأسه، فقال: خذنيهم، فأخذتهم إلى أعقابهم، فجعلوا يقولون: يا موسى يا موسى، فقال: خذنيهم، فأخذتهم إلى ركبهم، فجعلوا يقولون: يا موسى يا موسى، فقال: خذنيهم، فأخذتهم إلى أعناقهم، فجعلوا يقولون: يا موسى يا موسى، فقال: خذنيهم، فأخذتهم، فغشيتهم، فأوحى الله: يا موسى سالك عبادي، وتضرعوا إليك، فلم تجبهم، وعزتي لو أنهم دعوني لأجبتهم. قال ابن عباس: وذلك قوله ﴿فخسفنا به وبداره الأرض﴾ خسف به إلى الأرض السفلى. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن خيثمة قال: كانت مفاتيح كنوز قارون من جلود، كل مفتاح مثل الأصبع، كل مفتاح على خزانة على حدة، فإذا ركب حملت المفاتيح على سبعين بغلاً أغر محجل. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر عنه قال: وجدت في الإنجيل أن بغال مفاتيح خزائن قارون غر محجلة لا يزيد مفتاح منها على إصبع لكل مفتاح كنز. قلت: لم أجد في الإنجيل هذا الذي ذكره خيثمة. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿فلقنوا بالعصبة﴾ قال: تنقل. وأخرج ابن المنذر عنه قال: لا يرفعها العصبة من الرجال أولو القوة. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال: العصبة أربعون رجلاً. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله ﴿إن الله لا يحب الفرجين﴾ قال: المرحين، وفي قوله ﴿ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾ قال: أن تعمل فيها لأخرك. وأخرج ابن مردويه عن لؤس بن أوس الثقفي، عن النبي ﷺ في قوله ﴿فخرج على قومه في زينته﴾ في أربعة آلاف بغل. وقد روي عن جماعة من التابعين أقوال في بيان ما خرج به على قومه من الزينة، ولا يصح منها شيء مرفوعاً، بل هي من أخبار أهل الكتاب كما عرفناك غير مرة، ولا أدري كيف إسناد هذا الحديث الذي رفعه ابن مردويه، فمن ظفر بكتابه، فلينظر فيه. وأخرج الفريابي عن ابن عباس في قوله ﴿فخسفنا به وبداره

الأرض﴾ قال: خسف به إلى الأرض السفلى. وأخرج المحاملي، والبيلمي في مسند الفردوس عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ في قوله ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً﴾ قال: التجبر في الأرض، والأخذ بغير الحق. وروي نحوه عن مسلم البطين، وابن جرير، وعكرمة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير ﴿لا يريدون علواً في الأرض﴾ قال: بغياً في الأرض. وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال: هو الشرف والعلو عند نبي سلطانه. وأقول: إن كان ذلك للتقوى به على الحق، فهو من خصال الخير لا من خصال الشر. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب قال: إن الرجل ليحب أن يكون شمس نعله أفضل من شمس نعل صاحبه، فيدخل في هذه الآية ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً﴾ قال ابن كثير في تفسيره بعد نكر هذه الرواية عن علي رضي الله عنه: وهذا محمول على من أحب ذلك لا لمجرد التجميل، فهذا لا بأس به. فقد ثبت: «أن رجلاً قال: يا رسول الله إني أحب أن يكون ثوبي حسناً، ونعلي حسنة، أتمن الكبر لك؟ قال: لا، إن الله جميل يحب الجمال». وأخرج ابن مردويه، وابن عساکر عن علي بن أبي طالب: أنه قال: نزلت هذه الآية، يعني ﴿تلك الدار الآخرة﴾: إلخ في أهل العدل والتواضع من الولاة، وأهل القدرة من سائر الناس. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس نحوه. وأخرج ابن مردويه عن عدي بن حاتم قال: لما دخل علي النبي ﷺ ألقى إليه وسادة، فجلس على الأرض، فقال: أشهد أنك لا تبغي علواً في الأرض، ولا فساداً فأسلم. وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحك. وأخرج أيضاً ابن مردويه عن علي بن الحسين بن واقد: أن قوله تعالى ﴿إن الذي فوض إليك القرآن﴾ الآية أنزلت على رسول ﷺ بالجحفة حين خرج النبي ﷺ مهاجراً إلى المدينة. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والبخاري، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي من طرق عن ابن عباس في قوله ﴿ولراك إلى معاد﴾ قال: إلى مكة، زاد ابن مردويه كما أخرجك منها. وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري ﴿ولراك إلى معاد﴾ قال الآخرة. وأخرج ابن أبي شيبة، والبخاري في تاريخه، وأبو يعلى، وابن المنذر عنه أيضاً في قوله ﴿ولراك إلى معاد﴾ قال: معاده الجنة، وفي لفظ معاده آخرته. وأخرج الحاكم في التاريخ، والبيلمي عن علي بن أبي طالب قال: ﴿ولراك إلى معاد﴾ الجنة. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس نحوه. وأخرج ابن مردويه عنه قال: لما نزلت ﴿كل من عليها فان﴾ [الرحمن: 26] قالت الملائكة: هلك أهل الأرض، فلما نزلت ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ [آل عمران: 185] قالت الملائكة: هلك كل نفس، فلما نزلت ﴿كل شيء

على تقدير: لأن يقولوا، أو بأن يقولوا، أو على أن يقولوا، وقيل: هو بدل من أن يتركوا، ومعنى الآية: أن الناس لا يتركون بغير اختيار، ولا ابتلاء ﴿أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ أي: وهم لا يبتلون في أموالهم، وأنفسهم، وليس الأمر كما حسبوا، بل لابد أن يختبرهم حتى يتبين المخلص من المنافق، والصالح من الكاذب، فالآية مسوقة لإنكار ذلك الحسبان، واستبعاده، وبيان أنه لا بد من الامتحان بأنواع التكليف، وغيرها. قال الزجاج: المعنى: أحسبوا أن نقنع منهم بأن يقولوا: إنا مؤمنون فقط، ولا يتمحنون بما تتبين به حقيقة إيمانهم، وهو قوله: ﴿أَنْ يَتْرُكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾. قال السدي، وقتادة، ومجاهد: أي: لا يبتلون في أموالهم، وأنفسهم بالقتل، والتعذيب، وسيأتي في بيان سبب نزول هذه الآيات ما يوضح معنى ما ذكرناه، وظاهرها شمول كل الناس من أهل الإيمان، وإن كان السبب خاصاً، فالاعتبار بعموم اللفظ كما قرئناه غير مرة. قال ابن عطية: وهذه الآية، وإن كانت نازلة في سبب خاص، فهي باقية في أمة محمد ﷺ موجود حكمها بقية الدهر، وذلك أن الفتنة من الله باقية في ثغور المسلمين بالأسر، ونكالية العدو، وغير ذلك ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: هذه سنة الله في عباده، وأنه يختبر مؤمني هذه الأمة كما اختبر من قبلهم، من الأمم كما جاء به القرآن في غير موضع من قصص الأنبياء، وما وقع مع قومهم من المحن، وما اختبر الله به اتباعهم، ومن آمن بهم من تلك الأمور التي نزلت بهم ﴿فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ في قولهم: آمنا ﴿وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَافِبِينَ﴾ منهم في ذلك، قرأ الجمهور (فليعلمن) بفتح الياء، واللام في الموضعين: أي: ليظهرن الله الصادق، والكاذب في قولهم، ويميز بينهم، وقرأ علي بن أبي طالب في الموضعين بضم الياء، وكسر اللام. والمعنى: أي: يعلم الطائفتين في الآخرة بمنازلهن، أو يعلم الناس بصدق من صدق، ويفضح الكاذبين بكذبهم، أو يضع لكل طائفة علامة تشتهر بها، وتتميز عن غيرها ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا﴾ أي: يفوتونا، ويعجزونا قبل أن نؤاخذهم بما يعملون، وهو ساء مسد مفعولي حسب، وأم هي: المنقطعة ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: بش الذي يحكمونه حكمهم ذلك: وقال الزجاج: «ما» في موضع نصب بمعنى: ساء شيئاً، أو حكماً يحكمون. قال: ويجوز: أن تكون «ما» في موضع رفع بمعنى: ساء الشيء، أو الحكم حكمهم، وجعلها ابن كيسان مصدرية: أي: ساء حكمهم ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ﴾ أي: من كان يطمع، والرجاء بمعنى: الطمع. قاله سعيد بن جبير. وقيل: الرجاء هنا بمعنى: الخوف. قال القرطبي: وأجمع أهل التفسير على أن المعنى: من كان يخاف الموت، ومنه قول الهذلي:

إذا لسعته الدبر لم يرج لسعها

قال الزجاج: معنى من كان يرجو لقاء الله: من كان يرجو ثواب لقاء الله: أي: ثواب المصير إليه، فالرجاء على هذا

هالك إلا وجهه ﴿قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: هَلْكَ أَهْلُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ. وَأَخْرَجَ عَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ قَالَ: إِلَّا مَا أُرِيدُ بِهِ وَجْهَهُ.

تفسير سورة العنكبوت

وقد اختلف في كونها مكية، أو مدنية، أو بعضها مكية، وبعضها مدنية على ثلاثة أقوال: الأول: أنها مكية كلها، أخرجه ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس، وأخرجه ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير، وبه قال الحسن، وعكرمة، وعطاء، وجابر بن زيد. والقول الثاني: أنها مدنية كلها، قال القرطبي: وهو أحد قولي ابن عباس، وقتادة. والقول الثالث: أنها مكية إلا عشر آيات من أولها، قال القرطبي: وهو أحد قولي ابن عباس، وقتادة، وهو قول يحيى بن سلام. وحكي عن علي بن أبي طالب: أنها نزلت بين مكة، والمدينة، وهذا قول رابع. وأخرج الدارقطني في السنن عن عائشة: أن رسول الله ﷺ كان يصلي في كسوف الشمس والقمر أربع ركعات وأربع سجعات، يقرأ في الركعة الأولى للعنكبوت أو الروم، وفي الثانية يس.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْعَنَكَبُوتِ ١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ٣ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ٤ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٥ وَكَانَ يُنْفِذُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌ عَنِ الْعَالَمِينَ ٦ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُنَّ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ٧ وَوَضَعْنَا الْقُرْسُوفَ فِيهِمْ أَذْيَةً حَسَنًا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَشَرُّكُمْ مِمَّا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوا أَوْيَاكُمْ وَأَتَّبِعُوا أَمْرًا وَعَمَلًا ٨ وَلَنُجْلِيَنَّهُمْ لَنُجْلِيَنَّهُمْ فِي الصَّلَاحِ ٩ وَمَنْ الْإِنْسَانُ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ آيَةً النَّاسِ كَذَّابٍ اللَّهُ وَلَيْسَ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ١٠ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ١١ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطِيئَتَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطِيئَتِهِمْ مِنْ قَوْمٍ إِتَّهَمُوا لَكَذِبُونَ ١٢ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَنْتَا لَا تَعْلَمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَانُوا يَفْذَرُونَ ١٣

قد تقدم الكلام على فاتحة هذه السورة مستوفى في سورة البقرة، والاستفهام في قوله: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ﴾ للتقريع، والتوبيخ، و﴿أَنْ يَتْرُكُوا﴾ في موضع نصب بحسب، وهي: وما دخلت عليه قائمة مقام المفعولين على قول سيبويه، والجمهور، و﴿أَنْ يَقُولُوا﴾ في موضع نصب

معناه: الأمل ﴿فإن لجل الله لآت﴾ أي: الأجل المضروب للبعث آت لا محالة. قال مقاتل: يعني: يوم القيامة، والمعنى: فليعمل لذلك اليوم كما في قوله: ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً﴾ [الكهف: 110] ومن في الآية التي هنا يجوز أن تكون شرطية. والجزاء فإن أجل الله لآت، ويجوز: أن تكون موصولة، وبخلت الفاء في جوابها تشبيهاً لها بالشرطية. وفي الآية من الوعد، والوعيد، والترهيب، والترغيب ما لا يخفى ﴿وهو السميع﴾ لأقوال عباده ﴿العليم﴾ بما يسرونه، وما يعلنونه ﴿ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه﴾ أي: من جاهد الكفار، وجاهد نفسه بالصبر على الطاعات، فإنما يجاهد لنفسه: أي: ثواب ذلك له لا لغيره، ولا يرجع إلى الله سبحانه من نفع ذلك شيء ﴿إن الله لغني عن العالمين﴾ فلا يحتاج إلى طاعتهم كما لا تضره معاصيهم. وقيل: المعنى: ومن جاهد عدوه لنفسه لا يريد بذلك وجه الله، فليس له حاجة بجهاده، والأول أولى ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم﴾ أي: لنخطئها عنهم بالمغفرة بسبب ما عملوا من الصالحات ﴿ولنجزينهم لحسن الذي كانوا يعملون﴾ أي: بأحسن جزاء أعمالهم، وقيل: بجزاء أحسن أعمالهم، والمراد بأحسن مجرد الوصف لا التفضيل لئلا يكون جزاؤهم بالحسن مسكوتاً عنه، وقيل: يعطيهم أكثر مما عملوا وأحسن منه كما في قوله: ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها﴾ [الأنعام: 160] ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حسناً﴾ انتصاب حسناً على أنه نعت مصدر محذوف: أي: إيصاء حسناً على المبالغة، أو على حذف المضاف: أي: ذا حسن. هذا مذهب البصريين، وقال الكوفيون: تقديره. ووصينا الإنسان أن يفعل حسناً، فهو مفعول لفعل مقتر، ومنه قول الشاعر:

عجبت من دهماء إذ تشكونا ومن أبي دهماء إذ يوصينا
خيراً بها كأنما خافونا

أي: يوصينا أن نفعل بها خيراً، ومثله قول الحطية:

وصيت من بزة قلباً حراً بالكلب خيراً والحماة شراً

قال الزجاج: معناه: ووصينا الإنسان: أن يفعل بوالديه ما يحسن، وقيل: هو صفة لموصوف محذوف: أي: ووصيناها أمراً ذا حسن، وقيل: هو منتصب على أنه مفعول به على التضمين أي: ألزمناه حسناً، وقيل: منصوب بنزع الخافض: أي: ووصيناها بحسن، وقيل: هو مصدر لفعل محذوف: أي: يحسن حسناً، ومعنى الآية: التوصية للإنسان بوالديه بالبر بهما، والعطف عليهما. قرأ الجمهور (حسناً) بضم الحاء، وإسكان السين، وقرأ أبو رجاء، وأبو العالية، والضحاك بفتحهما، وقرأ الجحدري (إحساناً) وكذا في مصحف أبي ﴿وإن جاهدك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما﴾ أي: طلباً منك، والزمك أن تشرك بي إلهاً ليس لك به علم بكونه إلهاً، فلا تطعهما، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وعبر بنفي العلم عن نفي الإله: لأن ما لا

يعلم صحته لا يجوز اتباعه، فكيف بما علم بطلانه؟ وإذا لم تجز طاعة الأبوين في هذا المطلب مع المجاهدة منهما له، فعدم جوازها مع مجرد الطلب بدون مجاهدة منهما أولى، ويلحق بطلب الشرك منهما سائر معاصي الله سبحانه، فلا طاعة لهما فيما هو معصية الله كما صحَّ ذلك عن رسول الله ﷺ ﴿إني مرجعكم فانبئكم بما كنتم تعملون﴾ أي: أخبركم بصالح أعمالكم وطالحها، فأجازي كلَّ منكم بما يستحقه، والموصول في قوله: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ في محل رفع على الإبتداء، وخبره ﴿لندخلنهم في الصالحين﴾ أي: في زمرة الراسخين في الصلاح، ويجوز أن يكون في محل نصب على الإشتغال، ويجوز أن يكون المعنى: لندخلنهم في مسخّل الصالحين، وهو: الجنة كذا قيل، والأول أولى ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أؤذي في الله﴾ أي: في شأن الله، ولأجله كما يفعله أهل الكفر مع أهل الإيمان، وكما يفعله أهل المعاصي مع أهل الطاعات من إيقاع الأذى عليهم لأجل الإيمان بالله، والعمل بما أمر به ﴿جعل فتنة الناس﴾ التي هي ما يقعونه عليه من الأذى ﴿كعذاب الله﴾ أي: جزع من أذاهم، فلم يصبر عليه، وجعله في الشدة، والعظم كعذاب الله، فاطاع الناس كما يطيع الله، وقيل: هو المناقق إذا أؤذي في الله رجع عن الدين، فكفر. قال الزجاج: ينبغي للمؤمن أن يصبر على الأذى في الله ﴿ولئن جاء نصر من ربك﴾ أي: نصر من الله للمؤمنين، وفتح، وغلبة للأعداء، وغنيمة يغنمونها منهم ﴿ليقولنَّ إنا كنا معكم﴾ أي: داخلون معكم في دينكم، ومعاونون لكم على عدوكم، فكذبهم الله. وقال: ﴿أو ليس الله باعلم بما في صدور العالمين﴾ أي: هو سبحانه أعلم بما في صدورهم منهم من خير، وشر، فكيف يدعون هذه الدعوى الكاذبة. وهؤلاء هم قوم ممن كان في إيمانهم ضعف، كانوا إذا مسهم الأذى من الكفار وافقوهم. وإذا

ظهرت قوة الإسلام، ونصر الله المؤمنين في موطن من المواطن ﴿قلوا إنا كنا معكم﴾ وقيل: المراد بهذا، وما قبله المنافقون. قال مجاهد: نزلت في ناس كانوا يؤمنون بالله بالسنتهم. فإذا أصابهم بلاء من الله، أو مصيبة افتتنوا. وقال الضحاك: نزلت في ناس من المنافقين بمكة كانوا يؤمنون. فإذا أؤنوا رجعوا إلى الشرك، والظاهر أن هذا النظم من قوله: ﴿ومن الناس من يقول﴾ إلى قوله: ﴿وقال النبي كفروا﴾ نازل في المنافقين لما يظهر من السياق، ولقوله: ﴿وليعلمنَّ الله الذي آمنوا وليعلمنَّ المنافقين﴾ فإنها لتقرير ما قبلها وتأكيد: أي: ليميزن الله بين الطائفتين، ويظهر إخلاص المخلصين، ونفاق المنافقين، فالخلص الذي لا يتزلزل بما يصيبه من الأذى، ويصبر في الله حق الصبر، ولا يجعل فتنة الناس كعذاب الله. والمنافق الذي يميل هكذا، وهكذا، فإن أصابه أذى من الكافرين وافقهم، وتابعهم، وكفر بالله عز وجل، وإن خفقت ريح الإسلام؛ وطلع نصره، ولاح فتحه رجع إلى الإسلام، وزعم أنه من المسلمين ﴿وقال

الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا» اللام في «الذين آمنوا» هي: لام التبليغ: أي: قالوا مخاطبين لهم كما سبق بيانه في غير موضع: أي: قالوا لهم: اسلكوا طريقتنا، وادخلوا في ديننا «ولنحمل خطاياكم» أي: إن كان اتباع سبيلنا خطيئة تؤلخون بها عند البعث، والنشور كما تقولون، فلنحمل ذلك عنكم، فنؤاخذ به بئسكم، واللام في لنحمل لام الأمر كأنهم أمروا أنفسهم بذلك. وقال الفراء، والزجاج: هو أمر في تأويل الشرط، والجزاء: أي: إن تتبعوا سبيلنا نحمل خطاياكم، ثم رد الله عليهم بقوله: «وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء» من الأولى ببيان، والثانية مزيدة للاستفراق: أي: وما هم بحاملين شيئاً من خطيئاتهم التي التزموا بها، وضمنوا لهم حملها، ثم وصفهم الله سبحانه بالكذب في هذا التحمل، فقال: «إنهم لكانبون» فيما ضمنوا به من حمل خطاياهم. قال المهدوي: هذا التكنيب لهم من الله عز وجل حمل على المعنى، لأن المعنى: إن اتبعتم سبيلنا حملنا خطاياكم، فلما كان الأمر يرجع في المعنى إلى الخبر أوقع عليه التكنيب كما يوقع على الخبر «وليحملن الثقالن» أي: أوزارهم التي عملوها، والتعبير عنها بالاثقال للإيذان بأنها ذنوب عظيمة «وإنثقالاً مع الثقالن» أي: أوزاراً مع أوزارهم. وهي: أوزار من أضلوه، وأخرجوه من الهدى إلى الضلالة، ومثله قوله سبحانه: «ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم» [النحل: 25] ومثله قوله ﷺ: «من سن سنة سيئة، فعليه وزرها ووزر من عمل بها» كما في حديث أبي هريرة الثابت في صحيح مسلم، وغيره «وليسألن يوم القيامة» تقريراً، وتوبيخاً «عما كانوا يفترون» أي: يختلفونه من الأكاذيب التي كانوا ياتون بها في الدنيا. وقال مقاتل: يعني: قولهم: نحن الكفلاء بكل تبعة تصيبكم من الله.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم في قوله: «لَمْ أَحْسِبْ للناس أن يتركوا» الآية قال: أنزلت في ناس كانوا بمكة قد أقرؤا بالإسلام، فكتب إليهم أصحاب رسول الله ﷺ من المدينة لما أنزلت آية الهجرة: أنه لا يقبل منكم إقرار، ولا إسلام حتى تهجروا، قال: فخرجوا عامدين إلى المدينة، فاتبعهم المشركون، فردوهم، فنزلت فيهم هذه الآية. فكتبوا إليهم: أنه قد أنزل فيكم كذا، وكذا، فقالوا: نخرج فإن اتبعنا أحد قتلناه، فخرجوا، فاتبعهم المشركون، فقاتلوه، فممنهم من قتل، وممنهم من نجا، فأنزل الله فيهم: «ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم» [النحل: 110]. وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة نحوه بأخصر منه. وأخرج ابن سعد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن عساكر عن عبد الله بن عبيد الله بن عمير قال: نزلت في عمار بن ياسر إذ كان يعذب في الله «لَمْ أَحْسِبْ للناس أن يتركوا» الآية. وأخرج ابن ماجه، وابن مردويه عن ابن مسعود قال: أول من أظهر الله إسلامه سبعة: رسول الله

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّيْفَةِ وَصَلَّيْنَاهَا عَائَةَ لِّلْحَبْلِيِّ ﴿٢﴾ وَلَوَيْسَةَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ مَّبْدُودِينَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَبْلُغُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤﴾ وَإِنْ تَكْذِبُوا فَعَذَابُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ذِلَّةٌ مِّنْ دُونِ الْكَذِبِ وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٥﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٦﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُعِيدُ الشَّعْأَ الْآخِرَةَ إِنَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُنْشَرُونَ ﴿٨﴾ وَمَا أَشَدُّ مِجْزِعَاتِ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠﴾ فَكَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِذْ أَن قَالُوا أَأَنذَرْتُهُمْ فَأَنجَيْنَاهُ اللَّهُ مِن النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ

وَيَلْعَنُ مَعْصِيَكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَيْتَكُمْ أَثَارًا وَمَا لَكُمْ مِنْ تَعْمِيرٍ ﴿٣٠﴾
 ﴿فَقَامَ لَهُ لَوْمٌ﴾ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣١﴾
 وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ الْأَنْبِيَاءَ وَالْكِتَابَ وَالْآيَةَ
 أَجْرَهُ فِي الْآيَةِ وَإِلَهُ فِي الْآخِرَةِ لَئِنْ الضَّالِّينَ ﴿٣٢﴾

أجمل سبحانه قصة نوح تصديقاً لقوله في أول السورة:
 ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: 3] وفيه تثبيت
 للنبي ﷺ، كأنه قيل له: إن نوحاً لبث ألف سنة إلا خمسين
 عاماً يدعو قومه، ولم يؤمن منهم إلا قليل، فانت أولى
 بالصبر لقلة مدة لبثك، وكثرة عدد امتك. قيل: وقع في
 النظم إلا خمسين عاماً، ولم يقل: تسعمائة سنة وخمسين،
 لأن في الاستثناء تحقيق العدد بخلاف الثاني، فقد يطلق
 على ما يقرب منه. وقد اختلف في مقدار عمر نوح، وسيأتي
 آخر البحث، وليس في الآية إلا أنه لبث فيهم هذه المدة،
 وهي لا تدل على أنها جميع عمره. فقد تلبث في غيرهم قبل
 اللبث فيهم، وقد تلبث في الأرض بعد هلاكهم بالطوفان.
 والفاء في ﴿فَاخْذُهُمُ الطُّوفَانُ﴾ للتعقيب: أي: أخذهم عقب
 تمام المدة المذكورة، والطوفان يقال: لكل شيء كثير مطيف
 بجمع محيط بهم من مطر، أو قتل، أو موت قاله النحاس،
 وقال سعيد بن جبير، وقتادة، والسدي: هو: المطر، وقال
 الضحاك: الغرق، وقيل: الموت، ومنه قول الشاعر:

أَتَنَاهُمْ طُوفَانُ مَوْتٍ جَارِفٍ

وجملة ﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ في محل نصب على الحال: أي:
 مستمرون على الظلم، ولم ينجع فيهم ما وعظهم به نوح،
 ونكرهم هذه المدة بطولها ﴿فَانْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ﴾
 أي: أنجينا نوحاً، وأنجينا من معه في السفينة من أولاده،
 وأتباعه. واختلف في عددهم على أقوال ﴿وَجَعَلْنَاهَا﴾ أي:
 السفينة ﴿آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ أي: عبرة عظيمة لهم، وفي كونها
 آية وجوه: أحدها: أنها كانت باقية على الجودي مدة مديدة.
 وثانيها: أن الله سلم السفينة من الرياح المزعجة. وثالثها: أن
 الماء غيض قبل نفاذ الزلزال. وهذا غير مناسب لوصف
 السفينة بأن الله جعلها آية، وقيل: إن الضمير راجع في
 جعلناها إلى الواقعة، أو إلى النجاة، أو إلى العقوبة بالغرق.
 ﴿وإبراهيم إذ قال لقومه﴾ انتصاب إبراهيم بالعطف على
 ﴿نوحاً﴾. وقال النسائي: هو معطوف على الهاء في
 جعلناها، وقيل: منصوب بمقتد: أي: وانكر إبراهيم. وإذ قال
 منصوب على الظرفية: أي: وأرسلنا إبراهيم وقت قوله لقومه:
 اعبدوا الله، أو جعلنا إبراهيم آية وقت قوله هذا: أو وانكر
 إبراهيم وقت قوله. على أن الظرف بدل اشتغال من إبراهيم
 ﴿اعبدوا الله واتقوه﴾ أي: اقربوه بالعبادة، وخصوه بها،
 واتقوه أن تشركوا به شيئاً ﴿فَلَكُمْ خَيْرُ لَكُمْ﴾ أي: عبادة الله
 وتقواه خير لكم من الشرك، ولا خير في الشرك أبداً، ولكنه
 خاطبهم باعتبار اعتقادهم ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ شيئاً من
 العلم، أو تعلمون علماً تميزون به بين ما هو خير، وما هو
 شر. قرأ الجمهور ﴿وإبراهيم﴾ بالنصب. ووجهه ما قدمنا.

وقرأ النخعي، وأبو جعفر، وأبو حنيفة بالرفع على الابتداء،
 والخبر مقتد: أي: ومن المرسلين إبراهيم ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ
 مِنْ دُونِ اللَّهِ أَثَانًا﴾ بَيْنَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ أَنَّهُمْ يَعْبُدُونَ مَا لَا
 يَنْفَعُ، وَلَا يَضُرُّ، وَلَا يَسْمَعُ، وَلَا يَبْصُرُ، وَالْأَثَانُ هِي:
 الْأَصْنَامُ. وقال أبو عبيدة: الصنم ما يتخذ من ذهب، أو فضة،
 أو نحاس، والوثن ما يتخذ من جص أو حجارة، وقال
 الجوهري: الوثن الصنم، والجمع أوثان ﴿وَتَخْلُقُونَ أَفْكَاءَ﴾،
 أي: وتكتبون كذباً على أن معنى تخلقون: تكتبون، ويجوز أن
 يكون معناه: تعملون، وتنتحون: أي: تعملونها، وتنتحونها
 للإفك. قال الحسن: معنى تخلقون: تنتحون: أي: إنما تعبّدون
 أوثاناً، وأنتم تصنعونها. قرأ الجمهور (تخلقون) بفتح
 الفوقية، وسكون الخاء، وضم اللام مضارع خلق، وإفكاً
 بكسر الهمزة، وسكون الفاء. وقرأ علي بن أبي طالب،
 وزيد بن علي، والسلمي، وقتادة بفتح الخاء، واللام مشددة،
 والأصل تتخلقون. وروي عن زيد بن علي: أنه قرأ بضم
 التاء، وتشديد اللام مكسورة. وقرأ ابن الزبير، وفضيل بن
 ورقان (أفكاً) بفتح الهمزة، وكسر الفاء، وهو مصدر كالكذب،
 أو صفة لمصدر محذوف: أي: خلقاً أفكاً ﴿إِنَّ الَّذِينَ
 تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ أي: لا يقدر
 على أن يرزقكم شيئاً من الرزق ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ
 الرِّزْقَ﴾ أي: اصرفوا رغبتمكم في أرزاقكم إلى الله، فهو الذي
 عنده الرزق كله، فاسألوه من فضله، ووحده دون غيره
 ﴿وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ أي: على نعمائه، فإن الشكر موجب لبقائها،
 وسبب للمزيد عليها، يقال: شكرته، وشكرت له ﴿إِلَيْهِ
 تَرْجِعُونَ﴾ بالموت ثم بالبعث لا إلى غيره ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا
 فَقَدْ كَذَّبْتُمْ أَمْرًا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ قيل: هذا من قول إبراهيم: أي:
 وإن تكفروني، فقد وقع ذلك لغيري ممن قبلكم، وقيل: هو من
 قول الله سبحانه: أي: وإن تكفروا محمداً، فنلك عادة الكفار
 مع من سلف ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ لقومه
 الذي أرسل إليهم، وليس عليه هدايتهم، وليس نلك في وسعه
 ﴿أُولَئِكَ يَرْوُوا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يَعِيدُهُ﴾ قرأ
 الجمهور «أولم يروا» بالتحية على الخير، واختار هذه
 القراءة أبو عبيد، وأبو حاتم. قال أبو عبيد: كأنه قال: أولم ير
 الاسم. وقرأ أبو بكر، والأعمش، وابن وثاب، وحزمة،
 والكسائي بالفوقية على الخطاب من إبراهيم لقومه، وقيل:
 هو خطاب من الله لقريش. قرأ الجمهور (كيف يبدئ) بضم
 التحتية من أبدأ يبدئ. وقرأ الزبيري، وعيسى بن عمر، وأبو
 عمرو بفتحها من بدأ يبدأ. وقرأ الزهري «كيف بدأ» والمعنى:
 ألم يروا كيف يخلقهم الله ابتداء نطفة، ثم علقه، ثم مضغه،
 ثم ينفخ فيه الروح، ثم يخرجهم إلى الدنيا، ثم يتوفاه بعد نلك،
 وكذلك سائر الحيوانات، وسائر النباتات، فإذا رأيت قدرة الله
 سبحانه على الابتداء، والإيجاد، فهو القادر على الإعادة،
 والهمزة لإنكار عدم رؤيتهم، والواو للعطف على مقتد ﴿إِنْ
 نَكَرَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لأنه إذا أراد أمراً قال له كن فيكون.
 ثم أمر سبحانه إبراهيم أن يامر قومه بالمسير في الأرض،

بما تقم من خطاب محمد ﷺ على قول من قال: إن قوله: قل: سيروا في الأرض خطاب لمحمد ﷺ، وأما على قول من قال: إنه خطاب لإبراهيم عليه السلام، فالكلام في سياقه سابقاً، ولاحقاً: أي: قال بعضهم لبعض عند المشاورة بينهم: افعلوا بإبراهيم أحد الأمرين المذكورين، ثم اتفقوا على تحريكه ﴿فانجاه الله من النار﴾ وجعلها عليه برأً وسلاماً ﴿إن في ذلك﴾ أي: في إنجاء الله لإبراهيم ﴿آيات﴾ بيّنة: أي: دلالات واضحة، وعلامات ظاهرة على عظيم قدرة الله، وبديع صنعه: حيث أضرمو تلك النار العظيمة، وألقوه فيها، ولم تحرقه، ولا أثرت فيه أثراً، بل صارت إلى حالة مخالفة لما هو شأن عنصرها من الحرارة، والإحراق، وإنما خصّ المؤمنين، لأنهم الذين يعتبرون بآيات الله سبحانه، وأما من عداهم، فهم عن ذلك غافلون. قرأ الجمهور بنصب «جواب قومه، على أنه خبر كان، وما بعده اسمها. وقرأ سالم الأفلح، وعمرو بن دينار، والحسن برفعه على أنه اسم كان، وما بعده في محل نصب على الخبر ﴿وقال إنما اتخذتم من دون الله اوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا﴾ أي: قال إبراهيم لقومه: أي: للتوابع بينكم، والتواصل لاجتماعكم على عبادتها، وللخشية من ذهاب المودة فيما بينكم إن تركتم عبادتها. قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي «مودة بينكم» برفع مودة غير منوثة، وإضافتها إلى بينكم. وقرأ الأعمش، وابن وثاب «مودة» برفعها منوثة. وقرأ نافع، وابن عامر، وأبو بكر بنصب «مودة» منوثة، ونصب بينكم على الظرفية. وقرأ حمزة وحفص بنصب «مودة» مضافة إلى بينكم. فاما قراءة الرفع، فنذكر الزجاج لها وجهين: الأول: أنها ارتفعت على خبر إن في ﴿إنما اتخذتم﴾، وجعل ما موصولة. والتقدير: إن الذي اتخذتموه من دون الله اوثاناً مودة بينكم. والوجه الثاني: أن تكون على إضمار مبتدأ: أي: هي مودة، أو تلك مودة. والمعنى: أن المودة هي التي جمعتكم على عبادة الاوثان، واتخاذها. قيل: ويجوز أن تكون مودة مرتفعة بالابتداء، وخبرها في الحياة الدنيا. ومن قرأ برفع مودة منوثة، فتوجيهه كالقراءة الأولى، ونصب بينكم على الظرفية. ومن قرأ بنصب مودة، ولم ينوثرها جعلها مفعول اتخذتم، وجعل إنما حرفاً واحداً للحصر، وهكذا من نصبها، ونوثرها. ويجوز أن يكون النصب في هاتين القراءتين على أن المودة علة، فهي مفعول لأجله، وعلى قراءة الرفع يكون مفعول اتخذتم الثاني محذوفاً: أي: اوثاناً آلهة، وعلى تقدير أن ما في قوله: ﴿إنما اتخذتم﴾ موصولة يكون المفعول الأول ضميرها: أي: اتخذتموه، والمفعول الثاني اوثاناً ﴿ثم يوم للقيامة يكفر بعضكم ببعض﴾ أي: يكفر بعض هؤلاء المتخذين للوثان العابدين لها ببعض الآخر منهم، فيتبرأ القادة من الاتباع، والاتباع من القادة، وقيل: المعنى: يتبرأ العابدين للوثان من الاوثان، وتتبرأ الاوثان من العابدين لها ﴿ويلعن بعضكم بعضاً﴾ أي: يلعن كل فريق الآخر على التفسيرين المذكورين ﴿وما واكم النار﴾ أي:

ليتفكروا، ويعتبروا، فقال: ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق﴾ على كثرتهم، واختلاف ألوانهم، وطبائعهم، وألسنتهم، وانظروا إلى مساكن القرون الماضية، والأمم الخالية، وآثارهم؛ لتعلموا بذلك كمال قدرة الله. وقيل: إن المعنى: قل لهم يا محمد سيروا، ومعنى قوله: ﴿ثم الله ينشئ النشأة الآخرة﴾ أن الله الذي بدأ النشأة الأولى، وخلقها على تلك الكيفية ينشئها نشأة ثانية عند البعث، والجملة عطف على جملة سيروا في الأرض داخلة معها في حيز القول، وجملة ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ تعليل لما قبلها. قرأ الجمهور بـ (النشأة) بالقصر، وسكون الشين. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو بالمد، وفتح الشين، وهما لغتان كالرأفة، والرأفة. وهي منتصبة على المصدرية بحذف الزوائد، والأصل الإنشاءة ﴿يعذب من يشاء ويرحم من يشاء﴾ أي: هو سبحانه بعد النشأة الآخرة يعذب من يشاء تعذيبه، وهم الكفار، والعصاة، ويرحم من يشاء رحمته، وهم المؤمنون به المصنفون لرسله العاملون بأوامره، ونواحيه ﴿والله يقلبون﴾ أي: ترجعون، وترتدون لا إلى غيره ﴿وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء﴾ قال الفراء: ولا من في السماء بمعجزين الله فيها. قال: وهو كما في قول حسان:

فمن يهجو رسول الله منكم ويمسحه وينصره سواء
أي: ومن يمدحه، وينصره سواء. ومثله قوله تعالى: ﴿وما منأ إلا له مقام معلوم﴾ [الصافات: 164] أي: إلا من له مقام معلوم، والمعنى: أنه لا يعجزه سبحانه أهل الأرض، ولا أهل السماء في السماء إن عصوه. وقال قطرب: إن معنى الآية: ولا في السماء لو كنتم فيها، كما تقول: لا يفوتني فلان ما هنا، ولا بالبصرة: يعني: ولا بالبصرة لو صار إليها. وقال المبرد: المعنى: ولا من في السماء. على أن من ليست موصولة بل نكرة، وفي السماء صفة لها، فأقيمت الصفة مقام الموصوف، ورد ذلك علي بن سليمان وقال: لا يجوز، ورجح ما قاله قطرب ﴿وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾ من مزيدة للتأكيد: أي: ليس لكم، ولي يواليكم، ولا نصير ينصركم، وينفع عنكم عذاب الله ﴿والذين كفروا بآيات الله ولقاءه﴾ المراد بالآيات الآيات التنزيلية، أو التكوينية، أو جميعهما، وكفروا بقاء الله: أي: أنكروا البعث، وما بعده، ولم يعملوا بما أخبرتهم به رسل الله سبحانه، والإشارة بقوله: ﴿اولئك﴾ إلى الكافرين بالآيات، واللقاء، وهو مبتدأ، وخبره ﴿يئسوا من رحمتي﴾ أي: إنهم في الدنيا آيسون من رحمة الله لم ينجع فيهم ما نزل من كتب الله، ولا ما أخبرتهم به رسله. وقيل: المعنى: أنهم يئسوا يوم القيامة من رحمة الله، وهي الجنة. والمعنى: أنهم أيسوا من الرحمة ﴿اولئك لهم عذاب اليم﴾ كَرَّر سبحانه الإشارة للتأكيد، ووصف العذاب بكونه اليماً للدلالة على أنه في غاية الشدة ﴿فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرِّقوه﴾ هذا رجوع إلى خطاب إبراهيم بعد الاعتراض

الكفار، وقيل: يدخل في ذلك الأوثنان: أي: هي منزلكم الذي تأوون إليه ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ يخلصونكم منها بنصرتهم لكم ﴿فَأَمَّنْ لَهُ لوط﴾ أي: آمن لإبراهيم لوط، فصلقه في جميع ما جاء به، وقيل: إنه لم يؤمن به إلا حين رأى النار لا تحرقه، وكان لوط ابن أخي إبراهيم ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾ قال النخعي، وقتادة: الذي قال: إني مهاجر إلى ربي هو: إبراهيم قال قتادة: هاجر من كوش، وهي قرية من سواد الكوفة إلى حران، ثم إلى الشام، ومعه ابن أخيه لوط، وامراته سارة. والمعنى: إني مهاجر عن دار قومي إلى حيث أعبد ربي ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: الغالب الذي أفعاله جارية على مقتضى الحكمة، وقيل: إن القائل: إني مهاجر إلى ربي هو: لوط، والأول أولى لرجوع الضمير في قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ إلى إبراهيم. وكذا في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النَّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾، وكذا في قوله: ﴿وَأَتَيْنَاهُ لُجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ فإن هذه الضمائر كلها لإبراهيم بلا خلاف: أي: من الله عليه بالأولاد، فوهب له إسحاق ولدًا له، ويعقوب ولدًا لولده إسحاق، وجعل في ذريته النبوة، والكتاب، فلم يبعث الله نبيًا بعد إبراهيم إلا من صلبه، ووحد الكتاب: لأن الألف، واللام فيه للجنس الشامل للكتب، والمراد التوراة، والإنجيل، والزبور، والقرآن، ومعنى ﴿وَأَتَيْنَاهُ لُجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾: أنه أعطي في الدنيا الأولاد، وأخبره الله باستمرار النبوة فيهم، وذلك مما تقر به عينه، ويزداد به سروره، وقيل: أجره في الدنيا أن أهل الملل كلها تدعيه، وتقول: هم منهم. وقيل: أعطاه في الدنيا عملاً صالحاً، وعاقبة حسنة، وإنه في الآخرة لمن الصالحين: أي: الكاملين في الصلاح المستحقين لتوفير الأجرة، وكثرة العطاء من الرب سبحانه. وقد أخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مروي عن ابن عباس قال: بعث الله نوحاً، وهو ابن أربعين سنة، ولبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله، وعاش بعد الطوفان ستين سنة حتى كثر الناس، وفشوا. وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة قال: كان عمر نوح قبل أن يبعث إلى قومه، وبعد ما بعث ألفاً وسبعمئة سنة. وأخرج ابن جرير عن عوف بن أبي شداد قال: إن الله أرسل نوحاً إلى قومه، وهو ابن خمسين وثلاثمئة سنة، فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، ثم عاش بعد ذلك خمسين وثلاثمئة سنة. وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب نوح الدنيا عن أنس بن مالك قال: جاء ملك الموت إلى نوح، فقال: يا أطول النبيين عمراً كيف وجدت الدنيا ولنتها؟ قال: كرجل دخل بيتاً له بابان، فقال في وسط البيت هنيهة، ثم خرج من الباب الآخر. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ قال: أبقاما الله آية، فهي على الجودي. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن

ابن عباس في قوله: ﴿وَتَخْلُقُونَ أَفْكَاءَ﴾ قال: تقولون كذباً. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿النَّشْأَةُ الْآخِرَةُ﴾ قال: هي: الحياة بعد الموت، وهو النشور. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿فَأَمَّنْ لَهُ لوط﴾ قال: صنى لوط إبراهيم. وأخرج أبو يعلى، وابن مروي عن أنس قال: «أول من هاجر من المسلمين إلى الحبشة بأهله عثمان بن عفان، فقال النبي ﷺ: صحبهما الله، إن عثمان لأول من هاجر إلى الله بأهله بعد لوط». وأخرج ابن منده، وابن عساكر عن أسماء بنت أبي بكر قالت: «هاجر عثمان إلى الحبشة، فقال النبي ﷺ: إنه أول من هاجر بعد إبراهيم ولوط». وأخرج ابن عساكر، والطبراني، والحاكم في الكنى عن زيد بن ثابت قال: قال رسول الله ﷺ: «ما كان بين عثمان، وبين رقية، وبين لوط مهاجر». وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس قال: أول من هاجر إلى رسول الله ﷺ عثمان بن عفان كما هاجر لوط إلى إبراهيم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ قال: هما ولدا إبراهيم، وفي قوله: ﴿وَأَتَيْنَاهُ لُجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾ قال: إن الله وصى أهل الأيمان ببنيه، فليس من أهل الأيمان دين إلا وهم يقولون إبراهيم، ويرضون به. وأخرج هؤلاء عنه أيضاً في قوله: ﴿وَأَتَيْنَاهُ لُجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾ قال: الذكر الحسن. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال: الولد الصالح، والثناء، وقول ابن عباس: هما ولدا إبراهيم لعل يريد ولده، وولد ولده، لأن ولد الولد بمنزلة الولد، ومثل هذا لا يخفى على مثل ابن عباس، فهو جبر الأمة، وهذه الرواية عنه هي من رواية العوفي، وفي الصحيحين «إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم».

وَلَوْ أَنَا قَالُ لَقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأَتُونَ الْفِتْنَةَ مَا سَبَّحَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْمَلَكِيِّينَ ﴿١٨﴾ أَيْكُمْ لَأَتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّيْلَ وَتَأْتُونَ فِي كَادِيكُمْ الْمُتَكَبِّرَ فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِمَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٢١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ مِنْ فِيهَا فَتَجَسَّوْهُ وَأَعْلَهُ إِلَّا أَمْرَانَهُ كَانَتْ مِنَ الْقَتِيلِينَ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِتًّا مِنْهُمْ وَصَافَ بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُ لَا تَحْفَ وَلَا تُحَنِّنُ إِنَّا سَجَّلْنَا فِي السُّجُودِ وَأَعْلَهُ إِلَّا أَمْرَانَهُ كَانَتْ مِنَ الْقَتِيلِينَ ﴿٢٣﴾ إِنَّا مُرْسِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رَجُلًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ رَزَقْنَاهَا مِنْهَا دَائِمًا فَتَسَّ لِقَوْمِهِمْ يَقُولُونَ ﴿٢٥﴾ وَإِنَّ مَذِيكَ أَهْلَهُمْ شِعَابٌ فَقَالَ يَقُولُوا عَصِدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَتَّبِعُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَاصْتَبَتْهُمْ الرِّجْسُ فَاصْبِرُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينَ ﴿٢٧﴾ وَكَذَلِكَ وَكَمْوَدَا وَقَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ مِنْ مَآئِكِهِمْ وَرَزَقْنَا لَهُمُ الشَّيْءَ الَّذِي كَانُوا

في هذه الآية، فلما كثر منه ذلك، ولم يسكت عنهم قالوا: أخرجوهم كما في الأعراف، والنمل، وقيل: إنهم قالوا أولاً: أخرجوهم من قريبتكم، ثم قالوا ثانياً: اثنتا بعذاب الله. ثم إن لوطاً لما ينس منهم طلب النصرة عليهم من الله سبحانه فـ **قال رب انصرنني على القوم المفسدين**، بإنزال عذابك عليهم، وإفسادهم هو بما سبق من إتيان الرجال، وعمل المنكر في ناديتهم، فاستجاب الله سبحانه، وبعث لعذابيهم ملائكته، وأمرهم بتبشير إبراهيم قبل عذابيهم، ولهذا قال: **«ولما جاءت رسلنا لإبراهيم بالبشرى»** أي: بالبشارة بالولد، وهو: إسحاق، وبولد الولد، وهو: يعقوب **«قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية»** أي: قالوا لإبراهيم هذه المقالة، والقرية هي: قرية سدوم التي كان فيها قوم لوط، وجملة **«إن أهلها كانوا ظالمين»** تحليل للإهلاك: أي: إهلاكنا لهم بهذا السبب **«قال إن فيها لوطاً»** أي: قال لهم إبراهيم: إن في هذه القرية التي أنتم مهلكوها لوطاً فكيف تهلكونها؟ **«قالوا نحن أعلم بمن فيها»** من الأخيار، والأشرار، ونحن أعلم من غيرنا بمكان لوط **«لننجينه وأهله»** من العذاب. قرأ الأعمش، وحزمة، ويعقوب، والكسائي **«لننجينه»** بالتخفيف، وقرأ الباقون بالتشديد **«إلا امرأته كانت من الغابرين»** أي: الباقين في العذاب، وهو لفظ مشترك بين الماضي، والباقي، وقد تقدم تحقيقه، وقيل: المعنى: من الباقين في القرية التي سينزل بها العذاب، فتعذب من جملتهم، ولا تنجو فيمن نجا **«ولما أن جاءت رسلنا لوطاً سيئ بهم»** أي: لما جاءت الرسل لوطاً بعد مفارقتهم إبراهيم سيئ بهم: أي: جاءه ما ساءه، وخاف منه، لأنه ظنهم من البشر، فخاف عليهم من قومه لكونهم في أحسن صورة من الصور البشرية، و«أن» في أن جاءت زائدة للتأكيد **«وضاق بهم ذراعاً»** أي: عجز عن تدبيرهم، وحزن، وضاق صدره، وضيق الذراع كناية عن العجز، كما يقال: في الكناية عن الفقر: ضاقت يده، وقد تقدم تفسير هذا مستوفى في سورة هود. ولما شامت الملائكة ما حلَّ به من الحزن، والتضجر **«قالوا لا تخف ولا تحزن»** أي: لا تخف علينا من قومك، ولا تحزن، فإنهم لا يقدرون علينا **«إنا منجوك وأهلك»** من العذاب الذي أمرنا الله بأن ننزله بهم **«إلا امرأتك كانت من الغابرين»** أخبروا لوطاً بما جاءوا به من إهلاك قومه، وتنجيته، وأهله إلا امرأته كما أخبروا بذلك إبراهيم، قرأ حمزة، والكسائي، وشعبة، ويعقوب، والأعمش «منجوك» بالتخفيف. وقرأ الباقون بالتشديد، قال المبرد: الكاف في منجوك مخفوض، ولم يجز عطف الظاهر على المضمّر المخفوض، فحمل الثاني على المعنى، وصار التقدير: وننجي أهلك **«إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء»** هذه الجملة مستأنفة لبيان هلاكهم المفهوم من تخصيص التنجية به وبأهله، والرجز العذاب أي: عذاباً من السماء، وهو: الرمي بالحجارة، وقيل: إحراقهم بنار نازلة من السماء، وقيل: هو الخسف، والحصب كما في غير

فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُصْتَبِرِينَ ﴿٨١﴾ وَفُتِنَتْ وَفُتِنَتْ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ ثَمُودُ بِالْبَيْتِ فَنَسَكَكَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٨٢﴾ نَكَلًا أَخَذْنَا يَذْبُذِيهِمْ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٨٣﴾

قوله: **«ولوطاً»** منصوب بالعطف على نوحاً، أو علي إبراهيم، أو بتقدير انكر. قال الكسائي: المعنى: وأنجينا لوطاً، أو وأرسلنا لوطاً **«إذ قال لقومه»** ظرف للعامل في لوط **«إنكم لتأتون الفاحشة»** قرأ أبو عمرو، وحزمة، والكسائي، وأبو بكر «أنكم» بالاستفهام. وقرأ الباقون بلا استفهام، والفاحشة الخصلة المتناهية في القبح، وجملة **«وما سبقكم بها من أحد من العالمين»** مقزرة لكامل قبح هذه الخصلة، وأنهم منفردون بذلك لم يسبقهم إلى عملها أحد من الناس على اختلاف أجناسهم، ثم بين سبحانه هذه الفاحشة، فقال: **«أنكم لتأتون الرجال»** أي: تلوطون بهم **«وتقطعون السبيل»** قيل: إنهم كانوا يفعلون الفاحشة بمن يمر بهم من المسافرين، فلما فعلوا ذلك ترك الناس المرور بهم، فقطعوا السبيل بهذا السبب. قال الفراء: كانوا يعترضون الناس في الطرق بعملهم الخبيث، وقيل:.. إننا يقطعون الطريق على المارة بقتلهم، ونهبهم. والظاهر أنهم كانوا يفعلون ما يكون سبباً لقطع الطريق من غير تقييد بسبب خاص، وقيل: إن معنى قطع الطريق: قطع النسل بالعدول عن النساء إلى الرجال **«وتأتون في نايبيكم المنكر»** الناي، والندى، والمندى مجلس القوم، ومحتنهم.

واختلف في المنكر الذي كانوا يأتونه فيه؛ فقيل: كانوا يحذفون الناس بالحصباء، ويستخفون بالغريب، وقيل: كانوا يتضارطون في مجالسهم، وقيل: كانوا يأتون الرجال في مجالسهم، وبعضهم يرى بعضاً، وقيل: كانوا يلعبون بالحمام، وقيل: كانوا يخضبون لأصابعهم بالحناء، وقيل: كانوا يناقرون بين البيكة، ويناطحون بين الكباش، وقيل: يلعبون بالنرد، والشطرنج، ويلبسون المصبغات، ولا مانع من أنهم كانوا يفعلون جميع هذه المنكرات. قال الزجاج: وفي هذا إعلام أنه لا ينبغي أن يتعاشر الناس على المنكر، وأن لا يجتمعوا على الهزق، والمناهي. ولما انكر لوط عليهم ما كانوا يفعلونه إجابوا بما حكى الله عنهم بقوله: **«فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اثنتا بعذاب الله إن كنت من الصادقين»** أي: فما إجابوا بشيء إلا بهذا القول رجوعاً منهم إلى التكنيب، واللجاج، والعناد، وقد تقدم الكلام على هذه الآية، وقد تقدم في سورة النمل: **«فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريبتكم»** [النمل: 56] وتقدم في سورة الأعراف: **«فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريبتكم»** [الأعراف: 82] وقد جمع بين هذه الثلاثة المواضع بأن لوطاً كان ثابتاً على الإرشاد، ومكرراً للنهي لهم، والوعيد عليهم، فقالوا له أولاً: اثنتا بعذاب الله كما

﴿فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً﴾ أي: ريحاً تأتي بالحصباء، وهي الحصى الصغار فترجمهم بها، وهم قوم لوط ﴿ومنهم من أخذته الصيحة﴾ وهم ثمود وأهل مدين ﴿ومنهم من خسفنا به الأرض﴾ وهو قارون وأصحابه ﴿ومنهم من أغرقنا﴾ وهم قوم نوح وقوم فرعون ﴿وما كان الله ليظلمهم﴾ بما فعل بهم، لأنه قد أرسل إليهم رسلاً وأنزل عليهم كتبه ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ باستمرارهم على الكفر وتكذيبهم للرسل وعملهم بمعاصي الله.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وتأتون في ناياكم المنكر﴾ قال: مجلسكم. وأخرج الفريابي، وأحمد، وعبد بن حميد، والترمذي وحسنه، وابن أبي الدنيا في كتاب الصمت، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مريويه، والبيهقي في الشعب، وابن عساكر عن أم هانئ بنت أبي طالب قالت: «سألت رسول الله ﷺ عن قول الله سبحانه: ﴿وتأتون في ناياكم المنكر﴾ قال: كانوا يجلسون بالطريق، فيحنفون أبناء السبيل، ويسخرون منهم». قال الترمذي: بعد إخراجها، وتحسينه: ولا نعرفه إلا من حديث حاتم بن أبي صغيرة عن سماك. وأخرج ابن مريويه عن جابر: أن النبي ﷺ نهى عن الحنف، وهو قول الله سبحانه: ﴿وتأتون في ناياكم المنكر﴾. وأخرج ابن مريويه عن ابن عمر في الآية قال: هو الحنف. وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس مثله. وأخرج البخاري في تاريخه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه عن عائشة في الآية قالت: الضراط. وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم في قوله: ﴿فأخذتهم الرجفة﴾ قال: الصيحة، وفي قوله: ﴿وكانوا مستبصرين﴾ قال: في الضلالة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً﴾ قال: قوم لوط ﴿ومنهم من أخذته الصيحة﴾ قال: ثمود ﴿ومنهم من خسفنا به الأرض﴾ قال: قارون ﴿ومنهم من أغرقنا﴾ قال: قوم نوح.

هذا الموضع، ومعنى كون الخسف من السماء: أن الأمر به نزل من السماء. قرأ ابن عامر «منزلون» بالتشديد. وبها قرأ ابن عباس. وقرأ الباقون بالتخفيف، والباء في ﴿يما كانوا يفسقون﴾ للسببية: أي: لسبب فسقهم ﴿ولقد تركنا منها آية بيّنة﴾ أي: أبقينا من القرية علامة، ودلالة بيّنة، وهي الآثار التي بها من الحجارة رجموا بها، وخراب الديار. وقال مجاهد: هو الماء الأسود الباقي على وجه أرضهم، ولا مانع من حمل الآية على جميع ما ذكر، وخص من يعقل، لأنه الذي يفهم أن تلك الآثار عبرة يعتبر بها من يراها ﴿والى مدين لأخاهم شعيباً﴾ أي: وأرسلناه إليهم، وقد تقدّم ذكره، وذكر نسبه، وذكر قومه في سورة الأعراف، وسورة هود ﴿قال يا قوم اعبدوا الله﴾ أي: اقرّبوه بالعبادة، وخصوه بها ﴿وارجوا لليوم الآخر﴾ أي: توقّعوه، وافعلوا اليوم من الأعمال ما يرفع عذابه عنكم. قال يونس النحوي: معناه: أخشوا الآخرة التي فيها الجزاء على الأعمال ﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ العثو، والغنى أشد الفساد. وقد تقدّم تفسيره ﴿فأخذتهم الرجفة﴾ أي: الزلزلة، وتقدّم في سورة هود: ﴿واخذ الذين ظلموا الصيحة﴾ [هود: 67] أي: صيحة جبريل، وهي سبب الرجفة ﴿فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾ أي: أصبحوا في بلدهم، أو منازلهم جاثمين على الركب ميتين ﴿وعاداً وعوداً﴾ قال الكسائي: قال بعضهم: هو راجع إلى أول السورة: أي: ولقد فتنا الذين من قبلهم، وفتنا عاداً، وثمود، قال: وأحب إلي أن يكون على ﴿فأخذتهم الرجفة﴾ أي: وأخذت عاداً، وثمود. وقال الزجاج: التقدير، وأهلكنا عاداً، وثمود، وقيل: المعنى: واذكر عاداً، وثموداً إذ أرسلنا إليهم هوداً، وصالحاً ﴿وقد تبين لكم من مساكنهم﴾ أي: وقد ظهر لكم يا معشر الكفار من مساكنهم بالحجر، والأحاف آيات بينات تتعظون بها، وتتفكرون فيها، ففاعل تبين محذوف ﴿وزين لهم الشيطان أعمالهم﴾ التي يعملونها من الكفر، ومعاصي الله ﴿فصدّهم﴾ بهذا التزيين ﴿عن السبيل﴾ أي: الطريق الواضح الموصل إلى الحق ﴿وكانوا مستبصرين﴾ أي: أهل بصائر يتمكنون بها من معرفة الحق بالاستدلال. قال الفراء: كانوا عقاء ذوي بصائر فلم تنفعهم بصائرهم، وقيل: المعنى: كانوا مستبصرين في كفرهم، وضلالتهم معجبين بها يحسبون أنهم على هدًى، ويرون أن أمرهم حق، فوصفهم بالاستبصار على هذا باعتبار ما عند أنفسهم ﴿وقارون وفرعون وهامان﴾ قال الكسائي: إن شئت كان محمولاً على «عاداً»، وكان فيه ما فيه، وإن شئت كان على «فصدّهم عن السبيل» أي: صدّ قارون وفرعون وهامان. وقيل التقدير: وأهلكنا هؤلاء بعد أن جاءتهم الرسل ﴿فاستكبروا في الأرض﴾ عن عبادة الله ﴿وما كانوا سابقين﴾ أي: فائتين، يقال: سبق طالبه: إذا فات: وقيل: وما كانوا سابقين في الكفر، بل قد سبقهم إليه قرون كثيرة، ﴿فكلاً أخذنا بنصيبه﴾ أي عاقبنا بكفره وتكذيبه. قال الكسائي ﴿فكلاً أخذنا﴾ أي فآخذنا كلاً بنسبه

مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الشَّكَرِ
اتَّخَذَتْ يَتًا وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ الْبُيُوتَ لَبَيَّتِ الشَّكَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ
﴿١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَمْلِكُ مَا يَشَاءُ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ
﴿٢﴾ وَلِلَّهِ الْأَمْثَلُ نَصْرُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْلَمُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٣﴾
خَلَقَ اللَّهُ الشَّكَرَ وَالْأَرْضَ وَالْهَوَّاءَ فِي ذَلِكَ لَأَيَّةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤﴾ أَتَى
مَا أَرْسَلَ إِلَيْكَ مِنَ الْكُتُبِ وَأَمِيرُ الْمَلَائِكَةِ لَكَ الْمَسْكُوتُ نَحْنُ عَنِ
الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٥﴾ وَلَا
تُحْدِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالْبَيِّنَاتِ هِيَ آمَنَ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا
آمَنَّا بِالَّذِينَ أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَحْدٌ وَحْدٌ لَمْ
مُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾

إليك من الكتاب أي: القرآن، وفيه الأمر بالتلاوة للقرآن، والمحافظة على قراءته مع التبرير لآياته، والتفكر في معانيه ﴿واقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ أي: دم على إقامتها، واستمر على أدائها كما أمرت بذلك، وجملة ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ تعليل لما قبلها، والفحشاء ما قبح من العمل، والمنكر ما لا يعرف في الشريعة: أي: تمنعه عن معاصي الله، وتبعده منها، ومعنى نهيا عن ذلك: أن فعلها يكون سبباً للانتهاة، والمراد هنا الصلوات المفروضة ﴿ولنذكر الله أكبر﴾ أي: أكبر من كل شيء: أي: أفضل من العبادات كلها بغير نكر. قال ابن عطية: وعندي أن المعنى: ولنذكر الله أكبر على الإطلاق: أي: هو الذي ينهى عن الفحشاء، والمنكر، فالجزء الذي منه في الصلاة يفعل ذلك، وكذلك يفعل ما لم يكن منه في الصلاة؛ لأن الانتهاة لا يكون إلا من ذكر الله مراقب له. وقيل نكر الله أكبر من الصلاة في النهي عن الفحشاء، والمنكر مع المدلومة عليه. قال الفراء، وابن قتيبة: المراد بالذكر في الآية التسبيح، والتهليل، يقول: هو أكبر، وأحرى بأن ينهى عن الفحشاء، والمنكر. وقيل: المراد بالذكر هنا الصلاة: أي: وللصلاة أكبر من سائر الطاعات، وعبر عنها بالذكر كما في قوله: ﴿فاسعوا إلى ذكر الله﴾ [الجمعة: 9] للدلالة على أن ما فيها من الذكر هو العمدة في تفضيلها على سائر الطاعات، وقيل: المعنى: ولنذكر الله لكم بالثواب، والثناء عليكم منه أكبر من نكركم له في عبادتكم، وصلواتكم، واختار هذا ابن جرير، ويؤيده حديث: «من ذكرني في نفسه نكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملاء نكرته في ملاء خير منهم» ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى الْفِتْنَةِ أُولَئِكَ يَجْزِيهِمْ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ لا تخفى عليه من ذلك خافية، فهو مجازيكم بالخير خيراً، وبالشر شراً ﴿وَلَا تَجَانِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي: إلا بالخصلة التي هي أحسن، وذلك على سبيل الدعاء لهم إلى الله عز وجل، والتنبية لهم على حجبهم، وبراهينهم رجاء إجابتهم إلى الإسلام، لا على طريق الإغلاظ، والمخاشنة ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ بأن أفرطوا في المجاملة، ولم يتأثبوا مع المسلمين فلا بأس بالإغلاظ عليهم، والتخشيش في مجاملتهم، هكذا فسر الآية أكثر المفسرين بأن المراد بأهل الكتاب اليهود، والنصارى. وقيل: معنى الآية: لا تجادلوا من آمن بمحمد من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام، وسائر من آمن منهم إلا بالتي هي أحسن: يعني: بالموافقة فيما حثوكم به من أخبار أهل الكتاب، ويكون المراد بالذين ظلموا على هذا القول هم الباقون على كفرهم. وقيل: هي الآية منسوخة بآيات القتال، وبذلك قال قتادة، ومقاتل. قال النحاس: من قال: هذه منسوخة احتج بأن الآية مكية، ولم يكن في ذلك الوقت قتال مفروض، ولا طلب جزية، ولا غير ذلك. قال سعيد بن جبير، ومجاهد: إن المراد بالذين ظلموا منهم الذين نصبوا القتال للمسلمين، فجدالهم بالسيف حتى يسلموا، أو يعطوا الجزية ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ من القرآن

قوله: ﴿مِثْلَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِيَاءَ﴾ يوالونهم، ويتكلمون عليهم في حاجاتهم من دون الله سواء كانوا من الجمل، أو الحيوان، ومن الأحياء، أو من الأموات ﴿كَمِثْلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ فإن بيتها لا يغني عنها شيئاً لا في حر، ولا قر، ولا مطر، كذلك ما اتخذوه ولياً من دون الله، فإنه لا ينفعهم بوجه من وجوه النفع، ولا يغني عنهم شيئاً. قال الفراء: هو مثل ضربه الله لمن اتخذ من دونه آلهة لا تنفعه، ولا تضره، كما أن بيت العنكبوت لا يقبها حرّاً، ولا برداً. قال: ولا يحسن الوقف على العنكبوت؛ لأنه لما قصد بالتشبيه لبيتها الذي لا يقبها من شيء شبهت الآلهة التي لا تنفع، ولا تضر به، وقد جوز الوقف على العنكبوت الاخفش، وغلطه ابن الأنباري قال: لأن اتخذت صلة للعنكبوت كأنه قال: كمثال العنكبوت التي اتخذت بيتاً، فلا يحسن الوقف على الصلة بون الموصول، والعنكبوت تقع على الواحد، والجمع، والمنكر، والمؤنث، وتجمع على عنكب، وعنكبوتات، وهي: النويبة الصغيرة التي تنسج نسجاً رقيقاً. وقد يقال لها: عنكب، ومنه قول الشاعر: كأنما يسقط من لغامها بيت عنكب على زمامها ﴿وَأَنْ لَوْ هُنَّ لَبَيُّوتٌ لَبِيتَ الْعَنْكَبُوتُ﴾ لا بيت أضعف منه مما يتخذ الهوام بيتاً، ولا يدانيه في الوهي، والوهن شيء من ذلك ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أن اتخذهم الأولياء من دون الله كاتخاذ العنكبوت بيتاً، أو لو كانوا يعلمون شيئاً من العلم لعلموا بهذا ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ ما استفهامية، أو نافية، أو موصولة، ومن للتبعيض، أو مزيدة للتوكيد. وقيل: إن هذه الجملة على إضمار القول: أي: قل للكافرين: إن الله يعلم أي شيء يدعون من دونه. وحرم أبو علي الفارسي بأنها استفهامية، وعلى تقدير النفي كأنه قيل: إن الله يعلم أنكم لا تدعون من دونه من شيء: يعني: ما تدعونه ليس بشيء، وعلى تقدير الموصولة: إن الله يعلم الذين تدعونهم من دونه، ويجوز أن تكون ما مصدرية، ومن شيء عبارة عن المصدر. قرأ عاصم، وأبو عمرو، ويعقوب (يدعون) بالتحية. واختار هذه القراءة أبو عبيد لنكر الأم قبل هذه الآية. وقرأ الباقون بالفوقية على الخطاب ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الغالب المصدر أفعاله على غاية الإحكام، والإتقان ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ أي: هذا المثل، وغيره من الأمثال التي في القرآن نضربها للناس تنبيهاً لهم، وتقريباً لما بعد من أفهامهم ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا﴾ أي: يفهمها، ويتعقل الأمر الذي ضربناها لأجله ﴿إِلَّا الْعَالَمُونَ﴾ بالله الراسخون في العلم المتدبرون المتفكرون لما يتلى عليهم، وما يشاهدونه ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالعدل، والقسط مراعيًا في خلقها مصالح عباد. وقيل: المراد بالحق كلامه، وقدرته، ومحل الحق النصب على الحال ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: لدلالة عظيمة، وعلامة ظاهرة على قدرته، وتفرده بالإلهية، وخص المؤمنين؛ لأنهم الذين ينتفعون بذلك ﴿أَتَلْتَمَوْا لَوْحًا﴾

المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب عن عبد الله بن ربيعة قال: سألني ابن عباس عن قول الله: **﴿وَلَنُكَرِّهَنَّكَ أَكْبَرَ﴾** فقلت: ذكر الله بالتسبيح، والتهيل، والتكبير قال: لنكر الله إياكم أكبر من نكركم إياه، ثم قال: انكروني أنكركم. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن جرير عن ابن مسعود **﴿وَلَنُكَرِّهَنَّكَ أَكْبَرَ﴾** قال: نكر الله العبد أكبر من نكر العبد لله. وأخرج ابن السني، وابن مريويه، والديلمي عن ابن عمر نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في الآية قال: لها وجهان: نكر الله أكبر مما سواه، وفي لفظ: نكر الله عند ما حرّمه، ونكر الله إياكم أعظم من نكركم إياه. وأخرج أحمد في الزهد، وابن المنذر عن معاذ بن جبل قال: ما عمل آدمي عملاً أنجى له من عذاب الله من نكر الله، قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: ولا أن يضرب بسيفه حتى يقطع، لأن الله يقول في كتابه العزيز: **﴿وَلَنُكَرِّهَنَّكَ أَكْبَرَ﴾**. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، والحاكم في الكنى، والبيهقي في الشعب عن عنترة قال: قلت لابن عباس: أي العمل أفضل؟ قال: نكر الله. وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله: **﴿وَلَا تَجَالِبُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالْبَاطِلِ﴾** قال: بلا إله إلا الله. وأخرج البخاري، والنسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة قال: كان أهل الكتاب يقرعون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «لا تصنعوا أهل الكتاب، ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا بالذي أنزل إلينا، وأنزل إليكم، وللهنا، ولهم واحد، ونحن له مسلمون». وأخرج البيهقي في الشعب، والديلمي، وأبو نصر السجزي في الإبانة عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسالوا أهل الكتاب عن شيء، فإنهم لن يهتدوا، وقد ضلوا، إما أن تصنعوا بباطل، أو تكذبوا بحق، والله لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حلّ له إلا أن يتبعني». وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير عن ابن مسعود قال: لا تسالوا أهل الكتاب، ونكر نحو حديث جابر، ثم قال: فإن كنتم سألهم لا محالة، فانظروا ما واطأ كتاب الله، فخذوه، وما خالف كتاب الله، فدعوه.

وَكَذَلِكَ أَرْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ قَالَيْنَ إِنَّهُمْ لَنِفْسٍ مُّوْتِرَةٌ يَوْمَ تَكُونُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَا يَحْصُرُ بِأَيْدِينَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿٧﴾ وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّ بِسَبِيحٍ إِذَا لَرْتَابَ الْمُطْلُونَ ﴿٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُورِ الْأَنْبِيَاءِ أَوْفُوا أَوَّلَهُ وَمَا يَحْصُرُ بِأَيْدِينَا إِلَّا الْفَالِقُونَ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أَرْزَلَهُ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَلَئِنَّا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةٌ وَذِكْرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ قُلْ كُونُوا لِلَّهِ بَنِينَ ذَوَاتِ أَلْوَافٍ وَتَتَكَلَّمُ بِحَمْدِهِ يَوْمَ تَكُونُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَا يَحْصُرُ بِأَيْدِينَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿١٢﴾

﴿وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمُ﴾ من التوراة، والإنجيل: أي: آمنا بأنهما منزلان من عند الله، وأتتهما شريعة ثابتة إلى قيام الشريعة الإسلامية، والبعثة المحمدية، ولا يدخل في ذلك ما حرّفوه، ويملّوه **﴿وَالِهَنَا وَالْهَكْمَ وَاحِدٌ﴾** لا شريك له، ولا ضدّ، ولا ندّ **﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾** أي: ونحن معاشر أمة محمد مطيعون له خاصة، لم نقل: عزير ابن الله، ولا المسيح ابن الله، ولا اتخذنا أحيارنا، ورهباننا أرباباً من دون الله، ويحتمل أن يراد: ونحن جميعاً منقادون له، ولا يقدر في هذا الوجه كون انقياد المسلمين أتم من انقياد أهل الكتاب، وطاعتهم أبلغ من طاعتهم.

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: **﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾** الآية قال: ذاك مثل ضربه الله لمن عبد غيره أن مثله كمثل بيت العنكبوت. وأخرج أبو داود في مراسيله عن يزيد بن مرثد قال: قال رسول الله ﷺ: «العنكبوت شيطان مسخها الله، فمن وجدها، فليقتلها». وأخرج ابن أبي حاتم عن يزيد بن مسرة قال: العنكبوت شيطان. وأخرج الخطيب عن عليّ قال: قال رسول الله ﷺ: «دخلت أنا، وأبو بكر الغار، فاجتمعت العنكبوت، فنسجت بالباب، فلا تقتلوها» وروى القرطبي في تفسيره عن عليّ أيضاً أنه قال: طهروا بيوتكم من نسج العنكبوت، فإن تركه في البيت يورث الفقر. وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء الخراساني قال: نسجت العنكبوت مرتين مرة على داود، والثانية على النبي ﷺ. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **﴿إِنْ الصَّلَاةُ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾** قال: في الصلاة منتهى ومزجر عن المعاصي. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مريويه عن عمران بن حصين قال: «سئل النبي ﷺ عن قول الله: **﴿إِنْ الصَّلَاةُ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾** فقال: من لم تنه صلته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له». وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مريويه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم تنه صلته عن الفحشاء والمنكر لم يزد بها من الله إلا بعداً». وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، والبيهقي في الشعب عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم تنه صلته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له»، وفي لفظ لم يزد بها من الله إلا بعداً. وأخرج الخطيب عن ابن عمر مرفوعاً نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن مريويه عن ابن مسعود مرفوعاً نحوه. قال السيوطي: وسنده ضعيف. وأخرج سعيد بن منصور، وأحمد في الزهد، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني في الشعب عنه نحوه موقوفاً. قال ابن كثير في تفسيره: والأصح في هذا كله الموقوفات عن ابن مسعود، وابن عباس، والحسن، وقتادة، والأعمش، وغيرهم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **﴿وَلَنُكَرِّهَنَّكَ أَكْبَرَ﴾** يقول: ولنكر الله لعباده إذا نكروه أكبر من نكرهم إياه. وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن

آيات من ربه ﴿أي: قال المشركون هذا القول، والمعنى: هلا أنزلت عليه آيات كآيات الأنبياء، وذلك كآيات موسى، وناقة صالح، وإحياء المسيح للموتى، ثم أمره الله سبحانه أن يجيب عليهم، فقال: ﴿قل إنما الآيات عند الله﴾ ينزلها على من يشاء من عباده، ولا قدرة لأحد على ذلك ﴿وإنما أنا نذير مبين﴾ أنذركم كما أمرت، وأبين لكم كما ينبغي، ليس في قدرتي غير ذلك. قرأ ابن كثير، وأبو بكر، وحمزة، والكسائي (لولا أنزل عليه آية) بالإفراد. وقرأ الباقون بالجمع، واختار هذه القراءة أبو عبيد لقوله: (قل إنما الآيات) ﴿أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم﴾ هذه الجملة مستأنفة للرد على اقتراحهم، وبيان بطلانه: أي: أو لم يكف المشركين من الآيات التي اقترحوها هذا الكتاب المعجز الذي قد تحذيتهم بأن يأتوا بمثله، أو بسورة منه، فعجزوا، ولو أتيتهم بآيات موسى، وآيات غيره من الأنبياء لما آمنوا، كما لم يؤمنوا بالقرآن الذي يتلى عليهم في كل زمان، ومكان ﴿إن في ذلك﴾ الإشارة إلى الكتاب الموصوف بما نكر ﴿لرحمة﴾ عظيمة في الدنيا، والآخرة ﴿ونكرى﴾ في الدنيا يتذكرون بها، وترشدكم إلى الحق ﴿لنقوم يؤمنون﴾ أي: لقوم يصليون بما جئت به من عند الله، فإنهم هم الذين ينتفعون بذلك ﴿قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً﴾ أي: قل للمكذبين: كفى الله شهيداً بما وقع بيني، وبينكم ﴿يعلم ما في السموات والأرض﴾ لا تخفى عليه من ذلك خافية، ومن جملته ما صدر بينكم، وبين رسوله ﴿والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون﴾ أي: آمنوا بما يعبدونه من دون الله، وكفروا بالحق، وهو: الله سبحانه، أولئك هم الجامعون بين خسران الدنيا، والآخرة ﴿ويستعجلونك بالعذاب﴾ استهزاء، وتكنياً منهم بذلك كقولهم: ﴿أمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ [الأنفال: 32] ﴿ولولا أجل مسمى﴾ قد جعله الله لعذابهم، وعينه، وهو القيامة، وقال الضحاك: الأجل مدة أعمارهم؛ لأنهم إذا ماتوا صاروا إلى العذاب ﴿لجاءهم العذاب﴾ أي: لولا ذلك الأجل المضروب لجاءهم العذاب الذي يستحقونه بذنوبهم. وقيل: المراد بالأجل المسمى النفخة الأولى، وقيل: الوقت الذي قدره الله لعذابهم في الدنيا بالقتل، والأسر يوم بدر. والحاصل أن لكل عذاب أجلاً لا يتقدم عليه، ولا يتأخر عنه كما في قوله سبحانه: ﴿لكل نيا مستقر﴾ [الأنعام: 67] وجملة ﴿وليأتينهم بفتة﴾ مستأنفة مبينة لمجيء العذاب المذكور قبلها، ومعنى بفتة: فجأة، وجملة ﴿وهم لا يشعرون﴾ في محل نصب على الحال: أي: حال كونهم لا يعلمون بآتيانه، ثم نكر سبحانه أن موعد عذابهم النار، فقال: ﴿يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾ أي: يطلبون منك تعجيل عذابهم، والحال أن مكان العذاب محيط بهم: أي: سيحيط بهم عن قرب، فإن ما هو آت قريب، والمراد بالكافرين جنسهم، فيدخل فيه هؤلاء المستعجلون دخولاً أولياً، فقوله:

﴿يَسْتَعْجِلُكَ بِالعَذَابِ وَلَوْ أَنَّ أَجَلَ لِحَاقِكُمُ الْعَذَابَ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿يَسْتَعْجِلُكَ بِالعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالكافرين﴾ ﴿يَوْمَ يَشْفَعُ عَذَابُهُمْ مِنَ فَوْقِهِمْ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَآتِيهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

قوله: ﴿وكنك أنزلنا إليك الكتاب﴾ هذا خطاب لرسول الله ﷺ، والإشارة إلى مصدر الفعل كما بيناه في مواضع كثيرة: أي: ومثل ذلك الإنزال البديع أنزلنا إليك الكتاب، وهو: القرآن، وقيل: المعنى: كما أنزلنا الكتاب عليهم أنزلنا عليك القرآن ﴿فالقائين آتيناهم الكتاب يؤمنون به﴾ يعني: مؤمني أهل الكتاب كعبد الله بن سلام، وخصهم بليتائهم الكتاب لكونهم العاملين به، وكان غيرهم لم يؤتوه لعدم عملهم بما فيه، وجحدهم لصفات رسول الله ﷺ المنكورة فيه ﴿ومن هؤلاء من يؤمن به﴾ الإشارة إلى أهل مكة، والمراد أن منهم، وهو من قد أسلم من يؤمن به: أي: بالقرآن، وقيل: الإشارة إلى جميع العرب ﴿وما يجحد بآياتنا﴾ أي: آيات القرآن ﴿إلا الكافرون﴾ المصممون على كفرهم من المشركين، وأهل الكتاب ﴿وما كنت تتلوا من قبله من كتاب﴾ الضمير في قبله راجع إلى القرآن؛ لأنه المراد بقوله: أنزلنا إليك الكتاب: أي: ما كنت يا محمد تقرأ قبل القرآن كتاباً، ولا تقدر على ذلك؛ لأنك أمي لا تقرأ، ولا تكتب ﴿ولا تخطه يمينك﴾ أي: ولا تكتبه؛ لأنك لا تقدر على الكتابة. قال مجاهد: كان أهل الكتاب يجنون في كتبهم أن محمداً ﷺ لا يخط، ولا يقرأ، فنزلت هذه الآية. قال النحاس: وذلك دليل على نبوته؛ لأنه لا يكتب، ولا يخالط أهل الكتاب، ولم يكن بمكة أهل كتاب، فجاءهم بأخبار الأنبياء، والأمم ﴿إذا لارتاب المبطلون﴾ أي: لو كنت ممن يقدر على التلاوة، والخط لقالوا: لعله وجد ما يتلوه علينا من كتب الله السابقة، أو من الكتب المنوثة في أخبار الأمم، فلما كنت أمياً لا تقرأ، ولا تكتب لم يكن هناك موضع للريبة، ولا محل للشك أبداً، بل إنكار من أنكروا، وكفر من كفر مجرد عناد، وجود بلا شبهة، وسامم مبطلين؛ لأن ارتيابهم على تقدير أنه ﷺ يقرأ ويكتب ظلم منهم لظهور نزاهته، ووضوح معجزاته ﴿بل هو آيات بينات﴾ يعني: القرآن ﴿في صدور الذين أوتوا العلم﴾ يعني: المؤمنين الذين حفظوا القرآن على عهد ﷺ، وحفظوه بعده، وقال قتادة، ومقاتل: إن الضمير يرجع إلى النبي ﷺ: أي: بل محمد آيات بينات: أي: نو آيات. وقرأ ابن مسعود (بل هي آيات بينات) قال الفراء: معنى هذه القراءة: بل آيات القرآن آيات بينات.. واختار ابن جرير ما قاله قتادة، ومقاتل، وقد استدلل لما قاله بقرأة ابن السميع (بل هذا آيات بينات) ولا دليل في هذه القراءة على ذلك، لأن الإشارة يجوز أن تكون إلى القرآن كما جاز أن تكون إلى النبي ﷺ، بل رجوعها إلى القرآن أظهر لعدم احتياج ذلك إلى التأويل، والتقدير ﴿وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون﴾ أي: المجاوزون للحد في الظلم ﴿وقالوا لولا أنزل عليه

أما ترى وجه رسول الله ﷺ، فقال عمر: رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً، فسرني عن رسول الله ﷺ، وقال: لو نزل موسى فاتبعتموه، وتركتموني لضللتكم، أنا حظكم من النبيين، وأنتم حظي من الامم». وأخرج نحوه عبد الرزاق، والبيهقي من طريق أبي قلابة عن عمر. وأخرج البيهقي، وصححه عن عمر بن الخطاب قال: «سألت رسول الله ﷺ عن تعلم التوراة، فقال: لا تتعلمها، وأمن بها، وتعلموا ما أنزل إليكم، وأمنوا به». وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾ قال: جهنم هو هذا البحر الأخضر تنتشر الكواكب فيه، وتكون فيه الشمس، والقمر، ثم يستوقد، فيكون هو: جهنم، وفي هذا نكارة شديدة، فإن الأحاديث الكثيرة الصحيحة ناطقة بأن جهنم موجودة مخلوقة على الصفات التي ورد بها الكتاب والسنة.

يَعْبَادُ اللَّهِ أَمَّا إِلَىٰ أَرْضِ رَيْمَةَ فَأَنِّي فَأَعْبُدُونَ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ دَائِقَةُ الْعَذَابِ ثُمَّ إِنَّا رَجَعْنَاهُ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَتَبْنَا لَهُمْ مِن الْجَنَّةِ غُرًّا يُجْرُونَ فِيهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا يَسْمِعُونَ أَصْوَابَ الَّذِينَ هُمَا فِيهَا وَعَلَىٰ رِجْمِهِمْ يَقْرَأُونَ ﴿٥٨﴾ وَكَانَ مِن دَائِقَةٍ لَا تَحِيلُ رِزْقُهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَلِيَاكُم وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٥٩﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مِّنْ خَلْقِ السَّمَكِ وَالْأَرْضِ وَسَرِّ السَّمَكِ وَالْقَمَرِ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٦٠﴾ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مِّنْ شَيْءٍ مِّنَ السَّمَكِ مَا فَعَلْنَا بِهِ الْأَرْضِ مِن بَدْوٍ مَّوْنَهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهيَّ الْحَيَاةُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَإِنَّا رَجَعْنَاهَا فِي الشَّلَالِ دَعَا اللَّهُ عَالَمِينَ لَهُ الَّذِينَ قُلْنَا جَنَنَهُمْ إِلَىٰ آلِ لَيْلٍ إِذَا هُمْ يَشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ يَكْفُرُوا بِمَا آمَنَتْهُمْ وَلَيَسْتَمِيعُنَّ مَقُوفٌ يَعْلَمُونَ ﴿٦٥﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مَّاوِيَاً وَحَفَفْنَا النَّاسَ مِنْ حَوْلِهِمْ أَهْلًا لِّيَطْلُبُوا يُسْرًا وَيَشْرًا اللَّهُ يَكْفُرُ مَنَ وَنَ أَعْلَمُ مَنَ أَفْذَقَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٧﴾

لما نكر سبحانه حال الكفرة من أهل الكتاب، ومن المشركين، وجمعهم في الإنذار، وجعلهم من أهل النار اشتد عنادهم، وزاد فسادهم، وسعوا في إيذاء المسلمين بكل وجه، فقال الله سبحانه: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أضافهم إليه بعد خطابه لهم تشريفاً، وتكريماً، والذين آمنوا صفة موصحة، أو مميزة ﴿إِن أَرْضِي وَاسِعَةً﴾ إن كنتم في ضيق بمكة من إظهار الإيمان، وفي مكيدة للكفار، فآخروا منها؛ لتتيسر لكم عبادتي وحدي، وتسهل عليكم. قال الزجاج: أمروا بالهجرة من الموضع الذي لا يمكنهم فيه عبادة الله، وكذلك يجب على من كان في بلد يعمل فيها بالمعاصي، ولا يمكنه تغيير ذلك أن يهاجر إلى حيث يتهيأ له أن يعبد الله حق عبادته. وقال

﴿ويستعجلونك بالعذاب﴾ إخبار عنهم، وقوله ثانياً: ﴿يستعجلونك بالعذاب﴾ تعجب منهم، وقيل: التكرير للتأكيد. ثم نكر سبحانه كيفية إحاطة العذاب بهم، فقال: ﴿يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾ أي: من جميع جهاتهم، فإذا غشاهم العذاب على هذه الصفة، فقد أحاطت بهم جهنم ﴿ونقول نوقوا ما كنتم تعملون﴾ القائل: هو الله سبحانه، أو بعض ملائكته يأمره، أي: نوقوا جزاء ما كنتم تعملون من الكفر، والمعاصي. قرأ أهل المدينة^(١)، والكوفة (نقول) بالنون. وقرأ الباقون بالتحية، واختار القراءة الأخيرة أبو عبيد لقوله: ﴿قل كفى بالله﴾، وقرأ ابن مسعود، وابن أبي عتبة (ويقال نوقوا).

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مروي، والإسماعيلي في معجمه عن ابن عباس في قوله: ﴿وما كنتم تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك﴾ قال: لم يكن رسول الله ﷺ يقرأ ولا يكتب كان أمياً، وفي قوله: ﴿وبل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم﴾ قال: كان الله أنزل شأن محمد في التوراة، والإنجيل لأهل العلم، وعلمه لهم، وجعله لهم آية، فقال لهم: إن آية نبوته أن يخرج حين يخرج، ولا يعلم كتاباً، ولا يخطه بيمينه، وهي الآيات البينات التي قال الله تعالى. وأخرج البيهقي في سننه عن ابن مسعود في قوله: ﴿وما كنتم تتلوا من قبله من كتاب﴾ الآية قال: لم يكن رسول الله ﷺ يقرأ، ولا يكتب. وأخرج القرطبي، والدارمي، وأبو داود في مراسيله، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن يحيى بن جعدة قال: جاء أناس من المسلمين يكتبون كتبها فيها بعض ما سمعوه من اليهود، فقال النبي ﷺ: «كفى بقوم حمقاً، أو ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إليهم إلى ما جاء به غيره إلى غيرهم» فنزلت ﴿أولم يكفهم﴾ الآية. وأخرجه الإسماعيلي في معجمه، وابن مروي من طريق يحيى بن جعدة عن أبي هريرة، فنكره بمعناه. وأخرج عبد الرزاق في المصنف، والبيهقي في الشعب عن الزهري: «أن حفصة جاءت إلى النبي ﷺ بكتاب من قصص يوسف في كتف، فجعلت تقرأه، والنبي ﷺ يتلون وجهه، فقال: والذي نفسي بيده لو أتاكم يوسف، وأنا نبيكم فاتبعتموه، وتركتموني لضللتكم». وأخرج عبد الرزاق، وابن سعد، وابن الضريس، والحاكم في الكنى، والبيهقي في الشعب عن عبد الله بن الحارث الأنصاري قال: «دخل عمر بن الخطاب على النبي ﷺ بكتاب فيه مواضع من التوراة، فقال: هذه أصبتها مع رجل من أهل الكتاب عرضها عليك، فتغير وجه رسول الله ﷺ تغيراً شديداً لم أر مثله قط، فقال عبد الله بن الحارث لعمر:

(١) (قوله قرأ أهل المدينة إلخ) هكذا بالأصل ولعله سهو أو سبق قام، والصواب أن أهل المدينة والكوفة يقرءون ويقولون بالياء التحية والباقيون بالنون اهـ. ع.

مطرف بن الشخير: المعنى: إن رحمتي واسعة، ورزقي لكم واسع، فابتغوه في الأرض. وقيل: المعنى: إن أرضي التي هي أرض الجنة واسعة، فاعبدون حتى أورثكموها. وانتصاب إياي بفعل مضمّن: أي: فاعبدوا إياي. ثم خوفهم سبحانه بالموت: ليهون عليهم أمر الهجرة، فقال: ﴿كُلْ نَفْسٌ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ أي: كل نفس من النفوس واجدة مرارة الموت لا محالة، فلا يصعب عليكم ترك الأوطان، ومفارقة الإخوان، والخلان، ثم إلى الله المرجع بالموت، والبعث لا إلى غيره، فكل حي في سفر إلى دار القرار، وإن طال لبثه في هذه الدار ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ في هذا الترغيب إلى الهجرة، وأن جزاء من هاجر أن يكون في غرف الجنة، ومعنى ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾: لننزلنهم غرف الجنة، وهي علائها: فانتصاب غرfa على أنه المفعول الثاني على تضمين نبوتهم معنى: ننزلنهم، أو على الطرفية مع عدم التضمين، لأن نبوتهم لا يتعدى إلا إلى مفعول واحد، وإما منصوب بنزع الخافض اتساعاً: أي: في غرف الجنة، وهو مأخوذ من المباءة، وهي: الإنزال. قرأ أبو عمرو، ويعقوب، والجحدري، وابن أبي إسحاق، وابن محيصن، والأعمش، وحزمة، والكسائي، وخلف (يا عبادي) بإسكان الياء، وفتحها الباقون. وقرأ ابن عامر (إن أرضي) بفتح الياء، وسكنها الباقون. وقرأ السلمي، وأبو بكر عن عاصم (يرجعون) بالتحية، وقرأ الباقون بالفوقية. وقرأ ابن مسعود، والأعمش، ويحيى بن وثاب وحزمة، والكسائي (لننوينهم) بالياء المثلثة مكان الياء الموحدة، وقرأ الباقون بالياء الموحدة، ومعنى لننوينهم بالمثلثة: لنعطينهم غرfaً يثوون فيها من الثوى، وهو: الإقامة. قال الزجاج، يقال: ثوى الرجل: إذا أقام، وثاويته: إذا أنزلته منزلاً يقيم فيه. قال الأخفش: لا تعجبني هذه القراءة، لأنك لا تقول: ثاويته الدار، بل تقول: في الدار، وليس في الآية حرف جرّ في المفعول الثاني. قال أبو علي الفارسي: هو على إرادة حرف الجرّ، ثم حذف كما تقول: أمرتك الخير: أي: بالخير. ثم وصف سبحانه تلك الغرف، فقال: ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: من تحت الغرف ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: في الغرف لا يموتون أبداً، أو في الجنة، والأوّل أولى ﴿نَعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ المخصوص بالمدح محذوف: أي: نعم أجر العاملين أجراً، والمعنى: العاملين للأعمال الصالحة. ثم وصف هؤلاء العاملين، فقال: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على مشاق التكليف، وعلى آذية المشركين لهم، ويجوز أن يكون منصوباً على المدح ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: يفوضون أمورهم إليه في كل إقدام، وإحجام. ثم ذكر سبحانه ما يعين على الصبر، والتوكل، وهو النظر في حال الدواب، فقال: ﴿وَوَكَلَيْنَ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ قد تقدّم الكلام في كاي، وإن أصلها أي: نخلت عليه كاف التشبيه،

وصار فيها معنى: كم كما صرح به الخليل، وسيبويه، وتقديرها عندهما كشيء كثير من العدد من دابة. وقيل: المعنى: وكم من دابة. ومعنى «لا تحمل رزقها» لا تطيق حمل رزقها لضعفها، ولا تنخره، وإنما يرزقها الله من فضله، ويرزقكم، فكيف لا يتوكلون على الله مع قوتهم، وقدرتهم على أسباب العيش كتوكلها على الله مع ضعفها، وعجزها. قال الحسن: تاكل لوقتها، لا تنخر شيئاً. قال مجاهد: يعني: الطير، والبهائم تاكل باقواها، ولا تحمل شيئاً ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ الذي يسمع كل مسموع ﴿الْعَلِيمُ﴾ بكل معلوم. ثم إنه سبحانه ذكر حال المشركين من أهل مكة، وغيرهم، وعجب السامع من كونهم يقرّون بأنه خالقهم، ورازقهم، ولا يوحدونه، ويتركون عبادة غيره، فقال: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَخَسَرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ أي: خلقها، لا يقدرون على إنكار ذلك، ولا يتمكنون من جحوده ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أي: فكيف يصرفون عن الإقرار بتفريده بالإلهية، وأنه وحده لا شريك له، والاستفهام للإنكار، والاستبعاد. ولما قال المشركون لبعض المؤمنين: لو كنتم على حق لم تكونوا فقراء دفع سبحانه ذلك بقوله: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ أي: التوسيع في الرزق، والتقدير له هو من الله الباسط القابض يبسطه لمن يشاء، ويضيقه على من يشاء على حسب ما تقتضيه حكمته، وما يليق بحال عباده من القبض، والبسط، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يعلم ما فيه صلاح عباده، وفسادهم ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَاحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ أي: نزله، وأحيا به الأرض الله، يعترفون بذلك لا يجدون إلى إنكاره سبيلاً. ثم لما اعترفوا هذا الاعتراف في هذه الآيات، وهو يقتضي بطلان ما هم عليه من الشرك، وعدم أفراد الله سبحانه بالعبادة، أمر رسوله ﷺ أن يحمد الله على إقرارهم، وعدم جحودهم مع تصلبهم في العناد، وتشدّدهم في ردّ كل ما جاء به رسول الله من التوحيد، فقال: ﴿قُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: أحمد الله على أن جعل الحق معك، وأظهر حجرك عليهم، ثم نهم فقال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ الأشياء التي يتعلّقها العقلاء. فلذلك لا يعملون بمقتضى ما اعترفوا به مما يستلزم بطلان ما هم عليه عند كل عاقل. ثم أشار سبحانه إلى تحقير الدنيا، وأنها من جنس اللعب، واللهو: وأن الدار على الحقيقة هي: دار الآخرة، فقال: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ من جنس ما يلهو به الصبيان، ويلعبون به ﴿وَأَنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾. قال ابن قتبية، وأبو عبيدة: إن الحيوان الحياة. قال الواحدي: وهو قول جميع المفسرين ذهبوا إلى أن معنى الحيوان هنا: الحياة، وأنه مصدر بمنزلة الحياة، فيكون كالنزوان، والغليان، ويكون التقدير: وإن الدار الآخرة

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ أي: جاهدوا في شأن الله لطلب مرضاته، ورجاء ما عنده من الخير؛ لنهدينهم سبلنا: أي: الطريق الموصل إلينا. قال ابن عطية: هي مكية نزلت قبل فرض الجهاد العرفي، وإنما هو جهاد عام في دين الله، وطلب مرضاته، وقيل: الآية هذه نزلت في العباد. وقال إبراهيم بن أدهم: هي في الذين يعملون بما يعلمون ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ بالنصر، والعون، ومن كان معه لم يخذل، وبخلت لام التوكيد على مع بتأويل كونها اسماً، أو على أنها حرف، وبخلت عليها لإفادة معنى الاستقرار كما تقول: إن زيذاً لفي الدار، والبحث مقرر في علم النحو.

قد أخرج ابن مريويه عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: «لما نزلت هذه الآية ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: 30]؛ قلت: يا ربِّ أيموت الخلائق كلهم، ويبقى الأنبياء؟ فنزلت: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: 57]». وينظر كيف صحة هذا، فإن النبي ﷺ بعد أن يسمع قول الله سبحانه ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ يعلم أنه ميت، وقد علم أن من قبله من الأنبياء قد ماتوا، وأنه خاتم الأنبياء، فكيف ينشأ عن هذه الآية ما سأل عنه علي رضي الله عنه من قوله: «أيموت الخلائق ويبقى الأنبياء»، فلعل هذه الرواية لا تصح مرفوعة، ولا موقوفة. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، والبيهقي، وابن عساکر، قال السيوطي بسند ضعيف عن ابن عمر قال: «خرجت مع رسول الله ﷺ حتى دخل بعض حيطان المدينة، فجعل يلتقط التمر، ويأكل، فقال لي: مالك لا تأكل؟ قلت: لا أشتهيه يا رسول الله، قال: لكنني أشتهيه، وهذه صبح رابعة منذ لم ألق طعاماً، ولم أجده، ولو شئت لدعوت ربي، فأعطاني مثل ملك كسرى، وقيصر، فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت في قوم يحبون رزق سنتهم، ويضعف النيقين. قال: فوالله ما برحنا، ولا رمنا حتى نزلت ﴿وَكَايَنَ مِنْ دَلِيلَةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ الآية، فقال رسول الله ﷺ: إن الله لم يأمرني بكنز الدنيا، ولا باتباع الشهوات، ألا وإنني لا أكنز ديناراً، ولا درهماً، ولا أخبأ رزقاً لغد». وهذا الحديث فيه نكارة شديدة لمخالفته لما كان عليه النبي ﷺ، فقد كان يعطي نساءه قوت العام كما ثبت ذلك في كتب الحديث المعتمدة. وفي إسناده أبو العطف الجوزي، وهو ضعيف. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿وَأَنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ قال: باقية. وأخرج ابن أبي الدنيا، والبيهقي في الشعب عن أبي جعفر قال: قال رسول الله ﷺ: «يا عجباً كل العجب للمصنق بدار الحيوان، وهو يسعى لدار الغرور»، وهو مرسل.

لهي دار الحيوان، أو ذات الحيوان: أي: دار الحياة الباقية التي لا تزول، ولا ينقصها موت، ولا مرض، ولا هم، ولا غم ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ شيئاً من العلم لما أثروا عليها الدار الفانية المنقصة. ثم بين سبحانه أنه ليس المانع لهم من الإيمان إلا مجرد تأثير الحياة، فقال: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفَلَكِ دَعَا اللَّهُ مَخْلَصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: إذا انقطع رجالهم من الحياة، وخافوا الغرق رجعوا إلى القطرة، فدعوا الله وحده كائنين على صورة المخلصين له الذين يصدق نياتهم، وتركهم عند ذلك لدعاء الأصنام لعلمهم أنه لا يكشف هذه الشدة العظيمة النازلة بهم غير الله سبحانه ﴿فَلَمَّا نَجَاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ أي: فاجثوا المعاودة إلى الشرك، ودعوا غير الله سبحانه. والركوب هو: الاستعلاء، وهو متعد بنفسه، وإنما عدّي بكلمة في للإشعار بأن المركوب في نفسه من قبيل الأمكنة، واللام في ﴿ليُكْفِرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ وفي قوله: ﴿وَلِيُتِمَّمُوا﴾ للتعليل: أي: فاجثوا الشرك بالله؛ ليكفروا بنعمة الله، وليتمتعوا بهما، فهما في الفعلين لام كي، وقيل: هما لاما الأمر تهديداً، ووعيداً: أي: اكفروا بما أعطيناكم من النعمة، وتمتعوا، ويدل على هذه القراءة قراءة أبي (وتمتعوا) وهذا الاحتمال للامرين إنما هو على قراءة أبي عمرو، وابن عامر، وعاصم، وورش بكسر اللام، وأما على قراءة الجمهور بسكونها فلا خلاف أنها لام الأمر، وفي قوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ تهديد عظيم لهم: أي: فسيعلمون عاقبة ذلك، وما فيه من الويل عليهم ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا﴾ أي: ألم ينظروا: يعني: كفار قريش أننا جعلنا حرمهم هذا حرمًا آمناً يأمن فيه ساكنه من الغارة، والقتل، والسبي، والنهب، فصاروا في سلامة، وعافية مما صار فيه غيره من العرب، فإنهم في كل حين تطرقهم الغارات، وتحتاج أموالهم الغزاة، وتسفك نساءهم الجنود، وتستبيح حرمهم، وأموالهم شطار العرب، وشياطينها، وجملته ﴿وَيُخْطَفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ في محل نصب على الحال: أي: يختلسون من حولهم بالقتل والسبي، والنهب، والخطف: الأخذ بسرعة، وقد مضى تحقيق معناه في سورة القصص ﴿فَالْبَاطِلُ يُؤْمِنُونَ﴾، وهو: الشرك بعد ظهور حجة الله عليهم، وإقرارهم بما يوجب التوحيد ﴿وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ يجعلون كفرها مكان شكرها، وفي هذا الاستفهام من التقرير، والتوبيخ ما لا يقار قدره ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كِتَابًا﴾ أي: لا أحد أظلم منه، وهو من زعم أن الله شريكاً ﴿أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾ أي: كذب بالرسول الذي أرسل إليه، والكتاب الذي أنزله على رسوله. وقال السدي: كذب بالتوحيد، والظاهر شموله لما يصدق عليه أنه حق. ثم هذ المكذبين، وتوعدهم، فقال: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ أي مكان يستقرّون فيه والاستفهام للتقرير، والمعنى: أليس يستحقّون الاستقرار فيها، وقد فعلوا ما فعلوا. ثم لما ذكر حال المشركين الجاحدين للتوحيد الكافرين بنعم الله أرفده بحال عباداه الصالحين، فقال:

يظلمون» بالكفر، والتكذيب «ثم كان عاقبة الذين أساءوا» أي: عملوا السيئات من الشرك والمعاصي «السوأي» هي فعلى من السوء ثانيث الأسوأ، وهو: الأقبح: أي: كان عاقبتهم العقوبة التي هي أسوأ العقوبات، وقيل: هي اسم لجهنم كما أن الحسنى اسم للجنة، ويجوز أن تكون مصدرًا كالبحر، والذكرى، وصفت به العقوبة مبالغة. قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وعاقبة بالرفع على أنها اسم كان، وتكثير الفعل لكون ثانيثها مجازيًا. والخبر السوأي: أي: الفعلة، أو الخصلة، أو العقوبة السوأي، أو الخبر «أن كذبوا» أي: كان آخر أمرهم التكذيب، وقرأ الباقر «عاقبة» بالنصب على خبر كان، والاسم السوأي، أو أن كذبوا، ويكون التقدير: ثم كان للتكذيب عاقبة الذين أساءوا، والسوأي مصدر أساءوا، أو صفة لمحنوف. وقال الكسائي: إن قوله: «أن كذبوا» في محل نصب على العلة: أي: لأن كذبوا بآيات الله التي أنزلها على رسله، أو بأن كذبوا، ومن القائلين بأن السوأي: جهنم، الفراء، والزجاج، وابن قتيبة، وأكثر المفسرين، وسميت: سوأي لكونها تسوء صاحبها. قال الزجاج: المعنى: ثم كان عاقبة الذين أشركوا النار بتكذيبهم آيات الله، واستهزائهم، وجملة «وكانوا بها يستهزئون» عطف على كذبوا داخلة معه في حكم العلية على أحد القولين، أو في حكم الاسم لكان، أو الخبرية لها على القول الآخر.

وقد أخرج أحمد، والترمذي وحسنه، والنسائي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني في الكبير، والحاكم، وصححه، وابن مروي، والبيهقي في الدلائل، والضياع في المختارة عن ابن عباس في قوله: «وَالْمَ * غَلِبَتِ الرُّومَ» قال: كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم، لأنهم كانوا أصحاب أوثان، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس؛ لأنهم أصحاب كتاب، فذكروه لأبي بكر، فنكره أبو بكر لرسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «أما إنهم سيغلبون»، فنكره أبو بكر لهم، فقالوا: اجعل بيننا وبينك أجلاً فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا، فجعل بينهم أجلاً خمس سنين، فلم يظهروا، فنكر ذلك أبو بكر لرسول الله ﷺ، فقال: ألا جعلته أراه قال: دون العشر، فظهرت الروم بعد ذلك، فنلك قوله: «وَالْمَ * غَلِبَتِ الرُّومَ» فغلبت، ثم غلبت بعد بقول الله: «لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون * بنصر الله» قال سفيان: سمعت أنهم ظهروا عليهم يوم بدر. وأخرج أبو يعلى، وابن أبي حاتم، وابن مروي، وابن عساكر عن البراء بن عازب نحوه، وزاد: أنه لما مضى الأجل، ولم تغلب الروم فارساً، ساء النبي ما جعله أبو بكر من المدة، وكرهه وقال: ما دعاك إلى هذا؟ قال: تصديقاً لله ولرسوله، فقال: تعرض لهم، وأعظم الخطة، واجعله إلى بضع سنين، فأتاهم أبو بكر فقال: هل لكم في العود، فإن العود أحمد؟ قالوا: نعم، فلم تمض تلك السنون حتى غلبت الروم فارساً، وربطوا

وأسباب تحصيل فوائدهم الدنيوية، وقيل: هو ما تلقى الشياطين إليهم من أمور الدنيا عند استراقهم السمع، وقيل: الظاهر الباطل «وهم عن الآخرة» التي هي النعمة الدائمة، واللذة الخالصة «هم غافلون» لا يلتفتون إليها، ولا يعدون لها ما يحتاج إليه، أو غافلون عن الإيمان بها، والتصديق بمجيئها «وَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا» الهمة للإنكار عليهم، والواو للعطف على مقدر كما في نظائره، وفي أنفسهم ظرف للتفكر، وليس مفعولاً للتفكر، والمعنى: أن أسباب التفكير حاصلة لهم، وهي أنفسهم لو تفكروا فيها كما ينبغي لعلموا وحدانية الله، وصدق أنبيائه، وقيل: إنها مفعول للتفكر. والمعنى: أو لم يتفكروا في خلق الله إياهم، ولم يكونوا شيئاً، «وَمَا فِي مَا خَلَقَ اللَّهُ» نافية: أي: لم يخلقها إلا بالحق الثابت الذي يحق ثبوته، أو هي اسم في محل نصب على إسقاط الخافض: أي: مما خلق الله، والعامل فيها إما العلم الذي يؤدي إليه التفكير، وقال الزجاج في الكلام حذف: أي: فيعلموا، فجعل ما معموله للفعل المقدر لا للعلم المنلول عليه، والباء في «إِلَّا بِالْحَقِّ» إما للسببية، أو هي وجوبها في محل نصب على الحال: أي: ملتبسة بالحق. قال الفراء: معناه: إلا للحق: أي: للثواب، والعقاب، وقيل: بالحق بالعدل، وقيل: بالحكمة، وقيل: بالحق: أي: أنه هو الحق، وللحق خلقها «وَلَجَل مَسْمِي» معطوف على الحق: أي: وبأجل مسمى للسماوات، والأرض، وما بينهما تنتهي إليه، وهو: يوم القيامة، وفي هذا تنبيه على الفناء، وأن لكل مخلوق أجلاً لا يجاوزه. وقيل: معنى «وَلَجَل مَسْمِي»: أنه خلق ما خلق في وقت سماه لخلق ذلك الشيء «وَأَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ» أي: لكافرون بالبعث بعد الموت، واللام هي: المؤكدة، والمراد بهؤلاء الكفار على الإطلاق، أو كفار مكة «وَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ» الاستفهام للتقريع، والتوبيخ لعدم تفكرهم في الآثار، وتأملهم لمواقع الاعتبار، والفاء في «فَيَنْظُرُوا» للعطف على يسيروا لدخل تحت ما تضمنه الاستفهام من التقريع، والتوبيخ، والمعنى: أنهم قد ساروا وشاهدوا «كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» من طوائف الكفار الذين أملاكهم الله بسبب كفرهم بالله، وجودهم للحق، وتكذيبهم للرسول، وجملة «كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً» مبينة للكيفية التي كانوا عليها، وأنهم أقدر من كفار مكة، ومن تابعهم على الأمور الدنيوية، ومعنى «وَاتَّارُوا الْأَرْضَ»: حرثوها، وقلبوها للزراعة، وزاولوا أسباب ذلك، ولم يكن أهل مكة أهل حرث «وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا» أي: عمروها عمارة أكثر مما عمروها هؤلاء، لأن أولئك كانوا أطول منهم أعماراً، وأقوى أجساماً، وأكثر تحصيلاً لأسباب المعاش، فعمروا الأرض بالابنية، والزراعة، والفرس «وَجَاعَتِهِمْ رُسُلُهُمْ» بالبينات أي: المعجزات، وقيل: بالأحكام الشرعية «فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ» بتعذيبهم على غير ذنب «وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ

خَبِلُوهُمْ بِالْمِثَالِ، وَبَنُوا رومية، فقام أبو بكر، فجاء به أبو بكر يحمله إلى رسول الله ﷺ، فقال: هذا السحت تصدق به. وأخرج الترمذي وصححه، والدارقطني في الأفراد، والطبراني، وابن مردويه، وأبو نعيم في الدلائل، والبيهقي في الشعب عن نيار بن مكرم الأسلمي قال: لما نزلت ﴿لَمْ يَغْلِبِ الرُّومَ﴾ الآية كانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين الروم، وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم، لأنهم وإياهم أهل الكتاب، وفي ذلك يقول الله: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ بنصر الله، وكانت قريش تحب ظهور فارس؛ لأنهم وإياهم ليسوا أهل كتاب، ولا إيمان ببعث، فلما أنزل الله هذه الآية خرج أبو بكر يصيح في نواحي مكة ﴿لَمْ يَغْلِبِ الرُّومَ﴾ في أننى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون * في بضع سنين، فقال ناس من قريش لأبي بكر: ذلك بيننا وبينكم يزعم صاحبك: أن الروم ستغلب فارس في بضع سنين، أقلا نراهنك على ذلك؟ قال: بلى، وذلك قبل تحريم الرهان، فارتهن أبو بكر والمشركون، وتواضعوا الرهان، وقالوا لأبي بكر: لم تجعل البضع ثلاث سنين إلى تسع سنين، قسم بيننا وبينك وسطاً ننتمي إليه، قال: قسموا بينهم ست سنين، فمضت الست قبل أن يظهرها، فأخذ المشركون رهن أبي بكر، فلما نخلت السنة السابعة ظهرت الروم، فعاب المسلمون على أبي بكر تسميته ست سنين؛ لأن الله قال: ﴿فِي بضع سنين﴾ فأسلم عند ذلك ناس كثير. وأخرج الترمذي وحسنه، وابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس: أن النبي ﷺ قال لأبي بكر: لا احتطت يا أبا بكر، فإن البضع ما بين ثلاث إلى تسع. وأخرج البخاري عنه في تاريخه نحوه. وأخرج الفريابي، والترمذي وحسنه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن أبي سعيد قال: لما كان يوم بدر ظهر الروم على فارس، فاعجب ذلك المؤمنين، فنزلت ﴿لَمْ يَغْلِبِ الرُّومَ﴾ قراها بالنصب، يعني: للفتن على البناء للفاعل إلى قوله: ﴿يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ بنصر الله. قال: ففرح المؤمنون بظهور الروم على فارس، وهذه الرواية مفسرة لقراءة أبي سعيد ومن معه. وأخرج الحاكم وصححه عن أبي الدرداء قال: سيجي أقوام يقرءون ﴿لَمْ يَغْلِبِ الرُّومَ﴾ يعني: يفتح الغين، وإنما هي غلبت: يعني: بضمها، وفي الباب: روايات، وما نكرناه يغني عما سواه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس: يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا، يعني: معاشهم متى يغرسون، ومتى يزرعون، ومتى يحصدون، وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر في قوله: ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ قال: كان الرجل ممن كان قبلكم بين منكبيه ميل.

الَّذِينَ آمَنُوا وَصَلُّوا الصَّلَاةَ فَهُمْ فِي رَوْعَةٍ يُخَوِّلُكَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٧﴾ فَصَبِّحْ لِلَّهِ جِئْتَ تُسَبِّحُ وَبَيْنَ تَسْبِيحِهِ ﴿١٨﴾ وَلَهُ الْحَقُّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَبَيْنَ ظُهُورِهِ ﴿١٩﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يُخْرِجُونَ الْآيَةَ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُمْ بِبَشَرٍ تَنْتَشِرُونَ ﴿٢١﴾ وَبَيْنَ يَدَيْهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَرَمَعَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٢﴾ وَبَيْنَ يَدَيْهِ خَلْقَ السَّمَكِ وَالْأَرْضِ وَغُلْفَتِ الْيَتِيمَ وَالْكَوْكَبَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ وَبَيْنَ يَدَيْهِ مَتَٰكُفٌ بِالنَّارِ وَالنَّارِ وَأَيْعَاقُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّكَ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٤﴾ وَبَيْنَ يَدَيْهِ يُرِيسُكُمْ الْبَرْقَ حَوَآءَ وَطَمَآ وَيَزِيلُ مِنَ السَّمَاءِ مَآءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّكَ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٥﴾ وَبَيْنَ يَدَيْهِ أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَمْ يَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَمْ قَنِتُورٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٨﴾

قوله: ﴿الله يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ أي: يخلقهم أولاً، ثم يعيدهم بعد الموت أحياء كما كانوا ﴿ثم إليه ترجعون﴾ إلى موقف الحساب، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيئ بإساءته، وأورد الضمير في يعيده باعتبار لفظ الخلق، وجمعه في ترجعون باعتبار معناه. قرأ أبو بكر، وأبو عمرو (يرجعون) بالتحية. وقرأ الباقر بالفوقية على الخطاب، والالتفات المؤن بالمبالغة ﴿ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون﴾ قرأ الجمهور «يبلس» على البناء للفاعل. وقرأ السلمي على البناء للمفعول، يقال: أبلس الرجل: إذا سكت، وانقطعت حجة. قال الفراء والزجاج: البلس الساكت المنقطع في حجة الذي أيس أن يهتدي إليها، ومنه قول العجاج:

يا صاح هل تعرف رسماً مكرساً قال نعم اعرفه وأبلساً وقال الكلبي: أي: يئس المشركون من كل خير حين عاينوا العذاب، وقد قمنا تفسير الإيلاس عند قوله: ﴿فإذا هم مبلسون﴾ [الأنعام: 44] ﴿ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء﴾ أي: لم يكن للمشركين يوم تقوم الساعة من شركائهم الذين عبوهم من نون الله شفعاء يجيرونهم من عذاب الله ﴿وكانوا﴾ في ذلك الوقت ﴿بشركائهم﴾ أي: بأهلهم الذين جعلوهم شركاء لله ﴿كافرين﴾ أي: جاحدين لكونهم آلهة؛ لأنهم علموا إذ ذاك أنهم لا ينفعون، ولا يضررون، وقيل: إن معنى الآية: كانوا في الدنيا كافرين بسبب عبادتهم، والأول أولى ﴿ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون﴾ أي: يتفرق جميع الخلق المملول عليهم بقوله: ﴿الله يبدأ الخلق﴾ والمراد بالتفرق أن كل طائفة تنفرد، فالمؤمنون يصيرون إلى الجنة، والكافرون إلى النار، وليس المراد تفرق كل فرد منهم عن الآخر، ومثله قوله تعالى:

اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٠٠﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٠١﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَاذِبِينَ ﴿١٠٢﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفَخُونَ أَثَارَهُمْ ﴿١٠٣﴾ وَأَمَّا

تصبحون»، والمعنى: حيناً تمسون فيه، وحيناً تصبحون فيه، والعشي من صلاة المغرب إلى العتمة قاله الجوهري، وقال قوم: هو من زوال الشمس إلى طلوع الفجر، ومنه قول الشاعر:

غبنوا غنوة سحرابليل عشيا بعد ما انتصف النهار
وقوله: ﴿عشياً﴾ معطوف على حين، وفي السموات متعلق بنفس الحمد: أي: الحمد له يكون في السموات، والأرض ﴿يخرج الحي من الميت﴾ كالإنسان من النطفة، والطير من البيضة ﴿ويخرج الميت من الحي﴾ كالنطفة، والبيضة من الحيوان. وقد سبق بيان هذا في سورة آل عمران. قيل: ووجه تعلق هذه الآية بالتي قبلها أن الإنسان عند الصباح يخرج من شبه الموت، وهو: النوم إلى شبه الوجود، وهو: اليقظة، وعند العشاء يخرج من اليقظة إلى النوم ﴿ويحيي الأرض بعد موتها﴾ أي: يحييها بالنبات بعد موتها باليباس، وهو شبهه بإخراج الحي من الميت ﴿وكنك تخرجون﴾ أي: ومثل ذلك الإخراج تخرجون من قبوركم. قرا الجمهور: (تخرجون) على البناء للمفعول. وقرا حمزة، والكسائي على البناء للفاعل، فأسند الخروج إليهم كقوله: ﴿يوم يخرجون من الأبدان﴾ [المعارج: 43] ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب﴾ أي: من آياته الباهرة الدالة على البعث أن خلقكم: أي: خلق أباكم آدم من تراب، وخلقكم في ضمن خلقه، لأن الفرع مستمد من الأصل، ومأخوذ منه، وقد مضى تفسير هذا في الانعام، وأن في موضع رفع بالابتداء، ومن آياته خبره ﴿ثم إذا أنتم بشر تنتشرون﴾ إذا هي الفجائية: أي: ثم فاجأتكم بعد ذلك وقت كونكم بشراً تنتشرون في الأرض، وإذا الفجائية، وإن كانت أكثر ما تقع بعد الفاء، لكنها وقعت هنا بعد ثم بالنسبة إلى ما يليق بهذه الحالة الخاصة، وهي أطوار الإنسان كما حكاها الله في مواضع: من كونه نطفة، ثم علقه، ثم مضغه، ثم عظماً مكسوراً لحماً فاجأ البشرية، والانتشار، ومعنى تنتشرون: تنصرفون فيما هو قوام معاشكم ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً﴾ أي: ومن علاماته، ودلالاته الدالة على البعث أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً: أي: من جنسكم في البشرية، والإنسانية، وقيل: المراد حواء، فإنه خلقها من ضلع آدم ﴿لتسكنوا إليها﴾ أي: تألفوها، وتميلوا إليها، فإن الجنسين المختلفين لا يسكن أحدهما إلى الآخر، ولا يميل قلبه إليه ﴿وجعل بينكم مودةً ورحمة﴾ أي: وداداً وتراحماً بسبب عصمة النكاح يعطف به بعضكم على بعض من غير أن يكون بينكم قبل تلك معرفة فضلاً عن مودة ورحمة. وقال مجاهد: المودة الجماع، والرحمة الولد، وبه قال الحسن. وقال السدي: المودة المحبة، والرحمة الشفقة. وقيل: المودة حب الرجل امرأته، والرحمة رحمته إياها من أن يصيبها بسوء. وقوله: «أن خلقة لكم» في موضع رفع على الابتداء، ومن آياته خبره ﴿إن في ذلك للمذكور سابقاً﴾ لايات عظيمة الشأن بديعة البيان واضحة الدلالة على قدرته سبحانه على البعث، والنشور ﴿لنقوم يتفكرون﴾، لأنهم الذين يقتدرون

﴿فريق في الجنة وفريق في السعير﴾ [الشورى: 7] وذلك بعد تمام الحساب، فلا يجتمعون أبداً. ثم بين سبحانه كيفية تفرقهم، فقال: ﴿فاما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون﴾، قال النحاس: سمعت الزجاج يقول: معنى «اما» دع ما كنا فيه، وخذ في غيره، وكذا قال سيبويه: إن معناها: مهما يكن من شيء، فخذ في غير ما كنا فيه، والروضة كل أرض ذات نبات. قال المفسرون: والمراد بها هنا الجنة، ومعنى يحبرون: يسرون، والحبور، والحبرة السرور: أي: فهم في رياض الجنة ينعمون، قال أبو عبيد: الروضة ما كان في سفلى، فإذا كان مرتفعاً فهو: ترعة، وقال غيره: أحسن ما تكون الروضة إذا كانت في مكان مرتفع، ومنه قول الأعشى:

ما روضة من رياض الحزن معشبة خضراء جاد عليها مسبل مطل
وقيل: معنى «يحبرون»: يكرمون. قال النحاس: حكى الكسائي خبرته: أي: أكرمه، ونعمته، والأولى تفسير يحبرون بالسرور كما هو المعنى العربي، ونفس دخول الجنة يستلزم الإكرام، والنعيم، وفي السرور زيادة على ذلك. وقيل: التحبير التحسين، فمعنى يحبرون: يحسن إليهم، وقيل: هو السماع الذي يسمعون في الجنة، وقيل: غير ذلك، والوجه ما ذكرناه ﴿واما الذين كفروا﴾ باله ﴿وكنبوا بآياتنا﴾ و﴿كنبوا ب﴾ ﴿لقاء الآخرة﴾ أي: البعث، والجنة والنار، والإشارة بقوله: ﴿قاولئك﴾ إلى المتصفين بهذه الصفات، وهو مبتدأ، وخبره ﴿في العذاب محضرون﴾ أي: مقيمون فيه، وقيل: مجموعون، وقيل: نازلون، وقيل: معذبون، والمعاني متقاربة، والمراد بولم عذابهم. ثم لما بين عاقبة طائفة المؤمنين، وطائفة الكافرين أرشد المؤمنين إلى ما فيه الأجر الوافر، والخير العام، فقال: ﴿فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون﴾ والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها أي: فإذا علمتم ذلك، فسبحوا الله: أي: تزهوه عما لا يليق به في وقت الصباح، والمساء، وفي العشي، وفي وقت الظهيرة. وقيل: المراد بالتسبيح هنا الصلوات الخمس، فقوله: ﴿حين تمسون﴾ صلاة المغرب، والعشاء، وقوله: ﴿وحين تصبحون﴾ صلاة الفجر، وقوله: ﴿وعشياً﴾ صلاة العصر، وقوله: ﴿وحين تظهرون﴾ صلاة الظهر، كذا قال الضحاک، وسعيد بن جبیر، وغيرهما. قال الواحدي: قال المفسرون: إن معنى ﴿فسبحان الله﴾: فصلوا لله. قال النحاس: أهل التفسير على أن هذه الآية في الصلوات قال: وسمعت محمد بن يزيد يقول: حقيقته عندي، فسبحوا الله في الصلوات، لأن التسبيح يكون في الصلاة، وجملة ﴿وله الحمد في السموات والأرض﴾ معترضة مسوقة للإرشاد إلى الحمد، والإيدان بمشروعية الجمع بينه، وبين التسبيح كما في قوله سبحانه: ﴿فسبح بحمد ربك﴾ [الحجر: 98]، وقوله: ﴿ونحن نسبح بحمدك﴾ [البقرة: 30] وقيل: معنى، وله الحمد: أي: الاختصاص له بالصلاة التي يقرأ فيها الحمد، والأول أولى. وقرا عكرمة «حيناً تمسون وحيناً

للمسافر، وطمعاً للمقيم. وقال الضحك: خوفاً من الصواعق، وطمعاً في الغيث، وقال يحيى بن سلام: خوفاً من البرد أن يهلك الزرع، وطمعاً في المطر أن يحيي الزرع. وقال ابن بحر: خوفاً أن يكون البرق برقاً خلباً لا يمطر، وطمعاً أن يكون ممطراً، وأنشد:

لا يكن برقك برقاً خلباً إن خير البرق ما الغيث معه
وانتصاب خوفاً، وطمعاً على العلة **﴿وَيُنْزَلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾** أي: يحييها بالنبات بعد موتها باليباس **﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾** فإن من له نصيب من العقل يعلم أن ذلك آية يستدل بها على القدرة الباهرة **﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾** أي: قيامهما، واستمسكهما بإرادته سبحانه، وقدرته بلا عمد يعمدهما، ولا مستقر يستقران عليه. قال الفراء: يقول: إن تدوما قائمتين بأمره **﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾** أي: ثم بعد موتكم، ومصيركم في القبور إذا دعاكم دعوة واحدة فاجاتم الخروج منها بسرعة من غير تثبث، ولا توقف، كما يجيب المدعو المطيع دعوة الداعي المطاع. ومن الأرض متعلق بدعا: أي: دعاكم من الأرض التي أنتم فيها، كما يقال: دعوته من أسفل الوادي، فطلع إلي، أو متعلق بمحذوف هو صفة لدعوة، أو متعلق بمحذوف يدل عليه تخرون: أي: خرجتم من الأرض، ولا يجوز أن يتعلق بتخرجون، لأن ما بعد إذ لا يعمل فيما قبلها، وهذه الدعوة هي نفخة إسرافيل الآخرة في الصور على ما تقدم بيانه، وقد أجمع الفراء على فتح التاء في «تخرجون» هنا، وغلط من قال: إنه قرئ هنا بضمها على البناء للمفعول، وإنما قرئ بضمها في الأعراف **﴿وَلَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾** من جميع المخلوقات ملكاً، وتصرفاً، وخلقاً، ليس لغيره في ذلك شيء **﴿كُلُّ لَهُ قَانُتُونَ﴾** أي: مطيعون طاعة انقياد، وقيل: مقرّون بالعبودية، وقيل: مصلون، وقيل: قائمون يوم القيامة كقوله: **﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾** [المطففين: 6] أي: للحساب، وقيل: بالشهادة أنهم عباده، وقيل: مخلصون **﴿وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾** بعد الموت، فيحييه الحياة الدائمة **﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾** أي: هين عليه لا يستصعبه، أو أهون عليه بالنسبة إلى قدرته، وعلى ما يقوله بعضكم لبعض، وإلا فلا شيء في قدرته بعضه أهون من بعض، بل كل الأشياء مستوية بوجودها بقوله: كن فتكون. قال أبو عبيد: من جعل أهون عبارة عن تفضيل شيء على شيء، فقوله مردود بقوله: **﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾** [النساء: 169]، وبقوله: **﴿وَلَا يُؤْذِهِ حِفْظُهُمَا﴾** [البقرة: 255]، والعرب تحمل أفعل على فاعل كثيراً كما في قول الفرزدق:

إن الذي سمك السماء بنى لنا بيتاً دعائمه أعز وأطول
أي: عريضة طويلة، وأنشد أحمد بن يحيى ثعلب على ذلك:
تمنى رجال أن أموت وإن أمت فتلك سبيل لست فيها بأوحد

على الاستدلال لكون التفكير مادة له يتحصل عنه، وأما الغافلون عن التفكير فما هم إلا كالأنعام **﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾** فإن من خلق هذه الأجرام العظيمة التي هي أجرام السموات، والأرض، وجعلها باقية ما دامت هذه الدار، وخلق فيها من عجائب الصنع، وغرائب التكوين ما هو عبرة للمعتبرين قاصر على أن يخلقكم بعد موتكم، وينشركم من قبوركم **﴿وَلِخْتَلَاْفِ السَّنَةِ﴾** أي: لغاتكم من عرب، وعجم، وترك، وروم، وغير ذلك من اللغات **﴿وَالْوَالِئِكَ﴾** من البياض، والسواد، والحمرة، والصفرة، والزرق، والخضرة مع كونكم أولاد رجل واحد، وأم واحدة، ويجمعكم نوع واحد، وهو الإنسانية، وفصل واحد، وهو الناطقية، حتى صرتم متميزين في ذات بينكم لا يلتبس هذا بهذا، بل في كل فرد من أفرانكم ما يميزه عن غيره من الأقران، وفي هذا من بديع القدرة ما لا يعقله إلا العالمون، ولا يفهمه إلا المتفكرون **﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾** الذين هم من جنس هذا العالم من غير فرق بين بر وفاجر، قرأ الجمهور بفتح لام العالمين، وقرأ حفص وحده بكسرهما. قال الفراء: وله وجه جيد: لأنه قد قال: **﴿لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾** [الرعد: 4] **﴿لآيَاتٍ لَّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾** [آل عمران: 190] **﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ﴾** [العنكبوت: 43] **﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾** قيل: في الكلام تقديم، وتأخير، والتقدير: ومن آياته منامكم بالليل، وابتغائكم من فضله بالنهار. وقيل: المعنى صحيح من نون تقديم، وتأخير: أي: ومن آياته العظيمة أنكم تنامون بالليل، وتنامون بالنهار في بعض الأحوال للاستراحة كوقت القيلولة، وابتغائكم من فضله فيهما، فإن كل واحد منهما يقع فيه ذلك، وإن كان ابتغاء الفضل في النهار أكثر. والأول هو المناسب لسائر الآيات الواردة في هذا المعنى، والآخر هو المناسب للنظم القرآني ها هنا. ووجه نكر النوم، والابتغاء ها هنا، وجعلهما من جملة الآلة على البعث أن النوم شبيه بالموت، والتصرف في الحاجات، والسعي في المكاسب شبيه بالحياة بعد الموت **﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمِعُونَ﴾** أي: يسمعون الآيات والمواعظ سماع متفكر متدبر، فيستدلون بذلك على البعث **﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾** المعنى: أن يريكم، فحنف أن لدالة الكلام عليه كما قال طرفة:

ألا أيها اللائمي أحضر الوغى وإن أشهد للذات هل أنت مخلدي
والتقدير: أن أحضر، فلما حذف الحرف في الآية، والبيت بطل عمله، ومنه المثل المشهور «تسمع بالمعيدي خير من أن تراه»، وقيل: هو على التقديم، والتأخير: أي: ويريك البرق من آياته، فيكون من عطف جملة فعلية على جملة اسمية، ويجوز أن يكون **﴿يُرِيكُم﴾** صفة لموصوف محذوف: أي: ومن آياته آية يريكم بها، وفيها البرق، وقيل: التقدير، ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً من آياته. قال الزجاج: فيكون من عطف جملة على جملة. قال قتادة: خوفاً

لا أحد يقدر على هدايته، لأن الرشد، والهداية بتقدير الله وإرادته ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ أي: ما لهؤلاء الذين أضلهم الله من ناصرين ينصرونهم، ويحولون بينهم، وبين عذاب الله سبحانه. ثم أمر رسوله ﷺ بتوجيه وعبادته كما أمره، فقال: ﴿فَاقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ شبه الإقبال على الدين بتقويم وجهه إليه، وإقباله عليه، وانتصاب حنيفاً على الحال من فاعل اقم، أو من مفعوله: أي: مائلاً إليه مستقيماً عليه غير ملتفت إلى غيره من الأديان الباطلة ﴿فَطَرَتْ﴾ التي فطر الناس عليها الفطرة في الأصل: الخلق، والمراد بها هنا الملة: وهي: الإسلام، والتوحيد. قال الواحدي: هذا قول المفسرين في فطرة الله، والمراد بالناس هنا: الذين فطرهم الله على الإسلام، لأن المشرك لم يطر على الإسلام، وهذا الخطاب، وإن كان خاصاً برسول الله، فأمته داخلة معه فيه. قال القرطبي باتفاق من أهل التأويل: والأولى حمل الناس على العموم من غير فرق بين مسلمهم، وكافرهم، وأنهم جميعاً مفلطون على ذلك لولا عوارض تعرض لهم، فيبقون بسببها على الكفر كما في حديث أبي هريرة الثابت في الصحيح قال: قال رسول الله ﷺ، «ما من مولود إلا يولد على الفطرة». وفي رواية «على هذه الملة، ولكن أبواه يهودانه، وينصرانه، ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء؟» ثم يقول أبو هريرة: واقرأوا إن شئتم ﴿فَطَرَتْ﴾ التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله. وفي رواية «حتى تكونوا أنتم تجدونها». وسيأتي في آخر البحث ما ورد معاضداً لحديث أبي هريرة هذا، فكل فرد من أفراد الناس مفلطون: أي مخلوق على ملة الإسلام، ولكن لا اعتبار بالإيمان، والإسلام الفطريين، وإنما يعتبر الإيمان والإسلام الشرعيين، وهذا قول جماعة من الصحابة، ومن بعدهم، وقول جماعة من المفسرين، وهو: الحق. والقول بأن المراد بالفطرة هنا الإسلام هو مذهب جمهور السلف. وقال آخرون: هي البداة التي ابتدأهم الله عليها، فإنه ابتدأهم للحياة، والموت، والسعادة، والشقاوة. والفطر في كلام العرب هو: المبتدئ، وهذا مصير من القائلين به إلى معنى الفطرة لغة، وإهمال معناها شرعاً. والمعنى الشرعي مقدم على المعنى اللغوي باتفاق أهل الشرع، ولا يناقض ذلك ورود الفطرة في الكتاب أو السنة في بعض المواضع مراداً بها المعنى اللغوي كقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: 1] أي: خالقهما، ومبتدئهما، وكقوله: ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدَ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [يس: 22] إذ لا نزاع في أن المعنى اللغوي هو هذا، ولكن النزاع في المعنى الشرعي للفطرة، وهو ما ذكره الأولون كما بيناه، وانتصاب فطرة على أنها مصدر مؤكد للجملة التي قبلها، وقال الزجاج: فطرة منصوب بمعنى: اتبع فطرة الله، قال: لأن معنى ﴿فَاقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾: اتبع الدين، واتبع فطرة الله. وقال ابن جرير: هي مصدر من معنى، ﴿فَاقِمْ وَجْهَكَ﴾، لأن معنى ذلك: فطرة الله الناس على الدين، وقيل:

رَبِّهِمْ مُبِينٌ إِلَيْهِمْ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿١٦﴾ لِيُكْفَرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَحْمِلُوا سَوْفَ قَوْلُكَ ﴿١٧﴾ أَمْ أَرْزَلْنَا عَنْكُمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَبْغِيكُمْ يَمَا كَانُوا بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُوبْتُمْ مِنْهُمْ يَمَا قَدَّمْتُمُ إِلَيْهِمْ إِنْ هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿١٩﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾

قوله: ﴿ضَرْبَ لَكُمْ مَثَلًا﴾ قد تقدم تحقيق معنى المثل، ومن في ﴿مَنْ أَنْفُسَكُمْ﴾ لابتداء الغاية، وهي ومجربوها في محل نصب صفة لمثلاً، أي: مثلاً منتزعاً، وماخوذاً من أنفسكم، فإنها أقرب شيء منكم، وأبين من غيرها عنكم، فإذا ضرب لكم المثل بها في بطلان الشرك كان أظهر دلالة، وأعظم وضوحاً. ثم بين المثل المذكور، فقال: ﴿هَلْ لَكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ «من» في «مما مَلَكَتْ» للتبعيض، وفي ﴿مِنْ شُرَكَاءَ﴾ زائدة للتأكيد، والمعنى: هل لكم شركاء فيما رزقناكم كائنون من النوع الذي مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ، وهم: العبيد، والإماء، والاستفهام للإنكار، وجملة ﴿فَإِنَّمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ جواب للاستفهام الذي بمعنى: النفي، ومحققه لمعنى الشراكة بينهم، وبين العبيد، والإماء المملوكين لهم في أموالهم: أي: هل ترضون لأنفسكم، والحال أن عبيدكم، وإماءكم أمثالكم في البشرية أن يساووكم في التصرف بما رزقناكم من الأموال، ويشاركوكم فيها من غير فرق بينكم وبينهم ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتَكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ الكاف نعت مصدر محذوف: أي: تخافونهم خيفة كخيفتكم أنفسكم: أي: كما تخافون الأحرار المشابهين لكم في الحرية، وملك الأموال، وجواز التصرف، والمقصود نفي الأشياء الثلاثة الشراكة بينهم، وبين المملوكين، والاستواء معهم، وخوفهم إياهم. وليس المراد ثبوت الشراكة، ونفي الاستواء، والخوف كما قيل في قولهم: ما تاتينا، فتحثنا. والمراد: إقامة الحجة على المشركين، فإنهم لا بد أن يقولوا: لا نرضى بذلك، فيقال لهم: فكيف تنزهون أنفسكم عن مشاركة المملوكين لكم، وهم أمثالكم في البشرية، وتجعلون عبيد الله شركاء له؟ فإذا بطلت الشراكة بين العبيد وساداتهم فيما يملكه السادة، بطلت الشراكة بين الله وبين أحد من خلقه، والخلق كلهم عبيد الله تعالى، ولم يبق إلا أنه الرب وحده لا شريك له. قرأ الجمهور (أنفسكم) بالنصب على أنه معمول المصدر المضاف إلى فاعله، وقرأ ابن أبي عبيدة بالرفع على إضافة المصدر إلى مفعوله ﴿كَذَلِكَ نَفُضِّلُ الْآيَاتِ﴾ تفصيلاً واضحاً، وبيناً جلياً ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾: لأنهم الذين ينتفعون بالآيات التنزيلية والتكوينية باستعمال عقولهم في تدبرها، والتفكير فيها. ثم أضرب سبحانه عن مخاطبة المشركين، وإرشادهم إلى الحق بما ضربه لهم من المثل، فقال: ﴿يَبْلُغُ أَتَّبِعِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: لم يعقلوا الآيات بل اتبعوا أهواءهم الزائفة، وآراءهم الفاسدة الزائفة، ومحل «بغير علم» النصب على الحال: أي: جاهلين بأنهم على ضلالة ﴿فَمَنْ يَهْدِي مِنَ أَضَلِّ اللَّهُ﴾ أي:

انذاهم منه رحمة﴾ بإجابة دعائهم، ورفع تلك الشدائد عنهم ﴿إذا فريق منهم يربهم يشركون﴾ إذا هي: الفجائية وقعت جواب الشرط: لأنها كلفاء في إفادة التعقيب: أي: فاجأ فريق منهم الإشراف، وهم الذين دعوه، فخلصهم مما كانوا فيه. وهذا الكلام مسوق للتعجب من أحوالهم، وما صاروا عليه من الاعتراف بوحداية الله سبحانه عند نزول الشدائد، والرجوع إلى الشرك عند رفع تلك عنهم، واللام في ﴿ليكفروا بما آتيناهم﴾ هي: لام كي، وقيل: لام الأمر لقصد الوعيد والتهديد، وقيل: هي لام العاقبة، ثم خاطب سبحانه هؤلاء الذين وقع منهم ما وقع، فقال: ﴿فتمتعوا فسوف تعلمون﴾ ما يتعقب هذا التمتع الزائل من العذاب الأليم. قرأ الجمهور «فتمتعوا» على الخطاب. وقرأ أبو العالية بالتحية على البناء للمفعول، وفي مصحف ابن مسعود «فليتمتعوا» إم أنزلنا عليهم سلطاناً أم هي: المنقطعة، والاستفهام للإنكار، والسلطان الحجة الظاهرة ﴿فهو يتكلم﴾ أي: يدل كما في قوله: ﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق﴾ [الجاثية: 29] قال الفراء: إن العرب تؤنث السلطان، يقولون: قضت به عليك السلطان، فاما البصريون فالتذكير عندهم أقص، وبه جاء القرآن، والتأنيث عندهم جائز؛ لأنه بمعنى: الحجة، وقيل: المراد بالسلطان هنا الملك ﴿بما كانوا به يشركون﴾ أي: ينطق بإشراكهم بالله سبحانه، ويجوز أن تكون الباء سببية: أي: بالامر الذي بسببه يشركون ﴿وإذا أنقنا الناس رحمة﴾ أي: خصباً، ونعمة، وسعة، وعافية ﴿فرحوا بها﴾ فرح بطر وأشر، لا فرح شكر بها، وابتهاج بوصولها إليهم ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا﴾ [يونس: 58] ثم قال سبحانه: ﴿وإن تصيبهم سئنة﴾ شدة على أي صفة ﴿بما قدمت أييهم﴾ أي: بسبب نذوبهم ﴿إذا هم يقنطون﴾ القنوط الإياس من الرحمة، كذا قال الجمهور. وقال الحسن: القنوط ترك فرائض الله سبحانه، قرأ الجمهور (يقنطون) بضم النون، وقرأ أبو عمرو، والكسائي، ويعقوب بكسرهما ﴿أولم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء﴾ من عباده، ويوسع له ﴿ويقدر﴾ أي: يضيق على من يشاء لمصلحة في التوسيع لمن وسع له، وفي التضيق على من ضيق عليه ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾ فيستدلون على الحق لدلالته على كمال القدرة، وبيع الصنع، وغريب الخلق.

وقد أخرج الطبراني، وابن مروي عن ابن عباس قال: كان يلبي أهل الشرك. لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه، وما ملك، فانزل الله ﴿هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء﴾ الآية. وأخرج ابن جرير عنه في الآية قال هي في الآلهة، وفيه يقول: تخافونهم أن يرثوكم كما يرث بعضكم بعضاً. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿لا تبديل لخلق الله﴾ قال: دين الله ﴿ذلك الدين القيم﴾ قال: القضاء القيم. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وأحمد، والنسائي، والحاكم وصححه، وابن مروي عن

هي منصوبة على الإغراء: أي: الزموا فطرة الله، أو عليكم فطرة الله، ورد هذا الوجه أبو حيان، وقال: إن كلمة الإغراء لا تضمز إذ هي عوض عن الفعل، فلو حذفها لزم حذف العوض، والمعوّض عنه وهو إجحاف. وأجيب بأن هذا رأي البصريين، وأما الكسائي، واتباعه، فيجيزون ذلك وجملة ﴿لا تبديل لخلق الله﴾ تعليل لما قبلها من الأمر بلزوم الفطرة: أي: هذه الفطرة التي فطر الله الناس عليها لا تبديل لها من جهة الخالق سبحانه. وقيل: هو نفي معناه: النهي، أي: لا تبكوا خلق الله. قال مجاهد، وإبراهيم النخعي: معناه: لا تبديل لدين الله. قال قتادة، وابن جبير، والضحاك، وابن زيد: هذا في المعتقدات. وقال عكرمة: إن المعنى: لا تغيير لخلق في البهائم بأن تخص، فحولها ﴿ذلك الدين القيم﴾ أي: ذلك الدين المأمور بإقامة الوجه له هو الدين القيم، أو لزوم الفطرة هو: الدين القيم ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ ذلك حتى يفعلوه، ويعملوا به ﴿منيبين إليه﴾ أي: راجعين إليه بالتوبة، والإخلاص، ومطيعين له في أوامره، ونواهيه. ومنه قول أبي قيس بن الأسلت:

فإن تابوا فإن بني سليم وقومهم هوازن قد تابوا

قال الجوهري: أناب إلى الله: أقبل، وتاب، وانتصابه على الحال من فاعل أقم. قال المبرد: لأن معنى أقم وجهك: أقيموا وجوهكم. قال الفراء: المعنى: فاقم وجهك، ومن معك منيبين، وكذا قال الزجاج، وقال تفسيره: فاقم وجهك وأمتك، فالحال من الجميع. وجاز حذف المعطوف لدلالة منيبين عليه. وقيل: هو منصوب على القطع، وقيل: على أنه خبر لكان محذوفة: أي: وكونوا منيبين إليه لدلالة ﴿ولا تكونوا من المشركين﴾ على ذلك، ثم أمرهم سبحانه بالتقوى بعد أمرهم بالإتابة، فقال: ﴿وتتقوه﴾ أي: باجتناب معاصيه، وهو معطوف على الفعل المقدر ناصباً لمنيبين ﴿واقموا للصلاة﴾ التي أمرتم بها ﴿ولا تكونوا من المشركين﴾ بالله. وقوله: ﴿من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً﴾ هو بدل مما قبله بإعادة الجار، والشيع الفرق: أي: لا تكونوا من الذين تفرقوا فرقاً في الدين يشايح بعضهم بعضاً من أهل البدع، والأهواء. وقيل: المراد بالذين فرقوا دينهم شيعاً اليهود والنصارى. وقرأ حمزة، والكسائي (فارقوا دينهم)، ورويت هذه القراءة عن علي بن أبي طالب: أي: فارقوا دينهم الذي يجب اتباعه، وهو: التوحيد. وقد تقدم تفسير هذه الآية في آخر سورة الأنعام ﴿كل حزب بما لديهم فرحون﴾ أي: كل فريق بما لديهم من الدين المبني على غير الصواب مسرورون مبتهجون يظنون أنهم على الحق، وليس بأيديهم منه شيء، وقال الفراء: يجوز أن يكون قوله: ﴿من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً﴾ مستأنفاً كما يجوز أن يكون متصلاً بما قبله ﴿وإذا مس الناس ضر﴾ أي: قحط وشدة ﴿دعوا ربهم﴾ أن يرفع ذلك عنهم، واستغاثوا به ﴿منيبين إليه﴾ أي: راجعين إليه ملتجئين به لا يعولون على غيره، وقيل مقبلين عليه بكل قلوبهم ﴿ثم إذا

الأسود بن سريع، «أن رسول الله ﷺ بعث سرية إلى خيبر، فقاتلوا المشركين، فانتهمى القتل إلى الذرية، فلما جاءوا قال النبي ﷺ: ما حملكم على قتل الذرية؟ قالوا: يا رسول الله إنما كانوا أولاد المشركين، قال: وهل خياركم إلا أولاد المشركين؟ والذي نفسي بيده، ما من نسمة تولد إلا على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها». وأخرج أحمد من حديث جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه، فإذا عبر عنه لسانه إما شاكراً وإما كفوراً» رواه أحمد عن الربيع بن أنس، عن الحسن، عن جابر. وقال الإمام أحمد في المسند: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا هشام، حدثنا قتادة عن مطرف عن عياض بن حماد: «أن رسول الله ﷺ خطب يوماً، فقال في خطبته حاكياً عن الله سبحانه: وإنني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم اتهم الشياطين، فاضلتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحلت لهم الحديث.

فَقَاتِلَ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقًّا وَالْيَتَامَىٰ وَلِلزَّكَاةِ ۚ لِلزَّكَاةِ يُرِيدُونَ رَحْمَةً ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا آتَاكُم مِّن رِّبَا يَرْتَوِي فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرِيوُا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَاكُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ بِهَا وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُخَيِّجُكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ مَن يَقُولُ مِن ذَلِكُمْ مَن مِّنْهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٢﴾ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَمَّا هُم بِرَحْمَةٍ ۚ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلَ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٦٣﴾ فَأَنظِرْهُمْ إِلَىٰ الْيَوْمِ ۚ أَلَمْ يَكُن مِّن قَبْلَ أَن يَأْتِيَ يَوْمَ لَا مَرَدٍّ لَّوْنٌ ۚ اللَّهُ يُؤَيِّدُ بَصَدْرَهُ ۚ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ۚ وَمَن عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَجَسَ لَهُ مِن بَعْثِهِ ۚ لِيَمِيزَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ ۗ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَمَن يَرْجُ الْبَرْقَ مَبْشِرًا لِّوَعْدِهِ ۚ وَلِيَذِيقَكُمُ يَن رَّحْمَتِهِ ۚ وَلِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْكُفْرَ ۚ فَذَكِّرُوا ۚ ﴿٦٥﴾

حق المسكين أن يتصدق عليه، وحق ابن السبيل الضيافة. وقيل: المراد بالقربى قرابة النبي ﷺ. قال القرطبي: والأول أصح، فإن حقهم مبين في كتاب الله عز وجل في قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ خَمْسَةٌ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الأنفال: 41] وقال الحسن: إن الأمر في إيتاء ذي القربى للندب ﴿وَالَّذِي خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ أي: ذلك الإيتاء أفضل من الإمساك لمن يريد التقرب إلى الله سبحانه ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: الفائزون بمطلوبهم حيث أنفقوا لوجه الله امتثالاً لأمره ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبَا﴾ قرأ الجمهور (آتَيْتُم) بالمد بمعنى: أعطيتهم، وقرأ مجاهد، وحמיד، وابن كثير بالقصر بمعنى: ما فعلتم، واجمعوا على القراءة بالمد في قوله: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ﴾، وأصل الرضى الزيادة، وقراءة القصر تثول إلى قراءة المد، لأن معناها: ما فعلتم على وجه الإعطاء، كما تقول: آتيت خطأ، وآتيت صواباً؛ والمعنى في الآية: ما أعطيتهم من زيادة خالية عن العوض ﴿لِيُزِيلُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ﴾ أي: ليزيد، ويزكوا في أموالهم ﴿فَلَا يَرِيوُوا عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: لا يبارك الله فيه. قال السدي: الربا في هذا الموضع الهدايا يهديها الرجل لأخيه يطلب المكافأة، لأن ذلك لا يربو عند الله لا يؤجر عليه صاحبه، ولا إثم عليه، وهكذا قال قتادة، والضحاك. قال الواحدي: وهذا قول جماعة المفسرين. قال الزجاج: يعني: دفع الإنسان الشيء؛ ليعوض أكثر منه، وذلك ليس بحرام، ولكنه لا ثواب فيه، لأن الذي يهبه يستدعي ما هو أكثر منه. وقال الشعبي: معنى الآية: أن ما خدم به الإنسان أحداً، لينتفع به في دنياه فإن ذلك النفع الذي يجزي به الخدمة لا يربو عند الله. وقيل: هذا كان حراماً على النبي ﷺ على الخصوص لقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ [المنثر: 6] ومعناها: أن تعطي، فتأخذ أكثر منه عوضاً عنه. وقيل: إن هذه الآية نزلت في هبة الثواب. قال ابن عطية: وما يجري مجراه مما يصنعه الإنسان؛ ليجازى عليه. قال عكرمة: الربا ربوان: فربا حلال، وربا حرام. فأما الربا الحلال، فهو: الذي يهدي يلتبس ما هو أفضل منه: يعني كما في هذه الآية. وقيل: إن هذا الذي في هذه الآية هو الربا المحرم، فمعنى لا يربو عند الله على القول: لا يحكم به، بل هو للمأخوذ منه.

قال المهلب: اختلف العلماء فيمن وهب هبة يطلب بها الثواب، فقال مالك: ينظر فيه، فإن كان مثله ممن يطلب الثواب من الموهوب له فله ذلك، مثل هبة الفقير للغني، وهبة الخادم للمخدوم، وهبة الرجل لأميره، وهو أحد قولي الشافعي. وقال أبو حنيفة: لا يكون له ثواب إذا لم يشترط، وهو قول الشافعي الآخر. قرأ الجمهور (ليربوا) بالتحية على أن الفعل مسند إلى ضمير الربا. وقرأ نافع، ويعقوب بالفوقية مضمومة خطاباً للجماعة بمعنى: لتكونوا ذوي زيادات. وقرأ أبو مالك (لتربوا) ومعنى الآية: أنه لا يزكو عند الله، ولا يثبت عليه؛ لأنه لا يقبل إلا ما أريد به وجهه خالصاً له ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ أي:

لما بين سبحانه كيفية التعظيم لأمر الله أشار إلى ما ينبغي من مواساة القرابة، وأهل الحاجات ممن بسط الله له في رزقه، فقال: ﴿فَقَاتِلَ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقًّا﴾، والخطاب للنبي ﷺ، وأمه أسوته، أو لكل مكلف له مال وسع الله به عليه، وقدم الإحسان إلى القرابة؛ لأن خير الصدقة ما كان على قريب، فهو صدقة مضاعفة، وصلة رحم مرغّب فيها، والمراد الإحسان إليهم بالصدقة، والصلة، والبر ﴿وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ أي: وأت المسكين، وابن السبيل حقهما الذي يستحقانه. ووجه تخصيص الأصناف الثلاثة بالذكر أنهم أولى من سائر الأصناف بالإحسان، ولكون ذلك واجباً لهم على كل من له مال فاضل عن كفايته، وكفاية من يعول.

وقد اختلف في هذه الآية هل هي محكمة، أو منسوخة؟ قيل: هي منسوخة بآية الموارث. وقيل: محكمة، وللقرآن في مال قريبه الغني حق واجب، وبه قال مجاهد، وقتادة. قال مجاهد: لا تقبل صدقة من أحد، ورحمه محتاج. قال مقاتل:

يتصل بالمدن من مزارعها، ومراعيتها، والباء في بما كسبت للسببية، وما إما موصولة أو مصدرية ﴿لِيُنِيقَهُمْ بَعْضُ الَّذِي عَمِلُوا﴾ اللام متعلقة بظهر، وهي: لام العلة: أي: لِيُنِيقَهُمْ عقاب بعض عملهم، أو جزاء بعض عملهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عما هم فيه من المعاصي، ويتوبون إلى الله ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ لما بين سبحانه ظهور الفساد بما كسبت أيدي المشركين، والعصاة بين لهم ضلال أمثالهم من أهل الزمن الأول، وأمرهم بأن يسيروا لينظروا آثارهم، ويشاهدوا كيف كانت عاقبتهم، فإن منازلهم خاوية، وأراضيهم مقفرة موحشة كعاد، وثمود، ونحوهم من طوائف الكفار. وجملة ﴿كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ مستأنفة لبيان الحالة التي كانوا عليها، وإيضاح السبب الذي صارت عاقبتهم به إلى ما صارت إليه ﴿فَاقْمْ وُجُوهَكُمْ لِلدِّينِ الْقِيمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَ لَهُ﴾ هذا خطاب لرسول الله ﷺ، وأمهت أسوته فيه، كان المعنى: إذا قد ظهر الفساد بالسبب المتقدم، فاقم وجهك يا محمد إلخ. قال الزجاج: اجعل جهتك اتباع الدين القيم، وهو: الإسلام المستقيم ﴿مَنْ قَبْلُ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ يعني: يوم القيامة ﴿لَا مَرَدَ لَهُ﴾ لا يقدر أحد على رده، والمرتد مصدر رده، وقيل: المعنى: أوضح الحق، وبالحق في الأعداء، ﴿وَمَنْ اللَّهُ﴾ يتعلق بياتي. أو بمحذوف يدل عليه المصدر: أي: لا يردّه من الله أحد، وقيل: يجوز أن يكون المعنى: لا يردّه الله لتعلق إرادته القديمة بمجيئه، وفيه من الضعف، وسوء الاتباع مع الله ما لا يخفى ﴿يَوْمَئِذٍ يُصْدَعُونَ﴾ أصله يتصدعون، والتصدع التفرق، يقال: تصدع القوم إذا تفرقوا، ومنه قول الشاعر:

وكنا كننماني جنيمة برمة من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
والمراد بتفرقهم هاهنا أن أهل الجنة يصيرون إلى الجنة، وأهل النار يصيرون إلى النار ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ أي: جزاء كفره، وهو: النار ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ يَمْهَدُونَ﴾ أي: يوطئون لأنفسهم منازل في الجنة بالعمل الصالح، والمهاد للفرش، وقد مهت الفرش مهداً: إذا بسطته، ووطأته، فجعل الأعمال الصالحة التي هي سبب لدخول الجنة كبناء المنازل في الجنة وفرشها. وقيل: المعنى: فعلى أنفسهم يشفقون، من قولهم في المشفق: أم فرشت، فانامت، وقديم الظرف في الموضعين للدلالة على الاختصاص. وقال مجاهد: ﴿فَلِنَفْسِهِ يَمْهَدُونَ﴾ في القبر، واللام في ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ متعلقة بيمصدعون، أو يمهدون: أي: يتفرقون؛ ليجزي الله المؤمنين بما يستحقونه ﴿مَنْ فَضَّلَهُ﴾ أو يمهدون لأنفسهم بالأعمال الصالحة؛ ليجزيهم، وقيل: يتعلق بمحذوف. قال ابن عطية: تقديره ذلك ليجزي، وتكون الإشارة إلى ما تقدم من قوله: من عمل، ومن كفر. وجعل أبو حيان قسيم قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ محذوفاً لدلالة قوله: ﴿إِنَّهُ لَا يَجِبُ لِكَاثِرِينَ﴾ عليه، لأنه كناية عن بغضه لهم الموجب لغضبه سبحانه،

وما أعطيتهم من صدقة لا تطلبون بها المكافأة، وإنما تقصدون بها ما عند الله ﴿فَقَاوَلْتُكُمْ هُمْ الْمُضْعِفُونَ﴾ المضعف دون الأضعاف من الحسنات الذين يعطون بالحسنة عشرة أمثالها إلى سبعمئة ضعف. قال الفراء: هو نحو قولهم: مسمن، ومعطش، ومضعف إذا كانت له إبل سمان، أو عطاش، أو ضعيفة. وقرأ أبي (المضعفون) بفتح العين اسم مفعول ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ تِلْكَ مِنْ شَيْءٍ﴾ عاد سبحانه إلى الاحتجاج على المشركين، وأنه الخالق الرازق المميت المحيي، ثم قال على جهة الاستفهام: ﴿هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ تِلْكَ مِنْ شَيْءٍ﴾ ومعلوم أنهم يقولون ليس فيهم من يفعل شيئاً من ذلك، فتقوم عليهم الحجة، ثم نزه سبحانه نفسه، فقال: ﴿سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: نزهوه تنزيهاً، وهو متعال عن أن يجوز عليه شيء من ذلك، وقوله: ﴿مَنْ شُرَكَائِكُمْ﴾ خبر مقدم، ومن للتبعيض، والمبتدأ هو الموصول: أعني: من يفعل، ومن تِلْكَ متعلق بمحذوف: لأنه حال من شيء المذكور بعده، ومن في «من شيء» مزيدة للتوكيد، وأضاف الشركاء إليهم؛ لأنهم كانوا يسمونهم آلهة، ويجعلون لهم نصيباً من أموالهم ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ بين سبحانه: أن الشرك، والمعاصي سبب لظهور الفساد في العالم.

واختلف في معنى ظهور الفساد المذكور، فقيل: هو القحط، وعدم النبات، ونقصان الرزق، وكثرة الخوف ونحو ذلك، وقال مجاهد، وعكرمة: فساد البرّ قتل ابن آدم لخاصه: يعني: قتل قابيل لهابيل، وفي البحر الملك الذي كان يأخذ كل سفينة غصباً.

وليت شعري أي دليل لهما على هذا التخصيص البعيد، والتعيين الغريب، فإن الآية نزلت على محمد ﷺ، والتعريف في الفساد يدل على الجنس، فيعم كل فساد واقع في حيزي البرّ والبحر. وقال السدي: الفساد الشرك، وهو أعظم الفساد. ويمكن أن يقال: إن الشرك، وإن كان الفرد الكامل في أنواع المعاصي، ولكن لا دليل على أنه المراد بخصوصه. وقيل: الفساد كساد الأسعار، وقلة المعاش، وقيل: الفساد قطع السبل والظلم، وقيل: غير ذلك مما هو تخصيص لا دليل عليه. والظاهر من الآية ظهور ما يصح إطلاق اسم الفساد عليه سواء كان راجعاً إلى أفعال بني آدم من معاصيهم، واقترافهم السيئات، وتقاطعهم، وتظالمهم، وتقاتلهم. أو راجعاً إلى ما هو من جهة الله سبحانه بسبب نزوبهم كالقحط، وكثرة الخوف، والموتان، ونقصان الزرائع، ونقصان الثمار، والبرّ، والبحر هما المعروفان المشهوران وقيل: البرّ الفياضي، والبحر القرى التي على ماء قلة عكرمة، والعرب تسمى الأصمار البحار. قال مجاهد: البرّ ما كان من المدن، والقرى على غير نهر، والبحر ما كان على شط نهر. والأول أولى. ويكون معنى البرّ: مدن البرّ، ومعنى البحر: مدن البحر، وما

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رِسَالًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ كما أرسلناك إلى قومك ﴿فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالمعجزات، والحجج النيرات، فانتقمنا منهم: أي: فكفروا ﴿فَإِنْتَقَمْنَا مِنْ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ أي: فعلوا الإجرام، وهي: الآثام ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا إخبار من الله سبحانه بأن نصره لعباده المؤمنين حق عليه، وهو صادق للوعد لا يخلف الميعاد، وفيه تشريف للمؤمنين، ومزيد تكريمة لعباده الصالحين، ووقف بعض القراء على حقاً، وجعل اسم كان ضميراً فيها، وخبرها حقاً: أي: وكان الانتقام حقاً. قال ابن عطية: وهذا ضعيف، والصحيح أن نصر المؤمنين لاسمها، وحقاً خبرها، وعلينا متعلق بحقاً، أو بمخوف هو صفة له ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ﴾ قرأ حمزة، والكسائي، وابن كثير، وابن محيصن يرسل (الريح) بالإقراء. وقرأ الباقون «الرَّيَّاح» قال أبو عمرو: كل ما كان بمعنى الرحمة، فهو جمع، وما كان بمعنى العذاب، فهو موحد، وهذه الجملة مستأنفة مسوقة لبيان ما سبق من أحوال الرياح، فتكون على هذا جملة ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ إلى قوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ معترضة ﴿فَتُثْبِتُ سَحَابًا﴾ أي: تزعجه من حيث هو ﴿فَيُبْسِطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ تارة سائراً، وتارة واقفاً، وتارة مطبقاً، وتارة غير مطبق، وتارة إلى مسافة بعيدة، وتارة إلى مسافة قريبة، وقد تقدم تفسير هذه الآية في سورة البقرة، وفي سورة النور ﴿وَيُجْعَلُهُ كِسْفًا﴾ تارة أخرى، أو يجعله بعد بسطه قطعاً متفرقة، والكسف جمع كسفة، والكسفة القطعة من السحاب. وقد تقدم تفسيره، واختلاف القراءة فيه ﴿فَتُرَىٰ لَوُوقِ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ الووق المطر، ومن خلاله من وسطه. وقرأ أبو العالية، والضحاك (يخرج من خله) ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ﴾ أي: بالمطر ﴿مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي: بلادهم وأرضهم ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ إذا هي: الفجائية: أي: فاجئوا الاستبشار بمجيء المطر، والاستبشار الفرح ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: من قبل أن ينزل عليهم المطر، وإن هي: المخففة، وفيها ضمير شأن مقدر هو اسمها: أي: وإن الشأن كانوا من قبل أن ينزل عليهم، وقوله: ﴿مَنْ قَبْلَهُ﴾ تكرير للتأكيد، قاله الأخفش، وأكثر النحويين كما حكاه عنهم النحاس.. وقال قطرب: إن الضمير في قبله راجع إلى المطر: أي: وإن كانوا من قبل التنزيل من قبل المطر. وقيل: المعنى: من قبل تنزيل الغيث عليهم من قبل الزرع والمطر، وقيل: من قبل أن ينزل عليهم من قبل

من ضعف: من نطفة. قال الواحدي: قال المفسرون: من نطفة، والمعنى: من ذي ضعف. وقيل: المراد حال الطفولية، والصغر **﴿ثم جعل من بعد ضعف قوة﴾**، وهي قوة الشباب، فإنه إذ ذاك تستحكم القوة، وتشدّد الخلق إلى بلوغ النهاية **﴿ثم جعل من بعد قوة ضعفا﴾** أي: عند الكبر، والهرم **﴿وشيبة﴾** الشيبة هي: تمام الضعف، ونهاية الكبر. قرأ الجمهور «ضعف» بضم الضاد في هذه المواضع. وقرأ عاصم، وحزمة بفتحها. وقرأ الجحدري بالفتح في الأولين، والضم في الثالث. قال الفراء: الضم لغة قريش، والفتح لغة تميم. قال الجوهري: الضعف، والضعف خلاف القوة، وقيل: هو بالفتح في الرأي، وبالضم في الجسم **﴿يخلق ما يشاء﴾** يعني: من جميع الأشياء، ومن جعلتها القوة، والضعف في بني آدم **﴿وهو العليم﴾** بتدبيره **﴿القيوم﴾** على خلق ما يريد، وأجاز الكوفيون من ضعف بفتح الضاد والعين **﴿ويوم تقوم الساعة﴾** أي: القيامة، وسميت ساعة: لأنها تقوم في آخر ساعة من ساعات الدنيا **﴿يقسم المعجمون ما لبثوا غير ساعة﴾** أي: يحلفون ما لبثوا في الدنيا، أو في قبورهم غير ساعة، فيمكن أن يكونوا استقلوا مدة لبثهم، واستقرّ ذلك في أذهانهم، فحلفوا عليه، وهم يظنون أن حلفهم مطابق للواقع. وقال ابن قتيبة: إنهم كذبوا في هذا الوقت كما كانوا يكتبون من قبل، وهذا هو الظاهر، لأنهم إن أرادوا لبثهم في الدنيا، فقد علم كل واحد منهم مقداره، وإن أرادوا لبثهم في القبور فقد حلفوا على جهالة إن كانوا لا يعرفون الأوقات في البرزخ **﴿كنكك كانوا يؤفكون﴾** يقال: أفك الرجل: إذا صرف عن الصدق، فالمعنى: مثل ذلك الصرف كانوا يصرفون. وقيل: المراد يصرفون عن الحق، وقيل: عن الخير، والأول أولى، وهو دليل على أن حلفهم كتب **﴿وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث﴾** اختلف في تعيين هؤلاء الذين أوتوا العلم، فقيل: الملائكة، وقيل: الأنبياء، وقيل: علماء الأمم، وقيل: مؤمنو هذه الأمة، ولا مانع من الحمل على الجميع. ومعنى في كتاب الله: في علمه، وقضائه. قال الزجاج: في علم الله المثبت في اللوح المحفوظ. قال الواحدي: والمفسرون حملوا هذا على التقديم، والتأخير على تقدير: وقال الذين أوتوا العلم في كتاب الله، وكان ردّ الذين أوتوا العلم عليهم باليمين للتأكيد، أو للمقابلة لليمين باليمين، ثم نبههم على طريقة التبكيت بأن **﴿هَذَا﴾** الوقت الذي صاروا فيه هو **﴿يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون﴾** أنه حق، بل كنتم تستعجلونه تكميلاً، ولستمهزاء **﴿فيومئذ لا تنفع الذين ظلموا معذرتهم﴾** أي: لا ينفعهم الاعتذار يومئذ، ولا يفيدهم علمهم بالقيامة. وقيل: لما ردّ عليهم المؤمنون سألوا الرجوع إلى الدنيا، واعتذروا، فلم يعنوا. قرأ الجمهور «لا تنفع» بالفوقية، وقرأ عاصم، وحزمة، والكسائي بالتحته **﴿ولا هم يستعتبون﴾** يقال: استعتبت، فاعتبني: أي: استرضيت، فارضاني، وذلك إذا كنت جانباً

السحاب: أي: من قبل رؤيته، واختار هذا النحاس. وقيل: الضمير عائد إلى الكسف، وقيل: إلى الإرسال، وقيل: إلى الاستبشار. والراجح الوجه الأول، وما بعده من هذه الوجوه كلها، ففي غاية التكلف، والتعسف، وخبر كان **﴿لمبلسين﴾** أي: آيسين أو بائسين. وقد تقدّم تحقيق الكلام في هذا **﴿فانظر إلى أثر رحمت الله﴾** الناشئة عن إنزال المطر من النبات، والثمار، والزراعت التي بها يكون الخصب، ورخاء العيش: أي: انظر نظر اعتبار، واستبصار؛ لتستدلّ بذلك على توحيد الله، وتفرد بهذا الصنع العجيب. قرأ الجمهور «أثر» بالتوحيد. وقرأ ابن عامر، وحفص، وحزمة، والكسائي آثار بالجمع **﴿كيف يحيي الأرض بعد موتها﴾** فاعل الإحياء ضمير يعود إلى الله سبحانه، وقيل: ضمير يعود إلى الآثار، وهذه الجملة في محل نصب بانظر: أي: انظر إلى كيفية هذا الإحياء البين للأرض. وقرأ الجحدري، وأبو حيوة (تحيي) بالفوقية على أن فاعله ضمير يعود إلى الرحمة، أو إلى الآثار على قراءة من قرأ بالجمع، والإشارة بقوله: **﴿إنّ ذلك﴾** إلى الله سبحانه: أي: إن الله العظيم الشأن المخترع لهذه الأشياء المذكورة **﴿المحيي الموتى﴾** أي: لقادر على إحيائهم في الآخرة، ويعثهم، ومجازاتهم كما أحيا الأرض الميتة بالمطر **﴿وهو على كل شيء قدير﴾** أي: عظيم القدرة كثيرها **﴿ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفراً﴾** الضمير في فأروه يرجع إلى الزرع، والنبات الذي كان من أثر رحمة الله: أي: فأروه مصفراً من البرد الناشئ عن الريح التي أرسلها الله بعد اخضرارها. وقيل: راجع إلى الريح، وهو يجوز تنكيره، وتانيثه. وقيل: راجع إلى الأثر المدلول عليه بالآثار. وقيل: راجع إلى السحاب؛ لأنه إذا كان مصفراً لم يطر، والأول أولى. واللام هي: الموطئة، وجواب القسم **﴿لظلوا من بعده يكفرون﴾**، وهو يسدّ مسد جواب الشرط. والمعنى: ولئن أرسلنا ريحاً حارة، أو باردة، فضربت زرعهم بالصفار لظلوا من بعد ذلك يكفرون بالله، ويجحدون نعمه، وفي هذا دليل على سرعة تقلبهم، وعدم صبرهم، وضعف قلوبهم، وليس كذا حال أهل الإيمان، ثم شبههم بالموتى، وبالصم، فقال: **﴿فإنك لا تسمع الموتى﴾** إذا دعوتهم، فكذا هؤلاء لعدم فهمهم للحقائق، ومعرفتهم للصواب **﴿ولا تسمع الصم الدعاء﴾** إذا دعوتهم إلى الحق، ووعظتهم بمواعظ الله، وذكرتهم الآخرة، وما فيها، وقوله: **﴿إذا ولوا مديري﴾** بيان لإعراضهم عن الحق بعد بيان كونهم كالأموات وكونهم صمّ الأذان، قد تقدّم تفسير هذا في سورة النمل. ثم وصفهم بالعمى، فقال: **﴿وما أنت بهاد العمى عن ضلالتهم﴾** لفقدهم للانتفاع بالابصار كما ينبغي، أو لفقدهم للبصائر **﴿إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا﴾** أي: ما تسمع إلا هؤلاء لكونهم أهل التفكير، والتدبر، والاستدلال بالآثار على المؤثر **﴿فهم مسلمون﴾** أي: منقادون للحق متبعون له **﴿الله الذي خلقكم من ضعف﴾** ذكر سبحانه استدلالاً آخر على كمال قدرته، وهو خلق الإنسان نفسه على أطوار مختلفة، ومعنى

تفسير سورة لقمان

وهي مكية إلا ثلاث آيات، وهي قوله: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام﴾ [لقمان: 27 - 29] إلى تمام الآيات الثلاث. قاله ابن عباس فيما أخرجه النحاس عنه. وأخرج ابن الضريس، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عنه: أنها مكية، ولم يستثن، وحكى القرطبي عن قتادة: أنها مكية إلا آيتين. وأخرج النسائي، وابن ماجه عن البراء قال: كنا نصلي خلف النبي ﷺ الظهر نسمع منه الآية بعد الآية من سورة لقمان، والذاريات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّانِ الرَّحِيمِ

التر ١: إِنَّكَ أَكْبَرُ الْكُتُبِ الْحَكِيمِ ٢: هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ ٣: الَّذِينَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُؤْتُونَ الزُّكُوفَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ٤: أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ٥: وَنَافِلَاتٍ مَنْ يَشْتَرِي لَهْمَ الْحَدِيثِ لِيُخْلِصَ عَنْ سَيِّئِ اللَّهِ بِخَيْرٍ وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ كَلِمَةٌ عَنْ اللَّهِ وَآيَاتِنَا وَلَكِنْ مَسْتَعْزِمُ أَنْ يُدْعِيَ اللَّهُ لَكُمْ عَذَابًا مُهِينًا ٦: وَإِذَا تَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْوَحْيُ فَلَمْ تَجِدْ فِيهِ شَيْئًا مِمَّا تَرْغِبُونَ وَالْجَاهِلُونَ لَا يَرْضَوْنَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِلَّا أَعْيَنَ اللَّهُ رَبَّهُمْ هُنَا وَهُنَا يُخَوَّلُ مَا يُشَاءُ وَتُفْصَلُ الْآيَاتُ لِقَوْمٍ يُفْقَهُونَ ٧: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ هُمْ أَهْلُ مَا تُوعَدُونَ ٨: خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ وَإِنَّكَ عَلَيَّ خَلْقٍ فَأَنْصِتْ لِلْأَذَانِ ٩: أَتَسْكُرُ مِنْ رَبِّكَ بِمَا عَمِلْتَ فِي الْآخِرَةِ الرَّسُولُ شَرِيفٌ وَأَمَّا أَنْ تُخِيبَ الْوَعْدَ بِكَ وَيَكُنْ مِنْ أَهْلِ الْإِنْتِزَامِ ١٠: وَأَنْتَ مِنَ الْمَسْكُوفِينَ ١١: فَالْأَنْبِيَاءُ مِنْ قَبْلِهِمْ وَبَيْنَهُمْ وَأَنْتَ أَلْفَ سَنَةٍ مِنْ قَبْلِكَ وَتُنَبِّئُ عَنْ قُلُوبِهِمْ ١٢: هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ١٣: فَكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِمْ إِذَا أَثْمَرَ

قوله: ﴿لَمْ تَكُنْ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ قد تقدم الكلام على أمثال فاتحة هذه السورة، ومحلها من الإعراب مستوفى فلا نعيده، وبين مرجع الإشارة أيضاً، و﴿الحكيم﴾ إما أن يكون بمعنى: مفعول، أو بمعنى: فاعل، أو بمعنى: ذي الحكمة، أو الحكيم قائله، و﴿هدى ورحمة﴾ منصوبان على الحال على قراءة الجمهور. قال الزجاج: المعنى تلك آيات الكتاب في حال الهداية والرحمة، وقراء حمزة (ورحمة) بالرفع على أنهما خبر مبتدأ محذوف: أي: هو هدى ورحمة، ويجوز أن يكونا خبر تلك، والمحسن العامل للحسنات، أو من يعبد الله كأنه يراه كما ثبت عنه ﷺ في الصحيح لما سأله جبريل عن الإحسان: فقال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، ثم بين عمل المحسنين، فقال: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾، والموصول في محل جر على الوصف للمحسنين، أو في محل رفع، أو نصب على المدح، أو القطع، وخص هذه العبادات الثلاث؛ لأنها عمدة العبادات ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. قد تقدم تفسير هذا في أوائل سورة البقرة، والمعنى هنا: أن أولئك المتصفين بالإحسان وفعل تلك الطاعات التي هي أمهات العبادات هم على طريقة الهدى، وهم الفائزون بمطالبتهم الظافرون بخيري الدارين ﴿وَمَنْ

عليه، وحقيقة اعتبته أزلت عتبه، والمعنى: أنهم لا يدعون إلى إزالة عتبه من التوبة، والطاعة كما دعوا إلى ذلك في الدنيا ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: من كل مثل من الأمثال التي تدلهم على توحيد الله، وصدق رسله، واحتجنا عليهم بكل حجة تدل على بطلان الشرك ﴿وَلَوْ أَنَّ جَنَّتْهُمْ بَابَةٌ﴾ من آيات القرآن الناطقة بذلك، أو لئن جنتهم بآية كالعصا، واليد ﴿لَيَقُولُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مَبْطُلُونَ﴾ أي: ما أنت يا محمد، وأصحابك إلا مبطلون أصحاب أباطيل تتبعون السحر، وما هو مشاكل له في البطلان ﴿كَذَلِكَ يُطِيعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: مثل ذلك الطبع يطبع الله على قلوب الفاقين للعلم النافع الذي يهتدون به إلى الحق، وينجون به من الباطل، ثم أمر الله سبحانه نبيه ﷺ بالصبر معللاً لذلك بحقية وعد الله، وعدم الخلف فيه، فقال: ﴿فَاصْبِرْ﴾ على ما تسمعه منهم من الأذى، وتتنظره من الأفعال الكفرية فإن الله قد وعك بالنصر عليهم، وإعلاء حجتك، وإظهار دعوتك، ووعده حق لا خلف فيه ﴿وَلَا يَسْتَخَفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ أي: لا يمحلك على الخفة، ويستفزرك عن دينك، وما أنت عليه الذين لا يوقنون بالله، ولا يصدقون أنبياءه، ولا يؤمنون بكتبه، والخطاب للنبي ﷺ، يقال: استخف فلان فلاناً أي: استجهله حتى حمله على اتباعه في الغي. قرأ الجمهور «يستخفك» بالخاء المعجمة، والفاء، وقرأ يعقوب، وابن أبي إسحاق بجاء مهملة وقاف من الاستحقاق، والنهي في الآية من باب: لا أرينك هاهنا.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ممن مسلم يرد عن عرض أخيه إلا كان حقاً على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة، ثم تلا ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾»، وهو من طريق شهر بن حوشب عن أم الدرداء عن، أبي الدرداء. وأخرج أبو يعلى، وابن المنذر عنه في قوله: ﴿وَيَجْعَلُهُ كَسْفًا﴾ قال: قطعاً بعضها فوق بعض ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ﴾ قال: المطر ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ قال: من بينه. وأخرج ابن مردويه من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصَّعَمَ الدَّعَاءَ﴾ في دعاء النبي ﷺ لأهل بدر، والإسناد ضعيف. والمشهور في الصحيحين، وغيرهما: أن عائشة استنزلت بهذه الآية على رد رواية من روى من الصحابة: أن النبي ﷺ نادى أهل قليب بدر، وهو من الاستدلال بالعام على رد الخاص، فقد قال النبي ﷺ لما قيل له: إنك تنادي أجساداً بالية «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم»، وفي مسلم من حديث أنس: «أن عمر بن الخطاب لما سمع النبي ﷺ يناديهم، فقال: يا رسول الله تناديهم بعد ثلاث، وهل يسمعون؟ يقول الله: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى﴾، فقال: والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع منهم، ولكنهم لا يطيقون أن يجيبوا».

من وقع عليه مهبناً **﴿وَإِذَا تَتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا﴾** أي: وإذا تتلى آيات القرآن على هذا المستهزئ **﴿وَلِيَّ مُسْتَكْبِرًا﴾** أي: أعرض عنها حال كونه مبالغاً في التكبر، وجملة **﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾** في محل نصب على الحال: أي: كأن ذلك المعرض المستكبر لم يسمعها مع أنه قد سمعها، ولكن أشبهت حاله حال من لم يسمع، وجملة **﴿كَانَ فِي أَنْفِهِ وَقْرًا﴾** حال ثانية، أو بدل من التي قبلها، أو حال من ضمير يسمعها، ويجوز أن تكون مستأنفة، والوقر الثقل، وقد تقدم بيانه، وفيه مبالغة في إعراض ذلك المعرض **﴿فَيُبْشِرُهُ بِعَذَابِ الْيَمِّ﴾** أي: أخبره بأن له العذاب البليغ في الالم، ثم لما بين سبحانه حال من يعرض عن الآيات بين حال من يقبل عليها، فقال: **﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾** أي: آمنوا بالله، وبآياته، ولم يعرضوا عنها بل قبلوها، وعملوا بها **﴿لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾** أي: نعيم الجنات، فعكسه للمبالغة، جعل لهم جنات النعيم كما جعل للمفريق الأول العذاب المهين، وانتصاب **﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾** على الحال، وقرأ زيد بن علي (خالدون فيها) على أنه خبر ثان؛ لأن **﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾** هما مصدران الأول مؤكد لنفسه: أي: وعد الله وعداً، والثاني مؤكد لغيره، وهو مضمون الجملة الأولى، وتقديره حق ذلك حقاً. والمعنى: أن وعده كائن لا محالة، ولا خلف فيه **﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾** الذي لا يغلبه غالب **﴿الْحَكِيمُ﴾** في كل أفعاله، وأقواله، ثم بين سبحانه عزته وحكمته بقوله: **﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرْوَاهَا﴾** العمد جمع عماد، وقد تقدم الكلام فيه في سورة الرعد، وترونها في محل جر صفة لعمد، فيمكن أن تكون ثم عمدة، ولكن لا ترى. ويجوز أن تكون في موضع نصب على الحال: أي: ولا عمد ألبتة. قال النحاس: وسمعت علي بن سليمان يقول: الأولى أن يكون مستأنفاً: أي: ولا عمد ثم **﴿وَاللَّهُ فِي الْأَرْضِ رَوسِي﴾** أي: جبالاً ثوابت **﴿أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾** في محل نصب على العلة: أي: كرامة أن تميد بكم، والكوفيون يقرئونها لثلاث تميد، والمعنى: أنها خلقها، وجعلها مستقرّة ثابتة لا تتحرك بجبال جعلها عليها، وأرساها على ظهرها **﴿وَبِئْسَ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾** أي: من كل نوع من أنواع الدواب، وقد تقدم بيان معنى البئس **﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾** أي: أنزلنا من السماء مطراً، فأنبتنا فيها بسبب إنزاله من كل زوج: أي: من كل صنف، ووصفه بكونه كريماً لحسن لونه، وكثرة منافعه. وقيل: إن المراد بذلك الناس، فالكريم منهم من يصير إلى الجنة، واللثيم من يصير إلى النار. قاله الشعبي، وغيره، والأول أولى. والإشارة بقوله: **﴿هَذَا﴾** إلى ما نكر في خلق السموات والأرض، وهو: مبتدأ، وخبره **﴿خَلَقَ اللَّهُ﴾** أي: مخلوقه **﴿فَارُونِي مَاذَا خَلَقَ لِلنَّاسِ مِنْ دُونِهِ﴾** من آلهتهم التي تعبدونها، والاستفهام للتقريع والتوبيخ، والمعنى: فاروني أي شيء خلقوا مما يحاكي خلق الله، أو يقاربه، وهذا الأمر لهم لقصد التعجيز، والتبكيث. ثم أضرب عن تبكيثهم بما نكر إلى الحكم عليهم بالضللال

للناس من يشتري لهو الحديث محل **﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾** الرفع على الابتداء كما تقدم بيانه في سورة البقرة، وخبره **﴿مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾**، ومن إما موصولة، أو موصوفة، ولهو الحديث كل ما يلهي عن الخير، من الغناء، والملاهي، والأحاديث المكنوبة، وكل ما هو منكر، والإضافة بيانية. وقيل: المراد شراء القينات المغنيات والمغنين، فيكون التقدير: ومن يشتري أهل لهو الحديث. قال الحسن: لهو الحديث المعازف والغناء. وروي عنه أنه قال: هو الكفر والشرك. قال القرطبي: إن أولى ما قيل في هذا الباب: هو تفسير لهو الحديث بالغناء، قال: وهو قول الصحابة، والتابعين. واللام في **﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾** للتعليل قرأ الجمهور بضم الياء من **﴿يُضِلُّ﴾** أي: ليضل غيره عن طريق الهدى، ومنهج الحق، وإذا أضل غيره، فقد ضل في نفسه. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن محيصن، وحמיד، وورش، وابن أبي إسحاق بفتح الياء: أي: ليضل هو في نفسه. قال الزجاج: من قرأ بضم الياء، فمعناه: ليضل غيره، فإذا أضل غيره، فقد ضل هو، ومن قرأ بفتح الياء، فمعناه: ليصير أمره إلى الضلال، وهو وإن لم يكن يشتري للضلالة، فإنه يصير أمره إلى ذلك، فافاد هذا التعليل أنه إنما يستحق الذم من اشترى لهو الحديث لهذا المقصد، ويؤيد هذا سبب نزول الآية، وسيأتي. قال الطبري: قد أجمع علماء الأمصار على كراهة الغناء والمنع منه، وإنما فارق الجماعة إبراهيم بن سعد، وعبد الله العنبري. قال القاضي أبو بكر بن العربي: يجوز للرجل أن يسمع غناء جاريتة إذ ليس شيء منها عليه حرام لا من ظاهرها، ولا من باطنها، فكيف يمنع من التلذذ بصوتها؟

قلت: قد جمعت رسالة مشتملة على أقوال أهل العلم في الغناء، وما استدلل به المحللون له، والمحرمون له، وحققت هذا المقام بما لا يحتاج من نظر فيها، وتبدر معانيها إلى النظر في غيرها، وسميتها: [إبطال دعوى الإجماع، على تحريم مطلق السماع] فمن أحب تحقيق المقام كما ينبغي، فليرجع إليها.

ومحل قوله: **﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾** النصب على الحال: أي: حال كونه غير عالم بحال ما يشتريه، أو بحال ما ينفع من التجارة، وما يضر، فلهذا استبدل بالخير ما هو شر محض **﴿وَيُتَّخَذُهَا هُزْؤًا﴾** قرأ الجمهور برفع (يتخذها) عطفًا على يشتري فهو من جملة الصلة، وقيل: الرفع على الاستئناف، والضمير المنصوب في يتخذها يعود إلى الآيات المتقدم ذكرها، والأول أولى. وقرأ حمزة، والكسائي، والأعمش **﴿وَيُتَّخَذُهَا﴾** بالنصب عطفًا على يضل، والضمير المنصوب راجع إلى السبيل، فتكون على هذه القراءة من جملة التعليل للتحريم، والمعنى: أنه يشتري لهو الحديث للضللال عن سبيل الله، واتخاذ السبيل هُزْؤًا: أي: مهزؤاً به، والسبيل ينكر ويؤنث، والإشارة بقوله: **﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾** إلى من، والجمع باعتبار معناها كما أن الأفراد في الفعلين باعتبار لفظها، والعذاب المهين: هو الشديدي الذي يصير به

زماره، فوضع أصبعيه في أنفيه، ثم عدل عن الطريق، فلم يزل يقول: يا نافع أسمع؟ قلت: لا، فأخرج أصبعيه من أنفيه، وقال: هكذا رأيت رسول الله ﷺ صنع. وأخرج ابن أبي الدنيا عن عبد الرحمن بن عوف: أن رسول الله ﷺ قال: «إنما نهيت عن صوتين أحققين فاجرين: صوت عند نغمة لهو ومزامير شيطان، وصوت عند مصيبة خمش وجهه، وشق جيوب، ورنه شيطان».

وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٧﴾ وَلَئِذَا قَالَ لُقْمَانُ لِأَبِيهِ: وَهُوَ يَعْلَمُ بِبَيْتِي لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّكَ أَكْثَرُ لَظْمًا عَلَيْهِ ﴿١٨﴾ وَوَضَعْنَا لِلْإِنْسَانِ ذُلًّا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَا خُلُقَهُ أَكْبَرًا عَلَى رَجُلٍ مِنْ قَرِيشٍ اشْتَرَى جَارِيَةً مَغْنِيَةً. وأخرج البخاري في الأدب المفرد، وابن أبي الدنيا، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، والبيهقي في السنن عنه أيضاً في الآية قال: هو الغناء واشباهه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن مريويه عنه أيضاً في الآية قال: الجواري الضاريات. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن أبي الدنيا، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب عن أبي الصهباء قال: سألت عبد الله بن مسعود عن قوله: «ومن الناس من يشتري لهو الحديث» قال: هو والله الغناء. ولفظ ابن جرير: هو الغناء، والله الذي لا إله إلا هو، يرددها ثلاث مرات. وأخرج سعيد بن منصور، وأحمد، والترمذي، وابن ماجه، وابن أبي الدنيا، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مريويه، والبيهقي عن أبي أمامة، عن رسول الله ﷺ قال: «لا تتبعوا القينات، ولا تشتروهن، ولا خير في تجارة فيهن، وثمرتهن حرام» في مثل هذا أنزلت هذه الآية «ومن الناس من يشتري لهو الحديث» الآية، وفي إسناده عبيد بن زحر عن علي بن زيد، عن القاسم بن عبد الرحمن، وفيهم ضعف. وأخرج ابن أبي الدنيا في ذم الملاهي، وابن مريويه عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن الله حرم القينة، وبيعهها، وثمرتها، وتعليمها، والاستماع إليها، ثم قرأ «ومن الناس من يشتري لهو الحديث»». وأخرج ابن أبي الدنيا، والبيهقي في السنن عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «الغناء ينبت النفاق كما ينبت الماء البقل» ورواه عنه موقراً. وأخرج ابن أبي الدنيا، وابن مريويه عن أبي أمامة: أن رسول الله ﷺ قال: «ما رفع أحد صوته بغناء إلا بعث الله إليه شيطانين يجلسان على منكبيه يضربان بأعقابهما على صدره حتى يمسا». وفي الباب أحاديث في كل حديث منها مقال. وأخرج البيهقي في الشعب عن ابن مسعود في قوله: «ومن الناس من يشتري لهو الحديث» قال: الرجل يشتري جارية تغنيه ليلاً ونهاراً. وأخرج ابن مريويه، عن عبد الله بن عمر: «أنه سمع رسول الله ﷺ يقول في قوله: «ومن الناس من يشتري لهو الحديث»: إنما ذلك شراء الرجل للعب والباطل». وأخرج ابن أبي الدنيا، والبيهقي عن نافع قال: كنت أسير مع عبد الله بن عمر في طريق، فسمع

اختلف في لقمان هل هو عجمي أم عربي؟ مشتق من اللقم، فمن قال: إنه عجمي منه للتعريف والعجمة، ومن قال: إنه عربي منه للتعريف، ولزيادة الألف، والنون. واختلفوا أيضاً هو نبي أم رجل صالح؟ فذهب أكثر أهل العلم إلى أنه ليس بنبي. وحكى الواحدي عن عكرمة، والسدي، والشعبي: أنه كان نبياً، والأول أرجح لما سيأتي في آخر البحث. وقيل: لم يقل بنبوته إلا عكرمة فقط، مع أن الراوي لذلك عنه جابر الجعفي، وهو ضعيف جداً. وهو: لقمان بن باعورا ابن ناحور بن تارخ، وهو: أزر أبو إبراهيم، وقيل: هو لقمان بن عنقا بن ميرون. وكان نوبياً من أهل أيلة نكره السهيلي. قال وهب: هو: ابن أخت أيوب. وقال مقاتل: هو: ابن خالته، عاش ألف سنة، وأخذ عنه العلم، وكان يفتي قبل مبعث داود، فلما بعث داود قطع الفتوى، فقيل له؟ فقال: ألا اكتفي إذ كفيت. قال الواقي: كان قاضياً في بني إسرائيل، والحكمة التي أتاه الله هي: الفقه، والعقل، والإصابة في القول، وفسر الحكمة من قال: بنبوته بالنبوة «أن أشكر لي» أن: هي المفسرة، لأن في إتياء الحكمة معنى: القول، وقيل: التقدير قلنا له: أن أشكر لي. وقال الزجاج: المعنى: ولقد آتينا لقمان الحكمة: لأن أشكر لي. وقيل: بأن أشكر لي، فشكر فكان حكيماً بشكره، والشكر لله الثناء عليه في مقابلة النعمة، وطاعته فيما أمر به. ثم بين سبحانه: أن الشكر لا ينتفع به إلا الشاكر، فقال: «ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه»، لأن نفع ذلك راجع إليه، وفائضه حاصلة له، إذ به تستتيق النعمة، وبسببه يستجلب المزيد لها من الله سبحانه «ومن كفر فإن

الظاهر، فقال: «ويل للظالمون في ضلال» فقرّر ظلمهم أولاً، وضلالهم ثانياً، ووصف ضلالهم بالوضوح، والظهور، ومن كان هكذا فلا يعقل الحجة، ولا يهتدي إلى الحق.

وقد أخرج البيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله: «ومن الناس من يشتري لهو الحديث» يعني: باطل الحديث. وهو النضر بن الحارث بن علقمة اشترى أحاديث الأعاجم، وصنيعهم في دهرهم. وكان يكتب الكتب من الحيرة إلى الشام، ويكتب بالقرآن. وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن مريويه عنه في الآية قال: باطل الحديث، وهو: الغناء ونحوه «ليضل عن سبيل الله» قال: قراءة القرآن، وذكر الله، نزلت في رجل من قريش اشترى جارية مغنية. وأخرج البخاري في الأدب المفرد، وابن أبي الدنيا، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، والبيهقي في السنن عنه أيضاً في الآية قال: هو الغناء واشباهه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن مريويه عنه أيضاً في الآية قال: الجواري الضاريات. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن أبي الدنيا، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب عن أبي الصهباء قال: سألت عبد الله بن مسعود عن قوله: «ومن الناس من يشتري لهو الحديث» قال: هو والله الغناء. ولفظ ابن جرير: هو الغناء، والله الذي لا إله إلا هو، يرددها ثلاث مرات. وأخرج سعيد بن منصور، وأحمد، والترمذي، وابن ماجه، وابن أبي الدنيا، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مريويه، والبيهقي عن أبي أمامة، عن رسول الله ﷺ قال: «لا تتبعوا القينات، ولا تشتروهن، ولا خير في تجارة فيهن، وثمرتهن حرام» في مثل هذا أنزلت هذه الآية «ومن الناس من يشتري لهو الحديث» الآية، وفي إسناده عبيد بن زحر عن علي بن زيد، عن القاسم بن عبد الرحمن، وفيهم ضعف. وأخرج ابن أبي الدنيا في ذم الملاهي، وابن مريويه عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن الله حرم القينة، وبيعهها، وثمرتها، وتعليمها، والاستماع إليها، ثم قرأ «ومن الناس من يشتري لهو الحديث»». وأخرج ابن أبي الدنيا، والبيهقي في السنن عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «الغناء ينبت النفاق كما ينبت الماء البقل» ورواه عنه موقراً. وأخرج ابن أبي الدنيا، وابن مريويه عن أبي أمامة: أن رسول الله ﷺ قال: «ما رفع أحد صوته بغناء إلا بعث الله إليه شيطانين يجلسان على منكبيه يضربان بأعقابهما على صدره حتى يمسا». وفي الباب أحاديث في كل حديث منها مقال. وأخرج البيهقي في الشعب عن ابن مسعود في قوله: «ومن الناس من يشتري لهو الحديث» قال: الرجل يشتري جارية تغنيه ليلاً ونهاراً. وأخرج ابن مريويه، عن عبد الله بن عمر: «أنه سمع رسول الله ﷺ يقول في قوله: «ومن الناس من يشتري لهو الحديث»: إنما ذلك شراء الرجل للعب والباطل». وأخرج ابن أبي الدنيا، والبيهقي عن نافع قال: كنت أسير مع عبد الله بن عمر في طريق، فسمع

وقائدة، وأبو رجاء، والحسن، ويعقوب (وفصله)، وهما لغتان، يقال: انفصل عن كذا: أي: تميز، وبه سمي الفصل. وقد قَمَمْنَا لـ «أن» في قوله: ﴿أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ هي: المفسرة. وقال الزجاج: هي: مصدرية. والمعنى: بأن اشكر لي. قال النحاس: وأجود منه أن تكون أن مفسرة، وجملة ﴿إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ تعليل لوجوب امتثال الأمر: أي: الرجوع إِلَيَّ لا إلى غيري ﴿وَإِنْ جَاهَدَكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي: ما لا علم لك بشركته ﴿فَلَا تَطَعَهَا﴾ في تلك. وقد قَمَمْنَا تفسير الآية، وسبب نزولها في سورة العنكبوت. وانتصاب ﴿مَعْرُوفًا﴾ على أنه صفة لمصدر محذوف: أي: وصاحبهما صاحباً معروفاً، وقيل: هو منصوب بنزع الخافض، والتقدير بمعروف ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنْابَ إِلَيَّ﴾ أي: اتبع سبيل من رجع إِلَيَّ من عبادي الصالحين بالتوبة، والإخلاص ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ جميعاً لا إلى غيري ﴿فَأَنْبِئُكُمْ﴾ أي: أخبركم عند رجوعكم ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من خير، وشر، فأجازي كلَّ عامل بعمله. وقد قيل: إن هذا السياق من قوله: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ﴾ إلى هنا من كلام لقمان فلا يكون اعتراضاً، وفيه بعد. ثم شرع سبحانه في حكاية بقية كلام لقمان في وعظه لابنه، فقال: ﴿يَا بَنِيَّ إِنِّي كُنْتُ مَثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ﴾ الضمير في إنها عائذ إلى الخطيئة لما روي: أن ابن لقمان قال لآبيه: يا أبت إن عملت الخطيئة حيث لا يراني أحد هل يعلمها الله؟ فقال: إنها: الخطيئة، والجملة الشرطية مفسرة للضمير: أي: إن الخطيئة إن تك مثقال حبة من خردل. قال الزجاج: التقدير: إن التي سألتني عنها إن تك مثقال حبة من خردل، وعبر بالخرولة؛ لأنها أصغر الحبوب، ولا يدرك بالحوس ثقلها، ولا ترجح ميزاناً. وقيل: إن الضمير في «إنها» راجع إلى الخصلة من الإساءة، والإحسان: أي: إن الخصلة من الإساءة، والإحسان إن تك مثقال حبة الخ، ثم زاد في بيان خفاء الحبة مع خفتها فقال: ﴿فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ﴾ فإن كونها في الصخرة قد صارت في أخفى مكان، وأحرزه ﴿أَوْ فِي السَّمُوتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أو حيث كانت من بقاع السموات، أو من بقاع الأرض ﴿يَا بَنِيَّ﴾ أي: يا بني، يحضرها، ويحاسب فاعلها عليها ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ﴾ لا تخفى عليه خافية، بل يصل علمه إلى كل خفي ﴿خَبِيرٌ﴾ بكل شيء لا يغيب عنه شيء. قرأ الجمهور (إن تك) بالفوقية على معنى: إن تك الخطيئة، أو المسئلة، أو الخصلة، أو القصة. وقرأوا (مثقال) بالنصب على أنه خبر كان، واسمها هو أحد تلك المقدرات. وقرأ نافع برفع مثقال على أنه اسم كان، وهي تامة. وأنت الفعل في هذه القراءة لإضافة مثقال إلى المؤنث. وقرأ الجمهور (فتكن) بضم الكاف. وقرأ الجحدري بكسرهما، وتشديد النون. من الكَنَ الذي هو الشيء المغطى. قال السدّي: هذه الصخرة هي صخرة ليست في السموات، ولا في الأرض. ثم حكى سبحانه عن لقمان: أنه أمر ابنه بإقامة الصلاة، والأمر بالمعروف، والنهي عن

الله غني حميد: أي: من جعل كفر النعم مكان شكرها، فإن الله غني عن شكره غير محتاج إليه حميد مستحق للحمد من خلقه لإنعامه عليهم بنعمه التي لا يحاط بقدرها، ولا يحصر عدها، وإن لم يحمده أحد من خلقه، فإن كل موجود ناطق بحمده بلسان الحال. قال يحيى بن سلام: غني عن خلقه حميد في فعله ﴿وَإِذْ قَالَ لِقْمَانُ لِابْنِهِ﴾ قال السهيلي: اسم ابنه ثاران في قول ابن جرير، والقتيبي. وقال الكلبي: مشكم. وقال النقاش: أنعم. وقيل: ماتان. قال القشيري: كان ابنه، وإمرأته كافرين فما زال يعظهما حتى أسلما، وهذه الجملة معطوفة على ما تقدم، والتقدير: أتينا لقمان الحكمة حين جعلناه شاكراً في نفسه، وحين جعلناه واعظاً لغيره. قال الزجاج: إذ في موضع نصب بآتيناه. والمعنى: ولقد أتينا لقمان الحكمة إذ قال. قال النحاس: وأحسبه غلطاً؛ لأن في الكلام واواً، وهي تمنع من ذلك، ومعنى ﴿وَهُوَ يَعُظُهُ﴾: يخاطبه بالمواعظ التي ترغبه في التوحيد، وتصدّه عن الشرك ﴿يَا بَنِي لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ قرأ الجمهور بكسر الياء. وقرأ ابن كثير بإسكانها. وقرأ حفص بفتحها، ونهيه عن الشرك يدل على أنه كان كافراً كما تقدم، وجملة ﴿إِنَّ لِلشَّارِكِ لَظُلْمَ عَظِيمٍ﴾ تعليل لما قبلها، وبدأ في وعظه بنهيهِ عن الشرك؛ لأنه أهم من غيره.

وقد اختلف في هذه الجملة، فقيل: هي من كلام لقمان، وقيل: هي من كلام الله، فتكون منقطعة عما قبلها، ويؤيد هذا ما ثبت في الحديث الصحيح: أنها لما نزلت ﴿ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ [الأنعام: 82] شق ذلك على الصحابة، وقالوا: أينما لم يظلم نفسه. فأنزل الله ﴿إِنَّ الشُّرَكَاءَ لظُلُمٌ عَظِيمٌ﴾ فطالبت أنفسهم ﴿ووصينا الإنسان بوالديه﴾ هذه التوصية بالوالدين، وما بعدها إلى قوله: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ اعتراض بين كلام لقمان لقصد التأكيد لما فيها من النهي عن الشرك بالله، وتفسير التوصية هي: قوله: ﴿إِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ وما بينهما اعتراض بين المفسر، والمفسر، وفي جعل الشكر لهما مقترناً بالشكر لله دلالة على أن حقهما وفي أعظم الحقوق على الولد، وكبرها، وأشدّها وجوباً، ومعنى ﴿حملته أمه وهنّاً على وهنّ﴾: أنها حملته في بطنها، وهي تزداد كل يوم ضعفاً على ضعف، وقيل: المعنى: إن المرأة ضعيفة الخلقة، ثم يضعفها الحمل، وانتصاب، وهنّاً على المصدر. وقال النحس على أنه مفعول ثان بإسقاط الحرف: أي: حملته بضعف على ضعف، وقال الزجاج: المعنى: لزمها بحملها إياه أن تضعف، مرّة بعد مرّة، وقيل: انتصابه على الحال من أمه، وعلى وهنّ. وهنّ صفة لو هنّ أي: وهناً كائناً على وهنّ، قرأ الجمهور بسكون الهاء في الموضعين. وقرأ عيسى الثقفي، وهي رواية عن أبي عمرو يفتحها، وهما لغتان. قال قعنب:

هل للعوائل من ناه فيزجرها إن العوائل فيها الأين والوهم
﴿وفصله في عامين﴾ الفصل القظام، وهو أن يفصل
 الولد عن الأم، وهو: مبتدأ، وخبره الظرف. وقرأ الجحدرى،

على الكثرة، وهو مصدر صات يصوت صوتاً، فهو صاات.

وقد أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أتدرون ما كان لقمان؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: كان حبشياً». وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد في الزهد، وابن أبي الدنيا في كتاب المملوكين، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كان لقمان عبداً حبشياً نجاراً. وأخرج الطبراني، وابن حبان في الضعفاء، وابن عساكر عنه: قال رسول الله ﷺ: «أتخذوا السودان فإن ثلاثة منهم سادات أهل الجنة: لقمان الحكيم، والنجاشي، وبلال المؤمن». قال الطبراني: أراد الحبشة. وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً في قوله: «ولقد آتينا لقمان الحكمة» يعني: العقل، والفهم، والفتنة في غير نبوة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن عكرمة: أنه كان نبياً، وقد قَدَّمْنَا أن الراوي عنه جابر الجعفي، وهو ضعيف جداً. وأخرج أحمد، والحكيم، والترمذي، والحاكم في الكنى، والبيهقي في الشعب عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: «إن لقمان الحكيم كان يقول: إن الله إذا استودع شيئاً حفظه، وقد نكر جماعة من أهل الحديث روايات عن جماعة من الصحابة والتابعين تتضمن كلمات من مواعظ لقمان وحكمه، ولم يصح عن رسول الله ﷺ من ذلك شيء، ولا ثبت إسناد صحيح إلى لقمان بشيء منها حتى نقبله. وقد حكى الله سبحانه من مواعظه لابنه ما حكاه في هذا الموضع، وفيه كفاية وما عدا ذلك مما لم يصح فليس في ذكره إلا شغلة للحيز، وقطية للوقت، ولم يكن نبياً حتى يكون ما نقل عنه من شرع من قبلنا، ولا صحَّ إسناد ما روي عنه من الكلمات حتى يكون نكر ذلك من تدوين كلمات الحكمة التي هي ضالة المؤمن. وأخرج أبو يعلى، والطبراني، وابن مردويه، وابن عساكر عن أبي عثمان النهدي: أن سعد بن أبي وقاص قال: أنزلت في هذه الآية «وإن جاهدك على أن تشرك بي»، وقد تقدَّم نكر هذا. وأخرج ابن جرير عن أبي هريرة قال: نزلت هذه الآية في سعد بن أبي وقاص. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: «وهنا على وهن» قال: شدة بعد شدة، وخلقاً بعد خلق. وأخرج الطبراني، وابن عدي، وابن مردويه عن أبي أيوب الأنصاري: أن رسول الله ﷺ سئل عن قوله: «ولا تصغر خنك للناس»، فقال: لي الشلق. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: «ولا تصغر خنك للناس» قال: لا تتكبر، فتحقر عباد الله، وتعرض عنهم إذا كلموك. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في الآية قال: هو الذي إذا سلم عليه لوى عنقه كالمتكبر.

المنكر، والصبر على المصيبة، ووجه تخصيص هذه الطاعات أنها أمهات العبادات، وعماد الخير كله، والإشارة بقوله: «إن ذلك» إلى الطاعات المذكورة، وخبر إن قوله: «من عزم الأمور» أي: مما جعله الله عزيمة، وأوجبه على عباده. وقيل: المعنى: من حق الأمور التي أمر الله بها. والعزم يجوز أن يكون بمعنى: المعزوم: أي: من معزومات الأمور، أو بمعنى: العازم كقوله: «فإذا عزم الأمر» [محمد: 21] قال المبرد: إن العين تبدل حاء. فيقال: عزم، وحزم. قال ابن جرير: ويحتمل أن يريد أن ذلك من مكارم أهل الأخلاق، وعزائم أهل الحزم السالكين طريق النجاة، وصوب هذا القرطبي «ولا تصاعر خنك للناس» قرأ الجمهور (تصعّر)، وقرأ ابن كثير، وابن عامر، وعاصم (تصاعر) والمعنى متقارب، والصعر الميل، يقال: صعر خذه، وصاعر خذه: إذا أمال وجهه، وأعرض تكبراً. والمعنى: لا تعرض عن الناس تكبراً عليهم. ومنه قول الشاعر:

وكنّا إذا الجبار صعر خذه مشينا إليه بالسيوف نعاتبه
ورواه ابن جرير هكذا:

وكنّا إذا الجبار صعر خذه أقمنا له من ميله فتقومنا
قال الهروي «ولا تصاعر خنك للناس» أي: لا تعرض عنهم تكبراً، يقال: أصاب البعير صعر: إذا أصابه داء يلوي عنقه؛ وقيل: المعنى: ولا تلو شنقك إذا نكر الرجل عندك كأنك تحتقره. وقال ابن خويز منداك: كأنه نهى أن يذل الإنسان نفسه من غير حاجة، ولعله فهم من التصغير التذلل «ولا تمش في الأرض مرحاً» أي: خيلاً، وفرحاً، والمعنى: النهي عن التكبر، والتجبر. والمختار يمرح في مشيه، وهو مصدر في موضع الحال، وقد تقدَّم تحقيقه، وجملة «إن الله لا يحب كل مختال فخور» تعليل للنهي؛ لأن الاختيال هو المرح، والفخور هو الذي يفخر على الناس بما له من المال، أو الشرف، أو القوة، أو غير ذلك، وليس منه التحدث بنعم الله، فإن الله يقول: «وإما بنعمة ربك فحدث» [الضحى: 11] «واقصد في مشيك» أي: توسط فيه، والقصْد ما بين الإسراع، والبطء. يقال: قصد فلان في مشيته: إذا مشى مستوياً لا يندب بيبب المتماوتين، ولا يثب وثوب الشياطين. وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان إذا مشى أسرع، فلا بد أن يحمل القصد هنا على ما جاوز الحد في السرعة. وقال مقاتل: معناه: لا تختل في مشيتك. وقال عطاء: امش بالوقار، والسكينة، كقوله: «يمشون على الأرض هوناً» [الفرقان: 63] «واغضض من صوتك» أي: انقص منه، واخفضه، ولا تتكلف رفعه، فإن الجهر بأكثر من الحاجة يؤذي السامع، وجملة «إن أنكر الأصوات لصوت الحمير» تعليل للأمر بالغض من الصوت: أي: أوحشها، وأقبحها. قال قتادة: أقبح الأصوات صوت الحمير أوله زفير، وآخره شهيق. قال المبرد: تأويله إن الجهر بالصوت ليس بمحمود، وإنه داخل في باب الصوت المنكر. واللام في لصوت للتأكيد، ووحد الصوت مع كونه مضافاً إلى الجمع؛ لأنه مصدر، وهو يدل

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ
ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ
مُّبِينٍ ﴿١٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا آتَاكُمُ اللَّهُ قَالُوا لَوْلَا جَاءَنَا بِآيَاتِنَا
أَوْ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٧﴾ وَمَنْ يَسْلَمْ وَجْهَهُ
إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْمَرْوَةِ الْبَرْقِئَةِ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ

﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزِنُهُ كُفْرُهُ إِنَّا مَرَجَعُهُمْ فَتَنَّهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ تَمَيُّنُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿١٧﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا فِي الْأَنْكُرَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُنَىٰ الْحَسِيدُ ﴿١٩﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّ مِنْ بَمْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِذْتُ كَلِمَتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠﴾ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَحْيَاكُمْ إِلَّا كَفْتَنَ وَاحِدٌ إِنَّ اللَّهَ يَبْصُرُ ﴿٢١﴾

لما فرغ سبحانه من قصة لقمان رجع إلى توبيخ المشركين، وتبكيتهم، وإقامة الحجج عليهم، فقال: ﴿الْم تَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ قال الزجاج: معنى تسخيرها للأكمين: الانتفاع بها انتهى، فمن مخلوقات السموات المسخرة لبني آدم: أي: التي ينتفعون بها الشمس، والقمر، والنجوم، ونحو ذلك. ومن جملة تلك الملائكة فإنهم حفظة لبني آدم بأمر الله سبحانه، ومن مخلوقات الأرض المسخرة لبني آدم الأحجار، والتراب، والزرع، والشجر، والثمر، والحيوانات التي ينتفعون بها، والعشب الذي يرعون فيه نوابهم، وغير ذلك مما لا يحصى كثرة، فالمراد بالتسخير جعل المسخر بحيث ينتفع به المسخر له سواء كان متقاداً له، ودخل تحت تصرفه أم لا ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ أي: أتم، واكمل عليكم نعمه، يقال: سبغت النعمة إذا تمت وكملت. قرأ الجمهور «أسبغ» بالسين، وقرأ ابن عباس، ويحيى بن عمار (أصبغ) بالصاد مكان السين. والنعم جمع نعمة على قراءة نافع، وأبي عمرو، وحفص، وقرأ الباقون (نعمة) بسكون العين على الأفراد، والتثنية اسم جنس يراد به الجمع، ويدل به على الكثرة، كقوله: ﴿وَإِنْ تَعْلَمُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: 34] وهي قراءة ابن عباس. والمراد بالنعم الظاهرة ما يدرك بالعقل، أو الحس، ويعرفه من يتعرفه، وبالباطنة ما لا يدرك للناس، ويخفى عليهم. وقيل: الظاهرة: الصحة، وكمال الخلق، والباطنة: المعرفة، والعقل. وقيل: الظاهرة: ما يرى بالابصار من المال، والجاه، والجمال، وفعل الطاعات، والباطنة: ما يجده المرء في نفسه من العلم بالله، وحسن اليقين، وما يدفعه الله عن البعد من الآفات. وقيل: الظاهرة: نعم الدنيا، والباطنة: نعم الآخرة. وقيل: الظاهرة: الإسلام، والجمال، والباطنة: ما ستره الله على العبد من الأعمال السيئة ﴿وَمَنْ لِّلنَّاسِ مِنْ يَجَادِلَ فِي اللَّهِ﴾ أي: في شأن الله سبحانه في توحيده، وصفاته مكابرة، وعناداً بعد ظهور الحق له، وقيام الحجة عليه، ولهذا قال: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ من عقل ولا نقل ﴿وَلَا هُدًى﴾ يهتدي به إلى طريق الصواب ﴿وَلَا كِتَابٌ مُنِيرٌ﴾ أنزله الله سبحانه، بل مجرد تعنت، ومحض عناد، وقد تقدم تفسير هذه الآية في سورة البقرة ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ أي: إذا قيل لهؤلاء المجادلين، والجمع باعتبار معنى: من، اتبعوا ما أنزل الله على رسوله من الكتاب تمسكوا بمجرد التقليد البحت،

﴿وَقَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءُنَا﴾ فنعبد ما كانوا يعبدونه من الأصنام، ونمشي في الطريق التي كانوا يمشون بها في دينهم، ثم قال على طريق الاستفهام للاستبعاد والتبكيك ﴿أَوَلَوْ كَانَ لِلشَّيْطَانِ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ السَّعِيرِ﴾ أي: يدعو آبائهم الذين اقتدوا بهم في دينهم: أي: يتبعونهم في الشرك، ولو كان الشيطان يدعوهم فيما هم عليه من الشرك، ويجوز أن يراد أنه يدعو هؤلاء الاتباع إلى عذاب السعير، لأنه زين لهم اتباع آبائهم، والتدين بدينهم، ويجوز أن يراد أنه يدعو جميع التابعين، والمتبعين إلى العذاب. فدعاؤه للمتبعين بتزيينه لهم الشرك، ودعاؤه للتابعين بتزيينه لهم دين آبائهم، وجواب لو محذوف أي: يدعوهم، فيتبعونهم، ومحل الجملة النصب على الحال. وما أقبح التقليد، وأكثر ضرره على صاحبه، وأوخم عاقبته، وأشأم عائلته على من وقع فيه. فإن الداعي له إلى ما أنزل الله على رسوله كمن يريد أن ينزود القراش عن لهب النار لئلا تحترق، فتأبى ذلك، وتتهافت في نار الحريق، وعذاب السعير ﴿وَمَنْ يَسْلَمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي: يفوض إليه أمره، ويخلص له عيافته، ويقبل عليه بكليته ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ في أعماله، لأن العبادة من غير إحسان لها، ولا معرفة بما يحتاج إليه فيها لا تقع بالموقع الذي تقع به عبادة المحسنين. وقد صح عن الصادق المصنوق لما سأل جبريل عن الإحسان أنه قال له: «إن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» ﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ أي: اعتصم بالعمد الأوثق، وتعلق به، وهو تمثيل لحال من أسلم وجهه إلى الله بحال من أراد أن يترقى إلى شاطئ جبل فتمسك بأوثق عرى جبل متدلاً منه ﴿وَالِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ أي: مصيرها إليه لا إلى غيره. وقرأ علي بن أبي طالب، والسلمي، وعبد الله بن مسلم بن يسار (ومن يسلم) بالتشديد قال النحاس: والتخفيف في هذا أعرف كما قال عز وجل: ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: 20] ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزِنُهُ كُفْرُهُ﴾ أي: لا تحزن لذلك، فإن كفره لا يضره، بين سبحانه حال الكافرين بعد فراغه من بيان حال المؤمنين، ثم توعدهم بقوله: ﴿إِنَّا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ أي: نخبرهم بقبائح أعمالهم، ونجازيهم عليها ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: بما تسره صدورهم لا تخفى عليه من ذلك خافية. فالسر عنده كالعناية ﴿وَنُفَعُهُمْ قَلِيلًا﴾ أي: نبيهم في الدنيا مدة قليلة يتمتعون بها. فإن النعيم الزائل هو أقل قليل بالنسبة إلى النعيم الدائم. وانتصاب قليلاً على أنه صفة لمصدر محذوف: أي: تمتعاً قليلاً ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أي: لنجسهم إلى عذاب النار. فإنه لا أثقل منه على من وقع فيه، وأصيب به، فهذا استعير له الغلظ ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ أي: يعترفون بالله خالق ذلك لوضوح الأمر فيه عندهم. وهذا اعتراف منهم بما يدل على التوحيد، وبطلان الشرك، ولهذا قال: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: قل يا محمد: الحمد

إنها لما نزلت ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ [الإسراء: 85] في اليهود، قالوا: كيف، وقد أوتينا التوراة فيها كلام الله، وأحكامه، فنزلت. قال أبو عبيدة: المراد بالبحر هنا الماء العذب الذي ينبت الأقاليم، وأما الماء المالح، فلا ينبت الأقاليم. قلت: ما أسقط هذا الكلام، وأقلّ جدواه ﴿إن الله عزيز حكيم﴾ أي: غالب لا يعجزه شيء، ولا يخرج عن حكمته، وعلمه فرد من أفراد مخلوقاته ﴿ما خلقكم ولا بعنكم إلا كنفس واحدة﴾ أي: إلا خلق نفس واحدة، وبعثها. قال النحاس: كذا قدره النحويون خلق نفس مثل قوله: ﴿وإرسال القرية﴾ [يوسف: 82]. قال الزجاج: أي: قدرة الله على بعث الخلق كله، وعلى خلقهم كقدرته على خلق نفس واحدة، وبعث نفس واحدة ﴿إن الله سميع﴾ لكل ما يسمع ﴿بصير﴾ بكل ما يبصر. وقد أخرج البيهقي في الشعب عن عطاء قال: سألت ابن عباس عن قوله: ﴿واسمع عليكم﴾ الآية، قال: هذه من كنوز علمي سألت عنها رسول الله ﷺ، فقال: «أما الظاهرة فما سوى من خلقك، وأما الباطنة فما ستر من عورتك، ولو أبداها لقلاك أهلك فمن سواهم». وأخرج ابن مردويه، والبيهقي في الشعب، والديلمي، وابن النجار عنه قال: «سألت رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿واسمع عليكم نعمه ظاهرة وباطنة﴾ فقال: أما الظاهرة فالإسلام، وما سوى من خلقك، وما سمع عليكم من رزقه، وأما الباطنة فما ستر من مساوي عملك». وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً قال: النعمة الظاهرة الإسلام، والنعمة الباطنة كل ما يستر عليكم من الذنوب، والعيوب، والحدود. وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً: أنه قال في تفسير الآية: هي: لا إله إلا الله. وأخرج ابن أبي إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿ولو أنما في الأرض﴾ الآية «أن أحبار اليهود قالوا لرسول الله ﷺ بالمدينة: يا محمد أرايت قولك: ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ [الإسراء: 85] إيانا تريد أم قومك؟ فقال: كلا، فقالوا: الست تتلو فيما جاءك أنا قد أوتينا التوراة، وفيها تبیان كل شيء؟ فقال: إنها في علم الله قليل، وأنزل الله ﴿ولو أنما في الأرض﴾ الآية». وأخرج ابن مردويه عنه بأطول منه. وأخرج ابن مردويه أيضاً عن ابن مسعود نحوه.

له على اعترافكم، فكيف تعبون غيره، وتجعلونه شريكاً له؟ أو المعنى: فقل: الحمد لله على ما هدانا له من دينه، ولا⁽¹⁾ حمد لغيره⁽²⁾، ثم أضرب عن ذلك، فقال: ﴿ببل أكثرهم لا يعلمون﴾ أي: لا ينظرون، ولا يتنبهون حتى يعلموا أن خالق هذه الأشياء هو الذي تجب له العبادة بون غيره ﴿الله ما في السموات والأرض﴾ ملكاً، وخلقاً فلا يستحق العبادة غيره ﴿إن الله هو الغني﴾ عن غيره ﴿الحميد﴾ أي: المستحق للحمد، أو المحمود من عباده بلسان المقال، أو بلسان الحال. ثم لما ذكر سبحانه أن له ما في السموات والأرض أتبعه بما يدل على أن له وراء ذلك ما لا يحيط به عدد، ولا يحصر بحد، فقال: ﴿ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام﴾ أي: لو أن جميع ما في الأرض من الشجرة أقلام، ووحد الشجرة لما تقرّر في علم المعاني أن استغراق المفرد اشمل، فكانه قال: كل شجرة شجرة حتى لا يبقى من جنس الشجر واحدة إلا وقد برئت أقلاماً، وجمع الأقلام لقصد التكثير: أي: لو أن يعد كل شجرة من الشجر أقلاماً. قال أبو حيان: وهو من وقوع المفرد موقع الجمع، والنكرة موقع المعرفة كقوله: ﴿ما ننسخ من آية﴾ [البقرة: 106]، ثم قال سبحانه: ﴿والبحر يمده من بعده سبعة أبحر﴾ أي: يمده من بعد نفاده سبعة أبحر. قرأ الجمهور «والبحر» بالرفع على أنه مبتدأ، ويمده خبره. والجملة في محل الحال: أي: والحال أن البحر المحيط مع سعته يمده السبعة الأبحر مذ لا ينقطع، كذا قال سيبويه. وقال المبرد: إن البحر مرتفع بفعل مقترّ تقديره ولو ثبت البحر حال كونه تمده من بعده سبعة أبحر، وقيل: هو مرتفع بالعطف على أن، وما في حيزها. وقرأ أبو عمرو، وابن أبي إسحاق، والبحر بالنصب عطفاً على اسم أن، أو بفعل مضمّر يفسره يمده. وقرأ ابن هرمز، والحسن يمهده، بضم حرف المضارعة، وكسر الميم، من أمده. وقرأ جعفر بن محمد، والبحر (مداده)، وجواب لو ﴿ما نفدت كلمات الله﴾ أي: كلماته التي هي عبارة عن معلوماته. قال أبو علي الفارسي: المراد بالكلمات، والله أعلم ما في المقذور بون ما خرج منه إلى الوجود، ووافقه القفال، فقال: المعنى: أن الأشجار لو كانت أقلاماً، والبحار مداداً، فكتب بها عجائب صنع الله الدالة على قدرته، ووحدانيته لم تنفذ تلك العجائب. قال القشيري: رآه القفال معنى الكلمات إلى المقنورات. وحمل الآية على الكلام القنيم أولى. قال النحاس: قد تبين أن الكلمات هاهنا يراد بها العلم، وحقائق الأشياء، لأنه جل وعلا علم قبل أن يخلق الخلق ما هو خالق في السموات والأرض من شيء، وعلم ما فيه من مثاقيل الذر، وعلم الأجناس كلها، وما فيها من شعرة، وعضو، وما في الشجرة من ورقة، وما فيها من ضروب الخلق. وقيل: إن قريشاً قالت: ما أكثر كلام محمد، فنزلت قاله السدي، وقيل:

(1 - 1) هكذا في الاصل ولعلها: ولا حمد لغيره.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُبْلِغُ أَلْفَ فِي النَّهَارِ وَيُؤْتِي النَّهَارَ فِي أَلْفِ وَسَحَرِ
أَشْمَسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى أَلْفِ مِائَةٍ وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨﴾
ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ
الْكَبِيرُ ﴿١٩﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ
آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْهُ
بِالْعَهْدِ إِذْ دَعَا اللَّهُ تَحْيِيصِينَ لَهُ الَّذِينَ قَالُوا بَعْضُهُمْ إِلَى الْآخَرِ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا
يَحْمَدُ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا كُلُّ خَسَّارٍ كَفُورٍ ﴿٢١﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ
وَمَا لَا يَحْزَى وَالَّذِي عَنِ النَّفْسِ هُوَ جَانِبٌ عَنِ الْوَلَدِ شَيْئاً إِنَّكُمْ وَعَدَ
اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَغُرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّكُمْ بِاللَّهِ الْفُرُودُ ﴿٢٢﴾ إِنَّ

يعولون على غيره في خلاصهم؛ لأنهم يعلمون أنه لا يضر، ولا ينفع سواه، ولكنه تغلب على طبائعهم العادات، وتقليد الاموات، فإذا وقعوا في مثل هذه الحالة اعترفوا بوحداية الله، وأخلصوا دينهم له طلباً للخلاص، والسلامة مما وقعوا فيه ﴿فلما نجاهم إلى البر﴾ صاروا على قسمين: فقسم ﴿مقتصد﴾ أي: موف بما عاهد عليه الله في البحر من إخلاص الدين له، باق على ذلك بعد أن نجاه الله من هول البحر، وأخرجه إلى البر سالماً. قال الحسن: معنى مقتصد: مؤمن متمسك بالتوحيد، والطاعة. وقال مجاهد: مقتصد في القول مضمهر للكفر، والأولى ما ذكرناه، ويكون في الكلام حذف، والتقدير فمنهم مقتصد، ومنهم كافر، ويدل على هذا المحذوف قوله: ﴿وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور﴾ الختر: أسوأ الغدر، وأقبحه، ومنه قول الأعشى:

بالأبلق الفرد من تيماء منزله حصن حصين وجار غير ختار
قال الجوهري: الختر الغدر، يقال: ختره، فهو: ختار. قال الماوردي: وهذا قول الجمهور. وقال ابن عطية: إنه الجاحد، وجحد الآيات: إنكارها، والكفور: عظيم الكفر بنعم الله سبحانه ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزي ولد عن والده﴾ أي: لا يغني الولد عن ولده شيئاً، ولا ينفعه بوجه من وجوه النفع لاشتغاله بنفسه. وقد تقدم بيان معناه في البقرة ﴿ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً﴾ نكر سبحانه فردين من القربات، وهو الولد والولد، وهما الغاية في الحنو والشفقة على بعضهم البعض، فما عداهما من القربات لا يجزي بالأولى فكيف بالأجانب. اللهم اجعلنا ممن لا يرجو سواك، ولا يعول على غيرك ﴿إن وعد الله حق﴾ لا يتخلف فما وعد به من الخير، وأوعد به من الشر، فهو كائن لا محالة ﴿فلا تغرنكم الحياة الدنيا﴾، وزخارفها فإنها زائلة ذاهبة ﴿ولا يغرنكم بالله الغرور﴾ قرأ الجمهور «الغرور» بفتح الغين المعجمة، والغرور هو: الشيطان، لأن من شأنه أن يغر الخلق، ويمنيهم بالأماني الباطلة، ويلهيهم عن الآخرة، ويصدّهم عن طريق الحق. وقرأ سماك بن حرب، وأبو حيرة، وابن السميع بضم الغين مصدر غرَّ يغرَّ غروراً، ويجوز أن يكون مصدراً واقعاً وصفاً للشيطان على المبالغة ﴿إن الله عنده علم الساعة﴾ أي: علم وقتها الذي تقوم فيه. قال الفراء: إن معنى هذا الكلام: النفي: أي: ما يعلمه أحد إلا الله عز وجل. قال النحاس: وإنما صار فيه معنى: النفي لما ورد عن النبي ﷺ: أنه قال في قوله: ﴿وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو﴾ [الأنعام: 59] إنها هذه ﴿وينزل الغيث﴾ في الأوقات التي جعلها معينة لإنزاله، ولا يعلم ذلك غيره ﴿ويعلم ما في الأرحام﴾ من الذكور، والإناث، والصالح، والفساد ﴿وما تدري نفس﴾ من النفوس كائنة ما كانت من غير فرق بين الملائكة، والأنبياء، والجن، والإنس ﴿ماذا تكسب غداً﴾ من كسب دين، أو كسب دنيا ﴿وما تدري نفس بأي أرض تموت﴾ أي: بأي مكان يقضي الله عليها بالموت. قرأ الجمهور «وينزل

الله عنده علم الساعة وينزل الغيث وما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت﴾ إن الله أعلم خبير ﴿الخطاب بقوله: ﴿هلم تر﴾ لكل أحد يصلح لذلك، أو للرسول ﷺ﴾ ﴿إن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل﴾ أي: يدخل كل واحد منهما في الآخر، وقد تقدم تفسيره في سورة الحج والأنعام ﴿وسخر الشمس والقمر﴾ أي: نللهما، وجعلهما متقائين بالطلوع والأفول تقديراً للأجال، وتنميماً للمنافع، والجملة معطوفة على ما قبلها مع اختلافهما ﴿كل يجري إلى أجل مسمى﴾ اختلف في الأجل المسمى ماذا هو؟ فقيل: هو يوم القيامة، وقيل: وقت الطلوع، ووقت الأفول، والأول أولى، وجملة ﴿وإن الله بما تعملون خبير﴾ معطوفة على أن الله يولج: أي: خبير بما تعملونه من الأعمال لا تخفى عليه منها خافية: لأن من قدر على مثل هذه الأمور العظيمة قدرته على العلم بما تعملونه بالأولى. قرأ الجمهور (تعملون) بالفوقية، وقرأ السلمي، ونصر بن عامر، والنوري عن أبي عمرو بالتحنية على الخبر، والإشارة بقوله: ﴿ذلك﴾ إلى ما تقدم ذكره، والباء في ﴿بأن الله﴾ للسببية: أي: ذلك بسبب أنه سبحانه ﴿هو الحق﴾ وغيره الباطل، أو متعلقة بمحذوف أي: فعل ذلك ليعلموا أنه الحق ﴿وإن ما يدعون من دونه الباطل﴾ قال مجاهد: الذي يدعون من دونه هو الشيطان، وقيل: ما أشركوا به من صنم، أو غيره، وهذا أولى ﴿وإن الله هو العلي الكبير﴾ معطوفة على جملة ﴿إن الله هو الحق﴾ والمعنى: أن ذلك الصنع البديع الذي وصفه في الآيات المتقدمة للاستدلال به على حقية الله، ويطلان ما سواه، وعلوّه، وكبريائه: هو العلي في مكانته، ذو الكبرياء في ربوبيته، وسلطانه. ثم ذكر من عجب صنعه، وبديع قدرته نوعاً آخر، فقال: ﴿هلم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمت الله﴾ أي: بلفظه بكم، ورحمته لكم، وذلك من أعظم نعمه عليكم؛ لأنها تخلصكم من الغرق عند أسفاركم في البحر لطلب الرزق، وقرأ ابن هرمز (بنعمات الله) جمع نعمة ﴿ليريك من آياته﴾ من للتبعيض: أي: ليريك بعض آياته. قال يحيى بن سلام: وهو جري السفن في البحر بالريح. وقال ابن شجرة: المراد بقوله: من آياته ما يشاهدونه من قدرة الله. وقال النقاش: ما يرزقه الله في البحر ﴿إن في تلك لآيات لكل صبار شكور﴾ هذه الجملة تعليل لما قبلها: أي: إن فيما نكر لآيات عظيمة لكل من له صبر بليغ، وشكر كثير يصبر عن معاصي الله، ويشكر نعمه ﴿وإذا غشيهم موج كالظلل﴾ شبه الموج لكبره بما يظل الإنسان من جبل، أو سحاب، أو غيرهما، وإنما شبه الموج، وهو واحد بالظلل. وهي جمع، لأن الموت يأتي شيئاً بعد شيء، ويركب بعضه بعضاً. وقيل: إن الموج في معنى الجمع؛ لأنه مصدر، وأصل الموج الحركة، والأزحام، ومنه يقال: ماج البحر، وماج الناس. وقرأ محمد بن الحنفية «موج كالظلال» جمع ظل ﴿دعوا الله مخلصين له الدين﴾ أي: دعوا الله وحده لا

الله أحد» [الإخلاص: 1] وفي الركعتين الآخرين «تبارك الذي بيده الملك» [الملك: 1] و «الْمَ تَنْزِيلُ» [السجدة: 1] السجدة كتبت له كأربع ركعات من ليلة القدر. وأخرج ابن مريويه عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ تبارك الذي بيده الملك، والْمَ تَنْزِيلُ السجدة بين المغرب، والعشاء الآخرة فكأنما قام ليلة القدر». وأخرج ابن مريويه عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ في ليلة الْمَ تَنْزِيلُ السجدة، ويس» «واقتربت الساعة» [القدر: 1]، وتبارك الذي بيده الملك كن له نوراً وحرزاً من الشيطان، ورفع في الدرجات إلى يوم القيامة». وأخرج ابن الضريس عن المسيب بن رافع: أن النبي ﷺ قال: «الْمَ تَنْزِيلُ تجيء لها جناحات يوم القيامة تظل صاحبها وتقول: لا سبيل عليه لا سبيل عليه».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّزِ الرَّكَّزِ

الْمَ تَنْزِيلُ الْعَجَبِ لَا رَبَّ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَأَيْتُمْ بَلْ هُوَ الْخُبْرُ مِنْ رَبِّكَ لِتُحْذِرُوا قَوْمًا أَنَّهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٢﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَيْعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ وَمَنْ أَسْمَاءُ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤﴾ ذَلِكَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَاللَّهِدَةِ الْغَيْبِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿٦﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَلَأْ مِهْنٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِيهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٨﴾ وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَفُورُونَ ﴿٩﴾ قُلْ يَتَوَفَّنَا اللَّهُ الْأَوَّلَى كُلِّ يَوْمٍ ثُمَّ إِلَيْكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٠﴾

قوله: ﴿الْمَ﴾ قد قلنا الكلام على فاتحة هذه السورة، وعلى محلها من الإعراب في سورة البقرة، وفي مواضع كثيرة من فواتح السور، وارتفاع ﴿تَنْزِيلُ﴾ على أنه خبر لمبتدأ محذوف، أو خبر بعد خبر على تقدير أن الَمْ في محل رفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف، أو خبر لقوله: الَمْ على تقدير أنه اسم للسورة، و ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ في محل نصب على الحال، ويجوز أن يكون ارتفاع تنزيل على أنه مبتدأ، وخبره لا ريب فيه، ومن رب العالمين في محل نصب على الحال، ويجوز أن تكون هذه كلها أخباراً للمبتدأ المقدر قبل تنزيل، أو لقوله: الَمْ على تقدير أنه مبتدأ لا على تقدير أنه حروف مسرودة على نمط التعديد. قال مكي: وأحسن الوجوه أن تكون ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ في موضع الحال، و ﴿مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الخبر، والمعنى على هذه الوجوه: أن تنزيل الكتاب المتلو لا ريب فيه، ولا شك، وأنه منزل من رب العالمين، وأنه ليس بكتب، ولا سحر، ولا كهانة، ولا أساطير الأولين، و «أم» في «أم يقولون افتراه» هي المنقطعة التي بمعنى: بل، والهمزة: أي: بل يقولون هو مفترى،

الغيث، مشدداً. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي مخففاً. وقرأ الجمهور «بأي أرض»، وقرأ أبي بن كعب، وموسى الأهوازي (بائية)، وجوز ذلك الفراء، وهي لغة ضعيفة. قال الأخفش: يجوز أن يقال: مررت بجارية أي جارية. قال الزجاج: من ادعى أنه يعلم شيئاً من هذه الخمس فقد كفر بالقرآن؛ لأنه خالفه.

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿خَتَارٌ﴾ قال: جحد. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿وَلَا يَغْنَرُكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ قال: هو الشيطان. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وقتادة. وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: جاء رجل من أهل البائية، فقال: إن أمراتي حبلى، فأخبرني ما تلد؟ وبلاننا مجدية، فأخبرني متى ينزل الغيث؟ وقد علمت متى ولدت فأخبرني متى أموت؟ فأنزل الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ الآية. وأخرج ابن المنذر عن عكرمة نحوه وزاد: وقد علمت ما كسبت اليوم فماذا أكسب غداً؟ وزاد أيضاً أنه سأل عن قيام الساعة. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله: لا يعلم ما في غد إلا الله، ولا متى تقوم الساعة إلا الله، ولا ما في الأرحام إلا الله، ولا متى ينزل الغيث إلا الله، وما تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله»، وفي الصحيحين، وغيرهما من حديث أبي هريرة في حديث سؤاله عن الساعة، وجوابه بأشراطها، ثم قال: «في خمس لا يعلمهن إلا الله، ثم تلا هذه الآية» وفي الباب أحاديث.

تفسير سورة السجدة

وهي مكية كما رواه ابن الضريس، وابن مريويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس، ورواه ابن مريويه عن ابن الزبير. وأخرج ابن النجار عن ابن عباس قال: هي مكية سوى ثلاث آيات «أقمن كان مؤمناً» إلى تمام الآيات الثلاث [السجدة: 18 - 20]. وكذا قال الكلبي، ومقاتل. وقيل: إلا خمس آيات من قوله: «تتجافى جنوبهم» إلى قوله: «الذي كنتم به تكذبون» [السجدة: 16 - 20] وقد ثبت عند مسلم، وأهل السنن من حديث أبي هريرة: «أن النبي ﷺ كان يقرأ في صلاة الفجر يوم الجمعة بالْمَ تَنْزِيلُ السجدة» «وهل أتى على الإنسان»، [الدهر: 1]. وأخرجه البخاري، ومسلم، وغيرهما من حديث أيضاً. وأخرج أبو عبيد في فضائله، وأحمد، وعبد بن حميد، والدارمي، والترمذي، والنسائي، والحاكم وصححه، وابن مريويه عن جابر قال: «كان النبي ﷺ لا ينام حتى يقرأ الَمْ تَنْزِيلُ السجدة» «تبارك الذي بيده الملك»، [الملك: 1]. وأخرج أبو نصر، والطبراني، والبيهقي في سننه عن ابن عباس يرفعه إلى رسول الله ﷺ قال: «من صلى أربع ركعات خلف العشاء الآخرة قرأ في الركعتين الأوليين ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون: 1] (و) ﴿قُلْ هُوَ

مما تعنون» أي: ثم يرجع ذلك الأمر، ويعود ذلك التدبير إليه سبحانه في يوم مقداره ألف سنة من أيام الدنيا، وذلك باعتبار مسافة النزول من السماء والطلوع من الأرض كما قدمنا. وقيل: إن المراد أنه يعرج إليه في يوم القيامة الذي مقداره ألف سنة من أيام الدنيا، وذلك حين ينقطع أمر الدنيا ويموت من فيها. وقيل: هي أخبار أهل الأرض تصعد إليه مع من يرسله إليها من الملائكة، والمعنى: أنه يثبت ذلك عنده، ويكتب في صحف ملائكته ما عمله أهل الأرض في كل وقت من الأوقات إلى أن تبلغ مدة الدنيا آخرها، وقيل: معنى يعرج إليه: يثبت في علمه موجوداً بالفعل في برهة من الزمان هي مقدار ألف سنة، والمراد طول امتداد ما بين تدبير الحوادث وحدثها من الزمان. وقيل: يدبر أمر الحوادث اليومية بإثباتها في اللوح المحفوظ، فتنزل بها الملائكة، ثم تعرج إليه في زمان هو كالف سنة من أيام الدنيا. وقيل: يقضي قضاء ألف سنة، فتنزل به الملائكة، ثم يعرج بعد الألف لآلاف آخر. وقيل: المراد أن الأعمال التي هي طاعات يدبرها الله سبحانه، وينزل بها ملائكته ثم لا يعرج إليها منها إلا الخالص بعد مدة متطاولة لقلّة المخلصين من عباده. وقيل الضمير في يعرج يعود إلى الملك وإن لم يجر له ذكر لأنه مفهوم من السياق. وقد جاء صريحاً في قوله: «تعرج الملائكة والروح إليه» [المعارج: 4] والضمير في إليه يرجع إلى السماء على لغة من يذكرها، أو إلى مكان الملك الذي يرجع إليه، وهو الذي أقره الله فيه. وقيل: المعنى: يدبر أمر الشمس في طلوعها، وغروبها، ورجوعها إلى موضعها من الطلوع في يوم كان مقداره في المسافة ألف سنة، وقيل: المعنى: أن الملك يعرج إلى الله في يوم كان مقداره لو ساره غير الملك ألف سنة. لأن ما بين السماء والأرض مسافة خمسمائة عام، فمسافة النزول من السماء إلى الأرض، والرجوع من الأرض إلى السماء ألف عام، وقد رجّح هذا جماعة من المفسرين منهم ابن جرير. وقيل: مسافة النزول ألف سنة، ومسافة الطلوع ألف سنة، روي ذلك عن الضحّاك، وهذا اليوم هو عبارة عن زمان يتقدر بألف سنة، وليس المراد به مسمى اليوم الذي هو مدة النهار بين ليلتين، والعرب قد تعبر عن المدة باليوم كما قال الشاعر:

يومان يوم مقامات وأندية ويوم سير إلى الأعداء تأديب
فإن الشاعر لم يرد يومين مخصوصين، وإنما أراد أن زمانهم ينقسم شطرين، فعبّر عن كل واحد من الشطرين بيوم، قرأ الجمهور «يعرج» على البناء للفاعل. وقرأ ابن أبي عبلة على البناء للمفعول، والأصل يعرج به، ثم حذف حرف الجار، فاستتر الضمير. وقد استشكل جماعة الجمع بين هذه الآية وبين قوله سبحانه: «تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة» [المعارج: 4] فقيل: في الجواب إن يوم القيامة مقداره ألف سنة من أيام الدنيا، ولكنه باعتبار صعوبته، وشدة أهواله على الكفار كخمسين ألف سنة، والعرب تصف كثيراً يوم المكروه بالطول كما تصف

فاضرب عن الكلام الأول إلى ما هو معتقد الكفار مع الاستفهام المتضمن للتقريع، والتوبيخ، ومعنى «افتراه»: افتعله، واختلقه، ثم أضرب عن معتقدهم إلى بيان ما هو الحق في شأن الكتاب، فقال: «بئس هو الحق من ربك» فكذبهم سبحانه في دعوى الافتراء، ثم بين العلة التي كان التنزيل لأجلها، فقال: «لتعذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك» وهم العرب، وكانوا أمة أمية لم يأتهم رسول، وقيل: قريش خاصة، والمفعول الثاني لتعذر محذوف: أي: لتعذر قوماً العقاب، وجملة ما أتاهم من نذير في محل نصب على الحال، ومن قبلك صفة للنذير، وجوز أبو حيان أن تكون ما موصولة، والتقدير: لتعذر قوماً العقاب الذي أتاهم من نذير من قبلك، وهو ضعيف جداً، فإن المراد تعليل الإنزال بالإنذار لقوم لم يأتهم نذير قبله، لا تعليله بالإنذار لقوم قد أُنذروا بما أنذرهم به، وقيل: المراد بالقوم أهل الفترة ما بين عيسى، ومحمد ﷺ «لعلمهم يهتنون» رجاء أن يهتدوا، أو كي يهتدوا «الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش» قد تقدم تفسير هذه الآية في سورة الأعراف، والمراد من نكرها هنا تعريفهم كمال قدرته، وعظيم صنعته؛ ليسمعوا القرآن، ويتأملوه، ومعنى خلق: أوجد، وأبدع. قال الحسن: الأيام هنا هي من أيام الدنيا، وقيل: مقدار اليوم، ألف سنة من سني الدنيا، قاله الضحّاك، فعلى هذا المراد بالأيام هنا هي أيام الآخرة لا من أيام الدنيا، وليست ثم للترتيب في قوله: «ثم استوى على العرش»، وقد تقدم تفسير هذا مستوفى «ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع» أي: ليس لكم من دون الله، أو من دون عذابه من ولي يواليكم ويردّ عنكم عذابه، ولا شفيع يشفع لكم عنده «أفلا تتذكرون» تذكر تدبر، وتفكر، وتسمعون هذه المواعظ سماع من يفهم، ويعقل حتى تنتفعوا بها «يُبَيِّنُ الأمر من السماء إلى الأرض» لما بين سبحانه خلق السموات والأرض وما بينهما بين تدبيره لأمرها أي: يحكم الأمر بقضائه وقدره من السماء إلى الأرض، والمعنى: ينزل أمره من أعلا السموات إلى أقصى تخوم الأرض السابعة كما قال سبحانه: «الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهنّ يتنزل الأمر بينهنّ» [الطلاق: 12] ومسافة ما بين سماء الدنيا والأرض التي تحتها نزولاً وطلوعاً ألف سنة من أيام الدنيا. وقيل: المراد بالأمور المأمور به من الأعمال: أي: ينزله مديراً من السماء إلى الأرض. وقيل: يدبر أمر الدنيا بأسباب سماوية من الملائكة وغيرها نازلة أحكامها وأثارها إلى الأرض. وقيل: ينزل الوحي مع جبريل. وقيل: العرش موضع التدبير كما أن ما دون العرش موضع التفصيل كما في قوله: «ثم استوى على العرش... يدبر الأمر يفصل الآيات» [الرعد: 2] وما دون السموات موضع التصرف، قال الله: «ولقد صرفناه بينهم لينذكروا» [الفرقان: 50] ثم لما ذكر سبحانه تدبير الأمر قال: «ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة

راجع إلى الله سبحانه؛ ومعنى أحسن: حسن، لأنه ما من شيء إلا وهو مخلوق على ما تقتضيه الحكمة، فكل المخلوقات حسنة. الثالث أن يكون كل شيء هو المفعول الأول، وخلقه هو المفعول الثاني على تضمين أحسن معنى: أعطى، والمعنى: أعطى كل شيء خلقه الذي خصه به، وقيل: على تضمينه معنى: ألهم، قال الفراء: ألهم خلقه كل شيء مما يحتاجون إليه. الرابع أنه منصوب على المصدر المؤكد لمضمون الجملة أي: خلقه خلقاً كقوله: ﴿صنع الله﴾ [النمل: 88] وهذا قول سيبويه، والضمير يعود إلى الله سبحانه. والخامس أنه منصوب بنزع الخافض، والمعنى: أحسن كل شيء في خلقه، ومعنى الآية: أنه آتقن، وأحكم خلق مخلوقاته، فبعض المخلوقات، وإن لم تكن حسنة في نفسها، فهي متقنة محكمة، فتكون هذه الآية معناها معنى ﴿أعطى كل شيء خلقه﴾ أي: لم يخلق الإنسان على خلق البهيمة، وخلق لا البهيمة على خلق الإنسان، وقيل: هو عموم في اللفظ خصوص في المعنى أي: أحسن خلق كل شيء حسن ﴿وبدأ خلق الإنسان من طين﴾ يعني: أدم خلقه من طين، فصار على صورة بديعة، وشكل حسن ﴿جعل نسله﴾ أي: نريته ﴿من سلالة﴾ سميت النرية سلالة؛ لأنها تسل من الأصل، وتتفصل عنه، وقد تقدم تفسيرها في سورة المؤمنين؛ ومعنى ﴿من ماء مهين﴾ من ماء ممتحن لا خطر له عند الناس، وهو المني. وقال الزجاج: من ماء ضعيف ﴿ثم سواه﴾ أي: الإنسان الذي بدأ خلقه من طين، وهو: آدم، أو جميع النور، والمراد أنه عدل خلقه، وسوّى شكله، وناسب بين أعضائه ﴿ونفخ فيه من روحه﴾ الإضافة للتشريف، والتكريم. وهذه الإضافة تقوّي أن الكلام في آدم لا في نريته، وإن أمكن توجيهه بالنسبة إلى الجميع، ثم خاطب جميع النور، فقال: ﴿وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾ أي: خلق لكم هذه الأشياء تكميلاً لنعمته عليكم، وتتميماً لتسويته لخلقكم حتى تجتمع لكم النعم، فستمعون كل مسموع، وتبصرون كل مبصر، وتتفكرون كل متفكر، وتفهمون كل ما يفهم، وأفرد السمع لكونه مصدراً يشمل القليل، والكثير، وخص السمع بذكر المصدر نون البصر، والفؤاد، فذكرهما بالاسم ولهذا جمعاً، لأن السمع قوّة واحدة، ولها محل واحد، وهو: الأذن، ولا اختيار لها فيه، فإن الصوت يصل إليها، ولا تقدر على رده. ولا على تخصيص السمع ببعض المسموعات نون بعض، بخلاف الأبصار، فمحلها العين، وله فيه اختيار، فإنها تتحرك إلى جانب المرئي نون غيره، وتطبق أجفانها إذا لم ترد الرؤية لشيء؛ وكذلك الفؤاد له نوع اختيار في إدراكه، فيتفكر هذا نون هذا، ويفهم هذا نون هذا. قرأ الجمهور: ﴿وبدأ بالهمز، والزهري بالغ خالصة بدون همز، وانتصاب ﴿قليلاً ما تشكرون﴾ على أنه صفة مصدر محذوف: أي: شكراً قليلاً، أو صفة زمان محذوف: أي: زماناً قليلاً، وفي هذا بيان لكفرهم لنعم الله،

يوم السرور بالقصر كما قال الشاعر:

ويوم كظل الرمح قصر طوله دم الرق عنا واصطفاف المزاهر
وقول الآخر:

ويوم كلبهام القطاة قطعته

وقيل: إن يوم القيامة فيه أيام، فمنها ما مقداره ألف سنة، ومنها ما مقداره خمسون ألف سنة. وقيل: هي أوقات مختلفة يعذب الكافر بنوع من أنواع العذاب ألف سنة، ثم ينقل إلى نوع آخر، فيعذب به خمسين ألف سنة. وقيل: مواقف القيامة خمسون موقفاً كل موقف ألف سنة، فيكون معنى ﴿يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة﴾: أنه يعرج إليه في وقت من تلك الأوقات، أو موقف من تلك المواقف. وحكى الثعلبي عن مجاهد، وقتادة، والضحاك: أنه أراد سبحانه في قوله: ﴿نعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾ [المعارج: 4] المسافة من الأرض إلى سدة المنتهى التي هي مقام جبريل، والمراد أنه يسير جبريل، ومن معه من الملائكة في ذلك المقام إلى الأرض مسيرة خمسين ألف سنة في مقدار يوم واحد من أيام الدنيا، وأراد بقوله: ﴿في يوم كان مقداره ألف سنة﴾ المسافة التي بين الأرض، وبين سماء الدنيا هبوطاً، وصعوداً فإنها مقدار ألف سنة من أيام الدنيا. وقيل: إن ذلك إشارة إلى امتداد نفاذ الأمر، وذلك لأن من نفذ أمره غاية النفاذ في يوم أو يومين، وانقطع لا يكون مثل من ينفذ أمره في سنتين متطاولة، فقوله: ﴿في يوم كان مقداره ألف سنة﴾ يعني: يدبر الأمر في زمان يوم منه ألف سنة. فكم يكون الشهر منه؟ وكم تكون السنة منه؟ وعلى هذا فلا فرق بين ألف سنة، وبين خمسين ألف سنة. وقيل: غير ذلك. وقد وقف حبر الأمة ابن عباس لما سئل عن الآيتين كما سيأتي في آخر البحث إن شاء الله. قرأ الجمهور (مما تتكون) بالقافية على الخطاب، وقرأ الحسن، والسلمي، وابن وثاب، والأعمش بالتحية على الغيبة، والإشارة بقوله: ﴿ذلك﴾ إلى الله سبحانه باعتبار اتصافه بتلك الأوصاف، وهو مبتدأ وخبره ﴿عالم للغيب والشهادة﴾ أي: العالم بما غاب عن الخلق وما حضرهم. وفي هذا معنى التهديد؛ لأنه سبحانه إذا علم بما يغيب وما يحضر، فهو مجاز لكل عامل يعمل، أو فهو يدبر الأمر بما تقتضيه حكمته ﴿العزیز﴾ القاهر الغالب ﴿الرحيم﴾ بعباده، وهذه أخبار لذلك المبتدأ، وكذلك قوله: ﴿الذي أحسن كل شيء خلقه﴾ هو خبر آخر، قرأ الجمهور مخلقه، بفتح اللام، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر بإسكانها، فعلى القراءة الأولى هو فعل ماض نعتاً لشيء، فهو في محل جر. وقد اختار قراءة الجمهور أبو عبيدة، وأبو حاتم، ويجوز أن تكون صفة للمضاف، فيكون في محل نصب. وأما على القراءة الثانية ففي نصبه أوجه: الأول أن يكون بدلاً من كل شيء بدل اشتمال، والضمير عائذ إلى كل شيء، وهذا هو الوجه المشهور عند النحاة، الثاني أنه بدل كل من كل، والضمير

وتركهم لشكرها إلا فيما ندر من الأحوال ﴿وَقَالُوا أَثَدَّ ضَلُّنَا فِي الْأَرْضِ﴾ قد تقدم اختلاف القراء في هذه الهمزة، وفي الهمزة التي بعدها، والضلال الغيبوبة، يقال: ضل الميت في التراب إذا غاب وبطل، والعرب تقول للشيء إذا غلب عليه غيره حتى خفي أثره قد ضل، ومنه قول الأخطل:

كنت القذى في موج أكبر مزيد قذف الأتي بها فضل ضللا

قال قطرب: معنى ضللنا في الأرض: غبنا في الأرض. قرا الجمهور «ضللنا» بفتح ضاد معجمة، ولام مفتوحة بمعنى: ذهبنا وضعنا، وصرفنا تراباً، وغبنا عن الأعين، وقرا يحيى بن يعمر، وابن محيصن، وأبو رجاء (ضللتا) بكسر اللام، وهي لغة العالية من نجد، قال الجوهري: وأهل العالية يقولون: ضللت بالكسر، قال: وأصله: أي: أضاعه، وأهلكه، يقال: ضل الميت إذا دفن. وقرا علي بن أبي طالب، والحسن، والأعمش، وأبان بن سعيد (صللتا) بصاد مهملة، ولام مفتوحة: أي: انتننا. قال النحاس: ولا يعرف في اللغة صللتا، ولكن يقال: صل اللحم إذا انتن. قال الجوهري: صل اللحم يصل بالكسر صلواً إذا انتن، مطبوخاً كان، أو نيئاً، ومنه قول الحطيئة:

ذاك فتى يبذل ذا قدرة لا يفسد اللحم لديه الصلول

﴿وإنا لفي خلق جديد﴾ أي: تبعث، ونصير أحياء، والاستفهام للاستنكار، وهذا قول منكري البعث من الكفار، فاضرب الله سبحانه من بيان كفرهم بإنكار البعث إلى بيان ما هو أبغ منه، وهو كفرهم بلقاء الله، فقال: ﴿بَلْ هُمْ بِلِقَاء رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ أي: جاحلون له مكابرة، وعناداً، فإن اعترافهم بأنه المبتدئ للخلق يستلزم اعترافهم بأنه قادر على الإعادة، ثم أمر سبحانه رسوله ﷺ أن يبين لهم الحق، ويرد عليهم ما زعموه من الباطل، فقال: ﴿قُلْ يَتُوفَّاكُم مَلِكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ يقال: توفاه الله، واستوفى روحه إذا قبضه إليه، وملك الموت هو: عزرائيل، ومعنى وكل بكم: وكل بقبض أرواحكم عند حضور أجالكم ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ أي: تصيرون إليه أحياء بالبعث والنشور لا إلى غيره، فيجازيكم بأعمالكم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿يَسْتَبْرَأُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال: هذا في الدنيا تعرج الملائكة في يوم مقداره ألف سنة. وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عنه في قوله: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال: من الأيام الستة التي خلق الله فيها السموات والأرض. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري في المصاحف، والحاكم وصححه عن عبد الله بن أبي مليكة قال: دخلت على عبد الله بن عباس أنا وعبد الله بن فيروز مولى عثمان بن عفان، فقال له ابن فيروز: يا

أبا عباس، قوله: ﴿يَسْتَبْرَأُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ فكان ابن عباس اتهمه فقال: ما يوم كان مقداره خمسين ألف سنة؟ قال: إنما سألته؛ لتخبرني، فقال ابن عباس: هما يومان نكرهما الله في كتابه الله أعلم بهما، وأكره أن أقول في كتاب الله ما لا أعلم، فضرب الدهر من ضرباته حتى جلست إلى ابن المسيب، فسأله عنهما إنسان، فلم يخبره، ولم يدرك، فقلت: ألا أخبرك بما حضرت من ابن عباس؟ قال: بلى، فأخبرته فقال للسائل: هذا ابن عباس قد أبى أن يقول فيها، وهو أعلم مني. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال: لا ينتصف النهار في مقدار يوم من أيام الدنيا في ذلك اليوم حتى يقضي بين العباد، فينزل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، ولو كان إلى غيره لم يفرغ في خمسين ألف سنة. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً في قوله: ﴿ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ﴾ من أيامكم هذه، ومسيرة ما بين السماء والأرض خمسمائة عام. وأخرج ابن أبي شيبة، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول، وابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس: أنه كان يقرأ ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ قال: أما رأيت القردة ليست بحسنة، ولكنه أحكم خلقها. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً في الآية: أنه قال: أما إن است القردة ليست بحسنة، ولكنه أحكم خلقها، وقال: ﴿خَلْقَهُ﴾ صورته. وقال: ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ القبيح، والحسن، والعقارب، والحيات، وكل شيء مما خلق، وغيره لا يحسن شيئاً من ذلك. وأخرج الطبراني عن أبي أمامة قال: «بينما نحن مع رسول الله ﷺ إذ لقينا عمرو بن زرة الأنصاري في حلة قد أسبل، فأخذ النبي ﷺ بناحية ثوبه، فقال: يا رسول الله إني أحشم الساقين، فقال رسول الله ﷺ: يا عمرو بن زرة إن الله عز وجل قد أحسن كل شيء خلقه، يا عمرو بن زرة إن الله لا يحب المسبلين». وأخرج أحمد، والطبراني عن الشريد بن سويد قال: «أبصر النبي ﷺ رجلاً قد أسبل إزاره، فقال: أرفع إزارك، فقال: يا رسول الله إني أحذف تصطك ركبتي، فقال: «أرفع إزارك كل خلق الله حسن».

وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُتَجَرِّثُونَ نَآكِسُوا مُرُوهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْغَرْنَا وَسِعَٰتَنَا فَانْقَسَا تَعَلَّ صَلَاحًا إِنَّا مُمْتَنُونَ ﴿٧﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًىٰ وَلَٰكِن حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨﴾ فَذُوقُوا بِمَا تَسْتَعْتِدُّ لِقَآءَ بُرْهَانِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِفُكُمُ ذُرُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٠﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١١﴾ فَلَا تَعْلَمُ قَسْرَ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٣﴾ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا الصَّالِحِينَ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰئِ تَزَالُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا

لمجرد سبق القول المتقدم، بل بذاك وهذا.

واختلف في النسيان المذكور هنا، فقيل: هو النسيان الحقيقي، وهو الذي يزول عنده الذكر؛ وقيل: هو الترك، والمعنى على الأول: أنهم لم يعملوا لذلك اليوم، فكانوا كالناسين له الذين لا ينكرونه. وعلى الثاني لا بد من تقدير مضاف قبل لقاء: أي: نوقوا بسبب ترككم لما أمرتكم به عذاب لقاء يومكم هذا، ورجح الثاني المبرد وأشد:

كانه خارج من جنب صفحته سفود شرب نسوه عند مفتاد أي: تركوه، وكذا قال الضحك، ويحيى بن سلام: إن النسيان هنا بمعنى: الترك، قال يحيى بن سلام: والمعنى: بما تركتم الإيمان بالبعث في هذا اليوم تركناكم من الخير، وكذا قال السدي، وقال مجاهد: تركناكم في العذاب، وقال مقاتل: إذا دخلوا النار، قالت لهم الخزنة: نوقوا العذاب بما نسيتم، واستعار الذوق للإحساس، ومنه قول طفيل:

فنوقوا كما نقنا غداة محجة من الغيظ في أكبادنا والتحوب وقوله: ﴿ونوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون﴾ تكرير لقصد التأكيد أي: نوقوا العذاب الدائم الذي لا ينقطع أبداً بما كنتم تعملونه في الدنيا من الكفر والمعاصي. قال الرازي في تفسيره: إن اسم الإشارة في قوله: ﴿بما نسيتم لقاء يومكم هذا﴾ يحتمل ثلاثة أوجه: أن يكون إشارة إلى اللقاء، وأن يكون إشارة إلى اليوم، وأن يكون إشارة إلى العذاب، وجملة ﴿إنما يؤمن بآياتنا﴾ مستأنفة لبيان ما يستحق الهداية إلى الإيمان، ومن لا يستحقها؛ والمعنى: إنما يصدق بآياتنا، وينتفع بها ﴿الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً﴾ لا غيرهم ممن ينكر بها أي: يوغض بها، ولا يتذكر، ولا يؤمن بها، ومعنى ﴿خروا سجداً﴾: سقطوا على وجوههم ساجدين تعظيماً لآيات الله، وخوفاً من سطوته، وعذابه ﴿وسبحوا بحمد ربهم﴾ أي: نزهوه عن كل ما لا يليق به ملتبسين بحمده على نعمه التي أجلها، واكملها الهداية إلى الإيمان، والمعنى: قالوا في سجودهم: سبحان الله وبحمده، أو سبحان ربي الأعلى وبحمده. وقال سفيان: المعنى: صلوا حمداً لربهم، وجملة ﴿وهم لا يستكبرون﴾ في محل نصب على الحال: أي: حال كونهم خاضعين لله، متذللين له غير مستكبرين عليه ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾ أي: ترتفع، وتنبو يقال: جفى الشيء عن الشيء، وتجافى عنه: إذا لم يلزمه، ونبا عنه، والمضاجع جمع المضجع، وهو الموضع الذي يضطجع فيه. قال الزجاج، والرماني: التجافى، والتجفى إلى جهة فوق، وكذلك هو في الصفح عن المخطئ في سبب ونحوه، والجنوب جمع جنب، والجملة في محل نصب على الحال أي: متجافية جنوبهم عن مضاجعهم، وهم المتجهجون في الليل الذين يقومون للصلاة عن الفراش، وبه قال الحسن، ومجاهد، وعطاء، والجمهور، والمراد بالصلاة صلاة التنفل بالليل من غير تقييد. وقال قتادة، وعكرمة: هو التنفل ما

أرادوا أن يخرجوا منها أعيدها فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون ﴿١٥﴾ ولنديبهم ترك العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون ﴿١٦﴾ ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين من قومون ﴿١٧﴾

قوله: ﴿ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم﴾ المراد بالمجرمين هم القائلون إذا ضلنا، والخطاب هنا لكل من يصلح له، أو لرسول الله ﷺ، ويجوز أن يراد بالمجرمين كل مجرم، ويدخل فيه أولئك القائلون دخولاً أولياً، ومعنى ﴿ناكسوا رؤوسهم﴾: مطأطؤها حياء، وندماً على ما فرط منهم في الدنيا من الشرك بالله، والمعصيان له، ومعنى عند ربهم: عند محاسبته لهم. قال الزجاج: والمخاطبة للنبي ﷺ مخاطبة لامته، فالمعنى: ولو ترى يا محمد منكري البعث يوم القيامة لرايت العجب ﴿ربنا أبصرنا وسمعنا﴾ أي: يقولون: ربنا أبصرنا الآن ما كنا نكذب به، وسمعنا ما كنا ننكره، وقيل: أبصرنا صلق وعيك، وسمعنا تصديق رسلك، فهو لا أبصروا حين لم ينفعهم البصر، وسمعوا حين لم ينفعهم السمع ﴿فارجعنا﴾ إلى الدنيا ﴿نعمل﴾ عملاً صالحاً كما أمرتنا ﴿إننا موقنون﴾ أي: مصدقون، وقيل: مصدقون بالذي جاء به محمد ﷺ، وصفوا أنفسهم بالإيقان الآن طمعاً فيما طلبوه من إرجاعهم إلى الدنيا، وإني لهم ذلك فقد حقت عليهم كلمة الله فإنهم ﴿لو ربوا لعابوا لما نهوا عنه وإنهم لكانيون﴾ [الأنعام: 28] وقيل: معنى ﴿إننا موقنون﴾: أنها قد زالت عنهم الشكوك التي كانت تخالطهم في الدنيا لما راوا ما راوا، وسمعوا ما سمعوا، ويجوز أن يكون معنى ﴿أبصرنا وسمعنا﴾: صرنا ممن يسمع ويبصر فلا يحتاج إلى تقدير مفعول، ويجوز أن يكون صالحاً مفعولاً لتعمل كما يجوز أن يكون نعتاً لمصدر محذوف، وجواب لو محذوف: أي: لرايت أمراً فظيماً، وهولاً هائلاً ﴿ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها﴾ هذا رد عليهم لما طلبوا الرجعة: أي: لو شئنا لآتينا كل نفس هداها، فهدينا الناس جميعاً فلم يكفر منهم أحد. قال النحاس: في معنى هذا قولان: أحدهما: أنه في الدنيا، والآخر أنه في الآخرة: أي: ولو شئنا لرددناهم إلى الدنيا ﴿ولكن حق القول مني لآملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ وجملة ولو شئنا مقدرة بقول معطوف على المقدر قبل قبوله: ﴿أبصرنا﴾ أي: ونقول لو شئنا، ومعنى ﴿ولكن حق القول مني﴾ أي: نفذ قضائي وقدري، وسبقت كلمتي ﴿لآملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ هذا هو القول الذي وجب من الله، وحق على عباده، ونفذ فيه قضاؤه، فكان مقتضى هذا القول أنه لا يعطي كل نفس هداها، وإنما قضى عليهم بهذا، لأنه سبحانه قد علم أنهم من أهل الشقاوة، وأنهم ممن يختار الضلالة على الهدى، والفاء في قوله: ﴿فنوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا﴾ لترتيب الأمر بالنوق على ما قبله، والباء في ﴿بما نسيتم﴾ للسببية، وفيه إشعار بان تعذيبهم ليس

يصيرون إليه، ويستقرون فيه هو: النار ﴿كلما أرادوا أن يخرجوا منها اعمى فيها﴾ أي: إذا أرادوا الخروج منها رتبوا إليها راغبين مكرهين، وقيل: إذ دفعهم اللهب إلى أعلامها رتبوا إلى مواضعهم ﴿وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون﴾، والقائل لهم هذه المقالة هو: خزنة جهنم من الملائكة، أو القائل لهم هو: الله عز وجل، وفي هذا القول لهم حال كونهم قد صاروا في النار من الإغاطة ما لا يخفى ﴿ولننقيقنهم من العذاب الأنى﴾، وهو عذاب الدنيا، قال الحسن وأبو العالية، والضحاك، والنخعي: هو مصائب الدنيا، وأسقامها، وقيل: الحدود، وقيل: القتل بالسيف يوم بدر، وقيل: سنين الجوع بمكة، وقيل: عذاب القبر، ولا مانع من الحمل على الجميع ﴿وبن العذاب الأكبر﴾، وهو عذاب الآخرة ﴿لعلهم يرجعون﴾ مما هم فيه من الشرك، والمعاصي بسبب ما ينزل بهم من العذاب إلى الإيمان والطاعة، ويتوبون عما كانوا فيه، وفي هذا التعليل لبلى على ضعف قول من قال: إن العذاب الأنى هو عذاب القبر ﴿ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها﴾ أي: لا أحد أظلم منه لكونه سمع من آيات الله ما يوجب الإقبال على الإيمان والطاعة، فجعل الإعراض مكان ذلك، والحجى بثم الدلالة على استبعاد ذلك، وأنه مما ينبغي أن لا يكون ﴿إننا من المجرمين منتقمون﴾ أي: من أهل الإجماع على العموم، فيدخل فيه من أعرض عن آيات الله دخولا أولياً.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عيسى بن جهم في قوله: ﴿إننا نسيانكم﴾ قال: تركناكم. وأخرج البيهقي في الشعب عنه قال: نزلت هذه الآية في شأن الصلوات الخمس ﴿إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا نكروا بها خرّوا سجداً﴾ أي: أتوها ﴿وسبحوا﴾ أي: صلوا بأمر ربهم ﴿وهم لا يستكبرون﴾ عن إتيان الصلاة في الجماعات. وأخرج الترمذي وصححه، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، ومحمد بن نصر في كتاب الصلاة عن أنس بن مالك: أن هذه الآية ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾ نزلت في انتظار الصلاة التي تدعى العتمة. وأخرج البخاري في تاريخه، وابن مردويه عنه قال: نزلت في صلاة العشاء. وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عنه أيضاً في الآية قال: كانوا لا ينامون حتى يصلوا العشاء. وأخرج ابن أبي شيبة عنه قال: كنا نجتنب الفرش قبل صلاة العشاء. وأخرج عبد الرزاق في المصنف، وابن مردويه عنه أيضاً قال: ما رأيت رسول الله ﷺ راقداً قط قبل العشاء، ولا متحناً بعدها، فإن هذه الآية نزلت في ذلك ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس: أن النبي ﷺ قال: تتجافى جنوبهم عن المضاجع قال: هم الذين لا ينامون قبل العشاء، فأنشئ عليهم، فلما ذكر ذلك جعل الرجل يعتزل فراشه مخافة أن تغلبه عينه فوقتها قبل أن ينام الصغير، ويكسل الكبير.

بين المغرب والعشاء، وقيل: صلاة العشاء فقط، وهو رواية عن الحسن، وعطاء، وقال الضحاك: صلاة العشاء، والصبح في جماعة، وقيل: هم الذين يقومون للذكر الله سواء كان في صلاة أو غيرها ﴿يدعون ربهم خوفاً وطمعاً﴾ هذه الجملة في محل نصب على الحال أيضاً من الضمير الذي في جنوبهم فهي حال بعد حال، ويجوز أن تكون الجملة الأولى مستأنفة لبيان نوع من أنواع طاعتهم، والمعنى: تتجافى جنوبهم حال كونهم داعين ربهم خوفاً من عذابه، وطمعاً في رحمته ﴿يومما رزقناهم ينفقون﴾ أي: من الذي رزقناهم، أو من رزقهم، وذلك الصلقة الواجبة، وقيل: صلقة النفل، والأولى الحمل على العموم، وانتصاب خوفاً، وطمعاً على العلة، ويجوز أن يكونا مصدرين منتصبين بمقتضى ﴿فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين﴾ النكرة في سياق النفي تفيد العموم أي: لا تعلم نفس من النفوس أي نفس كانت ما أخفاه الله سبحانه لأولئك الذين تقدم ذكرهم مما تقر به أعينهم. قرأ الجمهور قرة بالإنفراد، وقرأ ابن مسعود، وأبو هريرة، وأبو الدرداء (من قرأت) بالجمع، وقرأ حمزة ما أخفى بسكون الياء على أنه فعل مضارع مسند إلى الله سبحانه، وقرأ الباقون بفتحها فعلاً ماضياً مبنيًا للمفعول، وقرأ ابن مسعود (ما أخفى) بالنون مضمومة، وقرأ الأعمش (يخفي) بالتحية مضمومة. قال الزجاج في معنى قراءة حمزة: أي: منه ما أخفى الله لهم، وهي قراءة محمد بن كعب، و«ما» في موضع نصب، ثم بين سبحانه: أن ذلك بسبب أعمالهم الصالحة، فقال: ﴿جزاء بما كانوا يعملون﴾ أي: لأجل الجزاء بما كانوا يعملونه في الدنيا، أو جزوا جزاء بذلك ﴿ألمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً﴾ الاستفهام للإنكار: أي: ليس المؤمن كالفاقد، فقد ظهر ما بينهما من التفاوت، ولهذا قال: ﴿لا يستوون﴾ فيه زيادة تصريف لما أفاده الإنكار الذي أفاده الاستفهام. قال الزجاج: جعل الاثنين جماعة حيث قال: ﴿لا يستوون﴾ لأجل معنى: من، وقيل: لكون الاثنين أقل الجمع، وسيأتي بيان سبب نزولها آخر البحث. ثم بين سبحانه عاقبة حال الطائفتين، وبدأ بالمؤمنين، فقال: ﴿إما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى﴾ قرأ الجمهور «جنات» بالجمع، وقرأ طلحة بن مصرف (جنة المأوى) بالإنفراد، والمأوى هو: الذي يأوون إليه، وأضاف الجنات إليه لكونه المأوى الحقيقي، وقيل: المأوى جنة من الجنات، وقد تقدم الكلام على هذا، ومعنى ﴿نزل﴾ أنها معدة لهم عند نزولهم، وهو في الأصل ما يعد للنازل من الطعام والشراب كما بيّناه في آل عمران، وانتصابه على الحال، وقرأ أبو حية «نزل» بسكون الزاي، والياء في ﴿بما كانوا يعملون﴾ للسببية: أي: بسبب ما كانوا يعملونه، أو بسبب عملهم، ثم ذكر للفريق الآخر، فقال: ﴿وإما الذين فسقوا﴾ أي: خرجوا عن طاعة الله، وتمردوا عليه، وعلى رسوله ﴿فماواهم النار﴾ أي: منزلهم الذي

والصحاب، وهي معروفة فلا نطول بذكرها. وأخرج أبو الفرج الأصبهاني في كتاب الأغاني، والواحدي، وابن عدي، وابن مريويه، والخطيب، وابن عسكرك من طرق عن ابن عباس قال: قال الوليد بن عقبة لعلي بن أبي طالب: أنا لحد منك سنناً، وأنشط منك لساناً، وأملأ للكتيبة منك، فقال له علي: اسكت فإنما أنت فاسق، فنزلت ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾ يعني بالمؤمن: علياً، وبالفاسق: الوليد بن عقبة بن أبي معيط. وأخرج ابن مريويه، والخطيب، وابن عسكرك عنه في الآية نحوه. وروي نحو هذا عن عطاء بن يسار، والسدي، وعبد الرحمن بن أبي ليلى. وأخرج الفريابي، وابن منيع، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مريويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن مسعود في قوله: ﴿وَلَنَذِقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلَنِ﴾ قال: يوم بدر ﴿وَلَنَذِقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلَنِ﴾ قال: لعل من بقي منهم أن القيامة فيرجع. وأخرج ابن أبي شيبة، والنسائي، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مريويه عن ابن مسعود في الآية قال: العذاب الأدنى سنون أصابتهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ قال: يتوبون. وأخرج مسلم، وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند، وأبو عوانة في صحيحه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب عن أبي بن كعب في قوله: ﴿وَلَنَذِقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلَنِ﴾ قال: مصائب الدنيا، والروم، والبطشة، والدخان. وأخرج ابن جرير عنه قال: يوم بدر. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿مِنَ الْعَذَابِ الْأَلَنِ﴾ قال: الحدود ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ قال: يتوبون. وأخرج ابن منيع، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مريويه، قال السيوطي بسند ضعيف عن معاذ بن جبل: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ثلاث من فعلهن فقد أجرم، من عقد لواء في غير حق، أو عقى والديه، أو مشى مع ظالم؛ لينصره، فقد أجرم» يقول الله: ﴿إِنَّمَا مِنَ الْمَجْرِمِينَ مَنفَقُونَ﴾، قال ابن كثير بعد إخراجها: هذا حديث غريب.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي رَيْبٍ مِنْ قَوْلِي. وَحَمَلْنَا هُدىً لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ۖ وَحَمَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ وَأَمَّا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِرَأْسِهِمْ يَرْجُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّ رَحْمَتِي لَمُتَّبِعَةٌ يَوْمَ الْفِتْنَةِ يَمَّا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ آهَلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي بَصَرٍ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا سَوَّيْنَا الْأَرْضَ لَهُمْ فَخَرَجُوا مِنْهَا زَاجِرًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩﴾ وَتَقَرَّلُوا مِنِّي هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٠﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِسْتِنْفُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢١﴾ فَاعْرِضْ عَنْهُمْ

وأخرج ابن مريويه عن بلال قال: كنا نجلس في المسجد، وناس من أصحاب رسول الله ﷺ يصلون بعد المغرب العشاء تتجافى جنوبهم عن المضاجع. وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن عدي، وابن مريويه عن أنس نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة، وأبو داود، ومحمد بن نصر، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، والبيهقي في سننه عن أنس في قوله: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ قال: كانوا ينتظرون ما بين المغرب والعشاء يصلون. وأخرج أحمد، وابن جرير، وابن مريويه عن معاذ بن جبل، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ﴾ قال: قيام العبد من الليل، وأخرج أحمد، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن ماجه، وابن نصر في كتاب الصلاة، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مريويه، والبيهقي في الشعب عن معاذ بن جبل، عن النبي ﷺ، وذكر حديثاً، وأرشد فيه إلى أنواع من الطاعات، وقال فيه: «وصلاة الرجل في جوف الليل، ثم قرأ ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾». وأخرج ابن مريويه عن أبي هريرة مرفوعاً في حديث قال فيه: «وصلاة المرأة في جوف الليل، ثم تلا هذه الآية». وأخرج ابن مريويه عن أنس في الآية قال: كان لا تمر عليهم ليلة إلا أخذوا منها. وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد من طريق أبي عبد الله الجنلي عن عباد بن الصامت، عن كعب قال: «إذا حشر الناس نادى مناد: هذا يوم الفصل أين الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع» الحديث. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في الآية يقول: تتجافى لنكر الله كلما استيقظوا نكروا الله، إما في الصلاة، وإما في القيام، أو قعود، أو على جنوبهم لا يزالون يذكرون الله. وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، ومحمد بن نصر، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، والبيهقي في البعث عن ابن عباس قال: كان عرش الله على الماء، فاتخذ جنة لنفسه، ثم اتخذ دونها أخرى، ثم أطبقهما بلؤلؤة واحدة، ثم قال: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: 62] لم يعلم الخلق ما فيهما، وهي التي قال الله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا لَخَافِي لَهُمْ مِنْ قِزَّةٍ أَعْيَنَ﴾ تاتيهم منها كل يوم تحفة. وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال: إنه لمكتوب في التوراة: لقد أعد الله للذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ما لم تر عين، ولم تسمع آذن، ولم يخطر على قلب بشر، ولا يعلم ملك مقرب، ولا نبي مرسل، وإنه لفي القرآن ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا لَخَافِي لَهُمْ مِنْ قِزَّةٍ أَعْيَنَ﴾. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ، قال الله تعالى: «أعدت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، قال أبو هريرة: واقرأوا إن شئتم ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا لَخَافِي لَهُمْ مِنْ قِزَّةٍ أَعْيَنَ﴾». وفي الباب أحاديث عن جماعة من

قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ أي: التوراة ﴿فَلَا تَكُنْ﴾ يا محمد ﴿فِي مَرِيَةٍ﴾ أي: شك، وديبة ﴿مِنْ

للقائه ﴿قال الواحدي: قال المفسرون: وعد رسول الله ﷺ أنه سيلقى موسى قبل أن يموت، ثم لقيه في السماء، أو في بيت المقدس حين أسري به. وهذا قول مجاهد، والكلبي، والسدي. وقيل: فلا تكن في شك من لقاء موسى في القيامة، وستلقاه فيها. وقيل: فلا تكن في شك من لقاء موسى للكتاب قاله الزجاج. وقال الحسن: إن معناه: ولقد آتينا موسى الكتاب، فكُتِب، وأُوذِي، فلا تكن في شك من أنه سيلقاك ما لقيه من التكذيب، والأذى، فيكون الضمير في لقائه على هذا عائداً على محنوف، والمعنى: من لقاء ما لاقى موسى. قال النحاس: وهذا قول غريب. وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، والمعنى: قل: يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم، فلا تكن في مرية من لقائه، فجاء معترضاً بين ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب﴾، وبين ﴿وجعلناه هدى لبني إسرائيل﴾. وقيل: الضمير راجع إلى الكتاب الذي هو الفرقان كقوله: ﴿وإنك لتلقى القرآن﴾ [النمل: 6] والمعنى: أنا آتينا موسى مثل ما آتيناك من الكتاب، ولقيناه مثل ما لقيناك من الوحي فلا تكن في شك من أنك لقيت مثله، ونظيره، وما أبعد هذا، ولعل الحامل لقائه عليه قوله: ﴿وجعلناه هدى لبني إسرائيل﴾ فإن الضمير راجع إلى الكتاب، وقيل: إن الضمير في لقائه عائذ إلى الرجوع المفهوم من قوله: ﴿ثم إلى ربكم ترجعون﴾ [السجدة: 11] أي: لا تكن في مرية من لقاء الرجوع، وهذا بعيد أيضاً.

واختلف في الضمير في قوله: ﴿وجعلناه﴾، فقيل: هو راجع إلى الكتاب: أي: جعلنا التوراة هدى لبني إسرائيل، قاله الحسن، وغيره. وقال قتادة: إنه راجع إلى موسى: أي: جعلنا موسى هدى لبني إسرائيل ﴿وجعلنا منهم أئمة﴾ أي: قادة يقتدون به في دينهم، وقرأ الكوفيون «أئمة» قال النحاس: وهو لحن عند جميع النحويين، لأنه جمع بين ممرتين في كلمة واحدة، ومعنى ﴿يهودون بامرنا﴾ أي: يدعونهم إلى الهداية بما يلقونه إليه من أحكام التوراة، ومواعظها بامرنا: أي: بامرنا لهم بذلك، أو لأجل امرنا. وقال قتادة: المراد بالأئمة الأنبياء منهم. وقيل: العلماء ﴿لما صبروا﴾ قرأ الجمهور «لما» بفتح اللام، وتشديد الميم: أي: حين صبروا، والضمير للأئمة، وفي لما معنى: الجزاء، والتقدير: لما صبروا جعلناهم أئمة. وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف، وورش عن يعقوب، ويحيى بن وثاب بكسر اللام، وتخفيف الميم: أي: جعلناهم أئمة لصبرهم، واختار هذه القراءة أبو عبيد مستدلاً بقراءة ابن مسعود «لما صبروا» بالباء، وهذا الصبر هو صبرهم على مشاق التكليف، والهداية للناس، وقيل: صبروا عن الدنيا ﴿وكانوا بآياتنا﴾ التنزيلية ﴿يوقنون﴾ أي: يصنفونها، ويعلمون أنها حق، وأنها من عند الله لمزيد تفكرهم، وكثرة تدبرهم ﴿إن ربك هو يفصل بينهم﴾ أي: يقضي بينهم، ويحكم بين المؤمنين، والكفار ﴿يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ وقيل: يقضي بين الأنبياء، وأممهم، حكاه

النقاش ﴿وَلَمْ يَهْد لَّهُمْ﴾ أي: أو لم يبين لهم، والهمزة للإنكار، والفاعل ما دل عليه ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾ أي: أو لم نبين لهم كثرة إهلاكنا من قبلهم. قال الفراء: كم في موضع رفع بيهد. وقال المبرد: إن الفاعل الهدى الملول عليه بيهد: أي: أو لم يهد لهم الهدى. وقال الزجاج: كم في موضع نصب بأهلكنا، قرأ الجمهور «أو لم يهد» بالتحية، وقرأ السلمي، وقاتدة، وأبو زيد عن يعقوب بالنون، وهذه القراءة واضحة. قال النحاس: والقراءة بالياء التحتية فيها إشكال؛ لأنه يقال: الفعل لا يخلو من فاعل فاين الفاعل ليهد؟ ويجاب عنه بأن الفاعل هو ما قدمنا نكره، والمراد بالقرن: عاد، وثمود، ونحوهم، وجملة ﴿يمشون في مسكنهم﴾ في محل نصب على الحال من ضمير لهم: أي: والحال أنهم يمشون في مسكن المهلكين، ويشاهدونها، وينظرون ما فيها من العبر، وأثار العذاب، ولا يعتبرون بذلك، وقيل: يعود إلى المهلكين، والمعنى: أهلكناهم حال كونهم ماشين في مسكنهم، والأول أولى ﴿إن في ذلك﴾ المنكور ﴿آيات﴾ عظيمة ﴿فلا يسمعون﴾ بها، ويتعظون بها ﴿وَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرْزِ﴾ أي: أو لم يعلموا بسوقنا الماء إلى الأرض التي لا تنبت إلا بسوق الماء إليها، وقيل: هي اليابسة، وأصله من الجرز، وهو القطع أي: التي قطع نباتها لعدم الماء، ولا يقال: للتي لا تنبت أصلاً كالسباح جزر لقوله: ﴿فَنُخْرِجُ بِهِ زُرْعاً﴾ قيل: هي أرض اليمن، وقيل: أرض عدن. وقال الضحاک: هي الأرض العطشى. وقال الفراء: هي الأرض التي لا نبات فيها. وقال الأصمعي: هي الأرض التي لا تنبت شيئاً. قال المبرد: يبعد أن تكون لأرض بعينها لدخول الألف واللام، وقيل: هي مشتقة من قولهم رجل جروز: إذا كان لا يبقى شيئاً إلا أكله، ومنه قول الراجز:

خب جروز وإذا جاع بكسى ويأكل التمر ولا يلقي النوى
وكذلك ناقة جروز: إذا كانت تأكل كل شيء تجده. وقال مجاهد: إنها أرض النيل، لأن الماء إنما يأتيها في كل عام ﴿فَنُخْرِجُ بِهِ﴾ أي: بالماء ﴿زُرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ﴾ أي: من الزرع كالتبن، والورق، ونحوهما مما لا يأكله الناس ﴿وأنفسهم﴾ أي: يأكلون الحبوب الخارجة في الزرع مما يقتاتونه، وجملة ﴿تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ﴾ في محل نصب على الحال ﴿فلا يبصرون﴾ هذه النعم، ويشكرون المنعم، ويوحّدونه لكونه المنفرد بإيجاد ذلك ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ القائلون هم الكفار على العموم، أو كفار مكة على الخصوص أي: متى الفتح الذي تعدونا به، يعنون بالفتح: القضاء، والفصل بين العباد، وهو يوم البعث الذي يقضي الله فيه بين عباده، قاله مجاهد وغيره. وقال الفراء، والقتبي: هو فتح مكة. قال قتادة: قال أصحاب النبي ﷺ للكفار: إن لنا يوماً ننعّم فيه ونستريح، ويحكم الله بيننا وبينكم يعنون: يوم القيامة، فقال الكفار: متى هذا الفتح؟ وقال السدي: هو يوم بدر، لأن أصحاب النبي ﷺ كانوا

الف محضة. قال أبو عمرو بن العلاء: إنها لغة قريش التي أمر الناس أن يقرعوا بها، وقرأ قنبل، وورش⁽¹⁾ بهمزة مكسورة بدون ياء. قرأ عاصم (تظاهرون) بضم الفوقية، وكسر الهاء بعد ألف مضارع ظاهر، وقرأ ابن عامر بفتح الفوقية، وتشديد الظاء مضارع تظاهر، والأصل تظاهرون⁽²⁾، وقرأ الباقر (تظهرون) بفتح الفوقية، وتشديد الظاء بدون ألف، والأصل تتظهرون، والظهار مشتق من الظهر، وأصله أن يقول الرجل لامراته: أنت علي كظهر أمي، والمعنى: وما جعل الله نسائكم اللائي تقولن لهنّ هذا القول كماهاتكم في التحريم، ولكنه منكر من القول، وذوّر ﴿و﴾ كذلك ﴿ما جعل﴾ الادعاء الذين تدعون أنهم ﴿أبناءكم﴾ أبناء لكم، والادعاء جمع دعي، وهو الذي يدعي ابناً لغير أبيه، وسيأتي الكلام في الظهار في سورة المجادلة، والإشارة بقوله: ﴿نلكم﴾ إلى ما تقدم من ذكر الظهار والادعاء، وهو مبتدأ، وخبره ﴿قولكم بأفواهكم﴾ أي: ليس ذلك إلا مجرد قول بالأفواه، ولا تأثير له، فلا تصوير المرأة به أمّاً، ولا ابن الغير به ابناً، ولا يترتب على ذلك شيء من أحكام الأمومة، والبنوة. وقيل: الإشارة راجعة إلى الادعاء أي: ادعائكم أن أبناء الغير أبناءكم لا حقيقة له، بل هو مجرد قول بالفم ﴿والله يقول الحق﴾ الذي يحقّ اتباعه لكونه حقاً في نفسه لا باطلاً، فيدخل تحته دعاء الأبناء لأبائهم ﴿وهو يهدي السبيل﴾ أي: يدلّ على الطريق الموصلة إلى الحق، وفي هذا إرشاد للعباد إلى قول الحق، وترك قول الباطل والزور. ثم صرح سبحانه بما يجب على العباد من دعاء الأبناء للأباء، فقال: ﴿ادعوهم لأبائهم﴾ للصلب، وانسبوهم إليهم، ولا تدعوهم إلى غيرهم، وجملة ﴿هو أقسط عند الله﴾ تعليل للأمر بدعاء الأبناء للأباء، والضمير راجع إلى مصدر ادعوهم. ومعنى أقسط: أعدل: أي: أعدل كلّ كلام يتعلق بذلك، فترك الإضافة للعموم كقوله: الله أكبر، وقد يكون المضاف إليه مقترناً خاصاً: أي: أعدل من قولكم: هو ابن فلان، ولم يكن ابنه لصلبه. ثم تمّ سبحانه الإرشاد للعباد، فقال: ﴿فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم﴾ أي: فهم إخوانكم في الدين، وهم مواليتكم، فقولوا: أخي، ومولاي، ولا تقولوا: ابن فلان، حيث لم تعلموا آباءهم على الحقيقة. قال الزجاج: ويجوز: أن يكون مواليتكم أوليائكم في الدين. وقيل: المعنى: فإن كانوا محررين، ولم يكونوا أحراراً، فقولوا: موالي فلان ﴿وليس عليكم جناح

بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أطفالهم وأولادهم بعضهم أولئك بعض في كتب الله من المؤمنين والمؤمنات إلا أن تفعلوا ذلك أوليائكم معروفاً كان ذلك في الكتب مسطوراً ﴿١﴾

قوله: ﴿يا أيها النبي اتق الله﴾ أي: دم على ذلك، وازد منه ﴿ولا تطع الكافرين﴾ من أهل مكة، ومن هو على مثل كفرهم ﴿والمنافقين﴾ أي: الذين يظهرون الإسلام، ويبطنون الكفر. قال الواحدي: إنه أراد سبحانه بالكافرين أبا سفيان، وعكرمة، وأبا الأعور السلمي، وذلك أنهم قالوا للنبي ﷺ: ارفض ذكر آلهمنا، وقل: إن لها شفاعة لمن عبدها. قال: والمنافقين عبد الله بن أبي، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح. وسيأتي آخر البحث بيان سبب نزول الآية ﴿إن الله كان عليمًا حكيمًا﴾ أي: كثير العلم، والحكمة بليغهما، قال النحاس: يدلّ بقوله: ﴿إن الله كان عليمًا حكيمًا﴾ على أنه كان يميل إليهم: يعني: النبي ﷺ استدعاء لهم إلى الإسلام، والمعنى: أن الله عزّ وجلّ لو علم أن ميلك إليهم فيه منفعة لما نهك عنهم؛ لأنه حكيم، ولا يخفى بعد هذه الدلالة التي زعمها، ولكن هذه الجملة تعليل لجملة الأمر بالتقوى، والنهي عن طاعة الكافرين، والمنافقين، والمعنى: أنه لا يأمرك أو ينهك إلا بما علم فيه صلاحاً أو فساداً، لكثرة علمه وسعة حكمته ﴿ولاتبع ما يوحى إليك من ربك﴾ من القرآن: أي: اتبع الوحي في كل أمورك، ولا تتبع شيئاً مما عداه من مشورات الكافرين، والمنافقين، ولا من الرأي البحت، فإن فيما أوحى إليك ما يغنيك عن ذلك، وجملة ﴿إن الله كان بما تعملون خبيرًا﴾ تعليل لأمره باتباع ما أوحى إليك، والأمر له ﷺ أمر لأمته، فهم مأمورون باتباع القرآن كما هو مأمور باتباعه، ولهذا جاء بخطابه، وخطابهم في قوله: ﴿بما تعملون﴾ على قراءة الجمهور بالفوقية للخطاب، واختار هذه القراءة أبو عبيد، وأبو حاتم. وقرأ أبو عمرو، والسلمي، وابن أبي إسحاق بالتحتية ﴿وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً﴾ أي: اعتمد عليه، وفوض أمورك إليه، وكفى به حافظاً يحفظ من توكل عليه. ثم ذكر سبحانه مثلاً توطئة وتمهيداً لما يتعقبه من الأحكام القرآنية التي هي من الوحي الذي أمره الله باتباعه، فقال: ﴿ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه﴾.

وقد اختلف في سبب نزول هذه الآية كما سيأتي، وقيل: هي مثل ضربه الله للمظاهر أي: كما لا يكون للرجل قلبان كذلك لا تكون امرأة المظاهر أمه حتى يكون له أمّان، وكذلك لا يكون الدعي ابناً لرجلين. وقيل: كان الواحد من المنافقين يقول: لي قلب يأمرنني بكذا، وقلب يكذا، فنزلت الآية لردّ النفاق، وبيان أنه لا يجتمع مع الإسلام كما لا يجتمع قلبان، والقلب بضعة صغيرة على هيئة الصنوبرة خلقها الله، وجعلها محلاً للعلم ﴿وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهنّ أمهاتكم﴾، وقرأ الكوفيون، وابن عامر (اللائي) بياء ساكنة بعد همزة، وقرأ أبو عمرو، والبيزي بياء ساكنة بعد

(1) قوله: وقرأ قنبل وورش (إخ) فيه مخالفة للمشهور، وبيانه أن قنبلا وقالون بقرآن بهمزة مكسورة بدون ياء، وأما ورش فقراسته بهمزة مكسورة مسهلة كالياء بدون ياء بعدها اه. مصحح القرآن.

(2) هنا سقط ولعله: وقرأ حمزة والكسائي كذلك لكن مع تخفيف الهاء اه. مصحح القرآن.

قال غيره. وقيل: إن هذه الآية ناسخة للتوارث بالحلف، والمؤاخاة في الدين، وفي كتاب الله يجوز: أن يتعلق بالفعل التفضيل في قوله: ﴿أولى ببعض﴾ لأنه يعمل في الظرف، ويجوز: أن يتعلق بمحذوف هو حال من الضمير: أي: كائناً في كتاب الله، والمراد بالكتاب اللوح المحفوظ، أو القرآن، أو آية الموارث، وقوله: ﴿من المؤمنين﴾ يجوز أن يكون بياناً لأولوا الأرحام، والمعنى: أن ذوي القربات من المؤمنين ﴿والمهاجرين﴾ بعضهم أولى ببعض، ويجوز أن يتعلق بأولى أي: وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض من المؤمنين، والمهاجرين الذين هم أجانب، وقيل: إن معنى الآية: وأولوا الأرحام ببعضهم أولى ببعض: إلا ما يجوز لأزواج النبي ﷺ من كونهم كالأمهات في تحريم النكاح، وفي هذا من الضعف ما لا يخفى ﴿إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً﴾ هذا الاستثناء إما متصل من أعمّ العام، والتقدير: وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كل شيء من الإرث، وغيره إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً من صدقة، أو وصية فإن ذلك جائز. قاله قتادة، والحسن، وعطاء، ومحمد ابن الحنفية. قال محمد ابن الحنفية: نزلت في إجازة الوصية لليهودي، والنصراني، فالكافر ولي في النسب لا في الدين، فتجوز الوصية له، ويجوز أن يكون منقطعاً، والمعنى: لكن فعل المعروف للأولياء لا بأس به، ومعنى الآية: أن الله سبحانه لما نسخ التوارث بالحلف والهجرة أباح أن يوصى لهم. وقال مجاهد: أراد بالمعروف النصرة، وحفظ الحرمة بحق الإيمان، والهجرة، والإشارة بقوله: ﴿كان ذلك﴾ إلى ما تقدم ذكره أي: كان نسخ الميراث بالهجرة، والمخالفة، والمعاهدة، ورده إلى ذوي الأرحام من القربات ﴿في الكتاب مسطوراً﴾ أي: في اللوح المحفوظ، أو في القرآن مكتوباً.

وقد أخرج أحمد، والترمذي وحسنه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مروي، والضياء في المختارة عن ابن عباس قال: قام النبي ﷺ يوماً يصلي، فخطر خطرة، فقال المنافقون الذين يصلون معه: ألا ترى أن له قلبين قلباً معكم، وقلماً معهم؟ فنزل ﴿ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه﴾. وأخرج ابن مروي عنه من طريق أخرى بلفظ صلى الله النبي ﷺ صلاة، فسها فيها، فخطرت منه كلمة، فسمعها المنافقون، فقالوا: إن له قلبين، فنزلت. وأخرج ابن جرير، وابن مروي عنه أيضاً قال: كان رجل من قريش يسمى من دهائه ذا القلبين، فأنزل الله هذا في شأنه. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن ابن عمر: أن زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد حتى نزل القرآن ﴿ادعوهم لأبائهم﴾ الآية، فقال رسول الله: أنت زيد بن حارثة بن شراحيل. وأخرج البخاري، وغيره عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «ما من مؤمن إلا، وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة، اقرءوا إن شئتم ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾

فيما أخطأتم به﴾ أي: لا إثم عليكم فيما وقع منكم من ذلك خطأ من غير عمد، ﴿ولكن﴾ الإثم فيه ﴿ما تعدمت قلوبكم﴾ وهو ما قلمتموه على طريقة العمد من نسبة الأبناء إلى غير آبائهم مع علمكم بذلك. قال قتادة: لو دعوت رجلاً لغير أبيه، وأنت ترى أنه أبوه لم يكن عليك بأس ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ يغفر للمخطئ، ويرحمه، ويتجاوز عنه، أو غفوراً للذنوب رحيماً بالعباد، ومن جملة من يغفر له، ويرحمه من دعا رجلاً لغير أبيه خطأ. أو قبل النهي عن ذلك. ثم نكر سبحانه لرسوله مزية عظيمة، وخصوصية جلية لا يشاركه فيها أحد من العباد، فقال: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ أي: هو أحق بهم في كل أمور الدين والدنيا، وأولى بهم من أنفسهم فضلاً عن أن يكون أولى بهم من غيرهم، فيجب عليهم أن يؤثره بما أراده من أموالهم، وإن كانوا محتاجين إليها، ويجب عليهم أن يجوه زيادة على حبهم أنفسهم، ويجب عليهم أن يقدموا حكمه عليهم على حكمه لأنفسهم. وبالجمله فإذا دعاهم النبي ﷺ لشيء، ودعتهم أنفسهم إلى غيره وجب عليهم أن يقدموا ما دعاهم إليه، ويؤخروا ما دعتهم أنفسهم إليه، ويجب عليهم أن يطيعوه فوق طاعتهم لأنفسهم، ويقدموا طاعته على ما تميل إليه أنفسهم، وتطلبه خواطرهم. وقيل: المراد بأنفسهم في الآية بعضهم، فيكون المعنى: أن النبي ﷺ أولى بالمؤمنين من بعضهم ببعض. وقيل: هي خاصة بالقضاء أي: هو أولى بهم من أنفسهم فيما قضى به بينهم. وقيل: أولى بهم في الجهاد بين يديه، وبذل النفس دونه، والأول أولى ﴿وأنواجه أمهاتهم﴾ أي: مثل أمهاتهم في الحكم بالتحريم، ومنزلات منزلتهن في استحقاق التعظيم، فلا يحل لأحد أن يتزوج بواحدة منهن كما لا يحل له أن يتزوج بأمه، فهذه الأمومة مختصة بتحريم النكاح لهن، وبالتعظيم لجنابهن، وتخصيص المؤمنين يدل على أنهم لسن أمهات نساء المؤمنين، ولا بناتهن أخوات المؤمنين، ولا أخوتهن أحوال المؤمنين. وقال القرطبي: الذي يظهر لي أنهم أمهات الرجال والنساء تعظيماً لحقهن على الرجال، والنساء كما يدل عليه قوله: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾، وهذا يشمل الرجال والنساء ضرورة. قال: ثم إن في مصحف أبي بن كعب (وأنواجه أمهاتهم، وهو أب لهم)، وقرأ ابن عباس (أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب وأنواجه أمهاتهم)، ثم بين سبحانه: أن القرابة أولى ببعضهم البعض، فقال: ﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾ المراد بأولى الأرحام القربات: أي: هم أحق ببعضهم البعض في الميراث، وقد تقدم تفسير هذه الآية في آخر سورة الأنفال، وهي ناسخة لما كان في صدر الإسلام من التوارث بالهجرة، والموالات. قال قتادة: لما نزل قوله سبحانه في سورة الأنفال: ﴿والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا﴾ [الأنفال: 72]، فتوارث المسلمون بالهجرة، ثم نسخ ذلك بهذه الآية، وكذا

بعضهم بعضاً. وقال مقاتل: أخذ ميثاقهم على أن يعبدوا الله، ويدعوا إلى عبادة الله، وأن يصدق بعضهم بعضاً، وأن ينصحوا لقومهم. والميثاق هو: اليمين، وقيل: هو: الإقرار بالله، والأوّل أولى، وقد سبق تحقيقه. ثم خصص سبحانه بعض النبيين بالذكر بعد التعميم الشامل لهم، ولغيرهم، فقال: ﴿وَمِنْكُمْ مِنْ نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم﴾، ووجه تخصيصهم بالذكر الإعلام بأن لهم مزيد شرف وفضل لكونهم من أصحاب الشرائع المشهورة، ومن أولي العزم من الرسل، وتقديم ذكر نبيينا ﷺ مع تأخر زمانه فيه من التشريف له، والتعظيم ما لا يخفى. قال الزجاج: وأخذ الميثاق حيث أخرجوا من صلب آدم كالنذر. ثم أكد ما أخذه على النبيين من الميثاق بتكرير نكره، ووصفه بالغلظ، فقال: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِيثَاقاً غَلِيظاً﴾ أي: عهداً شديداً على الوفاء بما حملوا، وما أخذه الله عليهم، ويجوز: أن يكون قد أخذ الله عليهم الميثاق مرتين، فأخذ عليهم في المرة الأولى مجرد الميثاق بدون تغليظ، ولا تشديد، ثم أخذه عليهم ثانياً مغلظاً مشدداً، ومثل هذه الآية قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ، ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصْتَقٌّ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ [آل عمران: 81]، واللام في قوله: ﴿لَيْسَالِ الصَّادِقِينَ عَنْ صَدَقِهِمْ﴾ يجوز أن تكون لام كي: أي: لكي يسأل الصادقين من النبيين عن صدقهم في تبليغ الرسالة إلى قومهم، وفي هذا وعيد لغيرهم، لأنهم إذا كانوا يسألون عن ذلك، فكيف غيرهم وقيل: ليسال الأنبياء عما أجابهم به قومهم كما في قوله: ﴿فَلْيَسْأَلِ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلْيَسْأَلِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: 6] ويجوز أن تتعلق بمحذوف أي: فعل ذلك ليسال ﴿وَوَاعَدُ لِّلْكَافِرِينَ عَذَاباً أَلِيماً﴾ معطوف على ما دل عليه ﴿لَيْسَالِ الصَّادِقِينَ﴾ إذ التقدير: أثاب الصادقين، وأعد للكافرين، ويجوز أن يكون معطوفاً على أخذنا، لأن المعنى: أكد على الأنبياء الدعوة إلى دينه، ليثيب المؤمنين، وأعد للكافرين. وقيل: إنه قد حذف من الثاني ما أثبت مقابله في الأوّل، ومن الأوّل ما أثبت مقابله في الثاني، والتقدير: ليسال الصادقين عن صدقهم، فاثابهم، ويسال الكافرين عما أجابوا به رسولهم، وأعدّ لهم عذاباً أليماً. وقيل: إنه معطوف على المقدّر عاملاً في ليسال كما نكرنا، ويجوز أن يكون الكلام قد تمّ عند قوله: ﴿لَيْسَالِ الصَّادِقِينَ عَنْ صَدَقِهِمْ﴾، وتكون جملة ﴿وَوَاعَدُ﴾ لهم، مستأنفة لبيان ما أعدّه للكفار ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ هذا تحقيق لما سبق من الأمر بتقوى الله بحيث لا يبقى معها خوف من أحد، وقوله ﴿عليكم﴾ متعلق بالنعمة إن كانت مصدراً، أو بمحذوف هو حال: أي: كائنة عليكم، ومعنى ﴿إِذَا جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾: حين جاءتكم جنود، وهو ظرف للنعمة، أو للمقدّر عاملاً في عليكم، أو لمحذوف هو أنكر، والمراد بالجنود: جنود الأحزاب الذين تحزبوا على رسول الله ﷺ، وغزوه إلى المدينة، وهي الغزوة المسماة «غزوة الخندق»، وهم: أبو سفيان بن حرب

فأيما مؤمن ترك مالا، فليتركه عصيته من كانوا، فإن ترك ديناً أو ضياعاً فليأتني، فإنا مولا». وأخرج أحمد، وأبو داود، وابن مريويه من حديث جابر نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، والنسائي عن بريدة قال: «غزوت مع علي إلى اليمـن، فرأيت منه جفوة، فلما قدمت على رسول الله ﷺ نكرت عليه، فتنقصته، فرأيت وجه رسول الله ﷺ تغير، وقال: يا بريدة الست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قلت: بلى يا رسول الله، قال: من كنت مولا فعلي مولا». وقد ثبت في الصحيح: أنه ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه، وماله، وولده، والناس أجمعين». وأخرج ابن سعد، وابن المنذر، والبيهقي في سننه عن عائشة: أن امرأة قالت لها: يا أمه، فقالت: أنا أم رجالكم، ولست أم نساءكم. وأخرج ابن سعد عن أم سلمة قالت: أنا أم الرجال منكم، والنساء. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وإسحاق بن راهويه، وابن المنذر، والبيهقي في دلائله عن بجالة قال: مر عمر بن الخطاب بـغلام، وهو يقرأ في المصحف (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم)، فقال: يا غلام حكها، فقال: هذا مصحف أبي، فذهب إليه، فسأله، فقال: إنه كان يلهيني القرآن، ويلهيك الصنف في الأسواق. وأخرج الفريابي، والحاكم، وابن مريويه، والبيهقي في سننه عن ابن عباس: أنه كان يقرأ (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم وأزواجه أمهاتهم).

وَلَا أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَمْ وَأَنْفُجَ الْوَيْلَ لِمَنْ هُوَ مُوَسِّعٌ أَيْدِيهِ وَأَعَدَّ
 الْعَذَابَ لَكُمُ الْكَافِرِينَ عَذَابُ آيَاتٍ ۝ يَتْلُوا آيَاتِ اللَّهِ مَا تَوَارَا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ
 جُنُودُ فِرْعَوْنَ عَلَيْهِمْ رِيحٌ وَجُودُكُمْ لَمْ تَرْوِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فِرْعَوْنَ وَنَاسِهِ أَسْفَلُ مِنْكُمْ وَإِذْ رَاغَبُ الْأَبْصَارِ وَلَكِنَّ
 الْقُلُوبَ الْحَكِيمَةَ وَتَطَوَّعُوا بِاللَّهِ الظَّنُونَا ۝ هَذَاكَ أَبْغَى النَّفْسُونَ
 وَلِذَلِكَ رَزَاكَ لَا شَيْءًا ۝ وَإِذْ يَقُولُ النَّفْسُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا
 وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ۝ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَأْكُلُ بَرَبٌ لَا مَقَامَ
 لَكَ فَرَجَعُوا وَاسْتَفْزَفُوا فِيهِمْ النَّاسُ يَقُولُونَ إِنَّا نَظُنُّكُمْ عَوْرَةً وَمَا فِي بَعْدِهِ
 إِنَّ يَوْمَئِذٍ إِلَّا فَرَارًا ۝ وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ آفَاتِنَا رَمَتْ شَيْئًا الْفِتْنَةَ
 لَأَنزَعُوا وَمَا تَلَاَوْهَا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ۝ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا
 يُؤْمِنُونَ إِلَّا بِذَلِكَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْخُورًا ۝ قُلْ لَنْ نَنفَعَكُمْ الْفَرَارَ إِلَّا فَرَارُهُ
 مِنَ الْعَذَابِ أَوْ الْقَتْلِ وَإِنَّا لَا نَسْتَعِينُ إِلَّا بِقَوْلِ اللَّهِ ۝ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي
 يَمْسِكُ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَحِثُّونَ لَكُمْ مِنْ شَيْءٍ
 اللَّهُ رَازِكٌ وَلَا يَحِثُّونَ ۝

قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾ العامل في الظرف محنوف: أي: وانكر، كنهه قال: يا أيها النبي اتق الله، وانكر أن الله أخذ ميثاق النبيين. قال قتادة: أخذ الله الميثاق على النبيين خصوصاً أن يصدق بعضهم بعضاً، ويتم

الحنجرة، ولهذا يقال للجبان: انتفخ سحره ﴿وَتُظَنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ أي: الظنون المختلفة، فبعضهم ظنّ النصر ورجا الظفر، وبعضهم ظنّ خلاف ذلك. وقال الحسن: ظنّ المنافقون: أنه يستاصل محمد وأصحابه، وظنّ المؤمنون أنه ينصر. وقيل: الآية خطاب للمنافقين، والأولى ما قاله الحسن. فيكون الخطاب لمن أظهر الإسلام على الإطلاق أعم من أن يكون مؤمناً في الواقع أو منافقاً.

واختلف القراء في هذه الآلف في ﴿الظُّنُونَا﴾ فاثبتتها وصلّاً ووقفاً نافع، وابن عامر، وأبو بكر، ورويت هذه القراءة عن أبي عمرو، والكسائي، وتمسكوا بخط المصحف العثماني، وجميع المصاحف في جميع البلدان، فإن الآلف فيها كلها ثابتة، واختار هذه القراءة أبو عبيد إلا أنه قال: لا ينبغي للقارئ أن يدرج القراءة بعدهن بل يقف عليهن، وتمسكوا أيضاً بما في أشعار العرب من مثل هذا. وقرأ أبو عمرو، وحزمة، والجحدري، ويعقوب بحذفها في الوصل والوقف معاً، وقالوا: هي من زيادات الخط، فكتبت كذلك، ولا ينبغي النطق بها. وأما في الشعر، فهو يجوز فيه للضرورة ما لا يجوز في غيره. وقرأ ابن كثير، والكسائي، وابن محيصن بإثباتها وقفاً، وحذفها وصلّاً، وهذه القراءة راجحة باعتبار اللغة العربية، وهذه الآلف هي التي تسميها النحاة ألف الإطلاق، والكلام فيها معروف في علم النحو، وهكذا اختلف القراء في الآلف التي في قوله: «الرسول، والسبيل» كما سيأتي آخر هذه السورة ﴿هَٰذَا لَبِثْتُ الْيَوْمَ مُمُتُونَ﴾ الظرف منتصب بالفعل الذي بعده، وقيل: بتظنون، واستضعفه ابن عطية، وهو ظرف مكان يقال: للمكان البعيد هناك كما يقال: للمكان القريب هنا، وللمتوسط هناك. وقد يكون ظرف زمان أي: عند ذلك الوقت ابتلي المؤمنين، ومنه قول الشاعر:

وإذا الأمور تعاضمت وتشاكلت فهناك يعترفون أين المفزع
أي: في تلك الوقت، والمعنى: أن في ذلك المكان، أو الزمان اختبر المؤمنون بالخوف، والقتال، والجوع، والحصر، والنزال؛ ليتبين المؤمن من المنافق ﴿وَزَلْزَلُوا زَلْزَالاً شَدِيداً﴾ قرأ الجمهور (زلزلوا) بضم الزاي الأولى، وكسر الثانية على ما هو الأصل في المبني للمفعول، وروي عن أبي عمرو: أنه قرأ بكسر الأولى، وروى الزمخشري عنه أنه قرأ بإشمامها كسراً، وقرأ الجمهور (زلزالاً) بكسر الزاي الأولى، وقرأ عاصم، والجحدري، وعيسى بن عمر بفتحها. قال الزجاج: كل مصدر من المضاعف على فعالل يجوز فيه الكسر والفتح: نحو قلقلته قلقالاً، وزلزلوا زلزالاً، والكسر أجود. قال ابن سلام: معنى زلزلوا: حرّكوا بالخوف تحريكاً شديداً، وقال الضحاك: هو إزاحتهم عن أماكنهم حتى لم يكن لهم إلا موضع الخندق، وقيل: المعنى: أنهم اضطربوا اضطراباً مختلفاً، فمنهم من اضطرب في نفسه، ومنهم من اضطرب في دينه ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ معطوف على «إذ زأغت الأَبصار»، والمرض

بقريش، ومن معهم من الألفاف، وعيينة بن حصن الفزاري، ومن معه من قومه غطفان، وبنو قريظة، والنضير، فضابقوا المسلمين مضابقة شديدة كما وصف الله سبحانه في هذه الآيات، وكانت هذه الغزوة في شوال سنة خمس من الهجرة. قاله ابن إسحاق. وقال ابن وهب، وابن القاسم عن مالك: كانت في سنة أربع. وقد بسط أهل السير في هذه الواقعة ما هو معروف، فلا نطيل بنكرها ﴿فَارْسَلْنَا عَلَيْهِم رِيحاً﴾ معطوف على جاءكم. قال مجاهد: هي: الصبا، أرسلت على الأحزاب يوم الخندق حتى ألقت قبورهم، ونزعت فساطيطهم، ويدل على هذا ما ثبت عنه ﷺ من قوله: «نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالبور»، والمراد بقوله: ﴿وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا﴾ الملائكة. قال المفسرون: بعث الله عليهم الملائكة، فقلعت الأوتاد، وقطعت أطناب الفساطيط، وأطافأت النيران، وأكفأت القدور، وجالت الخيل بعضها في بعض، وأرسل الله عليهم الرعب، وكثر تكبير الملائكة في جوانب العسكر حتى كان سيد كل قوم يقول لقومه: يا بني فلان هلم إلي، فإذا اجتمعوا قال لهم: النجاء النجاء ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ قرأ الجمهور (تعملون) بالفتوية أي: بما تعملون أيها المسلمون من ترتيب الحرب، وحفر الخندق، واستنصاركم به، وتوكلكم عليه، وقرأ أبو عمرو بالتحذية أي: بما يعمل الكفار من العناد لله، ولرسوله، والتحزب على المسلمين، واجتماعهم عليهم من كل جهة ﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ إذ هذه، وما بعدها بدل من إذ الأولى، والعامل في هذه هو العامل في تلك، وقيل: منصوبة بمحذوف هو أنكر، ومعنى ﴿مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ من أعلى الوادي، وهو من جهة المشرق، والذين جاءوا من هذه الجهة هم غطفان، وسيدهم عيينة بن حصن، وهوازن، وسيدهم عوف بن مالك، وأهل نجد، وسيدهم طليحة بن خويلد الأسدي، وانضم إليهم عوف بن مالك، وبنو النضير، ومعنى ﴿وَمِنْ أَسْفَلٍ مِنْكُمْ﴾ من أسفل الوادي من جهة المغرب من ناحية مكة، وهم قريش، ومن معهم من الأحابيش، وسيدهم أبو سفيان بن حرب، وجاء أبو الأعور السلمي، ومعه حيي بن أخطب اليهودي في يهود بني قريظة من وجه الخندق، ومعهم عامر بن الطفيل، وجملة ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ﴾ معطوفة على ما قبلها أي: مالت عن كل شيء، فلم تنظر إلا إلى علوها مقيلاً من كل جانب، وقيل: شخصت دهشاً من فرط الهول والحيرة ﴿وَبُلْغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ جمع حنجرة، وهي جوف الحلقوم أي: ارتفعت القلوب عن مكانها، ووصلت من الفزع والخوف إلى الحناجر، فلولا أنه ضاق الحلقوم عنها، وهو الذي نهايته الحنجرة لخرجت، كذا قال قتادة. وقيل: هو على طريق المبالغة المعهودة في كلام العرب، وإن لم ترتفع القلوب إلى ذلك المكان، ولا خرجت عن موضعها، ولكنه مثل في اضطرابها، وجبنها. قال الفراء والمعنى: أنهم جبنوا، وجزع أكثرهم، وسبيل الجبان إذا اشتد خوفه أن تنتفخ رثته، فإذا انتفخت الرثة ارتفع القلب إلى

يعني: بيوتهم، أو المدينة، والأقطار: النواحي جمع قطر، وهو الجانب، والناحية، والمعنى: لو دخلت عليهم بيوتهم، أو المدينة من جوانبها جميعاً لا من بعضها، ونزلت بهم هذه النازلة الشديدة، واستبيحت ديارهم، وهتكت حرهم، ومنازلهم **﴿ثُمَّ سَلُّوا الْفِتْنَةَ﴾** من جهة أخرى عند نزول هذه النازلة الشديدة بهم **﴿لَاتُوهَا﴾** أي: لجأوها، أو أعطوها، ومعنى الفتنة هنا: إما القتال في العصبية كما قال الضحاك، أو الشرك بالله، والرجعة إلى الكفر الذي يبطنون، ويظهرون خلافه كما قال الحسن، قرأ الجمهور (لأتوها) بالمد أي: لأعطوها من أنفسهم، وقرأ نافع، وابن كثير بالقصر أي: لجأوها **﴿وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا﴾** أي: بالمدينة بعد أن اتوا الفتنة إلا تلبثاً يسيراً حتى يهلكوا، كذا قال الحسن، والسدي، والفراء، والقتيبي. وقال أكثر المفسرين: إن المعنى: وما احتسبوا عن فتنة الشرك إلا قليلاً، بل هم مسرعون إليها راغبون فيها لا يقفون عنها إلا مجرد وقوع السؤال لهم، ولا يتعللون عن الإجابة بأن بيوتهم في هذه الحالة عورة مع أنها قد صارت عورة على الحقيقة كما تعللوا عن إجابة الرسول والقتال معه بأنها عورة، ولم تكن إذ ذاك عورة. ثم حكى الله سبحانه عنهم ما قد كان وقع منهم من قبل من المعاهدة لله ورسوله بالثبات في الحرب، وعدم الفرار عنه، فقال: **﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُؤَلِّمَهُمُ الْبُيُوتَ أَنْ لَا يُقَاتِلُوا فِيهَا وَلَا يُخَالِفُوا عَنْهَا﴾** ومن بعد بدر قال قتادة: وذلك أنهم غلبوا عن بدر، ورأوا ما أعطى الله أهل بدر من الكرامة والنصر، فقالوا: لأن أشهدنا الله قتلاً لنقاتل، وهم: بنو حارثة، وبنو سلمة **﴿وَمَا كَانَ عَهْدُ اللَّهِ مُسَوِّلاً﴾** أي: مسؤولاً عنه، ومطلوباً صاحبه بالوفاء به، ومجازي على ترك الوفاء به **﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفَرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ﴾** فإن من حضر أجله مات أو قتل فرأى ما لم يفر **﴿وَأِذَا لَا تَمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾** أي: تمتعاً قليلاً، أو زماناً قليلاً بعد فرارهم إلى أن تنقضي آجالهم، وكل ما هو آت، فهو قريب قرأ الجمهور (تمتعون) بالفوقية، وقرأ يعقوب الحضرمي في رواية الساجي عنه بالتحتي. وفي بعض الروايات «لا تمتعوا» بحذف النون إعمالاً لإذن، وعلى قراءة الجمهور هي ملغاة **﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا﴾** أي: هلاكاً أو نقصاً في الأموال، وجنباً، ومرضاً **﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾** يرحمكم بها من خصب، ونصر، وعافية **﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ بَوْنِ اللَّهِ وَلِيًّا﴾** يوليهم، ويدفع عنهم **﴿وَلَا نُصِيرُكُمْ﴾** ينصرهم من عذاب الله.

وقد أخرج الطبراني، وابن مردويه، وأبو نعيم في الدلائل عن أبي مريم الغساني: أن أعرابياً قال: يا رسول الله أي شيء كان أول نبوتك؟ قال: أخذ الله مني الميثاق كما أخذ من النبيين ميثاقهم، ثم تلا **﴿وَأِذَا لَخْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمَنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَلَخْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾**، ودعوة إبراهيم قال: **﴿وَابْعَثْ**

في القلوب هو: الشك والريبة، والمراد بالمنافقون: عبد الله بن أبي، وأصحابه، وبالذين في قلوبهم مرض: أهل الشك، والاضطراب **﴿وَمَا وَعَدْنَا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾** من النصر، والظفر **﴿إِلَّا غُرُورًا﴾** أي: باطلاً من القول، وكان القائلون بهذه المقالة نحو سبعين رجلاً من أهل النفاق، والشك، وهذا القول المحكي عن هؤلاء هو كالتفسير للظنون المذكورة أي: كان ظن هؤلاء هذا الظن، كما كان ظن المؤمنين بالنصر، وإعلاء كلمة الله **﴿وَإِذَا قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾** أي: من المنافقين. قال مقاتل: هم بنو سالم من المنافقين. وقال السدي: هم: عبد الله بن أبي وأصحابه، وقيل: هم أوس بن قبيط وأصحابه، والطائفة تقع على الواحد فما فوقه، والقول الذي قالته هذه الطائفة هو قوله: **﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ﴾** أي: لا موضع إقامة لكم، أو لا إقامة لكم ها هنا في العسكر. قال أبو عبيد: يثرب اسم الأرض، ومدينة النبي ﷺ في ناحية منها، قال السهيلي: وسميت يثرب، لأن الذي نزلها من العمالة اسمه يثرب بن عميل، قرأ الجمهور (لا مقام لكم) بفتح الميم، وقرأ حفص، والسلمي، والجحدري، وأبو حيوة بضمها، على أنه مصدر من أقام يقيم، وعلى القراءة الأولى هو اسم مكان **﴿فَارْجِعُوا﴾** أي: إلى منازلكم، أمرهم بالهرب من عسكر النبي ﷺ، وذلك «أن رسول الله ﷺ والمسلمين خرجوا عام الخندق حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع، والخندق بينهم، وبين القوم، فقال هؤلاء المنافقون: ليس ها هنا موضع إقامة، وأمروا الناس بالرجوع إلى منازلهم بالمدينة» **﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ﴾** معطوف على **﴿قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾** أي: يستأذنون في الرجوع إلى منازلهم، وهم: بنو حارثة، وبنو سلمة، وجملة **﴿يَقُولُونَ﴾** بدل من قوله: «يستأذِن» أو حال، أو استئناف جواباً لسؤال مقدر، والقول الذي قالوه هو قولهم: **﴿إِنَّ بَيْوتَنَا عَوْرَةٌ﴾** أي: ضائعة سائبة ليست بحصينة، ولا ممتنة من العدو. قال الزجاج: يقال: عور المكان يعور عوراً، وعورة، وبيوت عورة، وعورة، وهي مصدر. قال مجاهد، ومقاتل، والحسن: قالوا: بيوتنا ضائعة نخشى عليها السراق. وقال قتادة: قالوا: بيوتنا مما يلي العدو، ولا ثامن على أهلنا. قال الهروي: كل مكان ليس بممنوع، ولا مستور، فهو عورة، والعورة في الأصل: الخلل، فاطلقت على المختل، والمراد: ذات عورة، وقرأ ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، وأبو رجاء العطاردي عورة بكسر الواو أي: قصيرة الجدران. قال الجوهري: العورة كل حال يتخوف منه في ثغر، أو حرب. قال النحاس: يقال: أمور المكان: إذا تبينت فيه عورة، وأمر الفارس: إذا تبين منه موضع الخلل، ثم رد الله سبحانه عليهم بقوله: **﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾** فكذبهم الله سبحانه فيما نكروه، والجملة في محل نصب على الحال، ثم بين سبب استئذانهم، وما يريدونه به، فقال: **﴿إِنْ يَرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾** أي: ما يريدون إلا الهرب من القتال، وقيل: المراد: ما يريدون إلا الفرار من الدين **﴿وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا﴾**

ان الله كفاه القوم، فرجعت إلى رسول الله ﷺ، فأخبرته، وهو مشتمل في شملة يصلي، وكان إذا حزه أمر صلى، فأخبرته خبر القوم أنني تركتهم يترحلون، وأنزل الله ﷻ **أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود** الآية. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس في قوله: **﴿إذ جاءتكم جنود﴾** قال: كان يوم أبي سفيان يوم الأحزاب. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم في الكنى، وأبو الشيخ، وابن مردويه، وأبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس قال: لما كان ليلة الأحزاب جاءت الشمال إلى الجنوب، فقالت: انطلقني، فأنصري الله ورسوله، فقالت الجنوب: إن الحرّة لا تسري بالليل، فغضب الله عليها، وجعلها عقيماً، فأرسل عليهم الصبا، فاطفأت نيرانهم، وقطعت أطنابهم، فقال رسول الله ﷺ: «نصرت بالصبا، وأهلك عاد بالبور»، فذلك قوله: **﴿فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تريها﴾** وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما من حديث ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «نصرت بالصبا، وأهلك عاد بالبور». وأخرج البخاري، وغيره عن عائشة في قوله: **﴿إذ جاءوكم من فوقكم﴾** الآية قالت: كان ذلك يوم الخندق، وفي الباب: أحاديث في وصف هذه الغزوة، وما وقع فيها، وقد اشتملت عليها كتب الغزوات، والسير. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أمرت بقرية تاكل القرى يقولون: يثرب، وهي: المدينة تنفي البأس كما ينفي الكير خبث الحديد». وأخرج أحمد، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ: «من سمي المدينة يثرب، فليستغفر الله، هي: طابة هي: طابة هي: طابة، ولفظ أحمد «إنما هي: طابة، وإسناده ضعيف». وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس مرفوعاً نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس في قوله: **﴿ويستأذن فريق منهم النبي﴾** قال: هم بنو حارثة قالوا: **﴿بيوتنا عورة﴾** أي: مختلة نخشى عليها السرقة. وأخرج ابن مردويه عن جابر نحوه. وأخرج البيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: جاء تأويل هذه الآية على رأس ستين سنة **﴿ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا لفنته لاتوها﴾** قال: لاعطوها، يعني: إخال بني حارثة أهل الشام على المدينة.

﴿قَدْ يَمْلِكُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْكَ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَتِهِمْ هَلْمْ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ١٥ **أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَ لَكُمْ تَوَارِثُكُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكُمْ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُدْخِنُ عَلَى نَفْسٍ فَإِذَا ذَهَبَ لَغْوُكُمْ سَلَوْتُمْ بِالنِّسَاءِ جَدًّا أَيْحَةَ عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمَرُوا فَاحْبِطُوا أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ ١٦ **يَحْسِبُ الْأَحْزَابُ لَمْ يَدْهَبُوا وَلَئِنْ بَأَتِ الْأَحْزَابُ يَدُوكُمْ لَوْ أَنَّكُمْ بَادَرْتُمْ فِي الْأَحْزَابِ بِسَلَوْتِكُمْ عَنْ أَنْبِيَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ ١٧ **أَفَلَمْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ** وَأَيُّومَ الْآخِرِ وَذَكَرَ اللَّهُ كَثِيرًا ١٨ **وَمَا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا******

فيهم رسولاً منهم﴾ [البقرة: 129]، ويشري عيسى ابن مريم، ورات أم رسول الله ﷺ في منامها: أنه خرج من بين رجليها سراج أضاعت له قصور الشام. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: «قيل: يا رسول الله متى أخذ ميثاقتك؟ قال: وأدم بين الروح والجسد». وأخرج البزار، والطبراني في الأوسط، وأبو نعيم في الدلائل عنه قال: «قيل: يا رسول الله متى كنت نبياً؟ قال: وأدم بين الروح والجسد». وفي الباب أحاديث قد صحح بعضها. وأخرج الحسن بن سفيان، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وأبو نعيم في الدلائل، والديلمي، وابن عساكر من طريق قتادة عن الحسن، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في قوله: **﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾** الآية قال: كنت أول النبيين في الخلق، وآخرهم في البعث، فبدا به قبلهم. وأخرج ابن أبي حاتم من طريق الضحاك عن ابن عباس قال: **﴿ميثاقهم﴾** عهدهم. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني بسند صحيح عن ابن عباس **﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾** قال: إنما أخذ الله ميثاق النبيين على قومهم. وأخرج الحاكم وصححه، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي كلاهما في الدلائل، وابن عساكر من طرق عن حنيفة قال: لقد رأيتنا ليلة الأحزاب ونحن صافون قعود، وأبو سفيان، ومن معه من الأحزاب فوقنا، وقريظة اليهود أسفل منا؛ نخافهم على نزارينا، وما أتت علينا ليلة قط أشد ظلمة، ولا أشد ريحاً، في أصوات ريحها أمثال الصواعق، وهي ظلمة ما يرى أحد منا أصبعه، فجعل المنافقون يستأذنون رسول الله ﷺ، و**﴿يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة﴾** فما يستأذن أحد منهم إلا أن له، فيتسللون، ونحن ثلثمائة، أو نحو ذلك إذ استقبلنا رسول الله ﷺ رجلاً حتى مر علي، وما علي جنة من العدو ولا من البرد إلا مرط لامراتي ما يجاوز ركبتي، فأتاني، وأنا جاث على ركبتي، فقال: من هذا؟ فقلت: حنيفة. قال: حنيفة، فتقاصرت إلى الأرض، فقلت: بلى يا رسول الله كراهية أن أقوم، قال: قم، فقممت، فقال: إنه كان في القوم خير، فأتاني بخبر القوم، قال: وأنا من أشد القوم فرعاً، وأشهدهم قرأ، فخرجت، فقال رسول الله ﷺ: اللهم احفظه من بين يديه، ومن خلفه، وعن يمينه، وعن شماله، ومن فوقه، ومن تحته؛ قال: فوالله ما خلق الله فرعاً ولا قرأ في جوفي إلا خرج من جوفي، فما أجد منه شيئاً، فلما وليت قال: يا حنيفة لا تحدثن في القوم شيئاً حتى تأتيني، فخرجت حتى إذا نوت من عسكر القوم نظرت في ضوء نار لهم توقد، وإذا رجل أدهم ضخم يقول بيده على النار، ويمسح خاصرته، ويقول: الرحيل الرحيل، ثم دخلت العسكر، فإذا أدنى الناس مني بنو عامر يقولون: يا آل عامر الرحيل الرحيل لا مقام لكم، وإذا الريح في عسكرهم ما تجاوز شبراً، فوالله إني لاسمع صوت الحجارة في رحالهم وفرشهم الريح تضربهم، ثم خرجت نحو النبي ﷺ، فلما انتصفت في الطريق، أو نحو ذلك إذا أنا بنحو من عشرين فارساً معتمين، فقالوا: أخبر صاحبك

قال قتادة: معنى الآية: بسطوا السنتهم فيكم في وقت قسمة الغنيمة يقولون: أعطنا فلاناً قد شهدنا معكم، فعند الغنيمة أشح قوم وأبسطهم لساناً، ووقت البأس أجبن قوم وأخوفهم. قال النحاس: وهذا قول حسن، وانتصاب **«أشحة على الخير»** على الحالية من فاعل سلقوكم، ويجوز أن يكون نصبه على الذم، وقرأ ابن أبي عبيدة برفع أشحة، والمراد هنا أنهم أشحة على الغنيمة يشالون المسلمين عند القسمة، قاله يحيى بن سلام، وقيل: على المال أن ينفقوه في سبيل الله. قاله السدي. ويمكن أن يقال معناه: أنهم قليلو الخير من غير تقييد بنوع من أنواعه، والإشارة بقوله: **«أولئك»** إلى الموصوفين بتلك الصفات **«لم يؤمنوا»** إيماناً خالصاً بل هم منافقون: يظهرون الإيمان، ويبطنون الكفر **«فاحبط الله أعمالهم»** أي: أبطلها بمعنى: أظهر بطلانها، لأنها لم تكن لهم أعمال تقتضي الثواب حتى يبطلها الله. قال مقاتل: أبطل جهادهم؛ لأنه لم يكن في إيمان **«وكان ذلك على الله يسيراً»** أي: وكان ذلك الإحباط لأعمالهم، أو كان نفاقهم على الله هيناً **«يحسبون الأحزاب لم يذهبوا»** أي: بحسب هؤلاء المنافقون لجبنهم أن الأحزاب باقون في معسكرهم لم يذهبوا إلى ديارهم، وذلك لما نزل بهم من الفشل والدروع **«وإن يات الأحزاب»** مرة أخرى بعد هذه المرة **«يوتوا لو أنهم بابون في الأعراب»** أي: يتمنون أنهم في بادية الأعراب لما حل بهم من الرهبة، والبادي خلاف الحاضر، يقال: بدا يبسو بداوة إذا خرج إلى البادية **«يسألون عن أنبيائكم»** أي: عن أخباركم، وما جرى لكم، كل قادم عليهم من جهتكم، أو يسأل بعضهم بعضاً عن الأخبار التي بلغته من أخبار الأحزاب، ورسول الله ﷺ والمعنى: أنهم يتمنون أنهم بعيد عنكم يسألون عن أخباركم من غير مشاهدة للقتال لفرط جبنهم، وضعف نياتهم **«ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلاً»** أي: لو كانوا معكم في هذه الغزوة مشاهدين للقتال ما قاتلوا معكم إلا قتلاً قليلاً خوفاً من العار، وحماية على النيار **«لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة»** أي: قدوة صالحة، يقال: لي في فلانة أسوة أي: لي به، والأسوة من الائتساء، كالقبوة من الاقتداء: اسم يوضع موضع المصدر. قال الجوهري: والأسوة، والإسوة بالضم، والكسر، والجمع أسى، وإسى. قرأ الجمهور (أسوة) بالضم للهمة، وقرأ عاصم بكسرها، وهما لغتان كما قال الفراء، وغيره.

وفي هذه الآية عتاب للمتخلفين عن القتال مع رسول الله ﷺ: لقد كان لكم في رسول الله حيث بذل نفسه للقتال، وخرج إلى الخندق لنصرة دين الله أسوة، وهذه الآية، وإن كان سببها خاصاً، فهي عامة في كل شيء، ومثلها **«ما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا»** [الحشر: 7]، وقوله: **«قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله»** [آل عمران: 31]، واللام في **«لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر»** متعلق بحسنة، أو بمحذوف هو صفة لحسنة أي:

وَعَدَا اللَّهُ رَسُولَهُ وَوَعَدَ اللَّهُ رَسُولَهُ وَمَا رَادَّهُمْ إِلَّا إِيْمَانًا وَسَلِيماً ۖ يَنْ أَلْمُؤْمِنِينَ رِيَالاً صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَيَنْهَمُ مَنْ قَتَلَ نَحْبَهُ وَوَيْتَهُمْ مَنْ يَنْظُرُ وَمَا بَدَلُوا بَيْدِيكَ ۖ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ۖ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَيْثِهِمْ لَمْ يَأْتُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿١٥﴾

قوله: **«قد يعلم الله المعوقين منكم»** يقال: عاقه، واعتاقه، وعوقه: إذا صرفه عن الوجه الذي يريده. قال الواحدي قال المفسرون: هؤلاء قوم من المنافقين كانوا يثبوتون أنصار النبي ﷺ، وذلك أنهم قالوا لهم: ما محمد وأصحابه إلا أكلة رأس، ولو كانوا لحماً لالتقمهم أبو سفيان، وحزبه، فخلوهم، وتعالوا إلينا، وقيل: إن القائل هذه المقالة اليهود قالوا: **«إخوانهم»** من المنافقين **«هلم إلينا»**، ومعنى هلم: أقبل، وأحضر، وأهل الحجاز يسبون فيه بين الواحد، والجماعة، والمنكر، والمؤنث، وغيرهم من العرب يقولون: هلم للواحد الذكر، وهلمي للمؤنث، وهلما للثنتين، وهلموا للجماعة، وقد مر الكلام على هذا في سورة الأنعام **«ولا ياتون بالبأس»** أي: الحرب **«إلا قليلاً»** خوفاً من الموت، وقيل: المعنى: لا يحضرون القتال إلا رياء وسمعة من غير احتساب **«أشحة عليكم»** أي: بخلاء عليكم لا يعاونوكم بحفر الخندق، ولا بالنفقة في سبيل الله، قاله مجاهد، وقتادة. وقيل: أشحة بالقتال معكم وقيل: بالنفقة على فقرائكم، ومساكينكم، وقيل: أشحة بالغنائم إذا أصابوها. قاله السدي، وانتصابه على الحال من فاعل يأتون، أو من المعوقين. وقال الفراء: يجوز في نصبه أربعة أوجه: منها النصب على الذم، ومنها بتقدير فعل محذوف أي: يأتونه أشحة. قال النحاس: ولا يجوز أن يكون العامل فيه للمعوقين، ولا القائلين لئلا يفرق بين الصلة، والموصول **«فإذا جاء للخوف رايتهم ينظرون إليك تدور أعينهم»** أي: تدور يميناً، وشمالاً، وذلك سبيل الجبان إذا شاهد ما يخافه **«كالذي يغشى عليه من الموت»** أي: كعين الذي يغشى عليه من الموت، وهو الذي نزل به الموت، وغشيت أسبابه، فيذهل، ويذهب عقله، ويشخص بصره، فلا يطرف، كذلك هؤلاء تشخص أبصارهم لما يلحقهم من الخوف، ويقال للميت إذا شخص بصره: دارت عيناه، ودارت حماليق عينيه، والكاف نعت مصدر محذوف **«فإذا ذهب الخوف سلقوكم بالسنة حداد»** يقال: سلق فلان فلاناً بلسانه: إذا أغلظ له في القول مجاهراً. قال الفراء: أي: أنوهم بالكلام في الأمن بالسنة سليطة نربة، ويقال: خطيب مسلاق، ومصلاق إذا كان بليفاً، ومنه قول الأعشى:

فيهم المجد والسماحة والنجد
دعة فيهم والخطاب السلاق
قال القتيبي: المعنى أنوكم بالكلام الشديد، والسلق الأذى، ومنه قول الشاعر:

ولقد سلقت هوازنا بنو أهل حتى انحنيانا

الإنسان، واعتقد الوفاء به، ومنه قول الشاعر:

عشية فرّ الحارثيون بعد ما قضى نحبه في ملتقى القوم هوير
وقال الآخر:

بطخفة جالدنا الملوك وخيلنا عشية بسطام جرين على نحب
أي: على أمر عظيم، والنحب يطلق على النذر، والقتل، والموت. قال ابن قتيبة: قضى نحبه أي: قتل، وأصل النحب النذر. كانوا يوم بدر نذروا إن لقوا العدو أن يقاتلوا حتى يقتلوا، أو يفتح الله لهم، فقتلوا، فقيل: فلان قضى نحبه أي: قتل، والنحب أيضاً الحاجة، وإدراك الأمانة، يقول قائلهم: مالي عندهم نحب، والنحب العهد، ومنه قول الشاعر:

لقد نحت كلب على الناس أنهم أحق بتاج الماجد المتكرم
وقال آخر:

قد نحب المجد علينا نحباً

ومن ورود النحب في الحاجة وإدراك الأمانة قول الشاعر:

أنحب فيقضى أم ضلال وباطل

ومعنى الآية: أن من المؤمنين رجالاً أنكروا أمانيتهم، وقضوا حاجتهم، ووفوا بنذرهم، فقاتلوا حتى قتلوا، وذلك يوم أحد كحمة، ومصعب بن عمير، وأنس بن النضر **﴿ومنها من ينتظر﴾** قضاء نحبه حتى يحضر أجله كعثمان بن عفان، وطلحة، والزبير، وأمثالهم فإنهم مستمرّون على الوفاء بما عاهدوا الله عليه من الثبات مع رسول الله ﷺ، والقتال لعونه، ومنتظرون لقضاء حاجتهم، وحصول أمانيتهم بالقتل، وإدراك فضل الشهادة، وجملة **﴿وما بذلوا تبديلاً﴾** معطوفة على صدقوا أي: ما غيروا عهدهم الذي عاهدوا الله ورسوله عليه كما غير المنافقون عهدهم، بل ثبتوا عليه ثبوتاً مستمراً، أما الذين قضوا نحبهم، فظاهر، وأما الذين ينتظرون قضاء نحبهم، فقد استمروا على ذلك حتى فارقوا الدنيا، ولم يغيروا، ولا يبلّوا، واللام في قوله: **﴿ليجزى الله الصادقين بصدقهم﴾** يجوز أن يتعلق بصدقوا، أو بزادهم، أو بما بذلوا، أو بمحذوف، كأنه قيل: وقع جميع ما وقع؛ ليجزي الله الصادقين بصدقهم **﴿ويعذب المنافقين إن شاء﴾** بما صدر عنهم من التغيير، والتبديل، جعل المنافقين كأنهم قصدوا عاقبة السوء، وأرادوا بسبب تبديلهم، وتغييرهم كما قصد الصادقون عاقبة الصديق بوفائهم، فكل من لفريقين مسوق إلى عاقبته من الثواب، والعقاب، فكانت استتوي في طلبها، والسعي لتحصيلها، ومفعول «إن شاء»، وجوابها محذوفان، أي: إن شاء تعذيبهم عذبهم، وذلك إذا أقاموا على النفاق، ولم يتركوه، ويتوبوا عنه **﴿إن الله كان غفوراً رحيماً﴾** أي: لمن تاب منهم، وأقلع عما كان عليه من النفاق، ثم رجع سبحانه إلى حكاية بقية القصة، وما امتنّ به على رسوله والمؤمنين من النعمة، فقال: **﴿ورد الله الذين كفروا﴾** وهم: الأحزاب، والجملة معطوفة على **﴿فأرسلنا عليهم ريحاً﴾** [الأحزاب: 9]، أو على المقدّر عاملاً في ليجزي الله الصادقين بصدقهم، كأنه قيل: وقع ما وقع من الحوادث، ورد الله الذين كفروا،

كائنة لمن يرجو الله. وقيل: إن الجملة بدل من الكاف في لكم، وردّه أبو حيان، وقال: إنه لا يبدل من ضمير المخاطب بإعادة الجار. ويجاب عنه بأنه قد أجاز ذلك الكوفيون، والأخفش، وإن منعه البصريون، والمراد بمن كان يرجو الله: المؤمنون، فإنهم الذين يرجون الله، ويخافون عذابه، ومعنى يرجون الله: يرجون ثوابه، أو لقاءه، ومعنى يرجون اليوم الآخر: أنهم يرجون رحمة الله فيه، أو يصبقون بحصوله، وأنه كائن لا محالة، وهذه الجملة تخصيص بعد التعميم بالجملة الأولى **﴿ونكر الله كثيراً﴾** معطوف على كان أي: ولمن نكر الله في جميع أحواله نكراً كثيراً، وجمع بين الرجاء لله، والنكر له، فإن بذلك تتحقق الأسوة الحسنة برسول الله ﷺ، ثم بيّن سبحانه ما وقع من المؤمنين المخلصين عند رؤيتهم للأحزاب، ومشاهدتهم لتلك الجيوش التي أحاطت بهم كالبحر العباب، فقال: **﴿ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله﴾** الإشارة بقوله: «هذا» إلى ما راوه من الجيوش، أو إلى الخطب الذي نزل، والبلاء الذي دهم، وهذا القول منهم قالوه استبشاراً بحصول ما وعدهم الله ورسوله من مجيء هذه الجنود، وإنه يتعقب مجيئهم إليهم نزول النصر والظفر من عند الله، و**﴿وما﴾** في **﴿وما وعدنا الله﴾** هي: الموصولة، أو المصدرية، ثم أرفقوا ما قالوه بقولهم: **﴿وصدق الله ورسوله﴾** أي: ظهر صدق خبر الله، ورسوله **﴿وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً﴾** أي: ما زادهم ما راوه إلا إيماناً بالله، وتسليماً لأمره. قال الفراء: ما زادهم النظر إلى الأحزاب إلا إيماناً وتسليماً. قال علي بن سليمان: **﴿رأى﴾** يدل على الرؤية، وتأنيت الرؤية غير حقيقي، والمعنى: ما زادهم الرؤية إلا إيماناً للرب، وتسليماً للقضاء، ولو قال: ما زانتهم لجاز **﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾** أي: من المؤمنين المخلصين رجال صدقوا أثاراً بالصدق، من صدقني إذا قال الصدق، ومحل **﴿ما عاهدوا الله عليه﴾** النصب بنزع الخافض، والمعنى: أنهم وفوا بما عاهدوا عليه رسول الله ﷺ ليلة العقبة من الثبات معه، والمقاتلة لمن قاتله، بخلاف من كذب في عهده، وخان الله ورسوله، وهم: المنافقون، وقيل: هم الذين نذروا أنهم إذا لقوا حرباً مع رسول الله ﷺ ثبتوا له ولم يغيروا، ووجه إظهار الاسم الشريف، والرسول في قوله: **﴿صدق الله ورسوله﴾** بعد قوله: **﴿وما وعدنا الله ورسوله﴾** هو قصد التعظيم كما في قول الشاعر:

أرى الموت لا يسبق الموت شيء

وأيضاً لو أضمهم، لجمع بين ضمير الله وضمير رسوله في لفظ واحد. وقال: صدقاً، وقد ورد النهي عن جمعها كما في حديث «بئس خطيب القوم أنت» لمن قال: ومن يعصهما، فقد غوى. ثم فصل سبحانه حال الصادقين بما وعدوا الله ورسوله، وقسمهم إلى قسمين، فقال: **﴿فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر﴾** النحب: ما التزمه

ومحل «بغیظهم» النصب على الحال، والباء للمصاحبة أي: حال كونهم متلبسين ببغیظهم، ومصاحبين له، ويجوز أن تكون للسببية، وجملة «لم ينالوا خيراً» في محل نصب على الحال أيضاً من الموصول، أو من الحال الأولى على التعاقب، أو التداخل. والمعنى: أن الله ردَّهم ببغیظهم لم يشف صدورهم، ولا نالوا خيراً في اعتقادهم، وهو الظفر بالمسلمين، أو لم ينالوا خيراً أي خيراً، بل رجعوا خاسرين لم يربحوا إلا عناء السفر، وغرم النفقة «وكفى الله للمؤمنين القتال» بما أرسله من الريح والجنود من الملائكة «وكان الله قوياً عزيزاً» على كل ما يريده إذا قال له كن، كان، عزيزاً غالباً قاهراً لا يغالبه أحد من خلقه، ولا يعارضه معارض في سلطانه وجبروته.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم في قوله: «سَلَقُوكُمْ» قال: استقبلوكم. وأخرج ابن أبي حاتم عنه «وكان ذلك على الله يسيراً» قال: هيناً. وأخرج ابن مريويه، والخطيب، وابن عساكر، وابن النجار عن عمر في قوله: «لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة» قال: في جوع رسول الله، وقد استدل بهذه الآية جماعة من الصحابة في مسائل كثيرة اشتملت عليها كتب السنة، وهي خارجة عما نحن بصدده. وأخرج ابن جرير، وابن مريويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس في قوله: «ولما رأى المؤمنون الأحزاب» إلى آخر الآية قال: إن الله قال لهم في سورة البقرة: «لم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما ياتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم الباساء والضراء» [البقرة: 214] فلما مسهم البلاء حيث رابطوا الأحزاب في الخندق «قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله» فتأمل المسلمون ذلك، فلم يزدحم «إلا إيماناً وتسليماً». وأخرج البخاري، وغيره عن أنس قال: نرى هذه الآية نزلت في أنس بن النضر «من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه» وأخرج ابن سعد، وأحمد، ومسلم، والترمذي، والنسائي، والبخاري، في معجمه، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، وأبو نعيم، والبيهقي عن أنس قال: غاب عمي أنس بن النضر عن بدر، فشق عليه، وقال: أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه لئن أراني الله مشهداً مع رسول الله ﷺ فيما بعد ليرين الله ما أصنع، فشهد يوم أحد، فاستقبله سعد بن معاذ فقال: يا أبا عمرو وأين؟ قال: وأما لريح الجنة أجدها بون أحد، فقاتل حتى قتل، فوجد في جسده بضع وثمانون من بين ضربة، وطعنة ورمية، ونزلت هذه الآية «رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه» وكانوا يرون أنها نزلت فيه وفي أصحابه. وقد روي عنه نحوه من طريق أخرى عند الترمذي، وصححه، والنسائي، وغيرهما. وأخرج الحاكم، وصححه، والبيهقي في الدلائل عن أبي هريرة: «أن رسول الله ﷺ حين انصرف من أحد مَرَّ على مصعب بن عمير وهو مقتول، فوقف عليه، ودعا له، ثم قرأ «من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه» الآية، ثم قال: أشهد أن هؤلاء شهداء عند الله،

فاتوهم، وزورهم، والذي نفسي بيده لا يسلم عليهم أحد إلى يوم القيامة إلا رُكِّبوا عليه»، وقد تعقب الحاكم في تصحيحه الذهبي كما نكر ذلك السيوطي، ولكنه قد أخرج الحاكم حديثاً آخر، وصححه. وأخرجه أيضاً البيهقي في الدلائل عن أبي نر قال: لما فرغ رسول الله ﷺ يوم أحد مَرَّ على مصعب بن عمير مقتولاً على طريقه، فقرأ «من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه» الآية. وأخرج ابن مريويه من حديث خباب مثله، وهما يشهدان لحديث أبي هريرة. وأخرج الترمذي وحسنه، وأبو يعلى، وابن جرير، والطبراني، وابن مريويه عن طلحة: «أن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا لأعرابي جاهل: سله عن قضى نحيه من هو؟ وكنا لا يجترئون على مسألته يوقرونه، ويهللونه، فسأله الأعرابي، فأعرض عنه، ثم سأله، فأعرض عنه، ثم إنني اطلعت من باب المسجد، فقال: أين السائل عن قضى نحيه؟ قال الأعرابي: أنا، قال: هذا ممن قضى نحيه». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مريويه من حديثه نحوه. وأخرج الترمذي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مريويه عن معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «طلحة ممن قضى نحيه». وأخرج سعيد بن منصور، وأبو يعلى، وأبو نعيم، وابن المنذر، وابن مريويه عن عائشة: أن رسول الله ﷺ قال: «من سرَّه أن ينظر إلى رجل يمشي على الأرض قد قضى نحيه، فلينظر إلى طلحة». وأخرج ابن مريويه من حديث جابر مثله. وأخرج ابن منده، وابن عساكر من حديث أسماء بنت أبي بكر نحوه. وأخرج أبو الشيخ، وابن عساكر عن علي: أن هذه الآية نزلت في طلحة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه عن ابن عباس «فمنهم من قضى نحيه» قال: الموت على ما عاهدوا الله عليه، ومنهم من ينتظر الموت على ذلك. وأخرج أحمد، والبخاري، وابن مريويه عن سليمان بن صرد قال: قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب: «الآن نغزوهم، ولا يغزوننا». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عمر في قوله: «فمنهم من قضى نحيه» قال: مات على ما هو عليه من التصديق، والإيمان «ومنهم من ينتظر» ذلك «وما بئلكم تبديلاً» لم يغيروا كما غير المنافقون.

وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَغَايَبُوا أَكْثَرُكُمْ وَأَرْوَيْتُمْ أَزْهَرَهُمْ وَبَرَّيْتُمْ وَأَوْصَاكُمْ بِتَكْوِينِهِمْ وَكَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَوِيرًا

قوله: «وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب» أي: عاضدوهم وعاونوهم على رسول الله ﷺ، وهم بنو قريظة، فإنهم عاونوا الأحزاب، ونقضوا العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ، وصاروا يداً واحدة مع الأحزاب. والصياصي جمع صيصية: وهي الحصون، وكل شيء يتحصن به يقال له: صيصية، ومنه صيصية الديك، وهي الشوكة التي في رجله، وصياصي البقر قرونها؛ لأنها تمتنع

يعرفها أحد من أهل اللغة، والمعنى في يضاعف ويضعف واحد أي: يجعل ضعفين، وهكذا ضعف ما قاله ابن جرير **﴿وكان نكاح علي الله يسيراً﴾** لا يتعاطفه، ولا يصعب عليه **﴿ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً﴾** قرأ الجمهور (يقنت) بالتحنية، وكذا قرءوا: (يات منكن) حملاً على لفظ من في الموضعين، وقرأ الجحدري، ويعقوب، وابن عامر في رواية، وأبو جعفر بالفوقية حملاً على المعنى، ومعنى «من يقنت»: من يطع، وكذا اختلف القراء في «مبينة»، فمنهم من قرأها بالكسر، ومنهم من قرأها بفتح الياء كما تقدم في النساء. وقرأ ابن كثير، وابن عامر (نضعف) بالنون، ونصب العذاب، وقرأ (نضاعف) بكسر العين على البناء للفاعل **﴿نؤتها لجرها مرتين﴾** قرأ حمزة، والكسائي بالتحنية، وكذا قرأ (يعمل) بالتحنية، وقرأ الباقر (تعمل) بالفوقية، ونؤت بالنون، ومعنى إتيانهن الأجر مرتين: أنه يكون لهن من الأجر على الطاعة مثلاً ما يستحقه غيرهن من النساء إذا فعلن تلك الطاعة. وفي هذا دليل قوي على أن معنى **﴿يضاعف لها للعذاب ضعفين﴾**: أنه يكون العذاب مرتين لا ثلاثاً، لأن المراد إظهار شرفهن، ومرتتهن في الطاعة والمعصية يكون حسنتهن كحسنتين، وسيئتهن كسيئتين، ولو كانت سيئتهن ثلاث سيئات لم يناسب ذلك كون حسنتهن كحسنتين، فإن الله أعدل من أن يضاعف العقوبة عليهن مضاعفة تزيد على مضاعفة أجرهن **﴿واعتننا لها﴾** زيادة على الأجر مرتين **﴿ورزقاً كريماً﴾**. قال المفسرون: الرزق الكريم هو نعيم الجنة، حكى ذلك عنهم النحاس. ثم أظهر سبحانه فضيلتهن على سائر النساء تصريحاً، فقال: **﴿يا نساء النبي لستن كأحد من النساء﴾** قال الزجاج: لم يقل: كواحدة من النساء، لأن أحد نفي عام للمنكر، والمؤنث، والواحد، والجماعة. وقد يقال: على ما ليس بآدمي كما يقال: ليس فيها أحد لا شاة، ولا بعير. والمعنى: لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء في الفضل والشرف. ثم قيد هذا الشرف العظيم بقيد، فقال: **﴿إن اتقيتن﴾** فبين سبحانه: أن هذه الفضيلة لهن إنما تكون بملازمتهم للتقوى، لا بمجرد اتصالهن بالنبي ﷺ. وقد وقعت منهنّ والله الحمد التقوى البيّنة، والإيمان الخالص، والمشي على طريقة رسول الله ﷺ في حياته، وبعد مماته. وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه أي: إن اتقيتن، فلستن كأحد من النساء. وقيل: إن جوابه **﴿فلا تخضعن﴾** والأول أولى. ومعنى **﴿فلا تخضعن بالقول﴾**: لا تلتن القول عند مخاطبة الناس كما تفعله المريبات من النساء، فإنه يتسبب عن ذلك مفسدة عظيمة، وهي قوله: **﴿فيطمع الذي في قلبه مرض﴾** أي: فجور، وشك، ونفاق، وانتصاب يطمع لكونه جواب النهي. كذا قرأ الجمهور. وحكى أبو حاتم: أن الأعرج قرأ (فيطمع) بفتح الياء، وكسر الميم. قال النحاس: أحسب هذا غلطاً، ورويت هذه القراءة عن أبي السمال، وعيسى بن عمر، وابن محيصن، وروي عنهم: أنهم قرءوا

الآخرة أي: الجنة، ونعيمها **﴿فإن الله أعد للمحسنات منكن﴾** أي: اللاتي عملن عملاً صالحاً **﴿لجرأ عظيماً﴾** لا يمكن وصفه، ولا يقادر قدره، وذلك بسبب إحسانهن، وبمقابلة صالح عملهن.

وقد اختلف العلماء في كيفية تخيير النبي ﷺ أزواجه على قولين: القول الأول: أنه خيرهن بإذن الله في البقاء على الزوجية، أو الطلاق، فاخترن البقاء، وبهذا قالت عائشة، ومجاهد، وعكرمة، والشعبي، والزهري، وربيعه. والقول الثاني: أنه إنما خيرهن بين الدنيا فيفارقهن، وبين الآخرة فيمسكنهن، ولم يخيرهن في الطلاق، وبهذا قال علي، والحسن، وقتادة، والراجح الأول. واختلفوا أيضاً في المخيرة إذا اختارت زوجها هل يحسب مجرد ذلك التخيير على الزوج طلاقاً أم لا؟ فذهب الجمهور من السلف، والخلف إلى أنه لا يكون التخيير مع اختيار المرأة لزوجها طلاقاً لا واحدة، ولا أكثر. وقال علي، وزيد بن ثابت: إن اختارت زوجها، فواحدة بائنة، وبه قال الحسن، والليث: وحكاه الخطابي، والنقاش عن مالك، والراجح الأول لحديث عائشة الثابت في الصحيحين قالت: «خيرنا رسول الله ﷺ، فاخترناه، فلم يعدّه طلاقاً»، ولا وجه لجعل مجرد التخيير طلاقاً، ودعوى أنه كناية من كنايات الطلاق مدفوعة بأن المخير لم يرد الفرقة لمجرد التخيير، بل أراد تفويض المرأة، وجعل أمرها بيدها، فإن اختارت البقاء بقيت على ما كانت عليه من الزوجية، وإن اختارت الفرقة صارت مطلقة.

واختلفوا في اختيارها لنفسها هل يكون ذلك طلاقاً رجعية، أو بائنة. فقال بالأول عمر، وابن مسعود، وابن عباس، وابن أبي ليلى، والثوري، والشافعي، وقال بالثاني علي، وأبو حنيفة، وأصحابه، وروي عن مالك، والراجح الأول، لأنه يبعد كل البعد أن يطلق رسول الله ﷺ نساءه على خلاف ما أمره الله به، وقد أمره بقوله: **﴿إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن﴾** [الطلاق: 1]، وروي عن زيد بن ثابت: أنها إذا اختارت نفسها، فثلاث طلاقات، وليس لهذا القول وجه. وقد روي عن علي: أنها إذا اختارت نفسها، فليس بشيء، وإذا اختارت زوجها، فواحدة رجعية. ثم لما اختار نساء رسول الله ﷺ رسول الله أنزل فيهنّ هذه الآيات تكرمة لهنّ، وتعظيماً لحقهنّ، فقال: **﴿يا نساء النبي من يات منكن بفاحشة مبينة﴾** أي: ظاهرة القبح واضحة الفحش، وقد عصمهنّ الله عن ذلك، وبرأهنّ، وطهرهنّ **﴿يضاعف لها العذاب ضعفين﴾** أي: يعذبهنّ مثلي عذاب غيرهنّ من النساء إذا اتين بمثل تلك الفاحشة، وذلك لشرفهنّ، وعلوّ درجتهنّ، وارتفاع منزلتهنّ. وقد ثبت في هذه الشريعة في غير موضع أن تضاعف الشرف، وارتفاع الدرجات يوجب لصاحبه إذا عصى تضاعف العقوبات. وقر أبو عمرو (يضعف) على البناء للمفعول، وفرق هو، وأبو عبيد بين يضاعف، ويضعف، فقالا: يكون يضاعف ثلاثة عذابات، ويضعف عذابين. قال النحاس: هذه التفرقة التي جاء بها لا

الجاهلية الجهلاء. قال: وكان نساء الجاهلية تظهر ما يقبح إظهاره، حتى كانت المرأة تجلس مع زوجها وخليلتها، فينفرد خليتها بما فوق الإزار إلى أعلى، وينفرد زوجها بما دون الإزار إلى أسفل، وربما سأل أحدهما صاحبه البذل. قال ابن عطية: والذي يظهر لي أنه أشار إلى الجاهلية التي لحقنها، فأمرن بالنقلة عن سيرتهن فيها، وهي ما كان قبل الشرع من سيرة الكفرة، لأنهم كانوا لا غيرة عندهم، وليس للمعنى: أن ثم جاهلية أخرى كذا قال، وهو قول حسن. ويمكن أن يراد بالجاهلية الأخرى ما يقع في الإسلام من التشبه بأهل الجاهلية بقول أو فعل، فيكون المعنى: ولا تبرجن أيها المسلمات بعد إسلامكن تبرجاً مثل تبرج أهل الجاهلية التي كنتن عليها، وكان عليها من قبلكن أي: لا تحدثن بأفعالكن وأقوالكن جاهلية تشابه الجاهلية التي كانت من قبل **﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾** خص الصلاة والزكاة لأنهما أصل الطاعات البدنية والمالية. ثم عمم، فأمرهن بالطاعة لله ولرسوله في كل ما هو شرع **﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾** أي: إنما أوصاكن الله بما أوصاكن من التقوى، وأن لا تخضعن بالقول، ومن قول المعروف، والسكون في البيوت، وعدم التبرج، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والطاعة؛ ليذهب عنكم الرجس أهل البيت، والمراد بالرجس الإثم والذنب والمنشأ للأعراض الحاصلان بسبب ترك ما أمر الله به، وفعل ما نهى عنه، فيدخل تحت ذلك كل ما ليس فيه لله رضا، وانتصاب أهل البيت على المدح كما قال الزجاج، قال: وإن شئت على البذل. قال: ويجوز الرفع والخفض. قال النحاس: إن خفض فعلى أنه بدل من الكاف، والميم، واعترضه المبرد بأنه لا يجوز البذل من المخاطب، ويجوز أن يكون نصبه على النداء **﴿وَيُطَهِّرْكُمْ تَطْهِيراً﴾** أي: يطهركم من الأجاس والأدران تطهيراً كاملاً. وفي استعارة الرجس للمعصية والترشيح لها بالتطهير تنفير عنها بليغ، وزجر لفاعلهما شديد.

وقد اختلف أهل العلم في أهل البيت المذكورين في الآية، فقال ابن عباس، وعكرمة، وعطاء، والكلبي، ومقاتل، وسعيد بن جبیر: إن أهل البيت المذكورين في الآية هم: زوجات النبي ﷺ، ومساکن زوجاته لقوله: **﴿وَأَنْكُرْنَ مَا يَتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ﴾** وأيضاً السياق في الزوجات من قوله: **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأُزَاجُكُمْ﴾** إلى قوله: **﴿وَأَنْكُرْنَ مَا يَتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾**. وقال أبو سعيد الخدري، ومجاهد، وقتادة، وروى عن الكلبي: أن أهل البيت المذكورين في الآية هم: علي، وفاطمة، والحسن، والحسين خاصة، ومن حججهما الخطاب في الآية بما يصلح للذكور لا للإناث، وهو قوله: «عنكم وليطهركم»، ولو كان للنساء خاصة لقال عنكن، ويطهركن. وأجاب الأولون عن هذا أن التنكير باعتبار لفظ الأهل كما قال سبحانه:

بالجزم عطفاً على محل فعل النهي **﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾** عند الناس بعيداً من الريبة على سنن الشرع، لا ينكر منه سامعه شيئاً، ولا يطعم فيه أهل الفسق، والفجور بسببه **﴿وَقُرْنِ فِي بَيْوتِكُنَّ﴾** قرأ الجمهور (وقرن) بكسر القاف من وقر يقر وقرأ أي: سكن، والأمر منه قر بكسر القاف، وللنساء قرن مثل عدن وزن. وقال المبرد: هو من القرار، لا من الوقار، تقول: قررت بالمكان بفتح الراء، والأصل اقررن بكسر الراء، فحذفت الراء الأولى تخفيفاً كما قالوا في: ظلت، ونقلوا حركتها إلى القاف، واستغنى عن ألف الوصل بتحريك القاف. وقال أبو علي الفارسي: أبدلت الراء الأولى ياء كراهة التضعيف كما أبدلت في قيراط، ودينار، وصار للياء حركة الحرف الذي أبدلت منه، والتقدير اقرنين، ثم تلقى حركة الياء على القاف كراهة تحريك الياء بالكسر، فتسقط الياء لاجتماع الساكنين، وتسقط همزة الوصل لتحريك ما بعدها، فيصير قرن. وقرأ نافع، وعاصم بفتح القاف وأصله قررت بالمكان: إذا أقمت فيه بكسر الراء، أقر بفتح القاف كحمد يحمده، وهي لغة أهل الحجاز، نكر ذلك أبو عبيد عن الكسائي، ونكرها الزجاج، وغيره. قال الفراء: هو كما تقول هل حسنت صاحبك أي: هل أحسسته؟ قال أبو عبيد: كان أشيائنا من أهل العربية ينكرون القراءة بالفتح للقاف، وذلك لأن قررت بالمكان أقر لا يجوز كثير من أهل العربية. والصحيح قررت أقر بالكسر، ومعناه: الأمر لهم بالتوقر والسكون في بيوتهن، وأن لا يخرجن، وهذا يخالف ما نكرناه هنا عنه عن الكسائي، وهو من أجل مشايخه. وقد وافقه على الإنكار لهذه القراءة أبو حاتم، فقال: إن قرن بفتح القاف لا مذهب له في كلام العرب. قال النحاس: قد خولف أبو حاتم في قوله: إنه لا مذهب له في كلام العرب بل فيه مذهبان: أحدهما: حكاية الكسائي، والآخر عن علي بن سليمان. فأما المذهب الذي حكاه الكسائي، فهو ما قدمناه من رواية أبي عبيد عنه، وأما المذهب الذي حكاه علي بن سليمان، فقال: إنه من قررت به عيناً أقر. والمعنى: اقررن به عيناً في بيوتكن. قال النحاس: وهو وجه حسن.

وأقول: ليس بحسن، ولا هو معنى الآية، فإن المراد بها أمرهن بالسكون والاستقرار في بيوتهن، وليس من قرّة العين. وقرأ ابن أبي عبيدة (واقررن) بالفتح وصل وراعين الأولى مكسورة على الأصل **﴿وَلَا تَبْرُجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَةِ الْأُولَى﴾** التبرج: أن تبدي المرأة من زينتها ومحاسنها ما يجب عليها ستره مما تستدعي به شهوة الرجل. وقد تقدم معنى التبرج في سورة النور. قال المبرد: هو مأخوذ من السعة، يقال: في أسنانه برج: إذا كانت متفرقة. وقيل: التبرج هو: التبخثر في المشي، وهذا ضعيف جداً.

وقد اختلف في المراد بالجاهلية الأولى، فقيل: ما بين آدم ونوح، وقيل: ما بين نوح وإدريس، وقيل: ما بين نوح وإبراهيم، وقيل: ما بين موسى وعيسى، وقيل: ما بين عيسى ومحمد. وقال المبرد: الجاهلية الأولى كما تقول

«أتعجبين من أمر الله رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت» [هود: 73] وكما يقول الرجل لصاحبه: كيف أهلك؟ يريد زوجته، أو زوجاته، فيقول: هم بخير.

ولنذكر هنا ما تمسك به كل فريق: أما الأولون، فتمسكوا بالسياق، فإنه في الزوجات. كما ذكرنا، وبما أخرجه ابن أبي حاتم، وابن عساكر من طريق عكرمة عن ابن عباس في قوله: «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت» قال: نزلت في نساء النبي ﷺ خاصة. وقال عكرمة: من شاء باهلهن أنها نزلت في أزواج النبي ﷺ. وأخرج نحوه ابن مروييه من طريق سعيد بن جبيرة عن ابن عباس. وأخرج ابن جرير، وابن مروييه عن عكرمة نحوه. وأخرج ابن سعد عن عروة نحوه.

وأما ما تمسك به الآخرون، فأخرج الترمذي وصححه، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مروييه، والبيهقي في سننه من طرق عن أم سلمة قالت: في بيتي نزلت «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت» وفي البيت فاطمة، وعلي، والحسن، والحسين، فجعلهم رسول الله ﷺ بكساء كان عليه، ثم قال: «هؤلاء أهل بيتي، فأذهب عنهم الرجس، وطهرهم تطهيراً». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مروييه عن أم سلمة أيضاً: أن النبي ﷺ كان في بيتها على منامة له عليه كساء خيبري، فجاءت فاطمة ببرمة فيها خزيرة، فقال رسول الله ﷺ: «ادعي زوجك، وابنيك حسناً، وحسيناً، فدعتهن، فبينما هم ياكلون إذ نزلت على النبي ﷺ «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهرهم تطهيراً»، فأخذ النبي ﷺ بفضل كسائه، فغشاهم إياها، ثم أخرج يده من الكساء، والوى بها إلى السماء، ثم قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي، وخاصتي، فأذهب عنهم الرجس، وطهرهم تطهيراً، قالها ثلاث مرّات. قالت أم سلمة: فأدخلت رأسي في الستر، فقلت: يا رسول الله، وأنا معكم؟ فقال: إنك إلى خير مرتين». وأخرجه أيضاً أحمد من حديثها قال: حدثنا عبد الله بن نمير، حدثنا عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء بن أبي رباح، حدثني من سمع أم سلمة تذكر: أن النبي ﷺ، فنكره. وفي إسناده مجهول، وهو شيخ عطاء، وبقية رجاله ثقات. وقد أخرجه الطبراني عنها من طريقين بنحوه. وقد ذكر ابن كثير في تفسيره لحديث أم سلمة طرقاً كثيرة في مسند أحمد، وغيره. وأخرج ابن مروييه، والخطيب من حديث أبي سعيد الخدري نحوه. وأخرج الترمذي وابن جرير، والطبراني، وابن مروييه عن عمر بن أبي سلمة ربيب النبي ﷺ قال: لما نزلت هذه الآية على النبي ﷺ «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت»، ونكر نحو حديث أم سلمة. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، ومسلم، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم عن عائشة قالت: «خرج النبي ﷺ غداة، وعليه مرط مرجل من شعر أسود، فجاء الحسن والحسين، فأدخلهما معه، ثم جاءت فاطمة، فأدخلها معه، ثم

جاء علي، فأدخله معه، ثم قال: «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهرهم تطهيراً». وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه عن واثلة بن الأسقع قال: «جاء رسول الله ﷺ إلى فاطمة، ومعه علي، وحسن، وحسين حتى نخل، فأدنى علياً وفاطمة، وأجلسهما بين يديه، وأجلس حسناً، وحسيناً كل واحد منهما على فخذه، ثم لف عليهم ثوبه، وأنا مستبهرهم، ثم تلا هذه الآية «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت» وقال: اللهم هؤلاء أهل بيتي، اللهم أذهب عنهم الرجس، وطهرهم تطهيراً، قلت: يا رسول الله، وأنا من أهلك؟ قال: وأنت من أهلي». قال واثلة: إنه لأرجا ما أرجوه. وله طرق في مسند أحمد. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، والترمذي وحسنه، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مروييه عن أنس: «أن رسول الله ﷺ كان يمرّ بباب فاطمة إذا خرج إلى صلاة الفجر يقول: الصلاة يا أهل البيت الصلاة «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهرهم تطهيراً». وأخرج مسلم عن زيد بن أرقم: أن رسول الله ﷺ قال: «أنكركم الله في أهل بيتي» فقيل لزيد: ومن أهل بيته؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده: آل علي، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل العباس. وأخرج الحكيم الترمذي، والطبراني، وابن مروييه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قسم الخلق قسمين، فجعلني في خيرهما قسماً، فذلك قوله: «وأصحاب اليمين» [الواقعة: 7] «وأصحاب الشمال» [الواقع: 41] فانا من أصحاب اليمين، وأنا خير أصحاب اليمين. ثم جعل القسمين اثلاثاً، فجعلني في خيرها ثلاثاً، فذلك قوله: «وأصحاب الميمنة» [الواقعة: 8]، «وأصحاب المشأمة» [الواقعة: 9]، «والسابقون السابقون» [الواقعة: 10] فانا من السابقين، وأنا خير السابقين. ثم جعل الثلاث قبائل، فجعلني في خيرها قبيلة، وذلك قوله: «وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا» [أنكركم عند الله اتفاقكم] [الحجرات: 13] وأنا أتقى ولد آدم، وأكرمهم على الله، ولا فخر. ثم جعل القبائل بيوتاً، فجعلني في خيرها بيتاً، فذلك قوله: «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهرهم تطهيراً» فانا، وأهل بيتي مطهرون من الذنوب». وأخرج ابن جرير، وابن مروييه عن أبي الحمراء قال: رابطة المدينة سبعة أشهر على عهد رسول الله، قال: «رأيت رسول الله ﷺ إذا طلع الفجر جاء إلى باب علي، وفاطمة، فقال: الصلاة الصلاة «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهرهم تطهيراً». وفي إسناده أبو داود الأعمى، وهو وضاع كذاب. وفي الباب لأحاديث، وآثار، وقد ذكرنا هنا ما يصلح للتمسك به دون ما لا يصلح.

وقد توسط طائفة ثالثة بين الطائفتين، فجعلت هذه الآية

اخترت إلا أخبرتها. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن عائشة: «أن رسول الله ﷺ جاءها حين أمره الله أن يخبر أزواجه قالت: فبدا بي، فقال: إني ذاك لك امرأة، فلا عليك أن لا تستعجلي حتى تستأمر أبيك، وقد علم أن أبي لم يكونا يأمرائي بفراقه، فقال: إن الله قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ إلى تمام الآية، فقلت له: ففي أي هذا استأمر أبي، فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة، وفعل أزواج النبي ﷺ مثل ما فعلت». وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُمْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا﴾ قال: يقول: من يطع الله منك، وتعمل منك لله ورسوله بطاعته. وأخرج ابن المنذر عنه في قوله: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ قال: يقول: لا ترخصن بالقول، ولا تخضعن بالكلام. وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً في قوله: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ قال: مقارنة الرجال في القول حتى يطمع الذي في قلبه مرض. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن محمد بن سيرين قال: نبئت: أنه قيل لسودة زوج النبي ﷺ: مالك لا تحجين، ولا تعتمرين كما يفعل أخواتك؟ فقالت: قد حججت، واعتمرت، وأمرني الله أن أقر في بيتي، فوالله لا أخرج من بيتي حتى أموت؛ قال: فوالله ما خرجت من باب حجرتها حتى أخرجت بجنازتها. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن سعد، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن المنذر عن مسروق قال: كانت عائشة إذا قرأت ﴿وَقُرْنِ فِي بَيْتُكَ﴾ بكت حتى تبل خمارها. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب قال: كانت الجاهلية الأولى فيما بين نوح وإدريس، وكانت ألف سنة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس: أن عمر بن الخطاب سأل، فقال: أرايت قول الله لأزواج النبي ﷺ: ﴿وَلَا تَبْرَحْنَ تَبَرَّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ هل كانت جاهلية غير واحدة، فقال ابن عباس: ما سمعت بلولي إلا ولها آخرة، فقال له عمر: فأتني من كتاب الله ما يصدق ذلك، فقال: إن الله يقول: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ [الحج: 78] أول مرة فقال عمر: من أمرنا أن نجاهد؟ قال: مخزوم، وعبد شمس. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أيضاً في الآية قال: تكون جاهلية أخرى. وأخرج ابن أبي حاتم عن عائشة: أنها تلت هذه الآية فقالت: الجاهلية الأولى كانت على عهد إبراهيم. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: الجاهلية الأولى ما بين عيسى ومحمد. وقد قمننا نكر الآثار الواردة في سبب نزول قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾. وأخرج عبد الرزاق، وابن سعد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وَأَنْكُرْنَ مَا يَتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ قال: القرآن والسنة يمتن بذلك عليهن. وأخرج ابن سعد عن أبي أمامة عن سهل في قوله: ﴿وَأَنْكُرْنَ مَا يَتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ الآية قال: كان رسول الله

شاملة للزوجات، ولعلي، وفاطمة، والحسن، والحسين، أما الزوجات، فلكونهن المرادات في سياق هذه الآيات كما قمننا، ولكونهن الساكنات في بيوته ﷺ النازلات في منازلهن، ويعضد ذلك ما تقدم عن ابن عباس، وغيره. وأما دخول علي، وفاطمة، والحسن، والحسين، فلكونهن قرباتهن، وأهل بيته في النسب، ويؤيد ذلك ما ذكرناه من الأحاديث المصرحة بأنهم سبب النزول، فمن جعل الآية خاصة بأحد الفريقين، فقد أعمل بعض ما يجب إعماله، وأهمل ما لا يجوز إهماله. وقد رجح هذا القول جماعة من المحققين منهم القرطبي، وابن كثير، وغيرهما. وقال جماعة: هم بنو هاشم، واستلوا بما تقدم من حديث ابن عباس، ويقول زيد بن لؤم المتقدم حيث قال: ولكن أله من حرم الصدقة بعده: آل علي، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل العباس، فهؤلاء ذهبوا إلى أن المراد بالبيت بيت النسب، قوله: ﴿وَأَنْكُرْنَ مَا يَتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ أي: أنكرن موضع النعمة إذ صيركن الله في بيوت يتلى فيها آيات الله، والحكمة، أو أنكرنها، وتفكرن فيها؛ لتتظعن بمواعظ الله، أو أنكرنها للناس؛ ليتعظوا بها، ويهتدوا بهداهيها، أو أنكرنها بالتلاوة لها؛ لتحفظنها، ولا تتركن الاستكثار من التلاوة. قال القرطبي: قال أهل التأويل: آيات الله هي: القرآن، والحكمة السنة. وقال مقاتل: المراد بالآيات، والحكمة أمره، ونهيه في القرآن. وقيل: إن القرآن جامع بين كونه آيات بينات دالة على التوحيد، وصق النبوة، وبين كونه حكمه مشتملة على فنون من العلوم، والشرائع ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ أي: لطيفاً بلوليته خبيراً بجميع خلقه، وجميع ما يصدر منهم من خير، وشر، وطاعة، ومعصية، فهو يجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

وقد أخرج أحمد، ومسلم، والنسائي، وابن مردويه عن طريق أبي الزبير عن جابر قال: «أقبل أبو بكر يستأنن على رسول الله ﷺ، والناس ببابه جلوس، والنبي ﷺ جالس، فلم يؤذن له، ثم أقبل عمر، فاستأنن، فلم يؤذن له، ثم أنن لأبي بكر وعمر، فدخلوا، والنبي ﷺ جالس، وحوله نساؤه، وهو ساكت، فقال عمر: لا كلمن النبي ﷺ لعله يضحك، فقال عمر: يا رسول الله لو رأيت ابنة زيد امرأة عمر سألت النفقة أتفا فوجات في عنقها، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه، وقال: هن حولي يسألنني النفقة، فقام أبو بكر إلى عائشة ليضربها، وقام عمر إلى حفصة، كلاهما يقولان: تسألان رسول الله ﷺ ما ليس عنده، فنهاهما رسول الله ﷺ، فقلن نساؤه: والله لا نسأل رسول الله بعد هذا المجلس ما ليس عنده، وأنزل الله الخيار، فنادى بعائشة، فقال: إني ذاك لك امرأة ما أحب أن تعجلي فيه حتى تستأمر أبيك، قالت: ما هو؟ فتلا عليها ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ﴾ الآية، قالت عائشة: أفيك استأمر أبي، بل أختار الله رسوله، وأسألك أن لا تذكر لنسائك ما اخترت، فقال: إن الله لن يبعثني متعنناً، ولكن يبعثني معلماً مبشراً، لا تسألني امرأة منهن عما

الوطر في اللغة: بلوغ منتهى ما في النفس من الشيء، يقال: قضى وطراً منه: إذا بلغ ما أراد من حاجته فيه، ومنه قول عمر بن أبي ربيعة:

أيها الرائح المجذأ ابتكاراً قد قضى من تهامة الأوطار
أي: فرغ من أعمال الحج، وبلغ ما أراد منه، والمراد هنا: أنه قضى وطره منها بنكاحها، والخلول بها بحيث لم يبق له فيها حاجة، وقيل: المراد به الطلاق، لأن الرجل إنما يطلق امرأته إذا لم يبق له فيها حاجة، وقال المبرد: الوطر الشهوة، والمحبة، وأنشد:

وكيف ثوائي بالمدينة بعدما قضى وطراً منها جميل بن معمر
وقال أبو عبيدة: الوطر: الأرب، والحاجة، وأنشد قول الغزالي:

وَدَعْنَا قَبْلَ أَنْ نَوْبَعَهُ لِمَا قَضَى مِنْ شِبَابِنَا وَطَرَا
قرأ الجمهور ﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾ وقرأ علي وابناه الحسن والحسين (زَوَّجْتُكَهَا) فلما أعلمه الله بذلك نخل عليها بغير إذن، ولا عقد، ولا تقدير صدق، ولا شيء مما هو معتبر في النكاح في حق أمته. وقيل: المراد به الأمر له بأن يتزوجها، والأول أولى، وبه جاءت الأخبار الصحيحة. ثم علل سبحانه ذلك بقوله: ﴿لَكِي لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ﴾ أي: ضيق، ومشقة ﴿فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾ أي: في التزويج بازواج من يجعلونه أبناء كما كانت تفعله العرب، فإنهم كانوا يتبنون من يريدون، وكان النبي ﷺ قد تبني زيد بن حارثة، فكان يقال: زيد بن محمد حتى نزل قوله سبحانه ﴿ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ﴾ [الأحزاب: 5] وكانت العرب تعتقد أنه يحرم عليه نساء من تبنوه كما تحرم عليه نساء أبنائهم حقيقة. والأدعياء جمع دعوي، وهو الذي يدعي ابناً من غير أن يكون ابناً على الحقيقة، فآخبرهم الله أن نساء الأدعياء حلال لهم ﴿إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ بخلاف ابن الصلب، فإن امرأته تحرم على أبيه بنفس العقد عليها ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ أي: كان قضاء الله في زينب أن يتزوجها رسول الله ﷺ قضاء ماضياً مفعولاً لا محالة. ثم بين سبحانه: أنه لم يكن على رسول الله ﷺ حرج في هذا النكاح، فقال: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ أي: فيما أحل الله له وقدره وقضاه، يقال: فرض له كذا: أي: قدر له ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ أي: إن هذا هو السنن الأقدم في الأنبياء، والامم الماضية أن ينالوا ما أحله الله لهم من أمر النكاح، وغيره ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ أي: قضاء مقضياً. قال مقاتل: أخبر الله أن أمر زينب كان من حكم الله، وقدره، وانتصاب سنة على المصدر: أي: سنَّ الله سنة الله، أو اسم وضع موضع المصدر، أو منصوب بجعل، أو بالإغراء. ورده أبو حبان بأن عامل الإغراء لا يحذف، ثم نكر سبحانه الأنبياء الماضين، وأثنى عليهم، فقال: ﴿الَّذِينَ يَبْلُغُونَ رَسُولَاتِ اللَّهِ﴾، والموصول في محل جر صفة للذين خلوا، أو منصوب على المدح، مدحهم سبحانه بتبليغ ما أرسلهم به إلى عباده، وخشيته في كل فعل وقول،

لأفعل، فنزلت هذه الآية ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ﴾ يعني: زيداً ﴿وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ يعني: زينب ﴿إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا﴾ يعني: النكاح في هذا الموضع ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ يقول: ليس لهم الخيرة من أمرهم خلاف ما أمر الله به ﴿وَمَنْ يَعَصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ قالت: قد أطعته، فاصنع ما شئت، فزوجه زيداً، وبخل عليها، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال: نزلت في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، وكانت أول امرأة هاجرت، فوهبت نفسها للنبي ﷺ، فزوجه زيد بن حارثة، فسخطت هي وأخوها وقالوا: إنما أردنا رسول الله ﷺ فزوجه عبيده.

وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٦﴾ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴿٧﴾ الْيَتِيمَ يَقُولُونَ لَا يَتْلُكُ اللَّهُ وَحْشُونَ وَلَا يَخْشَوْنَ آلَ اللَّهِ وَلَكِنْ يَأْتِيهِمْ بَيْنَايَ أَتَى أَمْرٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْكُمْ وَلَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٨﴾

لما زوّج رسول الله ﷺ زيد بن حارثة بزینب بنت جحش كما مر في تفسير الآية التي قبل هذه أنزل الله سبحانه ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ أي: وأذكر إذ تقول للذي أنعم الله عليه، وهو: زيد بن حارثة، أنعم الله عليه بالإسلام، وأنعم عليه رسول الله ﷺ بأن أعفاه من الرق، وكان من سبب الجاهلية اشتراه رسول الله ﷺ في الجاهلية، واعتقه، وتبناه، وسيتاتي في بيان سبب نزول الآية في آخر البحث ما يوضح المراد منها. قال القرطبي: وقد اختلف في تأويل هذه الآية، فذهب قتادة، وابن زيد، وجماعة من المفسرين منهم ابن جرير الطبري وغيره إلى أن النبي ﷺ وقع منه استحسان لزینب بنت جحش، وهي في عصمة زيد، وكان حريصاً على أن يطلقها زيد، فیتزوجها هو، ثم إن زیداً لما أخبره بأنه يريد فراقها، ويشكو منها غلظة قول، وعصيان أمر، وأذى باللسان، وتعظماً بالشرف قال له: اتق الله فيما تقول عنها، وأمسك عليك زوجك، وهو يخفي الحرص على طلاق زيد إياها، وهذا الذي كان يخفي في نفسه، ولكنه لزم ما يجب من الأمر بالمعروف انتهى. ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ يعني: زینب ﴿وَإِذَا تَخَفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾، وهو: نكاحها إن طلقها زيد، وقيل: حياءاً ﴿وَتُخْفِي لِلنَّاسِ﴾ أي: تستحييهم، أو تخاف من تعبيرهم بأن يقولوا أمر مولاه بطلاق امرأته، ثم تزوجه ﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ في كل حال، وتخاف منه، وتستحييه والواو للحال أي: تخفي في نفسك ذلك الأمر مخافة من الناس ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا﴾ قضاء

والتبته، فجعل يتتبع حجر نسائه يسلم عليهن، ويقولون: يا رسول الله كيف وجدت أهلك؟ فما أدري أنا أخبرته أن القوم قد خرجوا أو أخبر، فانطلق حتى دخل البيت، فذهبت أدخل معه، فالتقى الستر بيني وبينه، ونزل الحجاب، ووعظ القوم بما وعظوا به ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ [الأحزاب: 53] الآية. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، والترمذي وصححه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مروي عن عائشة قالت: لو كان رسول الله ﷺ كاتماً شيئاً من الوحي لكتّم هذه الآية ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ يعني: بالإسلام ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ يعني: بالعتق ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَانَ مِنْ رَجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ﴾، وكان رسول الله ﷺ تنبأه وهو صغير، فلبث حتى صار رجلاً يقال له: زيد بن محمد، فانزل الله ﴿أَنْعَمُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: 5] يعني: أعدل عند الله. وأخرج ابن سعد عن محمد بن كعب القرظي في قوله: ﴿سَنَةِ اللَّهِ فِي الْخَيْنِ خُلُوا مِنْ قَبْلُ﴾ قال: يعني: يتزوج من النساء ما شاء هذا فريضة، وكان من قبل من الأنبياء هذا سنتهم، قد كان لسليمان بن داود ألف امرأة، وكان لداود مائة امرأة. وأخرج ابن المنذر، والطبراني، عن ابن جريج في قوله: ﴿سَنَةِ اللَّهِ فِي الْخَيْنِ خُلُوا مِنْ قَبْلُ﴾ قال داود: والمرأة التي نكح، وزوجها، واسمها اليسية، فلذلك سنة في محمد وزينب ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدْرًا مَقْدُورًا﴾ كذلك من سنته في داود، والمرأة، والنبي، وزينب. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ قال: نزلت في زيد بن حارثة. وأخرج أحمد، ومسلم عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلي ومثل النبيين كمثل رجل بنى داراً، فانتهى إلا لبنة واحدة، فجثت أنا، فاتممت تلك اللبنة» وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلي، ومثل الأنبياء كمثل رجل ابنتى داراً، فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة، فكان من دخلها فنظر إليها قال: ما أحسنها إلا موضع اللبنة، فأنا موضع اللبنة حتى ختم بي الأنبياء». وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما من حديث أبي هريرة نحوه. وأخرج أحمد، والترمذي وصححه من حديث أبي بن كعب نحوه أيضاً.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَتَذْكُرُوا اللَّهَ ذَكَرَ كَبِيرًا ﴿١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَيَتَّبِعُكُمْ فِي غُيُوبِكُمْ مِنَ الظَّالِمِينَ إِلَى الْكُفَّارِ وَكَانَ بِالْقَوْمِينَ رَحِيمًا ﴿٣﴾ يَحْيِيهِمْ يَوْمَ يَلْفُوفُهُمْ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَعْرَافًا كَرِيمًا ﴿٤﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٦﴾ وَبَشِّرِ الْقَوْمِينَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قُدْرًا كَبِيرًا ﴿٧﴾ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذُنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨﴾

ولا يخشون سواه، ولا يباليون بقول الناس، ولا بتعبييرهم، بل خشيتهم مقصورة على الله سبحانه ﴿وَكُفَى بِاللهِ حَسِيبًا﴾ حاضراً في كل مكان يكفي عباده كل ما يخافونه، أو محاسباً لهم في كل شيء، ولما تزوج ﷺ زينب قال الناس: تزوج امرأة ابنه، فانزل الله ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ أي: ليس بابن لزيد بن حارثة على الحقيقة حتى تحرم عليه زوجته، ولا هو أب لأحد لم يلد، وقد ولد له الواحدي: قال المفسرون: لم يكن أباً أحد لم يلد، وقد ولد له من الذكور إبراهيم، والقاسم، والطيب، والمطهر. قال القرطبي: ولكن لم يعيش له ابن حتى يصير رجلاً، قال: وأما الحسن، والحسين، فكانا طفلين، ولم يكونا رجلين معاصرين له ﴿وَلَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ﴾ قال الاخفش، والفراء: ولكن كان رسول الله، وأجازا الرفع. وكذا قرأ ابن أبي عبيدة بالرفع في رسول وفي خاتم على معنى: ولكن هو رسول الله وخاتم النبيين، وقرأ الجمهور بتخفيف لكن، ونصب رسول وخاتم، ووجه النصب على خبرية كان المقيدة كما تقدم، ويجوز أن يكون بالعطف على أباً أحد. وقرأ أبو عمرو في رواية عنه بتشديد لكن ونصب رسول على أنه اسمها، وخبرها محذوف: أي: ولكن رسول الله هو. وقرأ الجمهور (خاتم) بكسر التاء. وقرأ عاصم بفتحها. ومعنى القراءة الأولى: أنه ختمهم: أي: جاء آخرهم. ومعنى القراءة الثانية: أنه صار كالخاتم لهم الذي يتختمون به، ويتزينون بكونه منهم. وقيل: كسر التاء، وفتحها لغتان. قال أبو عبيد: الوجه للكسر: لأن التأويل: أنه ختمهم، فهو: خاتمهم، وأنه قال: «أنا خاتم النبيين»، وختم الشيء آخره، ومنه قولهم: خاتمة المسك. وقال الحسن: الخاتم هو: الذي ختم به ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ قد أحاط علمه بكل شيء، ومن جملة معلوماته هذه الأحكام المنكورة هنا.

وقد أخرج أحمد، والبخاري، والترمذي، وغيرهم عن انس قال: «جاء زيد بن حارثة يشكو زينب إلى رسول الله ﷺ، فجعل رسول الله ﷺ يقول: اتق الله، وأمسك عليك زوجك، فنزلت ﴿وَتَخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾» قال انس: فلو كان رسول الله ﷺ كاتماً شيئاً لكتّم هذه الآية، فتزوجها رسول الله ﷺ فما أولم على امرأة من نسائه ما أولم عليها، نبح شاة ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا﴾ فكانت تفخر على أزواج النبي ﷺ تقول: تَزَوَّجْتُ أَهْلِيكَ، وَزَوَّجَنِي اللَّهُ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ. وأخرج أحمد، ومسلم، والنسائي، وغيرهم عن انس قال: لما انقضت عدة زينب، قال رسول الله ﷺ: «لزيد: اذهب، فانكرها علي، فانطلق، قال: فلما رايتها عظمت في صدري، فقلت: يا زينب لبشري أرسلني رسول الله ﷺ ينكحك، قالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أؤامر ربي، فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن، وجاء رسول الله ﷺ، وبخل عليها بغير إذن، ولقد رايتنا حين نبخلت على رسول الله ﷺ أطلعنا عليها الخبز واللحم، فخرج الناس، وبقي رجال يتحشون في البيت بعد الطعام، فخرج رسول الله ﷺ

أمر علياً، ومعاذاً أن يسيرا إلى اليمن، فقال: انطلقا فبشرا، ولا تنفرا ويسرا، ولا تعسرا، فإنها قد أنزلت علي ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً﴾ قال: شاهداً علي امتك، ومبشراً بالجنة، ونذيراً من النار، وداعياً إلى شهادة أن لا إله إلا الله ﴿وبأنه وسرلاً منيراً﴾ بالقرآن. وأخرج أحمد، والبخاري، وغيرهما عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص، فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة، فقال: أجل والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفة في القرآن ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل. ليس بفخظ، ولا غليظ، ولا سخاب في الأسواق، ولا تجزي بالسبيئة السيئة، ولكن تعفو، وتصفق﴾ زاد أحمد «ولن يقبضه الله حتى يقيم الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله، فيفتح بها أعينا عمياً، وأذناناً صماً، وقلوباً غلفاً». وقد ذكر البخاري في صحيحه في البيوع هذا الحديث، فقال: وقال سعيد عن هلال، عن عطاء، عن عبد الله بن سلام، ولم يقل: عبد الله بن عمرو، وهذا أولى، فعبد الله بن سلام هو الذي كان يسال عن التوراة، فيخبر بما فيها.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا نَكْفَرُ الْمُؤْمِنِينَ ثُمَّ طَلَقْنَاهُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ
تَمُوتُوا فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ عُدُوٍّ تَعْدُونَهَا فَعَمَّوْهُمْ وَسَمَّوْهُمْ سَرَكَامًا
جِيكًا ﴿١٥﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَعْلَمْنَا لَكَ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ مَاتَتْ أَزْوَاجُكَ وَمَا
مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا آفَأَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَيَتَابِعُ عَلَيْكَ وَيَتَابِعُ عَيْنُكَ وَيَتَابِعُ
خَالِكَ وَيَتَابِعُ خَلَّتِيكَ أَلْفَى هَاجِرَ مَعَكَ وَأَمْرًا مُؤَمِّدَةً إِنْ رَغِبْتَ فَتَسْمَا
لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَكْبِرَ خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا
مَا فُرِضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ
عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٦﴾ ﴿١٧﴾ تَرْجِي مَنْ نَفَسْتَ وَهْتَنَ
وَقَرِيعَ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسَةٍ وَمَنْ ابْتَغَيْتَ مَعَنَ عَرَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ
تَقْرَأَ آيَاتِهِنَّ وَلَا تَحْزَنَ وَرَضِيتَ بِمَا آتَيْنَهُنَّ كُلَّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي
قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿١٨﴾ لَا يَحِلُّ لَكَ الْإِنْسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ
تَبْدُلَ يَدَ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ﴿١٩﴾

لما ذكر سبحانه قصة زيد، وطلاقه لزينب، وكان قد دخل بها، وخطبها النبي ﷺ بعد انقضاء عدتها كما تقدّم خاطب المؤمنين مبيناً لهم حكم الزوجة إذا طلقها زوجها قبل الدخول، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمَنَاتِ﴾ أي: عقيتم بهنّ عقد النكاح، ولم يرد لفظ النكاح في كتاب الله إلا في معنى: العقد كما قاله صاحب الكشاف، والقرطبي، وغيرهما.

وقد اختلف في لفظ النكاح هل هو حقيقة في الوطء، أو في العقد، أو فيهما على طريقة الاشتراك، وكلام صاحب الكشف في هذا الموضع يشعر بأنه حقيقة في الوطء، فإنه

انكروا الله قياماً، وقعوداً، وعلى جنوبكم، بالليل والنهار، في البرّ والبحر، في السفر والحضر، في الغنى والفقر، في الصحة والسقم، في السرّ والعلاينة، وعلى كل حال، وقال: ﴿وَسُبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ إذا فعلتم ذلك صلى عليكم هو، وملائكته قال الله: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾.

وقد ورد في فضل الذكر، والاستكثار منه أحاديث كثيرة، وقد صنّف في الإنكار المتعلقة بالليل والنهار، جماعة من الأئمة كالنسائي، والنووي، والجزري، وغيرهم، وقد نطقت الآيات القرآنية بفضل الذاكرين، وفضيلة الذكر ﴿ولنكر الله أكبر﴾ [العنكبوت: 45] وقد ورد أنه أفضل من الجهاد كما في حديث أبي سعيد الخدري عند أحمد، والترمذي، والبيهقي: «أن رسول الله ﷺ سئل: أي العباد أفضل درجة عند الله يوم القيامة؟ قال: الذاكرون الله كثيراً، قلت: يا رسول الله ومن الغزاة في سبيل الله؟ قال: لو ضرب بسيفه في الكفار والمشركين حتى ينكسر ويختضب دماً لكان الذاكرون أفضل منه درجة»، وأخرج أحمد عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إعطاء الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا أعداءكم، فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: وما هو يا رسول الله؟ قال: نكر الله عزّ وجلّ». وأخرجه أيضاً الترمذي، وابن ماجه. وفي صحيح مسلم وغيره من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «سبق المفزونون، قالوا: وما المفزونون يا رسول الله؟ قال: الذاكرون الله كثيراً» وأخرج أحمد، وأبو يعلى، وابن حبان، والحاكم وصححه، والبيهقي عن أبي سعيد الخدري: أن رسول الله ﷺ قال: «أكثرُوا نكر الله حتى يقولوا: مجنون». وأخرج الطبراني عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أنكروا الله حتى يقول المنافقون: إنكم مراؤون».

وورد في فضل التسبيح بخصوصه أحاديث ثابتة في الصحيحين، وغيرهما، فمن ذلك حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال في يوم مائة مرة سبحان الله وبحمده حطت خطاياء، ولو كانت مثل زبد البحر». وأخرج أحمد، ومسلم، والترمذي، وغيرهم عن سعد بن أبي وقاص قال: «كنا مع رسول الله ﷺ، فقال لنا: أيعجز أحدكم أن يكتب في اليوم ألف حسنة؟ فقال رجل: كيف يكتب أحدنا ألف حسنة؟ قال: يسبح الله مائة تسبيحة، فيكتب له ألف حسنة، ويحط عنه ألف خطيئة». وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف، وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا في نكر الموت، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عن البراء بن عازب في قوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ قال: يوم يلقون ملك الموت ليس من مؤمن يقبض روحه إلا سلم عليه. وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، والخطيب، وابن عساكر عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ وقد كان

الجمهور أنه قال: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ﴾ فقبح الطلاق بالنكاح بلفظ، ثم المشعرة بالترتيب، والمهلة ﴿وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً﴾ أي: أخرجوهن من منازلكن: إذ ليس لكم عليهنَّ عدة، والسراح الجميل الذي لا ضرار فيه، وقيل: السراح الجميل أن لا يطالبها بما كان قد أعطاه، وقيل: السراح الجميل هنا كناية عن الطلاق، وهو بعيد لأنه قد تقدم ذكر الطلاق، ورتب عليه التمتع، وعطف عليه السراح الجميل، فلا بد أن يراد به معنى غير الطلاق ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ﴾ ذكر سبحانه في هذه الآية أنواع الأنكحة التي أحلها لرسوله، وبدأ بأزواجه اللاتي قد أعطاهنَّ أجورهنَّ: أي: مهرهنَّ، فإن المهور أجور الأضياع، وإيتاؤها: إما تسليمها معجلة، أو تسميتها في العقد.

واختلف في معنى قوله: ﴿أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ فقال ابن زيد، والضحاك: إن الله أحلَّ له أن يتزوج كل امرأة يؤتيها مهرها، فتكون الآية مبيحة لجميع النساء ما عدا نوات المحارم. وقال الجمهور: المراد أحللنا لك أزواجك الكائنات عندك؛ لأنهنَّ قد اخترنك على الدنيا، وزينتهنَّ، وهذا هو الظاهر، لأن قوله: ﴿أَحْلَلْنَا، وَآتَيْتَ مَاضِيَانِ، وَتَقْيِيدُ الْإِحْلَالِ بِإِيتَاءِ الْأَجُورِ لَيْسَ لَتَوْقُفِ الْحَلِّ عَلَيْهِ، لِأَنَّهُ يَصِحُّ الْعَقْدُ بِلَا تَسْمِيَةٍ، وَيَجِبُ مَهْرُ الْمَثَلِ مَعَ الْوُطْءِ وَالْمَتْعَةِ مَعَ عَدَمِهِ، فَكَانَ لِقَصْدِ الْإِرْشَادِ إِلَى مَا هُوَ أَفْضَلُ ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ أي: السراري اللاتي دخلن في ملكه بالغنيمة. ومعنى ﴿مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ مما رده الله عليك من الكفار بالغنيمة لنسائهم المأخوذات على وجه القهر، والغلبة، وليس المراد بهذا القيد إخراج ما ملكه بغير الغنيمة، فإنها تحل له السرية المشتراة، والموهوبة، ونحوهما، ولكنه إشارة إلى ما هو أفضل كالقيد الأول المصرح بإيتاء الأجور، وهكذا قيد المهاجرة في قوله: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ فإنه للإشارة إلى ما هو أفضل، وللإيدان بشرف الهجرة، وشرف من هاجر، والمراد بالمعية هنا الاشتراك في الهجرة لا في الصحبة فيها. وقيل: إن هذا القيد: أعني: المهاجرة معتبر، وأنها لا تحل له من لم تهاجر من هؤلاء كما في قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يَهَاجِرُوا﴾ [الأنفال: 72] ويؤيد هذا حديث أم هانئ، وسيأتي آخر البحث هذا إن شاء الله تعالى، ووجه إفراد العم والخال، وجمع العممة والخالة ما ذكره القرطبي: أن العم والخال في الإطلاق اسم جنس كالشاعر، والراجل، وليس كذلك العممة والخالة. قال: وهذا عرف لغوي، فجاء الكلام عليه بغاية البيان. وحكاه عن ابن العربي. وقال ابن كثير: إنه وحَّد لفظ الذكر لشرفه، وجمع الأنثى كقوله: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ﴾ [النحل: 48] وقوله: ﴿يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: 257] ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: 1] وله نظائر كثيرة. انتهى. وقال النيسابوري، وإنما لم يجمع

قال: النكاح الوطء، وتسمية العقد نكاحاً لملايسته له من حيث أنه طريق إليه، ونظيره تسمية الخمر إثماً؛ لأنها سبب في اقتراف الإثم، ومعنى ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ تَمْسُوهُنَّ﴾ من قبل أن تجامعهنَّ، فكأن عن ذلك بلفظ المس ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عُدَّةٍ تَعْتَوْنَهَا﴾ وهذا مجمع عليه كما حكى ذلك القرطبي، وابن كثير، ومعنى تعتونها: تستوفون عدها، من عدت الدراهم، فأنا اعتدتها. وإسناد ذلك إلى الرجال للدلالة على أن العدة حق لهم كما يفيدُه ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عُدَّةٍ﴾ قرأ الجمهور (تعتونها) بتشديد الدال، وقرأ ابن كثير في رواية عنه، وأهل مكة بتخفيفها. وفي هذه القراءة وجهان: أحدهما: أن تكون بمعنى الأولى، مأخوذة من الاعتداد: أي: تستوفون عدها، ولكنهم تركوا التضعيف لقصد التخفيف. قال الرازي: ولو كان من الاعتداء الذي هو الظلم لضعف، لأن الاعتداء يتعدى بعلًى. وقيل: يجوز أن يكون من الاعتداء بحذف حرف الجر: أي: تعتون عليها: أي: على العدة مجازاً، ومثله قوله:

تَحَنَّنْ قَتْبِي مَا بَهَا مِنْ صَبَابَةٍ وَأَخْفِي الَّذِي لَوْلَا الْأَسَى لِقَضَائِي
أي: لقضى علي. والوجه الثاني: أن يكون المعنى: تعتون فيها، والمراد بالاعتداء هذا هو ما في قوله: ﴿وَلَا تَمْسُكُوهُنَّ ضُرَاراً لَتَعْتَدُوا﴾ [البقرة: 231] فيكون معنى الآية على القراءة الأخيرة: فما لكم عليهنَّ من عدة تعتون عليهنَّ فيها بالمضارة. وقد أنكر ابن عطية صحة هذه القراءة عن ابن كثير وقال: إن البزعي غلط عليه، وهذه الآية مخصصة لعموم قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقاتِ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: 228] ويقول: ﴿وَاللَّاتِي يَثْسِنُ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نَسَائِكُمْ إِنْ آرَبْتُمْ فَعَتَبَنَ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ﴾ [الطلاق: 4] والمتعة المذكورة هنا قد تقدم الكلام فيها في البقرة. وقال سعيد بن جبير: هذه المتعة المذكورة هنا منسوخة بالآية التي في البقرة، وهي قوله: ﴿وَأَنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ﴾ وقد فرضتم لهنَّ فريضة فنصف ما فرضتم. [البقرة: 237] وقيل: المتعة هنا هي أعم من أن تكون نصف الصداق، أو المتعة خاصة إن لم يكن قد سمي لها، فمع التسمية للصداق تستحق نصف المسمى عملاً بقوله: ﴿فَنُصِّفَ مَا فَرَضْتُمْ﴾ لهنَّ، ومع عدم التسمية تستحق المتعة عملاً بهذه الآية، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لهنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسَعِ قَدَرَهُ وَعَلَى الْمَقْتَرِ قَدَرَهُ﴾ [البقرة: 236] وهذا الجمع لا بد منه، وهو مقدم على الترجيع، وعلى دعوى النسخ، وتخصص من هذه الآية المتوفى عنها زوجها، فإنه إذا مات بعد العقد عليها، وقبل البخل بها كان الموت كالدخول، فتعتد أربعة أشهر وعشراً. قال ابن كثير بالإجماع، فيكون المخصص هو: الإجماع وقد استدلل بهذه الآية القائلون بأنه لا طلاق قبل النكاح، وهم الجمهور، وذهب مالك، وأبو حنيفة إلى صحة الطلاق قبل النكاح إذا قال: إن تزوجت فلانة، فهي طالق، فتطلق إذا تزوجها، ووجه الاستدلال بالآية لما قاله

يجوز سببه، وحربه، لا من كان لا يجوز سببه، أو كان له عهد من المسلمين **«لكيلا يكون عليك حرج»** قال المفسرون: هذا يرجع إلى أول الآية: أي: أحللتنا لك أزواجك، وما ملكت يمينك، والموهوبة لكيلا يكون عليك حرج، فتكون اللام متعلقة بأحللتنا، وقيل: هي متعلقة بخالصة، والأول أولى، والحرج الضيق: أي: وسعنا عليك في التحليل لك لثلا يضيق صدرك، فتظن أنك قد أثمت في بعض المنكوحات **«وكان الله غفوراً رحيماً»** يغفر الذنوب، ويرحم العباد، ولذلك وسع الأمر، ولم يضيقه **«ترجي من تشاء منهم»** قرئ «ترجي» مهموزاً، وغير مهموز، وهما لغتان، والإرجاء التأخير، يقال: أرجأت الأمر، وأرجيته: إذا أخرته **«وتؤوي إليك من تشاء»** أي: تضم إليك، يقال: أواه إليه بالمد: ضمه إليه، وأوى مقصوراً: أي: ضم إليه، والمعنى: أن الله وسع على رسوله، وجعل الخيار إليه في نسائه، فيؤخر من شاء منهم: ويؤخر نوبتها، ويتركها، ولا يأتيها من غير طلاق، ويضم إليه من شاء منهم: ويضاجعها، ويبيت عندها، وقد كان القسم واجباً عليه حتى نزلت هذه الآية، فارتفع الوجوب، وصار الخيار إليه، وكان ممن أوى إليه عائشة، وحفصة، وأم سلمة، وزينب، ومن أرجأه سودة، وجويرية، وأم حبيبة، وميمونة، وصفية، فكان **«يسوي بين من أواه في القسم»** وكان يقسم لمن أرجأه ما شاء. هذا قول جمهور المفسرين في معنى الآية، وهو الذي نلت عليه الآية الثابتة في الصحيح، وغيره. وقيل: هذه الآية في الواهبات أنفسهن، لا في غيرهن من الزوجات، قاله الشعبي وغيره. وقيل: معنى الآية في الطلاق: أي: تطلق من تشاء منهم، وتمسك من تشاء. وقال الحسن: إن المعنى: تنكح من شئت من نساء أمتك، وتترك نكاح من شئت منهم. وقد قيل: إن هذه الآية ناسخة لقوله: **«لا يحل لك النساء من بعد»** وسياي بيان ذلك **«ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك»** الابتغاء الطلب، والعزل الإزالة، والمعنى: أنه إن أراد أن يؤوي إليه امرأة ممن قد عزلهن من القسمة، ويضمها إليه، فلا حرج عليه في ذلك. والحاصل أن الله سبحانه فوض الأمر إلى رسوله يصنع في زوجاته ما شاء من تقديم، وتأخير، وعزل، وإمساك، وضم من أرجأ، وإرجاء من ضم إليه، وما شاء في أمرهن فعل توسعة عليه، ونفياً للحرج عنه. وأصل الجناح الميل، يقال: جنحت السفينة: إذا مالت. والمعنى: لا ميل عليك بلوم، ولا عتب فيما فعلت، والإشارة بقوله: **«ذلك»** إلى ما تقدم من التفويض إلى مشيئته، وهو مبتدأ، وخبره **«أن تقر أعينهن»** أي: تلك التفويض الذي فوضناك أقرب إلى رضاهن؛ لأنه حكم الله سبحانه. قال قتادة: أي: تلك التأخير الذي خيرتك في صحبتتهن أننى إلى رضاهن إذ كان من عندنا، لأنهن إذا علمن أنه من الله قرأت أعينهن. قرأ الجمهور (تقر) على البناء للفاعل مسنداً إلى أعينهن، وقرأ ابن محيصن «تقر» بضم التاء من أقرر، وفاعله ضمير المخاطب، ونصب أعينهن على المفعولية، وقرئ على البناء للمفعول.

العم والخال اكتفاء بجنسيتهما مع أن لجمع البنات دلالة على ذلك لامتناع اجتماع أختين تحت واحد، ولم يحسن هذا الاختصار في العم والخالة لإمكان سبق الوهم إلى أن التاء فيهما للوحدة. انتهى. وكل وجه من هذه الوجوه يحتمل المناقشة بالنقض، والمعارضة، وأحسنها تعليل جمع العم والخالة بسبق الوهم إلى أن التاء للوحدة، وليس في العم والخال ما يسبق الوهم إليه بأنه أريد به الوحدة إلا مجرد صيغة الإفراد، وهي لا تقتضي ذلك بعد إضافتها لما تقر من عموم أسماء الأجناس المضافة، على أن هذا الوجه الأحسن لا يصفو عن شوب المناقشة **«وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي»** هو معطوف على مفعول أحللتنا: أي: وأحللتنا لك امرأة مصدقة بالتوحيد إن وهبت نفسها منك بغير صداق، وأما من لم تكن مؤمنة، فلا تحل لك بمجرد هبتها نفسها لك، ولكن ليس ذلك بواجب عليك بحيث يلزمك قبول ذلك، بل مقيداً بإرادتك، ولهذا قال: **«إن أراد النبي أن يستنكحها»** أي: يصيرها منكحة له، ويتملك بضعها بتلك الهبة بلا مهر. وقد قيل: إنه لم ينكح النبي **«من الواهبات أنفسهن»** أحداً، ولم يكن عنده منهن شيء. وقيل: كان عنده منهن خولة بنت حكيم كما في صحيح البخاري عن عائشة. وقال قتادة: هي: ميمونة بنت الحارث. وقال الشعبي: هي: زينب بنت خزيمة الأنصارية أم المساكين. وقال علي بن الحسين، والضحاك، ومقاتل: هي: أم شريك بنت جابر الأسدية. وقال عروة بن الزبير: هي أم حكيم بنت الأوقص السلمية. ثم بين سبحانه أن هذا النوع من النكاح خاص برسول الله **«لا يحل لغيره من أمة»** فقال: **«خالصة لك من نون المؤمنين»** أي: هذا الإحلال الخاص هو خاص بك دون غيرك من المؤمنين. ولفظ خالصة إما حال من امرأة، قاله الزجاج: أو مصدر مؤكد كوعد الله: أي: خالص لك خلوصاً. قرأ الجمهور (وامرأة) بالنصب. وقرأ أبو حيوة بالرفع على الابتداء. وقرأ الجمهور (إن وهبت) بكسر إن. وقرأ أبي، والحسن، وعيسى بن عمر بفتحها على أنه بدل من امرأة بدل اشتغال. أو على حذف لام العلة: أي: لأن وهبت. وقرأ الجمهور (خالصة) بالنصب، وقرئ بالرفع على أنها صفة لامرأة على قراءة من قرأ امرأة بالرفع، وقد أجمع العلماء على أن هذا خاص بالنبي **«ﷺ»** وأنه لا يجوز لغيره، ولا ينعقد النكاح بهبة المرأة نفسها إلا ما روي عن أبي حنيفة، وصاحبيه أنه يصح النكاح إذا وهبت، وأشهد هو على نفسه بمهر. وأما بدون مهر فلا خلاف في أن ذلك خاص بالنبي **«ﷺ»**، ولهذا قال: **«قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم»** أي: ما فرضه الله سبحانه على المؤمنين في حق أزواجهم من شرائط العقد، وحقوقه، فإن ذلك حق عليهم مفروض لا يحل لهم الإخلال به، ولا الاقتداء برسول الله **«ﷺ»** فيما خصه الله به توسعة عليه وتكريماً له، فلا يتزوجوا إلا أربعاً بمهر وبينه وولي **«وما ملكت إيمانهم»** أي: وعلمنا ما فرضنا عليهم فيما ملكت إيمانهم من كونهن ممن

وقد اختلف العلماء في تحليل الأمة الكافرة. القول الأول: أنها تحل للنبي ﷺ لعموم هذه الآية، وبه قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وعطاء، والحكم. القول الثاني: أنها لا تحل له تنزيهاً لقدره عن مباشرة الكافرة. ويترجح القول الأول بعموم هذه الآية، وتحليل المنع بالتنزه ضعيف، فلا تنزه عما أحله الله سبحانه، فإن ما أحله، فهو طيب لا خبيث باعتبار ما يتعلق بأمور النكاح، لا باعتبار غير ذلك، فالمشركون نجس بنص القرآن. ويمكن ترجيح القول الثاني بقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَمْسُكُوا بِعَصَمِ الْكَافِرِ﴾ [المتحنة: 10] فإنه نهي عام ﴿وَوَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾ أي: مراقباً حافظاً مهيمناً لا يخفى عليه شيء، ولا يفوته شيء.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ قال: هذا في الرجل يتزوج المرأة ثم يطلقها من قبل أن يمسه، فإذا طلقها واحدة بانت منه، ولا عدة عليها تتزوج من شاءت، ثم قال: ﴿فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَوَّحُوهُنَّ سِرَاحًا جَمِيلًا﴾ يقول: إن كان سمي لها صداقاً، فليس لها إلا النصف، وإن لم يكن سمي لها صداقاً متعها على قدر عسره ويسره، وهو: السراح الجميل. وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر قال: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ﴾ منسوخة نسختها التي في البقرة: ﴿فَنَصَفَ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة: 237]. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن سعيد بن المسيب نحوه. وأخرج عبد بن حميد عن حميد عن الحسن وأبي العالية قال: ليست بمنسوخة، لها نصف الصداق، ولها المتاع. وأخرج عبد الرزاق عن ابن جريج قال: بلغ ابن عباس أن ابن مسعود يقول: إن طلق ما لم ينكح، فهو جائز، فقال ابن عباس: أخطأ في هذا، إن الله يقول: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ﴾، ولم يقل: إذا طلقتم المؤمنات، ثم نكحتموهن. وأخرج ابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن ابن عباس: أنه تلا هذه الآية، وقال: لا يكون طلاق حتى يكون نكاح. وقد وردت أحاديث منها أنه «لا طلاق إلا بعد نكاح»، وهي معروفة. وأخرج ابن سعد، وابن راهويه، وعبد بن حميد، والترمذي وحسنه، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي عن أم هانئ بنت أبي طالب. قالت: خطبني رسول الله ﷺ، فاعتزرت إليه، فعذرني، فأنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ إلى قوله: ﴿هَاجِرْنَ مَعَكَ﴾ قالت: فلم أكن أحل له، لأنني لم أهاجر معه، كنت من الطلقاء. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه من وجه آخر عنها قالت: نزلت في هذه الآية ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ... اللَّاتِي هَاجِرْنَ مَعَكَ﴾ أراد النبي أن يتزوجني، فنهى عني إذ لم أهاجر. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ إلى قوله: ﴿خَالَصَةً لَكَ﴾ قال: فحرم الله عليه سوى ذلك من النساء، وكان قبل ذلك ينكح في أي النساء شاء لم يحرم ذلك عليه، وكان نسأؤه يجدن

وقد تقدم بيان معنى قرّة العين في سورة مريم، ﴿وَوَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾ أي: يرصون جميعاً بما أعطيتهن من تزيين، وإرجاء، وعزل، وإيواء. قرأ الجمهور (كلهن) بالرفع تأكيداً لفاعل يرضين. وقرأ أبو إياس بالنصب تأكيداً للضمير المفعول في آتيتهن ﴿وَوَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ من كل ما تضرمنه، ومن ذلك ما تضرمنه من أمور النساء ﴿وَوَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بكل شيء لا تخفى عليه خافية ﴿حَلِيمًا﴾ لا يعاجل العصاة بالعقوبة ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النَّسَاءُ مِنْ بَعْدِ﴾ قرأ الجمهور ﴿لَا يَحِلُّ﴾ بالتحية للفصل بين الفعل، وفاعله المؤنث، وقرأ ابن كثير بالفوقية.

وقد اختلف أهل العلم في تفسير هذه الآية على أقوال: الأول أنها محكمة، وأنه حرم على رسول الله ﷺ أن يتزوج على نسائه مكافأة لهن بما فعلن من اختيار الله، ورسوله، والدار الآخرة لما خيرهن رسول الله ﷺ بامر الله له بذلك، وهذا قول ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، والحسن، وابن سيرين، وأبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وابن زيد، وابن جرير. وقال أبو أمامة بن سهل بن حنيف: لما حرم الله عليهن أن يتزوجن من بعده حرم عليه أن يتزوج غيرهن. وقال أبي بن كعب، وعكرمة، وأبو رزين: إن المعنى: لا يحل لك النساء من بعد الأصناف التي سماها الله. قال القرطبي: وهو: اختيار ابن جرير. وقيل: لا يحل لك اليهوديات، ولا النصرانيات؛ لأنهن لا يصح أن يتصفن بأنهن أمهات المؤمنين. وهذا القول فيه بعد؛ لأنه يكون التقدير: لا يحل لك النساء من بعد المسلمات، ولم يجز للمسلمات ذكر. وقيل: هذه الآية منسوخة بالسنة، ويقول سبحانه: ﴿تَرَجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾ وبهذا قالت عائشة، وأم سلمة، وعلي بن أبي طالب، وعلي بن الحسين، وغيرهم. وهذا هو الراجح، وسيأتي في آخر البحث ما يدل عليه من الأدلة ﴿وَلَا أَنْ تَبْدَلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ﴾ أي: تتبدل، فحلفت إحدى التائين: أي: ليس لك أن تطلق واحدة منهن، أو أكثر، وتتزوج بدل من طلقت منهن، ومنه في قوله: ﴿مَنْ أَزْوَاجٍ﴾ مزيدة للتأكيد. وقال ابن زيد: هذا شيء كانت العرب تفعله يقول: خذ زوجتي، وأعطني زوجتك، وقد أنكر النحاس، وابن جرير ما نكره ابن زيد. قال ابن جرير: ما فعلت العرب هذا قط. وينفع هذا الإنكار منهما ما أخرجه الدارقطني عن أبي هريرة قال: كان البديل في الجاهلية أن يقول الرجل للرجل: تنزل لي عن امرأتك، وأنزل لك عن امرأتي، فأنزل الله عز وجل ﴿وَلَا أَنْ تَبْدَلَ بِهِنَّ﴾، وأخرجه أيضاً عنه البزار، وابن مردويه، وجملة ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حَسَنَهُنَّ﴾ في محل نصب على الحال من فاعل تبدل، والمعنى: أنه لا يحل التبدل بأزواجك، ولو أعجبك حسن غيرهن ممن أريت أن تجعلها بدلاً من إحداهن، وهذا التبدل أيضاً من جملة ما نسخ الله في حق رسوله على القول الراجح، وقوله: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ استثناء من النساء؛ لأنه يتناول الحرائر والإماء.

من ذلك وجداً شديداً أن ينكح في أي النساء أحب، فلما أنزل إنني حرمت عليك من النساء سوى ما قصصت عليك أعجب ذلك نساءه. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في السنن عن عائشة قالت: التي وهبت نفسها للنبي ﷺ خولة بنت حكيم. وأخرج عبد الرزاق، وابن سعد، وابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، والبخاري، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي، وابن مردويه عن عروة: أن خولة بنت حكيم كانت من اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ. وأخرج ابن أبي شيبه، وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب، وعمر بن الحكم، وعبد الله بن عبيدة قالوا: تزوج رسول الله ﷺ ثلاث عشرة امرأة: ست من قريش: خديجة، وعائشة، وحفصة، وأم حبيبة، وسودة، وأم سلمة، وثلاث من بني عامر بن صعصعة، وامراتين من بني هلال بن عامر: ميمونة بنت الحارث، وهي التي وهبت نفسها للنبي ﷺ، وزينب أم المساكين، والعامرية وهي التي اختارت للنبي، وامرأة من بني الجون، وهي التي استعانت منه، وزينب بنت جحش الأسدية، والسبييتين: صفية بنت حيي، وجويرية بنت الحارث الخزاعية. وأخرج البخاري، وابن مردويه عن أنس قال: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ، فقالت: يا نبي الله هل لك بي حاجة؟ فقالت ابنة أنس: ما كان أقل حياءها، فقال: هي خير منك رغبت في النبي ﷺ، فعرضت نفسها عليه. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن سهل بن سعد الساعدي: أن امرأة جاءت إلى النبي ﷺ، فوهبت نفسها له، فصمت، الحديث بطوله. وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر في قوله: **«قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم»** قال: فرض الله عليهم أنه لا نكاح إلا بولي، وشاهدين. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس مثله، وزاد: ومهر. وأخرج ابن أبي شيبه عن علي قال: نهى رسول الله ﷺ أن توطأ الحامل حتى تضع، والحوامل حتى تستبيرا بحیضة. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس **«ترجي من تشاء منه»** قال: تؤخر. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عنه في قوله: **«ترجي من تشاء منه»** يقول: من شئت خليت سبيله منه، ومن أحببت أمسكت منه. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن عائشة قالت: كنت أغار من اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ، وأقول: تهب المرأة نفسها، فلما أنزل الله **«ترجي من تشاء منه»** الآية قلت: ما أرى ربك إلا يسارع في هوك. وأخرج ابن سعد، وابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي رزين قال: هم رسول الله ﷺ أن يطلق من نسائه، فلما رآهن ذلك أتيتهن، فقلن: لا تدخل سبيلنا، وأنت في حل فيما بيننا وبينك، افرض لنا من نفسك ومالك ما شئت، فأنزل الله **«ترجي من تشاء منه»** يقول: تعزل من تشاء، فأرجأ منهن نسوة، وآوى نسوة، وكان ممن أرجى ميمونة، وجويرية، وأم حبيبة، وصفية، وسودة، وكان يقسم بينهن من نفسه وماله ما شاء، وكان ممن آوى عائشة، وحفصة، وأم سلمة، وزينب، فكانت

قسمته من نفسه وماله بينهن سواء. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن عائشة: أن رسول الله ﷺ كان يستأنن في يوم المرأة منا بعد أن أنزلت هذه الآية **«ترجي من تشاء منه»** فقلت لها: ما كنت تقولين؟ قالت: كنت أقول: إن كان ذلك إلي فإني لا أريد أن أوثر عليك أحداً. وأخرج الروياني، والدارمي، وابن سعد، وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والضياء في المختارة عن زياد رجل من الأنصار قال: قلت لأبي بن كعب: أرايت لو أن أزواج النبي ﷺ متن أما كان يحل له أن يتزوج؟ قال: وما يمنعه من ذلك؟ قلت: قوله **«لا يحل لك النساء من بعد»** قال: إنما أحل له ضرباً من النساء، ووصف له صفة، فقال: **«يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك»** إلى قوله: **«وامرأة مؤمنة»** ثم قال: لا يحل لك النساء من بعد هذه الصفة. وأخرج عبد بن حميد، والترمذي وحسنه، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه عن ابن عباس قال: «نهى رسول الله ﷺ عن أصناف النساء إلا ما كان من المؤمنات المهاجرات قال: **«لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك»** فأحل له الفتيات المؤمنات **«وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي»** وحرّم كل ذات دين غير الإسلام، وقال: **«يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك»** إلى قوله: **«خالصة لك من بون المؤمنين»** وحرّم ما سوى ذلك من أصناف النساء». وأخرج ابن مردويه عنه قال: «نهى النبي ﷺ أن يتزوج بعد نسائه الأول شيئاً». وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً في الآية قال: حبسه الله عليهن كما حبسهن عليه. وأخرج أبو داود في ناسخه، وابن مردويه، والبيهقي في سننه عن أنس قال: لما خيرهن، فاخترن الله ورسوله قصره عليهن، فقال: **«لا يحل لك النساء من بعد»**. وأخرج ابن سعد، وابن أبي حاتم عن أم سلمة قالت: لم يمت رسول الله ﷺ حتى أحل الله له أن يتزوج من النساء ما شاء إلا ذات محرم، وذلك قول الله: **«ترجي من تشاء منه وتؤوي إليك من تشاء»**. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن سعد، وأحمد، وعبد بن حميد، وأبو داود في ناسخه، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي من طريق عطاء عن عائشة قالت: لم يمت رسول الله ﷺ حتى أحل الله له أن يتزوج من النساء ما شاء إلا ذات محرم لقوله: **«ترجي من تشاء منه وتؤوي إليك من تشاء»**. وأخرج ابن سعد عن ابن عباس مثله. وأخرج سعيد بن منصور، وابن سعد، وابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي رزين **«لا يحل لك النساء من بعد»** قال: من المشركات إلا ما سبيت، فملكك يمينك. وأخرج البزار، وابن مردويه عن أبي هريرة قال: كان البذل في الجاهلية أن يقول الرجل للرجل: بادلني امرأتك، وأبادلك امرأتي: أي: تنزل لي عن امرأتك، وأنزل لك عن

بعد الطعام، وهو: التفريق، والمراد الإلزام بالخروج من المنزل الذي وقعت الدعوة إليه عند انقضاء المقصود من الأكل **﴿وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾** عطف على قوله **﴿غَيْرِ نَاضِرِينَ﴾**، أو على مقترن: أي: ولا تدخلوا، ولا تمكثوا مستأنسين. والمعنى: النهي لهم عن أن يجلسوا بعد الطعام يتحذثون مستأنسين بالحديث. قال الرازي في قوله: **﴿إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ﴾** إما أن يكون فيه تقديم وتأخير تقديره: ولا تدخلوا إلى طعام إلا أن يؤذن لكم، فلا يكون منعاً من الدخول في غير وقت الطعام بغير إذن، وإما أن لا يكون فيه تقديم وتأخير، فيكون معناه: ولا تدخلوا إلا أن يؤذن لكم إلى طعام، فيكون الإذن مشروطاً بكونه إلى طعام، فإن لم يؤذن إلى طعام، فلا يجوز الدخول، فلو أن لوحد في الدخول لاستماع كلام لا لأكل طعام، فلا يجوز، فنقول المراد هو الثاني: ليعم النهي عن الدخول. وأما كونه لا يجوز إلا بإذن إلى طعام فلما هو مذكور في سبب النزول أن الخطاب مع قوم كانوا يتحينون حين الطعام، ويدخلون من غير إذن، فمنعوا من الدخول في وقتهم بغير إذن. وقال ابن عادل: الأولى أن يقال: المراد هو: الثاني، لأن التقديم والتأخير خلاف الأصل، وقوله: **﴿إِلَى طَعَامٍ﴾** من باب التخصيص بالذكر، فلا يدل على نفي ما عداه، لا سيما إذا علم مثله، فإن من جاز دخول بيته بإذنه إلى طعامه جاز دخوله بإذنه إلى غير الطعام. انتهى. والأولى في التعبير عن هذا المعنى الذي أراده أن يقال: قد دلت الآية على جواز دخول بيوته **﴿بِإِذْنِهِ﴾** لغير الطعام، وذلك معلوم لا شك فيه، فقد كان الصحابة وغيرهم يستأنسون عليه لغير الطعام، فيأذن لهم، وذلك يوجب قصر هذه الآية على السبب الذي نزلت فيه، وهو القوم الذين كانوا يتحينون طعام النبي **﴿ﷺ﴾**، فيدخلون، ويقعون منتظرين لإدراكه، وأمثالهم، فلا تدل على المنع من الدخول مع الإذن لغير ذلك، وإلا لما جاز لأحد أن يدخل بيوته بإذنه لغير الطعام، واللازم باطل، فالملزوم مثله. قال ابن عطية: وكانت سيرة القوم إذا كان لهم طعام وليمة، أو نحوه أن يبكر من شاء إلى الدعوة ينتظرون طبخ الطعام ونضجه، وكذلك إذا فرغوا منه جلسوا كذلك، فنهى الله المؤمنين عن ذلك في بيت النبي **﴿ﷺ﴾**، وبخل في النهي سائر المؤمنين، والتزم الناس أبى الله لهم في ذلك، فمنعهم من الدخول إلا بإذن عند الأكل لا قبله لانتظار نضج الطعام، والإشارة بقوله: **﴿إِنْ تُلْكُم﴾** إلى الانتظار، والاستئناس للحديث، وأشير إليهما بما يشار به إلى الواحد بتأويلهما بالملكور كما في قوله: **﴿عَوَانَ بَيْنَ ذَلِكَ﴾** [البقرة: 68] أي: إن ذلك المذكور من الأمرين **﴿كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ﴾**؛ لأنهم كانوا يضيّقون المنزل عليه وعلى أهله، ويتحذثون بما لا يريده. قال الزجاج: كان النبي **﴿ﷺ﴾** يحتمل إطالتهم كرمًا منه، فيصبر على الذي في ذلك، فعلم الله من يحضره الأدب صار أبا لهم ولهم بعدهم **﴿فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ﴾** أي: يستحيي أن يقول لكم قوموا، أو أخرجوا **﴿وَاوَلَا لَا يَسْتَحْيِي﴾**

أمراتي، فأنزل الله **﴿وَلَا أَنْ تَبْدُلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَحَبَبْتُمْ حَسَنَهُنَّ﴾** قال: فدخل عيينة بن حصن الفزاري إلى النبي **﴿ﷺ﴾** وعنده عائشة، فدخل بغير إذن، فقال له رسول الله **﴿ﷺ﴾**: «أين الاستئذان؟» قال: يا رسول الله ما استأذنت على رجل من الأنصار منذ أدركت، ثم قال: من هذه الحميراء إلى جنبك؟ فقال رسول الله: هذه عائشة أم المؤمنين، قال: أفلا أنزل لك عن أحسن خلق الله؟ قال: يا عيينة إن الله حرم ذلك، فلما أن خرج قالت عائشة: من هذا؟ قال: أحقر مطاع، وإنه على ما ترين لسيد قومه.

يَتَأْتِيَا إِلَيْكَ ءَامِنًا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَبِيٍّ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْصَرُوا وَلَا مُسْتَقْسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ اللَّهِ قَوْلًا كَذَبًا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَلُّوهُنَّ مِنْ دُونِ حُجَّتِكُمْ ذَلِكُمْ أَظْهَرَ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُنَّ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ خَفَوْهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَاتِبٌ كُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَ فِي أَبْنَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانَهُنَّ وَلَا إِخْوَانَهُنَّ وَلَا إِهْنَاءَ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا إِسَاءَتِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَأَتَيْنَهُنَّ وَأَتَيْنَهُنَّ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا

قوله: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾** هذا نهى عام لكل مؤمن أن يدخل بيوت رسول الله **﴿ﷺ﴾** إلا بإذن منه. وسبب النزول ما وقع من بعض الصحابة في وليمة زينب، وسيأتي بيان ذلك آخر البحث إن شاء الله. وقوله: **﴿إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾** استثناء مفرغ من أعم الأحوال: أي: لا تدخلوها في حال من الأحوال إلا في حال كونكم مائتونا لكم، وهو في موضع نصب على الحال: أي: إلا مصحوبين بالإذن، أو بنزع الخافض: أي: إلا بأن يؤذن لكم، أو منصوب على الظرفية: أي: إلا وقت أن يؤذن لكم، وقوله: **﴿إِلَى طَعَامٍ﴾** متعلق بيؤذن على تضمينه معنى: للدعاء: أي: إلا أن يؤذن لكم مدعوين إلى طعام، وانتصاب **﴿غَيْرِ نَاضِرِينَ﴾** إناؤه على الحال، والعامل فيه يؤذن، أو مقترن: أي: ادخلوا غير ناظرين، ومعنى ناظرين: منتظرين، وإناءه: نضجه، وإدراكه، يقال: أتى يأتي أتى: إذا حان، وأدرك. قرأ الجمهور (غير ناظرين) بالنصب، وقرأ ابن أبي عبيدة (غير) بالجر صفة لطعام، وضعف النحاة هذه القراءة لعدم بروز الضمير لكونه جارياً على غير من هو له، فكان حقه أن يقال: **﴿غَيْرِ نَاضِرِينَ﴾** إناؤه أنتم. ثم بيّن لهم سبحانه ما ينبغي في ذلك، فقال: **﴿وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا﴾**، وفيه تأكيد للمنع، وبيان الوقت الذي يكون فيه الدخول، وهو عند الإذن. قال ابن العربي: وتقدير الكلام: ولكن إذا دعيتم، وأنتم لكم، فادخلوا، وإلا فنفس الدعوة لا تكون إننا كافياً في الدخول، وقيل: إن فيه دلالة بيّنة على أن المراد بالإذن إلى الطعام هو الدعوة إليه **﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْصَرُوا﴾** أمرهم سبحانه بالانتشار

والأولى أن يقال: أنه سبحانه اقتصر ههنا على بعض ما نكره من المحارم في سورة النور اكتفاء بما تقدّم **﴿ولا نسائهن﴾** هذه الإضافة تقتضي أن يكون المراد بالنساء المؤمنات، لأن الكافرات غير مأمونات على العورات، والنساء كلهن عورة **﴿ولا ما ملكت أيمانهن﴾** من العبيد، والإماء، وقيل: الإماء خاصة، ومن لم يبلغ من العبيد، والخلاف في ذلك معروف. وقد تقدّم في سورة النور ما فيه كفاية. ثم أمرهن سبحانه بالتقوى التي هي ملاك الأمر كله، **﴿و﴾** المعنى: **﴿لتقنن﴾** الله في كل الأمور التي من جملتها ما هو منكر هنا **﴿إن الله كان على كل شيء شهيداً﴾** لم يغب عنه شيء من الأشياء كائناً ما كان، فهو مجاز للمحسن بإحسانه، وللمسيء بإساءته.

وقد أخرج البخاري ومسلم عن أنس قال: قال عمر بن الخطاب: يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البرء، والفاجر، فلو حجبتهن، فأنزل الله آية الحجاب. وفي لفظ: أنه قال عمر: يا رسول الله يدخل عليك البرء، والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب، فأنزل الله آية الحجاب. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أنس قال: «لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش دعا القوم، فطعموا، ثم جلسوا يتحدثون، وإذا هو كانه يتهيأ للقيام، فلم يقوموا، فلما رأى ذلك قام، فلما قام قام من قام، وقعد ثلاثة نفر، فجاء النبي ﷺ، ليدخل، فإذا القوم جلوس، ثم إنهم قاموا، فانطلقت، فجئت، فاخبرت النبي ﷺ أنهم قد انطلقوا، فجاء حتى دخل، فذهبت أدخل، فالتقى الحجاب بيني وبينه، فأنزل الله **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي﴾** الآية. وأخرج ابن جرير عن عائشة: أن أزواج النبي ﷺ كن يخرجن بالليل إذا تبرزن إلى المناسم، وهو صعيد أقيح، وكان عمر بن الخطاب يقول لرسول الله ﷺ: احجب نساءك، فلم يكن رسول الله ﷺ يفعل، فخرجت سودة بنت زمعة ليلة من الليالي عشاء، وكانت امرأة طويلة، فناداها عمر بصوته الأعلى: قد عرفناك يا سودة حرصاً على أن ينزل الحجاب، فأنزل الله الحجاب. قال: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي﴾** الآية. وأخرج ابن سعد عن أنس قال: نزل الحجاب مبتنى رسول الله ﷺ بزینب بنت جحش، وذلك سنة خمس من الهجرة، وحجب نساءه من يومئذ، وأنا ابن خمس عشرة سنة. وكذا أخرج ابن سعد عن صالح بن كيسان، وقال: نزل الحجاب على نسائه في ذي القعدة سنة خمس من الهجرة، وبه قال قتادة، والواقدي. وزعم أبو عبيدة، وخليفة بن خياط: أن ذلك كان في سنة ثلاث. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مرويه عن ابن عباس في قوله: **﴿وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله﴾** قال: نزلت في رجل هم أن يتزوج بعض نساء النبي ﷺ بعده. قال سفيان: وذكروا أنها عائشة. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال: بلغنا أن طلحة بن عبيد الله قال: أبحجبتنا محمد عن بنات عمنّا. ويتزوج نساءنا من بعدنا؟ لأن حدث به حدث لنتزوجن نساءه من بعده، فنزلت هذه الآية. وأخرج

من الحق: أي: لا يترك أن يبين لكم ما هو الحق، ولا يمتنع من بيانه وإظهاره؛ والتعبير عنه بعدم الاستحياء للمشكلة. قرأ الجمهور (يستحي) بيايين، وروي عن ابن كثير: أنه قرأ بياء واحدة، وهي لغة تميم يقولون: استحي يستحي مثل استقى يستقي، ثم نكر سبحانه أنبا آخر متعلقاً بنساء النبي ﷺ، فقال: **﴿وإذا سألتموهن متاعاً﴾** أي: شيئاً يتمتع به، من الماعون وغيره **﴿فاسألهن من وراء حجاب﴾** أي: من وراء ستر بينكم وبينهن. والمتاع يطلق على كل ما يتمتع به، فلا وجه لما قيل من أن المراد به العارية، أو الفتوى، أو المصحف، والإشارة بقوله: **﴿لكم﴾** إلى سؤال المتاع من وراء حجاب، وقيل: الإشارة إلى جميع ما نكر من عدم الدخول بغير إذن، وعدم الاستئناس للحديث عند الدخول، وسؤال المتاع، والأول أولى، واسم الإشارة مبتدأ، وخبره **﴿أظهر لقلوبكم وقلوبهن﴾** أي: أكثر تطهيراً لها من الريبة، وخواطر السوء التي تعرض للرجال في أمر النساء، وللنساء في أمر الرجال. وفي هذا أدب لكل مؤمن، وتحذير له من أن يثق بنفسه في الخلوة مع من لا تحل له، والمكاملة من دون حجاب لمن تحرم عليه **﴿وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله﴾** أي: ما صح لكم، ولا استقام أن تؤذوه بشيء من الأشياء كائناً ما كان، ومن جملة ذلك دخول بيوته بغير إذن منه، واللبث فيها على غير الوجه الذي يريده، وتكليم نسائه من دون حجاب **﴿ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده إبدأ﴾** أي: ولا كان لكم بعد وفاته؛ لأنهن أمهات المؤمنين، ولا يحل للأولاد نكاح الأمهات، والإشارة بقوله: **﴿إن لكم﴾** إلى نكاح أزواجه من بعده **﴿كان عند الله عظيماً﴾** أي: ذنباً عظيماً، وخطباً هائلاً شديداً. وكان سبب نزول الآية أنه قال قائل: لو قد مات محمد لتزوجنا نساءه، وسيأتي بيان ذلك **﴿إن تبدوا شيئاً أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليماً﴾** يعلم كل شيء من الأشياء، ومن جملة ذلك ما تظهرونه في شأن أزواج رسوله، وما تكتُمونه في صدوركم. وفي هذا وعيد شديد، لأن إحاطته بالمعلومات تستلزم المجازاة على خيرها، وشرها. ثم بين سبحانه من لا يلزم الحجاب منه، فقال: **﴿لا جناح عليهن في لباسهن ولا فئاتهن ولا إخوانهن ولا أبناء إخوانهن ولا أبناء لخوانتهن﴾** فهؤلاء لا يجب على نساء رسول الله ﷺ، ولا غيرهن من النساء الاحتجاب منهم، ولم ينكر العم والخال؛ لأنهما يجريان مجرى الوالدين. وقال الزجاج: العم والخال ربما يصفان المرأة لولديهما، فإن المرأة تحل لابن العم وابن الخال فكره لهما الرؤية، وهذا ضعيف جداً، فإن تجويز وصف المرأة لمن حل له ممكن من غيرهما ممن يجوز له النظر إليها، لا سيما أبناء الإخوة، وأبناء الأخوات. واللازم باطل، فالملزوم مثله، وهكذا يستلزم أن لا يجوز للنساء الاجنبيات أن ينظرن إليها؛ لأنهن يصفنهن، واللازم باطل فالملزوم مثله. وهكذا لا وجه لما قاله الشعبي، وعكرمة من أنه يكره للمرأة أن تضع خمارها عند عمها أو خالها،

أنه ليس لأحد أن يجمع نكر الله سبحانه مع غيره في ضمير واحد، وهذا الحديث ثابت في الصحيح. وثبت أيضاً في الصحيح: أن رسول الله ﷺ أمر منادياً ينادي يوم خيبر: إن الله ورسوله ينهيانكم عن لحوم الحمر الأهلية. ولأهل العلم أبحاث في الجمع بين الحديثين ليس هذا موضع نكرها، والآية مؤيدة للجواز لجعل الضمير فيها لله، ولملائكته واحداً، والتعليل بالتشريف للملائكة يقال مثله في رسول الله ﷺ، ويحمل النعم لذلك الخطيب الجامع بينهما على أنه ﷺ فهم منه إرادة التسوية بين الله سبحانه، وبين رسوله، فيختص المنع بمثل ذلك، وهذا أحسن ما قيل في الجمع. وقالت طائفة: في هذه حنف، والتقدير: إن الله يصلي، وملائكته يصلون، وعلى هذا القول، فلا تكون الآية مما جمع فيه بين نكر الله، ونكر غيره في ضمير واحد، ولا يرد أيضاً ما قيل: إن الصلاة من الله الرحمة، ومن ملائكته الدعاء، فكيف يجمع بين هذين المعنيين المختلفين في لفظ يصلون، ويقال: على القول الأول: أنه أريد يصلون معنى مجازي يعم المعنيين، وذلك بأن يراد بقوله: يصلون يهتمون بإظهار شرفه، أو يعظمون شأنه، أو يعتنون بأمره. وحكى البخاري عن أبي العالية: أن صلاة الله سبحانه ثناؤه عليه عند ملائكته، وصلاة الملائكة الدعاء. وروى الترمذي في سننه عن سفيان الثوري، وغير واحد من أهل العلم: أنهم قالوا: صلاة الرب الرحمة، وصلاة الملائكة الاستغفار. وحكى الواحدي عن مقاتل: أنه قال: أما صلاة الرب، فالمغفرة، وأما صلاة الملائكة، فالاستغفار. وقال عطاء بن أبي رباح: صلاته تبارك وتعالى: سبوح قدوس سبقت رحمتي غضبي. والمقصود من هذه الآية: أن الله سبحانه أخبر عباده بمنزلة نبيه عنده في الملأ الأعلى بأنه يثني عليه عند ملائكته، وأن الملائكة تصلي عليه، وأمر عباده بأن يقتتوا بذلك، ويصلوا عليه.

وقد اختلف أهل العلم في الصلاة على النبي ﷺ هل هي واجبة أم مستحبة؟ بعد اتفاقهم على أن الصلاة عليه فرض في العمر مرة. وقد حكى هذا الإجماع القرطبي في تفسيره، فقال قوم من أهل العلم: إنها واجبة عند نكره، وقال قوم: تجب في كل مجلس مرة. وقد وردت أحاديث مصرحة بنم من سمع نكر النبي ﷺ، فلم يصل عليه.

واختلف العلماء في الصلاة على النبي ﷺ في تشهد الصلاة المفترضة هل هي واجبة أم لا؟ فذهب الجمهور إلى أنها فيها سنة مؤكدة غير واجبة. قال ابن المنذر: يستحب أن لا يصلي أحد صلاة إلا صلى فيها على رسول الله ﷺ، فإن ترك ذلك تارك، فصلاته مجزئة في مذهب مالك، وأهل المدينة، وسفيان الثوري، وأهل الكوفة من أصحاب الرأي، وغيرهم، وهو قول جمهور أهل العلم. قال: وشذ الشافعي، فأوجب على تاركها الإعادة مع تعدد تركها دون النسيان، وهذا القول عن الشافعي لم يروه عنه إلا حرمة بن يحيى، ولا يوجد عن الشافعي إلا من روايته. قال الطحاوي: لم يقل به أحد من أهل العلم غير الشافعي. وقال الخطابي، وهو من

عبد الرزاق، وعبد بن عبيد، وابن المنذر عن قتادة قال: قال طلحة بن عبيد الله: لو قبض النبي ﷺ لتزوجت عائشة. فنزلت. وأخرج ابن سعد عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال: نزلت في طلحة؛ لأنه قال: إذا توفي النبي ﷺ تزوجت عائشة. قال ابن عطية: وهذا عندي لا يصح على طلحة بن عبيد الله. قال القرطبي: قال شيخنا الإمام أبو العباس: وقد حكى هذا القول عن بعض فضلاء الصحابة، وحاشاهم عن مثله، وإنما الكذب في نقله، وإنما يليق مثل هذا القول بالمنافقين الجاهل. وأخرج البيهقي في السنن عن ابن عباس قال: قال رجل من أصحاب النبي ﷺ: لو قد مات رسول الله ﷺ تزوجت عائشة، أو أم سلمة، فأنزل الله ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْثِرُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ الآية. وأخرج ابن جرير عنه: «أن رجلاً أتى بعض أزواج النبي ﷺ، فكلما، وهو: ابن عمها، فقال النبي ﷺ: لا تقوم من هذا المقام بعد يومك هذا، فقال: يا رسول الله إنها ابنة عمي، والله ما قلت لها منكراً، ولا قلت لي، قال النبي ﷺ: قد عرفت ذلك إنه ليس أحد أغير من الله، وإنه ليس أحد أغير مني، فمضى، ثم قال: يعنني من كلام ابنة عمي، لأنزجتها من بعده، فأنزل الله هذه الآية، فاعتق ذلك الرجل رقبة، وحمل على عشرة أبعة في سبيل الله، حج ماشياً توبة من كلمته. وأخرج ابن مردويه عن أسماء بنت عميس قالت: خطبني علي، فبلغ ذلك فاطمة، فأتت رسول الله ﷺ، فقالت: إن أسماء متزوجة علياً، فقال لها النبي ﷺ: ما كان لها أن تؤذي الله ورسوله. وأخرج ابن سعد عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف في قوله: ﴿إِنْ تَبَدُّوا شَيْئاً أَوْ تَخَفَوْهُ﴾ قال: أن تكلموا به، فتقولون: تتزوج فلانة لبعض أزواج النبي ﷺ، أو تخفوا ذلك في أنفسكم، فلا تنطقوا به يعلمه الله. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِمْ﴾ إلى آخر الآية قال: أنزلت هذه في نساء النبي ﷺ خاصة، وقوله: نساء النبي يعني: نساء المسلمين ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ من المماليك، والإماء، ورخص لهن: أن يروهن بعد ما ضرب الحجاب عليهن.

إِنَّ اللَّهَ وَكَتَبَكُمْ يَصُورُونَ عَلَى الْغَيْبِ يَكُنَّ الْأَيُّ مَاتُوا سَلَوًا عَلَيْهِ وَسَلَمًا ۝١٥١ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَنَنهَ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ۝١٥٢ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيًا مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِمْ فَتَدْرَأُ أَهْمَافًا ۝١٥٣

قرأ الجمهور ﴿وملائكته﴾ بنصب الملائكة عطفًا على لفظ اسم إن. وقرأ ابن عباس ﴿وملائكته﴾ بالرفع عطفًا على محل اسم إن، والضمير في قوله: ﴿يصلون﴾ راجع إلى الله، وإلى الملائكة، وفيه تشريف للملائكة عظيم حيث جعل الضمير لهم والله سبحانه واحداً، فلا يرد الاعتراض بما ثبت عنه ﷺ لما سمع قول الخطيب يقول: من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى، فقال: بشس خطيب القوم أنت، قل: ومن يعص الله ورسوله، ووجه ذلك:

الشافعية: إنها ليست بواجبة في الصلاة. قال: وهو قول جماعة الفقهاء إلا الشافعي، ولا أعلم له في ذلك قوة. انتهى. وقد قال بقول الشافعي: جماعة من أهل العلم منهم الشعبي، والباقر، ومقاتل بن حيان، وإليه ذهب أحمد بن حنبل أخيراً، كما حكاه أبو زرعة الدمشقي، وبه قال ابن راهويه، وابن الموزان من المالكية.

وقد جمعت في هذه المسألة رسالة مستقلة ذكرت فيها ما احتج به الموجبون لها، وما أجاب به الجمهور، وأشرف ما يستدل به على الوجوب الحديث الثابت بلفظ «إن الله أمرنا أن نصلي عليك، فكيف نصلي عليك في صلاتنا، فقال: قولوا: الحديث. فإن هذا الأمر يصلح للاستدلال به على الوجوب. وأما على بطلان الصلاة بالترك، وجوب الإعادة لها، فلا، لأن الواجبات لا يستلزم عدمها العدم كما يستلزم تلك الشروط والأركان.

وإعلم أنه قد ورد في فضل الصلاة على رسول الله ﷺ أحاديث كثيرة لو جمعت لجاءت في مصنف مستقل، ولو لم يكن منها إلا الأحاديث الثابتة في الصحيح من قوله ﷺ: «من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشراً»، فناهيك بهذه الفضيلة الجليلة، والمكرمة النبيلة. وأما صفة الصلاة عليه ﷺ، فقد وردت فيها صفات كثيرة بأحاديث ثابتة في الصحيحين وغيرهما، منها ما هو مقيد بصفة الصلاة عليه في الصلاة، ومنها ما هو مطلق، وهي معروفة في كتب الحديث، فلا نطيل بنكرها. والذي يحصل به الامتثال لمطلق الأمر في هذه الآية هو: أن يقول القائل: اللهم صلّ، وسلم على رسولك، أو على محمد، أو على النبي، أو اللهم صلّ على محمد وسلم. ومن أراد أن يصلي عليه ويسلم عليه بصفة من الصفات التي ورد التعليم بها، والإرشاد إليها، فذلك أكمل، وهي صفات كثيرة قد اشتملت عليها كتب السنة المطهرة، وسيأتي بعضها آخر البحث، وسيأتي الكلام في الصلاة على الأهل. وكان ظاهر هذا الأمر بالصلاة والتسليم في الآية أن يقول القائل: صليت عليه وسلمت عليه، أو الصلاة عليه والسلام عليه، أو عليه الصلاة والتسليم؛ لأن الله سبحانه أمرنا بإيقاع الصلاة عليه والتسليم منا، فالامتثال هو: أن يكون ذلك على ما ذكرنا، فكيف كان الامتثال لأمر الله لنا بذلك أن نقول: اللهم صلّ عليه وسلم، بمقابلة أمر الله لنا بأمرنا له بأن يصلي عليه، ويسلم عليه. وقد أجيّب عن هذا بأن هذه الصلاة والتسليم لما كانتا شعاراً عظيماً للنبي ﷺ وتشريعاً كريماً، وكلنا ذلك إلى الله عزّ وجلّ، وأرجعناه إليه، وهذا الجواب ضعيف جداً. وأحسن ما يجاب به: أن يقال: إن الصلاة والتسليم للمأمور بهما في الآية هما: أن نقول: اللهم صلّ عليه وسلم، أو نحو ذلك مما يؤدّي معناه كما بينه رسول الله ﷺ لنا، فاقترضى ذلك البيان في الأحاديث الكثيرة: أن هذه هي الصلاة الشرعية.

وإعلم أن هذه الصلاة من الله على رسوله، وإن كان معناها: الرحمة، فقد صارت شعاراً له يختصّ به دون غيره،

فلا يجوز لنا أن نصلي على غيره من أمته كما يجوز لنا أن نقول: اللهم ارحم فلاناً، أو رحم الله فلاناً، وبهذا قال جمهور العلماء مع اختلافهم هل هو محرم، أو مكروه كراهة شديدة، أو مكروه كراهة تنزيه على ثلاثة أقوال. وقد قال ابن عباس كما رواه عنه ابن أبي شيبه، والبيهقي في الشعب: لا تصلح الصلاة على أحد إلا على النبي ﷺ، ولكن يدعى للمسلمين والمسلمات بالاستغفار. وقال قوم: إن ذلك جائز لقوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ [التوبة: 103]، ولقوله: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: 157]، ولقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يَصْلِي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾ [الأحزاب: 43]، ولحديث عبد الله بن أبي، أوفى الثابت في الصحيحين، وغيرهما قال: «كان رسول الله ﷺ إذا أتاه قوم بصنفتهم قال: اللهم صلّ عليهم، فأتاه أبي بصنفته، فقال: اللهم صلّ على آل أبي أوفى»، ويجاب عن هذا بأن هذا الشعر الثابت لرسول الله ﷺ له أن يخص به من شاء، وليس لنا أن نطلقه على غيره. وأما قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يَصْلِي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾ [الأحزاب: 43]، وقوله: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: 157]، فهذا ليس فيه إلا أن الله سبحانه يصلي على طوائف من عبادته كما يصلي على من صلى على رسوله مرة واحدة عشر صلوات، وليس في ذلك أمر لنا، ولا شرعه الله في حقنا، بل لم يشرع لنا إلا الصلاة والتسليم على رسوله. وكما أن لفظ الصلاة على رسول الله شعار له، فكذا لفظ السلام عليه. وقد جرت عادة جمهور هذه الأمة، والسواد الأعظم من سلفها وخلفها على الترضي عن الصحابة، والترحم على من بعدهم، والدعاء لهم بمغفرة الله وعفوه كما أُرشدنا إلى ذلك بقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحشر: 10]، ثم لما ذكر سبحانه ما يجب لرسوله من التعظيم ذكر الوعيد الشديد للذين يؤذونه، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ قيل: المراد بالأذى هنا هو: فعل ما يكرهه من المعاصي لاستحالة التأذي منه سبحانه. قال الواحدي: قال المفسرون هم: المشركون، واليهود، والنصارى وصفوا الله بالولد، فقالوا: عزير ابن الله، والمسيح ابن الله، والملائكة بنات الله، وكتبوا رسول الله، وشجوا وجهه، وكسروا رباعيته، وقالوا: مجنون شاعر كذاب ساحر. قال القرطبي: وبهذا قال جمهور العلماء. وقال عكرمة: الآية لله سبحانه بالتصوير، والتعرض لفعل ما لا يفعله إلا الله بنحت الصور، وغيرها. وقال جماعة: إن الآية على حذف مضاف، والتقدير: إن الذين يؤذون أولياء الله. وأما آية رسوله، فهي: كل ما يؤذيه من الأقوال، والأفعال. ومعنى اللعنة: الطرد، والإبعاد من رحمته، وجعل ذلك في الدنيا، والآخرة؛ لتشملهم اللعنة فيهما بحيث لا يبقى وقت من أوقات حياتهم ومماتهم إلا واللعنة واقعة عليهم ومصاحبة لهم ﴿وَوَاعَدُ لَهُمْ﴾ مع ذلك اللعن ﴿عَذَاباً مَهِيناً﴾

بعضها على آل إبراهيم فقط، وفي بعضها بالجمع بينهما كحديث طلحة هذا. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما من حديث أبي حميد الساعدي: أنهم قالوا: يا رسول الله «كيف نصلي عليك؟» فقال رسول الله ﷺ: قولوا: اللهم صل على محمد، وأزواجه، وذريته كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد، وأزواجه، وذريته كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد»، والأحاديث في هذا الباب كثيرة جداً، وفي بعضها التقييد بالصلاة كما في حديث أبي مسعود عند ابن خزيمة، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه: أن رجلاً قال: يا رسول الله أما السلام عليك، فقد عرفناه، فكيف نصلي عليك إذا نحن صلينا عليك في صلاتنا؟ الحديث، وأخرج الشافعي في مسنده من حديث أبي هريرة مثله. وجميع التعليمات الواردة عنه ﷺ في الصلاة عليه مشتملة على الصلاة على آله معه إلا النادر اليسير من الأحاديث، فينبغي للمصلي عليه: أن يضم آله إليه في صلاته عليه، وقد قال بذلك جماعة، ونقله إمام الحرمين والغزالي قولاً عن الشافعي كما رواه عنهما ابن كثير في تفسيره، ولا حاجة إلى التمسك بقول قائل في مثل هذا مع تصريح الأحاديث الصحيحة به، ولا وجه لقول من قال: إن هذه التعليمات الواردة عنه ﷺ في صفة الصلاة عليه مقيدة بالصلاة في الصلاة حملاً لمطلق الأحاديث على المقيد منها بذلك القيد، لما في حديث كعب بن عجرة وغيره أن ذلك السؤال لرسول الله ﷺ كان عند نزول الآية. وأخرج عبد الرزاق، وابن مريويه، والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «صلوا على أنبياء الله، ورسله، فإن الله بعثهم كما بعثني» وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الآية قال: نزلت في الذين طعنوا على النبي ﷺ حين اتخذ صفية بنت حيي، وروي عنه: أنها نزلت في الذين قذفوا عائشة.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِيكَ عَنْهُنَّ مِنْ جَنَّتَيْهِنَّ ذَلِكُمْ أَذْفَىٰ أَنْ يَمُرُّنَ فَلَا يَذَرْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٨﴾ لِّئِنْ لَّرَبُّنَا الْمُتَفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْفِرُنَّكَ لَهُمْ ثُمَّ لَا يَجَاوِزُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٩﴾ تَلْعَوْنَكُمْ أَيْسَارًا يُغْفَوْنَ أُخِذُوا وَقُفِّلُوا تَعْتِيلًا ﴿١٠﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿١١﴾ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَمَّا السَّاعَةُ تَكُونُ كَرِيماً ﴿١٢﴾ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعيراً ﴿١٣﴾ خَلِيلِينَ فِيهَا أُولَا لَا يَحْذَرُونَ وَإِنَّمَا لَا تُحْيِيهِمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيِّنَا اللَّهُ وَهَلَمَّا الرُّسُلَا ﴿١٤﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أُلْعَنَّا سَاعَتَنَا وَكَلَّهْنَا فَأَصْلَحْنَا السَّبِيلَا ﴿١٥﴾ رَبَّنَا إِنَّا نَتَّبِعُكَ مِنْكَ الْمَذَابِ وَالْعَمَمِ لَعَنَّا كَيْدَا ﴿١٦﴾

لما فرغ سبحانه من الزجر لمن يؤذي رسوله، والمؤمنين، والمؤمنات من عباده أمر رسوله ﷺ: بأن يامر بعض من ناله الأذى ببعض ما يدفع ما يقع عليه منه، فقال:

يصيرون به في الإهانة في الدار الآخرة لما يفيد معنى الإعداد من كونه في الدار الآخرة. ثم لما فرغ من الذم لمن آذى الله ورسوله ذكر الأذية لصالح عباده، فقال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ بوجه من وجوه الأذى من قول، أو فعل، ومعنى «بغير ما اكتسبوا»: أنه لم يكن ذلك لسبب فعلوه يوجب عليهم الأذية، ويستحقونها به، فأما الأذية للمؤمن والمؤمنة بما كسبه مما يوجب عليه حداً، أو تعزيراً، أو نحوهما، فذلك حق أثبتته الشرع، وأمرنا الله به، وندبنا إليه، وهكذا إذا وقع من المؤمنين والمؤمنات الابتداء بشتى لمؤمن، أو مؤمنة، أو ضرب، فإن القصاص من الفاعل ليس من الأذية المحرمة على أي وجه كان ما لم يجاوز ما شرعه الله. ثم أخبر عما لهؤلاء الذين يؤذون المؤمنين، والمؤمنات بغير ما اكتسبوا، فقال: ﴿فَقَدْ احْتَمَلُوا بِهِتَانًا وَإِنَّمَا مَبِينَا﴾ أي: ظاهراً واضحاً لا شك في كونه من البهتان والإثم، وقد تقدم بيان حقيقة البهتان، وحقيقة الإثم.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه عن ابن عباس «يصلون على النبي» يبركون. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة، وابن مريويه عن ابن عباس: أن بني إسرائيل قالوا لموسى: هل يصلي ربك؟ فناداه ربه: يا موسى سأورك: هل يصلي ربك؟ فقل: نعم أنا أصلي وملائكتي على أنبيائي ورسلي، فأنزل الله على نبيه ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ الآية. وأخرج ابن مريويه عنه قال: إن صلاة الله على النبي هي: المغفرة، إن الله لا يصلي، ولكن يغفر، وأما صلاة الناس على النبي، فهي: الاستغفار له. وأخرج ابن مريويه عن ابن عباس أنه قرأ «صلوا عليه كما صلى الله عليه، وسلموا تسليماً». وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وابن مريويه عن كعب بن عجرة قال: لما نزلت ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ الآية، قلنا: يا رسول الله قد علمنا السلام عليك، فكيف الصلاة عليك؟ قال: قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد. وأخرجه البخاري، ومسلم، وغيرهما من حديثه بلفظ: قال رجل: يا رسول الله: أما السلام عليك فقد علمناه، فكيف الصلاة عليك؟ قال: قل: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وأحمد، والنسائي من حديث طلحة بن عبيد الله قال: قلت: يا رسول الله كيف الصلاة عليك؟ قال: قل: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد. وفي الأحاديث اختلاف، ففي بعضها على إبراهيم فقط، وفي

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأُزْوَجَكَ وَبَنَاتَكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ﴾ من للتبعيض، والجلابيب جمع جلباب، وهو: ثوب أكبر من الخمار. قال الجوهري: الجلباب الملحقة، وقيل: القناع، وقيل: هو ثوب يستر جميع بدن المرأة، كما ثبت في الصحيح من حديث أم عطية أنها قالت: يا رسول الله إحدانا لا يكون لها جلباب، فقال: لتلبسها أختها من جلبابها، قال للواحدي: قال المفسرون: يغطين وجوههن، ورؤوسهن إلا عيناً واحدة، فيعلم: أنهن حرائر، فلا يعرض لهن بأذى. وقال الحسن: تغطي نصف وجهها. وقال قتادة: تلويه فوق الجبين، وتشده، ثم تعطفه على الأنف، وإن ظهرت عينها لكنه يستر الصدر، ومعظم الوجه، والإشارة بقوله: ﴿تِلْكَ﴾ إلى إثناء الجلابيب، وهو مبتدأ، وخبره ﴿أَنِّي أَنِّي يَعْرِفْنَ﴾ أي: أقرب أن يعرفن، فيتميزن عن الإماء، ويظهر للناس أنهن حرائر ﴿فَلَا يُؤْنِسْنَ﴾ من جهة أهل الريبة بالعرض لهن مراقبة لهن، ولأهلن، وليس المراد بقوله: ﴿تِلْكَ أَنِّي أَنِّي يَعْرِفْنَ﴾ أن تعرف الواحدة منهن من هي، بل المراد: أن يعرفن أنهن حرائر لا إماء؛ لأنهن قد لبسن لبسة تختص بالحرائر ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ لما سلف منهن من ترك إثناء الجلابيب ﴿رَحِيمًا﴾ بهن، أو غفوراً للذنوب المنبئين رحيماً بهم، فيدخلن في ذلك دخولاً أولياً. ثم توعده سبحانه أهل النفاق، والإرجاف، فقال: ﴿لَنْ يَنْفَعَهُ الْمُنَافِقُونَ﴾ عما هم عليه من النفاق ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي: شك وريبة عما هم عليه من الاضطراب ﴿وَالْمَرْجُفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ عما يصدر منهم من الإرجاف يذكر الأخبار الكاذبة المتضمنة لتوهين جانب المسلمين، وظهور المشركين عليهم. قال القرطبي: أهل التفسير على أن الارصاف الثلاثة لشيء واحد، والمعنى: أن المنافقين قد جمعوا بين النفاق، ومرض القلوب، والإرجاف على المسلمين، فهو على هذا من باب قوله:

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتبية في المزمع أي: إلى الملك القرم بن الهمام ليث الكتبية. وقال عكرمة، وشهر بن حوشب: الذين في قلوبهم مرض هم: الزناة. والإرجاف في اللغة: إشاعة الكذب، والباطل، يقال: أرجف بكذا: إذا أخبر به على غير حقيقة لكونه خبراً متزلزلاً غير ثابت، من الرجفة، وهي: الزلزلة. يقال: رجفت الأرض: أي: تحركت، وتزلزلت ترجف رجفاً، والرجفان: الاضطراب الشديد، وسمي البحر: رجافاً لاضطرابه، ومنه قول الشاعر: المطعمون للحم كل عشية حتى تغيب الشمس في الرجاف والإرجاف واحد الأراجيف، وأرجفوا في الشيء خاضوا فيه، ومنه قول شاعر:

فإننا وإن غيرتمونا بقلعة وأرجف بالإسلام باغ وحاسد وقول الآخر:

أبأراجيف يابن اللوم توعدني وفي الأراجيف خلت اللؤم والخور وذلك بأن هؤلاء المرجفين كانوا يخبرون عن سرايا المسلمين بأنهم هزموا، وتارة بأنهم قتلوا، وتارة بأنهم

غلبوا، ونحو ذلك مما تنكسر له قلوب المسلمين من الأخبار، فتوعدهم الله سبحانه بقوله: ﴿لَنُغْفِرَنَّ بِهِمْ﴾ أي: لنسلطنك عليهم، فتستأصلهم بالقتل والتشريد بأمرنا لك بذلك. قال المبرد: قد أغراه الله بهم في قوله بعد هذه الآية ﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثَقِفُوا لُحْنُوا وَثَقِلُوا ثَقْتِيلًا﴾ فهذا فيه معنى: الأمر بقتلهم، وأخذهم: أي: هذا حكمهم إذا كانوا مقيمين على النفاق، والإرجاف. قال النحاس: وهذا من أحسن ما قيل في الآية. وأقول ليس هذا بحسن، ولا أحسن، فإن قوله: ملعونين إلخ، إنما هو لمجرد الدعاء عليهم لا أنه أمر لرسول الله ﷺ بقتلهم، ولا تسليط لهم عليهم، وقد قيل: إنهم انتهوا بعد نزول هذه الآية عن الإرجاف، فلم يفره الله بهم، وجملة ﴿لَنُغْفِرَنَّ بِهِمْ﴾ جواب القسم، وجملة ﴿ثُمَّ لَا يَجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ معطوفة على جملة جواب القسم: أي: لا يجاورونك فيها إلا جواراً قليلاً حتى يهلكوا، وانتصاب ﴿مَلْعُونِينَ﴾ على الحال كما قال المبرد، وغيره، والمعنى: مطروين ﴿أَيْنَمَا﴾ وجدوا، وأدركوا ﴿لُحْنُوا وَثَقِلُوا﴾ دعاء عليهم بأن يؤخروا ويقتلوا ﴿ثَقِيلًا﴾ وقيل: إن هذا هو الحكم فيهم، وليس بدعاء عليهم، والأول أولى. وقيل: معنى الآية: أنهم إن أصرروا على النفاق لم يكن لهم مقام بالمدينة إلا وهم مطرويون ﴿سَفَةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ أي: ساء الله ذلك في الأمم الماضية، وهو لعن المنافقين وأخذهم وبقوتهم، وكذا حكم المرجفين، وهو منتصب على المصدر. قال الزجاج: بين الله في الذين ينافقون الأنبياء، ويرجعون بهم: أن يقتلوا حيثما ثقفوا ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسْفَةَ اللَّهِ تَبْيِيلًا﴾ أي: تحويلاً، وتغييراً، بل هي ثابتة دائمة في أمثال هؤلاء في الخلف والسلف ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ﴾ أي: عن وقت قيامها، وحصولها؛ قيل: السائلون عن الساعة هم: أولئك المنافقون، والمرجعون لما توعدوا بالعذاب سألوا عن الساعة استبعاداً، وتكنياً ﴿يَوْمَا يَذُوقُكَ﴾ يا محمد: أي: ما يعلمك، ويخبرك ﴿لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ أي: في زمان قريب، وانتصاب قريباً على الظرفية والتذكير لكون الساعة في معنى: اليوم، أو الوقت مع كون تأنيث الساعة ليس بحقيقي، والخطاب لرسول الله ﷺ لبيان أنها إذا كانت محجوبة عنه لا يعلم وقتها، وهو: رسول الله، فكيف بغيره من الناس؟ وفي هذا تهديد لهم عظيم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ﴾ أي: طردهم، وأبعدهم من رحمته ﴿وَوَاعَدَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ مَعَ ذَلِكَ اللَّعْنِ مِنْهُ لَهَنَ فِي الدُّنْيَا﴾ ﴿سَعِيرًا﴾ أي: ناراً شديدة التسعر ﴿خَالِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ بلا انقطاع ﴿لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يواليهم، ويحفظهم من عذابها ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ينصرهم، ويخلصهم منها، ويوم في قوله: ﴿يَوْمَ تَقَلَّبَ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ ظرف لقوله: لا يجدون، وقيل: لخاليين، وقيل: لنصيرها، وقيل: لفعل مقدر، وهو: أنكر. قرأ الجمهور (تقلب) بضم التاء، وفتح اللام على البناء للمفعول. وقرأ عيسى الهمداني، وابن أبي إسحاق (تقلب) بالنون، وكسر اللام على البناء للفاعل، وهو: الله سبحانه. وقرأ

وكان ناس من المنافقين يتعرّضون لهم، فيؤذنين، فقيل: تلك للمنافقين، فقالوا: إنما نفعلهم بالإماء، فنزلت هذه ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ الْآيَةَ﴾. وأخرج ابن سعد عن محمد بن كعب القرظي قال: كان رجل من المنافقين يتعرّض لنساء المؤمنين يؤذيهن، فإذا قيل له قال: كنت أحسبها أمة، فأمرهن الله أن يخالفن زِيَّ الإماء، ويدنين عليهن من جلابيبهن تخمر وجهها إلا إحدى عينيهما ﴿تِلْكَ أُنثَىٰ أَنْ يَعْرِفَنَ﴾ يقول: تلك أخرى أن يعرفن. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس في هذه الآية قال: أمر الله نساء المؤمنات إذا خرجن من بيوتهن في حاجة: أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب، ويبدين عيناً واحدة. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وأبو داود، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن أم سلمة قالت: لما نزلت هذه الآية ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَ مِّنْ جُلَابِيِهِنَّ﴾ خرج نساء الانصار كان رؤوسهن الغريان من السكينة، وعليهن اكسية سود يلبسنها، هكذا في الزوائد بلفظ من السكينة، وليس لها معنى، فإن المراد تشبيه الكسية السود بالغريان، لا أن المراد وصفهن بالسكينة كما يقال: كان على رؤوسهم الطير. وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت: رحم الله نساء الانصار لما نزلت ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ الْآيَةَ﴾ شققن مروطهن، فاعتجرن بها، وصلين خلف رسول الله ﷺ كأنما على رؤوسهن الغريان. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال: كانت الحرّة تلبس لباس الأمة، فأمر الله نساء المؤمنات: أن يدنين عليهن من جلابيبهن، وإنشاء الجلاب: أن تقنع، وتشده على جبينها. وأخرج ابن سعد عن محمد بن كعب في قوله: ﴿لَنْ يَكُنَّ لَم يَكُنَّ الْمُنَافِقُونَ﴾ يعني: المنافقين بأعيانهم ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ شك: يعني: المنافقين أيضاً. وأخرج ابن سعد أيضاً عن عبيد بن جبير قال: ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْمُرْجَفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ هم: المنافقون جميعاً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿لَنُغْفِرَنَّ لَهُمْ﴾ قال: لنسلطنك عليهم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَكَلَّمُوا كَالَّذِينَ ءَادَوْا مُوسَىٰ فَعَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهاً ﴿١٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً ﴿٢٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴿٢١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴿٢٢﴾ لَعَذَابُ اللَّهِ أَكْثَرُ لِلْمُفْسِدِينَ وَالْمُنْفِرِينَ وَالشُّرَكِيَّةَ وَالشُّرَكَاءَ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴿٢٣﴾

قوله: ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى﴾ هو قولهم: إن به أذرة، أو برصاً، أو عيباً، وسيأتي بيان ذلك آخر البحث، وفيه تاليب للمؤمنين، وزجر لهم عن أن يخلوا في شيء من الأمور التي تؤذي رسول الله. قال مقاتل: وعظ الله

عيسى أيضاً بضم التاء، وكسر اللام على معنى: تقلب السعير وجوهمهم. وقرأ أبو حيو، وأبو جعفر، وشيبة بفتح التاء واللام على معنى: تتقلب، ومعنى هذا التقلب المذكور في الآية: هو: تقلبها تارة على جهة منها، وتارة على جهة أخرى ظهراً لبطن، أو تغير ألوانهم بلفح النار، فتسود تارة، وتخضر أخرى، أو تبديل جلودهم بجلود أخرى، فحينئذ يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول! والجملة مستأنفة كأنه قيل: فما حالهم؟ فقيل: يقولون، ويجوز: أن يكون المعنى: يقولون يوم تقلب وجوهمهم في النار ياليتنا إلخ. تمنوا: أنهم أطاعوا الله والرسول، وأمنوا بما جاء به؛ لينجوا مما هم فيه من العذاب كما نجا المؤمنون، وهذه الألف في الرسول، والألف التي ستأتي في السبيل، هي: الألف التي تقع في الفواصل، ويسمى النحاة ألف الإطلاق، وقد سبق بيان هذا في أول هذه السورة ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَابِقَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا﴾ هذه الجملة معطوفة على الجملة الأولى، والمراد بالسادة والكبراء هم: الرؤساء والقادة الذين كانوا يمثلون أمرهم في الدنيا، ويقتنون بهم، وفي هذا زجر عن التقليد شديد، وكف في الكتاب العزيز من التنبيه على هذا، والتحذير منه، والتنفير عنه، ولكن لمن يفهم معنى كلام الله، ويقتدي به، وينصف من نفسه، لا لمن هو من جنس الأنعام في سوء الفهم، ومزيد البلادة، وشدة التعصب. وقرأ الحسن، وابن عامر (ساداتنا) بكسر التاء جمع سادة، فهو: جمع الجمع. وقال مقاتل: هم: المطعمون في غزوة بدر، والأول أولى، ولا وجه للتخصيص بطائفة معينة ﴿فَاضْلُونا لِّلسَّبِيلِ﴾ أي: عن السبيل بما زينوا لنا من الكفر بالله، ورسوله، والسبيل هو: التوحيد، ثم دعوا عليهم في ذلك الموقف، فقالوا: ﴿رَبَّنَا أَنْتُمْ ضَعُفْتُمْ مِنَ الْعَذَابِ﴾ أي: مثل عذابنا مرتين. وقال قتادة: عذاب الدنيا، والآخرة، وقيل: عذاب الكفر، وعذاب الإضلال ﴿وَالْعَذَابُ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ قرأ الجمهور (كثيراً) بالمثلثة: أي: لعناً كثير العدد عظيم القدر شديد الموقع، واختار هذه القراءة أبو حاتم، وأبو عبيد، والنحاس، وقرأ ابن مسعود، وأصحابه، ويحيى بن وثاب، وعاصم بالباء الموحدة: أي: كبيراً في نفسه شديداً عليهم ثقیل الموقع.

وقد أخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن عائشة قال: خرجت سودة بعد ما ضرب الحجاب لحاجتها، وكانت امرأة جسيمة لا تخفى على من يعرفها، فرأها عمر، فقال: يا سودة أما والله ما تخفين علينا، فانظري كيف تخرجين؟ قال: فانكفت راجعة، ورسول الله ﷺ في بيتي، وإنه ليتعشى، وفي يده عرق، فدخلت، وقالت: يا رسول الله إني خرجت لبعض حاجتي، فقال لي عمر: كذا وكذا، فأوجي إليه، ثم رفع عنه، وإن العرق في يده ما وضعه، فقال: إنه قد أدن لكن: أن تخرجن لحاجتك، وأخرج سعيد بن منصور، وابن سعد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي مالك قال: كان نساء النبي ﷺ يخرجن بالليل لحاجتهن،

المؤمنين: أن لا يؤذوا محمداً ﷺ كما آذى بنو إسرائيل موسى. وقد وقع الخلاف فيما أؤذي به نبينا محمد ﷺ حتى نزلت هذه الآية، فحكى النقاش: أن أنيتهم محمداً قولهم: زيد بن محمد. وقال أبو وائل: إنه ﷺ قسم قسماً، فقال رجل من الأنصار: إن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله، وقيل: نزلت في قصة زيد بن ثابت، وزينب بنت جحش، وما سمع فيها من قالة الناس، ومعنى «وكان عند الله وجهها»: وكان عند الله عظيماً ذا وجهة، الوجهية عند الله العظيم القبر الرفيع المنزل، وقيل: في تفسير الوجهية: إنه كلمه تكليماً. قرأ الجمهور (وكان عند الله) بالنون على الظرفية المجازية، وقرأ ابن مسعود، والأعمش، وأبو حيوة عبد الله بالباء الموحدة من العبودية، وما في قوله: «فبَرَّاهُ الله مما قالوا» هي: الموصولة، أو المصدرية: أي: من الذي قالوه، أو من قولهم: «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله» أي: في كل أمر من الأمور «وقولوا قولاً سديداً» أي: قولاً صواباً، وحقاً. قال قتادة، ومقاتل: يعني: قولوا قولاً سديداً في شأن زيد، وزينب، ولا تنسبوا النبي ﷺ إلى ما لا يحل. وقال عكرمة: إن القول السديد: لا إله إلا الله. وقيل: هو الذي يوافق ظاهره باطنه، وقيل: هو ما أريد به وجه الله دون غيره، وقيل: هو الإصلاح بين الناس. والسديد مأخوذ من تسديد السهم: ليصاوب به الغرض، والظاهر من الآية: أنه أمرهم بأن يقولوا قولاً سديداً في جميع ما يأتونه، ويذرونه، فلا يخص ذلك نوعاً دون نوع، وإن لم يكن في اللفظ ما يقتضي العموم، فالمقام يفيد هذا المعنى، لأنه أرشد سبحانه عباده إلى أن يقولوا قولاً يخالف قول أهل الأذى. ثم ذكر ما لهؤلاء الذين امتثلوا الأمر بالقول، والقول السديد من الأجر، فقال: «يصلح لكم أعمالكم» أي: يجعلها صالحة لا فاسدة بما يهديهم إليه، ويوفقه في «ويغفر لكم ذنوبكم» أي: يجعلها مكفرة مغفورة «ومن يطع الله ورسوله» في فعل ما هو طاعة، واجتنب ما هو معصية «فقد فاز فوزاً عظيماً» أي: ظفر بالخير ظفراً عظيماً، ونال خير الدنيا والآخرة، وهذه الجملة مستأنفة مقررة لما سبقها، ثم لما فرغ سبحانه من بيان ما لأهل الطاعة من الخير بعد بيان ما لأهل المعصية من العذاب بين عظم شأن التكليف الشرعية، وصعوبة أمرها، فقال: «إننا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها».

واختلف في تفسير هذه الأمانة المذكورة هنا، فقال الواحدي: معنى الأمانة هنا في قول جميع المفسرين: الطاعة، والفرائض التي يتعلق بأدائها الثواب، ويتضييعها العقاب. قال القرطبي: والأمانة تعم جميع وصائص الدين على الصحيح من الأقوال، وهو قول الجمهور.

وقد اختلف في تفاصيل بعضها، فقال ابن مسعود: هي في أمانة الأموال كالودائع، وغيرها، وروي عنه: أنها في كل الفرائض، وأشدّها أمانة المال. وقال أبي بن كعب: من

الأمانة أن ائتمنت المرأة على فرجها. وقال أبو الدرداء: غسل الجنابة أمانة، وإن الله لم يأمن ابن آدم على شيء من دينه غيرها. وقال ابن عمر: أول ما خلق الله من الإنسان فرجه، وقال: هذه أمانة استودعها، فلا تليسها إلا بحق، فإن حفظتها حفظتكَ. فالفرج أمانة، والأذن أمانة، والعين أمانة، واللسان أمانة، والبطن أمانة، واليد أمانة، والرجل أمانة، ولا إيمان لمن لا أمانة له. وقال السدي: هي: ائتمان آدم ابنه قابيل على ولده هابيل، وخيانتة إياه في قتله. وما أبعد هذا القول، وليت شعري ما هو الذي سوغ للسدي تفسير هذه الآية بهذا، فإن كان ذلك لليل له على ذلك فلا ليل، وليست هذه الآية حكاية عن الماضين من العباد حتى يكون له في ذلك متمسك أبعد من كل بعيد، وأوهن من بيوت العنكبوت، وإن كان تفسير هذا عملاً بما تقتضيه اللغة العربية، فليس في لغة العرب ما يقتضي هذا، ويوجب حمل هذه الأمانة المطلقة على شيء كان في أول هذا العالم، وإن كان هذا تفسيراً منه بمحض الرأي، فليس الكتاب العزيز عرضة لتلاعب آراء الرجال به، ولهذا ورد الوعيد على من فسر القرآن براه، فاحذر أيها الطالب للحق عن قبول مثل هذه التفسيرات، واشدد يدك في تفسير كتاب الله على ما تقتضيه اللغة العربية، فهو قرآن عربي كما وصفه الله، فإن جاءك التفسير عن رسول الله ﷺ، فلا تلتفت إلى غيره، وإذا جاء نهر الله بطل نهر مغل، وكذلك ما جاء عن الصحابة رضي الله عنهم، فإنهم من جملة العرب، ومن أهل اللغة، ومن جمع إلى اللغة العربية العلم بالاصطلاحات الشرعية، ولكن إذا كان معنى اللفظ أوسع مما فسروه به في لغة العرب، فعليك أن تضم إلى ما ذكره الصحابي ما تقتضيه لغة العرب، وأسرارها، فخذ هذه كلية تنتفع بها، وقد ذكرنا في خطبة هذا التفسير ما يرشدك إلى هذا. قال الحسن: إن الأمانة عرضت على السموات والأرض، والجبال، فقالت: وما فيها؟ فقال لها: إن أحسنت أجرتك، وإن أسأت عذبتك، فقالت: لا. قال مجاهد: فلما خلق الله آدم عرضها عليه، وقيل له ذلك، فقال: قد تحملتها. وروي نحو هذا عن غير الحسن، ومجاهد. قال النحاس: وهذا القول هو الذي عليه أهل التفسير. وقيل: هذه الأمانة هي ما أودعه الله في السموات، والأرض، والجبال، وسائر المخلوقات من الدلائل على ربوبيته أن يظهرها، فاطهرها، إلا الإنسان، فإنه كتمها، وجدها. كذا قال بعض المتكلمين مفسراً للقرآن براهي الزائف، فيكون على هذا معنى عرضنا: أظهرنا. قال جماعة من العلماء: ومن المعلوم أن الجما لا يفهم، ولا يجيب، فلا بد من تقدير الحياة فيها، وهذا العرض في الآية هو عرض تخيير لا عرض إلزام. وقال القفال، وغيره: العرض في هذه الآية ضرب مثل: أي إن السموات والأرض، والجبال على كبر أجامها لو كانت بحيث يجوز تكليفها لنقل عليها تقلد الشرائع لما فيها من الثواب، والعقاب: أي: أن التكليف أمر عظيم حقه أن تعجز عنه السموات والأرض،

والجبال، وقد كلفه الإنسان، وهو ظلوم جهول لو عقل، وهذا كقوله: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ﴾ [الحشر: 21] وقيل: إن عرضنا بمعنى عارضنا: أي عارضنا الأمانة بالسموات والأرض، والجبال، فضعفت هذه الأشياء عن الأمانة، ورجحت الأمانة بثقلها عليها. وقيل: إن عرض الأمانة على السموات والأرض، والجبال إنما كان من آدم عليه السلام، وأن الله أمره أن يعرض ذلك عليها، وهذا أيضاً تحريف لا تفسير، ومعنى ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾: أي التزم بحملها، وهو في ذلك ظلوم لنفسه جهول لما يلزمه، أو جهول بقدر ما دخل فيه كما قال سعيد بن جبير، أو جهول بربه كما قال الحسن. وقال الزجاج: معنى حملها: خلع فيها، وجعل الآية في الكفار، والفساق، والعصاة، وقيل: معنى حملها: كلفها، والزمها، أو صار مستعداً لها بالفطرة، أو حملها عند عرضها عليه في عالم النور عند خروج نرية آدم من ظهره، وأخذ الميثاق عليهم، واللام في ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ﴾ متعلق بحملها أي: حملها الإنسان: ليعذب الله العاصي، ويثيب المطيع، وعلى هذا، فجملة ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ معترضة بين الجملة، وغايتها للإيدان بعدم وفائه بما تحمله. قال مقاتل بن سليمان، ومقاتل بن حبان: ليعذبهم بما خانوا من الأمانة، وكتبوا من الرسل، ونقضوا من الميثاق الذي أقروا به حين أخرجوا من ظهر آدم. وقال الحسن، وقتادة: هؤلاء المعذبون هم الذين خانوها، وهؤلاء الذين يتوب الله عليهم هم الذين أتوها. وقال ابن قتيبة: أي: عرضنا ذلك، ليظهر نفاق المنافق، وشرك المشرك، فيعذبهما الله، ويظهر إيمان المؤمن، فيتوب الله عليه: أي: يعود عليه بالمغفرة والرحمة إن حصل منه تقصير في بعض الطاعات، ولذلك نكر بلفظ التوبة، يدل على أن المؤمن العاصي خارج من العذاب ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي: كثير المغفرة والرحمة للمؤمنين من عباده إذا قصروا في شيء مما يجب عليهم. وقد قيل: إن المراد بالأمانة العقل، والراجح ما قدمنا عن الجمهور، وما عداه، فلا يخلو عن ضعف لعدم وروده على المعنى العربي، ولا انطباقه على ما يقتضيه الشرع، ولا موافقته لما يقتضيه تعريف الأمانة.

وقد أخرج البخاري وغيره من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن موسى كان رجلاً حياً ستيراً لا يرى من جلده شيء استحياء منه، فإذا من أذاه من بني إسرائيل، فقالوا: ما تستر هذا الستر إلا من عيب بجلده، إما برص، وإما أدره، وإما آفة، وإن الله عز وجل أراد أن يبرئ موسى مما قالوا، فخلا يوماً وحده، فخلع ثيابه على الحجر، ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل على ثيابه لياخذها، وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه، فطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حجر ثوبي حجر، حتى انتهى إلى ملا من بني إسرائيل، فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله، وأبراه مما يقولون، وقام الحجر، فأخذ ثوبه فلبسه، وطفق بالحجر

وقد أخرج البخاري وغيره من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن موسى كان رجلاً حياً ستيراً لا يرى من جلده شيء استحياء منه، فإذا من أذاه من بني إسرائيل، فقالوا: ما تستر هذا الستر إلا من عيب بجلده، إما برص، وإما أدره، وإما آفة، وإن الله عز وجل أراد أن يبرئ موسى مما قالوا، فخلا يوماً وحده، فخلع ثيابه على الحجر، ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل على ثيابه لياخذها، وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه، فطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حجر ثوبي حجر، حتى انتهى إلى ملا من بني إسرائيل، فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله، وأبراه مما يقولون، وقام الحجر، فأخذ ثوبه فلبسه، وطفق بالحجر

فيها، فما كان إلا ما بين العصر إلى الليل من ذلك اليوم حتى أصاب النذب. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عنه أيضاً من طريق أخرى نحوه.

تفسير سورة سبأ

وهي مكية. قال القرطبي في قول الجميع إلا آية واحدة اختلف فيها، وهي قوله: ﴿وَيُرَى الَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ﴾ [سبأ: 6]، فقلت فرقة: هي: مكية، وقالت فرقة: هي: مدنية، وسيأتي الخلاف في معنى هذه الآية إن شاء الله، وفيمن نزلت. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: نزلت سورة سبأ بمكة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَفِ السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ
لَكَرِيمٌ لَّيْسَ ① يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ
السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ② وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا
السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَلَى غَنَظٍ ③ عَنْهُ مَقَالٌ ذَرُّوا
السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْفَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي
كِتَابٍ مُبِينٍ ④ لَيَجْعَلَنَّ الَّذِينَ مَسَاءُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ
مَنْفِرَةٌ رُفُودٌ كَرِيمَةٌ ⑤ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُنْجِبِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ
عَذَابٌ مِنْ رَجَزٍ أَلِيمٌ ⑥ وَرَبِّي الَّذِينَ أَوْفُوا أَلَمَهُمُ اللَّهُ أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ
رَبِّكَ هُوَ السَّمْعُ وَرَسُولُهُ إِلَى صَرْحِ الْمَحْيِ ⑦ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا
هَلْ نُنَالِكُ عَلَى رَيْبٍ نَبْتَكُمُ إِذَا مَرَفَتْ كُلُّ سَفَرٍ ⑧ إِنَّكُمْ لَعِنَ خَلْقٍ جَدِيدٍ ⑨
أَفَرَأَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جُنْحٌ ⑩ بَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْمَدَائِبِ
وَالْمَنَائِبِ الْيَبِيدِ ⑪ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ سَمَاءٍ
وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نُغَيِّبْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنْ السَّمَاءِ
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ⑫

قوله: ﴿الحمد لله﴾ تعريف الحمد مع لام الاختصاص مشعران باختصاص جميع أفراد الحمد بالله سبحانه على ما تقدم تحقيقه في فاتحة الكتاب، والموصول في محل جر على النعت، أو البدل، أو النصب على الاختصاص، أو الرفع على تقدير مبتدأ، ومعنى ﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾: أن جميع ما هو فيها في ملكه، وتحت تصرفه يفعل به ما يشاء، ويحكم فيه بما يريد، وكل نعمة واصله إلى العبد، فهي مما خلقه له، ومن به عليه، فحمده على ما في السموات والأرض هو: حمد له على النعم التي أنعم بها على خلقه مما خلقه لهم. ولما بين: أن الحمد النبوي من عباده الحامدين له مختص به بين أن الحمد الأخرى مختص به كذلك، فقال: ﴿وله الحمد في الآخرة﴾، وقوله: ﴿له متعلق بنفس الحمد، أو بما تعلق به خبر الحمد أعني:

في الآخرة، فإنه متعلق بمتعلق عام هو: الاستقرار، أو نحوه، والمعنى: أن له سبحانه على الاختصاص حمد عباده الذين يحمونهم في الدار الآخرة إذا دخلوا الجنة كما في قوله: ﴿وقالوا الحمد لله الذي صبقنا وعده﴾ [الزمر: 74] وقوله: ﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا﴾ [الأعراف: 43] وقوله: ﴿الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن﴾ [فاطر: 34] وقوله: الحمد لله ﴿الذي أحلنا دار المقامة من فضله﴾ [فاطر: 35]، وقوله: ﴿وأخر دعوانهم أن الحمد لله رب العالمين﴾ [يونس: 10]، فهو سبحانه المحمود في الآخرة كما أنه المحمود في الدنيا، وهو: المالك للآخرة كما أنه المالك للدنيا وهو الحكيم الذي أحكم أمر الدارين ﴿الخبير﴾ بامر خلقه فيهما، قيل: والفرق بين الحمدين: أن الحمد في الدنيا عباده، وفي الآخرة تلذذ، وابتهاج، لأنه قد انقطع التكليف فيها. ثم ذكر سبحانه بعض ما يحيط به علمه من أمور السموات والأرض، فقال: ﴿يعلم ما يلج في الأرض﴾ أي: ما يدخل فيها من مطر، أو كنز، أو نفين ﴿وما يخرج منها﴾ من ذرع، ونبات، وحيوان ﴿وما ينزل من السماء﴾ من الأمطار، والثوج، والبرد، والصواعق، والبركات، ومن ذلك ما ينزل منها من ملائكته، وكتبه إلى أنبيائه ﴿وما يعرج فيها﴾ من الملائكة، وأعمال العباد. قرأ الجمهور «ينزل» بفتح الباء، وتخفيف الزاي مسنداً إلى «ما»، وقرأ علي بن أبي طالب، والسلمي بضم الباء وتشديد الزاي مسنداً إلى الله سبحانه ﴿وهو الرحيم﴾ بعباده ﴿الغفور﴾ لذنوبهم ﴿وقال للذين كفروا لا تأتينا الساعة﴾ المراد بهؤلاء القائلين جنس الكفرة على الإطلاق، أو كفار مكة على الخصوص، ومعنى لا تأتينا الساعة: أنها لا تأتي بحال من الأحوال، إنكاراً منهم لوجودها لا لمجرد إتيانها في حال تكلمهم، أو في حال حياتهم مع تحقق وجودها فيما بعد، فرد الله عليهم، وأمر رسوله أن يقول لهم: ﴿قل بلى وربّي لتأتينكم﴾، وهذا القسم لتأكيد الإتيان، قرأ الجمهور «لتأتينكم» بالفعوية: أي الساعة، وقرأ طلق المعلم بالتحية على تاويل الساعة باليوم، أو الوقت. قال طلق: سمعت أسيخاً يقرءون بالياء: يعني: التحية على المعنى، كأنه قال: ليأتينكم البعث، أو أمره كما قال: ﴿هل ينظرون إلا أن تأتيتهم الملائكة أو يأتي أمر ربك﴾ [النحل: 33] قرأ نافع، وابن عامر (علم الغيب) بالرفع على أنه مبتدأ، وخبره لا يعزب، أو على تقدير مبتدأ، وقرأ عاصم، وابن كثير، وأبو عمرو بالجر على أنه نعت لربي، وقرأ حمزة، والكسائي (علام) بالجر مع صيغة المبالغة، ومعنى ﴿لا يعزب﴾: لا يغيب عنه، ولا يستتر عليه، ولا يبعد عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا اصغر من ذلك المتقال ﴿ولا اكبر﴾ منه ﴿إلا في كتاب مبين﴾، وهو: اللوح المحفوظ. والمعنى: إلا وهو مثبت في اللوح المحفوظ الذي اشتمل على معلومات الله سبحانه، فهو مؤكد لنفي العزوب. قرأ الجمهور (يعزب) بضم الزاي، وقرأ يحيى بن

ويقبضن» [الملك: 19] أي: وقابضات كأنه قيل: وهادياً، وقيل: إنه مستأنف، وفاعله ضمير يرجع إلى فاعل أنزل، وهو: القرآن. والصراط الطريق: أي: ويهدي إلى طريق **«العزیز»** في ملكه **«الحميد»** عند خلقه، والمراد: أنه يهدي إلى دين الله، وهو: التوحيد. ثم نكر سبحانه نوعاً آخر من كلام منكري البعث، فقال: **«وقال للذين كفروا»** أي: قال بعض لبعض: **«هل ننبئكم على رجل»** يعنون: محمداً ﷺ أي: هل نرشدكم إلى رجل **«ينبئكم»** أي: يخبركم بأمر عجيب، ونبا غريب هو: أنكم **«إذا مرقمتم كل مرقق»** أي: فرقتم كل فريق، وقطعتم كل تقطيع، وصرتم بعد موتكم رفاتاً وتراباً **«إنكم لفي خلق جديد»** أي: تخلقون خلقاً جديداً، وتبعثون من قبوركم أحياء، وتعودون إلى الصور التي كنتم عليها، قال هذا القول بعضهم لبعض استهزاء بما وعدهم الله على لسان رسوله من البعث، وأخرجوا الكلام مخرج التلهي به، والتضاحك مما يقوله من ذلك، «وإذا» في موضع نصب بقوله: **«مرقمتم»**. قال النحاس: ولا يجوز: أن يكون العامل فيها ينبئكم، لأنه ليس خبرهم تلك الوقت. ولا يجوز: أن يكون العامل فيها ما بعد إن؛ لأنه لا يعمل فيما قبلها. وأجاز الزجاج: أن يكون العامل فيها محنواً، والتقدير: إذا مرقمتم كل مرقق بعثتم، أو نبئتم بأنكم تبعثون إذا مرقمتم، وقال المهدي: لا يجوز أن يعمل فيه مرقمتم؛ لأنه مضاف إليه، والمضاف إليه لا يعمل في المضاف. وأصل المرقق خرق الأشياء، يقال: ثوب مرقق، ومرقق، ومتمرقق، وممرقق. ثم حكى سبحانه عن هؤلاء الكفار: أنهم ردوا ما وعدهم به رسول الله ﷺ من البعث بين أمرين، فقالوا: **«افترى على الله كذباً لم به حجة»** أي: أهو كاذب فيما قاله أم به جنون بحيث لا يعقل ما يقوله، والهمزة في افترى هي: همزة الاستفهام، وحذفت لأجلها همزة الوصل كما تقدم في قوله: **«أطلع الغيب»** [مريم: 78]، ثم رد عليهم سبحانه ما قالوه في رسوله، فقال: **«بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد»** أي ليس الأمر كما زعموا، بل هم الذين ضلوا عن الفهم، وإبرك الحقائق، فكفروا بالآخرة، ولم يؤمنوا بما جاءهم به، فصاروا بسبب ذلك في العذاب الدائم في الآخرة، وهم اليوم في الضلال البعيد عن الحق غاية البعد. ثم وبخهم سبحانه بما اجترأ عليه من التكنيز مبيناً لهم أن ذلك لم يصدر منهم إلا لعدم التفكير، والتدبر في خلق السماء والأرض، وأن من قدر على هذا الخلق العظيم لا يعجزه أن يبعث من مخلوقاته ما هو بون ذلك، ويعيده إلى ما كان عليه من الذات والصفات، ومعنى **«إلى ما بين أيديهم وما خلفهم»**: أنهم إذا نظروا رأوا السماء خلفهم، وقدامهم، وكذلك إذا نظروا في الأرض رأوها خلفهم، وقدامهم، فالسما والأرض محيطتان بهم، فهو: القادر على أن ينزل بهم ما شاء من العذاب بسبب كفرهم، وتكنيزهم لرسوله، وإنكارهم للبعث، فهذه الآية اشتملت على أمرين: أحدهما: أن هذا الخلق الذي خلقه الله

وثاب بكسرهما. قال الفراء: والكسر أحب إلي، وهما لغتان، يقال: عزب يعزب بالضم، ويعزب بالكسر إذا بعد، وغاب. وقرأ الجمهور «ولا أصغر، ولا أكبر» بالرفع على الابتداء، والخبر إلا في كتاب، أو على العطف على مثقال، وقرأ قتادة، والأعمش بنصيبهما عطفاً على نزة، أو على أن لا هي لا التبرئة التي يبني اسمها على الفتح، واللام في **«ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات»** للتعليل لقوله: **«لتأتينكم»** أي: إتيان الساعة فائتته جزاء المؤمنين بالثواب، والكافرين بالعقاب، والإشارة بقوله: **«أولئك»** إلى الموصول: أي: أولئك الذين آمنوا، وعملوا الصالحات **«لهم مغفرة»** لذنوبهم **«ورزق كريم»**، وهو الجنة بسبب إيمانهم، وعملهم الصالح مع التفضل عليهم من الله سبحانه. ثم نكر فريق الكافرين الذين يعاقبون عند إتيان الساعة، فقال: **«والذين سعوا في آياتنا معاجزين»** أي: سعوا في إبطال آياتنا المنزلة على الرسل، وقنحوا فيها، وصنوا الناس عنها، ومعنى **«معاجزين»**: مسابقين يحسبون: أنهم يفوتونها، ولا يدركون، وذلك باعتقادهم: أنهم لا يبعثون، يقال: عاجزه، وأعجزه: إذا غلبه، وسبقه. قرأ الجمهور (معاجزين)، وقرأ ابن كثير، وابن محيصن، وحميد، ومجاهد، وأبو عمرو «معجزين» أي: مثبطين للناس عن الإيمان بالآيات **«أولئك»** أي: الذين سعوا **«لهم عذاب من رجز»** الرجز هو: العذاب، فمن للبيان، وقيل: الرجز هو: أسوأ العذاب، وأشده، والأول أولى. ومن ذلك قوله: **«فلنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء»** [البقرة: 59] قرأ الجمهور (اليم) بالجر صفة لرجز. وقرأ ابن كثير، وحفص عن عاصم بالرفع صفة لعذاب، والاليم الشديد الألم **«ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق»** لما نكر الذين سعوا في إبطال آيات الله نكر الذين يؤمنون بها، ومعنى **«ويرى الذين أوتوا العلم»** أي: يعلمون، وهم الصحابة. وقال مقاتل: هم: مؤمنو أهل الكتاب، وقيل: جميع المسلمين، والموصول هو المفعول الأول ليرى، والمفعول الثاني الحق، والضمير هو: ضمير الفصل. وبالنصب قرأ الجمهور، وقرأ ابن أبي عتبة بالرفع على أنه خبر الضمير، والجملة في محل نصب على أنها المفعول الثاني، وهي لغة تميم، فإنهم يرفعون ما بعد ضمير الفصل، وزعم الفراء: أن الاختيار الرفع، وخالفه غيره، وقالوا: النصب أكثر، قيل: وقوله: **«يرى»** معطوف على ليجزي، وبه قال الزجاج، والفراء، واعترض عليهما بأن قوله: **«ليجزى»** متعلق بقوله **«لتأتينكم»** ولا يقال: لتأتينكم الساعة ليرى الذين أوتوا العلم أن القرآن حق، والأولى أنه كلام مستأنف لدفع ما يقوله الذين سعوا في الآيات: أي: إن ذلك السعي منهم يدل على جهلهم؛ لأنهم مخالفون لما يعلمه أهل العلم في شأن القرآن **«ويهدي إلى صراط العزيز الحميد»** معطوف على الحق عطف فعل على اسم، لأنه في تأويله كما في قوله: **«صافات**

﴿وَلَمَّا مَنَّ الرِّيحُ عِذْمُهَا مِنْ رِوَادِهَا سَهَراً وَسَلَاماً لَمْ يَنْ أَقْطِرْ مِنْ
الْحَبِّ مَنْ يَمْلِكُ بَيْنَ يَدَيْهِ يُلَاقِي رَيْبَهُ وَنَ بَرَجَ مِنْهُمْ عَنْ أُنْثَى تَذُقُهُ مِنْ
عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٧﴾ يَمْلِكُونَ لَمْ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْلِيٍّ وَتَمْثِيلٍ وَحَقَّاقٍ
كَالْجَوَابِ وَقُدِّرَ رَأْسِيَّتِ أَعْمَلُوا مَا لَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقِيلَ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ
﴿٨﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةً الْأَرْضِ تَأْكُلُ
يَنْسَاءُ فُلَا خَرَّ تَبَيَّنَ لِحُورٍ أَنْ أَوْ كَانُوا يَمْلِكُونَ الْقَبِيَّ مَا لَيْثُوا فِي الْمَذَابِ
الْمُهِينِ ﴿٩﴾﴾

ثم نكر سبحانه من عباده المنيبين إليه داود، وسليمان
كما قال في داود: ﴿فاستغفر ربه وخر راكعاً واناب﴾ [ص: 24]
وقال في سليمان: ﴿والقينا على كرسيه جسداً ثم
اناب﴾ [ص: 34]، فقال: ﴿ولقد آتينا داود منا فضلاً﴾ أي:
آتيناه بسبب إنابته فضلاً منا على سائر الأنبياء. واختلف في
هذا الفضل على أقوال: فقيل: النبوة، وقيل: الزبور، وقيل:
العلم، وقيل: القوة كما في قوله: ﴿وانكر عبينا داود ذا
الأيدي﴾ [ص: 17] وقيل: تسخير الجبال كما في قوله: ﴿يا
جبال أوبي معه﴾ وقيل: التوبة، وقيل: الحكم بالعدل كما في
قوله: ﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين
الناس بالحق﴾ [ص: 26] وقيل: هو: الآنة الحديد كما في
قوله: ﴿ولمَّا لَهُ الْحَدِيدُ﴾، وقيل: حسن الصوت، والأولى أن
يقال: إن هذا الفضل المذكور هو ما نكره الله بعده من قوله:
﴿يا جبال﴾ إلى آخر الآية، وجملة ﴿يا جبال أوبي معه﴾
مقدرة بالقول: أي: قلنا يا جبال. والتأويل: التسبيح كما في
قوله: ﴿إنا سخرنا الجبال معه يسبحن﴾ [ص: 18]. قال أبو
ميسرة: هو: التسبيح بلسان الحبشة. وكان إذا سبح داود
سبحت معه، ومعنى تسبيح الجبال: أن الله يجعلها قادرة
على ذلك، أو يخلق فيها التسبيح معجزة لداود، وقيل: معنى
أوبي: سيرى معه، من التأويل الذي هو سير النهار أجمع،
ومنه قول ابن مقبل:

لحقنا بحي أوبوا السير بعده ما نفعنا شعاع الشمس والطرف منجن
قرا الجمهور (أوبي) بفتح الهمزة، وتشديد الواو على
صيغة الأمر، من التأويل: وهو: الترجيع، أو التسبيح، أو
السير، أو النوح. وقرا ابن عباس، والحسن، وقتادة، وابن أبي
إسحاق (أوبي) بضم الهمزة أمراً من آب يثوب إذا رجع: أي:
ارجعي معه. قرا الجمهور (والطير) بالنصب عطفًا على
(فضلاً) على معنى: وسخرنا له الطير، لأن إيتاءه إياها
تسخيرها له، أو عطفًا على محل ﴿يا جبال﴾؛ لأنه منصوب
تقديرًا، إذ المعنى: نادينا الجبال، والطير. وقال سيبويه، وأبو
عمرو بن العلاء: انتصابه بفعل مضمّر على معنى: وسخرنا
له الطير. وقال الزجاج، والنحاس: يجوز: أن يكون مفعولاً
معه كما تقول: استوى الماء، والخشبة. وقال الكسائي: إنه
معطوف على فضلاً لكن على تقدير مضاف محذوف أي:
آتيناه فضلاً، وتسبيح الطير. وقرا السلمي، والأعرج،
ويعقوب، وأبو نوفل، وابن أبي إسحاق، ونصر بن عاصم،
وابن هرمز، ومسلمة بن عبد الملك بالرفع عطفًا على لفظ

من السماء، والأرض يدل على كمال القدرة على ما هو بونه
من البعث كما في قوله: ﴿أوليس الذي خلق السموات
والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم﴾ [يس: 81]. والأمر
الأخر: التهديد لهم بأن من خلق السماء، والأرض على هذه
الهيئة التي قد لاحظت بجميع المخلوقات فيهما قادر على
تعجيل العذاب لهم ﴿إن نشأ نخسف بهم الأرض﴾ كما
خسف بقارون ﴿أو نسقط عليهم كسفاً﴾ أي: قطعاً ﴿من
السماء﴾ كما أسقطها على أصحاب الأيكة، فكيف يأمنون
ذلك. قرا الجمهور (إن نشأ) بنون العظمة، وكذا (نخسف)،
(ونسقط). وقرا حمزة، والكسائي بالياء التحتية في الأفعال
الثلاثة: أي: إن يشأ الله. وقرا الكسائي وحده بإدغام الفاء في
الياء في «نخسف بهم». قال أبو علي الفارسي: وذلك غير
جائز؛ لأن الفاء من باطن الشفة السفلى، وأطراف الثنايا
العليا بخلاف الياء، وقرا الجمهور (كسفاً) بسكون السين.
وقرا حفص، والسلمي بفتحها ﴿إن في ذلك﴾ المذكور من
خلق السماء والأرض ﴿آية﴾ واضحة دلالة بينة ﴿لكل
عبد منيب﴾ أي: راجع إلى ربه بالتوبة، والإخلاص، وخض
المنيب؛ لأنه المنتفع بالتفكير.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله: ﴿يعلم ما
يلج في الأرض﴾ قال: من المطر ﴿وما يخرج منها﴾ قال:
من النبات ﴿وما ينزل من السماء﴾ قال: من الملائكة ﴿وما
يعرج فيها﴾ قال: الملائكة، وأخرج عبد بن حميد، وابن
جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿من
رجز ليم﴾ قال: الرجز هو: العذاب الأليم الموجع، وفي
قوله: ﴿ويرى الذين أوتوا العلم﴾ قال: أصحاب محمد.
وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك في الآية قال: يعني:
المؤمنين من أهل الكتاب. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن
حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في
قوله: ﴿وقال الذين كفروا هل ننلكم على رجل﴾ قال: قال
ذلك مشركو قريش ﴿إذا مررتم كل ممزق﴾ يقول: إذا
اكتلكم الأرض، وصرتم رفاتاً وعظاماً، وتقطعتم السباع،
والطير ﴿إنكم لفي خلق جديد﴾ إنكم ستحيون، وتبعثون،
قالوا ذلك تكتيباً به ﴿الفرى على الله كذباً أم به جنة﴾
قال: قالوا: إما أن يكون يكذب على الله، وإما أن يكون مجنوناً
﴿انكم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء
والأرض﴾ قالوا: إنك إن نظرت عن يمينك، وعن شمالك، ومن
بين يديك، ومن خلفك رأيت السماء والأرض ﴿إن نشأ
نخسف بهم الأرض﴾ كما خسفنا بمن كان قبلهم ﴿أو
نسقط عليهم كسفاً من السماء﴾ أي: قطعاً من السماء إن
يشأ أن يعذب بسمائه فعل، وإن يشأ أن يعذب بأرضه فعل،
وكل خلقه له جند ﴿إن في ذلك آية لكل عبد منيب﴾ قال:
ثائب مقبل إلى الله.

﴿لَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً يَجْعَلُ أَوْبَى مِمَّ وَالطَّيْرَ وَأَنَّا لَهُ الْخَبِيرُ
﴿٩﴾ أَن أَعْمَلَ سَيِّئَاتٍ وَقُدِّرَ فِي السَّعِيرِ وَأَعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

الحسن: كان يغنو من دمشق، فيقيل بإصطخر، وبينهما مسيرة شهر للمسرع، ثم يروح من إصطخر، فيبيت بكابل، وبينهما مسيرة شهر **﴿وَأَسْلَمْنَا لَهُ عَيْنَ الْقَطْرِ﴾** القطر: النحاس الذائب. قال الواحدي: قال المفسرون: أُجريت له عين الصفر ثلاثة أيام بلياليهن كجري الماء، وإنما يعمل الناس اليوم بما أعطي سليمان، والمعنى: أسلنا له عين النحاس كما أسلنا الحديد لداود، وقال قتادة: أسال الله له عيناً يستعملها فيما يريد **﴿وَمَنْ الْجِنَّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾** من مبتدأ، ويعمل خبره، ومن الجن متعلق به، أو يحنوف على أنه حال، أو من يعمل معطوف على الريح، ومن الجن حال، والمعنى: وسخرنا له من يعمل بين يديه حال كونه من الجن بإذن ربه: أي: بأمره. والإذن مصدر مضاف إلى فاعله، والجار والمجرور في محل نصب على الحال: أي: مسخراً أو ميسراً بأمر ربه **﴿وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾** أي: ومن يعدل من الجن عن أمرنا الذي أمرناه به: وهو: طاعة سليمان **﴿بَنَدَقَهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾** قال أكثر المفسرين: وذلك في الآخرة، وقيل: في الدنيا. قال السدي: وكل الله بالجن ملكاً بيده سوط من نار، فمن زاع عن أمر سليمان ضربه بذلك السوط ضربة فتحرقه. ثم نكر سبحانه ما يعمله الجن لسليمان، فقال: **﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ﴾**، و«من» في قوله: **﴿مَنْ مَحَارِبٍ﴾** للبيان، والمحارب في اللغة كل موضع مرتفع، وهي: الأبنية الرفيعة، والقصور العالية. قال المبرد: لا يكون المحراب إلا أن يرتقى إليه بدرج، ومنه قيل: للذي يصلي فيه محراب؛ لأنه يرفع ويعظم. وقال مجاهد: المحارب لون القصور. وقال أبو عبيدة: المحراب أشرف بيوت الدار، ومنه قول الشاعر:

وماذا علي إن نكرت لوانسا كغزلان رمل في محارب أقبال
وقال الضحاك: المراد بالمحارب هنا المساجد، والتماثيل جمع تمثال، وهو كل شيء مثله بشيء: أي: صورته بصورته من نحاس، أو زجاج، أو رخام، أو غير ذلك. قيل: كانت هذه التماثيل صور الأنبياء، والملائكة، والعلماء، والصالحاء، وكانوا يصورونها في المساجد؛ ليراهم الناس، فيزدادوا عبادة واجتهاداً. وقيل: هي تماثيل أشياء ليست من الحيوان. وقد استدل بهذا على أن التصوير كان مباحاً في شرع سليمان، ونسخ ذلك بشرع نبينا محمد ﷺ. والجفان جمع جفنة، وهي: القصعة الكبيرة. والجواب جمع جابية، وهي: حفيرة كالحوض، وقيل: هي الحوض الكبير يجبي الماء: أي: يجمعه. قال الواحدي: قال المفسرون: يعني: قصاعاً في العظم كحياض الإبل يجتمع على القصعة الواحدة ألف رجل ياكلون منها. قال النحاس: الأولى إثبات الياء في الجوابي، ومن حذف الياء قال سبيل الألف واللام أن تدخل على التكرة فلا تغيرها عن حالها، فلما كان يقال جواب، ودخلت الألف واللام أقر على حاله، فحذف الياء. قال الكسائي: يقال: جبوت الماء، وجبيته في الحوض: أي: جمعته، والجابية الحوض الذي يجبي فيه الماء للإبل. وقال النحاس:

الجبال، أو على المضممر في أوبي لوقوع الفصل بين المعطوف، والمعطوف عليه **﴿وَأَلْنَا لَهُ الْحديد﴾** معطوف على آتيناه: أي: جعلناه لنا؛ ليعمل به ما شاء. قال الحسن: صار الحديد كالشمع يعمل به من غير نار. وقال السدي: كان الحديد في يده كالطين المبلول، والعجين، والشمع يصرفه كيف يشاء من غير نار، ولا ضرب بمطرقة، وكذا قال مقاتل، وكان يفرغ من عمل الدرع في بعض يوم **﴿إِنْ أَعْمَلَ سَابِغَاتٍ﴾** في أن هذه وجهان: أحدهما: أنها مصدرية على حذف حرف الجر: أي: بأن أعمل، والثاني أنها المفسرة لقوله: **﴿وَأَلْنَا﴾**، وفيه نظر؛ لأنها لا تكون إلا بعد القول، أو ما هو في معناها. وقدّر بعضهم فعلاً فيه معنى القول، فقال التقدير: وأمرناه أن أعمل. وقوله: **﴿سَابِغَاتٍ﴾** صفة لموصوف محنوف: أي: دروعاً سابغات، والسابغات الكوامل الواسعات، يقال: سبغ الدرع، والثوب، وغيرهما: إذا غطي كل ما هو عليه، وفضل منه فضلة **﴿وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ﴾** السرد نسج الدروع، ويقال: السرد والزرّد كما يقال: السراد، والزراد لصانع الدروع، والسرد أيضاً الخز، يقال: سرد يسرد: إذا خزن، ومنه سرد الكلام: إذا جاء به متولياً، ومنه حديث عائشة: لم يكن النبي ﷺ يسرد الحديث كسردكم. قال سيبويه: ومنه سريد: أي: جري، ومعنى سرد الدروع: إحكامها، وأن يكون نظم حلقها ولاء غير مختلف، ومنه قول لبيد:

سرد الدروع مضاعفاً أسراده لينال طول العيش غير مروم
وقول أبي نؤيب الهنلي:

وعليهما مسرونتان قضاهما داود إذ صنع السوابغ تبع
قال قتادة: كانت الدروع قبل داود ثقلاً، فلذلك أمر هو بالتقدير فيما يجمع الخفة والحصانة: أي: قدر ما تأخذ من هذين المعنيين بقسطه، فلا تقصد الحصانة فيثقل، ولا الخفة فيزيل المنعة، وقال ابن زيد: التقدير الذي أمر به هو في قدر الحلقة: أي: لا تعملها صغيرة فتضعف ولا يقوى الدرع على الدفاع، ولا تعملها كبيرة فتثقل على لابسها. وقيل: إن التقدير هو في المسمار: أي: لا تجعل مسمار الدرع دقيقاً فيقلق، ولا غليظاً فيفصم الحلق. ثم خاطب داود، وأمله، فقال: **﴿وَأَعْمَلُوا صَالِحاً﴾** أي: عملاً صالحاً كما في قوله: **﴿أَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾** ثم علل الأمر بالعمل الصالح بقوله: **﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾** أي: لا يخفى علي شيء من ذلك **﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ﴾** قرأ الجمهور (الريح) بالنصب على تقدير: وسخرنا لسليمان الريح كما قال الزجاج، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر عنه بالرفع على الابتداء، والخبر: أي: ولِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ ثابتة أو مسخرة، وقرأ الجمهور (الريح)، وقرأ الحسن، وأبو حيوة، وخالد بن إلياس (الرياح) بالجمع **﴿غَنَوْهَا شَهْرًا وَرَوْلَهَا شَهْرًا﴾** أي: تسير بالغداة مسيرة شهر، وتسير بالعشي كذلك، والجملة إما مستأنفة لبيان تسخير الريح، أو في محل نصب على الحال، والمعنى: أنها كانت تسير في اليوم الواحد مسيرة شهرين. قال

ويجوز: أن يكون تبينت الجن من تبين الشيء، لا من تبينت الشيء: أي: ظهر، وتجلي، وأن وما في حيزها بدل اشتمال من الجن مع تقدير محذوف: أي: ظهر أمر الجن للناس أنهم لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين، أو ظهر أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب إلخ. قرأ الجمهور (تبينت) على البناء للفاعل مستنداً إلى الجن. وقرأ ابن عباس ويعقوب (تبينت) على البناء للمفعول، ومعنى القراءتين يعرف مما قلنا.

وقد أخرج ابن أبي شيبة في المصنف، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿أَوَيْيَ مَعَهُ﴾ قال: سبحي معه، وروي مثله عن أبي ميسرة، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، وابن زيد. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَقَدْ لَه الْحَبِيدَ﴾ قال: كالعجين. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طرق عنه أيضاً في قوله: ﴿وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ﴾ قال: حلق الحديد. وأخرج عبد الرزاق، والحاكم عنه أيضاً ﴿وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ﴾ قال: لا تلق المسامير، وتوسع الحلق، فتسلس، ولا تغلظ المسامير، وتضيق الحلق، فنقصم، واجعله قدراً. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طرق عنه أيضاً في قوله: ﴿وَأَسْلَفْنَا لَهُ عَيْنَ الْقَطْرِ﴾ قال النحاس. وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً قال: القطر النحاس لم يقدر عليها أحد بعد سليمان، وإنما يعمل الناس بعده فيما كان أعطي سليمان. وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد قال: القطر الصفر. وأخرج الحكيم الترمذي في نوارى الأصول عن ابن عباس في قوله: ﴿وَوَتَمَّائِيلَ﴾ قال: اتخذ سليمان تمائيل من نحاس فقال: يا رب انفخ فيها الروح، فإذا أقوى على الخدمة، فنفخ الله فيها الروح، فكانت تخدمه، وكان إسفنديار من بقاياهم، فقبل لداود وسليان: ﴿اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور﴾. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿كَالْجَوَابِ﴾ قال: كالجوبة من الأرض ﴿وقدور راسيات﴾ قال: أثافيها منها. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ﴾ يقول: قليل من عبادي الموحدين توحيدهم. وأخرج هؤلاء عنه أيضاً قال: لبث سليمان على عصاه حولا بعد ما مات، ثم خر على رأس الحول، فآخذت الجن عصاه حولا بعد ما مات، ودابة مثل دابته، فارسلوها عليها، فآكلتها في سنة، وكان ابن عباس يقرأ ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ﴾ الآية، قال سفيان: وفي قراءة ابن مسعود «وهم يدأبون له حولا». وأخرج البزار، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن السني، وابن مردويه عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال «كان سليمان إذا صلى رأى شجرة نابتة بين يديه، فيقول لها: ما اسمك؟ فتقول: كذا، وكذا، فيقول: لما أنت؟ فتقول: لكذا، وكذا، فإن كانت لغرس غرست، وإن كانت لدواء كتبت»، وصلى ذات يوم، فإذا شجرة نابتة بين يديه، فقال لها: ما

والجالية القدر العظيمة، والحوض العظيم الكبير الذي يجبي فيه الشيء: أي: يجمع، ومنه جبيت الخراج، وجبيت الجراد: جمعته في الكساء ﴿وقدور راسيات﴾ قال قتادة: هي: قدور النحاس تكون بفارس، وقال الضحاك: هي: قدور تنحت من الجبال الصم عملتها له الشياطين. ومعنى راسيات: ثابتات لا تحمل، ولا تحرك أعظمها. ثم أمرهم سبحانه بالعمل الصالح على العموم: أي: سليمان وأهله، فقال: ﴿اعملوا آل داود شكراً﴾ أي: وقلنا لهم اعملوا بطاعة الله يا آل داود شكراً له على ما أتاكم، أو اعملوا عملاً شكرياً على أنه صفة مصدر محذوف، أو اعملوا للشكر على أنه مفعول له، أو حال: أي: شاكرين، أو مفعول به، وسميت الطاعة شكراً لأنها من جملة أنواعه، أو منصوب على المصدرية بفعل مقتر من جنسه: أي: اشكروا شكراً. ثم بين بعد أمرهم بالشكر أن الشاكرين له من عبادته ليسوا بالكثير، فقال: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِي لَشُكُورٌ﴾ أي: العامل بطاعتي الشاكر لنعمتي قليل. وارتفاع قليل على أنه خبر مقم، ومن عبادي صفة له، والشكور مبتدأ ﴿فَلَمَّا قُضِيَنا عَلَيْهِ الْمَوْتُ﴾ أي: حكمنا عليه به، والزمناه إياه ﴿فَمَا نَلَهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ﴾ يعني: الأرض. وقرئ (الأرض) بفتح الراء: أي: الأكل، يقال: أرضت الخشبة أرضاً: إذا أكلتها الأرض. ومعنى تاكل منسأته: تاكل عصاه التي كان مكتأ عليها، والمنسأة: العصا بلغة الحبشة، أو هي مأخوذة من نسات الغنم: أي: زجرتها. قال الزجاج: المنسأة التي ينسا بها: أي: يطرد. قرأ الجمهور (منسأته) بهمزة مفتوحة. وقرأ ابن نكوان بهمزة ساكنة. وقرأ نافع، وأبو عمرو بألف محضة. قال المبرد: بعض العرب يبذل من همزتها ألفاً، وانشد:

إذا دببت على المنسأة من كبر فقد تباعد عنك اللهو والغزل
ومثل قراءة الجمهور قول الشاعر:
ضربنا بمنسأة وجهه فصار بذاك مهيناً نليلاً
ومثله:

أمن أجل حبل لا أبك ضربته بمنسأة قد جرح حبلك أحبلاً
ومما يدل على قراءة ابن نكوان قول طرفة:

أمرن كالوواح الأران نساتها على لأحب كاته ظهر برجد
﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ أي: سقط ﴿تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ﴾ أي: ظهر لهم، من تبينت الشيء إذا علمته: أي: علمت الجن: ﴿وَأَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ أي: لو صح ما يزعمونه من أنهم يعلمون الغيب لعلوا بموته، ولم يلبثوا بعد موته مدة طويلة في العذاب المهين في العمل الذي أمرهم به، والطاعة له، وهو إذ ذاك ميت. قال مقاتل: العذاب للمهين: الشقاء، والنصب في العمل. قال الواحدي: قال المفسرون: كانت الناس في زمان سليمان يقولون: إن الجن تعلم الغيب، فلما مكث سليمان قائماً على عصاه حولا ميتاً، والجن تعمل تلك الأعمال الشاقة التي كانت تعمل في حياة سليمان لا يشعرون بموته حتى أكلت الأرض عصاه، فخر ميتاً، فعملوا بموته، وعلم الناس: أن الجن لا تعلم الغيب،

اسم مكان، وأريد به معنى: الجمع، وهذه المساكن التي كانت لهم هي: التي يقال لها الآن: مارب، وبينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث ليال، ومعنى قوله: ﴿آيَةً﴾ أي: علامة دالة على كمال قدرة الله، وبديع صنعه، ثم بين هذه الآية، فقال: ﴿جَنَّاتٍ﴾، وارتفاعهما على البذل من آية قاله الفراء، أو على أنهما خبر مبتدأ محذوف قاله الزجاج، أو على أنهما مبتدأ، وخبره ﴿عن يمين وشمال﴾، واختار هذا الوجه ابن عطية، وفيه أنه لا يجوز الابتداء بالنكرة من غير مسوغ، وقرأ ابن أبي عبيدة «جنتين» بالنصب على أنهما خبر ثان، واسمها: آية، وهاتان الجنتان كانتا عن يمين وأديم وشماله، قد أحاطتا به من جهتيه، وكانت مسكنهم في الوادي، والآية هي: الجنتان، كانت المرأة تمشي فيهما، وعلى رأسها المكل، فيمتلئ من أنواع الفواكه التي تتساقط من غير أن تمسها بيدها. وقال عبد الرحمن بن زيد: إن الآية التي كانت لأهل سبا في مسكنهم أنهم لم يروا فيها بعوضة، ولا نباباً، ولا برغوثاً، ولا قملة، ولا عقرباً، ولا حية، ولا غير ذلك من الهوام، وإذا جاءهم الركب في ثيابهم القمل ماتت عند رؤيتهم لببوتهم. قال القشيري: ولم يرد جنتين اثنتين، بل أراد من الجهتين يمنة ويسرة في كل جهة بساتين كثيرة ﴿كلوا﴾ من رزق ربكم، أي: قيل لهم ذلك، ولم يكن ثم أمر، ولكن المراد تمكينهم من تلك النعم، وقيل: إنها قالت لهم الملائكة، والمراد بالرزق هو: ثمار الجنتين، وقيل: إنهم خوطبوا بذلك على لسان نبيهم ﴿واشكروا له﴾ على ما رزقكم من هذه النعم، واعملوا بطاعته، واجتنبوا معاصيه، وجملة ﴿بلدة طيبة ورب غفور﴾ مستأنفة لبيان موجب الشكر. والمعنى: هذه بلدة طيبة لكثرة أشجارها، وطيب ثمارها. وقيل: معنى كونها طيبة: أنها غير سبخة، وقيل: ليس فيها هوام. وقال مجاهد: هي: صنعاء. ومعنى ﴿ورب غفور﴾: أن المنعم عليهم رب غفور لذنوبهم. قال مقاتل: المعنى: وربكم إن شكرتم فيما رزقكم رب غفور للذنوب. وقيل: إنما جمع لهم بين طيب البلدة والمغفرة للإشارة إلى أن الرزق قد يكون فيه حرام. وقرأ ورش⁽¹⁾ بنصب بلدة، ورب على المدح، أو على تقدير اسكنوا بلدة، واشكروا رباً. ثم نكر سبحانه ما كان منهم بعد هذه النعمة التي أنعم بها عليهم، فقال: ﴿فاعرضوا﴾ عن الشكر، وكفروا بالله، وكذبوا أنبياءهم قال السدي: بعث الله إلى أهل سبا ثلاثة عشر نبياً، فكذبوهم، وكذا قال وهب. ثم لما وقع منهم الإعراض عن شكر النعمة أرسل الله عليهم نعمة سلب بها ما أنعم به عليهم، فقال: ﴿فاعرضوا﴾ عن شكر النعمة، وذلك أن الماء كان يأتي أرض سبا من أودية اليمن، فرددوا ربماً بين جبلين، وحبسوا الماء. وجعلوا في ذلك الردم ثلاثة أبواب بعضها فوق بعض، وكانوا يسقون من الباب الأعلى، ثم من الباب الثاني، ثم من الثالث، فأخصبوا،

(1) قوله: وقرأ ورش، يعني: في غير المشهور عنه الآن اه. ع.

اسمك؟ قالت: الخروب؟ قال: لأي شيء أنت؟ قالت: لخراب هذا البيت، فقال سليمان: اللهم عمّ عن الجنّ موتي حتى يعلم الإنسان أن الجنّ لا يعلمون الغيب، فهيا عصا، فتوكأ عليها، وقبضه الله، وهو متكئ عليها، فمكث حولاً ميتاً، والجنّ تعمل، فاكلتها الأرضة، فسقطت، فعملوا عند ذلك بموته، فتبينت للإنس ﴿أن﴾ الجنّ ﴿لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين﴾، وكان ابن عباس يقرأها كذلك، فشكرت الجنّ للأرضة، فإينما كانت يأتونها بالماء. وأخرجه الحاكم وصححه عن ابن عباس موقوفاً، وأخرج الديلمي عن زيد بن أرقم مرفوعاً يقول الله عز وجل ﴿إني تفضلت على عبادي بثلاث: ألقيت الدابة على الحبة، ولولا ذلك لكنزها الملوك كما يكنزون الذهب، والفضة، والقيت النتن على الجسد، ولولا ذلك لم يدفن حبيب حبيبه، واستلبت الحزن، ولولا ذلك لذهب النسل﴾.

لَقَدْ كَانَ لِسَـلَـمٍ فِي مَسْـكِنِهِمْ آيَةً جَنَّاتٍ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلًّا مِنْ رِزْقٍ رَزَقْنَاهُمْ أَشْكُرُوا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِيهَا مِن مَّزِينَةٍ وَرَبِّ غَفُورٌ ﴿١﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرْمِ يَجْزِيهِمْ يَجْزِيهِمْ جَنَّاتٍ ذَوَاتِ أَكْـلٍ حَـمَلُوا وَآلَهُمْ وَقَوْ مِنْ سِـدْرٍ قَلِيلٍ ﴿٢﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجْزَى إِلَّا الْكُفَّارُ ﴿٣﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا أَسِيرًا سِيرُوا فِيهَا لِيَالِيٍّ وَلِيَآلِيٍّ وَأَمَّا مَا آمَنُوا ﴿٤﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بُعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَزَفَرْنَاهُمْ كُلَّ مَرْفَإٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦﴾ وَمَا كَانَ لَهُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لَئَلَّامٌ مِّنْ يَّوْمِنَ الْآخِرَةِ وَمَنْ مَّوَّ مِنْهَا فِي شَيْءٍ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَـفِـيظٌ ﴿٧﴾

لما ذكر سبحانه حال بعض الشاكرين لنعمه عقبه بحال بعض الجاحدين لها، فقال: ﴿لقد كان لسبا﴾ المراد بسبا القبيلة التي هي من أولاد سبا، وهو: سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود. قرأ الجمهور (لسبا) بالجر والتنوين على أنه اسم حي: أي: الحي الذين هم: أولاد سبا، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو (لسبا) ممنوع الصرف بتأويل القبيلة، واختار هذه القراءة أبو عبيد، ويقوي القراءة الأولى قوله: ﴿في مسكنهم﴾، ولو كان على تأويل القبيلة لقال: في مسكنها، فمما ورد على القراءة الأولى قول الشاعر:

الواربون وتيم في نرى سبا قد عَضَّ اعناقها جلد الجواميس
ومما ورد على القراءة الثانية قول الشاعر:

من سبا الحاضرين مارب إذ يبنون من لون مسيله العرما
وقرأ قنبل، وأبو حيوة، والجحدري (لبسا) بلسكان الهمزة، وقرأ بقلبها ألفاً. وقرأ الجمهور ﴿في مسكنهم﴾ على الجمع، واختار هذه القراءة أبو عبيد، وأبو حاتم، ووجه الاختيار: أنها كانت لهم منازل كثيرة، ومسكن متعددة. وقرأ حمزة، وحفص بالإفراد مع فتح الكاف. وقرأ الكسائي بالإفراد مع كسرهما، وبهذه القراءة قرأ يحيى بن وثاب، والأعمش، ووجه الإفراد: أنه مصدر يشمل القليل، والكثير، أو

وكثرت أموالهم، فلما كذبوا رسلهم بعث الله جرذاً، ففتقت ذلك الرمد حتى انتقض، فدخل الماء جنتهم، ففرقها، ودفن السيل بيوتهم، فهذا هو سيل العرم، وهو جمع عرمة وهي السكر⁽¹⁾ التي تحبس الماء، وكذا قال قتادة، وغيره. وقال السدي: العرم اسم للسد. والمعنى: أرسلنا عليهم سيل السد العرم. وقال عطاء: العرم اسم الوادي. وقال الزجاج: العرم اسم الجرذ الذي نقب السد عليهم، وهو الذي يقال له: الخلد: فنسب السيل إليه لكونه سبب جريانه. قال ابن الأعرابي: العرم من أسماء الفار. وقال مجاهد، وابن أبي نجيح: العرم ماء أحمر أرسله الله في السد، فشقه، وهدمه. وقيل: إن العرم اسم المطر الشديد، وقيل: اسم للسيل الشديد، والعرامة في الأصل: الشدة، والشراسة، والصعوبة. يقال: عرم فلان: إذا تشدد، وتصعب، وروي عن ابن الأعرابي أنه قال: العرم السيل الذي لا يطاق. وقال المبرد: العرم كل شيء حاجز بين شيئين **﴿وَبَلَّغْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ﴾** أي: أهلكنا جنتيهم اللتين كانتا مشتملتين على تلك الفواكه الطيبة، والأنواع الحسنة، وأعطيناهم ببلهما جنتين لا خير فيهما، ولا فائدة لهم فيما هو نابت فيهما، ولهذا قال: **﴿نَوَلَّتِي أكل خمط﴾** قرأ الجمهور بتووين (اكل)، وعدم إضافته إلى (خمط)، وقرأ أبو عمرو بالإضافة. قال الخليل: الخمط الأراك، وكذا قال كثير من المفسرين. وقال أبو عبيدة: الخمط كل شجرة مرة ذات شوك. وقال الزجاج: كل نبت فيه مرارة لا يمكن أكله. وقال المبرد: كل شيء تغير إلى ما لا يشتهي يقال له: خمط، ومنه اللبن إذا تغير، وقرأه الجمهور أولى من قراءة أبي عمرو. والخمط نعت لاكل، أو بدل منه، لأن الأكل هو: الخمط بعينه. وقال الأخفش: الإضافة أحسن في كلام العرب: مثل ثوب خمر، ودار أجرة، والأولى تفسير الخمط بما ذكره الخليل ومن معه. قال الجوهري: الخمط ضرب من الأراك له حمل يؤكل، وتسمية البذل جنتين للمشكلة، أو להתكم بهم، والأثل هو: الشجر المعروف الشبيه بالطرفاء كذا قال الفراء وغيره قال: إلا أنه أعظم من الطرفاء طولاً، الواحدة أثلة، وللجمع أثلاث. وقال الحسن: الأثل الخشب. وقال أبو عبيدة: هو: شجر النطار، والأول أولى، ولا ثمر للأثل. والسدر شجر معروف. قال الفراء: هو: السمر. قال الأزهري: السدر من الشجر سدران: بري لا ينفع به، ولا يصلح للفسول، وله ثمر عقص لا يؤكل، وهو الذي يسمى: الضال. والثاني سدر ينبت على الماء، وثمره النبق، وورقه غسول يشبه شجر العناب، قيل: ووصف السدر بالقلّة لأن منه نوعاً يطيب أكله، وهو النوع الثاني الذي ذكره الأزهري. قال قتادة: بينما شجرهم من خير شجر إذ صيره الله من شرّ الشجر بأعمالهم، فأهلك أشجارهم المثمرة، وأنبت ببلها الأراك، والطرفاء والسدر. ويحتمل: أن يرجع قوله: **﴿قليل﴾** إلى

(1) السكر بالسكون: سدّ للنهر اهد قاموس.

لحايث، وذلك أن الله سبحانه لما أغرق مكانهم، وأذهب جنتهم، تفرّقوا في البلاد، فصارت العرب تضرب بهم الأمثال. فتقول: تفرّقوا أيدي سبا. قال الشعبي: فلحقت الأنصار بيثرب، وغسان بالشام، والأزد بعمان، وخزاعة بتهامة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ﴾ أي: فيما ذكر من قصتهم، وما فعل الله بهم آيات بينات، ودلالات واضحات ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: لكل من هو كثير الصبر، والشكر، وخَصَّ الصبار الشكور، لأنهما المنتفعان بالمواعظ والآيات ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ قرأ الجمهور صدق بالتخفيف، ورفع إبليس، ونصب ظنه. قال الزجاج: وهو على المصدر: أي: صدق عليهم ظناً ظنه، أو صدق في ظنه، أو على الظرف. والمعنى: أنه ظن بهم: أنه إذا أغواهم اتبعوه، فوجدهم كذلك، ويجوز: أن يكون منتصباً على المفعولية، أو بإسقاط الخافض. وقرأ حمزة، والكسائي، ويحيى بن وثاب، والاعمش، وعاصم (صدق) بالتشديد، وظنه بالنصب على أنه مفعول به. قال أبو علي الفارسي: أي: صدق الظن الذي ظنه. قال مجاهد: ظن ظناً، فصدق ظنه، فكان كما ظن، وقرأ أبو جعفر، وأبو الجهماء، والزُّهري، وزيد بن علي (صدق) بالتخفيف، و (إبليس) بالنصب (وظنه) بالرفع، قال أبو حاتم: لا وجه لهذه القراءة عندي، وقد أجاز هذه القراءة الفراء، ونكرها الزجاج، وجعل الظن فاعل صدق، وإبليس مفعوله. والمعنى: أن إبليس سؤل له ظنه شيئاً فيهم، فصدق ظنه، فكانه قال: ولقد صدق عليهم ظن إبليس. وروي عن أبي عمرو: أنه قرأ برفعهما مع تخفيف صدق على أن يكون ظنه بدل اشتمال من إبليس. قيل: وهذه الآية خاصة بأهل سبا. والمعنى: أنهم غيروا، وبكوا بعد أن كانوا قد آمنوا بما جاءت به رسلكم، وقيل: هي عامة: أي: صدق إبليس ظنه على الناس كلهم إلا من أطاع الله. قاله مجاهد، والحسن. قال الكلبي: إنه ظن: أنه إن أغواهم أجابوه، وإن أضلهم أطاعوه، فصدق ظنه ﴿فَاتَّبَعُوهُ﴾ قال الحسن: ما ضربهم بصوت، ولا بعصي، وإنما ظن ظناً، فكان كما ظن بوسوسته، وانتصاب ﴿إِلَّا قَرِيْقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ على الاستثناء، وفيه وجهان: أحدهما: أن يراد به بعض المؤمنين، لأن كثيراً من المؤمنين يذنب، وينقاد لإبليس في بعض المعاصي، ولم يسلم منه إلا فريق، وهم الذين قال فيهم: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: 42 والإسراء: 65] وقيل: المراد بفريقاً من المؤمنين: المؤمنون كلهم على أن تكون من بيانية ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي: ما كان له تسلط عليهم: أي: لم يقهرهم على الكفر، وإنما كان منه الدعاء، والوسوسة، والتزيين، وقيل: السلطان القوة. وقيل: الحجة، والاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مِنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ منقطع، والمعنى: لا سلطان له عليهم، ولكن ابتليانهم بوسوسته لنعلم. وقيل: هو متصل مفرغ من أعم العام: أي: ما كان له عليهم تسلط بحال من الأحوال، ولا لعل من العلل إلا لتمييز من يؤمن، ومن لا يؤمن، لأنه

الظرفية، وانتصاب آمنين على الحال. قال قتادة: كانوا يسيرون غير خائفين، ولا جياح، ولا ظما، كانوا يسيرون مسيرة أربعة أشهر في أمان لا يحرك بعضهم بعضاً، ولو لقي الرجل قاتل أبيه لم يحركه. ثم ذكر سبحانه: أنهم لم يشكروا النعمة، بل طلبوا التعب والكد ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ سَفَارِنَا﴾ وكان هذا القول منهم بطراً وطفياناً لما سئمو النعمة، ولم يصبروا على العافية، فتمنوا طول الأسفار، والتباعد بين الديار، وسألوا الله تعالى: أن يجعل بينهم وبين الشام مكان تلك القرى المتواصلة الكثيرة الماء، والشجر، والأمن، والمفاوز، والقفار، والبراري المتباعدة الاقطار، فأجابهم الله إلى ذلك، وخرب تلك القرى المتواصلة، وذهب بما فيها من الخير، والماء، والشجر، فكانت دعوتهم هذه كدعوة بني إسرائيل حيث قالوا: ﴿إِذْ لَنَا رِيكَ يَخْرُجُ لَنَا مِمَّا تَنْتَبِ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا﴾ [البقرة: 61] الآية مكان المَن والسلوى، وكقول النضر بن الحارث ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حَجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الأنفال: 32] الآية. قرأ الجمهور (ربنا) بالنصب على أنه منادى مضاف، وقرءوا أيضاً (باعد) وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن محيصن، وهشام عن ابن عامر (بعد) بتشديد العين، وقرأ ابن السميع بضم العين فعلاً ماضياً، فيكون معنى هذه القراءة: الشكوى من بعد الأسفار، وقرأ أبو صالح، ومحمد بن الحنفية، وأبو العالية، ونصر بن عاصم، ويعقوب (ربنا) بالرفع (باعد) بفتح العين على أنه فعل ماض على الابتداء، والخبر. والمعنى: لقد باعد ربنا بين أسفارنا، ورويت هذه القراءة عن ابن عباس، واختارها أبو حاتم، قال: لأنهم ما طلبوا التباعد إنما طلبوا أقرب من ذلك القرب الذي كان بينهم وبين الشام بالقرى المتواصلة بطراً، وإشراً، وكفراً للنعمة. وقرأ يحيى بن يعمر، وعيسى بن عمر (ربنا) بالرفع (بعد) بفتح العين مشددة، فيكون معنى هذه القراءة: الشكوى بأن ربهم باعد بين أسفارهم مع كونها قريبة متصلة بالقرى، والشجر، والماء، فيكون هذا من جملة بطرهم، وقرأ أخو الحسن البصري كقراءة ابن السميع السابقة مع رفع بين على أنه الفاعل كما قيل: في قوله: ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: 94]، وروى الفراء، والزجاج قراءة مثل هذه القراءة لكن مع نصب بين على أنه ظرف، والتقدير: بعد سيرنا بين أسفارنا. قال النحاس: وهذه القراءات إذا اختلفت معانيها لم يجوز أن يقال: إحداهما أجود من الأخرى كما لا يقال ذلك في أخبار الأحاد إذا اختلفت معانيها، ولكن أخبر عنهم: أنهم دعوا ربهم أن يبعد بين أسفارهم، فلما فعل ذلك بهم شكوا، وتضرروا، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَوَظَلُّوا أَنْفُسَهُمْ﴾ حيث كفروا بالله، ويطروا نعمته، وتعزّضوا لنقمته ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ يتحدث الناس بأخبارهم. والمعنى: جعلناهم نوي أحاديث يتحدث بها من بعدهم تعجباً من فعلهم، واعتباراً بحالهم، وعاقبتهم ﴿وَمَرْقَاهُمْ كُلَّ مَرْقٍ﴾ أي: فرقناهم في كل وجه من البلاد كل التفريق، وهذه الجملة مبينة لجعلهم

يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿١٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتَ
الَّذِينَ أَحَقُّوا بِرَحْمَةِ اللَّهِ أَكْثَرَ مِنْ الَّذِينَ أَهْلَوْا بِهَا ﴿١٧﴾

قوله: ﴿قُلْ ادعوا الذين زعمتم من دون الله﴾ هذا أمر للنبي ﷺ بأن يقول لكفار قريش، أو للكفار على الإطلاق هذا القول، ومفعولاً زعمتم محنوفان: أي: زعمتموهم آلهة لدلالة السياق عليهما. قال مقاتل: يقول: ادعوهم ليكشفوا عنكم الضر الذي نزل بكم في سنين الجوع. ثم أجاب سبحانه عنهم، فقال: ﴿لَا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض﴾ أي: ليس لهم قدرة على خير، ولا شر، ولا على جلب نفع، ولا دفع ضرر في أمر من الأمور، وذكر السموات والأرض لقصد التعميم لكونهما ظرفاً للموجودات الخارجية ﴿وما لهم فيهما من شرك﴾ أي: ليس للآلهة في السموات والأرض مشاركة بالخلق، ولا بالملك، ولا بالتصرف ﴿وما له منهم من ظهير﴾ أي: وما لله سبحانه من تلك الآلهة من معين يعينه على شيء من أمر السموات والأرض ومن فيهما ﴿ولا تنفع الشفاعة عنده﴾ أي: شفاعة من يشفع عنده من الملائكة، وغيرهم، وقوله: ﴿إلا لمن أذن له﴾ استثناء مغزى من أعم الأحوال: أي: لا تنفع الشفاعة في حال من الأحوال إلا كائنه لمن أذن له أن يشفع من الملائكة، والنبیین، ونحوهم من أهل العلم والعمل، ومعلوم أن هؤلاء لا يشفعون إلا لمن يستحق الشفاعة، لا للكافرين، ويجوز: أن يكون المعنى: لا تنفع الشفاعة من الشفعاء المتأهلين لها في حال من الأحوال إلا كائنه لمن أذن له: أي: لأجله، وفي شأنه من المستحقين للشفاعة لهم، لا من عداهم من غير المستحقين لها، واللام في ﴿لمن﴾ يجوز: أن تتعلق بنفس الشفاعة. قال أبو البقاء: كما تقول: شفعت له، ويجوز: أن تتعلق بتنفع، والأولى أنها متعلقة بالمحذوف كما ذكرنا. قيل: والمراد بقوله: ﴿ولا تنفع للشفاعة﴾ أنها لا توجد أصلاً إلا لمن أذن له، وإنما علق النفي بنفعها لا بوقوعها تصريحاً بنفي ما هو غرضهم من وقوعها. قرأ الجمهور (أذن) بفتح الهمزة: أي: أذن له الله سبحانه، لأن اسمه سبحانه مذكور قبل هذا، وقرأ أبو عمرو، وحزمة، والكسائي بضمها على البناء للمفعول، والأذن هو: الله سبحانه، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾ [البقرة: 255]، وقوله: ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾ [الأنبياء: 28]، ثم أخبر سبحانه عن خوف هؤلاء الشفعاء، والمشفوع لهم، فقال: ﴿حتى إذا فرغ عن قلوبهم﴾ قرأ الجمهور (فرغ) مبنياً للمفعول، والفاعل هو: الله، والقائم مقام الفاعل هو: الجاز والمجور، وقرأ ابن عامر (فرغ) مبنياً للفاعل، وفاعله ضمير يرجع إلى الله سبحانه، وكلا القراءتين بتشديد الزاي، وفعل معناه: السلب، فالتفريع إزالة الفرغ. وقرأ الحسن مثل قراءة الجمهور إلا أنه خفف الزاي. قال قطرب: معنى فرغ عن قلوبهم: أخرج ما فيها من الفرغ، وهو: الخوف. وقال مجاهد: كشف عن قلوبهم الغطاء يوم القيامة. والمعنى: أن الشفاعة لا تكون من أحد من هؤلاء

سبحانه قد علم ذلك علماً أزلياً، وقال الفراء: المعنى: إلا لنعلم ذلك عنكم، وقيل: إلا لتعلموا انتم، وقيل: ليعلم أوليائنا، والملائكة. وقرأ الزهري (إلا ليعلم) على البناء للمفعول، والأولى حمل العلم هنا على التمييز، والإظهار كما ذكرنا ﴿ووربك على كل شيء حفيظ﴾ أي: محافظ عليه. قال مقاتل: علم كل شيء من الإيمان والشك.

وقد أخرج أحمد، والبخاري، والترمذي وحسنه، والحاكم وصححه، وغيرهم عن فروة بن مسيك المرادي قال: «أتيت النبي ﷺ، فقلت: يا رسول الله ألا أقاتل من أكبر من قومي بمن أقبل منهم؟ فأنزلني في قتالهم، وأمرني، فلما خرجت من عنده أرسل في أثري فرئتني، فقال: ادع القوم، فمن أسلم منهم، فاقبل منه، ومن لم يسلم، فلا تعجل حتى أحدث إليك، وأنزل في سبأ ما أنزل، فقال رجل يا رسول الله، وما سبأ: أرض أم امرأة؟ قال: ليس بأرض ولا امرأة، ولكنه رجل ولد عشرة من العرب، فتيامن منهم ستة، وتشام منهم أربعة، فأما الذين تشاموا: فلخم، وجذام، وغسان، وعاملة؛ وأما الذين تيامنوا: فالأزد، والأشعريون، وحمير، وكندة، ومنجج، وأنمار، فقال رجل: يا رسول الله، وما أنمار؟ قال: الذي منهم خثعم، وبجيلة. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، والطبراني، وابن عدي، والحاكم وصححه، وابن مريويه عن ابن عباس نحوه بأخصر منه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿يسئل للعرم﴾ قال: الشنيد. وأخرج ابن جرير عنه قال: ﴿يسئل للعرم﴾ وأد كان باليمن كان يسئل إلى مكة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿كل خمط﴾ قال: الأراك. وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً في قوله: ﴿وهل نجازي إلا الكفور﴾ قال: تلك المناقشة. وأخرج إسحاق بن بشر، وابن عساكر عنه أيضاً في قوله: ﴿وجعلنا بينهم﴾ يعني: بين مساكنتهم وبين القرى التي باركنا فيها. يعني: الأرض المقدسة ﴿قرى ظاهرة﴾ يعني: عامرة مخصبة ﴿وقدرنا فيها للسير﴾ يعني: فيما بين مساكنتهم وبين أرض الشام ﴿سيروا فيها﴾ إذا ظعنوا من منازلهم إلى أرض الشام من المقدسة. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿ولقد صدق عليهم إبليس ظنه﴾ قال إبلis: إن آدم خلق من تراب ومن طين ومن حمأ مسنون خلقاً ضعيفاً، وإنني خلقت من نار، والنار تحرق كل شيء لاحتكاك ذريته إلا قليلاً. قال: فصنق ظنه عليهم ﴿فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين﴾ قال: هم المؤمنون كلهم.

قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ مِشْكَةٍ وَمَا لَهُمْ مِنْ يَمِينٍ وَلَا شِمَالٍ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٨﴾ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ وَإِلَّا أَوْ لِيَأْكُمُ لَمَنْ هَدَىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ قُلْ لَا كُفْرُوكَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا شُكُّ لَنَا بِتَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ قُلْ

هذا الكلام: معنى قول المتبصر في الحجة لصاحبه: أحداً كاتب، وقد عرف: أنه الصابق المصيب، وصاحبه الكاتب المخطئ. قال: وأو عند البصريين على بابها، وليست للشك، لكنها على ما تستعمله العرب في مثل هذا إذا لم يرد المخبر أن يبين، وهو عالم بالمعنى. وقال أبو عبيدة، والفراء: هي بمعنى: الواو، وتقديره: وإنا على هدى، وإياكم لفي ضلال مبين، ومنه قول جرير:

العلبة الفولرس أوريحاً علبت بهم طهية والربابا
أي: ثعلبة، ورباحاً، وكذا قول الآخر:

فلما اشتد بأس الحرب فينا تاملنا رباحاً أوزاماً
أي: ورزماً، وقوله: أو إياكم معطوف على اسم إن، وخبرها هو المذكور، وحذف خبر الثاني للدلالة عليه: أي: إنا لعللى هدى، أو في ضلال مبين، وإنكم لعللى هدى، أو في ضلال مبين، ويجوز العكس: وهو كون المذكور خبر الثاني، وخبر الأول محذوفاً كما تقدم في قوله: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ [التوبة: 62]، ثم أربف سبحانه هذا الكلام المنصف بكلام أبلغ منه في الإنصاف، وأبعد من الجدل، والمشافية، فقال: ﴿قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي: إنما أدعوكم إلى ما فيه خير لكم، ونفع، ولا ينالني من كفركم، وترككم لإجابتي ضرر، وهذا كقوله سبحانه: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: 6]، وفي إسناد الجرم إلى المسلمين، ونسبة مطلق العمل إلى المخاطبين، مع كون أعمال المسلمين من البر الخالص، والطاعة المحضة، وأعمال الكفار من المعصية البينة، والإثم الواضح من الإنصاف ما لا يقار قدره. والمقصود: المهانة، والمشاركة، وقد نسخت هذه الآية، وأمثالها بآية السيف. ثم أمره سبحانه بأن يهتد بهم بعذاب الآخرة، لكن على وجه لا تصريح فيه، فقال: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ أي: يوم القيامة ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ أي: يحكم، ويقضي بيننا الحق، فيثيب المطيع، ويعاقب العاصي ﴿وَهُوَ الْفَاتِحُ﴾ أي: الحاكم بالحق القاضي بالصواب ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما يتعلق بحكمه وقضائه من المصالح. وهذه أيضاً منسوخة بآية السيف. ثم أمره سبحانه أن يورد عليهم حجة أخرى يظهر بها ما هم عليه من الخطأ، فقال: ﴿قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ ادَّعَوْتُمْ بِكُمْ شُرَكَاءَ﴾ أي: أروني الذين احقتموهم بالله شركاء له، وهذه الرؤية هي: القلبية، فيكون شركاء هو: المفعول الثالث، لأن الفعل تعدى بالهمزة إلى ثلاثة. الأول الياء في أروني، والثاني الموصول، والثالث شركاء، وعائد الموصول محذوف: أي: احقتموهم، ويجوز: أن تكون هي البصرية، وتعدى الفعل بالهمزة إلى اثنين: الأول الياء، والثاني الموصول، ويكون شركاء منتصباً على الحال. ثم رد عليهم ما يدعونه من الشركاء، وأبطل ذلك، فقال: ﴿كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: ارتدعوا عن دعوى المشاركة، بل المنفرد بالإلهية، هو: الله العزيز بالقهر والغلبة، الحكيم بالحكمة الباهرة.

المعبودين من دون الله من الملائكة، والأنبياء والأصنام، إلا أن الله سبحانه يأنث للملائكة والأنبياء، ونحوهم في الشفاعة لمن يستحقها، وهم على غاية الفزع من الله كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: 28]، فإذا أذن لهم في الشفاعة فزعوا لما يقتدر بتلك الحالة من الأمر الهائل، والخوف الشديد من أن يحدث شيء من أقدار الله، فإذا سري عليهم ﴿قَالُوا﴾ للملائكة فوقهم، وهم الذين يورثون عليهم الوحي بالإذن ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ أي: ماذا أمر به، فيقولون لهم: قال: القول ﴿الْحَقُّ﴾، وهو: قبول شفاعتكم للمستحقين لها دون غيرهم ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ فله أن يحكم في عبادته بما يشاء، ويفعل ما يريد، وقيل: هذا الفزع يكون للملائكة في كل أمر يأمر به الرب. والمعنى: لا تنفع الشفاعة إلا من الملائكة الذين هم فزعون اليوم مطيعون لله، دون الجمادات، والشياطين، وقيل: إن الذين يقولون: ماذا قال ربكم هم: المشفوع لهم، والذين أجابوهم: هم: الشفعاء من الملائكة، والأنبياء. وقال الحسن، وابن زيد، ومجاهد: معنى الآية: حتى إذا كشف الفزع عن قلوب المشركين في الآخرة. قالت لهم الملائكة: ماذا قال ربكم في الدنيا؟ قالوا: الحق، فأقرؤا حين لا ينفعهم الإقرار. وقرأ ابن عمر، وقتادة: (فرغ) بالراء المهملة، والغين المعجمة من الفراغ. والمعنى: فرغ الله قلوبهم: أي: كشف عنها الخوف. وقرأ ابن مسعود (افترقع) بعد الفاء راء مهملة، ثم نون، ثم قاف، ثم عين مهملة من الافترقع، وهو: التفرق. ثم أمر الله سبحانه رسوله: أن يبيك المشركين، ويوبخهم، فقال: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: من ينعم عليكم بهذه الأرزاق التي تتمتعون بها، فإن ألهتكم لا يملكون مثقال ذرة، والرزق من السماء هو: المطر، وما ينتفع به منها من الشمس، والقمر، والنجوم، والرزق من الأرض هو: النبات، والمعادن، ونحو ذلك، ولما كان الكفار لا يقدرّون على جواب هذا الاستفهام، ولم تقبل عقولهم نسبة هذا الرزق إلى ألهتهم، وربما يتوقفون في نسبته إلى الله مخافة أن تقوم عليهم الحجة، فأمر الله رسوله: بأن يجيب عن ذلك، فقال: ﴿قُلْ اللَّهُ﴾ أي: هو الذي يرزقكم من السموات والأرض، ثم أمره سبحانه: أن يخبرهم بأنهم على ضلالة، لكن على وجه الإنصاف في الحجة بعد ما سبق تقرير من هو على الهدى، ومن هو على الضلالة، فقال: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ والمعنى: أن أحد الفريقين من الذين يوحون الله الخالق الرزاق، ويخصونه بالعبادة، والذين يعبدون الجمادات التي لا تقدر على خلق، ولا رزق، ولا نفع، ولا ضرر لعللى أحد الأمرين من الهدى، والضلالة، ومعلوم لكل عاقل أن من عبد الذي يخلق، ويرزق، وينفع، ويضر هو: الذي على الهدى، ومن عبد الذي لا يقدر على خلق، ولا رزق، ولا نفع، ولا ضرر هو: الذي على الضلالة، فقد تضمن هذا الكلام بيان فريق الهدى، وهم: المسلمون، وفريق الضلالة، وهم: المشركون على وجه أبلغ من التصريح. قال المبرد: ومعنى

الكفر، ومنه الكفّ؛ لأنها تمنع من خروج ما فيه. وقيل: إنه منتصب على المصدرية، والهاء للمبالغة كالعاقبة، والعافية، والمراد: أنها صفة مصدر محذوف: أي: إلا رسالة كافة. وقيل: إنه حال من الناس، والتقدير: وما أرسلناك إلا للناس كافة، وردّ بأنه لا يتقدّم الحال من المجرور عليه كما هو مقرر في علم الإعراب. ويجاب عنه بأنه قد جوّز ذلك أبو عليّ الفارسي، وابن كيسان، وابن برهان، ومنه قول الشاعر:

إذا المرء أعيت السيادة ناشئاً فمطلبها كهلاً عليه عسير

وقول الآخر:

تسلّيت طراً عنكم بعد بينكم بذكركم حتى كانكم عندي

وقول الآخر:

غافلاً تعرض المنية للمرء فبدعى ولات حين إياه

وممن رجع كونها حالاً من المجرور بعدها ابن عطية، وقال: قدمت للاهتمام، والتقوي. وقيل: المعنى: إلا إذا كافة: أي: ذا منع، فحذف المضاف. قيل: واللام في «لنّاس» بمعنى إلى: أي: وما أرسلناك إلى الناس إلا جامعاً لهم بالإنذار، والإبلاغ، أو مانعاً لهم من الكفر، والمعاصي، وانتصاب «بشيراً ونذيراً» على الحال: أي مبشراً لهم بالجنة، ومنذراً لهم من النار «ولكن أكثر الناس لا يعلمون» ما عند الله، وما لهم من النفع في إرسال الرسل «ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صائقين» أي: متى يكون هذا الوعد الذي تعدونا به، وهو: قيام الساعة أخبرونا به إن كنتم صائقين، قالوا: هذا على طريقة الاستهزاء برسول الله ﷺ، ومن معه من المؤمنين، فأمر الله رسوله ﷺ أن يجيب عنهم، فقال: «قل لكم ميعاد يوم» أي: ميقات يوم، وهو: يوم البعث. وقيل: وقت حضور الموت، وقيل: أراد يوم بدر؛ لأنه كان يوم عذابهم في الدنيا، وعلى كل تقدير، فهذه الإضافة للبيان، ويجوز في ميعاد: أن يكون مصدراً مراداً به الوعد، وأن يكون اسم زمان. قال أبو عبيدة: الوعد، والوعيد، والميعاد بمعنى. وقرأ ابن أبي عتبة بتنوين (ميعاد) ورفع، ونصب (يوم) على أن يكون ميعاد مبتدأ، ويوماً ظرف، والخبر لكم. وقرأ عيسى بن عمر برفع (ميعاد) منوناً، ونصب (يوم) مضافاً إلى الجملة بعده. وأجاز النحويون (ميعاد يوم) برفعها منونين على أن ميعاد مبتدأ، ويوم بدل منه، وجملة «لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون» صفة لميعاد: أي: هذا الميعاد المضروب لكم لا تتأخرون عنه، ولا تتقدمون عليه، بل يكون لا محالة في الوقت الذي قد قدر الله وقوعه فيه. ثم نكر سبحانه طرفاً من قبائح الكفار، ونوعاً من أنواع كفرهم، فقال: «وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه» وهي: الكتب القديمة، كالنوراة، والإنجيل، والرسل المتقدمون. وقيل: المراد بالذي بين يديه الدار الآخرة. ثم أخبر سبحانه عن حالهم في الآخرة، فقال: «ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم» الخطاب لمحمد ﷺ، أو لكل من يصلح له، ومعنى موقوفون عند ربهم: محبوسون في موقف الحساب

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: «فرّج عن قلوبهم» قال: جلى. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مروي عنه قال: لما أوحى الجبار إلى محمد ﷺ دعا الرسول من الملائكة: ليبعثه بالوحي، فسمعت الملائكة صوت الجبار يتكلم بالوحي، فلما كشف عن قلوبهم سالوا عما قال الله، فقالوا: الحق، وعلموا: أن الله لا يقول إلا حقاً. قال ابن عباس: وصوت الوحي كصوت الحديد على الصفا، فلما سمعوا خرواً سجداً، فلما رفعوا رؤوسهم «قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق» وهو العليّ الكبير. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: ينزل الأمر إلى السماء الدنيا له وقعة كوقعة السلسلة على الصخرة، فيفرغ له جميع أهل السموات، فيقولون: ماذا قال ربكم؟ ثم يرجعون إلى أنفسهم، فيقولون: الحق وهو العليّ الكبير. وأخرج البخاري، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وغيرهم من حديث أبي هريرة: أن النبي ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله: كأنه سلسلة على صفوان ينفذه» ذلك، فإذا فرغ عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: للذي قال: الحق وهو العليّ الكبير الحديث، وفي معناه أحاديث. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله: «وإنّا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين» قال: نحن على هدى، وإنكم لفي ضلال مبين. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الاسماء والصفات عن ابن عباس قال: «للفتح» القاصي.

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٧٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧٩﴾ قُلْ لَّكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَحْزِنُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَغِيثُونَ ﴿١٨٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنُؤْتِيَنَّكَ يَهْدَىٰ الْفَرَّانَ وَلَا يَأْتِيَنَّكَ يَدِيهِ وَتُؤْتَىٰ فِي الْفُلْجِ مَوْفُوتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿١٨١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا إِنَّا مَكِيدُكُمْ عَنِ الْفَكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بِهِ كُدُّ نَجْرٍ مِّنَ اللَّهِ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَنُكْفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَخِرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْمَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَهَلَا الْأَعْمَلُ ﴿١٨٢﴾ فِي عَنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٣﴾

في انتصاب «كافة» وجوه، فقيل: إنه منتصب على الحال من الكاف في «أرسلناك» قال الزجاج: أي: وما أرسلناك إلا جامعاً للناس بالإنذار، والإبلاغ، والكافة بمعنى: الجامع، والهاء فيه للمبالغة كعلامة. قال أبو حيان: أما قول الزجاج: إن كافة بمعنى: جامعاً، والهاء فيه للمبالغة، فإن اللغة لا تساعد عليه؛ لأن كف ليس معناه: جمع، بل معناه: منع. يقال: كف يكف: أي: منع يمنع. والمعنى: إلا مانعاً لهم من

من الكفر، وأخفوها عن غيرهم، أو أخفاهما كل منهم عن الآخر مخافة الشماتة. وقيل: المراد بأسرؤا هنا أظهروا؛ لأنه من الأضداد يكون، تارة بمعنى: الإخفاء، وتارة بمعنى: الإظهار، ومنه قول امرئ القيس:

تجاوزت أحراساً وأموال معشر علي حراس لو يسرون مقتلي
وقيل: معنى أسروا الندامة: تبينت الندامة في أسرة وجوهمهم «وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا» الأغلال جمل غل، يقال: في رقبتك غل من حديد، أي: جعلت الأغلال من الحديد في أعناق هؤلاء في النار، والمراد بالذين كفروا: هم المذكورون سابقاً، والإظهار لمزيد الذم، أو للكفار على العموم، فيدخل هؤلاء فيهم بخولاً أولاً «هل يجزون إلا ما كانوا يعملون» أي: إلا جزاء ما كانوا يعملونه من الشرك بالله، أو إلا بما كانوا يعملون على حذف الخافض.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر عن مجاهد في قوله: «وما أرسلناك إلا كافة للناس» قال: إلى الناس جميعاً. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة قال: أرسل الله محمداً إلى العرب، والعجم، فأكفرهم على الله أطوعهم له. وأخرج هؤلاء عنه في قوله: «وقال الذين كفروا لنؤمن بهذا القرآن» قال: هذا قول مشركي العرب كفروا بالقرآن، وبالذي بين يديه من الكتب، والأنبياء.

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١﴾ وَقَالُوا غَنٍّ أَكْثَرُ أَمْوَالِ وَأَوْلَادِ وَمَا عَنْهُمْ بِمُعَذِّينَ ﴿٢﴾ قُلْ إِن رَّبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرَّبُكُمْ عِندَ رَبِّهِ إِلَّا مَن مَّامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءٌ أَغْلَىٰ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ أَكْبَرُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ يَسْتَوُونَ فِي مَالِهِمْ مَعْجَازِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِن رَّبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لِمَن يَشَاءُ وَمَا أَفْتَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ خَافِئُهُ وَهُوَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ وَيَوْمَ يَصْحُرُكُمْ جِيحَاتٌ مِّنْ قَوْلِ الْمَلَكِكَةِ أَمْرًا وَإِنَّا كُنَّا بِمَا عَمِلْتُمْ أَشَدَّ مُبْصِرِينَ ﴿٧﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَرِثْنَا مِنْ دُونِهِمْ كُلًّا ذُلًّا مَّا نَبْذُلُونَ أَكْثَرَهُمْ بِهِمْ مُّؤْمِنُونَ ﴿٨﴾ قَالِيمٌ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُم لِبَعْضٍ شَيْئًا وَلَا صِرَافًا وَقَوْلُ الَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٩﴾

لما قص سبحانه حال من تقدم من الكفار أتبعه بما فيه التسلية لرسوله، وبيان أن كفر الأمم السابقة بمن أرسل إليهم من الرسل هو كائن مستمر في العصر الأول، فقال: «وما أرسلنا في قرية» من القرى «من نذير» ينذرهم، ويحذرهم عقاب الله «إلا قال مترفوها» أي: رؤسائها، وأغنيائها، وجبابرتها، وقادة الشر لرسولهم «إنما بما أرسلتم به كافرون» أي: بما أرسلتم به من التوحيد، والإيمان، وجملة «إلا قال مترفوها» في محل نصب على الحال. ثم ذكر ما افتخروا به من الأموال، والأولاد، وقاسوا حالهم في الدار الآخرة على حالهم في هذه الدار على تقدير صحة ما أنذرهم به الرسل، فقال: «وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً

يرجع بعضهم إلى بعض القول» أي: يتراجعون الكلام فيما بينهم بالولم والعتاب، بعد أن كانوا في الدنيا متعاضدين متناصرين متحابين. ثم بين سبحانه تلك المراجعة، فقال: «يقول الذين استضعفوا»، وهم: الاتباع «للذين استكبروا»، وهم: الرؤساء المتبوعون «هلولا أنتم» صدمتمونا عن الإيمان بالله، والاتباع لرسوله «لكنا مؤمنين» بالله مصنفين لرسوله، وكتابه «قال الذين استكبروا للذين استضعفوا» مجيبين عليهم مستنكرين لما قالوه: «أنحن صديناكم عن الهدى» أي: منعناكم عن الإيمان «بعد إذ جاءكم» الهدى، قالوا هذا منكرين لما ادَّعوه عليهم من الصِّدِّ لهم، وجاحدين لما نسبوه إليهم من ذلك، ثم بينوا لهم: أنهم الصائون لأنفسهم، الممتنعون من الهدى بعد إذ جاءهم، فقالوا: «هل كنتم مجرمين» أي: مصرين على الكفر، كثري الإجرام، عظيمي الأثام «وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا» رداً لما أجابوا به عليهم، وبفعلاً لما نسبوه إليهم من صدهم لأنفسهم «هل مكر الليل والنهار» أصل المكر في كلام العرب: الخديعة، والحيلة، يقال: مكر به إذا خدعه، واحتال عليه. والمعنى: بل مكركم بنا الليل والنهار، فحذف المضاف إليه، وأقيم الطرف مقامه اتساعاً. وقال الأخفش: هو على تقدير هذا مكر الليل، والنهار. قال النحاس: المعنى والله أعلم، بل مكركم في الليل، والنهار، ودعاؤكم لنا إلى الكفر هو الذي حملنا على هذا. وقال سفيان الثوري: بل عملكم في الليل والنهار، ويجوز: أن يجعل الليل، والنهار مكرين على الإسناد المجازي كما تقدّر في علم المعاني. قال الميزد كما تقول العرب: نهاره صائم، وليله قائم، وأنشد قول جرير:

لقد لمتنا يا أم غيلان في السرى ونمت وما ليل المطي بنائم
وأنشد سيبويه:

تيام ليلتي وتجلي همي

وقرأ قتادة، ويحيى بن يعمر برفع (مكر) منوَّناً، ونصب الليل والنهار، والتقدير: بل مكر كائن في الليل والنهار. وقرأ سعيد بن جبير، وأبو رزين بفتح الكاف، وتشديد الراء مضافاً بمعنى: الكرور، من كَرَّ يَكُرُّ إذا جاء، وذهب، وارتفاع مكر على هذه القراءات على أنه مبتدأ، وخبره محنوف: أي: مكر الليل والنهار صَدَّنَا، أو على أنه فاعل لفعل محنوف: أي: صَدَّنَا مكر الليل والنهار، أو على أنه خبر مبتدأ محنوف كما تقدم عن الأخفش. وقرأ طلحة بن راشد كما قرأ سعيد بن جبير، ولكنه نصب مكر على المصدرية: أي: بل تكررين الإغواء مكرًا دائماً لا تفترقون عنه، وانتصاب «إذ تآمرونا» على أنه ظرف للمكر: أي: بل مكركم بنا وقت أمركم لنا «أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً» أي: أشباهاً، وأمثالاً. قال المبرد: يقال نَدَّ فلان فلان: أي: مثله، وأنشد:

أتيما تجعلون إلي ندأ وما تيم بذئ حسب نبيد
والضمير في قوله: «وأسروا الندامة لما رأوا العذاب» راجع إلى الفريقين: أي: أضمر الفريقان الندامة على ما فعلوا

الضعف جزاء: أي: حال كونه جزاء. وقرأ الجمهور (في الغرفات) بالجمع، واختار هذه القراءة أبو عبيد لقوله: ﴿لَنُبْرِئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ [العنكبوت: 58]، وقرأ الأعمش، ويحيى بن وثاب، وحمة، وخلف (في الغرفة) بالإنفراد لقوله: ﴿أُولَئِكَ يَجْزُونَ الْغُرْفَةَ﴾ [الفرقان: 75] ولما نكر سبحانه حال المؤمنين نكر حال الكافرين، فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آلَاتِنَا﴾ بالرد لها، والطعن فيها حال كونهم ﴿مُعْجِزِينَ﴾ مسابقين لنا زاعمين أنهم يفوتوننا بأنفسهم، أو معاندين لنا بكفرهم ﴿أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ أي: في عذاب جهنم تحضرهم الزبانية إليها لا يجنون عنها محيصاً. ثم كرر سبحانه ما تقدم لقصد التأكيد للحجة، والدفع لما قاله الكفرة، فقال: ﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ أي: يوسع له ما يشاء، ويضيق على من يشاء، وليس في ذلك دلالة على سعادة، ولا شقاوة ﴿وَمَا تَنْقُصُ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يَخْلِفُهُ﴾ أي: يخلفه عليكم، يقال: أخلف له، وأخلف عليه: إذا أعطاه عوضه، وبذله، وذلك البذل إما في الدنيا، وإما في الآخرة ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ فإن رزق العباد لبعضهم البعض إنما هو بتيسير الله، وتقديره، وليسوا برازقين على الحقيقة بل على طريق المجاز، كما يقال: في الرجل إنه يرزق عياله، وفي الأمير إنه يرزق جنده، والرازيق للأمير، والمامور، والكبير، والصغير هو: الخالق لهم، ومن أخرج من العباد إلى غيره شيئاً مما رزقه الله، فهو إنما تصرف في رزق الله له، فاستحق بما خرج منه الثواب عليه المضاعف لامثاله لأمر الله، وإنفاقه فيما أمره الله ﴿يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ الظرف منصوب بفعل مقدر نحو أنكروا، أو هو متصل بقوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ﴾ [سبا: 31] أي: ولو تراه أيضاً يوم نحشرهم جميعاً للحساب العابد، والمعبود، والمستكبر، والمستضعف، ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْلُؤَا إِنَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ تقريباً للمشركين، وتوبيخاً لمن عبد غير الله عز وجل كما في قوله لعيسى: ﴿هَآأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: 116]، وإنما خصص الملائكة بالذكر مع أن بعض الكفار قد عبد غيرهم من الشياطين، والأصنام: لأنهم أشرف معبودات المشركين. قال النحاس: والمعنى: أن الملائكة إذا اكتبتم كان في ذلك تبيك للمشركين، وجملة ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلَيْتَا مِنْ دُونِهِمْ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر: أي: تنزيهاً لك أنت الذي تنولاه، ونطيعه، ونعبده من دُونِهِمْ، ما اتَّخَذْنَاهُمْ عَابِدِينَ، ولا توليناهم، وليس لنا غيرك ولياً، ثم صرحوا بما كان المشركون يعبدونه، فقالوا: ﴿يَلِ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ أي: الشياطين، وهم: إبليس، وجنوده، ويزعمون: أنهم يرونهم، وأنهم ملائكة، وأنهم بنات الله، وقيل: كانوا يدخلون أجواف الأصنام، ويخاطبونهم منها ﴿أَكْثَرَهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ أي: أكثر المشركين بالجنّ مؤمنون بهم مصدقون لهم، قيل: والأكثر في معنى: الكل ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ

وَمَا نَحْنُ بِمُعْتَبِينَ﴾ والمعنى: أن الله فضلنا عليكم بالأموال والأولاد في الدنيا، وذلك يدل على: أنه قد رضي ما نحن عليه من الدين، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعْتَبِينَ﴾ في الآخرة بعد إحسانه إلينا في الدنيا، ورضاه عنا، فأمر الله نبيه ﷺ بأن يجيب عنهم، وقال: ﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ أَنْ يَبْسُطَ لَهُ﴾ أي: يضيّق على من يشاء أن يضيّقه عليه، فهو سبحانه قد يرزق الكافر، والعاصي استدراجاً له، وقد يمتحن المؤمن المطيع بالتقتير توفيراً لأجره، وليس مجرد بسط الرزق لمن بسطه له يدل على أنه قد رضي عنه، ورضي عمله، ولا قبضه عن قبضه عنه يدل على أنه لم يرضه، ولا رضي عمله، فقياس الدار الآخرة على الدار الأولى في مثل هذا من اللفظ البين، أو المغالطة الواضحة ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ هذا، ومن جملة هؤلاء الأكثر من قاس أمر الآخرة على الأولى، ثم زاد هذا الجواب تأييداً، وتأكيداً ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى﴾ أي: ليسوا بالخصلة التي تقربكم عندي قريباً. قال مجاهد: الزلفى القريبى، والزلفة القرية. قال الأخفش: زلفى اسم مصدر كأنه قال بالتي تقربكم عندي تقريباً، فتكون زلفى منصوبة المحل. قال الفراء: إن التي تكون للأموال والأولاد جميعاً، وقال الزجاج: إن التي أموالكم بالتي تقربكم عندي زلفى، ولا أولادكم بالشيء يقربكم عندي زلفى، ثم حنف خبر الأول لدلالة الثاني عليه، وأنشد:

نحن بما عندنا وانت بما عندك راض والرأي مختلف
ويجوز في غير القرآن باللتين، واللاتي، وباللاتي، وبالنبي
للأولاد خاصة: أي: لا تزيدكم الأموال عندي درجة ورفعة، ولا تقربكم قريباً ﴿إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ هو استثناء منقطع، فيكون محله النصب: أي: لكن من آمن، وعمل صالحاً، أو في محل جر بدلاً من الضمير في تقربكم، كذا قال الزجاج. قال النحاس: وهذا القول غلط، لأن الكاف والميم للمخاطب، فلا يجوز البذل، ولو جاز هذا لجاز رأيك زيدا. ويجاب عنه بأن الأخفش والكوفيين يجوزون ذلك، وقد قال بمثل قول الزجاج الفراء، وأجاز الفراء: أن يكون في موضع رفع بمعنى: ما هو إلا من آمن، والإشارة بقوله: ﴿فَأُولَئِكَ﴾ إلى من، والجمع باعتبار معناها، وهو مبتدأ، وخبره ﴿لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ﴾ أي: جزاء الزيادة، وهي المرادة بقوله: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مِثَالِهَا﴾ [الأنعام: 160]، وهو من إضافة المصدر إلى المفعول: أي: جزاء التضعيف للحسنات، وقيل: لهم جزاء الإضعاف: لأن الضعف في معنى الجمع، والباء في ﴿بِمَا عَمَلُوا﴾ للسببية ﴿وَهُمْ فِي الْغُرَفَاتِ آمِنُونَ﴾ من جميع ما يكرهون، والمراد غرفات الجنة، قرأ الجمهور (جزاء الضعف) بالإضافة، وقرأ الزهري، ويعقوب، ونصر بن عاصم، وقتادة برفعها على أن الضعف بدل من جزاء. وروي عن يعقوب: أنه قرأ (جزاء) بالنصب منوناً، و (الضعف) بالرفع على تقدير: فأولئك لهم

وقيل: القرآن؛ لأنه يجمع المواعظ كلها، والأولى ما ذكرناه أولاً. وقال الزجاج: إن «أن» في قوله: ﴿إِنْ تَقُومُوا﴾ في موضع نصب بمعنى: لأن تقوموا. وقال السدي: معنى مثني وفردى: منفرداً براه، ومشاوراً لغيره. وقال القتيبي: منازراً مع عشيرته، ومفكراً في نفسه. وقيل: المثني عمل النهار، والفردى عمل الليل، قاله الماوردي. وما أبد هذا القول، وأقل جدواه. واختار أبو حاتم، وابن الأنباري الوقف على قوله: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾، وعلى هذا تكون جملة ﴿مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جَنَّةٍ﴾ مستأنفة كما قدمنا، وقيل: ليس بوقف، لأن المعنى: ثم تتفكروا هل جريتم عليه كذباً، أو رايتم منه جنة، أو في أحواله من فساد. ثم أمر سبحانه أن يخبرهم: أنه لم يكن له غرض في الدنيا، ولا رغبة فيها حتى تنقطع عندهم الشكوك، ويرتفع الريب، فقال: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرِ فَهوَ لَكُمْ﴾ أي: ما طلبت منكم من جعل تجعلونه لي مقابل الرسالة، فهو لكم إن سألتموه، والمراد نفي السؤال بالكليّة، كما يقول القائل: ما أمك في هذا، فقد وهبته لك، يريد أنه لا ملك له فيه أصلاً، ومثل هذه الآية قوله: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى: 23]، وقوله: ﴿مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ [الفرقان: 57]. ثم بين لهم: أن أجره عند الله سبحانه، فقال: ﴿إِنْ لَجِىَ إِلَىٰ عَلَىٰ اللَّهِ﴾ أي: ما أجرى إلا على الله لا على غيره ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: مطلع لا يغيب عنه منه شيء ﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ القذف الرمي بالسهم، والحصى، والكلام. قال الكلبي: يرمي على معنى: يأتي به، وقال مقاتل: يتكلم بالحق، وهو: القرآن، والوحي: أي: يلقيه إلى أنبيائه. وقال قتادة ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: بالوحي، والمعنى: أنه يبين الحجة، ويظهرها للناس على السن رسله، وقيل: يرمي الباطل بالحق، فيدمغه ﴿عَلَامُ الْغُيُوبِ﴾ قرأ الجمهور برفع «علام» على أنه خبر ثاني لأن، أو خبر مبتدأ محذوف، أو بدل من الضمير في يقذف، أو معطوف على محل اسم إن. قال الزجاج: الرفع من وجهين على الموضع، لأن الموضع موضع رفع، أو على البدل. وقرأ زيد بن علي، وعيسى بن عمر، وابن أبي إسحاق بالنصب نعتاً لاسم إن، أو بدلاً منه، أو على المدح. قال الفراء: والرفع في مثل هذا أكثر كقوله: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ [ص: 64]، وقرأ الغيوب بالحركات الثلاث في الغين، وهو: جمع غيب، والغيب هو: الأمر الذي غاب وخفي جداً ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ﴾ أي: الإسلام، والتوحيد. وقال قتادة: القرآن. وقال النحاس: التقدير صاحب الحق: أي: الكتاب الذي فيه البراهين، والحجج.

وأقول: لا وجه لتقدير المضاف، فإن القرآن قد جاء كما جاء صاحبه ﴿وَمَا يَبْدئُ لِلْبَاطِلِ وَمَا يَعِيدُ﴾ أي: ذهب الباطل ذهاباً لم يبق منه إقبال، ولا إقبال، ولا إبداء، ولا إعادة. قال قتادة: الباطل هو: الشيطان: أي: ما يخلق لشيطان ابتداءً، ولا يبعث، وبه قال مقاتل، والكلبي. وقيل: يجوز أن

أعطاهم من العلم، والبيان، والحجة، والبرهان، والأول أولى. وقيل: المعشار عشر العشير، والعشير عشر العشر، فيكون جزءاً من ألف جزء. قال الماوردي: وهو الأظهر؛ لأن المراد به المبالغة في التقليل، قلت: مراعاة المبالغة في التقليل لا يسوغ لأجلها الخروج عن المعنى العربي، وقوله: ﴿فَكُنُوا رُسُلِي﴾ عطف على ﴿كُذِّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ على طريقة التفسير، كقوله: ﴿كُذِّبَ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكُنُوا عِبِيداً﴾ [القمر: 9] الآية، والأولى: أن يكون من عطف الخاص على العام، لأن التكنيب الأول لما حذف منه المتعلق للتكنيب أفاد العموم، فمعناه: كذبوا الكتب المنزلة، والرسائل المرسلّة، والمعجزات الواضحة، وتكنيب الرسل أخص منه، وإن كان مستلزماً له، فقد روعيت الدلالة اللفظية لا الدلالة الاتزامية ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: فكيف كان إنكارهم لهم بالعذاب، والعقوبة، فليحذر هؤلاء من مثل ذلك، قيل: وفي الكلام حذف. والتقدير: فاهلكناهم، فكيف كان نكير، والنكير اسم بمعنى: الإنكار. ثم أمر سبحانه رسوله: أن يقيم عليهم حجة ينقطعون عندها، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ﴾ أي: أحذركم، وأنذركم سوء عاقبة ما أنتم فيه، وأوصيكم بخصلة واحدة، وهي: ﴿إِنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خِيَالِكُمْ﴾ هذا تفسير للخصلة الواحدة، أو بدل منها: أي: هي قيامكم وتشميركم في طلب الحق بالفكرة الصائفة متفرقين اثنين اثنين، وواحداً واحداً، لأن الاجتماع يشوش الفكر. وليس المراد القيام على الرجلين، بل المراد القيام بطلب الحق، وإصداق الفكر فيه، كما يقال: قام فلان بأمر كذا ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ في أمر النبي، وما جاء به من الكتاب، فإنكم عند ذلك تعلمون أن ﴿مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جَنَّةٍ﴾، وذلك؛ لأنهم كانوا يقولون: إن محمداً مجنون، فقال الله سبحانه: قل لهم: اعتبروا أمري بواحدة، وهي: أن تقوموا لله، وفي ذاته مجتمعين، فيقول الرجل لصاحبه: هلم، فلنتصاق، هل رأينا بهذا الرجل من جنة: أي: جنون، أو جزيئنا عليه كذباً، ثم ينفرد كل واحد عن صاحبه، فيتفكر، وينظر، فإن في ذلك ما يدل على أن محمداً ﷺ صادق، وأنه رسول من عند الله، وأنه ليس بكاذب، ولا ساحر، ولا مجنون، وهو معنى قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ أي: ما هو إلا نذير لكم بين يدي الساعة، وقيل: إن جملة ﴿مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جَنَّةٍ﴾ مستأنفة من جهة الله سبحانه مسوقة للتنبيه على طريقة النظر والتأمل بأن هذا الأمر العظيم، والدعوى الكبيرة لا يفرض نفسه له إلا مجنون لا يبالي بما يقال فيه، وما ينسب إليه من الكذب، وقد علموا: أنه أرجح الناس عقلاً، فوجب: أن يصنقوه في دعواه، لا سيما مع انضمام المعجزة الواضحة، وإجماعهم على أنه لم يكن ممن يفترى الكذب، ولا قد جربوا عليه كذباً مدة عمره، وعمرهم. وقيل: يجوز أن تكون «ما» في ﴿مَا بِصَاحِبِكُمْ﴾ استفهامية: أي: ثم تتفكروا أي شيء به من آثار الجنون، وقيل: المراد بقوله: ﴿إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ﴾ هي: «لا إله إلا الله» كذا قال مجاهد، والسدي.

هو الفزع الذي بمعنى: الإجابة، يقال: فزع الرجل: إذا أجاب الصارخ الذي يستغيث به كفزعهم إلى الحرب يوم بدر **﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ﴾** أي: بمحمد، قاله قتادة، أو بالقرآن. وقال مجاهد: بالله عز وجل. وقال الحسن: بالبعث **﴿وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاقُشُ﴾** التناوش التناول، وهو تفاعل من التناوش الذي هو: التناول، والمعنى: كيف لهم أن يتناولوا الإيمان من بعد، يعني: في الآخرة، وقد تركوه في الدنيا، وهو معنى **﴿مَنْ مَكَانٌ بَعِيدٌ﴾**: وهو تمثيل لحالهم في طلب الخلاص بعد ما فات عنهم. قال ابن السكيت: يقال: للرجل إذا تناول رجلاً لياخذ برأسه، أو بلحيته ناشه ينوشه نوشاً، وأنشد:

ففي تنوش الحوض نوشاً من علا نوشاً به تقطع إحواز الفلا
أي: تناول ماء الحوض من فوق، ومنه المناوشة في القتال، وقيل: التناوش الرجعة: أي: وأنى لهم الرجعة إلى الدنيا؛ ليؤمنوا، ومنه قول الشاعر:

تمنى أن تشوب إليّ مَيٍّ وليس إلى تناوشها سبيل
وجملة: **﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾** في محل نصب على الحال: أي: والحال أن قد كفروا بما آمنوا به الآن من قبل هذا الوقت، وذلك حال كونهم في الدنيا. قرأ أبو عمرو، وحزمة، والكسائي، والاعمش (التناوش) بالهمز، وقرأ الباقر بن الوليد، واستبعد أبو عبيد، والنحاس القراءة الأولى، ولا وجه للاستبعاد، فقد ثبت ذلك في لغة العرب، وأشعارها، ومنه قول الشاعر:

تعدت زماناً عن طلابك للعلا وجئت نثيلاً بعد ما فاتك الخير
أي: وجئت أخيراً. قال الفراء: الهمز، وترك الهمز متقارب **﴿وَيَقْنُقُونَ بِالْغَيْبِ﴾** أي: يرمون بالظن، فيقولون: لا بعث، ولا نشور، ولا جنة، ولا نار **﴿مَنْ مَكَانٌ بَعِيدٌ﴾** أي: من جهة بعيدة ليس فيها مستند لظنهم الباطل. وقيل: والمعنى: يقولون في القرآن أقوال باطلة: إنه سحر، وشعر، وأساطير الأولين. وقيل: يقولون في محمد إنه ساحر شاعر كاهن مجنون. وقرأ أبو حيو، ومجاهد، ومحبوب عن أبي عمرو (يقنفون) مبنياً للمفعول: أي: يترجمون بما يسوؤهم من جراء أعمالهم من حيث لا يحتسبون، وفيه تمثيل لحالهم بحال من يرمي شيئاً لا يراه من مكان بعيد لا مجال للوهم في لحوقه، والجملة إما معطوفة على: وقد كفروا به على أنها حكاية للحال الماضية، واستحضار لصورتها، أو مستأنفة لبيان تمثيل حالهم **﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾** من النجاة من العذاب، ومنعوا من ذلك، وقيل: حيل بينهم، وبين ما يشتهون في الدنيا من أموالهم، وأهلبيهم، أو حيل بينهم، وبين ما يشتهونه من الرجوع إلى الدنيا **﴿كَمَا فَعَلَ بِالشَّيَاطِينِ مِنْ قَبْلِ﴾** أي: بأمثالهم، ونظراتهم من كفر الأمم الماضية، والأشياء جمع شيع، وشيع جمع شيعمة، وجملة **﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ﴾** تعليل لما قبلها: أي: في شك موقع في الريبة، أو ذي ريبة من أمر الرسل، والبعث، والجنة، والنار، أو في التوحيد، وما جاءتهم به الرسل من الدين، يقال: أرب الرجل إذا صار ذا ريبة، فهو مرِيب، وقيل: هو من

تكون ما استفهامية: أي: أي شيء يبديه، وأي شيء يعيده؟ والأول أولى **﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ﴾** عن الطريق الحق الواضحة **﴿فَلَنُتِمَّا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي﴾** أي: إثم ضلالتني يكون على نفسي، وذلك أن الكفار قالوا له: تركت بين آباءك، فضلت، فأمره الله: أن يقول لهم هذا القول **﴿وَأِنْ اهْتَنَيْتُ فِيمَا يُوْحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾** من الحكمة، والموعظة، والبيان بالقرآن **﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾** مني ومنكم يعلم الهدى والضلالة، قرأ الجمهور (ضللت) بفتح اللام، وقرأ الحسن، ويحيى بن وثاب بكسر اللام، وهي لغة أهل العالية.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس **﴿وَمَا بَلَغُوا مَعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ﴾** يقول: من القوة في الدنيا. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج نحوه. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي في الآية قال: يقوم الرجل مع الرجل، أو وحده، فيفكر ما يصاحبه من جنة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة **﴿مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جَنَّةٍ﴾** يقول: إنه ليس بمجنون. وأخرج هؤلاء عنه أيضاً في قوله: **﴿وَمَا سَأَلْتُمْ مِنْ لَجَرٍ﴾** أي: من جبل، فهو لكم، يقول: لم أسألكم على الإسلام جعلاً، وفي قوله: **﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾** قال: بالوحي، وفي قوله: **﴿وَمَا يَبْدئُ الْبَاطِلُ وَمَا يَعْبُدُ﴾** قال: الشيطان لا يبدئ ولا يعبد إذا هلك. وأخرج هؤلاء أيضاً عنه في قوله: **﴿وَمَا يَبْدئُ الْبَاطِلُ وَمَا يَعْبُدُ﴾** قال: ما يخلق إبليس شيئاً، ولا يبعثه. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن عمر بن سعد في قوله: **﴿إِنْ ضَلَلْتُ فَلَنُتِمَّا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي﴾** قال: إنما أؤخذ بجنايتي.

وَلَوْ تَرَى إِذْ ذُفِرُوا فَلاَ قُوَّةَ وَأُنْذِرُ مَنِ مَكَانٍ قَرِيبٍ ۝١٧ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ
وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۝١٨ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ
وَيَقْدِرُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۝١٩ وَبَيْنَ يَدَيْهِمْ رَبُّهُمْ وَلَهُمْ
أَنْشَاءُ عَنْهُمْ مِنْ قَبْلِ إِيَّاهُمْ كَاوُفًا شَكٌّ مُرِيبٌ ۝٢٠

ثم نكر سبحانه حالاً من أحوال الكفار، فقال: **﴿وَلَوْ تَرَى﴾** إذ فزعوا، والخطاب لرسول الله، أو لكل من يصلح له، قيل: المراد فزعهم عند نزول الموت بهم. وقال الحسن: هو: فزعهم في القبور من الصيحة، وقال قتادة: هو: فزعهم إذا خرجوا من قبورهم. وقال السدي: هو: فزعهم يوم بدر حين ضربت أعناقهم بسيف الملائكة، فلم يستطيعوا فراراً ولا رجوعاً إلى التوبة. وقال ابن مغفل: هو: فزعهم إذا عاينوا عقاب الله يوم القيامة. وقال سعيد بن جبير: هو: الخسف الذي يخسف بهم في البدياء، فيبقى رجل منهم، فيخبر الناس بما لقي أصحابه، فيفزعون. وجواب لو محذوف: أي: لرايت أمراً هائلاً، ومعنى **﴿فلا فوت﴾**: فلا يفوتني أحد منهم، ولا ينجو منهم ناج. قال مجاهد: فلا مهرب **﴿وولخذلوا﴾** من مكان قريب. من ظهر الأرض، أو من القبور، أو من موقف الحساب وقيل: من حيث كانوا، فهم من الله قريب لا يبعدون عنه، ولا يفوتونه. قيل: ويجوز أن يكون هذا الفزع

الريب الذي هو الشك، فهو كما يقال عجب عجيب، وشعر شاعر.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿فَلا فَوْتَ﴾ قال: فلا نجاة. وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزَعُوا فِلا فَوْتَ وَلَخَلُّوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ قال: هو جيش السفيناني، قيل: من أين لخلوا؟ قال: من تحت أقدامهم. وقد ثبت في الصحيح: أنه يخسف بجيش في الببغاء من حديث حفصة، وعائشة، وخارج الصحيح من حديث أم سلمة، وصفية، وأبي هريرة، وابن مسعود، وليس في شيء منها أن ذلك سبب نزول هذه الآية، ولكنه أخرج ابن جرير من حديث حنيفة بن اليمان قصة الخسف هذه مرفوعة، وقال في آخرها: فلذلك قوله عز وجل في سورة سبا ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزَعُوا فِلا فَوْتَ﴾ الآية. وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاقُشُ﴾ قال: كيف لهم الرد؟ ﴿مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ قال: يسألون الرد، وليس بحين رد. وأخرج ابن المنذر عن التيمي قال: أتيت ابن عباس قلت: ما التناقوش؟ قال: تناول الشيء، وليس بحين ذلك.

تفسير سورة فاطر

وهي مكية. قال القرطبي: في قول الجميع. وأخرج البخاري، وابن الضريس، وابن مربي، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: أنزلت سورة فاطر بمكة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَمَّا دَرَأَ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلُ الْمَلَائِكَةِ رُسلًا أُولَى أَبْصَارٍ مَتَنَ وَكَانَ وَرِثَةُ بَرْدٍ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَفَوَّ الْفَرْقَ لَكُمْ ﴿٢﴾ يَتَّبِعُ النَّاسُ أَذْكَرُوا نَعَمَ اللَّهُ عَلَيْكَ هَلْ مِنْ خِلَافٍ عِزِّ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتَ تُزَكِّتُ ﴿٣﴾ وَلَهُ يَكْبَرُونَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رُجِعَ الْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَتَّبِعُ النَّاسُ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَعْرُكُكُمْ الْخَبَرَةُ الَّذِينَ لَا يَرْزُقُكُمْ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ ﴿٥﴾ إِنْ الْتَبَلْتُمْ لَكُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَتَلَاوا الصَّلَاةَ لَمْ تَغْفِرْ وَأَعْرَجَ كِبَرُ ﴿٦﴾ أَمِنْ زَيْنٍ لَمْ يَسْأَلْهُ عَلَيْهِ قَرَاءَهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُعْزِلُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٧﴾

الفطر: الشق من الشيء، يقال: فطرته فانفطر، ومنه فطر البعير إذا طلع، فهو بعير فاطر، وتفطر الشيء تشقق، والفطر الابتداء والاختراع، وهو: المراد هنا، والمعنى: ﴿الحمد لله﴾ مبدع ﴿السموات والأرض﴾، ومخترعهما، والمقصود من هذا أن من قدر على ابتداء هذا الخلق العظيم،

فهو قادر على الإعادة. قرأ الجمهور (فاطر) على صيغة اسم الفاعل، وقرأ الزهري، والضحاك (فطر) على صيغة الفعل الماضي، فعلى القراءة الأولى هو نعت لله؛ لأن إضافته محضة لكونه بمعنى: الماضي، وإن كانت غير محضة كان بدلاً، ومثله ﴿جَاعِلُ الْمَلَائِكَةِ رُسلًا﴾ يجوز فيه الوجهان، وانتصّب رسلاً بفعل مضمر على الوجه الأول، لأن اسم الفاعل إذا كان بمعنى: الماضي لا يعمل، وجوز الكسائي عمله. وأما على الوجه الثاني، فهو منصوب بجاعل، والرسول من الملائكة هم: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وعزرائيل. وقرأ الحسن (جاعل) بالرفع، وقرأ خليل بن نشيط، ويحيى بن يعمر (جعل) على صيغة الماضي. وقرأ الحسن، وحמיד (رسلاً) بسكون السين، وهي لغة تميم ﴿أُولَى لُجْنَةٍ﴾ صفة لرسلاً، والأجنة جمع جناح ﴿مُثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعٍ﴾ صفة لأجنة، وقد تقدّم الكلام في مثني، وثلاث، ورباع في النساء. قال قتادة: بعضهم له جناح، وبعضهم ثلاثة، وبعضهم أربعة ينزلون بها من السماء إلى الأرض، ويعرجون بها من الأرض إلى السماء. قال يحيى بن سلام: يرسلهم الله إلى الأنبياء. وقال السدي: إلى العباد بنعمه، أو نعمة، وجملة ﴿يُزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ مستأنفة مقررة لما قبلها من تفاوت أحوال الملائكة، والمعنى: أنه يزيد في خلق الملائكة ما يشاء، وهو: قول أكثر المفسرين، واختاره الفراء، والزجاج. وقيل: إن هذه الزيادة في الخلق غير خاصة بالملائكة، فقال الزهري، وابن جريج: إنها حسن الصوت. وقال قتادة: الملاحة في العينين، والحسن في الأنف، والحلاوة في الفم، وقيل: الوجه الحسن، وقيل: الخط الحسن، وقيل: الشعر الجعد، وقيل: العقل والتمييز، وقيل: العلوم والصنائع، ولا وجه لقصر ذلك على نوع خاص بل يتناول كل زيادة، وجملة ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تعليل لما قبلها من أنه يزيد في الخلق ما يشاء ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ أي: ما ياتيهم الله به من مطر وندى لا يقدر أحد أن يمسكه ﴿وَمَا يُمْسِكُ﴾ من ذلك لا يقدر أحد أن يرسله من بعد إمساكه، وقيل: المعنى: إن الرسل بعثوا رحمة للناس، فلا يقدر على إرسالهم غير الله، وقيل: هو الدعاء، وقيل: التوبة، وقيل: التوفيق، والهداية. ولا وجه لهذا التخصيص بل المعنى: كل ما يفتح الله للناس من خزائن رحمته، فيشمل كل نعمة ينعم الله بها على خلقه، وهكذا الإمساك يتناول كل شيء يمنعه الله من نعمه، فهو سبحانه المعطي المانع القابض الباسط لا معطي سواه، ولا منعم غيره. ثم أمر الله سبحانه عباده أن يتذكروا نعمه الفائضة عليهم التي لا تعد ولا تحصى ﴿وَلَنْ تَعْلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: 34]، ومعنى هذا الأمر لهم بالذكر: هو إرشادهم إلى الشكر لاستدامتها، وطلب المزيد منها ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ﴾ من زائدة، وخالق مبتدأ، وغير الله صفة له. قال الزجاج: ورفع غير على معنى هل خالق غير الله؛ لأن «من» زيادة مؤكدة، ومن خفض غير

يجعلها صفة على اللفظ. قرأ الجمهور برفع (غير)، وقرأ حمزة، والكسائي بخفضها، وقرأ الفضل بن إبراهيم بنصبها على الاستثناء، وجملة ﴿يَرْزُقْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ خبر المبتدأ، أو جملة مستأنفة، أو صفة أخرى لخالق، وخبره محذوف، والرزق من السماء بالمطر، ومن الأرض بالنبات، وغير ذلك، وجملة ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ مستأنفة لتقرير النفي المستفاد من الاستفهام ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ من الأفك بالفتح، وهو الصرف، يقال: ما أفكك عن كذا: أي: ما صرفك: أي: فكيف تصرفون. وقيل: هو مأخوذ من الإفك بالكسر، وهو الكذب؛ لأنه مصروف عن الصق. قال الزجاج: أي: من أين يقع لكم الإفك والتكذيب بتوحيد الله، والبعث، وأنتم مقررون بأن الله خلقكم ورزقكم. ثم عزى الله سبحانه نبيه ﷺ، فقال: ﴿وَأَن يَكْتُوبُكَ فَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُلَ مِن قَبْلِكَ﴾ ليتأسى بمن قبله من الأنبياء، ويتسلى عن تكذيب كفار العرب له ﴿وَاللَّيْئِلُ﴾ لا إلى غيره، فيجازي كلاً بما يستحقه. قرأ الحسن، والأعرج، ويعقوب، وابن عامر، وأبو حيوة، وابن محيصن، وحميد، والأعمش، ويحيى بن وثاب، وحمزة، والكسائي، وخلف (ترجع) بفتح الفوقية على البناء للمفاعل، وقرأ الباقون بضمها على البناء للمفعول ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: وعده بالبعث، والنشور، والحساب، والعقاب، والجنة، والنار، كما أشير إليه بقوله: ﴿وَاللَّيْئِلُ﴾ ترجع الأمور ﴿فَلَا تَغْرُبُكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ بزخرفها، ونعيمها. قال سعيد بن جبيرة: غرور الحياة الدنيا أن يشتغل الإنسان بنعيمها، ولذاتها عن عمل الآخرة حتى يقول: ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: 24] ﴿وَلَا يَغْرُبُكُمُ بَالُ اللَّهِ الْغُرُورُ﴾ قرأ الجمهور بفتح الغين: أي: المبالغ في الغرور، وهو: الشيطان. قال ابن السكيت، وأبو حاتم: الغرور الشيطان، ويجوز: أن يكون مصدرأ، واستبعده الزجاج، لأن غرر به متعدي، ومصدر المتعدي إنما هو على فعل نحو ضربته ضرباً، إلا في أشياء يسيرة معروفة لا يقاس عليها، ومعنى الآية: لا يغرنكم الشيطان بالله، فيقول لكم: إن الله يتجاوز عنكم، ويغفر لكم لفضلكم، أو لسعة رحمته لكم. وقرأ أبو حيوة، وأبو سماء، ومحمد بن السميع بضم الغين، وهو: الباطل. قال ابن السكيت: والغرور بالضم ما يغر من متاع الدنيا. وقال الزجاج: يجوز: أن يكون الغرور جمع غار، مثل قاعد، وقعود، قيل: ويجوز أن يكون مصدر غرّه كاللزوم، والنهوك، وفيه ما تقدم عن الزجاج من الاستبعاد. ثم حذر سبحانه عباده من الشيطان، فقال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخَذُوهُ عَدُوًّا﴾ أي: فعابوه بطاعة الله، ولا تطيعوه في معاصي الله. ثم بين لعباده كيفية عداوة الشيطان لهم، فقال: ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ أي: إنما يدعو أتباعه، وأتباعه، والمطيعين له إلى معاصي الله سبحانه لأجل أن يكونوا من أهل النار، ومحل الموصول في قوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ الرفع على الابتداء، ولهم عذاب شديد خبره، أو الرفع على البذل على فاعل

يكونوا، أو النصب على البذل من حزيه، أو النعت له، أو إضمار فعل يدل على الذم، والجَزَ على البذل من أصحاب، أو النعت له. والرفع على الابتداء أقوى هذه الوجوه، لأنه سبحانه يعد نكر عداوة الشيطان ودعائه لحزيه، نكر حال الفريقين من المطيعين له، والعاصين عليه، فالفريق الأول قال: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾، والفريق الآخر قال فيه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَلَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أي يغفر الله لهم بسبب الإيمان والعمل الصالح، ويعطيهم أجراً كبيراً، وهو: الجنة ﴿أَفَمَن زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ هذه الجملة مستأنفة لتقرير ما سبق من نكر التفاوت بين الفريقين، و «من» في موضع رفع بالابتداء، وخبره محذوف. قال الكسائي: والتقدير ذهب نفسك عليهم حسرات. قال: ويدل عليه قوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ﴾ قال: وهذا كلام عربي ظريف لا يعرفه إلا القليل. وقال الزجاج: تقديره كمن هداه، وقدره غيرهما كمن لم يزين له، وهذا أولى لموافقته لفظاً، ومعنى، وقد وهم صاحب الكشاف، فحكي عن الزجاج ما قاله الكسائي. قال النحاس: والذي قاله الكسائي أحسن ما قيل في الآية لما ذكره من الدلالة على المحذوف، والمعنى: أن الله عز وجل نهى نبيه ﷺ عن شدة الاعتماد بهم، والحزن عليهم كما قال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسُكَ﴾ [الكهف: 6] وجملة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ مقترنة لما قبلها: أي: يضلُّ من يشاء أن يضل، ويهدي من يشاء أن يهديه ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ﴾ قرأ الجمهور بفتح الفوقية، والهاء مسنداً إلى النفس، فتكون من باب: لا أرىكها هذا. وقرأ أبو جعفر، وشيبة، وابن محيصن، والأشهب بضم التاء، وكسر الهاء، ونصب «نفسك»، وانتصاب «حسرات» على أنه علة: أي: للحسرات، ويجوز: أن ينتصب على الحال كأنها صارت كلها حسرات لفرط التحسر كما روي عن سيبويه. وقال المبرد: إنها تمييز. والحسرة شدة الحزن على ما فات من الأمر ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ لا يخفي عليه من أفعالهم وأقوالهم خافية، والجملة تعليل لما قبلها مع ما تضمنته من الوعيد الشديد.

وقد أخرج أبو عبيد في فضائله، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن ابن عباس قال: كنت لا أدري ما فاطر السموات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرته، يقول: ابتدأتها. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أنه قال: ﴿فاطر السموات﴾ بديع السموات. وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً في قوله: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ قال: الصوت الحسن. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ﴾ الآية قال: ما يفتح الله للناس من باب توبة ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهُ﴾ هم يتوبون إن شاءوا وإن أبوا، وما أمسك من باب توبة ﴿فَلَا مَرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ وهم لا يتوبون. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم في الآية قال:

وقال قتادة: من كان يريد العزة، فليتعزز بطاعة الله، فجعل معنى فُلَّه العزة: الدعاء إلى طاعة من له العزة، كما يقال: من أراد المال، فالمال لفلان: أي: فليطلبه من عنده. وقال الزجاج: تقديره: من كان يريد بعبادة الله العزة، والعزة له سبحانه، فإن الله عز وجل يعزّه في الدنيا والآخرة. وقيل: المراد بقوله: «من كان يريد للعزة» المشركين، فإنهم كانوا يتعزّزون بعبادة الأصنام: كقوله: «وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا» [مريم: 81] وقيل المراد: الذين كانوا يتعزّزون بهم من الذين آمنوا بالسنتهم «الذين يتخذون الكافرين أولياء من دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ» [النساء: 139] الآية «فُلَّه العزة جميعاً» أي: فليطلبها منه لا من غيره، والظاهر في معنى الآية: أن من كان يريد العزة، ويطلبها، فليطلبها من الله عز وجل: فُلَّه العزة جميعاً، ليس لغيره منها شيء، فتشمل الآية كل من طلب العزة، ويكون المقصود بها التنبيه لنفسي الأقدار، والهمم من أين تنال العزة، ومن أي جهة تطلب: «إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه» أي: إلى الله يصعد لا إلى غيره، ومعنى صعوده إليه: قبوله له، أو صعود الكلمة من الملائكة بما يكتبونه من الصحف، وخصّ الكلم الطيب بالذكر لبيان الثواب عليه، وهو يتناول كل كلام يتصف بكونه طيباً من نكره، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وتلاوة، وغير ذلك، فلا وجه لتخصيصه بكلمة التوحيد، أو بالتحميد، والتمجيد. وقيل: المراد بصعوده صعوده إلى سماء الدنيا. وقيل: المراد بصعوده علم الله به، ومعنى «والعمل الصالح يرفعه» أن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب، كما قال الحسن، وشهر بن حوشب، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وقاتدة، وأبو العالية، والضحاك، ووجهه: أنه لا يقبل الكلم الطيب إلا مع العمل الصالح. وقيل: إن فاعل يرفعه هو الكلم الطيب، ومفعوله العمل الصالح، ووجهه: أن العمل الصالح لا يقبل إلا مع التوحيد، والإيمان. وقيل: إن فاعل يرفعه ضمير يعود إلى الله عز وجل. والمعنى: أن الله يرفع العمل الصالح على الكلم الطيب، لأن العمل يحقّق الكلام. وقيل: والعمل الصالح يرفع صاحبه، وهو الذي أراد العزة. وقال قتادة: المعنى: أن الله يرفع العمل الصالح لصاحبه: أي: يقبله، فيكون قوله: «والعمل الصالح» على هذا مبتدأ خبره يرفعه، وكذا على قول من قال يرفع صاحبه. قرأ الجمهور (يصعد) من صعد الثلاثي. والكلم الطيب بالرفع على الفاعلية. وقرأ علي، وابن مسعود (يصعد) بضم حرف المضارعة من أضعف، والكلم الطيب بالنصب على المفعولية، وقرأ الضحاك على البناء للمفعول، وقرأ الجمهور (الكلم)، وقرأ أبو عبد الرحمن (الكلام)، وقرأ الجمهور (والعمل الصالح) بالرفع على العطف، أو على الابتداء. وقرأ ابن أبي عبلة، وعيسى بن عمر بالنصب على الاشتغال «والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد» انتصاب السيئات على أنها صفة لمصدر محذوف: أي: يمكرون المكورات السيئات، وذلك لأن «مكر»

يقول: ليس لك من الأمر شيء. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله: «لهم مغفرة ولجر كبير» قال: كل شيء في القرآن لهم مغفرة، وأجر كبير، ودرج كبير، فهو: الجنة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة، والحسن في قوله: «فمن زين له سوء عمله» قال: الشيطان زين لهم هي والله الضلالات «فلا تذهب نفسك عليهم حسرات» أي: لا تحزن عليهم.

وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَثِيرَ مَحَابٍ فَثَقَنَهُ إِلَى بَلَدٍ نَحْنُ فَلَحِينًا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهِ كَذَلِكَ الْأَشْوَى ۝ مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْآزْمَةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُورِثُ ۝ وَاللَّهُ عَلَفَكُمْ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ لُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِإِذْنِهِ وَمَا يُمْرُّ مِنْ مُمْرٍ وَلَا يَبْصُرُ مِنْ عُمْرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْرَابُ هَذَا عَذَابٌ مُلْتَبِعٌ لِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ وَهَذَا مِلْحَ الْأَجَلِ وَإِنْ كُلٌّ يَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلَّةً تَبْسُوهَا وَرَى الْآلَمَكِ فِيهِ مَوَازٍ لِيَتَنَبَّهُوا مِنْ فَتَوَاهٍ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝ يُؤْتِي الْبَلَدَ الْيَوْمَ فِي الْهَرَجِ وَالْهَرَجِ فِي الْبَلَدِ وَسَحَّرَ الْأَشْمَسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ فِطْنِهِ ۝ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ وَكَوْنُوا مَوْتًا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكَكُمْ وَلَا يَنْفَعُكُمْ مِثْلُ حَبِيرٍ ۝

ثم أخبر سبحانه عن نوع من أنواع بيع صنعه، وعظيم قدرته، ليتفكروا في ذلك، وليعتبروا به، فقال: «والله الذي أرسل الرياح» قرأ الجمهور: «الرياح»، وقرأ ابن كثير، وابن محيصن، والأعمش، ويحيى بن وثاب، وحمزة، والكسائي (الريح) بالإنفراد «فتثير سحباً» جاء بالمضارع بعد الماضي استحضاراً للصورة، لأن ذلك انحل في اعتبار المعتبرين، ومعنى كونها: تثير السحاب أنها تزججه من حيث هو «ففسقناه إلى بلد ميت» قال أبو عبيدة: سبيله، فتسوقه، لأنه قال: فتثير سحباً. قيل: النكتة في التعبير بالماضيين بعد المضارع: الدلالة على التحقق. قال المبرد: ميت وميت واحد، وقال: هذا قول البصريين، وأنشد:

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء
«فأحيينا به الأرض» أي: أحيينا بالمطر الأرض بإنبات ما ينبت فيها، وإن لم يتقدم نكر المطر، فالسحاب يدل عليه، أو أحيينا بالسحاب، لأنه سبب المطر «بعد موتها» أي: بعد يبسها، استعار الإحياء للنبات، والموت لليبس «كنذك للنشور» أي: كنذك يحيي الله العباد بعد موتهم كما أحياء الأرض بعد موتها، والنشور: البعث، من نشر الإنسان نشوراً، والكاف في محل رفع على الخيرية: أي: مثل إحياء موات الأرض إحياء الأموات، فكيف تنكرونه، وقد شاهدتم غير مرة ما هو مثله وشبيهه به «من كان يريد العزة» قال الفراء: معناه: من كان علم العزة لمن هي؟ فإنها الله جميعاً.

لازم، ويجوز: أن يضمن يمكرون معنى: يكسبون، فتكون السيئات مفعولاً به. قال مجاهد، وقتادة: هم: أهل الرياء. وقال أبو العالية: هم الذين مكروا بالنبي ﷺ لما اجتمعوا في دار الندوة. وقال الكلبي: هم الذين يعملون السيئات في الدنيا. وقال مقاتل: هم: المشركون، ومعنى ﴿لهم عذاب شديد﴾: لهم عذاب بالغ الغاية في الشدة ﴿وَمَكَرَ أَوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ أي: يبطل، ويهلك، ومنه ﴿وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ [الفتح: 12] والمكر في الأصل: الخديعة، والاحتيال، والإشارة بقوله: ﴿أَوْلَئِكَ﴾ إلى الذين مكروا السيئات على اختلاف الأقوال في تفسير مكرهم، وجملة ﴿هو يبور﴾ خبر مكر أولئك، ثم ذكر سبحانه ليللاً آخر على البعث، والنشور، فقال: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ أي: خلقكم ابتداء في ضمن خلق أبيكم آدم من تراب. وقال قتادة: يعني: آدم، والتقدير على هذا: خلق أباكم الأول، ولصلكم الذي ترجعون إليه من تراب ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ أخرجها من ظهر أبيائكم ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَنْوَارًا﴾ أي: زوج بعضكم ببعض، فالذكر زوج الأنثى، أو جعلكم أصنافاً نكراتاً وإنثاءً ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ أي: لا يكون حمل، ولا وضع إلا والله عالم به، فلا يخرج شيء عن علمه وتبديره ﴿وَمَا يَعْمَرُ مِنْ مَعْمَرٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ أي: ما يطول عمر أحد، ولا ينقص من عمره إلا في كتاب: أي: في اللوح المحفوظ. قال الفراء: يريد آخر غير الأول، فكنتي عنه بالضمير كانه الأول: لأن لفظ الثاني لو ظهر كان كالأول كانه قال: ولا ينقص من عمر معمر، فالكنية في عمره ترجع إلى آخر غير الأول، ومثله قولك: عندي درهم ونصفه: أي: نصف آخر. قيل: إنما سمي معمرًا باعتبار مصيره إليه. والمعنى: وما يمد في عمر أحد، ولا ينقص من عمر أحد، لكن لا على معنى: لا ينقص من عمره بعد كونه زائداً، بل على معنى: أنه لا يجعل من الابتداء ناقصاً إلا وهو في كتاب. قال سعيد بن جبير: وما يعمر من معمر إلا كتب عمره: كم هو سنة، كم هو شهراً، كم هو يوماً، كم هو ساعة، ثم يكتب في كتاب آخر نقص من عمره ساعة، نقص من عمره يوم، نقص من عمره شهر، نقص من عمره سنة حتى يستوفي أجله، فما مضى من أجله، فهو: النقصان، وما يستقبل، فهو: الذي يعمره. وقال قتادة: المعمر من بلغ ستين سنة، والمنقوص من عمره من يموت قبل ستين سنة. وقيل: والمعنى: إن الله كتب عمر الإنسان كذا إن أطاع، وبونه إن عصى، فأيهما بلغ، فهو في كتاب، والضمير على هذا يرجع إلى معمر. وقيل: المعنى: وما يعمر من معمر إلى الهرم، ولا ينقص آخر من عمر الهرم إلا في كتاب: أي: بقضاء الله قاله الضحاك، واختاره النحاس. قال: وهو أشبهها بظاهر التنزيل، والأولى أن يقال: ظاهر النظم القرآني أن تطويل العمر وتقصيره: هما بقضاء الله، وقدره لأسباب تقتضي التطويل، وأسباب تقتضي التقصير.

فمن أسباب التطويل: ما ورد في صلة الرّحم عن النبي ﷺ، ونحو ذلك. ومن أسباب التقصير الاستكثار من

معاصي الله عزّ وجلّ، فإذا كان العمر المضروب للرجل مثلاً سبعين سنة، فقد يزيد الله له عليها إذا فعل أسباب الزيادة، وقد ينقصه منها إذا فعل أسباب النقصان، والكل في كتاب مبين، فلا تخالف بين هذه الآية، وبين قوله سبحانه: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: 34]، ويؤيد هذا قوله سبحانه: ﴿يَمُحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: 39]، وقد قَدَّمنا في تفسيرها ما يزيد ما نكرنا هنا وضوحاً وبياناً. قرأ الجمهور (ينقص) مبنياً للمفعول. وقرأ يعقوب، وسلام، وروي عن أبي عمرو (ينقص) مبنياً للفاعل. وقرأ الجمهور (من عمره) بضم الميم. وقرأ الحسن، والأعرج، والزهري بسكونها، والإشارة بقوله: ﴿إِنْ لَكُمْ﴾ إلى ما سبق من الخلق، وما بعده ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لا يصعب عليه منه شيء، ولا يعزب عنه كثير، ولا قليل، ولا كبير، ولا صغير. ثم نكر سبحانه نوعاً آخر من ببيع صنعه، وعجيب قدرته، فقال ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فَرَاتٍ سَائِغٌ شَرِبُهُ وَهَذَا مِلْحٌ لَجَاجٌ﴾ فالمراد بالبحران العذب، والمالح، فالعذب الفرات الحلو، والأجاج المر، والمراد به سائغ شربه الذي يسهل انحداره في الحلق لعذوبته. وقرأ عيسى بن عمر (سيغ) بتشديد الياء، وروي تسكينها عنه. وقرأ طلحة، وأبو نهيك (ملح) بفتح الميم ﴿وَمَنْ كُلَّ﴾ منهما ﴿تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾، وهو ما يصاد منهما من حيواناتهما التي تؤكل ﴿وَتُسْتَخْرِجُونَ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا﴾ الظاهر أن المعنى: وتستخرجون منهما حلية تلبسونها. وقال المبرّد: إنما تستخرج الحلية من المالح، وروي عن الزجاج: أنه قال: إنما تستخرج الحلية منهما إذا اختلطا، لا من كل واحد منهما على انفراده، ورجح النحاس قول المبرّد. ومعنى ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾: تلبسون كل شيء منها بحسبه، كالخاتم في الأصبع، والسوار في الذراع، والقلادة في العنق، والخلخال في الرجل، ومما يلبس حلية السلاح الذي يحمل كالسيف، والدرع، ونحوهما ﴿وَتَرَى الْفَلَكَ فِيهِ﴾ أي: في كل واحد من البحرين. وقال النحاس: الضمير يعود إلى الماء المالح خاصة، ولولا ذلك لقال: فيهما ﴿مُؤَاخِرٌ﴾ يقال: مخرت السفينة تمخر: إذا شقت الماء. فالمعنى: وترى السفن في البحرين شواطئ للماء بعضها مقبلة، وبعضها مدبرة بريح واحدة، وقد تقدّم الكلام على هذا في سورة النحل، واللام في ﴿لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ متعلقة بما يدل عليه الكلام السابق: أي: فعل ذلك: لتبتغوا، أو بماوخر. قال مجاهد: ابتغاء الفضل هو التجارة في البحر إلى البلدان البعيدة في مدة قريبة كما تقدّم في البقرة ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله على ما أنعم عليكم به من ذلك. قال أكثر المفسرين: إن المراد من الآية ضرب المثل في حقّ المؤمن والكافر، والكفر والإيمان، فكما لا يستوي البحرين كذلك لا يستوي المؤمن والكافر، ولا الكفر والإيمان ﴿يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ﴾ أي: يضيف بعض أجزاءهما إلى بعض، فيزيد في

مررت بها مخصبة تهترّ خضرًا؟ قلت: بلى، قال: كذلك يحيي الله الموتى، وكذلك النشور». وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، والحاكم وصححه، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن مسعود قال: إذا حُثِّنَاكم بحديث آتيناكم بتصديق ذلك من كتاب الله، إن العبد المسلم إذا قال: سبحان الله، وبحمده، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، وتبارك الله، قبض عليهم ملك يضمهم تحت جناحه، ثم يصعد بهم إلى السماء، فلا يمرّ بهنّ على جمع من الملائكة إلا استغفر لقاتلهنّ حتى يجيء بهنّ وجه الرحمن، ثم قرأ ﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾ قال: أداء الفرائض، فمن ذكر الله في أداء فرائضه حمل عمله نكر الله، فصعد به إلى الله، ومن نكر الله، ولم يؤدّ فرائضه ردّ كلامه على عمله، وكان عمله أولى به. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وما يعجز عن معجز﴾ الآية قال: يقول ليس أحد قضيت له طول العمر، والحياة إلا وهو بالغ ما قدرت له من العمر وقد قضيت له ذلك، فإنما ينتهي إلى الكتاب الذي قدرت له لا يزداد عليه، وليس أحد قضيت له أنه قصير العمر، والحياة ببالغ العمر، ولكن ينتهي إلى الكتاب الذي كتب له، فنلك قوله: ﴿ولا ينقص من عمره إلا في كتاب﴾ يقول: كل نلك في كتاب عنده. وأخرج أحمد، ومسلم، وأبو عوانة، وابن حبان، والطبراني، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن حنيفة بن أسيد الغفاري قال: قال رسول الله ﷺ: «يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقرّ في الرحم باربعين، أو بخمسة وأربعين ليلة، فيقول: أي ربّ أشقي أم سعيد؟ أذكر أم أنثى؟ فيقول الله، ويكتبان، ثم يكتب عمله، ورزقه، وأجله، وأثره، ومصيبته، ثم تطوى الصحيفة، فلا يزداد فيها، ولا ينقص». وأخرج ابن أبي شيبة، ومسلم، والنسائي، وأبو الشيخ عن عبد الله بن مسعود قال: قالت أم حبيبة: اللهمّ أمتعني بزوجي النبي، وبأبي أبي سفيان، وبأخي معاوية، فقال النبي ﷺ: «إنك سألت الله لأجل مضروبة، وأيام معودة، وأرزاق مقسومة، ولن يعجل الله شيئاً قبل حله، أو يؤخر شيئاً، ولو كنت سألت الله: أن يعينك من عذاب في النار، أو عذاب في القبر كان خيراً وأفضل» وهذه الأحاديث مخصصة بما ورد من قبول الدعاء، وأنه يعتلج هو والقضاء، وبما ورد في صلة الرحم أنها تزيد في العمر، فلا معارضة بين الآلة كما قلّمنا. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ما يملكون من قطمير﴾ قال: القطمير القشر، وفي لفظ: الجلد الذي يكون على ظهر النواة.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّزِفُوا لِلَّهِ كُلَّ آتٍ وَآفٍ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٢﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٣﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمُ وَالْيَتِيمَ وَالْمَسْكُونَةَ وَمَنْ سَرَكَ

أحدهما، بالنقص في الآخر، وقد تقدّم تفسيره في آل عمران، وفي مواضع من الكتاب العزيز ﴿وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى﴾ قدره الله لجريانهما، وهو: يوم القيامة. وقيل: هو المدة التي يقطعان في مثلها الفلك، وهو سنة للشمس، وشهر للقمر. وقيل: المراد به جري الشمس في اليوم، والقمر في الليلة. وقد تقدّم تفسير هذا مستوفى في سورة لقمان، والإشارة بقوله: ﴿نلكم﴾ إلى الفاعل لهذه الأفعال، وهو: الله سبحانه، واسم الإشارة مبتدأ، وخبره ﴿الله ربكم له الملك﴾ أي: هذا الذي من صنعته ما تقدّم هو: الخالق المقتدر، والقادر المقتدر المالك للعالم، والمتصرف فيه، ويجوز: أن يكون قوله: له الملك جملة مستقلة في مقابلة قوله: ﴿والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير﴾ أي: لا يقدرون عليه، ولا على خلقه، والقطمير: القشرة الرقيقة التي تكون بين النمرة والنواة، وتصير على النواة كاللغافة لها. وقال الميرد: هو: شقّ النواة. وقال قتادة: هو: القمع الذي على رأس النواة. قال الجوهري: ويقال: هي: النكتة البيضاء التي في ظهر النواة تنبت منها النخلة. ثم بين سبحانه حال هؤلاء الذين يدعونهم من دون الله بأنهم لا ينفعون ولا يضرّون، فقال: ﴿إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم﴾ أي: إن تستغيثوا بهم في النوائب لا يسمعوا دعاءكم، لكونها جمادات لا تدرك شيئاً من المبركات ﴿ولو سمعوا﴾ على طريقة الفرض، والتقدير: ﴿ما استجابوا لكم﴾ لعجزهم عن ذلك. قال قتادة: المعنى: لو سمعوا لم ينفعوكم. وقيل المعنى: لو جعلنا لهم سماعاً وحياة فسمعوا دعاءكم لكانوا أطوع لله منكم، ولم يستجيبوا لكم إلى ما دعوتهم إليه من الكفر ﴿ويوم القيامة يكفرون بشرككم﴾ أي: يتبرّون من عبادتكم لهم، ويقولون ﴿ما كنتم إيانا تعبدون﴾ [يونس: 28] ويجوز: أن يرجع ﴿والذين تدعون من دونه﴾ [الأعراف: 197] وما بعده إلى من يعقل ممن عيدهم الكفار، وهم: الملائكة، والجنّ، والشياطين. والمعنى: أنهم يحضنون أن يكون ما فعلتموه حقاً، وينكرون: أنهم أمروكم بعبادتهم ﴿ولا ينبتك مثل خبير﴾ أي: لا يخبرك مثل من هو خبير بالأشياء عالم بها، وهو: الله سبحانه، فإنه لا أحد أخبر بخلقهم، وأقوالهم، وأفعالهم منه سبحانه، وهو الخبير بكنه الأمور، وحقائقها.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال: يقوم ملك بالصور بين السماء والأرض، فينفخ فيه، فلا يبقى خلق الله في السموات والأرض إلا من شاء الله إلا مات، ثم يرسل الله من تحت العرش منياً كمني الرجال، فتنبئ أجسامهم ولحومهم من ذلك الماء كما تنبت الأرض من الثرى، ثم قرأ عبد الله ﴿الله الذي أرسل للرياح﴾ الآية. وأخرج أبو داود، والطحاوي، وأحمد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي رزين العقيلي قال: قلت: يا رسول الله كيف يحيي الله الموتى؟ قال: لما مررت بأرض مجيبة، ثم

تَكْبُورٌ ﴿١٠﴾ يُؤْفِكُهُمْ أَجُورُهُمْ وَزَيَادَتُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُمْ غَفُورٌ
شَكُورٌ ﴿١١﴾ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ
يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿١٢﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا
مِنْ عِبَادِنَا فَيُنْهَرُ عَلَىٰ رِجْلَيْهِ لِقَابِهِ وَسُوءٌ مُتَعَدٍّ مِنْهُمْ سَابِقٌ وَالْحَدِيثُ
يَأْتِيَنَّ اللَّهُ فَلَإِنَّ لَكَ هُوَ الْأَفْضَلُ الْأَكْبَرُ ﴿١٣﴾ جَنَّتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ
فِيهَا مِنْ أَشْأَرٍ مِنْ دَهَبٍ يُرْوَلُونَ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا لَئِنْ كُنَّا لِلَّهِ
أَلَدِيَّةٌ أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنُ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ أَلْمَنُوا بِمَا
أَلْمَنُوا مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا نُوبٌ ﴿١٦﴾

ثم نكر سبحانه نوعاً من أنواع قدرته الباهرة، وخلقاً من مخلوقاته البديعة، فقال: ﴿هَلُم تَرَى﴾، والخطاب لرسول الله ﷺ، أو لكل من يصلح له ﴿إِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ وهذه الرؤية هي: القلبية: أي ألم تعلم، وإن واسمها وخبرها سَلَّتْ مَسَدَ الْمُفْعُولِينَ ﴿فَخَرَجْنَا بِهِ﴾ أي: بالماء، والنكتة في هذا الالتفات إظهار كمال العناية بالفعل لما فيه من الصنع البديع، وانتصاب ﴿مُخْتَلِفًا لَوْنُهَا﴾ على الوصف لثمرات، والمراد بالألوان الأجناس، والأصناف: أي: بعضها أبيض، وبعضها أحمر، وبعضها أصفر، وبعضها أخضر، وبعضها أسود ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ﴾ الجدد جمع جدة، وهي: الطريق. قال الاخفش: ولو كان جمع جديد لقال جدد بضم الجيم والدال، نحو سرير وسرر. قال زهير:

كانه أسفع الخدين نوجدد طار ويرتع بعد الصيف أحياناً
وقيل: الجدد القطع، مأخوذ من جدت الشيء إذا قطعت، حكاه ابن بحر. قال الجوهري: الجدة: الخطة التي في ظهر الحمار تخالف لونه، والجدة الطريقة، والجمع جدد، وجدائد، ومن ذلك قول أبي نؤيب:

جون السراة له جدائد أربع

قال المبرد: جدد: طرائق وخطوط. قال الواحدي: ونحو هذا قال المفسرون في تفسير الجدد. وقال الفراء: هي: الطرق تكون في الجبال كالعروق بيض، وسود، وحمرة، واحداها جدة. والمعنى: أن الله سبحانه أخبر عن جدد الجبال، وهي: طرائقها، أو الخطوط التي فيها بأن لون بعضها البياض، ولون بعضها الحمرة، وهو معنى قوله: ﴿بِيبُضٍ وَحُمْرٍ مُخْتَلِفٍ لَوْنُهَا﴾ قرأ الجمهور «جدد» بضم الجيم، وفتح الدال. وقرأ الزهري بضمهما جمع جديدة، وروي عنه: أنه قرأ بفتحهما، وردّها أبو حاتم وصححها غيره، وقال: الجدد الطريق الواضح البين ﴿وَوُغْرَابِيْبٍ سُودٍ﴾ الغريب الشديد السواد الذي يشبه لونه لون الغراب. قال الجوهري: تقول هذا أسود غريب: أي: شديد السواد، وإذا قلت غرابيب سود جعلت السود بدلاً من غرابيب. قال الفراء: في الكلام تقديم وتأخير تقديره: وسود غرابيب، لأنه يقال: أسود غريب، وقل ما يقال: غريب أسود، وقوله: ﴿مُخْتَلِفٍ لَوْنُهَا﴾ صفة لجدد، وقوله: ﴿وَوُغْرَابِيْبٍ﴾ معطوف على جدد على معنى: ومن الجبال جدد بيض، وحمرة، ومن الجبال

من مات قلبه، قرأ الجمهور بتنوين (مسمع) وقطعه عن الإضافة. وقرأ الحسن، وعيسى الثقفي، وعمرو بن ميمون بإضافته ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ أي: ما أنت إلا رسول منذر ليس عليك إلا الإنذار، والتبليغ، والهدى، والضلالة بيد الله عز وجل ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ يجوز: أن يكون بالحق في محل نصب على الحال من الفاعل: أي: محققين، أو من المفعول: أي: محققاً، أو نعت لمصدر محذوف: أي: إرسالاً ملتبساً بالحق، أو هو متعلق ببشيراً: أي: بشيراً بالوعد الحق، ونذيراً بالوعد الحق، والأولى: أن يكون نعتاً للمصدر المحذوف، ويكون معنى بشيراً: بشيراً لاهل الطاعة، ونذيراً لاهل المعصية ﴿وَأَنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ أي: ما من أمة من الأمم الماضية إلا مضى فيها نذير من الأنبياء ينذرها، واقتصر على نكر النذير بون البشير، لأنه الصق بالمقام، ثم سلى نبيه ﷺ، وعزاه، فقال: ﴿وَأَنْ يَكْتُوبُكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: كذب من قبلهم من الأمم الماضية أنبياءهم ﴿جَاعَتُهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالمعجزات الواضحة، والدلالات الظاهرة ﴿وَبِالْزُبُرِ﴾ أي: الكتب المكتوبة كصحف إبراهيم ﴿وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ كالأنوار، والإنجيل، قيل: الكتاب المنير داخل تحت الزبر، وتحت البينات، والعطف لتغاير المفهومات، وإن كانت متحدة في الصق، والأولى تخصيص البينات بالمعجزات، والزبر بالكتب التي فيها مواعد، والكتاب بما فيه شرائع، وأحكام، ﴿ثُمَّ اخَذْنَا مِنَ النَّارِ كُفْرًا﴾ وضع الظاهر موضع الضمير يفيد التصريح بذمهم بما في حيز الصلاة، ويشعر بعلة الأخذ ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: فكيف كان نكيري عليهم، وعقوبي لهم، وقرأ ورش عن نافع وشيبة بإثبات الياء في (نكير) وصلأ ولا وقفاً، وقد مضى بيان معنى هذا قريباً.

وقد أخرج أحمد، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن ملجه عن عمرو بن الأحوص: أن رسول الله ﷺ قال في حجة الوداع: «ألا لا يجني جانٍ إلا على نفسه، لا يجني والد على ولده، ولا مولود على والده» وأخرج سعيد بن منصور، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن مروي، والبيهقي في سننه عن أبي رمثة قال: انطلقت مع أبي نحو رسول الله ﷺ، فلما رأيته قال لأبي: ابنك هذا؟ قال: أي، ورب الكعبة، قال: أما أنه لا يجني عليك، ولا تجني عليه، ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿وَلَا تَرَوْا وَازْدَ وَزَرَ لَفْرِى﴾ وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَنْ تَدْعَ مَنَظِلَةً إِلَى حِمْلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ قال: يكون عليه وزر لا يجد أحداً يحمل عنه من وزره شيئاً.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿١٧﴾ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّارِ وَالذَّوَابِّ وَأَلْأَنَارِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْمُتْلِكُونَ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تَجَارَةً لَّنْ

غرابيب على لون واحد، وهو: السواد، أو على حمر على معنى، ومن الجبال جند بيض، وحمر، وسود. وقيل: معطوف على بيض، ولا بد من تقدير مضاف محذوف قبل جند: أي: ومن الجبال ذو جند، لأن الجند إنما هي في ألوان بعضها **﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾** قوله مختلف صفة لموصوف محذوف: أي: ومنهم صنف، أو نوع، أو بعض مختلف ألوانه بالحمرة، والسواد، والبياض، والخضرة، والصفرة. قال القراء: أي: خلق مختلف ألوانه كاختلاف الثمرات، والجبال، وإنما نكر سبحانه اختلاف الألوان في هذه الأشياء، لأن هذا الاختلاف من أعظم الأئلة على قدرة الله، وينبع صنعه، ومعنى **﴿كَذَلِكَ﴾** أي: مختلفاً مثل تلك الاختلاف، وهو صفة لمصدر محذوف، والتقدير مختلف ألوانه اختلافاً كائناً كذلك: أي: كاختلاف الجبال، والثمار. وقرأ الزهري «الدواب» بتخفيف الباء. وقرأ ابن السميع «ألوانها». وقيل: إن قوله: **﴿كَذَلِكَ﴾** متعلق بما بعده: أي: مثل تلك المطر، والاعتبار في مخلوقات الله، واختلاف ألوانها يخشى الله من عباده العلماء، وهذا اختاره ابن عطية، وهو مرئود بأن ما بعد إنما لا يعمل فيما قبلها. والراجح الوجه الأول، والوقف على كذلك تام. ثم استؤنف الكلام، وأخبر سبحانه بقوله: **﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾** أو هو من تنمة قوله: **﴿إِنَّمَا تَنْزَرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾** [فاطر: 18] على معنى إنما يخشاه سبحانه بالغيب العالمون به، وبما يليق به من صفاته الجليلة، وأفعاله الجميلة، وعلى كل تقدير، فهو: سبحانه قد عين في هذه الآية أهل خشيته، وهم: العلماء به، وتعظيم قدرته. قال مجاهد: إنما العالم من خشي الله عز وجل. وقال مسروق: كفى بخشية الله علماء، وكفى بالاغترار جهلاً، فمن كان أعلم بالله كان أخشاهم له. قال الربيع بن أنس: من لم يخش الله، فليس بعالم. وقال الشعبي: العالم من خاف الله، ووجه تقديم المفعول أن المقام مقام حصر الفاعلية، ولو أخر انعكس الأمر. وقرأ عمر بن عبد العزيز برفع الاسم الشريف، ونصب العلماء، ورويت هذه القراءة عن أبي حنيفة قال في الكشاف: الخشية في هذه القراءة استعارة، والمعنى: أنه يجلبهم، ويعظمهم كما يجلب المهيب المخشي من الرجال بين الناس، وجملة **﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾** تعليل لوجوب الخشية لدلالة على أنه معاقب على معصيته غافر لمن تاب من عباده **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾** أي: يستمرون على تلاوته، ويدأومونها. والكتاب هو: القرآن الكريم، ولا وجه لما قيل: إن المراد به جنس كتب الله **﴿وَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾** أي: فعلوها في أوقاتها مع كمال أركانها، وأنكارها **﴿وَاتَّقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سُورًا وَعَلَانِيَةً﴾** فيه حث على الإنفاق كيف ما تها، فإن تها سراً، فهو أفضل، وإلا فعلاً، ولا يمنعه ظنه أن يكون رياء، ويمكن أن يراد بالسراً صدقة النفل، وبالعلاً صدقة الفرض، وجملة **﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ﴾** في محل رفع على خبرية إن كما قال ثعلب، وغيره، والمراد بالتجارة ثواب

الطاعة ومعنى **﴿لَّنْ تَبُورَ﴾**: لن تكسد، ولن تهلك، وهي صفة للتجارة، والإخبار برجائهم لثواب ما عملوا بمنزلة الوعد بحصول مرجوهم، واللام في **﴿لِّيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ﴾** متعلق بئن تبور، على معنى: أنها لن تكسد لأجل أن يؤفقه أجور أعمالهم الصالحة، ومثل هذه الآية قوله سبحانه: **﴿فَمَا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾** [النساء: 173] وقيل: إن اللام متعلقة بمحذوف دل عليه السياق: أي: فعلوا ذلك ليؤفقه، ومعنى **﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾** أنه يتفضل عليهم بزيادة على أجورهم التي هي جزء أعمالهم، وجملة **﴿إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾** تعليل لما نكر من التوفية والزيادة: أي: غفور لذنوبهم شكور لطاعتهم، وقيل: إن هذه الجملة هي: خبر إن، وتكون جملة يرجون في محل نصب على الحال، والأول أولى **﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾** يعني: القرآن، وقيل: اللوح المحفوظ على أن من تبعيضية، أو ابتدائية، وجملة **﴿هُوَ الْحَقُّ﴾** خبر الموصول **﴿وَمُصَنَّفًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾** منتصب على الحال: أي: موافقاً لما تقدمه من الكتب **﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾** أي: محيط بجميع أمورهم **﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾** المفعول الأول لأورثنا الموصول، والمفعول الثاني الكتاب، وإنما قتم المفعول الثاني لقصد التشريف، والتعظيم للكتاب، والمعنى: ثم أورثنا الذين اصطفيناهم من عبادنا الكتاب، وهو: القرآن: أي: قضينا، وقدرنا بأن نورث العلماء من أمك يا محمد هذا الكتاب الذي أنزلناه عليك، ومعنى اصطفائهم: اختيارهم، واستخلاصهم، ولا شك أن علماء هذه الأمة من الصحابة، فمن بعدهم قد شرفهم الله على سائر العباد، وجعلهم أمة وسطاً؛ ليكونوا شهداء على الناس، وأكرمهم يكونهم أمة خير الأنبياء، وسيد ولد آدم. قال مقاتل: يعني: قرآن محمد جعلناه ينتهي إلى الذين اصطفينا من عبادنا. وقيل: إن المعنى: أورثناه من الأمم السالفة: أي: أخرجنا عنهم، وأعطيناهم الذين اصطفينا، والأول أولى. ثم قسم سبحانه هؤلاء الذي أورثهم كتابه، واصطفاهم من عباده إلى ثلاثة أقسام، فقال: **﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾** قد استشكل كثير من أهل العلم معنى هذه الآية، لأنه سبحانه جعل هذا القسم الظالم لنفسه من تلك المقسم، وهو من اصطفاهم من العباد، فكيف يكون من اصطفاه الله ظالماً لنفسه؟ فقيل: إن التقسيم هو راجع إلى العباد: أي: فمن عبادنا ظالم لنفسه، وهو: الكافر، ويكون ضمير يدخلونها عائداً إلى المقتصد والسابق. وقيل: المراد بالظالم لنفسه هو: المقتصر في العمل به، وهو: المرجأ لأمر الله، وليس من ضرورة ورثة الكتاب مراعاته حق رعايته، لقوله: **﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾** [الأعراف: 169]، وهذا فيه نظر، لأن ظلم النفس لا يناسب الاصطفاء. وقيل: الظالم لنفسه: هو: الذي عمل الصغائر، وقد روي هذا القول عن عمر، وعثمان، وابن مسعود، وأبي برداء، وعائشة، وهذا هو الراجح، لأن عمل الصغائر لا ينافي الاصطفاء، ولا يمنع

التفريط، وهذا من أهل الجنة، وأما السابق، فهو: الذي سبق غيره في أمور الدين، وهو خير الثلاثة.

وقد استشكل تقديم الظالم على المقتصد، وتقديمهما على السابق مع كون المقتصد أفضل من الظالم لنفسه، والسابق أفضل منهما، فقيل: إن التقديم لا يقتضي التشريف كما في قوله: ﴿لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة﴾ الحشر: 20، ونحوها من الآيات القرآنية التي فيها تقديم أهل الشر على أهل الخير، وتقديم المفضولين على الفضالين. وقيل: وجه التقديم هنا: أن المقتصدين بالنسبة إلى أهل المعاصي قليل، والسابقين بالنسبة إلى الفريقين أقل قليل، فقام الأكثر على الأقل، والأول أولى، فإن الكثرة بمجرد ما لا تقتضي تقديم الذكر، وقد قيل: في وجه التقديم غير ما ذكرنا مما لا حاجة إلى التطويل به، والإشارة بقوله: ﴿ذلك﴾ إلى توريث الكتاب، والاصطفاء، وقيل: إلى سبق بالخيرات، والأول أولى، وهو مبتدأ، وخبره ﴿هو للفضل الكبير﴾ أي: الفضل الذي لا يقار قدره، وارتفاع ﴿جنات عدن﴾ على أنها مبتدأ، وما بعدها خبرها، أو على البديل من الفضل، لأنه لما كان هو السبب في نيل الثواب نزل منزلة السبب، وعلى هذا، فتكون جملة ﴿يدخلونها﴾ مستأنفة، وقد قلنا: أن الضمير في يدخلونها يعود إلى الأصناف الثلاثة، فلا وجه لقصره على الصنف الأخير، وقرأ زر بن حبیش، والترمذي (جنة) بالإفراء، وقرأ الجحدري (جنات) بالنصب على الاشتغال، وجوز أبو البقاء: أن تكون جنات خيراً ثانياً لاسم الإشارة، وقرأ أبو عمرو (يدخلونها) على البناء للمفعول، وقوله: ﴿يحلون﴾ خبر ثان لجنات عدن، أو حال مقدرة، وهو من حليت المرأة، فهي: حال، وفيه إشارة إلى سرعة الدخول، فإن في تحليلهم خارج الجنة تأخيراً للدخول، فلما قال: ﴿يحلون فيها﴾ أشار أن دخولهم على وجه السرعة: ﴿من أساور من ذهب﴾ من الأولى تبعية، والثانية بيانبة: أي: يحلون بعض أساور كائنة من ذهب، والأساور جمع أسورة جمع سوار، وانتصاب ﴿لؤلؤاً﴾ بالعطف على محل ﴿من أساور﴾ وقرأ بالجر عطفاً على ذهب ﴿ولباسهم فيها حرير﴾ قد تقدم تفسير الآية مستوفى في سورة الحج ﴿وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن﴾ قرأ الجمهور (الحزن) بفتح الحين. وقرأ جناح بن حبیش بضم الحاء، وسكون الزاي. والمعنى: أنهم يقولون هذه المقالة إذا دخلوا الجنة. قال قتادة: حزن الموت. وقال عكرمة: حزن السيئات والذنوب، وخوف رد الطاعات. وقال القاسم: حزن زوال النعم، وخوف العقوبة. وقيل: حزن أهوال يوم القيامة. وقال الكلبي: ما كان يحزنهم في الدنيا من أمر يوم القيامة. وقال سعيد بن جبیر: هم الخبز في الدنيا، وقيل: هم المعيشة. وقال الزجاج: أذهب الله عن أهل الجنة كل الأحزان ما كان منها لمعاش، أو معاد. وهذا أرجح الأقوال، فإن الدنيا، وإن بلغ نعيمها أي بلغ لا تخلو من شوائب ونوائب تكثر لأجلها الأحزان، وخصوصاً أهل الإيمان، فإنهم لا يزالون وجلين من

من دخول صاحبه مع الذين يدخلون الجنة يحلون فيها من أساور من ذهب إلى آخر ما سيأتي. ووجه كونه ظالماً لنفسه أنه نقصها من الثواب بما فعل من الصفات المغفورة له، فإنه لو عمل مكان تلك الصفات طاعات لكان لنفسه فيها من الثواب حظاً عظيماً، وقيل: الظالم لنفسه هو: صاحب الكبائر.

وقد اختلف السلف في تفسير السابق، والمقتصد، فقال عكرمة، وقتادة، والضحاك: إن المقتصد المؤمن المعاصي، والسابق النبي على الإطلاق، وبه قال الفراء، وقال مجاهد في تفسير الآية: ﴿فمنهم ظالم لنفسه أصحاب﴾ المشامة ﴿ومنهم مقتصد﴾ أصحاب الميمنة ﴿ومنهم سابق بالخيرات﴾ السابقون من الناس كلهم. وقال المبرد: إن المقتصد هو الذي يعطي الدنيا حقها، والآخرة حقها. وقال الحسن: الظالم الذي ترجح سيئاته على حسناته، والمقتصد الذي استوت حسناته، وسيئاته، والسابق من رجحت حسناته على سيئاته. وقال مقاتل: الظالم لنفسه أصحاب الكبائر من أهل التوحيد، والمقتصد الذي لم يصب كبيرة، والسابق الذي سبق إلى الأعمال الصالحة. وحكى النحاس: أن الظالم صاحب الكبائر، والمقتصد الذي لم يستحق الجنة بزيادة حسناته على سيئاته، فتكون جنات عدن يدخلونها للذين سبقوا بالخيرات لا غير، قال: وهذا قول جماعة من أهل النظر، لأن الضمير في حقيقة النظر لما يليه أولى. وقال الضحاك. فيهم ظالم لنفسه: أي: من نزيهتهم ظالم لنفسه. وقال سهل بن عبد الله: السابق العالم، والمقتصد المتعلم، والظالم لنفسه الجاهل. وقال نو النون المصري: للظالم لنفسه الذاكِر لله بلسانه فقط، والمقتصد الذاكِر بقلبه، والسابق الذي لا ينساه. وقال الأنطاكي: الظالم صاحب الأقوال، والمقتصد صاحب الأفعال، والسابق صاحب الأحوال. وقال ابن عطاء: الظالم الذي يحب الله من أجل الدنيا، والمقتصد الذي يحب الله من أجل العقبى، والسابق الذي أسقط مراده بمراد الحق. وقيل: الظالم الذي يعبد الله خوفاً من النار، والمقتصد الذي يعبد طمعاً في الجنة، والسابق الذي يعبد لا لسبب. وقيل: الظالم الذي يحب نفسه، والمقتصد الذي يحب دينه، والسابق الذي يحب ربه. وقيل: الظالم الذي ينتصف ولا ينصف، والمقتصد الذي ينتصف، وينصف، والسابق الذي ينصف ولا ينتصف وقد ذكر الثعلبي، وغيره أقوالاً كثيرة، ولا شك أن المعاني اللغوية للظالم، والمقتصد، والسابق معروفة، وهو يصدق على الظلم للنفس بمجرد إحرامها للحظ، وتقويت ما هو خير لها، فتارك الاستكثار من الطاعات قد ظلم نفسه باعتبار ما فوتها من الثواب، وإن كان قائماً بما أوجب الله عليه تاركاً لما نهاه الله عنه، فهو من هذه الحيثية من اصطفاه الله، ومن أهل الجنة، فلا إشكال في الآية، ومن هذا قول آدم: ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا﴾ [الأعراف: 23]، وقول يونس: ﴿إني كنت من الظالمين﴾ [الأنبياء: 87]، ومعنى المقتصد: هو من يتوسط في أمر الدين، ولا يميل إلى جانب الإفرط، ولا إلى جانب

عذاب الله خائفين من عقابه، مضطربي القلوب في كل حين، هل تقبل أعمالهم أو ترد؟ حزينين من عاقبة السوء، وخاتمة الشر، ثم لا تزال همومهم وأحزانهم حتى يدخلوا الجنة. وأما أهل العصيان: فهم، وإن نفس عن خناتهم قليلاً في حياة الدنيا التي هي دار الغرور، وتناسوا دار القرار يوماً من دهرهم، فلا بد أن يشتدّ وجلهم، وتعلم مصيبتهم، وتغلي مراحل أحزانهم إذا شارقوا الموت، وقربوا من منازل الآخرة، ثم إذا قبضت أرواحهم، ولاح لهم ما يسؤوهم من جزاء أعمالهم ازدادوا غماً، وحزناً، فإن تفضل الله عليهم بالمغفرة، وأنخلهم الجنة، فقد أذهب عنهم أحزانهم، وأزال غموهم، وهمومهم ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ أي: غفور لمن عصاه، شكور لمن أطاعه ﴿الَّذِي لَحْنًا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: دار الإقامة التي يقام فيها أبداً، ولا ينتقل عنها تفضلاً منه ورحمة ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي: لا يصيبنا في الجنة عناء، ولا تعب، ولا مشقة ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾، وهو: الإعياء من التعب، والكلال من النصب.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ثُمَّ رَمَاتُ مَخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ قال: الأبيض، والأحمر، والأسود، وفي قوله: ﴿وَمِنْ الْجِبَالِ جُدَدٌ﴾ قال: طرائق الغريب الأسود الشديد السواد. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي مالك في قوله: ﴿وَمِنْ الْجِبَالِ جُدَدٌ﴾ قال: طرائق تكون في الجبل بيض ﴿وَحُمْرٌ﴾ فتلك الجند ﴿وَوُغْرَلِيْبٌ سَوْدٌ﴾ قال: جبال سود ﴿وَمِنْ النَّاسِ وَالْأَنْعَامِ﴾ قال: ﴿كَذَلِكَ﴾ اختلاف الناس، والذوَاب، والأنعام كاختلاف الجبال، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ قال: فصل لما قبلها. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ قال: العلماء بالله الذين يخافونه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في الآية قال: الذين يعلمون أن الله على كل شيء قدير. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن عدي عن ابن مسعود قال: ليس العلم من كثرة الحديث، ولكن العلم من الخشية. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد في الزهد، وعبد بن حميد، والطبراني عنه قال: كفى بخشية الله علماً، وكفى باغترار بالله جهلاً. وأخرج أحمد في الزهد عنه أيضاً قال: ليس العلم بكثرة الرواية، ولكن العلم الخشية. وأخرج ابن أبي شيبة عن حنيفة قال: بحسب المؤمن من العلم أن يخشى الله. وأخرج عبد الغني بن سعيد الثقفي في تفسيره عن ابن عباس: أن حصين بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف نزلت فيه ﴿إِنَّ لِلَّذِينَ يَقُولُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في البعث عن ابن عباس في قوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ قال: هم أمة محمد ﷺ ورثهم الله كل كتاب أنزل، فظالمهم مغفور له، ومقتصدهم يحاسب

حساباً يسيراً، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب. وأخرج الطيالسي، وأحمد، وعبد بن حميد، والترمذي وحسنه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في البعث عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ أنه قال في هذه الآية: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ قال: هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة، وكلهم يدخلون الجنة. وفي إسناده رجلان مجهولان. قال الإمام أحمد في مسنده قال: حدثنا شعبة عن الوليد بن العيزار: أنه سمع رجلاً من ثقيف يحدث عن رجل من كنانة عن أبي سعيد. وأخرج الفريابي، وأحمد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي في البعث عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿قَالَ اللَّهُ: ثَمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا، فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فأما الذين سبقوا، فأولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب. وأما الذين اقتصدوا، فأولئك يحاسبون حساباً يسيراً. وأما الذين ظلموا أنفسهم، فأولئك الذين يحبسون في طول المحشر، ثم هم الذين تلافاهم الله برحمته، فهم الذين يقولون: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ إلى آخر الآية. قال البيهقي: إذا كثرت روايات في حديث ظهر أن الحديث أصلاً هـ، وفي إسناده أحمد محمد بن إسحاق، وفي إسناده ابن أبي حاتم رجل مجهول، لأنه رواه من طريق الأعمش، عن رجل، عن أبي ثابت، عن أبي الدرداء، ورواه ابن جرير، عن الأعمش قال: نكر أبو ثابت. وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني عن عوف بن مالك، عن رسول الله ﷺ قال: «أمتي ثلاثة أثلاث: فثلث يدخلون الجنة بغير حساب، وثلث يحاسبون حساباً يسيراً، ثم يدخلون الجنة، وثلث يمحصون، ويكشفون، ثم تأتي الملائكة، فيقولون وجدناهم يقولون: لا إله إلا الله وحده، فيقول الله: أنخلوهم الجنة بقولهم لا إله إلا الله وحده، وأحملوا خطاياهم على أهل التكذيب، وهي: التي قال الله: ﴿وَلِيَحْمِلَنَّ أَثْقَالَهُمْ وَاتَّقَالُوا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: 13]، وتصديقها في التي نكر في الملائكة. قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ فجعلهم ثلاثة أفواج: فمنهم ظالم لنفسه، فهذا الذي يكشف، ويمحص، ومنهم مقتصد، وهو الذي يحاسب حساباً يسيراً. ومنهم سابق بالخيرات، فهو الذي يلج الجنة بغير حساب ولا عذاب، بإذن الله يدخلونها جميعاً. قال ابن كثير بعد نكر هذا الحديث: غريب جداً هـ. وهذه الأحاديث يقوي بعضها بعضها، ويجب المصير إليها، ويدفع بها قول من حمل الظالم لنفسه على الكافر، ويؤيدها ما أخرجه الطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في البعث عن أسامة بن زيد: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ الآية قال: قال رسول الله ﷺ: «كلهم من هذه الأمة، وكلهم في الجنة، وما أخرجه الطيالسي، وعبد بن

يَحْتَلُونَ فِيهَا مِنْ نَسَاجِدٍ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا، قَالَ: إِنَّ عَلَيْهِمُ التَّيَاجِينَ، إِنَّ ابْنِي لُلَّؤْلُؤَةِ مِنْهَا لَتَضِيءُ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ. وَأَخْرَجَ عَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ، وَابْنُ الْمُنْذِرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الْآيَةُ قَالَ: هُمْ قَوْمٌ فِي الدُّنْيَا يَخَافُونَ اللَّهَ، وَيَجْتَهِدُونَ لَهُ فِي الْعِبَادَةِ سِرًّا، وَعَلَانِيَةً، وَفِي قُلُوبِهِمْ حُزْنٌ مِنْ ذُنُوبٍ قَدْ سَلَفَتْ مِنْهُمْ، فَهُمْ خَائِفُونَ أَنْ لَا يُتَقَبَّلَ مِنْهُمْ هَذَا الْجُحُودُ مِنَ الذُّنُوبِ الَّتِي سَلَفَتْ، فَعِنْدَمَا ﴿قَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحُزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ غَفَرَ لَنَا الْعَظِيمَ، وَشَكَرَ لَنَا الْقَلِيلَ مِنْ أَعْمَالِنَا. وَأَخْرَجَ عَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ، وَابْنُ جُرَيْرٍ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ عَنْهُ فِي الْآيَةِ قَالَ: حُزْنُ النَّارِ.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا بَقِيَتْ عَلَيْهِمْ فَيْسُورُوا وَلَا يَحْنُفُوا
عَنْهُمْ مِنْ مَدَائِحِ كَذَلِكَ تَجْزِي كُلَّ كَفِيرٍ ﴿١٧﴾ وَنَمَّ يَسْمُرُونَ فِيهَا
رُتُومًا أَنْفَحْنَاهَا فَمَلَأْنَا بِغَيْرِ الذِّئْبِ كُنُفًا فَمَلَأْنَا زَلَّاتِ تَعْمُرَكُمْ مَا
يَبْدَأُكُمْ فِيَوْمَ تَذَكَّرُ وَمَا كُمْ إِلَّا ذُرِّيٌّ مَقْدُورًا لَنَا الْفَاطِلِينَ مِنْ هَاجِرٍ
﴿١٨﴾ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَبِيبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ
﴿١٩﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلْقًا فِي الْأَرْضِ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يُزِيدُ
الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا نَجْمًا وَلَا يُزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢٠﴾
قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ
شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ لَيْسَ لَهُمْ كِتَابٌ هَدَاهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ وَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ ظَالِمُونَ
يَسْتَهْجِئُونَ بِمَا لَا يَعْمَلُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَسْلُبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْ تَزُولَا
وَلَكِنْ رَأَيْتُمُ الْإِنْسَانَ كَفِيمًا إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا غَوِيًّا ﴿٢٢﴾ وَأَسْمَا
بِأَنَّهُ جَعَلَ لِنَفْسِهِ لَيْفَةً لِيَكُونَ آدَمُ مِنْ بَنِي الْأُمَمِ قَلَمًا
جَعَلَهُمْ نَسَبًا وَزَادَهُمُ إِلَّا قَوْمًا ﴿٢٣﴾ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا
يَحِصُّ الْمَكْرَ السَّيِّئِ إِلَّا بِأَعْيُنِنَا قَدْ نَجَّيْنَا الْإِبْرَاهِيمَ إِذْ كَانَ مِنَ الْوَالِدِينَ فَلَنْ نَجِدَ
لِسُلَيْمَانَ إِلَّا تَبْيِيلًا وَلَنْ نَجِدَ لِسُلَيْمَانَ إِلَّا تَحْوِيلًا ﴿٢٤﴾ أَوَلَمْ يَسْمِعُوا فِي الْأَرْضِ
يَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكُنُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ
يُسْمِعُهُمْ مِنْ نَجْوَى السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٢٥﴾
وَلَوْ رَايَهُدَّ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ مِنْ ذَابِقَةٍ
وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ أَجَلًا أَلَمْ تَعْلَمْ فَلَاكُ اللَّهُ كَانَ
بِعَسَاوِدٍ يُبَسِّرُهُ ﴿٢٦﴾

ثم لما فرغ سبحانه من نكر جزاء عباده الصالحين، نكر جزاء عباده الطالحين، فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَتَوَاتُوا﴾ أي: لا يقضى عليهم بالموت، فيموتوا، ويستريحوا من العذاب ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ بل ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِبُخْلَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيُنْزِلُوا فِيهَا﴾ [النساء: 56] وهذه الآية هي مثل قوله سبحانه: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: 74] قرأ الجمهور (فيموتوا) بالنصب جواباً للنفي، وقرأ عيسى بن عمر، والحسن بإثبات النون. قال المازني: على العطف على يقضى. وقال ابن عطية: هي قراءة ضعيفة، ولا وجه لهذا

حميد، وابن أبي حاتم، والطبراني في الأوسط، والحاكم، وابن مريويه عن عقبة بن صهبان قال: قلت لعائشة: أرايت قول الله: ﴿ثُمَّ لَوْنُا لِّلْكِتَابِ﴾ الآية، قالت: لما السابق، فمن مضى في حياة رسول الله ﷺ، فشهد له بالجنة. وأما المقتصد، فمن تبع آثارهم، فعمل بمثل عملهم حتى لحق بهم. وأما الظالم لنفسه، فمثلي، ومثلك، ومن اتبعنا، وكل في الجنة. وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود قال: هذه الأمة ثلاثة أثلاث يوم القيامة: ثلث يدخلون الجنة بغير حساب، وثلث يحاسبون حساباً يسيراً، وثلث يجيئون بنذوب عظام إلا أنهم لم يشركوا، فيقول الرب: أدخلوا هؤلاء في سعة رحمتي، ثم قرأ ﴿ثُمَّ لَوْنُا لِّلْكِتَابِ﴾ الآية. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، والبيهقي في البعث عن عمر بن الخطاب: أنه كان إذا نزع بهذه الآية ﴿ثُمَّ لَوْنُا لِّلْكِتَابِ﴾ قال: ألا إن سابقنا سابق، ومقتصدنا ناج، وظالمنا مغفور له. وأخرجه العقيلي، وابن مريويه، والبيهقي في البعث من وجه آخر عنه مرفوعاً. وأخرجه ابن النجار من حديث أنس مرفوعاً. وأخرج الطبراني عن ابن عباس قال: السابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب، والمقتصد يدخل الجنة برحمة الله، والظالم لنفسه، وأصحاب الأعراف يدخلون الجنة بشفاعة محمد ﷺ. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه عن عثمان بن عفان: أنه نزع بهذه الآية، ثم قال: ألا إن سابقنا أهل جهنم، ألا وإن مقتصدنا أهل حشرنا، ألا وإن ظالمنا أهل بدونا. وأخرج سعيد بن منصور، والبيهقي في البعث عن البراء بن عازب في قوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ الآية قال: أشهد على الله أنه يدخلهم جميعاً الجنة. وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن مريويه عنه قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿ثُمَّ لَوْنُا لِّلْكِتَابِ لِّلَّذِينَ إِصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ قال: كلهم ناج، وهي هذه الأمة. وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، عن ابن عباس في الآية قال: هي مثل التي في الواقعة أصحاب الميمنة، وأصحاب المشأمة. والسابقون: صنفان ناجيان، وصنف هالك. وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، والبيهقي عنه في قوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ قال: هو الكافر، والمقتصد أصحاب اليمين. وهذا المروي عنه رضي الله عنه لا يطابق ما هو الظاهر من النظم القرآني، ولا يوافق ما قُتِمنا من الروايات عن رسول الله ﷺ، وعن جماعة من الصحابة. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن عبد الله بن الحارث: أن ابن عباس سأل كعباً عن هذه الآية، فقال: نجوا كلهم، ثم قال: تحاكت مناكبهم، ورب الكعبة، ثم أعطوا الفضل بأعمالهم، وقد قُتِمنا عن ابن عباس ما يفيد أن الظالم لنفسه من الناجين، فتعارضت الأقوال عنه. وأخرج الترمذي، والحاكم وصححه، والبيهقي في البعث عن أبي سعيد الخدري: أن النبي ﷺ تلا قول الله: ﴿حَنَاتٍ عَدَنَ يَدْخُلُونَهَا

جعلكم خلائف في الأرض» أي: جعلكم أمة خليفة لمن قبلها. قال قتادة: خلفاً بعد خلف، وقرناً بعد قرن، والخلف: هو التالي للمتقدم، وقيل: جعلكم خلفاء في أرضه «فمن كفر» منكم هذه النعمة «فعلية كفره» أي: عليه ضرر كفره، لا يتعداه إلى غيره «ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً» أي: غضباً، وبغضاً «ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خساراً» أي: نقصاً وملاكاً، والمعنى: أن الكفر لا ينفع عند الله حيث لا يزيدهم إلا المقت، ولا ينفعهم في أنفسهم حيث لا يزيدهم إلا الخسار. ثم أمره سبحانه أن يوبخهم، ويبكتهم، فقال: «قل أرايتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله» أي: أخبروني عن الشركاء الذين اتخذتموهم آلهة، وعينتموهم من دون الله، وجملة «أروني ماذا خلقوا من الأرض» يدل اشتغالهم من أرايتم، والمعنى: أخبروني عن شركائكم، أروني أي شيء خلقوا من الأرض؟ وقيل: إن الفعلان، وهما أرايتم، وأروني من باب التنازع. وقد أعمل الثاني على ما هو اختيار البصريين «أم لهم شرك في السموات» أي: أم لهم شركة مع الله في خلقها، أو ملكها، أو التصرف فيها حتى يستحقوا بذلك الشركة في الإلهية «أم آتيناهم كتاباً» أي: أم أنزلنا عليهم كتاباً بالشركة «فهم على بينات منه» أي: على حجة ظاهرة واضحة من ذلك الكتاب. قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، وحفص عن عاصم (بينة) بالتوحيد، وقرأ الباقون بالجمع. قال مقاتل: يقول: هل أعطينا كفار مكة كتاباً، فهم على بيان منه بأن مع الله شريكاً. ثم أضرب سبحانه عن هذا إلى غيره، فقال: «بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً» أي: ما يعد الظالمون بعضهم بعضاً كما يفعله الرؤساء، والقادة من المواعيد لاتباعهم إلا غروراً يغرونهم به، ويزينونه لهم، وهو الأباطيل التي تغر، ولا حقيقة لها، وذلك قولهم: إن هذه الآلهة تنفعهم، وتقربهم إلى الله، وتشفع لهم عنده. وقيل: إن الشياطين تعد للمشركين بذلك، وقيل: المراد بالوعد الذي يعد بعضهم بعضاً هو: أنهم ينصرون على المسلمين، ويغلبونهم، وجملة «إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا» مستأنفة لبيان قدرة الله سبحانه، وبيد صنعه بعد بيان ضعف الأصنام، وعدم قدرتها على شيء، وقيل: المعنى: إن شركهم يقتضي زوال السموات والأرض كقوله: «تكاد السموات يفتطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً * أن دعوا للرحمن ولداً» [مريم: 90 - 91] «ولئن زلنا إن أمسكهما من أحد من بعده» أي: ما أمسكهما من أحد من بعد إمساكه، أو من بعد زوالهما، والجملة سائة مسدّ جواب القسم والشرط، ومعنى «أن تزولا»: ثلاثاً تزولا، أو كرامة أن تزولا. قال الزجاج: المعنى: إن الله يمنع السموات والأرض من أن تزولا، فلا حاجة إلى التقدير. قال الفراء: أي: ولو زلنا ما أمسكهما من أحد، قال: وهو مثل قوله: «ولئن أرسلنا ريحاً فافواه مصفرة لظلوا من بعده يكفرون» [الروم: 51] وقيل: المراد زوالهما يوم القيامة،

التضعيف بل هي كقوله: «ولا يؤذن لهم فيعتدون» [المرسلات: 36] «كنكك نجزي كل كفور» أي: مثل ذلك الجزء الفطيع نجزي كل من هو مبالغ في الكفر، وقرأ أبو عمرو (نجزي) على البناء للمفعول «وهم يصطرخون فيها» من الصراخ، وهو: الصياح أي: وهم يستغيثون في النار رافعين أصواتهم، والصارخ: المستغيث، ومنه قول الشاعر:

كنا إذا ما أتانا صارخ فزع كان الصارخ له قرع الطنابيب
«ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل» أي: وهم فيها يصطرخون يقولون: ربنا إلخ. قال مقاتل: هو: أنهم يتألون: ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل: من الشرك والمعاصي، فنجعل الإيمان منا بدل ما كنا عليه من الكفر، والطاعة بدل المعصية، وانتصاب صالحاً على أنه صفة لمصدر محذوف: أي: عملاً صالحاً، أو صفة لموصوف محذوف: أي: نعمل شيئاً صالحاً. قيل: وزيادة قوله: «غير الذي كنا نعمل» للتعسر على ما عملوه من غير الأعمال الصالحة مع الاعتراف منهم بأن أعمالهم في الدنيا كانت غير صالحة، فاجاب الله سبحانه عليهم بقوله: «أولم نعمركم ما يتنكر فيه من تنكر» والاستهتام للتقريع، والتوبيخ، والواو للعطف على مقدر كما في نظائره، وما نكرة موصوفة: أي: أو لم نعمركم عمراً يتمكن من التنكر فيه من تنكر. فقيل: هو ستون سنة، وقيل: أربعون، وقيل: ثمانين سنة. قال بالأول جماعة من الصحابة، وبالثاني الحسن، ومسروق، وغيرهما. وبالثالث عطاء، وقتادة، وقرأ الأعمش (ما يذكر) بالإدغام «وجاءكم النذير» قال الواحدي: قال جمهور المفسرين: هو النبي ﷺ. وقال عكرمة، وسفيان بن عيينة، ووكيع، والحسن بن الفضل، والفراء، وابن جرير: هو: الشيب، ويكون معناه على هذا القول: أو لم نعمركم حتى شيبتم، وقيل: هو القرآن، وقيل: الحمى. قال الأزهري: معناه: أن الحمى رسول الموت: أي: كأنها تشعر بقدومه، وتنذر بمجيئه، والشيب نذير أيضاً، لأنه يأتي في سنّ الاكتحال، وهو علامة لمفارقة سنّ الصبا الذي هو سنّ اللهو واللعب، وقيل: هو موت الأهل، والأقارب، وقيل: هو كمال العقل، وقيل: البلوغ «فنفوقوا فما للظالمين من نصير» أي: فنفوقوا عذاب جهنم، لأنكم لم تعتبروا، ولم تتعظوا، فما لكم ناصر يمنعكم من عذاب الله، ويحول بينكم وبينه. قال مقاتل، فنفوقوا العذاب، فما للمشركين من مانع يمنعهم «إن الله عالم غيب السموات والأرض» قرأ الجمهور بإضافة عالم إلى غيب، وقرأ جناح بن حبيش بالتثنية، ونصب غيب. والمعنى: أنه عالم بكل شيء، ومن ذلك أعمال لا تخفى عليه منها خافية، فلو رنكم إلى الدنيا لم تعملوا صالحاً كما قال سبحانه: «ولو ردوا لعابوا لما نهوا عنه» [الأنعام: 28] «إنه عليم بذات الصدور» تحليل لما قبله، لأنه إذا علم مضمرات الصدور، وهي أخفى من كل شيء علم ما فوقها بالأولى، وقيل: هذه الجملة مفسرة للجملة الأولى «هو الذي

قبلها، وتلكيده: أي: ألم يسيروا في الأرض، فينظروا ما أنزلنا بعد، وثمود، ومدين، وأمثالهم من العذاب لما كتبوا الرسل، فإن ذلك هو من سنة الله في المكذبين التي لا تبدل، ولا تحول، وأثار عذابهم، وما أنزل الله بهم موجودة في مسكنهم ظاهرة في منازلهم ﴿و﴾ الحال: أن أولئك ﴿كانوا أشد منهم قوة﴾ وأطول أعماراً، وأكثر أموالاً، وأقوى أيداناً ﴿وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض﴾ أي: ما كان ليسبقه ويفوته من شيء من الأشياء كائنًا ما كان فيها ﴿إنه كان عليمًا قديرًا﴾ أي: كثير العلم، وكثير القدرة لا يخفى عليه شيء، ولا يصعب عليه أمر ﴿ولو يؤلخذ الله الناس بما كسبوا﴾ من الذنوب، وعملوا من الخطايا ﴿ما ترك على ظهرها﴾ أي: الأرض ﴿من دابة﴾ من الدواب التي تدب كائنة ما كانت، أما بنو آدم فلننوبهم، وأما غيرهم فلشؤم معاصي بني آدم. وقيل: المراد ما ترك على ظهر الأرض من دابة تدب من بني آدم والجن، وقد قال بالاول ابن مسعود، وقتادة، وقال بالثاني الكلبي. وقال ابن جريج، والأخفش، والحسين بن الفضل: أراد بالدابة هنا الناس وحدهم دون غيرهم ﴿ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى﴾ وهو: يوم القيامة ﴿فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعبادهم بصيرًا﴾ أي: بمن يستحق منهم الثواب، ومن يستحق منهم العقاب، والعامل في إذا هو جاء لا بصيرًا، وفي هذا تسلية للمؤمنين، ووعيد للكافرين.

وقد أخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مروي، والبيهقي في السنن عن ابن عباس في قوله: ﴿أولم نعزكم ما يتذكر فيه من تنكير﴾ قال: ستين سنة. وأخرج الحكيم الترمذي في نوابر الأصول، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مروي، والبيهقي في الشعب عنه: أن النبي ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة قيل: أين أبناء الستين؟ وهو العمر الذي قال الله: ﴿أولم نعزكم ما يتذكر فيه من تنكير﴾ وفي إسناده إبراهيم بن الفضل المخزومي، وفيه مقال. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، والبخاري، والنسائي، والبزار، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم، وابن مروي، والبيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أعذر الله إلى امرئ آخر عمره حتى بلغ ستين سنة». وأخرج عبد بن حميد، والطبراني، والحاكم، وابن مروي عن سهل بن سعد مرفوعاً نحوه. وأخرج ابن جرير، عن علي بن أبي طالب قال: العمر الذي عيرهم الله به ستون سنة. وأخرج الترمذي، وابن ماجه، والحاكم، وابن المنذر، والبيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أعمار أمي ما بين الستين إلى السبعين، وأقلهم من يجوز ذلك». قال الترمذي بعد إخرجه: حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، ثم أخرجه في موضع آخر من كتاب الزهد، وقال: هذا حديث حسن غريب من حديث أبي صالح عن أبي هريرة، وقد روي من غير وجه عنه.

وجملة ﴿إنه كان حليمًا غفورًا﴾ تعليل لما قبلها من إمساكه تعالى للسموات، والأرض ﴿واقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم﴾ المراد قريش، أقسموا قبل أن يبعث الله محمداً ﷺ بهذا القسم حين بلغهم أن أهل الكتاب كتبوا رسلهم، ومعنى ﴿من إحدى الأمم﴾ يعني: المكذبة للرسل، والنذير: النبي، والهدى: الاستقامة، وكانت العرب تتمنى: أن يكون منهم رسول كما كان الرسل في بني إسرائيل ﴿فلما جاءهم﴾ ما تمنوه، وهو: رسول الله ﷺ الذي هو أشرف ﴿نذير﴾ وأكرم مرسل، وكان من أنفسهم ﴿ما زادهم﴾ مجيئه ﴿إلا نفورًا﴾ منهم عنه، وتباعداً عن إجابته ﴿لستكباراً في الأرض﴾ أي: لأجل الاستكبار، والعقور ﴿و﴾ لأجل ﴿مكر السيئ﴾ أي: مكر العمل السيئ، أو مكروا المكر السيئ، والمكر هو: الحيلة، والخداع، والعمل القبيح، وأضيف إلى صفته كقوله: مسجد الجامع، وصلاة الاولى، وأنت إحدى لكون أمة مؤنثة كما قال الأخفش. وقيل: المعنى: من إحدى الأمم على العموم، وقيل: من الأمة التي يقال لها إحدى الأمم تفضيلاً لها. قرأ الجمهور (ومكر السيئ) بخفض همزة السيئ، وقرأ الأعمش، وحزمة بسكونها وصلاً. وقد غلط كثير من النحاة هذه القراءة، ونزها الأعمش على جلالته أن يقرأ بها، قالوا: وإنما كان يقف بالسكون، فغلط من روي عنه: أنه كان يقرأ بالسكون وصلاً، وتوجيه هذه القراءة ممكن، بأن من قرأ بها أجرى الوصل مجرى الوقف كما في قول الشاعر:

فاليوم أشرب غير مستحبب إسماً من الله ولا أغسل
بسكون الباء من لشرب، ومثله قراءة من قرأ: ﴿وما يشعركم﴾ [الأنعام: 109] بسكون الراء، ومثل ذلك قراءة أبي عمرو ﴿إلى بارئكم﴾ [البقرة: 54] بسكون الهمزة، وغير ذلك كثير. قال أبو علي الفارسي: هذا على إجراء الوصل مجرى الوقف، وقرأ ابن مسعود (ومكراً سيناً) ﴿ولا يحقيق للمكر السيئ إلا بأهله﴾ أي: لا تنزل عاقبة السوء إلا بمن أساء. قال الكلبي: يحقيق بمعنى: يحيط، والحق الإحاطة، يقال: حاق به كذا إذا أحاط به، وهذا هو الظاهر من معنى يحقيق في لغة العرب، ولكن قطرب فسره هنا ببينزل، وأنشد:

وقد رفعوا المنية فاستقلت نراعاً بعد ما كانت تحيق
أي: تنزل ﴿فهل ينظرون إلا سنت الأولين﴾ أي: فهل ينتظرون إلا سنة الأولين: أي: سنة الله فيهم بأن ينزل بهؤلاء العذاب كما نزل بأولئك ﴿قلن تجد لسنن الله تبيلاً﴾ أي: لا يقدّر أحد أن يبدل سنة الله التي سنّها بالأمم المكذبة من إنزال عذابهم بأن يضع موضعه غيره بدلاً عنه ﴿ولن تجد لسنن الله تحويلاً﴾ بأن يحول ما جرت به سنة الله من العذاب، فيبفعه عنهم، ويضعه على غيرهم، ونفي وجدان التبديل والتحويل عبارة عن نفي وجودهما ﴿أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾ هذه الجملة مسوقة لتقرير معنى ما

الزجاج: على طريقة الأنبياء الذين تقدموا، ويجوز: أن يكون في محل نصب على الحال ﴿تنزيل العزيز الرحيم﴾ قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو بكر برفع (تنزيل) على أنه خبر مبتدأ محذوف: أي: هو تنزيل، ويجوز: أن يكون خبراً لقوله يس إن جعل اسماً للمسورة، وقرأ الباقون بالنصب على المصدرية: أي: نزل الله ذلك تنزيل العزيز الرحيم، والمعنى: أن القرآن تنزيل العزيز الرحيم، وقيل: المعنى: إنك يا محمد تنزيل العزيز الرحيم، والأول أولى، وقيل: هو منصوب على المدح على قراءة من قرأ بالنصب، وعبر سبحانه عن المنزل بالمصدر مبالغة حتى كأنه نفس التنزيل، وقرأ أبو حيوة، والترمذي، وأبو جعفر يزيد بن القعقاع، وشيبة (تنزيل) بالجر على التعت للقرآن، أو البذل منه، واللام في ﴿لتنزل قوماً ما أنذر آبائهم﴾ يجوز: أن تتعلق بتنزيل، أو بفعل مضمّر يدل عليه من المرسلين: أي: أرسلناك لتنذر، و«ما» في ﴿ما أنذر آبائهم﴾ هي: النافية: أي: لم ينذر آبائهم، ويجوز: أن تكون موصولة، أو موصوفة: أي: لتنذر قوماً الذي أنذرهم آبائهم، أو لتنذرهم عذاباً أنذرهم آبائهم، ويجوز: أن تكون مصدرية: أي: إنذار آبائهم، وعلى القول بأنها نافية يكون المعنى: ما أنذر آبائهم برسول من أنفسهم، ويجوز: أن يراد، ما أنذر آبائهم الأقربون لتطاول مدة الفترة، وقوله: ﴿فهم غافلون﴾ متعلق بنفي الإنذار على الوجه الأول: أي: لم ينذر آبائهم، فهم بسبب ذلك غافلون، وعلى الوجه الآخر متعلق بقوله لتنذر: أي: فهم غافلون عما أنذرنا به آبائهم، وقد ذهب أكثر أهل التفسير إلى أن المعنى على النفي، وهو الظاهر من النظم لترتيب فهم غافلون على ما قبله، واللام في قوله: ﴿لقد حق القول على أكثرهم﴾ هي: الموطئة للقسم أي: والله لقد حق القول على أكثرهم، ومعنى حق: ثبت، ووجب القول: أي: العذاب على أكثرهم، أي: أكثر أهل مكة، أو أكثر الكفار على الإطلاق، أو أكثر كفار العرب، وهم من مات على الكفر، وأصر عليه طول حياته، فيتفرع قوله: ﴿فهم لا يؤمنون﴾ على ما قبله بهذا الاعتبار: أي: لأن الله سبحانه قد علم منهم الإصرار على ما هم فيه من الكفر، والموت عليه، وقيل: المراد بالقول المذكور هنا هو قوله سبحانه: ﴿فالحق والحق أقول﴾ لآمل أن جهنم منك ومن تبعك ﴿ص: 84 - 85﴾ جملة ﴿إننا جعلنا في أعناقهم أغلالاً﴾ تقرير لما قبلها مثلت حالهم بحال الذين غلت أعناقهم ﴿فهي﴾ أي: الأغلال منتبهة ﴿إلى الأنقان﴾، فلا يقدرّون عند ذلك على الالتفات، ولا يتمكنون من عطفها، وهو معنى قوله: ﴿فهم مقمحون﴾ أي: رافعون رؤوسهم غاضون أبصارهم، قال الفراء، والزجاج: المقمح: الغاض بصره بعد رفع رأسه، ومعنى الإقماع: رفع الرأس، وغض البصر، يقال: أقمح البعير رأسه، وقمح: إذا رفع رأسه، ولم يشرب الماء، قال الأزهري: أراد الله أن أيديهم لما غلت عند أعناقهم رفعت الأغلال إلى أنقانهم، ورؤوسهم صعداء، فهم مرفوعو الرؤوس برفع الأغلال إياها، وقال قتادة: معنى مقمحون: مغلولون والأول أولى، ومنه قول الشاعر:

ونحن على جوانبها تعود نغض الطرف كإبل القماح

خلفتهم سداً فأغشيتهم فهم لا يبصرون ﴿١٣٠﴾ وسوّاهم على ما أنذرهم أر كَر تَنذَرْتُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٣١﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَوَّى الرَّحْمَنَ بِالْكَذِبِ بَنِيَهُ يَمُوتُونَ وَأَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٣٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتِ وَنَكْسِبُ مَا نَقْتُمُ وَأَنذَرْتُمْ وَكَلَّ شَيْءٌ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٣٣﴾

قوله: ﴿يس﴾ قرأ الجمهور بسكون النون، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحزمة، وحفص، وقالون، وورش بإدغام النون في الواو الذي بعدها، وقرأ عيسى بن عمر بفتح النون، وقرأ ابن عباس، وابن أبي إسحاق، ونصر بن عاصم بكسرها، فالفتح على البناء، أو على أنه مفعول فعل مقدر تقديره: اتل يس، والكسر على البناء أيضاً كجبر، وقيل: الفتح، والكسر للفرار من التقاء الساكنين، وأما وجه قراءة الجمهور بالسكون للنون، فلكونها مسرودة على نمط التعديد، فلا حظ لها من الإعراب. وقرأ هارون الأعور، ومحمد بن السميع، والكليبي بضم النون على البناء كمنذ، وحيث، وقط، وقيل: على أنها خبر مبتدأ محذوف: أي: هذه يس، ومنعت من الصرف للعلمية، والتأنيث.

واختلف في معنى هذه اللفظة، فقيل: معناها: يا رجل، أو يا إنسان. قال ابن الأباري: الوقف على يس حسن لمن قال: هو افتتاح للسورة، ومن قال: معناها: يا رجل لم يقف عليه. وقال سعيد بن جببر، وغيره: هو اسم من أسماء محمد ﷺ نليه ﴿إنك لمن المرسلين﴾، ومنه قول السعد الحميري:

يا نفس لا تمحضي بالنصح جاهدة على المودة إلا آل ياسين ومنه قوله: ﴿سلام على آل ياسين﴾ [الصفات: 130] أي: على آل محمد، وسيأتي في الصفات ما المراد بآل ياسين. قال الواحدي: قال ابن عباس، والمفسرون: يريد يا إنسان: يعني: محمداً ﷺ. وقال أبو بكر الوراق: معناها: يا سيد البشر. وقال مالك: هو: اسم من أسماء الله تعالى، روى ذلك عنه أشهب. وحكى أبو عبد الرحمن السلمي عن جعفر الصادق: أن معناها: يا سيد. وقال كعب: هو: قسم أقسم الله به، ورجح الزجاج أن معناها: يا محمد.

واختلفوا هل هو عربي أو غير عربي؟ فقال سعيد بن جببر، وعكرمة: حبشي. وقال الكليبي: سرياني تكلمت به العرب، فصار من لغتهم. وقال الشعبي: هو بلغة طي. وقال الحسن: هو بلغة كلب. وقد تقدم في طه، وفي مفتتح سورة البقرة ما يغني عن التطويل ما هنا ﴿والقرآن الحكيم﴾ بالجر على أنه مقسم به ابتداء، وقيل: هو معطوف على يس على تقدير كونه مجروراً بإضمار القسم. قال النقاش: لم يقسم الله لأحد من أنبيائه بالرسالة في كتابه إلا لمحمد ﷺ تعظيماً له وتمجيذاً، والحكيم المحكم الذي لا يتناقض، ولا يتخالف، أو الحكيم قائله، وجواب القسم ﴿إنك لمن المرسلين﴾، وهذا رد على من أنكّر رسالته من الكفار بقولهم: ﴿لست مرسلًا﴾ [الرعد: 43] وقوله: ﴿على صراط مستقيم﴾ خبر آخر لأن: أي: إنك على صراط مستقيم، والصراط المستقيم: الطريق القيم الموصل إلى المطلوب. قال

والحسن، ويحيى بن يعمر، وأبو رجاء، وعكرمة بالعين المهملة من العشاء، وهو: ضعف البصر. ومنه ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ [الزخرف: 36] ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: إنذارك إياهم، وعلمه سواء. قال الزجاج: أي: من أضله الله هذا الإضلال لم ينفعه الإنذار، إنما ينتفع الإنذار من نكر في قوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ لِلذَّكَرِ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ﴾ أي: اتبع القرآن، وخشي الله في الدنيا، وجملة «لا يؤمنون» مستأنفة مبنية لما قبلها من الاستواء، أو في محل نصب على الحال، أو بدل، وبالغيب في محل نصب على الحال من الفاعل، أو المفعول ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ أي: بشر هذا الذي اتبع النكر، وخشي الرحمن بالغيب بمغفرة عظيمة، وأجر كريم: أي: حسن، وهو: الجنة. ثم أخبر سبحانه بإحيائه الموتى، فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى﴾ أي: نبعثهم بعد الموت. وقال الحسن، والضحاك: أي: نحْيِيهم بالإيمان بعد الجهل، والأول أولى. ثم توعدهم بكتب آثارهم، فقال: ﴿وَنُكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾ أي: أسلفوا من الأعمال الصالحة والطالحة ﴿وَأَنذَرُهم﴾ أي: ما أبقوه من الحسنات التي لا ينقطع نفعها بعد الموت: كمن سنَّ سَنَةً حسنة، أو نحو ذلك، أو السيئات التي تبقى بعد موت فاعلها: كمن سنَّ سَنَةً سيئة. قال مجاهد، وابن زيد: ونظيره قوله: ﴿عَلِمْتَ نَفْسَ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار: 5] وقوله: ﴿يَبْنِى الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: 13] وقيل: المراد بالآية آثار المشائين إلى المساجد، وبه قال جماعة من الصحابة، والتابعين. قال النحاس: وهو أولى ما قيل في الآية؛ لأنها نزلت في ذلك. ويجاب عنه بأن الاعتبار بعموم الآية لا بخصوص سببها، وعمومها يقتضي كتب جميع آثار الخير، والشر؛ ومن الخير تعليم العليم، وتصنيفه، والوقف على القرب، وعمارة المساجد، والقناطر. ومن الشر ابتداء المظالم، وإحداث ما يضر بالناس، ويقتدي به أهل الجور، ويعملون عليه من مكس، أو غيره، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أي: وكل شيء من أعمال العباد، وغيرها كائنًا ما كان في إمام مبين: أي: كتاب مقتدى به موضح لكل شيء. قال مجاهد، وقتادة، وابن زيد: أراد اللوح المحفوظ، وقالت فرقة: أراد صحائف الأعمال. قرأ الجمهور (ونكتب) على البناء للفاعل. وقرأ زَرَّ، ومسروق على البناء للمفعول. وقرأ الجمهور (كل شيء أحصيناه) بنصب كل على الاشتغال. وقرأ أبو السمال بالرفع على الابتداء.

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود، وابن عباس في قوله: ﴿يَسَّ﴾ قالوا: يا محمد. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس في قوله: ﴿يَسَّ﴾ قال: يا إنسان. وأخرج عبد بن حميد، عن الحسن، والضحاك، وعكرمة مثله. وأخرج ابن مردويه، وأبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس قال: «كان النبي ﷺ يقرأ في المسجد، فيجهر بالقراءة، حتى

قال الزجاج: قيل: للكانونين شهرا قماح، لأن الإبل إذا وردت الماء رفعت رعوها لشدة البرد، وأنشد قول أبي زيد الهذلي:

فتى ما ابن الأغر إذا استويينا وجب الزاد في شهري قماح
قال أبو عبيدة: قماح البعير إذا رفع رأسه عن الحوض، ولم يشرب. وقال أبو عبيدة أيضاً: هو مثل ضربه الله لهم في امتناعهم عن الهدى كما امتناع المغلول، كما يقال: فلان حمار: أي: لا يبصر الهدى، وكما قال الشاعر:
لهم عن الرشد أغلال وأقياد

وقال الفراء: هذا ضرب مثل: أي: حبسناهم عن الإنفاق في سبيل الله، وهو كقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾ [الإسراء: 29] وبه قال الضحاك. وقيل: الآية إشارة إلى ما يفعل بقوم في النار من وضع الأغلال في أعناقهم كما قال تعالى: ﴿إِذَا الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ [غافر: 71] وقرأ ابن عباس (إننا جعلنا في إيمانهم أغلالاً) قال الزجاج: أي: في أيديهم. قال النحاس: وهذه القراءة تفسير، ولا يقرأ بما خالف المصحف. قال: وفي الكلام حذف على قراءة الجماعة، التقدير: إننا جعلنا في أعناقهم، وفي أيديهم أغلالاً فهي إلى الأنقان، فلفظ هي كناية عن الأيدي لا عن الأعناق، والعرب تحذف مثل هذا. ونظيره: ﴿سَرَابِيلٌ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ [النحل: 81] وتقديره: وسرابيل تقيكم البرد، لأن ما وقى من الحر، وقى من البرد، لأن الغل إذا كان في العنق، فلا بد أن يكون في اليد، ولا سيما، وقد قال الله ﴿فَهِيَ إِلَى الْأَنْقَانِ﴾، فقد علم أنه يراد به الأيدي، فهم مقمحون: أي: رافعو رعوهم لا يستطيعون الإطراق، لأن من غلت يدها إلى نكته ارتفع رأسه. وروي عن ابن عباس: أنه قرأ (إننا جعلنا في أيديهم أغلالاً)، وعن ابن مسعود: أنه قرأ (إننا جعلنا في إيمانهم أغلالاً) كما روي سابقاً من قراءة ابن عباس ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ أي: منعناهم عن الإيمان بموانع، فهم لا يستطيعون الخروج من الكفر إلى الإيمان، كالمضروب أمامه، وخلفه بالأسد، والسد بضم السين، وفتحها لغتان. ومن هذا المعنى في الآية قول الشاعر:

ومن الحوائث لا أبالك أنني ضربت على الأرض بالأسداد
لا أهتدي فيها للوضع تلعمة بين العنبيب وبين أرض مراد
﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾ أي: غطينا أبصارهم ﴿فَهَمَّ﴾ بسبب ذلك ﴿لَا يَبْصُرُونَ﴾ أي: لا يقدرّون على إبصار شيء. قال الفراء: فالبسنا أبصارهم غشوة: أي: عمى فلم يَبْصُرُونَ سبيل الهدى، وكذا قال قتادة: إن المعنى: لا يبصرون الهدى. وقال السدي: لا يبصرون محمداً حين انتمروا على قتله. وقال الضحاك: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا﴾ أي: الدنيا، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ أي: الآخرة، فأغشيناهم، فهم لا يبصرون: أي: عموا عن البعث، وعموا عن قبول الشرائع في الدنيا. وقيل: ما بين أيديهم الآخرة، وما خلفهم الدنيا، قرأ الجمهور بالغين المعجمة: أي: غطينا أبصارهم، فهو على حذف مضاف. وقرأ ابن عباس، وعمر بن عبد العزيز،

تأذى به ناس من قريش، حتى قاموا؛ لياخذوه، وإذا أيديهم مجموعة إلى أعناقهم، وإذا هم عمي لا يبصرون، فجاءوا إلى النبي ﷺ، فقالوا: ننشدك الله والرحم يا محمد، قال: ولم يكن بطن من بطون قريش إلا وللنبي ﷺ فيهم قرابة، فدعا النبي ﷺ حتى ذهب ذلك عنهم، فنزلت ﴿يَسْ﴾ **والقرآن للحكيم** إلى قوله: ﴿إِمْ لَمْ تَنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قال: فلم يؤمن من ذلك النفر أحد، وفي الباب: روايات في سبب نزول تلك هذه الرواية أحسنها، وأقربها إلى الصحة. وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال: الأغلال ما بين الصدر إلى النكف **فهم مقحون** كما تقمح الدابة بالجلجاء. وأخرج ابن مريويه عنه أيضاً في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًا﴾ الآية قال: كانوا يمزون على النبي ﷺ، فلا يرونه. وأخرج ابن مريويه عنه أيضاً قال: اجتمعت قريش بباب النبي ﷺ ينتظرون خروجه؛ ليؤذوه، فشق ذلك عليه، فاتاه جبريل بسورة يس، وأمره بالخروج عليهم، فآخذ كفاً من تراب وخرج وهو يقرؤها، ويذر التراب على رؤوسهم، فما رآه حتى جاز، فجعل أحدهم يلمس رأسه، فيجد التراب، وجاء بعضهم فقال: ما يجلسكم؟ قالوا: ننتظر محمداً، فقال: لقد رأيته داخل المسجد، قال: قوموا، فقد سحركم. وأخرج عبد الرزاق، والترمذي وحسنه، والبخاري، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مريويه، والبيهقي في الشعب عن أبي سعيد الخدري قال: كان بنو سلمة في ناحية من المدينة، فأرأوا أن ينتقلوا إلى قرب المسجد، فانزل الله ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قُمُوا وَأَثَرَهُمْ﴾، فدعاهم رسول الله ﷺ، فقال: إنه يكتب آثاركم، ثم قرأ عليهم الآية فتركوا. وأخرج الفريابي، وأحمد في الزهد، وعبد بن حميد، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، وابن مريويه عن ابن عباس نحوه. وفي صحيح مسلم، وغيره من حديث جابر قال: «إن بني سلمة أراوا أن يبيعوا ديارهم، ويتحولوا قريباً من المسجد، فقال لهم رسول الله ﷺ: يا بني سلمة دياركم تكتب آثاركم».

وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِم
كَتَبَيْنَ مَكْتُوبًا فَمَرُّنَا بِالْحَافِظِ ﴿٢﴾ فَمَقَرَّوْا بِأَمْرِ آلِهِمُ مُرْسَلُونَ ﴿٣﴾ قَالُوا مَا أَتَانَا مِنْهُ إِلَّا
بَشَرٌ مِثْلُنا وَمَا أَفْرَأُكَ الرَّحْمَنُ مِنْ قُوَّةِ إِنْ شَاءَ إِلَّا تَكْذُوبُونَ ﴿٤﴾ قَالُوا مَا يَأْتِيكُمُ الْغَيْثُ
إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَئِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الْغَيْثَ ﴿٥﴾ قَالُوا إِنَّا تَعَالَى بَيْنَكُمْ
وَالَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ إِنَّا نَعْتَدُ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٦﴾ قَالُوا أَتَلْمِزُكُمْ مِنْكُمْ أَنْ
ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُشْرِقُونَ ﴿٧﴾ وَهَلْ مِنْكُمْ مِنْ أَمْسَا الْعِلْيَةِ إِمَّا بَسْ يَنْتَهِى قَالَ
يَنْفَعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٨﴾ أَتَعْجَبُونَ أَنْ يَنْتَحِلُوا إِعْرَافَكُمْ وَمَنْ يُهْمِدُونَ ﴿٩﴾
وَمَا لِي لَا أَتَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٠﴾ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ
يُرِيدُ أَنْ يَرْحَمَنَ بَعْضُ رَأْفَتِي عَلَى شَفَعَتِهِمْ سَبَّحًا وَلَا يُقَدِّرُونَ ﴿١١﴾ إِنْ إِنْ
لَأُنْفِثَنَّ مِنْ فِجْوَةٍ مِنْهُنَّ سَفِينًا مُنْصَلَّةً أَوْ آتِيكَمْ بِيَوْمٍ فَاسْمِعُونَ ﴿١٢﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ
قَالَ بَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ بِمَا عَصَى رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْذِبِينَ ﴿١٤﴾

يونس إلى أنه يجب الشرط، وعلى القولين، فالجواب هنا محذوف: أي: أثن نكرتم، فطائركم معكم لدلالة ما تقدم عليه. وقرا الماجشون (إن نكرتم) بهمة مفتوحة: أي: لأن نكرتم. ثم أضربوا عما يقتضيه الاستفهام، والشرط من كون التذكير سبباً للشؤم، فقالوا: ﴿بل أنتم قوم مسرفون﴾ أي: ليس الأمر كذلك، بل أنتم قوم عانيتكم الإسراف في المعصية. قال قتادة: مسرفون في تطيركم. وقال يحيى بن سلام: مسرفون في كفركم، وقال ابن بحر: السرف هنا الفساد، والإسراف في الأصل مجاوزة الحاء في مخالفة الحق ﴿وجاء من أقصا المدينة رجل يسعى﴾ هو: حبيب بن موسى النجار، وكان نجاراً، وقيل: إسكافاً، وقيل: قصاراً. وقال مجاهد، ومقاتل: هو: حبيب بن إسرائيل النجار، وكان ينحت الأصنام. وقال قتادة: كان يعبد الله في غار، فلما سمع بخبر الرسل جاء يسعى، وجملة ﴿قال يا قوم اتبعوا المرسلين﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر: كأنه قيل: فماذا قال لهم عند مجيئه؟ فقيل: قال: يا قوم اتبعوا المرسلين هؤلاء الذين أرسلوا إليكم، فإنهم جاءوا بحق. ثم أكد ذلك، وكثره، فقال: ﴿اتبعوا من لا يسألكم لجراً﴾ أي: لا يسألونكم أجراً على ما جاءوكم به من الهدى ﴿وهم مهتدون﴾ يعني: الرسل. ثم أبرز الكلام في معرض النصيحة لنفسه، وهو يريد مناصحة قومه، فقال: ﴿وما لي لا أعبد الذي فطرني؟﴾ أي: أي مانع من جانبي يمنعني من عبادة الذي خلقني. ثم رجع إلى خطابهم لبيان أنه ما أراد نفسه، بل أرادهم بكلامه، فقال: ﴿واليه ترجعون﴾ ولم يقل: إليه أرجع، وفيه مبالغة في التهديد. ثم عاد إلى المساق الأول لقصد التأكيد، ومزيد الإيضاح، فقال: ﴿أتأخذ من دونه آلهة﴾، فجعل الإنكار متوجهاً إلى نفسه. وهم المرادون به: أي: لا تأخذ من دون الله آلهة، وأعبدوها، وأترك عبادة من يستحق العبادة، وهو الذي فطرني. ثم بين حال هذه الأصنام التي يعبدونها من دون الله سبحانه إنكاراً عليهم، وبياناً لضلال عقولهم، وقصور إدراكهم، فقال: ﴿إن يردن للرحمن بضراً لا تغن عني شفاعتهم شيئاً﴾ أي: شيئاً من النفع كأننا ما كان ﴿ولا ينفقون﴾ من ذلك الضر الذي أرادني الرحمن به. وهذه الجملة صفة لآلهة، أو مستأنفة لبيان حالها في عدم النفع، والدفع، وقوله: ﴿لا تغن﴾ جواب الشرط، وقرا طلحة بن مصرف (إن يردني) بفتح الياء، قال: ﴿إني إذا لفي ضلال مبين﴾ أي: إني إذا اتخذت من دونه آلهة لفي ضلال مبين واضح، وهذا تعريض بهم كما سبق، والضلال الخسران، ثم صرح بإيمانه تصريحاً لا يبقى بعده شك، فقال: ﴿إني آمنت بربكم فاسمعون﴾ خاطب بهذا الكلام المرسلين. قال المفسرون: أرادوا القوم قتله، فاقبل هو على المرسلين، فقال: إني آمنت بربكم أيها الرسل، فاسمعون: أي: اسمعوا إيماني، وأشهدوا لي به. وقيل: إنه خاطب بهذا الكلام قومه لما أرادوا قتله تصلياً في الدين، وتشدداً في الحق، فلما قال هذا القول، وصرح بالإيمان، وثبوا عليه، فقتلوه، وقيل:

هذا مؤكداً لسبق التكذيب للأنثين، والتكذيب لهما تكذيب للثالث، لأنهم أرسلوا جميعاً بشيء واحد، وهو: الدعاء إلى الله عز وجل، وهذه الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر: كأنه قيل: ما قال هؤلاء الرسل بعد التعزيز لهم بثالث؟ وكذلك جملة ﴿قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا﴾ فإنها مستأنفة جواب سؤال مقدر: كأنه قيل: فما قال لهم أهل انطاكية، فقيل: قالوا: ما أنتم إلا بشر مثلنا: أي: مشاركون لنا في البشرية، فليس لكم مزية علينا تختصون بها. ثم صرحوا بجحود إنزال الكتب السماوية، فقالوا: ﴿وما أنزل الرحمن من شيء﴾ مما تدعونه أنتم، ويدعيه غيركم ممن قبلكم من الرسل، وأتباعهم ﴿إن أنتم إلا تكذبون﴾ أي: ما أنتم إلا تكذبون في دعوى ما تدعون من ذلك، فأجابوهم بإثبات رسالتهم بكلام مؤكد تأكيداً بليغاً لتكرار الإنكار من أهل انطاكية، وهو قولهم: ﴿ربنا يعلم إننا إليكم لمرسلون﴾، فأكفوا الجواب بالقسم الذي يفهم من قولهم: ربنا يعلم، ويؤمن، وبالإلام ﴿وما علينا إلا قبلاغ المبين﴾ أي: ما يجب علينا من جهة ربنا إلا تبليغ رسالته على وجه الظهور، والوضوح، وليس علينا غير ذلك، وهذه الجملة مستأنفة كالتي قبلها، وكذلك جملة ﴿قالوا إننا تطيرنا بكم﴾، فإنها مستأنفة جواباً عن سؤال مقدر: أي: إننا تشاءمنا بكم، لم تجدوا جواباً تجيبون به على الرسل إلا هذا الجواب المبني على الجهل المنبئ عن الغباوة العظيمة، وعدم وجود حجة تدفعون الرسل بها. قال مقاتل: حبس عنهم المطر ثلاث سنين. قيل: إنهم أقاموا ينزرونهم عشر سنين، ثم رجعوا إلى التجبر، والتكبر لما ضاقت صدورهم، واعتبهم العلل، فقالوا: ﴿لئن لم تنتهوا لنرجمنكم﴾ أي: لئن لم تتركوا هذه الدعوى، وتعرضوا عن هذه المقالة: لنرجمنكم بالحجارة ﴿وليمسكنكم منا عذاب اليم﴾ أي: شديد قطيع. قال الفراء: عامة ما في القرآن من الرجم المراد به القتل. وقال قتادة: هو على بابه من الرجم بالحجارة. قيل: ومعنى العذاب الاليم: القتل، وقيل: الشتم، وقيل: هو التعذيب المؤلم من غير تعذيب بنوع خاص، وهذا هو الظاهر. ثم أجاب عليهم الرسل نفياً لما زعموه من التطير بهم فـ ﴿قالوا طائركم معكم﴾ أي: شؤمكم معكم من جهة أنفسكم، لازم في أعناقكم، وليس هو من شؤمنا. قال الفراء: طائركم معكم: أي: رزقكم وعملكم، وبه قال قتادة. قرأ الجمهور (طائركم) اسم فاعل: أي: ما طار لكم من الخير، والشر، وقرا الحسن (اطيركم) أي: تطيركم ﴿لئن نكرتم﴾ قرأ الجمهور من السبعة، وغيرهم بهمة استفهام بعدها إن الشرطية على الخلاف بينهم في التسهيل، والتحقيق، وإبخال ألف بين الهمزتين، وعدمه. وقرا أبو جعفر، وزد بن حبش، وابن السميغ، وطلحة بهمزتين مفتوحتين. وقرا الأعمش، وعيسى بن عمر، والحسن «أين» بفتح الهمزة، وسكون الياء على صيغة الظرف.

واختلف سيبويه، ويونس إذا اجتمع استفهام وشرط أيهما يجب؟ فذهب سيبويه إلى أنه يجب الاستفهام، وذهب

﴿وَمَا أَرْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَرٍّ مِنْ جَنْدٍ مِنْ أَنْتُمْ وَمَا كُنَّا مُزِيلِينَ﴾^(١) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خِلِيدُونَ ﴿٢﴾ يَحْشَرُهُ عَلَى الْيَمِينِ وَمَا يُنْصَرِفُونَ إِلَّا كَأَنَّهُمْ جِبِلَاتٌ مُدْخِلَةٌ لِيَمِينَ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتُ أَنْتُمْ لَا يَتَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدُنَا مُحْضَرُونَ ﴿٤﴾ وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الَّتِي تَحْتَهُ أَكْبَحَتْ مِنَ الْإِنْسَانِ وَأَكْبَرُ مِنْهَا جِبَاً فَيَنْهَى يَافِكُونَ ﴿٥﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَبَ فِيهَا مَصَوِّبَةً وَمِنْهَا جِبَاً فَيَنْهَى يَافِكُونَ ﴿٦﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧﴾ سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَفْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُخَلِّقُ الْأَرْضُ وَمِمَّا أَنْفُسُهُمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَآيَةٌ لَهُمُ الْبَلَدُ الَّذِي كُنَّا لَهُمْ مَدِينَةً وَجَعَلْنَا فِيهَا مَدِينَةً لِيُتَبَذَّرَ بِالَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهَا لِيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلِيُذَكِّرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ إِلَهُهُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ ﴿٩﴾ لِيُذَكِّرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ إِلَهُهُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ ﴿١٠﴾

لما وقع ما وقع منهم مع حبيب النجار غضب الله له، وعجل لهم النعمة، وأهلكهم بالصيحة، ومعنى ﴿وَمَا أَرْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَرٍّ مِنْ جَنْدٍ مِنْ أَنْتُمْ﴾ أي: على قوم حبيب النجار من بعد قتلهم له، أو من بعد رفع الله له إلى السموات على الاختلاف السابق ﴿مِنْ جَنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ لإهلاكهم، وللانتقام منهم: أي: لم تحتج إرسال جنود من السماء لإهلاكهم كما وقع ذلك للنبي ﷺ يوم بدر من إرسال الملائكة لنصرته، وحرب أعدائه ﴿وَمَا كُنَّا مُزِيلِينَ﴾ أي: وما صح في قضائنا، وحكمتنا أن ننزل لإهلاكهم جنداً لسبق قضائنا، وقد رنا بأن إهلاكهم بالصيحة لا بإلزال الجند. وقال قتادة، ومجاهد، والحسن: أي: ما أنزلنا عليهم من رسالة من السماء، ولا نبي بعد قتله. وروي عن الحسن أنه قال: هم الملائكة النازلون بالوحي على الأنبياء، والظاهر أن معنى النظم القرآني تحقير شأنهم، وتصغير أمرهم: أي: ليسوا بأحقاء بأن ننزل لإهلاكهم جنداً من السماء، بل أهلكناهم بصيحة واحدة كما يفيد قوله: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ أي: إن كانت العقوبة، أو النعمة، أو الإخذة إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً صاح بها جبريل، فأهلكهم. قال المفسرون: أخذ جبريل بعضاتي باب المدينة، ثم صاح بهم صيحة، فإذا هم ميتون لا يسمع لهم حساً كالنار إذا طفتت، وهو معنى قوله: ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ أي: قوم خامدون ميتون، شبههم بالنار إذا طفتت، لأن الحياة كالنار الساطعة، والموت كخمودها. قرأ الجمهور (صيحة) بالنصب على أن كان ناقصة، واسمها ضمير يعود إلى ما يفهم من السياق كما قمنا. وقرأ أبو جعفر، وشيبة، والأعرج، ومعاذ القاري برفعها على أن كان تامة: أي: وقع، وحدث، وأنكر هذه القراءة أبو حاتم، وكثير من النحويين بسبب التناهي في قوله: ﴿إِنْ كَانَتْ﴾ قال أبو حاتم: فلو كان كما قرأ أبو جعفر لقال: (إن كان إِلَّا صيحة)، وقدر الزجاج هذه القراءة بقوله: إن كانت عليهم صيحة إِلَّا صيحة واحدة، وقد رنا غيره: ما وقعت عليهم إِلَّا صيحة واحدة. وقرأ عبد الله بن مسعود ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا رُزْقَةً وَاحِدَةً﴾، والزقية

وطئوه بأرجلهم، وقيل: حرقوه، وقيل: حفرها له حفيرة، والقوة فيها، وقيل: إنهم لم يقتلوه بل رفعه الله إلى السماء، فهو في الجنة، وبه قال الحسن، وقيل: نشره بالمنشار ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ أي: قيل له ذلك تكريماً له بدخلها بعد قتله كما هي سنة الله في شهداء عبادته. وعلى قول من قال: إنه رفع إلى السماء، ولم يقتل يكون المعنى: إنهم لما أرادوا قتله نجاه الله من القتل، وقيل: له ادخل الجنة، فلما دخلها، وشاهدها ﴿قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين ﴿وَالْجَمَلَةُ مُسْتَأْنَفَةٌ جَوَابُ سَوَالٍ مُقَدَّرٍ: أَي: فَمَاذَا قَالَ بَعْدَ أَنْ قِيلَ لَهُ: ادْخُلِ الْجَنَّةَ، فدخلها. فقيل: قَالَ: يَا لَيْتَ قَوْمِي الْخ، وما في ﴿بِمَا غَفَر لِي﴾ هي: المصدرة: أي بغفران ربي، وقيل: هي الموصولة: أي: بالذي غفر لي ربي، والعائد محذوف: أي: غفره لي ربي، واستضعف هذا؛ لأنه لا معنى لتعني أن يعلم قومه بذنوبه المغفورة، وليس المراد إِلَّا التمني منه بأن يعلم قومه بغفران ربه له. وقال الفراء: إنها استفهامية بمعنى: التعجب، كأنه قال: بأي شيء غفر لي ربي. قال الكسائي: لو صح هذا لقال بم من غير ألف. ويجاب عنه بأنه قد ورد في لغة العرب إثباتها، وإن كان مكسوراً بالنسبة إلى حذفها، ومنه قول الشاعر:

على ما قام يشتمني لثيم كخنزير تمرغ في بمان
وفي معنى تمنيه قولان: أحدهما: أنه تمنى أن يعلموا بحاله؛ ليعلموا حسن ماله، وحيد عاقبته إرغاماً لهم. وقيل: إنه تمنى أن يعلموا بذلك؛ ليؤمنوا مثل إيمانه، فيصيروا إلى مثل حاله.

وقد أخرج الفريابي عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأُضْرِبَ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ قال: هي: أنطاكية. وأخرج ابن أبي حاتم عن بريدة مثله. وأخرج ابن سعد، وابن عساکر من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: كان بين موسى بن عمران، وبين عيسى ابن مريم ألف سنة وتسعمائة سنة، ولم يكن بينهما فترة، وأنه أرسل بينهما ألف نبي من بني إسرائيل سوى من أرسل من غيرهم، وكان بين ميلاد عيسى، والنبي ﷺ خمسمائة سنة وتسع وستون سنة، بعث في أولها ثلاثة أنبياء، وهو قوله: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾، والذي عزز به شمعون، وكان من الحواريين، وكانت الفترة التي لم يبعث الله فيها رسلاً أربعمائة سنة وأربع وثلاثون سنة. وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً في قوله: ﴿طَارِكُمْ مَعَكُمْ﴾ قال: شؤمكم معكم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ﴾ قال: هو: حبيب النجار. وأخرج ابن أبي حاتم عنه من وجه آخر، قال: اسم صاحب يس: حبيب، وكان الجذام قد أسرع فيه. وأخرج الحاكم عن ابن مسعود قال: لما قال صاحب يس ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ خنقوه؛ ليموت، فالتفت إلى الأنبياء، فقال: ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ﴾ أي: فاشهدوا لي.

الصيحة قال النحاس: وهذا مخالف للمصحف، وإيضاً. فإن اللغة المعروفة زقا يزقو إذا صاح، ومنه المثل «أثقل من الزواقي»، فكان يجب على هذا أن تكون زقوة، ويجب عنه بما نكره الجوهرى قال: الزقو والزقي مصدر، وقد زقا الصدا يزقو. زقا: أي صاح: وكل صائح زاق، والزقية الصيحة (يا حسرة على العباد) قرأ الجمهور بنصب حسرة، على أنها منادى منكر كأنه نادى الحسرة، وقال لها: هذا أو أنك فاحضري. وقيل: إنها منصوبة على المصدرية، والمنادى محذوف، والتقدير: يا هؤلاء تحسروا حسرة. وقرأ قتادة، وأبي في رواية عنه بضم حسرة على النداء. قال الفراء: في توجيه هذه القراءة: إن الاختيار النصب، وإنها لو رفعت النكرة لكان صواباً، واستشهد بأشياء نقلها عن العرب منها أنه سمع من العرب: يا مهتم بأمرك لا تهتم، وأنشد:

يا دار غيرها البلى تغييرا

قال النحاس: وفي هذا إبطال باب النداء، أو أكثره. قال: وتقدير ما نكره: يا أيها المهتم لا تهتم بأمرك، وتقدير البيت: يا أيها الدار. وحقيقة الحسرة أن يلحق الإنسان من الندم ما يصير به حسيراً. قال ابن جرير: المعنى: يا حسرة من العباد على أنفسهم، وتندما وتلهفا في استهزائهم برسول الله، ويؤيد هذا قراءة ابن عباس، وعلي بن الحسين (يا حسرة العباد) على الإضافة، ورويت هذه القراءة عن أبي. وقال الضحك: إنها حسرة الملائكة على الكفار حين كذبوا الرسل. وقيل: هي من قول الرجل الذي جاء من أقصى المدينة. وقيل: إن القائل: يا حسرة على العباد هم: الكفار المكذبون، والعباد الرسل، وذلك أنهم لما رأوا العذاب تحسروا على قتلهم، وتمنوا الإيمان قاله أبو العالية، ومجاهد، وقيل: إن التحسر عليهم هو من الله عز وجل بطريق الاستعارة لتعظيم ما جنوه. وقرأ ابن هرمز، ومسلم بن جنب، وعكرمة، وأبو الزناد (يا حسرة) بسكون الهاء إجراء للوصول مجرى الوقف. وقرئ (يا حسرتا) كما قرئ بذلك في سورة الزمر، وجملة **﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾** مستأنفة مسوقة لبيان ما كانوا عليه من تكذيب الرسل، والاستهزاء بهم، وأن ذلك هو سبب التحسر عليهم. ثم عجب سبحانه من حالهم حيث لم يعتبروا بأمثالهم من الأمم الخالية، فقال: **﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾** أي: ألم يعلموا كثرة من أهلكنا قبلهم من القرون التي أهلكناها من الأمم الخالية، وجملة **﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾** بدل من كم أهلكنا على المعنى. قال سيبويه: أن بدل من كم، وهي: الخبرية، فلذلك جاز أن يبدل منها ما ليس باستفهام، والمعنى: ألم يروا أن القرون الذين أهلكناهم أنهم إليهم لا يرجعون. وقال الفراء: كم في موضع نصب من وجهين: أحدهما: بيروا، واستشهد على هذا بأنه في قراءة ابن مسعود (ألم يروا من أهلكنا)، والوجه الآخر أن تكون كم في موضع نصب بأهلكنا. قال النحاس: القول الأول محال، لأن كم لا يعمل فيها ما قبلها؛ لأنها استفهام، ومحال أن يدخل

الاستفهام في حيز ما قبله، وكذا حكمها إذا كانت خبراً، وإن كان سيبويه قد أوماً إلى بعض هذا، فجعل أنهم بدلاً من كم، وقد رد ذلك المبرد أشد رد **﴿وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾** أي: محضرون لدينا يوم القيامة للجزاء. قرأ ابن عامر، وعاصم، وحزمة لما بتشديدها، وقرأ الباقر بتخفيفها. قال الفراء: من شدد جعل لما بمعنى: إلا، وإن بمعنى: ما: أي: ما كل إلا جميع لدينا محضرون، ومعنى جميع مجموعون، فهو فعيل بمعنى: مفعول، ولدينا ظرف له، وأما على قراءة التخفيف، فإن هي المخففة من الثنية، وما بعدها مرفوع بالابتداء، وتثوين **﴿كُلٌّ﴾** عوض عن المضاف إليه، وما بعده الخبر، واللام هي: الفارقة بين المخففة والثانية. قال أبو عبيدة: وما على هذه القراءة زائدة، والتقدير عنده: وإن كل لجميع. وقيل: معنى محضرون: معذبون، والأولى أنه على معناه الحقيقي من الإحضار للحساب. ثم نكر سبحانه البرهان على التوحيد، والحشر مع تعداد النعم، وتنكيرها، فقال: **﴿وَأَيُّ لَهِمُ الْأَرْضِ الْمِيْتَةِ﴾**، فأية خبر مقدم، وتنكيرها للتفخيم، ولهم صفتها، أو متعلقة بآية؛ لأنها بمعنى: علامة، والارض مبتدأ، ويجوز: أن تكون آية مبتدأ لكونها قد تخصصت بالصفة، وما بعدها الخبر. قرأ أهل المدينة «الميتة» بالتشديد، وخففها الباقر، وجملة **﴿أَحْيَيْنَاهَا﴾** مستأنفة مبينة لكيفية كونها آية، وقيل: هي صفة للأرض، فنبههم الله بهذا على إحياء الموتى، ونكرهم نعمة، وكمال قدرته، فإنه سبحانه أحيا الأرض بالنبات: وأخرج منها الحبوب التي ياكلونها، ويتقنون بها، وهو معنى قوله: **﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾**، وهو ما يقتاتونه من الحبوب، وتقديم منه للدلالة على أن الحب معظم ما يؤكل، وأكثر ما يقوم به المعاش **﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾** أي: جعلنا في الأرض جناناً من أنواع النخل، والعنب، وخصصهما بالذكر؛ لأنهما أعلى الثمار، وأنفعها للعباد **﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعَيْنِ﴾** أي: فجرنا في الأرض بعضاً من العين، فحذف الموصوف، وأقيمت الصفة مقامه، أو المفعول العين، ومن مزيدة على رأي من جوز زياتتها في الإثبات، وهو الأخفش، ومن وافقه، والمراد بالعين عيون الماء. قرأ الجمهور (فجرنا) بالتشديد، وقرأ جناح بن حبيش بالتخفيف، والفجر والتفجير كالفتح والتفتيح لفظاً ومعنى، واللام في **﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾** متعلق بجعلنا، والضمير في **﴿مِنْ ثَمَرِهِ﴾** يعود إلى المنكور من الجنات، والنخيل، وقيل: هو راجع إلى ماء العين؛ لأن الثمر منه، قاله الجرجاني. قرأ الجمهور (ثمره) بفتح الثاء، والميم، وقرأ حمزة، والكسائي بضمهما، وقرأ الأعمش بضم الثاء، وإسكان الميم، وقد تقدم الكلام في هذا في الأنعام، وقوله: **﴿وَمَا عَمَلُهُ لِيُذِيقَهُمْ﴾** معطوف على ثمره: أي: ليأكلوا من ثمره، ويأكلوا مما عملته أيديهم كالعصير، واللبس، ونحوهما، وكذلك ما غرسوه وحفروه على أن ما موصولة، وقيل: هي نافية؛ والمعنى: لم يعملوه، بل العامل له

هو الله: أي: وجدها معمولة، ولا صنع لهم فيها، وهو قول الضحاك، ومقاتل. قرأ الجمهور (عملته) وقرأ الكوفيون «عملت» بحذف الضمير، والاستفهام في قوله: **﴿فلا يشكرون﴾** للتقريع، والتوبيخ لهم لعدم شكرهم للنعم، وجملة **﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها﴾** مستأنفة مسوقة لتزويده سبحانه عما وقع منهم من ترك الشكر لنعمه المذكورة، والتعجب من إخلالهم بذلك. وقد تقدّم الكلام مستوفى في معنى: سبحان، وهو في تقدير الأمر للعباد بأن ينزهوه عما لا يليق به، والأزواج: الأنواع، والأصناف، لأن كل صنف مختلف الألوان، والطعوم، والأشكال، و**﴿مما تنبت الأرض﴾** بيان للأزواج، والمراد كل ما ينبت فيها من الأشياء المذكورة، وغيرها **﴿ومن أنفسهم﴾** أي: خلق الأزواج من أنفسهم، وهم: الذكور، والإناث **﴿ومما لا يعلمون﴾** من أصناف خلقه في البر، والبحر، والسماء، والأرض **﴿وآية لهم لليل نسلخ منه النهار﴾** الكلام في هذا كما قدمنا في قوله: **﴿وآية لهم الأرض الميمنة لحبيباتها﴾**، والمعنى: أن تلك علامة دالة على توحيد الله، وقدرته، ووجوب إلهيته، والنسلخ: الكشط، والنزع، يقال: سلخه الله من بدنه، ثم يستعمل بمعنى: الإخراج، فجعل سبحانه ذهاب الضوء ومجيء الظلمة كالنسلخ من الشيء، وهو استعارة بليغة **﴿فإذا هم مظلمون﴾** أي: داخلون في الظلام مفاجأة وبغتة، يقال: اظلمنا: أي: دخلنا في ظلام الليل، وأظهرنا دخلنا في وقت الظهر، وكذلك أصبحنا، وأمسينا، وقيل: **﴿منه﴾** بمعنى: عنه، والمعنى: نسلخ عنه ضياء النهار. قال الفراء: يرمى بالنهار على الليل، فيأتي بالظلمة، وذلك أن الأصل هي: الظلمة، والنار داخل عليه، فإذا غربت الشمس سلخ النهار من الليل: أي: كشط، وأزيل، فتظهر الظلمة **﴿والشمس تجري لمستقر لها﴾** يحتمل: أن تكون الواو للعطف على الليل، والتقدير: وآية لهم الشمس، ويجوز: أن تكون الواو ابتدائية، والشمس مبتدأ، وما بعدها الخبر، ويكون الكلام مستأنفاً مشتقاً على ذكر آية مستقلة. قيل: وفي الكلام حذف، والتقدير: تجري لمجرى مستقر لها، فتكون اللام للعلّة: أي: لأجل مستقر لها، وقيل: اللام بمعنى: إلى وقد قرئ بذلك. قيل: والمراد بالمستقر: يوم القيامة، فعنده تستقر، ولا يبقى لها حركة، وقيل: مستقرها هو أبعد ما تنتهي إليه، ولا تجاوزه، وقيل: نهاية ارتفاعها في الصيف، ونهاية هبوطها في الشتاء، وقيل: مستقرها تحت العرش، لأنها تذهب إلى هناك، فتسجد، فتستأنن في الرجوع، فيؤذن لها، وهذا هو الأرجح. وقال الحسن: إن للشمس في السنة ثلثمائة وستين مطلعاً تنزل في كل يوم مطلعاً، ثم لا تنزل إلى الحول، فهي تجري في تلك المنازل، وهو: مستقرها، وقيل: غير ذلك. وقرأ ابن مسعود، وابن عباس، وعكرمة، وزين العابدين، وابنه الباقو، والصانق بن الباقو (لا مستقر لها) بلا التي لنفي الجنس، وبناء مستقر على الفتح. وقرأ ابن أبي عبلة: (لا مستقر) بلا التي بمعنى: ليس، ومستقر

اسمها، ولها خبرها، والإشارة بقوله: **﴿ذلك﴾** إلى جري الشمس: أي: ذلك الجري **﴿تقدير العزيز﴾** أي: الغالب القاهر **﴿العليم﴾**: أي: المحيط علمه بكل شيء، ويحتمل: أن تكون الإشارة راجعة إلى المستقر: أي: ذلك المستقر: تقدير الله **﴿والقمر قدرناه منازل﴾**. قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو برفع القمر على الابتداء. وقرأ الباقون بالنصب على الاشتغال، وانتصاب منازل على أنه مفعول ثانٍ، لأن قدرنا بمعنى صيرنا، ويجوز: أن يكون منتصباً على الحال: أي: قدرنا سيره حال كونه ذا منازل، ويجوز: أن يكون منتصباً على الظرفية: أي: في منازل. واختار أبو عبيد النصب في القمر، قال: لأن قبله فعلاً، وهو نسلخ، وبعده فعلاً، وهو قدرنا. قال النحاس: أهل العربية جميعاً فيما علمت على خلاف ما قال. منهم الفراء قال: الرفع أعجب إليّ، قال: وإنما كان الرفع عندهم أولى: لأنه معطوف على ما قبله، ومعناه: وآية لهم القمر. قال أبو حاتم: الرفع أولى، لأنك شغلت الفعل عنه بالضمير، فرفعته بالابتداء، والمنازل: هي: الثمانية والعشرون التي ينزل القمر في كل ليلة في واحد منها، وهي معروفة، وسيأتي ذكرها، فإذا صار القمر في آخرها عاد إلى أولها، فيقطع الفلك في ثمان وعشرين ليلة، ثم يستتر ليلتين، ثم يطلع هلالاً، فيعود في قطع تلك المنازل من الفلك **﴿حتى عاد كالعرجون القديم﴾** قال الزجاج: العرجون هو عود العنق الذي فيه الشماريخ، وهو فعلون من الانعراج، وهو الانعطاف: أي: سار في منزله، فإذا كان في آخرها نَقَّ، واستقوس، وصغر حتى صار كالعرجون القديم، وعلى هذا فالنون زائدة. قال قتادة: وهو: العنق اليابس المنحني من النخلة. قال ثعلب: العرجون الذي يبقى في النخلة إذا قطعت، والقديم: البالي. وقال الخليل: العرجون أصل العنق، وهو أصفر عريض، يشبه به الهلال إذا انحني، وكذا قال الجوهري: إنه أصل العنق الذي يعوج، ويقطع منه الشماريخ، فيبقى على النخل يابساً، وعرجته: ضربه بالعرجون، وعلى هذا فالنون أصلية. قرأ الجمهور (العرجون) بضم العين، والجيم: وقرأ سليمان التيمي بكسر العين، وفتح الجيم، وهما لغتان، والقديم: العتيق **﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر﴾** الشمس مرفوعة بالابتداء، لأنه لا يجوز أن تعمل لا في المعرفة: أي: لا يصح، ولا يمكن للشمس أن تدرك القمر في سرعة السير، وتنزل في المنزل الذي فيه القمر، لأن لكل واحد منهما سلطاناً على انفراد، فلا يتمكن أحدهما من الدخول على الآخر، فيذهب سلطانه إلى أن يأن الله بالقيامة، فتطلع الشمس من مغربها. وقال الضحاك: معناه: إذا طلعت الشمس لم يكن للقمر ضوء، وإذا طلع القمر لم يكن للشمس ضوء. وقال مجاهد: أي: لا يشبه ضوء أحدهما ضوء الآخر. وقال الحسن: إنهما لا يجتمعان في السماء ليلة الهلال خاصة، وكذا قال يحيى بن سلام. وقيل: معناه: إذا اجتمعا في السماء كان أحدهما بين يدي الآخر في منزل لا يشتركان فيه. وقيل: القمر في سماء الدنيا، والشمس في

وأربعة عشر منها يمانية، أولها الشرطين، والبطين، والثريا، والدبران، والبقعة، والهنعة، والذراع، والنثرة، والطرف، والجبهة، والذبرة، والصفرة، والعواء، والسماك، وهو آخر الشامية، والغفر، والزبانة، والإكليل، والقلب، والشولة، والنعائم، والبلدة، وسعد الذابح، وسعد بلع، وسعد السعد، وسعد الأخبية، ومقدم البلو، ومؤخر البلو، والحوث، وهو آخر اليمانية، فإذا سار هذه الثمانية وعشرين منزلاً «**عاد كالعرجون القديم**» كما كان في أول الشهر. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: «**كالعرجون القديم**»: يعني: أصل العنق العتيق.

وَأَيَّةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْهُورِ ﴿١٠﴾ وَخَلَقْنَاهُمْ مِنْ نَفْثِهِمْ ۖ مَا يَرْجَبُونَ ﴿١١﴾ وَإِنْ نَشَأْ نُفْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُقَدَّرُونَ ﴿١٢﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٣﴾ وَلَئِنْ قِيلَ لَهُمْ أَنْتُمْ مَاءٌ بَينَ يَدَيْكُمْ وَمَا خَلَقَكُمْ لِمَلَكُوتٍ ثُمَّ يُرْمَوْنَ ﴿١٤﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿١٥﴾ وَلَئِنْ قِيلَ لَهُمْ أَنْتُمْ نَارُ الْفِئَةِ قَالُوا أَأَلْهَيْنَا اللَّهَ الْفِئَةَ كَذَّبُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ عَنْ آيَاتِهِمْ مِنَ النَّارِ يُوقِنُونَ ﴿١٦﴾ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَمْ يَلْعَنَهُمْ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي سَعْدٍ مُبِينٍ ﴿١٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨﴾ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿١٩﴾ فَلَا يَسْتَظِلُّونَ قَرْنَةً وَلَا إِلَىٰ آلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٠﴾ وَيُفْعَلُ فِي الصُّورِ ﴿٢١﴾ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَلُوكَ ﴿٢٢﴾ قَالُوا يَا بُولُوكَ مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنْ كُنْتُمْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً إِذَا هُمْ يَجِيعُونَ ﴿٢٤﴾ لَدَيْتُمْ مُعَذَّرُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا لَا تَطْلُمَ نَفْسٌ فَنِيكَا وَلَا تَجْرُوكَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَمْلِكُونَ ﴿٢٦﴾

ثم ذكر سبحانه وتعالى نوعاً آخر مما امتن به على عباده من النعم، فقال: «وَأَيَّةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْهُورِ» أي دلالة وعلامة، وقيل: معنى «آية» هنا: العبرة، وقيل: النعمة، وقيل: النذارة.

وقد اختلف في معنى «**أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ**» وإلى من يرجع الضمير، لأن الضمير الأول، وهو قوله: «وَأَيَّةٌ لَهُمْ» لأهل مكة، أو لكفار العرب، أو للكفار على الإطلاق الكائنين في عصر محمد ﷺ، فقيل: الضمير يرجع إلى القرون الماضية، والمعنى: أن الله حمل ذرية القرون الماضية في الفلك المشحون، فالضميران مختلفان. وهذا حكاية النحاس عن علي بن سليمان الأخفش. وقيل: الضميران لكفار مكة، ونحوهم. والمعنى: أن الله حمل ذرياتهم من أولادهم، وضعفائهم على الفلك، فامتد الله عليهم بذلك: أي إنهم يحملونهم معهم في السفن إذا سافروا، أو يبعثون أولادهم للتجارة لهم فيها. وقيل: الذرية الآباء، والأجداد، والفلك هو: سفينة نوح: أي إن الله حمل آباء هؤلاء، وأجدادهم في سفينة نوح. قال الواحدي: والذرية تقع على الآباء كما تقع على الأولاد. قال أبو عثمان: وسمي الآباء ذرية، لأن منهم ذرة الأبناء، وقيل: الذرية النطف الكائنة في بطون النساء، وشبه البطون بالفلك المشحون، والراجع القول الثاني، ثم

السماء الرابعة. ذكره النحاس، والمهدي. قال النحاس: وأحسن ما قيل في معناه، وأبينه: أن سير القمر سير سريع، والشمس لا تدركه في السير. وأما قوله: «**يرجع الشمس والقمر**» [القيامة: 9]، فلذلك حين حبس الشمس عن الطلوع على ما تقدم بيانه في الأنعام، ويأتي في سورة القيامة أيضاً، وجمعهما علامة لانقضاء الدنيا، وقيام الساعة «**ولا لليل سابق للنهار**» أي: لا يسبقه، فيفوته، ولكن يعاقبه، ويجيء كل واحد منهما في وقته، ولا يسبق صاحبه، وقيل: المراد من الليل، والنهار أيتاهما، وهما الشمس، والقمر، فيكون عكس قوله: «**ولا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر**» أي: ولا القمر سابق الشمس، وإيراد السبق مكان الإدراك لسرعة سير القمر «**وكل في فلك يسبحون**» التنوين في كل عوض عن المضاف إليه: أي: وكل واحد منهما، والفلك: هو الجسم المستدير، أو السطح المستدير، أو الدائرة، والخلاف في كون السماء مبسطة، أو مستديرة معروف، والسيح: السير بانسباط، وسهولة، والجمع في قوله «**يسبحون**» باعتبار اختلاف مطالعتهما، فكانهما متعبدان بتعندها، أو المراد: الشمس، والقمر، والكواكب.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود في قوله: «**وما أنزلنا على قومهم من بعده**» الآية يقول: ما كابدها بالجموع: أي، الأمر أيسر علينا من ذلك. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: «**يا حسرة على العباد**» يقول: يا ويلاً للعباد. وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله: «**يا حسرة على العباد**» قال: الندامة على العباد الذين «**ما ياتينهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون**» يقول: الندامة عليهم يوم القيامة. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: «**وما عملته أيديهم**» قال: وجوده معمولاً لم تعمله أيديهم: يعني: الفرات، ونبجلة، ونهر بلخ، وأشباهاها «**أفلا يشكرون**» لهذا. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أبي نر قال: سألت رسول الله ﷺ عن قوله: «**والشمس تجري لمستقر لها**» قال: مستقرها تحت العرش، وفي لفظ للبخاري، وغيره من حديثه قال: «كنت مع النبي ﷺ في المسجد عند غروب الشمس، فقال: يا أبا نر أتدري أين تغرب الشمس؟ قلت: الله، ورسوله أعلم، قال: إنها تذهب حتى تسجد تحت العرش، فلذلك قوله: «**والشمس تجري لمستقر لها**»». وفي لفظ من حديثه أيضاً عند أحمد، والترمذي، والنسائي، وغيرهم قال: يا أبا نر أتدري أين تذهب هذه؟ قلت: الله، ورسوله أعلم، قال: فإنها تذهب حتى تسجد بين يدي ربها، فستأذن في الرجوع، فيأذن لها، ولكنها قد قيل لها: اطلعي من حيث جئت، فطلع من مغربها. ثم قرأ (تلك مستقر لها) وذلك قراءة عبد الله. وأخرج الترمذي، والنسائي، وغيرهما من قول ابن عمر نحوه. وأخرج الخطيب في كتاب النجوم عن ابن عباس في قوله: «**والقمر قدرناه منازل**» الآية قال: هي: ثمانية وعشرون منزلاً ينزلها القمر في كل شهر: أربعة عشر منها شامية،

الأول، ثم الثالث، وأما الرابع ففي غاية البعد، والنعارة، وقد تقدّم الكلام في النرية، واشتقاقها في سورة البقرة مستوفي، والمشحون المملوء الموقر، والفلك يطلق على الواحد والجمع كما تقدّم في يونس، وارتفاع آية على أنها خبر مقدّم، والمبتدأ **«إنا حملنا»**، أو العكس على ما قدّمنا. وقيل: إن الضمير في قوله: **«آية لهم»** يرجع إلى العباد المذكورين في قوله: **«يا حسرة على العباد»** [يس: 30]؛ لأنه قال بعد ذلك: **«آية لهم الأرض الميتة»** [يس: 33]، وقال: **«آية لهم الليل»** [يس: 37]. ثم قال: **«آية لهم أنا حملنا ذريّتهم»**، فكانه قال: وآية للعباد أنا حملنا ذريات العباد، ولا يلزم أن يكون المراد بأحد الضميرين البعض منهم، وبالضمير الآخر البعض الآخر، وهذا قول حسن **«وخلقنا لهم من مثله ما يركبون»** أي: وخلقنا لهم مما يماثل الفلك ما يركبونه على أن ما هي: الموصولة. قال مجاهد، وقتادة، وجماعة من أهل التفسير: وهي: الإبل خلقها لهم للركوب في البر مثل السفن المركوبة في البحر، والعرب تسمى الإبل سفائن البر، وقيل: المعنى: وخلقنا لهم سفناً أمثال تلك السفن يركبونها، قاله الحسن، والضحاك، وأبو مالك. قال النحاس: وهذا أصح؛ لأنه متصل الإسناد عن ابن عباس، وقيل: هي السفن المتخذة بعد سفينة نوح **«وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقنون»** هذا من تمام الآية التي امتنّ الله بها عليهم، ووجه الامتنان أنه لم يغرقهم في لجم البحار مع قدرته على ذلك، والضمير يرجع إما إلى أصحاب النرية، أو إلى النرية، أو إلى الجميع على اختلاف الأقوال، والصريخ بمعنى: المصرخ، والمصرخ هو: المغيث: أي: فلا مغيث لهم يغيثهم إن شئنا إغراقهم، وقيل: هو المنعة. ومعنى ينقنون: يخلصون، يقال: أنقذه، واستنقذه، إذا خلصه من مكروه **«إلا رحمة منا»** استثناء مفرّغ من أعمّ العلل: أي: لا صريخ لهم، ولا ينقنون لشيء من الأشياء إلا لرحمة منا، كذا قال الكسائي، والزجاج، وغيرهما، وقيل: هو استثناء منقطع: أي: لكن لرحمة منا. وقيل هو منصوب على المصدرية بفعل مقدر **«و»** انتصاب **«متاعاً»** على العطف على رحمة: أي: نمتعهم بالحياة الدنيا **«إلى حين»** وهو: الموت، قاله قتادة. وقال يحيى بن سلام: إلى القيامة **«وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم»** أي: ما بين أيديكم من الآفات، والنوازل، فإنها محيطة بكم، وما خلفكم منها. قال قتادة: معنى **«اتقوا ما بين أيديكم»** أي: من الوقائع فيمن كان قبلكم من الأمم **«وما خلفكم»** في الآخرة. وقال سعيد بن جبير، ومجاهد: **«ما بين أيديكم»** ما مضى من الذنوب **«وما خلفكم»** ما بقي منها. وقيل: **«ما بين أيديكم»** الدنيا **«وما خلفكم»** الآخرة، قاله سفيان. وحكى عكس هذا القول الثعلبي عن ابن عباس. وقيل: **«ما بين أيديكم»** ما ظهر لكم **«وما خلفكم»** ما خفي عنكم، وجواب إذا محذوف، والتقدير: إذا قيل لهم ذلك أعرضوا كما يدلّ عليه **«إلا كانوا عنها معرضين»**

«لعلكم ترحمون» أي: رجاء أن ترحموا، أو كي ترحموا، أو راجين أن ترحموا **«وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين»** ما: هي النافية، وصيغة المضارع للدلالة على التجدد، ومن الأولى مزيدة للتوكيد، والثانية للتبعية: والمعنى: ما تأتيهم من آية دالة على نبوة محمد ﷺ، وعلى صحة ما دعا إليه من التوحيد في حال من الأحوال إلا كانوا عنها معرضين. وظاهره يشمل الآيات التنزيلية، والآيات التكوينية، وجملة **«إلا كانوا عنها معرضين»** في محلّ نصب على الحال كما مرّ تقريره في غير موضع. والمراد بالإعراض عدم الالتفات إليها، وترك النظر الصحيح فيها، وهذه الآية متعلقة بقوله: **«يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون»** [يس: 30] أي: إذا جاءتهم الرسل كذبوا. وإذا أتوا بالآيات أعرضوا عنها **«وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله»** أي: تصنّفوا على الفقراء مما أعطاكم الله، وأنعم به عليكم من الأموال، قال الحسن: يعني: اليهود أمروا بإطعام الفقراء. وقال مقاتل: إن المؤمنين قالوا لكفار قريش: أنفقوا على المساكين مما زعمتم أنه الله من أموالكم من الحرث والأنعام كما في قوله سبحانه: **«وجعلوا الله ممّا نرا من الحرث والأنعام نصيباً»** [الأنعام: 136]، فكان جوابهم ما حكاه الله عنهم بقوله: **«قال الذين كفروا للذين آمنوا»** استهزاء بهم، وتهكماً بقولهم: **«انطعم من لو يشاء الله أطعمه»** أي: من لو يشاء الله رزقه، وقد كانوا سمعوا المسلمين يقولون: إن الرزاق هو: الله، وأنه يغني من يشاء، ويفقر من يشاء، فكانهم حاولوا بهذا القول الإلزام للمسلمين، وقالوا: نحن نوافق مشيئة الله، فلا نطعم من لم يطعمه الله، وهذا غلط منهم، ومكابرة، ومجادلة بالباطل، فإن الله سبحانه أغنى بعض خلقه، وأفقر بعضاً، وأمر الغني أن يطعم الفقير، وابتلاه به فيما فرض له من ماله من الصدقة. وقولهم: **«من لو يشاء الله أطعمه»** هو وإن كان كلاماً صحيحاً في نفسه، ولكنهم لما قصدوا به الإنكار لقدرة الله، أو إنكار جواز الأمر بالانفاق مع قدرة الله كان احتجاجهم من هذه الحيثية باطلاً. وقوله: **«إن أنتم إلا في ضلال مبين»** من تمام كلام الكفار. والمعنى: أنكم أيها المسلمون في سؤال المال، وأمرنا بإطعام الفقراء لفي ضلال في غاية الوضوح والظهور. وقيل: هو من كلام الله سبحانه جواباً على هذه المقالة التي قالها الكفار. وقال القشيري، والماوردي: إن الآية نزلت في قوم من الزنادقة. وقد كان في كفار قريش وغيرهم من سائر العرب، قوم يتزندقون فلا يؤمنون بالصانع، فقالوا هذه المقالة استهزاء بالمسلمين، ومناقضة لهم. وحكى نحو هذا القرطبي عن ابن عباس **«ويقولون متى هذا الوعد»** الذي تعبدنا به من العذاب، والقيامة، والمصير إلى الجنة أو النار. **«إن كنتم صائقين»** فيما تقولون، وتعبدنا به. قالوا ذلك استهزاء منهم، وسخرية بالمؤمنين. ومقصودهم إنكار ذلك بالمرّة، ونفي تحقّقه، وجحد وقوعه، فأجاب الله سبحانه عنهم بقوله:

له احضر، فهذا اوان حضورك، وهؤلاء القائلون هم: الكفار. قال ابن الأنباري: الوقف على يا ويلنا وقف حسن. ثم يبتدئ الكلام بقوله: ﴿مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ ظنوا اختلاط عقولهم بما شاهدوا من الهول، وما داخلهم من الفزع أنهم كانوا نياماً. قرأ الجمهور (يا ويلنا)، وقرأ ابن أبي ليلى (يا ويلتنا) بزيادة التاء. وقرأ الجمهور (من بعثنا) بفتح ميم من على الاستفهام. وقرأ ابن عباس، والضحاك، وأبو نهيك بكسر الميم على أنها حرف جرّ، ورويت هذه القراءة عن علي بن أبي طالب. وعلى هذه القراءة تكون من متعلقة بالويل، وقرأ الجمهور (من بعثنا). وفي قراءة أبي (من أهبنا) من هب من نومه: إذا انتبه، وأشدّ ثعلب على هذه القراءة:

وعائلة هبت لبلي تلموني ولم يعتمدني قبل ذاك عنول
وقيل: إنهم يقولون ذلك إذا عابوا جهنم. وقال أبو صالح: إذا نفخ النفخة الأولى رفع العذاب عن أهل القبور، وهجعوا هجعة إلى النفخة الثانية، وجملة ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ جواب عليهم من جهة الملائكة، أو من جهة المؤمنين. وقيل: هو من كلام الكفرة يجيب به بعضهم على بعض. قال بالأول الفراء، وبالثاني مجاهد. وقال قتادة: هي من قول الله سبحانه، و «ما» في قوله: ﴿مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾ موصولة، وعائدها محذوف والمعنى: هذا الذي وعده الرحمن، وصدق فيه المرسلون قد حق عليكم، ونزل بكم، ومفعولاً الوعد والصدق محذوفان أي: وعذكموه الرحمن، وصدقكموه المرسلون، والأصل وعذبكم به، وصدقكم فيه، أو وعذناه الرحمن، وصدقناه المرسلون على أن هذا من قول المؤمنين، أو من قول الكفار ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ أي: ما كانت تلك النفخة المذكورة إلا صيحة واحدة صاحبها إسرافيل ينفخ في الصور ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ أي: فإذا هم مجموعون محضرون لدينا بسرعة للحساب، والعقاب ﴿فَالْيَوْمَ لَا تَظْلَمُ نَفْسٌ مِنْ النَّفُوسِ شَيْئاً﴾ مما تستحقه أي: لا ينقص من ثواب عملها شيئاً من النقص، ولا تظلم فيه بنوع من أنواع الظلم ﴿وَلَا تَجْزُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: إلا جزاء ما كنتم تعملونه في الدنيا، أو إلا بما كنتم تعملونه أي: بسببه، أو في مقابلته.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن أبي مالك في قوله: ﴿إِنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمُ﴾ الآية قال: في سفينة نوح حمل فيها من كل زوجين اثنين ﴿وَوَخَّلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ قال: السفن التي في البحر والأنهار التي يركب الناس فيها. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن أبي صالح نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَوَخَّلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ قال: هي السفن جعلت من بعد سفينة نوح. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه في الآية قال: يعني: الإبل خلقها الله كما رأيت، فهي: سفن البرّ يحملون عليها، ويركبونها. ومثله عن الحسن، وعكرمة، وعبد الله بن شدّاد، ومجاهد. وأخرج

﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ أي: ما ينتظرون إلا صيحة واحدة، وهي: نفخة إسرافيل في الصور ﴿تَأْخُذْهُمْ وَهُمْ يَخْصَمُونَ﴾ أي: يختصمون في ذات بينهم في البيع، والشراء، ونحوهما من أمور الدنيا، وهذه هي النفخة الأولى، وهي: نفخة الصعق.

وقد اختلف القراء في ﴿يَخْصَمُونَ﴾، فقرأ حمزة بسكون الخاء، وتخفيف الصاد من خصم يخصم، والمعنى: يخصم بعضهم بعضاً، فالمفعول محذوف. وقرأ أبو عمرو، وقالون بإخفاء فتحة الخاء، وتشديد الصاد. وقرأ نافع، وابن كثير، وهشام كذلك إلا أنهم أخلصوا فتحة الخاء، وقرأ الباقون بكسر الخاء، وتشديد الصاد. والأصل في القراءات الثلاث يختصمون، فادغمت التاء في الصاد، فنافع، وابن كثير، وهشام نقلوا فتحة التاء إلى الساكن قبلها نقلاً كاملاً، وأبو عمرو، وقالون اختلصا حركتها تنبيهاً على أن الخاء أصلها السكون، والباقيون حذفوا حركتها، فالتقى ساكنان، فكسروا أولهما. وروي عن أبي عمرو، وقالون: إنهما قرءا بتسكين الخاء، وتشديد الصاد، وهي قراءة مشككة لاجتماع ساكنين فيها. وقرأ أبي (يختصمون) على ما هو الأصل ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ أي: لا يستطيع بعضهم أن يوصي إلى بعض بما له، وما عليه، أو لا يستطيع أن يوصيه بالتوبة، والإقلاع عن المعاصي، بل يموتون في أسواقهم، ومواقعهم ﴿وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: إلى منازلهم التي ماتوا خارجين عنها، وقيل: المعنى: لا يرجعون إلى أهلهم قولاً، وهذا إخبار عما ينزل بهم عند النفخة الأولى. ثم أخبر سبحانه عما ينزل بهم عند النفخة الثانية، فقال: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ وهي: النفخة التي يبعثون بها من قبورهم، ولهذا قال: ﴿فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ أي: القبور ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ أي: يسرعون، وبين النفختين أربعون سنة. وعبر عن المستقبل بلفظ الماضي حيث قال: ﴿وَنُفِخَ﴾ تنبيهاً على تحقق وقوعه كما ذكره أهل البيان، وجعلوا هذه الآية مثلاً له، والصور بإسكان الواو: هو القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل كما ورت بذلك السنة، وإطلاق هذا الاسم على القرن معروف في لغة العرب، ومنه قول الشاعر:

نحن نطحنهم غداة الغورين نطحاً شديداً لا كنطح الصوريين
أي: للقرنين. وقد مضى هذا مستوفى في سورة الأنعام. وقال قتادة: الصور جمع صورة أي: نفخ في الصور الأرواح، والأجداث جمع جثث، وهو: القبر. وقرئ «الأجداث» بالفاء، وهي لغة، واللغة الفصيحة بالثاء المثناة، والنسل، والنسلان: الإسراع في السير، يقال: نسل ينسل كضرب يضرب، ويقال: ينسل بالضم، ومنه قول امرئ القيس:

فسلي ثيابي من ثيابك تنسل

وقول الآخر:

عسلان الذيب أمسى قارناً برد الليل عليه فنسل
قالوا: ﴿يَا وَيْلَنَا مِنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ أي: قالوا عند بعثهم من القبور بالنفخة: يا ويلنا: نابوا ويلهم، كأنهم قالوا

بالسماع. وقال ابن كيسان: بزيارة بعضهم بعضاً، وقيل: شغلهم كونهم ذلك اليوم في ضيافة الله. قرأ الكوفيون وابن عامر: (شغل) بضمين. وقرأ الباقر بن ميمون الشين، وسكون الغين: وهما لغتان كما قال الفراء. وقرأ مجاهد، وأبو السماك بفتحيتين. وقرأ يزيد النحوي، وابن هبيرة بفتح الشين، وسكون الغين. وقرأ الجمهور (فلكهون) بالرفع على أنه خبر إن، وفي شغل متعلق به، أو في محل نصب على الحال ويجوز أن يكون في محل رفع على أنه خبر إن، وفاكهون خبر ثانٍ. وقرأ الأعمش، وطلحة بن مصرف (فلكهين) بالنصب على أنه حال، وفي شغل هو: الخير. وقرأ الحسن، وأبو جعفر، وأبو حيوة، وأبو رجا، وشيبة، وقناة، ومجاهد (فكهون) قال الفراء: هما لغتان كالفاء، والفره، والحائر، والحذر. وقال الكسائي، وأبو عبيدة الفاكه: نو الفاكهة مثل تامر ولابن، والفكه: المتفكه، والمتنعم. وقال قناة: الفكهون المعجبون. وقال أبو زيد: يقال: رجل فكه: إذا كان طيب النفس ضحوكاً. وقال مجاهد والضحاك كما قال قناة. وقال السدي كما قال الكسائي ﴿هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون﴾ هذه الجملة مستأنفة مسوقة لبيان كيفية شغلهم، وتفكههم، وتكميلها بما يزيدهم سروراً وبهجة من كون أزواجهم معهم على هذه الصفة من الاتكاء على الأرائك، فالضمير، وهو: هم مبتدأ، وأزواجهم معطوف عليه، والخبر متكئون، ويجوز أن يكون هم تأكيداً للضمير في (فاكهون)، وأزواجهم معطوف على ذلك الضمير، وارتفاع متكئون على أنه خبر لمبتدأ محذوف، وفي ظلال متعلق به أو حال، وكذا على الأرائك، وجوز، أبو البقاء: أن يكون ﴿في ظلال﴾ هو: الخير، و ﴿على الأرائك﴾ مستأنف. قرأ الجمهور (في ظلال) بكسر الظاء، وبالألف، وهو: جمع ظل. وقرأ ابن مسعود، وعبيد بن عمير، والأعمش، ويحيى بن وثاب، وحمرزة، والكسائي، وخلف (في ظلال) بضم الظاء من غير ألف جمع ظلة، وعلى القراءتين، فالمراد الفرش، والستور التي تظللهم كالخيام، والحبال، والأرائك جمع أريكة، كسفائن جمع سفينة، والمراد بها السرر التي في الحبال. قال أحمد بن يحيى ثعلب: الأريكة لا يكون إلا سريراً في قبة. وقال مقاتل: إن المراد بالظلال أكنان القصور، وجملة ﴿لهم فيها فاكهة﴾ مبنية لما يتمتعون به في الجنة من المأكول، والمشارب، ونحوها. والمراد فاكهة كثيرة من كل نوع من أنواع الفواكه ﴿ولهم ما يذعنون﴾ ما هذه هي: الموصولة، والعائد محذوف، أو موصوفة، أو مصدرية، ويذعنون مضارع أذعن. قال أبو عبيدة: يذعنون يتمنون، والعرب تقول: أذعن علي ما شئت: أي تمنى، وفلان في خير ما يدعي أي: ما يتمنى. وقال الزجاج هو من الدعاء أي: ما يدعونه أهل الجنة يأتينهم من دعوت غلامي، فيكون الافتعال بمعنى: الفعل كالاقتعال بمعنى: الحمل، والارتحال بمعنى: الرحل. وقيل: افتعل بمعنى: تفاعل أي: ما يتداعونه كقولهم: ارتموا، وتراموا. وقيل: المعنى: إن من ادعى منهم شيئاً، فهو له، لأن الله قد

عبد الرزاق، والفريابي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن مريويه عن أبي هريرة في قوله: ﴿فلا يستطيعون توصية﴾ الآية قال: تقوم الساعة، والناس في أسواقهم يتبايعون، ويذعنون الثياب، ويحلبون اللقاح، وفي حوائجهم، فلا يستطيعون توصية ﴿ولا إلى أهلهم يرجعون﴾، وأخرج عبد بن حميد، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن المنذر عن الزبير بن العوام قال: إن الساعة تقوم، والرجل يذعن الثوب، والرجل يحلب الناقة، ثم قرأ ﴿فلا يستطيعون توصية﴾ الآية. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لتقوم الساعة، وقد نشر الرجلان ثوبيهما، فلا يتبايعانه، ولا يطويانه، ولتقوم الساعة، وهو يلبط حوضه، فلا يسقي فيه، ولتقوم الساعة، وقد انصرف الرجل لبلى لقحته، فلا يطعمه، ولتقوم الساعة، وقد رفع أكلته إلى فيه، فلا يطعمها». وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي بن كعب في قوله: ﴿ومن بعثنا من مرقبنا﴾ قال: ينمون قبل البعث نومة.

إِنَّ أَحَدَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُعْلٍ فَكِهِونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ رَأَوْهُمُ فِي ظِلِّالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِئُونَ ﴿٥٦﴾ ثُمَّ فِيهَا فَكِهِونَ وَكَمْ مَا يَدْعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَّمَ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَجِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَاسْتَبْرَأُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ أَلَمْ نَعْهَدْ إِلَيْكُمْ بَيْتَ عَادَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الْإِلهَ إِلَّا لَكَ عَدُوٌّ يُؤَيِّنُ ﴿٦٠﴾ وَإِنْ أَشِدُّوهُنَّ مَقَرًّا مَرْغَبًا فَسْتَفِيزُ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا نُوحًا كِتَابًا كَثِيرًا أَقْلَمَ تَكُونُوا تَقُولُونَ ﴿٦٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ أَصْلَحُوا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَنفُثُ فِيهِمْ رِيحًا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَمَسْتُمُ عَلَى أَفْئِدِهِمْ فَمَا تَسْمَعُوا مِنَ الْيَمِينِ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَمَسْتُمُ عَلَى مَكَاتِبِهِمْ فَمَا اسْمَعْتُمْهُمُ أَوْسِيًّا وَلَا يُرِيعُونَ ﴿٦٧﴾ وَنَسْفَعُ الْمُرَّةَ فِي السَّمِّ فَتَلَوْنَ أَلَّا يَقُولُوا ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الْفِثْرَ وَمَا يَكْنِي لَهُمْ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَرَعَاءٌ يُؤَيِّنُ ﴿٦٩﴾ يُنذِرُ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحْيِي الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾

لما ذكر الله سبحانه حال الكافرين اتبعه بحكاية حال عباد الصالحين. وجعله من جملة ما يقال للكفار يومئذ زيادة لحسرتهم، وتكميلاً لجزعهم، وتتميماً لما نزل بهم من البلاء، وما شاهده من الشقاء، فإذا رأوا ما أعد الله لهم من أنواع العذاب، وما أعد له أوليائه من أنواع النعيم، بلغ ذلك من قلوبهم مبلغاً عظيماً، وزاد في ضيق صدورهم زيادة لا يقادر قدرها. والمعنى: ﴿إن أصحاب الجنة﴾ في ذلك ﴿اليوم﴾ في شغل. بما هم فيه من اللذات التي هي ما لا عين رأت، ولا أن سمعت، ولا خطر على قلب بشر عن الاهتمام بأمر الكفار، ومصيرهم إلى النار، وإن كانوا من قربائهم. والأولى عدم تخصيص الشغل بشيء معين. وقال قناة، ومجاهد: شغلهم ذلك اليوم بافتضاض العذارى. وقال وكيع: شغلهم

طبعهم على أن لا يدعى أحد منهم شيئاً إلا وهو يحسن ويحمل به أن يدعيه، وما مبتدأ، وخبرها لهم، والجملة معطوفة على ما قبلها. وقرئ (يدعون) بالتخفيف، ومعناها واضح. قال ابن الأنباري: والوقف على يدعون وقف حسن، ثم يبتدئ ﴿سلام﴾ على معنى: لهم سلام، وقيل: إن سلام هو خير ما أي: مسلم خالص، أو ذو سلامة. وقال الزجاج: سلام مرفوع على البذل من ما أي: ولهم أن يسلم الله عليهم، وهذا مني أهل الجنة، والأولى أن يحمل قوله: ﴿ولهم ما يدعون﴾ على العموم، وهذا السلام يدخل تحته دخولاً أولياً، ولا وجه لقصره على نوع خاص، وإن كان أشرف أنواعه تحقيقاً لمعنى العموم، ورعاية لما يقتضيه النظم القرآني. وقيل: إن سلام مرتفع على أنه خير لمبتدأ محذوف، أي: سلام يقال لهم ﴿قولاً﴾، وقيل: إن سلام مبتدأ، وخبره الناصب لقولاً: أي سلام يقال لهم قولاً، وقيل: خبره من رب العالمين، وقيل: التقدير: سلام عليكم هذا على قراءة الجمهور، وقرأ أبي، وابن مسعود، وعيسى (سلاماً) بالنصب إما على المصدرية، أو على الحالية بمعنى: خالصاً والسلام: إما من التحية، أو من السلامة. وقرأ محمد بن كعب القرظي (سلم) كأنه قال: سلم لهم لا يتنازعون فيه، وانتصاب قولاً على المصدرية بفعل محذوف على معنى: قال الله لهم ذلك قولاً، أو يقوله لهم قولاً، أو يقال لهم قولاً: ﴿ومن رب رحيم﴾ أي: من جهته. قيل: يرسل الله سبحانه إليهم بالسلام. وقال مقاتل: إن الملائكة تدخل على أهل الجنة من كل باب يقولون: سلام عليكم يا أهل الجنة من رب رحيم ﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون﴾ هو على إضمار القول مقابل ما قيل للمؤمنين أي: ويقال للمجرمين: امتازوا أي: انعزلوا، من مازة غيره، يقال: مزت الشيء من الشيء: إذا عزلته عنه، ونحيته. قال مقاتل: معناه اعتزلوا اليوم يعني: في الآخرة من الصالحين. وقال السدي: كونوا على حدة. وقال الزجاج: انفردوا عن المؤمنين. وقال قتادة: عزلوا عن كل خير. وقال الضحاك: يمتاز المجرمون بعضهم من بعض، فيمتاز اليهود فرقة، والنصارى فرقة، والمجوس فرقة، والصابئون فرقة، وعبدة الأوثان فرقة. وقال داود بن الجراح: يمتاز المسلمون من المجرمين إلا أصحاب الأهواء، فإنهم يكونون مع المجرمين. ثم ويختم الله سبحانه، وقرعهم بقوله: ﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا للشيطان﴾، وهذا من جملة ما يقال لهم. والعهد: الوصية أي: ألم أوصيكم، وأبلغكم على السن رسلي: أن لا تعبدوا الشيطان أي: لا تطيعوه. قال الزجاج: المعنى: ألم أتقدم إليكم على لسان الرسل يا بني آدم. وقال مقاتل: يعني: الذين أمروا بالاعتزال. قال الكسائي: لا للنهي، وقيل: المراد بالعهد هنا: الميثاق المأخوذ عليهم حين أخرجوا من ظهر آدم. وقيل: هو ما نصبه الله لهم من الدلائل العقلية التي في سمواته وأرضه، وجملة ﴿إنه لكم عدو مبين﴾ تحليل لما قبلها من النهي عن طاعة الشيطان، وقبول وسوسته، وجملة ﴿وأن

اعبدوني﴾ عطف على أن لا تعبدوا، وأن: في الموضعين هي المفسرة للعهد الذي فيه معنى القول، ويجوز أن تكون مصدرية فيهما أي: لم أعهد إليكم بأن لا تعبدوا بأن اعبدوني، أو ألم أعهد إليكم في ترك عبادة الشيطان، وفي عبادتي ﴿هذا صراط مستقيم﴾ أي: عبادة الله، وتوحيده، أو الإشارة إلى دين الإسلام. ثم نكر سبحانه عداوة الشيطان لبني آدم، فقال: ﴿ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً﴾ اللام هي: الموطئة للقسم، والجملة مستأنفة للتقريع والتوبيخ أي: والله لقد أضل إلخ. قرأ نافع، وعاصم (جبلاً) بكسر الجيم، والباء، وتشديد اللام، وقرأ أبو عمرو، وابن عامر بضم الجيم، وسكون الباء، وقرأ الباقون بضميتين مع تخفيف اللام، وقرأ ابن أبي إسحاق، والزهري، وابن هرمز بضميتين مع تشديد اللام، وكذلك قرأ الحسن، وعيسى بن عمر، والنضر بن أنس، وقرأ أبو يحيى، وحمام بن سلمة، والأشهب العقيلي بكسر الجيم، وإسكان الباء، وتخفيف اللام قال النحاس: وأبينها القراءة الأولى. والبليل على ذلك أنهم قد قرءوا جميعاً (والجبل الأولين) بكسر الجيم، والباء، وتشديد اللام. فيكون جبلاً جمع جبل، واشتقاق الكل من جبل الله الخلق أي: خلقهم، ومعنى الآية: أن الشيطان قد أغوى خلقاً كثيراً كما قال مجاهد. وقال قتادة: جموعاً كثيرة، وقال الكلبي: أمماً كثيرة. قال الثعلبي: والقراءات كلها بمعنى: الخلق، وقرئ (جبلاً) بالجيم، والياء التحتية. قال الضحاك: الجيل الواحد عشرة آلاف، والكثير ما لا يحصى إلا الله عز وجل، ورويت هذه القراءة عن علي بن أبي طالب، والهزمة في قوله: ﴿أقلم تكونوا تعقلون﴾ للتقريع، والتوبيخ، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام كما تقدم في نظائره أي: اتشاهدون آثار العقوبات، أقلم تكونوا تعقلون، أو أقلم تكونوا تعقلون عداوة الشيطان لكم، أو أقلم تكونوا تعقلون شيئاً أصلاً. قرأ الجمهور (أقلم تكونوا تعقلون) بالخطاب. وقرأ طلحة، وعيسى بالغيبة ﴿هذه جهنم التي كنتم توعدون﴾ أي: ويقال لهم عند أن يدنوا من النار: هذه جهنم التي كنتم توعدون بها في الدنيا على السنة الرسل، والقائل لهم الملائكة، ثم يقولون لهم: ﴿اصلواها اليوم بما كنتم تكفرون﴾ أي: قاسوا حرها اليوم، وادخلوها، وذوقوا أنواع العذاب فيها بما كنتم تكفرون أي: بسبب كفركم بالله في الدنيا، وطاعتكم للشيطان، وعبادتكم للأوثان، وهذا الأمر أمر تنكيل، وإمانة كقوله: ﴿ننق إنك أنت العزيز الكريم﴾ [الدخان: 49] ﴿اليوم نختم على أفواههم﴾ اليوم ظرف لما بعده، وقرئ يختم على البناء للمفعول، والنائب الجار والمجرور بعده. قال المفسرون: إنهم ينكرون الشرك، وتكذيب الرسل كما في قولهم: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ [الأنعام: 23]، فيختم الله على أفواههم ختماً لا يقدرُونَ معه على الكلام، وفي هذا التفات من الخطاب إلى الغيبة للإيذان بأن أفعالهم القبيحة مستدعية للإعراض عن خطابهم، ثم قال: ﴿وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون﴾ أي: تكلمت

يمضي مضياً: إذا ذهب في الأرض، ورجع يرجع رجوعاً: إذا عاد من حيث جاء ﴿ومن نعمه ننكسه في الخلق﴾ قرأ الجمهور (ننكسه) بفتح النون الأولى، وسكون الثانية، وضم الكاف مخففة. وقرأ عاصم، وحزمة بضم النون الأولى، وفتح الثانية، وكسر الكاف مشددة. والمعنى: من نطل عمره نغير خلقه، ونجعله على عكس ما كان عليه أولاً من القوة والطراوة. قال الزجاج: المعنى: من أطلنا عمره نكسنا خلقه، فصار بدل القوة الضعف، وبديل الشباب الهرم، ومثل هذه الآية قوله سبحانه: ﴿ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً﴾ [الحج: 5]، وقوله: ﴿ثم ربدناه أسفل سافلين﴾ [التين: 5]، ومعنى ﴿افلا تعقلون﴾: أفلا تعلمون بعقولكم أن من قدر على ذلك قدر على البعث، والنشور. قرأ الجمهور (يعقلون) بالتحية. وقرأ نافع، وابن نكوان بالقوية على الخطاب. ولما قال كفار مكة: إن القرآن شعر، وإن محمداً شاعر رد الله عليهم بقوله: ﴿وما علمناه الشعر﴾، والمعنى: نفى كون القرآن شعراً، ثم نفى أن يكون النبي شاعراً، فقال: ﴿وما ينبغي له﴾ أي: لا يصح له الشعر، ولا يتأتى منه، ولا يسهل عليه لو طلبه، وأراد أن يقوله، بل كان ﷺ إذا أراد أن ينشد بيتاً قد قاله شاعر متمثلاً به كسر وزنه، فإنه لما أنشد بيت طرفه بن العبد المشهور، وهو قوله:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزود
قال: ويأتيك من لم تزود بالأخبار، وأنشد مرة أخرى قول العباس بن مرداس السلمي:

أجعل نهبي ونهب العبيد دبين عيينة والأقرع
فقال: بين الأقرع وعيينة، وأنشد أيضاً:

كفى بالإسلام والشيب للمرء ناهياً

فقال أبو بكر: يا رسول الله إنما قال الشاعر:

كفى للشيب والإسلام للمرء ناهياً

فقال: أشهد أنك رسول الله، يقول الله عز وجل: ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له﴾ وقد وقع منه ﷺ كثير من مثل هذا. قال الخليل: كان الشعر أحب إلى رسول الله ﷺ من كثير من الكلام، ولكن لا يتأتى منه إله وجه عدم تعليمه الشعر، وعدم قدرته عليه. التكميل للحجة، والبعض للشبهة، كما جعله الله أمياً لا يقرأ ولا يكتب، وأما ما روي عنه من قوله ﷺ:

هل أنت إلا أصبع نميت وفي سبيل الله مألقيت
وقوله:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب
ونحو ذلك، فمن الاتفاق الوارد من غير قصد كما يأتي ذلك في بعض آيات القرآن، وليس بشعر، ولا مراد به الشعر، بل اتفق ذلك اتفاقاً كما يقع في كثير من كلام الناس، فإنهم قد يتكلمون بما لو اعتبره معتبر لكان على وزن الشعر، ولا يعنونه شعراً، وذلك كقوله تعالى: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ [آل عمران: 92] وقوله: ﴿وجفان

أيديهم بما كانوا يفعلونه، وشهدت أرجلهم عليهم بما كانوا يعملون. قرأ الجمهور (تكلمنا وتشهد)، وقرأ طلحة بن مصرف (ولتكلمنا وتشهد) بلام كي. وقيل: سبب الختم على أقوامهم ليعرفهم أهل الموقف. وقيل: ختم على أقوامهم لأجل أن يكون الإقرار من جوارحهم؛ لأن شهادة غير الناطق أبلغ في الحجة من شهادة الناطق لخروجه مخرج الإعجاز. وقيل: ليعلموا أن أعضاءهم التي كانت أعواناً لهم في معاصي الله صارت شهوداً عليهم، وجعل ما تنطق به الأيدي كلاماً، وإقراراً؛ لأنها كانت المباشرة لغالب المعاصي، وجعل نطق الأرجل شهادة؛ لأنها حاضرة عند كل معصية، وكلام الفاعل إقرار، وكلام الحاضر شهادة، وهذا اعتبار بالغالب، وإلا فالأرجل قد تكون مباشرة للمعصية كما تكون الأيدي مباشرة لها ﴿ولو نشاء لطمسنا على أعينهم﴾ أي: أذهبنا أعينهم، وجعلناها بحيث لا يبصرون شيئاً، ولا جفن. قال الكسائي: طمس يطمس، ويطمس، والمطموس، والطميس عند أهل اللغة الذي ليس في عينه شيء كما في قوله: ﴿ولو شاء الله لذهب بسمعهم وبأبصارهم﴾ [البقرة: 20] ومفعول المشيئة محذوف أي: لو نشاء أن تطمس على أعينهم لطمسنا. قال السدي، والحسن: المعنى: لتركناهم عمياً يترددون لا يبصرون طريق الهدى، واختار هذا ابن جرير ﴿فاستبقوا الصراط﴾ معطوف على لطمسنا أي: تباينوا إلى الطريق ليجوزوه، ويمضوا فيه، والصراط منصوب بنزع الخافض أي: فاستبقوا إليه، وقال عطاء، ومقاتل، وقتادة: المعنى: لو نشاء لفقنا أعينهم، وأعميناهم عن غيهم، وحولنا أبصارهم من الضلالة إلى الهدى، فأبصروا رشدهم، واهتدوا، وتباينوا إلى طريق الآخرة، ومعنى ﴿فأنى يبصرون﴾ أي: كيف يبصرون الطريق، ويحسنون سلوكه، ولا أبصار لهم. وقرأ عيسى بن عمر (فاستبقوا) على صيغة الأمر أي: فيقال لهم: استبقوا، وفي هذا تهديد لهم. ثم كرر التهديد لهم، فقال: ﴿ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم﴾ المسخ تبديل الخلقة إلى حجر، أو غيره من الجماد، أو بهيمة، والمكانة المكان أي: لو شئنا لبئنا خلقهم على المكان الذي هم فيه. قيل: والمكانة أخص من المكان كالمقامة، والمقام. قال الحسن: أي: لأقنعناهم ﴿فما استطاعوا مضياً ولا يرجعون﴾ أي: لا يقدرّون على ذهب، ولا مجيء. قال الحسن: فلا يستطيعون أن يمضوا أمامهم؛ ولا يرجعوا وراءهم، وكذلك الجماد لا يتقدم، ولا يتأخر. وقيل: المعنى لو نشاء لأهلكناهم في مساكنهم، وقيل: لمسخناهم في المكان الذي فعلوا فيه المعصية. وقال يحيى بن سلام: هذا كله يوم القيامة. قرأ الجمهور (على مكانتهم) بالإنفراد. وقرأ الحسن، والسلمي، وزر بن حبيش، وأبو بكر عن عاصم (مكاناتهم) بالجمع. وقرأ الجمهور (مضياً) بضم الميم، وقرأ أبو حيو (مضياً) بفتحها، وروي عنه: أنه قرأ بكسرهما، ورويت هذه القراءة عن الكسائي. قيل: والمعنى: ولا يستطيعون رجوعاً، فوضع الفعل موضع المصدر لمراعاة الفاصلة، يقال: مضى

كالجواب وقدور راسيات ﴿سبأ: 13﴾ على أنه قد قال الأخفش إن قوله:

أنا النسيبي لا كذب

ليس بشعر. وقال الخليل في كتاب العين: إن ما جاء من السجع على جزأين لا يكون شعراً. قال ابن العربي: والأظهر من حاله أنه قال: لا كذب برفع الباء من كذب، وبخفضها من عبد المطلب قال النحاس: قال بعضهم: إنما الرواية بالإعراب، وإذا كانت بالإعراب لم يكن شعراً، لأنه إذا فتح الباء من الأول، أو ضمهما، أو نونها، وكسر الباء من الثاني خرج عن وزن الشعر. وقيل: إن الضمير في له عائد إلى القرآن أي: وما ينبغي للقرآن أن يكون شعراً ﴿إن هو إلا ذكر﴾ أي: ما القرآن إلا نكر من الإنكار، وموعظة من المواعظ ﴿وقرآن مبين﴾ أي: كتاب من كتب الله السماوية مشتمل على الأحكام الشرعية ﴿لينذر من كان حياً﴾ أي: لينذر القرآن من كان حياً أي: قلبه صحيح يقبل الحق، ويأبى الباطل، أو لينذر الرسول من كان حياً. قرأ الجمهور بالياء التحتية، وقرأ نافع، وابن عامر بالفوقية، فعلى القراءة الأولى المراد القرآن، وعلى الثانية المراد: النبي ﷺ ﴿ويحق القول على الكافرين﴾ أي: وتجب كلمة العذاب على المصزيين على الكفر الممتنعين من الإيمان بالله، وبرسوله.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وابن أبي الدنيا، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه من طرق عن ابن عباس في قوله: ﴿في شغل فاكهون﴾ قال: في اقتضاض الأ Bakar. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي الدنيا، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن جرير، وابن المنذر عن ابن مسعود في الآية قال: شغلهم اقتضاض العذارى. وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة، وقتادة مثله. وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن ابن عمر قال: إن المؤمن كلما أراد زوجة وجدها عذراء. وقد روي نحوه مرفوعاً عن أبي سعيد، مرفوعاً عند الطبراني في الصغير، وأبي الشيخ في العظمة. وروي أيضاً نحوه عن أبي هريرة مرفوعاً عند الضياء المقدسي في صفة الجنة. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿في شغل فاكهون﴾ قال: ضرب الأوتار. قال أبو حاتم: هذا لعله خطأ من المستمع، وإنما هو اقتضاض الأ Bakar. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه قال: ﴿فاكهون﴾ فرحون. وأخرج ابن ماجه، وابن أبي الدنيا في صفة الجنة، والبخاري، وابن أبي حاتم، والأجزي في الروية، وابن مردويه عن جابر قال: قال النبي ﷺ: «بيننا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور، فرفعوا رؤوسهم، فإذا الرب قد أشرف عليهم من فوقهم، فقال: السلام عليكم يا أهل الجنة، وذلك قول الله: ﴿سلام قولاً من رب رحيم﴾ قال: فينظر إليهم، وينظرون إليه، فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم، ويبقى نوره، ويركته عليهم في نيارهم»، قال ابن كثير: في إسناده نظر. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في

الآية قال: إن الله هو يسلم عليهم. وأخرج أحمد، ومسلم، والنسائي، والبخاري، وابن مردويه، والبيهقي في التوبة، واللفظ له، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في الأسماء والصفات عن أنس في قوله: ﴿اليوم نختم على أفواههم﴾ قال: «كنا عند النبي ﷺ، فضحك حتى بدت نواجذه، قال: أتدرون مما ضحكتم؟ قلنا: لا يا رسول الله، قال: من مخاطبة العبد ربه يقول: يا ربِّ ألم تجرني من الظلم؟ فيقول: بلى، فيقول: إني لا أجيز علي إلا شاهداً مني، فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً، وبالكرام الكاتبين شهوداً، فيختم على فيه. ويقال لأركانه: انطقي، فتنتطق بأعماله، ثم يخلى بينه، وبين الكلام، فيقول: بعداً لكن، وسحقاً، فعنكن كنت أناضل». وأخرج مسلم، والترمذي، وابن مردويه، والبيهقي عن أبي سعيد، وأبي هريرة قالاً: قال رسول الله ﷺ: «يلقى العبد ربه، فيقول الله: قل: ألم أكرمك، وأسودك، وأزججك، وأسخر لك الخيل، والإبل، وأذكرك ترأس، وترتع؟ فيقول: بلى أي رب، فيقول: أفتظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا، فيقول: إني أنساك كما نسيتني، ثم يلقى الثاني، فيقول مثل ذلك، ثم يلقى الثالث، فيقول له مثل ذلك، فيقول: أمنت بك، وبكتاك، وبرسولك، وصليت، وصمت، وتصدقت، ويثني بخير ما استطاع، فيقول: ألا نبعث شاهداً عليك، فيفكر في نفسه من الذي يشهد علي، فيختم على فيه، ويقال لفخذه: انطقي، فتنتطق فخذه، وقمه، وعظامه بعمله ما كان، وذلك ليعذر من نفسه، وذلك المناق، وذلك الذي يسخط عليه». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم من حديث أبي موسى نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله: ﴿ولو نشاء لطمسنا على أعينهم﴾ قال: أعميتناهم، وأضللناهم عن الهدى ﴿فأنى يبصرون﴾ فكيف يهتدون. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿ولو نشاء لمسخناهم﴾ قال: أهلكناهم ﴿على مكانتهم﴾ قال: في مساكنهم. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم قال: بلغني أنه قيل لعائشة: هل كان رسول الله ﷺ يتمثل بشيء من الشعر؟ قالت: كان أبغض الحديث إليه، غير أنه كان يتمثل ببيت أخي بني قيس، فيجعل أوله آخره يقول: «ويأتيك من لم تزود بالأخبار، فقال أبو بكر: ليس هكذا، فقال رسول الله ﷺ: إني والله ما أنا بشاعر، ولا ينبغي لي»، وهذا يراد ما نقلناه عن الخليل سابقاً أن الشعر كان أحب إلى رسول الله ﷺ من كثير من الكلام، وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا استراث الخبر تمثل ببيت طرفة:

ويأتيك بالأخبار من لم تزود

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يتمثل من الأشعار:

ويأتيك بالأخبار من لم تزود

وأخرج البيهقي في سننه عن عائشة قالت: ما جمع

رسول الله ﷺ بيت شعر قط إلا بيتاً واحداً:
تفاهل بما تهوى يكن فلعلما يقال لشيء كان إلا تحقق
قالت عائشة: ولم يقل تحققاً لثلاث يعربه، فيصير شعراً،
وإسناده هكذا: قال: أخبرنا أبو عبيد الله الحافظ يعني: الحاكم
حدثنا أبو حفص عمر بن أحمد بن نعيم، حدثنا أبو محمد
عبد الله بن هلال النحوي الضريير، حدثنا علي بن عمرو
الانصاري، حدثنا سفيان بن عيينة، عن الزهري، عن عروة،
عن عائشة، فنكره. وقد سئل المزي عن هذا الحديث فقال:
هو منكرو، ولم يعرف شيخ الحاكم، ولا الضريير.

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا صِلَةً أَلَيَيْنَا أَنْكَمَافَهُمْ لَهَا مَلِكُونَ ﴿٧١﴾
وَلَلَّانِهَا لَهُمْ فِينَا رُكُوبُهُمْ وَمِنَّا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَازِعُ
وَسَارِبٌ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ ﴿٧٣﴾ وَأَخْلَوْا مِن دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً أَلَمْ لَهُمْ
يُصْنَعُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْمَهُمْ وَمَنْ لَّهُمْ جُدٌ مُّخْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا
يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُرْسُوتُ وَمَا يَلُوكُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ
أَنَّا خَلَقْتَهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَوَسَّى
خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعِني الْعِظَمُ وَهِيَ رَيْبٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُخَبِّرُكَ الْغَيْثُ أَنْشَاءً
أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الْإِنزِيلُ جَمَلٌ لِّكَ مِنَ الشَّجَرِ
الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتَ تُنْفِثُ ثَرَوْدَهُ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الْإِنزِيلُ خَلْقَ السَّمَكِ
وَالْأَرْضِ يَنْدِي عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِنْهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا
أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَتَسَبِّحُنَّ الْإِنزِيلَ
يَدِيهِ مَلَكُوتٌ كُلُّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

ثم نكر سبحانه قدرته العظيمة، وإنعامه على عبده،
وجحد الكفار لنعمه، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا
عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾، والهمزة للإنكار، والتعجب من
حالهم، والوالو للعطف على مقدر كما في نظائره، والرؤية هي
القلبية أي: لو لم يعلموا بالتفكر، والاعتبار ﴿لَنَا خَلْقْنَا لَهُمْ﴾
أي: لأجلهم ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ أي: مما أبدعناه، وعملناه
من غير واسطة، ولا شركة، وإسناده العمل إلى الأيدي مبالغة
في الاختصاص، والتفرد بالخلق كما يقول الواحد منا: عملته
بيدي للدلالة على تفرده بعمله، وما بمعنى: الذي، وحذف
العائد لطول الصلة، ويجوز أن تكون مصدرية، والأنعام جمع
نعم، وهي: البقر، والغنم، والإبل، وقد سبق تحقيق الكلام
فيها. ثم نكر سبحانه المنافع المترتبة على خلق الأنعام،
فقال: ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ أي: ضابطون قاهرون يتصرفون
بها كيف شاءوا، ولو خلقناها وحشية لنفرت عنهم، ولم
يقدرنا على ضبطها، ويجوز أن يكون المراد: أنها صارت في
أملاكهم، ومعدودة من جملة أموالهم المنسوبة إليهم نسبة
الملك ﴿وَوَلَّلْنَاهَا لَهُمْ﴾ أي: جعلناها لهم مسخرة لا تمتنع
مما يريدون منها من منافعهم حتى النج، ويقودها الصبي،
فتنقاد له، ويزجرها، فتنزجر، والفاء في قوله: ﴿فَهُمْ لَهَا
رُكُوبُهُمْ﴾ لتفريع أحكام التنليل عليه أي: فمنها مركوبهم
الذي يركبونه كما يقال: ناقة حلب أي: محلبة. قرأ الجمهور

(ركوبهم) بفتح الراء. وقرأ الأعمش، والحسن، وابن السميع
بضم الراء على المصدر. وقرأ أبي، وعائشة (ركوبتهم)،
والركوب والركوبة واحد، مثل الحلوب والحلوبة، والحمول
والحمولة. وقال أبو عبيدة: الركوبة تكون للواحدة والجماعة،
والركوب لا يكون إلا للجماعة. وزعم أبو حاتم: أنه لا يجوز،
فمنها ركوبهم بضم الراء؛ لأنه مصدر، والركوب ما يركب،
وأجاز ذلك الفراء كما يقال: فعمنا أكلهم، ومنها شربهم،
ومعنى ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾: ما يأكلونه من لحمها، ومن
للتبعض ﴿وَلَهُمْ فِيهَا نَافِعٌ﴾ أي: لهم في الأنعام منافع غير
الركوب لها، والأكل منها، وهي ما ينتفعون به من أصوافها،
وأوبارها، وأشعارها، وما يتخذونه من الأدهان من شحومها،
وذلك الحمل عليها، والحراثة بها ﴿وَمِنْهَا يَشْرَبُونَ﴾ أي: ولهم
فيها مشارب مما يحصل من ألبانها ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ﴾ الله
على هذه النعم، ويوحون، ويخصونه بالعبادة. ثم نكر
سبحانه جهلهم، واغترارهم، ووضعهم كفران النعم مكان
شكرها، فقال: ﴿وَأَخْلَوْا مِن دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً﴾ من الأصنام،
ونحوها يعبدونها، ولا قدرة لها على شيء، ولم يحصل لهم
منها فائدة، ولا عاد عليهم من عبادتها عائدة ﴿لَعَلَّهُمْ
يَنْصَرُونَ﴾ أي: رجاء أن ينصروا من جهتهم إن نزل بهم
عذاب، أو دهمهم أمر من الأمور، وجملة ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ
نَصْرَهُمْ﴾ مستأنفة لبيان بطلان ما رجوه منها، وأملوه من
نفعها، وجمعهم بالوار، والنون جمع العقلاء بناء على زعم
المشركين أنهم ينفعون، ويضرون، ويعقلون ﴿وَهُمْ لَهَا جُندٌ
مُحْضَرُونَ﴾ أي: والكفار جند للأصنام محضرون أي:
يحضرونهم في الدنيا. قال الحسن: يمعنون منهم، ويدفعون
عنهم، وقال قتادة: أي: يغضبون لهم في الدنيا. قال الزجاج:
ينتصرون للأصنام، وهي لا تستطيع نصرهم. وقيل: المعنى
يعبدون الأكلة، ويقومون بها، فهم لهم بمنزلة الجند، هذه
الاقوال على جعل ضميرهم للمشركين، وضمير لهم للأكلة،
وقيل: وهم أي: الأكلة لهم أي: للمشركين جند محضرون
معهم في النار، فلا يدفع بعضهم عن بعض. وقيل: معناه
وهذه الأصنام لهؤلاء الكفار جند الله عليهم في جهنم؛ لأنهم
يلعنونهم، ويتبرعون منهم. وقيل: المعنى: إن الكفار يعتقدون
أن الأصنام جند لهم يحضرون يوم القيامة لإعانتهم. ثم
سلى سبحانه نبيه ﷺ فقال: ﴿فَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ﴾ هذا
القول هو ما يفيدوه قوله: ﴿وَأَخْلَوْا مِن دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً﴾
فإنهم لا بد أن يقولوا هؤلاء آلهتنا، وإنها شركاء لله في
المعبودية، ونحو ذلك. وهو نهي للرسول ﷺ عن التأثر
بتلك. وقيل: إنه نهي لهم عن الأسباب التي تحزن رسول الله
ﷺ، وإن النهي لرسول الله ﷺ عن التأثر لما يصدر منهم
هو من باب: «لا أرينك ها هنا» فإنه يراد به نهي من خاطبه
عن الحضور لديه، لا نهي نفسه عن الرؤية، وهذا بعيد،
والأول أولى، والكلام من باب التنسيلية كما نكرنا، ويجوز أن
يكون المراد بالقول المنكور هو: قولهم إنه ساحر، وشاعر،
ومجنون. وجملة ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يَسْرُونَ وَمَا يَعْلَنُونَ﴾

عن باغية، كذا قال البغوي، والقريطي، وقال بالأول صاحب الكشاف. والأولى أن يقال: إنه فعليل بمعنى: فاعل، أو مفعول، وهو يستوي فيه المنكر، والمؤنث كما قيل في جريح، وصبور. ثم أجاب سبحانه عن الضارب لهذا المثل، فقال: ﴿قُلْ يَحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: ابتدأها، وخلقها أول مرة من غير شيء، ومن قدر على النشأة الأولى قدر على النشأة الثانية ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه خافية، ولا يخرج عن علمه خارج كائناتاً ما كان. وقد استدلل أبو حنيفة، وبعض أصحاب الشافعي بهذه الآية على أن العظام مما تحل الحياة. وقال الشافعي: لا تحل الحياة، وأن المراد بقوله: ﴿مَنْ يَحْيِي الْعِظَامَ﴾ من يحيي أصحاب العظام على تقدير مضاف محذوف، ورد بأن هذا التقدير خلاف الظاهر ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً﴾ هذا رجوع منه سبحانه إلى تقرير ما تقدم من نفع استبعادهم، فنبه سبحانه على وحدانيته، ودل على قدرته على إحياء الموات بما يشاهدونه من إخراج النار المحرقة من العود الندي الرطب، وذلك أن الشجر المعروف بالمرخ، والشجر المعروف بالعفار إذا قطع منهما عودان، وضرب أحدهما على الآخر انفتحت منهما النار، وهما أخضران. قيل: المرخ هو: الذكر، والعفار هو: الأنثى، ويسمى الأول الزند، والثاني الزندة، وقال: الأخضر، ولم يقل: الخضراء اعتباراً باللفظ. وقرئ (الخضر) اعتباراً بالمعنى، وقد تقرر أنه يجوز تنكير اسم الجنس، وتانيته كما في قوله: ﴿نَخْلٌ مَنْقَعَرٌ﴾ [القم: 20] وقوله: ﴿نَخْلٌ خَاوِيَةٌ﴾ [الحاقة: 7] فبنو تميم، ونجد ينكرونه، وأهل الحجاز يؤثنونه إلا نادراً، والموصول يدل من الموصول الأول ﴿فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تَوَفَّقُونَ﴾ أي: تتقنون منه النار، وتوقنونها من ذلك الشجر الأخضر. ثم نكر سبحانه ما هو أعظم خلقاً من الإنسان، فقال: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ والهزمة للإنكار، والواو للعطف على مقدر كظاظره، ومعنى الآية: إن من قدر على خلق السموات، والأرض، وهما في غاية العظم، وكبر الأجزاء يقدر على إعادة خلق البشر الذي هو صغير الشكل ضعيف القوة، كما قال سبحانه: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: 57] قرأ الجمهور (يقدر) بصيغة اسم الفاعل. وقرأ الجحدري، وابن أبي إسحاق، والأعرج، وسلام بن المنذر، وأبو يعقوب الحضرمي (يقدر) بصيغة الفعل المضارع. ثم أجاب سبحانه عما افتاده الاستفهام من الإنكار التقريري بقوله: ﴿بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ أي: بلى هو قادر على ذلك، وهو المبالغ في الخلق، والعلم على أكمل وجه، وأتمه. وقرأ الحسن، والجحدري، ومالك بن دينار (وهو الخالق). ثم نكر سبحانه ما يدل على كمال قدرته، وتيسر المبدأ، والإعادة عليه، فقال: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي: إنما شأنه سبحانه إذا تعلق إرادته بشيء من الأشياء أن يقول له: احدث، فيحدث من غير توقف على شيء آخر

لتعليل ما تقدم من النهي، فإن علمه سبحانه بما يظهرون، ويضمرّون مستلزم المجازاة لهم بذلك. وأن جميع ما صدر منهم لا يعزب عنه سواء كان خافياً، أو باهياً سراً، أو جهراً مظهراً، أو مضمراً. وتقديم السر على الجهر للمبالغة في شمول علمه لجميع المعلومات، وجملة ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نَطْفَةٍ﴾ مستأنفة مسوقة لبيان إقامة الحجة على من أنكر البعث، وللتعجيب من جهله، فإن مشاهدة خلقهم في أنفسهم على هذه الصفة من البداية إلى النهاية مستلزمة للاعتراف بقدرة القادر الحكيم على ما هو دون ذلك من بعث الأجسام، وردّها كما كانت، والإنسان المنكور في الآية المراد به: جنس الإنسان كما في قوله: ﴿أَوَلَا يَنْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكْ شَيْئاً﴾ [مریم: 67]، ولا وجه لتخصيصه بإنسان معين كما قيل: إنه عبد الله بن أبي، وأنه قيل له ذلك لما أنكر البعث. وقال الحسن: هو: أمية بن خلف. وقال سعيد بن جبیر: هو: العاص بن وائل السهمي. وقال قتادة، ومجاهد: هو: أبي بن خلف الجمحي، فإن أحد هؤلاء، وإن كان سبباً للنزول، فمعنى الآية: خطاب الإنسان من حيث هو، لا إنسان معين، ويخل من كان سبباً للنزول تحت جنس الإنسان لخلواً أولياً، والنطفة هي: اليسير من الماء، وقد تقدم تحقيق معناها ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مَبِينٌ﴾ هذه الجملة معطوفة على الجملة المنفية قبلها داخله معها في حيز الإنكار المفهوم من الاستفهام، وإذا هي: الفجائية أي: ألم ير الإنسان أنا خلقناه من أضعف الأشياء، فجأ خصوصتنا في أمر قد قامت فيه عليه حجج الله، وبراهينه، والخصيم الشديد الخصومة الكثير الجدل، ومعنى المبين: المظهر لما يقوله الموضح له بقوة عارضته، وطلاقة لسانه، وهكذا جملة ﴿وَضَرْبَ لَنَا مِثْلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ معطوفة على الجملة المنفية داخله في حيز الإنكار المفهوم من الاستفهام، فهي تكميل للتعجيب من حال الإنسان، وبيان جهله بالحقائق، وإهماله للتفكير في نفسه فضلاً عن التفكير في سائر مخلوقات الله، ويجوز أن تكون جملة ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ﴾ معطوفة على خلقنا، وهذه معطوفة عليها أي: أورد في شأننا قصة غريبة كالمثل: وهي إنكاره أحياناً للعظام، ونسي خلقه أي: خلقنا إياه، وهذه الجملة معطوفة على ضرب، أو في محل نصب على الحال بتقدير قد، وجملة ﴿قَالَ مَنْ يَحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ استئنافية جواباً عن سؤال مقدر كأنه قيل: ما هذا المثل الذي ضربه؟ فقيل: قال: من يحيي العظام، وهي رميم، وهذا الاستفهام للإنكار؛ لأنه قاس قدرة الله على قدرة العبد، فأنكر أن الله يحيي العظام البالية حيث لم يكن ذلك في مقنن البشر، يقال: رمّ العظم يرمّ رمّاً إذا بلى، فهو رميم، ورمام، وإنما قال: رميم، ولم يقل: رميمة مع كونه خبراً للمؤنث؛ لأنه اسم لما بلى من العظام غير صفة كالرمة والرفات. وقيل: لكونه معنولاً عن فاعلة، وكل معنول عن وجهه يكون مصروفاً عن إعرابه كما في قوله: ﴿وَمَا كُنْتَ أُمَكُ بَغِيًّا﴾ [مریم: 28]؛ لأنه مصروف

تكون الكواكب منصوبة بإضمار اعني، أو بدلاً من السماء بدل اشتغال، وانتصاب حفظاً على المصدرية بإضمار فعل أي: حفظناها حفظاً، أو على أنه مفعول لأجله أي: زينها بالكواكب للحفظ، أو بالعطف على محل زينة كأنه قال: إنا خلقنا الكواكب زينة للسماء ﴿وحفظاً من كل شيطان هارِد﴾ أي: متمرد خارج عن الطاعة يرمى بالكواكب، كقوله: ﴿ولقد زيننا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين﴾ [الملك: 5] وجملة ﴿لا يسمعون إلى الملأ الأعلى﴾ مستأنفة لبيان حالهم بعد حفظ السماء منهم. وقال أبو حاتم: أي: لئلا يسمعوها، ثم حذف إن فرفع الفعل، وكذا قال الكلبي، والملأ الأعلى: أهل السماء الدنيا فما فوقها، وسمى الكل منهم أعلى بإضافته إلى ملأ الأرض، والضمير في يسمعون إلى الشياطين. وقيل: إن جملة لا يسمعون صفة لكل شيطان، وقيل: جواباً عن سؤال مقدر كأنه قيل: فما كان حالهم بعد حفظ السماء عنهم؟ فقال: ﴿لا يسمعون إلى الملأ الأعلى﴾ قرأ الجمهور (يسمعون) بسكون السين، وتخفيف الميم. وقرأ حمزة، والكسائي، وعاصم في رواية حفص عنه بتشديد الميم، والسين، والأصل يتسمعون، فأدغم اللام في السين، فالقراءة الأولى تدل على انتفاء سماعهم نون استماعهم، والقراءة الثانية تدل على انتفاءهما، وفي معنى القراءة الأولى قوله تعالى: ﴿إنهم عن السمع لمعزولون﴾ [الشعراء: 212] قال مجاهد: كانوا يتسمعون، ولكن لا يسمعون. واختار أبو عبيدة القراءة الثانية، قال: لأن العرب لا تكاد تقول: سمعت إليه، وتقول: تسمعت إليه ﴿ويقذفون من كل جانب﴾ بحوراً، أي: يرمون من كل جانب من جوانب السماء بالشهب إذا أراونا الصعود لاستراق السمع، وانتصاب بحوراً على أنه مفعول لأجله، والحدود الطرد، تقول: نحرته دحراً، وبحوراً: طرَبته. قرأ الجمهور (بحوراً) بضم الدال، وقرأ علي، والسلمي، ويعقوب الحضرمي، وابن أبي عبيدة بفتحها، وروي عن أبي عمرو: أنه قرأ (يقذفون) مبنيًا للفاعل، وهي قراءة غير مطابقة لما هو المراد من النظم القرآني، وقيل: إن انتصاب بحوراً على الحال أي: مدحورين، وقيل: هو جمع داحر نحو قاعد، وقعود، فيكون حالاً أيضاً، وقيل: إنه مصدر لمقدر أي: يحرون بحوراً. وقال الفراء: إن المعنى: يقذفون بما يحرقهم أي: بحور، ثم حذفت الباء، فانتصب بنزع الخافض.

واختلف هل كان هذا الرمي لهم بالشهب قبل المبعث، أو بعده؛ فقال بالأول طائفة. وبالأخر آخرون. وقالت طائفة بالجمع بين القولين: إن الشياطين لم تكن ترمي قبل المبعث رمياً يقطعها عن السمع، ولكن كانت ترمي وقتاً، ولا ترمي وقتاً آخر، وترمي من جانب، ولا ترمي من جانب آخر، ثم بعد المبعث رميت في كل وقت، ومن كل جانب حتى صارت لا تقدر على استراق شيء من السمع إلا من اختطف الخطفة، فاتبعه شهاب ثاقب، ومعنى ﴿ولهم عذاب واصب﴾: ولهم عذاب دائم لا ينقطع، والمراد به: العذاب في

﴿التاليات نكراً﴾ الملائكة التي تتلو القرآن كما قال ابن مسعود، وابن عباس، والحسن، ومجاهد، وابن جبير، والسدي. وقيل: المراد جبريل وحده، فنكر بلفظ الجمع تعظيماً له مع أنه لا يخلو من اتباع له من الملائكة. وقال قتادة: المراد كل من تلا نكر الله، وكتبه. وقيل: المراد آيات القرآن، ووصفها بالتلاوة، وإن كانت متلوة كما في قوله: ﴿إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل﴾ [النمل: 76]، وقيل: لأن بعضها يتلو بعضاً، ويتبعه، وذكر الماوردي: أن التاليات هم الأنبياء يتلون النكر على أممهم، وانتصاب نكراً على أنه مفعول به، ويجوز أن يكون مصدراً كما قبله من قوله «صفاء وزجراً». قيل: وهذه الغاء في قوله: «فالزاجرات، فالتاليات» إما لترتب الصفات أنفسها في الوجود، أو لترتب موصوفاتها في الفضل، وفي الكل نظر، وقوله: ﴿إن إلهكم لواحِد﴾ جواب القسم أي: أقسم الله بهذه الأقسام إنه واحد ليس له شريك. وأجاز الكسائي فتح إن الواقعة في جواب القسم ﴿رب السموات والأرض﴾ يجوز أن يكون خبراً ثانياً، وأن يكون بدلاً من «لواحد»، وأن يكون خبر مبتدأ محذوف. قال ابن الأنباري: الوقف على لواحد وقف حسن، ثم يبتدئ رب السموات، والأرض على معنى: هو رب السموات، والأرض. قال النحاس: ويجوز أن يكون بدلاً من لواحد. والمعنى في الآية: أن وجود هذه المخلوقات على هذا الشكل البديع من أوضح الدلائل على وجود الصانع، وقدرته، وأنه رب ذلك كله أي: خالقه، ومالكة. والمراد بما بينهما: ما بين السموات والأرض من المخلوقات. والمراد بـ ﴿المشارك﴾ مشارق الشمس. قيل: إن الله سبحانه خلق للشمس كل يوم مشرقاً، ومغرباً بعد أيام السنة، تطلع كل يوم من واحد منها، وتغرب من واحد، كذا قال ابن الأنباري، وابن عبد البر. وأما قوله في سورة الرحمن: ﴿ربّ المشرقين وربّ المغربين﴾ [الرحمن: 17] فالمراد بالمشرقين: أقصى مطلع تطلع منه الشمس في الأيام الطوال، وأقصى يوم في الأيام القصار، وكذلك في المغربين. وأما نكر المشرق، والمغرب بالإفراد، فالمراد به الجهة التي تشرق منها الشمس، والجهة التي تغرب منها، ولعله قد تقدم لنا في هذا كلام أوسع من هذا ﴿إنا زيننا السماء الدنيا بزينة الكواكب﴾ المراد بالسماء الدنيا: التي تلي الأرض، من الدنو، وهو: القرب، فهي أقرب السموات إلى الأرض. قرأ الجمهور (بزينة الكواكب) بإضافة زينة إلى الكواكب. والمعنى: زينناها بتزيين الكواكب أي: بجسناها. وقرأ مسروق، والأعمش، والنخعي، وحمزة بثنوين (زينة)، وخفض (الكواكب) على أنها بدل من الزينة على أن المراد بالزينة الاسم لا المصدر، والتقدير بعد طرح المبدل منه: إنا زيننا السماء بالكواكب، فإن الكواكب في أنفسها زينة عظيمة، فإنها في أعين الناظرين لها كالجواهر المتلألئة. وقرأ عاصم في رواية أبي بكر عنه بثنوين (زينة)، ونصب (الكواكب) على أن الزينة مصدر، وفاعله محذوف، والتقدير: بأن الله زين الكواكب بكونها مضيئة حسنة في أنفسها، أو

أدري من قرأ بذلك. ثم أضرب سبحانه عن الكلام السابق، فقال: ﴿بل عجبت﴾ يا محمد من قدرة الله سبحانه **﴿ويسخرون﴾** منك بسبب تعجبك، أو ويسخرون منك بما تقوله من إثبات المعاد. قرأ الجمهور بفتح التاء من (عجبت) على الخطاب للنبي ﷺ، وقرأ حمزة، والكسائي بضمها. ورويت هذه القراءة عن علي، وابن مسعود، وابن عباس، واختارها أبو عبيد، والفراء. قال الفراء: قرأها الناس بنصب التاء، ورفعها، والرفع أحب إلي؛ لأنها عن علي، وعبد الله، وابن عباس. قال: والعجب أن أسند إلى الله، فليس معناه من الله كمعناه من العباد. قال الهروي: وقال بعض الأئمة: معنى قوله: ﴿بل عجبت﴾ بل جازيتهم على عجبهم، لأن الله أخبر عنهم في غير موضع بالتعجب من الخلق كما قال: ﴿وعجبوا أن جاءهم منذر منهم﴾ [ص: 4] وقالوا: ﴿إن هذا لشيء عجاب﴾ [ص: 5] «أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم» [يونس: 2] وقال علي بن سليمان: معنى القراءتين واحد، والتقدير: قل: يا محمد بل عجبت؛ لأن النبي ﷺ مخاطب بالقرآن. قال النحاس: وهذا قول حسن، وإضمار القول كثير. وقيل: إن معنى الإخبار من الله سبحانه عن نفسه بالعجب أنه ظهر من أمره، وسخطه على من كفر به ما يقوم مقام العجب من المخلوقين. قال الهروي: ويقال: معنى عجب ربكم أي: رضي ربكم وأثاب، فسماه عجباً، وليس بعجب في الحقيقة، فيكون معنى عجبت هنا: عظم فعلهم عندي. وحكى النقاش: أن معنى بل عجبت: بل أنكرت. قال الحسن بن الفضل: التعجب من الله إنكار الشيء وتعظيمه، وهو لغة العرب، وقيل: معناه: أنه بلغ في كمال قدرته، وكثرة مخلوقاته إلى حيث عجب منها، وهؤلاء لجهلهم يسخرون منها، والواو في **﴿ويسخرون﴾** للحال أي: بل عجبت، والحال أنهم يسخرون، ويجوز أن تكون للاستئناف **﴿وإذا نكروا لا ينكرون﴾** أي: وإذا عظمو بموعظة من مواظ الله، أو مواظ رسوله لا ينكرون أي: لا يتعظون بها ولا ينتفعون بما فيها. قال سعيد بن المسيب أي: إذا نكر لهم ما حل بالمكئبين ممن كان قبلهم أعرضوا عنه ولم يتدبروا **﴿وإذا رآوا آية﴾** أي: معجزة من معجزات رسول الله ﷺ **﴿يستسخرون﴾** أي: يبالغون في السخرية. قال قتادة: يسخرون، ويقولون: إنها سخرية، يقال: سخر، واستسخر بمعنى: مثل قرأ واستقر، وعجب واستعجب. والأول أولى، لأن زيادة الجبناء تدل على زيادة المعنى. وقيل: معنى يستسخرون: يستدعون السخري من غيرهم. وقال مجاهد: يستهزئون **﴿وقالوا إن هذا إلا سحر مبين﴾** أي: ما هذا الذي تأتينا به إلا سحر واضح ظاهر **﴿إذا متنا وكنا تراباً وعظاماً﴾** الاستفهام للإنكار أي: أتبعث إذا متنا؟ فالعامل في إذا هو ما دل عليه **﴿إنا لمبعوثون﴾**، وهو أتبعث، لأنفس مبعوثين لتوسط ما يمنع من عمله فيه، وهذا الإنكار للبعث منهم هو السبب الذي لأجله كتبوا الرسل، وما نزل عليهم، واستهزؤا بما جاءوا به من المعجزات، وقد تقدم

الآخرة غير العذاب الذي لهم في الدنيا من الرمي بالشبه. وقال مقاتل: يعني: دائماً إلى النفخة الأولى، والأول أولى. وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن الواصب الدائم. وقال السدي، وأبو صالح، والكلبى: هو الموجع الذي يصل وجعه إلى القلب، مأخوذ من الوصب، وهو: المرض، وقيل: هو الشديد، والاستثناء في قوله: **﴿إلا من خطف الخطفة﴾** هو من قوله: **﴿لا يسمعون﴾**، أو من قوله: **﴿ويقفنون﴾**. وقيل: الاستثناء راجع إلى غير الوحي لقوله: **﴿إنهم عن السمع لمعزولون﴾** [الشعراء: 212] بل يخطف الواحد منهم خطفة مما يتفاوض فيه الملائكة، وينور بينهم مما سيكون في العالم قبل أن يعلمه أهل الأرض. والخطف الاختلاس مسارقة، وأخذ الشيء بسرعة. قرأ الجمهور (خطف) بفتح الخاء، وكسر الطاء مخففة، وقرأ قتادة، والحسن بكسرها، وتشديد الطاء، وهي لغة تميم بن مر، وبكر بن وائل. وقرأ عيسى بن عمر بفتح الخاء، وكسر الطاء مشددة. وقرأ ابن عباس بكسرها مع تخفيف الطاء، وقيل: إن الاستثناء منقطع **﴿فاتبعه شهاب ثاقب﴾** أي: لحقه، وتبعه شهاب ثاقب: نجم مضيء، فيحرقه، وربما لا يحرقه فيلقى إلى إخوانه ما خطفه، وليست الشهب التي يرمج بها هي من الكواكب الثوابت بل من غير الثوابت، وأصل الثقوب الإضاءة. قال الكسائي: ثقيبت النار تثقب ثقابة، وثقوباً: إذا انتقدت، وهذه الآية هي كقوله: **﴿إلا من استرق السمع فاتبعه شهاب مبين﴾** [الحجر: 18] **﴿فاستفتهم أهم أشد خلقاً أم من خلقنا﴾** أي: أسأل الكفار المنكرين للبعث أهم أشد خلقاً، وأقوى أجساماً، وأعظم أعضاء، أم من خلقنا من السموات، والأرض، والملائكة؟ قال الزجاج: المعنى: فأسألهم سؤال تقرير أهم أشد خلقاً أي: أحكم صنعة أم من خلقنا قبلهم من الأمم السالفة؟ يريد أنهم ليسوا بأحكم خلقاً من غيرهم من الأمم، وقد أهلكناهم بالتكذيب فما الذي يؤمنهم من العذاب؟ ثم نكر خلق الإنسان، فقال: **﴿إنا خلقناهم من طين لازب﴾** أي: إنا خلقناهم في ضمن خلق أبيهم آدم من طين لازب أي: لاصق، يقال لازب يلزب لزوجاً: إذا لاصق. وقال قتادة، وابن زيد: اللازب اللازق. وقال عكرمة: اللازب اللزج. وقال سعيد بن جبير: اللازب الجيد الذي يلصق باليد. وقال مجاهد: هو اللازم، والعرب تقول: طين لازب، ولازم تبذل الباء من الميم، واللازم الثابت كما يقال: صار الشيء ضربة لازب، ومنه قول النابغة: لا تحسبون الخير لا شر بعده ولا تحسبون الشر ضربة لازب وحكى الفراء عن العرب: طين لاتب بمعنى: لازم، واللاتب الثابت. قال الأصمعي: واللاتب اللاصق مثل اللازب. والمعنى في الآية: أن هؤلاء كيف يستبعدون المعاد، وهم مخلوقون من هذا الخلق الضعيف، ولم ينكروه من هو مخلوق خلقاً أقوى منهم، وأعظم، وإكمل، وأتم. وقيل: اللازب هو: المنتن قاله مجاهد، والضحاك. قرأ الجمهور (أم من خلقنا) بتشديد الميم، وهي: أم المتصلة، وقرأ الأعمش بالتخفيف، وهو استفهام ثان على قراءته. قيل: وقد قرئ لازم، ولاتب، ولا

تفسير معنى هذه الآية في مواضع «أَبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ» هو مبتدأ، وخبره محذوف أي: أو أبائنا الأولون مبعوثون، وقيل: معطوف على محل إن واسمها، وقيل: على الضمير في مبعوثون لوقوع الفصل بينهما، والهمزة للإنكار داخلية على حرف العطف، ولهذا قرأ الجمهور بفتح الواو، وقرأ ابن عامر، وقالون بسكونها على أن، أو هي العاطفة، وليست الهمزة للاستفهام. ثم أمر الله سبحانه رسوله بأن يجيب عنهم تبيكياتهم، فقال: «قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ» أي: نعم تبعثون، وأنتم صاغرون قليلون. قال الواحدي: والنخور أشد الصغار، وجملة وأنتم داخرون في محل نصب على الحال. ثم نكر سبحانه: أن بعثهم يقع بزجرة واحدة، فقال: «فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ» الضمير للقصة، أو البعثة المفهومة مما قبلها أي: إنما قصة البعث، أو البعثة زجرة واحدة أي: صيحة واحدة من إسرافيل ينفخه في الصور عند البعث: «فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ» أي يبصرون ما يفعل الله بهم من العذاب. وقال الحسن: هي: النفخة الثانية، وسميت الصيحة زجرة، لأن المقصود منها الزجر، وقيل: معنى ينظرون: ينتظرون ما يفعل بهم، والأول أولى.

وقد أخرج عبد الرزاق، والفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم والطبراني، والحاكم وصححه من طرق عن ابن مسعود «وَالصَّافَاتُ صَفَاءً» قال: الملائكة «فَالزَّجْرَاتُ زَجْرًا» قال: الملائكة «فَالْقَالِيَاتُ ذِكْرًا» قال: الملائكة. وأخرج عبد بن حميد، عن مجاهد، وعكرمة مثله. وأخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس مثله. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مروي عنه أنه كان يقرأ «لَا يَسْمَعُونَ إِلَى اللَّامِ الْأَعْلَى» مخففة، وقال: إنهم كانوا يتسمعون، ولكن لا يسمعون. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً في قوله: «عَذَابٌ وَأَصِيبٌ» قال: دائم. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة عنه أيضاً إذا رمي الشهاب لم يخط من رمي به، وتلا «فَاتَّبِعْهُ شَهَابٌ ثَائِبٌ». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه أيضاً «فَاتَّبِعْهُ شَهَابٌ ثَائِبٌ» قال: لا يقتلون بالشهاب، ولا يموتون، ولكنها تحرق وتخبل وتجرح في غير قتل. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: «مَنْ طَيَّ لَازِبٌ» قال: ملئصق. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر عنه أيضاً «مَنْ طَيَّنَ لَازِبٌ» قال: اللزج الجيد. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: اللازب، والحما، والطين واحد: كان أوله تراباً، ثم صار حمأ منتناً، ثم صار طيناً لازباً، فخلق الله منه آدم. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال: اللازب الذي يلصق ببعضه إلى بعض. وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن ابن مسعود: أنه كان يقرأ «بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ» بالرفع للقاء من عجبته.

وَقَالُوا يَوْمَئِذٍ هَذَا بَرَأً لِلَّهِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ

تَكْذِبُونَ ﴿١١﴾ لَمْ تُخَلِّقُوا الْبَرَّ وَلَكُنَّا بِأَرْوَاحِهِمْ وَمَا كُنَّا بِبَعْدِهِمْ ﴿١٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاقْتُلُوهُمْ إِنْ صَرِطَ الْجَحِيمُ ﴿١٣﴾ وَفُوتُوا بِإِثْمِمْ سَخِرُونَ ﴿١٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿١٥﴾ بَلْ هُمْ أَیُّومٌ مُسْتَلْذِمُونَ ﴿١٦﴾ وَقُلْ بَشِّرْ عَلَى بَعْضِ بَشَائِلِهِمْ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّا كُنْهُمْ تَأْتُونَا عَنِ الْبَیِّنِ ﴿١٨﴾ قَالُوا بَلْ لَرَّ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكَ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْمْ قَوْمًا طَالِسِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَلذَّاهِقُونَ ﴿٢١﴾ فَاقْتُلُوهُمْ إِنَّا كُنَّا غَوِيُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَتَاهُمُ يَوْمَئِذٍ مِنَ الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّا كَذَلِكَ فَعَلْنَا بِالْعَجَرِيِّينَ ﴿٢٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَقُولُوا إِنَّا تَأَوَّكُوا بِالْهَيْبَةِ لِشَاعِي تَجَنُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ جَاءَهُمُ الْخَوْفُ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٧﴾ إِنَّكَ لَلذَّاهِقُونَ ﴿٢٨﴾ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٢٩﴾ وَمَا تَجَزَّوْنَ إِلَّا مَا كُنْمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٣١﴾ أُولَئِكَ هُمْ رِزْقُ تَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ فَوَكَّدَ لَهُمْ تَكْرِمُونَ ﴿٣٣﴾ فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ عَلَى ثُرَيْرٍ مُتَقِيلِينَ ﴿٣٥﴾ يَلْبَثُ عَلَيْهِمْ بِكَاسٍ مِنْ مَّيْمِينٍ ﴿٣٦﴾ بَيْتَةً لَذَّةً لِلشَّيْرِيِّينَ ﴿٣٧﴾ لَا فِيهَا عَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْفَكُونَ ﴿٣٨﴾ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِزٌّ ﴿٣٩﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مُكْنُونٌ ﴿٤٠﴾

قوله: «وَقَالُوا يَا ويلنا» أي: قال أولئك المبعوثون لما عابوا البيعة الذي كانوا يكذبون به في الدنيا: يا ويلنا، دعوا بالويل على أنفسهم. قال الزجاج: الويل كلمة يقولها القائل وقت الهلكة، وقال الفراء: إن أصله يا وي لنا، ووي بمعنى: الحزن كانه قال: يا حزن لنا. قال النحاس: ولو كان كما قال لكان منفصلاً، وهو في المصحف متصل، ولا نعلم أحداً يكتبه إلا متصلاً، وجملة «هَذَا يَوْمَ الدِّينِ» تحليل لدعائهم بالويل على أنفسهم، والدين الجزاء، فكانتهم قالوا: هذا اليوم الذي نجازي فيه بأعمالنا من الكفر، والتكذيب للرسول، فأجاب عليهم الملائكة بقولهم: «هَذَا يَوْمَ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْكُمْ بِهِ تَكْنُبُونَ»، ويجوز أن يكون هذا من قول بعضهم لبعض، والفصل الحكم، والقضاء؛ لأنه يفصل فيه بين المحسن، والمسيء، وقوله: «لِحَشْرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ» هو أمر من الله سبحانه للملائكة بأن يحشروا المشركين، وأزواجهم، وهم: أشباههم في الشرك، والمتابعون لهم في الكفر، والمشايعة لهم في تكذيب الرسل، كذا قال قتادة، وأبو العالية. وقال الحسن، ومجاهد: المراد بأزواجهم: نسائهم المشركات الموافقات لهم على الكفر، والظلم. وقال الضحاك: أزواجهم قرنائهم من الشياطين يحشر كل كافر مع شيطانه، وبه قال مقاتل «وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ» من الأصنام، والشياطين، وهذا العموم المستفاد من ما الموصولة، فإنها عبارة عن المعبودين، لا عن العابدین كما قيل مخصوص، لأن من طوائف الكفار من عبد المسيح، ومنهم من عبد الملائكة، فيخرجون بقوله: «إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ الْحَسَنِ أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ» [الأنبياء: 101]، ووجه حشر الأصنام مع كونها جمادات لا تعقل هو زيادة التبيكيت لعابديها، وتخجيلهم، وإظهار أنها لا تنفع، ولا تضر «فَاهْبُتْهُمْ إِلَى صَرَاطِ الْجَحِيمِ» أي: عرّفوا هؤلاء

حتى ننقلكم عن الإيمان إلى الكفر بل كنتم من الأصل على الكفر، فاقمتم عليه ﴿وما كان لنا عليكم من سلطان﴾ من تسلط بقهر، وغلبة حتى ندخلكم في الإيمان، ونخرجكم من الكفر ﴿بل كنتم قوماً طاغين﴾ أي: متجاوزين الحد في الكفر، والضلال، وقوله: ﴿فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون﴾ من قول المتبوعين أي: وجب علينا، وعليكم، ولزمنا قول ربنا، يعنون قوله تعالى: ﴿لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين﴾ [ص: 85] إنا لذائقو العذاب أي: إنا جميعاً لذائقو العذاب الذي ورد به الوعيد. قال الزجاج: أي: إن المضل، والضال في النار ﴿فاغويناكم﴾ أي: أضللناكم عن الهدى، ودعوناكم إلى ما كنا فيه من الغي، وزينا لكم ما كنتم عليه من الكفر ﴿إنا كنا غاوين﴾ فلا عتب علينا في تعرضنا لإغوائكم، لانا أردنا أن تكونوا أمثالنا في الغواية؛ ومعنى الآية: أقدمنا على إغوائكم لانا كنا موصوفين في أنفسنا بالغواية، فاقترأوا ها هنا باتهم تسبوا لإغوائهم، لكن لا بطريق القهر، والغلبة، ونفاو عن أنفسهم فيما سبق أنهم قهروهم، وغلبوهم، فقالوا: ﴿وما كان لنا عليكم من سلطان﴾ ثم أخبر الله سبحانه عن الاتباع، والمتبوعين بقوله: ﴿فإنهم يومئذ في العذاب مشتركون﴾ كما كانوا مشتركين في الغواية ﴿إنا كذلك نفعل بالمجرمين﴾ أي: إنا نفعل مثل ذلك الفعل بالمجرمين أي: أهل الإجرام، وهم المشركون كما يفيدته قوله سبحانه: ﴿إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون﴾ أي: إذا قيل لهم: قولوا: لا إله إلا الله يستكبرون عن القبول، ومحل يستكبرون النصب على أنه خبر كان، أو الرفع على أنه خبر إن، وكان ملغاة ﴿ويقولون إنا لنتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون﴾ يعنون: النبي ﷺ أي: لقول شاعر مجنون، فرد الله سبحانه عليهم بقوله: ﴿بل جاء بالحق﴾ يعني: القرآن المشتمل على التوحيد، والوعد، والوعيد ﴿وصنق المرسلين﴾ أي: صنقهم فيما جاءوا به من التوحيد، والوعد، وإثبات الدار الآخرة، ولم يخالفهم، ولا جاء بشيء لم تات به الرسل قبله ﴿إنكم لذائقوا العذاب الأليم﴾ أي: إنكم بسبب شرككم، وتكذيبكم لذائقوا العذاب الشديد الأليم. قرأ الجمهور (لذائقوا) بحذف النون، وخفض العذاب، وقرأ أبان بن ثعلب عن عاصم، وأبو السماك بحذفها، ونصب العذاب، وأنشد سيبويه في مثل هذه القراءة بالحذف للنون، والنصب للعذاب قول الشاعر:

فالفيتة غير مستعتب ولا ذاكره إلا قليلاً
ولجاز سيبويه أيضاً ﴿والمقيمي الصلاة﴾ [الحج: 35] بنصب الصلاة على هذا التوجيه. وقد قرئ بإثبات النون، ونصب العذاب على الأصل. ثم بين سبحانه: أن ما ناقوه من العذاب ليس إلا بسبب أعمالهم، فقال: ﴿وما تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾ أي: إلا جزاء ما كنتم تعملون من الكفر، والمعاصي، أو إلا بما كنتم تعملون. ثم استثنى المؤمنين فقال: ﴿إلا عباد الله المخلصين﴾. قرأ أهل المدينة، والكوفة

المحشورين طريق النار، وسوقوهم إليها، يقال: هديته الطريق، وهديته إليها أي: دللته عليها، وفي هذا تهكم بهم ﴿وقفوههم إنهم مسؤولون﴾ أي: أحبسوهم، يقال: وقفت الدابة أقفها وقفاً، وقفت هي وقوفاً يتعدى، ولا يتعدى، وهذا الحبس لهم يكون قبل السوق إلى جهنم أي: وقفوههم للحساب، ثم سوقوهم إلى النار بعد ذلك، وجملة ﴿إنهم مسؤولون﴾ تعليل للجملة الأولى. قال الكلبي: أي: مسؤولون عن أعمالهم وأقوالهم وأفعالهم. وقال الضحاك: عن خطاياهم، وقيل: عن لا إله إلا الله، وقيل: عن ظلم العباد، وقيل: هذا السؤال هو المذكور بعد هذا بقوله: ﴿ما لكم لا تناصرون﴾ أي: أي شيء لكم لا ينصر بعضكم بعضاً كما كنتم في الدنيا، وهذا توبيخ لهم، وتقريع وتهكم بهم، وأصله تنتاصرون فطرح إحدى التامين تخفيفاً. قرأ الجمهور (إنهم مسؤولون) بكسر الهمزة، وقرأ عيسى بن عمر بفتحها. قال الكسائي: أي: لأنهم، أو باتهم، وقيل: الإشارة بقوله: ﴿ما لكم لا تناصرون﴾ إلى قول أبي جهل يوم بدر: ﴿نحن جميع منتصر﴾ [القمر: 44]، ثم أضرب سبحانه عما تقدم إلى بيان الحالة التي هم عليها هنالك، فقال: ﴿بل هم اليوم مستسلمون﴾ أي: متقادون لعجزهم عن الحيلة. قال قتادة: مستسلمون في عذاب الله. وقال الأخفش: ملقون بأيديهم، يقال: استسلم للشيء: إذا انقاد له وخضع ﴿واقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾ أي: أقبل بعض الكفار على بعض يتساءلون. قيل: هم الاتباع، والرؤساء يسأل بعضهم بعضاً سؤال توبيخ وتقريع ومخاصمة. وقال مجاهد: هو قول الكفار للشياطين. وقال قتادة: هو قول الإنس للجن، والأول أولى لقوله: ﴿قالوا إنكم كنتم تاتوننا عن اليمين﴾ أي: كنتم تاتوننا في الدنيا عن اليمين أي: من جهة الحق، والدين، والطاعة، وتصدنونا عنها. قال الزجاج: كنتم تاتوننا من قبل الدين، فتروننا أن الدين، والحق ما تضلوننا به، واليمين عبارة عن الحق، وهذا كقوله تعالى إخباراً عن إبليس: ﴿ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن إيمانهم﴾ [الأعراف: 17] قال الواحدي: قال أهل المعاني: إن الرؤساء كانوا قد حلفوا لهؤلاء الاتباع أن ما يدعونهم إليه هو الحق، فوثقوا بأيمانهم؛ فمعنى ﴿تاتوننا عن اليمين﴾ أي: من ناحية الإيمان التي كنتم تحلفونها، فوثقنا بها. قال: والمفسرون على القول الأول. وقيل: المعنى: تاتوننا عن اليمين التي نحبها، ونتفأل بها؛ لغرورنا بذلك عن جهة النصع، والعرب تتفأل بما جاء عن اليمين، وتسميه السانح. وقيل: اليمين بمعنى: القوة؛ أي: تمنعوننا بقوة، وغلبة، وقهر كما في قوله: ﴿فراغ عليهم ضرباً باليمين﴾ [الصفافات: 93] أي: بالقوة، وهذه الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر، وكذلك جملة ﴿قالوا بل لم تكونوا مؤمنين﴾ فإنها مستأنفة جواب سؤال مقدر؛ والمعنى: أنه قال الرؤساء، أو الشياطين لهؤلاء القائلين: كنتم تاتوننا عن اليمين بل لم تكونوا مؤمنين، ولم نمنعكم من الإيمان. والمعنى: إنكم لم تكونوا مؤمنين قط

اللبن له لذة لذيذة، يقال: شراب لذة، ولذيذ كما يقال: نبات غَضٌّ وغضيض، ومنه قول الشاعر:

بحديثها للذ الذي لو كلمت أسد الفلاة به أتيت سرعاً
واللذيذ: كل شيء مستطاب، وقيل: البياض هي: التي لم يعتصرها الرجال. ثم وصف هذه الكأس من الخمر بغير ما يتصف به خمر الدنيا، فقال: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ أي: لا تغتال عقولهم، فتذهب بها، ولا يصيبهم منها مرض، ولا صداع ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ أي: يسكرون يقال: نَزَفَ الشارب، فهو منزوف، ونزيف إذا سكر، ومنه قول امرئ القيس:
وإذا هي تمشي كمشي النزيه ف يصصره بالكسب البهر
وقال أيضاً:

نزيف إذا قامت لوجه تمايلت

ومنه قول الآخر:

فلثمت فاهاً أخذاً بقرونها شرب النزيف ببرد ماء الحشرج
قال الفراء: العرب تقول: ليس فيها غيلة، وغائلة، وغول سواء. وقال أبو عبيدة: الغول أن تغتال عقولهم، وأنشد قول مطيع بن إياس:

وما زالت الكأس تغتالهم وتذهب بالآل الأول الأول
وقال الواحدي: الغول حقيقته الإهلاك، يقال: غاله غولاً، واغتاله أي: أهلكه، والغول كل ما اغتالك أي: أهلكك. قرأ الجمهور (ينزفون) بضم الياء، وفتح الزاي مبنياً للمفعول. وقرأ حمزة، والكسائي بضم الياء، وكسر الزاي من أنزف الرجل: إذا ذهب عقله من السكر فهو: نزيف، ومنزوف، ومنزف، يقال: أحصد الزرع: إذا حان حصاده، وأقطف الكرم: إذا حان قطافه. قال الفراء: من كسر الزاي، فله معنيان، يقال: أنزف الرجل: إذا فنيته خمره، وأنزف: إذا ذهب عقله من السكر، وتحمل هذه القراءة على معنى: لا ينفذ شرايهم لزيادة الفائدة. قال النحاس: والقراءة الأولى أبين، وأصح في المعنى، لأن معنى لا ينزفون عند جمهور المفسرين: لا تذهب عقولهم، فنفي الله عز وجل عن خمر الجنة الآفات التي تلحق في الدنيا من خمرها من الصداع، والسكر. وقال الزجاج، وأبو علي الفارسي: معنى لا ينزفون بكسر الزاي: لا يسكرون. قال المهدوي: لا يكون معنى ينزفون: يسكرون، لأن قبله ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ أي: لا تغتال عقولهم، فيكون تكريراً، وهذا يقوي ما قاله قتادة: إن الغول وجع البطن، وكذا روى ابن أبي نجيع عن مجاهد. وقال الحسن: إن الغول الصداع. وقال ابن كيسان: هو: المقص، فيكون معنى الآية: لا فيها نوع من أنواع الفساد المصاحبة لشرب الخمر في الدنيا من مقص، أو وجع بطن، أو صداع، أو عريضة، أو لغو، أو تأثيم، ولا هم يسكرون منها. ويؤيد هذا أن أصل الغول الفساد الذي يلحق في خفاء، يقال: اغتاله اغتيالاً: إذا أقسد عليه أمره في خفية، ومنه الغول، والغيلة القتل خفية. وقرأ ابن أبي إسحاق (ينزفون) بفتح الياء، وكسر الزاي. وقرأ طلحة بن مصرف بفتح الياء بضم الزاي. ولما نكر سبحانه صفة مشروبهم ذكر عقبه صفة منكرهم، فقال: ﴿وَعندهم

(المخلصين) بفتح اللام أي: الذين أخلصهم الله لطاعته، وتوحيده. وقرأ الباقون بكسرها أي: الذين أخلصوا الله العبادة، والتوحيد، والاستثناء إما متصل على تقدير تعميم الخطاب في تجزئ لجميع المكلفين. أو منقطع أي: لكن عباد الله المخلصين لا ينزفون العذاب، والإشارة بقوله: ﴿أولئك﴾ إلى المخلصين، وهو: مبتدأ، وخبره قوله: ﴿لهم رزق معلوم﴾ أي: لهؤلاء المخلصين رزق يرزقهم الله إياه معلوم في حسنه، وطيبه، وعدم انقطاعه. قال قتادة: يعني: الجنة، وقيل: معلوم الوقت، وهو أن يعطوا منه بكرة، وعشية كما في قوله: ﴿ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا﴾ [مريم: 62] وقيل: هو المذكور في قوله بعده: ﴿فواكه﴾ فإنه بدل من رزق، أو خير مبتدأ محذوف أي: هو فواكه، وهذا هو الظاهر. والفواكه جمع الفاكهة، وهي: الثمار كلها رطيبها، ويابسها، وخصص للفواكه بالذكر: لأن أرزاق أهل الجنة كلها فواكه كذا قيل. والأولى أن يقال: إن تخصيصها بالذكر: لأنها أطيب ما ياكلونه، والذ ما تشتهيهم أنفسهم. وقيل: إن الفواكه من اتباع سائر الأطعمة، فنكرها يغني عن نكر غيرها، وجملة ﴿وهم مكرمون﴾ في محل نصب على الحال أي: ولهم من الله عز وجل إكرام عظيم برفع درجاتهم عنده، وسماع كلامه، ولقائه في الجنة. قرأ الجمهور (مكرمون) بتخفيف الراء. وقرأ أبو مقسم بتشديد الراء، وقوله: ﴿في جنات النعيم﴾ يجوز أن يتعلق بمكرمون، وأن يكون خبراً ثانياً، وأن يكون حالاً، وقوله: ﴿على سرر﴾ يحتمل أن يكون حالاً، وأن يكون خبراً ثالثاً، وانتصاب ﴿مقابلين﴾ على الحالية من الضمير في مكرمون، أو من الضمير في متعلق على سرر. قال عكرمة، ومجاهد: معنى التقابل: أنه لا ينظر بعضهم في قفا بعض، وقيل: إنها تنور بهم الأسرة كيف شاءوا، فلا يرى بعضهم قفا بعض. قرأ الجمهور (سرر) بضم الراء. وقرأ أبو السماك بفتحها، وهي لغة بعض تميم. ثم نكر سبحانه صفة أخرى لهم، فقال: ﴿يطاف عليهم بكأس من معين﴾، ويجوز أن تكون هذه الجملة مستأنفة جواباً عن سؤال مقتر، ويجوز أن تكون في محل نصب على الحال من ضمير مقابلين، والكأس عند أهل اللغة اسم شامل لكل إناء فيه الشراب، فإن كان فارغاً، فليس بكأس. وقال الضحاك، والسدي: كل كأس في القرآن، فهي الخمر. قال النحاس: وحكى من يوثق به من أهل اللغة: أن العرب تقول للقدح إذا كان فيه خمر: كأس، فإذا لم يكن فيه خمر، فهو قدح كما يقال للخوان إذا كان عليه طعام: مائدة، فإذا لم يكن عليه طعام: لم يقل له مائدة، ومن معين متعلق بمحذوف هو: صفة لكأس. قال الزجاج: بكأس من معين أي: من خمر تجري كما تجري العيون على وجه الأرض. والمعين الماء الجاري، وقوله: ﴿بيضاء لذة للشاربين﴾ صفتان لكأس. قال الزجاج: أي: ذات لذة، فحذف المضاف، ويجوز أن يكون الوصف بالمصدر لقصد المبالغة في كونها لذة، فلا يحتاج إلى تقدير المضاف. قال الحسن: خمر الجنة أشد بياضاً من

والترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مروي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من داع دعا إلى شيء إلا كان موقفاً معه يوم القيامة لازماً به لا يفارقه، وإن دعا رجل رجلاً، ثم قرأ ﴿وَقَوْمَهُمْ إِنْهُمْ مَسْئُولُونَ﴾». وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَقْبِلْ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ قال: ذلك إذا بعثوا في النفخة الثانية. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مروي عنه في قوله: ﴿كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ قال: كانوا إذا لم يشرك بالله يستنكفون، ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهَتَنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾ لا يعقل، قال: فحكى الله صديقه، فقال: ﴿بَلْ جَاء بِالْحَقِّ وَصْنَقَ لِلْمُرْسَلِينَ﴾. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مروي، والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله، فقد عصم مني ماله، ونفسه إلا بحقه، وحسابه على الله». وأنزل الله في كتابه، وذكر قوماً استكبروا، فقال: ﴿إِنْهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾، وقال: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح: 26] وهي: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» استكبر عنها المشركون يوم الحديبية يوم كاتبهم رسول الله ﷺ على قضية المدة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في البعث عن ابن عباس في قوله: ﴿يُنَاطَفُ عَلَيْهِمْ بِكَاسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾ قال: الخمر «لا فيها غول» قال: ليس فيها صدام «ولا هم عنها ينزفون» قال: لا تذهب عقولهم. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مروي عنه قال: في الخمر أربع خصال: السكر، والصداع، والقيء، والبول، فنزله الله خمر الجنة عنها، فقال: ﴿لا فيها غول﴾ لا تغول عقولهم من السكر «ولا هم عنها ينزفون» قال: يقيثون عنها كما يقيء صاحب خمر الدنيا عنها. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس «لا فيها غول» قال: هي الخمر ليس فيها وجع بطن. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في البعث عنه أيضاً في قوله: ﴿وَعندهم قاصرات الطرف﴾ يقول: من غير أزواجهن «كانهن بيض مكنون» قال: اللؤلؤ المكنون. وأخرج ابن المنذر عنه في قوله: ﴿كانهن بيض مكنون﴾ قال: بياض البيضة ينزع عنها فوقها، وغشائها.

فَأَقْبِلْ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَسْتَأْذِنُونَ ﴿١٠٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿١٠١﴾ يَقُولُ أَهَؤُلَاءِ لَيْسَ السَّمِيعُ ﴿١٠٢﴾ أَهَؤُلَاءِ سِنَاءُ رَبِّكَ وَرَبُّكَ وَرَبُّكَ وَمَعَلْنَا أَدْنَى لَتَكِيدُونَ ﴿١٠٣﴾ قَالَ هَلْ أُشْرِكُ بِمُطْلَبُونَ ﴿١٠٤﴾ فَأَطْلَعَ قَرْنَاهُ فِي سَوَاءِ الْحَجِيرِ ﴿١٠٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدَتْ لَتَكِيدُونَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْلَا رَحْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضَرِّينَ ﴿١٠٧﴾ أَمْأَنَّا عَنْ يَمِينَيْهِ ﴿١٠٨﴾ إِلَّا مَرْثَنَّا الْأَوَّلَى وَمَا عَنْ يَمِينَيْهِ ﴿١٠٩﴾ إِنَّ هَذَا لَمَوْ أَلْفَرَزُ الْقَطِمْ ﴿١١٠﴾ لِيُنْزِلَ هَذَا قَلْبَهُ لِلْعَمَلِ الْمَمْلُوكِ ﴿١١١﴾ أَذَلِكَ خَيْرٌ تُزَلُّونَ

قاصرات الطرف﴾ أي: نساء قصرن طرفهن على أزواجهن، فلا يربن غيرهم، والقصر معناه الحبس، ومنه قول امرئ القيس:

من القاصرات الطرف لودب محول من النذر فوق الأتب منها لأثرا والمحول الصغير من النذر، والأتب القميص، وقيل: القاصرات: المحبوسات على أزواجهن، والأول أولى؛ لأنه قال: قاصرات الطرف. ولم يقل: مقصورات. والعين عظام العيون جمع عيناء، وهي: الواسعة العين. قال الزجاج: معنى «عين» كبار الأعين حسناها. وقال مجاهد: العين حسان العيون. وقال الحسن: هن: الشديديات بياض العين الشديديات سوادها. والأول أولى «كانهن بيض مكنون» قال الحسن، وأبو زيد: شبههن ببيض النعام تكتمها للنعام بالريش من الريح، والغبار. فلو أنه أبيض في صفره، وهو أحسن ألوان النساء. وقال سعيد بن جبير، والسدي: شبههن ببطن البيض قبل أن يقشر، وتمسه الأيدي، وبه قال ابن جرير، ومنه قول امرئ القيس:

وبيضة خدر لا يرام خبائها تمتعت من لهو بها غير معجل قال المبرد: وتقول العرب إذا وصفت الشيء بالحسن، والنظافة كأنه بيض النعام المغطى بالريش. وقيل: المكنون: المصون عن الكسر أي: إنهن عذاري. وقيل: المراد بالبيض اللؤلؤ كما في قوله: ﴿وحوار عين﴾ * كأمثال اللؤلؤ المكنون﴾ [الواقعة: 22، 23] ومثله قول الشاعر:

وهي بيضاء مثل لؤلؤة الغوا ص ميزت من جوهر مكنون والأول أولى، وإنما قال: مكنون، ولم يقل: مكنونات؛ لأنه وصف البيض باعتبار اللفظ.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿لِحَشْرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ قال: تقول الملائكة للزبانية هذا القول. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وابن أبي شيبة، وابن منيع في مسنده، وعبد بن حميد، وابن جرير وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مروي، والبيهقي في البعث من طريق النعمان بن بشير، عن عمر بن الخطاب في قوله: ﴿لِحَشْرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ قال: أمثالهم الذين هم مثلهم: يجيء أصحاب الرِّبَا مع أصحاب الرِّبَا، وأصحاب الرِّبَا مع أصحاب الرِّبَا، وأصحاب الخمر مع أصحاب الخمر، أزواج في الجنة، وأزواج في النار. وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في البعث عن ابن عباس في قوله:

﴿لِحَشْرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ قال: أشباههم، وفي لفظ: نظراءهم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿فَاهْمُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ قال: وجهوم، وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً في الآية قال: دلوم ﴿إلى صراط الجحيم﴾ قال: طريق النار. وأخرج عنه أيضاً في قوله: ﴿وَقَوْمَهُمْ إِنْهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ قال: أحبسوهم إنهم محاسبون. وأخرج البخاري في تاريخه، والدارمي،

صار يحدث أصحابه في الجنة بما قال له قرينه في الدنيا، فرأى قرينه في وسط الجحيم. قال الزجاج: سواء كل شيء وسطه. قرأ الجمهور (مطلعون) بتشديد الطاء مفتوحة، وفتح النون، فاطلع ماضياً مبنياً للفاعل من الطلوع. وقرأ ابن عباس، ورويت هذه القراءة عن أبي عمرو مطلعون بسكون الطاء، وفتح النون (فاطلع) بقطع الهمزة مضمومة، وكسر اللام ماضياً مبنياً للمفعول. قال النحاس: فاطلع فيه قولان على هذه القراءة أحدهما: أن يكون فعلاً مستقبلاً أي: فاطلع أنا، ويكون منصوباً على أنه جواب الاستفهام، والقول الثاني: أن يكون فعلاً ماضياً، وقرأ حماد بن أبي عمار (مطلعون) بتخفيف الطاء، وكسر النون، فاطلع مبنياً للمفعول، وأنكر هذه القراءة أبو حاتم، وغيره. قال النحاس: هي: لحن، لأنه لا يجوز الجمع بين النون، والإضافة، ولو كان مضافاً لقال: هل أنتم مطلعي، وإن كان سيبويه، والفراء قد حكيا مثله، وأنشدا:

هم للقائلون الخير والأمرونه إذا ما خشوا من محدث الدهر معظما
ولكنه شاذ خارج عن كلام العرب ﴿قال تالله إن كنت لتردين﴾ أي: قال ذلك الذي من أهل الجنة لما أطلع على قرينه، ورآه في النار: تالله إن كنت لتردين أي: لتهلكني بالإغواء. قال الكسائي: لتردين لتهلكني، والردي الهلاك. قال المبرد: لو قيل: لتردين لتوقعني في النار لكان جائزاً. قال مقاتل: المعنى: والله لقد كنت أن تغويني، فأنزل منزلتك، والمعنى متقارب، فمن أغوى إنساناً، فقد أهلكه ﴿ولو لا نعمة ربي لكنت من المحضرين﴾ أي: لو لا رحمة ربي، وإنعامه عليّ بالإسلام، وهديتي إلى الحق، وعصمتي عن الضلال لكنت من المحضرين معك في النار. قال الفراء: أي: لكنت معك في النار محضراً. قال الماوردي: وأحضر لا يستعمل إلا في الشر. ولما تم كلامه مع ذلك القرين الذي هو في النار عاد إلى مخاطبة جلسائه من أهل الجنة، فقال: ﴿انما نحن بميتين﴾، والهمزة للاستفهام التقريري، وفيها معنى: التعجب، والفاء للعطف على محذوف كما في نظائره أي: نحن مخلدون منعمون، فما نحن بميتين ﴿إلا موتنا الأولى﴾ التي كانت في الدنيا، وقوله هذا كان على طريقة الابتهاج، والسرور بما أنعم الله عليهم من نعيم الجنة الذي لا ينقطع، وأنهم مخلدون لا يموتون أبداً، وقوله: ﴿وما نحن بمعنيين﴾ هو من تمام كلامه أي: وما نحن بمعنيين كما يعذب الكفار. ثم قال مشيراً إلى ما هم فيه من النعيم: ﴿إن هذا لهو الفوز العظيم﴾ أي: إن هذا الأمر العظيم، والنعيم المقيم، والخلود الدائم الذي نحن فيه لهو الفوز العظيم الذي لا يقاقر قدره، ولا يمكن الإحاطة بوصفه، وقوله: ﴿لمثل هذا فليعمل العاملون﴾ من تمام كلامه أي: لمثل هذا العطاء، والفضل العظيم، فليعمل العاملون، فإن هذه هي التجارة الربحية، لا العمل للدنيا الزائلة، فإنها صفقة خاسرة نعيمها منقطع، وخيرها زائل، وصاحبها عن قريب منها راحل. وقيل: إن هذا من قول الله سبحانه، وقيل: من قول الملائكة، والأول

سَجَرَةُ الزُّرَّمِ ﴿١٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا نَشْئَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّهَا سَجَرَةٌ تُزْمَجُ فِي أَسَلٍ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ مَلَأْنَاهَا كَأَثَمَ رُءُوسِ الشَّجَرِطِينَ ﴿١٩﴾ فَأَتَتْهُمُ لِأَكْوَثِهَا مِنَّا قَتَارٌ وَمِنَّا الْبَطُونُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوَكًا مِنْ جَبَرٍ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ مَرْغَمَهُمْ لِأَوَّلِ الْبَحْرِ ﴿٢٢﴾ إِنَّهُمْ أَلْقَوْا عَابَةً مَرُّ سَالِينَ ﴿٢٣﴾ فَهُمْ عَلَى مَائِدَةٍ مَرْغُورٍ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٢٦﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴿٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٨﴾

قوله: ﴿فاقبل بعضهم على بعض يتسائلون﴾ معطوف على يطاف أي: يسال هذا ذاك، وذاك هذا حال شربهم عن أحوالهم التي كانت في الدنيا، وذلك من تمام نعيم الجنة، والتقدير: فيقبل بعضهم على بعض، وإنما عبر عنه بالماضي للدلالة على تحقق وقوعه ﴿قال قائل منهم﴾ أي: قال قائل من أهل الجنة في حال إقبال بعضهم على بعض بالحديث، وسؤال بعضهم لبعض ﴿إني كان لي قرين﴾ أي: صاحب ملازم لي في الدنيا كافر بالبعث منكر له كما يدل عليه قوله: ﴿أئنك لمن المصنفين﴾ يعني: بالبعث، والجزاء، وهذا الاستفهام من القرين لتوبيخ ذلك المؤمن، وتبكيته بإيمانه، وتصديقه بما وعد الله به من البعث، وكان هذا القول منه في الدنيا، ثم نكر ما يدل على الاستبعاد للبعث عنده، وفي زعمه، فقال: ﴿عإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً إنا لمبينون﴾ أي: مجزيون بأعمالنا، ومحاسبون بها بعد أن صرنا تراباً، وعظاماً، وقيل: معنى مبدئون: مسوسون، يقال دانه: إذا ساسه. قال سعيد بن جبير: قرينه شريكه، وقيل: أراد بالقرين الشيطان الذي يقارنه، وأنه كان يوسوس إليه بإنكار البعث، وقد مضى نكر قصتهما في سورة الكهف، والاختلاف في اسميهما، قرأ الجمهور (لمن المصنفين) بتخفيف الصاد من التصديق أي: لمن المصنفين بالبعث، وقرأ بتشديدها، ولا أدري من قرأ بها، ومعناها بعيد؛ لأنها من التصنق لا من التصديق، ويمكن تأويلها بأنه أنكر عليه التصنق بماله لطلب الثواب، ولعل ذلك باستبعاد البعث.

وقد اختلف القراء في هذه الاستفهامات الثلاثة، فقرأ نافع الأولى، والثانية بالاستفهام بهمزة، والثالثة بكسر الألف من غير استفهام، ووافقه الكسائي إلا أنه يستفهم الثالثة بهمزتين، وابن عامر الأولى، والثالثة بهمزتين، والثانية بكسر الألف من غير استفهام، والباقيون بالاستفهام في جميعها. ثم اختلفوا، فابن كثير يستفهم بهمزة واحدة غير مطولة، وبعده ساكنة خفيفة، وأبو عمرو مطولة، وعاصم، وحمزة بهمزتين ﴿قال هل أنتم مطلعون﴾ لقائل هو المؤمن الذي في الجنة بعد ما حكى لجلسائه فيها ما قاله له قرينه في الدنيا أي: هل أنتم مطلعون إلى أهل النار؛ لاريكم ذلك القرين الذي قال لي تلك المقالة كيف منزلته في النار؟ قال ابن الأعرابي: والاستفهام هو: بمعنى الأمر أي: اطلعوا، وقيل القائل: هو الله سبحانه، وقيل: الملائكة، والأول أولى ﴿فاطلع فرآه في سواء الجحيم﴾ أي: فاطلع على النار ذلك المؤمن الذي

أولى. قرأ الجمهور (بميتين)، وقرأ زيد بن علي (بمايتين)، وانتصاب إلا موصلة على المصيرية، والاستثناء مفرغ، ويجوز أن يكون الاستثناء منقطعاً. أي: لكن الموتة الأولى التي كانت في الدنيا ﴿أَنْتَ خَيْرُ نَزْلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُومِ﴾ الإشارة بقوله ذلك إلى ما نكره من نعيم الجنة، وهو: مبتدأ، وخبره خير، ونزلاً تمييز، والنزل في اللغة الرزق الذي يصلح أن ينزلوا معه، ويقوموا فيه، والخيرية بالنسبة إلى ما اختاره الكفار على غيره. قال الزجاج: المعنى: أنت خير في باب الإنزال التي يبقون بها نزلاً، أم نزل أهل النار، وهو قوله: ﴿أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُومِ﴾، وهو ما يكره تناوله قال الواحدي: وهو شيء مَرَّ كَرِهَ يكره أهل النار على تناوله، فهم يتزقموه، وهي على هذا مشتقة من التزقم، وهو البلع على جهد لكرهاتها، وتنتها. واختلف فيها هل هي من شجر الدنيا التي يعرفها العرب أم لا على قولين: أحدهما: أنها معروفة من شجر الدنيا؛ فقال قطرب: إنها شجرة مرة تكون بتهامة من أخبث الشجر. وقال غيره: بل هو كل نبات قاتل. القول الثاني: أنها غير معروفة في شجر الدنيا. قال قتادة: لما نكر الله هذه الشجرة افتتن بها الظلمة، فقالوا: كيف تكون في النار شجرة. فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ قال الزجاج: حين افتتنوا بها، وكنبوا بوجودها. وقيل: معنى جعلها فتنه لهم: أنها محنة لهم لكونهم يعذبون بها، والمراد بالظالمين هنا: الكفار، أو أهل المعاصي الموجبة للنار، ثم بين سبحانه أوصاف هذه الشجرة رداً على منكرها، فقال: ﴿إِنهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ أي: في قعرها، قال الحسن: أصلها في قعر جهنم، وأغصانها ترفع إلى دركاتها، ثم قال: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رَئُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ أي: ثمرها، وما تحمله كأنه في تنامي قبعة، وشناعة منظره رؤوس الشياطين، فشبّه المحسوس بالمتخيل، وإن كان غير مرئي للدلالة على أنه غاية في القبح كما تقول في تشبيه من يستقبحونه: كأنه شيطان، وفي تشبيه من يستحسنونه: كأنه ملك، كما في قوله: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: 31]، ومنه قول امرئ القيس:

أيقنلني والمشرفي مضاجعي ومسنونة زرق كانيب أغوال

وقال الزجاج، والفراء: الشياطين حيات لها رؤوس، وأعراف، وهي من أبقح الحيات، وأخبثها، وأخفها جسماً. وقيل: إن رؤوس الشياطين اسم لأبغ قبيح معروف باليمن يقال له: الأسنن، ويقال له: الشيطان. قال النحاس: وليس ذلك معروفاً عند العرب. وقيل: هو شجر خشن منتن مَرَّ منكر الصورة يسمى ثمره رؤوس الشياطين ﴿فَإِنَّمَا لَكُمْ لَوْنٌ مِنْهَا﴾ أي: من الشجرة، أو من طلعها، والتأنيث لاكتساب الطلع التأنيث من إضافته إلى الشجرة ﴿فَمَالَتْهُنَّ مِنْهَا لِبَطُونَ﴾ وذلك أنهم يكرهون على أكلها حتى تمتلئ بطونهم، فهذا طعامهم، وفلكتهم بدل رزق أهل الجنة ﴿ثُمَّ إِنْ لَهُمْ عَلَيْهَا﴾ بعد الأكل منها ﴿الشُّوبَةُ مِنْ حَمِيمٍ﴾

الشوب الخلط. قال الفراء: يقال: شاب طعامه، وشرابه: إذا خلطهما بشيء يشوبهما شوباً وشيابة، والحميم الماء الحار. فأخبر سبحانه: أنه يشاب لهم طعامهم من تلك الشجرة بالماء الحار، ليكون أقطع لعذابهم، وأشنع لحالهم كما في قوله: ﴿وَسَقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاهُمْ﴾ [محمد: 15] قرأ الجمهور (شوباً) بفتح الشين، وهو: مصدر، وقرأ شيبان النحوي بالضم. قال الزجاج: المفتوح مصدر، والمضموم اسم بمعنى: المشوب، كالنقص بمعنى: المنقوص ﴿ثُمَّ إِنْ مَرَجَعَهُمْ إِلَى الْجَحِيمِ﴾ أي: مرجعهم بعد شرب الحميم، وكل الزقوم إلى الجحيم، وذلك أنهم يوردون الحميم لشربه، وهو خارج الجحيم كما تورد الإبل، ثم يردون إلى الجحيم كما في قوله سبحانه: ﴿يُطَوَّفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ أَنْ﴾ [الرحمن: 44]، وقيل: إن الزقوم، والحميم نزل يقدم إليهم قبل دخولها. قال أبو عبيدة: ثم بمعنى: الواو، وقرأ ابن مسعود (ثم إن مقيلهم لا إلى الجحيم)، وجملة ﴿إِنَّهُمْ الْفَوَا﴾ أي: وجدوا ﴿أَبَاءَهُمْ ضَالِينَ﴾ تعليل لاستحقاقهم ما تقدم نكره أي: صافوهم كذلك، فاقتنوا بهم تقليداً، وضلالة لا لحجة أصلاً ﴿فَهُمْ عَلَى أَنَارِهِمْ يَهْرَعُونَ﴾ الإهرع الإسراع. قال الفراء: الإهرع الإسراع برعدة. وقال أبو عبيدة: يهرعون: يستحثون من خلفهم، يقال: جاء فلان يهرع إلى النار: إذا استحثه البرد إليها. وقال المفضل يزجعون من شدة الإسراع. قال الزجاج: هرع، وأهرع: إذا استحث، وانزعج، والمعنى: يتبعون آباءهم في سرعة كأنهم يزجعون إلى اتباع آبائهم ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأُولِينَ﴾ أي: ضل قبل هؤلاء المنكوريين أكثر الأولين من الأمم الماضية ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مِّنْذُرِينَ﴾ أي: أرسلنا في هؤلاء الأولين رسلاً أنذروهم العذاب، وبينوا لهم الحق، فلم ينجع ذلك فيهم ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ أي: الذين أنذرتهم الرسل، فإنهم صاروا إلى النار. قال مقاتل: يقول: كان عاقبتهم العذاب، يحذر كفار مكة، ثم استثنى عباده المؤمنين، فقال: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أي: إلا من أخلصهم الله بتوفيقهم إلى الإيمان، والتوحيد، وقرئ (المخلصين) بكسر اللام أي: الذين أخلصوا لله طاعاتهم، ولم يشوبوها بشيء مما يغيرها.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وهناد، وابن المنذر عن ابن مسعود في قوله: ﴿فَاطْلُعْ فَرَأَهُ فِي سَوَاءٍ الْجَحِيمِ﴾ قال: اطلع، ثم التفت إلى أصحابه، فقال: لقد رأيت جماجم القوم تغلي. وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس قال: قول الله لأهل الجنة: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: 19، والمرسلات: 43] قال هنيئاً أي: لا تموتون فيها، فعند ذلك قالوا: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَعِينِينَ﴾ * إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعنيين * إن هذا لهو الفوز العظيم. قال: هذا قول الله: ﴿لَمَثَلٌ هَذَا فليعمل العاملون﴾. وأخرج ابن مريويه عن البراء بن عازب قال: «كنت أمشي مع رسول الله ﷺ يده في يدي، فرأى جنازة فأسرع المشي حتى أتى

إِزْمِيرَ ﴿٦٧﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٩﴾ وَكَذَرْتَهُ بِإِسْحَاقَ يَبْنَاقًا مِنْ الصَّالِحِينَ ﴿٧٠﴾ وَزَكَّيْنَاهُ عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا نَحْنُ وَطَالَامَ لِقَائِهِمْ مُبِيتٌ ﴿٧١﴾

لما نكر سبحانه أنه أرسل في الأمم الماضية منذرين: نكر تفصيل بعض ما أجمله، فقال: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ﴾ واللام هي: الموطئة للقسم، وكذا اللام في قوله: ﴿فَلَنُعْطِ الْمُجِيبِينَ﴾ أي: نحن، والمراد أن نوحاً دعا ربه على قومه لما عصوه، فأجاب الله دعاءه، وأهلك قومه بالطوفان. فالدعاء هنا هو: نداء الدعاء لله، والاستغاثة به، كقوله: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دِيَاراً﴾ [نوح: 26]، وقوله: ﴿إِنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ [القمر: 10] قال الكسائي أي: فلنُعْطِ الْمُجِيبُونَ لَهُ كُنَّا ﴿وَنَجِينَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ المراد بأهله: أهل دينه، وهم من آمن معه، وكانوا ثمانين، والكرْب العظيم هو: الفرق، وقيل: تكذيب قومه له، وما يصدر منهم إليه من أنواع الأذالبا ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ وحدهم دون غيرهم كما يشعر به ضمير الفصل، وذلك لأن الله أهلك الكفرة بدعائه، ولم يبق منهم باقية، ومن كان معه في السفينة من المؤمنين ماتوا كما قيل، ولم يبق إلا أولاده. قال سعيد بن المسيب: كان ولد نوح ثلاثة، والناس كلهم من ولد نوح، فسام أبو العرب، وفارس، والروم، واليهود، والنصارى. وحام أبو السودان من المشرق إلى المغرب: السند. والهند، والنوب، والزنج، والحبشة، والقبط، والبربر وغيرهم. ويافث أبو الصقالب، والترك، والخزر، ويأجوج، وماجوج وغيرهم. وقيل: إنه كان لمن مع نوح ذرية كما يدل عليه قوله: ﴿ذُرِّيَّةً مِنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ [الإسراء: 3]، وقوله: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمْسَهُمْ مِنْ آعَابِ الْيَمِّ﴾ [هود: 48]، فيكون على هذا معنى ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾، وذُرِّيَّتَهُ وَذُرِّيَّةً مِنْ مَعَهُ دُونَ ذُرِّيَّةٍ مِنْ كُفْرٍ، فإن الله أغرقهم، فلم يبق لهم ذُرِّيَّةٌ ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ يعني: في الذين ياتون بعده إلى يوم القيامة من الأمم، والمتركون هذا هو قوله: ﴿سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ﴾ أي: تركنا هذا الكلام بعينه، وارتقاعه على الحكاية، والسلام هو: الثناء الحسن أي: يثنون عليه ثناءً حسناً، ويدعون له، ويترحمون عليه. قال الزجاج: تركنا عليه الذكر الجميل إلى يوم القيامة، وذلك الذكر هو قوله: ﴿سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ﴾. قال الكسائي: في ارتفاع سلام، وجهان: أحدهما وتركنا عليه في الآخرين يقال: سلام على نوح. والوجه الثاني أن يكون المعنى: وأبقينا عليه، وتم الكلام، ثم ابتدأه فقال: سلام على نوح أي: سلامة له من أن يذكر بسوء في الآخرين. قال المبرد: أي: تركنا عليه هذه الكلمة باقية يعني: يسلمون عليه تسليماً، ويدعون له، وهو من الكلام المحكي كقوله: ﴿سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا﴾ [النور: 1]، وقيل: إنه ضمن تركنا معنى: قلنا، قال الكوفيون: جملة سلام على نوح في العالمين في محل نصب مفعول تركنا، لانه

القبر، ثم جثى على ركبتيه، فجعل يبكي حتى بلّ الثرى، ثم قال: ﴿لَمَثَلٌ هَذَا فليعمل العاملون﴾. وأخرج ابن مريويه عن أنس قال: «دخلت مع النبي ﷺ على مريض يجود بنفسه، فقال: ﴿لَمَثَلٌ هَذَا فليعمل العاملون﴾». وأخرج ابن مريويه عن ابن عباس قال: «مر أبو جهل برسول الله ﷺ، وهو جالس، فلما بعد قال رسول الله ﷺ: ﴿أولى لك فأولى﴾ ثم أولى لك فأولى» [القيامة: 34، 35]، فلما سمع أبو جهل قال: من تودع يا محمد؟ قال: إليك، قال: بما تودعني؟ قال: أوعك بالعزيز الكريم، فقال أبو جهل: ليس أنا العزيز الكريم؟ فأنزل الله: ﴿إِنْ شَجَرْتَ الزُّقُومَ * طَعَامَ الْإِنِّيمِ﴾ [النخان: 43، 44] إلى قوله: ﴿نَقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [النخان: 49] فلما بلغ أبا جهل ما نزل فيه جمع أصحابه، فأخرج إليهم زبداً، وتمراً، فقال: تزقموا من هذا، فوالله ما يتوعدكم محمد إلا بهذا، فأنزل الله: ﴿إِنهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ إلى قوله: ﴿فَلَمْ يَنْ لَمْ عَلَيْهَا لَشُوباً مِنْ حَمِيمٍ﴾. وأخرج ابن أبي شيبة عنه قال: لو أن قطرة من زقوم جهنم أنزلت إلى الأرض لانفسدت على الناس معاشهم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه أيضاً ﴿ثُمَّ إِنْ لَمْ عَلَيْهَا لَشُوباً﴾ قال: لمزجاً. وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً قال: في قوله: ﴿لَشُوباً مِنْ حَمِيمٍ﴾ يخالط طعامهم، ويشاب بالحميم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال: لا ينتصف النهار يوم القيامة حتى يقيط هؤلاء، ويقيل هؤلاء أهل الجنة، وأهل النار، وقرأ: ﴿ثُمَّ إِنْ مَقِيلُهُمْ لِأَلَى الْجَحِيمِ﴾. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَفُؤَا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ﴾ قال: وجدوا آباءهم.

وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٦٧﴾ وَكَذَرْتَهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٦٨﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٦٩﴾ وَزَكَّيْنَاهُ عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٠﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٧١﴾ ثُمَّ أَفْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنْ مِنْ شَيْعِيهِ لِإِزْمِيرَ ﴿٧٣﴾ إِذْ جَاءَهُ زَيْدٌ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٧٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَيُّهُ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَفَكَا مَالَهُمْ دُونُ اللَّهِ يُرِيدُونَ ﴿٧٦﴾ فَمَا لَكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ فَظَنَرَ نَظَرَ ﴿٧٨﴾ أَتَشْعُرُونَ ﴿٧٩﴾ فَقَالَ إِنِّي سَعِيمٌ ﴿٨٠﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٨١﴾ فَرَأَى إِلَهُ الْهَمِيمِ ﴿٨٢﴾ فَقَالَ آلا تَأْكُلُونَ ﴿٨٣﴾ مَا لَكُمْ لَا تَطْعَمُونَ ﴿٨٤﴾ فَرَأَى عَلَيْهِمْ مَرَا بِالْمِيقَاتِ ﴿٨٥﴾ فَأَنْبَأُوا إِلَيْهِ يَرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحَرُونَ ﴿٨٧﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَحْمِلُونَ ﴿٨٨﴾ قَالُوا إِنَّمَا لَمْ يَكُنْ فَاَلْفَوْهُ فِي الْحَمِيمِ ﴿٨٩﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْقَلِينَ ﴿٩٠﴾ وَقَالَ إِنِّي دَاوُودُ بْنُ دَاوُدَ سَيِّدِينَ ﴿٩١﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٩٢﴾ فَفَسَّرْتَهُ بِعَلِّ بْنِ كَلْبٍ ﴿٩٣﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ الْاَتْنَى قَالَ يَبْنَاقُ إِنِّي أَرَى فِي السَّمَاءِ آتِيَّ أَذْجَكُ فَأَنْظُرُ مَاذَا رَعَى قَالَ يَبْنَاقُ أَفَلَمْ مَا تَوَمَّرْ سَجْدَتِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٩٤﴾ فَلَمَّا أَسْلَمُوا وَتَلَّاهُ لِلْحَبِيبِ ﴿٩٥﴾ وَتَدَبَّرْتَهُ أَنْ يَكْتَلِمَ بِإِزْمِيرَ ﴿٩٦﴾ قَدْ سَدَّتْ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكَ هَذَا لَوْ الْبَتَّاءُ الْيَمِينُ ﴿٩٨﴾ وَكَذَرْتَهُ بِذَنْجٍ عَظِيمٍ ﴿٩٩﴾ وَزَكَّيْنَاهُ عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٠﴾ سَلَّمَ عَلَى

بكم؟ وهو تحذير مثل قوله: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الأنفطار: 6] وقيل: المعنى: أي شيء توهتموه بالله حتى أشركتم به غيره ﴿فَنَنْظُرُ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ فقال إني سقيم ﴿قال الواحدي: قال المفسرون: كانوا يتعاطون علم النجوم، فعاملهم بذلك لئلا ينكروا عليه، وذلك أنه أراد أن يكيدهم في أصنامهم؛ لئلا تهمم الحجة في أنها غير معبودة، وكان لهم من الغد يوم عيد يخرجون إليه، وأراد أن يتخلف عنهم، فاعتلَّ بالسقم، وذلك أنهم كلفوه أن يخرج معهم إلى عيدهم، فنظر إلى النجوم يريهم أنه مستدلُّ بها على حاله، فلما نظر إليها قال: إني سقيم أي: سأسقم. وقال الحسن: إنهم لما كلفوه أن يخرج معهم تفكر فيما يعمل، فالمعنى على هذا: أنه نظر فيما نجم له من الرأي أي: فيما طلع له منه، فعلم أن كل شيء يسقم ﴿فَقَالَ إني سقيم﴾. قال الخليل، والمبرد: يقال للرجل إذا فكر في الشيء يدبره: نظر في النجوم. وقيل: كانت الساعة التي دعوه إلى الخروج معهم فيها ساعة اعتاده فيها الحمى. وقال الضحاك: معنى: إني سقيم: سأسقم سقم الموت، لأن من كتب عليه الموت يسقم في الغالب، ثم يموت، وهذا تورية، وتعريض كما قال للملك لما سأله عن سارة: هي أختي يعني: أخوة الدين. وقال سعيد بن جبيرة: أشار لهم إلى مرض يسقم، ويعدي، وهو: الطاعون، وكانوا يهربون من ذلك، ولهذا قال: ﴿فَقَتُلُوا عَنْهُ مِصْرِينَ﴾ أي: تركوه، وذهبوا مخافة العدوى ﴿فَرَاغَ إِلَى آلِهِمْ﴾. يقال: راغ يروغ روغاً، وروغاًناً: إذا مال، ومنه طريق رائج أي: مائل. ومنه قول الشاعر:

فيريك من طرف اللسان حلالة ويروغ عنك كما يروغ الثعلب
وقال السدي: ذهب إليهم، وقال أبو مالك: جاء إليهم، وقال الكلبي: أقبل عليهم، والمعنى متقارب ﴿فَقَالَ أَلَا تَتَكَلَّوْنَ﴾ أي: فقال إبراهيم للأصنام التي راغ إليها استهزاء، وسخرية: ألا تكلون من الطعام الذي كانوا يصنعونه لها، وخاطبها كما يخاطب من يعقل، لأنهم أنزلوها بتلك المنزلة. وكذا قوله: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ﴾، فإنه خاطبهم خطاب من يعقل، والاستفهام للتهمك بهم؛ لأنه قد علم أنها جمادات لا تنطق. قيل: إنهم تركوا عند أصنامهم طعامهم للتبرك بها، وليأكلوه إذا رجعوا من عيدهم. وقيل: تركوه للسنة. وقيل: إن إبراهيم هو الذي قرب إليها الطعام مستهزئاً بها ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ أي: فمال عليهم يضربهم ضرباً باليمين، فانتصابه على أنه مصدر مؤكد لفعل محذوف، أو هو مصدر لراغ، لأنه بمعنى: ضرب. قال الواحدي: قال المفسرون: يعني: بيده اليمين يضربهم بها. وقال السدي: بالقوة، والقدر؛ لأن اليمين أقوى اليدين. قال الفراء، وثلعب: ضرباً بالقوة، واليمين القوة. وقال الضحاك، والربيع بن أنس: المراد باليمين: اليمين التي حلفها حين قال: ﴿وَتَا هَـ لَاكِيدَنَ أَصْنَامَكُمْ﴾ [الأنبياء: 57] وقيل: المراد باليمين هنا: العدل كما في قوله: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقْوَالِ﴾ * لأخذنا منه باليمين ﴿[الحاقة: 44، 45] أي: بالعدل، واليمين كناية عن

ضمن معنى قلنا. قال الكسائي: وفي قراءة ابن مسعود (سلاماً) منصوب بتركنا أي: تركنا عليه ثناءً حسناً، وقيل: المراد بالآخرين: أمة محمد ﷺ. وفي العالمين متعلق بما يتعلق به الجار والمجرور الواقع خبراً، وهو على نوح أي: سلام ثابت، أو مستمر، أو مستقر على نوح في العالمين من الملائكة، والجن، والإنس، وهذا يدل على عدم اختصاص ذلك بأمة محمد ﷺ كما قيل: ﴿إِنَّا كُنَّا نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ هذه الجملة تعليل لما قبلها من التكرمة لنوح بإجابة دعائه، وبقاء الثناء من الله عليه، وبقاء نريته أي: إنا كنَّا نَجْزِي من كان محسناً في أقواله، وأفعاله راسخاً في الإحسان معروفاً به، والكاف في كنَّا نعت مصدر محذوف أي: جزاء كنَّا الجزاء ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا بيان لكونه من المحسنين، وتعليل له بأنه كان عبداً مؤمناً مخلصاً لله ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ أي: الكفرة الذين لم يؤمنوا بالله، ولا صنفوا نوحاً. ثم ذكر سبحانه قصة إبراهيم، وبَيَّنَّ أنه ممن شايح نوحاً، فقال: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ﴾ أي: من أهل دينه، ومن شايحه، ووافقه على الدعاء إلى الله، وإلى توحيد، والإيمان به. قال مجاهد: أي: على منهجه، وسنته. قال الأصمعي: الشيعة الأعوان، وهو مأخوذ من الشياخ، وهو الحطب الصغير الذي يوقد مع الكبار حتى يستوقد، وقال الفراء: المعنى: وإن من شيعة محمد لإبراهيم، فالهاء في شيعته على هذا لمحمد ﷺ، وكذا قال الكلبي. ولا يخفى ما في هذا من الضعف، والمخالفة للسياق. والظرف في قوله: ﴿إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ منصوب بفعل محذوف أي: أنكر، بما في الشيعة من معنى المتابعة. قال أبو حيان: لا يجوز: لأن فيه الفصل بين العامل، والمعمول بأجنبي، وهو: إبراهيم، والأولى أن يقال: إن لام الابتداء تمنع ما بعدها من العمل فيما قبلها، والقلب السليم المخلص من الشرك، والشك. وقيل: هو الناصح لله في خلقه، وقيل: الذي يعلم أن الله حق، وأن الساعة قائمة، وأن الله يبعث من في القبور. ومعنى مجيئه إلى ربه يحتمل وجهين: أحدهما: عند دعائه إلى توحيد، وطاعته. الثاني: عند إلقائه في النار. وقوله: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ بدل من الجملة الأولى، أو ظرف لسليم، أو ظرف لجاء، والمعنى: وقت قال لأبيه أزر، وقومه من الكفار: أي شيء تعبدون ﴿إِنِّفَكَا آلَهُهُ دُونَ اللَّهِ تَرْيَدُونَ﴾ انتصاب إنكاً على أنه مفعول لأجله، وانتصاب آلَهُهُ على أنه مفعول تريدون، والتقدير: أتريدون آلَهُهُ من دون الله للإفك، ودون ظرف لتريدون، وتقديم هذه المعمولات للفعل عليه للاهتمام. وقيل: انتصاب إنكاً على أنه مفعول به لتريدون، وآلَهُهُ بدل منه، جعلها نفس الإفك مبالغة، وهذا أولى من الوجه الأول. وقيل: انتصابه على الحال من فاعل تريدون أي: أتريدون آلَهُهُ أَفَكِينَ، أو نوي إفك. قال المبرد: الإفك أسوأ الكذب، وهو الذي لا يثبت ويضطرب، ومنه انتفكت بهم الأرض ﴿فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: ما ظنكم به إذا لقيتموه، وقد عبثتم غيره، وما ترونه يصنع

الكيد: المكر، والحيلة أي: احتالوا لإهلاكه، فجعلناهم الأسفلين المقهورين المغلوبين، لأنها قامت له بذلك عليهم الحجة التي لا يقدرّون على دفعها، ولا يمكنهم جدها، فإن النار الشديدة الانتقاد العظيمة الاضطرام المترامية الجمار إذا صارت بعد إلقائه عليها برذاً وسلاماً، ولم تؤثر فيه أقل تأثير كان ذلك من الحجة بمكان يفهمه كل من له عقل، وصار المنكر له سافلاً ساقط الحجة ظاهر التعصب واضح التعسف، وسبحان من يجعل المحن لمن يدعو إلى دينه منحاً، ويسوق إليهم الخير بما هو من صور الخير. ولما انقضت هذه الوقعة وأسفر الصبح لذي عينين، وظهرت حجة الله لإبراهيم، وقامت براهين نبوته، وسطعت أنوار معجزته **﴿وقال إني ذاهب إلى ربي﴾** أي: مهاجر من بلد قومي الذين فعلوا ما فعلوا تعصباً للأصنام، وكفراً بالله، وتكذيباً لرسله إلى حيث أمرني بالمهاجرة إليه، أو إلى حيث أتمكن من عبادته **﴿سيهدين﴾** أي: سيهديني إلى المكان الذي أمرني بالذهاب إليه، أو إلى مقصدي.

قيل: إن الله سبحانه أمره بالمسير إلى الشام، وقد سبق بيان هذا في سورة الكهف مستوفى، قال مقاتل: فلما قدم الأرض المقدسة سأل ربه الولد، فقال: **﴿رب هب لي من الصالحين﴾** أي: ولداً صالحاً من الصالحين يعينني على طاعتك، ويؤنسني في الغربة هكذا قال المفسرون، وعللوا ذلك بأن الهبة قد غلب معناها في الولد، فتحمل عند الإطلاق عليه، وإذا وردت مقيدة حملت على ما قيدت به كما في قوله: **﴿وهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً﴾** [مريم: 53]، وعلى فرض أنها لم تغلب في طلب الولد، فقوله: **﴿فبشرناه بغلام حليم﴾** يدل على أنه ما أراد بقوله: **﴿رب هب لي من الصالحين﴾** إلا الولد، ومعنى حليم: أن يكون حليماً عند كبره، فكانه بشر ببقاء ذلك الغلام حتى يكبر، ويصير حليماً، لأن الصغير لا يوصف بالحلم. قال الزجاج: هذه البشارة تدل على أنه مبشر بآب ابن ذكر، وأنه يبقى حتى ينتهي في السن، ويوصف بالحلم **﴿فلما بلغ معه السعي﴾** في الكلام حذف كما تشعر به هذه الفاء الفصيحة، والتقدير: فوهبنا له الغلام، فنشأ حتى صار إلى السن التي يسعى فيها مع أبيه في أمور دنياه. قال مجاهد: **﴿فلما بلغ معه السعي﴾** أي: شب، وأدرك سعيه سعي إبراهيم. وقال مقاتل: لما مشى معه. قال الفراء: كان يومئذ ابن ثلاث عشرة سنة. وقال الحسن: هو سعي العقل الذي تقوم به الحجة. وقال ابن زيد: هو السعي في العبادة، وقيل: هو الاحتلام **﴿قال يا بني إني أرى في المنام أني أُنْبِئُكَ﴾** قال إبراهيم لابنه لما بلغ معه ذلك المبلغ: إني رأيت في المنام هذه الرؤيا. قال مقاتل: رأى إبراهيم ذلك ثلاث ليال متتابعات. قال قتادة: رؤيا الأنبياء حق إذا راوا شيئاً فعلوه.

وقد اختلف أهل العلم في الذبيح؟ هل هو إسحاق، أو إسماعيل؟ قال القرطبي: فقال أكثرهم: الذبيح إسحاق، ومن قال بذلك العباس بن عبيد المطلب، وابنه عبد الله، وهو

العدل كما أن الشمال كناية عن الجور، وأول هذه الأقوال أولاهما **﴿فأقبلوا إليه يزفون﴾** أي: أقبل إليه عبدة تلك الأصنام يسرعون لما علموا بما صنعه بها، ويزفون في محل نصب على الحال من فاعل أقبلوا. قرأ الجمهور (يزفون) بفتح الياء من زف الظليم يزف إذا عدا بسرعة، وقرأ حمزة بضم الياء من أرّف يزف أي: دخل في الزفيف، أو يحملون غيرهم على الزفيف. قال الأصمعي: أرّفت الإبل أي: حملتها على أن تزف، وقيل: هما لغتان، يقال: زف القوم، وأزفوا، وزفت العروس، وأزففتها، حكى ذلك عن الخليل. قال النحاس: زعم أبو حاتم: أنه لا يعرف هذه اللغة يعني: يزفون بضم الياء، وقد عرفها جماعة من العلماء منهم الفراء، وشبهها بقولهم: أطربت الرجل أي: صيرته إلى ذلك، وقال المبرد: الزفيف الإسراع. وقال الزجاج: الزفيف أول عدو النعام. وقال قتادة، والسدي: معنى يزفون: يمشون. وقال الضحك: يسعون. وقال يحيى بن سلام: يرعدون غضباً. وقال مجاهد: يختالون أي: يمشون مشيء الخيلاء، وقيل: يتسللون تسلاً بين المشي، والعدو، والأولى تفسير يزفون بيسرعون، وقرئ (يزفون) على البناء للمفعول، وقرئ (يزفون) كيرمون. وحكى الثعلبي عن الحسن، ومجاهد، وابن السميع: أنهم قرءوا (يرفون) بالرء المهملة، وهي ركض بين المشي والعدو **﴿قال تعبدون ما تحتون﴾** لما أنكروا على إبراهيم ما فعله بالأصنام، نكر لهم الليل الدال على فساد عبادتها، فقال مبكراً لهم، ومنكراً عليهم: **﴿تعبدون ما تحتون﴾** أي: تعبدون أصناماً أنتم تحتونها، والنحت النجر، والبري، نحته ينحته بالكسر نحاً أي: براه، والنحاة البرايا، وجملة **﴿والله خلقكم وما تعملون﴾** في محل نصب على الحال من فاعل تعبدون، و «ما» في **﴿وما تعملون﴾** موصولة أي: وخلق الذي تصنعونه على العموم ويخل فيها الأصنام التي ينحتونها نخولاً أولاً، ويكون معنى العمل هنا: التصوير، والنحت، ونحوهما، ويجوز أن تكون مصدرية أي: خلقكم، وخلق عملكم، ويجوز أن تكون استفهامية، ومعنى الاستفهام: التوبيخ، والتقريع أي: وأي شيء تعملون، ويجوز أن تكون نافية أي: إن للعمل في الحقيقة ليس لكم، فأنتم لا تعملون شيئاً، وقد طول صاحب الكشاف الكلام في رد قول من قال: إنها مصدرية، ولكن بما لا طائل تحته، وجعلها موصولة أولى بالمقام وأوفق بسياق الكلام، وجملة **﴿قالوا لبئنا له بنياناً فالقوه في الجحيم﴾** مستأنفة جواب سؤال مقدر كالجملية التي قبلها، قالوا هذه المقالة لما عجزوا عن جواب ما أورد عليهم من الحجة الواضحة، فتشاوروا فيما بينهم أن يبئوا له حائطاً من حجارة، ويملؤوه حطباً ويضرموه، ثم يلقوه فيه، والجحيم: النار الشديدة الانتقاد قال الزجاج، وكل نار بعضها فوق بعض، فهي: جحيم، واللام في الجحيم عوض عن المضاف إليه أي: في جحيم ذلك البنين، ثم لما القوه فيها نجاه الله منها، وجعلها عليه برذاً وسلاماً، وهو معنى قوله: **﴿فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين﴾**

إنجاز الوعد في يعقوب، وأيضاً ورد في الأخبار تعليق قرن الكبش في الكعبة، فدل على أن النبيح إسماعيل، ولو كان إسحاق لكان النبيح واقعاً ببית المقدس، وكل هذا أيضاً يحتمل المناقشة ﴿فانظر ماذا ترى﴾ قرأ حمزة، والكسائي (ترى) بضم الفوقية، وكسر الراء، والمفعولان محذوفان أي: انظر ماذا تريني إياه من صبرك، واحتمالك. وقرأ الباقون من السبعة بفتح التاء، والراء من الرأي، وهو: مضارع رأيت، وقرأ الضحاك، والأعمش، (ترى) بضم التاء، وفتح الراء مبنياً للمفعول أي: ماذا يخيل إليك، ويسنح لخاطرك. قال الفراء في بيان معنى القراءة الأولى: انظر ماذا ترى من صبرك، وجزعك. قال الزجاج: لم يقل هذا أحد غيره. وإنما قال العلماء ماذا تشير أي: ما تريك نفسك من الرأي، وقال أبو عبيد: إنما يكون هذا من رؤية العين خاصة، وكذا قال أبو حاتم، وغلطهما النحاس وقال: هذا يكون من رؤية العين، وغيرها، ومعنى القراءة الثانية ظاهر واضح، وإنما شاوره ليعلم صبره لأمر الله، وإلا فرؤيا الأنبياء وحي، وامثالها لازم لهم محتتم عليهم ﴿قال يا ابت افعل ما تؤمر﴾ أي: ما تؤمر به مما أوحى إليك من ذبحي، وما موصولة، وقيل: مصدرية على معنى: افعل أمرك، والمصدر مضاف إلى المفعول، وتسمية المأمور به أمراً، والأول أولى ﴿ستجديني إن شاء الله من للصابرين﴾ على ما ابتلاني به من الذبح، والتعليق بمشيئة الله سبحانه تبركاً بها منه ﴿فلما أسلما﴾ أي: استسلما لأمر الله، وأطاعاه، وانقادا له. قرأ الجمهور (أسلمنا)، وقرأ علي، وابن مسعود، وابن عباس (فلما سلما) أي: فوضا أمرهما إلى الله، وروي عن ابن عباس: أنه قرأ (استسلما) قال قتادة: أسلم أحدهما نفسه لله، وأسلم الآخر ابنه، يقال: سلم لأمر الله، وأسلم، واستسلم بمعنى واحد.

وقد اختلف في جواب لما ماذا هو؟ فقيل: هو محذوف، وتقديره ظهر صبرهما، أو أجزلنا لهما أجرهما، أو فديناه بكبش هكذا قال البصريون. وقال الكوفيون: الجواب هو: ناديناه، والواو زائدة مقحمة، واعترض عليهم النحاس بأن الواو من حروف المعاني، ولا يجوز أن تزد، وقال الأخفش: الجواب ﴿وتله للجبين﴾، والواو زائدة، وروي هذا أيضاً عن الكوفيين، واعتراض النحاس يرد عليه كما ورد على الأول ﴿وتله للجبين﴾ التل: الصرع والدفع، يقال: تللت الرجل: إذا القيته، والمراد أنه أضجعه على جبينه على الأرض، والجبين أحد جانبي الجبهة، فللوجه جبينان، والجبهة بينهما، وقيل: كبه على وجهه كيلاً يرى منه ما يؤثر الرقة لقلبه.

واختلف في الموضع الذي أراد نبهه فيه، فقيل: هو مكة في المقام، وقيل: في المنحدر بمنى عند الجمار، وقيل: على الصخرة التي باصل جبل ثبير، وقيل: بالشام ﴿وناديناه أن يا إبراهيم * قد صدقت الرؤيا﴾ أي: عذمت على الإتيان بما رأيته. قال المفسرون: لما أضجعه للنبح نودي من الجبل يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا، وجعله مصنفًا بمجرد العزم،

الصحيح عن عبد الله بن مسعود، ورواه أيضاً عن جابر، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن عمر، وعمر بن الخطاب، قال: فهؤلاء سبعة من الصحابة. قال: ومن التابعين، وغيرهم: علقمة، والشعبي، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وكعب الأحبار، وقتادة، ومسروق، وعكرمة، والقاسم بن أبي برزة، وعطاء، ومقاتل، وعبد الرحمن بن سابط، والزهرى، والسدي، وعبد الله بن أبي الهذيل، ومالك بن أنس كلهم قالوا: النبيح إسحاق، وعليه أهل الكتابين اليهود، والنصارى، واختاره غير واحد، منهم النحاس، وابن جرير الطبري، وغيرهما. قال، وقال آخرون: هو إسماعيل، ومن قال بذلك: أبو هريرة، وأبو الطفيل عامر بن واثلة، وروي ذلك عن ابن عمر، وابن عباس أيضاً، ومن التابعين: سعيد بن المسيب، والشعبي، ويوسف بن مهزان، ومجاهد، والربيع بن أنس، ومحمد بن كعب القرظي، والكلبي، وعلقمة، وعن الأصمعي قال: سألت أبا عمرو بن العلاء عن النبيح، فقال: يا أصمعي أين عذب عنك عقلك، ومتى كان إسحاق بمكة؟ وإنما كان إسماعيل بمكة. قال ابن كثير في تفسيره: وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن النبيح هو إسحاق، وحكي ذلك عن طائفة من السلف حتى يقال عن بعض الصحابة، وليس في ذلك كتاب، ولا سنة، وما أظن ذلك تلقى إلا عن أخبار أهل الكتاب، وأخذ مسلماً من غير حجة، وكتاب الله شاهد، ومرشد إلى أنه إسماعيل، فإنه ذكر البشارة بالغلام الحليم، وذكر أنه النبيح، وقال بعد ذلك ﴿وبشروناه بإسحاق نبياً من الصالحين﴾ ١ هـ.

واحتج القائلون بأنه إسحاق بأن الله عز وجل قد أخبرهم عن إبراهيم حين فارق قومه، فهاجر إلى الشام مع امراته سارة، وابن أخيه لوط، فقال: ﴿إني ذاهب إلى ربي سيهدين﴾ أنه دعا، فقال: ﴿رب هب لي من الصالحين﴾، فقال تعالى: ﴿فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب﴾ [مريم: 49]؛ ولأن الله قال: ﴿وفليناه بنبيح عظيم﴾، فذكر أنه في الغلام الحليم الذي بشر به إبراهيم، وإنما بشر بإسحاق، لأنه قال: ﴿وبشروناه بإسحاق﴾، وقال هنا: ﴿بالغلام حليم﴾، وذلك قبل أن يعرف هاجر، وقيل أن يصير له إسماعيل، وليس في القرآن أنه بشر بولد إلا إسحاق. قال الزجاج الله أعلم أيهما للنبيح ١ هـ، وما استدلل به الفريقان يمكن الجواب عنه، والمناقشة له.

ومن جملة ما احتج به من قال إنه إسماعيل بأن الله وصفه بالصبر دون إسحاق كما في قوله: ﴿وإسماعيل واليسع وذا الكفل كل من الصابرين﴾ [الأنبياء: 85]، وهو: صبره على النبح، ووصفه بصق الوعد في قوله: ﴿إنه كان صادق الوعد﴾ [مريم: 54]؛ لأنه وعد أباه من نفسه الصبر على النبح، فوفى به، ولأن الله سبحانه قال: ﴿وبشروناه بإسحاق نبياً﴾ فكيف يأمره بنبحه، وقد وعده أن يكون نبياً، وأيضاً فإن الله قال: ﴿وبشرواها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ [هود: 71]، فكيف يؤمر بنبح إسحاق قبل

﴿وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين﴾ أي: بشرنا إبراهيم بولد يولد له، ويصير نبياً بعد أن يبلغ السن التي يتأهل فيها لذلك، وانتصاب نبياً على الحال، وهي: حال مقدرة. قال الزجاج: إن كان الذبيح إسحاق، فيظهر كونها مقدرة، والأولى أن يقال: إن من فسر الذبيح بإسحاق جعل البشارة هنا خاصة بنبوته. وفي ذكر الصلاح بعد النبوة تعظيم لشأنه، ولا حاجة إلى وجود المبشر به وقت البشارة، فإن وجود ذي الحال ليس بشرط، وإنما الشرط المقارنة للفعل، و ﴿من الصالحين﴾ كما يجوز أن يكون صفة لنبياً يجوز أن يكون حالاً من الضمير المستتر فيه، فتكون أحوالاً متداخلة ﴿وباركنا عليه وعلى إسحاق﴾ أي: على إبراهيم، وعلى إسحاق بمرافقة نعم الله عليهما، وقيل: كثرتا ولدتهما، وقيل: إن الضمير في عليه يعود إلى إسماعيل، وهو بعيد، وقيل: المراد بال مباركة هنا هي: الثناء الحسن عليهما إلى يوم القيامة ﴿ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين﴾ أي: محسن في عمله بالإيمان، والتوحيد، وظالم لها بالكفر، والمعاصي لما ذكر سبحانه البركة في الذرية بين أن كون الذرية من هذا العنصر الشريف، والمحدث المبارك ليس بنافع لهم، بل إنما ينتفعون بأعمالهم لأبائهم، فإن اليهود، والنصارى، وإن كانوا من ولد إسحاق، فقد صاروا إلى ما صاروا إليه من الضلال البين، والعرب، وإن كانوا من ولد إسماعيل، فقد ماتوا على الشرك إلا من أنقذه الله بالإسلام.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿وجعلنا ذريته هم الباقين﴾ يقول: لم يبق إلا ذرية نوح ﴿وتركنا عليه في الآخرين﴾ يقول: يذكر بخير. وأخرج الترمذي وحسنه، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مريويه عن سمرة بن جندب، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وجعلنا ذريته هم الباقين﴾ قال: حام، وسام، ويافث. وأخرج ابن سعد، وأحمد، والترمذي وحسنه، وأبو يعلى، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه عن سمرة أيضاً: أن النبي ﷺ قال: «سام أبو العرب، حام أبو الحبش، ويافث أبو الروم»، والحديثان هما من سماع الحسن عن سمرة، وفي سماعه منه مقال معروف، وقد قيل: إنه لم يسمع منه إلا حديث العقيقة فقط، وما عداه فبواسطة. قال ابن عبد البر: وقد روي عن عمران بن حصين، عن النبي ﷺ مثله. وأخرج البزار، وابن أبي حاتم، والخطيب في تالي التلخيص عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ولد نوح ثلاثة: سام، وحام، ويافث، فولد سام العرب، وفارس، والروم، والخير فيهم، وولد يافث ياجوج، وماجوج، والترك، والصقالبة، ولا خير فيهم، وولد حام القبط، والبربر، والسودان»، وهو من حديث إسماعيل بن عياش، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب عنه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وإن من شيعته لإبراهيم﴾ قال: من أهل بيته. وأخرج عبد بن حميد عنه في قوله: ﴿إني سقيم﴾ قال: مريض.

وإن لم ينبج، لأنه قد أتى بما أمكنه، والمطلوب استسلامهما لأمر الله، وقد فعلا. قال القرطبي: قال أهل السنة: إن نفس الذبيح لم يبق، ولو وقع لم يتصور رفعه، فكان هذا من باب النسخ قبل الفعل، لأنه لو حصل الفراغ من امتثال الأمر بالذبيح ما تحقق الفداء. قال: ومعنى: ﴿صدقت الرؤيا﴾ فعلت ما أمكنت ثم امتنعت لما منعك، هذا أصح ما قيل في هذا الباب. وقالت طائفة: ليس هذا مما ينسخ بوجه، لأن معنى ذبحت الشيء: قطعته، وقد كان إبراهيم يأخذ السكين، فيمز بها على حلقه، فتقلب كما قال مجاهد. وقال بعضهم: كان كلما قطع جزءاً التام، وقالت طائفة منهم السدي: ضرب الله على عنقه صفيحة نحاس، فجعل إبراهيم يحز، ولا يقطع شيئاً. وقال بعضهم: إن إبراهيم ما أمر بالذبيح الحقيقي الذي هو فري الأوداج، وإنهار الدم، وإنما رأى أنه أضجعه للذبيح، فتوهم أنه أمر بالذبيح الحقيقي، فلما أتى بما أمر به من الإضجاع قيل له: قد ﴿صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين﴾ أي: نجزيهم بالخالص من الشدائد، والسلامة من المحن، فالجملة كالتعليل لما قبلها. قال مقاتل: جزاه الله سبحانه بإحسانه في طاعته العفو عن ذنب ابنه ﴿إن هذا لهو البلاء المبين﴾ البلاء، والابتلاء: الاختبار، والمعنى: إن هذا هو الاختبار الظاهر حيث نبت به الله في طاعته بذب ولده. وقيل: المعنى: إن هذا لهو النعمة الظاهرة حيث سلم الله ولده من النبح، وفداه بالكبش، يقال: أبلاه الله إبلاءً وبلاءً: إذا أنعم عليه والأولى أولى، وإن كان الابتلاء يستعمل في الاختبار بالخير، والشر، ومنه ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة﴾ [الأنبياء: 35]، ولكن المناسب للمقام المعنى الأول. قال أبو زيد: هذا في البلاء الذي نزل به في أن ينبج ولده. قال: وهذا من البلاء المكروه ﴿وفديناه ببنيح عظيم﴾ الذبيح: اسم المذبح، وجمعه مذبح كالطحن اسم للمطحون، وبالفتح المصدر، ومعنى عظيم: عظيم القدر، ولم يرد عظم الجثة، وإنما عظم قدره؛ لأنه فدى به الذبيح، أو لأنه متقبل. قال النحاس: العظيم في اللغة يكون للكبير، وللشريف، وأهل التفسير على أنه ما هنا للشريف أي: المتقبل. قال الواحدي: قال أكثر المفسرين: أنزل عليه كبش قد رعى في الجنة أربعين خريفاً. وقال الحسن: ما فدى إلا بتيس من الأروى أهبط عليه من ثبير، فنبجحه إبراهيم فداء عن ابنه. قال الزجاج: قد قيل: إنه فدى بوعل، والوعل التيس الجبلي، ومعنى الآية: جعلنا الذبيح فداء له، وخلصناه به من النبح ﴿وتركنا عليه في الآخرين سلام على إبراهيم﴾ أي: في الأمم الآخرة التي تأتي بعده، والسلام الثناء الجميل. وقال عكرمة: سلام منا، وقيل: سلامة من الأفتات، والكلام في هذا كالكلام في قوله ﴿سلام على نوح في العالمين﴾ وقد تقدم في هذه السورة بيان معناه، ووجه إعرابه ﴿كذلك نجزي المحسنين﴾ أي: مثل ذلك الجزاء العظيم نجزي من أنقاد لأمر الله ﴿إنه من عبادنا المؤمنين﴾ أي: الذين أعطوا العبودية حقها، ورسخوا في الإيمان بالله، وتوحيده

وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال: مطعون. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿فَاقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ﴾ قال: يخرجون. وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً في قوله: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي﴾ قال: حين هاجر. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيُ﴾ قال: العمل. وأخرج الطبراني عنه أيضاً قال: لما أراد إبراهيم أن يذبح إسحاق قال لأبيه: إذا ذبحتني، فاعتزل لا اضطرب، فينتضح عليك لمي، فشدته، فلما أخذ الشفرة، وأراد أن يذبحه نودي من خلفه ﴿إِن يَأْ بَرَاهِيمُ * قَدْ صَبَقْتَ الرَّؤْيَا﴾ وأخرج أحمد عنه أيضاً مرفوعاً مثله مع زيادة، وأخرجه عنه موقوفاً. وأخرج ابن المنذر، والحاكم وصححه من طريق مجاهد عنه أيضاً في قوله: ﴿وَإِن مِّنْ شَيْعَةٍ لِإِبْرَاهِيمَ﴾ قال: من شيعة نوح على مناجاه، وسننه ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيُ﴾ قال: شب حتى بلغ سعيه سعي أبيه في العمل ﴿فَلَمَّا اسْلَمَا﴾ سلما ما أمر به ﴿وَتَلَّهُ﴾ وضع وجهه إلى الأرض. فقال: لا تذبحني، وأنت تنظر عسى أن ترحمني، فلا تجهز علي. وإن أجزع، فأنكص، فامتنع منك. ولكن أربط يدي إلى رقبتني، ثم ضع وجهي إلى الأرض، فلما أسخل يده لينذبه، فلم تحل الحدية حتى نودي: إن يا إبراهيم قد صبحت الرؤيا، فأمسك يده، قوله: ﴿وَفِينَاهُ بَنِيحٌ عَظِيمٌ﴾ بكبش عظيم متقبل. وزعم ابن عباس: أن الذبيح إسماعيل. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «رؤيا الأنبياء وحي»، وأخرجه البخاري، وغيره من قول عبيد بن عمير، واستدل بهذه الآية. وأخرج ابن جرير، والحاكم من طريق عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس قال: المفدى إسماعيل، وزعمت اليهود أنه إسحاق، وكذبت اليهود. وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق الشعبي، عن ابن عباس قال: الذبيح إسماعيل وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق مجاهد، ويوسف بن ماهك عن ابن عباس قال: الذبيح إسماعيل. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير من طريق يوسف بن ماهك، وأبي الطفيل، عن ابن عباس قال: الذبيح إسماعيل. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه عن ابن عمر في قوله: ﴿وَفِينَاهُ بَنِيحٌ عَظِيمٌ﴾ قال: إسماعيل نبح عنه إبراهيم الكبش. وأخرج عبد بن حميد من طريق الفرزق الشاعر قال: رأيت أبا هريرة يخطب على منبر رسول الله ﷺ، ويقول: إن الذي أمر بذيحه إسماعيل. وأخرج البزار، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم، وابن مروي عن العباس بن عبد المطلب قال: قال رسول الله ﷺ: «قال نبي الله داود: يا رب اسمع الناس يقولون: رب إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، فأجعلني رابعاً، قال: إن إبراهيم ألقى في النار، فصبر من أجلني، وإن إسحاق جاد لي بنفسه، وإن يعقوب غاب عنه يوسف، وتلك بلية لم تنلك»، وفي إسناده الحسن بن دينار البصري، وهو

مترك عن علي بن زيد بن جدعان، وهو ضعيف. وأخرج الديلمي عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً نحوه. وأخرج الدارقطني في الأفراد، والديلمي عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «الذبيح إسحاق». وأخرج ابن جرير، وابن مروي عن العباس بن عبد المطلب، عن النبي ﷺ قال: «الذبيح إسحاق». وأخرج ابن مروي، عن أبي هريرة مرفوعاً مثله. وأخرج ابن مروي عن بهار، وكانت له صحبة، قال: إسحاق ذبيح الله. وأخرج الطبراني، وابن مروي عن ابن مسعود قال: سئل النبي ﷺ: من أكرم الناس؟ قال: «يوسف بن يعقوب بن إسحاق ذبيح الله». وأخرج عبد الرزاق، والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال: الذبيح إسحاق. وأخرج عبد بن حميد، والبخاري في تاريخه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مروي عن العباس بن عبد المطلب قال: الذبيح إسحاق. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، والحاكم من طريق سعيد بن جبيرة عن ابن عباس قال: الذبيح إسحاق. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ قال: اكبه على وجهه. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه قال: صرعه للذبح. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مروي عن علي بن أبي طالب في قوله: ﴿وَفِينَاهُ بَنِيحٌ عَظِيمٌ﴾ قال: كبش أعين أبيض أقرن قد ربط بسمرة في أصل ثبير. وأخرج ابن أبي شيبه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَفِينَاهُ بَنِيحٌ عَظِيمٌ﴾ قال: كبش قد رعى في الجنة أربعين خريفاً. وأخرج عبد بن حميد عنه قال: فدي إسماعيل بكبشين أملحين أقرنين أعينين. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، وابن مروي عن ابن عباس: أن رجلاً قال: نذرت لأنحر نفسي، فقال ابن عباس: لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة، ثم تلا ﴿وَفِينَاهُ بَنِيحٌ عَظِيمٌ﴾، فأمره بكبش، فذبحه. وأخرج الطبراني من طريق أخرى عنه نحوه. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً في قوله: ﴿وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ قال: إنما بشر به نبياً حين فداء الله من الذبح، ولم تكن البشارة بالنبوة عند مولده.

وبما سقناه من الاختلاف في الذبيح هل هو إسحاق، أو إسماعيل، وما استدل به المختلفون في ذلك تعلم أنه لم يكن في المقام ما يوجب القطع، أو يتعين رجحانه تعيناً ظاهراً، وقد رجح كل قول طائفة من المحققين المنصفين كابن جرير، فإنه رجح أنه إسحاق، ولكنه لم يستدل على ذلك إلا ببعض مما سقناه ها هنا، وكابن كثير فإنه رجح أنه إسماعيل، وجعل الألة على ذلك أقوى، وأصح، وليس الأمر كما ذكره، فإنه إن لم تكن دون ألة القائلين بأن الذبيح إسحاق لم تكن فوقها، ولا أرجح منها، ولم يصح عن رسول الله ﷺ في ذلك شيء. وما روي عنه، فهو إما موضوع، أو ضعيف جداً، ولم يبق إلا مجرد استنباطات من القرآن كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق، وهي محتملة، ولا تقوم حجة

لمن المرسلين» قال المفسرون: هو نبي من أنبياء بني إسرائيل، وقصته مشهورة مع قومه، قيل: وهو إلياس بن يس من سبط هارون أخي موسى. قال ابن إسحاق، وغيره: كان إلياس هو القيم بأمر بني إسرائيل بعد يوشع، وقيل: هو إدريس، والأول أولى. قرأ الجمهور (إلياس) بهمة مكسورة مقطوعة، وقرأ ابن نكوان بوصلها، ورويت هذه القراءة عن ابن عامر، وقرأ ابن مسعود، والأعمش، ويحيى بن وثاب (وإن إدريس لمن المرسلين)، وقرأ أبي (وإن إيليس) بهمة مكسورة، ثم تحتية ساكنة، ثم لام مكسورة، ثم تحتية ساكنة، ثم سين مهمل مفتوحة «إذ قال لقومه ألا تتقون» هو ظرف لقوله من المرسلين، أو متعلق بمحذوف أي: أنكر يا محمد إذ قال، والمعنى: ألا تتقون عذاب الله، ثم أنكر عليهم بقوله: «تدعون بعلا» هو: اسم لصنم كانوا يعبدونه أي: اتعبدون صنماً، وتطلبون الخير منه.

قال ثعلب: اختلف الناس في قوله سبحانه: «بعلا» فقالت طائفة: البعل هنا الصنم، وقالت طائفة: البعل هنا ملك، وقال ابن إسحاق: امرأة كانوا يعبدونها. قال الواحدي: والمفسرون يقولون: رباً، وهو بلغة اليمن، يقولون للسيد، والرب: البعل. قال النحاس: القولان صحيحان أي: اتدعون صنماً عملتوه رباً «وتذرون أحسن الخالقين» أي: وتركون عبادة أحسن من يقال له خالق، وانتصاب الاسم الشريف في قوله: «الله ربكم ورب آبائكم الأولين» على أنه بدل من أحسن، هذا على قراءة حمزة، والكسائي، والربيع بن خثيم، وابن أبي إسحاق، ويحيى بن وثاب، والأعمش، فإنهم قرءوا بنصب الثلاثة الأسماء، وقيل: النصب على المدح، وقيل: على عطف البيان، وحكى أبو عبيد: أن النصب على النعت. قال النحاس: وهو غلط، وإنما هو بدل، ولا يجوز النعت؛ لأنه ليس بتحلية، واختار هذه القراءة أبو عبيد، وأبو حاتم. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وأبو جعفر، وشيبة، ونافع بالرفع. قال أبو حاتم: بمعنى: هو الله ربكم. قال النحاس: وأولى ما قيل: إنه مبتدأ، وخبر بغير إضمار، ولا حنف. وحكى عن الأخفش: أن الرفع أولى وأحسن. قال ابن الأنباري: من رفع، أو نصب لم يقف على أحسن الخالقين على جهة التعمام؛ لأن الله مترجم عن أحسن الخالقين على الوجهين جميعاً، والمعنى أنه خالقكم، وخالق من قبلكم، فهو الذي تحق له العبادة «فكنيؤوه فإنهم لمحضرون» أي: فإنهم بسبب تكتيبيه لمحضرون في العذاب، وقد تقدم أن الإحضار المطلق مخصوص بالشر «إلا عباد الله المخلصين» أي: من كان مؤمناً به من قومه، قرئ بكسر اللام، وفتحها كما تقدم، والمعنى على قراءة الكسر: أنهم أخلصوا لله؛ وعلى قراءة الفتح: أن الله استخلصهم من عباده. وقد تقدم تفسير «وتركنا عليه في الآخرين» * سلام على آل ياسين» قرأ نافع، وابن عامر، والأعرج، وشيبة على آل ياسين بإضافة آل بمعنى: آل ياسين، وقرأ الباقون بكسر الهمزة، وسكون اللام موصولة

بمحتمل، فالوقف هو الذي لا ينبغي مجاوزته، وفيه السلامة من الترجيح، بلا مرجح، ومن الاستدلال بما هو محتمل.

وَلَقَدْ مَكَّنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَكَرُوتَ ﴿١٦٦﴾ وَجَعَلْنَاهَا قَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَلِيِّ ﴿١٦٧﴾ وَنَصَرْنَاهُمْ فَاكَاثُوا هُمُ الْغَالِيِينَ ﴿١٦٨﴾ وَجَعَلْنَاهُمَا الْكُتُبَ الْمُتَوَاتِرِينَ ﴿١٦٩﴾ وَوَدَّعَيْنَاهُمَا الرِّبَاطَ الْمُنْتَقِمَ ﴿١٧٠﴾ وَرَزَقْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴿١٧١﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَكَرُوتَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَلَئِنْ يَأْسَىٰ لَيْنَ الْمُتَكِبِينَ ﴿١٧٥﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٦﴾ أَتَدْعُونَ بِنَا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٧٧﴾ اللَّهُ رَبُّكُمْ رَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧٨﴾ فَكَلِمَةُ يَوْمِهِمْ كُنْ حَضْرَةً ﴿١٧٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٨٠﴾ وَرَزَقْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٨١﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٨٢﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٨٣﴾ إِنَّمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٨٤﴾ وَلَئِنْ لَوْ كُنَّا لَمُنَّ الْتَرَسِينَ ﴿١٨٥﴾ إِذْ يَجِئْتُهُ وَأَهْلُهُ أَجْمَعُونَ ﴿١٨٦﴾ إِلَّا عَمْرًا فِي الْقَدِيمِ ﴿١٨٧﴾ ثُمَّ دَرَكْنَا الْآخِرِينَ ﴿١٨٨﴾ وَلَقَدْ كَلَّمْنَاهُ عَلَيْهِمْ مُّسِيحِينَ ﴿١٨٩﴾ وَإِنَّا لَأَنَّا سَوَّلْنَاهُ ﴿١٩٠﴾ وَإِن يَأْسَىٰ لَيْنَ الْتَرَسِينَ ﴿١٩١﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفَالِكِ الْغَنَاحِينَ ﴿١٩٢﴾ فَسَاءَ مَا كَانُوا مِنَ الْمُتَحْصِينَ ﴿١٩٣﴾ فَالْقَعُ أَلْحَقُوا بِهِمْ ﴿١٩٤﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٩٥﴾ لَآبَتَ فِي بَطْنِهِ إِنْ يَوْمَ يُنْفَخُ ﴿١٩٦﴾ فَتَذَنَّهُ بِالْعَرْكِ ﴿١٩٧﴾ سَقِمْ ﴿١٩٨﴾ وَأَلْقَيْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ ﴿١٩٩﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ بَنِي إِدْرِسَ ﴿٢٠٠﴾ فَتَقَاتُوا فَتَعْتَهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ﴿٢٠١﴾

لما فرغ سبحانه من ذكر إنجاء الذبيح من الذبح، وما من عليه بعد ذلك من النبوة نكر ما من به على موسى، وهارون، فقال: «ولقد مكننا على موسى وهرون» يعني: بالنبوة، وغيرها من النعم العظيمة التي أنعم الله بها عليهما «ونجيناها وقومهما من الكرب العظيم» المراد بقومهما هم: المؤمنون من بني إسرائيل، والمراد بالكرب العظيم هو: ما كانوا فيه من استعباد فرعون إياهم، وما كان نصيبهم من جهته من البلاء، وقيل: هو الفرق الذي أهلك فرعون، وقومه، والأول أولى «ونصرناهم» جاء بضمير الجماعة، قال الفراء: الضمير لموسى، وهارون، وقومهما، لأن قبله، ونجيناها، وقومهما، والمراد بالنصر: التأييد لهم على عوهم «فكانوا» بسبب ذلك «هم الغالين» على عوهم بعد أن كانوا تحت أسرهم، وقهرهم، وقيل: الضمير في نصرناهم عائد على الاثنين موسى، وهارون تعظيماً لهما، والأول أولى «وأتيناها الكتاب المستبين» المراد بالكتاب التوراة والمستبين: البين الظاهر، يقال: استبان كذا. أي: صار بيناً «وهديناهما الصراط المستقيم» أي: القيم لا اعوجاج فيه، وهو دين الإسلام، فإنه الطريق الموصلة إلى المطلوب «وتركنا عليهما في الآخرين» * سلام على موسى وهرون» أي: أبقينا عليهما في الأمم المتأخرة الثناء الجميل، وقد قمنا الكلام في السلام، وفي وجه إعرابه بالرفع، وكذلك تقدم تفسير «إنا كذلك نجزي المحسنين» * إنهما من عبادنا المؤمنين» في هذه السورة «وإن إلياس

وهو: أن يخرج السهم على من غلب. قال المبرد: أي: فقارع. قال: وأصله من السهام التي تجال، ومعنى **﴿فكان من المحضين﴾**: فصار من المغلوبين. قال: يقال: لحضت حجتة، وأحضرها الله، وأصله من الزلق عن مقام الظفر، ومنه قول الشاعر:

قتلنا المحضين بكل فج فقد قرت يقتلهم العيون
أي: المغلوبين **﴿فالتقمه الحوت وهو مليم﴾** يقال: لقمتم اللقمة، والتقمتها: إذا ابتلعها أي: فابتلعه الحوت، ومعنى **﴿وهو مليم﴾**: وهو مستحق للوم. يقال: رجل مليم إذا أتى بما يلام عليه، وأما الملووم، فهو: الذي يلام سواء أتى بما يستحق أن يلام عليه أم لا، وقيل: المليم المعيب، يقال: لأم الرجل إذا عمل شيئاً صار به معيباً. ومعنى هذه المساهمة: أن يونس لما ركب السفينة احتبست. فقال الملاحون: ها هنا عبد أبق من سيده، وهذا رسم السفينة إذا كان فيها أبق لا تجري، فافترعوا، فوقع القرعة على يونس، فقال: أنا الأبق، وزج نفسه في الماء. قال سعيد بن جببر: لما استهموا جاء حوت إلى السفينة فاغراً فاه ينتظر أمر ربه حتى إذا ألقى نفسه في الماء أخذه الحوت **﴿فلولا أنه كان من المسبحين﴾** أي: الذاكرين لله، أو المصلين له **﴿للبيث في بطنه إلى يوم يبعثون﴾** أي: لصار بطن الحوت له قبراً إلى يوم البعث، وقيل: للبيث في بطنه حياً.

واختلف المفسرون كم أقام في بطن الحوت؟ فقال السدي، والكلبي، ومقاتل بن سليمان: أربعين يوماً. وقال الضحاك: عشرين يوماً. وقال عطاء: سبعة أيام. وقال مقاتل بن حيان: ثلاثة أيام، وقيل: ساعة واحدة. وفي هذه الآية ترغيب في نكر الله، وتنشيط للذاكرين له **﴿فنبذناه بالعراء وهو سقيم﴾** النبذ الطرح، والعراء. قال ابن الأعرابي: هو: الصحراء. وقال الأخفش: الفضاء، وقال أبو عبيدة: الواسع من الأرض، وقال الفراء: المكان الخالي. وروي عن أبي عبيدة أيضاً أنه قال: هو وجه الأرض، وأنشد لرجل من خزاعة:

ورفعت رجلاً لأخاف عثارها ونبتت بالبلد العراء ثيابي
والمعنى: أن الله طرحه من بطن الحوت في الصحراء الواسعة التي لا نبات فيها، وهو عند إلقائه سقيم لما ناله في بطن الحوت من الضرر، قيل: صار بدنه كبطن الطفل حين يولد.

وقد استشكل بعض المفسرين الجمع بين ما وقع هنا من قوله: **﴿فنبذناه بالعراء﴾**، وقوله في موضع آخر: **﴿لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم﴾** [القلم: 49] فإن هذه الآية تدل على أنه لم ينبذ بالعراء. وأجاب النحاس، وغيره بأن الله سبحانه أخبر ها هنا: أنه نبذ بالعراء، وهو غير مذموم، ولولا رحمته عز وجل لنبذ بالعراء، وهو مذموم **﴿وانبتتنا عليه شجرة من يقطين﴾** أي: شجرة فوقه تظلل عليه، وقيل: معنى عليه: عنده، وقيل: معنى عليه: له. واليقطين هي: شجرة الدباء. وقال المبرد:

بياسين إلا الحسن، فإنه قرأ (الياسين) بإسخال آلة التعريف على ياسين، قيل: المراد على هذه القراءات كلها إلیاس، وعليه وقع التسليم، ولكنه اسم أعجمي، والعرب تضطرب في هذه الأسماء الأعجمية، ويكثر تغييرهم لها. قال ابن جني: العرب تتلاعب بالأسماء الأعجمية تلاعباً: فياسين، وإلیاس، والياسين شيء واحد. قال الأخفش: العرب تسمي قوم الرجل باسم الرجل الجليل منهم، فيقولون المهالبة على أنهم سمو كل رجل منهم بالمهلب. قال: فعلى هذا إنه سمي كل رجل منهم بالياسين. قال الفراء: يذهب بالياسين إلى أن يجعله جمعاً، فيجعل أصحابه داخلين معه في اسمه. قال أبو علي الفارسي: تقديره الياسيين إلا أن اليامين للنسبة حنفياً كما حنفنا في الأشعرين، والأعجمين. ورجح الفراء، وأبو عبيدة قراءة الجمهور قالوا: لأنه لم يقل في شيء من السور على آل فلان، إنما جاء بالاسم كذلك الياسين: لأنه إنما هو بمعنى: إلیاس، أو بمعنى: إلیاس، وأتباعه. وقال الكلبي: المراد بآل ياسين آل محمد. قال الواحدي: وهذا بعيد: لأن ما بعده من الكلام، وما قبله لا يدل عليه، وقد تقدم تفسير **﴿إننا كذلك نجزي المحسنين﴾** * **﴿إنه من عبادنا المؤمنين﴾** مستوفى **﴿وإن لوطاً لمن المرسلين﴾** قد تقدم ذكر قصة لوط مستوفاة **﴿إن نجيناه وأهله لجمعين﴾** الظرف متعلق بمحذوف هو أنكر، ولا يصح تعلقه بالمرسلين، لأنه لم يرسل وقت تنجيته **﴿إلا عجوزاً في الغابرين﴾** قد تقدم أن الغابر يكون بمعنى: لماضي، ويكون بمعنى: الباقي، فالمعنى: إلا عجوزاً في الباقيين في العذاب، أو الماضين الذين قد هلكوا **﴿ثم دمرنا الآخرين﴾** أي: أهلكناهم بالعقوبة، والمعنى: أن في نجاته، وأهله جميعاً إلا العجوز، وتدمير الباقيين من قومه الذين لم يؤمنوا به دلالة بيّنة على ثبوت كونه من المرسلين **﴿وانكم لتمرّون عليهم مصبحين﴾** خاطب بهذا العرب، أو أهل مكة على الخصوص أي: تمرّون على منازلهم التي فيها آثار العذاب وقت الصباح **﴿وبالليل﴾**، والمعنى: تمرّون على منازلهم في ذهابكم إلى الشام، ورجوعكم منه نهراً، وليلاً **﴿أفلا تعقلون﴾** ما تشاهدونه في ديارهم من آثار عقوبة الله النازلة بهم، فإن في ذلك عبرة للمعتبرين، وموعظة للمتبرّين **﴿وإن يونس لمن المرسلين﴾** يونس هو: ذو النون، وهو: ابن متى. قال المفسرون: وكان يونس قد وعد قومه العذاب، فلما تأخر عنهم العذاب خرج عنهم، وقصد البحر، وركب السفينة، فكان يذهب به إلى البحر كالفار من موله، فوصف بالإباق، وهو معنى قوله: **﴿إن أبق إلى الفلك المشحون﴾** وأصل الإباق الهرب من السيد، لكن لما كان هربه من قومه بغير إذن ربه وصف به. وقال المبرد: تأويل أبق بباعد أي: ذهب إليه، ومن ذلك قولهم: عبد أبق.

وقد اختلف أهل العلم هل كانت رسالته قبل التقام الحوت إياه، أو بعده؟ ومعنى المشحون: المملوء **﴿فساهم فكان من المحضين﴾** المساهمة أصلها المغالبة، وهي: الاقتراع،

أمة محمد ﷺ المرحومة المغفور المثاب لها، فأشرقت على الوادي، فإذا طوله ثمانون ذراعاً وأكثر، فقال: من أنت؟ فقلت: أنس خادم رسول الله ﷺ، فقال: أين هو؟ فقلت: هو ذا يسمع كلامك، قال: فاته، وأقرته مني السلام، وقل له: أخوك إلياس يقرئك السلام، فاتيت النبي ﷺ، فأخبرته، فجاء حتى عانقه، وقعدا يتحدثان، فقال له: يا رسول الله إني إنما أكل في كل سنة يوماً، وهذا يوم فطري، فأكل أنا وأنت، فنزلت عليهما المائدة من السماء خبز، وحوت، وكرفس، فأكلا، وأطعماني، وصليا العصر، ثم ودعته، ثم رأيته مرّ على السحاب نحو السماء. قال الذهبي متعباً لتصحيح الحاكم له: بل موضوع قبح الله من وضعه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿تَدْعُونَ بَعْلًا﴾ قال: صنماً. وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه عنه في قوله: ﴿سَلَامٌ عَلَى الْإِسْمِينِ﴾ قال: نحن آل محمد آل ياسين. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: بعث الله يونس إلى أهل قريته، فترؤوا عليه ما جاءهم به، فامتنعوا منه، فلما فعلوا ذلك أوحى الله إليهم إني مرسل عليهم العذاب في يوم كذا، وكذا. فأخرج من بين أظهرهم، فأعلم قومه الذي وعد الله من عذابه إياهم، فقالوا: لرمقوه، فإن خرج من بين أظهرهم، فهو والله كائن ما وعدكم، فلما كانت الليلة التي وعدوا بالعذاب في صبيحتها انلج، فرآه القوم، فحذروا، فخرجوا من القرية إلى براز من أرضهم، وفرقوا بين كل دابة، ولدها، ثم عجوا إلى الله، وإنابوا، واستقالوا، فاقالهم الله، وانتظر يونس الخبر عن القرية، وأهلها حتى مرّ به مارّ، فقال: ما فعل أهل القرية؟ قال: إن نبينهم لما خرج من بين أظهرهم عرفوا أنه قد صدقهم ما وعدهم من العذاب، فخرجوا من قريتهم إلى براز من الأرض، ثم فرقوا بين كل ذات ولد ولدها، ثم عجوا إلى الله، وتابوا إليه، فتقبل منهم، وأخر عنهم العذاب، فقال يونس عند ذلك: لا أرجع إليهم كذاباً أبداً، ومضى على وجهه، وقد قدمنا الكلام على قصته، وما روي فيها في سورة يونس، فلا نكرهه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي عن ابن عباس في قوله: ﴿فَسَاهَمَ﴾ قال: اقترع ﴿فَكَانَ مِنَ الْمَحْضِينَ﴾ قال: المقروعين. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿وَهُوَ مَلِيمٌ﴾ قال: مسيء. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وأحمد في الزهد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ قال: من المصلين. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿فَنَبِّئْنَاهُ بِالعَرَاءِ﴾ قال: القيناه بالساحل. وأخرج هؤلاء عنه أيضاً ﴿شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ﴾ قال: القرع. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر من طريق سعيد بن جبيرة عنه أيضاً قال: اليقطين كل شيء يذهب على وجه الأرض. وأخرج أحمد في الزهد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن مردويه عنه أيضاً قال: إنما كانت رسالة يونس بعد ما نبذ

اليقطين يقال: لكل شجرة ليس لها ساق، بل تمتد على وجه الأرض نحو الدباء، والبطيخ، والحنظل، فلن كان لها ساق يقلها، فيقال لها: شجرة فقط، وهذا قول الحسن، ومقاتل، وغيرهما. وقال سعيد بن جبيرة: هو كل شيء ينبت، ثم يموت من عامه. قال الجوهري: اليقطين ما لا ساق له من شجر كشجر القرع، ونحوه. قال الزجاج: اشتقاق اليقطين من قطن بالمكان أي: أقام به، فهو يفعل، وقيل: هو: اسم أعجمي. قال المفسرون: كان يستظل بظلها من الشمس، وقبض الله له أروية من الوحش تروح عليه بكرة، وعشية، فكان يشرب من لبنها حتى اشتد لحمه، ونبت شعره، ثم أرسله الله بعد ذلك. وهو معنى قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ هم قومه الذين هرب منهم إلى البحر، وجرى له ما جرى بعد هربه كما قصه الله علينا في هذه السورة، وهم: أهل نينوى. قال قتادة: أرسل إلى أهل نينوى من أرض الموصل. وقد مر الكلام على قصته في سورة يونس مستوفى، «أو» في أو يزيدون قيل: هي بمعنى: الواو، والمعنى: ويزيدون. وقال الفراء: أو ما هنا بمعنى: بل، وهو قول مقاتل، والكلبي. وقال المبرد، والزجاج، والأخفش: أو هنا على أصله، والمعنى: أو يزيدون في تقديركم إذا رآهم الراثي قال: هؤلاء مائة ألف، أو يزيدون، فالحشك إنما دخل على حكاية قول المخلوقين. قال مقاتل، والكلبي: كانوا يزيدون عشرين ألفاً. وقال الحسن: بضعاً وثلاثين ألفاً. وقال سعيد بن جبيرة: سبعين ألفاً. وقرأ جعفر بن محمد، ويزيدون بدون ألف الشك.

وقد وقع الخلاف بين المفسرين هل هذا الإرسال المنكور هو الذي كان قبل النقام الحوت له، وتكون الواو في: وأرسلناه لمجرد الجمع بين ما وقع له مع الحوت، وبين إرساله إلى قومه من غير اعتبار تقديم ما تقدم في السياق، وتأخير ما تأخر، أو هو إرسال له بعد ما وقع له مع الحوت ما وقع على قولين؟ وقد قدمنا الإشارة إلى الاختلاف بين أهل العلم هل كان قد أرسل قبل أن يهرب من قومه إلى البحر، أو لم يرسل إلا بعد ذلك؟ والراجح: أنه كان رسولا قبل أن يذهب إلى البحر كما يدل عليه ما قدمنا في سورة يونس، وبقي مستمراً على الرسالة، وهذا الإرسال المنكور هنا هو بعد تقدم نبوته، ورسالته ﴿فَأَمْنُوا بِمَتَعَنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ أي: وقع منهم الإيمان بعد ما شاهدوا أعلام نبوته، فمتعهم الله في الدنيا إلى حين انقضاء آجالهم، ومنتهى أعمارهم.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن عساكر عن ابن مسعود قال: إلياس هو: إدريس. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن قتادة مثله. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: قال ﷺ: «الخضر هو: إلياس»، وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقي في الدلائل، وضعفه عن أنس قال: «كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فنزل منزلاً، فإذا رجل في الوادي يقول: اللهم اجعلني من

الحوت، ثم تلا ﴿فَنَبِّئْنَاهُ بِالعِراءِ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ﴾ وقد تقدّم عنه ما يدل على أن رسالته كانت من قبل ذلك، وليس في الآية: ما يدل على ما نكره كما قَمْنَا. وأخرج الترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه عن أبي بن كعب قال: سألت رسول الله ﷺ عن قول الله: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ قال: يزيدون عشرين ألفاً. قال الترمذي: غريب. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: يزيدون ثلاثين ألفاً. وروي عنه أنهم يزيدون بضعة وثلاثين ألفاً. وروي عنه: أنهم يزيدون بضعة وأربعين ألفاً، ولا يتعلق بالخلاف في هذا كثير فائدة.

فَأَنْتَفِيزُهُمُ الرِّبَاكَ الْبَنَاتِ وَلَهُمُ الْبَسُوكُ ۖ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ۚ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ أَفْكَهَمَ لِقَوْلِهِمْ يَقُولُونَ ۖ وَلَدَ اللَّهُ وَلَهُمْ لَكُذُوبٌ ۚ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ۚ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۚ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ۚ فَأَتَوْا بِكِتَابِكُمْ فِي كُتُبٍ صَدِيقَةٍ ۚ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَهْبًا وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ إِنَّهُمْ لَخَصَصُونَ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۚ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۚ فَإِذْ كَرِهَ اللَّهُ مُبَازَازَتَهُمْ ۚ مَا أَشَرَّ عَلَى يَدَيْنِهِ ۚ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِي الْجَنَّةِ ۚ وَمَا يَأْتِيهِمْ إِلَّا لَمْ يَمْلَأْهُمْ مَلَكُومٌ ۚ وَإِنَّا لَنَعْنُ الصَّاهُونَ ۚ وَإِنَّا لَنَعْنُ السَّيِّئُونَ ۚ وَإِنَّا كَانُوا لَيَقُولُونَ ۚ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ ۚ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۚ فَكَلَّمُوا بِدُ سَوَاقٍ يَلْعَنُونَ ۚ وَلَقَدْ سَبَّحْتَ كَيْفًا لِيَا إِدْنَا الْمُرْسَلِينَ ۚ إِنَّهُمْ لَمْ يَتَوَصَّوْهُ ۚ وَلَئِنْ جَدْنَا لَهُمُ الْقُلُوبَ ۚ قَوْلَ عَنَّهُمْ حَتَّى جِيءَ ۚ وَأَبْعَرْتُمْ سَوَاقٍ يَبْعَرُونَ ۚ أَفَوَلَّيْنَا يَسْتَمْجِلُونَ ۚ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحِوَةٍ صَبَاحَ الشُّدْرَةِ ۚ وَوَلَّوْا عَنْهُمْ حَتَّى جِيءَ ۚ وَأَبْعَرْتُمْ سَوَاقٍ يَبْعَرُونَ ۚ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۚ وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ۚ وَلَقَدْ لَعَنَّاهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۚ

لما كانت قريش، وقبائل من العرب يزعمون: أن الملائكة بنات الله أمر الله سبحانه رسوله ﷺ باستفتائهم على طريقة التقرّيع، والتوبيخ، فقال: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ يا محمد أي: استخبرهم ﴿الرَّبِّكَ الْبَنَاتِ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾ أي: كيف يجعلون الله على تقدير صنق ما زعموه من الكذب أننى الجنسين، وأوضعهما، وهو: الإنث، ولهم إعلاهما، وأرفعهما، وهم: النكور، وهل هذا إلا حيف في القسمة لضعف عقولهم، وسوء إدراكهم ومثله قوله: ﴿إِلَّا الْبَنَاتِ وَلَهُ الْبَنُونَ﴾ * تلك إذا قسمة ضيزى [النجم: 21، 22] ثم زاد في توبيخهم، وتقرّيعهم، فقال: ﴿إِنَّمَا خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ فأضرب عن الكلام الأوّل إلى ما هو أشد منه في التبيكيت، والتهكم بهم أي: كيف جعلوهم إنثاء، وهم لم يحضروا عند خلقنا لهم، وهذا كقوله: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ﴾ [الزخرف: 19] فبين سبحانه: أن مثل ذلك لا يعلم إلا بالمشاهدة، ولم يشهدوا، ولا دلّ ليل على قولهم من السمع، ولا هو مما يدرك بالعقل حتى

ينسبوا إدراكه إلى عقولهم. ثم أخبر سبحانه عن كذبهم، فقال: ﴿إِنَّمَا إِنَّهُمْ مِنْ أَفْكَهَمَ لِقَوْلِهِمْ لِيَقُولُونَ * وَلَدَ اللَّهُ وَلَهُمْ لَكُذُوبٌ﴾ فبين سبحانه أن قولهم هذا هو من الإفك، والافتراء من بون ليل، ولا شبهة ليل، فإنه لم يلد، ولم يولد. قرأ الجمهور (ولد الله) فعلاً ماضياً مسنداً إلى الله. وقرأ بإضافة ولد إلى الله على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: يقولون الملائكة ولد الله، والولد بمعنى: مفعول يستوي فيه المفرد، والمثنى، والمجموع، والمنكر، والمؤنث. ثم كرر سبحانه تقرّيعهم، وتوبيخهم، فقال: ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ قرأ الجمهور بفتح الهمزة على أنها للاستفهام الإنكاري، وقد حذف معها همزة الوصل استغناء به عنها. وقرأ نافع في رواية عنه، وأبو جعفر، وشيبة، والأعمش بهمزة وصل تثبت ابتداء، وتسقط درجاً، ويكون الاستفهام منوياً قاله الفراء. وحذف حرفه للعلم به من المقام، أو على أن اصطفى، وما بعده بدل من الجملة المحكية بالقول. وعلى تقدير عدم الاستفهام، والبدل. فقد حكى جماعة من المحققين منهم الفراء: أن التوبيخ يكون باستفهام، وبغير استفهام كما في قوله: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ [الأحقاف: 20]، وقيل: هو على إضمار القول ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ جملتان استفهاميتان ليس لأحدهما تعلق بالأخرى من حيث الإعراب: استفهامهم أولاً عما استقرّ لهم، وثبت استفهام بذكر، وثانياً استفهام تعجب من هذا الحكم الذي حكموا به، والمعنى: أي شيء ثبت لكم كيف تحكمون بالله البنات، وهم: القسم الذي تكروهونه، ولكم بالبنين، وهم: القسم الذي تحبونه ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: تتذكرون، فحذفت إحدى التاءين، والمعنى: ألا تعتبرون، وتتفكرون، فتتذكرون بطلان قولكم ﴿إِنَّمَا لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ﴾ أي: حجة واضحة ظاهرة على هذا الذي تقولونه، وهو إضراب عن توبيخ إلى توبيخ، وانتقال من تقرّيع إلى تقرّيع. ﴿فَاتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: فاتوا بحجتكم الواضحة على هذا إن كنتم صادقين فيما تقولونه، أو فاتوا بالكتاب الذي ينطق لكم بالحجة، ويشتمل عليها ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَهْبًا﴾ قال أكثر المفسرين: إن المراد بالجنة هنا: الملائكة، قيل لهم: جنة لأنهم لا يرون. وقال مجاهد: هم بطن من بطون الملائكة يقال لهم: الجنة. وقال أبو مالك: إنما قيل لهم: الجنة، لأنهم خزّان على الجنّ. والنسب الصهر. قال قتادة، والكلبي: قالوا: لعنهم الله: إن الله صاهر الجنّ، فكانت الملائكة من أولادهم: قالوا: والقائل بهذه المقالة اليهود. وقال مجاهد، والسدي، ومقاتل: إن القائل بذلك كنانة، وخزاعة قالوا: إن الله خطب إلى سادات الجنّ، فزوّجوه من سرورات بناتهم، فالملائكة بنات الله من سرورات بنات الجنّ. وقال الحسن: أشركوا الشيطان في عبادة الله، فهو النسب الذي جعلوه. ثم ردّ الله سبحانه عليهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الْجَنَّةَ إِنَّهُمْ لَمَحْضَرُونَ﴾ أي: علموا أن هؤلاء الكفار الذين قالوا هذا القول يحضرون النار، ويعذبون فيها. وقيل: علمت الجنة إنهم

التقدير: وما منا إلا من له مقام معلوم، رجح البصريون التقدير الأول، ورجح الكوفيون الثاني. قال الزجاج: هذا قول الملائكة، وفيه مضمهر. المعنى: وما منا ملك إلا له مقام معلوم. ثم قالوا: ﴿وإنا لنحن الصافون﴾ أي: في مواقف الطاعة. قال قتادة: هم: الملائكة صفوا أقدامهم. وقال الكلبي: صفوف الملائكة في السماء كصفوف أهل الدنيا في الأرض ﴿وإنا لنحن المسبحون﴾ أي: المنزهون لله المقدسون له عما أضافه إليه المشركون، وقيل: المصلون، وقيل: المراد بقولهم المسبحون: مجموع التسبيح باللسان، وبالصلاة، والمقصود أن هذه الصفات هي: صفات الملائكة، وليسوا كما وصفهم به الكفار من أنهم بنات الله ﴿وإن كانوا ليقولون﴾ هذا رجوع إلى الإخبار عن المشركين أي: كانوا قبل المبعث المحمدي إذا عبروا بالجهل قالوا: ﴿ولو أن عذنا نذكر من الأولين﴾ أي: كتاباً من كتب الأولين كالطوراة، والإنجيل ﴿لكننا عباد الله المخلصين﴾ أي: لأخلصنا العبادة له، ولم نكفر به، وإن في قوله: ﴿وإن كانوا﴾ هي: المخففة من الثقلية، وفيها ضمير شان محذوف، واللام هي: الفارقة بينها، وبين النافية أي: وإن الشأن كان كفار العرب ليقولون إلخ، والغاء في قوله: ﴿فكفروا به﴾ هي: النصيحة الدالة على محذوف مقدر في الكلام. قال الفراء: تقديره: فجاءهم محمد بالذكر، فكفروا به، وهذا على طريق التعجب منهم ﴿فسوف يعلمون﴾ أي: عاقبة كفرهم، ومغيبته، وفي هذا تهديد لهم شديد، وجملة ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعباننا المرسلين﴾ مستأنفة مقررة للموعود، والمراد بالكلمة: ما وعدهم الله به من النصر، والظفر على الكفار. قال مقاتل: عنى بالكلمة: قوله سبحانه: ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي﴾ [المجادلة: 21] وقال الفراء: سبقت كلمتنا بالسعادة لهم، والأولى تفسير هذه الكلمة بما هو منكر هنا، فإنه قال: ﴿إنهم لهم المنصورون * وإن جنبنا لهم الغالبون﴾ فهذه هي الكلمة المذكورة سابقاً، وهذا تفسير لها، والمراد بجند الله حربه، وهم الرسل، وأتباعهم. قال الشيباني: جاء هنا على الجمع: يعني: قوله ﴿لهم الغالبون﴾ من أجل أنه رأس آية، وهذا الوعد لهم بالنصر، والغلبة لا ينافي انهزامهم في بعض المواطن، وغلبة الكفار لهم، فإن الغالب في كل موطن هو: انتصارهم على الأعداء، وغلبتهم لهم، فخرج الكلام مخرج الغالب، على أن العاقبة المحمودة لهم على كل حال، وفي كل موطن كما قال سبحانه: ﴿والعاقبة للمتقين﴾ [الأعراف: 128]، ثم أمر الله سبحانه رسوله بالإعراض عنهم، والإغماض عما يصدر منهم من الجهالات، والضلالات، فقال: ﴿فتول عنهم حتى حين﴾ أي: أعرض عنهم إلى مدة معلومة عند الله سبحانه، وهي: مدة الكف عن القتال. قال السدي، ومجاهد: حتى نامرك بالقتال. وقال قتادة: إلى الموت، وقيل: إلى يوم بدر، وقيل: إلى يوم فتح مكة، وقيل: هذه الآية منسوخة بآية السيف ﴿وابصرهم فسوف يبصرون﴾ أي: وابصرهم إذا نزل بهم العذاب بالقتل،

أنفسهم يحضرون للحساب، والأول أولى، لأن الإحضار إذا أطلق، فالمراد العذاب. وقيل: المعنى: ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون إلى الجنة. ثم نزه سبحانه نفسه، فقال: ﴿سبحان الله عما يصفون﴾ أو هو حكاية لتزيه الملك لله عز وجل عما وصفه به المشركون، والاستثناء في قوله: ﴿إلا عباد الله المخلصين﴾ منقطع، والتقدير: لكن عباد الله المخلصين يريثون عن أن يصفوا الله بشيء من ذلك. وقد قرئ بفتح اللام، وكسرهما، ومعناهما ما بيناه قريباً. وقيل: هو استثناء من المحضرين أي: إنهم يحضرون النار إلا من أخلص، فيكون متصلاً لا منقطعاً، وعلى هذا تكون جملة التسبيح معترضة. ثم خاطب للكفار على العموم، أو كفار مكة على الخصوص، فقال: ﴿فإنكم وما تعبدون * ما أنتم عليه بفاتنين﴾ أي: فإنكم، وألهتكم التي تعبدون من دون الله لستم بفاتنين على الله بإفساد عبادته، وإضلالهم، وعلى متعلقة بفاتنين. والواو في وما تعبدون إما للعطف على اسم إن، أو هو بمعنى: مع، وما موصولة، أو مصدرية أي: فإنكم، والذي تعبدون، أو عبادتكم، ومعنى: فاتنين: مضلين، يقال: فتنت الرجل، وأفتنته، ويقال: فتته على الشيء، وبالشئ كما يقال: أضله على الشيء، وأضله به. قال الفراء: أهل الحجاز يقولون: فتنته، وأهل نجد يقولون: أفتنته، ويقال: فتن فلان على فلان أمراته أي: أفسدها عليه، فالفتنة هنا بمعنى: الإضلال، والإفساد. قال مقاتل: يقول: ما أنتم بمضلين أحداً بآلهتكم إلا من قدر الله له أن يصلي الجحيم، «وما في ﴿وما أنتم﴾ نافية و ﴿أنتم﴾ خطاب لهم، ولمن يعبدونه على التغليب. قال الزجاج: أهل التفسير مجمعون فما علمت أن المعنى: ما أنتم بمضلين أحداً إلا من قدر الله عز وجل عليه أن يضل، ومنه قول الشاعر:

فردبفتنته كيداً عليه وكان لنا فاتناً
أي: مصلاً ﴿إلا من هو صال الجحيم﴾ قرأ الجمهور (صال) بكسر اللام؛ لأنه منقوص مضاف حذف الياء لالتقاء الساكنين، وحمل على لفظ من، وأقرد كما أقرد هو. وقرأ الحسن، وابن أبي عبيدة بضم اللام مع ولو بعدها، وروي عنهما: إنهما قرأ بضم اللام بدون واو. فاما مع الواو فعلى أنه جمع سلامة بالواو حملاً على معنى: من، وحذفت نون الجمع للإضافة، وأما بدون الواو، فيحتمل أن يكون جمعاً، وإنما حذفت الواو خطأ كما حذفت لفظاً، ويحتمل أن يكون مفرداً، وحقه على هذا كسر اللام. قال النحاس: وجماعة أهل التفسير يقولون: إنه لحن؛ لأنه لا يجوز هذا قاض المدينة، والمعنى: أن الكفار وما يعبدونه لا يقرون على إضلال أحد من عباد الله إلا من هو من أهل النار، وهم المصرون على الكفر، وإنما يصّر على الكفر من سبق القضاء عليه بالشقاوة، وإنه ممن يصلي النار أي: يدخلها. ثم قال الملائكة مخبرين للنبي ﷺ كما حكاها الله سبحانه عنهم: ﴿وما منا إلا له مقام معلوم﴾، وفي الكلام حذف، والتقدير: وما منا أحد، أو وما منا ملك إلا له مقام معلوم في عبادة الله. وقيل:

الجحيم. وأخرج عبد بن حميد، وابن مروي عنه أيضاً في الآية قال: لا تفتنون إلا من هو صال الجحيم. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير عنه أيضاً في قوله: ﴿وما منا إلا له مقام معلوم﴾ قال: الملائكة ﴿وإنا لنحن الصافون﴾ قال: الملائكة ﴿وإنا لنحن المسبحون﴾ قال: الملائكة. وأخرج محمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مروي عن عائشة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما في السماء موضع قدم إلا عليه ملك ساجد، أو قائم، وذلك قول الملائكة: ﴿وما منا إلا له مقام معلوم﴾ وإنا لنحن الصافون». وأخرج محمد بن نصر، وابن عسكرك عن العلاء بن سعد، أن رسول الله ﷺ قال يوماً لأصحابه: «أطت السماء، وحق لها أن تئط، ليس فيها موضع قدم إلا عليه ملك راكم، أو ساجد، ثم قرأ ﴿وإنا لنحن الصافون﴾ وإنا لنحن المسبحون». وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود قال: «إن من السموات لسماء ما فيها موضع شبر إلا، وعليه جبهة ملك، أو قدماء قائماً، أو ساجداً، ثم قرأ ﴿وإنا لنحن الصافون﴾ وإنا لنحن المسبحون». وأخرج الترمذي وحسنه، وابن جرير، وابن مروي عن أبي نر قال: قال رسول الله ﷺ: «إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، إن السماء أظت، وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله». وقد ثبت في الصحيح، وغيره: «أن النبي ﷺ أمر الصحابة أن يصفوا كما تصف الملائكة عند ربهم، فقالوا: وكيف تصف الملائكة عند ربهم؟ قال: يقيمون الصفوف المقامة، ويتراصون في الصف». وأخرج ابن جرير، وابن مروي عن ابن عباس في قوله: ﴿لو أن عندنا نكراً من الأولين﴾ قال: لما جاء المشركين من أهل مكة نكر الأولين، وعلم الآخرين كفروا بالكتاب ﴿فسوف يعلمون﴾. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أنس قال: «صبح رسول الله ﷺ خيبر، وقد خرجوا بالمساحي، فلما نظروا إليه قالوا: محمد، والحميس، فقال: الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم، فساء صباح المنذرين» الحديث. وأخرج ابن سعد، وابن مروي عن طريق سعيد، عن قتادة، عن أنس، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سلمتم على المرسلين، فسلموا علي، فإنما أنا بشر من المرسلين». وأخرج ابن مروي عن طريق أبي العوام، عن قتادة، عن أنس مرفوعاً نحوه بأطول منه. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وأبو يعلى، وابن مروي، عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ: أنه كان إذا أراد أن يسلم من صلاته قال: «سبحان ربك رب العزة عما يصفون * وسلام على المرسلين * والحمد لله رب العالمين». وأخرج الطبراني عن ابن عباس قال: كنا نعرف انصراف رسول الله ﷺ من الصلاة بقوله: «سبحان ربك» إلى

والأسر، فسوف يبصرون حين لا ينفغهم الإبصار، وعبر بالإبصار عن قرب الأمر أي: فسوف يبصرون عن قريب. وقيل: المعنى: فسوف يبصرون العذاب يوم القيامة. ثم هندهم بقوله سبحانه: ﴿أفبعذابنا يستعجلون﴾ كانوا يقولون من فرط تكذيبهم: متى هذا العذاب؟ ﴿فإذا نزل بساحتهم﴾ أي: إذا نزل عذاب الله لهم بفنائهم، والساحة في اللغة: فناء الدار الواسع. قال الفراء: نزل بساحتهم، ونزل بهم سواء. قال الزجاج: وكان عذاب هؤلاء بالقتل، قيل: المراد به نزول رسول الله ﷺ بساحتهم يوم فتح مكة. قرأ الجمهور (نزل) مبنياً للفاعل. وقرأ عبد الله بن مسعود على البناء للمفعول، والجار والمجرور قائم مقام الفاعل ﴿فساء صباح المنذرين﴾ أي: بثس صباح الذين أنذروا بالعذاب، والمخصوص بالنذم محذوف أي: صباحهم. وخص الصباح بالذكر؛ لأن العذاب كان يأتيهم فيه. ثم كرر سبحانه ما سبق تأكيداً للوعد بالعذاب، فقال: ﴿وتول عنهم حتى حين * وبصر فسوف يبصرون﴾، وحذف مفعول أبصر ما هنا، ونكره أولاً إما لدلالة الأول عليه، فتركه هنا اختصاراً، أو قصداً إلى التعميم للإيذان بأن ما يبصره من أنواع عذابهم لا يحيط به الوصف. وقيل: هذه الجملة المراد بها أحوال القيامة، والجملة الأولى المراد بها عذابهم في الدنيا، وعلى هذا فلا يكون من باب التأكيد، بل من باب للتأسيس. ثم نزه سبحانه نفسه عن قبيح ما يصدر منهم، فقال: ﴿سبحان ربك رب العزة عما يصفون﴾ العزة: الغلبة، والقوة، والمراد: تنزيهه عن كل ما يصفونه به مما لا يليق بجنابه الشريف، ورب العزة بدل من ربك. ثم نكر ما يدل على تشريف رسله، وتكريمهم، فقال: ﴿وسلام على المرسلين﴾ أي: الذين أرسلهم إلى عباده، وبلغوا رسالاته، وهو من السلام الذي هو: التحية، وقيل: معناه: أمن لهم، وسلامة من المكاره ﴿والحمد لله رب العالمين﴾ إرشاد لعباده إلى حمده على إرسال رسله إليهم مبشرين، ومنذرين، وتعليم لهم كيف يصنعون عند إنعامه عليهم، وما يثنون عليه به، وقيل: إنه الحمد على هلاك المشركين، ونصر الرسل عليهم، والأولى أنه حمد الله سبحانه على كل ما أنعم به على خلقه أجمعين كما يفيد حذف المحمود عليه، فإن حذفه مشعر بالتعميم كما تقرر في علم المعاني، والحمد هو: الثناء الجميل بقصد التعظيم.

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا﴾ قال: زعم أعداء الله أنه تبارك وتعالى هو وإبليس أخوان. وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿فإنكم وما تعبدون﴾ قال: فإنكم يا معشر المشركين، وما تعبدون يعني: الأكلة ﴿ما أنتم عليه بغاتنين﴾ قال: بمضلين ﴿إلا من هو صال الجحيم﴾ يقول: إلا من سبق في علمي أنه سيصلى الجحيم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في الآية يقول: إنكم لا تظنون أنتم، ولا أفضل منكم إلا من قضيت عليه أنه صال

ثيابهم، وهم يقولون: ﴿اجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب﴾ [ص: 5]، فنزل فيهم ﴿ص وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ﴾ إلى قوله: ﴿بَلْ لَمَّا يَبْلُغُوا عَذَابَ﴾ [ص: 1 - 8].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ص وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّ وَبِشَاقٍ ﴿٢﴾ كَرِهْتُمْ هَٰذَا قُلُوبُهُمْ بِئْسَ أَلْفَاظُهَا يُسَوِّدُ ۖ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُكْفِرِينَ هَٰذَا سَجَرٌ كَذَابٌ ﴿٣﴾ اجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجَبٌ ﴿٤﴾ وَأَنطَلَقَ اللَّامُ مِنْهُمْ إِنَّمَا أَنشَأُوا وَاسْتَوُوا عَلَىٰ ٱلْهَيْكَلِ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٥﴾ مَا يَمِينًا يَمِينًا فِي ٱلْيَمِينَةِ ٱلْآخِرَةِ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَأَمْتَلَقٌ ﴿٦﴾ أُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلْذِكْرُ مِنْ بَيْنَآ ۖ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْ ذِكْرِي ۖ بَلْ لَمَّا يَدْعُونَ عَذَابَ ﴿٧﴾ أَرْ عِندَهُ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَعَّابِ ﴿٨﴾ أَرْ لَهُمْ ثَلَاثُ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرَوْهَُا فِي ٱلْأَسْبَاطِ ﴿٩﴾ جُنْدًا مَّهْلِكًا مَّهْرُومًا مِّنَ ٱلْأَحْرَابِ ﴿١٠﴾

قوله: ﴿ص﴾ قرأ الجمهور بسكون الدال كسائر حروف التهجي في أوائل السور، فإنها ساكنة الأواخر على الوقف. وقرأ أبي بن كعب، والحسن، وابن أبي إسحاق، ونصر بن عاصم، وابن أبي عبيدة، وأبو السماك بكسر الدال من غير تنوين، ووجه الكسر أنه لالتقاء السالكين، وقيل: وجه الكسر أنه من صادى يصاى إذا عارض، والمعنى: صاد القرآن بعملك أي: عارضه بعملك، وقابله، فاعمل به، وهذا حكاية النحاس عن الحسن البصري، وقال: إنه فسر قراءته هذه بهذا، وعنه أن المعنى: آله، وتعرض لقراءته. وقرأ عيسى بن عمر: صاد بفتح الدال، والفتح لالتقاء السالكين، وقيل: نصب على الإغراء. وقيل: معناه: صاد محمد قلوب الخلق، واستمالها حتى آمنوا به، ورويت هذه القراءة عن أبي عمرو، وروي عن ابن أبي إسحاق أيضاً: أنه قرأ (صاد) بالكسر، والتنوين تشبيهاً لهذا الحرف بما هو غير متمكن من الأصوات. وقرأ هارون الأعور، وابن السميع (صاد) بالضم من غير تنوين على البناء نحو منذ، وحيث.

وقد اختلف في معنى «صاد»، فقال الضحاك: معناه: صدق الله. وقال عطاء: صدق محمد. وقال سعيد بن جبير: هو: بحر يحيي الله به الموتي بين النفختين. وقال محمد بن كعب: هو: مفتاح اسم الله. وقال قتادة: هو: اسم من أسماء الله. وروي عنه أنه قال: هو اسم من أسماء الرحمن. وقال مجاهد: هو: فاتحة السورة. وقيل: هو: مما استأثر الله بعلمه، وهذا هو الحق كما قدمنا في فاتحة سورة البقرة. قيل: وهو إما لسم للحروف مسروداً على نمط التعبد، أو اسم للسورة، أو خبر مبتدأ محذوف، أو منصوب بإضمار اذكر، أو اقراء، والواو في قوله: ﴿وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ﴾ هي: واو القسم، والإقسام بالقرآن فيه تنبيه على شرف قدره، وعلو محله، ومعنى ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾: أنه مشتمل على الذكر الذي فيه بيان كل شيء. قال مقاتل: معنى ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾: ذي البيان. وقال الضحاك: ذي الشرف كما في قوله: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا

آخر الآية». وأخرج الخطيب نحوه من حديث أبي سعيد. وأخرج الطبراني عن زيد بن أرقم، عن رسول الله ﷺ قال: «من قال ببر كل صلاة: ﴿سبحان ربك رب العزة عما يصفون﴾ وسلام على المرسلين * والحمد لله رب العالمين﴾ ثلاث مرات، فقد اكتال بالمكial الأوفى من الأجر». وأخرج حميد بن زنجويه في ترغيبه من طريق الأصبغ بن نباتة عن علي بن أبي طالب نحوه.

والى هنا انتهى الجزء الثالث^(١) من هذا التفسير المبارك بمعونة الله، المقبول بفضل الله، بقلم مصنفه الحقيقير محمد بن علي الشوكاني غفر الله لهما. في نهار الخميس الحادي والعشرين من شهر محرم الحرام من شهر سنة تسع وعشرين ومائتين وألف من الهجرة النبوية، حامداً لله شاكرًا له مصلياً مسلماً على رسوله وآله، ويتلوه إن شاء الله^(٢) تفسير سورة ص.

انتهى سماع هذا الجزء على مؤلفه حفظه الله في يوم الاثنين غرة شهر جمادي الآخرة سنة 1239 هـ

كتبه

يحيى بن علي الشوكاني
غفر الله لهما

تفسير سورة ص

وهي: مكية قال القرطبي: في قول الجميع. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: نزلت سورة «ص» بمكة، وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: «لما مرض أبو طالب نخل عليه رهط من قريش فيهم أبو جهل، فقال: إن ابن أخيك يشتم آلهتنا، ويفعل ويفعل، ويقول ويقول، فلو بعثت إليه، فنهيت، فبعثت إليه، فجاء النبي ﷺ، فدخل البيت، وبينهم وبين أبي طالب قدر مجلس رجل، فخشى أبو جهل أن يجلس إلى أبي طالب، ويكون أرقى عليه، فوثب فجلس في ذلك المجلس، فلم يجد رسول الله ﷺ مجلساً قرب عمه، فجلس عند الباب، فقال له أبو طالب: أي ابن أخي ما بال قومك يشكونك؟ يزعمون أنك تشتم آلهتهم. ويقول ويقول، قال: واكثروا عليه من القول، وتكلم رسول الله ﷺ فقال: يا عم إنني أريدكم على كلمة واحدة يقولونها تدين لهم بها العرب، وتؤذي إليهم بها العجم الجزية، ففزعوا لكلمته، ولقوله، فقال القوم: كلمة واحدة نعم، وأبيك عشراً، قالوا: فما هي؟ قال: لا إله إلا الله، فقاموا فرعين ينفضون

(1) من تجزئة المؤلف اهـ. مصححه.

(2) (الجزء الرابع من تجزئة المؤلف وأوله) اهـ. مصحح القرآن.

فيه نكركم ﴿[الأنبياء: 10] أي: شرفكم، وقيل: أي: ذي الموعظة.

واختلف في جواب هذا القسم ما هو؟ فقال الزجاج، والكسائي، والكوفيون غير الفراء: إنه قوله: ﴿إِنْ نُّكَ لِحَقٌّ﴾ [ص: 64]، وقال الفراء: لا نجده مستقيماً لتأخره جداً عن قوله: ﴿وَالْقُرْآنُ﴾، ورجح هو، وثعلب: أن الجواب قوله: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾، وقال الأخفش: الجواب هو: ﴿إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذِبَ الرِّسْلِ فَحَقٌّ عِقَابٌ﴾ [ص: 14]، وقيل: هو صاد، لأن معناه: حق، فهو: جواب لقوله: ﴿وَالْقُرْآنُ﴾ كما تقول: حقاً والله، وجب والله. نكره ابن الأنباري، وروي أيضاً عن ثعلب، والفراء، وهو مبني على أن جواب القسم يجوز تقدمه، وهو ضعيف. وقيل: الجواب محنوف، والتقدير: والقرآن ذي النكر لتبعثن، ونحو ذلك. وقال ابن عطية: تقديره ما الأمر كما يزعم الكفار، والقول بالحنف أولى. وقيل: إن قوله: ﴿ص﴾ مقسم به، وعلى هذا القول تكون الواو في ﴿وَالْقُرْآنُ﴾ للعطف عليه، ولما كان الإقسام بالقرآن دالاً على صدقه، وأنه حق، وأنه ليس بمحل للريب قال سبحانه: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾، فأضرب عن ذلك، وكأنه قال: لا ريب فيه قطعاً، ولم يكن عدم قبول المشركين له لريب فيه. بل هم في عِزَّةٍ عن قبول الحق أي: تكبر، وتجبر. وشقاق أي: وامتناع عن قبول الحق، والعِزَّة عند العرب: الغلبة، والقهر، يقال: من عَزَّ بَرَّ أي: من غلب سلب، ومنه ﴿وعزني في الخطاب﴾ [ص: 23] أي: غلبني، ومنه قول الشاعر:

يعز على الطريق بمنكبيه كما انترك الخليج على القداح
والشقاق: مأخوذ من الشق، وقد تقدم بيانه. ثم خوفهم سبحانه، وهذهم بما فعله بمن قبلهم من الكفار، فقال: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ يعني: الأمم الخالية المهلكة بتكذيب الرسل أي: كم أهلكنا من الأمم الخالية الذين كانوا آمن من هؤلاء، وأشد قوة، وأكثر أموالاً، وكما هي: الخيرية الدالة على التكاثر، وهي في محل نصب بأهلكنا على أنها مفعول به، ومن قرن تمييز، «ومن» في ﴿من قبلهم﴾ هي لابتداء الغاية ﴿فَنَادُوا وَلَات حِينَ مَنَاصٍ﴾ النداء هنا: هو نداء الاستغاثة منهم عند نزول العذاب بهم، وليس الحين حين مناص. قال الحسن: نادوا بالتوبة، وليس حين التوبة، ولا حين ينفع العمل. والمناص مصدر ناص ينوص، وهو الفوت، والتأخر. ولات بمعنى: ليس بلغة أهل اليمن. وقال النحويون: هي: لا التي بمعنى: ليس زينت عليها التاء كما في قولهم: رب، وربت، وثم وثمت قال الفراء: النوص التأخر، وإنشد قول امرئ القيس:

أمن نكر ليلى إذ نأتك تنوص

قال: يقال: ناص عن قرنه ينوص نوصاً أي: قر، وزاغ. قال الفراء: ويقال: ناص ينوص: إذا تقدم. وقيل: المعنى: أنه قال بعضهم لبعض مناص أي: عليكم بالفرار، والهزيمة، فلما اتاهم العذاب قالوا: مناص، فقال الله: ﴿وَلَات حِينَ مَنَاصٍ﴾ قال سيبويه: لات مشبهة بليس، والاسم فيها مضمر أي:

ليس حيننا حين مناص. قال الزجاج: التقدير وليس أوئنا. قال ابن كيسان: والقول كما قال سيبويه، والوقف عليها عند الكسائي بالهاء، وبه قال المبرد، والأخفش. قال الكسائي، والفراء، والخليل، وسيبويه، والأخفش: والتاء تكتب منقطعة عن حين، وكذلك هي في المصاحف. وقال أبو عبيد: تكتب متصلة بحين، فيقال: (ولا تحين)، ومنه قول أبي، وجرة السعدي:

العاطفون تحين ما من عاطف والمطعمون زمان ما من مطعم
وقد يستغنى بحين عن المضاف إليه كما قال الشاعر:
تذكر حب ليلى لات حيناً وأمسى الشيب قد قطع القرينا
قال أبو عبيد: لم نجد العرب تزيد هذه التاء إلا في حين، وأوان، والآن. قلت: بل قد يزيونها في غير ذلك كما في قول الشاعر:

فلتعرفن خلائنا مشمولة ولتندمن ولات ساعة مندم
وقد أنشد الفراء هذا البيت مستدلاً به على أن من العرب من يخفض بها، وجملة ﴿وَلَات حِينَ مَنَاصٍ﴾ في محل نصب على الحال من ضمير نادوا. قرأ الجمهور (لات) بفتح التاء، وقرأ (لات) بالكسر كجبر ﴿وعجبوا أن جاءهم منذر منهم﴾ أي: عجب الكفار الذين وصفهم الله سبحانه بأنهم في عِزَّةٍ وشقاق أن جاءهم منذر منهم أي: رسول من أنفسهم ينذرهم بالعذاب إن استمروا على الكفر، وأن وما في حيزها في محل نصب بنزع الخافض أي: من أن جاءهم، وهو كلام مستأنف مشتمل على نكر نوع من أنواع كفرهم ﴿وقال الكافرون هذا ساحر كذاب﴾ قالوا هذا القول لما شاهدوا ما جاء به من المعجزات الخارجة عن قدرة البشر أي: هذا المدعي للرسالة ساحر فيما يظهره من المعجزات كذاب فيما يدعيه من أن الله أرسله. قيل: ووضع الظاهر موضع المضمرة لإظهار الغضب عليهم وإن ما قالوه لا يتجاسر على مثله إلا المتوغلون في الكفر. ثم أنكروا ما جاء به ﷺ من التوحيد، وما نفاه من الشركاء لله، فقالوا: ﴿لجعل الله إلهاً واحداً﴾ أي: صيرها إلهاً واحداً، وقصرها على الله سبحانه ﴿إِنْ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾ أي: لأمر بالغ في العجب إلى الغاية. قال الجوهري: العجيب الأمر الذي يتعجب منه. وكذلك العجاب بالضم، والعجاب بالتشديد أكثر منه، قرأ الجمهور (عجاب) مخففاً. وقرأ علي، والسلمي وعيسى بن عمر، وابن مقسم بتشديد الجيم. قال مقاتل: عجاب يعني: بالتخفيف لغة أزد شنوءة، قيل: والعجاب بالتخفيف، والتشديد يدلان على أنه قد تجاوز الحد في العجب، كما يقال: الطويل الذي فيه طول. والطوال الذي قد تجاوز حد الطول، وكلام الجوهري يفيد اختصاص المبالغة بعجاب مشد الجيم لا بالمخفف، وقد قدمنا في صدر هذه السورة سبب نزول هذه الآيات ﴿وانطلق الملا منهم﴾ المراد بالملا: الأشراف كما هو مقرر في غير موضع من تفسير الكتاب العزيز أي: انطلقوا من مجلسهم الذي كانوا فيه عند أبي طالب كما تقدم قائلين ﴿إِنْ امشوا﴾ أي: قائلين

لبعضهم بعضاً امضوا على ما كنتم عليه، ولا تدخلوا في دينه ﴿واصبروا على آلهتكم﴾ أي: اثبتوا على عبادتها، وقيل: المعنى: وانطلق الاشراف منهم، فقالوا للعوام: امشوا، واصبروا على آلهتكم، و «أن» في قوله: ﴿أن امشوا﴾ هي: المفسرة للقول المقدر، أو لقوله: «وانطلق»، لأنه مضمن معنى القول، ويجوز أن تكون مصدرية معمولة للمقدر، أو للمذكور أي: بأن امشوا. وقيل: المراد بالانطلاق: الاندفاع في القول، وامشوا من مشت المرأة إذا كثرت ولايتها أي: اجتمعوا، واكثروا، وهو بعيد جداً، وخلاف ما يدل عليه الانطلاق، والمشي بحقيقتهما، وخلاف ما تقدم في سبب النزول، وجملة ﴿إن هذا لشيء يراد﴾ تعليل لما تقدمه من الأمر بالصبر أي: يريده محمد بنا، وبآلهتنا، ويودّ تمامه، ليعلو علينا، ونكون له اتباعاً، فيتحكم فينا بما يريد، فيكون هذا الكلام خارجاً مخرج التحذير منه، والتنفير عنه. وقيل: المعنى: إن هذا الأمر يريده الله سبحانه، وما أراده، فهو كائن لا محالة، فاصبروا على عبادة آلهتكم. وقيل: المعنى: إن دينكم لشيء يراد أي: يطلب، ليؤخذ منكم، وتغلبوا عليه، والأول أولى ﴿ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة﴾ أي: ما سمعنا بهذا الذي يقوله محمد من التوحيد في الملة الآخرة. وهي: ملة النصرانية، فإنها آخر الملل قبل ملة الإسلام، كذا قال محمد بن كعب القرظي، وقتادة، ومقاتل، والكلبي، والسدي. وقال مجاهد: يعنون: ملة قريش، وروي مثله عن قتادة أيضاً. وقال الحسن: المعنى: ما سمعنا أن هذا يكون آخر الزمان. وقيل: المعنى: ما سمعنا من اليهود، والنصارى أن محمداً رسول ﴿إن هذا إلا اختلاق﴾ أي: ما هذا إلا كذب اختلقه محمد، واقتراه. ثم استنكروا أن يخص الله رسوله بمزية النبوة دونهم، فقالوا: ﴿انزل عليه الذكر من بيننا﴾ والاستفهام للإنكار أي: كيف يكون ذلك، ونحن الرؤساء والأشراف. قال الزجاج: قالوا: كيف أنزل على محمد القرآن من بيننا، ونحن أكبر سناً، وأعظم شرفاً منه، وهذا مثل قولهم: ﴿لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ [الزخرف: 31] فأنكروا أن يتفضل الله سبحانه على من يشاء من عباده بما شاء. ولما نكر استنكارهم لنزول القرآن على رسول الله ﷺ دونهم بين السبب الذي لأجله تركوا تصديق رسول الله ﷺ فيما جاء به، فقال: ﴿بل هم في شك من تكري﴾ أي: من القرآن، أو الوحي لإعراضهم عن النظر الموجب لتصديقه، وإعمالهم للدلالة على أنه حق منزل من عند الله ﴿بل لما ينوقوا عذاب﴾ أي: بل السبب أنهم لم ينوقوا عذابي، فاعتزوا بطول المهلة، ولو ذاقوا عذابي على ما هم عليه من الشرك، والشك لصنقوا ما جئت به من القرآن، ولم يشكوا فيه ﴿أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب﴾ أي: مفاتيح نعم ربك، وهي النبوة، وما هو دونها من النعم حتى يعطوها من شأوا، فما لهم، وإنكار ما تفضل الله به على هذا النبي، واختاره له، واصطفاه لرسالته. والمعنى: بل أعندهم، لأن أم هي

المنقطعة المقدرة ببل والهمزة، والعزیز الغالب القاهر. والوهاب: المعطي بغير حساب ﴿أم لهم ملك للسموات والأرض وما بينهما﴾ أي: بل لهم ملك هذه الأشياء حتى يعطوا من شأوا، ويمنعوا من شأوا، ويعترضوا على إعطاء الله سبحانه ما شاء لمن شاء، وقوله: ﴿فليصرتوا في الأسباب﴾ جواب شرط محذوف أي: إن كان لهم ملك، فليصعدوا في الأسباب التي توصلهم إلى السماء، أو إلى العرش حتى يحكموا بما يريدون من عطاء، ومنع، ويديروا أمر العالم بما يشتهون، أو فليصعدوا، وليمنعوا الملائكة من نزولهم بالوحي على محمد ﷺ. والأسباب: أبواب السموات التي تنزل الملائكة منها، قاله مجاهد، وقتادة، ومنه قول زهير: ولو رام أسباب السماء بسلم

قال الربيع بن أنس: الأسباب أنق من الشعر، وأشد من الحديد، ولكن لا ترى. وقال السدي: ﴿في الأسباب﴾ في الفضل، والدين. وقيل: فليعملوا في أسباب القوة إن ظنوا أنها مانعة، وهو قول أبي عبيدة. وقيل: الأسباب الحبال يعني: إن وجدوا حبالاً يصعدون فيها إلى السماء فعولوا، والأسباب عند أهل اللغة كل شيء يتوصل به إلى المطلوب كائن ما كان. وفي هذا الكلام تهكم بكم، وتعجيز لهم ﴿جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب﴾ هذا وعد من الله سبحانه لنبيه ﷺ بالنصر عليهم، والظفر بهم، وجند مرتفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: هم جند، يعني: الكفار مهزوم مكسور عما قريب، فلا تبال بهم، ولا تظن أنهم يصلون إلى شيء مما يضرهم بك منا لكيد، و «ما» في قوله: ﴿ما هنالك﴾ هي: صفة لجند لإفادة التعظيم، والتحقير أي: جند أي جند. وقيل: هي زائدة، يقال: هزمت الجيش كسرته، وتهزمت القرية: إذا تكسرت، وهذا الكلام متصل بما تقدم، وهو قوله: ﴿بل اللذين كفروا في عزّة وشقاق﴾ وهم جند من الأحزاب مهزومون، فلا تحزن لعزتهم، وشقاقهم، فإني أسلب عزهم، وأهزم جمعهم، وقد وقع ذلك، وش الحد في يوم بدر، وفيما بعده من موطن الله.

وقد أخرج عبد بن حميد عن أبي صالح قال: سئل جابر بن عبد الله، وابن عباس عن ﴿ص﴾، فقال: لا ندري ما هو. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: ص محمد ﷺ. وأخرج ابن جرير عنه ﴿والقرآن ذي الذكر﴾ قال: ذي الشرف. وأخرج أبو داود الطيالسي، وعبد الرزاق، والفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه عن التميمي قال: سألت ابن عباس عن قول الله تعالى: ﴿فنادوا ولات حين مناص﴾ قال: ليس بحين نزو، ولا فرار. وأخرج ابن أبي حاتم من طريق عكرمة عنه في الآية قال: نادوا النداء حين لا ينفعهم، وأنشد:

تنكرت ليلى لات حين تنكر وقد بنت منها والمناص بعيد وأخرج عنه أيضاً في الآية قال: ليس هذا حين زوال. وأخرج ابن المنذر من طريق عطية عنه أيضاً قال: لا حين فرار. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس في

من الأحزاب ﴿ص: 11﴾؛ ولكن هؤلاء الذين قصهم الله علينا من الأمم السالفة هم أكثر منهم عدداً، وأقوى أيدئاً، وأوسع أموالاً، وأعماراً، وهذه الجملة يجوز أن تكون مستأنفة، ويجوز أن تكون خبراً، والمبتدأ قوله: ﴿وعداء﴾ كذا قال أبو البقاء، وهو ضعيف، بل الظاهر أن عاد، وما بعده معطوفات على قوم نوح، والأولى أن تكون هذه الجملة خبراً لمبتدأ محذوف، أو بدلاً من الأمم المنكورة ﴿إن كل إلا كذب الرسل﴾ إن هي: النافية، والمعنى: ما كل حزب من هذه الأحزاب إلا كذب الرسل، لأن تكذيب الحزب لرسوله المرسل إليه تكذيب لجميع الرسل، أو هو من مقابلة الجمع بالجمع، والمراد تكذيب: كل حزب لرسوله، والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال أي: ما كل أحد من الأحزاب في جميع أحواله إلا وقع منه تكذيب الرسل ﴿فحق عقاب﴾ أي: فحق عليهم عقابي بتكذيبهم، ومعنى حق: ثبت، ووجب، وإن تأخر، فكانه واقع بهم، وكل ما هو آت قريب. قرأ يعقوب بإثبات الياء في (عقاب)، وحذفها الباقيون مطابقة لرؤوس الآي ﴿وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة﴾ أي: ما ينتظرون إلا صيحة، وهي: النفخة الكائنة عند قيام الساعة. وقيل: هي النفخة الثانية، وعلى الأول المراد: من عاصر نبينا ﷺ من الكفار، وعلى الثاني المراد كفار الأمم المنكورة أي: ليس بينهم وبين حلول ما أعد الله لهم من عذاب النار إلا أن ينفخ في الصور النفخة الثانية. وقيل: المراد بالصيحة: عذاب يفجؤهم في الدنيا كما قال الشاعر:

صاح الزمان بأل بركم صيحة خروا الشنتها على الأنقان
وجملة ﴿ما لها من فوق﴾ في محل نصب صفة لصيحة. قال الزجاج: فوق، وفوق بفتح الفاء، وضمها أي: ما لها من رجوع، والفوق ما بين حبلتي الناقة، وهو مشتق من الرجوع أيضاً، لأنه يعود اللبن إلى الضرع بين الحلبتين، وأفاق من مرضه أي: رجع إلى الصحة، ولهذا قال مجاهد، ومقاتل: إن الفواق الرجوع. وقال قتادة: ما لها من مثنية. وقال السدي: ما لها من إفاقة، وقيل: ما لها من مرد. قال الجوهري: ما لها من نظرة، وراحة وإفاقة، ومعنى الآية: أن تلك الصيحة هي ميعاد عذابهم، فإذا جاءت لم ترجع، ولا ترد عنهم، ولا تصرف منهم، ولا تتوقف مقدار فوق ناقة، وهي ما بين حبلتي الحالب لها، ومنه قول الأعشى:

حتى إذا فية في ضرعها اجتمعت جاءت لترضع شق النفس لورضها
والفيقة اسم اللبن الذي يجتمع بين الحلبتين، وجمعها فيق، وأفواق. قرأ حمزة، والكسائي ما لها من فوق بضم الفاء، وقرأ الباقيون بفتحها. قال الفراء، وأبو عبيدة: الفواق بفتح الفاء الراحة أي: لا يفيقون فيها كما يفيق المريض، والمغشي عليه، وبالضم الانتظار ﴿وقالوا ربنا عجل لنا قطناً قبل يوم الحساب﴾ لما سمعوا ما توعدهم الله به من العذاب قالوا هذه المقالة استهزاء، وسخرية، والقط في اللغة: النصيب من القطع، وهو: القطع، وبهذا قال قتادة، وسعيد بن جبير، قال الفراء: القط في كلام العرب: الحظ والنصيب،

قوله: ﴿وانطلق للملا منهم﴾ الآية قال: نزلت حين انطلق اشراف قريش إلى أبي طالب، فكلموه في النبي ﷺ. وأخرج ابن مريويه عنه ﴿وانطلق للملا منهم﴾ قال: أبو جهل. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿ما سمعنا بهذا في المللة الآخرة﴾ قال: النصرانية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله ﴿فليرتقوا في الأسباب﴾ قال: في السماء.

كَبَّتْ قَلَمَهُ قَوْمٌ نُوْحٌ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْدَادِ ﴿١٧﴾ وَنُوحٌ وَقَوْمٌ لُوطٌ وَأَصْحَبُ الْأَنْبِيَاءِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨﴾ إِنَّ كُلَّ إِلَّا كَذَّبَ أُرْسِلْ فَحَقَّ عِقَابٌ ﴿١٩﴾ وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَرَاقٍ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْنَا نَا وَقَدْ قَتَلْنَا قَوْمَنَا يَوْمَ الْأَوَّلِينَ ﴿٢١﴾ أَمْرٌ عَلَيْنَا يَا رَبَّنَا مَا لَمْ تَكُنْ بِهَذَا شَهِيدًا ﴿٢٢﴾ أَتُكَذِّبُونَ الْبَرَاءَةَ إِذَا سَأَرْنَا لِحَالِ الْبَرَاءَةِ وَمَا كُنَّا بِهَذَا شَهِيدًا ﴿٢٣﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٢٥﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٢٦﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٢٨﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٣١﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٤٠﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٤١﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٥١﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٥٦﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٥٩﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٦١﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٦٣﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٦٤﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٦٨﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٦٩﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٧٠﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٧١﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٧٤﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٧٨﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٧٩﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٨١﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٨٦﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٨٧﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٨٨﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٨٩﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٩٠﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٩١﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٩٥﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٩٦﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٩٧﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٩٨﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿٩٩﴾ وَإِنَّا سَآئِرُونَ ﴿١٠٠﴾

لما نكر سبحانه أحوال الكفار المعاصرين لرسول الله ﷺ نكر أمثالهم ممن تقدمهم، وعمل عملهم من الكفر والتكذيب، فقال: ﴿كُذِّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾ قال المفسرون: كانت له أوتاد يعذب بها الناس، وذلك أنه كان إذا غضب على أحد، وتد يديه، ورجليه، ورأسه على الأرض. وقيل: المراد بالأوتاد: الجموع، والجنود الكثيرة، يعني: أنهم كانوا يقوون أمره، ويشدون سلطانه كما تقوى الأوتاد ما ضربت عليه، فالكلام خارج مخرج الاستعارة على هذا. قال ابن قتيبة: العرب تقول: هم في عز ثابت الأوتاد، وملك ثابت الأوتاد، يربون ملكاً دائماً شديداً، وأصل هذا أن البيت من بيوت الشعر إنما يثبت، ويقوم بالأوتاد. وقيل: المراد بالأوتاد هنا البناء المحكم أي: وفرعون ذو الأبنية المحكمة. قال الضحاك: والبنيان يسمى أوتاداً، والأوتاد جمع وتد أقصحتها فتح الواو، وكسر التاء، ويقال: وقد بفتحهما، وودٌ بإدغام التاء في الدال، وودت. قال الأصمعي: ويقال: وتد واتد مثل شغل شاغل، وأنشد:

لاقت علي المأجديلاً واتدا ولم يكن يخلفها المواعدا
﴿ونمود وقوم لوط وأصحاب لايكة﴾ الآية الغيضة، وقد تقدم تفسيرها، واختلاف القراءة في قراءتها في سورة الشعراء، ومعنى ﴿أولئك الأحزاب﴾: أنهم الموصوفون بالقوة، والكثرة كقولهم: فلان هو الرجل، وقريش، وإن كانوا حزباً كما قال الله سبحانه فيما تقدم: ﴿جند ما هنالك مهزوم

كانت تجمعها إليه الملائكة. وقيل: كانت تجمعها الريح ﴿كَلَّ لَهُ أَوَابٌ﴾ أي: كل واحد من داود، والجبال، والطير رجاء إلى طاعة الله، وأمره، والضمير في له راجع إلى الله عز وجل. وقيل: الضمير لداود أي: لأجل تسبيح داود مسبح، فوضع أَوَاب موضع مسبح، والأول أولى. وقد قَدَّمْنَا أن الأَوَاب: الكثير الرجوع إلى الله سبحانه ﴿وَوَشَدَدْنَا مَلَكَهُ﴾ قَوِينَا وَثَبَّتْنَاهُ بالنصر في المواطن على أعدائه وإلقاء الرعب منه في قلوبهم. وقيل: بكثرة الجنود ﴿وَوَثَّقْنَاهُ بالحكمة وفصل الخطاب﴾ المراد بالحكمة: النبوة، والمعرفة بكل ما يحكم به. وقال مقاتل: الفهم، والعلم. وقال مجاهد: العدل. وقال أبو العالية: العلم بكتاب الله. وقال شريح: السنة. والمراد بفصل الخطاب: الفصل في القضاء، وبه قال الحسن، والكلبي، ومقاتل. وحكى الواحدي عن الأكثر: أن فصل الخطاب الشهود، والإيمان؛ لأنها إنما تنقطع الخصومة بهذا. وقيل: هو: الإيجاز بجعل المعنى الكثير في اللفظ القليل ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَا الْخَصْمِ إِذْ تَسُوْرُوا الْحَرَابَ﴾ لما مدحه الله سبحانه بما تقدم ذكره أُرْدِفَ ذلك بذكر هذه القصة الواقعة له لما فيها من الأخبار العجيبة. قال مقاتل: بعث الله إلى داود ملكين، جبريل، وميكائيل؛ لينبئه على التوبة، فأتياه، وهو في محرابه. قال النحاس: ولا خلاف بين أهل التفسير أن المراد بالخصم ما هنا الملكان، والخصم مصدر يقع على الواحد، والاثنيين، والجماعة. ومعنى ﴿تَسُوْرُوا الْحَرَابَ﴾: أتوه من أعلى سوره، ونزلوا إليه، والسور: الحائط المرتفع، وجاء بلفظ الجمع في تسووروا مع كونهم اثنين نظراً إلى ما يحتمله لفظ الخصم من الجمع. ومنه قول الشاعر:

وخصم غضاب قد نفضت لحام
كنفض البرانين العرب المخاليا

والحرب: القرعة، لأنهم تسووروا عليه، وهو فيها، كذا قال يحيى بن سلام. وقال أبو عبيدة: إنه صدر المجلس، ومنه محراب المسجد. وقيل: إنهما كانا إنسيين، ولم يكونا ملكين، والعامل في «إذ» في قوله: ﴿إِذْ نَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ النبا أي: هل أتاك الخبر الواقع في وقت تسوورهم، وبهذا قال ابن عطية، ومكي، وأبو البقاء. وقيل: العامل فيه أتاك. وقيل: معمول للخصم. وقيل: معمول لمحذوف أي: وهل أتاك نبا تحاكم الخصم. وقيل: هو معمول لتسووروا. وقيل: هو بدل مما قبله. وقال الفراء: إن أحد الطرفين المذكورين بمعنى: لما «ففرز» منهم، وذلك لأنهما أتياه ليلاً في غير وقت دخول الخصوم، ودخلوا عليه بغير إذن، ولم يدخلوا من الباب الذي يدخل منه الناس. قال ابن الأعرابي: وكان محراب داود من الامتناع بالارتفاع بحيث لا يرتقي إليه أمني بحيلة، وجملة ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل: فماذا قالوا لداود لما فرز منهم، وارتفع ﴿خَصْمَانِ﴾، على أنه خير مبتدا محذوف أي: نحن خصمان، وجاء فيما سبق بلفظ الجمع، وهنا بلفظ التثنية لما ذكرنا من أن لفظ الخصم يحتمل المفرد، والمثنى، والمجموع، فالكمل جائز. قال الخليل: هو كما تقول: نحن فعلنا كذا؛ إذا كنتم اثنين. وقال الكسائي:

ومنه قيل: للصك قط. قال أبو عبيدة، والكسائي: القط الكتاب بالجواز، والجمع القطوط، ومنه قول الأعشى:

ولا الملك النعمان يوم لقيته
بغبطته يعطي القطوط ويأثق

ومعنى يأثق: يصلح، ومعنى الآية: سؤالهم لربهم أن يعجل لهم نصيبهم، وحظهم من العذاب، وهو مثل قوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب﴾ [الحج: 47، والعنكبوت: 53]. وقال السدي: سألوا ربهم: أن يمثل لهم منازلهم من الجنة، ليعلموا حقيقة ما يوعدون به، وقال إسماعيل بن أبي خالد: المعنى: عجل لنا أَرْزَاقَنَا، وبه قال سعيد بن جببر، والسدي. وقال أبو العالية، والكلبي، ومقاتل: لما نزل ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْتِيَ كتابه بيمينه﴾ [الحاقة: 19، والانشقاق: 7] ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْتِيَ كتابه بشماله﴾ [الحاقة: 25] قالت قریش: زعمت يا محمد أننا نؤتي كتابنا بشمالنا، فعجل لنا قطنا قبل يوم الحساب. ثم أمر الله سبحانه نبيه أن يصبر على ما يسمعه من أقوالهم فقال: ﴿اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ من أقوالهم الباطلة التي هذا القول المحكي عنهم من جملتها. وهذه الآية منسوخة بآية السيف ﴿وَأَنْكَرَ عَيْبُنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ﴾ لما فرغ من ذكر قرون الضلالة، وأم الكفر، والتكذيب، وأمر نبيه ﷺ بالصبر على ما يسمعه زاد في تسليته، وتأسيته بذكر قصة داود، وما بعدها. ومعنى ﴿أَنْكَرَ عَيْبُنَا دَاوُدَ﴾: أنكر قصته، فإنك تجد فيها ما تتسلى به، والأيد: القوة، ومنه رجل أيد أي: قوي، وتأيد الشيء: تقوى، والمراد: ما كان فيه عليه السلام من القوة على العبادة. قال الزجاج: وكانت قوة داود على العبادة أتم قوة، ومن قوته ما أخبرنا به نبينا ﷺ: أنه كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، وكان يصلي نصف الليل، وكان لا يفر إذا لاقى العدو، وجملة ﴿إِنَّهُ أَوَابٌ﴾ تعليل لكونه ذا الأيد، والأواب: الرجاء عن كل ما يكرهه الله سبحانه إلى ما يحبه، ولا يستطيع ذلك إلا من كان قوياً في دينه. وقيل: معناه: كلما ذكر ذنبه استغفر منه، وناب عنه، وهذا داخل تحت المعنى الأول، يقال: آب يثوب: إذا رجع ﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ أي: يقدس الله سبحانه، وينزهه عما لا يليق به. وجملة ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ في محل نصب على الحال، وفي هذا بيان ما أعطاه الله من البرهان، والمعجزة، وهو: تسبيح الجبال معه. قال مقاتل: كان داود إذا ذكر الله تكرر الجبال معه، وكان يفقه تسبيح الجبال. وقال محمد بن إسحاق: أوتي داود من حسن الصوت ما يكون له في الجبال نوي حسن، فهذا معنى: تسبيح الجبال، والأول أولى. وقيل: معنى ﴿يُسَبِّحْنَ﴾: يصلين، و﴿مَعَهُ﴾ متعلق بسخرنا. ومعنى ﴿بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ قال الكلبي: غداة وعشية، يقال: أشرقت الشمس: إذا أضاءت، وذلك وقت الضحى. وأما شروقها، فطلوعها. قال الزجاج: شرقت الشمس: إذا طلعت، وأشرقت: إذا أضاءت ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ معطوف على الجبال، وانتصاب محشورة على الحال من الطير أي: وسخرنا الطير حال كونها محشورة أي: مجموعة إليه تسبح الله معه. قيل:

مبتداً، وقليل خبره **﴿وقلن داود إنما فتناه﴾**، قال أبو عمرو، والفراء: قلن يعني: أيقن. ومعنى **﴿فتناه﴾**: ابتليناه، والمعنى: أنه عند أن تخلصنا إليه، وقال ما قال علم عند ذلك أنه المراد، وأن مقصودهما التعريض به، وبصاحبه الذي أراد أن ينزل له عن امرأته. قال الواحدي: قال المفسرون: فلما قضى بينهما داود نظر أحدهما إلى صاحبه، فضحك، فعند ذلك علم داود بما أراده. قرأ الجمهور: (فتناه) بالتخفيف للقاء، وتشديد النون. وقرأ عمر بن الخطاب، والحسن، وأبو رجاء بالتشديد للقاء، والنون، وهي: مبالغة في الفتنة. وقرأ الضحاك (افتناه)، وقرأ قتادة، وعبيد بن عمير، وابن السميع (فتناه) بتخفيفهما، وإسناد الفعل إلى الملكين، ورويت هذه القراءة عن أبي عمرو **﴿فاستغفر ربه﴾** لذنبه **﴿وآخر راعها﴾** أي: ساجداً، وعبر بالركوع عن السجود، قال ابن العربي: لا خلاف بين العلماء أن المراد بالركوع هنا السجود، فإن السجود هو: الميل، والركوع هو: الانحناء، وأحدهما يدخل في الآخر، ولكنه قد يختص كل واحد منهما بهيئة. ثم جاء في هذا على تسمية أحدهما بالآخر. وقيل: المعنى للسجود راعها أي: مصلياً. وقيل: بل كان ركوعهم سجوداً. وقيل: بل كان سجودهم ركوعاً **﴿وأناب﴾** أي: رجع إلى الله بالتوبة من ذنبه.

وقد اختلف المفسرون في ذنب داود الذي استغفر له، وتاب عنه على أقوال: الأول: أنه نظر إلى امرأة الرجل التي أراد أن تكون زوجة له، كذا قال سعيد بن جبير، وغيره. قال الزجاج: ولم يعتمد داود النظر إلى المرأة لكنه عاود النظر إليها، وصارت الأولى له، والثانية عليه. القول الثاني: أنه أرسل زوجها في جملة الغزاة. الثالث: أنه نوى إن مات زوجها أن يتزوجها. الرابع: أن أوريا كان خطب تلك المرأة، فلما غاب خطبها داود، فزوجت منه لجلالته، فاغتم لذلك أوريا، فعتب الله عليه حيث لم يتركها لخطبها. الخامس: أنه لم يجزعه على قتل أوريا كما كان يجزعه على من هلك من الجند، ثم تزوج امرأته، فعاتبه الله على ذلك، لأن ذنوب الأنبياء، وإن صغرت، فهي عظيمة. السادس: أنه حكم لأحد الخصمين قبل أن يسمع من الآخر كما قدما.

وأقول: الظاهر من الخصومة التي وقعت بين الملكين تعريضاً لداود عليه السلام، أنه طلب من زوج المرأة الواحدة أن ينزل له عنها، ويضمرها إلى نسائه، ولا ينافي هذا العصمة الكائنة للأنبياء، فقد نبهه الله على ذلك، وعرض له بإرسال ملائكته إليه، ليتخاصموا في مثل قصته حتى يستغفر لذنبه، ويتوب منه، فاستغفر وتاب. وقد قال سبحانه: **﴿وعصى آدم ربه فغوى﴾** [طه: 121] وهو أبو البشر، وأول الأنبياء، ووقع لغيره من الأنبياء ما قصه الله علينا في كتابه. ثم أخبر سبحانه: أنه قبل استغفاره، وتوبته قال: **﴿فغفرنا له ذلك﴾** أي: ذلك الذنب الذي استغفر منه. قال عطاء الخراساني، وغيره: إن داود بقي ساجداً أربعين يوماً حتى نبت الرعي حول وجهه، وغمر رأسه. قال ابن الأنباري: الوقف على قوله:

جمع لما كان خيراً، فلما انقضى الخبر، وجاءت المخاطبة أخير الاثنان عن أنفسهما، فقالا: خصمان، وقوله: **﴿يغنى بعضنا على بعض﴾** هو على سبيل الفرض، والتقدير، وعلى سبيل التعريض؛ لأن من المعلوم أن الملكين لا يبغيان. ثم طلبا منه أن يحكم بينهما بالحق، ونهياه عن الجور، فقالا: **﴿فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط﴾** أي: لا تجر في حكمك، يقال: شط الرجل، وأشط شططاً، وإشطاطاً: إذا جار في حكمه. قال أبو عبيد: شططت عليه، وأشططت أي: جرت. وقال الأخفش: معناه: لا تسرف، وقيل: لا تفرط، وقيل: لا تمل. والمعنى متقارب، والأصل فيه البعد، من شطت الدار: إذا بدت. قال أبو عمرو: الشطط مجاوزة القدر في كل شيء **﴿واهدنا إلى سواء الصراط﴾** سواء الصراط: وسطه. والمعنى: أرشدنا إلى الحق، واحملنا عليه. ثم لما أخبراه عن الخصومة إجمالاً شرعاً في تفصيلهما، وشرحها، فقالا: **﴿إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة﴾** المراد بالأخوة هنا: أخوة الدين، أو الصلبة، والنعجة هي: الأنثى من الضأن، وقد يقال لبقر الوحش: نعجة **﴿ولي نعجة واحدة﴾** قال الواحدي: النعجة البقرة الوحشية، والعرب تكني عن المرأة بها، وتشبه النساء بالنساء من البقر. قرأ الجمهور (تسع وتسعون) بكسر التاء الفوقية. وقرأ الحسن، وزيد بن علي بفتحها. قال النحاس: وهي: لغة شاذة، وإنما عني بـ «هذا»: داود؛ لأنه كان له تسع وتسعون امرأة، وعنى بقوله: «ولي نعجة واحدة» [أوريا] زوج المرأة التي أراد أن يتزوجها داود كما سيأتي بيان ذلك **﴿فقال اكفليها﴾** أي: ضمها إلي، وانزل لي عنها حتى أكفلها، وأصير بعلاً لها. قال ابن كيسان: أبعها كفلي، ونصبي **﴿وعزني في الخطاب﴾** أي: غلبني، يقال: عزه يعزّه عزاً: إذا غلبه. وفي المثل «من عزّ برّاً» أي: من غلب سلب، والاسم العزة: وهي: القوة. قال عطاء: المعنى: إن تكلم كان أقصح مني. وقرأ ابن مسعود، وعبيد بن عمير (وعازني في الخطاب) أي: غلبني من المعازة، وهي: المغالبة **﴿قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه﴾** أي: بسؤاله نعجتك، ليضمها إلى نعاجه التسع والتسعين إن كان الأمر على ما تقول، واللام هي: الموطئة للقسم، وهي وما بعدها جواب للقسم المقرر. وجاء بالقسم في كلامه مبالغة في إنكار ما سمعه من طلب صاحب التسع والتسعين النعجة أن يضم إليه النعجة الواحدة التي مع صاحبه، ولم يكن معه غيرها. ويمكن أنه إنما قال بهذا بعد أن سمع الاعتراف من الآخر. قال النحاس: ويقال: إن خطيئة داود هي: قوله: **﴿لقد ظلمك﴾**؛ لأنه قال ذلك قبل أن يتثبت **﴿وإن كثيراً من الخططاء﴾** وهم: الشركاء، وأحدهم خليط: وهو المخالط في المال **﴿ليغني بعضهم على بعض﴾** أي: يتعدى بعضهم على بعض، ويظلمه غير مراع لحقه **﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾**، فإنهم يتحامون ذلك، ولا يظلمون خليطاً، ولا غيره **﴿وقليل ما هم﴾** أي: وقليل هم، وما زائدة للتوكيد، والتعجيب. وقيل: هي موصولة، وهم

﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾ تَامَ، ثُمَّ يَبْتَدِئُ الْكَلَامَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ لَهُ عُنْدَنَا لِزُلْفَىٰ وَحَسَنَ مَّآبٍ﴾ الزُّلْفَى: الْقُرْبَى، وَالْكَرَامَةُ بَعْدَ الْمَغْفَرَةِ لِلذَّنْبِ. قَالَ مُجَاهِدٌ: الزُّلْفَى الدُّنُو مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَالْمَرَادُ بِحَسَنِ الْمَّآبِ: حَسَنَ الْمَرْجِعِ، وَهُوَ: الْجَنَّةُ.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا لَهَا مِنْ قَوَالٍ﴾ قال: من رجعة. ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْ لَنَا قَطَنًا﴾ قال: سألوا الله أن يجعل لهم. وأخرج ابن أبي حاتم من طريق الزبير ابن عدي عنه: ﴿عَجَلْ لَنَا قَطَنًا﴾ قال: نصيينا من الجنة. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً في قوله: ﴿ذَا الْإِيدِ﴾ قال: القُرَّة. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال: الْأَوَابُ الْمَسِيح. وأخرج الديلمي عن مجاهد قال: سألت ابن عمر عن الْأَوَابِ، فقال: سألت النبي ﷺ عنه، فقال: هو الذي يذكر ذنوبه في الخلاه، فيستغفر الله. وأخرج عبد بن حميد، عن ابن عباس قال: الْأَوَابُ الموقن. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد عن عطاء الخراساني عنه قال: لم يزل في نفسي من صلاة الضحى حتى قرأت هذه الآية ﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾. وأخرج ابن المنذر، وابن مروي عنه أيضاً قال: لقد أتى عليّ زمان، وما أدري وجه هذه الآية ﴿يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ حتى رأيت الناس يصلون الضحى. وأخرج الطبراني في الأوسط، وابن مروي عنه قال: كنت أمرُ بهذه الآية ﴿يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ فما أدري ما هي؟ حتى حدثني أم هانئ بنت أبي طالب: «أن النبي ﷺ دخل عليها يوم الفتح، فدعا بوضوء، فتوضأ، ثم صلى الضحى، ثم قال: يا أم هانئ هذه صلاة الإِشْرَاقِ». وأخرج ابن جرير، وابن مروي عنه وجه آخر عنه نحوه. والأحاديث في صلاة الضحى كثيرة جداً قد نكرناها في شرحنا للمنتقى. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: استعدي رجل من بني إسرائيل عند داود على رجل من عظمائهم، فقال: إن هذا غصيني بقرأ لي، فسأل داود الرجل عن ذلك، فجدده، فسأل الآخر البيعة، فلم يكن له بيعة، فقال لهما داود: قوماً حتى انظر في أمركما، فقاما من عنده، فأتى داود في منامه فقيل له: اقتل الرجل الذي استعدي، فقال: إن هذه رؤيا، ولست أعجل حتى أتيت، فأتى الليلة الثانية في منامه، فأمر أن يقتل الرجل، فلم يفعل، ثم أتى الليلة الثالثة، فقيل له: اقتل الرجل، أو تاتيكَ العقوبة من الله، فأرسل داود إلى الرجل، فقال: إن الله أمرني أن أقتلك، قال: تقتلني بغير بيعة، ولا تثبت؟ قال: نعم، والله لأنفدن أمر الله فيك، فقال الرجل: لا تعجل عليّ حتى أخبرك، إني والله ما أخذت بهذا الذنب، ولكنني كنت اغتلت والد هذا، فقتلته، فبذلك أخذت، فأمر به داود، فقتل، فاشتدت هيئته في بني إسرائيل، وشدَّ به ملكه، فهو قول الله: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ﴾ قال: أعطي الفهم. وأخرج ابن أبي حاتم، والديلمي عن أبي موسى الأشعري قال: أوَّل من قال أما بعد داود عليه السلام ﴿وَوَ﴾ هو

﴿فَصَلِّ الْخُطَابَ﴾. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن سعد، وعبد بن حميد، وابن المنذر عن الشعبي: أنه سمع زياد بن أبيه يقول: فصل الخطاب الذي أوتي داود: أما بعد. وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف، وابن أبي حاتم عن ابن عباس: أن داود حدث نفسه إذا ابتلي أنه يعتصم، فقيل له: إنك ستبتلي، وستعلم اليوم الذي تبتلي فيه، فخذ حذرك، فقيل له: هذا اليوم الذي تبتلي فيه، فأخذ الزبور، ودخل المحراب، وأغلق باب المحراب، وأخذ الزبور في حجره، وأقعد منصفاً يعني: خادماً على الباب، وقال: لا تأذن لأحد عليّ اليوم، فبينما هو يقرأ الزبور إذ جاء طائر مذهب كاحسن ما يكون للطير فيه من كل لون، فجعل يدور بين يديه، فدنا منه، فأمكن أن يأخذه، فتناوله بيده؛ ليأخذه، فاستوفز من خلفه، فاطبق الزبور، وقام إليه، ليأخذه، فطار، فوقع على كوة المحراب، فدنا منه؛ ليأخذه، فافضى، فوقع على خص، فاشرف عليه لينظر أين وقع؟ فإذا هو بامرأة عند بركتها تغتسل من الحيض، فلما رأت ظله حركت رأسها، ففطت جسدها أجمع بشعرها، وكان زوجها غائياً في سبيل الله، فكتب داود إلى رأس الغزاة: انظر أوريا، فاجعله في حملة التابوت، وكان حملة التابوت إما أن يفتح عليهم، وإما أن يقتلوا، فقدمه في حملة التابوت، فقتل، فلما انقضت عدتها خطبها داود، فاشتربت عليه إن ولدت غلاماً أن يكون الخليفة من بعده، وأشهدت عليه خمسين من بني إسرائيل، وكتب عليه بذلك كتاباً، فما شعر بفتنته أنه افتتن حتى ولدت سليمان، وشب، فستور عليه الملكان المحراب، وكان شأنهما ما قص الله في كتابه، وخز داود ساجداً، فغفر الله له، وتاب عليه. وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب قال: ما أصاب داود بعد ما أصابه بعد القدر إلا من عجب عجب بنفسه، وذلك أنه قال: يا رب ما من ساعة من ليل، ولا نهار إلا، وعابد من آل داود يعبدك يصلي لك، أو يسبح، أو يكبر، ونكر أشياء، فكره الله ذلك، فقال: يا داود إن ذلك لم يكن إلا بي، فلولا عوني ما قويت عليه، وعزتي، وجلالي لاكنك إلى نفسك يوماً، قال: يا رب فأخبرني به، فأخبر به، فأصابته الفتنة ذلك اليوم. وأخرج أصل القصة الحكيم الترمذي في نوار الأصول، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن انس مرفوعاً بإسناد ضعيف. وأخرجها ابن جرير من وجه آخر عن ابن عباس مطوّلة. وأخرجها جماعة عن جماعة من التابعين. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود في قوله: ﴿إِنْ هَذَا لَخِي﴾ قال: على ديني. وأخرج عبد الرزاق، والغريابي، وأحمد في الزهد، وابن جرير، والطبراني عنه قال: ما زاد داود على أن ﴿فَقَالَ اكْفُلْنِيهَا﴾. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿اكْفُلْنِيهَا﴾ قال: ما زاد داود على أن قال: تحوّل لي عنها. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾ يقول: قليل الذي هم فيه، وفي قوله: ﴿وَوُضِعَ دَاوُدُ أَمَّا فَتَنَاهُ﴾ قال: اختبرناه.

الجنة، وجملة ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ تحليل للنهي عن اتباع الهوى، والوقوع في الضلال، والباء في ﴿بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ للسببية، ومعنى النسيان الترك أي: بسبب تركهم العمل لذلك اليوم قال الزجاج: أي: بتركهم العمل لذلك اليوم صاروا بمنزلة الناسين، وإن كانوا يذكرون، ويذكرون. وقال عكرمة، والسدي: في الآية تقديم، وتأخير، والتقدير: ولهم عذاب يوم الحساب بما نسوا أي: تركوا القضاء بالعدل، والأول أولى. وجملة ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا﴾ مستأنفة مقترنة لما قبلها من أمر البعث، والحساب أي: ما خلقنا هذه الأشياء خلقاً باطلاً خارجاً على الحكمة الباهرة، بل خلقناها للدلالة على قدرتنا، فانتصاب باطلاً على المصيرية، أو على الحالية، أو على أنه مفعول لأجله، والإشارة بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ إلى المنفي قبله، وهو مبتدأ، وخبره ﴿ظَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: مظلونهم، فإنهم يظنون أن هذه الأشياء خلقت لا لغرض، ويقولون: إنه لا قيامة، ولا بعث، ولا حساب، وذلك يستلزم أن يكون خلق هذه المخلوقات باطلاً ﴿قَوْلٍ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ والفاء لإفادة ترتب ثبوت الويل لهم على ظنهم الباطل أي: فويل لهم بسبب النار المترتبة على ظنهم، وكفرهم. ثم ويخبرهم، ويكتمهم فقال: ﴿إِنَّمَا نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُسْفِينِ فِي الْأَرْضِ﴾ قال مقاتل: قال كفار قريش للمؤمنين: إنا نعطي في الآخرة كما تعطون، فنزلت، وأم هي: المنقطعة المقترنة ببل، والهمزة أي: بل نجعل الذين آمنوا بالله، وصبقوا رسله، وعملوا بفرائضه كالمفسدين في الأرض بالمعاصي. ثم اضرب سبحانه إضراباً آخر، وانتقل عن الأول إلى ما هو أظهر استحالة منه، فقال: ﴿إِنَّمَا نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ أي: بل تجعل أتقياء المؤمنين كاشقياء الكافرين، والمنافقين، والمنهمكين في معاصي الله سبحانه من المسلمين، وقيل: إن الفجار هنا خاص بالكافرين، وقيل: المراد بالمتقين الصحابة، ولا وجه للتخصيص بغير مخصص، والاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ﴿كِتَابِ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾ ارتفاع كتاب على أنه خبر مبتدأ محذوف، وأنزلناه إليك صفة له، ومبارك خبر ثانٍ للمبتدأ ولا يجوز أن يكون صفة أخرى لكتاب لما تقرر من أنه لا يجوز تأخير الوصف الصريح عن غير الصريح، وقد جوزه بعض النحاة، والتقدير: القرآن كتاب أنزلناه إليك يا محمد كثير الخير، والبركة. وقرأ (مباركاً) على الحال، وقوله: ﴿لِيَذَّبَنَّهُ﴾ أصله ليتبذروا، فاندغمت التاء في الدال، وهو متعلق بأنزلناه. وفي الآية دليل على أن الله سبحانه إنما أنزل القرآن للتدبر، والتفكير في معانيه، لا لمجرد التلاوة بدون تدبر. قرأ الجمهور (ليذبروا) بالإدغام. وقرأ أبو جعفر، وشيبة (لتبذروا) بالتاء الفوقية على الخطاب، ورويت هذه القراءة عن عاصم، والكسائي، وهي قراءة علي رضي الله عنه، والأصل لتبذروا بتأعين، فحذف إحداهما تخفيفاً ﴿وَلِيُذَكِّرَ أَهْلَ الْأَلْبَابِ﴾ أي: ليتعظ أهل العقول،

وأخرج أحمد، والبخاري، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن مردويه، والبيهقي في سننه عنه أيضاً: أنه قال في السجود في ص: ليست من عزائم السجود، وقد رايت رسول الله ﷺ يسجد فيها. وأخرج النسائي، وابن مردويه بسند جيد عنه أيضاً: «أن النبي ﷺ سجد في ص، وقال: سجدها داود، ونسجدها شكرًا». وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة: «أن النبي ﷺ سجد في ص». وأخرج ابن مردويه عن أنس مثله مرفوعاً. وأخرج الدارمي، وأبو داود، وابن خزيمة، وابن حبان، والدارقطني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في سننه عن أبي سعيد قال: «قرأ رسول الله ﷺ، وهو على المنبر ص، فلما بلغ السجدة نزل، فسجد، وسجد الناس معه، فلما كان يوم آخر قراها، فلما بلغ السجدة تهايا الناس للسجود، فقال: إنما هي توبة، ولكني رايتكم تهياتم للسجود، فنزل، فسجد». وأخرج ابن مردويه، عن عمر بن الخطاب، عن النبي ﷺ: «أنه ذكر يوم القيامة، فعظم شأنه، وشدته قال: ويقول الرحمن عز وجل لداود عليه السلام: مر بين يدي، فيقول داود: يا رب أخاف أن تدحضني خطيئتي، فيقول: خذ بقدمي، فيأخذ بقدمه عز وجل، فيمر، قال: فتلك الزلفى التي قال الله: ﴿وَأَن لَّهٗ عِندَنَا لُزْلَفَىٰ وَحَسَنَ مَّآبٍ﴾»

يَذَكِّرُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَعْزِلُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿١٠١﴾ وَمَا خَلَقْنَا نِسَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكُمْ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿١٠٢﴾ أَمْ يَحْسَبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَسْمًا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَحْسَبُ الْمُؤْمِنُونَ كَالْفُجَّارِ ﴿١٠٣﴾ كَذَّبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَذَكِّرَ أَهْلَهُ وَيُذَكِّرَ أَهْلَ الْأَلْبَابِ ﴿١٠٤﴾ وَهَٰذَا لَدَاؤُكَ سَلِّطْنَا نِعَمَ الْمَدِّ إِنَّهُ أَوَّلُ ﴿١٠٥﴾ إِذْ عَرَضَ عَلَيْكَ الْمَنِيِّ الصُّفُوفُ الْخَالِدُ ﴿١٠٦﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿١٠٧﴾ رُدُّوهُ عَلَىٰ مُطْقِقٍ مَّسَاءً بِالشَّرِّ وَالْأَعْيُنِ ﴿١٠٨﴾

لما تمم سبحانه قصة داود أردفها ببيان تفويض أمر خلافة الأرض إليه، والجملة مقولة لقول مقدر معطوف على غفرنا أي: وقلنا له ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا﴾ استخلفناك على الأرض، أو ﴿جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً﴾ لمن قبلك من الأنبياء لتأمر بالمعروف، وتنتهى عن المنكر ﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالعدل الذي هو حكم الله بين عباده ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ﴾ أي: هوى النفس في الحكم بين العباد. وفيه تنبيه لداود عليه السلام أن الذي عوتب عليه ليس بعدل، وأن فيه شائبة من اتباع هوى النفس ﴿فِيضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بالنصب على أنه جواب للنهي، وفاعل يضللك هو الهوى، ويجوز أن يكون الفعل مجزوماً بالعطف على النهي، وإنما حرك لالتقاء الساكنين، فعلى الوجه الأول يكون المنهي عنه الجمع بينهما، وعلى الوجه الثاني يكون النهي عن كل واحد منهما على حدة. وسبيل الله: هو طريق الحق، أو طريق

المنافع. «وعن» في ﴿عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾ بمعنى: على. والمعنى: أثرت حب الخيل على ذكر ربي يعني: صلاة العصر ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ يعني: الشمس، ولم يتقدم لها ذكر، ولكن المقام يدل على ذلك. قال الزجاج: إنما يجوز الإضمار إذا جرى ذكر الشيء، أو دليل الذكر، وقد جرى هنا الليل، وهو قوله: بالعشي. والتواري: الاستتار عن الأبصار، والحجاب: ما يحجبها عن الأبصار. قال قتادة، وكعب: الحجاب جبل أخضر محيط بالخلائق، وهو جبل قاف، وسمي الليل حجاباً، لأنه يستر ما فيه، وقيل: الضمير في قوله: ﴿حَتَّى تَوَارَتْ﴾ للخيل أي: حتى توارت في المسابقة عن الأعين، والأول أولى، وقوله: ﴿رَبُّهَا عَلَيَّ﴾ من تمام قول سليمان: أي: أعيدوا عرضها عليّ مرة أخرى. قال الحسن: إن سليمان لما شغله عرض الخيل حتى فاتته صلاة العصر غضب الله، وقال: رَبُّهَا عَلَيَّ أي: أعيدوها. وقيل: الضمير في رَبُّهَا يعود إلى الشمس، ويكون ذلك معجزة له، وإنما أمر بإرجاعها بعد مغيبها لأجل أن يصلي العصر، والأول أولى، والفاء في قوله: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ هي: الفصيحة التي تدل على محذوف في الكلام، والتقدير هنا: فرئوها عليه. قال أبو عبيدة: طفق يفعل مثل ما زال يفعل، وهو مثل ظل، وبات، وانتصاب مسحاً على المصدرية بفعل مقتر أي: يمسح مسحاً؛ لأن خبر طفق لا يكون إلا فعلاً مضارعاً، وقيل: هو مصدر في موضع الحال، والأول أولى. والسوق جمع ساق، والأعناق جمع عنق، والمراد: أنه طفق يضرب أعناقها، وسوقها، يقال: مسح علاوته أي: ضرب عنقه. قال الفراء: المسح هنا القطع، قال: والمعنى: أنه أقبل يضرب سوقها، وأعناقها؛ لأنها كانت سبب فوت صلاته، وكذا قال أبو عبيدة. قال الزجاج: ولم يكن يفعل ذلك إلا وقد أباحه الله له، وجائز أن يباح ذلك لسليمان، ويحضر في هذا الوقت. وقد اختلف المفسرون في تفسير هذه الآية، فقال قوم: المراد بالمسح ما تقدم. وقال آخرون: منهم الزهري وقتادة: إن المراد به المسح على سوقها، وأعناقها لكشف الغبار عنها حباً لها. والقول الأول أولى بسياق الكلام، فإنه ذكر أنه أخبرها على ذكر ربه حتى فاتته صلاة العصر، ثم أمرهم بردها عليه؛ ليعاقب نفسه بإفساد ما ألهاه عن ذلك، وما صده عن عبادة ربه، وشغله عن القيام بما فرضه الله عليه، ولا يناسب هذا أن يكون الغرض من ردها عليه هو كشف الغبار عن سوقها، وأعناقها بالمسح عليها بيده، أو بثوبه، ولا متمسك لمن قال: إن إفساد المال لا يصدر عن النبي، فإن هذا مجرد استبعاد باعتبار ما هو المتقرر في شرعنا مع جواز أن يكون في شرع سليمان أن مثل هذا مباح على أن إفساد المال المنهي عنه في شرعنا إنما هو مجرد إضاعته لغير غرض صحيح، وأما لغرض صحيح، فقد جاز مثله في شرعنا كما وقع منه ﷺ من إكفاء القدور التي طبخت من الغنيمة قبل القسمة، ولهذا نظر كثير في الشريعة، ومن ذلك ما وقع من الصحابة من إحراق طعام المحتكر.

والألباب جمع لب وهو: العقل ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أخبر سبحانه: بأن من جملة نعمه على داود أنه وهب له سليمان ولداً، ثم مدح سليمان، فقال: ﴿نِعَمَ الْعَبْدِ﴾ والمخصوص بالمدح محذوف أي: نعم العبد سليمان، وقيل: إن المدح هنا بقوله: نعم العبد هو لداود، والأول أولى، وجملة ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ تعليل لما قبلها من المدح، والأوَّاب: الرجاء إلى الله بالتوبة كما تقدم بيانه، والظرف في قوله: ﴿إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ﴾ متعلق بمحذوف وهو: أنكر أي: أنكر ما صدر عنه وقت عرض الصافنات الجياد عليه ﴿بِالْعَشِيِّ﴾ وقيل: هو متعلق بنعم، وهو مع كونه غير متصرف لا وجه لتقييده بذلك الوقت، وقيل: متعلق بأوَّاب، ولا وجه لتقييده كونه أوَّاباً بذلك الوقت، والعشي من الظهر، أو العصر إلى آخر النهار، والصافنات جمع صافن.

وقد اختلف أهل اللغة في معناه، فقال القتيبي، والفراء: الصافن في كلام العرب: الواقف من الخيل، أو غيرها، وبه قال قتادة، ومنه الحديث: «من أحب أن يتمثل له الناس صفوفنا، فليتبوا مقعده من النار»، أي: يديمون القيام له، واستلوا بقول النابغة:

لنأقبة مضرورية بفنائها عتاق المهاري والجياد الصوافن ولا حجة لهم في هذا فإنه استدلال بمحل النزاع، وهو مصادرة؛ لأن النزاع في الصافن ماذا هو؟ وقال الزجاج: هو الذي يقف على إحدى اليدين، ويرفع الأخرى، ويجعل على الأرض طرف الحافر منها حتى كأنه يقوم على ثلاث، وهي: الرجلان، وإحدى اليدين، وقد يفعل ذلك بإحدى رجليه، وهي: علامة الفرامة. وأنشد الزجاج قول الشاعر:

ألف الصفون فما يزال كأنه مما يقوم على الثلاث كسير ومن هذا قول عمرو بن كلثوم:

تركنا الخيل عاكفة عليه مقلدة أعنتها صفونا فإن قوله: صفونا لا بد أن يحمل على معنى غير مجرد القيام، لأن مجرد القيام قد استفيد من قوله: عاكفة عليه. وقال أبو عبيد: الصافن هو: الذي يجمع يديه، ويسويهما، وأما الذي يقف على سنبكه، فاسمه: المتخيم، والجياد جمع جواد، يقال: للفرس إذا كان شديداً العدو. وقيل: إنها طوال الأعناق، مأخوذ من الجيد، وهو: العنق، قيل: كانت مائة فرس، وقيل: كانت عشرين ألفاً، وقيل: كانت عشرين فرساً، وقيل: إنها خرجت له من البحر، وكانت لها أجنحة ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾ انتصاب حب الخير على أنه مفعول أحببت بعد تضمينه معنى: أثرت. قال الفراء: يقول: أثرت حب الخير، وكل من أحب شيئاً، فقد أثره. وقيل: انتصابه على المصدرية بحذف الزوائد، والناسب له أحببت، وقيل: هو مصدر تشبيهي أي: حباً مثل حب الخير، والأول أولى. والمراد بالخير هنا الخيل. قال الزجاج: الخير هنا الخيل. وقال الفراء: الخير، والخيل في كلام العرب واحد. قال النحاس: وفي الحديث: «الخيل معقود بئواصبيها الخير»، فكأنها سميت خيراً لهذا، وقيل: إنها سميت خيراً لما فيها من

يقاتل في سبيل الله، ولم يقل: إن شاء الله. وقيل غير ذلك. ثم بين سبحانه ما عاقبه به، فقال: ﴿وَالْقِيَنَّا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً﴾ انتصاب جسداً على أنه مفعول القينا، وقيل: انتصابه على الحال على تأويله بالمشتق أي: ضعيفاً، أو فارغاً، والأول أولى. قال أكثر المفسرين: هذا الجسد الذي ألقاه الله على كرسي سليمان هو شيطان اسمه: صخر، وكان متمرداً عليه غير داخل في طاعته، ألقى الله شبه سليمان عليه، وما زال يحتال حتى ظفر بخاتم سليمان، وذلك عند دخول سليمان الكنيف؛ لأنه كان يلقيه إذا دخل الكنيف، فجاء صخر في صورة سليمان، فأخذ الخاتم من امرأة من نساء سليمان، فقعده على سرير سليمان، وأقام أربعين يوماً على ملكه، وسليمان هارب. وقال مجاهد: إن شيطاناً قال له سليمان: كيف تفتنون الناس؟ قال: أرني خاتمك أخبرك، فلما أعطاه إياه نبذه في البحر، فذهب ملكه، وقعد الشيطان على كرسيه، ومنعه الله نساء سليمان، فلم يقربهن، وكان سليمان يستطعم، فيقول: أتعرفونني أطعموني؟ فيكذبوه حتى أعطته امرأة يوماً حوتاً، فشق بطنه، فوجد خاتمه في بطنه، فرجع إليه ملكه، وهو معنى قوله: ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ أي: رجع إلى ملكه بعد أربعين يوماً. وقيل: معنى أناب: رجع إلى الله بالتوبة من ذنبه، وهذا هو الصواب، وتكون جملة ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ بدلاً من جملة أناب، وتفسيراً له أي: اغفر لي ما صدر عني من الذنب الذي ابتليتني لأجله، ثم لما قُدم التوبة، والاستغفار جعلها وسيلة إلى إجابة طلبته، فقال: ﴿وَهَبْ لِي مَلِكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ قال أبو عبيدة: معنى لا ينبغي لأحد من بعده: لا يكون لأحد من بعدي. وقيل: المعنى: لا ينبغي لأحد أن يسلبه مني بعد هذه السلب، أو لا يصح لأحد من بعدي لعظمته، وليس هذا من سؤال نبي الله سليمان عليه السلام للنبيا، وملكها، والشرف بين أهلها، بل المراد بسؤاله: الملك أن يتمكن به من إنفاذ أحكام الله سبحانه، والأخذ على يد المتمردين من عباده من الجن، والإنس، ولو لم يكن من المقتضيات لهذا السؤال منه إلا ما رآه عند قعود الشيطان على كرسيه من الأحكام الشيطانية الجارية في عباد الله، وجملة ﴿إِنَّكَ أَنْتَ لِلْوَهَابِ﴾ تحليل لما قبلها مما طلبه من مغفرة الله له وهبة الملك الذي لا ينبغي لأحد من بعده أي: فإنك كثير الهبات عظيم الموهوبات. ثم نكر سبحانه إجابته لدعوته، وإعطاءه لمسالته، فقال: ﴿فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ﴾ أي: ذللناها له، وجعلناها منقاداً لأمره. ثم بين كيفية التسخير لها بقوله: ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ رِجَاهُ﴾ أي: لينة الهبوب ليست بالعاصف، مأخوذ من الرخاوة، والمعنى: أنها ريح لينة لا تزعزع، ولا تصصف مع قوة هبوبها، وسرعة جريها، ولا ينافي هذا قوله في آية أخرى ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾ [الأنبياء: 81] لأن المراد: أنها في قوة العاصفة، ولا تصصف. وقيل: إنها كانت تارة رخاء، وتارة عاصفة على ما يريد سليمان، ويشتهي، وهذا أولى في الجمع بين الآيتين ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾

وقد أخرج ابن عساكر عن ابن عباس في قوله: ﴿لَمْ نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض﴾ قال: الذين آمنوا علي، وحمزة، وعبيدة بن الحارث، والمفسدين في الأرض عتبة، وشيبة، والوليد. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال: ﴿الصافنات الجياد﴾ خيل خلقت على ما شاء. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد في قوله: ﴿الصافنات﴾ قال: صفون الفرس رفع إحدى يديه حتى يكون على أطراف الحافر، وفي قوله: ﴿الجياد﴾ السراع. وأخرج ابن جرير من طريق ابن جريج عن ابن عباس في قوله: ﴿حَبَّ الْخَيْرِ﴾ قال: الماء، وفي قوله: رُبُّهَا عَلِيٌّ قال: الخيل ﴿فَطَفِقَ مَسْحاً﴾ قال: عقرها بالسيف. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن علي بن أبي طالب قال: الصلاة التي فُرِطَ فيها سليمان صلاة العصر. وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن إبراهيم التيمي في قوله: إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد قال: كانت عشرين ألف فرس ذات أجنحة، فعقرها. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير عن ابن مسعود بقوله: ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ قال: توارت من وراء ياقوتة خضراء، فخضرة السماء منها. وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن ابن عباس قال: كان سليمان لا يكلم أعظماً له، فلقد فاتته صلاة العصر، وما استطاع أحد أن يكلمه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿عَنْ نَكْرٍ رَبِّي﴾ يقول: من نكر ربي ﴿فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ قال: قطع سوقها، وأعناقها بالسيف.

وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَبِرِّي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٧﴾ فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رِجَاهُ حَيْثُ أَسَابَ ﴿١٨﴾ وَالشَّيَاطِينُ كُلُّ بَنَاتٍ وَعَوَاسٍ ﴿١٩﴾ وَآخَرِينَ مُفَرِّجِينَ فِي الْأَعْيَادِ ﴿٢٠﴾ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْكِرْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١﴾ وَإِنْ لَمْ يَنْدَاقْ لَافٍ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ

قوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سليمان﴾ أي: ابتليناه، واختبرناه. قال الواحدي: قال أكثر المفسرين: تزوج سليمان امرأة بنات الملوك، فعبيت الصنم في داره، ولم يعلم بذلك سليمان، فامتحن بسبب غفلته عن ذلك. وقيل: إن سبب الفتنة: أنه تزوج سليمان امرأة يقال لها: جرادة، وكان يحبها حباً شديداً، فاقتصر إليه فريقان: أحدهما: من أهل جرادة، فأحب أن يكون القضاء لهم، ثم قضى بينهم بالحق. وقيل: إن السبب: أنه احتجب عن الناس ثلاثة أيام لا يقضي بين أحد. وقيل: إنه تزوج جرادة هذه، وهي مشركة؛ لأنه عرض عليها الإسلام، فقالت: اقتلني، ولا أسلم. وقال كعب الأحبار: إنه لما ظلم الخيل بالقتل سلب ملكه. وقال الحسن: إنه قارب بعض نسائه في شيء من حيض أو غيره. وقيل: إنه أمر أن لا يتزوج امرأة إلا من بني إسرائيل، فتزوج امرأة من غيرهم. وقيل: إن سبب فتنته ما ثبت في الحديث الصحيح: أنه قال: لأطوفن الليلة على تسعين امرأة تأتي كل واحدة بفارس

فقال لها: هاتي خاتمي، فأعطته، فلما لبسه دانت له الإنس، والجن، والشياطين، فلما خرج سليمان من الخلاء قال: هاتي خاتمي، قالت: قد أعطيتك سليمان. قال: أنا سليمان، قالت: كذبت لست سليمان، فجعل لا يأتي أحداً يقول: أنا سليمان إلا كذبه، حتى جعل الصبيان يرمونه بالحجارة، فلما رأى ذلك عرف أنه من أمر الله، وقام الشيطان يحكم بين الناس، فلما أراد الله أن يرد على سليمان سلطانه ألقي في قلوب الناس إنكار ذلك الشيطان، فأرسلوا إلى نساء سليمان، فقالوا لهن: تتكرن من أمر سليمان شيئاً؟ قلن: نعم إنه يأتي، ونحن نحض، وما كان يأتي قبل ذلك، فلما رأى الشيطان أنه قد فطن له ظن أن أمره قد انقطع، فكتبوا كتاباً فيها سحر، وكفر، فبنفوها تحت كرسي سليمان، ثم أثاروها، وقرعوها على الناس، وقالوا: بهذا كان يظهر سليمان على الناس، ويغلبهم، فأكفر الناس سليمان، فلم يزلوا يكفرونه، وبعث ذلك الشيطان بالخاتم، فطرحه في البحر فتلقته سمكة، فأخذته، وكان سليمان يعمل على شط البحر بالأجر، فجاء رجل، فاشتري سمكاً فيه تلك السمكة التي في بطنها الخاتم، فدعا سليمان، فقال: تحمل لي هذا السمك؟ قال: نعم، قال: بكم، قال: بسمكة من هذا السمك، فحمل سليمان السمك، ثم انطلق به إلى منزله، فلما انتهى الرجل إلى باب داره أعطاه تلك السمكة التي في بطنها الخاتم، فأخذها سليمان، فشق بطنها، فإذا الخاتم في جوفها، فأخذه، فلبسه، فلما لبسه دانت له الجن، والإنس، والشياطين، وعاد إلى حاله، وهرب الشيطان حتى لحق بجزيرة من جزائر البحر، فأرسل سليمان في طلبه، وكان شيطاناً مريداً، فجعلوا يطلبونه، ولا يقربون عليه حتى وجده يوماً نائماً، فجاءوا، فبنوا عليه بيتاً من رصاص، فاستيقظ، فوثب، فجعل لا يثب في مكان من البيت إلا انبسط معه الرصاص، فأخذه، فأوثقوه، وجاءوا به إلى سليمان، فأمر به، فنقر له تخت من رخم، ثم أدخله في جوفه، ثم شد بالنحاس، ثم أمر به، فطرح في البحر، فنلك قوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيهِ جَسَداً﴾ يعني: الشيطان الذي كان سلط عليه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَالْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيهِ جَسَداً﴾ قال: صخر الجني تمثل على كرسيه على صورته. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ عَفْرِتاً مِنَ الْجِنِّ يَتَقَلَّتْ عَلَى الْبَارِحَةِ لِيَقْطَعَ عَلَيَّ صَلَاتِي، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَكَّنَنِي مِنْهُ، فَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أُرْبِطَهُ إِلَى سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ حَتَّى تَصْبَحُوا، فَتَنْظُرُوا إِلَيْهِ كُلَّكُمْ، فَتُكْرِتُ قَوْلَ أَخِي سُلَيْمَانَ: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ فَرَدَّهُ اللَّهُ خَاسِئاً. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿فَامَنَّ﴾ يقول: اعتق من الجن من شئت، وأمسك منهم من شئت.

أي: حيث أراد. قال الزجاج: إجماع أهل اللغة، والمفسرين أن معنى حيث أصاب: حيث أراد، وحقيقته حيث قعد. وقال الأصمعي، وابن الأعرابي: العرب تقول: أصاب الصواب، وأخطأ الجواب. وقيل: إن معنى أصاب بلغة حمير: أراد، وليس من لغة العرب، وقيل: هو بلسان هجر، والأول أولى، وهو مأخوذ من إصابة السهم للغرض ﴿وَالشَّيَاطِينُ﴾ معطوف على الريح أي: وسخرنا له الشياطين، وقوله: ﴿كُلْ بِنَاءً وَغَوَاصُ﴾ بدل من الشياطين أي: كل بناء منهم، وغواص منهم يبتون له ما يشاء من المباني، ويغوصون في البحر، فيستخرجون له الدر منه، ومن هذا قول الشاعر: إلا سليمان إذ قال الجليل له قم في البرية فأحدها عن الفند وخبر الجن أني قد أننت لهم يبتون تنمر بالصفاح والعمد ﴿وَأَخْرَيْنَ مَقْرَنَيْنِ فِي الْأَصْفَادِ﴾ معطوف على كل داخل في حكم البدل، وهم مردة الشياطين سخرها له حتى قرنهم في الأصفا. يقال: قرنهم في الحبال إذا كانوا جماعة كثيرة، والأصفا: الأغلال وأحدها صفا. قال الزجاج: هي السلاسل، فكل ما شدته شداً وثيقاً بالحديد، وغيره، فقد صفتته. قال أبو عبيدة: صفتت الرجل، فهو: مصفود، وصفوته، فهو: مصفد، ومن هذا قول عمرو بن كلثوم في معلقته:

فأبوا بالنهب وبالسبايا وأبنا بالملوك مصفينا
قال يحيى بن سلام: ولم يكن يفعل ذلك إلا بكفارهم، فإذا آمنوا أطلقهم، ولم يسخرهم، والإشارة بقوله: «هذا» إلى ما تقدم من تسخير الريح، والشياطين له، وهو بتقدير القول أي: وقلنا له: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا﴾ الذي أعطيناك من الملك العظيم الذي طلبته ﴿فَامَنَّ أَوْ أَمْسَكَ﴾ قال الحسن، والضحاك، وغيرهما أي: فأعط من شئت، وامنع من شئت ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ لا حساب عليك في ذلك الإعطاء، أو الإمساك، أو عطاؤنا لك بغير حساب لكثرة، وعظمت. وقال قتادة: إن قوله: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا﴾ إشارة إلى ما أعطيه من قوة الجماع، وهذا وجه لقصر الآية عليه لو قرئنا أنه قد تقدم نكره من جملة تلك المنكورات، فكيف يدعي اختصاص الآية به مع عدم نكره ﴿وَإِنْ لَهُ عَيْنَانِ لَزُلْفَى﴾ أي: قربة في الآخرة ﴿وَحَسَنَ مَأْبٍ﴾، وحسن مرجع، وهو: الجنة.

وقد أخرج الفريابي، والحكيم الترمذي، والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَالْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيهِ جَسَداً﴾ قال: هو الشيطان الذي كان على كرسيه يقضي بين الناس أربعين يوماً، وكان لسليمان امرأة يقال لها: جرادة، وكان بين بعض أهلها، وبين قوم خصومة، فقضى بينهم بالحق إلا أنه ود أن الحق كان لأهلها، فأوحى الله إليه أن سيصيبك بلاء، فكان لا يدري آيأتيه من السماء أم من الأرض؟ وأخرج التيساني، وابن جرير، وابن أبي حاتم، قال السيوطي بسند قوي: عن ابن عباس قال: أراد سليمان أن يدخل الخلاء، فأعطى لجرادة خاتمه، وكانت جرادة امراته، وكانت أحب نساءه إليه، فجاء الشيطان في صورة سليمان،

وَأَذْكُرُ عَبْدًا أَبَوَيْ إِذْ تَأَذَّى رَبُّهُ إِلَى مَنَى الشَّيْطَانُ يُنْسِي وَدَّابِ
أَكْرَضَ رَبِّيكَ هَذَا مُنْشَلٍ بِأَرْدٍ وَكَرَّابِ ﴿٣٧﴾ وَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمَنْهُمْ مِمَّنْ رَحِمَهُ

عين، فقلنا له: هذا مغتسل الخ، وأسند المس إلى الشيطان مع أن الله سبحانه هو الذي مسه بذلك: إما لكونه لما عمل بوسوسته عوقب على ذلك بذلك النصب، والعذاب. فقد قيل: إنه أعجب بكثرة ماله، وقيل: استغاثه مظلوم، فلم يغيثه، وقيل: إنه قال ذلك على طريقة الأب، وقيل: إنه قال ذلك؛ لأن الشيطان وسوس إلى أتباعه، فرفضوه، وأخرجوه من بيوتهم، وقيل: المراد به. ما كان يوسوسه الشيطان إليه حال مرضه، وابتلائه من تحسين الجزع، وعدم الصبر على المصيبة، وقيل غير ذلك، وقوله: ﴿ووهبنا له أهله﴾ معطوف على مقتر كأنه قيل: فاغتسل، وشرب، فكشفنا بذلك ما به من ضرر، ووهبنا له أهله. قيل: أحياهم الله بعد أن أماتهم، وقيل: جمعهم بعد تفرقهم، وقيل: غيرهم مثلهم، ثم زاده مثلهم معهم، وهو معنى قوله: ﴿ومثلهم معهم﴾ فكلنا مثلنا ما كانوا من قبل ابتلائه، وانتصاب قوله: ﴿رحمة منا ونكرى لأولي الألباب﴾ على أنه مفعول لأجله أي: وهبناهم له لأجل رحمتنا إياه، وليتذكر بحاله أولو الألباب، فيصبروا على الشدائد كما صبر، وقد تقدّم في سورة الأنبياء تفسير هذه الآية مستوفى، فلا نعيده ﴿وخذ بيدك ضغثاً﴾ معطوف على اركض، أو على وهبنا: أو التقدير وقلنا له: ﴿وخذ بيدك ضغثاً﴾، والضغث: عكال النخل بشماريخه، وقيل: هو قبضة من حشيش مختلط رطبها بيباسها، وقيل: الحزمة الكبيرة من القضبان، وأصل المادة تدلّ على جمع المختلطات. قال الواحدي: الضغث ملاء الكف من الشجر، والحشيش، والشماريخ ﴿فأضرب به ولا تحنث﴾ أي: ضرب بذلك الضغث، ولا تحنث في يمينك، والحنث: الإثم، يطلق على فعل ما حلف على تركه، وكان أيوب قد حلف نبي مرضه أن يضرب امرأته مائة جلد.

واختلف في سبب ذلك، فقال سعيد بن المسيب: إنها جاءت بزيادة على ما كانت تأتيه به من الخبز، خاف خيانتها، فحلف ليضربنها. وقال يحيى بن سلام، وغيره: إن الشيطان أغواها أن تحمل أيوب على أن يذبح سخله تقريباً إليه، فإنه إذا فعل ذلك برئ، فحلف ليضربنها إن عوفي مائة جلدة. وقيل: باعت نؤابتها برغيفين إذ لم تجد شيئاً، وكان أيوب يتعلق بها إذا أراد القيام، فلهاذا حلف ليضربنها. وقيل: جاءها إبليس في صورة طبيب، فدعته لمدواة أيوب، فقال: أدأويه على أنه إذا برئ قال: أنت شفيتني، لا أريد جزاء سواه، قالت: نعم، فأشارت على أيوب بذلك، فحلف ليضربنها.

وقد اختلف العلماء هل هذا خاصّ بأبيوب، أو عامّ للناس كلهم؟ وأن من حلف خرج من يمينه بمثل ذلك. قال الشافعي: إذا حلف ليضربن فلاناً مائة جلدة، أو ضرباً، ولم يقل: ضرباً شديداً، ولم يتو بقلبه، فيكفيه مثل هذا الضرب المذكور في الآية، كحكا ابن المنذر عنه، وعن أبي ثور، وأصحاب الرأي. وقال عطاء: هو خاصّ بأبيوب، ورواه ابن القاسم عن مالك. ثم اتّنى الله سبحانه على أبيوب، فقال: ﴿إنا وجدناه صابراً﴾

إِنَّا وَدَّعْنَا لِأَوَّلَى الْأَرْكَبِ ﴿١﴾ وَدَّعْنَا بِكَ سَفِينًا طَائِرِيَّةً وَيَوْمَ لَا تَحْتَسِبُ ﴿٢﴾
 وَجَدْنَاهُ صَاحِقًا يَقُمُ الْبَعْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣﴾ وَأَذْكُرُ عَيْدَنَا يُرِيدُهُ الْفَرِيقُ وَالْحَقُّ وَنَعْتُوبُ
 أَوَّلَى الْآيَاتِي وَالْأَبْصَرِ ﴿٤﴾ إِنَّا تَلَوْنَاهُ بِالْحَقِّ فَنُلَاحِظُهُ فَعَلَيْكَ الْبَآرِئُ ﴿٥﴾
 وَلَقَدْ عَلِمْنَا لَمَنِ الْمَصْطَفَى الْآخِرُ ﴿٦﴾ وَأَذْكُرُ ابْتِسَامِي وَالسَّعْيَ وَمَا
 الْكُفْلُ وَكُلٌّ مِنَ الْآخِرِ ﴿٧﴾ هَذَا ذِكْرٌ وَإِن لِلْمُؤْمِنِينَ لَحَسَنُ ثَوَابٍ ﴿٨﴾
 جَنَّاتٍ عَدْنٍ مِّنْهُنَّ أَمْوَاجٌ مَّائٍ مُّتَجَرِّجَاتٍ فَتَافُتُهُنَّ الْمُنَادَاتُ وَفِيهَا
 كُفْرٌ وَفِرَاقٌ مُّتَجَرِّجٌ وَمُتَنَبِّهَةٌ وَفِيهَا نَعِيمٌ مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَغْنَمُ أَفْوَاجُ ﴿٩﴾
 وَعِندَهُمْ قَهْرُ اللَّيْلِ أَنَّى أَتَاكَ ﴿١٠﴾ هَذَا مَا
 نُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١١﴾ إِنَّ هَذَا لَرُفْقًا مَّا لَمْ يَنْتَهِ

قوله: ﴿وَأَنذِرْ عِبِيدُنَا أَيُّوبَ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَأَنذِرْ عِبِيدُنَا دَاوُدَ﴾ [ص: 17] وأيوب عطف بيان، و ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾ بدل اشتمال من عبداً ﴿لَّيْسَ مِنِّي الشَّيْطَانُ﴾ قرأ الجمهور بفتح الهمزة على أنه حكاية لكلامه الذي نادى ربّه به، ولو لم يحكه لقال: إنه مسّه. وقرأ عيسى بن عمر بكسرهما على إضمار القول. وفي نكر قصة أيوب إرشاد لرسول الله ﷺ إلى الاقتداء به في الصبر على المكاره. قرأ الجمهور بضم النون من قوله: (ينصب) وسكون الصاد، فقليل: هو جمع نصب بفتحتين نحو أسد، وأسد، وقيل: هو لغة في النصب، نحو رشد، ورشد. وقرأ أبو جعفر يزيد بن القعقاع، وشيبة، وحفص، ونافع في رواية عنه بضمّتين، ورويت هذه القراءة عن الحسن. وقرأ أبو حيوة، ويعقوب، وحفص في رواية بفتح، وسكون، وهذه القراءات كلها بمعنى واحد، وإنما اختلفت القراءات باختلاف اللغات. وقال أبو عبيدة: إن النصب بفتحتين: التعب، والإعياء، وعلى بقية القراءات الشّرّ، والبلاء، ومعنى قوله: ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قال قتادة، ومقاتل: النصب في الجسد، والعذاب في المال. قال النحاس: وفيه بعد كذا قال. والأولى تفسير النصب بالمعنى اللغوي، وهو: التعب، والإعياء، وتفسير العذاب بما يصق عليه مسمى العذاب، وهو: الألم، وكلاهما راجع إلى البدن ﴿أَرْكُضْ بِرَجْلِكَ﴾ هو بتقدير القول أي: قلنا له: اركض برجلك كذا قال الكسائي والركض: الدفع بالرجل، يقال: ركض الدابة برجله: إذا ضربها بها. وقال المبرد: الركض التحريك. قال الأصمعي: يقال: ركضت الدابة، ولا يقال: ركضت هي، لأن الركض إنما هو تحريك راكبها رجله، ولا فعل لها في ذلك، وحكى سيبويه: ركضت الدابة، فركضت، مثل جِيرت العظم، فجبر ﴿هَذَا مَغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ هذا أيضاً من مقول القول المقدّر: المَغْتَسَلُ هو: الماء الذي يغتسل به، والشراب الذي يشرب منه. وقيل: إن المَغْتَسَلُ هو: المكان الذي يغتسل فيه. قال قتادة: هما عيناان بأرض الشام في أرض يقال لها: الجابية، فاغتسل من إحداهما، فاذهب الله ظاهر دائه، وشرب من الأخرى فاذهب الله باطن دائه، وكذا قال الحسن. وقال مقاتل: نبعث عين جارية، فاغتسل فيها، فخرج صحيحاً، ثم نبعث عين أخرى، فشرّب منها ماءً عذباً بارداً. وفي الكلام حذف، والتقدير: فركض برجله، فنبعث

أي: على البلاء الذي ابتليناه به، فإنه ابتلي بالداء العظيم في جسده، وذهاب ماله، وأهله، وولده، فصبر **﴿نعم العبد﴾** أي: أيوب **﴿إنه أواب﴾** أي: رجاع إلى الله بالاستغفار، والتوبة **﴿وانكر عبائنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب﴾** قرأ الجمهور (عبائنا) بالجمع. وقرأ ابن عباس، ومجاهد، وحמיד، وابن محيصن، وابن كثير (عبئنا) بالإنفراد. فعلى قراءة الجمهور يكون إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب عطف بيان، وعلى القراءة الأخرى يكون إبراهيم عطف بيان، وما بعده عطف على عبئنا لا على إبراهيم. وقد يقال: لما كان المراد بعبئنا الجنس جاز إبدال الجماعة منه. وقيل: إن إبراهيم، وما بعده بدل، أو النصب بإضمار أعني، وعطف البيان أظهر، وقراءة الجمهور أبين، وقد اختارها أبو عبيد، وأبو حاتم **﴿أولي الأيدي والأبصار﴾** الأيدي، جمع اليد التي بمعنى: القوة، والقدرة. قال قتادة: أعطوا قوة في العبادة، ونصراً في الدين. قال الواحدي: وبه قال مجاهد، وسعيد بن جبير، والمفسرون. قال النحاس: أما الأبصار، فمتفق على أنها البصائر في الدين، والعلم. وأما الأيدي، فمختلف في تأويلها، فاهل التفسير يقولون: إنها القوة في الدين، وقوم يقولون: الأيدي جمع يد، وهي النعمة أي: هم أصحاب النعم، أي: الذين أنعم الله عز وجل عليهم، وقيل: هم أصحاب النعم على الناس، والإحسان إليهم، لأنهم قد أحسنوا، وقدموا خيراً، واختار هذا ابن جرير. قرأ الجمهور (أولي الأيدي) بإثبات الياء في الأيدي. وقرأ ابن مسعود، والأعمش، والحسن، وعيسى (الأيد) بغير ياء، فقيل معناها: معنى القراءة الأولى، وإنما حذفت الياء لدلالة كسرة الدال عليها، وقيل الأيد: القوة، وجملة **﴿إننا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار﴾** تعليل لما وصفوا به. قرأ الجمهور (بخالصة) بالتثنية، وعدم الإضافة على أنها مصدر بمعنى: الإخلاص، فيكون ذكرى منصوباً به، أو بمعنى: الخلو، فيكون ذكرى مرفوعاً به، أو يكون خالصة اسم فاعل على بابيه، وذكرى بدل منها، أو بيان لها، أو بإضمار أعني، أو مرفوعة بإضمار مبتدأ، والدار يجوز أن تكون مفعولاً به لذكرى، وإن تكون ظرفاً: إما على الاتساع، أو على إسقاط الخافض، وعلى كل تقدير، فخالصة صفة لموصوف محذوف، والباء للسببية أي: بسبب خصلة خالصة. وقرأ نافع، وشيبة، وأبو جعفر، وهشام عن ابن عامر بإضافة خالصة إلى ذكرى على أن الإضافة للبيان، لأن الخالصة تكون ذكرى، وغير ذكرى، أو على أن خالصة مصدر مضاف إلى مفعوله، والفاعل محذوف. أي: بأن أخلصوا ذكرى الدار، أو مصدر بمعنى: الخلو مضافاً إلى فاعله. قال مجاهد: معنى الآية: استصفيناهم بذكر الآخرة، فأخلصناهم بذكرها. وقال قتادة: كانوا يدعون إلى الآخرة، وإلى الله. وقال السدي: أخلصوا بخوف الآخرة. قال الواحدي: فمن قرأ بالتثنية في خالصة كان المعنى: جعلناهم لنا خالصين بأن خلصت لهم ذكرى الدار، والخالصة مصدر بمعنى: الخلو، والذكرى بمعنى: التذكر أي: خلص لهم

تذكر الدار، وهو أنهم يذكرون التآهب لها، ويזהمون في الدنيا، وذلك من شأن الأنبياء. وأما من أضاف، فالمعنى: أخلصنا لهم بأن خلصت لهم ذكرى الدار، والخالصة مصدر مضاف إلى الفاعل، والذكرى على هذا المعنى: الذكر **﴿وإنهم عنئنا لمن المصطفين الأخيار﴾** الاصطفاء: الاختيار، والأخيار جمع خير بالتشديد، والتخفيف كاموات في جمع ميت مشدداً، ومخففاً؛ والمعنى: إنهم عنئنا لمن المختارين من أبناء جنسهم من الأخيار **﴿وانكر إسماعيل﴾** قيل: وجه إفراده بالذكر بعد ذكر أبيه، وأخيه، وابن أخيه للإشعار بأنه عريق في الصبر الذي هو المقصود بالذكر هنا **﴿واليسع وذا الكفل﴾** قد تقدم ذكر اليسع، والكلام فيه في الأنعام، وتقدم ذكر ذا الكفل، والكلام فيه في سورة الأنبياء، والمراد من نكر هؤلاء: أنهم من جملة من صبر من الأنبياء، وتحملوا الشدائد في بين الله. أمر الله رسوله ﷺ بأن ينكرهم؛ ليسلك مسلكهم في الصبر **﴿وكل من الأخيار﴾** يعني: الذين اختارهم الله لنبوته، واصطفاهم من خلقه **﴿هذا نكر﴾** الإشارة إلى ما تقدم من نكر أوصافهم أي: هذا نكر جميل في الدنيا، وشرف يذكرون به أبداً **﴿وإن للمعتقين لحسن مآب﴾** أي: لهم مع هذا النكر الجميل حسن مآب في الآخرة، والمآب المرجع، والمعنى: أنهم يرجعون في الآخرة إلى مغفرة الله، ورضوانه، ونعيم جنته. ثم بين حسن المرجع، فقال: **﴿جنات عدن﴾** قرأ الجمهور (جنات) بالنصب بدلاً من حسن مآب، سواء كان جنات عدن معرفة، أو نكرة؛ لأن المعرفة تبدل من النكرة، وبالعكس، ويجوز أن يكون جنات عطف بيان إن كانت نكرة، ولا يجوز ذلك فيها إن كانت معرفة على مذهب جمهور النحاة، وقد جوزه بعضهم. ويجوز أن يكون نصب جنات بإضمار فعل. والعدن في الأصل الإقامة، يقال: عدن بالمكان: إذا أقام فيه، وقيل: هو اسم لقصر في الجنة، وقرأ برفع جنات على أنها مبتدأ، وخبرها مفتحة، أو على أنها خبر مبتدأ محذوف أي: هي جنات عدن، وقوله: **﴿مفتحة لهم الأبواب﴾** حال من جنات، والعامل فيها ما في المتقين من معنى الفعل، والأبواب مرتفعة باسم المفعول: كقوله: **﴿وفتحت أبوابها﴾** [الزمر: 73] والرباط بين الحال، وصاحبها ضمير مقدر، أي: منها، أو الألف، واللام لقيامه مقام الضمير، إذ الأصل أبوابها. وقيل: إن ارتفاع الأبواب على البذل من الضمير في مفتحة العائد على جنات، وبه قال أبو علي الفارسي أي: مفتحة هي الأبواب. قال الفراء: المعنى: مفتحة أبوابها، والعرب تجعل الألف، واللام خلفاً من الإضافة. وقال الزجاج: المعنى: مفتحة لهم الأبواب منها. قال الحسن: إن الأبواب يقال لها: انفتحت، فتفتحت انغلقي، فتغلقي، وقيل: تفتحت لهم الملائكة الأبواب، وانتصاب **﴿متكئين فيها﴾** على الحال من ضمير لهم، والعامل فيه مفتحة، وقيل: هو حال من **﴿يدعون﴾** قدمت على العامل **﴿فيها﴾** أي: يدعون في الجنات حال كونهم متكئين فيها **﴿بفلكه كثيرة﴾** أي: بالوان متنوعة متكررة

امي، فقام، فحلق رأسه، وقام يصلي، فرى إبليس رنة سمعها أهل السماء، وأهل الأرض، ثم عرج إلى السماء، فقال: أي رب إنه قد اعتصم، فسلطني عليه، فإني لا أستطيعه إلا بسلطانك، قال: قد سلطتك على جسده، ولم أسطك على قلبه، فنزل، فنفخ تحت قدمه نفخة قرح ما بين قدمه إلى قرنه، فصار قرحة واحدة، وألقي على الرماد حتى بدا حجاب قلبه، فكانت امرأته تسعى عليه، حتى قالت له: ألا ترى يا أيوب قد نزل، والله بي من الجهد، والفاقة ما إن بيعت قروني برغيف، فاطعمتك، فادع الله أن يشفيك، ويريحك قال: ويحك كنا في النعيم سبعين عاماً، فاصبري حتى نكون في الضراء سبعين عاماً، فكان في البلاء سبع سنين، ودعا، فجاء جبريل يوماً، فدعا بيده، ثم قال: قم، فقام، فنحاه عن مكانه، وقال: اركض برجلك هذا مغتسل بارداً، وشراب، فركض برجله، فنبتت عين، فقال: اغتسل، فاغتسل منها، ثم جاء أيضاً، فقال: اركض برجلك، فنبتت عين أخرى فقال له: اشرب منها، وهو قوله: ﴿اركض برجلك هذا مغتسل بارداً وشراباً﴾، وألبسه الله حلة من الجنة، ففتحنى أيوب، فجلس في ناحية، وجاءت امرأته، فلم تعرفه، فقالت: يا عبد الله أين المبتلى الذي كان ها هنا؟ لعل الكلاب قد ذهبت به، أو الذئاب، وجعلت تكلمه ساعة، فقال: ويحك أنا أيوب قد رد الله علي جسدي، ورد عليه ماله، وولده عيانياً، ومثلهم معهم، وأمطر عليه جراداً من ذهب، فجعل يأخذ الجراد بيده، ثم يجعله في ثوبه، وينشر كساءه، ويأخذه، فيجعل فيه، فأوحى الله إليه: يا أيوب أما شعبت؟ قال: يا رب من ذا الذي يشبع من فضلك، ورحمتك.

وفي هذا نكارة شديدة، فإن الله سبحانه لا يمكن الشيطان من نبي من أنبيائه، ويسلط عليه هذا التسليط العظيم. وأخرج أحمد في الزهد، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وابن عساکر عن ابن عباس قال: إن إبليس قعد على الطريق، وأخذ تابوتاً يدأوي الناس، فقالت امرأة أيوب: يا عبد الله إن ها هنا مبتلى من أمره كذا وكذا، فهل لك أن تدأويه قال: نعم بشرط إن أنا شفيت أن يقول: أنت شفيتني لا أريد منه أجراً غيره. فأتت أيوب، فنكرت له ذلك، فقال: ويحك ذاك الشيطان، لله علي إن شفاني الله أن أجلك مائة جلدة، فلما شفاه الله أمره أن يأخذ ضغثاً، فيضربها به، فأخذ عنقاً فيه مائة شمراخ، فضربها ضربة واحدة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عنه في قوله: ﴿وَأَخَذَ بِيَلِكِ ضِغْثًا﴾ قال: هو الأسل. وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً قال: الضغث القبضة من المرعى الرطب. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: الضغث الحزمة. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، وابن جرير، والطبراني، وابن عساکر من طريق أبي أمامة بن سهل بن حنيف قال: «حملت وليدة في بني ساعدة من زنا، فقيل لها: ممن حملك؟ قالت: من فلان المقعد، فسئل المقعد، فقال: صدقت. فرفع ذلك إلى رسول الله ﷺ، فقال: خنوا عنكولاً فيه مائة شمراخ، فاضربوه به

من الفواكه ﴿وشراباً﴾ كثير، فحذف كثيراً لدلالة الأول عليه، وعلى جعل ﴿متكئين﴾ حالاً من ضمير لهم، والعامل فيه مفتحة، فتكون جملة ﴿يدعون﴾ مستانفة لبيان حالهم. وقيل: إن يدعون في محل نصب على الحال من ضمير متكئين ﴿وعندهم قاصرات الطرف تراباً﴾ أي: قاصرات طرفهن على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم، وقد مضى بيانه في سورة الصافات. والأتراب: المتحدثات في السن، أو المتساويات في الحسن. وقال مجاهد: معنى أترب: أنهن متواخيات لا يتباغضن، ولا يتغليرن. وقيل: أترباً للزواج. والأترب جمع ترب، واشتقاقه من التراب، لأنه يمسهن في وقت واحد لاتحاد مولدهن ﴿هَذَا مَا تَوْعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ أي: هذا الجزاء الذي وعدتم به لأجل يوم الحساب، فإن الحساب علة للوصول إلى الجزاء، أو المعنى: في يوم الحساب. قرأ الجمهور (ما توعدون) بالفوقية على الخطاب. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن محيصن، ويعقوب بالتحتي على الخبر، واختار هذه القراءة أبو عبيد، وأبو حاتم لقوله: ﴿وَإِنِ لِلْمُتَّقِينَ﴾، فإنه خبر ﴿إِن هَذَا لِرِزْقِنَا﴾ أي: إن هذا المنكور من النعم، والكرامات لرزقنا الذي أنعمنا به عليكم ﴿مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ﴾ أي: انقطاع، ولا يفنى أبداً، ومثله قوله: ﴿عطاء غير مجذوذ﴾ [هود: 108] فنعم الجنة لا تنقطع عن أهلها.

وقد أخرج أحمد في الزهد، وابن أبي حاتم، وابن عساکر عن ابن عباس قال: إن الشيطان عرج إلى السماء، فقال: يا رب سلطني على أيوب، قال الله: لقد سلطتك على ماله، وولده، ولم أسطك على جسده، فنزل، فجمع جنوده، فقال لهم: قد سلطت على أيوب، فاروني سلطانكم، فصاروا نيراناً، ثم صاروا ماء، فبينما هم في المشرق إذا هم بالمغرب، وبينما هم بالمغرب إذا هم بالمشرق. فأرسل طائفة منهم إلى زرع، وطائفة إلى أهله، وطائفة إلى بقره، وطائفة إلى غنمه، وقال: إنه لا يعتصم منكم إلا بالمعروف، فاتوه بالمصائب بعضها على بعض، فجاء صاحب الزرع، فقال: يا أيوب ألم تر إلى ربك أرسل على زرعك ناراً، فأحرقته؟ ثم جاء صاحب الإبل، فقال: يا أيوب ألم تر إلى ربك أرسل إلى إبلك عنواً، فذهب بها؟ ثم جاء صاحب البقر فقال: يا أيوب ألم تر إلى ربك أرسل إلى بقرك عنواً، فذهب بها؟ ثم جاءه صاحب الغنم فقال: يا أيوب ألم تر إلى ربك أرسل على غنمك عنواً، فذهب بها؟ وتقرد هو لبنه، فجمعهم في بيت أكبرهم، فبينما هم ياكلون، ويشربون إذ هبت ريح، فأخذت بأركان البيت، فألقته عليهم، فجاء الشيطان إلى أيوب بصورة غلام بأنثيه قرطان، فقال: يا أيوب ألم تر إلى ربك جمع بنيك في بيت أكبرهم، فبينما هم ياكلون، ويشربون إذ هبت ريح، فأخذت بأركان البيت، فألقته عليهم، فلو رأيته حين اختلطت نسأؤهم، ولحومهم بطعامهم، وشرابهم؟ فقال له أيوب: فإين كنت؟ قال: كنت معهم، قال: فكيف انفلت؟ قال: انفلت، قال أيوب: أنت الشيطان؛ ثم قال أيوب: أنا اليوم كيوم ولدتني

كل واحد من الأمرين. قال الحسن: كل ذلك قد فعلوا: اتخنوهم سخرياً، وزاغت عنهم أبصارهم. قال الفراء: والاستفهام هنا بمعنى: التوبيخ، والتعجب. قرأ أبو عمرو، وحزمة، والكسائي، وابن كثير⁽¹⁾، والأعمش بحذف همزة اتخنناهم في الوصل. وهذه القراءة تحتل أن يكون الكلام خبراً محضاً، وتكون الجملة في محل نصب صفة ثانية لرجالاً، وأن يكون المراد الاستفهام، وحذفت أدواته لدلالة أم عليها، فتكون أم على الوجه الأول منقطعة بمعنى: بل، والهمزة أي: بل أزاغت عنهم الأبصار على معنى: توبيخ أنفسهم على الاستسغار، ثم الإضراب، والانتقال منه إلى التوبيخ على الإزراء، والتحقيق، وعلى الثاني أم هي المتصلة. وقرأ أبو جعفر، ونافع، وشيبة، والمفضل، وهبيرة، ويحيى بن وثاب، والأعمش، وحزمة، والكسائي (سخرياً) بضم السين، وقرأ الباقر بكسرها. قال أبو عبيدة: من كسر جعله من الهزء، ومن ضم جعله من التسخير، والإشارة بقوله: ﴿إِنْ لَكُمْ﴾ إلى ما تقدم من حكاية حالهم، وخبر إن قوله: ﴿لِحَقِّ﴾ أي: لواقع ثابت في الدار الآخرة لا يتخلف البتة، و ﴿تَخَاصُمَ أَهْلِ النَّارِ﴾ خبر مبتدأ محذوف، والجملة بيان لذلك، وقيل: بيان لحق، وقيل: بدل منه، وقيل: بدل من محل ذلك، ويجوز أن يكون خبراً بعد خبر، وهذا على قراءة الجمهور برفع تخاصم. والمعنى: إن ذلك الذي حكاه الله عنهم لحق لا بد أن يتكلموا به، وهو تخاصم أهل النار فيها، وما قالته الرؤساء للأتباع، وما قالته الأتباع لهم. وقرأ ابن أبي عتبة بنصيب «تخاصم» على أنه بدل من ذلك، أو بإضمار أعني. وقرأ ابن السميع «تخاصم» بصيغة الفعل الماضي، فتكون جملة مستأنفة. ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يقول قولاً جامعاً بين التخويف، والإرشاد إلى التوحيد، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مَذْذَرٌ﴾ أي: مخوف لكم من عقاب الله، وعذابه ﴿وَمَا مِنَّ إِلَهٍ﴾ يستحق العبادة ﴿إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ﴾ الذي لا شريك له ﴿الْقَهَّارُ﴾ لكل شيء سواه ﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من المخلوقات ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغالبه مغالب ﴿الْغَفَّارُ﴾ لمن أطاعه، وقيل: معنى ﴿الْعَزِيزُ﴾: المنيع الذي لا مثل له، ومعنى ﴿الْغَفَّارُ﴾: الستار لذنوب خلقه. ثم أمره سبحانه أن يبالغ في إنذارهم، ويبين لهم عظم الأمر، وجلالته، فقال: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ أي: ما أنذرتكم به من العقاب وما بينته لكم من التوحيد هو خبر عظيم، ونبا جليل، من شأنه العناية به، والتعظيم له،

﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ الفوج الجماعة، والاقترام السخول، وهذا حكاية لقول الملائكة الذين هم خزنة النار، وذلك أن القادة، والرؤساء إذا دخلوا النار، ثم دخل بعدهم الأتباع. قالت الخزنة للقادة: هذا فوج، يعنون: الأتباع ﴿مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ أي: داخل معكم إلى النار، وقوله: ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ من قول القادة، والرؤساء لما قالت لهم الخزنة ذلك قالوا: لا مرحباً بهم أي: لا اتسعت منازلهم في النار، والرحب السعة، والمعنى: لا كرامة لهم، وهذا إخبار من الله سبحانه بانقطاع المودة بين الكفار، وأن المودة التي كانت بينهم تصير عداوة. وجملة لا مرحباً بهم دعائية لا محل لها من الإعراب، أو صفة للفوج، أو حال منه، أو بتقدير القول أي: مقولاً في حقهم لا مرحباً بهم. وقيل: إنها من تمام قول الخزنة. والأول أولى كما يدل عليه جواب الأتباع الآتي، وجملة ﴿إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ تعليل من جهة الفاتلين لا مرحباً بهم أي: إنهم صالوا النار كما صليناها، ومستحقون لها كما استحقيناها. وجملة ﴿قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقتر أي: قال الأتباع عند سماع ما قاله الرؤساء لهم: بل أنتم لا مرحباً بكم أي: لا كرامة لكم، ثم عللوا ذلك بقولهم: ﴿إِنَّمَا قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ أي: أنتم قدَّمتم العذاب، أو الصلي لنا، وأوقعتمونا فيه، ودعوتمونا إليه بما كنتم تقولون لنا من أن الحق ما أنتم عليه، وإن الأنبياء غير صائقين فيما جاءوا به ﴿بِئْسَ لِلْقَرَارِ﴾ أي: بئس المقر جهنم لنا، ولكم. ثم حكي عن الأتباع أيضاً: أنهم أرفغوا هذا القول بقول آخر، وهو ﴿قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَاباً ضَعِيفاً فِي النَّارِ﴾ أي: زده عذاباً ذا ضعف، والضعف بأن يزيد عليه مثله، ومعنى من قدَّم لنا هذا: من دعانا إليه، وسوَّغَ لنا. قال الفراء: المعنى: من سوَّغَ لنا هذا، وسنه، وقيل: معناه: قدَّم لنا هذا العذاب بدعائه إيانا إلى الكفر، فزده عذاباً ضعيفاً في النار أي: عذاباً بكفره، وعذاباً بدعائه إيانا، فصار ذلك ضعيفاً، ومثله قوله سبحانه: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضَعِيفاً مِنَ النَّارِ﴾ [الأعراف: 38] وقوله: ﴿رَبَّنَا آتِهِمْ ضَعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ [الأحزاب: 68] وقيل: المراد بالضعف هنا: الحيات، والعقارب ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رَجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ﴾ قيل: هو من قول الرؤساء، وقيل: من قول الطاغين المنكوريين سابقاً. قال الكلبي: ينظرون في النار، فلا يرون من كان يخالفهم من المؤمنين معهم فيها، فعند ذلك قالوا: ما لنا لا نرى رجالاً كنا نعدُّهم من الأشرار. وقيل: يعنون: فقراء المؤمنين كعمار، وخباب، وصهيب، وبلال، وسالم، وسلمان. وقيل: أراونا أصحاب محمد على العموم ﴿اتَّخَذْنَاهُمْ سَخْرِيًّا﴾ أم زاغت عنهم الأبصار. قال مجاهد: المعنى: اتَّخَذْنَاهُمْ سَخْرِيًّا في الدنيا، فاختطانا، أم زاغت عنهم الأبصار، فلم نعلم مكانهم؟ والإنكار المفهوم من الاستفهام متوجه إلى

(1) (قوله: وابن كثير) يريد في غير المشهور عنه، اهـ. مصحح

قال: أقاعي، وحيات. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى﴾ قال: الملائكة حين شوروا في خلق آدم، فاخصموا فيه، وقالوا: لا تجعل في الأرض خليفة. وأخرج محمد بن نصر في كتاب الصلاة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمِ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ قال: هي: الخصومة في شأن آدم حيث قالوا: ﴿أَجْعَلْ فِيهَا مَنْ يَفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: 30]. وأخرج عبد الرزاق، وأحمد، وعبد بن حميد، والترمذي وحسنه، وابن نصر في كتاب الصلاة قال: قال رسول الله ﷺ: «أتاني الليلة ربي في أحسن صورة، أحسبه قال في المنام، قال: يا محمد هل تدري فيم يختصم الملاء الأعلى؟ قلت: لا، فوضع يده بين كتفي حتى وجدت بردها بين ثديي، أو في نخري، فعلمت ما في السموات، والأرض، ثم قال لي: يا محمد هل تدري فيم يختصم الملاء الأعلى؟ قلت: نعم في الكفارات، والكفارات: المكث في المساجد بعد الصلوات، والمشي على الأقدام إلى الجماعات، وإبلاغ الوضوء في المكاره، الحديث. وأخرج الترمذي وصححه، ومحمد بن نصر، والطبراني، والحاكم، وابن مروي عن حديث معاذ بن جبل نحوه باطول منه، وقال: «إسباغ الوضوء في السبرات». وأخرج الطبراني، وابن مروي عن حديث جابر بن سمرة نحوه بأخصر منه. وأخرج أيضاً من حديث أبي هريرة نحوه، وفي الباب أحاديث.

إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴿١٩﴾ فَلَمَّا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٠﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَعْتَدًا ﴿٢١﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِبْلِيسُ مَا مَكَّنَّنِي إِنْ كُنْتُ لِمَا خَلَقْتُ بِهِ ذَكَّرْتُ أَمْ كُنْتُ مِنَ الْغَالِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فَخَرِّجْهُ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٢٥﴾ وَإِنْ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٦﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَعْدِ أَتَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ قَالَ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا بِإِذْنِهِمْ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَوَّلُ الْأَمَلَانِ ﴿٣١﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمَنْ يَمْكَرُ بَيْنَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٢﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ ﴿٣٣﴾ إِذْ هُوَ إِلَى ذِكْرِ الْمَلَكَيْنِ ﴿٣٤﴾ وَلَمَّا نَسُوا نُبَأَ بَعْدَ جِينِ ﴿٣٥﴾

لما نكر سبحانه خصومة الملائكة إجمالاً فيما تقدم نكرها هنا تفصيلاً، فقال: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ إذ هذه هي بدل من ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [ص: 69] لاشتغال ما في حيز هذه على الخصومة. وقيل: هي منصوبة بإضمار انكر، والأول أولى إذا كانت خصومة الملائكة في شأن من يستخلف في الأرض. وأما إذا كانت في غير ذلك مما تقدم نكره، فالثاني أولى ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾ أي: خالق فيما سيأتي من الزمن «بشراً» أي: جسماً من جنس البشر مأخوذاً من مباشرته للأرض، أو من كونه بادي البشرية. وقوله: ﴿مَنْ طِينٍ﴾ متعلق بمحذوف هو: صفة لبشر، أو بخالق، ومعنى «فإذاً سويته»: صوّرت على صورة البشر،

وعدم الاستخفاف به، ومثل هذه الآية قوله: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنْ النِّبَا الْعَظِيمِ﴾ [النبا: 1، 2]، وقال مجاهد، وقتادة، ومقاتل: هو: القرآن، فإنه نبياً عظيماً؛ لأنه كلام الله. قال الزجاج: قل: النبا الذي أنبأكم به عن الله نبياً عظيماً: يعني: ما أنبأهم به من قصص الأولين، وذلك دليل على صدقه، ونبؤته؛ لأنه لم يعلم ذلك إلا بوحى من الله، وجملة «أنتم عنه معرضون» توبيخ لهم، وتقريع لكونهم أعرضوا عنه، ولم يتفكروا فيه، فاعلموا صدقه، ويستلوا به على ما أنكروه من البعث، وقوله: ﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمِ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى﴾ استئناف مسوق لتقرير أنه نبياً عظيماً، والملاء الأعلى هم: الملائكة ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي: وقت اختصامهم؛ فقوله: ﴿بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى﴾ متعلق بعلم على تضمنينه معنى: الإحاطة، وقوله: ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ متعلق بمحذوف أي: ما كان لي فيما سبق علم بوجه من الوجوه بحال الملاء الأعلى وقت اختصامهم، والضمير في يختصمون راجع إلى الملاء الأعلى، والخصومة الكائنة بينهم هي في أمر آدم كما يفيد ما سيأتي قريباً، وجملة «إِنْ يُوْحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ» معترضة بين اختصاصهم المجل، وبين تفصيله بقوله: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ [ص: 71]. والمعنى: ما يوحى إليّ إلا أنما أنا نذير مبين. قال الفراء: المعنى ما يوحى إليّ إلا أنني نذير مبين أبين لكم ما تأتون من الفرائض، والسنة، وما تدعون من الحرام، والمصيبة. قال: كأنك قلت: ما يوحى إليّ إلا الإنذار. قال النحاس: ويجوز أن تكون في محل نصب بمعنى: ما يوحى إليّ إلا أنما أنا نذير مبين. قرأ الجمهور بفتح همزة أنما على أنها، وما في حيزها في محل رفع لقيامها مقام الفاعل أي: ما يوحى إليّ إلا الإنذار، أو إلا كوني نذيراً مبيناً، أو في محل نصب، أو جر بعد إسقاط لام العلة، والقائم مقام الفاعل على هذا الجاز والمجور. وقرأ أبو جعفر بكسر الهمزة؛ لأن في الوحي معنى القول، وهي: القائمة مقام الفاعل على سبيل الحكاية، كأنه قيل: ما يوحى إليّ إلا هذه الجملة المتضمنة لهذا الإخبار، وهو أن أقول لكم إنما أنا نذير مبين. وقيل: إن الضمير في يختصمون عائذ إلى قريش؛ يعني: قول من قال منهم: الملائكة بنات الله، والمعنى: ما كان لي علم بالملائكة إذ تختصم فيهم قريش، والأول أولى.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿وَوَسَّاقٍ﴾ قال: الزمهرير «وآخر من شكله» قال: من نحوه «أزواج» قال: ألوان من العذاب. وأخرج أحمد، والترمذي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مروي، والبيهقي في البعث عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أن لولاً من غساق يهرق في الدنيا لانتن أهل الدنيا». قال الترمذي بعد إخرجه: لا نعرفه إلا من حديث رشدين بن سعد. قلت: ورشدين فيه مقال معروف. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، والطبراني عن ابن مسعود في قوله: ﴿فَرَزَدَهُ عَذَابًا ضَعِيفًا فِي النَّارِ﴾

وقول الآخر:

بسبع رمين الجمر أم بثمانيا
ويحتمل أن يكون خبراً محضاً من غير إرادة للاستفهام، فتكون «ام» منقطعة، والمعنى: استكبرت عن السجود الذي أمرت به بل ا **«كنت من العالين»** أي: المستحقين للترفع عن طاعة أمر الله المتعالين عن ذلك، وقيل: المعنى: استكبرت عن السجود الآن، أم لم تزل من القوم الذين يتكبرون عن ذلك، وجملة **«قال أنا خير منه»** مستأنفة جواب سؤال مقدر، ادّعى اللعين لنفسه: أنه خير من آدم، وفي ضمن كلامه هذا: أن سجود الفاضل للمفضول لا يحسن. ثم علل ما ادّعاه من كونه خيراً منه بقوله: **«خلقتني من نار وخلقته من طين»**، وفي زعمه أن عنصر النار أشرف من عنصر الطين، وذهب عنه أن النار إنما هي بمنزلة الخادم لعنصر الطين إن احتيج إليها استدعيت كما يستدعي الخادم، وإن استغنى عنها طردت، وأيضاً فالطين يستولي على النار، فيطفئها، وأيضاً فهي لا توجد إلا بما أصله من عنصر الأرض، وعلى كل حال، فقد شرف آدم بشرف، وكرم بكرامة لا يوازيها شيء من شرف العناصر، وذلك أن الله خلقه بيديه، ونفخ فيه من روحه، والجواهر في أنفسها متجانسة، وإنما تشرف بعارض من عوارضها، وجملة **«قال فأخرج منها»** مستأنفة كالتي قبلها أي: فأخرج من الجنة، أو من زمرة الملائكة، ثم علل أمره بالخروج بقوله: **«فإنك رجيم»** أي: مرجوم بالكواكب مطرود من كل خير **«وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين»** أي: طردني لك عن الرحمة، وإبعادي لك منها، ويوم الدين يوم الجزاء، فأخبر سبحانه وتعالى: أن تلك اللعنة مستمرة له دائمة عليه ما دامت الدنيا، ثم في الآخرة يلقي من أنواع عذاب الله، وعقوبته، وسخطه ما هو به حقيق، وليس المراد: أن اللعنة تزول عنه في الآخرة، بل هو ملعون أبداً، ولكن لما كان له في الآخرة ما ينسى عنده اللعنة، ويذهل عند الوقوع فيه منها صارت كأنها لم تكن بجنب ما يكون فيه، وجملة **«قال رب فانظروني إلى يوم يبعثون»** مستأنفة كما تقدّم فيما قبلها أي: أمهلني، ولا تعاجلني إلى غاية هي يوم يبعثون: يعني: آدم، وذريته **«قال فإنك من المنظرين»** أي: الممهلين **«إلى يوم الوقت المعلوم»** الذي قدره الله لفناء الخلاق، وهو عند النفخة الأخيرة، وقيل: هو النفخة الأولى. قيل: إنما طلب إبليس الانتظار إلى يوم البعث؛ ليتخلص من الموت، لأنه إذا انظر إلى يوم البعث لم يمت قبل البعث، وعند مجيء البعث لا يموت، فحينئذ يتخلص من الموت. فأجيب بما يبطل مراده، وينقض عليه مقصده، وهو الانتظار إلى يوم الوقت المعلوم، وهو الذي يعلمه الله، ولا يعلمه غيره، فلما سمع اللعين إنظار الله له إلى ذلك الوقت **«قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين»** فأقسم بعزة الله أنه يضلل بني آدم بتزيين الشهوات لهم، وإخبال الشبه عليهم حتى يصيروا غاوين جميعاً. ثم لما علم أن كيدَه لا ينجح إلا في اتباعه، وأحزابه من أهل الكفر،

وصارت أجزاؤه مستوية **«ونفخت فيه من روحي»** أي: من الروح الذي أملكه، ولا يملكه غيره. وقيل: هو تمثيل، ولا نفخ، ولا منفوخ فيه. والمراد: جعله حياً بعد أن كان جماداً لا حياة فيه. وقد مرّ الكلام في هذا في سورة النساء **«فقعوا له ساجدين»** هو أمر من وقع يقع، وانتصاب ساجدين على الحال، والسجود هنا هو سجود التحية لا سجود العبادة، وقد مضى تحقيقه في سورة البقرة **«فسجد الملائكة»** في الكلام حذف تدلّ عليه الفاء، والتقدير: فخلقه، فسواه، ونفخ فيه من روحه، فسجد له الملائكة. وقوله: **«كلهم»** يفيد أنهم سجدوا جميعاً، ولم يبق منهم أحد. وقوله: **«أجمعون»** يفيد أنهم اجتمعوا على السجود في وقت واحد، فالأول: لقصد الإحاطة، والثاني: لقصد الاجتماع. قال في الكشاف: فأفادوا معاً أنهم سجدوا عن آخرهم ما بقي منهم ملك إلا سجد، وأنهم سجدوا جميعاً في وقت واحد غير متفرقين في أوقات. وقيل: إنه أكد بتكديس المبالغة في التعميم **«إلا إبليس»** الاستثناء متصل على تقدير: أنه كان متصفاً بصفات الملائكة داخلاً في عدادهم، فغلبوا عليه، أو منقطع على ما هو الظاهر من عدم دخوله فيهم أي: لكن إبليس **«استكبر»** أي: انف من السجود جهلاً منه بأنه طاعة الله، **«و»** كان استكباره استكبار كفر، فلذلك **«كان من الكافرين»** أي: صار منهم بمخالفته لأمر الله، واستكباره عن طاعته، أو كان من الكافرين في علم الله سبحانه، وقد تقدّم الكلام على هذا مستوفى في سورة البقرة، والأعراف، وبني إسرائيل، والكهف، وطه. ثم إن الله سبحانه سلكه عن سبب تركه للسجود الذي أمره به **«قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي»** أي: ما صرفك، وصنك عن السجود لما توليت خلقه من غير واسطة؟ وأضاف خلقه إلى نفسه تكريماً له، وتشريفاً، مع أنه سبحانه خالق كل شيء كما أضاف إلى نفسه الروح، والبيت، والناقة، والمساجد. قال مجاهد: اليد هنا بمعنى: التأكيد، والصلة مجازاً كقوله: **«ويبقى وجه ربك»** [الرحمن: 27]. وقيل: أراد باليد القنرة، يقال: ما لي بهذا الأمر يد، وما لي به يدان أي: قدرة، ومنه قول الشاعر:

تحملت من لفاء ما ليس لي يد ولا للجلال الراسيات يدان
وقيل: التنبيه في اليد للدلالة على أنها ليس بمعنى: القوة، والقنرة، بل للدلالة على أنهما صفتان من صفات ذاته سبحانه، و«ما» في قوله: **«لما خلقت»** هي: المصدرية، أو الموصولة. وقرأ الجحدري (لما) بالتشديد مع فتح اللام على أنها ظرف بمعنى: حين كما قال أبو علي الفارسي. وقرئ (بيدي) على الأفراد (استكبرت) قرأ الجمهور بهمزة الاستفهام، وهو استفهام توبيخ، وتقريع و **«إم»** متصلة. وقرأ ابن كثير في رواية عنه، وأهل مكة بالغ وصل، ويجوز أن يكون الاستفهام مراداً، فيوافق القراءة الأولى كما في قول الشاعر:

تروح من الحي لم تبتكر

وتوحيده، والترغيب إلى الجنة، والتحذير من النار ﴿بعد حين﴾ قال قتادة، والزجاج، والفراء: بعد الموت. وقال عكرمة، وابن زيد: يوم القيامة. وقال الكلبي: من بقي علم ذلك لما ظهر أمره، وعلا، ومن مات علمه بعد الموت. وقال السدي: وذلك يوم بدر.

وقد أخرج ابن مريويه عن ابن عباس ﴿إذ يختصمون﴾: أن الخصومة هي: ﴿إذ قال ربك﴾ إلخ. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ في العظمة، والبيهقي عن ابن عمر قال: خلق الله أربعاً بيده: العرش، وجنة عدن، والقلم، وأدم. وأخرج ابن أبي الدنيا في صفة الجنة، وأبو الشيخ في العظمة، والبيهقي في الأسماء والصفات عن عبد الله بن الحارث قال: قال رسول الله ﷺ: «خلق الله ثلاثة أشياء بيده: خلق آدم بيده، وكتب التوراة بيده، وغرس الفردوس بيده»، وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد في قوله: ﴿فالحق والحق أقول﴾ قال: أنا الحق أقول الحق. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿قل ما أسألكم عليه من أجر﴾ قال: قل يا محمد: ﴿ما أسألكم عليه﴾ ما أدعوكم إليه ﴿من أجر﴾ عرض دنيا. وفي البخاري، ومسلم، وغيرهما عن مسروق قال: بينما رجل يحدث في المسجد، فقال فيما يقول: ﴿يوم تأتي السماء بلبخان مبين﴾ [اللبخان: 10] قال: لبخان يكون يوم القيامة يأخذ بأسماع المنافقين، وأبصارهم، ويأخذ المؤمنين كهيئة الزكّام، قال: قمنا حتى نخلنا على عبد الله، وهو في بيته، وكان متكئاً، فاستوى قاعداً، فقال: يا أيها الناس من علم منكم علماً، فليقل به، ومن لم يعلم، فليقل الله أعلم، فإن من العلم أن يقول العالم لما لا يعلم: الله أعلم، قال الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين﴾. وأخرج البخاري عن عمر قال: نهينا عن التكلف. وأخرج الطبراني، والحاكم، والبيهقي عن سلمان قال: نهانا رسول الله ﷺ أن نتكلف للضيف.

تفسير سورة الزمر

وهي مكية في قول الحسن، وعكرمة، وجابر بن زيد. وأخرج ابن الضريس، وابن مريويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: أنزلت سورة الزمر بمكة. وأخرج النحاس في ناسخه عنه قال: نزلت بمكة سورة الزمر سوى ثلاثة آيات نزلن بالمدينة في وحشي قاتل حمزة ﴿يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم﴾ [الزمر: 53 - 55] الثلاث الآيات. وقال آخرون: إلى سبع آيات من قوله: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم﴾ [الزمر: 53 - 59] إلى آخر السبع. وأخرج النسائي عن عائشة قالت: «كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول: ما يريد أن يفطر، ويفطر حتى نقول: ما يريد أن يصوم، وكان يقرأ في كل ليلة بني إسرائيل، والزمر»، وأخرجه الترمذي عنها بلفظ: «كان رسول الله ﷺ

والمعاصي، استثنى من لا يقدر على إضلاله، ولا يجد السبيل إلى إغوائه، فقال: ﴿إلا عبادك منهم المخلصين﴾ أي: الذين أخلصتهم لطاعتك، وعصمتهم من الشيطان الرجيم، وقد تقدّم تفسير هذه الآيات في سورة الحجر، وغيرها. وقد أقسم ما هنا بعزة الله، وأقسم في موضع آخر بقوله: ﴿فبما أغويتني﴾ [الأعراف: 16] ولا تنافي بين القسمين، فإن إغواءه إياه من آثار عزّته سبحانه، وجملته ﴿قال فالحق والحق أقول﴾ مستأنفة كالجمل التي قبلها. قرأ الجمهور بنصب الحق في الموضعين على أنه مقسم به حذف منه حرف القسم، فانتصب، أو هما منصوبان على الإغراء أي: الزموا الحق، أو مصدران مؤكدان لمضمون قوله: ﴿لأملأن جهنم﴾، وقرأ ابن عباس، ومجاهد، والأعمش، وعاصم، وحمزة برفع الأول، ونصب الثاني، ورفع الأول على أنه مبتدأ، وخبره مقدر أي: فالحق مني، أو فالحق أنا، أو خبره: لأملأن، أو هو خبر مبتدأ محذوف، وأما نصب الثاني، فبالفعل المذكور بعده أي: وأنا أقول الحق، وإجاز الفراء، وأبو عبيد أن يكون منصوباً بمعنى: حقاً لأملأن جهنم. واعترض عليهما بأن ما بعد اللام مقطوع عما قبلها. وروي عن سيبويه، والفراء أيضاً: أن المعنى: فالحق أن إملأ جهنم. وروي عن ابن عباس، ومجاهد: أنهما قرأ برفعها، ورفع الأول على ما تقدّم، ورفع الثاني بالابتداء، وخبره الجملة المذكورة بعده، والعائد محذوف. وقرأ ابن السميع، وطلحة بن مصرف بخفضهما على تقدير حرف القسم. قال الفراء: كما يقول الله عز وجل: لا فعلن كذا، وغلطه أبو العباس ثعلب وقال: لا يجوز خفض بحرف مضمر، وجملته ﴿لأملأن جهنم﴾ جواب القسم على قراءة الجمهور، وجملته ﴿والحق أقول﴾ معترضة بين القسم، وجوابه، ومعنى ﴿منك﴾ أي: من جنسك من الشياطين ﴿وممن تبعك منهم﴾ أي: من نزية آدم، فاطاعوك إذ دعوتهم إلى الضلال، والغواية و﴿لجميعين﴾ تأكيد للمعطوف، والمعطوف عليه أي: لأملأنها من الشياطين، واتباعهم أجمعين. ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يخبرهم بأنه إنما يريد بالدعوة إلى الله امتثال أمره لا عرض الدنيا الزائل، فقال: ﴿قل ما أسألكم عليه من أجر﴾ والضمير في عليه راجع إلى تبليغ الوحي، ولم يتقدّم له نكر، ولكنه مفهوم من السياق. وقيل: هو عائد إلى ما تقدّم من قوله: ﴿أنزل عليه الذكر من بيننا﴾ [ص: 8] وقيل: الضمير راجع إلى القرآن، وقيل: إلى الدّعاء إلى الله على العموم، فيشمل القرآن، وغيره من الوحي، ومن قول الرسول ﷺ: والمعنى: ما أطلب منكم من جعل تعطوني عليه ﴿وما أنا من المتكلفين﴾ حتى أقول ما لا أعلم إذ أدعوكم إلى غير ما أمرني الله بالدعوة إليه، والتكلف: التصنع ﴿إن هو إلا نكر للعالمين﴾ أي: ما هذا القرآن، أو الوحي، أو ما أدعوكم إليه إلا نكر من الله عز وجل للمجنّ، والإنس. قال الأعمش: ما لقرآن إلا موعظة للخلق أجمعين و﴿ولتعلمن﴾ أيها الكفار ﴿نبأه﴾ أي: ما أنبا عنه، وأخبر به من الدّعاء إلى الله،

لا ينال حتى يقرأ الزمر، وبني إسرائيل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْحَقَّ بِالنِّجْوَةِ فَأَعْيِدِ اللَّهُ تَحْلِيلًا لَهُ الْبَرِّ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَلَفَ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَكُنْهُ سُبْحَنَهُ هُوَ اللَّهُ الرَّحْمَنُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْحَقُّ يَكُونُ أَيْدٍ عَلَى السَّيِّئِ وَيُكَفِّرُ الْفَهَارَ عَلَى الْإِنِّ وَسَخَّرَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَمْرِ نِجْنَةً آوَجَ بِخَلْقِكُمْ فِي بَطُونٍ مُنْهَكِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾

قوله: ﴿تنزيل الكتاب﴾ ارتفاعه على أنه خبر مبتدأ محذوف هو اسم إشارة أي: هذا تنزيل. وقال أبو حيان: إن المبتدأ المقدر لفظ هو ليعود على قوله: ﴿إن هو إلا نكر للعالمين﴾ [ص: 87]، كأنه قيل: وهذا الذكر ما هو؟ فقيل: هو تنزيل الكتاب، وقيل: ارتفاعه على أنه مبتدأ، وخبره الجار والمجرور بعده أي: تنزيل كائن من الله، وإلى هذا ذهب الزجاج، والفراء. قال الفراء: ويجوز أن يكون مرفوعاً بمعنى: هذا تنزيل، وإجاز الفراء، والكسائي النصب على أنه مفعول به لفعل مقدر أي: اتبعوا، أو اقرءوا تنزيل الكتاب. وقال الفراء: يجوز نصبه على الإغراء أي: الزموا، والكتاب هو: القرآن، وقوله: ﴿من الله العزيز الحكيم﴾ على الوجه الأول صلة للتنزيل، أو خبر بعد خبر، أو خبر مبتدأ محذوف، أو متعلق بمحذوف على أنه حال عمل فيه اسم الإشارة المقدر ﴿إنا أنزلناه إليك الكتاب بالحق﴾ الباء سببية متعلقة بالإنزال أي: أنزلناه بسبب الحق، ويجوز أن تتعلق بمحذوف هو: حال من الفاعل أي: ملتبس بالحق، أو من المفعول أي: ملتبس بالحق، والمراد كل ما فيه من إثبات التوحيد، والنبوّة، والمعاد، وأنواع التكليف. قال مقاتل: يقول: لم نزل به باطلاً لغير شيء ﴿فاعبد الله مخلصاً له الدين﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، وانتصاب مخلصاً على الحال من فاعل اعبد، والإخلاص: أن يقصد العبد بعمله وجه الله سبحانه، والدين العبادة، والطاعة، ورأسها توحيد الله، وأنه لا شريك له. قرأ الجمهور (الدين) بالنصب على أنه مفعول مخلصاً. وقرأ ابن أبي عملة برفعه على أن مخلصاً مسند إلى الدين على طريقة المجاز. قيل: وكان عليه أن يقرأ مخلصاً بفتح اللام. وفي الآية دليل على وجوب النية، وإخلاصها عن الشوائب؛ لأن الإخلاص من الأمور القلبية التي لا تكون إلا بأعمال القلب، وقد جاءت السنة الصحيحة أن ملاك الأمر في الأقوال، والأفعال النية، كما في حديث: «إنما الأعمال

بالنيات»، وحديث: «لا قول ولا عمل إلا بنية»، وجملة ﴿إلا الله الدين الخالص﴾ مستأنفة مقررة لما قبلها من الأمر بالإخلاص أي: إن الدين الخالص من شوائب الشرك، وغيره هو الله، وما سواه من الأديان، فليس بدين الله الخالص الذي أمر به. قال قتادة: الدين الخالص شهادة أن لا إله إلا الله ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء﴾ لما أمر سبحانه بعبادته على وجه الإخلاص، وأن الدين الخالص له لا لغيره بين بطلان الشرك الذي هو مخالف للإخلاص، والموصول عبارة عن المشركين، ومحل الرفع على الابتداء، وخبره قوله: ﴿إن الله يحكم بينهم﴾ وجملة ﴿ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ في محل نصب على الحال بتقدير القول، والاستثناء مفرغ من أعم العلل، والمعنى: والذين لم يخلصوا العبادة لله، بل شابوها بعبادة غيره قائلين: ما نعبدكم لشيء من الأشياء إلا ليقربونا إلى الله تقريباً، والضمير في نعبدكم راجع إلى الأشياء التي كانوا يعبدونها من الملائكة، وعيسى، والأصنام، وهم: المرادون بالأولياء، والمراد بقولهم: ﴿إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ الشفاعة، كما حكاها الواحدي عن المفسرين. قال قتادة: كانوا إذا قيل لهم: من ربكم، وخالفكم، ومن خلق السموات، والأرض، وأنزل من السماء ماء؟ قالوا: الله، فيقال لهم: ما معنى عبادتكم للأصنام؟ قالوا: ليقربونا إلى الله زلفى، ويشفعوا لنا عنده. قال الكلبي: جواب هذا الكلام قوله في سورة الأحقاف: ﴿فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة﴾ [الأحقاف: 28]. والزلفى اسم أقيم مقام المصدر، كأنه قال: إلا ليقربونا إلى الله تقريباً. وفي قراءة ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد (قالوا ما نعبدكم)، ومعنى ﴿إن الله يحكم بينهم﴾ أي: بين أهل الأديان يوم القيامة، فيجازي كلا بما يستحقه. وقيل: بين المخلصين للدين، وبين الذين لم يخلصوا، وحذف الأول لدلالة الحال عليه، ومعنى ﴿في ما هم فيه يختلفون﴾ في الذي اختلفوا فيه من الدين بالتوحيد، والشرك، فإن كل طائفة تدعي أن الحق معها ﴿إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار﴾ أي: لا يرشد لدينه، ولا يوفق للاعتقاد إلى الحق من هو كاذب في زعمه: أن الآلهة تقرب إلى الله، وكفر باتخاذها آلهة، وجعلها شركاء لله، والكفار صيغة مبالغة تدل على أن كفر هؤلاء قد بلغ إلى الغاية. وقرأ الحسن، والأعرج كذاب على صيغة المبالغة ككفار، ورويت هذه القراءة عن أنس ﴿لو أراد الله أن يتخذ ولداً لأصطفى﴾ هذا مقرر لما سبق من إبطال قول المشركين: بأن الملائكة بنات الله لتضمنه استحالة الولد في حقه سبحانه على الإطلاق، فلو أراد أن يتخذ ولداً لامتنع اتخاذ الولد حقيقة، ولم يتأت ذلك إلا بأن يصطفى ﴿مما يخلق ما يشاء﴾ أي: يختار من جملة خلقه ما يشاء أن يصطفيه، إذ لا موجود سواه إلا وهو مخلوق له، ولا يصح أن يكون المخلوق ولداً للمخلوق لعدم المجانسة بينهما، فلم يبق إلا أن يصطفيه عبداً كما يفيد التعبير بالأصطفاء مكان

على مقدر هو صفة لنفس. قال الفراء، والزجاج: التقدير خلقكم من نفس خلقها واحدة، ثم جعل منها زوجها. ويجوز أن يكون العطف على معنى واحدة أي: من نفس انفردت، ثم جعل إلخ، والتعبير بالجعل دون الخلق مع العطف بثم للدلالة على أن خلق حواء من ضلع آدم أشخل في كونه آية باهرة دالة على كمال القدرة، لأن خلق آدم هو على عادة الله المستمرة في خلقه، وخلقها على الصفة المذكورة لم تجر به عادة لكونه لم يخلق سبحانه أنثى من ضلع رجل غيرها، وقد تقدم تفسير هذه الآية مستوفى في سورة الأعراف. ثم بين سبحانه نوعاً آخر من قدرته الباهرة، فقال: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾، وهو معطوف على خلقكم، وعبر بالإنزال لما يروى: أنه خلقها في الجنة، ثم أنزلها، فيكون الإنزال حقيقة، ويحتمل أن يكون مجازاً، لأنها لم تعيش إلا بالنبات، والنبات إنما يعيش بالماء، والماء منزل من السماء، كانت الأنعام كأنها منزلة، لأن سبب سببها منزل كما أطلق على السبب في قوله:

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيه وإن كانوا غصبا
وقيل: إن أنزل بمعنى: أنشأ، وجعل، أو بمعنى: أعطى، وقيل: جعل الخلق إنزالاً، لأن الخلق إنما يكون بأمر ينزل من السماء، والثمانية الأزواج هي ما في قوله: ﴿مِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: 143] و﴿مِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: 144] ويعني بالاثنتين في الأربعة المواضع: الذكر، والأنثى، وقد تقدم تفسير الآية في سورة الأنعام. ثم بين سبحانه نوعاً آخر من قدرته البديعة، فقال: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِّن بَعْدِ خَلْقٍ﴾، والجملة استثنائية لبيان ما تضمنته من الأطوار المختلفة في خلقهم، وخلقاً مصدر مؤكد للفعل المذكور، و﴿مِّن بَعْدِ خَلْقٍ﴾ صفة له أي: خلقاً كائناً من بعد خلق. قال قتادة، والسدي: نطفة، ثم علقه، ثم مضغه، ثم عظاماً، ثم لحماً. وقال ابن زيد: خلقكم خلقاً في بطون أمهاتكم من بعد خلقكم في ظهر آدم، وقوله: ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ متعلق بقوله: ﴿يَخْلُقُكُمْ﴾، وهذه الظلمات الثلاث هي: ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة قاله مجاهد، وعكرمة، وقتادة، والضحاك. وقال سعيد بن جبیر: ظلمة المشيمة، وظلمة الرحم، وظلمة الليل. وقال أبو عبيدة: ظلمة صلب الرجل، وظلمة بطن المرأة، وظلمة الرحم، والإشارة بقوله: ﴿ثَلَاثٌ﴾ إليه سبحانه باعتبار أفعاله السابقة، والاسم الشريف خبره ﴿وَبِكُمْ﴾ خبر آخر ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾ الحقيقي في الدنيا، والآخرة لا شركة لغيره فيه، وهو: خبر ثالث، وقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ خبر رابع ﴿فَأَنى تَصْرَفُونَ﴾ أي: فكيف تنصرفون عن عبادته، وتنقلبون عنها إلى عبادة غيره. قرأ حمزة (أمهاتكم) بكسر الهمزة، والميم. وقرأ الكسائي بكسر الهمزة، وفتح الميم. وقرأ الباقر بضم الهمزة، وفتح الميم.

وقد أخرج ابن مردويه، عن يزيد الرقاشي أن رجلاً قال: يا رسول الله إنا نعطي أموالنا التماس الذكر، فهل لنا في

الاتخاذ؛ فمعنى الآية: لو أراد أن يتخذ ولداً لوقع منه شيء ليس هو من اتخاذ الولد، بل إنما هو من الاصطفاء لبعض مخلوقاته، ولهذا نزه سبحانه نفسه عن اتخاذ الولد على الإطلاق، فقال: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أي: تنزيهاً له عن ذلك، وجملة ﴿هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ مبنية لتنزهه بحسب الصفات بعد تنزهه بحسب الذات أي: هو المستجمع لصفات الكمال المتوحد في ذاته، فلا مماثل له القهار لكل مخلوقاته، ومن كان متصفاً بهذه الصفات استحال وجود الولد في حقه، لأن الولد مماثل لوالده، ولا مماثل له سبحانه، ومثل هذه الآية قوله سبحانه: ﴿لَوْ أَرَادْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوَاً لَّا تَخْتَنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا﴾ [الأنبياء: 17] ثم لما ذكر سبحانه كونه منزهاً عن الولد بكونه إلهاً واحداً قهاراً ذكر ما يدل على ذلك من صفاته، فقال: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي: لم يخلقهما باطلاً لغير شيء، ومن كان هذا الخلق العظيم خلقه استحال أن يكون له شريك، أو صاحبة، أو ولد. ثم بين كيفية تصرفه في السموات، والأرض، فقال: ﴿يَكُونُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيَكُونُ النَّهَارُ عَلَى اللَّيْلِ﴾ التكوير في اللغة: طرح الشيء بعضه على بعض. يقال: كَوَّرَ المتاع: إذا لقي بعضه على بعض، ومنه كَوَّرَ العمامة: فمعنى تكوير الليل على النهار: تغشيته إياه حتى يذهب ضوءه، ومعنى تكوير النهار على الليل: تغشيته إياه حتى تذهب ظلمته، وهو: معنى قوله تعالى: ﴿يَغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً﴾ [الأعراف: 54] هكذا قال قتادة، وغيره. وقال الضحاك: أي: يلقي هذا على هذا، وهذا على هذا، وهو مقارب للقول الأول. وقيل: معنى الآية: أن ما نقص من الليل نخل في النهار، وما نقص من النهار نخل في الليل، وهو: معنى قوله: ﴿يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ﴾ [فاطر: 13، والحديد: 6]، وقيل: المعنى: إن هذا يكرّ على هذا، وهذا يكرّ على هذا كروياً متتابعاً. قال الراغب: تكوير الشيء: إدارته، وضم بعضه إلى بعض ككوير العمامة هـ. والإشارة بهذا التكوير المذكور في الآية إلى جريان الشمس في مطالعها، وانتقاص الليل، والنهار، وازديادهما. قال الرازي: إن النور، والظلمة عسكران عظيمان، وفي كل يوم يغلب هذا ذاك، وذاك هذا؛ ثم ذكر تسخيرهما لسلطان النهار، وسلطان الليل، وهما: الشمس، والقمر، فقال: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أي: جعلهما متقابلين لأمره بالطول، والغروب لمنافع العباد، ثم بين كيفية هذا التسخير، فقال: ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: يجري في فلكه إلى أن تنصرم الدنيا، وذلك يوم القيامة، وقد تقدم الكلام على الأجل المسمى لجريهما مستوفى في سورة «يس» ﴿أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ الأ: حرف تنبيه، والمعنى: تنبهوا أيها العباد، فالله هو الغالب الساتر لنزوب خلقه بالمغفرة. ثم بين سبحانه نوعاً آخر من قدرته، وبيد صنعه، فقال: ﴿يَخْلُقُكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ وهي: نفس آدم ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ جاء بثم للدلالة على ترتب خلق حواء على خلق آدم، وتراخي عنه؛ لأنها خلقت منه، والعطف: إما

ذلك من أجره؛ فقال رسول الله ﷺ: لا، قال: يا رسول الله إنما نعطي التماس الأجر والذكر فهل لنا أجره؛ فقال رسول الله ﷺ: إن الله لا يقبل إلا ما أخلص له، ثم تلا هذه الآية: ﴿إِلَّا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿يَكْفُرُ اللَّيْلُ﴾ قال: يحمل الليل. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ قال: علقه، ثم مضغة، ثم عظاماً ﴿فِي ظِلْمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ البطن، والرحم، والمشيمة.

إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَنَيْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكَفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ وَإِذَا مَنِ الْإِنْسَانُ ذَرَّ مَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا حَوَّلَهُ مُتِمِّةً مِّنْهُ نِسًا مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّضِلٍّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَعَّ يَكْفُرُكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾ آمَنَ هُوَ قَتَلَتْ مَائَتَةَ الْكَلْبِ سَائِدًا وَقَافِيًا يَحْدُرُ الْآخِرَةَ وَرَجَعُوا رَحْمَةً رَّبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَمُنُونَ وَالَّذِينَ لَا يَمُنُونَ إِنَّمَا يَنْذَكُرُ أُولَئِ الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾ قُلْ يَبْعَادُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفُسًا رَّبِّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّادِقُونَ أَجْرَهُمْ بِحَسَبِ عَمَلِهِمْ قُلْ إِيَّائِي أُعِزُّ أَنْ أُعْبَدَ اللَّهُ عَالِمًا لَهُ الْإِيمَانُ ﴿١٠﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ مِنَ السَّائِلِينَ ﴿١١﴾

لما ذكر سبحانه النعم التي أنعم بها على عباده، وبين لهم من ببيع صنعه، وعجيب فعله ما يوجب على كل عاقل أن يؤمن به عقبه بقوله: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ﴾ أي: غير محتاج إليكم، ولا إلى إيمانكم، ولا إلى عبادتكم له فإنه الغني المطلق، ﴿وَو﴾ مع كون كفر الكافر لا يضُرُّه كما أنه لا ينفعه إيمان المؤمن، فهو أيضاً ﴿لا يَرْضَى لعباده الكفر﴾ أي: لا يرضى لأحد من عباده الكفر، ولا يحبه، ولا يأمر به، ومثل هذه الآية قوله: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: 8]، ومثلها ما ثبت في صحيح مسلم من قوله ﷺ: «يا عبادي لو أن أولكم، وآخركم، وإنسكم، وجنكم كانوا على قلب أفجر رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً».

وقد اختلف المفسرون في هذه الآية هل هي على عمومها، وإن الكفر غير مرضي لله سبحانه على كل حال كما هو الظاهر، أو هي خاصة؛ والمعنى: لا يرضى لعباده المؤمنين الكفر، وقد ذهب إلى التخصيص حبر الأمة ابن عباس رضي الله عنه كما سيأتي بيانه آخر البحث، وتابعه على ذلك عكرمة، والسدي، وغيرهما. ثم اختلفوا في الآية اختلافاً آخر. فقال قوم: إنه يريد كفر الكافر، ولا يرضاه، وقال آخرون: إنه لا يريده، ولا يرضاه، والكلام في تحقيق مثل هذا يطول جداً. وقد استدلل القائلون بتخصيص هذه الآية، والمثبتون للإرادة مع عدم الرضا بما ثبت في آيات كثيرة من الكتاب العزيز أنه سبحانه: ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾

[الرعد: 27] ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [يونس: 25] ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: 30، والتكوير: 29]، ونحو هذا مما يؤدي معناه كثير في الكتاب العزيز. ثم لما ذكر سبحانه: أنه لا يرضى لعباده الكفر بين أنه يرضى لهم الشكر، فقال: ﴿وَأَنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ أي: يرضى لكم الشكر المدلول عليه بقوله، وإن تشكروا، ويحبكم عليه، وإنما رضي لهم سبحانه الشكر؛ لأنه سبب سعادتهم في الدنيا، والآخرة كما قال سبحانه: ﴿لَنْ شُكْرْتُمْ لِأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: 7] قرا أبو جعفر، وأبو عمرو، وشيبة، وهبيرة عن عاصم بإسكان الهاء من يرضه، واشتبع الضمة على الهاء ابن زكوان، وابن كثير، والكسائي، وابن محيصن، وورش عن نافع، واختلس الباقون ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ أي: لا تحمل نفس حاملة للوزر حمل نفس أخرى، وقد تقدم تفسير هذه الآية مستوفى ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ﴾ يوم القيامة ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من خير، وشر، وفيه تهديد شديد ﴿إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: بما تضرعه القلوب، وتستتره، فكيف بما تظهره، وتبنيه ﴿وَإِذَا مَنِ الْإِنْسَانُ ضَرًّا﴾ أي: ضر كان من مرض، أو فقر، أو خوف ﴿دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ أي: راجعاً إليه مستغنياً به في دفع ما نزل به تاركاً لما كان يدعوه، ويستغث به من ميت، أو حي، أو صنم، أو غير ذلك ﴿ثُمَّ إِذَا حَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ﴾ أي: أعطاه، وملكه، يقال: حَوَّلَهُ الشيء أي: ملكه إياه، وكان أبو عمرو بن العلاء ينشد:

هناك إن يستخلوا المال يخلوا وإن يسألوا يعطوا وإن ييسروا يفلوا
ومنه قول أبي النجم:

أعطى ولم يبخل ولم يبخل كوم النذرى من خول المخوّل
﴿نسي ما كان يدعو إليه من قبل﴾ أي: نسي الضر الذي كان يدعو الله إلى كشفه عنه من قبل أن يخوله ما خوله، وقيل: نسي الدعاء الذي كان يتضرع به، وتركه، أو نسي ربه الذي كان يدعوه، ويتضرع إليه، ثم جاوز ذلك إلى الشرك بالله، وهو معنى قوله: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ أي: شركاء من الأصنام، أو غيرها يستغث بها، ويعبدها ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أي: ليضل الناس عن طريق الله التي هي الإسلام، والتوحيد. وقال السدي: يعني: أنداداً من الرجال يعتمد عليهم في جميع أمورهم. ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ: أن يهتد من كان متصفاً بتلك الصفة، فقال: ﴿قُلْ تَمَعَّ يَكْفُرُكَ قَلِيلًا﴾ أي: تمتعاً قليلاً، أو زماناً قليلاً، فمتاع الدنيا قليل، ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّكُمْ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ أي: مصيركم إليها عن قريب، وفيه من التهديد أمر عظيم. قال الزجاج: لفظه لفظ الأمر، ومعناه: التهديد، والوعيد. قرا الجمهور (ليضل) بضم الياء، وقرا ابن كثير، وأبو عمرو بفتحها. ثم لما ذكر سبحانه صفات المشركين، وتمسكهم بغير الله عند انقفاع المكروهات عنهم ذكر صفات المؤمنين، فقال: ﴿إِنَّ هُوَ قَانَتْ آنَاءَ اللَّيْلِ﴾، وهذا إلى آخره من تمام الكلام المأمور به رسول الله ﷺ. والمعنى: تلك الكافر

أحسن حالاً، ومآلاً، آمن هو قائم بطاعات الله في السراء، والضراء في ساعات الليل، مستمر على ذلك، غير مقتصر على دعاء الله سبحانه عند نزول الضرر به. قرأ الحسن، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم، والكسائي (أمن) بالتشديد، وقرأ نافع، وابن كثير، وحمره، ويحيى بن وثاب، والأعمش بالتخفيف، فعلى القراءة الأولى أم داخله على من الموصولة، وادغمت الميم في الميم، وأم هي المتصلة، ومعالها محذوف تقديره: الكافر خير أم الذي هو قانت. وقيل: هي المنقطعة المقترنة ببيل، والهمزة أي: بل أمن هو قانت كالكافر، وأما على القراءة الثانية، فقيل: الهمزة للاستفهام دخلت على من، والاستفهام للتقرير، ومقابلها محذوف أي: أمن هو قانت كمن كفر. وقال الفراء: إن الهمزة في هذه القراءة للنداء، ومن منادى، وهي عبارة عن النبي ﷺ المأمور بقوله: ﴿قل تمتع﴾، والتقدير: يا من هو قانت، قل: كيت، وكيت، وقيل: التقدير: يا من هو قانت إنك من أصحاب الجنة. ومن القائلين بأن الهمزة للنداء الفراء، وضعف ذلك أبو حيان، وقال: هو أجنب عما قبله، وعما بعده، وقد سبقه إلى هذا التضعيف أبو علي الفارسي، واعترض على هذه القراءة من أصلها أبو حاتم، والأخفش، ولا وجه لذلك، فإننا إذا ثبتت الرواية بطلت الدرية.

وقد اختلف في تفسير القانت هنا، فقيل: المطيع، وقيل: الخاشع في صلاته، وقيل: القائم في صلاته، وقيل: الداعي لربه. قال النحاس: أصل القنوت الطاعة، فكل ما قيل فيه، فهو داخل في الطاعة، والمراد بآداء الليل: ساعاته، وقيل: جوفه، وقيل: ما بين المغرب، والعشاء، وانتصاب ﴿ساجداً وقائماً﴾ على الحال أي: جامعاً بين السجود، والقيام، وقدم السجود على القيام لكونه أدخل في العبادة، ومحل ﴿يحذر الآخرة﴾ النصب على الحال أيضاً أي: يحذر عذاب الآخرة قاله سعيد بن جبير، ومقاتل ﴿ويرجوا رحمة ربه﴾، فيجمع بين الرجاء، والخوف، وما اجتماعاً في قلب رجل إلا فاز. قيل: وفي الكلام حذف، والتقدير: كمن لا يفعل شيئاً من ذلك كما يدل عليه السياق. ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يقول لهم قولاً آخر يتبين به الحق من الباطل، فقال: ﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ أي: الذين يعلمون أن ما وعد الله به من البعث، والثواب، والعقاب حق، والذين لا يعلمون ذلك، أو الذين يعلمون ما أنزل الله على رسله، والذين لا يعلمون ذلك، أو المراد: العلماء والجهال، ومعلوم عند كل من له عقل أنه لا استواء بين العلم والجهل، ولا بين العالم والجاهل. قال الزجاج: أي: كما لا يستوي الذين يعلمون، والذين لا يعلمون، كذلك لا يستوي المطيع، والعاصي. وقيل: المراد بالذين يعلمون: هم: العاملون بعلمهم، فإنهم المنتفعون به، لأن من لم يعمل بمنزلة من لم يعلم ﴿إنما يتذكر أولوا الألباب﴾ أي: إنما يتعظ، ويتنبر، ويتفكر أصحاب العقول، وهم المؤمنون لا الكفار، فإنهم، وإن زعموا أن لهم عقولاً، فهي كالعدم، وهذه الجملة ليست من جملة

الكلام المأمور به بل من جهة الله سبحانه ﴿قل يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم﴾ لما نفى سبحانه المساواة بين من يعلم، ومن لا يعلم، وبين أنه ﴿إنما يتذكر أولوا الألباب﴾ أمر رسوله ﷺ بأن يأمر المؤمنين من عباده بالثبات على تقواه، والإيمان به. والمعنى: يا أيها الذين صدقوا بتوحيد الله اتقوا ربكم بطاعته، واجتناب معاصيه، وإخلاص الإيمان له، ونفي الشركاء عنه، والمراد: قل لهم قلني هذا بعينه. ثم لما أمر الله سبحانه المؤمنين بالتقوى بين لهم ما في هذه التقوى من الفوائد، فقال: ﴿الذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة﴾ أي: للذين عملوا الأعمال الحسنة في هذه الدنيا على وجه الإخلاص حسنة عظيمة، وهي: الجنة، وقوله: ﴿في هذه الدنيا﴾ متعلق بأحسنوا، وقيل: هو متعلق بحسنة على أنه بيان لمكانها، فيكون المعنى: للذين أحسنوا في العمل حسنة في الدنيا بالصحة، والعافية، والظفر، والغنيمة، والأول أولى. ثم لما كان بعض العباد قد يتعسر عليه فعل الطاعات، والإحسان في وطنه أرشد الله سبحانه من كان كذلك إلى الهجرة، فقال: ﴿وأرض الله واسعة﴾ أي: فليهاجر إلى حيث يمكنه طاعة الله. والعمل بما أمر به، وترك لما نهى عنه، ومثل ذلك قوله سبحانه: ﴿الم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها﴾ [النساء: 97]، وقد مضى الكلام في الهجرة مستوفى في سورة النساء، وقيل: المراد بالأرض هنا: أرض الجنة، رغبهم في سعتها، وسعة نعيمها كما في قوله: ﴿جنة عرضها السموات والأرض﴾ [آل عمران: 133]، والأول أولى. ثم لما بين سبحانه ما للمحسنين إذا أحسنوا، وكان لا بد في ذلك من الصبر على فعل الطاعة، وعلى كف النفس عن الشهوات، أشار إلى فضيلة الصبر، وعظيم مقدره، فقال: ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ أي: يوفيه الله أجرهم في مقابلة صبرهم بغير حساب أي: بما لا يقدر على حصره حاصر، ولا يستطيع حسابه حاسب. قال عطاء: بما لا يهتدي إليه عقل، ولا وصف. وقال مقاتل: أجرهم الجنة، وأرزاقهم فيها بغير حساب. والحاصل: أن الآية تدل على أن ثواب الصابرين، وأجرهم لا نهاية له، لأن كل شيء يدخل تحت الحساب، فهو: غير متناه، وهذه فضيلة عظيمة، ومثوبة جليلة تقتضي أن على كل راغب في ثواب الله، وطامع فيما عنده من الخير، أن يتوفر على الصبر، ويترك نفسه بزماته، ويقبضها بقبضه، فإن الجزع لا يرد قضاء قد نزل، ولا يجلب خيراً قد سلب، ولا يدفع مكروهاً قد وقع، وإذا تصور العاقل هذا حقّ تصويره، وتقبله حقّ تقبله علم أن الصابر على ما نزل به قد فاز بهذا الأجر العظيم، وظفر بهذا الجزء الخطير، وغير الصابر قد نزل به القضاء شاء أم أبى، ومع ذلك فاته من الأجر ما لا يقاشر قدره، ولا يبلغ مداه، فضمّ إلى مصيبيته مصيبة أخرى، ولم يظفر بغير الجزع، وما أحسن قول من قال:

لرى الصبر محموداً وعنه مذاهب فكيف إذا ما لم يكن عنه مذهب

هناك يحق الصبر والصبر واجب وما كان منه للضرورة أوجب ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يخبرهم بما أمر به من التوحيد، والإخلاص، فقال: **﴿قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين﴾** أي: أعبد عباداً خالصة من الشرك، والزَّيَّاء، وغير ذلك؛ قال مقاتل: إن كفار قريش قالوا للنبى ﷺ: ما يحملك على الذي اتينا به، ألا تنتظر إلى ملة أبيك، وجنك، وسادات قومك يعبدون اللات، والعزى، فتأخذ بها؟ فانزل الله الآية، وقد تقدّم بيان معنى الآية في أول هذه السورة **﴿وامرأت أن تكون أول للمسلمين﴾** أي: من هذه الأمة، وكذلك كان ﷺ، فإنه أول من خالف دين آبائه، ودعا إلى التوحيد، واللام للتعليل أي: وأمرت بما أمرت به لأجل أن تكون، وقيل: إنها مزيدة للتأكيد، والأول أولى.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله: **﴿إن تكفروا فإن الله غني عنكم﴾** يعني: الكفار الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم، فيقولون لا إله إلا الله، ثم قال: **﴿ولا يرضى لعباده الكفر﴾**، وهم: عباده المخلصون الذين قال: **﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾** [الحجر: 42]، فالزعم شهادة أن لا إله إلا الله، وحبيبها إليهم. وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة **﴿ولا يرضى لعباده الكفر﴾** قال: لا يرضى لعباده المسلمين الكفر. وأخرج عبد بن حميد، عن قتادة قال: والله ما رضى الله لعبده ضلالة، ولا أمره بها، ولا دعا إليها، ولكن رضى لكم طاعته، وأمركم بها، ونهاكم عن معصيته. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وابن نعيم في الحلية، وابن عسكرك عن ابن عمر: أنه تلا هذه الآية **﴿ومن هو قانت أثناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة﴾** قال: ذاك عثمان بن عفان، وفي لفظ: نزلت في عثمان بن عفان. وأخرج ابن سعد في طبقاته، وابن مردويه، وابن عسكرك عن ابن عباس في قوله: **﴿ومن هو قانت﴾** الآية قال: نزلت في عمار بن ياسر. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه في قوله: **﴿يحذر الآخرة﴾** يقول: يحذر عذاب الآخرة. وأخرج الترمذي، والنسائي، وابن ماجه عن أنس قال: «دخل رسول الله ﷺ على رجل، وهو في الموت، فقال: كيف تجلج؟ قال: أرجو الله، وأخاف نذوبى، فقال رسول الله ﷺ: لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله الذي يرجو، وأمنه الذي يخاف»، أخرجه من طريق سيار بن حاتم، عن جعفر بن سليمان، عن ثابت، عن أنس. قال الترمذي: غريب، وقد رواه بعضهم عن ثابت، عن النبي ﷺ مرسلًا.

قُلْ إِنِّي أَنَا عَبْدُ رَبِّ عَالَمٍ يَوْمَ عَظِيمٍ ۖ قُلْ اللَّهُ أَعْبَدُكُمْ لَمْ يَبْنِ تَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ لِّكَ الْيُسْرَىٰ أَلَيْسَ خَيْرًا أَنْتُمْ وَأَهْلِيكُمْ يَوْمَ الْيَوْمِ لَا ذَلِكُ هُوَ الْخَيْرُ الْيُسْرَىٰ ۖ ثُمَّ مِنْ قَوْمِهِمْ تَخَلَّلَ مِنْ النَّارِ وَبَيْنَ تَحْتِهِمْ تَخَلَّلَ ذَلِكَ بِحُفُوفِ اللَّهِ بِمِ عِبَادِهِمْ وَأَقْنُونِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ أَنْ يَعْبُدُوا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ هُمْ الْبَشَرُ الْيُسْرَىٰ ۖ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ

يَسْمِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ۖ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كِتَابُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُقَدِّسُ فِي النَّارِ ۖ لَكِنَّ الَّذِينَ أَنْفَرُوا مِنْهُمْ لَمْ يُعْرِفُوا مَقَرَّهَا عُرْفَ مَيْبَةٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِ الْأَكْثَرِ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ الْوَعْدَ ۖ اللَّهُ الْيَمِينُ ۖ

قوله: **﴿قل إني أخاف إن عصيت ربي﴾** أي: بترك إخلاص العباد له، وتوحيده، والدعاء إلى ترك الشرك، وتضليل أهله **﴿عذاب يوم عظيم﴾**، وهو: يوم القيامة. قال أكثر المفسرين: المعنى: إني أخاف إن عصيت ربي بإجابة المشركين إلى ما دعوني إليه من عبادة غير الله. قال أبو حمزة اليماني، وابن المسيب: هذه الآية منسوخة بقوله: **﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾** [الفتح: 2] وفي هذه الآية دليل على أن الأمر للجواب، لأن قبله **﴿إنما أمرت أن أعبد الله﴾** [الزمر: 11]، فالمراد: عصيان هذا الأمر **﴿قل الله أعبد﴾** التقييم مشعر بالاختصاص أي: لا أعبد غيره لا استقلالاً، ولا على جهة الشركة، ومعنى **﴿مخلصاً له يعني﴾**: أنه خالص لله غير مشوب بشرك، ولا رياء، ولا غيرهما، وقد تقدّم تحقيقه في أول السورة. قال الرازي: فإن قيل: ما معنى التكرير في قوله: **﴿قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين﴾** [الزمر: 11]، وقوله: **﴿قل الله أعبد مخلصاً له ديني﴾** قلنا: ليس هذا بتكرير، لأن الأول: إخبار بأنه مأمور من جهة الله بالإيمان، والعبادة، والثاني: إخبار بأنه أمر أن لا يعبد أحداً غير الله **﴿فأعبدوا ما شئتم﴾** أن تعبدوه **﴿ومن دونه﴾** هذا الأمر للتهديد، والتقريع، والتوبيخ كقوله: **﴿اعملوا ما شئتم﴾** [فصلت: 40]، وقيل: إن الأمر على حقيقته، وهو منسوخ بآية السيف، والأول أولى **﴿قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة﴾** أي: إن الكاملين في الخسران هم هؤلاء، لأن من دخل النار، فقد خسر نفسه، وأهله. قال الزجاج: وهذا يعني به الكفار، فإنهم خسروا أنفسهم بالتخليد في النار، وخسروا أهليهم، لأنهم لم يدخلوا Mixل المؤمنين الذين لهم أهل في الجنة، وجملة **﴿الآن لك هو الخسران المبين﴾** مستأنفة لتأكيد ما قبلها، وتصديرها بحرف التنبيه للإشعار بأن هذا الخسران الذي حل بهم قد بلغ من العظم إلى غاية ليس فوقها غاية، وكذلك تعريف الخسران، ووصفه بكونه مبيناً، فإنه يدل على أنه الفرد الكامل من أفراد الخسران؛ وأنه لا خسران يساويه، ولا عقوبة تدانيه. ثم بين سبحانه هذا الخسران الذي حل بهم، والبلاء النازل عليهم بقوله: **﴿لهم من فوقهم ظلل من النار﴾** الظل عبارة عن أطباق النار أي: لهم من فوقهم أطباق من النار تلتهب عليهم **﴿ومن تحتهم ظلل﴾** أي: أطباق من النار، وسمي ما تحتهم ظللاً؛ لأنها تظل من تحتها من أهل النار، لأن طبقات النار صار في كل طبقة منها طائفة من طوائف الكفار، ومثل هذه الآية قوله: **﴿لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش﴾** [الأعراف: 41]، وقوله: **﴿يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾**

المعنى: أفانت تنقذ من حقت عليه كلمة العذاب، والمراد بكلمة العذاب هنا هي: قوله تعالى لإبليس: ﴿لَا مَلَأَ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: 85]، وقوله: ﴿لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: 18] ومعنى الآية: التسليّة لرسول الله ﷺ، لأنه كان حريصاً على إيمان قومه، فأعلمه الله أن من سبق عليه القضاء، حقت عليه كلمة الله لا يقدر رسول الله ﷺ أن ينقذه من النار بأن يجعله مؤمناً. قال عطاء: يريد أبا لهب، وولده، ومن تخلف من عشيرة النبي ﷺ عن الإيمان، وفي الآية تنزيل لمن يستحق العذاب بمن قد صار فيه، وتنزيل دعائه إلى الإيمان منزلة الإخراج له من عذاب النار. ولما نكر سبحانه فيما سبق أن لاهل الشقاوة ظلالاً من فوقهم النار، ومن تحتهم ظلال استدرك عنهم من كان من أهل السعادة، فقال: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَةٌ﴾، وذلك لأن الجنة درجات بعضها فوق بعض، ومعنى «مبنيّة»: أنها مبنية بناء المنازل في إحكام أسسها، وقوة بنائها، وإن كانت منازل الدنيا ليست بشيء بالنسبة إليها «تجري من تحتها الأنهار». أي: من تحت تلك الغرف، وفي ذلك كمال لبهجتها، وزيادة لرونقها، وانتصاب «وعد الله» على المصدرية المؤكدة لمضمون الجملة، لأن قوله: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ﴾ في معنى: وعدهم الله بذلك، وجملة «لا يخلف الله الميعاد» مقررة للوعد أي: لا يخلف الله ما وعد به الفريقين من الخير، والشّر.

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿قُلْ إِنْ لِلْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ الآية. قال: هم: الكفار الذين خلقهم الله للنار زالت عنهم الدنيا، وحرمت عليهم الجنة. وأخرج ابن المنذر عنه في قوله: ﴿خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ﴾ قال: أهليهم من أهل الجنة كانوا أعداء لهم لو عملوا بطاعة الله، فغيبهم. وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر قال: كان سعيد بن زيد، وأبو نر، وسلمان يتبعون في الجاهلية أحسن القول، والكلام لا إله إلا الله قالوا بها، فأنزل الله على نبيه «يستمعون القول فيتبعون أحسنه» الآية. وأخرج ابن مردويه عن أبي سعيد قال: لما نزل: «فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه» أرسل رسول الله ﷺ منادياً فنادى: من مات لا يشرك بالله شيئاً نخل الجنة، فاستقبل عمر الرسول، فردّه، فقال: يا رسول الله خشيت أن يتكل الناس، فلا يعملون، فقال رسول الله ﷺ: لو يعلم الناس قدر رحمة ربي لا تكلموا، ولو يعلمون قدر سخط ربي، وعقابه لاستصغروا أعمالهم، وهذا الحديث أصله في الصحيح من حديث أبي هريرة.

[العنكبوت: 55]، والإشارة بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ إلى ما تقدّم نكره من وصف عذابهم في النار، وهو: مبتدأ، وخبره قوله: ﴿يَخْشَوْنَ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ﴾ أي: يحذرهم بما توعد به الكفار من العذاب، ليخافوه، فيتقوه، وهو: معنى «يا عباد فاتقون» أي: اتقوا هذه المعاصي الموجبة لمثل هذا العذاب على الكفار، ووجه تخصيص العباد بالمؤمنين أن الغالب في القرآن إطلاق لفظ العباد عليهم، وقيل: هو للكفار، وأهل المعاصي، وقيل: هو عامٌ للمسلمين، والكفار «والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها» الموصول مبتدأ، وخبره قوله: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى﴾ والطاغوت بناء مبالغة في المصدر كالرحموت، والعظمت، وهو: الأوثان، والشيطان. وقال مجاهد، وابن زيد: هو: الشيطان. وقال الضحاك، والسدي: هو: الأوثان. وقيل: إنه الكاهن، وقيل: هو اسم أعجمي مثل طالوت، وجالوت، وقيل: إنه اسم عربي مشتق من الطغيان. قال الأخفش: الطاغوت جمع، ويجوز أن يكون واحده مؤنثاً، ومعنى اجتنبوا الطاغوت: أعرضوا عن عبادته، وخصوا عبادتهم بالله عزّ وجلّ، وقوله: ﴿أَنْ يَعْبُدُوهَا﴾ في محل نصب على البديل من الطاغوت، بدل اشتغال، كأنه قال: اجتنبوا عبادة الطاغوت، وقد تقدّم الكلام على تفسير الطاغوت مستوفى في سورة الأقرة، وقوله: ﴿وَاتَّبِعُوا إِلَى اللَّهِ﴾ معطوف على اجتنبوا، والمعنى: رجعوا إليه، وأقبلوا على عبادته معرضين عما سواه «لَهُمُ الْبُشْرَى» بالثواب الجزيل، وهو: الجنة. وهذه البشري إما على السنة الرسل، أو عند حضور الموت، أو عند البعث «فبشر عباد * الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه» المراد بالعباد هنا: العموم، فيدخل الموصوفون بالاجتناب، والإنابة إليه دخولاً أولياً، والمعنى: يستمعون القول الحق من كتاب الله، وسنة رسوله، فيتبعون أحسنه أي: محكمه، ويعملون به. قال السدي: يتبعون أحسن ما يؤمرون به، فيعملون بما فيه، وقيل: هو الرجل يسمع الحسن، والقبيح، فيتحدث بالحسن، وينكف عن القبيح، فلا يتحدث به، وقيل: يستمعون القرآن وغيره، فيتبعون القرآن، وقيل: يستمعون الرخص والعزائم، فيتبعون العزائم، ويتركون الرخص، وقيل: يأخذون بالعفو، ويتركون العقوبة. ثم أثنى سبحانه على هؤلاء المذكورين، فقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ أي: هم الذين أوصاهم الله إلى الحق، وهم أصحاب العقول الصحيحة، لأنهم الذين انتفعوا بعقولهم، ولم ينتفع من عداهم بعقولهم. ثم نكر سبحانه من سبقت له الشقاوة، وجرم السعادة فقال: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾ من هذه يحتمل أن تكون موصولة في محل رفع بالابتداء، وخبرها محذوف أي: كمن يخاف، أو فانت تخلصه، أو تناسف عليه، ويحتمل أن تكون شرطية، وجوابه «أفانت تنقذ من في النار» فالفاء فاء الجواب دخلت على جملة الجزاء، وأعيدت الهمزة الإنكارية لتأكيد معنى الإنكار. وقال سيبويه: إنه كرر الاستفهام لطول الكلام. وقال الفراء:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَبُّعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفًى ثُمَّ يُغْمَلُ مِنْهُ خَمْرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٠١﴾ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ يَتَّخِذُ الْوَهْلَ لِقَائِهِ فَلْيَرْوِمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي صُلَحِي يُبَيِّنُ ﴿١٠٢﴾ اللَّهُ زَلَّ

أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُنْتَبِهَا تَتَابَى تَقْشِيرُهُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَحْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿١٧﴾ أَقْمَنَ يَتَّقِي وَجْهَهُ سُرَّةُ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَقِيلَ لِلْمَلَكَيْنِ دُرُودًا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿١٨﴾ كَذَّبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ فَإِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنَادَاتُ مِنَ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٩﴾ فَأَذَانُ اللَّهِ لِيَرْفِئَ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَلَعَلَّكَ الْآخِرَةُ أَكْرَهُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٠﴾

لما نكر سبحانه الآخرة، ووصفها بوصف يوجب الرغبة فيها، والشوق إليها أتبعه بذكر الدنيا، ووصفها بوصف يوجب الرغبة عنها، والنفرة منها، فنكر تمثيلاً لها في سرعة زوالها، وقرب اضمحلالها مع ما في ذلك من نكر نوع من أنواع قدرته الباهرة، وصنعه البديع، فقال: ﴿إِلَهٌ تَرَى أَنَّ اللَّهَ نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي: من السحاب مطراً ﴿فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: فأنخله، وأسكنه فيها، والينابيع جمع ينبوع من نبع الماء ينبع، والينبوع عين الماء، والأمكنة التي ينبع منها الماء، والمعنى: أنخل الماء للنازل من السماء في الأرض، وجعله فيها عيوناً جارية، أو جعله في ينابيع أي: في أمكنة ينبع منها الماء، فهو على الوجه الثاني منصوب بنزع الخافض. قال مقاتل: فجعله عيوناً، وركايا في الأرض ﴿ثُمَّ يَخْرُجُ بِهِ زُرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ أي: يخرج بذلك الماء من الأرض زرعاً مختلفاً ألوانه من أصفر، وأخضر، وأبيض، وأحمر، أو من برّ، وشعير، وغيرهما إذا كان المراد بالالوان الأصناف ﴿ثُمَّ يَهْبِجُ﴾ يقال: هاج النبات يهيج هيجاً إذا تمّ جفافه. قال الجوهرى: يقال: هاج النبات هياجاً: إذا يبس، وأرض هائجة يبس بقلها، أو أصفر، وهاجت للريح النبات أيبسته. قال المبرد: قال الأصمعي: يقال: هاجت الأرض تهيج: إذا أبرد نباتها، وولى. قال: وكذلك هاج النبات ﴿فَتَرَاهُ مَصْفُورًا﴾ أي: تراه بعد خضرته، ونضارته، وحسن رونقه مصفراً قد ذهب خضرته، ونضارته ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ حَطَامًا﴾ أي: متفتتاً منكسراً، من تحطم العود إذا تفتت من اليبس ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٌ لَأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي: فيما تقدّم ذكره تنكير الأهل العقول الصحيحة، فإنهم الذين يتعقلون الأشياء على حقيقتها، فيتفكرون، ويعتبرون، ويعلمون بأن الحياة الدُّنْيَا حالها كحال هذا الزرع في سرعة التصرّم، وقرب التقضي، وذهاب بهجتها، وزوال رونقها، ونضارتها، فإذا أُنْتِجَ لهم التفكير، والاعتبار العلم بذلك لم يحصل منهم الاغترار بها، والميل إليها، وإيثارها على دار النعيم الدائم، والحياة المستمرة، واللذة الخالصة، ولم يبق معهم شك في أن الله قادر على البعث، والحشر، لأن من قدر على هذا قدر على ذلك، وقيل: هو مثل ضربه الله للقرآن، ولصنوعه من في الأرض. والمعنى: أنزل من السماء قرآنًا، فسلكه في قلوب المؤمنين، ثم يخرج به نبأً بعضه أفضل من بعض، فاما المؤمن، فيزداد إيماناً ويقيناً، وأما الذي في قلبه مرض فإنه يهيج كما يهيج الزرع، وهذا بالتغيير أشبه منه بالتفسير. قرأ الجمهور (ثم يجعله) بالرفع عطفاً على ما قبله، وقرأ أبو

بشر بالنصب بإضمار أن، ولا وجه لذلك. ثم لما نكر سبحانه أن في ذلك لذكرى لأولي الألباب، نكر شرح الصدر للإسلام، لأن الانتفاع الكامل لا يحصل إلا به، فقال: ﴿أَقْمَنَ﴾ شرح الله صدره للإسلام، أي: وسعه لقبول الحق، وفتحه للاعتقاد إلى سبيل الخير. قال السدي: وسع صدره للإسلام للفرح به، والطمأنينة إليه، والكلام في الهمة، والغناء كما تقدم في ﴿أَقْمَنَ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾ [الزمر: 19]، ومن مبتدأ، وخبرها محذوف تقديره كمن قسا قلبه، وخرج صدره، ودل على هذا الخبر المحذوف قوله: ﴿فَقِيلَ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ والمعنى: أقمن وسع الله صدره للإسلام، فقبله، وامتدّى بهديه ﴿فَهُوَ﴾ بسبب ذلك الشرح ﴿عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ يفيض عليه كمن قسا قلبه لسوء اختياره، فصار في ظلمات الضلالة، ولبيات الجهالة. قال قتادة: النور كتاب الله به يؤخذ، وإليه ينتهى. قال الزجاج: تفسير الآية: أقمن شرح الله صدره كمن طبع على قلبه، فلم يهتد لفسوته ﴿فَقِيلَ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ قال الفراء، والزجاج: أي: عن نكر الله كما تقول: اتخمت عن طعام أكلته، ومن طعام أكلته، والمعنى: أنه غلظ قلبه، وجفا عن قبول نكر الله، يقال: قسا القلب إذا صلب، وقلب قاس أي: صلب لا يرق، ولا يلين، وقيل: معنى من نكر الله من أجل ذكره الذي حقه أن تشرح له الصدور، وتطمئن به القلوب. والمعنى: أنه إذا نكر الله أشمازاً، والأول أولى، ويؤيده قراءة من قرأ عن ذكر الله، والإشارة بقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ إلى القاسية قلوبهم، وهو: مبتدأ، وخبره ﴿فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي: ظاهر واضح. ثم نكر سبحانه بعض أوصاف كتابه العزيز، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ يعني: القرآن، وسماه حديثاً: لأن النبي ﷺ كان يحدث به قومه، ويخبرهم بما ينزل عليه منه. وفيه بيان أن أحسن القول المنكور سابقاً هو: القرآن، وانتصاب ﴿كِتَابًا﴾ على البديل من أحسن الحديث، ويحتمل أن يكون حالاً منه ﴿مُتَشَابِهًا﴾ صفة لكتاباً أي: يشبه بعضه بعضاً في الحسن، والأحكام، وصحة المعاني، وقوة المباني، وبلوغه إلى أعلى درجات البلاغة، وقال قتادة: يشبه بعضه بعضاً في الآي، والحروف، وقيل: يشبه كتب الله المنزلة على أنبيائه، و﴿مُثَانِيًا﴾ صفة أخرى لكتاباً أي: تتنى فيه القصص، وتكرر فيه المواعظ، والأحكام. وقيل: يثنى في التلاوة، فلا يملّ سامعه، ولا يسأم قارئه. قرأ الجمهور (مثنائي) يفتح الباء، وقرأ هشام عن ابن عامر، وبشر بسكونها تخفيفاً، واستتقلاً لتحريكها، أو على أنها خبر مبتدأ محذوف أي: هو مثنائي، وقال الرازي: في تبين مثنائي أن أكثر الأشياء المنكورة في القرآن متكررة زوجين زوجين مثل الأمر والنهي والعلم والخاص، والمجمل والمفصل، وأحوال السموات والأرض، والجنة والنار، والنور والظلمة، واللوح والقلم، والملائكة والشياطين، والعرش والكرسي، والوعد والوعيد، والرجاء والخوف، والمقصود من ذلك البيان: بأن كل ما سوى الحق زوج، وأن الفرد الأحد الحق هو: الله، ولا يخفى ما في كلامه

معطوف على يتقي أي: ويقال لهم، وجاء بصيغة الماضي للدلالة على التحقيق. قال عطاء: أي: جزاء ما كنتم تعملون، ومثل هذه الآية قوله: ﴿هَذَا مَا كُنْزُكُمْ لِنَفْسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: 35]، وقد تقدّم الكلام على معنى الذوق في غير موضع. ثم أخبر سبحانه عن حال من قبلهم من الكفار، فقال: ﴿كُتِبَ لِلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: من قبل الكفار المعاصرين لمحمد ﷺ. والمعنى: أنهم كذبوا رسلهم ﴿فَاتَّاهَمَ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: من جهة لا يحسبون إتيان العذاب منها، وذلك عند أمنهم، وغفلتهم عن عقوبة الله لهم بتكذيبهم ﴿فَإِذَا نَفَخَ الْخُزْيُ﴾ أي: النمل، والهوان ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بالمسخ، والخسف، والقتل، والأسر، وغير ذلك ﴿وَلِلعَذَابِ الآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ لكونه في غاية الشدة مع دوامه ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لو كانوا ممن يعلم الأشياء، ويتفكر فيها، ويعمل بمقتضى علمه. قال المبرد: يقال: لكل ما نال الجارحة من شيء قد ذاقته أي: وصل إليها كما تصل الحلاوة، والمرارة إلى اللذائق لهما. قال: والخزي المكروه.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا تَرَى أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ الآية قال: ما في الأرض ماء إلا نزل من السماء، ولكن عروق في الأرض تغيره، فذلك قوله: ﴿فَسَلَكَهُ يَنَابِيعُ فِي الْأَرْضِ﴾ فمن سرّه أن يعود الملح عذباً، فليصعده. وأخرج ابن مردويه عنه في قوله: ﴿أَقَمْنِ شَرْحَ اللَّهِ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ قال: أبو بكر الصديق. وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال: «تلا النبي ﷺ هذه الآية ﴿أَقَمْنِ شَرْحَ اللَّهِ صَدْرَهُ﴾ قلنا: يا نبي الله كيف انشرح صدره؟ قال: إذا دخل النور القلب انشرح، وانفسح. قلنا: فما علامة ذلك يا رسول الله؟ فقال: الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والتأهب للموت قبل نزول الموت». وأخرج ابن مردويه عن محمد بن كعب القرظي مرفوعاً مرسلاً. وأخرج الحكيم الترمذي في نوابر الأصول عن ابن عمر: «أن رجلاً قال: يا نبي الله أي المؤمنين أكيس؟ قال: أكثرهم نكراً للموت وأحسنهم له استعداداً، وإذا دخل النور في القلب انفسح، واستوسع، فقالوا: ما آية ذلك يا نبي الله؟ قال: الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزول الموت». وأخرجه عن أبي جعفر عبد الله بن المسور، عن رسول الله ﷺ بنحوه، وزاد فيه: «ثم قرأ ﴿أَقَمْنِ شَرْحَ اللَّهِ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾». وأخرج الترمذي، وابن مردويه، وابن شاهين في الترغيب في الذكر، والبيهقي في الشعب عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي». وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: قالوا: «يا رسول الله لو حدثتنا، فنزل ﴿اللَّهُ نَزَّلَ لِحَسَنِ الْحَبِيثِ﴾ الآية». وأخرج ابن مردويه عنه في قوله: ﴿مَثَانِي﴾ قال: القرآن كله مثاني. وأخرج ابن أبي حاتم عنه

هذا من التكلف، والبعد عن مقصود التنزيل ﴿تَقْشَعْرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ هذه الجملة يجوز أن تكون صفة لكتاباً، وأن تكون حالاً منه، لأنه وإن كان نكرة، فقد تخصص بالصفة، أو مستأنفة لبيان ما يحصل عند سماعه من التأثير لسامعيه، والاقشعرار للتقيض، يقال: اقشعر جلد: إذا تقبض، وتجمع من الخوف. والمعنى: أنها تأخذهم منه قشعريرة. قال الزجاج: إذا ذكرت آيات العذاب اقشعرت جلود الخائفين لله ﴿ثُمَّ تَلَيْنِ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبَهُمْ﴾ إذا ذكرت آيات الرحمة. قال الواحدي: وهذا قول جميع المفسرين، ومن ذلك قول امرئ القيس:

فَبِتْ أَكْبَادَ لَيْلِ السَّعَامِ وَالْقَلْبَ مِنْ خَشْيَةِ مَقْشَعَرٍ
وقيل: المعنى: أن القرآن لما كان في غاية الجزالة، والبلاغة، فكانوا إذا راوا عجزهم عن معارضته اقشعرت الجلود منه إعظاماً له، وتعجباً من حسنه، وبلاغته ثم تلين جلودهم، وقلوبهم ﴿إِلَى نَكْرِ اللَّهِ﴾ عدى تلين بإلى لتضمينه فعلاً يتعدى بها، كأنه قيل: سكنت، واطمأنت إلى ذكر الله لينة غير منقبضة، ومفعول نكر الله محذوف، والتقدير: إلى نكر الله رحمته، وثوابه، وجنته، وحنف للعلم به. قال قتادة: هذا نعت أولياء الله نعتهم بأنهم تقشعروا جلودهم، وتطمئن قلوبهم إلى نكر الله، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم، والغشيان عليهم إنما ذلك في أهل البدع وهو: من الشيطان، والإشارة بقوله: ﴿تِلْكَ﴾ إلى الكتاب الموصوف بتلك الصفات، وهو: مبتدأ، و ﴿هَدَى اللَّهُ﴾ خبره أي: تلك الكتاب هدى الله ﴿يَهْدِي بِهِ مِنَ يَشَاءُ﴾ أن يهديه من عباده، وقيل: إن الإشارة بقوله: ﴿تِلْكَ﴾ إلى ما وهبه الله لهؤلاء من خشية عذابه، ورجاء ثوابه ﴿وَمَنْ يَضِلُّ اللَّهُ﴾ أي: يجعل قلبه قاسياً مظلماً غير قابل للحق ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ يهديه إلى الحق، ويخلصه من الضلال. قرأ الجمهور (من هاد) بغير ياء. وقرأ ابن كثير، وابن محيصن بالياء. ثم لما حكم على القاسية قلوبهم بحكم في الدنيا، وهو: الضلال، حكم عليهم في الآخرة بحكم آخر، وهو: العذاب، فقال: ﴿أَقَمْنِ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ والاستفهام للإنكار، وقد تقدّم الكلام فيه، وفي هذه الفاء الداخلة على من في قوله: ﴿أَقَمْنِ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾ [الزمر: 19]، ومن مبتدأ، وخبرها محذوف لدلالة المقام عليه، والمعنى: أقمن شأنه أن يقي نفسه بوجهه الذي هو أشرف أعضائه سوء العذاب يوم القيامة لكون يده قد صارت مغلولة إلى عنقه كمن هو آمن لا يعتربه شيء من ذلك، ولا يحتاج إلى الاتقاء. قال الزجاج: المعنى: أقمن يتيق بوجهه سوء العذاب كمن يدخل الجنة. قال عطاء، وابن زيد: يرمى به مكتوفاً في النار، فأول شيء تمس منه وجهه. وقال مجاهد: يجز على وجهه في النار. قال الأخفش: المعنى: أقمن يتيق بوجهه سوء العذاب أفضل أم من سعد؟ مثل قوله: ﴿أَقَمْنِ يَلْقَى فِي النَّارِ خَيْرَ أَمْ مِنْ يَأْتِي آمَنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [فصلت: 40]، ثم أخبر سبحانه عما تقوله الخزنة للكفار، فقال: ﴿وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾، وهو

الكسائي: نصب رجلاً؛ لأنه تفسير للمثل، وقيل: هو منصوب بنزع الخافض أي: ضرب الله مثلاً برجل، وقيل: إن رجلاً هو المفعول الأول، ومثلاً هو المفعول الثاني، وآخر المفعول الأول؛ ليتصل بما هو من تمامه، وقد تقدم تحقيق هذا في سورة «يس»، وجملة «فيه شركاء» في محل نصب صفة لرجل، والتشاكس التخالف. قال الفراء: أي: مختلفون. وقال المبرد: أي: متعاسرون من شكس يشكس شكساً، فهو: شكس مثل عسر يعسر عسراً، فهو: عسر. قال الجوهري: التشاكس الاختلاف. قال: ويقال: رجل شكس بالتسكين أي: صعب الخلق، وهذا مثل من اشرك بالله، وعبد آلهة كثيرة. ثم قال: «ورجلاً سلماً لرجل» أي: خالصاً له، وهذا مثل من يعبد الله وحده. قرأ الجمهور (سلماً) بفتح السين، واللام، وقرأ سعيد بن جبير، وعكرمة، وأبو العالية بكسر السين، وسكون اللام. وقرأ ابن عباس، ومجاهد، والجحدري، وأبو عمرو، وابن كثير، ويعقوب (سالمًا) بالالف، وكسر اللام اسم فاعل من سلم له، فهو: سالم، واختار هذه القراءة أبو عبيد قال: لأن السالم الخالص ضد المشترك، والسلم ضد الحرب، ولا موضع للحرب هنا، وأجيب عنه بأن الحرف إذا كان له معنيان لم يحمل إلا على أولهما، فالسلم، وإن كان ضد الحرب، فله معنى آخر بمعنى: سالم، من سلم له كذا: إذا خلص له. وأيضاً يلزمه في سلم ما ألزم به، لأنه يقال: شيء سالم أي: لا عافة به، واختار أبو حاتم القراءة الأولى. والحاصل أن قراءة الجمهور هي على الوصف بالمصدر للمبالغة، أو على حذف مضاف أي: ذا سلم، ومثلها قراءة سعيد بن جبير، ومن معه. ثم جاء سبحانه بما يدل على التفاوت بين الرجلين، فقال: «هل يستويان مثلاً»، وهذا الاستفهام للإنكار، والاستبعاد، والمعنى: هل يستوي هذا الذي يخدم جماعة شركاء أخلاقهم مختلفة، ونياتهم متباينة يستخدم كل واحد منهم، فيتعبد، وينصب مع كون كل واحد منهم غير راض بخدمته، وهذا الذي يخدم واحداً لا ينازعه غيره إذا أطاعه رضي عنه، وإذا عصاه عفا عنه. فإن بين هذين من الاختلاف الظاهر الواضح ما لا يقدر عاقل أن يتفوه باستوائهما، لأن أحدهما: في أعلى المنازل، والآخر: في أنهارها، وانتصاب مثلاً على التمييز المحول عن الفاعل؛ لأن الأصل هل يستوي مثلهما، وأقرد التمييز، ولم يثن؛ لأن الأصل في التمييز الأفراد لكونه مبيناً للجنس، وجملة «الحمد لله» تقرير لما قبلها من نفي الاستواء، وللإيذان للموحدين بما في توحيدهم لله من النعمة العظيمة المستحقة لتخصيص الحمد به. ثم أضرِب سبحانه عن نفي الاستواء المفهوم من الاستفهام الإنكاري إلى بيان أن أكثر الناس لا يعلمون، فقال: «هل أكثرهم لا يعلمون»، وهم: المشركون، فإنهم لا يعلمون ذلك مع ظهوره، ووضوحه. قال الواحدي، والبيهقي: والمراد بالأكثر الكل، والظاهر خلاف ما قاله، فإن المؤمنين بالله يعلمون ما في التوحيد من رفعة شأنه، وعلو مكانه، وإن الشرك لا يماثله بوجه من الوجوه، ولا يساويه

أيضاً في الآية قال: القرآن يشبه بعضه بعضاً، ويرد بعضه إلى بعض. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عنه أيضاً في الآية قال: كتاب الله مثاني ثني فيه الأمر مناراً. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن مردويه، وابن عسلكر عن عبد الله بن عروة بن الزبير قال: قلت لجنتي أسماء كيف كان يصنع أصحاب رسول الله ﷺ إذا قرءوا القرآن؟ قالت: كانوا كما نعتهم الله تدمع أعينهم، وتقشعر جلودهم، قلت: فإن ناساً ما هنا إذا سمعوا ذلك تأخذهم عليه غشية، قالت: أعوذ بالله من الشيطان. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: «لأفمن يتقي بوجهه سوء العذاب» قال: ينطلق به إلى النار مكتوفاً، ثم يرمى به فيها، فأول ما تمس وجهه النار.

وَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٣٧﴾
قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِجٍّ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٣٨﴾ صَرَّبَ اللَّهُ مَثَلًا زَيْكًا فِيهِ شَرْكَاءُ
مُتَنَكِّرُونَ وَرَجُلًا سَلَامًا رَجُلٌ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا
يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّكَ مِثْلَ وَرَثَتِهِمْ مَبْنُوءٌ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ
فَتَخَصَّمُونَ ﴿٤١﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِأَيْمَانِهِ إِذْ
جَاءَهُ الْبَيِّنَاتُ فِي جَهَنَّمَ شَوْى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ وَالَّذِي جَاءَ بِالْبَيِّنَاتِ وَصَدَّقَ
بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٤٣﴾ لَمْ يَأْتِ سَاءَةً رَّبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ
الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهمَ أَجْرَهُمْ
بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٥﴾

قوله: «ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل» قد قمنا تحقيق المثل، وكيفية ضربه في غير موضع، ومعنى: «من كل مثل»: ما يحتاجون إليه، وليس المراد ما هو أعم من ذلك، فهو هنا كما في قوله: «ما فرطنا في الكتاب من شيء» [الأنعام: 38] أي: من شيء يحتاجون إليه في أمر دينهم، وقيل: المعنى: ما نكرنا من إهلاك الأمم السالفة مثل لهؤلاء «لعلهم يتذكرون» يتعظمون، فيعتبرون، وانتصاب «قرآنًا عربيًا» على الحال من هذا، وهي حال مؤكدة، وتسمى هذه حالا موطئة، لأن الحال في الحقيقة هو: عربيًا، وقرآنًا توطئة له، نحو جاءني زيد رجلاً صالحاً: كذا قال الأخفش، ويجوز أن ينتصب على المدح. قال الزجاج: عربيًا منتصب على الحال، وقرآنًا توكيد، ومعنى «غير ذي عوج»: لا اختلاف فيه بوجه من الوجوه. قال الضحاك: أي: غير مختلف. قال النحاس: أحسن ما قيل في معناه قول الضحاك، وقيل: غير متضاد. وقيل: غير ذي لبس، وقيل: غير ذي لحن، وقيل: غير ذي شك كما قال الشاعر:

وقد أتاك يمين غير ذي عوج من الإله وقول غير مكنوب
«لعلهم يتقون» علة أخرى بعد العلة الأولى. وهي «لعلهم يتذكرون» أي: لكي يتقوا الكفر، والكذب. ثم ذكر سبحانه مثلاً من الأمثال القرآنية للتذكير، والإيقاظ، فقال: «ضرب الله مثلاً» أي: تمثيل حالة عجيبة بأخرى مثلها. ثم بين المثل، فقال: «رجلاً فيه شركاء متشاكسون» قال

وفي وصف من الأوصاف، ويعلمون أن الله سبحانه يستحق الحمد على هذه النعمة، وأن الحمد مختص به. ثم أخبر سبحانه رسوله ﷺ بأن الموت يدركه، ويتركه لا محالة، فقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ قرأ الجمهور (ميت، وميتون) بالتشديد، وقرأ ابن محيصن، وابن أبي عبيدة، وعيسى بن عمر، وابن أبي إسحاق، واليماني (ماتت وماتتون)، وبها قرأ عبد الله بن الزبير. وقد استحسن هذه القراءة بعض المفسرين لكون موته، وموتهم مستقبلاً، ولا وجه للاستحسان، فإن قراءة الجمهور تفيد هذا المعنى. قال الفراء: والكسائي: الميت بالتشديد من لم يموت، وسيموت، والميت بالتخفيف من قد مات، وفارقه الروح. قال قتادة: نعت إلى النبي ﷺ نفسه، ونعت إليهم أنفسهم. ووجه هذا الإخبار الإعلام للصحابة بأنه يموت، فقد كان بعضهم يعتقد أنه لا يموت مع كونه توطئة، وتمهيداً لما بعده حيث قال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ أي: تخاصمهم يا محمد، وتحتج عليهم بآئك قد بلغتهم، وانزرتهم، وهم يخاصمونك، أو يخاصم المؤمن الكافر، والظالم المظلوم. ثم بين سبحانه حال كل فريق من المختصمين، فقال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: لا أحد أظلم ممن كذب على الله، فزعم أن له ولداً، أو شريكاً، أو صاحبة ﴿وَكُذِّبَ بِالْصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾، وهو ما جاء به رسول الله ﷺ من دعاء الناس إلى التوحيد، وأمرهم بالقيام بفرائض الشرع، ونهيهم عن محرّماته، وإخبارهم بالبعث، والنشور، وما أعد الله للمطيع، والعاصي. ثم استفهم سبحانه استفهاماً تقريرياً، فقال: ﴿الَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ أي: ليس لهؤلاء المفترين المكذّبين بالصدق، والمثوى: المقام، وهو مشتق من ثوى بالمكان إذا أقام به يثوى ثواءً، وثوياً، مثل مضى مضاءً، ومضياً. وحكى أبو عبيد أنه يقال: أئوى، وأنشد قول الأعشى:

أتوى واقصر ليله ليرودا فمضت وأخلف من قبيلة موعدا
وأنكر ذلك الأصمعي، وقال: لا نعرف أثوى. ثم ذكر سبحانه فريق المؤمنين المصنّقين، فقال: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ الموصول في موضع رفع بالابتداء، وهو: عبارة عن رسول الله ﷺ، ومن تابعه، وخبره ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾، وقيل: الذي جاء بالصدق رسول الله ﷺ، والذي صدّق به أبو بكر. وقال مجاهد: الذي جاء بالصدق رسول الله ﷺ، والذي صدّق به علي بن أبي طالب. وقال السدي: الذي جاء بالصدق جبريل، والذي صدّق به رسول الله ﷺ. وقال قتادة، ومقاتل، وابن زيد: الذي جاء بالصدق النبي ﷺ، والذي صدّق به المؤمنون. وقال النخعي: الذي جاء بالصدق، وصدّق به هم المؤمنون الذين يجيئون بالقرآن يوم القيامة. وقيل: إن ذلك عام في كل من دعا إلى توحيد الله، وأرشد إلى ما شرعه لعباده، واختار هذا ابن جرير، وهو: الذي اختاره من هذه الأقوال، ويؤيده قراءة ابن مسعود (والذين جاءوا بالصدق وصدّقوا به). ولفظ الذي كما

وقد أخرج الأجرى، والبيهقي عن ابن عباس في قوله: ﴿غَيْرِ ذِي عِوَجٍ﴾ قال: غير مخلوق. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا﴾ الآية قال: الرجل يعبد آلهة شتى، فهذا مثل ضربه الله لأهل الأوثان ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا﴾ يعبد إلهاً واحداً ضرب لنفسه مثلاً. ولخرجا عنه أيضاً في قوله: ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا﴾ قال: ليس لأحد فيه شيء. ولخرج عبد بن حميد، والنسائي، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مروي، عن ابن عمر قال: لقد لبثنا برهة من دهرنا، ونحن نرى أن هذه الآية نزلت فينا، وفي أهل الكتابين من قبلنا ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ الآية، حتى رأيت بعضنا يضرب وجوه بعض بالسيف، فعرفت أنها نزلت فينا. وأخرج نعيم بن حماد في الفتن، والحاكم وصححه، وابن مروي عنه نحوه باطول منه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن مروي عنه أيضاً قال: نزلت علينا الآية ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾، وما ندري ما تفسيرها حتى وقعت الفتنة، فقلنا: هذا الذي وعدنا ربنا أن نختصم فيه. وأخرج عبد الرزاق، وأحمد، وابن منيع، وعبد بن حميد، والترمذي

وصححه، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في البعث والنشور عن الزبير بن العوام قال: لما نزلت ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿١٠٠﴾ قلت: يا رسول الله أليكرز علينا ما يكون بيننا في الدنيا مع خواصّ الذنوب؟ قال: نعم ليكرز عليكم ذلك حتى يؤدي إلى كل ذي حقّ حقه. قال الزبير: فوالله إن الأمر لشديد. وأخرج سعيد بن منصور، عن أبي سعيد الخدري قال: لما نزلت ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ كنا نقول: ربنا واحد، وبيننا واحد، وبيننا واحد، فما هذه الخصومة؟ فلما كان يوم صفين، وشدّ بعضنا على بعض بالسيوف، قلنا: نعم هو هذا. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في الاسماء والصفات عن ابن عباس في قوله: ﴿وَالَّذِي جَاء بِالصِّدْقِ﴾ يعني: بلا إله إلا الله ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ يعني: برسول الله ﷺ ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ يعني: اتقوا الشرك. وأخرج ابن جرير، والباوردي في معرفة الصحابة، وابن عساکر من طريق أسيد بن صفوان، وله صحبة عن علي بن أبي طالب قال: الذي جاء بالصديق محمد ﷺ، وصنق به أبو بكر. وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة مثله.

أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۖ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُبِلٍ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ﴿١٠١﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَافِقَاتٌ لِمُؤْمَرِهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتٌ رَحْمَتِي قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٠٢﴾ قُلْ يَتَوَفَّوْا أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَاجِلٌ فَسَوْفَ تَمْلِكُونَ ﴿١٠٣﴾ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُثِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنْ أَرَادْنَا عَلَىٰ آلِكَ الْكَتَبَ لِلنَّاسِ بِالحَقِّ قَدْ أَفْكَدَتْ لِغَنِيَّةٍ ۖ وَمَنْ سَلَ قَاتِلًا يُضِلُّ عَلَيْهِ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٥﴾ اللَّهُ يَتَوَلَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّذِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَازِلِكَا فَيُمْسِكُ الْفَنَ عَلَيْهِمَا الْتَوَتَ وَيُرْسِلُ الْخَافِرَةَ إِلَيْ أَهْلِ مُسَمَّىٰ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٠٦﴾

قوله: ﴿أليس الله بكاف عبده﴾ قرأ الجمهور (عبده) بالإفراد. وقرأ حمزة، والكسائي (عباده) بالجمع، فعلى القراءة الأولى المراد: النبي ﷺ، أو الجنس، ويدخل فيه رسول الله ﷺ بخلاف أوليا، وعلى القراءة الأخرى المراد: الأنبياء أو المؤمنون أو الجميع، واختار أبو عبيد قراءة الجمهور، لقوله عقبه ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ﴾ والاستفهام للإنكار لعدم كفايته سبحانه على أبلغ وجه كأنها بمكان من الظهور لا يتيسر لأحد أن ينكره. وقيل: المراد بالعبد، والعباد: ما يعم المسلم، والكافر. قال الجرجاني: إن الله كاف عبده المؤمن، وعبده الكافر هذا بالشوا، وهذا بالعقاب. وقرئ (يكافي)

عباده) بالإضافة، وقرئ (يكافي) بصيغة المضارع، وقوله: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ يجوز أن يكون في محل نصب على الحال، إذ المعنى: أليس كافيك حال تخويفهم إياك، ويجوز أن تكون مستأنفة، والذين من دونه عبارة عن المعبودات التي يعبدونها ﴿وَمَنْ يُضِلُّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ أي: من حقّ عليه القضاء بضلاله، فما له من هاد يهديه إلى الرشد، ويخرجه من الضلالة، ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُبِلٍ﴾ أي: غالب لكل شيء قاهر له ﴿ذِي انْتِقَامٍ﴾ ينتقم من عصاته بما يصبه عليهم من عذابه، وما ينزله بهم من سوط عقاب ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ﴾ نكر سبحانه اعترافهم إذا سئلوا عن الخالق بأن الله سبحانه مع عبادتهم للوثان، واتخاذهم الأكلة من دونه الله، وفي هذا أعظم دليل على أنهم كانوا في غفلة شديدة، وجهالة عظيمة؛ لأنهم إذا علموا أن الخالق لهم، ولما يعبدون من دونه الله هو: الله سبحانه، فكيف استحسنت عقولهم عبادة غير خالق الكل، وتشريك مخلوق مع خالقه في العبادة؟ وقد كانوا ينكرون بحسن العقول، وكمال الإبرك، والفطنة التامة، ولكنهم لما قلدوا أسلافهم، وأحسنوا الظنّ بهم هجروا ما يقتضيه العقل، وعملوا بما هو محض الجهل. ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يبكتهم بعد هذا الاعتراف، ويوبخهم، فقال: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ﴾ أي: أخبروني عن ألهكم هذه هل تقدر على كشف ما أراده الله بي من الضر، والضرر هو: الشدة، أو أعلى ﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِي﴾ عني بحيث لا تصل إلي، والرحمة النعمة، والرخاء. قرأ الجمهور ممسكات، وكاشفات في الموضعين بالإضافة، وقرأهما أبو عمرو، بالتنوين. قال مقاتل: لما نزلت هذه الآية سألهم النبي ﷺ، فسكتوا، وقال غيره: قالوا: لا تدفع شيئاً من قدر الله، ولكنها تشفع، فنزل: ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ في جميع أموري في جلب النفع، ودفع الضرر ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أي: عليه، لا على غيره يعتمد المعتمدون، واختار أبو عبيد، وأبو حاتم قراءة أبي عمرو، لأن كاشفات اسم فاعل في معنى: الاستقبال، وما كان كذلك، فتنوينه أجود، وبها قرأ الحسن، وعاصم، ثم أمره سبحانه أن يهددهم، ويتوعددهم، فقال: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اْعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي: على حالتكم التي أنتم عليها، وتمكنتم منها ﴿إِنِّي عَاجِلٌ﴾ أي: على حالتي التي أنا عليها، وتمكنت منها، وحذف ذلك للعلم به مما قبله ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ * من يأتيه عذاب يخزيه ﴿أَي: يهينه، ويذله في الدنيا، فيظهر عند ذلك أنه المبطل، وخصمه المحق، والمراد بهذا العذاب عذاب: الدنيا، وما حلّ بهم من القتل، والأسر، والقهر، والنزلة. ثم ذكر عذاب الآخرة، فقال: ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي: دائم مستمر في الدار الآخرة، وهو: عذاب النار. ثم لما كان يعظم على رسول الله ﷺ إصرارهم على

قوله: ﴿أليس الله بكاف عبده﴾ قرأ الجمهور (عبده) بالإفراد. وقرأ حمزة، والكسائي (عباده) بالجمع، فعلى القراءة الأولى المراد: النبي ﷺ، أو الجنس، ويدخل فيه رسول الله ﷺ بخلاف أوليا، وعلى القراءة الأخرى المراد: الأنبياء أو المؤمنون أو الجميع، واختار أبو عبيد قراءة الجمهور، لقوله عقبه ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ﴾ والاستفهام للإنكار لعدم كفايته سبحانه على أبلغ وجه كأنها بمكان من الظهور لا يتيسر لأحد أن ينكره. وقيل: المراد بالعبد، والعباد: ما يعم المسلم، والكافر. قال الجرجاني: إن الله كاف عبده المؤمن، وعبده الكافر هذا بالشوا، وهذا بالعقاب. وقرئ (يكافي)

ذلك، ويتدبرونه، ويستتلون به على توحيد الله، وكمال قدرته. فإن في هذا التوفي، والإمساك، والإرسال موعظة للمتعتين، وتنكرة للمتكبرين.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها﴾ الآية قال: نفس، وروح بينهما مثل شعاع الشمس، فيتوفى الله النفس في منامه، ويدع الروح في جوفه تنقلب، وتعيش، فإن بدا له أن يقبضه قبض الروح، فمات. وإن أخر أجله رد النفس إلى مكانها من جوفه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني في الأوسط، وأبو الشيخ في العظمة، وابن مريويه، والضياء في المختارة عنه في الآية قال: تلتقي أرواح الأحياء، وأرواح الأموات في المنام، فيتساءلون بينهم ما شاء الله، ثم يمسك الله أرواح الأموات، ويرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها ﴿إلى أجل مسمى﴾ لا يغلط بشيء منها، فذلك قوله: ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾. وأخرج عبد بن حميد عنه أيضاً في الآية قال: كل نفس لها سبب تجري فيه، فإذا قضى عليها الموت نامت حتى يقطع السبب، والتي لم تمت في منامها تترك. وأخرج البخاري، ومسلم من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أوى أحكمك إلى فراشه، فلينبضه بدخله إزاره، فإنه لا يدري ما خلفه عليه، ثم ليقل باسمك ربي وضعت جنبي، وباسمك أرفعه، إن أمسكت نفسي، فارحمها، وإن أرسلتها، فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين».

أَوْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كُنَّا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَمْ يَكُنْ لَكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٠٢﴾ وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٠٣﴾ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَأَهُمْ رَبُّكَ أَنَّهُمْ يَكُونُوا مَحْشُورِينَ ﴿١٠٥﴾ وَإِذَا هُمْ سَيَافُتُ مَا كَسَبُوا وَهَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٠٦﴾

قوله: ﴿أم اتخذوا من دون الله شفعاء﴾ أم هي المنقطعة المقطرة ببل، والهمزة أي: بل اتخذوا من دون الله آلهة شفعاء تشفع لهم عند الله ﴿قل أو لو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون﴾ الهمزة للإنكار، والتوبيخ، والواو للعطف على محذوف مقدر أي: أيشفعون، ولو كانوا الخ، وجواب لو محذوف تقديره تتخذونهم أي: وإن كانوا بهذه الصفة تتخذونهم، ومعنى لا يملكون شيئاً: أنهم غير مالكين لشيء من الأشياء، وتدخل الشفاعة في ذلك دخولاً أولياً، ولا يعقلون شيئاً من الأشياء؛ لأنها جمادات لا عقل لها، وجمعهم بالواو، والنون لاعتقاد الكفار فيهم أنهم يعقلون. ثم أمره سبحانه بأن يخبرهم: أن الشفاعة لله وحده، فقال: ﴿قل

الكفر أخبره بأنه لم يكلف إلا بالبيان، لا بأن يهدي من ضل، فقال: ﴿إننا أنزلنا عليك الكتاب للناس﴾ أي: لأجلهم، ولبيان ما كلّفوا به، و﴿بالحق﴾ حال من الفاعل، أو المفعول أي: محقين، أو ملتبساً بالحق ﴿فمن اهتدى﴾ طريق الحق، وسلكها ﴿فلنفسه ومن ضل﴾ عنها ﴿فإنما يضل عليها﴾ أي: على نفسه، فضرر ذلك عليه لا يتعدى إلى غيره ﴿وما أنت عليهم بوكيل﴾ أي: بمكلف بهدايتهم مخاطب بها، بل ليس عليك إلا البلاغ، وقد فعلت. وهذه الآيات هي منسوخة بآية السيف، فقد أمر الله رسوله بعد هذا أن يقتلهم حتى يقولوا لا إله إلا الله، ويعملوا بأحكام الإسلام. ثم نكر سبحانه نوعاً من أنواع قدرته البالغة، وصنعتة العجيبة، فقال: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها﴾ أي: يقبضها عند حضور أجلها، ويخرجها من الأبدان ﴿ولتي لم تمت في منامها﴾ أي: ويتوفى الأنفس التي لم تمت أي: لم يحضر أجلها في منامها.

وقد اختلف في هذا، فقيل: يقبضها عن التصرف مع بقاء الروح في الجسد. وقال الفراء: المعنى: ويقبض التي لم تمت عند انقضاء أجلها قال: وقد يكون توفيتها نومها، فيكون التقدير على هذا: والتي لم تمت، وفاتها نومها. قال الزجاج: لكل إنسان نفسان: أحدهما: نفس التمييز، وهي التي تفارقه إذا نام، فلا يعقل، والآخرى: نفس الحياة إذا زالت زال معها النفس، والنائم يتنفس. قال القشيري: في هذا بعد إذ المفهوم من الآية أن النفس المقبوضة في الحالين شيء واحد، ولهذا قال: ﴿فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى﴾ أي: النائمة ﴿إلى أجل مسمى﴾، وهو الوقت المضروب لموته، وقد قال بمثل قول الزجاج: ابن الأنباري. وقال سعيد بن جبير: إن الله يقبض أرواح الأموات إذا ماتوا، وأرواح الأحياء إذا ناموا، فتتعارف ما شاء الله أن تتعارف ﴿فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى﴾، فيعيدها، والأولى أن يقال: إن توفي النفس حال النوم بإزالة الإحساس، وحصول الآفة به في محل الحسن، فيمسك التي قضى عليها الموت، ولا يردها إلى الجسد الذي كانت فيه، ويرسل الأخرى بأن يعيد عليها إحساسها. قيل: ومعنى ﴿يتوفى الأنفس عند موتها﴾: هو على حذف أي: عند موت أجسادها.

وقد اختلف العقلاء في النفس، والروح هل هما شيء واحد، أو شيان؟ والكلام في ذلك يطول جداً، وهو معروف في الكتب الموضوعة لهذا الشأن. قرأ الجمهور (قضى) مبنياً للفعل أي: قضى الله عليها الموت، وقرأ حمزة، والكسائي، والأعمش، ويحيى بن وثاب على البناء للمفعول، واختار أبو عبيد، وأبو حاتم القراءة الأولى لموافقتها لقوله: ﴿الله يتوفى الأنفس﴾، والإشارة بقوله: ﴿إن في ذلك﴾ إلى ما تقدم من التوفي، والإمساك، والإرسال للنفوس ﴿لآيات﴾ أي: لآيات عجيبة بديعة دالة على القدرة الباهرة، ولكن ليس كون ذلك آيات يفهم كل أحد بل ﴿لقوم يتفكرون﴾ في

سفيان الثوري: ويل لأهل الرياء ويل لأهل الرياء ويل لأهل الرياء ويل لأهل الرياء هذه آيتهم، وقصتهم. وقال عكرمة بن عمار: جزع محمد بن المنكر عند موته جزعاً شديداً، فقيل له: ما هذا الجزع؟ قال: أخاف آية من كتاب الله ﴿وَبِذَا لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُنُوا يَحْتَسِبُونَ﴾، فانا أخشى أن يبني لي ما لم أكن أحاسب. ﴿وَبِذَا لَهُمْ سَعِيَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي: مساوئ أعمالهم من الشرك، وظلم أولياء الله، و «ما» يحتمل أن تكون مصدرية أي: سيئات كسبهم، وأن تكون موصولة أي: سيئات الذي كسبوه ﴿وَوَاقٍ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: أحاط بهم، ونزل بهم ما كانوا يستهزئون به من الإنذار الذي كان ينذرهم به رسول الله ﷺ.

وقد أخرج ابن مريويه عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذَا نَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ﴾ الآية قال: قست، ونفرت ﴿قُلُوبُ﴾ هؤلاء الأربعة ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أبو جهل بن هشام، والوليد بن عتبة، وصفوان، وأبي بن خلف ﴿وَإِذَا ذَكَرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ اللات، والعزى ﴿وَإِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾. وأخرج مسلم، وأبو داود، والبيهقي في الأسماء والصفات عن عائشة قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل افتتح صلاته: اللَّهُمَّ رَبِّ جَبْرِيلَ، وَمِيكَائِيلَ، وَإِسْرَافِيلَ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِنَّكَ أَنْتَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».

﴿وَإِذَا مَنِ الْإِنْسَانُ مُرِّدَعًا ثُمَّ إِذَا حَوَّلَهُ نِعْمَةً وَنَا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ مِنْ فَتْنَةٍ وَلَكِنَّ الْآكَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١﴾ مَذَقَالَهُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَمَّا أَفْعَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْفِيُونَهُمْ ﴿٢﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٣﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ قُلْ يَتَذَكَّرُ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَإِنِّي بِلَاكُمْ وَآسِئُوا لَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَنبِئُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ بَعَثَةً وَأَنبِئُوا لَا تُشْعِرُونَ ﴿٧﴾ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِعَاصِرِكَ عَلَىٰ مَا قَرَأْتَ فِي جُبِّ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتَ لَيْمَ السَّخِرِينَ ﴿٨﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٩﴾ أَوْ تَقُولَ لَئِنْ تَرَىٰ الْعَذَابَ لَوْ أَنَّكَ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْزَنِينَ ﴿١٠﴾ بَلْ قَدْ جَاءَ نَكَالَهُ إِتَابِي فَكَذَّبَتْ بِهَا وَاسْتَكْبَرَتْ وَكُنْتُ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ الْيَوْمَةِ تَرَىٰ الَّذِينَ كَذَّبُوا عَلَىٰ اللَّهِ وَجُوهُهُمْ مَسْرُورَةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَوْتٌ لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿١٢﴾ وَيَسْئَلُ اللَّهُ الَّذِينَ أَتَقُوا بِمَعَانِيهِمْ لَا يَسْأَلُهُمُ أَلُوهَ إِلَّا هُمْ يَخْرُجُونَ ﴿١٣﴾

قوله: ﴿وَإِذَا مَنِ الْإِنْسَانُ﴾ المراد بالإنسان هنا: الجنس باعتبار بعض أفرادها، أو غالبها، وقيل: المراد به الكفار فقط، والأول أولى، ولا يمنع من حمله على الجنس خصوص

له الشفاعة جميعاً، فليس لأحد منها شيء إلا أن يكون بإنه لمن ارتضى، كما في قوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: 255]، وقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: 28]، وانتصاب جميعاً على الحال، وإنما أكد الشفاعة بما يؤكد به الاثنان، فصاعداً؛ لأنها مصدر يطلق على الواحد، والاثنين، والجماعة، ثم وصفه بسعة الملك، فقال: ﴿لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: يملكهما، ويملك ما فيهما، ويتصرف في ذلك كيف يشاء، ويفعل ما يريد ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تَرْجَعُونَ﴾ لا إلى غيره، وذلك بعد البعث ﴿وَإِذَا نَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ انتصاب وحده على الحال عند يونس، وعلى المصدر عند الخليل، وسبويه، والاشمئزاز في اللغة: النفور. قال أبو عبيدة: اشمأزت نفرت، وقال المبرد: انقبضت. وبالأول قال قتادة، وبالثاني قال مجاهد، والمعنى متقارب. وقال المؤرج: أنكرت، وقال أبو زيد: اشمأز الرجل ذعر من الفزع، والمناسب للمقام تفسير اشمأزت بانقبضت، وهو في الأصل: الازورار، وكان المشركون إذا قيل لهم: لا إله إلا الله انقبضوا، كما حكاه الله عنهم في قوله: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوِ عَلَىٰ أُنْبَارِهِمْ نَفُورًا﴾ [الإسراء: 46]، ثم ذكر سبحانه استبشارهم بنكر أصنامهم، فقال: ﴿وَإِذَا ذَكَرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي: يفرحون بذلك، ويبتهجون به، والعامل في إذا في قوله: ﴿وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ﴾ الفعل الذي بعدهما، وهو: اشمأزت، والعامل في إذا في قوله: ﴿وَإِذَا ذَكَرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ الفعل العامل في إذا الفجائية، والتقدير: فاجئوا الاستبشار وقت ذكر الذين من دونه. ولما لم يقبل المتمرنون من الكفار ما جاءهم به ﷺ من الدعاء إلى الخير، وصمموا على كفرهم، أمره الله سبحانه: أَنْ يَرَدَّ الْأَمْرَ إِلَيْهِ، فقال: ﴿قُلْ لِلَّهِ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، وقد تقدّم تفسير فاطر السموات، وتفسير عالم الغيب، والشهادة، وهما منصوبان على النداء، ومعنى ﴿تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ﴾: تجازي المحسن بإحسانه، وتعاقب المسيء بإساءته، فإنه بذلك يظهر من هو المحق، ومن هو المبطل، ويرتفع عنده خلاف المختلفين، وتخاصم المتخاصمين. ثم لما حكي عن الكفار ما حكاه من الاشمئزاز عند ذكر الله، والاستبشار عند ذكر الأصنام ذكر ما يدل على شدة عذابهم، وعظيم عقوبتهم، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي: جميع ما في الدنيا من الأموال، والذخائر ﴿وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾ أي: منضمّاً إليه ﴿لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: من سوء عذاب ذلك اليوم، وقد مضى تفسير هذا في آل عمران ﴿وَبِذَا لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُنُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ أي: ظهر لهم من عقوبات الله، وسخطه، وشدة عذابه ما لم يكن في حسابهم، وفي هذا وعيد عظيم، وتهديد بالخذل، وقال مجاهد: عملوا أعمالاً تورهموا أنها حسنات، فإذا هي سيئات، وكذا قال السدي. وقال

الإفراط في المعاصي، والاستكثار منها، ومعنى لا تقنطوا: لا تياسوا من رحمة الله من مغفرته، ثم لما نهاهم عن القنوط أخبرهم بما ينفع ذلك، ويرفعه، ويجعل الرجاء مكان القنوط، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾.

واعلم أن هذه الآية أرجا آية في كتاب الله سبحانه لاشتمالها على أعظم بشارة، فإنه أولاً أضاف العباد إلى نفسه لقصد تشريفهم، ومزيد تبشيرهم، ثم وصفهم بالإسراف في المعاصي، والاستكثار من الذنوب، ثم عقب ذلك بالنهاي عن القنوط من الرحمة لهؤلاء المستكثرين من الذنوب، فالنهاي عن القنوط للمذنبين غير المسرفين من باب الأولى، ويفحوى الخطاب، ثم جاء بما لا يبقى بعده شك، ولا يتخالج القلب عند سماعه ظن، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ﴾، فالآلف، واللام قد صيرت الجمع الذي دخلت عليه للجنس الذي يستلزم استغراق أفرادها، فهو في قوة إن الله يغفر كل ذنب كائناً ما كان، إلا ما أخرجه النص القرآني، وهو: الشرك ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: 48، 116]، ثم لم يكتف بما أخبر عباده به من مغفرة كل ذنب، بل أكد ذلك بقوله: ﴿جَمِيعًا﴾ فإيا لها من بشارة ترتاح لها قلوب المؤمنين المحسنين ظنهم بربهم الصالحين في رجائه، الخالعين لثياب القنوط الرافضين لسوء الظن بمن لا يتعاضدهم ذنب ولا يبخل بمغفرته، ورحمته على عباده المتوجهين إليه في طلب العفو الملتجئين به في مغفرة ذنوبهم، وما أحسن ما علل سبحانه به هذا الكلام قائلاً: إنه هو الغفور الرحيم. أي: كثير المغفرة، والرحمة عظيمهما بليغهما واسعهما، فمن أبى هذا التفضل العظيم، والعطاء الجسيم، وظن أن تقنيط عباد الله، وتأييسهم من رحمته أولى بهم مما بشرهم الله به، فقد ركب أعظم الشطط، وغلط أقبح الغلط، فإن التبشير، وعدم التقنيط الذي جاءت به مواعيد الله في كتابه العزيز، والمسلوك الذي سلكه رسوله ﷺ كما صح عنه من قوله: «يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا».

وإذا تقرر لك هذا، فاعلم أن الجمع بين هذه الآية، وبين قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: 48، 116] هو: أن كل ذنب كائناً ما عدا الشرك بالله مغفور لمن شاء الله أن يغفر له، على أنه يمكن أن يقال: إن إخباره لنا بأنه يغفر الذنوب جميعاً يدل على أنه يشاء غفرانها جميعاً، وذلك يستلزم: أنه يشاء المغفرة لكل المذنبين من المسلمين، فلم يبق بين الآيتين تعارض من هذه الحيثية. وأما ما يزعمه جماعة من المفسرين من تقييد هذه الآية بالتوبة، وإنها لا تغفر إلا ذنوب التائبين، وزعموا أنهم قالوا ذلك للجمع بين الآيات. فهو: جمع بين الضب، والنون، وبين الملاح، والحادي، وعلى نفسها براقش تجني، ولو كانت هذه البشارة العظيمة مقيدة بالتوبة لم يكن لها كثير موقع، فإن التوبة من المشرك يغفر الله له بها ما فعله من الشرك بإجماع المسلمين، وقد قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ

سببه، لأن الاعتبار بعموم اللفظ، وفاء بحق النظم القرآني، ووفاء بميلولة، والمعنى: أن شأن غالب نوع الإنسان أنه إذا مسه ضر من مرض، أو فقر، أو غيرهما دعا الله، وتضرع إليه في رفعه، ودفعه ﴿ثُمَّ إِذَا خَوْلَانَهُ نِعْمَةً مِّنَّا﴾ أي: أعطيناه نعمة كائنة من عندنا ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ مني بوجوه المكاسب، أو على خير عندي، أو على علم من الله بفضلي. وقال الحسن: على علم علمني الله إياه، وقيل: قد علمت أنني إذا أوتيت هذا في الدنيا أن لي عند الله منزلة، وجاء بالضمير في أوتيته مذكراً مع كونه راجعاً إلى النعمة؛ لأنها بمعنى: الإنعام. وقيل: إن الضمير عائد إلى ما، وهي: موصولة، والأول أولى ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ هذا رد لما قاله أي: ليس ذلك الذي أعطيناك لما نكرت، بل هو محنة لك، واختبار لحالك أتشكر أم تكفر؟ قال الفراء: انث الضمير في قوله: ﴿هِيَ﴾ لتأنيث الفتنة، ولو قال: بل هو فتنة لجاز. وقال النحاس: بل عطيته فتنة. وقيل: تأنيث الضمير باعتبار لفظ الفتنة، وتذكير الأول في قوله: ﴿أُوتِيتُهُ﴾ باعتبار معناها: ﴿وَلَكِن كَثُرْهُم لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن تلك استدراج لهم من الله، وامتحان لما عندهم من الشكر، أو الكفر ﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: قال هذه الكلمة التي قالوها، وهي قولهم: إنما أوتيته على علم الذين من قبلهم كقارون، وغيره، فإن قارون قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عَنِّي﴾ [القصص: 78] ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ يجوز أن تكون ما هذه نافية أي: لم يغن عنهم ما كسبوا من متاع الدنيا شيئاً، وأن تكون استفهامية أي: أي شيء أغنى عنهم ذلك ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا كَسَبُوا﴾ أي: جزاء سيئات كسبهم، أو أصابهم سيئات هي جزاء كسبهم، وسمي الجزاء سيئات لوقوعها في مقابلة سيئاتهم، فيكون ذلك من باب المشاكلة كقوله: ﴿وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى: 40]، ثم أودع سبحانه الكفار في عصره، فقال: ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ﴾ الموجهين من الكفار ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا كَسَبُوا﴾ كما أصاب من قبلهم، وقد أصابهم في الدنيا ما أصابهم من القحط، والقتل، والأسر، والقهر ﴿وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: بفائتين على الله بل مرجعهم إليه يصنع بهم ما شاء من العقوبة ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أي: يوسع الرزق لمن يشاء أن يوسع له ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي: يقبضه لمن يشاء أن يقبضه، ويضيقه عليه. قال مقاتل: وعظم الله، ليعتبروا في توحيده، وذلك حين مطروا بعد سبع سنين، فقال: أو لم يعلموا أن الله يوسع الرزق لمن يشاء، ويقتدر على من يشاء ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾ أي: في ذلك المنكور لدلالات عظيمة، وعلامات جلية ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وخص المؤمنين؛ لأنهم المنتفعون بالآيات المتفكرون فيها، ثم لما نكر سبحانه ما نكره من الوعيد عقبه بنكر سعة رحمته، وعظيم مغفرته، وأمر رسوله ﷺ: أن يبشرهم بذلك، فقال: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ المراد بالإسراف:

أولى، لأن الذي يأتيهم بغتة هو: العذاب في الدنيا بالقتل، والأسر، والقهر، والخوف، والجذب، لا عذاب الآخرة، ولا الموت، لأنه لم يسند الإتيان إليه ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسُ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ قال البصريون: أي: حذراً أن تقول، وقال الكوفيون: لئلا تقول. قال المبرد: بادروا خوف أن تقول، أو حذراً من أن تقول نفس. وقال الزجاج: خوف أن تصيروا إلى حال تقولون فيها: يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله، قيل: والمراد بالنفس هنا: النفس الكافرة، وقيل: المراد به التكثر كما في قوله: ﴿عَلِمْتُ نَفْسُ مَا أَحْضَرْتُ﴾ [التكوير: 14] قرأ الجمهور (يا حسرتا) بالالف بدلاً من الياء المضاف إليها، والأصل يا حسرتي، وقرأ ابن كثير (يا حسرتاه) بهاء السكت وقفاً، وقرأ أبو جعفر (يا حسرتي) بالياء على الأصل. والحسرة: الندامة، ومعنى ﴿عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾: على ما فرطت في طاعة الله، قاله الحسن. وقال الضحاك: على ما فرطت في نكر الله، ويعني به: القرآن، والعمل به. وقال أبو عبيدة: ﴿فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ أي: في قرب الله وجواره، ومنه قوله: ﴿وَالصَّاحِبُ بِالْجَنْبِ﴾ [النساء: 36]، والمعنى على هذا القول، على ما فرطت في طلب جنب الله أي: في طلب جواره، وقربه، وهو: الجنة، وبه قال ابن الأعرابي، وقال الزجاج: أي: فرطت في الطريق الذي هو: طريق الله من توحيدِهِ، والإقرار بنبوة رسول الله ﷺ، وعلى هذا، فالجنب بمعنى: الجانب أي: قصرت في الجانب الذي يؤدي إلى رضا الله، ومنه قول الشاعر:

للسناس جنب والأمير جنب

أي: الناس من جانب، والأمير من جانب ﴿وَأَنْ كُنْتُ لَمَنْ لِّلْسَاخِرِينَ﴾ أي: وما كنت إلا من المستهزئين بدين الله في الدنيا، ومحل الجملة النصب على الحال. قال قتادة: لم يفكه أن ضيع طاعة الله حتى سخر من أهلها ﴿أَوْ تَقُولُ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: لو أن الله أرشدني إلى دينه لكنت ممن يتقي الشرك، والمعاصي، وهذا من جملة ما يحتج به المشركون من الحجج الزائفة، ويتعللون به من العلل الباطلة كما في قوله: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: 148]، فهي: كلمة حق يريدون بها باطلاً. ثم ذكر سبحانه مقالة أخرى مما قالوا، فقال: ﴿أَوْ تَقُولُ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرْةً﴾ أي: رجعة إلى الدنيا ﴿فَأَكُونُ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ المؤمنين بالله الموحدين له، المحسنين في أعمالهم، وانتصاب أكون إما لكونه معطوفاً على كَرَّةٍ، فإنها مصدر، وأكون في تأويل المصدر كما في قول الشاعر:

لبس عباءة وتقرَّ عيني أحبَّ إليَّ من لبس الشفوف
واتشدَّ الفراء على هذا:

فما لك منها غير نكرى وخشية وتسال عن ركبائها أين يمموا
وما لكونه جواب التمني المفهوم من قوله: ﴿لَوْ أَنَّ لِي كَرْةً﴾. ثم نكر سبحانه جوابه على هذه النفس المتمنية

ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ [النساء: 48، 116]، فلو كانت التوبة قبيداً في المغفرة لم يكن للتنصيص على الشرك فائدة، وقد قال سبحانه: ﴿وَأَنْ رَّبِّكَ لَنُؤْمِرُكَ عَلَى ظَلَمِهِمْ﴾ [الرعد: 6] قال الواحدي: المفسرون كلهم قالوا: إن هذه الآية في قوم خافوا أن أسلموا أن لا يغفر لهم ما جنوا من الذنوب العظام، كالشرك، وقتل النفس، ومعاداة النبي ﷺ.

قلت: هب أنها في هؤلاء القوم، فكان ماذا، فإن الاعتبار بما اشتملت عليه من العموم لا بخصوص السبب كما هو متفق عليه بين أهل العلم، ولو كانت الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية مقيدة بأسبابها غير متجاوزة لها لارتفعت أكثر التكليف عن الأمة إن لم ترتفع كلها، واللازم باطل بالإجماع، فالملزوم مثله.

وفي السنة المطهرة من الأحاديث الثابتة في الصحيحين، وغيرهما في هذا الباب ما إن عرفه المطلع عليه حق معرفته، وقدره حق قدره علم صحة ما نكرناه، وعرف حقيقة ما حررناه. قرأ الجمهور (يا عبادي) بإثبات الياء، وصلاً، ووقفاً، وروى أبو بكر عن عاصم: أنه يقف بغير ياء. وقرأ الجمهور (تقنطوا) بفتح النون، وقرأ أبو عمرو، والكسائي بكسرها ﴿وَأَنْتَبِهُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلَمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ﴾ أي: ارجعوا إليه بالطاعة لما بشرهم سبحانه بأنه يغفر للذنوب جميعاً، أمرهم بالرجوع إليه بفعل الطاعات، واجتناب المعاصي، وليس في هذا ما يدل على تقييد الآية الأولى بالتوبة لا بمطابقة، ولا تضمن، ولا التزام، بل غاية ما فيها: أنه بشرهم بتلك البشارة العظمى، ثم دعاهم إلى الخير، وخوفهم من الشر على أنه يمكن أن يقال: إن هذه الجملة مستأنفة خطاباً للكفار الذين لم يسلموا ببليلى قوله: ﴿وَأَسْلَمُوا لَهُ﴾ جاء بها لتحذير الكفار، وإنذارهم بعد ترغيب المسلمين بالآية الأولى، وتبشيرهم، وهذا، وإن كان بعيداً، ولكنه يمكن أن يقال به، والمعنى على ما هو الظاهر: أن الله جمع لعباده بين التبشير العظيم، والأمر بالإجابة إليه، والإخلاص له، والاستسلام لأمره، والخضوع لحكمه. وقوله: ﴿مَنْ قَبْلُ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ﴾ أي: عذاب الدنيا كما يفيدُه قوله: ﴿مَنْ قَبْلُ أَنْ يَأْتِيَكُمُ﴾، فليس في ذلك ما يدل على ما زعمه الزاعمون، وتمسك به القائلون المقنطون، والحمد لله رب العالمين ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يعني: القرآن، يقول: أحلوا حاله، وحرّموا حرامه، والقرآن كله حسن. قال الحسن: التزموا طاعته، واجتنبوا معاصيه. وقال السدي: الأحسن ما أمر الله به في كتابه. وقال ابن زيد: يعني: المحكمات، وكلوا علم المتشابه إلى عالمه. وقيل: الناسخ دون المنسوخ، وقيل: العقوبون الانتقام بما يحق فيه الانتقام، وقيل: أحسن ما أنزل إليكم من أخبار الأمم الماضية ﴿مَنْ قَبْلُ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بِغَتَةٍ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي: من قبل أن يفاجئكم العذاب، وأنتم غافلون عنه لا تشعرون به، وقيل: أراد أنهم يموتون بغتة، فيقعون في العذاب. والأوّل

المتعللة بغير علة، فقال: ﴿يَلَىٰ قَدْ جَاءَكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾. المراد بالآيات هي: الآيات التنزيلية، وهو: القرآن، ومعنى التكذيب بها قوله: إنها ليس من عند الله، وتكبر عن الإيمان بها، وكان مع ذلك التكذيب، والاستكبار من الكافرين بالله. وجاء سبحانه بخطاب المنكر في قوله: جاءتك، وكذبت، واستكبرت، وكنت، لأن النفس تطلق على المنكر، والمؤنث. قال المبرد: تقول العرب نفس واحد أي: إنسان واحد، وبفتح التاء في هذه المواضع قرأ الجمهور. وقرأ الجحدري، وأبو حيوة، ويحيى بن يعمر بكسرهما في جميعها، وهي قراءة أبي بكر، وابنته عائشة، وأم سلمة، ورويت عن ابن كثير ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مَّسْوُودَةٌ﴾، أي: ترى الذين كذبوا على الله بأن له شركاء، وصاحبة، ولولدا ووجوههم مسوودة لما أحاط بهم من العذاب، وشاهدوه من غضب الله، وتقمته، وجملة ﴿وُجُوهُهُم مَّسْوُودَةٌ﴾ في محل نصب على الحال. قال الأخفش: ترى غير عامل في وجوههم مسوودة، إنما هو: مبتدأ وخبر، والاولى أن ترى إن كانت من الرؤية البصرية، فجملة ﴿وُجُوهُهُم مَّسْوُودَةٌ﴾ حالية، وإن كانت قلبية، فهي في محل نصب على أنها المفعول الثاني لترى، والاستفهام في قوله: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ للتقرير أي: ليس فيها مقام للمتكبرين عن طاعة الله، والكبر هو: بطر الحق، وغبط الناس كما ثبت في الحديث الصحيح ﴿وَيُنْجِي اللَّهُ الَّذِينَ لَمْ يَقُولُوا﴾ أي: اتقوا للشرك، ومعاصي الله، والباء في ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ متعلقة بمحذوف هو: حال من الموصول أي: ملتبسين بمفازتهم. قرأ الجمهور بمفازتهم بالإنفراد على أنها مصدر ميمي، والفوز: الظفر بالخير، والنجاة من الشر. قال المبرد: المفازة مفعلة من الفوز، وهو: السعادة، وإن جمع، فحسن كقولك: السعادة، والسعادات. والمعنى: ينجيهم الله بفوزهم أي: بنجاتهم من النار، وفوزهم بالجنة. وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر بمفازاتهم جمع مفازة، وجمعها مع كونها مصدراً لاختلاف الأنواع، وجملة ﴿لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ﴾ في محل نصب على الحال من الموصول، وكذلك جملة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ في محل نصب على الحال أي: ينفي السوء، والحزن عنهم، ويجوز أن تكون الباء في بمفازتهم للسببية أي: بسبب فوزهم مع انتفاء مساس السوء لهم، وعدم وصول الحزن إلى قلوبهم: لأنهم رضوا بثواب الله، وأمنوا من عقابه.

ففيهم ﴿يَا عِبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا﴾ الآيات: قال ابن عمر: فكتبتها بيدي، ثم بعثت بها إلى هشام بن العاصي وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مريويه عن أبي سعد قال: لما أسلم وحشي أنزل الله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الفرقان: 68] قال وحشي، وأصحابه: قد ارتكبنا هذا كله، فأنزل الله ﴿قُلْ يَا عِبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا﴾ الآية. وأخرج البخاري في الأب المفرد عن أبي هريرة قال: «خرج النبي ﷺ على رطه من أصحابه، وهم يضحكون، ويتحشون، فقال: والذي نفسي بيده لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً، ثم انصرف، وأبكى القوم، وأوحى الله إليه: يا محمد لم تقنط عبادي فرجع النبي ﷺ، فقال: أبشروا، وسدوا، وقاربوا». وأخرج ابن مريويه، والبيهقي في سننه عن عمر بن الخطاب: أنها نزلت، فيمن أفتن. وأخرج ابن جرير، وابن مريويه عن ابن عباس: أنها نزلت في مشركي مكة لما قالوا: إن الله لا يغفر لهم ما قد اقترفوه من الشرك، وقتل الأنفس، وغير ذلك. وأخرج أحمد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، والبيهقي في الشعب عن ثوبان: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما أحب أن لي الدنيا، وما فيها بهذه الآية ﴿يَا عِبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ إلى آخر الآية، فقال رجل: ومن أشرك؟ فسكت النبي ﷺ، قال: ألا، ومن أشرك ثلاث مرات». وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، وأبو داود، والترمذي وحسنه، وابن المنذر، وابن الأنباري في المصاحف، والحاكم، وابن مريويه عن أسماء بنت يزيد: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿يَا عِبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذَّنُوبَ جَمِيعًا، وَلَا يَبَالِي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود: أنه مر على قاض يذكر الناس، فقال: يا منكر الناس لا تقنط الناس، ثم قرأ ﴿يَا عِبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا﴾ الآية. وأخرج ابن جرير عن ابن سيرين قال: قال علي: أي آية أوسع؟ فجعلوا يذكرون آيات من القرآن ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوًّا أَوْ يَظْلَمْ نَفْسَهُ﴾ [النساء: 11] الآية، ونحوها، فقال علي: ما في القرآن أوسع من ﴿يَا عِبَادِي﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿يَا عِبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية قال: قد دعا الله إلى مغفرته من زعم أن المسيح ابن الله، ومن زعم أن عزيزاً ابن الله، ومن زعم أن الله فقير، ومن زعم أن يد الله مغفولة، ومن زعم أن الله ثالث ثلاثة يقول لهؤلاء: ﴿اقْلَابُ يَتَوَبُونَ إِلَى اللَّهِ﴾ ويستغفرونه والله غفور رحيم [المائدة: 74] ثم دعا إلى توبته من هو أعظم قولاً من هؤلاء من ﴿قَالَ إِنَّا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [الزنازع: 24]، وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: 38] قال ابن عباس: ومن آيس العباد من التوبة بعد هذا، فقد جحد كتاب الله، ولكن لا يقدر العبد أن

وقد أخرج ابن أبي حاتم قال السيوطي بسند صحيح، وابن مريويه عن ابن عباس قال: أنزلت ﴿قُلْ يَا عِبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا﴾ الآية في مشركي أهل مكة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مريويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عمر قال: كنا نقول ليس لمفتتن توبة، وما الله بقابل منه شيئاً، عرفوا الله، وآمنوا به، وصدقوا رسوله، ثم رجعوا عن ذلك لبلاء أصابهم، وكانوا يقولونه لأنفسهم، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أنزل الله

يتوب حتى يتوب الله عليه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنْ تَقُولْ نَفْسٌ﴾ قال: أخبر الله ما العباد قائلون قبل أن يقولوا، وعلمهم قبل أن يعلموا.

اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٢﴾ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ اللَّهَ تَعَالَى تَعَالَى عَمْدًا إِلَّا الْإِلَهَ الْأَحَدَ وَالْكَافِرُونَ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ الْكَافِرِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَنْ أَشْرَكَكَ لِيَجْعَلَ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٥﴾ بَلِ اللَّهُ فَاعِلٌ وَكُنْ مِنْ أَشْرَكِيهِ ﴿٦﴾ وَمَا تَدْرَأُوهُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧﴾ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ يَبِينُ ﴿٨﴾ سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ وَيُفْعَلُ فِي السَّمَوَاتِ فَصِصٌ وَمِنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخُ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ بِنُظُرٍ ﴿١٠﴾ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجَاءَتْ الْوَيْلَاتُ وَالشَّهَادَةُ وَفُصِّلَ لِلنَّاسِ بَالَهُمْ وَالَّذِينَ لَا يَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ وَوُضِعَ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَهْلُهَا بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُوكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿١٣﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٤﴾

قوله: ﴿الله خالق كل شيء﴾ من الأشياء الموجودة في الدنيا، والآخرة كائناً ما كان من غير فرق بين شيء، وشيء، وقد تقدم تفسير هذه الآية في الانعام ﴿وهو على كل شيء وكيل﴾ أي: الأشياء كلها موكولة إليه، فهو: القائم بحفظها، وتبديلها من غير مشارك له ﴿له مقاليد السموات والأرض﴾ المقاليد، واحداً مقليد، ومقلد، أو لا واحد له من لفظه كاساطير، وهي: مفاتيح السموات، والأرض، والرزق، والرحمة. قاله مقاتل، وقتادة، وغيرهما. وقال الليث: المقلد الخزانة، ومعنى الآية: له خزائن السموات، والأرض، وبه قال الضحاك، والسدي. وقيل: خزائن السموات المطر، وخزائن الأرض النبات. وقيل: هي عبارة عن قدرته سبحانه، وحفظه لها، والأول أولى. قال الجوهري: الإقليد المفتاح، ثم قال: والجمع المقاليد. وقيل: هي لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله وبحمده، وأستغفر الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله. وقيل غير ذلك ﴿والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون﴾ أي: بالقرآن، وسائر الآيات الدالة على الله سبحانه، وتوحيده، ومعنى الخاسرون: الكاملون في الخسران؛ لأنهم صاروا بهذا الكفر إلى النار ﴿قل أغير الله تامروني أعبد إلهاً لجاهلون﴾ الاستفهام للإنكار التوبيخي، والفاء للعطف على مقدر كنظائره، وغير منصوب بأعبد، وأعبد معمول؛ لتامروني على تقدير أن أعبد غير الله. قاله الكسائي، وغيره. ويجوز أن يكون غير منصوباً بتامروني، وأعبد بدل منه بدل

اشتغال، وأن مضمره معه أيضاً. ويجوز أن يكون غير منصوب بفعل مقدر أي: اقتلزموني غير الله أي: عبادة غير الله، أو أعبد غير الله أعبد. أمره الله سبحانه أن يقول هذا للكفار لما دعوه إلى ما هم عليه من عبادة الأصنام، وقالوا: هو دين آبائكم. قرأ الجمهور (تامروني) بإدغام نون الرفع في نون الوقاية على خلاف بينهم في فتح الياء، وتسكينها. وقرأ نافع (تامروني) بنون خفيفة، وفتح الياء، وقرأ ابن عامر (تامروني) بالفتح، وسكون الياء ﴿ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك﴾ أي: من الرسل ﴿لئن أشركت ليحيطن عملك ولتكونن من الخاسرين﴾ هذا الكلام من باب التعريض لغير الرسل، لأن الله سبحانه قد عصمهم عن الشرك، ووجه إيراد على هذا الوجه التحنير، والإنذار للعباد من الشرك، لأنه إذا كان موجباً لإحباط عمل الأنبياء على الفرض، والتقدير، فهو محبط لعمل غيرهم من أمهم بطريق الأولى. قيل: وفي الكلام تقديم، وتأخير، والتقدير: ولقد أوحى إليك لئن أشركت، وأوحى إلى الذين من قبلك كذلك. قال مقاتل: أي أوحى إليك وإلى الأنبياء قبل بالتوحيد والتوحيد محنوف، ثم قال: لئن أشركت يا محمد؛ ليحيطن عملك، وهو خطاب للنبي ﷺ خاصة. وقيل: أفراد الخطاب في قوله: ﴿لئن أشركت﴾ باعتبار كل واحد من الأنبياء كأنه قيل: أوحى إليك، وإلى كل واحد من الأنبياء هذا الكلام، وهو: لئن أشركت، وهذه الآية مقيدة بالموت على الشرك كما في الآية الأخرى ﴿ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم﴾ [البقرة: 217] وقيل: هذا خاص بالأنبياء؛ لأن الشرك منهم أعظم نكباً من الشرك من غيرهم، والأول أولى، ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ بتوحيده، فقال: ﴿بل الله فاعبد﴾، وفي هذا رد على المشركين حيث أمروا: بعبادة الأصنام. ووجه الرد ما يفيد التقييم من القصر. قال الزجاج: لفظ اسم الله منصوب بأعبد قال: ولا اختلاف في هذا بين البصريين، والكوفيين. وقال الفراء: هو منصوب بإضمار فعل، وروي مثله عن الكسائي، والأول أولى. قال الزجاج: والفاء في فاعبد المجازاة. وقال الأخفش: زائدة. قال عطاء، ومقاتل: معنى فاعبد: وحد، لأن عبادته لا تصح إلا بتوحيده ﴿وكن من الشاكرين﴾ لإتمامه عليك بما هداك إليه من التوحيد، والدعاء إلى دينه، واختصك به من الرسالة ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ قال المبرد: أي: ما عظموه حق عظمتهم، من قولك فلان عظيم القدر، وإنما وصفهم بهذا؛ لأنهم عبدوا غير الله، وأمروا رسوله بأن يكون مثلهم في الشرك. وقرأ الحسن، وأبو حيو، وعيسى بن عمر قدروا بالتشديد ﴿والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة﴾ القبضة في اللغة ما قبضت عليه بجميع كفك، فأخبر سبحانه: عن عظيم قدرته بأن الأرض كلها مع عظمها، وكثافتها في مقدوره كالأشياء الذي يقبض عليه القابض بكفه كما يقولون: هو في يد فلان، وفي قبضته للأشياء الذي يهون عليه التصرف فيه، وإن لم يقبض عليه، وكذا قوله: ﴿والسموات

الحال، وقرأ زيد بن علي بالنصب على أنه حال، والخبر ينظرون. والعامل في الحال ما عمل في إذا الفجائية. قال الكسائي: كما تقول خرجت، فإذا زيد جالساً ﴿واشرقت الأرض بنور ربها﴾ الإشراف الإضاءة، يقال: اشرقت الشمس: إذا أضاءت، وشرقت: إذا طلعت، ومعنى بنور ربها: بعن ربها، قاله الحسن، وغيره. وقال الضحاك: بحكم ربها، والمعنى: أن الأرض أضاءت، وأنارت بما أقامه الله من العدل بين أهلها، وما قضى به من الحق فيهم، فالعدل نور، والظلم ظلمات. وقيل: إن الله يخلق نوراً يوم القيامة يليسه وجه الأرض، فتشرق به غير نور الشمس، والقمر، ولا مانع من الحمل على المعنى الحقيقي، فإن الله سبحانه هو: نور السموات، والأرض. قرأ الجمهور (أشرقت) مبنياً للفاعل، وقرأ ابن عباس، وأبو الجوزاء، وعبيد بن عمير على البناء للمفعول «وضع الكتاب» قيل: هو: اللوح المحفوظ. وقال قتادة: يعني: الكتب، والمصحف التي فيها أعمال بني آدم، فأخذ بيمينه، وأخذ بشماله، وكذا قال مقاتل. وقيل: هو من وضع المحاسب كتاب المحاسبة بين يديه أي: وضع الكتاب للحساب ﴿وجيء بالنبيين﴾ أي: جيء بهم إلى الموقف، فستلوا عما أجابتم به أمهم ﴿والشهداء﴾ الذين يشهدون على الأم من أمة محمد ﷺ كما في قوله: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس﴾ [البقرة: 143]، وقيل: المراد بالشهداء: الذين استشهدوا في سبيل الله، فيشهدون يوم القيامة لمن ذب عن دين الله. وقيل: هم الحفظة كما قال تعالى: ﴿رجاء كل نفس نفسها سائق وشهيد﴾ [ق: 21] ﴿وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون﴾ أي: وقضي بين العباد بالعدل، والصدق، والحال أنهم لا يظلمون أي: لا يتقصون من ثوابهم، ولا يزداد على ما يستحقونه من عقابهم ﴿ووفيت كل نفس ما عملت﴾ من خير، وشر ﴿وهو أعلم بما يفعلون﴾ في الدنيا لا يحتاج إلى كاتب، ولا حاسب، ولا شاهد، وإنما وضع الكتاب، وجيء بالنبيين، والشهداء لتكميل الحجة، وقطع المعذرة. ثم نكر سبحانه تفصيل ما نكره من توفية كل نفس ما كسبت، فقال: ﴿وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً﴾ أي: سيق الكافرون إلى النار حال كونهم زمراً أي: جماعات متفرقة بعضها يتلو بعضاً. قال أبو عبيدة، والأخفش: زمراً جماعات متفرقة بعضها إثر بعض، ومنه قول الشاعر:

وترى الناس إلى أبوابه زمراً تنتابه بعد زمر
واشتقاقه من الزمر، وهو: الصوت، إذ الجماعة لا تخلو عنه ﴿حتى إذا جاءوها ففتحت أبوابها﴾ أي: فتحت أبواب النار، ليدخلوها، وهي: سبعة أبواب، وقد مضى بيان ذلك في سورة الحجر ﴿وقال لهم خزنتها﴾ جمع خازن نحو سدة، وسائر ﴿لم ياتكم رسل منكم﴾ أي: من أنفسكم ﴿يتلون عليكم آيات ربكم﴾ التي أنزلها عليهم ﴿ويبذرونكم لقاء يومكم هذا﴾ أي: يخوفونكم لقاء هذا اليوم الذي صرتم فيه، قالوا لهم هذا القول تقريباً، وتوبيخاً، فأجابوا بالاعتراف، ولم

مطويات بيمينه، فإن نكر اليمين للمبالغة في كمال القدرة كما يطوي الواحد منا الشيء المقنور له طيه بيمينه، واليمين في كلام العرب قد تكون بمعنى: القدرة، والملك. قال الأخفش: بيمينه يقول: في قدرته، نحو قوله: ﴿أو ما ملكت أيمانكم﴾ [النساء: 3] أي: ما كانت لكم قدرة عليه، وليس الملك لليمين دون الشمال، وسائر الجسد، ومنه له سبحانه: ﴿لاخنتا منه باليمين﴾ [الحاقة: 45] أي: بالقوة، والقدرة، ومنه قول الشاعر:

إذا ماراية نصبت لمجد تلقاها عرابة باليمين
وقول الآخر:

ولما رايت الشمس اشرق نورها تناولت منها حاجتي بيمين
وقول الآخر:

عطست بانف شامخ وتناولت يداي للثريا قاعداً غير قائم
وجملة ﴿والأرض جميعاً قبضته﴾ في محل نصب على الحال أي: ما عظموه حق تعظيمه، والحال أنه متصف بهذه الصفة الدالة على كمال القدرة. قرأ الجمهور برفع (قبضته) على أنها خبر المبتدأ، وقرأ الحسن بنصبها، ووجه ابن خالويه بانه على الظرفية أي: في قبضته. وقرأ الجمهور (مطويات) بالرفع على أنها خبر المبتدأ، والجملة في محل نصب على الحال كالتي قبلها، وبيمينه متعلق بمطويات، أو حال من الضمير في مطويات، أو خبر ثان، وقرأ عيسى، والجحدري بنصب (مطويات)، ووجه ذلك: أن السموات معطوفة على الأرض، وتكون قبضته خبيراً عن الأرض، والسموات، وتكون مطويات حالاً، أو تكون مطويات منصوبة بفعل مقدر، وبيمينه الخبر، وخص يوم القيامة بالذكر، وإن كانت قدرته شاملة، لأن الدعاوي تنقطع فيه كما قال سبحانه: ﴿الملك يومئذ﴾ [الحج: 56]، وقال: ﴿مالك يوم الدين﴾ [الفاحة: 4]، ثم نزه سبحانه نفسه، فقال: ﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ به من المعبودات التي يجعلونها شركاء له مع هذه القدرة العظيمة، والحكمة الباهرة ﴿ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض﴾ هذه هي: النفخة الأولى، والصور هو: القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل، وقد تقدم غير مرة، ومعنى صعق: زالت عقولهم، فخرؤا مغشياً عليهم، وقيل: ماتوا. قال الواحدي: قال المفسرون: مات من الفزع، وشدة الصوت أهل السموات، والأرض. قرأ الجمهور (الصور) بسكون الواو، وقرأ قتادة، وزيد بن علي بفتحها جمع صورة، والاستثناء في قوله: ﴿إلا من شاء الله﴾ متصل، والمستثنى جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وقيل: رضوان، وجملة العرش، وخزنة الجنة، والنار ﴿ثم نفخ فيه نفخة﴾ يجوز أن يكون أخرى في محل رفع على التلياة، وهي صفة لمصدر محذوف أي: نفخة أخرى، ويجوز أن يكون في محل نصب، والقائم مقام الفاعل فيه ﴿فإذا هم قيام ينظرون﴾ يعني: الخلق كلهم قيام على أرجلهم ينظرون ما يقال لهم، أو ينتظرون ذلك. قرأ الجمهور (قيام) بالرفع على أنه خبر، وينظرون في محل نصب على

يقدرُوا عل الجدل الذي كانوا يتعللون به في الدنيا لانكشاف الامر، وظهوره، ولهذا ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ أي: قد اتتنا الرسل بآيات الله، وأنزونا بما سنلقاه ﴿وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، وهي: ﴿لَامِلَانِ جَهَنَّمَ مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: 119] فلما اعترفوا هذا الاعتراف ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ التي قد فتحت لكم؛ لتدخلوها، وانتصاب ﴿خَالِدِينَ﴾ على الحال أي: مقترنين الخلود ﴿فَيُفْسِ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ المخصوص بالذم محذوف أي: بثس مثواهم جهنم، وقد تقدّم تحقيق المَثْوَى في غير موضع.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿مَقَالِيدِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال: مفاتيحها. وأخرج أبو يعلى، ويوسف القاضي في سننه، وأبو الحسن القطان، وابن السني، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه عن عثمان بن عفان قال: سألت رسول الله ﷺ عن قول الله ﷻ ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، فقال لي: يا عثمان لقد سألتني عن مسألة لم يسألني عنها أحد قبلك، مقاليد السموات، والأرض: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، وأستغفر الله الذي لا إله إلا هو، الأول، والآخر، والظاهر، والباطن، يحيي، ويميت، وهو حي لا يموت، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير، ثم نكر فضل هذه الكلمات. وأخرجه ابن مريويه عن ابن عباس، عن عثمان قال: جاء إلى النبي ﷺ، فقال له: أخبرني عن مقاليد السموات، والأرض، فنكره. وأخرجه الحارث بن أبي أسامة، وابن مريويه عن أبي هريرة، عن عثمان. وأخرجه في البيهقي في الاسماء والصفات عن ابن عمر، عن عثمان. وأخرج ابن مريويه عن ابن عباس: أن قريشاً دعت رسول الله ﷺ أن يعطوه مالا، فيكون أغنى رجل بمكة، ويزوجه ما أراد من النساء، ويطأون عقبه، فقالوا له: هذا لك يا محمد، وتكف عن شتم ألهتنا، ولا تنكرها بسوء. قال: حتى انظر ما يأتيني من ربي، فجاء بالوحي ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون: 1] إلى آخر السورة، وأنزل الله عليه ﴿قُلْ أَغْيِرَ اللَّهُ قَامِرُونِي أَعْبُدْهُنَّ أَمْ أَجَاهِلُونَ﴾ إلى قوله: ﴿مَنْ الْخَاسِرِينَ﴾. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن ابن مسعود قال: جاء خبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد إنا نجد أن الله يحمل السموات يوم القيامة على أصبع، والشجر على أصبع، والماء والثرى على أصبع، وسائر الخلق على أصبع، فيقول: أنا الملك، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقا لقول الخبر، ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما من حديث أبي هريرة، سمعت رسول الله ﷺ يقول: يقبض الله الأرض يوم القيامة، ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض؟، وفي الباب لحديث، وأثار تقتضي حمل الآية على ظاهرها من بون

تكلف لتأويل، ولا تعسف لقال وقيل، وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أبي هريرة قال: قال رجل من اليهود بسوق المدينة: والذي اصطفى موسى على البشر، فرفع رجل من الأنصار يده، فطمه، فقال: اتقول هذا وفيما رسول الله ﷺ، فنكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «قال الله: ﴿وَنَفَخَ فِي الصُّورِ فُصِّعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾، فلكون أول من يرفع رأسه، فإذا أنا بموسى أخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أرفع رأسه قبلي، أو كان ممن استثنى الله. وأخرج أبو يعلى، والدارقطني في الأفراد، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مريويه، والبيهقي في البعث عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ قال: هم الشهداء متقلدون أسياهم حول عرشه تتلقاهم الملائكة يوم القيامة، الحديث. وأخرجه سعيد بن منصور، وعبد بن حميد من أقوال أبي هريرة. وأخرج الفريابي، وابن جرير، وأبو نصر السجزي في الإبانة، وابن مريويه عن انس: أنه سأل رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾، فقال: «جبريل، وميكائيل، وملك الموت، وإسرافيل، وحمة العرش». وأخرج ابن المنذر عن جابر في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ قال: موسى، لأنه كان صقع قبل. والأحاديث الواردة في كيفية نفخ الصور كثيرة. وأخرج عبد بن حميد، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ قال: النبيين الرسل، والشهداء الذين يشهدون لهم بالبلاغ ليس فيهم طعان، ولا لعان. وأخرج ابن جرير، وابن مريويه عنه في الآية قال: يشهدون بتبليغ الرسالة، وتكذيب الأمم إياهم.

وَسَيَقُولُ الَّذِينَ أَتَقُوا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمْرًا حَقًّا إِذَا جَاءَهُمَا وَنُفِخَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ رَبِّكُمْ قَدْ دَخَلْتُمُهَا خَالِدِينَ ﴿٧٦﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنَمُّ بِأَجْرِ الْعَمَلِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَنُصْنِي بَيْنَهُمْ بِالْحَمْدِ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٨﴾

لما نكر فيما تقدّم حال الذين كفروا، وسوقهم إلى جهنم، نكر هنا حال المتقين، وسوقهم إلى الجنة، فقال: ﴿وَسَيَقُولُ الَّذِينَ اتَّقُوا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمْرًا﴾ أي: ساقطتهم الملائكة سوق إعزاز، وتشريف، وتكريم. وقد سبق بيان معنى الزمر ﴿حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها﴾ جواب إذا محذوف. قال المبرد تقديره: سعوا، وفتحت، وأنشد قول الشاعر: فلو أنها نفس تموت جميعاً ولكنها نفس تساقط أنفاسا فحنف جواب لو، والتقدير: لكان أروح. وقال الزجاج: القول عندي: أن الجواب محذوف على تقدير: حتى إذا جاءوها، وكانت هذه الأشياء التي نكرت دخولها، فالجواب لدخولها، وحنف: لأن في الكلام ليلياً عليه. وقال الاخفش،

تعالى على عله في الحكم، وقضائه بين عباده بالحق.

وقد أخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والذين يلونهم على ضوء أشد كوكب دري في السماء إضاءة». وأخرج، وغيرهما عن سهل بن سعد: أن رسول الله ﷺ قال: «في الجنة ثمانية أبواب منها باب يسمى باب: الريان لا يدخله إلا الصائمون»، وقد ورد في كون أبواب الجنة ثمانية أبواب أحاديث في الصحيحين، وغيرهما. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن قتادة في قوله: «وَأَوْرَثْنَا الْأَرْضَ» قال: أرض الجنة. وأخرج هناد عن أبي العالية مثله.

تفسير سورة غافر

وهي مكية في قول الحسن، وعطاء، وعكرمة، وجابر. قال الحسن: إلا قوله: «وسبح بحمد ربك» [غافر: 55]، لأن الصلوات نزلت بالمدينة. وقال ابن عباس، وقتادة: إلا آيتين نزلتا بالمدينة، وهما: «إِنَّ الَّذِينَ يَجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ» [غافر: 56]، والتي بعدها، وهي خمس وثمانون آية، وقيل: اثنتان وثمانون آية. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: أنزلت سورة حم المؤمن بمكة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: أنزلت الحواميم السبع بمكة. وأخرج ابن مردويه، والديلمي عن سمرة بن جندب قال: نزلت الحواميم جميعاً بمكة. وأخرج محمد بن نصر، وابن مردويه عن أنس بن مالك: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله أعطاني السبع الحواميم مكان التوراة، وأعطاني الرءاء إلى الطواسين مكان الإنجيل، وأعطاني ما بين الطواسين إلى الحواميم مكان الزبور، وفضلني بالحواميم، والمفصل ما قرأه نبي قبلي». وأخرج أبو عبيد في فضائله عن ابن عباس قال: إن لكل شيء لباباً، وإن لباب القرآن آل حم. وأخرج أبو عبيد، وابن الضريس، وابن المنذر، والحاكم، والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود قال: الحواميم ديباج القرآن. وأخرج أبو عبيد، ومحمد بن نصر، وابن المنذر عنه قال: إذا وقعت في آل حم وقعت في روضات لمثات أتانق فيهن. وأخرج أبو الشيخ، وأبو نعيم، والديلمي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «الحواميم ديباج القرآن». وأخرج البيهقي في الشعب عن خليل بن مرة: أن رسول الله ﷺ قال: «الحواميم سبع، وأبواب النار سبع، تجيء كل حم منها تقف على باب من هذه الأبواب تقول: «اللهم لا تدخل من هذا الباب من كان يؤمن بي، ويقرؤني». وأخرج أبو عبيد، وابن سعد، ومحمد بن نصر، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حم المؤمن أي: [غافر: 1 - 3]، وآية الكرسي [البقرة: 255] حين يصبح، حفظ بهما حتى يمسي، ومن قرأهما حين

والكوفيون: الجواب فتحت، والواو زائدة، وهو خطأ عند البصريين، لأن الواو من حروف المعاني، فلا تزداد. قيل: إن زيادة الواو دليل على أن الأبواب فتحت لهم قبل أن يأتوا لكرامتهم على الله، والتقدير: حتى إذا جاءوها، وأبوابها مفتحة بدليل قوله: «جَنَاتٍ عِدْنَ مَفْتَحًا لَهُمُ الْأَبْوَابُ» [ص: 50]، وحنفت الواو في قصة أهل النار، لأنهم وقفوا على النار، وفتحت بعد وقوفهم إذلالاً، وترويعاً. نكر معناه النحاس منسوباً إلى بعض أهل العلم، قال: ولا أعلم أنه سبقه إليه أحد. وعلى هذا القول تكون الواو وإو الحال بتقدير قد أي: جاءوها، وقد فتحت لهم الأبواب. وقيل: إنها واو الثمانية، وذلك أن من عادة العرب أنهم كانوا يقولون في العدد: خمسة ستة سبعة، وثمانية، وقد مضى القول في هذا في سورة براءة مستوفى، وفي سورة الكهف أيضاً. ثم أخبر سبحانه: أن خزنة الجنة يسلمون على المؤمنين، فقال: «وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ» أي: سلامة لكم من كل آفة «طَبِئْتُمْ» في الدنيا، فلم تتدنسوا بالشرك، والمعاصي. قال مجاهد: طبتم بطاعة الله، وقيل: بالعمل الصالح، والمعنى واحد. قال مقاتل: إذا قطعوا جسر جهنم حبسوا على قنطرة بين الجنة، والنار، فيقتصر لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم حتى إذا هنبوا، وطيبوا قال لهم رضوان، وأصحابه: «سَلَامٌ عَلَيْكُمْ» الآية «فَانْخَلَوْهَا» أي: انخلوا الجنة «خَالِدِينَ» أي: مقدرين الخلود، فعند ذلك قال أهل الجنة: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَنَعْتَنَا وَوَدَّعَهُ» بالبعث، والثواب بالجنة «وَأَوْرَثْنَا الْأَرْضَ» أي: أرض الجنة كأنها صارت من غيرهم إليهم، فملكوها، وتصرفوا فيها، وقيل: إنهم ورثوا الأرض التي كانت لأهل النار لو كانوا مؤمنين. قاله أكثر المفسرين. وقيل: إنها أرض الدنيا، وفي الكلام تقديم، وتأخير «فَنَتَبَّوْا مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ» أي: نتخذ فيها من المنازل ما نشاء حيث نشاء «فَنَعْمَ لِّجْرِ الْعَامِلِينَ» المخصوص بالمدح محذوف أي: فنعمة لجر العاملين الجنة، وهذا من تمام قول أهل الجنة. وقيل: هو من قول الله سبحانه «وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ» أي: محيطين محققين به، يقال: حَفَّ القوم بفلان إذا أطافوا به، و«من» مزيدة. قاله الأخفش، أو للابتداء، والمعنى: أن الرائي يراهم بهذه الصفة في ذلك اليوم، وجملة «يَسْبَحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ» في محل نصب على الحال أي: حال كونهم مسبحين لله ملتبسين بحمده، وقيل: معنى يسبحون: يصلون حول العرش شكراً لربهم، والحافين جمع حاف، قاله الأخفش. وقال الفراء: لا واحد له إن لا يقع لهم هذا الاسم إلا مجتمعين «وَقُضِيَ بَيْنَهُمُ بِالْحَقِّ» أي: بين العباد بإسخال بعضهم الجنة، وبعضهم النار، وقيل: بين النبيين الذين جيء بهم مع الشهداء، وبين أمهم بالحق، وقيل: بين الملائكة بإقامتهم في منازلهم على حسب درجاتهم، والأول أولى «وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» القائلون هم: المؤمنون حمدوا الله على قضائه بينهم، وبين أهل النار بالحق، وقيل: القائلون هم: الملائكة حمدوا الله

يمسي، حفظ بهما حتى يصبح».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمَّ ❶ تَزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ❷ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ
التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الْقَوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْعَصِيدِ ❸ مَا يَجِدُ
فِي يَمِينِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَنفَرُكَ تَقَاتُّبُهُمْ فِي الْبَلَدِ ❹ كَذَّبَتْ
قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَعَتْ كُلُّ أُمَّةٍ رُسُلُهُمْ يَاسْأَلُوهُ
وَجَدُوا لَهَا الْبَاطِلَ يُدْخِلُهَا فِيهِ لُفَقٌ فَلَعَنَ اللَّهُ أُمَّةَ نُوْحٍ فَكَفَىٰ كَانَ عِقَابِ ❺
وكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ❻
الَّذِينَ يَجْمَلُونَ الْمُشْرِكِينَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ
لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا
وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ❼ رَبَّنَا وَادْخُلْنَاهُمْ جَنَّاتٍ عِدْنٍ الَّتِي
وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ مَلَكَ مِنْ أَقْبَابِهِمْ وَادْخُلْهُمْ دُورَهُمْ إِنَّكَ أَنْتَ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ❽ وَفَهُمُ السَّعَاتِ وَمَنْ تَبَى السَّعَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ
رَحِمَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْقَوْلُ الْعُظِيمُ ❾

قوله: ﴿حَمَّ﴾ قرأ الجمهور بفتح الحاء مشبوعاً، وقرأ حمزة، والكسائي بإمالة إمالة مضحة. وقرأ أبو عمرو بإمالة بين بين، وقرأ الجمهور حَمَّ بسكون الميم كسائر الحروف المقطعة. وقرأ الزهري بضمها على أنها خبر مبتدأ مضمرة، أو مبتدأ، والخبر ما بعده. وقرأ عيسى بن عمر الثقفي بفتحها على أنها منصوبة بفعل مقدر، أو على أنها حركة بناء لا حركة إعراب. وقرأ ابن أبي إسحاق، وأبو السمك بكسرها للالتقاء الساكنين، أو بتقدير القسم. وقرأ الجمهور بوصل الحاء بالميم. وقرأ أبو جعفر بقطعها.

وقد اختلف في معناه، فقيل: هو اسم من أسماء الله، وقيل: اسم من أسماء القرآن. وقال الضحاک، والكسائي معناه: قضى، وجعله بمعنى حَمَّ أي: قضى، ووقع، وقيل: معناه حَمَّ أمر الله أي: قرب نصره لأوليائه، وانتقامه من أعدائه. وهذا كله تكلف لا موجب له، وتعسف لا ملجئ إليه، والحق أن هذه الفاتحة لهذه السورة، وأمثالها: من المتشابه الذي استأثر الله بعلم معناه كما قدّمنا تحقيقه في فاتحة سورة البقرة ﴿تنزيل الكتاب﴾ هو: خبر لحمّ على تقدير أنه مبتدأ، أو خبر لمبتدأ مضمّر، أو هو: مبتدأ، وخبره ﴿من الله العزيزّ للعليم﴾ قال الرازي: المراد بتنزيل المنزل، والمعنى: أن القرآن منزل من عند الله ليس بكذب عليه. والعزيز: الغالب القاهر، والعليم: الكثير العلم بخلقه، وما يقولونه، ويفعلونه ﴿غافر للذنوب وقابل للتوب شديد العقاب﴾ قال الفراء: جعلها كالنعت للمعرفة، وهي: نكرة، ووجه قوله هذا: أن إضافتها لفظية، ولكنه يجوز أن تجعل إضافتها معنوية كما قال سيبويه: إن كل ما إضافته غير محضة يجوز أن تجعل محضة، وتوصف به المعارف إلا الصفة المشبهة. وأما الكوفيون، فلم يستثنوا شيئاً بل جعلوا الصفة المشبهة كاسم للفاعل في جواز جعلها إضافة

محضة، وذلك حيث لا يراد بها زمان مخصوص، فيجوزون في شديدها أن تكون إضافته محضة. وعلى قول سيبويه: لا بد من تأويله بمشدد. وقال الزجاج: إن هذه الصفات الثلاث مخفوضة على البذل. وروي عنه: أنه جعل غافر، وقابل مخفوضين على الوصف، وشديد مخفوض على البذل، والمعنى: غافر الذنب لأولياته، وقابل توبتهم، وشديد العقاب لأعدائه، والتوب مصدر بمعنى: التوبة من تاب يتوب توبة، وتوباً، وقيل: هو جمع توبة، وقيل: غافر الذنب لمن قال: لا إله إلا الله، وقابل التوب من الشرك، وشديد العقاب لمن لا يوحد، وقوله: ﴿ذِي الطُّولِ﴾ يجوز أن يكون صفة، لأنه معرفة، وأن يكون بدلاً، وأصل الطول الإنعام، والتفضل أي: ذي الإنعام على عباده، والتفضل عليهم. وقال مجاهد: ذي الغنى، والسعة. ومنه قوله: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً﴾ [النساء: 25] أي: غنى، وسعة، وقال عكرمة: ذي الطول ذي المَن. قال الجوهري: والطول بالفتح المَن يُقال منه: طال عليه، ويطول عليه إذا امتنَّ عليه. وقال محمد بن كعب: ذي الطول ذي التفضل. قال الماورودي: والفرق بين المَن، والتفضل: أن المَن عفو عن ذنب، والتفضل إحسان غير مستحق. ثم نكر ما يدل على توحيده، وأنه الحقيق بالعبادة، فقال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهِي الْمَصِيرُ﴾ لا إلى غيره، وذلك في اليوم الآخر. ثم لما نكر أن القرآن كتاب الله أنزله؛ ليهتدي به في الدين نكر أحوال من يجادل فيه لقصد إبطاله، فقال: ﴿مَا يَجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: ما يخاصم في نفع آيات الله، وتكذيبها إلا الذين كفروا، والمراد: الجدل بالباطل، والقصد إلى بعض الحق كما في قوله: ﴿وَجَادِلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُبْحِثُوا بِهِ الْحَقَّ﴾. فاما الجدل لاستيضاح الحق، ورفع اللبس، والبحث عن الراجح، والمرجوح، وعن المحكم، والمتشابه، ودفع ما يتعلق به المبطلون من متشابهات القرآن، وردَّهم بالجدال إلى المحكم، فهو من أعظم ما يتقرب المتقربون، وبذلك أخذ الله الميثاق على الذين أوتوا الكتاب، فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: 187]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [البقرة: 159]، وقال: ﴿وَلَا تَجَالُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: 46] ﴿فَلَا يَغْرُوكَ تَقْلِبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾ لما حكم سبحانه على المجادلين في آيات الله بالكفر، نهى رسوله ﷺ عن أن يغتر بشيء من حظوظهم الدنيوية، فقال: فلا يغرك ما يفعلونه من التجارة في البلاد، وما يحصلونه من الأرباح، ويجمعونه من الأموال، فإنهم معاقبون عما قليل، وإن أسهلوا، فإنهم لا يهتملون. قال الزجاج: لا يغرك سلامتهم بعد كفرهم، فإن عاقبتهم الهلاك. قرأ الجمهور (لا يغرك) بفك الإدغام. وقرأ زيد بن علي، وعبيد بن عمير بالإدغام. ثم بين حال من كان قبلهم، وأن هؤلاء سلكوا سبيل أولئك في التكذيب، فقال: ﴿كَذَبْتَ قَبْلَهُمْ قَوْمَ نُوحٍ

والأحزاب من بعدهم» الضمير في من بعدهم يرجع إلى قوم نوح أي: وكذبت الأحزاب الذين تحزّبوا على الرسل من بعد قوم نوح كعاد، وشود «ووهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه» أي: همت كل أمة من تلك الأمم المكتبة برسولهم الذي أرسل إليهم؛ ليأخذوه؛ ليتمكنوا منه، فيحبسوه، ويعذبوه، ويصيبوا منه ما أرادوا. وقال قتادة، والسدي: ليقتلوه، والأخذ قد يرد بمعنى: الإهلاك، كقوله: ف «أخذتهم فكيف كان نكير» [الحج: 44] والعرب تسمي الأسير الأخيذ «وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق» أي: خاصموا رسولهم بالباطل من القول، ليدحضوا به الحق؛ ليزيلوه، ومنه مكان نحض أي: مزلفة، ومزلة أقدام، والباطل داحض؛ لأنه يزلق، ويحول، فلا يستقر. قال يحيى بن سلام: جادلوا الأنبياء بالشرك؛ ليلطلوا به الإيمان «فأخذتهم فكيف كان عقاب» أي: فأخذت هؤلاء المجانلين بالباطل، فكيف كان عقابي الذي عاقبتهم به، وحذف ياء المتكلم من عقاب اجتزاء بالكسرة عنها وصلاً، ووقفاً؛ لأنها رأس آية «وكنكح حقت كلمت ربك على الذين كفروا» أي: وجبت، وثبتت، ولزمت، يقال: حق الشيء إذا لزم، وثبت، والمعنى: وكما حقت كلمة العذاب على الأمم المكتبة لرسلهم حقت على الذين كفروا به، وجادلوك بالباطل، وتحزّبوا عليك، وجملة «أنهم أصحاب النار» للتعليل أي: لأجل أنهم مستحقون للنار. قال الأخفش: أي: لأنهم، أو بأنهم. ويجوز أن تكون في محل رفع بدلاً من كلمة. قرأ الجمهور (كلمة) بالتوحيد، وقرأ نافع، وابن عامر (كلمات) بالجمع. ثم نكر أحوال حملة العرش، ومن حوله، فقال: «الذين يحملون العرش ومن حوله»، والموصول مبتدأ، وخبره يسبحون بحمد ربهم، والجملة مستأنفة مسوقة لتسلية رسول الله ﷺ، ببيان أن هذا الجنس من الملائكة الذين هم أعلى طبقاتهم يضمنون إلى تسبيحهم لله، والإيمان به الاستغفار للذين آمنوا بالله، ورسوله، وصنّفوا، والمراد بمن حول العرش: هم: الملائكة الذين يطوفون به مهللين مكبرين، وهو في محل رفع عطفاً على الذين يحملون العرش، وهذا هو الظاهر. وقيل: يجوز أن تكون في محل نصب عطفاً على العرش، والأول أولى. والمعنى: أن الملائكة الذين يحملون العرش، وكنكح الملائكة الذين هم حول العرش ينزهون الله ملتبسين بحمده على نعمه، ويؤمنون بالله، ويستغفرون الله لعباده المؤمنين به. ثم بين سبحانه كيفية استغفارهم للمؤمنين، فقال حاكياً عنهم: «ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً»، وهو بتقدير القول أي: يقولون ربنا، أو قائلين: ربنا وسعت كل شيء رحمة، وعلماً انتصاب رحمة، وعلماً على التمييز المحوّل عن الفاعل، والأصل وسعت رحمتك، وعلمك كل شيء «فأغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك» أي: أوقفوا التوبة عن الذنوب، واتبعوا سبيل الله، وهو دين الإسلام «وقهم عذاب الجحيم» أي: احفظهم منه «ربنا وأدخلهم جنات عدن» «وأدخلهم» معطوف على قوله: «وقهم»، ووسط الجملة الندائية لقصد

وقد أخرج ابن مردويه عن أبي أمامة قال: «حم» اسم من أسماء الله. وأخرج عبد الرزاق في المصنف، وأبو عبيد، وابن سعد، وابن أبي شيبه، وأبو داود، والترمذي، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن المهلب بن أبي صفرة قال: حدثني من سمع النبي ﷺ يقول ليلة الخندق: «إن أتيت الليلة، فقولوا حم لا ينصرون». وأخرج ابن أبي شيبه، والنسائي، والحاكم، وابن مردويه عن البراء بن عازب: أن رسول الله ﷺ قال: «إنكم تلقون عدوكم، فليكن شعاركم حم لا ينصرون». وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله: «ذي الطول» قال: ذي السعة، والغنى. وأخرج الطبراني في الأوسط، وابن مردويه عن ابن عمر في قوله: «غافر الذنب» الآية قال: غافر الذنب لمن يقول: لا إله إلا الله «قابل التوب» ممن يقول: لا إله إلا الله «شديد العقاب» لمن لا يقول: لا إله إلا الله «ذي الطول» ذي الغنى «لا إله إلا هو» كانت كفار قريش لا يوحون، فوجد نفسه «إليه المصير» مصير من يقول: لا إله إلا الله، فيدخله الجنة، ومصير من لا يقول: لا إله إلا الله، فيدخله النار. وأخرج عبد بن حميد عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: «إن جدلاً في القرآن كفر». وأخرج عبد بن حميد، وأبو داود عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مراء في القرآن كفر».

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُتَادَرَسُ لَمْ تَأْتِ الْكُفْرَ مِنْ مَقَامِكُمْ أَتُكْسَمُ
إِذْ تَدْعُونَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتُكْفَرُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا رَبَّنَا أَتُنَزِّلُ الْكِتَابَ
أَنْتَ نَزَّلْتَ الْفُتْرَانِ فَتُؤْتَانَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴿١٧﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ

إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُتْرَكَ يَوْمَ تَأْتُوا قَالَتْكُمْ لِلَّهِ الْمَلِكِ الْكَبِيرِ ﴿٣٧﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ مَائِدَتِهِ وَيُزِيلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴿٣٨﴾ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٩﴾ رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْزِلَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ هُمْ بَدْرُؤًا لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لَبَّى لَبَّى الْمَلِكُ الْحَكِيمُ يَوْمَ الْوَجْدِ الْقَهَّارِ ﴿٤١﴾ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤٢﴾ وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ أَدَّى الْمَتَاعِ كَظِيمٌ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمٍ وَلَا سَمِيعٌ يُطَاعُ ﴿٤٣﴾ يَعْلَمُ حَايَةَ الْأَغْنَى وَمَا خَفَى الْفَقْرِ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَالِقٍ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٤٥﴾

أن صاروا في النار بما كتبوا به في الدنيا، فقال حاكياً عنهم: ﴿فاعترفنا بذنوبنا﴾ التي أسلفناها في الدنيا من تكذيب الرسل، والإشراك بالله، وترك توحيدِهِ، فاعترفوا حيث لا ينفعهم الاعتراف، وندموا حيث لا ينفعهم الندم، وقد جعلوا اعترافهم هذا مقدمة لقولهم: ﴿فهل إلى خروج من سبيل﴾ أي: هل إلى خروج لنا من النار، ورجوع لنا إلى الدنيا من سبيل، ومثل هذا قولهم الذي حكاه الله عنهم: ﴿فهل إلى مرد من سبيل﴾ [الشورى: 44]، وقوله: ﴿فارجعنا نعمل صالحاً﴾ [السجدة: 12]، وقوله: ﴿يا ليتنا نرد﴾ [الأنعام: 27] الآية. ثم أجاب الله سبحانه عن قولهم هذا بقوله: ﴿نلکم بانه إذا دعي الله وحده كفرتم﴾ أي: ذلك الذي أنتم فيه من العذاب بسبب أنه إذا دعي الله في الدنيا وحده بون غيره كفرتم به، وتركتم توحيدِهِ ﴿وإن يشرك به﴾ غيره من الأصنام، أو غيرها ﴿تؤمنوا﴾ بالإشراك به، وتجيبوا الداعي إليه، فبين سبحانه لهم السبب الباعث على عدم إجابتهم إلى الخروج من النار، وهو ما كانوا فيه من ترك توحيد الله، وإشراك غيره به في العبادة التي رأسها الدعاء، ومحل نلکم الرفق على أنه خير مبتداً محذوف أي: الأمر نلکم، أو مبتداً خبره محذوف أي: نلکم العذاب الذي أنتم فيه بذلك السبب، وفي الكلام حذف، والتقدير: فاجيبوا بأن لا سبيل إلى الرد، ونلك لأنكم كنتم إذا دعي الله إلخ ﴿فالحكم لله﴾ وحده بون غيره، وهو الذي حكم عليكم بالخلود في النار، وعدم الخروج منها، و﴿العلي﴾ المتعالي عن أن يكون له مماثل في ذاته، ولا صفاته، و﴿الكبير﴾ الذي كبر عن أن يكون له مثل، أو صاحبة، أو ولد، أو شريك ﴿هو الذي يريكم آياته﴾ أي: دلائل توحيدِهِ، وعلامات قدرته ﴿وينزل لكم من السماء رزقاً﴾ يعني: المطر، فإنه سبب الأرزاق. جمع سبحانه بين إظهار الآيات، وإنزال الأرزاق، لأن بإظهار الآيات قوام الألبان، وبالأرزاق قوام الأبدان، وهذه الآيات هي: التكوينية التي جعلها الله سبحانه في سمواته، وأرضه، وما فيها، وما بينهما. قرأ الجمهور (ينزل) بالتشديد. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو بالتخفيف ﴿وما يتذكر إلا من ينيب﴾ أي: ما يتذكر، ويتعظ بتلك الآيات الباهرة، فيستدل بها على التوحيد، وصدق الوعد، والوعيد إلا من ينيب أي: يرجع إلى طاعة الله بما يستفيده من النظر في آيات الله. ثم لما ذكر سبحانه ما نصبه من الأدلة على التوحيد أمر عباده بدعائه، وإخلاص الدين له، فقال: ﴿فادعوا الله مخلصين له الدين﴾ أي: إذا كان الأمر كما ذكر من ذلك، فادعوا الله وحده مخلصين له العبادة التي أمركم بها ﴿ولو كره الكافرون﴾ نلك، فلا تلتفتوا إلى كراهتهم، ودعوهم يموتوا بغیظهم، ويهلكوا بحسرتهم ﴿رفيع الدرجات﴾، وارتفاع رفيع الدرجات على أنه خبر آخر عن المبتداً المتقدم أي: هو الذي يريكم آياته، وهو رفيع الدرجات. وكذلك ﴿ذو العرش﴾ خبر ثالث، ويجوز أن يكون رفيع الدرجات مبتداً، وخبره ﴿ذو العرش﴾، ويجوز أن يكونا خبرين لمبتداً محذوف، ورفيع

لما ذكر سبحانه حال أصحاب النار، وأنها حقت عليهم كلمة العذاب، وأنهم أصحاب النار ذكر أحوالهم بعد دخول النار، فقال: ﴿إن الذين كفروا ينادون﴾. قال الواحدي: قال المفسرون: إنهم لما راوا أعمالهم، ونظروا في كتابهم، وأدخلوا النار، ومقتوا أنفسهم بسوء صنيعهم ناداهم حين عاينوا عذاب الله مناد ﴿لمقت الله﴾ إياكم في الدنيا إذ تدعون إلى الإيمان، فتكفرون ﴿أكبر من مقتكم أنفسكم﴾ اليوم. قال الاخفش: هذه اللام في لمقت هي: لام الابتداء أوقعت بعد ينادون؛ لأن معناه: يقال لهم، والنداء قول. قال الكلبي: يقول كل إنسان لنفسه من أهل النار: مقتك يا نفس، فتقول الملائكة لهم، وهم في النار: لمقت الله إياكم في الدنيا أشد من مقتكم أنفسكم اليوم. وقال الحسن: يعطون كتابهم، فإذا نظروا إلى سيئاتهم مقتوا أنفسهم، فينادون: لمقت الله إياكم في الدنيا ﴿إذ تدعون إلى الإيمان﴾ أكبر من مقتكم أنفسكم إذ عاينتم النار، والظرف في ﴿إذ تدعون﴾ منصوب بمقتّر محذوف دل عليه المذكور أي: مقتكم وقت دعائكم، وقيل: بمحذوف هو: أنكروا، وقيل: بالمقت المذكور، والمقت أشد البغض ثم أخبر سبحانه عما يقولون في النار، فقال: ﴿قلوا ربنا أمتنا الفتنين وأحييتنا الفتنين﴾ اثنتين في الموضعين نعتان لمصدر محذوف أي: أمتنا إمامتين اثنتين، وأحييتنا إحياءتين اثنتين، والمراد بالإمامتين: أنهم كانوا نطفاً لا حياة لهم في أصلاب آبائهم، ثم أماتهم بعد أن صاروا أحياء في الدنيا، والمراد بالإحياءتين: أنه أحياهم الحياة الأولى في الدنيا، ثم أحياهم عند البعث، ومثل هذه الآية قوله: ﴿وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميّتكم ثم يحييكم﴾ [البقرة: 28]، وقيل: معنى الآية: أنهم أميتوا في الدنيا عند انقضاء آجالهم، ثم أحياهم الله في قبورهم للسؤال، ثم أميتوا، ثم أحياهم الله في الآخرة، ووجه هذا القول: أن الموت سلب الحياة، ولا حياة للنطفة. ووجه القول الأول: أن الموت قد يطلق على عدم الحياة من الأصل، وقد ذهب إلى تفسير الأول جمهور السلف. وقال ابن زيد: المراد بالآية: أنه خلقهم في ظهر آدم، واستخرجهم، وأحياهم، وأخذ عليهم الميثاق، ثم أماتهم، ثم أحياهم في الدنيا، ثم أماتهم. ثم نكر سبحانه اعترافهم بعد

فيجيب نفسه، وقيل: إنه سبحانه يأمر منادياً ينادي بذلك، فيقول أهل المحشر مؤمنهم، وكافرهم: ﴿الله الواحد القهار﴾، وقيل: إنه يجيب المنادي بهذا الجواب أهل الجنة دون أهل النار، وقيل: هو حكاية لما ينطق به لسان الحال في ذلك اليوم لانقطاع دعاوي المبطلين، كما في قوله تعالى: ﴿وما أدراك ما يوم الدين﴾ ثم ما أدراك ما يوم الدين * يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله [الانفطار: 17 - 19]، وقوله: ﴿اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب﴾ من تمام الجواب على القول بأن المجيب هو: الله سبحانه، وأما على القول بأن المجيب هم العباد كلهم، أو بعضهم، فهو: مستأنف لبيان ما يقوله الله سبحانه بعد جوابهم أي: اليوم تجزى كل نفس بما كسبت من خير وشر لا ظلم اليوم على أحد منهم بنقص من ثوابه، أو بزيادة في عقابه ﴿إن الله سريع الحساب﴾ أي: سريع حسابه، لأنه سبحانه لا يحتاج إلى تفكر في ذلك كما يحتاجه غيره لإحاطة علمه بكل شيء، فلا يعزب عنه مثقال ذرة. ثم أمر الله سبحانه رسوله: بإبذار عباده، فقال: ﴿وانذروهم يوم الآزفة﴾ أي: يوم القيامة سميت بذلك لقربها، يقال: أزف فلان أي: قرب يازف أزفاً، ومنه قول النابغة:

أزف الترحل غير أن ركابنا لما تزل بركابنا وكان قد ومنه قوله تعالى: ﴿أزفت الآزفة﴾ [النجم: 57] أي: قريت الساعة، وقيل: إن يوم الآزفة هو: يوم حضور الموت، والأوّل أولى. قال الزجاج: وقيل لها: أزفة؛ لأنها قريبة، وإن استبعد الناس أمرها، وما هو كائن، فهو: قريب ﴿إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين﴾ وذلك أنها تزول عن مواضعها من الخوف حتى تصير إلى الحنجرة كقوله: ﴿وبلغت القلوب الحناجر﴾ [الأحزاب: 10] ﴿كاظمين﴾ مغمومين مكروبين ممثلثين غماً، قال الزجاج: للمعنى: إذ قلوب الناس لدى الحناجر في حال كظمهم. قال قتادة: وقعت قلوبهم في الحناجر من المخافة، فهي لا تخرج، ولا تعود في أمكنتها. وقيل: هو إخبار عن نهاية الجزع، وإنما قال كاظمين باعتبار أهل القلوب، لأن المعنى: إذ قلوب الناس لدى حناجرهم، فيكون حالاً منهم. وقيل: حالاً من القلوب، وجمع الحال منها جمع العقلاء؛ لأنه أسند إليها ما يسند إلى العقلاء فجمعت جمعه. ثم بين سبحانه: أنه لا ينفع الكافرين في ذلك اليوم أحد، فقال: ﴿ما للظالمين من حميم﴾ أي: قريب ينفعهم ﴿ولا شفيع يطاع﴾ في شفاعته لهم، ومحل يطاع الجر على أنه صفة لشفيع. ثم وصف سبحانه شمول علمه لكل شيء، وإن كان في غاية الخفاء فقال: ﴿يعلم خائفة الأعين﴾، وهي مسارقة النظر إلى ما لا يحل النظر إليه، والجملة خبر آخر لقوله: ﴿هو الذي يريكم﴾ قال المؤرخ: فيه تقديم، وتأخير أي: يعلم الأعين الخائفة. وقال قتادة: خائفة الأعين: الهمز بالأعين فيما لا يجب الله. وقال الضحك: هو قول الإنسان ما رأيت، وقد رأى، ورأيت، وما رأى. وقال

صفة مشبهة، والمعنى: رفيع الصفات، أو رفيع درجات ملائكته أي: معارجهم، أو رفيع درجات أنبيائه، وأوليائه في الجنة. وقال الكلبي، وسعيد بن جبير: رفيع السموات السبع، وعلى هذا الوجه يكون رفيع بمعنى: رافع، ومعنى، ذو العرش: مالكه، وخالقه، والمتصرف فيه، وذلك يقتضي علو شأنه، وعظم سلطانه، ومن كان كذلك، فهو الذي يحق له العبادة، ويجب له الإخلاص، وجملة ﴿يلقي الروح من أمره﴾ في محل رفع على أنها خبر آخر للمبتدأ المتقدم، أو للمقدر، ومعنى ذلك: أنه سبحانه يلقي الوحي ﴿على من يشاء من عباده﴾، وسمي الوحي: روحاً، لأن الناس يحيون به من موت الكفر كما تحيا الأبدان بالأرواح، وقوله: ﴿من أمره﴾ متعلق بيلقي، و «من» لا ابتداء الغاية، ويجوز أن يكون متعلقاً بمحذوف على أنه حال من الروح، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا﴾ [الشورى: 52] وقيل: الروح جبريل كما في قوله: ﴿نزل به الروح الأمين﴾ على قلبك [الشعراء: 193، 194]، وقوله: ﴿نزله روح القدس من ربك بالحق﴾ [النمل: 102]، وقوله: ﴿على من يشاء من عباده﴾ هم: الأنبياء، ومعنى ﴿من أمره﴾ من قضائه ﴿لينذر يوم التلاق﴾ قرأ الجمهور (لينذر) مبنياً للفاعل، ونصب (اليوم)، والفاعل هو: الله سبحانه، أو الرسول، أو من يشاء، والمندر به محذوف تقديره: لينذر العذاب يوم التلاق. وقرأ أبي، وجماعة كذلك إلا أنه رفع (اليوم) على الفاعلية مجازاً. وقرأ ابن عباس، والحسن، وابن السميع (لتنذر) بالفوقية على أن الفاعل ضمير المخاطب، وهو: الرسول، أو ضمير يرجع إلى الروح؛ لأنه يجوز تأنيثها. وقرأ اليماني (لينذر) على البناء للمفعول، ورفع (يوم) على النياية، ومعنى ﴿يوم التلاق﴾: يوم يلتقي أهل السموات، والأرض في المحشر، وبه قال قتادة. وقال أبو العالية، ومقاتل: يوم يلتقي العابثون، والمعبوثون، وقيل: الظالم، والمظلوم، وقيل: الأولون، والآخرين، وقيل: جزاء الأعمال، والعاملون، وقوله: ﴿يوم هم بارزون﴾ بدل من يوم التلاق. وقال ابن عطية: هو منتصب بقوله: ﴿لا يخفى على الله﴾ وقيل: منتصب بإضمار انكر، والأوّل أولى، ومعنى بارزون: خارجون من قبورهم لا يستترهم شيء، وجملة ﴿لا يخفى على الله منهم شيء﴾ مستأنفة مبينة لبروزهم، ويجوز أن تكون في محل نصب على الحال من ضمير بارزون، ويجوز أن تكون خبراً ثانياً للمبتدأ أي: لا يخفى عليه سبحانه شيء منهم، ولا من أعمالهم التي عملوها في الدنيا، وجملة ﴿لمن الملك اليوم﴾ مستأنفة جواب عن سؤال مقتر كانه قيل: فماذا يقال عند بروز الخلاق في ذلك اليوم؟ فقيل: يقال: لمن الملك اليوم؟ قال المفسرون: إذا ملك كل من في السموات، والأرض، فيقول الربّ تبارك وتعالى: ﴿لمن الملك اليوم﴾ يعني: يوم القيامة، فلا يجيبه أحد، فيجيب تعالى نفسه، فيقول: ﴿الله الواحد القهار﴾ قال الحسن: هو السائل تعالى، وهو المجيب حين لا أحد يجيبه،

غير مؤمن بالبعث، والنشور، ويدخل فرعون في هذا العموم دخولاً أولياً ﴿وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه﴾ قال الحسن، ومقاتل، والسدي: كان قبطياً، وهو: ابن عم فرعون، وهو الذي نجا مع موسى، وهو المراد بقوله: ﴿وجاء رجل من أقصا المدينة يسعى قال يا موسى﴾ [القصاص: 20] الآية، وقيل: كان من بني إسرائيل، ولم يكن من آل فرعون، وهو خلاف ما في الآية، وقد تمحل لذلك بأن في الآية تقديمًا، وتأخيرًا، والتقدير: وقال رجل مؤمن من بني إسرائيل يكتم إيمانه من آل فرعون. قال القشيري: ومن جعله إسرائيلياً، ففيه بعد، لأنه يقال: كتمه أمر كذا، ولا يقال: كتم منه كما قال سبحانه: ﴿ولا يكتُمون الله حديثاً﴾ [النساء: 42]، وأيضاً ما كان فرعون يحتمل من بني إسرائيل مثل هذا القول.

وقد اختلف في اسم هذا الرجل، فقيل: حبيب، وقيل: حزقيل، وقيل غير ذلك، قرأ الجمهور (رجل) بضم الجيم، وقرأ الأعمش، وعبد الوارث بسكونها، وهي: لغة تميم، ونجد، والأولى هي: الفصيحة، وقرأ بكسر الجيم ﴿ومؤمن﴾ صفة لرجل، ﴿ومن آل فرعون﴾ صفة أخرى، و﴿يكتم إيمانه﴾ صفة ثالثة، والاستفهام في ﴿تقتلون رجلاً﴾ للإنكار، و﴿أن يقول ربي الله﴾ في موضع نصب بنزع الخافض أي: لأن يقول، أو كرامة أن يقول، وجملة ﴿وقد جاءكم بالبينات من ربكم﴾ في محل نصب على الحال أي: والحال أنه قد جاءكم بالمعجزات الواضحات، والدلالات الظاهرات على نبوته، وصحة رسالته، ثم تلطف لهم في النفع عنه، فقال: ﴿وإن يك كاتباً فعليهِ كُتبه وإن يك صادقاً يصيبكم بعض الذي يعدكم﴾، ولم يكن قوله هذا لشك منه، فإنه كان مؤمناً كما وصفه الله. ولا يشك المؤمن، ومعنى ﴿يصيبكم بعض الذي يعدكم﴾ أنه إذا لم يصيبكم كله، فلا أقل من أن يصيبكم بعضه، وحذفت النون من يكن في الموضعين تخفيفاً لكثرة الاستعمال، كما قال سيبويه، وقال أبو عبيدة، وأبو الهيثم: بعض هنا بمعنى: كل أي: يصيبكم كل الذي يعدكم، وأنشد أبو عبيدة على هذا قول لبيد:

ترك أمكنة إذا لم أرضها أو يرتبط بعض النفوس حمامها
أي: كل النفوس، وقد اعترض عليه، وأجيب بأن البعض قد يستعمل في لغة العرب بمعنى: الكل كما في قول الشاعر:
قد يدرك المتأني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل
وقول الآخر:

إن الأمور إذاً الأحداث ببرها نون الشيوخ ترى في بعضها خلا
وليس في البيتين ما يدل على ما زعموه، وأما بيت لبيد، فقيل: إنه أراد ببعض النفوس نفسه، ولا ضرورة تلجئ إلى حمل ما في الآية على ذلك، لأنه أراد التنزل معهم، وإيهامهم: أنه لا يعتقد صحة نبوته كما يفيد قوله: ﴿يكتم إيمانه﴾ قال أهل المعاني: وهذا على المظاهرة في الحجاج، كأنه قال لهم: أقل ما يكون في صدقه أن يصيبكم بعض الذي يعدكم،

بذنوبهم﴾ أي: بسبب ذنوبهم ﴿وما كان لهم من الله من واق﴾ أي: من دافع ينفع عنهم العذاب، وقد مر تفسير هذه الآية في مواضع، والإشارة بقوله: ﴿ذلك﴾ إلى ما تقدم من الأخذ ﴿بأنهم كانت تلتتهم رسلهم بالبينات﴾ أي: بالحجج الواضحة ﴿فكفروا﴾ بما جاءهم به ﴿فأخذهم الله إنه قوي﴾ يفعل كل ما يريد لا يعجزه شيء ﴿فشد شد العقاب﴾ لمن عصاه، ولم يرجع إليه، ثم ذكر سبحانه قصة موسى، وفرعون: ليعتبروا، فقال: ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا﴾ هي: التسع الآيات التي قد تقدم ذكرها في غير موضع ﴿وسلطان مبين﴾ أي: حجة بينة واضحة، وهي: التوراة ﴿إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا﴾ إنه ﴿ساحر كذاب﴾ أي: فيما جاء به، وخصهم بالذكر: لأنهم رؤساء المكينين بموسى، وفرعون الملك، وهامان الوزير، وقارون صاحب الأموال، والكنوز ﴿فلما جاءهم بالحق من عندنا﴾، وهي: معجزاته الظاهرة الواضحة ﴿قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم﴾ قال قتادة: هذا قتل غير القتل الأول، لأن فرعون قد كان أمسك عن قتل الولدان وقت ولادة موسى، فلما بعث الله موسى أعاد القتل على بني إسرائيل، فكان يأمر بقتل الذكور، وترك النساء، ومثل هذا قول فرعون: ﴿سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم﴾ [الأعراف: 127] ﴿وما كيد الكافرين إلا في ضلال﴾ أي: في خسران ووبال، لأنه يذهب باطلاً، ويحقيق بهم ما يريد الله عز وجل ﴿وقال فرعون ذروني أقتل موسى﴾ إنما قال هذا: لأنه كان في خاصة قومه من يمنعه من قتل موسى مخافة أن ينزل بهم العذاب، والمعنى: اتركوني أقتله ﴿وليدع ربه﴾ الذي يزعم: أنه أرسله إلينا، فلم يمنعه من القتل إن قدر على ذلك أي: لا يهولنكم ذلك، فإنه لا رب له حقيقة: بل أنا ربكم الأعلى، ثم نكر العلة التي لأجلها أراد أن يقتله، فقال: ﴿إني أخاف أن يبذل دينكم﴾ الذي أنتم عليه من عبادة غير الله، ويدخلهم في بيته الذي هو: عبادة الله وحده ﴿أو أن يظهر في الأرض الفساد﴾ أي: يوقع بين الناس الخلاف، والفتنة، جعل اللعين ظهور ما دعا إليه موسى، وانتشاره في الأرض، وامتداده الناس به فساداً، وليس الفساد إلا ما هو عليه هو، ومن تابعه. قرأ الكوفيون، ويعقوب (أو أن يظهر) بأو التي للإبهام، والمعنى: أنه لا بد من وقوع أحد الأمرين. وقرأ الباقون (وأن يظهر) بدون ألف على معنى: وقوع الأمرين جميعاً، وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو يفتح الباء من (إني أخاف)، وقرأ نافع، وأبو عمرو، وحفص يظهر بضم الياء، وكسر الهاء من أظهر، وفاعله ضمير موسى، والفساد نصباً على أنه مفعول به، وقرأ الباقون بفتح الباء، والهاء، ورفع الفساد على الفاعلية ﴿وقال موسى إني عدتُ بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب﴾ قرأ أبو عمرو، وحزمة، والكسائي (عدت) بإدغام الذال، وقرأ الباقون بالإظهار، لما هذبه فرعون بالقتل استعاذ بالله عز وجل من كل متعظم عن الإيمان بالله

فمن؟ قال: أبو بكر، رايت رسول الله ﷺ، وأخذته قريش، فهذا يجنبه، وهذا يتلته، وهم يقولون: أنت الذي جعلت الآلهة إلهاً واحداً، قال: فوالله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر يضرب هذا، ويجيء هذا، ويتلثل هذا، وهو يقول: ويلكم انتقلون رجلاً أن يقول ربي الله، ثم رفع يده كانت عليه، فبكى حتى اخضلت لحيته، ثم قال: أنشدكم أمؤمن آل فرعون خير أم أبو بكر؟ فسكت القوم، فقال: ألا تجيبون؟ فوالله لساعة من أبي بكر خير من مثل مؤمن آل فرعون، وذلك رجل يكتم إيمانه، وهذا رجل أعلن إيمانه.

وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا بِقَوْمٍ إِلَىٰ آخَفٍ عَلَيْكُمْ يَنْتَلِي يَوْمَ الْآخِرَةِ ﴿١٧﴾ يَنْتَلِي
تَأْتِي قَوْمٌ نَّجْجٌ وَكَافِرٌ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ بِرَبِّدٍ لِّمَنْ لَّا يَلِدَ ﴿١٨﴾
يَنْتَقِرُ إِلَىٰ آخَفٍ عَلَيْكُمْ يَوْمَ النَّارِ ﴿١٩﴾ يَوْمَ تَكُونُ مَدِينٌ مَّا لَكُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ
عَاصِمٍ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٠﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ قَبْلِ
الَّذِي أَنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْهُ وَمَا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنَ يَمُنَّ
اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٢١﴾
الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ يَبْغِي سُلْطَانَهُمْ أَنْتَهُمْ كَبَرُ مَقَامًا عِنْدَ اللَّهِ
وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْلُبُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَوَارٍ ﴿٢٢﴾
وَقَالَ رِجْوَانٌ لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ لِمَ تَعْبُدُونَ لِلدَّهْرِ فَإِنَّهُ يَمُوتُ وَكَذَلِكَ يُزَيِّنُ
لِلْعَرَبِ شَيْئًا عَنَّا وَعَنِ السَّيْلِ وَمَا كُنْتُمْ بِفِرْعَوْنَ إِلَّا فِي بَنَاتٍ
﴿٢٣﴾ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا بِقَوْمٍ أَجْمَعِينَ أَعَدَّكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٤﴾
يَقُومُوا إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٢٥﴾
مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا نِجْمَانًا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِمَّنْ ذَكَرَ أَوْ
أَنفَسَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا
مِنْ حَسَبِ حِسَابٍ ﴿٢٦﴾

ثُمَّ كَرَّرَ نَلِكَ الرَّجُلِ الْمُؤْمِنِ تَنْكِيرَهُمْ، وَحَذَرَهُمْ أَنْ يَنْزِلَ بِهِمْ مَا نَزَلَ بِمَنْ قَبْلَهُمْ، فَقَالَ اللَّهُ حَآكِيَا عَنْهُ: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ أَي: مِثْلَ يَوْمِ عَذَابِ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ الَّتِي تَحْزَبُوا عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، وَأَقْرَدَ الْيَوْمَ؛ لِأَن جَمَعَ الْأَحْزَابَ قَدْ أَغْنَى عَنْ جَمْعِهِ، ثُمَّ فَسَّرَ الْأَحْزَابَ، فَقَالَ: ﴿مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أَي: مِثْلَ حَالِهِمْ فِي الْعَذَابِ، أَوْ مِثْلَ عَادَتِهِمْ فِي الْإِقَامَةِ عَلَى التَّكْذِيبِ، أَوْ مِثْلَ جَزَاءِ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْكَفْرِ، وَالتَّكْذِيبِ ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظَلَمًا لِلْعِبَادِ﴾ أَي: لَا يَعْزُبُهُمْ بِغَيْرِ نَنْبٍ، وَفِي الْإِرَادَةِ لِلظُّلْمِ يَسْتَلْزِمُ نَفْيَ الظُّلْمِ بِفَحْوَى الْخُطْبِ. ثُمَّ زَادَ فِي الْوَعْظِ، وَالتَّذْكِيرِ، فَقَالَ: ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ قَرَأَ الْجُمْهُورُ (التَّنَادَ) بِتَخْفِيفِ الدَّالِ، وَحُفِّ الْيَاءِ، وَالْأَصْلُ التَّنَادِي، وَهُوَ: التَّفَاعُلُ مِنَ الدَّاءِ، يُقَالُ: تَنَادَى الْقَوْمُ أَي: نَادَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَقَرَأَ الْحَسَنُ، وَابْنُ السَّمِيعِ، وَيَعْقُوبُ، وَابْنُ كَثِيرٍ، وَمُجَاهِدٌ بِإِلْثَابِ الْيَاءِ عَلَى الْأَصْلِ، وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَالضَّحَّاكُ، وَعُكْرُمَةُ بِتَشْدِيدِ الدَّالِ. قَالَ بَعْضُ أَهْلِ اللُّغَةِ: هُوَ: لِحْنٌ، لِأَنَّهُ مِنْ نَدٍّ يَنْدُو: إِذَا مَرَّ عَلَى

وفي بعض تلك هلاككم، فكان الحاصل بالبعض هو الحاصل بالكل. وقال الليث: بعض ما هنا صلة يريد يصيبكم الذي يعينكم، وقيل: يصيبكم هذا العذاب الذي يقوله في الدنيا، وهو بعض ما يتوعدكم به من العذاب وقيل: إنه وعدهم بالثواب، والعقاب، فإذا كفروا أصابهم العقاب، وهو بعض ما وعدهم به ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ﴾ هذا من تمام كلام الرجل المؤمن، وهو: احتجاج آخر نو وجهين: أحدهما: أنه لو كان مسرفاً كذاباً لما هداه الله إلى البينات، ولا أيده بالمعجزات، وثانيهما: أنه إذا كان كذلك خذله الله، وأهلكه، فلا حاجة لكم إلى قتله، والمسرف المقيم على المعاصي المستكثر منها، والكذاب المفترى ﴿يَا قَوْمِ لَكُمْ مَلِكٌ لِيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ ذكرهم ذلك الرجل المؤمن ما هم فيه من الملك، ليشكروا الله، ولا يتمايوا في كفرهم، ومعنى ظاهرين: الظهور على الناس، والغلبة لهم، والاستعلاء عليهم، والأرض أرض مصر، وانتصاب ظاهرين على الحال ﴿فَمَنْ يَنْصَرِفْ مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنَّ جَاءَهُ﴾ أي: من يمننا من عذابه، ويحول بيننا، وبينه عند مجيئه، وفي هذا تحذير منه لهم من نعمة الله بهم، وإنزال عذابه عليهم، فلما سمع فرعون ما قاله هذا الرجل من النصيح الصحيح جاء بمراوغة يوهم بها قومه أنه لهم من النصيحة، والرعاية بمكان مكين، وأنه لا يسلك بهم إلا مسلماً يكون فيه جلب النفع لهم، ودفع الضرر عنهم، ولهذا قال: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ قال ابن زيد: أي: ما أشير عليكم إلا بما أرى لنفسي. وقال الضحاك: ما أعلمكم إلا ما أعلم، والرؤية هنا هي القلبية لا البصرية، والمفعول الثاني هو إلا ما أرى ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ أي: ما أهديكم بهذا الرأي إلا طريق الحق. قرأ الجمهور (الرشاد) بتخفيف الشين، وقرأ معاذ بن جبل بتشديدها على أنها صيغة مبالغة كضرب. وقال النحاس: هي: لحن، ولا وجه لذلك.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ قال: لم يكن في آل فرعون مؤمن غيره، وغير امرأة فرعون، وغير المؤمن الذي أنذر موسى الذي قال: ﴿إِنَّ الْمَلَائِكَةَ يَتَمَرُّونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ [القصص: 20] قال ابن المنذر: أخبرني أن اسمه حزقيل. وأخرج عبد بن حميد عن أبي إسحاق قال: اسمه حبيب. وأخرج البخاري، وغيره من طريق عروة قال: قيل لعبد الله بن عمرو بن العاص: أخبرنا بأشد شيء صنعه المشركون برسول الله ﷺ؟ قال: «بيننا رسول الله ﷺ يصلي بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط، فاخذ بمنكب رسول الله ﷺ، ولوى ثوبه في عنقه، فخنقه خنقاً شديداً، فاقبل أبو بكر، فاخذ بمنكبيه، ودفعه عن النبي ﷺ، ثم قال: ﴿تَقْتُلُونِ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾». وأخرج أبو نعيم في فضائل الصحابة، والبخار عن علي بن أبي طالب، أنه قال: أيها الناس أخبروني من أشجع الناس؟ قالوا: أنت. قال: أما اني ما بارزت أحداً إلا انتصفت منه، ولكن أخبروني بأشجع الناس؟ قالوا: لا نعلم،

حاتم، وأبو عبيد، وفي الكلام حذف، وتقديره: كذلك يطبع الله على كل قلب كل متكبر، فحذف كل الثانية لدلالة الأولى عليها، والمعنى: أنه سبحانه يطبع على قلوب جميع المتكبرين الجبارين، وقرأ أبو عمرو، وابن محيصن، وابن نكوان عن أهل الشام بتنوين قلب على أن متكبر صفة له، فيكون القلب مراداً به الجملة، لأن القلب هو: محل التكبر، وسائر الأعضاء تبع له في ذلك، وقرأ ابن مسعود على قلب كل متكبر. ثم لما سمع فرعون هذا رجع إلى تكبره، وتجبره معرضاً عن الموعظة نافراً من قبولها، وقال: **يا هامان ابن لي صرحاً** أي: قصراً مشيداً كما تقدم بيان تفسيره **لعلني أبلغ الأسباب** أي: الطرق. قال قتادة، والزهري، والسدي، والأخفش: هي: الأبواب. وقوله: **أسباب السموات** بيان للأسباب، لأن الشيء إذا أبهم، ثم فسر كان أوقع في النفوس، وأشد الأخفش عند تفسيره للآية بيت زهير:

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ولو رلم أسباب السماء يسلم
وقيل: أسباب السموات الأمور التي يستمسك بها **فأطلع إلى إله موسى** قرأ الجمهور بالرفع عطفاً على أبلغ، فهو على هذا داخل في حيز الترجي. وقرأ الأعرج، والسلمي، وعيسى بن عمر، وحفص بالنصب على جواب الأمر في قوله: **لإني لي**، أو على جواب الترجي كما قال أبو عبيد، وغيره. قال النحاس: ومعنى النصب خلاف معنى الرفع، لأن معنى النصب: متى بلغت الأسباب اطلعت، ومعنى الرفع: لعلني أبلغ الأسباب، ولعلني أطلع بعد ذلك، وفي هذا دليل على أن فرعون كان بمكان من الجهل عظيم، وبمنزلة من فهم حقائق الأشياء سافلة جداً **وإني لأظنه كاذباً** أي: وإني لأظن موسى كاذباً في ادعائه بأن له إلهاً، أو فيما يدعيه من الرسالة **وكنكك زين لفرعون سوء عمله** أي: ومثل تلك التزيين زين الشيطان لفرعون سوء عمله من الشرك، والتكذيب فتمادى في الغي، واستمر على الطغيان **ووصد عن السبيل** أي: سبيل الرشاد. قرأ الجمهور (وصد) بفتح الصاد، والدال أي: صد فرعون الناس عن السبيل، وقرأ الكوفيون (وصد) بضم الصاد مبتدأ للمفعول، واختار هذه القراءة أبو عبيد، وأبو حاتم، ولعل وجه الاختيار لها منهما كونها مطابقة لما أجمعوا عليه في زين من البناء للمفعول، وقرأ يحيى بن وثاب، وعلمقة (صد) بكسر الصاد، وقرأ ابن أبي إسحاق، وعبد الرحمن بن أبي بكرة بفتح الصاد، وضَم الدال منوناً على أنه مصدر معطوف على سوء عمله أي: زين له الشيطان سوء العمل، والصد **وما كيد فرعون إلا في تباب** التباب: الخسارة، والهلاك، ومنه **تبت يدا أبي لهب** [المسد: 1]، ثم إن ذلك الرجل المؤمن أعاد التذكير، والتحذير كما حكى الله عنه بقوله: **وقال الذي آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد** أي: اقتدوا بي في الدين أهدكم طريق الرشاد، وهو: الجنة، وقيل: هذا من قول موسى، والأول أولى. وقرأ معاذ بن جبل (الرشاد) بتشديد

وجهه هارباً. قال النحاس: وهذا غلط، والقراءة حسنة على معنى التناقض. قال الضحاك: في معناه: أنهم إذا سمعوا بزفير جهنم ندوا هرباً، فلا يأتون قطراً من أقطار الأرض إلا وجداً صفوفاً من الملائكة، فيرجعون إلى المكان الذي كانوا فيه، فنلك قوله: **يوم التناد**، وعلى قراءة الجمهور المعنى: يوم ينادي بعضهم بعضاً، أو ينادي أهل النار أهل الجنة، وأهل الجنة أهل النار، أو ينادي فيه بسعادة السعداء، وشقاوة الأشقياء، أو يوم ينادي فيه كل أناس بإمامهم، ولا مانع من الحمل على جميع هذه المعاني، وقوله: **يوم تولون مبدلين** بدل من يوم التناد أي: منصرفين عن الموقف إلى النار، أو فارين منها. قال قتادة، ومقاتل: المعنى: إلى النار بعد الحساب، وجملة **ما لكم من الله من عاصم** في محل نصب على الحال أي: ما لكم من يعصمكم من عذاب الله، ويمنعكم منه **ومن يضل الله فما له من هاد** يهديه إلى طريق الرشاد. ثم زاد في وعظهم، وتذكيرهم، فقال: **ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات** أي: يوسف بن يعقوب، والمعنى: أن يوسف بن يعقوب جاءهم بالمعجزات، والآيات الواضحات من قبل مجيء موسى إليهم أي: جاء إلى آبائكم، فجعل المجيء إلى الآباء مجيئاً إلى الأبناء. وقيل: المراد بيوسف هنا: يوسف بن إفرائيم بن يوسف بن يعقوب، وكان أقام فيهم نبياً عشرين سنة. وحكى النقاش، عن الضحاك: أن الله بعث إليهم رسولاً من الجن يقال له: يوسف، والأول أولى. وقد قيل: إن فرعون موسى أدرك أيام يوسف بن يعقوب لطول عمره **فما زلتم في شك مما جاءكم به** من البينات، ولم تؤمنوا به **حتى إذا هلك يوسف** قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً، فكفروا به في حياته، وكفروا بمن بعده من الرسل بعد موته **كنلك يضل الله من هو مسرف مرتاب** أي: مثل ذلك الضلال الواضح يضل الله من هو مسرف في معاصي الله مستكثر منها مرتاب في دين الله شك في وحدانيته، ووعده، ووعيده، والموصول في قوله: **الذين يجادلون في آيات الله** بدل من «من»، والجمع باعتبار معناها، أو بيان لها، أو صفة، أو في محل نصب بإضمار أعني، أو خبر مبتدأ محذوف. أي: هم الذين، أو مبتدأ، وخبره يطبع، و **بغير سلطان** متعلق بيجادلون أي: يجادلون في آيات الله بغير حجة واضحة، و **قاتهم** صفة لسلطان **كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا** يحتمل أن يراد به التعجب، وأن يراد به اللزم كبش، وفاعل كبر ضمير يعود إلى الجدل المفهوم من يجادلون، وقيل: فاعله ضمير يعود إلى من في **من هو مسرف**، والأول أولى. وقوله: **عند الله** متعلق بكبر، وكنلك **عند الذين آمنوا** قيل: هذا من كلام الرجل المؤمن، وقيل: ابتداء كلام من الله سبحانه **كنلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار** أي: كما طبع على قلوب هؤلاء المجالين، فكذلك يطبع أي: يختم على كل قلب متكبر جبار. قرأ الجمهور بإضافة قلب إلى متكبر، واختار هذه القراءة أبو

إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَشْتَرُ مُتَتَّبِعُونَ عَنَّْا فَيُجِيبَا عَنْ النَّارِ ۖ قَالَ
الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ فِيهَا لَكَاظِمِينَ ۖ إِنَّكُمْ قَدْ جَاءَكُمْ بَيْنَ الْيَدَايْنِ
وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَتَيْ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُحْثِفْ عَنَّْا يَوْمًا مِنْ
الْعَذَابِ ۖ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا
فَادْعُوا رَبَّكُمْ وَمَا تَدْعُوا إِلَّا فِي سَبِيلِ ۖ إِنَّكُمْ تَنْصُرُونَ رُسُلَكُمْ وَالَّذِينَ
آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ۖ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ
مَعُونَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ النَّارِ ۖ

كرد تلك الرجل المؤمن دعاءهم إلى الله، وصرح بإيمانه،
ولم يسلك المسالك المتقدمة من إيهامهم لهم أنه منهم، وأنه
إنما تصدَّى التنكير كراهة أن يصيبهم بعض ما توعدهم به
موسى كما يقوله الرجل المحب لقومه من التحذير عن
الوقوع فيما يخاف عليهم الوقوع فيه، فقال: ﴿ويا قوم ما
لي ادعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار﴾ أي:
أخبروني عنكم كيف هذه الحال: ادعوكم إلى النجاة من النار،
ويدخل الجنة بالإيمان بالله، وإجابة رسله، وتدعونني إلى
النار بما تريدونه مني من الشرك. قيل: معنى ﴿ما لي
ادعوكم﴾: ما لكم ادعوكم كما تقول: ما لي أراك حزينا أي:
ما لك. ثم فسر الدعوتين، فقال: ﴿تدعونني لأكفر بالله
وأشرك به ما ليس لي به علم﴾، فقلوه: تدعونني بدل من
تدعونني الأولى، أو بيان لها ﴿ما ليس لي به علم﴾ أي: ما
لا علم لي بكونه شريكاً لله ﴿ولنا ادعوكم إلى العزيز
الغفار﴾ أي: إلى العزيز في انتقامه ممن كفر ﴿الغفار﴾
لنذب من آمن به ﴿لا جرم﴾ قد تقدم تفسير هذا في سورة
هود، وجرم فعل ماض بمعنى: حق، ولا الدخلة عليه لنفي ما
ادعوه، ورد ما زعموه، وفاعل هذا الفعل هو: قوله: ﴿إنما
تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة﴾
أي: حق، ووجب بطلان دعوته. قال الزجاج: معناه: ليس له
استجابة دعوة تنفع، وقيل: ليس له دعوة توجب له الألوهية
في الدنيا، ولا في الآخرة. وقال الكلبي: ليس له شفاععة
﴿وان مرتنا إلى الله﴾ أي: مرجعنا، ومصيرنا إليه بالموت
أولاً، وبالبعث أخراً، فيجازي كل أحد بما يستحقه من خير،
وشر ﴿وان للمسرفين هم أصحاب النار﴾ أي:
المستكثرين من معاصي الله. قال قتادة، وابن سيرين: يعني:
المشركين. وقال مجاهد، والشعبي: هم السفهاء السفلكون
للنماء بغير حقها. وقال عكرمة: الجبارون، والمتكبرون. وقيل:
هم الذين تعلموا حدود الله، وإن في الموضوعين عطف على
«إن»، في قوله: ﴿إنما تدعونني إليه﴾ والمعنى: وحق أن
مرتنا إلى الله، وحق أن المسرفين إلخ ﴿فستذكرون ما أقول
لكم﴾ إذا نزل بكم العذاب، وتعلمون أنني قد بالغت في
نصحكم، وتنكيركم، وفي هذا الإبهام من التخويف، والتهديد
ما لا يخفى ﴿وافوض أمري إلى الله﴾ أي: اتوكل عليه،
واسلم أمري إليه. قيل: إنه قال هذا لما أرادوا الإيقاع به. قال
مقاتل: هرب هذا المؤمن إلى الجبل، فلم يقدروا عليه. وقيل:
القائل هو: موسى، والأول أولى ﴿فوقاه الله سيئات ما

الذين كما تقدم قريباً في قول فرعون، ووقع في المصحف
اتبعون بدون ياء، وكذلك قرأ أبو عمرو، ونافع بحذفها في
الوقف، وإثباتها في الوصل، وقرأ يعقوب، وابن كثير بإثباتها
وصلاً، ووقفاً، وقرأ الباقون بحذفها وصلاً، ووقفاً، فمن أثبتها
فعلى ما هو الأصل، ومن حذفها، فلكونها حذفت في
المصحف ﴿ويا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع﴾ يتمتع
بها إيماناً، ثم تنقطع، وتنزل ﴿وان الآخرة هي دار القرار﴾
أي: الاستقرار لكونها دائمة لا تنقطع، ومستمرة لا تنزل
﴿من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثله﴾ أي: من عمل في
دار الدنيا معصية من المعاصي كائنة ما كانت، فلا يجزى إلا
مثله، ولا يعذب إلا بقدرها، والظاهر شمول الآية لكل ما
يطلق عليه اسم السيئة، وقيل: هي خاصة بالشرك، ولا وجه
لذلك ﴿ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن﴾
أي: من عمل عملاً صالحاً مع كونه مؤمناً بالله، وبما جاءت
به رسله ﴿فاولئك﴾ الذين جمعوا بين العمل الصالح،
والإيمان ﴿يدخلون الجنة يترزقون فيها بغير حساب﴾
أي: بغير تقدير، ومحاسبة. قال مقاتل: يقول: لا تبعة عليهم
فيما يعطون في الجنة من الخير، وقيل: العمل الصالح، هو:
لا إله إلا الله. قرأ الجمهور (يدخلون) بفتح التحتية مبنياً
للفاعل. وقرأ ابن كثير، وابن محيصن، وأبو عمرو، ويعقوب،
وأبو بكر عن عاصم بضمها مبنياً للمفعول.

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس ﴿مثل داب﴾ قال:
مثل حال. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد عن قتادة
﴿مثل داب قوم نوح﴾ قال: هم الأحزاب: قوم نوح، وعاد،
وثمود. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله: ﴿ولقد
جاءكم يوسف من قبل بالبينات﴾ قال: رؤيا يوسف، وفي
قوله: ﴿الذين يجادلون في آيات الله﴾ قال: يهود. وأخرج
ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿إلا في
تباب﴾ قال: خسران. وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد
نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿إنما
هذه الحياة الدنيا متاع﴾ قال: الدنيا جمعة من جمع الآخرة
سبعة آلاف سنة. وأخرج ابن مريويه عن أبي هريرة قال:
قال رسول الله ﷺ: ﴿إن الحياة الدنيا متاع، وليس من
متاعها شيء أفضل من المرأة الصالحة، التي إذا نظرت إليها
سرتك، وإذا غبت عنها حفظتك في نفسك، ومالها﴾.

﴿وتقرئ ما يادعوكم إلى الحق وتدعونني إلى النار﴾ تدعونني
لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم وأنا ادعوكم إلى العزيز
الغفار ﴿لا جرم أنا تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة﴾
وإن مردنا إلى الله وأنت الشريد هم أصحاب النار ﴿ستذكرون ما
أقول لكم وأتوسلتم إلى الله إنك الله بصيراً بالعباد﴾ فوعدته
الله سيئات ما مكروا وقال فرعون سوء العذاب ﴿انار
يمرشون عليها عدواً وعشيّاً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد
العذاب﴾ وإن يتحاجون في النار فيقول الضممتوا للذين استكبروا

مكروا أي: وقاه الله ما أراؤا به من المكر السيئ، وما أراؤا به من الشر. قال قتادة: نجاه الله مع بني إسرائيل **ووحاق بال فرعون سوء العذاب** أي: أحاط بهم، ونزل عليهم سوء العذاب. قال الكسائي: يقال: حاق يحيق حيقاً، وحيوقاً: إذا نزل، ولزم. قال الكلبي: غرقوا في البحر، وبخلوا النار، والمراد بال فرعون: فرعون، وقومه، وترك التصريح به للاستغناء بذكرهم عن نكره لكونه أولى بذلك منهم، أو المراد بال فرعون فرعون نفسه. والأول أولى؛ لأنهم قد عذبوا في الدنيا جميعاً بالغرق، وسيعذبون في الآخرة بالنار، ثم بين سبحانه ما أجمله من سوء العذاب، فقال: **ال نار يعرضون عليها غداً وعشيا**، فارتفاع النار على أنها بدل من سوء العذاب، وقيل: على أنها خير مبتدأ محذوف، أو مبتدأ، وخبره يعرضون، والأول أولى، ورجحه الزجاج، وعلى الوجهين الآخرين تكون الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر. وقرئ بالنصب على تقدير فعل يفسره يعرضون من حيث المعنى أي: يصلون النار يعرضون عليها، أو على الاختصاص، وإجاز الفراء الخفض على البذل من العذاب. وذهب الجمهور أن هذا العرض هو في البرزخ، وقيل: هو في الآخرة. قال الفراء: ويكون في الآخرة، وتأخير أي: أدخلوا آل فرعون أشد العذاب النار يعرضون عليها غداً وعشيا، ولا ملجئ إلى هذا التكلف، فإن قوله: **ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب** يدل دلالة واضحة على أن ذلك العرض هو في البرزخ، وقوله: **أدخلوا** هو بتقدير القول أي: يقال للملائكة: أدخلوا آل فرعون، و **أشد العذاب** هو: عذاب النار. قرأ حمزة، والكسائي، ونافع، وحفص (أدخلوا) بفتح الهمزة، وكسر الخاء، وهو على تقدير القول كما نكر. وقرأ الباقون (أدخلوا) بهمزة وصل من بخل يدخل أمراً لآل فرعون بالدخول بتقدير حرف النداء أي: أدخلوا يا آل فرعون أشد العذاب **واذا يتحاجون في النار** الظرف منصوب بإضمار أنكر. والمعنى: أنكر لقومك وقت تخاصمهم في النار، ثم بين سبحانه هذا التخاصم، فقال: **فيقول الضعفاء للذين استكبروا** عن الانقياد للأنبياء، والاتباع لهم، وهم رؤساء الكفر **إنا كنا لكم تبعاً** جمع لتابع، كخدم، وخادم، أو مصدر واقع موقع اسم الفاعل أي: تابعين، أو على حذف مضاف أي: نوي تبع. قال البصريون: التابع يكون واحداً، ويكون جمعاً. وقال الكوفيون: هو جمع لا واحد له **فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار** أي: هل تدفعون عنا نصيباً منها، أو تحملونه معنا، وانتصاب نصيباً بفعل مقدر يدل عليه مغنون أي: هل تدفعون عنا نصيباً، أو تمنعون على تضمينه معنى حاملين أي: هل أنتم حاملون معنا نصيباً، أو على المصدرية **قال الذين استكبروا إنا كل فيها** هذه الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر، والمعنى: إنا نحن، وأنتم جميعاً في جهنم، فكيف تغني عنكم. قرأ الجمهور (كل) بالرفع على الابتداء، وخبره **فيها**،

والجملة خبر إن، قاله الأخفش. وقرأ ابن السميّ، وعيسى بن عمر (كلاً) بالنصب. قال الكسائي، والفراء على التأكيد لاسم إن بمعنى: كلنا، وتنوينه عوض عن المضاف إليه، وقيل: على الحال، ورجحه ابن مالك **إن الله قد حكم بين العباد** أي: قضى بينهم بأن فريقاً في الجنة، وفريقاً في السعير **وقال الذين في النار** من الأمم الكافرة، مستكبرهم، وضعفهم **لخزنة جهنم** جمع خازن، وهو القوام بتعذيب أهل النار **ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب** يوماً ظرف؛ ليخفف، ومفعول يخفف محذوف أي: يخفف عنا شيئاً من العذاب مقدار يوم، أو في يوم، وجملة **وقالوا أو لم تك تاتيك رسلكم بالبينات** مستأنفة جواب سؤال مقدر، والاستفهام للتوبيخ، والتقريع **وقالوا بلى** أي: أتونا بها، فكذبناهم، ولم نؤمن بهم، ولا بما جاءوا به من الحجج الواضحة، فلما اعترفوا **وقالوا** أي: قال لهم الملائكة الذين هم: خزنة جهنم **فادعوا** أي: إذا كان الأمر كذلك، فادعوا أنتم، فإننا لا ندعو لمن كفر بالله، وكذب رسله بعد مجيئهم بالحجج الواضحة. ثم أخبرهم: بأن دعاءهم لا يفيد شيئاً، فقالوا: **يوما دعاء الكافرين إلا في ضلال** أي: في ضياع، وبطلان، وخسار، وتبار، وجملة **إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا** مستأنفة من جهته سبحانه أي: نجعلهم الغالبين لأعدائهم القاهرين لهم، والموصول في محل نصب عطفاً على رسلنا أي: لننصر رسلنا، وننصر الذين آمنوا معهم **في الحياة الدنيا** بما عودهم الله من الانتقام منهم بالقتل، والسلب، والأسر، والقهر **ويوم يقوم الأشهاد**، وهو: يوم القيامة. قال زيد بن أسلم: الأشهاد هم: الملائكة، والأنبياء، وقال مجاهد، والسدي: الأشهاد الملائكة تشهد للأنبياء بالإبلاغ، وعلى الأمم بالتكذيب. قال الزجاج: الأشهاد جمع شاهد مثل صاحب، وأصحاب. قال النحاس: ليس باب فاعل أن يجمع على أفعال، ولا يقاس عليه، ولكن ما جاء منه مسموعاً أدى على ما يسمع، فهو على هذا جمع شهيد، مثل شريف، وأشرف، ومعنى نصرهم يوم يقوم الأشهاد: أن الله يجازيهم بأعمالهم، فيدخلهم الجنة، ويكرمهم بكرامته، ويجازي الكفار بأعمالهم، فيلعنهم، ويدخلهم النار، وهو معنى قوله: **يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ** أي: البعد عن الرحمة **ولهم سوء الدار** أي: النار، ويوم بدل من يوم يقوم الأشهاد، وإنما لم تنفعهم المعذرة؛ لأنها معذرة باطلة، وتلعن داحضة، وشبهة زائفة. قرأ الجمهور (تنفع) بالفوقية. وقرأ نافع، والكوفيون بالتحتيّة، والكل جائز في اللغة.

وقد أخرج البخاري في تاريخه، وابن المنذر عن ابن مسعود في قوله: **وإن المفسرفين هم أصحاب النار** قال: السفاكين للدماء بغير حقها. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن أحكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة، فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار، فمن أهل**

والنار، يقال له: هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة»، زاد ابن مريويه: «ثم قرأ **﴿النار يعرضون عليها غدواً وعشياً﴾**». وأخرج البزار، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مريويه، والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «ما أحسن محسن مسلم، أو كافر إلا أثابه الله، قلنا: يا رسول الله ما إثابة الكافر؟ قال: المال، والولد، والصحة، وأشباه ذلك، قلنا: وما إثابته في الآخرة؟ قال: عذاباً نون العذاب، وقرأ رسول الله ﷺ: **﴿انخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾**». وأخرج أحمد، والترمذي وحسنه، وابن أبي الدنيا، والطبراني، وابن مريويه، والبيهقي في الشعب عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ قال: «من ردَّ عن عرض أخيه ردَّ الله عن وجهه نار جهنم يوم القيامة، ثم تلا **﴿إنا لننصر رسلنا ولننصر أمّنا﴾**». وأخرج ابن مريويه من حديث أبي هريرة مثله.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَزَلْنَا بِهٖ إِبْرٰهٖمَ ٱلْعَصَبَ ۖ هٰدِىٓ وَكَرَّمْنَا لِأَوَّلَى ٱلْأَنْبِىَآءِ ۖ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ ٱللّٰهِ ۚ وَرَعَدَ ٱللّٰهُ ٱلْحَقَّ وَٱسْتَمِعُوا لِذٰلِكَ ۚ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشَىٰ وَٱلْإِبْكَارِ ۖ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَدِّثُونَ فِىٓ ءَاثِىرِ ٱللّٰهِ يَتَّبِعُونَ سُلٰتٰنَهُمْ ۖ إِنَّ فِىٓ سُلٰتٰمِهِمْ ۖ لَآ كِبٰرَ مَآ هُمْ بِكَٰفِرِيْنَ ۖ فَٱسْتَعِذْ بِٱللّٰهِ ۖ إِنَّكَ هُوَ ٱلسَّمِىْعُ ٱلْعَبِىْرُ ۖ لَخَلَقَ ٱلسَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَكْثَرَ نَٰثِىٓ ۖ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۖ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِىْرُ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوْا وَجَعَلُوْا ٱلسَّلٰمَ ۖ وَلَا ٱلْمُؤْمِنُ قَلِيْلًا مَّا نَذْكُرُونَ ۖ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأَيُّمٌ ۖ لَا رَيْبَ فِىْهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُوْثِقُونَ ۖ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُوْنِىَ ۖ ٱسْتَجِبْ لَكُمْ ۖ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَدِّدُوْنَ جَهَنَّمَ دَٰخِرِيْنَ ۖ إِنَّ ٱللّٰهَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمْ ٱلْأَيْلَ لَيَسْكُنُوْا فِىهِ وَٱلْهَآكِمَ مُبِصِرٌ ۖ إِنَّ ٱللّٰهَ لَدُوْ قَضٰى عَمَلِ ٱلنَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ۖ ذٰلِكُمْ ٱللّٰهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلِّ شَيْءٍ ۖ لَآ إِلٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَٱلَّذِى يُؤْتِكُمْ ذٰلِكَ يَقُوْلُ ٱلَّذِينَ كَانُوْا بِآيٰتِى ٱللّٰهِ يَجْحَدُونَ ۖ إِنَّ ٱللّٰهَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمْ ٱلْأَرْضَ فَرَآكًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٍ ۖ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوْرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِّنَ ٱلْمَآثِىٓ ذٰلِكُمْ ٱللّٰهُ رَبُّكُمْ ۖ فَٱتَّكِبْ ٱللّٰهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ ۖ هُوَ ٱلْعَوْدُ ۖ لَآ إِلٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوْهُ مُخْلِصِيْنَ لَهُ ٱلَّذِينَ ٱلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ۝

قوله: **﴿ولقد آتينا موسى الهدى﴾** هذا من جملة ما قصه الله سبحانه قريباً من نصره لرسله أي: آتينا التوراة، والنبوة، كما في قوله سبحانه: **﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور﴾** قال مقاتل: الهدى من الضلالة يعني: التوراة **﴿واورثنا بني إسرائيل الكتاب﴾** هدى وذكرى لأولي الألباب المراد بالكتاب: التوراة، ومعنى أورثنا: أن الله سبحانه لما أنزل التوراة على موسى بقيت بعده فيهم، وتوارثوها خلفاً عن سلف. وقيل: المراد بالكتاب: سائر الكتب المنزلة على أنبياء بني إسرائيل بعد موت موسى، وهدى،

وذكرى في محل نصب على أنهما مفعول لأجله أي: لأجل الهدى، والذكر، أو على أنهما مصدران في موضع الحال أي: هادياً ومنكراً، والمراد بأولي الألباب: أهل العقول السليمة. ثم أمر الله، رسوله ﷺ بالصبر على الأذى، فقال: **﴿فاصبر إن وعد الله حق﴾** أي: اصبر على أذى المشركين كما صبر من قبلك من الرسل إن وعد الله الذي وعد به رسله حق لا خلف فيه، ولا شك في وقوعه كما في قوله: **﴿إنا لننصر رسلنا﴾** [غافر: 51]، وقوله: **﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين﴾** * إنهم لهم المنصورون * وإن جندنا لهم الغالبون [الصافات: 171 - 173] قال الكلبي: نسخ هذا بأية السيف. ثم أمره سبحانه بالاستغفار لذنبه، فقال: **﴿واستغفر لذنبك﴾** قيل: المراد ذنب أمتك، فهو على حذف مضاف، وقيل: المراد الصفات عند من يجوزها على الأنبياء، وقيل: هو مجرد تعبد له ﷺ بالاستغفار لزيادة الثواب، وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه، وما تأخر **﴿وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار﴾** أي: ثم على تنزيه الله ملتبساً بحمده، وقيل: المراد صل في الوقتين صلاة العصر، وصلاة الفجر. قاله الحسن، وقتادة، وقيل: هما صلاتان ركعتان غداة، وركعتان عشيّة، وذلك قبل أن تفرض الصلوات الخمس **﴿إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان قائم﴾** أي: بغير حجة ظاهرة واضحة جاءتهم من جهة الله سبحانه **﴿إن في صدورهم إلا كبر﴾** أي: ما في قلوبهم إلا تكبراً عن الحق يحملهم على تكذيبك، وجملة **﴿ما هم ببالغيه﴾** صفة لكبر قال الزجاج: المعنى: ما في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغي إرادتهم فيه، فجعله على حذف المضاف. وقال غيره: ما هم ببالغي الكبر. وقال ابن قتيبة: المعنى: إن في صدورهم إلا كبر أي: تكبر على محمد ﷺ، وطمع أن يغلبوه، وما هم ببالغي ذلك، وقيل: المراد بالكبر: الأمر الكبير أي: يطلبون النبوة، أو يطلبون أمراً كبيراً يصلون به إليك من القتل، ونحوه، ولا يبلغون ذلك. وقال مجاهد: معناه: في صدورهم عظمة ما هم ببالغيها. والمراد بهذه الآية: المشركون، وقيل: اليهود كما سيأتي بيانه آخر البحث إن شاء الله. ثم أمره الله سبحانه بأن يستعيز بالله من شرورهم، فقال: **﴿فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير﴾** أي: فالتجئ إلىه من شرهم، وكيدهم، وبغيهم عليك إنه السميع لاقوالهم البصير بأفعالهم لا تخفى عليه من تلك خافية. ثم بين سبحانه عظيم قدرته، فقال: **﴿الخلق للسموات والأرض أكبر من خلق الناس﴾** أي: أعظم في النفوس، وأجل في الصدور، لعظم أجرامهما، واستقرارهما من غير عمد، وجريان الأفلاك بالكواكب من غير سبب، فكيف ينكرون البعث، وإحياء ما هو دونهما من كل وجه كما في قوله: **﴿أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم﴾** [يس: 81] قال أبو العالية: المعنى: لخلق السموات، والأرض أعظم من خلق الدجال حين عظمته اليهود. وقال يحيى بن سلام: هو احتجاج على منكري البعث أي: هما أكبر من إعادة خلق الناس **﴿ولكن أكثر**

قوله: **﴿ولقد آتينا موسى الهدى﴾** هذا من جملة ما قصه الله سبحانه قريباً من نصره لرسله أي: آتينا التوراة، والنبوة، كما في قوله سبحانه: **﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور﴾** قال مقاتل: الهدى من الضلالة يعني: التوراة **﴿واورثنا بني إسرائيل الكتاب﴾** هدى وذكرى لأولي الألباب المراد بالكتاب: التوراة، ومعنى أورثنا: أن الله سبحانه لما أنزل التوراة على موسى بقيت بعده فيهم، وتوارثوها خلفاً عن سلف. وقيل: المراد بالكتاب: سائر الكتب المنزلة على أنبياء بني إسرائيل بعد موت موسى، وهدى،

﴿الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه﴾ من الحركات في طلب الكسب لكونه جعله مظلاً بارداً تناسبه الراحة بالسكون، والنوم ﴿والنهار مبصراً﴾ أي: مضيئاً، لتبصروا فيه حوائجكم، وتتصرفوا في طلب معاشكم ﴿إن الله لئو فضل على الناس﴾ يفضل عليهم بنعمه التي لا تحصى ﴿ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾ النعم، ولا يعترفون بها، إما لجهودهم لها، وكفرهم بها كما هو شأن الكفار، أو لإغفالهم للنظر، وإهمالهم لما يجب من شكر النعم، وهم: الجاهلون ﴿نلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو﴾ بين سبحانه في هذا كمال قدرته المقتضية لوجوب توحيده، قرأ الجمهور خالق بالرفع على أنه خبر بعد الخبر الأول عن المبتدأ، وقرأ زيد بن علي بنصبه على الاختصاص ﴿فأني توفكون﴾ أي: كيف تنقلبون عن عبادته، وتنصرفون عن توحيده ﴿كنك يوفك الذين كانوا بآيات الله يحدون﴾ أي: مثل الإفك يوفك الجاحدون آيات الله المنكرون لتوحيده. ثم ذكر لهم سبحانه نوعاً آخر من نعمه التي أنعم بها عليهم مع ما في ذلك من الدلالة على كمال قدرته، وتفردّه بالإلهية، فقال: ﴿الله الذي جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناءً﴾ أي: موضع قرار فيها تحيين، وفيها تموتون ﴿والسماء بناءً﴾ أي: سقفاً قائماً ثابتاً. ثم بين بعض نعمه المتعلقة بانفس العباد، فقال: ﴿وصوركم فاحسن صوركم﴾ أي: خلقكم في أحسن صورة. قال الزجاج: خلقكم أحسن الحيوان كله. قرأ الجمهور (صوركم) بضم الصاد، وقرأ الأعمش، وأبو زرين بكسرها. قال الجوهري: والصور بكسر الصاد لغة في الصور بضمها ﴿ورزقكم من الطيبات﴾ أي: المستلذات ﴿نلكم﴾ المبعوث بهذه النعوت الجليلة ﴿الله ربكم فتبارك الله رب العالمين﴾ أي: كثرة خيره، وبركته ﴿هو الحي لا إله إلا هو﴾ أي: الباقي الذي لا يفنى المنفرد بالالوهية ﴿فادعوه مخلصين له الدين﴾ أي: الطاعة، والعبادة ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ قال الفراء: هو خبر، وفيه إضمار أمر أي: احموه.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم. قال السيوطي: بسند صحيح عن أبي العالية قال: إن اليهود أتوا النبي ﷺ، فقالوا: إن الدجال يكون منا في آخر الزمان، ويكون في أمره، فعظموا أمره، وقالوا: نصنع كذا، ونصنع كذا، فأنزل الله ﴿إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان اتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه﴾. قال: لا يبلغ الذي يقول: ﴿فاستعذ بالله﴾ فأمر نبيه أن يتعوذ من فتنة الدجال لخلق السموات، والأرض أكبر من خلق الدجال. وأخرج ابن أبي حاتم عن كعب الأحبار في الآية قال: هم: اليهود نزلت فيهم فيما ينتظرونه من أمر الدجال. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن مجاهد في قوله: ﴿إن في صدورهم إلا كبر﴾ قال: عظمة قريش. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، والبخاري في الأدب المفرد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن

الناس لا يعلمون﴾ بعظيم قدرة الله، وأنه لا يعجزه شيء. ثم لما ذكر سبحانه الجدل بالباطل نكر مثلاً للباطل، والحق، وأنهما لا يستويان، فقال: ﴿وما يستوي الأعمى والبصير﴾ أي: الذي يجادل بالباطل، والذي يجادل بالحق ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا للمسيء﴾ أي: ولا يستوي المحسن بالإيمان، والعمل الصالح، والمسيء بالكفر، والمعاصي، وزيادة «لا» في، ولا المسيء للتأكيد ﴿قليلًا ما تتذكرون﴾ قرأ الجمهور (يتذكرون) بالتحية على الغيبة، واختار هذه القراءة أبو عبيد، وأبو حاتم، لأن قبلها، وبعدها على الغيبة لا على الخطاب، وقرأ الكوفيون بالفوقية على الخطاب بطريقة الالتفات أي: تذكر قليلًا ما تتذكرون ﴿إن الساعة آتية لا ريب فيها﴾ أي: لا شك في مجيئها، وحصولها ﴿ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾ بذلك، ولا يصدقونه لقصور أفعالهم، وضعف عقولهم عن إدراك الحجة، والمراد بأكثر الناس الكفار الذين ينكرون البعث. ثم لما بين سبحانه أن قيام الساعة حق لا شك فيه، ولا شبهة، أرشد عباده إلى ما هو الوسيلة إلى السعادة في دار الخلود، فأمر رسوله ﷺ: أن يحكي عنه ما أمره بإبلاغه، وهو: ﴿وقال ربكم ادعوني استجب لكم﴾ قال أكثر المفسرين المعنى: وحدوني، وابعيدوني اتقبل عبادتكم، وأغفر لكم، وقيل: المراد بالدعاء: السؤال بجلب النفع، ودفع الضر. قيل: الأول؛ لأن الدعاء في أكثر استعمالات الكتاب العزيز هو: العبادة. قلت: بل الثاني أولى؛ لأن معنى الدعاء حقيقة، وشرعاً هو: الطلب، فإن استعمل في غير ذلك، فهو: مجاز، على أن الدعاء في نفسه باعتبار معناه الحقيقي هو: عبادة، بل مخ العبادة كما ورد بذلك الحديث الصحيح، فالح سبحانه قد أمر عباده بدعائه، ووعدهم بالإجابة، ووعد الحق، وما يبذل القول لبيه، ولا يخلف الميعاد. ثم صرح سبحانه بأن هذا الدعاء باعتبار معناه الحقيقي، وهو الطلب هو من عبادته، فقال: ﴿إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾ أي: نذلين صاغرين، وهذا وعيد شديد لمن استكبر عن دعاء الله، وفيه لطف بعباده عظيم، وإحسان إليهم جليل حيث توعد من ترك طلب الخير منه، واستنفاع الشر به بهذا الوعيد البالغ، وعاقبه بهذه العقوبة العظيمة، فإيا عباد الله وجهوا رغباتكم، وعولوا في كل طلباتكم على من أمركم بتوجيهها إليه، وأرشدكم إلى التعويل عليه، وكفل لكم الإجابة به بإعطاء الطلبة، فهو الكريم المطلق الذي يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، ويغضب على من لم يطلب من فضله العظيم، وملكه الواسع ما يحتاجه من أمور الدنيا والدين، قيل: وهذا الوعد بالإجابة مقيد بالمشيئة أي: استجب لكم إن شئت كقوله سبحانه: ﴿فيكشف ما تدعون إليه إن شاء﴾ [الأنعام: 41] الله، قرأ الجمهور (سيدخلون) بفتح الياء، وضم الخاء مبنياً للفاعل، وقرأ ابن كثير، وابن محيصن، وورش، وأبو جعفر بضم الياء، وفتح الخاء مبنياً للمفعول. ثم ذكر سبحانه بعض ما أنعم به على عباده، فقال:

المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مروي، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في الشعب عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «الدعاء هو: العبادة، ثم قرأ ﴿وَقَالَ رَبِّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَابَتِي﴾ قال: عن دعائي ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾. قال الترمذي: حسن صحيح. وأخرج ابن مروي، والخطيب عن البراء: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الدعاء هو العبادة، وقال ربكم: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾». وأخرج ابن جرير، وابن مروي، وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس في قوله: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ قال: وحوئي أغفر لكم. وأخرج الحاكم وصححه، عن جرير بن عبد الله في الآية قال: اعبدوني. وأخرج ابن مروي عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «الدعاء الاستغفار». وأخرج ابن أبي شيبة، والحاكم، وأحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم يدع عليه، يفضب عليه». وأخرج أحمد، والحاكم الترمذي، وأبو يعلى، والطبراني، عن معاذ بن جبل، عن النبي ﷺ قال: «لا ينفع حذر من قدر، ولكن الدعاء ينفع مما نزل، ومما لم ينزل، فعليكم بالدعاء». وأخرج الترمذي، والحاكم الترمذي في نوار الأصول عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «الدعاء مخُّ العبادة». وأخرج ابن المنذر، والحاكم وصححه عن ابن عباس قال: أفضّل العبادة الدعاء، وقرأ ﴿وَقَالَ رَبِّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ الآية. وأخرج البخاري في الأب عن عائشة قالت: «سئل النبي ﷺ: أيُّ العبادة أفضل؟ فقال: دعاء المرء لنفسه». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مروي، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس قال: من قال: لا إله إلا الله، فليقل على أثرها: الحمد لله رب العالمين، وذلك قوله: ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لِلْحَمْدِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿١٧٧﴾ قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الْآلِهَةَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأَمَرْتُ أَنْ أُسْلِمَ رَبِّي الْمَلَكِيَّةَ ﴿١٧٨﴾ هُوَ الَّذِي عَلَّمَكُم مِّن رَّابِّكُمْ مِّنْ مَّنْ يَلْعَلُوهُمْ مِّنْ عِلْفِهِمْ ثُمَّ يَمُرُّكُمْ فَلْيَاكُمُ يَسْأَلُونَا أَتَسْأَلُونَ عَنْ عِلْمِكُمْ ثُمَّ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَمِنْكُمْ مَّنْ يَتُوفَّى مِن قَبْلُ وَيَلْسَنُوا لَبًّا يُسْمِعُ وَلَمْأَكُم تَقُولُونَ ﴿١٧٩﴾ هُوَ الَّذِي يُعَيِّدُ يَوْمَئِذٍ فَأُولَئِكَ آمَرَ لَأَنَّمَا يَقُولُ لَهُمْ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١٨٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَصُدُّونَ فِي بَآئِنَاتِ اللَّهِ أَنَّهُمْ يُصَرُّونَ ﴿١٨١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَمَا أُرْسِلْنَا بِهِ مُؤْمِنَاتٍ مَّنُونٍ مَّمْلُوكٍ ﴿١٨٢﴾ إِذِ الْأَغْلَظُ فِي أَهْنَتِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَرُونَ ﴿١٨٣﴾ فِي السَّيْرِ ثُمَّ فِي الدَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿١٨٤﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَشْرِكُونَ ﴿١٨٥﴾ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا لَمْ نَكُن نَدْعُوا مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿١٨٦﴾ فَلْيَاكُم بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِعَرِّ الْمَتَىٰ وَمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿١٨٧﴾ أَتَدْخُلُونَ أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَمَا تَعْلَمُونَ الْفَاسِكِينَ ﴿١٨٨﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَكَيْفَا تَرْضَكُمَ بَعْضُ الَّذِي يُعَذِّبُ أَمْ تَرْضَكُمَ فَإِنَّمَا

يعينون ما لا يبصر، ولا يسمع، ولا يضر، ولا ينفع، وليس هذا إنكاراً منهم لوجود الأصنام التي كانوا يعبدونها، بل اعتراف منهم بأن عبادتهم إياها كانت باطلة ﴿كذلك يضل الله الكافرين﴾ أي: مثل تلك الضلال يضل الله الكافرين حيث عبدوا هذه الأصنام التي أوصلتهم إلى النار، والإشارة بقوله: ﴿تلكم﴾ إلى الإضلال المملول عليه بالفعل أي: تلك الإضلال ﴿ب﴾ سبب ﴿ما كنتم تفرحون في الأرض﴾ أي: بما كنتم تظهرون في الدنيا من الفرح بمعاصي الله والسرور بمخالفة رسله، وكتبه، وقيل: بما كنتم تفرحون به من المال، والاتباع، والصحة، وقيل: بما كنتم تفرحون من إنكار البعث، وقيل: المراد بالفرح هنا: البطر، والتكبر، وبالمرح: الزيادة في البطر. وقال مجاهد، وغيره: تمرحون أي: تبطرون، وتأسرون. وقال الضحاك: الفرح السرور، والمرح العلوان. وقال مقاتل: المرح البطر، والخيلاء ﴿ادخلوا أبواب جهنم﴾ حال كونكم ﴿خالدِينَ فيها﴾ أي: مقرين الخلود فيها ﴿فقبس مثنى مثنى المتكبرين﴾ عن قبول الحق جهنم. ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ بالصبر، فقال: ﴿فاصبر إن وعد الله حق﴾ أي: وعده بالانتقام منهم كائن لا محالة، إما في الدنيا، أو في الآخرة، ولهذا قال: ﴿فإما نرينك بعض الذي نعدهم﴾ من العذاب في الدنيا بالقتل، والأسر، والقهر، وما في ﴿فإما﴾ زائدة على مذهب المبرد، والزجاج، والأصل فإن نرك، ولحقت بالفعل نون التأكيد، وقوله: ﴿أو نتوفينك﴾ معطوف على نرينك أي: أو نتوفينك قبل إنزال العذاب بهم ﴿فإلينا يرجعون﴾ يوم القيامة، فنعذبهم ﴿ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك﴾ أي: أنبأناك بأخبارهم، وما لقوه من قومهم ﴿ومنها من لم نقصص عليك﴾ خبره، ولا أوصلنا إليك علم ما كان بينه، وبين قومه ﴿وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله﴾ لا من قبل نفسه، والمراد بالآية: المعجزة الدالة على نبوته ﴿فإذا جاء أمر الله﴾ أي: إذا جاء الوقت المعين لعذابهم في الدنيا، أو في الآخرة ﴿قضي بالحق﴾ فيما بينهم، فينجي الله بقضائه الحق عباده المحقين ﴿وخسر هنالك﴾ أي: في ذلك الوقت ﴿المبطلون﴾ الذين يتبعون الباطل، ويعملون به، ثم امتنَّ سبحانه على عباده بنوع من أنواع نعمه التي لا تحصى، فقال: ﴿الله الذي جعل لكم الأنعام﴾ أي: خلقها لأجلكم، قال الزجاج: الأنعام ما هنا الإبل، وقيل: الأزواج الثمانية ﴿لتركبوا منها﴾ من للتبعض، وكذلك في قوله: ﴿ومنها تاكلون﴾ ويجوز أن تكون لابتداء الغاية في الموضعين، ومعناها: ابتداء الركوب، وابتداء الأكل، والأول أولى. والمعنى: لتركبوا بعضها، وتاكلوا بعضها ﴿ولكم فيها منافع﴾ آخر غير الركوب، والأكل من الوبر، والصوف، والشعر، والزبد، والسمن، والجبن، وغير ذلك ﴿ولتبغوا عليها حاجة في صدوركم﴾ قال مجاهد، ومقاتل، وقتادة: تحمل أثقالكم من بلد إلى بلد، وقد تقدم بيان هذا مستوفى في سورة النحل ﴿وعليها وعلى الفلك

كيف يصرفون عنها مع قيام الألة الدالة على صحتها، وإنها في أنفسها موجبة للتوحيد. قال ابن زيد: هم: المشركون بدليل قوله: ﴿الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا﴾ قال القرطبي: وقال أكثر المفسرين: نزلت في القدرية. قال ابن سيرين: إن لم تكن هذه الآية نزلت في القدرية، فلا أدري فيمن نزلت، ويجاب عن هذا بأن الله سبحانه قد وصف هؤلاء بصفة تدل على غير ما قالوه، فقال: ﴿الذين كذبوا بالكتاب﴾ أي: بالقرآن، وهذا وصف لا يصح أن يطلق على فرقة من فرق الإسلام، والموصول إما في محل جر على أنه نعت للموصول الأول، أو يدل منه، ويجوز أن يكون في محل نصب على الذم، والمراد بالكتاب: إما القرآن، أو جنس الكتب المنزلة من عند الله، وقوله: ﴿وبما أرسلنا به رسلنا﴾ معطوف على قوله بالكتاب، ويراد به ما يوحى إلى الرسل من غير كتاب إن كانت اللام في الكتاب للجنس، أو سائر الكتب إن كان المراد بالكتاب القرآن ﴿فسوف يعلمون﴾ عاقبة أمرهم، وبإل كفرهم، وفي هذا وعيد شديد، والظرف في قوله: ﴿إذ الأغلال في أعناقهم﴾ متعلق بـ يعلمون أي: فسوف يعلمون وقت كون الأغلال في أعناقهم ﴿والسلاسل﴾ معطوف على الأغلال، والتقدير: إذ الأغلال، والسلاسل في أعناقهم، ويجوز أن يرتفع السلاسل على أنه مبتدأ وخبره محذوف لدلالة في أعناقهم عليه، ويجوز أن يكون خبره ﴿يسحبون﴾ في الحميم بحذف العائد أي: يسحبون بها في الحميم، وهذا على قراءة الجمهور برفع السلاسل، وقرأ ابن عباس، وابن مسعود، وعكرمة، وأبو الجوزاء بنصبيها، وقرأوا (يسحبون) بفتح الياء مبنياً للمفاعل، فتكون السلاسل مفعولاً مقدماً، وقرأ بعضهم بجزء السلاسل. قال الفراء: وهذه القراءة محمولة على المعنى، إذ المعنى: أعناقهم في الأغلال، والسلاسل. وقال الزجاج: المعنى على هذه القراءة: وفي السلاسل يسحبون، واعترضه ابن الأنباري: بأن ذلك لا يجوز في العربية، ومحل يسحبون على تقدير عطف السلاسل على الأغلال، وعلى تقدير كونها مبتدأ، وخبرها في أعناقهم النصب على الحال، أو لا محل له، بل هو مستأنف جواب سؤال مقتر، والحميم هو: المتناهي في الحر، وقيل: الصديد، وقد تقدم تفسيره ﴿ثم في النار يسجرون﴾ يقال: سجرت التنور أي: أوقنته، وسجرت ملاته بالوقود، ومنه ﴿والبحر المسجور﴾ [الطور: 6] أي: المملوء، فالمعنى: توقد بهم النار، أو تملأ بهم. قال مجاهد، ومقاتل: توقد بهم النار، فصاروا وقودها ﴿ثم قيل لهم أين ما كنتم تعبدون﴾ من دون الله ﴿هذا توبيخ، وتقريع لهم أي: أين الشركاء الذين كنتم تعبدونهم من دون الله﴾ ﴿قلوا ضلوا عننا﴾ أي: ذهبوا، وفقدناهم، فلا نراهم، ثم أضربوا عن ذلك، وانتقلوا إلى الإخبار بعدمهم، وأنه لا وجود لهم، فقالوا: ﴿بل لم تكن ندعوا من قبل شيئاً﴾ أي: لم تكن نعبد شيئاً، قالوا هذا لما تبين لهم ما كانوا فيه من الضلالة، والجهالة، وأنهم كانوا

راوا العذاب.

وقد أخرج أحمد، والترمذي وحسنه، والحاكم وصححه، وابن مريويه، والبيهقي في البعث والنشور، عن عبد الله بن عمرو قال: تلا رسول الله ﷺ ﴿إِذْ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿يَسْجُرُونَ﴾، فقال: لو أن رصاصة مثل هذه، وأشار إلى جمجمة أرسلت من السماء إلى الأرض، وهي مسيرة خمسمائة سنة لبلغت الأرض قبل الليل، ولو أنها أرسلت من رأس السلسلة لسارت أربعين خريفاً الليل، والنهار قبل أن تبلغ أصلها، أو قال قعرها. وأخرج ابن أبي الدنيا في صفة النار، عن ابن عباس قال: يسحبون في الحميم، فينسلخ كل شيء عليهم من جلد، ولحم، وعرق حتى يصير في عقبه حتى إن لحمه قدر طوله، وطوله ستون ذراعاً، ثم يكسى جلد آخر، ثم يسجر في الحميم. وأخرج الطبراني في الأوسط، وابن مريويه عن علي بن أبي طالب في قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَنْقُصْ عَلَيْكَ﴾ قال: بعث الله عبداً حبشياً، فهو ممن لم ينقص على محمد.

تفسير سورة فصلت

قال القرطبي: وهي مكية في قول الجميع. وأخرج ابن مريويه عن ابن عباس، وابن الزبير: أنها نزلت بمكة. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وأبو يعلى، والحاكم وصححه، وابن مريويه، وأبو نعيم، والبيهقي كلاهما في الدلائل، وابن عساكر، عن جابر بن عبد الله قال: «اجتمع قريش يوماً، فقالوا: انظروا أعلمكم بالسحر، والكهانة، والشعر، فليات هذا الرجل الذي قد فرّق جماعتنا، وشتت أمرنا، وعاب ديننا، فليكنه، ولينظر ماذا يردّ عليه؟ فقالوا: ما نعلم أحداً غير عتبة بن ربيعة، فقالوا: اثنت يا أبا الوليد، فاتاه فقال: يا محمد اثنت خير أم عبد الله، أنت خير أم عبد المطلب؟ فسكت رسول الله ﷺ، قال: فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك، فقد عبدوا الآلهة التي عبت، وإن كنت تزعم أنك خير منهم، فتكلم حتى نسمع قولك، أما والله ما رأينا سخله قط أشأم على قومك منك، فرقت جماعتنا، وشتت أمرنا، وعبت ديننا، وفضحتنا في العرب، حتى لقد طار فيهم أن في قريش ساحراً، وأن في قريش كاهناً، والله ما تنتظر إلا مثل صيحة الحبلى أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيف، يا رجل إن كان إنما بك الحاجة جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رجلاً، وإن كان إنما بك الباءة، فاختر أي نساء قريش شئت، فلنزوجنك عشراً، فقال رسول الله ﷺ: فرغت؟ قال: نعم، فقال رسول الله ﷺ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * حَمِّ تَنْزِيلٍ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابُ فَصَلَتْ آيَاتِهِ﴾ حتى بلغ ﴿فَلْيَنْزِلْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْزَلْتُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادَ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: 1 - 13]، فقال عتبة: حسبك حسبك ما عنك غير هذا؟ قال: لا، فرجع إلى قريش، فقالوا: ما وراءك؟ قال: ما تركت شيئاً أرى أنكم تكلمونه به إلا كلمته، فقالوا:

تحملون؟ أي: على الإبل في البر، وعلى السفن في البحر. وقيل: المراد بالحمل على الأنعام هنا: حمل ولدان، والنساء بالهوداج ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي: دلالاته الدالة على كمال قدرته، ووحدانيته ﴿فَإَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾، فإنها كلها من الظهور، وعدم الخفاء بحيث لا ينكرها منكر، ولا يجحدّها جاحد، وفيه تقريع لهم، وتوبيخ عظيم، ونصب أي: بتنكرون، وإنما قدم على العامل فيه، لأن له صدر الكلام. ثم أرشدهم سبحانه إلى الاعتبار، والتفكير في آيات الله، فقال: ﴿اقْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم التي عصت الله، وكذبت رسلها، فإن الآثار الموجودة في ديارهم تدلّ على ما نزل بهم من العقوبة، وما صاروا إليه من سوء العاقبة. ثم بيّن سبحانه أن تلك الأمم كانوا فوق هؤلاء في الكثرة، والقوة، فقال: ﴿كَانُوا أَكْثَرُ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾ أي: أكثر منهم عدداً، وأقوى منهم أجساداً، وأوسع منهم أموالاً، ﴿وَوُجِدَ أَثَرُهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ بالعائثر، والمصانع، والحرق ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ يجوز أن تكون ما الأولى استفهامية أي: أي شيء أغنى عنهم، أو نافية أي: لم يغن عنهم، وما الثانية يجوز أن تكون موصولة، وأن تكون مصدرية ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالحجج الواضحات، والمعجزات الظاهرات ﴿فَرَحُوا بِمَا عَنْدهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أي: أظهروا الفرح بما عندهم مما يدعون أنه من العلم من الشبه الداحضة، والدعاوي الزائفة، وسماه علماً تهكماً بهم، أو على ما يعتقدونه. وقال مجاهد: قالوا: نحن أعلم منهم لن نعذب، ولن نبعث، وقيل: المراد من علم أحوال الدنيا لا الدين كما في قوله: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الروم: 7]، وقيل: الذين فرحوا بما عندهم من العلم هم: الرسل، وذلك أنه لما كذبهم قومهم أعلمهم الله بأنه مهلك الكافرين، ومنجي المؤمنين، ففرحوا بذلك ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: أحاط بهم جزاء استهزائهم ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ أي: عاينوا عذابنا النازل بهم ﴿قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾، وهي الأصنام التي كانوا يعبدونها ﴿فَلَمْ يَكْ يَنْفَعِهِمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ أي: عند معاينة عذابنا، لأن ذلك الإيمان ليس بالإيمان النافع لصاحبه، فإنه إنما ينفع الإيمان الاختياري لا الإيمان الاضطراري ﴿سَنَتَ اللَّهُ الَّذِي قَدْ خَلَقْتَ فِي عِبَادِهِ﴾ أي: التي قد مضت في عباده، والمعنى: أن الله سبحانه سن هذه السنة في الأمم كلها أنه لا ينفعهم الإيمان إذا راوا العذاب، وقد مضى بيان هذا في سورة النساء، وسورة التوبة، وانتصاب سنة على أنها مصدر مؤكد لفعل محنوف بمنزلة وعد الله، وما أشبهه من المصادر المؤكدة. وقيل: هو منصوب على التحذير: أي: احذروا يا أهل مكة سنة الله في الأمم الماضية، والأول أولى ﴿وَوَخَّسَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ أي: وقت رؤيتهم بأس الله، ومعاينتهم لعذابه. قال الزجاج: الكافر خاسر في كل وقت، ولكنه يتبين لهم خسرانهم إذا

أنبت فيها شجرها ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ قال قتادة، ومجاهد: خلق فيها أنهارها، وأشجارها، وبوابها، وقال الحسن، وعكرمة، والضحاك: قَدَّرَ فيها أرزاق أهلها، وما يصلح لمعيشتهم من التجارات، والأشجار، والمنافع، جعل في كل بلد ما لم يجعله في الأخرى؛ ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة، والأسفار من بلد إلى بلد، ومعنى ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ أي: في تتمة أربعة أيام باليومين المتقدمين. قاله الزجاج، وغيره. قال ابن الأنباري: ومثاله قول القائل: خرجت من البصرة إلى بغداد في عشرة أيام، وإلى الكوفة في خمسة عشر يوماً أي: في تتمة خمسة عشر يوماً، فيكون المعنى: أن حصول جميع ما تقدّم من خلق الأرض، وما بعدها في أربعة أيام. وانتصاب ﴿سِوَاهُ﴾ على أنه مصدر مؤكد لفعل محذوف هو صفة للأيام أي: استوت سواء بمعنى: استواء، ويجوز أن يكون منتصباً على الحال من الأرض، أو من الضمائر الراجعة إليها. قرأ الجمهور بنصب (سواء)، وقرأ زيد بن علي، والحسن، وابن أبي إسحاق، وعيسى، ويعقوب، وعمرو بن عبيد بخفضه على أنه صفة لأيام. وقرأ أبو جعفر برفعه على أنه خبر مبتدأ محذوف. قال الحسن: المعنى في أربعة أيام مستوية تامة، وقوله: ﴿لِلنَّاسِ لَيْلِينَ﴾ متعلق بسواء أي: مستويات للناس ليلين، أو بمحذوف كأنه قيل: هذا الحصر للناس ليلين في كم خلقت الأرض، وما فيها؟ أو متعلق بقدر أي: قدر فيها أقواتها لأجل الطالبين المحتاجين إليها. قال الفراء: في الكلام تقديم، وتأخير، والمعنى: وقدر فيها أقواتها سواء للمحتاجين في أربعة أيام، واختار هذا ابن جرير. ثم لما ذكر سبحانه خلق الأرض، وما فيها نكر كيفية خلقه للسّموات، فقال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ أي: عمد، وقصد نحوها قصداً سوياً. قال الرازي: هو من قولهم: استوى إلى مكان كذا: إذا توجه إليه توجهاً لا يلتفت معه إلى عمل آخر، وهو من الاستواء الذي هو ضدّ الاعوجاج، ونظيره قولهم: استقام إليه، ومنه قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ والمعنى: ثم دعاه داعي الحكمة إلى خلق السموات بعد خلق الأرض، وما فيها. قال الحسن: معنى الآية: صعد أمره إلى السماء ﴿وَهِيَ بَخَانُ﴾ البخان ما ارتفع من لهب النار، ويستعار لما يرى من بخار الأرض. قال المفسرون: هذا البخان هو: بخار الماء، وخصّ سبحانه الاستواء إلى السماء مع كون الخطب المترتب على ذلك متوجّهاً إليها، وإلى الأرض كما يفيد قوله: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ لِنْتِياً طَوْعاً أَوْ كَرْهاً﴾ استغناء بما تقدّم من نكر تقديرها، وتقدير ما فيها، ومعنى اثنتي: افعلا ما أمركما به، وجيئنا به، كما يقال: اثنت ما هو الأحسن أي: افعله. قال الواحدي: قال المفسرون: إن الله سبحانه قال: لما أنت يا سماء، فاطلعي شمسيك، وقمرك، ونجومك، وأما أنت يا أرض، فشقيي أنهارك، وأخرجي ثمارك، ونباتك. قرأ الجمهور (اثنتي) أمراً من الإتيان. وقرأ ابن عباس، وابن جبير، ومجاهد (آتيا) قالنا: آتينا بالمدّ فيهما، وهو إما من المؤاتاة، وهي: الموافقة

المشركين، وتوعدهم، فقال: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾، ثم وصفهم بقوله: ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أي: يمنعونها، ولا يخرجونها إلى الفقراء. وقال الحسن، وقتادة: لا يقرّون بوجوبها. وقال الضحاك، ومقاتل: لا يتصدقون، ولا ينفقون في الطاعة. وقيل: معنى الآية، لا يشهدون أن لا إله إلا الله لأنها زكاة الأنفس، وتطهيرها. وقال الفراء: كان المشركون ينفقون النفقات، ويسقون الحجيج، ويطعمونهم، فحرّموا ذلك على من آمن بمحمد ﷺ، فنزلت فيهم هذه الآية ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ معطوف على لا يؤتون داخل معه في حيز الصلة أي: منكرون للآخرة جاحدون لها، والمجيء بضمير الفصل لقصد الحصر ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي: غير مقطوع عنهم، يقال: مننت الحبل: إذا قطعته، ومنه قول الأصمعي الأودي: إنني لعمرك ما أبى بذني علق على الصديق ولا خيري بممنون وقيل: الممنون المنقوص، قاله قطرب، وأنشد قول زهير: فضل الجواد على الخليل البطاطا يعطى بذلك ممّنناً ولا مرقاً قال الجوهري: المَنّ القطع، ويقال: النقص، ومنه قوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾، وقال لبيد:

عنسناكوا سب لا يمنّ طعامها

وقال مجاهد: غير ممنون: غير محسوب، وقيل: معنى الآية: لا يمن عليهم به لأنه إنما يمنّ بالفضل، فأما الأجر، فحقّ أدأؤه. وقال السدي: نزلت في المرضي، والزمني، والهرمي إذا ضعفوا عن الطاعة كتب لهم من الأجر كاصح ما كانوا يعملون فيه. ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يوبخهم، ويقرعهم، فقال: ﴿قُلْ أَنتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ أي: لتكفروا بمن شأنه هذا الشأن العظيم، وقدرته هذه القدرة الباهرة. قيل: اليومان هما يوم الأحد، ويوم الاثنين، وقيل: المراد مقدار يومين، لأن اليوم الحقيقي إنما يتحقق بعد وجود الأرض، والسماء. قرأ الجمهور (أنتكم) بهمزتين الثانية بين بين، وقرأ ابن كثير بهمزة، وبعدها ياء خفيفة ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُ أُنْدَاداً﴾ أي: أضداداً، وشركاء، والجملة معطوفة على تكفرون داخلّة تحت الاستفهام، والإشارة بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ إلى الموصول المتصف بما نكر، وهو مبتدأ وخبره ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، ومن جملة العالمين ما تجعلونها أنداداً لله، فكيف تجعلون بعض مخلوقاته شركاء له في عبادته، وقوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رِوَاسِي﴾ معطوف على خلق أي: كيف تكفرون بالذي خلق الأرض، وجعل فيها رواسي أي: جبلاً ثوابت من فوقها، وقيل: جملة، وجعل فيها رواسي مستأنفة غير معطوفة على خلق لوقوع الفصل بينهما بالأجنبي. والأول أولى لأن الجملة الفاصلة هي مقررّة لمضمون ما قبلها، فكانت بمنزلة التأكيد، ومعنى ﴿مَنْ فَوْقَهَا﴾: أنها مرتفعة عليها لأنها من أجزاء الأرض، وإنما خالفها باعتبار الارتفاع، فكانت من هذه الحيثية كالمغايرة لها ﴿وَيُبَارِكُ فِيهَا﴾ أي: جعلها مباركة كثيرة الخير بما خلق فيها من المنافع للعباد. قال السدي:

متقدمة خلقاً متأخرة بحواً، وهذا ظاهر، ولعله يأتي عند تفسيرنا لقوله: ﴿والأرض بعد ذلك نحاها﴾ زيادة إيضاح للمقام إن شاء الله: ﴿ووزينا السماء الدنيا بمصابيح﴾ أي: بكواكب مضيئة متلألئة عليها كتلال المصابيح، ﴿ووجعنا﴾ انتصاب ﴿حفظاً﴾ على أنه مصدر مؤكد لفعل محذوف أي: وحفظناها حفظاً، أو على أنه مفعول لأجله على تقدير: وحفظنا المصابيح زينة، وحفظاً، والأول أولى. قال أبو حبان: في الوجه الثاني هو: تكلف، وعدول عن السهل البين، والمراد بالحفظ: حفظها من الشياطين الذين يسترقون السمع، والإشارة بقوله: ﴿ذلك﴾ إلى ما تقدم ذكره ﴿تقدير العزيز العليم﴾ أي: البليغ القدرة الكثير العلم ﴿فإن أعرضوا﴾ عن التدبر والتفكر في هذه المخلوقات ﴿فقل أنذرهم﴾ أي: فقل لهم يا محمد أنذرهم خوفكم ﴿صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾ أي: عذاباً مثل عذابهم، والمراد بالصاعقة: العذاب المهلك من كل شيء. قال المبرد: الصاعقة المرة المهلكة لأي شيء كان. قرأ الجمهور (صاعقة) في الموضعين بالالف، وقرأ ابن الزبير، والنخعي، والسلمي، وابن محيصن صعقة في الموضعين، وقد تقدم بيان معنى الصاعقة، والصعقة في البقرة، وقوله: ﴿إذ جاءتهم الرسل﴾ ظرف لأنذرهم، أو لصاعقة، لأنها بمعنى العذاب أي: أنذرهم العذاب الواقع وقت مجيء الرسل، أو حال من صاعقة عاد. وهذا أولى من الوجهين الأولين، لأن الإنذار لم يقع وقت مجيء الرسل، فلا يصح أن يكون ظرفاً له، وكذلك الصاعقة لا يصح أن يكون الوقت ظرفاً لها، وقوله: ﴿من بين أيديهم ومن خلفهم﴾ متعلق بجاءتهم أي: جاءتهم من جميع جوانبهم وقيل: المعنى: جاءتهم الرسل المتقدمون، والمتأخرون على تنزيل مجيء كلامهم منزلة مجيئهم أنفسهم، فكان الرسل قد جاءهم، وخطبهم بقولهم: ﴿إلا تعبدوا إلا الله﴾ أي: بأن لا تعبدوا على أنها المصدرية، ويجوز أن تكون التفسيرية، أو المخففة من الثقلية، واسمها ضمير شأن محذوف، ثم ذكر سبحانه ما أجابوا به على الرسل، فقال: ﴿قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة﴾ أي: لارسلهم إلينا، ولم يرسل إلينا بشراً من جنسنا، ثم صرحوا بالكفر، ولم يتلعموا، فقلوا: ﴿فلنا بما أرسلكم به كفرون﴾ أي: كفرون بما تزعمونه من أن الله أرسلكم إلينا، لأنكم بشر مثلنا لا فضل لكم علينا، فكيف اختصكم برسالته بوننا، وقد تقدم دفع هذه الشبهة الداحضة التي جاءوا بها في غير موضع.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله: ﴿وويل للمشركين﴾ الذين لا يؤتون الزكاة قال: لا يشبهون أن لا إله إلا الله، وفي قوله: ﴿لهم اجر غير ممنون﴾ قال: غير منقوص. وأخرج ابن جرير، والنحاس في ناسخه، وأبو الشيخ في العظمة، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الأسماء والصفات عنه: «أن اليهود أتت النبي ﷺ، فسألته عن خلق السموات والأرض، فقال: خلق

أي: لتوافق كل منكم الأخرى، أو من الإيتاء، وهو: الإعطاء، فوزنه على الأول فاعلاً كقاتلاً، وعلى الثاني فاعلاً كأكرمًا ﴿طوعاً أو كرهاً﴾ مصدران في موضع الحال أي: طائعتين، أو مكرهتين، وقرأ الأعمش (كرهاً) بالضم. قال الزجاج: أطيعا طاعة أو تكرها كرهاً. قيل: ومعنى هذا الأمر لهما التسخير أي: كونا، فكانتا، كما قال تعالى: ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾ [النحل: 40]، فالكلام من باب التمثيل لتأثير قدرته، واستحالة امتناعها ﴿قالنا أتينا طائعين﴾ أي: أتينا أمرنا منقادين، وجمعهما جمع من يعقل لخطابهما بما يخاطب به العقلاء. قال القرطبي: قال أكثر أهل العلم: إن الله سبحانه خلق فيهما الكلام، فتكلمتا كما أراد سبحانه، وقيل: هو تمثيل لظهور الطاعة منهما، وتأثير القدرة الربانية فيهما ﴿فقضاهن سبع سموات﴾ أي: خلقهن، وأحكمهن، وفرغ منهن، كما في قول الشاعر:

وعليهما مسرودتان تضاهما داود إذ صبغ السوابغ تبع
والضمير في قضاهن إما راجع إلى السماء على المعنى؛ لأنها سبع سموات، أو مبهم مفسر بسبع سموات، وانتصاب سبع سموات على التفسير، أو على البدل من الضمير. وقيل: إن انتصابه على أنه المفعول الثاني لقضاهن؛ لأنه مضمن معنى صبرهن، وقيل: على الحال أي: قضاهن حال كونهن معبودات بسبع، ويكون قضى بمعنى: صنع، وقيل: على التمييز، ومعنى ﴿في يومين﴾ كما سبق في قوله: ﴿خلق الأرض في يومين﴾، فالجملة ستة أيام، كما في قوله سبحانه: ﴿خلق السموات والأرض في ستة أيام﴾ [الأعراف: 54، ويونس: 3]، وقد تقدم بيانه في سورة الأعراف، قال مجاهد: ويوم من الستة الأيام كالف سنة مما تعدون. قال عبد الله بن سلام: خلق الأرض في يوم الأحد، ويوم الاثنين، وقدر فيها أقواتها يوم الثلاثاء، ويوم الأربعاء، وخلق السموات في يوم الخميس، ويوم الجمعة، وقوله: ﴿واوحى في كل سماء أمرها﴾ عطف على قضاهن. قال قتادة، والسدي: أي: خلق فيها شمسها، وقمرها، ونجومها، وأقلاكها، وما فيها من الملائكة، والبحار، والبرد، والثلوج. وقيل: المعنى: أوحى فيها ما أراه وما أمر به، والإيحاء قد يكون بمعنى: الأمر كما في قوله: ﴿بأن ربك أوحى﴾ [الزلزلة: 5]، وقوله: ﴿وإذ أوحيت إلى الحواريين﴾ [المائدة: 111] أي: أمرتهم.

وقد استشكل الجمع بين هذه الآية، وبين قوله: ﴿والأرض بعد ذلك نحاها﴾ [النازعات: 30]، فإن ما في هذه الآية من قوله: ﴿ثم استوى إلى السماء﴾ مشعر بأن خلقها متأخر عن خلق الأرض، وظاهره يخالف قوله: ﴿والأرض بعد ذلك نحاها﴾، فقول: إن «ثم» في ﴿ثم استوى إلى السماء﴾ ليست للتراخي الزمني بل للتراخي الربوبي، فينفع الإشكال من أصله. وعلى تقدير أنها للتراخي الزمني، فالجمع ممكن بأن الأرض خلقها متقدم على خلق السماء، وبحواها بمعنى: بسطها هو أمر زائد على مجرد خلقها، فهي

اللَّهُ لَا يَمْلِكُ كَثِيرًا وَمَا سَمَلُونَ ﴿٣٨﴾ وَذَكَرَ ظَنُّكَ الَّذِي ظَنَنْتَ بِرَبِّكَ أَذْنُكَ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَشِيرَةِ ﴿٣٩﴾ فَإِنْ يَصْبِرُوا فَأَلْثَارُ مَوْتِي لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْبِئُوا فَمَا لَهُمْ مِنَ الْمُتَعَبِينَ ﴿٤٠﴾

لما ذكر سبحانه عادًا، وثمود إجمالاً نكر ما يختص بكل طائفة من الطائفتين تفصيلاً، فقال: ﴿فَمَا عَادَ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي: تكبروا عن الإيمان بالله، وتصديق رسله، واستعلوا على من في الأرض بغير الحق أي: بغير استحقاق ذلك الذي وقع منهم من التكبر، والتجبر. ثم ذكر سبحانه بعض ما صدر عنهم من الأقوال الدالة على الاستكبار، فقال: ﴿وَقَالُوا مِنْ أَشَدِّ مَنَا قُوَّةً﴾، وكانوا ذوي أجسام طوال، وقوة شديدة، فاغترأوا بأجسامهم حين تهدمهم هود بالعباد، ومرادهم بهذا القول: أنهم قادرون على دفع ما ينزل بهم من العذاب، فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾، والاستفهام للاستنكار عليهم، وللتوبيخ لهم أي: أو لم يعلموا بأن الله أشد منهم قدرة، فهو قادر على أن ينزل بهم من أنواع عقابه ما شاء بقوله كن، فيكون ﴿وَكُنَّا بِأَيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ أي: بمعجزات الرسل التي خصهم الله بها، وجعلها دليلاً على نبوتهم، أو بأياتنا التي أنزلناها على رسلنا، أو بأياتنا التكوينية التي نصبناها لهم، وجعلناها حجة عليهم، أو بجميع ذلك. ثم ذكر سبحانه ما أنزل عليهم من عذابه، فقال: ﴿فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ الصرصر: الريح الشديدة الصوت من الصرّة، وهي: الصيحة. قال أبو عبيدة: معنى صرصر: شديدة عاصفة. وقال الفراء: هي: الباردة تحرق كما تحرق النار. وقال عكرمة، وسعيد بن جبير، وقتادة: هي: الباردة، وأنشد قطرب قول الحطيئة:

المطمعون إذا هبت بصرصرة والحاملون إذا استوردوا عن الناس أي: إذا سئلوا النية. وقال مجاهد: هي: الشديدة السموم، والأولى تفسيرها بالبرد، لأن الصرّ في كلام العرب البرد، ومنه قول الشاعر:

لها غدر كقرون النساء
ركبني في يوم ريح وصر
قال ابن السكيت: صرصر يجوز أن يكون من الصرّ، وهو: البرد، ويجوز أن يكون من صرصر الباب، ومن الصرة وهي: الصيحة، ومنه ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صُرَّةٍ﴾ [الذاريات: 29]. ثم بين سبحانه وقت نزول ذلك العذاب عليهم، فقال: ﴿فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ﴾ أي: مشؤمات ذوات نحوس. قال مجاهد، وقتادة: كن آخر شوال من يوم الأربعاء إلى يوم الأربعاء، وذلك سبع ليال، وثمانية أيام حسوماً، وقيل: نحسات باردات، وقيل: متتابعات، وقيل: شداد، وقيل: ذوات غبار. قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (نحسات) بلسكان الحاء على أنه جمع نحس، وقرأ الباقون بكسرها، واختار أبو حاتم القراءة الأولى لقوله: ﴿فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾ [القمر: 19] واختار أبو عبيد القراءة الثانية ﴿لَنَنْبِقَهُمْ عَذَابُ الْخَزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: لكي نذيقهم، والخزي هو: الذل،

الله الأرض في يوم الأحد، والاثنين، وخلق الجبال، وما فيها من منافع يوم الثلاثاء، وخلق يوم الأربعاء الشجر، والحجر، والماء، والمدائن، والعمران، والخراب، فهذه أربعة أيام، فقال تعالى: ﴿قُلْ أَنْتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ إِندَادًا﴾ * ذلك رب العالمين * وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين، وخلق يوم الخميس السماء، وخلق يوم الجمعة النجوم، والشمس، والقمر، والملائكة إلى ثلاث ساعات بقين منه، فخلق من أول ساعة من هذه الثلاث الأجل حين يموت من مات، وفي الثانية ألقى فيها من كل شيء مما ينتفع به، وفي الثالثة خلق آدم، وأسكنه الجنة، وأمر إبليس بالسجود له، وأخرجه منها في آخر ساعة، قالت اليهود: ثم ماذا يا محمد؟ قال: ثم استوى على العرش، قالوا: قد أصبت لو أتممت، قالوا: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ * فاصبر علي ما يقولون، [ق: 38، 39]. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ قال: شق الأنهار، وغرس الأشجار، ووضع الجبال، وأجرى البحار، وجعل في هذه ما ليس في هذه، وفي هذه ما ليس في هذه. وأخرج أبو الشيخ عنه أيضاً قال: إن الله تعالى خلق يوماً، فسماه الأحد، ثم خلق ثانياً، فسماه الاثنين، ثم خلق ثالثاً، فسماه الثلاثاء، ثم خلق رابعاً، فسماه الأربعاء، ثم خلق خامساً، فسماه الخميس، ونكر نحو ما تقدم. وأخرج أبو الشيخ عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: «إن الله فرغ من خلقه في ستة أيام، ونكر نحو ما تقدم». وأخرج ابن جرير، عن أبي بكر نحو ما تقدم عن ابن عباس. وأخرج ابن المنذر، والحاكم وصححه، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله: ﴿فَقَالُوا لَهَا وَلِلْأَرْضِ لِنْتَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ قال: قال للسماء: أخرجي شمسك، وقمرك، ونجومك، وللأرض شقي أنهارك، وأخرجي ثمارك ﴿فَقَالَتَا نَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾، وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿لِنْتَيْنَا﴾ قال: أعطيا، وفي قوله: ﴿فَقَالَتَا نَتَيْنَا﴾ قال: أعطينا.

فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٣٨﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَبْلِيَهُمْ فِي مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٣٩﴾ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ لَهُمْ وَلَا يَصْزُرُونَ ﴿٤٠﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْكَفَىٰ فَلَاخِذْتُم بِسُوقِ الْعَذَابِ الْمَوْنِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٤١﴾ وَجَعَلْنَا الْإِنسَانَ مِثْلَ خَلْقِهِ وَأَمَّا وَكَانُوا يَنْقُرُونَ ﴿٤٢﴾ وَرَبُّهُمُ يَعْلَمُ أَوَّلَ الْآثَارِ فَمَنْ يُؤْخِرُونَ ﴿٤٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءَهُمْ هَبْذٌ عَلَيْهِمْ سَمُومٌ وَأَمْصُرُهُمْ وَاُولَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَمْلِكُونَ ﴿٤٤﴾ وَقَالُوا لِمَ جَاءَهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلَئِي تَرْجِعُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمَكُومٌ وَلَا آمِصْرُومٌ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنْ

والهوان بسبب ذلك الاستكبار ﴿وللعذاب الآخرة لخزي﴾ أي: أشد إهانة، وذلاً، ووصف العذاب بذلك، وهو في الحقيقة وصف للمعذبين، لأنهم الذين صاروا متصفين بالخزي ﴿وهم لا ينصرون﴾ أي: لا ينعون من العذاب النازل بهم، ولا يدفعه عنهم دافع. ثم نكر حال الطائفة الأخرى، فقال: ﴿وإما ثمود فهيناهم﴾ أي: بينا لهم سبيل النجاة، وبللناهم على طريق الحق بإرسال الرسل إليهم، ونصب الدلالات لهم من مخلوقات الله، فإنها توجب على كل عاقل أن يؤمن بالله، ويصنق رسله. قال الفراء: معنى الآية: للناهم على مذهب الخير بإرسال الرسل. قرأ الجمهور (وإما ثمود) بالرفع، ومنع الصرف. وقرأ الأعمش، وابن وثاب بالرفع، والصرف، وقرأ ابن عباس، وابن أبي إسحاق، وعاصم في رواية بالنصب، والصرف وقرأ الحسن، وابن هرمز، وعاصم في رواية بالنصب، والمنع، فأما الرفع، فعلى الابتداء والجملة بعده الخبر، وأما النصب فعلى الاشتغال، وأما الصرف فعلى تفسير الاسم بالآب، أو الحي، وأما المنع فعلى تأويله بالقبيلة ﴿فاستحبوا العمى على الهدى﴾ أي: اختاروا الكفر على الإيمان، وقال أبو العالية: اختاروا العمى على البيان، وقال السدي: اختاروا المعصية على الطاعة ﴿فلأخذتهم صاعقة العذاب هون﴾ قد تقدم أن الصاعقة اسم للشيء المهلك لأي شيء كان، والهون الهوان والإهانة، فكانه قال: أصابهم مهلك العذاب ذي الهوان أو الإهانة، ويقال عذاب هون أي: مهين كقوله: ﴿ما لبثوا في العذاب المهين﴾ [سبا: 14]، والباء في ﴿بما كانوا يكسبون﴾ للسببية أي: بسبب الذي كانوا يكسبونه، أو بسبب كسبهم ﴿وننجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾، وهم: صالح ومن معه من المؤمنين، فإن الله نجاهم من ذلك العذاب، ثم لما نكر سبحانه ما عاقبهم به في الدنيا نكر ما عاقبهم به في الآخرة، فقال: ﴿ويوم يحشر أعداء الله إلى النار﴾، وفي وصفهم بكونهم أعداء الله بمبالغة في نهمهم، والعامل في الظرف محذوف دل عليه ما بعده تقديره: يساق الناس يوم يحشر، أو بأنكر أي: أنكر يوم يحشرهم. قرأ الجمهور (يحشر) بتحتية مضمومة، ورفع أعداء على النيابة، وقرأ نافع (نحشر) بالنون، ونصب أعداء، ومعنى حشرهم إلى النار: سوقهم إليها، أو إلى موقف الحساب، لأنه يتبين عنده فريق الجنة، وفريق النار ﴿فهم يوزعون﴾ أي: يحبس أولهم على آخرهم، ليتلاحقوا ويجمعوا، كذا قال قتادة، والسدي، وغيرهما، وقد سبق تحقيق معناه في سورة النمل مستوفى ﴿حتى إذا ما جاءوها﴾ أي: جاءوا النار التي حشروا إليها، أو موقف الحساب، و «ما» مزيدة للتوكيد ﴿شهد عليهم سمعهم وبإبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون﴾ في الدنيا من المعاصي. قال مقاتل: تنطق جوارحهم بما كتمت الألسن من عملهم بالشرك، والمراد بالجلود هي: جلودهم المعروفة في قول أكثر المفسرين. وقال السدي، وعبيد الله بن أبي جعفر، والفراء: أراد بالجلود الفروج، والأول أولى ﴿وقالوا

لجلودهم لم شهتكم علينا﴾ وجه تخصيص الثلاثة بالشهادة دون غيرها ما نكره الرازي أن الحواس الخمس وهي: السمع، والبصر، والشم، والذوق، واللمس، وآلة المس هي الجلد، فالحس سبحانه نكر هنا ثلاثة أنواع من الحواس، وهي: السمع، والبصر، واللمس، وأهمل ذكر نوعين، وهما: الذوق، والشم، فالذوق داخل في اللمس من بعض الوجوه، لأن إدراك الذوق إنما يتأتى بان تصير جلدة اللسان مماسة لجرم الطعام، وكذلك الشم لا يتأتى حتى تصير جلدة الحنك مماسة لجرم المشوم، فكانا داخليين في جنس اللمس، وإذا عرفت من كلامه هذا وجه تخصيص الثلاثة بالذكر عرفت منه وجه تخصيص الجلود بالسؤال، لأنها قد اشتملت على ثلاث حواس، فكان تأتي المعصية من جهتها أكثر وأما على قول من فسر الجلود بالفروج، فوجه تخصيصها بالسؤال ظاهر، لأنه ما يشهد به الفرج من لزنا أعظم قبحاً، وأجلب للخزي والعقوبة، وقد قدمنا وجه إفراد السمع، وجمع الأبصار ﴿قالوا انطقنا الله الذي انطق كل شيء﴾ أي: انطق كل شيء مما ينطق من مخلوقاته، فشهدنا عليكم بما علمتم من القبائح، وقيل: المعنى: ما نطقنا باختيارنا، بل انطقنا الله، والأول أولى ﴿وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون﴾ قيل: هذا من تمام كلام الجلود، وقيل: مستأنف من كلام الله، والمعنى: أن من قدر على خلقكم، وإنشاءكم ابتداء قدر على إعانتكم، ورجعكم إليه ﴿وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم﴾ هذا تقرير لهم، وتوبيخ من جهة الله سبحانه، أو من كلام الجلود أي: ما كنتم تستخفون عند الأعمال القبيحة حذراً من شهادة الجوارح عليكم، ولما كان الإنسان لا يقدر على أن يستخفي من جوارحه عند مباشرة المعصية كان معنى الاستخفاء هنا: ترك المعصية. وقيل: معنى الاستتار: الانتفاء أي: ما كنتم تتقون في الدنيا أن تشهد عليكم جوارحكم في الآخرة، فتركوا المعاصي خوفاً من هذه الشهادة و «أن» في قوله: ﴿أن تشهد﴾ في محل نصب على العلة أي: لأجل أن تشهد، أو مخافة أن تشهد. وقيل: منصوبة بنزع الخافض، وهو: الباء أو عن أو من. وقيل: إن الاستتار مضمن معنى الظن أي: وما كنتم تظنون أن تشهد، وهو: بعيد ﴿ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعلمون﴾ من المعاصي، فاجترأتم على فعلها، قيل: كان الكفار يقولون: إن الله لا يعلم ما في أنفسنا، ولكن يعلم ما نظهر دون ما نسر. قال قتادة: الظن هنا بمعنى: العلم، وقيل: أريد بالظن معنى مجازي يعم معناه الحقيقي، وما هو فوقه من العلم، ﴿و﴾ الإشارة بقوله: ﴿أنكم﴾ إلى ما نكر من ظنهم، وهو: مبتدأ وخبره ﴿ظننكم الذي ظننتم بربكم﴾، وقوله: ﴿أرداكم﴾ خبر آخر للمبتدأ وقيل: إن أرداكم في محل نصب على الحال المقدرة. وقيل: إن ظننكم بدل من أنكم، والذي ظننتم خبره، وأرداكم خبر آخر، أو حال، وقيل: إن ظننكم خبر أول، والموصول وصلته خبر ثان، وأرداكم خبر ثالث، والمعنى: أن ظننكم بأن الله لا

يعلم كثيراً مما تعملون أهلکم، وطرحکم في النار ﴿فاصبحتم من الخاسرين﴾ أي: الکاملين في الخسران. ثم أخبر عن حالهم، فقال: ﴿فإن یصبروا فالنار مثوی لهم﴾ أي: فإن یصبروا على النار، فالنار مثواهم أي: محل استقرارهم، وإقامتهم لا خروج لهم منها. وقيل: المعنى: فإن یصبروا في الدنيا على أعمال أهل النار، فالنار مثوی لهم ﴿وإن یستعذبوا فما هم من المعذبين﴾ قال: أعتبني فلان أي: أرضاني بعد إسقاطه إياي، واستعذبته طلبت منه أن یرضی، والمعنى: أنهم إن یسألوا أن یرجع بهم إلى ما یحبون لم یرجع، لأنهم لا یستحقون ذلك. قال الخلیل: تقول: استعذبته، فأعذبني أي: استرضيته، فأرضاني، ومعنى الآية: إن یطلبوا الرضی لم یقع الرضی عنهم، بل لا بدّ لهم من النار. قرا الجمهور (یستعذبوا) بفتح التحتية، وكسر التاء الفوقية الثانية مینیا للفاعل، وقرءوا (من المعذبين) بفتح الفوقية اسم مفعول، وقرأ الحسن، وعبيد بن عمير، وأبو العالية (یستعذبوا) مینبأ للمفعول (فما هم من المعذبين) اسم فاعل أي: إنهم إن أقالهم الله، وردّهم إلى الدنيا لم یعملوا بطاعته كما في قوله سبحانه: ﴿ولو ردّوا لعادوا لما نهوا عنه﴾ [الأنعام: 8].

وقد أخرج الطبراني عن ابن عباس في قوله: ﴿فَهُمْ يَوْرَعُونَ﴾ قال: يحبس أولهم على آخرهم. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في الآية قال: يدفعون. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن ابن مسعود قال: كنت أستمتر بأستار الكعبة، فجاء ثلاثة نفر: قرشي وثقفان، أو ثقف وقرشيان، كثير لحم بطونهم قليل فقه قلوبهم، فتكلموا بكلام لم أسمعه، فقال أحدهم: أترون أن الله يسمع كلامنا هذا؟ فقال الآخران: إنا إذا رفعنا أصواتنا سمعه، وإنا إذا لم نرفعه لم يسمعه، فقال الآخران: إن سمع منه شيئاً سمعه كله؛ قال: فذكرت ذلك للنبي ﷺ، فأنزل الله ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَقْتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿مَنْ لِلْخَاسِرِينَ﴾. وأخرج عبد الرزاق، وأحمد، والنسائي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في البعث عن معاوية بن حيدة قال: قال رسول الله ﷺ: «تَحْشَرُونَ هَا هُنَا، وَأَوَمَا بِيَدِهِ إِلَى الشَّامِ، مَشَاءَ وَرَكِبَانَا، وَعَلَى وَجُوهِكُمْ، وَتَعْرَضُونَ عَلَى اللَّهِ، وَعَلَى أَفْوَاهِكُمُ الْقِدَامِ، وَأَوَّلُ مَا يَعْرَبُ عَنْ أَحَدِكُمْ، فَخَذَهُ وَكَتَفَهُ، وَتَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَقْتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾». وأخرج أحمد، وأبو داود الطيالسي، وعبد بن حميد، ومسلم، وأبو داود، وابن ماجه، وابن حبان، وابن مريويه عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يَحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ تَعَالَى، فَإِنْ قَوْمًا قَدْ أَرَادَهُمْ سُوءُ ظَنِّهِمُ بِاللَّهِ، فَقَالَ اللَّهُ: ﴿وَلَكُمْ ظَنُّكُمْ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَأَيْتُمْ فَاصْبِرْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾».

﴿ وَقِضْنَا لَهُمْ قُرْنَآءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ

عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْغَنِيِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا
خَاسِرِينَ ﴿١٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ
تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ فَلْيَذِيقُوا الْعَذَابَ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَسَنَ بَهُمْ أَمْرًا الَّذِي كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْمُقَامَةِ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ
يَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الْآلِهَةَ الَّذِينَ أَصْلَلْنَا مِنْ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ
جَمْعَهُمَا مَحْتَ أَفْتَانًا لِيَكُونَ مِنَ الْأَشْغَلِ ﴿١٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ
ثُمَّ اسْتَفْتَوْا نَزَّلَ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ أَلَّا تُخَاوُوا وَلَا تُخْرَبُوا وَابْتَدَرُوا
بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٢٠﴾ هُنَّ أَزْوَاجُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي
الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُونَ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٢١﴾
ثُمَّ لَا يَنْ عَوْدُهُمْ رِجْعٍ ﴿٢٢﴾ وَنَحْنُ أَحْسَنُ قَوْلًا وَمَنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ
صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٢٣﴾ وَلَا تَسْتَوِ لِمُحْسِنَةٍ وَلَا لِمُسِيئَةٍ أَدْفَعُ
يَأْتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٢٤﴾ وَمَا
يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَآلُفْقَهَا إِلَّا أَوْ حَطَّ عَظِيمٌ ﴿٢٥﴾ وَإِنَّا بِرَعْعِكَ
مِنَ الشَّيْطَانِ نَزَعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾

قوله: ﴿وَقُضِيَنا لَهُمْ قُرْءاءُ﴾ أي: هيئنا قرءاناً من الشياطين. وقال الزجاج: سببنا لهم قرءاناً حتى أضلّوهم، وقيل: سلطنا عليهم قرءاناً. وقيل: قرءنا، والمعاني متقاربة، وأصل التقييض التيسير، والتهينة، والقرءاء جمع قرين، وهم: الشياطين، جعلهم بمنزلة الأخلاء لهم، وقيل: إن الله قيض لهم قرءاناً في النار، والأولى أن ذلك في الدنيا لقوله: ﴿فَرَزَيْنُوا لَهُمْ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ﴾ فإن المعنى: زينوا لهم ما بين أيديهم من أمور الدنيا وشهواتها، وحملوهم على الوقوع في معاصي الله بانهماكهم فيها، وزينوا لهم ما خلفهم من أمور الآخرة، فقالوا: لا بعث، ولا حساب، ولا جنة، ولا نار. وقال الزجاج: ما بين أيديهم ما عملوه، وما خلفهم ما عزموا على أن يعملوه. وروي عن الزجاج أيضاً، أنه قال: ما بين أيديهم من أمر الآخرة أنه لا بعث، ولا جنة، ولا نار، وما خلفهم من أمر الدنيا ﴿وَحَقُّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أي: وجب، وثبت عليهم العذاب، وهو قوله سبحانه: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمِيعِينَ﴾ [ص: 85] و ﴿فِي أَمَمٍ﴾ في محل نصب على الحال من الضمير في عليهم، والمعنى: كائنين في جملة أمم، وقيل: في بمعنى مع أي: مع أمم من الأمم الكافرة التي ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ ومضت ﴿مَنْ قَبْلَهُمْ مِنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ﴾ على الكفر، وجملة ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خاسِرِينَ﴾ تعليل لاستحقاقهم العذاب ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ﴾ أي: قال بعضهم لبعض: لا تسمعه، ولا تنصتوا له، وقيل: معنى لا تسمعوا: لا تطيعوا، يقال: سمعت لك أي: أطعك ﴿وَالْغَوَا فِيهِ﴾ أي: عارضوه باللغو والباطل، أو ارفعوا أصواتكم ليتشوش القارئ له. وقال مجاهد: الغوا فيه بالمكاء، والتصدية، والتصفيق، والتخليط في الكلام حتى يصير لغواً. وقال الضحاک: أكثروا الكلام؛ يختلط عليه ما يقول. وقال أبو العالية: قعوا فيه، وعيروه.

الدفع بالتي هي أحسن، فاستعذ بالله من شره، وجعل النزغ نازغاً على المجاز العقلي كقولهم: جدّ جدّه، وجملته **﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾** تحليل لما قبلها أي: السميع لكل ما يسمع، والعليم بكل ما يعلم، ومن كان كذلك، فهو يعيذ من استعاذ به.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ وهو بمكة إذا قرأ القرآن يرفع صوته، فكان المشركون يطربون الناس عنه، ويقولون: **﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾** وكان إذا أخفى قراءته لم يسمع من يحب أن يسمع القرآن، فأنزل الله: **﴿لَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا﴾** [الإسراء: 110]، وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مروي، وابن عساكر عن علي بن أبي طالب: أنه سئل عن قوله: **﴿رَبَّنَا آتِنَا الَّذِينَ آفَضَلْنَا مِنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ﴾** قال: هو: ابن آدم الذي قتل أخاه، وإبليس، وأخرج الترمذي، والنسائي، والبخاري، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن عدي، وابن مروي عن أنس قال: «قرأ علينا رسول الله ﷺ هذه الآية **﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾** قال: قد قالها ناس من الناس، ثم كفر أكثرهم، فمن قالها حين يموت، فهو ممن استقام عليها». وأخرج ابن المبارك، وعبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، ومسدد، وابن سعد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن طريق سعيد بن عمران، عن أبي بكر الصديق في قوله: **﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾** قال: الاستقامة أن لا يشركوا بالله شيئاً. وأخرج ابن راهويه، وعبد بن حميد، والحكيم الترمذي في نوارد الأصول، والحاكم وصححه، وابن مروي، وأبو نعيم في الحلية من طريق الأسود بن هلال عن أبي بكر الصديق أنه قال: ما تقولون في هاتين الآيتين: **﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾**، و**﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾** [الأنعام: 82]؟ قالوا: الذين قالوا: ربنا الله، ثم عملوا بها، واستقاموا على أمره، فلم يزنّبوا، ولم يلبسوا إيمانهم بظلم لم يزنّبوا، قال: لقد حملتموهما على أمر شديد **﴿الَّذِينَ آمَنُوا، وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾** يقول: بشرك، **﴿وَالَّذِينَ قَالُوا: رَبُّنَا اللَّهُ، ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾**، فلم يرجعوا إلى عبادة الاوثان. وأخرج ابن مروي عن بعض الصحابة: ثم استقاموا على فرائض الله. وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس **﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾** قال: على شهادة أن لا إله إلا الله. وأخرج ابن المبارك، وسعيد بن منصور، وأحمد في الزهد، وعبد بن حميد، والحكيم الترمذي، وابن المنذر عن عمر بن الخطاب **﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾** قال: استقاموا بطاعة الله، ولم يروغوا روغان الثعلب. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، والدارمي، والبخاري في تاريخه، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان، عن

أجاب الله فيه من طاعته **﴿وَعَمَلٌ صَالِحًا﴾** في إجابته **﴿وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾** لربي. وقال ابن سيرين، والسدي، وابن زيد: هو: رسول الله ﷺ، وروي هذا أيضاً عن الحسن. وقال عكرمة، وقيس بن أبي حازم، ومجاهد: نزلت في المؤمنين. ويجاب عن هذا بأن الآية مكية، والأذان إنما شرع بالمدينة. والأولى حمل الآية على العموم كما يقتضيه اللفظ، ويدخل فيها من كان سبباً لنزولها بخلاً أولاً، فكل من جمع بين دعاء العباد إلى ما شرعه الله، وعمل عملاً صالحاً، وهو: تلبية ما فرضه الله عليه مع اجتناب ما حرمه عليه، وكان من المسلمين نبياً لا من غيرهم، فلا شيء أحسن منه، ولا أوضح من طريقته، ولا أكثر ثواباً من عمله. ثم بين سبحانه الفرق بين محاسن الأعمال، ومساورها، فقال: **﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾** أي: لا تستوي الحسنه التي يرضى الله بها، ويثيب عليها، ولا السيئة التي يكرهها الله، ويعاقب عليها، ولا وجه لتخصيص الحسنه بنوع من أنواع الطاعات، وتخصيص السيئة بنوع من أنواع المعاصي، فإن اللفظ أوسع من ذلك. وقيل: الحسنه التوحيد، والسيئة الشرك. وقيل: الحسنه المداراة، والسيئة الغلظة. وقيل: الحسنه العفو، والسيئة الانتصار. وقيل: الحسنه العلم، والسيئة الفحش. قال الفراء: «لا» في قوله، ولا السيئة زائدة **﴿إِنْفَعُ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾** أي: أنفع السيئة إذا جاءتك من المسيء بأحسن ما يمكن دفعها به من الحسنات، ومنه مقابلة الإساءة بالإحسان، والذنب بالعفو، والغضب بالصبر، والإغضاء عن الهفوات، والاحتمال للمكروهات. وقال مجاهد، وعطاء: بالتي هي أحسن يعني: بالسلام إذا لقي من يعاينيه، وقيل: بالمصافحة عند التلاقي **﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾** هذه هي الفائدة الحاصلة من الدفع بالتي هي أحسن، والمعنى: أنك إذا فعلت ذلك الدفع صار العدو كالصديق، والبعيد عنك كالقريب منك. وقال مقاتل: نزلت في أبي سفيان بن حرب كان معادياً للنبى ﷺ، فصار له ولياً بالمصاهرة التي وقعت بينه وبينه، ثم أسلم، فصار ولياً في الإسلام حميماً بالصهارة، وقيل غير ذلك، والأولى حمل الآية على العموم **﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾** قال الزجاج: ما يلقي هذه الفعلة، وهذه الحالة، وهي: نفع السيئة بالحسنه إلا الذين صبروا على كظم الغيظ، واحتمال المكروه **﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا نُوْحٌ حَظٌ عَظِيمٌ﴾** في الثواب والخير. وقال قتادة: الحظ العظيم: الجنة أي: ما يلقاها إلا من وجبت له الجنة؛ وقيل: الضمير في يلقاها عائد إلى الجنة، وقيل: راجع إلى كلمة التوحيد. قرأ الجمهور (يلقاها) من التلقية، وقرأ طلحة بن مصرف، وابن كثير في رواية عنه (يلقاها) من الملاقة، ثم أمره سبحانه بالاستعاذه من الشيطان، فقال: **﴿وَمَا يَزِدُّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾** النزغ شبهه النخس شبه به الوسوسة، لأنها تبعث على الشر؛ والمعنى: وإن صرفك الشيطان عن شيء مما شرعه الله لك، أو عن

بأن يسجدوا لله عزَّ وجلَّ، فقال: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾، لأنهما مخلوقان من مخلوقاته، فلا يصح أن يكونا شريكين له في ربوبيته ﴿وَأَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ أي: خلق هذه الأربعة المذكورة، لأن جمع ما لا يعقل حكمه حكم جمع الإناث، أو الآيات، أو الشمس، والقمر، لأن الاثنين جمع عند جماعة من الأئمة ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ قيل: كان ناس يسجدون للشمس، والقمر كالصائين في عبادتهم الكواكب، ويزعمون أنهم يقصدون بالسجود لهما السجود لله، فنهوا عن ذلك، فهذا وجه تخصيص نكر السجود بالنهي عنه. وقيل: وجه تخصيصه أنه أقصى مراتب العبادة، وهذه الآية من آيات السجود بلا خلاف، وإنما اختلفوا في موضع السجدة، فقيل: موضعه عند قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾، لأنه متصل بالامر، وقيل: عند قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾، لأنه تمام الكلام ﴿فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالْأَنزِيلُ مِنْ رَبِّكَ يَسْجُدُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ أي: إن استكبر هؤلاء عن الامتثال، فالملائكة يطيعون التسبيح لله سبحانه بالليل، والنهار، وهم لا يملون، ولا يفترون ﴿وَمَنْ آيَاتُهُ أَنْتَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ الخطاب هنا لكل من يصلح له، أو لرسول الله ﷺ، والخاشعة: اليابسة الجدية. وقيل: الغبراء التي لا تنبت. قال الأزهري: إذا بيست الأرض، ولم تمطر قيل: قد خشعت ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ أي: ماء المطر، ومعنى اهتزت: تحركت بالنبات يقال: اهتز الإنسان: إذا تحرك، ومنه قول الشاعر:

تراه كنصل السيف يهتز للندى إذا لم تجد عند امرئ سوء مطعما
ومعنى ربت: انتفخت، وعلت قبل أن تنبت: قاله مجاهد، وغيره، وعلى هذا ففي الكلام تقييد، وتأخير، وتقدير: ربت، واهتزت، وقيل: الاهتزاز، والربو قد يكونان قبل خروج النبات، وقد يكونان بعده، ومعنى الربو لغة: الارتفاع، كما يقال للموضع المرتفع: ربوة، وراوية، وقد تقدم تفسير هذه الآية مستوفى في سورة الحج، وقيل: اهتزت استبشرت بالمطر، وربت انتفخت بالنبات. وقرأ أبو جعفر، وخالد (وربات) ﴿إِنْ أَحْيَاها لِمَحْيِ الْمَوْتِ﴾ بالبعث، والنشور ﴿إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يعجزه شيء كائناً ما كان ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَلْحَدُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ أي: يميلون عن الحق، والإلحاد الميل، والعدول، ومنه اللحد في القبر، لأنه أميل إلى ناحية منه، يقال: لحد في دين الله أي: مال، وعدل عنه، ويقال: لحد، وقد تقدم تفسير الإلحاد. قال مجاهد: معنى الآية: يميلون عن الإيمان بالقرآن. وقال مجاهد: يميلون عند تلاوة القرآن بالمكاء، والتصديع، واللغو، والغناء. وقال قتادة: يكذبون في آياتنا، وقال السدي: يعاندون، ويشاققون. وقال ابن زيد يشركون ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ بل نحن نعلمهم، فنجازيهم بما يعملون. ثم بين كيفية الجزاء، والتفاوت بين المؤمن، والكافر، فقال: ﴿أَفَمَنْ يَلْقَى فِي النَّارِ خَيْرًا مِمَّنْ يَلْقَى يَوْمَ الْآيَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ هذا الاستفهام للتقريب، والغرض منه التنبيه على أن الملحدين في الآيات يلقون في النار، وأن

سفيان الثقفى، أن رجلاً قال: يا رسول الله مرني بأمر في الإسلام لا أسأل عنه أحداً بعدك، قال: قل آمنت بالله، ثم استقم، قلت: فما اتقي؟ فأوى إلى لسانه. قال الترمذي: حسن صحيح. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن عائشة في قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ قالت: المؤمن ﴿وَعَمَلُ صَالِحًا﴾ قالت: ركعتان فيما بين الأذان، والإقامة. وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف، وابن المنذر، وابن مردويه من وجه آخر عنها قالت: ما أرى هذه الآية نزلت إلا في المؤمنین. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ انْفَعُ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ قال: أمر المسلمين بالصبر عند الغضب، والحلم عند الجهل، والعفو عند الإساءة، فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان، وخضع لهم عذوبهم ﴿وَكَانَ وَلِيَّ حَمِيمٍ﴾. وأخرج ابن مردويه عنه ﴿انْفَعُ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ قال: ألقه بالسلام، فإذا الذي بينك، وبينه عداوة كانه ولي حميم. وأخرج ابن المنذر عن أنس في قوله: ﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ قال: الرجل يشتبه أخوه، فيقول: إن كنت صادقاً، فغفر الله لي، وإن كنت كاذباً، فغفر الله لك. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن سليمان بن صرد قال: «استبَّ رجلان عند النبي ﷺ، فاشتدَّ غضب أحدهما، فقال النبي ﷺ: إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه الغضب: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فقال الرجل: أمجنون تراني؟ فتلا رسول الله ﷺ ﴿وَمَا يَنْزَغُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾».

وَمَنْ آيَاتِهِ أَلْبَلٌ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا سَجْدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَأَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧﴾ فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴿١٨﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً إِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنْ الَّذِي أَحْيَاكُمْ لَمِجِي الْمَوْتِ إِنْكُمْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ إِنْ الَّذِينَ يَلْحَدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخَفُونَ عَلَيْنَا آمَنَ يُلَقَّ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي الْيَوْمَ بِالْقِيَمَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ بَعِيرٌ ﴿٢٠﴾ إِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ أَمَّا جَاءَهُمْ وَأَنَّهُمْ لَكِنَّهُمْ لَكَاظِمٌ ﴿٢١﴾ لَا يَأْتِيهِمُ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَرْجُلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٢٢﴾ مَا قَالَتْ لَهُ إِلَّا مَا قَدِيقِلْ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنْ يَكُنْ لَدُنْكَ مَفْزُورٌ ذَرُّهُ عِقَابَ إِلَهِي ﴿٢٣﴾ وَلَوْ جَعَلْتَهُ قُرْآنًا نَجِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَجِئٌ وَعَرَفْتُ قُلُوبَهُ لِلَّذِينَ آمَنُوا هَذَاكَ وَتَمَكَّنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُبَادِلُونَ مَكَانَ بَعِيرٍ ﴿٢٤﴾

شرح سبحانه في بيان بعض آياته البديعة الدالة على كمال قدرته، وقوة تصرفه للاستدلال بها على توحيده، فقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾، ثم لما بين أن ذلك من آياته نهاهم عن عبادة الشمس، والقمر، وأمرهم

المؤمنين بها يأتون آمنين يوم القيامة. وظاهر الآية العموم اعتباراً بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. وقيل: المراد بمن يلقى في النار: أبو جهل، ومن يأتي أمناً: النبي ﷺ، وقيل: حمزة، وقيل: عمر بن الخطاب، وقيل: أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي ﴿اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير﴾ هذا أمر تهديد أي: اعملوا من أعمالكم التي تلقىكم في النار ما شئتم إنه بما تعملون بصير، فهو مجازيكم على كل ما تعملون. قال الزجاج: لفظه لفظ الأمر، ومعناه: الوعيد ﴿إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم﴾ الجملة مستأنفة مقررة لما قبلها، وخبر إن محذوف أي: إن الذين كفروا بالقرآن لما جاءهم يجازون بكفرهم، أو هالكون، أو يعذبون، وقيل: هو قوله: ﴿ينالون من مكان بعيد﴾، وهذا بعيد، وإن رجحه أبو عمرو بن العلاء. وقال الكسائي: إنه سد مسدده الخبر السابق، وهو: ﴿لا يخفون علينا﴾. وقيل: إن الجملة بدل من الجملة الأولى، وهي: الذين يلحدون في آياتنا، وخبر إن هو: الخبر السابق ﴿وإنه لكتاب عزيز﴾ أي: القرآن الذي كانوا يلحدون فيه أي: عزيز عن أن يعارض، أو يطعن فيه الطاعنون، منيع عن كل عيب. ثم وصفه بأنه حق لا سبيل للباطل إليه بوجه من الوجوه، فقال: ﴿لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾. قال الزجاج: معناه: أنه محفوظ من أن ينقص منه، فيأتيه الباطل من بين يديه، أو يزداد فيه، فيأتيه الباطل من خلفه، وبه قال قتادة، والسدي. ومعنى الباطل على هذا: الزيادة، والنقصان. وقال مقاتل: لا ياتيه التكنيب من الكتب التي قبله، ولا يجيء من بعده كتاب فيبطله، وبه قال الكلبي، وسعيد بن جبير. وقيل: الباطل هو: الشيطان أي: لا يستطيع أن يزيد فيه، ولا ينقص منه، وقيل: لا يزداد فيه، ولا ينقص منه، لا من جبيل، ولا من محمد ﷺ ﴿تنزيل من حكيم حميد﴾ هو خبر مبتدأ محذوف، أو صفة أخرى لكتاب عند من يجوز تقسيم غير الصريح من الصفات على الصريح، وقيل: إنه الصفة لكتاب، وجملة لا ياتيه معترضة بين الموصوف، والصفة، ثم سلى سبحانه رسوله ﷺ عن ما كان يتأثر له من آية الكفار، فقال: ﴿ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك﴾ أي: ما يقال لك من هؤلاء الكفار من وصفك بالسحر، والكنب، والجنون إلا مثل ما قيل للرسل من قبلك، فإن قومهم كانوا يقولون لهم مثل ما يقول لك هؤلاء، وقيل: المعنى: ما يقال لك من التوحيد، وإخلاص العبادة لله إلا ما قد قيل للرسل من قبلك، فإن الشرائع كلها متفقة على ذلك، وقيل: هو استفهام أي: أي شيء يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ﴿إن ربك لنو مغفرة﴾ لمن يستحق مغفرته من الموحدين الذين بايعوك، وبايعوا من قبلك من الأنبياء ﴿ونو عقاب ليم﴾ للكفار المكذبين المعادين لرسل الله، وقيل: لنو مغفرة للأنبياء، ونو عقاب لأعدائهم ﴿ولو جعلناه قرآناً أعجمياً﴾ أي: لو جعلناه هذا القرآن الذي تقرأه على الناس بغير لغة العرب ﴿لقالوا لولا فصلت آياته﴾ أي: بينت بلغتنا، فإننا

عرب لا نفهم لغة العجم، والاستفهام في قوله: ﴿أعجمي وعربي﴾ للإنكار، وهو من جملة قول المشركين أي: لقالوا كلام أعجمي، ورسول عربي. والأعجمي: الذي لا يفصح سواء كان من العرب، أو من العجم. والأعجم ضد الفصح وهو: الذي لا يبين كلامه، ويقال للحيان غير الناطق: أعجم. قرأ أبو بكر، وحمزة، والكسائي (أعجمي) بهمزتين محقتين. وقرأ الحسن، وأبو العالية، ونصر بن عاصم، وهشام بهمزة واحدة على الخبر، وقرأ الباقون بتسهيل الثانية بين بين، وقيل: المراد: هلا فصلت آياته، فجعل بعضها أعجمياً لإفهام العجم، وبعضها عربياً لإفهام العرب. ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يجيبهم، فقال: ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء﴾ أي: يهتدون به إلى الحق، ويشفون به من كل شك، وشبهة، ومن الأسقام، والآلام ﴿والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر﴾ أي: صمم عن سماعه، وفهم معانيه، ولهذا تواصلوا باللغو فيه ﴿وهو عليهم عمى﴾ قال قتادة: عموا عن القرآن، وصموا عنه. وقال السدي: عميت قلوبهم عنه، والمعنى: وهو عليهم ذو عمى، أو وصف بالمصدر للمبالغة، والموصول في قوله: ﴿والذين لا يؤمنون﴾ مبتدأ، وخبره ﴿في آذانهم وقر﴾، أو الموصول الثاني عطف على الموصول الأول، وقر عطف على هدى عند من جَوَزَ العطف على عاملين مختلفين، والتقدير: هو للأولين هدى، وشفاء، وللآخرين، وقر في آذانهم. قرأ الجمهور (عمى) بفتح الميم منونة على أنه مصدر، وقرأ ابن عباس، وعبد الله بن الزبير، وعمرو بن العاص، وابن عمر بكسر الميم منونة على أنه اسم منقوص على أنه وصف به مجازاً. وقرأ عمرو بن دينار بكسر الميم، وفتح الياء على أنه فعل ماض، واختار أبو عبيدة القراءة الأولى لقوله أولاً ﴿هدى وشفاء﴾، ولم يقل هاد، وشاف، وقيل: المعنى: والوقر عليهم عمى، والإشارة بقوله: ﴿أولئك﴾ إلى الذين لا يؤمنون، وما في حيزه، وخبره ﴿ينالون من مكان بعيد﴾ مثل حالهم باعتبار عدم فهمهم للقرآن بحال من ينادي من مسافة بعيدة لا يسمع صوت من يناديه منها. قال الفراء: تقول للرجل الذي لا يفهم كلامك: أنت تنادي من مكان بعيد. وقال الضحاك: ينادون يوم القيامة باقبح أسمائهم من مكان بعيد. وقال مجاهد: من مكان بعيد من قلوبهم.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه من طريق سعيد بن جبير، عن ابن عباس: أنه كان يسجد بأخر الآيتين من حم السجدة، وكان ابن مسعود يسجد بالأولى منهما. وأخرج ابن سعد، وابن أبي شيبة من طريق نافع عن ابن عمر: أنه كان يسجد بالأولى. وأخرج سعيد بن منصور عنه: أنه كان يسجد في الآية الأخيرة. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿إن الذين يلحدون في آياتنا﴾ قال: هو: أن يضع الكلام على غير موضعه. وأخرج ابن مريويه عنه في قوله: ﴿أفمن يلقى في

النار قال: أبو جهل بن هشام **﴿لم من يأتي آمنة يوم القيامة﴾** قال: أبو بكر الصديق. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن عساكر عن بشير بن تميم قال: نزلت هذه الآية في أبي جهم، وعمار بن ياسر. وأخرج ابن عساكر عن عكرمة مثله. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله: **﴿واعملوا ما شئتم﴾** قال: هذا لأهل بدر خاصة. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: **﴿ولو جعلناه قرآناً أعجمياً﴾** الآية يقول: لو جعلنا القرآن أعجمياً، ولسانك يا محمد عربي لقالوا: أعجمي، وعربي تاتينا به مختلفاً، أو مختلطاً **﴿ولو فصلت آياته﴾** هلا بينت آياته، فكان القرآن مثل اللسان. يقول: فلم نفعل لئلا يقولوا، فكانت حجة عليهم.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُوتَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿٦٠﴾ مَنْ عَمِلْ مِثْلًا فَلَنُفْسِيهِ. وَمَنْ أَسَاءَ فَلْيُتَبَّهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٦١﴾ إِيَّاهُ يَرْدُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ. وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ آيُنْ شُرَكَائِي قَالُوا مَا أَذْنَكُ مَا مَنَا مِنْ شَيْءٍ ﴿٦٢﴾ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَكَلَّمُوا مَا لَهُمْ مِنْ حَيٍّ ﴿٦٣﴾ لَا يَسْمَعُ الْإِنْسَانُ مِنْ دَعَاِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَنْوَسْ قَوْلَهُ ﴿٦٤﴾ وَلَكِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَدَدِ ضَرَّتِهِ مَسَّهُ يَقُولُونَ هَذَا لِي وَمَا أَهْلُ السَّاعَةِ قَالِيَهُ وَلَكِنْ نُجِيتُ لَكَ رَبِّي إِنْ لِي عِنْدَهُ لَلْخُسْفَى فَلَنُنَازِلَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٦٥﴾ وَإِذَا أَمْسَأَ عَلَى الْإِنْسَانِ عُرْسًا وَنَحَا يَعَارِيهِ. وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دَعْوَى عَرِيضٍ ﴿٦٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ. مَنْ أَسْأَلَ مِنْهُ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٦٧﴾ سَرَّيْهِمْ ءَاتَيْنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكُنْ بِرَبِّكَ أَنْتُمْ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَافِظِينَ ﴿٦٨﴾ أَلَا لَهُمْ فِي يَرِيرَةٍ بَيْنَ يَدَيْهِ رَبِّيهِمْ أَلَا إِنَّهُمْ كَافِرٌ عَنِ مَخْرِجِهَا ﴿٦٩﴾

قوله: **﴿ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه﴾** هذا كلام مستأنف يتضمن تسليية رسول الله ﷺ عما كان يحصل له من الاغتمام بكفر قومه، وطعنهم في القرآن، فاخبره أن هذا عادة قديمة في أمم الرسل، فإنهم يختلفون في الكتب المنزلة إليهم، والمراد بالكتاب: التوراة، والضمير من قوله: **﴿فيه﴾** راجع إليه، وقيل: يرجع إلى موسى، والأول أولى **﴿ولو لا كلمة سبقت من ربك﴾** في تأخير العذاب عن المكذبين من أمتك كما في قوله: **﴿ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى﴾** [النمل: 61، وفاطر: 45] **﴿لقضيب بينهم﴾** بتعجيل العذاب لمن كذب منهم **﴿وإنهم لفي شك منه مريب﴾** أي: من كتابك المنزل عليك، وهو: القرآن، ومعنى الشك المريب: الموقع في الريبة، أو الشديد الريبة. وقيل: إن المراد اليهود، وإنهم في شك من التوراة مريب، والأول أولى **﴿من عمل صالحاً فلنفسه﴾** أي: من أطاع الله، وآمن برسوله، ولم يكذبهم، فثواب ذلك راجع إليه، ونفعه خاص به **﴿ومن أساء﴾**

فعلينا﴾ أي: عقاب إساءته عليه لا على غيره **﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾**، فلا يعذب أحداً إلا بذنبه، ولا يقع منه الظلم لأحد كما في قوله سبحانه: **﴿إن الله لا يظلم الناس شيئاً﴾** [يونس: 44] وقد تقدم الكلام على معنى هذه الآية في سورة عمران: [182]، وفي سورة الأنفال أيضاً. ثم أخبر سبحانه: أن علم القيامة، ووقت قيامها لا يعلمه غيره، فقال: **﴿إليه يرد علم الساعة﴾**، فإذا وقع السؤال عنها وجب على المسؤول أن يرد علمها إليه لا إلى غيره، وقد روي أن المشركين قالوا: يا محمد إن كنت نبياً، فخبّرنا متى تقوم الساعة؟ فنزلت و **﴿ما﴾** في قوله: **﴿وما تخرج من ثمرات من أكمامها﴾** نافية، ومن الأولى للاستعراق، ومن الثانية لابتداء الغاية، وقيل: هي موصولة في محل جر عطفاً على الساعة أي: علم الساعة، وعلم التي تخرج، والأول أولى. والاكمام جمع كم بكسر الكاف، وهو: وعاء الثمرة، ويطلق على كل ظرف لملأ، أو غيره. قال أبو عبيدة: اكمامها أوعيتها، وهي ما كانت فيه الثمرة، واحداً كم، وكمة. قال الراغب: الكم ما يغطي اليد من القميص، وما يغطي الثمرة، وجمعه اكمام، وهذا يدل على أن الكم بضم الكاف، لأنه جعله مشتركاً بين كم القميص، وكم الثمرة، ولا خلاف في كم القميص أنه بالضم. ويمكن أن يقال: إن في الكم الذي هو وعاء الثمر لغتين. قرأ الجمهور (من ثمرة) بالإنفراد، وقرأ نافع، وابن عامر، وحفص بالجمع **﴿وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه﴾** أي: ما تحمل أنثى حملاً في بطنها، ولا تضع نكاح الحمل إلا بعلم الله سبحانه، والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال أي: ما يحدث شيء من خروج ثمرة، ولا حمل حامل، ولا وضع واضع في حال من الأحوال إلا كما أتى بعلم الله، وإليه يرد علم الساعة كما إليه يرد علم هذه الأمور **﴿ويوم ينالونهم﴾** أي: ينادي الله سبحانه المشركين، وذلك يوم القيامة، فيقول لهم: **﴿أين شركائكم﴾** الذين كنتم تزعمون أنهم شركائكم في الدنيا من الأصنام، وغيرها، فادعوه الآن، فليشفعوا لكم، أو يدفعوا عنكم العذاب، وهذا على طريقة التهكم بهم. قرأ الجمهور (شركائكم)، بسكون الياء، وقرأ ابن كثير بفتحها، والعامل في يوم محذوف أي: أنكر **﴿قالوا أنناك ما منا من شهيد﴾** يقال: آئن يائن: إذا أعلم، ومنه قول الشاعر:

أَنْتَنَّا بَيْنَهَا أَسْمَاءُ رَبِّ شَاوٍ يَمَلُّ مِنْهُ الشَّوَاءُ
والمعنى: أعلمناك ما منا أحد يشهد بأن لك شريكاً، وذلك أنهم لما عاينوا القيامة تبرعوا من الشركاء، وتبرأت منهم تلك الأصنام التي كانوا يعبدونها. وقيل: إن القائل بهذا هي: المعبودات التي كانوا يعبدونها أي: ما منا من شهيد يشهد لهم بأنهم كانوا محقين، والأول أولى **﴿ووضّل عنهم ما كانوا يدعون من قبل﴾** أي: زال، وبطل في الآخرة ما كانوا يعبدون في الدنيا من الأصنام، ونحوها **﴿وظنوا ما لهم من محيص﴾** أي: ايقنوا، وعلموا أنه لا محيص لهم، يقال: حاص يحيص حيصاً: إذا هرب. وقيل: الظن على معناه

والحقيقي؛ لأنه بقي لهم في تلك الحال ظنٌّ، ورجاء، والأول أولى. ثم نكر سبحانه بعض أحوال الإنسان، فقال: ﴿لَا يَسَامُ الْإِنْسَانُ مِنْ دَعَاءِ الْخَيْرِ﴾ أي: لا يملُ من دعاء الخير لنفسه، وجلبه إليه، والخير هنا: المال، والصحة، والسلطان، والرفعة. قال السدّي: والإنسان هنا يراد به الكافر، وقيل: الوليد بن المغيرة. وقيل: عتبة، وشيبة ابنا ربيعة، وأمّية بن خلف. والأولى حمل الآية على العموم باعتبار الغالب، فلا ينافيه خروج خلص العباد. وقرأ عبد الله بن مسعود (لا يسام الإنسان من دعاء المال) ﴿وَأَنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَتَوْسَّ قَنُوطٌ﴾ أي: وإن مسه البلاء، والشدة، والفقر، والمرض، فيتوس من روح الله قنوط من رحمته. وقيل: يتوس من إجابة دعائه قنوط بسوء الظنِّ بربه. وقيل: يتوس من زوال ما به من المكروه قنوط بما يحصل له من ظنِّ نواحه، وهما صيغتا مبالغة يدلان على أنه شديد اليأس عظيم القنوط ﴿وَلَوْ أَنَّ أَنْفَافَهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرْأٍ مَسَّتَهُ﴾ أي: ولئن آتيناها خيراً، وعافية، وغنى من بعد شدة، ومرض، وفقر ﴿لَيَقُولُنَّ هَذَا لِي﴾ أي: هذا شيء أستحقه على الله لرضاه بعملِي، فظنُّ أن تلك النعمة التي صار فيها، وصلت إليه باستحقاقه لها، ولم يعلم أن الله يبتلي عباده بالخير والشرِّ، ليتبين له الشاكر من الجاحد، والصابر من الجزع. قال مجاهد: معناه: هذا بعملِي، وأنا محقق به ﴿وَمَا أَظُنُّ لِلْسَّاعَةِ قَائِمَةً﴾ أي: ما أظنها تقوم كما يخبرنا به الأنبياء، أو لست على يقين من البعث، وهذا خاص بالكافرين، والمنافقين، فيكون المراد بالإنسان المذكور في صدر الآية: الجنس باعتبار غالب أفرادهِ، لأن اليأس من رحمة الله، والقنوط من خيره، والشك في البعث لا يكون إلا من الكافرين، أو المتردلين في الدين المتطهرين بالإسلام المبطلين للكفر ﴿وَلَوْ أَنَّ رَجَعْتَ إِلَى رَبِّي﴾ على تقدير صدق ما يخبرنا به الأنبياء: من قيام الساعة، وحصول البعث، والنشور ﴿إِنْ لِي عِنْدَهُ لِلْحَسَنِ﴾ أي: للحالة الحسنى من الكرامة، فظنُّ أنه استحق خير الدنيا بما فيه من الخير، واستحق خير الآخرة بذلك الذي اعتقده في نفسه، واثبت له، وهو: اعتقاد باطل، وظنُّ فاسد ﴿فَلَنَنْبُتُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا﴾ أي: لنخبرنهم بها يوم القيامة ﴿وَلَنُنِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ شديد بسبب ذنوبهم، واللام هذه، والتي قبلها هي الموطئة للقسم ﴿وَأِذَا نَعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ أي: على هذا الجنس باعتبار غالب أفرادهِ ﴿أَعْرَضَ﴾ عن الشكر ﴿وَنَآى بَجَانِبِهِ﴾ أي: ترفع عن الانقياد للحق، وتكبر، وتجبر، والجانب هنا مجاز عن النفس، ويقال: نايت، وتناعت أي: بعدت وتباعدت، والمتناى: الموضع البعيد. ومنه قول النابغة:

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المتناى عنك واسع
وقرأ يزيد بن القعقاع (وناء بجانبه) بالالف قبل الهمزة ﴿وَأِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ أي: البلاء، والجهد، والفقر، والمرض ﴿فَنُودِيَ دَعَاءَ عَرِيضٍ﴾ أي: كثير، والعرب تستعمل الطول، والعرض في الكثرة مجازاً، يقال: أطال فلان في الكلام،

وأعرض في الدعاء: إذا أكثر، والمعنى: أنه إذا مسه الشرُّ تضرَّع إلى الله، واستغاث به أن يكشف عنه ما نزل به، واستكثر من ذلك، فنكره في الشدة، ونسيه في الرخاء، واستغاث به عند نزول النعمة، وتركه عند حصول النعمة، وهذا صنيع الكافرين، ومن كان غير ثابت القدم من المسلمين، ثم رجع سبحانه إلى مخاطبة الكفار، وم حاجتهم، فقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ أي: أخبروني ﴿إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي: القرآن ﴿ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ﴾ أي: كذبتُم به، ولم تقبلوه، ولا عملتم بما فيه ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أي: لا أحد أضلُّ منكم لفرط شقاوتكم، وشدة عداوتكم، والأصل: أَيَّ شَيْءٍ أَضَلُّ مِنْكُمْ، فوضع ﴿مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ﴾ موضع الضمير لبيان حالهم في المشاقَّة، وأنها السبب الأعظم في ضلالهم ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ﴾ أي: سنريهم دلالات صلق القرآن، وعلامات كونه من عند الله في الأفاق ﴿وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ الأفاق جمع أفق، وهو: الناحية. والأفق يضم الهمزة، والفاء، كذا قال أهل اللغة. ونقل الراغب أنه يقال: أفق بفتحهما، والمعنى: سنريهم آياتنا في النواحي، وفي أنفسهم. قال ابن زيد: في الأفاق آيات السماء، وفي أنفسهم حوادث الأرض. وقال مجاهد: في الأفاق فتح القرى التي يسر الله فتحها لرسوله، وللخلفاء من بعده، ونصار دينه في أفاق الدنيا شرقاً، وغرباً، ومن الظهور على الجبابة، والأكاسرة، وفي أنفسهم فتح مكة، ورجح هذا ابن جرير. وقال قتادة، والضحاك: في الأفاق وقائع الله في الأمم، وفي أنفسهم في يوم بدر. وقال عطاء: في الأفاق يعني: أقطار السموات، والأرض من الشمس، والقمر، والنجوم، والليل، والنهار، والرياح، والأمطار، والرعد، والبرق، والصواعق، والنبات، والأشجار، والجبال، والبحار، وغير ذلك، وفي أنفسهم من لطيف الصنعة، وبيد الحكمة، كما في قوله: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: 21] ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ الضمير راجع إلى القرآن، وقيل: إلى الإسلام الذي جاءهم به رسول الله، وقيل: إلى ما يريهم الله، ويفعل من ذلك، وقيل: إلى محمد ﷺ: أنه الرسول الحق من عند الله، والأول أولى ﴿أَوْ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ الجملة مسوقة لتوبيخهم، وتقريعهم، و «بربك» في موضع رفع على أنه الفاعل؛ ليكف، والباء زائدة، و «أنه» بدل من ربك، والهمزة للإنكار. والمعنى: ألم يغنهم عن الآيات الموعودة المبينة لحقية القرآن أنه سبحانه شهيد على جميع الأشياء. وقيل: المعنى: أو لم يكف بربك يا محمد أنه شاهد على أعمال الكفار. وقيل: أو لم يكف بربك شاهداً على أن القرآن منزل من عنده. والشهيد بمعنى: العالم، أو هو بمعنى: الشهادة التي هي: الحضور. قال الزجاج: ومعنى الكناية ها هنا: أن الله عز وجل قد بين لهم ما فيه كفاية في الدلالة، والمعنى: أو لم يكف ربك أنه على كل شيء شهيد شاهد للأشياء لا يغيب عنه شيء ﴿إِلَّا إِنْهُمْ فِي مَرِيةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ أي: في شك من البعث، والحساب، والثواب، والعقاب

المدينيتين. أقول: هذا الحديث لا يصح، ولا يثبت، وما اظنه إلا من الموضوعات المكنوبات، والحامل لوضعه عليه ما يقع لكثير من الناس من عداوة الدول، والحق من شأنهم، والإضرار عليهم. وأخرج أبو يعلى، وابن عساكر قال السيوطي بسند ضعيف: قلت بل بسند موضوع، ومتن مكنوب عن أبي معاوية قال: سعد عمر بن الخطاب المنبر، فقال: أيها الناس هل سمع منكم أحد رسول الله ﷺ يفسر حم عسق، فوثب ابن عباس فقال: إن حم اسم من أسماء الله، قال: فعين قال: عاين المذكور عذاب يوم بدر، قال: فسين، قال: «وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون» [الشعراء: 227] قال: ففاف، فسكت، فقام أبو نر، ففسر كما قال ابن عباس، وقال: قاف: قارعة من السماء تصيب الناس. قال ابن كثير في الحديث الأول: إنه غريب عجيب منكر، وفي الحديث الثاني: إنه أغرب من الحديث الأول. وعندي أنهما موضوعان مكنوبان.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ۝ عَسَى ۝ كَذَلِكَ يُرْسَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ ۝ الْحَكِيمُ ۝ لَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ۝ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَطَارَعْنَ فِيهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَسْجُدُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَسَبِّحُونَ ۝ لَمْ يَكُنْ فِي الْأَرْضِ شَيْءٌ إِلَّا أَنْشَأَ مِنْ دُونِهِ أُوْلِيَّةً اللَّهُ حَفِظَ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِرَءِيصٍ ۝ وَكَذَلِكَ أَنْشَأَ إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنذِرَ يَوْمَ الْبَلْعِ لَا رَبَّ فِيهِ فِرْقٌ فِي الْفَنَاءِ وَفِرْقٌ فِي السَّعِيرِ ۝ وَلَوْ سَأَلَ اللَّهُ جَمْعَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَدْخُلُ مَنْ يَسْأَلُ فِي رَحْمَةٍ ۝ وَالْقَالُونَ مَا لَمْ يَنْزِلْ وَلَوْ لَا نَصِيرُ ۝ أَرَأَيْتُمْ إِنْ دُونَهُ أُوْلِيَّةٌ فَإِنَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتِ وَيُؤْتِي كُلَّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنْ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَأَسْ كَيْفَ لَكُمْ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝ لَمْ يَفْلَأِدْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَسْطَ أَرْزَاقٍ لَمْ يَكُنْ يَقْدِرُ إِلَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝

قوله: ﴿حَمْدٌ﴾ قد تقدم الكلام في أمثال هذه الفواتح، وسئل الحسن بن الفضل لم قطع ﴿حَمْدٌ﴾ ولم يقطع كهيحص، فقال: لأنها سور أولها حم، فجرت مجرى نظائرها، فكان حم مبتدأ، وعسق خبره، ولأنهما عدايتين. وأخواتهما مثل: كهيعص، والمزم، والمص آية واحدة. وقيل: لأن أهل التأويل لم يختلفوا في كهيعص، وأخواتها أنها حروف التهجى لا غير، واختلفوا في حم، فقيل معناها: حم أي: قضى كما تقدم. وقيل: إن ح حلمه، ومجده، وع علمه، وس سناه، وق قدرته، أقسم الله بها. وقيل غير ذلك مما هو متكلف متعسف لم يدل عليه دليل، ولا جاءت به حجة، ولا شبهة حجة، وقد ذكرنا قبل هذا ما روي في ذلك مما لا أصل له، والحق ما قدمناه لك في فاتحة سورة البقرة. وقيل: هما اسمان للسورة، وقيل: اسم واحد

﴿إلا إنه بكل شيء محيط﴾ أحاط علمه بجميع المعلومات، وأحاطت قدرته بجميع المقنورات، يقال: أحاط يحيط إحاطة، وحيطه، وفي هذا وعيد شديد؛ لأن من أحاط بكل شيء بحيث لا يخفى عليه شيء جازى المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

وقد أخرج عبد بن حميد عن قتادة قال: في قوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ سبق لهم من الله حين، وأجل هم بالغوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن مجاهد في قوله: ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا﴾ قال: حين تطلع. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿أَنْتَكَ﴾ قال: أعلمناك. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن عكرمة في قوله: ﴿لَا يَسَامُ الْإِنْسَانُ﴾ قال: لا يمل. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن مجاهد في قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ﴾ قال: محمداً ﷺ. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر عنه في الآية قال: ما يفتح الله من القرى ﴿وفي أنفسهم﴾ قال: فتح مكة. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في الآية قال: أمسك المطر عن الأرض كلها ﴿وفي أنفسهم﴾ قال: البلى التي تكون في أجسامهم. وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس في الآية قال: كانوا يسافرون، فيرون آثار عاد، وثمود، فيقولون: والله لقد صدق محمد، وما أراهم في أنفسهم قال: الأمراض.

تفسير سورة الشورى

أخرج ابن مريويه عن ابن عباس قال: نزلت ﴿حَمْدٌ﴾ [أي سورة الشورى] بمكة. وأخرج ابن مريويه عن ابن الزبير مثله، وكذا قال الحسن، وعكرمة، وعطاء، وجابر. وروي عن ابن عباس، وقاتدة: أنها مكية إلا أربع آيات منها أنزلت بالمدينة ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى: 23 - 26] إلى آخرها. وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، ونعيم بن حماد، والخطيب عن أرطاة بن المنذر قال: جاء رجل إلى ابن عباس، وعنده حذيفة بن اليمان فقال: أخبرني عن تفسير حم عسق، فأعرض عنه، ثم كرر مقالته، فأعرض عنه، وكرر مقالته، ثم كررها الثالثة، فلم يجبه، فقال له حذيفة: أنا أنبئك بها لم كرهها؟ نزلت في رجل من أهل بيته يقال له: عبد إله، أو عبد الله تنزل على نهر من أنهار المشرق، يبنى عليه مدينتين يشق النهر بينهما شقاً، يجتمع فيهما كل جبار عنيد، فإذا أتى الله في زوال ملكهم، وانقطاع بولتهم، ومبتهم بعث الله على إحداهما ناراً ليلاً، فتصبح سوداء مظلمة قد احترقت كأنها لم تكن مكانها، وتصبح صاحبيتها متعجبة كيف افتلتت، فما هو إلا بياض يومها ذلك حتى يجتمع فيها كل جبار عنيد منهم، ثم يخسف الله بها، وبهم جميعاً، فذلك قوله: ﴿حَمْدٌ﴾ يعني: عزيمة من الله، وقتنة، وقضاء جمع يعني: عدلاً منه، سين يعني: سيكون، ق: لهاتين

لها، فعلى الأول يكونان خبرين لمبتدأ محذوف، وعلى الثاني يكون خبراً لذلك المبتدأ المحذوف. وقرأ ابن مسعود، وابن عباس (حَمْ * سَقَ) **﴿كُنْكَ يُوْحِي إِلَيْكَ وَالْيَ لَنِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾** هذا كلام مستأنف غير متعلق بما قبله أي: مثل تلك الإحياء الذي لوحي إلى سائر الأنبياء من كتب الله المنزلة عليهم المشتملة على الدعوة إلى التوحيد، والبعث يوحي إليك يا محمد في هذه السورة. وقيل: **﴿إِنْ حَمْ عَسَقَ﴾** أوحيت إلى من قبله من الأنبياء، فتكون الإشارة بقوله: **﴿كُنْكَ﴾** إليها. قرأ الجمهور (يُوْحِي) بكسر الحاء مبنياً للفاعل، وهو: الله. وقرأ مجاهد، وابن كثير، وابن محيصن بفتحها مبنياً للمفعول، والقائم مقام الفاعل ضمير مستتر يعود على كُنْكَ، والتقدير: مثل تلك الإحياء يوحي هو إليك، أو القائم مقام الفاعل إليك، أو الجملة المنكورة أي: يوحي إليك هذا اللفظ، أو القرآن، أو مصدر يوحي، وارتفاع الاسم الشريف على أنه فاعل لفعل محذوف كأنه قيل: من يوحي؟ فقيل: الله العزيز الحكيم. وأما قراءة الجمهور فهي واضحة اللفظ، والمعنى، وقد تقدّم مثل هذا في قوله: **﴿يَسْبَحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾** رجال [النور: 36، 37]، وقرأ أبو حيوة، والأعمش، وأبان «نوحِي» بالنون، فيكون قوله: **﴿اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾** في محل نصب، والمعنى: نوحِي إليك هذا اللفظ **﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾** نكر سبحانه لنفسه هذا الوصف، وهو ملك جميع ما في السموات، والأرض لدلالته على كمال قدرته، ونفوذ تصرفه في جميع مخلوقاته **﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَّقَطُّونَ مِنْ فَوْقَهُنَّ﴾** قرأ الجمهور (تكاد) بالفوقية، وكذلك (تتفطرن) قرعوه بالفوقية مع تشديد الطاء. وقرأ نافع، والكسائي، وابن وثاب يكاد (يتفطرن) بالتحتيه فيهما، وقرأ أبو عمرو، والمفضل، وأبو بكر، وأبو عبيد (يتفطرن) بالتحتيه، والنون من الانفطار كقوله: **﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾** [الانفطار: 1] والتفطر: التشقق. قال الضحاك، والسدّي: يتفطرن يتشققن من عظمة الله، وجلاله من فوقهن، وقيل: المعنى: تكاد كل واحدة منها تتفطر فوق التي تليها من قول المشركين اتخذ الله ولداً، وقيل: من فوقهن: من فوق الأرضين، والأول أولى. «ومن» في **﴿مَنْ فَوْقَهُنَّ﴾** لا ابتداء الغاية أي: يبتدئ التفطر من جهة الفوق. وقال الأخفش الصغير: إن الضمير يعود إلى جماعات الكفار أي: من فوق جماعات الكفار، وهو بعيد جداً، ووجه تخصيص جهة الفوق: أنها أقرب إلى الآيات العظيمة، والمصنوعات الباهرة، أو على طريق المبالغة كان كلمة الكفار مع كونها جاءت من جهة التحت أثرت في جهة الفوق، فتأثيرها في جهة التحت بالأولى **﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَسْبَحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾** أي: ينزهونه عما لا يليق به، ولا يجوز عليه متلبسين بحمده. وقيل: إن التسبيح موضوع موضع التعجب أي: يتعجبون من جراءة المشركين على الله. وقيل: معنى **﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾** بأمر ربهم قتاله السدّي **﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾** من عباد الله

المؤمنين كما في قوله: **﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾** [غافر: 7]، وقيل: الاستغفار منهم بمعنى: السعي فيما يستدعي المغفرة لهم، وتأخير عقوبتهم طمعاً في إيمان الكافر، وتوبة الفاسق، فتكون الآية عامة كما هو ظاهر اللفظ غير خاصة بالمؤمنين، وإن كانوا داخلين فيها دخولاً أولياً **﴿إِلَّا إِنْ اللَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾** أي: كثير المغفرة والرحمة لأهل طاعته، وأوليائه، أو لجميع عبياده، فإن تأخير عقوبة الكفار، والعصاة نوع من أنواع مغفرته، ورحمته **﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾** أي: أصناماً يعبدونها **﴿اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ﴾** أي: يحفظ أعمالهم، ليجازيهم بها **﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾** أي: لم يوكلك بهم حتى تؤاخذ بذنوبهم، ولا وكل إليك هدايتهم، وإنما عليك البلاغ قيل: وهذه الآية منسوخة بآية السيف **﴿وَكُنْكَ أَوْحِينَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾** أي: مثل تلك الإحياء أوحينا إليك، وقرأنا مفعول أوحينا؛ والمعنى: أنزلنا عليك قرآنًا عربياً بلسان قومك كما أرسلنا كل رسول بلسان قومه **﴿لَتَنْزِيلُ آَمَ الْقُرْآنِ﴾**، وهي: مكة، والمراد أهلها **﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾** من الناس، والمفعول الثاني محذوف أي: لتنزلهم العذاب **﴿وَتَنْزِيلُ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾** أي: ولتنزل بيوم الجمع وهو: يوم القيامة، لأنه مجمع الخلائق. وقيل: المراد جمع الأرواح بالأجساد، وقيل: جمع الظالم، والمظلوم، وقيل: جمع العامل، والعمل **﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾** أي: لا شك فيه، والجملة معترضة مقررّة لما قبلها، أو صفة ليوم الجمع، أو حال منه **﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾** قرأ الجمهور برفع (فريق) في الموضعين، إما على أنه مبتدأ، وخبره الجار والمجرور، وشاع الابتداء بالنكرة، لأن المقام مقام تفصيل، أو على أن الخبر مقدر قبله أي: منهم فريق في الجنة، ومنهم فريق في السعير، أو أنه خبر مبتدأ محذوف، وهو ضمير عائد إلى المجموعين المدلول عليهم بذكر الجمع أي: هم فريق في الجنة، وفريق في السعير. وقرأ زيد بن علي (فريقاً) بالنصب في الموضعين على الحال من جملة محذوفة أي: افترقوا حال كونهم كذلك، وأجاز الفراء، والكسائي النصب على تقدير: لتنزل فريقاً **﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾** قال الضحاك: أهل دين واحد، إما على هدى، وإما على ضلالة، ولكنهم افترقوا على أديان مختلفة بالمشيئة الأزلية، وهو معنى قوله: **﴿وَلَكِنْ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾** في الدين الحق وهو: الإسلام **﴿وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾** أي: للمشركون ما لهم من ولي يرفع عنهم العذاب، ولا نصير ينصرهم في تلك المقام، ومثل هذا قوله: **﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ﴾** [الأنعام: 35]، وقوله: **﴿وَلَوْ شَفَعْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾** [السجدة: 13]، وإما هنا مخصصات بين المتمذهبين المحامين على ما درج عليه أسلافهم، فبدوا عليه من بعدهم، وليس بنا إلى نكر شيء من تلك فائدة كما هو عادتنا في تفسيرنا هذا، فهو تفسير سلفي يمشي مع الحق، وينور مع مدلولات النظم الشريف، وإنما يعرف ذلك من رسخ قدمه،

وتبرأ من التعصب قلبه، ولحمه، ودمه، وجملة ﴿هَٰمَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ مستأنفة مقررة لما قبلها من انتفاء كون للظالمين، ولياً، ونصيراً، وأم هذه هي المنقطعة المقدرة ببل المفيدة للانتقال، وباللهمة المفيدة للإنكار أي: بل آتخذ الكافرون من دون الله أولياء من الأصنام يعبدونها؟ ﴿قَالَ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ أي: هو الحقيق بأن يتخذوه ولياً، فإنه الخالق الرازق الضار النافع، وقيل: الفاء جواب شرط محذوف أي: إن أرادوا أن يتخذوا ولياً في الحقيقة فإله هو الولي ﴿وَهُوَ﴾ أي: ومن شأنه أنه ﴿يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: يقدر على كل مقدور، فهو: الحقيق بتخصيصه بالالوهية، وإفراده بالعبادة ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ هذا عام في كل ما اختلف فيه العباد من أمر الدين، فإن حكمه، ومرجه إلى الله يحكم فيه يوم القيامة بحكمه، ويفصل خصومة المختصمين فيه، وعند ذلك يظهر المحق من المبطّل، ويتميز فريق الجنة، وفريق النار. قال الكلبي: وما اختلفتم فيه من شيء أي: من أمر الدين، فحكمه إلى الله يقضي فيه. وقال مقاتل: إن أهل مكة كفر بعضهم بالقرآن، وأمن به بعضهم، فنزلت، والاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. ويمكن أن يقال: معنى حكمه إلى الله: أنه مرئود إلى كتابه، فإنه قد اشتمل على الحكم بين عباده فيما يختلفون فيه، فتكون الآية عامة في كل اختلاف يتعلق بأمر الدين أنه يردّ إلى كتاب الله. ومثله قوله: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: 59]، وقد حكم سبحانه بأن الدين هو: الإسلام، وأن القرآن حق، وأن المؤمنين في الجنة، والكافرين في النار، ولكن لما كان الكفار لا يذعنون لكون ذلك حقاً إلا في الدار الآخرة، وعدهم الله بذلك يوم القيامة ﴿فَلَكُمْ﴾ الحاكم بهذا الحكم ﴿اللَّهُ رَبي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ اعتمدت عليه في جميع أموري، لا على غيره، وفوضته في كل شؤني ﴿وَالِيهِ أُنِيبُ﴾ أي: أرجع في كل شيء يعرض لي لا إلى غيره ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قرأ الجمهور بالرفع على أنه خبر آخر لـ ﴿لَكُمْ﴾، أو خبر مبتدأ محذوف، أو مبتدأ وخبره ما بعده، أو نعت لربي؛ لأن الإضافة محضة، ويكون ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ معترضاً بين الصفة، والموصوف. وقرأ زيد بن علي (فاطر) بالجرّ على أنه نعت للاسم الشريف في قوله: ﴿إِلَى اللَّهِ﴾، وما بينهما اعتراض، أو بدل من إلهاء في عليه أو إليه، وأجاز الكسائي النصب على النداء، وأجازه غيره على المدح. والفاطر: الخالق المبدع، وقد تقدّم تحقيقه ﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً﴾ أي: خلق لكم من جنسكم نساء، أو المراد: حواء لكونها خلقت من ضلع آدم. وقال مجاهد: نسلأ بعد نسل ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجاً﴾ أي: وخلق للأنعام من جنسها إناثاً، أو وخلق لكم من الأنعام أصنافاً من الذكور، والإناث، وهي: الثمانية التي ذكرها في الأنعام ﴿يَذُرُوكُمْ فِيهِ﴾ أي: يبتئكم، من الذرة وهو: البث، أو يخلقكم، وينشئكم، والضمير في يذُرُوكُمْ للمخاطبين، والأنعام إلا أنه غلب فيه العقلاء،

وضمير فيه راجع إلى الجعل المدلول عليه بالفعل، وقيل: راجع إلى ما ذكر من التبدير، وقال الفراء، والزجاج، وابن كيسان: معنى ﴿يَذُرُوكُمْ فِيهِ﴾: يكثركم به أي: يكثركم بجعلكم أزواجاً؛ لأن ذلك سبب النسل. وقال ابن قتيبة: ﴿يَذُرُوكُمْ فِيهِ﴾ أي: في الزوج، وقيل: في البطن، وقيل: في الرحم ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ المراد بذكر المثل هنا: المبالغة في النفي بطريق الكناية، فإنه إذا نفى عن يناسبه كان نفيه عنه أولى كقولهم: مثلك لا يبخل، وغيرك لا يجود، وقيل: إن الكاف زائدة للتوكيد أي: ليس مثله شيء، وقيل: إن مثل زائدة قاله ثعلب، وغيره كما في قوله: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ﴾ [البقرة: 137] أي: بما آمنتم به، ومنه قول أوس بن حجر:

وقتل كمثل جنوح النخيد لـ يغشاهم مطر منهمر

أي: كجنوح، والأول أولى، فإن الكناية باب مسلوب للعرب، ومهيح مألوف لهم، ومنه قول الشاعر:

ليس كمثل الفتى زهير خلق يوازيه في الفضائل

وقال آخر:

على مثل ليلى يقتل المرء نفسه وإن بات من ليلى على اليأس طويلاً

وقال آخر:

سعد بن زيد إذا بصرت فضلهم فما كمثلهم في الناس من أحد

قال ابن قتيبة: العرب تقيم المثل مقام النفس، فتقول:

مثلي لا يقال له هذا أي: أنا لا يقال لي. وقال أبو البقاء

مرجحاً لزيادة الكاف: إنها لو لم تكن زائدة، لأفضى ذلك إلى

المحال، إذ يكون المعنى: إن له مثلاً، وليس لمثله مثل، وفي

ذلك تناقض، لأنه إذا كان له مثل، فلمثله مثل، وهو: هو مع

أن إثبات المثل لله سبحانه محال، وهذا تقرير حسن، ولكنه

يندفع ما أورده بما نكرنا من كون الكلام خارجاً مخرج

الكناية، ومن فهم هذه الآية الكريمة حق فهمها، وتدبرها حق

تدبرها مشى بها عند اختلاف المختلفين في الصفات على

طريقة بيضاء واضحة، ويزداد بصيرة إذا تأمل معنى قوله:

﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، فإن هذا الإثبات بعد ذلك النفي

للمائل قد اشتمل على برد اليقين، وشفاء الصدور، وانثلاج

القلوب، فاقدر يا طالب الحق قدر هذه الحجة النيرة،

والبرهان القوي، فإنك تحطم بها كثيراً من البدع، وتهشم بها

رعوساً من الضلالة، وترغم بها آثاف طوائف من المتكلفين،

ولا سيما إذا ضمنت إليه قول الله سبحانه: ﴿وَلَا يَحِيطُونَ بِهِ

عِلْمًا﴾ [طه: 110]، فإنك حينئذ قد أخذت بطرفي جبل ما

يسمونه علم الكلام، وعلم أصول الدين:

ودع عنك نهبا صيح في حجراته ولكن حديث ما حديث الرواحل

﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: خزائنها، أو

مفاتيحها، وقد تقدّم تحقيقه في سورة الزمر، وهي: جمع

إقليد، وهو: المفتاح جمع على خلاف القياس. قال النحاس:

والذي يملك المفاتيح يملك الخزائن. ثم لما ذكر سبحانه أن

بيده مقاليد السموات، والأرض نكر بعده البسط، والقبض،

فقال: ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يوسعه لمن

يشاء من خلقه، ويضيقه على من يشاء ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فلا تخفى عليه خافية، ولحاطة علمه بكل شيء يندرج تحتها علمه بطاعة المطيع، ومعصية العاصي. فهو يجازي كلا بما يستحقه من خير، وشر.

وقد أخرج أحمد، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه عن عبد الله بن عمرو، قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ، وفي يده كتابان، فقال: أتدرون ما هذان الكتابان؟ قلنا: لا، إلا أن تخبرنا يا رسول الله، قال: للذي في يده اليمين: هذا كتاب من ربِّ العالمين باسماء أهل الجنة، واسماء آبائهم، وقبائلهم، ثم أجمل على آخرهم، فلا يزداد فيهم، ولا ينقص منهم، ثم قال للذي في شماله: هذا كتاب من ربِّ العالمين باسماء أهل النار، واسماء آبائهم، وقبائلهم، ثم أجمل على آخرهم، فلا يزداد فيهم، ولا ينقص منهم أبداً، فقال أصحابه: ففيم العمل يا رسول الله إن كان أمر قد فرغ منه؟ فقال: سنؤا، وقاربوا، فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة، وإن عمل أي عمل، وإن صاحب النار يختم له بعمل أهل النار، وإن عمل أي عمل له. قال رسول الله ﷺ بيديه، فنبذهما، ثم قال: فرغ ربكم من العباد **﴿فريق في الجنة، وفريق في السعير﴾**. قال الترمذي بعد إخراجه: حديث حسن صحيح غريب. وروى ابن جرير طرفاً منه عن ابن عمرو موقوفاً عليه. قال ابن جرير: وهذا الموقوف أشبه بالصواب، قلت: بل المرفوع أشبه بالصواب. فقد رفعه الثقة، ورفعه زيادة ثابتة من وجه صحيح، ويقوي الرفع ما أخرجه ابن مردويه عن البراء. قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ في يده كتاب ينظر فيه قالوا: انظروا إليه كيف، وهو أمني لا يقرأ، قال: فعلمها رسول الله ﷺ، فقال: هذا كتاب من ربِّ العالمين باسماء أهل الجنة، واسماء قبائلهم لا يزداد منهم، ولا ينقص منهم، وقال: **﴿فريق في الجنة، وفريق في السعير﴾** فرغ ربكم من أعمال العباد».

﴿سَرَّحَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وُضِعَ يَدُهُ وَحُكْمًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَهُهُ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ۚ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَيِّنَاتٌ مِّنْ رَبِّكَ إِنَّ إِلَهَ أَجْلُو مَسْحَى لَفِي بَيِّنَاتٍ وَلِلَّهِ الدِّينُ أَكْثَرُ مِنَ الْكُفْبِ مِنْ بَعْدِهِمْ لَنْ نَرِيكَ يَنْهَ مُرَبِّ ۚ فَلِلَّذَلِكَ فَادَعُ وَاسْتَنْمِ كَمَا أَمَرْتُ وَلَا تَبْغِ أَمْوَالَهُمْ وَقُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ إِلَهُ مِنْ كُتْبٍ وَأَمَرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَا أَعْمَلُكُمْ وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حِجَةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ۝ وَالَّذِينَ يَخْتَفُونَ فِي الْآهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُمْ جَهَنَّمَ دَاجِئَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ وَكَهْمٌ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۝ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ الْيَاقُو وَالْيَزَارَاتِ وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ۝ يَسْتَعِجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُتَشَفِعُونَ بِهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا لَأُتَىٰ إِلَّا إِنَّ الَّذِينَ يَمُوتُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ۝

الخطاب في قوله: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ﴾ لامة محمد ﷺ أي: بين، وأوضح لكم من الدين ﴿وَمَا وَصَىٰ بِهِ نُوحًا﴾ من التوحيد، وبين الإسلام، وأصول الشرائع التي لم يختلف فيها الرسل، وتوافقت عليها الكتب **﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾** من القرآن، وشرائع الإسلام، والبراءة من الشرك، والتعبير عنه بالموصول لتفخيم شأنه، وخص ما شرعه لنبيينا ﷺ بالإيحاء مع كون ما بعده، وما قبله منكوراً بالتوصية للتصريح برسالة **﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾** مما تطابقت عليه الشرائع. ثم بين ما وصى به هؤلاء، فقال: **﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾** أي: توحيد الله، والإيمان به، وطاعة رسله، وقبول شرائعه، وأن هي: المصدرة، وهي وما بعدها في محل رفع على الخبرية لمبتدأ محذوف، كانه قيل: ما ذلك الذي شرعه الله؟ فقيل: هو إقامة الدين، أو هي: في محل نصب بدلاً من الموصول، أو في محل جر بدلاً من الدين، أو هي المفسرة، لأنه قد تقدمها ما فيه معنى القول. قال مقاتل: يعني: أنه شرع لكم، ولمن قبلكم من الأنبياء ديناً واحداً. قال مقاتل: يعني: التوحيد. قال مجاهد: لم يبعث الله نبياً قط إلا وصاه بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والإقرار لله بالطاعة، فذلك دينه الذي شرع لهم. وقال قتادة: يعني: تحليل الحلال، وتحريم الحرام، وخص إبراهيم، وموسى، وعيسى بالذكر مع نبينا ﷺ؛ لأنهم أرباب الشرائع، ثم لما أمرهم سبحانه بإقامة الدين، نهامهم عن الاختلاف فيه، فقال: **﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾** أي: لا تختلفوا في التوحيد، والإيمان بالله، وطاعة رسله، وقبول شرائعه، فإن هذه الأمور قد تطابقت عليها الشرائع، وتوافقت فيها الأديان، فلا ينبغي الخلاف في مثلها، وليس من هذا فروع المسائل التي تختلف فيها الأدلة، وتتعارض فيها الأمارات، وتتباين فيها الأفهام، فإنها من مطارح الاجتهاد، ومواطن الخلاف. ثم ذكر سبحانه أن ما شرعه من الدين شق على المشركين، فقال: **﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾** أي: عظم، وشق عليهم ما تدعوهم إليه من التوحيد، ورفض الأوثان. قال قتادة: كبر على المشركين، واشتد عليهم شهادة أن لا إله إلا الله وحده، وضاق بها إبليس، وجنوده، فأبى الله إلا أن ينصرها، ويعليها، ويظهرها، ويظفرها على من ناوها. ثم خص أوليائه، فقال: **﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ﴾** أي: يختار، والاجتباء الاختيار، والمعنى: يختار لتوحيد، والدخول في دينه من يشاء من عباده **﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾** أي: يوفق لدينه، ويستخلص لعبادته من يرجع إلى طاعته، ويقبل إلى عبادته. ثم لما ذكر سبحانه ما شرعه لهم من إقامة الدين، وعدم التفرق فيه ذكر ما وقع من التفرق، والاختلاف، فقال: **﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾** أي: ما تفرقوا إلا عن علم بأن الفرقة ضلالة، ففعلوا ذلك التفرق للبغي بينهم بطلب الرئاسة، وشدة الحمية، قيل: المراد قريش هم الذين تفرقوا بعد ما جاءهم العلم، وهو: محمد ﷺ **﴿بَغْيًا﴾**، منهم عليه، وقد كانوا يقولون ما حكاه الله عنهم

ظهر، ووضح **«الله يجمع بيننا»** في المحشر **«وليه المصير»** أي: المرجع يوم القيامة، فيجازي كلا بعمله: وهذا منسوخ بآية السيف. قيل: الخطاب لليهود، وقيل: للكفار على العموم **«والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له»** أي: يخاصمون في دين الله من بعد ما استجاب الناس له، ودخلوا فيه. قال مجاهد: من بعد ما أسلم الناس. قال: وهؤلاء قوم تورموا أن الجاهلية تعود. وقال قتادة: هم اليهود، والنصارى، ومحاجتهم قولهم: نيننا قبل نبيكم، وكتابتنا قبل كتابكم، وكانوا يرون لأنفسهم الفضيلة بأنهم أهل كتاب، وأنهم أولاد الأنبياء، وكان المشركون يقولون: **«أي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً»** [مريم: 73]، فنزلت هذه الآية، والموصول مبتدأ، وخبره الجملة بعده، وهي: **«حججتهم دلحضة عند ربهم»** أي: لا ثبات لها كالشيء الذي يزول عن موضعه، يقال: بحضت حجته بحوضاً: بطلت، والإحاض: الإزلاق، ومكان حضض أي: زلق، وبحضت رجله: زلقت. وقيل: الضمير في له راجع إلى الله. وقيل: راجع إلى محمد ﷺ. والأول أولى **«وعليهم غضب»** أي: غضب عظيم من الله لمجانلتهم بالباطل **«ولهم عذاب شديد»** في الآخرة **«الله الذي أنزل الكتاب بالحق»** المراد بالكتاب: الجنس، فيشمل جميع الكتب المنزلة على الرسل. وقيل: المراد به القرآن خاصة، وبالحق متعلق بمحذوف أي: ملتبساً بالحق، وهو: الصق **«و»** المراد بـ **«الميزان»** العدل، كذا قال أكثر المفسرين، قالوا: وسمي العدل ميزاناً؛ لأن الميزان آلة الإنصاف، والتسوية بين الخلق. وقيل: الميزان ما بين في الكتب المنزلة مما يجب على كل إنسان أن يعمل به. وقيل: هو: الجزء على الطاعة بالثواب، وعلى المعصية بالعقاب، وقيل: إنه الميزان نفسه أنزله الله من السماء، وعلم العباد الوزن به لئلا يكون بينهم تظالم، وتباخس كما في قوله: **«لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط»** [الحديد: 25] وقيل: هو محمد ﷺ **«وما يدريك لعل الساعة قريب»** أي: أي شيء يجعلك دارياً بها، عالماً بوقتها لعلها شيء قريب، أو قريب مجيئها، أو ذات قرب. وقال: قريب، ولم يقل: قريبة لأن تانيئها غير حقيقي. قال الزجاج: المعنى: لعل البعث، أو لعل مجيء الساعة قريب. وقال الكسائي: قريب نعت ينعت به المؤنث، والمذكر كما في قوله: **«إن رحمت الله قريب من المحسنين»** [الأعراف: 56] ومنه قول الشاعر:

وكنا قريباً والديار بعيدة فلما وصلنا نصب أعينهم غبنا

قيل: إن النبي ﷺ نكر الساعة، وعنده قوم من المشركين، فقالوا: متى تكون الساعة؟ تكتيباً لها، فانزل الله الآية، ويدل على هذا قوله: **«يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها»** استعجال: استهزاء منهم بها، وتكتيباً بمجيئها **«والذين آمنوا مشفقون منها»** أي: خائفون وجلون من مجيئها. قال مقاتل: لأنهم لا يدرون على ما يهجمون عليه. وقال الزجاج: لأنهم يعلمون أنهم محاسبون،

بقوله: **«واقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير»** [فاطر: 42] الآية، ويقول: **«فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به»** [البقرة: 89] وقيل: المراد أمم الأنبياء المتقدمين، وأنهم فيما **«بينهم»** اختلفوا لما طال بهم المدى، فأمن قوم، وكفر قوم، وقيل: اليهود، والنصارى خاصة كما في قوله: **«وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة»** [البينة: 4] **«ولولا كلمة سبقت من ربك»**، وهي: تأخير العقوبة **«إلى أجل مسمى»**، وهو: يوم القيامة كما في قوله: **«بل الساعة موعدهم»** [القمر: 46]، وقيل: إلى الأجل الذي قضاه الله لعذابهم في الدنيا بالقتل، والأسر، والذل، والقهر **«للقضي بينهم»** أي: لوقع القضاء بينهم بإنزال العقوبة بهم معجلة، وقيل: للقضي بين من آمن منهم، ومن كفر بنزول العذاب بالكافرين، ونجاة المؤمنين **«وإن الذين أوتوا الكتاب»** من اليهود، والنصارى **«من بعدهم»** من بعد من قبلهم من اليهود، والنصارى **«لقي شك منه»** أي: من القرآن، أو من محمد **«مريب»** موقع في الريب، ولذلك لم يؤمنوا. وقال مجاهد: معنى من بعدهم من قبلهم يعني: من قبل مشركي مكة، وهم اليهود، والنصارى. وقيل: المراد كفار المشركين من العرب الذين أوتوا القرآن من بعد ما أوتى أهل الكتاب كتابهم، وصفهم بأنه في شك من القرآن مريب. قرأ الجمهور (أوتوا) وقرأ زيد بن علي (ورثوا) بالتشديد **«فلنلك فادع واستقم»** أي: فلاجل ما نكر من التفرق، والشك، أو فلاجل أنه شرع من الدين ما شرع، فادع، واستقم؛ أي: فادع إلى الله، وإلى توحيد، واستقم على ما دعوت إليه. قال الفراء، والزجاج: المعنى: فإلى ذلك، فادع كما تقول: دعوت إلى فلان، ولفلان، وذلك إشارة إلى ما وصى به الأنبياء من التوحيد. وقيل: في الكلام تقديم، وتأخير. والمعنى: كبر على المشركين ما ندعوههم إليه، فلنلك فادع. قال قتادة: استقم على أمر الله. وقال سفيان: استقم على القرآن. وقال الضحاك: استقم على تبليغ الرسالة **«كما أمرت»** بذلك من جهة الله **«ولا تتبع أهواءهم»** الباطلة، وتعصباتهم الزائغة، ولا تنتظر إلى خلاف من خالفك في نكر الله **«وقل آمنتم بما أنزل الله من كتاب»** أي: بجميع الكتب التي أنزلها الله على رسله، لا كالذين آمنوا ببعض منها، وكفروا ببعض **«وامرت لأعدل بينكم»** في أحكام الله إذا ترافعت إلي، ولا أحيف عليكم بزيادة على ما شرعه الله، أو بنقصان منه. وأبلغ إليكم ما أمرني الله بتبليغه كما هو، واللام لام كي أي: أمرت بذلك الذي أمرت به، لكي أعدل بينكم، وقيل: هي زائدة، والمعنى: أمرت أن أعدل؛ والأول أولى. قال أبو العالية: أمرت، لأسوي بينكم في الدين، فأومن بكل كتاب، وبكل رسول. والظاهر: أن الآية عامة في كل شيء، والمعنى: أمرت؛ لأعدل بينكم في كل شيء **«الله ربنا وربكم»** أي: إلهنا، وإلهكم، وخالقنا، وخالقكم **«لنا أعمالنا»** أي: ثوابها، وعقابها خاص بنا **«ولكم أعمالكم»** أي: ثوابها، وعقابها خاص بكم **«لا حجة بيننا وبينكم»** أي: لا خصومة بيننا، وبينكم. لأن الحق قد

وَالْكُفْرُونَ ثُمَّ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٧﴾ وَلَوْ سَأَلَ أَنَّهُ ارْزُقْ لِعِبَادِهِ لَبَوَّأُوا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يَرْزُقُ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿١٨﴾ وَهُوَ الَّذِي يَرْزُقُ الْفَتَنَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٩﴾

قوله: ﴿الله لطيف بعباده﴾ أي: كثير اللطف بهم بالغ الرأفة لهم. قال مقاتل: لطيف بالبار، والفاجر حيث لم يقتلهم جوعاً بمعاصيهم. قال عكرمة: بار بهم. وقال السدي: رفيق بهم، وقيل: حفي بهم. وقال القرطبي: لطيف بهم في العرض، والمحاسبة، وقيل غير ذلك. والمعنى: أنه يجري لطفه على عباده في كل أمورهم، ومن جملة ذلك الرزق الذي يعيشون به في الدنيا، وهو: معنى قوله: ﴿يرزق من يشاء﴾ منهم كيف يشاء، فيوسع على هذا، ويضيق على هذا ﴿وهو القوي﴾ العظيم القوة الباهرة القادرة ﴿العزیز﴾ الذي يغلب كل شيء، ولا يغلبه شيء ﴿من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه﴾ الحرث في اللغة: الكسب، يقال: هو يحرث لعياله، ويحترث أي: يكتسب. ومنه سمي الرجل حارثاً، وأصل معنى الحرث: إلقاء البذر في الأرض، فاطلق على ثمرات الأعمال، وفوائدها بطريق الاستعارة والمعنى: من كان يريد بأعماله، وكسبه ثواب الآخرة يضاعف الله له تلك الحسنات بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف. وقيل: معناه: يزيد في توفيقه، وإعانتته، وتسهيل سبل الخير له ﴿ومن كان يريد حرث الدنيا نؤثقه منها﴾ أي: من كان يريد بأعماله، وكسبه ثواب الدنيا، وهو: متاعها، وما يرزق الله به عباده منها نعطه منها ما قضت به مشيئتنا، وقسم له في قضائنا. قال قتادة: معنى ﴿نؤثقه منها﴾: نقدر له ما قسم له كما قال: ﴿عجلنا له فيها ما نشاء﴾ [الإسراء: 18]، وقال قتادة أيضاً: إن الله يعطي على نية الآخرة ما شاء من أمر الدنيا، ولا يعطي على نية الدنيا إلا الدنيا. قال القشيري: والظاهر أن الآية في الكافر، وهو: تخصيص بغير مخصص. ثم بين سبحانه أن هذا الذي يريد بعمله الدنيا لا نصيب له في الآخرة، فقال: ﴿وما له في الآخرة من نصيب﴾: لأنه لم يعمل للآخرة، فلا نصيب له فيها، وقد تقدم تفسير هذه الآية في سورة الإسراء ﴿أم لهم شركاء لهم من الدين ما لم ياذن به الله﴾ لما بين سبحانه القانون في أمر الدنيا، والآخرة أرفه ببيان ما هو الذنب العظيم الموجب للنار، والهمزة لاستفهام التقرير والتقريع، وضمير شرعوا عائد إلى الشركاء، وضمير لهم إلى الكفار، وقيل: العكس، والاولى. ومعنى ﴿ما لم ياذن به الله﴾: ما لم ياذن به من الشرك، والمعاصي ﴿ولولا كلمة الفصل﴾، وهي: تأخير عذابهم حيث قال: ﴿بل الساعة موعدهم﴾ [القمر: 46] ﴿لقضي بينهم﴾ في الدنيا، فعولوا بالعقوبة، والضمير في بينهم راجع إلى المؤمنين، والمشركون، أو إلى المشركون، وشركائهم ﴿وإن الظالمين لهم عذاب اليم﴾ أي: المشركون، والمكذبين لهم عذاب اليم في الدنيا، والآخرة. قرأ الجمهور (وإن الظالمين) بكسر الهمزة على الاستئناف. وقرأ

ومجزيون ﴿ويعلمون أنها الحق﴾ أي: أنها آتية لا ريب فيها، ومثل هذا قوله: ﴿والذين يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون﴾ [المؤمنون: 60]. ثم بين ضلال الممارين فيها، فقال: ﴿إلا إن الذين يمارون في الساعة﴾ أي: يخاصمون فيها مخاصمة شك، وريبة، من المماراة، وهي: المخاصمة، والمجادلة، أو من المرية، وهي: الشك، والريبة ﴿لفي ضلال بعيد﴾ عن الحق؛ لأنهم لم يتفكروا في الموجبات للإيمان بها من الدلائل التي هي: مشاهدة لهم منصوبة لأعينهم مفهومة لعقولهم، ولو تفكروا لعلموا أن الذين خلقهم ابتداء قادر على إعادة.

وقد أخرج ابن جرير عن السدي ﴿أن اقيموا الدين﴾ قال: اعملوا به. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن قتادة في قوله: ﴿أن اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾ قال: الا تعلموا أن الفرقة ملكة، وإن الجماعة ثقة ﴿كبر على المشركين ما تدعوهم إليه﴾، قال: استكبر المشركون أن قيل لهم: لا إله إلا الله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد ﴿الله يجتبي إليه من يشاء﴾ قال: يخلص لنفسه من يشاء. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مروي عن ابن عباس في قوله: ﴿والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له﴾ قال: هم أهل الكتاب كانوا يجاللون المسلمين، ويصنونهم عن الهدى من بعد ما استجابوا لله. وقال: هم قوم من أهل الضلالة، وكانوا يتربصون بأن تاتيهم الجاهلية. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن قتادة في قوله: ﴿والذين يحاجون في الله الآية﴾، قال: هم اليهود، والنصارى. وأخرج عبد بن حميد عن الحسن نحوه. وأخرج ابن المنذر عن عكرمة قال: لما نزلت ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ [النصر: 1] قال المشركون لمن بين أظهرهم من المؤمنين: قد نخل الناس في دين الله أفواجاً، فخرجوا من بين أظهرنا، فنزلت ﴿والذين يحاجون في الله الآية﴾.

الله لَئِلاَّ يُعَذِّبَ عِبَادَهُ يُرِزُّ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٧﴾ مَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزَدَ لَمْ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴿١٨﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُتِحَ رِيقُ الَّذِينَ ظَنَّنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٩﴾ تَرَى الظَّالِمِينَ مَسْفُوفِينَ وَمَا كَسَبُوا وَهُمْ وَاقِعٌ يَوْمَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٠﴾ ذَلِكَ الَّذِي يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكَ الْآيَاتِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرٌ إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْرَأْ حَسَنَةً نَزَدَ لَمْ فِيهَا حَسَنَةً إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢١﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يُخَيِّرْ عَلَى قَلْبِكَ وَمَعَ اللَّهِ الْبَطِلُ وَمِنْ لَمَنْ يَكْنِيتُهُ إِنَّهُ عَلَيْهِ يَذَاتُ الشُّكْرِ ﴿٢٢﴾ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْتَفُو عَنْ السَّيِّئَاتِ وَيَعْتَمِ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ وَاسْتَجِبْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَزَيِّدْهُمْ مِنْ فَضْلِهِ

الله بموئته، فلما هاجر أوته الأنصار ونصروه، فأنزل الله عليه: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: 109]، وأنزل عليه ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجَرٍ فَهُوَ لَكُمْ أَنْ أَجَرَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [سبا: 47]. وسيأتي في آخر البحث ما يتضح به الثواب، ويظهر به معنى الآية إن شاء الله ﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حَسَنًا﴾ أصل القرف الكسب، يقال: فلان يقرف لعياله أي: يكتسب. والاقتراف: الاكتساب، مأخوذ من قولهم رجل قرفة: إذا كان محتالاً. والمعنى: من يكتسب حسنة نزد له هذه الحسنة حسناً بمضاعفة ثوابها. قال مقاتل: المعنى: من يكتسب حسنة واحدة نزد له فيها حسناً نضاعفها بلواحدة عشراً فصاعداً. وقيل: المراد بهذه الحسنة هي: المودة في القربى، والحمل على العموم أولى، ويخل تحت المودة في القربى دخولاً أولياً ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ أي: كثير المغفرة للمذنبين كثير الشكر للمطيعين. قال قتادة: غفور للمذنب شكور للحسنات. وقال السدي: غفور لذنب آل محمد ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كُتُبًا﴾ أم هي المنقطعة أي: بل يقولون: افترى محمد على الله كتباً بدعى النبوة، والإنكار للتوبيخ. ومعنى افتراء الكتب: اختلاقه. ثم أجاب سبحانه عن قولهم هذا، فقال: ﴿فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يُخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ أي: لو افترى على الله الكتب لشاء عدم صورته منه، وختم على قلبه بحيث لا يخطر بباله شيئاً مما كذب فيه كما تزعمون. قال قتادة: يختم على قلبك، فينسك القرآن، فأخبرهم أنه لو افترى عليه لفعل به ما أخبرهم به في هذه الآية. وقال مجاهد، ومقاتل: إن يشأ يربط على قلبك بالصبر على أذاهم حتى لا يدخل قلبك مشقة من قولهم. وقيل: الخطاب له، والمراد الكفار أي: إن يشأ يختم على قلوب الكفار، ويعاجلهم بالعقوبة، نكرة القشيري. وقيل: المعنى: لو حثثك نفسك أن تفتري على الله كذباً لطبع على قلبك، فإنه لا يجترئ على الكذب إلا من كان مطبوعاً على قلبه، والأول أولى، وقوله: ﴿وَيُمِحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾ استثناء مقرر لما قبله من نفي الافتراء. قال ابن الأنباري: يختم على قلبك تام، يعني: وما بعده مستأنف. وقال الكسائي: فيه تقديم، وتأخير أي: والله يمحو الباطل. وقال الزجاج: أم يقولون: افترى على الله كذباً تام، وقوله: ﴿وَيُمِحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾ احتجاج على من أنكر ما أتى به النبي ﷺ أي: لو كان ما أتى به النبي ﷺ باطلاً لمحاه كما جرت به عاتقه في المفتريين ﴿وَيُحِقُّ الْحَقَّ﴾ أي: الإسلام، فيبينه ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾ أي: بما أنزل من القرآن ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ عالم بما في قلوب العباد، وقد سقطت الواو من، ويمحو في بعض المصاحف كما حكاه الكسائي ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ أي: يقبل من المذنبين من عباده توبتهم إليه مما عملوا من المعاصي، واقترفوا من السيئات، والتوبة: الندم على المعصية، والعزم على عدم المعادة لها. وقيل: يقبل التوبة عن أوليائه، وأهل طاعته. والأول أولى، فإن التوبة مقبولة من جميع العباد

مسلم، والأعرج، وابن هرمز بفتحها عطفاً على كلمة الفصل ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مَشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا﴾ أي: خائفين وجلين مما كسبوا من السيئات، وذلك الخوف، والوجل يوم القيامة ﴿وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ الضمير راجع إلى ما كسبوا بتقدير مضاف قاله الزجاج أي: وجزاء ما كسبوا واقع منهم نازل عليهم لا محالة أشفقوا، أو لم يشفقوا، والجملة في محل نصب على الحال. ولما نكر حال الظالمين نكر حال المؤمنين، فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾ روضات جمع روضة. قال أبو حيان: اللغة الكثيرة تسكين الواو، ولغة هذيل فتحها، والروضة: الموضع النزه الكثير الخضرة، وقد مضى بيان هذا في سورة الروم، وروضة الجنة: أطيب مساكنها كما أنها في الدنيا لأحسن أمكنتها ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ من صنوف النعم، وأنواع المستلذات، والعامل في عند ربهم يشاءون، أو العامل في روضات الجنات، وهو: الاستقرار، والإشارة بقوله: ﴿وَلَكُمْ﴾ إلى ما نكر للمؤمنين قبله، وخبره الجملة المنكورة بعده، وهي ﴿هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ أي: الذي لا يوصف، ولا تهدي العقول إلى معرفة حقيقته، والإشارة بقوله: ﴿وَلَكُمْ الَّذِي يَبْشُرُ اللَّهَ عِبَادَهُ﴾ إلى الفضل الكبير أي: يبشرهم به. ثم وصف العباد بقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، فهؤلاء الجامعون بين الإيمان، والعمل بما أمر الله به، وترك ما نهى عنه هم: المبشرون بتلك البشارة. قرأ الجمهور (يبشر) مشدداً من بشر. وقرأ مجاهد، وحמיד بن قيس بضم التحتية، وسكون الموحدة، وكسر الشين من أبشر. وقرأ بفتح التحتية، وضم الشين بعض السبعة، وقد تقدم بيان القراءات في هذه اللفظة. ثم لما نكر سبحانه ما أخبر به نبيه ﷺ من هذه الأحكام الشريفة التي اشتمل عليها كتابه، أمره بأنه يخبرهم بأنه لا يطلب منهم بسبب هذا التبليغ ثواباً منهم، فقال: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي: قل يا محمد: لا أطلب منكم على تبليغ الرسالة جعلاً، ولا نفعاً ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ هذا الاستثناء يجوز أن يكون متصلاً أي: إلا أن تودوني لقرايتي بينكم، أو تودوا أهل قرايتي. ويجوز أن يكون منقطعاً. قال الزجاج: إلا المودة استثناء ليس من الأول أي: إلا أن تودوني لقرايتي، فتحفظوني، والخطاب لقريش. وهذا قول عكرمة، ومجاهد، وأبي مالك، والشعبي، فيكون المعنى على الانقطاع: لا أسألكم أجراً قط، ولكن أسألكم المودة في القربى التي بيني وبينكم، أرقبوني فيها، ولا تعجلوا إلي، ودعوني والناس، وبه قال قتادة، ومقاتل، والسدي، والضحاك، وابن زيد، وغيرهم، وهو الثابت عن ابن عباس كما سيأتي. وقال سعيد بن جبير، وغيره: هم: آل محمد، وسيأتي ما استدلل به القائلون بهذا. وقال الحسن، وغيره: معنى الآية: إلا التودد إلى الله عز وجل، والتقرب بطاعته. وقال الحسن بن الفضل: ورواه ابن جرير عن الضحاك: إن هذه الآية منسوخة، وإنما نزلت بمكة، وكان المشركون يؤذون رسول الله ﷺ، فأمرهم

هذه الأمة بالسناء، والرفعة، والنصر، والتمكين في الأرض ما لم يطلبوا الدنيا بعمل الآخرة، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة من نصيب». وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة قال: «تلا رسول الله ﷺ: **«مَنْ كَانَ يَرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ»** الآية، ثم قال: يقول الله: ابن آدم تفرغ لعبادتي أملاً صدرك غنى، وأسد فقرك، وإن لا تفعل ملأت صدرك شغلاً، ولم أسد فقرك». وأخرج ابن أبي الدنيا، وابن عساكر عن علي قال: الحرت حراثان، فحرت الدنيا المال، والبنون، وحرت الآخرة الباقيات الصالحات. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، والبخاري، ومسلم، والترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه من طريق طلوس عن ابن عباس: أنه سئل عن قوله: **«إِلَّا الْمَوَدَّةُ فِي الْقُرْبَى»** قال سعيد بن جبيرة: قريبي آل محمد. قال ابن عباس: عجبت أن النبي ﷺ لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيه قرابة، فقال: إلا أن تصلوا ما بيني، وبينكم من القرابة. وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه من طريق سعيد بن جبيرة عنه قال: قال لهم رسول الله ﷺ: «لا أسألكم عليه أجراً إلا أن تولدوني في نفسي لقرباتي، وتحفظوا القرابة التي بيني وبينكم». وأخرج سعيد بن منصور، وابن سعد، وعبد بن حميد، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن الشعبي قال: أكثر الناس علينا في هذه الآية **«قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةُ فِي الْقُرْبَى»**، فكتبنا إلى ابن عباس نسأله عن ذلك، فقال: إن رسول الله ﷺ كان واسط النسب في قريش ليس بطن من بطونهم إلا، وله فيه قرابة، فقال الله: **«قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً»** على ما ادعوكم إليه **«إِلَّا الْمَوَدَّةُ فِي الْقُرْبَى»** أن تولدوني لقرباتي منكم، وتحفظوني بها. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في الآية قال: كان لرسول الله ﷺ قرابة من جميع قريش، فلما كذبوه، وأبوا أن يبايعوه قال: «يا قوم إذا أبيتم أن تبايعوني، فاحفظوا قرباتي فيكم، ولا يكون غيركم من العرب أولى بحفظي، ونصرتي منكم». وأخرج عبد بن حميد، وابن مردويه عنه نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عنه أيضاً نحوه. وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً نحوه. وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً من طريق أخرى نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه من طريق مقسم عن ابن عباس قال: «قالت الأنصار: فعلنا، وفعلنا، وكانهم فخرُوا. فقال العباس: لنا الفضل عليكم. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فاتهم في مجالسهم، فقال: يا معشر الأنصار ألم تكونوا أئمة، فأعزكم الله؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: أئمة تجيئون؟ قالوا: ما نقول يا رسول الله؟ قال: ألا تقولون: ألم يخرجك قومك، فأوينك؟ ألم يَكْذِبُوكَ، فصنقناك؟ ألم يخذلوك، فنصرتناك؟ فما زال يقول حتى جثوا على الركب، وقالوا: أموالنا، وما في أيدينا له، ورسوله، فنزلت **«قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةُ فِي الْقُرْبَى»**، وفي

مسلمهم، وكافرهم إذا كانت صحيحة صادرة عن خلوص نية، وعزيمة صحيحة **«ويعفوا عن السيئات»** على العموم لمن تاب عن سيئته **«ويعلم ما تفعلون»** من خير، وشر، فيجازي كلا بما يستحقه. قرأ حمزة، والكسائي، وحفص، وخلف (تفعلون) بالفوقية على الخطاب. وقرأ الباقون بالتحية على الخبر، واختار القراءة الثانية أبو عبيد، وأبو حاتم؛ لأن هذا الفعل وقع بين خبرين **«ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات»** الموصول في موضع نصب أي: يستجيب الله الذين آمنوا، ويعطيهم ما طلبوه منه، يقال: أجاب، واستجاب بمعنى. وقيل المعنى: يقبل عبادة المخلصين. وقيل: التقدير، ويستجيب لهم، فحذف اللام كما حذف في قوله: **«وإذا كالوهم»** [المطففين: 3] أي: كالوا لهم، وقيل: إن الموصول في محل رفع أي: يجيبون ربهم إذا دعاهم كقوله: **«استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم»** [الأنفال: 24] قال المبرد: معنى **«ويستجيب الذين آمنوا»**: ويستدعي الذين آمنوا الإجابة، هكذا حقيقة معنى استعمل، فالذين في موضع رفع، والأول أولى **«ويزيدهم من فضله»** أي: يزيدهم على ما طلبوه منه، أو على ما يستحقونه من الثواب تفضلاً منه، وقيل: يشفعهم في إخوانهم **«والكافرون لهم عذاب شديد»** هذا للكافرين مقابلاً ما نكره للمؤمنين فيما قبله **«ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض»** أي: لو وسع الله لهم رزقهم لبغوا في الأرض لعصوا فيها، ويطروا النعمة، وتكبروا، وطلبوا ما ليس لهم طلبة، وقيل: المعنى: لو جعلهم سواء في الرزق لما انقاد بعضهم لبعض، ولتعطلت الصنائع، والأول أولى. والظاهر عموم أنواع الرزق، وقيل: هو: المطر خاصة **«ولكن ينزل بقدر ما يشاء»** أي: ينزل من الرزق لعباده بتقدير على حسب مشيئته، وما تقتضيه حكمته البالغة **«إنه بعباده خبير»** بأحوالهم **«بصير»** بما يصلحهم من توسيع الرزق، وتضييقه، فيقدر لكل أحد منهم ما يصلحه، ويكفه عن الفساد بالبغي في الأرض **«وهو الذي ينزل الغيث»** أي: المطر الذي هو أنفع أنواع الرزق، وأعمها فائدة، وأكثرها مصلحة **«من بعد ما قطنوا»** أي: من بعد ما أيسوا عن ذلك، فيعرفون بهذا الإنزال للمطر بعد القنوط مقدار رحمته لهم، ويشكرون له ما يجب الشكر عليه **«وهو الولي»** للصالحين من عباده بالإحسان إليهم، وجلب المنافع لهم، وبلغ الشرور عنهم **«الحميد»** المستحق للحمد منهم على إنعامه خصوصاً وعموماً.

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: **«مَنْ كَانَ يَرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ»** قال: عيش الآخرة **«ينزل له في حربه ومن كان يريد حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتَهُ مِنْهَا»** الآية. قال: من يؤثر دنياه على آخرته لم يجعل الله له نصيباً في الآخرة إلا النار، ولم يزيد بذلك من الدنيا شيئاً إلا رزقاً فرغ منه، وقسم له. وأخرج أحمد، والحاكم وصححه، وابن مردويه، وابن حبان عن أبي بن كعب، أن رسول الله ﷺ قال: «بشر

فذكره. ورواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن مسلم بن إبراهيم، عن قزعة به. وأخرج ابن المبارك، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في الشعب، قال السيوطي: بسند صحيح عن أبي هانئ الخولاني قال: سمعت عمر بن حريث، وغيره يقولون: إنما نزلت هذه الآية في أصحاب الصفة ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾، وذلك أنهم قالوا: لو أن لنا، فتمنوا الدنيا. وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب عن عليّ مثله.

وَمِن مَّا نَزَّلْنَا خَلْقَ السَّمَكِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ وَمَوْعِدَ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴿١١٠﴾ وَمَا أَمْسَكُكُمْ مِنْ تُصَيِّدٍ فِيمَا كُنْتُمْ آيْدِيكُمْ وَيَعْمَلُونَ عَنْ كَيْفٍ ﴿١١١﴾ وَمَا أَشْرَ بِمُجْرِمٍ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٢﴾ وَمِن مَّا نَزَّلْنَا الْهَمَ فِي الْبَحْرِ كَالْأَنْزِلِ ﴿١١٣﴾ إِنْ يَشَاءُ يُسَكِّنِ الرِّيحَ فَيَظْلَنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١١٤﴾ أَوْ يُوقِعَنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعَفَّ عَنْ كَيْفٍ ﴿١١٥﴾ وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُخَيَّلُونَ فِي مَائِنَا مَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَةٍ ﴿١١٦﴾ فَمَا أَوَيْتُمْ مِنْ قُوَى فَتَعَلَّوْا لِمِيقَاتِهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١١٧﴾ وَالَّذِينَ يَحْتَسِبُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوْحِ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْمُرُونَ ﴿١١٨﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْرَقُوا مِنْ بَيْنِهِمْ وَمَا زِدْنَاهُمْ يَأْتُونَ ﴿١١٩﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنَاهُمْ أَلْفَنِي هُمْ يَنْتَفِرُونَ ﴿١٢٠﴾ وَخَرَجُوا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ يَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ وَأَسْلَحَ فَأَمْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ الْفَالِغِينَ ﴿١٢١﴾ وَلَمَّا نَسَرَ بَدَ ظُهُورُهُمْ لَوَالِغِهِمْ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ حِسَابٍ ﴿١٢٢﴾ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ عَلَى النَّبِيِّ لِقَاءِ قَوْمٍ يَرْبُحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٢٣﴾ وَلَكِنْ صَبَرُوا وَعَسَىٰ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ يُنْصَرِفُ بِهِ إِلَهُ الْقُلُوبِ لَمَّا رَأَوْا الْمَذَبَ يَقُولُوكَ هَلْ إِلَىٰ مَرَوْنَ

إسناده يزيد بن أبي زياد، وهو: ضعيف، والأولى أن الآية مكية لا مدنية، وقد أشرنا في أول السورة إلى قول من قال: إن هذه الآية، وما بعدها مدنية، وهذا متمسكهم. وأخرج أبو نعيم، والبيهقي من طريق مجاهد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿قُلْ لَا لِسَالِكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةُ فِي الْقُرْبَى﴾ أي: تحفظوني في أهل بيتي، وتودونهم بي. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، قال السيوطي: بسند ضعيف من طريق سعيد بن جبيرة عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية ﴿قُلْ لَا لِسَالِكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةُ فِي الْقُرْبَى﴾ قالوا: يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم؟ قال: علي، وفاطمة، ولدهما، وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه من طريق الضحاك عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية بمكة، وكان المشركون يؤثرون رسول الله ﷺ، فأنزل الله: قل لهم يا محمد ﴿لَا لِسَالِكُمْ عَلَيْهِ﴾ يعني: على ما ادعوكم إليه ﴿أَجْرًا﴾ عرضاً من الدنيا ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةُ فِي الْقُرْبَى﴾ إلا الحفظ لي في قرابتي فيكم، فلما هاجر إلى المدينة أحب أن يلحقه بإخوته من الأنبياء، فقال: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [سبأ: 47] يعني: ثوابه، وكرامته في الآخرة كما قال نوح: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: 109]، وكما قال هود، وصالح، وشعيب لم يستثنوا أجراً كما استثني النبي ﷺ، فردّه عليهم، وهي: منسوخة. وأخرج أحمد، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه من طريق مجاهد، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ في الآية: قل: لا أسألكم على ما أتيتكم به من البينات، والهدى أجراً إلا أن توبوا الله، وأن تتقربوا إليه بطاعته. هذا حاصل ما روي عن جبر الأمة ابن عباس رضي الله عنه في تفسير هذه الآية. والمعنى الأول هو: الذي صح عنه، ورواه عنه الجمع الجَم من تلامذته، فمن بعدهم، ولا ينافيه ما روي عنه من النسخ، فلا مانع من أن يكون قد نزل القرآن في مكة بأن يؤده كفار قريش لما بينه، وبينهم من القربى، ويحفظوه بها، ثم ينسخ ذلك، ويذهب هذا الاستثناء من أصله كما يدل عليه ما ذكرنا مما يدل على أنه لم يسأل على التبليغ أجراً على الإطلاق، ولا يقوي ما روي من حملها على آل محمد ﷺ على معارضة ما صح عن ابن عباس من تلك الطرق الكثيرة، وقد أغنى الله آل محمد عن هذا بما لهم من الفضائل الجليلة، والمزايا الجميلة. وقد بينا بعض ذلك عند تفسيرنا لقوله: ﴿إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ [الأحزاب: 33]، وكما لا يقوي هذا على المعارضة، فكذلك لا يقوي ما روي عنه أن المراد بالمودة في القربى: أن يوبوا الله، وأن يتقربوا إليه بطاعته، ولكنه يشد من عضد هذا أنه تفسير مرفوع إلى رسول الله ﷺ وإسناده عند أحمد في المسند هكذا: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا قزعة بن سويد، عن ابن أبي نجيع، عن مجاهد عن ابن عباس: أن النبي ﷺ،

نكر سبحانه بعض آياته الدالة على كمال قدرته الموجبة لتوحيده، وصق ما وعد به من البعث، فقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: خلقهما على هذه الكيفية العجيبة، والصنعة الغريبة ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ يجوز عطفه على خلق، ويجوز عطفه على السموات، والدابة اسم لكل ما دب. قال الفراء: أراد ما بث في الأرض دون السماء كقوله: ﴿يُخْرِجُ مِنْهُمَا اللَّوْزُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: 22]. وإنما يخرج من الملح نون العنب. وقال أبو علي الفارسي: تقديره: وما بث في أحدهما، فحذف المضاف. قال مجاهد: يدخل في هذا الملائكة، والناس، وقد قال تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النمل: 8] ﴿وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ﴾ أي: حشرهم يوم القيامة ﴿إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾، الطرف متعلق بجمعهم لا بقدير قال أبو البقاء: لأن ذلك يؤدي، وهو على جمعهم قدير إذا يشاء، فتتعلق القدرة بالمشيئة، وهو محال، قال شهاب الدين: ولا نري ما وجه كونه محالاً على مذهب أهل السنة. فإن كان يقول بقول المعتزلة، وهو: أن القدرة تتعلق بما لم

يسكن الريح ﴿قرأ الجمهور بهمز (يشأ)، وقرأ ورش عن نافع بلا همز. وقرأ الجمهور (الريح) بالإفراد، وقرأ نافع (الرياح) على الجمع أي: يسكن الريح التي تجري بها السفن ﴿فيظللن﴾ أي: السفن ﴿رواكذ﴾ أي: سواكن ثوابت ﴿على ظهره﴾ البحر، يقال: ركد الماء ركوداً: سكن، وكذلك ركدت الريح، وركدت السفينة، وكل ثابت في مكان، فهو راكد. قرأ الجمهور (فيظللن) بفتح اللام الأولى، وقرأ قتادة بكسرهما، وهي لغة قليلة ﴿إن في ذلك﴾ الذي نكر من أمر السفن ﴿آيات﴾ دلالات عظيمة ﴿لكل صبار شكور﴾ أي: لكل من كان كثير الصبر على البلوى كثير الشكر على النعماء. قال قطرب: الصبار الشكور الذي إذا أعطي شكر، وإذا ابتلي صبر. قال عون بن عبد الله:

فكم من منعم عليه غير شاكر وكـم من مبتلي غير صابر
﴿أو يوبقهن بما كسبوا﴾ معطوف على يسكن أي: يهلكهن بالغرق، والمراد أهلهن بما كسبن من الذنوب، وقيل: بما أشركوا. والأول أولى، فإنه يهلك في البحر المشرك وغير المشرك، يقال: أوبقه أي: أهلكه ﴿ويعف عن كثير﴾ من أهلها بالتجاوز عن ذنوبهم، فينجيهم من الغرق. قرأ الجمهور (يعف) بالجزم عطفاً على جواب الشرط. قال القشيري: وفي هذه القراءة إشكال؛ لأن المعنى: إن يشأ يسكن الريح، فتبقى تلك السفن رواكذ، أو يهلكها بذنوب أهلها، فلا يحسن عطف ﴿يعف﴾ على هذا، لأنه يصير المعنى: إن يشأ يعف، وليس المعنى ذلك، بل المعنى: الإخبار عن العفو من غير شرط المشيئة، فهو: إن عطف على المجزوم من حيث اللفظ لا من حيث المعنى، وقد قرأ قوم (ويعفو) بالرفع، وهي جيدة في المعنى. قال أبو حيان: وما قاله ليس بجيد إذ لم يفهم ملول التركيب، والمعنى: إلا أنه تعالى أهلك ناساً، وأنجى ناساً على طريق العفو عنهم، وقرأ الأعمش (ويعفو) بالرفع، وقرأ بعض أهل المدينة بالنصب بإضمار أن بعد الواو كما في قول النابغة:

فلن يهلك أبو قابوس يهلك ربيع الناس والشهر الحرام
ونأخذ: بعده بذناب عيش أجب الظهر ليس له سنام
بنصب ونأخذ ﴿ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من محيص﴾ قرأ الجمهور بنصب (يعلم) قال الزجاج: على الصرف، قال: ومعنى الصرف: صرف العطف على اللفظ إلى العطف على المعنى، قال: وذلك أنه لما لم يحسن عطف ويعلم مجزوماً على ما قبله إذ يكون المعنى: إن يشأ يعلم عدل إلى العطف على مصدر الفعل الذي قبله، ولا يتأتى ذلك إلا بإضمار أن، لتكون مع الفعل في تأويل اسم، ومن هذا بيتا النابغة المذكوران قريباً، وكما قال الزجاج. قال المبرد، وأبو علي الفارسي: واعترض على هذا الوجه بما لا طائل تحته. وقيل: النصب على العطف على تعليل محذوف، والتقدير: لينتقم منهم، ويعلم. واعترضه أبو حيان بأنه ترتب على الشرط إهلاك قوم، ونجاة قوم، فلا يحسن تقدير لينتقم

يشأ الله مشى كلامه، ولكنه مذهب رديء لا يجوز اعتقاده ﴿وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم﴾ أي: ما أصابكم من المصائب كائنة ما كانت، فيسبب ما كسبت أيديكم من المعاصي. قرأ نافع، وابن عامر (بما كسبت) بغير فاء، وقرأ الباقون بالفاء. «وما» في ﴿وما أصابكم﴾ هي: الشرطية، ولهذا دخلت الفاء في جوابها على قراءة الجمهور، ولا يجوز حذفها عند سيبويه، والجمهور، وجوز الأخفش الحذف كما في قوله: ﴿وإن أطعتموهم إنكم لمشركون﴾ [الأنعام: 121]، وقول الشاعر:

من يفعل الحسنات الله يشكرها والشر بالشر عند الله مثلاًن
وقيل: هي الموصولة، فيكون الحذف، والإثبات جائزين، والأول أولى. قال الزجاج: إثبات الفاء أجود؛ لأن الفاء مجازاة جواب الشرط، ومن حذف الفاء فعلى أن ما في معنى: الذي، والمعنى: الذي أصابكم وقع بما كسبت أيديكم. قال الحسن: المصيبة هنا الحدود على المعاصي، والأولى الحمل على العموم كما يفيد وقوع النكرة في سياق النفي، وبخول من الاستغراقية عليها ﴿ويعفوا عن كثير﴾ من المعاصي التي يفعلها العباد، فلا يعاقب عليها، فمعنى الآية: أنه يكفر عن العبد بما يصيبه من المصائب، ويعفو عن كثير من الذنوب. وقد ثبتت الألة الصحيحة أن جميع ما يصاب به الإنسان في الدنيا يؤجر عليه، أو يكفر عنه من ذنوبه. وقيل: هذه الآية مختصة بالكافرين على معنى: أن ما يصابون به بسبب ذنوبهم من غير أن يكون ذلك مكفراً عنهم لذنب، ولا محصلاً لثواب، ويترك عقوبتهم عن كثير من ذنوبهم، فلا يعالجهم في الدنيا بل يمهلهم إلى الدار الآخرة. والأولى حمل الآية على العموم، والعفو يصلق على تأخير العقوبة كما يصلق على محو الذنب، ورفع الخطاب به. قال الواحدي: وهذه أرجى آية في كتاب الله؛ لأنه جعل ذنوب المؤمنين صنفين: صنف كفره عنهم بالمصائب، وصنف عفا عنه في الدنيا، وهو كريم لا يرجع في عفوه، فهذه سنة الله مع المؤمنين. وأما الكافر، فإنه لا يعجل له عقوبة ذنبه حتى يوافي به يوم القيامة ﴿وما أنتم بمعجزين في الأرض﴾ أي: بفائتين عليه هرباً في الأرض، ولا في السماء لو كانوا فيها بل ما قضاه عليهم من المصائب واقع عليهم نازل بهم ﴿وما لكم من دون الله من ولي﴾ أي: يواليك، فيمنع عنكم ما قضاه الله ﴿ولا نصير﴾ ينصركم من عذاب الله في الدنيا، ولا في الآخرة. ثم ذكر سبحانه آية أخرى من آياته العظيمة الدالة على توحيده، وصدق ما وعد به، فقال: ﴿ومن آياته الجوار﴾ قرأ نافع، وأبو عمرو (الجواري) بإثبات الياء في الوصل، وأما في الوقف، فإثباتها على الأصل، وحذفها للتخفيف، وهي: السفن واحتلتها جارية أي: سائرة ﴿في البحر كالاعلام﴾ أي: الجبال جمع علم، وهو الجبل، ومنه قول الخنساء:

لأن صخرًا لتأت الهداة به كأنه علم في رأسه نار
قال الخليل: كل شيء مرتفع عند العرب، فهو علم. وقال مجاهد: الاعلام القصور واحدها علم ﴿إن يشأ

وورود النقباء إليهم حين اجتمع رأيهم في دار أبي أيوب على الإيمان به، والنصرة له. وقيل: المراد تشاورهم في كل أمر يعرض لهم، فلا يستأثر بعضهم على بعض برأي، وما أحسن ما قاله بشار بن برد:

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن برأي نصيح أو نصيحة حازم ولا تجعل الشورى عليك غصاصة فريش الخوافي قوة للقوام وقد كان رسول الله ﷺ يشاور أصحابه في أموره، وأمره الله سبحانه بذلك، فقال: ﴿وشاورهم في الأمر﴾ [آل عمران: 159]، وقد قُمنّا في آل عمران كلاماً في الشورى ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ أي: ينفقونه في سبيل الخير، ويتصدقون به على المحاييج. ثم ذكر سبحانه الطائفة التي تنتصر ممن ظلمها، فقال: ﴿والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون﴾ أي: أصابهم بغير من بغى عليهم بغير الحق، ذكر سبحانه هؤلاء المنتصرين في معرض المدح كما ذكر المغفرة عند الغضب في معرض المدح؛ لأن التذلل لمن بغى ليس من صفات من جعل الله له العزة حيث قال: ﴿له العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ [المنافقون: 8]، فالانتصار عند البغي فضيلة، كما أن العفو عند الغضب فضيلة. قال النخعي: كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم، فيجتري عليهم السفهاء، ولكن هذا الانتصار مشروط بالاعتصار على ما جعله الله له وعدم مجاوزته كما بينه سبحانه عقب هذا بقوله: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾، فبين سبحانه أن العدل في الانتصار هو: الاعتصار على المساواة، وظاهر هذا العموم. وقال مقاتل، والشافعي، وأبو حنيفة، وسفيان: إن هذا خاص بالمجروح ينتقم من الجارح بالقصاص بون غيره. وقال مجاهد، والسدي: هو جواب القبيح إذا قال: أخذك الله يقول: أخذك الله من غير أن يعتدي، وتسمية الجزاء سيئة إما لكونها تسوء من وقعت عليه، أو على طريق المشكلة لتشابهها في الصورة. ثم لما بين سبحانه أن جزاء السيئة بمثلها حق جازئ بين فضيلة العفو، فقال: ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾ أي: من عفا عن ظلمه، وأصلح بالعفو بينه، وبين ظالمه أي: أن الله سبحانه يأجره على ذلك، وأبهم الأجر تعظيماً لشأنه، وتنبيهاً على جلالته. قال مقاتل: فكان العفو من الأعمال الصالحة، وقد بينا هذا في سورة آل عمران. ثم ذكر سبحانه خروج الظلمة عن محبته التي هي سبب الفوز، والنجاة، فقال: ﴿إنه لا يحب الظالمين﴾ أي: المبتئين بالظلم قال مقاتل: يعني: من يبدأ بالظلم، وبه قال سعيد بن جبير. وقيل: لا يحب من يتعدى في الاقتصاص، ويجاوز الحد فيه؛ لأن المجاوزة ظلم ﴿ولمن انتصر بعد ظلمه﴾ مصدر مضاف إلى المفعول أي: بعد أن ظلمه الظالم له، واللام هي: لام الابتداء. وقال ابن عطية: هي: لام القسم، والأول أولى. ومن هي الشرطية، وجوابه ﴿فأولئك ما عليهم من سبيل﴾ بمؤاخذه، وعقوبة، ويجوز أن تكون من هي الموصولة، وبخلت الفاء في جوابها تشبيهاً للموصولة بالشرطية، والأول أولى. ولما نفى سبحانه السبيل على من

منهم. وقرأ نافع، وابن عامر برفع (يعلم) على الاستئناف، وهي قراءة ظاهرة المعنى واضحة اللفظ. وقرئ بالجزم عطفاً على المجزوم قبله على معنى: وإن يشأ يجمع بين الإهلاك، والنجاة، والتحذير، ومعنى ﴿وما لهم من محيص﴾: ما لهم من فرار، ولا مهرب، قاله قطرب. وقال السدي: ما لهم من ملجأ، وهو مأخوذ من قولهم: حاص به البعير حيصة: إذا رمى به، ومنه قولهم: فلان يحيص عن الحق أي: يميل عنه ﴿فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا﴾ لما ذكر سبحانه دلائل التوحيد نكر التنفير عن الدنيا أي: ما أعطيتكم من الغنى، والسعة في الرزق، فإنما هو متاع قليل في أيام قليلة ينقضي، ويذهب. ثم رغبهم في ثواب الآخرة، وما عند الله من النعيم المقيم، فقال: ﴿وما عند الله خير وأبقى﴾ أي: ما عند الله من ثواب الطاعات، والجزاء عليها بالجنات خير من متاع الدنيا، وأبقى؛ لأنه دائم لا ينقطع، ومتاع الدنيا ينقطع بسرعة. ثم بين سبحانه لمن هذا، فقال: ﴿الذين آمنوا﴾ أي: صدقوا، وعملوا على ما يوجبهم الإيمان ﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾ أي: يفوضون إليه أمورهم، ويعتمدون عليه في كل شؤونهم لا على غيره ﴿والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش﴾ الموصول في محل جر معطوف على الذين آمنوا، أو بدلاً منه، أو في محل نصب بإضمار: أعني والأول أولى، والمعنى: أن ما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وللذين يجتنبون. والمراد بكبائر الإثم: الكبائر من الذنوب، وقد قُمنّا تحقيقها في سورة النساء. قرأ الجمهور (كبائر) بالجمع، وقرأ حمزة، والكسائي (كبير) بالإنفراد، وهو يفيد مفاد الكبائر، لأن الإضافة للجنس كاللام. والفواحش هي من الكبائر، ولكنها مع وصف كونها فاحشة كأنها فوقها، وذلك كالقتل، والزنا، ونحو ذلك. وقال مقاتل: الفواحش موجبات الحدود. وقال السدي: هي: الزنا ﴿وإذا ما غضبوا هم يغفرون﴾ أي: يتجاوزون عن الذنب الذي أغضبهم، ويكظمون الغيظ، ويحلمون على من ظلمهم، وخصّ الغضب بالغفران؛ لأن استيلاءه على طبع الإنسان، وغلبته عليه شديدة، فلا يغفر عند سورة الغضب إلا من شرح الله صدره، وخصه بمزية الحلم، ولهذا أثنى الله سبحانه عليهم بقوله في آل عمران ﴿والكاظمين الغيظ﴾ [آل عمران: 134] قال ابن زيد: جعل الله المؤمنين صنفين: صنفًا يعفون عن ظالمهم، فبدأ بذكرهم، وصنفًا ينتصرون من ظالمهم، وهم الذين سيأتي ذكرهم ﴿والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة﴾ أي: أجابوه إلى ما دعاهم إليه، وأقاموا ما أوجبه عليهم من فريضة الصلاة. قال ابن زيد: هم: الأنصار بالمدينة استجابوا إلى الإيمان بالرسول حين أنفذ إليهم اثني عشر نقيباً منهم قبل الهجرة، وأقاموا الصلاة لمواقبتها بشروطها، وهيئاتها ﴿وامرهم شورى بينهم﴾ أي: يتشاورون فيما بينهم، ولا يعجلون، ولا ينفردون بالرأي، والشورى مصدر شاورته مثل البشرى، والذكرى. قال الضحاك: هو تشاورهم حين سمعوا بظهور رسول الله ﷺ،

انتصر بعد ظلمه بين من عليه السبيل، فقال ﴿إنما السبيل على الذين يظلمون الناس﴾ أي: يتعمدون عليهم ابتداء كذا قال الأكثر. وقال ابن جريج: أي: يظلمونهم بالشرك المخالف لدينهم ﴿ويبغون في الأرض بغير الحق﴾ أي: يعملون في النفوس، والأموال بغير الحق كذا قال الأكثر. وقال مقاتل: بغيرهم عملهم بالمعاصي، وقيل: يتكبرون، ويتجبرون. وقال أبو مالك: هو ما يرجوه أهل مكة أن يكون بمكة غير الإسلام ديناً، والإشارة بقوله: ﴿ولذلك﴾ إلى الذين يظلمون الناس، وهو مبتدأ، وخبره ﴿لهم عذاب اليم﴾ أي: لهم بهذا السبب عذاب شديد الألم. ثم رغب سبحانه في الصبر، والعفو، فقال: ﴿ولمن صبر وغفر﴾ أي: صبر على الأذى، وغفر لمن ظلمه، ولم ينتصر، والكلام في هذه اللام، ومن كالكلام في، ولمن انتصر ﴿إن ذلك﴾ الصبر، والمغفرة ﴿لمن عزم الأمور﴾ أي: أن ذلك منه، فحذف لظهوره، كما في قولهم:

السمن منون بدرهم

قال مقاتل: من الأمور التي أمر الله بها. وقال الزجاج: الصابر يؤتى بصبره ثواباً، فالرغبة في الثواب أتم عزمًا. قال ابن زيد: إن هذا كله منسوخ بالجهاد، وأنه خلاص للمشركين. وقال قتادة: إنه عام، وهو ظاهر النظم القرآني ﴿ومن يضل الله فما له من ولي من بعده﴾ أي: فماله من أحد يلي هدايته، وينصره، وظاهر الآية العموم، وقيل: هي خاصة بمن أعرض عن النبي ﷺ، ولم يعمل بما دعاه إليه من الإيمان بالله، والعمل بما شرعه، والأول أولى.

وقد أخرج أحمد، وابن راهويه، وابن منيع، وعبد بن حميد، والحكيم الترمذي، وأبو يعلى، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والحاكم عن علي بن أبي طالب قال: ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله حثنا بها رسول الله ﷺ: «وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم ويعفوا عن كثير»، وساقسرها لك يا علي: ما أصابكم من مرض، أو عقوبة، أو بلاء في الدنيا فيما كسبت أيديكم، والله أكرم من أن يثني عليكم العقوبة في الآخرة، وما عفا الله عنه في الدنيا، فإله أكرم من أن يعود بعد عفوّه. وأخرج عبد بن حميد، والترمذي عن أبي موسى، أن رسول الله ﷺ قال: «لا يصيب عبداً نكبة، فما فوقها أو دونها إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر، وقرا ﴿وما أصابكم﴾ الآية». وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي الدنيا في الكفارات، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب عن عمران بن حصين: أنه دخل عليه بعض أصحابه، وكان قد ابتلي في جسده، فقال: إنا لنبتش لك لما نرى فيك، قال: فلا تبتش لما ترى، فإن ما ترى بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر، ثم تلا هذه الآية ﴿وما أصابكم من مصيبة﴾ إلى آخرها. وأخرج أحمد عن معاوية بن أبي سفيان: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من شيء يصيب المؤمن في جسده يؤذيه إلا كفر الله عنه به من سيئاته». وأخرج ابن مردويه عن البراء قال: قال رسول الله ﷺ: «ما

عثرة قدم، ولا اختلاج عرق، ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم، وما يعفو الله أكثر». وأخرج ابن المنذر من طريق عطاء عن ابن عباس في قوله: ﴿فيظللن رواكد على ظهره﴾ قال: يتحركن، ولا يجريان في البحر. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: رواكد قال: وقوفاً ﴿لو يوبقهن﴾ قال: يهلكهن. وأخرج النسائي، وابن ماجه، وابن مردويه عن عائشة، قالت: «دخلت علي زينب، وعندي رسول الله ﷺ، فاقبلت علي، فسبتني، فردعها النبي ﷺ، فلم تنته، فقال لي: سببها، فسببتها حتى جف ريقها في فمها، ووجه رسول الله ﷺ يتهلل سروراً». وأخرج أحمد، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، وابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «المستبان ما قالا من شيء، فعلى اللبائى حتى يعتدي المظلوم»، ثم قرأ ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة أمر الله منادياً ينادي: ألا ليقيم من كان له على الله أجر، فلا يقوم إلا من عفا في الدنيا». وذلك قوله: ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾. وأخرج البيهقي عن أنس، عن النبي ﷺ قال: «ينادي مناد: من كان له أجر على الله، فليدخل الجنة مرتين، فيقوم من عفا عن أخيه، قال الله: ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾».

وَرَى الْقُلَاطِيْنَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُوكَ هَلْ لَنَا مَرَّةٌ مِّنْ سَبِيلِ ۖ وَرَدَّاهُمْ يَرْضَوْنَ عَلَيْهَا خُسُوفًا مِّنَ الذَّلِيلِ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرَفِ خَفِيِّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا لَنَنصِرُكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَقْلَيْتَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۖ إِنَّا كُنَّا لِلْأَعْلِيِّينَ فِي عَذَابٍ مُّثْقِلٍ ۖ وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ آيَةٍ يُصِرُّونَ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ۖ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ بَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ يَوْمَ لَا يَكُنْ لَكُمْ مِنْ مَّلَاحٍ يَوْمِيذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَّاصِرٍ ۖ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا ۖ إِنَّا نَعْلَمُ ۖ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحِثَّ بِهَا وَلَانَ فَنَجَبَهُمْ سَيْئَةً يَمَا فَدَسَتْ أَيْدِيَهُمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ۖ اللَّهُ مَالِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنشَاءً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكُورَ ۖ أَوْ يُرْجِيهِمْ ذُكْرًا وَإُنْثَاءً وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَاقِبَةً إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ قَدِيرٌ ۖ وَمَا كَانَ لِيُشْرِيَ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رُسُلًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُمْ عَلَى حَكِيمٍ ۖ وَكَذَلِكَ أَرْجَيْنَا إِلَيْكَ رُحْمًا مِّنْ أَمْرًا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنَّ جَهَنَّمَ تَوْرًا تَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۖ صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَكَ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ آلَ إِلَى اللَّهِ نَصِيرُ الْأُمُورِ ۖ

قوله: ﴿وترى الظالمين﴾ أي: المشركين المكذبين بالبعث ﴿لما رأوا العذاب﴾ أي: حين نظروا النار، وقيل: نظروا ما أعد الله لهم عند الموت ﴿يقولون هل إلى مرة من سبيل﴾ أي: هل إلى الرجعة إلى الدنيا من طريق ﴿وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل﴾ أي:

ساكنين متواضعين عند أن يعرضوا على النار لما لحقهم من الذل، والهوان، والضمير في عليها راجع إلى العذاب، وأنه، لأن العذاب هو: النار، وقوله: ﴿يَعْرَضُونَ﴾ في محل نصب على الحال، لأن الرؤية بصرية، وكذلك خاشعين، ومن الذل يتعلق بخاشعين أي: من أجله ﴿يَنْظُرُونَ مِنْ طَرَفٍ خَفِيِّ﴾ من هي التي لا ابتداء الغاية أي: يبتدئ نظره إلى النار، ويجوز أن تكون تبعية، والطرف الخفي الذي يخفي نظره كالمصبور ينظر إلى السيف لما لحقهم من الذل، والخوف، والوجل. قال مجاهد: ﴿مِنْ طَرَفٍ خَفِيِّ﴾ أي: نليل قال: وإنما ينظرون بقلوبهم؛ لأنهم يحشرون عمياً، وعين القلب طرف خفي. وقال قتادة، وسعيد بن جبير، والسدي، والقرظي: يسارقون النظر من شدة الخوف. وقال يونس: إن «من» في ﴿مِنْ طَرَفٍ﴾ بمعنى الباء أي: ينظرون بطرف ضعيف من الذل، والخوف، وبه قال الأخفش ﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: أن الكاملين في الخسران هم: هؤلاء الذين جمعوا بين خسران النفس، والأهلين في يوم القيامة. أما خسارتهم لأنفسهم، فلكونهم صاروا في النار معذبين بها، وأما خسارتهم لأهلهم، فلأنهم إن كانوا معهم في النار، فلا ينتفعون بهم، وإن كانوا في الجنة، فقد حيل بينهم، وبينهم، وقيل: خسران الأهل: أنهم لو آمنوا لكان لهم في الجنة أهل من الحور العين ﴿إِلَّا إِنْ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ﴾ هذا يجوز أن يكون من تمام كلام المؤمنين. ويجوز أن يكون من كلام الله سبحانه أي: هم في عذاب دائم لا ينقطع ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءٍ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: لم يكن لهم أعوان يدفعون عنهم العذاب، وأنصار ينصرونهم في ذلك الموطن من دُونِ اللَّهِ، بل هو المتصرف سبحانه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن ﴿وَمَنْ يَضِللِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أي: من طريق يسلكها إلى النجاة. ثم أمر سبحانه عباده بالاستجابة له، وحذرهم، فقال: ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: استجيبوا دعوته لكم إلى الإيمان به، وبكتبه، ورسله من قبل أن يأتي يوم لا يقدر أحد على رده، وبغعه، على معنى: من قبل أن يأتي من الله يوم لا يردّه أحد، أو لا يردّه الله بعد أن حكم به على عباده، ووعدهم به، والمراد به: يوم القيامة، أو يوم الموت ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ مُلْجَا يَوْمٍ مُؤَيَّدٍ﴾ تلجئون إليه، ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾ أي: إنكار، والمعنى: ما لكم من إنكار يومئذ، بل تعرفون بذنوبكم. وقال مجاهد ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾ أي: ناصر ينصركم، وقيل: النكير بمعنى: المنكر، كالإليم بمعنى: المؤلم أي: لا تجبون يومئذ منكراً لما ينزل بكم من العذاب قاله الكلبي، وغيره، والأول أولى. قال الزجاج: معناه: أنهم لا يقدرُونَ أن ينكروا الذنوب التي يوقفون عليها ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا﴾ أي: حافظاً تحفظ أعمالهم حتى تحاسبهم عليها، ولا موكلاً بهم رقيباً عليهم ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ أي: ما عليك إلا البلاغ لما أمرت بإبلاغه، وليس

عليك غير ذلك، وهذا منسوخ بآية السيف ﴿وَإِنَّا إِذَا أَنْقَنَّا الْإِنْسَانَ مِنْ رَحْمَةِ فَرحٍ بِهَا﴾ أي: إذا أعطيناه رخاء، وصحة، وغنى فرح بها بطراً، والمراد بالإنسان: الجنس، ولهذا قال ﴿وَإِنْ تَصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أي: بلاء، وشدة، ومرض ﴿بِمَا قَسَمْتَ لِيِيبَهُمْ﴾ من الذنوب ﴿فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ أي: كثير الكفر لما أنعم به عليه من نعمه، غير شكور له عليها، وهذا باعتبار غالب جنس الإنسان. ثم ذكر سبحانه سعة ملكه، ونفاذ تصرفه، فقال: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: له التصرف فيهما بما يريد، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ من الخلق ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِثَاءً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ﴾ قال مجاهد، والحسن، والضحاك، وأبو مالك، وأبو عبيدة: يهب لمن يشاء إنثاءً لا ذكر معهن، ويهب لمن يشاء ذكراً لا إنثاء معهم. قيل: وتعريف الذكور بالآلف، واللام للدلالة على شرفهم على الإناث، ويمكن أن يقال: إن التقديم للإناث قد عارض ذلك، فلا دلالة في الآية على المفاضلة بل هي مسوقة لمعنى آخر. وقد دل على شرف الذكور قوله سبحانه: ﴿الرَّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ بما فضل الله [النساء: 34]، وغير ذلك من الآلة الدالة على شرف الذكور على الإناث، وقيل: تقديم الإناث لكثرتهم بالنسبة إلى الذكور، وقيل: لتطبيب قلوب آبائهم، وقيل لغیر ذلك مما لا حاجة إلى التويل بذكره ﴿أَوْ يَرْجُوهُمْ ذَكَرْنَا وَإِنَّا﴾ أي: يقين بين الإناث، والذكور، ويجعلهم أزواجاً فيهبهما جميعاً لبعض خلقه. قال مجاهد: هو أن تلد المرأة غلاماً، ثم تلد جارية، ثم توءم غلاماً، ثم تلد جارية. وقال القتيبي: التزويج هنا هو الجمع بين البنين، والبنات تقول العرب: زُوِّجَتْ إبلي: إذا جمعت بين الصغار، والكبار، ومعنى الآية أوضح من أن يختلف في مثله، فإنه سبحانه أخبر أنه يهب لبعض خلقه إنثاءً، ويهب لبعض ذكوراً، ويجمع لبعض بين الذكور، والإناث ﴿وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا﴾ لا يولد له ذكر، ولا أنثى، والعقيم الذي لا يولد له، يقال: رجل عقيم، وامرأة عقيم، وعقمت المرأة تعقم عقمًا، وأصله اللقطع، ويقال: نساء عقم، ومنه قول الشاعر: عقم النساء فما يلدن شببيه إن النساء بمثله عقم ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ قَبِيرٌ﴾ أي: بليغ العلم عظيم القدرة ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ أي: ما صح لفرد من أقرار البشر أن يكلمه الله بوجه من الوجوه إلا بأن يوحي إليه، فيلهم، ويقذف ذلك في قلبه قال مجاهد: نفث ينفث في قلبه، فيكون إلهاماً منه كما أوحى إلى أم موسى، وإلى إبراهيم في ذبح ولده ﴿أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ كما كلم موسى، يريد أن كلامه يسمع من حيث لا يرى، وهو: تمثيل بحال الملك المحتجب الذي يكلم خواصه من وراء حجاب ﴿أَوْ يَرْسِلُ رُسُلًا فَيُوحِي بِأَمْرِهِ مَا يَشَاءُ﴾ أي: يرسل ملكاً، فيوحي ذلك الملك إلى الرسول من البشر بأمر الله، وتيسيره ما يشاء أن يوحي إليه. قال الزجاج: المعنى: أن

بضمّ التاء، وكسر الدال من أهدي، وفي قراءة أبي (وإنك لتدعو)، ثم بين الصراط المستقيم بقوله: ﴿صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض﴾، وفي هذه الإضافة للصراط إلى الاسم الشريف من التعظيم له، والتفخيم لشأنه ما لا يخفى، ومعنى: ﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾: أنه المالك لذلك، والمتصرف فيه ﴿إلا إلى الله تصير الأمور﴾ أي: تصير إليه يوم القيامة لا إلى غيره جميع أمور الخلائق، وفيه وعيد بالبعث المستلزم للمجازاة.

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿ينظرون من طرف خفي﴾ قال: ثليل. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن مجاهد مثله. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر عن محمد بن كعب قال: يسارقون النظر إلى النار. وأخرج ابن مريويه، وابن عساکر عن واثلة بن الأسقع، عن النبي ﷺ قال: «من بركة المرأة ابتكارها بالأنثى، لأن الله قال: ﴿يهب لمن يشاء إنثاً﴾ ويهب لمن يشاء الذكور». وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿ويجعل من يشاء عقيماً﴾ قال: الذي لا يولد له. وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً﴾ قال: إلا أن يبعث ملكاً يوحي إليه من عنده، أو يلهمه، فيخفف في قلبه، أو يكلمه من وراء حجاب. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿وكنك أوحينا إليك روحاً من أمرنا﴾ قال: القرآن. وأخرج أبو نعيم في الدلائل، وابن عساکر عن علي قال: «قيل لمحمد ﷺ: هل عبيت وثناً قط؟ قال: لا، قالوا: فهل شربت خمراً قط؟ قال: لا، وما زلت أعرف أن الذي هم عليه كفر، وما كنت أدري ما الكتاب، ولا الإيمان، وبذلك نزل القرآن ﴿ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان﴾».

تفسير سورة الزخرف

قال القرطبي: هي: مكية بالإجماع. وأخرج ابن مريويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة حم الزخرف بمكة. قال مقاتل: إلا قوله: ﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا﴾ [الزخرف: 45] يعني: فإنها نزلت بالمدينة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْ ① وَالْكِتَابِ الْتَيْنِ ② إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ③ وَإِنَّهُ فِي أُولَى الْأَنْبِيَاءِ لَدِينًا لَمَعٌ حَكِيمٌ ④ أَفَنُفِرُّ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُشْرِفِينَ ⑤ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ⑥ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَاثُرًا بِهِ نَبْتَهِيهِمْ ⑦ فَأَمَلْنَا أَنَّ هَذَا مِنْهُمْ بَشَرًا وَمَنْ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ⑧ وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ⑨ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ⑩ وَالَّذِي نَزَّلَ

كلام الله للبشر: إما أن يكون باللهم، أو يكلمهم من وراء حجاب كما كلم موسى، أو برسالة ملك إليهم. وتقدير الكلام: ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا أن يوحي وحياً، أو يكلمه من وراء حجاب، أو يرسل رسلاً. ومن قرأ ﴿يرسل﴾ رفعاً أراد، وهو يرسل، فهو ابتداء، واستئناف اهـ قرأ الجمهور بنصب (أو يرسل)، وينصب (فيوحي) على تقدير أن، وتكون أن، وما دخلت عليه معطوفين على وحياً، ووحياً في محل الحال، والتقدير: إلا موحياً، أو مرسلًا، ولا يصح عطف، أو يرسل على أن يكلمه لأنه يصير التقدير: وما كان لبشر أن يرسل الله رسلاً، وهو فاسد لفظاً، ومعنى. وقد قيل: في توجيه قراءة الجمهور غير هذا مما لا يخلو عن ضعف. وقرأ نافع (أو يرسل) بالرفع، وكذلك (فيوحي) بإسكان الياء على أنه خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: أو هو يرسل كما قال الزجاج، وغيره، وجملة ﴿إنه علي حكيم﴾ تحليل لما قبلها أي: متعال عن صفات النقص، حكيم في كل أحكامه.

قال المفسرون: سبب نزول هذه الآية: أن اليهود قالوا للنبي ﷺ: ألا تكلم الله، وتنظر إليه إن كنت نبياً كما كلمه موسى، فنزلت ﴿وكنك أوحينا إليك روحاً من أمرنا﴾ أي: وكالوحي الذي أوحينا إلى الأنبياء قبلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا، المراد به: القرآن، وقيل: النبوة. قال مقاتل: يعني: الوحي بأمرنا، ومعناه: القرآن، لأنه يهتدى به، ففيه حياة من موت الكفر. ثم ذكر سبحانه صفة رسوله قبل أن يوحي إليه، فقال: ﴿ما كنت تدري ما الكتاب﴾ أي: أي شيء هو، لأنه ﷺ كان أمياً لا يقرأ، ولا يكتب، وذلك انخل في الإعجاز، وإدلل على صحة نبوته، ومعنى: ﴿ولا الإيمان﴾: أنه كان ﷺ لا يعرف تفاصيل الشرائع، ولا يهتدي إلى معالمها، وخص الإيمان؛ لأنه رأسها، وأساسها، وقيل: أراد بالإيمان هنا: الصلاة. قال بهذا: جماعة من أهل العلم منهم: إمام الأئمة محمد بن إسحاق بن خزيمة، واحتج بقوله تعالى: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ [البقرة: 143] يعني: الصلاة، فسامها إيماناً. وذهب جماعة إلى أن الله سبحانه لم يبعث نبياً إلا وقد كان مؤمناً به، وقالوا: معنى الآية: ما كنت تدري قبل الوحي كيف تقرأ القرآن، ولا كيف تدعو الخلق إلى الإيمان، وقيل: كان هذا قبل البلوغ حين كان طفلاً، وفي المهدي. وقال الحسين بن الفضل: إنه على حذف مضاف أي: ولا أهل الإيمان، وقيل: المراد بالإيمان دين الإسلام، وقيل: الإيمان هنا عبارة عن الإقرار بكل ما كلف الله به العباد ﴿ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء﴾ أي: ولكن جعلنا الروح الذي أوحيناه إليك ضياءً، ولبليلاً على التوحيد، والإيمان نهدي به من نشاء هدايته ﴿من عباننا﴾ ونرشده إلى الدين الحق ﴿وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾ قال قتادة، والسدي، ومقاتل: وإنك لتدعو إلى الإسلام، فهو: الصراط المستقيم. قرأ الجمهور (لتهدي) على البناء للفاعل. وقرأ ابن حوشب على البناء للمفعول. وقرأ ابن السميع

مِنْ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدَرُ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ نُخْرِجُوهُ ﴿١٦﴾
وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَاحِ وَالْأَنْتَعِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٧﴾
لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ
الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لِمِثْقَلِ ذَرَّةٍ لَّنَا لَمُشْكِلُونَ ﴿١٨﴾
وَجَعَلُوا لَكُم مِّنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٩﴾ أَرَأَيْتُمْ إِنَّمَا
يَخْلُقُ النَّبَاتِ وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَاسِ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا بَرِئَ أَحَدُهُمْ مِمَّا صَرَبَ لِلرَّحْمَنِ
مَثَلًا ظَلَّ رِجْهًا مَّسُودًا وَهُوَ كَلِيمٌ ﴿٢١﴾ أَوَمَن يُنَشِّئُ فِي الْحَلِجَةِ وَهَوَافِي
الْخِصَاصِ عِزًّا مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ وَجَعَلُوا لِلتَّكْوِينِ الَّذِينَ هُمْ عِنْدَ الرَّحْمَنِ إِنْتِثًا
أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَخَتْكَ مَنَازِلُهُمْ وَنَشْتَلُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا
عَبَدْتُهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٤﴾

قوله: ﴿حَمَّ﴾ والكتاب المبين: الكلام ما هنا في الإعراب كالکلام الذي قدّمناه في ﴿يَسَّ﴾ والقرآن الحكيم: ﴿يَسَّ: 1، 2﴾، فإن جعلت حمّ قسماً كانت الواو عاطفة، وإن لم تجعل قسماً، فالواو للقسمة، وجواب القسم ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ﴾، وقال ابن الأنباري: من جعل جواب، والكتاب حمّ كما تقول: نزل، والله، وجب والله وقف على الكتاب المبين، ومعنى جعلناه أي: سميناه، ووصفناه، ولذلك تعدّى إلى مفعولين. وقال السدي: المعنى: أنزلناه ﴿قَرَأْنَاهُ﴾. وقال مجاهد: قلناه. وقال سفيان الثوري: بيناه ﴿عَرَبِيًّا﴾، وكذا قال الزجاج أي: أنزل بلسان العرب، لأن كل نبي أنزل كتابه بلسان قومه. وقال مقاتل: لأن لسان أهل الجنة عربي ﴿لِعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: جعلنا ذلك الكتاب قرآناً عربياً لكي تفهموه، وتتعقلوا معانيه، وتحيطوا بما فيه. قال ابن زيد: لعلكم تتفكرون ﴿وإنه في لم الكتاب﴾ أي: وإن القرآن في اللوح المحفوظ ﴿لبينا﴾ أي: عننا ﴿لعلّي حكيم﴾ رفيع القدر محكم النظم لا يوجد فيه اختلاف، ولا تناقض، والجملة عطف على الجملة المقسم بها داخلة تحت معنى القسم، أو مستأنفة مقرّرة لما قبلها. قال الزجاج: أم الكتاب أصل الكتاب، وأصل كل شيء أمه، والقرآن مثبت عند الله في اللوح المحفوظ كما قال: ﴿بل هو قرآن مجيد﴾ في لوح محفوظ. [البروج: 21، 22] وقال ابن جريج: المراد بقوله: ﴿وإنه﴾ أعمال الخلق من إيمان، وكفر، وطاعة، ومعصية. قال قتادة: أخبر عن منزلته، وشرفه، وفضله أي: إن كنتم به يا أهل مكة، فإنه عندنا شريف رفيع محكم من الباطل ﴿فانضرب عنكم الذكر صفحاً﴾ يقال: ضربت عنه، وأضربت عنه: إذا تركته، وأمست عنه، كذا قال الفراء، والزجاج، وغيرهما، وانتصاب صفحاً على المصدرية، وقيل: على الحال على معنى: فأنضرب عنكم الذكر صافحين، والصفح مصدر قولهم: صفحت عنه إذا أمرضت عنه، وذلك أنك توليه صفحة وجهك، وعنقك، والمراد بالذكر هنا: القرآن، والاستفهام للإنكار، والتوبيخ. قال الكسائي: المعنى: فأنضرب عنكم الذكر طياً فلا توعظون، ولا تؤمرون. وقال مجاهد، وأبو صالح، والسدي: فأنضرب عنكم العذاب، ولا نعاقبكم على

إسرافكم، وكفركم. وقال قتادة: المعنى: أفنهلككم، ولا نأمركم، ولا ننهلككم. وروي عنه: أنه قال: المعنى: أفنمسك عن إنزال القرآن من قبل أنكم لا تؤمنون به. وقيل: الذكر التنكير، كأنه قال: أنترك تنكيركم ﴿إِنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾، قرأ نافع، وحزمة، والكسائي: إن كنتم بكسر إن على أنها الشرطية، والجزء محذوف لدلالة ما قبله عليه. وقرأ الباقون بفتحها على التعليل أي: لأن كنتم قوماً منهمكين في الإسراف مصرين عليه، واختار أبو عبيد قراءة الفتح. ثم سلى سبحانه رسوله ﷺ، فقال: ﴿وكم أرسلنا من نبي في الأولين﴾ كم هي: الخبرية التي معناها التنكير، والمعنى: ما أكثر ما أرسلنا من الأنبياء في الأمم السابقة ﴿وما ياتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزءون﴾ كاستهزاء قومك بك ﴿فأهلكنا أشد منهم بطشاً﴾ أي: أهلكنا قوماً أشد قوة من هؤلاء القوم، وانتصاب بطشاً على التمييز أو الحال أي: باطشين ﴿ومضى مثل الأولين﴾ أي: سلف في القرآن نكرهم غير مرة. وقال قتادة: عقوبتهم، وقيل: صفتهم، والمثل: الوصف والخبر. وفي هذا تهديد شديد، لأنه يتضمن أن الأولين أهلكوا بتكذيب الرسل، وهؤلاء إن استمروا على تكذيب الكفر بما جئت به هلكوا مثلهم ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم﴾ أي: لئن سألت هؤلاء الكفار من قومك من خلق هذه الأجرام العلوية والسفلية؟ أقروا بأن الله خالقهن ولم ينكروا، وذلك أسوأ لحالهم وأشد لعقوبتهم، لأنهم عبدوا بعض مخلوقات الله وجعلوه شريكاً له، بل عملوا إلى ما لا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ولا يضر من المخلوقات وهي: الأصنام فجعلوها شركاء لله. ثم وصف سبحانه نفسه بما يدل على عظيم نعمته على عباده وكمال قدرته في مخلوقاته فقال: ﴿الذي جعل لكم الأرض مهاداً﴾ وهذا كلام مبتدأ غير متصل بما قبله، ولو كان متصلاً بما قبله من جملة مقول الكفار لقالوا: الذي جعل لنا الأرض مهاداً، والمهاد الفراش والبساط، وقد تقدّم بيانه، قرأ الجمهور (مهاداً) وقرأ الكوفيون (مهداً) ﴿وجعل لكم فيها سبلاً﴾ أي طرقاً تسلكونها إلى حيث تريدون، وقيل: معاش تعيشون بها ﴿لعلكم تهتدون﴾ بسلوكها إلى مقاصدكم ومنافعكم ﴿والذي نزل من السماء ماء بقدر﴾ أي: بقدر الحاجة وحسبما تقتضيه المصلحة ولم ينزل عليكم منه فوق حاجتكم حتى يهلك زراعتكم ويهدم منازلكم ويهلككم بالغرق، ولا دونها حتى تحتاجوا إلى الزيادة، وعلى حسب ما تقتضيه مشيئته في أرزاق عباده بالتوسيع تارة والتقتير أخرى ﴿فأنشأنا به بلدة ميتاً﴾ أي: أحيينا بذلك الماء بلدة مقفرة من النبات. قرأ الجمهور (ميتاً) بالتخفيف. وقرأ عيسى وأبو جعفر بالتشديد ﴿كذلك أخرج نباتها بعد أن كانت لا نبات بها تبتعون من قبوركم أحياء، فإن من قدر على هذا قدر على ذلك، وقد مضى بيان هذا في آل عمران والأعراف. قرأ الجمهور (تخرجون) مبنياً

بالجزاء هنا: الملائكة فإنهم جعلوهم أولاداً لله سبحانه قاله مجاهد والحسن. قال الأزهرى: ومعنى الآية: أنهم جعلوا الله من عباده نصيباً على معنى: أنهم جعلوا نصيب الله من الولدان ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾ أي: ظاهر الكفران مبالغ فيه، قيل: المراد بالإنسان هنا: الكافر، فإنه الذي يجحد نعم الله عليه جحوداً بيناً. ثم أكرر عليهم هذا فقال: ﴿أَمْ لَتَأْخُذَ مِمَّا يَخْلُقُ بِنَاتٍ﴾ وهذا استفهام تقريع وتوبيخ. وأم هي: المنقطعة، والمعنى: آخذ ربكم لنفسه البنات ﴿وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ﴾ فجعل لنفسه المفضل من الصنفين ولكم الفاضل منهما، يقال: أصفيت بكذا أي: أثرته به، وأصفيته الوثة: أخلصته له، ومثل هذه الآية قوله: ﴿الْكَمِ الذَّكَرُ وَلَهُ الْإِنْثَى﴾ * تلك إذا قسمة ضيزى [النجم: 21] وقوله: ﴿أَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ﴾ [الإسراء: 40] وجملة وأصفاكم معطوفة على آخذ داخلة معها تحت الإنكار. ثم زاد في تقريعهم وتوبيخهم فقال: ﴿وَإِذَا بَشَّرَ أَحَدَهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا﴾ أي بما جعله للرحمن سبحانه من كونه جعل لنفسه البنات، والمعنى: أنه إذا بشر أحدهم بأنها ولدت له بنت اغتم لذلك وظهر عليه أثره، وهو معنى قوله: ﴿ظَلَّ وَجْهَهُ مَسْوُودًا﴾ أي: صار وجهه مسوداً بسبب حدوث الأنثى له حيث لم يكن الحادث له نكراً مكانها ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي: شديد الحزن كثير الكرب ملوء منه. قال قتادة: حزين. وقال عكرمة: مكروب، وقيل: ساكت، وجملة ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ في محل نصب على الحال. ثم زاد في توبيخهم وتقريعهم فقال: ﴿أَوْمَنَ يَنْشَأُ فِي الْحَلِيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرَ مُبِينٍ﴾ معنى ينشأ: يربى، والنشوء: التربية، والحلية: الزينة، ومن في محل نصب بتقدير مقدّر معطوف على جعلوا؛ والمعنى: أو جعلوا له سبحانه من شأنه أن يربى في الزينة وهو عاجز عن أن يقوم بأمر نفسه، وإذا خوصم لا يقدر على إقامة حجة ويقع ما يجالده به خصمه لنقصان عقله وضعف رأيه. قال المبرد: تقدير الآية: أو يجعلون له من ينشأ في الحلية أي: ينبت في الزينة. قرأ الجمهور (ينشأ) بفتح الياء وإسكان النون، وقرأ ابن عباس والضحاك، وابن وثاب، وحفص، وحمزة، والكسائي، وخلف بضم الياء وفتح النون وتشديد الشين. واختار القراءة الأولى أبو حاتم، واختار الثانية أبو عبيد. قال الهروي: الفعل على القراءة الأولى لازم، وعلى الثانية متعّد. والمعنى: يربى ويكبر في الحلية. قال قتادة: قلما تتكلم امرأة بحجتها إلا تكلمت بالحجة عليها. وقال ابن زيد والضحاك: الذي ينشأ في الحلية أصنامهم التي صاغوها من ذهب وفضة ﴿وَجَعَلُوا لِلْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ هُمْ عِنْدَ الرَّحْمَنِ إِنِثَاءً﴾ الجعل هنا بمعنى القول، والحكم على الشيء كما تقول: جعلت زيداً أفضل الناس أي: قلت بذلك، وحكمت له به. قرأ الكوفيون (عباد) بالجمع، وبها قرأ ابن عباس. وقرأ الباقر (عند الرحمن) بنون ساكنة، واختار القراءة الأولى أبو عبيد، لأن الإسناد فيها أعلى، ولأن الله إنما كذبهم في قوله: إنهم بنات الله،

للمفعول، وقرأ الأعمش، ويحيى بن وثاب، وحمزة، والكسائي، وابن نكوان عن ابن عامر مبنياً للفاعل ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ المراد بالأزواج هنا: الأصناف، قال سعيد بن جبير: الأصناف كلها. وقال الحسن: الشتاء والصيف، والليل والنهار، والسموات والأرض، والجنة والنار. وقيل: أزواج الحيوان من ذكر وأنثى، وقيل: أزواج النبات، كقوله: ﴿وَأَنْثَبْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [ق: 7] و: ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء: 7، ولقمان: 10] وقيل: ما يتقلب فيه الإنسان من خير وشر، وإيمان وكفر، والأول أولى ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفَلَكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ في البحر والبر أي: ما تركبونه ﴿لَتَسْتَوتُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ الضمير راجع إلى ما قاله أبو عبيد. وقال الفراء: أضاف الظهور إلى واحد، لأن المراد به: الجنس، فصار الواحد في معنى الجمع بمنزلة الجنس فلذلك نكر، وجمع الظهر لأن المراد: ظهور هذا الجنس والاستواء: الاستعلاء أي: لتستعلوا على ظهور ما تركبون من الفلك والأنعام ﴿ثُمَّ تَذَكَّرُوا نِعْمَةً رَبِّكُمْ إِذَا تُسَوِّتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: هذه النعمة التي أنعم بها عليكم من تسخير ذلك المركب في البحر والبر. وقال مقاتل والكلبي: هو أن يقول: الحمد لله الذي رزقني هذا وحملني عليه ﴿وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾ أي: نلنا لنا هذا المركب، وقرأ علي بن أبي طالب (سبحان من سخر لنا هذا) قال قتادة: قد علمكم كيف تقولون إذا ركبتهم، ومعنى ﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مَقْرِنِينَ﴾ ما كنا له مطيقين، يقال: أقرن هذا البعير: إذا أطاقه. وقال الأخفش وأبو عبيد: مقرنين ضابطين، وقيل: مماثلين له في القوة، من قولهم هو: قرن فلان إذا كان مثله في القوة، وأشد قطرب قول عمرو بن معديكر: لقد علم القبائل ما عقيل لنا في النائثات بمقرنيننا وقال آخر:

ركبتهم صعبتي أشروحين ولستم للصعاب بمقرنيننا والمراد بالأنعام هنا الإبل خاصة، وقيل الإبل والبقرة، والأول أولى ﴿وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ أي: راجعون إليه، وهذا تمام ما يقال عند ركوب الدابة أو السفينة. ثم رجع سبحانه إلى نكر الكفار الذين تقدّم نكرهم، فقال: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ قال قتادة: أي: عدلاً، يعني: ما عبد من دون الله. وقال الزجاج والمبرد: الجزء هنا البنات، والجزء عند أهل العربية البنات، يقال: قد أجزأت المرأة: إذا ولدت البنات، ومنه قول الشاعر:

إن أجزأت حزة يوماً فلا عجب قد تجزئ الحزة المنكار أحياناً وقد جعل صاحب الكشف تفسير الجزء بالبنات من بدع التفسير، وصرح بأنه مكتوب على العرب. ويجاب عنه بأنه قد رواء الزجاج والمبرد، وهما إماما اللغة العربية وحافظاها ومن إليهما المنتهى في معرفتها، ويؤيد تفسير الجزء بالبنات ما سيأتي من قوله: ﴿أَمْ لَتَأْخُذَ مِمَّا يَخْلُقُ بِنَاتٍ﴾ وقوله: ﴿وَإِذَا بَشَّرَ أَحَدَهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا﴾ وقوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنِثَاءً﴾ وقيل: المراد

فإنها في مصحفي (عند الرحمن) قال: فامحها، واكتبها ﴿عباد الرحمن﴾.

أَمْ أَمِنتُمْ كِتَابَنَا مِنْ قَبْلِهِمْ فَهُمْ بِهِ سَمْسِكُونَ ﴿١٩﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا
عِبَادَةً عَلَىٰ أَحْثَىٰ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢٠﴾ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي
قَرْنٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُنْهَوْنَا عَنْ عِبَادَةِ آبَائِنَا عَلَىٰ أَحْثَىٰ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ
مُتَقَدِّمُونَ ﴿٢١﴾ قُلْ أُولَئِكَ جَشَعُوا بِأَهْدَىٰ مِنَّا وَبَدِئْتُمْ عَلَيْهِمْ قَالُوا إِنَّا
بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَاذِبُونَ ﴿٢٢﴾ فَانقَعْنَا مِنْهُمْ فَاطْرَ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَأةٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٤﴾
إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدُنِي ﴿٢٥﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِمْ لَعَلَّهُمْ
يَرْجِعُونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ سَمِعَتْ حَلْوَاهُ رِبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ ﴿٢٧﴾
وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا
الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقُرَيْشِينَ عَظِيمٍ ﴿٢٩﴾ أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ رَحِمَتْ رَبُّكَ عَنْ هَٰذَا
بَيْنَهُمْ مَيْمِسَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفَعَلْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَسْجُدَ
بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ سَخِرَآ وَرَحِمَتْ رَبُّكَ حَزْرًا مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ
النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُشْرِيَهُمْ سُمْفًا مِّنْ فَضْلِهِ
وَمَنَازِحَ عَلَيْهِمْ يَظْهَرُونَ ﴿٣١﴾ وَلِيُذِيقَهُمْ أَثَرًا وَسَرًّا عَلَيْهِمْ يَتَكَلَّمُونَ ﴿٣٢﴾
وَرُحْرُقًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ لِلْيَوتِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عِنْدَ رَبِّكَ
لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٣﴾

قوله: ﴿إم آتيناكم كتاباً من قبله﴾ أم هي المنقطعة أي: بل أعطيناهم كتاباً من قبل القرآن بأن يعبدوا غير الله ﴿فهم به مستمسكون﴾ يأخون بما فيه، ويحتجون به، ويجعلونه لهم دليلاً، ويحتمل: أن تكون أم معاملة لقوله: ﴿أشهدوا﴾ [الزخرف: 19]، فتكون متصلة، والمعنى: أحضروا خلقهم أم آتيناكم كتاباً إلخ. وقيل: إن الضمير في ﴿من قبله﴾ يعود إلى آتيناكم أي: لم آتيناكم كتاباً من قبل ادعائهم ينطق بصحة ما يدعون، والأول أولى. ثم بين سبحانه: أنه لا حجة بأيديهم، ولا شبهة، ولكنهم اتبعوا آباءهم في الضلالة، فقال: ﴿هبل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون﴾، فاعترفوا بأنه لا مستند لهم سوى تقليد آبائهم، ومعنى على أمة: على طريقة، ومذهب، قال أبو عبيد: هي الطريقة، والدين، وبه قال قتادة، وغيره. قال الجوهري: والأمة: الطريقة، والدين، يقال: فلان لا أمة له أي: لا دين له، ولا نحلة، ومنه قول قيس بن الخطيم:

كنّا على أمة أبائنا ونقتدي بالأول الأول
وقول الآخر:

وهل يستوي ذامة وكفور

وقال الفراء، وقطرب: على قبلة. وقال الأخفش: على استقامة، وأنشد قول النابغة:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وهل ياتمن ذامة وهوطائع
قرأ الجمهور (أمة) بضم الهمزة، وقرأ مجاهد، وقاتدة، وعمر بن عبد العزيز بكسرهما. قال الجوهري: والإمة

فأخبرهم أنهم عباده، ويؤيد هذه القراءة قوله: ﴿هبل عباد مكرمون﴾ [الأنبياء: 26]، واختار أبو حاتم القراءة الثانية، قال: وتصديق هذه القراءة قوله: ﴿إن الذين عند ربك﴾ [الاعراف: 206]، ثم وبخهم، وقرعهم، فقال: ﴿أشهدوا خلقهم﴾ أي: أحضروا خلق الله إياهم، فهو من الشهادة التي هي: الحضور، وفي هذا تهكم بهم، وتجهيل لهم. قرأ الجمهور (أشهدوا) على الاستفهام بدون واو. وقرأ نافع (أو أشهدوا). وقرأ الجمهور (ستكتب شهادتهم) بضم التاء الفوقية، وبناء الفعل للمفعول، ورفع شهادتهم، وقرأ السلمي، وابن السميع، وهبيرة عن حفص بالنون، وبناء الفعل للمفاعل، ونصب شهادتهم، وقرأ أبو رجاء (شهاداتهم) بالجمع، والمعنى: ستكتب هذه الشهادة التي شهدوا بها في ديوان أعمالهم، لنجازيهم على ذلك ﴿ويسالون﴾ عنها يوم القيامة ﴿وقالوا لو شاء الرحمن ما ععبناهم﴾ هذا فن آخر من فنون كفرهم بالله جاءوا به للاستهزاء، والسخرية، ومعناه: لو شاء الرحمن في زعمكم ما ععبنا هذه الملائكة، وهذا كلام حق يراد به باطل، وقد مضى بيانه في الأنعام، فبين سبحانه جهلهم بقوله: ﴿ما لهم بذلك من علم﴾ أي: ما لهم بما قالوه من أن الله لو شاء عدم عبادتهم للملائكة ما عيبوهم من علم، بل تكلموا بذلك جهلاً، وأرسلوا بما صورته صورة الحق باطلاً، وزعموا أنه إذا شاء، فقد رضي. ثم بين انتفاء علمهم بقوله: ﴿إن هم إلا يخرصون﴾ أي: ما هم إلا يكذبون، فيما قالوا، ويتمحلون تحلاً باطلاً. وقيل: الإشارة بقوله: ﴿ذلك﴾ إلى قوله: ﴿وجعلوا للملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً﴾. قاله قتادة، ومقاتل، والكلبي، وقال مجاهد، وابن جريج أي: ما لهم بعبادة الأوثان من علم.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: إن أول ما خلق الله من شيء القلم، وأمره أن يكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، والكتاب عنده، ثم قرأ ﴿وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم﴾. وأخرج ابن مردويه نحوه عن أنس مرفوعاً. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿أفنزرب عنكم الذكر صفحاً﴾ قال: أحببت أن يصفح عنكم، ولم تفعلوا ما أمرتم به. وأخرج مسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، والحاكم، وابن مردويه عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ كان إذا سافر ركب راحلته، ثم كبر ثلاثاً، ثم قال: ﴿سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين * وإنا إلى ربنا لمنقلبون﴾. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وما كنا له مقرنين﴾ قال: مطيقين. وأخرج عبد بن حميد عنه ﴿أو من ينشأ في الحلية﴾ قال: هو: النساء فرق بين زيهن، وزِي الرجال، ونقصهن من الميراث، وبالشهادة، وأمرهن بالقعدة، وسماهن الخوالف. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن سعيد بن جببر قال: كنت أقرأ هذا الحرف (الذين هم عباد الرحمن إناثاً)، فسألت ابن عباس فقال: عباد الرحمن؟ قلت:

بالكسر: النعمة، والإمة: أيضاً لغة في الأمة. ومنه قول عدي بن زيد:

ثم بعد الفلاح والملك والأمة وارتهم هناك قبور
ثم أخبر سبحانه أن غير هؤلاء من الكفار قد سبقهم إلى
هذه المقالة، وقال بها، فقال: ﴿وَكُنْ لَكَ مَا أُرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ
فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى
أُتَمَةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ مترفوها: أغنياؤها،
ورؤساؤها، قال قتادة: مقتدون متبعون، ومعنى الاهتداء،
والاقتداء متقارب، وخصص المترفين تنبيهاً على أن التمتع
هو سبب إهمال النظر. ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن
يردّ عليهم، فقال: ﴿قُلْ أَوَّلُو جُنَّتَكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجِئْتُمْ
عَلَيْهِهَ آبَاءَكُمْ﴾ أي: اتبعون آباءكم، ولو جئتم بدين أهدى
من دين آبائكم، قال الزجاج: المعنى: قل لهم اتبعون ما
وجئتم عليه آباءكم، وإن جئتم بأهدى منه. قرأ الجمهور
(قل أَوَّلُو جُنَّتَكُمْ)، وقرأ ابن عامر، وحفص (قال أو لو
جئتمكم)، وهو حكاية لما جرى بين المنزيرين، وقومهم أي:
قال كل منذر من أولئك المنزيرين لأمتهم، وقيل: إن كلا
القرأتين حكاية لما جرى بين الأنبياء، وقومهم، كأنه قال:
لكل نبي قل، بدليل قوله: ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ
كَافِرُونَ﴾، وهذا من أعظم الأدلة الدالة على بطلان التقليد،
وقيحه، فإن هؤلاء المقلدة في الإسلام إنما يعملون بقول
أسلافهم، ويتبعون آثارهم، ويقتنون بهم، فإذا رام الداعي إلى
الحق أن يخرجهم من ضلالة، أو ينفعهم عن بدعة قد
تمسكوا بها، وورثوها عن أسلافهم بغير دليل نير، ولا حجة
واضحة، بل بمجرد قال، وقيل لشبهة الداحضة، وحجة زائفة،
ومقالة باطلة، قالوا: بما قاله المترفون من هذه الملل: إنا
وجدنا آبائنا على أمة، وإنا على آثارهم مقتنون، أو بما يلاقي
معناه معنى ذلك، فإن قال لهم الداعي إلى الحق: قد جمعنا
الملة الإسلامية، وشملنا هذا الدين المحمدي، ولم يتعبدنا
الله، ولا تعبدكم، وتعبد آبائكم من قبلكم إلا بكتابه الذي أنزله
على رسوله، وبما صحّ عن رسوله، فإنه المبين لكتاب الله
الموضح لمعانيه، الفارق بين محكمه، ومتشابهه، ففعلوا نردّ
ما تنازعنا فيه إلى كتاب الله، وسنة رسوله كما أمرنا الله
بذلك في كتابه بقوله: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ
وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: 59]، فإن الردّ إليهما أهدى لنا، ولكم من
الردّ إلى ما قاله أسلافكم، ودرج عليه آبائكم، نفروا نفور
الوحوش، ورموا الداعي لهم إلى ذلك بكل حجر، ومنه، كأنهم
لم يسمعوا قول الله سبحانه: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا
دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا
وَأَطَعْنَا﴾ [النور: 51]، ولا قوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى
يُحْكُمَوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجْعَلُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرْجاً
مِمَّا قُضِيَتْ وَيَسْلُمُوا تَسْلِيماً﴾ [النساء: 65]، فإن قال لهم
القاتل: هذا العالم الذي تقتنون به، وتتبعون أقواله هو مثلكم
في كونه متعبداً بكتاب الله، وسنة رسوله، مطلوباً منه ما هو
مطلوب منكم، وإذا عمل براهيه عند عدم وجدانه للدليل، فذلك

رخصة له لا يحل أن يتبعه غيره عليها، ولا يجوز له العمل
بها، وقد وجدوا الدليل الذي لم يجده، وبها أنا أوجنكموه في
كتاب الله، أو فيما صحّ من سنة رسوله، وذلك أهدى لكم مما
وجئتم عليه آبائكم، قالوا: لا نعمل بهذا، ولا نسمع لك، ولا
طاعة، ووجدوا في صدورهم أعظم الحرج من حكم الكتاب،
والسنة، ولم يسلموا ذلك، ولا أذعنوا له، وقد وهب لهم
الشيطان عصي يتوكلون عليها عند أن يسمعو من يدعوهم
إلى الكتاب، والسنة، وهي: أنهم يقولون: إن إمامنا الذي
قلدناه، واقتنينا به أعلم منك بكتاب الله، وسنة رسوله، وذلك
لأن أذهانهم قد تصوّرت من يقتنون به تصوراً عظيماً بسبب
تقدّم العصر، وكثرة الاتباع، وما علموا أن هذا منقوض
عليهم مدفوع به في وجوههم، فإنه لو قيل لهم: إن في
التابعين من هو أعظم قدراً، وأقدم عصراً من صاحبكم، فإن
كان لتقدم العصر، وجلالة القدر مزية حتى توجب الاقتداء،
ففعالوا حتى أريكم من هو أقدم عصراً، وأجل قدراً، فإن
أبيتم ذلك، ففي الصحابة رضي الله عنهم من هو أعظم قدراً
من صاحبكم علماً، وفضلاً، وجلالة قدر، فإن أبيتم ذلك، فما
أنا أهلكم على من هو أعظم قدراً، وأجل خطراً، وأكثر اتباعاً،
وأقدم عصراً، وهو: محمد بن عبد الله نبينا، ونبيكم، ورسول
الله إلينا، وإليكم، ففعالوا، فهذه سنته موجودة في دفاتر
الإسلام، ودواوينه التي تلتقتها جميع هذه الأمة قرناً بعد
قرن، وعصراً بعد عصر، وهذا كتاب ربنا خالق الكل، ورازق
الكل، وموجد الكل بين أظهرنا موجود في كل بيت، ويبيد كل
مسلم لم يلحقه تغيير، ولا تبديل، ولا زيادة، ولا نقص، ولا
تحريف، ولا تصحيف، ونحن، وأنتم ممن يفهم ألفاظه،
ويتعقل معانيه، ففعالوا لتأخذ الحق من معنائه، ونشرب صفو
الماء من منبعه، فهو أهدى مما وجئتم عليه آبائكم، قالوا: لا
سمع، ولا طاعة، إما بلسان المقال، أو بلسان الحال، فتدبر
هذا، وتأمله إن بقي فيك بقية من إنصاف، وشعبة من خير،
ومزعة من حياء، وحصة من دين، ولا حول ولا قوة إلا بالله
العلي العظيم. وقد أوضحت هذا غاية الإيضاح في كتابي
الذي سميت «أدب الطلب ومنتهى الأرب»، فأرجع إليه إن
رمت أن تنجلي عنك ظلمات التعصب، وتتقشع لك سحائب
التقليد ﴿فَانْتَقِمْنَا مِنْهُمْ﴾ وذلك الانتقام ما أوقعه الله بقوم
نوح، وعاد، وثمود ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ من
تلك الأمم، فإن آثارهم موجودة ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ
وَقَوْمِهِ﴾ أي: وإنكر لهم وقت قوله لأبيه، وقومه الذين قلدوا
آباءهم، وعبدوا الأصنام ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ البراء
مصدر نعت به للمبالغة، وهو يستعمل للواحد، والمثنى،
والمجموع، والمنكر، والمؤنث، قال الجوهري: وتبرأت من
كذا، وأنا منه براء، وخلاء، لا يثنى، ولا يجمع لأنه مصدر في
الأصل، ثم استثنى خالقه من البراءة، فقال: ﴿إِلَّا الَّذِي
فَطَرَنِي﴾ أي: خلقتني ﴿فَإِنَّهُ سَيَّهَدِينِ﴾ سيرشدني لدينه،
ويثبتني على الحق، والاستثناء إما منقطع أي: لكن الذي
فطرني، أو متصل من عموم ما، لأنهم كانوا يعبدون الله،

ورفع درجات بعضهم على بعض، فكيف لا يقنعون بقسمته في أمر النبوة، وتفويضها إلى من يشاء من خلقه. قال مقاتل: يقول: أبليدهم مفاتيح الرسالة، فيضعونها حيث شاءوا؟ قرأ الجمهور (معيشتهم) بالإفراد، وقرأ ابن عباس، ومجاهد، وابن محيصن (معاشيهم) بالجمع ﴿و﴾ معنى ﴿ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات﴾: أنه فاضل بينهم، فجعل بعضهم أفضل من بعض في الدنيا بالرزق، والرياسة، والقوة، والحرية، والعقل، والعلم، ثم نكر العلة لرفع درجات بعضهم على بعض، فقال: ﴿ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً﴾ أي: ليستخدم بعضهم بعضاً، فيستخدم الغني الفقير، والرئيس المرعوس، والقوي الضعيف، والحر العبد، والعقل من هو بونه في العقل، والعالم الجاهل، وهذا في غالب أحوال أهل الدنيا، وبه تتم مصالحهم، وينتظم معاشهم، ويصل كل واحد منهم إلى مطلوبه، فإن كل صناعة دنيوية يحسنها قوم دون آخرين، فجعل البعض محتاجاً إلى البعض، لتحصل المواساة بينهم في متاع الدنيا، ويحتاج هذا إلى هذا، ويصنع هذا لهذا، ويعطي هذا هذا. قال السدي، وابن زيد: سخرنا خولنا، وخدمنا يسخر الأغنياء الفقراء، فيكون بعضهم سبباً لمعاش بعض. وقال قتادة، والضحاك: ليملك بعضهم بعضاً، وقيل: هو من السخرية التي بمعنى: الاستهزاء، وهذا، وإن كان مطابقاً للمعنى اللغوي، ولكنه بعيد من معنى القرآن، ومنافٍ لما هو مقصود السياق ﴿ورحمت ربك خير مما يجمعون﴾ يعني بالرحمة: ما أعدّه الله لعباده الصالحين في الدار الآخرة، وقيل: هي النبوة لأنها المراد بالرحمة المتقدمة في قوله: ﴿أهم يقسمون رحمت ربك﴾ ولا مانع من أن يراد كل ما يطلق عليه اسم الرحمة إما شمولاً أو بدلاً، ومعنى ﴿مما يجمعون﴾: ما يجمعونه من الأموال، وسائر متاع الدنيا. ثم بين سبحانه حقارة الدنيا عنده، فقال: ﴿ولولا أن يكون الناس أمة واحدة﴾ أي: لولا أن يجتمعوا على الكفر ميلاً إلى الدنيا، وزخرفها ﴿لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة﴾ جمع الضمير في بيوتهم، وأفرده في يكفر باعتبار معنى من لفظها، ولبيوتهم بدل اشتغال من الموصول، والسقف جمع سقف. قرأ الجمهور بضم السين، والقاف كرهن، ورهن. قال أبو عبيدة: ولا ثالث لهما. وقال الفراء: هو جمع سقيف نحو كتيب، وكتيب، ورغيف، ورغف، وقيل: هو جمع سقوف، فيكون جمعاً للجمع. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو بفتح السين، وإسكان القاف على الإفراد، ومعناه الجمع لكونه للجنس. قال الحسن: معنى الآية: لولا أن يكفر الناس جميعاً بسبب ميلهم إلى الدنيا، وتركهم الآخرة لأعطيناهم في الدنيا ما وصفناه لهوان الدنيا عند الله، وقال بهذا أكثر المفسرين. وقال ابن زيد: لولا أن يكون الناس أمة واحدة في طلب الدنيا، واختيارهم لها على الآخرة. وقال الكسائي: المعنى: لولا أن يكون في الكفار غني، وفقير، وفي المسلمين مثل ذلك لأعطينا الكفار من الدنيا هذا لهوانها ﴿ومعارج عليها

والأصنام، وإخباره بأنه سيهديه جزماً لثقتة بالله سبحانه، وقوة يقينه ﴿وجعلها كلمة باقية في عقبه﴾ الضمير في جعلها عائد إلى قوله: ﴿إلا الذي فطرني﴾، وهي بمعنى التوحيد كأنه قال: وجعل كلمة التوحيد باقية في عقب إبراهيم، وهم: نزيته، فلا يزال فيهم من يوحد الله سبحانه، وفاعل جعلها إبراهيم، وذلك حيث وصاهم بالتوحيد، وأمرهم بأن يدينوا به كما في قوله: ﴿ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب﴾ [البقرة: 132] الآية، وقيل: الفاعل هو الله عز وجل أي: وجعل الله عز وجل كلمة التوحيد باقية في عقب إبراهيم، والعقب من بعد. قال مجاهد، وقتادة: الكلمة لا إله إلا الله لا يزال من عقبه من يعبد الله إلى يوم القيامة. وقال عكرمة: هي: الإسلام. قال ابن زيد: الكلمة هي: قوله: ﴿أسلمت لرب العالمين﴾ [البقرة: 131]، وجملة ﴿لعلهم يرجعون﴾ تعليل للجعل أي: جعلها باقية رجاء أن يرجع إليها من يشرك منهم بدعاء من يوحد. وقيل: الضمير في لعلهم راجع إلى أهل مكة أي: لعل أهل مكة يرجعون إلى دينك الذي هو: دين إبراهيم. وقيل: في الكلام تقديم، وتأخير، والتقدير: فإنه سيهدين لعلهم يرجعون، وجعلها إلخ. قال السدي: لعلهم يتوبون، فيرجعون عما هم عليه إلى عبادة الله. ثم نكر سبحانه نعمته على قريش، ومن وافقهم من الكفار المعاصرين لهم، فقال: ﴿بل متعت هؤلاء وآباءهم﴾ أضرب عن الكلام الأول إلى نكر ما متعهم به من الأنفس، والأهل، والأموال، وأنواع النعم، وما متع به آباءهم، ولم يعاجلهم بالعقوبة، فاغترؤا بالمهلة، وكتبوا على الشبهوات ﴿حتى جاءهم الحق﴾ يعني: القرآن ﴿ورسول مبين﴾ يعني: محمداً ﷺ، ومعنى مبين: ظاهر الرسالة واضحا، أو مبين لهم ما يحتاجون إليه من أمر الدين، فلم يجيبوه، ولم يعملوا بما أنزل عليه. ثم بين سبحانه ما صنعه عند مجيء الحق، فقال: ﴿ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإننا به كافرون﴾ أي: جاحلون، فسموا القرآن سحراً، وجحدوه. واستحققوا رسول الله ﷺ ﴿وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ المراد بالقريتين: مكة، والطائف، وبالرجلين: الوليد بن المغيرة من مكة، وعروة بن مسعود الثقفي من الطائف كذا قال قتادة، وغيره. وقال مجاهد، وغيره: عتبة بن ربيعة من مكة، وعمير بن عبد ياليل الثقفي من الطائف، وقيل غير ذلك. وظاهر النظم أن المراد: رجل من إحدى القريتين عظيم الجاه واسع المال مسود في قومه والمعنى: أنه لو كان قرآنًا لنزل على رجل عظيم من عظماء القريتين، فأجاب الله سبحانه عنهم بقوله: ﴿أهم يقسمون رحمت ربك﴾ يعني: النبوة، أو ما هو أعم منها، والاستفهام للإنكار. ثم بين أنه سبحانه هو الذي قسم بينهم ما يعيشون به من أمور الدنيا، فقال: ﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا﴾، ولم نفوض ذلك إليهم، وليس لأحد من العباد أن يتحكم في شيء بل الحكم لله وحده، وإذا كان الله سبحانه هو الذي قسم بينهم أرزاقهم،

وسرر فضة، وزخرفاً وهو: الذهب. وأخرج الترمذي وصححه، وابن ماجه، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء».

وَمَنْ يَمْسُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضَ لَمْ يَسْطِئْكَ فَهُوَ لَمْ يَرَيْنِ ﴿١٧﴾ وَإِنَّهُمْ لَصَادُونَ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُنْتَدُونَ ﴿١٨﴾ حَقَّ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَرْثَةِ قَلَسَ الْقَرِينُ ﴿١٩﴾ وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ أَلِيمٌ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ كُفَرًا بِالْعَدَابِ مُشْرِكُونَ ﴿٢٠﴾ أَفَأَنْتُمْ تُسْمِعُونَ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي السُّبُلَ وَمَنْ كَانَ فِي صُلَى مُبْدِي ﴿٢١﴾ فَإِنَّمَا تَذَهَبُ بِكَ فَإِنَّمَا يَنْفَعُكُمْ تَنْفَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَوْ تُبَيِّنَ أَلَى وَعَدَّتْهُمْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِمْ مُنْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ فَاسْتَسْبَحَ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَبِيرٍ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّكَ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُنْشَرُونَ ﴿٢٥﴾ وَرَسُولٌ مِّنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولِنَا أَجَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ ءَالِهَةٌ يُعْبَدُونَ ﴿٢٦﴾

قوله: «ومن يعيش عن ذكر الرحمن» يقال: عشوت إلى النار: قصبتها، وعشوت عنها أعرضت عنها، كما تقول: عدلت إلى فلان، وعدلت عنه، وملت إليه، وملت عنه، كذا قال الفراء والزجاج، وأبو الهيثم، والأزهري. فالمعنى: ومن يعرض عن ذكر الرحمن. قال الزجاج: معنى الآية: أن من أعرض عن القرآن، وما فيه من الحكمة إلى أباطيل المضلين يعاقبه الله بشيطان يقيضه له حتى يضله، ويلزمه قريباً له، فلا يهتدى مجازاة له حين أثر الباطل على الحق البين. وقال الخليل: العشو النظر للضعيف، ومنه:

لنعم الفتى تعشو إلى ضوء ناره إذا الريح هبت والمكان جنيب والظاهر أن معنى البيت: القصد إلى النار لا النظر إليها ببصر ضعيف كما قال الخليل، فيكون دليلاً على ما قدّمنا من أنه يأتي بمعنى: القصد، وبمعنى: الإعراض، وهكذا ما أنشده الخليل مستشهداً به على ما قاله من قول الحطيئة:

متى تآتت تعشو إلى ضوء ناره تجد خير نار عندها خير موقد فإن الظاهر أن معناه: تقصد إلى ضوء ناره، لا تنظر إليها ببصر ضعيف. ويمكن أن يقال: إن المعنى في البيتين: المبالغة في ضوء النهار، وسطوعها، بحيث لا ينظرها الناظر إلا كما ينظر من هو معشي البصر لما يلحق بصره من الضعف عند ما يشاهده من عظم وقودها. وقال أبو عبيدة، والأخفش: إن معنى: «ومن يعيش»، ومن تظلم عينه، وهو نحو قول الخليل، وهذا على قراءة الجمهور (من يعيش) بضم الشين من عشا يعيش. وقرأ ابن عباس، وعكرمة (ومن يعيش) بفتح الشين، يقال: عشي الرجل يعيش عشيًا إذا عَمِيَ، ومنه قول الأعشى:

رأت رجلاً غائب السوافسين ومختلف الخلق أعشى ضريرا وقال الجوهري: والعشا مقصور مصدر الأعشى وهو: الذي لا يبصر بالليل، ويبصر بالنهار، والمرأة عشاء. وقرئ (يعشو) بالواو على أن «من» موصولة غير متضمنة معنى الشرط. قرأ الجمهور (نقيض له شيطاناً) بالنون وقرأ

يظهرون» المعارج: الدرج جمع معراج، والمعراج السلم. قال الأخفش: إن شئت جعلت الواحدة معرج، ومعرج مثل: مرقاة، ومرقاة، والمعنى: فجعلنا لهم معارج من فضة عليها يظهرون أي: على المعارج يرتقون، ويصعدون، يقال ظهرت على البيت أي: علوت سطحه، ومنه قول النابغة:

بلغنا السماء مجداً وفخراً وسوداً وإننا لنرجو فوق ذلك مظهراً أي: مصعباً «وليبيوتهم أبواباً وسرراً» أي: وجعلنا لبيوتهم أبواباً من فضة، وسرراً من فضة «عليها يتكئون» أي: على السرر، وهو جمع سرير، وقيل: جمع أسرة، فيكون جمعاً للجمع، والاتكاء، والتوكؤ: التحامل على الشيء، ومنه «اتوكأ عليها» [طه: 18] واتكأ على الشيء، فهو: متكئ، والموضع متكئ، والزخرف: الذهب. وقيل: الزينة أعم من أن تكون ذهباً، أو غيره. قال ابن زيد: هو: ما يتخذ الناس في منازلهم من الأمتعة، والأثاث. وقال الحسن: النقوش، وأصله الزينة، يقال: زخرفت الدار أي: زينتها، «و» انتصاب «زخرفاً» بفعل مقتر أي: وجعلنا لهم مع ذلك زخرفاً، أو بنزع الخافض أي: أبواباً، وسرراً من فضة، ومن ذهب، فلما حنف الخافض انتصب. ثم أخبر سبحانه أن جميع ذلك إنما يتمتع به في الدنيا، فقال: «وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا» قرأ الجمهور (لما) بالتخفيف، وقرأ عاصم، وحزمة، وهاشم عن ابن عامر بالتشديد. فعلى القراءة الأولى تكون إن هي المخففة من الثقيلة، وعلى القراءة الثانية هي النافية، ولما بمعنى إلا أي: ما كل ذلك إلا شيء يتمتع به في الدنيا. وقرأ أبو رجاء بكسر اللام من (لما) على أن اللام للعلة، وما موصولة، والعائد محذوف أي: للذي هو متاع «والآخرة عند ربك للمتقين» أي: لمن اتقى الشرك، والمعاصي، وآمن بالله وحده، وعمل بطاعته، فإنها الباقية التي لا تفنى، ونعيمها الدائم الذي لا يزول.

وقد أخرج ابن جرير، عن ابن عباس «إننا وجئنا آباءنا على أمة» قال: على نين. وأخرج عبد بن حميد عنه «وجعلها كلمة باقية» قال: لا إله إلا الله «في عقبه» قال: عقب إبراهيم ولده. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن مردويه عنه أيضاً: أنه سئل عن قول الله: «لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم» ما القريتان؟ قال: الطائف، ومكة، قيل: فمن الرجلان؟ قال: عمير بن مسعود، وخيار قريش. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عنه أيضاً قال: يعني بالقريتين: مكة والطائف، والعظيم: الوليد بن المغيرة القرشي، وحبيب بن عمير الثقفي. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً في الآية قال: يعنون أشرف من محمد: الوليد بن المغيرة من أهل مكة، ومسعود بن عمرو الثقفي من أهل الطائف. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: «لولا أن يكون للناس أمة واحدة» الآية يقول: لولا أن نفعل الناس كلهم كفاراً لجعلت لبيوت الكفار سقفاً من فضة، ومعارج من فضة، وهي: درج عليها يصعدون إلى الغرف،

كثير من المفسرين: قد أراه الله ذلك يوم بدر. وقال الحسن، وقتادة: هي: في أهل الإسلام يريد ما كان بعد النبي ﷺ من الفتن، وقد كان بعد النبي ﷺ فتنة شديدة، فأكرم الله نبيه ﷺ، وذهب به، فلم يره في أمته شيئاً من ذلك، والأول أولى **﴿فاستمسك بالذي أوحى إليك﴾** أي: من القرآن، وإن كذب به من كذب **﴿إنك على صراط مستقيم﴾** أي: طريق واضح، والجملة تعليل لقوله **﴿فاستمسك﴾** **﴿وإنه لذكر لك ولقومك﴾** أي: وإن القرآن لشرف لك، ولقومك من قريش إذ نزل عليك، وأنت منهم بلغتك، ولغتهم، ومثله قوله: **﴿لقد أنزلنا إليك كتاباً فيه نكركم﴾** [الأنبياء: 10]، وقيل: بيان لك، ولأمتك فيما لكم إليه حاجة. وقيل: تذكرة تذكرون بها أمر الدين، وتعملون به **﴿وسوف تستلون﴾** عما جعله الله لكم من الشرف، كذا قال الزجاج، والكليبي، وغيرهما. وقيل: يستلون عما يلزمهم من القيام بما فيه، والعمل به **﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا لجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون﴾** قال الزهري، وسعيد بن جبير، وابن زيد: إن جبriel قال ذلك للنبي ﷺ لما أسري به. فالمراد: سؤال الأنبياء في ذلك الوقت عند ملاقاته لهم، وبه قال جماعة من السلف. وقال المبرد، والزجاج، وجماعة من العلماء: إن المعنى: واسأل أمم من قد أرسلنا. وبه قال مجاهد، والسدي، والضحاك، وقتادة، وعطاء، والحسن ومعنى الآية على القولين: سؤالهم هل آمن الله بعبادة الأوثان في ملة من الملل، وهل سوغ ذلك لأحد منهم؟ والمقصود: تقرير مشركي قريش بأن ما هم عليه لم يأت في شريعة من الشرائع.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن عثمان المخزومي أن قريشاً قالت: قيسوا لكل رجل من أصحاب محمد رجلاً يأخذه، فقيضوا لابي بكر طلحة بن عبيد الله، فاتاه، وهو في القوم، فقال أبو بكر: إلام تدعوني؟ قال: أدعوك إلى عبادة اللات، والعزى. قال أبو بكر: وما اللات؟ قال: أولاد الله. قال: وما العزى. قال: بنات الله. قال أبو بكر: فمن أهم؟ فسكت طلحة، فلم يجبه، فقال لأصحابه: أجيبوا الرجل، فسكت القوم، فقال طلحة: قم يا أبا بكر أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فأنزل الله **﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن﴾** الآية. وثبت في صحيح مسلم، وغيره أن مع كل إنسان قريناً من الجن. وأخرج ابن مردويه عن علي في قوله: **﴿فإما نذهبن بك﴾** قال: ذهب نبيه ﷺ، وبقيت نغمته في عدوه. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله: **﴿أو نرينك الذي وعدناهم﴾** قال: يوم بدر. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب من طرق عنه في قوله: **﴿وإنه لذكر لك ولقومك﴾** قال: شرف لك، ولقومك. وأخرج ابن عدي، وابن مردويه عن علي، وابن عباس قالا: كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه على القبائل بمكة، ويعددهم الظهور، فإذا قالوا: لمن الملك بعدك؟ أمسك، فلم يجبه بشيء؛ لأنه لم يؤمر في

السلبي، وابن أبي إسحاق، ويعقوب، وعصمة عن عاصم، والأعمش بالتحية مبنياً للفاعل، وقرأ ابن عباس بالتحية مبنياً للمفعول ورفع شيطان على النياية **﴿فهو له قرين﴾** أي: ملازم له لا يفارقه، أو هو ملازم للشيطان لا يفارقه، بل يتبعه في جميع أموره، ويطيعه في كل ما يوسوس به إليه **﴿وإنهم ليصنونهم عن السبيل﴾** أي: وإن الشياطين الذين يقضهم الله لكل أحد ممن يعشو عن نكر الرحمن كما هو معنى من ليصنونهم أي: يحولون بينهم، وبين سبيل الحق، ويمنعونهم منه، ويوسوسون لهم أنهم على الهدى حتى يظنون صلق ما يوسوسون به، وهو معنى قوله: **﴿ويحسبون أنهم مهتدون﴾** أي: يحسب الكفار أن الشياطين مهتدون، فيطيعونهم، أو يحسب الكفار بسبب تلك الوسوسة أنهم في أنفسهم مهتدون **﴿حتى إذا جاءنا﴾** قرأ الجمهور بالتثنية أي: الكافر، والشيطان المقارن له، وقرأ أبو عمرو، وحمره، والكسائي، وحفص بالإفراد أي: الكافر، أو جاء كل واحد منها **﴿قال﴾** الكافر مخاطباً للشيطان **﴿يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين﴾** أي: بعد ما بين المشرق، والمغرب، فغلب المشرق على المغرب. قال مقاتل: يتمنى الكافر أن بينهما بعد مشرق أطول يوم في السنة من مشرق أقصر يوم في السنة، والأول أولى، وبه قال الفراء **﴿فبئس القرين﴾** المخصوص بالذم محذوف أي: أنت أيها الشيطان **﴿ولن ينفعكم اليوم﴾** هذا حكاية لما سيقال لهم يوم القيامة **﴿إذ ظلمتم﴾** أي: لأجل ظلمكم أنفسكم في الدنيا، وقيل: إن «إذ» بدل من اليوم؛ لأنه تبين في ذلك اليوم أنهم ظلموا أنفسهم في الدنيا. قرأ الجمهور (أنكم في العذاب مشتركون) بفتح أن على أنها، وما بعدها في محل رفع على الفاعلية أي: لن ينفعكم اليوم اشتراككم في العذاب. قال المفسرون: لا يخفف عنهم بسبب الاشتراك شيء من العذاب؛ لأن لكل أحد من الكفار، والشياطين الحظ الأوفر منه. وقيل: إنها للتعليل لنفي النفع أي: لأن حَقْم أن تشاركوا أنتم، وقرناؤكم في العذاب كما كنتم مشتركين في سببه في الدنيا، ويقوّي هذا المعنى قراءة ابن عامر على اختلاف عليه فيها بكسر إن. ثم نكر سبحانه أنها لا تنفع الدعوة، والوعظ من سبقت له الشقاوة، فقال: **﴿فأنت تسمع الصم أو تهدي العمي﴾** الهمة لإنكار التعجب أي: ليس لك ذلك، فلا يضيق صدرك إن كفروا، وفيه تسلية لرسول الله ﷺ، وإخباره أنه لا يقدر على ذلك إلا الله عز وجل، وقوله: **﴿ومن كان في ضلال مبين﴾** عطف على العمي أي: إنك لا تهدي من كان كذلك، ومعنى الآية: أن هؤلاء الكفار بمنزلة الصم الذين لا يعقلون ما جئت به، وبمنزلة العمي الذين لا يبصرونه لإفراطهم في الضلالة، وتمكنهم من الجهالة **﴿فإما نذهبن بك﴾** بالموت قبل أن ينزل العذاب بهم **﴿فإما منهم منتقمون﴾** إما في الدنيا، أو في الآخرة، وقيل: المعنى: نخرجك من مكة **﴿أو نرينك الذي وعدناهم﴾** من العذاب قبل موتك **﴿فإما عليهم مقتدرون﴾** متى شئنا عذابهم. قال

﴿ادع لنا ربك بما عهد عندك﴾ أي: بما أخبرتنا من عهده إليك إنا إذا أمانا كشف عنا العذاب، وقيل: المراد بالعهد: النبوة، وقيل: استجابة الدعوة على العموم ﴿إنا لمهتدون﴾ أي: إذا كشف عنا العذاب الذي نزل بنا، فنحن مهتدون فيما يستقبل من الزمان، ومؤمنون بما جئت به ﴿فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون﴾ في الكلام حذف، والتقدير: فدعا موسى ربه، فكشف عنهم العذاب، فلما كشف عنهم العذاب، فاجتثوا وقت نكثهم للعهد الذي جعلوه على أنفسهم من الاهتداء، والنكث: النقض ﴿ونادى فرعون في قومه﴾ قيل: لما رأى تلك الآيات خاف ميل القوم إلى موسى، فجمعهم، ونادى بصوته فيما بينهم، أو أمر منابياً ينادي بقوله: ﴿يا قوم ليس لي ملك مصر﴾ لا ينازعني فيه أحد، ولا يخالفني مخالف ﴿وهذه الأنهار تجري من تحتي﴾ أي: من تحت قصري، والمراد: أنهار النيل، وقال قتادة: المعنى تجري بين يدي، وقال الحسن: تجري بأمرى أي: تجري تحت أمري. وقال الضحاک: أراد بالأنهار: القواد، والرؤساء، والجبابرة، وأنهم يسيرون تحت لوائه. وقيل: أراد بالأنهار: الأموال، والأول أولى. والواو في «وهذه» عاطفة على ملك مصر، و﴿تجري﴾ في محل نصب على الحال، أو هي واو الحال، واسم الإشارة مبتدأ، والأنهار صفة له، وتجري خبره، والجملة في محل نصب ﴿أفلا تبصرون﴾ ذلك، وتستلنون به على قوة ملكي، وعظيم قدري، وضعف موسى عن مقاومتي ﴿أم إنا خير من هذا الذي هو مهين﴾ أم هي المنقطعة المقترنة ببل التي للإضراب دون الهمزة التي للإنكار أي: بل أنا خير قال أبو عبيدة: أم بمعنى بل، والمعنى: قال فرعون لقومه: بل أنا خير. وقال الفراء: إن شئت جعلتها من الاستفهام الذي جعل بأم لاتصاله بكلام قبله، وقيل: هي زائدة، وحكى أبو زيد عن العرب أنهم يجعلون أم زائدة، والمعنى: أنا خير من هذا. وقال الأخفش: في الكلام حذف، والمعنى: أفلا تبصرون أم تبصرون؟ ثم ابتداء فقال: ﴿إنا خير﴾، وروي عن الخليل، وسيبويه نحو قول الأخفش، ويؤيد هذا: أن عيسى الثقفي، ويعقوب الحضرمي وقفا على ﴿أم﴾ على تقدير أم تبصرون، فحذف دلالة الأول عليه، وعلى هذا، فتكون أم متصلة لا منقطعة، والأول أولى، ومثله قول الشاعر الذي أنشده الفراء:

بنت مثل قرن الشمس في ريق الضحى وصورتها أم أنت في العين أمح
أي: بل أنت. وحكى الفراء أن بعض القراء قرأ (أما أنا خير) أي: الست خيراً من هذا الذي هو مهين أي: ضعيف حقير ممتهن في نفسه لا عز له ﴿ولا يكاد يبين﴾ الكلام لما في لسانه من العقدة، وقد تقدم بيانه في سورة طه ﴿قلولا ألقي عليه أسورة من ذهب﴾ أي: فهلا حلى بأسورة الذهب إن كان عظيماً، وكان الرجل فيهم إذا سؤروه سؤره بسوار من ذهب، وطوقوه بطوق من ذهب. قرأ الجمهور (أسورة) جمع أسورة جمع سوار. وقال أبو عمرو بن العلاء: واحد الأسورة، والأساور، والأساوير

نلك بشيء حتى نزلت ﴿وانه لنذكر لك ولقومك﴾، فكان بعد إذا سئل قال: قریش، فلا يجيبونه حتى قبلته الانتصار على ذلك. وأخرج عبد بن حميد عن طريق الكلبي عن ابن عباس في قوله: ﴿ولسنا من أرسلنا من قبلك من رسلنا﴾ قال: اسأل الذين أرسلنا إليهم قبلك من رسلنا.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَتَالَتْ إِيَّاهُ رَبِّ الْمَلِكِينَ ﴿١٣١﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿١٣٢﴾ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْثَرُ مِنْ أُخْتَيْهَا وَلَٰعَنَهُمْ بِالْعَذَابِ لِمَأْهُمْ يَرْجُمُونَ ﴿١٣٣﴾ وَقَالُوا يَتَّكِبُ السَّاحِرُ أَمْ نَأْتِيكَ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْكَ إِنَّا لَكَاثِمُونَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ ﴿١٣٥﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يُبْعَثُونَ أَلَيْسَ لِي مُلْكٌ مِّمَّا يَصْرِفُونَ ﴿١٣٦﴾ وَهَٰذَا الْأَنْهَارُ تُجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿١٣٧﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ خَرَّ مِنْ هَٰذَا الْوَادِي مَوْهِنٌ وَلَا يَكَادُ بَيْنُ ﴿١٣٨﴾ فَلَوْلَا أَلْقَىٰ عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاةٍ مَعَ الْمَلِكَةِ مَقْبَرَتَيْنِ ﴿١٣٩﴾ فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٤٠﴾ فَلَمَّا عَاثُوا فِي غِنَاهُمْ فَانْقَمَتْ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَافًا وَمَلَائِكَةً لِّلْآخِرِينَ ﴿١٤١﴾

لما أعلم الله سبحانه نبيه بأنه منتقم له من عبوه، ونكر اتفاق الأنبياء على التوحيد أتبعه بنكر قصة موسى، وفرعون، وبيان ما نزل بفرعون وقومه من النعمة، فقال: ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا﴾، وهي: التسع التي تقدم بيانها ﴿إلى فرعون وملائه﴾ الملا: الأشراف ﴿فقال إني رسول رب العالمين﴾ أرسلني إليكم ﴿فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون﴾ استهزاء وسخرية، وجواب لما هو إذا الفجائية، لأن التقدير: فاجتثوا وقت ضحكهم ﴿وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها﴾ أي: كل واحدة من آيات موسى أكبر مما قبلها، وأعظم قدراً مع كون التي قبلها عظيمة في نفسها، وقيل: المعنى: إن الأولى تقتضي علماً، والثانية تقتضي علماً، فإذا ضمت الثانية إلى الأولى ازداد الوضوح، ومعنى الآخرة بين الآيات: أنها متشاكلة متناسبة في دلالتها على صحة نبوة موسى كما يقال: هذه صاحبة هذه أي: هما قرينتان في المعنى. وجملة ﴿إلا هي أكبر من أختها﴾ في محل جر صفة لآية، وقيل: المعنى: أن كل واحدة من الآيات إذا انفردت ظن الظان أنها أكبر من سائر الآيات، ومثل هذا قول القائل:

من تلق منهم ثقل لا قيت سيدهم مثل النجوم التي يسري بها الساري
﴿ولخناهم بالعذاب لعلمهم يرجعون﴾ أي: بسبب تكذيبهم بتلك الآيات، والعذاب هو المنكور في قوله: ﴿ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات﴾ [الأعراف: 130] الآية، وبين سبحانه أن العلة في أخذه لهم بالعذاب هو: رجاء رجوعهم، ولما عاينوا ملجأهم به من الآيات البينات، والدلالات الواضحات ظنوا أن ذلك من قبيل السحر ﴿وقالوا يا أئيه للساحر﴾، وكانوا يسمون العلماء سحرة، ويوقرون السحرة، ويعظمونهم، ولم يكن السحر صفة ذم عندهم. قال الزجاج: خاطبوه بما تقدم له عندهم من التسمية بالساحر

﴿وَلَمَّا شَرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَلَأَ إِذَا قَوْلُكَ مِنْهُ يَصِدُّوكَ ۝٥٧﴾ وَقَالُوا
 ﴿الْهَمْنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا صَرَّوْهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُوَ قَوْمٌ خَصِمُونَ ۝٥٨﴾ إِنَّ هُوَ
 إِلَّا عَبْدٌ أَمَنَّا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَلَأَ ابْنِي إِسْرَءِيلَ ۝٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكَ
 مَلَكَةً فِي الْأَرْضِ يَخَفُونَ ۝٦٠﴾ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ لَا تَسَاعَوْا وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَاوِينَ
 هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۝٦١﴾ وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ۝٦٢﴾
 وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي
 تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَأَتَوْهُ اللَّهُ وَاطِيعُونَ ۝٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوا هَذَا
 صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۝٦٤﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ قَوْلَ الَّذِينَ طَلَبُوا مِنْ
 عَذَابِ يَوْمِ الْآخِرَةِ ۝٦٥﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا
 يَشْعُرُونَ ۝٦٦﴾ الْأَخْلَاقُ يَوْمَئِذٍ بِشَهَرٍ لِيُصِصَ عَذُّوهُ إِلَّا الْمُنْتَوِينَ ۝٦٧﴾
 يَمِيزَادَ لَا حَوِيَّ عَلَيْكَ الْيَوْمَ وَلَا أَنتَ تَحْزَنُونَ ۝٦٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا
 وَكَانُوا مُتَّبِعِينَ ۝٦٩﴾ اتَّخَلَّوْا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ۝٧٠﴾
 يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا شَتَّاهِيَ الْأَنْسُ وَكَذَلِكَ
 الْأَعْرُشُ وَأَشْرَفَ فِيهَا خِلْدُونَ ۝٧١﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ
 تَعْمَلُونَ ۝٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٧٣﴾

لما قال سبحانه: ﴿وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا
 أَجَعَلْنَا مِنْ نُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: 45] تعلق
 المشركون بامر عيسى، وقالوا: ما يريد محمد إلا أن نتخذة
 إلهاً كما اتخذت النصراني عيسى ابن مريم، فأنزل الله:
 ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ كذا قال قتادة، ومجاهد.
 وقال الواحدي: أكثر المفسرين على أن هذه الآية نزلت في
 مجادلة ابن الزبيري مع النبي ﷺ لما نزل قوله تعالى:
 ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء:
 98]، فقال ابن الزبيري: خصمته، ورب الكعبة، ليست
 النصراني يعبدون المسيح، واليهود عزيزاً، وبنو مليح
 الملائكة؟ ففرح بذلك من قوله، فأنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ
 لَهُمْ مِنَ الْحَسَنِ أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: 101]،
 ونزلت هذه الآية المذكورة هنا، وقد مضى هذا في سورة
 الأنبياء. ولا يخفك أن ما قاله ابن الزبيري من منع من أصله،
 وباطل برمته، فإن الله سبحانه قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾
 [الأنبياء: 98]، ولم يقل: ومن تعبدون حتى يدخل في ذلك
 العقلاء كالْمسيح، وعزير، والملائكة ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ
 يَصْنُونَ﴾ أي: إذا قَوْمُكَ يا محمد من تلك المثل المضروب
 يصنعون أي: يضجون، ويصيحون فرحاً بذلك المثل
 المضروب، والمراد بقومه هنا: كفار قريش. قرأ الجمهور
 (يصنون) بكسر الصاد، وقرأ نافع، وابن عامر، والكسائي
 بضمها. قال الكسائي، والفراء، والزجاج، والأخفش: هما
 لغتان، ومعناها: يضجون قال الجوهري: صَدَّ يَصْدُ صديداً
 أي: ضج. وقيل: إنه بالضم الإعراض، وبالكسر من الضجيج،
 قاله قطرب. قال أبو عبيد: لو كانت من الصدود عن الحق
 لقال: إذا قومك عنه يصنون. وقال الفراء: هما سواء منه،
 وعنه. وقال أبو عبيدة: من ضم، فمعناه: يعجلون، ومن كسر،

أسوار، وهي لغة في سوار. وقرأ حفص (أسورة) جمع
 سوار، وقرأ أبي: أساور، وابن مسعود أساور. قال مجاهد:
 كانوا إذا سَوَّوْا رجلاً سَوَّوْهُ بسوارين، وطوقوه بطوق
 ذهب علامة لسيادته ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾
 معطوف على القي، والمعنى: هلا جاء معه الملائكة متتابعين
 متقارنين إن كان صادقاً يعينونه على أمره، ويشهدون له
 بالنبوة، فلوهم اللعين قومه أن الرسل لا بد أن يكونوا على
 هيئة الجبابرة، ومحفوظين بالملائكة ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ
 فَأَطَاعُوهُ﴾ أي: حملهم على خفة الجهل، والسفه بقوله،
 وكيد، وغروره، فأطاعوه فيما أمرهم به، وقبلوا قوله، وكذبوا
 موسى ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ أي: خارجين عن طاعة
 الله. قال ابن الأعرابي: المعنى: فاستجهل قومه، فأطاعوه
 بخفة أحلامهم، وقلة عقولهم، يقال: استخفه الفرح أي:
 أزعجه، واستخفه أي: حمله، ومنه: ﴿وَلَا يَسْتَخْفِكَ الَّذِينَ لَا
 يُوقِنُونَ﴾ [الروم: 60]، وقيل: استخف قومه أي: وجدهم
 خفاف العقول، وقد استخف بقومه، وقهرهم حتى اتبعوه
 ﴿فَلَمَّا أَسْفَوْنا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ قال المفسرون: أغضبونا،
 والأسف الغضب، وقيل: أشد الغضب، وقيل: السخط، وقيل:
 المعنى: أغضبوا رسلنا. ثم بيّن العذاب الذي وقع به الانتقام،
 فقال: ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ في البحر ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ
 سُلَفًا﴾ أي: قدوة لمن عمل بعملهم من الكفار في استحقاق
 العذاب. قرأ الجمهور (سُلَفًا) بفتح السين، واللام جمع سالف
 كخدم، وخادم، ورصد، وراصد، وحرس، وحارس، يقال:
 سلف يسلف: إذا تقدّم، ومضى. قال الفراء، والزجاج:
 جعلناهم متقدّمين؛ ليتعظ بهم الآخرون، وقرأ حمزة،
 والكسائي: (سُلَفًا) بضم السين، واللام. قال الفراء: هو: جمع
 سليف، نحو سرر، وسرير. وقال أبو حاتم: هو: جمع سلف
 نحو خشب، وخشب. وقرأ علي، وابن مسعود، وعلقمة، وأبو
 وائل، والنخعي، وحُميد بن قيس بضم السين، وفتح اللام
 جمع سلفة، وهي: الفرقة المتقدمة نحو غرف، وغرفة، كذا
 قال النضر بن شميل ﴿وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ﴾ أي: عبرة،
 وموعظة لمن يأتي بعدهم، أو قصة عجيبة تجري مجرى
 الأمثال.

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا يَكادُ
 يَبِينُ﴾ قال: كانت بموسى لثغة في لسانه. وأخرج ابن
 جرير، وابن أبي حاتم عنه ﴿فَلَمَّا أَسْفَوْنا﴾ قال: أسخطونا.
 وأخرج عنه أيضاً أسفونا قال: أغضبونا، وفي قوله:
 ﴿سُلَفًا﴾ قال: أهواء مختلفة. وأخرج أحمد، والطبراني،
 والبيهقي في الشعب، وابن أبي حاتم عن عتبة بن عامر: أن
 رسول الله ﷺ قال: «إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مَا شَاءَ، وَهُوَ
 مُقِيمٌ عَلَى مَعْاصِيهِ فَإِنَّمَا ذَلِكَ اسْتِدْرَاجٌ مِنْهُ لَهُ، وَقَرَأَ ﴿فَلَمَّا
 أَسْفَوْنا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾». وأخرج ابن
 المنذر، وابن أبي حاتم عن طارق بن شهاب قال: كنت عند
 عبد الله، فذكر عنده موت الفجأة، فقال: تخفيف على المؤمن،
 وحسرة على الكافر، فلما أسفونا انتقمنا منهم.

فمعناه: **يضعون «وقالوا» ألهتنا خير أم هو؟ أي: ألهتنا خير أم المسيح؟ قال السدي، وابن زيد: خاصموه، وقالوا: إن كان كل من عبد غير الله في النار، فنحن نرضى أن تكون ألهتنا مع عيسى، وعزير، والملائكة. وقال قتادة: يعنون محمداً أي: ألهتنا خير أم محمد؟ ويقوي هذا قراءة ابن مسعود: ألهتنا خير أم هذا. قرأ الجمهور بتسهيل الهمزة الثانية بين بين، وقرأ الكوفيون، ويعقوب بتحقيقها «ما ضربوه لك إلا جدلاً» أي: ما ضربوا لك هذا المثل في عيسى إلا ليجالوك، على أن جدلاً منتصب على العلة، أو مجالين على أنه مصدر في موضع الحال، وقرأ ابن مقسم (جدلاً) «بل هم قوم خصمون» أي: شبيدو الخصومة كثيرو اللد عظيمو الجدل. ثم بين سبحانه أن عيسى ليس رباً، وإنما هو عبد من عباده اختصه بنبوته، فقال: «إن هو إلا عبد اتعنا عليه» بما أكرمناه به «وجعلناه مثلاً لبنى إسرائيل» أي: آية، وعبرة لهم يعرفون به قدرة الله سبحانه، فإنه كان من غير أب، وكان يحيي الموتى، ويبري الأكمه والبرص، وكل مريض «ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون» أي: لو نشاء املكناكم وجعلنا بدلاً منكم ملائكة في الأرض يخلفون أي: يخلفونكم فيها. قال الأزهرى: ومن قد تكون للبيل كقوله: «لجعلنا منكم» يريد بدلاً منكم. وقيل: المعنى: لو نشاء لجعلنا من بني آدم ملائكة، والأول أولى. ومقصود الآية: أنا لو نشاء لاسكنا الملائكة الأرض وليس في إسكاننا إياهم السماء شرف حتى يعبدوا. وقيل: معنى «يخلفون»: يخلف بعضهم بعضاً «وإنه لعلم للساعة» قال مجاهد، والضحاك، والسدي، وقاتادة: إن المراد المسيح، وإن خروجه مما يعلم به قيام الساعة لكونه شرطاً من أشراطها، لأن الله سبحانه ينزله من السماء قبيل قيام الساعة، كما أن خروج النجال من أعلام الساعة. وقال الحسن وسعيد بن جبير: المراد القرآن، لأنه يدل على قرب مجيء الساعة، وبه يعلم وقتها وأحوالها وأحوالها، وقيل المعنى: أن حدوث المسيح من غير أب وإحياء للموتى دليل على صحة البعث. وقيل: الضمير لمحمد ﷺ، والأول أولى. قرأ الجمهور (لعلم) بصيغة المصدر جعل المسيح علماً مبالغة لما يحصل من العلم بحصولها عند نزوله، وقرأ ابن عباس، وأبو هريرة، وأبو مالك الغفاري، وقاتادة، ومالك بن دينار، والضحاك، وزيد بن علي بفتح العين واللام أي: خروجه علم من أعلامها، وشرط من شروطها، وقرأ أبو نضرة وعكرمة: (وإنه للعلم) بلامين مع فتح العين واللام أي: للعلامة التي يعرف بها قيام الساعة «فلا تمترن بها» أي: فلا تشكن في وقوعها ولا تكذبن بها، فإنها كائنة لا محالة «وتتبعون هذا صراط مستقيم» أي: اتبعوني فيما أمركم به من التوحيد وبطالن الشرك، وفرائض الله التي فرضها عليكم، هذا الذي أمركم به وأدعوكم إليه طريق قيم موصل إلى الحق. قرأ الجمهور بحذف الياء من (اتبعون) وصلاً ووقفاً، وكذلك قرءوا بحذفها**

في الحاليين في (اطيعون)، وقرأ يعقوب بإثباتها وصلاً ووقفاً فيهما، وقرأ أبو عمرو وهي: رواية عن نافع بحذفها في الوصل دون الوقف «ولا يصننكم الشيطان» أي: لا تغتروا بوساوسه وشبهه التي يوقعها في قلوبكم فيمنعكم ذلك من اتباعي، فإن الذي دعوتكم إليه هو دين الله الذي اتفق عليه رسله وكتبه. ثم علل نهيمهم عن أن يصددهم شيطان ببيان عداوته لهم فقال: «إنه لكم عدو مبين» أي: مظهر لعداوته لكم غير متحاش عن ذلك ولا متمكن به كما يدل على ذلك ما وقع بينه وبين آدم وما ألزم به نفسه من إغواء جميع بني آدم إلا عباد الله المخلصين «ولما جاء عيسى بالبينات» أي: جاء إلى بني إسرائيل بالمعجزات الواضحة والشرائع. قال قتادة: البينات هنا: الإنجيل «قال قد جئتمكم بالحكمة» أي النبوة، وقيل: الإنجيل، وقيل: ما يرغب في الجميل ويكف عن القبيح «ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه» من أحكام التوراة. وقال قتادة: يعني: اختلاف الفرق الذين تحزبوا في أمر عيسى. قال الزجاج: الذي جاء به عيسى في الإنجيل إنما هو بعض الذي اختلفوا فيه، فبين لهم في غير الإنجيل ما احتاجوا إليه. وقيل: إن بني إسرائيل اختلفوا بعد موت موسى في أشياء من أمر دينهم. وقال أبو عبيدة: إن البعض هنا بمعنى الكل كما في قوله: «يصبكم بعض الذي يملككم» [غافر: 28] وقال مقاتل: هو كقوله: «ولاحل لكم بعض الذي حرّم عليكم» [آل عمران: 50] يعني: ما أحل في الإنجيل مما كان محرماً في التوراة كلحم الإبل والشحم من كل حيوان، وصيد السمك يوم السبت واللام في «ولأبين لكم» معطوفة على مقتر كانه قال: قد جئتمكم بالحكمة لأعلمكم إياها ولأبين لكم. ثم أمرهم بالتقوى والطاعة فقال: «فاتقوا الله» أي: اتقوا معاصيه «واطيعون» فيما أمركم به من التوحيد والشرائع «إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه» هذا بيان لما أمرهم بأن يطيعوه فيه «هذا صراط مستقيم» أي: عبادة الله وحده والعمل بشرائعه «فلا تختلف الأحزاب من بينهم». قال مجاهد، والسدي: الأحزاب هم: أهل الكتاب من اليهود، والنصارى. وقال الكلبي، ومقاتل: هم فرق النصارى اختلفوا في أمر عيسى. قال قتادة: ومعنى «من بينهم»: أنهم اختلفوا فيما بينهم، وقيل: اختلفوا من بين من بعث إليهم من اليهود والنصارى، والأحزاب هي: الفرق المتحزبة «فويل للذين ظلموا» من هؤلاء المختلفين، وهم الذين أشركوا بالله ولم يعملوا بشرائعه «من عذاب يوم اليم» أي: اليم عذابه وهو يوم القيامة «هل ينظرون إلا الساعة» أي: هل يرتقب هؤلاء الأحزاب وينتظرون إلا الساعة «أن تأتيهم بغتة» أي: فجأة «وهم لا يشعرون» أي: لا يفتنون بذلك، وقيل: المراد بالأحزاب: الذين تحزبوا على النبي ﷺ وكذبوه، وهم المرابون بقوله: «هل ينظرون إلا الساعة» والأول أولى «الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو» أي: الأخلاء في الدنيا المتحابون فيها يوم تأتيهم الساعة بعضهم

مشاهدتها، تقول لَ الشَّيْءِ يَلْذُ لَذَانًا، ولذاذًا، إذا وجده لذيذًا والتَّذَبُّعُ به، وفي مصحف عبد الله بن مسعود (تشتبهه الأنفس وتلذذه الأعين) **﴿وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾** لا تموتون، ولا تخرجون منها **﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾** أي: يقال لهم يوم القيامة هذه المقالة أي: صارت إليكم كما يصير الميراث إلى الوارث بما كنتم تعملونه في الدنيا من الأعمال الصالحة، واسم الإشارة مبتدأ، والجنة صفتها، والتي أورثتموها صفة للجنة، والخبر بما كنتم تعملون، وقيل: الخبر الموصول مع صلته، والأول أولى **﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ﴾** الفاكهة معروفة، وهي: الثمار كلها رطبها، ويابسها أي: لهم في الجنة سوى الطعام، والشراب فاكهة كثيرة الأنواع، والأصناف **﴿مِنْهَا تَكُلُونَ﴾** من تبعيضية، أو ابتدائية، وقَدَّم الجار لأجل الفاصلة.

وقد أخرج أحمد، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه عن ابن عباس: إن رسول الله ﷺ قال لقريش: إنه ليس أحد يعبد من دون الله فيه خير، قالوا: ألست تزعم أن عيسى كان نبياً، وعبداً من عباد الله صالحاً، وقد عبده النصراني؟ فإن كنت صادقاً، فإنه كالغتهم، فأنزل الله **﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصْنَتُونَ﴾** قلت: وما يصنئون؟ قال: يضحجون **﴿وَأَنَّهُ لَعَلَّ لِمَسَاعَةٍ﴾** قال: خروج عيسى ابن مريم قبل يوم القيامة. وأخرج سعيد بن منصور، وأحمد، وعبد بن حميد، والترمذي وصححه، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل»، ثم تلا هذه الآية **﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾** [الزخرف: 58]. وقد ورد في ذم الجدال بالباطل أحاديث كثيرة. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس: «أن المشركين أتوا رسول الله ﷺ، فقالوا: أرايت ما نعبد من دون الله أين هم؟ قال: في النار، قالوا: والشمس، والقمر؟ قال: والشمس، والقمر قالوا: فعيسى ابن مريم قال: قال الله: **﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾**». وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، ومسدد، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، والطبراني من طرق عنه في قوله: **﴿وَأَنَّهُ لَعَلَّ لِمَسَاعَةٍ﴾** قال: خروج عيسى قبل يوم القيامة. وأخرجه الحاكم، وابن مردويه عنه مرفوعاً. وأخرج عبد بن حميد عن أبي هريرة نحوه. وأخرج ابن مردويه عن سعد بن معاذ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة انقطعت الأرحام، وقلت الأنساب، وذهبت الأخوة إلا الأخوة في الله، وذلك قوله: **﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾**». وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وحמיד بن زنجويه في ترفيغه، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عن علي بن أبي طالب في قوله: **﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾** قال: خليلان مؤمنان، وخليتان كافران توفي أحد المؤمنين، فبشر بالجنة،

لبعض عدو أي: يعادي بعضهم بعضاً، لأنها قد انقطعت بينهم العلائق واشتغل كل واحد منهم بنفسه، ووجدوا تلك الأمور التي كانوا فيها آخلاء أسباباً للعذاب فصاروا أعداء. ثم استثنى المتقين فقال: **﴿إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾** فإنهم آخلاء في الدنيا والآخرة، لأنهم وجدوا تلك الخلقة التي كانت بينهم من أسباب الخير والثواب فبقيت خلقتهم على حالها **﴿يَا عِبَادَ لَا خَوْفَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾** أي: يقال لهؤلاء المتقين المتحابين في الله بهذه المقالة فيذهب عند ذلك خوفهم ويرتفع حزنهم **﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾** الموصول يجوز أن يكون نعتاً لعبادي، أو بدلاً منه، أو عطف بيان له، أو مقطوعاً عنه في محل نصب على المدح، أو في محل رفع بالابتداء وخبره **﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾** على تقدير: يقال لهم ادخلوا الجنة. والأول أولى، وبه قال الزجاج. قال مقاتل: إذا وقع الخوف يوم القيامة نادى مناد: يا عبادي لا خوف عليكم، فإذا سمعوا النداء رفع الخلائق رؤوسهم، فيقال: الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين فينكس أهل الأوثان رؤوسهم غير المسلمين. قرأ نافع، وابن عامر، وأبو عمرو (يا عبادي) بإثبات الياء ساكنة وصلًا ووقفًا، وقرأ أبو بكر وزر بن حبيش بإثباتها وفتحها في الحالين، وقرأ الباقر بن حفص في الحالين **﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَازْوَاجُكُمْ﴾** المراد بالازواج: نسائهم المؤمنات، وقيل: قرنائهم من المؤمنين، وقيل: زوجاتهم من الحور العين **﴿تَحْبِرُونَ﴾** تكرمون، وقيل: تنعمون، وقيل: تفرحون، وقيل: تسرّون، وقيل: تعجبون، وقيل: تُلذِّذُونَ بالسماع، والأولى تفسير ذلك بالفرح والسرور الناشئين عن الكرامة والنعمة **﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصُحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ﴾** الصحف جمع صفحة وهي: القصعة الواسعة العريضة. قال الكسائي: أعظم القصاع الجفنة ثم القصعة، وهي تشيع عشرة، ثم الصفحة، وهي تشيع خمسة، ثم المكيلة وهي تشيع الرجلين والثلاثة، والمعنى: أن لهم في الجنة أطعمة يطاف عليهم بها في صحاف الذهب **﴿وَوُكِّلَ لَهُمْ فِيهَا أَنْشُرَةٌ يَطَافُ عَلَيْهِمْ بِهَا فِي الْكُؤُوبِ﴾** وهي جمع كؤوب. قال الجوهري: الكؤوب كؤز لا عروة له، والجمع: أكواب. قال الأعشى:

صريفية طيب طعمها لها زيد بين كؤوب ونَّ
وقال آخر:

متكئاً تصفق أبوابه يسعى عليه العبد بالكؤوب
قال قتادة: الكؤوب المنور القصير العنق القصير العروة، والإبريق المستطيل العنق الطويل العروة. وقال الأخفش: الأكواب الأباريق التي لا خراطيم لها. وقال قطرب: هي الأباريق التي ليست لها عرى **﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَبِهُهُ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾** قرأ الجمهور (تشتبه) وقرأ نافع، وابن عامر، وحفص (تشتبه) بإثبات الضمير العائد على الموصول، والمعنى: ما تشتهيه أنفس أهل الجنة من فنون الأطعمة والأشربة ونحوهما مما تطلبه النفس وتهواه كائنًا ما كان، وتلذذ الأعين من كل المستلذات التي تستلذ بها وتطلب

على أنه خبر كان، والضمير ضمير فصل. وقرأ أبو زيد النحوي (الظالمون) بالرفع على أن الضمير مبتدأ، وما بعده خبره، والجملة خبر كان ﴿وَنَادُوا يَا مَالِكُ﴾ أي: نادى المجرمون هذا النداء، ومالك هو: خازن النار. قرأ الجمهور (يا مالك) بدون ترخيم. وقرأ عليّ، وابن مسعود، ويحيى بن وثاب، والأعمش (يا مال) بالترخيم ﴿لِيَقْضَ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ بالموت توسلوا بمالك إلى الله سبحانه؛ ليسأله لهم أن يقضي عليهم بالموت؛ ليستريحوا من العذاب ﴿قَالَ إِنَّكُمْ مَأْكُونُونَ﴾ أي: مقيمون في العذاب، قيل: سكت عن إجابته ثمانين سنة، ثم أجابه بهذا الجواب، وقيل: سكت عنهم ألف عام، وقيل: مائة سنة، وقيل: أربعين سنة ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ﴾ يحتمل أن يكون هذا من كلام الله سبحانه، ويحتمل أن يكون من كلام مالك، والأوّل أظهر؛ والمعنى: إنا أرسلنا إليكم الرسل، وأنزلنا عليهم الكتب، فدعوكم، فلم تقبلوا، ولم تصدّقوا، وهو معنى قوله: ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ لا يقبلونه، والمراد بالحق: كل ما أمر الله به على السنن رسله، وأنزله في كتبه. وقيل: هو خاص بالقرآن. قيل: ومعنى أكثركم: كلكم. وقيل: أراد الرؤساء، والقادة، ومن عداهم أتباع لهم ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ أم هي: المنقطعة التي بمعنى بل، والهمزة أي: بل أبرموا أمراً. وفي ذلك انتقال من توجع أهل النار إلى حكاية ما يقع من هؤلاء، والإبرام: الإتيان، والإحكام، يقال: أبرمت الشيء: أحكمته، واتقنته، وأبرم الحبل: إذا أحكم فتلته، والمعنى: بل أحكموا كيداً للنبي ﷺ، فإننا محكمون لهم كيداً قاله مجاهد، وقتادة، وابن زيد، ومثل هذا قوله تعالى: ﴿أَمْ يَرِيدُونَ كِيداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ [الطور: 42] وقيل: المعنى: أم قضاوا أمراً، فإننا قاضون عليهم أمرنا بالعذاب قاله الكلبي ﴿أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سُرَهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ أي: بل أيسمعون أننا لا نسمع ما يسرون به في أنفسهم، أو ما يتحادثون به سرّاً في مكان خالٍ، وما يتناجون به فيما بينهم ﴿بَلَى﴾ نسمع ذلك، ونعمل به ﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ الْكِتَابَ﴾ أي: الحفظة عندهم يكتبون جميع ما يصدر عنهم من قول، أو فعل، والجملة في محل نصب على الحال، أو معطوفة على الجملة التي تدل عليها بلى. ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يقول للكفار قولاً يلزمهم به الحجة، ويقطع ما يورثونه من التشبهة، فقال: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ أي: إن كان له ولد في قولكم، وعلى زعمكم، فأنا أوّل من عبد الله وحده، لأن من عبد الله وحده، فقد دفع أن يكون له ولد، كذا قال ابن قتبية. وقال الحسن، والسدي: إن المعنى: ما كان للرحمن ولد، ويكون قوله: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ ابتداء كلام، وقيل: المعنى: قل يا محمد إن ثبت لله ولد، فأنا أول من يعبد هذا الولد الذي تزعمون ثبوته، ولكنه يستحيل أن يكون له ولد. وفيه نفي للولد على أبلغ وجه، واتمّ عبارة، وأحسن أسلوب، وهذا هو الظاهر من النظم القرآني، ومن هذا القبيل قوله

فذكر خليله، وقال: اللهم إن خليلي فلاناً كان يأمرني بطاعتك، وطاعة رسولك، ويأمرني بالخير، وينهاني عن الشرّ، وبينيني أني ملائكتك، اللهم لا تضله بعدي حتى تراه مثل ما أريته، وترضى عنه كما رضيت عني، فيقال له: انهب؛ فلو تعلم ما له عندي لضحكت كثيراً، ولبكيت قليلاً، ثم يموت الآخر، فيجمع بين أرواحهما، فيقال: ليثن كل واحد منكما على صاحبه، فيقول كل واحد منهما لصاحبه: نعم الأخ، ونعم الصاحب، ونعمل الخليل؛ وإذا مات أحد الكافرين بشر بالنار، فينكر خليله، فيقول: اللهم إن خليلي فلاناً كان يأمرني بمعصيتك، ومعصية رسولك، ويأمرني بالشرّ، وينهاني عن الخير، وبينيني أني غير ملائكتك، اللهم فلا تهده بعدي حتى تراه مثل ما أريته، وتسخط عليه كما سخطت عليّ، فيموت الآخر، فيجمع بين أرواحهما، فيقال: ليثن كل واحد منكما على صاحبه، فيقول كل منهما لصاحبه: بش الأخ، وبش الصاحب، وبش الخليل. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: الأكواب الجرار من الفضة. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «ما من أحد إلّا وله منزل في الجنة، ومنزل في النار، فالكافر يرث المؤمن منزله من النار، والمؤمن يرث الكافر منزله في الجنة، وذلك قوله: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا﴾».

إِنَّ الْمَجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ خِلَافٍ ۖ لَا يَمُوتُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٠﴾ وَمَا كُنْتُمْ لَهُمْ خَالِدِينَ ﴿٧١﴾ وَنَادَا يَمْشِكُ إِلَيْهِ عِلِّيُّنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ تُشْكِرُونَ ﴿٧٢﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لَاهِيُونَ كَرِهُونَ ﴿٧٣﴾ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٤﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سُرَهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلْ نُرَبِّئُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٍ ۖ وَنُزُلًا لَدَيْهِمْ يُكْنِشُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ ﴿٧٦﴾ سُبْحَنَ رَبِّيَ الْأَعْلِيِّ وَالْأَرْضِ رَبِّيَ الْأَمَّاسِ عَمَّا يَشْكُرُونَ ﴿٧٧﴾ نَذَرَهُمْ جَحِيمًا وَيَلْمِزُوا عَنْ يَدَيْهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٠﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَكُمُ الْكُفْرُ وَالْأَرْضُ وَمَا بَيْنَهُمَا وَجَنَدٌ عَلِيمٌ الْبَاقِعُ وَالَّذِي رُجِعْتُمْ ﴿٨١﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ شَاءَ ۚ وَالْحَقُّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٢﴾ وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ يَقُولُ اللَّهُ فَاتَى يُؤْمِنُونَ ﴿٨٣﴾ وَقِيلُوا يَرْبِ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٤﴾ فَأَصْحَبْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٥﴾

قوله: ﴿إِنَّ الْمَجْرِمِينَ﴾ أي: أهل الإجماع الكفريّة، كما يدل عليه إيرادهم في مقابلة المؤمنين الذين لهم ما نكره الله سبحانه قبل هذا ﴿فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ لا ينقطع عنهم العذاب أبداً ﴿لَا يَمُوتُ عَنْهُمْ﴾ أي: لا يخفف عنهم ذلك العذاب، والجملة في محل نصب على الحال ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أي: أيسسون من النجاة، وقيل: ساكتون سكوت يأس، وقد مضى تحقيق معناه في الانعام ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ أي: ما عذبناهم بغير ذنب، ولا بزيادة على ما يستحقونه ﴿وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ لأنفسهم بما فعلوا من الذنوب. قرأ الجمهور (الظالمين) بالنصب

تعالى: ﴿إِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: 24]، ومثل هذا قول الرجل لمن يناظره: إن ثبت ما تقوله بالدليل، فإنا أول من يعتقده، ويقول به، فتكون «إن» في ﴿إِن كَانَ﴾ شرطية، ورجح هذا ابن جرير، وغيره. وقيل: معنى العابدين: الأنفين من العبادة، وهو تكلف لا ملجئ إليه، ولكن قرأ أبو عبد الرحمن اليماني (العبدین) بغير ألف، يقال: عبد يعبد عبداً بالتحريك: إذا أنف، وغضب، فهو: عبد، والاسم العبد مثل الأنفة، ولعل الحامل لمن قرأ هذه القراءة الشاذة البعيدة هو استبعاد معنى ﴿فإنا أول العابدين﴾، وليس بمستبعد، ولا مستنكر. وقد حكى الجوهرى عن أبي عمرو في قوله: ﴿فإنا أول العابدين﴾ أنه من الأنف، والغضب. وحكاها الماوردي عن الكسائي، والقتيبي، وبه قال الفراء. وكذا قال ابن الأعرابي: إن معنى العابدين: الغضب الأنفين. وقال أبو عبيدة: معناه: الجاحدين، وحكى عبدني حقي أي: جحدي، وقد أنشدوا على هذا المعنى الذي قالوه قول الفرزدق:

أولئك أحلاسي فجئني بمثلهم وأعبدان أمجو كليلاً بدارم

وقوله أيضاً:

أولاً أناس لو هجوني هجوتهم وأعبدان يهجي كليب بدارم

ولا شك أن عبد، وأعبد بمعنى: أنف، أو غضب ثابت في لغة العرب، وكفى بنقل هؤلاء الأئمة حجة، ولكن جعل ما في القرآن من هذا من التكلف الذي لا ملجئ إليه، ومن التعسف الواضح. وقد رد ابن عرفة ما قالوه فقال: إنما يقال عبد يعبد، فهو: عبد، وقُلْ ما يقال: عابد، والقرآن لا يأتي بالقليل من اللغة، ولا الشاذ. قرأ الجمهور (ولد) بالإنفراد، وقرأ أهل الكوفة إلا عاصماً (ولد) بضم الواو، وسكون اللام ﴿سبحان ربّ السّموات والأرض ربّ العرش عما يصفون﴾ أي: تنزيهاً له، وتقديساً عما يقولون من الكذب بأن له ولداً، ويفترون عليه سبحانه ما لا يليق بجناحه، وهذا إن كان من كلام الله سبحانه، فقد نزه نفسه عما قالوه، وإن كان من تمام كلام رسوله الذي أمره بأن يقوله، فقد أمره بأن يضمّ إلى ما حكاها عنهم بزعمهم الباطل تنزيه ربه، وتقديسه ﴿فذرهم يخوضوا ويلعبوا﴾ أي: اترك الكفار حيث لم يهتوا بما هديتهم به، ولا أجابوك فيما دعوتهم إليه يخوضوا في أباطيلهم، ويلهو في دنياهم ﴿حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون﴾ وهو: يوم القيامة، وقيل: العذاب في الدنيا، قيل: وهذا منسوخ بآية السيف، وقيل: هو غير منسوخ، وإنما أخرج مخرج التهديد. قرأ الجمهور (يلاقوا)، وقرأ مجاهد، وابن محيصن، وحמיד، وابن السميع (حتى يلقوا) بفتح الباء، وإسكان اللام من غير ألف، ورويت هذه القراءة عن أبي عمرو ﴿وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله﴾ الجار، والمجرور في الموضعين متعلق بإله؛ لأنه بمعنى: معبود، أو مستحق للعبادة، والمعنى: وهو الذي معبود في السماء، ومعبود في

الأرض، أو مستحق للعبادة في السماء، والعبادة في الأرض. قال أبو عليّ الفارسي: وإله في الموضعين مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: وهو الذي في السماء هو إله، وفي الأرض هو إله، وحسن حذفه لطول الكلام، قال: والمعنى: على الإخبار بإلهيته، لا على الكون فيهما. قال قتادة: يعبد في السماء، والأرض، وقيل: في بمعنى على أي: هو القادر على السماء، والأرض كما في قوله: ﴿ولاصليكنم في جنوع النخل﴾ [طه: 71] وقرأ عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وابن مسعود: (وهو الذي في السماء الله وفي الأرض الله) على تضمين العلم معنى المشتق، فيتعلق به الجار والمجرور من هذه الحثية ﴿وهو الحكيم العليم﴾ أي: البليغ الحكمة الكثير العلم ﴿وتبارك الذي له ملك السموات والأرض وما بينهما﴾ تبارك تفاعل من البركة، وهي: كثرة الخيرات، والمراد بما بينهما: الهواء، وما فيه من الحيوانات ﴿وعنده علم الساعة﴾ أي: علم الوقت الذي يكون قيامها فيه ﴿والإله ترجعون﴾ فيجازي كلّ أحد بما يستحقه من خير، وشر، وفيه وعيد شديد. قرأ الجمهور (ترجعون) بالفوقية، وقرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي، بالتحثية ﴿ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة﴾ أي: لا يملك من يدعونه من دون الله من الأصنام، ونحوها الشفاعة عند الله كما يزعمون أنهم يشفعون لهم. قرأ الجمهور (يدعون) بالتحثية، وقرأ السلمي، وابن وثاب بالفوقية ﴿إلا من شهد بالحق﴾ أي: التوحيد ﴿وهم يعلمون﴾ أي: هم على علم، وبصيرة بما شهدوا به، والاستثناء يحتمل: أن يكون متصلاً، والمعنى: إلا من شهد بالحق، وهم: المسيح، وعزير، والملائكة، فإنهم يملكون الشفاعة لمن يستحقها. وقيل: هو منقطع، والمعنى: لكن من شهد بالحق يشفع فيه هؤلاء، ويجوز أن يكون المستثنى منه محذوفاً أي: لا يملكون الشفاعة في أحد إلا فيمن شهد بالحق. قال سعيد بن جببر، وغيره: معنى الآية: أنه لا يملك هؤلاء الشفاعة إلا لمن شهد بالحق، وأمن على علم، وبصيرة. وقال قتادة: لا يشفعون لعباديتها، بل يشفعون لمن شهد بالوحدانية. وقيل: مدار الاتصال في هذا الاستثناء على جعل الذين يدعون عاماً لكل ما يعبد من دون الله، ومدار الانقطاع على جعله خاصاً بالأصنام ﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله﴾ اللام هي: الموطئة للقسمة، والمعنى: لئن سألت هؤلاء المشركين العابدين للأصنام من خلقهم أقروا واعترفوا بأن خالقهم الله، ولا يقدرون على الإنكار، ولا يستطيعون الجحود لظهور الأمر، وجلائه ﴿فإني يؤفكون﴾ أي: فكيف ينقلبون عن عبادة الله إلى عبادة غيره، وينصرفون عنها مع هذا الاعتراف، فإن المعترف بأن الله خالقه إذا عمد إلى صنم، أو حيوان، وعبده مع الله، أو عبده وحده، فقد عبد بعض مخلوقات الله، وفي هذا من الجهل ما لا يقارن قدره. يقال: أفكه يافكه إفكاً: إذا قلبه، وصرفه عن الشيء، وقيل: المعنى:

وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾ يقول: إن يكن للرحمن ولد ﴿فَإِنَّا أَوَّلَ الْعَابِدِينَ﴾ قال: الشاهدين. وأخرج ابن جرير عن زيد بن أسلم في قوله: ﴿إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾ قال: هذا معروف من كلام العرب إن كان هذا الأمر قط أي: ما كان. وأخرج ابن جرير عن قتادة نحوه.

تفسير سورة الدخان

قال القرطبي: هي مكية باتفاق إلا قوله: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ﴾ [الدخان: 15]. وأخرج ابن مروي، عن ابن عباس، وعبد الله بن الزبير: أن سورة الدخان نزلت بمكة. وأخرج الترمذي، والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حمَّ الدَّخَانِ في ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك». قال الترمذي بعد إخرجه: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وعمر بن أبي خثعم ضعيف. قال البخاري: منكر الحديث. وأخرج الترمذي، ومحمد بن نصر، وابن مروي، والبيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حمَّ الدَّخَانِ في ليلة جمعة أصبح مغفوراً له». قال الترمذي بعد إخرجه: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وهشام بن المقدم يضعف، والحسن لم يسمع من أبي هريرة، كذا قال أيوب، ويونس بن عبيد، وعلي بن زيد، ويشهد له ما أخرجه ابن الضريس، والبيهقي، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حمَّ الدَّخَانِ في ليلة الجمعة أصبح مغفوراً له، وزوج من الحور العين». وأخرج ابن مروي، عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة حمَّ الدَّخَانِ في ليلة الجمعة، أو يوم الجمعة بنى الله له بها بيتاً في الجنة».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ۝ ١ ۝ وَلَكِنَّ الْكَبِيرَ ۝ ٢ ۝ إِنَّا أَرْسَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَ ۝ ٣ ۝ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ ۝ ٤ ۝ إِنَّا نَبِّئُكَ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٌ ۝ ٥ ۝ أَمْرٌ مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ۝ ٦ ۝ رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ ٧ ۝ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۝ ٨ ۝ إِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ ۝ ٩ ۝ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ مَنَازِلِكُمْ الْأُولَى ۝ ١٠ ۝ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝ ١١ ۝ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝ ١٢ ۝ يَخْشَى الْفَاسِقَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ ١٣ ۝ رَبَّنَا اكشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝ ١٤ ۝ أَتَى الْمَؤْمِنَ أَمْرٌ رَّحِيمٌ ۝ ١٥ ۝ قَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۝ ١٦ ۝ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُنْجِئُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنَّا نَكْفُرُ ۝ ١٧ ۝ يَوْمَ يَبْسُطُ السُّلْطَانَةُ الْكِبَرَىٰ إِنَّا مُنْشِقُونَ ۝ ١٨ ۝

قوله: ﴿حَمْدٌ﴾ * والكتاب المعين ﴿١﴾ قد تقدّم في السورتين المتقدمتين قبل هذه السورة الكلام على هذا معنى، وإعراباً،

ولئن سألت المسيح، وعزيراً، والملائكة من خلقهم ليقولنَّ الله، فأنى يؤفك هؤلاء الكفار في اتخاذهم لها آلهة. وقيل: المعنى: ولئن سألت العابدين، والمعبودين جميعاً. قرأ الجمهور (وقيله) بالنصب عطفاً على محل الساعة، كأنه قيل: إنه يعلم الساعة، ويعلم قبيله، أو عطفاً على سرهم، ونجواهم أي: يعلم سرهم، ونجواهم، ويعلم قبيله، أو عطفاً على مفعول يكتبون المحذوف أي: يكتبون ذلك، ويكتبون قبيله، أو عطفاً على مفعول يعلمون المحذوف أي: يعلمون ذلك، ويعلمون قبيله، أو هو مصدر أي: قال قبيله، أو منصوب بإضمار فعل أي: الله يعلم قيل: رسوله، أو هو معطوف على محل بالحق أي: شهد بالحق، وبقبيله، أو منصوب على حذف حرف القسم. ومن المجوزين للوجه الأول: المبرد، وابن الأنباري، ومن المجوزين للثاني الفراء، والأخفش، ومن المجوزين للنصب على المصدرية الفراء، والأخفش أيضاً. وقرأ حمزة، وعاصم (وقيله) بالجر عطفاً على لفظ الساعة أي: وعنده علم الساعة، وعلم قبيله، والقول والقال، والقليل بمعنى واحد، أو على أن الواو للقسم. وقرأ قتادة، ومجاهد، والحسن، وأبو قلاب، والأعرج، وابن هرمز، ومسلم بن جنب (وقيله) بالرفع عطفاً على علم الساعة أي: وعنده علم الساعة، وعنده قبيله، أو على الابتداء، وخبره الجملة المنكورة بعده، أو خبره محذوف تقديره، وقيله كيت، وكيت، أو وقيله مسموع. قال أبو عبيد: يقال: قلت قولاً، وقيلاً، وقالاً، والضمير في وقيله راجع إلى النبي ﷺ. قال قتادة: هذا نبيكم يشكو قومه إلى ربه، وقيل: الضمير عائد إلى المسيح، وعلى الوجهين، فالمعنى: أنه قال منادياً لربه: ﴿يَا رَبِّ إِن هَؤُلَاءِ﴾ الذين أرسلتني إليهم ﴿قَوْمٌ لَا يَؤْمِنُونَ﴾. ثم لما نادى ربه بهذا أجابه بقوله: ﴿فاصفح عنهم﴾ أي: أعرض عن دعوتهم ﴿وقل سلام﴾ أي: أمري تسليم منكم، ومتاركة لكم. قال عطاء: يريد مداراة حتى ينزل حكمي، ومعناه: المتاركة كقوله: ﴿سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين﴾ [القصص: 55]. وقال قتادة: أمره بالصفح عنهم، ثم أمره بقتالهم، فصار الصفح منسوخاً بالسيف، وقيل: هي محكمة لم تنسخ ﴿فسوف يعلمون﴾ فيه تهديد شديد، ووعد عظيم من الله عز وجل. قرأ الجمهور (يعلمون) بالتحية، وقرأ نافع، وابن عامر بالفوقية. قال الفراء: إن سلام مرفوع بإضمار عليكم.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في البعث والنشور، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَنَادُوا يَا مَلِكُ﴾ قال: يمكث عنهم ألف سنة، ثم يجيبهم ﴿إِنكُمْ مَّاكُونُ﴾. وأخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي قال: بينا ثلاثة بين الكعبة وأستارها، قرشيان وثقفي، أو ثقفيان وقرشي، فقال واحد منهم: ترون أن الله يسمع كلامنا؟ فقال واحد منهم: إذا جهرتم سمع، وإذا أسررتم لم يسمع، فنزلت ﴿لَمْ يَحْشِبُونَ أَنَا لَا نَسْمَعُ سَرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر،

وقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مَبْرُكَةٍ﴾ جواب القسم، وإن جعلت الجواب حم كانت هذه الجملة مستأنفة، وقد أنكر بعض النحويين أن تكون هذه الجملة جواباً للقسم، لأنها صفة للمقسم به، ولا تكون صفة المقسم به جواباً للقسم، وقال: الجواب ﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾، واختاره ابن عطية، وقيل: إن قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ جواب ثانٍ، أو جملة مستأنفة مقررة للإنزال، وفي حكم العلة له كانه قال: إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ لَأَن من شأننا الإنذار، والضمير في أنزلناه راجع إلى الكتاب المبين، وهو: القرآن. وقيل: المراد بالكتاب سائر الكتب المنزلة والضمير في أنزلناه راجع إلى القرآن على معنى: إنه سبحانه أقسم بسائر الكتب المنزلة: أنه أنزل القرآن، والأول أولى. والليلة المباركة: ليلة القدر كما في قوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: 1] ولها أربعة أسماء: الليلة المباركة، وليلة البراءة، وليلة الصلوة، وليلة القدر. قال عكرمة: الليلة المباركة هنا ليلة النصف من شعبان. وقال قتادة: أنزل القرآن كله في ليلة القدر من أم الكتاب، وهو: اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في سماء الدنيا، ثم أنزله الله سبحانه على نبيه ﷺ في الليالي، والأيام في ثلاث وعشرين سنة، وقد تقدم تحقيق الكلام في هذا في البقرة عند قوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: 185] وقال مقاتل: كان ينزل من اللوح كل ليلة قدر من الوحي على مقدار ما ينزل به جبريل في السنة إلى مثله من العام، ووصف الله سبحانه هذه الليلة، بأنها مباركة لنزول القرآن فيها، وهو مشتمل على مصالح الدين والدنيا، ولكونها تنزل فيها الملائكة، والروح كما سيأتي في سورة القدر، ومن جملة بركاتها ما ذكره الله سبحانه ها هنا بقوله: ﴿فِيهَا يَفْرُقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾، ومعنى يفرق: يفصل، ويبين من قولهم: فرقت الشيء أفرقه فرقاء، والأمر الحكيم: المحكم، وذلك أن الله سبحانه يكتب فيها ما يكون في السنة من حياة وموت، وبسط وقبض، وخير وشر، وغير ذلك، كذا قال مجاهد، وقتادة، والحسن، وغيرهم: وهذه الجملة إما صفة أخرى لليلة، وما بينهما اعتراض، أو مستأنفة لتقرير ما قبلها. قرأ الجمهور (يفرق) بضم الياء، وفتح الراء مخففاً، وقرأ الحسن، والأعمش، والأعرج بفتح الياء وضم الراء، ونصب (كل أمر)، ورفع (حكيم) على أنه الفاعل. والحق ما ذهب إليه الجمهور من أن هذه الليلة المباركة هي: ليلة القدر لا ليلة النصف من شعبان، لأن الله سبحانه أجملها هنا، وبينها في سورة البقرة بقوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: 185] ويقول في سورة القدر: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: 1]، فلم يبق بعد هذا البيان الواضح ما يوجب الخلاف، ولا ما يقتضي الاشتباه ﴿أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا﴾ قال الزجاج، والفراء: انتصاب أمراً بيفرق أي: يفرق فرقاء، لأن أمراً بمعنى: فرقاء. والمعنى: إِنَّا نَأْمُرُ بِبَيَانِ ذَلِكَ، ونسخه من اللوح المحفوظ، فهو على هذا منتصب على المصدرية مثل قولك: يضرب ضرباً. قال المبرد: أمراً في موضع المصدر، والتقدير: أنزلناه

إنزالاً. وقال الأخفش: انتصابه على الحال أي: أمرين. وقيل: هو منصوب على الاختصاص أي: أعني بهذا الأمر أمراً حاصلاً من عندنا، وفيه تفخيم لشأن القرآن، وتعظيم له. وقد ذكر بعض أهل العلم في انتصاب أمراً اثني عشر وجهاً أظهرها ما ذكرناه، وقرأ زيد بن علي (أمر) بالرفع أي: هو أمر ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ هذه الجملة إما بدل من قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾، أو جواب ثالث للقسم، أو مستأنفة. قال الرازي: المعنى: إِنَّا فَعَلْنَا ذَلِكَ الْإِنْدَارَ لِأَجْلِ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ لِلْأَنْبِيَاءِ ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ انتصاب رحمة على العلة أي: أنزلناه للرحمة، قاله الزجاج. وقال المبرد: إنها منتصبة على أنها مفعول لمرسلين أي: إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَحْمَةً. وقيل: هي مصدر في موضع الحال أي: راحمين، قاله الأخفش. وقرأ الحسن (رحمة) بالرفع على تقدير هي رحمة ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لمن دعاه ﴿الْعَلِيمُ﴾ بكل شيء. ثم وصف سبحانه نفسه بما يدل على عظيم قدرته الباهرة، فقال: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ قرأ الجمهور (رَبِّ) بالرفع عطفاً على السميع العليم، أو على أنه مبتدأ، وخبره لا إله إلا هو، أو على أنه خبر لمبتدأ محذوف أي: هو رَبُّ، وقرأ الكوفيون (رَبِّ) بالجر على أنه بدل من ربك، أو بيان له، أو نعت ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ بانه رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وما بينهما، وقد أقرؤا بذلك كما حكاها الله عنهم في غير موضع، وجملة ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ مستأنفة مقررة لما قبلها، أو خبر رَبِّ السَّمَوَاتِ وَمَا بَيْنَهُمَا، وكذلك جملة ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾، فإنها مستأنفة مقررة لما قبلها ﴿رَبِّكُمْ وَرَبِّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ﴾ قرأ الجمهور بالرفع على الاستئناف بتقدير مبتدأ أي: هو ربكم، أو على أنه بدل من رَبِّ السَّمَوَاتِ، أو بيان، أو نعت له، وقرأ الكسائي في رواية الشيرازي عنه، وابن محيصن، وابن أبي إسحاق، وأبو حيو، والحسن بالجر، ووجه الجر ما ذكرناه في قراءة من قرأ بالجر في رَبِّ السَّمَوَاتِ ﴿جَلَّ هُمْ فِي شَكِّ يَلْعَبُونَ﴾ أضرب عن كونهم موقنين إلى كونهم في شك من التوحيد والبعث، وفي إقرارهم بأن الله خالقهم، وخالق سائر المخلوقات، وإن ذلك منهم على طريقة اللعب والهز، ومحل يلعبون الرفع على أنه خبر ثان، أو النصب على الحال ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، لأن كونهم في شك، ولعب يقتضي ذلك؛ والمعنى: فانتظر لهم يا محمد يوم تأتي السماء بدخان مبين، وقيل المعنى: احفظ قولهم هذا لتشهد عليهم يوم تأتي السماء بدخان مبين.

وقد اختلف في هذا الدخان المذكور في الآية متى يأتي؟ فقيل: إنه من أشرط الساعة، وأنه يمكث في الأرض أربعين يوماً. وقد ثبت في الصحيح: أنه من جملة العشر الآيات التي تكون قبل قيام الساعة، وقيل: إنه أمر قد مضى، وهو ما أصاب قريشاً بدعاء النبي ﷺ حتى كان الرجل يرى بين السماء والأرض دخاناً، وهذا ثابت في الصحيحين، وغيرهما: وذلك حين دعا عليهم النبي ﷺ بسنين كسني

يفرق كل أمر حكيم قال: يكتب من أم الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السنة من رزق وموت، وحياة، ومطر، حتى يكتب الحاج: يحج فلان، ويحج فلان. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عمر: ﴿فيها يفرق كل أمر حكيم﴾ قال: أمر السنة إلى السنة إلا الشقاء والسعادة، فإنه في كتاب الله لا يبدل، ولا يغير. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب قال: إنك لترى الرجل يمشي في الأسواق وقد وقع اسمه في الموتى، ثم قرأ: ﴿إنا لنزلناه في ليلة مباركة﴾ الآية، يعني: ليلة القدر، قال: ففي تلك الليلة يفرق أمر الدنيا إلى مثلها من قابل من موت، أو حياة، أو رزق، كل أمر الدنيا يفرق تلك الليلة إلى مثلها. وأخرج ابن زنجويه، والديلمي، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تقطع الأجل من شعبان إلى شعبان، حتى إن الرجل لينكح، ويولد له، وقد خرج اسمه في الموتى». وأخرجه ابن أبي الدنيا، وابن جرير، عن عثمان بن محمد بن المغيرة بن الأخنس، وهذا مرسل، ولا تقوم به حجة، ولا تعارض بمثله صرائح القرآن. وما روي في هذا، فهو إما مرسل، أو غير صحيح. وقد أورد ذلك صاحب الدر المنثور، وأورد ما ورد في فضل ليلة النصف من شعبان، وذلك لا يستلزم أنها المراد بقوله: في ليلة مباركة. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما، عن ابن مسعود: «أن قريشاً لما استعصت على رسول الله ﷺ، وأبطلوا عن الإسلام قال: اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف، فأصابهم قحط، وجهد حتى أكلوا العظام، فجعل الرجل ينظر إلى السماء، فيرى ما بينه، وبينها كهيئة الدخان من الجوع، فأنزل الله: ﴿فارتقب يوم تأتي السماء بخان مبین﴾ الآية، فأتى النبي ﷺ فقيل: يا رسول الله استسقى الله لعسر، فاستسقى لهم، فسقوا، فأنزل الله: ﴿إنا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون﴾ فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم، فأنزل الله: ﴿يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون﴾، فانتقم الله منهم يوم بدر، فقد مضى البطشة، والدخان، واللزام». وقد روي عن ابن مسعود، نحو هذا من غير وجه، وروي نحوه عن جماعة من التابعين. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم عن ابن أبي مليكة قال: بخلت على ابن عباس فقال: لم أتم هذه الليلة، فقلت: لم؟ قال: طلع الكوكب، فخشيت أن يطرق الدخان. قال ابن كثير: وهذا إسناد صحيح، وكذا صححه السيوطي، ولكن ليس فيه أنه سبب نزول الآية. وقد عرفت أنه لا منافاة بين كون هذه الآية نازلة في الدخان الذي كان يترأى لقريش من الجوع، وبين كون الدخان من آيات الساعة، وعلاماتها، وأشراتها، فقد وردت أحاديث صحاح، وحسان، وضعاف بذلك، وليس فيها أنه سبب نزول الآية، فلا حاجة بنا إلى التطويل بذكرها، والواجب التمسك بما ثبت في الصحيحين، وغيرهما: أن دخان قريش عند الجهد، والجوع هو سبب النزول، وبهذا تعرف أنفاد ترجيح من رجح أنه الدخان

يوسف، فأصابهم قحط، وجهد حتى أكلوا العظام، وكان الرجل ينظر إلى السماء، فيرى ما بينه، وبينها كهيئة الدخان من الجهد، وقيل: إنه يوم فتح مكة، وسيأتي في آخر البحث بيان ما يدل على هذه الأقوال، وقوله: ﴿ينفسي الناس﴾ صفة ثانية لدخان أي: يشملهم، ويحيط بهم ﴿هذا عذاب أليم﴾ أي: يقولون هذا عذاب أليم، أو قائلين ذلك، أو يقول الله لهم ذلك ﴿ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون﴾ أي: يقولون ذلك، وقد روي أنهم أتوا النبي ﷺ وقالوا: إن كشف الله عنا هذا العذاب أسلمنا، والمراد بالعذاب: الجوع الذي كان يسببه ما يرونه من الدخان، أو يقولونه إذا رأوا الدخان الذي هو: من آيات الساعة، أو إذا رأوه يوم فتح مكة على اختلاف الأقوال. والراجح منها: أنه الدخان الذي كانوا يتخيلونه مما نزل بهم من الجهد، وشدة الجوع، ولا ينافي ترجيح هذا ما ورد أن الدخان من آيات الساعة، فإن ذلك بخان آخر، ولا ينافيه أيضاً ما قيل: إنه الذي كان يوم فتح مكة، فإنه دخان آخر على تقدير صحة وقوعه ﴿أنى لهم الذكرى﴾ أي: كيف يتذكرون، ويتعظون بما نزل بهم ﴿ووالحال أن قد جاءهم رسول مبين﴾ يبين لهم كل شيء يحتاجون إليه من أمر الدين، والدنيا ﴿ثم تولوا عنه﴾ أي: أعرضوا عن ذلك الرسول الذي جاءهم، ولم يكتفوا بمجرد الإعراض عنه، بل جاوزوه ﴿وقالوا معلم مجنون﴾ أي قالوا: إنما يعلمه القرآن بشر، وقالوا: إنه مجنون، فكيف يتذكر هؤلاء، وأنى لهم الذكرى. ثم لما دعا الله بأن يكشف عنهم العذاب، وأنه إذا كشفه عنهم أمنا أجاب سبحانه عليهم بقوله: ﴿إنا كاشفوا العذاب قليلاً﴾ أي: إنا نكشفه عنهم كشافاً قليلاً، أو زماناً قليلاً، ثم أخبر الله سبحانه عنهم أنهم لا ينزجرون عما كانوا عليه من الشرك، ولا يفون بما وعدوا به من الإيمان، فقال: ﴿إنكم عائدون﴾ أي: إلى ما كنتم عليه من الشرك، وقد كان الأمر هكذا، فإن الله سبحانه لما كشف عنهم ذلك العذاب رجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر، والعناد، وقيل المعنى: إنكم عائدون إلينا بالبعث، والنشور، والأول أولى ﴿يوم نبطش البطشة الكبرى﴾ الظرف منصوب بإضمار أنكر، وقيل: هو بدل من يوم تأتي السماء، وقيل: هو متعلق بمنتقمون، وقيل: بما دل عليه منتقمون، وهو ننتقم. والبطشة الكبرى: هي: يوم بدر، قاله الأكثر. والمعنى: أنهم لما عادوا إلى التكذيب، والكفر بعد رفع العذاب عنهم انتقم الله منهم بوقعة بدر. وقال الحسن، وعكرمة: المراد بها: عذاب النار، واختار هذا الزجاج، والأول أولى. قرأ الجمهور (نبطش) بفتح النون، وكسر الطاء أي: نبطش بهم، وقرأ الحسن، وأبو جعفر بضم الطاء وهي: لغة، وقرأ أبو رباء، وطلحة بضم النون، وكسر الطاء.

وقد أخرج ابن مريويه عن ابن عباس ﴿في ليلة مباركة﴾ قال: أنزل القرآن في ليلة القدر، ونزل به جبريل على رسول الله ﷺ نجوماً لجواب الناس. وأخرج محمد بن نصر، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿فيها

إلى عباد الله، ويجوز أن تكون مصدرية أي: بأن أنوا؛ والمعنى: أنه طلب منهم أن يسلموا إليه بني إسرائيل. قال مجاهد: المعنى: أرسلوا معي عباد الله، وأطلقوهم من العذاب، فعباد الله على هذا مفعول به. وقيل المعنى: أنوا إلى عباد الله ما وجب عليكم من حقوق الله، فيكون منصوباً على أنه منادى مضاف. وقيل: أنوا إلي سمعكم حتى أبلغكم رسالة ربكم ﴿إني لكم رسول أمين﴾ هو: تعليل لما تقدم أي: رسول من الله إليكم أمين على الرسالة غير متهم ﴿وإن لا تعلموا على الله﴾ أي: لا تتجبروا، وتتكبروا عليه، بترفعكم عن طاعته، ومتابعة رسله، وقيل: لا تبغوا على الله، وقيل: لا تفتروا عليه، والأول أولى. وبه قال ابن جريج، ويحيى بن سلام، وجمله ﴿إني أتاكم بسلطان مبين﴾ تعليل لما قبله من النهي أي: بحجة واضحة لا سبيل إلى إنكارها. وقال قتادة: بعذر بين. والأول أولى، وبه قال يحيى بن سلام. قرأ الجمهور بكسر همزة ﴿إني﴾، وقرأ بالفتح بتقدير اللام ﴿وإني عذت بربي وربكم أن ترجمون﴾ استعاذ بالله سبحانه لما توعدوه بالقتل، والمعنى: من أن ترجمون. قال قتادة: ترجموني بالحجارة، وقيل: تشتمون، وقيل: تقتلون ﴿وإن لم تؤمنوا لي فاعترفوا﴾ أي: إن لم تصدقوني، وتقرؤوا بنبوتي، فاتركوني، ولا تتعرضوا لي بأذى. قال مقاتل: دعوني كفافاً لا علي، ولا لي. وقيل: كونوا بمعزل عني، وأنا بمعزل منكم إلى أن يحكم الله بيننا، وقيل: فخلوا سبيلي، والمعنى متقارب. ثم لما لم يصنفوه، ولم يجيبوا دعوته، رجع إلى ربه بالدعاء كما حكى الله عنه بقوله: ﴿قد دعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون﴾ قرأ الجمهور بفتح الهمزة على إضمار حرف الجر أي: دعاه بأن هؤلاء، وقرأ الحسن، وابن أبي إسحاق، وعيسى بن عمر بكسرها على إضمار القول، وفي الكلام حذف أي: فكفروا فدعا ربه، والمجرمون الكافرون، وسماه دعاء مع أنه لم يذكر إلا مجرد كونهم مجرمين، لأنهم قد استحقوا بذلك الدعاء عليهم ﴿فأسر بعبادي ليلاً﴾ أجاب الله سبحانه دعاءه، فأمره أن يسري ببني إسرائيل ليلاً، يقال: أسرى، وأسرى لغتان، قرأ الجمهور (فأسر) بالقطع، وقرأ أهل الحجاز بالوصل، ووافقهم ابن كثير، فالقراءة الأولى من أسرى، والثانية من سرى، والجملة بتقدير القول أي: فقال الله لموسى أسر بعبادي ﴿إنكم متبعون﴾ أي: يتبعكم فرعون، وجنوده، وقد تقدم في غير موضع خروج فرعون بعدهم ﴿واترك البحر رهاً﴾ أي: ساكناً، يقال: رها يرهو رهاً: إذا سكن لا يتحرك. قال الجوهري: يقال: افعل ذلك رهاً أي: ساكناً على هيئتك، وعيش راه أي: ساكن، ورها البحر سكن، وكذا قال الهروي، وغيره، وهو المعروف في اللغة، ومنه قول الشاعر:

والخيل ترحم رها في أعنتها كالطير تنجو من الشرنوب ذي الوبر
أي: والخيل ترحم في أعنتها ساكنة، والمعنى: أترك البحر ساكناً على صفته بعد أن ضربته بعصاك، ولا تأمره أن يرجع كما كان ليخله آل فرعون بعدك، وبعد بني إسرائيل،

الذي هو من أشرط الساعة كابن كثير في تفسيره، وغيره، وهكذا ينفع قول من قال: إنه الدخان الكائن يوم فتح مكة متمسكاً بما أخرجه ابن سعد عن أبي هريرة قال: كان يوم فتح مكة دخان، وهو قول الله ﴿فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين﴾ فإن هذا لا يعارض ما في الصحيحين على تقدير صحة إسناده مع احتمال أن يكون أبو هريرة رضي الله عنه ظن من وقوع ذلك الدخان يوم الفتح أنه المراد بالآية، ولهذا لم يصرح بأنه سبب نزولها. وأخرج ابن جريج، عن عكرمة قال: قال ابن عباس: قال ابن مسعود: البطشة الكبرى: يوم بدر، وأنا أقول: هي يوم القيامة. قال ابن كثير: وهذا إسناده صحيح. وقال ابن كثير قبل هذا: فسر ذلك ابن مسعود بيوم بدر، وهذا قول جماعة ممن وافق ابن مسعود على تفسيره الدخان بما تقدم، وروي أيضاً عن ابن عباس من رواية العوفي عنه، وعن أبي بن كعب، وجماعة، وهو محتمل. والظاهر أن ذلك يوم القيامة، وإن كان يوم بدر يوم بطشة كبرى أيضاً. انتهى.

قلت: بل الظاهر أنه يوم بدر، وإن كان يوم القيامة يوم بطشة أكبر من كل بطشة، فإن السياق مع قریش، فتفسيره بالبطشة الخاصة بهم أولى من تفسيره بالبطشة التي تكون يوم القيامة لكل عاص من الإنس والجن.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَآيَاتِهِمْ كَرِيمٌ﴾ ﴿١﴾ أَنْ أَذْرَأَ إِلَهُ عِبَادَ اللَّهِ إِيَّايَ لَكُمُ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿٢﴾ وَأَنْ لَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ ثَبِينٍ ﴿٣﴾ وَإِنِّي عَذْتُ بِرَبِّي زُرَيْكَ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿٤﴾ وَإِنْ لَوْ قُوِيْتُ لِي فَأَعْرِضُونِ ﴿٥﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هَذَا قَوْمٌ فَجُورُونَ ﴿٦﴾ فَأَسْرَى بِأَيْدِي لَيْلَى أَنْتُمْ مُتَّبَعُونَ ﴿٧﴾ وَأَتْرَكُوا الْبَحْرَ رَهَاءً إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُفْرَقُونَ ﴿٨﴾ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَانِبِ وَيْجُونَ ﴿٩﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ وَنَعَمُوا كَانُوا فِيهَا مِنِكُمْ ﴿١١﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١٢﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ جِئْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْغُلَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُمْ كَانُوا عَلِيًّا مِنَ الْمُتَشَفِّينِ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَأَعْيَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُفْكَوْنُ ﴿١٨﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوَئِدَتُ الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنْزَرِينَ ﴿١٩﴾ فَأَنَّا يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنَّ كَثَرٌ مِنْكُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٠﴾ أَهَمْ حَيْرَ أَمْ قَوْمٌ بُعِثُوا وَلَدَيْنَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٢١﴾

قوله: ﴿ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون﴾ أي: ابتليناهم، ومعنى الفتنة هنا: أن الله سبحانه أرسل إليهم رسله، وأمروهم بما شرعه لهم، فكنبوهم، أو وسع عليهم الأرزاق، فطغوا وبغوا. قال الزجاج: بلوناهم، والمعنى: عاملناهم معاملة المختبر ببعث الرسل إليهم، وقرأ (فتنا) بالتشديد ﴿وجاءهم رسول كريم﴾ أي: كريم على الله كريم في قومه، وقال مقاتل: حسن الخلق بالتجاوز، والصفح. وقال الفراء: كريم على ربه إذا اقتصه بالنبوة ﴿إن أنوا إلى عباد الله﴾ أن هذه هي المفسرة لتقدم ما هو بمعنى القول، ويجوز أن تكون المخففة من الثقيلة، والمعنى: أن الشأن، والحديث أنوا

يُصعد لهم إلى السماء عمل طيب يبكي عليهم به، والمعنى: أنه لم يصب بفقدهم، وهلاكهم أحد من أهل السماء، ولا من أهل الأرض، وكانت العرب تقول عند موت السيد منهم: بكت له السماء، والأرض أي: عمت مصيبتة، ومن ذلك قول جرير: لما أتى خبر الزبير تواضعت سور المدينة والجبال الخشع ومنه قول النابغة:

بكي حارث الحولان من فقد ربه . وحوارن منه حاشع متضائل
وقال الحسن: في الكلام مضاف محذوف أي: ما بكى
عليهم أهل السماء، والأرض من الملائكة، والناس. وقال
مجاهد: إن السماء، والأرض تبكيان على المؤمن أربعين
صباحاً، وقيل: إنه يبكي على المؤمن مواضع صلاته،
ومصاعده عمله ﴿وما كانوا منظرين﴾ أي: مهلين إلى وقت
آخر بل عوجلوا بالعقوبة لفرط كفرهم، وشدة عنادهم
﴿ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين﴾ أي:
خلصناهم بإهلاك عدوهم مما كانوا فيه من الاستعباد، وقتل
الابناء واستحياء النساء، وتكليفهم للأعمال الشاقة، وقوله:
﴿من فرعون﴾ بدل من العذاب إما على حذف مضاف أي:
من عذاب فرعون، وإما على المبالغة كأنه نفس العذاب، فأبدل
منه، أو على أنه حال من العذاب تقديره صائراً من فرعون،
وقرأ ابن عباس (من فرعون) بفتح الميم على الاستفهام
التحقيقي كما يقال لمن اقتخر بحسبه، أو نسبه: من أنت؟ ثم
بيّن سبحانه حاله، فقال: ﴿إنه كان عالياً من المسرفين﴾
أي: عالياً في التكبر، والتجبر من المسرفين في الكفر بالله،
وارتكاب معاصيه كما في قوله: ﴿إن فرعون علا في
الأرض﴾ [القصص: 4]، ولما بيّن سبحانه كيفية دفعه للضرر
عن بني إسرائيل بيّن ما أكرمهم به، فقال: ﴿ولقد اخترناهم
على علم على العالمين﴾ أي: اختارهم الله على عالمي
زمانهم على علم منه باستحقاقهم لذلك، وليس المراد: أنه
اختارهم على جميع العالمين بدليل قوله في هذه الآية:
﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ [آل عمران: 110] وقيل:
على كل العالمين لكثرة الأنبياء فيهم، ومحل على علم
النصب على الحال من فاعل اخترناهم أي: حال كون
اختيارنا لهم على علم منا، وعلى العالمين متعلق باختارناهم
﴿وأتيناهم من الآيات﴾ أي: معجزات موسى ﴿ما فيه بلاء
مبين﴾ أي: اختبار ظاهر، وامتحان واضح لننظر كيف
يعملون. وقال قتادة: الآيات إنجاؤهم من الغرق، وخلق البحر
لهم، وتظليل الغمام عليهم، وإنزال المنّ، والسلوى لهم. وقال
ابن زيد: الآيات هي: الشر الذي كفهم عنه، والخير الذي
أمرهم به. وقال الحسن، وقتادة: البلاء المبين: النعمة الظاهرة
كما في قوله: ﴿وليبلي المؤمنين منه بلاء حسناً﴾ [الأنفال:
17]، ومنه قول زهير:

فينطبق عليهم، فيغفرون. وقال أبو عبيدة: رها بين رجليه يرهو رهواً أي: فتح.. قال: ومنه قوله: ﴿واترك البحر رهواً﴾، والمعنى: اتركه منفرجاً كما كان بعد دخولكم فيه، وكذا قال أبو عبيد: وبه قال مجاهد، وغيره. قال ابن عرفة: وهما يرجعان إلى معنى واحد، وإن اختلف لفظهما، لأن البحر إذا سكن جريه انفرج. قال الهروي: ويجوز أن يكون رهواً نعتاً لموسى أي: سر سائكناً على هيئتكم. وقال كعب، والحسن: رهواً: طريقاً. وقال الضحاک، والربيع: سهلاً. وقال عكرمة: يبساً كقوله: ﴿فأضرب لهم طريقاً في البحر يبساً﴾ [طه: 77] وعلى كل تقدير، فالمعنى: اتركه ذا رهو، أو اتركه رهواً على المبالغة في الوصف بالمصدر ﴿إنهم جند مغرقون﴾ أي: إن فرعون، وقومه مغرقون. أخبر سبحانه موسى بذلك ليسكن قلبه، ويطمئن جاشه. قرأ الجمهور بكسر إن على الاستثناف لقصد الإخبار بذلك، وقرئ بالفتح على تقدير لأنهم ﴿كم﴾ هي الخبرية المفيدة للتكثير، وقد مضى الكلام في معنى الآية في سورة الشعراء. قرأ الجمهور: (ومقام) بفتح الميم على أنه اسم مكان للقيام، وقرأ ابن هرمز، وقتادة، وابن السميع، وروى عن نافع بضمها اسم مكان الإقامة ﴿ونعمة كانوا فيها فاكهين﴾ النعمة بالفتح التمتع يقال: نعمه الله، وناعمه، فتنعم، وبالكسر المنة، وما أنعم به عليك، وفلان واسع النعمة أي: واسع المال. ذكر معنى هذا الجوهري. قرأ الجمهور (فاكهين) بالالف. وقرأ أبو رجاء، والحسن، وأبو الأشهب، والأعرج، وأبو جعفر، وشيبة (فكهين) بغير الف، والمعنى على القراءة الأولى: متنعمين طيبة أنفسهم، وعلى القراءة الثانية: أشربين بطرين. قال الجوهري: فكه الرجل بالكسر، فهو فكه إذا كان طيب النفس مزاجاً، والفكه أيضاً: الأشر البطر. قال: وفلكهين أي: ناعمين. وقال الثعلبي: هما لغتان كالحائر، والحذر، والفاره والفرة. وقيل: إن الفاكهة هو: المستمتع بأنواع اللذة كما يتمتع الرجل بأنواع الفاكهة ﴿كنكك ولورثناها قوماً آخرين﴾ الكاف في محل رفع على أنها خبر لمبتدأ محذوف. قال الزجاج: أي: الأمر كنكك، ويجوز أن تكون في محل نصب، والإشارة إلى مصدر فعل يدل عليه تركوا أي: مثل ذلك السلب سلبناهم إياها، وقيل: مثل ذلك الإخراج أخرجناهم منها، وقيل: مثل ذلك الإهلاك أهلكناهم. فعلى الوجه الأول يكون قوله: ﴿ولورثناها﴾ معطوفاً على ﴿تركوا﴾، وعلى الوجوه الآخرة يكون معطوفاً على الفعل المقدّر. والمراد بالقوم الآخرين: بنو إسرائيل، فإن الله سبحانه ملكهم أرض مصر بعد أن كانوا فيها مستعبدين، فصاروا لها وراثين أي: أنها وصلت إليهم كما يصل الميراث إلى الوارث، ومثل هذا قوله: ﴿ولورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها﴾ [الأعراف: 137] ﴿فما بكت عليهم السماء والأرض﴾ هذا بيان لعلم الاكتراث بهلاكهم. قال المفسرون: أي: إنهم لم يكونوا يعملون على الأرض عملاً صالحاً تبكى عليهم به، ولم

والأرض» ونكر أنهم لم يكونوا يعملون على الأرض عملاً صالحاً تبكي عليهم، ولم يصعد لهم إلى السماء من كلامهم، ولا من عملهم كلام صالح، فتقدمهم فتبكي عليهم. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في الشعب نحوه من قول ابن عباس. وأخرج أبو الشيخ عنه قال: يقال: الأرض تبكي على المؤمن أربعين صباحاً. وأخرج ابن أبي الدنيا، وابن جرير، عن شريح بن عبيد الحضرمي مرسلًا قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الإسلام بدأ غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ، إلا لا غربة على مؤمن ما مات مؤمن في غربة غابت عنه فيها بواكيه، إلا بكت عليه السماء، والأرض، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ ثم قال: إنهما لا يبكيان على كافر». وأخرج ابن المبارك، وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا، وابن المنذر من طريق المسيب بن رافع، عن علي بن أبي طالب قال: إن المؤمن إذا مات بكى عليه مصلاه من الأرض، ومصعد عمله من السماء، ثم تلا الآية. وأخرج ابن المبارك، وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب، عن ابن عباس قال: إن الأرض لتبكي على ابن آدم أربعين صباحاً، ثم قرأ الآية. وأخرج الطبراني، وابن مردويه عنه، عن النبي ﷺ قال: «لا تسبوا تبعاً فإنه قد أسلم». وأخرجه أحمد، والطبراني، وابن ماجه، وابن مردويه عن سهل بن سعد الساعدي قال: قال رسول الله ﷺ فنكر مثله، وروي نحو هذا عن غيرهما من الصحابة، والتابعين.

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِيُبَيِّنَ ﴿٧٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٩﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ يَمِيزُهُمْ أَجْوَدُ ﴿٨٠﴾ يَوْمَ لَا يَفْنَى تَوَلَّى عَنْ مَوْلَى سَيِّئًا وَلَا هُمْ يُعْصِرُونَ ﴿٨١﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْمَوْزِعُ الرَّحِيمُ ﴿٨٢﴾ إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُوفِ ﴿٨٣﴾ طَعَامُ الْآثِمِينَ ﴿٨٤﴾ كَأَلْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٨٥﴾ كَغَلِّ الْحَبِيرِ ﴿٨٦﴾ خُذْهُ فَأَعْيَلُوهُ إِنَّ سَوَاءَ الْحَبِيرِ ﴿٨٧﴾ ثُمَّ سُبُورُ فَرْقٍ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَبِيرِ ﴿٨٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٨٩﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي مَقَارِئِ امْرِئٍ ﴿٩١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُوتٍ ﴿٩٢﴾ يَلْمُزُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَنَكِّلِينَ ﴿٩٣﴾ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٩٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فِتْنَةٍ مُمَرِّجِينَ ﴿٩٥﴾ لَا يَدْخُلُونَهَا فِيهَا تَمُوتُ إِلَّا التَّوَنَةُ الْأُولَى وَوَقَّعَتْهُ عَذَابُ الْحَبِيرِ ﴿٩٦﴾ تَلَا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْقَوْرُ الْقَطِيفُ ﴿٩٧﴾ فَلَمَّا يَتَرَكَّهُ يَلْسَاكُ لَمَلَهُمْ يَنْكُرُونَ ﴿٩٨﴾ فَأَرْجَبَ إِنَّهُمْ مُرْتَبِطُونَ ﴿٩٩﴾

قوله: ﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما﴾ أي: بين جنسي السماء، والأرض ﴿للاعبيين﴾ أي: لغير غرض صحيح. قال مقاتل: لم نخلقهما عابثين لغير شيء. وقال الكلبي: لاهين، وقيل: غافلين. قرأ الجمهور (وما بينهما) وقرأ عمرو بن عبيد (وما بينهن) لأن السموات، والأرض جمع، وانتصاب لاعبيين على الحال ﴿وما خلقناهما﴾ أي: وما بينهما ﴿إلا بالحق﴾ أي: إلا بالأمر الحق، والاستثناء مفرغ

الأولى﴾ أي: ما هي إلا موتتنا الأولى التي نموتها في الدنيا، ولا حياة بعدها، ولا بعث، وهو معنى قوله: ﴿وما نحن بمفشرين﴾ أي: بمبعوثين، وليس في الكلام قصد إلى إثبات موة أخرى، بل المراد: ما العاقبة، ونهاية الأمر إلا الموة الأولى المزية للحياة الدنيوية، قال الرازي: المعنى: أنه لا يأتينا من الأحوال الشديدة إلا الموة الأولى، ثم أوردوا على من وعدهم بالبعث ما ظنوه دليلاً، وهو: حجة داحضة، فقالوا: ﴿فاتوا بأبائنا﴾ أي: أرجعهم بعد موتهم إلى الدنيا ﴿إن كنتم صادقين﴾ فيما تقولونه، وتختبرونا به من البعث. ثم ردَّ الله سبحانه عليهم بقوله: ﴿أهم خير أم قوم تبع﴾ أي: أهم خير في القوة، والمنعة، أم قوم تبع الحميري الذي دار في الدنيا بجيوشه، وغلب أهلها، وقهرهم، وفيه وعيد شديد. وقيل: المراد بقوم تبع: جميع أتباعه لا واحد بعينه. وقال الفراء: الخطاب في قوله: ﴿فاتوا بأبائنا﴾ لرسول الله ﷺ وحده كقوله: ﴿ربِّ أرجعون﴾ [المؤمنون: 99]، والأولى أنه خطاب له، ولأتباعه من المسلمين ﴿و﴾ المراد به ﴿الذين من قبلهم﴾ عاد، وثمود، ونحوهم، وقوله: ﴿أهلكناهم﴾ جملة مستأنفة لبيان حالهم، وعاقبة أمرهم، وجملة ﴿إنهم كانوا مجرمين﴾ تعليل لإهلاكهم، والمعنى: أن الله سبحانه قد أهلك هؤلاء بسبب كونهم مجرمين، فإهلاكه لمن هو دونهم بسبب كونه مجرماً مع ضعفه، وقصور قدرته بالأولى.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿ولقد فتننا﴾ قال: ابتلينا ﴿قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم﴾ قال: هو: موسى ﴿أن أنوا إلي عباد الله﴾ أرسلوا معي بني إسرائيل ﴿وأن لا تعلوا على الله﴾ قال: لا تعثوا ﴿إني أتيكم بسلطان مبين﴾ قال: بعذر مبين ﴿وإني عذت بربِّي وربكم أن ترجموني﴾ قال: بالحجارة ﴿وأن لم تؤمنوا لي فاعزلوني﴾ أي: خلوا سبيلي. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عنه في قوله: ﴿أن أنوا إلي عباد الله﴾ قال: يقول: اتبعوني إلى ما ادعوكم إليه من الحق، وفي قوله: ﴿وأن لا تعلوا على الله﴾ قال: لا تفتروا وفي قوله: ﴿أن ترجموني﴾ قال: تشتمون. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه أيضاً في قوله: ﴿رهوا﴾ قال: سمنا. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿رهوا﴾ قال: كهيشته، وامضه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه أيضاً: أنه سأل كعباً عن قوله: ﴿واترك البحر رهوا﴾ قال: طريقاً. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس أيضاً قال: الرهو: أن يترك كما كان. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه أيضاً في قوله: ﴿ومقام كريم﴾ قال: المنابر. وأخرج ابن مردويه، عن جابر مثله. وأخرج الترمذي، وابن أبي الدنيا، وأبو يعلى، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وأبو نعيم في الحلية، والخطيب عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد إلا وله بابان: باب يصعد منه عمله، وباب ينزل منه رزقه، فإذا مات، فقداده، وبكى عليه، وتلا هذه الآية ﴿فما بكت عليهم السماء

وقيل العتل: أن يأخذ بتلابيب الرجل، ومجامعه، فيجره، ومنه قول الشاعر يصف فرساً:

نقرعه قرعاً ولسنا نعتله

ومنه قول الفرزدق يهجو جريراً:

حتى ترد إلى عطية تعتل

قرأ الجمهور **﴿فَاعْتَلَوْه﴾** بكسر التاء. وقرأ نافع، وابن كثير، وابن عامر بضمها، وهما: لغتان **﴿إلى سواء الحميم﴾** أي: إلى وسطه، كقوله: **﴿فَرَأَهُ فِي سَوَاءِ الْحَمِيمِ﴾** [الصافات: 55] **﴿ثُمَّ صَبُوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾** من هي التبعية أي: صبوا فوق رأسه بعض هذا النوع، وإضافة العذاب إلى الحميم للبيان أي: عذاب هو الحميم، وهو: الماء الشديد الحرارة كما تقدم **﴿نَقَّ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾** أي: وقولوا له تهكماً، وتقريعاً، وتوبيخاً: نَقَّ العذاب إنك أنت العزيز الكريم. وقيل: إن أبا جهل كان يزعم أنه أعز أهل الوادي، وأكرمهم، فيقولون له: نَقَّ العذاب أيها المتعز المتكبر في زعمك، وفيما كنت تقول. قرأ الجمهور (إنك) بكسر الهمزة، وقرأ الكسائي، وروي ذلك عن عليّ بفتحها أي لأنك. قال الفراء: أي: بهذا القول الذي قلته في الدنيا، والإشارة بقوله: **﴿إِنْ هَذَا﴾** إلى العذاب **﴿مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾** أي: تشكون فيه حين كنتم في الدنيا، والجمع باعتبار جنس الأثيم. ثم ذكر سبحانه مستقر المتقين، فقال: **﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾** أي: الذين اتقوا الكفر، والمعاصي. قرأ الجمهور (مقام) بفتح الميم، وقرأ نافع، وابن عامر بضمها. فعلى القراءة الأولى هو: موضع القيام، وعلى القراءة الثانية هو: موضع الإقامة قاله الكسائي، وغيره. وقال الجوهري: قد يكون كل واحد منهما بمعنى: الإقامة، وقد يكون بمعنى: موضع القيام. ثم وصف المقام بأنه أمين يأمن صاحبه من جميع المخاوف **﴿فِي جَنَّاتٍ وَعِیُونٍ﴾** بدل من مقام أمين، أو بيان له، أو خبر ثانٍ **﴿يَلْبَسُونَ مِنْ سُنُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾** خبر ثانٍ، أو ثالث، أو حال من الضمير المستكن في الجار والمجرور، والسُنُس: ما رُق من الديباج، والإستبرق ما غلظ منه، وقد تقدم بيانه في سورة الكهف، وانتصاب **﴿مُتَقَابِلِينَ﴾** على الحال من فاعل يلبسون أي: متقابلين في مجالسهم ينظر بعضهم إلى بعض، والكاف في قوله: **﴿كَذَلِكَ﴾** إما نعت مصدر محذوف أي: نفعل بالمتقين فعلاً كذلك. أو مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أي: الأمر كذلك **﴿وَزُجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾** أي: أكرمناهم بأن زوجناهم بحور عين، والحدود جمع حوراء وهي: البيضاء، والعين جمع عیناء وهي: الواسعة العينين. وقال مجاهد: إنما سميت الحوراء حوراء، لأنه يحار الطرف في حسنهما، وقيل: هو من حور العين وهو: شدة بياض العين في شدة سوادها كذا قال أبو عبيدة. وقال الأصمعي: ما أدري ما الحور في العين. قال أبو عمرو: الحور أن تسود العين كلها مثل أعين الأطباء، والبقر، قال: وليس في بني آدم حور،

من أعم الأحوال. وقال الكلبي: إلا للحق، وكذا قال الحسن، وقيل: إلا لإقامة الحق، وإظهاره **﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾** أن الأمر كذلك، وهم المشركون **﴿إِنْ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾** ميقاتهم أجمعين أي: إن يوم القيامة الذي يفصل فيه الحق عن الباطل ميقاتهم أي: الوقت المجمعول لتمييز المحسن من المسيء، والمحق من المبطل، أجمعين لا يخرج عنهم أحد من ذلك. وقد اتفق القراء على رفع ميقاتهم على أنه خبر إن، واسمها يوم الفصل. وأجاز الكسائي، والفراء نصبه على أنه اسمها، ويوم الفصل خبرها. ثم وصف سبحانه ذلك اليوم، فقال: **﴿يَوْمَ لَا يَغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئاً﴾** يوم بدل من يوم الفصل، أو منتصب بفعل مضمّر يدل عليه الفصل أي: يفصل بينهم يوم لا يغني، ولا يجوز أن يكون معمولاً للفصل؛ لأنه قد وقع الفصل بينهما بأجنبي، والمعنى: أنه لا ينفع في ذلك اليوم قريب قريباً، ولا ينفع عنه شيئاً، ويطلق المولى على الولي، وهو: القريب، والناصر **﴿وَلَا هُمْ يَنْصُرُونَ﴾** الضمير راجع إلى المولى باعتبار المعنى؛ لأنه نكرة في سياق النفي، وهي من صيغ العموم أي: ولا هم يمنعون من عذاب الله **﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ﴾** قال الكسائي: الاستثناء منقطع أي: لكن من رحم الله، وكذا قال الفراء. وقيل: هو متصل، والمعنى: لا يغني قريب عن قريب إلا المؤمنين، فإنهم يؤمن لهم في الشفاعة، فيشفعون، ويجوز أن يكون مرفوعاً على البدل من مولى الأول، أو من الضمير في ينصرون **﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾** أي: الغالب الذي لا ينصر من أراد عذابه الرحيم لعباده المؤمنين. ثم لما وصف اليوم ذكر بعده، وعيد الكفار، فقال: **﴿إِنْ شَجَرَتِ الزُّقُومُ * طَعَامَ الْأَثِيمِ﴾** شجرة الزقوم هي: الشجرة التي خلقها الله في جهنم، وسماها الشجرة الملعونة، فإذا جاع أهل النار التجنوا إليها، فاكلوا منها، وقد مضى الكلام على شجرة الزقوم في سورة الصافات، والأثيم الكثير الإثم. قال في الصحاح: أثم الرجل بالكسر إثماً، ومائماً: إذا وقع في الإثم، فهو: أثم، وأثيم، وأثوم. فمعنى طعام الأثيم: ذي الإثم **﴿كَالْمُهْلِ﴾** وهو: دردي الزيت، وعكر القطران. وقيل: هو النحاس المذاب. وقيل: كل ما ينوب في النار **﴿يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغْلِي الْحَمِيمِ﴾** قرأ الجمهور تغلي بالفوقية على أن الفاعل ضمير يعود إلى الشجرة، والجملة خبر ثانٍ، أو حال، أو خبر مبتدأ محذوف أي: تغلي غلياً مثل غلي الحميم، وهو: الماء الشديد الحرارة. وقرأ ابن كثير، وحفص، وابن محيصن، وورش، عن يعقوب (يغلي) بالتحية على أن الفاعل ضمير يعود إلى الطعام، وهو: في معنى الشجرة، ولا يصح أن يكون الضمير عائداً إلى المهل؛ لأنه مشبه به، وإنما يغلي ما يشبه بالمهل، وقوله: **﴿كَغْلِي الْحَمِيمِ﴾** صفة مصدر محذوف أي: غلياً كغلي الحميم **﴿خُنُوهُ فَاعْتَلَوْهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾** أي: يقال للملائكة الذين هم خزنة النار: خنوه أي: الأثيم، فاعتلوه، العتل: القود بالعنف، يقال: عتله يعتله، إذا جرّه، وذهب به إلى مكروه،

في قوله: ﴿إِنْ شَجَرَتِ الزُّقُومَ * طَعَامَ الْإِنْسِمْ﴾ قال: المهمل. وأخرج عنه أيضاً: ﴿نَقِ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ قال: هو أبو جهل بن هشام.

تفسير سورة الجاثية (١)

وهي مكية كلها في قول الحسن، وجابر، وعكرمة. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس، وابن الزبير أنها نزلت بمكة، ودوي عن ابن عباس، وقتادة أنها قالوا: إلا آية منها، وهي قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلى ﴿أَيَّامَ اللَّهِ﴾ [الجاثية: 14] فإنها نزلت بالمدينة في عمر بن الخطاب، كما سيأتي.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ① نَزَّلَ الْكِتَابَ مِنَ اللَّهِ الْمَوْجِزَ الْحَكِيمِ ② إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ③ وَفِي حَقِّكَ وَمَا بَيْنَ يَدَيْكَ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ④ وَلَنُخْلِفَ الْأَبْلَ وَالْأَبَارَ وَمَا أَزَلَّ اللَّهُ مِنَ السَّكَمِ مِنْ رِزْقٍ فَآخَا بِهِ الْأَرْضُ بَعْدَ مَوْتِهَا وَنَصْرِيفَ الْإِنْسِمْ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ⑤ يَذَكِّرُكَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّكَ تَتْلُوهُمَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ قَوْلِي حَبِيبِ بَعْدَ اللَّهِ وَرَأَيْنَاهُ يُؤْمِنُونَ ⑥ وَلَئِنْ أَفَّاكَ أَتَيْتُ بِمَعْنَى آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُعْرِضُ شَتْرَكَكَ كَأَنَّكَ تَسْمَعُ فَيُزِيلُكَ بِمَدَابِ الْأَبْرِ ⑦ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا أَخَذَهُمْ هَزْأً أُولَئِكَ لَمْ يَذَكِّرْهُمْ مِنْهُنَّ ⑧ وَمِنْ دَرَكِهِمْ جَهَنَّمَ وَلَا يَخْفَى عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا أُخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أُولَئِكَ لَمْ يَذَكِّرْهُمْ عَظِيمٌ ⑨ هَذَا هَدَى وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَذَكِّرُ رَيْبَهُمْ لَمْ يَذَكِّرْهُمْ مِنْ يَجْزِي أَيْدِيَهُ ⑩ اللَّهُ أَلَدَى سَحَرٍ لَكَ الْبَحْرُ يَجْرِي الْفَلَاحُ فِيهِ يَأْمُرُ وَيَنْتَعِلُ مِنْ قَضِيهِ وَكَلَّمَكَ شُكْرُونَ ⑪ وَسَحَرُ لَكَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ⑫ قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ يَجْزِي قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ⑬ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَلِنَفْسِهِ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكَ رُجُوعٌ ⑭

قوله: ﴿حَمْدٌ﴾ قد تقدم الكلام في هذه الفاتحة، وفي إعرابها في فاتحة سورة غافر، وما بعدها، فإن جعل اسماً للسورة، فمحلها الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أو مبتدأ، وإن جعل حروفاً مسرودة على نمط التعديد، فلا محل له، وقوله: ﴿تَنْزِيلَ الْكِتَابِ﴾ على الوجه الأول خبر ثان، وعلى الوجه الثاني خبر المبتدأ، وعلى الوجه الثالث خبر مبتدأ محذوف، أو مبتدأ وخبره ﴿مَنْ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ثم أخبر سبحانه بما يدل على قدرته الباهرة، فقال: ﴿إِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: فيها نفسها، فإنها من فنون

وإنما قيل للنساء حور: لأنهنَّ شبيهن بالخطباء، والبقر. قيل: والمراد بقوله: ﴿زُوجْنَاهُمْ﴾ قرناهم، وليس من عقد التزويج، لأنه لا يقال: زُوِّجَتْه بامرأة، وقال أبو عبيدة: وجعلناهم أزواجاً لهم كما يزُوجُ البعل بالبعل أي: جعلناهم اثنين اثنين، وكذا قال الأخفش ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكْهَةٍ آمَنِينَ﴾ أي: يأمرون بإحضار ما يشتهون من الفواكه حال كونهم آمنين من التختم، والأسقام، والآلام. قال قتادة: آمنين من الموت، والوصب، والشيطان، وقيل: من انقطاع ما هم فيه من النعيم ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ أي: لا يموتون فيها أبداً إلا الموتة التي ذاقوها في الدنيا، والاستثناء منقطع أي: لكن الموتة التي قد ذاقوها في الدنيا كذا قال الزجاج والفراء، وغيرهما، ومثل هذه الآية قوله: ﴿وَلَا تَنْكَحُوا مَا نَحَ أَبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: 22] وقيل: إن إلا بمعنى بعد، كقولك: ما كلمت رجلاً اليوم إلا رجلاً عنك أي: بعد رجل عنك، وقيل: هي بمعنى سوى أي: سوى الموتة الأولى. وقال ابن قتيبة: إنما استثنى الموتة الأولى وهي في الدنيا، لأن السعداء حين يموتون يصيرون بلطف الله، وقدرته إلى أسباب من الجنة يلقون الروح، والريحان، ويرون منازلهم من الجنة، وتفتح لهم أبوابها، فإذا ماتوا في الدنيا، فكانهم ماتوا في الجنة لاتصالهم بأسبابها، ومشاهدتهم إياها، فيكون الاستثناء على هذا متصلاً. واختار ابن جرير أن إلا بمعنى بعد، واختار كونها بمعنى سوى ابن عطية ﴿وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾. قرأ الجمهور (وقاهم) بالتخفيف، وقرأ أبو حنيفة بالتشديد على المبالغة ﴿فَضْلاً مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: لأجل الفضل منه، أو إعطاهم ذلك عطاءً فضلاً منه ﴿وَالَّذِي هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي: ذلك الذي تقدم نكره هو: الفوز الذي لا فوز بعده المتناهي في العظم. ثم لما بين سبحانه الدلائل، وذكر الوعد، والوعيد، قال: ﴿فَإِنَّمَا يَسِرُنَا بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: إنما أنزلنا القرآن بلغتك كي يفهمه قومك، فيتذكروا، ويعتبروا، ويعملوا بما فيه، أو سهلناه بلغتك عليك، وعلى من يقرؤه لعلهم يتذكرون ﴿فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ﴾ أي: فانظر ما وعدناك من النصر عليهم، وإهلاكهم على يدك، فإنهم منتظرون ما ينزل بك من موت، أو غيره، وقيل: انتظر أن يحكم الله بينك وبينهم، فإنهم منتظرون بك نواب الدهر، والمعنى متقارب.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿نَقِ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ يقول: لست بعزير، ولا كريم. وأخرج الأموي في مغازيه، عن عكرمة قال: «لقي رسول الله ﷺ أبا جهل، فقال: إن الله أمرني أن أقول لك: ﴿أُولَىٰ لَكَ فَاوَلَىٰ﴾ ثم أُولَىٰ لَكَ فَاوَلَىٰ» [القيامة: 34، 35] قال: فنزع يده من يده، وقال: ما تستطيع لي أنت، ولا صاحبك من شيء، لقد علمت أنني أمتع أهل بطحاء، وأنا العزيز الكريم، فقتله الله يوم بدر، وأثله، وعيره بكلمته، وأنزل: ﴿نَقِ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾. وأخرج ابن مردويه، عن ابن عباس

(1) تنبيه: جرى المفسر رحمه الله في ضبط ألفاظ القرآن في تفسيره هذا على رواية نافع، مع تعرضه للقراءات السبع، وأثبتنا القرآن طبق رسم المصحف العثماني.

المحل نصب على الحال، وقيل: استئناف، والاولى أولى، وقوله: **﴿تَتَلَّى عَلَيْهِ﴾** في محل نصب على الحال **﴿ثُمَّ يَصْرَخُ﴾** على كفره، ويقوم على ما كان عليه حال كونه **﴿مُسْتَكْبِرًا﴾** أي: يتمادى على كفره متعظماً في نفسه عن الانقياد للحق، والإصرار مأخوذ من إصرار الحمار على العانة وهو أن ينحني عليها صاراً أنثيه. قال مقاتل: إذا سمع من آيات القرآن شيئاً اتخذها هزواً، وجملة **﴿كَانَ لَمْ يَسْمَعْهَا﴾** في محل نصب على الحال، أو مستأنفة؛ وإن هي المخففة من الثقيلة، واسمها ضمير شأن محذوف **﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾** هذا من باب التهكم أي: فبشره على إصراره واستكباره، وعدم استماعه إلى الآيات بعذاب شديد الألم **﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شيئاً﴾** قرأ الجمهور (علم) بفتح العين، وكسر اللام مخففة على البناء للفاعل. وقرأ قتادة، ومطر الوراق على البناء للمفعول. والمعنى: أنه إذا وصل إليه علم شيء من آيات الله **﴿اتَّخَذَهَا﴾** أي: الآيات **﴿هَزْوَاً﴾** وقيل: الضمير في اتخذها عائد إلى شيئاً؛ لأنه عبارة عن الآيات، والاولى أولى. والإشارة بقوله: **﴿أَوَّلُكَ﴾** إلى كل أفاك متصف بتلك الصفات **﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾** بسبب ما فعلوا من الإصرار، والاستكبار عن سماع آيات الله، واتخاذها هزواً، والعذاب المهين هو المشتمل على الإذلال، والفضيحة **﴿مَنْ وَرَأَاهُمْ جَهَنَّمَ﴾** أي: من وراء ما هم فيه من التعزز بالندى، والتكبر عن الحق جهنم؛ فإنها من قدامهم؛ لأنهم متوجهون إليها، وعبر بالوراء عن القدام، كقوله: **﴿مَنْ وَرَأَاهُ جَهَنَّمَ﴾** [إبراهيم: 16] وقول الشاعر:

ليس ورأني إن تراءخت منيتي

وقيل: جعلها باعتبار إعراضهم عنها، كأنها خلفهم **﴿وَلَا يَغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شيئاً﴾** أي: لا يدفع عنهم ما كسبوا من أموالهم، وأولادهم شيئاً من عذاب الله، ولا ينفعهم بوجه من وجوه النفع **﴿وَلَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أولياء﴾** معطوف على ما كسبوا أي: ولا يغني عنهم ما اتخذوا من دُونِ اللَّهِ أولياء من الأصنام، و «ما» في الموضعين إما مصدرية، أو موصولة، وزيادة لا في الجملة الثانية للتأكيد **﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾** في جهنم التي هي من ورأهم **﴿هَٰذَا هَٰذِي﴾** جملة مستأنفة من مبتدأ، وخبر يعني: هذا القرآن هدى للمهتدين به **﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بآياتِ رَبِّهِمْ﴾** القرآنية **﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رَجْزٍ أَلِيمٍ﴾** الرجز أشد العذاب. قرأ الجمهور (اليم) بالجرّ صفة للرجز. وقرأ ابن كثير، وحفص، وابن محيصن بالرفع صفة لعذاب **﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ﴾** أي: جعله على صفة تتمكنون بها من الركوب عليه **﴿لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾** أي: بإذنه وإقداره لكم **﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾** بالتجارة تارة، والغوص للدرّ، والمعالجة للصيد وغير ذلك **﴿وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾** أي: لكي تشكروا النعم التي تحصل لكم بسبب هذا التسخير للبحر **﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ﴾** أي: سخر لعباده جميع ما خلقه في سماواته، وأرضه

الآيات، أو في خلقها. قال الزجاج: ويدلّ على أن المعنى في خلق السموات والأرض قوله: **﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾** أي: في خلقكم أنفسكم على أطوار مختلفة. قال مقاتل: من تراب، ثم من نطفة إلى أن يصير إنساناً، **﴿وَمَا يَبُتُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٍ﴾** أي: وفي خلق ما يبتُّ من دابة، وارتفاع آيات على أنها مبتدأ مؤخر، وخبره الظرف قبله، وبالرفع قرأ الجمهور، وقرأ حمزة، والكسائي (آيات) بالنصب عطفًا على اسم إن، والخبر قوله: **﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾** كأنه قيل: وإن في خلقكم وما يبتُّ من دابة آيات، أو على أنها تأكيد لآيات الأولى. وقرأ الجمهور أيضاً (آيات لقوم يعقلون) بالرفع، وقرأ حمزة، والكسائي بنصبها مع اتفاقهم على الجرّ في اختلاف، أما جرّ اختلاف، فهو على تقدير حرف الجرّ أي: **﴿وَفِي﴾** في **﴿لِخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾** آيات، فمن رفع آيات، فعلى أنها مبتدأ، وخبرها في اختلاف، وأما النصب فهو من باب العطف على معمولي عاملين مختلفين. قال الفراء: الرفع على الاستئناف بعد إن، تقول العرب: إن لي عليك مالا، وعلى أخيك مال، ينصبون الثاني ويرفعونه، وللنحاة في هذا الموضع كلام طويل. والبحث في مسألة العطف على معمولي عاملين مختلفين، وحجج المجوّزين له، وجوابات المانعين له مقرر في علم النحو مبسوط في مطولاته. ومعنى: **﴿مَا يَبُتُّ مِنْ دَابَّةٍ﴾** ما يفرقه وينشره **﴿وَلِخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾** تعاقبهما، أو تفاوتهما في الطول والقصر، وقوله: **﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ﴾** معطوف على اختلاف، والرزق المطر؛ لأنه سبب لكل ما يرزق الله العباد به، وإحياء الأرض: إخراج نباتها، و **﴿مَوْتَهَا﴾** خلّوها عن النبات **﴿وَفِي﴾** معنى **﴿تَصْرِيفِ الرِّيحِ﴾**: أنها تهب تارة من جهة وتارة من أخرى، وتارة تكون حارة وتارة تكون باردة، وتارة نافعة، وتارة ضارة **﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾** أي: هذه الآيات المذكورة هي حجج الله وبراهينه، ومحل نتلوها عليك النصب على الحال، ويجوز أن يكون في محل رفع على أنه خبر اسم الإشارة، وآيات الله بيان له، أو بدل منه، وقوله: **﴿بِالْحَقِّ﴾** حال من فاعل نتلو، أو من مفعوله أي: محقين، أو ملتبسة بالحق، ويجوز أن تكون الباء للسببية، فتتعلق بنفس الفعل **﴿فَبَيَّأَ حَيْثُ بَعَدَ اللَّهُ وَآيَاتِهِ يَوْمُنُونَ﴾** أي: بعد حديث الله وبعد آياته، وقيل إن المقصود: فبأي حديث بعد آيات الله، ونكر الاسم الشريف ليس إلا لقصد تعظيم الآيات، فيكون من باب: أعجبني زيد، وكرمه. وقيل المراد: بعد حديث الله، وهو القرآن كما في قوله: **﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾** [الزمر: 23]، وهو المراد بالآيات، والعطف لمجرد التغاير العنواني. قرأ الجمهور (يؤمنون) بالفوقية، وقرأ حمزة، والكسائي بالتحية. والمعنى: يؤمنون بأيّ حديث، وإنما قدّم عليه؛ لأن الاستفهام له صدر الكلام **﴿وَيُولِ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾** أي: لكل كذاب كثير الإثم مرتكب لما يوجبه، والويل: واد في جهنم. ثم وصف هذا الأفّاك بصفة أخرى، فقال: **﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تَتَلَّى عَلَيْهِ﴾** وقيل: إن يسمع في

زوال الخلاف موجباً لثبوته، وقيل المراد بالعلم: يوشع بن نون، فإنه آمن به بعضهم وكفر بعضهم، وقيل: نبوة محمد ﷺ، فاختلّفوا فيها حسداً وبغياً، وقيل: «بغياً» من بعضهم على بعض بطلب الرئاسة «إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون» من أمر الدين، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته «ثم جعلناك على شريعة من الأمر» الشريعة في اللغة: المذهب والملة والمنهاج ويقال: لمرشعة الماء وهي مورد شاربيه شريعة، ومنه الشارع؛ لأنه طريق إلى المقصد، فالمراد بالشريعة هنا: ما شرعه الله لعباده من الدين، والجمع شرائع أي: جعلناك يا محمد على منهاج واضح من أمر الدين يوصلك إلى الحق «فاتبعوها» فاعمل بأحكامها في أمك «ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون» توحيد الله وشرائعه لعباده، وهم كفار قريش ومن وافقهم «إنهم لن يغفوا عنك من الله شيئاً» أي: لا يدفعون عنك شيئاً مما أراد الله بك إن اتبعت أهواءهم «وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض» أي: أنصار ينصر بعضهم بعضاً قال ابن زيد: إن المنافقين أولياء اليهود «والله ولي المتقين» أي: ناصرهم، والمراد بالمتقين: الذين اتقوا الشرك والمعاصي، والإشارة بقوله: «هَذَا» إلى القرآن، أو إلى اتباع الشريعة، وهو مبتدأ وخبره «بصائر للناس» أي: براهين ودلائل لهم فيما يحتاجون إليه من أحكام الدين، جعل ذلك بمنزلة البصائر في القلوب، وقرئ (هذه بصائر) أي: هذه الآيات؛ لأن القرآن بمعناها، كما قال الشاعر:

سائل بني أسد ما هذه الصوت

لأن الصوت بمعنى الصيحة «وهذَى» أي: رشد، وطريق يؤدي إلى الجنة لمن عمل به «ورحمة» من الله في الآخرة «للقوم يوقنون» أي: من شأنهم الإيقان، وعدم الشك، والتزلزل بالشبهة «أم حسب الذين اجترحوا السيئات» أم هي المنقطعة المقنطرة ببل، والهمزة وما فيها من معنى بل للانتقال من البيان الأول إلى الثاني، والهمزة لإنكار الحسبان، والاجترارح الاكتساب، ومنه الجوارح، وقد تقدّم في المائدة، والجملة مستأنفة؛ لبيان تباين حالي المسيئين والمحسنين، وهو معنى قوله: «إن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات» أي: نسوي بينهم مع اجترحهم السيئات، وبين أهل الحسنات «سواء محياهم ومماتهم» في دار الدنيا وفي الآخرة، كلا لا يستورن، فإن حال أهل السعادة فيهما غير حال أهل الشقاوة. وقيل المراد: إنكار أن يستوروا في الممات، كما استوروا في الحياة. قرأ الجمهور (سواء) بالرفع على أنه خبر مقدم، والمبتدأ محياهم ومماتهم والمعنى: إنكار حسبانهم أن محياهم ومماتهم سواء. وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص (سواء) بالنصب على أنه حال من الضمير المستتر في الجار والمجرور في قوله: «كالذين آمنوا» أو على أنه مفعول ثان لحسب، واختار قراءة النصب أبو عبيد، وقال معناه: نجعلهم

سواء، وقرأ الأعمش، وعيسى بن عمر (مماتهم) بالنصب على معنى سواء في محياهم ومماتهم، فلما سقط الخافض انتصب، أو على البذل من مفعول نجعلهم بدل اشتغال «سواء ما يحكمون» أي: سواء حكمهم هذا الذي حكموا به «وخلق الله السموات والأرض بالحق» أي: بالحق المقتضي للعدل بين العباد، ومحل بالحق النصب على الحال من الفاعل، أو من المفعول، أو الباء للسببية، وقوله: «ولتجزى كل نفس بما كسبت» يجوز أن يكون على الحق؛ لأن كلا منهما سبب، فعطف السبب على السبب، ويجوز أن يكون معطوفاً على محذوف، والتقدير: خلق الله السموات والأرض؛ ليدل بهما على قدرته ولتجزى، ويجوز أن تكون اللام للصيرورة «وهم لا يظلمون» أي: النفوس المملول عليها بكل نفس لا يظلمون بنقص ثواب، أو زيادة عقاب، ثم عجب سبحانه من حال الكفار، فقال: «إقرايت من اتخذ إلهه هواه» قال الحسن، وقتادة: ذلك الكافر اتخذ دينه ما يهواه، فلا يهوى شيئاً إلا ركبته، وقال عكرمة: يعبد ما يهواه، أو يستحسنه، فإذا استحسن شيئاً، وهواه اتخذه إلهاً. قال سعيد بن جبير: كان أحدهم يعبد الحجر، فإذا رأى ما هو أحسن منه رمى به وعبد الآخر «وأضله الله على علم» أي: على علم قد علمه، وقيل المعنى: أضله عن الثواب على علم منه بأنه لا يستحقه، وقال مقاتل: على علم منه أنه ضال؛ لأنه يعلم أن الصنم لا ينفع ولا يضر. قال الزجاج: على سوء في علمه أنه ضال قبل أن يخلقه، ومحل على علم النصب على الحال من الفاعل، أو المفعول «وختم على سمعه وقلبه» أي: طبع على سمعه حتى لا يسمع الوعظ، وطبع على قلبه حتى لا يفقه الهدى «وجعل على بصره غشاوة» أي: غطاء حتى لا يبصر الرشيد. قرأ الجمهور (غشاوة) بالالف مع كسر الغين، وقرأ حمزة، والكسائي (غشوة) بغير ألف مع فتح الغين، ومنه قول الشاعر:

لئن كنت البستني غشوة لقد كنت أصفيتك الودحينا

وقرأ ابن مسعود، والأعمش كقراءة الجمهور مع فتح الغين وهي لغة ربيعة، وقرأ الحسن، وعكرمة بضمها وهي لغة عكل «فمن يهديه من بعد الله» أي: من بعد إضلال الله له «أفلا تذكرون» تذكر اعتبار حتى تعلموا حقيقة الحال، ثم بين سبحانه بعض جهالاتهم وضلالاتهم فقال: «وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا» أي: ما الحياة إلا الحياة التي نحن فيها «نموت ونحيا» أي: يصيبنا الموت والحياة فيها، وليس وراء ذلك حياة، وقيل: نموت نحن، ونحيا فيها أولادنا، وقيل: نكون نطفاً ميتة، ثم نصير أحياء. وقيل: في الآية تقويم وتأخير أي: نحيا ونموت، وكذا قرأ ابن مسعود، وعلى كل تقدير، فمرادهم بهذه المقالة: إنكار البعث وتكذيب الآخرة «وما يهلكنا إلا الدهر» أي: إلا مرور الأيام والليالي قال مجاهد: يعني: السنين والأيام. وقال قتادة: إلا العمر، والمعنى واحد. وقال قطرب: المعنى: وما يهلكنا إلا الموت. وقال عكرمة: وما يهلكنا إلا الله «وما لهم بذلك من

هذا من تمام ما يقال لهم، والقائل بهذا: هم الملائكة وقيل: هو من قول الله سبحانه أي: يشهد عليكم، وهو استعارة، يقال: نطق الكتاب بكذا أي: بين، وقيل: إنهم يقرءونه فيذكرون ما عملوا، فكانه ينطق عليهم بالحق الذي لا زيادة فيه، ولا نقصان، ومحل ينطق النصب على الحال، أو الرفع على أنه خبر آخر لاسم الإشارة، وجملة: **﴿إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾** تعليل للنطق بالحق أي: نأمر الملائكة بنسخ أعمالكم أي: بكتبتها، وتثبيتها عليكم. قال الواحدي: وكثير المفسرين على أن هذا الاستنساخ من اللوح المحفوظ، فإن الملائكة تكتب منه كل عام ما يكون من أعمال بني آدم، فيجئون ذلك موافقاً لما يعملونه قالوا: لأن الاستنساخ لا يكون إلا من أصل. وقيل المعنى: نأمر الملائكة بنسخ ما كنتم تعملون. وقيل: إن الملائكة تكتب كل يوم ما يعمله العبد، فإذا رجعوا إلى مكانهم نسخوا منه الحسنات والسيئات، وتركوا المباحات. وقيل: إن الملائكة إذا رفعت أعمال العباد إلى الله سبحانه أمر عز وجل أن يثبت عنده منها ما فيه ثواب وعقاب، ويسقط منها ما لا ثواب فيه ولا عقاب **﴿فاما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته﴾** أي: الجنة، وهذا تفصيل لحال الفريقين، فالمؤمنون يدخلهم الله برحمته الجنة **﴿ذلك﴾** أي: الإدخال في رحمته **﴿هو الفوز للمبين﴾** أي: الظاهر الواضح **﴿ولما الذين كفروا افلم تكن آياتي تتلى عليكم﴾** أي: فيقال لهم ذلك، وهو استفهام توبيخ: لأن الرسل قد أتتهم وتلى عليهم آيات الله، فكذبوها ولم يعملوا بها **﴿فاستكبرتم وكنتم قوماً مجرمين﴾** أي: تكبرتم عن قبولها، وعن الإيمان بها، وكنتم من أهل الإجرام، وهي الآثام، والاجترام الاكتساب، يقال: فلان جريمة أهله: إذا كان كاسبهم، فالمجرم من كسب الآثام بفعل المعاصي **﴿وإذا قيل إن وعد الله حق﴾** أي: وعده بالبعث والحساب، أو بجميع ما وعد به من الأمور المستقبلية واقع لا محالة **﴿والساعة﴾** أي: القيامة **﴿لا ريب فيها﴾** أي: في وقوعها. قرأ الجمهور (والساعة) بالرفع على الابتداء، أو العطف على موضع اسم إن، وقرأ حمزة بالنصب عطفاً على اسم إن **﴿قلتم ما ندري ما الساعة﴾** أي: أي شيء هي؟ **﴿إن نظن إلا ظناً﴾** أي: نحس حسناً ونتوهم توهماً. قال المبريد: تقديره: إن نحن إلا نظن ظناً، وقيل: إن نظن مضمن التقدير: إن نظن إلا أنكم تظنون ظناً، وقيل: إن نظن مضمن معنى نعتقد أي: ما نعتقد إلا ظناً لا علماً، وقيل: إن ظناً له صفة مقدرة أي: إلا ظناً بيناً، وقيل: إن الظن يكون بمعنى العلم والشك، فكانهم قالوا: ما لنا اعتقاد إلا الشك **﴿وما نحن بمستيقنين﴾** أي: لم يكن لنا يقين بذلك، ولم يكن معنا إلا مجرّد الظن أن الساعة آتية **﴿وبدا لهم سيئات ما عملوا﴾** أي: ظهر لهم سيئات أعمالهم على الصورة التي هي عليها **﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾** أي: أحاط بهم، ونزل عليهم جزاء أعمالهم بدخولهم النار **﴿وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا﴾** أي: نترككم في النار

كما تركتم العمل لهذا اليوم، وأضاف اللقاء إلى اليوم توسعاً؛ لأنه أضاف إلى الشيء ما هو واقع فيه **﴿ومواكم النار﴾** أي: مسكنكم ومستقركم الذين تأوّن إليه **﴿وما لكم من ناصرين﴾** ينصرونكم فيمتعون عنكم العذاب **﴿ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا﴾** أي: نلكم العذاب بسبب أنكم اتخذتم القرآن هزواً ولعباً **﴿وغرّكم الحياة الدنيا﴾** أي: خدعتكم بزخارفها وباطيلها، فظننتم أنه لا دار غيرها، ولا بعث ولا نشور **﴿فاليوم لا يخرجون منها﴾** أي: من النار. قرأ الجمهور (يخرجون) بضم الياء، وفتح الراء مبنياً للمفعول وقرأ حمزة، والكسائي بفتح الياء وضم الراء مبنياً للفاعل، والاتقان من الخطاب إلى الغيبة لتحقيرهم **﴿ولا هم يستعتبون﴾** أي: لا يسترضون، ويطلب منهم الرجوع إلى طاعة الله؛ لأنه يوم لا تقبل فيه توبة، ولا تنفع فيه معذرة **﴿فله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين﴾** لا يستحق الحمد سواه. قرأ الجمهور (رب) في المواضع الثلاثة بالجر على الصفة للاسم الشريف. وقرأ مجاهد، وحמיד، وابن محيصن بالرفع في الثلاثة على تقدير مبتدأ أي: هو رب السموات إلخ **﴿وله الكبرياء في السموات والأرض﴾** أي: الجلال والعظمة والسلطان، وخص السموات والأرض لظهور ذلك فيهما **﴿وهو العزيز الحكيم﴾** أي: العزيز في سلطانه، فلا يغالبه مغالب، الحكيم في كل أفعاله وأقواله وجميع أفضيته.

وقد أخرج سعيد بن منصور، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن أبي حاتم، والبيهقي في البعث عن عبد الله بن باباه قال: قال رسول الله ﷺ: «كأنني أراكم بالكوم بون جهنم جاثين، ثم قرأ سفيان (ويرى كل أمة جاثية)». وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر في قوله: **﴿وترى كل أمة جاثية﴾** قال: كل أمة مع نبيها حتى يجيء رسول الله ﷺ على كرم قد علا الخلاق، فذلك المقام المحمود. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: **﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق﴾** قال: هو أم الكتاب فيه أعمال بني آدم **﴿إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾** قال: هم الملائكة يستنسخون أعمال بني آدم. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه بمعناه مطوّلاً، فقام رجل فقال: يا ابن عباس، ما كنا نرى هذا تكتبه الملائكة في كل يوم وليلة، فقال ابن عباس: إنكم لستم قوماً عرباً **﴿إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾** هل يستنسخ الشيء إلا من كتاب. وأخرج ابن جرير عنه نحوه أيضاً، وأخرج ابن جرير عن علي بن أبي طالب قال: إن لله ملائكة ينزلون في كل يوم بشيء يكتبون فيه أعمال بني آدم. وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر نحوه ما روي، عن ابن عباس. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال: يستنسخ الحفظة من أم الكتاب ما يعمل بنو آدم، فإنما يعمل الإنسان ما استنسخ الملك من أم الكتاب، وأخرج نحوه الحاكم عنه وصححه. وأخرج الطبراني عنه أيضاً في الآية قال: إن الله وكل ملائكته ينسخون من ذلك العام في

الإلهية، وقوله: ﴿وَلَجَل مَسْمًى﴾ معطوف على الحقّ أي: إلّا بالحقّ، وبأجل مسمى على تقدير مضاف محذوف أي: ويتقدير أجل مسمى، وهذا الأجل هو يوم القيامة، فإنها تنتهي فيه السموات والأرض وما بينهما، وتبدل الأرض غير الأرض والسموات. وقيل: المراد بالأجل المسمى هو: انتهاء أجل كل فرد من أفراد المخلوقات، والأوّل أولى، وهذا إشارة إلى قيام الساعة، وانقضاء مدّة الدنيا، وأن الله لم يخلق خلقه باطلاً وعبثاً لغير شيء، بل خلقه للثواب والعقاب ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنتُزُوا مَعْرُضُونَ﴾ أي: عما أنتزوا وخوفوا به في القرآن من البعث والحساب، والجزاء معرضون مولون غير مستعدين له، والجملة في محل نصب على الحال أي: والحال أنهم معرضون عنه غير مؤمنين به، وماء في قوله: ﴿عَمَّا أُنتُزُوا﴾ يجوز أن تكون الموصولة، ويجوز أن تكون المصدرية ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: أخبروني ما تعبئون من دون الله من الأصنام ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي: أي شيء خلقوا منها، وقوله: ﴿أَرُونِي﴾ يحتمل أن يكون تأكيداً لقوله: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أي: أخبروني أروني، والمفعول الثاني لأرأيتكم ماذا خلقوا، ويحتمل أن لا يكون تأكيداً، بل يكون هذا من باب التنازع؛ لأن أرايتكم يطلب مفعولاً ثانياً، وأروني كذلك ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ أم هذه هي المنقطعة المقترنة ببل والهمزة، والمعنى: بل لهم شركة مع الله فيها، والاستفهام للتوبيخ والتقريع ﴿لَتَنُوتُنِي بَكْتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ هذا تبيكت لهم، وإظهار لعجزهم، وقصورهم عن الإتيان بذلك، والإشارة بقوله هذا إلى القرآن، فإنه قد صرح ببطلان الشرك، وأن الله واحد لا شريك له، وأن الساعة حق لا ريب فيها، فهل للمشركين من كتاب يخالف هذا الكتاب، أو حجة تنافي هذه الحجة ﴿أَوْ أَثَارَةٌ مِنْ عِلْمٍ﴾ قال في الصحاح: أو إثارة من علم بقية منه، وكذا الأثرة بالتحريك. قال ابن قتيبة: أي: بقية من علم الأولين. وقال الفراء، والمبرد: يعني: ما يؤثر عن كتب الأولين. قال الواحدي: وهو معنى قول المفسرين. قال عطاء: أو شيء تأثروا به عن نبي كان قبل محمد ﷺ. قال مقاتل: أو رواية من علم عن الأنبياء. وقال الزجاج: أو إثارة أي: علامة، والأثرة مصدر كالسماحة والشجاعة، وأصل الكلمة من الأثر، وهي الرواية يقال: أثرت الحديث أثره أثره وأثارة وإثراً: إذا نكرته عن غيرك. قرأ الجمهور (أثرة) على المصدر كالسماحة والغواية. وقرأ ابن عباس، وزيد بن علي، وعكرمة، والسلمي، والحسن، وأبو رجاء بفتح الهمزة والناء من غير ألف. وقرأ الكسائي (أثرة) بضم الهمزة وسكون الناء ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعوكم التي تدعونها، وهي قولكم إن الله شريكاً، ولم تأتوا بشيء من ذلك، فتبين بطلان قولهم لقيام البرهان العقلي، والتقلي على خلافه ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ﴾ أي: لا أحد أضل منه ولا أجهل، فإنه دعا من لا يسمع، فكيف يطمع في الإجابة فضلاً عن جلب نفع، أو دفع ضرر؟ فتبين بهذا أنه

رمضان ليلة القدر ما يكون في الأرض من حدث إلى مثلهما من السنة المقبلة، فيتعارضون به حفظة الله على العباد عشية كل خميس، فيجبدون ما رفع الحفظة موافقاً لما في كتابهم تلك ليس فيه زيادة ولا نقصان. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿الْيَوْمَ نَخْسَاكُمَا كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ قال: نترككم. وأخرج ابن أبي شيبة، ومسلم، وأبو داود، وابن ماجه، وابن مردويه، والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تبارك وتعالى: الكبرياء رداشي، والعظمة إزاراي، فمن نازعني واحداً منهما ألقته في النار».

تفسير سورة الأحقاف

وهي مكية. قال القرطبي: في قول جميعهم. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس، وابن الزبير قالاً: نزلت سورة حمّ الأحقاف بمكة. وأخرج ابن الضريس، والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال: «أقراني رسول الله ﷺ سورة الأحقاف وأقرأها آخر، فخالف قراءته، فقلت: من أقرأها؟ قال: رسول الله ﷺ، فقلت: والله لقد أقراني رسول الله ﷺ غير ذا، فاتينا رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله ألم تقرني كذا وكذا؟ قال: بلى، وقال الآخر: ألم تقرني كذا وكذا؟ قال: بلى، فتمعر وجه رسول الله ﷺ، فقال: ليقرا كل واحد منكما ما سمع، فإنما هلك من كان قبلكم باختلاف».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ① تَنَزَّلُ الْكَلِمَاتُ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ② مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَبِالْحَقِّ مَسْمًى ③ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنتُزُوا مَعْرُضُونَ ④ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ⑤ لَتَنُوتُنِي بَكْتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَنتُزُوا مِنْتَ عَلَيْهِمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ⑥ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمْ يَسْتَجِيبْ لَهُمْ إِلَّا بِوَرٍ أَلْفَيْتُمْ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَائِلُونَ ⑦ وَإِذَا حُيِّرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِسَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ⑧ وَإِذَا نُنِزِلَتْ عَلَيْهِمْ أَنْزِلُنَا يُنَسِّتُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ⑨ أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَأَيْنَا قُلْ إِنْ أَفَرَأَيْنَا فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنْ اللَّهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَلَّا بَلْ يَكْفُرُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ وَهُوَ الْغَوُّورُ الرَّجِيمُ ⑩ قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَايِنِ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَى مَا يُفَعَّلُ بِي وَلَا يَكْرَهُ أَنْ أُبْعَثَ إِلَّا مَا يَوْحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ⑪

قوله: ﴿حَمْدٌ﴾ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴿قد تقدّم الكلام على هذا في سورة غافر وما بعدها مستوفى، ونكرنا وجه الإعراب، وبيان ما هو الحقّ من أن فواتح السور من المتشابه الذي يجب أن يوكل علمه إلى من أنزله ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من المخلوقات بأسرها ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ هو استثناء مفرغ من أعم الأحوال أي: إلا خلقاً ملتبساً بالحقّ الذي تقتضيه المشيئة

كذا قال الأخفش، وأنشد قطرب:

فما أنا بدع من حوائث تعترني رجلاً غلت من بعد موسى وأسعدا
وقرا عكرمة، وأبو حيوة، وابن أبي عبله (بدعاً) بفتح
الدال على تقدير حذف المضاف أي: ما كنت ذا بدع، وقرا
مجاهد بفتح الباء، وكسر الدال على الوصف ﴿وما أدري ما
يفعل بي ولا بكم﴾ أي: ما يفعل بي فيما يستقبل من
الزمان هل أبقي في مكة، أو أخرج منها؟ وهل أموت أو
أقتل؟ وهل تعجل لكم العقوبة أم تمهلون؟ وهذا إنما هو في
الدنيا. وأما في الآخرة، فقد علم أنه وأمته في الجنة، وأن
الكافرين في النار. وقيل: إن المعنى: ما أدري ما يفعل بي
ولا بكم يوم القيامة، وإنها لما نزلت فرح المشركون، وقالوا:
كيف نتبع نبياً لا يدري ما يفعل به ولا بنا، وأنه لا فضل له
علينا؟ فنزل قوله تعالى: ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك
وما تأخر﴾ [الفتح: 2] والأول أولى ﴿إن اتبع إلا ما يوحى
إلي﴾ قرأ الجمهور (يوحى) مبنياً للمفعول أي: ما اتبع إلا
القرآن، ولا أبتدع من عندي شيئاً، والمعنى: قصر أفعاله ﴿و
على الوحي لا قصر اتباعه على الوحي﴾ ﴿وما أنا إلا نذير
مبين﴾ أي: أنذركم عقاب الله، وأخوفكم عذابه على وجه
الإيضاح.

وقد أخرج أحمد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني،
وابن مردويه من طريق أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن ابن
عباس ﴿أو إشارة من علم﴾ قال: الخط. قال سفيان: لا أعلم
إلا عن النبي ﷺ، يعني: أن الحديث مرفوع لا موقوف على
ابن عباس. وأخرج عبد بن حميد، وابن مردويه عن أبي
هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كان نبي من الأنبياء يخط،
فمن صانف مثل خطه علم، ومعنى هذا ثابت في الصحيح
ولأهل العلم فيه تفاسير مختلفة. ومن أين لنا أن هذه
الخطوط الرملية موافقة لذلك الخط، وأين السند الصحيح إلى
ذلك النبي، أو إلى نبينا ﷺ أن هذا الخط هو على صورة
كذا، فليس ما يفعله أهل الرمل إلا جهالات وضلالات.
وأخرج ابن مردويه عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ: «أو
إشارة من علم﴾ قال: حسن الخط». وأخرج الطبراني في
الأوسط، والحاكم من طريق الشعبي، عن ابن عباس ﴿أو
إشارة من علم﴾ قال: خط كان يخطه العرب في الأرض.
وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس ﴿أو إشارة
من علم﴾ يقول: بينة من الأمر. وأخرج ابن جرير، وابن
المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عنه في قوله: ﴿قل ما
كنت بدعاً من الرسل﴾ يقول: لست بأول الرسل ﴿وما
أدري ما يفعل بي ولا بكم﴾ فانزل الله بعد هذا ﴿ليغفر لك
الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ [الفتح: 2] وقوله: ﴿ليدخل
المؤمنين والمؤمنات جنات﴾ [الفتح: 5] الآية، فأعلم سبحانه
نبيه ما يفعل به، وبالمؤمنين جميعاً. وأخرج أبو داود في
نسخه عنه أيضاً أن هذه الآية منسوخة بقوله: ﴿ليغفر لك
الله﴾ وقد ثبت في صحيح البخاري وغيره من حديث أم
العلاء قالت: «لما مات عثمان بن مظعون قلت: رحمك الله أبا

أجهل الجاهلين وأضل الضالين، والاستفهام للتقرير
والتوبيخ، وقوله: ﴿إلى يوم القيامة﴾ غاية لعدم الاستجابة
﴿وهم عن دعائهم غافلون﴾ الضمير الأول للأصنام،
والثاني لعابديها، والمعنى: والأصنام التي يدعونها عن
دعائهم إياها غافلون عن ذلك، لا يسمعون ولا يعقلون
لكونها جمادات، والجمع في الضميرين باعتبار معنى من،
وأجري على الأصنام ما هو للعقلاء لاعتقاد المشركين فيها
أنها تعقل ﴿وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء﴾ أي: إذا
حشر الناس العابدين للأصنام كان الأصنام لهم أعداء يتبرأ
بعضهم من بعض، ويلعن بعضهم بعضاً وقد قيل: إن الله
يخلق الحياة في الأصنام، فتكذبهم. وقيل المراد: أنها تكذبهم،
وتعاديهم بلسان الحال لا بلسان المقال. وأما الملائكة،
والمسيح، وعزير، والشياطين، فإنهم يتبرءون ممن عبدتهم
يوم القيامة، كما في قوله تعالى: ﴿تبرأنا إليك ما كانوا إيانا
يعبدون﴾ [القصص: 63] ﴿وكانوا يعبدتهم كافرين﴾ أي:
كان المعبدون بعبادة المشركين إياهم كافرين أي: جاحدين
مكذبين وقيل: الضمير في كانوا للعابدين، كما في قوله:
﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ [الأنعام: 23]، والأول أولى
﴿وإذا تلقى عليهم آياتنا﴾ أي: آيات القرآن حال كونها
﴿بينات﴾ واضحات المعاني ظاهرات الدلالات ﴿قال الذين
كفروا للحق﴾ أي: لأجله وفي شأنه، وهو عبارة عن الآيات
﴿لما جاءهم﴾ أي: وقت أن جاءهم ﴿هذا سحر مبين﴾
أي: ظاهر السحرية ﴿أم يقولون افتراء﴾ أم هي المنقطعة
أي: بل يقولون افتراء، والاستفهام للإنكار والتعجب من
صنيعهم، وبإل للانتقال عن تسميتهم الآيات سحراً إلى
قولهم: إن رسول الله افتري ما جاء به، وفي ذلك من التوبيخ
والتقريع ما لا يخفى، ثم أمره الله سبحانه أن يجيب عنهم
فقال: ﴿قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً﴾ أي:
قل إن افتريته على سبيل الفرض، والتقدير: كما تدعون، فلا
تقدرون على أن تترؤا عني عقاب الله، فكيف افتري على الله
لأجلكم، وأنتم لا تقدرون على نفع عقابه عني ﴿هو أعلم
بما تفيضون فيه﴾ أي: تخوضون فيه، والاندفاع فيه، يقال:
أفاضوا في الحديث أي: اندفعوا فيه، وأفاض البعير: إذا نفع
جرته من كرشه والمعنى: الله أعلم بما تقولون في القرآن،
وتخوضون فيه من التكذيب له، والقول بأنه سحر وكهانة
﴿كفى به شهيداً بيني وبينكم﴾ فإنه يشهد لي بأن القرآن
من عنده، وأني قد بلغتكم، ويشهد عليكم بالتكذيب والجدود،
وفي هذا وعيد شديد ﴿وهو الغفور الرحيم﴾ لمن تاب
وآمن، وصلى بالقرآن وعمل بما فيه أي: كثير المغفرة
والرحمة بليغهما ﴿قل ما كنت بدعاً من الرسل﴾ البدع من
كل شيء المبدأ أي: ما أنا بأول رسول، قد بعث الله قبلي
كثيراً من الرسل. قيل: البدع بمعنى البديع كالخف والخفيف،
والبديع ما لم ير له مثل، من الابتداء وهو الاختراع، وشيء
بدع بالكسر أي: مبتدع، وفلان بدع في هذا الأمر أي: بديع

وقد اختلف في جواب الشرط ماذا هو؟ فقال الزجاج: محذوف تقديره أتؤمنون، وقيل قوله: ﴿فَأَمَّنْ وَاسْتَكْبَرْتَ﴾ وقيل محذوف تقديره: فقد ظلمتم لدلالة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ عليه، وقيل تقديره: فمن أضلّ منكم، كما في قوله: ﴿وَأَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَضَلِّ﴾ [فصلت: 52] الآية. وقال أبو علي الفارسي: تقديره أتؤمنون عقوبة الله، وقيل التقدير: الستم ظالمين. ثم نكر سبحانه نوعاً آخر من أقاويلهم الباطلة فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: لأجلهم، ويجوز أن تكون هذه اللام هي لام التبليغ ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبِقُوا إِيَّاهُ﴾ أي: لو كان ما جاء به محمد من القرآن والنبوة خيراً ما سبقونا إليه؛ لأنهم عند انفسهم المستحقون للسبق إلى كل مكربة، ولم يعلموا أن الله سبحانه يختص برحمته من يشاء، ويعزّ من يشاء، وينذلّ من يشاء، ويصطفي لبينه من يشاء ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ﴾ أي: بالقرآن، وقيل: بمحمد ﷺ، وقيل: بالإيمان ﴿فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكَ قَدِيمٌ﴾، فجاوزوا نفي خيرية القرآن إلى دعوى أنه كذب قديم، كما قالوا أساطير الأولين، والعامل في إذ مقدر أي: ظهر عنادهم، ولا يجوز أن يعمل فيه ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ لتضادّ الزمانين أعني: الماضي والاستقبال ولأجل الفاء أيضاً، وقيل: إن العامل فيه فعل مقتر من جنس المذكور أي: لم يهتدوا به، وإذ لم يهتدوا به فسيقولون: ﴿وَمَنْ قَبْلَهُ كِتَابَ مُوسَى﴾ قرأ الجمهور بكسر الميم من (من) على أنها حرف جرّ، وهي مع مجرورها خبر مقمّم، وكتاب موسى مبتدأ مؤخر، والجملة في محل نصب على الحال، أو هي مستأنفة، والكلام مسوق لردّ قولهم: ﴿هَذَا إِنْكَ قَدِيمٌ﴾ فإن كونه قد تقدّم القرآن كتاب موسى، وهو التوراة وتوافقاً في أصول الشرائع يدلّ على أنه حقّ، وأنه من عند الله، ويقتضي بطلان قولهم. وقرئ بفتح ميم من على أنها موصولة ونصب كتاب أي: وأتينا من قبله كتاب موسى، ورويت هذه القراءة عن الكلبي ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ أي: يقتدى به في الدين، ورحمة من الله لمن آمن به، وهما منتصبان على الحال، قاله الزجاج وغيره. وقال الأخفش على القطع، وقال أبو عبيدة: أي: جعلناه إماماً ورحمة ﴿وَهَذَا كِتَابٌ مُصَنَّقٌ﴾ يعني: القرآن فإنه مصنّق لكتاب موسى الذي هو إمام ورحمة، ولغيره من كتب الله، وقيل: مصنّق للنبي ﷺ، وانتصاب ﴿لِسَانًا عَرَبِيًّا﴾ على الحال الموطئة، وصاحبها الضمير في مصنّق للعائد إلى كتاب، وجوّز أبو البقاء أن يكون مفعولاً لمصنّق، والأوّل أولى، وقيل: هو على حذف مضاف أي: ذا لسان عربيّ، وهو النبي ﷺ ﴿لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ قرأ الجمهور (لينذر) بالتحية على أن فاعله ضمير يرجع إلى الكتاب أي: لينذر الكتاب الذين ظلموا، وقيل: الضمير راجع إلى الله، وقيل: إلى الرسول، والأوّل أولى. وقرأ نافع، وابن عامر، والبيزي بالفوقية على أن فاعله النبي ﷺ واختار هذه القراءة أبو حاتم، وأبو عبيد، وقوله: ﴿وَيُشْرَى الْمُحْسِنِينَ﴾ في محل نصب عطفاً على محل لينذر. وقال

السائب شهادتي عليك لقد أكرمك الله، فقال رسول الله ﷺ: وما يدريك أن الله أكرم؟ أما هو فقد جاءه اليقين من ربه، وإنني لأرجو له الخير، والله ما أنري وأنا رسول الله ما يفعل بي ولا بكم، قالت أمّ العلاء: فوالله لا أركبي بعده أحداً.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ، وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى نَبِيِّهِ، فَأَمَّا وَأَسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ حِزْبًا تَابًا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَمْسَسُوا بِهِ فَسَبَّوْنَهُ هَذَا قَوْلُ قَوْمٍ مَرِضٍ إِيمَانًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِمَا بَارَكْنَا فِيهِ لَكَ يُنْذِرُ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُنْشِئُ لِلْحَسَنِينَ ﴿١٧﴾ إِنْ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَوْا فَلَا حَرْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٨﴾ أُولَئِكَ أَحَبُّنَا لِمَنْتَ خَلِيلِينَ فِيهَا جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَلَلَتْ أُمَّهُ لَهَا رُكُوعًا وَوَصَّيْنَاهَا حَلْلَهُ وَفَضَّلْنَاهُ نَفْسًا دَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْضِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَحْمِلَ ضَلِيلًا مَرْضَةً وَأُصْلِحْ لِي فِي دُرِّيذٍ إِنِّي بُذِئْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٢٠﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَلْنَاهُمْ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَجَّوْنَاهُمْ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ يَوْمَ السَّعْيِ وَأَعَدَّ الصَّادِقَ الَّذِينَ كَانُوا يُوْعَدُونَ ﴿٢١﴾

قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ أي: أخبروني ﴿إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ يعني: ما يوحى إليه من القرآن، وقيل المراد: محمد ﷺ، والمعنى: إِنْ كَانَ مَرْسَلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وقوله: ﴿وَكُفِّرْتُمْ بِهِ﴾ في محل نصب على الحال بتقدير قد، وكذلك قوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ﴾ والمعنى: أخبروني إِنْ كَانَ ذَلِكَ فِي الْحَقِيقَةِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَالْحَالُ أَنَّكُمْ قَدْ كُفِّرْتُمْ بِهِ، وشهد شاهد من بني إسرائيل العالمين بما أنزل الله في التوراة على مثله أي: القرآن من المعاني الموجودة في التوراة المطابقة له من إثبات التوحيد، والبعث والنشور وغير ذلك، وهذه المثلية هي باعتبار تطابق المعاني، وإن اختلفت الألفاظ. وقال الجرجاني: مثل صلة، والمعنى: وشهد شاهد عليه أنه من عند الله، وكذا قال الواحدي، ﴿فَلَمَنْ﴾ الشاهد بالقرآن لما تبين له أنه من كلام الله، ومن جنس ما ينزل على رسله، وهذا الشاهد من بني إسرائيل هو عبد الله بن سلام، كما قال الحسن، ومجاهد، وقتادة، وعكرمة وغيرهم، وفي هذا نظر فإن السورة مكية بالإجماع، وعبد الله بن سلام كان إسلامه بعد الهجرة، فيكون المراد بالشاهد: رجلاً من أهل الكتاب قد آمن بالقرآن في مكة وصدقه، واختار هذا ابن جرير، وسيأتي في آخر البحث ما يرجح به أنه عبد الله بن سلام، وأن هذه الآية مدنية لا مكية. وروي عن مسروق أن المراد بالرجل: موسى عليه السلام، وقوله: ﴿وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ معطوف على شهد أي: آمن الشاهد، واستكبرتم أنتم عن الإيمان ﴿إِنْ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ فحرمهم الله سبحانه الهداية؛ لظلمهم لأنفسهم بالكفر بعد قيام الحجة الظاهرة على وجوب الإيمان، ومن فقد هداية الله له ضل.

بالألف، وقرأ الحسن، ويعقوب، وقتادة، والجحدري (وفصله) بفتح الفاء، وسكون الصاد بغير ألف، والفصل والفصال بمعنى: كالغطم والغطام، والقطف والقطاف ﴿حتى إذا بلغ أشده﴾ أي: بلغ استحكام قوته وعقله، وقد مضى تحقيق الأشد مستوفى، ولا بد من تقدير جملة تكون حتى غاية لها أي: عاش واستمرت حياته حتى بلغ أشده، قيل: بلغ عمره ثمانين عشرة سنة، وقيل: الأشد الحلم قاله الشعبي، وابن زيد. وقال الحسن: هو بلوغ الأربعين، والأول أولى لقوله: ﴿وبلغ أربعين سنة﴾، فإن هذا يفيد أن بلوغ الأربعين هو شيء وراء بلوغ الأشد. قال المفسرون: لم يبعث الله نبياً قط إلا بعد أربعين سنة ﴿قال رب أوزعني﴾ أي: الهمني. قال الجوهري: استوزعت الله فأوزعني أي: استلهمته فألهمني ﴿إن لشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي﴾ أي: الهمني شكر ما أنعمت به علي من الهداية، وعلى والدي من التحنن عليّ منهما حين ربياني صغيراً. وقيل: أنعمت علي بالصحة والعافية، وعلى والدي بالغنى والثروة، والأولى عدم تقييد النعمة عليه، وعلى أبويه بنعمة مخصوصة ﴿وأن أعمل صالحاً ترضاه﴾ أي: والهمني أن أعمل عملاً صالحاً ترضاه مني ﴿وأصلح لي في ذريتي﴾ أي: اجعل ذريتي صالحين راسخين في الصلاح متمكنين منه. وفي هذه الآية دليل على أنه ينبغي لمن بلغ عمره أربعين سنة أن يستكثر من هذه الدعوات، وقد روي أنها نزلت في أبي بكر، كما سيأتي في آخر البحث ﴿إني تبعت إليك﴾ من نذوبي ﴿وإني من المسلمين﴾ أي: المستسلمين لك المتقائين لطاعتك المخلصين لتوجيهك، والإشارة بقوله ﴿أولئك﴾ إلى الإنسان المنكور، والجمع لأنه يراد به الجنس، وهو مبتدأ، وخبره ﴿الذين نتقبل عنهم لحسن ما عملوا﴾ من أعمال الخير في الدنيا، والمراد بالأحسن الحسن، كقوله: ﴿واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم﴾ [الزمر: 55] وقيل: إن اسم التفضيل على معناه، ويراد به ما يثاب العبد عليه من الأعمال، لاما لا يثاب عليه كالمباح فإنه حسن، وليس بأحسن ﴿ونتجاوز عن سيئاتهم﴾ فلا نعاقبهم عليها. قرأ الجمهور (يتقبل، ويتجاوز) على بناء الفعلين للمفعول. وقرأ حمزة، والكسائي بالنون فيهما على إسنادهما إلى الله سبحانه، والتجاوز الغفران، وأصله من جزت الشيء: إذا لم تقف عليه، ومعنى ﴿في أصحاب الجنة﴾: أنهم كانوا في عدادهم منتظمون في سلوكهم، فالجاء والمجرور في محل نصب على الحال كقولك: أكرمني الأمير في أصحابه أي: كانوا في جملتهم، وقيل: إن في بمعنى مع أي: مع أصحاب الجنة، وقيل: إنهما خبر مبتدأ محذوف أي: هم في أصحاب الجنة ﴿وعد الصدق الذي كانوا يوعدون﴾ وعد الصدق مصدر مؤكد لمضمون الجملة السابقة؛ لأن قوله: ﴿أولئك الذين نتقبل عنهم﴾ إلخ في معنى الوعد بالتقبل والتجاوز، ويجوز أن يكون مصدراً لفعل محذوف أي: وعدهم الله وعد الصدق الذي كانوا يوعدون به على السن الرسل في الدنيا.

الزجاج: الأجود أن يكون في محل رفع أي: وهو بشرى، وقيل: على المصدرية لفعل محذوف أي: وتبشر بشرى، وقوله: ﴿للمحسنين﴾ متعلق ببشرى ﴿إن للذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا﴾ أي: جمعوا بين التوحيد والاستقامة على الشريعة، وقد تقدم تفسير هذا في سورة السجدة ﴿فلا خوف عليهم﴾ الفاء زائدة في خبر الموصول لما فيه من معنى الشرط ﴿ولا هم يحزنون﴾ المعنى: أنهم لا يخافون من وقوع مكروه بهم، ولا يحزنون من فوات محبوب، وإن ذلك مستمر دائم ﴿أولئك أصحاب الجنة﴾ أي: أولئك الموصوفون بما نكر أصحاب الجنة التي هي دار المؤمنين حال كونهم ﴿خالين فيها﴾ وفي هذه الآية من الترغيب أمر عظيم، فإن نفي الخوف والحزن على الدوام، والاستقرار في الجنة على الأبد مما لا تطلب الأنفس سواه، ولا تتشوف إلى ما عداه ﴿جزاء بما كانوا يعملون﴾ أي: يجزون جزاء بسبب أعمالهم التي عملوها من الطاعات لله، وترك معاصيه ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حسناً﴾ قرأ الجمهور (حسناً) بضم الحاء، وسكون السين. وقرأ علي، والسلمي بفتحهما، وقرأ ابن عباس، والكوفيون (إحساناً) وقد تقدم في سورة العنكبوت ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حسناً﴾ من غير اختلاف بين القراء، وتقدم في سورة الأنعام، وسورة بني إسرائيل ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ [الإسراء: 23] قلل هذا وجه اختلاف القراء في هذه الآية، وعلى جميع هذه القراءات، فانتصابه على المصدرية أي: وصيناه أن يحسن إليهما حسناً، أو إحساناً، وقيل: على أنه مفعول به بتضمين وصينا معنى: الزمنا، وقيل: على أنه مفعول له ﴿حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً﴾ قرأ الجمهور (كرهاً) في الموضعين بضم الكاف. وقرأ أبو عمرو، وأهل الحجاز بفتحهما. قال الكسائي: وهما لغتان بمعنى واحد. قال أبو حاتم: الكره بالفتح لا يحسن؛ لأنه الغضب والغلبة، واختار أبو عبيد قراءة الفتح قال: لأن لفظ الكره في القرآن كله بالفتح إلا التي في سورة البقرة: ﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم﴾ [البقرة: 216] وقيل: إن الكره بالضم ما حمل الإنسان على نفسه، وبالفتح ما حمل على غيره. وإنما نكر سبحانه حمل الأم ووضعها تأكيداً لوجوب الإحسان إليها الذي وصى الله به، والمعنى: أنها حملته ذات كره، ووضعته ذات كره، ثم بين سبحانه مدة حمله وفصاله فقال: ﴿وحمله وفصاله ثلاثون شهراً﴾ أي: منتهما هذه المدة من عند ابتداء حمله إلى أن يفصل من الرضاع أي: يقطع عنه، وقد استدل بهذه الآية على أن أقل الحمل ستة أشهر؛ لأن مدة الرضاع سنتان أي: مدة الرضاع الكامل، كما في قوله: ﴿حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾ [البقرة: 233] فنكر سبحانه في هذه الآية أقل مدة الحمل، وأكثر مدة الرضاع. وفي هذه الآية إشارة إلى أن حق الأم أكد من حق الأب؛ لأنها حملته بمشقة، ووضعته بمشقة وأرضعته هذه المدة بتعب ونصب، ولم يشاركها الأب في شيء من ذلك. قرأ الجمهور (وفصاله)

نافع بن جبير أن ابن عباس أخبره قال: إني لصاحب المرأة التي أتى بها عمر وضعت لسته أشهر، فأنكر الناس ذلك، فقلت لعمر: لم تظلم؟ قال: كيف؟ قلت أقرأ: ﴿وَحَمَلَهُ وَفَصَالَهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين [البقرة: 233] كم الحول؟ قال: سنة، قلت: كم السنة؟ قال: اثنا عشر شهراً، قلت: فاربعة وعشرون شهراً حولان كاملان، ويؤخر الله من الحمل ما شاء، ويقدم ما شاء، فاستراح عمر إلى قولي. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم عنه أنه كان يقول: إذا ولدت المرأة لتسعة أشهر كفاهما من الرضاع أحد وعشرون شهراً، وإذا ولدت لسبعة أشهر كفاهما من الرضاع ثلاثة وعشرون شهراً، وإذا وضعت لسته أشهر، فحولان كاملان؛ لأن الله يقول: ﴿وَحَمَلَهُ وَفَصَالَهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾. وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً قال: أنزلت هذه الآية في أبي بكر الصديق **﴿حتى إذا بلغ ثلثه وبلغ أربعين سنة قال رب اؤزني﴾** الآية، فاستجاب الله له، فأسلم والداه جميعاً وإخوته وولده كلهم، ونزلت فيه أيضاً **﴿فأما من أعطى واتقى﴾** [الليل: 5] إلى آخر السورة.

وَالَّذِي قَالَ لِوَلَدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَفَعَدَّيْنِ أَنْ أُرَخَّ وَقَدَّحَلَيْ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَفِيقَانِ اللَّهَ وَكَذَلِكَ بَيْنَ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقَّ قَبُولِهِ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمِّ قَدَحَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ بَنِينَ وَأَبْنَاءً وَهَمَّ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١٨﴾ وَبِمَرْصُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى الْآثَارِ أَذْهَبْتُمُ لَيْذَهُمْ فِي سَائِرِ الدُّنْيَا وَاسْتَخَفْتُمْ بِآثَارِهِمْ فَيُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كَفَرُوا كُفْرَهُمْ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُفُّوا نَفْسَهُمْ ﴿١٩﴾

لما نكر سبحانه من شكر نعمة الله سبحانه عليه، وعلى والديه نكر من قال لهما قولاً يدل على التضجر منهما عند دعوتهما له إلى الإيمان، فقال: **﴿والذي قال لوالديه أف لكما﴾** الموصول عبارة عن الجنس القائل ذلك القول، ولهذا أخبر عنه بالجمع، وأف كلمة تصدر عن قائلها عند تضجره من شيء يرد عليه. قرأ نافع وحفص (أف) بكسر الفاء مع التنوين. وقرأ ابن كثير، وابن عامر، وابن محيصن بفتحها من غير تنوين، وقرأ الباقون بكسر من غير تنوين وهي لغات. وقد مضى بيان الكلام في هذا في سورة بني إسرائيل [أي: سورة الإسراء]، واللام في قوله: **﴿لكما﴾** لبيان التأنيب أي: التأنيب لكما، كما في قوله: **﴿هيت لك﴾** [يوسف: 23] قرأ الجمهور (أتعدانني) بنونين مخففتين وفتح ياءه أهل المدينة ومكة، وأسكنها الباقون. وقرأ أبو حيوة، والمغيرة، وهشام بإدغام إحدى النونين في الأخرى، ورويت هذه القراءة عن نافع. وقرأ الحسن، وشيبة، وأبو جعفر، وعبد الوارث عن أبي عمرو بفتح النون الأولى، كأنهم فروا من توالي مثليين مكسورين. وقرأ الجمهور (أن أخرج) بضم الهمزة وفتح الراء مبنياً للمفعول. وقرأ الحسن، ونصر، وأبو

وقد أخرج أبو يعلى، وابن جرير، والطبراني، والحاكم وصححه عن عوف بن مالك الأشجعي: «انطلق النبي ﷺ، وأنا معه حتى دخلنا كنيسة اليهود يوم عيدهم، فكرهوا دخولنا عليهم، فقال لهم رسول الله ﷺ: يا معشر اليهود أروني اثني عشر رجلاً منكم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله يحط الله تعالى عن كل يهودي تحت أنيم السماء الغضب الذي عليه فسكتوا، فما أجابه منهم أحد، ثم رد عليهم فلم يجبه أحد ثلاثاً، فقال: أبيت فوالله لأنا الحاشر، وأنا العاقب، وأنا المقفى آمنتم أو كنيتم، ثم انصرف وأنا معه حتى كدنا أن نخرج، فإذا رجل من خلفه، فقال: كما أنت يا محمد فأقبل، فقال ذلك الرجل: أي رجل تعلموني فيكم يا معشر اليهود؟ فقالوا: والله ما نعلم فينا رجلاً أعلم بكتاب الله، ولا أفاقه منك ولا من أبيك ولا من جنك، قال: فيني أشهد بالله أنه النبي الذي تجدونه مكتوباً في التوراة والإنجيل، قالوا: كنيت، ثم ردوا عليه وقالوا شراً، فقال رسول الله ﷺ: كنيتم لن يقبل منكم قولكم، فخرجنا ونحن ثلاثة، رسول الله ﷺ وأنا وابن سلام، فأنزل الله **﴿قل أريتكم إن كان من عند الله﴾** إلى قوله: **﴿لا يهدي للقوم الظالمين﴾**، وصححه السيوطي. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن سعد بن أبي وقاص قال: ما سمعت رسول الله ﷺ يقول لأحد يمشي على وجه الأرض إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام، وفيه نزلت: **﴿وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله﴾** وأخرج الترمذي، وابن جرير، وابن مردويه عن عبد الله بن سلام قال: نزل في آيات من كتاب الله نزلت في: **﴿وشهد شاهد من بني إسرائيل﴾** ونزل في: **﴿قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب﴾** [الرعد: 43]. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس **﴿وشهد شاهد من بني إسرائيل﴾** قال: عبد الله بن سلام، وقد روي نحو هذا عن جماعة من التابعين. وفيه دليل على أن هذه الآية مدنية، فيخصص بها عموم قولهم إن سورة الأحقاف كلها مكية. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن قتادة قال: قال ناس من المشركين: نحن أعمز ونحن ونحن فلو كان خيراً ما سبقنا إليه فلان وفلان، فنزل: **﴿وقال للذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه﴾**. وأخرج ابن المنذر عن عون بن أبي شداد قال: كانت لعمر بن الخطاب أمة أسلمت قبله يقال لها: زنيرة، وكان عمر يضربها على الإسلام، وكان كفار قريش يقولون: لو كان خيراً ما سبقتنا إليه زنيرة، فأنزل الله في شأنها **﴿وقال للذين كفروا﴾** الآية. وأخرج الطبراني عن سمرة بن جندب أن رسول الله ﷺ قال: «بنو غفار وأسلم كانوا لكثير من الناس فتنة، يقولون: لو كان خيراً ما جعلهم الله أول الناس فيه». وأخرج ابن عساكر من طريق الكلبي عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: نزل قوله: **﴿ووصينا الإنسان بوالديه﴾** الآية إلى قوله: **﴿وعد الصديق الذي كانوا يوعدون﴾** في أبي بكر الصديق. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر عن

(أذهبتم) بهمة واحدة، وقرأ الحسن، ونصر، وأبو العالية، ويعقوب، وابن كثير بهمزيين مخففتين. ومعنى الاستفهام: التقرير والتوبيخ. قال الفراء، والزجاج: العرب توبخ بالاستفهام وبغيره، فالتوبيخ كائن على القراءتين. قال الكلبي: المراد بالطيبات اللذات، وما كانوا فيه من المعاش الشهوات، واللذات التي في معاصي الله سبحانه، ولم يبالوا بالذنب تكنيهاً منهم لما جاءت به الرسل من الوعد بالحساب والعقاب والثواب ﴿فاليوم تجزون عذاب الهون﴾ أي: العذاب الذي فيه ذل لكم، وخزي عليكم. قال مجاهد، وقتادة: الهون الهوان بلغة قريش ﴿بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق﴾ أي: بسبب تكبركم عن عبادة الله، والإيمان به وتوحيده ﴿وبما كنتم تفسقون﴾ أي: تخرجون عن طاعة الله، وتعملون بمعاصيه، فجعل السبب في عذابهم أمرين: التكبر عن اتباع الحق، والعمل بمعاصي الله سبحانه وتعالى، وهذا شأن الكفرة، فإنهم قد جمعوا بينهما.

وقد أخرج البخاري عن يوسف بن ماهك قال: كان مروان على الحجاز استعمله معاوية بن أبي سفيان، فخطب، فجعل يذكر يزيد بن معاوية؛ لكي يبايع له بعد أبيه، فقال عبد الرحمن بن أبي بكر شيئاً، فقال: خذوه، فدخل بيت عائشة، فلم يقدروا عليه، فقال مروان: إن هذا أنزل فيه: ﴿والذي قال لوالديه أف لكما﴾ فقالت عائشة: ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن إلا أن الله أنزل عنزي. وأخرج عبد بن حميد، والنسائي، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مردويه، عن محمد بن زياد قال: لما بايع معاوية لابنه، قال مروان: سنة أبي بكر، وعمر، فقال عبد الرحمن: سنة هرقل، وقيصر، فقال مروان: هذا الذي قال الله فيه: ﴿والذي قال لوالديه أف لكما﴾ الآية، فبلغ ذلك عائشة فقالت: كذب مروان، والله ما هو به، ولو شئت أن أسمي الذي نزلت فيه لسميته، ولكن رسول الله ﷺ لعن أبا مروان، ومروان في صلبه، فمروان من لعنه الله. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس في الآية قال: هذا ابن لابي بكر. وأخرج نحوه أبو حاتم عن السدي، ولا يصح هذا كما قدمنا.

✽ وَذَكَرَ أَنَا عَادُ إِذْ أُنْزِلَ قَوْمٌ بِالْأَخْطَابِ وَقَدْ خَلَّتِ الْأُذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَخَلْفَيْهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّ لَنَا عَلَيْكَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١١﴾ قَالُوا أَجِئْنَا بِبَالٍ أَمْ بِالْحَقِّ فَأَنَّا يَمُنُ بِمَا نَعُدُّكَ إِن كُنتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَأُمِّي يُدْعَى إِلَهُي وَإِنِّي لَأَكْفَرُ مِنْكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّطْرًا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْظَمْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٤﴾ تَتَذَكَّرُ كُلُّ نَفْسٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا بَرَى إِلَّا مَنَكُم كَذَلِكَ يَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ مَكَنَهُمْ فِيْمَا إِنْ كُنْتُمْ فِيهِ وَجْهًا لَهُمْ سَمَاءً مُّصَدَّرَةً وَأَفْجَدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَتَمُّهُمْ وَلَا ابْتِصَارُهُمْ إِذْ كَانُوا يَجْعُدُونَ بِبَابِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا كَانُوا مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي مَوْفَقَ الْأَيْتِ لَعَلَّهُمْ

العالية، والأعمش، وأبو معمر بفتح الهمزة وضم الراء مبتدأً للفاعل. والمعنى: أتعدانني أن أبعث بعد الموت، وجملة ﴿وقد خلّت للقرون من قبلي﴾ في محل نصب على الحال أي: والحال أن قد مضت القرون من قبلي فماتوا، ولم يبعث منهم أحد، وهكذا جملة: ﴿وهما يستغيثان الله﴾ في محل نصب على الحال أي: والحال أنهما يستغيثان الله له، ويطلبان منه التوفيق إلى الإيمان، واستغاث يتعدى بنفسه وبالباء يقال: استغاث الله، واستغاث به. وقال الرازي: معناه يستغيثان بالله من كفره، فلما حذف الجار وصل الفعل، وقيل: الاستغاثاة الدعاء، فلا حاجة إلى الباء. قال الفراء: يقال: أجاب الله دعاءه وغواثه، وقوله: ﴿ويلك﴾ هو بتقدير القول أي: يقولان له: ويلك، وليس المراد به الدعاء عليه، بل الحث له على الإيمان، ولهذا قال له: ﴿أمن إن وعد الله حق﴾ أي: أمن بالبعث إن وعد الله حق لا خلف فيه ﴿فيقول﴾ عند ذلك مكذباً لما قاله: ﴿ما هذا إلا أساطير الأولين﴾ أي: ما هذا الذي تقولانه من البعث إلا أحاديث الأولين، وأباطيلهم التي سطرورها في الكتب. قرأ الجمهور (إن وعد الله) بكسر إن على الاستئناف، أو التعليل وقرأ عمر بن فايد، والأعرج بفتحها على أنها معمولة لأمن بتقدير الباء. أي: أمن بأن وعد الله بالبعث حق ﴿أولئك الذين حق عليهم القول﴾ أي: أولئك القائلون هذه المقالات هم الذين حق عليهم القول أي: وجب عليهم العذاب بقوله سبحانه لإبليس: ﴿املاّن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين﴾ [ص: 85] كما يفيد قوله: ﴿في أمم قد خلّت من قبلهم من الجن والإنس﴾، وجملة: ﴿إنهم كانوا خاسرين﴾ تعليل لما قبله، وهذا يدفع كون سبب نزول الآية عبد الرحمن بن أبي بكر، وأنه الذي قال لوالديه ما قال، فإنه من أفاضل المؤمنين، وليس ممن حقت عليه كلمة العذاب، وسيأتي بيان سبب النزول في آخر البحث إن شاء الله ﴿ولكل درجات مما عملوا﴾ أي: لكل فريق من الفريقين المؤمنين، والكافرين من الجن، والإنس مراتب عند الله يوم القيامة بأعمالهم. قال ابن زيد: درجات أهل النار في هذه الآية تذهب سفلاً، ودرجات أهل الجنة تذهب علواً ﴿وليوفيهم أعمالهم﴾ أي: جزاء أعمالهم. قرأ الجمهور (لنوفيههم) بالنون. وقرأ ابن كثير، وابن محيصن، وعاصم، وأبو عمرو، ويعقوب بالياء التحتية. واختار أبو عبيد القراءة الأولى، واختار الثانية أبو حاتم ﴿وهم لا يظلمون﴾ أي: لا يزداد مسيء، ولا ينقص محسن، بل يوفى كل فريق ما يستحقه من خير وشر، والجملة في محل نصب على الحال، أو مستأنفة مقدرة لما قبلها ﴿ويوم يعرض الذين كفروا على النار﴾ الظرف متعلق بمحذوف أي: انكر لهم يا محمد يوم ينكشف الغطاء، فينظرون إلى النار ويقربون منها، وقيل: معنى يعرضون يعذبون من قولهم: عرضه على السيف، وقيل: في الكلام قلب. والمعنى: تعرض النار عليهم ﴿أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا﴾ أي: يقال لهم ذلك، قيل: وهذا المقتر هو الناصب للظرف، والأول أولى قرأ الجمهور

يَرْجُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ صَلُّوا عَلَيْهِمْ وَذَكَرَ الْإِنَّمَاءُ مَا كَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٢٨﴾

قوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً﴾ أي: وأنكر يا محمد لقومك أخا عاد، وهو هود بن عبد الله بن رباح كان أخاهم في النسب، لا في الدين، وقوله: ﴿إِنْ أَنْزَلْنَاهُ مِنْهُ آيَةً﴾ يدل اشتغال منه أي: وقت إنذاره إياهم ﴿بِالْأَحْقَافِ﴾ وهي ديار عاد جمع حقف، وهو الرمل العظيم المستطيل المعوج قاله الخليل وغيره، وكانوا قهروا أهل الأرض بقوتهم، والمعنى: أن الله سبحانه أمره أن يذكر لقومه قصتهم؛ ليتعظوا ويخافوا، وقيل: أمره بأن يتذكر في نفسه قصتهم مع هود؛ ليقنطري به ويهون عليه تكذيب قومه. قال عطاء: الأحقاف رمال بلاد الشحر. وقال مقاتل: هي باليمن في حضرموت، وقال ابن زيد: هي رمال مبسوطة مستطيلة كهيئة الجبال، ولم تبلغ أن تكون جبلاً ﴿وَقَدْ خَلَّتْ لِلنَّازِلِ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ﴾ أي: وقد مضت الرسل من قبله ومن بعده، كذا قال الفراء وغيره. وفي قراءة ابن مسعود (من بين يديه ومن بعده) والجملة في محل نصب على الحال، ويجوز أن تكون معترضة بين إنذار هود، وبين قوله لقومه: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ والأول أولى. والمعنى: أعلمهم أن الرسل الذين بعثوا قبله، والذين سيبعثون بعده كلهم منزهون نحو إنذاره، ثم رجع إلى كلام هود لقومه، فقال حاكياً عنه: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وقيل: إن جعل تلك الجملة اعتراضية أولى بالمقام، وأوفق بالمعنى ﴿قَالُوا لَجِئْنَا لِنُفَاكِنَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾ أي: لتصرفنا عن عبادتها، وقيل: لتزيلنا، وقيل: لثمنعنا والمعنى متقارب، ومنه قول عروة بن أبنية:

إِنْ تَكُ عَنْ حَسَنِ الصَّنِيعَةِ مَأْمُورٌ كَأَنفِي آخِرِينَ قَدِ افْكُوا يَقُولُ: إِنْ لَمْ تَوْفُقْ لِلإِحْسَانِ، فَانْتَ فِي قَوْمٍ قَدْ صَرَفُوا عَنْ ذَلِكَ ﴿فَأَتَيْنَا بِمَا تَعْنَنَا﴾ من العذاب العظيم ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في وعدك لنا به ﴿قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: إنما العلم بوقت مجيئه عند الله لا عندي ﴿وَأَبْلَغُكُمْ مَا أَرَسَلْتُ بِهِ﴾ إليكم من ربكم من الإنذار والإعذار، فأما العلم بوقت مجيء العذاب، فما أوحاه إلي ﴿وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ حيث بقيتم مصرين على كفركم، ولم تهتدوا بما جئكم به، بل افترحت علي ما ليس من وظائف الرسل ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا﴾ الضمير يرجع إلى «ما» في قوله: ﴿بِمَا تَعْنَنَا﴾. وقال المبرد، والزجاج: الضمير في ﴿رَأَوْهُ﴾ يعود إلى غير مذكور، وبينه قوله: ﴿عَارِضًا﴾، فالضمير يعود إلى السحاب أي: فلما راوا السحاب عارضاً، فعارضاً نصب على التكرير يعني: التفسير، وسمي السحاب عارضاً لأنه يبدو في عرض السماء. قال الجوهري: العارض السحاب يعترض في الأفق، ومنه قوله: ﴿هَذَا عَارِضٌ مَمْطُرُنَا﴾ وانتصاب عارضاً على الحال، أو التمييز ﴿مُسْتَقْبِلُ أُوَيْيَتِهِمْ﴾ أي: متوجهاً نحو

أُوَيْيَتِهِمْ. قال المفسرون: كانت عاد قد حبس عنهم المطر أياماً، فساق الله إليهم سحابة سوداء، فخرجت عليهم من واد لهم يقال له: المعتب، فلما رآه مستقبل أُوَيْيَتِهِمْ استبشروا، وقالوا ﴿هَذَا عَارِضٌ مَمْطُرُنَا﴾ أي: غيم فيه مطر، وقوله: ﴿مُسْتَقْبِلُ أُوَيْيَتِهِمْ﴾ صفة لعارض؛ لأن إضافته لفظية لا معنوية، فصح وصف النكرة به، وهكذا ممطرنا، فلما قالوا ذلك أجاب عليهم هود، فقال: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ﴾ يعني: من العذاب حيث قالوا: ﴿فَأَتَيْنَا بِمَا تَعْنَنَا﴾ وقوله: ﴿رِيحٌ﴾ بدل من ماء، أو خبر مبتدأ محذوف، وجملة: ﴿فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ صفة لريح، والريح التي عذبوا بها نشأت من ذلك السحاب الذي راوه ﴿قَدَمَرُ كُلِّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ هذه الجملة صفة ثانية لريح أي: تهلك كل شيء مرت به من نفوس عاد وأموالها، والتدمير الإهلاك، وكذا الدمار، وقرئ (يئمر) بالتحية مفتوحة وسكون الدال وضم الميم، ورفع (كل) على الفاعلية من دمر دماراً، ومعنى ﴿بِمَا رَبِّهَا﴾: أن ذلك بقضائه وقدره ﴿فَاصْبَحُوا لَا تَرَى إِلَّا مَسَاكِنَهُمْ﴾ أي: لا ترى أنت يا محمد، أو كل من يصلح للرؤية إلا مساكنهم بعد ذهاب أنفسهم وأموالهم. قرأ الجمهور (لا ترى) بالفوقية على الخطاب، ونصب مساكنهم. وقرأ حمزة، وعاصم بالتحية مضمومة مبنياً للمفعول، ورفع مساكنهم. قال سيبويه: معناه لا يرى أشخاصهم إلا مساكنهم، واختار أبو عبيد، وأبو حاتم القراءة الثانية. قال الكسائي، والزجاج: معناها لا يرى شيء إلا مساكنهم، فهي محمولة على المعنى كما تقول: ما قام إلا هند، والمعنى: ما قام أحد إلا هند، وفي الكلام حذف، والتقدير: فجاءتهم الريح فدمرتهم، فاصبحوا لا يرى إلا مساكنهم ﴿كُنْكَالُ نَجْزِي الْقَوْمِ الْمَجْرُمِينَ﴾ أي: مثل تلك الجزاء نجزي هؤلاء، وقد مر بيان هذه القصة في سورة الأعراف ﴿وَلَقَدْ مَكَانَهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَانَكُمْ فِيهِ﴾ قال المبرد: ما في قوله فيما بمنزلة الذي، وإن بمنزلة ما يعني: النافية، وتقديره: ولقد مكانهم في الذي ما مكانكم فيه من المال وطول العمر وقوة الأبدان، وقيل: «إن» زائدة وتقديره: ولقد مكانهم فيما مكانكم فيه، وبه قال القتيبي، ومثله قول الشاعر:

فَمَا إِنْ طَبَنَ جَبَنَ وَلَكِنْ مَنَابِتَانَا وَدَوْلَةُ آخِرِينَا وَالْأَوَّلُ أَوَّلِي؛ لَأَنَّهُ أَبْلَغَ فِي التَّوْبِيخِ لِكِفَارِ قَرِيشٍ، وَأَمْثَالِهِمْ ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَافْتِدَاءً﴾ أي: إنهم أعرضوا عن قبول الحجة، والتنكر مع ما أعطاهم الله من الحواس التي بها تترك الأدلة، ولهذا قال: ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا افْتِدَائُهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: فما نفعهم ما أعطاهم الله من ذلك حيث لم يتوصلوا به إلى التوحيد، وصحة الوعد والوعيد، وقد قدمنا من الكلام على وجه أفراد السمع، وجمع البصر ما يغني عن الإعادة، و«من» في «من شيء» زائدة، والتقدير: فما أغنى عنهم شيء من الإغناء، ولا نفعهم بوجه من وجوه النفع ﴿إِذْ

الكرامية، قال: «يا عائشة: وما يؤمنني أن يكون فيه عذاب، قد عذب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب، فقالوا: ﴿هَذَا عَارِضٌ مِّمَطَرٍ﴾». وأخرج مسلم، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال: «اللهم إني أسألك خيرا وخير ما فيها، وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به، فإذا تخيلت السماء تغير لونه، وخرج وبخل وأقبل وأنبر، فإذا مطرت سرّيت عنه، فسألته فقال: لا أدري، لعله كما قال قوم عاد: ﴿هَذَا عَارِضٌ مِّمَطَرٍ﴾». وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب السحاب، وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس في قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ لَوِظَتِهِمْ﴾ قالوا: غيم فيه مطر، فأول ما عرفوا أنه عذاب رأوا ما كان خارجاً من رجالهم، ومواشيهم تطير بين السماء والأرض مثل الريش لدخول بيوتهم، وغلقوا أبوابهم، فجاءت الريح ففتحت أبوابهم، ومالت عليهم بالرمل، فكانوا تحت الرمل سبع ليال، وثمانية أيام حسوماً لهم أنين، ثم أمر الله الريح، فكشفت عنهم الرمل وطرحتهم في البحر، فهو قوله: ﴿فَاصْبَحُوا لَا يَرَى إِلَّا مَسَاجِدَهُمْ﴾. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، والحاكم وصححه عن ابن عباس قال: ما أرسل الله على عاد من الريح إلّا قدر خاتمي هذا. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبُوا مِنْ أَهْلِ الْيَمَامَةِ إِلَى الْبِجَارِ أَهْلَ بَلَدٍ بَعِيدٍ﴾ يقول: لم نمكنكم. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في الآية قال: عاد مكثوا في الأرض أفضل مما مكثت فيه هذه الأمة، وكانوا أشد قوة وأكثر أموالاً وأطول أعماراً.

وَإِذْ صَرَّفْنَا إِلَيْكَ نَافِثًا مِنْ آلِهِمْ يَسْتَخِيمُونَ الْفَرَّادَ فُلًّا حَضَرُوا قَالَ
أَنْصِبُوا فُلًّا فُجِي وَلَوْ إِلَى قَوْمِهِ مُبِيرِينَ ﴿١٠﴾ قَالُوا بِفَوَاحِشِنَا لَنَا صُفْعًا
كَتَبْنَا أُولَئِكَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى صُفْحًا لَمَّا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَّا طَرِيقُ
مُتَّبَعِينَ ﴿١١﴾ يَفْقَهُوا حُجُوبًا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ
وَيُخْرِجَكُم مِّنْ عَذَابِ آلِيهِ ﴿١٢﴾ وَمَنْ لَا يُحِبِّ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ
فَلَيْسَ لَهُ فِي دِينِهِ أَوْلَىٰ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٣﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي
خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا يَتَّقُوا اللَّهَ يَوْمَ يَكُونُ الْمُؤْمِنُونَ أَفَلَا يَتَّقُونَ
عَلَّ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤﴾ وَيَوْمَ يُنْفَخُ الْأَوَّلُ عَلَى الْأَخِيرِ هَذَا يَوْمَ الْآخِرِ
قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٥﴾ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ
أَوَّلُوا الْفَرَارَةِ مِنَ الرَّسُولِ وَلَا تَجْعَلْ لَّنَا يَوْمَ يَوْمَ مَا يُلْعَلُونَ لَكَ لِبَشَرًا
إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَّهَارٍ بَلِّغْ هَٰذَا نَهْيَ اللَّهِ إِلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿١٦﴾

لما بَيَّنَّ سبحانه أن في الإنسان من آمن، وفيهم من كفر
بين أيضاً أن في الجن كذلك، فقال: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ
نَفَرَاً مِّنَ الْجِنَّ﴾ العامل في الظرف مقدر أي: وانكرا إذ
صرفنا. أي: وجهنا إليك نفراً من الجن، وبعثناهم إليك،
وقوله: ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ في محل نصب صفة ثانية
لنفرأ أو حال؛ لأن النكرة قد تخصصت بالصفة الأولى

كانوا يجحدون بآيات الله ﴿الظرف متعلق باغني، وفيها معنى التعليل أي: لأنهم كانوا يجحدون ﴿وحواق بهم ما كانوا به يستهزؤون﴾ أي: أحاط بهم العذاب الذي كانوا يستعجلونه بطريق الاستهزاء حيث قالوا: ﴿فأنتنا بما تعننا﴾. ﴿ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى﴾ الخطاب لأهل مكة، والمراد بما حولهم من القرى: قرى ثمود، وقرى لوط، ونحوهما مما كان مجاوراً لبلاد الحجاز، وكانت أخبارهم متواترة عندهم ﴿ووصرفنا الآيات لعلهم يرجعون﴾ أي: بينا الحجج ونوعناها؛ لكي يرجعوا عن كفرهم فلم يرجعوا، ثم نكر سبحانه أنه لم ينصرهم من عذاب الله ناصر، فقال: ﴿فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً لآله﴾ أي: فهلا نصرهم آلهتهم التي تقربوا بها بزعمهم إلى الله لتشفع لهم حيث قالوا: ﴿فولاء شفعاؤنا عند الله﴾ [يونس: 18] ومنعتهم من الهلاك الواقع بهم. قال الكسائي: القربان كل ما يتقرب به إلى الله من طاعة ونسيكة والجمع قرايين كالرهبان والراهبين، وأحد مفعولي اتخذوا ضمير راجع إلى الموصول، والثاني آلهة، وقرباناً حال، ولا يصح أن يكون قرباناً مفعولاً ثانياً، وآلهة بدلاً منه لفساد المعنى، وقيل: يصح ذلك ولا يفسد المعنى، ورجحه ابن عطية، وأبو البقاء، وأبو حيان، وأنكر أن يكون في المعنى فساد على هذا الوجه ﴿بل ضلوا عنهم﴾ أي: غابوا عن نصرهم، ولم يحضروا عند الحاجة إليهم، وقيل: بل هلكوا، وقيل: الضمير في ضلوا راجع إلى الكفار أي: تركوا الأصنام وتبرعوا منها، والاول أولى، والإشارة بقوله: ﴿ونلك﴾ إلى ضلال آلهتهم. والمعنى: وذلك الضلال والضياع أثر ﴿إفكهم﴾ الذي هو اتخاذهما إياها آلهة وزعمهم أنها تقربهم إلى الله. قرأ الجمهور (إفكهم) بكسر الهمزة، وسكون الفاء مصدر أفك يافك إفكاً أي: كذبهم. وقرأ ابن عباس، وابن الزبير، ومجاهد بفتح الهمزة والفاء والكاف على أنه فعل أي: ذلك القول صرفهم عن التوحيد. وقرأ عكرمة بفتح الهمزة وتشديد الفاء أي: صيرهم أفكين. قال أبو حاتم: يعني: قلبهم عما كانوا عليه من النعيم، وروي عن ابن عباس أنه قرأ بالمد، وكسر الفاء بمعنى صارفهم ﴿وما كانوا يفترون﴾ معطوف على إفكهم أي: وأثر افتراءهم، أو أثر الذي كانوا يفترونه. والمعنى: ونلك إفكهم أي: كذبهم الذي كانوا يقولون إنها تقربهم إلى الله، وتشفع لهم ﴿وما كانوا يفترون﴾ أي: يكتبون أنها آلهة.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: الأحقاف جبل بالشام. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم من طرق عنه في قوله: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا﴾ قال: هو السحاب. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن عائشة قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعاً ضاحكاً حتى أرى منه لهوآته، إنما كان يتبسّم، وكان إذا رأى غيماً أو ريحاً عرف ذلك في وجهه، قلت: يا رسول الله، الناس إذا رأوا الغيم فرحوا أن يكون فيه المطر. وأراك إذا رأيته عرفت في وجهك

من أهل القرى ﴿يوسف: 109﴾. وقال: ﴿وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق﴾ [الفرقان: 20] وقال سبحانه في إبراهيم الخليل: ﴿وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب﴾ [العنكبوت: 27]، فكل نبي بعثه الله بعد إبراهيم، فهو من ذريته، وأما قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿يا معشر الجن والإنس ألم ياتكم رسل منكم﴾ [الأنعام: 130] فقليل: المراد من مجموع الجنسين، وصنق على أحدهما، وهم الإنس: كقوله: ﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾ [الرحمن: 22] أي: من أحدهما ﴿ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض﴾ أي: لا يفوت الله، ولا يسبقه، ولا يقدر على الهرب منه؛ لأنه وإن هرب كل مهرب، فهو في الأرض لا سبيل له إلى الخروج منها، وفي هذا ترهيب شديد ﴿وليس له من دونه أولياء﴾ أي: أنصار يمنعونه من عذاب الله. بين سبحانه بعد استحالة نجاته بنفسه استحالة نجاته بواسطة غيره، والإشارة بقوله: ﴿أولئك﴾ إلى من لا يجب داعي الله، وأخبر أنهم ﴿في ضلال مبين﴾ أي: ظاهر واضح، ثم نكر سبحانه دليلاً على البعث، فقال: ﴿أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض﴾ الرؤية هنا هي القلبية التي بمعنى العلم، والهمزة للإنكار، والواو للمعطف على مقدر أي: ألم يتفكروا، ولم يعلموا أن الذي خلق هذه الأجرام العظام من السموات والأرض ابتداءً ﴿ولم يعي بخلقهن﴾ أي: لم يعجز عن ذلك ولا ضعف عنه، يقال عي بالامر وعي: إذا لم يهتد لوجهه، ومنه قول الشاعر:

عيوا بامرهم كما عيت ببيضتها الحماهم

قرأ الجمهور (ولم يعي) بسكون العين، وفتح الياء مضارع عي. وقرأ الحسن بكسر العين وسكون الياء ﴿بقادر على أن يحيي الموتى﴾. قال أبو عبيدة، والأخفش: الياء زائدة للتوكيد، كما في قوله: ﴿وكفى بالله شهيداً﴾ [النساء: 79]. قال الكسائي، والفراء، والزجاج: العرب تدخل الياء مع الجحد والاستفهام، فتقول: ما أظنك بقاتم، والجار والمجرور في محل رفع على أنهما خبر لأن، وقرأ ابن مسعود، وعيسى بن عمر، والأعرج، والجحدري، وابن أبي إسحاق، ويعقوب، وزيد بن علي (يقدر) على صيغة المضارع، واختار أبو عبيد القراءة الأولى، واختار أبو حاتم القراءة الثانية قال: لأن دخول الياء في خبر أن قبيح ﴿بلى إنه على كل شيء قدير﴾ لا يعجزه شيء ﴿ويوم يعرض الذين كفروا على النار﴾ الظرف متعلق بقول مقدر أي: يقال ذلك اليوم للذين كفروا ﴿اليس هذا بالحق﴾ وهذه الجملة هي المحكية بالقول، والإشارة بهذا إلى ما هو مشاهد لهم يوم عرضهم على النار، وفي الاكتفاء بمجرد الإشارة من التحويل للمشار إليه، والتفخيم لشأنه ما لا يخفى؛ كأنه أمر لا يمكن التعبير عنه بلفظ يدل عليه ﴿قالوا بلى وربنا﴾ اعترفوا حين لا ينفعهم الاعتراف، واكدوا هذا الاعتراف بالقسم؛ لأن المشاهدة هي

﴿فلما حضروه﴾ أي: حضروا القرآن عند تلاوته، وقيل: حضروا النبي ﷺ، ويكون في الكلام التفات من الخطاب إلى الغيبة، والأول أولى ﴿قالوا انصتوا﴾ أي: قال بعضهم لبعض استكوا، أمروا بعضهم بعضاً بذلك؛ لأجل أن يسمعوا ﴿فلما قضى﴾ قرأ الجمهور (قضى) مبنياً للمفعول أي: فرغ من تلاوته. وقرأ حبيب بن عبيد الله بن الزبير، ولحق بن حميد، وأبو مجلز على البناء للفاعل أي: فرغ النبي ﷺ من تلاوته، والقراءة الأولى تؤيد أن الضمير في ﴿حضره﴾ للقرآن، والقراءة الثانية تؤيد أنه للنبي ﷺ ﴿ولوا إلى قومهم منذرين﴾ أي: انصرفوا قاصدين إلى من وراءهم من قومهم منذرين لهم عن مخالفة القرآن، ومحذرين لهم، وانتصاب: منذرين على الحال المقدرة أي: مقدرين الإنذار، وهذا يدل على أنهم آمنوا بالنبي ﷺ، وسيأتي في آخر البحث بيان ذلك ﴿قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى﴾ يعنون: القرآن؛ وفي الكلام حذف، والتقدير: فوصلوا إلى قومهم فقالوا: يا قومنا. قال عطاء: كانوا يهوداً فأسلموا ﴿مصنفاً لما بين يديه﴾ أي: لما قبله من الكتب المنزلة ﴿يهدي إلى الحق﴾ أي: إلى الدين الحق ﴿والى طريق مستقيم﴾ أي: إلى طريق الله القويم. قال مقاتل: لم يبعث الله نبياً إلى الجن والإنس قبل محمد ﷺ ﴿يا قومنا لجيبوا داعي الله وآمنوا به﴾ يعنون: محمداً ﷺ، أو القرآن ﴿يغفر لكم من ذنوبكم﴾ أي: بعضها، وهو ما عدا حق العباد، وقيل: إن من هنا لايتداء الغاية. والمعنى: أنه يقع ابتداء الغفران من الذنوب، ثم ينتهي إلى غفران ترك ما هو الأولى، وقيل: هي زائدة ﴿ويجركم من عذاب اليم﴾ وهو عذاب النار، وفي هذه الآية دليل على أن حكم الجن حكم الإنس في الثواب والعقاب، والتعبد بالأوامر والنواهي. وقال الحسن: ليس لمؤمني الجن ثواب غير نجاتهم من النار، وبه قال أبو حنيفة. والأول أولى، وبه قال مالك، والشافعي، وابن أبي ليلى. وعلى القول الأول، فقال القائلون به أنهم بعد نجاتهم من النار يقال لهم: كونوا تراباً، كما يقال للبهائم والثاني أرجح. وقد قال الله سبحانه في مخاطبة الجن والإنس: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان * فبأي آلاء وبكما تكذبان﴾ [الرحمن: 46، 47] فامتت سبحانه على الثقلين بأن جعل جزاء محسنهم الجنة، ولا ينافي هذا الاقتصاد ما هنا على ذكر إجاتهم من عذاب اليم، ومما يؤيد هذا أن الله سبحانه قد جازى كافرهم بالنار، وهو مقام عدل، فكيف لا يجازي محسنهم بالجنة، وهو مقام فضل، ومما يؤيد هذا أيضاً ما في القرآن الكريم في غير موضع أن جزاء المؤمنين الجنة، وجزاء من عمل الصالحات الجنة، وجزاء من قال لا إله إلا الله الجنة، وغير ذلك مما هو كثير في الكتاب والسنة.

وقد اختلف أهل العلم هل أرسل الله إلى الجن رسلاً منهم أم لا، وظاهر الآيات القرآنية أن الرسل من الإنس فقط، كما في قوله: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم﴾

حق اليقين الذي لا يمكن جرده ولا إنكاره ﴿قال فتوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ أي: بسبب كفركم بهذا في الدنيا، وإنكاركم له، وفي هذا الأمر لهم بنوق العذاب توبيخ بالغ، وتهكم عظيم. لما قرّر سبحانه الآية على النبوة والتوحيد، والمعاد أمر رسوله بالصبر فقال: ﴿فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل﴾ والفاء جواب شرط محذوف أي: إذا عرفت ذلك، وقامت عليه البراهين، ولم ينجع في الكافرين، فاصبر كما صبر أولو العزم أي: أرباب الثبات والحزم، فإنك منهم. قال مجاهد: أولو العزم من الرسل خمسة: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد ﷺ، وهم أصحاب الشرائع. وقال أبو العالية: هم نوح، وهود، وإبراهيم، فأمر الله رسوله أن يكون رابعهم. وقال السدي: هم ستة إبراهيم، وموسى، وداود، وسليمان، وعيسى، ومحمد ﷺ، وقيل: نوح، وهود، وصالح، وشعيب، ولوط، وموسى. وقال ابن جريج: إن منهم إسماعيل، ويعقوب، وأيوب، وليس منهم يونس. وقال الشعبي، والكلبي: هم الذين أمروا بالقتال، فأظهروا المكاشفة وجاهدوا الكفرة، وقيل: هم نجباء الرسل المذكورون في سورة الأنعام وهم ثمانية عشر: إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، ونوح، وداود، وسليمان، وأيوب، ويوسف، وموسى، وهارون، وزكريا، ويحيى، وعيسى، وإلياس، وإسماعيل، واليسع، ويونس، ولوط. واختار هذا الحسين بن الفضل لقوله بعد ذكرهم: ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾ [الأنعام: 90] وقيل: إن الرسل كلهم أولو عزم، وقيل: هم اثنا عشر نبياً أرسلوا إلى بني إسرائيل. وقال الحسن: هم أربعة: إبراهيم، وموسى، وداود، وعيسى ﴿ولا تستعجل لهم﴾ أي: لا تستعجل العذاب يا محمد للكفار. لما أمره سبحانه بالصبر، ونهاه عن استعجال العذاب لقومه رجاء أن يؤمنوا قال: ﴿كانهم يوم يرون ما يوعدون﴾ من العذاب ﴿لم يلبثوا إلا ساعة من نهار﴾ أي: كأنهم يوم يشاهدونه في الآخرة لم يلبثوا في الدنيا إلا قدر ساعة من ساعات الأيام لما يشاهدونه من الهول العظيم والبلاء المقيم. قرأ الجمهور (بلاغ) بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: هذا الذي وعظتهم به بلاغ، أو تلك الساعة بلاغ، أو هذا القرآن بلاغ، أو هو مبتدأ، والخبر لهم الواقع بعد قوله: ﴿ولا تستعجل﴾ أي: لهم بلاغ. وقرأ الحسن، وعيسى بن عمر، وزيد بن علي بلاغاً بالنصب على المصدر أي: بلغ بلاغاً. وقرأ أبو مجلز (بلغ) بصيغة الأمر. وقرأ (بلغ) بصيغة الماضي ﴿فهل يهلك إلا للقوم الفاسقون﴾ قرأ الجمهور (فهل يهلك) على البناء للمفعول. وقرأ ابن محيصن على البناء للفاعل، والمعنى: أنه لا يهلك بعذاب الله إلا القوم الخارجون عن الطاعة الواقعون في معاصي الله. قال قتادة: لا يهلك على الله إلا هالك مشرك. قيل: وهذه الآية أقوى آية في الرجاء. قال الزجاج: تأويله لا يهلك مع رحمة الله وفضله إلا القوم الفاسقون.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وابن منيع، والحاكم وصححه،

وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي كلاهما في الدلائل عن ابن مسعود قال: هبطوا، يعني: الجن على النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة، فلما سمعوه قالوا: أنصتوا، قالوا: صه، وكانوا تسعة أحدهم زبينة، فأنزل الله: ﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن﴾ إلى قوله: ﴿ضلال مبين﴾. وأخرج أحمد، وابن جرير، وابن مردويه عن الزبير ﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن﴾ قال: بنخلة ورسول الله ﷺ يصلي العشاء الآخرة ﴿كانوا يكونون عليه لبداء﴾ [الجن: 19]. وأخرج ابن جرير، والطبراني، وابن مردويه ﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن﴾ الآية، قال: كانوا تسعة نفر من أهل نصيبين، فجعلهم رسول الله ﷺ رسلاً إلى قومهم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه، وأبو نعيم عنه نحوه وقال: أتوه ببطن نخلة. وأخرج الطبراني في الأوسط، وابن مردويه عنه أيضاً قال: صرفت الجن إلى رسول الله ﷺ مرتين، وكانوا أشرف الجن بنصيبين. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن مسروق قال: سألت ابن مسعود من أذن النبي ﷺ بالجن ليلة استمعوا القرآن؟ قال: أذنتم بهم شجرة. وأخرج عبد بن حميد، وأحمد، ومسلم، والترمذي عن علقمة قال: قلت لابن مسعود: هل صحب رسول الله ﷺ منكم أحداً ليلة الجن؟ قال: ما صحبه منا أحد، ولكننا فقمناه ذات ليلة، فقلنا: اغتيل استطير ما فعل؟ قال: فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فلما كان في وجه الصبح إذا نحن به يجيء من قبل حراء، فأخبرناه فقال: إنه أتاني داعي الجن، فاتيتهم فقرأت عليهم القرآن، فانطلق، فأرانا آثارهم وأثار نيرانهم. وأخرج أحمد عن ابن مسعود قال: كنت مع رسول الله ﷺ ليلة الجن. وقد روي نحو هذا من طرق. والجمع بين الروايات بالحمل على قصتين وقعت منه ﷺ مع الجن حضر إحداهما ابن مسعود، ولم يحضر في الأخرى. وقد وردت أحاديث كثيرة أن الجن بعد هذا وفدت على رسول الله ﷺ مرة بعد مرة، وأخذوا عنه الشرائع. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس قال: ﴿أولوا العزم من الرسل﴾ النبي ﷺ، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى. وأخرج ابن مردويه عنه قال: هم الذين أمروا بالقتال حتى مضوا على ذلك نوح، وهود، وصالح، وموسى، وداود، وسليمان. وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال: بلغني أن أولي العزم من الرسل كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر. وأخرج ابن أبي حاتم، والديلمي عن عائشة قالت: «ظل رسول الله ﷺ صائماً ثم طوى، ثم ظل صائماً ثم طوى، ثم ظل صائماً قال: يا عائشة إن الدين لا ينبغي لمحمد، ولا لآل محمد، يا عائشة إن الله لم يرز من أولي العزم من الرسل إلا بالصبر على مكروهاها، والصبر عن محبوبها، ثم لم يرز مني إلا أن يكلفني ما كلفهم، فقال: ﴿اصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل﴾ وإني والله لأصبرن كما صبروا جهدي، ولا قوة إلا بالله».

تفسير سورة محمد

وتسمى سورة القتال، وسورة الذين كفروا. وهي تسع وثلاثون آية، وقيل: ثمان وثلاثون.

وهي مدنية. قال الماوردي: في قول الجميع؛ إلا ابن عباس وقتادة فإنهما قالا: إلا آية منها نزلت بعد حجة الوداع حين خرج من مكة، وجعل ينظر إلى البيت وهو يبكي حزناً عليه، فنزل قوله تعالى: ﴿وَكَايُنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ﴾ [محمد: 13] وقال الثعلبي: إنها مكية. وحكاها ابن هبة الله عن الضحاک، وسعيد بن جبیر وهو غلط من القول، فالسورة مدنية كما لا يخفى. وقد أخرج ابن الضريس عن ابن عباس قال: نزلت سورة القتال بالمدينة. وأخرج النحاس، وابن مروي، والبيهقي في الدلائل عنه قال: نزلت سورة محمد بالمدينة. وأخرج ابن مروي عن ابن الزبير قال: نزلت بالمدينة سورة الذين كفروا. وأخرج الطبراني في الأوسط عن ابن عمر: أن النبي ﷺ كان يقرأ بهم في المغرب ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [محمد: 1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَصْلَ أَعْمَالِهِمْ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَالَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴿٣﴾ إِذَا لَيْتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَغْمَسُوا مُسْدُودَ الرِّقَابِ قَامَا بِدُونِهَا وَمَا فِيهَا حَتَّى ضَعَّ الْكُرْسِيُّ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآتَمَرَّ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قِيلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَذَرِيهِمْ وَصَلَحَ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُخْلِفُهُمْ آلُئِنَّهُمْ مَرَّهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا إِذْ تَخْرُجُوا اللَّهُ يُضَرِّكُمُ وَيُثَبِّتُ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَسَاءَلُهُمْ وَأَصْلَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾ ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ كَرْهُهُمْ مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَاحْطَبَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾ أَفَلَمْ يَبْهَرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَشْنَاءُ ﴿١٠﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَنَبَّهُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَانْتَارَ مَوْتُهُمْ ﴿١٢﴾

قوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هم كفار قريش كفروا بالله، وصدوا أنفسهم وغيرهم عن سبيل الله، وهو دين الإسلام بنهيهم عن الدخول فيه، كذا قال مجاهد، والسدي. وقال الضحاک: معنى عن سبيل الله: عن بيت الله بمنع قاصديه. وقيل: هم أهل الكتاب، والموصول مبتدأ، وخبره ﴿أَصْلَ أَعْمَالِهِمْ﴾ أي: أبطلها وجعلها ضائعة. قال الضحاک: معنى ﴿أَصْلَ أَعْمَالِهِمْ﴾: أبطل كيدهم ومكرهم بالنبي ﷺ، وجعل الدائرة عليهم في كفرهم. وقيل: أبطل ما عملوه في الكفر مما كانوا يسمونه مكارم أخلاق، من صلة

الأرحام، وفك الأسارى وقري الأضياف، وهذه وإن كانت باطلة من أصلها، لكن المعنى أنه سبحانه حكم بطلانها. ولما ذكر فريق الكافرين أتبعهم بذكر فريق المؤمنين، فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾ ظاهر هذا العموم، فيدخل تحته كل مؤمن من المؤمنين الذين يعملون الصالحات، ولا يمنع من ذلك خصوص سببها؛ فقد قيل: إنها نزلت في الأنصار، وقيل: في ناس من قريش، وقيل: في مؤمني أهل الكتاب، ولكن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وخص سبحانه الإيمان بما أنزل على محمد ﷺ بالذكر مع اندراجهم تحت مطلق الإيمان المذكور قبله تنبيهاً على شرفه وعلو مكانه، وجملة: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ معترضة بين المبتدأ، وهو قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾، وبين خبره، وهو قوله: ﴿كُفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ ومعنى كونه الحق: أنه الناسخ لما قبله وقوله: ﴿مَنْ رَبِّهِمْ﴾ في محل نصب على الحال، ومعنى ﴿كُفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي: السيئات التي عملوها فيما مضى فإنه غفرها لهم بالإيمان، والعمل الصالح ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ أي: شأنهم وحالهم. قال مجاهد: شأنهم، وقال قتادة: حالهم. وقيل: أمرهم، والمعاني متقاربة. قال المبرد: البال الحال ها هنا. قيل والمعنى: أنه عصمهم عن المعاصي في حياتهم، وأرشدهم إلى أعمال الخير، وليس المراد إصلاح حال دنياهم من إعطائهم المال، ونحو ذلك، وقال النقاش: إن المعنى أصلح نياتهم، ومنه قول الشاعر:

فإن تقبلي بالود أقبل بمثله وإن تدبري أذهب إلى حال بالياً
والإشارة بقوله: ﴿فَإِنْ تَقَبَّلْتُمْ﴾ إشارة إلى ما مر مما أوعد به الكفار، ووعده المؤمنين، وهو مبتدأ خبره ما بعده، وقيل: إنه خبر مبتدأ محذوف أي: الأمر لك ﴿بِهِ﴾ سبب ﴿أَنْ﴾ الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم. فالباطل الشرك، والحق التوحيد والإيمان، والمعنى: أن ذلك الإضلال لأعمال الكافرين بسبب اتباعهم الباطل من الشرك بالله والعمل بمعاصيه، وذلك التكفير لسيئات المؤمنين، وإصلاح بالهم بسبب اتباعهم للحق الذي أمر الله باتباعه من التوحيد والإيمان، وعمل الطاعات ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ أي: مثل ذلك الضرب يبين للناس أمثالهم أي: أحوال الفريقين الجارية مجرى الأمثال في الغرابة. قال الزجاج: كذلك يضرب يبين الله للناس أمثال حسنات المؤمنين، وإضلال أعمال الكافرين يعني: أن من كان كافراً أضل الله عمله، ومن كان مؤمناً كفر الله سيئاته ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ لما بين سبحانه حال الفريقين أمر بجهد الكفار، والمراد بالذين كفروا: المشركين ومن لم يكن صاحب عهد من أهل الكتاب، وانتصاب ضرب على أنه مصدر لفعل محذوف، قال الزجاج: أي: فاضربوا الرقاب ضرباً، وخص الرقاب بالذكر؛ لأن القتل أكثر ما يكون بقطعها، وقيل: هو منصوب على الإغراء. قال أبو عبيدة: هو كقولهم: يا نفس

صبراً، وقيل التقدير: اقصوا ضرب الرقاب. وقيل: إنما خصَّ ضرب الرقاب؛ لأن في التعبير عنه من الغلظة، والشدة ما ليس في نفس القتل، وهي حرَّ العنق، وإطارة العضو الذي هو رأس البدن وعلوه، وأحسن أعضائه **﴿حتى إذا أثخنتموهم﴾** أي: بالغتم في قتلهم، وكثرتهم القتل فيهم، وهذه غاية للأمر بضرب الرقاب، لا لبيان غاية القتل، وهو مأخوذ من الشيء الثخين أي: الغليظ، وقد مضى تحقيق معناه في سورة الأنفال **﴿فشدوا الوثاق﴾** الوثاق بالفتح ويجيء بالكسر: اسم الشيء الذي يوثق به كالرباط. قال الجوهري: وأوثقه في الوثاق أي: شدّه، قال: والوثاق بكسر الواو لغة فيه. قرأ الجمهور (فشدوا) بضم الشين، وقرأ السلمي بكسرهما. وإنما أمر سبحانه بشدّ الوثاق؛ لئلا ينفلتوا، والمعنى: إذا بالغتم في قتلهم فأسروهم، وأحيطوهم بالوثاق **﴿فإما منا بعد وإما فداء﴾** أي: إما أن تمنوا عليهم بعد الأسر منا، أو تغفوا فداء، والممن: الإطلاق بغير عوض، والفداء: ما يفدي به الأسير نفسه من الأسر، ولم يذكر القتل هنا اكتفاءً بما تقدّم. قرأ الجمهور (فداءً) بالمد. وقرأ ابن كثير (فدى) بالقصر، وإنما قدّم الممنّ على الفداء، لأنه من مكارم الأخلاق، ولهذا كانت العرب تفتخر به، كما قال شاعرهم:

ولا نقتل الأسرى ولكن نفكهم إذا أثقل الأعناق حمل المغارم
ثم ذكر سبحانه الغاية لذلك، فقال: **﴿حتى تضع الحرب أوزارها﴾** أوزار الحرب التي لا تقوم إلا بها من السلاح والكرار، أسند الوضع إليها، وهو لأهلها على طريق المجاز، والمعنى: أن المسلمين مخيروا بين تلك الأمور إلى غاية هي أن لا يكون حرب مع الكفار. قال مجاهد: للمعنى حتى لا يكون بين غير دين الإسلام، وبه قال الحسن، والكلبي. قال الكسائي: حتى يسلم الخلق. قال الفراء: حتى يؤمنوا ويذهب الكفر. وقيل المعنى: حتى يضع الأعداء المحاربون أوزارهم، وهو سلاحهم بالهزيمة، أو الموانعة. وروي عن الحسن، وعطاء أنهما قالاً: في الآية تقييم وتأخير، والمعنى: فاضرب الرقاب حتى تضع الحرب أوزارها، فإذا أثخنتموهم، فشدوا الوثاق.

وقد اختلف العلماء في هذه الآية هل هي محكمة، أو منسوخة؟ فقيل: إنها منسوخة في أهل الأوثان، وإنه لا يجوز أن يفانوا، ولا يمنّ عليهم، والناسخ لها قوله: **﴿فماقتلوا المشركين حيث وجبتهم﴾** [التوبة: 5]، وقوله: **﴿فإما تثنفتم في الحرب فشدّ ربهم من خلفهم﴾** [الأنفال: 57]، وقوله: **﴿وقاتلوا المشركين كافة﴾** [التوبة: 36] وبهذا قال قتادة، والضحاك، والسدي، وابن جريج، وكثير من الكوفيين، قالوا: والمائدة آخر ما نزل، فوجب أن يقتل كل مشرك إلا من قامت الدلالة على تركه من النساء والصبيان، ومن تؤخذ منه الجزية، وهذا هو المشهور من مذهب أبي حنيفة، وقيل: إن هذه الآية ناسخة لقوله: **﴿فماقتلوا المشركين حيث وجبتهم﴾** [التوبة: 5] روي ذلك عن عطاء وغيره. وقال

كثير من العلماء: إن الآية محكمة، والإمام مخير بين القتل والأسر، وبعد الأسر مخير بين الممنّ والغداء. وبه قال مالك، والشافعي، والثوري، والأوزاعي، وأبو عبيد وغيرهم. وهذا هو الراجح؛ لأن النبي ﷺ، والخلفاء الراشدين من بعده فعلوا ذلك. وقال سعيد بن جبيرة: لا يكون فداء ولا أسر إلا بعد الإثخان، والقتل بالسيف لقوله: **﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض﴾** [الأنفال: 67] فإذا أسر بعد ذلك، فللإمام أن يحكم بما رآه من قتل، أو غيره **﴿ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم﴾** محل ذلك الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: الأمر ذلك، وقيل: في محل نصب على المفعولية بتقدير فعل أي: افعلوا ذلك، ويجوز أن يكون مبتدأ، وخبره محذوف يدل عليه ما تقدّم أي: ذلك حكم الكفار، ومعنى **﴿لو يشاء الله لانتصر منهم﴾** أي: قادر على الانتصار منهم بالانتقام منهم وإهلاكهم، وتعذيبهم بما شاء من أنواع العذاب **﴿ولكن﴾** أمركم بحربهم **﴿ليبلاو بعضهم ببعض﴾** أي: ليختبر بعضهم ببعض، فيعلم المجاهدين في سبيله، والصابرين على ابتلائه ويجزل ثوابهم، ويعذب الكفار بأيديهم **﴿والذين قتلوا في سبيل الله﴾** قرأ الجمهور (قاتلوا) مبنياً للفاعل، وقرأ أبو عمرو، وحفص (قتلوا) مبنياً للمفعول، وقرأ الحسن بالتشديد مبنياً للمفعول أيضاً. وقرأ الجحدي، وعيسى بن عمر، وأبو حيو (قتلوا) على البناء للفاعل مع التخفيف من غير ألف، والمعنى على القراءة الأولى، والرابعة: أن المجاهدين في سبيل الله ثوابهم غير ضائع، وعلى القراءة الثانية، والثالثة: أن المقتولين في سبيل الله كذلك لا يضيع الله سبحانه أجرهم. قال قتادة: نكر لنا أن هذه الآية نزلت يوم أحد. ثم نكر سبحانه ما لهم عنده من جزيل الثواب فقال: **﴿سيهديهم﴾** أي: سيهديهم الله سبحانه إلى الرشاد في الدنيا، ويعطيهم الثواب في الآخرة **﴿ويصلح بهم﴾** أي: حالهم وشأنهم وأمرهم. قال أبو العالية: قد ترد الهداية، والمراد بها: إرشاد المؤمنين إلى مسالك الجنان، والطريق المفضية إليها، وقال ابن زيد: يهديهم إلى محاجة منكر ونكير **﴿ويدخلهم الجنة عرفها لهم﴾** أي: بيّنها لهم حتى عرفوها من غير استدلال، وذلك أنهم إذا دخلوا الجنة تفرّقوا إلى منازلهم. قال الواحدي: هذا قول عامة المفسرين. وقال الحسن: وصف الله لهم الجنة في الدنيا، فلما دخلوها عرفوها بصفاتها. وقيل: فيه حذف أي: عرفوا طرقها ومسالكها وبيوتها. وقيل: هذا التعريف ببليل يلهم عليها، وهو الملك الموكل بالعيد يسير بين يديه حتى يدخله منزله، كذا قال مقاتل. وقيل: معنى **﴿عرفها لهم﴾**: طيبتها بأنواع الملاذ، مأخوذ من العرف، وهو الرائحة. ثم وعدهم سبحانه على نصر دينه بقوله: **﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم﴾** أي: إن تنصروا دين الله ينصركم على الكفار، ويفتح لكم، ومثله قوله: **﴿ولينصرن الله من ينصروه﴾** [الحج: 40]. قال قطرب: إن تنصروا نبي الله ينصركم **﴿ويثبت أقدامكم﴾** أي: عند القتال، وتثبيت الأقدام عبارة عن النصر،

جري الأنهار من تحت الجنت، والجملة مسوقة لبيان ولاية الله للمؤمنين ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ أي: يتمتعون بمتاع الدنيا ويتنعمون به؛ كأنهم أتعام ليس لهم همّة إلا بطونهم وفروجهم، ساهون عن العقابة لاهون بما هم فيه ﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أي: مقام يقيمون به، ومنزل ينزلونه ويستقرون فيه، والجملة في محل نصب على الحال، أو مستأنفة.

وقد أخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَلُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قال: هم أهل مكة قريش نزلت فيهم: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قال: هم أهل المدينة الأنصار ﴿وَأَصْلَحَ بِالنَّارِ﴾ قال: أمرهم. وأخرج ابن المنذر عنه في قوله: ﴿أَصْلَحَ أَعْمَالَهُمْ﴾ قال: كانت لهم أعمال فاضلة لا يقبل الله مع الكفر عملاً. وأخرج النحاس عنه أيضاً في قوله: ﴿فَإِذَا مَتَّأ بَعْدَ وَإِذَا فِدَاءٌ﴾ قال: فجعل الله النبي، والمؤمنين بالخيار في الأسارى، إن شاءوا قتلهم، وإن شاءوا استعبدوهم، وإن شاءوا فادوهم. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عنه أيضاً في الآية قال: هذا منسوخ نسختها ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: 5]. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عن الحسن قال: أتى الحجاج بأسارى، فدفع إلى ابن عمر رجلاً يقتله، فقال ابن عمر: ليس بهذا أمرنا إنما قال الله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْتُمُوهُمْ فَاسْلُكُوا الْوُثَاقَ فَمَا مَتَّأ بَعْدَ وَإِذَا فِدَاءٌ﴾. وأخرج عبد الرزاق في المصنف، وابن المنذر، وابن مردويه عن ليث قال: قلت لمجاهد: بلغني أن ابن عباس قال: لا يحل قتل الأسارى؛ لأن الله قال: ﴿فَإِذَا مَتَّأ بَعْدَ وَإِذَا فِدَاءٌ﴾ فقال مجاهد: لا تعباً بهذا شيئاً أشرت أصحاب رسول الله ﷺ، وكلهم ينكر هذا، ويقول: هذه منسوخة إنما كانت في الهدنة التي كانت بين النبي ﷺ وبين المشركين، فاما اليوم فلا، يقول الله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: 5] ويقول: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبُ الرِّقَابِ﴾ فإن كان من مشركي العرب لم يقبل شيء منهم إلا الإسلام، فإن لم يسلموا فالقتل، وأما من سواهم فإنهم إذا أسروا، فالمسلمون فيهم بالخيار إن شاءوا قتلهم، وإن شاءوا استحيوهم، وإن شاءوا فادوهم إذا لم يتحولوا عن دينهم، فإن أظهروا الإسلام لم ينفوا. ونهى رسول الله ﷺ عن قتل الصغير، والمرأة، والشيخ الفاني. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «يوشك من عاش منكم أن يلقي عيسى ابن مريم إماماً مهدياً وحكماً عدلاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، وتوضع الجزية، وتضع الحرب أوزارها». وأخرج ابن سعد، وأحمد، والنسائي، والبيهقي، والطبراني، وابن مردويه عن سلمة بن نفيل، عن النبي ﷺ من حديث قال: «لا تضع الحرب أوزارها حتى يخرج يأجوج، ومأجوج». وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس

والمعونة في مواطن الحرب، وقيل: على الإسلام، وقيل: على الصراط ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ﴾ الموصول في محل رفع على أنه مبتدأ، وخبره محذوف تقديره: فتعسوا ببليلى ما بعده، وبخلت الفاء تشبيهاً للمبتدأ بالشرط، وانتصاب تعساً على المصدر للفعل المقدر خبراً. قال الفراء: مثل سقياً لهم ورعياً، وأصل التعس الانحطاط والعتار. قال ابن السكيت: التعس أن يجزّ على وجهه، والتعس أن يجز على رأسه، قال: والتعس أيضاً الهلاك. قال الجوهرى: وأصله الكب، وهو ضد الانتعاش، ومنه قول مجمع بن هلال:

تقول وقد أقرنتها من حليلها تعست كما أتعستني يا مجمع قال المبرد: أي: فمكروهاً لهم، قال ابن جرير: بعداً لهم، وقال السدي: خزياً لهم. وقال ابن زيد: شقاء لهم، وقال الحسن: شتاً لهم. وقال ثعلب: هلاكاً لهم، وقال الضحاك: خيبة لهم، وقيل: قبحاً لهم، حكاه النقاش. وقال الضحاك: رغماً لهم. وقال ثعلب أيضاً: شراً لهم. وقال أبو العالية: شقوة لهم. واللام في لهم للبيان، كما في قوله: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: 23] وقوله: ﴿وَأَصْلَحَ أَعْمَالَهُمْ﴾ معطوف على ما قبله داخل معه في خبرية الموصول. والإشارة بقوله: ﴿تِلْكَ﴾ إلى ما تقدّم مما ذكره الله من التعس والإضلال أي: الأمر تلك، أو تلك الأمر ﴿بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ على رسوله من القرآن، أو ما أنزل على رسله من كتبه لاشتمالها على ما في القرآن من التوحيد والبعث ﴿فَاحْبِطْ﴾ الله ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ بذلك السبب، والمراد بالأعمال: ما كانوا يعملوا من أعمال الخير في الصورة، وإن كانت باطلة من الأصل؛ لأن عمل الكافر لا يقبل قبل إسلامه. ثم خوف سبحانه الكفار، وأرشدهم إلى الاعتبار بحال من قبلهم، فقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ألم يسيروا في أرض عاد، وثمود، وقوم لوط وغيرهم؛ ليعتبروا ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: آخر أمر الكافرين قبلهم، فإن آثار العذاب في ديارهم باقية، ثم بين سبحانه ما صنع بمن قبلهم فقال: ﴿يُنْزِلُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ والجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر، والتدمير الإهلاك أي: أهلكهم واستأصلهم، يقال: دمره ودمر عليه بمعنى، ثم توعد مشركي مكة فقال: ﴿وَاللَّكَافِرِينَ أَهْمَالُهَا﴾ أي: لهؤلاء الكافرين أمثال عاقبة من قبلهم من الأمم الكافرة. قال الزجاج، وابن جرير: الضمير في أمثالها يرجع إلى عاقبة الذين من قبلهم، وإنما جمع لأن العواقب متعدّدة بحسب تعدّد الأمم المعذبة، وقيل: أمثال العقوبة، وقيل: الهلكة، وقيل: التدمير، والأول أولى لرجوع الضمير إلى ما هو منكور قبله، والإشارة بقوله: ﴿تِلْكَ﴾ إلى ما ذكر من أن للكافرين أمثالها ﴿بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ أي: بسبب أن الله ناصرهم ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ أي: لا ناصر يدفع عنهم. وقرأ ابن مسعود (تلك بأن الله وليّ الذين آمنوا) قال قتادة: نزلت يوم أحد ﴿إِنَّ اللَّهَ يَخْلُقُ الَّذِينَ يَكْفُرُ وَأَعْمَلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ جنت تجري من تحتها الأنهار ﴿قَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ الْآيَةِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ، وَتَقَدَّمَ كَيْفِيَّةُ

﴿وللكافرين أمثالها﴾ قال: لكفار قومك يا محمد مثل ما دمرت به القرى، فاهلكوا بالسيف.

وَكَيْنَ مِنْ قَرْيَةٍ إِذْ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتَكَ أَهْلَكْتَهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ۖ أَفَنْ كَانَ عَلَى بَيْنٍ مِنْ رَبِّهِ ۚ كَمْ زَيْنٌ لَمْ يَسُوهُ عَلَيْهِ ۚ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي رُغِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَرٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَرٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَرٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَرٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَنْفَرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمْ هُوَ خَلِيفٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاهُمْ ﴿١٧﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُورُوا إِلَيْهَا مَاذَا قَالَ إِنَّا أَنْشَأْنَا لَكَ الَّذِينَ ظَلَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ قُلُوبًا ۖ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٨﴾ وَكَأَيِّنْ أَهْتَدُوا رَازِقُهُمْ هُدًى وَاتَّبَعُوا تَفَرُّهُمْ ﴿١٩﴾ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنْ كُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ ﴿٢٠﴾ فَأَعْلَزَ أَنَّهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَعِزَّ لِيَدِكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ كَرَّمْنَاكُمْ وَتَوَدَّدْنَاكُمْ ﴿٢١﴾

خوف سبحانه الكفار؛ بأنه قد اهلك من هو أشد منهم فقال: ﴿وكاين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك اهلكناهم﴾ قد قدمنا أن كاين مركبة من الكاف وآي، واتها بمعنى كم الخبرية أي: وكمن من قرية، وأنشد الاخفش قول الوليد:

وكاين راينا من ملوك وسوقه ومفتاح قيد للاسير المكبل ومعنى الآية: وكمن من أهل قرية هم أشد قوة من أهل قريتك التي أخرجوك منها اهلكناهم ﴿فلا ناصر لهم﴾ فبالأولى من هو أضعف منهم وهم قريش الذين هم أهل قرية النبي ﷺ وهي مكة، فالكلام على حذف المضاف، كما في قوله: ﴿وإسأل القرية﴾ [يوسف: 82] قال مقاتل: أي: اهلكناهم بالعذاب حين كذبوا رسولهم. ثم ذكر سبحانه الفرق بين حال المؤمن، وحال الكافر فقال: ﴿أقمن كان على بينة من ربه﴾ والهمزة للإنكار، والفاء للعطف على مقتر كظائره، ومن مبتدأ، والخبر ﴿كمن زين له سوء عمله﴾ وأقرد في هذا باعتبار لفظ من، وجمع في قوله: ﴿واتبعوا أهواءهم﴾ باعتبار معناها، والمعنى: أنه لا يستوي من كان على يقين من ربه، ولا يكون كمن زين له سوء عمله، وهو عبادة الأوثان، والإشراك بالله، والعمل بمعاصي الله، واتبعوا أهواءهم في عبادتها، وانهمكوا في أنواع الضلالات بلا شبهة توجب الشك فضلاً عن حجة نيرة. ثم لما بين سبحانه الفرق بين الفريقين في الاهتداء، والضلال بين الفرق في مرجعهما ومآلهما فقال: ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون﴾ والجملة مستأنفة لشرح محاسن الجنة، وبيان ما فيها؛ ومعنى ﴿مثل الجنة﴾: وصفها العجيب الشأن، وهو مبتدأ، وخبره محذوف. قال النضر بن شميل: تقديره: ما يسمعون، وقدره سيبويه فيما يتلى عليكم مثل الجنة، قال: والمثل هو الوصف، ومعناه: وصف الجنة، وجملة ﴿فيها أنهار من ماء غير آسن﴾ إلخ مفسرة للمثل. وقيل: إن مثل زائدة، وقيل: إن مثل الجنة مبتدأ، والخبر فيها أنهار، وقيل: خبره كمن هو خالد، والآسن المتغير، يقال: أسن الماء يأسن

أسوناً: إذا تغيرت رائحته، ومثله الآسن، ومنه قول زهير: قد أترك القرن مصفراً أنامله يمد في الرمح ميد المالح الأسن قرأ الجمهور (أسن) بالمد. وقرأ حميد، وابن كثير بالقصر، وهما لغتان كحائر وحذر. وقال الاخفش: إن المملود يراد به الاستقبال، والمقصود يراد به الحال ﴿وانهار من لبن لم يتغير طعمه﴾ أي: لم يحمض، كما تغير اللبن الدنيا؛ لأنها لم تخرج من ضروع الإبل والغنم والبقر ﴿وانهار من خمر لذة للشاربين﴾ أي: لنيذة لهم طيبة الشرب لا يكرهها الشاربون، يقال: شراب لذ ولذيذ وفيه لذة بمعنى، ومثل هذه الآية قوله: ﴿بيضاء لذة للشاربين﴾ [الصفات: 46] قرأ الجمهور (لذة) بالجر صفة لخمر، وقرأ بالنصب على أنه مصدر، أو مفعول له. وقرأ بالرفع صفة لأنهار ﴿وانهار من عسل مصفى﴾ أي: مصفى مما يخالطه من الشمع والقذى والعكر والكبر ﴿ولهم فيها من كل الثمرات﴾ أي: لأهل الجنة في الجنة مع ما نكر من الأشربة من كل الثمرات أي: من كل صنف من أصنافها، و «من» زائدة للتوكيد ﴿ومغفرة من ربهم﴾ لنذوبهم، وتنكير مغفرة للمتظيم أي: ولهم مغفرة عظيمة كائنة من ربهم ﴿كمن هو خالد في النار﴾ هو خير لمبتدأ محذوف، والتقدير: أم من هو في نعيم الجنة على هذه الصفة خالداً فيها كمن هو خالد في النار، أو خبر لقوله: مثل الجنة كما تقدم، ورجح الأول الفراء، فقال: أراد أمن كان في هذا النعيم كمن هو خالد في النار. وقال الزجاج: أي: أقمن كان على بينة من ربه، وأعطى هذه الأشياء كمن زين له سوء عمله، وهو خالد في النار، فقوله: ﴿كمن﴾ بدل من قوله: «أقمن زين له سوء عمله» وقال ابن كيسان: ليس مثل الجنة التي فيها الثمار والأنهار، كمثل النار التي فيها الحميم والزقوم، وليس مثل أهل الجنة في النعيم، كمثل أهل النار في العذاب الأليم، وقوله: ﴿وسقوا ماء حميماً﴾ عطف على الصلة عطف جملة فعلية على اسمية لكنه راعى في الأولى لفظ من، وفي الثانية معناها، والحميم: الماء الحار الشديد الغليان، فإذا شربوه قطع أمعاءهم، وهو معنى قوله: ﴿فقطع أمعاءهم﴾ لفرط حرارته، والأمعاء جمع معى، وهي ما في البطون من الحوايا ﴿ومنهم من يستمع إليك﴾ أي: من هؤلاء الكفار الذين يتمتعون ويأكلون، كما تأكل الأنعام من يستمع إليك وهم المنافقون، أقرد الضمير باعتبار لفظ من، وجمع في قوله: ﴿حتى إذا خرجوا من عندك﴾ باعتبار معناها، والمعنى: أن المنافقين كانوا يحضرون مواقف وعظ رسول الله ﷺ، ومواطن خطبه التي يملئها على المسلمين حتى إذا خرجوا من عنده ﴿قالوا للذين أوتوا العلم﴾ وهم علماء الصحابة، وقيل: عبد الله بن عباس، وقيل: عبد الله بن مسعود، وقيل: أبو الدرداء، والأول أولى أي: سألو أهل العلم فقالوا لهم: ﴿ماذا قال أنفأ﴾ أي: ماذا قال النبي الساعة على طريقة الاستهزاء، والمعنى: أنا لم نلتفت إلى قوله، وأنفأ يراد به الساعة التي هي أقرب الأوقات، ومنه امر أنف أي:

والمؤمنات فإن المراد به: استغفاره لذنوب أمته بالدعاء لهم بالمغفرة عما فرط من ذنوبهم **«والله يعلم متقلبكم»** في أعمالكم **«ومثواكم»** في الدار الآخرة، وقيل: متقلبكم في أعمالكم نهراً، ومثواكم في ليلكم نياماً. وقيل: متقلبكم في أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات، ومثواكم في الأرض أي: مقامكم فيها. قال ابن كيسان: متقلبكم من ظهر إلى بطن في الدنيا، ومثواكم في القبور.

وقد أخرج عبد بن حميد، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس: «أن النبي ﷺ لما خرج من مكة إلى الغار التفت إلى مكة وقال: أنت أحب بلاد الله إليّ، ولولا أن أهلك أخرجوني منك لم أخرج، فاعتنى الأعداء من عتا على الله في حرمه، أو قتل غير قاتله، أو قتل يدخل الجاهلية، فأنزل الله: **«وكانين من قرية»** الآية». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس **«أنهار من ماء غير آسن»** قال: غير متغير. وأخرج أحمد، والترمذي وصححه، وابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي في البعث عن معلوية بن حيدة، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «في الجنة بحر اللبن، وبحر الماء، وبحر العسل، وبحر الخمر، ثم تشقق الأنهار منها». وأخرج الحارث بن أبي أسامة في مسنده، والبيهقي عن كعب قال: نهر النيل نهر العسل في الجنة، ونهر نجلة نهر اللبن في الجنة، ونهر الفرات نهر الخمر في الجنة، ونهر سيحان نهر الماء في الجنة. وأخرج ابن جرير، والحاكم وصححه من طريق سعيد بن جببر، عن ابن عباس في قوله: **«حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفاً»** قال: كنت فيمن يسأل. وأخرج عبد بن حميد من وجه آخر عنه في الآية قال: أنا منهم. وفي هذا منقبة لابن عباس جليلة؛ لأنه كان إذ ذاك صبياً غير بالغ، فإن النبي ﷺ مات وهو في سنّ البلوغ، فسؤال الناس له عن معاني القرآن في حياة النبي ﷺ، ووصف الله سبحانه للمسؤولين بأنهم الذين أوتوا العلم وهو منهم، من أعظم الأدلة على سعة علمه، ومزيد فقهه في كتاب الله، وسنة رسوله، مع كون أتباعه وأهل سنه إذ ذاك يلعبون مع الصبيان. وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: كانوا يدخلون على رسول الله ﷺ، فإذا خرجوا من عنده قالوا لابن عباس: ماذا قال آنفاً؟ فيقول: كذا وكذا، وكان ابن عباس أصغر القوم، فأنزل الله الآية، فكان ابن عباس من الذين أوتوا العلم. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن عسكرو عن ابن بريدة في الآية قال: هو عبد الله بن مسعود. وأخرج ابن عساكر من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: هو عبد الله بن مسعود. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: **«والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم»** قال: لما أنزل القرآن آمنوا به، فكان هدى، فلما تبين الناس من المنسوخ زادهم هدى. وأخرج ابن المنذر عنه: **«فقد جاء أشرطها»** قال: أول الساعات، وقد ثبت في الصحيحين، وغيرهما من حديث أنس قال: قال رسول الله

ﷺ، وروضة أنف أي: لم يرعها أحد، وانتصابه على الظرفية أي: وقتاً مؤتلفاً، أو حال من الضمير في قال. قال الزجاج: هو من استأنفت الشيء: إذا ابتدأته، وأصله مأخوذ من أنف الشيء لما تقدم منه، مستعار من الجارحة، ومنه قول الشاعر:

ويحرم سرّ جارتهم عليهم ويأكل جالهم أنف القصاع
والإشارة بقوله: **«أولئك»** إلى المذكورين من المنافقين **«الذين طبع الله على قلوبهم»** فلم يؤمنوا، ولا توجهت قلوبهم إلى شيء من الخير **«ولاتبعوا أهواءهم»** في الكفر والعناد. ثم ذكر حال أضدادهم فقال: **«والذين اهتدوا زادهم هدى»** أي: والذين اهتدوا إلى طريق الخير، فأمنوا بالله، وعملوا بما أمرهم به زادهم هدى بالتوفيق، وقيل: زادهم النبي ﷺ، وقيل: زادهم القرآن، وقال الفراء: زادهم إعراض المنافقين واستهزأؤهم هدى. وقيل: زادهم نزول الناسخ هدى، وعلى كل تقدير، فالمراد: أنه زادهم إيماناً وعلماً وبصيرة في الدين **«وآتاهم تقواهم»** أي: ألهمهم إياها وأعانهم عليها، والتقوى قال الربيع: هي خشية، وقال السدي: هي ثواب الآخرة، وقال مقاتل: هي التوفيق للعمل الذي يرضاه، وقيل: العمل بالناسخ وترك المنسوخ، وقيل: ترك الرخص والأخذ بالعزائم **«فهل ينظرون إلا الساعة»** أي: القيامة **«أن تأتيهم بغتة»** أي: فجأة، وفي هذا وعيد للكفار شديد، وقوله: **«أن تأتيهم بغتة»** بدل من الساعة بدل اشتمال. وقرأ أبو جعفر الرواسي (إن تأتيهم) بيان الشرطية **«فقد جاء أشرطها»** أي: أماراتها وعلاماتها، وكانوا قد قرءوا في كتبهم أن النبي ﷺ آخر الأنبياء، فبعثته من أشرطها، قاله الحسن، والضحاك، والأشراط جمع شرط بسكون الراء وفتحها. وقيل: المراد بأشرطها هنا: أسبابها التي هي دون معظمها. وقيل: أراد بعلامات الساعة انشقاق القمر والدخان، كذا قال الحسن. وقال الكلبي: كثرة المال، والتجارة، وشهادة الزور، وقطع الأرحام، وقلة الكرام، وكثرة اللثام، ومنه قول أبي زيد الأسود:

فإن كنت قد لزمعت بالصرم بيننا فقد جعلت أشرط أوله تبسو
«فأتى لهم إذا جاءتهم نكراهم» نكراهم مبتدأ، وخبره فأتى لهم أي: أتى لهم التذكر إذا جاءتهم الساعة كقوله: **«يومئذ يتذكر الإنسان وأتى له الذكرى»** [الفجر: 23] وإذا جاءتهم اعتراض بين المبتدأ والخبر **«فاعلم أنه لا إله إلا الله»** أي: إذا علمت أن مدار الخير هو التوحيد والطاعة، ومدار الشر هو الشرك والعمل بمعاصي الله، فاعلم أنه لا إله غيره، ولا رب سواه، والمعنى: أثبت على ذلك واستمر عليه؛ لأنه ﷺ قد كان عالماً بأنه لا إله إلا الله قبل هذا، وقيل: ما علمته استدلالاً فاعلمه خبراً يقيناً. وقيل المعنى: فأنكر أنه لا إله إلا الله، فعبر عن الذكر بالعلم **«واستغفر للذنوب»** أي: استغفر الله أن يقع منك ذنب، أو استغفر الله ليعصمك، أو استغفره مما ربما يصدر منك من ترك الأولى. وقيل: الخطاب له، والمراد: الأمة، ويأبى هذا قوله: **«وللمؤمنين**

﴿تِلْكَ﴾ إلى الإملاء، وقيل: إلى التسويل، والأول أولى. ويؤيد كون القائلين المنافقين، والكارهين اليهود قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ بِكُمْ وَلَا نَطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ﴾ [الحشر: 11] ولما كان قولهم المذكور للذين كرهوا ما أنزل الله بطريقة السرّ بينهم، قال الله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَسْرَارَهُمْ﴾ قرأ الجمهور بفتح الهمزة جمع سرّ، واختار هذه القراءة أبو عبيد، وأبو حاتم. وقرأ الكوفيون، وحزمة، والكسائي، وحفص عن عاصم، وابن وثاب، والأعمش بكسر الهمزة على المصدر أي: إخفاءهم ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، وكيف في محل رفع على أنها خبر مقدّم، والتقدير: فكيف علمه بأسرارهم إذا توفّتهم الملائكة، أو في محل نصب بفعل محذوف أي: فكيف يصنعون، أو خبر لكان مقدرّة أي: فكيف يكونون، والظرف معمول للمقتر، قرأ الجمهور (توفّتهم) وقرأ الأعمش (توفاهم)، وجملة ﴿يَضْرِبُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَنْبَارَهُمْ﴾ في محل نصب على الحال من فاعل توفّتهم، أو من مفعوله أي: ضاربين وجوههم وضاربين أنبارهم، وفي الكلام تخويف وتشديد، والمعنى: أنه إذا تأخر عنهم العذاب، فسيكون حالهم هذا، وهو تصوير لتوفّهم على أقبح حال وأشنعه. وقيل ذلك: عند القتال نصرة من الملائكة لرسول الله ﷺ، وقيل ذلك: يوم القيامة، والأول أولى، والإشارة بقوله: ﴿تِلْكَ﴾ إلى التوفي المذكور على الصفة المذكورة، وهو مبتدأ وخبره ﴿بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَصْخَطَ اللَّهَ﴾ أي: بسبب اتباعهم ما يسخط الله من الكفر والمعاصي، وقيل: كتمانهم ما في التوراة من نعت نبينا ﷺ، والأول أولى لما في الصيغة من العموم ﴿وَكُفَرُوا بِرُضْوَانِهِ﴾ أي: كرهوا ما يرضاه الله من الإيمان والتوحيد والطاعة ﴿فَاحْبِطْ﴾ الله ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ بهذا السبب، والمراد بأعمالهم: الأعمال التي صورتها صورة الطاعة وإلا فلا عمل لكافر، أو ما كانوا قد عملوا من الخير قبل الردّة ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ يعني: المنافقين المنكوريين سابقاً، وأم هي المنقطعة أي: بل أحسب المنافقون ﴿أَنْ لَنْ يَخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾ الإخراج بمعنى الإظهار، والأضغان جمع ضغن، وهو ما يضر من المكروه، واختلف في معناه، فقيل: هو الغش، وقيل: الحسد وقيل: الحقد. قال الجوهري: الضغن والضغينة الحقد، وقال قطرب: هو في الآية العداوة، وإن هي المخففة من الثقيلة، واسمها ضمير شأن مقتر ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ﴾ أي: لأعلمناكم، وعرفناكم بأعيانهم معرفة تقوم مقام الرؤية، تقول العرب: ساريك ما أصنع أي: سأعلمك ﴿فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِمَاهُمْ﴾ أي: بعلامتهم الخاصة بهم التي يتميزون بها. قال الزجاج: المعنى لو نشاء لجعلنا على المنافقين علامة، وهي السيماء، فلعرفتهم بتلك العلامة، والفاء لترتيب المعرفة على الإرادة، وما بعدها معطوف على جواب لو، وكررت في المعطوف

عمرو في رواية عنه، وسلام، وعيسى، ويعقوب بالتخفيف من القطع يقال: عسيت أن أفعل كذا، وعسيت بالفتح والكسر لغتان، ذكره الجوهري وغيره، وخبر عسيتم هو ﴿أَنْ تَفْسُدُوا﴾، والجملة الشرطية بينهما اعتراض، والإشارة بقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ إلى المخاطبين بما تقدّم وهو مبتدأ، وخبره ﴿الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: أبعدهم من رحمته، وطردهم عنها ﴿فَاصْصَهُمْ﴾ عن استماع الحق ﴿وَوَاعِمَى لَبِصَارِهِمْ﴾ عن مشاهدة ما يستدلون به على التوحيد والبعث، وحقية سائر ما دعاهم إليه رسول الله ﷺ، والاستغفام في قوله: ﴿أَقْبَلَا﴾ يتنبهون القرآن، للإنكار، والمعنى: أقبلا يتفهمنه، فيعلمون بما اشتمل عليه من المواظف الزاجرة، والحجج الظاهرة، والبراهين القاطعة التي تكفي من له فهم وعقل، وتزجره عن الكفر بالله، والإشراك به، والعمل بمعاصيه ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ أم هي المنقطعة أي: بل أعلى قلوب أقفالها، فهم لا يفهمون ولا يعقلون. قال مقاتل: يعني الطبع على القلوب، والأقفال استعارة لانغلاق القلب عن معرفة الحق، وإضافة الأقفال إلى القلوب للتنبية على أن المراد بها: ما هو للقلوب بمنزلة الأقفال للأبواب، ومعنى الآية: أنه لا يدخل في قلوبهم الإيمان، ولا يخرج منها الكفر والشرك، لأن الله سبحانه قد طبع عليها، والمراد بهذه القلوب: قلوب هؤلاء المخاطبين. قرأ الجمهور (أقفالها) بالجمع، وقرئ (أقفالها) بكسر الهمزة على أنه مصدر كالأقبال ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَنْبَارِهِمْ﴾ أي: رجعوا كفاراً كما كانوا. قال قتادة: هم كفار أهل الكتاب كفروا بالنبى ﷺ بعد ما عرفوا نعتهم عندهم، وبه قال ابن جرير. وقال الضحّاك، والسدي: هم المنافقون قعدوا عن القتال، وهذا أولى؛ لأن السياق في المنافقين ﴿مَنْ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى﴾ بما جاءهم به رسول الله ﷺ من المعجزات الظاهرة، والدلائل الواضحة ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ أي: زَيَّنَ لَهُمْ خطاياهم، وسهل لهم الوقوع فيها، وهذه الجملة خبر إن، ومعنى ﴿وَأَمْلَى لَهُمْ﴾: أن الشيطان مدّ لهم في الأمل، ووعدهم طول العمر، وقيل: إن الذي أملى لهم هو الله عزّ وجلّ على معنى: أنه لم يعاجلهم بالعقوبة. قرأ الجمهور (أملى) مبنياً للمفاعل، وقرأ أبو عمرو، وابن أبي إسحاق، وعيسى بن عمر، وأبو جعفر، وشيبة على البناء للمفعول قيل: وعلى هذه القراءة يكون الفاعل هو الله، أو الشيطان كالقراءة الأولى، وقد اختار القول بأن الفاعل الله الفراء، والمفضل، والأولى اختيار أنه الشيطان لتقدّم ذكره قريباً، والإشارة بقوله: ﴿تِلْكَ﴾ إلى ما تقدّم من ارتدادهم، وهو مبتدأ، وخبره ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرَهُوا مَا نَزَلَ اللَّهُ﴾ أي: بسبب أن هؤلاء المنافقين الذين ارتدّوا على أنبارهم قالوا للذين كرهوا: ما نزل الله، وهم المشركون ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ وهذا البعض هو عداوة رسول الله ﷺ، ومخالفة ما جاء به. وقيل المعنى: إن المنافقين قالوا لليهود: سنطيعكم في بعض الأمر، وقيل: إن القائلين اليهود، والذين كرهوا ما أنزل الله المنافقون، وقيل: إن الإشارة بقوله:

في سبيل الله، وإذا كان منكم من يبخل باليسير من المال، فكيف لا تبخلون بالكثير وهو جميع الأموال، ثم بيّن سبحانه أن ضرر البخل عائد على النفس فقال: ﴿وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ أي: يمنعه الأجر والثواب ببخله، وبخل يتعدى بعلى تارة وبعن أخرى. وقيل: إن أصله أن يتعدى بعلى، ولا يتعدى بعن إلا إذا ضمن معنى الإمساك ﴿وَاللهُ الْغَنِيُّ﴾ المطلق المتنزه عن الحاجة إلى أموالكم ﴿وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ﴾ إلى الله، وإلى ما عنده من الخير والرحمة، وجملة ﴿وَأَنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِّلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ معطوفة على الشرطية المتقدمة، وهي وإن تؤمنوا، والمعنى: وإن تعرضوا عن الإيمان والتقوى، يستبدل قوماً آخرين يكونون مكانكم هم أطوع لله منكم ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوا امْتَالِكُمْ﴾ في التولي عن الإيمان والتقوى. قال عكرمة: هم فارس، والروم. وقال الحسن: هم العجم. وقال شريح بن عبيد: هم أهل اليمن، وقيل: الأنصار، وقيل: الملائكة، وقيل: التابعون. وقال مجاهد: هم من شاء الله من سائر الناس. قال ابن جرير: والمعنى: ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوا امْتَالِكُمْ﴾ في البخل بالإتفاق في سبيل الله.

وقد أخرج عبد بن حميد، ومحمد بن نصر في كتاب الصلاة، وابن أبي حاتم عن أبي العالية قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يرون أنه لا يضُرُّ مع لا إله إلا الله نذب، كما لا ينفع مع الشرك عمل حتى نزلت: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تَبْغُلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ فخافوا أن يبطل النذب العمل، ولفظ عبد بن حميد: فخافوا للكبار أن تحبط أعمالهم. وأخرج ابن نصر، وابن جرير، وابن مروي عن ابن عمر قال: كنا معشر أصحاب النبي ﷺ نرى أنه ليس شيء من الحسنات إلا مقبول حتى نزلت: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تَبْغُلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ فلما نزلت هذه الآية قلنا: ما هذا الذي يبطل أعمالنا؟ قلنا: الكبار الموجبات والفواحش، فكان إذا رأينا من أصاب شيئاً منها قلنا قد هلك، حتى نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرَ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرَ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: 48، 116] فلما نزلت كففتنا عن القول في ذلك. وكنا إذا رأينا أحداً أصاب منها شيئاً خفنا عليه، وإن لم يصب منها شيئاً رجونا. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿يَتْرِكُمْ﴾ قال: يظلمكم. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مروي عن قال: «لما نزلت: ﴿وَأَنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِّلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ قالوا: من هؤلاء، وسلمان إلى جانب النبي ﷺ؟ فقال: هم الفرس، هذا وقومه». وفي مقال معروف. وأخرجه عنه الزنجي وقد تفرّد به، وفيه مقال معروف. وأخرجه عنه عبد الرزاق، وعبد بن حميد، والترمذي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني في الأوسط، والبيهقي في الدلائل عن أبي هريرة قال: «تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿وَأَنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِّلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ فقالوا: يا رسول الله من هؤلاء الذين إن تولينا استبدلوا بنا، ثم لا يكونوا أمثالنا؟ فضرب رسول الله ﷺ على منكب سلمان، ثم قال: هذا

سبحانه نهى المسلمين في هذه الآية عن أن يدعوا إلى السلم ابتداءً، ولم ينه عن قبول السلم إذا جنح إليه المشركون، فالأيتان محكمتان، ولم يتواردا على محل واحد حتى يحتاج إلى دعوى النسخ، أو التخصيص، وجملة ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ في محل نصب على الحال، أو مستأنفة مقررة لما قبلها من النهي أي: وأنتم الغالبون بالسيف والحجة. قال الكلبي: أي: آخر الأمر لكم، وإن غلبوكم في بعض الأوقات، وكذا جملة قوله: ﴿وَاللهُ مَعَكُمْ﴾ في محل نصب على الحال أي: معكم بالنصر، والمعونة عليهم ﴿وَلَنْ يَتْرِكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ أي: لن ينقصكم شيئاً من ثواب أعمالكم، يقال: وتره يتره وتراً، إذا نقصه حقه، وأصله من وترت الرجل: إذا قتلت له قريباً، أو نهبت له مالاً، ويقال فلان ماتور: إذا قتل له قاتل، ولم يؤخذ بدمه. قال الجوهرى: أي: لن ينقصكم في أعمالكم، كما تقول بخلت البيت وأنت تريد في البيت. قال الفراء: هو مشتق من الوتر وهو البخل، وقيل: مشتق من الوتر وهو الفرد، فكان المعنى: ولن يفركم بغير ثواب ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أي: باطل وغرور لا أصل لشيء منها، ولا ثبات له ولا اعتداد به ﴿وَأَنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِّلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أي: إن تؤمنوا بالله، وتتقوا الكفر والمعاصي يؤتكم جزاء ذلك في الآخرة، والأجر الثواب على الطاعة ﴿وَلَا يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ أي: لا يأمركم بإخراجها جميعها في الزكاة وسائر وجوه الطاعات، بل أمركم بإخراج القليل منها، وهو الزكاة. وقيل المعنى: لا يسألكم أموالكم إنما يسألكم أمواله؛ لأنه أملك لها، وهو المنعم عليكم بإعطائها. وقيل: لا يسألكم أموالكم أجراً على تبليغ الرسالة، كما في قوله: ﴿مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ [الفرقان: 57] والأول أولى ﴿إِنْ يَسْأَلُكُمْ عَنْهُ﴾ أي: أموالكم كلها ﴿فِيحِفْظِكُمْ﴾ قال المفسرون: يجهنكم، ويلحف عليكم بمسألة جميعها، يقال: أحفى بالمسألة والحف والمعنى واحد، والمحفي المستقصي في السؤال، والإحفاء الاستقصاء في الكلام، ومنه إحفاء الشارب أي: استئصاله، وجواب الشرط قوله: ﴿تَبْخُلُوا﴾ أي: إن يأمركم بإخراج جميع أموالكم تبخلوا بها، وتمتنعوا من الامتثال ﴿وَيُخْرِجُ أَضْغَانَكُمْ﴾ معطوف على جواب الشرط، ولهذا قرأ الجمهور (يخرج) بالجزم، وروي عن أبي عمرو أنه قرأ بالرفع على الاستئناف، وروي عنه أنه قرأ بفتح الياء وضم الراء، ورفع أضغانكم، وروي عن يعقوب الحضرمي أنه قرأ بالنون، وقرأ ابن عباس، ومجاهد، وابن محيصن، وحמיד بالفوقية المفتوحة مع ضم الراء. وعلى قراءة الجمهور، فالفاعل ضمير يعود إلى الله سبحانه، أو إلى البخل المدلول عليه بتبخلوا. والأضغان: الأحقاد، والمعنى: أنها تظهر عند ذلك. قال قتادة: قد علم الله أن في سؤال المال خروج الأضغان ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَدْعُونَ لِنُفْسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: ها أنتم هؤلاء أيها المؤمنون تدعون: لتنفقوا في الجهاد وفي طريق الخير ﴿فَمَنْكُمْ مَنِ يَبْخُلْ﴾ بما يطلب منه، ويدعى إليه من الإتفاق

وقومه، والذي نفسي بيده لو كان الإيمان منوطاً بالثريا لتناوله رجال من فارس»، وفي إسناده أيضاً مسلم بن خالد الزنجي. وأخرج ابن مريويه من حديث جابر نحوه.

تفسير سورة الفتح

قال القرطبي: بالإجماع. وقد أخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مريويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة الفتح بالمدينة. وأخرج ابن مريويه عن ابن الزبير مثله. وأخرج ابن إسحاق، والحاكم وصححه، والبيهقي في الدلائل عن المسور بن مخرمة ومروان قالوا: نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة في شأن الحديبية من أولها إلى آخرها، وهذا لا ينافي الإجماع على كونها منية؛ لأن المراد بالسور المدنية: النازلة بعد الهجرة من مكة. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن عبد الله بن مغفل قال: قرأ رسول الله ﷺ عام الفتح في مسيره سورة الفتح على راحلته، فرجع فيها. وفي الصحيحين عن زيد بن أسلم، عن أبيه: «أن رسول الله ﷺ كان يسير في بعض أسفاره، وعمر بن الخطاب يسير معه ليلاً، فسأله عمر عن شيء فلم يجبه رسول الله ﷺ، ثم سأله فلم يجبه، ثم سأله فلم يجبه، فقال عمر بن الخطاب: هلكت أم عمر نذرت رسول الله ﷺ ثلاث مرات كل ذلك لا يجيبك، فقال عمر: فحركت بعيري، ثم تقدمت أمام الناس، وخشيت أن ينزل في قرآن، فما نشبت أن سمعت صارخاً يصرخ بي، فقلت: لقد خشيت أن يكون قد نزل في قرآن، فبحث رسول الله ﷺ، فسلمت عليه، فقال: لقد أنزلت علي سورة لبي أحب إلي مما طلعت عليه الشمس، ثم قرأ: ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾ [أي: سورة الفتح]. وفي صحيح مسلم عن قتادة أن أنس بن مالك حدثهم قال: لما نزلت ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾ الآية إلى قوله: ﴿فوزاً عظيماً﴾ [الفتح: 1-5] مرجعه من الحديبية وهم مخالطهم الحزن والكآبة، وقد نَحروا الهدي بالحديبية، فقال: «لقد أنزلت علي آية هي أحب إلي من الدنيا جميعها».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ بِسَمَتِكَ عَلَيْهِ وَيُهَيِّبَ لَكَ رُحْمًا يُسَبِّحُهَا ﴿٢﴾ وَبَرَكَةَ اللَّهُ تَعَالَى عَزَبًا ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي أُنْزِلَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَرَدَّادُوا إِلَيْنَا مَعَ إِيَابِهِمْ وَلَهُ جُثُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِيُخْلِفَ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ جَنَّتْ بَحْرَى مِنْ حُبِّهِ الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَوَدَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُسْلِمُونَ وَالْمُشْرِكُونَ أَهْلَ الْأَنْبِيَاءِ بِاللَّهِ عَلَى أَنْتَهُ عَلَيْهِمْ دَاهِرَةُ السَّوَةِ وَعَوَّبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلَهُ جُثُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزَبًا حَكِيمًا ﴿٧﴾

قوله: ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾ اختلف في تعيين هذا الفتح، فقال الأكثر: هو صلح الحديبية، والصلح قد يسمى فتحاً. قال الفراء: والفتح قد يكون صلحاً، ومعنى الفتح في اللغة: فتح المنغلق، والصلح الذي كان مع المشركين بالحديبية كان مسوداً متعذراً حتى فتحه الله. قال الزهري: لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية، وذلك أن المشركين اختلطوا بالمسلمين، فسمعوا كلامهم، فتمكن الإسلام في قلوبهم، وأسلم في ثلاث سنين خلق كثير، وكثر بهم سواد الإسلام. قال الشعبي: لقد أصاب رسول الله ﷺ في الحديبية ما لم يصب في غزوة، غفر الله له ما تقدم من ذنبه، وما تأخر، وبويع بيعة الرضوان، وأطعموا نخل خيبر، وبلغ الهدي محله، وظهرت الروم على فارس، وفرح المؤمنون بظهور أهل الكتاب على المجوس. وقال قوم: إنه فتح مكة. وقال آخرون: إنه فتح خيبر. والأول أرجح، ويؤيده ما ذكرناه قبل هذا من أن السورة أنزلت في شأن الحديبية. وقيل: هو جميع ما فتح الله لرسوله من الفتح، وقيل: هو ما فتح له من النبوة، والدعوة إلى الإسلام، وقيل: فتح الروم، وقيل: المراد بالفتح في هذه الآية: الحكم والقضاء. كما في قوله: ﴿افتح بيننا وبين قومنا بالحق﴾ [الأعراف: 89] فكانه قال: إنا قضينا لك قضاءً مبيناً أي: ظاهراً واضحاً مكشوفاً ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ اللام متعلقة بفتحنا، وهي لام العلة. قال ابن الأنباري: سألت أبا العباس: يعني: المبرد عن اللام في قوله: ﴿ليغفر لك الله﴾ فقال: هي لام كي معناها: إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً؛ لكي يجتمع لك مع المغفرة تمام النعمة في الفتح، فلما انضم إلى المغفرة شيء حادث واقع حسن معنى كي، وغلط من قال ليس الفتح سبب المغفرة. وقال صاحب الكشف: إن اللام لم تكن علة للمغفرة؛ ولكن لاجتماع ما عند من الأمور الأربعة وهي: المغفرة، وإتمام النعمة، وهداية الصراط المستقيم، والنصر العزيز. كأنه قيل: يسرنا لك فتح مكة، ونصرك على عدوك؛ لنجمع لك بين عز الدارين، وأعراض العاجل والأجل. وهذا كلام غير جيد، فإن اللام داخل على المغفرة فهي علة للفتح، فكيف يصح أن تكون معللة. وقال الرازي في توجيه التعليل: إن المراد بقوله: ﴿ليغفر لك الله﴾ التعريف بالمغفرة تقديره: إنا فتحنا لك؛ لتعرف أنك مغفور لك معصوم. وقال ابن عطية: المراد أن الله فتح لك؛ لكي يجعل الفتح علامة لغفرانه لك، فكانها لام الصيرورة. وقال أبو حاتم: هي لام القسم وهو خطأ، فإن لام القسم لا تكسر، ولا ينصب بها.

اختلف في معنى قوله: ﴿ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ فقيل: ما تقدم من ذنبك قبل الرسالة، وما تأخر بعدها قاله مجاهد، وسفيان الثوري، وابن جرير، والواحدي، وغيرهم. وقال عطاء: ما تقدم من ذنبك يعني: ذنب أبوبك آدم وحواء، وما تأخر من ذنوب أمتك. وما أبعد هذا عن معنى القرآن. وقيل: ما تقدم من ذنب أبوك إبراهيم، وما تأخر من ذنوب النبيين من بعده، وهذا كالذي قبله. وقيل: ما تقدم من ذنب

المشركين دلالة على أنهم أشدّ منهم عذاباً، وأحقّ منهم بما وعدهم الله به، ثم وصف الفريقين، فقال: ﴿الظَّالِمِينَ بَاسًا ظُنُّنَ السُّوءَ﴾ وهو ظنهم أن النبي ﷺ يغلب، وأن كلمة الكفر تعلق كلمة الإسلام.

ومما ظنوه ما حكاه الله عنهم بقوله: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولَ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ [الفتح: 12] ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ﴾ أي: ما يظنونه، ويتربصونه بالمؤمنين دائر عليهم حاشق بهم، والمعنى: أن العذاب، والهلاك الذي يتوقعونه للمؤمنين وأقمان عليهم نازلان بهم. قال الخليل، وسيبويه: السوء هنا الفساد. قرأ الجمهور (السوء) بفتح السين. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو بضمها ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ لما بين سبحانه أن دائرة السوء عليهم في الدنيا بين ما يستحقونه مع ذلك من الغضب واللعة، وعذاب جهنم ﴿وَوُشَّ جَنُودَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من الملائكة، والإنس، والجنّ، والشياطين ﴿وَوَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ كرر هذه الآية؛ لقصد التأكيد، وقيل: المراد بالجنود هنا جنود العذاب، كما يفيد التعبير بالعرّة هنا مكان العلم هناك.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وأبو داود، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مرويّه، والبيهقي في الدلائل عن مجمع بن حارثة الأنصاري قال: «شهدنا الحديبية، فلما انصرفنا عنها حتى بلغنا كراع الغميم إذ الناس يوجفون الأباغر، فقال الناس بعضهم لبعض: ما للناس؟ فقالوا: أوحى إلى رسول الله ﷺ، فخرجنا مع الناس نوجف، فإذا رسول الله ﷺ على راحلته عند كراع الغميم، فاجتمع الناس عليه فقرأ عليهم: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾، فقال رجل: إي رسول الله أو فتح هو؟ قال: إي والذي نفس محمد بيده إنه لفتح، فقسمت خيبر على أهل الحديبية لم يدخل معهم فيها أحد إلا من شهد الحديبية، فقسمها رسول الله ﷺ ثمانية عشر سهماً، وكان الجيش ألفاً وخمسائة منهم ثلثمائة فارس، فأعطى الفارس سهمين، وأعطى الرّاجل سهماً. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، والبخاري في تاريخه، وأبو داود، والنسائي، وابن جرير، والطبراني، وابن مرويّه، والبيهقي في الدلائل عن ابن مسعود قال: أقبلنا من الحديبية مع رسول الله ﷺ، فبينما نحن نسير إذ أتاه الوحي، وكان إذا أتاه اشتدّ عليه، فسري عنه، وبه من السرور ما شاء الله، فأخبرنا أنه أنزل عليه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾. وأخرج البخاري وغيره عن انس في قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ قال: الحديبية. وأخرج البخاري، وغيره عن البراء قال: تعمّن أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحاً، ونحن نعدّ الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية. وأخرج ابن مرويّه عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ قال: فتح مكة». وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن المغيرة بن شعبة قال: «كان النبي ﷺ يصلي حتى تتورم قدماه، فقيل

يوم بدر، وما تأخر من ذنب يوم حنين، وهذا كالتقولين الأولين في البعد. وقيل: لو كان ذنب قديم، أو حديث؛ لغفرناه لك، وقيل غير ذلك مما لا وجه له، والأوّل أولى. ويكون المراد بالذنب بعد الرسالة: ترك ما هو الأوّل، وسمي ذنباً في حقه لجلالة قدره، وإن لم يكن ذنباً في حق غيره ﴿وَيَقُمْ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ بإظهار دينك على الدين كله، وقيل: بالجنة، وقيل: بالنبوة والحكمة، وقيل: بفتح مكة، والطائف، وخيبر، والأولى أن يكون المعنى: ليجتمع لك مع الفتح تمام النعمة بالمغفرة، والهداية إلى صراط مستقيم، وهو الإسلام. ومعنى يهديك: يثبتك على الهدى إلى أن يقبضك إليه ﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ أي: غالباً منيعاً لا يتبعه ذل ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: السكون والطمأنينة بما يسره لهم من الفتح؛ لئلا تنزع نفوسهم لما يرد عليهم ﴿لِيُزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ أي: ليزدادوا بسبب تلك السكينة إيماناً منضمّاً إلى إيمانهم الحاصل لهم من قبل. قال الكلبي: كلما نزلت آية من السماء، فصنّفوا بها ازدادوا تصديقاً إلى تصديقهم، وقال الربيع بن أنس: خشية مع خشيتهم. وقال الضحّاك: يقيناً مع يقينهم ﴿وَوُشَّ جَنُودَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني: الملائكة، والإنس، والجن، والشياطين يدبر أمرهم كيف يشاء، ويسلط بعضهم على بعض، ويحوط بعضهم ببعض ﴿وَوَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ كثير العلم بليغ ﴿حَكِيمًا﴾ في أفعاله وأقواله ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ هذه اللام متعلقة بمحذوف يدلّ عليه ما قبله تقديره يبتلي بتلك الجنود من يشاء، فيقبل الخير من أهله، والشرّ ممن قضى له به؛ ليدخل ويعذب. وقيل: متعلقة بقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا﴾ كانه قال: إنا فتحنا لك ما فتحنا؛ ليدخل ويعذب، وقيل: متعلقة بـ﴿نُصْرَكَ اللَّهُ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ ليدخل ويعذب، وقيل: متعلقة بـ﴿يُزَادُوا﴾ أي: يزادوا، ليدخل ويعذب، والأوّل أولى ﴿وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي: يسترهم، ولا يظهرها ولا يعذبهم بها، وقدم الإدخال على التكفير مع أن الأمر بالعكس للمسارة إلى بيان ما هو المطلب الأعلى، والمقصود الأسنى ﴿وَوَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ أي: وكان ذلك الوعد بإدخالهم الجنة، وتكفير سيئاتهم عند الله، وفي حكمه فوزاً عظيماً أي: ظفراً بكل مطلوب، ونجاة من كل غم، وجلباً لكل نفع ودفعا لكل ضرر، وقوله: ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ متعلق بمحذوف على أنه حال من فوزاً؛ لأنه صفة في الأصل، فلما قدم صار حالاً أي: كائناً عند الله، والجملة معترضة بين جزاء المؤمنين، وجزاء المنافقين والمشركين، ثم لما فرغ مما وعد به صالحى عبادته ذكر ما يستحقه غيرهم، فقال: ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتُ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتُ﴾ وهو معطوف على يدخل أي: يعذبهم في الدنيا بما يصل إليهم من الهموم، والغموم بسبب ما يشاهدونه من ظهور كلمة الإسلام، وقهر المخالفين له، وبما يصابون به من القهر والقتل والأسر، وفي الآخرة بعذاب جهنم. وفي تقديم المنافقين على

وتسبحوه» الخلاف بين القراء في هذه الثلاثة الأفعال كالخلاف في «لتؤمنوا» كما سلف، ومعنى تعزروه: تعظموه وتفخموه؛ قاله الحسن، والكلبي، والتعزير: التعظيم والتوقير. وقال قتادة: تنصروه وتمنعوا منه. وقال عكرمة: تقاتلون معه بالسيف، ومعنى توقروه: تعظموه. وقال السدي: تسووه، قيل: والضميران في الفعلين للنبي ﷺ وهنا وقف تام، ثم يبتدئ وتسبحوه أي: تسبحوا الله عز وجل «بكرة واصيلاً» أي: غداة وعشية، وقيل: الضمائر كلها في الأفعال الثلاثة لله عز وجل، فيكون معنى تعزروه وتوقروه: تثبتون له التوحيد، وتتفون عنه الشركاء، وقيل: تنصروا دينه وتجاهدوا مع رسوله. وفي التسبيح وجهان، أحدهما: التنزيه له سبحانه من كل قبيح، والثاني: الصلاة «إن الذين يبايعونك» يعني: بيعة الرضوان بالحديبية، فإنهم بايعوا تحت الشجرة على قتال قريش «إنما يبايعون الله» أخبر سبحانه أن هذه البيعة لرسوله ﷺ هي بيعة له كما قال: «من يطع الرسول فقد أطاع الله» [النساء: 80] وذلك لأنهم باعوا أنفسهم من الله بالجنة، وجملة «يؤيد الله فوق أيديهم» مستأنفة لتقرير ما قبلها على طريق التخييل، في محل نصب على الحال، والمعنى: أن عقد الميثاق مع رسول الله ﷺ كعقده مع الله سبحانه من غير تفاوت. وقال الكلبي: المعنى: إن نعمة الله عليهم في الهداية فوق ما صنعوا من البيعة. وقيل: يده في الثواب فوق أيديهم في الوفاء. وقال ابن كيسان: قوة الله ونصرته فوق قوتهم ونصرتهم «فمن نكث فإنما ينكث على نفسه» أي: فمن نقض ما عقد من البيعة، فإنما ينقض على نفسه؛ لأن ضرر نكاح راجع إليه لا يجاوزه إلى غيره «ومن أوفى بما عاهد عليه الله» أي: ثبت على الوفاء بما عاهد الله عليه في البيعة لرسوله. قرأ الجمهور (عليه) بكسر الهاء وقرأ حفص، والزهري بضمها «فسيؤتيه أجراً عظيماً» وهو الجنة. قرأ الجمهور (فسيؤتيه) بالتحنية، وقرأ نافع، وقرأ كثير، وابن عامر بالنون، واختار القراءة الأولى أبو عبيد، وأبو حاتم، واختار القراءة الثانية الفراء «سيقول لك المخلفون من الأعراب» هم الذين خلفهم الله عن صحبة رسوله حين خرج عام الحديبية. قال مجاهد، وغيره يعني: أعراب غفار، ومزينة، وجهينة، وأسلم، وأشجع، والنثل، وهم الأعراب الذين كانوا حول المدينة. وقيل: تخلفوا عن رسول الله ﷺ حين سافر إلى مكة عام الفتح بعد أن كان قد استغفرهم ليخرجوا معه، والمخلف المتروك «شغلنا أموالنا وأهلونا» أي: منعنا عن الخروج معك ما لنا من الأموال، والنساء، والزاري، وليس لنا من يقوم بهم، ويخلفنا عليهم «فاستغفر لنا» ليغفر الله لنا ما وقع منا من التخلف عنك بهذا السبب، ولما كان طلب الاستغفار منهم ليس عن اعتقاد بل على طريقة الاستهزاء، وكانت بواطنهم مخالفة لظواهرهم، فضحهم الله سبحانه بقوله: «يقولون بالاستغفار ما ليس في قلوبهم» وهذا هو صنيع المنافقين، والجملة مستأنفة لبيان ما تنطوي

له: ليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك، وما تأخر قال: اقلاً أكون عبداً شكوراً، وفي الباب أحاديث. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس في قوله: «هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين» قال: السكينة هي الرحمة وفي قوله: «ليزادوا إيماناً مع إيمانهم» قال: إن الله بعث نبيه ﷺ بشهادة أن لا إله إلا الله، فلما صدق بها المؤمنون زادهم الصلاة، فلما صدقوا بها زادهم الصيام، فلما صدقوا به زادهم الزكاة، فلما صدقوا بها زادهم الحج، فلما صدقوا به زادهم الجهاد، ثم أكمل لهم دينهم، فقال: «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً» [المائدة: 3]. قال ابن عباس: «فاوثق إيمان أهل السماء، وأهل الأرض، وأصدقه وأكمله شهادة أن لا إله إلا الله». وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود «ليزادوا إيماناً مع إيمانهم» قال: تصديقاً مع تصديقهم. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن انس قال: لما أنزل على النبي ﷺ: «ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر» مرجعه من الحديبية. قال: «لقد أنزلت علي آية هي أحب إلي مما على الأرض، ثم قرأها عليهم، فقالوا: هنيئاً مريئاً يا رسول الله، قد بين الله لك ماذا يفعل بك، فماذا يفعل بنا؟ فنزلت عليه: «ليدخل للمؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار» حتى بلغ: «فوزاً عظيماً».

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكُمَا يَسْتَفِئُونَ إِلَهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ مِمَّنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَيَمُوتْ بِهِ أَوْ يُبْعَثْ يُؤْتِ الْجَنَّةَ وَلِأُولَئِكَ فِيهَا أَكْثَبُ الْمُتَحَلِّفِينَ ﴿١٠﴾ الْأَعْرَابُ سَفَهْتُمَا أَمْرًا وَأَعْلَوْنَا فاستغفروا لنا بقرآنهم مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْءٌ إِنَّ أَرَادَ بِكُمْ ضُرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقُذَ الرَّسُولَ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَعْيُنِهِمْ أَبَدًا وَرُبَّمَا كُنَّا فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ لَكُمْ التَّوَكُّلَ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَتَوَفَّى لِمَنْ يَشَاءُ رُحُومًا مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْشَقَّتْ عَنْكَ مَتَابِعُ لِنَاظُرِهَا ذُرُوزًا نَنُوحُكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يَسْأَلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ نَقُومََا كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ بَلْ قَبْلَ سَبْعِينَ أَلْفًا سَنَةً وَمَنْ لَمْ يَحْشُرْهَا بَلْ كَانُوا لَا يَتَّقُونَ إِلَّا تِلْكَ ﴿١٥﴾

قوله: «إنا أرسلناك شاهداً» أي: على امتك بتبليغ الرسالة إليهم «ومبشراً» بالجنة للمطيعين «ونذيراً» لأهل المعصية «لتؤمنوا بالله ورسوله» قرأ الجمهور (لتؤمنوا) بالوقية. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو بالتحنية، فعلى القراءة الأولى: الخطاب لرسول الله ﷺ ولأمته، وعلى القراءة الثانية المراد: المبشرين والمنذرين، وانتصاب شاهداً ومبشراً ونذيراً على الحال المقدرة «وتعزروه وتوقروه

﴿ذُرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ أي: اتركونا نتبعكم ونشهد معكم غزوة خيبر. وأصل القصة أنه لما انتصر النبي ﷺ ومن معه من المسلمين من الحديبية وعدهم الله فتح خيبر، وخص بغنائمها من شهد الحديبية، فلما انطلقوا إليها قال هؤلاء المخلفون: ذرونا نتبعكم، فقال الله سبحانه: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ أي: يغيروا كلام الله، والمراد بهذا الكلام الذي أرادوا أن يبطلوه: هو مواعيد الله لاهل الحديبية خاصة بغنيمة خيبر.

وقال مقاتل: يعني: أمر الله لرسوله أن لا يسير معه أحد منهم. وقال ابن زيد: هو قوله تعالى: ﴿فَاسْتَأْنِذُوا لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَّنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ [التوبة: 83] واعترض هذا ابن جرير، وغيره بأن غزوة تبوك كانت بعد فتح خيبر، وبعد فتح مكة، والأول أولى، وبه قال مجاهد، وقتادة، ورجحه ابن جرير، وغيره. قرأ الجمهور (كلام الله) وقرأ حمزة، والكسائي (كلم الله) قال الجوهري: الكلام اسم جنس يقع على القليل والكثير، والكلم لا يكون أقل من ثلاث كلمات؛ لأنه جمع كلمة مثل نيقة ونبق، ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يمنعه من الخروج معه، فقال: ﴿قُلْ لَّنْ تَتَّبِعُونَا﴾ هذا النفي هو في معنى النهي، والمعنى: لا تتبعونا ﴿كَلِمَةً قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلِ﴾ أي: من قبل رجوعنا من الحديبية أن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية خاصة ليس لغيرهم فيها نصيب ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ يعني: المنافيين عند سماع هذا القول، وهو قوله: ﴿لَّنْ تَتَّبِعُونَا﴾ ﴿بَلْ تَحْسُونَنَا﴾ أي: بل ما يمنعكم من خروجنا معكم إلا الحسد؛ لئلا تشارككم في الغنيمة، وليس ذلك بقول الله كما تزعمون، ثم رد الله سبحانه عليهم بقوله: ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: لا يعلمون إلا علما قليلا، وهو علمهم بامر الدنيا، وقيل: لا يفقهون من أمر الدين إلا فقها قليلا، وهو ما يصنعونه نفاقا بظواهرهم دون بواطنهم.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَتَعَزَّوهُ﴾ يعني: الإجلال ﴿وَتَوْقَرُوهُ﴾ يعني: التعظيم، يعني: محمدا ﷺ. وأخرج ابن أبي حاتم، والحاكم، وابن مردويه، والضياء في المختارة عنه في قوله: ﴿وَتَعَزَّوهُ﴾ قال: تضربوا بين يديه بالسيف. وأخرج ابن عدي، وابن مردويه، والخطيب، وابن عساكر في تاريخه عن جابر بن عبد الله قال: «لما أنزلت على رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿وَتَعَزَّوهُ﴾ قال لأصحابه: ما ذاك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: لتنصروه. وأخرج أحمد، وابن مردويه عن عباد بن الصامت قال: «بابعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في النشاط والكسل، وعلى النفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى أن نقول في الله لا تأخذنا فيه لومة لائم، وعلى أن ننصره إذا قدم علينا يثرب، فنمنعه مما نمنع منه أنفسنا، وأزواجنا، وأبنائنا، ولنا الجنة، فمن وفى وفى الله له، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه». وفي الصحيحين من حديث جابر: «أنهم

عليه بواطنهم، ويجوز أن تكون بدلا من الجملة الأولى، ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يجيب عنهم، فقال: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي: فمن يمنعكم مما أراد الله بكم من خير وشر، ثم بين ذلك، فقال: ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضُرًّا﴾ أي: إنزال ما يضركم من ضياع الأموال وهلاك الأهل. قرأ الجمهور (ضرًا) بفتح الضاء، وهو مصدر ضررته ضرًا. وقرأ حمزة، والكسائي بضمها وهو اسم ما يضر، وقيل: هما لغتان ﴿وَإِنْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ أي: نصرا وغنيمة، وهذا رد عليهم حين ظنوا أن التخلف عن رسول الله ﷺ ينفع عنه الضر، وي جلب لهم النفع، ثم أضر ب سبحانه عن ذلك، وقال: ﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أي: إن تخلفكم ليس لما زعتم، بل كان الله خبيرا بجميع ما تعملونه من الأعمال التي من جملتها تخلفكم، وقد علم أن تخلفكم لم يكن لذلك، بل للشك والنفاق، وما خطر لكم من الظنون الفاسدة الناشئة عن عدم الثقة بالله، ولهذا قال: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ وهذه الجملة مفسرة لقوله: ﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ لما فيها من الإبهام أي: بل ظننتم أن العود يستأصل المؤمنين بالمرة، فلا يرجع منهم أحد إلى أهله، فلجل ذلك تخلفتم لا لناكرتم من المعانير الباطلة ﴿وَزَيْنَ نُّكْ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي: وزين الشيطان ذلك الظن في قلوبكم فقبلتموه. قرأ الجمهور (وزين) مبنيًا للمفعول، وقرأ مبنيًا للفاعل ﴿وَوَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ أن الله سبحانه لا ينصر رسوله، وهذا الظن إما هو الظن الأول، والتكرير للتأكيد والتوبيخ، والمراد به ما هو أعم من الأول، فيدخل الظن الأول تحته دخولا أوليا ﴿وَوَكَنْتُمْ قَوْمًا بِرُءُوسِهِمْ﴾ أي: ملكي، قال الزجاج: هالكين عند الله، وكذا قال مجاهد. قال الجوهري: البور الرجل الفاسد الهالك الذي لا خير فيه. قال أبو عبيد ﴿قَوْمًا بِرُءُوسِهِمْ﴾ ملكي، وهو جمع بائر، مثل حائل وحول، وقد بار فلان أي: ملك، وأبأه الله أملكه ﴿وَمَنْ لَّمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ هذا الكلام مستأنف من جهة الله سبحانه غير داخل تحت ما أمر الله سبحانه رسوله أن يقوله أي: ومن لم يؤمن بهما، كما صنع هؤلاء المخلفون، فجزأهم ما أعد الله لهم من عذاب السعير ﴿وَاللَّهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يتصرف فيه كيف يشاء لا يحتاج إلى أحد من خلقه، وإنما تعبدكم بما تعبدكم لئيب من أحسن ويعاقب من أساء، ولهذا قال: ﴿يَغْفِرْ لِمَن يَشَاءُ﴾ أن يغفر له ﴿وَيُعَذِّبْ مَن يَشَاءُ﴾ أن يعذبه ﴿لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: 23] ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي: كثير المغفرة والرحمة بليغها يخص بمغفرته ورحمته من يشاء من عباده ﴿سَيَقُولُ الْمَخْلَفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾ المخلفون هؤلاء المذكورون سابقا، والظرف متعلق بقوله: ﴿سَيَقُولُ﴾ والمعنى: سيقولون عند انطلاقكم أيها المسلمون ﴿إِلَى مَغَانِمَ﴾ يعني: مغنم خيبر ﴿لِتَأْخُذُوهَا﴾ لتحوزوها

كانوا في بيعة الرضوان خمس عشرة مائة. وفيهما عنه: أنهم كانوا أربع عشرة مائة. وفي البخاري من حديث قتادة عن سعيد بن المسيب أنه سأله كم كانوا في بيعة الرضوان؟ قال: خمس عشرة مائة، فقال له: إن جابراً قال: كانوا أربع عشرة مائة، قال رحمه الله: وهم هو حدثني أنهم كانوا خمس عشرة مائة.

قُلْ لِلْمُخْلِفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سِتْرَةٌ إِنْ قَوْمٌ أُولَىٰ شَيْءٍ تَقْبَلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ إِنْ طَئِعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَلَنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَدْخُلْهُ جَنَّاتُ جَبْرِ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَهُمْ فِيهَا يَبْقَوْنَ فِي سَكَنٍ لَمْ يَبَدُ لَهُمْ فِيهَا شَمْسٌ وَلَا لَيْلٌ وَقَدْ خَلَتِ مِنْ أَمْرِ الْأَعْرَابِ ﴿١٨﴾ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٩﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٢٠﴾ وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَلَ لَكُمْ فَدْيُومَهُمْ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢١﴾ وَآخَرُهَا لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٢﴾ وَلَوْ فَتَنَّاكُمُ الْفِتْنَىٰ لَفَسَدَتُمْ وَلَئِنْ لَمْ يَنْجِئْنَاكُمْ لَفُوشَ لَكُمْ مِنَ الْعَمَلِ إِنَّكُمْ أَلَمْتُمْ بِهِ فَلَمْ تُؤْنِسُوا أَنفُسَكُمْ فَفَلَحُوا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٣﴾

قوله: **﴿قل للمخلفين من الاعراب﴾** هم المذكورون سابقاً **﴿يستدعون إلى قوم أولي بأس شديدا﴾** قال عطاء بن أبي رباح، ومجاهد، وابن أبي ليلى، وعطاء الخراساني: هم فارس. وقال كعب، والحسن: هم الروم. وروي عن الحسن أيضاً أنه قال: هم فارس، والروم. وقال سعيد بن جبیر: هم هوازن، وثقيف. وقال عكرمة: هوازن. وقال قتادة: هوازن وغطفان يوم حنين. وقال الزهري، ومقاتل: هم بنو حنيفة أهل اليمامة أصحاب مسيلمة، وحكى هذا القول الواحدى عن أكثر المفسرين **﴿تقتلونهم أو يسلمون﴾** أي: يكون أحد الأمرين: إما المقاتلة، أو الإسلام لا ثالث لهما، وهذا حكم الكفار الذين لا تؤخذ منهم الجزية. قال الزجاج: التقدير، أو هم يسلمون، وفي قراءة أبي (أو يسلموا) أي: حتى يسلموا **﴿فإن ططيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً﴾** وهو الغنيمة في الدنيا، والجنة في الآخرة **﴿وإن تتولوا﴾** أي: تعرضوا **﴿كما توليتم من قبل﴾** وذلك عام الحديبية **﴿يعينكم عذاباً أليماً﴾** بالقتل والأسر والقهر في الدنيا، وبعذاب النار في الآخرة: لتضاعف جرمكم **﴿ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج﴾** أي: ليس على هؤلاء المعنورين بهذه الأعداء حرج في التخلف عن الغزو؛ لعدم استطاعتهم. قال مقاتل: عذر الله أهل الزمالة الذين تخلفوا عن المسير إلى الحديبية بهذه الآية، والحرج: الإنهم **﴿ومن يطع الله ورسوله﴾** فيما أمراه به ونهياه عنه **﴿يدخله جنات تجري**

من تحتها الأنهار﴾ قرأ الجمهور (يدخله) بالتحية، واختار هذه القراءة أبو حاتم، وأبو عبيد، وقرأ نافع، وابن عامر بالنون **﴿ومن يتولَّ يعنِّبه عذاباً أليماً﴾** أي: ومن يعرض عن الطاعة يعنِّبه الله عذاباً شديداً أليماً، ثم نكر سبحانه الذين أخلصوا نياتهم، وشهدوا ببيعة الرضوان، فقال: **﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة﴾** أي: رضي الله عنهم وقت تلك البيعة، وهي بيعة الرضوان، وكانت بالحديبية، والعامل في **﴿تحت﴾** إما يبايعونك، أو محذوف على أنه حال من المفعول، وهذه الشجرة المذكورة هي شجرة كانت بالحديبية وقيل: سدره، وكانت البيعة على أن يقتلوا قريشاً، ولا يفروا. وروي أنه يبايعهم على الموت، وقد تقدم نكر عدد أهل هذه البيعة قريباً، والقصة مبسطة في كتب الحديث والسير **﴿فعلما ما في قلوبهم﴾** معطوف على يبايعونك، قال الفراء: أي: علم ما في قلوبهم من الصديق والوفاء. وقال قتادة، وابن جريج: من الرضى بامر البيعة على أن لا يفروا. وقال مقاتل: من كراهة البيعة على الموت **﴿فأنزل للسكينة عليهم﴾** معطوف على رضي، والسكينة: الطمأنينة وسكون النفس، كما تقدم، وقيل: الصبر **﴿وأنابهم فتحاً قريباً﴾** هو فتح خيبر عند انصرافهم من الحديبية، قاله قتادة، وابن أبي ليلى، وغيرهما، وقيل: فتح مكة، والأول أولى **﴿ومغانم كثيرة ياخذونها﴾** أي: وأنابكم مغانم كثيرة، أو وأتاكم، وهي غنائم خيبر، والالتفات لتشريفهم بالخطاب **﴿وكان الله عزيزاً حكيماً﴾** أي: غالباً مصدراً أفعاله وأقواله على أسلوب الحكمة **﴿وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها﴾** في هذا وعد منه سبحانه لعباده المؤمنين بما سيفتحه عليهم من الغنائم إلى يوم القيامة ياخذونها في أوقاتها التي قدر وقوعها فيها **﴿فعجل لكم هذه﴾** أي: غنائم خيبر، قاله مجاهد وغيره، وقيل: صلح الحديبية **﴿وكف أيدي الناس عنكم﴾** أي: وكف أيدي قريش عنكم يوم الحديبية بالصلح، وقيل: كف أيدي أهل خيبر، وانصارهم عن قتالكم، وقذف في قلوبهم الرعب. وقال قتادة: كف أيدي اليهود عن المدينة بعد خروج النبي ﷺ إلى الحديبية، وخيبر، ورجع هذا ابن جرير، قال: لأن كف أيدي الناس بالحديبية مذكور في قوله: **﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم﴾** [الفتح: 24] وقيل: **﴿كف أيدي الناس عنكم﴾** يعني: عيينة بن حصن الفزاري، وعوف بن مالك النضري ومن كان معهم، إذ جاءوا لينصروا أهل خيبر عند حصار النبي ﷺ لهم **﴿ولتكون آية للمؤمنين﴾** اللام يجوز أن تتعلق بفعل محذوف يقتضيه بعده أي: فعل ما فعل من التعجيل والكف؛ لتكون آية، أو على علة محذوفة تقديرها: وعد فعجل وكف؛ لتنتفعوا بذلك؛ ولتكون آية. وقيل: إن الواو مزيدة، واللام لتعليل ما قبله أي: وكف لتكون؛ والمعنى: ذلك الكف آية يعلم بها صدق رسول الله ﷺ في جميع ما يعينكم به **﴿ويهيئكم صراطاً مستقيماً﴾** أي: يزيئكم بتلك الآية هدى، أو يثبتكم على الهداية إلى طريق الحق **﴿وآخرى لم تقدروا عليها﴾** معطوف على هذه أي:

فبايعناه، فنلك قول الله تعالى: ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة﴾ فبايع لعثمان إحدى يديه على الأخرى، فقال الناس: هنيئاً لابن عفان يطوف بالبيت، ونحن ها هنا، فقال رسول الله ﷺ: لو مكث كذا وكذا سنة ما طاف حتى أطوف». وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن نافع قال: بلغ عمر بن الخطاب أن ناساً يأتون الشجرة التي بويح تحتها، فأمر بها فقطعت. وأخرج البخاري عن سلمة بن الأكوع قال: بايعت رسول الله ﷺ تحت الشجرة، قيل: على أي شيء كنتم تبايعونه يومئذ؟ قال: على الموت. وأخرج مسلم، وغيره عن جابر قال: بايعناه على أن لا نفر، ولم نبايعه على الموت. وأخرج أحمد، وأبو داود، والترمذي عن جابر، عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة». وأخرج مسلم من حديثه مثله. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس «فأنزل السكينة عليهم» قال: إنما أنزلت السكينة على من علم منه الوفاء. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عنه «فعجل لكم هذه» يعني: الفتح. وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً «فعجل لكم هذه» يعني: خير «وكف أيدي الناس عنكم» يعني: أهل مكة أن يستحلوا حرم الله، ويستحل بكم وأنتم حرم مكة «ولتكون آية للمؤمنين» قال: سنة لمن بكم. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عنه أيضاً في قوله: «والخري لم تقدروا عليها» قال: هذه الفتوح التي تفتح إلى اليوم. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عنه أيضاً «والخري لم تقدروا عليها» قال: هي خيبر. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن أنس قال: لما كان يوم الحديبية، هبط على رسول الله ﷺ وأصحابه ثمانون رجلاً من أهل مكة في السلاح من قبل جبال التنعيم يريدون غرة رسول الله، فدعا عليهم فأخذوا فعفا عنهم، فنزلت هذه الآية: «وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم». وفي صحيح مسلم، وغيره: أنها نزلت في نفر أسره سلمة بن الأكوع يوم الحديبية. وأخرج أحمد، والنسائي، والحاكم وصححه، وابن مردويه، وأبو نعيم في الدلائل في سبب نزول الآية: «أن ثلاثين شاباً من المشركين خرجوا يوم الحديبية على المسلمين في السلاح، فثاروا في وجوههم، فدعا عليهم رسول الله ﷺ، فأخذ الله بأسماعهم. ولفظ الحاكم: بأبصارهم، فقام إليهم المسلمون فأخنوخهم، فقال لهم رسول الله ﷺ: هل جئتم في عهد أحد، أو هل جعل لكم أحد أماناً؟ فقالوا: لا، فخلى سبيلهم، فنزلت هذه الآية».

هُم الَّذِينَ كَفَرُوا رَسُولَكُمْ عَنِ السَّجِدِ الْحَرَامِ وَالْقُدْسِ مَكُونًا أَنْ يَبْلُغَ حِلَّهُمْ وَلَوْلَا رَجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَرَّ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطْلُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ

فجعل لكم هذه المغنم، ومغانم أخرى لم تقبلوها عليها، وهي الفتوح التي فتحها الله على المسلمين من بعد كفارس، والروم ونحوهما، كذا قال الحسن، ومقاتل، وابن أبي ليلى، وقال الضحاك، وابن زيد، وابن أبي إسحاق: هي خير وعدما الله نبيه قبل أن يفتحها، ولم يكونوا يرجونها، وقال قتادة: فتح مكة، وقال عكرمة: حنين، والأول أولى «قد أحاط الله بها» صفة ثانية لأخرى. قال الفراء: أحاط الله بها لكم حتى تفتحوها وتأخذوها، والمعنى: أنه أعدها لهم، وجعلها كالشيء الذي قد أحيط به من جميع جوانبه، فهو محصور لا يفوت منه شيء، فهم وإن لم يقبلوها عليها في الحال فهي محبوسة لهم لا تفوتهم، وقيل: معنى أحاط: علم أنها ستكون لهم «وكان الله على كل شيء قديراً» لا يعجزه شيء، ولا تختص قدرته ببعض المقبولات دون بعض «ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الألبار» قال قتادة: يعني: كفار قريش بالحديبية، وقيل: أسد، وغطافان الذين أرادوا نصر أهل خيبر، والأول أولى «ثم لا يجنون ولياً» يواليههم على قتالكم «ولا نصيراً» ينصرهم عليكم «سنة الله التي قد خلقت من قبل» أي: طريقته وعادته التي قد مضت في الأمم من نصر أوليائه على أعدائه، وانتصاب سنة على المصدرة بفعل محنوف أي: بين الله سنة الله، أو هو مصدر مؤكد لمضمون الجملة المتقدمة «ولن تجد لسنة الله تبديلاً» أي: لن تجد لها تغييراً، بل هي مستمرة ثابتة «وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم» أي: كف أيدي المشركين عن المسلمين، وأيدي المسلمين عن المشركين لما جاءوا يصنون رسول الله ﷺ، ومن معه عن البيت عام الحديبية، وهي المراد ببطن مكة. وقيل: إن ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على النبي ﷺ من قبل جبل التنعيم متسلحين يريدون غرة النبي ﷺ، فأخذهم المسلمون، ثم تركوهم. وفي الرواية اختلاف سياطي بيانه آخر البحث إن شاء الله «وكان الله بما تعملون بصيراً» لا يخفى عليه من ذلك شيء.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس في قوله: «أولي بأس شديد» يقول: فارس. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة أنهم الأكراد. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: فارس، والروم. وأخرج الفريابي، وابن مردويه عنه قال: هوازن، وبني حنيفة. وأخرج الطبراني، قال السيوطي: بسند حسن عن زيد بن ثابت قال: كنت أكتب لرسول الله ﷺ، وإني لواضع القلم على أنني إذ أمر بالقتال إذ جاء أعمى، فقال: «كيف لي وأنا ذاهب البصر؟ فنزلت «ليس على الأعمى حرج» الآية». قال: هذا في الجهاد، وليس عليهم من جهاد إذا لم يطبقوا. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن سلمة بن الأكوع قال: «بيننا نحن قائلون إذ نادى منادي رسول الله ﷺ: أيها الناس البيعة البيعة نزل روح القدس، فسرنا إلى رسول الله ﷺ، وهو تحت شجرة سمرة،

﴿مَعْرَةَ﴾ أي: مشقة بما يلزمهم في قتلهم من كفارة وعيب، وأصل المعرة: العيب مأخوذة من العر، وهو الجرب، وذلك أن المشركين سيقولون: إن المسلمين قد قتلوا أهل دينهم. قال الزجاج: لولا أن تقتلوا رجالاً مؤمنين ونساء مؤمنات، فتصيبكم منهم معرة أي: إثم، وكذا قال الجوهري، وبه قال ابن زيد. وقال الكلبي، ومقاتل، وغيرهما: المعرة كفارة قتل الخطأ، كما في قوله: ﴿فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة﴾ [النساء: 92] وقال ابن إسحاق: المعرة، غرم الدية. وقال قطرب: المعرة الشدة، وقيل: الغم، و﴿بغير علم﴾ متعلق بأن تطئوهم أي: غير عالمين، وجواب لولا محنوف، والتقدير: لأن الله لكم، أو لما كف أيديكم عنهم، واللام في ﴿ليدخل الله في رحمته من يشاء﴾ متعلقة بما يدل عليه الجواب المقدر أي: ولكن لم يأن لكم أو كف أيديكم: ليدخل الله في رحمته بذلك من يشاء من عباده وهم المؤمنون والمؤمنات الذين كانوا في مكة، فيتم لهم أجورهم بإخراجهم من بين ظهراني الكفار، ويفك أسرهم، ويرفع ما كان ينزل بهم من العذاب. وقيل: اللام متعلقة بمحنوف غير ما نكر، وتقديره: لو قتلتموهم لأنخلهم الله في رحمته، والأول أولى. وقيل: إن من يشاء عباده ممن رغب في الإسلام من المشركين ﴿لو تزيّلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً﴾ التزيّل: التميز أي: لو تميز الذين آمنوا من الذين كفروا منهم: لعذبنا الذين كفروا، وقيل التزيّل: التفرق أي: لو تفرق هؤلاء من هؤلاء، وقيل: لو زال المؤمنون من بين أظهرهم، والمعاني متقاربة، والعذاب الأليم هو القتل والأسر والقهر، والظرف في قوله: ﴿إذ جعل الذين كفروا﴾ منصوب بفعل مقدر أي: أنكر وقت جعل الذين كفروا ﴿في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية﴾ وقيل: متعلق بعذبنا، والحمية: الأنفة، يقال: فلان ذو حمية أي: ذو أنفة وغضب أي: جعلوها ثابتة راسخة في قلوبهم، والجعل بمعنى: الإلقاء، وحمية الجاهلية بدل من الحمية. قال مقاتل بن سليمان، ومقاتل بن حيان: قال أهل مكة: قد قتلوا أبناءنا، وإخواننا، ويدخلون علينا في منازلنا، فتنحّث العرب أنهم قد نخلوا علينا على رغم أنفنا، واللات والعزى لا يدخلونها علينا، فهذه الحمية هي حمية الجاهلية التي نخلت قلوبهم. وقال الزهري: حميتهم أنفتحت من الإقرار للنبى ﷺ بالرسالة. قرأ الجمهور (أو تزيّلوا) وقرأ ابن أبي عبيدة، وأبو حيوة، وابن عون (أو تزيّلوا) والتزيّل التباين ﴿فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين﴾ أي: أنزل الطمأنينة والوقار على رسوله وعلى المؤمنين حيث لم يدخلهم ما نخل أهل الكفر من الحمية، وقيل: ثبتهم على الرضى والتسليم ﴿ولزمهم كلمة التقوى﴾ وهي: «لا إله إلا الله» كذا قال الجمهور، وزاد بعضهم: «محمد رسول الله» وزاد بعضهم: «وحده لا شريك له». وقال الزهري هي: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ وذلك أن الكفار لم يقرّوا بها، وامتنعوا من كتابتها في كتاب الصلح الذي كان بينهم، وبين رسول الله

تزيّلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً ﴿١٥﴾ إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله. وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحقّ بها وأهلها وكانت الله بكلّ شيء عليم ﴿١٦﴾ لقد صدّق الله رسوله الرّيا بالحقّ لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله مبينات محجّلات رؤوسكم ومضيين لا تخافون قلوبكم ما كنتم تعلمون فجعل من دون ذلك فتناً قريباً ﴿١٧﴾ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدين كلّه وكفى بالله شهيداً ﴿١٨﴾ محمد رسول الله والذين معه أئمة على الكفار رحمته بينهم تردّهم رجاءاً جعداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ويبغاهم في رؤسهم من أمر السّجود ذلك مثلهم في التّوراة ومنكفّر في الإنجيل كزجّ أخرج سلكهم فأنزله فاستنقظ فاستوى على سوقه. ينجب الرّزاق يبطّ عنهم الكفّار وعدّ الله الذين آمنوا وعملوا الصّالحات منهم ثمّرة وأجرأ عظيمًا ﴿١٩﴾

قوله: ﴿هم الذين كفروا وصنّوكم عن المسجد الحرام﴾ يعني: كفار مكة، ومعنى: صدّهم عن المسجد الحرام: أنهم منعوهم أن يطوفوا به، ويحلوا عن عمرتهم ﴿واللهي معكوفاً﴾ قرأ الجمهور بنصب (الهدى) عطفاً على الضمير المنصوب في صنّوكم، وقرأ أبو عمرو في رواية عنه بالجزم عطفاً على المسجد، ولا بدّ من تقدير مضاف أي: عن نحر الهدى، وقدرى بالرفع على تقدير، وصدّ الهدى، وقرأ الجمهور بفتح الهاء من الهدى وسكون الدال، ودوي عن أبي عمرو، وعاصم بكسر الدال وتشديد الياء، وانتصاب معكوفاً على الحال من الهدى أي: محبوساً. قال الجوهري: عكفه أي: حبسه ووقفه، ومنه ﴿واللهي معكوفاً﴾ ومنه الاعتكاف في المسجد، وهو الاحتباس. وقال أبو عمرو بن العلاء: معكوفاً مجموعاً، وقوله: ﴿أن يبلغ محله﴾ أي: عن أن يبلغ محله، أو هو مفعول لأجله، والمعنى: صدّوا الهدى كراهة أن يبلغ محله، أو هو بدل من الهدى بدل اشتمال، ومحله منحره، وهو حيث يحل نحره من الحرم، وكان الهدى سبعين بنته، ورخص الله سبحانه لهم بجعل ذلك الموضع الذي وصلوا إليه، وهو الحبيبية محلاً للنحر. وللعلماء في هذا كلام معروف في كتب الفروع ﴿ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم﴾ يعني: المستضعفين من المؤمنين بمكة، ومعنى ﴿لم تعلموهم﴾: لم تعرفوهم وقيل: لم تعلموا أنهم مؤمنون ﴿أن تطئوهم﴾ يجوز أن يكون بدلاً من رجال ونساء، ولكنه غلب الذكور، وأن يكون بدلاً من مفعول تعلموهم، والمعنى: أن تطئوهم بالقتل والإيقاع بهم، يقال: طئت القوم أي: أوقعت بهم، وذلك أنهم لو كسبوا مكة، وأخذوها عنوة بالسيف لم يتميز المؤمنون الذين هم فيها من الكفار، وعند ذلك لا يأمّنون أن يقتلوا المؤمنين، فتلزمهم الكفارة، وتلحقهم سبة، وهو معنى قوله: ﴿فتصيبكم منهم﴾ أي: من جهتهم

﴿ليظهره على الدين كله﴾ أي: يعليه على كل الأديان، كما يفيد تأكيد الجنس، وقيل: ليظهر رسوله، والأول أولى. وقد كان ذلك بحمد الله، فإن دين الإسلام قد ظهر على جميع الأديان، وانقهر له كل أهل الملل ﴿وكفى بالله شهيداً﴾ الباء زائدة كما تقدم في غير موضع أي: كفى الله شهيداً على هذا الإظهار الذي وعد المسلمين به، وعلى صحة نبوة نبيه ﷺ ﴿محمد رسول الله﴾ محمد مبتدأ، ورسول الله خبره، أو هو خبر مبتدأ محذوف، ورسول الله بدل منه، وقيل: محمد مبتدأ ورسول الله نعت له ﴿والذين معه﴾ معطوف على المبتدأ وما بعده الخبر، والأول أولى، والجملة مبينة لما هو من جملة المشهود به. ﴿والذين معه﴾ قيل: هم أصحاب الحبيبية، والأولى الحمل على العموم ﴿أشداء على الكفار﴾ أي: غلاظ عليهم، كما يغلظ الأسد على فريسته، وهو جمع شديد ﴿رحماء بينهم﴾ أي: متعاونون متعاطفون، وهو جمع رحيم، والمعنى: أنهم يظهرون لمن خالف دينهم الشدة والصلابة، ولمن وافقه للرحمة والرفقة. قرأ الجمهور برفع (أشداء)، و(رحماء) على أنه خبر للموصول، أو خبر لمحمد، وما عطف عليه، كما تقدم. وقرأ الحسن بنصبهما على الحال، أو المدح، ويكون الخبر على هذه القراءة ﴿تراهم ركعاً سجداً﴾ أي: تشاهدهم حال كونهم راكعين ساجدين، وعلى قراءة الجمهور هو خبر آخر، أو استئناف أعني قوله: ﴿تراهم﴾ و ﴿يبتغون فضلاً من الله ورضواناً﴾ أي: يطلبون ثواب الله لهم ورضاه عنهم، وهذه الجملة خبر ثالث على قراءة الجمهور، أو في محل نصب على الحال من ضمير تراهم، وهكذا ﴿سيعمهم في وجوههم من أثر السجود﴾ السيماء العلامة، وفيها لغتان المدة والقصر أي: تظهر علامتهم في جباههم من أثر السجود في الصلاة، وكثرة التعبد بالليل والنهار. وقال الضحاك: إذا سهر الرجل أصبح مصفراً، فجعل هذا هو السيماء. وقال الزهري: مواضع السجود أشد وجوههم بياضاً يوم القيامة. وقال مجاهد: هو الخشوع والتواضع، وبالأول أعني: كونه ما يظهر في الجباه من كثرة السجود قال سعيد بن جبير، ومالك. وقال ابن جرير: هو الوقار. وقال الحسن: إذا رأيتهم مرضى وما هم بمرضى، وقيل: هو البهاء في الوجه وظهور الأنوار عليه، وبه قال سفيان الثوري، والإشارة بقوله: ﴿ذلك﴾ إلى ما تقدم من هذه الصفات الجليلة، وهو مبتدأ، وخبره قوله: ﴿مثلهم في التوراة﴾ أي: وصفهم الذي وصفوا به في التوراة، ووصفهم الذي وصفوا به ﴿في الإنجيل﴾ وتكرير ذكر المثل لزيادة تقريره، وللتنبية على غرابته، وأنه جار مجرى الأمثال في الغرابة ﴿كزرع أخرج شطاه﴾ إلخ كلام مستأنف أي: هم كزرع إلخ، وقيل: هو تفسير لذلك على أنه إشارة مبهمة لم يرد به ما تقدم من الأوصاف، وقيل: هو خبر لقوله: ﴿ومثلهم في الإنجيل﴾ أي: ومثلهم في الإنجيل كزرع قال الفراء: فيه وجهان: إن شئت قلت ذلك مثلهم في التوراة، ومثلهم في الإنجيل يعني: كمثلهم في القرآن، فيكون

كما ثبت ذلك في كتب الحديث والسير، فخص الله بهذه الكلمة المؤمنين والزعم بها. والأول أولى؛ لأن كلمة التوحيد هي التي يتقوى بها الشرك بالله، وقيل: كلمة التقوى هي الوفاء بالعهد والثبات عليه ﴿وكانوا أحق بها وأهلها﴾ أي: وكان المؤمنون أحق بهذه الكلمة من الكفار والمستأهلين لها دونهم؛ لأن الله سبحانه أهلهم لدينه، وصحبه رسوله ﷺ ﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق﴾ قال الواحدي: قال المفسرون: إن الله سبحانه أرى نبيه ﷺ في المدينة قبل أن يخرج إلى الحبيبية، كأنه هو وأصحابه حلّقوا وقصروا، فأخبر بذلك أصحابه، ففرحوا وحسبوا أنهم سيدخلون مكة عامهم ذلك، فلما رجعوا من الحبيبية، ولم يدخلوا مكة قال المنافقون: والله ما حلّقنا ولا قصرنا، ولا دخلنا المسجد الحرام، فأنزل الله هذه الآية، وقيل: إن الرؤيا كانت بالحبيبية، وقوله: ﴿بالحق﴾ صفة لمصدر محذوف أي: صدقاً ملتبساً بالحق، وجواب القسم المحذوف المدلول عليه بالألام الموطئة هو قوله: ﴿لندخلن المسجد الحرام﴾ أي: في العام القابل، وقوله: ﴿إن شاء الله﴾ تعليق للعدة بالمشيئة لتعليم العباد لما يجب أن يقولوه، كما في قوله: ﴿ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً﴾ إلا أن يشاء الله [الكهف: 23، 24] قال ثعلب: إن الله استثنى فيما يعلم ليستثني الخلق فيما لا يعلمون. وقيل: كان الله سبحانه علم أنه يموت بعض هؤلاء الذين كانوا معه في الحبيبية، فوقع الاستثناء لهذا المعنى، قاله الحسن بن الفضل. وقيل: معنى إن شاء الله: كما شاء الله. وقال أبو عبيدة: إن بمعنى إذ يعني: إذ شاء الله حيث أرى رسوله ذلك، وانتصاب ﴿أمنين﴾ على الحال من فاعل لتدخلن، وكذا ﴿محلّقين رؤوسكم ومقصرين﴾ أي: أمنين من العدو، ومحلّقاً بعضكم ومقصرأ بعضكم، والحلق والتقصير خاص بالرجال، والحلق أفضل من التقصير، كما يدل على ذلك الحديث الصحيح في استغفاره ﷺ للمحلّقين في المرة الأولى والثانية، والقاتل يقول له وللمقصرين، فقال في الثالثة: وللمقصرين، وقوله: ﴿لا تخافون﴾ في محل نصب على الحال أو مستأنف، وفيه زيادة تأكيد لما قد فهم من قوله: ﴿أمنين﴾ ﴿فعلّم ما لم تعلموا﴾ أي: ما لم تعلموا من المصلحة في الصلح لما في دخولكم في عام الحبيبية من الضرر على المستضعفين من المؤمنين، وهو معطوف على صدق أي: صدق رسوله الرؤيا، فعلم ما لم تعلموا به ﴿فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً﴾ أي: فجعل من دون دخولكم مكة كما أرى رسوله، فتحاً قريباً. قال أكثر المفسرين: هو صلح الحبيبية. وقال ابن زيد، والضحاك: فتح خير. وقال الزهري: لا فتح في الإسلام كان أعظم من صلح الحبيبية، ولقد دخل في تلك السنتين في الإسلام مثل من كان قد نخل فيه قبل ذلك بل أكثر، فإن المسلمين كانوا في سنة ست، وهي سنة الحبيبية ألفاً وأربعمائة وكانوا في سنة ثمان عشرة آلاف ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى﴾ أي: إرسالاً ملتبساً بالهدى ﴿وبين الحق﴾ وهو الإسلام

ابن عباس **«لولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم»** قال: حين رثوا النبي ﷺ **«أن تطئوهم»** بقتلكم إياهم **«لو تزيلوا»** يقول: لو تزيل الكفار من المؤمنين لعذبهم الله عذاباً أليماً بقتلكم إياهم. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن سهل بن حنيف أنه قال يوم صفين: «اتهموا أنفسكم، فلقد رأيتنا يوم الحديبية يعني: الصلح الذي كان بين النبي ﷺ وبين المشركين، ولو نرى قتلاً لقاتلنا، فجاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله السنا على الحق، وهم على الباطل؟ اليس قتلانا في الجنة، وقتلهم في النار؟ قال: بلى. قال: ففيم نعطي الدنيا في ديننا، ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم؟ قال: يا ابن الخطاب إني رسول الله، ولم يضيئني الله أبداً، فرجع متغيظاً، فلم يصبر حتى جاء أبا بكر فقال: يا أبا بكر السنا على الحق، وهم على الباطل؟ قال: بلى، اليس قتلانا في الجنة، وقتلهم في النار؟ قال: بلى، قال: ففيم نعطي الدنيا في ديننا؟ قال: يا ابن الخطاب إنه رسول الله، ولم يضيئني الله أبداً، فنزلت سورة الفتح، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمر، فأقرأه إياها، قال: يا رسول الله افتح هو؟ قال: نعم». وأخرج الترمذي، وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند، وابن جرير، والدارقطني في الأفراد، وابن مردويه، والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي بن كعب، عن النبي ﷺ **«والزهم كلمة التقوى»** قال: «لا إله إلا الله» وفي إسناده الحسن بن قزعة، قال الترمذي بعد إخراجها: حديث غريب لا نعرفه إلا من حديثه، وكذا قال أبو زرعة. وأخرج ابن مردويه عن سلمة بن الأكوع مرفوعاً مثله. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في الأسماء والصفات عن علي بن أبي طالب مثله من قوله. وأخرج أحمد، وابن حبان، والحاكم من قول عمر بن الخطاب نحوه. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، والدارقطني في الأفراد عن المسور بن مخرمة، ومروان نحوه، وروي عن جماعة من التابعين نحو ذلك. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس **«لقد صلق الله رسوله للرؤيا بالحق»** قال: هو دخول محمد البيت، والمؤمنين محلقيين ومقصرين، وقد ورد في الدعاء للمحلقيين والمقصرين في الصحيحين، وغيرهما أحاديث منها ما قُتِمنا الإشارة إليه، وهو في الصحيحين من حديث ابن عمر، وفيهما من حديث أبي هريرة أيضاً. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس في قوله: **«سيماهم في وجوهم»** قال: أما إنه ليس الذي يرويه، ولكنه سيما الإسلام، وسمته وخشوعه. وأخرج محمد بن نصر في كتاب الصلاة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه عن ابن عباس في الآية قال: هو السميت الحسن. وأخرج الطبراني في الأوسط والصغير، وابن مردويه، قال السيوطي: بسند حسن عن أبي بن كعب

الوقف على الإنجيل، وإن شئت قلت ذلك مثلهم في التوراة، ثم تبدئ ومثلهم في الإنجيل كزرع. قرأ الجمهور (شطاه) بسكون الطاء، وقرأ ابن كثير، وابن نكوان بفتحها، وقرأ أنس، ونصر بن عاصم، ويحيى بن وثاب (شطاه) كعصاه. وقرأ الجحدري، وابن أبي إسحاق (شطه) بغير همزة، وكلها لغات قال الأخفش والكسائي: شطاه أي: طرفه. قال الفراء: شطا الزرع فهو مشطى إذا خرج. قال الزجاج: **«لخرج شطاه»** أي: نباته. وقال قطرب: الشطا سوى السنبل، وروي عن الفراء أيضاً أنه قال: هو السنبل، وقال الجوهري: شطا الزرع والنبات، والجمع أشطاء، وقد أشطا الزرع خرج شطوه **«فأزره»** أي: قواه وأعانه وشده، قيل المعنى: إن الشطا قوى الزرع، وقيل: إن الزرع قوى الشطا، ومما يدل على أن الشطا خروج النبات. قول الشاعر:

أخرج الشطا على وجه الثرى ومن الأشجار أثنان الثمر
قرأ الجمهور (فأزره) بالمد. وقرأ ابن نكوان، وأبو حيوة، وحميد بن قيس بالقصر، وعلى قراءة الجمهور قول امرئ القيس:

بمحنية قد أزر الضال نباتها بجر جيوش غانمين وخيب
قال الفراء: أزر فلاناً أزره أزرأ إذا قوىته **«فاستغلف»** أي: صار ذلك الزرع غليظاً بعد أن كان نقيقاً **«فاستوى على سوقه»** أي: فاستقام على أعواده، والسوق جمع ساق. وقرأ قنبل (سؤقه) بالهمزة الساكنة **«يعجب للزراع»** أي: يعجب هذا الزرع زارعه لقوته وحسن منظره، وهذا مثل ضربه الله سبحانه لأصحاب النبي ﷺ، وأنهم يكونون في الابتداء قليلاً، ثم يزدادون ويكثرُونَ ويقوون كالزراع، فإنه يكون في الابتداء ضعيفاً ثم يقوى حالاً بعد حال حتى يغلظ ساقه. قال قتادة: مثل أصحاب محمد ﷺ في الإنجيل أنه سيخرج من قوم ينتبون نبت الزرع يأمرُون بالمعروف وينهون عن المنكر، ثم نكر سبحانه علة تكثيره لأصحاب نبيه ﷺ، وتقويته لهم فقال: **«ليغظ بهم الكفار»** أي: كثرة قواهم، ليكونوا غيظاً للكافرين، واللام متعلقة بمحذوف أي: فعل ذلك ليغظ **«وعد الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وإجراً عظيماً»** أي: وعد سبحانه هؤلاء الذين مع محمد ﷺ أن يغفر ذنوبهم، ويجزل أجرهم بإبخالهم الجنة التي هي أكبر نعمة وأعظم منة.

وقد أخرج أحمد، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: نحروا يوم الحديبية سبعين بنته، فلما صنت عن البيت حنّت، كما تحن إلى أولادها. وأخرج الحسن بن سفيان، وأبو يعلى، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن قانع، والباوردي، والطبراني، وابن مردويه. قال السيوطي: بسند جيد عن أبي جمعة حنيد بن سبيع قال: «قابلت رسول الله ﷺ أول النهار كافراً، وقابلت معه آخر النهار مسلماً وفينا نزلت: **«لولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات»** وكنا تسعة نفر سبعة رجال وامرأتان»، وفي رواية عند ابن أبي حاتم: «كنا ثلاثة رجال وتسع نسوة». وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه عن

أولياً، ثم علل ما أمر به من التقوى بقوله: ﴿إِنْ اللَّهَ سَمِعَ﴾ لكل مسموع ﴿عَلِيمٌ﴾ بكل معلوم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾، يحتمل أن المراد حقيقة رفع الصوت؛ لأن ذلك يدل على قلة الاحتشام وترك الاحترام؛ لأن خفض الصوت وعدم رفعه من لوازم التعظيم والتوقير. ويحتمل أن يكون المراد: المنع من كثرة الكلام ومزيد اللفظ، والأول أولى. والمعنى: لا ترفعوا أصواتكم إلى حد يكون فوق ما يبلغه صوت النبي ﷺ. قال المفسرون: المراد من الآية: تعظيم النبي ﷺ وتوقيره، وإن لا ينادوه كما ينادي بعضهم بعضاً ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ أي: لا تجهروا بالقول إذا كلمتموه، كما تعتادونه من الجهر بالقول إذا كلم بعضكم بعضاً. قال الزجاج: أمرهم الله بتجليل نبيه، وأن يغضوا أصواتهم، ويخاطبوه بالسكينة والوقار، وقيل: المراد بقوله ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ﴾: لا تقولوا يا محمد يا أحمد؛ ولكن يا نبي الله ويا رسول الله توقيراً له، والكاف في محل نصب على أنها نعت مصدر محذوف أي: جهراً مثل جهر بعضكم لبعض، وليس المراد برفع الصوت وبالجهر في القول هو ما يقع على طريقة الاستخفاف، فإن ذلك كفر، وإنما المراد أن يكون الصوت في نفسه غير مناسب لما يقع في مواقف من يجب تعظيمه وتوقيره. والحاصل أن النهي هنا وقع عن أمور، الأول: عن التقدم بين يديه بما لا يان به من الكلام. والثاني: عن رفع الصوت البالغ إلى حد يكون فوق صوته سواء كان في خطابه، أو في خطاب غيره. والثالث: ترك الجفاء في مخاطبته، ولزوم الأدب في مجاورته؛ لأن المقابلة المجهورة إنما تكون بين الأكفاء الذين ليس لبعضهم على بعض مزية توجب احترامه وتوقيره، ثم علل سبحانه ما نكره بقوله: ﴿أَنْ تَحْبِطَ أَعْمَالُكُمْ﴾ قال الزجاج: أن تحبط أعمالكم التقدير؛ لأن تحبط أعمالكم أي: فتحبط، فاللام المقدره لام الصيرورة كذا قال، وهذه العلة يصح أن تكون للنهي أي: نهاكم الله عن الجهر خشية أن تحبط، أو كراهة أن تحبط، أو علة للمنهى أي: لا تفعلوا الجهر فإنه يؤدي إلى الحبوط، فكلام الزجاج ينظر إلى الوجه الثاني لا إلى الوجه الأول، وجملة: ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ في محل نصب على الحال، وفيه تحذير شديد ووعيد عظيم. قال الزجاج: وليس المراد ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ يوجب أن يكفر الإنسان وهو لا يعلم، فكما لا يكون الكافر مؤمناً إلا باختياره الإيمان على الكفر، كذلك لا يكون الكافر كافراً من حيث لا يعلم، ثم رغب سبحانه في امتثال ما أمر به، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغْضَوْنَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ أصل الغض النقص من كل شيء. ومنه نقص الصوت ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾ قال الفراء: أخلص قلوبهم للتقوى، كما يمتحن الذهب بالنار، فيخرج جيده من رديته، ويسقط خبيثه. وبه قال مقاتل، ومجاهد وقتادة. وقال الأخفش: اختصها للتقوى، وقيل: طهرها من كل قبيح، وقيل: وسعها وسرحها،

قال: قال رسول الله ﷺ في قوله: ﴿سَمِيعٌ فِي وَجْهِهِمْ﴾ من أثر السجود قال: النور يوم القيامة. وأخرج البخاري في تاريخه، وابن نصر عن ابن عباس في الآية قال: بياض يغشى وجوههم يوم القيامة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه عن ابن عباس ﴿تِلْكَ مِثْلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ﴾ يعني: نعتهم مكتوب في التوراة والإنجيل قبل أن يخلق الله السموات والأرض. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أنس ﴿كَزَرَعٍ لُخْرَجَ شَطْلَاهُ﴾ قال: نباته فروخه.

تفسير سورة الحجرات

قال القرطبي: بالإجماع. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس وابن الزبير أنها نزلت بالمدينة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَقْرَبُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغْضَوْنَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ لَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلِئِهِمْ فَمَا تَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ مُبْعَدُونَ ﴿٦﴾ وَأَعْلَمُوا أَن فِيكُمْ رَسُولٌ اللَّهُ لَوْ يُلَاحِظُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنْ الْأَمْرِ لَنَزَمَ وَلَكِنْ اللَّهُ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَصَلُّوا لِلَّهِ وَرَحمَةً وَأَقْرَبُوا اللَّهَ عَلَيْهِ خَيْرٌ ﴿٨﴾

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ قرأ الجمهور (تقدّموا) بضم المثناة الفوقية، وتشديد الدال مكسورة، وفيه وجهان: أحدهما أنه متعذر، وحذف مفعوله لقصد التعميم، أو ترك المفعول للقصد إلى نفس الفعل كقولهم: هو يعطي ويمنع، والثاني أنه لازم نحو وجه وتوجه، ويعضده قراءة ابن عباس، والضحاك، ويعقوب (تقدّموا) بفتح التاء والقاف والدال. قال الواحدي: قدمها هنا بمعنى تقدّم، وهو لازم. قال أبو عبيدة: العرب تقول: لا تقدّم بين يدي الإمام وبين يدي الأب أي: لا تعجل بالأمر دونه والنهي؛ لأن المعنى: لا تقدّموا قبل أمرهما ونهيهما، وبين يدي الإمام عبارة عن الإمام لا ما بين يدي الإنسان، ومعنى الآية: لا تقطعوا أمراً دون الله ورسوله، ولا تعجلوا به. وقيل: المراد معنى بين يدي فلان بحضرته؛ لأن ما يحضره الإنسان، فهو بين يديه ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في كل أموركم، ويدخل تحتها الترك للتقدم بين يدي الله ورسوله بخلاً

بصواب؛ لوقوعتم في العنت، وهو التعب والجهد والإثم والهلاك، ولكنه لا يطيعكم في غالب ما تريدون قبل وضوح وجهه له، ولا يسارع إلى العمل بما يبلغه قبل النظر فيه **﴿ولكن الله حبب إليكم الإيمان﴾** أي: جعله أحب الأشياء إليكم، أو محبوباً لديكم، فلا يقع منكم إلا ما يوافقه، ويقتضيه من الأمور الصالحة، وترك التسرع في الأخبار، وعدم التثبت فيها، قيل: والمراد بهؤلاء من عدا الأولين؛ لبيان براءتهم عن أوصاف الأولين، والظاهر أنه تذكير للكل بما يقتضيه الإيمان، وتوجيه محبته التي جعلها الله في قلوبهم **﴿ووزينه في قلوبكم﴾** أي: حسنه بتوفيقه حتى جروا على ما يقتضيه في الأقوال والأفعال **﴿وذكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان﴾** أي: جعل كل ما هو من جنس الفسوق، ومن جنس العصيان مكروهاً عنكم، وأصل الفسوق الخروج عن الطاعة، والعصيان جنس ما يعصى الله به، وقيل: أراد بذلك الكذب خاصة، والأول أولى **﴿أولئك هم الراشدون﴾** أي: الموصوفون بما نكرهم الراشدون. والرشد: الاستقامة على طريق الحق مع تصلب، من الرشادة: وهي الصخرة **﴿فضلاً من الله ونعمة﴾** أي: لأجل فضله وإنعامه، والمعنى: أنه حبب إليكم ما حبب، وكره ما كره؛ لأجل فضله وإنعامه، أو جعلكم راشدين لأجل ذلك، وقيل: النصب بتقدير فعل أي: تبتغون فضلاً ونعمة **﴿والله عليم﴾** بكل معلوم **﴿حكيم﴾** في كل ما يقضي به بين عباده ويفقره لهم.

وقد أخرج البخاري وغيره، عن عبد الله بن الزبير قال: قدم ركب من بني تميم على النبي ﷺ، فقال أبو بكر: أمر القعقاع بن معبد، وقال عمر: بل أمر الأقرع بن حابس، فقال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي، فقال عمر: ما أردت خلافاً، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فأنزل الله: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقموا بين يدي الله ورسوله﴾** حتى انقضت الآية. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: **﴿لا تقموا بين يدي الله ورسوله﴾** قال: نهوا أن يتكلموا بين يدي كلامه. وأخرج ابن مردويه عن عائشة في الآية قالت: لا تصوموا قبل أن يصوم نبيكم. وأخرج البخاري في تاريخه عنها قالت: كان أناس يتقنمون بين يدي رمضان بصيام يعني: يوماً أو يومين، فأنزل الله: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقموا بين يدي الله ورسوله﴾**. وأخرج الطبراني، وابن مردويه عنها أيضاً: أن ناساً كانوا يتقنمون الشهر، فيصومون قبل النبي ﷺ، فأنزل الله: **﴿يا أيها الذين آمنوا﴾** الآية. وأخرج البزار، وابن عدي، والحاكم، وابن مردويه عن أبي بكر الصديق قال: أنزلت هذه الآية **﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾** قلت: يا رسول الله والله لا أكلمك إلا كأخي السرار، وفي إسناده حصين بن عمر، وهو ضعيف؛ ولكنه يؤيده ما أخرجه عبد بن حميد، والحاكم وصححه من طريق أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: لما نزلت: **﴿إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله﴾** قال أبو بكر: والذي أنزل عليك

من محنت الأليم: إذا وسعته. وقال أبو عمرو: كل شيء جهده فقد محنته، واللام في التقوى متعلقة بمحذوف أي: صالحة للتقوى كقولك أنت صالح لكذا، أو للتعليل الجاري مجرى بيان السبب، كقولك جئتكم؛ لأداء الواجب أي: ليكون مجيئي سبباً لأداء الواجب **﴿لهم مغفرة وأجر عظيم﴾** أي: أولئك لهم، فهو خبر آخر لاسم الإشارة، ويجوز أن يكون مستأنفاً لبيان ما أعد الله لهم في الآخرة **﴿إن الذين يئاسونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون﴾** هم جفاة بني تميم كما سيأتي بيانه، ووراء الحجرات خارجها وخلفها، والحجرات جمع حجرة، كالفرفرات جمع غرفة، والظلمات جمع ظلمة، وقيل: الحجرات جمع حجرة، والحجر جمع حجرة، فهو جمع الجمع والحجرة: الرقعة من الأرض المحجورة بحائط يحوط عليها، وهي فعيلة بمعنى مفعولة. قرأ الجمهور (الحجرات) بضم الجيم. وقرأ أبو جعفر بن القعقاع، وشيبة بفتحها تخفيفاً، وقرأ ابن أبي عتبة بإسكانها، وهي لغات، و «من» في «من وراء» ابتداء للغاية، ولا وجه للمنع من جعلها لهذا المعنى **﴿أكثرهم لا يعقلون﴾** لغلبة الجهل عليهم، وكثرة الجفاء في طباعهم **﴿ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم﴾** أي: لو انتظروا خروجك، ولم يعملوا بالمناداة لكان أصلح لهم في دينهم وبنيتهم، لما في ذلك من رعاية حسن الأنب مع رسول الله ﷺ، ورعاية جانبه الشريف والعمل بما يستحقه من التعظيم والتجليل. وقيل: إنهم جاءوا شفعاء في أسارى، فأعتق رسول الله ﷺ نصفهم، وفادى نصفهم، ولو صبروا لأعتق الجميع، نكر معناه مقاتل **﴿والله غفور رحيم﴾** كثير المغفرة، والرحمة بليغهما لا يؤاخذ مثل هؤلاء فيما فرط منهم من إساءة الأنب **﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا﴾** قرأ الجمهور (فتبينوا) من التبين، وقرأ حمزة، والكسائي (فتثبتوا) من التثبت، والمراد من التبين التعرّف والتفحص، ومن التثبت الأناة وعدم العجلة والتبصر في الأمر الواقع والخبر الوارد حتى يتضح ويظهر. قال المفسرون: إن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط، كما سيأتي بيانه إن شاء الله. وقوله: **﴿إن تصيبوا قوماً بجهالة﴾** مفعول له أي: كراهة أن تصيبوا، أو لئلا تصيبوا؛ لأن الخطأ ممن لم يتبين الأمر، ولم يتثبت فيه هو الغالب وهو جهالة؛ لأنه لم يصدر عن علم، والمعنى: ملتبسين بجهالة بحالهم **﴿فتصحبوا على ما فعلتم﴾** بهم من إصابتهم بالخطأ **﴿فانصحبوا﴾** على ذلك مفتمين له مهتمين به، ثم وعظهم الله سبحانه، فقال: **﴿واعلموا أن فيكم رسول الله﴾** فلا تقولوا قولاً باطلاً، ولا تتسرعوا عند وصول الخبر إليكم من غير تبين، وأن وما في حيزها سادة مسدّ مفعولي اعلموا، وجملة **﴿لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم﴾** في محل نصب على الحال من ضمير فيكم، أو مستأنفة، والمعنى: لو يطيعكم في كثير مما تخبرونه به من الأخبار الباطلة، وتشيرون به عليه من الآراء التي ليست

يقوله: «تقتل عماراً الفئة الباغية»، وقوله ﷺ في شأن الخوارج: «يخرجون على حين فرقة من الناس تقتلهم أولى الطائفتين بالحق». **﴿يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم﴾** السخرية: الاستهزاء. وحكى أبو زيد: سخرت به، وضحكت به، وهزأت به. وقال الأخفش: سخرت منه وسخرت به، وضحكت منه وضحكت به، وهزأت منه وهزأت به، كل ذلك يقال، والاسم السخرية والسخرى، وقرئ بهما في: **﴿ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً﴾** [الزخرف: 32]، ومعنى الآية: النهي للمؤمنين عن أن يستهزئ بعضهم ببعض، وعلل هذا النهي بقوله: **﴿عسى أن يكونوا خيراً منهم﴾** أي: أن يكون المسخور بهم عند الله خيراً من الساخريين بهم، ولما كان لفظ قوم مختصاً بالرجال؛ لأنهم القوم على النساء أفرد النساء بالذكر فقال: **﴿ولا نساء من نساء﴾** أي: ولا يسخر نساء من نساء **﴿عسى أن يكنّ﴾** المسخور بهن **﴿خيراً منهن﴾** يعني: خيراً من الساخرات منهن، وقيل: أفرد النساء بالذكر؛ لأن السخرية منهن أكثر **﴿ولا تلمزوا أنفسكم﴾** اللزم العيب، وقد مضى تحقيقه في سورة براءة عند قوله: **﴿ومنهم من يلزمك في الصنقات﴾** [التوبة: 58] قال ابن جرير: اللزم باليد والعين واللسان والإشارة، والهزم لا يكون إلا باللسان، ومعنى: **﴿لا تلمزوا أنفسكم﴾** لا يلزم بعضكم بعضاً، كما في قوله: **﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾** [النساء: 29] وقوله: **﴿فسلموا على أنفسكم﴾** [النور: 61]. قال مجاهد، وقتادة، وسعيد بن جبيرة: لا يطعن بعضكم على بعض. وقال الضحاك: لا يلعن بعضكم بعضاً **﴿ولا تنابزوا بالألقاب﴾** التنابز: التفاعل من التناز بالتسكين، وهو المصدر، والتناز بالتحريك اللقب، والجمع أناز، والألقاب جمع لقب، وهو اسم غير الذي سمي به الإنسان، والمراد هنا لقب السوء، والتناز بالألقاب أن يلقب بعضهم بعضاً. قال الواحدي: قال المفسرون: هو أن يقول لأخيه المسلم: يا فاسق يا منافق، أو يقول لمن أسلم: يا يهودي يا نصراني، قال عطاء: هو كل شيء أخرجت به أخاك من الإسلام، كقولك: يا كلب يا حمار يا خنزير. قال الحسن، ومجاهد: كان الرجل يعير بكفره، فيقال له: يا يهودي يا نصراني فنزلت، وبه قال قتادة، وأبو العالية، وعكرمة **﴿بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان﴾** أي: بئس الاسم الذي ينكروا بالفسق بعد دخولهم في الإيمان، والاسم هنا بمعنى النكر. قال ابن زيد: أي: بئس أن يسمى الرجل كافراً أو زانياً بعد إسلامه وتوبته. وقيل المعنى: أن من فعل ما نهى عنه من السخرية واللمز والنبد، فهو فاسق. قال القرطبي: إنه يستثنى من هذا من غلب عليه الاستعمال كالأعرج والأحلب، ولم يكن له سبب يجد في نفسه منه عليه، فجوزته الأئمة، واتفق على قوله أهل اللغة اهـ **﴿ومن لم يتب﴾** عما نهى الله عنه **﴿فأولئك هم الظالمون﴾** لارتكابهم ما نهى الله عنه، وامتناعهم من التوبة، فظلموا من لقبوه، وظلمهم أنفسهم بما لزمها من الإثم **﴿يا أيها الذين**

بعد ذلك التعدي من إحدى الطائفتين على الأخرى، ولم تقبل الصلح، ولا بخلت فيه كان على المسلمين أن يقاتلوا هذه الطائفة الباغية حتى ترجع إلى أمر الله وحكمه، فإن رجعت تلك الطائفة الباغية عن بغيتها، واجابت الدعوة إلى كتاب الله وحكمه، فعلى المسلمين أن يعدلوا بين الطائفتين في الحكم، ويتحرروا الصواب المطابق لحكم الله، ويأخذوا على يد الطائفة الظالمة حتى تخرج من الظلم، وتؤدي ما يجب عليها للأخرى. ثم أمر الله سبحانه المسلمين أن يعدلوا في كل أمورهم بعد أمرهم بهذا العدل الخاص بالطائفتين المقتلتين فقال: **﴿واقسطوا إن الله يحب المقسطين﴾** أي: واعملوا إن الله يحب العادلين، ومحبتة لهم تستلزم مجازاتهم بأحسن الجزاء. قال الحسن، وقتادة، والسدي: **﴿فاصلحوا بينهما﴾** بالدعاء إلى حكم كتاب الله، والرضى بما فيه لهما وعليهما **﴿فإن بغت إحداهما﴾** وطلبت ما ليس لها، ولم ترجع إلى الصلح **﴿فقاتلوا التي تبغي﴾** حتى ترجع إلى طاعة الله، والصلح الذي أمر الله به، وجملة: **﴿إنما المؤمنون إخوة﴾** مستأنفة مقررة لما قبلها من الأمر بالإصلاح، والمعنى: أنهم راجعون إلى أصل واحد، وهو الإيمان. قال الزجاج: الذين يجمعهم، فهم إخوة إذا كانوا متفقين في دينهم، فرجعوا بالاتفاق في الدين إلى أصل النسب؛ لأنهم لآدم وحواء **﴿فاصلحوا بين أخويكم﴾** يعني: كل مسلمين تخاصما وتقاتلا، وتخصيص الاثنين بالذكر لإثبات وجوب الإصلاح فيما فوقهما بطريق الأولى. قرأ الجمهور (بين أخويكم) على التثنية، وقرأ زيد بن ثابت، وعبد الله بن مسعود، والحسن، وحماد بن سلمة، وابن سيرين (إخوانكم) بالجمع، وروى عن أبي عمرو، ونصر بن عاصم، وأبي العالية، والجحدري، ويعقوب أنهم قرءوا (بين إخوانكم) بالفوقية على الجمع أيضاً. قال أبو علي الفارسي في توجيه قراءة الجمهور: أراد بالأخوين الطائفتين؛ لأن لفظ التثنية قد يرد، ويراد به الكثرة. وقال أبو عبيدة: أي: أصلحوا بين كل أخوين **﴿واتقوا الله﴾** في كل أموركم **﴿لعنكم ترحمون﴾** بسبب التقوى، والترجي باعتبار المخاطبين أي: راجين أن ترحموا، وفي هذه الآية دليل على قتال الفئة الباغية إذا تقرر بغيتها على الإمام، أو على أحد من المسلمين، وعلى فساد قول من قال بعدم الجواز مستدلاً بقوله ﷺ: «قتال المسلم كفره»، فإن المراد بهذا الحديث، وما ورد في معناه قتال المسلم الذي لم يبغ. قال ابن جرير: لو كان الواجب في كل اختلاف يكون بين فريقين من المسلمين الهرب منه، ولزوم المنازل لما أقيم حق، ولا أبطل باطل، ولوجد أهل النفاق والفجور سبباً إلى استحلال كل ما حرم الله عليهم من أموال المسلمين، وسبي نسائهم، وسفك دمائهم بأن يتحرروا عليهم، ولكف المسلمين أيديهم عنهم، وذلك مخالف لقوله ﷺ: «خذوا على أيدي سفهائكم». قال ابن العربي: هذه الآية أصل في قتال المسلمين، وعمدة في حرب المتأولين، وعليها عول الصحابة، وإليها لجأ الأعيان من أهل الملة، وإياها عنى النبي ﷺ

إشارة إلى أن عرض الإنسان كلحمه، وأنه كما يحرم أكل لحمه يحرم الاستطالة في عرضه، وفي هذا من التنفير عن الغيبة، والتوبيخ لها، والتوبيخ لفاعلها، والتشجيع عليه ما لا يخفى، فإن لحم الإنسان مما تنفر عن أكله الطباع الإنسانية، وتستكره الجيلة البشرية، فضلاً عن كونه محرماً شرعاً **﴿فكرهتموه﴾** قال الفراء: تقديره: فقد كرهتموه فلا تفعلوا، والمعنى: فكما كرهتم هذا، فاجتنبوا ذكره بالسوء غائباً. قال الرّازي: الفاء في تقدير جواب كلام: كأنه قال: لا يحبّ أحدكم أن ياكل لحم أخيه، فكرهتموه إن. وقال أبو البقاء: هو معطوف على محنوف تقديره: عرض عليكم ذلك، فكرهتموه **﴿واتقوا الله﴾** بترك ما أمركم باجتنابه **﴿إن الله تواب رحيم﴾** لمن اتقاه، وتاب عما فرط منه من الذنب ومخالفة الأمر.

وقد أخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أنس قال: قيل للنبي ﷺ: «لو أتيت عبد الله بن أبي، فانطلق إليه وركب حمراء، وانطلق المسلمون يمشون، وفي أرض سبخة، فلما انطلق إليه قال: إليك عني، فوالله لقد آذاني ريح حمرك، فقال رجل من الأنصار: والله لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحاً منك، فغضب لعبد الله رجال من قومه، فغضب لكل منهما أصحابه، فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي والنعال، فنزلت فيهم: **﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا﴾** الآية». وقد روي نحو هذا من وجوه آخر. وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقي عن ابن عمر قال: ما وجدت في نفسي من شيء ما وجدت في نفسي من هذه الآية، إنني لم أقاتل هذه الفئة الباغية، كما أمرني الله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال: إن الله أمر النبي ﷺ، والمؤمنين إذا اقتتل طائفة من المؤمنين أن يدعوه إلى حكم الله، وينصف بعضهم من بعض، فإذا أجابوا حكم فيهم بحكم كتاب الله حتى ينصف المظلوم، فمن أبى منهم أن يجيب فهو باغ، وحق على إمام المؤمنين والمؤمنين أن يقاتلوه حتى يفيثوا إلى أمر الله، ويقروا بحكم الله. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس: **﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا﴾** الآية قال: كان قتال بالنعال والعصي، فأمرهم أن يصلحوا بينهم. وأخرج ابن مردويه، والبيهقي عن عائشة قالت: ما رأيت مثل ما رغبت عنه هذه الأمة في هذه الآية: **﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما﴾**. وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل في قوله: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم﴾** قال: نزلت في قوم من بني تميم أستهزؤا من بلال، وسلمان، وعمار، وخباب، وصهيب، وابن فهيرة، وسالم مولى أبي حذيفة. وأخرج عبد بن حميد، والبخاري في الأدب، وابن أبي الدنيا في ذم الغيبة، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس في قوله: **﴿ولا تلمزوا أنفسكم﴾** قال: لا يطعن بعضكم على بعض. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، والبخاري في الأدب وأهل السنن

أمّنوا اجتنبوا كثيراً من الظنّ: الظنّ هنا: هو مجرد التهمة التي لا سبب لها كمن يتهم غيره بشيء من الفواحش، ولم يظهر عليه ما يقتضي ذلك، وأمر سبحانه باجتناب الكثير؛ ليفحص المؤمن عن كل ظنّ يظنه حتى يعلم وجهه؛ لأن من الظنّ ما يجب اتباعه، فإن أكثر الأحكام الشرعية مبنية على الظنّ، كالقياس وخبر الواحد ودلالة العموم؛ ولكن هذا الظنّ الذي يجب العمل به قد قوي بوجه من الوجوه الموجبة للعمل به، فارتفع عن الشكّ والتهمة. قال الزجاج: هو أن يظنّ بأهل الخير سوءاً، فأما أهل السوء والفسوق، فلنا أن نظنّ بهم مثل الذي ظهر منهم. قال مقاتل بن سليمان، ومقاتل بن حيان: هو أن يظنّ بأخيه المسلم سوءاً، ولا بأس به ما لم يتكلم به، فإن تكلم بذلك الظنّ وإبداه أثم. وحكى القرطبي عن أكثر العلماء: أن الظنّ القبيح بمن ظاهره الخير لا يجوز، وأنه لا حرج في الظنّ القبيح بمن ظاهره القبيح، وجملة **﴿إنّ بعض الظنّ إثم﴾**: تعليل لما قبلها من الأمر باجتناب كثير من الظنّ، وهذا البعض هو ظنّ السوء بأهل الخير، والإثم هو ما يستحقه الظنّ من العقوبة. ومما يدل على تقييد ظنّ الظنّ المأمور باجتنابه بظنّ السوء قوله تعالى: **﴿وظننتم ظنّ السوء وكنتم قوماً بوراً﴾** [الفتح: 12] فلا يدخل في الظنّ المأمور باجتنابه شيء من الظنّ المأمور باتباعه في مسائل الدين، فإن الله قد تعبد عباده باتباعه، وأوجب العمل به جمهور أهل العلم، ولم ينكر ذلك إلا بعض طوائف المبتدعة كياناً للدين، وشنوئاً عن جمهور المسلمين، وقد جاء التعبد بالظنّ في كثير من الشريعة المطهرة بل في أكثرها. ثم لما أمرهم الله سبحانه باجتناب كثير من الظنّ نهاهم عن التجسس فقال: **﴿ولا تجسسوا﴾** التجسس: البحث عما ينكتم عنك من عيوب المسلمين وعوراتهم، نهاهم الله سبحانه عن البحث عن معائب الناس ومثالبهم. قرأ الجمهور (تجسسوا) بالجيم، ومعناه ما نكرناه. وقرأ الحسن، وأبو رجاء، وابن سيرين بالحاء. قال الأخفش: ليس يبعد أحدهما من الآخر؛ لأن التجسس بالجيم: البحث عما يكتم عنك، والتجسس بالحاء: طلب الأخبار، والبحث عنها. وقيل: إن التجسس بالجيم هو البحث، ومنه قيل: رجل جاسوس: إذا كان يبحث عن الأمور، وبالحاء ما أتركه الإنسان ببعض حواسه. وقيل: إنه بالحاء فيما يطلبه الإنسان لنفسه، وبالجيم أن يكون رسلاً لغيره، قاله ثعلب **﴿ولا يغتب بعضكم بعضاً﴾** أي: لا يتناول بعضكم بعضاً بظهر الغيب بما يسوءه، والغيبة: أن تذكر الرجل بما يكرهه، كما في حديث أبي هريرة الثابت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: نكر أخاك بما يكره، فقيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ فقال: إن كان فيه ما تقول، فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه، فقد بهته»، **﴿إحِبْ لِحَدِّكَ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً﴾** مثل سبحانه الغيبة بأكل الميتة؛ لأن الميت لا يعلم بكل لحمه، كما أن الحي لا يعلم بغيبة من اغتابه، نكر معناه الزجاج. وفيه

كَثُرَ صَدِيقِي ۝ إِنَّ اللَّهَ يَمْكُرُ عَيْبَ الْأَسْتَوَاتِ وَالْأَرْضُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ يَمَا تَمَلُّونَ ۝

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ نَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ هما آدم وحواء، والمقصود أنهم متساوون؛ لاتصالهم بنسب واحد، وكونه يجمعهم أب واحد وأم واحدة، وأنه لا موضع للتفاخر بينهم بالانساب، وقيل المعنى: أن كل واحد منكم من أب وأم، فالكل سواء ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾ الشعوب جمع شعب بفتح الشين، وهو الحي العظيم: مثل مضر، وربيعة، والقبائل دونها كبنى بكر من ربيعة، وبني تميم من مضر. قال الواحدي: هذا قول جماعة من المفسرين، سمو شعباً لتشعبهم، واجتماعهم كشعب أغصان الشجرة، والشعب من أسماء الأضداد، يقال شعبته: إذا جمعته، وشعبته إذا فرقته، ومنه سميت المنية شعباً لأنها مفترقة، فاما الشعب بالكسر: فهو الطريق في الجبل. قال الجوهري: الشعب ما تشعب من قبائل العرب والعجم، والجمع الشعوب. وقال مجاهد: الشعوب البعيد من النسب، والقبائل لون ذلك. وقال قتادة: الشعوب النسب الأقرب. وقيل: إن الشعوب عرب اليمن من قحطان، والقبائل من ربيعة، ومضر، وسائر عدنان. وقيل: الشعوب بطون العجم، والقبائل بطون العرب. وحكى أبو عبيد أن الشعب أكثر من القبيلة، ثم القبيلة، ثم العمارة، ثم البطن، ثم الفخذ، ثم الفصيلة، ثم العشيرة. ومما يؤيد ما قلناه الجمهور من أن الشعب أكثر من القبيلة قول الشاعر:

قبائل من شعوب ليس فيهم كريمة قديعذ ولا نجيب
قرأ الجمهور (لتعارفوا) بتخفيف التاء، وأصله: لتتعارفوا، فحذفت إحدى التائين. وقرأ البزري بتشديدها على الإدغام. وقرأ الأعمش بتأيين واللام متعلقة بخلقناكم أي: خلقناكم كذلك ليعرف بعضكم بعضاً. وقرأ ابن عباس (لتعرفوا) مضارع عرف. والفائدة في التعارف أن ينتسب كل واحد منهم إلى نسبه، ولا يعتري إلى غيره. والمقصود من هذا أن الله سبحانه خلقهم كذلك؛ لهذه الفائدة لا للتفاخر بأنسابهم، ودعوى أن هذا الشعب أفضل من هذا الشعب، وهذه القبيلة أكرم من هذه القبيلة، وهذا البطن أشرف من هذا البطن. ثم علل سبحانه ما يدل عليه الكلام من النهي عن التفاخر، فقال: ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتِّقَاتُكُمْ﴾ أي: إن التفاضل بينكم إنما هو بالتقوى، فمن تلبس بها فهو المستحق؛ لأن يكون أكرم ممن لم يتلبس بها، وأشرف وأفضل، فدعوا ما أنتم فيه من التفاخر بالانساب، فإن ذلك لا يوجب كرمًا، ولا يثبت شرفًا، ولا يقتضي فضلاً. قرأ الجمهور (إن أكرمكم) بكسر إن. وقرأ ابن عباس بفتحها أي: لأن أكرمكم ﴿إِنْ أَلَّاهُ عَلِيمٌ﴾ بكل معلوم، ومن ذلك أعمالكم ﴿خَبِيرٌ﴾ بما تسرون، وما تعلنون لا تخفى عليه من ذلك خافية. ولما ذكر سبحانه أن أكرم الناس عند الله اتقاهم له، وكان أصل التقوى الإيمان نكر ما كانت تقوله العرب من دعوى الإيمان؛ ليثبت لهم الشرف والفضل، فقال: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا﴾ وهو بنو أسد أظهروا الإسلام في سنة مجدية يريون الصدقة، فأمر الله

الأربع، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن حبان، والشيرازي في الألقاب، والطبراني، وابن السني في عمل يوم ليلة، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عن أبي جبير بن الضحاك قال: فينا نزلت في بني سلمة: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ قدم رسول الله ﷺ المدينة، وليس فينا رجل إلا وله اسمان، أو ثلاثة، فكان إذا دعا واحداً منهم باسم من تلك الأسماء قالوا: يا رسول الله إنه يكرهه، فنزلت: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا بِالْأَلْقَابِ﴾. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس نحوه. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: التنازع بالألقاب: أن يكون الرجل عمل السيئات، ثم تاب منها وراجع الحق، فنهى الله أن يعير بما سلف من عمله. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود في الآية قال: إذا كان الرجل يهودياً، فأسلم، فيقول: يا يهودي يا نصراني يا مجوسي، ويقول للرجل المسلم: يا فاسق. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنْ الظَّنِّ﴾ قال: نهى الله المؤمن أن يظن بالمؤمن سوءاً. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا ولا تحسسوا، ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا، وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يخطب الرجل على خطبة أخيه حتى ينكح، أو يترك». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ قال: نهى الله المؤمن أن يتتبع عورات المؤمن. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وأبو داود، وابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عن زيد بن وهب قال: أتى ابن مسعود، فقيل: هذا فلان تقطر لحيته خمرًا، فقال ابن مسعود: إنا قد نهينا عن التجسس، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذه. وقد روت أحاديث في النهي عن تتبع عورات المسلمين، والتجسس عن عيوبهم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا يَغْتَابَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾ الآية قال: حرم الله أن يغتاب المؤمن بشيء، كما حرم الميتة. والأحاديث في تحريم الغيبة كثيرة جداً معروفة في كتب الحديث.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣٦﴾ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِسْلَامُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُبْغُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلْعَنَنَّ مِنْكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٣٧﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُكْفِرُونَ بِاللَّهِ يَدْبِعُكُمْ اللَّهُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمُوتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ يَكِلُ شَأْنَهُ عِلْمٌ ﴿١٣٩﴾ يَتَوَكَّلْ عَلَىكَ أَنْ أَسْأَلُوا قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِنْ سَأَلْتُمْ بَلَى اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُمْ لِلْإِيمَانِ أَنْ

أن يقول لأولئك الأعراب وأمثالهم قولاً آخر لما أَسْعَوْا أنهم مؤمنون، فقال: ﴿قُلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ بِبَيْنِكُمْ﴾ التعليم ما هنا بمعنى الإعلام، ولهذا نخلت الباء في بَيْنِكُمْ أي: أَخْبَرُونَهُ بِذَلِكَ حيث قلتُ آمناً ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ فكيف يخفى عليه بطلان ما تدعونه من الإيمان، والجملة في محل نصب على الحال من مفعول تعلمون ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا تخفى عليه من ذلك خافية، وقد علم ما تبطنونه من الكفر، وتظهرونه من الإسلام؛ لخوف الضراء ورجاء النفع. ثم أخبر الله سبحانه رسوله بما يقوله لهم عند المنع عليه منهم بما يدعونه من الإسلام فقال: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ أي: يعنون إسلامهم منة عليك حيث قالوا: جنتك بالانثقال والعيال، ولم نقاتك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان ﴿قُلْ لَا تَمْنَعُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ﴾ أي: لا تمنعوه منة علي، فإن الإسلام هو المنّة التي لا يطلب موليتها ثواباً لمن أنعم بها عليه، ولهذا قال: ﴿يَهْدِي اللَّهُ يَمَنَ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ أي: أرشدكم إليه، وأراكم طريقه سواءً وصلتكم إلى المطلوب أم لم تصلوا إليه، وانتصاب إسلامكم إما على أنه مفعول به على تضمين يَمُنُّونَ معنى يعنون، أو بنزع الخافض أي: لأن أسلموا، وهكذا قوله: ﴿أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ فإنه يحتمل الوجهين ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيما تدعونه، والجواب محنوف يدل عليه ما قبله أي: إن كنتم صادقين، فله المنّة عليكم. قرأ الجمهور (أن هداكم) بفتح أن، وقرأ عاصم بكسرها ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: ما غاب فيهما ﴿وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ لا يخفى عليه من ذلك شيء، فهو مجازيكم بالخير خيراً، وبالشّرّ شراً. قرأ الجمهور (تعملون) على الخطاب، وقرأ ابن كثير على الغيبة.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الدلائل عن ابن أبي مليكة قال: لما كان يوم الفتح رقي بلال فأتى على الكعبة، فقال بعض الناس: أهذا العبد الأسود يؤذن على ظهر الكعبة. وقال بعضهم: إن يسخط الله هذا يغيره، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج نحوه. وأخرج أبو داود في مراسيله، وابن مردويه، والبيهقي في سننه عن الزهري قال: أمر رسول الله ﷺ بني بياضة أن يزوّجوا أبا هند امرأة منهم، فقالوا: يا رسول الله، أنزّج بناتنا موالينا؟ فنزلت هذه الآية. وأخرج ابن مردويه عن عمر بن الخطاب أن هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ هي مكية، وهي للعرب خاصة الموالى أي: قبيلة لهم، وأي شعاب، وقوله: ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتِّقَاكُمْ﴾ فقال: اتقاكم للشرك. وأخرج البخاري، وابن جرير عن ابن عباس قال: الشعوب القبائل العظام، والقبائل البطون. وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن أبي حاتم عنه قال: الشعوب الجماع، والقبائل الأفخاذ التي يتعارفون بها. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عنه أيضاً قال: القبائل الأفخاذ، والشعوب الجمهور

سبحانه رسوله ﷺ أن يرّد عليهم، فقال: ﴿قُلْ لَمْ تُمْنُوا﴾ أي: لم تصدقوا تصديقاً صحيحاً عن اعتقاد قلب، وخلص نية، وطمانينة ﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ أي: استسلمنا خوف القتل والسبي، أو للطمع في الصدقة، وهذه صفة المنافقين؛ لأنهم أسلموا في ظاهر الأمر، ولم تؤمن قلوبهم، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي: لم يكن ما أظهرتموه بالسنتكم عن مواطاة قلوبكم، بل مجرد قول باللسان من دون اعتقاد صحيح، ولا نية خالصة، والجملة إما مستأنفة لتقرير ما قبلها، أو في محل نصب على الحال، وفي «لَمَّا» معنى التوقع. قال الزجاج: الإسلام إظهار الخضوع، وقبول ما أتى به النبي ﷺ، وبذلك يحقن الدم، فإن كان مع ذلك الإظهار اعتقاد وتصديق بالقلب، فذلك الإيمان وصاحبه المؤمن. وقد أخرج هؤلاء من الإيمان بقوله: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي: لم تصنّفوا، وإنما أسلمتم تعوذاً من القتل ﴿وَإِنْ طَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ طاعة صحيح صادرة عن نيات خالصة، وقلوب مصدقة غير منافقة ﴿لَا يَلْتَمِسُ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً﴾ يقال لا يلت: إذا نقص، ولاته يليته ويلوته؛ إذا نقصه، والمعنى: لا ينتقصكم من أعمالكم شيئاً. قرأ الجمهور (يلتكم) من لاته يليته كباع يبيعه. وقرأ أبو عمرو (لا يالتكم) بالهمز من آله يالته بالفتح في الماضي، والكسر في المضارع، واختار قراءة أبي عمرو، أبو حاتم لقوله: ﴿وَمَا أَتَيْنَاهُمْ مِنْ عِلْمِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الطور: 21] وعليها قول الشاعر:

أبلغ بني أسد عني مغلفة جهر الرسالة لا التاولا كذبا
واختار أبو عبيدة قراءة الجمهور، وعليها قول رؤبة بن العجاج:

وليلة ذات ندى سريت ولم يلتني عن سراها ليت

وهما لغتان فصيحتان ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ أي: بليغ المغفرة؛ لمن فرط منه ذنب ﴿رَحِيمٌ﴾ بليغ الرحمة لهم. ثم لما نكر سبحانه أن أولئك الذين قالوا آمناً لم يؤمنوا، ولا دخل الإيمان في قلوبهم، بين المؤمنين المستحقين لإطلاق اسم الإيمان عليهم، فقال: ﴿إِنَّمَا لِلْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ يعني: إيماناً صحيحاً خالصاً عن مواطاة القلب واللسان ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ أي: لم يدخل قلوبهم شيء من الريب، ولا خالطهم شك من الشكوك ﴿وَوَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: في طاعته وابتغاء مرضاته، ويدخل في الجهاد الأعمال الصالحة التي أمر الله بها، فإنها من جملة ما يجاهد المرء به نفسه حتى يقوم به ويؤتيه، كما أمر الله سبحانه، والإشارة بقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ إلى الجامعين بين الأمور المذكورة، وهو مبتدأ، وخبره قوله: ﴿هُمْ الصَّادِقُونَ﴾ أي: الصادقون في الاتصاف بصفة الإيمان، والدخول في عداد أهله، لا من عداهم ممن أظهر الإسلام بلسانه، وأدعى أنه مؤمن، ولم يطمئن بالإيمان قلبه، ولا وصل إليه معناه، ولا عمل بأعمال أهله، وهم الأعراب الذين تقدّم ذكرهم، وسائر أهل النفاق. ثم أمر الله سبحانه رسوله

يَوْمَ جَنَّتٍ وَجَبَّ الْمُؤِيدُ ۝ وَالنَّحْلُ بَاسِقَاتٍ لِّمَا طَلَعَ نَبِيُّدٌ ۝ رَفَعَا لَیْلَیَا وَأَحْبَبَا بِهٖ بَلَدَةً مِّنَآ كَذَٰلِكَ الْفُرُوجُ ۝ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوٰی رَبِّهٖ فَاَتٰهُمُ رَبُّہُمْ رَبُّہُمْ فَاَنجَبَ الرَّحْمٰنُ رَحْمَةً وَّكَذَٰلِكَ وَفَصَّلَتْ وَرَیْطُہٗ لُوطُ ۝ وَاَصْحَابُ الْاَیْنِ وَرَعَوْا رَیْبَہُمْ كَلَّ كَذَّبَ الرُّسُلُ فَحَنَّ وَبَعِدَ ۝ اَتَيْنَا بِالْحَقِّ الْاَوَّلَی بَلْ مُرِّی لَیْسَ مِنَّ حَلَّتْی جَوَابِہٖ ۝

قوله: ﴿وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ﴾ الكلام في إعراب هذا كالكلام الذي قدمنا في قوله: ﴿وَ الْقُرْآنَ ذِي الْبُرْجِ﴾ [ص: 1] وفي قوله: ﴿حَمَّ * وَالْكِتَابَ الْمُبِينِ﴾ [الزخرف، والدخان: 1، 2] واختلف في معنى ق، فقال الواحدي: قال المفسرون: هو اسم جبل يحيط بالدينا من زبرجد، والسماء مقببة عليه، وهو وراء الحجاب الذي تغيب الشمس من ورائه بمسيرة سنة. قال الفراء: كان يجب على هذا أن يظهر الإعراب في ق لأنه اسم، وليس بهجاء. قال: ولعل القاف وحدها نكرت من اسمه كقول القائل: قلت لها قفي، فقالت: قاف، أي: أنا واقفة. وحكى الفراء، والزجاج: أن قوما قالوا: معنى ق: قضى الأمر، وقضى ما هو كائن، كما قيل في حم: حم الأمر. وقيل: هو اسم من أسماء الله أقسم به. وقال قتادة: هو اسم من أسماء القرآن. وقال الشعبي: فاتحة السورة. وقال أبو بكر الوراق معناه: قف عند أمرنا ونهيها ولا تعددهما، وقيل غير ذلك مما هو أضعف منه، والحق أنه من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه، كما حققنا ذلك في فاتحة سورة البقرة، ومعنى المجيد: أنه ذو مجد وشرف على سائر الكتب المنزل. وقال الحسن: الكريم، وقيل: الرفيع القدر، وقيل: الكبير القدر، وجواب القسم قال الكوفيون: هو قوله: ﴿بَلْ عَجِبُوا﴾ وقال الاخفش: جوابه محذوف كأنه قال: ق وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ لتبعثن، يدل عليه ﴿اِذَا مَتَّأ وَكُنَّا تُرَابًا﴾ وقال ابن كيسان جوابه: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ﴾ [ق: 18] وقيل: هو ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ بتقدير اللام أي: لقد علمنا، وقيل: هو محذوف وتقديره أنزلناه إليك لتنذر، كأنه قيل: ق وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ أنزلناه إليك؛ لتنذر به الناس. قرأ الجمهور قاف بالسكون. وقرأ الحسن، وابن أبي إسحاق، ونصر بن عاصم بكسر الفاء. وقرأ عيسى الثقفي بفتح الفاء. وقرأ هارون، ومحمد بن السميعف بالضم ﴿بَلْ عَجِبُوا﴾ أن جاءهم منذر منهم ﴿بَلْ لِلْإِضْرَابِ﴾ عن الجواب على اختلاف الأقوال، وأن في موضع نصب على تقدير: لأن جاءهم. والمعنى: بل عجب الكفار؛ لأن جاءهم منذر منهم، وهو محمد ﷺ، ولم يكتفوا بمجرد الشك والرّد، بل جعلوا ذلك من الأمور العجيبة، وقيل: هو إضراب عن وصف القرآن بكونه مجيداً، وقد تقدم تفسير هذا في سورة ص. ثم فسّر ما حكاه عنهم من كونهم عجبوا بقوله: ﴿فَقَالُوا لِلْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ وفيه زيادة تصريح وإيضاح. قال قتادة: عجبهم أن دعوا إلى إله واحد، وقيل: تعجبهم من البعث، فيكون لفظ «هذا» إشارة إلى مبهم يفسره ما بعده من قوله: ﴿اِذَا مَتَّأ وَكُنَّا تُرَابًا﴾ إلخ، والأول أولى. قال الرازي: الظاهر أن قولهم هذا إشارة إلى مجيء المنذر،

مثل مضر. وأخرج البخاري، وغيره عن أبي هريرة قال: «سئل رسول الله ﷺ أي الناس أكرم؟ قال: أكرمهم عند الله اتقاهم. قالوا: ليس عن هذا نسالك، قال: فلكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله. قالوا: ليس عن هذا نسالك، قال: فعن معادن العرب تسألوني؟ قالوا: نعم، قال: خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا». وقد وردت أحاديث في الصحيح، وغيره أن التقوى هي التي يتفاضل بها العباد. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد في قوله: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا﴾ قال: أعرب بني أسد، وخزيمة، وفي قوله: ﴿وَلَكِنْ قَوْلُوا أَسْلَمْنَا﴾ مخافة القتل والسبي. وأخرج ابن جرير عن قتادة أنها نزلت في بني أسد. وأخرج ابن المنذر، والطبراني، وابن مريويه قال السيوطي: بسند حسن عن عبد الله بن أبي أوفى: أن ناساً من العرب قالوا: يا رسول الله أسلمنا ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان، فأنزل الله ﴿يَعْتَنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾. وأخرج النسائي، والبزار، وابن مريويه عن ابن عباس نحوه، ونكر أنهم بنو أسد.

تفسير سورة ق

وهي مكية كلها في قول الحسن، وعكرمة، وعطاء، وجابر. وروي عن ابن عباس، وقاتدة أنها مكية إلا آية، وهي قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسْنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق: 38] وهي أول المفصل على الصحيح، وقيل: من الحجرات. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مريويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة ق بمكة. وأخرج ابن مريويه عن ابن الزبير مثله. وقد أخرج مسلم، وغيره عن قطبة بن مالك قال: «كان النبي ﷺ يقرأ في الفجر في الركعة الأولى ﴿ق وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ﴾ [أي: سورة ق]». وأخرج أحمد، ومسلم، وأهل السنن عن أبي واقد الليثي قال: «كان رسول الله ﷺ يقرأ في العيد بقاف، و ﴿اقتربت﴾ [أي: سورة القمر]. وأخرج ابن أبي شيبة، وأبو داود، وابن ماجه، والبيهقي عن أم هشام ابنة حارثة قالت: ما أخذت ﴿ق وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ﴾ إلا من في رسول الله ﷺ، كان يقرأ بها في كل جمعة على المنبر إذا خطب الناس، وهو في صحيح مسلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ق وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ ۝ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَاثِرُونَ هَذَا نَحْنُ عَجِبٌ ۝ لَوْ أَنَّا رَأَيْنَا أَزْوَاجَ ذَٰلِكَ رَیْبَہٗمُ ۝ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَیْطٌ ۝ بَلْ كَذَّبُوا بِآلِہٖ لَمَّا جَاءَهُمْ فَہُمْ فِي أَمْرٍ مُّریجٍ ۝ اٰفَلَا یَنْظُرُوْا اِلَی السَّآءِ وَفَہُمْ کَیْفَ یَبْیَنْتَہَا وَرَیْبُہَا وَمَا لَہَا مِنْ رَّوْجٍ ۝ وَالْاَرْضُ مَدَدَتْہَا وَالْاَیْنَ فِہَا رَیْبِہٖمُ وَآلَیْسَ فِہَا مِنْ شَیْءٍ یُّبْیَحِ ۝ بَیْرَہٗ وَذَکَی لَکُلِّ عَیْبٍ شَیْبٍ ۝ وَرَزَلْنَا مِنْ السَّآءِ مَآءً مُّبْرَکًا فَآلَیْسَ

الزجاج، وغيره. وقال قتادة: مختلف. وقال الحسن: ملتبس، والمعنى متقارب، وقيل: فاسد، والمعاني متقاربة، ومنه قولهم: مرجت أمانات الناس أي: فسدت، ومرج الدين، والأمر اختلط **﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم﴾** الاستفهام للتقريع والتوبيخ أي: كيف غفلوا عن النظر إلى السماء فوقهم **﴿كيف بنيناها﴾**، وجعلناها على هذه الصفة مرفوعة بغير عماد تعتمد عليه **﴿ووزيناها﴾** بما جعلنا فيها من المصابيح **﴿وما لها من فروج﴾** أي: فتوق وشقوق وصلوع، وهو جمع فرج، ومنه قول امرئ القيس: يسد به فرجاً من ببر

قال الكسائي: ليس فيها تفاوت، ولا اختلاف، ولا فتوق **﴿والأرض مدناها﴾** أي: بسطناها **﴿والقينا فيها رولسي﴾** أي: جبالاً ثابتة، وقد تقدم تفسير هذا في سورة الرعد **﴿وانبتنا فيها من كل زوج بهيج﴾** أي: من كل صنف حسن، وقد تقدم تفسير هذا في سورة الحج **﴿تبصرة ونكري لكل عبد منيب﴾** هما علتان لما تقدم منتصبان بالفعل الأخير منها، أو بمقتضى أي: فعلنا ما فعلنا للتبصير والتذكير، قاله الزجاج. وقال أبو حاتم: انتصبا على المصدرية أي: جعلنا ذلك تبصرة ونكري. والمنيب الراجع إلى الله بالتوبة المتبصر في بديع صنعه، وعجائب مخلوقاته. وفي سياق هذه الآيات تذكير لمنكري البعث، وإيقاظ لهم عن سنة الغفلة، وبيان لإمكان ذلك وعدم امتناعه، فإن القادر على مثل هذه الأمور يقدر عليه، وهكذا قوله: **﴿ونزلنا من السماء ماء مباركا﴾** أي: نزلنا من السحاب ماء كثير البركة؛ لانتفاع الناس به في غالب أمورهم **﴿فانبتنا به جنات﴾** أي: انبتنا بذلك الماء بساتين كثيرة **﴿وحب الحصيد﴾** أي: ما يقات ويحصد من الحبوب، والمعنى: وحب الزرع الحصيد، وخص الحب لأنه المقصود، كذا قال البصريون. وقال الكوفيون: هو من باب إضافة الشيء إلى نفسه كمسجد الجامع، حكاة الفراء. قال الضحاك: حب الحصيد البر والشعير، وقيل: كل حب يحصد ويدخر ويقات **﴿والنخل باسقات لها طلع نضيد﴾** هو معطوف على جنات أي: وأنبتنا به النخل، وتخصيصها بالذكر مع دخولها في الجنات للدلالة على فضلها على سائر الأشجار، وانتصاب باسقات على الحال، وهي حال مقترنة؛ لأنها وقت الإنبات لم تكن باسقة. قال مجاهد، وعكرمة، وقتادة: الباسقات الطوال، وقال سعيد بن جبير: مستويات. وقال الحسن، وعكرمة، والفراء: مواقير حوامل، يقال للشاة إذا بسقت: ولدت، والأشهر في لغة العرب الأول، يقال: بسقت النخلة بسوقاً؛ إذا طالت، ومنه قول الشاعر:

لناخمر وليست خمر كرم ولكن من نتاج الباسقات
كرام في السماء ذهب طولا وفك ثمارها أيدي الجنات
وجملة **﴿لها طلع نضيد﴾**: في محل نصب على الحال من النخل، الطلع هو أول ما يخرج من ثمر النخل، يقال: طلع الطلع طلوعاً، والنضيد المتراب الذي نضد بعضه على

ثم قالوا: **﴿إنذا متنا﴾** وأيضاً قد وجدها هنا بعد الاستبعاد بالاستفهام أمر يؤدي معنى التعجب، وهو قولهم: **﴿ذلك رجع بعيد﴾** فإنه استبعاد وهو كالتعجب، فلو كان التعجب بقولهم: **﴿هذا شيء عجيب﴾** عائداً إلى قولهم: إنذا لكان كالتكرار، فإن قيل: التكرار الصريح يلزم من قولك هذا شيء عجيب أنه يعود إلى مجيء المنذر، فإن تعجبهم منه علم من قولهم: وعجبوا أن جاءهم، فقوله: **﴿هذا شيء عجيب﴾** يكون تكراراً، فنقول ذلك ليس بتكرار بل هو تقرير؛ لأنه لما قال: بل عجبوا بصيغة الفعل وجاز أن يتعجب الإنسان مما لا يكون عجباً كقوله: **﴿أتعجبين من أمر الله﴾** [هود: 73] ويقال في العرف: لا وجه لتعجبك مما ليس بعجب، فكانهم لما عجبوا قيل لهم: لا معنى لتعجبكم، فقالوا: **﴿هذا شيء عجيب﴾** فكيف لا تعجب منه، ويدل على ذلك قوله ما هنا: **﴿فقال الكافرون﴾** بالفاء، فإنها تدل على أنه مترتب على ما تقدم، قرأ الجمهور (إنذا متنا) بالاستفهام. وقرأ ابن عامر في رواية عنه، وأبو جعفر، والأعشى، والأعرج بهمزة واحدة، فيحتمل الاستفهام كقراءة الجمهور، وهمزة الاستفهام مقترنة، ويحتمل أن معناه الإخبار، والعامل في الظرف مقتر أي: أيعتدنا، أو أنرجع إذا متنا لدلالة ما بعده عليه، هذا على قراءة الجمهور، وأما على القراءة الثانية، فجواب إذا محذوف أي: رجعنا، وقيل: ذلك رجع، والمعنى: استنكرهم للبعث بعد موتهم ومصيرهم تراباً. ثم جزموا باستبعادهم للبعث، فقالوا: **﴿ذلك﴾** أي: البعث **﴿رجع بعيد﴾** أي: بعيد عن العقول، أو الأفهام، أو العادة، أو الإمكان، يقال: رجعت أرجعه رجعاً، ورجع هو يرجع رجوعاً. ثم رد سبحانه ما قالوه، فقال: **﴿قد علمنا ما تنقص الأرض منهم﴾** أي: ما تاكل من أجسادهم فلا يضل عنا شيء من ذلك، ومن أحاط علمه بكل شيء حتى انتهى إلى علم ما يذهب من أجساد الموتى في القبور لا يصعب عليه البعث، ولا يستبعد منه، وقال السدي: النقص هنا الموت، يقول: قد علمنا من يموت منهم، ومن يبقى؛ لأن من مات دفن، فكان الأرض تنقص من الأموات، وقيل المعنى: من يدخل في الإسلام من المشركين، والأول أولى **﴿وعننا كتاب حفيظ﴾** أي: حافظ لعدتهم وأسمائهم ولكل شيء من الأشياء، وهو اللوح المحفوظ، وقيل: المراد بالكتاب هنا: العلم والإحصاء، والأول أولى. وقيل: حفيظ بمعنى محفوظ أي: محفوظ من الشياطين، أو محفوظ فيه كل شيء، ثم أضرب سبحانه عن كلامهم الأول وانتقل إلى ما هو أشنع منه فقال: **﴿بئس كتبوا بالحق﴾** فإنه تصريح منهم بالتكذيب بعد ما تقدم عنهم من الاستبعاد، والمراد بالحق هنا: القرآن. قال الماوردي في قول الجميع، وقيل: هو الإسلام، وقيل: محمد، وقيل: النبوة الثابتة بالمعجزات **﴿لما جاءهم﴾** أي: وقت مجيئه إليهم من غير تدبر ولا تفكر ولا إمعان نظر، قرأ الجمهور بفتح اللام وتشديد الميم. وقرأ الجحدري بكسر اللام وتخفيف الميم **﴿فهم في أمر مريج﴾** أي: مختلط مضطرب، يقولون مرة ساحر، ومرة شاعر، ومرة كاهن، قاله

ثم خلق وراء ذلك جبلاً يقال له: قَ السماء الدنيا مرفرفة عليه، ثم خلق من وراء ذلك الجبل أرضاً مثل تلك الأرض سبع مرات، ثم خلق من وراء ذلك بحراً محيطاً بها، ثم خلق وراء ذلك جبلاً يقال له: قاف السماء الثانية مرفرفة عليه، حتى عد سبع أرضين، وسبعة أبحر، وسبعة أجبال، وسبع سموات، قال: وذلك قوله: ﴿وَالْبَحْرَ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ [لقمان: 27] قال ابن كثير: لا يصح سنده عن ابن عباس. وقال أيضاً: وفيه انقطاع. وأخرج ابن أبي الدنيا وأبو الشيخ عنه أيضاً قال: هو جبل وعروقه إلى الصخرة التي عليها الأرض، فإذا أراد الله أن يزلزل قرية أمر ذلك الجبل، فحرك ذلك العرق الذي يلي تلك القرية فيزلزلها ويحركها، فمن ثم يحرك القرية نون القرية. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ﴾ قال: الكريم، وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: القرآن المجيد ليس شيء أحسن منه ولا أفضل. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿وَقَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ قال: أجسادهم وما يذهب منها. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً في الآية قال: ما تاكل من لحومهم وعظامهم وأشعارهم. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عنه أيضاً قال: المريج الشيء المتغير. وأخرج الحاكم وصححه، وابن مريويه عن قطبة قال: «سمعت النبي ﷺ يقرأ في الصبح قَ، فلما أتى على هذه الآية: ﴿وَالنَّخْلَ بِاسْقَاتٍ﴾ فجعلت أقول: ما بسوقها؟ قال: طولها. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس في قوله: ﴿وَالنَّخْلَ بِاسْقَاتٍ﴾ قال: الطول. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾ قال: متراكم بعضها على بعض. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿وَأَفْعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ يقول: لم يعيننا الخلق الأول، وفي قوله: ﴿جَبَلٌ هُمْ فِي لِبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَبِيدٍ﴾ في شك من البعث.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ إِلَهِمْ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١﴾ إِذْ يَتَلَوَّى التَّكْوِينَ وَحَى الْإِلَهِيَّ ﴿٢﴾ مَا يَلِيطُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَيْبٌ غَيْبٌ ﴿٣﴾ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ وَالْحَقُّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿٤﴾ وَنَبِّحُ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعْدِ ﴿٥﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَنَجِيدٌ ﴿٦﴾ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَلَاظٍ مِنْ هَذَا كُنْهًا عَنَّا عِطَاءُكَ بَعْدَ الْيَمِّ حَرِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ رَبُّهُ هَذَا مَا لَدَىٰ غَيْبٍ ﴿٨﴾ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ كُلٌّ كَصَفْرِ غَيْبٍ ﴿٩﴾ مَتَاعٌ لِلغَيْبِ مَعْتَرٍ مُرِيدٌ ﴿١٠﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهِهَا مَخَرًّا فَالْيَا أَيُّهَا الَّذِي فِي الدُّنْيَا الشَّدِيدِ ﴿١١﴾ قَالَ رَبُّهُ رَبَّنَا مَا آخِذَتُمْ وَلَكِنْ كَانُوا فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٢﴾ قَالَ لَا تَخْصِمُوا لَدَىٰ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعْدِ ﴿١٣﴾ مَا يُبْذَلُ الْقَوْلُ لَدَىٰ وَمَا أَنَا بِظَالِمٍ غَيبٍ ﴿١٤﴾ يَوْمَ نَقُولُ لَهُمْ هَلْ أَتَاكَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَرْيَدٍ ﴿١٥﴾ وَأَرْأَيْتَ الْجَهَنَّمَ الْيُسْخَرُونَ عَنْ رَبِّهِمْ هَذَا مَا نُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَاقِظٍ ﴿١٦﴾ مَنْ خَتَمَ الْأَرْحَمَنُ بِالْغَيْبِ رَحْمَةً يَنْتَلِ بِغَيْبِ ﴿١٧﴾ أَدْخَلُوكُمْ آلِسَكْرَةَ ذَلِكَ يَوْمَ الْمَلُوكِ ﴿١٨﴾ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِيهَا وَلَا دِينًا مَرْيَدٌ ﴿١٩﴾

قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ

بعض، وذلك قبل أن يفتح فهو نضيد في كمامه فإذا خرج من كمامه، فليس بنضيد ﴿رَزَقْنَا لِلْعِبَادِ﴾ انتصابه على المصدرية أي: رزقناهم رزقاً، أو على العلة أي: انتبتنا هذه الأشياء للرزق ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيْتَةً﴾ أي: أحيينا بذلك الماء بلدة مجدية لا ثمار فيها ولا زرع، وجملة ﴿كُنْتُكَ الْخُرُوجِ﴾ مستأنفة لبيان أن الخروج من القبور عند البعث كمثل هذا الإحياء الذي أحيا الله به الأرض الميتة، قرأ الجمهور (ميتاً) على التخفيف، وقرأ أبو جعفر، وخالد بالتثنية. ثم نكر سبحانه الأمم المكتبة، فقال: ﴿كُنْتُ قَبْلَهُمْ قَوْمَ نُوحٍ وَأَصْحَابَ الرُّسُلِ﴾ هم قوم شعيب كما تقدم بيانه، وقيل: هم الذين جاءهم من أقصى المدينة رجل يسعى، وهم من قوم عيسى وقيل: هم أصحاب الأخدود. والرس: إما موضع نسبوا إليه، أو فعل، وهو حفر البشر، يقال رس: إذا حفر بئراً ﴿وَأَثْمُودَ * وَعَادَ وَفِرْعَوْنَ﴾ أي: فرعون وقومه ﴿وَأَخِيَّانَ لُوطَ﴾ جعلهم إخوانه لأنهم كانوا أصحابه، وقيل: هم من قوم إبراهيم، وكانوا من معارف لوط ﴿وَأَصْحَابَ الْأَيْكَةِ﴾ تقدم الكلام على الأيكة، واختلاف القراء فيها في سورة الشعراء مستوفى، ونبيهم الذي بعثه الله إليهم شعيب ﴿وَقَوْمَ تَبِيعَ﴾ هو تبع الحميري الذي تقدم ذكره في قوله: ﴿أَمُّ خَيْرٍ أَمْ قَوْمَ تَبِيعَ﴾ [البخار: 37] واسمه سعد أبو كرب، وقيل: أسعد؟ قال قتادة: نَمَّ الله قوم تبيع، ولم ينمه ﴿كُلَّ كَذِبٍ لِلرُّسُلِ﴾ للتونين عوض عن المضاف إليه أي: كل واحد من هؤلاء كذب رسوله الذي أرسله الله إليه، وكذب ما جاء به من الشرع، واللام في الرسل تكون للعهد، ويجوز أن تكون للجنس أي: كل طائفة من هذه الطوائف كذبت جميع الرسل، وإفراد الضمير في كذب باعتبار لفظ كل، وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ؛ كانه قيل له: لا تحزن، ولا تكثر غمك لتكذيب هؤلاء لك، فهذا شأن من تقدمك من الأنبياء، فإن قومهم كذبوهم، ولم يصنقهم إلا القليل منهم ﴿فَهِقْ وَعِيدُ﴾ أي: وجب عليهم وعيدي، وحق عليهم كلمة العذاب، وحل بهم ما قرره الله عليهم من الخسف، والمسح، والإهلاك بالأنواع التي أنزلها الله بهم من عذابه ﴿وَأَفْعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ، والجملة مستأنفة لتقرير أمر البعث الذي أنكرته الأمم أي: أفعجنا بالخلق حين خلقناهم أولاً ولم يكونوا شيئاً، فكيف نعجز عن بعثهم، يقال: عيبت بالامر: إذا عجزت عنه، ولم أعرف وجهه. قرأ الجمهور بكسر الياء الأولى بعدها ياء ساكنة. وقرأ ابن أبي عبيدة بتشديد الياء من غير إشباع. ثم نكر أنهم في شك من البعث، فقال: ﴿جَبَلٌ هُمْ فِي لِبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَبِيدٍ﴾ أي: في شك وحيرة واختلاط من خلق مستأنف، وهو بعث الأموات، ومعنى الإضراب: أنهم غير منكرين لقدرة الله على الخلق الأول ﴿جَبَلٌ هُمْ فِي لِبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَبِيدٍ﴾.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿قَ﴾ قال: هو اسم من أسماء الله. وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال: خلق الله من وراء هذه الأرض بحراً محيطاً،

أعمالهم محفوظة مكتوبة نكر بعده ما ينزل بهم من الموت، والمراد بسكرة الموت: شئته وغمرته التي تغشى الإنسان، وتغلب على عقله، ومعنى بالحق: أنه عند الموت يتضح له الحق، ويظهر له صلق ما جاءت به الرسل من الإخبار بالبعث والوعد والوعيد، وقيل: الحق هو الموت، وقيل: في الكلام تقديم وتأخير أي: وجاءت سكرة الحق بالموت، وكذا قرأ أبو بكر الصديق، وابن مسعود، والسكرة هي الحق، فأضيفت إلى نفسها لاختلاف اللفظين، وقيل: الباء للملابسة كالتي في قوله: ﴿تَنْتَبِهُ بِالْذَّهْنِ﴾ [المؤمنون: 20] أي: ملتبسة بالحق أي: بحقيقة الحال، والإشارة بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ إلى الموت، والحيد الميل أي: ذلك الموت الذي كنت تميل عنه، وتفرد منه، يقال: حاد عن الشيء يحيد حيوداً، وحيدة وحيدودة: مال عنه وعدل، ومنه قول طرفة:

أبو منذر رمت الوفاء فهبته وحت كما حاد البعير عن النحض وقال الحسن: تحيد تهرب ﴿ونفخ في الصور﴾ عبر عنه بالماضي؛ لتحقيق وقوعه، وهذه هي النفخة الآخرة للبعث ﴿ذلك يوم الوعيد﴾ أي: ذلك الوقت الذي يكون فيه النفخ في الصور يوم الوعيد الذي أوعد الله به الكفار. قال مقاتل: يعني بالوعيد: العذاب في الآخرة، وخصص الوعيد مع كون اليوم هو يوم الوعد والوعيد جميعاً لتحويله ﴿وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد﴾ أي: جاءت كل نفس من النفوس معها من يسوقها، ومن يشهد لها، أو عليها.

اختلف في السائق والشهيد، فقال الضحاك: السائق من الملائكة، والشهيد من أنفسهم يعني: الأيدي والأرجل. وقال الحسن، وقتادة: سائق يسوقها، وشاهد يشهد عليها بعملها، وقال ابن مسلم: السائق قرينها من الشياطين، سمي سائقاً لأنه يتبعها وإن لم يحثها. وقال مجاهد: السائق والشهيد ملكان. وقيل: السائق الملك، والشهيد العمل، وقيل: السائق كاتب السيات، والشهيد كاتب الحسنات، ومحل الجملة النصب على الحال ﴿لقد كنت في غفلة من هذا﴾ أي: يقال له: لقد كنت في غفلة من هذا، والجملة في محل نصب على الحال من نفس، أو مستأنفة كأنه قيل: ما يقال له، قال الضحاك: المراد بهذا: المشركون لأنهم كانوا في غفلة من عواقب أمورهم. وقال ابن زيد: الخطاب للنبي ﷺ أي: لقد كنت يا محمد في غفلة من الرسالة. وقال أكثر المفسرين: المراد به جميع الخلق برهم، وفاجرهم، واختار هذا ابن جرير. قرأ الجمهور بفتح التاء من (كنت)، وفتح الكاف في غطاءك، وبصرك حملاً على ما في لفظ كل من التذكير. وقرأ الجحدري، وطلحة بن مصرف بالكسر في الجميع على أن المراد النفس ﴿فكشفنا عنك غطاءك﴾ الذي كان في الدنيا يعني: رفعنا الحجاب الذي كان بينك، وبين أمور الآخرة، ورفعنا ما كنت فيه من الغفلة عن ذلك ﴿فبصرك اليوم حديد﴾ أي: نافذ تبصر به ما كان يخفى عليك في الدنيا. قال السدي: المراد بالغطاء أنه كان في بطن أمه فولد، وقيل: إنه كان في القبر فنشر، والأول أولى. والبصر قيل: هو بصر

نفسه ﴿هذا كلام مبتدأ يتضمن نكر بعض القدرة الربانية، والمراد بالإنسان: الجنس، وقيل: أم، والوسوسة هي في الأصل الصوت الخفي، والمراد بها هنا: ما يختلج في سره وقلبه وضميره أي: نعلم ما يخفي، ويكن في نفسه، ومن استعمال الوسوسة في الصوت الخفي قول الأعشى: تسمع للحلي وسواساً إذا انصرفت

فاستعمل لما خفي من حديث النفس ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ هو حبل العاتق، وهو ممتد من ناحية حلقه إلى عاتقه، وهما وريدان من عن يمين وشمال. وقال الحسن: الوريد الودتين، وهو عرق معلق بالقلب، وهو تمثيل للقرب بقرب تلك العرق من الإنسان أي: نحن أقرب إليه من حبل وريده، والإضافة بيانية أي: حبل هو الوريد. وقيل: الحبل هو نفس الوريد، فهو من باب مسجد الجامع. ثم نكر سبحانه أنه مع علمه به وكل به ملكين يكتبان، ويحفظان عليه عمله إلزاماً للحجة فقال: ﴿إذ يتلقى المتلقيان﴾ الظرف منتصب بما في ﴿أقرب﴾ من معنى الفعل، ويجوز أن يكون منصوباً بمقتدر هو النكر، والمعنى: أنه أقرب إليه من حبل وريده حين يتلقى المتلقيان، وهما الملكان الموكلان به ما يلفظ به، وما يعمل به أي: يأخذان ذلك ويثبتانه، والتلقي الأخذ أي: نحن أعلم بأحواله غير محتاجين إلى الحفظ الموكلين به، وإنما جعلنا ذلك إلزاماً للحجة، وتوكيداً للأمر. قال الحسن، وقتادة، ومجاهد: المتلقيان ملكان يتلقيان عملك أحدهما عن يمينك يكتب حسناتك، والآخر عن شمالك يكتب سيئاتك. وقال مجاهد أيضاً: وكل الله بالإنسان ملكين بالليل وملكين بالنهار يحفظان عمله، ويكتبان أثره ﴿عن اليمين وعن الشمال قعيد﴾ إنما قال قعيد، ولم يقل قعيدان وهما اثنان؛ لأن المراد: عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد، فحذف الأول لدلالة الثاني عليه، كذا قال سيبويه بقول الشاعر: نحن بما عنئنا وأنت بما عندك راض والرأي مختلف وقول الفرزدق:

وأتى وكان وكنت غير عنور

أي: وكان غير عنور، وكنت غير عنور، وقال الأخفش، والفرأء: إن لفظ قعيد يصلح للواحد والاثنتين والجمع ولا يحتاج إلى تقدير في الأول. قال الجوهري، وغيره من أئمة اللغة والنحو: فاعيل وفعل مما يستوي فيه الواحد والاثنتان والجمع، والقعيد المقاعد كالجاليس بمعنى المجالس ﴿وما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾ أي: ما يتكلم من كلام، فيلغظه ويرميه من فيه إلا لديه أي: لدى ذلك الالفاظ رقيب أي: ملك يرقب قوله ويكتبه، والرقيب: الحافظ المتتبع لأمر الإنسان الذي يكتب ما يقوله من خير وشر، فكتاب الخير هو ملك اليمين، وكتاب الشر ملك الشمال. والعتيد: الحاضر المهيأ. قال الجوهري: العتيد الحاضر المهيأ، يقال: عتده تعتيدياً واعتده اعتداداً أي: أعدّه، ومنه ﴿واعتدت لهن متكاً﴾ [يوسف: 31] والمراد هنا: أنه معد للكتابة مهيئ لها ﴿وجاءت سكرة الموت بالحق﴾ لما بين سبحانه أن جميع

هذه الجملة مستأنفة جواب سؤال مقتر؛ كأنه قيل: فماذا قال الله؟ فقيل: ﴿قال لا تختصموا لدي﴾ يعني: الكافرين وقرناءهم، نهامهم سبحانه عن الاختصاص في موقف الحساب، وجملة ﴿وقد قدمت إليكم بالوعيد﴾ في محل نصب على الحال أي: والحال أن قد قدمت إليكم بالوعيد بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، والباء في ﴿بالوعيد﴾ مزيادة للتأكيد، أو على تضمين قدم معنى تقدم ﴿ما يبذل القول لدي﴾ أي: لا خلف لوعدي، بل هو كائن لا محالة، وقد قضيت عليكم بالعذاب، فلا تبديل له، وقيل: هذا القول هو قوله: ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثله﴾ [الأنعام: 160] وقيل: هو قوله: ﴿لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ [هود: 119] وقال الفراء، وابن قتيبة: معنى الآية: أنه ما يكذب عندي بزيادة في القول، ولا ينقص منه لعلمي بالغيبي، وهو قول الكلبي. واختاره الواحدي، لأنه قال: ﴿لدي﴾ ولم يقل وما يبذل قلبي، والأول أولى. وقيل: إن مفعول قدمت إليكم هو ما يبذل أي: وقد قدمت إليكم هذا القول ملتبساً بالوعيد، وهذا بعيد جداً ﴿وما لنا بظلام للعبيد﴾ أي: لا أعنبهم ظلماً بغير جرم اجترموه، ولا ننب اتنبوه. ولما كان نفي الظلام لا يستلزم نفي مجرد الظلم قيل: إنه هنا بمعنى الظالم كالتأمر بمعنى التامر. وقيل: إن صيغة المبالغة لتأكيد هذا المعنى بإبراز ما ذكر من التعذيب بغير نيب في معرض المبالغة في الظلم. وقيل: صيغة المبالغة لرعاية جمعية العبيد من قولهم فلان ظالم لعبده، وظلام لعبيده، وقيل غير ذلك، وقد تقدم الكلام على هذا في سورة آل عمران، وفي سورة الحج ﴿يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد﴾ قرأ الجمهور (نقول) بالنون، وقرأ نافع وأبو بكر بالياء، وقرأ الحسن (أقول). وقرأ الأعمش (يقال)، والعامر في الظرف ﴿ما يبذل القول لدي﴾، أو محذوف أي: انكر، أو أنذرهم، وهذا الكلام على طريقة التمثيل والتخييل، ولا سؤال ولا جواب، كذا قيل، والأولى أنه على طريقة التحقيق، ولا يمنع من ذلك عقل ولا شرع. قال الواحدي: قال المفسرون: أراها الله تصديق قوله: ﴿لأملأن جهنم﴾ [هود: 119] فلما امتلأت قال لها: ﴿هل امتلأت وتقول هل من مزيد﴾ أي: قد امتلأت ولم يبق في موضع لم يمتلئ، وبهذا قال عطاء، ومجاهد، ومقاتل بن سليمان. وقيل: إن هذا الاستفهام بمعنى الاستزادة أي: إنها تطلب الزيادة على من قد صار فيها. وقيل: إن المعنى أنها طلبت أن يزداد في سعتها؛ لتضايقها بأهلها، والمزيد إما مصدر كالمحيد، أو اسم مفعول كالمنيع، فالأول بمعنى هل من زيادة، والثاني بمعنى هل من شيء تزيوني به، ثم لما فرغ من بيان حال الكافرين شرع في بيان حال المؤمنين، فقال: ﴿وأنزلت الجنة للمتقين غير بعيد﴾ أي: قربت للمتقين تقريباً غير بعيد، أو مكان غير بعيد منهم بحيث يشاهدونها في الموقف، وينظرون ما فيها مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ويجوز أن يكون انتصاب

القلب، وقيل: بصر العين، وقال مجاهد: بصرك إلى لسان ميزانك حين توزن حسناتك وسيئاتك، وبه قال الضحاک ﴿وقال قرينه هذا ما لدي عتيد﴾ أي قال الملك الموكل به: هذا ما عندي من كتاب عملك عتيد حاضر قد هيأته، كذا قال الحسن، وقتادة، والضحاک. وقال مجاهد: إن الملك يقول للرب سبائحته: هذا الذي وكلتني به من بني آدم قد أحضرته، وأحضرت ديوان عمله. وروي عنه أنه قال: إن قرينه من الشياطين يقول ذلك أي: هذا ما قد هيأته لك بإغوائتي وإضلالتي. وقال ابن زيد: إن المراد هنا قرينه من الإنس، وعتيد مرفوع على أنه صفة لما إن كانت موصوفة، وإن كانت موصولة فهو خبر بعد خبر، أو خبر مبتدأ محذوف ﴿ألقيا في جهنم كل كفار عنيد﴾ هذا خطاب من الله عز وجل للسائق والشهيد. قال الزجاج: هذا أمر للملكين الموكلين به وهما السائق، والشاهد: كل كفار للنعم عنيد مجانب للإيمان ﴿متاع للخير﴾ لا يبذل خيراً ﴿معتد﴾ ظالم لا يقر بتوحيد الله ﴿مريب﴾ شك في الحق، من قولهم أرب الرجل: إذا صار ذا ريب. وقيل: هو خطاب للملكين من خزنة النار، وقيل: هو خطاب لواحد على تنزيل ثنية الفاعل منزلة ثنية الفعل وتكريره. قال الخليل، والأخفش: هذا كلام العرب الصحيح أن يخاطب الواحد بلفظ الاثنين يقولون: ارحلها وإزجرها وخذها وأطلقها للواحد. قال الفراء: العرب تقول للواحد: قوما عنا. وأصل ذلك أن أنى أعوان الرجل في إبله وغنمه ورفقته في سفره اثنين، فجرى كلام الرجل للواحد على ذلك، ومنه قولهم للواحد في الشعر: خليلي كما قال امرؤ القيس:

خليلي مرأبي على لم جنبب نقض لبانات الفؤاد المعنّب
وقوله:

قفانك من نكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل
وقول الآخر:

فإن تزجراني يابن عفان أنزجر وإن تدعواني أحم عرضاً ممنعا
قال المازني: قوله: ﴿ألقيا﴾ يدل على ألق ألق. قال المبرد: هي ثنية على التوكيد، فإب ألقيا مناب ألق ألق. قال مجاهد، وعكرمة: لعنيد المعاند للحق، وقيل: المعرض عن الحق، يقال: عند يعند بالكسر عنوداً: إذا خالف الحق ﴿الذي جعل مع الله إلهاً آخر﴾ يجوز أن يكون بدلاً من كل، أو منصوباً على الذم، أو بدلاً من كفار، أو مرفوعاً بالابتداء، أو الخبر ﴿فألقياه في العذاب الشديد﴾ تأكيد للأمر الأول، أو يدل منه ﴿قال قرينه ربنا ما أطغيته﴾ هذه الجملة مستأنفة لبيان ما يقوله القرين، والمراد بالقرين هنا: الشيطان الذي قيس لهذا الكافر، أنكر أن يكون أطفاً، ثم قال: ﴿ولوكن كان في ضلال بعيد﴾ أي: عن الحق فدعوته، فاستجاب لي، ولو كان من عبادك المخلصين لم أقرر عليه، وقيل: إن قرينه الملك الذي كان يكتب سيئاته، وإن الكافر يقول: رب إنه أعجلني فيجيبه بهذا، كذا قال مقاتل، وسعيد بن جبیر، والأول أولى، وبه قال الجمهور، ﴿قال لا تختصموا لدي﴾

﴿غير بعيد﴾ على الحال. وقيل المعنى: أنها زينت قلوبهم في الدنيا بالترغيب والترهيب، فصارت قريبة من قلوبهم، والأول أولى. والإشارة بقوله: ﴿هَذَا مَا تَوْعَدُونَ﴾ إلى الجنة التي أزلت لهم على معنى: هذا الذي ترونه من فنون نعيمها ما توعدون، والجملة بتقدير القول: أي: ويقال لهم: هذا ما توعدون. قرأ الجمهور (توعدون) بالفوقية، وقرأ ابن كثير بالتحتيّة ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٌ﴾ هو بدل من للمتقين بإعادة الخافض، أو متعلق بقول محذوف هو حال أي: مقولاً لهم لكل أَوَّابٍ، والأَوَّاب الرجاء إلى الله تعالى بالتوبة عن المعصية، وقيل: هو المسبّح، وقيل: هو الذّاكر لله في الخلوة. قال الشعبي، ومجاهد: هو الذي يذكر ذنوبه في الخلوة، فيستغفر الله منها. وقال عبيد بن عمير: هو الذي لا يجلس مجلساً حتى يستغفر الله فيه، والحفيظ: هو الحافظ لذنوبه حتى يتوب منها. وقال قتادة: هو الحافظ لما استودعه الله من حقه ونعمته، قاله مجاهد. وقيل: هو الحافظ لأمر الله. وقال الضحاك: هو الحافظ لوصية الله له بالقبول ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ الموصول في محل جر بدلاً، أو بياناً لكل أَوَّابٍ، وقيل: يجوز أن يكون بدلاً بعد بدل من المتقين، وفيه نظر؛ لأنه لا يتكرر البديل والمبدل منه واحد، ويجوز أن يكون في محل رفع على الاستئناف، والخبر ادخلوها بتقدير يقال لهم: ادخلوها، والخشية بالغيب أن يخاف الله ولم يكن رآه. وقال الضحاك، والسدي: يعني: في الخلوة حيث لا يراه أحد. قال الحسن: إذا أرخى الستر وأغلق الباب، وبالغيب متعلق بمحذوف هو حال، أو صفة لمصدر خشي ﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ أي: راجع إلى الله مخلص لطاعته، وقيل: المنيب المقبل على الطاعة، وقيل: السليم ﴿ادخلوها﴾ هو بتقدير القول أي: يقال لهم: ادخلوها، والجمع باعتبار معنى من أي: ادخلوا الجنة ﴿بِإِسْلَامٍ﴾ أي: بسلامة من العذاب. وقيل: بسلام من الله وملائكته، وقيل: بسلامة من زوال النعم، وهو متعلق بمحذوف هو حال أي: ملتبسين بسلام، والإشارة بقوله: ﴿تِلْكَ﴾ إلى زمن تلك اليوم، كما قال أبو البقاء، وخبره ﴿يَوْمَ الْخُلُودِ﴾ وسماه يوم الخلود لأنه لا انتهاء له، بل هو دائم أبداً ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا﴾ أي: في الجنة ما تشتهي أنفسهم، وتلذذ أعينهم من فنون النعم وأنواع الخير ﴿وَلَدِينَا مُزِيدٌ﴾ من النعم التي لم تخطر لهم على بال، ولا مرّت لهم في خيال.

وقد أخرج ابن مردويه عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ قال: «نزل الله من ابن آدم أربع منازل: هو أقرب إليه من حبل الوريد، وهو يحول بين المرء وقلبه، وهو آخذ بनावية كل دابة، وهو معهم أينما كانوا». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿مَنْ حَبَلَ الْوَرِيدَ﴾ قال: عروق العنق. وأخرج ابن المنذر عنه قال: هو نياط القلب. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً، في قوله: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ قال: يكتب كل ما

تكلم به من خير، أو شرّ حتى إنه ليكتب قوله: أكلت وشربت ذهبت جئت رأيت، حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله، وعمله فأقرّ منه ما كان من خير أو شرّ وألقى سائرته، فذلك قوله: ﴿يُمَحْوُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبَّتُ﴾ [الرعد: 39]. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه من طريق عكرمة عن ابن عباس في الآية قال: إنما يكتب الخير والشرّ، لا يكتب يا غلام اسرج الفرس يا غلام اسقني الماء. وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما، عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله غفر لهذه الأمة ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل، أو تكلم». وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد في الزهد، والحكيم الترمذي، وأبو نعيم، والبيهقي في الشعب عن عمرو بن ذرّ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عند لسان كل قائل، فليتق الله عبد، ولينظر ما يقول». وأخرج الحكيم الترمذي عن ابن عباس مرفوعاً مثله. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم في الكنى، وابن مردويه، والبيهقي في البعث، وابن عسّاكر عن عثمان بن عفان أنه قرأ ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ قال: سائق يسوقها إلى أمر الله، وشهيد يشهد عليها بما عملت. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم في الكنى، وابن مردويه، والبيهقي في البعث عن أبي هريرة في الآية قال: السائق الملك، والشهيد العمل. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في الآية قال: السائق من الملائكة، والشهيد شاهد عليه من نفسه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا﴾ قال: هو الكافر. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ﴾ قال: الحياة بعد الموت. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً، و﴿قَالَ قَرِينُهُ﴾ قال شيطانه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم في قوله: ﴿لَا تَخْضَعُوا لِدُنْيَا﴾ قال: إنهم اعتنوا بغير عزّ، فابطل الله حجتهم، وردّ عليهم قولهم. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً، في قوله: ﴿وَمَا أَنَا بِظِلَامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ قال: ما أنا بمعبد من لم يجترم. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً، في قوله: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلْ امْتَلَأْتَ وَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ قال: وهل في من مكان يزداد في. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزال جهنم يلقى فيها، وتقول: هل من مزيد حتى يضع ربّ العزّة فيها قدمه، فينزوي بعضها إلى بعض، وتقول: قط قط وعزّتكم وكرمكم، ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خلقاً آخر، فيسكنهم في فضول الجنة». وأخرج أيضاً من حديث أبي هريرة نحوه، وفي الباب أحاديث. وأخرج ابن جرير، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله: ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٌ﴾ قال: حفظ ذنوبه حتى رجع عنها. وأخرج البزار، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في البعث والنشور عن أنس، في قوله: ﴿وَلَدِينَا مُزِيدٌ﴾ قال:

سمعتك إلي أي: استمع مني، والمعنى: أنه ألقى السمع إلى ما يتلى عليه من الوحي الحاكي لما جرى على تلك الأمم. قرأ الجمهور (القي) مبنياً للفاعل. وقرأ السلمي، وطلحة، والسدي على البناء للمفعول، ورفع السمع «وهو شهيد» أي: حاضر الفهم، أو حاضر القلب؛ لأن من لا يفهم في حكم الغائب وإن حضر بجسمه، فهو لم يحضر بفهمه. قال الزجاج: أي: وقلبه حاضر فيما يسمع. قال سفيان: أي: لا يكون حاضراً وقلبه غائب. قال مجاهد، وقتادة: هذه الآية في أهل الكتاب، وكذا قال الحسن. وقال محمد بن كعب، وأبو صالح: إنها في أهل القرآن خاصة «ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام» قد تقدم تفسير هذه الآية في سورة الأعراف، وغيرها «وما مسنا من لغوب» اللغوب: التعب والإعياء، تقول: لغب يلغب بالضم لغوباً، قال الواحدي: قال جماعة المفسرين: إن اليهود قالوا: خلق الله السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام، أولها الأحد وآخرها الجمعة، واستراح يوم السبت، فأكذبهم الله تعالى بقوله: «وما مسنا من لغوب» فاصبر على ما يقولون» هذه تسليّة للنبي ﷺ، وأمر لهم بالصبر على ما يقوله المشركون أي: هون عليك، ولا تحزن لقولهم، وتلق ما يرد عليك منه بالصبر «وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب» أي: نزه الله عما لا يليق بجنابه العالي ملتبساً بحمده وقت الفجر ووقت العصر، وقيل: المراد: صلاة الفجر وصلاة العصر، وقيل: الصلوات الخمس، وقيل: صل ركعتين قبل طلوع الشمس، وركعتين قبل غروبها، والأول أولى «ومن الليل فسبحه» من للتبعيض أي: سبّحه بعض الليل، وقيل: هي صلاة الليل، وقيل: ركعتا الفجر، وقيل: صلاة العشاء، والأول أولى «وابسجود السجود» أي: وسبّحه أعقاب الصلوات. قرأ الجمهور (البار) بفتح الهمزة جمع دبر. وقرأ نافع، وابن كثير، وحزمة بكسرهما على المصدر، من أئبر الشيء إيباراً: إذا ولى، وقال جماعة من الصحابة والتابعين: إيبار السجود الركعتان بعد المغرب، وإيبار النجوم الركعتان قبل الفجر، وقد اتفق القراء السبعة في إيبار النجوم أنه بكسر الهمزة، كما سيأتي «واستمع يوم ينادي المناد من مكان قريب» أي: استمع ما يوحى إليك من أحوال القيامة: يوم ينادي المناد، وهو إسرافيل، أو جبريل، وقيل: استمع النداء، أو الصوت، أو الصيحة، وهي صيحة القيامة أعني: النفخة الثانية في الصور من إسرافيل، وقيل: إسرافيل ينفخ، وجبريل ينادي أهل المحشر، ويقول: هلموا للحساب، فالنداء على هذا في المحشر، قال مقاتل: هو إسرافيل ينادي بالحشر فيقول: يا أيها الناس هلموا للحساب «من مكان قريب» بحيث يصل النداء إلى كل فرد من أفراد أهل المحشر. قال قتادة: كنا نحث أنه ينادي من صخرة بيت المقدس. قال الكلبي: وهي أقرب الأرض إلى السماء باثني عشر ميلاً، وقال كعب: بثانية عشر ميلاً «يوم يسمعون الصيحة بالحق» هو

يتجلى لهم الرب تبارك وتعالى في كل جمعة. وأخرج البيهقي في الروية، والبيهقي عن علي في الآية قال: يتجلى لهم الرب عز وجل، وفي الباب أحاديث.

وَكَمْ أَهْلَكْنَا بَيْنَ قَرْنَيْنِ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَّجِيذٍ (١٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (١٧) وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ (١٨) فَأَمِرَ عَلَىٰ مَا يَبُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (١٩) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ الْكُجُورِ (٢٠) وَأَسْبَحَ يَوْمَ يَنَادِي الْمَلَائِكَةُ نَاكِرَاتٍ فَيَقِي (٢١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمَ الْفُرُوجِ (٢٢) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (٢٣) يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ يِرَافًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرُ (٢٤) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَارٍ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَجْهَ (٢٥)

خوف سبحانه أهل مكة بما اتفق للقرون الماضية «قبلهم» أي: قبل قريش ومن وافقهم «من قرن» أي: من أمة «هم أشد منهم بطشاً» أي: قوة كعاد، وشمو، وغيرها «فنفقوا في البلاد» أي: ساروا وتقلبوا فيها وطافوا بقاعها وأصله من النقب، وهو الطريق. قال مجاهد: ضربوا وطافوا. وقال النضر بن شميل: دوروا، وقال المؤرج: تابعدوا. والأول أولى، ومنه قول امرئ القيس:

وقد نعبت في الأفاق حتى رضيت من الغنيمة بالإياب
ومنه قول الحارث بن حلزة:

نعبوا في البلاد من حذر الموت وجالوا في الأرض كل مجال
وقرأ ابن عباس، والحسن، وأبو العالية، وأبو عمرو في رواية (نقبوا) بفتح القاف مخففة، والنقب هو الخرق والطريق في الجبل، وكذا المنقب والمنقبة، كذا قال ابن السكيت، وجمع النقب نقوب. وقرأ السلمي، ويحيى بن يعمر بكسر القاف مشددة على الأمر للتهديد أي: طوفوا فيها وسيروا في جوانبها. وقرأ الباقون بفتح القاف مشددة على الماضي «هل من محيص» أي: هل لهم من مهرب يهربون إليه، أو مخلص يتخلصون به من العذاب. قال الزجاج: لم يروا محيصاً من الموت، والمحيص مصدر حاص عنه يحيص حيصاً وحيوصاً ومحيصاً ومحاصاً وحيصاناً أي: عدل وحاد، والجملة مستأنفة لبيان أنه لا مهرب لهم، وفي هذا إنذار لأهل مكة أنهم مثل من قبلهم من القرون لا يجنون من الموت والعذاب مفراً «إن في ذلك لذكرى» أي: فيما نكر من قصتهم تنكرة وموعظة «لمن كان له قلب» أي: عقل. قال الفراء: وهذا جائز في العربية، تقول: ما لك قلب وما قلبك معك، أي: ما لك عقل وما عقلك معك، وقيل: المراد القلب نفسه؛ لأنه إذا كان سليماً أترك الحقائق وتفكر كما ينبغي. وقيل: لمن كان له حياة ونفس مميزة فعبر عن ذلك بالقلب؛ لأنه وطنها ومعدن حياتها، ومنه قول امرئ القيس:

أغررك مني أن حبك قاتلي وأنت مهمما تأمرني النفس تفعل
«أو ألقى السمع» أي: استمع ما يقال له، يقال: ألق

حاتم، وابن المنذر عنه أيضاً «ذلك يوم الخروج» قال: يوم يخرجون إلى البعث من القبور. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال: قالوا: يا رسول الله لو خوفتنا، فنزلت: «فذكر بالقرآن من يخاف وعيد».

تفسير سورة الذاريات

وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مريويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: نزلت سورة الذاريات بمكة. وأخرج ابن مريويه عن ابن الزبير مثله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالَّذِينَ ذَرَوْا ﴿١﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا وَقَرَأُوا ﴿٢﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٣﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٤﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٦﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٧﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٨﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٩﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿١٠﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿١١﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿١٢﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿١٣﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿١٤﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿١٥﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿١٦﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿١٧﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿١٨﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿١٩﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٢٠﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٢١﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٢٢﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٢٣﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٢٤﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٢٥﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٢٦﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٢٧﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٢٨﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٢٩﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٣٠﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٣١﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٣٢﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٣٣﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٣٤﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٣٥﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٣٦﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٣٧﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٣٨﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٣٩﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٤٠﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٤١﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٤٢﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٤٣﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٤٤﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٤٥﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٤٦﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٤٧﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٤٨﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٤٩﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٥٠﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٥١﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٥٢﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٥٣﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٥٤﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٥٥﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٥٦﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٥٧﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٥٨﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٥٩﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٦٠﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٦١﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٦٢﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٦٣﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٦٤﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٦٥﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٦٦﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٦٧﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٦٨﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٦٩﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٧٠﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٧١﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٧٢﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٧٣﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٧٤﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٧٥﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٧٦﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٧٧﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٧٨﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٧٩﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٨٠﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٨١﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٨٢﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٨٣﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٨٥﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٨٦﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٨٧﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٨٨﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٨٩﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٩٠﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٩١﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٩٢﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٩٣﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٩٤﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٩٥﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٩٦﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٩٧﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٩٨﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿٩٩﴾ فَلَمْ يَلْبَثُوا ﴿١٠٠﴾

قوله: «والذاريات ذروا» يقال: ذرت الريح التراب تذروه ذرواً، وأذرت تذريه ذرياً، أقسم سبحانه بالرياح التي تذري التراب، وانتصاب ذرواً على المصدرية، والعامل فيها اسم الفاعل، والمفعول محذوف. قرأ أبو عمرو، وحزمة بإدغام تاء الذاريات في ذال ذرواً، وقرأ الباقون بدون إدغام. وقيل: المقسم به مقدر وهو رب الذاريات وما بعدها، والأول أولى «فالحاملات وقرأ» هي السحاب تحمل الماء، كما تحمل نوات الأربع الوقر، وانتصاب وقرأ على أنه مفعول به، كما يقال: حمل فلان عدلاً ثقيلاً. قرأ الجمهور (وقراً) بكسر الواو اسم ما يوقر أي: يحمل، وقرئ بفتحها على أنه مصدر، والعامل فيه اسم الفاعل، أو على تسمية المحمول بالمصدر مبالغة «فالجاريات يسرا» هي السفن الجارية في البحر بالرياح جرياً سهلاً، وانتصاب يسراً على المصدرية، أو صفة لمصدر محذوف، أو على الحال أي: جرياً ذا يسر، وقيل: هي الرياح، وقيل: السحاب، والأول أولى. واليسر: السهل في كل شيء «فالمقسمات أمراً» هي الملائكة التي تقسم الأمور. قال الفراء: تأتي بأمر مختلف: جبريل بالغلظة، وميكائيل صاحب الرحمة، وملك الموت يأتي بالموت، وقيل: تأتي بأمر مختلف من الجنب، والخصب، والمطر، والموت، والحوادث. وقيل: هي السحب التي يقسم الله بها أمر العباد، وقيل: إن المراد بالذاريات والحاملات والجاريات والمقسمات: الرياح،

بدل من يوم ينادي يعني: صيحة البعث، وبالحق متعلق بالصيحة «ذلك يوم الخروج» أي: يوم الخروج من القبور. قال الكلبي: معنى بالحق بالبعث، وقال مقاتل: يعني: أنها كائنة حقاً «إنا نحن نحيي ونميت» أي: نحيي في الآخرة، ونميت في الدنيا لا يشاركنا في ذلك مشارك، والجملة مستأنفة لتقرير أمر البعث «والينا المصير»، فنجازي كل عامل بعمله «يوم تشقق الأرض عنهم» قرأ الجمهور بإدغام التاء في الشين، وقرأ الكوفيون بتخفيف الشين على حذف إحدى التاءين تخفيفاً. وقرأ زيد بن علي (تتشقق) بإثبات التاءين على الأصل، وقرئ على البناء للمفعول، وانتصاب «سراعاً» على أنه حال من الضمير في عنهم، والعامل في الحال تشقق، وقيل: العامل في الحال هو العامل في يوم أي: مسرعين إلى المني الذي ناداهم «ذلك حشر» أي: بعث وجمع «علينا يسير» مين. ثم عزى الله سبحانه نبيه ﷺ فقال: «نحن أعلم بما يقولون» يعني: من تكذيبك فيما جئت به، ومن إنكار البعث والتوحيد «وما أنت عليهم بجبار» أي: بمسلط يجبرهم ويقهرهم على الإيمان، والآية منسوخة بآية السيف «فذكر بالقرآن من يخاف وعيد» أي: من يخاف وعيدي لعصاتي بالعذاب، وأما من عادهم فلا تشتغل بهم، ثم أمره الله سبحانه بعد ذلك بالقتال.

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس «وما مسنا من لغوب» قال: من نصب. وأخرج الطبراني في الأوسط، وابن عساکر عن جرير بن عبد الله، عن النبي ﷺ في قوله: «وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس» صلاة الصبح «وقبل الغروب» صلاة العصر. وأخرج الترمذي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مريويه عن ابن عباس قال: «بنت عند رسول الله ﷺ فصلی ركعتين خفيفتين قبل صلاة الفجر، ثم خرج إلى الصلاة، فقال: يا ابن عباس ركعتان قبل صلاة الفجر إنبار النجوم، وركعتان بعد المغرب إنبار السجود». وأخرج مسند في مسنده، وابن المنذر، وابن مريويه، عن علي بن أبي طالب قال: «سألت رسول الله ﷺ عن إنبار النجوم، وإنبار السجود، فقال: إنبار السجود ركعتان بعد المغرب، وإنبار النجوم الركعتان قبل الغداة». وأخرج محمد بن نصر في الصلاة، وابن المنذر عن عمر بن الخطاب: إنبار السجود ركعتان بعد المغرب، وإنبار النجوم ركعتان قبل الفجر. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن نصر، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في الأسماء والصفات عن علي بن أبي طالب مثله. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن نصر، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مريويه عن أبي هريرة مثله. وأخرج البخاري، وغيره عن مجاهد قال: قال ابن عباس: أمره أن يسبح في إنبار الصلوات كلها. وأخرج ابن جرير عنه «واستمع يوم ينادي المناد» قال: هي الصيحة. وأخرج الواسطي عنه أيضاً «من مكان قريب» قال: من صخرة بيت المقدس. وأخرج ابن أبي

فإنها توصف بجميع ذلك؛ لأنها تذو التراب، وتحمل السحاب، وتجري في الهواء، وتقسم الأمطار، وهو ضعيف جداً. وانتصاب أمراً على المفعول به، وقيل: على الحال أي: مأمورة، والأول أولى **﴿إنما توعدون لصابق﴾** هذا جواب القسم أي: إنما توعدون من الثواب والعقاب، لكأن لا محالة. **﴿وما﴾** يجوز أن تكون موصولة والعائد محذوف، وأن تكون مصدرية، ووجه تخصيص هذه الأمور بالإقسام بها كونها أموراً بديعة مخالفة لمقتضى العادة، فمن قدر عليها، فهو قادر على البعث الموعود به **﴿والسماوات للحبك﴾** قرأ الجمهور (الحبك) بضم الحاء وفتح الباء، وقرأ بضم الحاء وسكون الباء، وبكسر الحاء وفتح الباء، وبكسر الحاء وضم الباء. قال ابن عطية: هي لغات، والمراد بالسماوات هنا: هي المعروفة، وقيل: المراد بها السحاب، والأول أولى.

وختلف المفسرون في تفسير الحبك؛ فقال مجاهد، وقتادة، والربيع، وغيرهم: المعنى ذات الخلق المستوي الحسن. قال ابن الأعرابي: كل شيء أحكمته وأحسنه عمله، فقد حبكته واحتبكته. وقال الحسن، وسعيد بن جبيرة: ذات الزينة. وروي عن الحسن أيضاً أنه قال: ذات النجوم. وقال الضحاك: ذات الطرائق، وبه قال الفراء، حبك. قال الفراء: الحبك الماء والرمل إذا أصابته الريح: حبك. قال الفراء: الحبك يكسر: كل شيء كالرمل إذا مرت به الريح الساكنة، والماء إذا مرت به الريح، ويقال لدرع الحديد: حبك، ومنه قول الشاعر:

كانما جلجلها الحواك طنفسة في وشبها حباك
أي: طرق، وقيل: الحبك الشدة، والمعنى: والسماوات ذات الشدة، والمحبوك الشديد الخلق من فرس أو غيره، ومنه قول الشاعر:

قد غدا يحملني في أنفه لاحق الأطلين محبوك ممر
وقول الآخر:

مرج الدين فاعندت له مشرف الحارك محبوك الكند
قال الواحدي بعد حكاية القول الأول: هذا قول الأكثرين **﴿إنكم لفي قول مختلف﴾** هذا جواب القسم بالسماوات ذات الحبك أي: إنكم يا أهل مكة لفي قول مختلف متناقض في محمد ﷺ. بعضكم يقول: إنه شاعر. وبعضكم يقول: إنه ساحر، وبعضكم يقول: إنه مجنون. ووجه تخصيص القسم بالسماوات المتصفة بتلك الصفة تشبيه أقوالهم في اختلافها باختلاف طرائق السماء، واستعمال الحبك في الطرائق هو الذي عليه أهل اللغة، وإن كان الأكثر من المفسرين على خلافه. على أنه يمكن أن ترجع تلك الأقوال في تفسير الحبك إلى هذا، وذلك بأن يقال: إن ما في السماء من الطرائق يصح أن يكون سبباً لمزيد حسننها، واستواء خلقها، وحصول الزينة فيها، ومزيد القوة لها. وقيل: إن المراد بكونهم في قول مختلف أن بعضهم ينفي الحشر، وبعضهم يشك فيه، وقيل: كونهم يقرّون أن الله خالقهم، ويعبدون الأصنام **﴿يؤفك عنه من أفك﴾** أي: يصرف عن الإيمان برسول الله

ﷺ، وبما جاء به، أو عن الحق، وهو البعث والتوحيد من صرف. وقيل: يصرف عن ذلك الاختلاف من صرفه الله عنه بالعصمة والتوفيق، يقال: أفكه يافكه إفكاً أي: قلبه عن الشيء وصرفه عنه، ومنه قوله تعالى: **﴿قالوا اجئتنا لتأفكنا﴾** [الأحقاف: 22] وقال مجاهد: يؤفك عنه من أفك، والأفك فساد العقل، وقيل: يحرمه من حرم. وقال قطرب: يجده عنه من جدع. وقال اليزيدي: يدفع عنه من دفع **﴿قتل الخراصون﴾** هذا دعاء عليهم. وحكى الواحدي عن المفسرين جميعاً أن المعنى: لعن الكذابين. قال ابن الأنباري: والقتل إذا أخبر به عن الله كان بمعنى اللعن؛ لأن من لعنه الله فهو بمنزلة المقتول الهالك. قال الفراء: معنى قتل لعن. والخراصون الكذابين الذين يتخرصون فيما لا يعلمون، فيقولون: إن محمداً مجنون كذاب شاعر ساحر. قال الزجاج: الخراصون هم الكذابين، والخرص: حزر ما على النخل من الرطب تراء، والخراص: الذي يخرصها، وليس هو المراد هنا، ثم قال: **﴿الذين هم في غمرة ساهون﴾** أي: في غفلة، وعمى جهالة عن أمور الآخرة، ومعنى ساهون: لاهون غافلون، والسهو: الغفلة عن الشيء، وذهابه عن القلب، وأصل الغمرة ما ستر الشيء وغطاه، ومنها غمرات الموت **﴿يسألون إيان يوم الدين﴾** أي: يقولون متى يوم الجزاء تكينياً منهم واستهزاء، ثم أخبر سبحانه عن ذلك اليوم، فقال: **﴿يوم هم على النار يفتنون﴾** أي: يحرقون ويعذبون، يقال: فتنن الذهب: إذا أحرقت لتختبره، وأصل الفتنة الاختبار. قال عكرمة: ألم تر أن الذهب إذا أدخل النار قيل: فتن. وانتصاب يوم بمضمر أي: الجزاء يوم هم على النار، ويجوز أن يكون بدلاً من يوم الدين، والفتح للبناء لكونه مضافاً إلى الجملة، وقيل: هو منصوب بتقدير أعني. وقرأ ابن أبي عبيدة برفع (يوم) على البدل من يوم الدين، وجملة **﴿نوقوا فتننكم﴾** هي بتقدير القول أي: يقال لهم: نوقوا عذابكم، قاله ابن زيد. وقال مجاهد: حريقكم، ورجع الأول الفراء، وجملة: **﴿هذا الذي كنتم به تستعجلون﴾** من جملة ما هو محكي بالقول أي: هذا ما كنتم تطلبون تعجيله استهزاء منكم، وقيل: هي بدل من فتننكم **﴿إن المتقين في جنات وعيون﴾** لما نكر سبحانه حال أهل النار نكر حال أهل الجنة أي: هم في بستانين فيها عيون جارية لا يبلغ وصفها الواسفون **﴿أخذين ما آتاهم ربهم﴾** أي: قابلين ما أعطاهم ربهم من الخير والكرامة. وجملة: **﴿إنهم كانوا قبل ذلك محسنين﴾** تعليل لما قبلها أي: لأنهم كانوا في الدنيا محسنين في أعمالهم الصالحة من فعل ما أمروا به، وترك ما نهوا عنه. ثم بين إحسانهم الذي وصفهم به، فقال: **﴿كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون﴾** الهجوع: النوم بالليل نون النهار، والمعنى: كانوا قليلاً ما ينامون من الليل، وما زائدة، ويجوز أن تكون مصدرية، أو موصولة أي: كانوا قليلاً من الليل هجوعهم، أو ما يهجعون فيه، ومن ذلك قول أبي قيس بن الأسلت:

كانما جلجلها الحواك طنفسة في وشبها حباك
أي: طرق، وقيل: الحبك الشدة، والمعنى: والسماوات ذات الشدة، والمحبوك الشديد الخلق من فرس أو غيره، ومنه قول الشاعر:

قد غدا يحملني في أنفه لاحق الأطلين محبوك ممر
وقول الآخر:

مرج الدين فاعندت له مشرف الحارك محبوك الكند
قال الواحدي بعد حكاية القول الأول: هذا قول الأكثرين **﴿إنكم لفي قول مختلف﴾** هذا جواب القسم بالسماوات ذات الحبك أي: إنكم يا أهل مكة لفي قول مختلف متناقض في محمد ﷺ. بعضكم يقول: إنه شاعر. وبعضكم يقول: إنه ساحر، وبعضكم يقول: إنه مجنون. ووجه تخصيص القسم بالسماوات المتصفة بتلك الصفة تشبيه أقوالهم في اختلافها باختلاف طرائق السماء، واستعمال الحبك في الطرائق هو الذي عليه أهل اللغة، وإن كان الأكثر من المفسرين على خلافه. على أنه يمكن أن ترجع تلك الأقوال في تفسير الحبك إلى هذا، وذلك بأن يقال: إن ما في السماء من الطرائق يصح أن يكون سبباً لمزيد حسننها، واستواء خلقها، وحصول الزينة فيها، ومزيد القوة لها. وقيل: إن المراد بكونهم في قول مختلف أن بعضهم ينفي الحشر، وبعضهم يشك فيه، وقيل: كونهم يقرّون أن الله خالقهم، ويعبدون الأصنام **﴿يؤفك عنه من أفك﴾** أي: يصرف عن الإيمان برسول الله

الرَّسَل، فإنه خلقهم نطفة ثم علقه ثم مضغه ثم عظمًا إلى أن ينفخ فيه الروح. ثم تختلف بعد ذلك صورهم والوانهم وطبائعهم والسننهم، ثم نفس خلقهم على هذه الصفة العجيبة الشأن من لحم ودم، وعظم وأعضاء، وحواس ومجاري ومناقس. ومعنى ﴿أَفَلَا تَبْصِرُونَ﴾: أفلا تنظرون بعين البصيرة، فتستدلون بذلك على الخالق الرَّزَّاق المتفرد بالالوهية، وأنه لا شريك له ولا ضد ولا ند، وأن وعده الحق، وقوله الحق، وأن ما جاءت إليكم به رسله هو الحق الذي لا شك فيه، ولا شبهة تعتريه. وقيل: المراد بالأنفس: الأرواح أي: وفي نفوسكم التي بها حياتكم آيات ﴿وفي السماء رزقكم﴾ أي: سبب رزقكم، وهو المطر، فإنه سبب الأزراق. قال سعيد بن جبير، والضحاك: الرزق هنا ما ينزل من السماء من مطر وثلج. وقيل: المراد بالسماء السحاب أي: وفي السحاب رزقكم، وقيل: المراد بالسماء المطر، وسماء سماء؛ لأنه ينزل من جهتها، ومنه قول الشاعر:

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا
وقال ابن كيسان: يعني: وعلى رب السماء رزقكم، قال: ونظيره: ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها﴾ [هود: 6] وهو بعيد. وقال سفيان الثوري: أي: عند الله في السماء رزقكم. وقيل المعنى: وفي السماء تقدير رزقكم. قرأ الجمهور (رزقكم) بالإنفراد، وقرأ يعقوب، وابن محيصن، ومجاهد (أرزاقكم) بالجمع ﴿وما توعدون﴾ من الجنة والنار، قاله مجاهد. قال عطاء: من الثواب والعقاب، وقال الكلبي: من الخير والشر، قال ابن سيرين: ما توعدون من أمر الساعة، وبه قال الربيع. والأولى الحمل على ما هو أعم من هذه الأقوال، فإن جزاء الأعمال مكتوب في السماء، والقضاء والقدر ينزل منها، والجنة والنار فيها. ثم أقسم سبحانه بنفسه، فقال: ﴿فَوربَّ السماء والأرض إنه لحق﴾ أي: ما أخبركم به في هذه الآيات. قال الزجاج: هو ما ذكر من أمر الرزق والآيات. قال الكلبي: يعني: ما قص في الكتاب. وقال مقاتل: يعني: من أمر الساعة. وقيل: إن ﴿ما﴾ في قوله ﴿وما توعدون﴾ مبتدأ، وخبره ﴿فوربَّ السماء والأرض إنه لحق﴾، فيكون الضمير لما. ثم قال سبحانه: ﴿مثل ما أنكم تنطقون﴾ قرأ الجمهور بنصب (مثل) على تقدير: كمثل نطقكم وما زائدة، كذا قال بعض الكوفيين إنه منصوب بنزع الخافض. وقال الزجاج، والفراء: يجوز أن ينصب على التوكيد أي: لحق حقًا مثل نطقكم. وقال المازني: إن «مثل» مع «ما» بمنزلة شيء واحد فبني على الفتح. وقال سيبويه: هو مبني لإضافته إلى غير متمكن، واختار هذه القراءة أبو عبيد، وأبو حاتم. وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر، والأعشى (مثل) بالرفع على أنه صفة لحق لأن مثل نكرة وإن أضيفت، فهي لا تتعرف بالإضافة كغير. ورجح قول المازني أبو علي الفارسي قال: ومثله قول حميد:

ويوحا لمن لم يدر ما هو ويحما

فبني ويح مع ما ولم يلحقه التنوين، ومعنى الآية تشبيه

قد حصلت البيضة رأسي فما أطمع نومًا غير تهجاع
والتهجاع: القليل من النوم، ومن ذلك قول عمرو بن معدى كرب.

أمن ريحانة الداعي السميع يهيجني وأصحابي مجوع
وقيل: ما نافية أي: ما كانوا ينامون قليلاً من الليل، فكيف بالكثير منه، وهذا ضعيف جدًا. وهذا قول من قال: إن المعنى كان عددهم قليلاً. ثم ابتداء فقال: ﴿ما يهجعون﴾ وبه قال ابن الأنباري، وهو أضعف مما قبله. وقال قتادة في تفسير هذه الآية: كانوا يصلون بين العشاءين، وبه قال أبو العالية، وابن وهب ﴿وبالأسحار هم يستغفرون﴾ أي: يطلبون في أوقات السحر من الله سبحانه أن يغفر ذنوبهم. قال الحسن: منوا الصلاة إلى الأسحار. ثم أخذوا بالأسحار الاستغفار. وقال الكلبي، ومقاتل، ومجاهد: هم بالأسحار يصلون، وذلك أن صلاتهم طلب منهم للمغفرة. وقال الضحاك: هي صلاة الفجر. ثم ذكر سبحانه صدقاتهم فقال: ﴿والذين في أموالهم حق للسائل والمحروم﴾ أي: يجعلون في أموالهم على أنفسهم حقًا للسائل والمحروم تقريبًا إلى الله عز وجل. وقال محمد بن سيرين، وقاتل: الحق هنا الزكاة المفروضة، والأول أولى، فيحمل على صدقة النفل، وصلة الرحم، وقري الضيف؛ لأن السورة مكية، والزكاة لم تفرض إلا بالمدينة، وسيأتي في سورة سائل: ﴿وفي أموالهم حق معلوم * للسائل والمحروم﴾ [المعارج: 24، 25] بزيادة معلوم، والسائل هو الذي يسأل الناس لفاقة.

واختلف في تفسير المحروم، فقيل: هو الذي يتعفف عن السؤال حتى يحسبه الناس غنيًا، فلا يتصدقون عليه، وبه قال قتادة، والزهري. وقال الحسن، ومحمد ابن الحنفية: هو الذي لا سهم له في الغنيمة، ولا يجري عليه من الفداء شيء. وقال زيد بن أسلم: هو الذي أصيب ثمره، أو زرعه، أو ماشيته. قال القرطبي: هو الذي أصابته الجائحة. وقيل: الذي لا يكتسب. وقيل: هو الذي لا يجد غنى يغنيه، وقيل: هو الذي يطلب الدنيا وتدبر عنه. وقيل: هو المملوك. وقيل: الكلب. وقيل غير ذلك. قال الشعبي: لي اليوم سبعون سنة منذ احتلمت أسأل عن المحروم، فما أنا اليوم بأعلم مني فيه يومئذ، والذي ينبغي التعويل عليه ما يدل عليه المعنى اللغوي، والمحروم في اللغة الممنوع من الحرمان وهو المنع، فيدخل تحته من حرم الرزق من الأصل، ومن أصيب ماله بجائحة أذهبت، ومن حرم العطاء، ومن حرم الصدقة لتعففه. ثم ذكر سبحانه ما نصبه من الدلائل الدالة على توحيده، وصلى وعده ووعيده، فقال: ﴿وفي الأرض آيات للموقنين﴾ أي: دلائل واضحة، وعلامات ظاهرة من الجبال والبر والبحر والأشجار والأنهار والثمار، وفيها آثار الهلاك للآفة الكافرة المكذبة لما جاءت به رسل الله ودعتهم إليه، وخص الموقنين بالله لأنهم الذين يعترفون بذلك ويتدبرون فيه، فينتفعون به ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾ أي: وفي أنفسكم آيات تدل على توحيد الله وصدق ما جاءت به

والصيحة، والصرة: الجماعة، والصرة: الشدة من كرب أو غيره، والمعنى: أنها أقبلت في صيحة، أو في ضجة، أو في جماعة من الناس يستمعون كلام الملائكة، ومن هذا قول امرئ القيس:

فالحق بالهاديات وبونه جرابجرها في صرة لم تزيل
وقوله: ﴿في صرة﴾ في محل نصب على الحال
﴿فصكت وجهها﴾ أي: ضربت بيدها على وجهها، كما جرت
بذلك عادة النساء عند التعجب. قال مقاتل، والكلبي: جمعت
أصابعها، فضربت جبينها تعجباً. ومعنى الصك: ضرب
الشيء بالشيء العريض، يقال: صكه أي: ضربه. وقالت
عجوز عقيم: أي: كيف لد وأنا عجوز عقيم، استبعت ذلك
لكبر سنّها؛ ولكونها عقيماً لا تلد. ﴿قالوا كذلك قال ربك﴾
أي: كما قلنا لك وأخبرناك قال ربك، فلا تشكي في ذلك ولا
تعجب منهُ، فإن ما أراد الله كائن لا محالة، ولم نقل ذلك
من جهة أنفسنا، وقد كانت إذ ذاك بنت تسع وتسعين سنة،
وإبراهيم ابن مائة سنة، وقد سبق بيان هذا مستوفى،
وجملة: ﴿إنه هو الحكيم العليم﴾ تعليل لما قبلها أي:
حكيم في أفعاله وأقواله، عليم بكل شيء، وجملة: ﴿قال فما
خطبكم أيها المرسلون﴾ مستأنفة جواباً عن سؤال مقتر،
كانه قيل: فماذا قال إبراهيم بعد هذا القول من الملائكة؟
والخطب الشأن والقصة، والمعنى: فما شأنكم وما قصتكم
أيها المرسلون من جهة الله، وما ذاك الأمر الذي لأجله
أرسلكم سوى هذه البشارة؟ ﴿قالوا إنا أرسلنا إلى قوم
مجرمين﴾ يريون قوم لوط ﴿لنرسل عليهم حجارة من
طين﴾ أي: لنرجمهم بحجارة من طين متحجر، وانتصاب
﴿مسومة﴾ على الصفة لحجارة، أو على الحال في الضمير
المستكن في الجار والمجرور، أو من الحجارة؛ لكونها قد
وصفت بالجار والمجرور، ومعنى ﴿مسومة﴾: معلمة
بعلامات تعرف بها، قيل: كانت مخططة بسواد وبياض، وقيل:
بسواد وحمرة، وقيل: معروفة بأنها حجارة العذاب، وقيل:
مكتوب على كل حجر من يهلك بها، وقوله: ﴿عند ربك﴾
ظرف لمسومة أي: معلمة عنده ﴿للمسرفين﴾ المتمايئين في
الضلالة المجاوزين الحد في الفجور. وقال مقاتل: للمشركين،
والشرك أسرف الذنوب وأعظمها ﴿فلخرجنا من كان فيها
من المؤمنين﴾ هذا كلام من جهة الله سبحانه أي: لما أردنا
إهلاك قوم لوط أخرجنا من كان في قري قوم لوط من قومه
المؤمنين به ﴿فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين﴾
أي: غير أهل بيت. يقال: بيت شريف ويراد به أهله، قيل:
وهم أهل بيت لوط، والإسلام: الانقياد والاستسلام لأمر الله
سبحانه، فكل مؤمن مسلم، ومن ذلك قوله: ﴿قالت الأعراب
أما قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا﴾ [الحجرات: 14] وقد
أوضح الفرق رسول الله ﷺ بين الإسلام، والإيمان في
الحديث في الصحيحين، وغيرهما الثابت من طرق أنه سئل
عن الإسلام، فقال: «أن تشهد أن لا إله إلا الله وتقيم الصلاة،
وتؤتي الزكاة، وتحج البيت، وتصوم رمضان»، وسئل عن

سلاماً ﴿قال سلام﴾ أي: قال إبراهيم سلام. قرأ الجمهور
بنصب (سلاماً) الأول، ورفع الثاني فنصب الأول على
المصدرية بتقدير الفعل كما نكرنا، والمراد به التحية،
ويحتمل أن يكون المعنى: فقالوا كلاماً حسناً؛ لأنه كلام سلم
به المتكلم من أن يلغو، فيكون على هذا مفعولاً به. وأما
الثاني: فرفعه على أنه مبتدأ محذوف الخبر أي: عليكم سلام،
وعدل به إلى الرفع لقصد إفادة الجملة الاسمية للنوام
والثبات، بخلاف الفعلية فإنها لمجرد التجدد والحدث، ولهذا
قال أهل المعاني: إن سلام إبراهيم أبلغ من سلام الملائكة،
وقرئ بالرفع في الموضعين، وقرئ بالنصب فيهما. وقرأ
أهل الكوفة إلا أعصماً بكسر السين، وقرئ (سلم) فيهما،
﴿قوم منكرون﴾ ارتفاع قوم على أنه خبر مبتدأ محذوف
أي: أنتم قوم منكرون. قيل: إنه قال هذا في نفسه ولم
يخاطبهم به؛ لأن ذلك يخالف الإكرام. قيل: إنه أنكرهم
لكونهم ابتدءوا بالسلام، ولم يكن ذلك معهوداً عند قومه،
وقيل: لأنه رأى فيهم ما يخالف بعض الصور البشرية، وقيل:
لأنه رآهم على غير صورة الملائكة الذين يعرفهم، وقيل غير
ذلك ﴿فراغ إلى أهله﴾ قال الزجاج: أي: عدل إلى أهله،
وقيل: ذهب إليهم في خفية من ضيوفه، والمعنى متقارب
وقد تقدم تفسيره في سورة الصافات. يقال: راغ وارتاغ
بمعنى طلب، وماذا يريغ أي: يريد ويطلب، وأراغ إلى كذا: مال
إليه سرّاً وحاد ﴿فجاء بعجل سمين﴾ أي: فجاء ضيفه
بعجل قد شواه لهم، كما في سورة هود ﴿بعجل حنيذ﴾
[هود: 69] وفي الكلام حذف تدل عليه الفاء الفصيحة أي:
فذبح عجلاً فحنّذه فجاء به ﴿فقرّبه إليهم﴾ أي: قرّب العجل
إليهم ووضع بين أيديهم ﴿فقال ألا تاكلون﴾ الاستفهام
للإنكار، وذلك أنه لما قرّبه إليهم لم ياكلوا منه. قال في
الصحاح: العجل ولد البقر والعجول مثله، والجمع العجاجيل،
والأنثى عجلة، وقيل: العجل في بعض اللغات الشاة
﴿فأوجس منهم خيفة﴾ أي: أحس في نفسه خوفاً منهم لما
لم ياكلوا مما قرّبه إليهم. وقيل: معنى أوجس أضمر، وإنما
وقع له ذلك لما لم يتحرموا بطعامه. ومن أخلاق الناس أن
من أكل من طعام إنسان صار آمناً منه، فظن إبراهيم أنهم
جاءوا للشر، ولم يأتوا للخير. وقيل: إنه وقع في قلبه أنهم
ملائكة، فلما رآوا ما ظهر عليه من أمارات الخوف ﴿قالوا لا
تخف﴾ وأعلموه أنهم ملائكة مرسلون إليه من جهة الله
سبحانه ﴿وبشروه بغلام عليم﴾ أي: بشروه بغلام يولد له
كثير العلم عند أن يبلغ مبالغ الرجال، والمبشر به عند
الجمهور هو إسحاق. وقال مجاهد وحده: إنه إسماعيل، وهو
مردود بقوله: ﴿وبشرناء بإسحاق﴾ [الصافات: 112] وقد
قمنا تحقيق هذا المقام بما لا يحتاج الناظر فيه إلى غيره
﴿فأقبلت امراته في صرة﴾ لم يكن هذا الإقبال من مكان
إلى مكان، وإنما هو كقولك: أقبل يشتمني أي: أخذ في
شتمي، كذا قال الفراء، وغيره. والصرة: الصيحة والضجة،
وقيل: الجماعة من الناس. قال الجوهري: الصرة: الضجة

يكون متعلقاً بجعلنا مقدرًا لدلالة «وتركنا عليه» قيل: ويجوز أن يعطف على «وتركنا» [الذاريات: 37] على طريقة قول القائل:

علفتها تبناً وماء بارداً

والتقدير: وتركنا فيها آية، وجعلنا في موسى آية. قال أبو حيان: ولا حاجة إلى إضمار، وجعلنا لأنه قد أمكن أن يكون العامل في المجزوء، وتركنا. والوجه الأول هو الأول، وما عداه متكلف متعسف لم تلجئ إليه حاجة، ولا دعت إليه ضرورة [إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين] الظرف متعلق بمحذوف هو نعت لآية أي: كاشنة وقت أرسلناه، أو بآية نفسها، والأول أولى. والسلطان المبين: الحجة الظاهرة الواضحة، وهي العصا، وما معها من الآيات «فتولى بركته» التولي: الإعراض، والركن: الجانب، قاله الأخفش. والمعنى: أعرض بجانبه، كما في قوله: «أعرض ونأى بجانبه» [الإسراء: 83] قال الجوهري: ركن الشيء جانبه الأقوى، وهو يأوي إلى ركن شديد أي: عزّ ومنعة. وقال ابن زيد، ومجاهد، وغيرهما: الركن جمعه وجنوده الذين كان يتقوى بهم، ومنه قوله تعالى: «أو آوي إلى ركن شديد» [هود: 80] أي: عشيرة ومنعة، وقيل: الركن: نفس القوة، وبه قال قتادة وغيره، ومنه قول عنترة:

فما أومى مراس الحرب ركني ولكن ما تقادم من زماني
«وقال ساحر أو مجنون» أي: قال فرعون في حق موسى: هو ساحر، أو مجنون، فرتد فيما رآه من أحوال موسى بين كونه ساحراً، أو مجنوناً، وهذا من اللعين مغالطة وإيهام لقومه، فإنه يعلم أن ما رآه من الخوارق لا يتيسر على يد ساحر، ولا يفعله من به جنون. وقيل: إن أو بمعنى الواو؛ لأنه قد قال ذلك جميعاً ولم يتردد، قاله المؤرج، والفراء، كقوله: «ولا تطع منهم أثماً أو كفوراً» [الإنسان: 24] «فلحنناهم وجنوده فلبثناهم في اليم» أي: طرحناهم في البحر، وجملة: «وهو مليم» في محل نصب على الحال أي: أت بما يلام عليه حين ادعى الربوبية، وكفر بالله وطغى في عصيانه «وفي عاد» أي: وتركنا في قصة عاد آية [إذ أرسلنا عليهم للريح العقيم] وهي التي لا خير فيها ولا بركة، لا تلقح شجراً ولا تحمل مطراً، إنما هي ريح الإهلاك والعذاب. ثم وصف سبحانه هذه الريح فقال: «ما تذر من شيء أثت عليه إلا جعلته كالرميم» أي: ما تذر من شيء مرت عليه من أنفسهم، وأنعامهم، وأموالهم إلا جعلته كالشيء الهالك البالي. قال الشاعر:

تركتني حين كف الدهر من بصري وإذ بقيت كعظم الرمة البالي
وقال قتادة: إنه الذي ديس من يابس النبات، وقال السدي، وأبو العالية: إنه التراب المنقوق، وقال قطرب: إنه الرماد، وأصل الكلمة من رمّ العظم: إذا بلي فهو رميم، والرمة: العظام البالية «وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين» أي: وتركنا في قصة ثمود آية وقت قلنا لهم: عيشوا متمتعين بالنسوة إلى حين وقت الهلاك، وهو ثلاثة أيام، كما في قوله:

الإيمان، فقال: «أن تؤمن بالله، وملأته وكتبه ورسله، والقدر خيره وشره»، فالمرجع في الفرق بينهما هو هذا الذي قاله الصائق المصنوق، ولا التفات إلى غيره مما قاله أهل العلم في رسم كل واحد منهما برسم مضطربة مختلفة مختلفة متناقضة، وأما ما في الكتاب العزيز من اختلاف مواضع استعمال الإسلام والإيمان، فنذلك باعتبار المعاني اللغوية والاستعمالات العربية، والواجب تقديم الحقيقة الشرعية على اللغوية، والحقيقة الشرعية هي هذه التي أخبرنا بها رسول الله ﷺ، وأجاب سؤال السائل له عن ذلك بها «وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم» أي: وتركنا في تلك القرى علامة، ودلالة تدل على ما أصابهم من العذاب، كل من يخاف عذاب الله، ويخشاه من أهل ذلك الزمان ومن بعدهم، وهذه الآية هي آثار العذاب في تلك القرى، فإنها ظاهرة بينة، وقيل: هي الحجارة التي رجموا بها، وإنما خصّ الذين يخافون العذاب الأليم؛ لأنهم الذين يتعظون بالمواعظ، ويتفكرون في الآيات دون غيرهم ممن لا يخاف ذلك وهم المشركون المكذبون بالبعث، والوعد والوعيد.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: «وفي صرة» قال: في صيحة «فصكت وجهها» قال: لطمت. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: «فما وجئنا فيها غير بيت من المسلمين» قال: لوط وابنتيه. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: كانوا ثلاثة عشر.

وَفِي مِثْرَةٍ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٦﴾ فَنَزَّلْنَا مُوسَىٰ بِرُوحِنَا وَكَانَ أَوَّلَ سَلَامٍ ﴿١٧﴾ أَوْ مَجْنُونٍ ﴿١٨﴾ فَآخَذَهُ رُوحُكَ فَفَعَلَهُمْ فِي أَلَمٍ وَهُوَ مُبِينٌ ﴿١٩﴾ وَفِي عَادَ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٢٠﴾ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالْأَرِيمِ ﴿٢١﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٢﴾ فَمَرَوْا عَنْ آيَرِهِمْ فَآخَذَتْهُمْ السَّيْحَةُ ﴿٢٣﴾ وَهُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٤﴾ مَا أَنتَ بِمُتَّبِعِينَ ﴿٢٥﴾ وَمَا كَانُوا مُتَّبَعِينَ ﴿٢٦﴾ وَقَوْمٌ نَوحَ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٢٧﴾ وَأَتَيْنَاهُم بِبَنَاتٍ لَّيْسَ لَهُنَّ كُفْرَةٌ وَلَا لَهُنَّ كُفْرَةٌ ﴿٢٨﴾ وَفِي لُوطَ إِذْ قَالَ لَوَيْلَىٰ إِنَّكَ لَنَدُوكُنَّ ﴿٢٩﴾ فَرَفَسْتَهَا فَنَعَمَ الْمَلَكُوتُ ﴿٣٠﴾ وَمَنْ كُنَّ نَفْسٌ حَلَّتْ بِشَئْنٍ لَّعَلَّكَ تَذَكَّرُونَ ﴿٣١﴾ فَمَرَوْا إِلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَكَرِيمٌ بَرُّ شَيْءٍ ﴿٣٢﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا مَّا خَرَّ إِلَىٰ لَكْرٍ مِنْهُ بَرُّ شَيْءٍ ﴿٣٣﴾ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَلِيمٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٤﴾ أَوَلَمْ نَأْتِهِمْ مِنْ قَوْمٍ مِثْلَهُمُ ﴿٣٥﴾ فَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمُ مَاءً أَنْتَ بِمَلَأَةٍ ﴿٣٦﴾ وَذَكَرْنَا لِلْأَعْيُنِ نَعْمَ الْآيَاتِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونَا ﴿٣٨﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُبْعَثُوا ﴿٣٩﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْتَمِيمِ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا دُونَكُمْ لَا يَنْصَحُونَكُمْ فَلَا تَتَّبِعُوهُمْ ﴿٤١﴾ قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَرِّهِمْ أَلَّا يَؤْذُونَكُمْ ﴿٤٢﴾

قوله: «وفي موسى» معطوف على قوله فيها بإعادة الخافض، والتقدير: وتركنا في قصة موسى آية، أو معطوف على «وفي الأرض» [الذاريات: 20] والتقدير: وفي الأرض، وفي موسى آيات، قاله الفراء، وابن عطية، والزمخشري، قال أبو حيان: وهو بعيد جداً ينزه القرآن عن مثله، ويجوز أن

بركنه» عن ابن عباس قال: بقومه. وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عنه في قوله: ﴿الرَّيحَ الْعَقِيمَ﴾ قال: الشديدة التي لا تلقح شيئاً. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال: لا تلقح الشجر ولا تثير السحاب، وفي قوله: ﴿إِلَّا جَعَلْتُهُ كَالرِّيمِ﴾ قال: كالشيء الهالك. وأخرج الفريابي، وابن المنذر عن علي بن أبي طالب قال: الريح العقيم النكباء. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الاسماء والصفات عن ابن عباس في قوله: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ قال: بقوة. وأخرج أبو داود في ناسخه، وابن المنذر عنه في قوله: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ قال: امره الله أن يتولى عنهم ليعذبهم، وعز محمد ﷺ، ثم قال: ﴿وَنُكَرَ فَإِنْ لَنُكْرَى تَنَفَّعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، فنسختها. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ قال: ليقربوا بالعبودية طوعاً أو كرها. وأخرج ابن المنذر عنه في الآية قال: على ما خلقتهم عليه من طاعتي ومعصيتي، وشقوتي وسعائتي. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الاسماء والصفات عنه أيضاً في قوله: ﴿الْمُتِينَ﴾ يقول: الشديد. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿نُزُوباً﴾ قال: دلوأ.

تفسير سورة الطور

وهي مكية. قال القرطبي: في قول الجميع. وأخرج ابن الضريس، والنخاس، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت الطور بمكة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن جبير بن مطعم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ في المغرب بالطور. وأخرج البخاري، وغيره عن أم سلمة: «أنها سمعت رسول الله ﷺ يصلي إلى جنب البيت بـ﴿الطور﴾ وكتاب مسطور» [أي: سورة الطور].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالطُّورِ ① رَكَّتْ مَسْطُورٌ ② فِي رَفٍّ مَشُورٍ ③ وَاللَّيْلِ أَلَمُورٌ ④ وَالنَّجْفِ أَلَمُورٌ ⑤ وَالْبَحْرِ أَلَمُورٌ ⑥ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَقِعٌ ⑦ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ⑧ يَوْمَ تَمُورُ أَسْكَمَةٌ مَوْرٌ ⑨ وَيَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْراً ⑩ قَوْلٌ يَوْمَهُ لِلْمُذَكِّبِينَ ⑪ الَّذِينَ هُمْ فِي حَوْضٍ يَلْعَبُونَ ⑫ يَوْمَ يَدْعُوتُ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً ⑬ خَلِدُوا أَلَنَارَ الَّذِي كُتِبَ بِهَا تَعَذُّبُونَ ⑭ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ⑮ أَصَلُّوا قَاصِدُوا أَوْ لَا تَصِيرُوا سَوَاءَ عَلَيْكُمْ إِنْ مَا تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ⑯ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي جَهَنَّمَ وَبِئْسَ فَكُوهٌ بِمَا ءَانَهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقْنَهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ⑰ كَلَّا وَتَشْرُونَهَا بَيْنَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ⑱ مُتَكَبِّرِينَ عَلَى سُورٍ مُّصَوِّفُونَ وَرَزَقْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ⑲

قوله: ﴿وَالطُّورِ﴾ قال الجوهري: هو الجبل الذي كلم الله

والإنس للعبادة، وخلق الأشقياء للمعصية. وقال الكلبي: المعنى إلا ليوحدون، فأما المؤمن، فيوحده في الشدة والرخاء، وأما الكافر، فيوحده في الشدة دون النعمة، كما في قوله: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوِجٌ كَالظُّلَلِ دَعَاوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [لقمان: 32] وقال جماعة: إلا ليلخصوا لي ويتنزلوا، ومعنى العبادة في اللغة: الذل والخضوع والانقياد، وكل مخلوق من الإنس والجن، خاضع لقضاء الله متذل لمشيئته منقاد لما قتره عليه. خلقهم على ما أراد، ورزقهم كما قضى، لا يملك أحد منهم لنفسه نفعاً، ولا ضرراً. ووجه تقديم الجن على الإنس ما هنا تقدم وجودهم ﴿وَمَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا﴾ هذه الجملة فيها بيان استغنائهم سبحانه عن عبادته، وأنه لا يريد منهم منفعة، كما تريده السادة من عبيدهم، بل هو الغني المطلق الرازق للمعطي. وقيل المعنى: ما أريد منهم أن يرزقوا أحداً من خلقي، ولا أن يرزقوا أنفسهم، ولا يطعموا أحداً من خلقي، ولا يطعموا أنفسهم، وإنما استند الإطعام إلى نفسه لأن الخلق عيال الله، فمن أطعم عيال الله، فهو كمن أطعمه. وهذا كما ورد في قوله ﷺ: «يقول الله: عبدي استطعمتك فلم تطعمني»، أي: لم تطعم عبادي، ومن في قوله: ﴿مَنْ رَزَقَ﴾ زائدة لتأكيد العموم. ثم بين سبحانه أنه هو الرزاق لا غيره، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾ لا رزاق سواه، ولا معطي غيره، فهو الذي يرزق مخلوقاته، ويقوم بما يصلحهم فلا يشتغلوا بغير ما خلقوا له من العبادة ﴿وَالْقُوَّةَ الْمَتِينَ﴾ ارتفاع المتين على أنه وصف للرزاق، أو لنو، أو خبر مبتدأ محذوف، أو خبر بعد خبر. قرأ الجمهور (الرزاق) وقرأ ابن محيصة (الرازق) وقرأ الجمهور (المتين) بالرفع، وقرأ يحيى بن وثاب، والأعمش بالجر صفة للقوة، والتذكير لكون تانيئها غير حقيقي. قال الفراء: كان حقه المتينة فنكرها؛ لأنه ذهب بها إلى الشيء المبرم المحكم الفتل، يقال: حبل متين أي: محكم الفتل، ومعنى المتين: الشديد القوة هنا ﴿فَإِنْ لِلنَّاسِ ظَلَمُوا نُزُوباً مِثْلَ نُزُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾ أي: ظلّموا أنفسهم بالكفر والمعاصي، فإن لهم ذنباً أي: نصيباً من العذاب مثل نصيب الكفار من الأمم السابقة. قال ابن الأعرابي: يقال: يوم ذنوب أي: طويل الشر لا ينقضي، وأصل الذنوب في اللغة الدلو العظيمة، ومن استعمال الذنوب في النصيب من الشيء قول الشاعر:

لعمرك والمنيا طارقات لكل بني أب منها نذوب
وما في الآية مأخوذ من مقاسمة السقاة الماء بالبلو الكبير، فهو تمثيل جعل الذنوب مكان الحظ والنصيب، قاله ابن قتبية ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي: لا يطلبوا مني أن أعجل لهم العذاب، كما في قولهم: ﴿فانتنا بما تعدنا إن كنت من الصائقين﴾ [الأعراف: 70] ﴿قَوْلٍ لِلنَّاسِ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ قيل: هو يوم القيامة وقيل: يوم بدر، والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر في قوله: ﴿فَتَوَلَّى﴾

وأبو عبيدة: وأنشدا بيت الأعشى:

كان مشيها من بيت جارتها مشي السحابة لاريث ولا عجل
وليس في البيت ما يدل على ما قالاه إلا إذا كانت هذه
المشيئة المذكورة في البيت يطلق المور عليها لغة. وقال
الضحاك: يمجج بعضها في بعض، وقال مجاهد: تدور دوراً،
وقيل: تجري جرياً، ومنه قول الشاعر:

وما زالت القتلى تمور دماؤها بسجلة حتى ماء بجلة أشكل
ويطلق المور على الموج، ومنه ناقة مواراة اليد أي:

سريعة تموج في مشيها موجاً، ومعنى الآية: أن العذاب يقع
بالعصاة، ولا يدفعه عنهم دافع في هذا اليوم الذي تكون فيه
السماء هكذا، وهو يوم القيامة. وقيل: إن السماء ها هنا
الفلك، وموره: اضطراب نظمها واختلاف سيره ﴿وتسير
الجبال سيراً﴾ أي: تزول عن أماكنها، وتسير عن مواضعها
كسير السحاب، وتكون هباءً منبثاً، قيل: ووجه تأكيد الفعلين
بالمصدر الدالة على غرابتهما، وخروجهما عن المعهود، وقد
تقدم تفسير مثل هذا في سورة الكهف ﴿فويل يومئذ
للمكذبين﴾ ويل كلمة تقال للمهلك، واسم واد في جهنم،

وإنما دخلت الفاء لأن في الكلام معنى المجازاة أي: إذا وقع
ما نكر من مور السماء، وسير الجبال فويل لهم. ثم وصف
المكذبين بقوله: ﴿الذين هم في خوض يلعبون﴾ أي: في
تردد في الباطل، وانففاع فيه يلهون لا ينكرون حساباً، ولا
يخافون عقاباً. والمعنى: أنهم يخوضون في أمر محمد ﷺ
بالتكذيب والاستهزاء، وقيل: يخوضون في أسباب الدنيا،
ويعرضون عن الآخرة ﴿يوم يدعون إلى نار جهنم دعا﴾
الدع الدع بعنف وجفوة يقال: دعته ادعه دعا أي: دفعته،
والمعنى: أنهم يدفعون إلى النار دفعاً عنيفاً شديداً. قال
مقاتل: تغل أيديهم إلى أعناقهم، وتجمع نواصيهم إلى
أقدامهم، ثم يدفعون إلى جهنم دفعاً على وجوههم. قرأ
الجمهور بفتح الدال وتشديد العين. وقرأ علي والسلمي، وأبو
رجاء، وزيد بن علي، وابن السميع بسكون الدال وتخفيف
العين مفتوحة أي: يدفعون إلى النار من الدعاء. ويوم إما بدل
من يوم تمور، أو متعلق بالقول المقدر في الجملة التي بعد
هذه، وهي ﴿هذه النار التي كنتم بها تكذبون﴾ أي: يقال
لهم تلك يوم يدفعون إلى نار جهنم دعا أي: هذه النار التي
تشاهدونها، هي النار التي كنتم تكذبون بها في الدنيا،
والقاتل لهم بهذه المقالة هم خزنة النار، ثم ويخهم سبحانه،
أو أمر ملائكتهم بتوبيخهم، فقال: ﴿افسح هذا﴾ الذي ترون
وتشاهدون، كما كنتم تقولون لرسول الله المرسل، ولكتبته
المنزلة، وقدم الخبر هنا على المبتدأ لأنه الذي وقع
الاستفهام عنه، وتوجه التوبيخ إليه ﴿أم أنتم لا تبصرون﴾
أي: أم أنتم عمي عن هذا، كما كنتم عمياً عن الحق في الدنيا
﴿افصلوها فاصبروا أو لا تصبروا﴾ أي: إذا لم يمكنكم
إنكارها، وتحققتم أن تلك ليس بسحر، ولم يكن في إبصاركم
خلل، فالآن اسخوها وقاسوا شنتها، فاصبروا على العذاب أو
لا تصبروا، وافعلوا ما شئتم، فالأمران ﴿سواء عليكم﴾ في

عليه موسى. قال مجاهد، والسدي: الطور بالسريانية الجبل،
والمراد به طور سيناء. قال مقاتل بن حيان: هما طوران،
يقال لأحدهما: طور سيناء، وللآخر: طور زينا، لأنهما ينبتان
التين والزيتون. وقيل: هو جبل مدين، وقيل: إن الطور كل
جبل ينبت، وما لا ينبت فليس بطور، أقسم الله سبحانه بهذا
الجبل تشريفاً له وتكريماً ﴿وكتاب مسطور﴾ المسطور:
المكتوب، والمراد بالكتاب: القرآن، وقيل: هو اللوح المحفوظ،
وقيل: جميع الكتب المنزلة، وقيل: الواح موسى، وقيل: ما
تكتبه الحفظة قاله الفراء، وغيره، ومثله: ﴿ونخرج له يوم
القيامة كتاباً يلقاه منشوراً﴾ [الإسراء: 13] وقوله: ﴿وإذا
الصحف نشرت﴾ [التكوير: 10] ﴿في رق منشور﴾ متعلق
بمسطور أي: مكتوب في رق. قرأ الجمهور (في رق) بفتح
الراء، وقرأ أبو السمك بكسرها. قال الجوهري: الرق بالفتح
ما يكتب فيه، وهو جلد رقيق، ومنه قوله تعالى: ﴿في رق
منشور﴾ قال المبرد: الرق ما رق من الجلد ليكتب فيه،
والمنشور المبسوط. قال أبو عبيدة: وجمعه رقوق، ومن هذا
قول المتلمس:

فكانما هي من تقادم عهدا رقاً أتبع كتابها مسطور
وأما الرق بالكسر، فهو المملوك، يقال: عبد رق، وعبد
مروق ﴿والبيت المعمور﴾ في السماء السابعة. وقيل: في
سماها الدنيا، وقيل: هو الكعبة، فعلى القولين الأولين يكون
وصفه بالعمارة باعتبار من يدخل إليه من الملائكة، ويعبد
الله فيه. وعلى القول الثالث، يكون وصفه بالعمارة حقيقة، أو
مجازاً باعتبار كثرة من يتعبد فيه من بني آدم ﴿والسقف
المرفوع﴾ يعني: السماء، سماها سقفاً لكونها كالسقف
للأرض، ومنه قوله: ﴿وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً﴾
[الأنبياء: 32] وقيل: هو العرش ﴿والبحر المسجور﴾ أي:
الموقد، من السجر: وهو إيقاد النار في التنور، ومنه قوله:
﴿وإذا البحار سجرت﴾ [التكوير: 6] وقد روي أن البحار
تسجر يوم القيامة فتكون نارا، وقيل: المسجور المملوء، قيل:
إنه من أسماء الأضداد، يقال: بحر مسجور أي: مملوء، وبحر
مسجور أي: فارغ، وقيل: المسجور الممسوك، ومنه ساجور
الكلب لأنه يمسكه. وقال أبو العالية: المسجور الذي ذهب
ماؤه، وقيل: المسجور المفجور، ومنه: ﴿وإذا البحار فجرت﴾
[الإنفطار: 3] وقال الربيع بن أنس: هو الذي يختلط فيه
العنب بالمالح. والأول أولى، وبه قال مجاهد، والضحاك،
ومحمد بن كعب، والأخفش، وغيرهم ﴿إن عذاب ربك
لواقع﴾ هذا جواب القسم أي: كائن لا محالة لمن يستحقه
﴿ما له من دافع﴾ يدفعه ويرده عن أهل النار، وهذه الجملة
خبر ثانٍ لأن، أو صفة لواقع، ومن مزيدة للتأكيد. ووجه
تخصيص هذه الأمور بالإقسام بها أنها عظيمة دالة على
كمال القدرة الربانية ﴿يوم تمور السماء مورا﴾ العامل في
الظرف لواقع أي: إنه لواقع في هذا اليوم، ويجوز أن يكون
العامل فيه دافع. والمور: الاضطراب والحركة. قال أهل اللغة:
مار الشيء يمر مورا: إذا تحرك وجاء وذهب، قاله الأخفش،

يَهْدَأْ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُ بِكْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٨﴾ فَلْيَأْتُوا بِحُجَجٍ
يُثْبِتُوهَإِنَّ كَانُوا مِنصِدِّيقِكُمْ ﴿٣٩﴾

لما فرغ سبحانه من ذكر أهل الجنة على العموم نكر حال طائفة منهم على الخصوص، فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ والموصول مبتدأ، وخبره ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ﴾ ويجوز أن يكون منصوباً بفعل مقدر أي: وأكرمنا الذين آمنوا، ويكون أَلْحَقْنَا مفسراً لهذا الفعل المقدر. قرأ الجمهور (واتبعتهم) بإسناد الفعل إلى الذرية. وقرأ أبو عمرو (اتبعتهم) بإسناد الفعل إلى المتكلم، كقوله أَلْحَقْنَا. وقرأ الجمهور (ذُرِّيَّتَهُمْ) بالإنفراد. وقرأ ابن عامر، وأبو عمرو، ويعقوب بالجمع، إلا أن أبا عمرو قرأ بالنصب على المفعولية لكونه قرأ (واتبعتهم)، ورويت قراءة الجمع هذه عن نافع، والمشهور عنه كقراءة الجمهور. وقرأ الجمهور (أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ) بالإنفراد. وقرأ نافع، وابن عامر، وأبو عمرو، ويعقوب على الجمع، وجملة: ﴿وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ معطوف على آمَنُوا أو معترضة، وبإيمان متعلق بالاتباع، ومعنى هذه الآية: أن الله سبحانه يرفع ذرية المؤمن إليه، وإن كانوا نونه في العمل؛ لتقر عينه، وتطيب نفسه بشرط أن يكونوا مؤمنين، فيختص ذلك بمن يتصف بالإيمان من الذرية وهم البالغون دون الصغار، فإنهم وإن كانوا لاحقين بأبائهم، فببطل آخر غير هذه الآية. وقيل: إن الذرية تطلق على الكبار والصغار، كما هو المعنى اللغوي، فيلحق بالأباء المؤمنين صغار ذُرِّيَّتَهُمْ وكبارهم، ويكون قوله: ﴿بِإِيمَانٍ﴾ في محل نصب على الحال أي: بإيمان من الآباء. وقيل: إن الضمير في ﴿بِهِمْ﴾ راجع إلى الذرية المذكورة أولاً أي: أَلْحَقْنَا بِالذَّرِّيَّةِ الْمُتَّبِعَةِ لِأَبَائِهِمْ بِإِيمَانٍ ذُرِّيَّتَهُمْ. وقيل: المراد بـ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ المهاجرون والأنصار فقط، وظاهر الآية العموم، ولا يوجب تخصيصها بالمهاجرين والأنصار كونهم السبب في نزولها إن صحَّ ذلك، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ﴿وَمَا أَكْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ قرأ الجمهور بفتح اللام من (التنا) وقرأ ابن كثير بكسرها أي: وما نقصنا الآباء بالحق ذُرِّيَّتَهُمْ بهم من ثواب أعمالهم شيئاً، فضمير المفعول عائد إلى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾. وقيل المعنى: وما نقصنا الذرية من أعمالهم شيئاً لقصر أعمارهم، والأول أولى، وقد قدمنا تحقيق معنى لاته، وآلاته في سورة الحجرات. وقرأ ابن هرمز (أَكْتَنَاهُمْ) بالمد، وهو لغة. قال في الصحاح: يقال: ما أَلْتَه من عمله شيئاً أي: ما نقصه ﴿كُلَّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهينَ﴾ رهين بمعنى مرهون، والظاهر أنه عام، وأن كل إنسان مرتبه بعمله، فإن قام به على الوجه الذي أمره الله به فكه، وإلا أهلكه. وقيل: هو بمعنى رهن، والمعنى: كل امرئ بما كسب دائم ثابت. وقيل: هذا خاص بالكفار لقوله: ﴿كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهينَةً﴾ إلا أصحاب اليمين [المائدة: 38، 39] ثم نكر سبحانه ما أمدهم به من الخير، فقال: ﴿وَمَا مِدْنَاهُمْ بِفَاكِهِةٍ وَلِحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي: زدناهم على ما كان لهم من النعيم بفاكهة

متنوعة، ولحم من أنواع اللحمان مما تشتهيهم أنفسهم، ويستطيعونه ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْساً﴾ أي: يتعاطون ويتناولون كأساً، والكأس إناء الخمر، ويطلق على كل إناء مملوء من خمر، أو غيره، فإذا فرغ لم يسم كأساً ﴿لَا لُغُو فِيهَا وَلَا تَأْتِيمُ﴾ قال الزجاج: لا يجري بينهم ما يلغي، ولا ما فيه إثم، كما يجري بين من يشرب الخمر في الدنيا، والتأيم تفعيل من الإثم، والضمير في ﴿فِيهَا﴾ راجع إلى الكأس، وقيل: لا لغو فيها أي: في الجنة، ولا يجري فيها ما فيه إثم، والأول أولى. قال ابن قتيبة: لا تذهب بعقولهم فيلغوا، كما يكون من خمر الدنيا، ولا يكون منهم ما يؤثمهم. وقال الضحاك: لا تأيم أي: لا كذب. قرأ الجمهور (لا لغو فيها ولا تأيم) بالرفع، والتثنية فيهما. وقرأ ابن كثير، وابن محيصن بفتحهما من غير تنوين. قال قتادة: اللغو الباطل. وقال مقاتل بن حيان: لا فضول فيها. وقال سعيد بن المسيب: لا رفث فيها. وقال ابن زيد: لا سباب ولا تخاصم فيها. والجملة في محل نصب على الحال صفة لكأسها ﴿وَيُطَوَّفُ عَلَيْهِمْ غُلَمَانٌ لَهُمْ﴾ أي: يطوف عليهم بالكأس، والفواكه، والطعام، وغير ذلك مما يليك لهم، وقيل: أولادهم ﴿كَانِهِمْ﴾ في الحسن والبهاء ﴿لَوْلُؤُا مَكْنُونٌ﴾ أي: مستور مصون في الصنف لم تمسه الأيدي. قال الكسائي: كننت الشيء: سترته وصنفته من الشمس، واكننته: جعلته في الكن، ومنه كننت الجارية، واكننتها فهي مكنونة ﴿وَأَقْبِلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ أي: يسأل بعضهم بعضاً في الجنة عن حاله، وما كان فيه من تعب الدنيا وخوف العقاب، فيحمنون الله الذي أذهب عنهم الحزن والخوف والهَمَّ، وما كانوا فيه من الكد، والنكد بطلب المعاش، وتحصيل ما لا بد منه من الرزق. وقيل: يقول بعضهم لبعض: بم صرتم في هذه المنزلة الرفيعة؟ وقيل: إن التساؤل بينهم عند البعث من القبور. والأول أولى، لدلالة السياق على أنهم قد صاروا في الجنة، وجملة ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: ماذا قال بعضهم لبعض عند التساؤل؟ فقيل: قالوا: إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي: قبل الآخرة، وذلك في الدنيا في أهلنا خائفين وجلين من عذاب الله، أو كنا خائفين من عصيان الله ﴿فَمَنْ أَلَّهِ عَلَيْنَا﴾ بالمغفرة والرحمة، أو بالتوفيق لطاعته ﴿وَوَقَّانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ يعني: عذاب جهنم، والسوموم من أسماء جهنم، كذا قال الحسن، ومقاتل. وقال الكلبي، وأبو عبيدة: هو عذاب النار. وقال الزجاج: سموم جهنم ما يوجد من حرها. قال أبو عبيدة: السموم بالنهار، وقد يكون بالليل، والحرور بالليل، وقد يكون بالنهار، وقد يستعمل السموم في لفح البرد، وفي لفح الشمس، والحر أكثر، ومنه قول الشاعر:

اليوم يوم يبرد سمومه من جزع اليوم فلا يومه

وقيل: سميت الريح سموماً؛ لأنها تدخل المسام: ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ أي: نوحده الله ونعبده، أو نسأله أن يمن علينا بالمغفرة والرحمة ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ قرأ

تَقَدَّمَهَا، وَكَثُرَ جَرَاةٌ وَعِنَاداً ﴿إِذَا يَقُولُونَ تَقُولُهُ﴾ أَي: اخْتَلَقَ الْقُرْآنَ مِنْ جِهَةِ نَفْسِهِ وَافْتَعَلَهُ، وَالتَّقَوَّلُ لَا يَسْتَعْمَلُ إِلَّا فِي الْكُذْبِ فِي الْغَالِبِ، وَإِنْ كَانَ أَصْلُهُ تَكْلُفُ الْقَوْلِ، وَمِنْهُ اقْتِتَالٌ عَلَيْهِ، وَيُقَالُ: اقْتِتَالَ عَلَيْهِ بِمَعْنَى: تَحَكَّمَ عَلَيْهِ، وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

وَمَنْزِلَةٌ فِي دَارِ صَدَقٍ وَغِبْطَةٍ وَمَا اقْتِتَالَ فِي حُكْمِ عَلِيٍّ طَبِيبٌ
ثُمَّ أَضْرَبَ سَبْحَانَهُ عَنْ قَوْلِهِمْ: ﴿تَقُولُهُ﴾ وَانْتَقَلَ إِلَى مَا هُوَ أَشَدُّ شَنْاعَةً عَلَيْهِمْ فَقَالَ: ﴿يَجِلُّ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أَي: سَبَبَ صُدُورَ هَذِهِ الْأَقْوَالِ الْمُنَاقِضَةِ عَنْهُمْ كَوْنُهُمْ كَفَرًا لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ، وَلَا يَصْدُقُونَ مَا جَاءَ بِهِ رَسُولُهُ ﷺ. ثُمَّ تَحَدَّاهُمْ سَبْحَانَهُ، وَالزَّمَهُمُ الْحُجَّةَ فَقَالَ: ﴿فَلْيَاتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ﴾ أَي: مِثْلَ الْقُرْآنِ فِي نَظْمِهِ، وَحَسَنِ بَيَانِهِ، وَبَدِيعِ اسْلُوبِهِ ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فِيمَا زَعَمُوا مِنْ قَوْلِهِمْ: إِنْ مُحَمَّدًا ﷺ تَقُولُهُ، وَجَاءَ بِهِ مِنْ جِهَةِ نَفْسِهِ مَعَ أَنَّهُ كَلَامُ عَرَبِيٍّ، وَهُمْ رُؤُوسُ الْعَرَبِ وَفَصَحَاؤُهُمْ، وَالْمُمَارَسُونَ لِجَمِيعِ الْأَوْضَاعِ الْعَرَبِيَّةِ مِنْ نَظْمٍ وَنَثَرٍ.

وَقَدْ أَخْرَجَ سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ، وَهَنَادُ، وَابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَالْحَاكِمُ، وَابْنُ أَبِي عُبَيْسٍ قَالُوا: «إِنَّ اللَّهَ لَيَرْفَعُ نَرِيَّةَ الْمُؤْمِنِ مَعَهُ فِي دَرَجَتِهِ فِي الْجَنَّةِ، وَإِنْ كُنْتُمْ نَوْتُهُ فِي الْعَمَلِ، لَتَقَرَّبَ بِهِ عَيْنُهُ ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ﴾» الْآيَةَ. وَأَخْرَجَهُ الْبَزَارُ، وَابْنُ مَرْبُوطٍ عَنْهُ مَرْفُوعًا. وَأَخْرَجَ الطَّبْرَانِيُّ، وَابْنُ مَرْبُوطٍ عَنْهُ أَيْضًا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ الْجَنَّةَ سَأَلَ عَنْ أَبِيهِ، وَزَوْجَتِهِ، وَوَلَدِهِ، فَيَقَالُ: إِنَّهُمْ لَمْ يَبْلُغُوا دَرَجَتَكَ وَعَمَلَكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ قَدْ عَمِلْتُ لِي وَلَهُمْ، فَيُؤْمَرُ بِالْحَاقِقِ بِهِ، وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ﴾» الْآيَةَ. وَأَخْرَجَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ فِي زَوَائِدِ الْمُسْنَدِ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ وَأَوْلَادَهُمْ فِي الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَشْرِكِينَ وَأَوْلَادَهُمْ فِي النَّارِ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾» الْآيَةَ وَإِسْنَادُهُ هَكَذَا. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ: حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ فَضِيلٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عُثْمَانَ، عَنْ زَائِدَانَ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ قَالَ: «سَأَلْتُ خَدِيجَةَ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ وَلَدَيْنِ مَاتَا لَهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: هُمَا فِي النَّارِ، فَلَمَّا رَأَى الْكَرَاهَةَ فِي وَجْهِهَا قَالَ: لَوْ رَأَيْتُ مَكَانَهُمَا لَابْغَضْتُهُمَا، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَوَلَدِي مِنْكَ. قَالَ: فِي الْجَنَّةِ، قَالَ: ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنْ الْمُؤْمِنِينَ وَأَوْلَادَهُمْ فِي الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَشْرِكِينَ وَأَوْلَادَهُمْ فِي النَّارِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾» الْآيَةَ. وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ: حَدَّثَنَا يَزِيدُ، حَدَّثَنَا حَمَادُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ عَاصِمِ بْنِ أَبِي النَّجُودِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَيَرْفَعُ الدَّرَجَةَ لِلْعَبْدِ الصَّالِحِ فِي الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَنْ أَيْنَ لِي هَذَا؟ فَيَقُولُ: بِاسْتِغْفَارٍ وَلِئِكَ لَكَ، وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ. وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ الْمُنْذَرِ، وَالْحَاكِمُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَمَا التَّانَاهُمْ﴾» قَالَ: مَا نَقَصْنَاهُمْ. وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْهُ ﴿لَا لَغْوَ فِيهَا﴾ يَقُولُ:

الْجُمْهُورُ بِكَسْرِ الهمزة عَلَى الْإِسْتِثْنَاءِ، وَقَرَأَ نَافِعٌ، وَالْكَسَائِيُّ بِفَتْحِهَا أَي: لِأَنَّهُ وَالْبَرُّ كَثِيرُ الْإِحْسَانِ، وَقِيلَ: اللَّطِيفُ، وَالرَّحِيمُ كَثِيرُ الرَّحْمَةِ لِعِبَادِهِ ﴿فَفَنَكَّرَ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتٍ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ أَي: أَثَبْتَ عَلَى مَا أَنْتَ عَلَيْهِ مِنَ الْوَعْدِ وَالتَّنْكِيزِ، وَالْبَاءُ مُتَعَلِّقَةٌ بِمَجْنُونٍ هُوَ حَالُ أَي: مَا أَنْتَ مُتَلَبِّسًا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ الَّتِي أَنْعَمَ بِهَا عَلَيْكَ مِنْ رَجَاحَةِ الْعَقْلِ وَالنَّبُوءَةِ بِكَاهِنٍ، وَلَا مَجْنُونٍ، وَقِيلَ: مُتَعَلِّقَةٌ بِمَجْنُونٍ يَدُلُّ عَلَيْهِ الْكَلَامُ أَي: مَا أَنْتَ فِي حَالِ إِنْكَارِكَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ، وَقِيلَ: الْبَاءُ سَبَبِيَّةٌ مُتَعَلِّقَةٌ بِمَضْمُونِ الْجُمْلَةِ الْمَنْفِيَّةِ، وَالْمَعْنَى: انْتَقَى عَنْكَ الْكَهَانَةُ وَالْجَنُونُ بِسَبَبِ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْكَ، كَمَا تَقُولُ: مَا أَنَا بِمَعْسَرٍ بِحَمْدِ اللَّهِ. وَقِيلَ: الْبَاءُ لِلْقِسْمِ مُتَوَسِّطَةٌ بَيْنَ اسْمٍ مَا وَخَبَرِهَا، وَالتَّقْدِيرُ: مَا أَنْتَ وَنِعْمَةُ اللَّهِ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ، وَالْكَاهِنُ هُوَ الَّذِي يَوْمُهُ أَنَّهُ يَعْلَمُ الْغَيْبَ مِنْ نَوْنٍ وَحِيٍّ أَي: لَيْسَ مَا تَقُولُهُ كَهَانَةً، فَإِنَّكَ إِنَّمَا تَنْطِقُ بِالْوَحْيِ الَّذِي أَمَرَكَ اللَّهُ بِإِبْلَاغِهِ. وَالْمَقْصُودُ مِنَ الْآيَةِ رَدُّ مَا كَانَ يَقُولُهُ الْمَشْرِكُونَ: إِنَّهُ كَاهِنٌ، أَوْ مَجْنُونٌ ﴿إِذَا يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرِيبُصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ﴾ أَمْ هِيَ الْمُنْقَطَعَةُ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْخِلَافُ هَلْ هِيَ مَقْتَرَةٌ بَبِلٍ وَالْهمزة، أَوْ بَبِلٍ وَحْدَهَا؟ قَالَ الْخَلِيلُ: هِيَ هُنَا لِلْإِسْتِفْهَامِ. قَالَ سَيِّبِيُّوهُ: خَوَّلَطَ الْعِبَادَ بِمَا جَرَى فِي كَلَامِهِمْ. قَالَ النُّحَاسُ: يَرِيدُ سَيِّبِيُّوهُ أَنْ أَمْ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ لِلْخُرُوجِ مِنْ حَدِيثٍ إِلَى حَدِيثٍ، وَنَتَرِيبُصُ فِي مَحَلِّ رَفْعٍ صِفَةً لِلشَّاعِرِ، وَرَيْبَ الْمُنُونِ: صُرُوفُ الدَّهْرِ، وَالْمَعْنَى: نَنْتَظِرُ بِهِ حَوَائِثَ الْأَيَّامِ فَيَمُوتُ كَمَا مَاتَ غَيْرُهُ، أَوْ يَهْلِكُ كَمَا هَلَكَ مِنْ قَبْلِهِ، وَالْمُنُونُ يَكُونُ بِمَعْنَى الدَّهْرِ، وَيَكُونُ بِمَعْنَى الْمُنِيَّةِ. قَالَ الْأَخْفَشُ: الْمَعْنَى نَتَرِيبُصُ إِلَيَّ رَيْبَ الْمُنُونِ، فَحَنَفَ حَرْفَ الْجَزْءِ كَمَا تَقُولُ: قَصَصْتُ زَيْدًا، وَقَصَصْتُ إِلَى زَيْدٍ، وَمِنْ هَذَا قَوْلُ الشَّاعِرِ:

نَتَرِيبُصُ بِهَا رَيْبَ الْمُنُونِ لَعَلَّهَا تَطْلُقَ يَوْمًا أَوْ يَمُوتَ خَلِيلُهَا
وَقَوْلُ أَبِي نُؤَيْبٍ الْهَنْدَلِيِّ:

أَمِنْ الْمُنُونِ وَرَيْبِهَا تَتَوَجَّعُ وَالدَّهْرُ لَيْسَ بِمُعْتَبَرٍ مِنْ يَجْزَعُ
قَالَ الْأَصْمَعِيُّ: الْمُنُونُ وَاحِدٌ لَا جَمْعَ لَهُ. قَالَ الْفَرَّاءُ: يَكُونُ وَاحِدًا وَجَمْعًا. وَقَالَ الْأَخْفَشُ: هُوَ جَمْعٌ لَا وَاحِدَ لَهُ. ثُمَّ أَمَرَهُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ أَنْ يَجِيبَ عَنْهُمْ، فَقَالَ: ﴿قُلْ تَرِيبُصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرِيبُصِينَ﴾ أَي: اُنْتَظَرُوا مَوْتِي، أَوْ هَلَاقِي، فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرِيبُصِينَ لِمَوْتِكُمْ، أَوْ هَلَاقِكُمْ. قَرَأَ الْجُمْهُورُ (نَتَرِيبُصُ) بِإِسْنَادِ الْفَعْلِ إِلَى جَمَاعَةِ الْمُتَكَلِّمِينَ. وَقَرَأَ زَيْدُ بْنُ عَلِيٍّ عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ ﴿إِذَا تَأَمَّرَهُمْ لِحُلَامِهِمْ بِهَذَا﴾ أَي: بَلِ تَأَمَّرَهُمْ عَقُولُهُمْ بِهَذَا الْكَلَامِ الْمُنْتَاقِضِ، فَإِنَّ الْكَاهِنَ هُوَ الْمَفْرُطُ فِي الْفُطْنَةِ وَالنِّكَاءِ، وَالْمَجْنُونُ: هُوَ ذَاهِبُ الْعَقْلِ فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ فُطْنَةٌ وَنِكَاءٌ. قَالَ الْوَاحِدِيُّ: قَالَ الْمَفْسُورُونَ: كَانَتْ عِظَمَاءُ قَرِيشٍ تُوصَفُ بِالْأَحْلَامِ وَالْعُقُولِ، فَازَرَأَ اللَّهُ بِحُلُومِهِمْ حِينَ لَمْ تَثْمُرْ لَهُمْ مَعْرِفَةُ الْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ ﴿إِذَا هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أَي: بَلِ أَطْغَوْا وَجَاوَزُوا الْحَدَّ فِي الْعِنَادِ، فَقَالُوا مَا قَالُوا، وَهَذِهِ الْإِضْرَابَاتُ مِنْ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ مَعَ الْإِسْتِفْهَامِ، كَمَا هُوَ مَذْلُوقٌ أَمْ الْمُنْقَطَعَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَا تَعْقِبُهَا أَشْنَعُ مَا

باطل **﴿ولا تأثم﴾** يقول: كذب. وأخرج البزار عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة اشتاقوا إلى الإخوان، فيجيء سرير هذا حتى يحاذي سرير هذا، فيتحدثان، فيتكئذا، ويتكئذا، فيتحدثان بما كانوا في الدنيا، فيقول أحدهما: يا فلان تدري أي يوم غفر الله لنا؟ يوم كنا في موضع كذا وكذا، فدعونا الله فغفر لنا». وأخرج ابن المنذر عن عائشة قالت: لو فتح الله على أهل الأرض من عذاب السموم قدر الأنملة لأحرقت الأرض ومن عليها. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **﴿إنه هو البر﴾** قال: اللطيف. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير عنه أن قريشاً لما اجتمعوا إلى دار الندوة في أمر النبي ﷺ قال قائل منهم: أحبسوه في وثاق، وتربصوا به المنون حتى يهلك، كما هلك من قبله من الشعراء: زهير والنابغة، إنما هو كأحدهم، فأنزل الله في ذلك: **﴿أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون﴾**. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: **﴿ريب المنون﴾** قال: الموت.

أَمْ خَلَقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يَوْمُونَ ﴿٥٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِرُ رَيْكٍ أَمْ هُمُ الْمُصِيطِرُونَ ﴿٥٧﴾ أَمْ قَوْمٌ لَهُمْ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلَيَاتِ سَمْعُهُمْ بِشَأْنِهِ يُبِينُ ﴿٥٨﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٥٩﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ يَنْفَرُونَ مَثَلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٦٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ ﴿٦٤﴾ فَلَا رَغَمَ فَتَى يَلْقَاوَهُمْ يَوْمَ ذَلِكَ فِيهِ يَمْصُورُونَ ﴿٦٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٦٦﴾ وَإِنْ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابٌ ذُو نَسِكٍ وَلَكِنْ أَكْرَهَهُمْ لَا يَمْلَكُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَصْبَحَ لُحْمٌ ذُو كُنُفٍ يَأْكُلُ بَعْضُ النَّاسِ لَحْمَ بَعْضٍ ذُو كُنُفٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَذَبَرُ الشُّجْرِ ﴿٦٨﴾

قوله: **﴿أم خلقوا من غير شيء﴾** أم هذه هي المنطقية، كما تقدم فيما قبلها، وكما سيأتي فيما بعدها أي: بل أخلقوا على هذه الكيفية البديعة، والصنعة العجيبة من غير خالق لهم. قال الزجاج: أي: أخلقوا باطلاً لغير شيء لا يحاسبون، ولا يؤمرون، ولا ينهون، وجعل **﴿هم﴾** بمعنى اللام. قال ابن كيسان: أم خلقوا عبثاً، وتركوا سدى لا يؤمرون، ولا ينهون. وقيل المعنى: أم خلقوا من غير أب ولا أم، فهم كالجماد لا يفهمون، ولا تقوم عليهم حجة **﴿أم هم للخالقون﴾** أي: بل أيقولون هم الخالقون لأنفسهم، فلا يؤمرون ولا ينهون مع أنهم يقرّون أن الله خالقهم، وإذا أقروا لزمتهم الحجة **﴿أم خلقوا السموات والأرض﴾** وهم لا يدعون ذلك، فلزمتهم الحجة، ولهذا اضرب عن هذا، وقال **﴿بل لا يوقنون﴾** أي: ليسوا على يقين من الأمر، بل يخطبون في ظلمات الشك في وعد الله ووعيده **﴿أم عندهم خزائن ربك﴾** أي: خزائن أرزاق العباد، وقيل: مفاتيح الرحمة. قال مقاتل: يقول: أبائهم مفاتيح ربك بالرسالة،

فيضعونها حيث شاءوا؟ وكذا قال عكرمة: وقال الكلبي: خزائن المطر والرزق **﴿أم هم للمصيطرون﴾** أي: المسلطون الجبارون، قال في الصحاح: المسيطر المسلط على الشيء، ليشرف عليه، ويتعهد أحواله، ويكتب عمله، وأصله من السطر؛ لأن الكتاب يسطر. وقال أبو عبيدة: سطرت علي: اتخذتني خولاً لك. قرأ الجمهور (المصيطرون) بالصاد الخالصة، وقرأ ابن محيصن، وحמיד، ومجاهد، وقنبل، وهشام بالسين الخالصة، ورويت هذه القراءة عن حفص، وقرأ خالد بصاد مشمة زلياً **﴿أم لهم سلم يستمعون فيه﴾** أي: بل أيقولون إن لهم سلاً منصوباً إلى السماء يصعدون به، ويستمعون فيه كلام الملائكة، وما يوحى إليهم، ويصلون به إلى علم الغيب، كما يصل إليه محمد ﷺ بطريق الوحي، وقوله: **﴿فيه﴾** صفة لسلم، وهي للظرفية على بابها، وقيل: هي بمعنى على أي: يستمعون عليه كقوله: **﴿ولأصلبكم في جنود النخل﴾** [طه: 71] قاله الأخفش. وقال أبو عبيدة: يستمعون به. وقال الزجاج: المعنى: أنهم كجبريل الذي يأتي النبي ﷺ بالوحي، وقيل: هي في محل نصب على الحال أي: صاعدين فيه **﴿فليات مستمعهم﴾** إن ادعى ذلك **﴿بسلطان مبين﴾** أي: بحجة واضحة ظاهرة **﴿أم له البنات ولكم البنون﴾** أي: بل أتقولون لله البنات ولكم البنون، سفه سبحانه أحلامهم، وضلل عقولهم ووبخهم أي: أضيفون إلى الله البنات وهي أضعف الصنفين، ويجعلون لأنفسهم البنين، وهم أعلاما، وفيه إشعار بأن من كان هذا رايه، فهو محل سافل في الفهم والعقل، فلا يستبعد منه إنكار البعث وجدد التوحيد. ثم رجع سبحانه إلى خطاب رسوله ﷺ، فقال: **﴿أم تسألهم أجراً﴾** أي: بل أتسألهم أجراً يدفعونه إليك على تبليغ الرسالة **﴿فهم من مغرم مثقلون﴾** أي: من التزام غرامة تطلبها منهم مثقلون أي: مجهودون بحملهم ذلك المغرم الثقيل. قال قتادة: يقول: هل سألت هؤلاء القوم أجراً فجهدهم، فلا يستطيعون الإسلام **﴿أم عندهم الغيب فهم يكتبون﴾** أي: بل أيدعون أن عندهم علم الغيب، وهو ما في اللوح المحفوظ فهم يكتبون للناس ما أرادوا من علم الغيب. قال قتادة: هذا جواب لقولهم: **﴿نتربص به ريب المنون﴾** [الطور: 30] يقول الله: أم عندهم الغيب حتى علموا أن محمداً يموت قبلهم، فهم يكتبون. قال ابن قتيبة: معنى يكتبون: يحكمون بما يقولون **﴿أم يريدون كيدا﴾** أي: مكرأ برسول الله ﷺ، فيهلكونه بذلك المكر **﴿فالذين كفروا هم المكيدون﴾** أي: المكور بهم المجزيون بكيدهم، فضرر كيدهم يعود عليهم **﴿ولا يحق المكر السيئ إلا بأهله﴾** [فاطر: 43] وقد قتلهم الله في يوم بدر، وأنلهم في غير موطن، ومكر سبحانه بهم **﴿ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين﴾** [آل عمران: 54] **﴿أم لهم إله غير الله﴾** أي: بل أيدعون أن لهم إلهاً غير الله يحفظهم ويرزقهم وينصرهم. ثم نزه سبحانه نفسه عن هذه المقالة الشنعاء فقال: **﴿سبحان الله عما يشركون﴾** أي: عن شركهم به، أو عن

الفجر ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ أمره الله سبحانه أن يسبحه في بعض الليل. قال مقاتل: أي: صل المغرب والعشاء، وقيل: ركعتي الفجر ﴿وَإِذَا جَاءَ النَّجْمُ﴾ أي: وقت إنبائها من آخر الليل، وقيل: صلاة الفجر، واختاره ابن جرير، وقيل: هو التسبيح في إنباء الصلوات، قرأ الجمهور (إنباء) بكسر الهمزة على أنه مصدر، وقرأ سالم بن أبي الجعد، ومحمد بن السميع، ويعقوب، والمنهال بن عمر بفتحها على الجمع أي: أعقاب النجوم وإنبائها: إذا غربت، ودبر الامر: آخره، وقد تقدم الكلام على هذا في سورة «ق».

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا هُمُ الْمُضْطَرُونَ﴾ قال: المضطرون، وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه قال: لم هم المنزلون. وأخرج عنه أيضاً ﴿عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ﴾ قال: عذاب القبر قبل يوم القيامة. وأخرج ابن أبي شيبة، وأبو داود، والنسائي، والحاكم، وابن مريويه عن أبي برزة الأسلمي قال: «كان رسول الله ﷺ بأخرة إذا قام من المجلس يقول: سبحانك اللهم وبحمك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك. فقال رجل: يا رسول الله إنك لتقول قولاً ما كنت تقول فيما مضى، قال: كفارة لما يكون في المجلس». وأخرجه النسائي، والحاكم من حديث الربيع بن أنس عن أبي العالية، عن رافع بن خديج، عن النبي ﷺ، وأخرج الترمذي، وابن جرير عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «من جلس في مجلس، فكثّر فيه لغطه، فقال قبل أن يقوم من مجلسه: سبحانك اللهم وبحمك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، إلا غفر له ما كان في مجلسه ذلك». قال الترمذي: حسن صحيح. وفي الباب أحاديث مسندة ومرسلة. وأخرج ابن مريويه عن ابن عباس في قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ قال: حين تقوم من فراشك إلى أن تدخل في الصلاة. وأخرج ابن مريويه عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ قال: الركعتان قبل صلاة الصبح. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿وَإِذَا جَاءَ النَّجْمُ﴾ قال: ركعتي الفجر.

تفسير سورة النجم

وهي مكية جميعها في قول الجمهور. وروي عن ابن عباس، وعكرمة أنها مكية إلا آية منها، وهي قوله: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كِبَارَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾ [النجم: 32] الآية. وأخرج ابن مريويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة النجم بمكة، وأخرج أيضاً عن ابن الزبير مثله. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن ابن مسعود قال: أول سورة أنزلت فيها سجدة، ﴿وَالنَّجْمِ﴾ [أي: سورة النجم] فسجد رسول الله ﷺ، وسجد الناس كلهم، إلا رجلاً رأيته أخذ كفاً من تراب، فسجد عليه، فرأيت بعد ذلك قتل كافراً، وهو أمية بن خلف. وأخرج ابن مريويه عن ابن مسعود قال: أول سورة استعلن بها

الذين يجعلونهم شركاء له. ثم ذكر سبحانه بعض جهالاتهم، فقال: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ الكسف جمع كسفة: وهي القطعة من الشيء، وانتصاب ساقطاً على الحال، أو على أنه المفعول الثاني، والمركوم: المجعل بعضه على بعض. والمعنى: أنهم إن يروا كسفاً من السماء ساقطاً عليهم لعذابهم، لم ينتهوا عن كفرهم بل يقولون: هو سحب متراكم بعضه على بعض، وقد تقدم اختلاف القراء في كسفاً، قال الأخفش: من قرأ كسفاً، يعني: بكسر الكاف وسكون السين جعله واحداً، ومن قرأ كسفاً، يعني: بكسر الكاف وفتح السين جعله جمعاً. ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يتركهم، فقال: ﴿فَذَرِهِمْ حَتَّى يَلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ أي: اتركهم وخل عنهم حتى يلاقوا يوم موتهم، أو يوم قتلهم ببدر، أو يوم القيامة. قرأ الجمهور (يلاقوا) وقرأ أبو حيوة (يلقوا) وقرأ الجمهور يصعقون على البناء للفاعل، وقرأ ابن عامر، وعاصم على البناء للمفعول، والصعقة: الهلاك على ما تقدم بيانه ﴿يَوْمَ لَا يَغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ هو بدل من يومهم أي: لا ينفعهم في ذلك اليوم كيدهم الذي كانوا به رسول الله ﷺ في الدنيا ﴿وَلَا هُمْ يَنْصُرُونَ﴾ أي: ولا يمنع عنهم العذاب النازل بهم مانع، بل هو واقع بهم لا محالة ﴿وَإِن لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ﴾ أي: لهؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بالكفر، والمعاصي عذاباً في الدنيا دون عذاب يوم القيامة أي: قبله، وهو قتلهم يوم بدر. وقال ابن زيد: هو مصائب الدنيا من الأوجاع، والأسقام، والبلايا، وذهاب الأموال والأولاد. وقال مجاهد: هو الجوع، والجهد سبع سنين، وقيل: عذاب القبر، وقيل: المراد بالعذاب: هو القحط، وبالْعَذَابُ الذي يأتي بعده: هو قتلهم يوم بدر ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما يصيرون إليه من عذاب الله، وما أعدّه لهم في الدنيا والآخرة ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ إلى أن يقع لهم العذاب الذي وعدناهم به ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بمرأى ومنظر منا وفي حفظنا وحمايتنا، فلا تبال بهم. قال الزجاج: إنك بحيث نراك ونحفظك، ونرعاك فلا يصلون إليك ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي: نزه ربك عما لا يليق به متلبساً بحمد ربك على إتمامه عليك حين تقوم من مجلسك. قال عطاء، وسعيد بن جبير، وسفيان الثوري، وأبو الأحوص: يسبح الله حين يقوم من مجلسه فيقول: سبحان الله وبحمده، أو سبحانك اللهم وبحمك عند قيامه من كل مجلس يجلسه. وقال محمد بن كعب، والضحاك، والربيع بن أنس: حين تقوم إلى الصلاة. قال الضحاك: يقول: الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرةً وأصيلاً، وفيه نظر: لأن التكبير يكون بعد القيام لا حال القيام، ويكون التسبيح بعد التكبير، وهذا غير معنى الآية، فالأول أولى. وقيل المعنى: صل الله حين تقوم من منامك، وبه قال أبو الجوزاء، وحسان بن عطية. وقال الكلبي: وانكر الله باللسان حين تقوم من فراشك إلى أن تدخل الصلاة، وهي صلاة

النبي ﷺ يقرؤها، والنجم. وأخرج ابن مردويه، والبيهقي في سننه عن ابن عمر قال: «صلى بنا رسول الله ﷺ، فقرأ النجم، فسجد بنا، فاطل السجود». وأخرج ابن

مردويه عن عائشة: «أن النبي ﷺ قرأ النجم، فلما بلغ السجدة سجد فيها». وأخرج الطيالسي، وابن أبي شيبة، وأحمد، والبخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، والطبراني، وابن مردويه عن زيد بن ثابت قال: قرأت النجم عند النبي ﷺ، فلم يسجد فيها. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يسجد في النجم بمكة، فلما هاجر إلى المدينة تركها. وأخرج أيضاً عنه أن رسول الله ﷺ لم يسجد في شيء من المفصل منذ تحول إلى المدينة. فيما طلب، والغني: الخيبة، ومنه قول الشاعر:

فمن يلق خيراً يحمد الناس أمره ومن يغو لا يعدم على الغي لائماً
وفي قوله: «صاحبكم» إشارة بأنهم المطلعون على حقيقة حاله، والخطاب لقريش «وما ينطق عن الهوى» أي: ما يصدر نطقه عن الهوى لا بالقرآن، ولا بغيره، فعن علي بابها. وقال أبو عبيدة: إن عن بمعنى الباء أي: بالهوى. قال قتادة: أي: ما ينطق بالقرآن عن هواه «إن هو إلا وحي يوحى» أي: ما هو الذي ينطق به إلا وحي من الله يوحى إليه. وقوله: «يوحي» صفة لوحي تفيد الاستمرار التجديدي، وتفيد نفي المجاز أي: هو وحي حقيقة لا لمجرد التسمية «علمه شديد القوى» القوى جمع قوة، والمعنى: أنه علمه جبريل الذي هو شديد قواه، هكذا قال أكثر المفسرين إن المراد: جبريل. وقال الحسن: هو الله عز وجل، والأول أولى، وهو من باب إضافة الصفة إلى الموصوف «نور مزة فاستوى» المزة: القوة والشدة في الخلق، وقيل: ذو صفة جسم وسلامة من الآفات، ومنه قول النبي ﷺ: «لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مزة سوي». وقيل: ذو حصانة عقل، ومتانة رأي. قال قطرب: العرب تقول لكل من هو جزل الرأي: حصيف العقل ذو مزة، ومنه قول الشاعر:

تدكنت قبل لقائكم ذامرة عندي لكل مخاصم ميزانه
والتفسير للمزة بهذا أولى؛ لأن القوة والشدة قد أفادها قوله: «شديد القوى» قال الجوهري: المزة إحدى الطبائع الأربع، والمزة: القوة وشدة العقل، والفاء في قوله: «فاستوى» للمعطف على علمه، يعني جبريل أي: ارتفع وعاد إلى مكانه في السماء بعد أن علم محمداً ﷺ، قاله سعيد بن المسيب، وسعيد بن جبيل، وقيل: معنى استوى: قام في صورته التي خلقه الله عليها؛ لأنه كان يأتي النبي ﷺ في صورة الأدميين، وقيل المعنى: فاستوى القرآن في صدره ﷺ. وقال الحسن: فاستوى يعني: الله عز وجل على العرش «وهو بالافق الأعلى» هذه الجملة في محل نصب على الحال أي: فاستوى جبريل حال كونه بالافق الأعلى، والمراد بالافق الأعلى: جانب المشرق، وهو فوق جانب المغرب، وقيل المعنى: فاستوى عالياً، والافق: ناحية السماء، وجمعه أفاق، قال قتادة، ومجاهد: هو الموضع الذي تطلع

النجم ﷺ يقرؤها، والنجم. وأخرج ابن مردويه، والبيهقي في سننه عن ابن عمر قال: «صلى بنا رسول الله ﷺ، فقرأ النجم، فسجد بنا، فاطل السجود». وأخرج ابن مردويه عن عائشة: «أن النبي ﷺ قرأ النجم، فلما بلغ السجدة سجد فيها». وأخرج الطيالسي، وابن أبي شيبة، وأحمد، والبخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، والطبراني، وابن مردويه عن زيد بن ثابت قال: قرأت النجم عند النبي ﷺ، فلم يسجد فيها. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يسجد في النجم بمكة، فلما هاجر إلى المدينة تركها. وأخرج أيضاً عنه أن رسول الله ﷺ لم يسجد في شيء من المفصل منذ تحول إلى المدينة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ مَا حَلَّ سَاجِدًا رَبًّا عَوَىٰ ۝ وَمَا يَطُوعُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِن هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝ عَلَّمَ شَيْدُ الْفَوْزِ ۝ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ كَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝ فَأَرَىٰ إِلَىٰ غَيْبِهِ مَا أُوْحَىٰ ۝ مَا كَذَّبَ الْفَوَاحِشَ مَا رَأَىٰ ۝ فَتَوَدَّ عَلَّ مَا رَأَىٰ ۝ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ۝ عِنْدَ جَنَّةِ الْمَأْوَىٰ ۝ إِذْ يَتَشَوَّى الْمَیْدَةُ مَا يَقْبُضُ ۝ مَا رَأَى الْبَصَرُ وَمَا كُنَّ ۝ لَقَدْ كَانَ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ۝ أَفَرَأَيْتُمُ الْكَلْبَ وَالْمَرْثَىٰ ۝ وَنَزَلَ الْكَافَّةُ الْأَخْرَىٰ ۝ أَنْتُمْ أَذْكُرُ وَلَكِنَّ الْأَفْهَىٰ ۝ يَكُنْ إِذَا سَمِعَ ضِيقَ ۝ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَةٌ سَمِيَتْ وَمَا أَشْتَمَ وَمَا أَذْكُرُ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَبْعَثُ إِلَّا الْفَلَّاحَ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْفُتُوحَىٰ ۝ أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا فَتَىٰ ۝ فَلْيَلْ الْأَجْرَىٰ ۝ وَالْأَفْهَىٰ ۝ رَكَرَ مِنْ مَلَكٍ فِي أَسْتَوَى لَا تَقْبُضُ شَعْلَهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَدَىٰ ۝ أَنْ يَأْتِيَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَرَحْمَىٰ ۝

قوله: «والنجم إذا هوى» التعريف للجنس، والمراد به: جنس النجوم، وبه قال جماعة من المفسرين، ومنه قول عمر بن أبي ربيعة:

لحسن النجم في السماء الثريا والثريا في الأرض زين النساء
وقيل: المراد به الثريا، وهو اسم غلب فيها، تقول العرب: النجم وتريد به الثريا، وبه قال مجاهد، وغيره، وقال السدي، النجم هنا هو الزهرة؛ لأن قوماً من العرب كانوا يعبدونها، وقيل: النجم هنا: النبت الذي لا ساق له، كما في قوله: «والنجم والشجر يسجدان» [الرحمن: 6] قاله الأخفش. وقيل: النجم محمد ﷺ، وقيل: النجم القرآن، وسمي نجماً لكونه نزل منجماً مفزقاً، والعرب تسمي التفريق تنجيماً، والمفزق: المنجم، وبه قال مجاهد، والفراء، وغيرهما، والأول أولى. قال الحسن: المراد بالنجم: النجوم إذا سقطت يوم القيامة. وقيل المراد بها: النجوم التي ترجم بها الشياطين، ومعنى هوية: سقوطه من علو، يقال: هوى النجم يهوي هويًا، إذا سقط من علو إلى سفل، وقيل: غرويه، وقيل: طلوعه، والأول أولى، وبه قال الأصمعي وغيره، ومنه قول زهير:

محل نصب بكذب مخففاً ومشدداً **﴿اقتمارونه على ما يرى﴾**. قرأ الجمهور (اقتمارونه) بالآلف من المماراة، وهي المجالاة والملاحاة، وقرأ حمزة، والكسائي (اقتمرونه) بفتح التاء وسكون الميم أي: اقتجدونه، واختار أبو عبيد القراءة الثانية. قال: لأنهم لم يماروه، وإنما جحدوه، يقال: مراه حقه أي: جحده، ومريته أنا: جحدته، قال: ومنه قول الشاعر:

لأن هجوت أخاصق ومكرمة لقد مريت أخاً ما كان يمرىكا
أي: جحدته. قال المبرد: يقال: أمراه عن حقه، وعلى حقه: إذا منعه منه ودفعه. وقيل: على بمعنى عن، وقرأ ابن مسعود، والشعبي، ومجاهد، والأعرج (اقتمرونه) بضم التاء من أمرت أي: أتريبونه وتشكون فيه، قال جماعة من المفسرين: للمعنى على قراءة الجمهور اقتجاللونه، وذلك أنهم جادلوه حين أسري به، فقالوا: صف لنا مسجد بيت المقدس، أي: اقتجاللونه جداً ترومون به دفعه عما شاهده وعلمه، واللام في قوله: **﴿ولقد رآه نزلة أخرى﴾** هي الموطئة للقسم أي: والله لقد رآه نزلة أخرى، والنزلة المرة من النزول، فانتصابها على الظرفية، أو منتصبة على المصدر الواقع موقع الحال أي: رأى جبريل نازلاً نزلة أخرى، أو على أنه صفة مصدر مؤكد محذوف أي: رآه رؤية أخرى. قال جمهور المفسرين: المعنى أنه رأى محمد جبريل مرة أخرى، وقيل: رأى محمد ربه مرة أخرى بفؤاده **﴿عند سدرة المنتهى﴾** الظرف منتصب برأه، والسدر: هو شجر النبق، وهذه السدرة هي في السماء السادسة، كما في الصحيح، وروي أنها في السماء السابعة، والمنتهى: مكان الانتهاء، أو هو مصدر ميمي، والمراد به الانتهاء نفسه، قيل: إليها ينتهي علم الخلائق، ولا يعلم أحد منهم ما وراءها، وقيل: ينتهي إليها ما يعرج به في الأرض، وقيل: تنتهي إليها أرواح الشهداء، وقيل غير ذلك. وإضافة الشجرة إلى المنتهى من إضافة الشيء إلى مكانه **﴿عندها جنة المأوى﴾** أي: عند تلك السدرة جنة تعرف بجنة المأوى، وسميت جنة المأوى لأنه أوى إليها آدم، وقيل: إن أرواح المؤمنين تأوي إليها. قرأ الجمهور (جنة) برفع جنة على أنها مبتدأ، وخبرها الظرف المتقنن. وقرأ علي، وأبو الدرداء، وأبو هريرة، وابن الزبير، وأنس، وزر بن حبيش، ومحمد بن كعب، ومجاهد، وأبو سبرة الجهني (جنة) فعلاً ماضياً من جنّ يجنّ أي: ضمه المبيت، أو ستره إيواء الله له، قال الأخفش: أدركه، كما تقول: جنة الليل أي: ستره وأدركه، والجملة في محل نصب على الحال **﴿إذ يغشى السدرة ما يغشى﴾** العامل في الظرف رآه أيضاً، وهو ظرف زمان، والذي قبله ظرف مكان، والغشيان بمعنى التغطية والستر، وبمعنى الإتيان يقال: فلان يغشاني كل حين أي: يأتيني، وفي الإيهام في قوله: **﴿ما يغشى﴾** من التفخيم ما لا يخفى، وقيل: يغشاها جراد من ذهب، وقيل: طوائف من الملائكة. وقال مجاهد: رفرِف أخضر، وقيل: رفرِف من طيور خضر، وقيل: غشيتها أمر الله، والمجيء بالمضارع لحكاية الحال الماضية استحضاراً

منه الشمس، وقيل: هو يعني جبريل، والنبى ﷺ بالافق الأعلى ليلة المعراج، ويجوز أن تكون هذه الجملة مستأنفة **﴿ثم بنا فتلى﴾** أي: بنا جبريل بعد استوائه بالافق الأعلى أي: قرب من الأرض فتلى، فنزل على النبي ﷺ بالوحي، وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: ثم تلى فدى، قاله ابن الأنباري، وغيره. قال الزجاج: معنى **﴿بنا فتلى﴾** واحد أي: قرب وزاد في القرب؛ كما تقول: فلنا مني فلان وقرب، ولو قلت: قرب مني وبنا جاز. قال الفراء: الغاء في **﴿فتلى﴾** بمعنى الواو، والتقدير: ثم تلى جبريل وبنا، ولكنه جائز إذا كان معنى الفعلين واحداً أن تقدم أيهما شئت. قال الجمهور: والذي بنا فتلى هو جبريل، وقيل: هو النبي ﷺ والمعنى: بنا منه أمره وحكمه، والأول أولى. قيل: ومن قال: إن الذي استوى هو جبريل، ومحمد فالمعنى عنده: ثم بنا محمد من ربه نبؤ كرامة، فتلى أي: هوى للسطود، وبه قال الضحاک **﴿فكان قاب قوسين أو أدنى﴾** أي: فكان مقدار ما بين جبريل ومحمد ﷺ، أو ما بين محمد وربه قاب قوسين أي: قدر قوسين عربيين. والقاب والقيب، والقاد والقيد: المقدار، ذكر معناه في الصحاح. قال الزجاج: أي: فيما تقدرُونَ أنتم، والله سبحانه عالم بمقادير الأشياء، ولكنه يخطبنا على ما جرت به عادة المخاطبة فيما بيننا. وقيل: أو بمعنى الواو أي: وأنى، وقيل: بمعنى بل أي: بل أنى. وقال سعيد بن جبیر، وعطاء، وأبو إسحاق الهمداني، وأبو وائل شقيق بن سلمة **﴿فكان قاب قوسين﴾**: قدر نراعين، والقوس: الذراع يقاس بها كل شيء، وهي لغة بعض الحجازيين، وقيل: هي لغة أزد شنوءة. وقال الكسائي: فكان قاب قوسين أراد قوساً واحدة **﴿فاوحى إلى عبده ما أوحى﴾** أي: فأوحى جبريل إلى محمد ﷺ ما أوحى، وفيه تفخيم للوحي الذي أوحى إليه، والوحي: إلقاء الشيء بسرعة، ومنه الوحا وهو السرعة، والضمير في عبده يرجع إلى الله، كما في قوله: **﴿ما ترك على ظهرا من دابة﴾** [فاطر: 45] وقيل المعنى: فأوحى الله إلى عبده جبريل ما أوحى، وبالأول قال الربيع، والحسن، وابن زيد، وقتادة. وقيل: فأوحى الله إلى عبده محمد. قيل: وقد أبهم الله سبحانه ما أوحاه جبريل إلى محمد، أو ما أوحاه الله إلى عبده جبريل، أو إلى محمد ولم يبينه لنا، فليس لنا أن نتعرض لتفسيره. وقال سعيد بن جبیر: الذي أوحى إليه هو **﴿الم نشرح لك صدرك﴾** [الشرح: 1] إلخ، و **﴿الم يحدك يتما فأوى﴾** [الضحى: 6] إلخ. وقيل: أوحى الله إليه أن الجنة حرام على الأنبياء حتى تدخلها، وعلى الأمم حتى تدخلها أمك. وقيل: إن ما للعموم لا للإيهام، والمراد: كل ما أوحى به إليه، والحمل على الإيهام أولى لما فيه من التعظيم **﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾** أي: ما كذب فؤاد محمد ﷺ ما رآه بصره ليلة المعراج، يقال: كذبه إذا قال له الكذب، ولم يصلقه. قال المبرد: معنى الآية: أنه رأى شيئاً فصلى فيه، قرأ الجمهور (ما كذب) مخففاً، وقرأ هشام، وأبو جعفر بالتشديد **﴿وما﴾** في **﴿ما رأى﴾** موصولة أو مصدرية في

سمرات ببطن نخلة. وقال سعيد بن جبيرة: العزى حجر أبيض كانوا يعبدونه. وقال قتادة: هي بيت كان ببطن نخلة ﴿ومناة﴾ صنم بني هلال. وقال ابن هشام: صنم هذيل وخزاعة. وقال قتادة: كانت للأنصار. قرأ الجمهور (منة) بألف من نون همزة، وقرأ ابن كثير، وابن محيصن، وحמיד، ومجاهد، والسلمي بالمد والهمز. فأما قراءة الجمهور، فاشتقاقها من منى اليمنى، أي: صبة؛ لأن دماء النساء كانت تصب عندها يتقربون بذلك إليها. وأما على القراءة الثانية، فاشتقاقها من النوء، وهو المطر؛ لأنهم كانوا يستمطرون عندها الأنواء، وقيل: هما لغتان للعرب، ومما جاء على القراءة الأولى قول جرير:

أزيد مناة توعد يابن تميم تامل ابن تاه بك الوعيد
ومما جاء على القراءة الأخرى قول الحارثي:

ألا هل أتى التيم بن عبد مناة - على السرفيما ببينا ابن تميم
وقف جمهور القراء عليها بالتاء اتباعاً لرسم المصحف، ووقف ابن كثير، وابن محيصن عليها بالهاء. قال في الصحاح: ومناة اسم صنم كان بين مكة والمدينة، والهاء للتانيث، ويسكت عليها بالتاء، وهي لغة، قوله: ﴿الثالثة الأخرى﴾ هذا وصف لمناة، وصفها بأنها ثالثة، وبأنها أخرى، والثالثة لا تكون إلا أخرى. قال أبو البقاء: فالوصف بالأخرى للتأكيد، وقد استشكل وصف الثالثة بالأخرى، والعرب إنما تصف به الثانية، فقال الخليل: إنما قال ذلك لوفاق رموس الآي كقوله: ﴿مأرب أخرى﴾ [طه: 18] وقال الحسين بن الفضل: فيه تقديم وتأخير، والتقدير: أفرأيتم اللات والعزى الأخرى ومناة الثالثة. وقيل: إن وصفها بالأخرى لقصد التعظيم؛ لأنها كانت عند المشركين عظيمة، وقيل: إن ذلك للتحقير والذم، وإن المراد المتأخرة الوضعية، كما في قوله: ﴿قالت أخراهم لأولاهم﴾ [الأعراف: 38] أي: وضعاؤهم لرؤسائهم. ثم كثر سبحانه توبيخهم وتقريعهم بمقالة شتعا قالوها، فقال: ﴿إنكم الذكر وله الأنثى﴾ أي: كيف تجعلون لله ما تكرهون من الإناث، وتجعلون لأنفسكم ما تحبون من الذكور، قيل: وذلك قولهم إن الملائكة بنات الله، وقيل المراد: كيف تجعلون اللات والعزى ومناة، وهي إناث في زعمكم شركاء لله، ومن شأنهم أن يحتقروا الإناث. ثم ذكر سبحانه أن هذه التسمية، والقسمة المفهومة من الاستفهام قسمة جائرة، فقال: ﴿تلك إذا قسمة ضيزى﴾ قرأ الجمهور (ضيزى) بياء ساكنة بغير همزة، وقرأ ابن كثير بهمزة ساكنة، والمعنى: أنها قسمة خارجة عن الصواب جائرة عن العدل مائلة عن الحق. قال الأخفش: يقال: ضاز في الحكم أي: جار، وضازه حقه يضيئه ضيزاً أي: نقصه ويخسه، قال: وقد يهزم، وإنشد:

فلن تناء عنا ننقصك وإن تغب - فحقد مضئوز وإنفك راغم
وقال الكسائي: ضاز يضيئ ضيزاً، وضاز يضوز ضوزاً: إذا تعدى وظلم ويخس وأنقص، ومنه قول الشاعر:

ضازت بنو أسد بحكمهم - إذ يعملون الراس كالنذب

للصورة البديعة، أو للدلالة على الاستمرار التجديدي ﴿ما زأغ البصر﴾ أي: ما مال بصر النبي ﷺ عما رآه ﴿وما طغى﴾ أي: ما جاوز ما رأى، وفي هذا وصف أنب النبي ﷺ في ذلك المقام، حيث لم يلتفت، ولم يمل بصره، ولم يمد إلى غير ما رأى، وقيل: ما جاوز ما أمر به ﴿لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾ أي: والله لقد رأى تلك الليلة من آيات ربه العظام ما لا يحيط به الوصف، قيل: رأى رفقاً سد الأفق، وقيل: رأى جبريل في حلة خضراء قد ملأ ما بين السماء والأرض له ستمائة جناح، كذا في صحيح مسلم، وغيره، وقال الضحاك: رأى سدره المنتهى، وقيل: هو كل ما رآه تلك الليلة في مسراه وعوده، ومن للتبعيض، ومفعول رأى الكبرى، ويجوز أن يكون المفعول محذوفاً أي: رأى شيئاً عظيماً من آيات ربه، ويجوز أن تكون من زائدة ﴿أفرأيتم اللات والعزى﴾ ومناة الثالثة الأخرى لما قص الله سبحانه هذه الأقاصيص قال للمشركين: موبخاً لهم ومقرعاً ﴿أفرأيتم﴾ أي: أخبروني عن الأكله التي تعبدونها من دون الله هل لها قدرة توصف بها، وهل أوحى إليكم شيئاً، كما أوحى الله إلى محمد، أم هي جمادات لا تعقل ولا تنفع. ثم ذكر هذه الأصنام الثلاثة التي اشتهرت في العرب، وعظم اعتقادهم فيها. قال الواحدي وغيره: وكانوا يشتقون لها أسماء من أسماء الله تعالى، فقالوا: من الله اللات، ومن العزيز العزى، وهي تأنث الأعرى بمعنى العريضة، ومناة منى الله الشيء إذا قرء. قرأ الجمهور (اللات) بتخفيف التاء، فقيل: هو مأخوذ من اسم الله سبحانه كما تقدم، وقيل: أصله لات يليت فالتاء أصلية، وقيل: هي زائدة، وأصله لوى يلوي؛ لأنهم كانوا يلون أعناقهم إليها، أو يلتون عليها، ويطوفون بها. واختلف القراء هل يوقف عليها بالتاء، أو بالهاء؟ فوقف عليها الجمهور بالتاء، ووقف عليها الكسائي بالهاء، واختار الزجاج، والفراء الوقف بالتاء؛ لاتباع رسم المصحف، فإنها تكتب بالتاء، وقرأ ابن عباس، وابن الزبير، ومجاهد، ومنصور بن المعتمر، وأبو الجوزاء، وأبو صالح، وحמיד (اللات) بتشديد التاء، ورويت هذه القراءة عن ابن كثير، فقيل: هو اسم رجل كان يلى السويق، ويطعمه الحاج، فلما مات عكفوا على قبره يعبدونه، فهو اسم فاعل في الأصل غلب على هذا الرجل. قال مجاهد: كان رجلاً في رأس جبل يتخذ من لبنها وسمنها حيساً، ويطعم الحاج، وكان ببطن نخلة فلما مات عبده، وقال الكلبي: كان رجلاً من ثقيف له صرمة غنم، وقيل: إنه عامر بن الظرب العنواني، وكان هذا الصنم لثقيف، وفيه يقول الشاعر:

لا تنصروا اللات إن الله مهلكها - وكيف ينصركم من ليس ينتصر
قال في الصحاح: واللات اسم صنم لثقيف، وكان بالطائف، وبعض العرب يقف عليها بالتاء، وبعضهم بالهاء ﴿والعزى﴾ صنم قریش، وبني كنانة. قال مجاهد: هي شجرة كانت بغطفان، وكانوا يعبدونها، فبعث إليها النبي ﷺ خالد بن الوليد، فقطعها، وقيل: كانت شيطانة تأتي ثلاث

جملة تلك أمنياتهم الباطلة، وأطماعهم الفارغة، ثم أكد ذلك، وزاد في إبطال ما يتمنونونه، فقال: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلِكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تَغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا﴾. وكما هنا هي الخبرية المفيدة للتكثير ومحلها الرفع على الابتداء، والجملة بعدها خبرها، ولما في كم من معنى التكثير جمع الضمير في شفاعتهم مع أفراد الملك، والمعنى: التوبيخ لهم بما يتمنون، ويطمعون فيه من شفاعاة الأصنام مع كون الملائكة مع كثرة عبادتها، وكرامتها على الله لا تشفع إلا لمن أنن أن يشفع له، فكيف بهذه الجمادات الفاقدة للعقل والفهم، وهو معنى قوله: ﴿إِلَّا مَنْ بَعْدَ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ﴾ لهم بالشفاعة ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أن يشفعوا له ﴿وَيَرْضَى﴾ بالشفاعة له لكونه من أهل التوحيد، وليس للمشركين في ذلك حظ، ولا يآذن الله بالشفاعة لهم ولا يرضاهم؛ لكونهم ليسوا من المستحقين لها.

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَى﴾ قال: إذا انصب. وأخرج ابن المنذر عنه قال: هو الثريا إذا تلت. وأخرج عنه أيضاً قال: أقسم الله أن ما ضل محمد، ولا غوي. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ قال: ذو خلق حسن. وأخرج أحمد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ في العظمة عن ابن مسعود: «أن رسول الله ﷺ لم ير جبريل في صورته إلا مرتين، أما واحدة: فإنه سأل أن يراه في صورته فأراه صورته، فسد الأفق، وأما الثانية: فإنه كان معه حيث سعد، فذلك قوله: ﴿وَهُوَ بِالْأَفْقِ الْأَعْلَى﴾»، ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ قال: خلق جبريل. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عنه أن النبي ﷺ قال: «رأيت جبريل عند سكرة المنتهى له ستمائة جناح»، وأخرجه أحمد عنه أيضاً. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس ﴿وَهُوَ بِالْأَفْقِ الْأَعْلَى﴾ قال: مطلع الشمس. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن ابن مسعود في قوله: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ قال: «رأى النبي ﷺ جبريل له ستمائة جناح». وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، والترمذي وصححه، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، وأبو الشيخ في العظمة، والحاكم وصححه، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي عنه في قوله: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ قال: «رأى رسول الله ﷺ جبريل عليه حلقاً رفرف أخضر قد ملا ما بين السماء والأرض». وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿ثُمَّ نَبَأَ فَتَلَّى﴾ قال: هو محمد ﷺ نأى فتلى إلى ربه. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه، عنه قال: «نأى ربه فتلى». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن مسعود في قوله: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ قال: «نأى جبريل منه حتى كان قدر ذراع أو ذراعين». وأخرج الطبراني، وابن مردويه، والضياء في المختارة عن ابن عباس قال: القاب القيد، والقوسين الذراعين. وأخرج ابن المنذر، وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال: لما أسري بالنبي ﷺ اقترب

قال الفراء: وبعض العرب يقول: ضئزى بالهمز، وحكى أبو حاتم عن أبي زيد أنه سمع العرب تهمز ضيزى، قال البغوي: ليس في كلام العرب فعلى بكسر الفاء في اللعوت إنما تكون في الأسماء مثل نكزى، قال المؤرج: كرهوا ضم الضاد في ضيزى، وخافوا انقلاب الياء ولأى وهي من بنات الواو، فكسروا الضاد لهذه العلة، كما قالوا في جمع أبيض بيض، وكذا قال الزجاج: وقيل: هي مصدر كنكزى، فيكون المعنى: قسمة ذات جور وظلم، ثم رد سبحانه عليهم بقوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمِيَّتُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ﴾ أي: ما الاوثان، أو الأصنام باعتبار ما تدعونه من كونها آلهة إلا أسماء محضة، ليس فيها شيء من معنى الألوهية التي تدعونها؛ لأنها لا تبصر ولا تسمع، ولا تعقل ولا تفهم، ولا تضر ولا تنفع، فليست إلا مجرد أسماء سميتوها أنتم وأبأؤكم، قلد الآخر فيها الأول، وتبع في ذلك الأبناء الآباء، وفي هذا من التحقير لشأنها ما لا يخفى، كما تقول في تحقير رجل: ما هو إلا أسم إذا لم يكن مشتقاً على صفة معتبرة، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمِيَّتُوهَا﴾ [يوسف: 40] يقال: سميته زيداً وسميته يزيد، فقوله: سميتوها صفة لأصنام، والضمير يرجع إلى الأسماء لا إلى الأصنام أي: جعلتموها أسماء لا جعلتم لها أسماء. وقيل: إن قوله: ﴿هِيَ﴾ راجع إلى الأسماء الثلاثة المذكورة، والأول أولى ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي: ما أنزل بها من حجة ولا برهان. قال مقاتل: لم ينزل لنا كتاباً لكم فيه حجة، كما تقولون إنها آلهة، ثم أخبر عنهم بقوله: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ أي: ما يتبعون فيما نكر من التسمية، والعمل بموجبها إلا الظن الذي لا يغني من الحق شيئاً، والتفت من الخطاب إلى الغيبة إعرافاً عنهم وتحقيراً لشأنهم، فقال: ﴿وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ أي: تميل إليه، وتشتهيه من غير التفات إلى ما هو الحق الذي يجب الاتباع له. قرأ الجمهور (يتبعون) بالتحية على الغيبة، وقرأ عيسى بن عمر، وأيوب، وابن مسعود، وابن عباس، الخطاب، ورويت هذه القراءة عن ابن مسعود، وابن عباس، وطلحة، وابن وثاب ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾ أي: البيان الواضح الظاهر بأنها ليست بآلهة، والجملة في محل نصب على الحال من فاعل يتبعون، ويجوز أن يكون اعتراضاً، والأول أولى. والمعنى: كيف يتبعون ذلك، والحال أن قد جاءهم ما فيه هدى لهم من عند الله على لسان رسوله الذي بعث الله بين ظهرانيهم، وجعله من أنفسهم ﴿وَمَا لِلْإِنْسَانِ مَا تَمْنَى﴾ أم هي المنقطعة المقطرة ببل، والهمزة التي للإنكار، فاضرب عن اتباعهم الظن الذي هو مجرد التوهم، وعن اتباعهم هوى الأنفس، وما تميل إليه، وانتقل إلى إنكار أن يكون لهم ما يتمنون من كون الأصنام تنفعهم، وتشفع لهم. ثم علل انتفاء أن يكون للإنسان ما تمنى بقوله: ﴿فَلْيَلْهُ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾ أي: أن أمور الآخرة والدنيا بأسرها لله عز وجل، فليس لهم معه أمر من الأمور، ومن

أَعْلَمَ بِشَىْءٍ أَنْفَعُ ﴿١٣﴾ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ﴿١٤﴾ وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْتَفَى ﴿١٥﴾ أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُمْ يَرَوْنَهُ ﴿١٦﴾ أَلَمْ يَلْبَسْ بِمَا فِي صُحُفٍ مُّوَسًى ﴿١٧﴾ رَآهُ زَيْدُ بْنُ حَكَمٍ ﴿١٨﴾ الَّذِي تَوَلَّى ﴿١٩﴾ أَلَّا يَرْوِ زُرَّارًا ﴿٢٠﴾ وَمَنْ تَوَلَّى ﴿٢١﴾ وَأَنَّ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴿٢٢﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يَرَى ﴿٢٣﴾ ثُمَّ يُخَبِّرُهُ الْمَلَائِكَةُ الْأَكْفَرُ ﴿٢٤﴾ وَأَنَّ إِلَهَكَ يَرَى ﴿٢٥﴾

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمُونُ الْمَلَائِكَةَ تسمية الأنثى﴾ أي: أن هؤلاء الذين لا يؤمنون بالبعث، وما بعده من الدار الآخرة، وهم الكفار يضمون إلى كفرهم مقالة شنعاء، وجهالة جهلاء، وهي أنهم يسمون الملائكة المنزهين عن كل نقص تسمية الأنثى، وذلك أنهم زعموا أنها بنات الله، فجعلوهم إناثاً، وسموهم بنات ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ هذه الجملة في محل نصب على الحال أي: يسمونهم هذه التسمية، والحال أنهم غير عالمين بما يقولون، فإنهم لم يعرفوهم، ولا شاهدوهم، ولا بلغ إليهم ذلك من طريق من الطرق التي يخبر المخبرون عنها، بل قالوا ذلك جهلاً وضلالةً وجراً، وقرئ (مَا لَهُمْ بِهَا) أي: بالملائكة، أو التسمية ﴿إِنَّ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ أي: ما يتبعون في هذه المقالة إلا مجرد الظن، والتوهم، ثم أخبر سبحانه عن الظن وحكمه، فقال: ﴿وَأَنَّ الظَّنَّ لَا يَغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ أي: إن جنس الظن لا يغني من الحق شيئاً من الإغناء، والحق هنا العلم. وفيه دليل على أن مجرد الظن لا يقوم مقام العلم، وأن الظن غير عالم. وهذا في الأمور التي يحتاج فيها إلى العلم، وهي المسائل العلمية؛ لا فيما يكتفي فيه بالظن، وهي المسائل العملية، وقد قَدَّمْنَا تحقيق هذا. ولا بد من هذا التخصيص، فإن دلالة العموم والقياس وخبر الواحد، ونحو تلك ظنية، فالعمل بها عمل بالظن، وقد وجب علينا العمل به في مثل هذه الأمور، فكانت أئمة وجوبه العمل به فيها مخصصة لهذا العموم، وما ورد في معناه من الذم؛ لمن عمل بالظن؛ والنهي عن اتباعه ﴿فَاعْرِضْ عَنْ قَوْلِي﴾ عن نكرونا، أي: أعرض عن أعرض عن نكرونا، والمراد بالنكر هنا القرآن، أو نكر الآخرة، أو نكر الله على العموم، وقيل: المراد بالنكر هنا الإيمان، والمعنى: اترك مجالستهم، فقد بلغت إليهم ما أمرت به، وليس عليك إلا البلاغ، وهذا منسوخ بآية السيف ﴿وَلَمْ يَرِدْ إِلَّا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أي: لم يرد سواها، ولا طلب غيرها بل قصر نظره عليها، فإنه غير متأمل للخير، ولا مستحق للاعتناء بشأنه، ثم صغر سبحانه شأنهم وحقر أمرهم، فقال: ﴿تِلْكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أي: إن ذلك التولي وقصر الإرادة على الحياة الدنيا هو مبلغهم من العلم ليس لهم غيره، ولا يلتفتون إلى سواه من أمر الدين. قال الفراء: أي: تلك قدر عقولهم، ونهاية علمهم أن آثروا الدنيا على الآخرة، وقيل: الإشارة بقوله: ﴿تِلْكَ﴾ إلى جعلهم للملائكة بنات الله، وتسميتهم لهم تسمية الأنثى، والأول أولى. والمراد بالعلم هنا. مطلق الإدراك الذي يندرج تحته الظن الفاسد، والجملة مستأنفة لتقرير جهلهم،

من ربه، فكان قاب قوسين أو أدنى، ألم ترى إلى القوس ما أقربها من الوتر. وأخرج النسائي، وابن المنذر، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مروي عن ابن عباس ﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾ قال: عبده محمد ﷺ. وأخرج مسلم، والطبراني، وابن مروي، والبيهقي في الاسماء والصفات عنه في قوله: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ ﴿وَلَقَدْ رَأَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ قال: رأى محمد ربه بقلبه مرتين. وأخرج نحوه عنه عبد بن حميد، والترمذي وحسنه، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، وابن مروي. وأخرج ابن مروي عن انس قال: رأى محمد ربه. وأخرج ابن مروي عن ابن عباس أن النبي ﷺ رأى ربه بعينه. وأخرج الطبراني، وابن مروي عنه قال: رأى محمد ربه مرتين مرة ببصره، ومرة بفؤاده. وأخرج الترمذي وحسنه، والطبراني، وابن مروي، والبيهقي عنه أيضاً قال: لقد رأى النبي ﷺ ربه عز وجل. وأخرج النسائي، والحاكم وصححه، وابن مروي عنه أيضاً قال: اتعجبون أن تكون الخلعة لإبراهيم، والكلام لموسى، والرؤية لمحمد؟ وقد روي نحو هذا عنه من طرق. وأخرج مسلم، والترمذي، وابن مروي عن أبي نذر قال: سألت رسول الله ﷺ هل رأيته ربه؟ قال: نور أنى أراه؟. وأخرج مسلم، وابن مروي عنه: «أنه سأل رسول الله ﷺ هل رأيته ربه؟ قال: رأيته نوراً». وأخرج عبد بن حميد، والنسائي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: رأى رسول الله ﷺ ربه بقلبه، ولم يره ببصره. وأخرج مسلم عن أبي هريرة في قوله: ﴿وَلَقَدْ رَأَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ قال: جبريل. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، ومسلم، والترمذي، وابن المنذر، وابن مروي، والبيهقي عن ابن مسعود قال: لما أسري برسول الله ﷺ انتهى إلى سدره المنتهى، وهي في السماء السادسة ينتهي ما يعرج من الأرواح، فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها، فيقبض منها. ﴿إِذْ يَغْشَى السُّدُورَ مَا يَغْشَى﴾ قال: فرأى من ذهب. وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن ابن مسعود قال: «الجنة في السماء السابعة العليا، والنار في الأرض السابعة السفلى». وأخرج البخاري، وغيره عن ابن عباس قال: كان اللات رجلاً يلت السويق للحاج. وأخرج الطبراني، وابن مروي عنه أن العزى كانت بيطن نخلة، وأن اللات كانت بالطائف، وأن مناة كانت بقليد. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿مُضْمِرٌ﴾ قال: جاثرة لا حق لها.

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمُونُ الْمَلَائِكَةَ تسمية الأنثى ﴿١٣﴾ وَأَعْلَمَ بِشَىْءٍ أَنْفَعُ ﴿١٤﴾ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ﴿١٥﴾ وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْتَفَى ﴿١٦﴾ أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُمْ يَرَوْنَهُ ﴿١٧﴾ أَلَمْ يَلْبَسْ بِمَا فِي صُحُفٍ مُّوَسًى ﴿١٨﴾ رَآهُ زَيْدُ بْنُ حَكَمٍ ﴿١٩﴾ الَّذِي تَوَلَّى ﴿٢٠﴾ أَلَّا يَرْوِ زُرَّارًا ﴿٢١﴾ وَمَنْ تَوَلَّى ﴿٢٢﴾ وَأَنَّ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴿٢٣﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يَرَى ﴿٢٤﴾ ثُمَّ يُخَبِّرُهُ الْمَلَائِكَةُ الْأَكْفَرُ ﴿٢٥﴾ وَأَنَّ إِلَهَكَ يَرَى ﴿٢٦﴾

وقول الآخر:

متى تاتنا تلمع بنا في بيارنا تجد حطبا جزلا ونارا تاججا
قال الزجاج: أصل اللمع والإلمام ما يعمله الإنسان المرة
بعد المرة، ولا يتعمق فيه، ولا يقيم عليه، يقال: ألممت به: إذا
زرت، وانصرفت عنه، ويقال: ما فعلته إلا لماما وإلماما أي:
الحين بعد الحين، ومنه إلمام الخيال. قال الأعشى:
لم خيال من قبيلة بعد ما وفى حبلا من حبلا فتصرما
قال في الصحاح: ألم الرجل من اللم وهو صفائر
الذنوب، ويقال: هو مقاربة المعصية من غير واقعة، وأنشد
غيره:

بزينب ألم قبل أن يرحل الربك وقل أن تملينا فما ملك القلب
وقد اختلفت أقوال أهل العلم في تفسير هذا اللم
المنكور في الآية، فالجمهور على أنه صفائر الذنوب، وقيل:
هو ما كان نون الزنا من القبلة، والغمرة، والنظرة، وقيل: هو
الرجل يلم بذنوب، ثم يتوب، وبه قال مجاهد، والحسن،
والزهري، وغيرهم، ومنه:

إن تغفر اللهم تغفر جمعا وإني عبد لك إلا لئلا
اختر هذا القول الزجاج، والنحاس، وقيل: هو ذنوب
الجاهلية، فإن الله لا يؤاخذ بها في الإسلام، وقال نطويه:
هو أن يأتي بذنوب لم يكن له بعبادة. قال: والعرب تقول: ما
تاتينا إلا إلماما أي: في الحين بعد الحين، قال: ولا يكون أن
يلم ولا يفعل؛ لأن العرب لا تقول ألم بنا إلا إذا فعل، لا إذا
هم ولم يفعل، والراجح الأول، وجملة: «إن ربك واسع
المغفرة» تعليل لما تضمنته الاستثناء أي: إن ذلك وإن خرج
عن حكم المؤاخذه، فليس يخلو عن كونه ذنباً يفتقر إلى
مغفرة الله، ويحتاج إلى رحمته، وقيل: إنه سبحانه يغفر لمن
تاب عن ذنبه. ثم ذكر سبحانه إحاطة علمه بأحوال عباده،
فقال: «هو أعلم بكم إذ أنشاكم من الأرض» أي: خلقكم
منها في ضمن خلق أبيكم آدم. وقيل: المراد آدم، فإنه خلقه
من طين «وإذ أنتم لجنّة» أي: هو أعلم بأحوالكم وقت
كونكم أجنة، والأجنة جمع جنين وهو الولد ما دام في البطن
سمي بذلك لاجتنانه أي: استتاره، ولهذا قال: «في بطون
إمهاتكم» فلا يسمى من خرج عن البطن جنينا، والجملة
مستأنفة؛ لتقرير ما قبلها «فلا تزكوا أنفسكم» أي: لا
تمدحوها ولا تبرئوها عن الآثام ولا تشنوا عليها، فإن ترك
تزكية النفس أبعد من الرياء، وأقرب إلى الخشوع، وجملة
«هو أعلم بمن اتقى»: مستأنفة مقررة للنهي أي: هو أعلم
بمن اتقى عقوبة الله، وأخلص العمل له. قال الحسن: وقد علم
سبحانه من كل نفس ما هي عاملة، وما هي صانعة، وإلى ما
هي صائرة. ثم لما بين سبحانه جهالة المشركين على
العموم خصّ بالنعم بعضهم فقال: «الفرقت الذي تولى»
أي: تولى عن الخير، وأعرض عن اتباع الحق «وإعطي
قليلاً وكثيراً» أي: أعطى عطاءً قليلاً، أو أعطى شيئاً قليلاً،
وقطع ذلك وأمسك عنه، وأصل اكدى من الكدية وهي
الصلاية، يقال لمن حفر بئراً ثم بلغ فيها إلى حجر لا يتهاى

واتباعهم مجرد الظن، وقيل: معترضة بين المعلل والعلة
وهي قوله: «إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو
أعلم بمن اهتدى»، فإن هذا تعليل للامر بالإعراض،
والمعنى: أنه سبحانه أعلم بمن حاد عن الحق، وأعرض عنه،
ولم يهتد إليه، وأعلم بمن اهتدى، فقبل الحق، وأقبل إليه،
وعمل به، فهو مجاز كل عامل بعمله، إن خيراً، فخير وإن
شراً فشر. وفيه تسلية لرسول الله ﷺ وإرشاد له بأن لا
يتعب نفسه في دعوة من أصرّ على الضلالة، وسبقت له
الشقاوة، فإن الله قد علم حال هذا الفريق الضال، كما علم
حال الفريق الراشد. ثم أخبر سبحانه عن سعة قدرته،
وعظيم ملكه، فقال: «ووه ما في السموات وما في
الأرض» أي: هو المالك لذلك، والمتصرف فيه لا يشاركه
فيه أحد، واللام في: «ليجزى الذين نسوا ما عملوا»
متعلقة بما دلّ عليه الكلام، كنهه قال: هو مالك ذلك يضل من
يشاء، ويهدي من يشاء ليجزي المسيء بإساءته، والمحسن
بإحسانه. وقيل: إن قوله: «ووه ما في السموات وما في
الأرض» معترضة، والمعنى: إن ربك هو أعلم بمن ضل عن
سبيله، وهو أعلم بمن اهتدى ليجزي، وقيل: هي لام العاقبة
أي: وعاقبة أمر الخلق الذين فيهم المحسن، والمسيء أن
يجزي الله كلا منهما بعمله. وقال مكي: إن اللام متعلقة
بقوله: «لا تغني شفاعتهم» [النجم: 26] وهو بعيد من حيث
اللفظ، ومن حيث المعنى. قرأ الجمهور (ليجزى) بالتحنية.
وقرأ زيد بن علي بالنون، ومعنى «بالحسن» أي: بالمتوبة
الحسن، وهي الجنة، أو بسبب أعمالهم الحسن، ثم وصف
هؤلاء المحسنين، فقال: «الذين يجتنبون كبائر الإثم
والفواحش» فهذا الموصول في محل نصب على أنه نعت
للموصول الأول في قوله: «الذين أحسنوا» وقيل: بدل
منه، وقيل: بيان له، وقيل: منصوب على المدح بإضمار
أعني، أو في محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: هم
الذين يجتنبون كبائر الإثم. قرأ الجمهور (كبائر) على الجمع.
وقرأ حمزة، والكسائي، والأعمش، ويحيى بن وثاب (كبير)
على الأفراد، والكبائر: كل ذنب توعد الله عليه بالنار، أو نمّ
فاعله نمّاً شديداً، ولأهل العلم في تحقيق الكبائر كلام طويل.
وكما اختلفوا في تحقيق معناها، وماهيتها، اختلفوا في
عددها، والفواحش جمع فاحشة: وهي ما فحش من كبائر
الذنوب كالأزنا ونحوه. وقال مقاتل: كبائر الإثم كل ذنب ختم
بالنار، والفواحش كل ذنب فيه الحد، وقيل: الكبائر الشرك،
والفواحش الزنا، وقد قُدمنا في سورة النساء ما هو أبسط
من هذا، وأكثر فائدة، والاستثناء بقوله: «إلا للهم» منقطع،
وأصل اللهم في اللغة ما قلّ وصغر، ومنه ألم بالمكان قلّ
لبث فيه، وألم بالطعام قلّ أكله منه. قال المبرد: أصل اللهم
أن تلمّ بالشيء من غير أن تركبه يقال: ألم بكذا إذا قاربته ولم
يخالطه. قال الأزهري: العرب تستعمل الإلمام في معنى الدنو
والقرب، ومنه قول جرير:

بنفسي من تجنبه عزيز عليّ ومن زيارته لمام

الأوفى تفسيراً للجزاء المللول عليه بالفعل، كما في قوله: ﴿اعملوا هو أقرب﴾ [المائدة: 8] قال الأخفش: يقال: جزيته الجزء، وجزيته بالجزاء سواء لا فرق بينهما ﴿وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ أي: المرجع والمصير إليه سبحانه لا إلى غيره، فيجازيهم بأعمالهم.

وقد أخرج ابن مريويه عن ابن عباس في قوله: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ﴾ قال: الكبائر ما سمي الله فيه النار، والفواحش: ما كان فيه حد الدنيا. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن ابن عباس قال: ما رأيت شيئاً أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين النظر، وزنا اللسان النطق، والنفس تتمنى وتشتهي، والفرج يصنق ذلك، أو يكذبه». وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود في قوله: ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾ قال: زنا العينين: النظر، وزنا الشفتين: التقبيل، وزنا اللبدين: البطش، وزنا الرجلين: المشي، ويصنق ذلك الفرج، أو يكذبه، فإن تقدم بفرجه كان زانياً، وإلا فهو اللمم. وأخرج مسدد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن أبي هريرة أنه سئل عن قوله: ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾ قال: هي: النظرة، والغمزة، والقبلة، والمباشرة، فإذا مس الختان الختان، فقد وجب الغسل، وهو الزنا. وأخرج سعيد بن منصور، والترمذي وصححه، والبخاري، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مريويه، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس قال في قوله: ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾ هو: الرجل يلم بالفاحشة، ثم يتوب منها. قال: وقال رسول الله ﷺ:

«إِنْ تَغْفَرَ لِلْهَمِّ تَغْفِرْ جَمًّا» وأبي عبد لك لا الهاء، وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾ يقول: إلا ما قد سلف. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة في قوله: ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾ قال: للمة من الزنا ثم يتوب ولا يعود، واللة من شرب الخمر ثم يتوب ولا يعود، فذلك الإلمام. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن ابن عباس قال: اللمم كل شيء بين الحدين: حد الدنيا، وحد الآخرة يكفره الصلاة، وهو دون كل موجب، فأما حد الدنيا، فكل حد فرض الله عقوبته في الدنيا؛ وأما حد الآخرة، فكل شيء ختمه الله بالنار، وأخر عقوبته إلى الآخرة. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مريويه، وأبو نعيم في المعرفة عن ثابت بن الحارث الأنصاري قال: كانت اليهود إذا هلك لهم صبي صغير قالوا: هو صديق، فيبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «كذبت يهود ما من نسمة يخلقها في بطن أمها إلا أنه شقي، أو سعيد، فأنزل الله عند ذلك ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ الآية كلها». وأخرج أحمد، ومسلم، وأبو داود عن زينب بنت أبي سلمة أنها سميت بزة، فقال رسول الله ﷺ: «لا تزكوا أنفسكم الله أعلم بأهل البر»

له فيه حفر: قد أكد، ثم استعملته العرب لمن أعطى فلم يتم، ولمن طلب شيئاً فلم يبلغ آخره، ومنه قول الحطيئة: فاعطى قليلاً ثم أكد عطائه ومن يبذل المعروف في الناس يحمده قال الكسائي، وأبو زيد، ويقال: كذبت أصابعه إذا محلت من الحفر، وكذبت يده: إذا كلت، فلم تعمل شيئاً، وكذبت الأرض: إذا قل نباتها، وكذبت الرجل عن الشيء: رديته، وأكدى الرجل: إذا قل خيرته. قال الفراء: معنى الآية: أمسك من العطية وقطع. وقال المبرد: منع منعاً شديداً. قال مجاهد، وابن زيد، ومقاتل: نزلت في الوليد بن المغيرة، وكان قد اتبع رسول الله ﷺ على دينه، فعيره بعض المشركين، فترك ورجع إلى شركه. قال مقاتل: كان الوليد مدح القرآن، ثم أمسك عنه، فاعطى قليلاً من لسانه من الخير ثم قطعه. وقال الضحاك: نزلت في النضر بن الحارث. وقال محمد بن كعب القرظي: نزلت في أبي جهل ﴿اعنده علم الغيب فهو يري﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ، والمعنى: أعند هذا المكدي علم ما غاب عنه من أمر العذاب، فهو يعلم ذلك ﴿لَمْ يَلْمِ يَنْبَأُ بِمَا فِي صَاحِفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَى﴾ أي: ألم يخبر، ولم يحدث بما في صحف موسى يعني: أسفاره، وهي التوراة، وبما في صحف إبراهيم الذي وفى أي: تم ولكمل ما أمر به. قال المفسرون: أي: بلغ قومه ما أمر به وأذاه إليهم، وقيل: بالغ في الوفاء بما عاهد الله عليه، ثم بين سبحانه ما في صحفهما فقال: ﴿أَلَا تَرَى وَأَنْزَرَهُ وَزُرْ أَخْرَى﴾ أي: لا تحمل نفس حاملة أنها بدل من صحف موسى، ومعناه: لا تؤخذ نفس بئيب غيرها، وأن هي المخففة من الثقلية، واسمها ضمير شان مقتر، وخبرها الجملة بعدها، ومحل الجملة الجزر على أنها بدل من صحف موسى، وصحف إبراهيم، أو الرفع على أنها خبر مبتدأ محذوف، وقد مضى تفسير هذه الآية في سورة الأنعام ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ عطف على قوله: ﴿أَلَا تَرَى﴾ وهذا أيضاً مما في صحف موسى، والمعنى: ليس له إلا أجر سعيه، وجزاء عمله، ولا ينفع أحداً عمل أحد، وهذا العموم مخصوص بمثل قوله سبحانه: ﴿الْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور: 21]، ويمثل ما ورد في شفاعة الأنبياء، والملائكة للعباد، ومشروعية دعاء الأحياء للاموات، ونحو ذلك، ولم يصب من قال: إن هذه الآية منسوخة بمثل هذه الأمور، فإن الخاص لا ينسخ العام بل يخصه، فكل ما قام الدليل على أن الإنسان ينتفع به، وهو من غير سعيه كان مخصصاً لما في هذه الآية من العموم ﴿وَأَنْ سَعِيهِ سَوْفَ يَرَى﴾ أي: يعرض عليه ويكشف له يوم القيامة ﴿ثُمَّ يَجْزَاهُ﴾ أي: يجزي الإنسان سعيه، يقال: جزاه الله بعمله، وجزاء على عمله، فالضمير المرفوع علته إلى الإنسان، والمنصوب إلى سعيه. وقيل: إن الضمير المنصوب راجع إلى الجزاء المتأخر وهو قوله: ﴿الْجِزَاءُ الْأَوْفَى﴾ فيكون الضمير راجعاً إلى متأخر عنه هو مفسر له، ويجوز أن يكون الضمير المنصوب راجعاً إلى الجزاء الذي هو مصدر يجزاه، ويجعل الجزاء

والقاضي بسببه. قال الحسن، والكلي: أضحك أهل الجنة في الجنة، وأبكى أهل النار في النار. وقال الضحاك: أضحك الأرض بالنبات، وأبكى السماء بالمطر، وقيل: أضحك من شاء في الدنيا بأن سره، وأبكى من شاء بأن غمه. وقال سهل بن عبد الله: أضحك المطيعين بالرحمة، وأبكى العاصين بالسخط **﴿وفاته هو أمات وأحياء﴾** أي: قضى أسباب الموت والحياة، ولا يقدر على ذلك غيره، وقيل: خلق نفس الموت والحياة، كما في قوله: **﴿خلق الموت والحياة﴾** [الملك: 2] وقيل: أمات الآباء، وأحياء الأبناء، وقيل: أمات في الدنيا وأحياء للبعث، وقيل: المراد بهما النوم واليقظة. وقال عطاء: أمات بعبد له وأحياء بفضل، وقيل: أمات الكافر وأحياء المؤمن، كما في قوله: **﴿أو من كان ميتاً فأحييناه﴾** [الأنعام: 122] **﴿وفاته خلق الزوجين الذكر والأنثى﴾** من نطفة إذا تمنى. المراد: بالزوجين الذكر، والأنثى من كل حيوان، ولا يدخل في ذلك أم، وحواء، فإنهما لم يخلقاً من النطفة والنطفة الماء القليل، ومعنى **﴿إذا تمنى﴾** إذ تصبّ في الرحم وتدفق فيه، كذا قال الكلي، والضحاك، وعطاء بن أبي رباح، وغيرهم، يقال: مني الرجل وأمنى أي: صب المنى. وقال أبو عبيدة **﴿إذا تمنى﴾** إذا تقدر، يقال: منيت الشيء: إذا قدرته ومنى له أي: قدر له، ومنه قول الشاعر:

حتى تلاقي ما يمني لك الماني

والمعنى: أنه يقدر منها الولد **﴿وان عليه النشأة الأخرى﴾** أي: إعادة الأرواح إلى الأجسام عند البعث وفاء بوعده. قرأ الجمهور (النشأة) بالقصر بوزن الضربة، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو بالمدّ بوزن الكفالة، وهما على القراءتين مصدرا **﴿وفاته هو أغنى وأقنى﴾** أي: أغنى من شاء وأقنى من شاء، ومثله قوله: **﴿يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾** [الرعد: 26] وقوله: **﴿يقبض ويبسط﴾** [البقرة: 245] قاله ابن زيد، واختاره ابن جرير. وقال مجاهد، وقتادة، والحسن: أغنى: مؤل، وأقنى: أخضع، وقيل: معنى أقنى: أعطى القنية، وهي ما يتأكل من الأموال. وقيل: معنى أقنى: أرضى بما أعطى أي: أغناه ثم رضاه بما أعطاه. قال الجوهري: قنى الرجل قنًى، مثل غني غنى أي: أعطاه ما يقتني، وأقناه أرضاه، والقنى الرضى. قال أبو زيد: تقول العرب: من أعطى مائة من البقر فقد أعطى القنى، ومن أعطى مائة من الضأن فقد أعطى الغنى، ومن أعطى مائة من الإبل فقد أعطى المنى. قال الأخفش، وابن كيسان: أقنى أفقر، وهو يؤيد القول الأول **﴿وفاته هو ربّ الشعري﴾** هي كوكب خلف الجوزاء كانت خزاعة تعيدها، والمراد بها: الشعري التي يقال لها العبور، وهي أشدّ ضياء من الشعري التي يقال لها الغميصاء، وإنما نكر سبحانه أنه ربّ الشعري مع كونه رباً لكل الأشياء للردّ على من كان يعبدها، وأول من عبدها أبو كبشة، وكان من اشراف العرب، وكانت قریش تقول لرسول الله ﷺ: ابن أبي كبشة تشبّيهما له به لمخالفته دينهم، كما خالفهم أبو كبشة، ومن ذلك قول أبي سفيان يوم الفتح: لقد أمر ابن أبي

منكم سموها زينب. وأخرج ابن مريويه عن ابن عباس في قوله: **﴿وأعطى قليلاً وكدى﴾** قال: قطع، نزلت في العاص بن وائل. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه قال: أطاع قليلاً ثم انقطع. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، والشيرازي في اللقب، والديلمي قال السيوطي: بسند ضعيف عن أبي إمامة عن النبي ﷺ قال: «أتدرون ما قوله: **﴿وإبراهيم الذي وفى﴾**؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: وفى عمل يومه بأربع ركعات كان يصليهن، وزعم أنها صلاة الضحى، وفى إسناد جعفر بن الزبير، وهو ضعيف. وأخرج الحاكم وصححه، وابن مريويه عن ابن عباس قال: سهاه الإسلام ثلاثون سهماً لم يتمها أحد قبل إبراهيم عليه السلام قال: **﴿وإبراهيم الذي وفى﴾**. وأخرج ابن جرير عنه في الآية قال: يقول إبراهيم الذي استكمل الطاعة فيما فعل بآبائه حين رأى الرؤيا، والذي في صحف موسى: **﴿ألا تزر وازرة وزر أخرى﴾** إلى آخر الآية. وأخرج ابن أبي حاتم عن سهل بن معاذ بن أنس، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ألا أخبركم لم سمى الله إبراهيم خليله الذي وفى؟ إنه كان يقول كلما أصبح، وأمسى: **﴿فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون﴾** [الروم: 17] إلى آخر الآية، وفى إسناد ابن لهيعة. وأخرج عبد بن حميد، والحاكم وصححه، وابن مريويه عن ابن عباس، قال: لما نزلت **﴿والنجم﴾** قبل **﴿وإبراهيم الذي وفى﴾** قال: ربي **﴿ألا تزر وازرة وزر أخرى﴾** إلى قوله **﴿من لنذر الأولى﴾**. وأخرج أبو داود، والنحاس كلاهما في النسخ، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مريويه عنه قال: **﴿وان ليس للإنسان إلا ما سعى﴾** فانزل الله بعد ذلك: **﴿والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان أحقنا بهم ذريتهم﴾** [الطور: 21]، فادخل الله الأبناء الجنة بصلاح الآباء. وأخرج ابن مريويه عنه أيضاً قال: كان رسول الله ﷺ إذا قرأ: **﴿وان ليس للإنسان إلا ما سعى﴾** وان سعيه سوف يرى * ثم يجزاه الجزاء الأوفى استرجع واستكان. وأخرج الدارقطني في الأفراد، والبغوي في تفسيره عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ في قوله: **﴿وان إلى ربك المنتهى﴾** قال: لا فكرة في الرب.

وَأَنْتَ هُوَ أَشْهَكَ وَابَّكَ ۖ وَأَنْتَ هُوَ أَمَاتَ وَلَمَّيَا ۖ وَأَنْتَ عَلَيَّ الرَّزِيَّةِ
الَّذِي وَالَّأَنْثَى ۖ بِنَ تَلْفُو إِذَا شِئْتَ ۖ وَأَنْ عَلَيَّ أَنْشَاءَ الْآخِرَى ۖ وَأَنْتَ هُوَ
أَفْقَى وَأَقْنَى ۖ وَأَنْتَ هُوَ رَبُّ الْيَتَامَى ۖ وَأَنْتَ أَمْلَكَ عَادَا الْأُولَى ۖ وَنَوْمَنَا
قَا أَجَى ۖ وَنَوْمَ نَوْجَ بِنَ قَبْلَ إِيَّاهُمْ كَانُوا هُمْ أَهْلَمَ وَكَلَفَ ۖ وَالْمَوَافِقَةُ أَعْرَى
فَنَسَّهَا مَا عَشَى ۖ فَيَايَا مَالَهُ رَبِّكَ تَسَاوَى ۖ هَذَا نَزِيرٌ مِّنَ الْأَنْذَرِ
الْأُولَى ۖ أَوَّلُ الْآلِفَةِ ۖ لَيْسَ لَهَا بِنَ ثَوْبٌ أَلَّهُ كَيْفَهُ ۖ إِنْ هَذَا
لَلْكُرْبِ سَجْوَةٌ ۖ وَتَحْمَكُونَ وَلَا تَكُونُ ۖ وَأَنْتُمْ سَيِّدُونَ ۖ فَاسْتَبْدُوا بِرَبِّ
وَأَسْتَبْدُوا ۖ

قوله: **﴿وفاته هو أضحك وأبكى﴾** أي: هو الخالق لذلك

ليستعموا لها. قال في الصحاح: أزفت الألفة: يعني: القيامة، وأزف الرجل عجل، ومنه قول الشاعر:

أزف الترحل غير أن ركابنا لما تزل برحالنا وكان قد
«ليس لها من دون الله كاشفة» أي: ليس لها نفس
 قادرة على كشفها عند وقوعها إلا الله سبحانه، وقيل: كاشفة
 بمعنى انكشاف، والهاء فيها كالهاء في العاقبة والدامية،
 وقيل: كاشفة بمعنى كاشف، والهاء للمبالغة كراوية، والأوّل
 أولى. وكاشفة صفة لموصوف محذوف، كما ذكرناه، والمعنى:
 أنه لا يقدر على كشفها إذا غشت الخلق بشدايدها، وأموالها
 أحد غير الله، كذا قال عطاء، والضحاك، وقتادة، وغيرهم. ثم
 ويختم سبحانه، فقال: **«أفمن هذا الحديث تعجبون»**
 المراد بالحديث: القرآن أي: كيف تعجبون منه تكذيباً
«وتضحكون» منه استهزاءً مع كونه غير محلٍ للتكذيب،
 ولا موضع للاستهزاء **«ولا تبكون»** خوفاً وانزعاجاً لما فيه
 من الوعيد الشديد، وجملة **«وانتم سامدون»** في محل
 نصب على الحال، ويجوز أن تكون مستأنفة لتقرير ما فيها،
 والسمود: الغفلة والسهو عن الشيء، وقال في الصحاح:
 سمد سموداً رفع رأسه تكبراً، فهو سامد قال الشاعر:

سوامد الليل خفاف الأزواد

وقال ابن الأعرابي: السمود اللهو، والسامد اللاهي، يقال
 للقينة أسمدينا أي: ألهيها بالغناء، وقال المبرد: سامدون
 خامنون. قال الشاعر:

رمى الحدثن نسوة آل عمرو بمقدار سمن له سمودا
 فرد شعورهن السود بيضا ورد وجوههن البيض سودا
«فاسجدوا لله واعبدوا» لما وبّخ سبحانه المشركين
 على الاستهزاء بالقرآن، والضحك منه، والسخرية به، وعدم
 الانتفاع بمواعظه، وزوجه أمر عباده المؤمنين بالسجود
 لله، والعبادة له، والفاء جواب شرط محذوف أي: إذا كان
 الأمر من الكفار كذلك، فاسجدوا لله واعبدوا، فإنه المستحق
 لذلك منكم، وقد تقدم في فاتحة السورة أن النبي ﷺ
 سجد عند تلاوة هذه الآية، وسجد معه الكفار، فيكون المراد
 بها سجد التلاوة، وقيل: سجد الغرض.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في
 قوله: **«وانه هو اغنى واغنى»** قال: أعطى وأرضى. وأخرج
 ابن جرير عنه **«وانه هو رب الشعري»** قال: هو الكوكب
 الذي يدعى الشعري. وأخرج الفلكي عنه أيضاً قال: نزلت
 هذه الآية في خزاعة، وكانوا يعبدون الشعري، وهو الكوكب
 الذي يتبع الجوزاء. وأخرج ابن مريويه عنه أيضاً في قوله:
«هذا نذير من النذر الأولى» قال: محمد ﷺ. وأخرج ابن
 جرير عنه أيضاً قال: الألفة من أسماء القيامة. وأخرج ابن
 أبي شيبة، وأحمد في الزهد، وهناد، وعبد بن حميد، وابن
 المنذر، وابن أبي حاتم عن صالح أبي الخليل قال: لما نزلت
 هذه الآية: **«أفمن هذا الحديث تعجبون * وتضحكون
 ولا تبكون»** فما ضحك النبي ﷺ بعد ذلك إلا أن يتبسّم.

كبشة **«وانه اهلك عاداً الأولى»** وصف عاداً بالأولى
 لكونهم كانوا من قبل ثمود. قال ابن زيد: قيل لها عاداً
 الأولى: لأنهم أوّل أمة أهلكت بعد نوح. وقال ابن إسحاق:
 هما عادان، فالأولى أهلكت بالصرصر، والآخرى أهلكت
 بالصيحة. وقيل: عاد الأولى قوم هود، وعاد الآخرى إرم. قرأ
 الجمهور (عاداً الأولى) بالتنوين والهمز، وقرأ نافع، وابن
 كثير، وابن محيصن بنقل حركة الهمزة على اللام، وإدغام
 التنوين فيها **«وثموداً فما أبقى»** أي: وأهلك ثموداً كما
 أهلك عاداً، فما أبقى أحداً من الفريقين، وثمود هم قوم صالح
 أهلكوا بالصيحة، وقد تقدّم الكلام على عاد، وثمود في غير
 موضع **«وقوم نوح من قبل»** أي: وأهلك قوم نوح من قبل
 إهلاك عاد، وثمود **«إنهم كانوا هم أضلّ وأظلم»** أي: أضلّ
 من عاد وثمود وأظلم منهم، أو أضلّ وأظلم من جميع الفرق
 الكفرية أو أضلّ وأظلم وأظلم من مشركي العرب، وإنما كانوا كذلك
 لأنهم عتوا على الله بالمعاصي مع طول مدة دعوة نوح لهم،
 كما في قوله: **«فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً»**
 [العنكبوت: 14] **«والمؤتفكة أهوى»** الائتفak الانقلاب،
 والمؤتفكة مدائن قوم لوط، وسميت المؤتفكة لأنها انقلبت
 بهم وصار عاليها سافلها، تقول: أفكته إذا قلبته، ومعنى
 أهوى أسقط أي: أهواها جبريل بعد أن رفعها. قال المبرد:
 جعلها تهوي **«فغشاها ما غشى»** أي: البسها ما البسها
 من الحجارة التي وقعت عليها، كما في قوله: **«فجعلنا عاليها
 سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل»** [الحجر: 74]
 وفي هذه العبارة تهويل للأمر الذي غشاها به، وتعظيم له،
 وقيل: إن الضمير راجع إلى جميع الأمم المذكورة أي:
 غشاها من العذاب ما غشى على اختلاف أنواعه **«فبأي
 آلاء ربك تتمازى»** هذا خطاب للإنسان المكذب أي: فبأي
 نعم ربك أيها الإنسان المكذب تشكك وتمتري، وقيل: الخطاب
 لرسول الله ﷺ تعريضاً لغيره، وقيل: لكل من يصلح له،
 وإسناد فعل التمازي إلى الواحد باعتبار تعدّده بحسب تعدد
 متعلقه، وسمى هذه الأمور المذكورة آلاء أي: نعماً مع كون
 بعضها نعماً لا نعماً؛ لأنها مشتملة على العبر والمواعظ،
 ولكون فيها انتقام من العصاة، وفي تلك نصرة للأنبياء
 والصالحين. قرأ الجمهور (تتمازي) من غير إدغام، وقرأ
 يعقوب، وابن محيصن بإدغام إحدى التاءين في الأخرى
«هذا نذير من النذر الأولى» أي: هذا محمد رسول إليكم
 من الرسل المتتبعين قبله، فإنه أنذركم، كما أنذروا قومهم،
 كذا قال ابن جريج، ومحمد بن كعب، وغيرهما. وقال قتادة:
 يريد القرآن، وأنه أنذر بما أنذرت به الكتب الأولى، وقيل: هذا
 الذي أخبرنا به عن أخبار الأمم تخويف لهذه الأمة من أن
 ينزل بهم ما نزل بأولئك، كذا قال أبو مالك. وقال أبو صالح:
 إن الإشارة بقوله: **«هذا»** إلى ما في صحف موسى،
 وإبراهيم، والأوّل أولى **«أزفت الألفة»** أي: قربت الساعة
 وندت، سماها ألفة لقرب قيامها، وقيل: لندوها من الناس،
 كما في قوله: **«اتقربت الساعة»** [القمر: 1] أخبرهم بذلك

الْوَجْدُ دُسِّرَ ﴿١٠﴾ فَمَرَى بِأَعْيُنِ جَزَاءٍ لِّئِنْ كَانَ كُفْرٌ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدْرِكٍ ﴿١٢﴾ نَكَيْتَ كَانِ عَذَابٍ وَثِيرٌ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ بَيَّنَّا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْرِكٍ ﴿١٤﴾

قوله: ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾ أي: قربت، ولا شك أنها قد صارت باعتبار نسبة ما بقي بعد قيام النبوة المحمدية إلى ما مضى من الدنيا قريبة. ويمكن أن يقال: إنها لما كانت متحققة الوقوع لا محالة كانت قريبة، فكل آت قريب ﴿وانشق القمر﴾ أي: وقد انشق القمر، وكذا قرأ حذيفة بزيادة قد، والمراد الانشقاق الواقع في أيام النبوة معجزة لرسول الله ﷺ، وإلى هذا ذهب الجمهور من السلف والخلف. قال الواحدي: وجماعة المفسرين على هذا إلا ما روى عثمان بن عطاء عن أبيه أنه قال: المعنى سينشق القمر، والعلماء كلهم على خلافه. قال: وإنما نكر اقترب الساعة مع انشقاق القمر: لأن انشقاقه من علامات نبوة محمد ﷺ، ونبوته وزمانه من أشراف اقتراب الساعة. قال ابن كيسان: في الكلام تقييد، وتأخير أي: ﴿انشق القمر﴾ واقتربت الساعة. وحكى القرطبي عن الحسن مثل قول عطاء أنه الانشقاق الكائن يوم القيامة. وقيل: معنى وانشق القمر: وضح الأمر وظهر، والعرب تضرب بالقمر المثل فيما وضح وقيل: انشقاق القمر هو انشقاق الظلمة عنه، وطلوعه في اثنائها، كما يسمى الصبح فلما لانفلاق الظلمة عنه. قال ابن كثير: قد كان الانشقاق في زمان رسول الله ﷺ، كما ثبت ذلك في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة. قال: وهذا أمر متفق عليه بين العلماء أن انشقاق القمر قد وقع في زمان النبي ﷺ، وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات. قال الزجاج: زعم قوم عنوانا عن القصد، وما عليه أهل العلم أن تأويله أن القمر ينشق يوم القيامة، والأمر بين في اللفظ، وإجماع أهل العلم، لأن قوله: ﴿وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر﴾ يدل على أن هذا كان في الدنيا لا في القيامة انتهى، ولم يأت من خالف الجمهور، وقال ابن الانشقاق سيكون يوم القيامة إلا بمجرد استبعاد، فقال: لأنه لو انشق في زمن النبوة لم يبق أحد إلا رآه؛ لأنه آية والناس في الآيات سواء. ويجب عنه بأنه لا يلزم أن يراه كل أحد لا عقلاً، ولا شرعاً، ولا عادة، ومع هذا، فقد نقل إلينا بطريق التواتر، وهذا بمجرد ينفع الاستبعاد، ويضرب به في وجه قلته.

والحاصل أنا إذا نظرنا إلى كتاب الله، فقد أخبرنا بأنه انشق، ولم يخبرنا بأنه سينشق، وإن نظرنا إلى سنة رسول الله ﷺ، فقد ثبت في الصحيح، وغيره من طرق متواترة أنه قد كان ذلك في أيام النبوة، وإن نظرنا إلى أقوال أهل العلم، فقد اتفقوا على هذا، ولا يلتفت إلى شذوذ من شذ، واستبعاد من استبعد، وسيأتي نكر بعض ما ورد في ذلك إن شاء الله ﴿وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر﴾ قال الواحدي: قال المفسرون: لما انشق القمر قال المشركون:

ولفظ عبد بن حميد: فما روي النبي ﷺ ضاحكاً، ولا متبسماً حتى ذهب من الدنيا. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مريويه عن ابن عباس في قوله: ﴿سامدون﴾ قال: لاهون معرضون عنه. وأخرج الفريابي، وأبو عبيد في فضائله، وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا في ذم الملاحي، واليزار، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه عنه ﴿وإنتم سامدون﴾ قال: الغناء باليمانية، كانوا إذا سمعوا القرآن تغنوا ولعبوا. وأخرج الفريابي، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مريويه عنه أيضاً في قوله: ﴿سامدون﴾ قال: كانوا يمزنون على النبي ﷺ شامخين، ألم تر إلى البعير كيف يخطر شامخاً. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير عن أبي خالد الوالبي قال: خرج علي بن أبي طالب علينا، وقد أقيمت الصلاة، ونحن قيام ننظره ليتقدم، فقال: ما لكم سامدون لا أنتم في صلاة ولا أنتم في جلوس تنتظرون؟

تفسير سورة القمر

وهي مكية كلها في قول الجمهور. وقال مقاتل: هي مكية إلا ثلاث آيات من قوله: ﴿إم يقولون نحن جميع منتصر﴾ إلى قوله: ﴿والساعة أنهى وأمر﴾ [القمر: 44 - 46] قال القرطبي: ولا يصح. وأخرج: ابن الضريس، وابن مريويه، والنحاس، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس أنها نزلت بمكة. وأخرج ابن مريويه عن ابن الزبير مثله. وأخرج البيهقي في الشعب عن ابن عباس قال: اقتربت تدعى في التوراة المبيضة تبيض وجه صاحبها يوم تبيض الوجوه. قال البيهقي: منكر. وأخرج ابن الضريس عن إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة رفعه: «من قرأ ﴿اقتربت الساعة﴾ [أي: سورة القمر] في كل ليلتين بعثه الله يوم القيامة، ووجهه كالقمر ليلة البدر». وأخرج ابن الضريس نحوه عن ليث بن معن عن شيخ من همدان رفعه، وقد تقدم: «أن النبي ﷺ كان يقرأ بقاف، واقتربت الساعة في الأضحية، والقطر».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَقْرَبَ السَّاعَةِ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَلَنْ يَرَوْا آيَةً يُرْسِلُ رُسُلَهُمْ فَيُبَيِّنَ لَهُمْ سُبُلَ الْبَيِّنَاتِ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٣﴾ حِكْمَةٌ بَلِيغَةٌ فَمَا تُصْنِفُ الْأُنْذُرَ ﴿٤﴾ قَوْلَ عَنَّهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعُ إِلَى نَهْوٍ تُكْفِرُ ﴿٥﴾ خُشْعًا أَصْرَهُمْ يَرْجُونَ مِنَ الْجَنَابِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَفِرٌ ﴿٦﴾ مُهْلِكِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكُفُورُ هَذَا يَوْمَ عَيْرٍ ﴿٧﴾ كَذَبَتْ قُلُوبُهُمْ قَوْمٌ مَكْذُوبًا عَدُوًّا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَكَذَّجَرُ ﴿٨﴾ فَذَعَا رِجْلَهُ إِلَى مَلُوكٍ فَأَنْتَحَرُوا ﴿٩﴾ فَذَحْنًا أَرْبَابَ السَّمَلَةِ يَمُوكُ مَتَّحِرٌ ﴿١٠﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١١﴾ وَجَمَعْنَاهُ عَلَى ذَاتِ

محذوف، أو بديل من ما بديل كل من كل، أو بديل اشتغال، والمعنى: أن القرآن حكمة قد بلغت الغاية ليس فيها نقص ولا خلل، وقرأ بالنصب على أنها حال من ما أي: حال كون ما فيه مزيج حكمة بالغة ﴿فَمَا تَغْنِ الْفَنَرُ﴾ ما يجوز أن تكون استفهامية، وأن تكون نافية أي: أي شيء تغني الفَنَر، أو لم تغنِ الفَنَر شيئاً، والغاء لترتيب عدم الإغناء على مجيء الحكمة البالغة، والنذر جمع نذير بمعنى المنذر، أو بمعنى الإنذار على أنه مصدر. ثم أمره الله سبحانه بالإعراض عنهم، فقال: ﴿فَقُولْ عَنْهُمْ﴾ أي: أعرض عنهم حيث لم يؤثر فيهم الإنذار، وهي منسوخة بآية السيف ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَّكَرَ﴾ انتصاب الظرف إما بفعل مقدر أي: انكر، وإما بـيخرجون المنكور بعده، وإما بقوله: ﴿فَمَا تَغْنِ﴾، ويكون قوله: ﴿فَقُولْ عَنْهُمْ﴾ اعتراض، أو بقوله: ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ﴾ أو بقوله: ﴿خَشَعًا﴾ وسقطت الواو من يدع اتباعاً للفظ، وقد وقعت في الرسم هكذا، وحذفت الياء من الداع للتخفيف، واكتفاء بالكسرة، والداع هو إسرائيلي، والشئ النكر: الأمر الفظيع الذي ينكرونه استعظاماً له لعدم تقدّم العهد لهم بمثله. قرأ الجمهور بضم الكاف. وقرأ ابن كثير بسكونها تخفيفاً. وقرأ مجاهد، وقتادة بكسر الكاف، وفتح الراء على صيغة الفعل المجهول ﴿خَشَعًا أَبْصَارَهُمْ﴾ قرأ الجمهور (خشعاً) جمع خشع. وقرأ حمزة، والكسائي وأبو عمرو (خاشعاً) على الإفراد، ومنه قول الشاعر:

وشباب حسن أوجههم من إِيَادِ بْنِ نَزَارِ بْنِ مَعْدٍ
وقرأ ابن مسعود (خاشعة) قال الفراء: الصفة إذا تقدّمت على الجماعة جاز فيها التنكير، والتانيث، والجمع يعني: جمع التكسير لا جمع السلامة؛ لأنه يكون من الجمع بين فاعلين، ومثل قراءة الجمهور قول امرئ القيس:

وقفاً بها صحبي علي مطيهم يقولون لا تهلك أسي وتجلد
وانتصاب خشعاً على الحال من فاعل يخرجون، أو من الضمير في عنهم، والخشوع في البصر الخضوع والنزلة، وأضاف الخشوع إلى الأبصار؛ لأن العزّ والذلّ يتبين فيها ﴿يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَانَهُمْ جُرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ أي: يخرجون من القبور، وواحد الأجداث جنث، وهو القبر، كأنهم لكثرتهم واختلاط بعضهم ببعض جراد منتشر أي: منبث في الأقطار مختلط بعضهم ببعض ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ الإطعاع: الإسراع أي: قال كونهم مسرعين إلى الداعي، وهو إسرائيلي، ومنه قول الشاعر:

بدجلة دارهم ولقد أراهم بدجلة مهطمين إلى السماع
أي: مسرعين إليه، وقال الضحّاك: مقبلين، وقال قتادة: عامنين. وقال عكرمة: فاتحين آذانهم إلى الصوت، والأوّل أولى، وبه قال أبو عبيدة، وغيره، وجملة: ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمَ عَسَرُ﴾ في محل نصب على الحال من ضمير ﴿مُهْطِعِينَ﴾، والرابط مقدر، أو مستأنفة جواب سؤال مقدر: كأنه قيل: فماذا يكون حينئذ، والعسر: الصعب الشديد، وفي إسناد هذا القول إلى الكفار دليل على أن اليوم ليس بشديد

سحرنا محمد، فقال الله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً﴾ يعني: انشقاق القمر يعرضوا عن التصديق والإيمان بها، ويقولوا: سحر قويّ شديد يعلو كل سحر، من قولهم استمرّ الشيء: إذا قوي واستحكم، وقد قال بأن معنى مستمرّ: قوي شديد جماعة من أهل العلم. قال الأخفش: هو مأخوذ من إمرار الحبل، وهو شدّة قتله، وبه قال أبو العالية، والضحاك، واختاره النحاس، ومنه قول لقيط:

حتى استمر على شر لا يزنه صدق العزيمة لا رثاً ولا ضرعاً
وقال الفراء، والكسائي، وأبو عبيدة: ﴿سحر مستمرّ﴾ أي: ذاهب، من قولهم مرّ الشيء، واستمرّ: إذا ذهب، وبه قال قتادة، ومجاهد، وغيرهما، واختاره النحاس. وقيل: معنى ﴿مستمرّ﴾: دائم مطرد، ومنه قول الشاعر:

ألا إنما الدنيا ليالٍ وأعصر وليس على شيء قديم بمستمر
أي: بدائم باق، وقيل: مستمرّ باطل، روي هذا عن أبي عبيدة أيضاً. وقيل: يشبه بعضه بعضاً، وقيل: قد مرّ من الأرض إلى السماء، وقيل: هو من المرارة يقال: مرّ الشيء صار مرّاً أي: مستبشع عندهم. وفي هذه الآية أعظم دليل على أن الانشقاق قد كان، كما قرئناه سابقاً. ثم نكر سبحانه تكذيبهم، فقال: ﴿وَكُذِّبُوا وَاتَّبِعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: وكذبوا رسول الله، وما عابنوا من قدرة الله، واتبعوا أهواءهم، وما زينه لهم الشيطان الرجيم، وجملة: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ﴾ مستأنفة لتقرير بطلان ما قالوه من التكذيب، واتباع الأهواء أي: وكل أمر من الأمور منته إلى غلبة، فالخير يستقرّ بأهل الخير، والشرّ يستقرّ بأهل الشرّ. قال الفراء: يقول يستقرّ قرار تكذيبهم، وقرار قول المصنّفين حتى يعرفوا حقيقته بالثواب والعقاب. قال الكلبي: المعنى لكل أمر حقيقة ما كان منه في الدنيا فسيظهر، وما كان منه في الآخرة فسيعرف. قرأ الجمهور (مستقرّ) بكسر القاف، وهو مرتفع على أنه خبر المبتدأ وهو ﴿كُلُّ﴾. وقرأ أبو جعفر، وزيد بن علي بجر (مستقرّ) على أنه صفة لأمر، وقرأ شيبه بفتح القاف، ورويت هذه القراءة عن نافع. قال أبو حاتم: ولا وجه لها، وقيل: لها وجه بتقدير مضاف محذوف أي: وكل أمر نو استقرار، أو زمان استقرار، أو مكان استقرار، على أنه مصدر، أو ظرف زمان، أو ظرف مكان ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْجَرٌ﴾ أي: ولقد جاء كفار مكة، أو الكفار على العموم من الأنباء، وهي أخبار الأمم المكذبة المقصودة علينا في القرآن ﴿مَا فِيهِ مُزْجَرٌ﴾ أي: ازججار على أنه مصدر ميمي، يقال زجرت: إذا نهيت عن السوء ووعظته، ويجوز أن يكون اسم مكان، والمعنى: جاءهم ما فيه موضع ازججار أي: أنه في نفسه موضع لذلك، ولصله مزجّر، وتاء الافتعال تقلب دائماً مع الزاي والدال والذال، كما تقرّر في موضعه، وقرأ زيد بن علي (مزجّر) بقلب تاء الافتعال زايًا وإدغام الزاي في الزاي، ومنه في قوله: ﴿مَنْ الْأَنْبَاءِ﴾ للتبويض وهي وما نخلت عليه في محل نصب على الحال، وارتفاع ﴿حِكْمَةً بِالْقَلَمِ﴾ على أنها خبر مبتدأ

على المؤمنين. ثم نكر سبحانه تفصيل بعض ما تقدم من الانبياء المججلة فقال: **«كُتِبَ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ»** أي: كُتِبُوا نبينهم، وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ، وقوله: **«فَكُنِبُوا عَيْنًا»** تفسير لما قبله من التكنيب المبهم، وفيه مزيد تقرير، وتأكيد أي: فكنبوا عيننا نوحاً، وقيل المعنى: كُتِبَ قوم نوح الرسل، فكنبوا عيننا نوحاً بتكنيبه للرسول فإنه منهم. ثم بين سبحانه أنهم لم يقتصروا على مجرد التكنيب، فقال: **«وَقَالُوا مَجْنُونٌ»** أي: نسبوا نوحاً إلى الجنون، وقوله: **«وَأَنزَجِرْ»** معطوف على **«قَالُوا»** أي: وزجر عن دعوى النبوة، وعن تبليغ ما أرسل به بأنواع الزجر، والدال بدل من تاء الافتعال، كما تقدم قريباً، وقيل: إنه معطوف على **«مَجْنُونٌ»** أي: وقالوا إنه أنزجر أي: أنزجرته الجن، وذهبت بلبه، والأول أولى. قال مجاهد: هو من كلام الله سبحانه أخبر عنه بأنه انتهر وزجر بالسب وأنواع الأذى. قال الرازي: وهذا أصح: لأن المقصود تقوية قلب النبي ﷺ بنكر من تقدمه **«فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ»** أي: دعا نوح ربه على قومه بأنني مغلوب من جهة قومي، لتمردهم عن الطاعة، وزجرهم لي عن تبليغ الرسالة، فانتصر لي أي: انتقم لي منهم. طلب من ربه سبحانه النصرة عليهم لما آيس من إجابتهم، وعلم تمردهم وعتوهم، وإصرارهم على ضلالتهم. قرأ الجمهور (أنني) بفتح الهمزة أي: بأنني. وقرأ ابن أبي إسحاق، والأعمش بكسر الهمزة، ورويت هذه القراءة عن عاصم على تقدير إضمار القول أي: فقال. ثم نكر سبحانه ما عاقبهم به فقال: **«فَفَقَحْنَا أَعْيُنَ النَّاسِ عَنْ عَيْنَيْهِ»** أي منصّب انصباباً شديداً، والهمز: الصبّ بكثرة، يقال: همر الماء والدمع يهمر همرأً، وهموراً إذا كثرت، ومنه قول الشاعر: أعينني جوداً بالدمع الهوامر على خير باد من معدّ وحاضر ومنه قول امرئ القيس يصف عينا:

راح تمرّ به الصبا ثم انتحى فيه بشؤبوب جنوب منهمر
قرأ الجمهور (فتحنّا) مخففاً. وقرأ ابن عامر، ويعقوب بالتشديد **«وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عَيْنُونًا»** أي: جعلنا الأرض كلها عيوناً متفجرة، والأصل فجّرنا عيون الأرض. قرأ الجمهور (فجرنا) بالتشديد. وقرأ ابن مسعود، وأبو حيوة، وعاصم في رواية عنه بالتخفيف. قال عبيد بن عمير: أوحى الله إلى الأرض أن تخرج ماءها، فتفجرت بالعيون **«فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ»** أي: التقى ماء السماء وماء الأرض على أمر قد قضى عليهم أي: كأننا على حال قدرها الله وقضى بها. وحكى ابن قتيبة أن المعنى على مقدار لم يرد أحدهما على الآخر، بل كان ماء السماء وماء الأرض على سواء. قال قتادة: قدر لهم إذا كفروا أن يفرقوا. وقرأ الجحدري (فالتقى المأان) وقرأ الحسن (فالتقى الماوان) ورويت هذه القراءة عن علي بن أبي طالب، ومحمد بن كعب **«وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْوُحَا»** و**«وَدَسَّرَ»** أي: وحملنا نوحاً على سفينة ذات الواح، وهي الأخشاب العريضة **«وَدَسَّرَ»** قال الزجاج: هي المسامير

التي تشدّ بها الألواح واحدها دسار، وكل شيء أدخل في شيء يشدّه فهو الدسر، وكذا قال قتادة، ومحمد بن كعب، وابن زيد، وسعيد بن جبير، وغيرهم. وقال الحسن، وشهر بن حوشب، وعكرمة: الدسر ظهر السفينة التي يضرّبها الموج، سميت بذلك لأنها تسر الماء أي: تدفعه، والدسر الدفع. وقال الليث: الدسار خيط تشدّ به الواح السفينة. قال في الصحاح: الدسار واحد الدسر وفي خيوط تشدّ بها الواح السفينة، ويقال: هي المسامير **«تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا»** أي: بمنظر ومرأى منا وحفظ لها، كما في قوله: **«وَأَصْنَعُ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا»** [هود: 37] وقيل: بأمرا وقيل: بوحيتا، وقيل: بالأعين النابغة من الأرض، وقيل: بأعين أوليائنا من الملائكة الموكلين بحفظها **«جَزَاءً لِمَن كَانَ كُفِرًا»** قال الفراء: فعلنا به وبهم ما فعلنا من إنجائه، وإغراقهم ثواباً لمن كفر به وجحد أمره، وهو نوح عليه السلام، فإنه كان لهم نعمة كفروها، فانتصاب جزاء على العلة، وقيل: على المصدرية بفعل مقتر أي: جازيناهم جزاء. قرأ الجمهور (كفر) مبنياً للمفعول، والمراد به نوح. وقيل: هو الله سبحانه، فإنهم كفروا به، وجحدوا نعمته. وقرأ يزيد بن رومان، وقاتدة، ومجاهد، وحמיד، وعيسى (كفر) بفتح الكاف، والغاء مبنياً للفاعل أي: جزاء وعقاباً لمن كفر بالله **«وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً»** أي: السفينة تركها الله عبرة للمعتبرين، وقيل المعنى: ولقد تركنا هذه الفعلة التي فعلناها بهم عبرة، وموعظة **«فَهَلْ مِنْ مُنْكَرٍ»** أصله منكر، فأبليت التاء دالاً مهملة، ثم أبليت المعجمة مهملة لتقاربهما، وأدغمت الدال في الذال، والمعنى: هل من متعظ ومعتبر يتعظ بهذه الآية، ويعتبر بها **«فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي»** أي: إنذارني. قال الفراء: الإنذار والنذر مصدران، والاستفهام للتحويل والتعجيب أي: كنا على كيفية هائلة عجيبة لا يحيط بها الوصف، وقيل: نذر جمع نذير، ونذير بمعنى الإنذار كنكير بمعنى الإنكار **«وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ»** أي: سهلناه للحفظ وأعنا عليه من أراد حفظه، وقيل: هيأناه للتذكر والاتعاظ **«فَهَلْ مِنْ مُنْكَرٍ»** أي: متعظ بمواعظه ومعتبر بعبده. وفي الآية الحث على درس القرآن، والاستكثار من تلاوته، والمسارة في تعلمه، و**«مُنْكَرٍ»** أصله منكر، كما تقدم قريباً.

وقد أخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أنس: «أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم القمر شقيتين حتى راوا حراء بينهما، وروي عنه من طريق أخرى عند مسلم، والترمذي، وغيرهم وقال: فنزلت: **«اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ»** وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن ابن مسعود قال: «انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين: فرقة فوق الجبل، وفرقة دونه، فقال رسول الله ﷺ: اشبهوا». وأخرج عبد بن حميد، والحاكم وصححه، وابن مريويه، والبيهقي في الدلائل عنه قال: رأيت القمر منشقاً شقيتين مرتين: مرة بمكة قبل أن يخرج النبي ﷺ: شقة على

حَضَرُوا ۝ قَاتِلُوا صَالِحًا فَتَمَلَّيْ صَعْرًا ۝ كَذَبَ كَانْ عَذَابٍ وَنَذِيرًا ۝ إِنَّا
أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَجَعَلْنَا كَثِيرًا مِّنْهُم لِّحُطِّيرٍ ۝ وَلَقَدْ بَشَّرْنَا النَّارَ لَلْذِّكْرِ
فَهَلْ مِّنْ مُّذَكِّرٍ ۝ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنَّذْرِ ۝ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاسِبًا ۝ لَا يَأْتِي
لُوطًا بَنَاتُهُمْ بِسَحَرٍ ۝ رَّيَّمَهُ مِنَّ عَذَابًا كَذَلِكَ جَزَىٰ مَن شَكَرَ ۝ وَلَقَدْ
أَنذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَبُوا بِالنَّذْرِ ۝ وَلَقَدْ رَاوَوْهُ مَوْجِيهِ فَكَسَا مُتَشَبِّهًا
فَنَادَوْا عَلَيَّ وَنَذَرَ ۝ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَوِيرٌ ۝ فَتَذَرُوهَا كَالَّذِي
وَنَذَرَ ۝ وَلَقَدْ بَشَّرْنَا النَّارَ لَلْذِّكْرِ فَهَلْ مِّنْ مُّذَكِّرٍ ۝

قوله: ﴿كَذَّبَتْ عادٌ﴾ هم: قوم عاد ﴿فكيف كان عذابي﴾ وكيف كان عذابي لهم وإنذارى إياهم، ونذر مصدر بمعنى إنذار، كما تقدّم تحقيقه، والاستفهام للتوبيخ، والتعظيم ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ هذه الجملة مبيّنة لما أجمله سابقاً من العذاب، والصّرصر شدة البرد أي: ريح شديدة البرد، وقيل: الصّرصر شدة الصوت، وقد تقدّم بيانه في سورة حم السجدة ﴿ففي يوم نحس مستمر﴾ أي: دائم الشؤم استمرّ عليهم بنحوه، وقد كانوا يتشاءمون بذلك اليوم، قال الزجاج: قيل: في يوم الأربعاء في آخر الشهر، قرأ الجمهور (في يوم نحس) بإضافة يوم إلى نحس مع سكون الحاء، وهو من إضافة الموصوف إلى الصفة، أو على تقدير مضاف أي: في يوم عذاب نحس. وقرأ الحسن بتنوين (يوم) على أن نحس صفة له. وقرأ هارون بكسر الحاء. قال الضحاك: كان ذلك اليوم مرأً عليهم. وكذا حكى الكسائي عن قوم أنهم قالوا: هو من المرارة، وقيل: هو من المرة بمعنى القوة أي: في يوم قويّ الشؤم مستحكمه كالشيء المحكم الفتل الذي لا يطلق نقضه، والظاهر أنه من الاستمرار، لا من المرارة، ولا من المرة أي: دام عليهم العذاب فيه حتى أهلكتهم، وشمل بهلاكه كبيرهم وصغيرهم، وجملة ﴿فَنَزَعْنَا النَّاسَ﴾: في محل نصب على أنها صفة لريحاً، أو حال منها، ويجوز أن يكون استثناءً أي: قلّعتهم من الأرض من تحت أقدامهم اقتلاع النخلة من أصلها. قال مجاهد: كانت قلّعتهم من الأرض، فترمي بهم على رؤوسهم فتلقّ أعناقهم، وتبين رؤوسهم من أجسادهم، وقيل: تنزع الناس من البيوت، وقيل: من قبورهم؛ لأنهم حفروا حفائر واخلوها ﴿فكانهم أعجاز نخل منقعر﴾ الأعجاز جمع عجز، وهو مؤخر الشيء، والمنقعر: المنقطع المنقلع من أصله، يقال: قعرت النخلة: إذا قلّعتها من أصلها حتى تسقط، شبههم في طول قاماتهم حين صرعتهم الريح، وطرحتهم على وجوههم بالنخل الساقط على الأرض التي ليست لها رؤوس، وذلك أن الريح قلعت رؤوسهم أولاً، ثم كتبتهم على وجوههم، وتذكير منقعر مع كونه صفة لأعجاز نخل وهي: مؤنثة اعتباراً باللفظ، ويجوز ثانيه اعتباراً بالمعنى، كما قال: ﴿أعجاز نخل خاوية﴾ [الحاقة: 7] قال المبرد: كل ما ورد عليك من هذا الباب إن شئت رديته إلى اللفظ تذكيراً، أو إلى المعنى تانيثاً. وقيل: إن النخل والنخيل يذكر ويؤنث ﴿فكيف كان عذابي ونذر﴾ قد تقدّم تفسيره

أبي قبيس، وشقة على السويداء. ونكر أن هذا سبب نزول الآية. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، وابن جرير، والحاكم وصححه، وابن مروي، وأبو نعيم عنه أيضاً قال: رايت القمر وقد انشق، وأبصرت الجبل بين فرجتي القمر. وله طرق عنه. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن ابن عباس قال: انشق القمر في زمن النبي ﷺ. وله طرق عنه. وأخرج مسلم، والترمذي، وغيرهما عن ابن عمر في قوله: ﴿فانقربت الساعة وانشق القمر﴾ قال: كان ذلك على عهد رسول الله ﷺ انشق فرقتين: فرقة من نون الجبل، وفرقة خلفه، فقال النبي ﷺ: اللهم اشهد. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، والترمذي، وابن جرير، والحاكم وصححه، وابن مروي، وأبو نعيم، والبيهقي عن جبير بن مطعم عن أبيه في قوله: ﴿وانشق القمر﴾ قال: انشق القمر، ونحن بمكة على عهد رسول الله ﷺ حتى صار فرقة على هذا الجبل، وفرقة على هذا الجبل، فقال الناس: سحرنا محمد، فقال رجل: إن كان سحركم، فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن جرير، وابن مروي، وأبو نعيم عن عبد الرحمن السلمي قال: «خطبنا حنيفة بن اليمان بالمدائن، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: ﴿انقربت الساعة وانشق القمر﴾، إلا وإن الساعة قد اقتربت، إلا وإن القمر قد انشق على عهد رسول الله ﷺ، إلا وإن الدنيا قد آمنت بفراق، اليوم المضمار وغداً السباق». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿مهيّطين﴾ قال: ناظرين. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه ﴿ففتحن أبواب السماء بماء منهمر﴾ قال كثير: لم تمطر السماء قبل ذلك اليوم، ولا بعده إلا من السحاب، وفتحت أبواب السماء بالماء من غير سحاب ذلك اليوم، فالتقى المأآن. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عنه أيضاً ﴿على ذات ألواح ودسر﴾ قال: الألواح ألواح السفينة، والدسر: معارضها التي تشد بها السفينة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه أيضاً في قوله: ﴿ودسر﴾ قال: المسامير. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه قال: الدسر كللك السفينة. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مروي، والبيهقي عنه أيضاً في قوله: ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر﴾ قال: لولا أن الله يسره على لسان الأنبياء ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلموا بكلام الله. وأخرج الديلمي عن انس مرفوعاً مثله. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن ابن عباس ﴿فهل من منكر﴾ قال: هل من منكر.

كَذَّبَتْ عادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابُ وَنَذِيرًا ۝ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا مَّرِيْرًا فِي يَوْمٍ
غَيْرٍ مُّسْتَوِيرٍ ۝ تَبَرَّجَ النَّاسُ كَانِهِمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مَّنْجَرٍ ۝ كَذَّبَ كَانْ عَذَابٍ
وَنَذِيرًا ۝ وَلَقَدْ بَشَّرْنَا النَّارَ لَلْذِّكْرِ فَهَلْ مِّنْ مُّذَكِّرٍ ۝ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنَّذْرِ ۝
فَقَالُوا أَإِذَا بَرَأْنَا رِجَالًا حَمَلًا وَمَثَلًا لَّنَا لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۝ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ
فِي لَيْلٍ مُّبَارَكَةٍ وَأَنَّا كُنَّا مُنْزِلِينَ ۝ سَبَّحُوا ثَمُودَ عَذَابَ الْكَذَّابِ الْكَاثِرِ ۝ إِنَّا مَرْسِلُونَ
الْبَاقَةَ وَنَهْنَهُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَسْأَلِي ۝ وَنَبِّئِهِمْ أَنَّ الْكَلِمَةَ مِثْقَلُ ذَرَّةٍ كُلُّ شَرِّ

لقومه، وجملة: ﴿إنا مرسلوا الناقة﴾ مستأنفة لبيان ما تقدم إجماله من الوعيد أي: إنا مخرجوها من الصخرة على حسب ما اقترحوه ﴿فتنة لهم﴾ أي: ابتلاء وامتحاناً، وانتصاب فتنة على العلة ﴿فارتقبهم﴾ أي: انتظر ما يصنعون ﴿واصطبر﴾ على ما يصيبك من الأذى منهم ﴿ونبئهم أن الماء قسمة بينهم﴾ أي: بين ثمود وبين الناقة، لها يوم ولهم يوم، كما في قوله: ﴿لها شرب ولكم شرب يوم معلوم﴾ [الشعراء: 155] وقال: ﴿نبئهم﴾ بضمير العقلاء تغليبا ﴿كل شرب محتضر﴾ الشرب بكسر الشين الحظ من الماء. ومعنى ﴿محتضر﴾: أنه يحضره من هو له، فالناقة تحضره يوماً، وهم يحضرونه يوماً. قال مجاهد: إن ثمود يحضرون الماء يوم نوبتهم فيشربون، ويحضرون يوم نوبتها فيحتلبون. قرأ الجمهور (قسمة) بكسر القاف بمعنى مقسوم، وقرأ أبو عمرو في رواية عنه بفتحها ﴿فنادوا أصحابهم﴾ أي: نادى ثمود أصحابهم وهو قدار بن سالف عاقر الناقة يحضونه على عقرها ﴿فتعاطى فعقر﴾ أي: تناول الناقة بالعقر فعقرها، أو اجترأ على تعاطي أسباب العقر فعقر. قال محمد بن إسحاق: كمن لها في أصل شجرة على طريقها، فرماها بسهم، فانتظم به عضلة ساقها، ثم شد عليها بالسيف، فكسر عرقوبها، ثم نحرها، والتعاطي: تناول الشيء بتكلف ﴿فكيف كان عذابي ونذر﴾ قد تقدم تفسيره في هذه السورة. ثم بين ما أجمله من العذاب فقال: ﴿إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة﴾ قال عطاء: يريد صيحة جبريل، وقد مضى بيان هذا في سورة هود، وفي الأعراف ﴿فكانوا كهشيم المحطّر﴾ قرأ الجمهور بكسر الظاء، والهشيم: حطام الشجر ويابس، والمحتطر: صاحب الحظيرة، وهو الذي يتخذ لغنمه حظيرة تمنعها عن برد الريح، يقال: احتظر على غنمه: إذا جمع الشجر ووضع بعضه فوق بعض. قال في الصحاح: والمحتطر: الذي يعمل الحظيرة. وقرأ الحسن، وقتادة، وأبو العالية بفتح الظاء أي: كهشيم الحيرة، فمن قرأ بالكسر أراد الفاعل للاحتظار، ومن قرأ بالفتح أراد الحظيرة، وهي فعيلة بمعنى مفعولة ومعنى الآية: أنهم صاروا كالشجر إذا يبس في الحظيرة، وداسته الغنم بعد سقوطه، ومنه قول الشاعر:

أثرن عجاجه كخضان نار تشب بغرقد بال هشيم
وقال قتادة: هو العظام النخرة المحترقة. وقال سعيد بن جبير: هو التراب المتناثر من الحيطان في يوم ريح. وقال سفيان الثوري: هو ما يتناثر من الحظيرة إذا ضربتها بالعصي. قال ابن زيد: العرب تسمي كل شيء كان رطباً فيبس هشيماً، ومنه قول الشاعر:

ترى جيف المطي بجانيبه كان عظامها خشب الهشيم
﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ قد تقدم تفسير هذا في هذه السورة. ثم أخبر سبحانه عن قوم لوط بأنهم كتبوا رسل الله، كما كتبهم غيرهم، فقال: ﴿كتبتم قوم لوط بالأنذر﴾ وقد تقدم تفسير الأنذر قريباً. ثم بين سبحانه

قريباً، وكذلك قوله: ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾، ثم لما نكر سبحانه تكتيب عاد أتبعه بتكتيب ثمود، فقال: ﴿كتبتم قوم بالأنذر﴾ يجوز أن يكون جمع نذير أي: كتب بالرسول المرسلين إليهم، ويجوز أن يكون مصدرًا بمعنى الإنذار أي: كتب بالإنذار الذي أنذروا به، وإنما كان تكتيبهم لرسولهم وهو صالح تكتيباً للرسول؛ لأن من كتب واحداً من الأنبياء فقد كتب سائرهم؛ لاتفاقهم في الدعوة إلى كليات الشرائع ﴿فقلوا لبشرنا منا واحداً نتبعه﴾ الاستفهام للإنكار أي: كيف نتبع بشراً كائناً من جنسنا منفرداً وحده لا متابع له على ما يدعو إليه. قرأ الجمهور بنصب (بشراً) على الاشتغال أي: انتبع بشراً واحداً. وقرأ أبو السمك، والداني، وأبو الأشهب، وابن السميع بالرفع على الابتداء، وواحداً صفته، ونبته خبره. وروي عن أبي السمك أنه قرأ برفع (بشراً) ونصب (واحداً) على الحال ﴿إنا إذا لفي ضلال﴾ أي: إنا إذا اتبعناه لفي خطأ، وذهب عن الحق ﴿وسعر﴾ أي: عذاب وعناء وشدة كذا قال الفراء، وغيره. وقال أبو عبيدة: هو جمع سعير، وهو لهب النار، والسعر: الجنون يذهب كذا وكذا لما يلتهب به من الحدة. وقال مجاهد: وسعر وبعد عن الحق. وقال السدي: في احتراق، وقيل المراد به هنا: الجنون، من قولهم: ناقة مسعورة أي: كأنها من شدة نشاطها مجنونة، ومنه قول الشاعر يصف ناقة:

تخال بها سمرأ إذ السعير هزها نميل وإيقاع من السير متعب
ثم كبروا الإنكار والاستبعاد فقالوا: ﴿القي للذكر عليه من بيننا﴾ أي: كيف خص من بيننا بالوحي والنبوة، وفيما من هو أحق بذلك منه؟ ثم أضربوا عن الاستنكار، وانتقلوا إلى الجزم بكونه كذاباً أشرأ فقالوا: ﴿ويل هو كذاب أشر﴾ والأشر: المرح والنشاط، أو البطر والتكبر، وتفسيره بالبطر والتكبر أنسب بالمقام، ومنه قول الشاعر:

أشرم بلبس الخزلما لبستم ومن قبل لا ترون من فتح القرى
قرأ الجمهور (أشر) كفرح. وقرأ أبو قلاب، وأبو جعفر بفتح الشين، وتشديد الراء على أنه أفعل تفضيل، ونقل الكسائي عن مجاهد أنه قرأ بضم الشين مع فتح الهمزة. ثم أجاب سبحانه عليهم بقوله: ﴿سيعلمون غداً من الكذاب الأشر﴾ والمراد بقوله ﴿غداً﴾: وقت نزول العذاب بهم في الدنيا، أو في يوم القيامة جرياً على عادة الناس في التعبير بالغد عن المستقبل من الأمر وإن بعد، كما في قولهم: إن مع اليوم غداً، وكما في قول الحطيئة:

للموت فيها سهام غير مخطئة من لم يكن ميتاً في اليوم مات غداً
ومنه قول أبي الطماح:

ألا عللاني قبل نوح النوائح وقبل اضطراب النفس بين الجوانح
وقيل غدا يالهدف نفسي على غد إذا راح أصحابي ولست برائح
قرأ الجمهور (سيعلمون) بالتحية إخبار من الله سبحانه لصالح عن وقوع العذاب عليهم بعد مدة. وقرأ أبو عمرو، وابن عامر، وحزمة بالفوقية على أنه خطاب من صالح

المنذر عنه **«كانهم أعجاز نخل»** قال: أصول النخل **«منقعر»** قال: منقلع. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً في الآية قال: أعجاز سواد النخل. وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً **«وسعر»** قال شقاء. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه أيضاً قال: **«كهشيم المحتظر»** قال: كحظائر من الشجر محترقة. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً في الآية قال: كالعظام المحترقة. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عنه قال: كالخشيش تاكله الغنم.

وَلَقَدْ جَاءَ نَارَ رَعَوْنَ الْفُرَّانِ ۖ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كَذَّبَتْكُمْ أَنْدَ عَزِيزٍ مُّقْدِرٍ ۝
 ١١ أَكْفَرْتُمْ خَيْرَ مَنْ أُنْزِلَتْ أَرْكَرُ بَرَكَةٍ فِي الزُّمُرِ ۝
 ١٢ أَمْ يَقُولُونَ كُلُّهُمْ سَوَاءٌ ۖ سَيَرْجِعُهُمْ فِي كِفْتَاسٍ ۚ إِنَّهُمْ يُكْسَرُونَ ۝
 ١٣ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذًى ۖ وَآزْمٌ ۝
 ١٤ إِنَّ الْآخِرِينَ فِي صُلَىٰ وَشَرٍّ ۖ يَوْمَ يُسَبَّحُونَ فِي الْآثَارِ عَلَىٰ وَجْهِهِمْ ۖ
 ١٥ دُورًا مِّنْ سَرٍّ ۖ إِنَّا كَلَّمْنَاهُ ضَلَالَةً يُدْرِكُ ۖ رَمَّا أَمْرًا إِلَّا وَجْدَهُ كَلَّجَ ۖ
 ١٦ بِالْبَصْرِ ۖ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مَّدَكِرٍ ۖ وَكُلُّ مَنٍّ ۖ
 ١٧ نَمْلَةٍ فِي الْآثِرِ ۖ وَكُلُّ صَنِيرٍ وَيَكْبَرُ مُسْتَطَرٌ ۖ إِنَّ الْآلِئِينَ فِي جَنَّتِ ۖ
 ١٨ وَهَرٍّ ۖ فِي مَقَرٍّ مَّيْتَةٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْدِرٍ ۖ

«المنذر» يجوز أن يكون جمع نذير، ويجوز أن يكون مصدر بمعنى الإنذار كما تقدم، وهي الآيات التي أنذرهم بها موسى، وهذا أولى لقوله: **«كذبوا بآياتنا كلها»** فإنه بيان لذلك، والمراد بها: الآيات التسع التي تقدم نكرها **«فأخفناهم أخذ عزيز مقتدر»** أي: أخفناهم بالعذاب أخذ غالب في انتقامه قاتر على إهلاكهم لا يعجزه شيء، ثم خوف سبحانه كفار مكة فقال: **«أكفاركم خير من أولئكم»** والاستفهام للإنكار، والمعنى النفي أي: ليس كفاركم يا أهل مكة، أو يا معشر العرب خير من كفار من تقدمكم من الأمم الذين أهلكوا بسبب كفرهم، فكيف تطعمون في السلامة من العذاب، وأنتم شر منهم. ثم أضرب سبحانه عن ذلك، وانتقل إلى تبكيتهم بوجه آخر هو أشد من التبكيتهم بالوجه الأول، فقال: **«إنا لكم براءة في الزبر»** والزبر هي الكتب المنزلة على الأنبياء، والمعنى: إنكار أن تكون لهم براءة من عذاب الله في شيء من كتب الأنبياء. ثم أضرب عن هذا التبكيته، وانتقل إلى التبكيته لهم بوجه آخر، فقال: **«إنا يقولون نحن جميع منتصر»** أي: جماعة لا تطاق لكثرة عدنا وقوتنا، أو أمرنا مجتمع لا تغلب، وأفرد منتصراً اعتباراً بلفظ جميع. قال الكلبي: المعنى نحن جميع أمرنا ننتصر من أعدائنا، فرد الله سبحانه عليهم بقوله: **«سيهزم الجميع»** أي: جمع كفار مكة، أو كفار العرب على العموم. قرأ الجمهور (سيهزم) بالتحية مبنياً للمفعول، وقرأ ورش عن يعقوب (سنهزم) بالنون وكسر الزاي ونصب (الجمع). وقرأ أبو حيوة، وابن أبي عبيدة بالتحية مبنياً للمفعول، وقرأ بالفوقية مبنياً للمفعول **«ويولون للبر»** قرأ الجمهور (يولون) بالتحية، وقرأ عيسى، وابن أبي إسحاق، وورش عن يعقوب بالفوقية على الخطاب، والمراد بـ **«البر»**: الجنس، وهو في معنى الإبرار،

ما عذبهم به، فقال: **«إنا أرسلنا عليهم حاصباً»** أي: ريحاً ترميهم بالحصباء، وهي الحصى. قال أبو عبيدة، والنضر بن شميل: الحاصب الحجارة في الريح. قال في الصحاح: الحاصب الريح الشديدة التي تثير الحصباء، ومنه قول الفرزدق:

مستقبلين شمال الشام يضربها بحاصب كنديف القطن منشور
«إلا آل لوط نجيناهم بسحر» يعني: لوطاً ومن تبعه، والسحر آخر الليل، وقيل: هو في كلام العرب اختلاط سواد الليل ببياض أول النهار، وانصرف سحر لأنه نكرة لم يقصد به سحر ليلة معينة، ولو قصد معيناً لامتنع. كذا قال: الزجاج، والأخفش، وغيرهما. وانتصاب **«نعمه من عذابنا»** على العلة، أو على المصدرية أي: إنعاماً منا على لوط، ومن تبعه **«كنكلكم نجزي من شكر»** أي: مثل ذلك الجزاء نجزي من شكر نعمتنا، ولم يكفرها **«ولقد أنذرهم بطشتنا»** أي: أنذر لوط قومه بطشة الله بهم، وهي عذاب الشديد، وعقوبته البالغة **«فتमारوا بالنذر»** أي: شكوا في الإنذار ولم يصنّفوه، وهو تفاعلوا من المرية، وهي الشك **«ولقد راودوه عن ضيفه»** أي: أرادوا منه تمكينهم ممن أتاه من الملائكة ليفجروا بهم، كما هو دأبهم، يقال راودته عن كذا مراودة ورواداً أي: أردته، وراد الكلام يروده رواداً أي: طلبه، وقد تقدم تفسير المراودة مستوفى في سورة هود **«فطمسنا أعينهم»** أي: صيرنا أعينهم ممسوحة لا يرى لها شق، كما تطمس الريح الأعلام بما تسفي عليها من التراب. وقيل: أذهب الله نور أبصارهم مع بقاء الأعين على صورتها. قال الضحاك: طمس الله على أبصارهم، فلم يروا الرسل، فرجعوا **«فأنوقوا عذابى ونذر»** قد تقدم تفسيره في هذه السورة **«ولقد أصبحهم بكرة عذاب مستقر»** أي: أتاهم صباحاً عذاب مستقر بهم نازل عليهم لا يفارقهم ولا ينفك عنهم. قال مقاتل: استقر بهم العذاب بكرة، وانصرف (بكرة) لكونه لم يرد بها وقتاً بعينه، كما سبق في (بسحر). **«فأنوقوا عذابى ونذر»** ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من منكركم قد تقدم تفسير هذا في هذه السورة، ولعل وجه تكرير تيسير القرآن للذكر في هذه السورة الإشعار بأنه منة عظيمة لا ينبغي لأحد أن يغفل عن شكرها.

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: **«إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً»** قال: باردة **«في يوم نحس»** قال: أيام شداد. وأخرج ابن المنذر، وابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «يوم الأربعاء يوم نحس مستمر»، وأخرجه عنه ابن مردويه من وجه آخر مرفوعاً. وأخرجه ابن مردويه عن علي مرفوعاً. وأخرجه ابن مردويه أيضاً عن أنس مرفوعاً، وفيه وقيل: وكيف ذاك يا رسول الله؟ قال: أغرق الله فيه فرعون وقومه، وأهلك فيه عاداً، وثموداً. وأخرج ابن مردويه، والخطيب بسند. قال السيوطي: ضعيف عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «آخر أربعاء في الشهر يوم نحس مستمر». وأخرج ابن

عثمان البتي (في مقاعد صدق).

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس **﴿اكفاركم خير من أولئكم﴾** يقول: ليس كفاركم خير من قوم نوح، وقوم لوط. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن منيع، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مريويه عنه في قوله: **﴿سيهزم الجمع ويولون السبر﴾** قال: كان ذلك يوم بدر قالوا: **﴿نحن جميع منتصر﴾** فنزلت هذه الآية. وفي البخاري، وغيره عنه أيضاً أن النبي ﷺ قال، وهو في قبة له يوم بدر: «أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم أبداً، فأخذ أبو بكر بيده، وقال: حسبك يا رسول الله ألححت على ربك، فخرج، وهو يثب في الدرع، ويقول: **﴿سيهزم الجمع ويولون السبر﴾** بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر». وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، ومسلم، والترمذي، وابن ماجه، وغيرهم عن أبي هريرة قال: جاء مشركو قريش إلى النبي ﷺ يخاصمونه في القدر، فنزلت: **﴿يوم يسحبون في النار على وجوههم﴾**. وأخرج مسلم عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «كل شيء بقدر حتى العجز، والكيس». وأخرج ابن المنذر عنه في قوله: **﴿وكل صغير وكبير مستطر﴾** قال: مسطور في الكتاب اهـ.

تفسير سورة الرحمن

وهي مكية. قال القرطبي: كلها في قول الحسن، وعروة بن الزبير، وعكرمة، وعطاء، وجابر قال: قال ابن عباس: **﴿إلا آية منها، وهي قوله: ﴿يسأله من في السموات والأرض﴾﴾** [الرحمن: 29] الآية. وقال ابن مسعود، ومقاتل: هي منية كلها، والأول أصح، ويدل عليه ما أخرجه التحاسن عن ابن عباس قال: نزلت سورة الرحمن بمكة. وأخرج ابن مريويه عن عبد الله بن الزبير قال: أنزل بمكة سورة الرحمن. وأخرج ابن مريويه عن عائشة قالت: نزلت سورة **﴿الرحمن﴾** علم القرآن بمكة. وأخرج أحمد، وابن مريويه، قال السيوطي: بسند حسن عن أسماء بنت أبي بكر قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ، وهو يصلي نحو الركن قبل أن يصعد بما يؤمر، والمشركون يسمعون: **﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾** ويؤيد القول الثاني ما أخرجه ابن الضريس، وابن مريويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: نزلت سورة الرحمن بالمدينة، ويمكن الجمع بين القولين بأنه نزل بعضها بمكة، وبعضها بالمدينة. وأخرج الترمذي، وابن المنذر، وأبو الشيخ في العظمة، والحاكم وصححه، وابن مريويه، والبيهقي في الدلائل عن جابر بن عبد الله قال: «خرج رسول الله ﷺ على أصحابه، فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها، فسكتوا، فقال: ما لي أراكم سكوتاً لقد قرأتها على الجن ليلة الجن، فكانوا أحسن مردوداً منكم كلما أتيت على قوله: **﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾** قالوا: لا شيء من نعمك ربنا نكتب فلك الحمد». قال الترمذي بعد

وقد هزمهم الله يوم بدر، ولولا الأبرار، وقتل رؤساء الشرك، وإساطين الكفر، فلك الحمد **﴿بل الساعة موعدهم﴾** أي: موعد عذابهم الآخروي، وليس هذا العذاب الكائن في الدنيا بالقتل والأسر والقهر، وهو تمام ما وعدوا به من العذاب، وإنما هو مقننة من مقنماته وطليلة من طلائعه، ولهذا قال: **﴿والساعة أدهى وأمر﴾** أي: وعذاب الساعة أعظم في الضرر وأقطع، مأخوذ من الدهاء، وهو النكر واللفظاة، ومعنى أمر: أشد مرارة من عذاب الدنيا، يقال: دهاء أمر كذا أي: أصابه دهواً ودهياً **﴿إن المجرمين في ضلال وسعر﴾** أي: في ذهاب عن الحق وبعد عنه، وقد تقدم في هذه السورة تفسير **﴿وسعر﴾**، فلا نعيده **﴿يوم يسحبون في النار على وجوههم﴾** والظرف منتصب بما قبله أي: كانوا في ضلال، وسعر يوم يسحبون، أو يقول مقتر بعده أي: يوم يسحبون يقال لهم: **﴿نوقوا من سقر﴾** أي: قاسوا حرها وشدة عذابها، وسقر علم لجهنم. وقرأ أبو عمرو في رواية عنه بإدغام سين (مس) في سين (سقر) **﴿إننا كل شيء خلقناه بقدر﴾** قرأ الجمهور بنصب (كل) على الاشتغال. وقرأ أبو السماك بالرفع، والمعنى: أن كل شيء من الأشياء خلقه الله سبحانه ملتبساً بقدر قدره، وقضاء قضاءه سبق في علمه مكتوب في اللوح المحفوظ قبل وقوعه، والقدر التقدير، وقد تقدمنا الكلام على تفسير هذه الآية مستوفى **﴿وما أمرنا إلا لآحدة كلمج بالبحر﴾** أي: إلا مرة واحدة، أو كلمة واحدة كلمج بالبحر في سرعته، واللمج: النظر على العجلة والسرعة. وفي الصحاح لمحه والمحه: إذا أبصره بنظر خفيف، والاسم لللمحة. قال الكلبي: وما أمرنا بمجيء الساعة في السرعة إلا كطرف البصر **﴿ولقد اهلكنا نسياككم﴾** أي: أشباهكم ونظاركم في الكفر من الأمم، وقيل: أتباعكم وأعاونكم **﴿فهل من منكر﴾** يتنكر ويتعظ بالمواعظ، ويعلم أن تلك حق، فيخاف العقوبة، وأن يحل به ما حل بالأمم السالفة **﴿وكل شيء فعلوه في الزبر﴾** أي: جميع ما فعلته الأمم من خير أو شر مكتوب في اللوح المحفوظ، وقيل: في كتب الحفظة **﴿وكل صغير وكبير مستطر﴾** أي: كل شيء من أعمال الخلق وأقوالهم وأفعالهم مسطور في اللوح المحفوظ صغيره وكبيره، وجليله وحقيقه يقال: سطر يسطر سطرأ كتب، وأسطر مثله. ثم لما فرغ سبحانه من نكر حال الأشقياء نكر حال السعداء فقال: **﴿إن للمتقين في جنات ونهر﴾** أي: في بساتين مختلفتين، وجنان متنوعة، وأتاهر متنفقة. قرأ الجمهور (ونهر) بفتح الهاء على الأفراد، وهو جنس يشمل أتيار الجنة، وقرأ مجاهد، والأعرج، وأبو السماك بسكون الهاء وهما لغتان، وقرأ أبو مجلز، وأبو نهشل، والأعرج، وطلحة بن مصرف، وقتادة (نهر) بضم النون، والهاء على الجمع **﴿في مقعد صدق﴾** أي: في مجلس حق لا لغو فيه ولا تأثيم، وهو الجنة **﴿عند ملك مقدر﴾** أي: قادر على ما يشاء لا يعجزه شيء، و **﴿عند هاهنا كناية عن الكرامة، وشرف المنزلة، وقرأ**

بالقلم. والاولى حمل الإنسان على الجنس، وحمل البيان على تعليم كل قوم لسانهم الذي يتكلمون به ﴿الشمس والقمر بحسبان﴾ أي: يجريان بحساب، ومنازل لا يعدونها، ويدلان بذلك على عدد الشهور والسنين. قال قتادة، وأبو مالك: يجريان بحسبان في منازل لا يعدونها، ولا يحيدان عنها. وقال ابن زيد، وابن كيسان: يعني: أن بهما تحسب الأوقات، والآجال والأعمار، ولولا الليل والنهار، والشمس والقمر لم يدرك أحد كيف يحسب؛ لأن الدهر يكون كله ليلاً أو نهاراً. وقال الضحاك: معنى ﴿بحسبان﴾: بقدر. وقال مجاهد: بحسبان كحسبان الرحي يعني: قطبهما الذي يدوران عليه. قال الأخفش: الحسبان جماعة الحساب، مثل شهاب وشهبان. وأما الحسبان بالضم فهو العذاب، كما مضى في سورة الكهف ﴿والنجم والشجر يسجدان﴾ النجم ما لا ساق له من النبات، والشجر ما له ساق. قال الشاعر:

لقد أنجم القاع الكثير عضاهه وتم به حيا تميم ورائل

وقال زهير:

مكلل بلصول النجم تنسجه ريح الجنوب لضاحي ما به حبك والمراد: بسجودهما انقيادهما لله تعالى انقياد الساجدين من المكلفين. وقال الفراء: سجودهما: أنهما يستقبلان الشمس إذا طلعت، ثم يميلان معها حين ينكسر الفيء. وقال الزجاج: سجودهما لوران الظل معهما، كما في قوله: ﴿يتقيوا ظلاله﴾ [النحل: 48] وقال الحسن، ومجاهد: المراد بالنجم نجم السماء، وسجوده طلوعه، ورجح هذا ابن جرير. وقيل: سجوده أقوله، وسجود الشجر: تمكينها من الاجتناء لثمارها. قال النحاس: أصل السجود الاستسلام والانقياد لله، وهذه الجملة والتي قبلها خبران آخران للرحمن، وترك الرابط فيهما لظهوره كأنه قيل: الشمس والقمر بحسبانه، والنجم والشجر يسجدان له ﴿والسمااء رفعها﴾ قرأ الجمهور بنصب (السمااء) على الاشتغال. وقرأ أبو السماك بالرفع على الابتداء، والمعنى: أنه جعل السماء مرفوعة فوق الأرض ﴿ووضع الميزان﴾ المراد بالميزان العدل أي: وضع في الأرض العدل الذي أمر به، كذا قال مجاهد، وقتادة، والسدي، وغيرهم. قال الزجاج: المعنى: أنه أمرنا بالعدل، ويدل عليه قوله: ﴿الآن تطفوا في الميزان﴾ أي: لا تجاوزوا العدل. وقال الحسن، والضحاك: المراد به: آلة الوزن ليتوصل بها إلى الإنصاف والانتصاف. وقيل: الميزان القرآن لأن فيه بيان ما يحتاج إليه، وبه قال الحسين بن الفضل، والأول أولى. ثم أمر سبحانه بإقامة العدل بعد إخباره للعباد بأنه وضعه لهم، فقال: ﴿واقيموا الوزن بالقسط﴾ أي: قوموا وزنكم بالعدل وقيل المعنى: أقيموا لسان الميزان بالعدل، وقيل المعنى: أنه وضع الميزان في الآخرة لوزن الأعمال، و «أن» في قوله: ﴿الآن تطفوا﴾ مصدرية أي: لثلا تطفوا، ولا نافية أي: وضع الميزان لثلا تطفوا، وقيل هي مفسرة: لأن في الوضع معنى القول، والطغيان مجاوزة الحد، فمن قال الميزان العدل، قال: طغيانه الجور ومن قال: الميزان الآلة التي يوزن بها، قال:

إخراجه: هذا حديث غريب لا تعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم عن زهير بن محمد. وحكي عن الإمام أحمد أنه كان يستنكر روايته عن زهير، وقال البزار: لا نعرفه يروى إلا من هذا الوجه. وأخرجه البزار، وابن جرير، وابن المنذر، والدارقطني في الأفراد، وابن مردويه، والخطيب في تاريخه من حديث ابن عمر، وصحح السيوطي إسناده. وقال البزار: لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد. ولخرج البيهقي في الشعب عن علي، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لكل شيء عروس، وعروس القرآن الرحمن».

سورة الرحمن الرحيم

الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝ وَالسَّمَاءُ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝ وَأَقِيمُوا زُكُوتَ الْوَيْسِطِ وَلَا تَغْرِبُوا الْمِيزَانَ ۝ وَالْأَرْضُ وَمَعَهَا الْأَنْدَادُ ۝ بِهَا فَكَّهُتُ وَالنَّخْلُ ثَاثٌ الْأَكْدَادُ ۝ وَلَهُ ذُو الْعَرْشِ وَالرَّحْمَنُ ۝ يَا أَيُّهَا آيَةُ رَبِّكَ تَكْذِبَانِ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ۝ وَوَضَعَ الْجَبَانَ مِنْ مَّاءٍ مِنْ مَّارٍ ۝ يَا أَيُّهَا آيَةُ رَبِّكَ تَكْذِبَانِ ۝ رَبُّ الْوَهَّابِينَ ۝ يَا أَيُّهَا آيَةُ رَبِّكَ تَكْذِبَانِ ۝ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝ بَيْنَهُمَا بَرْجٌ لَا يَبِينَانِ ۝ يَا أَيُّهَا آيَةُ رَبِّكَ تَكْذِبَانِ ۝ مَرَجَ مِنْهُمُ الذُّلُومُ وَالْمَكِيدَاتُ ۝ يَا أَيُّهَا آيَةُ رَبِّكَ تَكْذِبَانِ ۝ وَلَهُ الْكِبَرُ الْمُنْكَثَاتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ۝ يَا أَيُّهَا آيَةُ رَبِّكَ تَكْذِبَانِ ۝

قوله: ﴿الرحمن﴾ علم القرآن ارتقاء الرحمن على أنه مبتدأ، وما بعده من الأفعال أخبار له، ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف أي: الله الرحمن. قال الزجاج: معنى: ﴿علم القرآن﴾ يشره. قال الكلبي: علم القرآن محمداً، وعلمه محمد أمته، وقيل: جعله علامة لما يعبد الناس به، قيل: نزلت هذه الآية جواباً لأهل مكة حين قالوا: إنما يعلمه بشر، وقيل: جواباً لقولهم: وما للرحمن؟ ولما كانت هذه السورة لتعداد نعمه التي أنعم بها على عباده قدم النعمة التي هي أجلها قدراً، وأكثرها نفعا، وأتمها فائدة، وأعظمها عائدة، وهي نعمة تعليم القرآن، فإنها مدار سعادة الدارين، وقطب رحي الخيرين، وعماد الأمرين. ثم امتن بعد هذه النعمة بنعمة الخلق التي هي مناط كل الأمور، ومرجع جميع الأشياء، فقال: ﴿خلق الإنسان﴾ ثم امتن ثالثاً بتعليمه البيان الذي يكون به التفاهم، ويدور عليه التخاطب، وتتوقف عليه مصالح المعاش والمعاد؛ لأنه لا يمكن إبراز ما في الضمائر ولا إظهار ما يدور في الخلد إلا به. قال قتادة، والحسن: المراد بالإنسان: آدم، والمراد بالبيان: أسماء كل شيء، وقيل: المراد به: اللغات. وقال ابن كيسان: المراد بالإنسان ها هنا محمد ﷺ، وبالبيان: بيان الحلال من الحرام، والهدى من الضلال، وهو بعيد. وقال الضحاك: البيان الخير والشر. وقال الربيع بن أنس: هو ما ينفعه مما يضره، وقيل: البيان الكتابة

الجمهور (والحبّ ذو العصف والريحان) برفع الثلاثة عطفاً على فاكهة. وقرأ ابن عامر، وأبو حيوة، والمغيرة بنصيبهما عطفاً على (الأرض)، أو على إضمار فعل أي: وخلق الحبّ ذا العصف والريحان. وقرأ حمزة، والكسائي، (والريحان) بالجرّ عطفاً على العصف **﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾** الخطاب للجنّ والإنس؛ لأن لفظ الأنام يعمهما وغيرهما، ثم خصّص بهذا الخطاب من يعقل. وبهذا قال: الجمهور من المفسرين، ويدلّ عليه قوله فيما سيأتي: **﴿سنفرغ لكم إيه الثقلان﴾** [الرحمن: 31] ويدلّ على هذا ما قلّمنا في فاتحة هذه السورة أن النبي ﷺ قرأها على الجنّ والإنس، وقيل: الخطاب للإنس، وثناه على قاعدة العرب في خطاب الواحد بلفظ التثنية، كما قلّمنا في قوله: **﴿ألقيا في جهنم﴾** [ق: 24] والآء النعم. قال القرطبي: وهو قول جميع المفسرين، واحدهما: إلى مثل معى وعصى. وقال ابن زيد: إنها القدرة أي: فبأي قدرة ربكما تكذبان، وبه قال الكلبي. وكرّر سبحانه هذه الآية في هذه السورة تقريراً للنعمة، وتأكيداً للتذكير بها على عادة العرب في الاتساع. قال القتيبي: إن الله عند في هذه السورة نعماءه، وذكر خلقه آلاءه، ثم أتبع كل خلة وضعها بهذه الآية، وجعلها فاصلة بين كل نعمتين، لينبّههم على النعم ويقرّهم بها، كما تقول لمن تتابع له إحسانك، وهو يكفره: ألم تكن فقيراً فآغنيتك؟ أفتنكر هذا؟ ألم تكن خاملاً فعزّزتك؟ أفتنكر هذا؟ ألم تكن راجلاً فحملتك؟ أفتنكر هذا؟ والتكرير حسن في مثل هذا، ومنه قول الشاعر:

لا تقتلي رجلاً إن كنت مسلمة إياك من دمك إياك

قال الحسين بن الفضل: التكرير طرد للغفلة وتأكيد للحجة **﴿خلق الإنسان من صلصال كالفخار﴾** لما ذكر سبحانه خلق العالم الكبير، وهو السماء والأرض وما فيهما، نكر خلق العالم الصغير، والمراد بالإنسان هنا: آدم. قال القرطبي: باتفاق من أهل التأويل، ولا يبعد أن يراد الجنس؛ لأن بني آدم مخلوقون في ضمن خلق أبيهم آدم، والصلصال: الطين اليابس الذي يسمع له صلصلة، وقيل: هو طين خلط برمل، وقيل: هو الطين الممتنن يقال: صلّ اللحم وأصل: إذا أنتن، وقد تقدّم بيانه في سورة الحجر، والفخار الخزف الذي طبخ بالنار، والمعنى: أنه خلق الإنسان من طين يشبه في ييسه الخزف **﴿وخلق الجانّ من مارج من نار﴾** يعني: خلق أبا الجنّ، أو جنس الجنّ من مارج من نار، والمارج: اللهب الصافي من النار، وقيل: الخالص منها، وقيل: لسانها الذي يكون في طرفها إذا التهبت، وقال الليث: المارج الشعلة الصاعدة ذات اللهب الشديد. قال المبرد: المارج النار المرسلّة التي لا تمنع، وقال أبو عبيدة: المارج خلط النار، من مرج إذا اختلط واضطرب. قال الجوهري: **﴿مارج من نار﴾**، نار لا دخان لها خلق منها الجانّ **﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾** فإنه أنعم عليكم في تضاعيف خلقكما من ذلك بنعم لا تحصى **﴿ربّ المشرقين وربّ المغربين﴾** قرأ الجمهور (ربّ)

طفيلانه البخس **﴿ولا تخسروا الميزان﴾** أي: لا تنقصوه أمر سبحانه أولاً بالتسوية، ثم نهى عن الطفيلان الذي هو المعاجزة للحد بالزيادة، ثم نهى عن الخسران الذي هو النقص والبخس. قرأ الجمهور (تخسروا) بضم التاء، وكسر السين من أخسر، وقرأ بلال بن ربيعة، وإبان بن عثمان، وزيد بن علي يفتح التاء، والسين من خسر، وهما لغتان، يقال: أخسرت الميزان وخسرت. ثم لما ذكر سبحانه أنه رفع السماء نكر أنه وضع الأرض، فقال: **﴿والأرض وضعها للأنام﴾** أي: بسطها على الماء لجميع الخلق مما له روح وحياة، ولا وجه لتخصيص الأنام بالإنس والجنّ. قرأ الجمهور بنصب (الأرض) على الاشتغال، وقرأ أبو السماك بالرفع على الابتداء وجملة **﴿فيها فاكهة﴾** في محل نصب على أنها حال من الأرض مقنّرة، وقيل: مستأنفة لتقرير مضمون الجملة التي قبلها، والمراد بها: كل ما يتفكه به من أنواع الثمار. ثم أقرّد سبحانه النخل بالذكر لشرفه، ومزيد فائدته على سائر الفواكه فقال: **﴿والنخل ذات الأكمام﴾** الأكمام جمع كم بالكسر، وهو وعاء التمر. قال الجوهري: والكم بالکسر، والكمّامة وعاء الطلع، وغطاء التنور، والجمع كمّام وكمّة واکمام. قال الحسن: ذات الأكمام أي: ذات الليف، فإن النخلة تكمم بالليف، وكمامها ليفها، وقال ابن زيد: ذات الطلع قبل أن يتفتح. وقال عكرمة: ذات الأحمال **﴿والحبّ ذو العصف والريحان﴾** الحبّ هو جميع ما يقتات من الحبوب والعصف. قال السديّ، والفراء: هو بقل الزرع، وهو أوّل ما ينبت به. قال ابن كيسان: يبنو أولاً ورقاً، وهو العصف، ثم يبنو له ساق، ثم يحدث الله فيه اكماماً، ثم يحدث في الأكمام الحبّ. قال الفراء: والعرب تقول: خرجنا نعصف الزرع إذا قطعوا منه قبل أن يدرك، وكذا قال في الصحاح. وقال الحسن: العصف اللّتين، وقال مجاهد: هو ورق الشجر والزرع. وقيل: هو ورق الزرع الأخضر إذا قطع رأسه ويبس، ومنه قوله: **﴿كعصف ماكول﴾** [الفيل: 5]. وقيل: هو الزرع الكثير، يقال: قد أعصف الزرع، ومكان معصف أي: كثير الزرع، ومنه قول أبي قيس بن الأسلت:

إذا جمادي منعت قطرها إن جناني عطن معصف
والريحان: الورق في قول الأكثر. وقال الحسن، وقتادة، والضحاك، وابن زيد: إنه الريحان الذي يشم. وقال سعيد بن جبير: هو ما قام على ساق. وقال الكلبي: إن العصف هو الورق الذي لا يؤكل، والريحان هو الحب الماكول. وقال الفراء أيضاً: العصف الماكول من الزرع، والريحان ما لا يؤكل، وقيل: الريحان كل بقلة طيبة الريح. قال ابن الأعرابي: يقال: شيء ريحاني وروحاني أي: له روح. وقال في الصحاح: الريحان نبت معروف، والريحان الرزق، تقول: خرجت أبغني ريحان الله. قال النمر بن تولب:

سلام الإله وريحانه ورحمته وسماءه
وقيل: العصف رزق البهائم، والريحان رزق الناس. قرأ

الساكنين، وقرأ ابن مسعود، والحسن، وأبو عمرو في رواية عنه برفع الراء تناسياً للحذف، وقرأ يعقوب بإثبات الياء، وقرأ الجمهور (المنشآت) بفتح الشين، وقرأ حمزة، وأبو بكر في رواية عنه بكسر الشين ﴿فَبَإِي آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فإن ذلك من الوضوح والظهور بحيث لا يمكن تكنييه، ولا إنكاره.

وقد أخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ قال: بحساب ومنازل يرسلان. وأخرج الفريابي، وابن أبي حاتم عنه ﴿وَالْأَرْضُ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ قال: للناس. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: للخلق. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال: كل شيء فيه روح. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿وَاللَّخْلُ ذَاتُ الْأَكَامِ﴾ قال: أوعية الطلع. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿وَالْحَبُّ نُوءُ الْعَصْفِ﴾ قال: التبن. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال: خضرة الزرع. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال: ﴿الْعَصْفُ﴾ ورق الزرع إذا يبس ﴿وَالرِّيحَانُ﴾ ما انبتت الأرض من الريحان الذي يشم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: ﴿الْعَصْفُ﴾ الزرع أول ما يخرج بقلأ ﴿وَالرِّيحَانُ﴾ حين يستوي على سوقه، ولم يستنبل. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال: كل ريحان في القرآن فهو رزق. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿فَبَإِي آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قال: يعني: بأي نعمة الله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في الآية قال: يعني الجن والإنس. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عنه أيضاً ﴿مَنْ مَارَجَ مِنْ نَارٍ﴾ قال: من لهب النار. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في الآية قال: خالص النار. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿رَبِّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبِّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ قال: للشمس مطلع في الشتاء ومغرب في الشتاء، ومطلع في الصيف ومغرب في الصيف غير مطلعها في الشتاء وغير مغربها في الشتاء. وأخرج ابن أبي حاتم عنه في الآية قال: مشرق الفجر ومشرق الشفق، ومغرب الشمس ومغرب الشفق. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ قال: أرسل البحرين ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾ قال: حاجز ﴿لَا يَبْغِيَانِ﴾ لا يختلطان. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال: بحر السماء وبحر الأرض. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ قال: بينهما من البعد ما لا يبغي كل واحد منهما على صاحبه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ قال: إذا مطرت السماء فتحت الأصداف في البحر اقوامها، فما وقع فيها من قطر السماء فهو اللؤلؤ.

بالرفع على أنه خير مبتداً محذوف أي: هو ربّ المشرقين والمغربين، وقيل: مبتدأ، وخبره ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ وما بينهما اعتراض، والأول أولى، والمراد بالمشرقين: مشرقا الشتاء والصيف، وبالمغربين: مغرباهما ﴿فَبَإِي آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فإن في ذلك من النعم ما لا يحصى، ولا يتيسر لمن أنصف من نفسه تكذيب فرد من أفرادها ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ المرج التخلية والإرسال، يقال: مرجت الدابة: إذا أرسلتها، وأصله الإعمال، كما تمرج الدابة في المرعى، والمعنى: أنه أرسل كل واحد منهما، ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ أي: يتجاوزان لا فصل بينهما في مرأى العين، ومع ذلك فلم يخططا، ولهذا قال: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾ أي حاجز يحجز بينهما ﴿لَا يَبْغِيَانِ﴾ أي: لا يبغي أحدهما على الآخر بأن يسخل فيه ويخطئ به. قال الحسن، وقتادة: هما بحر فارس والروم. وقال ابن جريج: هما البحر المالح، والأنهار العذبة، وقيل: بحر المشرق والمغرب، وقيل: بحر اللؤلؤ والمرجان، وقيل: بحر السماء وبحر الأرض. قال سعيد بن جبيرة: يلتقيان في كل عام، وقيل: يلتقي طرفاهما. وقوله: ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ في محل نصب على الحال من البحرين، وجملة: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾ يجوز أن تكون مستأنفة، وأن تكون حالا ﴿فَبَإِي آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فإن هذه الآية وأمثالها لا يتيسر تكنيها بحال ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾. قرأ الجمهور (يخرج) بفتح الياء، وضم الراء مبنياً للفاعل، وقرأ نافع، وأبو عمرو بضم الياء، وفتح الراء مبنياً للمفعول، واللؤلؤ: الدرّ، والمرجان: الخرز الأحمر المعروف. وقال الفراء: اللؤلؤ العظام، والمرجان ما صغر. قال الواحدي: وهو قول جميع أهل اللغة. وقال مقاتل، والسدي، ومجاهد: اللؤلؤ صغاره، والمرجان كبارها، وقال: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا﴾ وإنما يخرج ذلك من المالح لا من العذب؛ لأنه إذا خرج من أحدهما، فقد خرج منهما، كذا قال الزجاج، وغيره. وقال أبو علي الفارسي: هو من باب حذف المضاف أي: من أحدهما كقوله: ﴿على رجل من القريتين عظيم﴾ [الزخرف: 31] وقال الاخفش: زعم قوم أنه يخرج اللؤلؤ من العذب، وقيل: هما بحران يخرج من أحدهما اللؤلؤ، ومن الآخر المرجان، وقيل: هما بحر السماء وبحر الأرض، فإذا وقع ماء السماء في صدف البحر انعقد لؤلؤاً، فصار خارجاً منهما ﴿فَبَإِي آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فإن في ذلك من الآيات ما لا يستطيع أحد تكنييه، ولا يقدر على إنكاره ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ المراد بـ ﴿الْجَوَارِ﴾: السفن الجارية في البحر، و﴿الْمُنشَآتُ﴾: المرفوعات التي رفع بعض خشبها على بعض وركب حتى ارتفعت، وطالت حتى صارت في البحر كالأعلام وهي الجبال، والعلم: الجبل الطويل. وقال قتادة: المنشآت المخلوقات للجري. وقال الاخفش: المنشآت المجريات، وقد مضى بيان الكلام في هذا في سورة الشورى. قرأ الجمهور (الجوار) بكسر الراء وحذف الياء لالتقاء

الذي تضمنه الخبر، والتقدير: استقر سبحانه في شأن كل وقت من الأوقات، واليوم عبارة عن الوقت، والشأن هو الأمر، ومن جملة شؤونه سبحانه إعطاء أهل السموات والأرض ما يطلبونه منه على اختلاف حاجتهم، وتبيان أغراضهم. قال المفسرون: من شأنه أنه يحيي ويميت، ويرزق ويفقر. ويعزّ ويذل، ويمرض ويشفي، ويعطي ويمنع. ويغفر ويعاقب إلى غير ذلك مما لا يحصى. وقيل: المراد باليوم المذكور هو يوم الدنيا ويوم الآخرة، قال ابن بحر: الدهر كله يومان: أحدهما مدة أيام الدنيا، والآخر يوم القيامة، وقيل: المراد كل يوم من أيام الدنيا ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فإن اختلاف شؤونه سبحانه في تدبير عباده نعمة لا يمكن جردها، ولا يتيسر لمكذب تكذيبها ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيَّهَ الثَّقَلَانِ﴾ وهذا وعيد شديد من الله سبحانه للجن والإنس. قال الزجاج، والكسائي، وابن الأعرابي، وأبو علي الفارسي: إن الفراغ ها هنا ليس هو الفراغ من شغل، ولكن تأويله القصد أي: سنقصده لحسابكم. قال الواحدي حاكياً عن المفسرين: إن هذا تهديد منه سبحانه لعباده، ومن هذا قول القائل لمن يريد تهديده: إنن اتفرغ لك أي: أقصد قصصك، وفرغ يجيء بمعنى قصد، وأنشد ابن الأتباري قول الشاعر:

الآن وقد فرغت إلى نعيم - فهذا حين كنت له عذاباً
يريد وقد قصدت، وأنشد النحاس قول الشاعر:

فرغت إلى العبد المقيد في الحبل

أي: قصدت، وقيل: إن الله سبحانه وعد على التقوى، وأوعد على المعصية، ثم قال: سنفرغ لكم مما وعدناكم، ونوصل كلاً إلى ما وعدناه، وبه قال الحسن، ومقاتل، وابن زيد، ويكون الكلام على طريق التمثيل. قرأ الجمهور (سنفرغ) بالنون وضّم الراء، وقرأ حمزة، والكسائي بالتحية مفتوحة مع ضم الراء، أي: سيفرغ الله، وقرأ الأعرج بالنون مع فتح الراء. قال الكسائي: هي لغة تميم، وقرأ عيسى الثقفي بكسر النون وفتح الراء، وقرأ الأعمش، وإبراهيم بضمّ الياء وفتح الراء على البناء للمفعول، وسمي الجن والإنس ثقلين لعظم شأنهما بالنسبة إلى غيرهما من حيوانات الأرض، وقيل: سموا بذلك لأنهم ثقل على الأرض أحياناً، وأمواتاً كما في قوله: ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: 2] وقال جعفر الصائق: سميا ثقلين لأنهما مثقلان بالذنوب، وجمع في قوله: ﴿لَكُمْ﴾ ثم قال: ﴿أَيَّهَ الثَّقَلَانِ﴾؛ لأنهما فريقان، وكل فريق جمع. قرأ الجمهور (أيه الثقلان) بفتح الهاء، وقرأ أهل الشام بضمها ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فإن من جملتها ما في هذا التهديد من النعم، فمن ذلك أنه ينزجر به المسيء عن إساءته، ويزداد به المحسن إحساناً، فيكون ذلك سبباً للفوز بنعيم الدار الآخرة الذي هو النعيم في الحقيقة ﴿يَا مَعْشَرَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ﴾ قدم الجن هنا لكون خلق أبيهم متقدماً على خلق آدم، ولوجود جنسهم قبل جنس الإنس ﴿إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: إن قدرتم أن تخرجوا من جوانب

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن علي بن أبي طالب قال: المرجان عظام اللؤلؤ. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: اللؤلؤ: ما عظم منه، والمرجان: اللؤلؤ الصغار. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني عن ابن مسعود قال: المرجان الخرز الأحمر.

كُلٌّ مِّنْ عَلَيَّا قَاتِلٌ ۖ وَيَبْقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ يَسْتَكْبِرُ مِن فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٧٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٩﴾ سَنَعَزُّ لَكُمْ بِأَيِّ الثَّقَلَانِ ﴿٨٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٨١﴾ يَتَمَتَّعُ الْيَوْمَ الْأَيَّامُ إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَاتَّقُوا لَّا تَنْفُذُوا إِلَّا يَسْلُطُنَا ﴿٨٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٨٣﴾ عَلَيْكُمَا سُورَةُ مِثْلِ نَارٍ وَهَامُ لَا تَنْصَرِفَانِ ﴿٨٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٨٥﴾ فَإِذَا انْتَقَصَتِ السَّمَاءُ كَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٨٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٨٧﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴿٨٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٨٩﴾ يَصْرَفُ النَّجْمُونَ بِسَبْطِهِمْ فَوْقَ الْأَرْضِ وَالْأَقْيَامُ ﴿٩٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٩١﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا النَّجْرُونَ ﴿٩٢﴾ يَطُوفُونَ فِيهَا وَبَيْنَ رَجِيمٍ ۖ مَاءٍ ﴿٩٣﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٩٤﴾

قوله: ﴿كل من عليها فان﴾ أي: كل من على الأرض من الحيوانات هالك، وغلب للعلاء على غيرهم، فعبر عن الجميع بلفظ من، وقيل: أراد من عليها من الجن والإنس ﴿ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾ لوجه عبارة عن ذاته سبحانه وجوده، وقد تقدم في سورة البقرة بيان معنى هذا، وقيل: معنى ﴿يبقى وجه ربك﴾ تبقى حجة التي يتقرب بها إليه، والجلال: العظمة والكبرياء، واستحقاق صفات المدح، يقال: جل الشيء أي: عظم، وأجلته أي: أعظمته، وهو اسم من جل. ومعنى ذو الإكرام: أنه يكرم عن كل شيء لا يليق به، وقيل: إنه ذو الإكرام لأوليائه، والخطاب في قوله: ﴿ربك﴾ للنبى ﷺ، أو لكل من يصلح له، قرأ الجمهور (نو الجلال) على أنه صفة لوجه، وقرأ أبي، وابن مسعود (ذي الجلال) على أنه صفة لرب ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وجه النعمة في فناء الخلق أن الموت سبب النقلة إلى دار الجزاء والثواب. وقال مقاتل: وجه النعمة في فناء الخلق التسوية بينهم في الموت، ومع الموت تستوي الأقدام ﴿يسأله من في السموات والأرض﴾ أي: يسألونه جميعاً؛ لأنهم محتاجون إليه لا يستغني عنه أحد منهم. قال أبو صالح: يسأله أهل السموات المغفرة، ولا يسألونه الرزق، وأهل الأرض يسألونه الأمرين جميعاً. وقال مقاتل: يسأله أهل الأرض الرزق والمغفرة، وتسال لهم الملائكة أيضاً الرزق والمغفرة، وكذا قال ابن جريج. وقيل: يسألونه الرحمة. قال قتادة: لا يستغني عنه أهل السماء، ولا أهل الأرض. والحاصل أنه يسأله كل مخلوق من مخلوقاته بلسان المقال، أو لسان الحال ما يطلبونه من خيري الدارين، أو من خيري إحداهما ﴿كل يوم هو في شأن﴾ انتصاب كل بالاستقرار

السموات والأرض، ونولحيهما هرباً من قضاء الله وقدره ﴿فانفثوا﴾ منها، وخلصوا أنفسهم، يقال: نفذ الشيء من الشيء إذا خلس منه، كما يخلص السهم ﴿لا تنفثون إلا﴾ بسلطان أي: لا تقدرن على النفوذ إلا بقوة وقهر، ولا قوة لكم على ذلك، ولا قدرة، والسلطان: القوة التي يتسلط بها صاحبها على الأمر، والأمر بالنفوذ: أمر تعجيز. قال الضحاك: بينما الناس في أسواقهم إذ انفتحت السماء، ونزلت الملائكة فهرب الجبن، والإنس، فتحلق بهم للملائكة، فنلك قوله: ﴿لا تنفثون إلا بسلطان﴾. قال ابن المبارك: إن نلك يكون في الآخرة. وقال الضحاك أيضاً: معنى الآية: إن استطعتم أن تهربوا من الموت، فاهربوا. وقيل: إن استطعتم أن تعلموا ما في السموات والأرض، فاعلموه ولن تعلموه إلا بسلطان أي: ببينة من الله. وقال قتادة: معناها لا تنفثوا إلا بملك، وليس لكم ملك. وقيل: الباء بمعنى إلى أي: لا تنفثون إلا إلى سلطان ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ ومن جملتها هذه النعمة الحاصلة بالتحذير والتهديد، فإنها تزيد المحسن إحساناً، وتكف المسيء عن إساءته، مع أن من حذركم وأنذركم قادر على الإيقاع بكم من نون مهلة ﴿يرسل عليكم شواظ من نار﴾ قرأ الجمهور (يرسل) بالتحية مبنياً للمفعول، وقرأ زيد بن علي بالنون ونصب (شواظ) والشواظ: اللهب الذي لا دخان معه. وقال مجاهد: الشواظ اللهب الأخضر المتقطع من النار. وقال الضحاك: هو الدخان الذي يخرج من اللهب ليس بدخان الحطب. وقال الأخفش، وأبو عمرو: هو النار، والدخان جميعاً. قرأ الجمهور (شواظ) بضم الشين، وقرأ ابن كثير بكسرهما وهما لغتان، وقرأ الجمهور (ونحاس) بالرفع عطفاً على شواظ، وقرأ ابن كثير، وابن محيصن، ومجاهد، وأبو عمرو بخفضه عطفاً على نار، وقرأ الجمهور (نحاس) بضم النون، وقرأ مجاهد، وعكرمة، وحמיד، وأبو العالية بكسرهما. وقرأ مسلم بن جندب، والحسن (ونحاس)، والنحاس: الصفر المذاب يصب على رؤوسهم، قاله مجاهد، وقتادة، وغيرهما. وقال سعيد بن جبير: هو الدخان الذي لا لهب له، وبه قال الخليل. وقال الضحاك: هو ردي الزيت المغلي. وقال الكسائي هو النار التي لها ريح شديدة، وقيل: هو المهل ﴿فلا تنصرون﴾ أي: لا تقدرن على الامتناع من عذاب الله ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ فإن من جملتها هذا الوعيد الذي يكون به الانزجار عن الشر، والرغوب في الخير ﴿فإذا انشقت السماء﴾ أي: انصدعت بنزول الملائكة يوم القيامة ﴿فكانت ورده كالدخان﴾ أي: كوردة حمراء. قال: سعيد بن جبير، وقتادة: المعنى فكانت حمراء، وقيل: فكانت كلون الفرس الورد، وهو الأبيض الذي يضرب إلى الحمرة أو الصفرة. قال الفراء، وأبو عبيدة: تصير السماء كالإديم لشدة حر النار. وقال الفراء أيضاً: شبه تلون السماء بتلون الورد من الخيل، وشبه الورد في ألوانها بالدهن واختلاف ألوانه، والدهان جمع دهن، وقيل: المعنى تصير السماء في حمرة الورد، وجريان الدهن

أي: تنوب مع الانشقاق حتى تصير حمراء من حرارة نار جهنم، وتصير مثل الدهن لنيرانها، وقيل: الدهان الجلد الأحمر. وقال الحسن كالدهان أي: كصبيب الدهن، فإنك إذا صببته ترى فيه ألواناً. وقال زيد بن أسلم: إنها تصير كعصير الزيت. قال الزجاج: إنها اليوم خضراء، وسيكون لها لون أحمر. قال الماوردي: وزعم المتقدمون أن أصل لون السماء الحمرة، وإنها لكثرة الحوائل وبعد المسافة ترى بهذا اللون الأزرق ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾، فإن من جملتها ما في هذا التهديد، ولتخويف من حسن العاقبة بالإقبال على الخير والإعراض عن الشر ﴿فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان﴾ أي: يوم تنشق السماء لا يسأل أحد من الإنس ولا من الجن عن ذنبه؛ لأنهم يعرفون بسيماهم عند خروجهم من قبورهم، والجمع بين هذه الآية، وبين مثل قوله: ﴿فوريك لنسألهم أجمعين﴾ [الحجر: 92] أن ما هنا يكون في موقف، والسؤال في موقف آخر من مواقف القيامة، وقيل: إنهم لا يسألون هنا سؤال استفهام عن نوبهم؛ لأن الله سبحانه قد أحصى الأعمال، وحفظها على العباد، ولكن يسألون سؤال توبيخ وتقريع، ومثل هذه الآية قوله: ﴿ولا يسأل عن نوبهم المجرمون﴾ [القصص: 78] قال أبو العالية: المعنى: لا يسأل غير المجرم عن ذنب المجرم. وقيل: إن عدم السؤال هو عند البعث، والسؤال هو في موقف الحساب ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ فإن من جملتها هذا الوعيد الشديد؛ لكثرة ما يترتب عليه من الفوائد يعرف المجرمون بسيماهم هذه الجملة جارية مجرى التعليل لعدم السؤال. السيمة: العلامة. قال الحسن: سيماهم سواد الوجوه وزرقة الأعين، كما في قوله: ﴿ونحشر المجرمين يومئذ زرقاً﴾ [طه: 102] وقال: ﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه﴾ [آل عمران: 106] وقيل: سيماهم ما يعلمهم من الحزن والكآبة ﴿فيؤخذ بالنواصي والأقدام﴾ الجار والمجرور في محل رفع على أنه النائب، والنواصي شعور مقدم الرؤوس، والمعنى: أنها تجعل الأقدام مضمومة إلى النواصي، وتلقيهم الملائكة في النار. قال الضحاك: يجمع بين ناصيته، وقدمه في سلسلة من وراء ظهره، وقيل: تسحبهم الملائكة إلى النار، تارة تأخذ بنواصيهم وتجزهم على وجوههم، وتارة تأخذ بأقدامهم، وتجزهم على رؤوسهم ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ فإن من جملتها هذا التهديد الشديد، والوعيد البالغ الذي ترجف له القلوب، وتضطرب لهولة الأحشاء ﴿هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون﴾ أي: يقال لهم عند نلك: هذه جهنم التي تشاهدونها، وتنتظرون إليها مع أنكم كنتم تكذبون بها وتقولون إنها لا تكون، والجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: فماذا يقال لهم عند الأخذ بالنواصي والأقدام. فقيل: يقال لهم: هذه جهنم تقريباً لهم وتوبيخاً ﴿يطوفون بينها﴾ أي: بين جهنم فتحرقهم ﴿وبين حميم أن﴾ فتصب على وجوههم، والحميم: الماء الحار، والآن: الذي قد انتهى حره وبلغ غايته،

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ أَنْ﴾ قال: هو الذي انتهى حره.

وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ ۖ يَأْتِي ءَالَاهُ رَبُّكَ تَكْذِبَانِ ﴿٧٠﴾ ذَرَاةَ أَفْئَانٍ ﴿٧١﴾ يَأْتِي ءَالَاهُ رَبُّكَ تَكْذِبَانِ ﴿٧٢﴾ نِيْمَا جَنَّتَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٧٣﴾ يَأْتِي ءَالَاهُ رَبُّكَ تَكْذِبَانِ ﴿٧٤﴾ نِيْمَا مِنْ كُلِّ فَرْكٍ زَرْبَانِ ﴿٧٥﴾ يَأْتِي ءَالَاهُ رَبُّكَ تَكْذِبَانِ ﴿٧٦﴾ مُتَكَبِّرِينَ عَلَى فَرْطٍ بَلَائِيهَا مِنْ بَسْتَرٍ وَبَحَى الْجَنَّتَيْنِ دَانِ ﴿٧٧﴾ يَأْتِي ءَالَاهُ رَبُّكَ تَكْذِبَانِ ﴿٧٨﴾ نِيْمَ قَمِيرَتٍ الْكَرْبُ لَرٍ يَطْمِنَنَّ إِشْ بَلَاهُمَ وَلَا جَانٌ ﴿٧٩﴾ يَأْتِي ءَالَاهُ رَبُّكَ تَكْذِبَانِ ﴿٨٠﴾ كَأَنَّ الْيَاثُوثَ وَالزَّيْتَانَ ﴿٨١﴾ يَأْتِي ءَالَاهُ رَبُّكَ تَكْذِبَانِ ﴿٨٢﴾ مَلَّ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴿٨٣﴾ يَأْتِي ءَالَاهُ رَبُّكَ تَكْذِبَانِ ﴿٨٤﴾ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٨٥﴾ يَأْتِي ءَالَاهُ رَبُّكَ تَكْذِبَانِ ﴿٨٦﴾ تَكْذِبَانِ ﴿٨٧﴾ مُدْعَاَتَانِ ﴿٨٨﴾ يَأْتِي ءَالَاهُ رَبُّكَ تَكْذِبَانِ ﴿٨٩﴾ نِيْمَا عَيْنَانِ مَخْلُوعَتَانِ ﴿٩٠﴾ يَأْتِي ءَالَاهُ رَبُّكَ تَكْذِبَانِ ﴿٩١﴾ نِيْمَا فَيْكُهُمَا وَغُلٌّ رَوَّانٌ ﴿٩٢﴾ يَأْتِي ءَالَاهُ رَبُّكَ تَكْذِبَانِ ﴿٩٣﴾ فَيَنْ سَيَرَتْ حَسَانٌ ﴿٩٤﴾ يَأْتِي ءَالَاهُ رَبُّكَ تَكْذِبَانِ ﴿٩٥﴾ حُورٌ مَقْصُورَتٌ فِي الْخِيَارِ ﴿٩٦﴾ يَأْتِي ءَالَاهُ رَبُّكَ تَكْذِبَانِ ﴿٩٧﴾ لَرٍ يَطْمِنَنَّ إِشْ بَلَاهُمَ وَلَا جَانٌ ﴿٩٨﴾ يَأْتِي ءَالَاهُ رَبُّكَ تَكْذِبَانِ ﴿٩٩﴾ مُتَكَبِّرِينَ عَلَى رَوَّيٍ خَضِرٍ وَبَقَرَةٍ حَسَانِ ﴿١٠٠﴾ يَأْتِي ءَالَاهُ رَبُّكَ تَكْذِبَانِ ﴿١٠١﴾ بَرَّةٌ أَمَتْ رَبَّهُمْ وَبَى لِلْمَلَكِ وَالْإِكْرَامِ ﴿١٠٢﴾

لما فرغ سبحانه من تعداد النعم النبوية على الثقيلين نكر نعمه الآخورية التي أنعم بها عليهم، فقال: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾ مقامه سبحانه: هو الموقف الذي يقف فيه العباد للحساب، كما في قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: 6] فالمقام مصدر بمعنى القيام، وقيل: المعنى خاف قيام ربه عليه، وهو إشرافه على أحواله، وإطلاعه على أفعاله وأقواله، كما في قوله: ﴿أَمِنَ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: 33] قال مجاهد، والنخعي: هو الرجل يهمل بالمعصية فينكر الله، فيدعها من خوفه.

واختلف في الجنتين، فقال مقاتل: يعني: جنة عدن وجنة النعيم، وقيل: إحداهما التي خلقت له والأخرى ورثها. وقيل: إحداهما منزله والأخرى منزل أزواجه. وقيل: إحداهما أسافل القصور والأخرى أعاليها. وقيل: جنة للخائف الإنسي وجنة للخائف الجنّي، وقيل: جنة لفعل الطاعة وأخرى لترك المعصية، وقيل: جنة للعقيدة التي يعتقدها وأخرى للعمل الذي يعمل، وقيل: جنة بالعمل وجنة بالتفضل، وقيل: جنة روحانية وجنة جسمانية، وقيل: جنة لخوفه من ربه وجنة لتركه شهوته، وقال الفراء: إنما هي جنة واحدة، والتثنية لأجل موافقة رؤوس الآي. قال النحاس: وهذا القول من أعظم الغلط على كتاب الله، فإن الله يقول: ﴿جَنَّاتٍ﴾ ويصفها بقوله فيها إلخ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فإن من جعلتها من هذه النعم العظيمة، وهي إعطاء الخائف من مقام ربه جنتين متصفتين بالصفات الجليلة العظيمة ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ هذه صفة للجنتان، وما بينهما اعتراض، والأفنان

كذا قال الفراء، قال الزجاج: أنى يأتى أتى، فهو أن: إذا انتهى في النضج والحرارة، ومنه قول النابغة النيباني:

وتخضب لحية غدوت وخانت بأحمر من نجيع الجوف أن وقيل: هو واد من أودية جهنم يجمع فيه صديد أهل النار، فيغمسون فيه. قال قتادة: يطوفون مرة في الحميم، ومرة بين الحميم ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فإن من جعلتها النعمة الحاصلة بهذا التخويف، وما يحصل به من الترغيب في الخير والترهيب عن الشر.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة، وابن مردويه، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله: ﴿ذَوَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ قال: ذو الكبرياء والعظمة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ﴾ قال: مسألة عباده إياه الرزق والموت والحياة كل يوم هو في ذلك. وأخرج الحسن بن سفيان في مسنده، والبزار، وابن جرير، والطبراني، وأبو الشيخ في العظمة، وابن منده، وابن مردويه، وأبو نعيم، وابن عساکر عن عبد الله بن منيب قال: «تلا علينا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ فقلنا: يا رسول الله، وما ذلك الشأن؟ قال: أن يغفر ذنبا، ويفرج كربا، ويرفع قوماً، ويضع آخرين». وأخرج البخاري في تاريخه، وابن ماجه، وابن أبي عاصم، والبزار، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والطبراني، وأبو الشيخ في العظمة، وابن مردويه، وابن عساکر، والبيهقي في الشعب عن أبي البرداء عن النبي ﷺ في الآية قال: «من شأنه أن يغفر ذنبا، ويفرج كربا، ويرفع قوماً، ويضع آخرين»، زاد البزار: «ويجيب داعياً» وقد رواه البخاري تعليقا، وجعله من كلام أبي البرداء وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيَّهَ الثَّقَلَانِ﴾ قال: هذا وعيد من الله لعباده، وليس باله شغل، وفي قوله: ﴿لَا تَنْفَعُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ يقول: لا تخرجون من سلطانني. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ شَوَاحِدَ مِنْ نَارٍ﴾ قال: لهب النار ﴿وَنُحْلِسُ﴾ قال: نخان النار. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً، ونحاس: قال الصفر يعذبون به. وأخرج ابن أبي حاتم عنه ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً﴾ يقول: حمراء ﴿كَالدَّهَانِ﴾ قال: هو الاليم الأحمر. وأخرج القريشي، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدَّهَانِ﴾ قال: مثل لون الفرس الورد. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَسْأَلُ عَنْ نَفْسِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ﴾ قال: لا يسألهم هل عملتم كذا وكذا؛ لأنه أعلم بذلك منهم، ولكن يقول لهم: لم عملتم كذا وكذا. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في البعث والنشور عنه أيضاً في قوله: ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأُقْدَامِ﴾ قال: تأخذ الزبانية بناصيته وقدميه، ويجمع فيكسر، كما يكسر الحطب في التنوير.

والجنى: ما يجتنى من الثمار، قيل: إن الشجرة تدنو حتى يجنيها من يريد جناها، ومنه قول الشاعر:

هذا جنائي وخياره فيه إذ كل جان يده إلى فيه
قرأ الجمهور (فرش) بضمين، وقرأ أبو حيوة بضمه وسكون، وقرأ الجمهور (جنى) بفتح الجيم، وقرأ عيسى بن عمر بكسرهما، وقرأ عيسى أيضاً بكسر النون على الإمالة ﴿فَبَإِيَّ آلاءَ رَبِّكَمَا تَكْذِبَانِ﴾ فإنها كلها بموضع لا يتيسر لمكذب أن يكتب بشيء منها لما تشتمل عليه من الفوائد العاجلة والأجلة ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ أي: في الجنتين المنكورتين. قال الزجاج: وإنما قال: فِيهِنَّ لأنه عنى الجنتين، وما أعد لصاحبهما فيهما من النعيم، وقيل: فِيهِنَّ أي: في الفرش التي بطائنها من استبرق، ومعنى ﴿قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾: أنهن يقصرن أبصارهن على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم، وقد تقدم تفسير هذا في سورة الصافات ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ﴾ قال الفراء: الطمث الافتضاض وهو النكاح بالتدمية، يقال: طمث الجارية: إذا افترعها. قال الواحدي: قال المفسرون: لم يطأهن ولم يغشهن ولم يجامعن قبلهم أحد. قال مقاتل: لأنهن خلقن في الجنة، والضمير في قبلهم يعود إلى الأزواج المملول عليه بقاصرات الطرف، وقيل: يعود إلى متكئين، والجملة في محل رفع صفة لقاصرات لأن إضافتها لفظية، وقيل: لطمث المس أي: لم يمسهن، قاله أبو عمرو. وقال المبرد: أي: لم يذللهن، والطمث التذليل، ومن استعمال الطمث فيما نكره الفراء قول الفرزقي:

نفعن إلي لم يطمثن قبلي وهن أصح من بيض النعام
وقرأ الجمهور (يطمثن) بكسر الميم، وقرأ الكسائي بضمها، وقرأ الجحدري، وطلحة بن مصرف بفتحها، وفي هذه الآية بل في كثير من آيات هذه السورة دليل أن الجن يدخلون الجنة إذا آمنوا بالله سبحانه، وعملوا بفرائضه، وانتهوا عن مناهيه ﴿فَبَإِيَّ آلاءَ رَبِّكَمَا تَكْذِبَانِ﴾ فإن في مجرّد هذا الترغيب في هذه النعم عظيمة، ومنه عظيمة، لأن به يحصل الحرص على الأعمال الصالحة، والفرار من الأعمال الطالحة، فكيف بالوصول إلى هذه النعم، والتنعّم بها في جنات النعيم بلا انقطاع، ولا زوال ﴿كَانَهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ هذا صفة لقاصرات، أو حال منهن، شبههن سبحانه في صفاء اللون مع حمرة الياقوت والمرجان، والياقوت: هو الحجر المعروف، والمرجان قد قدّمنا الكلام فيه في هذه السورة على الخلاف في كونه صفار الدرّ، أو الأحمر المعروف. قال الحسن: هنّ في صفاء الياقوت، وبياض المرجان، وإنما خصّ المرجان على القول بأنه صفار الدرّ؛ لأن صفاءها أشدّ من صفاء كبار الدرّ ﴿فَبَإِيَّ آلاءَ رَبِّكَمَا تَكْذِبَانِ﴾ فإن نعمه كلها لا يتيسر تكذيب شيء منها كائنة ما كانت، فكيف بهذه النعم الجليلة والمنن الجزيلة ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ هذه الجملة مقرّرة

الأغصان، واحدها فنن، وهو الغصن المستقيم طولاً، وبهذا قال مجاهد، وعكرمة، وعطية، وغيرهم. وقال الزجاج: الأفنان الألوان واحدها فنن، وهو الضرب من كل شيء، وبه قال عطاء، وسعيد بن جبير، وجمع عطاء بين القولين، فقال: في كلّ غصن فنون من الفاكهة، ومن إطلاق الفنن على الغصن قول النابغة:

دعاء حمامة تدعو هنيلاً مفجعة على فنن تفني
وقول الآخر:

ما هاج شوقك من هدير حمامة تدعو على فنن الفصون حماما
وقيل: معنى ﴿نَوَاتَا أَفْنَانُ﴾: نواتا فضل وسعة على ما سواهما، قاله قتادة، وقيل: الأفنان: ظلّ الأغصان على الحيطان، روي هذا عن مجاهد، وعكرمة ﴿فَبَإِيَّ آلاءَ رَبِّكَمَا تَكْذِبَانِ﴾ فإن كل واحد منها ليس بمحل للتكذيب، ولا بموضع للإنكار ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ هذا أيضاً صفة أخرى لجنتان أي: في كل واحدة منهما عين جارية. قال الحسن: إحداهما السلسبيل والأخرى التسنيم. وقال عطية: إحداهما من ماء غير آسن والأخرى من خمر لذة للشاربين، قيل: كلّ واحدة منهما مثل الدنيا أضعافاً مضاعفة ﴿فَبَإِيَّ آلاءَ رَبِّكَمَا تَكْذِبَانِ﴾ فإن من جملتها هذه النعمة الكائنة في الجنة لأهل السعادة ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكْهَةٍ زَوْجَانِ﴾ هذا صفة ثالثة لجنتان، والزوجان الصنفان والنوعان، والمعنى: أن في الجنتين من كلّ نوع يتفكه به ضربين يستلذ بكلّ نوع من أنواعه، قيل: أحد الصنفين رطب، والآخر يابس لا يقصر أحدهما عن الآخر في الفضل والطيب ﴿فَبَإِيَّ آلاءَ رَبِّكَمَا تَكْذِبَانِ﴾ فإن في مجرّد تعداد هذه النعم، ووصفها في هذا الكتاب العزيز من الترغيب إلى فعل الخير، والترهيب عن فعل الشرّ ما لا يخفى على من يفهم، وذلك نعمة عظيمة، ومنّة كبرى، فكيف بالتنعم به عند الوصول إليه ﴿مُتَكِّئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ اسْتَبْرَقٍ﴾ انتصاب متكئين على الحال من فاعل قوله: ﴿وَلَمَنْ خَافَ﴾ وإنما جمع حملاً على معنى من، وقيل: عاملها محنوف، والتقدير: يتنعّمون متكئين، وقيل: منصوب على المدح، والفرش جمع فرش، والبطائن: هي التي تحت الظهائر، وهي جمع بطانة. قال الزجاج: هي ما يلي الأرض، والاستبرق: ما غلظ من الديباج، وإذا كانت البطائن من استبرق، فكيف تكون الظواهر؟ قيل لسعيد بن جبير: البطائن من استبرق فما الظواهر؟ قال: هذا بما قال الله فيه: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قَرَّةٍ أَعْيَنَ﴾ [السجدة: 17] قيل: إنما اقتصر على ذكر البطائن لأنه لم يكن أحد في الأرض يعرف ما في الظهائر. وقال الحسن: بطائنها من استبرق، وظهائرها من نور جامد. وقال الحسن: البطائن هي الظهائر، وبه قال الفراء وقال: قد تكون البطانة الظهارة، والظهارة البطانة لأن كلّ واحد منهما يكون وجهاً، والعرب تقول هذا: ظهر السماء، وهذا بطن السماء لظواهرها الذي نراه، وأنكر ابن قتيبة هذا، وقال: لا يكون هذا إلا في الوجهين المتساويين ﴿وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ مبتدا وخبر،

أهل العلم، ولم يخالف في ذلك إلا أبو حنيفة، وقد خالفه أصحابه أبو يوسف، ومحمد ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ فإن من جعلتها هذه النعم التي في جنات النعيم، ومجرد الحكاية لها تآثر في نفوس السامعين، وتجذبهم إلى طاعة رب العالمين ﴿فيهن خيرات حسان﴾ قرأ الجمهور (خيرات) بالتخفيف، وقرأ قتادة، وابن السميع، وأبو رجاء الطاردي، وبكر بن حبيب السهمي، وابن مقسم، والنهدي بالتشديد، فعلى القراءة الأولى هي جمع خيرة بزنة فعلة بسكون العين، يقال: امرأة خيرة وأخرى شرّة، أو جمع خيرة مخفف خيرة، وعلى القراءة الثانية جمع خيرة بالتشديد. قال الواحدي: قال المفسرون: الخيرات النساء خيرات الأخلاق حسان الوجوه. قيل: وهذه الصفة عائدة إلى الجنان الأربع، ولا وجه لهذا، فإنه قد وصف نساء الجنتين الأوليين بأنهن قاصرات الطرف ﴿كانهنّ الياقوت والمرجان﴾ وبين الصفتين بون بعيد ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ فإن شيئاً منها كائن ما كان لا يقبل التكذيب ﴿حور مقصورات في الخيام﴾ أي: محبوسات، ومنه القصر لأنه يحبس من فيه، والحور جمع حوراء وهي شديدة بياض العين شديدة سوادها، وقد تقدّم بيان معنى الحوراء، والخلاف فيه. وقيل: معنى ﴿مقصورات﴾: أنهنّ قصرن على أزواجهنّ، فلا يربن غيرهم، وحكاها الواحدي عن المفسرين. والأول أولى، وبه قال أبو عبيدة، ومقاتل، وغيرهما. قال في الصحاح: قصرت الشيء أقصره قصرأ حبسته، والمعنى: أنهنّ خُذرن في الخيام، والخيام جمع خيمة. وقيل: جمع خيم، والخيم جمع خيمة، وهي أعواد تنصب وتظلّ بالثياب، فتكون أبرد من الأخبية. قيل: الخيمة من خيام الجنة بزة مجوّفة، فرسخ في فرسخ، وارتفاع حور على البلية من خيرات ﴿لم يطمئنّ إنس قبلهم ولا جان﴾ قد تقدّم تفسيره في صفة الجنتين الأوليين ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ فإنها كلها نعم لا تكفر، ومن لا تجحد ﴿متكئين على رفرف خضر﴾ انتصاب متكئين على الحال، أو المدح كما سبق، قال أبو عبيدة: الرّفارف البسط، وبه قال الحسن، ومقاتل، والضحاك، وغيرهم. وقال ابن عيينة: هي الزرابي. وقال ابن كيسان: هي المرافق. وروي عن أبي عبيدة أنه قال: هي حاشية الثوب. وقال الليث: ضرب من الثياب الخضرة، وقيل: الفرش المرتفعة، وقيل: كل ثوب عريض. قال في الصحاح: والرّفرف ثياب خضر يتخذ منها المحابس، الواحدة رفرقة. وقال الزجاج: قالوا الرّفرف هنا: رياض الجنة، وقالوا الرّفرف: الوسائد، وقالوا الرّفرف: المحابس. ومن القائلين بأنها رياض الجنة: سعيد بن جببر، واشتقاق الرّفرف من رفّ يرفّ: إذا ارتفع، ومنه رفرقة الطائر، وهي تحريك جناحيه في الهواء. قرأ الجمهور (رفرف) على الأفراد. وقرأ عثمان بن عفان، والحسن، والجحدري (رفارف) على الجمع ﴿وعبقري حسان﴾ العبقري الزرابي، والطنافس الموشية. قال أبو عبيدة: كل وشي من البسط عبقري، وهو منسوب إلى أرض

لمضمون ما قبلها، والمعنى: ما جزء من أحسن العمل في الدنيا إلا الإحسان إليه في الآخرة، كذا قال ابن زيد، وغيره. قال عكرمة: هل جزء من قال: لا إله إلا الله إلا الجنة، وقال الصائق: هل جزء من أحسنت إليه في الأزل إلا حفظ الإحسان عليه في الأبد. قال الرازي: في هذه الآية وجوه كثيرة حتى قيل: إن في القرآن ثلاث آيات في كل واحدة منها مائة قول: إحداها قوله تعالى: ﴿فانكروني أنكركم﴾ [البقرة: 152] وثانيها: ﴿وإن عنتم عنا﴾ [الإسراء: 8] وثالثها: ﴿هل جزء الإحسان إلا الإحسان﴾. قال محمد بن الحنفية: هي للبرّ والفاجر: البرّ في الآخرة، والفاجر في الدنيا ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ فإن من جعلتها الإحسان إليكم في الدنيا والآخرة بالخلق والبرق والإرشاد إلى العمل الصالح، والزجر عن العمل الذي لا يرضاه ﴿ومن نوتهما جنتان﴾ أي: ومن نون تينك الجنتين الموصوفتين بالصفات المتقدمة جنتان أخريان، لمن نون أصحاب الجنتين السابقتين من أهل الجنة، ومعنى من نوتهما أي: من أمامهما، ومن قبلهما أي: هما أقرب منهما، وإنني إلى العرش، وقيل: الجنتان الأوليان جنة عدن وجنة النعيم، والأخريان جنة الفردوس وجنة المأوى. قال ابن جريج: هي أربع جنتان: جنتان منهما للسابقين المقربين ﴿فيهما من كل فاكهة زوجان﴾ ﴿وعينان تجريان﴾، وجنتان لأصحاب اليمين ﴿فيهما فاكهة ونخل ورمان﴾ و ﴿فيهما عينان نضاختان﴾ قال ابن زيد: إن الأوليين من ذهب للمقربين، والأخريين من ورق لأصحاب اليمين ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ فإنها كلها حق، ونعم لا يمكن جحدها، ثم وصف سبحانه هاتين الجنتين الأخريين، فقال: ﴿مدهامتان﴾ وما بينهما اعتراض. قال أبو عبيدة والزجاج: من خضرتهما قد أسوتنا من الري، وكل ما علاه السواد رياً فهو مدهم. قال مجاهد: مسوّتان، والدهمة في اللغة: السواد، يقال: فرس أدهم، وبغير أدهم: إذا اشتدّت ورقته حتى ذهب البياض الذي فيه ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ فإن جميعها نعم ظاهرة واضحة لا تجحد ولا تنكر ﴿فيهما عينان نضاختان﴾ النضخ فوران الماء من العين، والمعنى: أن في الجنتين المذكورتين عينين فوارتين، قال أهل اللغة: والنضخ بالحاء المعجمة أكثر من النضج بالحاء المهملة. قال الحسن، ومجاهد: تنضخ على أولياء الله بالمسك، والعنبر، والكافور في نور أهل الجنة. كما ينضخ رش المطر. وقال سعيد بن جببر: إنها تنضخ بأنواع الفواكه، والماء ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ فإنها ليست بموضع للتكذيب، ولا بمكان للجحد ﴿فيهما فاكهة ونخل ورمان﴾ هذا من صفات الجنتين المذكورتين قريباً، والنخل والرمان وإن كانا من الفاكهة لكنهما خصصا بالذكر لمزيد حسنهما، وكثرة نفعهما بالنسبة إلى سائر الفواكه، كما حكاها الزجاج، والأزهري، وغيرهما. وقيل: إنما خصهما لكثرتهم في أرض العرب، وقيل: خصهما لأن النخل فاكهة وطعام، والرمان فاكهة ونواء. وقد ذهب إلى أنهما من جملة الفاكهة جمهور

جنتان فقلت: وإن زنى، وإن سرق يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: **«ولمن خاف مقام ربه جنتان»** فقلت: وإن زنى، وإن سرق؟ فقال الثالثة: **«ولمن خاف مقام ربه جنتان»** فقلت: وإن زنى، وإن سرق؟ قال: نعم، وإن رغم أنف أبي الدرداء. وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«ولمن خاف مقام ربه جنتان»** فقال أبو الدرداء: وإن زنى، وإن سرق يا رسول الله؟ قال: وإن زنى، وإن سرق، وإن رغم أنف أبي الدرداء. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن يسار مولى لآل معاوية عن أبي الدرداء في قوله: **«ولمن خاف مقام ربه جنتان»** قال: قيل: لأبي الدرداء: وإن زنى، وإن سرق؟ قال: من خاف مقام ربه لم يذن، ولم يسرق. وأخرج ابن مردويه عن ابن شهاب قال: كنت عند هشام بن عبد الملك، فقال: قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: **«ولمن خاف مقام ربه جنتان»** قال أبو هريرة: وإن زنى، وإن سرق؟ فقلت: إنما كان ذلك قبل أن تنزل الفرائض، فلما نزلت الفرائض ذهب هذا. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: «جنان الفردوس أربع جنات: جنتان من ذهب حليتهما وأبنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة حليتهما وأبنيتهما وما فيهما، وما بين القوم، وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن أبي موسى عن النبي ﷺ في قوله: **«ولمن خاف مقام ربه جنتان»** وفي قوله: **«ومن دونهما جنتان»** قال: جنتان من ذهب للمقربين، وجنتان من ورق لأصحاب اليمين». وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في البعث عن أبي موسى في قوله: **«ولمن خاف مقام ربه جنتان»** قال: جنتان من ذهب للمسابقين، وجنتان من فضة للتابعين. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **«نواتا أفنان»** قال: نواتا الوان. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه قال: فن غصونها يمس بعضها بعضاً. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عنه أيضاً قال: الفن الغصن. وأخرج القرطبي، وعبد بن حميد، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في البعث عن ابن مسعود في قوله: **«مكتئين على فرش بطائنها من استبرق»** قال: أخبرتم بالبطائن، فكيف بالظواهر. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس أنه قيل: له بطائنها من استبرق، فما الظواهر؟ قال: ذلك مما قال الله **«فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين»** [السجدة: 17]. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في البعث عنه في قوله: **«وجنى الجنتين دان»** قال: جناها ثمرها، والداني: القريب منك يناله القائم والقاعد. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في البعث عنه أيضاً

يعمل فيها الوشي. قال الفراء: العبقري الطنافس الثمان، وقيل: الزرابي، وقيل: البسط، وقيل: الديباج. قال ابن الأنباري: الأصل فيه أن عبقر قرية تسكنها الجن ينسب إليها كل فائق. قال الخليل: العبقري عند العرب كل جليل فاضل فاخر من الرجال والنساء، ومنه قول زهير:

تخيل عليها جنة عبقرية جديرون يوماً أن ينالوا فيستعلوا
قال الجوهرى: العبقري موضع تزعم العرب أنه من أرض الجن. قال لبيد:

كهول وشبان كجنة عبقرى

ثم نسبوا إليه كل شيء تعجبوا من خلقه وجودة صنعته وقوته، فقالوا: عبقرى، وهو واحد وجمع. قرأ الجمهور (عبقرى) وقرأ عثمان بن عفان، والحسن، والجمهور (عباقرى) وقرأ (عباقر) وهما نسبة إلى عباقر اسم بلد. وقال قطرب: ليس بمنسوب، وهو مثل كرسى وكراسى، وبختى وبخاتى. قرأ الجمهور (خضر) بضم الخاء وسكون الضاد، وقرأ بضمهما، وهي لغة قليلة **«فبأي آلاء ربكما تكذبان»** فإن كل واحد منها أجل من أن يتطرق إليه التكذيب، وأعظم من أن يجحد جاحداً، أو ينكره منكر، وقد قدمنا في أول هذه السورة وجه تكرير هذه الآية فلا نعيده **«تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام»** تبارك تفاعل من البركة. قال الرازي: وأصل التبارك من التبرك، وهو الدوام والثبات، ومنه برك البعير، وبركه الماء فإن الماء يكون دائماً والمعنى: دام اسمه وثبت أو دام الخير عنده؛ لأن البركة وإن كانت من الثبات لكنها تستعمل في الخير، أو يكون معناه: علا وارتفع شأنه. وقيل معناه: تنزيه الله سبحانه وتقديسه، وإذا كان هذا التبارك منسوباً إلى اسمه عز وجل، فما ظنك بذاته سبحانه؟ وقيل: الاسم بمعنى الصفة، وقيل: هو مقحم كما في قول الشاعر:

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر
وقد تقدم تفسير ذي الجلال، والإكرام في هذه السورة. قرأ الجمهور (ذي الجلال) على أنه صفة للرب سبحانه. وقرأ ابن عامر (نو الجلال) على أنه صفة لاسم.

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: **«ولمن خاف مقام ربه جنتان»** قال: وعد الله المؤمنين الذين خافوا مقامه، فأثروا فرائضه الجنة. وأخرج ابن جرير عنه في الآية يقول: خاف ثم اتقى، والخائف: من ركب طاعة الله وترك معصيته. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة عن عطاء أنها نزلت في أبي بكر. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن شونب مثله. وأخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود في الآية قال: لمن خافه في الدنيا. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وابن منيع، والحاكم، والترمذي، والنسائي، والبزار، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه عن أبي الدرداء أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية: **«ولمن خاف مقام ربه**

قوله: ﴿خيرات حسان﴾ قال: لكل مسلم خيرة، ولكل خيرة خيمة، ولكل خيمة أربعة أبواب يدخل عليها من الله كل يوم تحفة وكرامة وهدية لم تكن قبل ذلك، لا مراحات ولا طماحات، ولا بخرات ولا نفرات، حور عين كأنهن بيض مكنون. وأخرجه ابن مردويه من وجه آخر عنه مرفوعاً. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿حور﴾ قال: بيض مقصورات قال: محبوسات ﴿في الخيام﴾ قال: في بيوت اللؤلؤ. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم قال: الحور سود الحنق. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «الخيام برّ مجوف». وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ: «الخيمة برّة مجوفة طولها في السماء ستون ميلاً، في كل زاوية منها للمؤمن أهل لا يراهم الآخرون يطوف عليهم المؤمن». وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿مكتئين على رفرف﴾ قال: فضول المحابس والفرش والبسط. وأخرج عبد بن حميد عن علي بن أبي طالب قال: هي فضول المحابس. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن المنذر، والبيهقي في البعث من طرق عن ابن عباس ﴿رفرف خضر﴾ قال: المحابس ﴿وعبقري حسان﴾ قال: الزرابي. وأخرج عبد بن حميد عنه في الآية قال: الزقرف الرّياض، والعبقري الزرابي.

تفسير سورة الواقعة

وهي مكية في قول الحسن، وعكرمة، وجابر، وعطاء. وقال ابن عباس، وقتادة: إلا آية منها نزلت بالمدينة وهي قوله تعالى: ﴿وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾ [الواقعة: 82]، وقال الكلبي: إنها مكية إلا أربع آيات منها، وهي: ﴿اقبضوا الحديث أنتم مدمنون * وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾ [الواقعة: 81، 82] وقوله: ﴿ثلة من الأولين * وقليل من الآخرين﴾ [الواقعة: 13، 14]. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: نزلت سورة الواقعة بمكة. وأخرج ابن مردويه، عن ابن الزبير مثله. وأخرج أبو عبيد في فضائله، وابن الضريس، والحارث بن أبي أسامة، وإبو يعلى، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً». وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ قال: «سورة الواقعة سورة الغنى، فاقروها، وعلموها أولادكم». وأخرج الديلمي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «علموا نساكم سورة الواقعة، فإنها سورة الغنى»، وقد تقدم قوله ﷺ: «شيتني هود، والواقعة» ١ هـ.

في قوله: ﴿فيهن قاصرات الطرف﴾ يقول: عن غير أزواجهن ﴿لم يطمئن﴾ يقول: لم يئن منهن، أو لم يدمهن. وأخرج أحمد، وابن حبان، والحاكم وصححه، والبيهقي في البعث عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ: «في قوله: ﴿كأنهن الياقوت والمرجان﴾ قال: تنظر إلى وجهها في خدرها أصفى من المرأة، وإن أنى لؤلؤة عليها لتضيء ما بين المشرق والمغرب، وإنه يكون عليها سبعون ثوباً، وينفذها بصره حتى يرى مخ ساقها من وراء ذلك». وأخرج ابن أبي شيبة، وهناد بن السري، والترمذي، وابن أبي الدنيا في صفة الجنة، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن حبان، وأبو الشيخ في العظمة، وابن مردويه عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «إن المرأة من نساء أهل الجنة ليرى بياض ساقها من وراء سبعين حلة حتى يرى مخها، وذلك أن الله يقول: كأنهن الياقوت والمرجان، فاما الياقوت، فإنه حجر لو أدخلت فيه سلكاً ثم استصفيته لرأيت من ورائه»، وقد رواه الترمذي موقوفاً وقال: هو أصح. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب وضعفه عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «في قوله: ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾ قال: ما جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة». وأخرج الحكيم الترمذي في نوازل الأصول، والبيهقي في تفسيره، والديلمي في مسند الفردوس، وابن النجار في تاريخه عن أنس مرفوعاً مثله. وأخرج ابن مردويه عن جابر مرفوعاً في الآية قال: «هل جزاء من أنعمنا عليه بالإسلام إلا أن أدخله الجنة». وأخرج ابن النجار في تاريخه عن علي بن أبي طالب مرفوعاً مثل حديث ابن عمر. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾ قال: هل جزاء من قال لا إله إلا الله في الدنيا إلا الجنة في الآخرة. وأخرج ابن عدي، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والديلمي، والبيهقي في الشعب، وضعفه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أنزل الله علي هذه الآية في سورة الرحمن للكافر والمسلم: ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾». وأخرجه ابن مردويه موقوفاً على ابن عباس. وأخرج هناد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿مدهامتان﴾ قال: هما خضروران. وأخرج ابن أبي حاتم عنه في الآية قال: قد اسوتنا من الخضرة من الرّي من الماء. وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، وهناد، وعبد بن حميد، وابن جرير عن ابن عبد الله بن الزبير نحوه. وأخرج الطبراني، وابن مردويه عن أبي أيوب الأنصاري قال: سألت النبي ﷺ عن قوله: ﴿مدهامتان﴾ قال: خضروران. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿نضاختان﴾ قال: فائضتان. وأخرج عبد بن حميد عنه قال: ينضخان بالماء. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن أبي الدنيا في صفة الجنة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن مسعود في

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۚ لَيْسَ لَوْفِقَهَا كَاذِبَةٌ ۖ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ۚ إِذَا رَمَحَبِ الْأَرْضِ رَجًا ۚ وَسَبَتْ أَلْجَالُ بِسًا ۚ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ۚ وَكُنْهُمْ أَرْدَابًا ۚ نَنْثَنَةً ۚ فَأَصْحَبُ اللَّيْمَنَةُ مَا أَصْحَبُ اللَّيْمَنَةُ ۚ وَأَصْحَبُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَبُ الْمَشْأَمَةِ ۚ وَالسَّيِّئُونَ النَّيِّفُونَ ۚ أُولَئِكَ الْمَفْزُوعُونَ ۚ فِي جَنَّتِي أَلْتَمِيمٍ ۚ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ۚ وَقِيلَ لِلَّذِينَ الْآخِرِينَ ۚ عَلَى سُرُرٍ مُّوَسَّوَةٍ ۚ مُّكَيِّفِينَ عَلَيْهِمْ مُّتَقَبِّلَاتٍ ۚ يَلْفُوفٌ عَلَيْهِمْ وَلَدَانٌ مُّخْلَدُونَ ۚ يَا كُرُوبَ ۚ وَأَبَارِقُ ۚ وَأَكْسِي ۚ بِنِيعِينَ ۚ لَا يَصُدُّونَ عَنْهَا وَلَا يُمْرُونَ ۚ وَكَلَّهَكُمْ مِمَّا يَتَخَوَّفُونَ ۚ وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ مِمَّا يَتَخَوَّفُونَ ۚ وَتَوَّارُ عَيْنٍ ۚ كَأَنَّهُمْ الْأَوَّلُونَ ۚ الْكَفَرُونَ ۚ جَزَاءُ يَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۚ لَا يَسْمُونَ فِيهَا لِقَاءَ وَلَا تَأْلِيمًا ۚ إِلَّا فَيْلَا سَلَكَ سَلَكَ ۚ

قوله: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ الواقعة اسم للقيامة كالأزفة وغيرها، وسميت واقعة لأنها كائنة لا محالة، أو لقرب وقوعها، أو لكثرة ما يقع فيها من الشدائد، وانتصاب إذا بمضمر أي: انكر وقت وقوع الواقعة، أو بالنفي المفهوم من قوله: ﴿لَيْسَ لَوْقَعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ أي: لا يكون عند وقوعها تكذيب، والكاذبة مصغر كالعاقبة أي: ليس لمجيئها وظهورها كذب أصلاً، وقيل: إذا شرطية، وجوابها مقدر أي: إذا وقعت كان كيت وكيت، والجواب هذا هو العامل فيها، وقيل: إنها شرطية، والعامل فيها الفعل الذي بعدها، واختار هذا أبو حيان، وقد سبقه إلى هذا مكي فقال: والعامل وقعت. قال المفسرون: والواقعة هنا هي النفخة الآخرة، ومعنى الآية: أنها إذا وقعت النفخة الآخرة عند البعث لم يكن هناك تكذيب بها أصلاً، أو لا يكون هناك نفس تكتب على الله، وتكتب بما أخبر عنه من أمور الآخرة. قال الزجاج: ليس لوقعها كاذبة أي: لا يردّها شيء، وبه قال الحسن، وقائدة. وقال الثوري: ليس لوقعها أحد يكتب بها، وقال الكسائي: ليس لها تكذيب أي: لا ينبغي أن يكتب بها أحد ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾ قرأ الجمهور برفعهما على إضمار مبتدأ أي: هي خافضة رافعة. وقال الحسن وعيسى الثقفني بنصبهما على الحال. قال عكرمة، والسدي، ومقاتل: خفضت الصوت فاسمعت من لنا، ورفعت الصوت فاسمعت من ناي أي: أسمعت القريب والبعيد. وقال قتادة: خفضت أقواماً في عذاب الله، ورفعت أقواماً إلى طاعة الله. وقال: محمد بن كعب: خفضت أقواماً كانوا في الدنيا مرفوعين، ورفعت أقواماً كانوا في الدنيا مخفوضين، والعرب تستعمل الخفض والرفع في المكان والمكانة، والعز والإهانة، ونسبة الخفض والرفع إليها على طريق المجاز، والخافض والرافع في الحقيقة، هو الله سبحانه ﴿إِذَا رَجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا﴾ أي: إذا حركت حركة شديدة، يقال رَجَّه يَرْجُّه رَجًّا إذا حركه، والرجة الاضطراب، وارتج البحر اضطرب. قال المفسرون: ترتج، كما يرتج الصبي في المهد حتى ينهدم كل ما عليها، وينكسر كل شيء من الجبال وغيرها. قال قتادة، ومقاتل، ومجاهد: معنى رجت زلزلت، والظرف متعلق بقوله: ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾ أي:

تخفض وترفع وقت رج الأرض ويس الجبال؛ لأنه عند ذلك يرتفع ما هو منخفض، وينخفض ما هو مرتفع. وقيل: إنه بدل من الظرف الأول نكرة الزجاج، فيكون معنى وقوع الواقعة هو رج الأرض ويس الجبال ﴿وبست للجبال بساً﴾ البس: الفت، يقال: بس الشيء إذا فته حتى يصير فتاتاً، ويقال بس السوق: إذا لته بالسمن، أو بالزيت. قال مجاهد، ومقاتل: المعنى أن الجبال فتت فتاً. وقال السدي: كسرت كسراً. وقال الحسن: قلعت من أصلها. وقال مجاهد أيضاً: بست كما يس الدقيق بالسمن، أو بالزيت، والمعنى: أنها خلطت فصارت كاللحقيق الملتوت. وقال أبو زيد: البس السوق، والمعنى على هذا: سيقت الجبال سوقاً، قال أبو عبيد: بس الإبل، وأبسها لغتان: إذا زجرها. وقال عكرمة: المعنى هنت هذا ﴿فكانت هباء منبثاً﴾ أي: غباراً متفرقاً منتشراً. قال مجاهد: الهباء الشعاع الذي يكون في الكوة كهيئة الغبار، وقيل: هو الزهج الذي يسطع من حوافر الدواب، ثم يذهب، وقيل: ما تطاير من النار إذا اضطربت على سورة الشرر، فإذا وقع لم يكن شيئاً، وقد تقدم بيانه في الفرقان عند تفسير قوله: ﴿فجعلناه هباء منثوراً﴾ [الفرقان: 23] قرأ الجمهور (منبثاً) بالمثلثة. وقرأ مسروق، والنخعي، وأبو حيوه بقاء المثناة من فوق أي: منقطعة، من قولهم بته الله أي: قطعه. ثم ذكر سبحانه أحوال الناس واختلافهم فقال: ﴿وكنتم أزواجاً ثلاثة﴾ والخطاب لجميع الناس، أو للامة الحاضرة، والأزواج الأصناف، والمعنى: وكنتم في ذلك اليوم أصنافاً ثلاثة. ثم فسّر سبحانه هذه الأصناف فقال: ﴿فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة﴾ أي: أصحاب اليمين، وهم الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم، أو الذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة، ﴿وأصحاب الميمنة﴾ مبتدأ، وخبره: ﴿ما أصحاب الميمنة﴾ أي: أي شيء هم في حالهم، وصفتهم، والاستفهام للتعظيم والتفخيم، وتكرير المبتدأ هنا بلفظه مغن عن الضمير الزابط، كما في قوله: ﴿الحاقة﴾ [الحاقة: 1، 2] ﴿القارعة﴾ [القارعة: 1، 2] ولا يجوز مثل هذا إلا في مواضع التفخيم، والتعظيم ﴿و﴾ الكلام في أصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة، والمراد: الذي يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار، أو يأخذون صحائف أعمالهم بشمالهم، والمراد: تعجيب السامع من حال الفريقين في الفخامة والفضاعة؛ كانه قيل: فأصحاب الميمنة في نهاية السعادة وحسن الحال، وأصحاب المشامة في نهاية الشقاوة وسوء الحال. وقال السدي: أصحاب الميمنة هم الذين كانوا عن يمين آدم حين أخرجت الذرية من صلبه، وأصحاب المشامة هم الذين كانوا عن شماله. وقال زيد بن أسلم: أصحاب الميمنة هم الذين أخذوا من شق آدم الأيمن، وأصحاب المشامة هم الذين أخذوا من شق آدم الأيسر. وقال ابن جريج: أصحاب الميمنة هم أهل الحسنات، وأصحاب المشامة هم أهل السيئات. وقال الحسن، والربيع:

يكون في أصحاب اليمين من هذه الأمة من هو أكثر من أصحاب اليمين من غيرهم، فيجتمع من قليل سابقى هذه الأمة، ومن ثلة أصحاب اليمين منها من يكون نصف أهل الجنة، والمقابلة بين الثنتين في أصحاب اليمين لا تستلزم استواءهما لجواز أن يقال: هذه الثلة أكثر من هذه الثلة، كما يقال: هذه الجماعة أكثر من هذه الجماعة، وهذه الفرقة أكثر من هذه الفرقة، وهذه القطعة أكثر من هذه القطعة. وبهذا تعرف أنه لم يصب من قال: إن هذه الآية منسوخة بالحديث المنكور. ثم ذكر سبحانه حالة أخرى للسابقين المقربين، فقال: ﴿على سرر موضونة﴾ قرأ الجمهور (سرر) بضم السين والراء الأولى، وقرأ أبو السماك، وزيد بن علي بفتح الراء، وهي لغة كما تقدم، والموضونة المنسوجة، والوضن: النسج المضاعف. قال الواحدي: قال المفسرون: منسوجة بقضبان الذهب، وقيل: مشبكة بالدر، والياقوت، والزبرجد، وقيل: إن الموضونة المصنوفة. وقال مجاهد: الموضونة المرمولة بالذهب، وانتصاب ﴿متكئين عليها﴾ على الحال، وكذا انتصاب ﴿مقابلين﴾ والمعنى: مستقرين على سرر متكئين عليها متقابلين لا ينظر بعضهم قفا بعض ﴿يطوف عليهم ولدان مخلون﴾ الجملة في محل نصب على الحال من المقربين، أو مستأنفة لبيان بعض ما أعد الله لهم من النعيم، والمعنى: يدور حولهم للخدمة غلمان لا يهرمون، ولا يتغيرون، بل شكلهم شكل الولدان دائماً. قال مجاهد: المعنى لا يموتون. وقال الحسن، والكلبي: لا يهرمون، ولا يتغيرون. قال الفراء: والعرب تقول للرجل إذا كبر ولم يشمط: إنه لمخلد. وقال سعيد بن جبيرة: مخلون مقرطون. قال الفراء: ويقال: مخلون مقرطون، يقال: خلد جاريته: إذا حلاها بالخلة، وهي القرطة. وقال عكرمة: مخلون منعوم، ومنه قول امرئ القيس:

وهل ينعمن إلا سعيد مخلد قليل الهموم ما يبيت بأوجال
وقيل: مستوردون بالحلية، وروي نحوه عن الفراء، ومنه قول الشاعر:

ومخلدات بللجين كأنما أعجازهن أقارص الكشبان
وقيل: مخلون منمطون، قيل: وهم ولدان المسلمين الذين يموتون صغاراً ولا حسنة لهم ولا سيئة، وقيل: هم أطفال المشركين، ولا يبعد أن يكونوا مخلوقين في الجنة للقيام بهذه الخدمة، والأكواب: هي الأقداح المستديرة الأفواه التي لا أذان لها ولا عرى، وقد مضى بيان معناها في سورة الزخرف، والأباريق: هي ذات العرى والخراطيم، واحداها إبريق، وهو الذي يبرق لونه من صفائه ﴿وكاس من معين﴾ أي: من خمر جارية، أو من ماء جار، والمراد به ها هنا: الخمر الجارية من العيون، وقد تقدم بيان معنى الكاس في سورة الصافات ﴿لا يصدعون عنها﴾ أي: لا تتصدع رؤوسهم من شربها، كما تتصدع من شرب خمر الدنيا. والصداع: هو الداء المعروف الذي يلحق الإنسان في رأسه، وقيل: معنى لا يصدعون لا يتفرون كما يتفرون الشراب،

أصحاب الميمنة هم الميامين على أنفسهم بالأعمال الصالحة، وأصحاب المشامة هم المشائيم على أنفسهم بالأعمال القبيحة. وقال المبرد: أصحاب الميمنة أصحاب التقدم، وأصحاب المشامة أصحاب التأخر، والعرب تقول: اجعلني في يمينك، ولا تجعلني في شمالك أي: اجعلني من المتقدمين، ولا تجعلني من المتأخرين، ومنه قول ابن الميمنة: أبنيته أي يميني يدك جعلتني فانرج أم صيرتني في شمالك ثم ذكر سبحانه الصنف الثالث، فقال: ﴿والسابقون السابقون﴾ والتكرير فيه للتفخيم والتعظيم، كما مر في القسمين الأولين، كما تقول أنت أنت، وزيد زيد، والسابقون مبتدأ، وخبره السابقون. وفيه تأويلان أحدهما: أنه بمعنى السابقون هم الذين اشتهرت حالهم بذلك. والثاني: أن متعلق السابقين مختلف، والتقدير: والسابقون إلى الإيمان السابقون إلى الجنة. والأول أولى لما فيه من الدلالة على التفخيم والتعظيم. قال الحسن، وقتادة: هم السابقون إلى الإيمان من كلامه. وقال محمد بن كعب: إنهم الأنبياء. وقال ابن سيرين: هم الذين صلوا إلى القبليتين. وقال مجاهد: هم الذين سبقوا إلى الجهاد، وبه قال الضحاك. وقال سعيد بن جبيرة: هم السابقون إلى التوبة وأعمال البر. وقال الزجاج: المعنى: والسابقون إلى طاعة الله هم السابقون إلى رحمة الله. قيل: ووجه تأخير هذا الصنف الثالث مع كونه أشرف من الصنفين الأولين هو أن يقترب به ما بعده، وهو قوله: ﴿لؤلؤك المقربون﴾ في جنات النعيم، فالإشارة هي إليهم أي: للمقربون إلى جزيث ثواب الله، وعظيم كرامته، أو الذين قربت درجاتهم، وأعلت مراتبهم عند الله. وقوله: ﴿في جنات النعيم﴾ متعلق بالمقربون أي: مقربون عند الله في جنات النعيم. ويجوز أن يكون خبراً ثانياً لأولئك، وأن يكون حالاً من الضمير في المقربون أي كائنين فيها. قرأ الجمهور (في جنات) بالجمع، وقرأ طلحة بن مصرف (في جنة) بالإنفراد، وإضافة الجنات إلى النعيم من إضافة المكان إلى ما يكون فيه، كما يقال: دار الضيافة، ودار الدعوة، ودار العدل، وارتفاع ﴿ثلة من الأولين﴾ على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: هم ثلة، والثلة الجماعة التي لا يحصر عددها. قال الزجاج: معنى ثلة معنى فرقة، ومن ثلث الشيء: إذا قطعته، والمراد بالأوليين: هم الأمم السابقة من لدن آدم إلى نبينا ﷺ ﴿وقليل من الآخرين﴾ أي: من هذه الأمة، وسموا قليلاً بالنسبة إلى من كان قبلهم، وهم كثيرون لكثرة الأنبياء فيهم، وكثرة من أجابهم. قال الحسن: سابقو من مضى أكثر من سابقينا. قال الزجاج: الذين عاينوا جميع الأنبياء وصنقوا بهم أكثر ممن عاين النبي ﷺ، ولا يخالف هذا ما ثبت في الصحيح من قوله ﷺ: «إني لأرجو أن تكونوا ربيع أهل الجنة، ثم قال: ثلث أهل الجنة، ثم قال: نصف أهل الجنة»، لأن قوله: ﴿ثلة من الأولين﴾ و﴿قليل من الآخرين﴾ إنما هو تفصيل للسابقين فقط، كما سيأتي في ذكر أصحاب اليمين أنهم ثلة من الأولين، وثلة من الآخرين، فلا يمتنع أن

يتكلمون بما فيه إثم ﴿لَا قِيلَأُ سَلَامًا سَلَامًا﴾ القيل القول، والاستثناء منقطع أي: لكن يقولون قِيلًا، أو يسمعون قِيلًا، وانتصاب سلامًا سلامًا علي أنه بدل من قِيلًا، أو صفة له، أو هو مفعول به لقيلًا أي: إلا أن يقولوا سلامًا سلامًا، واختار هذا الزجاج، أو على أنه منصوب بفعل هو محكي بقيلًا أي: إلا قِيلًا سلموا سلامًا سلامًا، والمعنى في الآية: أنهم لا يسمعون إلا تحية بعضهم لبعض. قال عطاء: يحيي بعضهم بعضًا بالسلام، وقيل: إن الاستثناء متصل وهو بعيد: لأن التحية ليست مما يندرج تحت اللغو والتأنيث، قرئ (سلام سلام) بالرفع. قال مكي: ويجوز الرفع على معنى سلام عليكم مبتدأ وخبر.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ قال: يوم القيامة ﴿لَيْسَ لَوْقَعَتِهَا كَاتِبَةٌ﴾ قال: ليس لها مردٌ يرُدُّ ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾ قال: تخفض ناسًا وترفع آخرين. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عنه ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾ قال: اسمعت القريب والبعيد. وأخرج ابن أبي حاتم عن عمر بن الخطاب ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾ قال: الساعة خفضت أعداء الله إلى النار، ورفعت أولياء الله إلى الجنة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿إِذَا رَجَئِ الْأَرْضُ رَجًّا﴾ قال: زلزلت ﴿وَبَسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا﴾ قال: فتت ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا﴾ قال: شعاع الشمس. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا﴾ قال: الهباء الذي يطير من النار إذا أضمرت يطير منها الشرر، فإذا وقع لم يكن شيئًا. وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً قال: الهباء ما يثور مع شعاع الشمس، وأنبثائه تفرقه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن علي بن أبي طالب قال: الهباء المنبث ريج الدواب، والهباء المنثور غبار الشمس الذي تراه في شعاع الكوّة. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس: ﴿وَوَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا﴾ قال: اصنافًا. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿وَوَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ قال: هي التي في سورة الملائكة ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ [فاطر: 32]. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه عنه أيضاً في قوله: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ قال: يوشع بن نون سبق إلى موسى، ومؤمن آل ياسين سبق إلى عيسى، وعلي بن أبي طالب سبق إلى رسول الله ﷺ. وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً في الآية قال: نزلت في حزقيل مؤمن آل فرعون؛ وحبيب التجار الذي ذكر في يس، وعلي بن أبي طالب، وكل رجل منهم سابق أمته، وعلي أفضلهم سبقًا. وأخرج أحمد عن معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: ﴿وَإِصْحَابِ الْيَمِينِ - وَإِصْحَابِ الشَّمَالِ﴾ فقبض بيديه قبضتين، فقال: هذه في الجنة ولا أبالي، وهذه في النار ولا أبالي. وأخرج أحمد أيضاً عن عائشة عن رسول الله ﷺ

ويَقْوِي هذا المعنى قراءة مجاهد (يصدعون) بفتح الياء وتشديد الصاد، والأصل يتصدعون أي: يفرقون، والجملة مستأنفة لبيان ما أعد الله لهم من النعيم، أو في محل نصب على الحال، وجملة: ﴿وَلَا يَنْزِفُونَ﴾ معطوفة على الجملة التي قبلها، وقد تقدم اختلاف القراءة في هذا الحرف في سورة الصافات، وكذلك تقدم تفسيره أي: لا يسكرون فتذهب عقولهم، من انزف الشارب: إذا نفذ عقله، أو شرابه، ومنه قول الشاعر:

لعمري لئن أنزفتم أو صحتم لبئس الندامي كنتم آل ابجرا
﴿وَفَاكِهِةٌ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ أي: يختارونه، يقال: تخيرت الشيء: إذا أخذت خيره. قرأ الجمهور (وفاكهة) بالجر ﴿وَو﴾ كذا ﴿لَحْمٌ﴾ عطفاً على اكواب أي: يطوفون عليهم بهذه الأشياء المأكول والمشروب والمتفكه به. وقرأ زيد بن علي، وأبو عبد الرحمن برفعهما على الابتداء، والخبر مقتر أي: ولهم فاكهة ولحم، ومعنى: ﴿مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ مما يتمنونه وتشتهيهم أنفسهم ﴿وَحُورٌ عَيْنٌ * كَامِلَاتُ الْوَلُولُ الْمَكْنُونُ﴾ قرأ الجمهور (حور عين) برفعهما عطفاً على ولدان أو على تقدير مبتدأ أي: نسأؤهم حور عين، أو على تقدير خبر أي: ولهم حور عين، وقرأ حمزة، والكسائي بجرهما عطفاً على اكواب. قال الزجاج: وجائز أن يكون معطوفاً على جنات أي: هم في جنات وفي حور على تقدير مضاف محذوف أي: وفي معاشرة حور. قال الفراء: في توجيه العطف على اكواب إنه يجوز الجر على الاتباع في اللفظ، وإن اختلفا في المعنى؛ لأن الحور لا يطاف بهن، كما في قول الشاعر:

إذا ما الغنائيات برزن يوماً وزججن الحواجب والعيونا
والعين لا تزجج، وإنما تكحل، ومن هذا قول الشاعر:

علفتها تبناً وماء بارداً

وقول الآخر:

منقلداً سيفاً ورماً

قال قطرب: هو معطوف على الاكواب والأباريق من غير حمل على المعنى. قال: ولا ينكر أن يطاف عليهم بالحور: ويكون لهم في ذلك لذة. وقرأ الأشهب العقيلي، والنخعي، وعيسى بن عمر بنصبهما على تقدير إضمار فعل، كأنه قيل: ويزوجون حوراً عيناً، أو يعطون، ورجح أبو عبيد، وأبو حاتم قراءة الجمهور. ثم شبههن سبحانه بالؤلؤل المكنون، وهو الذي لم تمسه الأيدي، ولا وقع عليه الغبار، فهو أشد ما يكون صفاء، وانتصاب جزاء في قوله: ﴿حِزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ على أنه مفعول له أي: يفعل بهم ذلك كله للجزاء بأعمالهم. ويجوز أن يكون مصدراً مؤكداً لفعل محذوف أي: يجزون جزاء، وقد تقدم تفسير الحور العين في سورة الطور وغيرها ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهَا﴾ اللغو: الباطل من الكلام، والتأنيث: النسبة إلى الإثم. قال محمد بن كعب: لا يؤثم بعضهم بعضاً، وقال مجاهد: لا يسمعون شتماً، ولا ماثماً، والمعنى: أنه لا يقول بعضهم لبعضهم أثم؛ لأنهم لا

والمخضود الذي خضد شوكة أي: قطع فلا شوكة فيه. قال أمية بن أبي الصلت يصف الحنة:

إن الحداث في الجنان ظلييلة فيها الكواعب سدرها مخضود
وقال الضحك، ومجاهد، ومقاتل بن حيان: إن السدر
المخضود الموقر حملاً ﴿وطلع منضود﴾ قال أكثر
المفسرين: إن الطلع في الآية هو شجر الموز. وقال جماعة:
ليس هو شجر الموز، ولكنه الطلع المعروف وهو أعظم
أشجار العرب. قال الفراء، وأبو عبيدة: هو شجر عظام لها
شوك. قال الزجاج: الطلع هو ثم غيلان، ولها نور طيب،
فخوطبوا ووعدوا ما يحبون، إلا أن فضله على ما في الدنيا
كفضل سائر ما في الجنة على ما في الدنيا. قال: ويجوز أن
يكون في الجنة، وقد أزيل شوكه. قال السدي: طلع الجنة
يشبه طلع الدنيا لكن له ثمر أحلى من العسل، والمنضود:
المتراكب الذي قد نضد أوله وآخره بالحمل ليس له سوق
بارزة. قال مسروق: أشجار الجنة من عروقها إلى أفنانها
نضيد ثمر كله، كلما أخذت ثمرة عاد مكانها أحسن منها
﴿وظل ممدود﴾ أي: دائم باق لا يزول، ولا تتسخه الشمس.
قال أبو عبيدة: والعرب تقول لكل شيء طويل لا ينقطع:
ممدود، ومنه قوله: ﴿الم تر إلى ربك كيف مدّ الظل﴾
[الفرقان: 45] والجنة كلها ضلّ لا شمس معه. قال
الربيع بن أنس: يعني ظلّ العرش، ومن استعمال العرب
للممدود في الدائم الذي لا ينقطع قول لبيد:

غلب العزاء وكان غير مغلب دهر طويل دائم مسلود

﴿وماء مسكوب﴾ أي: منصب يجري بالليل، والنهار أينما شاعوا لا ينقطع عنهم، فهو مسكوب يسكب الله في مجاريه، وأصل السكب الصب، يقال: سكب سكباً أي: صبه

﴿وفاكهة كثيرة﴾ أي: ألوان متنوعة متكررة ﴿لا مقطوعة﴾ في وقت من الأوقات، كما تنقطع فواكه الدنيا في بعض الأوقات ﴿ولا معنوعة﴾ أي: لا تمتنع على من أرادها في أي وقت على أي صفة، بل هي معدة لمن أرادها لا يحول بينه وبينها حائل. قال ابن قتيبة: يعني: أنها غير محظورة عليها كما يحظر على بساتين الدنيا ﴿وفرش مرفوعة﴾ أي: مرفوع بعضها فوق بعض، أو مرفوعة على الأسرة. وقيل: إن الفرش هنا كناية عن النساء اللواتي في الجنة، وارتفاعها كونها على الأرائك، أو كونها مرتفعات الأقدار في الحسن والكمال ﴿إننا أنشأنهن إنشاء﴾ أي: خلقناهن خلقاً جديداً من غير تولد، وقيل: المراد نساء بني آدم. والمعنى: أن الله سبحانه أعادهن بعد الموت إلى حال الشباب، والنساء، وإن لم يتقدم لهن ذكر لكنهن قد دخلن في أصحاب اليمين، وأما على قول من قال: إن الفرش المرفوعة عين النساء، فمرجع الضمير ظاهر ﴿فجعلناهن إكباراً﴾، ﴿لم يطمئنهن إنس قبلهم ولا جان﴾ [الرحمن: 56] ﴿عرباً لتراباً﴾ العرب جمع عرب، وهي المتحبة إلى زوجها. قال المبرد: هي العاشقة لزوجها، ومنه قول لبيد:

وفي الخباء عرب غير فاحشة ربا الرواف يعشى ضوءها البصرا

أنه قال: «اتَّبِعُونِ مِنَ السَّابِقِينَ إِلَى ظُلِّ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: الَّذِينَ إِذَا أُعْطُوا الْحَقَّ قَبِلُوهُ، وَإِذَا سَأَلُوا بِأَنفُسِهِمْ أَنْ تَخْرُجَ مِنْهُمْ شَيْءٌ لَمْ يَقُولُوا: هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَيَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَتَّى يُخْرِجَهُمُ اللَّهُ مِنْ جَنَّاتِهِ» [البقرة: ١٧٨].

وخرج أحمد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه عن أبي بصير، قال: لما نزلت: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ وقيل من الآخرين، شق على أصحاب رسول الله ﷺ، فنزلت: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ وثلاثة من الآخرين [الواقعة: ٣٩، ٤٠] فقال النبي ﷺ: إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة، ثلث الجنة، بل أنتم نصف أهل الجنة، أو شطر أهل الجنة، وتقاسموها النصف الثاني». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في البعث عن ابن عباس عليه السلام: «على سرر موضونة»: قال: مصفوفة. وأخرج سعيد بن منصور، وهناد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في البعث عنه: قال: مرمولة بالذهب. وخرج ابن أبي الدنيا في صفة الجنة، والبزار، وابن مريويه، والبيهقي في البعث عن عبد الله بن مسعود قال: قال لي رسول الله ﷺ: «إِنَّكَ لَتَنْظُرُ إِلَى الطَّيْرِ فِي الْجَنَّةِ، فَتَشْتَهِيهِ فَيُخَرَّبُ بَيْنَ يَدَيْكَ مَشْوِيًّا». وأخرج أحمد، والترمذي، والضياء عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنْ طِيرَ الْجَنَّةِ كَأَمْثَالِ الْبَحْتِ تَرَعى فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ»، فقال أبو بكر: يا رسول الله إن هذه الطير لناعمة، قال: أكلها أنعم منها، وإني لأرجو أن تكون ممن يأكل منها، وفي الباب أحاديث. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس عليه السلام في قوله: ﴿كَأَمْثَالِ الْذُّلُقَى الْمَكْنُونِ﴾ قال: الذي في الصنف. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه: «لا يسمعون فيها لغواً»، قال: باطلاً «ولا تأثماً»، قال: كنياً.

وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٧٧﴾ فِي يَدُوْهُمْ غَنَاقُورٌ ﴿٧٨﴾ وَطَلْعُ مَشْهُورٍ ﴿٧٩﴾ وَطَلْعُ مُمْدُودٍ ﴿٨٠﴾ وَمَا مَشْكُوبٌ ﴿٨١﴾ وَكَفَيُّوْهُ كَيْدُهُ ﴿٨٢﴾ لَا تَقْلُوطُوهٗ وَلَا تَمُوتُوْهُ ﴿٨٣﴾ وَفَرُّوْهُ مَرْمُوعٌ ﴿٨٤﴾ إِنَّا أَنشَأْنَاهُمْ إِنْسَانَةً ﴿٨٥﴾ هَلْ تَنْتَهُنَّ أَتَكَارًا ﴿٨٦﴾ غُرَابًا أَتَزَاكًا ﴿٨٧﴾ لَأَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٨٨﴾ ثَلَاثَةٌ مِنْكَ الْأَوَّلَيْنِ ﴿٨٩﴾ وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿٩٠﴾ وَأَصْحَابُ الْإِثْمَالِ مَا أَصْحَابُ الْإِثْمَالِ ﴿٩١﴾ فِي سَمُورٍ وَكَبِيرٍ ﴿٩٢﴾ طَلْعُ بِنَمْرٍ ﴿٩٣﴾ لَا يَأْبُدُ وَلَا كَبِيرٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّمِ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مَتَرَفِينَ ﴿٩٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُوكَ أَهْدَا مِنَّا وَكُنَّا شُرَكَاءَ وَعَدَلْنَا أَوَلَمْ تَتَّبِعُوْنَا ﴿٩٧﴾ أَوْ مَا بَدَا لَكَ الْاَوَّلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ لَكَ الْاَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ ﴿٩٩﴾ الْمَجْمُوعُونَ إِلَيْكَ يَغْتَرَبُونَ بَيْنَ مَعْلُومٍ ﴿١٠٠﴾ ثُمَّ لَكُمْ إِلَيْهَا الْعَسَاوِرُ الْمَكْدُودُونَ ﴿١٠١﴾ لَا تَكُونُ مِنْ شَعَرٍ مِنْ نَقَمٍ ﴿١٠٢﴾ فَالْهَوْنُ مِنْهَا الْبَلْوَنُ ﴿١٠٣﴾ فَتَنُورُونَ عَلَيْهِ بَيْنَ النِّعَمِ ﴿١٠٤﴾ فَتَنُورُونَ شَرَّ الْوَبْرِ ﴿١٠٥﴾ هَكَذَا تُرْفَعُ رُوحُ الْيَمِينِ ﴿١٠٦﴾

لما فرغ سبحانه من ذكر أحوال السابقين، وما أعدّه لهم من النعيم المقيم، نكر أحوال أصحاب اليمين، فقال: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ قد قُئِمْنَا وجه إعراب هذا الكلام، وما في هذه الجملة الاستفهامية من التفضيح والتعظيم، وهي خبر المبتدأ، وهو أصحاب اليمين، وقوله: ﴿فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ﴾ خبر ثانٍ، أو خبر مبتدأ محذوف أي: هم في سدر مخضود، والسدر نوع من الشجر،

الشرك أي: كانوا لا يتوبون عن الشرك. وبه قال الحسن، والضحاك، وابن زيد. وقال قتادة، ومجاهد: هو الذنب العظيم الذي لا يتوبون عنه. وقال الشعبي: هو اليمين الغموس، **﴿وكانوا يقولون ائذا متنا وكنا تراباً وعظاماً ائنا لمبعوثون﴾** الهمزة في الموضعين للإنكار والاستبعاد، وقد تقدم الكلام على هذا في الصفات، وفي سورة الرعد، والمعنى: أنهم أنكروا واستبعدوا أن يبعثوا بعد الموت، وقد صاروا عظاماً وتراباً، والمراد: أنه صار لحمهم وجلودهم تراباً، وصارت عظامهم نخرة بالية، والعامل في الظرف ما يدل عليه مبعوثون؛ لأن ما بعد الاستفهام لا يعمل فيما قبله أي: أتبع إذا متنا؟ إلخ **﴿وأولوا الأئولون﴾** معطوف على الضمير في لمبعوثون؛ لوقوع الفصل بينهما بالهمزة. والمعنى: أن بعث آبائهم الأولين أبعد؛ لتقدم موتهم، وقرئ: (وأبؤنا). ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يجيب عليهم ويرد استبعادهم فقال: **﴿قل إن الأولين والآخريين * لمجموعون﴾** أي: قل لهم يا محمد: إن الأولين من الأم، والآخريين منهم الذين أنتم من جملتهم لمجموعون بعد البعث **﴿إلى ميقات يوم معلوم﴾** وهو يوم القيامة **﴿ثم إنكم إليها الضالون المكنبون﴾** هذا وما بعده من جملة ما هو داخل تحت القول، وهو معطوف على **﴿إن الأولين﴾** ووصفهم سبحانه بوصفين قبيحين، وهما الضلال عن الحق والتكذيب له **﴿لاكلون من شجر من زقوم﴾** أي: لاكلون في الآخرة من شجر كرية المنظر كرية الطعم. وقد تقدم تفسيره في سورة الصفات، ومن الأولى لابتداء الغاية والثانية بيانية، ويجوز أن تكون الأولى مزيدة والثانية بيانية، وأن تكون الثانية مزيدة والأولى للابتداء **﴿فمائلون منها البطون﴾** أي: مائلون من شجر الزقوم بطونكم؛ لما يلحقكم من شدة الجوع **﴿فشاربون عليه من الحميم﴾** الضمير في عليه عائذ إلى الزقوم، والحميم الماء الذي قد بلغ حره إلى الغاية، والمعنى: فشاربون على الزقوم عقب أكله من الماء الحار، ويجوز أن يعود الضمير إلى شجر؛ لأنه يذكر ويؤنث. ويجوز أن يعود إلى الأكل المملول عليه بقوله: **﴿لاكلون﴾** وقرئ (من شجرة) بالافراد **﴿فشاربون شرب الهيم﴾** قرأ الجمهور (شرب الهيم) بفتح الشين، وقرأ نافع، وعاصم، وحمة بضمها. وقرأ مجاهد، وأبو عثمان النهدي بكسرهما، وهي لغات. قال أبو زيد: سمعت العرب تقول بضم الشين وفتحها وكسرهما. قال المبرد: الفتح على أصل المصدر، والضم اسم المصدر، والهيم: الإبل العطاش التي لا تروى لداء يصيبها. وهذه الجملة بيان لما قبلها أي: لا يكون شريكاً شرباً معتاداً بل يكون مثل شرب الهيم التي تعطش ولا تروى بشرب الماء، ومفرد الهيم أهيم، والأنثى هيماء. قال قيس بن الملوح:

يقال به داء الهيم أصابه وقد علمت نفسي مكان شفاثيا
وقال الضحاك، وابن عيينة، والأخفش، وابن كيسان: الهيم الأرض السهلة ذات الرمل، والمعنى: أنهم يشربون، كما

وقال زيد بن أسلم: هي الحسنة الكلام. قرأ الجمهور بضم العين والراء. وقرأ حمزة، وأبو بكر عن عاصم بإسكان الراء، وهما لغتان في جمع فعول، والأترب: من اللواتي على ميلاد واحد، وسن واحد. وقال مجاهد: أترباً أمثلاً وأشكالاً. وقال السدي: أترباً في الأخلاق لا تبغض بينهم ولا تحسد. قوله: **﴿لأصحاب اليمين﴾** متعلق بانشائهم، أو بجعلنا، أو بأترباً، والمعنى: أن الله أنشأهم لأجلهم، أو خلقهم لأجلهم، أو من مساويات لأصحاب اليمين في السن، أو هو خبر لمبتدأ محذوف أي: من أصحاب اليمين **﴿ثلة من الأولين * وثلة من الآخرين﴾** هذا راجع إلى قوله: **﴿وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين﴾** أي: هم ثلة من الأولين، وثلة من الآخرين، وقد تقدم تفسير الثلة عند ذكر السابقين، والمعنى: أنهم جماعة، أو أمة، أو فرقة، أو قطعة من الأولين، وهم من لدن آدم إلى نبينا ﷺ، وجماعة، أو أمة، أو فرقة، أو قطعة من الآخرين، وهم أمة محمد ﷺ. وقال أبو العالية، ومجاهد، وعطاء بن أبي رباح، والضحاك: **﴿ثلة من الأولين﴾** يعني: من سابقي هذه الأمة. **﴿وثلة من الآخرين﴾** من هذه الأمة من آخرها. ثم لما فرغ سبحانه مما أعده لأصحاب اليمين شرع في ذكر أصحاب الشمال، وما أعده لهم، فقال: **﴿وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال﴾** الكلام في إعراب هذا وما فيه من التفخيم، كما سبق في أصحاب اليمين، وقوله: **﴿في سموم وحميم﴾** إما خبر ثان لأصحاب الشمال، أو خبر مبتدأ محذوف، والسموم: حر النار، والحميم: الماء الحار الشديد الحرارة، وقد سبق بيان معناه. وقيل: السموم: الريح الحارة التي تدخل في مسام البدن **﴿وظل من يحوم﴾** يحوم يفعل من الأحم: وهو الأسود، والعرب تقول: أسود يحوم؛ إذا كان شديد السواد، والمعنى: أنهم يفزعون إلى الظل، فيجدونه ظلاً من دخان جهنم شديد السواد. وقيل: وهو مأخوذ من الحم، وهو الشحم المسود بلحترق النار. وقيل: مأخوذ من الحم، وهو الفحم. قال الضحاك: النار سوداء، وأهلها سود، وكل ما فيها أسود. ثم وصف هذا الظل بقوله: **﴿لا بارد ولا كريم﴾** ليس كغيره من الظلال التي تكون باردة، بل هو حار لأنه من دخان نار جهنم. قال سعيد بن المسيب: **﴿ولا كريم﴾** أي: ليس فيه حسن منظر، وكل ما لا خير فيه، فليس بكريم، وقال الضحاك: ولا كريم، ولا عذب. قال الفراء: العرب تجعل للكريم تابعاً لكل شيء نفت عنه وصفاً تنوي به الذم، تقول: ما هو بسمين ولا بكريم، وما هذه الدار بواسعة ولا كريمة. ثم ذكر سبحانه أعمالهم التي استحقوا بها هذا العذاب فقال: **﴿إنهم كانوا قبل تلك مترفين﴾** وهذه الجملة تعليل لما قبلها أي: إنهم كانوا قبل هذا العذاب التازل بهم مترفين في الدنيا أي: منعمين بما لا يحل لهم، والمترف المتنع. وقال السدي: مشركين، وقيل: متكبرين، والأول أولى **﴿وكانوا يصرون على الحنث العظيم﴾** الحنث الذنب أي: يصرون على الذنب العظيم. قال الواحدي: قال أهل التفسير: عني به

له: يا أمير المؤمنين أنحكها في المصحف؟ قال: لا يهاج القرآن اليوم. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿منضود﴾ قال: بعضه على بعض. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، اقرءوا إن شئتم ﴿وُظِّلَ مَعْدُودٌ﴾». وأخرج البخاري، وغيره نحوه من حديث أنس. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما نحوه من حديث أبي سعيد. وأخرج أحمد، والترمذي وحسنه، والنسائي، وغيرهم عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في قوله: «﴿وُفِرْشَ مَرْفُوعَةٌ﴾» قال: ارتفاعها، كما بين السماء والأرض، ومسيرة ما بينهما خمسمائة عام. قال الترمذي بعد إخرجه: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث رشدين بن سعد انتهى، ورشدين ضعيف. وأخرج الفريابي، وهناد، وعبد بن حميد، والترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، والبيهقي في البعث عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ في قوله: «﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً﴾» قال: إن المنشئات التي كن في الدنيا عجائز عمشاً رمصاً. قال الترمذي بعد إخرجه: غريب، وموسى يزيد ضعيفان. وأخرج الطيالسي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مريويه، وابن قانع، والبيهقي في البعث عن سلمة بن يزيد الجعفي سمعت النبي ﷺ يقول في قوله: «﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً﴾» قال: الثيب والابكار اللاتي كن في الدنيا. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في الآية قال: خلقهن غير خلقهن الأول. وأخرج ابن أبي حاتم عنه: «﴿إِكْرَارٌ﴾» قال: عذاري. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في البعث من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: «﴿عَرِيًّا﴾» قال: عواشق. «﴿اتْرَابًا﴾» يقول: مستويات. وأخرج ابن أبي حاتم عنه: «﴿عَرِيًّا﴾» قال: عواشق لأزواجهن وأزواجهن لهن عاشقون. «﴿اتْرَابًا﴾» قال: في سن واحد ثلاثاً وثلاثين سنة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: العروب الملقاة لأزواجهن. وأخرج مسدد في مسنده، وابن المنذر، والطبراني، وابن مريويه بسند حسن عن أبي بكرة عن النبي ﷺ في قوله: «﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾» قال: جميعهما من هذه الأمة. وأخرج أبو داود الطيالسي، ومسدد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن مريويه عن أبي بكرة في قوله: «﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾» قال: هما جميعاً من هذه الأمة. وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن عدي، وابن مريويه، قال السيوطي: بسند ضعيف عن ابن عباس في قوله: «﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾» قال: قال رسول الله ﷺ: هما جميعاً من أمتي. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن مريويه عن ابن عباس قال: الثلثتان جميعاً من هذه الأمة. وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن ابن

تشرّب هذه الأرض الماء، ولا يظهر له فيها أثر. قال في الصحاح: الهيام بالضم: أشد العطش، والهيام كالجنون من العشق، والهيام: داء يأخذ الإبل تهيم في الأرض لا ترعى، يقال: ناقة هيماء، والهيماء أيضاً: المفازة لا ماء بها، والهيام بالفتح: الرمل الذي لا يتماسك في اليد للينه، والجمع هيم مثل قذال وقذل، والهيام بالكسر الإبل العطاش ﴿هَذَا نَزْلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ قرأ الجمهور (نزلهم) بضم نون، ودوي عن أبي عمرو، وابن محيصن بضمه وسكون، وقد تقدم أن النزل ما يعد للضيف، ويكون أول ما ياكله، ويوم الدين يوم الجزاء، وهو يوم القيامة، والمعنى: أن ما نكر من شجر الزقوم، وشراب الحميم هو الذي يعد لهم ويأكلونه يوم القيامة، وفي هذا تهكم بهم؛ لأن النزل هو ما يعد للأضياف تكرمة لهم، ومثل هذا قوله: «﴿فَبِشْرِهِمْ بِعَذَابِ الْيَمِّ﴾» [آل عمران: 21].

وقد أخرج الحاكم وصححه، والبيهقي عن أبي أمامة قال: «كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: إن الله ينفعنا بالأعراب ومساثلهم، أقبل أعرابي يوماً فقال: يا رسول الله نكر في القرآن شجرة مؤنية، وما كنت أرى في الجنة شجرة تؤذي صاحبها قال: وما هي؟ قال: السدر، فإن لها شوكة، فقال رسول الله ﷺ: ليس الله يقول: ﴿فِي سَدْرٍ مَخْضُودٍ﴾؟ يخضد الله شوكة، فيجعل مكان كل شوكة ثمرة، فإنها تنبت ثمرًا يتفقت الثمر منها عن اثنين وسبعين لوناً من الطعام ما منها لون يشبه الآخر. وأخرج ابن أبي داود، والطبراني، وأبو نعيم في الحلية، وابن مريويه عن عيينة بن عبد السلامي قال: «كنت جالساً مع النبي ﷺ، فجاء أعرابي فقال: يا رسول الله أسمعك تذكر في الجنة شجرة لا أعلم شجرة أكثر شوكة منها يعني: الطلح، فقال رسول الله ﷺ: إن الله يجعل مكان كل شوكة منها ثمرة مثل خصية اللتيس الملبود يعني: الخصي منها، فيها سبعون لوناً من الطعام لا يشبه لون آخر. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس في قوله: «﴿سَدْرٍ مَخْضُودٍ﴾» قال: خضده وقره من الحمل. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر من طرق عنه قال: المخذود الموقر الذي لا شوكة فيه. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وهناد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن مريويه عن علي بن أبي طالب في قوله: «﴿وُطِّلَحَ مَنْضُودٌ﴾» قال: هو المود. وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وهناد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر من طرق عن ابن عباس مثله. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر عن أبي هريرة مثله. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري مثله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب أنه قرأ (وطلح منضود). وأخرج ابن جرير، وابن الانباري في المصاحف عن قيس بن عباد قال: قرأت على علي بن أبي طالب «﴿وُطِّلَحَ مَنْضُودٌ﴾» فقال علي: ما بال الطلح، أما تقرأ وطلح؟ ثم قال: «﴿طَلَحَ نَضِيدٌ﴾» [ق: 10]، فقل

وكذا أي: ما أكلت شيئاً، وبات فلان القوي أي: بات جائعاً، ومنه قول الشاعر:

وإني لأختار القوى طلوي الحشا محافظة من أن يقال لثيم
وقال قطرب: القوى من الأضداد يكون بمعنى الفقر،
ويكون بمعنى الغنى؛ يقال: أقوى الرجل إذا لم يكن معه زاد،
وأقوى: إذا قويت نوابه وكثر ماله. وحكى الثعلبي عن أكثر
المفسرين القول الأول، وهو الظاهر ﴿فسيح باسم ربك
العظيم﴾ الفاء لترتيب ما بعدها من نكر الله سبحانه،
وتنزيهه على ما قبلها مما عنده من النعم التي أنعم بها على
عباده، وجود المشركين لها، وتكذيبهم بها.

وقد أخرج البزار، وابن جرير، وابن مروي، وأبو نعيم،
والبيهقي في الشعب، وضعفه عن أبي هريرة. قال: قال
رسول الله ﷺ: «لا يقول أحدكم زعت، ولكن يقول
حرث». قال أبو هريرة: ألم تسمعوا الله يقول: ﴿أقرايتم ما
تحرثون﴾ * أنتم ترزعهون أم نحن الزارعون. وأخرج
ابن جرير عن ابن عباس ﴿تفكهون﴾ قال: تعجبون. وأخرج
ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس. قال:
﴿المنز﴾ السحاب. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن
المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مروي عن طرق عن ابن عباس
﴿نحن جعلناها تنكرة﴾ قال: تنكرة للنار الكبرى ﴿ومتاعاً
للمقوين﴾ قال: للمسافرين.

❖ فَلَا أَقْسِيْ بِمَوْجِعِ الْخَبْرِ ❶ وَإِنَّ لَقَسْرَ لَوْ تَلَسَّرَ
عَظِيْمُ ❷ إِنَّ لَقَرْوَانَ كَرِيْمُ ❸ فِي كَسْبٍ مَّكَثُوْرٍ ❹ لَا يَمْسُهُ إِلَّا
الْمُطَهَّرُونَ ❺ تَزَيَّلَ بَيْنَ رَبِّهِ الْمَلَكَيْنِ ❻ أَفَبِهَذَا لَكَذِبٌ أَنْتُمْ تُدْعَوْنَ
❷ وَتَعْلَمُونَ رَزَقَكُمْ أَنْكُمْ تَكْذِبُونَ ❸ قَوْلًا إِذَا بَلَغَتِ الْمَرْءُ
وَأَسْتَرْجِيْزَ نَظَرُونَ ❹ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ❺
قَوْلًا إِنْ كُنْتُمْ عِبْرَ مِيْثِقَيْنِ ❶ تَرْجِعُونَنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ❷ فَلَمَّا إِنْ
كَانَ مِنَ الْمُتَرَجِّينَ ❸ فَرَجَّ رَحْمَانٌ وَحَثَّ نَبِيْرُ ❹ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ
أَحْسَبِ الْيَتِيْمِ ❶ فَسَلِّ لَكَ مِنْ أَحْسَبِ الْيَتِيْمِ ❷ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ
الْمُكْذِبِيْنَ الْمَالِيْنَ ❶ فَزَلَّ بَيْنَ جَبْرِ ❷ وَتَصْلِيَةِ جَبْرِ ❸ إِنَّ هَذَا
مَوْحٍ الْيَتِيْمِ ❶ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَلِيِّ ❷

قوله: ﴿فلا أقسم﴾ ذهب جمهور المفسرين إلى أن لا
مزيدة للتوكيد، والمعنى: فأقسم، ويؤيد هذا قوله بعد: ﴿وإنه
لقسم﴾ وقال جماعة من المفسرين: إنها للنفي، وإن المنفي
بها محذوف، وهو كلام الكفار الجاحدين. قال الفراء: هي
نفي، والمعنى: ليس الأمر كما تقولون، ثم استأنف، فقال:
أقسم، وضعف هذا بأن حذف اسم لا، وخبرها غير جائز،
كما قال أبو حيان، وغيره. وقيل: إنها لام الابتداء، والأصل:
فلا أقسم، فاشبعت الفتحة، فتولد منها ألف، فقول الشاعر:

أعوذ بالله من العقراب

وقد قرأ هكذا (فلا أقسم) بدون ألف، الحسن، وحמיד،
وعيسى بن عمر، وعلى هذا القول، وهذه القراءة يقدّر مبتدأ
محذوف، والتقدير: فلأنا أقسم بذلك. وقيل: إن لا هنا بمعنى

بذهاب ما حرثناه، ومصيره حطاماً، ثم أضربوا عن قولهم
هذا، وانتقلوا فقالوا: ﴿بئس نحن محرومون﴾ أي: حرماناً
رزقنا بهلاك زرعنا، والمحروم الممنوع من الرزق الذي لا
حظ له فيه، وهو المحارف ﴿أقرايتم الماء الذي تشربون﴾،
فتسكنون به ما يلحقكم من العطش، وتدفعون به ما ينزل
بكم من الظما. واقتصر سبحانه على نكر الشرب مع كثرة
فوائد الماء ومنافعه؛ لأنه أعظم فوائده، ولجل منافعه ﴿أنتم
أنزلتموه من المنز﴾ أي: السحاب. قال في الصحاح: قال
أبو زيد: المنزة السحابة البيضاء، والجمع من، والمنزة
المطر. قال الشاعر:

ألم تر أن الله أنزل منزلة وعفر الظبا في الكنائس تغمع
ومما يدل على أنه السحاب قول الشاعر:

فنحن كماء المنز مائي نصابنا كهام ولا فينا بعد بخيل
وقول الآخر:

فلا منزلة وقت ونقها ولا أرض أبقل إقبالها
﴿أم نحن المنزلون﴾ له بقدرتنا دون غيرنا، فإذا عرفتم
ذلك، فكيف لا تقرّون بالتوحيد، وتصدّقون بالبعث. ثم بين
لهم سبحانه أنه لو يشاء لسلبهم هذه النعمة فقال: ﴿لو
نشاء جعلناه لجبالاً﴾ الأجاج الماء الشديد الملوحة الذي لا
يمكن شربه، وقال الحسن: هو الماء المر الذي لا ينتفعون به
في شرب، ولا زرع، ولا غيرهما ﴿فلولا تشكرون﴾ أي:
فهل تشكرون نعمة الله الذي خلق لكم ماء عذباً تشربون منه
وتنتفعون به ﴿أقرايتم النار التي تورون﴾ أي: أخبروني
عنها، ومعنى ﴿تورون﴾: تستخرجونها بالقدر من الشجر
الرطب، يقال: أورييت النار إذا قديتها ﴿أنتم أنشأتم
شجرتها﴾ التي يكون منها الزنود، وهي المرخ والعفار،
تقول العرب: في كل شجر نار، واستجد المرخ والعفار ﴿أم
نحن المنشؤون﴾ لها بقدرتنا دونكم، ومعنى الإنشاء:
الخلق، وعبر عنه بالإنشاء للدلالة على ما في ذلك من بديع
الصنعة، وعجيب القدرة ﴿نحن جعلناها تنكرة﴾ أي:
جعلنا هذه النار التي في الدنيا تنكرة لنار جهنم الكبرى. قال
مجاهد، وقتادة: تبصرة للناس في الظلام، وقال عطاء:
موعظة ليتعظ بها المؤمن ﴿ومتاعاً للمقوين﴾ أي: منفعة
للذين ينزلون بالقواء، وهي الأرض القفر كالمسافرين، وأهل
البوادي النازلين في الأراضي المقفرة، يقال: أرض قواء بالمد
والقصر أي: مقفرة، ومنه قول النابغة:

يا دار مية بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأمد
وقال عنتره:

حييت من طلل تقام عهده أقوى واقفر بعد أم الهيثم
وقول الآخر:

ألم تسال الربيع القواء فينطق وهل يخبرنك اليوم ببدء سملق
ويقال: أقوى إذا سافر أي: نزل القوى. وقال مجاهد:
المقوين المستمتعين بها من الناس أجمعين في الطبخ،
والخبز، والاصطلاء، والاستضاءة، وتنكر نار جهنم. وقال
ابن زيد: للجائعين في إصلاح طعامهم، يقال: أقوى منذ كذا

المطهرون من الشرك. وقال الربيع بن أنس: المطهرون من الذنوب والخطايا. وقال محمد بن الفضل وغيره: معنى ﴿لَا يَمَسُّهُ﴾: لا يقرؤه إلا المطهرون أي: إلا الموحدون. وقال الفراء: لا يجد نفعه وبركته إلا المطهرون أي: المؤمنون. وقال الحسين بن الفضل: لا يعرف تفسيره وتأويله إلا من طهره الله من الشرك والنفاق. وقد ذهب الجمهور إلى منع المحدث من مس المصحف، وبه قال علي، وابن مسعود، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، وعطاء، والزهري، والنخعي، والحكم، وحماد وجماعة من الفقهاء منهم مالك، والشافعي. وروي عن ابن عباس، والشعبي، وجماعة منهم أبو حنيفة، أنه يجوز للمحدث مسه، وقد أوضحنا ما هو الحق في هذا في شرحنا للمتني، فليرجع إليه. قرأ الجمهور (المطهرون) بتخفيف الطاء وتشديد الهاء مفتوحة اسم مفعول. وقرأ سلمان الفارسي بكسر الهاء على أنه اسم فاعل أي: المطهرون أنفسهم. وقرأ نافع، وابن عمر في رواية عنهما، عيسى بن عمر بسكون الطاء وفتح الهاء خفيفة، اسم مفعول من أظهر، وقرأ الحسن، وزيد بن علي، وعبد الله بن عوف بتشديد الطاء وكسر الهاء، وأصله المتطهرون ﴿تَنْزِيلَ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قرأ الجمهور بالرفع، وقرأ بالنصب، فالرفع على أنه صفة أخرى للقرآن، أو خبر مبتدأ محذوف، والنصب على الحال ﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهَنُونَ﴾ الإشارة إلى القرآن المنعوت بالنعوت السابقة، والمدمن والمداخن المنافق. كذا قال الزجاج وغيره. وقال عطاء وغيره: هو الكذاب. وقال مقاتل بن سليمان، وقتادة: مدهنون كافرون، كما في قوله: ﴿وَوُتُوا لَوْ تَدْنُ فَيَدْنُونَ﴾ [القلم: 9] وقال الضحاک: مدهنون معرضون، وقال مجاهد: ممالئون للكفار على الكفر، وقال أبو كيسان: المدمن الذي لا يعقل حق الله عليه، ويضعفه بالعلل، والأول أولى؛ لأن أصل المدمن الذي ظاهره خلاف باطنه؛ كانه يشبه الدهن في سهولته. قال المؤرج: المدمن المنافق الذي يلين جانبه؛ ليخفي كفره، والإدهان والمداخنة: التكنيب، والكفر، والنفاق؛ وأصله اللين، وأن يسر خلاف ما يظهر، وقال في الكشف: مدهنون أي: متهاونون به كمن يدهن في الأمر أي: يلين جانبه ولا يتصلب فيه تهاوناً به انتهى. قال الراغب: والإدهان في الأصل مثل التدهين؛ لكن جعل عبارة عن المداراة والملاينة، وترك الجذ: كما جعل التثريد، وهو نزع القراء عبارة عن ذلك، ويؤيد ما نكره قول أبي قيس بن الأسلت:

الحزم والقوة خير من الـ إدهان والسبعه والسهاع
﴿وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾ في الكلام مضاف محذوف، كما حكاه الواحدي عن المفسرين أي: تجعلون شكر رزقكم أنكم تكذبون بنعمة الله، فتضعون التكنيب موضع الشكر. وقال الهيثم: إن أريشونة يقولون: ما رزق فلان أي: ما شكر؛ وعلى هذه اللغة لا يكون في الآية مضاف محذوف بل معنى الرزق الشكر. ووجه التعبير بالرزق عن الشكر أن الشكر يفرض زيادة الرزق، فيكون

ألا التي للتنبيه، وهو بعيد. وقيل: لا هنا على ظاهرها، وإنما لنفي القسم أي: فلا أقسم على هذا؛ لأن الأمر أوضح من ذلك، وهذا مدفوع بقوله: ﴿وإنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾ مع تعيين المقسم به، والمقسم عليه، ومعنى قوله: ﴿بمواقع النجوم﴾ مساقطها، وهي مغاربها كذا قال قتادة، وغيره. وقال عطاء بن أبي رباح: منازلها. وقال الحسن: انكدارها وانتثارها يوم القيامة، وقال الضحاک: هي الأنواء التي كان أهل الجاهلية يقولون مطرنا بنوء كذا. وقيل: المراد بمواقع النجوم: نزول القرآن نجوماً من اللوح المحفوظ، وبه قال السدي، وغيره، وحكى الفراء عن ابن مسعود أن مواقع النجوم هو محكم القرآن. قرأ الجمهور (مواقع) على الجمع، وقرأ ابن مسعود، والنخعي، وحمزة، والكسائي، وابن محيصن⁽¹⁾ وورش عن يعقوب (بموقع) على الأفراد. قال المبرد: موقع هاهنا مصدر، فهو يصلح للواحد والجمع. ثم أخبر سبحانه عن تعظيم هذا القسم وتقظيمه، فقال: ﴿وإنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾ هذه الجملة معترضة بين المقسم به، والمقسم عليه، وقوله: ﴿لو تعلمون﴾ جملة معترضة بين جزأي الجملة المعترضة، فهو اعتراض في اعتراض. قال الفراء، والزجاج: هذا يدل على أن المراد بمواقع النجوم نزول القرآن، والضمير في إنه على القسم الذي يدل عليه أقسم، والمعنى أن القسم بمواقع النجوم لقسم عظيم لو تعلمون. ثم نكر سبحانه المقسم عليه فقال: ﴿إنه لقرآن كريم﴾ أي: كرمه الله وأعزه، ورفع قدره على جميع الكتب، وكرمه عن أن يكون سحراً أو كهانة أو كذبا، وقيل: إنه كريم لما فيه من كرم الأخلاق ومعالي الأمور، وقيل: لأنه يكرم حافظه، ويعظم قارئه. وحكى الواحدي عن أهل المعاني أن وصف القرآن بالكريم لأن من شأنه أن يعطي الخير الكثير بالدلائل التي تؤدي إلى الحق في الدين. قال الأزهري: الكريم اسم جامع لما يحمد، والقرآن كريم يحمد لما فيه من الهدى والبيان والعلم والحكمة ﴿في كتاب مكفون﴾ أي: مستور مصون، وقيل: محفوظ عن الباطل، وهو اللوح المحفوظ قاله جماعة، وقيل: هو كتاب. وقال عكرمة: هو التوراة والإنجيل فهما ذكر القرآن، ومن ينزل عليه، وقال السدي: هو الزبور. وقال مجاهد، وقتادة: هو المصحف الذي في أيدينا ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ قال الواحدي: أكثر المفسرين على أن الضمير عائد إلى الكتاب المكنون أي: لا يمس الكتاب المكنون إلا المطهرون، وهم الملائكة وقيل: هم الملائكة والرسل من بني آدم، ومعنى ﴿لَا يَمَسُّهُ﴾ المسس الحقيقي، وقيل: معناه لا ينزل به إلا المطهرون، وقيل: معناه لا يقرؤه، وعلى كون المراد بالكتاب المكنون هو القرآن، فقيل: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ من الأحداث والأنجاس. كذا قال قتادة، وغيره: وقال الكلبي:

(1) هكذا بالأصل، وصوابه ورويس اهـ ع.

للمرحوم، والريحان: الرزق في الجنة، قاله مجاهد، وسعيد بن جبير، ومقاتل. قال مقاتل: هو الرزق بلغة حمير، يقال: خرجت أطلب ريحان الله أي: رزقه، ومنه قول النمر بن تولب:

سلام الإله وريحانه ورحمته وسماءه

وقال قتادة: إنه الجنة. وقال الضحاك: هو الرحمة. وقال الحسن: هو الريحان المعروف الذي يشم. قال قتادة، والربيع بن خيثم: هذا عند الموت، والجنة مخبوءة له إلى أن يبعث، وكذا قال أبو الجوزاء، وأبو العالية، ومعنى وجنة نعيم أنها ذات تنعم، وارتفاع روح، وما بعده على الابتداء، والخبر محذوف أي: فله روح ﴿وَمَا إِنْ كَانَ﴾ ذلك المتوفى ﴿مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ وقد تقدّم نكرهم، وتفصيل أحوالهم، وما أعدّه الله لهم من الجزاء ﴿فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ أي: لست ترى فيهم إلا ما تحب من السلامة، فلا تهتم بهم، فإنه يسلمون من عذاب الله، وقيل: المعنى: سلام لك منهم أي: أنت سالم من الاغتمام بهم، وقيل المعنى: إنهم يدعون لك، ويسلمون عليك، وقيل: إنه يحيي بالسلام إكراماً، وقيل: هو إخبار من الله سبحانه بتسليم بعضهم على بعض، وقيل المعنى: سلام لك يا صاحب اليمين من إخوانك أصحاب اليمين، ﴿وَمَا إِنْ كَانَ مِنَ الْمَكِينِ الضَّالِّينَ﴾ أي: المكين بالبعث الضالين عن الهدى، وهم أصحاب الشمال المتقدم نكرهم، وتفصيل أحوالهم ﴿فَنَزَلَ مِنْ حَمِيمٍ﴾ أي: فله نزل يعدّ لنزله من حميم، وهو الماء الذي قد تناهت حرارته، وذلك بعد أن ياكل من الزقوم كما تقدم بيانه: ﴿وَتَصْلِيَةٌ جَهِيمٍ﴾ يقال أصلاه النار وصلاه أي: إذا جعله في النار، وهو من إضافة المصدر إلى المفعول، أو إلى المكان. قال المبرد: وجواب الشرط في هذه الثلاثة المواضع محذوف، والتقدير: مهما يكن من شيء فروح إلخ، وقال الأخفش: إن الفاء في المواضع الثلاثة هي جواب أما، وجواب حرف الشرط. قرأ الجمهور (وتصلية) بالرفع عطفاً على فنزل. وقرأ أبو عمرو في رواية عنه بالجر عطفاً على حميم أي: فنزل من حميم، ومن تصلية جحيم ﴿إِنْ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ الإشارة إلى ما نكر في هذه السورة، أو إلى المنكور قريباً من أحوال المتفرقين لهو حق اليقين أي: محض اليقين وخالصه، وإضافة حق إلى اليقين من باب إضافة الشيء إلى نفسه. قال المبرد: هو كقولك عين اليقين ومحض اليقين، هذا عند الكوفيين وجوزوا ذلك؛ لاختلاف اللفظ: وأما البصريون، فيجعلون المضاف إليه محذوفاً، والتقدير: حق الأمر اليقين، أو الخبر اليقين، والفاء في ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها أي: نزهه عما لا يليق بشأنه، والباء متعلقة بمحذوف أي: فسبح ملتبساً باسم ربك للتركيب، وقيل المعنى: فصل بذكر ربك، وقيل: لباء زائدة، والاسم بمعنى الذات. وقيل: هي للتعبية؛ لأن سبّح يتعدى بنفسه تارة، ويتعدى بالحرف أخرى، والأول أولى.

الشكر رزقاً تعبيراً بالسبب عن المسبب، ومما يدخل تحت هذه الآية قول الكفار إذا سقامهم الله، وأنزل عليهم المطر: سقيتنا بنوه كذا، ومطرنا بنوه كذا. قال الأزهري: معنى الآية: وتجعلون بدل شكركم رزقكم الذي رزقكم الله التأكيد بأنه من عند الله الرزاق. وقرأ علي وابن عباس (وتجعلون شكركم) وقرأ الجمهور (أنكم تكذبون) بالتشديد من التأكيد، وقرأ علي، وعاصم في رواية عنه بالتخفيف من الكذب ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغْتَ الْحُلُقُومَ﴾ أي: فهلا إذا بلغت الروح، أو النفس الحلقوم عند الموت، ولم يتقدم لها نكر؛ لأن المعنى مفهوم عندهم إذا جاءوا بمثل هذه العبارة، ومنه قول حاتم طي:

أماوي ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر
﴿وَأَنْتُمْ حِينَتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ إلى ما هو فيه ذلك الذي بلغت نفسه أو روحه الحلقوم. قال الزجاج: وأنتم يا أهل الميت في تلك الحال ترون الميت قد صار إلى أن تخرج نفسه، والمعنى: أنهم في تلك الحال لا يمكنهم النفع عنه، ولا يستطيعون شيئاً ينفعه، أو يخفف عنه ما هو فيه ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ﴾ أي: بالعلم، والقدرة، والرؤية، وقيل: أراد ورسلا الذين يتولون قبضه أقرب إليه منكم ﴿وَلَكِنْ لَا تَبْصُرُونَ﴾ أي: لا ترون ذلك؛ لجهلكم بأن الله أقرب إلى عبده من حبل الوريد، أو لا تبصرون ملائكة الموت الذين يحضرون الميت ويتولون قبضه ﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ ترجعونها، يقال: دان السلطان رعيته: إذا ساسهم واستعبدهم. قال الفراء: بنته ملكته، وأنشد للحطية:

لقد ننت أمر بنيك حتى تركتهم أبق من الطحين
أي: ملكته، ويقال: دانه إذا أنله واستعبده، وقيل: معنى ﴿مَدِينِينَ﴾ محاسبين، وقيل: مجزيين، ومنه قول الشاعر:

ولم يبق سوى العدو ن ناهم كما دانوا
والمعنى الأول الصق بمعنى الآية أي: فهلا إن كنتم غير مريبين وملوكين ترجعونها أي: النفس التي قد بلغت الحلقوم إلى مقرها الذي كانت فيه ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وإن ترجعوها، فبطل زعمكم إنكم غير مريبين ولا ملوكين، والعامل في قوله: ﴿إِذَا بَلَغْتَ﴾ هو قوله: ﴿تَرْجِعُونَهَا﴾، ولولا الثانية تأكيداً للآولى قال الفراء: وربما أعانت العرب الحرفين ومعناها واحد. ثم نكر سبحانه طبقات الخلق عند الموت وبعده فقال: ﴿فَمَا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ أي: السابقين من الثلاثة الأصناف المتقدم تفصيل أحوالهم ﴿فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّةٌ وَنَعِيمٌ﴾ قرأ الجمهور (روح) بفتح الراء، ومعناه: الراحة من الدنيا، والاستراحة من أحوالها. وقال الحسن: الروح: الرحمة. وقال مجاهد: الروح: الفرح. وقرأ ابن عباس، وعائشة، والحسن، وقتادة، ونصر بن عاصم، والجدري (فروح) بضم الراء، ورويت هذه القراءة عن يعقوب، قيل: ومعنى هذه القراءة: الرحمة لأنها كالحياة

وقد أخرج النسائي، وابن جرير، ومحمد بن نصر، والحاكم وصححه، وابن مروي، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس قال: أنزل القرآن في ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا جملة واحدة، ثم فرّق في السنين، وفي لفظ: ثم نزل من السماء الدنيا إلى الأرض نجوماً، ثم قرأ: ﴿قُلْ أَقْسَمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، ومحمد بن نصر، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مروي عنه ﴿قُلْ أَقْسَمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ قال: القرآن ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ قال: القرآن. وأخرج ابن مروي عنه أيضاً في الآية قال: نجوم القرآن حين ينزل. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في المعرفة من طرق عن ابن عباس أيضاً ﴿لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ قال: الكتاب المنزل في السماء لا يمسّه إِلَّا الملائكة. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر عن انس ﴿لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ قال: الملائكة. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر عن علقمة قال: أتينا سلمان الفارسي، فخرج علينا من كنيف، فقلنا له: لو توضأت يا أبا عبد الله، ثم قرأت علينا سورة كذا، وكذا، قال: إنما قال الله: ﴿فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ وهو الذي في السماء لا يمسّه إِلَّا الملائكة، ثم قرأ علينا من القرآن ما شئنا. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي داود، وابن المنذر، عن عبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم عن أبيه قال: في كتاب النبي ﷺ لعمر بن حزم: «لا تمس القرآن إِلَّا على طهر». وأخرجه مالك في الموطأ عن عبد الله بن أبي بكر. وأخرجه أبو داود في المراسيل من حديث الزهري قال: قرأت في صحيفة عبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم أن رسول الله ﷺ قال: «ولا يمس القرآن إِلَّا طاهر» وقد أسنده الدارقطني عن عمرو بن حزم، وعبد الله بن عمر، وعثمان بن أبي العاص، وفي أسانيدنا نظر. وأخرج ابن المنذر عن ابن عمر أنه كان لا يمس المصحف إِلَّا متوضئاً. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة في المصنف، وابن المنذر، والحاكم وصححه عن عبد الرحمن بن زيد قال: كنا مع سلمان فانتقل إلى حاجة، فتوارى عنا، ثم خرج إلينا، فقلنا: لو توضأت، فسألتك عن أشياء من القرآن، فقال: سلوني، فإني لست أمسّه إنما يمسّه المطهرون، ثم تلا: ﴿لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾. وأخرج الطبراني، وابن مروي عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يمس القرآن إِلَّا طاهر» وأخرج ابن مروي عن معاذ بن جبل: «أن النبي ﷺ لما بعثه إلى اليمن كتب له في عهده: أن لا يمس القرآن إِلَّا طاهر». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿أَنْتُمْ مَدْهُونُونَ﴾ قال: مكثبون. وأخرج مسلم، وابن المنذر، وابن مروي عن ابن عباس قال: «مطر الناس على عهد رسول الله ﷺ، فقال النبي ﷺ: أصبح من الناس شاكراً ومنهم كافر، قالوا: هذه رحمة وضعها الله. وقال بعضهم: لقد صلق نوء كذا، وكذا، فنزلت هذه الآية: ﴿قُلْ

أَقْسَمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ حتى بلغ ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ﴾ وأصل الحديث بلون نكر أنه سبب نزول الآية ثابت في الصحيحين من حديث زيد بن خالد الجهني، ومن حديث أبي سعيد الخدري، وفي الباب أحاديث. وأخرج أحمد، وابن منيع، وعبد بن حميد، والترمذي وحسنه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مروي، والضياء في المختارة عن علي بن النبي ﷺ في قوله ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ﴾ قال: «شكركم، تقولون مطرنا بنوء كذا، وكذا، وينجم كذا وكذا». وأخرج ابن عساکر في تاريخه عن عائشة قالت: ما فسر رسول الله ﷺ من القرآن إِلَّا آيات يسيرة قوله ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ﴾ قال: «شكركم». وأخرج ابن مروي عن علي «أن رسول الله ﷺ قرأ: (وتجعلون شكركم)». وأخرج أبو عبيد في فضائله، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مروي عن ابن عباس أنه كان يقرأ (وتجعلون شكركم) قال: يعني الأنواء، وما مطر قوم إِلَّا أصبح بعضهم كافراً كانوا يقولون مطرنا بنوء كذا، وكذا، فأنزل الله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ﴾. وأخرج ابن مروي عن أبي عبد الرحمن السلمي عن علي أنه قرأ: (وتجعلون شكركم) وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأها كذلك. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله ﴿غَيْرِ مَعِينِينَ﴾ قال: غير محاسبين. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد في الزهد، وعبد بن حميد، وابن المنذر عن الربيع بن خيثم ﴿فَإِذَا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ الآية قال: هذا له عند الموت ﴿وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ﴾ تخياً له الجنة إلى يوم يبعث ﴿وَلَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَنَّبِينَ لِلضَّالِّينَ﴾ فنزل من حميم. قال: هذا عند الموت ﴿وَتَصْلِيَةٌ جَهِيمٌ﴾ قال: تخياً له الجحيم إلى يوم يبعث. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿فُرُوحٌ﴾ قال: رائحة ﴿وَرِيحَانٌ﴾ قال: استراحة. وأخرج ابن جرير عنه قال: يعني بالريحان المستريح من الدنيا ﴿وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ﴾ يقول: مغفرة ورحمة. وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً قال: الريحان الرزق. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه أيضاً في قوله ﴿فَسَلَامٌ لَكَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ قال: تأتيه الملائكة بالسلام من قبل الله تسلم عليه، وتخبره أنه من أصحاب اليمين. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿إِنْ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ قال: ما قصصنا عليك في هذه السورة. وأخرج عنه أيضاً ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ قال: فصل لربك. وأخرج سعيد بن منصور، وأحمد، وأبو داود، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مروي، والبيهقي في سننه عن عقبه بن عمر الجهني قال: «لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ قال: اجعلوها في ركوعكم، فلما نزلت ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: 1] قال: اجعلوها في سجودكم».

تفسير سورة الحديد

وهي منبئة. قال القرطبي: في قول الجميع. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة الحديد بالمنبئة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. وأخرج الطبراني، وابن مردويه قال السيوطي بسند ضعيف عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «نزلت سورة الحديد يوم الثلاثاء، وخلق الله الحديد يوم الثلاثاء، وقتل ابن أمّ أخاه يوم الثلاثاء، ونهى رسول الله ﷺ عن الحجابة يوم الثلاثاء». وأخرج الديلمي عن جابر مرفوعاً «لا تحتجموا يوم الثلاثاء، فإن سورة الحديد أنزلت عليّ يوم الثلاثاء». وأخرج أحمد، والترمذي، وحسنه، والنسائي، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عن العرياض بن سارية: «أن رسول الله ﷺ كان يقرأ المسبحات قبل أن يرقد، وقال: إن فيه من آية أفضل من ألف آية»، وفي إسناده بقية بن الوليد، وفيه مقال معروف. وقد أخرجه النسائي عن خالد بن معدان قال: كان رسول الله ﷺ، ولم ينكر العرياض بن سارية، فهو مرسل. وأخرج ابن الضريس عن يحيى بن أبي كثير قال: «كان رسول الله ﷺ لا ينام حتى يقرأ المسبحات، وكان يقول: إن فيه من آية أفضل من ألف آية» قال يحيى: فزناها الآية التي في آخر الحشر. وقال ابن كثير في تفسيره: والآية المشار إليها، والله أعلم هي قوله: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: 3] الآية. والمسبحات المذكورة هي: الحديد، والحشر، والصف، والجمعة، والتغابن.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٣﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٤﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٥﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٦﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٧﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٨﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٩﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿١٠﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿١١﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿١٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿١٣﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿١٤﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿١٥﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿١٦﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿١٧﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿١٨﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿١٩﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٢٠﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٢١﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٢٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٢٣﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٢٤﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٢٥﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٢٦﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٢٧﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٢٨﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٢٩﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٣٠﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٣١﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٣٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٣٣﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٣٤﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٣٥﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٣٦﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٣٧﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٣٨﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٣٩﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٤٠﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٤١﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٤٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٤٣﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٤٤﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٤٥﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٤٦﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٤٧﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٤٨﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٤٩﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٥٠﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٥١﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٥٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٥٣﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٥٤﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٥٥﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٥٦﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٥٧﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٥٨﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٥٩﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٦٠﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٦١﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٦٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٦٣﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٦٤﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٦٥﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٦٦﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٦٧﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٦٨﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٦٩﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٧٠﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٧١﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٧٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٧٤﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٧٥﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٧٦﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٧٧﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٧٨﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٧٩﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٨٠﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٨١﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٨٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٨٣﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٨٤﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٨٥﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٨٦﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٨٧﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٨٨﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٨٩﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٩٠﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٩١﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٩٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٩٣﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٩٤﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٩٥﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٩٦﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٩٧﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٩٨﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿٩٩﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا كَفُّهُ ﴿١٠٠﴾

قوله: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: نزهه ومجده. قال المقاتلان: يعني كل شيء من ذي روح وغيره، وقد تقدّم الكلام في تسبيح الجمادات عند تفسير قوله: ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ [الإسراء: 44] والمراد بالتسبيح المسند إلى ما في السموات والأرض من العقلاء وغيرهم، والحيوانات والجمادات هو ما يعم التسبيح بلسان المقال كتسبيح الملائكة والإنس والجن، ولسان الحال كتسبيح غيرهم، فإن

كل موجود يدل على الصانع. وقد أنكر الزجاج أن يكون تسبيح غير العقلاء هو تسبيح الدلالة وقال: لو كان هذا تسبيح الدلالة، وظهور آثار الصنعة لكانت مفهومة، فلم قال: ﴿ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ وإنما هو تسبيح مقال، واستدل بقوله: ﴿وسخرنا مع داود الجبال يسبحن﴾ [الأنبياء: 79] فلو كان هذا التسبيح من الجبال تسبيح دلالة لم يكن لتخصيص داود فائدة، وفعل التسبيح قد يتعدى بنفسه تارة، كما في قوله: ﴿وسبحوه﴾ [الأحزاب: 42] وباللام أخرى كهذه الآية، وأصله أن يكون متعدياً بنفسه؛ لأن معنى سبحته: بعثته عن السوء، فإذا استعمل باللام، فهي إما مزيدة للتأكيد، كما في شكرته، وشكرت له، أو هي للتعليل أي: افعل التسبيح؛ لأجل الله سبحانه خالصاً له، وجاء هذا الفعل في بعض الفواتح ماضياً كهذه الفاتحة، وفي بعضها مضارعاً، وفي بعضها أمراً للإشارة إلى أن هذه الأشياء مسبحة في كل الأوقات لا يختص تسبيحها بوقت نون وقت، بل هي مسبحة أبداً في الماضي، وستكون مسبحة أبداً في المستقبل ﴿وهو العزيز﴾ أي: القادر الغالب الذي لا ينازعه أحد، ولا يمانعه ممانع كائن ما كان ﴿الحكيم﴾ الذي يفعل أفعال الحكمة والصواب ﴿له ملك السموات والأرض﴾ يتصرف فيه وحده، ولا ينفذ غير تصرفه وأمره، وقيل: أراد خزائن المطر والنبات، وسائر الأرزاق ﴿يحيي ويميت﴾ الفعلان في محل رفع على أنهما خبر لمبتدأ محذوف، أو في محل نصب على الحال من ضمير له، أو كلام مستأنف، لبيان بعض أحكام الملك، والمعنى: أنه يحيي في الدنيا ويميت الأحياء، وقيل: يحيي النطف وهي موات، ويميت الأحياء، وقيل: يحيي الأموات للبعث ﴿وهو على كل شيء قدير﴾ لا يعجزه شيء كائن ما كان ﴿هو الأول﴾ قبل كل شيء ﴿والآخر﴾ بعد كل شيء أي: الباقي بعد فناء خلقه ﴿والظاهر﴾ العالي الغالب على كل شيء، أو الظاهر وجوده بالآلة الواضحة ﴿والباطن﴾ أي: العالم بما بطن، من قولهم: فلان يبطن أمر فلان أي: يعلم داخلته أمره، ويجوز أن يكون المعنى المحتجب عن الأبصار، والعقول، وقد فسر هذه الأسماء الأربعة رسول الله ﷺ، كما سيأتي، فبتعين المصير إلى ذلك ﴿وهو بكل شيء عليم﴾ لا يعزب عن علمه شيء من المعلومات ﴿هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام﴾ هذا بيان لبعض ملكه للسموات والأرض. وقد تقدّم تفسيره في سورة الأعراف وفي غيرها مستوفى ﴿يعلم ما يلج في الأرض﴾ أي: يدخل فيها من مطر وغيره ﴿وما يخرج منها﴾ من نبات وغيره ﴿وما ينزل من السماء﴾ من مطر وغيره ﴿وما يعرج فيها﴾ أي: يصعد إليها من الملائكة، وأعمال العباد، وقد تقدّم تفسير هذا في سورة سبا ﴿وهو معكم أينما كنتم﴾ أي: بقدرة، وسلطانه، وعلمه، وهذا تمثيل للإحاطة بما يصدر منهم أينما داروا في الأرض من بر وبحر ﴿والله بما تعملون بصير﴾ لا يخفى عليه من

المسلمين الاستمرار عليه، أو الازيد منه. ثم لما أمرهم بالإيمان أمرهم بالإتفاق في سبيل الله، فقال: ﴿وَانْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ أي: جعلكم خلفاء في التصرف فيه من غير أن تملكوه حقيقة، فإن المال مال الله، والعباد خلفاء الله في أمواله، فعليهم أن يصرفوها فيما يرضيه وقيل: جعلكم خلفاء من كان قبلكم ممن تروثونه، وسينتقل إلى غيركم ممن يرثكم، فلا تبخلوا به. كذا قال الحسن وغيره.

وفيه الترغيب إلى الإتفاق في سبيل الخير قبل أن ينتقل عنهم، ويصير إلى غيرهم. والظاهر أن معنى الآية الترغيب في الإتفاق في الخير، وما يرضاه الله على العموم، وقيل: هو خاص بالزكاة المفروضة، ولا وجه لهذا التخصيص. ثم ذكر سبحانه ثواب من أنفق في سبيل الله فقال: ﴿قَالَتَيْنِ آمَنُوا مِنْكُمْ وَانْفِقُوا لَهُمْ لُجْرَ كَبِيرٍ﴾ أي: اللذين جمعوا بين الإيمان بالله ورسوله، وبين الإتفاق في سبيل الله لهم لجر كبير، وهو الجنة ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ هذا الاستفهام، للتوبيخ والتقريع أي: أي عذر لكم، وأي مانع من الإيمان، وقد أزيلت عنكم العلل، «وما مبتدأ، ولكم خبره، ولا تؤمنون في محل نصب على الحال من الضمير في لكم، والعامل ما فيه من معنى الاستقرار، وقيل: المعنى: أي شيء لكم من الثواب في الآخرة إذا لم تؤمنوا؟ وجملة: ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ في محل نصب على الحال من ضمير لا تؤمنون على التداخل، ولتؤمنوا متعلق بدعوكم أي: يدعوكم للإيمان، والمعنى أي: عذر لكم في ترك الإيمان، والرسول يدعوكم إليه، وينبهكم عليه؟ وجملة: ﴿وَقَدْ اخَذَ مِيثَاقَكُمْ﴾ في محل نصب على الحال من فاعل يدعوكم على التداخل أيضاً أي: والحال أن قد اخذ الله ميثاقكم حين أخرجكم من ظهر أبيكم آدم، أو بما نصب لكم من الالة الدالة على التوحيد، ووجوب الإيمان. قرأ الجمهور (وقد اخذ) مبنياً للفاعل، وهو الله سبحانه لتقدم نكرة. وقرأ أبو عمرو على البناء للمفعول. ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بما اخذ عليكم من الميثاق، أو بالحجج والدلائل، أو إن كنتم مؤمنين بسبب من الأسباب، فهذا من أعظم أسبابه وأوضح موجباته ﴿هُوَ الَّذِي يَنْزِلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتَ بَيِّنَاتٍ﴾ أي: واضحات ظاهرات، وهي الآيات القرآنية، وقيل: المعجزات والقرآن أعظمها ﴿لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي: ليخرجكم الله بتلك الآيات من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان، أو ليخرجكم الرسول بتلك الآيات، أو بالدعوة ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرْؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ أي: لكثير الرأفة والرحمة بليغها حيث أنزل كتبه، وبعث رسله لهداية عباده، فلا رافة ولا رحمة أبلغ من هذه، والاستفهام في قوله: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ للتقريع والتوبيخ، والكلام في إعراب هذا كالكلام في إعراب قوله ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ وفي هذه الآية دليل على أن الإتفاق المأمور به في قوله ﴿وَانْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ هو الإتفاق في سبيل الله، كما بينا ذلك، والمعنى: أي عذر لكم، وأي شيء يمنعكم من ذلك، والأصل في أن لا تنفقوا، وقيل:

أعمالكم شيء ﴿لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هذا التكرير للتأكيد ﴿وَاللَّهُ تَرْجِعُ الْأُمُورَ﴾ لا إلى غيره. قرأ الجمهور (ترجع) مبنياً للمفعول. وقرأ حمزة، والكسائي، وابن عامر على البناء للفاعل ﴿يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ قد تقدم تفسير هذا في سورة آل عمران، وفي مواضع ﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: بضماثر الصدور ومكنوناتها، لا يخفى عليه من ذلك خافية.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، ومسلم، والترمذي، والبيهقي، عن أبي هريرة قال: «جاءت فاطمة إلى رسول الله ﷺ تسأله خائماً، فقال: قلني: اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ، وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، وَرَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، مَنْزِلَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ شَيْءٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ، أَنْتَ الْأَوَّلُ، فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ، فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ، فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ، فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ، وَأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ». وأخرج أحمد، ومسلم، وغيرهما من حديث أبي هريرة من وجه آخر مرفوعاً مثل هذا في الأربعة الأسماء المذكورة، وتفسيرها. وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن ابن عمر وأبي سعيد عن النبي ﷺ قال: «لا يزال الناس يسألون عن كل شيء حتى يقولوا: هذا الله كان قبل كل شيء، فمأذا كان قبل الله؟ فإن قالوا لكم ذلك، فقولوا: هو الأول قبل كل شيء، والآخر فليس بعده شيء، وهو الظاهر فوق كل شيء، وهو الباطن دون كل شيء، وهو بكل شيء عليم». وأخرج أبو داود عن أبي زميل قال: سألت ابن عباس، فقلت: ما شيء أجده في صدري، قال ما هو؟ قلت: والله لا أتكلم به، قال: فقال لي: أشيء من شك؟ قال، وضحك، قال: ما نجا من ذلك أحد، قال حتى أنزل الله: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [يونس: 94] الآية قال: وقال لي: إذا وجدت في نفسك شيئاً فقل: هو الأول والآخر والظاهر والباطن، وهو بكل شيء عليم. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ﴾ قال: عالم بكم أينما كنتم.

آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٠﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١﴾ هُوَ الَّذِي يَنْزِلُ عَلَى عَبْدِهِ بِالْبَيِّنَاتِ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَرْسُدَ أَشْقَوَاتٍ وَالْأَرْضُ لَا يَسْتَوِي مَنْ أَتَى مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَدْ أَفْلَحَ أَوَّلُكُمْ أَوَّلُكُمْ أَكْثَرُ دَرَجَةٍ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَتَنَزَّلُوا وَقَدْ وَعَدَ اللَّهُ الْمُتَّقِينَ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ مَنْ ذَا الَّذِي يَرْفُضُ اللَّهُ قَوْمًا هَٰؤُلَاءِ فَتُخَوِّفُهُمْ لَمْ يَلِكُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٤﴾

قوله: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: صدقوا بالتوحيد، وبصحة الرسالة، وهذا خطاب لكفار العرب. ويجوز أن يكون خطاباً للجميع، ويكون المراد بالآمر بالإيمان في حق

سبيل الله، فإنه كمن يقرضه، والعرب تقول لكل من فعل فعلاً حسناً قد أقرض، ومنه قول الشاعر:

وإذا جوزيت قرضاً فأجزه إنما يجزى الفتى ليس الجميل
قال: الكلبي **﴿قرضاً﴾** أي: صدقة **﴿حسناً﴾** أي: محتسباً من قلبه بلا من ولا أذى. قال مقاتل: حسناً طيبة به نفسه، وقد تقدم تفسير الآية في سورة البقرة **﴿فيضاعفه له﴾** قرأ ابن عامر، وابن كثير (فيضعفه) بإسقاط الالف إلا أن ابن عامر، ويعقوب نصبوا الفاء، وقرأ نافع، وأهل الكوفة، والبصرة، (فيضاعفه) بالالف وتخفيف العين إلا أن عاصماً نصب الفاء، ورفع الباقون. قال ابن عطية: الرفع على العطف على يقرض، أو الاستئناف والنصب لكون الفاء في جواب الاستفهام. وضعف النصب أبو علي الفارسي قال: لأن السؤال لم يقع عن القرض، وإنما وقع عن فاعل القرض، وإنما تنصب الفاء فعلاً مرئوباً على فعل مستفهم عنه، لكن هذه الفرقة حملت ذلك على المعنى: كان قوله: **﴿من ذا الذي يقرض الله﴾** بمنزلة قوله أيقرض الله أحد **﴿وله اجر كريم﴾** وهو الجنة، والمضاعفة هنا هي كون الحسنه بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف على اختلاف الأحوال والأشخاص والأوقات.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مروي، وأبو نعيم في الدلائل من طريق زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ عام الحديبية حتى إذا كنا بعسفان قال رسول الله ﷺ: يوشك أن يأتي قوم يحرقون أعمالكم مع أعمالهم، قلنا من هم يا رسول الله؟ أقريش؟ قال: لا، ولكنهم أهل اليمن هم: أرق، أقنذة، والين قلوباً فقلنا: أهم خير منا يا رسول الله؟ قال: لو كان لأحدهم جبل من ذهب ما أدرك مد أحكم، ولا نصيفه، إلا أن هذا فصل ما بيننا وبين الناس **﴿لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل﴾**، الآية وهذا الحديث قال ابن كثير: هو غريب بهذا الإسناد، وقد رواه ابن جرير، ولم يذكر فيه الحديبية. وأخرج أحمد عن أنس قال: «كان بين خالد بن الوليد، وبين عبد الرحمن بن عوف كلام، فقال خالد لعبد الرحمن: تستطيلون علينا بأيام سبقتونا بها؟ فبلغ النبي ﷺ فقال: دعوا لي أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أحد أو مثل الجبال ذهباً ما بلغتم أعمالهم» والذي في الصحيح عن رسول الله ﷺ بلفظ «لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أن أحكم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه» وفي لفظ «ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه» أخرج هذا الحديث البخاري، ومسلم وغيرهما من حديث أبي سعيد الخدري. وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن عمر قال: لا تسبوا أصحاب محمد ﷺ، فلمقام أحدهم ساعة خير من عمل أحكم عمره.

يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسَرُّوْنَهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَيَنْتَهِرُ مِنْكُمْ

إن أن زائدة، وجملة **﴿وإن ميراث السموات والأرض﴾** في محل نصب على الحال من فاعل **﴿لا تنفقوا﴾** أو من مفعوله، والمعنى: أي شيء يمنعكم من الإنفاق في ذلك الوجه، والحال أن كل ما في السموات والأرض راجع إلى الله سبحانه بانقراض العالم كرجوع الميراث إلى الوارث، ولا يبقى لهم منه شيء، وهذا أدخل في التوبيخ، وإكمال في التقرير، فإن كون تلك الأموال تخرج عن أهلها، وتصير لله سبحانه، ولا يبقى أحد من مالكيها أقوى في إيجاب الإنفاق عليهم من كونها لله في الحقيقة، وهم: خلفاؤه في التصرف فيها. ثم بين سبحانه فضل من سبق بالإنفاق في سبيل الله، فقال: **﴿لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح﴾** قيل: المراد بالفتح فتح مكة، وبه قال أكثر المفسرين. وقال الشعبي، والزهرري: فتح الحديبية، قال قتادة: كان قتالان أحدهما أفضل من الآخر، ونفقتان إحداهما أفضل من الأخرى، كان القتال والنفقة قبل فتح مكة أفضل من القتال والنفقة بعد ذلك، وكذا قال مقاتل وغيره، وفي الكلام حذف، والتقدير: لا يستوي من أنفق من قبل الفتح **﴿ووقاتل﴾** ومن أنفق من بعد الفتح وقاتل، فحذف لظهوره، ولدلالة ما سيأتي عليه، وإنما كانت النفقة والقتال قبل الفتح أفضل من النفقة والقتال بعد الفتح؛ لأن حاجة الناس كانت إذ ذاك أكثر، وهم أقل وأضعف، وتقديم الإنفاق على القتال للإيذان بفضيلة الإنفاق لما كانوا عليه من الحاجة، فإنهم كانوا يجوبون بأنفسهم، ولا يجوبون ما يجوبون به من الأموال. والوجود بالنفس أقصى غاية الجود، والإشارة بقوله: **﴿لؤلؤك﴾** إلى «من» باعتبار معناها، وهو مبتدأ وخبره **﴿اعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا﴾** أي: أرفع منزلة، وأعلى رتبة من الذين أنفقوا أموالهم في سبيل الله من بعد الفتح، وقاتلوا مع رسول الله ﷺ، قال عطاء: درجات الجنة تتفاضل، فالذين أنفقوا من قبل الفتح في أفضلها، قال الزجاج: لأن المتقدمين نالهم من المشقة أكثر مما نال من بعدهم، وكانت بصائرهم أيضاً أنفذ.

وقد أرشد ﷺ إلى هذه الفضيلة بقوله فيما صح عنه: «لو أنفق أحكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه» وهذا خطاب منه ﷺ للمتأخرين وصحبه، كما يرشد إلى ذلك السبب الذي ورد فيه هذا الحديث **﴿وكلاً وعد الله للحسنى﴾** أي: وكل واحد من الفريقين وعد الله المثوبة الحسنى، وهي الجنة مع تفاوت درجاتهم فيها. قرأ الجمهور (وكلاً) بالنصب على أنه مفعول به للفعل المتأخر. وقرأ ابن عامر بالرفع على الابتداء، والجملة بعده خبره، والعائد محذوف، أو على أنه خبر مبتدأ محذوف، ومثل هذا قول الشاعر:

قد أصبحت لم الخيار تدعي عليّ ننبأكله لم أصنع

﴿والله بما تعملون خبير﴾ لا يخفى عليه من ذلك شيء. ثم رغب سبحانه في الصدقة فقال: **﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً﴾** أي: من ذا الذي ينفق ماله في

وقيل: معنى انظرونا: انظروا إلينا؛ لأنهم إذا نظروا إليهم استقبلوهم بوجوههم، فيستضيئون بنورهم ﴿فَنَقْبِسَ مِنْ نُورِكُمْ﴾ أي: نستضيء منه، والقبس: الشعلة من النار والسراج، فلما قالوا ذلك ﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ﴾ أي: قال لهم المؤمنون، أو الملائكة زجراً لهم، وتهكماً بهم أي: ارجعوا وراكم إلى الموضع الذي أخذنا منه النور ﴿فَالْتَمَسُوا نُورًا﴾ أي: اطلبوا هنالك نوراً لأنفسكم، فإنه من هنالك يقتبس، وقيل المعنى: ارجعوا إلى الدنيا، فالتمسوا النور بما التمسناه به من الإيمان، والأعمال الصالحة، وقيل: أرادوا بالنور ما وراءهم من الظلمة تهكماً بهم ﴿فَضْرَبَ بَيْنَهُمْ بِسُورًا﴾ السور: هو الحاجز بين الشيئين، والمراد به هنا الحاجز بين الجنة والنار، أو بين أهل الجنة وأهل النار. قال الكسائي: والباء في بسور زائدة، ثم وصف سبحانه السور المذكور فقال: ﴿لَهُ بَابٌ بَاطِنٌ فِيهِ الرَّحْمَةُ﴾ أي: باطن ذلك السور. وهو الجانب الذي يلي أهل الجنة فيه الرحمة: وهي الجنة ﴿وَوَظَاهِرُهُ﴾ وهو الجانب الذي يلي أهل النار ﴿مِنْ قَبْلِهِ الْعَذَابُ﴾ أي: من جهته عذاب جهنم، وقيل: إن المؤمنين يسبقونهم فيدخلون الجنة، والمنافقون يحصلون في العذاب وبينهم السور، وقيل: إن الرحمة التي في باطنه نور المؤمنين، والعذاب الذي في ظاهره ظلمة المنافقين، ولما ضرب بالسور بين المؤمنين والمنافقين أخبر الله سبحانه عما قاله المنافقون إذ ذاك، فقال: ﴿يَنَابِئُونَهُمْ لَمْ تَكُنْ مَعَهُمْ﴾ أي: موافقين لكم في الظاهر نصلي بصلاتكم في مساجدكم، ونعمل بأعمال الإسلام مثلكم، والجملة مستأنفة كانه قيل: فماذا قال المنافقون بعد ضرب السور بينهم وبين المؤمنين؟ فقال: ﴿يَنَابِئُونَهُمْ﴾، ثم أخبر سبحانه عما أجابهم به المؤمنون فقال: ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ أي: كنتم معنا في الظاهر ﴿وَلَكِنَّا كُنَّا نُنْصِرُكُمْ﴾ بالنفاق وإبطان الكفر، قال مجاهد: أملكتموها بالنفاق، وقيل: بالشهوات واللذات ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ بمحمد ﷺ، وبمن معه من المؤمنين حوادث الدهر، وقيل: تربصتم بالتوبة، والأول أولى ﴿وَارْتَبْتُمْ﴾ أي: شككتم في أمر الدين ولم تصدقوا ما نزل من القرآن، ولا بالمعجزات الظاهرة ﴿وَعَزَّزْتُمُ الْإِيمَانِيَّةَ﴾ الباطلة التي من جملتها ما كنتم فيه من التريص، وقيل: هو طول الأمل، وقيل: ما كانوا يتمنونه من ضعف المؤمنين وقال قتادة: الأمانى هنا غرور الشيطان، وقيل: الدنيا، وقيل: هو طمعهم في المغفرة، وكل هذه الأشياء تدخل في مسمى الأمانى ﴿وَحَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ وهو الموت، وقيل: نصره سبحانه لنبيه ﷺ، وقال قتادة: هو إلقاؤهم في النار ﴿وَعَزَّزْتُمْ بِالنَّارِ الْغُرُورَ﴾ قرأ الجمهور (الغرور) بفتح الغين، وهو صفة على فعل، والمراد به الشيطان: أي خدعكم بحلم الله، وإمهاله الشيطان. وقرأ أبو حية، ومحمد بن السميع، وسماك بن حرب بضمها، وهو مصدر ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُوْخِذُكُمْ عَنْهُ﴾ تغدون بها أنفسكم من النار أيها المنافقون ﴿وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ظاهراً وباطناً ﴿وَمَوَاقِعُ النَّارِ﴾ أي: منزلكم الذي تأبون

إِلَيْهِمْ جَنَّتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْغُرُورُ الْعَظِيمُ ﴿١١﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُتَّقُونَ وَالْمُتَّقَتُ الْيَوْمَ مَا سَأَلْنَا عَنْ نَفْسٍ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَصَرَّبَ بَيْنَهُمْ سُورًا بَابٌ بَاطِنٌ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنَ الْعَذَابِ ﴿١٢﴾ يَدَّأُوهُمْ أَنَّهُمْ تَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّكُمْ الْإِيمَانِيَّةُ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَعَزَّزَتْ بَالَهُ الْغُرُورَ ﴿١٣﴾ قَالَتِمْ لَا يُؤْخَذُ بِكُمْ يَوْمَ الْيَوْمِ كَفَرُوا مَاؤُنْكُمْ أَلَّا تَرَ إِلَىٰ مَوَاقِعِ نَارِكُمْ وَنَيْسَ الْقَمِيرِ ﴿١٤﴾

قوله: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ العامل في الظرف مضمر وهو أنكر، أو كريم، أو فيضاعفه، أو العامل في لهم، وهو الاستقرار، والخطاب لكل من يصلح له، وقوله ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ﴾ في محل نصب على الحال من مفعول ترى، والنور هو الضياء الذي يرى ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ وذلك على الصراط يوم القيامة، وهو دليلهم إلى الجنة. قال قتادة: إن المؤمن يضيء له نور كما بين عن إلى صنعاء، حتى إن من المؤمنين من لا يضيء له نوره إلا موضع قدميه. وقال الضحاك، ومقاتل: وبأيمانهم كتبهم التي أعطوها، فكتبهم بأيمانهم، ونورهم بين أيديهم، قال الفراء: الباء بمعنى في: أي في أيملتهم، أو بمعنى عن: قال الضحاك أيضاً: نورهم هداهم، وبأيمانهم كتبهم، واختار هذا ابن جرير الطبري أي: يسعى إيمانهم وعملهم الصالح بين أيديهم، وفي إيمانهم كتب أعمالهم. قرأ الجمهور (بأيمانهم) جمع يمين. وقرأ سهل بن سعد الساعدي، وأبو حية (بأيمانهم) بكسر الهمزة على أن المراد بالإيمان ضد الكفر، وقيل: هو القرآن، والجار والمجرور في الموضعين في محل نصب على الحال من نورهم أي: كأننا بين أيديهم وبأيمانهم ﴿بِشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ بشراكم مبتدأ، وخبره جنات على تقدير مضاف أي: نخول جنات، والجملة مقول قول مقدر أي: يقال لهم هذا، والقائل لهم هم الملائكة. قال مكي: وأجاز الفراء نصب جنات على الحال، ويكون اليوم خبر بشراكم، وهذا بعيد جداً ﴿وَالَّذِينَ فِيهَا﴾ حال مقترنة، والإشارة بقوله ﴿تِلْكَ﴾ إلى النور والبشرى، وهو مبتدأ، وخبره ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي: لا يقادر قدره حتى كأنه لا فوز غيره، ولا اعتداد بما سواه ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ﴾ يوم بدل من يوم الأول، ويجوز أن يكون العامل فيه الفوز العظيم، ويجوز أن يكون منصوباً بفعل مقدر أي: أنكر ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ اللام للتبليغ كمنظارتها. قرأ الجمهور (انظرونا) أمراً بوصل الهمزة وضم اللطاء من النظر بمعنى الانتظار أي: انتظرونا. يقولون ذلك لما راوا المؤمنين يسرع بهم إلى الجنة. وقرأ الأعمش، وحمزة، ويحيى بن وثاب بقطع الهمزة وكسر اللطاء من الإنظار أي: امهلونا، وأخرونا، يقال أنظرته واستنظرته أي: أمهلته واستمهلته. قال الفراء: تقول العرب أنظرني أي: انتظرني، وأنشد قول عمرو بن كلثوم:

أبا هند فلا تعجل علينا ، وانظرنا نخبرك اليقيناً

سوراً مضمرباً بين المؤمنين والمنافقين، فما معنى تفسير باطن السور، وما فيه من الرحمة بالمسجد، وإن كان المراد أن الله يسوق فريقَي المؤمنين والمنافقين إلى بيت المقدس، فيجعل المؤمنين داخل السور في المسجد، ويجعل المنافقين خارجه، فهم إذ ذاك على الصراط وفي طريق الجنة، وليسوا ببيت المقدس، فإن كان مثل هذا التفسير ثابتاً عن رسول الله ﷺ قبلناه، وأما به، وإلا فلا كرامة ولا قبول. وأخرج البيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَكُمْ فِتْنَةٌ أَنْتُمْ﴾ قال: بالشهوات والذلات ﴿وَتُرِيصْتُمْ﴾ قال: بالتوبة ﴿وَعَزَّيْتُمْ الْأَمَانِيَّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ قال: الموت ﴿وَعَزَّيْتُمْ بِاللَّغْوِ﴾ قال: الشيطان.

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنْ آلِهِ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ ظَالِمًا لِنَفْسِهِمْ الْأُولَى قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكُثُرَ بَغْيُهُمْ فَيَمُوتُونَ ۖ أَصْلَوْا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ إِنَّ الْمَصْدُوقَ وَالْمُؤَدِّيَّ وَأَرْضُ اللَّهِ قَرَسًا حَسْبًا يَصْنَعُ لَهُمْ وَكَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ۝ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ وَالشُّكْلَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْحَرِيرِ ۝﴾

قوله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ يقال: أنى لك يأتي أنى: إذا حان. قرأ الجمهور (الم يأن) وقرأ الحسن، وأبو السمك (الما يأن)، وأتشد ابن السكيت:

الما يأن لي أن تجلي عمليتي وأتصر عن ليلى بلى قد أنى ليا و﴿أن تخشع قلوبهم﴾ فاعل يأن أي: ألم يحضر خشوع قلوبهم وبيجي وقت، ومنه قول الشاعر:

ألم يأن لي يا قلب أن أترك الجهلا وأن يحدث الشيب المنير لنا عقلا
هذه الآية نزلت في المؤمنين. قال الحسن: يستطعنهم، وهم أحب خلقه إليه. وقيل: إن الخطاب لمن آمن بموسى وعيسى بن محمد. قال الزجاج: نزلت في طائفة من المؤمنين، حثوا على الرقة والخشوع، فأما من وصفهم الله بالرقة والخشوع، فطبقة فوق هؤلاء. وقال السدي وغيره: المعنى ألم يأن للذين آمنوا في الظاهر، وأسروا الكفر أن تخشع قلوبهم ﴿الذكر الله﴾، وسيأتي في آخر البحث ما يقوي قول من قال إنها نزلت في المسلمين، والخشوع لين القلب وركته. والمعنى: أنه ينبغي أن يورثهم الذكر خشوعاً ورقة، ولا يكونوا كمن لا يلين قلبه للذكر ولا يخشع له ﴿وما نزل من الحق﴾ معطوف على ذكر الله، والمراد بما نزل من الحق القرآن، فيحمل الذكر المعطوف عليه على ما عده مما فيه ذكر الله سبحانه باللسان، أو خطور بالقلب، وقيل: المراد بالذكر هو القرآن، فيكون هذا العطف من باب عطف التفسير، أو باعتبار تغاير المفهومين. قرأ الجمهور (نزل) مشدداً مبنياً للفعل. وقرأ نافع، وحفص بالتخفيف مبنياً للفعل. وقرأ الجحدري، وأبو جعفر، والأعمش، وأبو عمرو في رواية عنه مشدداً مبنياً للمفعول. وقرأ ابن مسعود

إليه النار ﴿هي مولاكم﴾ أي: هي أولى بكم، والمولى في الأصل من يتولى مصالح الإنسان، ثم استعمل فيمن يلازمه، وقيل: معنى ﴿مولاكم﴾: مكانكم عن قرب، من الولي، وهو القرب. وقيل: إن الله يركب في النار الحياة والعقل، فهي تتميز غيظاً على الكفار، وقيل المعنى: هي ناصركم على طريقة قول الشاعر:

تحية بينهم ضرب وجيع

﴿وبئس المصير﴾ الذي تصيرون إليه وهو النار.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن ابن مسعود ﴿يسعى نورهم بين أيديهم﴾ قال: يؤتون نورهم على قدر أعمالهم يمتون على الصراط، منهم من نوره مثل الجبل، ومنهم من نوره مثل النخلة، وأدناهم نوراً من نوره على إيهامه يطفأ مرة، ويوقد أخرى. وأخرج ابن جرير، وابن مروي، والبيهقي في البعث عن ابن عباس قال: بينما الناس في ظلمة إذ بعث الله نوراً، فلما رأى المؤمنون النور توجهوا نحوه، وكان النور ليلهم من الله إلى الجنة، فلما رأى المنافقون المؤمنين قد انطلقوا إلى النور تبعوهم، فأظلم الله على المنافقين، فقالوا حينئذ: ﴿انظرونا نقبَس من نوركم﴾، فإنا كنا معكم في الدنيا، قال المؤمنون: ﴿ارجعوا وراءكم﴾ من حيث جئتم من الظلمة ﴿فالتمسوا﴾ هنالك النور. وأخرج الطبراني، وابن مروي عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿إن الله يدعو الناس يوم القيامة بأسمائهم سترأ منه على عباد، وأما عند الصراط، فإن الله يعطي كل مؤمن نوراً، وكل منافق نوراً، فإذا استواء على الصراط سلب الله نور المنافقين والمنافقات، فقال المنافقون: ﴿انظرونا نقبَس من نوركم﴾ وقال المؤمنون: ﴿ربنا أتم لنا نورنا﴾ [التحريم: 8] فلا يذكر عند ذلك أحد أحداً، وفي الباب أحاديث، وأثار. وأخرج عبد بن حميد عن عبادة بن الصامت: أنه كان على سور بيت المقدس، فبكي، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: ها هنا أخبرنا رسول الله ﷺ أنه رأى جهنم. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن عساكر عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: إن السور الذي نكره الله في القرآن ﴿فصُرب بينهم بسور﴾ هو: السور الذي ببيت المقدس الشرقي ﴿باطنه فيه الرحمة﴾ المسجد ﴿وظاهره من قبله العذاب﴾ يعني: وادي جهنم، وما يليه.

ولا يخفك أن تفسير السور المذكور في القرآن في هذه الآية بهذا السور الكائن ببيت المقدس فيه من الإشكال ما لا يدفعه مقال، ولا سيما بعد زيادة قوله: ﴿باطنه فيه الرحمة المسجد﴾، فإن هذا غير ما سيقَّت له الآية، وغير ما نلت عليه، وأين يقع بيت المقدس، أو سوره بالنسبة إلى السور الحاجز بين فريقَي المؤمنين والمنافقين، وأي معنى لنكر مسجد بيت المقدس ها هنا، فإن كان المراد أن الله سبحانه ينزع سور بيت المقدس، ويجعله في الدار الآخرة

يكتبوهم. وقال مجاهد: هذه الآية للشهداء خاصة، وهم الأنبياء الذين يشهدون للأمم وعليهم، واختار هذا الفراء، والزجاج. وقال مقاتل بن سليمان: هم الذين استشهدوا في سبيل الله، وكذا قال ابن جرير، وقيل: هم أمم الرسل يشهدون يوم القيامة لأنبيائهم بالتبليغ، والظاهر أن معنى الآية: إن الذين آمنوا بالله ورسله جميعاً بمنزلة الصديقين والشهداء المشهورين بعلو الدرجة عند الله، وقيل: إن الصديقين هم المبالغون في الصدق حيث آمنوا بالله، وصنّفوا جميع رسله، والقائمون لله سبحانه بالتوحيد. ثم بيّن سبحانه ما لهم من الخير بسبب ما اتصفوا به من الإيمان بالله ورسله فقال: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ والضمير الأول راجع إلى الموصول، والضميران الآخرين راجعان إلى الصديقين والشهداء أي: لهم مثل أجرهم ونورهم، وأما على قول من قال: إن الذين آمنوا بالله ورسله هم نفس الصديقين والشهداء، فالضمان الثلاثة كلها راجعة إلى شيء واحد، والمعنى: لهم الأجر والنور الموعودان لهم. ثم لما نكر حال المؤمنين وثوابهم، نكر حال الكافرين وعقابهم، فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: جمعوا بين الكفر وتكذيب الآيات، والإشارة بقوله ﴿أُولَئِكَ﴾ إلى الموصول باعتبار ما في صلته من اتصافهم بالكفر والتكذيب، وهذا مبتدأ، وخبره ﴿أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ يعذبون بها، ولا أجر لهم ولا نور، بل عذاب مقيم وظلمة دائمة.

وقد أخرج ابن مريويه عن أنس عن النبي ﷺ قال: «استبطأ الله قلوب المهاجرين بعد سبع عشرة سنة من نزول القرآن، فأنزل الله ﴿لَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾» الآية. وأخرج ابن مريويه عن عائشة قالت: «خرج رسول الله ﷺ على نفر من أصحابه في المسجد، وهم يضحكون، فسحب رداءه محمراً وجهه فقال: اتضحكون، ولم يأتكم أمان من ربكم بأنه قد غفر لكم، ولقد أنزل عليّ في ضحككم آية ﴿لَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ قالوا: يا رسول الله، فما كفارة ذلك؟ قال: تبكون بقدر ما ضحكتم». وأخرج مسلم، والنسائي، وابن ماجه، وابن المنذر، وابن مريويه عن ابن مسعود قال: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية ﴿لَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلا أربع سنين. وأخرج نحوه عنه ابن المنذر، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مريويه من طريق أخرى. وأخرج أبو يعلى، وابن مريويه عنه أيضاً قال: لما نزلت هذه الآية أقبل بعضنا على بعض أي شيء أحدثنا أي شيء صنعنا؟ وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مريويه عن ابن عباس قال: إن الله استبطأ قلوب المهاجرين، فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن ﴿لَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية. وأخرج ابن أبي شيبه في المصنف عن عبد العزيز بن أبي رواد أن أصحاب النبي ﷺ ظهر فيهم المزاح والضحك، فنزلت هذه الآية ﴿لَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾. وأخرج ابن المبارك عن ابن عباس «اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها» قال: يعني: أنه

(أنزل) مبنياً للفاعل ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ لَوَتْوا﴾ الكتاب من قبل ﴿قَرَأَ الْجُمُورُ﴾ بالتحية على الغيبة جرياً على ما تقدّم. وقرأ أبو حيوة، وابن أبي عملة بالفوقية على الخطاب التفاتاً، وبها قرأ عيسى، وابن إسحاق، والجملة معطوفة على تخشع أي: ألم يأن لهم أن تخشع قلوبهم، ولا يكونوا، والمعنى: النهي لهم عن أن يسلكوا سبيل اليهود والنصارى الذين أوتوا التوراة والإنجيل من قبل نزول القرآن ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ﴾ أي: طال عليهم الزمان بينهم وبين أنبيائهم. قرأ الجمهور (الأمَد) بتخفيف الدال، وقرأ ابن كثير في رواية عنه بتشديدها أي: الزّمن الطويل، وقيل: المراد بالأمَد على القراءة الأولى الأجل والغاية، يقال أمد فلان كذا أي: غايته ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ بذلك السبب، فلذلك حرّفوا وبكّلوا، فنهى الله سبحانه أمة محمد ﷺ أن يكونوا مثلهم ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أي: خارجون عن طاعة الله؛ لأنهم تركوا العمل بما أنزل إليهم، وحرّفوا وبكّلوا، ولم يؤمنوا بما نزل على محمد ﷺ، وقيل: هم الذين تركوا الإيمان بعيسى، ومحمد ﷺ، وقيل: هم الذين ابتدعوا الرهبانية، وهم أصحاب الصوامع ﴿اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها﴾ فهو قادر على أن يبعث الأجسام بعد موتها، ويلين القلوب بعد قسوتها ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ التي من جملتها هذه الآيات ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: كي تعقلوا ما تضمنته من المواعظ، وتعملوا بموجب ذلك ﴿إِنَّ الْمَصْنُوقِينَ وَالْمَصْنُوقَاتِ﴾ قرأ الجمهور بتشديد الصاد في الموضعين من الصلقة، وأصله المتصنّقين والمتصنّقات، فأدغمت التاء في الصاد. وقرأ أبي (المتصنّقين والمتصنّقات) بثبوت التاء على الأصل. وقرأ ابن كثير بتخفيف الصاد فيهما من التصديق أي: صنّفوا رسول الله ﷺ فيما جاء به ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً﴾ معطوف على اسم الفاعل في المصنّقين؛ لأنه لما وقع صلة للآلاف واللام الموصولة حل محل الفعل، فكانه قال: إن الذين تصنّفوا وأقرضوا، كذا قال أبو علي الفارسي وغيره. وقيل: جملة، وأقرضوا معترضة بين اسم إن وخبرها، وهو ﴿بِضَاعَفَ﴾ وقيل: هي صلة لموصول محذوف أي: والذين أقرضوا، والقرض الحسن عبارة عن التصنق والإنفاق في سبيل الله مع خلوص نية، وصحة قصد، واحتساب أجر. قرأ الجمهور (يضاعف لهم) بفتح العين على البناء للمفعول، والقائم مقام الفاعل إما الجار والمجرور، أو ضمير يرجع إلى المصنّقين على حذف مضاف أي: ثوابهم، وقرأ الأعمش (يضاعفه) بكسر العين وزيادة الهاء. وقرأ ابن كثير، وابن عامر، ويعقوب (يضعف) بتشديد العين وفتحها ﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ وهو الجنة، والمضاعفة هنا أن الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ جميعاً، والإشارة بقوله ﴿أُولَئِكَ﴾ إلى الموصول، وخبره قوله: ﴿هُمْ الصَّيِّقُونَ وَالشَّهَدَاءُ﴾ والجملة خبر الموصول. قال مجاهد: كل من آمن بالله ورسله فهو صنيق. قال مقاتلان: هم الذين لم يشكوا في الرسل حين أخبروهم ولم

يغطونه بالتراب، ومعنى ﴿نباته﴾: النبات الحاصل به ﴿ثم يهيج﴾ أي: يجف بعد خضرته ويبيس ﴿فقرأ مصفراً﴾ أي: متغيراً عما كان عليه من الخضرة والرونق إلى لون الصفرة والذبول ﴿ثم يكون حطاماً﴾ أي: فتاتاً هشياً متكسراً متحطماً بعد يبسه، وقد تقدم تفسير هذا المثل في سورة يونس والكهف، والمعنى: أن الحياة الدنيا كالزروع يعجب الناظرين إليه، لخضرته وكثرة نضارته. ثم لا يلبث أن يصير هشياً تبناً كان لم يكن. وقرأ (مصفراً) والكاف في محل نصب على الحال، أو في محل رفع على أنها خبر بعد خبر، أو خبر مبتدأ محذوف. ثم لما نكر سبحانه حقارة الدنيا، وسرعة زوالها، نكر ما أعدّه للعصاة في الدار الآخرة فقال: ﴿وفي الآخرة عذاب شديد﴾ واتبعه بما أعدّه لأهل الطاعة، فقال: ﴿ومغفرة من الله ورضوان﴾. والتذكير فيهما للتعظيم. قال قتادة: عذاب شديد لأعداء الله، ومغفرة من الله ورضوان لأوليائه وأهل طاعته. قال الفراء: التقدير في الآية إما عذاب شديد وإما مغفرة، فلا يوقف على شديد. ثم نكر سبحانه بعد التهريب والترغيب حقارة الدنيا، فقال: ﴿وما للحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾ لمن اغتر بها ولم يعمل لآخرته. قال سعيد بن جببر: متاع الغرور لمن لم يشتغل بطلب الآخرة، ومن اشتغل بطلبها فله متاع بلاغ إلى ما هو خير منه. وهذه الجملة مقربة للمثل المتقدم ومؤكدة له، ثم ندب عباده إلى المسابقة إلى ما يوجب المغفرة من التوبة والعمل الصالح، فإن ذلك سبب إلى الجنة، فقال: ﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم﴾ أي: سارعوا مسارعة السابقين بالأعمال الصالحة التي توجب المغفرة لكم من ربكم، وتوبوا مما وقع منكم من المعاصي، وقيل: المراد بالآية التكبيرة الأولى مع الإمام قاله مكحول، وقيل: المراد الصف الأول، ولا وجه لتخصيص ما في الآية بمثل هذا، بل هو من جملة ما تصلّق عليه صنفاً شمولياً أو بلياً ﴿وجنة عرضها كعرض السماء والأرض﴾ أي: كعرضهما، وإذا كان هذا قدر عرضها، فما ظنك بطولها. قال الحسن: يعني جميع السموات والأرضين مبسوطات كل واحدة إلى صاحبته، وقيل: المراد بالجنة التي عرضها هذا العرض هي جنة كل واحد من أهل الجنة. وقال ابن كيسان: عني به جنة واحدة من الجنات، والعرض أقل من الطول، ومن عادة العرب أنها تعبر عن الشيء بعرضه دون طوله، ومن ذلك قول الشاعر:

كان بلاد الله وهي عريضة على الخائف المطلوب كفة حابل

وقد مضى تفسير هذا في سورة آل عمران. ثم وصف سبحانه تلك الجنة بصفة أخرى، فقال: ﴿أعدت للذين آمنوا بالله ورسوله﴾ ويجوز أن تكون هذه الجملة مستأنفة. وفي هذا دليل على أن استحقاق الجنة يكون بمجرد الإيمان بالله ورسوله، ولكن هذا مقيد بالادلة الدالة على أنه لا يستحقها إلا من عمل بما فرض الله عليه، واجتنب ما نهاه الله عنه، وهي ألة كثيرة في الكتاب والسنة، والإشارة بقوله: ﴿ذلك﴾ إلى ما وعد به سبحانه من المغفرة والجنة، وهو مبتدأ وخبره

يلين القلوب بعد قسوتها. وأخرج ابن جرير عن البراء بن عازب سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مؤمنو أمي شهداء ثم تلا النبي ﷺ ﴿والذين آمنوا بالله ورسوله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم﴾». وأخرج ابن المنذر عن ابن مسعود قال: كل مؤمن صديق وشهيد. وأخرج الحاكم وصححه عن ابن مسعود قال: «إن الرجل ليموت على فراشه، وهو شهيد، ثم تلا هذه الآية، وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة نحوه. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿والذين آمنوا بالله ورسوله أولئك هم الصديقون﴾ قال: هذه مفصلة ﴿والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم﴾. وأخرج ابن حبان عن عمرو بن مرة الجهني قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أرأيت إن شهدت أن لا إله إلا الله، وأنت رسول الله، وصليت الصلوات الخمس، وأديت الزكاة، وصمت رمضان، وقمته فممن أنا؟ قال: من الصديقين والشهداء».

اتْلَوْا أَنَا لَكُمُوهُ الدُّنْيَا لَمْ يَكُنْ وَرَيْتُ وَتَفَاخَرُ بَيْنَكُمْ وَكَثَاثُ فِي الْأُمُورِ وَالْأَوَّلِيَّةُ كَثَلُ غَيْبٍ أَحَبَّ الْكَفَّارِ تَبَاهُ ثُمَّ يَجْعُ نَزَرُهُ مَصْفَرًا ثُمَّ يَكُونُ حَطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَقَرَّةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا لَكُمُوهُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الشُّرُورِ ۝ سَابِقُوا إِلَى مَقَرِّ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَعَلْ عَرْشَهَا كَمَرِّضِ السَّمَلَةِ وَالْأَرْضِ أَهْدَتْ لِلدِّينِ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ۝ مَا آتَاكَ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝ الَّذِينَ يَبْتَغُلُونَ زِينَةَ الدُّنْيَا وَالنَّاسَ بِالْبُغْلِ وَمَن يُؤْكَلْ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْغَنِيُّ ۝

قوله: ﴿اعلموا إنما الحياة الدنيا لعب ولهو﴾ لما نكر سبحانه حال الفريق الثاني، وما وقع منهم من الكفر والتكذيب، وذلك بسبب ميلهم إلى الدنيا وتأثيرها، بين لهم حقارتها وأنها أحقر من أن تؤثر على الدار الآخرة، واللعب هو الباطل، اللهو كل شيء يتلهى به ثم يذهب. قال قتادة: لعب ولهو: أكل وشرب. قال مجاهد: كل لعب لهو، وقيل: اللعب ما رغب في الدنيا، واللهو ما الهى عن الآخرة وشغل عنها، وقيل: اللعب الاقتناء، واللهو النساء، وقد تقدم تحقيق هذا في سورة الأنعام، والزينة التزين بمتاع الدنيا من دون عمل للآخرة ﴿وتفاحش بينكم﴾ قرأ الجمهور بتنوين (تفاحش) والظرف صفة له، أو معمول له، وقرأ السلمي بالإضافة أي: يتفاخر به بعضكم على بعض، وقيل: يتفاخرون بالخلقة والقوة، وقيل: بالأنساب والأحساب، كما كانت عليه العرب ﴿وتكاثروا في الأموال والأولاد﴾ أي: يتكاثرون بأموالهم وأولادهم، ويتطاولون بذلك على الفقراء، ثم بين سبحانه لهذه الحياة شبيهاً، وضرب لها مثلاً فقال: ﴿كمثل غيث أعجب للكفار نباته﴾ أي: كمثل مطر أعجب الزراع نباته، والمراد بالكفار هنا الزراع لأنهم يكفرون البذر أي:

الناس شيئاً. وقال زيد بن اسلم: إنه البخل بأداء حق الله، وقيل: إنه البخل بالصدقة، وقال طابوس: إنه البخل بما في يديه، وقيل: أراد رؤساء اليهود الذين بخلوا ببيان صفة محمد ﷺ في كتبهم لئلا يؤمن به الناس، فتذهب مآكلهم، قاله السدي والكلبى، قرأ الجمهور (بالبخل) بضم الباء وسكون الخاء. وقرأ انس، وعبيد بن عمير، ويحيى بن يعمر، ومجاهد، وحמיד، وابن محيصن، وحزمة، والكسائي بفتحتين، وهي لغة الأنصار. وقرأ أبو العالية، وابن السميع بفتح الباء وإسكان الخاء. وقرأ نصر بن عاصم بضمهم، وكلها لغات **﴿ومن يقول فإن الله هو الغني الحميد﴾** أي: ومن يعرض عن الإنفاق، فإن الله غني عنه محمود عند خلقه لا يضره ذلك. قرأ الجمهور (هو الغني) بإثبات ضمير الفصل. وقرأ نافع، وابن عامر، (فإن الله الغني الحميد) بحذف الضمير.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم﴾** يقول: في الدين والدنيا **﴿إلا في كتاب من قبل أن نبرأها﴾** قال: نخلقها **﴿لكيلا تأسوا على ما فاتكم﴾** من الدنيا **﴿ولا تفرحوا بما آتاكم﴾** منها. وأخرج ابن جرير عنه في الآية قال: هو شيء قد فرغ منه من قبل أن تبرا أنفسكم. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب عنه أيضاً في قوله: **﴿لكيلا تأسوا على ما فاتكم﴾** الآية قال: ليس أحد إلا وهو يحزن ويفرح، ولكن من أصابته مصيبة جعلها صبراً، ومن أصابه خير جعله شكراً. وأخرج ابن المنذر عنه في الآية قال: يريد مصائب المعاش، ولا يريد مصائب الدين، إنه قال: **﴿لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم﴾** وليس هذا من مصائب الدين، أمرهم أن يأسوا على السيئة ويفرحوا بالحسنة.

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَصْرُفُ وَرُسُلُهُمُ الْغَيْبُ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النَّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِثْلَهُمْ مَثَلٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ عَائِذِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ أَنبَأُوهُ رَأْيَ رَحْمَةٍ وَرَهَابَةٍ اتَّبَعُوا مَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ إِلَّا آيَاتِكُمْ رِضْوَانُ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرُسُلِهِمْ وَيُؤْتِكُمْ كَثَلٌ مِّن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَتَقَرَّرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ لَيْلًا يَمْلَأُ أَعْدَلَ الْكِتَابِ إِلَّا يَفْقِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٩﴾

قوله: **﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات﴾** أي: بالمعجزات البينة، والشرائع الظاهرة **﴿وانزلنا معهم الكتاب﴾** المراد

﴿فضل الله يؤتيه من يشاء﴾ أي: يعطيه من يشاء إعطائه إياه تفضلاً وإحساناً **﴿والله ذو الفضل العظيم﴾** فهو يتفضل على من يشاء بما يشاء، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، والخير كله بيده، وهو الكريم المطلق، والجواد الذي لا يبخل. ثم بين سبحانه أن ما يصاب به العباد من المصائب قد سبق بذلك قضاؤه وقدره، وثبت في أم الكتاب، فقال: **﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض﴾** من قحط مطر، وضعف نبات، ونقص ثمار. قال مقاتل: القحط وقلة النبات والثمار، وقيل: الجوائح في الزرع **﴿ولا في أنفسكم﴾** قال قتادة: بالأوصاب والأسقام. وقال مقاتل: إقامة الحدود. وقال ابن جريج: ضيق المعاش **﴿إلا في كتاب﴾** في محل نصب على الحال من مصيبة أي: إلا حال كونها مكتوبة في كتاب، وهو اللوح المحفوظ، وجملة **﴿من قبل أن نبرأها﴾** في محل جر صفة لكتاب، والضمير في نبرأها عائد إلى المصيبة، أو إلى الأنفس، أو إلى الأرض، أو إلى جميع تلك، ومعنى **﴿نبرأها﴾**: خلقها **﴿إن ذلك على الله يسير﴾** أي: أن إثباتها في الكتاب على كثرتة على الله يسير غير عسير **﴿لكيلا تأسوا على ما فاتكم﴾** أي: لاختبرناكم بذلك، لكيلا تحزنوا على ما فاتكم من الدنيا **﴿ولا تفرحوا بما آتاكم﴾** منها أي: أعطاكم منها، فإن ذلك يزول عن قريب، وكل زائل عن قريب لا يستحق أن يفرح بحصوله، ولا يجزن على فواته، ومع أن الكل بقضاء الله وقدره، فلن يعدو أمراً ما كتب له، وما كان حصوله كائناً لا محالة، فليس بهستحق للفرح بحصوله، ولا للحزن على فواته، قيل: والحزن والفرح المنهي عنهما هما اللذان يتعدى فيهما إلى ما لا يجوز، وإلا فليس من أحد إلا وهو يحزن ويفرح. قرأ الجمهور (بما آتاكم) بالمد أي: أعطاكم، وقرأ أبو العالية، ونصر بن عاصم، وأبو عمرو بالقصر أي: جاءكم، واختار القراءة الأولى أبو حاتم، واختار القراءة الثانية أبو عبيد **﴿والله لا يحب كل مختال فخور﴾** أي: لا يحب من اتصف بهاتين الصفتين، وهما الاختيال والافتخار، قيل: هو ذم للفرح الذي يختال فيه صاحبه ويبطر، وقيل: إن من فرح بالحظوظ الدنيوية، وعظمت في نفسه اختال وافتخر بها، وقيل: المختال الذي ينظر إلى نفسه، والفخور الذي ينظر إلى الناس بعين الاستحقار. والأولى تفسير هاتين الصفتين بمعناها الشرعي ثم اللغوي، فمن حصلتا فيه فهو الذي لا يحبه الله **﴿الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل﴾** الموصول في محل رفع بالابتداء، وهو كلام مستأنف لا تعلق له بما قبله، والخبر مقرر أي: الذين يبخلون فالله غني عنهم، ويدل على ذلك قوله: **﴿ومن يقول فإن الله هو الغني الحميد﴾** وقيل: الموصول في محل جر بدل من مختال، وهو بعيد، فإن هذا البخل بما في اليد، وأمر الناس بالبخل ليس هو معنى المختال الفخور، لا لغة ولا شرعاً. وقيل: هو في محل جر نعت له، وهو أيضاً بعيد. قال سعيد بن جبير: الذين يبخلون بالعلم، ويأمرون الناس بالبخل به لئلا يعلموا

أمه **«وَأَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ»** وهو الكتاب الذي أنزله الله عليه، وقد تقدم نكر اشتقاقه في سورة آل عمران. قرأ الجمهور (الإنجيل) بكسر الهمزة، وقرأ الحسن بفتحها **«وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رافة ورحمة»** الذين اتبعوه هم الحواريون جعل الله في قلوبهم مودةً لبعضهم البعض، ورحمة يتراحمون بها، بخلاف اليهود، فإنهم ليسوا كذلك، وأصل الرافة اللين، والرحمة الشفقة، وقيل: الرافة أشد الرحمة **«ورهبانية ابتدعوها»** انتصاب رهبانية على الاشتغال أي: وابتدعوا رهبانية ابتدعوها، وليس بمعطوفة على ما قبلها، وقيل: معطوفة على ما قبلها أي: وجعلنا في قلوبهم رافة ورحمة، ورهبانية مبتدعة من عند أنفسهم. والأول أولى، ورجحه أبو علي الفارسي وغيره، وجمله **«ما كتبناها عليهم»** صفة ثانية لرهبانية، أو مستأنفة مقرزة؛ لكونها مبتدعة من جهة أنفسهم، والمعنى: ما فرضناها عليهم، والرهبانية بفتح الراء وضمها، وقد قرئ بهما، وهي بالفتح الخوف من الرب، وبالضم منسوبة إلى الرهبان، وذلك لأنهم غلوا في العبادة، وحملوا على أنفسهم المشقات في الامتناع من المطعم والمشرب والمنكح، وتعلقوا بالكهوف والصوامع؛ لأن ملوكهم غيروا وبدلوا، وبقي منهم نفر قليل، فترهبوا وتبتلوا، نكر معناه الضحك، وقيادة، وغيرهما **«إلا ابتغاء رضوان الله»** الاستثناء منقطع أي: ما كتبناها نحن عليهم رأساً، ولكن ابتدعوها ابتغاء رضوان الله. وقال الزجاج: ما كتبناها عليهم، معناه لم نكتب عليهم شيئاً البته، قال: ويكون **«إلا ابتغاء رضوان الله»** بدلاً من الهاء والألف في كتبناها، والمعنى: ما كتبنا عليهم إلا ابتغاء رضوان الله **«فما رعوها حق رعايتها»** أي: لم يراعوا هذه الرهبانية التي ابتدعوها من جهة أنفسهم، بل صنعوها وكفروا بدين عيسى، ودخلوا في دين الملوك الذين غيروا وبدلوا، وتركوا الترهّب، ولم يبق على دين عيسى إلا قليل منهم، وهم المرانون بقوله: **«فأتينا الذين آمنوا منهم لجرهم»** الذي يستحقونه بالإيمان، وذلك لأنهم آمنوا بعيسى، وثبتوا على دينه حتى آمنوا بمحمد ﷺ لما بعثه الله **«وكثر منهم فاسقون»** خارجون عن الإيمان بما أمروا أن يؤمنوا به، ووجه الذم لهم على تقدير أن الاستثناء منقطع أنهم قد كانوا ألزموا أنفسهم الرهبانية معتقدين أنها طاعة، وأن الله يرضاها، فكان تركها وعدم رعايتها حق الرعية يدل على عدم ميلالهم بما يعتقونه ديناً. وأما على القول بأن الاستثناء متصل، وأن التقدير: ما كتبناها عليهم لشيء من الأشياء إلا لبيتغوا بها رضوان الله بعد أن وفقناهم لابتداعها، فوجه الذم ظاهر، ثم أمر سبحانه المؤمنين بالرسول المتقدمين بالتقوى والإيمان بمحمد ﷺ، فقال: **«يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله»** بترك ما نهاكم عنه **«وآمنوا برسوله»** محمد ﷺ **«يؤتكم كفلين من رحمته»** أي: نصيبين من رحمته بسبب إيمانكم برسوله بعد إيمانكم بمن قبله من الرسل، وأصل الكفل الحظ والنصيب، وقد تقدم

الجنس، فيدخل فيه كتاب كل رسول **«والميزان ليقوم الناس بالقسط»** قال قتادة، ومقاتل بن حيان: الميزان العدل، والمعنى: أمرناهم بالعدل، كما في قوله: **«والسمااء رفعها ووضع الميزان»** [الرحمن: 7] وقوله: **«الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان»** [الشورى: 17] وقال ابن زيد: هو ما يوزن به ويتعامل به، ومعنى: **«ليقوم الناس بالقسط»**؛ ليتبعوا ما أمروا به من العدل، فيتعاملوا فيما بينهم بالنصفة، والقسط العدل، وهو يدل على أن المراد بالميزان العدل، ومعنى إنزاله: إنزال أسبابه وموجباته. وعلى القول بأن المراد به الآلة التي يوزن بها، فيكون إنزاله بمعنى إرشاد الناس إليه، وإلهامهم الوزن به، ويكون الكلام من باب:

علفتها تبناً وماء بارداً

«وانزلنا الحديد» أي: خلقناه، كما في قوله: **«وانزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج»** [الزمر: 6] والمعنى: أنه خلقه من المعادن، وعلم الناس صنعته، وقيل: إنه نزل مع آدم **«فيه بأس شديد»** لأنه تتخذ منه آلات الحرب. قال الزجاج: يمتنع به ويحارب، والمعنى: أنه تتخذ منه آلة للبلغ، وآلة للضرب. قال مجاهد: فيه جنة وسلاح، ومعنى **«ومنافع للناس»**: أنهم ينتفعون به في كثير مما يحتاجون إليه مثل السكين، والفأس، والإبرة، وآلات الزراعة، والنجارة، والعمارة **«وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب»** معطوف على قوله: ليقوم الناس أي: لقد أرسلنا رسلنا، وفعلنا كيت وكيت، ليقوم الناس وليعلم، وقيل: معطوف على علة مقترنة، كأنه قيل: ليستعملوه وليعلم الله، والأول أولى. والمعنى: إن الله أمر في الكتاب الذي أنزل بنصره دينه ورسله، فمن نصر دينه ورسله علمه ناصراً، ومن عصى علمه بخلاف ذلك، وبالفيل في محل نصب على الحال من فاعل ينصره، أو من مفعوله أي: غائباً عنهم، أو غائبين عنه **«إن الله قوي عزيز»** أي: قادر على كل شيء غالب لكل شيء، وليس له حاجة في أن ينصره أحد من عباده وينصر رسله، بل كلفهم بذلك؛ لينتفعوا به إذا امتثلوا، ويحصل لهم ما وعد به عباده المطيعين **«ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم»** لما نكر سبحانه إرسال الرسل إجمالاً أشار هنا إلى نوع تفصيل، فنذكر رسالته لنوح وإبراهيم، وكثر القسم للتوكيد **«وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب»** أي: جعلنا فيهم النبوة والكتب المنزلة على الأنبياء منهم، وقيل: جعل بعضهم أنبياء، وبعضهم يتلون الكتاب **«فمنهم مهتد»** أي: فمن الذرية من اهتدى بهدي نوح وإبراهيم، وقيل: المعنى فمن المرسل إليهم من قوم الأنبياء مهتد بما جاء به الأنبياء من الهدى **«وكثر منهم فاسقون»** خارجون عن الطاعة **«ثم قفينا على آثارهم برسلنا»** أي: اتبعنا على آثار الذرية، أو على آثار نوح وإبراهيم برسلنا الذين أرسلناهم إلى الأمم كموسى، وإلياس، ودلود، وسليمان، وغيرهم **«وقفينا بعيسى ابن مريم»** أي: أرسلنا رسولا بعد رسول حتى انتهى إلى عيسى ابن مريم، وهو من ذرية إبراهيم من جهة

الكلام على تفسيره في سورة النساء ﴿ويجعل لكم نوراً تمشون به﴾ يعني: على الصراط كما قال: ﴿نورهم يسعى بين أيديهم﴾ [التحریم: 8] وقيل: المعنى ويجعل لكم سبيلاً واضحاً في الدين تهتدون به ﴿ويغفر لكم﴾ ما سلف من ذنوبكم ﴿والله غفور رحيم﴾ أي: بليغ المغفرة والرحمة ﴿لئلا يعلم أهل الكتاب﴾ اللام متعلقة بما تقدم من الأمر بالإيمان والتقوى، والتقدير: اتقوا وآمنوا يؤتكم كذا وكذا؛ ليعلم الذين لم يتقوا ولا آمنوا من أهل الكتاب ﴿أن لا يقدرون على شيء من فضل الله﴾ ولا في قوله: ﴿لئلا﴾ زائدة للتوكيد، قاله الفراء، والأخفش، وغيرهما، وأن في قوله: ﴿أن لا يقدرون﴾ هي المخففة من الثقيلة، واسمها ضمير شأن محذوف، وخبرها ما بعدها، والجملة في محل نصب على أنها مفعول يعلم، والمعنى: ليعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرون على أن ينالوا شيئاً من فضل الله الذي تفضل به على من آمن بمحمد ﷺ، ولا يقدرون على دفع تلك الفضل الذي تفضل الله به على المستحقين له، وجملة ﴿وأن الفضل بيد الله﴾ معطوفة على الجملة التي قبلها أي: ليعلموا أنهم لا يقدرون، وليعلموا أن الفضل بيد الله سبحانه، وقوله: ﴿يؤتيه من يشاء﴾ خبر ثان لأن، أو هو الخبر، والجازر والمجورور في محل نصب على الحال ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ هذه الجملة مقررّة لمضمون ما قبلها، والمراد بالفضل هنا ما تفضل به على الذين اتقوا وآمنوا برسوله من الأجر المضاعف، وقال الكلبي: هو رزق الله، وقيل: نعم الله التي لا تحصى، وقيل: هو الإسلام، وقد قيل: إن «لا» في لئلا غير مزيدة، وضمير لا يقدرون للنبي ﷺ وأصحابه. والمعنى: لئلا يعتقد أهل الكتاب أنه لا يقدر النبي والمؤمنون على شيء من فضل الله الذي هو عبارة عما أوتوه، والأول أولى. وقرأ ابن مسعود (لكيلا يعلم) وقرأ خطاب بن عبد الله (لأن يعلم) وقرأ عكرمة (ليعلم) وقرأ (ليلاً) بقلب الهمزة ياء، وقرأ بفتح اللام.

وقد أخرج عبد بن حميد، والحكيم الترمذي في نوارى الأصول، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب من طرق ابن مسعود قال: «قال لي رسول الله ﷺ: يا عبد الله، قلت: لبيك يا رسول الله ثلاث مرات، قال: هل تدري أي عرى الإسلام أوثق؟ قلت: الله، ورسوله أعلم، قال: أفضل الناس أفضلهم عملاً إذ فقهوا في دينهم؛ يا عبد الله هل تدري أي الناس أعلم؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإن أعلم الناس أبصرهم بالحق إذا اختلف الناس، وإن كان مقصراً بالعمل، وإن كان يزحف على استه، واختلف من كان قبلنا على اثنتين وسبعين فرقة نجا منها ثلاث وهلك سائرهما: فرقة وازرت الملوك وقاتلتهم على دين الله وعيسى ابن مريم، وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازرة الملوك، فاقاموا بين ظهرائي قومهم فدعوه إلى دين الله ودين عيسى، فقتلهم الملوك ونشروهم بالمناشير، وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازرة الملوك ولا

بالمقام معهم، فساخوا في الجبال وترهبوا فيها، وهم الذين قال الله: ﴿ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فاتينا الذين آمنوا منهم لجرهم﴾ هم الذين آمنوا بي وصدقوني ﴿وكثير منهم فاسقون﴾ الذين جحدوني وكفروا بي». وأخرج النسائي، والحكيم الترمذي في نوارى الأصول، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه عن ابن عباس قال: كانت ملوك بعد عيسى بيلت التوراة والإنجيل، فكان منهم مؤمنون يقرءون التوراة والإنجيل، فقيل لمولوكهم: ما نجد شيئاً أشد من شتم يشتمنا هؤلاء إنهم يقرءون ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ [المائدة: 44] ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾ [المائدة: 45] ﴿فأولئك هم الفاسقون﴾ [المائدة: 47] مع ما يعيبننا به من أعمالنا في قراءتهم، فادعوهم فليقرءوا كما نقرأ، وليؤمنوا كما آمننا، فدعاهم فجمعهم، وعرض عليهم القتل، أو ليتركوا قراءة التوراة والإنجيل إلا ما بدلوا منهما، فقالوا: ما تريدون إلى ذلك؟ دعونا، فقالت طائفة منهم: ابنوا لنا أسطوانة، ثم ارفعونا إليها، ثم أعطونا شيئاً نرفع به طعمانا وشرابنا، ولا نرد عليكم، وقالت طائفة: دعونا نسيح في الأرض ونهيم ونكل مما تكل منه الوحوش، ونشرب مما تشرب، فإن قدرتم علينا في أرضكم فاقتلونا، وقالت طائفة: ابنوا لنا دوراً في الغياقي، ونحتقر الآبار، ونحرق البقول، فلا نرد عليكم ولا نمر بكم، وليس أحد من القبائل إلا له حميم فيهم، ففعلوا ذلك، فأنزل الله ﴿ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها﴾ وقال الآخرون ممن تعبد من أهل الشرك، وفني من فني منهم قالوا: نتعبد كما تعبد فلان، ونسيح كما ساج فلان، ونتخذ دوراً كما اتخذ فلان، وهم على شركهم لا علم لهم بإيمان الذين اقتنوا بهم، فلما بعث النبي ﷺ، ولم يبق منهم إلا القليل انحط صاحب الصومعة من صومعته، وجاء السياح من سياحته، وصاحب الدير من دير، فأمنوا به وصدقوه، فقال الله: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته﴾ أجريين بإيمانهم بعيسى، ونصب أنفسهم، والتوراة والإنجيل، وبإيمانهم بمحمد وتصديقهم ﴿ويجعل لكم نوراً تمشون به﴾ القرآن واتباعهم النبي ﷺ. وأخرج أحمد، والحكيم الترمذي، وأبو يعلى، والبيهقي في الشعب عن أنس أن النبي ﷺ قال: «إن لكل أمة رهبانية ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله». وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي موسى الأشعري في قوله: ﴿كفلين﴾ قال: ضعفين وهي بلسان الحبشة. وأخرج الفريابي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عمر في قوله: ﴿يؤتكم كفلين من رحمته﴾ قال: الكفل ثلثمائة جزء وخمسون جزءاً من رحمة الله.

تفسير سورة المجادلة

وهي مدنية. قال القرطبي: في قول الجميع، إلا رواية عن عطاء أن العشر الأول منها مدني، وباقيها مكّي. وقال الكلبي: نزلت جميعها بالمدينة غير قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: 7] نزلت بمكة. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وأبو الشيخ في العظمة، وابن مريويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة المجادلة بالمدينة. وأخرج ابن مريويه عن الزبير مثله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِينَ يَظْهَرُونَ مِنْكُمْ مِنْ سَائِبِهَا مَا هِيَ أَهْتُهُمْ إِنْ أَهْتُهُمْ إِلَّا إِلَهِي وَلَدَنَهُمْ وَلَهُمْ لِقَاؤُنَّ شُكْرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَلَيْتَ اللَّهُ لَعَنُوهُ عَوْنًا ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يَظْهَرُونَ مِنْ سَائِبِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَسَاقَتْ دُكُلُهُمْ فَوْعَلُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَسَيَّامٌ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَسَاقَتْ فَمَنْ لَمْ يَسْطِقْ فَاطْعَامٌ سِتِينَ سَكِينًا ذَلِكَ يُؤْتِيهِمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَكَ حُذُودٌ وَاللَّهُ لَكَاظِمٌ عَذَابُ آيَةٍ ﴿٤﴾

قوله: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾ قرأ أبو عمرو، وحمة، والكسائي بإدغام الدال في السين، وقرأ الباقر بالإظهار. قال الكسائي: من بين الدال عند السين، فلسانه أعجمي وليس بعربي ﴿قَوْلِ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ أي: تراجعك الكلام في شأنه ﴿وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ معطوف على تجادلِكَ. والمجادلة هذه الكائنة منها مع رسول الله أنه كان كلما قال لها: قد حرمت عليه، قالت: والله ما نكر طلاقاً، ثم تقول أشكو إلى الله فافتني ووجدني، وإن لي صبية صغاراً إن ضمنتهم إليه ضاعوا، وإن ضمنتهم إليّ جاعوا، وجعلت ترفع رأسها إلى السماء، وتقول: اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْكُو إِلَيْكَ، فهذا معنى قوله: ﴿وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ قال الواحدي: قال المفسرون: نزلت هذه الآية في خولة بنت ثعلبة، وزوجها أوس بن الصامت، وكان به لَمَمٌ، فاشتد به لَمَمُهُ ذات يوم، فظاهر منها، ثم ندم على ذلك، وكان الظاهر طلاقاً في الجاهلية، وقيل: هي خولة بنت حكيم، وقيل: اسمها جميلة، والأول أصح، وقيل: هي بنت خويلد، وقال الماوردي: إنها نسبت تارة إلى أبيها، وتارة إلى جدها، وأحدهما أبوها، والآخر جدها، فهي: خولة بنت ثعلبة بن خويلد، وجملة ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ في محل نصب على الحال، أو مستأنفة جارية مجرى التعليل لما قبلها أي: والله يعلم تراجعكما في الكلام ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ يسمع كل مسموع، ويبصر كل مبصر، ومن جملة ذلك ما جالنتك به هذه المرأة. ثم بيّن سبحانه شأن الظاهر في نفسه، ونكر حكمه، فقال: ﴿الَّذِينَ يَظْهَرُونَ مِنْكُمْ مِنْ سَائِبِهَا مَا هِيَ أَهْتُهُمْ إِنْ أَهْتُهُمْ إِلَّا إِلَهِي وَلَدَنَهُمْ وَلَهُمْ لِقَاؤُنَّ شُكْرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَلَيْتَ اللَّهُ لَعَنُوهُ عَوْنًا﴾

نسائهم﴾ قرأ الجمهور (يظهرون) بالتشديد مع فتح حرف المضارعة. وقرأ ابن عامر، وحمة، والكسائي (يظاهرون) بفتح الياء، وتشديد الظاء، وزيادة الف، وقرأ أبو العالية، وعاصم، وذر بن حبش (يظاهرون) بضم الياء، وتخفيف الظاء، وكسر الهاء، وقد تقدّم مثل هذا في سورة الأحزاب. وقرأ لبي (يتظاهرون) بفك الإدغام، ومعنى الظاهر أن يقول لامراته: أنت علي كظهر أمي أي: ولا خلاف في كون هذا ظهاراً. واختلفوا إذا قال: أنت علي كظهر ابنتي، أو اختي، أو غير ذلك من نوات المحارم، فذهب جماعة منهم أبو حنيفة ومالك إلى أنه ظهار، وبه قال الحسن، والنخعي، والزهرري، والأوزاعي، والثوري. وقال جماعة منهم قتادة والشعبي: إنه لا يكون ظهاراً بل يختص الظهار بالأم وحدها. واختلفت الرواية عن الشافعي، فروي عنه كالقول الأول، وروي عنه كالقول الثاني، وأصل الظاهر مشتق من الظهر.

واختلفوا إذا قال لامراته: أنت علي كراس أمي، أو يدها، أو رجلها، أو نحو ذلك؟ هل يكون ظهاراً أم لا وهكذا إذا قال: أنت علي كامي ولم ينكر الظهر، والظاهر أنه إذا قصد بذلك الظهار كان ظهاراً. وروي عن أبي حنيفة أنه إذا شبهها بعضو من أمه يحل له النظر إليه لم يكن ظهاراً، وروي عن الشافعي أنه لا يكون الظهار إلا في الظهر وحده.

واختلفوا إذا شبه امراته بأجنبية فقيل: يكون ظهاراً وقيل: لا. والكلام في هذا مبسوط في كتب الفروع، وجملة ﴿هَٰنَ امْهَاتُهُمْ﴾ في محل رفع على أنها خبر الموصول أي: ما نسأؤهم بامهاتهم، فذلك كذب منهم، وفي هذا توبيخ للمظاهرين وتبكيك لهم. قرأ الجمهور (امهاتهم) بالنصب على اللغة الحجازية في إعمال «هـ» عمل ليس. وقرأ أبو عمرو، والسلمي بالرفع على عدم الإعمال، وهي لغة نجد، وبني أسد. ثم بيّن سبحانه لهم امهاتهم على الحقيقة فقال: ﴿إِنْ امْهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ﴾ أي: ما امهاتهم إلا النساء اللاتي ولدنهم، ثم زاد سبحانه في توبيخهم وتقريرهم، فقال: ﴿وَإِنْهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾ أي: وإن المظاهرين ليقولون بقولهم هذا منكرًا من القول أي: قضيماً من القول ينكره الشرع، والزور الكذب، وانتصاب منكرًا، وزوراً على أنهما صفة لمصدر محذوف أي: قولاً منكراً وزوراً ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ﴾ أي: بليغ العفو والمغفرة إذ جعل الكفارة عليهم مخلصاً لهم عن هذا القول المنكر ﴿وَالَّذِينَ يَظْهَرُونَ مِنْ سَائِبِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ لما نكر سبحانه الظهار إجمالاً وبوخ فاعليه شرع في تفصيل أحكامه، والمعنى: والذين يقولون ذلك القول المنكر الزور، ثم يعيدون لما قالوا أي: إلى ما قالوا بالتدراك والتلافي، كما في قوله: ﴿إِنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ﴾ [النور: 17] أي: إلى مثله، قال الأخفش: ﴿لَمَّا قَالُوا﴾ وإلى ما قالوا يتعاقبان. قال ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف: 43] وقال: ﴿فَأَمْرُهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: 23] وقال: ﴿بِإِنْ رَبِّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: 5] وقال: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ

﴿فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ﴾ يعني: صيام شهرين متتابعين **﴿فَإِطْعَامَ سِتِّينَ مَسْكِينًا﴾** أي: فعلية أن يطعم ستين مسكيناً، لكل مسكين مِذَان، وهما نصف صاع، وبه قال أبو حنيفة وأصحابه. وقال الشافعي وغيره: لكل مسكين مِذَّة واحدة، والظاهر من الآية أن يطعمهم حتى يشبعوا مرة واحدة، أو يدفع إليهم ما يشبعهم، ولا يلزمه أن يجمعهم مرة واحدة، بل يجوز له أن يطعم بعض الستين في يوم، وبعضهم في يوم آخر، والإشارة بقوله: **﴿ذَلِكَ﴾** إلى ما تقدّم نكره من الأحكام، وهو مبتدأ، وخبره مَقْدَرُ أي: ذلك واقع **﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾** ويجوز أن يكون اسم الإشارة في محل نصب، والتقدير: فعلنا ذلك لتؤمنوا أي: لتصدقوا أن الله أمر به وشرعه، أو لتطيعوا الله ورسوله في الأوامر والنواهي، وتقفوا عند حدود الشرع ولا تتعدوها، ولا تعودوا إلى الظهار الذي هو منكر من القول وزور، والإشارة بقوله: **﴿وَتِلْكَ﴾** إلى الأحكام المذكورة، وهو مبتدأ، وخبره **﴿حُدُودَ اللَّهِ﴾** فلا تجاوزوا حدوده التي حدّها لكم، فإنه قد بيّن لكم أن الظهار معصية، وأن كفرته المذكورة توجب العفو والمغفرة **﴿وَالْكَافِرِينَ﴾** الذين لا يقفون عند حدود الله، ولا يعملون بما حذّاه الله لعباده **﴿عَذَابَ أَلِيمٍ﴾** وهو عذاب جهنم، وسماه كفراً تغليظاً وتشديداً.

وقد أخرج ابن ماجه، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مريويه، والبيهقي عن عائشة قالت: تبارك الذي وسع سمعه كل شيء إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة، ويخفى علي بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ، وهي تقول: يا رسول الله اكل شبابي، ونثرت له بطني حتى إذا كبر سني وانقطع ولدي ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك، قالت: فما برحت حتى نزل جبريل بهؤلاء الآيات **﴿وَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَانِكُ فِي زَوْجِهَا﴾** وهو أوس بن الصامت. وأخرج النحاس، وابن مريويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: كان أوّل من ظاهر في الإسلام أوس، وكانت تحته ابنة عمّ له يقال لها: خولة بنت خويلد، فظاهر منها، فأسقط في يده وقال: ما أراك إلا قد حرمت علي، فأنطلق إلى النبي ﷺ، فأسأله، فأثت النبي ﷺ، فوجبت عنده ماشطة تمشط رأسه، فأخبرته، فقال: «يا خولة ما أمرنا في أمرك بشيء»، فأنزل الله على النبي ﷺ فقال: «يا خولة أبشري؟» قالت: خيراً. قال: خيراً، فقرأ عليها **﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَانِكُ فِي زَوْجِهَا﴾**، الآيات. وأخرج أحمد، وأبو داود، وابن المنذر، والطبراني، وابن مريويه، والبيهقي من طريق يوسف بن عبد الله بن سلام قال: «حدثتني خولة بنت ثعلبة قالت: في، والله، وفي أوس بن الصامت أنزل الله صدر سورة المجادلة، قالت: كنت عنده، وكان شيخاً كبيراً قد ساء خلقه، فدخل علي يوماً فراجعته بشيء، فغضب فقال: أنت علي كظهر أمي، ثم رجع، فجلس في نادي قومه ساعة، ثم دخل علي، فإذا هو يرييني عن نفسي، قلت: كلا والذي نفس خولة بيده لا تصل إليّ، وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله

نوح﴾ [هود: 36] وقال الفراء: اللام بمعنى عن، والمعنى: ثم يرجعون عما قالوا، ويريدون الوطء. وقال الزجاج: المعنى: ثم يعيدون إلى إرادة الجماع من أجل ما قالوا. قال الأخفش أيضاً: الآية فيها تقديم وتأخير، والمعنى: والذين يظهرون من نسائهم، ثم يعيدون لما كانوا عليه من الجماع **﴿فَتَحْرِيرَ رَقَبَةٍ﴾** لما قالوا أي: فعليهم تحرير رقبة من أجل ما قالوا. فالجار في قوله: **﴿لَمَّا قَالُوا﴾** متعلق بالمحنوف الذي هو خير المبتدأ، وهو فعليهم.

واختلف أهل العلم في تفسير العود المذكور على أقوال: الأوّل أنه العزم على الوطء، وبه قال العراقيون أبو حنيفة وأصحابه، وروي عن مالك. وقيل: هو الوطء نفسه، وبه قال الحسن، وروي أيضاً عن مالك. وقيل: هو أن يمسكها زوجة بعد الظهار مع القدرة على الطلاق، وبه قال الشافعي. وقيل: هو الكفارة، والمعنى: أنه لا يستبيح وطأها إلا بكفارة، وبه قال الليث بن سعد، وروي عن أبي حنيفة. وقيل: هو تكرير الظهار بلفظه، وبه قال أهل الظاهر. وروي عن بكير بن الأشيح، وأبي العلية، والفراء. والمعنى: ثم يعيدون إلى قول ما قالوا. والموصول مبتدأ، وخبره **﴿فَتَحْرِيرَ رَقَبَةٍ﴾** على تقدير، فعليهم تحرير رقبة، كما تقدّم، أو قالوا وجب عليهم إعتاق رقبة، يقال: حررت أي: جعلته حراً، والظاهر أنها تجزئ أي رقبة كانت، وقيل: يشترط أن تكون مؤمنة كالرقبة في كفارة القتل، وبالأول قال أبو حنيفة وأصحابه، وبالثاني قال: مالك، والشافعي، واشترطوا أيضاً سلامتها من كل عيب **﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَتِمَّاسَا﴾** المراد بالتماس هنا الجماع، وبه قال الجمهور، فلا يجوز للمظاهر الوطء حتى يُكْتَر، وقيل: إن المراد به الاستمتاع بالجماع، أو اللمس، أو النظر إلى الفرج بشهوة، وبه قال مالك، وهو أحد قول الشافعي، والإشارة بقوله: **﴿ذَلِكَ﴾** إلى الحكم المذكور وهو مبتدأ، وخبره **﴿وَتَوْعظُونَ بِهِ﴾** أي: تؤمرون به، أو تزجرون به عن ارتكاب الظهار، وفيه بيان لما هو المقصود من شرع الكفارة. قال الزجاج: معنى الآية نلکم للتغليظ في الكفارة توعدون به أي: إن غلظ الكفارة وعظ لكم حتى تتركوا الظهار **﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾** لا يخفى عليه شيء من أعمالكم، فهو مجازيكم عليها. ثم نكر سبحانه حكم العاجز عن الكفارة، فقال: **﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فُصِيامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتِمَّاسَا﴾** أي: فمن لم يجد الرقبة في ملكه، ولا تمكن من قيمتها، فعليه صيام شهرين متتابعين متواليين لا يفطر فيهما، فإن أقطر استأنف إن كان الإفطار لغير عذر، وإن كان لعذر من سفر، أو مرض، فقال سعيد بن المسيب، والحسن، وعطاء بن أبي رباح، وعمرو بن دينار، والشعبي، والشافعي، ومالك: إنه يبيني، ولا يستأنف. وقال أبو حنيفة: إنه يستأنف، وهو مروى عن الشافعي، ومعنى **﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَتِمَّاسَا﴾** هو ما تقدّم قريباً، فلو وطئ ليلاً أو نهاراً عمداً أو خطأ استأنف، وبه قال أبو حنيفة، ومالك. وقال الشافعي: لا يستأنف إذا وطئ ليلاً؛ لأنه ليس محلاً للصوم، والأول أولى

فأخبرته خبري، فقال: أنت بذلك؟ قلت: أنا بذلك، قال: أنت بذلك؟ قلت: أنا بذلك، قال: أنت بذلك، فإمض في حكم الله، فإني صابر لذلك، قال: أعتق رقبة، فضربت عنقي بيدي، فقلت: لا والذي بعثك بالحق ما أصبحت أملك غيرها، قال: فصم شهرين متتابعين، فقلت: هل أصابني ما أصابني إلا في الصيام؟ قال: «فأطعم ستين مسكينا»، قلت: والذي بعثك بالحق لقد بتنا ليلتنا هذه وحشاً ما لنا عشاء، قال: اذهب إلى صاحب صدقة بني زريق، فقل له: فليطعمها إليك، فأطعمك منها وسقاً ستين مسكينا، ثم استعن بسائرهما عليك، وعلى عيالك، فرجعت إلى قومي فقلت: وجدت عندكم الضيق، وسوء الراي، ووجدت عند رسول الله ﷺ السعة والبركة، أمر لي بصدقتكم، فأنفعوها إلي، فأنفعوها إليه.

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ رَسُولَهُمْ كُفُؤًا كَمَا كُنْتُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا الْكِتَابَ بِالْبَيِّنَاتِ وَالْكِتَابُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١﴾ يَوْمَ يَسْعَاهُمْ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَنْشَقُّهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَتَكَلَّمُ فِي الْأَنْثَرِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَاسِمُهُمْ وَلَا حَسْرَةَ إِلَّا هُوَ سَادِمُهُمْ وَلَا أَذَنٌ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مُعْزِزُهُمْ أَنْ مَّا كَانُوا ثُمَّ يَنْشَقُّهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْيَوْمِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ هُوَ أَعْيَ النَّجْوَى ثُمَّ يَوْمَدُونَ لِمَا هُوَ عَنْهُمْ يُنْجَوْنَ بِالْأَيْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذْ جَاءَكَ حَبْلُكَ بِمَا تَرَى حَيْكَ بِهِنَّ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَا يَمْدُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَسْلَوْنَ فِيهَا النَّارَ ﴿٤﴾ يَأْتِيهَا الْبُزْجُ مَأْمُورًا وَإِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَلْتَجُوا بِالْأَيْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَسْرِعُوا بِالْأَيْمِ وَالْعُدْوَانِ وَتَقُولُوا اللَّهُ الْبُزْجُ إِلَيْنَا عُسْرُنَ ﴿٥﴾ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِسَارِهِمْ شَيْئًا إِلَّا يُبَادِلُهُ اللَّهُ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ رَسُولَهُمْ كُفُؤًا﴾ لما نكر سبحانه المؤمنين الواقفين عند حدوده نكر المحادين، والمحادة المشاقة، والمعاداة، والمخالفة، ومثله قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ رَسُولَهُمْ﴾ قال الزجاج: المحادة أن تكون في حد يخالف صاحبك، وأصلها المعانعة، ومنه الحديد، ومنه الحداد للبوأب ﴿كُفُؤًا﴾ كما كبت الذين من قبلهم، أي: أنزلوا وأخزوا، يقال: كبت الله فلاناً إذا أنزله، والمردود بالذل يقال له: مكبوت. قال مقاتلان: أخزوا، كما أخزي الذين من قبلهم من أهل الشرك، وكذا قال قتادة، وقال أبو عبيدة، والأخفش: أهلكوا. وقال ابن زيد: عذبوا. وقال السدي: لعنوا. وقال الفراء: أغيطوا، والمراد بمن قبلهم: كفار الأمم الماضية المعادين لرسول الله، وعبر عن المستقبل بلفظ الماضي تنبيهاً على تحقق وقوعه، وقيل المعنى: على الماضي، وذلك ما وقع للمشركين يوم بدر، فإن الله كبتهم بالقتل والأسر، والقهر، وجملة ﴿وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتِ بَيِّنَاتٍ﴾ في محل نصب على الحال من الواو في كبتوا أي: والحال أنا قد أنزلنا آيات وأضحات فيمن حادَّ الله ورسله من الأمم

فينا، ثم جئت إلى رسول الله ﷺ، فنكرت ذلك له، فما برحت حتى نزل القرآن، فتشقى رسول الله ﷺ ما كان يتفشا، ثم سري عنه، فقال لي: «يا خولة قد أنزل الله فيك وفي صاحبك، ثم قرأ علي: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَالِسُكَ﴾ إلى قوله: ﴿عَذَابُ أَلِيمٍ﴾ فقال رسول الله ﷺ: مريه، فليعتق رقبة، قلت: يا رسول الله ما عنده ما يعتق، قال: فليصم شهرين متتابعين، قلت: والله إنه لشيخ كبير ما به من صيام، قال: فليطعم ستين مسكيناً وسقاً من تمر، قلت: والله ما ذاك عنده، قال رسول الله ﷺ: فإنا ساعينه بعرق من تمر، فقلت: وأنا يا رسول الله ساعينه بعرق آخر، فقال: قد أصبت، وأحسن، فاذهبي، فتصدقِي به عنه، ثم استوصي بآبن عمك خيراً، قالت، ففعلت، وفي الباب أحاديث. وأخرج ابن المنذر، والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله: ﴿ثُمَّ يَعْبُدُونُ لِمَا قَالُوا﴾ قال: هو الرجل يقول لامراته: أنت علي كظهر أمي، فإذا قال لك فليس يحل له أن يقربها بنكاح، ولا غيره حتى يكفر بعتق رقبة ﴿فَمَنْ﴾ فإن ﴿لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا﴾ والمَسَّ النكاح ﴿فَمَنْ﴾ فإن ﴿لَمْ يَسْتَطِعْ فِطْعَامَ سِتِينَ مَسْكِينًا﴾ وإن هو قال لها: أنت علي كظهر أمي إن فعلت كذا، فليس يقع في ذلك ظهار حتى يحنث، فإن حنث، فلا يقربها حتى يكفر، ولا يقع في الظهار طلاق. وأخرج ابن المنذر عن أبي هريرة قال ثلاث: فيه مذ كفارة اليمين، وكفارة الظهار، وكفارة الصيام. وأخرج البزار، والطبراني، والحاكم، وابن مريويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: «أتى رجل النبي ﷺ فقال: إني ظاهرت من امرأتي، فرأيت بياض خلخالها في ضوء القمر، فوقعت عليها قبل أن أكفر، فقال النبي ﷺ: ألم يقل الله ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَتَمَاسَا﴾، قال: قد فعلت يا رسول الله، قال: أمسك عنها حتى تكفر». وأخرج عبد الرزاق، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، والحاكم، والبيهقي عن ابن عباس «أن رجلاً قال: يا رسول الله إني ظاهرت من امرأتي، فوقعت عليها من قبل أن أكفر، فقال: وما حملك على ذلك؟ قال: رأيت خلخالها في ضوء القمر، قال: فلا تقربها حتى تفعل ما أمرك الله». وأخرج عبد الرزاق، وأحمد، وعبد بن حميد، وأبو داود، والترمذي وحسنه، وابن ماجه، والطبراني، والبغوي في معجمه، والحاكم وصححه عن سلمة بن صخر الأنصاري قال: كنت رجلاً قد أوتيت من جماع النساء ما لم يؤت غيري، فلما دخل رمضان ظاهرت من امرأتي حتى ينسلخ رمضان فرحاً من أن أصيب منها في ليلي، فأتتبع في ذلك، ولا أستطيع أن أنزع حتى يدركني الصبح، فبينما هي تخدمني ذات ليلة إذ انكشف لي منها شيء، فوثبت عليها، فلما أصبحت غوت على قومي، فأخبرتهم خبري، فقلت: انطلقوا معي إلى رسول الله ﷺ، فأخبره بأمري، فقالوا: لا، والله لا نفعل نتخوف أن ينزل فينا القرآن، أو يقول فينا رسول الله ﷺ مقالة يبقَى علينا عارها؛ ولكن اذهب أنت، فاصنع ما بدا لك قال: «فخرجت، فأتيت رسول الله ﷺ،

المتقدمة، وقيل: المراد الفرائض التي أنزلها الله سبحانه، وقيل: هي المعجزات **﴿ولللكافرين عذاب مهين﴾** أي: للكافرين بكل ما يجب الإيمان به. فتدخل الآيات المنكورة هنا دخولاً أولياً، والعذاب المهين: الذي يهين صاحبه، وينله، ويذهب بعزه **﴿يوم يبعثهم الله جميعاً﴾** الظرف منتصب بإضمار انكر، أو بمهين، أو بما تعلق به اللام من الاستقرار، أو بإحصاء المنكور بعده، وانتصاب جميعاً على الحال أي: مجتمعين في حالة واحدة، أو يبعثهم كلهم لا يبقئ منهم أحد غير مبعوث **﴿فينبئهم بما عملوا﴾** أي: يخبرهم بما عملوه في الدنيا من الأعمال القبيحة توبيخاً لهم وتبكيثاً، ولتكميل الحجة عليهم، وجملة **﴿إحصاء الله ونسوه﴾** مستأنفة جواب سؤال مقدر، كأنه قيل كيف ينبئهم بذلك على كثرتهم واختلاف أنواعه، فقيل: إحصاء الله جميعاً، ولم يفته منه شيء، والحال أنهم قد نسوه ولم يحفظوه، بل وجنوه حاضراً مكتوباً في صحائفهم **﴿والله على كل شيء شهيد﴾** لا يخفى عليه شيء من الأشياء، بل هو مطلع وناظر، ثم أكد سبحانه بيان كونه عالماً بكل شيء، فقال: **﴿لم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض﴾** أي: ألم تعلم أن علمه محيط بما فيهما بحيث لا يخفى عليه شيء مما فيهما، وجملة **﴿ما يكون من نجوى ثلاثة﴾** إلخ مستأنفة: لتقرير شمول علمه وإحاطته بكل المعلومات. قرأ الجمهور (يكون) بالتحية. وقرأ أبو جعفر بن القعقاع، والأعرج، وأبو حيوه بالفوقية، وكان على القراءتين تأمة، ومن مزيدة للتأكيد، ونجوى فاعل كان، والنجوى السرار، يقال: قوم نجوى أي: ذو نجوى، وهي مصدر. والمعنى: ما يوجد من تناجي ثلاثة، أو من نوي نجوى، ويجوز أن تطلق النجوى على الأشخاص المتناجين، فعلى الوجه الأول انخفاض ثلاثة بإضافة نجوى إليه، وعلى الوجهين الآخرين يكون انخفاضها على البديل من نجوى، أو الصفة لها. قال الفراء: ثلاثة نعت للنجوى، فانخفضت، وإن شئت أضفت نجوى إليها، ولو نصبت على إضمار فعل جاز، وهي قراءة ابن أبي عتبة، ويجوز رفع ثلاثة على البديل من موضع نجوى **﴿إلا هو رابعهم﴾** هذه الجملة في موضع نصب على الحال، وكذا قوله: **﴿إلا هو سادسهم﴾** **﴿إلا هو معهم﴾** أي: ما يوجد شيء من هذه الأشياء إلا في حال من هذه الأحوال، فالاستثناء مفرغ من أعم الأحوال، ومعنى: رابعهم جاعلهم أربعة، وكذا سادسهم جاعلهم ستة من حيث إنه يشاركهم في الإطلاع على تلك النجوى **﴿ولا خمسة﴾** أي: ولا نجوى خمسة، وتخصيص العبدتين بالذكر؛ لأن أغلب عادات المتناجين أن يكونوا ثلاثة، أو خمسة؛ أو كانت الواقعة التي هي سبب النزول في متناجين كانوا ثلاثة في موضع، وخمسة في موضع. قال الفراء: العدد غير مقصود؛ لأنه سبحانه مع كل عدد قل أو كثر، يعلم السر والجهر، لا تخفى عليه خافية **﴿ولا أنسى من تلك ولا أكثر إلا هو معهم﴾** أي: ولا أقل من العدد المنكور: كالواحد والاثنتين، ولا أكثر

منه كالسنة والسبعة إلا هو معهم يعلم ما يتناجون به لا يخفى عليه منه شيء. قرأ الجمهور، (ولا أكثر) بالجر بالفتحة عطفاً على لفظ نجوى. وقرأ الحسن، والأعمش، وابن أبي إسحاق، وأبو حيوه، ويعقوب، وأبو العالية، ونصر، وعيسى بن عمر، وسلام بالرفع عطفاً على محل نجوى. وقرأ الجمهور، (ولا أكثر) بالمثلثة. وقرأ الزهري، وعكرمة بالموحدة. قال الواحدي: قال المفسرون: إن المنافقين واليهود كانوا يتناجون فيما بينهم، ويوهمون المؤمنين أنهم يتناجون فيما يسوءهم، فيحزنون لذلك، فلما طال ذلك وكثر شكواهم إلى رسول الله ﷺ، فأمرهم أن لا يتناجوا دون المسلمين، فلم ينتهوا عن ذلك، وعادوا إلى مناجاتهم، فأنزل الله هذه الآيات، ومعنى **﴿أيضاً كانوا﴾** إحاطة علمه بكل تناج يكون منهم في أي مكان من الأمكنة **﴿ثم ينبئهم﴾** أي: يخبرهم **﴿بما عملوا يوم القيامة﴾** توبيخاً لهم، وتبكيثاً، وإلزاماً للحجة **﴿إن الله بكل شيء عليم﴾** لا يخفى عليه شيء كائناً ما كان **﴿الم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعونون لما نهوا عنه﴾** هؤلاء الذين نهوا، ثم عادوا لما نهوا عنه، هم من تقدم ذكره من المنافقين واليهود. قال مقاتل: كان بين النبي ﷺ وبين اليهود مواعدة، فإذا مر بهم الرجل من المؤمنين تناجوا بينهم حتى يظن المؤمن شراً، فنهاهم الله، فلم ينتهوا، فنزلت. وقال ابن زيد: كان الرجل يأتي النبي ﷺ، فيسأله الحاجة، ويناجيه، والأرض يومئذ حرب، فيترهون أنه يناجيه في حرب، أو بلية، أو أمر مهم، فيفزعون لذلك **﴿ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصيت الرسول﴾** قرأ الجمهور (يتناجون) بوزن يتفاعلون، واختار هذه القراءة أبو عبيد، وأبو حاتم، لقوله فيما بعد: **﴿إذا تناجيتهم فلا تتناجوا﴾**. وقرأ حمزة، وخلف، وورش عن يعقوب، (ويتنجون) بوزن يفتعلون، وهي قراءة ابن مسعود وأصحابه، وحكى سيبويه أن تفاعلوا وافتعلوا يأتيان بمعنى واحد نحو تخاصموا واختصموا، وتقاتلوا واقتتلوا، ومعنى الإثم ما هو إثم في نفسه كالكنب والظلم، والعدوان ما فيه عدوان على المؤمنين، ومعصية الرسول مخالفته. قرأ الجمهور (ومعصية) بالإفراد. وقرأ الضحاک، وحמיד، ومجاهد (ومعصيات) بالجمع **﴿وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله﴾** قال القرطبي: إن المراد بها لليهود كانوا ياتون النبي ﷺ، فيقولون: السام عليك يريدين بذلك السلام ظاهراً، وهم يعنون الموت باطناً، فيقول النبي ﷺ: عليكم. وفي رواية أخرى، وعليكم **﴿ويقولون في أنفسهم﴾** أي: فيما بينهم **﴿لولا يعنينا الله بما نقول﴾** أي: هلا يعنينا بذلك، ولو كان محمد نبياً لعنينا بما يتضمنه قولنا من الاستخفاف به. وقيل المعنى: لو كان نبياً لاستجيب له فينا حيث يقول: وعليكم، ووقع علينا الموت عند ذلك **﴿حسبهم جهنم﴾** عذاباً **﴿يصلونها﴾** يخلونها **﴿فبئس المصير﴾** أي: المرجع، وهو جهنم **﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول﴾** لما فرغ

القوم، وإذا رأوا رسول الله ﷺ تناجوا وأظهروا الحزن، فبلغ ذلك من النبي ﷺ ومن المسلمين، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾ الآية. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كنتم ثلاثة، فلا يتناجى اثنان دون الثالث، فإن ذلك يحزنه». وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه عن أبي سعيد قال: كنا نتناوب رسول الله ﷺ بطرقه أمر، أو يأمر بشيء، فكثر أهل النوب والمحتسبون ليلة حتى إذا كنا أنداء نتحدث، فخرج علينا رسول الله ﷺ من الليل فقال: ما هذه النجوى؟ ألم تنهوا عن النجوى؟ قلنا: يا رسول الله إنا كنا في نكر المسيح فرقا منه، فقال: ألا أخبركم مما هو أخوف عليكم عندي منه؟ قلنا: بلى يا رسول الله. قال: الشرك الخفي أن يقوم الرجل يعمل لمكان رجل. قال ابن كثير: هذا إسناد غريب، وفيه بعض الضعفاء.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَسَبَّحُوا بِالْحَمْدِ فَلَتَسَبَّحُوا بِسَمِيعِ اللَّهِ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ أَنْشُرُوا فَأَنْشُرُوا بِرَفْعِ اللَّهِ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْوَيْلَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرُّسُلَ فَذَيِّرُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ سَدَقَةٌ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَّمْ يَفْعَلُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَأَتَقَفْتُمْ أَنْ تُخَلِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ سَدَقَةٌ فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا وَكَانَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَائِزًا فَالْزُكَاةَ وَآتُوا الزُّكَاةَ وَأَلِمُوا اللَّهَ بِرِزْوَانِهِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَسَبَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ﴾ يقال: فسح له يفسح فسحا أي: وسع له، ومنه قولهم بلد فسح. أمر الله سبحانه بحسن الأدب مع بعضهم بعضاً بالتوسعة في المجلس، وعدم التضايق فيه. قال قتادة، ومجاهد، والضحاك: كانوا يتنافسون في مجلس النبي ﷺ، فأمروا أن يفسح بعضهم لبعض. وقال الحسن، ويزيد بن أبي حبيب: هو مجلس القتال إذا اصطفوا للحرب كانوا يتشاحون على الصف الأول، فلا يوسع بعضهم لبعض رغبة في القتال؛ لتحصيل الشهادة ﴿فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي: فوسعوا يوسع الله لكم في الجنة، أو في كل ما تريدون التفسح فيه من المكان والرزق وغيرهما. قرأ الجمهور (تفسحوا في المجلس) وقرأ السلمي، ويزيد بن حبيش، وعاصم (في المجلس) على الجمع؛ لأن لكل واحد منهم مجلسا، وقرأ قتادة، والحسن، ودาวود بن أبي هند، وعيسى بن عمر (تفلسحوا) قال الواحدي: والوجه التوحيد في المجلس؛ لأنه يعني به مجلس النبي ﷺ. وقال القرطبي: الصحيح في الآية أنها عامة في كل مجلس اجتمع فيه المسلمون للخير والأجر، سواء كان مجلس حرب، أو نكر، أو يوم الجمعة، وإن كل واحد أحق بمكانه الذي سبق إليه، ولكن يوسع لأخيه ما لم يتأذ بذلك، فيخرجه الضيق عن موضعه، ويؤيد هذا حديث ابن عمر عند البخاري، ومسلم، وغيرهما عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه، ثم

سبحانه عن نهي اليهود والمنافقين عن النجوى أرشد المؤمنين إذا تناجوا فيما بينهم أن لا يتناجوا بما فيه إثم وعدوان، ومعصية لرسول الله، كما يفعله اليهود والمنافقون. ثم بين لهم ما يتناجون به في أنديةهم وخلواتهم، فقال: ﴿وَتَنَاجُوا بِالْبَرِّ وَالتَّقْوَى﴾ أي: بالطاعة وترك المعصية، وقيل: الخطاب للمنافقين، والمعنى: يا أيها الذين آمنوا ظاهرا، أو بزمعهم، واختار هذا الزجاج. وقيل: الخطاب لليهود، والمعنى: يا أيها الذين آمنوا بموسى، والأول أولى، ثم خوفهم سبحانه، فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾، فيجزئكم بأعمالكم. ثم بين سبحانه أن ما يفعله اليهود والمنافقون من التناجي هو من جهة الشيطان، فقال: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى﴾ يعني: بالإثم والعُدوان، ومعصية الرسول ﴿وَمِنَ الشَّيْطَانِ﴾ لا من غيره أي: من تزيينه وتسويله ﴿لِيَحْزَنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: لأجل أن يوقعهم في الحزن بما يحصل لهم من التورم لها في مكيدة يكادون بها ﴿وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا﴾ أو، وليس الشيطان، أو التناجي الذي يزينه الشيطان بضار المؤمنين شيئا من الضرر ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: بمشيئته، وقيل: بعلمه ﴿وَعَلَى اللَّهِ فليتوكل المؤمنون﴾ أي: يكلون أمرهم إليه، ويفوضونه في جميع شؤونهم، ويستعينون بالله من الشيطان، ولا يبالون بما يزينه من النجوى.

وقد أخرج أحمد، وعبد بن حميد، والبخاري، وابن المنذر، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب. قال السيوطي بسنن جيد عن ابن عمر: إن اليهود كانوا يقولون لرسول الله ﷺ: السلام عليك، يريدون بذلك شتمه، ثم يقولون في أنفسهم: لولا يعذبنا الله بما نقول، فنزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحْيِكَ بِهِ اللَّهُ﴾. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، والبخاري، والترمذي وصححه عن أنس: «أن يهودياً أتى النبي ﷺ وأصحابه فقال: السلام عليكم، فرد عليه القوم، فقال النبي ﷺ: هل ترون ما قال هذا؟ قلوا: الله أعلم، سلم يا نبي الله، قال: لا، ولكنه قال كذا، وكذا، رآه علي فرآه، قال: قلت: السلام عليكم؟ قال: نعم، قال النبي ﷺ عند ذلك: إذا سلم عليكم أحد من أهل الكتاب، فقولوا: عليك، قال عليك ما قلت. قال: ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحْيِكَ بِهِ اللَّهُ﴾. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن عائشة قالت: «دخل على رسول الله ﷺ يهود، فقالوا: السلام عليك يا أبا القاسم، فقالت عائشة: عليكم السلام واللعة، فقال: يا عائشة إن الله لا يحب الفحش ولا المتفحش، قلت: ألا تسمعنهم يقولون السلام؟ فقال رسول الله ﷺ: أو ما سمعنتي أقول وعليكم؟ فأنزل الله: ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحْيِكَ بِهِ اللَّهُ﴾». وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس في هذه الآية قال: كان المنافقون يقولون لرسول الله ﷺ إذا حيوه: سلام عليك، فنزلت. وأخرج ابن مردويه عنه قال: «كان النبي ﷺ إذا بعث سرية وأغزاها، التقى المنافقون، فأنغصوا رموسهم إلى المسلمين، ويقولون: قتل

يناجون النبي ﷺ، ويقولون: إنه أنن يسمع كل ما قيل له، وكان لا يمتنع أحداً من مناجاته، وكان ذلك يشقّ على المسلمين؛ لأن الشيطان كان يلقي في أنفسهم أنهم ناجوه بأن جمعوا اجتمعت لقتاله، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾ [المجادلة: 9]، فلم ينتهوا، فأنزل الله هذه الآية، فانتهم أهل الباطل عن النجوى؛ لأنهم لم يقدّموا بين يدي نجواهم صدقة، وشقّ ذلك على أهل الإيمان، وامتنعوا عن النجوى لضعف كثير منهم عن الصدقة، فخفف الله عنهم بالآية التي بعد هذه، والإشارة بقوله: ﴿تِلْكَ﴾ إلى ما تقدّم من تقديم الصدقة بين يدي النجوى، وهو مبتدأ وخبره ﴿خَيْرَ لَكُمْ وَأَطْرَ﴾ لما فيه من طاعة الله، وتقيد الأمر بكون أمثاله خيراً لهم من عدم الامتثال، وأطهر لنفوسهم يدل على أنه أمر نذير لا أمر وجوب ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يعني: من كان منهم لا يجد تلك الصدقة المأمور بها بين يدي النجوى، فلا حرج عليه في النجوى بدون صدقة ﴿وَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٌ﴾ أي: أخفتم الفقر والعيلة؛ لأن تقدّموا ذلك، والإشفاق: الخوف من المكروه، والاستفهام للتقرير. وقيل المعنى: أبخلتم، وجمع الصدقات هنا باعتبار المخاطبين. قال مقاتل بن حيان: إنما كان ذلك عشر ليالٍ، ثم نسخ. وقال الكلبي: ما كان ذلك إلا ليلة واحدة. وقال قتادة: ما كان إلا ساعة من النهار ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ ما أمرتم به من الصدقة بين يدي النجوى، وهذا خطاب لمن وجد ما يتصدق به، ولم يفعل، وأما من لم يجد، فقد تقدّم الترخيص له بقوله: ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بأن رخص لكم في الترك، ﴿وَإِذْ عَلَى بَابِهَا فِي الدَّلَالَةِ عَلَى الْمَضِيِّ﴾ وقيل: هي بمعنى إذا، وقيل: بمعنى إن، وتاب معطوف على لم تفعلوا أي: وإذا لم تفعلوا، وإذ تاب عليكم ﴿فَاقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ والمعنى: إذا وقع منكم التثاقل عن امتثال الأمر بتقديم الصدقة بين يدي النجوى، فاثبتوا على إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الله ورسوله، فيما تؤمرون به وتنهون عنه ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ لا يخفى عليه من ذلك شيء، فهو مجازيكم، وليس في الآية ما يدل على تقصير المؤمنين في امتثال هذا الأمر، أما الفقراء منهم، فالأمر واضح، وأما من عداهم من المؤمنين، فإنهم لم يكلفوا بالمناجاة حتى تجب عليهم الصدقة بل أمروا بالصدقة إذا أراوا المناجاة فمن ترك المناجاة، فلا يكون مقصراً في امتثال الأمر بالصدقة، على أن في الآية ما يدل على أن الأمر للنذير، كما قدّمنا. وقد استدلل بهذه الآية من قال بأنه يجوز النسخ قبل إمكان الفعل، وليس هذا الاستدلال بصحيح، فإن النسخ لم يقع إلا بعد إمكان الفعل، وأيضاً قد فعل ذلك البعض، فتصنّف بين يدي نجواه، كما سيأتي.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان قال: أنزلت هذه الآية ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ﴾ يوم

يجلس فيه، ولكن تفسحوا وتوسعوا. ﴿وَإِذَا قِيلَ انشَرُوزُوا فَانْشَرُوزُوا﴾ قرأ الجمهور بكسر الشين فيها، وقرأ نافع، وابن عامر، وعاصم بضمها فيهما، وهما لغتان بمعنى واحد، يقال: نشز أي: ارتفع، ينشز وينشز كعكف يعكف ويعكف، والمعنى: إذا قيل لكم: انهضوا، فانهضوا. قال جمهور المفسرين أي: انهضوا إلى الصلاة، والجهد، وعمل الخير. وقال مجاهد، والضحك، وعكرمة: كان رجال يتثاقلون عن الصلاة، فقيل لهم: إذا نودي للصلاة، فانهضوا. وقال الحسن: انهضوا إلى الحرب. وقال ابن زيد: هذا في بيت النبي ﷺ، كان كل رجل منهم يحب أن يكون آخر عهده بالنبي ﷺ، فقال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ انشَرُوزُوا﴾ عن النبي ﷺ ﴿فَانْشَرُوزُوا﴾ فإن له حواشٍ، فلا تمكثوا. وقال قتادة: المعنى اجبيبو إذا دعيتم إلى أمر بمعروف، والظاهر حمل الآية على العموم؛ والمعنى: إذا قيل لكم: انهضوا إلى أمر من الأمور الدينية، فانهضوا ولا تتثاقلوا، ولا يمتنع من حملها على العموم كون السبب خاصاً، فإن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، كما هو الحق، ويندرج ما هو سبب النزول فيها اندراجاً أولياً، وهكذا يندرج ما فيه السياق، وهو التفسير في المجلس اندراجاً أولياً، وقد قدّمنا أن معنى نشز ارتفع، وهكذا يقال: نشز ينشز: إذا تنحى عن موضعه، ومنه امرأة ناشز أي: متنحية عن زوجها، وأصله مأخوذ من النشز، وهو ما ارتفع من الأرض وتنحى، نكر معناه النحاس ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ في الدنيا والآخرة بتوفير نصيبهم فيهما ﴿وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ أي: ويرفع الذين أُوتوا العلم منكم درجات عالية في الكرامة في الدنيا، والثواب في الآخرة، ومعنى الآية أنه يرفع الذين آمنوا على من لم يؤمن درجات، ويرفع الذين أُوتوا العلم على الذين آمنوا درجات، فمن جمع بين الإيمان والعلم رفعه الله بإيمانه درجات، ثم رفعه بعلمه درجات، وقيل: المراد بالذين آمنوا من الصحابة، وكذلك الذين أُوتوا العلم، وقيل: المراد بالذين أُوتوا العلم الذين قرءوا القرآن. والأولى حمل الآية على العموم في كل مؤمن، وكل صاحب علم من علوم الدين من جميع أهل هذه الملة، ولا دليل يدل على تخصيص الآية بالبعض دون البعض، وفي هذه الآية فضيلة عظيمة للعلم وأهله، وقد دلّ على فضله وفصله آيات قرآنية وأحاديث نبوية ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ لا يخفى عليه شيء من أعمالكم من خير وشرّ، فهو مجازيكم بالخير خيراً وبالشرّ شرّاً ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٌ﴾ المناجاة المساررة، والمعنى: إذا أردتم مساررة الرسول في أمر من أموركم، فقدّموا بين يدي مساررتكم له صدقة. قال الحسن: نزلت بسبب أن قوماً من المسلمين كانوا يستخلون النبي ﷺ يناجونه، فظنّ بهم قوم من المسلمين أنهم ينتقصونهم في النجوى، فشقّ عليهم ذلك، فأمرهم الله بالصدقة عند النجوى؛ لتقطعهم عن استخلائه. وقال زيد بن أسلم: نزلت بسبب أن المنافقين واليهود كانوا

نجواكم صدقة» كان عندي دينار، فبعته بعشرة دراهم، فكنتم كلما ناجيت رسول الله ﷺ قَدِمْتُ بين يدي نجواي درهماً، ثم نسخت، فلم يعمل بها أحد، فنزلت: ﴿الْأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ﴾ الآية. وأخرج الطبراني، وابن مريويه. قال السيوطي: بسند ضعيف عن سعد بن أبي وقاص قال: نزلت ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾، فقدمت شعيرة، فقال رسول الله ﷺ: إنك لزهيد، فنزلت الآية الأخرى ﴿الْأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قَالُوا قَوَّامًا غَيْبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (١) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَسْعَوْنَ (٢) أَخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (٣) لَنْ تَقِيَّ عَذَابَهُمْ أَنْزَلْنَاهُمْ وَلَا أَرْزَلْنَاهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْأَنْزَارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٤) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا يَحْلِفُونَ لَهُمْ كَمَا كَانُوا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَّا يَأْتِيَهُمْ اللَّهُ الْكَذِبُونَ (٥) اسْتَعَاذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَهُمْ وَذَرَاكَ اللَّهُ أَزْلَكَ حَرْبُ الشَّيْطَانِ إِلَّا إِنْ حَزَبَ الشَّيْطَانُ مُمْ لِكَيْفَتِهِمْ (٦) إِنْ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذْكَانِ (٧) كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَيْكَ أَنَا وَرَسُولِي إِنَّكَ اللَّهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٨) لَا يَغْدُرُ قَوْمًا يَفْتَرُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يَوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩)

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا﴾ أي: والوهم. قال قتادة: هم المنافقون تولوا اليهود. وقال السدي، ومقاتل: هم اليهود تولوا المنافقين، ويدل على الأول قوله: ﴿غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ فإن الغضب عليهم هم اليهود، ويدل على الثاني قوله: ﴿مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ فإن هذه صفة المنافقين، كما قال الله فيهم: ﴿مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ [النساء: 143] وجملة ﴿مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ في محل نصب على الحال، أو هي مستأنفة ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ﴾ أي: يحلفون أنهم مسلمون، أو يحلفون أنهم ما نقلوا الأخبار إلى اليهود، والجملة عطف على تولوا داخلة في حكم التعجب من فعلهم، وجملة ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ في محل نصب على الحال أي: والحال أنهم يعلمون بطلان ما حلفوا عليه، وأنه كذب لا حقيقة له ﴿وَأَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ بسبب هذا التولي والحلف على الباطل ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الأعمال القبيحة ﴿اتَّخَذُوا إِيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ قرأ الجمهور (إيمانهم) بفتح الهمزة جمع يمين، وهي ما كانوا يحلفون عليه من الكذب بانهم من المسلمين توقيا من القتل، فجعلوا هذه الأيمان وقاية وسترة دون دملتهم، كما يجعل المقاتل الجنة وقاية له من أن يصاب بسيف أو رمح أو

جمعة، ورسول الله ﷺ يومئذ في الصفة، وفي المكان ضيق، وكان يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار، فجاء ناس من أهل بدر، وقد سبقوا إلى المجالس، فقاموا حيال رسول الله ﷺ فقالوا: للسلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، فردَّ النبي ﷺ عليهم، ثم سلموا على القوم بعد ذلك، فردَّوا عليهم، فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم، فعرف النبي ﷺ ما يحملهم على القيام، فلم يفسح لهم، فشق ذلك عليه، فقال لمن حوله من المهاجرين والأنصار من غير أهل بدر: «قم يا فلان، وأنت يا فلان، فلم يزل يقيمهم بعدة النفر الذين هم قيام من أهل بدر، فشق ذلك على من أقيم من مجلسه، فنزلت هذه الآية». وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في الآية قال: ذلك في مجلس القتال ﴿وَإِذَا قِيلَ لِنَاسٍ أَنْزِلُوا إِلَهُكُمُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ قال: يرفع الله الذين أوتوا العلم من المؤمنين على الذين لم يؤمنوا درجات. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود في تفسير هذه الآية قال: يرفع الله الذين آمنوا منكم، وأوتوا العلم على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم درجات. وأخرج ابن المنذر عنه قال: ما خصَّ الله العلماء في شيء من القرآن ما خصهم في هذه الآية، فضل الله الذين آمنوا وأوتوا العلم على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه عن ابن عباس في قوله: ﴿إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ﴾ الآية قال: إن المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله ﷺ حتى شقوا عليه، فأراد الله أن يخفف عن نبيه، فلما قال ذلك ظن كثير من الناس، وكفوا عن المسألة، فانزل الله بعد هذا ﴿الْأَشْفَقْتُمْ﴾ الآية، فوسع الله عليهم ولم يضيق. وأخرج ابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، والترمذي وحسنه، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، والنحاس، وابن مريويه عن علي بن أبي طالب قال: لما نزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾ قال لي النبي ﷺ: ما ترى دينار؟ قلت: لا يطيقونه. قال: فنصف دينار؟ قلت: لا يطيقونه، قال، فكم؟ قلت: شعيرة، قال: إنك لزهيد، قال: فنزلت ﴿الْأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ﴾ الآية، فبني خفف الله عن هذه الأمة، والمراد بالشعيرة هنا وزن شعيرة من ذهب، وليس المراد واحدة من حب الشعير. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه عنه قال: ما عمل بها أحد غيري حتى نسخت، وما كانت إلا ساعة يعني: آية النجوى. وأخرج سعيد بن منصور، وابن راهويه، وابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مريويه عنه أيضاً قال: إن في كتاب الله آية ما عمل بها أحد قبلي، ولا يعمل بها أحد بعدي، آية النجوى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ

السورة، والجملة تعليل لما قبلها **﴿أُولَئِكَ فِي الْأَنْلِينِ﴾** أي: أولئك المحادون لله ورسوله، المتصفون بتلك الصفات المتقدمة من جملة من آمنه الله من الأمم السابقة واللاحقة؛ لأنهم لما حادوا الله ورسوله صاروا من الذل بهذا المكان. قال عطاء: يريد الذل في الدنيا، والخزي في الآخرة **﴿كُتِبَ اللَّهُ لِأَغْلِبَنَ أَنَا وَرُسُلِي﴾** الجملة مستأنفة لتقرير ما قبلها مع كونهم في الأنلين أي: كتب في اللوح المحفوظ، وقضى في سابق علمه: لأغلبن أنا ورسلي بالحجة والسيف. قال الزجاج: معنى غلبة الرسل على نوعين: من بعث منهم بالحرب، فهو غالب في الحرب، ومن بعث منهم بغير الحرب، فهو غالب بالحجة. قال الفراء: كتب بمعنى قال، وقوله: **﴿إِنَّا﴾** تأكيد، ثم نكر مثل قول الزجاج **﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾** فهو قويٌّ على نصر أوليائه غالب لأعدائه لا يغلبه أحد **﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرُسُلَهُ﴾** الخطاب لرسول الله ﷺ، أو لكل من يصلح له أي: يحبون ويوالون من عادى الله ورسوله وشاقهما، وجملة **﴿يُوَادُّونَ﴾** في محل نصب على أنها المفعول الثاني لتجد إن كان متعدياً إلى مفعولين، أو في محل نصب على الحال إن كان متعدياً إلى مفعول واحد، أو صفة أخرى لقوماً أي: جامعون بين الإيمان والموادة لمن حاد الله ورسوله **﴿وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾** أي: ولو كان المحادون لله ورسوله آباء المؤمنين، إخ، فإن الإيمان يزجر عن ذلك، ويمنع منه، ورعايته أقوى من رعاية الأبوة والبنوة والأخوة والعشيرة **﴿أُولَئِكَ كُتِبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانُ﴾** يعني: الذين لا يوادون من حاد الله ورسوله، ومعنى **﴿كُتِبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانُ﴾**: خلقه، وقيل: أثبته، وقيل: جعله، وقيل: جمعه، والمعاني متقاربة **﴿وَأُولَئِكَ بَرُّوا بَرُّهُمْ﴾** قوامهم بنصر منه على علوهم في الدنيا، وسمى نصره لهم روحاً لأن به يحيا أمرهم، وقيل: هو نور القلب. وقال الربيع بن أنس: بالقرآن والحجة، وقيل: بجبريل، وقيل: بالإيمان، وقيل: برحمة. قرأ الجمهور (كتب) مبنياً للفاعل، ونصب الإيمان على المفعولية. وقرأ زُرَّ بن حبيش، والمفضل عن عاصم على البناء للمفعول، ورفع الإيمان على النياية. وقرأ زُرَّ بن حبيش: (عشيراتهم) بالجمع، ورويت هذه القراءة عن عاصم **﴿وَيُخْلِصُهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾** على الأبد **﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾** أي: قبل أعمالهم، وأفاض عليهم آثار رحمته العاجلة والآجلة **﴿وَوَرَّضُوا عَنْهُمْ﴾** أي: فرحوا بما أعطاهم عاجلاً وأجلاً **﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ﴾** أي: جنده الذين يمتثلون أوامره، ويقاتلون أعداءه، وينصرون أوليائه، وفي إضافتهم إلى الله سبحانه تشريف لهم عظيم، وتكريم فخير **﴿إِلَّا إِنْ حِزْبُ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾** أي: الفائزون بسعادة الدنيا والآخرة، الكاملون في الفلاح الذين صار فلاحهم هو الفرد الكامل، حتى كان فلاح غيرهم بالنسبة إلى فلاحهم كلا فلاح.

سهم. وقرأ الحسن، وأبو العالية (إيمانهم) بكسر الهمزة أي: جعلوها تصديقهم جنة من القتل، فأمنت السنتهم من خوف القتل، ولم تؤمن قلوبهم **﴿فَصَبُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾** أي: منعوا الناس عن الإسلام بسبب ما يصدر عنهم من التثييط، وتهوين أمر المسلمين، وتضعيف شوكتهم، وقيل المعنى: فصَبُّوا المسلمين عن قتالهم بسبب إظهارهم للإسلام **﴿قُلُوبُهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾** أي: يهينهم ويخزيهم، قيل: هو تكرير لقوله: **﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾** للتأكيد، وقيل: الأول عذاب القبر، وهذا عذاب الآخرة، ولا وجه للقول بالتكرار، فإن العذاب الموصوف بالشدة غير العذاب الموصوف بالإهانة **﴿لَنْ تَغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾** أي: لن تغني عنهم من عذابه شيئاً من الإغناء قال مقاتل. قال المنافقون: إن محمداً يزعم أنه ينصر يوم القيامة لقد شقينا إن، فوالله لننصرن يوم القيامة بأنفسنا، وأموالنا، وأولادنا إن كان قيامة، فنزلت الآية **﴿أُولَئِكَ﴾** الموصوفون بما نكر **﴿أَصْحَابِ النَّارِ﴾** لا يفارقونها **﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾** لا يخرجون منها **﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾** الظرف منصوب بقوله: **﴿مُهِينٌ﴾**، أو بمقدَّر أي: انكر **﴿فِيحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ فِي الدُّنْيَا﴾** وهذا من شدة شقاوتهم ومزيد الطبع على قلوبهم، فإن يوم القيامة قد انكشفت الحقائق وصارت الأمور معلومة بضرورة المشاهدة، فكيف يجترئون على أن يكذبوا في ذلك الموقف ويحلفون على الكذب **﴿وَيَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾** أي: يحسبون في الآخرة أنهم بتلك الأيمان الكاذبة على شيء مما يجلب نفعاً، أو يدفع ضرراً، كما كانوا يحسبون ذلك في الدنيا **﴿إِلَّا أَنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾** أي: الكاملون في الكذب المتهاكئون عليه البالغون فيه إلى حد لم يبلغ غيرهم إليه بإقدامهم عليه، وعلى الأيمان الفاجرة في موقف القيامة بين يدي الرحمن **﴿اسْتَحْذَرُوا عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانَ﴾** أي: غلب عليهم واستعلى واستولى. قال المبرد: استحوذ على الشيء حواه وأحاط به، وقيل: قوي عليهم، وقيل: جمعهم، يقال: أحوذ الشيء أي: جمعه وضَمَّ بعضه إلى بعض، والمعاني متقاربة؛ لأنه إذا جمعهم فقد قوي عليهم وغلبهم واستعلى عليهم واستولى، وأحاط بهم **﴿فَانْصَاهُمْ نَكَرَ اللَّهُ﴾** أي: أوامره والعمل بطاعته، فلم ينكروا شيئاً من ذلك، وقيل: زولجره في النهي عن معاصيه، وقيل: لم ينكروه بقلوبهم ولا بالسنتهم، والإشارة بقوله: **﴿أُولَئِكَ﴾** إلى المذكورين الموصوفين بتلك الصفات، وهو مبتدأ، وخبره **﴿حِزْبُ الشَّيْطَانَ﴾** أي: جنوده، وأتباعه، ورهطه **﴿إِلَّا إِنْ حِزْبُ الشَّيْطَانَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾** أي: الكاملون في الخسران حتى كان خسران غيرهم بالنسبة إلى خسرانهم ليس بخسران لأنهم باعوا الجنة والهدى بالضلالة، وكذبوا على الله وعلى نبيه، وحلفوا الأيمان الفاجرة في الدنيا والآخرة **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَحَادُّونَ اللَّهَ وَرُسُلَهُ﴾** تقدم معنى المحادة لله ولرسوله في أول هذه

ليأمرهم **لأَوَّلِ الْحَشْرِ** هم بنو النضير، وهم: رهط من اليهود من نرية هارون، نزلوا المدينة في فتن بني إسرائيل انتظاراً منهم لمحمد ﷺ، فغدروا بالنبي ﷺ بعد أن عاهدوه، وصاروا عليه مع المشركين، فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى رضوا بالجلاء. قال الكلبي: كانوا أول من أجلي من أهل النمة من جزيرة العرب، ثم أجلي آخرهم في زمن عمر بن الخطاب، فكان جلاؤهم أول حشر من المدينة، وآخر حشر إجلاء عمر لهم. وقيل: إن أول الحشر إخراجهم من حصونهم إلى خيبر، وآخر الحشر إخراجهم من خيبر إلى الشام، وقيل: آخر الحشر هو حشر جميع الناس إلى أرض المحشر، وهي الشام. قال عكرمة: من شك أن المحشر يوم القيامة في الشام، فليقرأ هذه الآية، وأن النبي ﷺ قال لهم: «أخرجوا قالوا: إلى أين؟ قال: إلى أرض المحشر». قال ابن العربي: الحشر أول وأوسط وآخر، فالأول إجلاء بني النضير، والأوسط إجلاء أهل خيبر، والآخر يوم القيامة.

وقد أجمع المفسرون على أن هؤلاء المذكورين في الآية هم بنو النضير، ولم يخالف في ذلك إلا الحسن البصري فقال: هم بنو قريظة، وهو غلط، فإن بني قريظة ما حشروا، بل قتلوا بحكم سعد بن معاذ لما رضوا بحكمه، فحكم عليهم بأن تقتل مقاتلتهم، وتسبى ذراريهم، وتغنم أموالهم، فقال رسول الله ﷺ لسعد: لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة. واللام في **لأَوَّلِ الْحَشْرِ** متعلقة بأخرج، وهي لام التوقيت كقوله: «للولك الشمس» [الإسراء: 78]. «ما ظننتم أن يخرجوا» هذا خطاب للمسلمين أي: ما ظننتم أيها المسلمون أن بني النضير يخرجون من بيارهم؛ لعزتهم، ومنعتهم، وذلك أنهم كانوا أهل حصون مانعة، وعقار، ونخيل واسعة، وأهل عدد وعدة **«ووظفوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله»** أي: وظنّ بنو النضير أن حصونهم تمنعهم من بأس الله، وقوله: **«مانعتهم»** خبر مقدم، **«وحصونهم»** مبتدأ مؤخر، والجملة خبر أنهم، ويجوز أن يكون مانعتهم خبر أنهم، وحصونهم فاعل مانعتهم، ورجح الثاني أبو حيان، والأول أولى **«فاتاهم الله من حيث لم يحتسبوا»** أي: اتاهم أمر الله من حيث لم يخطر ببالهم أنه يأتيهم أمره من تلك الجهة، وهو أنه سبحانه أمر نبيه ﷺ بقتالهم وإجلائهم وكانوا لا يظنون ذلك، وقيل: هو قتل رئيسهم كعب بن الأشرف، قاله ابن جريج، والسدي، وأبو صالح، فإن قتله أضعف شوكتهم. وقيل: إن الضمير في اتاهم، ولم يحتسبوا للمؤمنين أي: فاتاهم نصر الله من حيث لم يحتسبوا، والأول أولى لقوله: **«وقذف في قلوبهم الرعب»** فإن قذف الرعب كان في قلوب بني النضير، لا في قلوب المسلمين. قال أهل اللغة: الرعب الخوف الذي يرعب الصدر أي: يملؤه، وقنقه إثباته فيه. وقيل: كان قذف الرعب في قلوبهم بقتل سيدهم كعب بن الأشرف، والأولى عدم تقييده بذلك، وتفسيره به، بل المراد بالرعب الذي قذفه الله في قلوبهم هو الذي ثبت في الصحيح من قوله ﷺ: «نصرت بالرعب مسيرة شهر».

وقد أخرج أحمد، والبخاري، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: «كان رسول الله ﷺ جالساً في ظل حجرة من حجره، وعنده نفر من المسلمين، فقال: إنه سيأتيكم إنسان، فينظر إليكم بعين شيطان، فإذا جاءكم، فلا تكلموه، فلم يلبثوا أن طلع عليهم رجل أزرق، فقال حين رآه: علام تشتمني أنت وأصحابك؟ فقال: نرني أتيك بهم، فحلفوا، واعتدوا، فانزل الله: **«يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم»** الآية والتي بعدها. وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في سننه عن عبد الله بن شونب قال: جعل والد أبي عبيدة بن الجراح يتقصد لأبي عبيدة يوم بدر، وجعل أبو عبيدة يحيد عنه، فلما أكثر قصده أبو عبيدة، فقتله، فنزلت: **«لا تجد قوماً يؤمنون بالله»** الآية.

تفسير سورة الحشر

وهي مدنية. قال القرطبي: في قول الجميع. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة الحشر بالمدينة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: سورة الحشر، قال: سورة النضير يعني: أنها نزلت في بني النضير، كما صرح بذلك في بعض الروايات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ① هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ بَيْتِهِمُ الْأَوَّلِ لَعَنَ اللَّهُ مَن لَّغَنَهُمْ مَا ظَنَنْتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَلَّلَا أَهْلَهُمْ مَّا نَسْتُهُمْ حُصُونَهُمْ مِنْ اللَّهِ فَأَنذَرْتُهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَكَاؤُ الْأَئِمَّةِ ② وَلَوْ أَن كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءُ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ③ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَاِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ④ مَا ظَلَمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ أَوْ تَكُونُوا قَائِمَةً عَلَى أُسُودِهَا فَإِنِّي أَنَا اللَّهُ وَبِخَرَى الْقَائِمِينَ ⑤ وَمَا اللَّهُ عَلَى رُسُلِهِ يَتِمُّ مَا أَرْسَلَتْ عَلَيْهِ مِنْ حَبْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ⑥ مَا اللَّهُ عَلَى رُسُلِهِ مِنْ أَهْلِ الْأَنْدَادِ فَلَوْ أَتَيْنَا الْقُرَى الْأَقْرَبَ وَلَئِن لَّمْ يَكُنْ دَوْلَةٌ بَيْنَ الْأَعْيُنِ يَكُنْكُمْ وَمَا أَتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ⑦

قوله: **«سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم»** قد تقدم تفسير هذا في سورة الحديد **«هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من بيوتهم الأولى»**

للمسلمين، وقال الذين قطعوا: بل هو غيظ للعدو؛ فنزل القرآن بتصديق من نهى عن قطع النخل، وتحليل من قطعه من الإثم فقال: ﴿مَا قُطِعَ مِنْ لِينَةٍ﴾ قال قتادة، والضحاك: إنهم قطعوا من نخيلهم وأحرقوا ست نخلات. وقال محمد بن إسحاق: إنهم قطعوا نخلة وأحرقوا نخلة، فقال بنو النضير، وهم أهل كتاب: يا محمد ألسنت تزعم أنك نبي تريد الصلاح، أقمن الصلاح قطع النخل، وحرق الشجر؛ وهل وجدت، فيما أنزل عليك إباحة الفساد في الأرض، فشقق ذلك على رسول الله ﷺ، ووجد المسلمون في أنفسهم، فنزلت الآية، ومعنى الآية: أي شيء قطعتم من ذلك أو تركتم فبأن الله، والضمير في تركتموها عائد إلى «ما» لتفسيروها باللين، وكذا في قوله: ﴿قَائِمَةٌ عَلَى أَصُولِهَا﴾ ومعنى ﴿عَلَى أَصُولِهَا﴾: أنها باقية على ما هي عليه.

واختلف المفسرون في تفسير اللينة، فقال الزهري، ومالك، وسعيد بن جبير، وعكرمة، والخليل: إنها النخل كله إلا العجوة. وقال مجاهد: إنها النخل كله، ولم يستثن عجوة ولا غيرها. وقال الثوري: هي كرام النخل. وقال أبو عبيدة: إنها جميع أنواع التمر سوى العجوة والبرني. وقال جعفر بن محمد: إنها العجوة خاصة، وقيل: هي ضرب من النخل، يقال لتمره اللون: تمره أجود التمر. وقال الأصمعي: هي النقل، وأصل اللينة لونة، فقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها، وجمع اللينة لين، وقيل: ليان. وقرأ ابن مسعود (ما قطعتم من لينة ولا تركتموها على أصولها) أي: قائمة على سوقها، وقرئ: (على أصلها)، وقرئ: (قائمة على أصولها) ﴿وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: ليدلّ الخارجين عن الطاعة، وهم اليهود، ويغيظهم في قطعها وتركها، لأنهم إذا رأوا المؤمنين يتحكمون في أموالهم كيف شاءوا من القطع والتترك ازدادوا غيظاً. قال الزجاج: وليخزي الفاسقين بأن يريهم أموالهم يتحكم فيها المؤمنون كيف أحبوا من قطع وترك، والتقدير: وليخزي الفاسقين أن في ذلك، يدل على المحذوف قوله: ﴿فَيُبْذَلُ لِلَّهِ﴾، وقد استدل بهذه الآية على جواز الاجتهاد، وعلى تصويب المجتهدين، والبحث مستوفى في كتب الأصول ﴿وَمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ﴾ أي: ما رده عليه من أموال الكفار، يقال: فاء يفيء إذا رجع، والضمير في منهم عائد إلى بني النضير ﴿فَمَا أُوجِفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خِيَلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ يقال: وجف الفرس والبعير يجف وجفاً، وهو سرعة السير، وأوجفه صاحبه: إذا حمّله على السير السريع، ومنه قول تميم بن مقبل:

مذ لو بد بالبيض الحديد صفالها عن الركب أحياناً إذا الركب أوجفوا وقال نصيب:

الارب ركب قد قطعت وجيفهم إليك ولولا أنت لم يوجف الركب و«ما» في ﴿فَمَا أُوجِفْتُمْ﴾ نافية، والفاء جواب الشرط إن كانت «ما» في قوله: ﴿فَمَا آفَاءَ اللَّهِ﴾ شرطية، وإن موصولة، فالفاء زائدة، «ومن» في قوله: ﴿مَنْ خِيَلٍ﴾ زائدة للتأكيد، والركاب ما يركب من الإبل خاصة، والمعنى: أن ما

﴿يُخْرِبُونَ بِيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ وذلك أنهم لما أيقنوا بالجلاء حسدوا المسلمين أن يسكنوا منازلهم، فجعلوا يخربونها من داخل، والمسلمون من خارج. قال قتادة والضحاك: كان المؤمنون يخربون من خارج، ليدخلوا، واليهود من داخل ليدنوا به ما خرب من حصنهم. قال الزجاج: معنى تخريبها بأيدي المؤمنين أنهم عرضوها لذلك. قرأ الجمهور (يخربون) بالتخفيف، وقرأ الحسن، والسلمي، ونصر بن عاصم، وأبو العالية، وأبو عمرو بالتشديد. قال أبو عمرو: إنما اخترت القراءة بالتشديد، لأن الإخراب ترك الشيء خراباً، وإنما خربوها بالهم. وليس ما قاله بمسلم، فإن التخريب والإخراب عند أهل اللغة بمعنى واحد. قال سيبويه: إن معنى فعلت وأفعلت يتعاقبان نحو أخربته وخربته، وأقرحته وفرحته. واختار القراءة الأولى أبو عبيد، وأبو حاتم. قال الزهري، وابن زيد، وعروة بن الزبير: لما صالحهم النبي ﷺ على أن لهم ما أقلت الإبل كانوا يستحسنون الخشبة، أو العمود، فيهدمون بيوتهم، ويحملون ذلك على إبلهم، ويخرب المؤمنون باقيها. وقال الزهري أيضاً: يخربون بيوتهم بنقض المعاهدة، وأيدي المؤمنين بالمقاتلة، وقال أبو عمرو: بأيديهم في تركهم لها، وبأيدي المؤمنين في إجلائهم عنها، والجملة إما مستأنفة لبيان ما فعلوه، أو في محل نصب على الحال ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أي: اتعظوا وتدبروا، وانظروا فيما نزل بهم يا أهل العقول والبصائر. قال الواحدي: ومعنى الاعتبار النظر في الأمور ليعرف بها شيء آخر من جنسها ﴿وَلَوْ لَا أَنْ كُتِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءُ لَعَنِتُّمْ فِي الدُّنْيَا﴾ أي: لولا أن كتب الله عليهم الخروج من أوطانهم على ذلك الوجه، وقضى به عليهم لعنهم بالقتل والسبي في الدنيا، كما فعل ببني قريظة. والجلاء مفارقة الوطن، يقال: جلا بنفسه جلاء، وأجلاه غيره إجلاء. والفرق بين الجلاء والإخراج، وإن كان معناهما في الإبعاد واحداً من جهتين: إحداهما أن الجلاء ما كان مع الأهل والولد، والإخراج قد يكون مع بقاء الأهل والولد. الثاني أن الجلاء لا يكون إلا لجماعة، والإخراج يكون لجماعة ولواحد، كذا قال الماوردي ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ النَّارِ﴾ هذه الجملة مستأنفة غير متعلقة بجواب لولا متضمنة لبيان ما يحصل لهم في الآخرة من العذاب، وإن نجوا من عذاب الدنيا، والإشارة بقوله: ﴿فَلَكُمْ﴾ إلى ما تقدم ذكره من الجلاء في الدنيا، والعذاب في الآخرة ﴿بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: بسبب المشاقة منهم لله ولرسوله بعدم الطاعة، والميل مع الكفار، ونقض العهد ﴿وَمَنْ يَشَاقُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ اقتصر هاهنا على مشاقة الله؛ لأن مشاقته مشاقة لرسوله. قرأ الجمهور (يشاق) بالإدغام، وقرأ طلحة بن مصرف، ومحمد بن السميع: (يشاقق) بالفك ﴿مَا قُطِعَ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أَصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ قال مجاهد: إن بعض المهاجرين وقعوا في قطع النخل، فنهاهم بعضهم، وقالوا: إنما هي مغنم

المطلب لأنهم قد منعوا من الصدقة، فجعل لهم حقاً في الفيء. قيل: تكون القسمة في هذا المال على أن يكون أربعة أخماسه لرسول الله ﷺ، وخمسه يقسم أخماساً. للرسول خمس، ولكل صنف من الأصناف الأربعة المذكورة خمس، وقيل: يقسم أسداساً. السادس سهم الله سبحانه، ويصرف إلى وجوه القرب، كعمارة المساجد، ونحو ذلك ﴿كَيْلًا يَكُونُ دَوْلَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ أي: كيلاً يكون الفيء دولة بين الأغنياء نون الفقراء، والدولة اسم للشيء يتداوله القوم بينهم، يكون لهذا مرةً ولهذا مرةً. قال مقاتل: المعنى: أنه يغلب الأغنياء الفقراء، فيقسمونه بينهم. قرأ الجمهور (يكون) بالتحية دولة بالنصب أي: كيلاً يكون الفيء دولة. وقرأ أبو جعفر، والأعرج، وهشام، وأبو حيان: (تكون) بالفوقية دولة بالرفع أي: كيلاً تقع، أو توجد دولة، وكان تامة. وقرأ الجمهور (دولة) بضم الدال. وقرأ أبو حيوة، والسلمي بفتحها. قال عيسى بن عمر، ويونس، والأصمعي: هما لغتان بمعنى واحد. وقال أبو عمرو بن العلاء: الدولة بالفتح الذي يتداول من الأموال، وبالبضم الفعل، وكذا قال أبو عبيدة. ثم لما بين لهم سبحانه مصارف هذا المال أمرهم بالاعتداء برسوله ﷺ فقال: ﴿وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ أي: ما أعطاكم من مال الغنيمة فخذوه، وما نهاكم عن أخذه فانتهوا عنه، ولا تأخذوه. قال الحسن، والسدي: ما أعطاكم من مال الفيء فاقبلوه، وما منعكم منه فلا تأخذوه. وقال ابن جريج: ما آتاكم من طاعتي فافعلوا، وما نهاكم عنه من معصيتي فاجتنبوه. والحق أن هذه الآية عامة في كل شيء يأتي به رسول الله ﷺ من أمر أو نهي، أو قول أو فعل، وإن كان السبب خاصاً، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وكل شيء آتانا به من الشرع، فقد أعطانا إياه، وأوصله إلينا، وما أنفع هذه الآية وأكثر فائدتها. ثم لما أمرهم بأخذ ما أمرهم به الرسول، وترك ما نهاهم عنه أمرهم بتقواه، وخوفهم شدة عقوبته، فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ فهو معاقب من لم يأخذها ما آتاه الرسول، ولم يترك ما نهاه عنه.

وقد أخرج الحاكم وصححه، وابن مريويه، والبيهقي في الدلائل عن عائشة قالت: كانت غزوة بني النضير، وهم طائفة من اليهود على رأس ستة أشهر من وقعة بدر، وكان منزلهم، ونخلهم في ناحية المدينة، فحاصروهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على الجلاء، وعلى أن لهم ما أقلت الإبل من الأمتعة، والأموال إلا الحلقة يعني: السلاح، فانزل الله فيهم ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿لَا أُوتِلُ الْحِشْرَ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا﴾ فقاتلهم النبي ﷺ حتى صالحهم على الإجماع، وجلاهم إلى الشام، وكانوا من سبط لم يصحبهم جلاء فيما خلا، وكان الله قد كتب عليهم ذلك، ولو لا ذلك لعذبهم في الدنيا بالقتل والسبي، وأما قوله: ﴿لَا أُوتِلُ الْحِشْرَ﴾ فكان إجلاؤهم تلك أول حشر في الدنيا إلى الشام. وأخرج البزار، وابن المنذر، وابن أبي حاتم،

رد الله على رسوله من أموال بني النضير لم تركبوا لتحصيله خيلاً، ولا إبلًا، ولا تجشمت لها شقة، ولا لقيتم بها حرباً ولا مشقة، وإنما كانت من المدينة على ميلين، فجعل الله سبحانه أموال بني النضير لرسوله ﷺ، خاصة لهذا السبب، فإنه افتتحها صلحاً، وأخذ أموالها، وقد كان سألهم المسلمون أن يقسم لهم، فنزلت الآية: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَسْلُطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ من أعدائه، وفي هذا بيان أن تلك الأموال كانت خاصة لرسول الله ﷺ، نون أصحابه لكونهم لم يوجفوا عليها بخيل، ولا ركاب، بل مشوا إليها مشياً، ولم يقلسوا فيها شيئاً من شدائد الحروب ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يسلط من يشاء على من أراد، ويعطي من يشاء، ويمنع من يشاء ﴿لَا يَسَالُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسَالُونَ﴾ [الأنبياء: 23] ﴿مَا آفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ هذا بيان لمصارف الفيء بعد بيان أنه لرسول الله ﷺ خاصة، والتكرير لقصد التقرير والتأكيد، ووضع أهل القرى موضع قوله: ﴿مِنْهُمْ﴾ أي: من بني النضير للإشعار بأن هذا الحكم لا يختص ببني النضير وحدهم، بل هو حكم على كل قرية يفتحها رسول الله ﷺ صلحاً، ولم يوجف عليها المسلمون بخيل ولا ركاب. قيل: والمراد بالقرى بنو النضير، وقريظة، وفك، وخيبر. وقد تكلم أهل العلم في هذه الآية والتي قبلها؟ هل معناهما متفق، أو مختلف؟ فقيل: معناهما متفق كما ذكرنا، وقيل: مختلف وفي ذلك كلام لأهل العلم طويل. قال ابن العربي: لا إشكال أنها ثلاثة معاني في ثلاث آيات. أما الآية الأولى، وهي قوله: ﴿وَمَا آفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ﴾ فهي خاصة برسول الله ﷺ خالصة له، وهي أموال بني النضير وما كان مثلاً. وأما الآية الثانية، وهي قوله: ﴿وَمَا آفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ فهذا كلام مبتدأ غير الأول بمسحوق غير الأول، وإن اشتركت هي، والأولى في أن كل واحدة منهما تضمنت شيئاً آفاه الله على رسوله، واقتضت الآية الأولى أنه حاصل بغير قتال، واقتضت آية الأنفال، وهي الآية الثالثة أنه حاصل بقتال، وعريت الآية الثانية، وهي قوله: ﴿وَمَا آفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ عن نكر حصوله بقتال، أو بغير قتال، فنشأ الخلاف من ها هنا؛ فطائفة قالت: هي ملحقة بالأولى، وهي مال الصلح، وطائفة قالت: هي ملحقة بالثالثة، وهي آية الأنفال. والذين قالوا: إنها ملحقة بآية الأنفال اختلفوا هل هي منسوخة، أو محكمة؟ هذا معنى حاصل كلامه. وقال مالك: إن الآية الأولى من هذه السورة خاصة برسول الله ﷺ، والآية الثانية: هي في بني قريظة، ويعني: أن معناها يعود إلى آية الأنفال. ومذهب الشافعي أن سبيل خمس الفيء سبيل خمس الغنيمة، وأن أربعة أخماسه كانت للنبي ﷺ وهي بعده لمصالح المسلمين ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ المراد بقوله: ﴿لِلَّهِ﴾ أنه يحكم فيه بما يشاء ﴿وَلِلرَّسُولِ﴾ يكون ملكاً له ﴿وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ وهو بنو هاشم، وبنو

صفايا في النضير، وخيبر، وفك، فأما بنو النضير فكانت حبساً لنوابه، وأما فك فكانت لابن السبيل، وأما خيبر فجزأها ثلاثة أجزاء: قسم منها جزءين بين المسلمين، وحبس جزءاً لنفسه ولنفقة أهله، فما فضل عن نفقة أهله ردها على فقراء المهاجرين. وأخرج عبد الرزاق، وابن سعد، وابن أبي شيبه، وابن زنجويه في الأموال، وعبد بن حميد، وابن المنذر عن عمر بن الخطاب قال: ما على وجه الأرض مسلم إلا وله في هذا الفيء حق إلا ما ملكت أيماكم. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن ابن مسعود قال: «لعن الله الواشمات والمستوشمات، والمتنصصات، والمتقلجات للحسن المغيرات لخلق الله»، فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يقال لها: أم يعقوب، فجاءت ابن مسعود، فقالت: بلغني أنك لعنت كيت وكيت، قال: وما لي لا لعن من لعن رسول الله ﷺ، وهو في كتاب الله؟ قالت: لقد قرأت ما بين يديك، فما وجدت فيه شيئاً من هذا، قال: لئن كنت قرأته لقد وجدت، أما قرأت «ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا» قالت: بلى، قال: فإنه قد نهى عنه.

لَقَدْ كَرِهَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ أَجْرًا مِنْ دِينِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يُبْتَغَىٰ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَبْلُغَ أَكْفَارًا يَصْرُوهَا اللَّهُ يَتَوَلَّوْا أَوْلِيَّاءَ مِنْ دُونِهِمْ بِالْأَمْوَالِ وَأُولَئِكَ يَتَوَلَّوْا الْكُفْرَ وَالْإِيمَانُ مِنْ قَبْلِهِمْ يُبْتَغَىٰ مِنْ كَثَرِ إِيَّاهُمْ وَلَا يُجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَعْنَهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَوَلَّوْنَ ﴿١٠﴾ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١١﴾

قوله: «للفقراء» قيل: هو بدل من «الذي القرى» [الحشر: 7] وما عطف عليه، ولا يصح أن يكون بدلاً من الرسول، وما بعده لثلاث يستلزم وصف رسول الله ﷺ بالفقر، وقيل التقدير: «كي لا يكون دولة» [الحشر: 59] ولكن يكون للفقراء، وقيل التقدير: اعجبوا للفقراء، وقيل التقدير: والله شديد العقاب للفقراء أي: شديد العقاب للكفار بسبب الفقر، وقيل: هو عطف على ما مضى بتقدير الواو، كما تقول المال لزيد لعمرو ليكر، والمراد بـ «المهاجرين» الذين هاجروا إلى رسول الله ﷺ رغبة في الدين ونصرة له. قال قتادة: هؤلاء المهاجرون هم الذين تركوا الديار، والأموال، والأهلين، ومعنى «أخرجوا من ديارهم»: أن كفار مكة أخرجوهم منها، واضطروهم إلى الخروج، وكانوا مائة رجل «يبتغون فضلاً من الله ورضواناً» أي: يطلبون منه أن يتفضل عليهم بالرزق في الدنيا، وبالرضوان في الآخرة «وينصرون الله ورسوله». بالجهد للكفار، وهذه الجملة معطوفة على يبتغون، ومحل الجملة نصب على الحال، الأولى مقارنة، والثانية مقدرة أي: ناوين لذلك، ويجوز أن تكون حالا مقارنة: لأن خروجهم على تلك الصفة نصرة لله ورسوله، والإشارة بقوله: «أولئك» إليهم من حيث اتصافهم بتلك الصفات، وهو مبتدأ، وخبره «هم

والبيهقي في البعث عن ابن عباس قال: «من شك أن المحشر بالشام فليقرأ هذه الآية «هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر» قال لهم رسول الله ﷺ يومئذ: أخرجوا، قالوا: إلى أين؟ قال: إلى أرض المحشر. وأخرج ابن جرير، وابن مروي، والبيهقي في الدلائل، وابن عساكر عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ قد حاصرهم حتى بلغ منهم كل مبلغ، فاعطوه ما أراد منهم، فصالحهم على أن يحقن لهم دماءهم، وأن يخرجهم من أرضهم وأوطانهم، وأن يسيروا إلى أندعات الشام، وجعل لكل ثلاثة منهم بغيراً وسقاء. وفي البخاري، ومسلم، وغيرهما عن ابن عمر: «أن رسول الله ﷺ حرق نخل بني النضير، وقطع وهي البويرة، ولها يقول حسان:

لهان على سراء بني لؤي حريق بالبويرة مستطير
فأنزل الله: «ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين». وأخرج الترمذي وحسنه، والنسائي، وابن أبي حاتم، وابن مروي عن ابن عباس في الآية قال: اللينة النخلة «وليخزي الفاسقين» قال: استنزلوهم من حصونهم، وأمروا بقطع النخل، فحك في صدورهم، فقال المسلمون: قد قطعنا بعضاً وتركنا بعضاً، فلنسالن رسول الله ﷺ هل لنا فيما قطعنا من أجر، وهل علينا فيما تركنا من وزر؟ فأنزل الله: «ما قطعتم من لينة» الآية، وفي الباب أحاديث، والكلام في صلح بني النضير مبسوط في كتب السير. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن عمر بن الخطاب قال: كانت أموال بني النضير مما آفاه الله على رسوله، ومما لم يوجب المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، وكانت لرسول الله ﷺ خاصة، فكان ينفق على أهله منها نفقة سنة، ثم يجعل ما بقي في السلاح والكراع عدة في سبيل الله. وأخرج ابن مروي عن ابن عباس في قوله: «فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب» فجعل ما أصاب رسول الله ﷺ يحكم فيه ما أراد، ولم يكن يومئذ خيل ولا ركاب يوجب بها. قال: والإيجاف أو يوضعوا السير، وهي لرسول الله ﷺ، فكان من ذلك خير، وفك، وقرى عرينة. وأمر رسول الله ﷺ أن يعمد لينبع، فاتأها رسول الله ﷺ، فاحتواها كلها، فقال ناس: هلا قسمها الله، فأنزل الله عزه فقال: «ما آفاه الله على رسوله من أهل القرى» الآية. وأخرج ابن مروي عنه أيضاً قال: كان ما آفاه الله على رسوله من خير نصف لله ورسوله، والنصف الآخر للمسلمين، فكان الذي لله ورسوله من ذلك الكثيرة، والوطيح، وسالام، ووحده، وكان الذي للمسلمين الشق، والشق ثلاثة عشر سهماً، ونطاة خمسة أسهم، ولم يقسم رسول الله ﷺ من خير لأحد من المسلمين إلا لمن شهد الحديبية، ولم يأت رسول الله ﷺ لأحد من المسلمين تخلف عنه عند مخرجه إلى الحديبية أن يشهد معه خير إلا جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري. وأخرج أبو داود، وابن مروي عن عمر بن الخطاب قال: كان لرسول الله

حرص نفسه. قال سعيد بن جبير: شَحَّ النفس هو أخذ الحرام، ومنع الزكاة. قال ابن زيد: من لم يأخذ شيئاً نهى الله عنه، ولم يمنع شيئاً أمره الله بأدائه، فقد وقى شَحَّ نفسه. قال طاووس: البخل أن يبخل الإنسان بما في يده، والشَحَّ أن يشحَّ بما في أيدي الناس، يحب أن يكون له ما في أيديهم بالحلال والحرام لا يقنع. وقال ابن عيينة: الشَحَّ الظلم. وقال الليث: ترك الفرائض وانتهاك المحارم. والظاهر من الآية أن الفلاح مترتب على عدم شَحَّ النفس بشيء من الأشياء التي يقبح الشَحُّ بها شرعاً من زكاة، أو صدقة، أو صلة رحم، أو نحو ذلك، كما تفيدُهُ إضافة الشَحِّ إلى النفس، والإشارة بقوله: ﴿فَإُولَئِكَ﴾ إلى «من» باعتبار معناها، وهو مبتدأ، وخبره ﴿هَمَّ الْمَفْلُحُونَ﴾، والفلاح الفوز والظفر بكل مطلوب. ثم لما فرغ سبحانه من الثناء على المهاجرين والأنصار، نكر ما ينبغي أن يقوله من جاء بعدهم، فقال: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ وهم التابعون لهم بإحسان إلى يوم القيامة، وقيل: هم الذين هاجروا بعد ما قوي الإسلام، والظاهر شمول الآية لمن جاء بعد السابقين من الصحابة المتأخر إسلامهم في عصر النبوة، ومن تبعهم من المسلمين بعد عصر النبوة إلى يوم القيامة؛ لأنه يصق على الكل أنهم جاءوا بعد المهاجرين الأولين والأنصار، والموصول مبتدأ، وخبره ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ ويجوز أن يكون الموصول معطوفاً على قوله: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّعُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾، فيكون يقولون في محل نصب على الحال، أو مستأنف لا محل له، والمراد بالأخوة هنا أخوة الدين، أمرهم الله أن يستغفروا لأنفسهم، ولعن تقصيرهم من المهاجرين والأنصار ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: غشاً وبغضاً وحسداً. أمرهم الله سبحانه بعد الاستغفار للمهاجرين والأنصار أن يطلبوا من الله سبحانه أن ينزع من قلوبهم الغل للذين آمنوا على الإطلاق، فيدخل في ذلك الصحابة دخولاً أولياً لكونهم أشرف المؤمنين، ولكون السياق فيهم، فمن لم يستغفر للصحابة على العموم، ويطلب رضوان الله لهم، فقد خالف ما أمره الله به في هذه الآية، فإن وجد في قلبه غلاً لهم، فقد أصابه نزغ من الشيطان، وحل به نصيب وافر من عصيان الله بعداوة أوليائه، وخير أمة نبيه ﷺ، وانفتح له باب من الخذلان يقد به على نار جهنم إن لم يتدارك نفسه بالرجاء إلى الله سبحانه، والاستغفارة به، بأن ينزع عن قلبه ما طرده من الغل لخير القرون، وأشرف هذه الأمة، فإن جاوز ما يجده من الغل إلى شتم أحد منهم، فقد انقاد للشيطان بزمزم، ووقع في غضب الله وسخطه، وهذا الداء العضال إنما يصاب به من ابتلي بمعلم من الرافضة، أو صاحب من أعداء خير الأمة الذين تلاعب بهم الشيطان، وزين لهم الأكاذيب المختلفة، والأقاصيص المفتراة، والخرافات الموضوعة، وصرفهم عن كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، وعن سنة رسول الله ﷺ، المنقولة إلينا

للصالحين﴾ أي: الكاملون في الصديق الراسخون فيه. ثم لما فرغ من مدح المهاجرين مدح الانصار فقال: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّعُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ المراد بالدار المدينة، وهي دار الهجرة، ومعنى تبوَّعهم الدار والإيمان أنهم اتخذوها مباءة أي: تمكنوا منهما تمكناً شديداً، والتبَّوُّوا في الأصل إنما يكون للمكان، ولكنه جعل الإيمان مثله لتمكنهم فيه تنزيلاً للحال منزلة المحل، وقيل: إن الإيمان منصوب بفعل غير الفعل المنكور، والتقدير: واعتقدوا الإيمان، أو اخلصوا الإيمان كذا قال أبو علي الفارسي. ويجوز أن يكون على حنف مضاف أي: تبَّوَّعوا الدار وموضع الإيمان، ويجوز أن يكون تبَّوَّعوا مضمناً لمعنى لزموا، والتقدير: لزموا الدار والإيمان، ومعنى ﴿مَنْ قَبْلِهِمْ﴾: من قبل هجرة المهاجرين، فلا بد من تقدير مضاف، لأن الانصار إنما آمنوا بعد إيمان المهاجرين، والموصول مبتدأ، وخبره ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ وذلك لأنهم أحسنوا إلى المهاجرين، وأشركوهم في أموالهم ومساكنهم ﴿وَلَا يَجْنُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً﴾ أي: لا يجد الانصار في صدورهم حسداً، وغيظاً، وحزاة ﴿فَإِذَا أُوْتُوا﴾ أي: مما أوتي المهاجرون نونهم من الفتي، بل طابت أنفسهم بذلك. وفي الكلام مضاف محذوف أي: لا يجنون في صدورهم من حاجة، أو أثر حاجة، وكل ما يجده الإنسان في صدره مما يحتاج إليه فهو حاجة. وكان المهاجرون في نور الانصار فلما غنم النبي ﷺ بني النضير دعا الانصار، وشكرهم فيما صنعوا مع المهاجرين من إنزالهم إياهم في منازلهم، وإشراكهم في أموالهم، ثم قال: ﴿إِنْ أَحْبَبْتُمْ قِسْمَتَ مَا آفَأَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ بَنِي النَّضِيرِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ، وَكَانَ الْمُهَاجِرُونَ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ السَّكْنَى فِي مَسَاكِنِكُمْ، وَالْمِشَارَكَةَ لَكُمْ فِي أَمْوَالِكُمْ، وَإِنْ أَحْبَبْتُمْ أُعْطِيْتُمْ ذَلِكَ، وَخَرَجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ، فَفَرْضُوا بِقِسْمَةِ ذَلِكَ فِي الْمُهَاجِرِينَ، وَطَابَتْ أَنْفُسُهُمْ﴾ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة. الإيثار تقديم الغير على النفس في حظوظ الدنيا رغبة في حظوظ الآخرة، يقال: أثرته بكذا أي: خصصته به، والمعنى: ويقسمون المهاجرين على أنفسهم في حظوظ الدنيا ﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ أي: حاجة وفقير، والخصاصة مأخوذة من خصاص البيت، وهي الفرج التي تكون فيه، وجملة ﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ في محل نصب على الحال، وقيل: إن الخصاصة مأخوذة من الاختصاص، وهو الانفراد بالأمر، فالخصاصة الانفراد بالحاجة، ومنه قول الشاعر:

إِنْ الرِّبِيعَ إِذَا يَكُونُ خَصَاصَةً عَاشَ السَّقِيمُ بِهِ وَآثَرَى الْمُقْتَرُ
﴿وَمَنْ يُوَقِّ شَحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمَفْلُحُونَ﴾ قرأ الجمهور (يوق) بسكون الواو، وتخفيف القاف من الوقاية، وقرأ ابن أبي عتبة، وأبو حيوة بفتح الواو، وتشديد القاف. وقرأ الجمهور (شَحَّ نفسه) بضم الشين. وقرأ ابن عمر، وابن أبي عتبة بكسرها. والشَحُّ: البخل مع حرص، كذا في الصحاح، وقيل: الشَحُّ تشدُّ من البخل. قال مقاتل: شَحَّ نفسه

قال: قال رسول الله ﷺ: «ما حق الإسلام محق الشخ شيء قط». وأخرج أحمد، والبخاري في الأب، ومسلم، والبيهقي عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشخ، فإن الشخ أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم». وقد وردت أحاديث كثيرة في نَم الشخ. وأخرج الحاكم وصححه، وابن مروي عن سعد بن أبي وقاص قال: الناس على ثلاث منازل قد مضت منزلتان، وبقيت منزلة، فأحسن ما أنتم كائنون عليه أن تكونوا بهذه المنزلة التي بقيت، ثم قرأ: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ الآية. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري في المصاحف، وابن مروي عن عائشة قالت: أمروا أن يستغفروا لأصحاب النبي ﷺ، فسبواهم، ثم قرأت هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾. وأخرج ابن مروي عن ابن عمر أنه سمع رجلاً، وهو يتناول بعض المهاجرين فقراً عليه ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾ الآية، ثم قال: هؤلاء المهاجرون أقمهم أنت؟ قال: لا، ثم قرأ عليه ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّعُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾ الآية. ثم قال: هؤلاء الانصار أفانت منهم؟ قال: لا، ثم قرأ عليه ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ الآية، ثم قال: أقم هؤلاء أنت؟ قال: أرجو، قال: ليس من هؤلاء من سب هؤلاء.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ ١١ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُوهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُؤْتُوا الْأَكْثَرُ ثَمَرًا لَا يَصُرُونَ﴾ ١٢ لَا تَنْتَفِعُكُمْ شِرْكُهُمْ أَوْ يَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ذَلِكَ الَّذِي قَامَتْ بِهِ يَحْقِرُونَ﴾ ١٣ لَا يُبَدِّلُكُمْ جَيْمًا إِلَى آخِي فَزَيِّضُوا قُلُوبَكُمْ وَأَنْتُمْ لَسْتُمْ بِبَالِغِيٍّ فِي الْأَمْرِ وَلَقَدْ أَهْلَكْتُمْ بَيِّنَاتٍ مِمَّا تَفْتَنُونَ قُلُوبَكُمْ وَأَنْتُمْ قَوْمٌ لَا تَعْقِلُونَ﴾ ١٤ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرَّبُوا بَأْسَهُمْ إِلَى أَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ١٥ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُ رَبِّكَ إِذْ أَنْتَ بِالْمِصْرَ ١٦ فَكَانَ عَاقِبَتُهُمْ أَنْتَهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ ١٧ يَأْتِيكَ الْبُيُوتُ أَفْوَاةً مِمَّا أَتَوْا اللَّهُ وَلَتَنْظُرُنَّ نَفْسًا مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ١٨ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ شَرَّاهُ اللَّهُ فَأَنْسَهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ ١٩ لَا يَسْئُرُ أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْكَافِرُونَ﴾ ٢٠

لما فرغ سبحانه من نكر الطبقات الثلاث من المؤمنين، نكر ما جرى بين المنافقين واليهود من المفاولة؛ لتعجيب المؤمنين من حالهم، فقال: ﴿هَلْ تَرَى إِلَى الْبُيُوتِ نَافِقُونَ﴾ والخطاب لرسول الله، أو لكل من يصلح له، والذين نافقوا هم: عبد الله بن أبي، وأصحابه، وجملة ﴿يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ مستأنفة؛ لبيان المتعجب منه، والتعبير بالمضارع؛ لاستحضار الصورة، أو للدلالة

بروايات الأئمة الأكابر في كل عصر من العصور، فاشترى الضلالة بالهدى، واستبدلوا الخسران العظيم بالربح الوافر، وما زال الشيطان الرجيم ينقلهم من منزلة إلى منزلة، ومن رتبة إلى رتبة حتى صاروا أعداء كتاب الله وسنة رسوله، وخير أمته وصالحى عبادته وسائر المؤمنين، وأفعلوا فرائض الله وهجروا شعائر الدين، وسعوا في كيد الإسلام وأهله كل السعي، ورموا الدين وأهله بكل حجر ومدى، والله من ورائهم محيط ﴿وَبَيْنَا أَنْكَ رَعُوفٌ رَحِيمٌ﴾ أي: كثير الرأفة والرحمة بليغهما لمن يستحق ذلك من عباده.

وقد أخرج البخاري عن عمر بن الخطاب أنه قال: أوصى الخليفة بعدي بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم، ويحفظ لهم حرمتهم، وأوصيه بالانصار الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم أن يقبل من محسنهم، ويتجاوز عن مسيئتهم. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أبي هريرة قال: أتى رجل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله؟ أصابني الجهد، فأرسل إلى نسائه، فلم يجد عندهن شيئاً فقال: ألا رجل يضيف هذه الليلة رحمة الله، فقال رجل من الانصار، وفي رواية، فقال أبو طلحة الانصاري: أنا يا رسول الله، فذهب به إلى أهله، فقال لامراته: أكرمي ضيف رسول الله ﷺ لا تتخريه شيئاً، قالت: والله ما عندي إلا قوت الصبية، قال: فإذا أراد الصبية العشاء، فنؤميهن وتعالى فاطموني السراج، ونطوي بطوننا الليلة لضيف رسول الله ﷺ، ففعلت، ثم غدا الضيف على النبي ﷺ فقال: لقد عجب الله الليلة من فلان وفلانة، وأنزل فيهما ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾. وأخرج الحاكم وصححه، وابن مروي، والبيهقي في الشعب عن ابن عمر قال: أهدى إلى رجل من أصحاب رسول الله ﷺ رأس شاة فقال: إن أخي فلانة، وعياله أحوج إلى هذا منا، فبعث به إليه، فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى تداولها أهل سبعة أبيات حتى رجعت إلى الأول، فنزلت فيهم ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾. وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني والحاكم وصححه، وابن مروي، والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود أن رجلاً قال: إني أخاف أن أكون قد هلك، قال: وما ذاك؟ قال: إني سمعت الله يقول: ﴿وَمَنْ يُوَقْ شَخْ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ وأنا رجل شحيح لا يكاد يخرج مني شيء، فقال له ابن مسعود: ليس ذاك بالشخ، ولكنه البخل، ولا خير في البخل، وإن الشخ الذي ذكره الله في القرآن أن تاكل مال أخيك ظلماً. وأخرج ابن المنذر، وابن مروي عن ابن عمر في الآية قال: ليس الشخ أن يمنع الرجل ماله، ولكنه البخل، وإنه لشخ، إنما الشخ أن تطمع عين الرجل إلى ما ليس له. وأخرج ابن المنذر عن علي بن أبي طالب قال: من أدّى زكاة ماله، فقد وقى شخ نفسه. وأخرج الحكيم الترمذي، وأبو يعلى، وابن مروي عن أنس

على الاستمرار، وجعلهم إخواناً لهم لكون الكفر قد جمعهم، وإن اختلف نوع كفرهم، فهم إخوان في الكفر، واللام في إخوانهم هي لام التبليغ، وقيل: هو من قول بني النضير لبني قريظة، والأول أولى؛ لأن بني النضير، وبني قريظة هم يهود، والمنافقون غيرهم، واللام في قوله: ﴿لئن أخرجتم﴾ هي الموطئة للقسم أي: والله لئن أخرجتم من دياركم ﴿لنخرجن معكم﴾ هذا جواب القسم أي: لنخرجن من ديارنا في صحبتكم ﴿ولا نطيع فيكم﴾ أي: في شأنكم، ومن أجلكم ﴿أحدًا﴾ ممن يريد أن يمنعنا من الخروج معكم، وإن طال الزمان، وهو معنى قوله: ﴿لبداً﴾ ثم لما وعدوهم بالخروج معهم، وعدوهم بالنصرة لهم، فقالوا: ﴿وإن قوتلتهم لننصرنكم﴾ على عدوكم، ثم كتبهم سبحانه فقال: ﴿وإله يشهد إنهم لكانون﴾ فيما وعدوهم به من الخروج معهم والنصرة لهم، ثم لما أجمل كتبهم فيما وعدوا به فصل ما كتبوا فيه فقال: ﴿لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم﴾ وقد كان الأمر كذلك، فإن المنافقين لم يخرجوا مع من أخرج من اليهود، وهم بنو النضير ومن معهم، ولم ينصروا من قاتل من اليهود، وهم بنو قريظة وأهل خيبر ﴿ولئن نصرهم﴾ أي: لو قدر وجود نصرهم إياهم؛ لأن ما نفاه الله لا يجوز وجوده. قال الزجاج: معناه لو قصدوا نصر اليهود ﴿ليولن الأنبار﴾ منهزمين ﴿ثم لا ينصرون﴾ يعني: اليهود لا يصيرون منصورين إذا انهزم ناصرهم، وهم المنافقون، وقيل: يعني لا يصير المنافقون منصورين بعد ذلك، بل يذلهم الله، ولا ينفعهم نفاقهم، وقيل معنى الآية: لا ينصرونهم طائعين، ولئن نصرهم مكرهين ليولن الأنبار، وقيل: معنى ﴿لا ينصرونهم﴾ لا يذمهم على نصرهم، والأول أولى، ويكون من باب قوله: ﴿ولو رتوا لعالوا لما نهوا عنه﴾ [الأنعام: 28] ﴿لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله﴾ أي: لأنتم يا معشر المسلمين أشد خوفاً وخشية في صدور المنافقين، أو صدور اليهود، أو صدور الجميع من الله أي: من رهبة الله، والرهبة هنا بمعنى المروءية؛ لأنها مصدر من المبني للمفعول، وانتصابها على التمييز ﴿لأنهم قوم لا يفقهون﴾ أي: ما نكر من الرهبة الموصوفة بسبب عدم فقههم لشيء من الأشياء، ولو كان لهم فقه لعلموا أن الله سبحانه هو الذي سلطكم عليهم، فهو أحق بالرهبة منه دونكم، ثم أخبر سبحانه بمزيد فشلهم، وضعف نكايتهم فقال: ﴿لا يقاتلونكم جميعاً﴾ يعني: لا يبرز اليهود والمنافقون مجتمعين لقتالكم ولا يقدرون على ذلك ﴿إلا في قرى محصنة﴾ بالدروب والدور ﴿أو من وراء جدر﴾ أي: من خلف الحيطان التي يستترون بها لجبنهم ورميتهم. قرأ الجمهور (جدر) بالجمع، وقرأ ابن عباس، ومجاهد، وابن محيصن، وابن كثير، وأبو عمرو (جدار) بالإنفراد. واختار القراءة الأولى أبو عبيد، وأبو حاتم؛ لأنها موافقة لقوله: ﴿قرى محصنة﴾. وقرأ بعض المكيين (جدر) بفتح الجيم، وإسكان الدال، وهي لغة في الجدار

﴿بأسهم بينهم شديد﴾ أي: بعضهم غليظ فظ على بعض، وقلوبهم مختلفة، ونياتهم متباينة. قال السدي: المراد اختلاف قلوبهم حتى لا يتفقوا على أمر واحد. وقال مجاهد: بأسهم بينهم شديد بالكلام والوعيد ليفعلن كذا، والمعنى: أنهم إذا انفردوا نسبوا أنفسهم إلى الشدة والبأس، وإذا لا قوا عدواً نلوا وخضعوا، وانهزموا، وقيل: المعنى أن بأسهم بالنسبة إلى أقرانهم شديد، وإنما ضعفهم بالنسبة إليكم لما قذف الله في قلوبهم من الرعب، والأول أولى لقوله: ﴿تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى﴾ فإنه يدل على أن اجتماعهم إنما هو في الظاهر مع تخالف قلوبهم في الباطن، وهذا التخالف هو البأس الذي بينهم الموصوف بالشدة، ومعنى ﴿شتى﴾ متفرقة، قال مجاهد: يعني اليهود والمنافقين تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى. وروي عنه أيضاً أنه قال: المراد المنافقون. وقال الثوري: هم المشركون، وأهل الكتاب. قال قتادة: تحسبهم جميعاً أي: مجتمعين على أمر ورأي، وقلوبهم شتى متفرقة، فأهل الباطل مختلفة آرائهم مختلفة شهادتهم مختلفة أهواؤهم، وهم مجتمعون في عداوة أهل الحق. وقرأ ابن مسعود: (وقلوبهم أشت) أي: أشد اختلافاً ﴿لأنهم قوم لا يعقلون﴾ أي: تلك الاختلاف والتشتت بسبب أنهم قوم لا يعقلون شيئاً، ولو عقلوا؛ لعرفوا الحق واتبعوه ﴿كمثل الذين من قبلهم﴾ أي: مثلهم كمثل الذين من قبلهم، والمعنى: أن مثل المنافقين واليهود كمثل الذين من قبلهم من كفار المشركين ﴿قريباً﴾ يعني: في زمان قريب، وانتصاب قريباً على الظرفية أي: يشبهونهم في زمن قريب، وقيل: العامل فيه ذاقوا أي: ذاقوا في زمن قريب، ومعنى ﴿ذاقوا وبال أمرهم﴾ أي: سوء عاقبة كفرهم في الدنيا بقتلهم يوم بدر، وكان ذلك قبل غزوة بني النضير بستة أشهر، قاله مجاهد، وغيره، وقيل: المراد بنو النضير حيث أمكن الله منهم، قاله قتادة. وقيل: قتل بني قريظة، قاله الضحاك. وقيل: هو عام في كل من انتقم الله منه بسبب كفره، والأول أولى ﴿ولهم عذابليم﴾ أي: في الآخرة. ثم ضرب لليهود والمنافقين مثلاً آخر فقال: ﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر﴾ أي: مثلهم في تخاذلهم وعدم تناصرهم، فهو إما خبر مبتدأ محذوف، أو خبر آخر للمبتدأ المقتر قبل قوله: ﴿كمثل الذين من قبلهم﴾ على تقدير حذف حرف العطف، كما تقول: أنت عاقل، أنت عالم، أنت كريم. وقيل: المثل الأول خاص باليهود، والثاني خاص بالمنافقين، وقيل: المثل الثاني بيان للمثل الأول، ثم بين سبحانه وجه الشبه فقال: ﴿إذ قال للإنسان اكفر﴾ أي: أغراه بالكفر، وزينه له، وحمله عليه، والمراد بالإنسان هنا جنس من أطاع الشيطان من نوع الإنسان، وقيل: هو عابد كان في بني إسرائيل حمله الشيطان على الكفر، فاطاعه ﴿فلما كفر قال إني بريء منك﴾ أي: فلما كفر الإنسان مطاوعة للشيطان، وقبولاً لتزيينه قال الشيطان: إني بريء منك، وهذا يكون منه يوم القيامة، وجملة ﴿إني أخاف الله رب العالمين﴾ تحليل

لبراءته من الإنسان بعد كفره، وقيل: المراد بالإنسان هنا أبو جهل، والأوّل أولى. قال مجاهد: المراد بالإنسان هنا جميع الناس في غرور الشيطان إياهم، قيل: وليس قول الشيطان: ﴿إِنِّي لَخَافُ اللَّهَ﴾ على حقيقته، إنما هو على وجه التبرّي من الإنسان، فهو تأكيد لقوله: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ﴾ قرأ الجمهور (إني) بإسكان الياء. وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو بفتحها ﴿فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ﴾ قرأ الجمهور (عاقبتهما) بالنصب على أنه خبر كان، واسمها أنهما في النار. وقرأ الحسن، وعمرو بن عبيد بالرفع على أنها اسم كان، والخبر ما بعده، والمعنى: فكان عاقبة الشيطان، وذلك الإنسان الذي كفر أنهما صائران إلى النار ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ قرأ الجمهور (خالدين) بالنصب على الحال، وقرأ ابن مسعود، والأعمش، وزيد بن علي، وابن أبي عبلة (خالدان) على أنه خبر أن، والظرف متعلق به ﴿وَوَلَّكَ جَزَاءَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: الخلود في النار جزاء الظالمين، ويدخل هؤلاء فيهم دخولاً أولاً. ثم رجع سبحانه إلى خطاب المؤمنين بالموعظة الحسنة فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: اتقوا عقابه بفعل ما أمركم به، وترك ما نهاكم عنه ﴿وَلَتَنْظُرَنَّهُمْ فَلَمَّا قَدَّمْتُمْ لَغَدًا﴾ أي: لتنظر أي شيء قدّمت من الأعمال ليوم القيامة، والعرب تكني عن المستقبل بالغد، وقيل: نكر الغد تنبيهاً على قرب الساعة ﴿وَلَتَقُولُوا اللَّهُ﴾ كرّر الأمر بالقوى للتأكيد ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ لا تخفى عليه من ذلك خافية، فهو مجازيكم بأعمالكم إن خيراً فخير، وإن شراً فشر ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ﴾ أي: تركوا أمره، أو ما قدره حق قدره، أو لم يخافوه، أو جميع ذلك ﴿فَانْسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: جعلهم ناسين لها بسبب نسيانهم له، فلم يشتغلوا بالأعمال التي تنجيهم من العذاب، ولم يكفوا عن المعاصي التي توقعهم فيه، ففي الكلام مضاف محذوف أي: أنساهم حظوظ أنفسهم. قال سفيان: نسوا حق الله، فأنساهم حق أنفسهم، وقيل: نسوا الله في الرخاء، فأنساهم أنفسهم في الشدائد ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: الكاملون في الخروج عن طاعة الله ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ في الفضل، والرتبة، والمراد الفريقان على العموم، فيدخل في فريق أهل النار من نسي الله منهم دخولاً أولاً، ويدخل في فريق أهل الجنة الذين اتقوا دخولاً أولاً؛ لأن السياق فيهم، وقد تقدّم الكلام في معنى مثل هذه الآية في سورة المائدة، وفي سورة السجدة، وفي سورة ص. ثم أخبر سبحانه وتعالى عن أصحاب الجنة بعد نفي التساوي بينهم، وبين أهل النار فقال: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ أي: الظافرون بكلّ مطلوب الناجون من كلّ مكروه.

وقد أخرج ابن مريويه عن ابن عباس في قوله: ﴿لَمَّا قَرَأَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ قال: عبد الله بن أبيّ بن سلول، ورفاعة بن تابوت، وعبد الله بن نبيل، وأرس بن قيطي، وإخوانهم بنو النضير. وأخرج ابن إسحاق، وابن المنذر، وأبو

لَمَّا قَرَأَ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَصْرِيًّا لِلنَّاسِ لَمَّا هُمُ يَنْفَكُونَ ﴿١٠٠﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ الْقِيَمَ وَالشَّهَادَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٠١﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْكَ الْفُتُوحُ أَلَسَلِمَ الْمُؤْمِنُ الْهَيِّجُ الْمَرِيرُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٠٢﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُعَوِّذُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يَسِيعُ لَمْ يَأْفِكْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٣﴾

لما فرغ سبحانه من نكر أهل الجنة وأهل النار، وبين عدم استوائهم في شيء من الأشياء نكر تعظيم كتابه الكريم، وأخبر عن جلالته، وأنه حقيق بأن تخضع له القلوب، وترقّ له الأفئدة، فقال: ﴿لَمَّا أُنْزِلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ أي: من شأنه، وعظمته، وجودة الفاظه، وقوة مبانيه، وبلاغته، واشتماله على المواعظ التي تلين لها القلوب أنه لو أنزل على جبل من الجبال الكائنة في الأرض لرأيت مع كونه في غاية القسوة،

خائفاً فأمّنه غيره **﴿المهيمن﴾** أي: الشهيد على عباده بأعمالهم الرقيب عليهم. كذا قال مجاهد، وقتادة، ومقاتل. يقال: هيمن يهيمن فهو مهيمن: إذا كان رقيباً على الشيء. قال الواحدي: وذهب كثير من المفسرين إلى أن أصله مؤيّم من آمن يؤمن، فيكون بمعنى المؤمن، والأول أولى، وقد قدّمنا الكلام على المهيمن في سورة المائدة **﴿العزیز﴾** الذي لا يوجد له نظير، وقيل: القاهر، وقيل: الغالب غير المغلوب، وقيل: القوي **﴿الجبار﴾** جبروت الله عظمت، والعرب تسمي الملك الجبار، ويجوز أن يكون من جبر إذا أغنى الفقير وأصلح الكسير، ويجوز أن يكون من جبره على كذا إذا أكرهه على ما أراد، فهو الذي جبر خلقه على ما أراد منهم، وبه قال السدي، ومقاتل، واختاره الزجاج، والفراء، قال: هو من أجبره على الأمر أي: قهره. قال: ولم أسمع فعلاً من أفعّل إلا في جبار من أجبر، وبرك من أدرك، وقيل: الجبار الذي لا تطاق سطوته **﴿المتكبر﴾** أي: الذي تكبر عن كل نقص، وتعظم عما لا يليق به، وأصل التكبر الامتناع وعدم الانقياد، ومنه قول حميد بن ثور:

عفت مثل ما يعفو للفصيل فاصبحت بها كبرياء الصعب وهي تلول والكبر في صفات الله مدح، وفي صفات المخلوقين ذم. قال قتادة: هو الذي تكبر عن كل سوء. قال ابن الأنباري: المتكبر ذو الكبرياء، وهو الملك، ثم نزه سبحانه نفسه عن شرك المشركين، فقال: **﴿سبحان الله عما يشركون﴾** أي: عما يشركونه، أو عن إشراكهم به **﴿هو الله الخالق﴾** أي: المقتدر للأشياء على مقتضى إرادته ومشئته **﴿البارئ﴾** أي: المنشئ المخلع للأشياء الموجد لها. وقيل: اللميز لبعضها من بعض **﴿المصور﴾** أي: الموجد للصور المركب لها على هيئات مختلفة، فالتمثيل مترتب على الخلق والبرائة وتابع لهما، ومعنى التصوير التخطيط والتشكيل، قال النابغة:

الخالق البارئ المصور في الدار أرحام ماء حتى يصير دما وقرأ حاطب بن أبي بلتعة الصحابي (المصور) بفتح الواو ونصب الراء على أنه مفعول به للبارئ أي: الذي برأ المصور أي: ميزه **﴿له الأسماء الحسنی﴾** قد تقدّم بيانها، والكلام فيها عند تفسير قوله: **﴿والله الأسماء الحسنی فادعوه بها﴾** [الأعراف: 180] **﴿يسبح له ما في السموات والأرض﴾** أي: ينطق بتنزيهه بلسان الحال أو المقال كل ما فيهما **﴿وهو العزيز الحكيم﴾** أي: الغالب لغيره الذي لا يغال به مغالب، الحكيم في كل الأمور التي يقضي بها.

وقد أخرج ابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس، في قوله: **﴿ولو أنزلنا هذا القرآن على جبل﴾** قال: يقول لو إنني أنزلت هذا القرآن على جبل حملته إياه تصدّع، وخضع من ثقله ومن خشية الله، فأمر الله الناس إذا نزل عليهم القرآن أن يأخونه بالخشية الشديدة والتخشع. قال: كذلك يضرب الله

وشدة الصلابة، وضخامة الجرم خاشعاً متصدعاً أي: متشقّقاً من خشية الله سبحانه خذراً من عقابه، وخوفاً من أن لا يؤدي ما يجب عليه من تعظيم كلام الله، وهذا تمثيل وتخيل يقتضي علو شأن القرآن وقوة تأثيره في القلوب، ويدل على هذا قوله: **﴿وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون﴾** فيما يجب عليهم التفكير فيه؛ ليتعظوا بالمواعظ، وينزجروا بالزواجر، وفيه توبيخ، وتقريع للكفار حيث لم يخشعوا للقرآن، ولا اتعظوا بمواعظه، ولا انزجروا بزواجره، والخاشع: النليل المتواضع. وقيل: الخطاب للنبي ﷺ أي: لو أنزلنا هذا القرآن يا محمد على جبل لما ثبت، ولتصدّع من نزوله عليه، وقد أنزلناه عليك، وثبتناك له، وقوّيناك عليه، فيكون على هذا من باب الامتنان على النبي ﷺ، لأن الله سبحانه ثبت له لما لا تثبت له الجبال الرواسي. ثم أخبر سبحانه بربوبيته وعظمت، فقال: **﴿هو الله الذي لا إله إلا هو﴾** وفي هذا تقرير للتوحيد ودفع للشرك **﴿عالم الغيب والشهادة﴾** أي: عالم ما غلب من الإحساس وما حضر، وقيل: عالم السرّ والعلانية، وقيل: ما كان وما يكون، وقيل: الآخرة والندى، وقدّم الغيب على الشهادة لكونه متقدّماً وجوداً **﴿هو الرحمن الرحيم﴾** قد تقدّم تفسير هذين الاسمين **﴿هو الله الذي لا إله إلا هو﴾** كرره للتأكيد والتقرير لكون التوحيد حقيقةً بذلك **﴿الملك للقيوم﴾** أي: الطاهر من كل عيب المنزه عن كل نقص، والقيوم بالتحريك في لغة أهل الحجاز السطلي؛ لأنه يظهر به، ومنه القانوس لواحد الأواني التي يستخرج بها الماء. قرأ الجمهور (القيوم) بضم القاف. وقرأ أبو ذر، وأبو السمك بفتحها، وكان سيبويه يقول: سبوح قنوس بفتح أولهما، وحكي أبو حاتم عن يعقوب أنه سمع عند الكسائي أعرابياً فصيحاً يقرأ (القيوم) بفتح القاف. قال ثعلب: كل اسم على فعول فهو مفتوح الأول إلا السبوح والقيوم، فإن الضم فيهما أكثر، وقد يفتحان **﴿السلام﴾** أي: الذي سلم من كل نقص وعيب، وقيل: المسلم على عباده في الجنة، كما قال: **﴿سلام قولاً من ربّ رحيم﴾** [يس: 58] وقيل: الذي سلم الخلق من ظلمه، وبه قال الأكثر، وقيل: المسلم لعباده، وهو مصدر وصف به للمبلغة **﴿المؤمن﴾** أي: الذي وهب لعباده الأمن من عذابه، وقيل: المصنق لرسله بإظهار المعجزات، وقيل: المصنق للمؤمنين بما وعدهم به من الثواب، والمصنق للكافرين بما أوعدهم به من العذاب، يقال: آمنه من الأمن وهو ضدّ الخوف، ومنه قول النابغة:

والمؤمن العائذات الطير يمسحها ركباًن مكة بين الغيل والسند وقال مجاهد: المؤمن الذي وحد نفسه بقوله: **﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو﴾** [آل عمران: 18]. قرأ الجمهور (المؤمن) بكسر الميم اسم فاعل من آمن بمعنى آمن. وقرأ أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بفتحها بمعنى المؤمن به على الحذف كقوله: **﴿واختار موسى قومه﴾** [الأعراف: 155] وقال أبو حاتم: لا تجوز هذه القراءة؛ لأن معناه أنه كان

بإيمانهم ﴿الممتحنة: 10﴾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّابِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا عَدُوَّيْ وَعَدُوَّكُمْ أُولَئِكَ تَلْقَوْنَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِ وَيُفَعِّلُ مَرْبَاتِي فَيُزَيِّنُ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْ مَعَكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ۝ إِنْ يَتَّبِعْكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَنْسَوْنَ أَلْيَمَ إِلَيْهِمْ وَيَأْتِيَهُمُ الْيَأْسُ وَوَدُّوا أَنْ يَكْفُرُوا ۝ إِنْ تَتَّبِعْكُمْ أَزِمَاكُمْ وَلَا أَزِلْكُمْ يَوْمَ الْيُزَمَةُ يَقُولُ يَنْتَكُمُ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝

قال المفسرون: نزلت ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء﴾ في حاطب بن أبي بلتعة حين كتب إلى مشركي قريش يخبرهم بمسير النبي ﷺ إليهم، وسيأتي ذكر القصة آخر البحث إن شاء الله، وقوله: ﴿عدوي﴾ هو المفعول الأول ﴿وعدوكم﴾ معطوف عليه، والمفعول الثاني أولياء، وأضاف سبحانه العدو إلى نفسه تعظيماً لجرمهم، والعدو مصدر يطلق على الواحد، والاثنتين، والجماعة، والآية تدل على النهي عن موالة الكفار بوجه من الوجوه ﴿تلقون إليهم بالموودة﴾ أي: توصلون إليهم بالموودة على أن البلاء زائدة، أو هي سببية. والمعنى: تلقون إليهم أخبار النبي ﷺ بسبب الموودة التي بينكم وبينهم. قال الزجاج: تلقون إليهم أخبار النبي ﷺ، وسره بالموودة التي بينكم وبينهم، والجملة في محل نصب على الحال من ضمير تتخذوا؛ ويجوز أن تكون مستأنفة؛ لقصد الإخبار بما تضمنته، أو لتفسير موالاتهم إياهم، ويجوز أن تكون في محل نصب صفة لأولياء، وجملة ﴿وقد كفروا بما جاءكم من الحق﴾ في محل نصب على الحال من فاعل تلقون، أو من فاعل لا تتخذوا، ويجوز أن تكون مستأنفة؛ لبيان حال الكفار. قرأ الجمهور (بما جاءكم) بالباء الموحدة. وقرأ الجحدري، وعاصم في رواية عنه: (لما جاءكم) باللام أي: لأجل ما جاءكم من الحق على حذف المكثور به أي: كفروا بالله والرسول لأجل ما جاءكم من الحق، أو على جعل ما هو سبب للإيمان سبباً للكفر توبيخاً لهم ﴿يخرجون للرسول وإياكم﴾ الجملة مستأنفة لبيان كفرهم، أو في محل نصب على الحال، وقوله: ﴿إن تؤمنوا بالله ربكم﴾ تعليل للإخراج أي: يخرجونكم لأجل إيمانكم، أو كراهة أن تؤمنوا ﴿إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي﴾ وابتغاء مرضاتي جواب الشرط محذوف أي: إن كنتم كذلك، فلا تلقوا إليهم بالموودة، أو إن كنتم كذلك، فلا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء، وانتصاب جهاداً وابتغاء على العلة أي: إن كنتم خرجتم لأجل الجهاد في سبيلي، ولأجل ابتغاء مرضاتي، وجملة ﴿تسرون إليهم بالموودة﴾ مستأنفة للتقريع والتوبيخ أي: تسرون إليهم الأخبار بسبب الموودة، وقيل: هي بدل من قوله: ﴿تلقون﴾. ثم أخبر سبحانه بأنه لا يخفى عليه من أحوالهم

الأمثال للناس لعلمهم يتفكرون. وأخرج الديلمي عن ابن مسعود وعليّ مرفوعاً في قوله: ﴿هو أنزلنا هذا القرآن على جبل﴾ إلى آخر السورة قال: هي «رقية الصداق». رواه الديلمي بإسنادين لا ندري كيف حال رجالهما. وأخرج الخطيب في تاريخه بإسناداه إلى إدريس بن عبد الكريم الحداد قال: قرأت على خلف، فلما بلغت هذه الآية قال: ضع يدك على رأسك، فإني قرأت على حمزة، فلما بلغت هذه الآية قال: ضع يدك على رأسك، فإني قرأت على الأعمش ثم ساق الإسناد مسلسلًا هكذا إلى ابن مسعود فقال: فإني قرأت على النبي ﷺ، فلما بلغت هذه الآية قال لي: «ضع يدك على رأسك، فإني جبريل لما نزل بها قال لي: ضع يدك على رأسك، فإنها شفاء من كل داء إلا السام»، والسام الموت. قال الذهبي: هو باطل. وأخرجه ابن السني في عمل يوم وليلة، وابن مريويه عن أنس أن رسول الله ﷺ أمر رجلاً إذا أوى إلى فراشه أن يقرأ آخر سورة الحشر وقال: «إن مت مت شهيداً». وأخرج ابن مريويه عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «من تعوذ بالله من الشيطان ثلاث مرات، ثم قرأ آخر سورة الحشر بعث الله سبعين ملكاً يطربون عنه شياطين الإنس والجن إن كان ليلاً حتى يصبح، وإن كان نهاراً حتى يمسي». وأخرج أحمد، والدارمي، والترمذي وحسنه، والطبراني، وابن الضريس، والبيهقي في الشعب عن معقل بن يسار عن النبي ﷺ قال: «من قال حين يصبح ثلاث مرات: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، ثم قرأ الثلاث آيات من آخر سورة الحشر وكل الله به سبعين ألف ملك يصلون عليه حتى يمسي، وإن مات ذلك اليوم مات شهيداً، ومن قالها حين يمسي كان بتلك المنزل». قال الترمذي بعد إخراجها: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وأخرج ابن عدي، وابن مريويه، والخطيب، والبيهقي في الشعب عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ خواتيم الحشر في ليل أو نهار، فمات من يومه أو ليلته أوجب الله له الجنة». وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿عالم للغيب والشهادة﴾ قال: السر والعلانية. وفي قوله: ﴿المؤمن﴾ قال: المؤمن خلقه من أن يظلمهم، وفي قوله: ﴿المهين﴾ قال: الشاهد.

تفسير سورة الممتحنة

وهي مدنية. قال القرطبي: في قول الجميع. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مريويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة الممتحنة بالمدينة. وأخرج ابن مريويه عن ابن الزبير مثله. والممتحنة بكسر الحاء اسم فاعل أضيف الفعل إليها مجازاً، كما سميت سورة براءة الفاضحة لكشفها عن عيوب المنافقين، وقيل: الممتحنة بفتح الحاء اسم مفعول إضافة إلى المرأة التي نزلت فيها، وهي أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، لقوله سبحانه: ﴿فامتحانهم الله أعلم

حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين بمكة يخبرهم ببعض أمر النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: ما هذا يا حاطب؟ قال: لا تعجل علي يا رسول الله، إني كنت أمراً ملصقاً في قريش، ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهلهم، وأموالهم بمكة، فاحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن اصطنع إليهم يداً يحمون بها قرابتي، وما فعلت ذلك كفراً، ولا ارتداداً عن ديني، فقال النبي ﷺ: صدق، فقال عمر: دعني أضرب عنقه. فقال: إنه شهد بدرًا، وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم. ونزلت ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾. وفي الباب أحاديث مسندة ومرسلة متضمنة لبيان هذه القصة، وإن هذه الآيات إلى قوله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لَنَبِيِّهِمْ إِنَّهُ لَبَدْعٌ بَرُّهُ وَأُتِيَ بِكُمْ رِيًّا صَدُّونَ عَنْ دِينِ اللَّهِ كَذَرْنَا بِكُمْ وَبَيْنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَدًا حَتَّى تَوَدُّوا بِاللَّهِ وَحَدِّهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِاسْتَفْتُونَكَ وَمَا أَمَّاكَ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ خِطْمٍ فَذُكِّرْنَا عَلَيْكَ نَوْمَنَا وَإِلَيْكَ أُنْمَاتُ الْصَّيْرِ ۝ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَآخِرُ قَوْلُنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْمُكْرِمُ ۝ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتْلُكْ هُوَ الَّذِي لَمْ يَلِدْ ۝ عَنِ اللَّهِ أَن يَجْعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ مِّثْقَالَ ذَرَّةٍ ۚ رَبَّنَا إِنَّكَ لَن تَذَرُنَا وَاللَّهُ وَفَّى ۝ عَفْرُ رَبِّهِ ۝ لَا يَنْهَكُكَ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُغْنِيكُمُ مِنَ الَّذِينَ وَلَّوْا بِحُرْمَتِكُمْ يَنْ يَرْجِعُكُمْ أَن تَرْجِعُوا وَتَقْسِمُوا لِيَصْحَبَ إِنَّ إِلَهُنَّ لَبَيْنُ الْغَيْطِ ۝ إِنَّا بَنَيْنَاكَ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُواكَ مِنَ الَّذِينَ وَلَّوْا بِحُرْمَتِكُمْ وَأَن يَرْجِعُكُمْ أَن تَرْجِعُوا وَمَن يَتْلُكُمُ فَالَّذِينَ هُمُ الْفَالِقُونَ ۝

لما فرغ سبحانه من النهي عن موالاة المشركين، والذم لمن وقع منه ذلك ضرب لهم إبراهيم مثلاً حين تبرأ من قومه، فقال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أي: خصلة حميدة تقتدون بها، يقال: لي به أسوة في هذا الأمر أي: اقتداء، فأرشدهم سبحانه إلى الاقتداء به في ذلك إلا في استغفاره لأبيه. قرأ الجمهور (أسوة) بكسر الهمزة، وقرأ عاصم بضمها وهما لغتان، وأصل الأسوة: بالضم والكسر القوة، ويقال: هو أسوتك أي: مثلك، وانت مثله وقوله: ﴿فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ متعلق بأسوة، أو بحسنة، أو هو نعت لأسوة، أو حال من الضمير المستتر من حسنة، أو خبر كان، ولكم للبيان، والذين معه هم أصحابه المؤمنون. وقال ابن زيد: هم الأنبياء. قال الفراء: يقول أقل تأسيت يا حاطب بإبراهيم، فتتبرأ من أهلك، كما تبرأ إبراهيم من أبيه وقومه، والظرف في قوله: ﴿إِذْ قَالُوا لَقَوْمِهِمْ﴾ هو خبر كان، أو متعلق به أي: وقت قولهم لقومهم الكفار ﴿إِنَّا بَرَاءُ مِنْكُمْ﴾ جمع بريء، مثل شركاء وشريك، وظرفاء وظريف. قرأ الجمهور (براء) بضم الباء وفتح الراء والفاء بين

شيء، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَا أَعْلَمُ بِمَا لَخَفِيتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾ والجمل في محل نصب على الحال أي: بما أضمرتم وما أظهرتم، والباء في بما زائدة يقال: علمت كذا، وعلمت بكذا، هذا على أن أعلم مضارع، وقيل: هو أقبل تفضيل أي: أعلم من كل أحد بما تخفون وما تعلنون ﴿وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي: من يفعل ذلك الاتخاذ لعبوي وعدوكم أولياء، ويلقي إليهم بالمودة، فقد أخطأ طريق الحق والصواب، وضل عن قصد السبيل ﴿إِنْ يُلْقُوا بِكُمْ يُلْقُوا لَكُمْ أَعْدَاءُ﴾ أي: إن يلحقوكم ويصانفوكم يظهروا لكم ما في قلوبهم من العدواة، ومنه المثاقفة، وهي طلب مصانفة الغرة في المسابقة، وقيل المعنى: إن يظهروا بكم، ويتمكنوا منكم، والمعنيان متقاربان ﴿وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَالسِّنْثَةَ بِالسُّوِّ﴾ أي: يبسطوا إليكم أيديهم بالضرب ونحوه، والسِّنْثَةُ بالشتم ونحوه ﴿وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ هذا معطوف على جواب الشرط أو على جملة الشرط والجزاء، ورجح هذا أبو حيان، والمعنى: أنهم تمنوا ارتدادهم، وودوا رجوعهم إلى الكفر ﴿لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ﴾ أي: لا تنفعكم القرابات على عمومها، ولا الأولاد، وخصهم بالذكر مع دخولهم في الأرحام لمزيد المحبة لهم، والحنز عليهم، والمعنى: أن هؤلاء لا ينفعونكم حتى توالوا الكفار لأجلهم، كما وقع في قصة حاطب بن أبي بلتعة، بل الذي ينفعكم هو ما أمركم الله به من معاداة الكفار، وترك موالاتهم، وجملة ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ﴾ مستأنفة لبيان عدم نفع الأرحام والأولاد في ذلك اليوم ومعنى ﴿يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ﴾: يفرق بينكم، فيبذل أهل طاعته الجنة، وأهل معصيته النار. وقيل: المراد بالفصل بينهم أنه يفر كل منهم من الآخر من شدة الهول، كما في قوله: ﴿يَوْمَ يَفِرُ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ [عبس: 34] الآية. قيل: ويجوز أن يتعلق يوم القيامة بما قبله أي: لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة فيوقف عليه. ويبتدأ بقوله: ﴿يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ﴾ والأولى أن يتعلق بما بعده، كما نكرنا ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لا يخفى عليه شيء من أقوالكم وأفعالكم، فهو مجازيكم على ذلك. قرأ الجمهور (يفصل) بضم الياء، وتخفيف الفاء، وفتح الصاد مبنياً للمفعول، واختار هذه القراءة أبو عبيدة. وقرأ عاصم بفتح الياء، وكسر الصاد مبنياً للفعل. وقرأ حمزة، والكسائي بضم الياء، وفتح الفاء، وكسر الصاد مشددة. وقرأ علقمة بالنون. وقرأ قتادة، وأبو حيوة بضم الياء، وكسر الصاد مخففة.

وقد أخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن علي بن أبي طالب قال: «بعثني رسول الله ﷺ أنا، والزبير، والمقداد، فقال رسول الله ﷺ: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب، فخذوه منها فاتوني به، فخرجنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة، فقلنا أخرجي الكتاب، قالت: ما معي من كتاب، فقلنا: لتخرجي الكتاب، أو لتلقين الثياب، فأخرجته من عقاصها، فأتينا به النبي ﷺ، فإذا فيه: من

يسلموا، فيصيروا من أهل دينكم، وقد أسلم قوم منهم بعد فتح مكة وحسن إسلامهم، ووقعت بينهم وبين من تقدمهم في الإسلام مودة، وجاهدوا، وفعلوا الأفعال المقررة إلى الله. وقيل: المراد بالمودة هنا تزويج النبي ﷺ بأم حبيبة بنت أبي سفيان. ولا وجه لهذا التخصيص، وإن كان من جملة ما صار سبباً إلى المودة، فإن أبا سفيان بعد ذلك ترك ما كان عليه من العداوة لرسول الله ﷺ، ولكنها لم تحصل المودة إلا بإسلامه يوم الفتح وما بعده «والله قدير» أي: بليغ القدرة كثيرها «والله غفور رحيم» أي: بليغهما كثيرهما. ثم لما ذكر سبحانه ما ينبغي للمؤمنين من معاداة الكفار وترك موالاتهم، فصل القول فيمن يجوز برّه منهم ومن لا يجوز، فقال: «لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم» أي: لا ينهاكم عن هؤلاء «أن تبرؤهم» هذا بدل من الموصول بدل اشتمال، وكذا قوله: «وتقسطوا إليهم» يقال: أقسطت إلى الرجل: إذا عاملته بالعدل. قال الزجاج: المعنى، وتعدلوا فيما بينكم وبينهم من الوفاء بالعهد «إن الله يحب للمقسطين» أي: العادلين؛ ومعنى الآية: أن الله سبحانه لا ينهى عن برّ أهل العهد من الكفار الذين عاهدوا المؤمنين على ترك القتال، وعلى أن لا يظاهروا الكفار عليهم، ولا ينهى عن معاملتهم بالعدل. قال ابن زيد: كان هذا في أول الإسلام عند المودعة؛ وترك الأمر بالقتال، ثم نسخ. قال قتادة: نسختها «فما قتلوا المشركين حيث وجبتهم» [التوبة: 5] وقيل: هذا الحكم كان ثابتاً في الصلح بين النبي ﷺ وبين قريش، فلما زال الصلح بفتح مكة نسخ الحكم. وقيل: هي خاصة في حلفاء النبي ﷺ، ومن بينه وبينه عهد، قاله الحسن. وقال الكلبي: هم خزاعة، وبنو الحارث بن عبد مناف. وقال مجاهد: هي خاصة في الذين آمنوا ولم يهاجروا، وقيل: هي خاصة بالنساء والصبيان. وحكى القرطبي عن أكثر أهل التأويل أنها محكمة. ثم بين سبحانه من لا يحل برّه، ولا العدل في معاملته فقال: «إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم» وهم صناديد الكفر من قريش «وظاهروا على إخراجكم» أي: عاونوا الذين قاتلوكم على ذلك، وهم سائر أهل مكة، ومن دخل معهم في عهدهم، وقوله: «أن تولوهم» بدل اشتمال من الموصول، كما سلف «ومن يتولهم فاولئك هم الظالمون» أي: الكاملون في الظلم؛ لأنهم تولوا من يستحق العداوة لكونه عنواً لله ولرسوله ولكتابه، وجعلوهم أولياء لهم.

وقد أخرج ابن المنذر، والحاكم وصححه عن ابن عباس «إلا قول إبراهيم لأبيه» قال: نهوا أن يتأسوا باستغفار إبراهيم لأبيه، وقوله: «ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا» لا تعذبنا بأيديهم، ولا بعداب من عندهم، فيقولون لو كان هؤلاء على الحق ما أصابهم هذا. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عنه «لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة» قال: في صنع إبراهيم كله إلا في الاستغفار لأبيه،

همزتين، ككرما في كريم. وقرأ عيسى بن عمر، وابن أبي إسحاق بكسر الباء وهمزة واحدة بعد ألف، ككرام في جمع كريم. وقرأ أبو جعفر بضم الباء وهمزة بعد ألف «ومما تعبدون من دون الله» وهي الأصنام «كفرنا بكم» أي: بما أنتمم به من الأوثان أو بدينكم أو بأفعالكم «وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء لبدأ» أي: هذا دأبنا معكم ما دمت على كفركم «حتى تؤمنوا بالله وحده» وتركوا ما أنتم عليه من الشرك، فإذا فعلتم ذلك صارت تلك العداوة موالاة، والبغضاء محبة «إلا قول إبراهيم لأبيه لاستغفرن لك» هو استثناء متصل من قوله: «في إبراهيم» بتقدير مضاف محذوف؛ ليصح الاستثناء أي: قد كانت لكم أسوة حسنة في مقالات إبراهيم إلا قوله لأبيه، أو من أسوة حسنة، وصح ذلك؛ لأن القول من جملة الأسوة، كأنه قيل: قد كانت أسوة حسنة في إبراهيم في جميع أقواله، وأفعاله إلا قوله لأبيه، أو من التبري والقطيعة التي نكرت أي: لم يواصله إلا قوله، نكر هذا ابن عطية، أو هو منقطع أي: لكن قول إبراهيم لأبيه لاستغفرن لك، فلا تأتسوا به، فتستغفرون للمشركين، فإنه كان عن موعدة وعدها إياه، أو أن ذلك إنما وقع منه؛ لأنه ظن أنه قد أسلم «فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه» [التوبة: 114] وقد تقدم تحقيق هذا في سورة براءة «وما أملك لك من الله من شيء» هذا من تمام القول المستثنى يعني: ما أغني عنك، وما أنفع عنك من عذاب الله شيئاً، والجملة في محل نصب على الحال من فاعل لاستغفرن، فالاستثناء متوجه إلى الاستغفار لا إلى هذا القيد، فإنه إظهار للعجز، وتفويض للأمر إلى الله، وذلك من خصال الخير «ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير» هذا من دعاء إبراهيم وأصحابه، ومما فيه أسوة حسنة يقتدى به فيها، وقيل: هو تعليم للمؤمنين أن يقولوا هذا القول، والتوكل هو تفويض الأمور إلى الله، والإنابة الرجوع، والمصير المرجع، وتقديم الجاز والمجور لقصر التوكل والإنابة، والمصير على الله «ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا» قال الزجاج: لا تظهرهم علينا، فيظنوا أنهم على حق، فيفتنوا بذلك. وقال مجاهد: لا تعذبنا بأيديهم، ولا بعداب من عندهم، فيقولوا: لو كان هؤلاء على حق ما أصابهم هذا «وآغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز» أي: الغالب الذي لا يغلب «الحكيم» ذو الحكمة البالغة «لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة» أي: لقد كان لكم في إبراهيم والذين معه قوة حسنة، وكثر هذا للمبالغة والتأكيد، وقيل: إن هذا نزل بعد الأول بمدة «لمن كان يرجو الله واليوم الآخر» بدل من قوله: «لكم» بدل بعض من كل، والمعنى: أن هذه الأسوة إنما تكون لمن يخاف الله، ويخاف عقاب الآخرة، أو يطمع في الخير من الله في الدنيا وفي الآخرة «ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد» أي: يعرض عن ذلك، فإن الله هو الغني عن خلقه الحميد إلى أوليائه «عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عابيتهم منهم مودة» وذلك بأن

وَأَرْجِيهِمْ وَلَا يَجِيبُكَ فِي مَرْوٍ فَإِيَهُمْ وَأَسْتَغْفِرُكَ عَنْهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَسُ الْكَافِرُ مِنَ أَحْصَابِ الْقَبْرِ ﴿١٢﴾

لما نكر سبحانه حكم فريق الكافرين في جواز البر، والإقساط للفريق الأول دون الفريق الثاني نكر حكم من يظهر الإيمان، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مَهْجُرَاتٌ﴾ من بين الكفار، وذلك أن النبي ﷺ لما صالح قريشاً يوم الحديبية على أن يرد عليهم من جاءهم من المسلمين، فلما هاجر إليه النساء أبى الله أن يردن إلى المشركين، وأمر بامتحانهن فقال: ﴿فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ أي: فاختبروهن. وقد اختلف فيما كان يمتحن به، فقيل: كان يستحلفن بالله ما خرجن من بغض زوج، ولا رغبة من أرض إلى أرض، ولا لالتماس دنيا بل حباً لله ولرسوله، ورغبة في دينه، فإذا حلفت كذلك أعطى النبي ﷺ زوجها مهرها، وما اتفق عليها، ولم يردّها إليه، وقيل: الامتحان هو أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وقيل: ما كان الامتحان إلا بأن يتلو عليهن رسول الله ﷺ الآية، وهي ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ﴾ إلى آخرها.

واختلف أهل العلم هل يدخل النساء في عهد الهنته أم لا؟ على قولين، فعلى القول بالدخول تكون هذه الآية مخصصة لذلك العهد، وبه قال الأكثر. وعلى القول بعصمة لا نسخ، ولا تخصيص. ﴿الله أعلم بعلومنا﴾ هذه الجملة معترضة لبيان أن حقيقة حالهن لا يعلمها إلا الله سبحانه، ولم يتعبدكم بذلك، وإنما تعبدكم بامتحانهن حتى يظهر لكم ما يدل على صدق دعواهن في الرغوب في الإسلام. ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٌ﴾ أي: علمتم ذلك بحسب الظاهر بعد الامتحان الذي أمرتم به ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ أي: إلى أزواجهن الكافرين، وجملة ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ تعليل للنهي عن إرجاعهن. وفيه دليل على أن المؤمنة لا تحل للكفر، وأن إسلام المرأة يوجب فرقتهما من زوجها لا مجرد هجرتها، والتكرير لتأكيد الحرمة، أو الأول لبيان زوال النكاح، والثاني لامتناع النكاح الجديد ﴿وَأَتَوْهُمْ مَا انفَقَوْا﴾ أي: وأعطوا أزواج هؤلاء اللاتي هاجرن وأسلمن مثل ما انفقوا عليهن من المهور. قال الشافعي: وإذا طلبها غير الزوج من قرباتها منع منها بلا عوض ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ لأنهن قد صرن من أهل دينكم ﴿إِذَا أَتَيْتُمُوهُنَّ لِجَوْرِهِنَّ﴾ أي: مهورهن، وذلك بعد انقضاء عتتهن، كما تدل عليه آلة وجوب العدة ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكُفَّارِ﴾ قرأ الجمهور (تمسكوا) بالتخفيف من الإمساك، واختار هذه القراءة أبو عبيد، لقوله: ﴿فَامْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق: 2] وقرأ الحسن، وأبو العالية، وأبو عمرو بالتشديد من التمسك، والعصم جمع عصمة، وهي ما يعتصم به، والمراد هنا عصمة عقد النكاح. والمعنى أن من كانت له امرأة كافرة، فليست له بامراة لانقطاع عصمتها

وهو مشرك. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿لَا تَجْعَلْنَا قِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال: لا تسلطهم علينا، فيفتنونا. وأخرج ابن مريويه عن الزهري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة قال: أول من قاتل أهل الردة على إقامة دين الله أبو سفيان بن حرب، وفيه نزلت هذه الآية ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً﴾. وأخرج ابن أبي حاتم عن الزهري أن رسول الله ﷺ استعمل أبا سفيان بن حرب على بعض اليمن، فلما قبض رسول الله ﷺ أقبل، فلقي ذا الخمار مرتدّاً، فكان أول من قاتل في الردة، وجاهد عن الثين. قال: وهو فيمن قال الله فيه: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً﴾. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن عدي، وابن مريويه، والبيهقي في الدلائل، وابن عساكر من طريق الكلبي عن أبي صالح، عن ابن عباس في الآية قال: كانت المودة التي جعل بينهم تزويج النبي ﷺ أم حبيبة بنت أبي سفيان، فصارت أم المؤمنين، فصار معاوية خال المؤمنين. وفي صحيح مسلم عن ابن عباس «أن أبا سفيان قال: يا رسول الله ثلاث أعطيني، قال: نعم، قال: تؤمرني حتى أقاتل الكفار، كما كنت أقاتل المسلمين، قال: نعم، قال: ومعاوية تجعله كاتباً بين يديك، قال: نعم، قال: وعندي لحسن العرب وأجمله أم حبيبة بنت أبي سفيان أزوجهما الحديث. وأخرج الطيالسي، وأحمد، والبخاري، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والنحاس في ناسخه، والحاكم وصححه، وابن مريويه عن عبد الله بن الزبير قال: قدمت قتيلة بنت عبد العزى على ابنتها أسماء بنت أبي بكر بهدايا، ضباب، وأقط، وسمن، وهي مشركة، فابت أسماء أن تقبل هبتها، أو تدخلها بيتها حتى أرسلت إلى عائشة أن سلي عن هذا رسول الله ﷺ، فسألته، فأنزل الله ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يِقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ الآية، فأمرها أن تقبل هبتها، وتدخلها بيتها، وزاد ابن أبي حاتم في المدة التي كانت بين قريش ورسول الله ﷺ، وفي البخاري وغيره، عن أسماء بنت أبي بكر قالت: «اتنتني أمي رغبة، وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدوا رسول الله ﷺ، فسألت النبي ﷺ الصلها؟ فأنزل الله ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ﴾ الآية، فقال: نعم صلي أمك».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهْجِرَاتٌ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا مِنْ حِلٍّ وَلَا مِنْ مَوْلَاكُمْ وَلَا أَوْتَاهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَهْلَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكُفَّارِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا لَكُمْ حُكْمُ اللَّهِ أَن يَكُونَ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١﴾ وَإِنْ فَاتَكُمْ عَنْ يَمِينٍ أَوْ شَمَالٍ الْكُفَّارُ فَمَا تَقَاتِلُوا أَهْلَ الْبَيْتِ دَعَوَاتُ زَوْجِهِمْ يَقُولُ اللَّهُ إِلَيْكُمْ فَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ فَأَيُّكُمْ يَأْتِيَنَّكُمْ فَتَرْتَبِعْنَ بَيْنَ يَدَيْهِ

باختلاف الدين. قال النخعي: هي المسلمة تلحق بدار الحرب فتكفر، وكان الكفار يتزوجون المسلمين، والمسلمون يتزوجون المشركات، ثم نسخ ذلك بهذه الآية، وهذا خاص بالكوافر المشركات دون الكوافر من أهل الكتاب. وقيل: عامة في جميع الكوافر مخصصة بإخراج الكتابيات منها. وقد ذهب جمهور أهل العلم إلى أنه إذا أسلم وثني أو كتابي لا يفرق بينهما إلا بعد انقضاء العدة. وقال بعض أهل العلم: يفرق بينهما بمجرد إسلام الزوج، وهذا إنما هو إذا كانت المرأة مدخولاً بها، وأما إذا كانت غير مدخول بها، فلا خلاف بين أهل العلم في انقطاع العصمة بينهما بالإسلام إذ لا عدة عليها **﴿وأسألوها ما أنفقتم﴾** أي: اطلبوا مهر نسائك من اللاحقات بالكفار **﴿وليسألوها ما أنفقوا﴾** قال المفسرون: كان من ذهب من المسلمات مرتدة إلى الكفار من أهل العهد، يقال للكفار: هاتوا مهرها، ويقال للمسلمين إذا جاءت امرأة من الكفار إلى المسلمين، وأسلمت: رثوا مهرها على زوجها الكافر **﴿نلكم حكم الله﴾** أي: نلكم المذكور من إرجاع المهور من الجهتين حكم الله، وقوله: **﴿يحكم بينكم﴾** في محل نصب على الحال. أو مستأنفة **﴿والله عليم حكيم﴾** أي: بليغ العلم لا تخفى عليه خافية بليغ الحكمة في أقواله وأفعاله، قال القرطبي: وكان هذا مخصوصاً بذلك الزمان في تلك النازلة خاصة بإجماع المسلمين **﴿وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار﴾** لما نزلت الآية المتقدمة، قال المسلمون: رضينا بحكم الله، وكتبوا إلى المشركين فامتنعوا، فنزل قوله: **﴿وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار﴾** مما دفعتم إليهم من مهر النساء المسلمات، وقيل المعنى: وإن انفلت منكم أحد من نسائك إلى الكفار بأن ارتدت المسلمة **﴿فعاقبتم﴾** قال الواحدي: قال المفسرون: فعاقبتم فغنمتم. قال الزجاج: تأويله، وكانت العقبى لكم أي: كانت الغنيمة لكم حتى غنمتم **﴿فاتوا الذين ذهب أزواجهم مثل ما أنفقوا﴾** من مهر المهاجرة التي تزوجوها، ونفعوه إلى الكفار، ولا تؤتوه زوجها الكافر. قال قتادة، ومجاهد: إنما أمروا أن يعطوا الذين ذهب أزواجهم مثل ما أنفقوا من الفيء والغنيمة، وهذه الآية منسوخة قد انقطع حكمها بعد الفتح. وحاصل معناها أن **﴿من أزواجكم﴾** يجوز أن يتعلق بفاتكم أي: من جهة أزواجكم، ويراد بالشيء المهر الذي غرمه الزوج، ويجوز أن يتعلق بمحذوف على أنه صفة لشيء. ثم يجوز في شيء أن يراد به المهر، ولكن لا بد على هذا من مضاف محذوف أي: من مهر أزواجكم، ليتطابق الموصوف وصفته، ويجوز أن يراد بشيء النساء أي نوع وصنف منهن، وهو ظاهر قوله: **﴿من أزواجكم﴾** وقوله: **﴿فاتوا الذين ذهب أزواجهم﴾** والمعنى: أنهم يعطون من ذهب زوجته إلى المشركين، فكفرت، ولم يرد عليه المشركون مهرها، كما حكم الله مثل ذلك المهر الذي أنفقه عليها من الغنيمة **﴿واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون﴾** أي: احذروا أن تتعرضوا لشيء مما يوجب العقوبة عليكم، فإن

الإيمان الذي أنتم متصفون به يوجب على صاحبه ذلك **﴿يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبایعنك﴾** أي: قاصدات لمبايعتك على الإسلام، و**﴿على أن لا يشركن بالله شيئاً﴾** من الأشياء كائنات ما كان، هذا كان يوم فتح مكة، فإن نساء أهل مكة اتين رسول الله ﷺ يبایعنه، فأمره الله أن يأخذ عليهن **﴿أن لا يشركن ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن﴾** وهو ما كانت تفعله الجاهلية من وأد البنات **﴿ولا يأتين ببهتان يفتريه بين أيديهن وأرجلهن﴾** أي: لا يلحقن بأزواجهن ولداً ليس منهن. قال الفراء: كانت المرأة تلنطق المولود، فتقول لزوجها: هذا ولدي منك، فذلك البهتان المفتري بين أيديهن وأرجلهن، وذلك أن الولد إذا وضعت الأم سقط بين يديها ورجليها، وليس المراد هنا أنها تنسب ولدها من الزنا إلى زوجها، لأن ذلك قد نحل تحت النبي عن الزنا **﴿ولا يعصينك في معروف﴾** أي: في كل أمر هو طاعة الله. قال عطاء: في كل بر وتقوى، وقال المقاتلان: عني بالمعروف النبي عن النوح وتمزيق الثياب، وجز الشعر، وشق الجيب، وخمش الوجوه، والدعاء بالويل، وكذا قال قتادة، وسعيد بن المسيب، ومحمد بن السائب، وزيد بن أسلم، ومعنى القرآن أوسع مما قالوه. قيل: ووجه التقييد بالمعروف، مع كونه ﷺ لا يأمر إلا به التنبيه على أنه لا يجوز طاعة مخلوق في معصية الخالق **﴿فبایعهن﴾** هذا جواب «إذ»، والمعنى إذا بايعنك على هذه الأمور، فبایعهن، ولم ينكر في بيعتهن الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج لوضوح كون هذه الأمور ونحوها من أركان الدين، وشعائر الإسلام، وإنما خص الأمور المذكورة لكثرة وقوعها من النساء **﴿واستغفر لهن الله﴾** أي: اطلب من الله المغفرة لهن بعد هذه المبايعة لهن منك **﴿إن الله غفور رحيم﴾** أي: بليغ المغفرة والرحمة لعباده **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم﴾** هم جميع طوائف الكفر، وقيل: اليهود خاصة وقيل: المنافقون خاصة وقال الحسن: اليهود والنصارى. والأول أولى؛ لأن جميع طوائف الكفر تتصف بأن الله سبحانه غضب عليها **﴿قد يئسوا من الآخرة﴾** «من» لابتداء الغاية أي: أنهم لا يؤمنون بالآخرة البتة بسبب كفرهم **﴿كما يئس الكفار من أصحاب القبور﴾** أي: كياسهم من بعث موتاهم لاعتقادهم عدم البعث، وقيل: كما يئس الكفار الذين قد ماتوا منهم من الآخرة، لأنه قد وقفوا على الحقيقة، وعلموا أنه لا نصيب لهم في الآخرة، فتكون «من» على الوجه الأول ابتدائية، وعلى الثاني بيانية، والأول أولى.

وقد أخرج البخاري عن المسور بن مخرمة، ومروان بن الحكم أن رسول الله ﷺ لما عاهد كفار قريش يوم الحديبية جاءه نساء مسلمات، فأنزل الله **﴿يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات﴾** حتى بلغ **﴿ولا تمسكوا بعصم الكوافر﴾** فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك. وأخرجه أيضاً من حديثهما بأطول من هذا، وفيه، وكانت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ممن خرج إلى

فتجعل مكانها غلاماً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عنه في الآية. قال: لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهن. **﴿ولا يعصينك في معروف﴾** قال: إنما هو شرط شرطه الله للنساء. وأخرج ابن سعد، وابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، والترمذي وحسنه، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن أم سلمة الأنصارية قالت: «قالت امرأة من النسوة ما هذا المعروف الذي لا ينبغي لنا أن نعصيك فيه؟ قال: لا تنحن، قلت: يا رسول الله إن بني فلان أسعدوني على عمي لا بد لي من قضائهن، فأبى عليّ فعاوته مراراً فأنزلني في قضائهن» فلم أتح بعد، ولم يبق من النسوة امرأة إلا وقد ناحت غيري». وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أم عطية قالت: «بايعنا رسول الله ﷺ، فقرأ علينا أن لا نشرك بالله شيئاً، ونهانا عن النياحة، فقبضت امرأة منا يدها، فقالت: يا رسول الله إن فلانة أسعدتني وأنا أريد أن أجزيها، فلم يقل لها شيئاً، فذهبت، ثم رجعت، فقالت: ما وقت منا وامرأة إلا أم سليم، وأم العلاء، وبنت أبي سبرة امرأة معاذ، أو بنت أبي سبرة، وامرأة معاذ. وقد روت أحاديث كثيرة في النهي عن النوح. وأخرج أبو إسحاق، وابن المنذر عن ابن عباس قال: كان عبد الله بن عمرو، وزيد بن الحارث يوذنان رجلاً من اليهود، فأنزل الله **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم﴾** الآية. وأخرج القرطبي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني عن ابن مسعود في قوله: **﴿قد يثسوا من الآخرة﴾** قال: فلا يؤمنون بها، ولا يرجونها، كما يثس الكافر إذا مات، وعائين ثوبه واطلع عليه. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن ابن عباس في الآية قال: هم الكفار أصحاب القبور الذين يثسوا من الآخرة. وأخرج ابن جرير عنه في الآية قال: من مات من الذين كفروا، فقد يثس الأحياء من الذين كفروا أن يرجعوا إليهم، أو يعثمهم الله.

تفسير سورة الصف

وهي مننية. قال الماوردي: في قول الجميع. وأخرج ابن الضريس، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة الصف بالمدينة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. وأخرج النحاس عن ابن عباس قال: نزلت سورة الصف بمكة، ولعل هذا لا يصح عنه، ويؤيد كونها مننية ما أخرجه أحمد عن عبد الله بن سلام قال: تذاكرنا أيكم يأتي رسول الله ﷺ، فيسأله أي الأعمال أحب إلى الله؟ فلم يبق أحد منا، فأرسل رسول الله ﷺ إلينا رجلاً رجلاً، فجمعنا، فقرأ علينا هذه السورة يعني: سورة الصف كلها. وأخرجه ابن أبي حاتم، وقال في آخره: فنزلت فيهم هذه السورة. وأخرجه أيضاً الترمذي، وابن حبان، والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين، والبيهقي في الشعب والسنن.

رسول الله ﷺ، وهي عائق، فجاء أهلها يسألون رسول الله ﷺ يرجعها إليهم حتى أنزل الله في المؤمنات ما أنزل. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله: **﴿فامتنوهن﴾** قال: كان امتحانهن أن يشهدن أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، فإذا علموا أن ذلك حقاً منهم لم يرجعن إلى الكفار، وأعطى بعلمها في الكفار الذين عقد لهم رسول الله ﷺ صداقتها الذي أصدقها، وأحلهن للمؤمنين إذا أتوهن أجورهن. وأخرج ابن مردويه عنه قال: نزلت سورة الممتحنة بعد ذلك الصلح، فكان من أسلم من نسائهم، فستلت ما أخرجك؟ فإن كانت خرجت فراراً من زوجها، ورغبة عنه رئت، وإن كانت خرجت رغبة في الإسلام أمسكت، وردت على زوجها مثل ما أنفق، وأخرج ابن أبي أسامة، والبخاري، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني في الكبير، وابن مردويه بسنن حسن، كما قال السيوطي عن ابن عباس في قوله: **﴿إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتنوهن﴾** قال: كان إذا جاءت المرأة النبي ﷺ حلفها عمر بن الخطاب بالله ما خرجت رغبة بأرض عن أرض، وبالله ما خرجت بغض زوج، وبالله ما خرجت للتماس نيا، وبالله ما خرجت إلا حباً لله ورسوله. وأخرج ابن منيع من طريق الكلبي عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: أسلم عمر بن الخطاب، وتأخرت امرأته في المشركين، فأنزل الله **﴿ولا تمسكوا بعصم الكوافر﴾**. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، والبخاري، والترمذي، وابن المنذر، وابن مردويه عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية **﴿يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يباليعنك﴾** إلى قوله: **﴿غفور رحيم﴾** فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات قال لها رسول الله ﷺ: «قد بايعتكم كلاماً، والله ما مسّت يده يد امرأة قط من المبايعات ما بايعهن إلا بقوله: «قد بايعتكم على ذلك». وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن سعد، وأحمد، وعبد بن حميد، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه عن أميمة بنت رقيقة قالت: «أبى النبي ﷺ في نساء لنبايعه، فأخذ علينا ما في القرآن أن لا نشرك بالله شيئاً حتى بلغ: **﴿ولا يعصينك في معروف﴾** فقال: فيما استطعتن، واطقتن، فقلنا: الله، ورسوله أرحم بنا من أنفسنا يا رسول الله ألا تصافحنا؟ قال: إني لا أصافح النساء، إنما قولني لأمأة امرأة كقولني لامرأة واحدة» وفي الباب أحاديث. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن عبادة بن الصامت قال: كنا عند النبي ﷺ فقال: «بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، وقرأ آية النساء، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله، فهو إلى الله، إن شاء عذبه وإن شاء غفر له». وأخرج ابن المنذر من طريق ابن جريج عن ابن عباس في قوله: **﴿ولا يأتين ببهتان يفتريه﴾** قال: كانت الحرة تولد لها الجارية،

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَعْمَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُبْتَغِيُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَأَنَّهُمْ بَيْنَ مَرْصُومٍ ﴿٤﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَتَّبِعُوا لِمَ تُوذَوْنَ وَيَقُولُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَعْمَلُونَ ﴿٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْا آيَاتَ اللَّهِ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَبَشِيرًا بِمَا فِي كُتُبِ اللَّهِ أَتَى مِنْ رَبِّي إِلَهًا فَكَلَّمَهُمْ وَإِلَيْهِمْ قَالُوا كَذَّابٌ مُرْسِلٌ ﴿٧﴾ وَمَنْ أَأَقْلَرُ مِنْ أَتَرَفٍ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٨﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْلِقُوا ذُرِّيَّهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ شَهِيدٌ لِمُؤْمَرِهِمْ وَكَذَلِكَ أَتَتْهُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَأَنزَلَ اللَّهُ الْغُلُقُوتَ ﴿٩﴾ فَمَنْ أَلْفَى مِنْ زَكَاةٍ فَلْيَأْخُذْ بِهَا بِرَءْفَةٍ وَلَا يَنسُهَا فِي الْفُتُورِ ﴿١٠﴾ وَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَخْتَارُ ﴿١١﴾

قوله: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ قد تقدم الكلام على هذا، ووجه التعبير في بعض السور بلفظ الماضي كهذه السورة، وفي بعضها بلفظ المضارع، وفي بعضها بلفظ الأمر الإرشاد إلى مشروعية التسبيح في كل الأوقات ماضيها ومستقبلها وحالها، وقد قدمنا نحو هذا في أول سورة الحديد ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: الغالب الذي لا يغالب الحكيم في أفعاله وأقواله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَعْمَلُونَ﴾ هذا الاستفهام للتوبيخ والتوبيخ أي: لم تقولون من الخير ما لا تفعلونه، ولم مركبة من اللام الجازية، وما الاستفهامية، وحذفت ألفها تخفيفاً لكثرة استعمالها، كما في نظائرها، ثم ذمهم سبحانه على ذلك فقال: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: عظم ذلك في المقت، وهو بغض، والمقت والمقاة مصدران، يقال رجل مقيت، وممقوت: إذا لم يحبه الناس، قال الكسائي ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ في موضع رفع؛ لأن كبر فعل بمعنى بش، ومقتاً منتصب على التمييز، وعلى هذا فيكون في كبر ضمير مبهم مفسر بالنكرة، وأن تقولوا هو المخصوص بالذم، ويجيء فيه الخلاف هل رفعه بالابتداء، وخبره الجملة المتقدمة عليه، أو خبره محذوف، أو هو خبر مبتدأ محذوف. وقيل: إنه قصد بقوله: ﴿كَبُرَ﴾ التعجب، وقد عده ابن عصفور من أفعال التعجب. وقيل: إنه ليس من أفعال الذم، ولا من أفعال التعجب، بل هو مسند إلى أن تقولوا، ومقتاً تمييز محوّل عن الفاعل ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا﴾ قال المفسرون: إن المؤمنين قالوا: وبدنا أن الله يخبرنا بأحب الأعمال إليه حتى نعمله، ولو ذهب فيه أموالنا وأنفسنا. فانزل الله ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ﴾ الآية، وانتصاب صفاً على المصدرية، والمفعول محذوف أي: يصفون أنفسهم صفاً، وقيل: هو: مصدر في موضع الحال أي: صافين، أو مصفوفين. قرأ الجمهور (يقاتلون) على البناء للفاعل. وقرأ زيد بن علي على البناء للمفعول، وقرأ (يقاتلون) بالتشديد، وجملة ﴿كَانَهُمْ بَيْنَ مَرْصُومٍ﴾ في

محل نصب على الحال من فاعل يقاتلون، أو من الضمير في صفاً على تقدير أنه مؤول بصافين، أو مصفوفين، ومعنى ﴿مَرْصُومٍ﴾: ملتزم بعضه ببعض، يقال: رصصت البناء أرصه رصاً إذا ضمنت بعضه إلى بعض. قال الفراء: مرصوص بالرصاص. قال المبرد: هو مأخوذ من رصصت البناء: إذا لايمت بينه وقاربت حتى يصير كقطعة واحدة، وقيل: هو من الرصيصة، وهو ضم الأشياء بعضها إلى بعض، والتراص التلاصق ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ لما نكر سبحانه أنه يحب المقاتلين في سبيله بين أن موسى وعيسى أمرا بالتوحيد، وجاهدا في سبيل الله، وحل العقاب بمن خالفهما، والظرف متعلق بمحذوف هو انكر أي: انكر يا محمد لهؤلاء المعرضين وقت قول موسى، ويجوز أن يكون وجه نكر قصة موسى وعيسى بعد محبة المجاهدين في سبيل الله التحذير لامة محمد ﷺ أن يفعلوا مع نبيهم ما فعله قوم موسى وعيسى معهما ﴿يَا قَوْمِ لِمَ تَقُولُونَ﴾ هذا مقول القول أي: لم تؤذوني بمخالفة ما أمركم به من الشرائع التي افترضها الله عليكم، أو لم تؤذوني بالشتم والانتقاص، ومن نكر رمية بالآخرة، وقد تقدم بيان هذا في سورة الأحزاب، وجملة ﴿وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ في محل نصب على الحال، «وقد» لتحقق العلم، أو لتأكيد، وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار، والمعنى: كيف تؤذوني مع علمكم بأنني رسول الله، والرسول يحترم ويعظم، ولم يبق معكم شك في الرسالة لما قد شاهدتم من المعجزات التي توجب عليكم الاعتراف برسالتي، وتفيدكم العلم بها علماً يقينياً ﴿فَلَمَّا رَأَوْا آيَاتَ اللَّهِ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: لما أصرخوا على الزيج، واستمروا عليه أزاع الله قلوبهم عن الهدى، وصرفها عن قبول الحق، وقيل: فلما رَأَوْا عن الإيمان أزاع الله قلوبهم عن الثواب. قال مقاتل: لما عللوا عن الحق أمال الله قلوبهم عنه، يعني: أنهم لما تركوا الحق بإيذاء نبيهم أمال الله قلوبهم عن الحق جزاء بما ارتكبوا ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ هذه الجملة مقررّة لمضمون ما قبلها. قال الزجاج: لا يهدي من سبق في علمه أنه فاسق، والمعنى: أنه لا يهدي كل متصف بالفسق، وهؤلاء من جملتهم ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ معطوف على ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى﴾ معمول عامله، أو معمول لعامل مقرر معطوف على عامل الظرف الأوّل ﴿يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ أي: إني رسول الله إليكم بالإنجيل مصدقاً لما بين يدي من التوراة لأنني لم أتكم بشيء يخالف التوراة، بل هي مشتملة على التبشير بي، فكيف تنفرون عني وتخالفونني، وانتصاب مصدقاً على الحال، ﴿وَوَعَدْتُكُمْ بِمَا بَشَّرْتُكُمْ﴾، والعامل فيهما ما في الرسول من معنى الإرسال، والمعنى: أني أرسلت إليكم حال كوني مصدقاً لما بين يدي من التوراة، ومبشراً بمن يأتي بعدي، وإذا كنت كذلك في التصديق والتبشير، فلا مقتضى لتكذيب، وأحمد اسم نبينا ﷺ، وهو علم منقول من الصفة، وهي

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس قال: كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون: ولما لو أن الله أخبرنا بأحب الأعمال فنعمل به، فأخبر الله نبيه ﷺ أن أحب الأعمال إيمان بالله لا شك فيه، وجهاد أهل معصيته الذين خلفوا الإيمان، ولم يقرؤا به، فلما نزل الجهاد كره ذلك أناس من المؤمنين، وشق عليهم أمره، فقال الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه عنه في قوله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ قال: هذه الآية في القتال وحده، وهم قوم كانوا يأتون النبي ﷺ، فيقول الرجل: قتلت وضربت بسيفي، ولم يفعلوا، فنزلت. وأخرج عبد بن حميد، وابن مردويه عنه أيضاً قال: قالوا: لو نعلم أحب الأعمال إلى الله لفعلناه، فأخبرهم الله، فقال: ﴿إِنْ اللَّهُ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بَنِيَانٍ مَرْصُوصٍ﴾ فكروها ذلك، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿كَانَهُمْ بَنِيَانٍ مَرْصُوصٍ﴾ قال: مثبت لا يزول ملصق ببعضه على بعض. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن جبير بن مطعم قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الحاشر الذي يحشر الله الناس على قمتي، وأنا المحامي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا العاقب: والعاقب الذي ليس بعده نبي».

[illegible]

تحتمل أن تكون مبالغة من الفاعل، فيكون معناها أنه أكثر حمداً لله من غيره، أو من المفعول، فيكون معناها أنه يحمد بما فيه من خصال الخير أكثر مما يحمد غيره. قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، والسلمي، وزرّ بن حبيش، وأبو بكر عن عاصم (من يعدي) بفتح الياء. وقرأ الباقون بإسكانها ﴿فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين﴾ أي: لما جاءهم عيسى بالمعجزات قالوا هذا الذي جأنا به سحر واضح ظاهر، وقيل: المراد محمد ﷺ أي: لما جاءهم بذلك قالوا هذه المقالة، والأول أولى. قرأ الجمهور (سحر) وقرأ حمزة، والكسائي (ساحر) ﴿ومن أقلم ممن افتري على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام﴾ أي: لا أحد أكثر ظملاً منه حيث يفترى على الله الكذب، والحال أنه يدعى إلى دين الإسلام الذي هو خير الأديان وأشرفها؛ لأن من كان كذلك، فحقه أن لا يفترى على غيره الكذب، فكيف يفترى على ربه. قرأ الجمهور (وهو يدعى) من الدعاء مبنياً للمفعول. وقرأ طلحة بن مصرف (يدعى) بفتح الياء وتشديد الدال من الادعاء مبنياً للفاعل، وإنما عدّي بإلى لأنه ضمن معنى الانتماء والانتساب ﴿وإله يهدي القوم الظالمين﴾ هذه الجملة مقرّرة لمضمون ما قبلها. والمعنى: لا يهدي من اتصف بالظلم، والمذكورون من جملتهم ﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأقواهم﴾ الإطفاء: الإخماد، وأصله في النار، واستعير لما يجري مجراها من الظهور. والمراد بنور الله القرآن أي: يريدون إبطاله، وتكنيبه بالقول، أو الإسلام، أو محمد ﷺ، أو الحجج والدلائل، أو جميع ما نكرو، ومعنى ﴿بأقواهم﴾: بأقوالهم الخارجة من أقوالهم المتضمنة للطعن ﴿والله مَتَمُّ نوره﴾ بإظهاره في الآفاق وإعلانه على غيره. قرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم (مَتَمُّ نوره) بالإضافة، والباقيون بتثوين مَتَمُّ ﴿ولو كره للكافرون﴾، ذلك، فإنه كائن لا محالة، والجملة في محل نصب على الحال. قال ابن عطية: واللام في ليطفئوا لام مؤكدة نخلت على المفعول؛ لأن التقدير: يريدون أن يطفئوا، وأكثر ما تلزم هذه اللام المفعول إذا تَقَمَّتْ كقولك: لزيد ضربت، ولرويتك قصدت، وقيل: هي لام العلة، والمفعول محنوف أي: يريدون إبطال القرآن، أو نفع الإسلام، أو هلاك الرسول؛ ليطفئوا، وقيل: إنها بمعنى أن الناصبة، وأنها ناصبة بنفسها. قال الفراء: العرب تجعل لام كي في موضع أن في أراد وأمر، وإليه ذهب الكسائي، ومثل هذا قوله: ﴿يريد الله ليبين لكم﴾ [النساء: 26]. وجملة: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾ مستأنفة مقرّرة لما قبلها، والهدى القرآن، أو المعجزات، ومعنى ﴿دين الحق﴾: الملة الحقّة، وهي ملة الإسلام؛ ومعنى ﴿ليظهره﴾: ليجعلها ظاهرة على جميع الأنبياء عالياً عليها غالباً لها، ولو كره المشركون ذلك، فإنه كائن لا محالة. قال مجاهد: ذلك إذا نزل عيسى لم يكن في الأرض دين إلا دين الإسلام، والدين مصدر يعبر به عن

ما أنتم عليه من نصرة الدين. قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ونافع (أنصاراً لله) بالتثنية، وترك الإضافة. وقرأ الباقر بالإضافة، والرسم يحتمل القراءتين معاً، واختار أبو عبيدة قراءة الإضافة لقوله: ﴿نحن أنصار الله﴾ بالإضافة ﴿كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله﴾ أي: أنصروا دين الله مثل نصرة الحواريين لما قال لهم عيسى: ﴿من أنصاري إلى الله﴾ فقالوا: ﴿نحن أنصار الله﴾ والكاف في ﴿كما قال﴾ نعت مصدر محذوف تقديره: كونوا كوناً، كما قال، وقيل: الكاف في محل نصب على إضمار الفعل، وقيل: هو كلام محمول على معناه بون لفظه، والمعنى: كونوا أنصار الله، كما كان الحواريون أنصار عيسى حين قال لهم من أنصاري إلى الله، وقوله: ﴿إلى الله﴾ قيل: إلى بمعنى مع أي: من أنصاري مع الله، وقيل: التقدير من أنصاري فيما يقرب إلى الله، وقيل: التقدير: من أنصاري متوجهاً إلى نصرة الله، وقد تقدم الكلام على هذا في سورة آل عمران، والحواريون هم أنصار المسيح وخلص أصحابه، وأول من آمن به، وقد تقدم بيانهم ﴿فأمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة﴾ أي: أمنت طائفة بعيسى وكفرت به طائفة، وذلك لأنهم لما اختلفوا بعد رفعه تفرقوا وتقاتلوا ﴿فايننا الذين آمنوا على عدوهم﴾ أي: قوينا المحقين منهم على المبطلين ﴿فأصبحوا ظاهرين﴾ أي: عالين غالبين، وقيل المعنى: فإيننا الآن المسلمين على الفرقتين جميعاً.

وقد أخرج ابن مريويه عن أبي هريرة قال: قالوا: لو كنا نعلم أي الأعمال أحب إلى الله؟ فنزلت ﴿يا أيها الذين آمنوا هل ألكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم﴾ ففكروا، فنزلت: ﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون﴾ إلى قوله: ﴿بنينان مرصوص﴾ [الصف: 2 - 4]. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر عن قتادة في قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله﴾ قال: قد كان ذلك بحمد الله جاءه سبعون رجلاً، فبايعوه عند العقبة وأووه ونصروه حتى أظهر الله دينه. وأخرج ابن إسحاق، وابن سعد عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال: قال رسول الله ﷺ للنفر الذين لقوه بالعقبة: «أخرجوا إليّ اثني عشر منكم يكونون كفلاء على قومهم، كما كفلت الحواريون لعيسى ابن مريم». وأخرج ابن سعد عن محمود بن لبيد قال: قال رسول الله ﷺ للقباء: «إنكم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم، وأنا كفيل قومي، قالوا: نعم». وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس ﴿فايننا الذين آمنوا﴾ قال: فقوينا الذين آمنوا. وأخرج ابن أبي حاتم عنه، فإيننا الذين آمنوا بمحمد ﷺ وأمته على عدوهم، فأصبحوا اليوم ظاهرين.

الإنفاق والتجهز إلى الجهاد: قرأ الجمهور (تؤمنون) وقرأ ابن مسعود (آمنوا، وجاهدوا) على الأمر. قال الأخفش: تؤمنون عطف ببيان لتجارة، والأولى أن تكون الجملة مستأنفة مبنية لما قبلها، والإشارة بقوله: ﴿أنلكم﴾ إلى ما نكر من الإيمان والجهاد، وهو مبتدأ، وخبره ﴿خير لكم﴾ أي: هذا الفعل خير لكم من أموالكم وأنفسكم ﴿إن كنتم تعلمون﴾ أي: إن كنتم ممن يعلم، فإنكم تعلمون أنه خير لكم، لا إذا كنتم من أهل الجهل، فإنكم لا تعلمون ذلك ﴿يغفر لكم ذنوبكم﴾ هذا جواب الأمر المملول عليه بلفظ الخبر، ولهذا جزم. قال الزجاج، والمبرد: قوله: ﴿تؤمنون﴾ في معنى آمنوا، ولذلك جاء يغفر لكم مجزوماً. وقال الفراء: يغفر لكم جواب الاستفهام، فجعله مجزوماً لكونه جواب الاستفهام، وقد غلط بعض أهل العلم. قال الزجاج: ليسوا إذا نلهم على ما ينفعهم يغفر لهم إنما يغفر لهم إذا آمنوا وجاهدوا. وقال الرازي في توجيه قول الفراء: إن ﴿هل أنلكم﴾ في معنى الأمر عنده، يقال: هل أنت سألكت أي: اسكت، وبيانه أن هل بمعنى الاستفهام، ثم يتدرج إلى أن يصير عرضاً وحثاً، والحث كالإغراء، والإغراء أمر. وقرأ زيد بن علي (تؤمنوا، وتجاهدوا) على إضمار لام الأمر. وقيل: إن ﴿يغفر لكم﴾ مجزوم بشرط مقتر أي: إن تؤمنوا يغفر لكم، وقرأ بعضهم بالإدغام في يغفر لكم، والأولى ترك الإدغام؛ لأن الراء حرف متكرر، فلا يحسن إدغامه في اللام ﴿ويبخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ قد تقدم بيان كيفية جري الأنهار من تحت الجنات ﴿ومساكن طيبة في جنات عدن﴾ أي: في جنات إقامة ﴿ذلك الفوز العظيم﴾ أي: ذلك المنكور من المغفرة، وإنخال الجنات الموصوفة بما ذكر هو الفوز الذي لا فوز بعده، والظفر الذي لا ظفر يماثل ﴿ولآخرى تحبونها﴾ قال الأخفش، والفراء: أخرى معطوفة على تجارة فهي في محل خفض أي: وهل ألكم على خصلة أخرى تحبونها في العاجل مع ثواب الآخرة، وقيل: هي في محل رفع أي: ولكم خصلة أخرى، وقيل: في محل نصب أي: ويعطيكم خصلة أخرى. ثم بين سبحانه هذه الأخرى فقال: ﴿نصر من الله وفتح قريب﴾ أي: هي نصر من الله لكم، وفتح قريب يفتح عليكم، وقيل: نصر بدل من أخرى على تقدير كونها في محل رفع، وقيل: التقدير ولكم نصر وفتح قريب. قال الكلبي: يعني النصر على قريش وفتح مكة. وقال عطاء: يريد فتح فارس والروم ﴿ويبشر المؤمنين﴾ معطوف على محذوف أي: قل يا أيها الذين آمنوا، وبشر، أو على تؤمنون؛ لأنه في معنى الأمر، والمعنى: وبشر يا محمد المؤمنين بالنصر والفتح، أو، وبشرهم بالنصر في الدنيا والفتح، وبالجنة في الآخرة، أو، وبشرهم بالجنة في الآخرة. ثم حصّ سبحانه المؤمنين على نصرة دينه فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله﴾ أي: نوموا على

تفسير سورة الجمعة

وهي منبئية. قال القرطبي: في قول الجميع. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: نزلت سورة الجمعة بالمنبئية. وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير مثله. وأخرج مسلم، وأهل السنن عن أبي هريرة سمعت رسول الله ﷺ يقرأ في الجمعة سورة الجمعة و «إذا جاءك المنافقون» [أي: سورة المنافقون]. وأخرج مسلم، وأهل السنن عن ابن عباس نحوه. وأخرج ابن حبان، والبيهقي في سننه عن جابر بن سمرة قال: كان رسول الله ﷺ يقرأ في صلاة المغرب ليلة الجمعة «قل يا أيها الكافرون» [أي: سورة الكافرون] و «قل هو الله أحد» [أي: سورة الإخلاص] وكان يقرأ في صلاة العشاء الآخرة ليلة الجمعة سورة الجمعة والمنافقون.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّزِ الرَّكَّزِ

يُسَبِّحُ فِيهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ① هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَقُولُ عَلَيْهِمْ آمِنُوا بِهِمْ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَيْسَ صَلَوَاتِي عَلَيْهِمْ ② وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لِمَا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ③ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ④ مَثَلُ الَّذِينَ خَضَعُوا لِلزُّبُرَةِ ثُمَّ لَمْ يَلْحَقُوا بِكُنُوزِ الْحِمَارِ بِحِمْلٍ أَشْفَارًا يَتَشَبَّهُ مَثَلُ الْفَاقِرِ الَّذِي كَدَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الضَّالِّينَ ⑤ قُلْ تَبَاتُّوا إِلَهُكُمْ هَادُوا إِنْ رَعَيْتُمْ أَنْكُمْ أُولَئِكَ إِلَهُ مِنْ دُونِ الْإِلَهِ فَتَمَتَّوْا الْوَتَّ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ⑥ وَلَا تَتَّبِعُوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَسَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ⑦ قُلْ إِنَّ الْوَتَّ الَّذِي يَفْرُوقُ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَوِّصُكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عِلَاقِ الْعَصْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنْفِقُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ⑧

قوله: «يُسَبِّحُ فِيهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» قد تقدم تفسير هذا في أول سورة الحديد، وما بعدها من المسبحات «الملك القدوس العزيز الحكيم» قرأ الجمهور بالجر في هذه الصفات الأربع على أنها نعت لله، وقيل: على البدل، والأول أولى. وقرأ أبو وائل بن محارب، وأبو العالية، ونصر بن عاصم، وروبة بالرفع على إضمار مبتدأ. وقرأ الجمهور (القلوس) بضم القاف، وقرأ زيد بن علي بفتحها، وقد تقدم تفسيره «هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم» المراد بالأميين العرب، من كان يحسن الكتابة منهم ومن لا يحسنها؛ لأنهم لم يكونوا أهل كتاب، والامي في الأصل الذي لا يكتب ولا يقرأ المكتوب، وكان غالب العرب كذلك، وقد مضى بيان معنى الأمي في سورة البقرة، ومعنى «منهم» من أنفسهم، ومن جنسهم، ومن جملتهم، وما كان حي من أحياء العرب إلا ورسول الله ﷺ فيهم قرابة، ووجه الامتنان بكونه منهم أن ذلك أقرب إلى الموافقة؛ لأن الجنس

أميل إلى جنسه وأقرب إليه «يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ» يعني: القرآن مع كونه أمياً لا يقرأ ولا يكتب، ولا تعلم تلك من أحد، والجملة صفة لرسولاً، وكذا قوله: «وَيُزَكِّيهِمْ» قال ابن جريج، ومقاتل: أي: يطهرهم من نَسِ الكفر والذنوب، وقال السدي: يأخذ زكاة أموالهم، وقيل: يجعلهم أذكاء القلوب بالإيمان «وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ» هذه صفة ثالثة لرسولاً، والمراد بالكتاب القرآن، وبالحكمة السنة، كذا قال الحسن. وقيل: الكتاب الخط بالقلم، والحكمة الفقه في الدين، كذا قال مالك بن أنس «وَأَنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ» أي: وإن كانوا من قبل بعثته فيهم في شرك وذهاب عن الحق «وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ» معطوف على الأميين أي: بعث في الأميين وبعث في آخرين منهم «لِمَا يَلْحَقُوا بِهِمْ» تلك الوقت، وسيلاحقون بهم من بعد، أو هو معطوف على المفعول الأول في يعلمهم أي: ويعلم آخرين، أو على مفعول يزكيهم أي: يزكيهم ويزكي آخرين منهم، والمراد بالآخرين من جاء بعد الصحابة إلى يوم القيامة، وقيل: المراد بهم من أسلم من غير العرب. وقال عكرمة: هم التابعون. وقال مجاهد: هم الناس كلهم، وكذا قال ابن زيد، والسدي، وجملة «لِمَا يَلْحَقُوا بِهِمْ» صفة لآخرين، والضمير في منهم ولهم راجع إلى الأميين، وهذا يؤيد أن المراد بالآخرين هم من يأتي بعد الصحابة من العرب خاصة إلى يوم القيامة، وهو ﷺ، وإن كان مرسلأ إلى جميع الثقلين، فتخصيص العرب ها هنا لقصد الامتنان عليهم، وذلك لا ينافي عموم الرسالة، ويجوز أن يراد بالآخرين العجم؛ لأنهم وإن لم يكونوا من العرب فقد صاروا بالإسلام منهم، والمسلمون كلهم أمة واحدة وإن اختلفت أجناسهم «وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» أي: بليغ العزة والحكمة، والإشارة بقوله: «لِمَا يَلْحَقُوا بِهِمْ» إلى ما تقدم نكره. وقال الكلبي: يعني: الإسلام. وقال قتادة: يعني: الوحي والنبوة. وقيل: إلحاق العجم بالعرب، وهو مبتدأ، وخبره «ففضل الله يؤتاه من يشاء» أي: يعطيه من يشاء من عباده «وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ» الذي لا يساويه فضل ولا يدانيه «مَثَلُ الَّذِينَ حَمَلُوا التُّورَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا» ضرب سبحانه لليهود الذين تركوا العمل بالتوراة مثلاً فقال: «مَثَلُ الَّذِينَ حَمَلُوا التُّورَةَ» أي: كلفوا القيام بها والعمل بما فيها «ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا» أي: لم يعملوا بموجبها، ولا أطاعوا ما أمروا به فيها «كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَثْقَالًا» هي جمع سفر، وهو الكتاب الكبير؛ لأنه يسفر عن المعنى إذا قرئ. قال ميمون بن مهران: الحمار لا يدري أسفر على ظهره أم زبل؟ فهكذا اليهود. وقال الجرجاني: هو يعني: حملوا من الحملية بمعنى الكفالة أي: ضمنوا أحكام التوراة، وقوله: «يَحْمِلُ» في محل نصب على الحال، أو صفة للحمار إذ ليس المراد به حملاً معيناً، فهو في حكم النكرة، كما في قول الشاعر:

ولقد أمر على اللثيم يسبني فمضيت ثم قلت لا يعنيني

«بئس مثل القوم الذين كتبوا بآيات الله» أي: بشس

هؤلاء الذين لم يلحقوا بنا؟ فوضع يده على سلمان الفارسي، وقال: والذي نفسي بيده لو كان الإيمان بالثرثيا لناله رجال من هؤلاء». وأخرجه أيضاً مسلم من حديثه مرفوعاً بلفظ: «لو كان الإيمان عند الثريا لذهب به رجال من فارس، أو قال: من أبناء فارس». وأخرج سعيد بن منصور، وابن مريويه عن قيس بن سعد بن عبادة أن رسول الله ﷺ قال: «لو كان الإيمان بالثرثيا لناله ناس من أهل فارس». وأخرج الطبراني، وابن مريويه، والضياء عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في أصلاب أصلاب رجال من أصحابي رجالاً ونساء من أمتي يدخلون الجنة بغير حساب، ثم قرأ **﴿وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم﴾**». وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: **﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء﴾** قال: الدين. وأخرج عبد بن حميد عن طريق الكلبي عن أبي صالح عنه **﴿مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها﴾** قال: اليهود. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: **﴿أسفار﴾** قال: كتباً.

يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَبِيرًا كَمَا كُنْتُمْ تُقَالُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا رَأَوْا تَحَرَكَاءَ أَوْ قَوْماً انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَوُكُمُ فَلَمَّا قُلَّ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ النَّوْءِ وَمِنَ الْبَجَرَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١٣﴾

قوله: **﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة﴾** أي: وقع النداء لها، والمراد به الأذان إذا جلس الإمام على المنبر يوم الجمعة؛ لأنه لم يكن على عهد رسول الله ﷺ نداء سواه، وقوله: **﴿من يوم الجمعة﴾** بيان لإذا وتفسير لها. وقال أبو البقاء: إن من بمعنى: في، كما في قوله: **﴿أروني ماذا خلقوا من الأرض﴾** [قاطر 40] أي: في الأرض. قرأ الجمهور (الجمعة) بضم الميم. وقرأ عبد الله بن الزبير، والأعمش بإسكانها تخفيفاً. وهما لغتان، وجمعها جمع وجمعات. قال الفراء: يقال: الجمعة بسكون الميم وافتحها وبضمها. وهي صفة لليوم أي: يوم يجمع الناس. قال الفراء أيضاً، وأبو عبيد: والتخفيف أخف وأقيس، نحو غرفة وغرف، وطرفة وطرف، وحجرة وحجر. وفتح الميم لغة عقيل. وقيل: إنما سميت جمعة؛ لأن الله جمع فيها خلق آدم، وقيل: لأن الله فرغ فيها من خلق كل شيء، فاجتمعت فيها جميع المخلوقات، وقيل: لاجتماع الناس فيها للصلاة **﴿فاسعوا إلى ذكر الله﴾** قال عطاء: يعني الذهاب والمشي إلى الصلاة. وقال الفراء: المضى والسعي والذهاب في معنى واحد، ويدل على ذلك قراءة عمر بن الخطاب، وابن مسعود (فامضوا إلى نكر الله) وقيل: المراد القصد. قال الحسن: والله ما هو سعي على الأقدام ولكنه قصد بالقلوب والنيات، وقيل: هو العمل كقوله: **﴿من أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن﴾** [الإسراء 19] وقوله: **﴿إن سعيكم لشتى﴾** [الليل 4] وقوله:

مثلاً مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله، على أن التمييز محذوف، والفاعل المفسر به مضمرة، ومثل القوم هو المخصوص بالذم، أو مثل القوم فاعل بش، والمخصوص بالذم الموصول بعده على حذف مضاف أي: مثل الذين كذبوا، ويجوز أن يكون الموصول صفة للقوم، فيكون في محل جر، والمخصوص بالذم محذوف، والتقدير: بش مثل القوم المكذبين مثل هؤلاء **﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾** يعني: على العموم، فيدخل فيهم اليهود بخلاف أولياً **﴿قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس﴾** المراد: بالذين هادوا الذين تهودوا، وذلك أن اليهود ادّعى الفضيلة على الناس، وأنهم أولياء الله من دون الناس، كما في قولهم: **﴿نحن أبناء الله وأحبناؤه﴾** [المائدة: 18] وقولهم: **﴿لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى﴾** [البقرة: 111] فأمر الله سبحانه رسوله أن يقول لهم لما ادّعى هذه الدعوى الباطلة **﴿فتمنوا الموت﴾** لتصيروا إلى ما تصيرون إليه من الكرامة في زعمكم **﴿إن كنتم صادقين﴾** في هذا الزعم، فإن من علم أنه من أهل الجنة أحبّ الخلوص من هذه الدار. قرأ الجمهور (فتمنوا) بضم الواو، وقرأ ابن السميع بفتحها تخفيفاً، وحكى الكسائي إبدال الواو همزة، ثم أخبر الله سبحانه أنهم لا يفعلون ذلك أبداً بسبب ذنوبهم فقال: **﴿ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم﴾** أي: بسبب ما عملوا من الكفر والمعاصي، والتحريف والتبديل **﴿والله عليم بالظالمين﴾** يعني: على العموم، وهؤلاء اليهود داخلون فيهم بخلاف أولياً. ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يقول لهم بأن الفرار من الموت لا ينجيهم، وأنه نازل بهم، فقال: **﴿قل إن للموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم﴾** لا محالة، ونازل بكم بلا شك، والفاء في قوله: **﴿فإنه﴾** داخلة لتضمن الاسم معنى الشرط، قال الزجاج: لا يقال: إن زيداً فمطلق، وما هنا قال: فإنه ملاقيكم لما في معنى الذي من الشرط والجزاء أي: إن فررت منه، فإنه ملاقيكم، ويكون مبالغة في الدلالة على أنه لا ينفع الفرار منه، وقيل: إنها مزيدة، وقيل: إن الكلام قد تم عند قوله **﴿تفرون منه﴾** ثم ابتداء فقال **﴿فإنه ملاقيكم﴾** ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة، وذلك يوم القيامة **﴿فنبئكم بما كنتم تعملون﴾** من الأعمال القبيحة، ويجازيكم عليها.

وقد أخرج ابن المنذر، والحاكم، والبيهقي في الشعب عن عطاء بن السائب عن ميسرة أن هذه الآية مكتوبة في التوراة بسبعمائة آية **﴿يسبح الله ما في السموات وما في الأرض للملك القديس العزيز الحكيم﴾** أول سورة الجمعة. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: **﴿إننا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب﴾**. وأخرج البخاري، وغيره عن أبي هريرة قال: «كنا جلوساً عند النبي ﷺ حين نزلت سورة الجمعة، فتلاها، فلما بلغ **﴿وآخرين منهم لما يلحقوا بهم﴾** قال له رجل: يا رسول الله من

اللذين ذهبتم إليهما، وتركتم البقاء في المسجد، وسماع خطبة النبي ﷺ لأجلها ﴿وإن خير الرازقين﴾ فمنه اطلبوا الرزق، وإليه توسلوا بعمل الطاعة، فإن ذلك من أسباب تحصيل الرزق وأعظم ما يجلبه.

وقد أخرج سعيد بن منصور، وابن مروي عن أبي هريرة قال: قلت: «يا رسول الله لأي شيء سمي يوم الجمعة؟ قال: لأن فيه جمعت طينة أبيكم آدم، وفيه الصعقة والبعة، وفي آخره ثلاث ساعات منها ساعة من دعا الله فيها بدعوة استجاب له». وأخرج سعيد بن منصور، وأحمد، والنسائي، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مروي عن سلمان قال: قال لي رسول الله ﷺ: «أتدري ما يوم الجمعة؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قالها ثلاث مرات، ثم قال في الثالثة: هو اليوم الذي جمع الله فيه أباكم آدم أفلا أحنثكم عن يوم الجمعة»، الحديث. وأخرج أحمد، ومسلم، والترمذي، وابن مروي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها، ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة، وفي الباب أحاديث مصرحة بأنه خلق فيه آدم.

ورد في فضل يوم الجمعة أحاديث كثيرة، وكذلك في فضل صلاة الجمعة وعظيم أجرها، وفي الساعة التي فيها، وأنه يستجاب الدعاء فيها، وقد أوضحت ذلك في شرحي للمنتقى بما لا يحتاج الناظر فيه إلى غيره. وأخرج أبو عبيد في فضائله، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن الأنباري في المصاحف عن خرشة بن الحر قال: رأيت معي عمر بن الخطاب لوحاً مكتوباً فيه ﴿إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله﴾ فقال: من أملى عليك هذا؟ قلت: أبي بن كعب، قال: إن أبا أقرنا للمنسوخ أقرهما (فامضوا إلى ذكر الله) ويؤى هؤلاء ما عدا أبا عبيد عن ابن عمر قال: لقد توفي رسول الله ﷺ، وما نقرأ هذه الآية التي في سورة الجمعة إلا (فامضوا إلى ذكر الله) وأخرجه عنه أيضاً الشافعي في الأم، وعبد الرزاق، والغريابي، وابن جرير، وابن أبي حاتم. وأخرجوا كلهم أيضاً عن ابن مسعود أنه كان يقرأ (فامضوا إلى ذكر الله) قال: ولو كان فاسعوا لسعيت حتى يسقط ردائي. وأخرج عبد بن حميد عن أبي بن كعب أنه قرأ كذلك. وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس ﴿فاسعوا إلى ذكر الله﴾ قال: فامضوا. وأخرج عبد بن حميد عنه أن السعي العمل. وأخرج عبد بن حميد عن محمد بن كعب: أن رجلين من أصحاب النبي ﷺ كانا يختلطان في تجارتها إلى الشام، فربما قدما يوم الجمعة ورسول الله ﷺ يخطب، فيدعونه ويقومون، فنزلت الآية: ﴿وذروا البيع﴾ فحرم عليهم ما كان قبل ذلك. وأخرج ابن جرير عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ في قوله: ﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله﴾ قال: ليس لطلب دنيا، ولكن عيادة مريض وحضور جنازة وزيارة أخ في الله. وأخرج ابن مروي عن

﴿وإن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ [النجم: 39] قال القرطبي: وهذا قول الجمهور، ومنه قول زهير:

سعى بعدهم قوم لكي يدركهم

وقال أيضاً:

سعى ساعياً غيظ بن مرة بعدما تنزل ما بين العشيرة بالدم أي: فاعملوا على المضى إلى نكر الله، واشتغلوا بأسبابه من الغسل والوضوء والتوجه إليه، ويؤيد هذا القول قول الشاعر:

أسعى على جبل بني مالك كل امرئ في شأنه ساعي ﴿وذروا البيع﴾ أي: اتركوا المعاملة به، ويلحق به سائر المعاملات. قال الحسن: إذا أذن المؤذن يوم الجمعة لم يحل الشراء والبيع، والإشارة بقوله: ﴿نلكم﴾ إلى السعي إلى نكر الله، وترك البيع، وهو مبتدأ، وخبره ﴿خير لكم﴾ أي: خير لكم من فعل البيع، وترك السعي لما في الامتثال من الأجر والجزاء. وفي عدمه من عدم ذلك إذا لم يكن موجباً للعقوبة ﴿إن كنتم تعلمون﴾ أي: إن كنتم من أهل العلم، فإنه لا يخفى عليكم أن نلكم خير لكم ﴿فإذا قضيت الصلاة﴾ أي: إذا فعلتم الصلاة وأنيتموا وفرغتم منها ﴿فانتشروا في الأرض﴾ للتجارة والتصرف فيما تحتاجون إليه من أمر معاشكم ﴿وابتغوا من فضل الله﴾ أي: من رزقه الذي يتفضل به على عباده بما يحصل لهم من الأرباح في المعاملات والمكاسب، وقيل: المراد به ابتغاء ما عند الله من الأجر بعمل الطاعات، واجتناب ما لا يحل ﴿وانكروا الله كثيراً﴾ أي: نكراً كثيراً بالشكر له على ما هداكم إليه من الخير الأخروي والديني، وكذا انكروه بما يقربكم إليه من الانكار، كالحمد، والتسبيح، والتكبير، والاستغفار، ونحو ذلك ﴿لعلكم تفلحون﴾ أي: كي تفوزوا بخير الدارين وتظفروا به ﴿وإذا رأوا تجارة أو لهواً لنفثوا إليها وتركوا قائماً﴾ سبب نزول هذه الآية أنه كان باهل المدينة فاقة وحاجة، فاقبلت غير من الشام، والنبي ﷺ يخطب يوم الجمعة، فانفتل الناس إليها حتى لم يبق إلا اثنا عشر رجلاً في المسجد. ومعنى ﴿لنفثوا إليها﴾: تفرقوا خارجين إليها. وقال المبرد: ملأوا إليها، والضمير للتجارة، وخصت بارجاع الضمير إليها بون الله؛ لأنها كانت أهم عندهم، وقيل: التقدير: وإذا رأوا تجارة انفثوا إليها، أو لهواً انفثوا إليه، فحفز الثاني لدلالة الأول عليه، كما في قول الشاعر:

نحن بما عندننا وأنت بما عندك راضٍ والرأي مختلف وقيل: إنه اقتصر على ضمير التجارة؛ لأن الانفضاض إليها إذا كان منموماً مع الحاجة إليها، فكيف بالانفضاض إلى الله، وقيل: غير ذلك ﴿وتركوا قائماً﴾ أي: على المنبر؛ ثم أمره الله سبحانه أن يخبرهم بأن العمل للأخرة خير من العمل للدنيا، فقال: ﴿قل ما عند الله﴾ يعني: من الجزء العظيم وهو الجنة ﴿خير من اللهو ومن التجارة﴾

وحضروا مجلسك، وجواب الشرط قالوا، وقيل: محذوف، وقالوا: حال، والتقدير: جاءوك قائلين كيت وكيت، فلا تقبل منهم، وقيل: الجواب ﴿اتخذوا إيمانهم جنة﴾ وهو بعيد ﴿قالوا نشهد أنك لرسول الله﴾ أكدوا شهادتهم بأنّ واللام للإشعار بأنها صادرة من صميم قلوبهم مع خلوص اعتقادهم، والمراد بالمنافقين عبد الله بن أبي وأصحابه، ومعنى تشهد نحلف، فهو يجري مجرى القسم، ولذلك يتلقى بما يتلقى به القسم، ومن هذا قول قيس بن زريح: وأشهد عند الله أنني أحبها فهذا لها عندي فما عندها ليا ومثل تشهد نعلم، فإنه يجري مجرى القسم كما في قول الشاعر:

ولقد علمت لتأتين منيتي إن المنيا لا تطيش سهامها
وجملة ﴿والله يعلم أنك لرسوله﴾ معترضة مقررة لمضمون ما قبلها، وهو ما أظهروه من الشهادة، وإن كانت بواطنهم على خلاف ذلك ﴿والله يشهد إن المنافقين لكاذبون﴾ أي: في شهادتهم التي زعموا أنها من صميم القلب وخلوص الاعتقاد، لا إلى منطق كلامهم، وهو الشهادة بالرسالة، فإنه حق، والمعنى: والله يشهد إنهم لكاذبون فيما تضمنه كلامهم من التأكيد الدال على أن شهادتهم بذلك صادرة عن خلوص اعتقاد وطمأنينة قلب، وموافقة باطن لظاهر ﴿اتخذوا إيمانهم جنة﴾ أي: جعلوا حلفهم الذي حلفوا لكم به إنهم لمنكم، وإن محمداً لرسول الله وقلية تقيهم منكم، وسترة يستترون بها من القتل والأسر، والجملة مستأنفة لبيان كذبهم وحلفهم عليه، وقد تقدم قول من قال إنها جواب الشرط. قرأ الجمهور (إيمانهم) بفتح الهمزة، وقرأ الحسن بكسرها، وقد تقدم تفسير هذا في سورة المجادلة ﴿فصنوا عن سبيل الله﴾ أي: منعوا الناس عن الإيمان والجهاد، وأعمال الطاعة بسبب ما يصدر منهم من التشكيك والقدح في النبوة. هذا معنى الصد الذي بمعنى الصرف، ويجوز أن يكون من الصدود أي: أعرضوا عن الدخول في سبيل الله وإقامة أحكامه ﴿إنهم ساء ما كانوا يعملون﴾ من النفاق والصد، وفي ساء معنى التعجب، والإشارة بقوله: ﴿ذلك﴾ إلى ما تقدم ذكره من الكذب، والصد، وقبح الأعمال، وهو مبتدأ، وخبره ﴿بأنهم آمنوا﴾ أي: بسبب أنهم آمنوا في الظاهر نفاقاً ﴿ثم كفروا﴾ في الباطن، أو أظهروا الإيمان للمؤمنين، وأظهروا الكفر للكافرين، وهذا صريح في كفر المنافقين، وقيل: نزلت الآية في قوم آمنوا ثم ارتدوا، والأول أولى، كما يفيد السياق ﴿فقطيع على قلوبهم﴾ أي: ختم عليها بسبب كفرهم. قرأ الجمهور (فقطيع) على البناء للمفعول، والقائم مقام الفاعل الجار والمجرور بعده، وقرأ زيد بن علي على البناء للمفاع، والفاعل ضمير يعود إلى الله سبحانه، ويدل على هذا قراءة الأعمش (فقطيع الله على قلوبهم) ﴿فهم لا يفقهون﴾ ما فيه من صلاحهم ورشادهم، وهو الإيمان ﴿وإذا رأيتمهم تعجبك لجاتهم﴾ أي: هيئاتهم ومناظرهم، يعني: أن لهم أجساماً

ابن عباس في الآية قال: «لم تؤمروا بشيء من طلب الدنيا إنما هو: عيادة مريض، وحضور جنازة، وزيارة أخ في الله». وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن جابر بن عبد الله قال: بينما النبي ﷺ يخطب يوم الجمعة قائماً إذ قدمت عير المدينة، فابتدراها أصحاب رسول الله ﷺ حتى لم يبق منهم إلا اثنا عشر رجلاً، أنا فيهم وأبو بكر وعمر، فأنزل الله: ﴿وإذا رآوا تجارة أو لهواً لنفصوا إليها﴾ إلى آخر السورة. وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس في الآية قال: «جاءت عير عبد الرحمن بن عوف تحمل الطعام، فخرجوا من الجمعة بعضهم يريد أن يشتري، وبعضهم يريد أن ينظر إلى نحية، وتركوا رسول الله ﷺ قائماً على المنبر، وبقي في المسجد اثنا عشر رجلاً وسبع نسوة، فقال رسول الله ﷺ: لو خرجوا كلهم لاضطرم المسجد عليهم ناراً. وفي الباب روايات متضمنة لهذا المعنى عن جماعة من الصحابة وغيرهم.

تفسير سورة المنافقون

وهي مدنية. قال القرطبي: في قول الجميع. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة المنافقين بالمدينة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. وأخرج سعيد بن منصور، والطبراني في الأوسط. قال السيوطي بسند حسن عن أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ يقرأ في صلاة الجمعة بسورة الجمعة، فيحرض بها على المؤمنين، وفي الثانية بسورة المنافقين، فيقرع بها المنافقين. وأخرج البزار، والطبراني عن أبي عتبة الخولاني مرفوعاً نحوه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَكَ الْمُتُفِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتُفِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا إِيمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطَغِيَ عَنْ قُلُوبِهِمْ فَمَهَرُوا لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ تَمَجَّجَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَدَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤﴾ فَاصْدُرْ لَهُمْ قَوْلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ أَنَّى يُؤْتِكُمُ الرَّزْقَ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ فَاصْكُرُوا لِلَّهِ قُلُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُبْعَثُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلَئِنْ خَرَجْنَا مِنَ الْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُتُفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٦﴾ يَقُولُونَ لَنْ نَحْصَنَّا إِلَى الْكِلَابِ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ وَلَئِنْ أَمْرٌ إِلَّا أَمْرُ رَسُولِهِ إِلَى الْأَوَّلِينَ وَلَكِنَّ الْمُتُفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧﴾

قوله: ﴿إذا جاءك المنافقون﴾ أي: إذا وصلوا إليك

﴿أَنْتِ يُؤْفَكُونَ﴾ كيف يصرفون عن الحق، ويميلون عنه إلى الكفر. قال قتادة: معناه يعللون عن الحق. وقال الحسن معناه يصرفون عن الرشد ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾ أي: إذا قال لهم القائل من المؤمنين قد نزل فيكم ما نزل من القرآن، فتوبوا إلى الله ورسوله، وتعالوا يستغفر لكم رسول الله ﴿لَوْوَا رُءُوسَهُمْ﴾ أي: حركوها استهزاء بذلك. قال مقاتل: عطفوا رؤوسهم رغبة عن الاستغفار. قرأ الجمهور (لَوُوا) بالتشديد. وقرأ نافع بالتخفيف، واختار القراءة الأولى أبو عبيد ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصْضُؤْنَ﴾ أي: يعرضون عن قول من قال لهم: تعالوا يستغفر لكم رسول الله، أو يعرضون عن رسول الله ﷺ، وجملة ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ في محل نصب على الحال من فاعل الحال الأولى، وهي يَصْضُؤْنَ؛ لأن الرؤية بصرية، فيصنئون في محل نصب على الحال، والمعنى: ورأيتهم صائنين مستكبرين ﴿سِوَاهُمْ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أي: الاستغفار وعدمه سواء لا ينفعهم ذلك لإصرارهم على النفاق، واستمرارهم على الكفر. قرأ الجمهور (استغفرت) بهمزة مفتوحة من غير مد، وحذف همزة الاستفهام ثقة بدلالة أم عليها. وقرأ يزيد بن القعقاع بهمزة ثم ألف ﴿لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ أي: ما داموا على النفاق ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: الكاملين في الخروج عن الطاعة، والانهمك في معاصي الله، ويدخل فيهم المنافقون بخلاً أولياً، ثم نكر سبحانه بعض قبائحهم فقال: ﴿هُمْ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا نَتَّقِيكَ عَلَىٰ مِنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا﴾ أي: حتى يتفرقوا عنه، يعنون بذلك فقراء المهاجرين، والجملة مستأنفة جارية مجرى التعليل لفسقهم، أو لعدم مغفرة الله لهم. قرأ الجمهور (ينفضوا) من الانفضا، وهو التفرق، وقرأ الفضل بن عيسى الرقاشي (ينفضوا) من انفض القوم: إذا فنيت أزوادهم، يقال: نفض الرجل وعاءه من الزاد فانفض. ثم أخبر سبحانه بسعة ملكه فقال: ﴿وَهُوَ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: إنه هو الرزاق لهؤلاء المهاجرين؛ لأن خزائن الرزق له فيعطي من شاء ما شاء، ويمنع من شاء ما شاء ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ذلك، ولا يعلمون أن خزائن الأرزاق بيد الله عز وجل، وأنه الباسط القابض المعطي المانع. ثم ذكر سبحانه مقالة شنعاء قالوها فقال: ﴿يَقُولُونَ لَنْ نَرْجِعَنَّ إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلُّ﴾ القائل لهذه المقالة هو عبد الله بن أبي راس المنافقين، وعنى بالأعز نفسه ومن معه، وبالأذل رسول الله ﷺ ومن معه، ومراده بالرجوع رجوعهم من تلك الغزوة، وإنما أسند القول إلى المنافقين مع كون القائل هو فرد من أفرادهم، وهو عبد الله بن أبي، لكونه كان رئيسهم وصاحب أمرهم، وهم راضون بما يقوله سامعون له مطيعون. ثم رد الله سبحانه على قائل تلك المقالة فقال: ﴿وَهُوَ الْعَزَّ وَرَسُولُهُ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: القوة والغلبة لله وحده ولمن أقاضها عليه من رسله وصالحيه

تعجب من يراها لما فيها من النضارة والرونق ﴿وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾ فتحسب أن قولهم حق وصديق لفصاحتهم، وذلاقة أسنتهم، وقد كان عبد الله بن أبي رأس المنافقين فصيحاً جسيماً جميلاً، وكان يحضر مجلس النبي ﷺ، فإذا قال سمع النبي ﷺ مقالته. قال الكلبي: المراد عبد الله بن أبي، وجد بن قيس، ومعتب بن قيس كانت لهم أجسام ومنظر وفصاحة، والخطاب للنبي ﷺ، وقيل: لكل من يصلح له، ويدل عليه قراءة من قرأ (يسمع) على البناء للمفعول، وجملة ﴿كَانَهُمْ خَشَبٌ مُسْتَدَّةٌ﴾ مستأنفة لتقرير ما تقدم من أن أجسامهم تعجب الراشي وتروق الناظر، ويجوز أن تكون في محل رفع على أنها خبر مبتدأ محذوف، شبهوا في جلوسهم في مجالس رسول الله ﷺ مستندين بها بالخشب المنصوبة المسندة إلى الحائط التي لا تفهم ولا تعلم، وهم كذلك لخلوهم عن الفهم النافع، والعلم الذي ينتفع به صاحبه، قال الزجاج: وصفهم بتمام الصور، ثم أعلم أنهم في ترك الفهم والاستبصار بمنزلة الخشب. قرأ الجمهور (خشب) بضمين، وقرأ أبو عمرو، والكسائي، وقتيل بإسكان الشين، وبها قرأ البراء بن عازب، واختارها أبو عبيد؛ لأن واحديتها خشبة كبينة وبين، واختار القراءة الأولى أبو حاتم. وقرأ سعيد بن جبير، وسعيد بن المسيب بفتحيتين، ومعنى ﴿مُسْتَدَّةٌ﴾: أنها أسننت إلى غيرها، من قولهم: أسننت كذا إلى كذا، والتشديد للتكثير. ثم عليهم الله سبحانه بالجب، فقال: ﴿يَحْسِبُونَ كُلَّ صِيحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ أي: يحسبون كل صيحة يسمعونها واقعة عليهم نازلة بهم لفرط جبنتهم ورعب قلوبهم، وفي المفعول الثاني للحسبان وجهان: أحدهما أنه عليهم، ويكون قوله: ﴿هُمْ الْعُدُوُّ﴾ جملة مستأنفة؛ لبيان أنهم الكاملون في العداوة لكونهم يظهرون غير ما يبطنون، والوجه الثاني أن المفعول الثاني للحسبان هو قوله: ﴿هُمْ الْعُدُوُّ﴾، ويكون قوله: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ متعلقاً بصيحة، وإنما جاء بضمير الجماعة باعتبار الخبر، وكان حقه أن يقال: هو العدو، والوجه الأول أولى. قال مقاتل، والسدي: أي إذا نادى مناد في العسكر، أو انفطت دابة، أو أنشدت ضالة ظنوا أنهم المرابون لما في قلوبهم من الرعب، ومن هذا قول الشاعر:

ما زلت تحسب كل شيء بعدم خيلاً تكثر عليهم ورجالا
وقيل: كان المنافقون على وجل من أن ينزل فيهم ما يهتك أستارهم، ويبيح دماءهم وأموالهم. ثم أمر الله سبحانه رسوله بأن يأخذ حذرهم فقال: ﴿فَاحْذَرُهُمْ﴾ أن يتمكنوا من فرصة منك، أو يطلعوا على شيء من أسرارك؛ لأنهم عيون لأعدائك من الكفار. ثم دعا عليهم بقوله: ﴿قَاتِلْهُمْ اللَّهُ أَنْتِ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: لعنهم الله، وقد تقول العرب هذه الكلمة على طريقة التعجب، كقولهم: قاتله الله من شاعر، أو ما أشعره، وليس بمراد هنا، بل المراد منهم وتوبيخهم، وهو طلب من الله سبحانه طلبه من ذاته عز وجل أن يلعنهم ويخزيهم، أو هو تعليم للمؤمنين أن يقولوا ذلك؛ ومعنى

أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصْدَقْ وَأَكْنُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٥﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

لما نكر سبحانه قبائح المنافقين رجع إلى خطاب المؤمنين مرغياً لهم في نكره فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتْلُكُمُ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ نَكْرِ اللَّهِ﴾ فنحزهم عن أخلاق المنافقين الذين أهتتم أموالهم وأولادهم عن نكر الله، ومعنى ﴿لَا تَتْلُكُمُ﴾: لا تشغلكم، والمراد بالذكر فرائض الإسلام، قاله الحسن. وقال الضحاك: الصلوات الخمس، وقيل: قراءة القرآن، وقيل: هو خطاب للمنافقين، ووصفهم بالإيمان لكونهم آمنوا تظاهراً، والأول أولى ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ أي: يلتمى بالدنيا عن الدين ﴿فَاوْلُكُ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي: الكاملون في الخسران ﴿وَانْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ الظاهر أن المراد الإنفاق في الخير على عمومته، ومن للتبعيض أي: أنفقوا بعض ما رزقناكم في سبيل الخير، وقيل: المراد الزكاة المفروضة ﴿مَنْ قَبْلُ أَن يَأْتِيَّ لِحُكْمِ الْمَوْتِ﴾ بأن تنزل به أسبابه، ويشاهد حضور علاماته، وقدم المفعول على الفاعل للاهتمام ﴿فَيَقُولُ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي: يقول عند نزول ما نزل به منادياً لربه هلا أمهلتنى وأخرت موتي إلى أجل قريب أي: أمد قصير ﴿فَاصْصِقْ﴾ أي: فاتصق بمالي ﴿وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ قرأ الجمهور (فاصصق) بادغام التاء في الصاد، وانتصابه على أنه جواب التمني، وقيل: إن لا في لولا زائدة، والأصل لو أخرتني. وقرأ أبي، وابن مسعود، وسعيد بن جبير (فاتصصق) بدون إدغام على الأصل. وقرأ الجمهور (واكن) بالجرم على محل، فاتصصق، كأنه قيل: إن قيل: إن أخرتني اتصصق واكن. قال الزجاج: معناه هلا أخرتني، وجرم اكن على موضع، فاصصق؛ لأنه على معنى إن أخرتني أصصق واكن. وكذا قال أبو علي الفارسي، وابن عطية، وغيرهم. وقال سيبويه حاكياً عن الخليل: إنه جزم على توهم الشرط الذي يدل عليه التمني، وجعل سيبويه هذا نظير قول زهير:

بدالي أني لست مدرك ما مضى ولا سابق شيئاً إذا كان جائياً
فخضض، ولا سابق عطفاً على مدرك الذي هو خبر ليس على توهم زيادة الباء فيه. وقرأ أبو عمرو، وابن محيصن، ومجاهد (واكون) بالنصب عطفاً على فاصصق، ووجهها واضح. ولكن قال أبو عبيد: رأيت في مصحف عثمان (واكن) بغير واو، وقرأ عبيد بن عمير (واكون) بالرفع على الاستئناف أي: وأنا اكون. قال الضحاك: لا ينزل بأحد الموت لم يحج ولم يؤد زكاة إلا سأل الرجعة، وقرأ هذه الآية: ثم أجاب الله سبحانه عن هذا التمني فقال: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ أي: إذا حضر أجلها وانقضى عمرها ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ لا يخفى عليه شيء منه، فهو مجازيكم بأعمالكم. قرأ الجمهور (تعملون) بالفوقية على الخطاب، وقرأ أبو بكر عن عاصم، والسلمي بالتحية على الخبر.

عباده لا لغيرهم. اللهم كما جعلت العدة للمؤمنين على المنافقين، فاجعل العدة للعالمين من عبادك، وأنزل النلة على الجائرين الظالمين ﴿وَلَكِنَ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بما فيه النفع فيفعلونه، وبما فيه الضرر فيجتنبونه، بل هم كالانعام لغرط جهلهم ومزيد حيرتهم، والطبع على قلوبهم.

وقد أخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن زيد بن أرقم قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فاصاب الناس شدة، فقال عبد الله بن أبي لأصحابه: ﴿لَا تَنْفَقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا﴾ من حوله، وقال: ﴿لَن رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ فاتيت النبي ﷺ، فأخبرته بذلك، فأرسل إلى عبد الله بن أبي، فسأله، فاجتهد يمينه ما فعل، فقالوا: كتب زيد رسول الله، فوقع في نفسي مما قالوا شدة حتى أنزل الله تصديقي في ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾، فدعاهم النبي ﷺ ليستغفر لهم، فلووا رؤوسهم، وهو قوله: ﴿كَانَهُمْ خَشَبٌ مَّسْنَدَةٌ﴾ قال: كانوا رجالاً أجمل شيء. وأخرجه عنه باطول من هذا ابن سعد، وعبد بن حميد، والترمذي وصححه، وابن المنذر، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مريويه، والبيهقي. وأخرج ابن مريويه عن ابن عباس قال: إنما سماهم الله منافقين لأنهم كتموا الشرك وأظهروا الإيمان. وأخرج ابن المنذر عنه ﴿اتَّخَذُوا إِيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ قال: حلفهم بالله إنهم لمنكم اجتنبوا بإيمانهم من القتل والحرب. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿كَانَهُمْ خَشَبٌ مَّسْنَدَةٌ﴾ قال: نخل قيام. وأخرج ابن مريويه، والضياء في المختارة عنه أيضاً. قال: نزلت هذه الآية ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تَنْفَقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا﴾ في عسيف لعمر بن الخطاب. وأخرج ابن مريويه عن زيد بن أرقم، وابن مسعود أنهما قرءا (لا تَنْفَقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا من حوله). وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن جابر بن عبد الله قال: «كنا مع النبي ﷺ في غزاة. قال سفيان: يرون أنها غزوة بني المصطلق، فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال المهاجري يا للمهاجرين، وقال الأنصاري يا للأنصار، فسمع ذلك النبي ﷺ فقال: ما بال دعوة الجاهلية؟ قالوا: رجل من المهاجرين كسع رجلاً من الأنصار، فقال النبي ﷺ: دعوها، فإنها منتنة، فسمع ذلك عبد الله بن أبي، فقال: أو قد فعلوها، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منه الأذل، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقام عمر فقال: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: دعه، لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه»، زاد الترمذي «فقال له ابنه عبد الله: والله لا تنفقت حتى تقر أنك النليل، ورسول الله العزيز، ففعل».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧﴾ وَأَنْفَقُوا مِنْ نَا رَزَقْنَاهُمْ مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولُ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى

قوله: ﴿يَسْبَحُ شَهْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ينزهه سبحانه جميع مخلوقاته التي في سماواته وأرضه عن كل نقص وعيب ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ يختصان به ليس لغيره منهما شيء، وما كان لعباده منهما، فهو من فيضه وراجع إليه ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يعجزه شيء ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ أي: فبعضكم كافر وبعضكم مؤمن. قال الضحاك: فمِنْكُمْ كَافِرٌ فِي السَّرِّ مُؤْمِنٌ فِي الْعَلَانِيَةِ كَالْمَنَاقِقِ، وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ فِي السَّرِّ كَافِرٌ فِي الْعَلَانِيَةِ كَعَمَارِ بْنِ يَاسِرٍ وَنَحْوِهِ مِمَّنْ أَكْرَهَ عَلَى الْكُفْرِ. وقال عطاء: فمِنْكُمْ كَافِرٌ بِاللهِ مُؤْمِنٌ بِالْكَوَاكِبِ، وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ بِاللهِ كَافِرٌ بِالْكَوَاكِبِ. قال الزجاج: إن الله خلق الكافر، وكفره فعل له وكسب مع أن الله خالق الكافر. وخلق المؤمن، وإيمانه فعل له وكسب مع أن الله خالق الإيمان. والكافر يكفر ويختار الكفر بعد خلق الله إياه؛ لأن الله تعالى قَرَّرَ ذلك عليه وعلمه منه لأن وجود خلاف المقتدر عجز، ووجود خلاف المعلوم جهل. قال القرطبي: وهذا أحسن الأقوال، وهو الذي عليه جمهور الأمة، وقَدَّمَ الكافر على المؤمن لأنه الأغلب عند نزول القرآن ﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لا تخفى عليه من ذلك خافية، فهو مجازيك بأعمالكم. ثم لما نكر سبحانه خلق العالم الصغير اتبعه بخلق العالم الكبير فقال: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالحكمة البالغة. وقيل: خلق ذلك خلقاً يقيناً لا ريب فيه، وقيل: الباء بمعنى اللام أي: خلق ذلك لإظهار الحق، وهو أن يجزي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته. ثم رجع سبحانه إلى خلق العالم الصغير فقال: ﴿وَصُورَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ قيل: المراد آدم خلقه بيده كرامة له، كذا قال مقاتل، وقيل: المراد جميع الخلائق، وهو الظاهر أي: أنه سبحانه خلقهم في أكمل صورة وأحسن تقويم وأجمل شكل. والتصوير: التخطيط والتشكيل. قرأ الجمهور (فأحسن صوركم) بضم الصاد، وقرأ زيد بن علي، والأعمش، وأبو زيد بكسرهما ﴿وَالِهَ الْمَصِيرُ﴾ في الدار الآخرة، لا إلى غيره ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لا تخفى عليه من ذلك خافية ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَسْرُونَ وَمَا تَعْلَنُونَ﴾ أي: ما تخفونه وما تظهرونه، والتصريح به مع انترجاه فيم قبله لمزيد التأكيد في الوعد والوعيد ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّوَرِ﴾ هذه الجملة مقررة لما قبلها من شمول علمه لكل معلوم، وهي تذييلية ﴿إِلَهُمَّ يَاتِكُمُ النَّبِيُّ مِنَ الْغَيْبِ وَهُوَ كَفَّارُ الْأَمْرِ الْمَاضِيَةِ كَقَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ، وَالْخَطَابُ لِكْفَارِ الْعَرَبِ ﴿فَذَلِّقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ بسبب كفرهم، والوبال: الثقل والشدة، والمراد: بامرهم هنا ما وقع منهم من الكفر والمعاصي، وبالوبال ما أصيبوا به من عذاب الدنيا ﴿وَالِهِمْ عَذَابُ الْيَمِّ﴾ وذلك في الآخرة هو عذاب النار، والإشارة بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ إلى ما نكر من العذاب في الدارين، وهو مبتدأ، وخبره ﴿بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات﴾ أي: بسبب أنها كانت

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس عن النبي ﷺ في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَلْهَمُوا﴾ الآية قال: هم عباد من أمتي الصالحون منهم لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وعن الصلوات الخمس المفروضة. وأخرج عبد بن حميد، والترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان له مال يبلغه حج بيت الله، أو تجب عليه فيه الزكاة، فلم يفعل سأل الرجعة عند الموت، فقال رجل: يا ابن عباس اتق الله، فإنما يسأل الرجعة الكافر، فقال: سألتو عليكم بذلك قرأناً ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلى آخر السورة. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس ﴿فَاصْتَقُوا وَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ قال: أحج.

تفسير سورة التغابن

وهي مدنية في قول الأكثر. وقال الضحاك: هي مكية. وقال الكلبي: هي مدنية ومكية. وأخرج ابن الضريس، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: نزلت سورة التغابن بالمدينة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله، وأخرج النحاس عن ابن عباس قال: نزلت سورة التغابن بمكة إلا آيات من آخرها نزلن بالمدينة في عوف بن مالك الأشجعي، شكا إلى رسول الله ﷺ جفاء أهله وولده، فأنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ مِنْ أَنْوَاجِكُمْ وَأَوْلَانِكُمْ عَدُوٌّ لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: 14 - 18] إلى آخر السورة. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير عن عطاء بن يسار نحوه. وأخرج ابن حبان في الضعفاء، والطبراني، وابن مردويه، وابن عساکر عن عبد الله بن عمر قال: قال النبي ﷺ: «ما من مولود يولد إلا مكتوب في تشبيك رأسه خمس آيات من سورة التغابن» قال ابن كثير: وهو غريب جداً بل منكر. وأخرج البخاري في تاريخه عن عبد الله بن عمرو قال: «ما من مولود يولد إلا مكتوب في تشبيك رأسه خمس آيات من أول سورة التغابن».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْكَوْنُ وَلَهُ الْخَسَدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَتُكْرِكُوا وَتُكْرِكُوا مُؤْمِنٌ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَسِّرْ مَا يَشَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ يَسِّرْ مَا يَشَاءُ وَمَا تَعْلَمُونَ وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾ أَلَمْ يَلْزَمْكَ نَذْرُ الْأَلَمِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَلِّقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَمْ يَلْزَمْكَ أَلَمٌ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرًا يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَفْتَى اللَّهُ وَاللهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾

﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثْنَ ثُمَّ لَتُنَبُّونَ﴾ بل هي التي لإيجاب
النفي، فالمعنى: بلى تبعثن. ثم أقسم على ذلك، وجواب
القسم لتبعثن أي: لتخرجن من قبوركم، لتنبؤن ﴿بِمَا
عَمَلْتُمْ﴾ أي: لتجبرن بذلك إقامة للحجة عليكم، ثم تجزون به
﴿وَلِذَلِكَ﴾ البعث والجزاء ﴿عَلَىٰ أَشْءٍ﴾ إذ الإعادة أيسر
من الابتداء ﴿فَأَمَّا نُوا بِأَشْءٍ وَرَسُولِهِ﴾ الفاء هي الفصيحة
الدالة على شرط مقترن أي: إذا كان الأمر هكذا، فصنقوا بالله
ورسوله محمد ﷺ ﴿وَالنُّورَ الَّذِي أُنْزِلْنَا﴾ وهو القرآن؛
لأنه نور يهتدى به من ظلمة الضلال ﴿وَأَشْءٍ﴾ بما تعملون
خبير، لا يخفى عليه شيء من أفعالكم وأعمالكم، فهو
مجازيكم على ذلك ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ العامل في
الظرف لتنبؤن، قاله النحاس. وقال غيره: العامل فيه خبير،
وقيل: العامل فيه محضوف هو أنكر. وقال أبو البقاء: العامل
فيه ما دلَّ عليه الكلام أي: تتفاوتون يوم يجمعكم. قرأ
الجمهور (يجمعكم) بفتح الياء وضم العين، وروي عن أبي
عمرو إسكانها، ولا وجه لذلك إلا التخفيف، وإن لم يكن هذا
موضعا له، كما قرئ في ﴿وَمَا يَشْعُرْكُمْ﴾ [الأنعام: 109]
بسكون الراء، وكقول الشاعر:

فاليوم أشرب غير مستحقب إثمًا من الله ولا واغل

بإسكان باء أشرب، وقرأ زيد بن علي، والشعبي، ويعقوب، ونصر، وابن أبي إسحاق، والجحدري (نجمكم) بالنون، ومعنى ﴿ليوم الجمع﴾ ليوم القيامة، فإنه يجمع فيه أهل المحشر للجزاء، ويجمع فيه بين كل عامل وعمله، وبين كل نبي وأمته، وبين كل مظلوم وظالمه ﴿ذلك يوم التغابن﴾ يعني: أن يوم القيامة هو يوم التغابن، وذلك أنه يغيب فيه بعض أهل المحشر بعضاً، فيغيب فيه أهل الحق أهل الباطل، ويغيب فيه أهل الإيمان أهل الكفر، وأهل الطاعة أهل المعصية، ولا يغيب أعظم من غيب أهل الجنة أهل النار عند دخول هؤلاء الجنة وهؤلاء النار، فتنزلوا منازلهم التي كانوا سينزلونها لو لم يفعلوا ما يوجب النار، فكان أهل النار استبدلوا الخير بالشر، والجيد بالردىء، والنعيم بالعذاب، وأهل الجنة على العكس من ذلك. يقال: غبنت فلاناً إذا بايعته، أو شاربته فكان النقص عليه والغلبة، كذا قال المفسرون، فالمغبون من غيب أهلهم، ومنازلهم في الجنة ﴿ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً نكفر عنه سيئاته﴾ أي: من وقع منه التصديق مع العمل الصالح استحق تكفير سيئاته، قرأ الجمهور (يكفر) (ويخله) بالتحية، وقرأ نافع، وابن عامر بالنون فيهما، وانتصاب ﴿خالدين فيها أبداً﴾ على أنها حال مقترنة، والإشارة بقوله: ﴿ذلك﴾ إلى ما نكر من التكفير والإخلال، وهو مبتدأ، وخبره ﴿الفوز العظيم﴾ أي: الظفر الذي لا يساويه ظفر. ﴿والذين كفروا وكتبوا بأياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير﴾ المراد بالآيات إما التنزيلية أو ما هو أعم منها، نكر

قوله: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعْثُوا﴾ الزعم: هو القول بالظن، ويطلق على الكذب. قال شريح: لكل شيء كنية، وكنية الكذب زعموا، و﴿أَنْ لَنْ يُعْثُوا﴾ قائم مقام مفعول زعم، وأن هي المخففة من الثقيلة لا المصدرية لئلا يدخل ناصب على ناصب، والمراد بالكفار كفار العرب؛ والمعنى: زعم كفار العرب أن الشأن لن يعثوا أبداً. ثم أمر سبحانه رسوله ﷺ بأن يردّ عليهم ويبطل زعمهم فقال:

فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطاه لم يكن ليصيبه.

[illegible]

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن مِّنَ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ

عُدُوا لَكُمْ﴾ يعني: أنهم يعاونكم ويشغلونكم عن الخير، ويدخل في ذلك سبب النزول بخولا أولياء، وهو أن رجلاً من مكة أسلموا، وأرادوا أن يهاجروا، فلم يدعهم أزواجهم ولا أولادهم، فأمر الله سبحانه بأن يحزروهم، فلا يطيعوهم في شيء مما يريدونه منهم مما فيه مخالفة لما يريد الله، والضمير في ﴿فاحذروهم﴾ يعود إلى العنوة، أو إلى الأزواج والأولاد لكن لا على العموم، بل إلى المتصفين بالعداوة منهم، وإنما جاز جمع الضمير على الوجه الأول؛ لأن العنوة يطلق على الواحد، والاثنتين، والجماعة، ثم أرشدكم الله إلى التجاوز، فقال: ﴿وَإِن تَعَفَوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا﴾ أي: تعفوا عن نوبتهم التي ارتكبوها، وتتركوا التثريب عليها وتستروها ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بلغ المغفرة والرحمة لكم ولهم، قيل: كان الرجل الذي ثبت له أزواجه وأولاده عن الهجرة إذا رأى الناس قد سبقوه إليها، وفقهوا في الدين هم أن يعاقب أزواجه وأولاده، فانزل الله ﴿وَإِن تَعَفَوْا﴾ الآية، والآية تعم وإن كان السبب خاصاً، كما عرفناك غير مرة. قال مجاهد: والله ما عابوهم في الدنيا، ولكن حملتهم موتهم على أن اتخذوا لهم الحرام، فأعطوهم إياه. ثم أخبر الله سبحانه بأن الأموال والأولاد فتنة فقال: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي: بلاء واختبار ومحنة، يحملونكم على كسب الحرام ومنع حق الله، فلا تطيعوهم في معصية الله ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ نَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لمن أثر طاعة الله، وترك معصيته في محبة ماله وولده. ثم أمرهم سبحانه بالتقوى والطاعة فقال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ أي: ما أطقتم وبلغ إليه جهنمكم. وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن هذه الآية ناسخة لقوله سبحانه: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ [آل عمران: 102] ومنهم قتادة، والربيع بن أنس، والسدي، وابن زيد، وقد أوضحنا الكلام في قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ [آل عمران: 102] ومعنى ﴿وَأَسْمِعُوا وَاطِيعُوا﴾ أي: اسمعوا ما تؤمرون به، واطيعوا الأوامر. قال مقاتل ﴿أَسْمِعُوا﴾ أي: اصغوا إلى ما ينزل عليكم، واطيعوا لرسوله فيما يأمركم وينهاكم. وقيل: معنى ﴿أَسْمِعُوا﴾ اقبلوا ما تسمعون؛ لأنه لا فائدة في مجرد السماء ﴿وَأَنْفِقُوا خَيْراً لِّأَنْفُسِكُمْ﴾ أي:

سبحانه حال السعداء، وحال الأشقياء هاهنا لبين ما تقدم من التغاين، وأنه سيكون بسبب التكفير، وإخبال الجنة للطائفة الأولى، وبسبب إدخال للطائفة الثانية النار، وخلودهم فيها ﴿ما أصاب من مصيبة إلا باذن الله﴾ أي: ما أصاب كل أحد من مصيبة من المصائب إلا باذن الله أي: بقضائه وقدره، قال الفراء: إلا باذن الله أي: بأمر الله، وقيل: إلا يعلم الله. قيل: وسبب نزولها أن الكفار قالوا: لو كان ما عليه المسلمون حقاً لصانهم الله عن المصائب في الدنيا ﴿ومن يؤمن بالله يهد قلبه﴾ أي: من يصدق ويعلم أنه لا يصيبه إلا ما قدره الله عليه يهد قلبه للصبر والرضا بالقضاء. قال مقاتل بن حيان: يهد قلبه عند المصيبة، فيعلم أنها من الله، فيسلم لقضائه ويسترجع. وقال سعيد بن جبير: يهد قلبه عند المصيبة، فيقول: ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ [البقرة: 156] وقال الكلبي: هو إذا ابتلي صبر، وإذا أئتم عليه شكر، وإذا ظلم غفر. قرأ الجمهور (يهد) بفتح الياء، وكسر الدال أي: يهده الله، وقرأ قتادة، والسلمي، والضحاك، وأبو عبد الرحمن بضم الياء، وفتح الدال على البناء للمفعول، وقرأ طلحة بن مصرف، والأعرج، وسعيد بن جبير، وابن هرمز، والأزرق (تهد) بالنون، وقرأ مالك بن دينار، وعمرو بن دينار، وعكرمة (يهدا) بهزة ساكنة، ورفع قلبه أي: يطمئن ويسكن ﴿والله بكل شيء عليم﴾ أي: بليغ العلم لا تخفى عليه من تلك خافية ﴿واطيعوا الله واطيعوا الرسول﴾ أي: هؤنوا على أنفسكم المصائب، واشتغلوا بطاعة الله وطاعة رسوله ﴿فإن توليتم﴾ أي: أعرضتم عن الطاعة ﴿فإنما على رسولنا لبلاغ المبين﴾ ليس عليه غير ذلك وقد فعل، وجواب الشرط محذوف، والتقدير فلا بأس على الرسول، وجملة ﴿فإنما على رسولنا﴾ تعليل للجواب المحذوف، ثم أرشد إلى التوحيد والتوكل فقال: ﴿الله لا إله إلا هو﴾ أي: هو المستحق للعبودية دون غيره، فوحده ولا تشركوا به ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ أي: يفوضوا أمورهم إليه، ويعتمدوا عليه لا على غيره.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، والبيهقي، وابن مريويه عن ابن مسعود أنه قيل له: ما سمعت النبي ﷺ يقول: في رمعوا؟ قال: سمعته يقول: «بئس مطية الرجل». وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر عنه أنه كره زعموا. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: يوم التغابن من أسماء يوم القيامة. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عنه في قوله: ﴿تُكَفِّرُ بِنَارِهِ﴾ قال: غيب أهل الجنة أهل النار، وأخرج سعيد بن منصور عن ابن مسعود في قوله: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ﴾ قال: هي المصيبات تصيب الرجل، فيعلم أنها من عند الله، فيسلم لها ويرضى. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿يَهْدِ قُلُوبَهُ﴾ قال: يعني يهد قلبه لليقين،

تفسير سورة الطلاق

وهي منبذة. قال القرطبي: في قول الجميع. وأخرج ابن الضريس، وابن النحاس، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة الطلاق بالمدينة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِمَ بَيْنَهُنَّ وَاحْتَصِرَ الْيَدُ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تَخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَتْحٍ مُبِينٍ وَلكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لِمَكَ اللَّهُ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أُمُوراً ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغَ الْأَجَلُ مَا تُمَسَّكُونَهُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارُقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِمَّنْكُمْ وَاقْبِلُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ بَقِيَ اللَّهُ يَحْمِلْ لَهُ عِزًّا ﴿٢﴾ وَزَكَّاهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ وَكَلَّى يَتْنٍ مِنَ الْمَجْنُونِ مِنْ نَسَائِكُمْ إِنْ أَرْتَنَّتُمْ فَعِدَّتِهِنَّ فَلَنُفِئَنَّ أَشْهُرَهُنَّ وَكَلَّى لَكُمْ يَحْنُ وَأَوَّلَتْ الْأَحْمَالُ أَجَلَهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ بَقِيَ اللَّهُ يَحْمِلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهُ بَشَرًا ﴿٤﴾ ذَلِكُمْ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الَّذِينَ يُكْفَرُونَ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ وَيُطِيعُونَ أَمْرًا ﴿٥﴾

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ نادى النبي ﷺ أولاً تشريعاً له، ثم خاطبه مع أمته، أو الخطاب له خاصة، والجمع للتعظيم، وأمه أسوته في ذلك، والمعنى: إذا أرتبتم تطليقهن وعزمتن عليه ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِمَ بَيْنَهُنَّ﴾ أي: مستقبلات لعنتهن، أو في قبل عدتهن، أو لقليل عدتهن. وقال الجرجاني: إن اللام في لعنتهن بمعنى في، أي: في عدتهن. وقال أبو حيان: هو على حذف مضاف أي: لاستقبال عدتهن، واللام للتوقيت نحو لقيته الليلة بقيت من شهر كذا، والمراد أن يطلقوهن في طهر لم يقع فيه جماع، ثم يتركن حتى تنقضي عدتهن، فإذا طلقوهن هكذا، فقد طلقوهن لعنتهن، وسيأتي بيان هذا من السنة في آخر البحث إن شاء الله ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ أي: احفظوها، واحفظوا الوقت الذي وقع فيه الطلاق حتى تتم العدة، وهي ثلاثة قروء، والخطاب للزواج، وقيل: للزواج، وقيل: للمسلمين على العموم، والاول أولى، لأن الضمائر كلها لهم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ فلا تعصوه فيما أمركم ولا تضاروهن ﴿لَا تَخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾ أي: التي كنَّ فيها عند الطلاق ما دمن في العدة، وأضاف البيوت إليهن وهي لازواجهن لتأكيد النهي، وبيان كمال استحقاقهن للسكنى في مدة العدة، ومثله قوله: ﴿وَأَنْكُرْنَ مَا يَتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: 34] وقوله: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: 33] ثم لما نهى الأزواج عن إخراجهن من البيوت التي وقع الطلاق وهنَّ فيها نهى

انفقوا من أموالكم التي رزقكم الله إياها في وجوه الخير ولا تبخلوا بها، وقوله: ﴿خَيْرًا لِنَفْسِكُمْ﴾ منتصب بفعل مضمر دلَّ عليه انفقوا، كأنه قال: ائتوا في الإنفاق خيراً لأنفسكم، أو قدّموا خيراً لها، كذا قال سيبويه. وقال الكسائي، والفراء: هو نعت لمصدر محذوف أي: إنفاقاً خيراً. وقال أبو عبيدة: هو خبر لكان المقنرة أي: يكن الإنفاق خيراً لكم. وقال الكوفيون: هو منتصب على الحال، وقيل: هو مفعول به لأنفقوا أي: فأنفقوا خيراً. والظاهر: في الآية الإنفاق مطلقاً من غير تقييد بالزكاة الواجبة، وقيل: المراد زكاة الفريضة، وقيل: النافلة، وقيل: النفقة في الجهاد ﴿وَمَنْ يَبْقُ شَخْخَ نَفْسَهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: ومن يوق شخ نفسه، فيفعل ما أمر به من الإنفاق، ولا يمتعه ذلك منه، فأولئك هم الظافرون بكل خير الفائزون بكل مطلب، وقد تقدم تفسير هذه الآية ﴿إِنْ تَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ فتصرفون أموالكم في وجوه الخير بإخلاص نية وطيب نفس ﴿يُضَاعَفْ لَكُمْ﴾ فيجعل الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وقد تقدم تفسير هذه الآية، واختلاف القراء في قراءتها في سورة البقرة، وسورة الحديد ﴿وَيُغْفَرُ لَكُمْ﴾ أي: يضم لكم إلى تلك المضاعفة غفران ذنوبكم ﴿وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ ثيب من أطاعه بأضعاف مضاعفة، ولا يعاجل من عصاه بالعقوبة ﴿عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي: ما غاب وما حضر لا تخفى عليه منه خافية، وهو ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: الغالب القاهر ذو الحكمة الباهرة. وقال ابن الأنباري: الحكيم هو المحكم لخلق الأشياء.

وقد أخرج الفريابي، وعبد بن حميد، والترمذي وصححه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ مِنْ أَرْوَالِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عِدُوا لَكُمْ فَأَحْذَرُوهُمْ﴾ في قوم من أهل مكة أسلموا، وأرادوا أن يأتوا النبي ﷺ، فأبى أروالهم وأولادهم أن يدعوه، فلما أتوا رسول الله ﷺ، فرأوا الناس قد فقهوا في الدين هموا أن يعاقبوه، فنزلت إلى قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن بريدة قال: كان النبي ﷺ يخطب، فاقبل الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله ﷺ من المنبر، فحملهما واحداً من ذا الشق، وولحداً من ذا الشق ثم صعد المنبر فقال: «صدق الله: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾، إني لما نظرت إلى هذين الغلامين يمشيان ويعثران لم أصبر أن قطعت كلامي ونزلت إليهما». وأخرج ابن جرير، والحاكم وصححه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله استقرضت عبيدي فأبى أن يقرضني، وشتمني عبيدي وهو لا يدري، يقول: وأدهراه، وأدهراه، وأنا الدهر»، ثم تلا أبو هريرة ﴿إِنْ تَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضَاعَفْ لَكُمْ﴾.

﴿وَأَشْهَدُوا نَوِي عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ أمراً بنفس الإِشهاد، ويكون قوله: ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ﴾ أمراً بأن تكون خالصة لله، والإشارة بقوله: ﴿تُنْصِرُكُمْ﴾ إلى ما تقدّم من الأمر بالإِشهاد، وإقامة الشهادة لله، وهو مبتدأ، وخبره ﴿يُعِظُّ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ وخص المؤمن بالله واليوم الآخر؛ لأنه المنتفع بذلك دون غيره ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً﴾ أي: من يتق الله عذاب الله بامتنال أوامره، واجتناب نواهيه، والوقوف على حدوده التي حدّها لعباده، وعدم مجاوزتها يجعل له مخرجاً مما وقع فيه من الشدائد والمحن ﴿وَيُرِزُّهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ أي: من وجه لا يخطر بباله، ولا يكون في حسابه. قال الشعبي، والضحاك: هذا في الطلاق خاصة أي: من طلق كما أمره الله يكن له مخرج في الرجعة في العدة، وأنه يكون كأحد الخطاب بعد العدة. وقال الكلبي: ومن يتق الله بالصبر عند المصيبة يجعل له مخرجاً من النار إلى الجنة. وقال الحسن: مخرجاً مما نهى الله عنه. وقال أبو العالية: مخرجاً من كل شيء ضاق على الناس. وقال الحسين بن الفضل: ومن يتق الله في أداء الفرائض يجعل له مخرجاً من العقوبة، ويرزقه الثواب من حيث لا يحتسب أي: يبارك له فيما آتاه. وقال سهل بن عبد الله: ومن يتق الله في اتباع السنة يجعل له مخرجاً من عقوبة أهل البدع، ويرزقه الجنة من حيث لا يحتسب، وقيل: غير ذلك. وظاهر الآية العموم، ولا وجه للتخصيص بنوع خاص، ويخل ما فيه السياق دخول أولياً ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ أي: ومن وثق بالله فيما نابه كفاه ما أهمه ﴿إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ قرأ الجمهور (بالغ أمره) بتنوين بالغ، ونصب أمره، وقرأ حفص بالإضافة، وقرأ ابن أبي عبيدة، وداود بن أبي هند، وأبو عمرو في رواية عنه بتنوين بالغ، ورفع أمره على أنه فاعل بالغ، أو على أن أمره مبتدأ مؤخر، وبالح خبر مقدم. قال الفراء في توجيه هذه القراءة أي: أمره بالغ؛ والمعنى على القراءة الأولى، والثانية: أن الله سبحانه بالغ ما يريده من الأمر لا يفوته شيء، ولا يعجزه مطلوب، وعلى القراءة الثالثة: أن الله نافذ أمره لا يردّه شيء. وقرأ المفضل (بالغا) بالنصب على الحال، ويكون خبر إن قوله: ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ أي: تقديراً وتوقيتاً أو مقداراً. فقد جعل سبحانه للشدة أجلاً تنتهي إليه، وللرخاء أجلاً ينتهي إليه. وقال السدي: هو قدر الحيض والعدة ﴿وَاللَّائِي يُمْسِنُ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ﴾ وهن الكبار اللاتي قد انقطع حيضهن وأيسن منه ﴿إِنْ ارْتَبْتُمْ﴾ أي: شككتن وجهلتم كيف عدتهن ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحْضُنَّ﴾ لصغرهن، وعدم بلوغهن سن الحيض أي: فعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ، وحذف هذا دلالة ما قبله عليه ﴿وَأُولَاتِ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ أي: انتهاء عدتهن وضع الحمل، وظاهر الآية أن عدة الحوامل بالوضع سواء كن مطلقات أو متوفى عنهن، وقد تقدّم الكلام في هذا في سورة البقرة مستوفى، وحققنا البحث في هذه

الزوجات عن الخروج أيضاً فقال: ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ أي: لا يخرجن من تلك البيوت ما نمن في العدة إلا لأمر ضروري، كما سيأتي بيان ذلك، وقيل: المراد لا يخرجن من أنفسهن إلا إذا أذن لهنّ الأزواج، فلا بأس، والأول أولى ﴿إِلَّا أَنْ يَلْتَمِسَا بَفَاحِشَةٍ مَبِينَةٍ﴾ هذا الاستثناء هو من الجملة الأولى أي: لا تخرجوهنّ من بيوتهنّ، لا من الجملة الثانية. قال الواحدي: أكثر المفسرين على أن المراد بالفاحشة هنا الزنا، وذلك أن تزني، فتخرج لإقامة الحدّ عليها. وقال الشافعي وغيره: هي البذاء في اللسان، والاستطالة بها على من هو ساكن معها في تلك البيت، ويؤيد هذا ما قال عكرمة: إن في مصحف أبي (إلا أن يفحشن عليكم) وقيل المعنى: إلا أن يخرجن تعدياً، فإن خروجهنّ على هذا الوجه فاحشة، وهو بعيد، والإشارة بقوله: ﴿وَتُكَلِّمُنَّ﴾ إلى ما نكر من الأحكام وهو مبتدأ، وخبره ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾ والمعنى: أن هذه الأحكام التي بينها لعباده هي حدوده التي حدّها لهم لا يحلّ لهم أن يتجاوزوها إلى غيرها ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ﴾ أي: يتجاوزها إلى غيرها، أو يخلّ بشيء منها ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ بإيرادها مورد الهلاك، وأوقعها في مواقع الضرر بعقوبة الله له على مجاوزته لحدوده وتعديه لرسمه، وجملة ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ مستأنفة لتقرير مضمون ما قبلها وتعليله. قال القرطبي: قال جميع المفسرين: أراد بالأمر هنا الرغبة في الرجعة؛ والمعنى: التحريض على طلاق الواحدة، والنهي عن الثلاث، فإنه إذا طلق ثلاثاً أضرب بنفسه عند الندم على الفراق، والرغبة في الارتجاع، فلا يجد إلى المراجعة سبيلاً. وقال مقاتل بعد ذلك أي: بعد طلبة أو طلقتين أمراً بالمراجعة. قال الواحدي: الأمر الذي يحدث أن يقع في قلب الرجل المحبة لرجعتها بعد الطلقة والطلقتين. قال الزجاج: وإذا طلقها ثلاثاً في وقت واحد، فلا معنى لقوله: ﴿لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: قاربن انقضاء أجل العدة، وشارفن آخرها ﴿فَإِمْسَكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: راجعوهنّ بحسن معاشرة، ورغبة فيهنّ من غير قصد إلى مضارة لهنّ ﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: اتركوهنّ حتى تنقضي عدتهنّ، فيملكن نفوسهن مع إيفائهنّ بما هو لهنّ عليكم من الحقوق، وترك المضارة لهنّ ﴿وَأَشْهَدُوا نَوِي عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ على الرجعة، وقيل: على الطلاق، وقيل: عليهما قطعاً للتنازع، وحسماً لمادة الخصومة، والأمر للنسب، كما في قوله: ﴿وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ [البقرة: 282] وقيل: إنه للوجوب، وإليه ذهب الشافعي قال: الإِشهاد واجب في الرجعة مندوب إليه في الفرقة، وإليه ذهب أحمد بن حنبل. وفي قول للشافعي: إن الرجعة لا تنفقر إلى الإِشهاد كسائر الحقوق، وروي نحو هذا عن أبي حنيفة وأحمد ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ﴾ هذا أمر للشهود بأن يأتوا بما شاهدوا به تقريباً إلى الله، وقد تقدّم تفسير هذا في سورة البقرة، وقيل: الأمر للأزواج بأن يقيموا الإِشهادة أي: الشهود عند الرجعة، فيكون قوله:

(فطلقوهن لقبل عدتهن). وأخرج ابن الأنباري، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، والبيهقي عن مجاهد أنه قرأ كذلك. وأخرج عبد الرزاق، وأبو عبيد في فضائله، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس أنه قرأ كذلك. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن مردويه عن ابن مسعود قال: من أراد أن يطلق للسنة، كما أمره الله، فليطلقها طاهراً في غير جماع. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه من طرق عن ابن عباس في قوله: ﴿فطلقوهن لعدتهن﴾ قال: طاهراً من غير جماع، وفي الباب أحاديث. وأخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود: ﴿وأحصوا العدة﴾ قال: الطلاق طاهراً في غير جماع. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في سننه عن ابن عمر في قوله: ﴿ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة﴾ قال: خروجها قبل انقضاء العدة من بيتها هي الفاحشة المبينة. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن ابن عباس: ﴿إلا أن يأتين بفاحشة مبينة﴾ قال: الزنا. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن راهويه، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن مردويه، والبيهقي من طرق عن ابن عباس قال: الفاحشة المبينة أن تبين المرأة على أهل الرجل، فإذا بذت عليهم بلسانها، فقد حل لهم إخراجها. وأخرج ابن أبي حاتم عن فاطمة بنت قيس في قوله: ﴿لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً﴾ قالت: هي الرجعة. وأخرج عبد الرزاق عن ابن سيرين أن رجلاً سأل عمران بن حصين أن رجلاً طلق، ولم يشهد، قال: بئس ما صنع، طلق في بدعة وارتجع في غير سنة، فليشهد على طلاقه وعلى مراجعته، ويستغفر الله. وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود في قوله: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً﴾ قال: مخرجه أن يعلم أنه من قبل الله، وأن الله هو الذي يطويه وهو يمنعه، وهو يبتليه وهو يعافيه وهو يدفع عنه، وفي قوله: ﴿ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ قال: من حيث لا يدري. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً﴾ قال: ينجيه من كل كرب في الدنيا والآخرة. وأخرج الحاكم وصححه، وضعفه الذهبي من طريق سالم بن أبي الجعد عن جابر قال: «نزلت هذه الآية: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً﴾ في رجل من أشجع كان فقيراً خفيف ذات اليد كثير العيال، فأتى رسول الله ﷺ، فقال: اتق الله واصبر، فلم يلبث إلا يسيراً حتى جاء ابن له بغم كان العدو أصابوه، فأتى رسول الله ﷺ، فسأله عنها، وأخبره خبرها، فقال: كلها، فنزلت: ﴿ومن يتق الله﴾ الآية. وأخرج ابن مردويه من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: «جاء عوف بن مالك الأشجعي إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله إن ابني أسره العدو، وجزعت أمه، فما تأمرني؟ قال: أمرك، وإياها أن تستكثر من قول لا حول ولا

الآية وفي الآية الأخرى ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً﴾ [البقرة: 234] وقيل: معنى ﴿إن ارتبتم﴾ إن تيقنتم، ورجح ابن جرير أنه بمعنى الشك، وهو الظاهر. قال الزجاج: إن ارتبتم في حيضها، وقد انقطع عنها الحيض، وكانت ممن يحيض مثلاً. وقال مجاهد: إن ارتبتم: يعني لم تعلموا عدة الأيسة والتي لم تحض فالعدة هذه. وقيل المعنى: إن ارتبتم في الدم الذي يظهر منها هل هو حيض أم لا بل استحاضة، فالعدة ثلاثة أشهر ﴿ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً﴾ أي: من يتقه في امتثال أوامره، واجتناب نواهيه يسهل عليه أمره في الدنيا والآخرة. وقال الضحك: من يتق الله، فليطلق للسنة يجعل له من أمره يسراً في الرجعة. وقال مقاتل: من يتق الله في اجتناب معاصيه يجعل له من أمره يسراً في توفيقه للطاعة، والإشارة بقوله: ﴿تلك﴾ إلى ما نكر من الأحكام أي: تلك المنكورة من الأحكام ﴿أمر الله أنزله إليكم﴾ أي: حكمه الذي حكم به بين عباده، وشرعه الذي شرعه لهم، ومعنى ﴿أنزله إليكم﴾ أنزله في كتابه على رسوله، وبينه لكم وفصل أحكامه، وأوضح حلاله وحرامه ﴿ومن يتق الله﴾ بترك ما لا يرضاه ﴿يكفر عنه سيئاته﴾ التي اقترفها؛ لأن التقوى من أسباب المغفرة للذنوب ﴿ويعظم له أجراً﴾ أي: يعطه من الأجر في الآخرة أجراً عظيماً، وهو الجنة.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن أنس قال: طلق رسول الله ﷺ حفصة، فأتت أهلها، فأنزل الله ﴿يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن﴾ فقيل له: راجعها، فإنها صوامة قوامة، وهي من أزواجك في الجنة. وأخرج ابن جرير عن قتادة مرسلاً. وأخرج الحاكم عن ابن عباس قال: «طلق عبد يزيد أبو ركانة أم ركانة، ثم نكح امرأة من مزينة، فجاءت إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله ما يغني عني إلا ما تغني عني هذه الشعرة لشعرة أخذتها من رأسها، فأخذت رسول الله ﷺ حمية عند ذلك، فدعا رسول الله ﷺ ركانة وإخوته، ثم قال لجلسائه: «أترون كذا من كذا، فقال رسول الله ﷺ لعبد يزيد: طلقها، ففعل، فقال لأبي ركانة ارتجعها، فقال: يا رسول الله إنني طلقتها، قال: قد علمت ذلك، فارتجعها، فنزلت: ﴿يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن﴾. قال الذهبي: إسناداه واه، والخبر خطأ، فإن عبد يزيد لم يدرك الإسلام. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن ابن عمر: أنه طلق امرأته، وهي حائض، فنكر ذلك عمر لرسول الله ﷺ، فتغيظ رسول الله ﷺ، ثم قال: «ليراجعها، ثم يمسكها حتى تطهر، ثم تحيض، وتطهر، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهراً قبل أن يمسه، فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء»، وقرأ النبي ﷺ (يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن في قبل عدتهن). وأخرج عبد الرزاق في المصنف، وابن المنذر، والحاكم، وابن مردويه عن ابن عمر: «أن رسول الله ﷺ قرأ (فطلقوهن في قبل عدتهن)». وأخرج ابن الأنباري عن ابن عمر أنه قرأ

سلمة: إن سبيعة الأسلمية توفي عنها زوجها وهي حبلى، فوضعت بعد موته بأربعين ليلة، فخطبت فانكحها رسول الله ﷺ. وفي الباب أحاديث.

أَنْكِحُوا مَنْ بَيْنَ يَدَيْكُمْ وَلَا مُضَارَّةَ لِمُصَيَّبَتِهَا عَلَيْهِنَ وَإِنْ كُنَّ أُولَئِكَ حُرًّا فَلْيَفْزَعُوا عَلَيْهِنَ حَقَّ يَمَعَنَ حَمَلُهُنَّ إِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَتَأْتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَأَتَمُّوا بَيْنَكُمْ بِمَرْفُوقٍ وَإِنْ تَعَارَفْتُمْ فَتَضَعُ لَهُ أُخْرَى ① يَنْفَقُ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قَرَّبَ عَلَيْهِنَّ رِقْلُهُ فَلْيَفْزَعُ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يَكُفُّ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ②

قوله: ﴿اسْكُنوهنَّ من حيث سكنتم﴾ هذا كلام مبتدأ يتضمن بيان ما يجب للنساء من السكنى، ومن للتبعيض أي: بعض مكان سكناكم، وقيل: زائدة ﴿من وجديكم﴾ أي: من سعتكم وطاقتكم، والوجد القدرة. قال الفراء: يقول على ما يجد، فإن كان موسعاً عليه، وسع عليها في المسكن والنفقة، وإن كان فقيراً فعلى قدر ذلك. قال قتادة: إن لم تجد إلا ناحية بيتك فأسكنها فيه.

وقد اختلف أهل العلم في المطلقة ثلاثاً، هل لها سكنى ونفقة أم لا؟ فذهب مالك، والشافعي أن لها السكنى ولا نفقة لها. وذهب أبو حنيفة وأصحابه أن لها السكنى والنفقة. وذهب أحمد، وإسحاق، وأبو ثور أنه لا نفقة لها ولا سكنى، وهذا هو الحق، وقد قررته في شرحي للمنتقى بما لا يحتاج الناظر فيه إلى غيره ﴿ولا تضاروهن لتضييقوا عليهن﴾ نهى سبحانه عن مضارتهن بالتضييق عليهن في المسكن والنفقة. وقال مجاهد: في المسكن. وقال مقاتل: في النفقة. وقال أبو الضحى: هو أن يطلقها، فإذا بقي يومان من عنتها راجعها، ثم طلقها ﴿وإن كنَّ أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يرضعن حملهن﴾ أي: إلى غاية هي وضعهن للحمل. ولا خلاف بين العلماء في وجوب النفقة والسكنى للحامل المطلقة؛ فاما الحامل المتوفى عنها زوجها، فقال علي، وابن عمر، وابن مسعود، وشريح، والنخعي، والشعبي، وحمام، وابن أبي ليلى، وسفيان وأصحابه: ينفق عليها من جميع المال حتى تضع. وقال ابن عباس، وابن الزبير، وجابر بن عبد الله، ومالك، والشافعي، وأبو حنيفة وأصحابه: لا ينفق عليها إلا من نصيبها، وهذا هو الحق للألة الواردة في ذلك من السنة ﴿فإن أرضعن لكم﴾ أولانكم بعد ذلك ﴿فأتوهن أجورهن﴾ أي: أجور إرضاعهن والمعنى: أن المطلقات إذا أرضعن أولاد الأزواج المطلقين لهنّ منهنّ، فلهنّ أجورهنّ على ذلك ﴿واتمروا بينكم بمعروف﴾ هو خطاب للأزواج والزوجات أي: تشاوروا بينكم بما هو معروف غير منكر، وليقبل بعضكم من بعض من المعروف والجميل، وأصل معناه ليأمر بعضكم بعضاً بما هو متعارف بين الناس غير منكر عندهم. قال مقاتل: المعنى ليتراض الأب والأم على أجر مسمى، قيل: والمعروف الجميل من الزوج أن يوفر لها الأجر، والمعروف الجميل منها أن لا تطالب ما يتعاسره الزوج من الأجر ﴿وإن تعاسرت﴾ أي: في أجر الرضاع،

قوة إلا بالله، فقالت المرأة: نعم ما أمرك، فجعلنا يكثران منها، فتغفل عنه العدو، فاستاق غنمهم، فجاء بها إلى أبيه، فنزلت: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً﴾ الآية. وفي الباب روايات تشهد لهذا. وأخرج ابن أبي حاتم عن عائشة في الآية قالت: يكفيه هم الدنيا وغمها. وأخرج أحمد وصححه، وابن مردويه، وأبو نعيم في المعرفة، والبيهقي عن أبي نر قال: «جعل رسول الله ﷺ يتلو هذه الآية: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً﴾ ويرزقه من حيث لا يحتسب» فجعل يرددها حتى نعست، ثم قال: يا أبا نر لو أن الناس كلهم أخذوا بها لكفتهم» وفي الباب أحاديث. وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود في قوله: ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾ قال: ليس المتوكل الذي يقول تقضي حاجتي، وليس كل من يتوكل على الله كفاه ما أهمه، ونفع عنه ما يكره، وقضى حاجته، ولكن الله جعل فضل من توكل على من لم يتوكل أن يكفر عنه سيئاته، ويعظم له أجراً، وفي قوله: ﴿إن الله بالغ أمره﴾ قال: يقول قاضي أمره على من توكل، وعلى من لم يتوكل، ولكن المتوكل يكفر عنه سيئاته، ويعظم له أجراً، وفي قوله: ﴿قد جعل الله لكل شيء قدراً﴾ قال: يعني أجلاً ومنتى ينتهي إليه. وأخرج ابن المبارك، والطائسي، وأحمد، وعبد بن حميد، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وأبو يعلى، والحاكم وصححه، والبيهقي عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقتم كما ترزق الطير، تغدو خماصاً وتروح بطاناً». وأخرج إسحاق بن راهويه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في سننه عن أبي بن كعب أن ناساً من أهل المدينة لما نزلت هذه الآية في البقرة في عدة النساء قالوا: لقد بقي من عدة النساء عدد لم ينكر في القرآن الصغار والكبار اللاتي قد انقطع حيضهنّ، ونوات الحمل، فأنزل الله: ﴿واللاتي يئسن من المحيض﴾ الآية. وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد المستند، وأبو يعلى، والضياء في المختارة، وابن مردويه عن أبي بن كعب قال: «قلت للنبي ﷺ: ﴿وإولات الأحمال لجلهنّ أن يضعن حملهن﴾ أمي المطلقة ثلاثاً، أو المتوفى عنها؟ قال: هي المطلقة ثلاثاً، والمتوفى عنها». وأخرج نحوه عنه مرفوعاً ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والدارقطني من وجه آخر. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه من طرق عن ابن مسعود أنه بلغه أن علياً قال: تعدّ آخر الأجلين، فقال: من شاء لاعنته إن الآية التي في سورة النساء القصوى نزلت بعد سورة البقرة ﴿وإولات الأحمال لجلهنّ أن يضعن حملهن﴾ بكذا وكذا أشهراً، وكل مطلقة، أو متوفى عنها زوجها فأجلها أن تضع حملها. وروي نحو هذا عنه من طرق، وبعضها في صحيح البخاري. وقد ثبت في الصحيحين، وغيرهما من حديث أم

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿فحاسبناها حساباً شديداً﴾ يقول: لم ترحم ﴿ووعظبناها عذاباً نكراً﴾ يقول: عظيماً منكرًا. وأخرج ابن مريويه عنه ﴿قد أنزل الله إليكم نكراً رسولاً﴾ قال: محمداً ﷺ. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر من طريق سعيد بن جبيرة عن ابن عباس أنه قال له رجل ﴿الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن﴾ إلى آخر السورة، فقال ابن عباس: ما يؤمنك أن أخبرك بها فتكفر؟ وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب من طريق أبي الضحى عن ابن عباس في قوله: ﴿ومن الأرض مثلهن﴾ قال: سبع أرضين في كل أرض نبي كنبكيك، وأدم كآدم، ونوح كنوح، وإبراهيم كإبراهيم، وعيسى كعيسى، قال البيهقي: هذا إسناداه صحيح، وهو شاذ بمرة لا أعلم لأبي الضحى عليه متابعا. وأخرج ابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن ابن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الأرضين بين كل أرض والتي تليها مسيرة خمسمائة عام، والعليا منها على ظهر حوت قد التقى طرفاه في السماء، والحوت على صخرة، والصخرة بيد ملك. والثانية مسجن الرياح، فلما أراد الله أن يهلك عاداً أمر خازن الرياح أن يرسل عليهم ريحاً يهلك عاداً، فقال: يا رب أرسل عليهم من الرياح قدر منخر الثور؟ فقال له الجبار: إن تكفأ الأرض ومن عليها، ولكن أرسل عليهم بقدر خاتم فهي التي قال الله في كتابه: ﴿ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم﴾ [الذاريات: 42] والثالثة فيها حجارة جهنم، والرابعة فيها كبريت جهنم، فقالوا: يا رسول الله للنار كبريت؟ قال: نعم، والذي نفسي بيده: إن فيها لأودية من كبريت لو أرسل فيها الجبال الرواسي لماعت، إلى آخر الحديث. قال الذهبي متعقباً للحاكم: هو حديث منكر. وأخرج عثمان بن سعيد الدارمي عن ابن عباس قال: سيد السموات السماء التي فيها العرش، وسيد الأرضين الأرض التي نحن فيها.

تفسير سورة التحريم

وهي منخية. قال القرطبي: في قول الجميع، وتسمى سورة النبي. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مريويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة التحريم بالمدينة، ولغظ ابن مريويه سورة المحرم. وأخرج ابن مريويه عن ابن الزبير قال: أنزلت بالمدينة سورة النساء، ﴿يا أيها النبي لم تحرم﴾ [أي: سورة التحريم].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ حَرَّمَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَيَّنَ رِضَاتُ أَرْوَاجِكَ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَضَّلَ اللَّهُ لَكَ عَمَلَهُ أَتَيْنِيكَمُ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَلَا أَمْرَ إِلَهٍ إِلَّا بَعِثَ أَرْوَاجَهُ حَيَاتًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ يَوْمَ وَأَعْلَاهُ اللَّهُ

بالتحتية، وقرأ نافع، وابن عامر بالنون، وجمع الضمير في ﴿خالدين فيها أبداً﴾ باعتبار معنى من، ووحدته في يدخله باعتبار لفظها، وجملة ﴿قد أحسن الله له رزقاً﴾ في محل نصب على الحال من الضمير في خالدين على التداخل، أو من مفعول يدخله على الترايف: ومعنى ﴿قد أحسن الله له رزقاً﴾ أي: وسع له رزقه في الجنة ﴿الله الذي خلق سبع سموات﴾ الاسم الشريف مبتدأ، وخبره الموصول مع صلته ﴿ومن الأرض مثلهن﴾ أي: وخلق من الأرض مثلهن يعني: سبعاً.

واختلف في كيفية طبقات الأرض. قال القرطبي في تفسيره: واختلف فيهن على قولين: أحدهما، وهو قول الجمهور أنها سبع أرضين طباقاً بعضها فوق بعض، بين كل أرض وأرض مسافة، كما بين السماء والأرض، وفي كل أرض سكان من خلق الله. وقال الضحاك: إنها مطبقة بعضها على بعض من غير فتوق بخلاف السموات. والأول أصح؛ لأن الأخبار دالة عليه في الترمذي، والنسائي، وغيرهما، وقد مضى لك مبيناً في البقرة قال: وفي صحيح مسلم عن سعيد بن زيد قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «من أخذ شبراً من الأرض ظملاً فإنه يطوقه يوم القيامة من سبع أرضين» إلى آخر كلامه، وسيأتي في آخر البحث ما يقوي قول الجمهور. قرأ الجمهور (مثلهن) بالنصب عطفاً على ﴿سبع سموات﴾ أو على تقدير فعل أي: وخلق من الأرض مثلهن. وقرأ عاصم في رواية عنه بالرفع على الابتداء، والجار والمجرور قبله خبره ﴿يُنزَّلُ الْأَمْرَ بَيْنَهُنَّ﴾ الجملة مستأنفة، ويجوز أن تكون صفة لما قبلها، والأمر الوحي. قال مجاهد: ينزل الأمر من السموات السبع إلى السبع الأرضين. وقال الحسن: بين كل سماء وبين الأرض. وقال قتادة: في كل أرض من أرضه، وسماء من سمائه خلق من خلقه وأمر من أمره، وقضاء من قضائه، وقيل: بينهن إشارة إلى ما بين الأرض السفلى التي هي أدناها، وبين السماء السابعة التي هي أعلاها، وقيل: هو ما يدبر فيهن من عجب تدبيره، فينزل المطر ويخرج النبات، ويأتي بالليل والنهار، والصيف والشتاء، ويخلق الحيوانات على اختلاف أنواعها وهيئاتها، فينقلهم من حال إلى حال. قال ابن كيسان: وهذا هو مجال اللغة واتساعها، كما يقال للموت: أمر الله وللريح والسحاب، ونحوها. قرأ الجمهور (ينزل الأمر) من التنزل، ورفع الأمر على الفاعلية، وقرأ أبو عمرو في رواية عنه (ينزل) من الإنزال، ونصب الأمر على المفعولية، والفاعل الله سبحانه، واللام في ﴿لتعلموا أن الله على كل شيء قدير﴾ متعلق بخلق، أو بيتنزل، أو بمقتدر أي: فعل ذلك؛ لتعلموا كمال قدرته، وإحاطته بالاشياء، وهو معنى ﴿وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً﴾ فلا يخرج عن علمه شيء منها كأنها ما كان، وانتصاب علماً على المصدرية؛ لأن أحاط بمعنى علم، أو هو صفة لمصدر محنوف أي: أحاط إحاطة علماً، ويجوز أن يكون تمييزاً.

التي ذهب أكثر المفسرين إلى أنها هي سبب نزول الآية أنه حَرَّمَ أَوَّلًا، ثم حلف ثانياً، كما قَدَّمْنَا ﴿وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾ أي: وليكم وناصركم، والمتولي لاموركم ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ﴾ بما فيه صلاحكم وفلاحكم ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أفعاله وأقواله ﴿وَإِنْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾ قال أكثر المفسرين: هي حفصة كما سبق، والحديث، هو تحريم مارية، أو العسل، أو تحريم التي وهبت نفسها له، والعامل في الظرف فعل مقدر أي: وإنكر إذ أَسْرَ. وقال الكلبي: أَسْرَ إليها أن أباك وأبا عائشة يكونان خليفتي على أمتي من بعدي ﴿فَلَمَّا نَبَاتَ بِهِ﴾ أي: أخبرت به غيرها ﴿وَإِظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي: أطلع الله نبيه على ذلك الواقع منها من الإخبار لغيرها ﴿عَرَفَ بَعْضُهُ﴾ أي: عَرَفَ حفصة بعض ما أخبرت به. قرأ الجمهور (عَرَفَ) مشدداً من التعريف، وقرأ علي، وطلحة بن مصرف، وأبو عبد الرحمن السلمي، والحسن، وقتادة، والكَسَاثِي بالتخفيف. واختار أبو عبيد، وأبو حاتم القراءة الأولى لقوله: ﴿وَإِعْرَاضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ أي: لم يعرّفها إياه، ولو كان مخففاً لقال في ضده: وإنكر بعضاً ﴿وَإِعْرَاضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ أي: وأعرض عن تعريف بعض ذلك كراهة أن ينتشر في الناس، وقيل: الذي أعرض عنه هو حديث مارية. وللمفسرين ها هنا خبط وخلط، وكل جماعة منهم ذهبوا إلى تفسير التعريف، والإعراض بما يطابق بعض ما ورد في سبب النزول، وسنوضح لك ذلك إن شاء الله ﴿فَلَمَّا نَبَاهَا بِهِ﴾ أي: أخبرها بما أقشمت من الحديث ﴿قَالَتْ مَنْ لَتَبَاكَ هَذَا﴾ أي: من أخبرك به ﴿قَالَ نَبَايَ الْعَلِيمِ الْخَبِيرِ﴾ أي: أخبرني الذي لا يخفى عليه خافية ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ الخطاب لعائشة وحفصة أي: إن تتوبا إلى الله فقد وجد منكما ما يوجب التوبة، ومعنى ﴿صَغَتْ﴾ عدلت ومالت عن الحق، وهو أنهما أحبتا ما كره رسول الله ﷺ، وهو إفشاء الحديث. وقيل المعنى: إن تتوبا إلى الله، فقد مالت قلوبكما إلى التوبة، وقال: قلوبكما، ولم يقل قلوبكما؛ لأن العرب تستكره الجمع بين تثنيتين في لفظ واحد ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ﴾ أي: تتظاهرا، قرأ الجمهور (تظاهرا) بحذف إحدى التاءين تخفيفاً. وقرأ عكرمة (تتظاهرا) على الأصل. وقرأ الحسن، وأبو رجاء، ونافع، وعاصم⁽¹⁾ في رواية عنهما (تظهرا) بتشديد الظاء، والهاء بدون ألف، والمراد بالتظاهر التعاضد والتعاون، والمعنى: وإن تعاضدا وتعاونتا في الغيرة عليه منكما وإفشاء سرّه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: فإن الله يتولى نصره وكذلك جبريل، ومن صلح من عباده المؤمنين، فلن يدعم ناصراً ينصره ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي: بعد نصر الله له، ونصر جبريل، وصالح المؤمنين ﴿ظَهِيرٌ﴾ أي: أعوان يظهرونه، والملائكة مبتدأ، وخبره ظهير. قال أبو علي الفارسي: قد جاء

(1) قوله: ونافع وعاصم، وذلك في غير المشهور الآن عنهما اهـ. ع.

عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَاهَا بِهِ. قَالَتْ مَنْ لَتَبَاكَ هَذَا قَالَ نَبَايَ الْعَلِيمِ الْخَبِيرِ ﴿١﴾ إِنْ تَوُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٢﴾ عَنِ رُؤُسِهِمْ إِنْ طَلَفْتُكُمْ أَنْ يُبَيِّنَ لَكُمْ أَنْزِلْنَا خَيْرَ مَنَاسِكٍ مُسَلِّمِينَ مُؤَمِّنِينَ وَيَسِّرِينَ عِيَادَتَكُمْ سَيِّئِينَ وَيَسِّرِينَ وَأَنْبَاكَ ﴿٣﴾

قوله: ﴿إِن يَأْيِهَا النَّبِيُّ لِمَ تَحَرَّمَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ اختلف في سبب نزول الآية على أقوال: الأول قول أكثر المفسرين. قال الواحدي: قال المفسرون: «كان النبي ﷺ في بيت حفصة، فزارت أباه، فلما رجعت أبصرت مارية في بيتها مع النبي ﷺ، فلم تسخل حتى خرجت مارية ثم تسخلت، فلما رأى النبي ﷺ في وجه حفصة الغيرة والكآبة قال لها: لا تخبري عائشة، ولك علي لا اقربها أبداً، فأكبرت حفصة عائشة، وكانتا متصافيتين، فغضبت عائشة، ولم تزل بالنبي ﷺ حتى حلف أن لا يقرب مارية». فأنزل الله هذه السورة. قال القرطبي: أكثر المفسرين على أن الآية نزلت في حفصة، ونكر القصة. وقيل: السبب أنه كان ﷺ يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش، فتواطأت عائشة وحفصة أن تقولاً له إذا دخل عليهما إنا نجد منك ريح مغافير. وقيل: السبب المرأة التي وهبت نفسها للنبي ﷺ، وسيأتي دليل هذه الأقوال آخر البحث إن شاء الله، وستعرف كيفية الجمع بينهما، وجملة ﴿تَتَبَغَّى مَرْضَاتِ أَزْوَاجِكُمْ﴾ مستأنفة، أو مفسرة لقوله: ﴿تَحَرَّمَ﴾، أو في محل نصب على الحال من فاعل تحرّم أي: مبتغياً به مرضاة أزواجك، ومرضاة اسم مصدر، وهو الرضى، وأصله مرضوة، وهو مضاف إلى المفعول أي: أن ترضي أزواجك، أو إلى الفاعل أي: أن يرضين هنّ ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: بليغ المغفرة والرحمة لما فرط منك من تحريم ما أحلّ الله لك، قيل: وكان لك ذنباً من الصغائر، فلذا عاتبه الله عليه، وقيل: إنها معاتبة على ترك الأولى ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ أي: شرع لكم تحليل أيمانكم، وبين لكم ذلك، وتحلة أصلها تحللة، فادغمت. وهي من مصادر التفعيل كالتوصية والتسمية، فكان اليمين عقد، والكفارة حلٌّ؛ لأنها تحل للحالف ما حرّمه على نفسه. قال مقاتل: المعنى قد بين الله كفارة أيمانكم في سورة المائدة. أمر الله نبيه ﷺ أن يُكْفِرَ يمينه، ويراجع وليّته، فاعتق رقبة. قال الزجاج: وليس لأحد أن يحرم ما أحلّ الله.

قلت: وهذا هو الحق أن تحريم ما أحلّ الله لا ينعقد ولا يلزم صاحبه. فالتحليل والتحريم هو إلى الله سبحانه لا إلى غيره، ومعاتبته لنبيه ﷺ في هذه السورة أبلغ دليل على ذلك، والبحث طويل، والمذاهب فيه كثيرة، والمقالات فيه طويلة، وقد حققناه في مؤلفتنا بما يشفي.

واختلف العلماء هل مجزئ التحريم يمين يوجب الكفارة أم لا؟ وفي ذلك خلاف، وليس في الآية ما يدل على أنه يمين؛ لأن الله سبحانه عاتبه على تحريم ما أحله له، ثم قال: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ وقد ورد في القصة

فعيل للكثرة كقوله: ﴿ولا يسأل حميم حميماً﴾ [المعارج: 10] قال الواحدي: وهذا من الواحد الذي يؤدي عن الجمع كقوله: ﴿وحسن أولئك رفيقاً﴾ [النساء: 69] وقد تقرّر في علم النحو أن مثل جريح وصبور وظهير يوصف به الواحد والمثنى والجمع. وقيل: كان التظاهر بين عائشة وحفصة في التحكم على النبي ﷺ في النفقة ﴿عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن﴾ أي: يعطيه بلكن أزواجاً أفضل منكن، وقد علم الله سبحانه أنه لا يطلقهن؛ ولكن أخبر عن قدرته على أنه إن وقع منه الطلاق أبدله خيراً منهن تخويفاً لهن. وهو كقوله: ﴿وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم﴾ [محمد: 38] فإنه إخبار عن القدرة وتخويف لهم. ثم نعت سبحانه الأزواج بقوله: ﴿مسلمات مؤمنات﴾ أي: قائمات بفرائض الإسلام مصنفات بالله وملائكته، وكتبه ورسله، والقدر خيره وشره. وقال سعيد بن جبير: ﴿مسلمات﴾ أي: مخلصات وقيل معناه: مسلمات لأمر الله ورسوله ﴿قانتات﴾ مطيعات لله، والقنوت الطاعة، وقيل: مصليات ﴿تائبات﴾ يعني: من الذنوب ﴿عابدات﴾ لله متلذذات له. قال الحسن، وسعيد بن جبير: كثيرات العبادة ﴿سائحات﴾ أي: صائمات. وقال زيد بن أسلم: مهاجرات، وليس في أمة محمد ﷺ سياحة إلا الهجرة. قال ابن قتيبة، والفراء وغيرهما: وسمي الصيام سياحة لأن السائح لا زاد معه، وقيل المعنى: ذاهبات في طاعة الله، من ساح الماء إذا ذهب، وأصل السياحة الجولان في الأرض، وقد مضى الكلام على السياحة في سورة براءة ﴿ثيبات وبكارات﴾ وسط بينهما العاطف لثنايهما، والثيبات: جمع ثيب، وهي المرأة التي قد تزوجت، ثم ثابت عن زوجها فعادت، كما كانت غير ذات زوج. والابكار جمع بكر، وهي العذراء، سميت بذلك؛ لأنها على أول حالها التي خلقت على.

وقد أخرج البخاري، وغيره عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يمشي عند زينب بنت جحش، ويشرب عندها لبناً، أو عسلاً، فتواصيت أنا وحفصة إن آيتنا نخل عليها النبي ﷺ، فلتقل: إني أجد منك ريح مغافير، فدخل على إحداهما، فقالت ذلك له، فقال: «لا بل شربت عسلاً عند زينب بنت جحش، ولن أعود»، فنزلت: ﴿يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك﴾ إلى قوله: ﴿إن تقوبا إلى الله﴾ لعائشة وحفصة ﴿وإذا أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً﴾ لقوله: «بل شربت عسلاً». وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، قال السيوطي بسند صحيح عن ابن عباس قال: «كان رسول الله ﷺ شرب من شراب عند سودة من العسل، فدخل على عائشة فقالت: إني أجد منك ريحاً، فدخل على حفصة، فقالت: إني أجد منك ريحاً، فقال: أراه من شراب شربته عند سودة، والله لا أشربه أبداً، فأنزل الله: ﴿يا أيها النبي لم تحرم﴾ الآية. وأخرج ابن سعد عن عبد الله بن رافع قال: سألت أم سلمة عن هذه الآية ﴿يا أيها النبي لم تحرم﴾ قالت: كانت عندي عكة من عسل أبيض، فكان النبي ﷺ يلحق منها، وكان يحبه. فقالت له

عائشة: نحلها تجرس عرفطاً فحرمها، فنزلت الآية. وأخرج النسائي، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن أنس: أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها، فلم تزل عائشة وحفصة حتى جعلها على نفسه حراماً، فأنزل الله هذه الآية ﴿يا أيها النبي لم تحرم﴾. وأخرج البزار، والطبراني، قال السيوطي: بسند صحيح عن ابن عباس قال: قلت لعمر بن الخطاب: من المراتن اللتان تظاهرتا؟ قال: عائشة وحفصة، وكان يروى الحديث في شأن مارية القبطية أم إبراهيم أصابها النبي ﷺ في بيت حفصة في يومها، فوجدت حفصة، فقالت: يا رسول الله لقد جئت إلي بشيء ما جئت به إلى أحد من أزواجك في يومي وفي نوري على فراشي، قال: «ألا ترضين أن أحرمها، فلا أقربها أبداً؟» قالت: بلى فحرمها وقال: لا تذكرني ذلك لأحد، فذكرته لعائشة، فأظهره الله عليه، فأنزل الله: ﴿يا أيها النبي لم تحرم﴾ الآيات كلها، فبلغنا أن رسول الله ﷺ كفر عن يمينه وأصاب مارية. وأخرجه ابن سعد، وابن مردويه عنه بأطول من هذا، وأخرجه ابن مردويه أيضاً من وجه آخر عنه بأخصر منه، وأخرجه ابن المنذر، والطبراني، وابن مردويه عنه مختصراً بلفظ قال: حرم سريته، وجعل ذلك سبب النزول في جميع ما روي عنه من هذه الطرق، وأخرج الهيثم بن كليب في مسنده، والضياء المقدسي في المختارة من طريق نافع عن ابن عمر قال: قال النبي ﷺ لحفصة: «لا تحبني أحداً، وإن أم إبراهيم علي حرام، فقالت: أتحرّم ما أحل الله لك؟ قال: فواها لا أقربها»، فلم يقربها حتى أخبرت عائشة، فأنزل الله: ﴿قد فرض الله لكم تحلة إيمانكم﴾. وأخرج الطبراني في الأوسط، وابن مردويه عن أبي هريرة أن سبب نزول الآية تحريم مارية كما سلف، وسنده ضعيف. فهذان سببان صحيحان لنزول الآية، والجمع ممكن بوقوع القصتين: قصة العسل، وقصة مارية، وأن القرآن نزل فيهما جميعاً، وفي كل واحد منهما أنه أسر الحديث إلى بعض أزواجه. وأما ما قيل: من أن السبب هو تحريم المرأة التي وهبت نفسها، فليس في ذلك إلا ما روى ابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية: ﴿يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك﴾ في المرأة التي وهبت نفسها للنبي ﷺ. قال السيوطي: وسنده ضعيف. ويردّ هذا أيضاً أن النبي ﷺ لم يقبل تلك الواهبة لنفسها، فكيف يصح أن يقال: إنه نزل في شأنها ﴿يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك﴾، فإن من ردّ ما وهب له لم يصح أن يقال: إنه حرمه على نفسه، وأيضاً لا ينطبق على هذا السبب قوله: ﴿وإذا أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً﴾ إلى آخر ما حكاه الله. وأما ما ثبت في الصحيحين وغيرهما أن ابن عباس سأل عمر بن الخطاب عن المراتن اللتين تظاهرتا على رسول الله ﷺ، فأخبره أنهما عائشة وحفصة، ثم ذكر قصة الإيلاء، كما في الحديث الطويل، فليس في هذا نفي لكون السبب هو ما قدمنا من قصة العسل، وقصة السرية؛ لأنه إنما أخبره بالمتظاهرتين، وذكر فيه أن أزواج النبي ﷺ

يَأْتِيهِ الَّذِينَ آمَنُوا قَوْا أَنفُسَكُمْ وَأَخِيقُوا نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَأْتِيهِ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْدُوا إِلَيْهِمْ إِنَّهُمْ جُزْءٌ مَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ يَأْتِيهِ الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبًا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَنِ رَبِّكَ أَلَّا يَكْفُرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلِيُخَلِّصَ أَجَلَكُمْ جَنَّتِ بَعْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا تَوْبَنَا وَاعْفُ رَحْمَةً لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ﴾ بفعل ما أمركم به، وترك ما نهلكم عنه ﴿وَأَخِيقُوا﴾ بامرهم بطاعة الله، ونهيهم عن معاصيه ﴿نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ أي ناراً عظيمة تتوقد بالناس وبالحجارة كما يتوقد غيرها بالحطب، وقد تقدم بيان هذا في سورة البقرة. قال مقاتل بن سليمان: المعنى: قوا أنفسكم وأهلكم بالألب الصالح النار في الآخرة. وقال قتادة، ومجاهد: قوا أنفسكم بأفعالكم، وقوا أهلكم بوصيتكم. قال ابن جرير: فعلينا أن نعلم أولادنا الدين والخير، وما لا يستغنى عنه من الأب، ومن هذا قوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: 132] وقوله: ﴿وَانْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: 214] ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ﴾ أي: على النار خزنة من الملائكة يكون أمرها وتعذيب أهلها، غلاظ على أهل النار شداد عليهم لا يرحمونهم إذا استرحمهم؛ لأن الله سبحانه خلقهم من غضبه، وحبب إليهم تعذيب خلقه، وقيل: المراد غلاظ القلوب شداد الأبدان، وقيل: غلاظ الأقوال شداد الأفعال، وقيل: الغلاظ ضخام الأجسام، والشداد الأقوياء ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾ أي: لا يخافونه في أمره، و«ما» في «ما أَمَرَهُمْ» يجوز أن تكون موصولة، والعائد محذوف أي: لا يعصون الله الذي أمرهم به، ويجوز أن تكون مصدرية أي: لا يعصون الله أمره على أن يكون ما أمرهم بدل اشتمال من الاسم الشريف، أو على تقدير نزع الخافض أي: لا يعصون الله في أمره ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أي: يؤذونه في وقته من غير تراخ لا يؤخرونه عنه ولا يقيمونه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ﴾ أي: يقال لهم هذا القول عند إدخالهم النار تأييساً لهم وقطعاً لأطماعهم ﴿إِنَّمَا تَجْزُونَ مَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من الأعمال في الدنيا، ومثل هذا قوله: ﴿فَيَوْمِئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْرِزَتُهُمْ وَلَا هُمْ يَسْتَعْتَبُونَ﴾ [الروم: 57] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾ أي: تنصح صاحبها بترك العود إلى ما تاب عنه، وصفت بذلك على الإسناد المجازي، وهو في الأصل وصف للتائبين أن ينصحوا بالتوبة أنفسهم بالعزم على الترك للذنوب، وترك المعاودة له.

والتوبة فرض على الأعيان. قال قتادة: التوبة النصوح الصالحة، وقيل: الخالصة. وقال الحسن: التوبة النصوح أن يبغض الذنب الذي أحبه ويستغفر منه إذا نكره. وقال الكلبي: التوبة النصوح الندم بالقلب، والاستغفار باللسان، والإقلاع

يراجعنه، وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل، وإن نلك سبب الاعتزال لا سبب نزول ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تَحْرَمَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾. ويؤيد هذا ما قدمنا عن ابن عباس أنه قال لعمر: من المرأتان اللتان تظاهرتا؟ فأخبره بأنهما حفصة وعائشة، وبين له أن السبب قصة مارية. هذا ما تيسر من تلخيص سبب نزول الآية، ودفع الاختلاف في شأنه، فاشدد عليه يدك؛ لتنجو به من الخبط والخلط الذي وقع للمفسرين. وأخرج عبد الرزاق، والبخاري، وابن مردويه عن ابن عباس قال: في الحرام يكفر، وقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: 21]. وأخرج ابن المنذر، والطبراني، والحاكم، وابن مردويه عنه أنه جاءه رجل، فقال: إني جعلت امرأتي علي حراماً، فقال: «كُتِبَ لَيْسَ عَلَيْكَ بِحَرَامٍ، ثُمَّ تَلَا ﴿لِمَ تَحْرَمَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾» قال: عليك أغلظ الكفارات عتق رقبة». وأخرج الحارث بن أبي أسامة عن عائشة قالت: لما حلف أبو بكر أن لا ينفق على مسطح، فأنزل الله: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ فأحل يمينه وانفق عليه. وأخرج ابن عدي، وابن عساكر عن عائشة في قوله: ﴿وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾ قالت: أسر إليها أن أبا بكر خليفتي من بعدي. وأخرج ابن عدي، وأبو نعيم في الصحابة، والعشاري في فضائل الصديق، وابن مردويه، وابن عساكر من طرق عن علي، وابن عباس قال: والله إن إمارة أبي بكر وعمر لفي الكتاب ﴿وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾ قال لحفصة: «أبوك وأبو عائشة واليا الناس بعدي، فأياك أن تخبري أحداً بهذا». قلت: وهذا ليس فيه أنه سبب نزول قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تَحْرَمَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ بل فيه أن الحديث الذي أسره ﷺ هو هذا، فعلى فرض أن له إسناداً يصلح للاعتبار هو معارض بما سبق من تلك الروايات الصحيحة، وهي مقنعة عليه ومرجحة بالنسبة إليه. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ قال: زأغت وأثمت. وأخرج ابن المنذر عنه قال: مالت. وأخرج ابن عساكر من طريق عبد الله بن بريدة عن أبيه في قوله: ﴿وَصَالِحٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ قال: أبو بكر وعمر. وأخرج ابن عساكر عن ابن مسعود مثله. وأخرج الطبراني، وابن مردويه، وأبو نعيم في فضائل الصحابة من وجه آخر عنه مثله. وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر، وابن عباس مثله. وأخرج الحاكم عن أبي أمامة مرفوعاً مثله. وأخرج ابن أبي حاتم. قال السيوطي بسند ضعيف عن علي مرفوعاً قال: هو علي بن أبي طالب. وأخرج ابن مردويه عن أسماء بنت عميس سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿وَصَالِحٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ علي بن أبي طالب». وأخرج ابن مردويه، وابن عساكر عن ابن عباس في قوله: ﴿وَصَالِحٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ قال: هو علي بن أبي طالب. وأخرج الطبراني، وابن مردويه عن بريدة في قوله: ﴿فَتِيبَاتٌ وَبِكَارٌ﴾ قال: وعد الله نبيه ﷺ في هذه أن يزوجه بالثيب أسية امرأة فرعون، وبالبكر مريم بنت عمران.

وصححه عن ابن مسعود قال: التوبة النصوح تكفر كل سيئة، وهو القرآن، ثم قرأ هذه الآية. وأخرج الحاكم، والبيهقي في البعث عن ابن عباس في قوله: ﴿يَوْمَ لَا يَخْزِي اللَّهَ النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ معه نورهم يسعهم الآية قال: ليس أحد من الموحدين إلا يعطى نوراً يوم القيامة، فاما المنافق فيطفا نوره، والمؤمن مشفق مما رأى من إطفاء نور المنافق، فهو يقول: ﴿رَبِّنا اتمم لنا نورنا﴾.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَأَوْبِعْهُم جَهَنَّمَ رِيشُ النَّصِيرِ ① صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا أَمْرَاتُ نُوحٍ وَأَمْرَاتُ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ اتَّخَذَا النَّارَ مَعَ الدَّاهِلِينَ ② وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَمْرَاتُ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فَتَجِدَنِي وَنَجِيَّ مِنْ ذُرِّيَّتِي وَعَلِيهِ وَنَجِيَّ مِنَ الْقَوَارِ الْأَخْلَافِ ③ وَرَبِّ أَسَدَ عَمْرَأَتِي أَسْهَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ لَهَا مِنَ الْخَيْرِ ④ وَكَانَتْ مِنَ الْغَافِلِينَ ⑤

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ أي: بالسيف والحجة، وقد تقدم الكلام على هذه الآية في سورة براءة ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: شدد عليهم في الدعوة، واستعمل الخشونة في أمرهم بالشرائع. قال الحسن: أي: جاهدكم بإقامة الحدود عليهم، فإنهم كانوا يرتكبون موجبات الحدود ﴿وَمَا وَاهُمْ جَهَنَّمَ﴾ أي: مصيرهم إليها يعني: الكفار والمنافقين ﴿وَيُوشِصُ الْمَصِيرَ﴾ أي: المرجع الذي يرجعون إليه ﴿خُضِرَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قد تقدم غير مرة أن المثل قد يراد به إيراد حالة غريبة يعرف بها حالة أخرى مماثلة لها في الغرابة أي: جعل الله مثلاً لحال هؤلاء الكفرة، وأنه لا يغني أحد عن أحد ﴿أَمْرَاتُ نُوحٍ وَأَمْرَاتُ لُوطٍ﴾ هذا هو المفعول الأول، ومثلاً للمفعول الثاني حسبما قمنا بتحقيقه، وإنما أخر ليتصل به ما هو تفسير له، وإيضاح لمعناه ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ﴾ وهما نوح ولوط أي: كانتا في عصمة نكاحهما ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ أي: فوقعتهما منهما الخيانة لهما. قال عكرمة، والضحاك: بالكفر، وقيل: كانت امرأة نوح تقول للناس إنه مجنون، وكانت امرأة لوط تخبر قومه بأضيافه، وقد وقع الإجماع على أنه ما زنت امرأة نبي قط. وقيل: كانت خيانتها التفاف، وقيل: خانتاهما بالنميمة ﴿فَلَمْ يَغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي: فلم ينفعهما نوح ولوط بسبب كونهما زوجتين لهما شيئاً من النفع، ولا نفعاً عنهما من عذاب الله مع كرامتهما على الله شيئاً من الدفع ﴿وَقِيلَ اتَّخَذَا النَّارَ مَعَ الدَّاهِلِينَ﴾ أي: وقيل لهما في الآخرة، أو عند موتهما: اتخلا النار مع الداهلين لها من أهل الكفر والمعاصي. وقال يحيى بن سلام: ضرب الله مثلاً للذين كفروا يحذر به عائشة وحفصة من المخالفة لرسول الله ﷺ حين تظاهرتا عليه. وما أحسن من قال، فإن نكر امرأتي النبيين بعد ذكر قصتهما ومظاهرتهما على رسول الله

بالبين، والاطمئنان على أن لا يعود. وقال سعيد بن جبير: هي التوبة المقبولة. قرأ الجمهور (نصوحاً) بفتح النون على الوصف للتوبة أي: توبة بالغة في النصح، وقرأ الحسن، وخارجة، وأبو بكر عن عاصم بضمها أي: توبة نصح لأنفسكم، ويجوز أن يكون جمع ناصح، وأن يكون مصدرأ يقال: نصح نصيحة ونصوحاً. قال المبرد: أراد توبة ذات نصح ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَكْفُرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُبْخَلَكم جَنَاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ بسبب تلك التوبة، وعسى وإن كان أصلها للإطعام، فهي من الله واجبة؛ لأن الثابت من الذنب كمن لا ذنب له، ويبخلكم معطوف على يكفر منصوب بناصبه، وبالنصب قرأ الجمهور، وقرأ بالجزء عطفاً على محل عسى كأنه قال: توبوا يوجب تكفير سيئاتكم، ويبخلكم ﴿يَوْمَ لَا يَخْزِي اللَّهَ النَّبِيُّ﴾ الظرف متعلق ببخلكم أي: يبخلكم يوم لا يخزي الله النبي ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ والموصول معطوف على النبي، وقيل: الموصول مبتدأ، وخبره ﴿نُورَهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ يَدَيْهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ والأول أولى، وتكون جملة ﴿نُورَهُمْ يَسْعَىٰ﴾ في محل نصب على الحال، أو مستأنفة لبيان حالهم، وقد تقدم في سورة الحديد أن النور يكون معهم حال مشيهم على الصراط، وجملة ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اتمم لنا نورنا واغفر لنا﴾ على كل شيء قدير، في محل نصب على الحال أيضاً، وعلى الوجه الآخر تكون خبراً آخر، وهذا دعاء المؤمنين حين أطفا الله نور المنافقين، كما تقدم بيانه وتفصيله.

وقد أخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه عن علي بن أبي طالب في قوله: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ قال: علموا أنفسكم وأهليكم الخير وأنبؤهم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في الآية قال: اعملوا بطاعة الله، واتقوا معاصي الله، وأمروا أهليكم بالذكر ينجم الله من النار. وأخرج عبد بن حميد عنه في الآية قال: أنبؤا أهليكم. وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن أبي عمران الجوني قال: بلغنا أن خزنة النار تسعة عشر ما بين منكب أحدهم مسيرة مائة خريف ليس في قلوبهم رحمة إنما خلقوا للعذاب، يضرب الملك منهم الرجل من أهل النار الضربة فيتركه طحناً من لبن قرنه إلى قمته. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وهناد، وابن منيع، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مروي، والبيهقي في الشعب عن النعمان بن بشير أن عمر بن الخطاب سئل عن التوبة النصوح، قال: أن يتوب الرجل من العمل السيء، ثم لا يعود إليه أبداً. وأخرج أحمد، وابن مروي، والبيهقي عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «التوبة من الذنب أن يتوب منه، ثم لا يعود إليه أبداً»، وفي إسناده إبراهيم بن مسلم الهجري، وهو ضعيف، والصحيح الموقوف، كما أخرجه موقوفاً عنه ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي. وأخرج الحاكم

وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه من طرق عن ابن عباس في قوله: ﴿فَخَانَتْهُمَا﴾ قال: ما زنتا؛ أما خيانة امرأة نوح، فكانت تقول للناس: إنه مجنون؛ وأما خيانة امرأة لوط، فكانت تدل على الضيف، فتلك خيانتها. وأخرج ابن المنذر عنه: قال: ما بغت امرأة نبي قط، وقد رواه ابن عساكر مرفوعاً. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب عن سلمان قال: كانت امرأة فرعون تعذب بالشمس، فإذا انصرفوا عنها أظلمت الملائكة بأجنحتهم، وكانت ترى بيتها في الجنة. وأخرج عبد بن حميد عن أبي هريرة: (1) أن فرعون وتد لامراته أربعة أوتاد، وأضجعها على صدرها (2)، وجعل على صدرها رحي، واستقبل بها عين الشمس، فرفعت رأسها إلى السماء، فـ ﴿قَالَتْ رَبِّ لِي لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ إلى قوله: ﴿مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ففرج الله لها عن بيتها في الجنة فرآته. وأخرج أحمد، والطبراني، والحاكم، وصححه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم بنت عمران، وأسية بنت مزاحم امرأة فرعون مع ما قص الله علينا من خبرها في القرآن قالت: ﴿رَبِّ لِي لِي عِنْدَكَ بَيْتًا﴾ الآية. وفي الصحيحين، وغيرهما من حديث أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا أسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام». وأخرج وكيع في الغرر عن ابن عباس في قوله: ﴿وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ﴾ قال: من جماعته.

تفسير سورة الملك

وهي مكية. قال القرطبي: في قول الجميع. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت بمكة سورة تبارك الملك. وأخرج أحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن الضريس، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن سورة من كتاب الله ما هي إلا ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له ﴿تبارك الذي بيده الملك﴾» [أي: سورة الملك]. قال الترمذي: هذا حديث حسن. وأخرج الطبراني في الأوسط، وابن مردويه، والضياء في المختارة عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «سورة في القرآن خاصمت عن صاحبها حتى أدخلته الجنة ﴿تبارك الذي بيده الملك﴾». وأخرج الترمذي، والحاكم وصححه، وابن مردويه، وابن نصر، والبيهقي في الدلائل عن ابن

عبد بن حميد، وابن أبي الدنيا، وابن جرير، وابن المنذر، يرشد أتم إرشاد ويلوِّح ببلوغ تلويح إلى أن المراد تخويفهما مع سائر أمهات المؤمنين، وبيان أنهما وإن كانتا تحت عصمة خير خلق الله وخاتم رسله، فإن ذلك لا يغني عنهما من الله شيئاً، وقد عصمهما الله عن ذنب تلك المظاهرة بما وقع منهما من التوبة الصحيحة الخالصة ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ الكلام في هذا الكلام في المثل الذي قبله أي: جعل الله حال امرأة فرعون مثلاً لحال المؤمنين ترغيباً لهم في الثبات على الطاعة والتمسك بالدين، والصبر في الشدة، وأن صولة الكفر لا تضرهم، كما لم تضر امرأة فرعون، وقد كانت تحت أكفر الكافرين، وصارت بإيمانها بالله في جنات النعيم ﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ لِي لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ الظرف متعلق بضرب، أو بمثلاً أي: ابن لي بيتاً قريباً من رحمتك، أو في أعلى درجات المقربين منك، أو في مكان لا يتصرف فيه إلا بإذنك، وهو الجنة ﴿وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ﴾ أي: من ذاته وما يصدر عنه من أعمال الشر ﴿وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ قال الكلبي: هم أهل مصر. وقال مقاتل: هم القبط. قال الحسن، وابن كيسان: نجاها الله أكرم نجاة، ورفعها إلى الجنة فهي تاكل وتشرب ﴿وَمَرِيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَيْنَا فَرْجَهَا﴾ معطوف على امرأة فرعون أي: وضرب الله مثلاً للذين آمنوا مريم ابنة عمران أي: حالها وصفتها، وقيل: إن الناصب لمريم فعل مقدر أي: وانكر مريم، والمقصود من نكرها أن الله سبحانه جمع لها بين كرامة الدنيا والآخرة، واصطفاه على نساء العالمين مع كونها بين قوم كافرين ﴿الَّتِي أَحْصَيْنَا فَرْجَهَا﴾ أي: عن الفواحش، وقد تقدم تفسير هذا في سورة النساء. قال المفسرون: المراد بالفرج هنا الجيب لقوله: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوْحِنَا﴾ وذلك أن جبريل نفخ في جيب درعها فحبلت بعبسى ﴿وَصُنِّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا﴾ يعني: شرائعها التي شرعها لعباده، وقيل: المراد بالكلمات هنا هو قول جبريل لها: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾ [مريم: 19] الآية. وقال مقاتل: يعني بالكلمات: عيسى. قرأ الجمهور (وصنِّقَتْ) بالتشديد، وقرأ حمزة الأموي، ويعقوب، وقتادة، وأبو مجلز، وعاصم في رواية عنه بالتخفيف. وقرأ الجمهور (بكلمات) بالجمع، وقرأ الحسن، ومجاهد، والجحدري (بكلمة) بالإنفراد. وقرأ الجمهور (وكتابه) بالإنفراد، وقرأ أهل البصرة، وحفص (كتبه) بالجمع، والمراد على قراءة الجمهور الجنس، فيكون في معنى الجمع، وهي الكتب المنزلة على الأنبياء ﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ قال قتادة: من القوم المطيعين لربهم. وقال عطاء: من المصلين، كانت تصلي بين المغرب والعشاء، ويجوز أن يراد بالقانتين رهطها وعشيرتها الذين كانت منهم، وكانوا مطيعين أهل بيت صلاح وطاعة، وقال: من القانتين، ولم يقل من القانتات؛ لتغليب الذكور على الإناث.

وقد أخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا، وابن جرير، وابن المنذر،

(1) لعله: على ظهرها بليل قوله بعد: وجعل على صدرها اهـ. صححه.

عباس قال: ضرب بعض أصحاب النبي ﷺ خبائه على قبر، وهو لا يحسب أنه قبر، فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها، فأتى النبي ﷺ، فأخبره، فقال رسول الله ﷺ: «هي المانعة هي المنجية تنجيه من عذاب القبر». قال الترمذي بعد إخرجه: هذا حديث غريب من هذا الوجه. وأخرج ابن مريويه عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «تبارك هي المانعة من عذاب القبر». وأخرجه أيضاً النسائي وصححه، والحاكم. وأخرج ابن مريويه عن رافع بن خديج، وأبي هريرة أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقول: «أنزلت علي سورة تبارك، وهي ثلاثون آية جملة واحدة، وهي المانعة في القبور». وأخرج عبد بن حميد في مسنده، والطبراني، والحاكم، وابن مريويه عن ابن عباس أنه قال لرجل: ألا أتحدثك بحديث تفرح به؟ قال: بلى قال: اقرأ «تبارك الذي بيده الملك» وعلمها أهلك، وجميع ولك، وصبيان بيتك، وجيرانك، فإنها المنجية، والمجانلة تجادل يوم القيامة عند ربها لقارئها، وتطلب له أن ينجيها الله من عذاب النار، وينجو بها صاحبها من عذاب القبر. قال رسول الله ﷺ: «لو دلت أنها في قلب كل إنسان من أمتي».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي يَبْدُو إِلَهُكَ رَحْمَةً عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَلِيلٌ ۝ الَّذِي عَلَّمَ الْقُرْآنَ وَالْجَوَدُ يُبَلِّغُكُمْ أَكْبَرُ أَحْسَنَ عِلْمًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي عِلَاقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَقْوَى فَاتَّجِعْ أَلْبَسَ مَا تَرَى مِنْ فُطُورٍ ۝ ثُمَّ أَتَجِبْ أَلْبَسَ كَرِيمٌ يَقْبَلُ إِلَيْكَ أَلْبَسَ حَاسِبًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝ وَلَقَدْ رَزَقَنَا أَسِنَّةَ الْدُّنْيَا بِمَصْنُوعٍ رَجَلَتَا دُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ۝ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا فِيهِمْ عَذَابٌ جَهَنَّمٌ وَلَئِنْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا شَيْهًا وَهُمْ يَقُولُونَ ۝ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْقَيْظِ كَلَّمَ الْإِنْسَانُ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝ فَأَلَّا أَنْ كَذَّبَتْهُمَا فَكَذَّبَا وَقَالُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْشَأَ إِلَّا فِي سَكَلٍ كَبِيرٍ ۝ وَقَالُوا أَوْ كُنَّا نَسْتَعِزُّ أَوْ نَفْعَلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝ فَأَعْرِضُوا يَذَّبُهُمْ سَعْيًا لَأَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝

قوله: «تبارك الذي بيده الملك» تبارك تفاعل من البركة، والبركة النماء والزيادة، وقيل: تعالى وتعظيم عن صفات المخلوقين، وقيل: دام فهو الدائم الذي لا أول لوجوده، ولا آخر لئومه. وقال الحسن: تبارك تقس، وصيغة التفاعل للمبالغة، واليد مجاز عن القدرة والاستيلاء، والملك هو ملك السموات والأرض في الدنيا والآخرة، فهو يعز من يشاء ويذل من يشاء، ويرفع من يشاء ويضع من يشاء، وقيل: المراد بالملك ملك النبوة، والأول أولى؛ لأن الحمل على العموم أكثر مدحاً وأبلغ ثناء، ولا وجه للتخصيص «وهو على كل شيء قدير» أي: بليغ القدرة لا يعجزه شيء من الأشياء يتصرف في ملكه كيف يريد من إنعام وانتقام، ورفع ووضع، وإعطاء ومنع «الذي خلق الموت والحياة» الموت انقطاع تعلق الروح بالبدن ومفارقة له، والحياة تعلق الروح

بالبدن واتصاله به، وقيل: هي ما يصح بوجوده الإحساس، وقيل: ما يوجب كون الشيء حياً، وقيل: المراد الموت في الدنيا، والحياة في الآخرة. وقدم الموت على الحياة؛ لأن أصل الأشياء عدم الحياة، والحياة عارضة لها، وقيل: لأن الموت أقرب إلى القهر. وقال مقاتل: خلق الموت يعني: النطفة، والمضغة والعلق، والحياة يعني: خلقه إنساناً، وخلق الروح فيه، وقيل: خلق الموت على صورة كبش لا يمر على شيء إلا مات، وخلق الحياة على صورة فرس لا تمر بشيء إلا حيي، قاله مقاتل والكلبي. وقد ورد في التنزيل: «قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم» [السجدة: 11] وقوله: «ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة» [الأنفال: 50] وقوله: «توفته رسلنا» [الأنعام: 61] وقوله: «الله يتوفى الأنفس حين موتها» [الزمر: 42] وغير ذلك من الآيات «ليبلوكم أيكم أحسن عملاً» اللام متعلقة بخلق أي: خلق الموت والحياة؛ ليعاملكم معاملة من يختبركم أيكم أحسن عملاً، فيجازيكم على ذلك، وقيل المعنى: ليلوكم أيكم أكثر للموت تذكراً وأشد منه خوفاً، وقيل: أيكم أسرع إلى طاعة الله، وأودع عن محارم الله. وقال الزجاج: اللام متعلق بخلق الحياة لا بخلق الموت. وقال الزجاج أيضاً، والفراء: إن قوله: «ليبلوكم» لم يقع على أي، لأن فيما بين البلوى وأي إضمار فعل، كما تقول: بلوكم لانظر أيكم أطوع، ومثله قوله: «سلمهم أيهم بذلك زعيم» [القلم: 40] أي: سلمهم ثم انظر أيهم، فايكم في الآية مبتدأ، وخبره أحسن؛ لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله، وإيراد صيغة التفضيل مع أن الابتلاء شامل لجميع أعمالهم المنقسمة إلى الحسن والقبح لا إلى الحسن والأحسن فقط، للإيذان بأن المراد بالذات والمقصد الأصلي من الابتلاء هو ظهور كمال إحسان المحسنين «وهو العزيز» أي: الغالب الذي لا يغالب «الغفور» لمن تاب وأتاب «الذي خلق سبع سموات طباقاً» الموصول يجوز أن يكون تابعاً للعزيز، الغفور نعتاً، أو بياناً، أو بدلاً، وأن يكون منقطعاً عنه على أنه خبر مبتدأ محذوف، أو منصوب على المدح، وطباقاً صفة لسبع سموات أي: بعضها فوق بعض، وهو جمع طبق نحو جبل وجبال، أو جمع طبقة نحو رحبة ورحاب، أو مصدر طابق، يقال: طابق مطابقاً وطباقاً، ويكون على هذا الوجه الوصف بالمصدر للمبالغة، أو على حذف مضاف أي: ذات طباق، ويجوز أن يكون منتصباً على المصدرية بفعل محذوف أي: طويقت طباقاً «ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت» هذه الجملة صفة ثانية لسبع سموات، أو مستأنفة لتقرير ما قبلها، والخطاب لرسول الله ﷺ، أو لكل من يصلح له، ومن مزيدة لتأكيد النفي. قرأ الجمهور (من تفاوت). وقرأ ابن مسعود وأصحابه، وحمزة، والكسائي (تفاوت) مشدداً بدون ألف، وهما لغتان كالتعاهد والتعهد، والتحامل والتحمل؛ والمعنى على القراءتين ما ترى في خلق الرحمن من تناقض ولا تباين، ولا اعوجاج ولا تخالف، بل هي مستوية مستقيمة دالة على خلقها، وإن

قوله: «تبارك الذي بيده الملك» تبارك تفاعل من البركة، والبركة النماء والزيادة، وقيل: تعالى وتعظيم عن صفات المخلوقين، وقيل: دام فهو الدائم الذي لا أول لوجوده، ولا آخر لئومه. وقال الحسن: تبارك تقس، وصيغة التفاعل للمبالغة، واليد مجاز عن القدرة والاستيلاء، والملك هو ملك السموات والأرض في الدنيا والآخرة، فهو يعز من يشاء ويذل من يشاء، ويرفع من يشاء ويضع من يشاء، وقيل: المراد بالملك ملك النبوة، والأول أولى؛ لأن الحمل على العموم أكثر مدحاً وأبلغ ثناء، ولا وجه للتخصيص «وهو على كل شيء قدير» أي: بليغ القدرة لا يعجزه شيء من الأشياء يتصرف في ملكه كيف يريد من إنعام وانتقام، ورفع ووضع، وإعطاء ومنع «الذي خلق الموت والحياة» الموت انقطاع تعلق الروح بالبدن ومفارقة له، والحياة تعلق الروح

يكون باقياً على مصدريته، ويقدر مضاف محذوف أي: ذات رجم، وجمع المصدر باعتبار أنواعه. وقيل: إن الضمير في قوله: ﴿وجعلناها﴾ راجع إلى المصابيح على حذف مضاف أي: شهباء، وهي نارها المقتبسة منها لا هي أنفسها؛ لقوله: ﴿إلا من خطف الخطفة فاتبعه شهاب ثاقب﴾ [الصفات: 10] ووجه هذا أن المصابيح التي زين الله بها السماء الدنيا لا تزول ولا يرجم بها، كذا قال أبو علي الفارسي جواباً لمن سأل: كيف تكون المصابيح زينة وهي رجوم؟ قال القشيري: وأمثل من قوله هذا أن نقول: هي زينة قبل أن يرجم بها الشياطين. قال قتادة: خلق الله النجوم ثلاث: زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلامات يهتدى بها في البر والبحر، فمن تكلم فيها بغير ذلك، فقد تكلم فيما لا يعلم، وتعدى وظلم؛ وقيل: معنى الآية: وجعلناها ظنوناً للشياطين الإنس، وهم المنجمون ﴿واعتدنا لهم عذاب السعير﴾ أي: واعتدنا للشياطين في الآخرة بعد الإحراق في الدنيا بالشهب عذاب السعير أي: عذاب النار، والسعير: أشد الحريق، يقال: سعرت النار، فهي مسعورة ﴿وللذين كفروا بربهم﴾ من كفار بني آدم، أو من كفار الفريقين ﴿عذاب جهنم﴾ قرأ الجمهور برفع (عذاب) على أنه مبتدأ، وخبره ﴿للذين كفروا﴾. وقرأ الحسن، والضحاك، والأعرج بنصبه عطفاً على ﴿عذاب السعير﴾. ﴿وبئس المصير﴾ ما يصيرون إليه، وهو جهنم ﴿إذا لقوا فيها﴾ أي: طرخوا فيها كما يطرح الحطب في النار ﴿سمعوا لها شقيقاً﴾ أي: صوتاً كصوت الحمير عند أول نهيقها، وهو أقبح الأصوات، وقوله: ﴿لها﴾ في محل نصب على الحال أي: كائنات لها، لأنه في الأصل صفة، فلما قُدمت صارت حالا. وقال عطاء: الشهيق هو من الكفار عند إلقاءهم في النار، وجملة ﴿وهي تفور﴾ في محل نصب على الحال أي: والحال أنها تغلي بهم غليان المرجل، ومنه قول حسان:

تركتكم قذرکم لا شيء فيه وقدر الغير حامية تفور
﴿تكد تميز من الغيظ﴾ أي: تكاد تنقطع وينفصل بعضها من بعض من تغيطها عليهم. قال ابن قتيبة: تكاد تنشق غيظاً على الكفار. قرأ الجمهور (تميز) بقاء واحدة مخففة، والأصل تمييز بقاءين. وقرأ طلحة بقاءين على الأصل. وقرأ البزي عن ابن كثير بتشديدها بإدغام إحدى الباءين في الأخرى. وقرأ الضحاك (تمايز) بالالف وباء واحدة، والأصل تمايز، وقرأ زيد بن علي (تميز) من ماز يميز، والجملة في محل نصب على الحال، أو في محل رفع على أنها خبر آخر لمبتدأ، وجملة: ﴿كلما لقي فيها فوج سألهم خزنتها﴾ مستأنفة لبيان حال أهلها، أو في محل نصب على الحال من فاعل تميز، والفوج الجماعة من الناس أي: كلما لقي في جهنم جماعة من الكفار سألهم خزنتها من الملائكة سؤال توبيخ وتقريع ﴿إلم ياتكم﴾ في الدنيا ﴿نذير﴾ ينذركم هذا اليوم، ويحذركم منه، وجملة ﴿قالوا بلى قد جاءنا نذير﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل:

اختلفت صورها وصفاتها، فقد اتفقت من هذه الحيثية ﴿فارجع البصر هل ترى من فطور﴾ الفطور: الشقوق والصدوع والخروق أي: أريد طرفك حتى يتضح لك ذلك بالمعانية. أخبر أولاً بأنه لا تفاوت في خلقه، ثم أمر ثانياً بترديد البصر في ذلك لزيادة التأكيد وحصول الطمأنينة. قال مجاهد، والضحاك: الفطور الشقوق جمع فطر وهو الشق. وقال قتادة: هل ترى من خل؟ وقال السدي: هل ترى من خروق، وأصله من التفطر والانفطار، وهو التشقق والانشقاق، ومنه قول الشاعر:

بنى لكم بلا عمد سماء وزينها فما فيها فطور
وقول الآخر:

شقت القلب ثم ردت فيه هواك فليمن فالتام الفطور
﴿ثم ارجع البصر كرتين﴾ أي: رجعتين مرة بعد مرة، وانتصابه على المصدر، والمراد بالتثنية التكرير، كما في لبيك وسعديك أي: رجعة بعد رجعة وإن كثرت. ووجه الأمر بتكرير النظر على هذه الصفة، أنه قد لا يرى ما يظنه من العيب في النظرة الأولى ولا في الثانية، ولهذا قال أولاً: ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾ ثم قال ثانياً ﴿فارجع البصر﴾ ثم قال ثالثاً ﴿ثم ارجع البصر كرتين﴾ فيكون ذلك أبلغ في إقامة الحجة، واقطع للمعذرة ﴿ينقلب إليك البصر خاسئاً﴾ أي: يرجع إليك البصر ذليلاً صاغراً عن أن يرى شيئاً من ذلك، وقيل: معنى خاسئاً: مبعداً مطروداً عن أن يبصر ما التمسه من العيب، يقال: خسأت الكلب أي: أبعدته وطرده. قرأ الجمهور (ينقلب) بالجزم جواباً للامر. وقرأ الكسائي في رواية بالرفع على الاستئناف ﴿وهو حسير﴾ أي: كليلى منقطع. قال الزجاج: أي: وقد أعيا من قبل أن يرى في السماء خللاً، وهو فعيل بمعنى فاعل من الحسور، وهو الإعياء، يقال: حسر بصره يحسر حسوراً أي: كل وانقطع، ومنه قول الشاعر:

نظرت إليها بالحصب من منى فعاد إلي الطرف وهو حسير
﴿ولقد زيننا السماء الدنيا بمصابيح﴾ بَيَّن سبحانه بعد خلق السموات، وخلوها من العيب والخلل أنه زينها بهذه الزينة، فصارت في أحسن خلق واكمل صورة وأبهج شكل، والمجيء بالقسم لإبراز كمال العناية، والمصابيح جمع مصباح، وهو السراج، وسميت الكواكب مصابيح؛ لأنها تضيء كإضاءة السراج وبعض الكواكب، وإن كان في غير سماء الدنيا من السموات التي فوقها، فهي تتراءى كأنها كلها في سماء الدنيا؛ لأن أجرام السموات لا تمنع من رؤية ما فوقها مما له إضاءة لكونها أجراماً صقيلة شفافة ﴿وجعلناها رجوماً للشياطين﴾ أي: وجعلناها المصابيح رجوماً يرجم بها الشياطين، وهذه فائدة أخرى غير الفائدة الأولى، وهي كونها زينة للسماء الدنيا؛ والمعنى أنها يرجم بها الشياطين الذين يسترقون السمع، والرجوم جمع رجم بالفتح، وهو في الأصل مصدر أطلق على المرجوم به، كما في قولهم: الدرهم ضرب الأمير أي: مضروبة، ويجوز أن

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ الْأَشْهُورُ﴾ ﴿١٠﴾ أَيْنَ مَن فِي السَّمَاءِ أَن يَخِفَّ بِكُمْ الْأَرْضَ إِذَا رُجَّتْ تَمُورُ ﴿١١﴾ أَمْ أَيْنَ مَن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَلْمِزُونَهُ كَيْفَ نَذِيرٌ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبَ كَذِبًا كَبِيرٌ ﴿١٣﴾ أَزَلَّ بَرًّا إِلَى الْغَايَةِ فَوَقَّهَتْ مَتَنَّتِي وَيَقِضُنَّ مَا يَمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّبِينٌ ﴿١٤﴾ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكَ يَصُبُّرُكَ بَيْنَ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿١٥﴾ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكَ إِنِ امْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿١٦﴾

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ لما فرغ سبحانه من نكر أحوال أهل النار نكر أهل الجنة، وبالعقاب حال من الفاعل أو المفعول أي: غائبين عنه، أو غائباً عنهم، والمعنى: أنهم يخشون عذابه، ولم يروه، فيؤمنون به خوفاً من عذابه، ويجوز أن يكون المعنى: يخشون ربهم حال كونهم غائبين عن أعين الناس، وذلك في خلواتهم، أو المراد بالغيب كون العذاب غائباً عنهم لأنهم في الدنيا، وهو إنما يكون يوم القيامة، فتكون الباء على هذا سببية ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ عظيمة يغفر الله بها ذنوبهم ﴿وَلَوْ جَرَّ كَبِيرٌ﴾ وهو الجنة، ومثل هذه الآية قوله: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ [ق: 33]. ثم عاد سبحانه إلى خطاب الكفار فقال: ﴿وَأَسْرِوا قَوْلُكُمْ أَوْ لَجُّوا بِهِ﴾ هذه الجملة مستأنفة مسوقة لبيان تساوي الإسراء والجهر بالنسبة إلى علم الله سبحانه، والمعنى: إن أخفيتكم كلامكم أو جهرتم به في أمر رسول الله ﷺ، فكل ذلك يعلمه الله لا تخفى عليه منه خافية، وجملة ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ تعليل للاستواء المنكور، وذات الصدور هي مضمرات القلوب، والاستفهام في قوله: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ للإنكار. والمعنى: ألا يعلم السر، ومضمرات القلوب من خلق ذلك وأوجده، فالموصول عبارة عن الخالق، ويجوز أن يكون عبارة عن المخلوق، وفي يعلم ضمير يعود إلى الله أي: ألا يعلم الله المخلوق الذي هو من جملة خلقه، فإن الإسراء والجهر ومضمرات القلوب من جملة خلقه، وجملة ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ في محل نصب على الحال من فاعل يعلم أي: الذي لطف علمه بما في القلوب، الخبير بما تسره وتضمهر من الأمور، لا تخفى عليه من ذلك خافية. ثم امتنَّ سبحانه على عباده، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ أي: سهلة لينة تستقرُّون عليها، ولم يجعلها خشنة بحيث يمتنع عليكم السكن فيها والمشي عليها، والنزول في الأصل هو المنقاد الذي يذل لك، ولا يستصعب عليك، والمصدر الذل، والفاء في قوله: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ لترتيب الأمر بالمشي على الجعل المنكور، والأمر للإباحة. قال مجاهد، والكلبي، ومقاتل: مناكبها طرقها وأطرافها وجوانبها. وقال قتادة، وشهر بن حوشب: مناكبها جبالها، وأصل المنكب الجانب، ومنه منكب الرجل، ومنه الريح النكباء لأنها تأتي من جانب دون جانب ﴿وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ أي: مما رزقكم وخلق له لكم في الأرض ﴿وَالْيَا لِنَشُورٍ﴾ أي: وإليه البعث من قبوركم لا إلى غيره،

فماذا قالوا بعد هذا السؤال، فقال: قالوا: بلى قد جاءنا نذير، فانذرنا وخوفنا وأخبرنا بهذا اليوم ﴿فَهَكُنْبِنا﴾ ذلك النذير ﴿وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ من الأشياء على السنتكم ﴿إِنِ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ أي: في ذهاب عن الحق وبعد عن الصواب، والمعنى أنه قال: كل فوج من تلك الأفواج حاكياً لخزنة جهنم ما قاله لمن أرسل إليه: ما أنتم أيها الرسل فيم تدعون أن الله نزل عليكم آيات تنذرون بها إلا في ذهاب عن الحق، وبعد عن الصواب كبير لا يقادر قدره. ثم حكى عنهم مقالة أخرى قالوها بعد تلك المقالة فقال: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ أي: لو كنا نسمع ما خاطبنا به الرسل، أو نعقل شيئاً من ذلك ما كنا في عداد أهل النار، ومن جملة من يعذب بالسعير، وهم الشياطين، كما سلف. قال الزجاج: لو كنا نسمع سمع من يعي، أو نعقل عقل من يميز وينظر ما كنا من أهل النار، فلما اعترفوا هذا الاعتراف قال الله سبحانه: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ﴾ الذي استحقوا به عذاب النار، وهو الكفر وتكذيب الأنبياء ﴿فَسَحَقْنَا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ أي: فبعداً لهم من الله ومن رحمته. وقال سعيد بن جبير، وأبو صالح: هو وأو في جهنم يقال له: السحق. قرأ الجمهور (فسحقاً) بإسكان الحاء. وقرأ الكسائي، وأبو جعفر بضمها، وهما لغتان مثل السحت والرعب. قال الزجاج، وأبو علي الفارسي: فسحقاً منصوب على المصدر أي: أسحقهم الله سحقاً. قال أبو علي الفارسي: وكان القياس إسحاقاً، فجاء المصدر على الحذف، واللام في ﴿لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ للبيان، كما في ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: 23].

وقد أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس في قوله: ﴿سَبْعَ سَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ قال: بعضها فوق بعض. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَافُوتٍ﴾ قال: ما تفاوتت بعضه بعضاً تفاوتاً مفرقاً. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عنه أيضاً في قوله: ﴿مِن تَفَافُوتٍ﴾ قال: من تشقق، وفي قوله: ﴿هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ﴾ قال: شقوق، وفي قوله: ﴿خَاسِئًا﴾ قال: ذليلاً ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ كليل. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً. قال: الفطور الوهي. وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً ﴿مِن فُطُورٍ﴾ قال: من تشقق أو خلل، وفي قوله: ﴿يَتَقَلَّبُ إِلَيْكِ اللَّبَصِرُ﴾ قال: يرجع إليك ﴿خَاسِئًا﴾ قال: صاغراً ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ قال: معيى، ولا يرى شيئاً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه أيضاً خاسئاً قال: ذليلاً ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ قال: عيى مرتجع. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿تَكَادُ تَمَيِّزُ﴾ قال: تتفرق. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه أيضاً ﴿تَكَادُ تَمَيِّزُ﴾ قال: يفارق بعضها بعضاً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿فَسَحَقْنَا﴾ قال: بعداً.

إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٧﴾ وَأَسْرِوا قَوْلُكُمْ أَوْ لَجُّوا بِهِ إِنَّهُ عَلَيْهِ يَدَاتُ الْأَشْدِيدِ ﴿١٨﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ

الميم على إدغام ميم أم في ميم من، وأم بمعنى بل، ولا سبيل إلى تقدير الهمزة بعدها، كما هو الغالب في تقدير أم المنقطعة ببل والهمزة؛ لأن بعدها هنا من الاستفهامية، فأغنت عن ذلك التقدير، ومن الاستفهامية مبتدأ، واسم الإشارة خبره، والموصول مع صلته صفة اسم الإشارة، وينصرف صفة لجند، ومن دون الرحمن في محل نصب على الحال من فاعل ينصركم، والمعنى: بل من هذا الحقير الذي هو في زعمكم جند لكم متجاوزاً نصر الرحمن. وقرأ طلحة بن مصرف بتخفيف الأولى وتثقيف الثانية، وجملة **﴿إِنَّ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾** معترضة مقررّة لما قبلها ناعية عليهم ما هم فيه من الضلال، والمعنى: ما الكافرون إلا في غرور عظيم من جهة الشيطان يغرهم به **﴿وَأَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾** الكلام في هذا كاللّكلام في الذي قبله قراءة وإعراباً أي: من الذي يدّر عليكم الأرزاق من المطر وغيره، إن أمسك الله ذلك عنكم ومنعه عليكم **﴿جِبِلَّ لَجُوا فِي عَنَوٍ وَنِفُورٍ﴾** أي: لم يتأثروا لذلك بل تمانوا في عناد واستكبار عن الحق ونفور عنه، ولم يعتبروا ولا تفكروا، وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه أي: إن أمسك رزقه فمن يرزقكم غيره، والعنوّ العناد، والطغيان، والنفور الشروع.

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس **﴿إِنَّ النَّاسَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾** قال: أبو بكر، وعمر، وعلي، وأبو عبيدة بن الجراح. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه في قوله: **﴿فِي مَنَاجِبِهَا﴾** قال: جبالها. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال: أطرافها. وأخرج الطبراني، وابن عدي، والبيهقي في الشعب، والحكيم الترمذي عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: **﴿إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ الْمُحْتَرِفَ﴾**. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **﴿جِبِلَّ لَجُوا فِي عَنَوٍ وَنِفُورٍ﴾** قال: في ضلال.

أَمَّنْ يَشَى مَكِبًا عَلَى وُجُوهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَشَى سَوَاءً عَلَى مِرْكَبٍ مُّشْتَبِهٍ ۚ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۚ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۚ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۚ قُلْ إِنَّمَا الْوَعْدُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۚ قُلْنَا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ ۚ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَنَسِيَ آدَمَ مَنْ يُخَيِّرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۚ قُلْ هُوَ أَرْحَمُ أَمَّنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَتَسْتَكْمِلُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۚ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْحَابَ مَاؤُكُمْ غَوَّا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَوَاقِعٍ ۚ

ضرب سبحانه مثلاً للمشرك والموحد لإيضاح حالهما وبيان مآلهما، فقال: **﴿أَمَّنْ يَمْشِي مَكِبًا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى﴾** والمكب والمنكب: الساقط على وجهه، يقال: كبته فاكب وانكب، وقيل: هو الذي يكب رأسه، فلا ينظر يمينا ولا شمالاً ولا أماماً، فهو لا يأمن العثور والانكباب على وجهه. وقيل: أراد به الأعمى الذي لا يهتدي إلى الطريق، فلا يزال

وفي هذا وعيد شديد. ثم خوّف سبحانه الكفار. فقال: **﴿أَمَّنْتُمْ مِنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضُ﴾** قال الواحي: قال المفسرون: يعني: عقوبة من في السماء، وقيل: من في السماء قدرته، وسلطانه، وعرشه، وملأنته، وقيل: من في السماء من الملائكة، وقيل: المراد جبريل، ومعنى **﴿أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضُ﴾** يقلعها ملتبسة بكم، كما فعل بقاريون بعد ما جعلها لكم ثللاً تمشون في مناكبها، وقوله: **﴿أَنْ يَخْسِفَ﴾** بدل اشتمال من الموصول أي: أَمَّنْتُمْ خسفه، أو على حذف من أي: من أن يخسف **﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾** أي: تضطرب، وتتحرك على خلاف ما كانت عليه من السكون. قرأ الجمهور **﴿أَمَّنْتُمْ﴾** بهزتين، وقرأ البصريون، والكوفيون بالتخفيف، وقرأ ابن كثير بقلب الأولى وأوا. ثم كرّر سبحانه التهديد لهم بوجه آخر، فقال: **﴿أَلَمْ أَمْنْتُمْ مِنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾** أي: حجارة من السماء، كما أرسلها على قوم لوط وأصحاب الفيل، وقيل: سحب فيها حجارة، وقيل: ريع فيها حجارة **﴿فَسْتَغْلَمُونَ كَيْفَ نُذِيرُ﴾** أي: إنذارى إذا عاينتكم العذاب، ولا ينفعكم هذا العلم، وقيل: النذير هنا محمد ﷺ، قاله عطاء، والضحاك. والمعنى: ستعلمون رسولي وصيقه، والأول أولى. والكلام في **﴿أَنْ يَرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾** كاللّكلام في **﴿أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضُ﴾** فهو: إما بدل اشتمال، أو بتقدير من **﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾** أي: الذين قبل كفار مكة من كفار الأمم الماضية. كقوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط، وأصحاب الأيكة، وأصحاب الرس، وقوم فرعون **﴿فَكَيْفَ كَانَ نُكَيْرُ﴾** أي: فكيف كان إنكارى عليهم بما أصبتهم به من العذاب الفظيع **﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَاتٍ﴾** الهمزة للاستفهام، والوار للعطف على مقدر أي: أغفلوا ولم ينظروا، ومعنى **﴿صَافَاتٍ﴾** أنها صافة لأجنحتها في الهواء، وتبسطها عند طيرانها **﴿وَيُقَبِّضْنَ﴾** أي: يضممن أجنحتهن. قال النحاس: يقال للطائر إذا بسط جناحه صافاً، وإذا ضمها قابض كأنه يقبضها، وهذا معنى الطيران، وهو بسط الجناح، وقبضه بعد البسط، ومنه قول أبي خراش:

يبابر جنح الليل فهو مزابل تحت الجناح بالتبسط والقبض وإنما قال: **﴿وَيُقَبِّضْنَ﴾** ولم يقل قابضات، كما قال صافات؛ لأن القبض يتجدد تارة فتارة، وأما البسط فهو الأصل، كذا قيل. وقيل: إن معنى **﴿وَيُقَبِّضْنَ﴾** قبضهن لأجنحتهن عند الوقوف من الطيران، لا قبضها في حال الطيران، وجملة **﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾** في محل نصب على الحال من فاعل يقبضن، أو مستأنفة؛ لبيان كمال قدرة الله سبحانه. والمعنى: أنه ما يمسكهن في الهواء عند الطيران إلا الرحمن القادر على كلّ شيء **﴿إِنَّمَا بِكُلِّ شَيْءٍ بِصِيرُ﴾** لا يخفى عليه شيء كائن ما كان **﴿وَإِنَّ هَذَا الَّذِي هُوَ جَنْدُ لَكُمْ يَنْصَرِكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ﴾** الاستفهام للتقريع والتوبيخ، والمعنى: أنه لا جند لكم يمنكم من عذاب الله، والجند الحزب والمنعة. قرأ الجمهور **﴿أَمَّنْ﴾** هذا بتشديد

ظرف أي: رآوه في مكان ذي زلفة. قال مجاهد: أي: قريباً. وقال الحسن: عياناً. قال أكثر المفسرين: المراد عذاب يوم القيامة. وقال مجاهد: المراد عذاب بدر، وقيل: رأوا ما وعدوا به من الحشر قريباً منهم، كما يدل عليه قوله: ﴿وإليه تحشرون﴾ وقيل: لما رأوا عملهم السيئ قريباً ﴿سيئنت وجوه الذين كفروا﴾ أي: اسوئت وعلتها الكآبة وغشيتها الذلة، يقال: ساء الشيء يسوء، فهو سيء إذا قبح. قال الزجاج: للمعنى تبين فيها السوء أي: ساءهم ذلك العذاب، فظهر عليهم بسببه في وجوههم ما يدل على كفرهم كقوله: ﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه﴾ [آل عمران: 106]. قرأ الجمهور بكسر السين بدون إشمام، وقرأ نافع، وابن عامر، والكسائي، وابن محيصن بالإشمام ﴿وقيل هذا الذي كنتم به تدعون﴾ أي: قيل لهم توبيحاً وتقريراً هذا المشاهد الحاضر من العذاب، هو العذاب الذي كنتم به تدعون في الدنيا أي: تطالبونه وتستعجلون به استهزاء، على أن معنى تدعون الدعاء. قال الفراء: تدعون فتتعلون من الدعاء أي: تتمنون وتسالون، وبهذا قال الأكثر من المفسرين. وقال الزجاج: هذا الذي كنتم به تدعون الأباطيل والأحاديث. وقيل: معنى ﴿تدعون﴾: تكنبون، وهذا على قراءة الجمهور (تدعون) بالتشديد، فهو إما من الدعاء كما قال الأكثر، أو من الدعوى كما قال الزجاج ومن وافقه، والمعنى: أنهم كانوا يدعون أنه لا بعث ولا حشر ولا جنة ولا نار. وقرأ قتادة، وابن أبي إسحاق، ويعقوب، والضحاك (تدعون) مخففاً، ومعناها ظاهر. قال قتادة: هو قولهم: ﴿ربنا عجل لنا قطناً﴾ [ص: 16] وقال الضحاك: هو قولهم: ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء﴾ [الأنفال: 32] الآية. قال النحاس: تدعون وتدعون بمعنى واحد، كما تقول قدر واقتدر، وغدا واغدئ، إلا أن أفعل معناه مضى شيئاً بعد شيء، وفعل يقع على القليل والكثير ﴿قل أرايتم إن أهلكني الله ومن معي﴾ أي: أخبروني إن أهلكني الله بموت أو قتل ومن معي من المؤمنين ﴿أو رحمنا﴾ بتأخير ذلك إلى أجل، وقيل المعنى: إن أهلكني الله ومن معي بالعذاب، أو رحمنا فلم يعذبنا ﴿فمن يجير الكافرين من عذاب اليم﴾ أي: فمن يمنهم ويؤمنهم من العذاب. والمعنى: أنه لا ينجيهم من ذلك أحد سواء أهلك الله رسوله والمؤمنين معه، كما كان الكفار يتمنونوه أو أمهلهم. وقيل: المعنى إنا مع إيماننا بين الخوف والرجاء، فمن يجيركم مع كفركم من العذاب، ووضع الظاهر موضع المضمرة للتسجيل عليهم بالكفر، وبيان أنه السبب في عدم نجاتهم ﴿قل هو الرحمن أمفاً به﴾ وحده لا تشرك به شيئاً ﴿وعليه توكلنا﴾ لا على غيره، والتوكل: تفويض الأمور إليه عز وجل ﴿فستعلمون من هو في ضلال مبين﴾ منا ومنكم، وفي هذا تهديد شديد مع إخراج الكلام مخرج الإنصاف. قرأ الجمهور (ستعلمون) بالفوقية على الخطاب. وقرأ الكسائي بالتحته على الخبر، ثم احتج سبحانه عليهم ببعض نعمه، وخوفهم بسلب تلك

مشيه ينكسه على وجهه. قال قتادة: هو الكافر يكب على معاصي الله في الدنيا فيحشره الله يوم القيامة على وجهه. والهمزة للاستفهام الإنكاري أي: هل هذا الذي يمشي على وجهه أهدى إلى المقصد الذي يريده ﴿أمن يمشي سويّاً﴾ معتدلاً ناظراً إلى ما بين يديه ﴿على صراط مستقيم﴾ أي: على طريق مستوي لا اعوجاج به ولا انحراف فيه، وخبر «من» محذوف لدلالة خبر «من» الأولى، وهو أهدى عليه، وقيل: لا حاجة إلى ذلك؛ لأن «من» الثانية معطوفة على «من» الأولى عطفت المفرد على المفرد، كقولك: أزيد قائم أم عمرو؟ وقيل: أراد بمن يمشي مكباً على وجهه من يحشر على وجهه إلى النار، ومن يمشي سويّاً من يحشر على قدميه إلى الجنة، وهو كقول قتادة الذي نكرناه، ومثله قوله: ﴿ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم﴾ [الإسراء: 97] ﴿قل هو الذي أنشأكم﴾ أمر سبحانه رسوله ﷺ أن يخبرهم بأن الله هو الذي أنشأهم النشأة الأولى ﴿وجعل﴾ لهم ﴿السمع﴾ ليسمعوا به ﴿والأبصار﴾ ليبصروا بها، ووجه أفراد السمع مع جمع الأبصار أنه مصدر يطلق على القليل والكثير، وقد قدمنا بيان هذا في مواضع مع زيادة في البيان ﴿والأفئدة﴾ القلوب التي يتفكرون بها في مخلوقات الله، فنكر سبحانه ما هنا أنه قد جعل لهم ما يدركون به المسموعات والمبصرات والمعقولات أيضاً للحجة وقطعاً للمعذرة، وذمأ لهم على عدم شكر نعم الله، ولهذا قال: ﴿قليلاً ما تشكرون﴾ وانتصاب قليلاً على أنه نعت مصدر محذوف، و«ما» مزيدة للتأكيد أي: شكراً قليلاً أو زمناً قليلاً، وقيل: أراد بقلة الشكر عدم وجوده منهم. قال مقاتل: يعني أنكم لا تشكرون رب هذه النعم فتوحلوته ﴿قل هو الذي نراكم في الأرض وإليه تحشرون﴾ أمر الله رسوله ﷺ بأن يخبرهم أن الله هو الذي خلقهم في الأرض ونشرهم فيها وفرقهم على ظهرها، وإن حشرهم للجزاء إليه لا إلى غيره. ثم نكر سبحانه أنهم يستعجلون العذاب فقال: ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ أي: متى هذا الوعد الذي تذكرونه لنا من الحشر والقيامة، والنار والعذاب إن كنتم صادقين في ذلك، والخطاب منهم للنبي ﷺ ولمن معه من المؤمنين، وجواب الشرط محذوف، والتقدير إن كنتم صادقين فأخبرونا به أو فبينوه لنا، وهذا منهم استهزاء وسخرية. ثم لما قالوا هذا القول أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يجيب عليهم، فقال: ﴿قل إنما أعلم عند الله﴾ أي: إن وقت قيام الساعة علمه عند الله لا يعلمه غيره، ومثله قوله: ﴿قل إنما علمها عند ربي﴾ [الأعراف: 187] ثم أخبرهم أنه مبعوث للإنذار لا للإخبار بالغيب فقال: ﴿وانما أنا نذير مبين﴾ أنذركم وأخوفكم عاقبة كفركم، وأبين لكم ما أمرني الله ببيانه. ثم نكر الله سبحانه حالهم عند معاينة العذاب فقال: ﴿فلما رآوه زلفة﴾ يعني: رأوا العذاب قريباً، وزلفة مصدر بمعنى الفاعل أي: مزلفاً، أو حال من مفعول رأوا بتقدير مضاف أي: ذا زلفة وقرب، أو

الْمَنْتُونُ ﴿١﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا سَلَ عَنْ سَبِيلِهِ. وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنْتَهَيْنِ ﴿٢﴾ فَلَا تُطِيعُ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ وَذُو لَوْ تَدْرِي بِكَ دَهْشُونَ ﴿٤﴾ وَلَا تُطِيعُ كُلَّ حَلَّانٍ مَّهِينٍ ﴿٥﴾ هَكَذَا تَسْلَمُ بِبَيْتِهِ ﴿٦﴾ تَنَاجَى لَلَّحْمِ مُتَعَدِّ أَيْمٍ ﴿٧﴾ عُلِّيَّ بَدَّ ذَلِكَ زَيْبٍ ﴿٨﴾ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿٩﴾ إِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِ مَا نَشْنَا قَالَ أَسْتَطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ تَسْتَمِعُ عَلَى الْغُرُورِ ﴿١١﴾

قوله: ﴿نَ﴾ قرأ أبو بكر، وورش، وابن عامر، والكسائي، وابن محيصن، وابن هبيرة بإدغام النون الثانية من هجائها في الواو، وقرأ الباقون بالإظهار، وقرأ أبو عمرو، وعيسى بن عمر بالفتح على إضمار فعل. وقرأ ابن عامر، ونصر، وابن إسحاق بكسرها على إضمار القسم، أو لأجل التقاء الساكنين، وقرأ محمد بن السميع وهارون بضمها على البناء. قال مجاهد، ومقاتل، والسدي: هو الحوت الذي يحمل الأرض، وبه قال مرة الهذلي، وعطاء الخراساني، والكلمي. وقيل: إن نون آخر حرف من حروف الرحمن. وقال ابن زيد: هو قسم أقسم الله به. وقال ابن كيسان: هو فاتحة السورة. وقال عطاء، وأبو العالية: هي النون من نصر وناصر. قال محمد بن كعب: أقسم الله تعالى بنصره المؤمنين، وقيل: هو حرف من حروف الهجاء، كالفواتح الواقعة في أوائل السور المفتحة بذلك، وقد عرفت أن ما هو الحق في مثل هذه الفواتح في أول سورة البقرة، والواو في قوله: ﴿والقلم﴾. وواو القسم، أقسم الله بالقلم لما فيه من البيان، وهو واقع على كل قلم يكتب به. وقال جماعة من المفسرين: المراد به القلم الذي كتب به اللوح المحفوظ، أقسم الله به تعظيماً له.

قال قتادة: القلم من نعمة الله على عباده ﴿وما يسطرون﴾ ما موصولة أي: والذي يسطرون، والضمير عائد إلى أصحاب القلم المملول عليهم بذكره: لأن ذكر آلة الكتابة تدل على الكاتب. والمعنى: والذي يسطرون أي: يكتبون كل ما يكتب، أو الحفظ على ما تقدم. ويجوز أن تكون «ما» مصدرية أي: وسطروهم، وقيل: الضمير راجع إلى القلم خاصة من باب إسناد الفعل إلى الآلة، وإجرائها مجرى العقلاء، وجواب القسم قوله: ﴿ما أنت بنعمة ربك بمجنون﴾ ما نافية، وأنت اسمها، وبمجنون خبرها. قال الزجاج: أنت هو اسم ما، وبمجنون خبرها، وقوله: ﴿بنعمة ربك﴾ كلام وقع في الوسط أي: انتفى عنك الجنون بنعمة ربك، كما يقال: أنت بحمد الله عاقل، قيل: الباء متعلقة بمضمر هو حال، كانه قيل: أنت بريء من الجنون ملتبساً بنعمة الله التي هي النبوة والرياسة العامة. وقيل: الباء للقسم أي: وما أنت ونعمة ربك بمجنون. وقيل: النعمة هنا الرحمة، والآية رد على الكفار حيث قالوا: ﴿يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون﴾ [الحجر: 6] ﴿وان لك لأجر﴾ أي: ثواباً على ما تحملت من أثقال النبوة، وقاسيت من أنواع الشدائد ﴿غير ممنون﴾ أي: غير مقطوع، يقال: مننت الحبل إذا قطعته. وقال مجاهد: ﴿غير ممنون﴾ غير محسوب، وقال الحسن: ﴿غير ممنون﴾ غير مكتر باليمن. وقال الضحاک:

النعمة عنهم فقال: ﴿قل أريتكم إن أصبح ماؤكم غوراً﴾ أي: أخبروني إن صار ماؤكم غائراً في الأرض بحيث لا يبقى له وجود فيها أصلاً، أو صار ذاهباً في الأرض إلى مكان بعيد بحيث لا تناله الدلاء، يقال: غار الماء غوراً أي: نضب، والغور الغائر، وصف بالمصدر للمبالغة، كما يقال: رجل عدل، وقد تقدم مثل هذا في سورة الكهف ﴿فمن ياتيكم بماء معين﴾ أي: ظاهر تراه العين وتناله الدلاء، وقيل: هو من معن الماء أي: كثر. وقال قتادة، والضحاک: أي: جار، وقد تقدم معنى المعين في سورة المؤمن. وقرأ ابن عباس (فمن ياتيكم بماء عنب).

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿فمن يمشي مكياً﴾ قال: في الضلالة ﴿أمن يمشي سوياً﴾ قال: مهتدياً. وأخرج الخطيب في تاريخه، وابن النجار عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من اشتكى ضرسه فليضع أصبعه عليه، وليقرأ هذه الآية: ﴿هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والابصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون﴾». وأخرج الدارقطني في الأفراد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من اشتكى ضرسه فليضع أصبعه عليه، وليقرأ هاتين الآيتين سبع مرات: ﴿وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع﴾ إلى ﴿يفقهون﴾ [الأنعام: 98] و ﴿هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والابصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون﴾ فإنه يبرأ بإذن الله». وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿إن أصبح ماؤكم غوراً﴾ قال: داخلاً في الأرض ﴿فمن ياتيكم بماء معين﴾ قال: الجاري. وأخرج ابن المنذر عنه: ﴿إن أصبح ماؤكم غوراً﴾ قال: يرجع في الأرض. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿بماء معين﴾ قال: ظاهر. وأخرج عبد بن حميد عنه أيضاً ﴿بماء معين﴾ قال: عنب.

تفسير سورة القلم

وهي مكية في قول الحسن، وعكرمة، وعطاء، وجابر. وروى عن ابن عباس، وقاتدة أن من أولها إلى قوله: ﴿سنسمه على الخرطوم﴾ [ن: 1 . 16] مكي، ومن بعد ذلك إلى قوله: ﴿من الصالحين﴾ [ن: 17 . 52] مني، وبقاها مكي كذا قال الماوردي. وأخرج ابن الضريس عن ابن عباس قال: كانت إذا نزلت فاتحة سورة بمكة كتبت بمكة، ثم يزيد الله فيها ما يشاء، وكان أول ما نزل من القرآن: ﴿اقرأ باسم ربك﴾ [أي: سورة العلق] ثم نون، ثم المزمّل، ثم المنش. وأخرج النحاس، وابن مروي، والبيهقي عنه قال: نزلت سورة ن بمكة. وأخرج ابن مروي عن عائشة مثله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ت وَالْقَلَمَ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنتَ بِمَنْتُورٍ رَبِّكَ بِمَنْتُورٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَمَلَكٌ عَلِيٌّ عَظِيمٌ ﴿٤﴾ تَسْمِعُ وَيُحْيِي ﴿٥﴾ بِأَيْمِكَ

وكذا قال الكلبي. وقال الضحاك، والسدي: ونوا لو تكفر فيتمانوا على الكفر. وقال الربيع بن أنس: ونوا لو تكذب فيكذبون. وقال قتادة: ونوا لو تذهب عن هذا الأمر، فيذهبون معك. وقال الحسن: ونوا لو تصانعهم في دينك فيصانعونك. وقال مجاهد: ونوا لو تركن إليهم وتترك ما أئت عليه من الحق فيمائلونك. قال ابن قتيبة: كانوا أرادوه على أن يعبد الهتهم مدة، ويعبدوا الله مدة، وقوله: ﴿فَيُذْهِبُونَ﴾ عطف على تدهن داخل في حيز لو، أو هو خبر مبتدأ محذوف أي: فهم يذهنون. قال سيبويه: وزعم قالون أنها في بعض المصاحف (ونوا لو تدهن فيذهنون) بدون نون، والنصب على جواب للتمني المفهوم من ونوا، والظاهر من اللغة في معنى الإدهان، هو ما ذكرناه أولاً ﴿وَلَا تَطْعَ كُلَّ حَلَّافٍ﴾ أي: كثير الحلف بالباطل ﴿مُهِنٍ﴾ فعيل من المهانة، وهي القلة في الرأي والتمييز. وقال مجاهد: هو الكذاب. وقال قتادة: المكثار في الشر، وكذا قال الحسن. وقيل: هو الفاجر العاجز، وقيل: هو الحقيق عند الله، وقيل: هو النليل، وقيل: هو الوضع ﴿هَمَّازٌ مَشَاءٌ بَنِمِيمٍ﴾ الهماز المغتاب للناس. قال ابن زيد: هو الذي يهزم بأخيه، وقيل: الهماز الذي ينكر الناس في وجوههم، والماز الذي ينكرهم في مقبيهم، كذا قال أبو العالية، والحسن، وعطاء بن أبي رباح، وقال مقاتل عكس هذا. والمشاء بنميم: الذي يمشي بالبنمية بين الناس ليفسد بينهم، يقال: ثم يثم إذا سعى بالفساد بين الناس، ومنه قول الشاعر:

ومولى كبيت النمل لا خير عنده لمولاه إلا سعيه بنميم
وقيل: النميم جمع نميمة ﴿مَنَاعٌ لِلْخَيْرِ﴾ أي: بخيل بالمال لا ينفقه في وجهه، وقيل: هو الذي يمنع أهله وعشيرته عن الإسلام. قال الحسن: يقول لهم من نخل منكم في دين محمد لا أنفعه بشيء أبداً ﴿مَعْقِدٌ أَثِيمٌ﴾ أي: متجاوز الحد في الظلم كثير الإثم ﴿عَتَلٌ﴾ قال الواحدي: المفسرون يقولون: هو الشديد الخلق الفاحش الخلق. وقال الفراء: هو الشديد الخصومة في الباطل. وقال الزجاج: هو الغليظ الجافي. وقال الليث: هو الأكل المنوع، يقال: عتل الرجل أعتله إذا جنبتهجنباً عنيفاً، ومنه قول الشاعر:

نقرعه قرعاً ولسنا نعتله

﴿بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ﴾ أي: هو بعد ما عد من معايه زنيم، والزنيم هو الدعي الملقب بالقوم وليس هو منهم؛ مأخوذ من الزنمة المتبالية في حلق الشاة أو المعاز، ومنه قول حسان:

زنيم تداعاه الرجال زيادة كما زيد في عرض الأليم الأكارع
وقال سعيد بن جببر: الزنيم المعروف بالشر، وقيل: هو رجل من قريش كان له زنمة كزنمة الشاة، وقيل: هو الظلوم ﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ متعلق بقوله: ﴿لَا تَطْعَ﴾ أي: لا تطع من هذه مثالبه لكونه ذا مال وبنتين. قال الفراء، والزجاج: أي لأن كان، والمعنى لا تطعه لماله وبنيه. قرأ ابن عامر، وأبو جعفر، والمغيرة، وأبو حيوة (أن كان) بهززة

أجراً بغير عمل، وقيل: غير مقدّر، وقيل: غير ممنون به عليك من جهة الناس ﴿وَأِنَّكَ لَعَلَى خَلْقٍ عَظِيمٍ﴾ قيل: هو الإسلام والدين، حكى هذا الواحدي عن الأكثرين. وقيل: هو القرآن، روي هذا عن الحسن والعوفي. وقال قتادة: هو ما كان ياتمر به من أمر الله وينتهي عنه من نهي الله. قال الزجاج: المعنى إنك على الخلق الذي أمر الله به في القرآن، وقيل: هو رفقه بأمته وإكرامه إياهم، وقيل المعنى: إنك على طبع كريم. قال الماوردي: وهذا هو الظاهر، وحقيقة الخلق في اللغة ما يأخذ الإنسان نفسه به من الأب. وقد ثبت في الصحيح عن عائشة أنها سألت عن خلق النبي ﷺ، فقالت: كان خلقه القرآن، وهذه الجملة، والتي قبلها مطوفتان على جملة جواب القسم ﴿فَسَتَبْصُرُ وَيَبْصُرُونَ﴾ أي: ستبصر يا محمد ويبصر الكفار إذا تبين الحق وانكشف الغطاء، وذلك يوم القيامة ﴿بِأَيْكُمُ الْمُفْتُونُ﴾ الباء زائدة للتأكيد أي: المفتون بالجنون، كذا قال الأخفش، وأبو عبيدة، وغيرهما، ومنه قول الشاعر:

نحن بنو جعدة أصحاب العليج نضرب بالسيف ونرجو بالفرج
وقيل: ليست الباء زائدة، والمفتون مصدر جاء على مفعول كالمعقول والميسور، والتقدير: بأيكم الفتون أو الفتنة، ومنه قول الشاعر الراعي:

حتى إذا لم يتركوا العظامه لحماء ولا لفؤاده معقولا
أي: عقلا. وقال الفراء: إن الباء بمعنى في أي: في أيكم المفتون، أي الفريق الذي أنت فيه أم في الفريق الآخر؟ ويؤيد هذا قراءة ابن أبي عبلة (في أيكم المفتون)، وقيل: الكلام على حذف مضاف أي: بأيكم فتن المفتون، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، روي هذا عن الأخفش أيضاً. وقيل: المفتون المعذب، من قول العرب فتنت الذهب بالنار إذا أحميته، ومنه قوله: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ [الذاريات: 13]، وقيل: المفتون هو الشيطان، لأنه مفتون في دينه، والمعنى: بأيكم الشيطان. وقال قتادة: هذا وعيد لهم بعذاب يوم بدر، والمعنى: ستري ويرى أهل مكة إذا نزل بهم العذاب ببدر بأيكم المفتون، وجملة ﴿إِنْ رَيْكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ تعليل للجملة التي قبلها، فإنها تتضمن الحكم عليهم بالجنون لمخالفتهم لما فيه نفعهم في العاجل والآجل، واختيارهم ما فيه ضررهم فيهما، والمعنى: هو أعلم بمن ضل عن سبيله الموصل إلى سعادة الدارين ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ إلى سبيله الموصل إلى تلك السعادة الآجلة والعاجلة، فهو مجاز كل عامل بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر ﴿فَلَا تَطْعَ الْمُكْبِثِينَ﴾ نهاء سبحانه عن ممايلة المشركين، وهم رؤساء كفار مكة؛ لأنهم كانوا يدعونهم إلى دين آبائهم، فنهاه الله عن طاعتهم، أو هو تعريض بغيره عن أن يطيع الكفار، أو المراد بالطاعة مجرد المداراة بإظهار خلاف ما في الضمير، فنهاه الله عن ذلك، كما يدل عليه قوله: ﴿وَنُوا لَوْ تَدَهَّنَ فَيُذْهِبُونَ﴾ فإن الإدهان هو الملاينة والمسامحة والمداراة. قال الفراء: المعنى لو تلين فيلينوا لك،

الأرضين، والقلم الذي خط به ربنا عز وجل القدر خيره وشره، وضره ونفعه ﴿وما يسطرون﴾ قال: الكرام الكاتبون. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه من طرق عن ابن عباس في قوله: ﴿وما يسطرون﴾ قال: ما يكتبون. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه ﴿وما يسطرون﴾ قال: وما يعلمون. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، ومسلم، وابن المنذر، والحاكم، وابن مردويه عن سعد بن هشام قال: أتيت عائشة فقلت: يا أم المؤمنين أخبريني بخلق رسول الله ﷺ، قالت: كان خلقه القرآن، أما تقرأ القرآن ﴿إنك لعلى خلق عظيم﴾. وأخرج ابن مردويه، وأبو نعيم في الدلائل، والواحدي عنها قالت: ما كان أحد أحسن خلقاً من رسول الله ﷺ، ما دعاه أحد من أصحابه، ولا من أهل بيته إلا قال: «لبيك»، فلذلك أنزل الله ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ وأخرج ابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن أبي الدرداء قال: سُئِلَت عائشة عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: كان خلقه القرآن، يرضى لرضاه، ويسخط لسخطه. وأخرج ابن أبي شيبة، والترمذي وصححه، وابن مردويه عن أبي عبد الله الجبلي قال: قلت لعائشة: كيف كان خلق رسول الله ﷺ؟ قالت: لم يكن فاحشاً ولا متفاحشاً، ولا صخاباً في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿فستبصر ويبصرون﴾ قال: تعلم ويعلمون يوم القيامة ﴿بأيكم المفتون﴾ قال: الشيطان، كانوا يقولون: إنه شيطان، وأنه مجنون. وأخرج ابن جرير عنه في الآية قال: بأيكم المجنون. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿وأنزلوا لو تدهن فيدهنون﴾ يقول: لو ترخص لهم فيرخصون. وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً ﴿ولا تطع كل حلاف مهين﴾ الآية قال: يعني: الأسود بن عبد يغوث. وأخرج ابن مردويه عن أبي عثمان النهدي قال: قال مروان لما بايع الناس ليزيد: سئنة أبي بكر وعمر، فقال عبد الرحمن بن أبي بكر: إنها ليست بسئنة أبي بكر وعمر، ولكنها سئنة هرقل، فقال مروان: هذا الذي أنزل فيه: ﴿والذي قال لوالديه أف لكما﴾ [الأحقاف: 17] الآية، قال: فسمعت ذلك عائشة فقلت: إنها لم تنزل في عبد الرحمن، ولكن نزل في أبيك: ﴿ولا تطع كل حلاف مهين همار مشاء﴾ يعني: المشاء بضم الميم. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس قال: نزل على النبي ﷺ ﴿ولا تطع كل حلاف مهين همار مشاء﴾ فلم نعرف حتى نزل عليه بعد ذلك زعيم، فعرفناه له زمة كزمة الشاة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه قال: المعتل هو الدعى، والزنيم هو المريب الذي يعرف بالشر. وأخرج عبد بن حميد، وابن عساكر عنه قال: الزنيم هو الدعى. وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، والحاكم وصححه عنه أيضاً قال: الزنيم الذي يعرف بالشر كما

واحدة مملوذة على الاستفهام. وقرأ حمزة، وأبو بكر، والمفضل (آن كان) بهزتين مخففتين، وقرأ الباقون بهمة واحدة على الخبر، وعلى قراءة الاستفهام يكون المراد به التوبيخ والتقريع حيث جعل مجازاة النعم التي خوله الله من المال والبنين أن كفر به وبرسوله. وقرأ نافع في رواية عنه بكسر الهمزة على الشرط، وجملة ﴿إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين﴾ مستأنفة جارية مجرى التعليل للنهي، وقد تقدم معنى أساطير الأولين في غير موضع ﴿سنسسه على الخرطوم﴾ أي: سنسسه بالسواد على الأنف. خرطومه. قال أبو عبيدة، وأبو زيد، والمبرد: الخرطوم الأنف. قال مقاتل: سنسسه بالسواد على الأنف، وذلك أنه يسود وجهه قبل دخول النار. قال الفراء: والخرطوم وإن كان قد خص بالسمة، فإنه في مذهب الوجه؛ لأن بعض الوجه يؤدي عن بعض. قال الزجاج: سيجعل له في الآخرة العلم الذي يعرف به أهل النار من أسوداد وجوههم. وقال قتادة: سنلحق به شيئاً لا يفارقه، واختار هذا ابن قتيبة، قال: والعرب تقول: قد سسمه ميسم سوء يربون الصق به عاراً لا يفارقه، فالمعنى: أن الله ألحق به عاراً لا يفارقه كاللوسم على الخرطوم، وقيل: معنى ﴿سنسسه﴾: سنحطمه بالسيف. وقال النضر بن شميل: المعنى سنحده على شرب الخمر، وقد يسمى الخمر بالخرطوم، ومنه قول الشاعر:

تظل يومك في لهو وفي طرب وانت بالليل شراب الخراطيم
وقد أخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الاسماء والصفات، والخطيب في تاريخه، والضياء في المختارة عن ابن عباس قال: إن أول شيء خلقه الله القلم، فقال له: اكتب، فقال: يا رب، وما اكتب؟ قال: اكتب القدر، فجري من ذلك اليوم بما هو كائن إلى أن تقوم الساعة، ثم طوى الكتاب ورفع القلم، وكان عرشه على الماء فارتفع بخار الماء، ففتقت منه السموات ثم خلق النون، فبسطت الأرض عليه، والأرض على ظهر النون، فاضطرب النون فمانت الأرض، فأنبتت الجبال، فإن الجبال لتفخر على الأرض إلى يوم القيامة، ثم قرأ ابن عباس: (نون والقلم وما يسطرون). وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والترمذي وصححه، وابن مردويه عن عبادة بن الصامت سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، فجري بما هو كائن إلى الأبد». وأخرج ابن جرير من حديث معاوية بن قرة عن أبيه مرفوعاً نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس قال: إن الله خلق النون، وهي الدواة: وخلق القلم، فقال: اكتب، قال: وما اكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة. وأخرج الحكيم الترمذي عن أبي هريرة مرفوعاً نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن ابن عباس قال: ن الدواة. وأخرج ابن مردويه عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «النون السمكة التي عليها قرار

كالصريم أي: كالشيء الذي صرمت ثماره أي: قطعت، فعيل بمعنى مفعول، وقال الفراء: كالصريم كالليل المظلم، ومنه قول الشاعر:

تطول ليلك الجون الصريم فما ينجاب عن صبح بهيم
والمعنى: أنها حرقت فصارت كالليل الأسود، قال:

والصريم الرماد الأسود بلغة خزيمة. وقال الاخفش: أي

المبرد: الصريم الليل، والصريم النهار أي: ينصرم هذا عن

هذا، وذلك عن هذا، وقيل: سمي الليل صريماً لأنه يقطع

بظلمته عن التصرف. وقال المؤرج: الصريم الرملة؛ لأنها لا

يثبت عليها شيء ينتفع به. وقال الحسن: صرم منها الخير

أي: قطع **«فقتانوا مصبحين»** أي: نادى بعضهم بعضاً

داخليين في الصباح. قال مقاتل: لما أصبحوا قال بعضهم

لبعض **«أن اغدوا على حرككم»** و«أن» في قوله: **«أن**

اغدوا» هي المفسرة لأن في التنادي معنى القول، أو هي

المصدرية أي: بأن اغدوا، والمراد اخرجوا غداة، والمراد

بالحرث الثمار والزرع **«إن كنتم صارمين»** أي: قاصدين

للصرم، والغزو يتعدى إلى وعلى، فلا حاجة إلى تضمينه

معنى الإقبال كما قيل، وجواب الشرط محذوف أي: إن كنتم

صارمين فاغدوا، وقيل: معنى صارمين ماضين في العزم،

من قولك سيف صارم **«فانطلقوا وهم يتخافتون»** أي:

ذهبوا إلى جنتهم وهم يسرون الكلام بينهم؛ لثلا يعلم أحد

بهم، يقال: خفت يخفت إذا سكن ولم ينبس، ومنه قول

نريد بن الصمة:

واني لم أهلك مالا ولم أمت خفاتا وكلاظنه بي عويمر
وقيل المعنى: يخفون أنفسهم من الناس حتى لا يروه،

فيقصصهم، كما كانوا يقصدون أباهم وقت الحصاد، والأول

أولى لقوله: **«أن لا يخلنّها اليوم عليكم مسكين»** فإن

«أن» هي المفسرة للتخافت المذكور لما فيه من معنى القول،

والمعنى: يسر بعضهم إلى بعض هذا القول، وهو لا يدخل
هذه الجنة اليوم عليكم مسكين، فيطلب منكم أن تعطوه منها
ما كان يعطيه أبوكم **«وغدوا على حرد قادرين»** الحرد
يكون بمعنى المنع والقصد. قال قتادة، ومقاتل، والكلبي،
والحسن، ومجاهد: الحرد هنا بمعنى القصد؛ لأن القاصد إلى
الشيء حارد. يقال: حرد يحرده إذا قصد، تقول: حررت حركه
أي: قصصت قصصك، ومنه قول الراجز:

أقبل سبيل جاء من عند الله يحرده حرد الجنة المحله

وقال أبو عبيدة، والمبرد، والقيتيبي: على حرد على منع،

من قولهم: حررت الإبل حردها: إذا قلت البانها، والحرد من

النوق هي القليلة اللبن. وقال السدي، وسفيان، والشعبي

«على حرد» على غضب، ومنه قول الشاعر:

إذا جيا الخيل جاءت تردى مملوءة من غضب وحرد

وقول الآخر:

تساقوا على حرد دماء الأسود

ومنه قيل: أسد حارد. وروي عن قتادة، ومجاهد أيضاً

تعرف الشاة بزنتها. وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال: هو

الرجل يمر على القوم، فيقولون رجل سوء. وأخرج ابن

المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: **«زنيهم»** قال:

ظلوم. وقد قيل: إن هذه الآيات نزلت في الاخنس بن شريق،

وقيل: في الوليد بن المغيرة.

«إنا بلوناكم كما بلونا أصحابنا» **«إنا بلوناكم»** **«إنا بلوناكم»** **«إنا بلوناكم»**

«إنا بلوناكم» **«إنا بلوناكم»** **«إنا بلوناكم»** **«إنا بلوناكم»**

«إنا بلوناكم» **«إنا بلوناكم»** **«إنا بلوناكم»** **«إنا بلوناكم»**

«إنا بلوناكم» **«إنا بلوناكم»** **«إنا بلوناكم»** **«إنا بلوناكم»**

«إنا بلوناكم» **«إنا بلوناكم»** **«إنا بلوناكم»** **«إنا بلوناكم»**

«إنا بلوناكم» **«إنا بلوناكم»** **«إنا بلوناكم»** **«إنا بلوناكم»**

«إنا بلوناكم» **«إنا بلوناكم»** **«إنا بلوناكم»** **«إنا بلوناكم»**

«إنا بلوناكم» **«إنا بلوناكم»** **«إنا بلوناكم»** **«إنا بلوناكم»**

لهم شركاء يجعلونهم مثل المسلمين في الآخرة ﴿يوم يكشف عن ساق﴾ «يوم ظرف لقوله: ﴿فليأتوا﴾ أي: فليأتوا بها يوم يكشف عن ساق، ويجوز أن يكون ظرفاً لفعل مقتر أي: انكر يوم يكشف. قال الواحدي: قال المفسرون في قوله: ﴿عن ساق﴾ عن شدة من الأمر. قال ابن قتبية: أصل هذا أن الرجل إذا وقع في أمر عظيم يحتاج إلى الجِدِّ فيه شمر عن ساقه، فيستعار الكشف عن الساق في موضع الشدة، وإنشد لدريد بن الصمة:

كميش الإزار خارج نصف ساقه صبور على الجلاء طلاع أنجد
وقال: وتأويل الآية يوم يشتد الأمر كما يشتد ما يحتاج فيه إلى أن يكشف عن ساق. قال أبو عبيدة: إذا اشتد الحرب، والأمر قيل: كشف الأمر عن ساقه، والأصل فيه من وقع في شيء يحتاج فيه إلى الجِدِّ شمر عن ساقه، فاستعير الساق والكشف عن موضع الشدة، وهكذا قال غيره من أهل اللغة، وقد استعملت ذلك العرب في أشعارها، ومن ذلك قول الشاعر:

أخو الحرب إن غضبه الحرب عضها وإن شمرت عن ساقها الحرب شمرها
وقول آخر:

والخيل تعبر عند وقت الاشرار وقامت الحرب بنا على ساق
وقول آخر أيضاً:

قد كشفت عن ساقها فسلوا وجئت الحرب بكم فجنوا
وقول آخر أيضاً في سنة:

قد كشفت عن ساقها حمرا تبرئ اللحم عن عراقها
وقيل: ساق الشيء أصله وقوامه كساق الشجرة، وساق الإنسان أي: يوم يكشف عن ساق الأمر فتظهر حقائقه،

وقيل: يكشف عن ساق جهنم، وقيل: عن ساق العرش، وقيل: عبارة عن القرب، وقيل: يكشف الرب سبحانه عن نوره،

وسياي في آخر البحث ما هو الحق، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل. قرأ الجمهور (يكشف) بالتَّخْتِيَة مبنياً للمفعول،

وقرأ ابن مسعود، وابن عباس، وابن أبي عبيدة (تكشف) بالفوقية مبنياً للفعل أي: الشدة أو الساعة، وقرئ بالفوقية مبنياً للمفعول، وقرئ بالنون، وقرئ بالفوقية المضمومة وكسر الشين من اكشف الأمر أي: دخل في الكشف

﴿ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون﴾ قال الواحدي: قال المفسرون: يسجد الخلق كله لله سجدة واحدة، ويبقى الكفار والمنافقون يريون أن يسجدوا فلا يستطيعون؛ لأن

أصلاهم يبست فلا تلين للسجود. قال الربيع بن أنس: يكشف عن الغطاء فيقع من كان آمن بالله في الدنيا،

فيسجدون له، ويدعى الآخرون إلى السجود فلا يستطيعون؛ لأنهم لم يكونوا آمنوا بالله في الدنيا، وانتصاب ﴿خاشعة لبصارهم﴾ على الحال من ضمير يدعون، وأبصارهم

مرفوع به على الفاعلية، ونسبة الخشوع إلى الأبصار، وهو الخشوع والنزلة لظهور أثره فيها ﴿ترهقهم نلة﴾ أي:

تغشاهم نلة شديدة وحسرة وندامة ﴿وقد كانوا يدعون إلى السجود﴾ أي: في الدنيا ﴿وهم سالمون﴾ أي: معافون

النعيم﴾ أي: المتقين ما يوجب سخطه من الكفر والمعاصي عنده عز وجل في الدار الآخرة جنات النعيم الخالص الذي لا يشوبه كدر، ولا ينقصه خوف زوال ﴿ففجعل المسلمين كالمجرمين﴾ الاستفهام للإنكار، وكان صناديد كفار قريش يرون وفور حظهم في الدنيا، وقلة حظوظ المسلمين فيها، فلما سمعوا بذكر الآخرة، وما يعطي الله المسلمين فيها قالوا: إن صح ما يزعمه محمد لم يكن حالنا وحالهم إلا مثل ما هي في الدنيا، فقال الله مكذباً لهم راداً عليهم: ﴿ففجعل للمسلمين﴾ الآية، والفاء للعطف على مقدر كنظاره. ثم ويخبرهم الله، فقال: ﴿ما لكم كيف تحكمون﴾ هذا الحكم الأعوج كان أمر الجزاء مفوض إليكم تحكمون فيه بما شئتم ﴿أم لكم كتاب فيه تدرسون﴾ أي: تقرعون فيه، فتجدون المطيع كالعاصي، ومثل هذا قوله تعالى: ﴿أم لكم سلطان مبين﴾ فاتوا بكتابكم ﴿[الصفات: 156 . 157] ثم قال سبحانه: ﴿إن لكم فيه لما تخيرون﴾ قرأ الجمهور بكسر (إن) على أنها معمولة لتدرسون أي: تدرسون في الكتاب ﴿إن لكم فيه لما تخيرون﴾ فلما دخلت اللام كسرت الهمزة كقوله: علمت إنك لعاقل بالكسر، أو على الحكاية للمدروس، كما في قوله: ﴿وتركنا عليه في الآخرين﴾ سلام على نوح في العالمين ﴿[الصفات: 78 . 79]. وقيل: قد تم الكلام عند قوله: ﴿تدرسون﴾ ثم ابتداء فقال: ﴿إن لكم فيه لما تخيرون﴾ أي: ليس لكم ذلك، وقرأ طلحة بن مصرف، والضحاك (أن لكم) بفتح الهمزة على أن العامل فيه تدرسون مع زيادة لام التاكيد، ومعنى ﴿تخيرون﴾: تختارون وتشتبهون. ثم زاد سبحانه في التوبيخ فقال: ﴿أم لكم إيمان علينا بالغة﴾ أي: عهود مؤكدة موثقة متناهية، والمعنى أم لكم إيمان على الله استوثقت بها في أن يخلكم الجنة، وقوله: ﴿إلى يوم القيامة﴾ متعلق بالمقدر في لكم أي: ثابتة لكم إلى يوم القيامة لا نخرج عن عهدتها حتى يحكمكم يومئذ، وجواب القسم قوله: ﴿إن لكم لما تحكمون﴾ لأن معنى: ﴿أم لكم إيمان﴾ أي: أم أقسمنا لكم. قال الرازي: والمعنى أم ضمنا لكم، وأقسمنا لكم بإيمان مغلفة متناهية في التوكيد. وقيل: قد تم الكلام عند قوله: ﴿إلى يوم القيامة﴾ ثم ابتداء، فقال: ﴿إن لكم لما تحكمون﴾ أي: ليس الأمر كذلك. قرأ الجمهور (بالغة) بالرفع على النعت لإيمان، وقرأ الحسن، وزيد بن علي بنصبها على الحال من إيمان؛ لأنها قد تخصصت بالوصف، أو من الضمير في لكم؛ أو من الضمير في علينا ﴿سلهم ليهم بئلك زعيم﴾ أي: سل يا محمد الكفار موبخاً لهم بأن ومقرعاً، أيهم بذلك الحكم الخارج عن الصواب كليل لهم بأن لهم في الآخرة ما للمسلمين فيها. وقال ابن كيسان: الزعيم هنا القائم بالحجة والدعوى. وقال الحسن: الزعيم الرسول ﴿أم لهم شركاء﴾ يشاركونهم في هذا القول ويوافقونهم فيه ﴿فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين﴾ فيما يقولون، وهو أمر تعجيز، وجواب الشرط محذوف، وقيل: المعنى أم

عن العلل متمكنون من الفعل. قال إبراهيم التيمي: يدعون بالآذان والإقامة فيأبون. وقال سعيد بن جبير: يسمعون حي على الفلاح، فلا يجيبون. قال كعب الأحبار: والله ما نزلت هذه الآية إلا في الذين يتخلفون عن الجماعات. وقيل: يدعون بالتكليف المتوجه عليهم بالشرع فلا يجيبون، وجملة **﴿وهم سالمون﴾** في محل نصب على الحال من ضمير يدعون **﴿فذرني ومن يكذب بهذا الحديث﴾** أي: خل بيني وبينه، وكل أمره إلي فانا أكفيكه. قال الزجاج: معناه لا يشتغل به قلبك، كله إلي فانا أكفيك أمره. والفاء لترتيب ما بعدها من الأمر على ما قبلها، و«من» منصوب بالعطف على ضمير المتكلم، أو على أنه مفعول معه، والمراد بهذا الحديث القرآن، قاله السدي. وقيل: يوم القيامة، وفي هذا تسلية لرسول الله **﴿وجملة «سنستدرجهم من حيث لا يعلمون» مستأنفة لبيان كيفية التعذيب لهم المستفاد من قوله: «ذرني ومن يكذب بهذا الحديث»، والضمير عائد إلى من باعتبار معناه، والمعنى: سنأخذهم بالعذاب على غفلة، ونسوقهم إليه درجة فدرجة حتى نوقعهم فيه من حيث لا يعلمون أن ذلك استدراج؛ لأنهم يظنونهم إنعاماً، ولا يفكرون في عاقبته وما سيلقون في نهايته. قال سفيان الثوري: يسبغ عليهم النعم وينسيهم الشكر. وقال الحسن: كم من مستدرج بالإحسان إليه، وكم من مفتون بالثناء عليه، وكم من مغرور بالستر عليه. والاستدراج ترك المعالجة، وأصله النقل من حال إلى حال، ويقال: استدراج فلان فلاناً أي: استخرج ما عنده قليلاً قليلاً، ويقال: درّجه إلى كذا واستدرجه يعني: أناده إلى التدرّج، فتدرج هو. ثم ذكر سبحانه أنه يمهّل الظالمين، فقال: **﴿وأملي لهم﴾** أي: أمهلهم ليزدادوا إثماً، وقد مضى تفسير هذا في سورة الأعراف والطور، وأصل الملاوة المدة من الدهر، يقال: أملى الله له أي: أطال له المدة، والملا: مقصور الأرض الواسعة، سميت به لامتدادها **﴿إن كيدي متين﴾** أي: قويّ شديد، فلا يفوتني شيء، وسمى سبحانه إحسانه كيداً، كما سماه استدراجاً لكونه في صورة الكيد باعتبار عاقبته، ووصفه بالمثانة لقوة أثره في التسبب للهلاك **﴿إم تسألهم لجراً﴾** أعاد سبحانه الكلام إلى ما تقدّم من قوله: **﴿إم لهم شركاء﴾** أي أم تلتمس منهم ثولباً على ما تدعوهم إليه من الإيمان بالله **﴿فهم من مغرم مثقلون﴾** المغرم الغرامة أي: فهم من غرامة ذلك الأجر، ومثقلون أي: يثقل عليهم حمله لشحهم ببذل المال، فأعرضوا عن إجابتك بهذا السبب، والاستفهام للتوبيخ والتقريع لهم، والمعنى: أنك لم تسألهم ذلك ولم تطلب منهم **﴿إم عندهم الغيب فهم يكتبون﴾** أي: الروح المحفوظ، أو كل ما غاب عنهم، فهم من ذلك الغيب يكتبون ما يريدون من الحجج التي يزعمون أنها تدلّ على قولهم، ويخاصمونك بما يكتبونه من ذلك، ويحكمون لأنفسهم بما يريدون، ويستغنون بذلك عن الإجابة لك والامثال لما تقول: **﴿فاصبر لحكم ربك﴾** أي: لقضائه الذي قد قضاه في سابق**

علمه، قيل: والحكم هنا هو إمهالهم وتأخير نصرته رسول الله **﴿عليهم﴾** وقيل: هو ما حكم به عليه من تبليغ الرسالة، قيل: وهذا منسوخ بآية السيف **﴿ولا تكن كصاحب الحوت﴾** يعني: يونس - عليه السلام - أي: لا تكن مثله في الغضب والضرر والعجلة، والظرف في قوله: **﴿إذ نادى﴾** منصوب بمضاف محذوف أي: لا تكن حاله كحال وقت نداءه، وجملة **﴿وهو مكظوم﴾** في محل نصب على الحال من فاعل نادى، والمكظوم المملوء غيظاً وكرباً. قال قتادة: إن الله يعزّي نبيه **﴿ويأمره بالصبر﴾** ولا يعجل كما عجل صاحب الحوت، - وقد تقدّم بيان قصته في سورة الأنبياء ويونس والصافات - وكان النداء منه بقوله: **﴿لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾** [الأنبياء: 87] وقيل: إن المكظوم: المأخوذ بكظمه، وهو مجرى النفس. قاله المبرّد، وقيل: هو المحبوس، والأول أولى، ومنه قول ذي الرمة:

وأنت من حبٍّ مٍ مضر حزنًا عانى الفؤاد قريح القلب مكظوم
﴿لولا أن تداركه نعمة من ربه﴾ أي: لولا أن تدارك صاحب الحوت نعمة من الله، وهي توفيقه للتوبة، فتاب الله عليه **﴿لنبد بالعراء﴾** أي: لآلني من بطن الحوت على وجه الأرض الخالية من النبات **﴿وهو مذموم﴾** أي: يذمّ ويلام بالذنب الذي أنذبه، ويطرده من الرحمة، والجملة في محل نصب على الحال من ضمير نبد. قال الضحاك: النعمة هنا النبوة. وقال سعيد بن جبير: عيادته التي سلفت. وقال ابن زيد: هي نداؤه بقوله: **﴿لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾** [الأنبياء: 87] وقيل: مذموم مبعد. وقيل: مذنب. قرأ الجمهور (تداركه) على صيغة الماضي، وقرأ الحسن، وابن هرمز، والأعمش بتشديد الدال، والأصل تداركه بتاءين مضارعاً، فأدغم، وتكون هذه القراءة على حكاية الحال الماضية، وقرأ أبي، وابن مسعود، وابن عباس (تداركته) بتاء التانيث **﴿فاجتبه ربه﴾** أي: استخلصه واصطفاه، واختاره للنبوة **﴿فجعله من الصالحين﴾** أي: الكاملين في الصلاح، وعصمه من الذنب، وقيل: ردّ إليه النبوة وشفعه في نفسه وفي قومه، وأرسله إلى مائة ألف أو يزيدون، كما تقدّم **﴿وان يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم﴾** «إن» هي المخففة من الثقيلة. قرأ الجمهور (ليزلقونك) بضم الياء من أزلقه أي: أزلّ رجله، يقال: أزلقه عن موضعه إذا نحاه، وقرأ نافع، وأهل المدينة بفتحها من زلق عن موضعه: إذا تنحى. قال الهروي: أي: فيفتالونك بعيونهم، فيزلقونك عن مقامك الذي أقامك الله فيه عداوة لك، وقرأ ابن عباس، وابن مسعود، والأعمش، ومجاهد، وأبو وائل (ليزلقونك) أي: يهلكونك. وقال الكلبي: «يزلقونك» أي: يصرفونك عما أنت عليه من تبليغ الرسالة، وكذا قال السدي، وسعيد بن جبير. وقال النضر بن شميل، والأخفش: يفتنونك. وقال الحسن، وابن كيسان: ليقتلونك. قال الزجاج: في الآية مذهب أهل اللغة، والتأويل أنهم من شدة إغراضهم وعداوتهم يكادون بنظرهم نظر البغضاء أن يصروعك، وهذا مستعمل في الكلام، يقول القائل: نظر إلي

صاحبه يكوى بالكواة ثم يتابع نلك عليه، ومنه قول أبي نؤاد:

يفرق بينهم زمن طويل تتابع فيه أعماماً حسوماً
وقال المبرد: هو من قولك حسمت الشيء: إذا قطعته
وفصلته عن غيره، وقيل: الحسم الاستئصال، ويقال للسيف:
حسام، لأنه يحسم العدو عما يريده من بلوغ عداوته،
والمعنى: أنها حسمتهم، أو قطعتهم وأذهبتهم، ومنه قول
الشاعر:

فأرسلت ريحاً نبوراً عقيماً فدارت عليهم فكانت حسوماً
قال ابن زيد: أي: حسمتهم فلم تبق منهم أحداً. وروي
عنه أنه قال: حسمت الأيام والليالي حتى استوفقتها؛ لأنها
بدأت بطلوع الشمس من أول يوم، وانقطعت بغروب الشمس
من آخر يوم. وقال الليث: الحسوم هي الشؤم أي: تحسم
الخير عن أهلها، كقوله: ﴿في أيام نحسات﴾ [فصلت: 16].

واختلف في أولها، فقيل: غداة الأحد، وقيل: غداة الجمعة،
وقيل: غداة الأربعاء. قال وهب: وهذه الأيام هي التي تسميها
العرب أيام العجز، كان فيها برد شديد وريح شديدة، وكان
أولها يوم الأربعاء، وآخرها يوم الأربعاء ﴿فترى القوم فيها
صرعى﴾ الخطاب لكل من يصلح له على تقدير أنه لو كان
حاضراً حينئذ لراى ذلك، والضمير في فيها يعود إلى الليالي
والأيام، وقيل: إلى مهاب الريح، والأول أولى. وصرعى جمع
صريع يعني: موتى ﴿كانهم أعجاز نخل خاوية﴾ أي:
أصول نخل ساقطة أو بالية، وقيل: خالية لا جوف فيها،
والنخل ينكر ويؤنث، ومثله قوله: ﴿كانهم أعجاز نخل
منقعر﴾ [القمر: 20] وقد تقدّم تفسيره، وهو إخبار عن عظم
أجسامهم. قال يحيى بن سلام: إنما قال خاوية؛ لأن أبدانهم
خلت من أرواحهم مثل النخل الخاوية ﴿فهل ترى لهم من
باقية﴾ أي: من فرقة باقية، أو من نفس باقية، أو من بقية
على أن باقية مصدر كالعاقبة والعافية. قال ابن جريج: أقاموا
سبع ليالٍ وثمانية أيام لحياه في عذاب الريح، فلما أمسوا في
اليوم الثامن ماتوا، فاحتملتهم الريح فآلفتهم في البحر
﴿وجاء فرعون ومن قبله﴾ أي: من الأمم الكافرة. قرأ
الجمهور (قبله) بفتح القاف وسكون الباء أي: ومن تقدّمه من
القرون الماضية والأمم الخالية، وقرأ أبو عمرو، والكسائي
بكسر القاف وفتح الباء أي: ومن هو في جهته من أتباعه،
واختار أبو حاتم، وأبو عبيد القراءة الثانية لقراءة ابن مسعود
وابنٍ ومن معه، ولقراءة أبي موسى ومن يلقيه
﴿والمؤتفكات﴾ قرأ الجمهور (المؤتفكات) بالجمع، وهي
قرى قوم لوط، وقرأ الحسن، والجحدري (المؤتكة) بالإنفراد،
واللام للجنس، فهي في معنى الجمع، والمعنى: وجاءت
المؤتفكات ﴿بالخاطئة﴾ أي: بالفعل الخاطئة، أو الخطأ على
أنها مصدر. والمراد: أنها جاءت بالشرك والمعاصي. قال
مجاهد: بالخطايا، وقال الجرجاني: بالخطأ العظيم ﴿فقصوا
رسول ربهم﴾ أي: فعصت كل أمة رسولها المرسل إليها.
قال الكلبي: هو موسى، وقيل: لوط لأنه أقرب، قيل: رسول

وقد قدّمنا تحقيق هذا المعنى في سورة الواقعة. ثم زاد
سبحانه في تفخيم أمرها وتفضيع شأنها وتهويل حالها،
فقال: ﴿وما أدراك ما الحاقة﴾ أي: أي شيء أعلمك ما هي؟
أي: كأنك لست تعلمها إذا لم تعاينها وتشاهد ما فيها من
الأموال، فكانها خارجة عن دائرة علم المخلوقين. قال
يحيى بن سلام: بلغني أن كل شيء في القرآن وما أدراك،
فقد أدراه إياه وعلمه، وكل شيء قال فيه: وما يدريك، فإنه
أخبره به. وما مبتدأ، وخبره أدراك، وما الحاقة جملة من
مبتدأ، وخبر محلها النصب بإسقاط الخافض؛ لأن أدري
يتعدى إلى المفعول الثاني بالباء، كما في قوله: ﴿ولا أدركم
به﴾ [يونس: 16] فلما وقعت جملة الاستفهام معلقة له كانت
في موضع المفعول الثاني، ويؤن الهمة يتعدى إلى مفعول
واحد بالباء نحو دريت بكذا، وإن كان بمعنى العلم تعدى إلى
مفعولين، وجملة، وما أدراك معطوفة على جملة ما الحاقة
﴿كنبت ثمود وعاد بالقارعة﴾ أي: بالقيامة، وسميت بذلك
لأنها تقرر الناس بأموالها. وقال المبرد: عني بالقارعة القرآن
الذي نزل في الدنيا على أنبيائهم، وكانوا يخوفونهم بذلك
فيكنبونهم، وقيل: القارعة مأخوذة من القرعة؛ لأنها ترفع
أقواماً وتحط آخرين، والأول أولى، ويكون وضع القارعة
موضع ضمير الحاقة للدلالة على عظيم هولها وفظاعة
حالتها، والجملة مستأنفة لبيان بعض أحوال الحاقة ﴿فاما
ثمود فاهلكوا بالطاغية﴾ ثمود هم قوم صالح، وقد تقدّم
بيان هذا في غير موضع، وبيان منازلهم، وأين كانت،
والطاغية الصبيحة التي جاوزت الحد، وقيل: بطغيانهم
وكفرهم، وأصل الطغيان مجاوزة الحد ﴿واما عاد فاهلكوا
بريح صرصر﴾ عاد هم قوم هود، وقد تقدّم بيان هذا،
ونكر منازلهم، وأين كانت في غير موضع، والريح الصرصر
هي الشديدة البرد، مأخوذ من الصرّ، وهو البرد، وقيل: هي
الشديدة الصوت. وقال مجاهد: الشديدة السموم، والعاتية
التي عتت عن الطاعة، فكانها عتت على خزانها، فلم تطعمهم
ولم يقدروا على ردها لشدة هبوبها، أو عتت على عاد، فلم
يقدروا على ردها بل أهلكتهم ﴿سخرها عليهم سبع ليالٍ﴾
هذه الجملة مستأنفة لبيان كيفية إهلاكهم، ومعنى
﴿سخرها﴾ سلطها، كذا قال مقاتل، وقيل: أرسلها. وقال
الزجاج: أقامها عليهم كما شاء، والتسخير: استعمال الشيء
بالاقتدار، ويجوز أن تكون هذه الجملة صفة لريح، وأن تكون
حالاً منها لتخصيصها بالصفة، أو من الضمير في عاتية
﴿وثمانية أيام﴾ معطوف على ﴿سبع ليالٍ﴾، وانتصاب
﴿حسوماً﴾ على الحال أي: ذات حسوم، أو على المصدر
بفعل مقدر أي: تحسمهم حسوماً، أو على أنه مفعول به،
والحسوم التتابع، فإذا تتابع الشيء ولم ينقطع أوله عن آخره
قيل له الحسوم. قال الزجاج: الذي توجب اللغة في معنى
قوله ﴿حسوماً﴾ أي: تحسمهم حسوماً تفنيهم وتذهبهم.
قال النضر بن شميل: حسمتهم قطعتهم وأهلكتهم. وقال
الفراء: الحسوم الاتباع من حسم الداء، وهو الكي؛ لأن

هنا بمعنى رسالة، ومنه قول الشاعر:

لقد كذب الواشون ما بحت عندهم بسر ولا أرسلتهم برسول
أي: برسالة ﴿فأخذهم لخذة رابية﴾ أي: أخذهم الله
أخذة نامية زائدة على أخذات الأمم، والمعنى: أنها بالغة في
الشدة إلى الغاية، يقال: ربي الشيء يريو: إذا زاد وتضاعف.
قال الزجاج: تزيد على الأخذات. قال مجاهد: شديدة ﴿إنما لما
طغى الماء﴾ أي: تجاوز حده في الارتفاع والعلو، وذلك في
زمن نوح لما أصغر قومه على الكفر وكنبوه، وقيل: طغى
على خزانة من الملائكة غضباً لربه، فلم يقدروا على حبسه.
قال قتادة: زاد على كل شيء خمسة عشر ذراعاً ﴿حملناكم
في الجارية﴾ أي: في أصلاب آبائكم، أو حملناهم وحملناكم
في أصلابهم تغليباً للمخاطبين على الغائبين. والجارية
سفينة نوح، وسميت جارية لأنها تجري في الماء، ومحل في
الجارية النصب على الحال أي: رفعناكم فوق الماء حال
كونكم في السفينة، ولما كان المقصود من نكر قصص هذه
الأمم، ونكر ما حل بهم من العذاب زجر هذه الأمة عن
الاعتداء بهم في معصية الرسول، قال: ﴿لنجعلها لكم
تذكرة﴾ أي: لنجعل هذه الأمور المذكورة لكم يا أمة محمد
عبرة وموعظة تستلثون بها على عظيم قدرة الله وبيد
صنعه، أو لنجعل هذه الفعلة التي هي عبارة عن إنجاء
المؤمنين وإغراق الكافرين لكم تذكرة ﴿وتعنيها أذن
واعية﴾ أي: تحفظها بعد سماعها أذن حافظة لما سمعت.
قال الزجاج: يقال: أوعيت كذا أي: حفظته في نفسي أعيه
وعياً، ووعيت العلم، ووعيت ما قلته كله بمعنى، وأوعيت
المتاع في الوعاء، ويقال لكل ما وعيته في غير نفسه:
أوعيته بالالف، ولما حفظته في نفسه وعيته بغير الف. قال
قتادة في تفسير الآية: أذن سمعت وعقلت ما سمعت. قال
الفراء: المعنى: لتحفظها كل أذن عظة لمن يأتي بعد. قرأ
الجمهور (تعنيها) بكسر العين. وقرأ طلحة بن مصرف،
وحميد الأعرج، وأبو عمرو في رواية عنه بإسكان العين
تشبيهاً لهذه الكلمة برحم وشهد وإن لم تكن من ذلك. قال
الرازي: وروي عن ابن كثير إسكان العين، جعل حرف
المضارعة مع ما بعده بمنزلة كلمة واحدة، فخفف وأسكن
كما أسكن الحرف المتوسط من فخذ وكبد وكثف. انتهى.
والأولى أن يكون هذا من باب إجراء الوصل مجرى الوقف،
كما في قراءة من قرأ ﴿وما يشعركم﴾ [الأنعام: 109]
بسكون الراء، قال القرطبي: واختلفت القراءة فيها عن عاصم،
وابن كثير: يعني: تعنيها ﴿فإذا نفخ في الصور نفخة
واحدة﴾ هذا شروع في بيان الحاقة، وكيف وقوعها بعد
بيان شأنها بإهلاك المكذبين. قال عطاء: يريد النفخة الأولى.
وقال الكلبي، ومقاتل يريد النفخة الأخيرة. قرأ الجمهور
(نفخة واحدة) بالرفع فيها على أن نفخة مرتفعة على
النيابة، وواحدة تأكيد لها، وحسن تذكير الفعل لوقوع
الفصل. وقرأ أبو السماك بنصبهما على أن اللائب هو الجار
والمجرور. قال الزجاج: قوله: ﴿في الصور﴾ يقوم مقام ما

لم يسمّ فاعله ﴿وحملت الأرض والجبال﴾ أي: رفعت من
املكتها وقلعت عن مقارها بالقدرة الإلهية. قرأ الجمهور
(حملت) بتخفيف الميم. وقرأ الأعمش، وابن أبي عبلة، وابن
مقسم، وابن عامر في رواية عنه بتشديد الميم للتكثير أو
للتعديّة ﴿فبكنا نكة واحدة﴾ أي: فكسرتنا كسرة واحدة لا
زيادة عليها، أو ضربتنا ضربة واحدة بضعهما ببعض حتى
صارتا كثيباً مهياً وهياً منبثاً. قال الفراء: ولم يقل فككن
لأنه جعل الجبال كلها كالجملة الواحدة، ومثله قوله تعالى:
﴿أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً
ففتقناهما﴾ [الأنبياء: 30] وقيل: نكتا بسطتا بسطة واحدة،
ومنه اندك سنام البعير: إذا انفرش على ظهره ﴿فيومئذ
وقعت الواقعة﴾ أي: قامت القيامة ﴿وانشقت السماء فهي
يومئذ واهية﴾ أي: انشقت بنزول ما فيها من الملائكة فهي
في ذلك اليوم ضعيفة مسترخية. قال الزجاج: يقال لكل ما
ضعف جداً: قد وهي فهو واو، وقال الفراء: وهيها تشققها
﴿والملك على أرجائها﴾ أي: جنس الملك على أطرافها
وجوانبها، وهي جمع رجي مقصور، وتثنيته رجوان مثل
قفا وقفوان، والمعنى: أنها لما تشققت السماء، وهي
مسكنهم لجثوا إلى أطرافها. قال الضحاك: إذا كان يوم
القيامة أمر الله السماء الدنيا فتشقق، وتكون الملائكة على
حافاتهما حتى يأمرهم الرب، فينزلون إلى الأرض ويحيطون
بالأرض ومن عليها. وقال سعيد بن جببر: المعنى: والملك
على حافات الدنيا أي: ينزلون إلى الأرض، وقيل: إذا صارت
السماء قطعاً يقف الملائكة على تلك القطع التي ليست
متشقة في أنفسها ﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ
ثمانية﴾ أي: يحمله فوق رؤوسهم يوم القيامة ثمانية
أملاك، وقيل: ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عددهم إلا
الله عز وجل، وقيل: ثمانية أجزاء من تسعة أجزاء من
الملائكة، قاله الكلبي وغيره ﴿يومئذ تعرضون﴾ أي:
تعرض العباد على الله لحسابهم، ومثله ﴿وعرضوا على
ربك صفاً﴾ [الكهف: 48] وليس ذلك العرض عليه سبحانه
ليعلم به ما لم يكن علماً به وإنما عرض الاختبار والتوبيخ
بالأعمال، وجملة ﴿لا تخفى منكم خافية﴾ في محل نصب
على الحال من ضمير تعرضون أي: تعرضون حال كونه لا
يخفى على الله سبحانه من نواتكم أو أقوالكم وأفعالكم
خافية كائنة ما كانت، والتقدير: أي نفس خافية أو فعلة
خافية.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال:
﴿الحاقة﴾ من أسماء القيامة. وأخرج الفريابي، وعبد بن
حميد، وابن جرير عنه قال: ما أرسل الله شيئاً من ريح إلا
بمكيال، ولا قطرة من ماء إلا بمكيال إلا يوم نوح ويوم عاد.
فأما يوم نوح فإن الماء طغى على خزانته، فلم يكن لهم عليه
سبيل، ثم قرأ ﴿إنما لما طغى الماء﴾ وأما يوم عاد فإن الريح
عتت على خزانها فلم يكن لهم عليها سبيل، ثم قرأ ﴿يريح
صرصر عاتية﴾. وأخرج ابن جرير عن علي بن أبي طالب

فَأَمَّا مَنْ أَرَبَ كَيْدَهُ بِإِسْمِهِ، يَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كَيْدِي ۖ ﴿١٦﴾ فِي غُلَّتْ أَعْيُنُ
مَلَكِي حَاجِيَةِ ۖ ﴿١٧﴾ فَهَوَّ فِي عَيْدِهِ رَأْيِيهِ ۖ ﴿١٨﴾ فِي جَنَّةٍ عَلَيْهِ ۖ ﴿١٩﴾ فَكَلَّمَهَا
دَائِمَةً ۖ ﴿٢٠﴾ كَلَّمَا وَاتَّخَذُوا هَيْتًا بِمَا اسْتَفْتَسُوا فِي الْآيَاتِ الْخَالِيَةِ ۖ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا مَنَّ
أَرَبُ كَيْدَهُ بِإِسْمَائِيلَ يَقُولُ يَبْنَئِي لَكَ أَرَبُ كَيْدِي ۖ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ أَذْرَ مَا حَاجِيَةِ ۖ ﴿٢٣﴾
يَبْنَئِيهَا كَانَتْ الْخَالِيَةِ ۖ ﴿٢٤﴾ مَا أَفْضَ عَنْ مَالِهِ ۖ ﴿٢٥﴾ هَلَكَ عَنْ شَطْلِيَةِ ۖ ﴿٢٦﴾
خَذُّهُ فَكَلَّمُوا ۖ ﴿٢٧﴾ ثُمَّ لَحِجَمَ صَلَوَهُ ۖ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ فِي سِلَاسِهِ دَرَعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا
فَانْكَسَرُوا ۖ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يُؤْمِنُونَ بِأَمْرِ الْعَظِيمِ ۖ ﴿٣٠﴾ وَلَا يَحْضُرُ عَلَى طَلَامِ
الْمُسْكِينِ ۖ ﴿٣١﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَمُّ مَهْمًا حَيْثُ ۖ ﴿٣٢﴾ وَلَا طَلَامٌ إِلَّا مِنْ غَشِيَةٍ ۖ ﴿٣٣﴾ لَا
يَأْكُلُهُ إِلَّا الْفَلَاطُونَ ۖ ﴿٣٤﴾ فَلَا أَقِيمَ بِمَا تُبْشِرُونَ ۖ ﴿٣٥﴾ وَمَا لَا تُبْشِرُونَ ۖ ﴿٣٦﴾ إِنَّهُمْ
لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۖ ﴿٣٧﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ۖ ﴿٣٨﴾ وَلَا يَقُولُ كَافٍ
قَلِيلًا مَا تُذَكِّرُونَ ۖ ﴿٣٩﴾ نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۖ ﴿٤٠﴾ وَلَوْ نَفَخْنَا بَعْضَ الْأَقْوَابِ
﴿٤١﴾ لَخَرَجْنَا مِنْهُ بِالْإِيمِ ۖ ﴿٤٢﴾ ثُمَّ لَعَلْنَا مِنْهُ الْوَئِينَ ۖ ﴿٤٣﴾ فَمَا يَنْكُرُ مِنْ أَثَرِ
عَنَّا حَاجِينَ ۖ ﴿٤٤﴾ وَإِنَّهُ لَتَذَكُّرٌ لِلْفَاقِينَ ۖ ﴿٤٥﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ يَنْكُرُ مُكْذِبِينَ
﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ۖ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ۖ ﴿٤٨﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ
الْعَظِيمِ ۖ ﴿٤٩﴾

نحوه. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «نصرت بالصبا، وأملت عاد بالبور». وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمر مرفوعاً: «قال ما أمر الخزان على عاد إلا مثل موضع الخاتم من الريح، فعتت على الخزان، فخرجت من نواحي الأبواب، فنلك قوله: ﴿بَرِيع صرصر عاتية﴾ قال: عتوها عتت على الخزان». وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿بَرِيع صرصر عاتية﴾ قال: الغالبة. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، والحاكم وصححه عن ابن مسعود في قوله: ﴿حسوما﴾ قال: متتابعات. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير من طرق عن ابن عباس في قوله: ﴿حسوما﴾ قال: تبعاً، وفي لفظ: متتابعات. وأخرج ابن المنذر عنه كأنهم أعجاز نخل﴾ قال: هي أصولها، وفي قوله: ﴿خاوية﴾ قال: خربة. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر عنه أيضاً في قوله: ﴿إنا لما طغى الماء﴾ قال: طغى على خزانه فنزل، ولم ينزل من السماء ماء إلا بمكيال، أو ميزان إلا زمن نوح، فإنه طغى على خزانه فنزل بغير كيل ولا وزن. وأخرج سعيد بن منصور، وابن مردويه، وأبو نعيم في الحلية من طريق مكحول عن علي بن أبي طالب في قوله: ﴿وتعيبها أذن واعية﴾ قال: قال لي رسول الله ﷺ: «سألت الله أن يجعلها أذنك يا علي، فقال علي: ما سمعت من رسول الله ﷺ شيئاً فنسيتها». قال ابن كثير: «وهو حديث مرسل». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والواحدي، وابن مردويه، وابن عسكرك، وابن النجار عن بريدة قال: قال رسول الله ﷺ: «لعلي: إن الله أمرني أن أنيك ولا أقصيك، وإن أعلمك، وإن تعي، وحق لك أن تعي، فنزلت هذه الآية ﴿وتعيبها أذن واعية﴾ فأتت أذن واعية، يا علي». قال ابن كثير: (ولا يصح). وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن ابن عمر في قوله: ﴿أذن واعية﴾ قال: أذن عقلت عن الله. وأخرج الحاكم، والبيهقي في البعث عن أبي بن كعب في قوله: ﴿وحملت الأرض والجبال فسكتا بكة واحدة﴾ قال: تصيران غبرة على وجوه الكفار لا على وجوه المؤمنين، وذلك قوله: ﴿وجوه يومئذ عليها غبرة﴾ ترهقها قتره [عبس: 40 - 41]. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿فهي يومئذ واهية﴾ قال: متخرقة. وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿والملك على أرجائها﴾ قال: على حافاتها على ما لم يهيئ منها. وأخرج عبد بن حميد، وعثمان بن سعيد الدارمي في الرد على الجهمية، وأبو يعلى، وابن المنذر، وابن خزيمة، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والخطيب في (تالي التلخيص) عنه أيضاً في قوله: ﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية﴾ قال: ثمانية أملاك على صورة الأوعال. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً من طرق في الآية قال: يقال: ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عددهم

عني، كذا قال مجاهد، وعكرمة، والسدي، والضحاك. وقال ابن زيد: يعني: سلطاني الذي في الدنيا، وهو الملك، وقيل: تسلطي على جوارحي. قال مقاتل: يعني: حين شهدت عليه الجوارح بالشرك، وحينئذ يقول الله عز وجل: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ أي: اجمعوا يده إلى عنقه بالأغلال ﴿ثُمَّ الْجَحِيمِ صَلُّوهُ﴾ أي: أنخلوه الجحيم، والمعنى: لا تصلوه إلا الجحيم، وهي النار العظيمة ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ﴾ السلسلة حلق منتظمة، وذراعها طولها. قال الحسن: الله أعلم بأي ذراع هو. قال نوف الشامي: كل ذراع سبعون باعاً، كل باع أبعد مما بينك وبين مكة، وكان نوف في رحبة الكوفة. قال مقاتل: لو أن حلقة منها وضعت على نروة جبل لذاب كما يذوب الرصاص، ومعنى ﴿فاسْلُكُوهُ﴾: فاجعلوه فيها، يقال: سلكته الطريق إذا أدخلته فيه. قال سفيان: بلغنا أنها تدخل في ببره حتى تخرج من فيه. قال الكلبي: تسلك سلك الخيط في اللؤلؤ. وقال سويد بن أبي نجيح: بلغني أن جميع أهل النار في تلك السلسلة، وتقديم السلسلة للدلالة على الاختصاص كتقديم الجحيم، وجملة ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾ تعليل لما قبلها ﴿وَلَا يَحِضُّ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ أي: لا يحث على إطعام المسكين من ماله، أو لا يحث الغير على إطعامه، ووضع الطعام موضع الإطعام، كما يوضع العطاء موضع الإعطاء، كما قال الشاعر:

أكفر أبعد ردتني عني وبعد عطائك المال الرعايا
أي: بعد إعطائك، ويجوز أن يكون الطعام على معناه غير موضوع موضع المصدر، والمعنى: أنه لا يحث نفسه أو غيره على بذل نفس طعام المسكين، وفي جعل هذا قريناً لترك الإيمان بالله من الترهيب في التصق على المساكين وسد فائقهم، وحث النفس والناس على ذلك ما يدل ببلغ دلالة، ويفيد أكمل فائدة على أن منعهم من أعظم الجرائم وأشد المآثم ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ﴾ أي: ليس له يوم القيامة في الآخرة قريب ينفعه أو يشفع له؛ لأنه يوم يفر فيه القريب من قريبه، ويهرب عنده الحبيب من حبيبه ﴿وَلَا طَعَامَ إِلَّا مِنْ غَسْلِينَ﴾ أي: وليس له طعام يأكله إلا من صديد أهل النار، وما يغسل من الغسل. وقال الضحاك، والربيع بن أنس: هو شجر يأكله أهل النار. وقال قتادة: هو شر الطعام. وقال ابن زيد: لا يعلم ما هو ولا ما الزقوم إلا الله تعالى. وقال سبحانه في موضع آخر ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾ [الغاشية: 6] فيجوز أن يكون الضريع هو الغسلين، وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، والمعنى فليس له اليوم هاهنا حميم إلا من غسلين على أن الحميم هو الماء الحار ﴿وَلَا طَعَامَ﴾ أي: ليس لهم طعام يأكلونه، ولا ملجئ لهذا التقديم والتأخير، وجملة ﴿لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ صفة لغسلين، والمراد أصحاب الخطايا وأرباب الذنوب. قال الكلبي: المراد الشرك. قرأ الجمهور (الخاطئون) مهموزاً، وهو

في إلحاق الهاء في السكت، ويوافق الخط، يعني: خط المصحف. قرأ ابن محيصن، وابن أبي إسحاق، وحמיד، ومجاهد، والأعمش، ويعقوب بحذفها وصلأ، وإثباتها وقفاً في جميع هذه الألفاظ. ورويت هذه القراءة عن حمزة، واختار أبو حاتم هذه القراءة اتباعاً للغة. وروي عن ابن محيصن أنه قرأ بحذفها وصلأ ووقفاً ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حَسَبِيهِ﴾ أي: علمت وأيقنت في الدنيا أنني أحسب في الآخرة، وقيل المعنى: إنني ظننت أن يأخذني الله بسيئاتي، فقد تفضل علي بعفوه ولم يؤاخذني. قال الضحاك: كل ظن في القرآن من المؤمن فهو يقين، ومن الكافر فهو شك. قال مجاهد: ظن الآخرة يقين وظن الدنيا شك. قال الحسن في هذه الآية: إن المؤمن أحسن الظن بربه فأحسن للعمل للآخرة، وإن الكافر أساء الظن بربه فأساء العمل. قيل: والتعيير بالظن هنا للإشعار بأنه لا يقدح في الاعتقاد ما يهيج في النفس من الخطرات التي لا تفك عنها العلوم النظرية غالباً ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ أي: في عيشة مرضية لا مكروهة، أو ذات رضى أي: يرضى بها صاحبها. قال أبو عبيدة، والفراء: راضية أي: مرضية كقوله: ﴿هَاءٌ دَافِقٌ﴾ [الطارق: 6] أي: مدفوق، فقد أسند إلى العيشة ما هو لصاحبها، فكان ذلك من المجاز في الإسناد ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ أي: مرتفعة المكان لأنها في السماء، أو مرتفعة المنازل، أو عظيمة في النفوس ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ القطوف: جمع قطف بكسر القاف، ما يقطف من الثمار، والقطف بالفتح المصدر، والقطف بالفتح والكسر وقت القطف، والمعنى: أن ثمارها قريبة ممن يتناولها من قائم أو قاعد أو مضطجع ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ أي: يقال لهم: كلوا واشربوا في الجنة ﴿هَنِيئاً﴾ أي: أكلاً وشرباً هنيئاً لا تكثير فيه ولا تنغيص ﴿بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ أي: بسبب ما قدمتم من الأعمال الصالحة في الدنيا. وقال مجاهد: هي أيام الصيام ﴿وَمَا مِنْ لَوْثٍ يُضَيِّعُكُمْ فِي شِمَالِكُمْ﴾ حزننا وكرباً لما رأى فيه من سيئاته ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أَوتِ كِتَابِيهِ﴾ أي: لم أعط كتابيه ﴿وَلَمْ أَدْرَأْ مَا حَسَابِيهِ﴾ أي: لم أدرك أي شيء حسابي لأن كله عليه ﴿يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ أي: ليت الموتة التي مَتَّهَا كانت القاضية، ولم أحي بعدها، ومعنى ﴿الْقَاضِيَةَ﴾: القاطعة للحياة، والمعنى: أنه تمنى نول الموت، وعدم البعث لما شاهد من سوء عمله وما يصير إليه من العذاب، فالضمير في [ليتها] يعود إلى الموتة التي قد كان ماتها، وإن لم تكن منكورة؛ لأنها لظهورها كانت كالمذكورة. قال قتادة: تمنى الموت ولم يكن في الدنيا شيء عنده أكره منه، وشر من الموت ما يطلب منه الموت. وقيل: الضمير يعود إلى الحالة التي شاهدها عند مطالعة الكتاب، والمعنى: يا ليت هذه الحالة كانت الموتة التي قضيت عليّ ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِي﴾ أي: لم يدفع عني من عذاب الله شيئاً على أن ما نافية، أو استفهامية، والمعنى: أي شيء أغنى عني مالي ﴿هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيهِ﴾ أي: هلكت عني حجتني وضلت

حتى يتصل بالقلب، وهو تصوير لإهلاكه باقطن ما يفعله الملوك بمن يغضبون عليه. قال الواحدي: والمفسرون يقولون: إنه نياط القلب. انتهى. ومن هذا قول الشاعر:

إذا بلغفتني وحملت رحلي عرابة فاشرقني بدم الوتين
﴿فما منكم من أحد عنه حاجزين﴾ أي: ليس منكم أحد يحجزنا عنه ويدفعنا منه، فكيف يتكلف الكذب على الله لأجلكم، مع علمه أنه لو تكلف ذلك لعاقبناه، ولا تقدرون على النفع منه، والحجز المنع ﴿وحاجزين﴾ صفة لأحد، أو خبر لما الحجازية ﴿وإنه لتذكرة للمتقين﴾ أي: إن القرآن لتذكرة لأهل التقوى لأنهم المنتفعون به ﴿وإننا لنعلم أن منكم مكذبين﴾ أي: أن بعضكم يكتب بالقرآن، فنحن نجازيهم على ذلك، وفي هذا وعيد شديد ﴿وإنه لحسرة على الكافرين﴾ أي: لأن القرآن لحسرة وندامة على الكافرين يوم القيامة عند مشاهدتهم لثواب المؤمنين، وقيل: هي حسرتهم في الدنيا حين لم يقدروا على معارضته عند تحييمهم بأن يأتوا بسورة من مثله ﴿وإنه لحق لليقين﴾ أي: وإن القرآن لكونه من عند الله حق، فلا يحول حوله ريب ولا يتطرق إليه شك ﴿فسبح باسم ربك العظيم﴾ أي: نزهه عما لا يليق به، وقيل: فصل لربك، والاول أولى.

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿إني ظننت﴾ قال: أبقت. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي حاتم عن البراء بن عازب ﴿قطوفها دانية﴾ قال: قريبة. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر عن البراء في الآية قال: يتناول الرجل من فواكهها وهو قائم. وأخرج ابن أبي حاتم، والبيهقي في البعث عن ابن عباس في قوله: ﴿فأسلكوه﴾ قال: السلسلة تدخل في استه ثم تخرج من فيه، ثم ينظمون فيها كما ينظم الجراد في العود، ثم يشوى. وأخرج أبو عبيد، وعبد بن حميد، وابن المنذر عن أبي الدرداء قال: إن الله سلسلة لم تزل تغلي منها مراجل النار منذ خلق الله جهنم إلى يوم تلقى في أعناق الناس، وقد نجانا الله من نصفها بليماننا بالله العظيم، فحضي على طعام المسكين يا أم الدرداء. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن طريق عكرمة عن ابن عباس قال: الغسلين الدم والماء والصيد الذي يسيل من لحومهم. وأخرج الحاكم وصححه عن أبي سعيد الخدري: عن النبي ﷺ قال: «لو أن لولاً من غسليين يهراق في الدنيا لانتن أهل الدنيا». وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال: الغسليين اسم طعام من أطعمة أهل النار. وأخرج ابن جرير عنه ﴿فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون﴾ يقول: بما ترون وما لا ترون. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿لاخندا منه باليمين﴾ قال: بقدره. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عنه قال: ﴿الوتين﴾ عرق القلب. وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن

اسم فاعل من خطئ إذا فعل غير الصواب متعمداً، والمخطئ من يفعله غير متعمد. وقرأ الزهري، وطلحة بن مصرف، والحسن (الخاطيئون) بياء مضمومة بدل الهمزة. وقرأ نافع في رواية عنه بضم الطاء بدون همزة ﴿فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون﴾ هذا رد للكلام المشركين كأنه قال: ليس الأمر كما تقولون، ولا زائدة، والتقدير: فأقسم بما تشاهدونه وما لا تشاهدونه. قال قتادة: أقسم بالأشياء كلها ما يبصر منها وما لا يبصر، فيدخل في هذا جميع المخلوقات، وقيل: إن «لا» ليست زائدة، بل هي لنفي القسم أي: لا احتاج إلى قسم لوضوح الحق في ذلك، والاول أولى ﴿إنه لقول رسول كريم﴾ أي: إن القرآن لتلاوة رسول كريم، على أن المراد بالرسول محمد ﷺ، أو إنه لقول يبلغه رسول كريم. قال الحسن، والكلبي، ومقاتل: يريد به جبريل، دليله قوله: ﴿إنه لقول رسول كريم﴾ ذي قوة عند ذي العرش مكين [التكوير: 19، 20] وعلى كل حال، فالقرآن ليس من قول محمد ﷺ، ولا من قول جبريل عليه السلام، بل هو قول الله، فلا بد من تقدير التلاوة أو التبليغ ﴿وما هو بقول شاعر﴾ كما تزعمون؛ لأنه ليس من أصناف الشعر ولا مشابه لها ﴿قليلاً ما تؤمنون﴾ أي: إيماناً قليلاً تؤمنون، وتصديقاً يسيراً تصدقون، وما زائدة ﴿ولا يقول كاهن﴾ كما تزعمون، فإن الكهانة أمر آخر لا جامع بينها وبين هذا ﴿قليلاً ما تنكرون﴾ أي: تنكراً قليلاً، أو زماناً قليلاً تنكرون، وما زائدة، والقلّة في الموضعين بمعنى النفي أي: لا تؤمنون ولا تتذكرون أصلاً ﴿تنزيل من رب العالمين﴾ قرأ الجمهور بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: هو تنزيل. وقرأ أبو السماك بالنصب على المصيرية بإضمار فعل أي: نزل تنزيلاً، والمعنى: إنه لقول رسول كريم، وهو تنزيل من رب العالمين على لسانه ﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل﴾ أي: ولو تقول ذلك الرسول، وهو محمد أو جبريل على ما تقم، والتقول تكلف القول، والمعنى: أو تكلف ذلك وجاء به من جهة نفسه، وسمي الافتراء تقولاً لأنه قول متكلف، وكل كاذب يتكلف ما يكذب به. قرأ الجمهور (تقول) مبنياً للفاعل. وقرأ مبنياً للمفعول مع رفع بعض. وقرأ ابن نكوان (ولو يقول) على صيغة المضارع، والأقاويل جمع أقوال، والأقوال جمع قول ﴿لاخندا منه باليمين﴾ أي: بيده اليمين. قال ابن جرير: إن هذا الكلام خرج مخرج الإذلال على عادة الناس في الأخذ بيد من يعاقب. وقال الفراء، والمبرد، والزجاج، وابن قتيبة: ﴿لاخندا منه باليمين﴾ أي: بالقوة والقدرة. قال ابن قتيبة: وإنما أقام اليمين مقام القوة؛ لأن قوة كل شيء في ميامنه، ومن هذا قول الشاعر:

إذا ما راية نصبت لمجد تلقاها عرابة باليمين
وقول الآخر:

ولما رايت الشمس أشرق نورها تناولت منها حاجتي يميني
﴿ثم لقطعنا منه الوتين﴾ الوتين عرق يجري في الظهر

كيوم بدر، أو في الآخرة، وقوله: ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ صفة أخرى لعذاب أي: كائن للكافرين، أو متعلق بواقع، واللام للعلة، أو بسأل على تضمينه معنى دعا، أو في محل رفع على تقدير: هو للكافرين، أو تكون اللام بمعنى على، ويؤيده قراءة أبي (بعذاب واقع على الكافرين). قال الفراء: التقدير بعذاب للكافرين واقع بهم، فالواقع من نعت العذاب، وجملة ﴿ليس له دافع﴾ صفة أخرى لعذاب، أو حال منه، أو مستأنفة، والمعنى: أنه لا يدفع نك العذاب الواقع به أحد، وقوله: ﴿من الله﴾ متعلق بواقع أي: واقع من جهته سبحانه، أو بدافع أي: ليس له دافع من جهته تعالى ﴿ذي المعارج﴾ أي: ذي الدرجات التي تصعد فيها الملائكة، وقال الكلبي: هي السموات، وسماها معارج لأن الملائكة تعرج فيها، وقيل: المعارج مراتب نعم الله سبحانه على الخلق، وقيل: المعارج العظيمة، وقيل: هي الغرف. وقرأ ابن مسعود (ذي المعارج) بزيادة الياء، يقال: معارج ومعارج مثل مفاتيح ومفاتيح ﴿تعرج للملائكة والروح إليه﴾ أي: تصعد في تلك المعارج التي جعلها الله لهم، وقرأ الجمهور (تعرج) بالفوقية، وقرأ ابن مسعود، وأصحابه، والكسائي، والسلمي بالتحنية، والروح جبريل، أفرد بالذكر بعد الملائكة لشرفه، ويؤيد هذا قوله: ﴿نزل به الروح الأمين﴾ [الشعراء: 193]، وقيل: الروح هنا ملك آخر عظيم غير جبريل. وقال أبو صالح: إنه خلق من خلق الله سبحانه كهية الناس، وليسوا من الناس. وقال قبيصة بن نؤيب: إنه روح الميت حين تقبض، والأول أولى. ومعنى ﴿إليه﴾: أي: إلى المكان الذي ينتهون إليه، وقيل: إلى عرشه، وقيل: هو كقول إبراهيم: ﴿إني ذاهب إلى ربي﴾ [الصافات: 99] أي: إلى حيث أمرني ربي ﴿في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾ قال ابن إسحاق، والكلبي، وهب بن منبه: أي عرج الملائكة إلى المكان الذي هو محلها في وقت كان مقداره على غيرهم لو صعد خمسين ألف سنة. وبه قال مجاهد. وقال عكرمة: وروي عن مجاهد أن مدة عمر الدنيا هذا المقدار لا يدري أحدكم مضى، ولا كم بقي، ولا يعلم ذلك إلا الله. وقال قتادة، والكلبي، ومحمد بن كعب: إن المراد يوم القيامة، يعني: أن مقدار الأمر فيه لو تولاها غيره سبحانه خمسون ألف سنة، وهو سبحانه يفرغ منه في ساعة، وقيل: إن مدة موقف العباد للحساب، هي هذا المقدار، ثم يستقر بعد ذلك أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار. وقيل: إن مقدار يوم القيامة على الكافرين خمسون ألف سنة، وعلى المؤمنين مقدار ما بين الظهر والعصر، وقيل: نكر هذا المقدار لمجرد التمثيل والتخييل لغاية ارتفاع تلك المعارج وبعد مداها، أو لطول يوم القيامة باعتبار ما فيه من الشدائد والمكاره، كما تصف العرب أيام الشدة بالطول وأيام الفرح بالقصر، ويشبهون اليوم القصير بإبهم القطاة والطويل بظل الريح، ومنه قول الشاعر:

ويوم كظل الريح قصر طوله دم الزق عنا واصطفاف المزاهر

المنذر، وابن أبي حاتم والحاكم عنه أيضاً قال: ﴿الوتين﴾ نياط القلب. وأخرج ابن المنذر، والحاكم، وصححه عنه أيضاً قال: هو حبل القلب الذي في الظهر.

تفسير سورة المعارج

وهي مكية. قال القرطبي: باتفاق. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مريويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة سال بمكة. وأخرج ابن مريويه عن ابن الزبير مثله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَأَلَ سَائِلٌ بِسَائِلٍ ۖ وَإِلَىٰ رَبِّهِ ۖ لَكِنَّهُمْ لَبَسَ لَمْ يَدِيعَ ۖ ۝١ تَبَيَّنَ اللَّهُ ذِي الْمَعَارِجِ ۖ ۝٢ تَرْمِجُ الْمَلَكُوتِ ۖ وَالرُّوحُ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۖ ۝٣ تَأْتِيهِمْ صُرُجًا جَبِيلًا ۖ ۝٤ إِنَّهُمْ يَرُودُوهَا بَيْدًا ۖ ۝٥ وَزَنَهُ قَرِيبًا ۖ ۝٦ يَوْمَ تَكُونُ الْأَنْفُ كَالْهَلْهِلِ ۖ ۝٧ وَتَكُونُ لِبَالًا كَالْيَمِينِ ۖ ۝٨ وَلَا يَنْصَلُّ حَيْمًا ۖ ۝٩ يَصْرُوهَا ۖ ۝١٠ يَوْمَ تَقْدَىٰ مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ يَمْلِكُ يَدِيهِ ۖ ۝١١ وَرَضَّجِيهِ ۖ ۝١٢ وَأَجِيهِ ۖ ۝١٣ وَهَيَّجِيهِ ۖ ۝١٤ وَأَلْقِيهِ ۖ ۝١٥ وَنَفِي ۖ ۝١٦ وَالْأَرْضُ رِيحًا ۖ ۝١٧ يَجِيهِ ۖ ۝١٨ كَلَّا ۖ إِنَّهَا لَكُنِّي ۖ ۝١٩ نَزَاعَةً لِّلنَّاسِ ۖ ۝٢٠ تَعْرَافُونَ ۖ ۝٢١ وَتَوَكَّلْ ۖ ۝٢٢ وَرَبِّعْ قَاعًا ۖ ۝٢٣

قوله: ﴿سأل سائل بعذاب واقع﴾ قرأ الجمهور (سأل) بالهمزة، وقرأ نافع، وابن عامر، بغير همزة، فمن همز، فهو من السؤال وهي اللغة الفاشية، وهو إما مضمن معنى الدعاء، فلذلك عذي بالياء، كما تقول دعوت كذا، والمعنى: دعا داع على نفسه بعذاب واقع، ويجوز أن يكون على أصله، والياء بمعنى عن كقوله: ﴿فاسئل به خبيراً﴾ [الفرقان: 59] ومن لم يهمن، فهو إما من باب التخفيف بقلب الهمزة ألفاً، فيكون معناها معنى قراءة من همز، أو يكون من السيلان، والمعنى: سأل وأو في جهنم، يقال له: سائل، كما قال زيد بن ثابت. ويؤيده قراءة ابن عباس (سال سيل) وقيل: إن سال بمعنى التمس، والمعنى: التمس ملتصق عذاباً للكفار، فتكون الباء زائدة كقوله: ﴿تنبت بالدهن﴾ [المؤمنون: 20] والوجه الأول هو الظاهر. وقال الأخفش: يقال: خرجنا نسال عن فلان وبفلان. قال أبو علي الفارسي: وإذا كان من السؤال، فأصله أن يتعدى إلى مفعولين، ويجوز الاختصار على أحدهما ويتعدى إليه بحرف الجر، وهذا السائل هو النضر بن الحارث حين قال: ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ [الأنفال: 32] وهو ممن قتل يوم بدر صبراً، وقيل: هو أبو جهل، وقيل: هو الحارث بن النعمان الفهري، والأول أولى لما سيأتي. وقرأ أبي، وابن مسعود (سال سال) مثل مال مال على أن الأصل سائل، فحذفت العين تخفيفاً، كما قيل: شك في شائك السلاح. وقيل: السائل هو نوح عليه السلام، سال العذاب للكافرين، وقيل: هو رسول الله ﷺ دعا بالعقاب عليهم، وقوله: ﴿بعذاب واقع﴾ يعني: إما في الدنيا

القريب عن قريبه، والخليل عن خليله، كما قال سبحانه ﴿لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه﴾ [عبس: 37] وقيل المعنى: لا يسأل حميم عن حميم، فحذف الحرف ووصل الفعل. قرأ الجمهور (لا يسأل) مبنياً للفاعل، قيل: والمفعول الثاني محذوف، والتقدير: لا يسأله نصره ولا شفاعته، وقرأ أبو جعفر، وأبو حيوة، وشيبة، وابن كثير في رواية عنه على البناء للمفعول. وروى هذه القراءة البزري عن عاصم. والمعنى: لا يسأل حميم إحضار حميمه، وقيل: هذه القراءة على إسقاط حرف الجر، أي: لا يسأل حميم عن حميم، بل كل إنسان يسأل عن نفسه وعن عمله، وجملة ﴿يبصرونهم﴾ مستأنفة، أو صفة لقوله: ﴿حميماً﴾ أي: يبصر كل حميم حميمه، لا يخفى منهم أحد عن أحد. وليس في القيامة مخلوق وإلا وهو نصب عين صاحبه، ولا يتساءلون ولا يكلم بعضهم بعضاً لاشتغال كل أحد منهم بنفسه، وقال ابن زيد: يبصر الله الكفار في النار الذين أضلّوهم في الدنيا، وهم الرؤساء المتبوعون. وقيل: إن قوله: ﴿يبصرونهم﴾ يرجع إلى الملائكة؛ أي: يعرفون أحوال الناس لا يخفون عليهم، وإنما جمع الضمير في يبصرونهم، وهما للحميمين حملاً على معنى العموم؛ لأنهما نكرتان في سياق النفي، قرأ الجمهور (يبصرونهم) بالتشديد، وقرأ قتادة بالتخفيف. ثم ابتداء سبحانه الكلام فقال: ﴿يؤذ المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ﴾ المراد بالمجرم الكافر، أو كل منذب ننبأ يستحق به النار لو يفتدي من عذاب يوم القيامة الذي نزل به. ﴿ببنيه وصاحبته وأخيه﴾ فإن هؤلاء أعز الناس عليه وأكرمهم لديه، فلو قبل منه الغداء لفدى بهم نفسه، وخلص مما نزل به من العذاب، والجملة مستأنفة لبيان أن اشتغال كل مجرم بنفسه بلغ إلى حد يؤذ الافتداء من العذاب بمن ذكر. قرأ الجمهور (من عذاب يومئذ) بإضافة عذاب إلى يومئذ. وقرأ أبو حيوة بتنوين (عذاب) وقطع الإضافة. وقرأ الجمهور (يومئذ) بكسر الميم، وقرأ نافع، والكسائي، والأعرج، وأبو حيوة بفتحها ﴿وفصيلته التي تؤويه﴾ أي: عشيرته الأقربين الذين يضمونه في النسب، أو عند الشدائد، ويأوي إليهم. قال أبو عبيد: الفصيصة دون القبيلة. وقال ثعلب: هم أبائهم الأبنون. قال المبرد: الفصيصة القطعة من أعضاء الجسد. وسميت عشيرة الرجل فصيلة تشبيهاً لها بالبعض منه. وقال مالك: إن الفصيصة هي التي تربيه ﴿ومن في الأرض جميعاً﴾ أي: ويؤذ المجرم لو افتدى بمن في الأرض جميعاً من الثقلين وغيرهما من الخلائق. وقوله: ﴿ثم ينجي﴾ معطوف على يفتدي أي: يؤذ لو يفتدي، ثم ينجي الافتداء، وكان العطف بتم دلالتها على استبعاد النجاة، وقيل: إن يؤذ تقتضي جواباً، كما في قوله: ﴿وئوا لو تدهن فيدهنون﴾ [القلم: 9] والجواب، ثم ينجي، والأول أولى. وقوله: ﴿كلا﴾ رد للمجرم عن تلك الودادة، وبيان امتناع ما وده من الافتداء، وكلا يأتي بمعنى حقاً، وبمعنى لا مع تضمنها لمعنى الزجر والردع، والضمير في

وقيل: في الكلام تقويم وتأخير؛ أي: ليس له دافع من الله ذي المعارج في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة تعرج الملائكة والروح إليه، وقد قدمنا الجمع بين هذه الآية وبين قوله في سورة السجدة ﴿في يوم كان مقداره ألف سنة﴾ [السجدة: 5] فأرجع إليه.

وقد قيل في الجمع: إن من أسفل العالم إلى العرش خمسون ألف سنة، ومن أعلى سماء الدنيا إلى الأرض ألف سنة؛ لأن غلط كل سماء خمسمائة عام، وما بين أسفل السماء إلى قرار الأرض خمسمائة عام، فالمعنى: أن الملائكة إذا عرجت من أسفل العالم إلى العرش كان مسافة ذلك خمسون ألف سنة، وإن عرجوا من هذه الأرض التي نحن فيها إلى باطن هذه السماء التي هي سماء الدنيا كان مسافة ذلك ألف سنة، وسيأتي في آخر البحث ما يؤيد هذا عن ابن عباس. ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ بالصبر فقال: ﴿فاصبر صبراً جميلاً﴾ أي: اصبر يا محمد على تكذيبهم لك وكفرهم بما جئت به صبراً جميلاً لا جزع فيه ولا شكوى إلى غير الله، وهذا معنى الصبر الجميل، وقيل: هو أن يكون صاحب المصيبة في القوم لا يدري بأنه مصاب. قال ابن زيد، وغيره: هي منسوخة بأية السيف ﴿إنهم يرونه بعيداً﴾ أي: يرون العذاب الواقع بهم، أو يرون يوم القيامة بعيداً أي: غير كائن لأنهم لا يؤمنون به، فمعنى ﴿بعيداً﴾ أي: مستبعداً محالاً، وليس المراد أنهم يرونه بعيداً غير قريب. قال الأعمش: يرون البعث بعيداً؛ لأنهم لا يؤمنون به كأنهم يستبعدونه على جهة الاستحالة، كما تقول لمن تناظره هذا بعيداً؛ أي: لا يكون ﴿ونراه قريباً﴾ أي: نعلمه كائنًا قريباً؛ لأن ما هو آت قريب. وقيل المعنى: ونراه هيناً في قدرتنا غير متعسر ولا متعذر، والجملة تعليل للأمر بالصبر. ثم أخبر سبحانه متى يقع بهم العذاب فقال: ﴿يوم تكون السماء كالمهل﴾ والظرف متعلق بمضمر دل عليه واقع، أو بدل من قوله: ﴿في يوم﴾ على تقدير تعلقه بواقع، أو متعلق بقريباً، أو مقدر بعده أي: يوم تكون... إلخ، كان كيت وكيت، أو بدل من الضمير في نراه، والأول أولى. والتقدير: يقع بهم العذاب ﴿يوم تكون السماء كالمهل﴾ والمهل: ما أنيب من النحاس والرصاص والفضة. وقال مجاهد: هو القيق من الصديد والدم. وقال عكرمة، وغيره: هو دردي الزيت، وقد تقدم تفسيره في سورة الكهف والنحان ﴿وتكون الجبال كالعهن﴾ أي: كالصوف المصبوغ، ولا يقال للصوف عهن إلا إذا كان مصبوغاً، قال الحسن: تكون الجبال كالعهن، وهو الصوف الأحمر، وهو أضعف الصوف، وقيل: العهن الصوف ذو الألوان، فشبه الجبال به في تكونها ألواناً، كما في قوله: ﴿جدد بيض وحمراً﴾ ﴿وغرابيب سود﴾ [فاطر: 27] فإذا بست وطيرت في الهواء أشبهت العهن المنفوش إذا طيرته الريح ﴿ولا يسأل حميم حميماً﴾ أي: لا يسأل قريب قريبه عن شأنه في ذلك اليوم لما نزل بهم من شدة الأهوال التي أذهلت

قوله: ﴿إنها لظلي﴾ عائد إلى النار المعلول عليها بنكر العذاب، أو هو ضمير مبهم يفسره ما بعده، ولظلي علم لجهنم، واشتقاقها من التلطي في النار، وهو التلهب، وقيل: أصله لفظ بمعنى نواصير العذاب، فقلبت إحدى الظاهرين ألفاً، وقيل لظلي: هي الدركة الثانية من طباق جهنم ﴿نزاعة للشوى﴾ قرأ الجمهور (نزاعة) بالرفع على أنه خبر ثانٍ لأنّ، أو خبر مبتدأ محذوف، أو تكون لظلي بدلاً من الضمير المنصوب، ونزاعة خبر إنّ، أو على أن نزاعة صفة للظلي على تقدير عدم كونها علماً، أو يكون الضمير في إنها للقصة، ويكون لظلي مبتدأ، ونزاعة خبره، والجملة خبر إنّ، وقرأ حفص عن عاصم، وأبو عمر، وفي رواية عنه، وأبو حيوة، والزعفراني، والترمذي، وابن مقسم (نزاعة) بالنصب على الحال. وقال أبو علي الفارسي: حملة على الحال بعيد؛ لأنه ليس في الكلام ما يعمل في الحال، وقيل: العامل فيها ما دل عليه الكلام من معنى التلطي، أو النصب على الاختصاص، والشوى الأطراف، أو جمع شواة، وهي جلدة الرأس، ومنه قول الأعشى:

قالت قتيلة ماله قد جللت شيباً شواته

وقال الحسن، وثابت البناني: ﴿نزاعة للشوى﴾: أي: لمكارم الوجه وحسنه، وكذا قال أبو العالية، وقتادة. وقال قتادة: تبري اللحم والجلد عن العظم حتى لا تترك فيه شيئاً. وقال الكسائي: هي المفاصل. وقال أبو صالح: هي أطراف اليدين والرجلين ﴿تدعوا من أنبر﴾ أي: تدعو لظلي من أنبر عن الحق في الدنيا ﴿وتولى﴾ أي: أعرض عنه ﴿وجمع فاعوى﴾ أي: جمع المال فجعله في وعاء، وقيل: إنها تقول إليّ يا مشرك، إليّ يا منافق، وقيل: معنى تدعو تهلك، تقول العرب: دعاك الله أي: أهلكك، وقيل: ليس هو الدعاء باللسان، ولكن دعاءها إياهم تمكنها من عذابهم، وقيل: المراد أن خزنة جهنم تدعو الكافرين والمنافقين، فأسند الدعاء إلى النار، من باب إسناد ما هو للحال إلى المحل، وقيل: هو تمثيل وتخويل، ولا دعاء في الحقيقة، والمعنى: أن مصيرهم إليها، كما قال الشاعر:

ولقد بطننا الواد بين قوائنا ندعو الأنيس به الفصيص الأيكم
والفصيص الأيكم: الذباب، وهي لا تدعو، وفي هذا ذم لمن جمع المال فاعواه، وكنزه ولم ينفقه في سبيل الخير، أو لم يؤد زكاته.

وقد أخرج الفريابي، وعبد بن حميد، والنسائي، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿سأل سائل﴾ قال: هو النضر بن الحارث قال: ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء﴾ [الأنفال: 32] وفي قوله: ﴿يعذاب واقع﴾ قال: كائن للكافرين ليس له دافع * من الله ذي المعارج﴾ قال: ذي الدرجات. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عنه في قوله: ﴿سأل سائل﴾ قال: سأل وأو في جهنم. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿ذي

المعارج﴾ قال: ذي العلوّ والغواضل. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾ قال: منتهى أمره من أسفل الأرضين إلى منتهى أمره من فوق سبع سموات مقدار خمسين ألف سنة، ﴿ويوم كان مقداره ألف سنة﴾ [السجدة: 5] قال: يعني بذلك ينزل الأمر من السماء إلى الأرض، ومن الأرض إلى السماء في يوم واحد، فذلك مقدار ألف سنة؛ لأن ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: غلط كل أرض خمسمائة عام، وغلط كل سماء خمسمائة عام، وبين كل أرض إلى أرض خمسمائة عام، ومن السماء إلى السماء خمسمائة عام، فذلك أربعة عشر ألف عام، وبين السماء السابعة وبين العرش مسيرة ستة وثلاثين ألف عام، فذلك قوله: ﴿في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في البعث عنه أيضاً في قوله: ﴿في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون﴾ قال: هذا في الدنيا تعرج الملائكة في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون، وفي قوله: ﴿في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾ فهذا يوم القيامة جعله الله على الكافر مقدار خمسين ألف سنة. وأخرج ابن أبي حاتم، والبيهقي عنه أيضاً في قوله: ﴿في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾ قال: لو قدرتموه لكان خمسين ألف سنة من أيامكم. قال: يعني يوم القيامة. وقد قُدمنا عن ابن عباس الوقف في الجمع بين الآيتين في سورة السجدة. وأخرج أحمد، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في البعث عن أبي سعيد الخدري قال: «قيل يا رسول الله ﷺ ﴿يوم كان يوم مقداره خمسين ألف سنة﴾ ما أطول هذا اليوم؟ فقال: والذي نفسي بيده إنه ليخفف عن المؤمن حتى يكون أهون عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا، وفي إسناده دراج عن أبي الهيثم، وهما ضعيفان. وأخرج ابن أبي حاتم، والحاكم، والبيهقي في البعث عن أبي هريرة مرفوعاً قال: ما قدر طول يوم القيامة على المؤمنين إلا كقدر ما بين الظهر إلى العصر. وأخرج الحكيم الترمذي في نواير الأصول عن ابن عباس في قوله: ﴿فأصبر صبراً جميلاً﴾ قال: لا تشكو إلى أحد غيري. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، والخطيب في المتفق والمفترق، والضياء في المختارة عن ابن عباس في قوله: ﴿يوم تكون السماء كالمهل﴾ قال: كدري الزيت. وأخرج ابن جرير عنه قال: «يصبونهم» يعرف بعضهم بعضاً ويتعارفون، ثم يفر بعضهم بعضاً. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً في قوله: ﴿نزاعة للشوى﴾ قال: تنزع أم الرأس.

﴿إِنَّ الَّذِينَ خَلَوْا بِكَ مُخَوَّاتٍ رُءُوسًا﴾ [١٥] وَإِنَّا سَنَشُقُّ رُءُوسَكَ ﴿١٦﴾ وَإِنَّا سَنَكْفُرُ بِرُءُوسِكَ ﴿١٧﴾ وَإِنَّا سَنَكْفُرُ بِرُءُوسِكَ ﴿١٨﴾ وَإِنَّا سَنَكْفُرُ بِرُءُوسِكَ ﴿١٩﴾ وَإِنَّا سَنَكْفُرُ بِرُءُوسِكَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّا سَنَكْفُرُ بِرُءُوسِكَ ﴿٢١﴾ وَإِنَّا سَنَكْفُرُ بِرُءُوسِكَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا سَنَكْفُرُ بِرُءُوسِكَ ﴿٢٣﴾ وَإِنَّا سَنَكْفُرُ بِرُءُوسِكَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّا سَنَكْفُرُ بِرُءُوسِكَ ﴿٢٥﴾ وَإِنَّا سَنَكْفُرُ بِرُءُوسِكَ ﴿٢٦﴾ وَإِنَّا سَنَكْفُرُ بِرُءُوسِكَ ﴿٢٧﴾ وَإِنَّا سَنَكْفُرُ بِرُءُوسِكَ ﴿٢٨﴾ وَإِنَّا سَنَكْفُرُ بِرُءُوسِكَ ﴿٢٩﴾ وَإِنَّا سَنَكْفُرُ بِرُءُوسِكَ ﴿٣٠﴾

خائفون، وجلون مع ما لهم من أعمال الطاعة استحقاقاً لأعمالهم، واعتراضاً بما يجب لله سبحانه عليهم. وجملة ﴿إِنْ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ مقررّة لمضمون ما قبلها مبينة أن ذلك مما لا ينبغي أن يأمّنه أحد، وأن حق كل أحد أن يخافه ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِغُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ إلى قوله: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَابُونَ﴾ قد تقدم تفسيره في سورة المؤمنين مستوفى ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ أي: لا يخلون بشيء من الأمانات التي يؤتمنون عليها، ولا ينقضون شيئاً من العهود التي يعقدونها على أنفسهم. قرأ الجمهور (لأماناتهم) بالجمع، وقرأ ابن كثير، وابن محيصن (لأمانتهم) بالإنفراد، والمراد الجنس ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ أي: يقيمونها على من كانت عليه من قريب أو بعيد، أو رفيع أو ضيع، ولا يكتُمونها ولا يغيرونها، وقد تقدّم القول في الشهادة في سورة البقرة. قرأ الجمهور (بشهادتهم) بالإنفراد، وقرأ حفص، ويعقوب، وهي رواية عن ابن كثير بالجمع. قال: الواحدي والفراد أولى لأنه مصدر، ومن جمع ذهب إلى اختلاف الشهادات. قال الفرّاء: ويدل على قراءة التوحيد قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ شَعِيرًا﴾ [الطلاق: 2] ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يَحَافِظُونَ﴾ أي: على انكارها وأركانها وشرائطها، لا يخلون بشيء من ذلك. قال قتادة: على وضوئها وركوعها وسجودها. وقال ابن جريج: المراد التطوّع، وكرر ذكر الصلاة لاختلاف ما وصفهم به أولاً، وما وصفهم به ثانياً، فإن معنى الدوام: هو أن لا يشتغل عنها بشيء من الشواغل، كما سلف؛ ومعنى المحافظة: أن يراعي الأمور التي لا تكون صلاة بدونها، وقيل: المراد يحافظون عليها بعد فعلها من أن يفعلوا ما يحبطها ويبطل ثوابها، وكثر الموصولات للدلالة على أن كل وصف من تلك الأوصاف لجلالته يستحق أن يستقلّ بموصوف منفرد، والإشارة بقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يَحَافِظُونَ﴾ أي: في جنات مكرمون ﴿فِي جَنَّاتٍ مَكْرُومِينَ﴾ أي: مستقرّون فيها، مكرمون بأنواع الكرامات، وخبر المبتدأ قوله: ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾، وقوله: ﴿مَكْرُومِينَ﴾ خبر آخر، ويجوز أن يكون الخبر مكرمون، وفي جنات متعلق به ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قَبْلَكَ مَهْطَعِينَ﴾ أي: أي شيء لهم حولك مسرعين، قال الأخفش: مهطعين مسرعين، ومنه قول الشاعر:

بمكة أمّ لها ولقد أراهم إليهم مهطعين إلى السماع
وقيل المعنى: ما بالهم يسرعون إليك يجلسون حولك، ولا يعملون بما تأمرهم، وقيل: ما بالهم مسرعين إلى التكنيب. وقيل: ما بال الذين كفروا يسرعون إلى السماع إليك، فيكذبونك ويستهنئون بك. وقال الكلبي: إن معنى ﴿مهطعين﴾: ناظرين إليك. وقال قتادة: عامين، وقيل: مسرعين إليك ما دى أعناقهم مبهمي النظر إليك ﴿عَنِ اليمين وعن الشمال عزين﴾ أي: عن يمين النبي ﷺ وعن شماله جماعات متفرقة، وعزين جمع عزة، وهي العصبية من الناس، ومنه قول الشاعر:

فَأَتَمَّ غَيْرَ مُؤْمِنٍ ﴿١٥﴾ مَنْ أَتَىٰ ذَاكَ فَأَوَّلَتْهُ هُرَّ الْكَادُونَ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَسْتَبْرَهِمْ وَهَدِيمِ رُحُونَ ﴿١٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يَحَافِظُونَ ﴿١٩﴾ أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمِينَ ﴿٢٠﴾ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ذَٰلِكَ مُتَبَلِّغِينَ ﴿٢١﴾ عَنِ النَّبِيِّينَ وَفِي أَلْفَاظٍ عَرِبٍ ﴿٢٢﴾ أَيْسَعَ كُلِّ أَمْرٍ لِّمَنْ أَنْ يَدْخُلَ جَنَّةً يَمِيرُ ﴿٢٣﴾ كَلَّا إِنَّا عَلَّلْنَاهُمْ مِمَّا يَكْتُمُونَ ﴿٢٤﴾

قوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ قال في الصحاح: الهلع في اللغة: أشدّ الحرص، وأسوأ الجزع وأقبحه يقال: هلع بالكسر، فهو هَلُوعٌ وهَلُوعٌ على التثنية. وقال عكرمة: هو الضجور. قال: الواحدي، والمفسرون يقولون تفسير الهلع ما بعده يعني قوله: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا﴾ وإذا مَسَّهُ للخير منوعاً أي: إذا أصابه الفقر والحاجة، أو المرض، أو نحو ذلك، فهو جزوع؛ أي: كثير الجزع، وإذا أصابه الخير من الغنى والخصب والسعة، ونحو ذلك، فهو كثير المنع والإمسك. وقال أبو عبيدة: الهلوع هو الذي إذا مَسَّهُ الخير لم يشكر، وإذا مَسَّهُ الشر لم يصبر. قال ثعلب: قد فسر الله الهلوع: هو الذي إذا أصابه الشر أظهر شدة الجزع، وإذا أصابه الخير بخل به ومنعه الناس، والعرب تقول: ناقه هلوع، وهلوع إذا كانت سريعة السير خفيفته، ومنه قول الشاعر:

شكا نعلبة إذا استبرتها حرج إذا استقبلتها هلوع
والنعلبة: الناقة السريعة، وانتصاب هلوعاً وجزوعاً ومنوعاً على أنها أحوال مقترنة، أو محققة؛ لكونها طبائع جبل الإنسان عليها، والظرفان معمولان لجزوعاً ومنوعاً ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ أي: المقيمين للصلاة، وقيل: المراد بهم أهل التوحيد يعني: أنهم ليسوا على تلك الصفات من الهلع والجزع والمنع؛ وأنهم على صفات محمودة وخلال مرضية؛ لأن إيمانهم وما تمسكوا به من التوحيد وبين الحق يزجرهم عن الاتصاف بتلك الصفات، ويحملهم على الاتصاف بصفات الخير. ثم بيّنهم سبحانه. فقال: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ أي: لا يشغلهم عنها شاغل، ولا يصرفهم عنها صارف، وليس المراد بالدوام أنهم يصلون أبداً. قال الزجاج: هم الذين لا يزيلون وجوههم عن سمت القبلة. وقال الحسن، وابن جريج: هو التطوع منها. قال النخعي: المراد بالمصلين الذين يؤتون الصلاة المكتوبة، وقيل: الذين يصلونها لوقتها، والمراد بالآية جميع المؤمنين، وقيل: الصحابة خاصة، ولا وجه لهذا التخصيص لاتصاف كل مؤمن بأنه من المصلين ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ قال قتادة: ومحمد بن سيرين: المراد الزكاة المفروضة. وقال مجاهد: سوى الزكاة، وقيل: صلة الرحم، والظاهر أنه الزكاة لوصفه بكونه معلوماً، ولجعله قريناً للصلاة، وقد تقدّم تفسير السائل والمحروم في سورة الذاريات مستوفى. ﴿وَالَّذِينَ يَصْنَعُونَ بَيُومٍ لِّلَّذِينَ﴾ أي: بيوم الجزاء، وهو يوم القيامة لا يشكون فيه ولا يجحدونه، وقيل: يصنّونه بأعمالهم، فيتعبون أنفسهم في الطاعات ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ أي:

«يقول الله: ابن آدم أتى تعجزني، وقد خلقتك من مثل هذه حتى إذا سويتك وعملتك مشيت بين بردين، وللأرض منك وشيد، فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقي قلت أواتى أوان الصدقة».

﴿لَا أُقِيمُ رَبِّيَ الشَّرِّ وَالْقَرِيبَ إِنَّا لَقَدِيرُونَ﴾ ﴿عَلَى أَنْ تُبْدَلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْتَوِينَ﴾ ﴿فَذَرُّهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يَوْمَعُونَ﴾ ﴿يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَعْدَادِ يَرْجَا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِصُونَ﴾ ﴿خَنِيمَةً أَمْرَهُمْ لَهْفَةً ذَٰلِكَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾

قوله: ﴿فلا أقسم﴾ «لا» زائدة كما تقدم قريباً، والمعنى: فاقسم ﴿بجرب المشارق والمغارب﴾ يعني: مشرق كل يوم من أيام السنة ومغربه. قرأ الجمهور (المشارق والمغارب) بالجمع، وقرأ أبو حيو، وابن محيصن، وحמיד بالإفراد ﴿إننا لقادرون على أن نبذل خيراً منهم﴾ أي: على أن نخلق أمثلاً منهم، وأطوع لله حين عصوه ونهلك هؤلاء ﴿وما نحن بمسبوقين﴾ أي: بمغلوبين إن أردنا ذلك بل نفعل ما أردنا لا يفوتنا شيء ولا يعجزنا أمر، ولكن مشيتنا وسابق علمنا اقتضيا تأخير عقوبة هؤلاء، وعدم تبديلهم بخلق آخر ﴿فذرهم يخوضوا ويلعبوا﴾ أي: اتركهم يخوضوا في باطلهم ويلعبوا في دنياهم، واشتغل بما أمرت به ولا يعظم عليك ما هم فيه، فليس عليك إلا البلاغ ﴿حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون﴾ وهو يوم القيامة، وهذه الآية منسوخة بآية السيف. قرأ الجمهور (يلاقوا)، وقرأ أبو جعفر، وابن محيصن، وحמיד، ومجاهد (حتى يلقوا) ﴿يوم يخرجون من الأجداث سراعاً﴾ يوم بدل من يومهم، وسراعا منتصب على الحال من ضمير يخرجون، قرأ الجمهور (يخرجون) على البناء للفاعل. وقرأ السلمي، والاعمش، والمغيرة، وعاصم في رواية على البناء للمفعول، والأجداث جمع جدث، وهو القبر ﴿كانهم إلى نصب يوفضون﴾ قرأ الجمهور (نصب) بفتح النون وسكون الصاد. وقرأ ابن عامر، وحفص بضم النون والصاد، وقرأ عمرو بن ميمون، وأبو رجاء بضم النون وإسكان الصاد. قال في الصحاح: والنصب ما نصب فعبد من دون الله، وكذا النصب بالضم، وقد يحرك. قال الأعشى:

وذا النصب المنصوب لا تعبنة ولا تعبد الشيطان والله فاعبدا والجمع: الانصباب، وقال الأخفش، والفراء: النصب جمع النصب، مثل رهن ورهن، والانصباب جمع النصب فهو جمع الجمع، وقيل: النصب جمع نصاب، وهو حجر أو صنم ينبع عليه، ومنه قوله: ﴿وما ينبع على النصب﴾ [المائدة: 3] وقال النحاس: نصب ونصب بمعنى واحد، وقيل معنى ﴿إلى نصب﴾: إلى غاية، وهي التي تنصب إليها بصره، وقال الكلبي: إلى شيء منصوب علم أو راية أي: كأنهم إلى علم يدعون إليه، أو راية تنصب لهم يوفضون، قال الحسن: كانوا يبتدرون إذا طلعت الشمس إلى نصبهم التي كانوا يعبدونها من دون الله لا يلوي أولهم على آخرهم. وقال أبو عمرو:

ترانا عنده والليل داج على أبوابه حلقاً عزينا
وقال الراعي:
أخليفة الرحمن إن عشيرتي أمسى سراتهم إليك عزينا
وقال عنتره:

وقرن قد تركت لسي ولي عليه الطير كالعصب العزينا
وقيل: أصلها عزوة من العزو؛ كان كل فرقة تعتزى إلى غير من تعتزى إليه الأخرى. قال في الصحاح: والعزة الفرقة من الناس، والهاء عوض من التاء، والجمع عزى وعزى، وقوله: ﴿عن اليمين وعن الشمال﴾ متعلق بعزى، أو بمطعين ﴿أيطمع كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم﴾ قال المفسرون: كان المشركون يقولون: لئن دخل هؤلاء الجنة لندخل قبلهم، فنزلت الآية، قرأ الجمهور (أن يدخل) مبنياً للمفعول، وقرأ الحسن، وزيد بن علي، وطلحة بن مصرف، والأعرج، ويحيى بن يعمر، وأبو رجاء، وعاصم في رواية عنه على البناء للفاعل. ثم رد الله سبحانه عليهم فقال: ﴿كلا إننا خلقناهم مما يعلمون﴾ أي: من القدر الذين يعلمون به، فلا ينبغي لهم هذا التكبر، وقيل المعنى: إننا خلقناهم من أجل ما يعلمون، وهو امتثال الأمر والنهي، وتعريضهم للثواب والعقاب، كما في قوله: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ [الذاريات: 56]، ومنه قول الأعشى:

أزمعت من آل ليلي ابتكاراً وشطت على ذي هوى أن يزارا
وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عكرمة قال: سئل ابن عباس عن الهلوع، فقال: هو كما قال الله: ﴿إذا مسه الشر جزوعاً﴾ وإذا مسه الخير منوعاً. وأخرج ابن المنذر عنه ﴿هلوعاً﴾ قال: الشره. وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن ابن مسعود ﴿الذين هم على صلاتهم دائمون﴾ قال: على مواقيتها. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر عن عمران بن حصين ﴿الذين هم على صلاتهم دائمون﴾ قال: الذي لا يلتفت في صلاته. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه عن عقبة بن عامر ﴿الذين هم على صلاتهم دائمون﴾ قال: هم الذين إذا صلوا لم يلتفتوا. وأخرج ابن المنذر من طريق أخرى عنه نحوه. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿فمال الذين كفروا قبلك مهطعين﴾ قال: ينظرون ﴿عن اليمين وعن الشمال عزين﴾ قال: العصب من الناس عن يمين وشمال معرضين يستهزئون به. وأخرج مسلم، وغيره عن جابر قال: دخل علينا رسول الله ﷺ المسجد، ونحن حلق متفرقون فقال: «ما لي أراكم عزين». وأخرج أحمد، وابن ماجه، وابن سعد، وابن أبي عاصم، والباوردي، وابن قانع، والحاكم، والبيهقي في الشعب، والضياء عن بشر بن جحاش قال: قرأ رسول الله ﷺ ﴿فمال الذين كفروا قبلك مهطعين﴾ إلى قوله: ﴿كلا إننا خلقناهم مما يعلمون﴾، ثم بنق رسول الله ﷺ على كفه، ووضع عليها أصبعه، وقال:

سَوَّيْتُ يَابَا ۝ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ النَّجْمَ سِرَاجًا ۝ وَاللَّهُ
أَبْتَرُ مِنْ الْأَرْضِ يَابَا ۝ ثُمَّ يُبَدِّلُ فِيهَا وَيُغْرِغُكُمْ إِبْرَاجًا ۝ وَاللَّهُ
جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ سَاطِعًا ۝ لَتَسْلُكُنَّ مِنْهَا جُبًا ۝

قوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ قد تقدّم أن نوحاً
أَوَّلَ رَسُولٍ أَرْسَلَهُ اللَّهُ، وهو نوح بن لامك بن متوشلخ بن
أخنوخ بن قينان بن شيث بن آدم، وقد تقدّم مدّة لبثه في
قومه، وبيان جميع عمره، وبيان السنّ التي أُرسل وهو فيها
في سورة العنكبوت ﴿أَن أُنذِرَ قَوْمَكَ﴾ أي: بأن أُنذر على
أنها مصدرية. ويجوز أن تكون هي المفسرة: لأن في
الإرسال معنى القول. وقرأ ابن مسعود (أُنذِر) بدون أن،
وذلك على تقدير القول: أي: فقلنا له أُنذر ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ
يَلْقِيَهُمْ عَذَابُ الْيَوْمِ﴾ أي: عذاب شديد الألم، وهو عذاب النار.
وقال الكلبي: هو ما نزل بهم من الطوفان، وجملة ﴿قَالَ يَا
قَوْمُ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً على
تقدير سؤال، كأنه قيل: فماذا قال نوح؟ فقال: قال لهم إلخ.
والمعنى: إني لكم منذر من عقاب الله ومخوف لكم، ومبين
لما فيه نجاتكم ﴿أَن اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا﴾ «أن»
هي التفسيرية للنذير، أو هي المصدرية أي: بأن اعبدوا الله
ولا تشركوا به غيره، واتقوه أي: اجتنبوا ما يوقعكم في
عذابه، وأطيعوا فيما أمركم به فإني رسول إيلكم من عند الله
﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ هذا جواب الأمر، و«من»
للتبعية أي: بعض ذنوبكم، وهو ما سلف منها قبل طاعة
الرسول وإجابة دعوته. وقال السدي: المعنى يغفر لكم
ذنوبكم، فتكون «من» على هذا زائدة، وقيل: المراد بالبعض
ما لا يتعلق بحقوق العباد، وقيل: هي لبيان الجنس، وقيل:
يغفر لكم من ذنوبكم ما استغفرتوه منها ﴿وَيُؤْخِرْكُمْ إِلَى
لَجَلٍ مُّسْمًى﴾ أي: يؤخر موتكم إلى الأمد الأقصى الذي
قَدَرَهُ الله لكم بشرط الإيمان والطاعة فوق ما قَدَرَهُ لكم، على
تقدير بقاءكم على الكفر والعصيان. وقيل: التأخير بمعنى
البركة في أعمارهم أن آمنوا، وعدم البركة فيها إن لم يؤمنوا.
قال مقاتل: يؤخركم إلى منتهى أجالكم. وقال الزجاج: أي
يؤخركم عن العذاب فتموتوا غير ميتة المستأصلين بالعذاب.
وقال الفراء: المعنى لا يميّتكم غرقاً ولا حرقاً ولا قتلاً ﴿إِن
لَّجَلٍ لِلَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤْخِرُ﴾ أي: ما قَدَرَهُ لكم على تقدير
بقاءكم على الكفر من العذاب إذا جاء، وأنتم باقون على الكفر
لا يؤخر بل يقع لا محالة، فبادروا إلى الإيمان والطاعة. وقيل
المعنى: إن أجل الله، وهو الموت إذا جاء لا يمكنكم الإيمان.
وقيل المعنى: إذا جاء الموت لا يؤخر سواء كان بعذاب أو
بغير عذاب ﴿لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: شيئاً من العلم
لسارعتم إلى ما أمركم به، أو لعلمتم أن أجل الله إذا جاء لا
يؤخر ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ أي: قال
نوح منادياً لربه، وحاكياً له ما جرى بينه وبين قومه، - وهو
أعلم به - منه إني دعوت قومي إلى ما أمرتني بأن أدعوهم
إليه من الإيمان دعاء دائماً في الليل والنهار من غير تقصير

النصب شبكة الصائد يسرع إليها عند وقوع الصيد فيها
مخافة انفلاته. ومعنى يوفضون: يسرعون، والإيفاض
الإسراع. يقال: أوفض إيفاضاً أي: أسرع إسراعاً، ومنه قول
الشاعر:

فوارس نبيان تحت الحديد كالجَنِّ يوفض من عبقر
وعبقر: قرية من قرى الجن، كما تزعم العرب، ومنه قول
البيد:

كهول وشبان كجنة عبقر

وانتصاب ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارِهِمْ﴾ على الحال من ضمير
يوفضون، وأبصارهم مرتفعة به، والخشوع النلة والخضوع
أي: لا يرفعونها لما يتوقعونه من العذاب ﴿تَرْتَهِّقُهُمْ ذُلَّةٌ﴾
أي: تغشاهم ذلة شديدة. قال قتادة هي: سواد الوجوه، ومنه
غلام مرامق: إذا غشيه الاحتلام، يقال: رهقه بالكسر يرهقه
رهقاً أي: غشيه، ومثل هذا قوله: ﴿وَلَا يَرْمِقُ وَجُوهُهُمْ قُتْرٌ
وَلَا ذُلَّةٌ﴾ [يونس: 26] والإشارة بقوله: ﴿ذُلَّةٌ﴾ إلى ما تقدّم
نكره. وهو مبتدأ وخبره ﴿الْيَوْمِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ أي:
الذي كانوا يوعدونه في الدنيا على السنة الرسل قد حاق
بهم وحضر، ووقع بهم من عذابه ما وعدهم الله به، وإن كان
مستقبلاً، فهو في حكم الذي قد وقع لتحقيق وقوعه.

وقد أخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن
جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله:
﴿فَلَا تَقْسَمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ قال: للشمس كل
يوم مطلع تطلع فيه، ومغرب تغرب فيه غير مطلعها بالأمس
وغير مغربها بالأمس. وأخرج ابن جرير عنه ﴿إِلَى نَصَبِ
يُوفُضُونَ﴾ قال: إلى علم يستيقنون.

تفسير سورة نوح

وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مريويه عن
عبد الله بن الزبير قال: نزلت سورة ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾
[أي: سورة نوح] بمكة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
﴿قَالَ يَتَوَارَى إِلَى لَكُمْ نَذِيرٌ شَدِيدٌ﴾ ۝ ۱ ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا
﴿يَقُولُ لَكُمْ رَبِّي دَعَاكُمْ إِلَى هَذَا شَيْءٍ إِنَّ لَكُمْ إِلَهًا إِذَا جَاءَ
لَا يُؤْخِرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ۝ ۲ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا
﴿لَمْ يَزِدْهُمْ مَعْلَةً إِلَّا يَوَارًا﴾ ۝ ۳ ﴿وَأَنِّي كُنْتُ مَدْعُوهُمْ لِيُغْفِرَ لَهُمْ جَمَلًا وَسِيمًا
﴿فِي عَادَتِهِمْ وَاسْتَفْتَنُوا فِي آيَاتِهِمْ وَأَسْرَأُوا وَأَسْكَنُوا أَتَيْكَارًا﴾ ۝ ۴ ﴿ثُمَّ إِنِّي
دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا﴾ ۝ ۵ ﴿ثُمَّ إِنِّي أَهْلَكْتُ لَهُمْ وَأَسْرَأْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ ۝ ۶ ﴿فَنَلَّثْتُ
أَسْتَفْتَرُوا رَبِّي إِنْ كَانَ عَقَابًا﴾ ۝ ۷ ﴿يُرْسِلُ السَّحَابَ عَلَيْكَ يُنْزِلُكَ﴾ ۝ ۸ ﴿وَيُؤْخِرُكُمْ
رَبِّي عَنْ بَأْسِهِ وَيَبْنِي لَكُمْ جَنَّةً وَيَجْعَلُ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ ۝ ۹ ﴿مَا لَكُمْ لَا
تَرْجِعُونَ إِلَى اللَّهِ وَقَارًا﴾ ۝ ۱۰ ﴿وَقَدْ خَلَقْنَاكَ أَلْطُورًا﴾ ۝ ۱۱ ﴿أَنزَرْنَاكَ عَلَى سَفْحٍ

إيمانهم بالله يجمع لهم مع الحظ الوافر في الآخرة الخصب والغنى في الدنيا ﴿ما لكم لا ترجون لله وقاراً﴾ أي: أي عزركم في ترك الرجاء، والرجاء هنا بمعنى الخوف أي: ما لكم لا تخافون الله، والوقار العظمة من التوقير، وهو التعظيم، والمعنى لا تخافون حقَّ عظمته، فتوحده وتطيعونه، و ﴿لا ترجون﴾ في محل نصب على الحال من ضمير المخاطبين، والعامل فيه معنى الاستقرار في لكم، ومن إطلاق الرجاء على الخوف قول الهذلي:

إذا لسمته النحل لم يرج لسمها

وقال سعيد بن جببر، وأبو العالية، وعطاء بن أبي رباح: ما لكم لا ترجون لله ثواباً، ولا تخافون منه عقاباً. وقال مجاهد، والضحاك: ما لكم لا تبالون لله عظمة. قال قطرب: هذه لغة حجازية. وهذيل، وخزاعة، ومضر يقولون: لم أرج لم أبل. وقال قتادة: ما لكم لا ترجون لله عاقبة الإيمان. وقال ابن كيسان: ما لكم لا ترجون في عبادة الله وطاعته أن يثيبكم على توقيركم خيراً. وقال ابن زيد: ما لكم لا تؤنن لله طاعة. وقال الحسن: ما لكم لا تعرفون لله حقاً، ولا تشكرون له نعمة، وجملة ﴿وقد خلقكم أطواراً﴾ في محل نصب على الحال أي: والحال أنه سبحانه قد خلقكم على أطوار مختلفة: نطفة، ثم مضغة، ثم علقة إلى تمام الخلق، كما تقدم بيانه في سورة المؤمنون، والطور في اللغة: المرة، وقال ابن الأنباري: الطور الحال، وجمعه أطوار، وقيل: أطواراً صبياناً، ثم شباناً، ثم شيوخاً، وقيل: الأطوار اختلافهم في الأفعال والأقوال والأخلاق، والمعنى: كيف تقصرون في توقير من خلقكم على هذه الأطوار البديعة ﴿لهم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً﴾ الخطاب لمن يصلح له، والمراد الاستدلال بخلق السموات على كمال قدرته وبديع صنعته، وأنه الحقيق بالعبادة، والطباق المطابقة بعضها فوق بعض كل سماء مطبقة على الأخرى كالقبا. قال الحسن: خلق الله سبع سموات على سبع أرضين بين كل سماء وسماء، وأرض وأرض خلق وأمر، وقد تقدم تحقيق هذا في قوله: ﴿ومن الأرض مثلهن﴾ [الطلاق: 12] وانتصاب طباقاً على المصدرية، تقول طابقه مطابقة وطباقاً، أو حال بمعنى ذات طباق، فحذف ذات وأقام طباقاً مقامه، وأجاز الفراء في غير القرآن جرَّ طباقاً على النعت ﴿وجعل القمر فيهن نوراً﴾ أي: منوراً لوجه الأرض، وجعل القمر في السموات مع كونها في سماء الدنيا؛ لأنها إذا كانت في إحداهن فهي فيهن، كذا قال ابن كيسان. قال الأخفش: كما تقول: اتاني بنو تميم، والمراد بعضهم. وقال قطرب: فيهن بمعنى معهن أي: خلق القمر والشمس مع خلق السموات والأرض، كما في قول امرئ القيس:

وهل ينعمن من كان آخر عهده ثلاثين شهراً في ثلاثة أحوال
أي: مع ثلاثة أحوال ﴿وجعل للشمس سرلجاً﴾ أي: كالمصباح لاهل الأرض؛ ليتوصلوا بذلك إلى التصرف فيما يحتاجون إليه من المعاش ﴿والله أنبتكم من الأرض نباتاً﴾

﴿فلم يزدكم دعائي إلا قراراً﴾ عما دعوتهم إليه وبعداً عنه. قال مقاتل: يعني تباعداً من الإيمان، وإسناد الزيادة إلى الدعاء لكونه سببها، كما في قوله: ﴿زادتهم إيماناً﴾ [الأنفال: 2]. قرأ الجمهور (دعائي) بفتح الياء، وقرأ الكوفيون، ويعقوب، والدوري عن أبي عمرو بإسكانها، والاستثناء مفرغ ﴿وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم﴾ أي: كلما دعوتهم إلى سبب المغفرة، وهو الإيمان بك، والطاعة لك ﴿جعلوا أصابعهم في آذانهم﴾ لئلا يسمعوا صوتي ﴿واستغشوا ثيابهم﴾ أي: غطوا بها وجوههم لئلا يروني، وقيل: جعلوا ثيابهم على رؤوسهم لئلا يسمعوا كلامي، فيكون استغشاء الثياب على هذا زيادة في سدَّ الأذان، وقيل: هو كناية عن العداوة، يقال: لبس فلان ثياب العداوة، وقيل: استغشوا ثيابهم لئلا يعرفهم فيدعوه ﴿واصبروا﴾ أي: استمروا على الكفر، ولم يقلعوا عنه ولا تابوا منه ﴿واستكبروا﴾ عن قبول الحق، وعن امتثال ما أمرهم به ﴿استكبروا﴾ شديداً ﴿ثم إني دعوتهم جهاراً﴾ أي: مظهرأ لهم الدعوة مجاهراً لهم بها ﴿ثم إني أعلنت لهم﴾ أي: دعوتهم معلناً لهم بالدعاء ﴿واسررت لهم إسراراً﴾ أي: وأسرت لهم الدعوة إسراراً كثيراً، قيل المعنى: أن يدعو للرجل بعد الرجل يكلمه سراً فيما بينه وبينه، والمقصود أنه دعاهم على وجوه متخالفة وأساليب متفاوتة، فلم ينبج ذلك فيهم. قال مجاهد: معنى أعلنت: صحت، وقيل: معنى ﴿أسررت﴾: اتيتهم في منازلهم فدعوتهم فيها. وانتصاب جهاراً على المصدرية؛ لأن الدعاء يكون جهاراً ويكون غير جهار، فالجهار نوع من الدعاء كقولهم: قعد القرفصاء، ويجوز أن يكون نعت مصدر محنوف أي: دعاء جهاراً، وأن يكون مصدراً في موضع الحال أي: مجاهراً، ومعنى ﴿ثم﴾: الدلالة على تباعد الأحوال؛ لأن الجهار أغلظ من الإسرار، والجمع بين الأمرين أغلظ من أحدهما. قرأ الجمهور (إني) يسكون الياء، وقرأ أبو عمرو والحرميون بفتحها ﴿فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً﴾ أي: سلوه المغفرة من ذنوبكم السابقة بإخلاص النية ﴿إنه كان غفاراً﴾ أي: كثير المغفرة للمذنبين، وقيل: معنى استغفروا: توبوا عن الكفر إنه كان غفاراً للتائبين ﴿يرسل السماء عليكم﴾ أي: يرسل ماء السماء عليكم، ففيه إضمار، وقيل: المراد بالسماء المطر، كما في قول الشاعر:

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا
والمدرار: البرور، وهو التحلب بالمطر، وانتصابه إما على الحال من السماء، ولم يؤنث، لأن مفعلاً لا يؤنث؛ تقول امرأة مثناة ومنكارة، أو على أنه نعت لمصدر محنوف أي: إرسالاً مدراراً، وقد تقدم الكلام عليه في سورة الأنعام، وجزم يرسل لكونه جواب الأمر. وفي هذه الآية دليل على أن الاستغفار من أعظم أسباب المطر وحصول أنواع الأرزاق، ولهذا قال: ﴿ويمدكم بالموال وينين ويجعل لكم جنات﴾ يعني: بساتين ﴿ويجعل لكم أنهاراً﴾ جارية. قال عطاء: المعنى يكثر أموالكم وأولادكم. أعلمهم نوح عليه السلام أن

يعني: آدم خلقه الله من أديم الأرض، والمعنى: أنشأكم منها إنشاء، فاستعير الإنبياء للإنشاء لكونه أدل على الحدث والتكوين، ونباتاً إما مصدر لأنبت على حثف الزوائد، أو مصدر لفعل محذوف أي: أنبتكم من الأرض، فنبتم نباتاً. وقال الخليل، والزجاج: هو مصدر محمول على المعنى؛ لأن معنى أنبتكم: جعلكم تنبتون نباتاً. وقيل المعنى: والله أنبت لكم من الأرض النبات، فنباتاً على هذا مفعول به. قال ابن بحر: أنبتهم في الأرض بالكبر بعد الصغر، وبالطول بعد القصر **﴿ثم يعيدكم فيها﴾** أي: في الأرض **﴿ويخرجكم إخراجاً﴾** يعني: يخرجكم منها بالبعث يوم القيامة **﴿والله جعل لكم الأرض بساطاً﴾** أي: فرشها وبسطها لكم تتقلبون عليها تقلبكم على بسطكم في بيوتكم **﴿لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً﴾** أي: طرقاً واسعة، والفجاج جمع فج، وهو الطريق الواسع، كذا قال الفراء، وغيره، وقيل الفج: المسلك بين الجبلين، وقد مضى تحقيق هذا في سورة الأنبياء، وفي سورة الحج مستوفى.

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: **﴿وجعلوا أصابعهم في آذانهم﴾** قال: لئلا يسمعوا ما يقول **﴿واستغشوا ثيابهم﴾** قال: ليتكروا، فلا يعرفهم **﴿واستكبروا استكباراً﴾** قال: تركوا التوبة. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر عنه **﴿واستغشوا ثيابهم﴾** قال: غطوا وجوههم لئلا يروا نوحاً ولا يسمعوا كلامه. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، والبيهقي في الشعب عنه أيضاً في قوله: **﴿ما لكم لا ترجون لله وقاراً﴾** قال: لا تعلمون لله عظمة. وأخرج ابن جرير، والبيهقي عنه أيضاً **﴿وقاراً﴾** قال: عظمة. وفي قوله: **﴿وقد خلقكم لطواراً﴾** قال: نطفة، ثم علقه، ثم مضغة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في الآية قال: لا تخافون لله عظمة. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: لا تخشون له عقاباً ولا ترجون له ثواباً. وأخرج عبد الرزاق في المصنف عن علي بن أبي طالب: «أن النبي ﷺ رأى ناساً يفتسلون عراة ليس عليهم أزر، فنادى بأعلى صوته **﴿ما لكم لا ترجون لله وقاراً﴾**». وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم في العظمة عن عبد الله بن عمرو قال: الشمس والقمر، وجوههما قبل السماء وأقفيتهما قبل الأرض، وأنا أقرا بذلك عليكم أنه من كتاب الله **﴿وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً﴾**. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم في العظمة عن عبد الله بن عمرو قال: تضيء لاهل السموات، كما تضيء لاهل الأرض. وأخرج عبد بن حميد عن شهر بن حوشب قال: اجتمع عبد الله بن عمرو بن العاص وكعب الأحبار وقد كان بينهما بعض العتب، فتعاتبا فذهب ذلك، فقال عبد الله بن عمرو لكعب: سلني عما شئت، فلا تسألني عن شيء إلا أخبرتك بتصديق قولي من القرآن، فقال له: أرايت ضوء الشمس والقمر أهو في السموات

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: **﴿وجعلوا أصابعهم في آذانهم﴾** قال: لئلا يسمعوا ما يقول **﴿واستغشوا ثيابهم﴾** قال: ليتكروا، فلا يعرفهم **﴿واستكبروا استكباراً﴾** قال: تركوا التوبة. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر عنه **﴿واستغشوا ثيابهم﴾** قال: غطوا وجوههم لئلا يروا نوحاً ولا يسمعوا كلامه. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، والبيهقي في الشعب عنه أيضاً في قوله: **﴿ما لكم لا ترجون لله وقاراً﴾** قال: لا تعلمون لله عظمة. وأخرج ابن جرير، والبيهقي عنه أيضاً **﴿وقاراً﴾** قال: عظمة. وفي قوله: **﴿وقد خلقكم لطواراً﴾** قال: نطفة، ثم علقه، ثم مضغة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في الآية قال: لا تخافون لله عظمة. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: لا تخشون له عقاباً ولا ترجون له ثواباً. وأخرج عبد الرزاق في المصنف عن علي بن أبي طالب: «أن النبي ﷺ رأى ناساً يفتسلون عراة ليس عليهم أزر، فنادى بأعلى صوته **﴿ما لكم لا ترجون لله وقاراً﴾**». وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم في العظمة عن عبد الله بن عمرو قال: الشمس والقمر، وجوههما قبل السماء وأقفيتهما قبل الأرض، وأنا أقرا بذلك عليكم أنه من كتاب الله **﴿وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً﴾**. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم في العظمة عن عبد الله بن عمرو قال: تضيء لاهل السموات، كما تضيء لاهل الأرض. وأخرج عبد بن حميد عن شهر بن حوشب قال: اجتمع عبد الله بن عمرو بن العاص وكعب الأحبار وقد كان بينهما بعض العتب، فتعاتبا فذهب ذلك، فقال عبد الله بن عمرو لكعب: سلني عما شئت، فلا تسألني عن شيء إلا أخبرتك بتصديق قولي من القرآن، فقال له: أرايت ضوء الشمس والقمر أهو في السموات

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: **﴿وجعلوا أصابعهم في آذانهم﴾** قال: لئلا يسمعوا ما يقول **﴿واستغشوا ثيابهم﴾** قال: ليتكروا، فلا يعرفهم **﴿واستكبروا استكباراً﴾** قال: تركوا التوبة. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر عنه **﴿واستغشوا ثيابهم﴾** قال: غطوا وجوههم لئلا يروا نوحاً ولا يسمعوا كلامه. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، والبيهقي في الشعب عنه أيضاً في قوله: **﴿ما لكم لا ترجون لله وقاراً﴾** قال: لا تعلمون لله عظمة. وأخرج ابن جرير، والبيهقي عنه أيضاً **﴿وقاراً﴾** قال: عظمة. وفي قوله: **﴿وقد خلقكم لطواراً﴾** قال: نطفة، ثم علقه، ثم مضغة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في الآية قال: لا تخافون لله عظمة. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: لا تخشون له عقاباً ولا ترجون له ثواباً. وأخرج عبد الرزاق في المصنف عن علي بن أبي طالب: «أن النبي ﷺ رأى ناساً يفتسلون عراة ليس عليهم أزر، فنادى بأعلى صوته **﴿ما لكم لا ترجون لله وقاراً﴾**». وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم في العظمة عن عبد الله بن عمرو قال: الشمس والقمر، وجوههما قبل السماء وأقفيتهما قبل الأرض، وأنا أقرا بذلك عليكم أنه من كتاب الله **﴿وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً﴾**. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم في العظمة عن عبد الله بن عمرو قال: تضيء لاهل السموات، كما تضيء لاهل الأرض. وأخرج عبد بن حميد عن شهر بن حوشب قال: اجتمع عبد الله بن عمرو بن العاص وكعب الأحبار وقد كان بينهما بعض العتب، فتعاتبا فذهب ذلك، فقال عبد الله بن عمرو لكعب: سلني عما شئت، فلا تسألني عن شيء إلا أخبرتك بتصديق قولي من القرآن، فقال له: أرايت ضوء الشمس والقمر أهو في السموات

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: **﴿وجعلوا أصابعهم في آذانهم﴾** قال: لئلا يسمعوا ما يقول **﴿واستغشوا ثيابهم﴾** قال: ليتكروا، فلا يعرفهم **﴿واستكبروا استكباراً﴾** قال: تركوا التوبة. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر عنه **﴿واستغشوا ثيابهم﴾** قال: غطوا وجوههم لئلا يروا نوحاً ولا يسمعوا كلامه. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، والبيهقي في الشعب عنه أيضاً في قوله: **﴿ما لكم لا ترجون لله وقاراً﴾** قال: لا تعلمون لله عظمة. وأخرج ابن جرير، والبيهقي عنه أيضاً **﴿وقاراً﴾** قال: عظمة. وفي قوله: **﴿وقد خلقكم لطواراً﴾** قال: نطفة، ثم علقه، ثم مضغة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في الآية قال: لا تخافون لله عظمة. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: لا تخشون له عقاباً ولا ترجون له ثواباً. وأخرج عبد الرزاق في المصنف عن علي بن أبي طالب: «أن النبي ﷺ رأى ناساً يفتسلون عراة ليس عليهم أزر، فنادى بأعلى صوته **﴿ما لكم لا ترجون لله وقاراً﴾**». وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم في العظمة عن عبد الله بن عمرو قال: الشمس والقمر، وجوههما قبل السماء وأقفيتهما قبل الأرض، وأنا أقرا بذلك عليكم أنه من كتاب الله **﴿وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً﴾**. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم في العظمة عن عبد الله بن عمرو قال: تضيء لاهل السموات، كما تضيء لاهل الأرض. وأخرج عبد بن حميد عن شهر بن حوشب قال: اجتمع عبد الله بن عمرو بن العاص وكعب الأحبار وقد كان بينهما بعض العتب، فتعاتبا فذهب ذلك، فقال عبد الله بن عمرو لكعب: سلني عما شئت، فلا تسألني عن شيء إلا أخبرتك بتصديق قولي من القرآن، فقال له: أرايت ضوء الشمس والقمر أهو في السموات

(1) الثاني بالتخفيف، والثالث بالتشديد اهـ. مصححه.

لما أوتوا هذه النعم. وقال الكلبي: هو ما جعلوه لله من صاحبة الولد. وقال مقاتل: هو قول كبرائهم لاتباعهم لا تذرنا الهتك، وقيل: مكرهم كفرهم **«وقالوا لا تذرنا الهتك»** أي: لا تتركوا عبادة الهتك، وهي الأصنام والصور التي كانت لهم، ثم عيبها العرب من بعدهم، وبهذا قال الجمهور **«ولا تذرنا وداً ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسراً»** أي: لا تتركوا عبادة هذه. قال محمد بن كعب: هذه أسماء قوم صالحين كانوا بين آدم ونوح، فنشأ بعدهم قوم يقتنون بهم في العبادة، فقال لهم إبليس: لو صوّرتهم صورهم كان انشط لكم وأسوق إلى العبادة، ففعلوا، ثم نشأ قوم من بعدهم، فقال لهم إبليس: إن الذين من قبلكم كانوا يعبدونهم فاعبدوهم، فابتداء عبادة الأوثان كان من ذلك الوقت، وسميت هذه الصور بهذه الأسماء، لأنهم صوّروها على صورة أولئك القوم. وقال عروة بن الزبير وغيره: إن هذه كانت أسماء لأولاد آدم، وكان وداً أكبرهم. قال الماوردي: فأما وداً، فهو أول صنم معبود، سمي وداً لودهم له، وكان بعد قوم نوح لكلب بنومة الجندل في قول ابن عباس، وعطاء، ومقاتل، وفيه يقول شاعرهم:

حياك وداً فإن لا يحل لنا لهو النساء وإن الدين قد غربا

وأما سواع فكان لهذيل بساحل البحر، وأما يغوث فكان لغطيف من مراد بالجرف من سبأ في قول قتادة. وقال المهدي: لمراد ثم لغطفان؛ وأما يعوق فكان لهمدان في قول قتادة، وعكرمة، وعطاء. وقال الثعلبي: كان لكهلان بن سبأ، ثم توارثوه حتى صار في همدان، وفيه يقول مالك بن نمط الهمداني:

يريش الله في الدنيا ويبري ولا يبري يعوق ولا يريش

وأما نسر فكان لذي الكلاع من حمير في قول قتادة، ومقاتل. قرأ الجمهور (وداً) بفتح الواو. وقرأ نافع بضمها. قال الليث: وداً بضم الواو صنم لقريش، وافتحها صنم كان لقوم نوح، وبه سمي عمرو بن وداً. قال في الصحاح، والود بالفتح: الود في لغة أهل نجد كأنهم سكنوا التاء وادغموها في الدال. وقرأ الجمهور (ولا يغوث ويعوق) بغير تنوين، فإن كانا عربيين، فالمنع من الصرف للعلمية ووزن الفعل، وإن كانا عجميين، فللعجمة والعلمية. وقرأ الأعمش (ولا يغوثا ويعوقا) بالصرف. قال ابن عطية: وذلك وهم. ووجه تخصيص هذه الأصنام بالذكر مع دخولها تحت الآلهة؛ لأنها كانت أكبر أصنامهم وأعظمها **«وقد أضلوا كثيراً»** أي: أضل كبرائهم رؤسائهم كثيراً من الناس، وقيل: الضمير راجع إلى الأصنام: أي: ضل بسببها كثير من الناس كقول إبراهيم: **«رب إنهن أضللن كثيراً من الناس»** [إبراهيم: 36] وأجرى عليهم ضمير من يعقل لاعتقاد الكفار الذين يعبدونها أنها تعقل **«ولا تزد الظالمين إلا ضلالاً»** معطوف على **«رب إنهم عصوني»** ووضع الظاهر موضع المضمّر تسجيلاً عليهم بالظلم. وقال أبو حيان: إنه معطوف على قد

أضلوا، ومعنى: **«إلا ضلالاً»** إلا عذاباً: كذا قال ابن بحر، واستدل على ذلك بقوله: **«إن المجرمين في ضلال وسعر»** [القمر: 47]، وقيل: إلا خسراً، وقيل: إلا فتنة بالمال والولد، وقيل: الضياع، وقيل: ضلالاً في مكرهم **«مما خطيئاتهم أغرقوا»** ما «مزيدة للتأكيد، والمعنى: من خطيئتهم أي: من أجلها وبسببها أغرقوا بالطوفان **«فأدخلوا ناراً»** عقب ذلك، وهي نار الآخرة، وقيل: عذاب القبر. قرأ الجمهور (خطيئاتهم) على جمع التكسير، وقرأ الجحدري، وعمرو بن عبيد، والأعمش، وأبو حيو، وأشباه العقيلي (خطيئتهم) على الإفراد، قال الضحاك: عذبوا بالنار في الدنيا مع الغرق في حالة واحدة كانوا يغرقون في جانب ويحترقون في جانب. قرأ الجمهور (أغرقوا) من أغرق، وقرأ زيد بن علي (غرقوا) بالتشديد **«فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً»** أي: لم يجنوا أحداً يمنهم من عذاب الله ويدفعه عنهم **«وقال نوح رب لا تذرني على الأرض من الكافرين دياراً»** معطوف على **«قال نوح رب إنهم عصوني»** لما آيس نوح - عليه السلام - من إيمانهم وإقلاعهم عن الكفر دعا عليهم بالهلاك. قال قتادة: دعا عليهم بعد أن أوحى إليه **«إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن»** [هود: 36] فأجاب الله دعوته وأغرقهم. وقال محمد بن كعب، ومقاتل، والربيع بن أنس، وابن زيد، وعطية: إنما قال هذا حين أخرج الله كل مؤمن من أصلابهم وأرحام نسائهم، وأقم أرحام النساء وأصلاّب الأبناء قبل العذاب بسبعين سنة، وقيل: باريعين. قال قتادة: لم يكن فيهم صبي وقت العذاب. وقال الحسن، وأبو العالية: لو أهلك الله أطفالهم معهم كان عذاباً من الله لهم، وعدلاً فيهم، ولكن أهلك نريتهم وأطفالهم بغير عذاب، ثم أهلكهم بالعذاب، ومعنى **«دياراً»**: من يسكن الديار، وأصله ديوار على فيعال، من دار يدر، فقلبت الواو ياء وادغمت إحداهما في الأخرى، مثل القيام أصله قيوام، وقال القتبي: أصله من الدار، أي: نازل بالدار، يقال: ما بالدار ديار أي: أحد، وقيل الديار: صاحب الديار، والمعنى: لا تدع أحداً منهم إلا أهلكته **«إنك إن تذرهم يضلوا عبادك»** أي: إن تتركهم على الأرض يضلوا عبادك عن طريق الحق **«ولا يلبوا إلا فجراً كفاراً»** أي: إلا فجراً بترك طاعتك كفاراً لنعمتك أي: كثير الكفران لها، والمعنى: إلا من سيفجر ويكفر. ثم لما دعا على الكافرين أتبعه بالدعاء لنفسه والديه والمؤمنين، فقال: **«رب اغفر لي ولوالدي»** وكانا مؤمنين، وأبوه لأمك بن متوشلخ، كما تقدم، وأمه سمحاء بنت أنوش، وقيل: أراد آدم وحواء. وقال سعيد بن جبيرة: أراد بوالديه أباه وجدّه. وقرأ سعيد بن جبيرة (ولوادي) بكسر الدال على الإفراد. **«ولمن دخل بيتي»** قال الضحاك، والكلبي: يعني مسجده، وقيل: منزله الذي هو ساكن فيه، وقيل: سفينته، وقيل: لمن دخل في بيته، وانتصاب **«مؤمناً»** على الحال، أي: لمن دخل بيتي متصفاً بصفة الإيمان، فيخرج من دخله غير متصف بهذه

على الله شططا» الضمير في أنه للحديث، أو الأمر، وسفيها يجوز أن يكون اسم كان، ويقول: الخبر، ويجوز أن يكون سفيها فاعل يقول، والجملة: خبر كان، واسمها ضمير يرجع إلى الحديث، أو الأمر، ويجوز أن تكون كان زائدة، ومراهم بسفيهم: عصاتهم ومشركوهم. وقال مجاهد، وابن جريج، وقتادة: أراؤا به إبليس، والشطط: الغلو في الكفر. وقال أبو مالك: الجور، وقال الكلبي: الكذب، وأصله البعد عن القصد ومجاوزة الحد، ومنه قول الشاعر:

بأية حال حكموا فيك فاشتطوا وما ذاك إلا حيث يملك الوخط
«وإننا ظننا أن لن نقول الإنس والجنّ على الله كذباً»
 أي: إننا حسبنا أن الإنس والجنّ كانوا لا يكدّبون على الله بأن له شريكاً وصاحبة وولداً، فلذلك صدّقناهم في ذلك حتى سمعنا القرآن، فعلمنا بطلان قولهم، وبطلان ما كنا نظنه بهم من الصدق، وانتصاب كذباً على أنه مصدر مؤكد ليقول: لأن الكذب نوع من القول، أو صفة لمصدر محذوف أي: قولاً كذباً. وقرأ يعقوب، والجحدري، وابن أبي إسحاق (أن لن تقول) من التثنية، فيكون على هذه القراءة كذباً مفعول به **«وإنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجنّ»** قال الحسن، وابن زيد، وغيرهما: كان العرب إذا نزل الرجل بواوٍ قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من شرّ سفهاء قومه، فبييت في جواره حتى يصبح، فنزلت هذه الآية. قال مقاتل: كان أول من تعوذ بالجنّ قوم من أهل اليمن، ثم من بني حنيفة، ثم فشا ذلك في العرب، فلما جاء الإسلام عانوا بالله وتركوهم **«فزانوهم رهقاً»** أي: زاد رجال الجنّ من تعوذ بهم من رجال الإنس رهقاً، أي: سفهاً وطغياناً، أو تكبراً وعتوّاً، أو زاد المستعيزون من رجال الإنس من استعانوا بهم من رجال الجنّ رهقاً؛ لأن المستعاذ بهم كانوا يقولون: سدا الجنّ والإنس. وبالأول قال مجاهد، وقتادة، والثالثي قال أبو العالية، وقتادة، والربيع بن أنس، وابن زيد. والرهق في كلام العرب: الإثم وغشيان المحارم، ورجل رهق: إذا كان كذلك، ومنه قوله: **«ترهقهم نلة»** [يونس: 27] أي: تغشاهم، ومنه قول الأعشى:

لا شيء ينفعني من دون رؤيتها هل يشتقي عاشق مالم يصب رهقا
 يعني: إثمياً. وقيل: الرهق: الخوف أي: أن الجنّ زالت الإنس بهذا التعوذ بهم خوفاً منهم، وقيل: كان الرجل من الإنس يقول: أعوذ بفلان من سادات العرب من جنّ هذا الوادي، ويؤيد هذا ما قيل من أن لفظ رجال لا يطلق على الجنّ، فيكون قوله: **«برجال»** وصفاً لمن يستعيزون به من رجال الإنس أي: يعونون بهم من شرّ الجن، وهذا فيه بعد، وإطلاق لفظ رجال على الجنّ على تسليم عدم صحته لغة لا مانع من إطلاقه عليهم هنا من باب المشاكلة **«وإنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحداً»** هذا من قول الجنّ للإنس أي: وإن الجنّ ظنوا كما ظننتم أيها الإنس أنه لا بعث. وقيل المعنى: وإن الإنس ظنوا، كما ظننتم أيها الجنّ،

مصرع، وقتلهم أقيب مقتل، ولعذاب الآخرة أشدّ لو كانوا يعلمون **«وإنه تعالى جدّ ربنا»** قراءة حمزة، والكسائي، وابن عامر، وحفص، وعلقمة، ويحيى بن وثاب، والأعمش، وخلف، والسلمي (وإنه تعالى) بفتح آن، وكذا قرءوا فيما بعدها مما هو معطوف عليها، وذلك أحد عشر موضعاً إلى قوله: **«وإنه لما قام عبد الله»** [الجن: 19] وقرأ الباقون بالكسر في هذه المواضع كلها إلا في قوله: **«وإن المساجد لله»** [الجن: 18] فإنهم اتفقوا على الفتح، أما من قرأ بالفتح في هذه المواضع، فعلى العطف على محل الجار، والمجرور في **«فأمّا به»** كأنه قيل: فصنّفناه، وصدّقنا أنه تعالى جدّ ربنا إلخ، وأما من قرأ بالكسر في هذه المواضع، فعلى العطف على إنا سمعنا أي: فقالوا: إنا سمعنا قرآنًا، وقالوا: إنه تعالى جدّ ربنا إلى آخره. واختار أبو حاتم، وأبو عبيد قراءة الكسر؛ لأنه كله من كلام الجنّ ومما هو محكي عنهم بقوله: فقالوا: إنا سمعنا. وقرأ أبو جعفر، وشعبة بالفتح في ثلاثة مواضع، وهي: **«وإنه تعالى جدّ ربنا»** **«وإنه كان يقول سفيهاً»** **«وإنه كان رجال من الإنس»** قال: لأنه من الوحي، وكسراً ما بقي لأنه من كلام الجنّ. وقرأ الجمهور (وإنه لما قام عبد الله) بالفتح؛ لأنه معطوف على قوله: **«إنه استمع»**. وقرأ نافع، وابن عامر، وشيبة، وزرّ بن حبّيش، وأبو بكر، والمفضل عن عاصم بالكسر في هذا الموضع عطفاً على فأمّا به بذلك التقدير السابق، واتفقوا على الفتح في **«إنه استمع»**، كما اتفقوا على الفتح في **«أن المساجد»** وفي **«وإن لو استقاموا»** واتفقوا على الكسر في **«فقالوا إنا سمعنا»** و **«قل إنما ادعوا ربّي»** و **«قل إن أدري»** و **«قل إنّي لا أملك لكم»**. والجدّ عند أهل اللغة العظمة والجلال، يقال: جدّ في عيني أي: عظم، فالمعنى: ارتفع عظمة ربنا وجلاله، وبه قال عكرمة، ومجاهد، وقال الحسن: المراد تعالى غناه، ومنه قيل للحظ، جدّ: ورجل مجلود، أي: محظوظ، وفي الحديث: «ولا ينفع ذا الجدّ منك الجدّ» قال أبو عبيد، والخليل، أي: لا ينفع ذا الغنى منك الغنى أي: إنما تنفعه الطاعة، وقال القرطبي، والضحاك: جدّه آلاؤه، ونعمه على خلقه. وقال أبو عبيدة، والأخفش: ملكه وسلطانه. وقال السديّ: أمره. وقال سعيد بن جبّير **«وإنه تعالى جدّ ربنا»** أي: تعالى ربنا، وقيل: جدّه قدرته. وقال محمد بن عليّ بن الحسين، وابنه جعفر الصانق، والربيع بن أنس: ليس له جدّ، وإنما قالته الجنّ للمجالة. قرأ الجمهور (جدّ) بفتح الجيم، وقرأ عكرمة، وأبو حيوة، ومحمد بن السميع بكسر الجيم، وهو ضدّ الهزل، وقرأ أبو الأشهب (جدي ربنا) أي: جنواه ومنفعته. وروي عن عكرمة أيضاً أنه قرأ بتنوين (جدّ) ورفع (ربنا) على أنه بدل من جدّ **«ما اتخذ صاحبة ولا ولداً»** هذا بيان لتعالى جدّه سبحانه. قال الزجاج: تعالى جلال ربنا وعظمته عن أن يتخذ صاحبة أو ولداً، وكان الجنّ نبهوا بهذا على خطأ الكفار الذين ينسبون إلى الله الصاحبة والولد، ونزهوا الله سبحانه عنهما **«وإنه كان يقول سفيهاً»**

والأولى أن هذا من قول الجن فيما بينهم، وليس من قول إبليس كما قال ابن زيد **﴿وإنا منا الصالحون﴾** أي: قال بعض لبعض لما دعوا أصحابهم إلى الإيمان بمحمد ﷺ: وإنا كنا قبل استماع القرآن منا الموصوفون بالصلاح **﴿ومنا نون ذلك﴾** أي: قوم نون ذلك أي: نون الموصوفين بالصلاح، وقيل: أراد بالصالحين المؤمنين، وبمن هم نون ذلك الكافرين، والأول أولى، ومعنى **﴿كنا طرائق قديدا﴾** أي: جماعات متفرقة وإصنافاً مختلفة، والقدة: القطعة من الشيء، وصار القوم قديداً: إذا تفرقت أحوالهم، ومنه قول الشاعر:

القباض الباسط الهادي لطاعته في فتنة الناس إذا هوأولهم قند
والمعنى: كنا نوي طرائق قديداً، أو كانت طرائقنا طرائق قديداً، أو كنا مثل طرائق قديداً ومن هذا قول لبيد:

لم تبليغ العين كل نهبتها يوم تمشي الجياد بالقد
وقوله أيضاً:

ولقد قلت وزيد حاسر يوم ولت خيل عمرو قديداً
قال السدي، والضحاك: أدبناً مختلفاً، وقال قتادة: أهواء متباينة. وقال سعيد بن المسيب: كانوا مسلمين ويهود ونصارى ومجوس وكذا قال مجاهد. قال الحسن: الجن أمثالكم قدرية، ومرجئة، ورافضة، وشيعية، وكذا قال السدي: **﴿وإنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض﴾** الظن هنا بمعنى العلم واليقين أي: ولنا علمنا أن الشان لن نعجز الله في الأرض أينما كنا فيها، ولن نفوته إن أراد بنا أمراً **﴿ولن نعجزه هرباً﴾** أي: هاربين منها، فهو مصدر في موضع الحال **﴿وإنا لما سمعنا الهدى﴾** يعنون القرآن **﴿أمننا به﴾** وصنفنا أنه من عباد الله ولم نكن به، كما كنيت به كفره الإنس **﴿فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً﴾** أي: لا يخاف نقصاً في عمله وثوابه، ولا ظلاماً ومكروهاً يغشاه، والبخس النقصان، والرهق العدوان والطفيان، والمعنى: لا يخاف أن ينقص من حسناته، ولا أن يزداد في سيئاته، وقد تقدم تحقيق الرهق قريباً. قرأ الجمهور (بخساً) بسكون الخاء. وقرأ يحيى بن وثاب بفتحها. وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش (فلا يخف) جزماً على جواب الشرط، ولا وجه لهذا بعد دخول الفاء، والتقدير: فهو لا يخاف، والأمر ظاهر.

وقد أخرج أحمد، والبخاري، ومسلم، والترمذي، وغيرهم عن ابن عباس قال: انطلق النبي ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم، فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب، قلوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاريها؛ لتعرفوا ما هذا الأمر الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فانصرف أولئك الذين توجهوا نحو تهامة إلى النبي ﷺ، وهو بنخلة عامدين إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن، استمعوا له قالوا: هذا والله الذي حال

والمعنى: أنهم لا يؤمنون بالبعث كما أنكم لا تؤمنون **﴿وإنا لمننا السماء﴾** هذا من قول الجن أيضاً، أي: طلبنا خبرها، كما به جرت عالتنا **﴿فوجدناها ملئت حرساً﴾** من الملائكة يحرسونها عن استراق السمع، والحرس جمع حارس، و**﴿شديدا﴾** صفة لحرساً أي: قوياً **﴿وشهباً﴾** جمع شهاب، وهو الشعلة المقتبسة من نار الكوكب، كما تقدم بيانه في تفسير قوله: **﴿وجعلناها رجوماً للشياطين﴾** [الملك: 5] ومحل قوله: **﴿ملئت حرساً شديدا﴾** النصب على أنه ثاني مفعولي وجدنا؛ لأنه يتعدى إلى مفعولين، ويجوز أن يكون متعدياً إلى مفعول واحد، فيكون محل الجملة النصب على الحال بتقدير قد، وحرساً منصوب على التمييز، ووصفه بالمفرد اعتباراً باللفظ، كما يقال: السلف الصالح أي: الصالحين **﴿وإنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع﴾** أي: وإنا كنا معشر الجن قبل هذا نقعد من السماء مقاعد للسمع، أي: مواضع نقعد في مثلها لاستماع الأخبار من السماء، وللسمع متعلق بنقعد أي: لأجل السمع، أو بمضمهر هو صفة لمقاعد أي: مقاعد كائنة للسمع، والمقاعد جمع مقعد اسم مكان، وذلك أن مرده الجن كانوا يفعلون ذلك؛ ليسمعوا من الملائكة أخبار السماء؛ فيلقونها إلى الكهنة، فحرسها الله سبحانه ببعثه رسوله ﷺ بالشهب المحرقة، وهو معنى قوله: **﴿فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصدا﴾** أي: أرصد له ليرمي به، أو لأجله لمنعه من السماع، وقوله: **﴿الآن﴾** هو ظرف للحال، واستعير للاستقبال، وانتصاب رصداً على أنه صفة لشهاباً، أو مفعول له، وهو مفرد ويجوز أن يكون اسم جمع كالحرص.

وقد اختلفوا هل كانت الشياطين ترمى بالشهب قبل المبعث أم لا؟ فقال قوم: لم يكن ذلك. وحكى الواحدي عن معمر قال: قلت للزهري: أكان يرمى بالنجوم في الجاهلية؟ قال: نعم، قلت: أفرأيت قوله: **﴿وإنا كنا نقعد منها﴾** الآية، قال: غلظت وشدد أمرها حين بعث محمد ﷺ، قال ابن قتيبة: إن الرجم قد كان قبل مبعثه، ولكنه لم يكن مثله في شدة الحراسة بعد مبعثه، وكانوا يسترقون في بعض الأحوال، فلما بعث منعوا من ذلك أصلاً. وقال عبد الملك بن سائبور: لم تكن السماء تحرس في الفترة بين عيسى ومحمد، فلما بعث محمد ﷺ حرس السماء ورميت الشياطين بالشهب، ومنعت من الدنو إلى السماء. وقال نافع بن جبير: كانت الشياطين في الفترة تسمع فلا ترمى، فلما بعث رسول الله ﷺ رميت بالشهب، وقد تقدم البحث عن هذا **﴿وإنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا﴾** أي: لا ندري أشر أريد بأهل الأرض بسبب هذه الحراسة للسماء، أم أراد بهم ربهم رشداً أي: خيراً. قال ابن زيد: قال إبليس: لا ندري أراد الله بهذا المنع أن ينزل على أهل الأرض عذاباً، أو يرسل إليهم رسولا، وارتقاع **﴿أشراً﴾** على الاشتغال، أو على الابتداء، وخبره ما بعده، والأول أولى، والجملة ساذجة مسددة مفعولي ندري،

أَلَهُ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ يَدًا ﴿١٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿١٦﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَنُكِّرُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿١٧﴾ قُلْ إِنِّي لَنْ يُخْرِجَنِي مِنَ اللَّهِ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿١٨﴾ إِلَّا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ رَسُولٌ يَقُولُ وَمَنْ يُعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَعَوْا مِنْ أَصْفَادٍ وَأَقْلَعَ عَدَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنْ أَدْرَيْتَ أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُمُ اللَّهُ رَحْمَةً أَمَدًا ﴿٢١﴾ عَلِيمٌ الْغَيْبِ فَلَا يَظْهَرُ عَنْ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَيَنْهَىٰ عَنِ غَيْبِهِ رَصَدًا ﴿٢٣﴾ يَمْحُكُنْ أَنْ تَدَّ أَبْصَارُهُمْ يَتْلَوْنَ رَيْبَهُمْ لِكُلِّ لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٤﴾

قوله: ﴿وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ هم الذين آمنوا بالنبى ﷺ ﴿وَأَنَا مِنَ الْقَاسِطِينَ﴾ أي: الجائرون الظالمون الذين حادوا عن طريق الحق ومالوا إلى طريق الباطل، يقال: قسط إذا جار، واقسط: إذا عدل ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ أي: قصدوا طريق الحق. قال الفراء: أموا الهدى ﴿وَأَنَا مِنَ الْقَاسِطِينَ فَكَانُوا لِحَبْلِهِمْ حَطَبًا﴾ أي: وقوداً للنار توقد بهم، كما توقد بكفرة الإنسان ﴿وَالْوَالِواْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾ هذا ليس من قول الجن بل هو معطوف على ﴿أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾ [الجن: 1] والمعنى: وأوحى إلي أن الشأن لو استقام الجن أو الإنسان، أو كلاهما على الطريقة، وهي طريقة الإسلام، وقد قَدَّمْنَا أن القراء اتفقوا على فتح أن ههنا. قال ابن الأنباري: والفتح هنا على إضمار يمين تأويلها، والله أن لو استقاموا على الطريقة كما فعل، يقال في الكلام: والله لو قمت لقمته، كما في قول الشاعر:

أما والله أن لو كنت حراً ولا بالحرزانت ولا العتيق
قال: أو عليّ أوحى إلي أنه استمع، وأن لو استقاموا، أو على أمنا به أي: أمنا به، وبأن لو استقاموا. قرأ الجمهور بكسر الواو من (لو) لالتقاء الساكنين. وقرأ ابن وثاب، والأعمش بضمها ﴿لَأَسْقِيَنَّهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ أي: كثيراً واسعاً. قال مقاتل: ماء كثيراً من السماء، وذلك بعد ما رفع عنهم المطر سبع سنين. وقال ابن قتبية: المعنى لو آمنوا جميعاً لو سعنا عليهم في الدنيا، وضرب الماء الغدق مثلاً؛ لأن الخير كله والرزق بالمطر، وهذا كقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ [المائدة: 65] الآية، وقوله: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴿[الطلاق: 2، 3] وقوله: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ يرسل السماء عليكم مدراراً * ويمدكم بأموال وبنين﴾ [نوح: 10 - 12] الآية. وقيل المعنى: وأن لو استقام أبوه على عبادته، وسجد لآدم ولم يكفر، وتبعه ولده على الإسلام لانعنا عليهم، واختار هذا الزجاج. والماء الغدق: هو الكثير في لغة العرب ﴿لِنُفَقِّنَهُمْ فِيهِ﴾ أي: لنختبرهم، فنعلم كيف شكرهم على تلك النعم. وقال الكلبي: المعنى: وأن لو استقاموا على الطريقة التي هم عليها من الكفر، فكانوا كلهم كفاراً، لا وسعنا أرواحهم مكرأ بهم واستدرجاً حتى يفتنوا

بينكم وبين خير السماء، فهناك حين رجعوا إلى قومهم ﴿فَقَالُوا﴾ يا قومنا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قرآنًا عجباً * يهدي إلى الرشد فأماناً به ولن نشرك بربنا أحداً﴾ فأنزل الله على نبيه ﷺ ﴿قُلْ أُوْحِي إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾ وإنا أوحى إليه قول الجن. وأخرج ابن مريويه عن ابن مسعود في قوله: ﴿قُلْ أُوْحِي إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾ قال: كانوا من جن نصيبين. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾ قال: الآية قال: أمره وأخرجه ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في الآية قال: أمره وقدرته. وأخرج ابن مريويه، والديلمي، قال السيوطي بسند واه عن أبي موسى الأشعري مرفوعاً في قوله: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ قال: إبليس. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والعقيلي في الضعفاء، والطبراني، وأبو الشيخ في العظمة، وابن مريويه، وابن عساکر عن عكرمة بن أبي السائب الأنصاري قال: خرجت مع أبي إلى المدينة في حاجة، وذلك أول ما ذكر رسول الله ﷺ بمكة، فأولنا المبيت إلى راعي غنم، فلما انتصف الليل جاء نخب، فآخذ حملاً من الغنم، فوثب الراعي فقال: يا عامر الوادي أنا جارك، فنادى منادياً يا سرحان أرسله، فأتى الحمل يشد حتى نخل في الغنم وأنزل الله على رسوله بمكة ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوْنُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن مريويه عن ابن عباس في قوله: ﴿فَرَأَوْهُمُ رَهَقًا﴾ قال: إثمًا. وأخرج ابن مريويه عنه قال: كان القوم في الجاهلية إذا نزلوا بلوادي قالوا: نعوذ بسيد هذا الوادي من شر ما فيه، فلا يكون بشيء أشدّ ولعاً منهم بهم، فذلك قوله: ﴿فَرَأَوْهُمُ رَهَقًا﴾. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن جرير، والطبراني، وابن مريويه، وأبو نعيم، والبيهقي عن ابن عباس قال: كانت الشياطين لهم مقاعد في السماء يسمعون فيها الوحي، فإذا سمعوا الكلمة زالوا فيها تسعاً، فاما الكلمة فتكون حقاً، وأما ما زالوا فيكون باطلاً، فلما بعث رسول الله ﷺ منعوا مقاعدهم، فنكروا ذلك لإبليس، ولم تكن النجوم يرمى بها قبل ذلك. فقال لهم: ما هذا إلا من أمر قد حدث في الأرض، فبعث جنوده، فوجئوا رسول الله ﷺ قائماً يصلي بين جبلين بمكة، فأتوه فاخبروه، فقال: هذا الحدث الذي حدث في الأرض. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿وَأَنَا مِنَ الصَّالِحِينَ وَمَنَا بُونُ ذَلِكَ﴾ يقول: منا المسلم ومنا المشرك، ﴿وَكُنَّا طَرِيقَ قَدَادٍ﴾ أمواه شتى. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ قال: لا يخاف نقصاً من حسناته ولا زيادة في سيئاته.

وَأَنَا مِنَ الصَّالِحِينَ وَمَنَا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٥﴾ وَأَنَا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِحَبْلِهِمْ حَطَبًا ﴿١٦﴾ وَالْوَالِواْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ ﴿١٧﴾ لَأَسْقِيَنَّهُمْ مَاءً غَدَقًا ﴿١٨﴾ لِنُفَقِّنَهُمْ بِهِ وَمِنْ بَرِّهِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٩﴾ وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ

بها، فنعتنيهم في الدنيا والآخرة. وبه قال الربيع بن أنس، وزيد بن أسلم، وابنه عبد الرحمن، والثمالى، وييمان بن زيان، وابن كيسان، وأبو مجلز، واستدلوا بقوله: ﴿فلما نسوا ما نكروا به فتحتنا عليهم أبواب كل شيء﴾ [الأنعام: 44] وقوله: ﴿ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة﴾ [الزخرف: 33] الآية، والأول أولى. **﴿ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذاباً صعباً﴾** أي: ومن يعرض عن القرآن، أو عن العبادة، أو عن الموعظة، أو عن جميع ذلك يسلكه أي: يدخله عذاباً صعباً، أي: شاقاً صعباً. قرأ الجمهور (نسلكه) بالنون مفتوحة. وقرأ الكوفيون، وأبو عمرو في رواية عنه بالياء التحتية، واختار هذه القراءة أبو عبيد، وأبو حاتم لقوله: **﴿عن ذكر ربه﴾** ولم يقل عن نكروا. وقرأ مسلم بن جنب، وطحة بن مصروق، والأعرج بضم النون وكسر اللام من أسلكه، وقراءة الجمهور من سلكه. والصعد في اللغة المشقة، تقول تصعد بي الأمر: إذا شق عليك، وهو مصدر صعد، يقال: صعد صعداً وصعوداً، فوصف به العذاب مبالغة؛ لأنه يتصعد المعذب، أي: يعلوه ويغلبه فلا يطيقه. قال أبو عبيد: الصعد مصدر أي: عذاباً ذا صعد. وقال عكرمة: الصعد هو صخرة ملساء في جهنم يكلف صعودها، فإذا انتهى إلى أعلاها حذر إلى جهنم، كما في قوله: **﴿سأرهقه صعوداً﴾** [المدثر: 17] والصعود: العقبة الكثيرة **﴿وإن للمساجد لله﴾** قد قمنا اتفاق القراء هنا على الفتح، فهو معطوف على أنه استمع، أي: وأوحى إلي أن المساجد مختصة بالله. وقال الخليل: التقدير: ولأن المساجد والمساجد: المواضع التي بنيت للصلاة فيها. قال سعيد بن جبير: قالت الجن: كيف لنا أن نأتي المساجد، ونشهد معك الصلاة، ونحن نأزور عنك؟ فنزلت. وقال الحسن: أراد بها كل البقاع؛ لأن الأرض كلها مسجد. وقال سعيد بن المسيب، وطلق بن حبيب: أراد بالمساجد الأعضاء التي يسجد عليها العبد، وهي القدمان والركبتان واليدان والجبهة، يقول: هذه أعضاء أنعم الله بها عليك، فلا تسجد بها لغيره فتجحد نعمة الله، وكذا قال عطاء. وقيل: المساجد هي الصلاة؛ لأن السجود من جملة أركانها، قاله الحسن: **﴿فلا تدعوا مع الله أحداً﴾** من خلقه كائناً ما كان **﴿وفانه لما قام عبد الله﴾** قد قمنا أن الجمهور قرؤوا هنا بفتح «أن»، عطفاً على أنه استمع أي: وأوحى إلي أن الشأن لما قام عبد الله، وهو النبي ﷺ **﴿يدعوه﴾** أي: يدعو الله ويعبده، وذلك ببطن نخلة، كما تقدم حين قام رسول الله ﷺ يصلي ويتلو القرآن، وقد قمنا أيضاً قراءة من قرأ بكسر «إن» هنا، وفيها غموض ويعد عن المعنى المراد **﴿كانوا يكونون عليه لبيداً﴾** أي: كاد الجن يكونون على رسول الله لبيداً، أي: متراكمين من ازدحامهم عليه لسماع القرآن منه. قال الزجاج: ومعنى **﴿لبيداً﴾** يركب بعضهم بعضاً، ومن هذا اشتقاق هذه اللبود التي تفرش. قرأ الجمهور (لبيداً) بكسر اللام وفتح الباء. وقرأ مجاهد، وابن محيصن، وهشام بضم اللام وفتح الباء، وقرأ

أبو حيوة، ومحمد بن السميع، والعقيلي، والجحدري بضم الباء واللام. وقرأ الحسن، وأبو العالية، والأعرج بضم اللام وتشديد الباء مفتوحة. فعلى القراءة الأولى المعنى ما نكروا، وعلى قراءة ضم اللام يكون المعنى كثيراً، كما في قوله: **﴿أملكك ما لا لبداً﴾** [البند: 6] وقيل المعنى: كاد المشركون يركب بعضهم بعضاً حرداً على النبي ﷺ. وقال الحسن، وقتادة، وابن زيد: لما قام عبد الله محمد بالدعوة، تلبدت الإنس والجن على هذا الأمر ليطفثوه، فأبى الله إلا أن ينصره ويتم نوره. واختار هذا ابن جرير. قال مجاهد: **﴿لبيداً﴾** أي: جماعات، وهو من تلبد الشيء على الشيء أي: اجتمع، ومنه اللبد الذي يفرش لتراكم صوفه، وكل شيء ألصقته إلصاقاً شديداً، فقد لبدته، ويقال للشعر الذي على ظهر الأسد: لبدة، وجمعها لبد، ويقال للجراد الكثير: لبد؛ ويطلق اللبد بضم اللام وفتح الباء على الشيء الدائم، ومنه قيل لنسر لقمان: لبد لطول بقائه، وهو المقصود بقول النابغة:

أخنى عليها الذي أخنى على لبد

﴿قال إنما ادعوا ربى﴾ أي: قال عبد الله إنما ادعوا ربى وأعبده **﴿ولا أشرك به أحداً﴾** من خلقه. قرأ الجمهور (قال) وقرأ عاصم، وحمة (قل) على الأمر. وسبب نزولها أن كفار قريش قالوا للنبي ﷺ: إنك جئت بأمر عظيم، وقد عانيت الناس كلهم، فارجع عن هذا فنحن نجيرك **﴿قل إني لا أملك لكم ضرراً ولا رشداً﴾** أي: لا أقدر أن أدفع عنك ضرراً ولا أسوق إليكم خيراً، وقيل: الضر الكفر، والرشد الهدى، والأول أولى لوقوع النكرتين في سياق النفي، فهما يعمان كل ضرر وكل رشد في الدنيا والدين **﴿قل إني لن يجيرني من الله أحد﴾** أي: لا يدفع عني أحد عذابه إن أنزله بي **﴿ولن أجد من دونه ملتحداً﴾** أي: ملجأ ومعدلاً وحرزاً، والملتحذ معناه في اللغة الممال، أي: موضعاً أميل إليه. قال قتادة: مولى. وقال السدي: حرزاً، وقال الكلبي: منخلاً في الأرض مثل السرب، وقيل: مذهباً ومسلكاً، والمعنى متقارب، ومنه قول الشاعر:

يألف نفسي ولهفاً غير مجبية عني وما من قضاء الله ملتحذ والاستثناء في قوله: **﴿إلا بلاغاً من الله﴾** هو من قوله لا أملك أي: لا أملك ضرراً ولا رشداً إلا التبليغ من الله، فإن فيه أعظم الرشد، أو من ملتحذاً أي: لن أجد من دونه ملجأ إلا التبليغ. قال مقاتل: ذلك الذي يجيرني من عذابه. وقال قتادة: إلا بلاغاً من الله، فنلك الذي أملكه بتوفيق الله، فاما الكفر والإيمان فلا أملكهما. قال الفراء: لكن أبلغكم ما أرسلت به، فهو على هذا منقطع. وقال الزجاج: هو منصوب على اللبد من قوله: **﴿ملتحذاً﴾** أي: ولن أجد من دونه ملتحذاً إلا أن أبلغ ما يأتي من الله، وقوله: **﴿ورسالاته﴾** معطوف على بلاغاً أي: إلا بلاغاً من الله، وإلا رسالاته التي أرسلني بها إليكم، أو إلا أن أبلغ عن الله، وأعمل برسالاته، فأخذ نفسي بما أمر به غيري: وقيل: الرسالات معطوفة على الاسم

من رسول، فإنه يطلعه على بعض غيبه، وهو ما يتعلق برسالاته كالمعجزة، وأحكام التكليف، وجزاء الأعمال، وما يبينه من أحوال الآخرة، لا ما لا يتعلق برسالاته من الغيوب، كوقت قيام الساعة ونحوه. قال الراحي: وفي هذا دليل على أن من ادعى أن النجوم تله على ما يكون من حادث فقد كفر بما في القرآن. قال في الكشف: وفي هذا إبطال للكرامات، لأن الذين تضاف إليهم، وإن كانوا أولياء مرتضين فليسوا برسل، وقد خص الله الرسل من بين المرتضين بالاطلاع على الغيب، وإبطال للكهانة والتنجيم؛ لأن أصحابها أبعد شيء من الارتضاء، وأدخله في السخط. قال الرازي: وعندي لا دلالة في الآية على شيء مما قالوه إذ لا صيغة عموم في غيبه، فتحمل على غيب واحد، وهو وقت القيامة لأنه واقع بعد قوله: «أقريب ما توعدون» الآية. فإن قيل: فما معنى الاستثناء حينئذ؟ قلنا: لعله إذا قربت القيامة يظهره، وكيف لا؟ وقد قال: «يوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً» [الفرقان: 25] فتعلم الملائكة حينئذ قيام القيامة، أو هو استثناء منقطع، أي: من ارتضاه من رسول يجعل من بين يديه ومن خلفه حفظة يحفظونه من شرّ مردة الجنّ والإنس. ويدل على أنه ليس المراد به لا يطلع أحداً على شيء من المغيبات أنه ثبت، كما يقارب التواتر أن شقاً وسطياً كانا كاهنين وقد عرفا بحديث النبي ﷺ قبل ظهوره، وكانا مشهورين بهذا العلم عند العرب حتى رجع إليهما كسرى. فثبت أن الله تعالى قد يطلع غير الرسل على شيء من المغيبات، وأيضاً أطبق أهل الملل على أن معبر الرؤيا يخبر عن أمور مستقبلية، ويكون صادقاً فيها، وأيضاً قد نقل السلطان سنجر بن ملك شاه كاهنة من بغداد إلى خراسان، وسألها عن أمور مستقبلية، فآخبرته بها، ف وقعت على وفق كلامها. قال: وأخبرني ناس محققون في علم الكلام والحكمة أنها أخبرت عن أمور غائبة بالتفصيل، فكانت على وفق خبرها. وبالحق أبو البركات في كتاب التعبير في شرح حالها، وقال: فحصت عن حالها ثلاثين سنة، فتحققت أنها كانت تخبر عن المغيبات إخباراً مطابقاً. وأيضاً فإننا نشاهد ذلك في أصحاب الإلهامات الصادقة، وقد يوجد ذلك في السحرة أيضاً، وقد نرى الأحكام النجومية مطابقة، وإن كانت قد تتخلف، ولو قلنا إن القرآن يدل على خلاف هذه الأمور المحسوسة لتطرق الطعن إلى القرآن، فيكون التأويل ما ذكرناه، انتهى كلامه.

قلت: أما قوله إن لا صيغة عموم في غيبه، فباطل، فإن إضافة المصدر واسم الجنس من صيغ العموم، كما صرح به أئمة الأصول وغيرهم. وأما قوله: أو هو استثناء منقطع، فمجرد دعوى يباهه النظم القرآني. وأما قوله: إن شقاً وسطياً إلخ، فقد كانا في زمن تسترق فيه الشياطين السمع، ويلقون ما يسمعون إلى الكهان، فيخطئون الصدق بالكذب، كما ثبت في الحديث الصحيح. وفي قوله: «إلا من خطف الخطفة» [الصافات: 10] ونحوها من الآيات، فباب

الشريف، أي: إلا بلاغاً عن الله وعن رسالاته، كذا قال أبو حيان ورجحه «ومن يعص الله ورسوله» في الأمر بالتوحيد لأن السياق فيه «فإن له نار جهنم» قرأ الجمهور بكسر (إن) على أنها جملة مستأنفة. وقرأ بفتح الهمزة: لأن ما بعد فاء الجزاء موضع ابتداء، والتقدير: فجزاؤه أن له نار جهنم، أو فحكمه أن له نار جهنم، وانتصاب «خالدين فيها» على الحال أي: في النار، أو في جهنم، والجمع باعتبار معنى من كما أن التوحيد في قوله: «فإن له» باعتبار لفظها، وقوله: «إبدأ» تأكيد لمعنى الخلود، أي: خالدين فيها بلا نهاية «حتى إذا رآوا ما يوعدون» يعني: من العذاب في الدنيا أو في الآخرة. والمعنى لا يزالون على ما هم عليه من الإصرار على الكفر وعداوة النبي ﷺ والمؤمنين حتى إذا رآوا الذي يوعدون به «فسيعلمون من أضعف ناصراً وأقل عدداً» أي: من هو أضعف جنداً ينتصر به، وأقل عدداً أهم أم المؤمنون؟ «قل إن أدري أقريب ما توعدون» أي: ما أدري أقريب حصول ما توعدون من العذاب «إم يجعل له ربي أمداً» أي: غاية ومدة، أمره الله سبحانه أن يقول لهم هذا القول لما قالوا له: متى يكون هذا الذي توعنا به؟ قال عطاء: يريد أنه لا يعرف يوم القيامة إلا الله وحده، والمعنى أن علم وقت العذاب علم غيب لا يعلمه إلا الله. قرأ الجمهور (ربي) بإسكان الياء. وقرأ الحرميان، وأبو عمرو بفتحها، «ومن» في «من أضعف» موصولة، وأضعف خبر مبتدأ محذوف، أي: هو أضعف، والجملة صلة الموصول، ويجوز أن تكون استفهامية مرتفعة على الابتداء، وأضعف خبرها، والجملة في محل نصب سادة مسدّ مفعولي أدري، وقوله: «أقريب» خبر مقدم، «وما توعدون» مبتدأ مؤخر. «علم الغيب» قرأ الجمهور بالرفع على أنه بدل من ربي، أو بيان له، أو خبر مبتدأ محذوف، والجملة مستأنفة مقررة لما قبلها من علم الدراية. وقرأ بالنصب على المدح. وقرأ السري (علم الغيب) بصيغة الفعل ونصب الغيب، والفاء في «فلا يظهر على غيبه أحداً» لترتيب عدم الإظهار على تفرده بعلم الغيب أي: لا يطلع على الغيب الذي يعلمه، وهو ما غاب عن العباد أحداً منهم، ثم استثنى فقال: «إلا من ارتضى من رسول» أي: إلا من اصطفاه من الرسل، أو من ارتضاه منهم لإظهاره على بعض غيبه؛ ليكون ذلك دالاً على نبوته. قال القرطبي: قال العلماء: لما تمدح سبحانه بعلم الغيب، واستأثر به بون خلقه كان فيه دليل أنه لا يعلم الغيب أحد سواه، ثم استثنى من ارتضى من الرسل، فأودعهم ما شاء من غيبه بطريق الوحي إليهم، وجعله معجزة لهم ودلالة صادقة على نبوتهم، وليس المنجم ومن ضاهاه ممن يضرب بالحصى، وينظر في الكف، ويزجر بالطين ممن ارتضاه من رسول، فيطلعه على ما يشاء من غيبه، فهو كافر بالله مفتر عليه بحسبه وتخمينه وكنبه. وقال سعيد بن جبير: «إلا من ارتضى من رسول» هو جبريل، وفيه بعد. وقيل: المراد بقوله: «إلا من ارتضى

القبيل، والكل من الفيض الزباني بواسطة الجناب النبوي، ثم نكر سبحانه أنه يحفظ ذلك الغيب الذي يطلع عليه الرسول فقال: ﴿فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً﴾ والجملة تقرير للإظهار المستفاد من الاستثناء، والمعنى: أنه يجعل سبحانه بين يدي الرسول ومن خلفه حرساً من الملائكة يحرسونه من تعرض الشياطين لما أظهره عليه من الغيب، أو يجعل بين يدي الوحي وخلفه حرساً من الملائكة يحوطونه من أن تسترقه الشياطين، فنقله إلى الكهنة، والمراد من جميع الجوانب. قال الضحاك: ما بعث الله نبياً إلاّ ومعه ملائكة يحفظونه من الشياطين أن يتشبهوا بصورة الملك، فإذا جاءه شيطان في صورة الملك قالوا: هذا شيطان فاحذره، وإن جاءه الملك قالوا: هذا رسول ربك. قال ابن زيد: ﴿ورصد﴾ أي: حفظة يحفظون النبي ﷺ من أمامه وورائه من الجن والشياطين. قال قتادة، وسعيد بن المسيب: هم أربعة من الملائكة حفظة. وقال الفراء: المراد جبريل. قال في الصحاح: الرصد القوم يرصدون كالحرص يستوي فيه الواحد والجمع والمؤنث، والرصد للشيء الرقيب له، يقال: رصده يرصده رصداً ورصداً، والترصد الترقب، والمرصد موضع الرصد ﴿ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم﴾ اللام متعلق ببسلك، والمراد به العلم المتعلق بالإبلاغ الموجود بالفعل، وأن هي المخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، والخبر الجملة، والرسالات عبارة عن الغيب الذي أريد إظهاره لمن ارتضاه الله من رسول، وضمير أبلغوا يعود إلى الرصد. وقال قتادة، ومقاتل: ليعلم محمد أن الرسل قبله قد أبلغوا الرسالة كما بلغ هو الرسالة، وفيه حذف تتعلق به اللام، أي: أخبرنا بحفظنا الوحي ليعلم أن الرسل قبله كانوا على حالته من التبليغ. وقيل: ليعلم محمد أن جبريل ومن معه قد أبلغوا إليه رسالات ربه، قاله سعيد بن جبيل. وقيل: ليعلم الرسل أن الملائكة قد أبلغوا رسالات ربهم. وقيل: ليعلم إبليس أن الرسل قد أبلغوا رسالات ربهم من غير تخليط. وقال ابن قتيبة أي: ليعلم الجن أن الرسل قد أبلغوا ما أنزل إليهم، ولم يكونوا هم المبلغين باستراق السمع عليهم. وقال مجاهد: ليعلم من كذب الرسل أن الرسل قد أبلغوا رسالات ربهم. قرأ الجمهور (ليعلم) بفتح التحتية على البناء للفاعل. وقرأ ابن عباس، ومجاهد، وحמיד، ويعقوب، وزيد بن علي بضمها على البناء للمفعول أي: ليعلم الناس أن الرسل قد أبلغوا. وقال الزجاج: ليعلم الله أن رسله قد أبلغوا رسالاته، أي: ليعلم ذلك عن مشاهدة كما علمه غيباً. وقرأ ابن أبي عتبة، والزهري بضم الياء وكسر اللام ﴿ولاحظ بما لديهم﴾ أي: بما عنده الرصد من الملائكة، أو بما عند الرسل المبلغين لرسالاته، والجملة في محل نصب على الحال من فاعل يسلك بإضمار قد، أي: والحال أنه تعالى قد لاحظ بما لديهم من الأحوال. قال سعيد بن جبيل: ليعلم أن ربهم قد أحاط بما لديهم قبلهم فبلغوا رسالاته ﴿ولاحصى كل شيء عدداً﴾ من جميع الأشياء التي كانت والتي ستكون،

الكهانة قد ورد بيانه في هذه الشريعة، وأنه كان طريقاً لبعض الغيب بواسطة استراق الشياطين حتى منعوا ذلك بالبعثة المحمدية. وقالوا: ﴿إنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهاباً﴾ * وإنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً﴾ [الجن: 8 - 9] فباب الكهانة في الوقت الذي كانت فيه مخصوص بآلته، فهو من جملة ما يخص به هذا العموم، فلا يرد ما زعمه من إيراد الكهانة على هذه الآية. وأما حديث المرأة الذي أورده فحديث خرافة، ولو سلم وقوع شيء مما حكاه عنها من الأخبار لكان من باب ما ورد في الحديث «إن في هذه الأمة محدثين، وإن منهم عمر» فيكون كالتخصيص لعموم هذه الآية لا اقتضاء لها، وأما ما اجترأ به على الله وعلى كتابه من قوله في آخر كلامه. فلو قلنا: إن القرآن يدل على خلاف هذه الأمور المحسوسة لتطرق الطعن إلى القرآن، فيقال له: ما هذه بأول زلة من زلاتك، وسقطة من سقطاتك، وكم لها لديك من أشباه ونظائر نبض بها عرق فلسفتك، وركض بها الشيطان الذي صار يتخبطك في مباحث تفسيرك، يا عجباً لك أيكون ما بلغك من خبر هذه المرأة ونحوه موجباً لتطرق الطعن إلى القرآن، وما أحسن ما قاله بعض أدباء عصرنا:

وإذا رامت الذبابة للشعر س غطاء منّت عليها جناحا
وقلت من أبيات:

مهب رياح سدّه بجناح وقابل بالمصباح ضوء صباح
فإن قلت: إن قد تقرّر بهذا الدليل القرآني أن الله يظهر من ارتضى من رسله على ما شاء من غيبه، فهل للرسول الذي أظهره الله على ما شاء من غيبه أن يخبر به بعض أمته؟ قلت: نعم، ولا مانع من ذلك. وقد ثبت عن رسول الله ﷺ من هذا ما لا يخفى على عارف بالسنة المطهرة، فمن ذلك ما صحّ أنه قام مقاماً أخبر فيه بما سيكون إلى يوم القيامة، وما ترك شيئاً مما يتعلق بالفتن ونحوها، حفظ ذلك من حفظه ونسيه من نسيه، وكذلك ما ثبت من أن حنيفة بن اليمان كان قد أخبره رسول الله ﷺ بما يحدث من الفتن بعده، حتى سأل عن ذلك أكابر الصحابة ورجعوا إليه. وثبت في الصحيح وغيره «أن عمر بن الخطاب سأل عن الفتنة التي تموج كموج البحر، فقال: إن بينك وبينها باباً، فقال عمر: هل يفتح أو يكسر؟ فقال: بل يكسر، فعلم عمر أنه الباب، وإن كسره قتله»، كما في الحديث الصحيح المعروف أنه قيل لحنيفة: هل كان عمر يعلم ذلك؟ فقال: نعم كان يعلم أن دون غد الليلة. وكذلك ما ثبت من إخباره لأبي نرّ بما يحدث له، وإخباره لعلي بن أبي طالب بخبر ذي النديّة، ونحو هذا مما يكثر تعدده، ولو جمع لجاء منه مصنف مستقل. وإذا تقرّر هذا فلا مانع من أن يختص بعض صلحاء هذه الأمة بشيء من أخبار الغيب التي أظهرها الله لرسوله، وأظهرها لرسوله لبعض أمته، وأظهرها هذا البعض من الأمة لمن بعدهم، فتكون كرامات الصالحين من هذا

أيضاً **﴿رصداء﴾** قال: هي معقبات من الملائكة يحفظون رسول الله من الشياطين حتى تبين الذي أرسل إليهم به، وذلك حتى يقول أهل الشرك: قد أبلغوا رسالات ربهم. وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً قال: ما أنزل الله على نبيه آية من القرآن إلا ومعها أربعة من الملائكة يحفظونها، حتى يؤنوا إلى رسول الله ﷺ، ثم قرأ **﴿اعلم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً﴾** إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه **﴿رصداء﴾** يعني: الملائكة الأربعة **﴿ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم﴾** اهـ.

تفسير سورة المزمل

وهي مكية. قال الماوردي: كلها في قول الحسن، وعكرمة، وجابر، قال: وقال ابن عباس، وقتادة: إلا آيتين منها **﴿واصبر على ما يقولون﴾** [المزمل: 10، 11] والتي تليها. وقال الثعلبي: إلا قوله: **﴿إن ربك يعلم أنك تقوم﴾** [المزمل: 20] إلى آخر السورة، فإنه نزل بالمدينة. وأخرج ابن الضريس، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت **﴿يا أيها المزمل﴾** [أي: سورة المزمل] بمكة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. وأخرج النحاس عن ابن عباس قال: نزلت سورة المزمل بمكة إلا آيتين **﴿إن ربك يعلم أنك تقوم أنى﴾**. وأخرج البزار، والطبراني في الأوسط، وأبو نعيم في الدلائل عن جابر قال: اجتمعت قريش في دار الندوة، فقالوا: سموا هذا الرجل اسماً تصنون الناس عنه، فقالوا: كاهن، قالوا: ليس بكاهن، قالوا: يجنون، قالوا: ليس بمجنون، قالوا: ساحر، قالوا: ليس بساحر، فتفرق المشركون على ذلك، فبلغ النبي ﷺ، فتمزمل في شبابه وتذثر فيها، فاتاه جبريل، فقال: **﴿يا أيها المزمل﴾** **﴿يا أيها المنذر﴾** [أي: سورة المنذر]. قال البزار بعد إخراجها من طريق معلى بن عبد الرحمن: إن معلى قد حدث عنه جماعة من أهل العلم، واحتملوا حديثه، لكنه إذا تفرد بالأحاديث لا يتابع عليها. وأخرج أبو داود، والبيهقي في السنن عن ابن عباس قال: «بتّ عند خالتي ميمونة، فقام النبي ﷺ يصلي من الليل، فصلى ثلاث عشرة ركعة منها ركعتا الفجر، فحزرت قيامه في كل ركعة بقدر **﴿يا أيها المزمل﴾**».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ ❶ قُرْ آيَاتِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ❷ يَسْمَعُ أَوْ أُنْشِ مِنْهُ قِيلًا ❸ وَأُورِدَ عَلَيْهِ وَرَاقِلُ الْقُرْآنِ قَرِيْلًا ❹ إِنْ سَأَلْتَهُ عَنِّي قَوْلًا فَيَكْذِبْ ❺ إِنَّهُ يُكَذِّبُكَ ❻ وَأَنَّكَ أَتَقَرَّبُ إِلَيْهِ بِغَيْبِكَ ❼ إِنَّكَ فِي أَعْيُنِنَا ❽ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ❾ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ❿

وهو معطوف على أحاط، وعدداً يجوز أن يكون منتصباً على التمييز محولاً من المفعول به أي: وأحصى عدد كل شيء، كما في قوله: **﴿وفجرنا الأرض عيوناً﴾** [القمر: 12] ويجوز أن يكون منصوباً على المصدرية، أو في موضع الحال: معدوداً، والمعنى: إن علمه سبحانه بالأشياء ليس على وجه الإجمال، بل على وجه التفصيل، أي: أحصى كل فرد من مخلوقاته على حدة.

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال **﴿القاسطون﴾** العائلون عن الحق. وأخرج ابن جرير عنه في قوله: **﴿ولو استقاموا على الطريقة﴾** قال: أقاموا ما أمروا به **﴿لأستقيهم ماء غسقاً﴾** قال: معيناً. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن السدي قال: قال عمر: **﴿ولو استقاموا على الطريقة لأستقيهم ماء غسقاً﴾** **﴿لنفقتهم فيه﴾** قال: حيثما كان الماء كان المال، وحيثما كان المال كانت الفتنة. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس **﴿لنفقتهم فيه﴾** قال: لنبتليهم به. وفي قوله: **﴿ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذاباً صعداً﴾** قال: شقة من العذاب يصعد فيها. وأخرج هناد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، والحاكم وصححه عنه في قوله: **﴿يسلكه عذاباً صعداً﴾** قال: حبلاً في جهنم. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً **﴿عذاباً صعداً﴾** قال: لا راحة فيه. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: **﴿وان للمسلجد لله﴾** قال: لم يكن يوم نزلت هذه الآية في الأرض مسجد إلا مسجد الحرام ومسجد إيلياء ببית المقدس. وأخرج ابن مردويه، وأبو نعيم في الدلائل عن ابن مسعود قال: «خرج رسول الله ﷺ قبل الهجرة إلى نواحي مكة، فخط لي خطاً، وقال: «لا تحشئن شيئاً حتى أتيتك، ثم قال: لا يهولنك شيئاً تراه»، فتقدم شيئاً؛ ثم جلس، فإذا رجال سود كأنهم رجال الرظ، وكانوا كما قال الله تعالى: **﴿كانوا يكونون عليه لبداً﴾**. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال: لما سمعوا النبي ﷺ يتلو القرآن كانوا يركبونه من الحرص لما سمعوه، وبنوا منه، فلم يعلم بهم حتى أتاه الرسول، فجعل يقرئه **﴿قل أوحى إليّ أنه استمع نفر من الجن﴾**. وأخرج عبد بن حميد، والترمذي وصححه، وابن جرير، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والضياء في المختارة عنه أيضاً في الآية قال: «لما أتى الجن إلى رسول الله، وهو يصلي بأصحابه يركعون بركوعه، ويسجدون بسجوده، فعجبوا من طوعية أصحابه، فقالوا لقومهم: لما قام عبد الله يدعوهم عليه لبداً». وأخرج ابن المنذر عن أيضاً: **﴿لما قام عبد الله يدعوهم﴾** أي: يدعو الله. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه **﴿كانوا يكونون عليه لبداً﴾** قال: أعواناً. وأخرج ابن المنذر، وابن مردويه عنه أيضاً **﴿فلا يظهر على غيبه أحداً﴾** **﴿إلا من ارتضى من رسول﴾** قال: أعلم الله الرسول من الغيب الوحي، وأظهره عليه مما أوحى إليه من غيبه، وما يحكم الله، فإنه لا يعلم ذلك غيره. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه عنه

للقيام، فكان النبي ﷺ وطائفة معه يقومون على هذه المقادير، وشق ذلك عليهم، فكان الرجل لا يدري كم صلى، أو كم بقي من الليل، فكان يقوم الليل كله حتى خفف الله عنهم، وقيل: الضميران في منه وعليه راجعان للأقل من النصف، كأنه قال: قم أقل من نصفه، أو قم أنقص من ذلك الأقل، أو أزيد منه قليلاً، وهو بعيد جداً، والظاهر أن نصفه بدل من قليلاً، والضميران راجعان إلى النصف المبدل من قليلاً.

واختلف في الناسخ لهذا الأمر، فقيل: هو قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أُمْنًى مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنُصْفِهِ وَثُلُثَهُ﴾ [المزمل: 20] إلى آخر السورة، وقيل: هو قوله: ﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصِيَهُ﴾ وقيل: هو قوله: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضًى﴾ وقيل: هو منسوخ بالصلوات الخمس، وبهذا قال مقاتل، والشافعي، وابن كيسان، وقيل: هو قوله: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمل: 20] وذهب الحسن، وابن سيرين إلى أن صلاة الليل فريضة على كل مسلم ولو قدر حلب شاة ﴿وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ أي: اقرأه على مهل مع تدبر. قال الضحاك: اقرأه حرفاً حرفاً، قال الزجاج: هو أن يبين جميع الحروف، ويوفي حقها من الإشباع. وأصل الترتيل التنضيد، والتنسيق، وحسن النظام، وتأكيد الفعل بالمصدر يدل على المبالغة على وجه لا يلتبس فيه بعض الحروف ببعض، ولا ينقص من النطق بالحرف من مخرجه المعلوم مع استيفاء حركته المعتبرة ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ أي: سنوحى إليك القرآن، وهو قول ثقیل. قال قتادة: ثقیل، والله فرائض وحلوه. قال مجاهد: حاله وحرامه. قال الحسن: العمل به. قال أبو العالية: ثقیلاً بالوعود، والحلال والحرام. وقال محمد بن كعب: ثقیل على المنافقين والكفار لما فيه من الاحتجاج عليهم والبيان لضلالتهم، وسبب التهمة. وقال السدي: ثقیل بمعنى كريم من قولهم فلان ثقیل عليّ أي: يكرم عليّ. قال الفراء: ثقیلاً رزينا ليس بالخفيف السفساف. لأنه كلام ربنا. وقال الحسين بن الفضل: ثقیلاً لا يحمله إلا قلب مؤيد بالتوفيق ونفس مزينة بالتوحيد، وقيل: وصفه بكونه ثقیلاً حقيقة لما ثبت أن النبي ﷺ كان إذا أوحى إليه وهو على ناقته وضعت جرائنها على الأرض، فما تستطيع أن تتحرك حتى يسري عنه ﴿إِنْ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾ أي: ساعاته وأوقاته: لأنها تنشأ أولاً فأولاً، يقال: نشأ الشيء ينشأ: إذا ابتداء وأقبل شيئاً بعد شيء، فهو ناشئ، وأنشأه الله فنشأ، ومنه نشأت السحاب: إذا بدأت، فنشئة فاعلة من نشأ ينشأ، فهي ناشئة. قال الزجاج: ناشئة الليل كل ما نشأ منه أي: حدث، فهو ناشئة، قال الواحدي: قال المفسرون: الليل كله ناشئة، والمراد أن ساعات الليل الناشئة، فاكتمى بالوصف عن الاسم الموصوف. وقيل: إن ناشئة الليل هي النفس التي تنشأ من مضجعتها للعبادة أي: تنهض، من نشأ من مكانه: إذا نهض. وقيل: الناشئة بالحبشية قيام الليل، وقيل: إنما يقال لقيام الليل ناشئة: إذا

كَبِيتَ مَهِيلاً ﴿١٦﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكَ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ رِجْوَةَ رَسُولًا ﴿١٧﴾ فَتَوَتَّىٰ رِجْوَةُ الْأُمُوتَ فَأَخَذَتْهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٨﴾ فَكَيْفَ تَنفَعُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْمَلُ الْوِلْدَانَ سِجًّا ﴿١٩﴾ أَلَمْ تَكُن مِّنْ قَبْلُ مَعْمُورًا ﴿٢٠﴾

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ﴾ أصله المتزمل، فادغمت التاء في الزاي، والتزمل التلطف في الثوب. قرأ الجمهور (المزمل) بالإدغام. وقرأ أبي (المتزمل) على الأصل. وقرأ عكرمة بتخفيف الزاي، ومثل هذه القراءة قول امرئ القيس:

كان ثبيراً في أفانين وبيله كبير أناس في لحاح مزمل وهذا الخطاب للنبي ﷺ، وقد اختلف في معناه، فقال جماعة: إنه كان يتزمل بثيابه في أول ما جاءه جبريل بالوحي فرحاً منه حتى انس به، وقيل المعنى: يا أيها المزمل بالنبوة، والمتزمل للرسالة. وبهذا قال عكرمة وكان يقرأ (يا أيها المزمل) بتخفيف الزاي وفتح الميم مشددة اسم مفعول، وقيل المعنى: يا أيها المزمل بالقرآن. وقال الضحاك: تزمل بثيابه لمنامه، وقيل: بلغه من المشركين سوء قول، فتزمل في ثيابه وتدثر، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدَّثِرُ﴾ [أي: سورة المدثر]. وقد ثبت أن النبي ﷺ لما سمع صوت الملك، ونظر إليه أخذته الرعدة، فأتى أهله، وقال: «زملوني بثروني»، وكان خطابه ﷺ بهذا الخطاب في أول نزول الوحي. ثم بعد ذلك خوطب بالنبوة والرسالة ﴿قُمِ اللَّيْلُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: قم للصلاة في الليل. قرأ الجمهور (قم) يكسر الميم لالتقاء الساكنين. وقرأ أبو السماك بضمها اتباعاً لضمة القاف. قال عثمان بن جني: الغرض بهذه الحركة الهرب من التقاء الساكنين فبأي حركة تحرك فقد وقع الغرض. وانتصاب الليل على الظرفية. وقيل: إن معنى قم صل، عبر به عنه واستعير له. واختلف هل كان هذا القيام الذي أمر به فرضاً عليه أو نفلاً؟ وسيأتي إن شاء الله ما روي في ذلك. وقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ استثناء من الليل، أي: صل الليل كله إلا يسيراً منه، والقليل من الشيء هو ما دون النصف، وقيل: ما دون السدس، وقيل: ما دون العشر. وقال مقاتل، والكلبي: المراد بالقليل هنا الثلث، وقد أغنانا عن هذا الاختلاف قوله ﴿نُصْفَهُ﴾ إلخ، وانتصاب نصفه على أنه بدل من الليل. قال الزجاج: نصفه بدل من الليل، وإلا قليلاً استثناء من النصف، والضمير في منه وعليه عائذ إلى النصف. والمعنى: قم نصف الليل، أو أنقص من النصف قليلاً إلى الثلث، أو زد عليه قليلاً إلى الثلثين، فكانه قال: قم ثلثي الليل أو نصفه أو ثلثه. وقيل: إن نصفه بدل من قوله قليلاً، فيكون المعنى: قم الليل إلا نصفه، أو أقل من نصفه، أو أكثر من نصفه، قال الأخفش: نصفه أي: أو نصفه، كما يقال: أعطه درهماً درهمين ثلاثة، يريد، درهماً أو درهمين، أو ثلاثة. قال الواحدي: قال المفسرون: أو أنقص من النصف قليلاً إلى الثلث، أو زد على النصف إلى الثلثين، جعل له سعة في مدة قيامه في الليل، وخيره في هذه الساعات

فراغ للاستدراك. وقرأ يحيى بن يعمر، وأبو وائل، وابن أبي عبيدة (سبخاً) بالخاء المعجمة، قيل: ومعنى هذه القراءة: الخفة والسعة والاستراحة. قال الأصمعي: يقال: سبخ الله عنك الحمى أي: خففها، وسبخ الحر فتر وخف، ومنه قول الشاعر:

فسبخ عليك الهم وأعلم بأنه إذا قدر الرحمن شيئاً فكائن أي: خفف عنك الهم. والتسبيخ من القطن ما ينسج بعد النصف، ومنه قول الأخطل:

فارسلوهن يذوين التراب كما تنزي سبائخ قطن ندف أوتار
قال ثعلب: السبخ بالخاء المعجمة التردد والاضطراب، والسبخ السكون. وقال أبو عمرو: السبخ النوم والفراغ **﴿وانكر اسم ربك﴾** أي: ادعه بأسمائه الحسنى، وقيل: اقرأ باسم ربك في ابتداء صلاتك، وقيل: انكر اسم ربك في وعده ووعيدته لتوفر على طاعته، وتبعد عن معصيته، وقيل المعنى: دم على نكر ربك ليلاً ونهاراً، واستكثر من ذلك. وقال الكلبي: المعنى صل لربك **﴿وتبطل إليه تبتلاً﴾** أي: انقطع إليه انقطاعاً بالاشتغال بعبادته، والتبطل الانقطاع، يقال: تبطل الشيء أي: قطعته وميزته من غيره، وصدقة بتلة أي: منقطعة من مال صاحبها، ويقال للراهب متبطل: لانقطاعه عن الناس، ومنه قول الشاعر:

تضيء الظلام بالعشاء كأنها منارة ممسى راهب متبطل
وضع تبتلاً مكان تبتلاً لرعاية الفواصل. قال الواحدي: والتبطل رفض الدنيا وما فيها والتماس ما عند الله **﴿ربّ المشرق والمغرب﴾** قرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر، وابن عامر بجر (رب) على النعت لربك، أو البدل منه، أو البيان له. وقرأ الباقون برفعه على أنه مبتدأ، وخبره **﴿لا إله إلا هو﴾** أو على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: هو رب المشرق، وقرأ زيد بن علي بنصبه على المدح. وقرأ الجمهور (المشرق والمغرب) مفربين، وقرأ ابن مسعود، وابن عباس (المشرق والمغرب) على الجمع، وقد قدمنا تفسير المشرق والمغرب، والمشرقين والمغربين، والمشارك والمغارب **﴿فاتخذهم وكيلاً﴾** أي: إذا عرفت أنه المختص بالربوبية، فاتخذهم وكيلاً أي: قائماً بأمورك، وعوّل عليه في جميعها، وقيل: كفيلاً بما وعك من الجزاء والنصر **﴿واصبر على ما يقولون﴾** من الأذى والسب والاستهزاء، ولا تجزع من ذلك **﴿واهجرهم هجرأ جميلاً﴾** أي: لا تتعرض لهم، ولا تشتغل بمكافاتهم، وقيل: الهجر الجميل الذي لا جزع فيه، وهذا كان قبل الأمر بالقتال **﴿وذرني والمكذبين﴾** أي: دعني وإياهم، ولا تهتم بهم فإنني أكفيك أمرهم وأنتقم لك منهم. قيل: نزلت في المطمعين يوم بدر، وهم عشرة وقد تقدم ذكرهم. وقال يحيى بن سلام: هم بنو المغيرة. وقال سعيد بن جبيرة: أخبرتنا أنهم اثنا عشر **﴿أولي النعمة﴾** أي: أرباب الفنى والسعة والترف واللذة في الدنيا **﴿ومهلهم قليلاً﴾** أي: تمهياً قليلاً على أنه نعت لمصدر محذوف، أو زمناً قليلاً

كان بعد نوم. قال ابن الأعرابي: إذا نمت من أول الليل ثم قمت فقلت المنشأة والنشأة، ومنه ناشئة الليل. قيل: وناشئة الليل هي ما بين المغرب والعشاء، لأن معنى نشأ ابتداء، ومنه قول نصيب:

ولولا أن يقال صبا نصيب لقلت بنفسني النشء الصغار
قال عكرمة، وعطاء: إن ناشئة الليل بدو الليل. وقال مجاهد وغيره: هي في الليل كله؛ لأنه ينشأ بعد النهار، واختار هذا مالك. وقال ابن كيسان: هي القيام من آخر الليل. قال في الصحاح: ناشئة الليل أول ساعاته. وقال الحسن: هي ما بعد العشاء الآخرة إلى الصبح **﴿هي أشد وطأ﴾** قرأ الجمهور (وطأ) بفتح الواو وسكون الطاء مقصورة، واختار هذه القراءة أبو حاتم. وقرأ أبو العالية، وابن أبي إسحاق، ومجاهد، وأبو عمرو، وابن عامر، وحמיד، وابن محيصن، والمغيرة، وأبو حيوة بكسر الواو وفتح الطاء مملوذة، واختار هذه القراءة أبو عبيد، فالمعنى على القراءة الأولى أن الصلاة في ناشئة الليل أثقل على المصلي من صلاة النهار؛ لأن الليل للنوم. قال ابن قتيبة: المعنى أنها أثقل على المصلي من ساعات النهار، من قول العرب: اشتئت على القوم وطأة السلطان؛ إذا ثقل عليهم ما يلزمهم منه، ومنه قوله **﴿اللهم أشد وطأتك على مضر﴾** والمعنى على القراءة الثانية أنها أشد مواطأة أي: موافقة، من قولهم: وطأت فلاناً على كذا مواطأة ووطأ: إذا وافقته عليه. قال مجاهد، وابن أبي مليكة: أي أشد موافقة بين السمع والبصر، والقلب واللسان لانقطاع الأصوات والحركات فيها، ومنه **﴿ليواطئوا عذة ما حرم الله﴾** [التوبة: 37] أي: ليوافقوا. وقال الأخفش: أشد قياماً. وقال الفراء أي: أثبت للعمل، وأدوم لمن أراد الاستكثار من العبادة، والليل وقت الفراغ عن الاشتغال بالمعاش، فعبادته تنوم ولا تنقطع. وقال الكلبي: أشد نشاطاً **﴿واقوم قليلاً﴾** أي: وأشد مقالةً، وأثبت قراءة لحضور القلب فيها وهبوب الأصوات، وأشد استقامة واستمراراً على الصواب؛ لأن الأصوات فيها هابئة والدنيا ساكنة، فلا يضطرب على المصلي ما يقرؤه. قال قتادة، ومجاهد: أي أصوب للقراءة، وأثبت للقول؛ لأنه زمان التفهم. قال أبو علي الفارسي: قوم قليلاً أي: أشد استقامة لفراغ البال بالليل. قال الكلبي: أي أبين قولاً بالقرآن. وقال عكرمة: أي أتم نشاطاً وإخلاصاً وأكثر بركة. وقال ابن زيد: أجدر أن يتفقه في القرآن، وقيل: أعجل إجابة للدعاء **﴿إن لك في النهار سبحاً طويلاً﴾** قرأ الجمهور (سبحاً) بلحاء المهملة أي: تصرفاً في حوائجك، وإقبالاً وإدباراً، وذهاباً ومجيئاً، والسبح: الجري والدوران، ومنه السباحة في الماء لتقلبه ببينه ورجليه، وفرس سابح أي: شديد الجري. وقيل: السبح الفراغ أي: إن لك فراغاً بالنهار للحاجات، فصل بالليل. قال ابن قتيبة: أي تصرفاً، وإقبالاً وإدباراً في حوائجك وأشغالك. وقال الخليل: إن لك في النهار سبحاً أي: نوماً، والتسبيح التمدد. قال الزجاج: المعنى إن فاتك في الليل شيء فلك في النهار

لقد اكلت بجيلة يوم لاقت فوارس مالك أكلاً وبيلاً

﴿فكيف تتقون﴾ أي: كيف تقون أنفسكم ﴿إن كفرتم﴾ أي: إن بقيتم على كفركم ﴿يوماً﴾ أي: عذاب يوم ﴿يجعل الولدان شيباً﴾ لشدة هوله أي: يصير الولدان شيوخاً، والشيب جمع أشيب، وهذا يجوز أن يكون حقيقة، وأنهم يصيرون كذلك، أو تمثيلاً؛ لأن من شاهد الهول العظيم تقاصرت قواه وضعفت أعضاؤه، وصار كالشيخ في الضعف وسقوط القوة، وفي هذا تقريب لهم شديد وتوبيخ عظيم. قال الحسن: أي كيف تتقون يوماً يجعل الولدان شيباً إن كفرتم، وكذا قرأ ابن مسعود، وعطية، ويوماً مفعول به لتتقون. قال ابن الأنباري: ومنهم من نصب اليوم بكفرتم، وهذا قبيح، والولدان الصبيان، ثم زاد في وصف ذلك اليوم بالشدّة، فقال: ﴿السماء منفطر به﴾ أي: متشقة به لشدته وعظيم هوله، والجملة صفة أخرى ليوم، والباء سببية، وقيل: هي بمعنى في أي: منفطر فيه، وقيل: بمعنى اللام أي: منفطر له، وإنما قال: منفطر ولم يقل: منفطرة لتنزّل السماء منزلة شيء لكونها قد تغيرت، ولم يبق منها إلا ما يعبر عنه بالشيء. وقال أبو عمرو بن العلاء: لم يقل منفطرة؛ لأن مجازها السقف، كما قال الشاعر:

فلورفع السماء إليه قوماً لحقنا بالسماء وبالسحاب فيكون هذا، كما في قوله: ﴿وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً﴾ [الأنبياء: 32] وقال الفراء: السماء تذكر وتؤنث. وقال أبو علي الفارسي: هو من باب الجراد المنتشر، والشجر الأخضر و ﴿عاجاز نخل منقعر﴾ [القمر: 20] قال أيضاً: أي السماء ذات انقطاع. كقولهم امرأة مرضع أي: ذات إرضاع على طريق النسب، وانقطاعها لتزول الملائكة، كما قال: ﴿إنما السماء انفطرت﴾ [الانفطار: 1] وقوله: ﴿والسموات يتفطرن من فوقهن﴾ [الشورى: 5] وقيل: منفطر به أي: بالله، والمراد: بأمرة، والأول أولى ﴿كان وعده مفعولاً﴾ أي: وكان وعد الله بما وعد به من البعث والحساب وغير ذلك كائنًا لا محالة، والمصدر مضاف إلى فاعله، أو وكان وعد اليوم مفعولاً، فالمصدر مضاف إلى مفعوله. وقال مقاتل: كان وعده أن يظهر دينه على الدين كله.

وقد أخرج أحمد، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، ومحمد بن نصر في كتاب الصلاة، والبيهقي في سننه عن سعد بن هشام قال: قلت لعائشة: أتبيئين عن قيام رسول الله، قالت: أست تقرأ هذه السورة ﴿يا أيها المزمل﴾؟ قلت: بلى، قالت: فإن الله افترض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام رسول الله ﷺ وأصحابه حولاً حتى انتفخت أقدامهم، وأمسك الله خاتمها في السماء اثني عشر شهراً، ثم أنزل التخفيف في آخر هذه السورة، فصار قيام الليل تطوعاً من بعد فرضه، وقد روي هذا الحديث عنها من طرق. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، ومحمد بن نصر، والطبراني، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال: لما نزلت أول المزمل كانوا

على أنه صفة لزمان محنوف، والمعنى أمهلهم إلى انقضاء آجالهم، وقيل: إلى نزول عقوبة الدنيا بهم كيوم بدر، والأول أولى لقوله: ﴿إن لدينا لنكالاً﴾ وما بعده، فإنه وعيد لهم بعذاب الآخرة، والآنكال جمع نكل، وهو القيد، كذا قال الحسن، ومجاهد، وغيرهما. وقال الكلبي: الآنكال: الأغلال، والأول أعرف في اللغة، ومنه قول الخنساء:

أتوك فقطعت أنكالهم وقد كنّ قبلك لا تقطع

وقال مقاتل: هي أنواع العذاب الشديد. وقال أبو عمران الجوني: هي قيود لا تحل ﴿وجحيماً﴾ أي: ناراً مؤججة ﴿وطعاماً ذا غصة﴾ أي: لا يسوغ في الحلق بل ينشب فيه، فلا ينزل، ولا يخرج. قال مجاهد: هو الزقوم. وقال الزجاج: هو الضريع، كما قال: ﴿ليس لهم طعام إلا من ضريع﴾ [الغاشية: 6] قال: وهو شوك العوسج، قال عكرمة: هو شوك يأخذ بالحلقي لا يدخل ولا يخرج، والغصة: الشجا في الحلقي، وهو ما ينشب فيه من عظم أو غيره، وجمعها غصص ﴿وعذاباً أليماً﴾ أي: ونوعاً آخر من العذاب غير ما نكر ﴿يوم ترجف الأرض والجبال﴾ انتصاب الظرف إما بترني، أو بالاستقرار المتعلق به لدينا، أو هو صفة لعذاب، فيتعلق بمحنوف أي: عذاباً واقعاً يوم ترجف، أو متعلق باليما. قرأ الجمهور (ترجف) بفتح التاء وضم الجيم مبنياً للفاعل، وقرأ زيد بن علي على البناء للمفعول، مأخوذ من أرجفها، والمعنى: تتحرك وتضطرب بمن عليها، والرجفة: الزلزلة والرعدة الشديدة ﴿وكانت الجبال كتيماً مهيلاً﴾ أي: وتكون الجبال، وإنما عبر عنه بالماضي لتحقيق وقوعه، والكتيب الرمل المجتمع، والمهيل الذي يمر تحت الأرجل. قال الواحدي أي: رملًا سائلاً يقال لكل شيء أرسلته إرسالاً من تراب، أو طعام: أهله هيلاً. قال الضحك، والكلبي: المهيل الذي إذا وطئته بالقدم زلّ من تحتها، وإذا أخذت أسفله انهال. ومنه قول حسان:

عرفت بيار زينب بالكتيب كخط الوحي في الورق القشيب

﴿إننا أرسلنا إليكم رسلاً شاهداً عليكم﴾ الخطاب لأهل مكة أو لكفار العرب أو لجميع الكفار، والرسول محمد ﷺ، والمعنى: يشهد عليكم يوم القيامة بأعمالكم ﴿كما أرسلنا إلى فرعون رسلاً﴾ يعني: موسى ﴿فنعصى فرعون الرسول﴾ الذي أرسلناه إليه وكتبه، ولم يؤمن بما جاء به، ومحل الكاف النصب على أنها نعت لمصدر محنوف، والمعنى: إننا أرسلنا إليكم رسلاً فعصيتهم، كما أرسلنا إلى فرعون رسلاً نعصاه ﴿فلاخفناه أخذاً وبيلاً﴾ أي: شديداً ثقيلاً غليظاً، والمعنى: عاقبنا فرعون عقوبة شديدة غليظة بالفرق؛ وفيه تخويف لأهل مكة أنه سينزل بهم من العقوبة مثل ما نزل به، وإن اختلف نوع العقوبة. قال الزجاج أي: ثقيلاً غليظاً، ومنه قيل للمطر: وابل. وقال الأخفش: شديداً، والمعنى متقارب، ومنه طعام وبيل: إذا كان لا يستمر، ومنه قول الخنساء:

زوائد الزهد، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، والبيهقي عن ابن عباس **﴿وطعاً ما ذا غصة﴾** قال: شجرة الزقوم. وأخرج الحاكم وصححه عنه في قوله: **﴿كثيباً مهيباً﴾** قال: المهيل الذي إذا أخذت منه شيئاً تبعك آخره. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً **﴿كثيباً مهيباً﴾** قال: الرمل السائل، وفي قوله: **﴿أخذاً وبيلاً﴾** قال: شديداً. وأخرج الطبراني، وابن مردويه عنه أيضاً **﴿أن رسول الله ﷺ قرأ ﴿يجعل الولدان شيباً﴾ قال: ذلك يوم القيامة، وذلك يوم يقول الله لأدم: قم، فابحث من نريتك بعثاً إلى النار، قال: من كم يا رب؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، وينجو واحد، فاشتد ذلك على المسلمين، فقال حين أبصر ذلك في وجوههم: إن بني آدم كثير، وإن ياجوج، وماجوج من ولد آدم، إنه لا يموت رجل منهم حتى يرثه لصلبه ألف رجل، ففيهم وفي أشباههم جنة لكم﴾**. وأخرج ابن المنذر عن ابن مسعود نحوه بأخصر منه. وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن أبي حاتم من طريق عكرمة عن ابن عباس في قوله: **﴿للسماء منقطر به﴾** قال: ممثلة بلسان الحبشة. وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال: مثقلة موقرة. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً في الآية قال: يعني: تشقق السماء.

إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرَةٌ ۖ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْهَرُكَ أَفْئُتُكَ أَنْ يَقُولَ أَتْلُو بَعْضَهُ وَنُكَلِّمُكَ مِنَ الَّذِينَ مِنْكَ وَاللَّهُ يَفْهَمُ الْإِنِّلَ وَالنَّهَارَ ۖ عَلِمَ أَنْ لَوْ تُشِئْتُمْ نَابَ عَلَيْكُمْ فَقَارُوا مَا يَشْرُونَ ۚ الْقُرْآنُ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ نَجْدٌ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَآقَرُوا مَا يَشْرُونَ ۚ وَأَيُّهَا الْفَرَاغُ وَآقَرُوا الْأَكْوَاعَ وَالْقُرْآنُ اللَّهُ رَبُّكُمْ سَاءَ مَا يَكُونُ لَكُمْ مِنْ سَبِيلٍ فَجَدُّوا عِنْدَ اللَّهِ ۚ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْلَمُ بِمَا تَكْفُرُونَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ رَبُّكُمْ ﴿١٦﴾

الإشارة بقوله: **﴿إن هذه﴾** إلى ما تقدم من الآيات، والتذكرة الموعظة، والإشارة إلى جميع آيات القرآن، لا إلى ما في هذه السورة فقط **﴿فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً﴾** أي: اتخذ بالطاعة التي أهم أنواعها التوحيد إلى ربه طريقاً توصله إلى الجنة **﴿إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل﴾** معنى أدنى: أقل، استعير له الأدنى؛ لأن المسافة بين السنين إذا دنت قل ما بينهما **﴿ونصفه﴾** معطوف على أدنى **﴿وثلثه﴾** معطوف على نصفه، والمعنى: أن الله يعلم أن رسوله ﷺ يقوم أقل من ثلثي الليل، ويقوم نصفه، ويقوم ثلثه، وبالنصب قرأ ابن كثير، والكوفيون، وقرأ الجمهور (ونصفه وثلثه) بالجر عطفاً على ثلثي الليل، والمعنى: أن الله يعلم أن رسوله ﷺ يقوم أقل من ثلثي الليل، وأقل من نصفه، وأقل من ثلثه، واختار قراءة الجمهور أبو عبيد وأبو حاتم لقوله: **﴿علم أن لن تحصوه﴾** فكيف يقومون نصفه وثلثه وهم لا يحصونه. وقال الفرأء: القراءة الأولى أشبه بالصواب؛ لأنه قال: أقل من ثلثي الليل، ثم فسر

يقومون نحوه من قيامهم في شهر رمضان حتى نزل آخرها، وكان بين أولها وآخرها نحو من سنة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن نصر عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: لما نزلت يا أيها المزمحل قاموا حولاً حتى ورمت أقدامهم وسوقهم حتى نزلت **﴿فأقاروا ما تيسر منه﴾** [المزمحل: 20] فاستراح الناس. وأخرج أبو داود في ناسخه، وابن نصر، وابن مردويه، والبيهقي في سننه من طريق عكرمة عن ابن عباس قال: في المزمحل **﴿قم الليل إلا قليلاً نصفه﴾** نسختها الآية التي فيها: **﴿علم أن لن تحصوه فتأب عليكم فأقاروا ما تيسر من القرآن﴾** [المزمحل: 20] وناشئة الليل أوله كان صلاتهم أول الليل، يقول: هذا أجدر أن تحصوا ما فرض الله عليكم من قيام الليل، وذلك أن الإنسان إذا نام لم يدرك متى يستيقظ، وقوله: **﴿قوم قليلاً﴾** هو أجدر أن يفقه قراءة القرآن، وقوله: **﴿إن لك في النهار سبباً طويلاً﴾** يقول: فراغاً طويلاً. وأخرج الحاكم وصححه عنه في قوله: **﴿يا أيها المزمحل﴾** قال: زملت هذا الأمر فقم به. وأخرج ابن المنذر عنه في الآية أيضاً قال: يتزمل بالثياب. وأخرج الفريابي، عن أبي صالح عنه أيضاً **﴿ورتل القرآن ترتيلاً﴾** قال: تقرأ آيتين ثلاثاً ثم تقطع لا تهدر. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن منيع في مسنده، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، ومحمد بن نصر عنه أيضاً: **﴿ورتل القرآن ترتيلاً﴾** قال: بينه تبيناً. وأخرج العسكري في المواعظ عن علي بن أبي طالب مرفوعاً نحوه. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن نصر، والحاكم وصححه عن عائشة: أن النبي ﷺ كان إذا أوحى إليه، وهو على ناقته وضعت جرائنها، فما تستطيع أن تتحرك حتى يسري عنه، وتلت **﴿إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً﴾**. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن نصر، والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله: **﴿إن ناشئة الليل﴾** قال: قيام الليل بلسان الحبشة إذا قام الرجل قالوا: نشأ. وأخرج البيهقي عنه قال: **﴿ناشئة الليل﴾** أوله. وأخرج ابن المنذر، وابن نصر عنه أيضاً قال: الليل كله ناشئة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال: **﴿ناشئة الليل﴾** بالحبشة قيام الليل. وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف، وابن نصر، والبيهقي في سننه عن أنس بن مالك قال: **﴿ناشئة الليل﴾** ما بين المغرب والعشاء. وأخرج عبد بن حميد، وابن نصر، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم في الكنى عن ابن عباس في قوله: **﴿إن لك في النهار سبباً طويلاً﴾** قال: السبب الفراغ للحاجة والنوم. وأخرج أبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، والبيهقي في الدلائل عن عائشة قالت: لما نزلت: **﴿وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلاً﴾** لم يكن إلا يسيراً حتى كانت وقعة بدر. وأخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود **﴿إن لدينا أنكالا﴾** قال: قيوداً. وأخرج عبد بن حميد، وعبد الله بن أحمد في

التطوع. وأيضاً الأحاديث الصحيحة المصرحة بقول السائل لرسول الله ﷺ هل علي غيرها، يعني: الصلوات الخمس؟ فقال: «لا، إلا أن تطوع»، تدل على عدم وجوب غيرها. فارتفع بهذا وجوب قيام الليل، وصلاته على الأمة، كما ارتفع وجوب ذلك على النبي ﷺ بقوله: «ومن الليل فتهجد به نافلة لك»، قال الواحدي: قال المفسرون في قوله: «فأقروا ما تيسر منه» كان هذا في صدر الإسلام، ثم نسخ بالصلوات الخمس عن المؤمنين، وثبت على النبي ﷺ خاصة، وذلك قوله: «واقموا الصلاة». ثم ذكر سبحانه عذره فقال: «علم أن سيكون منكم مرضى» فلا يطيقون قيام الليل «وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله» «وآخرون يحتاجون إليه في معاشهم فلا يطيقون قيام الليل» «وآخرون يقاتلون في سبيل الله» يعني: المجاهدين، فلا يطيقون قيام الليل. ذكر سبحانه ما هنا ثلاثة أسباب مقتضية للترخيص، ورفع وجوب قيام الليل، فرفعه عن جميع الأمة لأجل هذه الأعذار التي تنوب بعضهم. ثم نكر ما يفعلونه بعد هذا الترخيص فقال: «فأقروا ما تيسر منه» وقد سبق تفسيره قريباً، والتكرير للتأكيد «واقموا الصلاة» يعني: المفروضة، وهي الخمس لوقتها «وأقروا الزكاة» يعني: الواجبة في الأموال. وقال الحارث العكلي: هي صدقة الفطر؛ لأن زكاة الأموال وجبت بعد ذلك، وقيل: صدقة التطوع، وقيل: كل أفعال الخير «وأقروا الله قرضاً حسناً» أي: أنفقوا في سبيل الخير من أموالكم إنفاقاً حسناً، وقد مضى تفسيره في سورة الحديد. قال زيد بن أسلم: القرض الحسن النفقة على الأهل، وقيل: النفقة في الجهاد، وقيل: هو إخراج الزكاة المفترضة على وجه حسن، فيكون تفسيراً لقوله «وأقروا الزكاة» والأول أولى لقوله: «وما تقيموا لأنفسكم من خير تجبوه عند الله» فإن ظاهره العموم أي: أي خير كان مما ذكر وما لم يذكر «هو خيراً وأعظم أجراً» مما تؤخرونه إلى عند الموت، أو توصون به ليخرج بعد موتكم، وانتصاب خيراً على أنه ثاني مفعولي تجبوه، وضمير هو ضمير فصل، وبالنصب قرأ الجمهور، وقرأ أبو السماك، وابن السميع بالرفع على أن يكون هو مبتدأ، وخبره، والجملة في محل نصب على أنها ثاني مفعولي تجبوه. قال أبو زيد: وهي لغة تميم يرفعون ما بعد ضمير الفصل، وأنشد سيبويه:

نَحْنُ إِلَى لَيْلَى وَأَنْتَ تَرَكْتَهَا وَكُنْتَ عَلَيْهَا بِأَمْلَاءِ أَنْتَ أَقْدَرُ
وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ أَيْضاً (وَأَعْظَمُ) بِالنَّصْبِ عَطْفاً عَلَى خَيْراً،
وَقَرَأَ أَبُو السَّمَاكِ، وَابْنُ السَّمِيعِ بِالرَّفْعِ، كَمَا قَرَأَ بَرَفَعِ
(خَيْرِ)، وَانْتِصَابِ (أَجْراً) عَلَى التَّمْيِيزِ «وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ»
أي: اطلبوا منه المغفرة لذنوبكم، فإنكم لا تخلون من ذنوب
تقتربونها «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» أي: كثير المغفرة لمن
استغفره، كثير الرحمة لمن استرحمه.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وابن مريويه، والطبراني عن

نفس القلة «وطائفة من الذين معك» معطوف على الضمير في تقوم أي: وتقوم تلك القدر معك طائفة من أصحابك «والله يقدر الليل والنهار» أي: يعلم مقادير الليل والنهار على حقائقها، ويختص بذلك نون غيره، وأنتم لا تعلمون ذلك على الحقيقة. قال عطاء: يريد لا يقوته علم ما تفعلون. أي: أنه يعلم مقادير الليل والنهار، فيعلم قدر الذي تقومونه من الليل «علم أن لن تحصوه» أن لن تطبقوا علم مقادير الليل والنهار على الحقيقة، وفي أن ضمير شأن محذوف، وقيل المعنى: لن تطبقوا قيام الليل. قال القرطبي: والأول أصح، فإن قيام الليل ما فرض كله قط، قال مقاتل وغيره: لما نزل «فم الليل إلا قليلاً» نصفه أو انقص منه قليلاً * أو زد عليه [المزمل: 2. 4] شق ذلك عليهم، وكان الرجل لا يدري متى نصف الليل من ثلثه، فيقوم حتى يصبح مخافة أن يخطئ، فانتفخت أقدامهم وانتفعت ألوانهم، فرحمهم الله، وخفف عنهم فقال: «علم أن لن تحصوه» أي: علم أن لن تحصوه؛ لأنكم إن زبتم ثقل عليكم واحتجتم إلى تكلف ما ليس فرضاً، وإن نقصتم شق ذلك عليكم «فتاب عليكم» أي: فعاد عليكم بالعفو، ورخص لكم في ترك القيام. وقيل: فتاب عليكم من فرض القيام إذا عجزتم، وأصل التوبة الرجوع، كما تقدم؛ فالمعنى: رجع بكم من التثقل إلى التخفيف، ومن العسر إلى اليسر «فأقروا ما تيسر من القرآن» أي: فأقروا في الصلاة بالليل ما خف عليكم، وتيسر لكم منه من غير أن ترتقبوا وقتاً. قال الحسن: هو ما تقرأ في صلاة المغرب والعشاء. قال السدي: ما تيسر منه هو مائة آية. قال الحسن: أيضاً من قرأ مائة آية في ليلة لم يحاجه القرآن. وقال كعب: من قرأ في ليلة مائة آية كتب من القانتين، وقال سعيد: خمسون آية، وقيل: معنى «فأقروا ما تيسر منه»: فصلوا ما تيسر لكم من صلاة الليل، والصلاة تسمى قرأناً كقوله: «ورقأ الفجر» [الإسراء: 78] قيل: إن هذه الآية نسخت قيام الليل ونصفه، والنقصان من النصف والزيادة عليه، فيحتمل أن يكون ما تضمنته هذه الآية فرضاً ثابتاً، ويحتمل أن يكون منسوخاً لقوله: «ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً» [الإسراء: 79]. قال الشافعي: الواجب طلب الاستدلال بالسنة على أحد المعنيين. فوجدنا سنة رسول الله ﷺ تدل على أن لا واجب من الصلاة إلا الخمس. وقد ذهب قوم إلى أن قيام الليل نسخ في حقه ﷺ وفي حق أمته. وقيل: نسخ التقدير بمقدار وبقي أصل الوجوب. وقيل: إنه نسخ في حق الأمة، وبقي فرضاً في حقه ﷺ، والأولى القول بنسخ قيام الليل على العموم في حقه ﷺ وفي حق أمته، وليس في قوله: «فأقروا ما تيسر منه» ما يدل على بقاء شيء من الوجوب؛ لأنه إن كان المراد به القراءة من القرآن، فقد وجبت في صلاة المغرب والعشاء وما يتبعهما من النوافل المؤكدة، وإن كان المراد به الصلاة من الليل، فقد وجبت صلاة الليل بصلاة المغرب والعشاء وما يتبعهما من

إعلامهم بالتوحيد. وقال الفراء: المعنى قم فصل، وأمر بالصلاة «وربك فكبر» أي: واختص سيذك ومالكك ومصلح أمورك بالتكبير، وهو وصفه سبحانه بالكبرياء والعظمة، وأنه أكبر من أن يكون له شريك كما يعتقد الكفار، وأعظم من أن يكون له صاحبة أو ولد. قال ابن العربي: المراد به تكبير التقديس والتنزيه بخلع الأضداد والأنداد والأصنام، ولا يتخذ ولياً غيره ولا يعبد سواه، ولا يرى لغيره فعلاً إلا له ولا نعمة إلا منه. قال الزجاج: إن الفاء في فكبر دخلت على معنى الجزاء، كما دخلت في فأنذر. وقال ابن جني: هو كقولك: زيداً فاضرب أي: زيداً أضرب، فالفاء زائدة «وثيابك فطهر» المراد بها الثياب الملبوسة على ما هو المعنى اللغوي، أمره الله سبحانه بتطهير ثيابه، وحفظها عن النجاسات، وإزالة ما وقع فيها منها، وقيل: المراد بالثياب العمل، وقيل: للقلب، وقيل: للنفس، وقيل: الجسم، وقيل: الأهل، وقيل: الدين، وقيل: الأخلاق. قال مجاهد، وابن زيد، وأبو رزين أي: عملك فاصلح. وقال قتادة: نفسك فطهر من الذنب، والثياب عبارة عن النفس. وقال سعيد بن جببر: قلبك فطهر، ومن هذا قول امرئ القيس:

فسلي ثيابي من ثيابك تنسل

وقال عكرمة: المعنى البسها على غير غدر وغير فجرة. وقال: أما سمعت قول الشاعر:

واني بحمد الله لا ثوب فلاجر لبست ولا من غدرة اتقنع
والشاعر هو غيلان بن سلمة الثقفي، ومن إطلاق الثياب على النفس قول عنتره:

فشكت بالرمح الطويل ثيابه ليس الكريم على القنا بمحرم
وقول الآخر:

ثياب بني عوف طهارى نقيه

وقال الحسن، والقرطبي: إن المعنى، وأخلاقك فطهر؛ لأن خلق الإنسان مشتمل على أحواله اشتمال ثيابه على نفسه، ومنه قول الشاعر:

ويحيى لا يلام بسوء خلق ويحيى طاهر الاثواب خمر
وقال الزجاج: المعنى، وثيابك فقصر؛ لأن تقصير الثوب أبعد من النجاسات إذا أنجز على الأرض، وبه قال طائوس، والأول أولى؛ لأنه المعنى الحقيقي. وليس في استعمال الثياب مجاز عن غيرها لعلاقة مع قرينة ما يدل على أنه المراد عند الإطلاق، وليس في مثل هذا الأصل: أعني الحمل على الحقيقة عند الإطلاق خلاف، وفي الآية دليل على وجوب طهارة الثياب في الصلاة «والرجز فاهجر» الرجز معناه في اللغة العذاب، وفيه لغتان كسر الراء وضمها، وسمي الشرك وعبادة الأوثان رجزاً لأنها سبب الرجز. قرأ الجمهور (الرجز) بكسر الراء. وقرأ الحسن، ومجاهد، وعكرمة، وحفص، وابن محيصن بضمها. وقال مجاهد، وعكرمة: الرجز الأوثان، كما في قوله: «فاجتنبوا الرجس من الأوثان» [الحج: 30] وبه قال ابن زيد. وقال إبراهيم النخعي: الرجز المائم، والهجر الترك. وقال قتادة: الرجز إسفاف ونائلة،

ابن عباس، عن النبي ﷺ «فما قرءوا ما تيسر منه» قال: «مائة آية». وأخرج النراقطني، والبيهقي في سننه، وحسنه عن قيس بن أبي حازم قال: صليت خلف ابن عباس، فقرأ في أول ركعة بالحمد لله رب العالمين، وأول آية من البقرة، ثم ركع، فلما انصرفنا أقبل علينا، فقال: إن الله يقول: «فما قرءوا ما تيسر منه» قال ابن كثير: وهذا حديث غريب جداً لم أره إلا في معجم الطبراني. وأخرج أحمد، والبيهقي في سننه عن أبي سعيد قال: «أمرنا رسول الله ﷺ أن نقرأ بفاتحة الكتاب وما تيسر». وقد قدمنا في البحث الأول من هذه السورة ما روي أن هذه الآيات المذكورة هنا هي الناسخة لوجوب قيام الليل، فارجع إليه.

تفسير سورة المدثر

وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مروي، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة المدثر بمكة. وأخرج ابن مروي عن ابن الزبير مثله، وسيأتي أن أول هذه السورة أول ما نزل من القرآن.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبُّكَ كَذِبٌ ﴿٣﴾ وَيَا أَيُّهَا الْفَجْرُ ﴿٤﴾ وَارْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ تُسْكَرُوا ﴿٦﴾ وَرَبُّكَ تَأْتِيهِ الْغُيُوبُ ﴿٧﴾ لَا تَأْخُذُ بِهِ فِي الْفَجْرِ ﴿٨﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ يَوْمَ عَمُرٍ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ عَجْرٌ بَعِيرٌ ﴿١٠﴾ ذَرَوْا وَمَنْ خَلَقَتْ رَجِيداً ﴿١١﴾ وَجَعَلَتْ لَمْ مَالاً تَمْشُدُونَ ﴿١٢﴾ وَبَيْنَ شُهُودَا ﴿١٣﴾ وَمَهْدَتْ لَمْ تَهْمِيدَا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَلْمِزُ أَنْ أَرِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّكَ كَانْتَ لَابْكَا عَيْنَا ﴿١٦﴾ سَأْرِفُهُ صَوْدَا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ مُكَّرٌ وَفَرٌ ﴿١٨﴾ تَقِيلُ كَيْفَ مَدَرٌ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ مَدَرٌ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَتَى وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا عَجْرٌ يُؤْزَرُ ﴿٢٤﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُفْلِهِ سَرَرٌ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَزْكَ مَا سَفَرٌ ﴿٢٧﴾ لَا بَنَى وَلَا نَدَرَ ﴿٢٨﴾ لَوَاكِنَ الْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا سَمْعٌ عَمَرٌ ﴿٣٠﴾

قال الواحدي: قال المفسرون: لما بدئ رسول الله ﷺ بالوحي آتاه جبريل، فقرأه رسول الله ﷺ على سرير بين السماء والأرض كللنور المتلالي، ففزع ووقع مغشياً عليه، فلما أفاق نخل على خنيجة، ودعا بماء، فصبه عليه، وقال: «دثوني دثروني»، فثروه بقطيفة، فقال: «يا أيها المدثر * قم فأنذر» ومعنى «يا أيها المدثر»: يا أيها الذي قد دثر بثيابه أي: تغشى بها، وأصله المدثر، فادغمت التاء في الدال لتجانسهما. وقد قرأ الجمهور بالإدغام، وقرأ أبي (المدثر) على الأصل، والبنار: هو ما يلبس فوق الشعار، والشعار: هو الذي يلي الجسد، وقال عكرمة: المعنى: يا أيها المدثر بالنبوة وأثقالها. قال ابن العربي: وهذا مجاز بعيد لأنه لم يكن نبياً إذ ذاك «قم فأنذر» أي: انهض فخوف أهل مكة وحذرهم العذاب إن لم يسلموا، أو قم من مضجعك، أو قم قيام عزم وتصميم، وقيل: الإنذار هنا هو إعلامهم بنبوته، وقيل:

في هذا في سورة الأنعام وسورة النحل، والفاء للسببية، كأنه قيل: أصبر على أذاهم، فبين أيديهم يوم هائل يلقيون فيه عاقبة أمرهم، والعامل في إذا ما دل عليه قوله: ﴿فَذَلِكْ يَوْمُنْذُ يَوْمِ عَسِيرٍ * عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ فإن معناه: عسر الأمر عليهم، وقيل: للعامل فيه ما دل عليه ﴿فَذَلِكْ﴾ لأنه إشارة إلى النقر، ويومُنْذُ بدل من إذا، أو مبتدأ، وخبره يوم عسير، والجملة خبر فذلِكَ، وقيل: هو ظرف للخبر؛ لأن التقدير وقوع يوم عسير، وقوله: ﴿غَيْرِ يَسِيرٍ﴾ تأكيد لعسره عليهم؛ لأن كونه غير يسير، قد فهم من قوله: ﴿يَوْمِ عَسِيرٍ * ذُرْنِي وَمَنْ خَلَقْتَ وَحِيداً﴾ أي: دعني، وهي كلمة تهديد ووعيد، والمعنى: دعني والذي خلقته حال كونه وحيداً في بطن أمه لا مال له ولا ولد، هذا على أن وحيداً منتصب على الحال من الموصول، أو من الضمير العائد إليه المحذوف، ويجوز أن يكون حالاً من الياء في ذرني أي: دعني وحدي معه، فإني أكفيك في الانتقام منه، والأول أولى. قال المفسرون: وهو الوليد بن المغيرة. قال مقاتل: يقول: خل بنيي وبينه، فأنا أنفرد بهلكته، وإنما خص بالذكر لمزيد كفره، وعظيم جحوده لنعم الله عليه، وقيل: أراد بالوحيد الذي لا يعرف أبوه، وكان يقال في الوليد بن المغيرة: إنه دعى ﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً﴾ أي: كثيراً، أو يمد بالزيادة والنماء شيئاً بعد شيء. قال الزجاج: مالا غير منقطع عنه، وقد كان الوليد بن المغيرة مشهوراً بكثرة المال على اختلاف أنواعه، قيل: كان يحصل له من غلة أمواله ألف ألف دينار، وقيل: أربعة آلاف دينار، وقيل: ألف دينار ﴿وَبَيْنَ شَهْوداً﴾ أي: وجعلت له بنين حضوراً بمكة معه لا يسافرون، ولا يحتاجون إلى التفريق في طلب الرزق لكثرة مال أبيهم. قال الضحاك: كانوا سبعة ولدوا بمكة، وخمسة ولدوا بالطائف. وقال سعيد بن جبير: كانوا ثلاثة عشر ولداً. وقال مقاتل: كانوا سبعة كلهم رجال، أسلم منهم ثلاثة خالد وهشام والوليد بن الوليد، فما زال الوليد بعد نزول هذه الآية في نقصان من ماله وولده حتى هلك. وقيل: معنى شهوداً أنه إذا نكر نكروا معه، وقيل: كانوا يشهدون معه ما كان يشهده، ويقومون بما كان يبشره ﴿وَمَهْدَتْ لَهُ تَهْمِيداً﴾ أي: بسطت له في العيش وطول العمر والرياسة في قريش، والتمهيد عند العرب التوطئة، ومنه مهد الصبي. وقال مجاهد: إنه المال بعضه فوق بعض كما يمهّد الفراش ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ أي: يطمع بعد هذا كله في الزيادة لكثرة حرصه وشدة طمعه مع كفرانه للنعم، وإشراكه بالله. قال الحسن: لم يطمع أن أسخه الجنة، وكان يقول: إن كان محمد صادقاً، فما خلقت الجنة إلا لي. ثم رده الله سبحانه وزجره فقال: ﴿كَلَّا﴾ أي: لست أزيد. ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً﴾ أي: معانداً لها كلفراً بما أنزلناه منها على رسولنا، يقال: عند يعنّد بالكسر إذا خالف الحق ورده، وهو يعرفه، فهو عنيد وعاند، والعائد الذي يجوز عن الطريق، ويعدل عن القصد، ومنه قول الحارثي:

وهما صنمان كانا عند البيت. وقال أبو العالية، والربيع، والكسائي: الرجز بالضم الوثن، وبالكسر العذاب. وقال السدي: الرجز بضم الراء الوعيد، والأول أولى ﴿وَلَا تَمَنَّ تَسْتَكْثِرُ﴾ قرأ الجمهور (لا تمنن) بفك الإدغام، وقرأ الحسن، وأبو اليمان، والأشهب العقيلي بالإدغام، وقرأ الجمهور (تستكثّر) بالرفع على أنه حال أي: ولا تمنن حال كونك مستكثراً، وقيل: على حذف أن، والأصل ولا تمنن أن تستكثّر، فلما حذفت رفع. قال الكسائي: فإذا حذف أن رفع الفعل. وقرأ يحيى بن وثاب، والأعمش (تستكثّر) بالنصب على تقدير أن، وبقاء عملها، ويؤيد هذه القراءة قراءة ابن مسعود (ولا تمنن أن تستكثّر) بزيادة أن. وقرأ الحسن أيضاً، وابن أبي عبيدة (تستكثّر) بالجزم على أنه بدل من تمنن، كما في قوله: ﴿يَلِيقُ آثَاماً * يَضَاعَفُ لَهُ﴾ [الفرقان: 68]. 69، وقول الشاعر:

متى تأننا تلمم بنا في ديارنا تجد حطبا جزلاً وناراً تاججا
أو الجزم لإجراء الوصل مجرى الوقف كما في قول امرئ القيس:

فالיום أشرب غير مستحبب إثمأ من الله ولا واصل
بتسكين أشرب. وقد اعترض على هذه القراءة؛ لأن قوله تستكثّر لا يصح أن يكون بدلاً من تمنن؛ لأن الممن غير الاستكثار، ولا يصح أن يكون جواباً للنهي.

واختلف السلف في معنى الآية، فقيل المعنى: لا تمنن على ربك بما تحمله من أعباء النبوة كالذي يستكثّر ما يتحمّله بسبب الغير، وقيل: لا تعط عطية تلتبس فيها أفضل منها، قاله عكرمة، وقتادة. قال الضحاك: هذا حرّمه الله على رسوله؛ لأنه مأمور بأشرف الآداب ولجل الأخلاق، وأباحه لامته. وقال مجاهد: لا تضعف أن تستكثّر من الخير، من قولك حبل متين: إذا كان ضعيفاً. وقال الربيع بن أنس: لا تعظم عملك في عينك أن تستكثّر من الخير. وقال ابن كيسان: لا تستكثّر عملاً فتراه من نفسك، إنما عملك منه من الله عليك إذ جعل لك سبيلاً إلى عبادته. وقيل: لا تمنن بالنبوة، والقرآن على الناس، فتأخذ منهم أجراً تستكثّره. وقال محمد بن كعب: لا تعط مالك مصانعة. وقال زيد بن أسلم: إذا أعطيت عطية فاعطها لربك ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ أي: لوجه ربك، فاصبر على طاعته وفرائضه، والمعنى: لأجل ربك وثوابه. وقال مقاتل، ومجاهد: أصبر على الأذى والتكذيب. وقال ابن زيد: حملت أمراً عظيماً، فحاربك العرب والعجم، فاصبر عليه. وقيل: أصبر تحت موارد القضاء لله، وقيل: فاصبر على البلوى، وقيل: على الأوامر والنواهي ﴿فَإِذَا نَقَرَ فِي الْغَاقُورِ﴾ الناقدور فاعول من النقر كأنه من شأنه أن ينقر فيه للتصويت، والنقر في كلام العرب الصوت، ومنه قول امرئ القيس:

أخفضه بالنقر لما علوته

ويقولون: نقر باسم الرجل إذا دعاه، والمراد هنا النفخ في الصور، والمراد النفخة الثانية، وقيل: الأولى، وقد تقدّم الكلام

حكاه الله عنه، قال الله عز وجل: ﴿سَاصِلِيهِ سَقَرٌ﴾ أي: ساءخله النار، وسقر من أسماء النار، ومن بركات جهنم، وقيل: إن هذه الجملة بدل من قوله: ﴿سَارِهَقِهِ صَعُودٌ﴾ ثم بالغ سبحانه في وصف النار وشدة أمرها فقال: ﴿وَمَا أدرك ما سَقَرٌ﴾ أي: وما أعلمك أي شيء هي، والعرب تقول: وما أدراك ما كذا: إذا أرادوا المبالغة في أمره، وتعظيم شأنه وتهويل خطبه، وما الأولى مبتدأ، وجملة ﴿مَا سَقَرٌ﴾ خبر المبتدأ. ثم فسر حالها، فقال: ﴿لَا تَبْقَى وَلَا تَذَرُ﴾ والجملة مستأنفة لبيان حال سقر، والكشف عن وصفها، وقيل: هي في محل نصب على الحال، والعامل فيها معنى التعظيم: لأن قوله: ﴿وَمَا أدرك ما سَقَرٌ﴾ يدل على التعظيم، فكانه قال: استعظموا سقر في هذه الحال، والأول أولى، ومفعول الفعلين محذوف. قال السدي: لا تبقى لهم لحماً ولا تذر لهم عظماً. وقال عطاء: لا تبقى من فيها حياً ولا تنزه ميتاً، وقيل: هما لفظان بمعنى واحد، كررا للتأكيد كقولك: صدّ عني وأعرض عني ﴿لَوْلَاةُ للبشر﴾ قرأ الجمهور (لَوْلَاةُ) بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، وقيل: على أنه نعت لسقر، والأول أولى. وقرأ الحسن، وعطية العوفي، ونصر بن عاصم، وعيسى بن عمر، وابن أبي عبيدة، وزيد بن عليّ بالنصب على الحال أو الاختصاص للتهويل، يقال: لاح يلوح أي: ظهر، والمعنى: أنها تظهر للبشر. قال الحسن: تلوح لهم جهنم حتى يرونها عياناً كقوله: ﴿وَيُبرزُ الجحيم لمن يرى﴾ [النازعات: 36] وقيل: معنى ﴿لَوْلَاةُ للبشر﴾ أي: مغيرة لهم ومسوّدة. قال مجاهد: والعرب تقول: لآحه الحر والبرد والسقم والحنن: إذا غيره، وهذا أرجح من الأول، وإليه ذهب جمهور المفسرين، ومنه قول الشاعر:

وتعجب هندان رأيتني شاحباً تقول لشيء لوحته السمايم
أي: غيرته، ومنه قول رؤبة بن العجاج:

لَوْحٌ منه بعد بدن وشبقٌ تلويحك الضامر يطوى للسبق
وقال الأخفش: المعنى أنها معطشة للبشر، وأنشد:

سقتني على لوح من الماء شربة سقاها به الله الرهام الغوايبا
والمراد بالبشر إما جلدة الإنسان الظاهرة، كما قاله الأكثر، أو المراد به أهل النار من الإنس، كما قال الأخفش ﴿عليها تسعة عشر﴾ قال المفسرون: يقول على النار تسعة عشر من الملائكة هم خزنتها، وقيل: تسعة عشر صنفاً من أصناف الملائكة، وقيل: تسعة عشر صفاً من صفوفهم، وقيل: تسعة عشر نقيباً مع كل نقيب جماعة من الملائكة، والأول أولى. قال الثعلبي: ولا ينكر هذا، فإذا كان ملك واحدة يقبض أرواح جميع الخلائق كان أحرى أن يكونوا تسعة عشر على عذاب بعض الخلق. قرأ الجمهور (تسعة عشر) بفتح الشين من عشر. وقرأ أبو جعفر بن القعقاع، وطلحة بن سليمان بإسكانها.

وقد أخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن جابر بن عبد الله أن أبا سلمة بن عبد الرحمن قال: إن أوّل ما نزل من القرآن ﴿يَا أَيُّهَا الْمَثَرُ﴾ فقال له يحيى بن أبي كثير:

إذا ركبت فاجعلاني وسطاً إنني كبير لا أطيق العندا
قال أبو صالح: عنيداً معناه مباعداً. وقال قتادة: جاحداً. وقال مقاتل: معرضاً ﴿سَارِهَقِهِ صَعُودٌ﴾ أي: ساكلفه مشقة من العذاب، وهو مثل لما يلقيه من العذاب الصعب الذي لا يطاق، وقيل المعنى: إنه يكلف أن يصعد جبلاً من نار، والإرهاق في كلام العرب: أن يحمل الإنسان الشيء الثقيل، وجملة ﴿إِنَّهُ فكر وقدر﴾ تعليل لما تقدّم من الوعيد أي: إنه فكر في شأن النبي ﷺ وما أنزل عليه من القرآن، وقدر في نفسه أي: هيا الكلام في نفسه، والعرب تقول: هيات الشيء إذا قترته، وقدرت الشيء إذا هياتته، وذلك أنه لما سمع القرآن لم يزل يفكر ماذا يقول فيه، وقتر في نفسه ما يقول، فذمه الله، وقال: ﴿فَقَتَلْ كَيْفَ قَدَرٌ﴾ أي: لعن وعذب كيف قدر أي: على أي حال قدر ما قدر من الكلام، كما يقال في الكلام: لأضربه كيف صنع أي: على أي حال كانت منه، وقيل المعنى: قهر وغلب كيف قدر، ومنه قول الشاعر:

وما نرفت عينك إلا لتضربني بسهميك في إغشار قلب مقتل
وقال الزهري: عنب، وهو من باب الدعاء عليه، والتكرير في قوله: ﴿قَدْ قَتَلَ كَيْفَ قَدَرٌ﴾ للمبالغة والتأكيد ﴿قَدْ فَنظَرُ﴾ أي: بأي شيء ينفذ القرآن ويقدر فيه، أو فكر في القرآن وتنبّر ما هو ﴿قَدْ عَبَسَ﴾ أي: قطب وجهه لما لم يجد مطعناً يطعن به في القرآن، والعبس مصدر عبس مخففاً، يعبس عبساً وعبوساً إذا قطب، وقيل: عبس في وجوه المؤمنين، وقيل: عبس في وجه النبي ﷺ ﴿وَيَسِرُ﴾ أي: كلف وجهه وتغير، ومنه قول الشاعر:

صباحنا تميمأ غداة الحفار بشهباء ملموسة بأسره
وقول الآخر:

وقد رأيتني منها صدور رأيتني وإعراضها عن حاجتي ويسورها
وقيل: إن ظهور العبوس في الوجه يكون بعد المحاورة، وظهور اليسور في الوجه قبلها، والعرب تقول: وجه ياسر إذا تغير واسود. وقال الراغب: اليسر استعجال الشر قبل أوانه نحو يسر الرجل حاجته أي: طلبها في غير أوانها. قال: ومنه قوله: ﴿عَبَسَ وَيَسِرُ﴾ أي: أظهر العبوس قبل أوانه وقيل وقته، وأهل اليمن يقولون: يسر المركب وابسر أي: وقف لا يتقدّم ولا يتأخر، وقد أبسرنا أي: صرنا إلى اليسور ﴿قَدْ انبر واستكبر﴾ أي: أعرض عن الحق، وذهب إلى أهله، وتعظم عن أن يؤمن ﴿فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلا سحر يؤثر﴾ أي: يآثره عن غيره ويرويه عنه. والسحر: إظهار الباطل في صورة الحق، أو الخبيعة على ما تقدّم بيانه في سورة البقرة، يقال: أثرت الحديث بآثره إذا نكرته عن غيرك، ومنه قول الأعشى:

إن الذي فيه تحاربتما بين للسامع والأثر
﴿إِنَّ هَذَا إِلا قول للبشر﴾ يعني: أنه كلام الإنس، وليس بكلام الله، وهو تأكيد لما قبله، وسيأتي أن الوليد بن المغيرة إنما قال هذا القول إرضاء لقومه بعد اعترافه أن له حلاوة، وإن عليه طلاوة إلى آخر كلامه. ولما قال هذا القول الذي

يقولون إن أول ما نزل ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ [أي: سورة العلق] فقال أبو سلمة: سألت جابر بن عبد الله عن ذلك، قلت له مثل ما قلت، فقال جابر: لا أحذثك إلا ما حدثنا رسول الله ﷺ قال: «جاورت بحراء، فلما قضيت جوارى هبطت، فتوويت، فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً، ونظرت عن شمالي، فلم أر شيئاً، ونظرت خلفي فلم أر شيئاً، فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فحثيت منه رعباً، فرجعت، فقلت: بشروني، فنزلت: ﴿يا أيها المندر * قم فانذر﴾ إلى قوله: ﴿والرجز فاهجر﴾» وسيااتي في سورة اقرأ ما يدل على أنها أول سورة أنزلت، والجمع ممكن. وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس ﴿يا أيها المندر﴾ فقال: بشر هذا الأمر، فقم به. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مروي عنه ﴿يا أيها المندر﴾ قال: للنائم ﴿وثيابك فطهر﴾ قال: لا تكن ثيابك التي تلبس من مكسب باطل ﴿والرجز فاهجر﴾ قال: الأصنام ﴿ولا تمنن تستكثر﴾ قال: لا تعط تلتمس بها أفضل منها. وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عنه أيضاً ﴿وثيابك فطهر﴾ قال: من الإثم. قال: وهي في كلام العرب نقي الثياب. وأخرج ابن مروي عنه أيضاً ﴿وثيابك فطهر﴾ قال: من الغدر، لا تكن غداراً. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري، وابن مروي عنه عكرمة عنه أيضاً أنه سئل عن قوله: ﴿وثيابك فطهر﴾ قال: لا تلبسها على غيرة، ثم قال: ألا تسمعون قول غيلان بن سلمة:

وإني بحمد الله لا شوب فاجر لبست ولا من غيرة اتقنع وأخرج الطبراني، والبيهقي في سننه عنه أيضاً ﴿ولا تمنن تستكثر﴾ قال: لا تعط الرجل عطاء رجا أن يعطيك أكثر منه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن مروي عنه أيضاً ﴿فإذا نقر في الناقور﴾ قال: الصور ﴿يوم عسير﴾ قال: شديد. وأخرج ابن مروي عنه أيضاً ﴿نوني ومن خلقت وحيداً﴾ قال: الوليد بن المغيرة. وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقي في الدلائل عنه أيضاً: أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ، فقرأ عليه القرآن، فكانه رقى له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه فقال: يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك ما لا يعطوك، فإني أتيت محمداً لتعرض لما قبله، قال: قد علمت قریش اني من أكثرها ما لا، قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له، وأنت كاره له، قال: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني لا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه هذا الذي يقول شيئاً من هذا، ووالله إن لقوله الذي يقول لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أملاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلو، وإنه ليحطم ما تحته؛ قال: والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه، قال: فدعني حتى أفكر، فلما فكر قال: هذا سحر يؤثر، يثره

عن غيره، فنزلت ﴿نوني ومن خلقت وحيداً﴾. وقد أخرج هذا عبد الرزاق عن عكرمة مرسلاً، وكذا أخرجه ابن جرير، وابن إسحاق، وابن المنذر، وغير واحد. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مروي عن عمر بن الخطاب أنه سئل عن قوله: ﴿وجعلت له مالا ممبوداً﴾ قال: غلة شهر بشهر. وأخرج ابن المنذر، عن ابن عباس: ﴿وجعلت له مالا ممبوداً﴾ قال: ألف دينار. وأخرج هناد عن أبي سعيد الخدري في قوله: ﴿سارقه صعوداً﴾ قال: هو جبل في النار يكلفون أن يصعدوا فيه، فكلما وضعوا أيديهم عليه ذابت، فإذا رفعوها عانت كما كانت. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس: ﴿عنيداً﴾ قال: جحوداً. وأخرج أحمد، والترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مروي، والبيهقي عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ قال: «الصعود جبل في النار يصعد فيه الكافر سبعين خريفاً، ثم يهوي وهو كذلك فيه أبداً». قال الترمذي بعد إخرجه: غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة عن دزاج. قال ابن كثير: وفيه غرابة ونكارة انتهى، وقد أخرجه جماعة من قول أبي سعيد. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: ﴿صعوداً﴾ صخرة في جهنم يسحب عليها الكافر على وجهه. وأخرج ابن المنذر عنه قال: جبل في النار. وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً في قوله: ﴿لا تبقي ولا تذر﴾ قال: لا تبقي منهم شيئاً، وإذا بلكوا خلقاً آخر لم تذر أن تعاودهم سبيل العذاب الأول. وأخرج عبد بن حميد عنه أيضاً ﴿لواحة لبشر﴾ قال: تلوح الجلد فتحرقه وتغير لونه، فيصير أسود من الليل. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً: ﴿لواحة﴾ قال: محرقة. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مروي، والبيهقي في البعث عن البراء: أن رهطاً من اليهود سألوا بعض أصحاب النبي ﷺ عن خزنة جهنم، فقال: الله ورسوله أعلم، فجاء جبريل، فأخبر النبي ﷺ، فنزلت عليه ساعتئذ ﴿عليها تسعة عشر﴾.

وَمَا جَعَلْنَا أَحْسَبَ الْأَعْيُنَ إِلَّا أَصْفَحَ وَمَا جَعَلْنَا عَدُوَّكُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنَ الْأَعْيُنِ وَمَا جَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسٍ إِلَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَيْنِهِمْ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُكْفَرُونَ مَا مَنَّا إِلَّا فِيْ ذُرِّيَّتِهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿١٠﴾ وَكَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْقِصَّةَ الْأُولَىٰ وَنُقَدِّسُ لَكَ الْقُرْآنَ ﴿١١﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَوَعَدْنَا الْمُؤْمِنِينَ الْوَعْدَ الْحَقِّ ﴿١٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَوَعَدْنَا الْمُؤْمِنِينَ الْوَعْدَ الْحَقِّ ﴿١٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَوَعَدْنَا الْمُؤْمِنِينَ الْوَعْدَ الْحَقِّ ﴿١٤﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَوَعَدْنَا الْمُؤْمِنِينَ الْوَعْدَ الْحَقِّ ﴿١٥﴾

لما نزل قوله سبحانه: ﴿عليها تسعة عشر﴾ [المندر: 30] قال أبو جهل: أما لمحمد من الأعوان إلا تسعة عشر يخوفكم محمد بتسعة عشر، وأنتم الدهم، أفيعجز كل مائة رجل منكم أن يبطشوا بواحد منهم، ثم يخرجون من النار؟ فقال أبو الأشد، وهو رجل من بني جمح: يا معشر قریش إذا كان يوم القيامة، فانا أمشي بين أيديكم، فأنفع عشرة بمنكي الأيمن، وتسعة بمنكي الأيسر، ونمضي ندخل الجنة، فانزل الله ﴿وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة﴾ يعني: ما جعلنا

هو وحده لا يقدر على علم ذلك أحد. وقال عطاء: يعني من الملائكة الذين خلقهم لتعذيب أهل النار لا يعلم عدتهم إلا الله، والمعنى: أن خزنة النار، وإن كانوا تسعة عشر، فلمن من الأعوان والجنود من الملائكة ما لا يعلمه إلا الله سبحانه. ثم رجع سبحانه إلى نكر سقر، فقال: ﴿وما هي إلا نكري للبشر﴾ أي: وما سقر، وما نكر من عدد خزنتها إلا تذكرة وموعظة للعالم، وقيل: ﴿وما هي﴾ أي: الدلائل والحجج والقرآن إلا تذكرة للبشر. وقال الزجاج: نار الدنيا تذكرة لنار الآخرة، وهو بعيد. وقيل: ﴿وما هي﴾ أي: عدة خزنة جهنم إلا تذكرة للبشر؛ ليعلموا كمال قدرة الله، وأنه لا يحتاج إلى أعوان وأنصار، وقيل: الضمير في ﴿وما هي﴾ يرجع إلى الجنود. ثم ردع سبحانه المكذبين وزجرهم فقال: ﴿كلا والقمر﴾ قال الفراء: كلا صلة للقسم، التقدير أي: والقمر، وقيل المعنى: حقاً والقمر. قال ابن جرير: المعنى ردّ زعم من زعم أنه يقاوم خزنة جهنم أي: ليس الأمر كما يقول، ثم أقسم على ذلك بالقمر وبما بعده، وهذا هو الظاهر من معنى الآية ﴿والليل إذا نبر﴾ أي: ولي. قرأ الجمهور (إذا) بزيادة الألف، ببر بزنة ضرب على أنه ظرف لما يستقبل من الزمان، وقرأ نافع، وحفص، وحزمة (إذا) بدون ألف، أنبر بزنة أكرم ظرف لما مضى من الزمان ودير، وأنبر لغتان، كما يقال: أقبل الزمان وقبل الزمان، يقال: دبر الليل وأنبر: إذا تولى ذاهباً ﴿والصبح إذا أسفر﴾ أي: أضاء وتبين ﴿إنها لإحدى الكبر﴾ هذا جواب القسم، والضمير راجع إلى سقر أي: إن سقر لإحدى الدواهي، أو البلايا الكبرى، والكبر جمع كبرى، وقال مقاتل: إن الكبر اسم من أسماء النار، وقيل: إنها أي: تكذيبهم لمحمد لإحدى الكبر، وقيل: إن قيام الساعة لإحدى الكبر، ومنه قول الشاعر:

يا بن المعلی نزلت إحدى کبر داهية الدهر وصماء الغیر
قرأ الجمهور (إحدى) بالهمزة، وقرأ نصر بن عاصم، وابن محيصن، وابن كثير في رواية عن (إنها إحدى) بدون همزة. وقال الكلبي: أراد بالكبر دركات جهنم وأبوابها ﴿تنذيراً للبشر﴾ انتصاب نذيراً على الحال من الضمير في إنها، قاله الزجاج. وروي عنه، وعن الكسائي، وأبي علي الفارسي أنه حال من قوله: ﴿قم فأنذر﴾ [المشر: 2] أي: قم يا محمد فأنذر حال كونك نذيراً للبشر. وقال الفراء: هو مصدر بمعنى الإنذار منصوب بفعل مقدر، وقيل: إنه منتصب على التمييز لإحدى لتضمنها معنى التنظيم كأنه قيل: أعظم الكبر إنذاراً، وقيل: إنه مصدر منصوب بأنذر المذكور في أول السورة، وقيل: منصوب بإضمار أعني، وقيل: منصوب بتقدير ادع، وقيل: منصوب بتقدير ناد أو بلغ، وقيل: إنه مفعول لأجله، والتقدير: وإنها لإحدى الكبر؛ لأجل إنذار البشر. قرأ الجمهور بالنصب، وقرأ أبي بن كعب، وابن أبي عبلة بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: هي نذير، أو هو نذير.

وقد اختلف في النذير، فقال الحسن: هي النار، وقيل:

المديرين لأمر النار القائمين بعذاب من فيها إلا ملائكة، فمن يطبق الملائكة ومن يغلبهم، فكيف تتعاطون أيها الكفار مغالبتهم. وقيل: جعلهم ملائكة؛ لأنهم خلاف جنس المخلوقين من الجن والإنس، فلا يأخذهم ما يأخذ المجالس من الرقة والرافة، وقيل: لأنهم أقوم خلق الله بحقه والغضب له، وأشدهم بأساً وأقوامهم بطشاً ﴿وما جعلنا عدتهم إلا فتنة﴾ أي: ضلالة ﴿للذين﴾ استقلوا عددهم، ومحنة لهم، والمعنى: ما جعلنا عددهم هذا العدد المنكور في القرآن إلا ضلالة ومحنة لهم، حتى قالوا ما قالوا، ليتضاعف عذابهم ويكثر غضب الله عليهم. وقيل: معنى ﴿إلا فتنة﴾ إلا عذاباً، كما في قوله: ﴿يوم هم على النار يفتنون﴾ [الذاريات: 13] أي: يعذبون، واللام في قوله: ﴿ليستيقن الذين أوتوا الكتاب﴾ متعلق بجعلنا، والمراد بأهل الكتاب اليهود والنصارى لموافقة ما نزل من القرآن بأن عدة خزنة جهنم تسعة عشر لما عندهم. قاله قتادة، والضحاك، ومجاهد، وغيرهم، والمعنى: أن الله جعل عدة الخزنة هذه العدة؛ ليحصل اليقين لليهود والنصارى بنبوّة محمد ﷺ لموافقة ما في القرآن لما في كتبهم ﴿ويزداد الذين آمنوا إيماناً﴾ وقيل: المراد الذين آمنوا من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام، وقيل: أراد الذين آمنوا المؤمنين من أمة محمد ﷺ، والمعنى: ليزدادوا يقيناً إلى يقينهم لما رأوا من موافقة أهل الكتاب لهم، وجملة ﴿ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون﴾ مقررة لما تقدم من الاستيقان وإزدياد الإيمان، والمعنى نفى الارتياب عنهم في الدين، أو في أن عدة خزنة جهنم تسعة عشر، ولا ارتياب في الحقيقة من المؤمنين، ولكنه من باب التعريض لغيرهم ممن في قلبه شك ﴿وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً﴾ المراد بالذين في قلوبهم مرض هم المنافقون؛ والسورة وإن كانت مكية، ولم يكن إذ ذاك نفاق، فهو إخبار بما سيكون في المدينة، أو المراد بالمرض مجرد حصول الشك والريب، وهو كائن في الكفار. قال الحسين بن الفضل: السورة مكية، ولم يكن بمكة نفاق، فالمرض في هذه الآية الخلاف، والمراد بقوله: ﴿والكافرون﴾ كفار العرب من أهل مكة، وغيرهم، ومعنى ﴿ماذا أراد الله بهذا مثلاً﴾ أي: شيء أراد بهذا العدد المستغرب استغراب المثل. قال الليث: المثل الحديث، ومنه قوله: ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون﴾ [الرعد: 35] أي: حديثها، والخبر عنها ﴿كذلك يضل الله من يشاء﴾ أي: مثل ذلك الإضلال المتقدم نكره، وهو قوله: ﴿وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا﴾. ﴿يضل الله من يشاء﴾ من عباده، والكاف نعت مصدر محذوف ﴿ويهدي من يشاء﴾ من عباده، والمعنى: مثل ذلك الإضلال للكافرين والهداية للمؤمنين، يضل الله من يشاء إضلاله ويهدي من يشاء هدايته، وقيل المعنى: كذلك يضل الله عن الجنة من يشاء ويهدي إليها من يشاء ﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾ أي: ما يعلم عند خلقه، ومقدار جموعه من الملائكة، وغيرهم إلا

وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَنْهَأَهُ اللَّهُ عَنْ أَهْلِ النَّارِ وَأَهْلِ النَّارِ ﴿١٦﴾

قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ أي: مأخوذة بعملها ومرتهنة به، إما خلصها وإما أوبقها، والرهينة اسم بمعنى الرهن، كالشيمة بمعنى الشيم، وليست صفة، ولو كانت صفة لقيل: رهين؛ لأن فعلاً يستوي فيه المذكر والمؤنث، والمعنى: كل نفس رهن بكسبها غير مفكوكة ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ فإنهم لا يرتهنون بذنوبهم، بل يفكون بما أحسنوا من أعمالهم.

واختلف في تعيينهم، فقيل: هم الملائكة، وقيل: المؤمنون، وقيل: أولاد المسلمين، وقيل: الذين كانوا عن يمين آدم، وقيل: أصحاب الحق، وقيل: هم المعتمدون على الفضل دون العمل، وقيل: هم الذين اختارهم الله لخدمته ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ هو في محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، والجملة استئناف جواباً عن سؤال نشأ مما قبله، ويجوز أن يكون في جنان حالاً من أصحاب اليمين، وأن يكون حالاً من فاعل يتساءلون، وأن يكون ظرفاً ليتساءلون، وقوله: ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ يجوز أن يكون على بابيه أي: يسأل بعضهم بعضاً، ويجوز أن يكون بمعنى يسألون أي: يسألون غيرهم، نحو دعيته وتدايعته، فعلى الوجه الأول يكون ﴿عَنِ الْمَجْرِمِينَ﴾ متعلقاً بتساءلون أي: يسأل بعضهم بعضاً عن أحوال المجرمين، وعلى الوجه الثاني تكون عن زائدة أي: يسألون المجرمين، وقوله: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ هو على تقدير القول أي: يتساءلون عن المجرمين يقولون لهم: ما سَلَكَكُمْ في سَقَر، أو يسألونهم قائلين لهم: ما سَلَكَكُمْ في سَقَر، والجملة على كلا التقديرين في محل نصب على الحال، والمعنى: ما أدخلكم في سَقَر، تقول سلكت الخيط في كذا: إذا دخلته فيه. قال الكلبي: يسأل الرجل من أهل الجنة الرجل من أهل النار باسمه، فيقول له: يا فلان ما سَلَكَكَ في النار. وقيل: إن الملائكة يسألون الملائكة عن أقربائهم، فتسأل الملائكة المشركين يقولون لهم: ما سَلَكَكُمْ في سَقَر. قال الفراء: في هذا ما يقوي أن أصحاب اليمين هم الولدان؛ لأنهم لا يعرفون الذنوب. ثم ذكر سبحانه ما أجاب به أهل النار عليهم فقال: ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمَصْلُوحِينَ﴾ أي: من المؤمنين الذين يصلون لله في الدنيا ﴿وَلَمْ نَكُ نَطْعَمُ الْمَسْكِينِ﴾ أي: لم ننصبق على المساكين، قيل: وهذان محمولان على الصلاة الواجبة والصدقة الواجبة؛ لأنه لا تعذيب على غير الواجب، وفيه دليل على أن الكفار مخاطبون بالشرعيات ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ أي: نخالط أهل الباطل في باطلهم. قال قتادة: كلما غوى غاي غويانا معه. وقال السدي: كنا نكذب مع المكذبين. وقال ابن زيد: نخوض مع الخائضين في أمر محمد ﷺ، وهو قولهم: كاتب مجنون ساحر شاعر ﴿وَكُنَّا نَكْذِبُ بَيَومَ الدِّينِ﴾ أي: بيوم الجزاء والحساب ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَ الْبَقِيَّةَ﴾ وهو: الموت، كما في قوله: ﴿وَرَاعِدَ رَبِّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْبَقِيَّةَ﴾ [الحجر: 99] ﴿فَمَا تَتَفَعَّلُ شَفَاعَةَ الشَّافِعِينَ﴾ أي: شفاععة الملائكة والنبيين، كما تنفع

محمد ﷺ. وقال أبو رزين: المعنى أنا نذير لكم منها، وقيل: القرآن نذير للبشر لما تضمنه من الوعد والوعيد ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ هو بدل من قوله: ﴿لِلْبَشَرِ﴾ أي: نذيراً لمن شاء منكم أن يتقدم إلى الطاعة أو يتأخر عنها، والمعنى: أن الإنذار قد حصل لكل من آمن وكفر، وقيل: فاعل المشيئة هو الله سبحانه أي: لمن شاء الله أن يتقدم منكم بالإيمان أو يتأخر بالكفر، والأول أولى. وقال السدي: لمن شاء منكم أن يتقدم إلى النار المتقدم ذكرها، أو يتأخر إلى الجنة.

وقد أخرج ابن جرير، وابن مروي عن ابن عباس قال: لما سمع أبو جهل ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾. قال لقريش: تكلنكم أمهاتكم، اسمع ابن أبي كبة يخبركم أن خزنة جهنم تسعة عشر وأنتم الدَّهْم، أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطش برجل من خزنة جهنم؟ وأخرج ابن مروي عنه في قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عَنَتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال أبو الأشد: خلوا بيني وبين خزنة جهنم أنا كفيتكم مؤنتهم، قال: وحديث أن النبي ﷺ وصف خزان جهنم فقال: «كان أعينهم البرق، وكان أفواههم الصياصي يجرون أشعارهم، لهم مثل قوة الثقلين، يقبل أحدهم بالآمة من الناس يسوقهم على رقبته جبل حتى يرمي بهم في النار فيرمي بالجبل عليهم». وأخرج الطبراني في الأوسط، وأبو الشيخ عن أبي سعيد الخدري: «أن رسول الله ﷺ حدثهم عن ليلة أسري به قال: فصعدت أنا وجبريل إلى السماء الدنيا، فإذا أنا بملك يقال له: إسماعيل، وهو صاحب سماء الدنيا، وبين يديه سبعون ألف ملك مع كل ملك جنده مائة ألف، وتلا هذه الآية ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾». وأخرج أحمد عن أبي نر قال: قال رسول الله ﷺ: «أطلت السماء، وحق لها أن تظط، ما فيها موضع أصبع إلا عليه ملك ساجد». وأخرجه الترمذي، وابن ماجه. قال الترمذي: حسن غريب، ويروى عن أبي نر موقوفاً. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿إِذْ أُنِيرُ﴾ قال: دبور ظلامه. وأخرج مسدد في مسنده، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: سألت ابن عباس عن قوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ فسكت عني حتى إذا كان من آخر الليل وسمع الأذان، ناداني يا مجاهد هذا حين دبّر الليل. وأخرج ابن جرير عنه في قوله: ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ قال: من شاء اتبع طاعة الله ومن شاء تأخر عنها.

كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿١٦﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿١٧﴾ فِي جَنَّاتٍ يَنْفَسُونَ ﴿١٨﴾ عَنِ النَّارِ ﴿١٩﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴿٢٠﴾ قَالُوا لَوْ نَكُ مِنَ الْمَصْلُوحِينَ ﴿٢١﴾ وَلَوْ نَكُ نَطْعَمُ الْمَسْكِينِ ﴿٢٢﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٢٣﴾ وَكُنَّا نَكْذِبُ بَيَومَ الدِّينِ ﴿٢٤﴾ حَتَّىٰ تَأْتِيَ الْبَقِيَّةَ ﴿٢٥﴾ فَمَا تَتَفَعَّلُ شَفَاعَةَ الشَّافِعِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَا لَمْ عَنِ النَّارِ مُعْرِضِينَ ﴿٢٧﴾ كَانَهُمْ حُرٌّ شُرُوفٍ ﴿٢٨﴾ فَزَتْ مِنْ سَوْرَةٍ ﴿٢٩﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ شُفَعًا مِّنْهُ ﴿٣٠﴾ كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٣١﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ تَذَكَّرُوا ﴿٣٢﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرُوا ﴿٣٣﴾

وقوله (إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ) استثناء مفرغ من أعم الأحوال. قال مقاتل: إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ لهم الهدى ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى﴾ أي: هو الحقيق بأن يتقيه المتقون بترك معاصيه والعمل بطاعاته ﴿وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ أي: هو الحقيق بأن يغفر للمؤمنين ما فرط منهم من الذنوب، والحقيق بأن يقبل توبة التائبين من العصاة، فيغفر ذنوبهم.

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينٌ﴾ قال: مأخوذة بعملها. وأخرج ابن المنذر عنه في قوله: ﴿إِلَّا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ قال: هم المسلمون. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن علي بن أبي طالب: ﴿إِلَّا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ قال: هم أطفال المسلمين. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس: ﴿حَتَّىٰ تَأْتِنَا الْيَقِينُ﴾ قال: الموت. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن أبي موسى الأشعري في قوله: ﴿فَوَزَتْ مِنْ قُصُورَةٍ﴾ قال: هم الرماة رجال القسي. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن ابن عباس قال: القسورة الرجال الرماة القنص. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي جمره قال: قلت لابن عباس: القسورة الأسد، فقال: ما أعلمه بلغة أحد من العرب الأسد هم عصابة الرجال. وأخرج سفيان بن عيينة، وعبد الرزاق، وابن المنذر عن ابن عباس: ﴿مَنْ قُصُورَةٍ﴾ قال: هو ركز الناس يعني: أصواتهم. وأخرج أحمد، والدارمي، والترمذي وحسنه، والنسائي، وابن ماجه، والبخاري، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن عدي، وصححه، وابن مردويه عن أنس «أن رسول الله ﷺ قال: هذه الآية ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ فقال: قال ربكم: أنا أهل أن اتقى فلا يجعل معي إله، فمن اتقاني فلم يجعل معي إلهاً، فانا أهل أن أغفر له». وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة، وابن عمر، وابن عباس مرفوعاً نحوه.

تفسير سورة القيامة

وهي مكية بلا خلاف. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل من طرق عن ابن عباس قال: نزلت سورة القيامة، وفي لفظ سورة لا أقسم بمكة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير قال: أنزلت سورة لا أقسم بمكة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا أُقْسِمُ بِيَوْمٍ إِلَينَ ❶ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّوْءِ ❷ أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَجْمَعَ عِطَانَهُ ❸ بَلْ قَدِيرٌ عَلَيْهِ أَنْ سُئِيَ بِكَانِهِ ❹ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ يُفْتَحَرُ ❺ أَمَّا ❻ بِحَسْبِ الْكَافِرِ ❽ يَوْمَ الْيَقِينِ ❾ فَإِنَّا يَوْمَ الْبَاسِ ❿ وَخَسَفَ الْقَرَارُ ❿

الصالحين ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ التذكرة التذكير بمواعظ القرآن، والفاء لترتيب إنكار إعراضهم عن التذكرة على ما قبله من موجبات الإقبال عليها، وانتصاب معرضين على الحال من الضمير في متعلق الجاز والمجرور أي: أي شيء حصل لهم حال كونهم معرضين عن القرآن الذي هو مشتمل على التذكرة الكبرى والموعظة العظمى، ثم شبههم في نفورهم عن القرآن بالحر فقال: ﴿كَانَهُمْ حَمَرٌ مُسْتَنْفَرَةٌ﴾ والجملة حال من الضمير في معرضين على التداخل، ومعنى ﴿مُسْتَنْفَرَةٌ﴾ نافرة، يقال: نفر واستنفر، مثل عجب واستعجب، والمراد الحر الوحشية. قرأ الجمهور (مستنفرة) بكسر الفاء أي: نافرة، وقرأ نافع، وابن عامر بفتحها أي: منفرة مذعورة، واختار القراءة الثانية أبو حاتم، وأبو عبيد. قال في الكشاف: المستنفرة الشديدة النفار كأنها تطلب النفار من نفوسها في جمعها له، وحملها عليه، ﴿فَوَزَتْ مِنْ قُصُورَةٍ﴾ أي: من رماة يرمونها، والقصور الرامي، وجمعه قسورة، قاله سعيد بن جبيرة، وعكرمة، ومجاهد، وقتادة، وابن كيسان، وقيل: هو الأسد، قاله عطاء والكلبي. قال ابن عرفة: من القسر بمعنى القهر؛ لأنه يقهر السباع، وقيل: القسورة أصوات الناس، وقيل: القسورة بلسان العرب الأسد، ولسان الحبشة الرماة. وقال ابن الأعرابي: القسورة أول الليل أي: فرت من ظلمة الليل، وبه قال عكرمة، وأول، وكل شديد عند العرب فهو: قسورة، ومنه قول الشاعر: يا بنت كوني خيرة لخيره أخوالها الحي وأهل القسورة ومنه قول لبيد:

إِذَا مَا هَتَفْنَا هَتَفَةً فِي نَدِينَا إِتَانَا الرِّجَالُ الْعَابِدُونَ الْقَسَاوِرَ
ومن إطلاقه على الأسد قول الشاعر:

مَضْمَرٌ تَحْزَنُهُ الْأَبْطَالُ كَأَنَّهُ الْقُسُورُ الرَّمَالُ
﴿بَلْ يَرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُنَشَّرَةٌ﴾ عطف على مقدر يقتضيه المقام كأنه قيل: لا يكتفون بتلك التذكرة بل يريد. قال المفسرون: إن كفار قريش قالوا لمحمد ﷺ: ليصبح عند رأس كل رجل منا كتاب منشور من الله أنك رسول الله. والصحف الكتب وأحدها صحيفة، والمنشورة المنشورة المفتوحة، ومثل هذه الآية قوله سبحانه: ﴿حَتَّىٰ تَنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ﴾ [الإسراء: 93] قرأ الجمهور (منشورة) بالتشديد. وقرأ سعيد بن جبيرة بالتخفيف. وقرأ الجمهور أيضاً بضم الحاء من صحف. وقرأ سعيد بن جبيرة بإسكانها. ثم ردعهم الله سبحانه عن هذه المقالة وزجرهم فقال: ﴿كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾ يعني: عذاب الآخرة؛ لأنهم لو خافوا النار لما اقترحوا الآيات، وقيل: كلا بمعنى حقاً. ثم كرر الردع والزجر لهم فقال: ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرَةٌ﴾ يعني: القرآن، أو حقاً إنه تذكرة، والمعنى: أنه يتذكر به ويتعظ بمواعظه ﴿فَمَنْ شَاءَ نَذْكُرْهُ﴾ أي: فمن شاء أن يتعظ به اتعظ، ثم رد سبحانه المشيئة إلى نفسه فقال: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ قرأ الجمهور (يذكرون) بالياء التحتية. وقرأ نافع، ويعقوب بالفوقية، واتفقوا على التخفيف،

حَسَنًا سَائِغًا. وَقِيلَ: اللُّؤَامَةُ هي الملوثة المذمومة، فهي صفة ذم، وبهذا احتج من نفى أن يكون قسماً، إذ ليس لنفس العاصي خطر يقسم به. قال مقاتل: هي نفس الكافر يلوم نفسه ويتحسر في الآخرة على ما فرط في جنب الله. والأول أولى **﴿ليحسب الإنسان أن لن نجعل عظامه﴾** المراد بالإنسان الجنس، وقيل: الإنسان الكافر، والهزلة للإنكار، وأن هي المخففة من الثقلية، واسمها ضمير شأن محنوف، والمعنى: ليحسب الإنسان أن الشأن أن لن نجعل عظامه بعد أن صارت رفاتاً، فنعيد لها خلقاً جديداً، وذلك حسيان باطل، فإننا نجعلها، وما يدل عليه هذا الكلام هو جواب القسم. قال الزجاج: أقسم بيوم القيامة وبالنفس اللؤامة ليجمع العظام للبعث، فهذا جواب القسم. وقال النحاس: جواب القسم محنوف أي: ليعبث، والمعنى: أن الله سبحانه يبعث جميع أجزاء الإنسان، وإنما خص العظام لأنها قالب الخلق **﴿بلى قادرين على أن نسوي بنانه﴾** بلى إيجاب لما بعد النفي المنسحب إليه الاستفهام، والوقف على هذا اللفظ وقف حسن، ثم يبتدئ الكلام بقوله: **﴿قادرين﴾** وانتصاب قادرين على الحال أي: بلى نجعلها قادرين، فالحال من ضمير الفعل المقدّر، وقيل للمعنى: بل نجعلها نقدر قادرين. قال الفراء: أي نقدر ونقوى قادرين على أكثر من ذلك. وقال أيضاً: إنه يصلح نصبه على التكرير أي: بلى فليحسبنا قادرين، وقيل التقدير: بلى كنا قادرين. وقرأ ابن أبي عبلة، وابن السميعة (بلى قادرين) على تقدير مبتدأ أي: بلى نحن قادرين، ومعنى **﴿على أن نسوي بنانه﴾**: على أن نجعل بعضها إلى بعض، فنردّها كما كانت مع لطافتها وصغرها، فكيف بكبار الأعضاء، فنبه سبحانه بالبيان، وهي الأصابع على بقية الأعضاء، وأن الاقتدار على بعثها وإرجاعها كما كانت أولى في القدرة من إرجاع الأصابع الصغيرة اللطيفة المشتملة على المفصلات والأظافر والعروق اللطاف والعظام اللباق، فهذا وجه تخصيصها بالذكر، وبهذا قال الزجاج، وابن قتيبة. وقال جمهور المفسرين: إن معنى الآية: أن نجعل أصابع يديه ورجليه شيئاً واحداً، كخف البعير وحافر الحمار صفيحة واحدة لا شقوق فيها، فلا يقدر على أن ينتفع بها في الأعمال اللطيفة كالكتابة والخياطة ونحوهما، ولكننا فرقنا أصابعه لينتفع بها. وقيل المعنى: بل نقدر على أن نعيد الإنسان في هيئة البهائم، فكيف في صورته التي كان عليها، والأول أولى، ومنه قول عنتره:

وإن الموت طوع يدي إذا ما وصلت بنانها بالهندوان
فنبه بالبيان على بقية الأعضاء **﴿بل يريد الإنسان ليفجر إمامه﴾** هو عطف على أيحسب، إما على أنه استفهام مثله، وأضرب عن التوبيخ بذلك إلى التوبيخ بهذا، أو على أنه إيجاب انتقل إليه من الاستفهام. والمعنى: بل يريد الإنسان أن يقدم فجوره فيما بين يديه من الأوقات، وما يستقبله من الزمان، فيقدم الذنب ويؤخر التوبة. قال ابن الأنباري: يريد أن يفجر ما امتد عمره، وليس في نيته أن يرجع عن ذنب

وَجَعَلَ النَّفْسَ وَالْقَسَمَ ١ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ إِنَّ الْكَذَرَ ٢ كَلَّا لَا وَزَرَ ٣ إِنَّ رَبَّكَ يَوْمَئِذٍ اتَّخَذَ ٤ يَوْمَئِذٍ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ يَمَّا قَدَّمَ وَلَكَ ٥ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ٦ وَلَوْ أَلْفَ مَآذِرٍ ٧ لَا تُغْنِيهِ يَوْمَئِذٍ لِسَانُهُ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُ ٨ بِرَبِّهِ ٩ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ١٠ فَإِذَا قَرَأَهُ فَالْحُجَّ قُرْآنَهُ ١١ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيِّنَاتٍ ١٢ كَلَّا بَلْ تُصِيبُنَ الْعَاجِلُ ١٣ وَكَذَرْتُمُ الْآخِرَةَ ١٤ وَجِئْتُمُ الْيَوْمَ ١٥ بِآيَاتِنَا ١٦ إِنَّ رَبَّكَ نَاطِقٌ ١٧ وَجِئْتُمُ يَوْمَئِذٍ بِكِبَرٍ ١٨ تَعْلَمُونَ ١٩ أَنْ يَحْكُمَ بِآيَاتِنَا ٢٠

قوله: **﴿لا أقسم بيوم القيامة﴾** قال أبو عبيدة، وجماعة المفسرين: إن «لا» زائدة، والتقدير: أقسم. قال السمرقندي: أجمع المفسرون أن معنى لا أقسم: أقسم، واختلفوا في تفسير لا، فقال بعضهم: هي زائدة، وزيلاتها جارية في كلام العرب، كما في قوله: **﴿ما منعك ألا تسجد﴾** [الأعراف: 12] يعني: أن تسجد، و: **﴿لئلا يعلم أهل الكتاب﴾** [الحديد: 29] ومن هذا قول الشاعر:

تذكرت ليلي فاعتزنتني صباية وكاه صميم القلب لا يتقطع
وقال بعضهم: هي رد لكلامهم حيث أنكروا البعث كأنه قال: ليس الأمر كما نكرتم، أقسم بيوم القيامة، وهذا قول الفراء، وكثير من النحويين، كقول القائل: لا والله، فلا رد لكلام قد تقدّمها، ومنه قول الشاعر:

فلا وأبيك ابنة العامري لا يدعى القوم أنسي أقر
وقيل: هي للنفي، لكن لا لنفي الإقسام، بل لنفي ما ينبئ عنه من إعظام المقسم به وتفخيمه، كان معنى لا أقسم بكذا: لا أعظمه بإقسامي به حق إعظامه، فإنه حقيق بأكثر من ذلك. وقيل: إنها لنفي الإقسام لوضوح الأمر، وقد تقدّم الكلام على هذا في تفسير قوله: **﴿فلا أقسم بمواقع النجوم﴾** [الواقعة: 75] وقرأ الحسن، وابن كثير في رواية عنه، والزهرى، وابن هرمز (لا أقسم) بدون ألف على أن اللام لام الابتداء، والقول الأول هو أرجح هذه الأقوال، وقد اعترض عليه الرازي بما لا يقدح في قوته، ولا يفت في عضد رجحانه، وإقسامه سبحانه بيوم القيامة لتعظيمه وتفخيمه، والله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته **﴿ولا أقسم بالنفس اللؤامة﴾** ذهب قوم إلى أنه سبحانه أقسم بالنفس اللؤامة، كما أقسم بيوم القيامة، فيكون الكلام في «لا» هذه كالكلام في الأولى، وهذا قول الجمهور. وقال الحسن: أقسم بيوم القيامة، ولم يقسم بالنفس اللؤامة. قال الثعلبي: والصحيح أنه أقسم بهما جميعاً، ومعنى **﴿النفس اللؤامة﴾**: النفس التي تلوم صاحبها على تقصيره، أو تلوم جميع النفوس على تقصيرها. قال الحسن: هي والله نفس المؤمن، لا يرى المؤمن إلا يلوم نفسه ما أرتب بكذا ما أرتب بكذا، والفاجر لا يعتب نفسه. قال مجاهد: هي التي تلوم على ما فات وتندم، فتلوم نفسها على الشر لم تعمله؟ وعلى الخير لم تستكثر منه؟ قال الفراء: ليس من نفس برّة ولا فاجرة إلا وهي تلوم نفسها، إن كنت عملت خيراً قالت: هلا أزدبت، وإن كنت عملت سوءاً قالت: ليتني لم أفعل. وعلى هذا فالكلام خارج مخرج المدح للنفس، فيكون الإقسام بها

قال الماوردي: يحتمل وجهين: أحدهما: ابن المفز من الله سبحانه استحياه منه. والثاني: أين المفز من جهنم حذراً منها. وقرأ الجمهور: «أين المفز» بفتح الميم والقاء مصدرأ، كما تقدم. وقرأ ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وقتادة بفتح الميم وكسر القاء على أنه اسم مكان أي: أين مكان الفرار. وقال الكسائي: هما لغتان مثل مدب ومدب، ومصح ومصح، وقرأ الزهري بكسر الميم وفتح القاء على أن المراد به الإنسان الجيد الفرار، ومنه قول امرئ القيس:

مكر مفز مقبل مبر معاً كجلود صخر حطه السيل من عل
أي: جيد الفر والكر «كلا لا وزر» أي: لا جبل ولا حصن ولا ملجأ من الله. وقال ابن جبير: لا محيص ولا منعة. والوزر في اللغة: ما يلجأ إليه الإنسان من حصن أو جبل أو غيرهما، ومنه قول طرفة:

ولقد تعلم بكراننا فاضلوا الرأي وفي الدرع وزر
وقال آخر:

لعمري ما للفتى من وزر من الموت يدركه والكبر
قال السدي: كانوا إذا فزعوا في الدنيا تحصنوا بالجبال، فقال لهم الله: لا وزر يعصمكم مني يومئذ، وكلاً للردع أو لنفي ما قبلها، أو بمعنى حقاً «إلى ريك يومئذ المستقر» أي: المرجع والمنتهى والمصير لا إلى غيره، وقيل: إليه الحكم بين العباد لا إلى غيره، وقيل المستقر: الاستقرار حيث يقره الله «ينبئ الإنسان يومئذ بما قدم وخر» أي: يخبر يوم القيامة بما عمل من خير وشر. وقال قتادة: بما عمل من طاعة وما آخر من طاعة فلم يعمل بها. وقال زيد بن أسلم: بما قدم من أمواله وما خلف للورثة. وقال مجاهد: بأول عمله وآخره. وقال الضحاك: بما قدم من فرض وآخر من فرض. قال القشيري: هذا الإنشاء يكون يوم القيامة عند وزن الأعمال، ويجوز أن يكون عند الموت. قال القرطبي: والأول أظهر «بيل الإنسان على نفسه بصيرة» ارتفاع بصيرة على أنها خبر الإنسان، على نفسه متعلق ببصيرة. قال الأخفش: جعله هو البصيرة، كما تقول للرجل: أنت حجة على نفسك، وقيل المعنى: إن جوارحه تشهد عليه بما عمل، كما في قوله: «يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون» [النور: 24] وأنشد الفراء:

كان على ذي العقل عينا بصيرة بمقعده أو منظره هو ناظر
فيكون المعنى: بل جوارح الإنسان عليه شاهدة. قال أبو عبيدة، والقتيبي: إن هذه الهاء في بصيرة هي التي يسميها أهل الإعراب هاء المبالغة، كما في قولهم: علامة. وقيل: المراد بالبصيرة الكاتبان اللذان يكتبان ما يكون منه من خير وشر، والتاء على هذا للمثانين. وقال الحسن: أي: بصير بعيوب نفسه «ولو لقي معانيره» أي: ولو اعتذر وجادل عن نفسه لم ينفعه ذلك. يقال: معذرة ومعانير. قال الفراء: أي ولأن اعتذر فعليه من يكتب عنده. وقال الزجاج: المعانير

يرتكبه. قال مجاهد، والحسن، وعكرمة، والسدي، وسعيد بن جبير: يقول سوف أتوب، ولا يتوب حتى يأتيه الموت. وهو على أشد أحواله. قال الضحاك: هو الأمل، يقول سوف أعيش وأصيب من الدنيا، ولا ينكر الموت، والفجور أصله الميل عن الحق، فيصدق على كل من مال عن الحق بقول أو فعل، ومنه قول الشاعر:

أقسم بالله أبو جحفص عمر ما مسها من نقب ولا نبر
اغفر له اللهم إن كان فجر

وجملة «يسال إيان يوم للقيامة» مستأنفة لبيان معنى يفجر، والمعنى: يسال متى يوم القيامة سؤال استبعاد واستهزاء «فإذا برق البصر» أي: فزغ وتحير من برق الرجل: إذا نظر إلى البرق فدهش بصره. قرأ الجمهور (برق) بكسر الراء. قال أبو عمرو بن العلاء، والزجاج وغيرهما: المعنى تحير فلم يطرف، ومنه قول ذي الرمة:

ولو أن لقمان الحكيم تعرضت لعينيه مئ بسافرا كاد يبرق
وقال الخليل، والفراء: برق بالكسر: فزع وبهت وتحير، والعرب تقول للإنسان المبهوت: قد برق، فهو بارق، وأنشد الفراء:

ونفسك فانع ولا تنعني ودوا الكلوم ولا تبرق
أي: لا تفزع من كثرة الكلوم التي بك. وقرأ نافع، وإبان عن عاصم (برق) بفتح الراء أي: لمع بصره من شدة شخوصه للموت. قال مجاهد وغيره: هذا عند الموت، وقيل: برق يبرق شق عينيه وفتحهما. وقال أبو عبيدة: فتح الراء وكسرهما لغتان بمعنى «وخسف القمر» قرأ الجمهور (خسف) بفتح الخاء والسين مبنياً للمفاعل. وقرأ ابن أبي إسحاق، وعيسى، والأعرج، وابن أبي عبل، وأبو حيوة بضم الخاء وكسر السين مبنياً للمفعول، ومعنى «خسف القمر»: ذهب ضوؤه، ولا يعود كما يعود إذا خسف في الدنيا، ويقال: خسف: إذا ذهب جميع ضوؤه، وكسف: إذا ذهب بعض ضوؤه «وجمع الشمس والقمر» أي: ذهب ضؤهما جميعاً، ولم يقل جمعت لأن التانيث مجازي. قاله المبرد. وقال أبو عبيدة: هو لتغليب المذكر على المؤنث. وقال الكسائي: حمل على معنى جمع النيران. وقال الزجاج، والفراء: ولم يقل جمعت لأن المعنى جمع بينهما في ذهاب نورهما، وقيل: جمع بينهما في طلوعهما من الغرب أسودين مكوّرين مظلمين. قال عطاء: يجمع بينهما يوم القيامة، ثم يقذفان في البحر فيكونان نار الله الكبرى. وقيل: تجمع الشمس والقمر فلا يكون هناك تعاقب ليل ونهار. وقرأ ابن مسعود (وجمع بين الشمس والقمر) «يقول الإنسان يومئذ أين المفز» أي: يقول عند وقوع هذه الأمور أين المفز أي: الفرار، والمفز مصدر بمعنى الفرار. قال الفراء: يجوز أن يكون موضع الفرار، ومنه قول الشاعر:

أين المفز والكباش تنتطح وكل كبش فر منها يفتضح

وقول مجاهد خطأ؛ لأنه لا يقال: نظر إلى كذا بمعنى الانتظار، وإن قول القائل: نظرت إلى فلان ليس إلا رؤية عين، إذا أرادوا الانتظار قالوا: نظرته، كما في قول الشاعر:

فإنكما إن تنظرا نتي ساعة من الدهر تنفغنني لدى لم جندب
فإذا أرادوا نظر العين قالوا: نظرت إليه، كما قال الشاعر:

نظرت إليها والنجوم كأنها مصابيح رهبان تشب لفعال
وقول الآخر:

إنني إليك لما وعدت لناظر نظر الفقير إلى الغني الموسر

أي: انظر إليك نظر ذل كما ينظر الفقير إلى الغني، وأشعار العرب وكلماتهم في هذا كثيرة جداً. ووجوه مبتدأ، وجاز الابتداء به مع كونه نكرة؛ لأن المقام مقام تفصيل، وناضرة صفة لوجه، ويومئذ ظرف لناضرة، ولو لم يكن المقام مقام تفصيل لكان وصف النكرة بقوله: «**ناضرة**» مسوغاً للابتداء بها، ولكن مقام التفصيل بمجرده مسوغ للابتداء بالنكرة «**ووجوه يومئذ بأسرة**» أي: كالحة عابسة كثيبة. قال في الصحاح: بسر الرجل وجهه بسوراً أي: كلعج. قال السدي: بأسرة أي: متغيرة، وقيل: مصفرة، والمراد بالوجوه هنا وجوه الكفار «**تظن أن يفعل بها فاقرة**» الفاقرة: الداهية العظيمة، يقال: فقرته الفاقرة أي: كسرت فقار ظهره. قال قتادة: الفاقرة الشر، وقال السدي: الهلاك، وقال ابن زيد: دخول النار. وأصل الفاقرة: الوسم على أنف البعير بحديدة، أو نار حتى تخلص إلى العظم، كذا قال الأصمعي، ومن هذا قولهم: قد عمل به الفاقرة. قال النابغة:

أبالي قبر لا يزال مقابلي وضربة فاس فوق رأسي فاقره

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه عن سعيد بن جبير قال: سألت ابن عباس عن قوله: «**لا أقسم بيوم القيامة**» قال: يقسم ربك بما شاء من خلقه، قلت: «**ولا أقسم بالنفس اللوامة**» قال: النفس اللوامة، قلت: «**أحسب الإنسان أن لن نجعل عظامه * بلى قادرين على أن نسوي بنانه**» قال: لو شاء لجعله خفا أو حافراً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه «**اللوامة**» قال: المنمومة. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عنه أيضاً قال: التي تلوم على الخير والشر تقول: لو فعلت كذا وكذا. وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً قال: تندم على ما فات وتلوم عليه. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً «**بلى قادرين الإنسان ليفجر إمامه**» قال: يمضي قدماً. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه في الآية قال: هو الكافر الذي يكتب بالحساب. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً في الآية قال: يعني الأمل، يقول: أعمل ثم أتوب. وأخرج ابن أبي الدنيا في نَمَ الأمل، والبيهقي في الشعب عنه أيضاً في الآية قال: يقدم الذنب ويؤخر التوبة. وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه،

الستور، والواحد معذار أي: وإن أرحى الستور يريد أن يخفي نفسه فنفسه شاهدة عليه، كذا قال الضحاك، والسدي. والستر بلغة اليمن يقال له: معذار، كذا قال المبرد، ومنه قول الشاعر:

ولكنها ضنت بمنزل ساعة علينا ولطت يومها بالمعازر

والأول أولى، وبه قال مجاهد، وقتادة، وسعيد بن جبيل، وابن زيد، وأبو العالية، ومقاتل، ومثله قوله: «**يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم**» [غافر: 52] وقوله: «**ولا يؤذن لهم فيعتذرون**» [المرسلات: 36] وقول الشاعر:

فما حسن أن يعذر المرء نفسه وليس له من سائر الناس عاذر

«**لا تحرك به لسانك لتعجل به**» كان رسول الله ﷺ يحرك شفثيه ولسانه بالقرآن إذا أنزل عليه قبل فراغ جبريل من قراءة الوحي حرصاً على أن يحفظه ﷺ، فنزلت هذه الآية أي: لا تحرك بالقرآن لسانك عند إلقاء الوحي لتأخذه على عجل مخافة أن يتفلت منك، ومثل هذا قوله: «**ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى إيك وحيه**» [طه: 114] الآية «**إن علينا جمعه**» في صدرك حتى لا يذهب عليك منه شيء «**وقرآنه**» أي: إثبات قراءته في لسانك. قال الفراء: القراءة والقرآن مصدران. وقال قتادة: «**فاتبع قرآنه**» أي: شرائعه وأحكامه «**فإذا قرآنه**» أي: أتممتنا قراءته عليك بلسان جبريل «**فاتبع قرآنه**» أي: قراءته «**ثم إن علينا بيانه**» أي: تفسير ما فيه من الحلال والحرام، وبيان ما أشكل منه. قال الزجاج: المعنى علينا أن ننزله عليك قرآناً عربياً فيه بيان للناس. وقيل المعنى: إن علينا أن نبينه بلسانك «**كلا بل تحبون العجلة**» كلا للردع عن العجلة، والترغيب في الأناة، وقيل: هي ردع لمن لا يؤمن بالقرآن ويكون بيناً من الكفار. قال عطاء: أي: لا يؤمن أبو جهل بالقرآن وبيانه. قرأ أهل المدينة، والكوفيون (بل تحبون) (وتترو) بالفوقية في الفعلين جميعاً. وقرأ الباقرن بالتحنية فيهما، فعلى القراءة الأولى يكون الخطاب لهم تقريراً وتوبيخاً، وعلى القراءة الثانية يكون الكلام عائداً إلى الإنسان لأنه بمعنى الناس، والمعنى: تحبون الدنيا، وتتروكون «**الآخرة**» فلا تعملون لها «**وجوه يومئذ ناضرة**» أي: ناعمة غضة حسنة، يقال: شجر ناضر، وروض ناضر أي: حسن ناعم، وناضرة العيش حسنة وبهجة. قال الواحدي، والمفسرون: يقولون مضينة مسفرة مشرقة «**إلى ربها ناظرة**» هذا من النظر أي: إلى خالقها ومالك أمرها ناظرة أي: تنظر إليه، هكذا قال جمهور أهل العلم، والمراد به ما تواترت به الأحاديث الصحيحة من أن العباد ينظرون ربهم يوم القيامة، كما ينظرون إلى القمر ليلة البدر. قال ابن كثير: وهذا بحمد الله مجمع عليه بين الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة، كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام وهداة الأنام. وقال مجاهد: إن النظر هنا انتظار ما لهم عند الله من الثواب، وروي نحوه عن عكرمة، وقيل: لا يصح هذا إلا عن مجاهد وحده. قال الأزهري:

نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: فهل تضارون في القمر ليلة البدر ليس بونه سحاب؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: فإنكم ترونه يوم القيامة كذلك». وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما من حديث أبي هريرة نحوه. وقد قدمنا أن أحاديث الرؤية متواترة فلا نطيل بنكرها، وهي تأتي في مصنف مستقل، ولم يتمسك به لا من كتاب الله ولا من سنة رسوله. وقد أخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، والدارقطني، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أننى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جنانه وأزواجه ونعيمه وخمسه، وسرره مسيرة الف سنة، وكرهم على الله من ينظر إلى وجهه غبوة وعشية، ثم قرأ رسول الله ﷺ **«وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة»**». وأخرجه أحمد في المسند من حديثه بلفظ: «إن أفضلهم منزلة لينظر في وجه الله كل يوم مرتين». وأخرج النسائي، والدارقطني وصححه، وأبو نعيم عن أبي هريرة قال: «قلنا: يا رسول الله هل نرى ربنا؟ قال: هل ترون الشمس في يوم لا غيم فيه، وترون القمر في ليلة لا غيم فيها؟ قلنا: نعم، قال: فإنكم سترون ربكم عز وجل، حتى إن أحدكم ليحاضر ربه محاضرة، فيقول: عبيدي هل تعرف نذب كذا وكذا؟ فيقول: ألم تغفر لي؟ فيقول: بمغفرتي صرت إلى هذا».

قَالَ إِذَا بَلَغَ الْإِنْسَانُ رَقَبَهُ مِّن رَّبِّهِ فَقَدْ هَدَىٰ ۖ وَكَانَ اللَّهُ الْوَاقِعَ ۖ وَالْقَدَرُ ۖ أَنَا بَلَغَ الْإِنْسَانُ ۖ إِنَّ رَبَّكَ يَوْمَئِذٍ أَنَسًا ۖ قَدْ سَدَّ لَا سَلَّ ۖ وَلَكِنْ كَذَّبَ رُفُؤًا ۖ ثُمَّ دَخَلَ إِلَهُ أَهْلِهِ يَتَمَطَّى ۚ أَوَلَمْ لَكَ قُلُوبٌ ۚ ثُمَّ أَوَّلَ لَكَ قُلُوبٌ ۚ أَحْسَبُ الْإِنْسَانَ أَن بِرَبِّكَ سَكَنًا ۚ أَلَمْ يَكُنْ لَكَ قُلُوبٌ ۚ ثُمَّ كَانَتْ عَيْنَاكَ مَقَاقِلَ مَرُوءَةٍ ۚ جَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۚ أَفَيْسَ ذَلِكَ وَمَقْدَرُ عَلَّ أَنْ يَخْبَىٰ ۚ لَكُلُّهُ ۚ

قوله: **«كلا»** رد وزجر أي: بعيد أن يؤمن الكافر بيوم القيامة، ثم استأنف، فقال: **«إذا بلغت التراقي»** أي: بلغت النفس أو الروح التراقي، وهي جمع ترقية، وهي عظم بين شفرة النحر والعاتق، ويكنى ببلوغ النفس التراقي عن الإشفاء على الموت، ومثله قوله: **«فلولا إذا بلغت الحلقوم»** [الواقعة: 83] وقيل معنى **«كلا»**: حقاً أي: حقاً أن المساق إلى الله إذا بلغت التراقي، والمقصود تنكيرهم شدة الحال عند نزول الموت. قال نريد بن الصمة:

وَرَبِّ كَرِيهَةً دَافَعَتْ عَنْهَا ۖ وَقَدْ بَلَغَتْ نَفْسُهُمُ التَّرَاقِي ۖ **«وقيل من راق»** أي: قال من حضر صاحبها: من يرقيه ويشتفي برقيقته؟ قال قتادة: التمسوا له الأطباء فلم يغفوا عنه من قضاء الله شيئاً، وبه قال أبو قلابة، ومنه قول الشاعر:

هل للفتى من بنات الموت من واقتي أم هل له من حمام الموت من راقتي
وقال أبو الجوزاء: هو من رقى يرقى إذا صعد، والمعنى:

والبيهقي في الشعب عنه أيضاً **«بل يريد الإنسان ليفجر أمامه»** يقول: سوف اتوب **«يسأل إيان يوم القيامة»** قال: يقول متى يوم القيامة؟ قال: فبين له **«إذا برق البصر»**. وأخرج ابن جرير عنه قال: **«إذا برق البصر»** يعني: الموت. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي الدنيا، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود في قوله: **«لا وزر»** قال: لا حصن. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس في قوله: **«لا وزر»** قال: لا حصن ولا ملجأ، وفي لفظ: لا حرز، وفي لفظ: لا جبل. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن ابن مسعود في قوله: **«ينبؤ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر»** قال: بما قدم من عمل، وأخر من سنة عمل بها من بعده من خير أو شر. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس نحوه. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: بما قدم من المعصية وأخر من الطاعة فينبؤ بذلك. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر من طرق عنه في قوله: **«بل الإنسان على نفسه بصيرة»** قال: شهد على نفسه وحده **«ولو لقى معانيره»** قال: ولو اعتذر. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه **«بل الإنسان على نفسه بصيرة»** قال: سمعه وبصره ويديه ورجليه وجوارحه **«ولو لقى معانيره»** قال: ولو تجرد من ثيابه. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة، فكان يحرك به لسانه وشفثه مخافة أن يتفلت منه يريد أن يحفظه، فأنزل الله **«لا تحرك به لسانك لتعجل به * إن علينا جمعه وقرآنه»** قال: يقول إن علينا أن نجعله في صدرك ثم نقرأه **«فإذا قرآنناه»** يقول: إذا أنزلناه عليك **«فاتبع قرآنه»** فاستمع له وأنصت **«ثم إن علينا بيانه»** أن نبينه بلسانك، وفي لفظ: علينا أن نقرأه، فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل أطرق، وفي لفظ: استمع، فإذا ذهب قرأه كما وعده الله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه **«فإذا قرآنناه»** قال: بيناه **«فاتبع قرآنه»** يقول: اعمل به. وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن ابن مسعود في قوله: **«كلا بل تحبون العجلة»** قال: عجلت لهم الدنيا شرها وخيرها، وغيبت الآخرة. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس **«وجوه يومئذ ناضرة»** قال: ناعمة. وأخرج ابن المنذر، والأجري في الشريعة، واللالكائي في السنة، والبيهقي في الرؤية عنه **«وجوه يومئذ ناضرة»** قال: يعني: حسننها **«إلى ربها ناظرة»** قال: نظرت إلى الخالق. وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً **«إلى ربها ناظرة»** قال: تنتظر إلى وجه ربها. وأخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: **«وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة»** قال: ينظرون إلى ربهم بلا كيفية، ولا حد محسود، ولا صفة معلومة». وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أبي هريرة قال: «قال الناس: يا رسول الله هل

وقد دانته، وأصله من الولي، وهو القرب، وأنشد الفراء:
 فاولى أن يكون لك الولاء
 أي: قارب أن يكون لك، وأنشد أيضاً:
 أولى لمن هاجت له أن يكمداً

﴿ايحسب الإنسان أن يترك سدى﴾ أي: هملًا لا يؤمر ولا ينهى، ولا يحاسب ولا يعاقب، وقال السدي: معناه المهمل، ومنه إبل سدى أي: ترعى بلا راع، وقيل المعنى: يحسب أن يترك في قبره كذلك أبداً لا يبعث، وجملة ﴿الم يك نطفة من مني منى﴾ مستأنفة: أي: ألم يك ذلك الإنسان قطرة من مني يراق في الرحم، وسمي المنى منياً لإراقته، والنطفة: الماء القليل، يقال نطف الماء إذا قطر. قرأ الجمهور (الم يك) بالتحية على إرجاع الضمير إلى الإنسان. وقرأ الحسن بالفوقية على الالتفات إليه توبيخاً له. وقرأ الجمهور أيضاً (تمني) بالفوقية على أن الضمير للنطفة. وقرأ حفص، وابن محيصن، ومجاهد، ويعقوب بالتحية على أن الضمير للمني، ورويت هذه القراءة عن أبي عمرو، واختارها أبو حاتم ﴿ثم كان علقه﴾ أي: كان بعد النطفة علقه أي: نماً ﴿فخلق﴾ أي: فقدر بأن جعلها مضغة مخلقة ﴿فسوى﴾ أي: فعنكه وكمل نشاته، ونفخ فيه الروح ﴿فجعل منه﴾ أي: حصل من الإنسان، وقيل: من المنى ﴿الزوجين﴾ أي: الصنفين من نوع الإنسان. ثم بين ذلك فقال: ﴿الذكر والأنثى﴾ أي: الرجل والمرأة ﴿ليس لك﴾ أي: ليس لك الذي أنشأ هذا الخلق البديع وقدر عليه ﴿بقادر على أن يحيي الموتى﴾ أي: يعيد الأجسام بالبعث كما كانت عليه في الدنيا، فإن الإعادة أهون من الابتداء، وأيسر مؤنة منه. قرأ الجمهور (بقادر) وقرأ زيد بن علي (يقدر) فعلاً مضارعاً، وقرأ الجمهور (يحيي) بنصبه بأن. وقرأ طلحة بن سليمان، والفياض بن غزوان بسكونها تخفيفاً، أو على إجراء الوصل مجرى الوقف، كما مر في مواضع.

وقد أخرج ابن أبي الدنيا، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وقيل من راق﴾ قال: تنتزع نفسه حتى إذا كانت في تراقيه، قيل: من يرقى بروحه ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب. ﴿ولتفت الساق بالساق﴾ قال: التفت عليه الدنيا والآخرة، وملائكة العذاب أيهم يرقى به. وأخرج عبد بن حميد عنه ﴿وقيل من راق﴾ قل: من راق يرقى. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿ولتفت الساق بالساق﴾ يقول: آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة، فتلقى الشدة بالشدة إلا من رحم الله. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿يتمطى﴾ قال: يختال. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن سعيد بن جبير قال: سألت ابن عباس عن قوله: ﴿أولى لك فأولى﴾ أشيء قاله رسول الله ﷺ لأبي جهل من قبل نفسه، أم أمره الله به؟ قال: بل قاله من قبل نفسه، ثم أنزله الله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر،

من يرقى بروحه إلى السماء ملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب؟ وقيل: إنه يقول ذلك ملك الموت، وذلك أن نفس الكافر تكره الملائكة قريباها ﴿وظن أنه الفراق﴾ أي: وأيقن الذي بلغت روحه التراقي أنه الفراق من الدنيا ومن الأهل والمال والولد ﴿ولتفت الساق بالساق﴾ أي: التفت ساقه بساقه عند نزول الموت به. وقال جمهور المفسرين: المعنى تتابعت عليه الشدائد. وقال الحسن: هما ساقاه إذا التفتا في الكفن. وقال زيد بن أسلم: التفت ساق الكفن بساق الميت، وقيل: ماتت رجلاه ويبست ساقاه ولم تحملاه، وقد كان جواراً عليهما. وقال الضحاک: اجتمع عليه أمران شديدان: الناس يجهزون جسده، والملائكة يجهزون روحه. وبه قال ابن زيد. والعرب لا تذكر الساق إلا في الشدائد الكبار والمحن العظام، ومنه قولهم: قامت الحرب على ساق. وقيل: الساق الأول تعذيب روحه عند خروج نفسه، والساق الآخر شدة البعث وما بعده ﴿إلى ربك يومئذ المساق﴾ أي: إلى خالقك يوم القيامة المرجع، وذلك جمع العباد إلى الله يساقون إليه ﴿فلا صئق ولا صلى﴾ أي: لم يصئق بالرسالة ولا بالقرآن، ولا صلى لربه، والضمير يرجع إلى الإنسان المذكور في أول هذه السورة. قال قتادة: فلا صئق بكتاب الله ولا صلى لله، وقيل: فلا آمن بقلبه ولا عمل ببينه. قال الكسائي: لا بمعنى لم، وكذا قال الأخفش: والعرب تقول: لا ذهب أي: لم يذهب، وهذا مستفيض في كلام العرب، ومنه: إن تغفر اللهم تغفر جماً وأني عبيد لك لا الهما ﴿ولكن كذب وتولى﴾ أي: كذب بالرسول وبما جاء به، وتولى عن الطاعة والإيمان ﴿ثم ذهب إلى أهله يتمطى﴾ أي: يتبختر ويختال في مشيته افتخاراً بذلك. وقيل: هو مأخوذ من المطي، وهو الظهر، والمعنى: يلوي مطاه. وقيل: أصله يتمطط، وهو التمدد والتثاقل: أي: يتثاقل ويتكاسل عن الداعي إلى الحق ﴿أولى لك فأولى﴾ ثم أولى لك فأولى، أي: وليك الويل، وأصله: أولاك الله ما تكرهه، واللام مزيدة، كما في ﴿ربف لكم﴾ [النمل: 72] وهذا تهديد شديد، والتكرير للتأكيد أي: يتكرر عليك ذلك مرة بعد مرة. قال الواحدي: قال المفسرون: أخذ رسول الله ﷺ بيد أبي جهل، ثم قال: ﴿أولى لك فأولى﴾ فقال أبو جهل: بأي شيء تهدبني، لا تستطيع أنت ولا ربك أن تفعل بي شيئاً، وإني لأعز أهل هذا الوادي، فنزلت هذه الآية. وقيل معناه: الويل لك، ومنه قول الخنساء:

هممت بنفسي بعض الهمو م فأولى لنفسي أولى لها
 وعلى القول بأنه الويل، قيل: هو من المقلوب كأنه قيل: أول لك، ثم أخر الحرف المعتل. قيل: ومعنى التكرير لهذا اللفظ أربع مرات، والويل لك حياً، والويل لك ميتاً، والويل لك يوم البعث، والويل لك يوم تنخل النار. وقيل المعنى: إن الذم لك أولى لك من تركه. وقيل المعنى: أنت أولى وأجدر بهذا العذاب، قاله ثعلب. وقال الأصمعي: أولى في كلام العرب معناه مقاربة الهلاك. قال المبرد: كأنه يقول: قد وليت الهلاك

﴿إِذَا هِيَ إِذَا شَرِطِيَّة زَيْدَت بَعْدَهَا مَا أَيْ: بَيْنَا لَهُ الطَّرِيقَ إِنْ شَكَرَ وَإِنْ كَفَرَ. وَاخْتَارَ هَذَا الْفَرَاءَ، وَلَا يَجِيزُهُ الْبَصْرِيُّونَ؛ لِأَنَّ الْإِنْ شَرِطِيَّة لَا تَدْخُلُ عَلَى الْأَسْمَاءِ إِلَّا أَنْ يَضْمَرَ بَعْدَهَا فِعْلٌ، وَلَا يَصِحُّ هُنَا إِضْمَارُ الْفِعْلِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يُلْزَمُ رَفْعُ شَاكِرًا وَكَفُورًا. وَيُمْكِنُ أَنْ يَضْمَرَ فِعْلٌ يَنْصَبُ شَاكِرًا وَكَفُورًا، وَتَقْدِيرُهُ: إِنْ خَلَقْنَاهُ شَاكِرًا فَشَكَرَ، وَإِنْ خَلَقْنَاهُ كَافِرًا فَكَفَرَ، وَهَذَا عَلَى قِرَاءَةِ الْجُمْهُورِ (إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا) بِكَسْرِ هَمْزَةِ إِمَّا. وَقَرَأَ أَبُو السَّمَاكِ، وَأَبُو الْعَجَّاجُ بِفَتْحِهَا، وَهِيَ عَلَى الْفَتْحِ إِمَّا الْعَاطِفَةُ فِي لُغَةِ بَعْضِ الْعَرَبِ، أَوْ هِيَ التَّفْصِيلِيَّةُ، وَجَوَابُهَا مَقْدَرٌ، وَقِيلَ: انْتَصَبَ شَاكِرًا وَكَفُورًا بِإِضْمَارِ كَانَ، وَالتَّقْدِيرُ: سَوَاءٌ كَانَ شَاكِرًا أَوْ كَانَ كَفُورًا. ثُمَّ بَيَّنَّ سَبْحَانَهُ مَا أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ فَقَالَ: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا﴾ قَرَأَ نَافِعٌ، وَالْكَسَائِيُّ، وَأَبُو بَكْرٍ عَنْ عَاصِمٍ، وَهَشَامٌ عَنْ ابْنِ عَامِرٍ (سَلَاسِلًا) بِالتَّنْوِينِ، وَوَقَّفَ قَبْلَ عَنْ ابْنِ كَثِيرٍ، وَحَمْزَةً بِغَيْرِ أَلِفٍ، وَابْنُ الْقَافِ وَقَفُوا بِالْأَلِفِ. وَوَجْهٌ مَنْ قَرَأَ بِالتَّنْوِينِ فِي سَلَاسِلٍ مَعَ كَوْنِ فِيهِ صِيغَةٌ مُنْتَهَى الْجُمُوعِ أَنَّهُ قَصْدٌ بِئِذَاكَ التَّنَاسُبِ؛ لِأَنَّ مَا قَبْلَهُ وَهُوَ ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾، وَمَا بَعْدَهُ وَهُوَ ﴿أَغْلَالًا وَسَعِيرًا﴾ مُنَوَّنٌ، أَوْ عَلَى لُغَةٍ مِنْ يَصْرِفُ جَمِيعَ مَا لَا يَنْصَرِفُ، كَمَا حَكَاهُ الْكَسَائِيُّ، وَغَيْرُهُ مِنَ الْكُوفِيِّينَ عَنْ بَعْضِ الْعَرَبِ. قَالَ الْأَخْفَشُ: سَمِعْنَا مِنَ الْعَرَبِ مَنْ يَصْرِفُ كُلَّ مَا لَا يَنْصَرِفُ؛ لِأَنَّ الْأَصْلَ فِي الْأَسْمَاءِ الصَّرْفُ، وَتَرَكَ الصَّرْفَ لِعَارِضٍ فِيهَا. قَالَ الْفَرَاءُ: هُوَ عَلَى لُغَةٍ مِنْ يَجْرُ الْأَسْمَاءُ كُلُّهَا إِلَّا قَوْلَهُمْ: هُوَ أَظْرَفُ مِنْكَ، فَإِنَّهُمْ لَا يَجْرُونَهُ، وَأَنْشَدَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ فِي ذَلِكَ قَوْلَ عَمْرِو بْنِ كَلْثُومٍ:

كَانَ سَيُوفُنَا فِينَا وَفِيهِمْ مَخَارِيقُ بِلَيْدِي لِأَعْبِينَا
وَمَنْ ذَلِكَ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

وَإِذَا الرِّجَالُ رَأَوْا يُزِيدُ رَأْيَهُمْ خَضَعَ الرِّقَابَ نَوَاسِ الْأَبْصَارِ
بِكَسْرِ السَّيْنِ مِنْ نَوَاسِ، وَقَوْلُ لَبِيدٍ:
وَحَسُودَ أَسْتَارَ دَعَوْنِي لِحَتْفِهَا بِمَعَالِقٍ مُتَشَابِهٍ أَعْلَاقِهَا
وَقَوْلُهُ أَيْضًا:

فَضْلًا وَنُكْرَمَ يَعِينُ عَلَى النَّدَى سَمَحَ لَشُوبِ رَغَائِبِ غَنَامِهَا
وَقِيلَ: إِنَّ التَّنْوِينَ لِمُوَافَقَةِ رِسْمِ الْمُصَاحَفِ الْمَكِّيَّةِ وَالْمَدَنِيَّةِ
وَالْكُوفِيَّةِ فَإِنَّهَا فِيهَا بِالْأَلِفِ، وَقِيلَ: إِنَّ هَذَا التَّنْوِينَ بَدَلَ مِنْ
حَرْفِ الْإِطْلَاقِ، وَيَجْرِي الْوَصْلُ مَجْرَى الْوَقْفِ، وَالسَّلَاسِلُ قَدْ
تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهَا، وَالْخِلَافُ فِيهَا هَلْ هِيَ الْقَيُودُ، أَوْ مَا يَجْعَلُ
فِي الْأَعْنَاقِ، كَمَا فِي قَوْلِ الشَّاعِرِ:

..... وَلَكِنْ أَحْلَطْتُ بِالرَّقَابِ السَّلَاسِلَ وَالْأَغْلَالِ
جَمَعَ غُلٌّ تَغْلٌ بِهِ الْأَيْدِي إِلَى الْأَعْنَاقِ، وَالسَّعِيرِ: الْوَقُودِ
الشَّدِيدِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ السَّعِيرِ، ثُمَّ نَكَرَ سَبْحَانَهُ مَا أَعَدَّهُ
لِلشَّارِكِينَ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرُونَ مِنْ كَلَسٍ﴾ الْأَبْرَارُ:
أَهْلُ الطَّاعَةِ وَالْإِخْلَاصِ وَالصَّدْقِ، جَمَعَ بَرٌّ أَوْ بَارٌّ. قَالَ فِي
الصَّحَاحِ: جَمَعَ الْبَرُّ الْأَبْرَارَ، وَجَمَعَ الْبَارُّ الْبَرَّةَ، وَفَلَانٌ يَبْرُ
خَالِقَهُ وَيَبْرِرُهُ أَيْ: يَطِيعُهُ. وَقَالَ الْحَسَنُ: الْبَرُّ الَّذِي لَا يُؤْذِي
الذَّرَّ. وَقَالَ قَتَادَةُ: الْأَبْرَارُ الَّذِينَ يُؤَدُّونَ حَقَّ اللَّهِ وَيُؤْفِقُونَ بِالنَّذْرِ.

الْخَطَرُ وَالشَّرَفُ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّهُ لَنُكَرُّ لَكَ وَلِقَوْمُكَ﴾ [الزَّخْرَفُ: 44]. قَالَ الْقَشِيرِيُّ: مَا كَانَ مَنُكُورًا لِلخَلْقِ وَإِنْ كَانَ مَنُكُورًا لِلَّهِ سَبْحَانَهُ. قَالَ الْفَرَاءُ: كَانَ شَيْئًا وَلَمْ يَكُنْ مَنُكُورًا. فَجَعَلَ النَّفْيَ مُتَوَجِّهًا إِلَى الْقَيْدِ، وَقِيلَ الْمَعْنَى: قَدْ مَضَتْ أَزْمَةٌ وَمَا كَانَ أَدَمَ شَيْئًا، وَلَا مَخْلُوقًا وَلَا مَنُكُورًا لِأَحَدٍ مِنَ الْخَلِيقَةِ. وَقَالَ مِقَاتِلٌ: فِي الْكَلَامِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ، وَتَقْدِيرُهُ: هَلْ أَتَى حِينَ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَنُكُورًا؛ لِأَنَّهُ خَلَقَهُ بَعْدَ خَلْقِ الْحَيَوَانَ كُلِّهِ، وَلَمْ يَخْلُقْ بَعْدَهُ حَيَوَانَ ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ الْمُرَادُ بِالْإِنْسَانِ هُنَا ابْنُ أَدَمَ. قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: مِنْ غَيْرِ خِلَافٍ، وَالنُّطْفَةُ: الْمَاءُ الَّذِي يَقْطُرُ، وَهُوَ الْمَنِيُّ، وَكُلُّ مَاءٍ قَلِيلٍ فِي وَعَاءٍ فَهُوَ نُطْفَةٌ، وَجَمْعُهَا نُطَفٌ، وَ ﴿أَمْشَاجٌ﴾ صِفَةُ لِنُطْفَةٍ، وَهِيَ جَمْعُ مَشْجٍ أَوْ مَشِيجٍ، وَهِيَ الْأَخْلَاطُ، وَالْمُرَادُ: نُطْفَةُ الرَّجُلِ وَنُطْفَةُ الْمَرْأَةِ وَاخْتِلَاطُهُمَا. يَقَالُ: مَشَجَ هَذَا بِهَذَا، فَهُوَ مَمْشُوجٌ أَيْ: خَلَطَ هَذَا بِهَذَا فَهُوَ مَخْلُوطٌ. قَالَ الْمُبَرِّدُ: مَشَجَ يَمْشِجُ إِذَا اخْتَلَطَ، وَهُوَ هُنَا اخْتِلَاطُ النُّطْفَةِ بِالْأَدَمِ. قَالَ رُوَيْبَةُ بْنُ الْعَجَّاجِ:

يَطْرَحُنْ كُلَّ مَعْجَلٍ مَشَاجٍ لَمْ يَكْسُ جِلْدًا مِنْ دَمِ أَمْشَاجٍ
قَالَ الْفَرَاءُ: أَمْشَاجُ اخْتِلَاطِ مَاءِ الرَّجُلِ وَمَاءِ الْمَرْأَةِ، وَالْدَمُ وَالْعَلَقَةُ، وَيُقَالُ مَشَجَ هَذَا: إِذَا خَلَطَ، وَقِيلَ الْأَمْشَاجُ: الْحَمْرَةُ فِي الْبَيَاضِ وَالْبَيَاضُ فِي الْحَمْرَةِ. قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: وَهَذَا قَوْلٌ يَخْتَارُهُ كَثِيرٌ مِنَ أَهْلِ اللُّغَةِ. قَالَ الْهَنْلِيُّ:

كَانَ الرِّيشُ وَالْفُوقِيْنَ مِنْهُ حَلَّافَ النَّصْلِ نَيْطُ بِهِ مَشِيجٍ
وَذَلِكَ لِأَنَّ مَاءَ الرَّجُلِ أَبْيَضٌ غَلِيظٌ، وَمَاءُ الْمَرْأَةِ أَصْفَرُ رَقِيقٌ، فَيَخْلُقُ مِنْهُمَا الْوَلَدُ. قَالَ ابْنُ السَّكَيْتِ: الْأَمْشَاجُ: الْأَخْلَاطُ لِأَنَّهَا مَمْتَزِجَةٌ مِنْ أَنْوَاعٍ يَخْلُقُ الْإِنْسَانُ مِنْهَا وَطِبَاعٌ مُخْتَلِفَةٌ. وَقِيلَ: الْأَمْشَاجُ لَفْظٌ مُفْرَدٌ كَبْرَمَةً أَعْشَارَ، وَيُؤَيِّدُ هَذَا وَقَوْلُهُ نَعْتًا لِنُطْفَةٍ، وَجُمْلَةً ﴿نَبْتَلِيهِ﴾ فِي مَحَلِّ نَصَبٍ عَلَى الْحَالِ مِنْ فَاعِلٍ خَلَقْنَا أَيْ: مَرِيضِينَ ابْتِلَاءً، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالًا مِنَ الْإِنْسَانِ، وَالْمَعْنَى: نَبْتَلِيهِ بِالْخَيْرِ وَالشَّرِّ وَبِالتَّكْلِيفِ. قَالَ الْفَرَاءُ: مَعْنَاهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ ﴿جَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ نَبْتَلِيهِ، وَهِيَ: مُقَدِّمَةٌ مَعْنَاهَا التَّأْخِيرُ؛ لِأَنَّ الْإِبْتِلَاءَ لَا يَقَعُ إِلَّا بَعْدَ تَمَامِ الْخَلْقَةِ، وَعَلَى هَذَا تَكُونُ هَذِهِ الْحَالُ مُقَدَّرَةً، وَقِيلَ: مُقَارَنَةً. وَقِيلَ: مَعْنَى الْإِبْتِلَاءِ: نَقْلُهُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ عَلَى طَرِيقَةِ الِاسْتِعَارَةِ، وَالْأَوَّلُ أَوَّلِي، ثُمَّ نَكَرَ سَبْحَانَهُ أَنَّهُ أَعْطَاهُ مَا يَصِحُّ مَعَهُ الْإِبْتِلَاءُ، فَقَالَ: ﴿إِنَّا هَبْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ أَيْ: بَيْنَا لَهُ، وَعَرَّفْنَاهُ طَرِيقَ الْهُدَى وَالضَّلَالِ، وَالْخَيْرِ وَالشَّرِّ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَهَبْنَاهُ النَّجْدِينَ﴾ [الْبَلَدُ: 10] قَالَ مُجَاهِدٌ: أَيْ بَيْنَا السَّبِيلَ إِلَى الشَّقَاءِ وَالسَّعَادَةِ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ، وَالسَّدِيُّ، وَأَبُو صَالِحٍ: السَّبِيلُ هُنَا خُرُوجُهُ مِنَ الرَّحِمِ، وَقِيلَ: مَنَافِعُهُ وَمَضَارُّهُ الَّتِي يَهْتَدِي إِلَيْهَا بِطَبْعِهِ وَكَمَالِ عَقْلِهِ، وَانْتَصَابَ شَاكِرًا وَكَفُورًا عَلَى الْحَالِ مِنْ مَفْعُولٍ هَبْنَاهُ أَيْ: مَكْنَاهُ مِنْ سُلُوكِ الطَّرِيقِ فِي حَالَتِهِ جَمِيعًا، وَقِيلَ: عَلَى الْحَالِ مِنْ سَبِيلٍ عَلَى الْمَجَازِ أَيْ: عَرَّفْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا سَبِيلًا شَاكِرًا وَإِمَّا سَبِيلًا كَفُورًا. وَحَكَى مَكِّيٌّ عَنِ الْكُوفِيِّينَ أَنَّ قَوْلَهُ:

ويغفر إلى هنا وهنا. قال مجاهد: يقوبونها حيث شاءوا، وتتبعهم حيث مالوا مالت معهم، والجملة صفة أخرى لعيناً، وجملة ﴿يُوفُونَ بِالْغَدْرِ﴾ مستأنفة مسوقة لبیان ما لأجله رزقوا ما نكر، وكذا ما عطف عليها، ومعنى النذر في اللغة الإيجاب، والمعنى: يوفون بما أوجبه الله عليهم من الطاعات. قال قتادة، ومجاهد: يوفون بطاعة الله من الصلاة والحج ونحوهما. وقال عكرمة: يوفون إذا نذروا في حق الله سبحانه، والنذر في الشرع ما أوجبه المكلف على نفسه، فالمعنى: يوفون بما أوجبوه على أنفسهم. قال الفراء: في الكلام إضمار أي: كانوا يوفون بالنذر في الدنيا. وقال الكلبي: يوفون بالعهد أي: يتممون العهد. والأولى حمل النذر هنا على ما أوجبه العبد على نفسه من غير تخصيص ﴿وَيُخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً﴾ المراد يوم القيامة، ومعنى استطارة شره فشوه وانتشاره، يقال: استطار يستطير استطارة، فهو مستطير، وهو استفعل من الطيران، ومنه قول الأعشى:

نباتت وقد أثارت في الفؤاد صدعاً على نايها مستطيراً

والعرب تقول: استطار الصدع في القارورة والزجاجة: إذا امتد، ويقال استطار الحريق: إذا انتشر. قال الفراء: المستطير المستطيل. قال قتادة: استطار شرّ ذلك اليوم حتى ملأ السموات، والأرض. قال مقاتل: كان شره فاشياً في السموات، فانشقت وتناثرت الكواكب وفزعت الملائكة، وفي الأرض نسفت الجبال وغارت المياه ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مَشَكَّاتٍ وَبَيْتَاتٍ وَنِجَافٍ﴾ أي: يطعمون هؤلاء الثلاثة الأصناف الطعام على حبه لئلا يشبعوا، ومنه قوله: على حبه مجاهد: على قلته، وحبه لئلا يشبعوا، ومنه قوله: على حبه في محل نصب على الحال أي: كائنين على حبه، ومنه قوله: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: 92] وقيل: على حبّ الإطعام لرغبتهم في الخير. قال الفضيل بن عياض: على حبّ إطعام الطعام. وقيل: الضمير في حبه يرجع إلى الله أي: يطعمون الطعام على حبّ الله أي: يطعمون أطعماءاً كائناتاً على حبّ الله، ويؤيد هذا قوله: ﴿إِنَّمَا نَطْعَمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ﴾ والمسكين ذو المسكنة، وهو الفقير، أو من هو أفقر من الفقير، والمراد باليتيم يتامى المسلمين، والأسير الذي يؤسر فيحبس. قال قتادة، ومجاهد: الأسير المحبوس. وقال عكرمة: الأسير العبد. وقال أبو حمزة الثمالي: الأسير المرأة. قال سعيد بن جبیر: نسخ هذا الإطعام آية الصدقات، وآية السيف في حق الأسير الكافر. وقال غيره: بل هي محكمة، وإطعام المسكين واليتيم على التطوّع، وإطعام الأسير لحفظ نفسه إلى أن يتخير فيه الإمام، وجملة ﴿إِنَّمَا نَطْعَمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ﴾ في محل نصب على الحال بتقدير القول أي: يقولون إنما نطعمكم، أو قائلين إنما نطعمكم يعني: أنهم لا يتوقعون المكافأة ولا يريدون ثناء الناس عليهم بذلك. قال الواحدي: قال المفسرون: لم يستكملوا بهذا، ولكن علمه الله من قلوبهم فأنشأ عليهم، وعلم من ثنائه أنهم فعلوا ذلك

والكأس في اللغة هو الإناء الذي فيه الشراب، وإذا لم يكن فيه الشراب لم يسمّ كأساً، ولا وجه لتخصيصه بالزجاجة، بل يكون من الزجاج ومن الذهب والفضة والصيني وغير ذلك، وقد كانت كأسات العرب من أجناس مختلفة، وقد يطلق الكأس على نفس الخمر، كما في قول الشاعر:

وكأس شربت على لذة وأخرى تدلّيت منها بها
﴿كَانَ مَزَاجُهَا كَافُوراً﴾ أي: يخالطها، وتمزج به، يقال: مزجه يمزجه مزجاً أي: خلطه يخلطه خلطاً، ومنه قول الشاعر:

كان سببة من بيت راس كان مزاجها عسل وماء
وقول عمرو بن كلثوم:

صددت الكأس عنا أم عمرو وكان الكأس مجراها اليمين

معنتة كان الخصّ فيها إذا ما الماء خالطها سخينا
ومنه مزاج اللبن، وهو ما يمازجه من الأخلاط، والكافور قيل: هو اسم عين في الجنة يقال لها: الكافوري تمزج خمر الجنة بماء هذه العين. وقال قتادة، ومجاهد: تمزج لهم بالكافور وتختم لهم بالمسك. وقال عكرمة: مزاجها طعمها، وقيل: إنما الكافور في ريحها لا في طعمها. وقيل: إنما أراد الكافور في بياضه وطيب رائحته ويرده، لأن الكافور لا يشرب، كما في قوله: ﴿حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً﴾ [الكهف: 96] أي: كنار. وقال ابن كيسان: طيبها المسك والكافور والزنجبيل. وقال مقاتل: ليس هو كافور الدنيا، وإنما سمي الله ما عنده بما عنكم حتى تهتدي له القلوب، والجملة في محل جرّ صفة لكأس. وقيل: إن كان هنا زائدة أي: من كأس مزاجها كافوراً ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ انتصاب عيناً على أنها بدل من كافوراً؛ لأن ماها في بياض الكافور. وقال مكي: إنها بدل من محل ﴿مَنْ كَاسٌ﴾ على حذف مضاف، كأنه قيل: يشربون خمرأ خمر عين، وقيل: إنها منتصبه على أنها مفعول يشربون أي: عيناً من كأس، وقيل: هي منتصبه على الاختصاص، قاله الأخفش، وقيل: منتصبه بإضمار فعل يفسره ما بعده، أي: يشربون عيناً يشرب بها عباد الله، والأول أولى، وتكون جملة ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ صفة لعيناً. وقيل: إن الباء في ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ زائدة، وقيل: بمعنى من قاله الزجاج، ويعضده قراءة ابن أبي عبلة يشربها عباد الله. وقيل: إن يشرب مضمن معنى يلتذ، وقيل: هي متعلقة بيشرب، والضمير يعود إلى الكأس. وقال الفراء: يشربها ويشرب بها سواء في المعنى، وكان يشرب بها يروى بها، وينتفع بها وأنشد قول الهذلي:

شربن بماء البحر ثم ترفعت
قال: ومثله تكلم بكلام حسن، وتكلم كلاماً حسناً ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ أي: يجرونها إلى حيث يريدون، وينتفعون بها كما يشاءون، ويتبعهم ماؤها إلى كل مكان يريدون وصوله إليه، فهم يشقونها شقاً، كما يشقّ النهر

خوفاً من الله ورجاء ثوابه ﴿لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾ أي: لا نطلب منكم المجازاة على هذا الإطعام، ولا نريد منكم الشكر لنا، بل هو خالص لوجه الله، وهذه الجملة مقرونة لما قبلها؛ لأن من أطعم لوجه الله لا يريد المكافأة، ولا يطلب الشكر له ممن أطعمه ﴿إِنَّا خَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ أي: خاف عذاب يوم متصف بهاتين الصفتين، ومعنى ﴿عبوساً﴾: أنه يوم تعبس فيه الوجوه من هوله وشدة، فالمعنى: أنه ذو عبوس. قال الفراء، وأبو عبيدة، والمبرد: يوم قمطير وقماطر: إذا كان صعباً شديداً، وأنشد الفراء:

بني عمنا هل تذكرين بلاءنا عليكم إذا ما كان يوم قماطر
قال الاخفش: القمطير أشد ما يكون من الايام وأطولها في البلاء، ومنه قول الشاعر:

فغزوا إذا ما الحرب ثار غبارها ولج بها اليوم العبوس القماطر
قال الكسائي: اقطر اليوم وأزمهر: إذا كان صعباً شديداً، ومنه قول الشاعر:

بنو الحرب لو صينا لهم بقمطرة ومن يلق منا ذلك اليوم يهرب
وقال مجاهد: إن العبوس بالشفتين، والقمطير بالجبهة والحاجبين، فجعلهما من صفات المتغير في ذلك اليوم لما يراه من الشدائد، وأنشد ابن الأعرابي:

يقدر على الصيد يعود منكسر ويقمطر ساعة ويكفر
قال أبو عبيدة: يقال: قمطير أي: منقبض ما بين العينين والحاجبين. قال الزجاج: يقال اقمطرت الناقة: إذا رفعت ذنبها

وجمعت قطريها ورمت بانفها ما يسبقها من القطر، وجعل الميم مزيدة ﴿فَوَقَاهُمْ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ﴾ أي: نفع عنهم شره بسبب خوفهم منه وإطعامهم لوجهه ﴿وَلَقَاهُمْ نُصْرَةٌ وَسُرُورًا﴾ أي: أعطاهم بدل العبوس في الكفار نصرة في الوجود وسروراً في القلوب، قال الضحاك: والنصرة البياض والنقاء في وجوههم. وقال سعيد بن جببر: والحسن والبهاء وقيل: النصرة أثر النعمة ﴿وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا﴾ أي: بسبب صبرهم على التكليف، وقيل: على الفقر، وقيل: على الجوع، وقيل: على الصوم. والأولى حمل الآية على الصبر على كل شيء يكون الصبر عليه طاعة لله سبحانه، وما مصدرية، والتقدير: بصبرهم ﴿جَنَّةٍ وَحَرِيرٍ﴾ أي: أدخلهم الجنة والبسهم الحرير، وهو لباس أهل الجنة عوضاً عن تركه في الدنيا امتثالاً لما ورد في الشرع من تحريمه، وظاهر هذه الآيات العموم في كل من خاف من يوم القيامة وأطعم لوجه الله وخاف من عذابه، والسبب وإن كان خاصاً، كما سيأتي، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ويبدل سبب التنزيل تحت عمومها دخولاً أولياً.

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ قال: كل إنسان. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن ابن مسعود في قوله: ﴿أَمْشِاجٌ﴾ قال: أمشاجها عروقها. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي حاتم عروقها. قال: العروق. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي

تُتَكَيَّنُ فِيهَا عَلَى الْأَرْكَانِ لَا يَرُونَ فِيهَا شَسَا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿٧٦﴾ وَكَأَيَّةٍ عَلَيْهِمْ لِيلَتُهَا رُذِّلَتْ قُطْرُهَا تَذِيلًا ﴿٧٧﴾ رُتِلَتْ عَلَيْهِمْ لَيْلَتُهُمْ مِنْ فَضْرِ وَآكَافٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ﴿٧٨﴾ قَوَارِيرًا مِنْ فَضْرِ مَدْرَاهَا نَقِيرًا ﴿٧٩﴾ وَتُحْشَرُونَ فِيهَا كَأَسَا كَانَ رِجَالُهُمْ ذُخِيلًا ﴿٨٠﴾ فِيهَا يَبَا شَسٌّ سَلِيلًا ﴿٨١﴾ وَتُحْشَرُونَ عَلَيْهِمْ وَلَذُنَّ عَذَابُهُمْ إِذَا كَانَتْ حَبِيبَتُهُمْ لَوْلَا تُشَوَّرُ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ نَمَّ رَأَيْتَ فِيهَا وَمَلَكًا كَبِيرًا ﴿٨٣﴾ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُدُودٌ حُمْرٌ وَاسْتَبْرَقٌ وَكُلُوا أَشَارًا مِنْ فَضْرِ وَسَقَمَهُمْ رَبُّهُمْ شَرًّا كَلْهُورًا ﴿٨٤﴾ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُرْ جَزَاءً وَكَانَ سَعِيرًا تُشَقَّرُ ﴿٨٥﴾

قوله: ﴿مُتَكَيِّنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرْكَانِ﴾ منصوب على الحال من مفعول جزاهم، والعامل فيها جزى، ولا يعمل فيها صبروا؛ لأن الصبر إنما كان في الدنيا، وجوز أبو البقاء أن يكون صفة لجنة. قال الفراء: وإن شئت جعلت متكئين تابعاً، كأنه قال: جزاهمجنة متكئين فيها. وقال الاخفش: يجوز أن يكون منصوباً على المدح، والضمير من فيها يعود إلى الجنة، والأركان: السرر في الحجال، وقد تقدم تفسيرها في سورة الكهف ﴿لَا يَرُونَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ الجملة في محل نصب على الحال من مفعول جزاهم، فتكون من الحال المترادفة، أو من الضمير في متكئين، فتكون من الحال المتداخلة، أو صفة أخرى للجنة، والزَمْهَرِيرُ أشد البرد والمعنى: أنهم لا يرون في الجنة حرَّ الشمس ولا برد الزَمْهَرِيرِ، ومنه قول الأعشى:

منعمة طفلة كالمها لم تر شمساً ولا زَمْهَرِيرًا

وقال ثعلب: الزمهرير القمر بلغة طي، وأنشد لشاعرهم:

وليلة ظلامها قد اعتكر قطعنها والزمهرير ما زهر
ويروى ما ظهر أي: لم يطلع القمر، وقد تقدّم تفسير هذا
في سورة مريم ﴿ودانية عليهم ظلالها﴾ قرأ الجمهور
(دانية) بالنصب عطفاً على محل لا يرون، أو على متكئين،
أو صفة لمحذوف أي: وجنة دانية، كأنه قال: وجزاهم جنة
دانية. وقال الزجاج: هو صفة لجنة المتقدم ذكرها. وقال
الفراء: هو منصوب على المدح. وقرأ أبو حيوة (ودانية)
بالرفع على أنه خبر مقمّم، وظلالها مبتدأ مؤخر، والجملة في
موضع النصب على الحال، والمعنى: أن ظلال الأشجار
قريبة منهم مظلة عليهم زيادة في نعمتهم، وإن كان لا
شمس هنالك. قال مقاتل: يعني: شجرها قريب منهم. وقرأ
ابن مسعود (ودانية عليهم) ﴿ونللت قطوفها تنليلاً﴾
معطوف على دانية كأنه قال: ومنللة. ويجوز أن تكون الجملة
في محل نصب على الحال من الضمير في عليهم، ويجوز
أن تكون مستأنفة، والقطوف الثمار، والمعنى: أنها سخرت
ثمارها لمتناولها تسخيراً كثيراً بحيث يتناولها للقائم والقاعد
والمضطجع لا يردّ أبينهم عنها بعد ولا شوك. قال النحاس:
المذلل القريب المتناول، ومنه قولهم حائط نليل أي: قصير.
قال ابن قتيبة: نللت أنبت، من قولهم حائط نليل أي: كان
قصير السمك، وقيل: نللت أي: جعلت منقاداً لا تمتنع على
قطافها كيف شاءوا ﴿ويطاف عليهم بأنية من فضة
وأكواب﴾ أي: تدور عليهم الخدم إذا أرادوا الشراب بأنية
الفضة، والأكواب جمع ركوب، وهو: الكوز العظيم الذي لا
أذن له ولا عروة، ومنه قول عدي:

متكئ تفرغ أبوابه يسعى عليه العبد بالكوب

وقد مضى تفسيره في سورة الزخرف ﴿كانت قواريراً﴾
* قواريراً من فضة. أي: في وصف القوارير في الصفاء
وفي بياض الفضة، فصفاؤها صفاء الزجاج، ولونها لون
الفضة. قرأ نافع، والكسائي، وأبو بكر (قواريراً * قواريراً)
بالتنوين فيهما مع الوصل، وبالوقف عليهما بالالف، وقد
تقدّم وجه هذه القراءة في تفسير قوله: ﴿سلاسل﴾
[الإنسان: 4] من هذه السورة، وبينّا هنالك وجه صرف ما
فيه صيغة منتهى الجموع فارجع إليه. وقرأ حمزة بعدم
التنوين فيهما، وعدم الوقف بالالف، ووجه هذه القراءة ظاهر
لأنهما ممتنعان لصيغة منتهى الجموع. وقرأ هشام بعدم
التنوين فيهما مع الوقف عليهما بالالف، وقرأ ابن كثير
بتنوين الأوّل دون الثاني، والوقف على الأوّل بالالف دون
الثاني. وقرأ أبو عمرو، وحفص، وابن نكوان بعدم التنوين
فيهما، والوقف على الأوّل بالالف دون الثاني، والجملة في
محل جرّ صفة لأكواب. قال أبو البقاء: وحسن التكرير لما
اتصل به من بيان أصلها. قال الواحدي: قال المفسرون:
جعل الله قوارير أهل الجنة من فضة، فاجتمع لها بياض
الفضة وصفاء القوارير. قال الزجاج: القوارير التي في الدنيا
من الرمل، فأعلم الله فضل تلك القوارير أن أصلها من فضة

يرى من خارجها ما في داخلها، وجملة ﴿قدروها تقديرًا﴾
صفة لقوارير. قرأ الجمهور (قدروها) بفتح القاف على البناء
للفاعل أي: قدرها السقاة من الخدم الذين يطوفون عليهم
على قدر ما يحتاج إليه الشاربون من أهل الجنة من دون
زياد ولا نقصان. قال مجاهد وغيره: أتوا بها على قدر ربهـم
بغير زيادة ولا نقصان. قال الكلبي: وذلك لأنّ وأشهى، وقيل:
قدرها الملائكة، وقيل: قدرها أهل الجنة الشاربون على مقدار
شهواتهم وحاجتهم، فجاءت كما يريدون في الشكل لا تزيد
ولا تنقص. وقرأ عليّ، وابن عباس، والسلمي، والشعبي،
وزيد بن عليّ، وعبيد بن عمير، وأبو عمرو في رواية عنه
(قدروها) بضم القاف، وكسر الدال مبنياً للمفعول أي: جعلت
لهم على قدر إرادتهم. قال أبو عليّ الفارسي: هو من باب
القلب، قال: لأن حقيقة المعنى أن يقال: قدرت عليهم لا
قدروها؛ لأنه في معنى قدروا عليها. وقال أبو حاتم: التقدير
قدرت الأواني على قدر ربهـم، فمفعول ما لم يسمّ فاعله
محذوف. قال أبو حيان: والأقرب في تخريج هذه القراءة
الشاذة أن يقال: قدر ربهـم منها تقديرًا، فحذف المضاف،
فصار قدروها. وقال المهدي: إن القراءة الأخيرة يرجع
معناها إلى معنى القراءة الأولى، وكان الأصل قدروا عليها
فحذف حرف الجرّ، كما أنشد سيّوبه:

آليت حبّ العراق الدهر أكله والحب يكله في القرية السوس

أي: آليت عليّ حبّ العراق ﴿ويسقون فيها كأساً كان
مزاجها زنجبيلاً﴾ قد تقدّم أن الكأس هو الإناء فيه الخمر،
وإذا كان خالياً عن الخمر، فلا يقال له كأس، والمعنى: أن
أهل الجنة يسقون في الجنة كأساً من الخمر، ممزوجة
بالزنجبيل وقد كانت العرب تستلذّ مزج الشراب بالزنجبيل
لطيب رائحته. وقال مجاهد، وقتادة: الزنجبيل اسم للعين
التي يشرب بها المقرّبون. وقال مقاتل: هو زنجبيل لا يشبه
زنجبيل الدنيا ﴿عيناً فيها تسمى سلسبيلاً﴾ انتصاب عيناً
على أنها بدل من كأساً. ويجوز أن تكون منصوبة بفعل
مقدر أي: يسقون عيناً، ويجوز أن تكون منصوبة بنزع
الخافض أي: من عين، والسلسبيل: الشراب اللذيذ، مأخوذ
من السلاسة، تقول العرب: هذا شراب سلس، وسلسال،
وسلسبيل أي: طيب لذيّ. قال الزجاج: السلسبيل في اللغة
اسم لماء في غاية السلاسة حديد الجرية يسوغ في
حلقهم، ومنه قول حسان بن ثابت:

يسقون من ورد البريض عليهم كأساً يصفق بالرحيق السلسل

﴿ويطوف عليهم ولدان مخلدون﴾ لما فرغ سبحانه من
وصف شرابهم ووصف أنيتهم، ووصف السقاة الذين
يسقونهم ذلك الشراب. ومعنى ﴿مخلدون﴾: باقون على ما
هم عليه من الشباب، والطراوة، والنضارة، لا يهرمون، ولا
يتغيرون، وقيل معنى ﴿مخلدون﴾: لا يموتون، وقيل:
التخليد التحلية أي: محلون ﴿إذا رآيتهم حسبتهم لؤلؤاً
منثوراً﴾ إذا نظرت إليهم ظننتهم لمزيد حسنهم، وصفاء

والوانهم، ونضارة وجوههم لؤلؤاً مفرقاً. قال عطاء: يريد في بياض اللون وحسنه، واللؤلؤ إذا نثر من الخيط على البساط كان أحسن منه منظوماً. قال أهل المعاني: إنما شبهوا بالمنتثور لانثثارهم في الخدمة، ولو كانوا صفاً لشبهوا بالمنظوم، وقيل: إنما شبههم بالمنتثور؛ لأنهم سراع في الخدمة، بخلاف الحور العين. فإنه شبههن باللؤلؤ المكنون؛ لأنهن لا يمتحن بالخدمة **﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمَلَكًا كَبِيرًا﴾** أي: وإذا رميت ببصرك هناك، يعني: في الجنة رأيت نعيماً لا يوصف، وملكاً كبيراً لا يقادر قدره، وثم ظرف مكان، والعامل فيها رأيت. قال الفراء: في الكلام ما مضى، مضمرة، أي: وإذا رأيت ما ثم، كقوله: **﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾** [الأنعام: 94] أي: ما بينكم. قال الزجاج معترضاً على الفراء: إنه لا يجوز إسقاط الموصول وترك الصلة، ولكن رأيت يتعدى في المعنى إلى ثم. والمعنى: إذا رأيت ببصرك ثم، ويعني بثمر: الجنة. قال السدي: النعيم ما يتنعم به، والملك الكبير: استئذان الملائكة عليهم، وكذا قال مقاتل، والكلبي. وقيل: إن رأيت ليس له مفعول ملفوظ، ولا مقدر ولا منوي، بل معناه: أن بصرك أينما وقع في الجنة رأيت نعيماً وملكاً كبيراً **﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابٌ سَنَدُسٌ﴾** قرأ نافع، وحزمة، وابن محيصن (عاليهم) يسكون الياء وكسر الهاء على أنه خبر مقدم، وثياب مبتدأ مؤخر، أو على أن عاليهم مبتدأ، وثياب مرتفع بالفاعلية، وإن لم يعتمد الوصف، كما هو مذهب الأخفش. وقال الفراء: هو مرفوع بالابتداء، وخبره: ثياب سندس، واسم الفاعل مراد به الجمع. وقرأ الباقر بفتح الياء وضم الهاء على أنه ظرف في محل رفع على أنه خبر مقدم، وثياب مبتدأ مؤخر، كأنه قيل فوقهم ثياب. قال الفراء: إن عاليهم بمعنى فوقهم، وكذا قال ابن عطية. قال أبو حيان: عال وعالية اسم فاعل، فيحتاج في كونهما ظرفين إلى أن يكون منقولاً من كلام العرب، وقد تقدم إلى هذا الزجاج وقال: هذا مما لا نعرفه في الظروف ولو كان ظرفاً لم يجز إسكان الياء، ولكنه نصب على الحال من شيئين: أحدهما الهاء والميم في قوله: **﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾** أي: على الأبرار **﴿وَالِدَانِ﴾** عالياً الأبرار **﴿ثِيَابٌ سَنَدُسٌ﴾** أي: يطوف عليهم في هذه الحال. والثاني أن يكون حالاً من الولدان أي: إذا رأيتهن حسبتهم لؤلؤاً منتثوراً في حال علو الثياب أبدانهم. وقال أبو علي الفارسي: العامل في الحال إما لقاهم نضرة وسرور، وإما جزاهم بما صبروا. قال: ويجوز أن يكون ظرفاً. وقرأ ابن سيرين، ومجاهد، وأبو حيوة، وابن أبي عبيدة (عليهم)، وهي قراءة واضحة المعنى ظاهرة الدلالة. واختار أبو عبيدة القراءة الأولى لقراءة ابن مسعود (عاليتهن). وقرأ الجمهور بإضافة ثياب إلى سندس. وقرأ أبو حيوة، وابن أبي عبيدة بتنوين ثياب، وقطعها عن الإضافة، ورفع سندس، و **﴿خَضِرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾** على أن السندس نعت للثياب؛ لأن السندس نوع من الثياب، وعلى أن خضر نعت لسندس؛ لأنه يكون أخضر وغير أخضر، وعلى أن إستبرق معطوف على سندس أي:

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال: الزمهرير هو البرد الشديد. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «اشتكت النار إلى ربها فقالت: رب أكل بعضي بعضاً، فجعل لها نفسين: نفساً في الصيف، ونفساً في الشتاء، فشدة ما تجدون من البرد من زمهريرها، وشدة ما تجدون في

أهل أن يتبعوا، وكل واحد منهما أهل أن يتبع. وقال الفراء: «أو» هنا بمنزلة لا، كأنه قال: ولا كفوراً. وقيل المراد بقوله: «أثم» عتبة بن ربيعة، ويقول: «أو كفوراً» الوليد بن المغيرة؛ لأنهما قالا للنبي ﷺ: أرجع عن هذا الأمر، ونحن نرضيك بالمال والتزويج. «وانكر اسم ريك بكرة واصيلاً» أي: دم على نكره في جميع الأوقات. وقيل المعنى: صل لربك أول النهار وآخره، فأول النهار صلاة الصبح، وآخره صلاة العصر. «ومن الليل فاسجد له» أي: صل المغرب والعشاء. وقيل: المراد الصلاة في بعضه من غير تعيين، ومن للتبعيض على كل تقدير. «وسبحه ليلاً طويلاً» أي: نزهه عما لا يليق به، فيكون المراد: النكر بالتسبيح سواء كان في الصلاة، أو في غيرها. وقيل: المراد التطوع في الليل. قال ابن زيد، وغيره: إن هذه الآية منسوخة بالصلوات الخمس. وقيل: الأمر للندب. وقيل: هو مخصوص بالنبي ﷺ. «إن هؤلاء يحيون العاجلة» يعني: كفار مكة ومن هو موافق لهم. والمعنى: أنهم يحيون الدار العاجلة، وهي دار الدنيا «ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً» أي: يتركون، ويدعون وراءهم أي: خلفهم، أو بين أيديهم وإمامهم يوماً شديداً عسيراً، وهو يوم القيامة، وسمي ثقيلاً لما فيه من الشدائد والأهوال. ومعنى كونه يذرونه وراءهم: أنهم لا يستعنون له، ولا يعبئون به، فهم كمن ينبذ الشيء وراء ظهره تهاوناً به، واستخفافاً بشأته، وإن كانوا في الحقيقة مستقبليين له وهو أمامهم «نحن خلقناهم» أي: ابتدأنا خلقهم من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقه، ثم من مضغة إلى أن كمل خلقهم، ولم يكن لغيرنا في ذلك عمل ولا سعي لا اشتراكاً ولا استقلالاً «ووجدناهم سرهم» الأسر: شدة الخلق، يقال شد الله أسر فلان أي: قوى خلقه. قال مجاهد، وقتادة، ومقاتل، وغيرهم: شدنا خلقهم. قال الحسن: شدنا أوليائهم بعضاً إلى بعض بالعروق، والعصب. قال أبو عبيد: يقال فرس شديد الأسر أي: الخلق. قال لبيد:

ساهم الوجه شديد أسره مشرف الحارك محبوب القصد
وقال الأخطل:

من كل مجتنب شديد أسره سلس القياد تخاله مختالا
وقال ابن زيد: الأسر القوة، واشتقاقه من الإسار، وهو القد الذي تشد به الأقطاب، ومنه قول ابن أحمر يصف فرساً: يمشي بأوطفة شداد أسرها شمس لسيائك لا تفي بالجدجد «وإذا شئنا بثلثنا أمثالهم تبديلاً» أي: لو شئنا لأهلكناهم، وجئنا بأطوع الله منهم. وقيل المعنى: مسخناهم إلى أسمع صورة، وأقبح خلقه «إن هذه تنكرة» يعني: إن هذه السورة تنكير وموعظة «فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً» أي: طريقاً يتوسل به إليه، وذلك بالإيمان، والطاعة. والمراد إلى ثوابه، أو إلى جنته «وما تشاؤون إلا أن يشاء الله» أي: وما تشاؤون أن تتخذوا إلى الله سبيلاً إلا أن يشاء الله، فالأمر إليه سبحانه ليس إليهم، والخير والشر بيده، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، فمشيئة العبد مجردة لا

الصيف من الحر من سمومها». وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وهناد بن السري، وعبد بن حميد، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في البعث عن البراء بن عازب في قوله: «وإدانية عليهم ظلالها» قال: قريبة «ونثلت قطوفها تنزيلاً» قال: إن أهل الجنة يكلون من ثمار الجنة قياماً وقعوداً، ومضطجعين وعلى أي حال شاءوا. وفي لفظ قال: نثلت فيتناولون منها كيف شاءوا. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في البعث عن ابن عباس قال: «أنية من فضة» وصفاءها كصفاء القوارير «فقدروها تقديراً» قال: قنرت للكف. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، والبيهقي عنه قال: لو أخذت فضة من فضة الدنيا، فضربت بها حتى جعلتها مثل جناح النباب لم ير الماء من ورائها، ولكن قوارير الجنة بياض الفضة في صفاء القوارير. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: ليس في الجنة شيء إلا وقد أعطيت في الدنيا شبهه إلا قوارير من فضة. وأخرج الفريابي عنه أيضاً في قوله: «فقدروها تقديراً» قال: اتوا بها على قدر الفم لا يفضلون شيئاً، ولا يشتهون بعدها شيئاً. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عنه أيضاً: «فقدروها تقديراً» قال: قدرتها السقاة. وأخرج ابن المبارك، وهناد، وعبد بن حميد، والبيهقي في البعث عن ابن عمرو قال: إن أنى أهل الجنة منزلاً من يسعى عليه ألف خادم كل خادم على عمل ليس عليه صاحبه، وتلا هذه الآية: «إذا رأيتم حسبهم لؤلؤاً منثوراً».

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴿١٠١﴾ قَامِرٌ لِمَنْ رَكِبَهُ ﴿١٠٢﴾ لَا تَجْعَلْ مَنَّهُمْ دِينًا وَلَا كُفْرًا ﴿١٠٣﴾ وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿١٠٤﴾ مَنِ الْبَلَّ قَامِرًا ﴿١٠٥﴾ لَمْ يَسْمَعْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْكَلْبَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثِقِيلًا ﴿١٠٧﴾ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَرَدَدْنَاهُمْ أَسْرَفًا ﴿١٠٨﴾ وَإِنَّا شَاقُوا بَدَلًا أَتَيْنَاهُمْ بِبَيِّنَاتٍ ﴿١٠٩﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ يَذْكُرُونَ ﴿١١٠﴾ فَهُمْ شَرٌّ أَهْلًا ﴿١١١﴾ نَحْنُ نَزَّلْنَا الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴿١١٢﴾ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١٣﴾ يَذْكُرُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَةٍ وَالْعَظِيمِينَ ﴿١١٤﴾ أَفَدَّاهُمْ مِمَّنْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١١٥﴾

قوله: «إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلاً» أي: فرقناه في الإنزال، ولم ننزله جملة واحدة. وقيل المعنى: نزلناه عليك، ولم تأت به من عندك، كما يدعيه المشركون «فأصبر لحكم ربك» أي: لقضائه، ومن حكمه، وقضائه تلخير نصرك إلى أجل اقتضته حكمته. قيل: وهذا منسوخ بآية السيف «ولا تطع منهم أثماً أو كفوراً» أي: لا تطع كل واحد من مرتكب لإثم وغال في كفر، فنهاه الله سبحانه عن ذلك. قال الزجاج: إن الألف هنا أكد من الواو وحدها؛ لأنك إذا قلت: لا تطع زيداً، وعمرأ، فاطماً أحدهما كان غير عاص؛ لأنه أمره أن لا يطيع الاثنين، فإذا قال: لا تطع منهم أثماً أو كفوراً دل ذلك على أن كل واحد منهما أهل أن يعصى، كما أنك إذا قلت: لا تخالف الحسن أو ابن سيرين، فقد قلت إنهما

الكلام إلى المخاطب، والراجع أن الثلاثة الأول للرياح، والرابع والخامس للملائكة، وهو الذي اختاره الزجاج، والقاضي، وغيرهما **﴿عذراً أو نذراً﴾** انتصابهما على البدل من نكر، أو على المفعولية، والعامل فيهما المصدر المنون، كما في قوله: **﴿أو إطعام في يوم ذي مسغبة * يتيماً﴾** [البلد: 14، 15] أو على المفعول لأجله أي: للإعذار والإنذار، أو على الحال بالتأويل المعروف أي: معذرين أو منذرين. قرأ الجمهور بإسكان الذال فيهما. وقرأ زيد بن ثابت، وابنه خارجة بن زيد، وطلحة بضمهما. وقرأ الحرمان، وابن عامر، وأبو بكر بسكونها في عذراً وضمها في نذراً. وقرأ الجمهور (عذراً أو نذراً) على العطف بلو. وقرأ إبراهيم التيمي، وقاتدة على العطف بالواو بدون ألف، والمعنى: أن الملائكة تلقي الوحي إعداراً من الله إلى خلقه، وإنذاراً من عذابه، كذا قال الفراء، وقيل: عذراً للمحقين ونذراً للمبطلين. قال أبو علي الفارسي: يجوز أن يكون العذر والنذر بالتثنية جمع عاذر ونائر كقوله: **﴿هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّارِ الْأُولَى﴾** [النجم: 56] فيكون نصباً على الحال من الإلقاء أي: يلغون الذكر في حال العذر والإنذار أو مفعولان لنكر أي: تنكر عذراً أو نذراً. قال المبرد: هما بالتثنية جمع، والواحد عذير ونذير. ثم نكر سبحانه جواب القسم فقال: **﴿إِنَّمَا تَوَعَّدُونَ لَوَاقِعَ﴾** أي: إن الذي توعّدونه من مجيء الساعة والبعث كائن لا محالة، ثم بيّن سبحانه متى يقع ذلك، فقال: **﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمَسَتْ﴾** أي: محي نورها، وذهب ضوؤها، يقال طمس الشيء: إذا درس وذهب أثره **﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فَرَجَتْ﴾** أي: فتحت وشقت، ومثله قوله: **﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً﴾** [الأنبياء: 19] **﴿وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾** أي: قلعت من مكانها بسرعة، يقال: نسفت الشيء وأنسفته: إذا أخذته بسرعة. وقال الكلبي: سوّيت بالأرض، والعرب تقول: نسفت الناقة الكلا: إذا رعت، وقيل: جعلت كالحب الذي ينسف بالمنسف، ومنه قوله: **﴿وَبَسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً﴾** [الواقعة: 5] والأول أولى. قال المبرد: نسفت قلعت من مواضعها **﴿وَإِذَا الرُّسُلُ اقْتَتَتْ﴾** الهمزة في اقّئت بدل من الواو المضمومة، وكل واو انضمت، وكانت ضمتها لازمة يجوز إبدالها بالهمزة، وقد قرأ بالواو أبو عمرو، وشيبة، والأعرج، وقرأ الباقر بالهمزة، والوقت: الأجل الذي يكون عنده الشيء المؤخر إليه، والمعنى: جعل لها وقت للفصل والقضاء بينهم وبين الأمم، كما في قوله سبحانه: **﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾** [المائدة: 109] وقيل: هذا في الدنيا أي: جمعت الرسل لميقاتها الذي ضرب لها في إنزال العذاب بمن كذبها، والأول أولى. قال أبو علي الفارسي أي: جعل يوم الدين والفصل لها وقتاً، وقيل اقّئت: أرسلت لأوقات معلومة على ما علم الله به **﴿لَا يَوْمَ لُجُلَّتْ﴾** هذا الاستفهام للتعظيم والتعجيب أي: لا يَوْمٌ عظيم يعجب العباد منه لشِدَّتِهِ ومزيد أهواله ضرب لهم الأجل لجمعهم، والجملة مقول قول مقدر هو جواب لإذاً، أو في محل نصب على الحال من الضمير في اقّئت. قال الزجاج: المراد بهذا

التأقيت تبين الوقت الذي يحضرون فيه للشهادة على أممهم، ثم بيّن هذا اليوم فقال: **﴿لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾** قال قتادة: يفصل فيه بين الناس بأعمالهم إلى الجنة والنار، ثم عظم ذلك اليوم فقال: **﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾** أي: وما أعلمك بيوم الفصل يعني: أنه أمر بديع هائل لا يقاير قدره، وما مبتدأ وأدراك خبره، أو العكس كما اختاره سيبويه. ثم نكر حال الذين كذبوا بذلك اليوم فقال: **﴿وَيَلِ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾** أي: ويل لهم في ذلك اليوم الهائل، وييل أصل مصدر ساء مسد فعله، وعدل به إلى الرفع للدلالة على الثبات، والويل الهلاك، أو هو اسم واد في جهنم، وكرّر هذه الآية في هذه السورة؛ لأنه قسم الويل بينهم على قدر تكذيبهم، فإن لكل مكذب بشيء عذاباً سوى تكذيبه بشيء آخر، وربّ شيء كذب به هو أعظم جرماً من التكذيب بغيره، فيقسم له من الويل على قدر ذلك التكذيب. ثم نكر سبحانه ما فعل بالكفار من الأمم الخالية فقال: **﴿أَلَمْ نَهْلِكِ الْأَوَّلِينَ﴾** أخبر سبحانه بإهلاك الكفار من الأمم الماضية من لئن أتم إلى محمد ﷺ قال مقاتل: يعني: بالعذاب في الدنيا حين كذبوا رسلهم **﴿ثُمَّ نَتَّبِعُهُمُ الْآخَرِينَ﴾** يعني: كفار مكة، ومن وافقهم حين كذبوا محمداً ﷺ قرأ الجمهور (نتبعهم) بالرفع على الاستثناف أي: ثم نحن نتبعهم. قال أبو البقاء: ليس بمعطوف؛ لأن العطف يوجب أن يكون المعنى: أهلكتنا الأولين ثم اتبعناهم الآخرين في الإهلاك. وليس كذلك؛ لأن إهلاك الآخرين لم يقع بعد. ويدل على الرفع قراءة ابن مسعود (ثم سنتبعهم الآخرين) وقرأ الأعرج، والعباس عن أبي عمرو ونتبعهم بالجزم عطفاً على نهلك. قال شهاب الدين: على جعل الفعل معطوفاً على مجموع الجملة من قوله: **﴿أَلَمْ نَهْلِكِ﴾** **﴿كَذَلِكَ نَفْعِلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾** أي: مثل ذلك الفعل الفعلي نفعل بهم، يريد من يهلكه فيما بعد، والكاف في موضع نصب على النعت لمصدر محذوف أي: مثل ذلك الإهلاك نفعل بكل مشرك إما في الدنيا أو في الآخرة **﴿وَيَلِ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾** أي: ويل يوم ذلك الإهلاك للمكذّبين بكتب الله ورسله، قيل: الويل الأوّل لعذاب الآخرة، وهذا لعذاب الدنيا **﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾** أي: ضعيف حقير، وهو النطفة **﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾** أي: مكان حريز، وهو الرحم **﴿إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾** أي: إلى مقدار معلوم وهو مدة الحمل، وقيل: إلى أن يصور **﴿فَقَدَرْنَا﴾** قرأ الجمهور (فقدروا) بالتخفيف. وقرأ نافع، والكسائي بالتشديد من التقدير. قال الكسائي، والفراء: وهما لغتان بمعنى تقول: قدّرت كذا وقدرته **﴿فَنَعْمُ الْقَادِرُونَ﴾** أي: نعم المقدّرون نحن، قيل المعنى: قدّرناه قصيراً أو طويلاً، وقيل: معنى قدّرنا ملكنا **﴿وَيَلِ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾** بقدرتنا على ذلك، ثم بيّن لهم بديع صنعه، وعظيم قدرته ليعتبروا فقال: **﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتاً﴾** معنى الكفت في اللغة: الضم والجمع، يقال كفت الشيء: إذا ضمه وجمعه، ومن هذا يقال: للجراب والقدر كفت، والمعنى: أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ ضَامَةً لِلْأَحْيَاءِ عَلَى ظَهَرِهَا، وَالْأَمْوَاتِ فِي

أَطْلِقُوا إِلَى مَا كُتِبَ بِهِ تَعَذُّبُهُ ﴿١٦﴾ أَطْلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي تِلْكَ شَعْبٍ ﴿١٧﴾ لَا ظِلِّ وَلَا يَنْتَعِلُ مِنَ الْآلِهَةِ ﴿١٨﴾ إِنَّمَا تَرَىٰ بُكُورَ الْقَاصِرِ ﴿١٩﴾ كَأَنَّهُمْ جُمُلٌ مَّنْقَرٌ ﴿٢٠﴾ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢١﴾ هَذَا يَوْمٌ لَا يَظْلُمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَا يُؤْنَسُ لَمْ يَسْتَوِدُوا ﴿٢٣﴾ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ هَذَا يَوْمٌ الْقَصْرِ ﴿٢٥﴾ جَمْعُكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٢٧﴾ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٨﴾ إِنْ أَلْمِزْتُمْ فِي ظُلُمٍ وَعِثُونِ ﴿٢٩﴾ وَفَوَيْكَ يَا بَشِئُونَ ﴿٣٠﴾ كَلُوا وَاشْرَبُوا حَيْثُ بِمَا كُتِبَ تَمَلُّونَ ﴿٣١﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ ﴿٣٣﴾ كَلُوا وَنَسُوا قِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرِمُونَ ﴿٣٤﴾ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَكْفَرُوا لَا يَرْكَبُونَ ﴿٣٦﴾ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِّي حَسِبْتُ بِسْمِ يَوْمَئِذٍ ﴿٣٨﴾

﴿انطلقوا إلى ما كنتم﴾ هو بتقدير القول أي: يقال لهم توبيخاً وتقريباً ﴿انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون﴾ في الدنيا، تقول لهم ذلك خزنة جهنم أي: سيروا إلى ما كنتم تكذبون به من العذاب، وهو عذاب النار ﴿انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب﴾ أي: إلى ظل من سخان جهنم قد سطح، ثم افترق ثلاث فرق تكونون فيه حتى يفرغ الحساب، وهذا شأن السخان العظيم إذا ارتفع تشعب شعباً. قرأ الجمهور (انطلقوا) في الموضعين على صيغة الأمر على التأكيد. وقرأ رويس عن يعقوب بصيغة الماضي في الثاني أي: لما أمروا بالانطلاق امتثلوا ذلك، فانطلقوا. وقيل: المراد بالظل هنا هو السرائق، وهو لسان من النار يحيط بهم. ثم يتشعب ثلاث شعب، فيظلهم حتى يفرغ من حسابهم، ثم يصيرون إلى النار. وقيل: هو الظل من يحوم، كما في قوله: ﴿في سموم وحميم * وظل من يحوم﴾ [الواقعة: 42، 43] على ما تقدم. ثم وصف سبحانه هذا الظل تهكماً بهم فقال: ﴿لا ظليل ولا يغني من اللهب﴾ أي: لا يظل من الحر، ولا يغني من اللهب. قال الكلبي: لا يرد حر جهنم عنكم. ثم وصف سبحانه النار فقال: ﴿إنها ترمي بشر كالقصر﴾ أي: كل شررة من شررها التي ترمي بها كالقصر من القصور في عظمها، والشرر: ما تطاير من النار متفرقاً، والقصر: البناء العظيم. وقيل: القصر جمع قصرة ساكنة الصاد مثل حمر وحمرة، وتمر وتمرة، وهي الواحدة من جزل الحطب الغليظ. قال سعيد بن جبیر، والضحاك: وهي أصول الشجر العظام، وقيل: أعناقهم. قرأ الجمهور (كالقصر) بإسكان الصاد، وهو واحد القصور، كما تقدم. وقرأ ابن عباس، ومجاهد، وحמיד، والسلمي بفتح الصاد أي: أعناق النخل، والقصرة العنق جمعه قصر وقصرات. وقال قتادة: أعناق الإبل. وقرأ سعيد بن جبیر بكسر القاف، وفتح الصاد، وهي أيضاً جمع قصرة مثل بدر وبدر، وقصع وقصعة. وقرأ الجمهور (بشر) بفتح الشين. وقرأ ابن عباس، وابن مقسم بكسرها مع الف بين الراءين. وقرأ عيسى كذلك إلا أنه يفتح الشين، وهي لغات، ثم شبه الشرر باعتبار لونه فقال: ﴿كانه جمالات صفرة﴾ وهي جمع جمال، وهي الإبل، أو جمع

باطنها تضمهم وتجمعهم. قال الفراء: يريد تكفتم أحياء على ظهرها في دورهم ومنزلهم وتكفتم أمواتاً في بطنها أي: تحوزهم وهو معنى قوله: ﴿أحياء وأموات﴾ وأنشد سيويه: كرام حين تنكفت الأفاعي إلى أبحارهم من الصقيع قال أبو عبيدة: كفاتاً أوعية، ومنه قول الشاعر:

فانت اليوم فوق الأرض حي واثت غداً تضمن في كفات أي: في قبر، وقيل: معنى جعلها كفاتاً: أنه يدفن فيها ما يخرج من الإنسان من الفضلات. وقال الأخفش، وأبو عبيدة: الأحياء والأموات وصفان للأرض أي: الأرض منقسمة إلى حي وهو الذي ينبت، وإلى ميت وهو الذي لا ينبت. قال الفراء: انتصاب أحياء، وأمواتاً يوقوع الكفات عليه أي: الم نجعل الأرض كفات أحياء وأموات، فإذا نون نصب ما بعده، وقيل: نصباً على الحال من الأرض أي: منها كذا ومنها كذا، وقيل: هو مصدر نعت به للمبالغة. وقال الأخفش: كفاتاً جمع كافئة، والأرض يراد بها الجمع، فنعتت بالجمع. وقال الخليل: التكتف تقلب الشيء ظهراً لبطن، أو بطناً لظهر، ويقال انكفت القوم إلى منازلهم أي: ذهبوا ﴿وجعلنا فيها رواسي شامخات﴾ أي: جبلاً طوالاً، والرواسي الثوابت، والشامخات الطوال، وكل عال فهو شامخ ﴿وسقيناكم ماء فراتاً﴾ أي: عنباً، والفرات الماء العذب يشرب منه ويسقى به. قال مقاتل: وهذا كله أعجب من البعث ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ بما اتعنا عليهم من نعمنا التي هي من جملتها.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن أبي هريرة ﴿والمرسلات عرفاً﴾ قال: هي الملائكة أرسلت بالعرف. وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود ﴿والمرسلات عرفاً﴾ قال: الريح ﴿فالعاصفات عصفاً﴾ قال: الريح ﴿والناشرات نشرأ﴾ قال: الريح. وأخرج ابن راهويه، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب أنه جاء رجل إلى علي بن أبي طالب، فقال: ما العاصفات عصفاً؟ قال الرياح. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس: ﴿والمرسلات عرفاً﴾ قال: الريح ﴿فالعاصفات عصفاً﴾ قال: الريح ﴿فالفارقات فرقا﴾ قال: الملائكة ﴿فالملقىات نكراً﴾ قال: الملائكة. وأخرج ابن المنذر عنه: ﴿والمرسلات عرفاً﴾ قال: الملائكة ﴿فالفارقات فرقا﴾ قال: الملائكة، فرقت بين الحق والباطل ﴿فالملقىات نكراً﴾ قال: بالتنازل. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر عن ابن مسعود قال: ويل واد في جهنم يسيل فيه صديد أهل النار، فجعل للمكذبين. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس: ﴿من ماء مهين﴾ قال: ضعيف. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه ﴿كفاتاً﴾ قال: كنا. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضاً: ﴿رواسي شامخات﴾ قال: جبلاً مشرفات، وفي قوله: ﴿فراتاً﴾ قال: عنباً.

للمكذّبين ﴿بما دعيتهم إليه الرسل، وأنذرتهم عاقبته﴾ هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين ﴿أي: ويقال لهم: هذا يوم الفصل الذي يفصل فيه بين الخلاق، ويتميز فيه الحق من الباطل، والخطاب في جمعناكم للكفار في زمن نبينا محمد ﷺ، والمراد بالأولين كفار الأمم الماضية ﴿فإن كان لكم كيد﴾ أي: إن قدرتم على كيد الآن ﴿فكيدون﴾ وهذا تقريع وتوبيخ لهم. قال مقاتل: يقول إن كان لكم حيلة فاحتالوا لانفسكم، وقيل المعنى: فإن قدرتم على حرب فحاربوا، وقيل: إن هذا من قول النبي ﷺ، فيكون كقول هود:

﴿فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون﴾ [هود: 55] ﴿ويل يومئذ للمكذّبين﴾ لأنه قد ظهر لهم عجزهم، وبطان ما كانوا عليه في الدنيا. ثم نكر سبحانه المؤمنين فقال: ﴿إن للمتقين في ظلال وعيون﴾ أي: في ظلال الأشجار وظلال القصور، لا كالظل الذي للكفار من المخان، أو من النار كما تقدّم. قال مقاتل، والكلبي: المراد بالمتقين الذين يتقون الشرك بالله؛ لأن السورة من أولها إلى آخرها في تقريع الكفار على كفرهم. قال الرازي: فيجب أن تكون هذه الآية مذكورة لهذا الغرض، وإلا لتفككت السورة في نظمها وترتيبها، وإنما يتمّ النظم بأن يكون الوعد للمؤمنين بسبب إيمانهم، فاما جعله سبباً للطاعة فلا يليق بالنظم كذا قال والمراد بالعيون الأنهار، وبالفواكه ما يتفكه به مما تطلبه أنفسهم وتستدعيه شهواتهم ﴿كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون﴾ أي: يقال لهم ذلك، فالجملة مقترنة بالقول، وهي في محل نصب على الحال من ضمير المتقين، والباء للسببية أي: بسبب ما كنتم تعملونه في الدنيا من الأعمال الصالحة ﴿إنّا كذلك نجزي المحسنين﴾ أي: مثل تلك الجزاء العظيم نجزي المحسنين في أعمالهم، قرأ الجمهور (في ظلال). وقرأ الأعمش، والزهري، وطلحة، والأعرج: (في ظلل) جمع ظلة ﴿ويل يومئذ للمكذّبين﴾ حيث صاروا في شقاء عظيم، وصار المؤمنون في نعيم مقيم ﴿كلوا وتمتعوا قليلاً إنكم مجرمون﴾ الجملة بتقدير القول في محل نصب على الحال من المكذّبين أي: الولي ثابت لهم في حال ما يقال لهم ذلك تنكير لهم بحالهم في الدنيا، أو يقال لهم هذا في الدنيا، والمجرمون المشركون بالله، وهذا وإن كان في اللفظ أمراً فهو في المعنى تهديد وزجر عظيم ﴿ويل يومئذ للمكذّبين﴾ كثره لزيادة التوبيخ والتقريع ﴿وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون﴾ أي: وإذا أمروا بالصلاة لا يصلون. قال مقاتل: نزلت في تقيف امتنعوا من الصلاة بعد أن أمرهم النبي ﷺ بها فقالوا: لا ننحنى، فإنها مسبة علينا، فقال النبي ﷺ: «لا خير في بين ليس فيه ركوع ولا سجود». وقيل: إنما يقال لهم ذلك في الآخرة حين يدعون إلى السجود فلا يستطيعون. وقيل: للمعنى بالركوع: الطاعة والخشوع ﴿ويل يومئذ للمكذّبين﴾ بأوامر الله سبحانه ونواهيهم ﴿فبأي حديث بعده يؤمنون﴾ أي: فبأي حديث بعد القرآن يصنّفون إذا لم يؤمنوا به. قرأ الجمهور

جمالة. قرأ الجمهور (جمالات) بكسر الجيم. وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص (جمالة) جمع جمل. وقرأ ابن عباس، والحسن، وابن جبير، وقتادة، وأبو رجاء: (جمالات) بضم الجيم، وهي حيال السفن. قال الواحدي: والصفر معناها السود في قول المفسرين. قال الفرّاء: الصفر سواد الإبل لا يرى أسود من الإبل إلا وهو مشرب صفرة، لذلك سمت العرب سود الإبل صفراً. قيل: والشر إذا تطاير وسقط وفيه بقية من لون النار أشبه شيء بالإبل السود، ومنه قول الشاعر:

تلك خيلي وتلك ركابي هنّ صفر لولدها كالزبيب
أي: هنّ سود، قيل: وهذا القول محال في اللغة أن يكون شيء يشوبه شيء قليل، فينسب كله إلى ذلك الشائب، فالعجب لمن قال بهذا، وقد قال تعالى: ﴿جمالات صفر﴾. واجيب بأن وجهه أن النار خلقت من النور، فهي مضيئة، فلما خلق الله جهنم، وهي موضع النار حشى تلك الموضع بتلك النار، ويعد إليها سلطانه وغبضه، فأسوت من سلطانه وأزدلت سوداً، وصارت أشدّ سوداً من كل شيء، فيكون شررها أسود لأنه من نار سوداء.

قلت: وهذا الجواب لا يدفع ما قاله القائل؛ لأن كلامه باعتبار ما وقع في الكتاب العزيز هنا من وصفها بكونها صفراء، فلو كان الأمر، كما نكره المجيب من اسوداد النار، واسوداد شررها، لقال الله: كأنها جمالات سود، ولكن إذا كانت العرب تسمي الأسود أصفر لم يبق إشكال؛ لأن القرآن نزل بلغتهم، وقد نقل الثقات عنهم ذلك، فكان ما في القرآن هنا وارداً على هذا الاستعمال العربي ﴿ويل يومئذ للمكذّبين﴾ لرسول الله وآياته ﴿هذا يوم لا ينطقون﴾ أي: لا يتكلمون قال الواحدي: قال المفسرون: في يوم القيامة مواقف، ففي بعضها يتكلمون، وفي بعضها يختم على أفواههم فلا يتكلمون، وقد قدّمنا الجمع بهذا في غير موضع. وقيل: إن هذا إشارة إلى وقت دخولهم النار وهم عند ذلك لا ينطقون؛ لأن مواقف السؤال والحساب قد انقضت. وقال الحسن: لا ينطقون بحجة، وإن كانوا ينطقون. قرأ الجمهور برفع (يوم) على أنه خير لإسم الإشارة. وقرأ زيد بن علي، والأعرج، والأعمش، وأبو حيوة، وعاصم في رواية عنه بالفتح على البناء لإضافته إلى الفعل، ومحل الرفع على الخبرية، وقيل: هو منصوب على الظرفية، والإشارة بهذا إلى ما تقدّم من الوعيد؛ كأنه قيل: هذا العقاب المنكور كائن يوم لا ينطقون ﴿ولا يؤذن لهم فيعتزون﴾ قرأ الجمهور: (يؤذن) على البناء للمفعول، وقرأ زيد بن علي (ولا يائن) على البناء للمفعول أي: لا يائن الله لهم أي: لا يكون لهم إن من الله فيكون لهم اعتذار من غير أن يجعل الاعتذار مسبباً عن الإذن كما لو نصب. قال الفرّاء: الفاء في فيعتزون نسق على يؤذن، وأجيز ذلك؛ لأن أواخر الكلام بالنون، ولو قال فيعتزون لم يوافق الآيات، وقد قال: ﴿لا يقضى عليهم فيموتوا﴾ [فاطر: 36] بالنصب، والكل صواب ﴿ويل يومئذ

سَيَكُونُونَ ﴿١٦﴾ وَذُلًّا سَيَكُونُونَ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ مَهْدًا ﴿١٨﴾ وَالْجِبَالَ أَوْدَادًا ﴿١٩﴾ وَخَلَقْتَهُمْ أَزْوَاجًا ﴿٢٠﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمُ سُبُلًا ﴿٢١﴾ وَجَعَلْنَا الْبَلَدَ لَبَاسًا ﴿٢٢﴾ وَجَعَلْنَا الْآلِهَةَ مَعَالًا ﴿٢٣﴾ وَبَيْنَهُمْ قَرْعَةً سَبًّا ﴿٢٤﴾ وَجَعَلْنَا رِبَكُمَا وَجَعَلْنَا وَأَرْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً نَّجَافًا ﴿٢٥﴾ لِيُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿٢٦﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿٢٧﴾ إِنَّ يَوْمَ الْقَضَاءِ كَانَ يَفَقًا ﴿٢٨﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الْعُشُورِ قَاتُونَ أَزْوَاجًا ﴿٢٩﴾ وَتُحْمَلُهُ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿٣٠﴾ وَسُورَتِ الْجِبَالِ كَانَتْ سُرَابًا ﴿٣١﴾ إِنَّهَا جَهَنَّمُ كَانَتْ سُرَابًا ﴿٣٢﴾ لِلظَّالِمِينَ مَكَابًا ﴿٣٣﴾ لِيُثْبِتَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٣٤﴾ لَا يَدْخُلُونَهَا فِيهَا بَرْدٌ وَلَا نَارٌ ﴿٣٥﴾ إِلَّا حَيْثُ وَغَدَاةٌ ﴿٣٦﴾ جَرَاءٌ وَفَاقَةٌ ﴿٣٧﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجِعُونَ حِسَابًا ﴿٣٨﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كَذَابًا ﴿٣٩﴾ وَكُلُّ قَوْمٍ أَهْلُ سَيْتَةٍ كَتَبْنَا قُدْرَتَنَا عَلَيْنَ رَيْدِكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٤٠﴾

قوله: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ أصله عن ما فادغمت النون في الميم؛ لأن الميم تشاركها في الغنة، كذا قال الزجاج، وحذفت الألف؛ لتمييز الخبر عن الاستفهام، وكذلك فيم ومم ونحو ذلك، والمعنى: عن أي شيء يسأل بعضهم بعضاً. قرأ الجمهور: (عم) بحذف الألف لما نكرنا، وقرأ أبي، وابن مسعود، وعكرمة، وعيسى بإثباتها، ومنه قول الشاعر:

علاما قام يشتمني لثيم كخنزير تمرغ في دمان
ولكنه قليل لا يجوز إلا للضرورة، وقرأ البزي بهاء السكت عوضاً عن الألف، وروي ذلك عن ابن كثير. قال الزجاج: اللفظ لفظ استفهام، والمعنى تفخيم القصة كما تقول: أي شيء تريد؛ إذا عظمت شأنه. قال الواحدي: قال المفسرون: لما بعث رسول الله ﷺ، وأخبرهم بتوحيد الله، والبعث بعد الموت، وتلا عليهم القرآن، جعلوا يتساءلون بينهم يقولون: ماذا جاء به محمد، وما الذي أتى به؟ فانزل الله: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ قال الفراء: للتساؤل هو أن يسأل بعضهم بعضاً كالتقابل، وقد يستعمل أيضاً في أن يتحدثوا به، وإن لم يكن بينهم سؤال. قال الله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ قال قائل منهم: إني كان لي قرين ﴿[الصفافات: 50، 51] الآية﴾، وهذا يدل على أنه التحدث، ولفظ ما موضوع لطلب حقائق الأشياء، وذلك يقتضي كون المطلوب مجهولاً، فجعل الشيء العظيم الذي يعجز العقل عن أن يحيط بكنهه كأنه مجهول، ولهذا جاء سبحانه بلفظ ما. ثم نكر سبحانه تسأولهم عن ماذا وبينه فقال: ﴿عَنِ النَّبَاِ الْعَظِيمِ﴾ فأورده سبحانه أولاً على طريقة الاستفهام مبهماً؛ لتوجه إليه أذهانهم، وتلفت إليه أفعالهم، ثم بينه بما يفيد تعظيمه، وتفخيمه كأنه قيل: عن أي شيء يتساءلون هل أخبركم به؟ ثم قيل بطريق الجواب: ﴿عَنِ النَّبَاِ الْعَظِيمِ﴾ على منهاج قوله: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [الواحد القهار] [غافر: 16] فالجاء والمجروح متعلق بالفعل الذي قبله، أو بما يدل عليه. قال ابن عطية: قال أكثر النحاة: عن النبا العظيم متعلق ببيتساءلون الظاهر، كأنه قال: لم يتساءلون عن النبا العظيم، وقيل: ليس بمتعلق بالفعل المنكسر؛ لأنه كان يلزم دخول حرف الاستفهام، فيكون التقدير: عن النبا العظيم؟

(يؤمنون) بالتحية على الغيبة. وقرأ ابن عامر في رواية عنه، ويعقوب بالفوقية على الخطاب.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿بَشِّرْ كَالْقَصْرِ﴾ قال: كالقصر العظيم، وقوله: ﴿جَمَالَاتٍ صَفَرٍ﴾ قال: قطع النحاس. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وهناد، وعبد بن حميد، والبخاري، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم، وابن مروييه من طريق عبد الرحمن بن عباس قال: سمعت ابن عباس يسأل عن قوله: ﴿إِنهَا تَرْمِي بِشَرِّ كَالْقَصْرِ﴾ قال: كنا نرفع الخشب بقدر ثلاثة أذرع أو أقل، فنرفعه للشتاء، فنسميه القصر. قال: وسمعت يسأل عن قوله: ﴿جَمَالَاتٍ صَفَرٍ﴾ قال: حبال السفن يجمع بعضها إلى بعض حتى يكون كالوسطاء الرجال. ولفظ البخاري: كنا نعد إلى الخشب ثلاثة أذرع وفوق ذلك فنرفعه للشتاء فنسميه القصر ﴿كَأَنَّهُ جَمَالَاتٍ صَفَرٍ﴾ حبال السفن تجمع حتى تكون كالوسطاء الرجال. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه أنه قرأ (كالقصر) بفتح القاف والصاد. وقال قصر النخل يعني: الأعناق. وأخرج ابن مروييه عنه أيضاً قال: كانت العرب في الجاهلية تقول: أقصروا لنا الحطب، فيقطع على قدر النزاع والزراعين. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني في الأوسط: عن ابن مسعود في قوله: ﴿تَرْمِي بِشَرِّ كَالْقَصْرِ﴾ قال: إنها ليست كالشجر والجبال، ولكنها مثل المدائن والحصون. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿كَالْقَصْرِ﴾ قال: هو القصر، وفي قوله: ﴿جَمَالَاتٍ صَفَرٍ﴾ قال: الإبل. وأخرج الحاكم وصححه من طريق عكرمة قال: سأل نافع ابن الأزرق ابن عباس عن قوله: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ﴾ [ولا تسمع إلا همساً] [طه: 108] و﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الصفافات: 27] و﴿هَآؤُمْ أَقْرَبُوا﴾ كتابيه [الحاقة: 19] فقال له: ويحك هل سألت عن هذا أحداً قبلي؟ قال: لا، قال: أما أنك لو كنت سألت هلكت، ليس قال الله: ﴿وَأَنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعْتَوْنَ﴾ [الحج: 47] قال بلى، قال: فإن لكل مقدار يوم من هذه الأيام لوناً من الألوان. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ يقول: يدعون يوم القيامة إلى السجود، فلا يستطيعون من أجل أنهم لم يكونوا يسجدون لله في الدنيا.

تفسير سورة النبا

وهي مكية عند الجميع. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مروييه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ بمكة. وأخرج ابن مروييه عن ابن الزبير مثله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَاِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُوَ يَوْمَ تُخْلَفُونَ ﴿٣﴾

تكنيبيهم ﴿ثم كلا سيعلمون﴾ يعني: المؤمنين عاقبة تصديقهم، وقيل: بالعكس، وقيل: هو وعيد بعده وعيد، وقيل المعنى: ﴿كلا سيعلمون﴾ عند النزاع ﴿ثم كلا سيعلمون﴾ عند البعث، ثم نكر سبحانه ببيع صنعه، وعظيم قدرته؛ ليعرفوا توحيده، ويؤمنوا بما جاء به رسوله فقال: ﴿الم نجعل الأرض مهاداً * والجيال أوتاداً﴾ أي: قدرتنا على هذه الأمور المذكورة أعظم من قدرتنا على الإعادة بالبعث، والمهاد الوطاء، والفرش، كما في قوله: ﴿الذي جعل لكم الأرض فراشاً﴾ [البقرة: 22] قرأ الجمهور (مهاداً) وقرأ مجاهد، وعيسى، وبعض الكوفيين: (مهاداً) والمعنى: أنها كال مهد للصبي وهو ما يمهّد له فينوم عليه. والأوتاد جمع وتد: أي: جعلنا الجبال أوتاداً للأرض؛ لتسكن ولا تتحرك، كما يرسي الخيام بالأوتاد، وفي هذا دليل على أن التساؤل الكائن بينهم هو عن أمر البعث، لا عن القرآن، ولا عن نبوة محمد ﷺ، كما قيل؛ لأن هذا الدليل إنما يصلح للاستدلال به على البعث ﴿وخلقناكم أزواجاً﴾ معطوف على المضارع المنفي داخل في حكمه، فهو في قوة أما خلقناكم، والمراد بالازواج هنا الأصناف أي: النكور والإناث، وقيل: المراد بالازواج الألوان، وقيل: يدخل في هذا كل زوج من المخلوقات عن قبيح وحسن وطويل وقصير ﴿وجعلنا نومكم سباتاً﴾ أي: راحة لأبدانكم. قال الزجاج: السبات أن ينقطع عن الحركة والروح في بنه: أي: جعلنا نومكم راحة لكم. قال ابن الأنباري: جعلنا نومكم قطعاً لأعمالكم؛ لأن أصل السبت القطع، وقيل: أصله التمدد، يقال سبت المرأة شعرها: إذا حلتها وأرسلته، ورجل مسبوت الخلق: أي: مملو به، والرجل إذا أراد أن يستريح تمدد، فسمي النوم سباتاً، وقيل المعنى: وجعلنا نومكم موتاً، والنوم أحد الموتين، فالمسبوت يشبه الميت، ولكنه لم تفارقه الروح، ومنه قول الشاعر:

ومطوية الأقرب أما نهارها فسبت وأما ليلها فنميد

ومن هذا قوله: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها﴾ [الزمر: 42] الآية، وقوله: ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل﴾ [الأنعام: 60] ﴿وجعلنا الليل لباساً﴾ أي: نلبسكم ظلمته ونغشيكم بها كما يغشيكم اللباس. وقال سعيد بن جبير، والسديّ: أي: سكناً لكم، وقيل: المراد به ما يستريحه عند النوم من اللحاف ونحوه، وهو بعيد؛ لأن الجعل وقع على الليل، لا على ما يستتر به النائم عند نومه ﴿وجعلنا للنهار معاشاً﴾ أي: وقت معاش، والمعاش العيش، وكل شيء يعاش به فهو معاش، والمعنى: أن الله جعل لهم النهار مضيئاً، ليسعوا فيما يقوم به معاشهم، وما قسمه الله لهم من الرزق ﴿وبنينا فوقكم سبْعاً شداداً﴾ يريد سبع سموات قوية الخلق محكمة البناء، ولهذا وصفها بالشدة، وغلظ كل واحدة منها مسيرة خمسمائة عام، كما ورد ذلك ﴿وجعلنا سراجاً وهاجاً﴾ المراد به الشمس، وجعل هنا بمعنى خلق، وهكذا قوله: ﴿وجعلنا نومكم

فلزم أن يتعلق يتساءلون آخر مقدّر، وإنما كان ذلك النبا: أي: القرآن عظيماً؛ لأنه يبنى عن التوحيد، وتصديق الرسول، ووقوع البعث والنشور. قال الضحاك: يعني: نبأ يوم القيامة، وكذا قال قتادة، وقد استدلل على أن النبا العظيم هو القرآن بقوله: ﴿الذي هم فيه مختلفون﴾ فإنهم اختلفوا في القرآن، فجعله بعضهم سحراً، وبعضهم شعراً، وبعضهم كهانة، وبعضهم قال: هو أساطير أوليين. وأما البعث فقد اتفق الكفار إذ ذاك على إنكاره. ويمكن أن يقال: إنه قد وقع الاختلاف في البعث في الجملة، فصنّف به المؤمنون، وكتب به الكافرون، فقد وقع الاختلاف فيه من هذه الحيثية، وإن لم يقع الاختلاف فيه بين الكفار أنفسهم على التسليم والتنزل ومما يدل على أنه القرآن قوله سبحانه: ﴿قل هو نبأ عظيم﴾ * أنتم عنه معرضون ﴿[ص: 67، 68] ومما يدل على أنه البعث أنه أكثر ما كان يستنكره المشركون وتاباه عقولهم السخيفة. وأيضاً، فطوائف الكفار قد وقع الاختلاف بينهم في البعث؛ فاثبت النصارى المعاد الروحاني، واثبت طائفة من اليهود المعاد الجسماني، وفي التوراة التصريح بلفظ الجنة باللغة العبرانية بلفظ جنعيذا بجيم مفتوحة، ثم نون ساكنة، ثم عين مكسورة مهملة، ثم تحتية ساكنة، ثم ذال معجمة بعدها ألف. وفي الإنجيل في مواضع كثيرة التصريح بالمعاد، وأنه يكون فيه النعيم للمطيعين، والعذاب للعاصين، وقد كان بعض طوائف كفار العرب ينكر المعاد كما حكى الله عنهم بقوله: ﴿ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر﴾ [الجنّة: 24] ﴿وما نحن بمبعوثين﴾ [المؤمنون: 37] وكانت طائفة منهم غير جازمة بنفيه بل شاكّة فيه، كما حكى الله عنهم بقوله: ﴿إن نزلنا إلا ظناً وما نحن بمستيقنين﴾ [الجنّة: 32] وما حكاه عنهم بقوله: ﴿وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى﴾ [فصلت: 30] فقد حصل الاختلاف بين طوائف الكفر على هذه الصفة. وقد قيل: إن الضمير في قوله: يتساءلون يرجع إلى المؤمنين والكفار؛ لأنهم جميعاً كانوا يتساءلون عنه، فأما المسلم، فيزداد يقيناً واستعداداً، وبصيرة في دينه، وأما الكافر فاستهزاء وسخرية. قال الرازي: ويحتمل أنهم يسألون الرسول، ويقولون: ما هذا الذي يعنينا به من أمر الآخرة، والموصول في محل جرّ صفة للنبا بعد وصفه بكونه عظيماً فهو متصف بالعظم ومتصف بوقوع الاختلاف فيه ﴿كلا سيعلمون﴾ ردع لهم وزجر، وهذا يدل على أن المختلفين فيه هم: الكفار، وبه ينفع ما قيل: إن الخلاف بينهم وبين المؤمنين فإنه إنما يتوجه الردع والوعيد إلى الكفار فقط، وقيل: كلا بمعنى حقاً، ثم كرّر الردع والزجر فقال: ﴿ثم كلا سيعلمون﴾ للمبالغة في التأكيد والتشديد في الوعيد، قرأ الجمهور بالياء التحتية في الفعلين على الغيبة. وقرأ الحسن، وأبو العلية، وابن دينار، وابن عامر في رواية عنه بالفوقية على الخطاب. وقرأ الضحاك الأول بالفوقية والثاني بالتحتيّة. قال الضحاك أيضاً ﴿كلا سيعلمون﴾ يعني: الكافرين عاقبة

سبلاً، وما بعده؛ لأن هذه الأفعال قد تعلّمت إلى مفعولين، فلا بدّ من تضمينها معنى فعل يتعدّى إليهما كالخلق والتصيير ونحو ذلك. وقيل: إن الجعل بمعنى الإنشاء والإبداع في جميع هذه المواضع، والمراد به الإنشاء التكويني الذي بمعنى التقدير والتسوية. قال الزجاج: الوهاج الوقاد، وهو الذي وهج، يقال وهجت النار تهيج وهجاً ووهجاناً. قال مقاتل: جعل فيه نوراً وحرّاً، والوهج يجمع النور والحرارة ﴿وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً﴾ المعصرات هي: السحاب التي ينعصر بالماء ولم تمطر بعد، كالمرأة المعتصرة التي قربنا حيضها، كذا قال سفيان والربيع، وأبو العالية، والضحاك. وقال مجاهد، ومقاتل، وقتادة، والكلبي: هي الرياح، والرياح تسمى معصرات، يقال أعصرت الريح تعصر إعصاراً: إذا أثارت العجاج. قال الأزهرى: هي الرياح نوات الأعاصير، وذلك أن الرياح تستدرّ المطر. وقال الفراء: المعصرات السحاب التي يتحلب منها المطر. قال النحاس: وهذه الأقوال صحاح، يقال للريح التي تأتي بالمطر معصرات، والرياح تلحق السحاب فيكون المطر. ويجوز أن تكون هذه الأقوال قولاً واحداً، ويكون المعنى: وأنزلنا من نوات المعصرات ماء ثجاجاً. قال في الصحاح والمعصرات السحاب تعصر بالمطر، وعصر القوم أي: مطروا. قال المبرد: يقال سحاب معصر أي: ممسك للماء يعتصر منه شيء بعد شيء. وقال أبي بن كعب، والحسن، وابن جبير، وزيد بن أسلم، ومقاتل بن حيان: المعصرات السموات والثجاج: المنصب بكثرة على جهة التتابع، يقال ثَجَّ الماء أي: سال بكثرة، وثجه أي: أساله. قال الزجاج: الثجاج الصباب. قال ابن زيد: ثجاجاً كثيراً ﴿لنخرج به حباباً ونباتاً﴾ أي: لنخرج بذلك الماء حباباً يقات: كالحنطة والشعير ونحوهما، والنبات ما تاكله الدواب من الحشيش وسائر النبات ﴿وجنات ألفافاً﴾ أي: بساتين ملتفت بعضها ببعض لتشعب أغصانها، ولا واحد للألفاف: كالأوزاع والأخفاف، وقيل: أحدها لف يكسر اللام وضمها، نكره الكسائي. وقال أبو عبيدة: أحدها لفيف كشریف وأشراف، روي عن الكسائي أنها جمع الجمع يقال جنة لفاء، ونبت لف، والجمع لف بضم اللام مثل حمر، ثم يجمع هذا الجمع على ألفاف، وقيل هو جمع ملتفة بحذف الزوائد. قال الفراء: الجنة ما فيه النخيل، والفردوس ما فيه الكرم ﴿إن يوم الفصل كان ميقاتاً﴾ أي: وقتاً، ومجمعاً، وميعاداً للأولين والآخرين يصلون فيه إلى ما وعدوا به من الثواب والعقاب، وسمي يوم الفصل لأن الله يفصل فيه بين خلقه، وهذا شروع في بيان ما يتساءلون عنه من البعث، وقيل معنى ميقاتاً: أنه حد توقّت به الدنيا وتنتهي عنده، وقيل: حدّ للخالق ينتهون إليه ﴿يوم ينفخ في الصور فتأتون أفولجاً﴾ أي: يوم ينفخ في الصور، وهو القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل، والمراد هنا النفخة الثانية التي تكون للبعث ﴿فتأتون﴾ أي: إلى موضع العرض ﴿أفولجاً﴾ أي: زمراً زمراً، وجماعات جماعات، وهي

جمع فوج، وانتصاب ﴿يوم ينفخ﴾ على أنه بدل من يوم الفصل، أو بيان له مفيد لزيادة تفخيمه وتهويله، وإن كان الفصل متأخراً عن النفخ، ويجوز أن يكون منصوباً بإضمار أعني، وانتصاب أفولجاً على الحال من فاعل أتون، والفاء في فتأتون فصيحة تدلّ على محنوف أي: فتأتون إلى موضع العرض عقيب ذلك أفولجاً ﴿وفتحت السماء فكانت أبولباباً﴾ معطوف على ينفخ، وصيغة الماضي للدلالة على تحقق الوقوع أي: فتحت لنزول الملائكة ﴿فكانت أبولباباً﴾ كما في قوله: ﴿ويوم تشق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً﴾ [الفرقان: 25] وقيل معنى فتحت قطعت فصارت قطعاً كالأبواب، وقيل: أبولبابا طرقها، وقيل: تنحل وتتناثر حتى تصير فيها أبواب، وقيل: إن لكل عبد بابين في السماء: باب لرزقه، وباب لعمله، فإذا قامت القيامة انفتحت الأبواب، وظاهر قوله: ﴿فكانت أبولباباً﴾ أنها صارت كلها أبواباً، وليس المراد ذلك، بل المراد أنها صارت ذات أبواب كثيرة. قرأ ابن عامر، وحزمة، والكسائي فتحت مخففاً. وقرأ الباقون بالتشديد ﴿وسيرت الجبال فكانت سراباً﴾ أي: سيرت عن أماكنها في الهواء، وقلعت عن مقارها، فكانت هباء منبثاً يظنّ الناظر أنها سراب، والمعنى: أن الجبال صارت كلا شيء، كما أن السراب يظنّ الناظر أنه ماء، وليس بماء، وقيل معنى سيرت: أنها نسفت من أصولها، ومثل هذا قوله: ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرّ من السحاب﴾ [النمل: 88] وقد نكر سبحانه أحوال الجبال بوجه مختلفة، ولكن الجمع بينها أن نقول: أول أحوالها الانتمكك، وهو قوله: ﴿وحملت الأرض والجبال فيكتا نكة واحدة﴾ [الحاقة: 14] وثاني أحوالها أن تصير كالعن المنفوش كما في قوله: ﴿وتكون الجبال كالعن المنفوش﴾ [القارعة: 5] وثالث أحوالها أن تصير كالهباء، وهو قوله: ﴿ويست الجبال بساً﴾ فكانت هباء منبثاً [الواقعة: 5، 6] ورابع أحوالها أن تنسف وتحملها الرياح، كما في قوله: ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرّ من السحاب﴾ [النمل: 88] وخامس أحوالها أن تصير سراباً أي: لا شيء، كما في هذه الآية. ثم شرع سبحانه في تفصيل أحكام الفصل فقال: ﴿إن جهنم كانت مرصاداً﴾ قال الأزهرى: المرصاد المكان الذي يرصد الراصد فيه العدو. قال المبرد: مرصاداً يرصدون به أي: هو معدّ لهم يرصد به خزنتها الكفار. قال الحسن: إن على الباب رصداً لا يدخل أحد الجنة حتى يجتاز عليهم، فمن جاء بجواز جاز، ومن لم يجي بجواز حبس. وقال مقاتل: محبساً، وقيل: طريقاً وممرّاً. قال في الصحاح: الراصد للشئ الرقيب له يقال رصده يرصده رصداً، والرصد الترقب، والمرصد موضع الرصد. قال الأصمعي: رصده أرصده ترقبته، ومعنى الآية: أن جهنم كانت في حكم الله، وقضائه موضع رصد يرصد فيه خزنة النار الكفار؛ ليعذبهم فيها، أو هي في نفسها متطلعة لمن يأتي إليها من الكفار، كما يتطلع الرصد لمن يمرّ به ويأتي إليهم، والمرصاد

وافق أعمالهم. قال الفراء: الوفاق جمع الوفق، والوفوق والموافق واحد. قال مقاتل: وافق العذاب الذنب فلا ذنب أعظم من الشرك، ولا عذاب أعظم من النار. وقال الحسن، وعكرمة: كانت أعمالهم سيئة، فاتاهم الله بما يسوؤهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ أي: لا يرجون ثواب حساب. قال الزجاج: كانوا لا يؤمنون بالبعث، فيرجون حسابهم، والجملة تعليل لاستحقاقهم الجزاء المذكور ﴿وَكَذَبُوا بآيَاتِنَا كَذِبًا﴾ أي: كذبوا بالآيات القرآنية، أو كذبوا بما هو أعم منها تكذيباً شديداً، وفعال من مصادر التفعّل. قال الفراء: هي لغة فصيحة يمانية، تقول كذبت كذاباً، وخرقت القميص خرقاً. قال في الصحاح: وكذبوا بآياتنا كذاباً هو أحد مصادر المشدّد؛ لأن مصدره قد يجيء على تفعيل مثل التكليم، وعلى فعال مثل كذاب، وعلى تفعلة مثل توصية، وعلى مفعّل مثل: ﴿وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مَرْقٍ﴾ [سبا: 19] قرأ الجمهور (كذاباً) بالتشديد. وقرأ علي بن أبي طالب بالتخفيف. وقال أبو علي الفارسي التخفيف والتشديد جميعاً مصدر المكانبة. وقرأ ابن عمر: (كذاباً) بضم الكاف والتشديد، جمع كاذب. قال أبو حاتم ونصبه على الحال. قال الزمخشري: وقد يكون يعني: على هذه القراءة بمعنى الولحد البليغ في الكذب، تقول: رجل كذاب كقولك حسان وبخال ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ قرأ الجمهور (وكل) بالنصب على الاشتغال أي: وأحصينا كل شيء أحصيناه. وقرأ أبو السّمك برفعه على الابتداء، وما بعده خبره، وهذه الجملة معترضة بين السبب والمسبب، وانتصاب كتاباً على المصدرية لأحصيناه: لأن أحصيناه في معنى كتبناه، وقيل: هو منتصب على الحال أي: مكتوباً، قيل: المراد كتبناه في اللوح المحفوظ لتعرفه الملائكة، وقيل: أراد ما كتبه الحفظة على العباد من أعمالهم، وقيل: المراد به العلم لأن ما كتب كان أبعد من النسيان، والأول أولى لقوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ [يس: 12] ﴿فَنُفِقُوا فَمِنْ نَزِيلِكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ هذه الجملة مسببة عن كفرهم، وتكذيبهم بالآيات. قال الرّازي: هذه الفاء للجزاء، فنبه على أن الأمر بالنوع معلل بما تقدّم شرحه من قبائح أفعالهم؛ ومن الزيادة في عذابهم أنها كلما نضجت جلودهم بكلهم جلوداً غيرها، وكلما خبت النار زادهم الله سعيراً.

وقد أخرج ابن مرويّه عن ابن عباس: ﴿عَنِ النَّبَاِ الْعَظِيمِ﴾ قال: القرآن: وهذا مروى عن جماعة من التابعين. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ قال: مضيئاً ﴿وَوَاتَزَلْنَا مِنَ الْمَعْصِرَاتِ﴾ قال: السحاب ﴿مَاءٌ ثَجَّاجًا﴾ قال: منصّباً. وأخرج عبد بن حميد، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر عنه أيضاً ﴿ثَجَّاجًا﴾ قال: منصّباً. وأخرج الشافعي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن مرويّه عن ابن مسعود في قوله: ﴿وَوَاتَزَلْنَا مِنَ الْمَعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾ قال: يبعث الله الريح، فتحمل

مفعال من أبنية المبالغة كالمعطار والمعمار، فكأنه يكثر من جهنم انتظار الكفار. ثم ذكر من هي مرصد له فقال: ﴿لِلطَّافِينَ مَابًا﴾ أي: مرجعاً يرجعون إليه، والمآب المرجع، يقال آب يثوب: إذا رجع، والطافي هو من طغى بالكفر، وللطافين نعت لمرصداً متعلق بمحذوف، ومآباً بدل من مرصداً، ويجوز أن يكون للطافين في محل نصب على الحال من مآباً فُتِمَتْ عليه لكونه نكرة، وانتصاب ﴿لِلْبَاقِينَ فِيهَا﴾ على الحال المقترنة من الضمير المستكن في الطافين. قرأ الجمهور (لابئين) بالالف. وقرأ حمزة، والكسائي (لبئين) بدون الف، وانتصاب ﴿لِلْحَقَّابِ﴾ على الظرفية أي: ملكئين في النار ما دامت الأحقاب، وهي لا تنقطع، وكلما مضى حقب جاء حقب، وهي جمع حقب بضمّتين، وهو الدهر، والأحقاب الدهور، والحقب بضم الحاء، وسكون القاف، قيل: هو ثمانون سنة، وحكى الواحدي عن المفسرين أنه بضع وثمانون سنة، السنة ثلثمائة وستون يوماً، اليوم ألف سنة من أيام الدنيا. وقيل: الأحقاب وقت لشربهم الحميم والغساق، فإذا انقضت، فيكون لهم نوع آخر من العذاب. وقال السدي: للحقب سبعون سنة. وقال بشير بن كعب: ثلثمائة سنة. وقال ابن عمر أربعون سنة، وقيل: ثلاثون ألف سنة. قال الحسن: الأحقاب لا يدري أحد كم هي، ولكن نكروا أنها مائة حقب، والحقب الواحد منها سبعون ألف سنة، اليوم منها كالف سنة. وقيل: الآية محمولة على العصاة الذين يخرجون من النار، والأولى ما نكرناه أولاً من أن المقصود بالآية التليد لا التقييد. وحكى الواحدي: عن الحسن أنه قال: والله ما هي إلا أنه إذا مضى حقب نخل آخر، ثم آخر، ثم كذلك إلى الأبد، وجملة: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ إلا حميماً وغساقاً مستأنفة لبيان ما اشتملت عليه من أنهم لا يذوقون في جهنم، أو في الأحقاب برّداً ينفعهم من حرّها، ولا شراباً ينفعهم من عطشها إلا حميماً، وهو الماء الحارّ، وغساقاً وهو صديد أهل النار، ويجوز أن تكون في محل نصب على الحال من ضمير الطافين، أو صفة للأحقاب، والاستثناء منقطع عند من جعل البرد النوم، ويجوز أن يكون متصلاً من قوله: ﴿شَرَابًا﴾ وقال مجاهد، والسدي وأبو عبيدة، والكسائي، والفضل بن خالد، وأبو معاذ النحوي: البرد المنكور في هذه الآية هو: النوم، ومنه قول الكندي:

بردت مرأشها عليّ فصلني عنها وعن تقبيلها البرد

أي: النوم. قال الزجاج: أي: لا يذوقون فيها برد ريح ولا ظل ولا نوم فجعل البرد يشمل هذه الأمور. وقال الحسن، وعطاء، وابن زيد: برّداً أي: روحاً وراحة. قرأ الجمهور (غساقاً) بالتخفيف. وقرأ حمزة، والكسائي بتشديد السين، وقد تقدّم تفسيره، وتفسير الحميم، والخلاف فيهما في سورة ص ﴿جَزَاءً وَفَاقًا﴾ أي: موافقاً لأعمالهم، وجزاء منتصب على المصدر، ووفقاً نعت له. قال الفراء، والأخفش: جازيناهم جزاء وافق أعمالهم، قال الزجاج: جوزوا جزاء

وابن جرير، وابن المنذر عن عبد الله بن عمرو قال: ما انزلت على أهل النار آية قط أشد منها **﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾** فهم في مزيد من عذاب الله أبداً.

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿١٠٠﴾ حَتَّىٰ وَاعْتَبَا ﴿١٠١﴾ وَكَوْابِرَ أَزْوَاجٍ ﴿١٠٢﴾ كَوَّاسًا دِهَاقًا ﴿١٠٣﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدَابًا ﴿١٠٤﴾ جَزَاءُ لِمَن كَانَ عَمَلُهُ حَسَابًا ﴿١٠٥﴾ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿١٠٦﴾ يَوْمَ يُدْمَى الْأُفُجُ وَاللَّيْكَةُ سَفًا ﴿١٠٧﴾ لَا يَسْكُمُونَ إِلَّا مَن أُوْدِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿١٠٨﴾ ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ فَمَن شَاءَ اتَّخَذْ لِكُلِّ رِزْقٍ مَّنَابًا ﴿١٠٩﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاؤُهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ الْيَقِينُ كُنتُ تُرَابًا ﴿١١٠﴾

قوله: **﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾** هذا شروع في بيان حال المؤمنين، وما أعد الله لهم من الخير بعد بيان حال الكافرين، وما أعد الله لهم من الشر، والمفاز مصدر بمعنى الفوز، والظفر بالنعمة، والمطلوب، والنجاة من النار، ومنه قيل: للفلاة مفازة تغاولا بالخلاص منها، ثم فسّر سبحانه هذا المفاز فقال: **﴿حَدَائِقُ وَأَعْنَابٌ﴾** وانتصابهما على أنهما بدل من مفازاً بدل اشتمال، أو بدل كل من كل على طريق المبالغة يجعل نفس هذه الأشياء مفازة، ويجوز أن يكون النصب بإضمار أعني، وإذا كان مفازاً بمعنى الفوز، فيقدر مضاف محذوف أي: فوز حدائق، وهي جمع حديقة؛ وهي: البستان المحوط عليه، والأعناب جمع عنب أي: كروم أعناب **﴿وَكَوَاعِبُ أَتْرَابًا﴾** الكواعب جمع كاعبة؛ وهي الناهدة، يقال: كعبت الجارية تكعب تكعيباً وكعوباً، ونهلت تنهد نهوياً، والمراد أنهم نساء كواعب تكعبت ثديهن وتفلكت أي: صارت ثديهن كالكعب في صدورهن. قال الضحّاك: الكواعب العذاري. قال قيس بن عاصم:

وكم من حصان قد حوينا كريمة
وكم كاعب لم تدر ما البؤس معصر

وقال عمر بن أبي ربيعة:

وكان مجنى بون ما كنت أتقي
ثلاث شخوص كاعبات ومعصر
والأتراب: الأقران في السن، وقد تقدّم تحقيقه في سورة البقرة **﴿وَكَاَسًا دِهَاقًا﴾** أي: ممتلئة. قال الحسن، وقتادة، وابن زيد: أي: مترعة مملوءة، يقال أدهقت الكأس أي: ملأتها، ومنه قول الشاعر:

ألا أسقني صرفاً سقاك الساقبي
من مائها بكأسك الدهاق
وقال سعيد بن جبير، وعكرمة، ومجاهد: **﴿دهاقاً﴾** متتابعة يتبع بعضها بعضاً. وقال زيد بن أسلم: **﴿دهاقاً﴾** صافية، والمراد بالكأس الإناء المعروف، ولا يقال له الكأس إلا إذا كان فيه الشراب **﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدَابًا﴾** أي: لا يسمعون في الجنة لغواً، وهو الباطل من الكلام، ولا كذاباً أي: ولا يكذب بعضهم بعضاً. قرأ الجمهور (كذاباً) بالتشديد، وقرأ الكسائي هنا بالتخفيف، ووافق الجماعة على التشديد في قوله: (وكذبوا بآياتنا كذاباً) المتقدم في هذه السورة للتصريح بفعله هناك، وقد قَدَّمْنَا الخلاف في كذاباً هل هو من مصادر التفعيل، أو من مصادر المفاعلة؟ **﴿جَزَاءُ مَن رَّبَّكَ﴾** أي: جازاهم بما تقدّم نكره جزاء. قال الزجاج:

الماء، فيمر به السحاب، فتدر كما تدر اللقحة، والشجاج ينزل من السماء أمثال العزالي فتصرفه الرياح فينزل متفرقاً. وأخرج ابن جرير، وابن الأنباري في المصاحف عن قتادة قال: في قراءة ابن عباس **﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ﴾** بالرياح. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: **﴿وَجَنَّاتُ الْأَفَاقِ﴾** قال: ملتفة. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً في الآية قال: يقول: التف بعضها ببعض. وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً في قوله: **﴿وَسِيرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سُرَابًا﴾** قال: سراب الشمس الآل. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً: **﴿لَا يَلْبِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾** قال: سنين. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وهنالك، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن سالم بن أبي الجعد قال: سأل علي بن أبي طالب هلال الهجري ما تجنون الحقب في كتاب الله؟ قال: نجده ثمانين سنة كل سنة منها اثنا عشر شهراً كل شهر ثلاثون يوماً كل يوم ألف سنة. وأخرج سعيد بن منصور، والحاكم وصححه عن ابن مسعود في الآية قال: الحقب الواحد ثمانون سنة. وأخرج البزار عن أبي هريرة رفعه قال: الحقب ثمانون سنة، والسنة ثلاثمائة وستون يوماً، واليوم كالف سنة مما تعدون. وأخرج عبد بن حميد عنه قال: الحقب ثمانون عاماً اليوم منها كسدرس الدنيا. وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مرويّه. قال السيوطي: بسند ضعيف عن أبي أمامة عن النبي ﷺ: **﴿لَا يَلْبِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾** قال: الحقب ألف شهر، والشهر ثلاثون يوماً، والسنة اثنا عشر شهراً ثلاثمائة وستون يوماً كل يوم منها ألف سنة فما تعدون، فالحقب ثلاثون ألف سنة. وأخرج البزار، وابن مرويّه، والبيهقي عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «والله لا يخرج من النار من دخلها حتى يمكث فيها أحقاباً، والحقب بضع وثمانون سنة، كل سنة ثلاثمائة وستون يوماً، واليوم ألف سنة مما تعدون». قال ابن عمر: فلا يتكلن أحد أنه يخرج من النار. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر عن عبد الله بن عمرو قال: الحقب الواحد ثمانون سنة. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس مثله. وأخرج ابن مرويّه عن عباد بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «الحقب أربعون سنة» وأخرج ابن جرير عن خالد بن معدان في قوله: **﴿لَا يَلْبِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾** وقوله: **﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾** إنهما في أهل التوحيد من أهل القبلة. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال: زهير جهنم يكون لهم من العذاب لأن الله يقول: **﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾**. وأخرج ابن مرويّه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ «وفي قوله: **﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾** * إلا حميمًا» قال: قد انتهى حرّه **﴿وَوَسَّاسًا﴾** قد انتهى حرّه، وإن الرجل إذا أنسى الإناء من فيه سقط فروة وجهه، حتى يبقى عظاماً تقعقع. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس: **﴿جَزَاءُ وَفَاقًا﴾** قال: وافق أعمالهم. وأخرج عبد بن حميد،

ومجاهد، وقيل: هم اشراف الملائكة قاله مقاتل بن حيان. وقيل: هم حفظة على الملائكة قاله ابن أبي نجيح. وقيل: هم بنو آدم قاله الحسن، وقتادة. وقيل: هم ارواح بني آدم تقوم صفاء وتقوم الملائكة صفاء، وذلك بين النفتين قبل أن ترد إلى الأجسام قاله عطية العوفي. وقيل: إنه القرآن قاله زيد بن أسلم. وقوله: **﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾** يجوز أن يكون بدلاً من ضمير يتكلمون، وأن يكون منصوباً على أصل الاستثناء، والمعنى: لا يشفعون لأحد إلا من أذن له الرحمن بالشفاعة أو لا يتكلمون إلا في حق من أذن له الرحمن **﴿و﴾** كان ذلك الشخص ممن **﴿قَالُوا صَوَاباً﴾** قال الضحاك، ومجاهد: صواباً يعني: حقاً. وقال أبو صالح: لا إله إلا الله. وأصل الصواب السداد من القول والفعل. قيل لا يتكلمون يعني: الملائكة والروح الذين قاموا صفاء هيبة وإجلالاً إلا من أذن له الرحمن منهم في الشفاعة، وهم قد قالوا صواباً. قال الحسن: إن الروح تقوم يوم القيامة لا ينخل أحد الجنة إلا بالروح، ولا النار إلا بالعمل. قال الواحدي: فهم لا يتكلمون يعني: الخلق كلهم إلا من أذن له الرحمن، وهم المؤمنون والملائكة، وقال في الدنيا صواباً أي: شهد بالتوحيد، والإشارة بقوله: **﴿ذَلِكَ﴾** إلى يوم قيامهم على تلك الصفة، وهو مبتدأ وخبره **﴿اليوم الحق﴾** أي: الكائن الواقع المتحقق **﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَبَآئِلَ﴾** أي: مرجعاً يرجع إليه بالعمل الصالح؛ لأنه إذا عمل خيراً قرَّبه إلى الله، وإذا عمل شراً باعدته منه، ومعنى: **﴿إِلَىٰ رَبِّهِ﴾** إلى ثواب ربه، قال قتادة: مَبَآئِلَ: سبيلاً. ثم زاد سبحانه في تخويف الكفار فقال: **﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُمْ عَذَاباً قَرِيباً﴾** يعني: العذاب في الآخرة، وكل ما هو آتٍ، فهو قريب، ومثله قوله: **﴿كَانَهُمْ يَوْمَ يَرُونَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَةً أَوْ ضَحَاهَا﴾** [النازعات: 46] كذا قال الكلبي، وغيره. وقال قتادة: هو عذاب الدنيا؛ لأنه أقرب العذابين. قال مقاتل: هو قتل قریش ببدر، والاولى أولى لقوله: **﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَمَّتَ يَدَاهُ﴾** فإن الظرف إما يدل من عذاب، أو ظرف لمضمر هو صفة له أي: عذاباً كائنًا: **﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ﴾** أي: يشاهد ما قَمَّته من خير أو شر، وما موصولة أو استفهامية. قال الحسن: والمرء هنا هو المؤمن أي: يجد لنفسه عملاً، فأما الكافر، فلا يجد لنفسه عملاً، فيتمنى أن يكون تراباً، وقيل: المراد به الكافر على العموم، وقيل: أبي بن خلف، وعقبة بن أبي معيط، والاولى أولى لقوله: **﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً﴾** فإن الكافر واقع في مقابلة المرء، والمراد جنس الكافر يتمنى أن يكون تراباً لما يشاهده مما قد أعدَّه الله له من أنواع العذاب، والمعنى: أنه يتمنى أنه كان تراباً في الدنيا فلم يخلق، أو تراباً يوم القيامة. وقيل: المراد بالكافر أبو جهل، وقيل: أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي، وقيل: إبليس، والاولى أولى اعتباراً بعموم اللفظ، ولا ينافية خصوص السبب، كما تقدَّم غير مرة.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم،

المعنى جزاهم جزاء، وكذا **﴿عَطَاءٌ﴾** أي: وأعطاهم عطاء **﴿حَسَاباً﴾** قال أبو عبيدة: كافياً. وقال ابن قتيبة: كثيراً، يقال أحسبت فلاناً أي: أكثرت له العطاء، ومنه قول الشاعر:

ونعطي وليد الحي إن كان جائعاً ونحسب إن كان ليس بجائع
قال ابن قتيبة: أي: نعطيهِ حتى يقول حسبي. قال الزجاج: حساباً أي: ما يكفيهم. قال الأخفش: يقال أحسبني كذا أي: كفاني. قال الكلبي: حاسبهم، فأعطاهم بالحسنة عشرًا. وقال مجاهد: حساباً لما عملوه، فالحساب بمعنى القدر أي: يقدر ما وجب له في وعد الرب سبحانه، فإنه وعد للحسنة عشرًا، ووعد لقوم سبعمئة ضعف، وقد وعد لقوم جزاء لا نهاية له ولا مقدار كقوله: **﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾** [الزمر: 10] وقرأ أبو هاشم (حساباً) بفتح الحاء، وتشديد السين أي: كفافاً. قال الأصمعي: تقول العرب: حسبت الرجل بالتشديد: إذا أكرمته، ومنه قول الشاعر:
إذا أتاه ضيفه يحسبه

وقرأ ابن عباس (حساناً) بالنون **﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ﴾**. قرأ ابن مسعود، ونافع، وأبو عمرو، وابن كثير، وزيد عن يعقوب، والمفضل عن عاصم برفع (رَبِّ) و (الرَّحْمَنُ) على أن رَبَّ مبتدأ، والرَّحْمَنُ خبره، أو على أن رَبَّ خبر مبتدأ مقدر أي: هو رَبِّ، والرَّحْمَنُ صفة، و (لا يملكون) خبر رَبِّ، أو على أن رَبَّ مبتدأ، والرَّحْمَنُ مبتدأ ثانٍ، ولا يملكون خبر المبتدأ الثاني، والجملة خبر المبتدأ الأول. وقرأ يعقوب في رواية عنه، وابن عامر، وعاصم في رواية عنه بخفضهما على أن رَبَّ بدل من ربك، والرَّحْمَنُ صفة له. وقرأ ابن عباس، وحمرزة، والكسائي بخفض الأول على البدل، ورفع الثاني على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: هو الرَّحْمَنُ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وقال هذه القراءة أعجلها، فخفض رَبَّ لقربه من ربك، فيكون نعتاً له، ورفع الرَّحْمَنُ لبعده منه على الاستئناف، وخبره **﴿لَا يملكون منه خطباً﴾** أي: لا يملكون أن يسألوا إلا فيما أذن لهم فيه. وقال الكسائي: لا يملكون منه خطاباً بالشفاعة إلا بإنه، وقيل: الخطاب الكلام أي: لا يملكون أن يخاطبوا الرب سبحانه إلا بإنه، دليله: **﴿لَا تَكَلِّمْ نَفْسَ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾** [هود: 105] وقيل: أراد الكفار، وأما المؤمنون فيشفعون. ويجوز أن تكون هذه الجملة في محل نصب على الحال أي: ما تقدَّم بيانه، ويجوز أن تكون مستأنفة مقررّة لما تقيده الربوبية من العظمة والكبرياء **﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾** الظرف منتصب بلا يتكلمون، أو بلا يملكون، وصفاً منتصب على الحال أي: مصطفين، أو على المصدرية أي: يصفون صفاء، وقوله: **﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ﴾** في محل نصب على الحال، أو مستأنف لتقرير ما قبله.

واختلف في الروح: فقيل: إنه ملك من الملائكة أعظم من السموات السبع، ومن الأرضين السبع، ومن الجبال، وقيل: هو جبريل قاله الشعبي، والضحاك، وسعيد بن جبير. وقيل: الروح جند من جنود الله ليسوا ملائكة قاله أبو صالح،

سَبَّحًا ۝ قَالَمْ يَرَوْا آسْمًا ۝ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّايَةُ ۝ تَبْمُهَا الرَّاوِدَةُ ۝ قُلُوبٌ
يُؤَيِّرُ وَاجِفًا ۝ أَصْدَرَهَا خِيَمَةً ۝ يَقُولُونَ لَوْلَا أَكْرَدُونَنَا فِي الْخَافَةِ ۝
لَوْلَا كُنَّا عِطْلًا خَيْرَةً ۝ قَالُوا يَلَيْكَ إِذَا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝ فَلَمَّا هِيَ زَجْرَةٌ
وَجِيدَةٌ ۝ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ۝ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ۝ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِاللَّيْلِ
الْقَلِيلِ قُلُوبٌ ۝ أَتَمَّ إِلَهُ فَيَوْمَ إِتْرَ لَمَّا ۝ قُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا رَبُّكَ ۝
وَأَهْدِكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَحَسَّنْ ۝ فَارْتَهُ الْآيَةُ الْكُبْرَى ۝ كَذَّابٌ وَعَصَى ۝ ثُمَّ أَزْبَرَ
يَسْمَى ۝ فَمَسَّرَ فَأَنْدَى ۝ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْكَافِرُ ۝ فَأَمَنَهُ اللَّهُ تَكَاَلُ الْكَافِرُ
وَالْأَوَّلُ ۝ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَتَحَسَّنُ ۝

اقسم سبحانه بهذه الأشياء التي نكرها، وهي الملائكة التي تنزع أرواح العباد عن أجسادهم كما ينزع النازع في القوس فيبلغ بها غاية المد، وكذا المراد: بالناشطات، والسابحات، والسابقات، والمديرات: يعني: الملائكة، والعطف مع اتحاد الكل: لتنزيل للتغاير الوصفي منزلة التغاير الذاتي، كما في قول الشاعر:

إلى الملك القدم وابن الهمام وليث الكتيبة في المزمحم
وهذا قول الجمهور من الصحابة والتابعين ومن بعدهم.
وقال السدي: «النازعات» هي النفوس حين تغرق في الصور. وقال مجاهد: هي الموت ينزع النفس. وقال قتادة: هي النجوم تنزع من أفق إلى أفق، من قولهم: نزع إليه إذا ذهب، أو من قولهم: نزعت بالحبل أي: إنها تغرب وتغيب وتطلع من أفق آخر. وبه قال أبو عبيدة، والآخر، وابن كيسان. وقال عطاء، وعكرمة: النازعات القسي تنزع بالسهم، وإغراق النازع في القوس أن يمدّه غاية المد حتى ينتهي به إلى النصل. وقال يحيى بن سلام: تنزع بين الكلا وتنفر، وقيل: أراد بالنازعات الغزاة الرماة، وانتصاب «غرقا» على أنه مصدر بحذف الزوائد أي: إغراقا، والناسب له ما قبله لملاقاته له في المعنى أي: إغراقا في النزاع حيث تنزعها من اقاصي الأجساد، أو على الحال أي: نوات إغراق، يقال أغرق في الشيء يغرق فيه: إذا أوغل فيه وبلغ غايته «و» معنى «الناشطات» أنها تنشط النفوس أي: تخرجها من الأجساد، كما ينشط العقل من يد البعير: إذا حلّ عنه، ونشط الرجل اللو من البئر: إذا أخرجها، والنشاط الجذب بسرعة، ومنه الانشودة للعقدة التي يسهل حلها. قال أبو زيد: نشطت الحبل أنشطه نشطاً عقنته، وأنشطته أي: حللته، وأنشطت الحبل أي: مددته. قال الفراء: أنشط العقل أي: حلّ، ونشط أي: ربط الحبل في يديه. قال الأصمعي: بئر أنشط أي: قريبة القعر يخرج اللو منها بجذبة واحدة، وبئر نشوط، وهي التي لا يخرج منها اللو حتى ينشط كثيراً. وقال مجاهد: هو الموت ينشط نفس الإنسان. وقال السدي: هي النفوس حين تنشط من القدمين. وقال عطاء: هي الأرواق التي تنشط السهم، وقال قتادة، والحسن، والآخر: هي النجوم تنشط من أفق إلى أفق أي: تذهب. قال في الصحاح: والناشطات نشطاً: يعني: النجوم من برج إلى برج

والبيهقي عن ابن عباس في قوله: «إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا» قال: منتزهًا «وكموعاب» قال: نواهد «تربيا» قال: مستويات «وكماسا دهاقا» قال: ممتلئا. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في البعث عن ابن عباس في قوله: «وكماسا دهاقا» قال: هي الممتلئة المترعة المتتابعة، وربما سمعت العباس يقول: يا غلام أسقنا، وادهق لنا. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عنه دهاقا، قال دراكاً. وأخرج عبد بن حميد عنه أيضاً قال: إذا كان فيها خمر فهي: كاس، وإذا لم يكن فيها خمر، فليس بكاس. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة، وابن مردويه عنه أيضاً أن النبي ﷺ قال: «الروح جند من جنود الله ليسوا بملائكة لهم رؤوس، وأيد، وأرجل ثم قرأ: «يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا» قال: هؤلاء جند، وهؤلاء جند». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس «يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ» قال: هو ملك من أعظم الملائكة خلقاً. وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود قال: الروح في السماء الرابعة، وهو أعظم من السموات والجبال ومن الملائكة يسبح كل يوم اثني عشر ألف تسبيحة يخلق الله من كل تسبيحة ملكاً من الملائكة يجيء يوم القيامة صفّاً واحداً. وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال: إن جبريل يوم القيامة لقاتم بين يدي الجبار ترد فرائضه فرقاً من عذاب الله، يقول: سبحانه لا إله إلا أنت ما عبيناك حق عبادتك، ما بين منكبيه، كما بين المشرق والمغرب، أما سمعت قول الله: «يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا». وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات عنه في قوله: «يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ» قال: يعني: حين تقوم أرواح الناس مع الملائكة فيما بين النفختين قبل أن تردّ الروح إلى الأجساد. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في الأسماء والصفات عنه أيضاً «وَقَالَ صَوَابًا» قال: لا إله إلا الله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في البعث والنشور عن أبي هريرة قال: يحشر الخلق كلهم يوم القيامة البهائم، والدواب، والطيور وكل شيء، فيبلغ من عذاب الله أن يؤخذ للجماة من القرناء، ثم يقول: كوني تراباً، فنلك حين يقول الكافر «يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تَرَابًا».

تفسير سورة النازعات

وهي مكية بلا خلاف. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة النازعات بمكة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّابِ الرَّحِيمِ
وَالنَّازِعَاتُ غَرَامًا ۝ وَالنَّشِيطَاتُ تَشَمُّطًا ۝ وَالسَّابِحَاتُ سَبَّحًا ۝ قَالَتْ يَنْتَقِذْنَ

معاذ بن جبل، وفي تدبيرها الأمر وجهان: أحدهما تدبير طلوعها، وأقولها. الثاني تدبير ما قضاه الله فيها من الأحوال. ومعنى تدبير الملائكة للأمر نزولها بالحلال والحرام، وتقصيلهما، والفاعل للتدبير في الحقيقة، وإن كان هو الله عز وجل، لكن لما نزلت الملائكة به وصفت به. وقيل: إن الملائكة لما أمرت بتدبير أهل الأرض في الرياح والأمطار وغير ذلك قيل: لها مدبرات. قال عبد الرحمن بن سابط: تدبير أمر الدنيا إلى أربعة من الملائكة: جبريل، وميكائيل، وعزرائيل، وإسرافيل، فأما جبريل، فموكل بالرياح والجنود، وأما ميكائيل، فموكل بالقطر والنبات، وأما عزرائيل، فموكل بقبض الأنفس، وأما إسرافيل، فهو ينزل بالأمر عليهم، وجواب القسم بهذه الأمور التي أقسم الله بها محذوف أي: والنزاعات، وكذا، وكذا لتبعثن. قال الفراء: وحذف لمعرفة السامعين به، ويدل عليه قوله: **﴿إِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخْرَةً﴾** وقيل: إن جواب القسم قوله: **﴿إِنْ فِي ثَلَاثِ لَعْبَةٍ لَمَنْ يَخْشَى﴾** أي: إن في يوم القيامة، ونكر موسى وفرعون لعبرة لمن يخشى. قال ابن الأنباري: وهذا قبيح؛ لأن الكلام قد طال بينهما، وقيل: جواب القسم **﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾** لأن المعنى: قد أتاك، وهذا ضعيف جداً. وقيل الجواب: **﴿يَوْمَ تَرْجَفُ الرَّاجِفَةُ﴾** على تقدير ليوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة. وقال السجستاني: يجوز أن يكون هذا من التقديم والتأخير، كأنه قال: فإذا هم بالساهرة والنزاعات. قال ابن الأنباري: وهذا خطأ، لأن الفاء لا يفتح بها الكلام، والأول أولى **﴿يَوْمَ تَرْجَفُ الرَّاجِفَةُ﴾** انتصاب هذا الظرف بالجواب المقدر للقسم، أو بإضمار انكر، والراجفة المضطربة، يقال رَجَفَ رَجْفًا إذا اضطرب، والمراد هنا الصيحة العظيمة التي فيها تردد واضطراب كالرعد، وهي النفخة الأولى التي يموت بها جميع الخلائق، والرادفة: النفخة الثانية التي تكون عند البعث، وسميت رادفة؛ لأنها ردت النفخة الأولى، كذا قال جمهور المفسرين. وقال ابن زيد: الراجفة الأرض، والرادفة الساعة. وقال مجاهد: الرادفة الزلزلة تتبعها الرادفة الصيحة، وقيل: الراجفة اضطراب الأرض، والرادفة الزلزلة، وأصل الرجفة الحركة، وليس المراد: التحرك هنا فقط، بل الراجفة هنا مأخوذة من قولهم: رَجَفَ الرعد يَرْجِفُ رَجْفًا وَرَجِيفًا: إذا ظهر صوته، ومنه سميت الأراجيف لاضطراب الأصوات بها، وظهور الأصوات فيها، ومنه قول الشاعر:

أبالأراجيف يا ابن اللؤم توعني وفي الأراجيف خلت اللؤم والخورا
ومحل **﴿تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾** النصب على الحال من الراجفة، والمعنى: لتبعثن يوم النفخة الأولى حال كون النفخة الثانية تابعة لها **﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾** قلوب مبتدأ، ويومئذ منصوب بواجفة، وواجفة صفة قلوب، وجملة **﴿لِبَصَارِهَا خَاشِعَةٌ﴾** خبر قلوب، والراجفة المضطربة القلقة لما عاينت من أهوال يوم القيامة. قال جمهور المفسرين أي: خائفة وجلة. وقال السدي: زائلة عن أماكنها،

كالثور الناشط من بلد إلى بلد، والهموم تنشط بصاحبها. وقال أبو عبيدة، وقتادة: هي الوحوش حين تنشط من بلد إلى بلد. وقيل: الناشطات لأرواح المؤمنين، والنزاعات لأرواح الكافرين؛ لأنها تجذب روح المؤمن برفق، وتجذب روح الكافر بعنف، وقوله: **﴿نَشْطًا﴾** مصدر، وكذا سبأً وسبأً **﴿وَالسَّابِحَاتُ﴾** الملائكة تسبح في الأبدان لإخراج الروح كما يسبح الغواص في البحر لإخراج شيء منه، وقال مجاهد، وأبو صالح: هي الملائكة ينزلون من السماء مسرعين لأمر الله، كما يقال للفارس الجواد سابح إذا أسرع في جريه. وقال مجاهد أيضاً: السابحات الموت يسبح في نفوس بني آدم. وقيل: هي الخيل السابحة في الغزو، ومنه قول عنتره:

والخيل تعلم حين تسد بح في حياض الموت سبحا
وقال قتادة، والحسن: هي النجوم تسبح في أفلاكها، كما في قوله: **﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾** [يس: 40] وقال عطاء: هي السفن تسبح في الماء، وقيل: هي أرواح المؤمنين تسبح شوقاً إلى الله **﴿وَالسَّابِقَاتُ سَبْقًا﴾** هم: الملائكة على قول الجمهور كما سلف. قال مسروق، ومجاهد: تسبق الملائكة الشياطين بالوحي إلى الأنبياء. وقال أبو روق: هي الملائكة سبقت ابن آدم بالخير، والعمل الصالح، وروي نحوه عن مجاهد. وقال مقاتل: هي الملائكة تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة. وقال الربيع: هي أنفس المؤمنين تسبق إلى الملائكة شوقاً إلى الله. وقال مجاهد أيضاً: هو الموت يسبق الإنسان. وقال قتادة، والحسن، ومعمار: هي النجوم يسبق بعضها في السير بعضاً. وقال عطاء: هي الخيل التي تسبق إلى الجهاد. وقيل: هي الأرواح التي تسبق الأجساد إلى الجنة أو النار. قال الجرجاني: عطف السابقات بالفاء، لأنها مسببة من التي قبلها أي: واللاتي يسبحن فيسبقن، تقول قام فذهب، فهذا يوجب أن يكون القيام سبباً للذهاب، ولو قلت قام وذهب بالواو لم يكن القيام سبباً للذهاب. قال الواحدي: وهذا غير مطرد في قوله: **﴿فَالْمَدْبِرَاتُ أَمْرًا﴾** لأنه يبعد أن يجعل السبق سبباً للتدبير. قال الرازي: ويمكن الجواب عما قاله الواحدي: بأنها لما أمرت سبحت فسبقت فديرت ما أمرت بتدبيره، فتكون هذه أفعالاً يتصل بعضها ببعض كقوله: قام زيد فذهب، ولما سبقوا في الطاعات وسارعوا إليها ظهرت أمانتهم، ففوض إليهم التدبير. ويجاب عنه بأن السبق لا يكون سبباً للتدبير كسببية السبق للسبق، والقيام للذهاب، ومجرد الاتصال لا يوجب السببية والمسببية، والأولى أن يقال العطف بالفاء في المدبرات طوبى به ما قبله من عطف السابقات بالفاء، ولا يحتاج إلى نكتة، كما احتاج إليها ما قبله؛ لأن النكتة إنما تطلب لمخالفة اللاحق للسابق لا لمطابقته وموافقته **﴿فَالْمَدْبِرَاتُ أَمْرًا﴾** قال القشيري: أجمعوا على أن المراد هنا: الملائكة. وقال الموردي: فيه قولان: أحدهما الملائكة وهو قول الجمهور. والثاني أنها الكواكب السبع، حكاه خالد بن معدان عن

وبقيت أوساطها، والنخرة التي فسدت كلها. وقال مجاهد نخرة أي: مرفوعة، كما في قوله: ﴿رفاتاً﴾ [الإسراء: 49، 98]، وقد قرئ: (إذا كنا) و(إنذا كنا) بالاستفهام، ويعلمه ثم نكر سبحانه عنهم قولاً آخر قالوه فقال: ﴿قالوا تلك إذا كرة خاسرة﴾ أي: رجعة ذات خسران لما يقع على أصحابها من الخسران، والمعنى: أنهم قالوا إن رددنا بعد الموت لنخسر بما يصيبنا بعد الموت مما يقوله محمد. وقيل: معنى خاسرة كاذبة أي: ليست بكائنة، كذا قال الحسن وغيره. وقال الربيع بن أنس: خاسرة على من كذب بها. وقال قتادة، ومحمد بن كعب أي: لأن رجعتنا بعد الموت لنخسر بالتار، وإنما قالوا هذا لأنهم أوعدوا بالتار، والكرة الرجعة، والجمع كرات. وقوله: ﴿فلانما هي زجرة واحدة﴾ تعليل لما يدل عليه ما تقدم من استبعادهم لبعث العظام النخرة، وإحياء الأموات، والمعنى: لا تستبعدوا ذلك فلانما هي زجرة واحدة، وكان ذلك الإحياء، والبعث، والمراد بالزجرة الصيحة وهي النفخة الثانية التي يكون البعث بها. وقيل: إن الضمير في قوله: ﴿إنما هي﴾. راجع إلى الرافعة المتقدم ذكرها ﴿فلانما هم بالساهرة﴾ أي: فإذا الخلائق الذين قد ماتوا ودفنوا أحياء على وجه الأرض، قال الواحدي: المراد بالساهرة وجه الأرض، وظاهرها في قول الجميع. قال الفراء: سميت بهذا الاسم: لأن فيها نوم الحيوان، وسهرهم، وقيل: لأنه يسهر في فلاتها خوفاً منها، فسميت بذلك، ومنه قول أبي كثير الهذلي:

يردون ساهرة كأن حميمها وغميمها اسداف ليل مظلم
وقول أمية بن أبي الصلت:

وفيها لحم ساهرة وبحر وما فاموا به لهم مقبم
يريد لحم حيوان أرض ساهرة. قال في الصحاح: الساهرة وجه الأرض، ومنه قوله: ﴿فلانما هم بالساهرة﴾ وقال: الساهرة أرض بيضاء، وقيل: أرض من فضة لم يعص الله سبحانه فيها، وقيل: الساهرة الأرض السابعة يأتي بها الله سبحانه فيحاسب عليها الخلائق. وقال سفيان الثوري: الساهرة أرض الشام. وقال قتادة: هي جهنم أي: فإذا هؤلاء الكفار في جهنم، وإنما قيل لها ساهرة: لأنهم لا ينامون فيها لاستمرار عذابهم، وجملة: ﴿هل أتاك حديث موسى﴾ مستأنفة مسوقة لتسلية رسول الله ﷺ عن تكذيب قومه، وأنه يصيبهم مثل ما أصاب من كان قبلهم ممن هو أقوى منهم، ومعنى هل أتاك: قد جاءك وبلغك، هذا على تقدير أن قد سمع من قصص فرعون وموسى ما يعرف به حديثهما، وعلى تقدير أن هذا أول ما نزل عليه في شأنهما، فيكون المعنى على الاستفهام أي: هل أتاك حديثه أنا أخبرك به ﴿إن ناداه ربه بالواد المقدس طوى﴾ الظرف متعلق بحديث لا باتاك لاختلاف وقتيهما، وقد مضى من خبر موسى وفرعون في غير موضع ما فيه كفاية، وقد تقدم الاختلاف بين الفراء في طوى في سورة طه. والواد المقدس: المبارك المطهر. قال الفراء: طوى واد بين المدينة ومصر. قال: وهو معنول من

نظيره: ﴿إن القلوب لدى الحناجر﴾ [غافر: 18] وقال المؤرج: قلقة مستوفزة. وقال المبرد: مضطربة، يقال وجف القلب يجف وجيفاً، إذا خفق، كما يقال وجب وجب وجيباً، والإيجاب: السير السريع، فأصل الوجيف اضطراب القلب، ومنه قول قيس بن الخطيم:

إن بني جحجبي وقومهم اكباننا من وراثهم تجف
أبصارها خاشعة أي: أبصار أصحابها، فحذف المضاف، والخاشعة النليلة، والمراد أنها تظهر عليهم النلة، والخضوع عند معاينة أهوال يوم القيامة كقوله: ﴿خاشعين من النل﴾ [الشورى: 45] قال عطاء: يريد أبصار من مات على غير الإسلام، ويدل على هذا أن السياق في منكري البعث ﴿يقولون إنما لمربوبون في الحافرة﴾ هذا حكاية لما يقوله المنكرون للبعث إذا قيل لهم إنكم تبعثون أي: أنرد إلى أول حالنا، وابتداء أمرنا، فنصير أحياء بعد موتنا، يقال رجع فلان في حافرتة أي: رجع من حيث جاء، والحافرة عند العرب اسم لأول الشيء، وابتداء الأمر، ومنه قولهم رجع فلان على حافرتة: أي على الطريق الذي جاء منه، ويقال اقتتل القوم عند الحافرة أي: عند أول ما التقوا، وسميت الطريق التي جاء منها حافرة لتأثيره فيها بمشيئه فيها فهي حافرة بمعنى محفورة، ومن هذا قول الشاعر:

أحافرة على صلح وشيب معاذ الله من سفه وعار
أي: أراجع إلى ما كنت عليه في شبابي من الغزل بعد الشيب والصلح، وقيل الحافرة: العاجلة، والمعنى: إننا لمربوبون إلى الدنيا، وقيل الحافرة: الأرض التي تحفر فيها قبورهم، ومنه قول الشاعر:

أليت لا اتساكم فاعلموا حتى يرد الناس في الحافرة
والمعنى: إننا لمربوبون في قبورنا أحياء، كذا قال الخليل، والفراء، وبه قال مجاهد. وقال ابن زيد: الحافرة النار، واستدل بقوله: ﴿تلك إذا كرة خاسرة﴾ قرأ الجمهور (في الحافرة) وقرأ أبو حيو (في الحفرة) ﴿إذا كنا عظاماً نخرة﴾ أي: بالية متفتتة، يقال نخر العظم بالكسر: إذا بلي وهذا تأكيد لإنكار البعث أي: كيف نرد أحياء، ونبعث إذا كنا عظاماً نخرة، والعامل في إذا مضمّر يدل عليه مربوبون أي: إنذا كنا عظاماً بالية نرد ونبعث مع كونها أبعد شيء من الحياة. قرأ الجمهور (نخرة) وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر (ناخرة)، واختار القراءة الأولى أبو عبيد، وأبو حاتم، واختار القراءة الثانية الفراء، وابن جرير، وأبو معاذ النحوي. قال أبو عمرو بن العلاء: الناخرة التي لم تنخر بعد أي: لم تبل ولا بد أن تنخر. وقيل: هما بمعنى، تقول العرب: نخر الشيء، فهو ناخر ونخر، وطمع، فهو طامع وطمع ونحو ذلك. قال الأخفش: هما جميعاً لغتان أيهما قرأت فحسن. قال الشاعر:

يظّل بها الشيخ الذي كان باننا يدب على عوج له نخرات
يعني: على قوائم عوج، وقيل: للناخرة التي أكلت أطرافها

والأولى﴾ النكال نعت مصدر محنوف أي: أخذه أخذ نكال، أو هو مصدر لفعل محنوف أي: أخذه الله، فنكلك نكال الآخرة، والأولى، أو مصدر مؤكد لمضمون الجملة، والمراد بنكال الآخرة عذاب النار، ونكال الأولى عذاب الدنيا بالفرق. وقال مجاهد: عذاب أول عمره وآخره. وقال قتادة: الآخرة قوله: ﴿إنا ربكم الأعلى﴾ والأولى تكذيبه لموسى. وقيل: الآخرة قوله: ﴿إنا ربكم الأعلى﴾ والأولى قوله: ﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾ وكان بين الكلمتين أربعون سنة، ويجوز أن يكون انتصاب نكال على أنه مفعول له أي: أخذه الله لأجل نكال، ويجوز أن ينتصب بنزع الخافض أي: بنكال. ورجح الزجاج أنه مصدر مؤكد، قال: لأن معنى أخذه الله نكل الله به، فأخرج من معناه لا من لفظه. وقال الفراء أي: أخذه الله أخذاً نكالاً أي: للنكال، والنكال اسم لما جعل نكالاً للغير أي: عقوبة له، يقال: نكل فلان بفلان إذا عقبه، وأصل الكلمة من الامتناع، ومنه النكول عن اليمين، والنكل القيد ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن يَخْشَى﴾ أي: فيما نكر من قصة فرعون، وما فعل به عبرة عظيمة لمن شأنه أن يخشى الله ويتقيه، ويخاف عقوبته، ويحاذر غضبه.

وقد أخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر عن علي بن أبي طالب في قوله: ﴿وَالنَّازِعَاتُ غَرْقًا﴾ قال: هي الملائكة تنزع روح الكفار ﴿وَالنَّاشِطَاتُ نَشْطًا﴾ قال: هي الملائكة تنشط أرواح الكفار ما بين الأظفار والجلد حتى تخرجها ﴿وَالسَّابِحَاتُ سَبْحًا﴾ هي الملائكة تسبح بأرواح المؤمنين بين السماء والأرض ﴿فَالسَّائِقَاتُ سَيْقًا﴾ هي الملائكة يسبق بعضها بعضاً بأرواح المؤمنين إلى الله ﴿فَالْمُصْبِرَاتُ إِمْرًا﴾ هي الملائكة تدبر أمر العباد من السنة إلى السنة. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس: ﴿وَالنَّازِعَاتُ غَرْقًا﴾ قال: هي أنفس الكفار تنزع، ثم تنشط، ثم تفرق في النار. وأخرج الحاكم وصححه عنه ﴿وَالنَّازِعَاتُ غَرْقًا﴾ والنَّاشِطَاتُ نَشْطًا قال: الموت. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود: ﴿وَالنَّازِعَاتُ غَرْقًا﴾ قال: الملائكة الذين يلون أنفس الكفار إلى قوله: ﴿وَالسَّابِحَاتُ سَبْحًا﴾ قال: الملائكة. وأخرج ابن مربي عن معاذ بن جبل قال: قال لي رسول الله ﷺ: «لا تمرق الناس، فتمزقك كلاب النار، قال الله: ﴿وَالنَّاشِطَاتُ نَشْطًا﴾ أتدري ما هو؟ قلت: يا نبي الله ما هو؟ قال: كلاب في النار تنشط اللحم والعظم». وأخرج ابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب أن ابن الكواء سأل عن ﴿المصبرات إمرًا﴾ قال: هي الملائكة يدبرون نكر الرحمن وأمره. وأخرج ابن أبي الدنيا في نكر الموت عن ابن عباس قال: ﴿المصبرات إمرًا﴾ ملائكة يكونون مع ملك الموت يحضرون الموتى عند قبض أرواحهم، فمنهم من يعرج بالروح، ومنهم من يؤمن على الدعاء، ومنهم من يستغفر للميت حتى يصل على ويلى في حفرته. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه ﴿يوم ترجف الراجفة﴾ قال: النفخة الأولى ﴿تتبعها الرادفة﴾ قال: النفخة الثانية

طاو كما عدل عمر من عامر. قال: والصرف أحب إلي إذ لم أجد في المعدول نظيراً له. وقيل: طوى معناه يا رجل بالعبرانية، فكانه قيل يا رجل اذهب، وقيل المعنى: إن الوادي المقدس بورك فيه مرتين، والأول أولى. وقد مضى تحقيق القول فيه: ﴿أذهب إلى فرعون إنه طغى﴾ قيل: هو على تقدير القول، وقيل: هو تفسير للنداء أي: ناداه نداء هو قوله اذهب. وقيل: هو على حذف أن المفسرة، ويؤيده قراءة ابن مسعود أن اذهب: لأن في النداء معنى القول، وجملة: ﴿إنه طغى﴾ تحليل للأمر أو لوجوب الامتنال أي: جاوز الحد في العصيان، والتكبر، والكفر باله ﴿فقل﴾ له ﴿هل لك إلى أن تزكى﴾ أي: قوله بعد وصولك إليه هل لك رغبة إلى التزكي وهو التطهر من الشرك، وأصله تتزكى فحذفت إحدى التاءين. قرأ الجمهور (تزكى) بالتخفيف. وقرأ نافع، وابن كثير بتشديد الزاي على إدغام التاء في الزاي. قال أبو عمرو بن العلاء معنى قراءة التخفيف تكون زكياً مؤمناً ومعنى قراءة التشديد الصنفة، وفي الكلام مبتدأ مقدر يتعلق به إلى، والتقدير: هل لك رغبة، أو هل لك توجه، أو هل لك سبيل إلى التزكي، ومثل هذا قولهم هل لك في الخير؟ يريدون هل لك رغبة في الخير، ومن هذا قول الشاعر:

فهل لكم فيها إلي فأنني بصير بما أعيا النطلسي جنينا
﴿وأهيبك إلى ربك فتخشى﴾ أي: أرشدك إلى عبادته، وتوحيده، فتخشى عقابه، والفاء لترتيب الخشية على الهداية؛ لأن الخشية لا تكون إلا من مهتد راشد ﴿فأراه الآية الكبرى﴾ هذه الفاء هي الفصيحة لإفصاحها عن كلام محنوف، يعني: فذهب فقال له ما قال مما حكاه الله في غير موضع، وأجاب عليه بما أجاب إلى أن قال: ﴿إن كنت جئت بآية فات بها﴾ [الأعراف: 106] فعند ذلك أراه الآية الكبرى. واختلف في الآية الكبرى ما هي؟ فقيل: العصا، وقيل: يده، وقيل: فلق البحر، وقيل: هي جميع ما جاء به من الآيات التسع ﴿فكُتِبَ وَعُصِيَ﴾ أي: فلما أراه الآية الكبرى كُتِبَ بموسى، وبما جاء به، وعصى الله عز وجل، فلم يطمعه ﴿ثم أُنْزِلَ﴾ أي: تولى، وأعرض عن الإيمان ﴿يسعى﴾ أي: يعمل بالفساد في الأرض، ويجتهد في معارضة ما جاء به موسى، وقيل: أنبر هارباً من الحية يسعى خوفاً منها. وقال الرازي: معنى: ﴿أنبر يسعى﴾ أقبل يسعى، كما يقال أقبل يفعل كذا أي: انشأ يفعل كذا، فوضع أنبر موضع أقبل، لئلا يوصف بالإقبال ﴿فحشر﴾ أي: فجمع جنوده للمقاتل والمحاربة، أو جمع السحرة للمعارضة، أو جمع الناس للحضور؛ ليشاهدوا ما يقع، أو جمعهم ليمنعوه من الحية ﴿فنادى فقال إنا ربكم الأعلى﴾ أي: قال لهم بصوت عال، أو أمر من ينادي بهذا القول. ومعنى: ﴿إنا ربكم الأعلى﴾ أنه لا رب فوقه. قال عطاء: كان صنع لهم أصناماً صغاراً وأمرهم بعبادتها وقال: إنا رب أصنامكم، وقيل: أراد بكونه ربهم أنه قائدهم وسائدهم. والأول أولى لقوله في آية أخرى: ﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾ [القصص: 38] ﴿فلأخذه الله نكال الآخرة

[81] ثم بيّن سبحانه كيفية خلق السماء فقال: ﴿بَنَاهَا رَفَعَ سَمَكُهَا فَسَوَّاهَا﴾ أي: جعلها كالبناء المرتفع فوق الأرض، ورفع سمكها أي: أعلاه في الهواء، فقلوه: ﴿رَفَعَ سَمَكُهَا﴾ بيان للبناء، يقال سمكت الشيء أي: رفعته في الهواء، وسمك الشيء سموكاً: ارتفع. قال الفراء كل شيء حمل شيئاً من البناء أو غيره فهو سمك، وبناء مسموك، وسنام سامك أي: عال، والسموكات: السموات. ومنه قول الفرزدق:

إن الذي سمك السماء بنى لنا بيتاً دعائمه أعز وأطول
قال البغوي: رفع سمكها أي: سققها. قال الكسائي، والفراء، والزجاج: تم الكلام عند قوله: ﴿أم للسماء بناها﴾ لأنه من صلة السماء، والتقدير: أم السماء التي بناها، فحذف التي، ومثل هذا الحذف جائز. ومعنى ﴿فَسَوَّاهَا﴾ فجعلها مستوية الخلق معلة الشكل لا تفاوت فيها، ولا اعوجاج، ولا فطور، ولا شقوق. ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ الغطش الظلمة أي: جعله مظلماً، يقال غطش الليل وأغطشه الله، كما يقال أظلم الليل وأظلمه الله، ورجل أغطش، وامرأة غطشى لا يهتديان. قال الراغب: وأصله من الأغطش، وهو الذي في عينه عمش، ومنه فلاة غطشى لا يهتدى فيها، والتغطاش التعامي. قال الأعشى:

ودعاه بالليل غطشى الفلاة يؤنسنني صوت قيادها
وقوله:

وغامرهم ملهم غطش

يعني: غمرهم سواد الليل، وأضاف الليل إلى السماء؛ لأن الليل يكون بغروب الشمس، والشمس مضافة إلى السماء ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ أي: أبرز نهارها المضيء بإضاءة الشمس، وعبر عن النهار بالضحي؛ لأنه أشرف أوقاته وأطيبها، وأضافه إلى السماء؛ لأنه يظهر بظهور الشمس، وهي منسوبة إلى السماء ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ نَحَاها﴾ أي: بعد خلق السماء، ومعنى نحاها بسطها، وهذا يدل على أن خلق الأرض بعد خلق السماء، ولا معارضة بين هذه الآية، وبين ما تقدم في سورة فصلت من قوله: ﴿ثم استوى إلى السماء﴾ [فصلت: 11] بل الجمع بأنه سبحانه خلق الأرض أولاً غير منحوة، ثم خلق السماء، ثم نحاه الأرض، وقد قدمنا الكلام على هذا مستوفى هنالك، وقدّمنا أيضاً بحثاً في هذا في أول سورة البقرة عند قوله: ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾ [البقرة: 29] ونكر بعض أهل العلم أن بعد بمعنى مع، كما في قوله: ﴿عقل بعد ذلك زعيم﴾ [القلم: 13]، وقيل: بعد بمعنى قبل، كقوله: ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر﴾ [الأنبياء: 105] أي: من قبل الذكر، والجمع الذي نكرناه أولاً، وهو قول ابن عباس وغير واحد، واختاره ابن جرير. يقال نحوت الشيء أنحوه: إذا بسطته، ويقال لعش النعامة أنحى؛ لأنه مبسوط على الأرض، وأنشد المبرد:

نحاهما فلما رأها استوت
وقال أمية بن أبي الصلت:
وبث الخلق فيها إذا نحاها فهم قطانها حتى التنادي

﴿قُلُوبَ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةً﴾ قال: خائفة ﴿إِنَّا لَمُرِيدُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾ قال: الحياة. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، والترمذي وحسنه، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عن أبي بن كعب قال: «كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ربيع الليل قام فقال: أيها الناس انكروا الله، جاءت الراجفة تتبعها الرانفة، جاء الموت بما فيه». وأخرج أبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ترجف الأرض رجفاً وتزلزل بأهلها وهي التي يقول الله ﷻ: ﴿يَوْمَ تَرْجَفُ الرَّاجِفَةُ﴾ تتبعها الرانفة» يقول: مثل السفينة في البحر تكفأ بأهلها مثل القنديل المعلق بأرجائه». وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس: ﴿قُلُوبَ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةً﴾ قال: وجلة متحركة. وأخرج عبد بن حميد عنه: ﴿إِنَّا لَمُرِيدُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾ قال: خلقاً جيداً. وأخرج أبو عبيد في فضائله، وابن الأنباري في الوقف والإبتداء، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً أنه سئل عن قوله: ﴿فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ فقال: الساهرة وجه الأرض، وفي لفظ قال: الأرض كلها ساهرة، ألا ترى قول الشاعر:

صيد بحر وصيد ساهرة

وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات عنه أيضاً ﴿هَلْ لَكَ إِلَىٰ أَنْ تَزْكِيَ﴾ قال: هل لك أن تقول: لا إله إلا الله. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً: ﴿فَلَاخِذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ﴾ قال: قوله: ﴿إِنَّا رِبْكَمَ الْأَعْلَىٰ﴾ والأولى قال: قوله: ﴿مَا علمت لكم من إله غيري﴾ [القصص: 38]. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن عبد الله بن عمرو قال: كان بين كلمتيه أربعون سنة.

ثُمَّ أَتَىٰ عَلَمًا أَرَأَيْتَهُ أَتَىٰهَا ۖ رَفَعَ سَمَكُهَا سَوَّاهَا ۖ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ۖ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ نَحَاها ۖ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ۖ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ۖ مَتَّاعًا لِّكُلِّ وَلَاحِقَةٍ ۖ فَإِذَا جَاءَ الْحَافَةُ الْكَبِيرُ ۖ يَوْمَ يَنْذَرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَىٰ ۖ وَيَرْجِعُ الْجَبِيحُ لِمَنْ يَرَىٰ ۖ فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ ۖ وَآثَرَ الْمَكْرَ الدُّنْيَا ۖ فَإِنَّ الْجَبِيحَ مِنَ الْبَاكِ ۖ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَىٰ النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ فَإِنَّ اللَّيْلَةَ هِيَ الْبَارَةُ ۖ يَتْلُوكَ عَنْ أَتَافٍ ۖ إِيَّانَ تُرْسِنَا ۖ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا ۖ إِذْ رَكَعَتْ مُتَهَتِّئَةً ۖ إِمَّا أَنْتَ مُيَذَّرٌ مِنْ هَجْنَاهَا ۖ كَانَتْ يَوْمَ يَرْوُفَا بِرُشْوَا إِلَّا عَنِيَّةً أَوْ هَجْنًا ۖ

قوله: ﴿إِنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ لِّلسَّمَاءِ﴾ أي: أخلقكم بعد الموت، وبعثكم أشد عندكم، وفي تقديركم أم خلق السماء والخطاب لكفار مكة، والمقصود به التوبيخ لهم والتبكيت؛ لأن من قدر على خلق السماء التي لها هذا الجرم العظيم وفيها من عجائب الصنع وبدائع القدرة ما هو بين للناظرين كيف يعجز عن إعادة الأجسام التي أماتها بعد أن خلقها أول مرة؟ ومثل هذا قوله سبحانه: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: 57] وقوله: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [يس: 82]

وقال زيد بن عمرو بن نفيل:

وأسلمت وجهي لمن أسلمت له الأرض تحمل صخراً ثقلاً
بحاها فلما استوت شدّها بأيدي وأرسي عليها الجبالا

قرأ الجمهور بنصب الأرض على الاشتغال، وقرأ الحسن، وعمرو بن ميمون، وابن أبي عبيدة، وأبو حيوة، وأبو السماك، وعمرو بن عبيد، ونصر بن عاصم بالرفع على الابتداء. **﴿أخرج منها ماءها ومرعاها﴾** أي: فجر من الأرض الأنهار والبحار والعيون وأخرج منها مرعاها أي: النبات الذي يرعى، ومرعاها مصدر ميمي أي: رعيها، وهو في الأصل موضع الرعي، والجملة إما بيان وتفسير لبحاها؛ لأن السكنى لا تتأتى بمجرد البسط بل لا بد من تسوية أمر المعاش من الماكل والمشرب. وإما في محل نصب على الحال **﴿والجبال أرساها﴾** أي: أثبتها في الأرض، وجعلها كالأوتاد للأرض لتثبت وتستقر، وإن لا تميد بأهلها. قرأ الجمهور بنصب الجبال على الاشتغال. وقرأ الحسن، وعمرو بن ميمون، وأبو حيوة، وأبو السماك، وعمرو بن عبيد، ونصر بن عاصم بالرفع على الابتداء، قيل: ولعل وجه تقديم نكر إخراج الماء والمرعى على إرساء الجبال مع تقدم الإرساء عليه للاهتمام بأمر الماكل والمشرب **﴿متاعاً لكم ولأنعامكم﴾** أي: منفعة لكم ولأنعامكم من البقر، والإبل، والغنم، وانتصاب متاعاً على المصدرية أي: متعكم بذلك متاعاً أو هو مصدر من غير لفظه؛ لأن قوله: **﴿أخرج منها ماءها ومرعاها﴾** بمعنى متع بذلك، أو على أنه مفعول له أي: فعل ذلك لأجل التمتع، وإنما قال: **﴿لكم ولأنعامكم﴾** لأن فائدة ما نكر من الدحو، وإخراج الماء، والمرعى كائنة لهم ولأنعامهم، والمرعى يعم ما يأكله الناس والدواب **﴿فإذا جاءت الطامة الكبرى﴾** أي: الداهية العظمى التي تطم على سائر الطامات. قال الحسن، وغيره: وهي النفخة الثانية. وقال الضحاک، وغيره: هي القيامة سميت بذلك، لأنها تطم على كل شيء لعظم هولها. قال المبرد: الطامة عند العرب الداهية التي لا تستطاع، وإنما أخذت فيما أحسب من قولهم: طمّ الفرس طمياً: إذا استفرغ جهده في الجري، وطمّ الماء: إذا ملا النهر كله. وقال غيره: هو من طمّ السيل الركبة أي: دفنها، وطمّ الدفن. قال مجاهد، وغيره: الطامة الكبرى هي التي تسلم أهل الجنة إلى الجنة، وأهل النار إلى النار، والفاء للدلالة على ترتب ما بعدها على ما قبلها، وجواب إذا قيل: هو قوله: **﴿فأما من طغى﴾** وقيل: محذوف أي: فإن الأمر كذلك، أو عاينوا أو علموا، أو أدخل أهل النار النار، وأهل الجنة الجنة. وقال أبو البقاء: العامل فيها جوابها وهو معنى: **﴿يومئذ يتنكر الإنسان﴾** [الفجر: 23] فإنه منصوب بفعل مضمر أي: أعني يوم يتنكر، أو يوم يتنكر يكون كيت، وكيت. وقيل: إن الظرف بدل من إذا، وقيل: هو بدل من الطامة الكبرى؛ ومعنى تنكر الإنسان ما سعي: أنه يتنكر ما عمله من خير، أو شر؛ لأنه يشاهده مدوناً في صحائف

عمله، وماء، مصدرية، أو موصولة **﴿ويبرزت للجحيم لمن يرى﴾** معطوف على جاءت، ومعنى برزت: أظهرت إظهاراً لا يخفى على أحد. قال مقاتل: يكشف عنها الغطاء، فينظر إليها الخلق، وقيل: **﴿لمن يرى﴾** من الكفار، لا من المؤمنين؛ والظاهر أن تبرز لكل راء، فأما المؤمن، فيعرف برؤيتها قدر نعمة الله عليه بالسلامة منها، وأما الكافر فيزداد غمّاً إلى غمه، وحسرة إلى حسرته. قرأ الجمهور (لمن يرى) بالتحية، وقرأت عائشة، ومالك بن دينار، وعكرمة، وزيد بن عليّ بالفوقية أي: لمن تراه الجحيم، أو لمن تراه أنت يا محمد. وقرأ ابن مسعود (لمن رأى) على صيغة الفعل الماضي **﴿فأما من طغى﴾** أي: جاوز الحد في الكفر والمعاصي **﴿وأثر الحياة الدنيا﴾** أي: قدمها عن الآخرة، ولم يستعد لها، ولا عمل عملها **﴿فإن الجحيم هي المأوى﴾** أي: مأواه، والآف واللام عوض عن المضاف إليه، والمعنى: أنها منزله الذي ينزله، ومأواه الذي يأوي إليه لا غيرها. ثم نكر القسم الثاني من القسمين فقال: **﴿وأما من خاف مقام ربه﴾** أي: حذر مقامه بين يدي ربه يوم القيامة. قال الربيع: مقامه يوم الحساب. قال قتادة: يقول إن الله عز وجل مقاماً قد خافه المؤمنون. وقال مجاهد: هو خوفه في الدنيا من الله عز وجل عند واقعة الذنب فيقطع عنه نظيره قوله: **﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾** [الرحمن: 46] والأول أولى **﴿ونهى النفس عن الهوى﴾** أي: زجرها عن الميل إلى المعاصي والمحارم التي تشتتها. قال مقاتل: هو الرجل يهمل بالمعصية، فينكر مقامه للحساب، فيتركها **﴿فإن الجنة هي المأوى﴾** أي: المنزل الذي ينزله، والمكان الذي يأوي إليه لا غيرها **﴿يسألونك عن الساعة إيان مرساها﴾** أي: متى وقوعها وقيامها. قال الفراء: أي: منتهى قيامها كرسو السفينة. قال أبو عبيدة: ومرسى السفينة حين تنتهي، والمعنى: يسألونك عن الساعة متى يقيمها الله، وقد مضى بيان هذا في سورة الأعراف **﴿فيم فت من ذكراها﴾** أي: في أي شيء أنت يا محمد من نكر القيامة والسؤال عنها، والمعنى: لست في شيء من علمها، ونكراها إنما يعلمها الله سبحانه، وهو إنكار ورد لسؤال المشركين عنها أي: فيم أنت من ذلك حتى يسألونك عنه ولست تعلمه **﴿إلى ربك منتهاها﴾** أي: منتهى علمها، فلا يوجد علمها عند غيره، وهذا كقوله: **﴿قل إنما علمها عند ربي﴾** [الأعراف: 187] وقوله: **﴿إن الله عنده علم الساعة﴾** [لقمان: 34] فكيف يسألونك عنها، ويطلبون منك بيان وقت قيامها **﴿إنما أنت منذر من يخشاها﴾** أي: مخوف لمن يخشى قيام الساعة، وذلك وظيفتك ليس عليك غيره من الإخبار بوقت قيام الساعة، ونحوه مما استأثر الله بعلمه، وخصّ الإنذار بمن يخشى؛ لأنهم المنتفعون بالإنذار، وإن كان منذراً لكل مكلف من مسلم وكافر. قرأ الجمهور بإضافة (منذر) إلى ما بعده. وقرأ عمر بن عبد العزيز، وأبو جعفر، وطلحة، وابن محيصن، وشيبة، والأعرج، وحמיד بالتثنية، ورويت هذه

مشركي مكة سألوا النبي ﷺ فقالوا: متى الساعة استهزاء منهم؟ فأنزل الله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مَرْسَاها﴾ يعني: مجيئها ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرها﴾ يعني: ما أنت من علمها يا محمد ﴿إِلَىٰ رَيْكَ مَنَتهَا﴾ يعني: منتهى علمها. وأخرج ابن مزيويه عن عائشة قالت: «كانت الأعراب إذا قدموا على النبي ﷺ سألوه عن الساعة، فينظر إلى أحدت إنسان منهم، فيقول: إن يعيش هذا قامت عليكم ساعتكم».

تفسير سورة عبس

وهي مكية في قول الجميع. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مزيويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة عبس بمكة. وأخرج ابن مزيويه عن ابن الزبير مثله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَسَىٰ وَرَوْكَ ❶ أَنْ يَكُونَ الْأَخْسَرُ ❷ وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّكَ يَرْكُ ❸ أَوْ يَذَّكَّرُ ❹ فَتَنَعَمَ الذِّكْرُ ❺ أَمْ لَا يَسْتَفْهِمُ ❻ فَأَنْتَ لَمْ تَصَدَّقْ ❼ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْكُ ❽ وَأَلَّا يَكُونَ يَسِيرًا ❾ وَهُوَ يَخْتَرُ ❿ فَأَنْتَ عَنْ تَلَكُّ ❶٠ كَلَّا إِنَّا نَبْذَرُهُ ❶١ مَن شَاءَ ذَكَرْهُ ❶٢ فِي مِصْرٍ فَكَّرَمُوهُ ❶٣ مَرْفُوعًا مَّطْفُوعًا ❶٤ بِأَيْ سَفَرًا ❶٥ كَرِيمًا مَرَّةً ❶٦ نَبِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْذَرُ ❶٧ مِنْ أَيِّ فَعْلَةٍ خَلَقَهُ ❶٨ مِنْ طَلْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ❶٩ ثُمَّ السَّيْلَ يَسْرُهُ ❷٠ ثُمَّ أَمَانَةً فَأَقْبَرَهُ ❷١ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ❷٢ كَلَّا لَنَا بَقِيصٌ مَا أَكْذَرُ ❷٣ لَيَنْظُرَ الْإِنْسَانُ إِلَىٰ طَلَابِيهِ ❷٤ أَلَا صَبَّحَ الْمَلَكُ صَبًا ❷٥ ثُمَّ نَفَخْنَا الْأَرْضَ سُكًّا ❷٦ فَأَبْنَيْنَا فِيهَا سَاءَ ❷٧ وَصَبًا ❷٨ وَزَيَّنَّا رِجَالًا ❷٩ وَرَمَدَيْنِ عَيْنًا ❷١٠ وَكَلْبَيْنِ رَأْيًا ❷١١ فَتَنَّا لُكْرًا ❷١٢ وَكُنُوزًا ❷١٣ إِذَا جَاءَتِ الصَّلَافَةُ ❷١٤ يَوْمَ يَرَىٰ الْكَافِرُ مِنْ أَيْنِوهُ ❷١٥ وَيَأْتِيهِ ❷١٦ وَكَسْبِيهِ وَيَتَذَكَّرُ ❷١٧ لَكُلِّ أَرَبٍ رَنَنٌ يَوْمَئِذٍ سَاءَ يَتَذَكَّرُ ❷١٨ وَيُؤْمَرُ ❷١٩ شَيْئَرًا ❷٢٠ حَاجِبَةً شَتْبِيرًا ❷٢١ وَيُؤْمَرُ ❷٢٢ عَلَيْهَا مَرَّةً ❷٢٣ وَتَفْهَمُ ❷٢٤ قَرَّةً ❷٢٥ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُ الْغَوَّارُ ❷٢٦

قوله: ﴿عبس وتولى﴾ أي: كلع بوجهه وأعرض. وقرئ عبس بالتشديد ﴿إِنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾ مفعول لأجله: أي؛ لأن جاءه الأعْمَى، والعامل فيه إما عبس، أو تولى على الاختلاف بين البصريين، والكوفيين في التنازع هل المختار إعمال الأول أو الثاني؟

وقد اجمع المفسرون على أن سبب نزول الآية: أن قومًا من أشراف قريش كانوا عند النبي ﷺ، وقد طمع في إسلامهم، فاقبل عبد الله بن أم مكتوم، فكره رسول الله ﷺ أن يقطع عليه ابن أم مكتوم كلامه، فأعرض عنه، فنزلت، وسيأتي في آخر البحث بيان هذا إن شاء الله ﴿وما يدريك لعله يزكى﴾ التفت سبحانه إلى خطاب نبيه ﷺ؛ لأن المشافهة أدخل في العتاب: أي أي شيء يجعلك داريا بحاله حتى تعرض عنه، وجملة ﴿لعله يزكى﴾ مستأنفة لبيان أن له شأنًا ينافي الإعراض عنه أي: لعله يتطهر من الذنوب

القراءة عن أبي عمرو، قال الفراء: والتنون، وتركه في منذر صواب كقوله: ﴿بالغ أمره﴾ [الطلاق: 3] و ﴿موهن كيد الكافرين﴾ [الأنفال: 18]. قال أبو علي الفارسي: يجوز أن تكون الإضافة للماضي، نحو ضارب زيد أمس ﴿كانهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها﴾ أي: إلا قدر آخر نهار أو أوله، أو قدر الضحى الذي يلي تلك العشية، والمراد تقليل مدة الدنيا، كما قال: ﴿لم يلبثوا إلا ساعة من نهار﴾ [الأحقاف: 35] وقيل: لم يلبثوا في قبورهم إلا عشية أو ضحاها. قال الفراء، والزجاج: المراد بإضافة الضحى إلى العشية إضافته إلى يوم العشية على عادة العرب، يقولون: أتيتك الغداة أو عشيتك، وأتيتك العشية أو غداتك، فتكون العشية في معنى آخر النهار، والغداة في معنى أول النهار. ومنه قول الشاعر:

نحن صبحنا عامرًا في دارها جرداً تعادى طرفي نهارها

عشية الهلال أو سارها

والجملة تقرير لما يدل عليه الإنذار من سرعة مجيء المنذر به.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿رفع سمكها﴾ قال: بناما ﴿وإغطش ليلها﴾ قال: أظلم ليلها. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه ﴿وإغطش ليلها﴾ قال: وأظلم ليلها ﴿وأخرج ضحاها﴾ قال: أخرج نهارها. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿والأرض بعد ذلك نحاها﴾ قال: مع ذلك. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عنه أيضاً أن رجلاً قال له: آيتان في كتاب الله تخالف إحداهما الأخرى، فقال: إنما أتيت من قبل رايك، قال: اقرا: ﴿قل إنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين﴾ حتى بلغ: ﴿ثم استوى إلى السماء﴾ [فصلت: 9 - 11] وقوله: ﴿والأرض بعد ذلك نحاها﴾ قال: خلق الله الأرض قبل أن يخلق السماء، ثم خلق السماء، ثم نحى الأرض بعد ما خلق السماء، وإنما قوله: ﴿نحاها﴾ بسطها. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: ﴿نحاها﴾ أن أخرج منها الماء والمرعى، وشقق فيها الأنهار، وجعل فيها الجبال، والرمال، والسبل، والأكام وما بينهما في يومين. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: الطامة من أسماء يوم القيامة. وأخرج ابن مزيويه عن علي بن أبي طالب: «كان النبي ﷺ يسأل عن الساعة فنزلت: ﴿فيم أنت من نكراها﴾». وأخرج البزار، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مزيويه عن عائشة قالت: «ما زال رسول الله ﷺ يسأل عن الساعة حتى أنزل الله: ﴿فيم أنت من نكراها﴾ إلى ريك منتهها﴾ فأنتهى، فلم يسأل عنها. وأخرج عبد بن حميد، والنسائي، وابن جرير، والطبراني، وابن مزيويه عن طارق بن شهاب قال: كان رسول الله ﷺ يكثر ذكر الساعة حتى نزلت: ﴿فيم أنت من نكراها﴾ إلى ريك منتهها﴾ فكف عنها. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مزيويه عن ابن عباس. قال السيوطي بسند ضعيف: إن

حاجة إلى الاهتمام بأمره. قيل: الضميران في إنها، وفي ذكره للقرآن، وتأنيت الأول لتأنيث خبره. وقيل: الأول للسورة، أو للآيات السابقة. والثاني للتذكرة: لأنها في معنى الذكر، وقيل إن معنى: ﴿فمن شاء ذكره﴾: فمن شاء الله الهمة، وفهم القرآن حتى يذكره، ويتعظ به، والأول أولى. ثم أخبر سبحانه عن عظم هذه التذكرة، وجلالتها فقال: ﴿في صحف﴾ أي: إنها تذكرة كاثنة في صحف، فالجار، والمجرور صفة لتذكرة، وما بينهما اعتراض، والصحف جمع صحيفة، ومعنى ﴿مكرمة﴾: أنها مكربة عند الله لما فيها من العلم والحكمة، أو لأنها نازلة من اللوح المحفوظ، وقيل: المراد بالصحف: كتب الأنبياء، كما في قوله: ﴿إن هذا لفي الصحف الأولى﴾ * صحف إبراهيم وموسى [الاعلى: 18، 19] ومعنى ﴿مرفوعة﴾: أنها رفيعة القدر عند الله، وقيل: مرفوعة في السماء السابعة. قال الواحدي: قال المفسرون: مكربة يعني: اللوح المحفوظ ﴿مرفوعة﴾ يعني: في السماء السابعة. قال ابن جرير: مرفوعة القدر، والذكر، وقيل: مرفوعة عن الشبه، والتناقض ﴿مطهرة﴾ أي: منزهة لا يمسها إلا المطهرون. قال الحسن: مطهرة من كل دنس. قال السدي: مصانة عن الكفار لا ينالونها ﴿بأيدي سفرة﴾ السفرة جمع سافر ككتبة، وكاتب، والمعنى: أنها بأيدي كتبة من الملائكة ينسخون الكتب من اللوح المحفوظ. قال الفراء: السفرة هنا الملائكة الذين يسفرون بالوحي بين الله ورسوله، من السفارة وهو: السعي بين القوم، وأنشد:

فما أذع السفارة بين قومي ولا أمشي بغير رب نسيب
قال الزجاج: وإنما قيل: للكتاب سفر بكسر السين، والكاتب سافر؛ لأن معناه أنه بين، يقال أسفر الصبح: إذا أضاء، وأسفرت المرأة: إذا كشفت النقاب عن وجهها، ومنه سفرت بين القوم أسفر سفارة أي: أصلحت بينهم. قال مجاهد: هم الملائكة الكرام الكاتبون لأعمال العباد. وقال قتادة: السفرة هنا هم القراء لأنهم يقرعون الأسفار. وقال وهب بن منبه: هم أصحاب النبي ﷺ. ثم أثنى سبحانه على السفرة فقال: ﴿كرام ببرة﴾ أي: كرام على ربهم كذا قال الكلبي. وقال الحسن: كرام عن المعاصي، فهم يرفعون أنفسهم عنها. وقيل: يتكرمون أن يكونوا مع ابن آدم إذا خلا بزوجه، أو قضى حاجته. وقيل: يؤثرون منافع غيرهم على منافعهم. وقيل: يتكرمون على المؤمنين بالاستغفار لهم. والبررة جمع بار مثل كفره، وكافر أي: اتقاء مطيعون لربهم صادقون في إيمانهم، وقد تقدم تفسيره ﴿قتل الإنسان ما أكفره﴾ أي: لعن الإنسان الكافر ما أشد كفره، وقيل: عذب، قيل: والمراد به عتبة بن أبي لهب، ومعنى: ما أكفره التعجب من إفراط كفره. قال الزجاج: معناه أعجبوا أنتم من كفره، وقيل: المراد بالإنسان من تقدم ذكره في قوله: ﴿أما من استغنى﴾ وقيل: المراد به الجنس، وهذا هو الأول، فيدخل تحته كل كافر شديد الكفر، ويدخل تحته من كان سبباً لنزول الآية سخولاً أولياً. ثم ذكر سبحانه ما كان ينبغي لهذا

بالعمل الصالح بسبب ما يتعلمه منك، فالضمير في لعله راجع إلى الأعمى، وقيل: هو راجع إلى الكافر أي: وما يدريك أن ما طمعت فيه ممن اشتغلت بالكلام معه عن الأعمى أنه يزكى، أو يذكر، والأول أولى. وكلمة الترجي باعتبار من وجه إليه الخطاب للتنبيه على أن الإعراض عنه مع كونه مرجوً التزكي مما لا يجوز. قرأ الجمهور (أن جاءه الأعمى) على الخبر بدون استفهام، ووجه ما تقدم. وقرأ الحسن (أن جاءه) بالمد على الاستفهام، فهو على هذه القراءة متعلق بفعل محذوف دل عليه عيس وتولى، والتقدير: أن جاءه الأعمى تولى وأعرض، ومثل هذه الآية قوله في سورة الانعام: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي﴾ [الانعام: 52] وكذلك قوله في سورة الكهف: ﴿ولا تعد عينك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا﴾ [الكهف: 28] وقوله: ﴿أو يذكر﴾ عطف على يزكى داخل معه في حكم الترجي أي: أو يتذكر، فيتعظ بما تعلمه من المواعظ ﴿فتنتفه الذكري﴾ أي: الموعظة. قرأ الجمهور (فتنتفه) بالرفع، وقرأ عاصم وابن أبي إسحاق، وعيسى، والسلمي، وزر بن حبيش بالنصب على جواب الترجي ﴿أما من استغنى﴾ أي: كان ذا ثروة وغنى، أو استغنى عن الإيمان، وعما عندك من العلم ﴿فأنت له تصدى﴾ أي: تصفي لكلامه، والتصدي الإصغاء. قرأ الجمهور (تصدى) بالتخفيف على طرح إحدى التاءين تخفيفاً، وقرأ نافع، وابن محيصن بالتشديد على الإدغام، وفي هذا مزيد تنفير له ﷺ عن الإقبال عليهم، والإصغاء إلى كلامهم ﴿وما عليك أن لا يزكى﴾ أي: أي شيء عليك في أن لا يسلم، ولا يهتدي، فإنه ليس عليك إلا البلاغ، فلا تهتم بامر من كان هكذا من الكفار، ويجوز أن تكون ما نافية أي: ليس عليك بأس في أن لا يتزكى من تصديت له، وأقبلت عليه، وتكون الجملة في محل نصب على الحال من ضمير تصدى. ثم زاد سبحانه في معاتبته رسوله ﷺ فقال: ﴿وأما من جاءك يسعى﴾ أي: وصل إليك حال كونه مسرعاً في المجيء إليك طالباً منك أن ترشده إلى الخير، وتعظه بمواعظ الله، وجملة ﴿وهو يخشى﴾ حال من فاعل يسعى على التداخل، أو من فاعل جاءك على الترابف ﴿فأنت عنه تلهي﴾ أي: تتشاغل عنه، وتعرض عن الإقبال عليه، والتلهي التشاغل، والتغافل، يقال لهيت عن الأمر إلهي أي: تشاغلته عنه، وكذا تلهيت، وقوله: ﴿كلا﴾ رد له ﷺ عما عوتب عليه أي: لا تفعل بعد هذا الواقع منك مثله من الإعراض عن الفقير، والتصدي للغني، والتشاغل به، مع كونه ليس ممن يتزكى عن إرشاد من جاءك من أهل التزكي، والقبول للموعظة، وهذا الواقع من النبي ﷺ هو: من باب ترك الأولى، فأرشده الله سبحانه إلى ما هو الأولى به ﴿إنها تذكرة﴾ أي: أن هذه الآيات، أو السورة موعظة حقها أن تتعظ بها، وتقبلها وتعمل بموجبها، ويعمل بها كل أمتك ﴿فمن شاء ذكره﴾ أي: فمن رغب فيها تعظ بها، وحفظها، وعمل بموجبها، ومن رغب عنها، كما فعله من استغنى، فلا

لام العلة. قال الزجاج: الكسر على الابتداء والاستئناف، والفتح على معنى البذل من الطعام. المعنى: فلينظر الإنسان إلى أنا صببنا الماء صباً، وأراد بصب الماء المطر. وقرأ الحسن بن علي بالفتح، والإمالة **﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقَاقًا﴾** أي: شققناها بالنبات الخارج منها بسبب نزول المطر شقاً بديعاً لاثقاً بما يخرج منه في الصغر، والكبر، والشكل، والهيئة. ثم بيّن سبب هذا الشق، وما وقع لأجله، فقال: **﴿فَلَنَبْتَنَّا فِيهَا حَبَابًا﴾** يعني: الحبوب الذي يتغذى بها، والمعنى: أن النبات لا يزال ينمو، ويتزايد إلى أن يصير حباً، وقوله: **﴿وَعَنَابًا﴾** معطوف على حباً أي: وانبثنا فيها عنباً، قيل: وليس من لوازم العلف أن يقيد المعطوف بجميع ما قيد به المعطوف عليه، فلا ضير في خلو إنبات العنب عن شق الأرض، والقضب: هو القث الرطب الذي يقضب مرة بعد أخرى تلف به النواب، ولهذا سمي قضباً على مصدر قضب أي: قطعه كأنه لتكثرت قطعها نفس القطع. قال الخليل: القضب الفصصة الرطبة، فإذا يبست فهي: القث. قال في الصحاح: والقضبة، والقضب الرطبة، قال: والموضع الذي ينبت فيه مقضبة. قال القتيبي، وثعلب: وأهل مكة يسمون العنب القضب. والزيتون هو ما يعصر منه الزيت، وهو شجرة الزيتون المعروفة، والنخل هو جمع نخلة **﴿وَحَدَائِقُ غُلَبًا﴾** جمع حديقة، وهي البستان، والغلب العظام الغلاظ الرقاب. وقال مجاهد، ومقاتل: الغلب الملتف بعضها ببعض، يقال: رجل أغلب: إذا كان عظيم الرقية، ويقال للأسد أغلب؛ لأنه مصمت العنق لا يلتفت إلا جميعاً. قال العجاج:

مازلت يوم البين لوي صليبي والرأس حتى صرت مثل الأغلب
وجمع أغلب، وغلباء غلب، كما جمع أحمر، وحمراء على حمر. وقال قتادة، وابن زيد: الغلب النخل الكرام. وعن ابن زيد أيضاً، وعكرمة: هي غلاظ الأوساط، والجنوع، والفاكهة ما يكله الإنسان من ثمار الأشجار كالعنب، والتين، والخوخ، ونحوها. والأب كل ما أنبتت الأرض مما لا يأكله الناس، ولا يزرعونه من الكلا، وسائر أنواع المرعى، ومنه قول الشاعر:

جُنُنَا قَيْسٍ وَنَجْدُ دَارِنَا وَلِنَا الْأَبُ بِهَا وَالْمَكْرَعُ
قال الضحاك: الأب كل شيء ينبت على وجه الأرض. وقال ابن أبي طلحة: هو الثمار الرطبة. وروي عن الضحاك أيضاً أنه قال: هو التين خاصة، والأول أولى. ثم شرع سبحانه في بيان أحوال المعاد فقال: **﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّلَاةُ﴾** يعني: صيحة يوم القيامة، وسميت صيحة لشدة صوتها؛ لأنها تصخ الأذان: أي تصمها، فلا تسمع، وقيل: سميت صيحة؛ لأنها يصيح لها الأسماك، من قولك أصاخ إلى كذا أي: استمع إليه، والأول أصح. قال الخليل: الصلابة صيحة تصخ الأذان حتى تصمها بشدة وقعها، وأصل الكلمة في اللغة مأخوذة من الصك الشديد، يقال صكه بالحجر: إذا صكه بها، وجواب إذا محذوف يدل عليه قوله: **﴿لِكُلِّ امْرئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾** أي: فإذا جاءت الصلابة اشتغل

الكافر أن ينظر فيه حتى ينزجر عن كفره، ويكف عن طغيانه فقال: **﴿مَنْ أَيُّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾** أي: من أي شيء خلق الله هذا الكافر، والاستفهام للتقرير. ثم فسر ذلك فقال: **﴿مَنْ نَطَفَهُ خَلَقَهُ﴾** أي: من ماء مهين، وهذا تحقير له. قال الحسن: كيف يتكبر من خرج من مخرج البول مرتين، ومعنى **﴿فَقَدَرَهُ﴾** أي: فسواه، وهياه لمصالح نفسه، وخلق له اليدين، والرجلين، والعينين، وسائر الآلات، والحواس، وقيل: قدره أطواراً من حال إلى حال، نطفة، ثم علقه إلى أن تم خلقه **﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ﴾** أي: يسر له الطريق إلى الخير والشر. وقال السدي، ومقاتل، وعطاء، وقاتدة: يسره للخروج من بطن أمه، والأول أولى. ومثله قوله: **﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾** [البلد: 10] وانتصاب السبيل بمضمر يدل عليه الفعل المذكور أي: يسر السبيل يسره **﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾** أي: جعله بعد أن أماته ذا قبر يوارى فيه إكراماً له، ولم يجعله مما يلقي على وجه الأرض تاكله السباع، والطير، كذا قال الفراء وقال أبو عبيدة: جعل له قبراً وأمر أن يقبر فيه. وقال أقيبره، ولم يقل قبره؛ لأن القابر هو الدافن بيده، ومنه قول الأعشى:

لو أسندت ميتاً إلى صدرها عاش ولم ينقل إلى قابر
﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ﴾ أي: ثم إذا شاء إنشأه أنشأه أي: أحياه بعد موته، وعلق الإنشأ بالمشيئة للدلالة على أن وقته غير متعين، بل هو: تابع للمشيئة. قرأ الجمهور (أنشأه) بالالف، وروى أبو حيوة عن نافع، وشعيب بن أبي حمزة نشره بغير ألف، وهما: لغتان فصيحتان. **﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾** كلا ردع، وزجر للإنسان الكافر أي: ليس الأمر كما يقول. ومعنى: لما يقض ما أمره، لم يقض ما أمره الله به من العمل بطاعته، واجتناب معاصيه، وقيل: المراد الإنسان على العموم، وأنه لم يفعل ما أمره الله به مع طول المدة؛ لأنه لا يخلو من تقصير. قال الحسن: أي: حقاً لم يعمل ما أمر به. وقال ابن فورك: أي: كلا لما يقض لهذا الكافر ما أمره به من الإيمان، بل أمره بما لم يقض له. قال ابن الأنباري: الوقف على كلا قبيح، والوقف على أمره جيد، وكلا على هذا بمعنى حقاً. وقيل المعنى: لما يقض جميع أفراد الإنسان ما أمره، بل أخل به: بعضها بالكفر، وبعضها بالعصيان، وما قضى ما أمره الله إلا القليل. ثم شرع سبحانه في تعداد نعمه على عباده، ليذكروها، وينزجروا عن كفرانها بعد نكر النعم المتعلقة بحوثه فقال: **﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾** أي: ينظر كيف خلق الله طعامه الذي جعله سبباً لحياته؟ وكيف هيا له أسباب المعاش يستعد بها للسعادة الآخرة؟ قال مجاهد: معناه، فلينظر الإنسان إلى طعامه أي: إلى مبدله، ومخرجه، والأول أول. ثم بيّن ذلك سبحانه فقال: **﴿إِنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾** قرأ الجمهور (إننا) بالكسر على الاستئناف. وقرأ الكوفيون، ورويس عن يعقوب بالفتح على أنه بدل من طعامه بدل اشتغال لكون نزول المطر سبباً لحصول الطعام، فهو كالمشتغل عليه، أو بتقدير

ابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس قال: «بينما رسول الله ﷺ يناجي عتبة بن ربيعة، والعباس بن عبد المطلب، وأبا جهل بن هشام، وكان يتصدى لهم كثيراً، ويحرص عليهم أن يؤمنوا، فاقبل عليهم رجل أعمى يقال له: عبد الله بن أم مكتوم يمشي، وهو يناجيهم، فجعل عبد الله يستقرئ النبي ﷺ آية من القرآن قال: يا رسول الله علمني مما علمك الله، فأعرض عنه رسول الله ﷺ وعيس في وجهه، وتولى، وكره كلامه، وأقبل على الآخرين، فلما قضى رسول الله ﷺ نجواه، وأخذ ينقلب إلى أهله أمسك الله ببعض بصره، ثم خفق برأسه، ثم أنزل الله ﷻ **«عيس وتولى»** الآية، فلما نزل فيه ما نزل أكرمه نبي ﷺ، وكلمه وقال له: ما حاجتك؟ هل تريد من شيء؟ وإذا ذهب من عنده قال: هل لك حاجة في شيء؟ قال ابن كثير: فيه غريبة، وقد تكلم في إسناده، وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس **«بايدي سفرة»** قال: كتبه. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه **«بايدي سفرة»** قال: هم: بالنبطية القراء. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً **«كلام بررة»** قال: الملائكة: وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «الذي يقرأ القرآن، وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرؤه، وهو عليه شاق له أجران». وأخرج ابن جرير عن ابن عباس **«ثم السبيل يسره»** قال: يعني: بذلك خروجه من بطن أمه يسره له. وأخرج ابن المنذر عن عبد الله بن الزبير في قوله: **«فلينظر الإنسان إلى طعامه»** قال: إلى مخله، ومخرجه. وأخرج ابن أبي الدنيا عن ابن عباس: **«فلينظر الإنسان إلى طعامه»** قال: إلى خثره. وأخرج ابن المنذر عنه: **«إننا صبينا الماء صبا»** قال: المطر **«ثم شققنا الأرض شقاً»** قال: عن النبات. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: **«وقضياً»** قال: الفصفصة يعني: القث **«وحدائق غلبا»** قال: طوالاً **«وفاكهة ولبا»** قال: الثمار الرطبة. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: الحدائق كل ملتف، والغلب ما غلط، والآب ما أثبتت الأرض مما تكله النوايل، ولا يكله الناس. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عنه أيضاً **«وحدائق غلبا»** قال: شجر في الجنة يستظل به لا يحمل شيئاً. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال: الآب الكلا والمرعى. وأخرج أبو عبيد في فضائله، وعبد بن حميد عن إبراهيم التيمي قال: سئل أبو بكر الصديق عن الآب ما هو؟ فقال: آبي سماء تظلني، وآبي أرض تقلني إذا قلت في كتاب الله ما أعلم. وأخرج عبد بن حميد عن عبد الله بن يزيد: أن رجلاً سأل عمر عن قوله: **«ولبا»** فلما رآهم يقولون أقبل عليهم بالدرّة. وأخرج ابن سعد، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب، والخطيب عن أنس أن عمر قرأ على المنبر: **«فلنبتنا فيها حباً وعنباً»** إلى قوله: **«ولبا»** قال: كل هذا قد عرفناه، فما الآب؟ ثم رفض عصي كانت في يده

كل أحد بنفسه، والظرف في قوله: **«يوم يفز المرم»** من أخيه * وأمه وأبيه * وصاحبه وبنيه * إما بدل من إذا جاءت، أو منصوب بمقدر أي: أعني، ويكون تفسيراً للصاحبة، أو بدلاً منها مبني على الفتح، وخص هؤلاء بالذكر؛ لأنهم لخص القرابة، وأولاهم بالحنو، والرافة، فالفرار منهم لا يكون إلا لهول عظيم، وخطب فظليح **«لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه»** أي: لكل إنسان يوم القيامة شأن يشغله عن الأقرباء، ويصرفه عنهم. وقيل: إنما يفز عنهم حذراً من مطالبتهم إياه بما بينهم، وقيل: يفز عنهم؛ لثلا يروا ما هو فيه من الشدة، وقيل: لعلمه أنهم لا ينفعونه، ولا يغنون عنه شيئاً، كما قال تعالى: **«يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً»** [الدخان: 41] والجملة مستأنفة مسوقة لبيان سبب الفرار. قال ابن قتيبة: يغنيه أي: يصرفه عن قرابته، ومنه يقال أغن عني وجهك أي: أصرفه. قرأ الجمهور (يغنيه) بالفتح المعجمة. وقرأ ابن محيصن بالعين المهملة مع فتح الياء أي: يهيم، من عناء الأمر إذا أهيم **«وجوه يومئذ مسفرة»** وجوه مبتدأ، وإن كان نكرة؛ لأنه في مقام التفصيل، وهو من مسوغات الابتداء بالنكرة، ويومئذ متعلق به، ومسفرة خبره، ومعنى مسفرة: مشرقة مضية، وهي: وجوه المؤمنين؛ لأنهم قد علموا إذ ذاك ما لهم من النعيم، والكرامة، يقال أسفر الصبح: إذا أضاء. قال الضحاک: مسفرة من آثار الوضوء، وقيل: من قيام الليل **«ضاحكة مستبشرة»** أي: فرحة بما نالته من الثواب الجزيل. ثم لما فرغ من ذكر حال المؤمنين ذكر حال الكفار فقال: **«ووجوه يومئذ عليها غبرة»** أي: غبار، وكسرة لما تراه مما أعدّه الله لها من العذاب **«ترهقها قفرة»** أي: يغشاها ويعلوها سواد، وكسوف، وقيل: ذلة، وقيل: شدة، والقتير في كلام العرب الغبار، كذا قال أبو عبيدة، وأنشد قول الفرزدق:

متوج برداء الملك يتبعه فوج ترى فوقه الرايات والقترا
ويدفع ما قاله أبو عبيدة تقدم نكر الغبرة، فإنها واحدة الغبار. وقال زيد بن أسلم: القفرة ما ارتفعت إلى السماء، والغبرة ما انحطت إلى الأرض **«اولئك»** يعني: أصحاب الوجوه **«هم للكفرة للفجرة»** أي: الجامعون بين الكفر بالله، والفجور، يقال فجر أي: فسق، وفجر أي: كتب، وأصله الميل، والفاجر المائل عن الحق.

وقد أخرج الترمذي وحسنه، وابن المنذر، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن عائشة قالت: «أنزلت عيس وتولى في ابن أم مكتوم الأعمى، أتى رسول الله ﷺ، فجعل يقول: يا رسول الله أرشدني، وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين، فجعل رسول الله ﷻ يعرض عنه، ويقبل على الآخر، ويقول: أتري بما أقول بأساً؟ فيقول لا، ففي هذا أنزلت». وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وأبو يعلى عن أنس قال: «جاء ابن أم مكتوم، وهو يكلم أبي بن خلف، فأعرض عنه، فأنزل الله: **«عيس وتولى أن جاءه الأعمى»** فكان النبي ﷺ بعد ذلك يكرمه». وأخرج

بها. فالحاصل أن التكويد إما بمعنى لف جرمها، أو لف ضوئها، أو الرمي بها **﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾** أي: تهاقت، وانقضت، وتناكرت، يقال: انكدر الطائر من الهواء إذا انقض، والأصل في الانكدار الانصباب. قال الخليل: يقال: انكدر عليهم القوم إذا جاءوا أسلأ، فانصبوا عليهم. قال أبو عبيدة: انصبت، كما ينصب العقاب. قال الكلبي وعطاء: تمطر السماء يومئذ نجوماً، فلا يبقى نجم في السماء إلا وقع على الأرض، وقيل: انكدارها طمس نورها **﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾** أي: قلعت عن الأرض، وسيرت في الهواء، ومنه قوله: **﴿يَوْمَ نَسِيرُ الْجِبَالُ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾** [الكهف: 47]. **﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾** العشار: النوق الحوامل التي في بطونها أولادها الواحدة عشار، وهي التي قد أتى عليها في الحمل عشرة أشهر، ثم لا يزال ذلك اسمها حتى تضع. وخص العشار لأنها أنفس مال عند العرب، وأعزّه عندهم، ومعنى عطلت: تركت هملأ بلا راع، وذلك لما شابهوا من الهول العظيم، قيل: وهذا على وجه المثل لأن يوم القيامة لا تكون فيه ناقة عشار، بل المراد: أنه لو كان للرجل ناقة عشار في ذلك اليوم، أو نوق عشار لتركها، ولم يلتفت إليها اشتغالا بما هو فيه من هول يوم القيامة، وسيأتي آخر البحث إن شاء الله ما يفيد أن هذا في الدنيا. وقيل: العشار السحاب، فإن العرب تشبهاها بالحامل، ومنه قوله: **﴿فَالْحَامِلَاتِ وَرِءَا﴾** [الذاريات: 2] وتعطيلها عدم إمرارها قرا الجمهور (عطلت) بالتشديد، وقرا ابن كثير في رواية عنه بالتخفيف. وقيل: المراد أن الديار تعطل، فلا تسكن، وقيل: الأرض التي تعشر زرعها تعطل، فلا تذرع **﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾** الوحوش ما توحش من نواب البر، ومعنى حشرت: بعثت حتى يقتص بعضها من بعض، فيقتص للجماء من القرناء. وقيل: حشرها موتها، وقيل: إنها مع نفرتها اليوم من الناس وتبئدها في الصحارى تضم تلك اليوم إليهم. قرا الجمهور (حشرت) بالتخفيف، وقرا الحسن، وعمرو بن ميمون بالتشديد. **﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾** أي: أوقدت، فصارت ناراً تضطرم. وقال الفراء: ملئت بأن صارت بحراً واحداً، وكثر ملؤها، وبه قال الربيع بن خثيم، والكلبي، ومقاتل، والحسن، والضحاك. وقيل: أرسل عنيها على مالحها، ومالحها على عنيها حتى امتلأت، وقيل: فجرت، فصارت بحراً واحداً. وروي عن قتادة، وابن حبان أن معنى الآية: يبست، ولا يبقى فيها قطرة. يقال: سجرت الحوض أسجره سجراً إذا ملأته. وقال القشيري: هو من سجرت التنور أسجره سجراً إذا أحميته. قال ابن زيد، وعطية، وسفيان، وهب، وغيرهم: أوقدت، فصارت ناراً، وقيل: معنى سجرت أنها صارت حمراء كالدم، من قولهم عين سجراء أي: حمراء. قرا الجمهور (سجرت) بتشديد الجيم. وقرا ابن كثير، وأبو عمرو، وتخفيفها **﴿وَإِذَا الْبُحُورُ سُجِّرَتْ﴾** أي: قرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح في الجنة، وقرن بين رجل السوء مع رجل السوء في النار. وقال عطاء:

فقال: هذا لعمر الله هو التكلف، فما عليك أن لا تدري ما الأب، اتبعوا ما بين لكم من هذا الكتاب، فاعملوا عليه، وما لم تعرفوه، فكلوه إلى ربه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس قال: الصاخة من أسماء يوم القيامة. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **﴿مُسْفَرَةٌ﴾** قال: مشرقة، وفي قوله: **﴿تَرْمِهَا قُتْرَةٌ﴾** قال: تغشاهما شدة، ونلة. وأخرج ابن أبي حاتم عنه: **﴿قُتْرَةٌ﴾** قال: سواد الوجه.

تفسير سورة التكويد

وهي مكية بلا خلاف. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة **﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾** بمكة. وأخرج ابن مردويه عن عائشة، وابن الزبير مثله. وأخرج أحمد، والترمذي وحسنه، وابن المنذر، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين، فليقرأ: **﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾** [أي: سورة التكويد]. **﴿وَإِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾** [أي: سورة الانفطار]. **﴿وَإِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾** [أي: سورة الانشقاق].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّزِ الرَّحِيمِ

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ١ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ٢ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ٣ وَإِذَا الْبُحُورُ سُجِّرَتْ ٤ وَإِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ٥ وَإِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ٦ وَإِذَا السَّمَاءُ كُوِّرَتْ ٧ وَإِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ٨ وَإِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ٩ وَإِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ١٠ وَإِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ١١ وَإِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ١٢ وَإِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ١٣ وَإِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ١٤ وَإِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ١٥ وَإِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ١٦ وَإِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ١٧ وَإِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ١٨ وَإِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ١٩ وَإِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ٢٠ وَإِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ٢١ وَإِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ٢٢ وَإِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ٢٣ وَإِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ٢٤ وَإِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ٢٥ وَإِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ٢٦ وَإِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ٢٧ وَإِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ٢٨ وَإِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ٢٩ وَإِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ٣٠

قوله: **﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾** ارتفاع الشمس بفعل محنوف يفسره ما بعده على الاشتغال، وهذا عند البصريين، وأما عند الكوفيين، والأخفش، فهو مرتفع على الابتداء. والتكويد الجمع، وهو مأخوذ من كار العمامة على رأسه يكوورها. قال الزجاج: لفت، كما تلف العمامة، يقال: كورت العمامة على رأسي أكورها كوراً، وكورتها تكويراً: إذا لفتها. قال أبو عبيدة: كورت مثل تكوير العمامة تلف، فتجمع. قال الربيع بن خثيم: كورت أي: رمى بها، ومنه كورته، فتكوّر أي: سقط. وقال مقاتل، وقتادة، والكلبي: ذهب ضوؤها. وقال مجاهد: اضمحلت. قال الواحدي: قال المفسرون: تجمع الشمس بعضها إلى بعض ثم تلف، فيرمى

سعرت أي: أوقدت لأعداء الله إيقاداً شديداً. **قرأ الجمهور** (سعرت) بالتخفيف، وقرأ نافع، وابن نكوان، وحفص بالتشديد؛ لأنها أوقدت مرة بعد مرة. قال قتادة: **سعرها** غضب الله، وخطايا بني آدم **﴿وإذا الجنة أزلفت﴾** أي: قرّبت إلى المتقين، وأنيت منهم. قال الحسن: إنهم يقربون منها لا أنها تزول عن موضعها. وقال ابن زيد: معنى أزلفت تزينت. والأول أولى لأن الزلّفى في كلام العرب القرب. قيل: هذه الأمور الاثنا عشر: ستّ منها في الدنيا، وهي من أول السورة إلى قوله: **﴿وإذا البحار سجرت﴾**، وستّ في الآخرة وهي: **﴿وإذا النفوس زوجت﴾** إلى هنا، وجواب الجميع قوله: **﴿علمت نفس ما أحضرت﴾** على أن المراد الزمان الممتدّ من الدنيا إلى الآخرة، لكن لا بمعنى أنها تعلم ما تعلم في كلّ جزء من أجزاء هذا الوقت الممتدّ، بل المراد: علمت ما أحضرت عند نشر الصحف يعني: ما عملت من خير، أو شرّ، ومعنى ما أحضرت: ما أحضرت من أعمالها، والمراد حضور صحائف الأعمال، أو حضور الأعمال نفسها، كما ورد أن الأعمال تصوّر بصور تدلّ عليها وتعرف بها، وتذكير نفس المفيد لثبوت العلم المذكور لفرد من النفوس، أو لبعض منها للإيدان بأن ثبوته لجميع أفرادها من الظهور، والوضوح بحيث لا يخفى على أحد، ويدلّ على هذا قوله: **﴿يوم تجد كلّ نفس ما عملت من خير محضراً﴾** [آل عمران: 30] وقيل: يجوز أن يكون ذلك للإشعار بأنه إذا علمت حينئذ نفس من النفوس ما أحضرت وجب على كلّ نفس إصلاح عملها مخافة أن تكون هي تلك التي علمت ما أحضرت، فكيف وكلّ نفس تعلمه على طريقة قولك لمن تنصحه لعلك ستندم على ما فعلت، وربما ندم الإنسان على فعله **﴿فلا أقسم بالخنس﴾** لا زائدة، كما تقدّم تحقيقه، وتحقيق ما فيه من الأقوال في أول سورة القيامة أي: فأقسم بالخنس، وهي: الكواكب وسميت الخنس من خنس: إذا تأخر لأنها تخنس بالنهار، فتخفى ولا ترى، وهي: زحل، والمشتري، والمريخ، والزهرة، وعطارد، كما نكره أهل التفسير. ووجه تخصيصها بالذكر من بين سائر النجوم أنها تستقبل الشمس، وتقطع المجرة. وقال في الصحاح: الخنس الكواكب كلها لأنها تخنس في المغرب، أو لأنها تخفى نهاراً، أو يقال هي الكواكب السيارة منها دون الثابتة. قال الفراء: إنها الكواكب الخمسة المذكورة لأنها تخنس في مجراها، وتكنس أي: تستتر، كما تكنس الأطباء في المغار، ويقال: سميت خنساً لتأخرها لأنها الكواكب المتحيرة التي ترجع وتستقيم. يقال: خنس عنه يخنس خنوساً إذا تأخر، وأخسنه غيره: إذا خلفه ومضى عنه، والخنس: تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع قليل في الأرنبة، ومعنى: **﴿الجوار﴾** أنها تجري مع الشمس والقمر، ومعنى: **﴿الكنس﴾** أنها ترجع حتى تخفى تحت ضوء الشمس فخنوسها رجوعها، وكنوسها اختفاؤها تحت ضوءها، وقيل: خنوسها خفاؤها بالنهار، وكنوسها غروبها. قال الحسن، وقتادة: هي النجوم التي

زوّجت نفوس المؤمنين بالصور العين، وقرنت نفوس الكافرين بالشياطين. وقيل: قرن كل شكل إلى شكله في العمل، وهو راجع إلى القول الأول. وقيل: قرن كل رجل إلى من كان يلازمه من ملك أو سلطان، كما في قوله: **﴿أحشروا الذين ظلموا وأزواجهم﴾** [الصفّات: 22] وقال عكرمة: **﴿وإذا النفوس زوجت﴾** يعني: قرنت الأرواح بالأجساد. وقال الحسن: الحق كل امرئ بشيعته اليهود باليهود، والنصارى بالنصارى، والمجوس بالمجوس، وكل من كان يعبد شيئاً من دون الله يلحق بعضهم ببعض، والمنافقون بالمنافقين، والمؤمنون بالمؤمنين. وقيل: يقرن الغاري بمن اغواه من شيطان، أو إنسان، ويقرن المطيع بمن دعاه إلى الطاعة من الأنبياء والمؤمنين. وقيل: قرنت النفوس بأعمالها **﴿وإذا للموؤدة سئلت﴾** أي: المدفونة حية، وقد كان العرب إذا ولدت لأحدهم بنت دفنوها حية مخافة العار، أو الحاجة، يقال: واد يند وأدأ، فهو وائد، والمفعول به موءود، وأصله مأخوذ من الثقل لأنها تدفن، فيطرح عليها التراب، فيثقلها فتموت، ومنه: **﴿ولا يؤوده حفظهما﴾** [البقرة: 255] أي: لا يثقله، ومنه قول متم بن نويرة:

وموؤدة مقبورة في مغارة

ومنه قول الراجز:

سميتها إذ ولدت تموت والقبر صهرضامن رमित
قرأ الجمهور: (الموءدة) بهمزة بين واوين ساكنين كالموءدة. وقرأ البيزي في رواية عنه بهمزة مضمومة، ثم واو ساكنة. وقرأ الأعمش: (الموءدة) بزنة الموءدة. وقرأ الجمهور (سئلت) مبنياً للمفعول، وقرأ الحسن بكسر السين من سال يسيل. وقرأ الجمهور (قتلت) بالتخفيف مبنياً للمفعول، وقرأ أبو جعفر بالتشديد على التثنية. وقرأ علي، وابن مسعود، وابن عباس سالت مبنياً للفاعل (قتلت) يضم التاء الأخيرة. ومعنى سئلت على قراءة الجمهور أن توجيه السؤال إليها لإظهار كمال الغيظ على قاتلتها حتى كلن لا يستحق أن يخاطب، ويسأل عن ذلك، وفيه تبيكيت لقاتلتها، وتوبيخ له شديد. قال الحسن: أراد الله أن يوبخ قاتلتها لأنها قتلت بغير ذنب، وفي مصحف أبي (وإذا الموءدة سالت بأيّ ذنب قتلتني) **﴿وإذا الصحف نشرت﴾** يعني: صحائف الأعمال نشرت للحساب؛ لأنها تطوى عند الموت، وتنشر عند الحساب، فيفقد كل إنسان على صحيفته، فيعلم ما فيها، فيقول: **﴿مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها﴾** [الكهف: 49] قرأ نافع، وعاصم، وابن عامر، وأبو عمرو (نشرت) بالتخفيف. وقرأ الباقر بالتشديد على التثنية **﴿وإذا السماء كشطت﴾** الكشط قلع عن شدة التزاق، فالسما ككشط، كما يكشط الجلد عن الكبش، والكشط بالقاف لغة في الكشط، وهي: قراءة ابن مسعود. قال الزجاج: قلعت كما يقلع السقف. وقال الفراء: نزعت، فطويت. وقال مقاتل: كشفت عما فيها. قال الواحدي: ومعنى الكشط رفعك شيئاً عن شيء قد غطاه **﴿وإذا الجحيم**

تخس بالنهار، وإذا غربت، والمعنى متقارب لأنها تتأخر في النهار عن البصر لخفائها فلا ترى، وتظهر بالليل، وتكنس في وقت غروبها. وقيل: المراد بها بقر الوحش لأنها تنصف بالخنس، وبالجوار، وبالكنس. وقال عكرمة: الخنس البقر، والكنس الظباء، فهي: تخنس إذا رأت الإنسان، وتنقبض، وتتأخر، وتدخل كناسها. وقيل: هي الملائكة. والأول أولى لنذكر الليل والصبح بعد هذا، والكنس مأخوذ من الكنس الذي يختفي فيه الوحش، والخنس جمع خانس وخانسة، والكنس جمع كانس وكانسة ﴿والليل إذا عسعس﴾ قال أهل اللغة: هو من الأضداد، يقال: عسعس الليل إذا أقبل، وعسعس إذا أدير، ويدل على أن المراد هنا أدير قوله: ﴿والصبح إذا تنفس﴾ قال الفراء: أجمع المفسرون على أن معنى عسعس أدير، كذا حكاه عنه الجوهري، وقال الحسن: أقبل بظلامه. قال الفراء: العرب تقول: عسعس الليل إذا أقبل، وعسعس الليل إذا أدير، وهذا لا ينافي ما تقدم عنه، لأنه حكى عن المفسرين أنهم أجمعوا على حمل معناه في هذه الآية على أدير، وإن كان في الأصل مشتركاً بين الإقبال والإدبار. قال المبرد: هو من الأضداد. قال: والمعنيان يرجعان إلى شيء واحد، وهو: ابتداء الظلام في أوله، وإبباره في آخره. قال رؤبة بن العجاج:

يا هند ما أسرع ما تمسعا من بعدما كان فتى ترعرعا
وقال امرؤ القيس:

عسعس حتى لو نشاء إذ لنا كان لنا من ناره مقتبس
وقوله:

الماء على الربيع القديم تمسعا

﴿والصبح إذا تنفس﴾ التنفس في الأصل: خروج النسيم من الجوف، وتنفس الصبح إقباله لأنه يقبل بروج ونسيم، فجعل ذلك تنفساً له مجازاً. قال الواحدي: تنفس أي: امتد ضوءه حتى يصير نهراً، ومنه يقال للنهار إذا زاد تنفس. وقيل: ﴿إذا تنفس﴾ إذا انشق، وانفلق، ومنه تنفست القوس أي: تصدعت. ثم نكر سبحانه جواب القسم فقال: ﴿إنه لقول رسول كريم﴾ يعني: جبريل لكونه نزل به من جهة الله سبحانه إلى رسوله ﷺ، وأضاف القول إلى جبريل لكونه مرسلاً به، وقيل: المراد بالرسول في الآية محمد ﷺ، والأول أولى. ثم وصف الرسول المذكور بأوصاف محمودة فقال: ﴿ذي قوة عند ذي العرش مكين﴾ أي: ذي قوة شديدة في القيام بما كلف به، كما في قوله: ﴿شديد القوى﴾ [النجم: 5]، ومعنى: ﴿عند ذي العرش مكين﴾ أنه ذو رتبة عالية، ومكانة مكنية عند الله سبحانه، وهو في محل نصب على الحال من مكين، وأصله الوصف، فلما قدم صار حالاً، ويجوز أن يكون نعتاً لرسول، يقال مكن فلان عند فلان مكانة أي: صار ذا منزلة عنده ومكانة. قال أبو صالح: من مكانته عند ذي العرش أنه يدخل سبعين سراً بغير إذن، ومعنى ﴿مطاع﴾ أنه مطاع بين الملائكة يرجعون إليه، ويطيعونه ﴿ثم أمين﴾ قرأ الجمهور بفتح (ثم) على أنها

ظرف مكان للبعيد، والعامل فيه مطاع، أو ما بعده، والمعنى: أنه مطاع في السموات، أو أمين فيها أي: مؤتمن على الوحي وغيره، وقرأ هشيم، وأبو جعفر، وأبو حيوة بضمها على أنها عاطفة، وكان العطف بها للتراخي في الرتبة لأن ما بعدها أعظم مما قبلها، ومن قال: إن المراد بالرسول محمد ﷺ، فالمعنى: أنه ذو قوة على تبليغ الرسالة إلى الأمة مطاع طيعه، من أطاع الله أمين على الوحي ﴿وما صاحبكم بمجنون﴾ الخطاب لأهل مكة، والمراد بصاحبهم رسول الله ﷺ، والمعنى: وما محمد يا أهل مكة بمجنون، ونكره بوصف الصحبة للإشعار بأنهم عالمون بأمره، وأنه ليس مما يرمونه به من الجنون، وغيره في شيء، وأنهم افترضوا عليه ذلك عن علم منهم بأنه أعقل الناس وأكملهم، وهذه الجملة داخلة في جواب القسم، فاقسم سبحانه بأن القرآن نزل به جبريل، وأن محمداً ﷺ ليس كما يقولون من أنه مجنون، وأنه يأتي بالقرآن من جهة نفسه ﴿ولقد رآه بالأفق المبين﴾ اللام جواب قسم محذوف أي: وتالله لقد رأى محمد جبريل بالأفق المبين أي: بمطلع الشمس من قبل المشرق لأن هذا الأفق إذا كانت الشمس تطلع منه فهو مبين لأن من جهته ترى الأشياء. وقيل: الأفق المبين أقطار السماء ونواحيها، ومنه قول الشاعر:

لأخذنا بأقطار السماء عليكم لنا أقمراها والنجوم الطوالع

وإنما قال سبحانه: ﴿ولقد رآه بالأفق المبين﴾ مع أنه قد رآه غير مرة لأنه رآه هذه المرة في صورته له ستمائة جناح، قال سفيان: إنه رآه في أفق السماء الشرقي. وقال ابن بحر: في أفق السماء الغربي. وقال مجاهد: رآه نحو أجياد وهو مشرق مكة، والمبين صفة للأفق قاله الربيع. وقيل: صفة لمن رآه قاله مجاهد: وقيل معنى الآية: ولقد رأى محمد ربه عز وجل، وقد تقدم القول في هذا في سورة النجم ﴿وما هو﴾ أي: محمد ﷺ ﴿على الغيب﴾ يعني: خبر السماء وما أطلع عليه مما كان غائباً علمه من أهل مكة ﴿بضنين﴾ بمتهم أي: هو ثقة فيما يؤدي عن الله سبحانه. وقيل: بضنين ببخيل أي: لا يبخل بالوحي، ولا يقصر في التبليغ، وسبب هذا الاختلاف اختلاف القراء، فقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي: (بظنين) بالطاء المشالة أي: بمتهم، والظنة التهمة، واختار هذه القراءة أبو عبيد قال: لأنهم لم يبخلوا ولكن كنّبوه. وقرأ الباقون بضنين بالضاد أي: ببخيل، من ضننت بالشيء أضنّ ضناً: إذا بخلت. قال مجاهد أي: لا يضمن عليكم بما يعلم بل يعلم الخلق كلام الله وأحكامه. وقيل: المراد جبريل إنه ليس على الغيب بضنين، والأول أولى ﴿وما هو بقول شيطان رجيم﴾ أي: وما القرآن بقول شيطان من الشياطين المستترقة للسمع المرجومة بالشهب. قال الكلبي: يقول إن القرآن ليس بث شعر لا كهانة، كما قالت قریش. قال عطاء: يريد بالشيطان الشيطان الأبيض الذي كان يأتي النبي ﷺ في صورة جبريل يريد أن يفتنه. ثم يكتهم سبحانه وبخهم، فقال: ﴿فأين تذهبون﴾ أي: أين

فاماتتهم. وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ قال: حشرو البهائم موتها، وحشرو كل شيء الموت غير الجن والإنس، فإنهما يوافيان يوم القيامة. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والخطيب في المتفق، والمفتري عنه في قوله: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ قال: يحشرو كل شيء يوم القيامة حتى إن الدواب لتحشرو. وأخرج البيهقي في البعث عنه أيضاً في قوله: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ قال: تسجر حتى تصير ناراً. وأخرج الطبراني عنه: ﴿سُجِّرَتْ﴾ قال: اختلط ماؤها بماء الأرض. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في البعث عن النعمان بن بشير عن عمر بن الخطاب في قوله: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ قال: يقرن بين الرجل الصالح مع الصالح في الجنة، ويقرن بين الرجل السوء مع الرجل السوء في النار، كذلك تزويج الأنفس وفي رواية: ثم قرأ: ﴿أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصفحات: 22] وأخرج نحوه ابن مردويه عن النعمان بن بشير مرفوعاً. وأخرج البزار، والحاكم في الكنى، والبيهقي في سننه عن عمر بن الخطاب قال: جاء قيس بن عاصم التميمي إلى رسول الله ﷺ، فقال: إني وأنت ثمان بنات لي في الجاهلية، فقال له رسول الله ﷺ: أعتق عن كل واحدة رقبة، قال: إني صاحب إبل، قال: فاهد عن كل واحدة بدنة. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس: ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ قال: قربت. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه من طرق عن علي بن أبي طالب في قوله: ﴿فَلَا أَقْسَمُ بِالْخَنَسِ﴾ قال: هي الكواكب تكنس بالليل، وتخنس بالنهار، فلا ترى. وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿وَلَا أَقْسَمُ بِالْخَنَسِ﴾ قال خمسة أنجم: زحل، وعطارد، والمشتري، وبهرام، والزهرة، ليس شيء يقطع المجرة غيرها. وأخرج ابن مردويه، والخطيب في كتاب النجوم عن ابن عباس في الآية قال: هي النجوم السبعة: زحل، وبهرام، وعطارد، والمشتري، والزهرة، والشمس، والقمر، خنوسها رجوعها، وكنوسها تغيبها بالنهار. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وابن سعد، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه من طرق عن ابن مسعود في قوله: ﴿بِالْخَنَسِ الْجَوَارِي﴾ للكنس قال: هي بقرة الوحش. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: هي البقرة تكنس إلى الظل. وأخرج ابن المنذر عنه قال: تكنس لأنفسها في أصول الشجر تتوارى فيه. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال: هي: الظباء. وأخرج ابن راهويه، وعبد بن حميد، والبيهقي في الشعب عن علي بن أبي طالب في قوله: ﴿وَالْجَوَارِ لُكْنَسِ﴾ قال: هي: الكواكب.

تعملون عن هذا القرآن وعن طاعته كذا قاله قتادة. وقال الزجاج: معناه أي: طريق تسلكون أبين من هذه الطريقة التي قد بينت لكم، يقال أين تذهب، وإلى أين تذهب؟ وحكى الفراء عن العرب: ذهب الشام، وخرجت العراق، وانطلقت السوق أي: إليها. قال: سمعناه في هذه الأحرف الثلاثة، وأنشد لبعض بني عقيل:

تصبح بنا حنيفة إذ رأتنا وأني الأرض تذهب بالصباح
تريد إلى أي الأرض تذهب، فحنف إلى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَكْرَ الْعَالَمِينَ﴾ أي: ما القرآن إلا موعظة للخلق أجمعين، وتذكير لهم، وقوله: ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ بدل من العالمين بإعادة الجار، ومفعول المشيئة ﴿أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ أي: لمن شاء منكم الاستقامة على الحق والإيمان والطاعة ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: وما تشاءون الاستقامة إلا أن يشاء الله تلك المشيئة، فأعلمهم سبحانه أن المشيئة في التوفيق إليه، وأنهم لا يقدرون على ذلك إلا بمشيئة الله وتوفيقه، ومثل هذا قوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَوْفَّيَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [يونس: 100] وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَاهُ إِلَّا عَلَى الْمَلَائِكَةِ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحِشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قَبْلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: 111] وقوله: ﴿إِنْكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: 56] والآيات القرآنية في هذا المعنى كثيرة.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ قال: أظلمت ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ قال: تغيرت. وأخرج ابن أبي حاتم، والديلمي عن أبي مريم أن النبي ﷺ قال في قوله: ﴿إِذَا السَّمَاءُ كُوِّرَتْ﴾ قال: كُوِّرَتْ في جهنم ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ قال: انكدرت في جهنم، فكل من عبد من دون الله فهو في جهنم، إلا ما كان من عيسى وأمه، ولو رضيا أن يعبدوا للخلافا. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن أبي العالية قال: ست آيات من هذه السورة في الدنيا، والناس ينظرون إليها، وست في الآخرة ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ إلى ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ هذه في الدنيا، والناس ينظرون إليها ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ إلى ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ هذه في الآخرة. وأخرج ابن أبي الدنيا في الأموال، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن أبي كعب قال: ست آيات قبل يوم القيامة بينما الناس في أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض فتحركت واضطربت واختلطت، ففرغت الجن إلى الإنس، والإنس إلى الجن، واختلطت الدواب، والطيور، والوحش، فماجوا بعضهم في بعض ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ قال: اختلطت ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ قال: أمهلها أهلها ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ قال: الجن للإنس نحن ناتيك بالخبر، فانطلقوا إلى البحر، فإذا هو نار تاجج، فبينما هم كذلك إذ تصدعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة، وإلى السماء السابعة، فبينما هم كذلك إذ جاءتهم ريح

رأى عين، فليقرأ ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [أي: سورة التكويد]،
﴿وَإِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ [أي: سورة الانفطار]، ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ
انْشَقَّتْ﴾ [أي: سورة الانشقاق].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ۝ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ ۝ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝
وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ ۝ عِلَيْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝ يَأْتِيَا الْإِنْسَانَ مَا عَرَفَ
رَبَّكَ الْكَرِيمَ ۝ أَلَيْسَ خَلْقَكَ فَسَوْكَ فَعَدْلَكَ ۝ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا سَخَّ
رَبُّكَ ۝ كَلَّا بَلْ نَكْبَرُكَ الْيَوْمَ الْآلِينَ ۝ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ كِرَامًا
كَبِيرِينَ ۝ يَمْشُونَ مَا مَحْمُورُونَ ۝ إِنَّ الْأَنْزَارَ لَئِي نَوْمٍ ۝ وَإِنَّ الْفُجَارَ لَئِي
بَحِيرٍ ۝ يَمْشُونَ يَوْمَ الْآلِينَ ۝ وَمَا عَنْهَا بِأَعْيُنٍ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْآلِينَ
۝ ثُمَّ مَّا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْآلِينَ ۝ يَوْمَ لَا تَكُنُ نَفْسٌ سَائِغًا وَلَا تَأْمُرُ
بَوْمِزِلَ اللَّهِ ۝

قوله: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ قال الواحدي: قال
المفسرون: انفطارها انشقاقها كقوله: «ويوم تشقق السماء
بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً» [الفرقان: 25] والفطر: الشق،
يقال: فطرته فانفطر، ومنه فطر ناب البعير إذا طلع، قيل:
والمراد أنها انفطرت هنا لنزول الملائكة منها، وقيل: انفطرت
لهيبة الله ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ﴾ أي: تساقطت متفرقة
يقال: نثرت الشيء انثره نثرًا ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ أي:
فجر بعضها في بعض، فصارت بحراً واحداً، واختلط العنب
منها بالمالح. وقال الحسن: معنى فجرت ذهب ماؤها،
ويبست، وهذه الأشياء بين يدي الساعة، كما تقدّم في
السورة التي قبل هذه ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ﴾ أي: قلب
ترابها، وأخرج الموتى الذين هم فيها، يقال: بعثر يبعثر
بعثرة إذا قلب التراب، ويقال: بعثر المتاع قلبه ظهراً لبطن،
وبعثت الحوض وبعثته إذا هدمته، وجعلت أعلاه أسفله.
قال الفراء: بعثت أخرج ما في بطنها من الذهب والفضة،
وذلك من أشراف الساعة أن تخرج الأرض ذهبها وفضتها،
ثم نكر سبحانه الجواب عما تقدّم فقال: ﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا
قَدَّمْتَ وَأَخَّرْتَ﴾ والمعنى: أنها علمته عند نشر الصحف لا
عند البعث لأنه وقت واحد من عند البعث إلى عند مصير
أهل الجنة إلى الجنة، وأهل النار إلى النار، والكلام في أفراد
نفس هنا، كما تقدّم في السورة الأولى في قوله: ﴿عَلِمْتَ
نَفْسٌ مَّا أَحْضَرْتَ﴾ [التكويد: 14] ومعنى «ما قَدَّمْتَ
وَأَخَّرْتَ» ما قَدَّمْتَ من عمل خير أو شر، وما أَخَّرْتَ من
سنة حسنة أو سيئة لأن لها أجر ما سنته من السنن
الحسنة، وأجر من عمل بها، وعليها وزر ما سنته من السنن
السيئة، ووزر من عمل بها. وقال قتادة: ما قَدَّمْتَ من
معصية، وأخرت من طاعة، وقيل: ما قَدَّمَ من فرض، وآخر
من فرض، وقيل: أَوَّلَ عمله وآخره، وقيل: إن النفس تعلم عند
البعث بما قَدَّمْتَ وأخرت علماً إجمالاً لأن المطيع يرى آثار
السعادة، والعاصي يرى آثار الشقاوة، وأما العلم التفصيلي،

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس ﴿الْخَنَسُ﴾ البقر
﴿وَالْجَوَارُ الْخَنَسُ﴾ الظباء، ألم ترها إذا كانت في الظل كيف
تكنس بأعناقها، وممّت نظرها. وأخرج أبو أحمد الحاكم في
الكنى عن أبي العديس قال: كنا عند عمر بن الخطاب، فأتاه
رجل، فقال: يا أمير المؤمنين ما ﴿الْجَوَارُ الْخَنَسُ﴾ فطعن
عمر بمخصرة معه في عمامة الرجل، فالتقاهما عن رأسه،
فقال عمر: لأحروري؟ والذي نفس عمر بن الخطاب بيده لو
وجنتك مخلوقاً لأنجيت القمل عن رأسك، وهذا منكرو،
فالحريية لم يكونوا في زمن عمر، ولا كان لهم في تلك
الوقت نكر. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم
من طرق عن ابن عباس في قوله: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا عَسَسَ﴾
قال: إذا أدير ﴿وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ قال: إذا بدا النهار حين
طلوع الفجر. وأخرج الطبراني عنه ﴿إِذَا عَسَسَ﴾ قال:
إقبال سواده. وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ
رَسُولِ كَرِيمٍ﴾ قال: جبريل. وأخرج ابن مريويه، وأبو نعيم
في الدلائل عن ابن مسعود ﴿وَلَقَدْ رَأَاهُ بِالْأَفَقِ الْمُبِينِ﴾ قال:
رأى جبريل له ستمائة جناح قد سد الأفق. وأخرج الطبراني،
وابن مريويه عن ابن عباس في الآية قال: إنما عنى جبريل
أن محمداً رآه في صورته عند سدرة المنتهى. وأخرج ابن
مريويه عنه بالأفق المبين، قال: السماء السابعة. وأخرج
سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن
مريويه من طرق عن ابن عباس أنه كان يقرأ (بضنين)
بالضاد، وقال: ببخيل. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن
حميد، وابن المنذر، وابن مريويه عن ابن مسعود أنه قرأ
(وما هو على الغيب بظنين) بالطاء قال: ليس بمتهم. وأخرج
الدارقطني في الأفراد، والحاكم وصححه، وابن مريويه،
والخطيب في تاريخه عن عائشة: أن النبي ﷺ كان يقرؤه
﴿بِظُنِّينَ﴾ بالطاء. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مريويه عن
أبي هريرة قال: لما نزلت ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾
قالوا: الأمر إلينا إن شئنا استقمنا، وإن شئنا لم نستقم،
فهبط جبريل على رسول الله ﷺ، فقال: كذبوا يا محمد
﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

تفسير سورة الانفطار

وهي مكية بلا خلاف. وأخرج ابن الضريس، والنحاس،
وابن مريويه عن ابن عباس قال: نزلت: ﴿إِذَا السَّمَاءُ
انْفَطَرَتْ﴾ بمكة. وأخرج ابن مريويه عن ابن الزبير مثله.
وأخرج النسائي عن جابر قال: «قام معاذ ف صلى العشاء
فطول، فقال النبي ﷺ: أفتان أنت يا معاذ؟ أين أنت عن
﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [أي: سورة الأعلى]،
﴿وَالضُّحَى﴾ [أي: سورة الضحى]، ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾
وأصل الحديث في الصحيحين، ولكن بدون نكر: ﴿إِذَا
السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ وقد تفرّد بها النسائي، وقد تقدّم في
سورة التكويد حديث: «من سرّه أن ينظر إلى يوم القيامة

ووصفهم سبحانه بأنهم كرام لديه يكتبون ما يأمرهم به من أعمال العباد، وجملة: **﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾** في محل نصب على الحال من ضمير كاتبين، أو على النعت، أو مستأنفة. قال الرازي: والمعنى التعجيب من حالهم كأنه قال: إنكم تكذبون بيوم الدين، وملائكة الله موكلون بكم يكتبون أعمالكم حتى تحاسبوا بها يوم القيامة، ونظيره قوله تعالى: **﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾** [ق: 17، 18]. ثم بين سبحانه حال الفريقين فقال: **﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾** والجملة مستأنفة لتقرير هذا المعنى الذي سيق له، وهي كقوله سبحانه: **﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾** [الشورى: 17] وقوله: **﴿يَصِلُونَهَا يَوْمَ الدِّينِ﴾** صفة لجحيم؛ ويجوز أن تكون في محل نصب على الحال من الضمير في متعلق الجار، والمجرور، أو مستأنفة جواب سؤال مقدر، كأنه قيل ما حالهم؟ فقيل: **﴿يَصِلُونَهَا يَوْمَ الدِّينِ﴾** أي: يوم الجزاء الذي كانوا يكتبون به، ومعنى يصلونها: أنهم يلزمونها مقاسين لوهمها، وحرّما يومئذ. قرأ الجمهور (يصلونها) مخففاً مبنياً للفاعل، وقرأ بالتشديد مبنياً للمفعول. **﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِالْمُؤْمِنِينَ﴾** أي: لا يفارقونها أبداً، ولا يغيبون عنها، بل هم فيها، وقيل المعنى: وما كانوا غائبين عنها قبل ذلك بالكلية بل كانوا يجنون حرّما في قبورهم، ثم عظم سبحانه ذلك اليوم فقال: **﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ﴾** أي: يوم الجزاء، والحساب، وكرّره تعظيماً لقدره، وتفخيماً لشأنه، وتهويلاً لأمره، كما في قوله: **﴿الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾** [القارعة: 1 - 3] و **﴿الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾** [الحاقة: 1 - 3] والمعنى: أي شيء جعلك داريماً ما يوم الدين. قال الكلبي: الخطاب للإنسان الكافر. ثم أخبر سبحانه عن اليوم فقال: **﴿يَوْمٌ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾** قرأ ابن كثير، وأبو عمرو برفع: (يوم) على أنه بدل من يوم الدين، أو خبر مبتدأ محذوف. وقرأ أبو عمرو في رواية: (يوم) بالتثنية، والقطع عن الإضافة. وقرأ الباقون بفتحه على أنها فتحة إعراب بتقدير: أعني أو انكر، فيكون مفعولاً به، أو على أنها فتحة بناء لإضافته إلى الجملة على رأي الكوفيين، وهو في محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أو على أنه بدل من يوم الدين. قال الزجاج: يجوز أن يكون في موضع رفع إلا أنه مبنى على الفتح لإضافته إلى قوله: **﴿لَا تَمْلِكُ﴾** وما أضيف إلى غير المتمكن، فقد بينى على الفتح، وإن كان في موضع رفع، وهذا الذي نكره إنما يجوز عند الخليل، وسيبويه إذا كانت الإضافة إلى الفعل الماضي، وأما إلى الفعل المستقبل، فلا يجوز عندهما، وقد وافق الزجاج على ذلك أبو علي الفارسي، والفراء، وغيرهما، والمعنى: أنها لا تملك نفس من النفوس لنفس أخرى شيئاً من النفع أو الضرر **﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾** وحده لا يملك شيئاً من الأمر غيره كائناً ما كان. قال مقاتل:

فإنما يحصل عند نشر الصحف **﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾** هذا خطاب الكفار: أي: ما الذي غرّك، وخدعك حتى كفرت بربك الكريم الذي تفضل عليك في الدنيا بأكمل خلقك وحواسك، وجعلك عاقلاً فاهماً، ورزقك وأنعم عليك بنعمة التي لا تقدر على جحد شيء منها. قال قتادة: غرّه شيطانه المسلط عليه. وقال الحسن: غرّه شيطانه الخبيث، وقيل: حمقه وجهله. وقيل: غرّه عفو الله إذ لم يعاجله بالعقوبة أوّل مرّة، كذا قال مقاتل **﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعْبَكَ﴾** أي: خلقك من نطفة، ولم تك شيئاً، فسوّك رجلاً تسمع وتبصر وتعقل، فعبك جعلك معتدلاً. قال عطاء: جعلك قائماً معتدلاً حسن الصورة. وقال مقاتل: عدل خلقك في العينين، والأنف، واليدين، والرجلين، والمعنى: عدل بين ما خلق لك من الأعضاء. قرأ الجمهور: (فعبك) مشدداً، وقرأ عاصم، وحزمة، والكسائي بالتخفيف، واختار أبو حاتم، وأبو عبيد القراءة الأولى. قال الفراء، وأبو عبيد: يدل عليها قوله: **﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾** [التين: 4] ومعنى القراءة الأولى: أنه سبحانه جعل أعضاءه متعابلة لا تفاوت فيها، ومعنى القراءة الثانية: أنه صرفه، وأماله إلى أي صورة شاء، إما حسناً وإما قبيحاً، وإما طويلاً وإما قصيراً **﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾** في أي صورة متعلق بركبك، وما مزيدة، وشاء صفة لصورة: أي: ركبك في أي صورة شاءها من الصور المختلفة، وتكون هذه الجملة كالبيان لقوله: **﴿فَعْبَكَ﴾** والتقدير: فعذبك ركبك في أي صورة شاءها، ويجوز أن يتعلق بمحذوف على أنه حال أي: ركبك حاصلاً في أي صورة. ونقل أبو حيان عن بعض المفسرين أنه متعلق بعبك. واعترض عليه بأن أي لها صدر الكلام، فلا يعمل فيها ما قبلها. قال مقاتل، والكلبي، ومجاهد: في أي شبه من أب أو أم، أو خال أو عم. وقال مكحول: إن شاء ذكرأ، وإن شاء أنثى، وقوله: **﴿كَلَّا﴾** للردع والزجر عن الاغترار بكرم الله، وجعله نذيرة إلى الكفر به، والمعاصي له، ويجوز أن يكون بمعنى حقاً، وقوله: **﴿بَلْ تَكُنُونَ بِالْأَيْنِ﴾** إضراب عن جملة مقترنة ينساق إليها الكلام، كأنه قيل: بعد الردع، وأنتم لا ترتعدون عن ذلك بل تجاوزونه إلى ما هو أعظم منه من التكذيب بالدين وهو الجزاء، أو بين الإسلام. قال ابن الأنباري: الوقف الجيد على الدين، وعلى ركبك، وعلى كلاً قبيح، والمعنى: بل تكذبون يا أهل مكة بالدين أي: بالحساب، وبإلنفي شيء تقدّم، وتحقيق غيره، وإنكار البعث قد كان معلوماً عندهم، وإن لم يجر له نكر. قال الفراء: كلا ليس الأمر، كما غررت به. قرأ الجمهور (تكذبون) بالفوقية على الخطاب. وقرأ الحسن، وأبو جعفر، وشيبة بالتحية على الغيبة، وجملة: **﴿وَإِنْ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ﴾** في محل نصب على الحال من فاعل تكذبون أي: تكذبون، والحال أن عليكم من يدفع تكذيبكم، ويجوز أن تكون مستأنفة مسوقة لبيان ما يبطل تكذيبهم، والحافظين الرقباء من الملائكة الذين يحفظون على العباد أعمالهم، ويكتبونها في الصحف.

عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّهِمُ الْيَوْمِينَ ﴿٢﴾ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُتُورِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٣﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٤﴾ كِتَابٌ مَرْمُومٌ ﴿٥﴾ فَلَمْ يَوْفُ بِالسَّاعِيَةِ ﴿٦﴾ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ يَوْمَ الْبَازِئِينَ ﴿٧﴾ وَمَا يَكُودُ بِهِ إِلَّا كُلٌّ مُتَرَاوِيَةً ﴿٨﴾ إِذَا تَنَزَّلَ عَلَيْهِ السَّالِفُ الْأَلْوَانُ ﴿٩﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ ﴿١١﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْغَيْمِ ﴿١٢﴾ ثُمَّ هَآءَ هَآءَ إِلَى كُفْرِهِمْ يَوْمَ تَكُونُ ﴿١٣﴾

قوله: ﴿ويل للمطففين﴾ ويل مبتدأ، وسوغ الابتداء به كونه دعاء، ولو نصب لجاز. قال مكّي، والمختار: في ويل، وشبهه إذا كان غير مضاف الرفع، ويجوز النصب، فإن كان مضافاً أو معرفاً كان الاختيار فيه للنصب نحو قوله: ﴿ويلكم لا تفتروا﴾ [طه: 61] وللمطففين خبره، والمطفف المنقص، وحقيقته الأخذ في الكيل، أو الوزن شيئاً طفيفاً أي: نزرأ حقيراً. قال أهل اللغة: المطفف مأخوذ من الطفف، وهو القليل، فالمطفف هو المقلل حق صاحبه بنقصانه عن الحق في كيل أو وزن. قال الزجاج: إنما قيل للذي ينقص المكيال والميزان مطفف، لأنه لا يكاد يسرق في المكيال والميزان إلا الشيء اليسير الطفيف. قال أبو عبيدة، والمبرد: المطفف الذي يبخس في الكيل والوزن، والمراد بالويل هنا شدة العذاب، أو نفس العذاب، أو الشرّ الشديد، أو هو واد في جهنم. قال الكلبي: قدم رسول الله ﷺ المدينة، وهم يسيئون كيلهم، ووزنهم لغيرهم، ويستوفون لأنفسهم، فنزلت هذه الآية. وقال السدي: قدم رسول الله ﷺ المدينة، وكان بها رجل يقال له أبو جهينة، ومعه صاعان يكيل بأحدهما، ويكتال بالآخر، فانزل الله هذه الآية. قال الفراء: هم بعد نزول هذه الآية أحسن الناس كيلاً إلى يومهم هذا. ثم بين سبحانه المطففين من هم؟ فقال: ﴿الذين إذا اکتالوا على الناس يستوفون﴾ أي: يستوفون الاكتيال، والأخذ بالكيل. قال الفراء: يريد اکتالوا من الناس، وعلى ومن في هذا الموضع يعتقبان، يقال: اکتلت منك أي: استوفيت منك، وتقول: اکتلت عليك أي: أخذت ما عليك. قال الزجاج: إذا اکتالوا من الناس استوفوا عليهم الكيل، ولم يذكر اتزنوا لأن الكيل والوزن بهما الشراء والبيع، فأحدهما يدل على الآخر. قال الواحدي: قال المفسرون: يعني: الذين إذا اشتروا لأنفسهم استوفوا في الكيل والوزن، وإذا باعوا ووزنوا لغيرهم نقصوا، وهو معنى قوله: ﴿وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون﴾ أي: كالوا لهم، أو وزنوا لهم، فحذفت اللام فتعدى الفعل إلى المفعول، فهو من باب الحذف والإيصال، ومثله نصحتك، ونصحت لك، كذا قال الأخفش، والكسائي، والفراء. قال الفراء: وسمعت أعرابية تقول: إذا صدر الناس اتينا التاجر، فيكيلنا المذ والمئين إلى الموسم المقبل. قال: وهو من كلام أهل الحجاز، ومن جاورهم من قيس. قال الزجاج: لا يجوز الوقف على كالوا حتي يوصل بالضمير، ومن الناس من يجعله تركيداً أي: تركيداً للضمير المستكن في الفعل، فيجوز الوقف على كالوا أو وزنوا، قال أبو عبيد:

يعني لنفس كافرة شيئاً من المنفعة. قال قتادة: ليس ثم أحد يقضي شيئاً، أو يصنع شيئاً إلا الله رب العالمين، والمعنى: أن الله لا يملك أحداً في ذلك اليوم شيئاً من الأمور، كما ملكهم في الدنيا، ومثل هذا قوله: ﴿لمن الملك اليوم لله الواحد القهار﴾ [غافر: 16].

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في البعث عن ابن عباس في قوله: ﴿وإذا البحار فجرت﴾ قال: بعضها في بعض، وفي قوله: ﴿وإذا القبور بعثرت﴾ قال: بحثت. وأخرج ابن المبارك في الزهد، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود في قوله: ﴿علمت نفس ما قدمت وأخرت﴾ قال: ما قدمت من خير، وما أخرت من سنة صالحة يعمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، أو سنة سيئة تعمل بعده، فإن عليه مثل وزر من عمل بها، ولا ينقص من أوزارهم شيئاً. وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس نحوه. وأخرج الحاكم وصححه عن حنيفة قال: قال النبي ﷺ: «من استتر خيراً فاستتر به فله أجره، ومثل أجور من اتبعه من غير منتقص من أجورهم، ومن استتر شراً فاستتر به، فعليه وزره، ومثل أوزار من اتبعه من غير منتقص من أوزارهم». وتلا حنيفة: ﴿علمت نفس ما قدمت وأخرت﴾. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عمر بن الخطاب أنه قرأ هذه الآية: ﴿ما غرك بريك للكريم﴾ قال: غره والله جهله. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: جعل الله على ابن آدم حافظين في الليل، وحافظين في النهار يحفظان عمله ويكتبان أثره.

تفسير سورة المطففين

قال القرطبي: وهي مكية في قول ابن مسعود، والضحاك، ومقاتل، ومدينة في قول الحسن، وعكرمة. وقال مقاتل أيضاً: هي أول سورة نزلت بالمدينة. وقال ابن عباس، وقتادة: هي مدنية إلا ثمان آيات من قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُجِرُوا إِلَى آخِرِهَا﴾ [المطففين: 29 - 36]. وقال الكلبي، وجابر بن زيد: نزلت بين مكة والمدينة. وأخرج النحاس، وابن مريويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة المطففين بمكة. وأخرج ابن مريويه عن ابن الزبير مثله. وأخرج ابن الضريس عن ابن عباس قال: آخر ما نزل بمكة سورة المطففين. وأخرج ابن مريويه، والبيهقي في الشعب. قال السيوطي بسند صحيح عن ابن عباس قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة كانوا من أخذت الناس كيلاً، فأنزل الله ﴿ويل للمطففين﴾ فأحسنوا الكيل بعد ذلك.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمَ

الشر الصادر من الشياطين والكفرة والفسقة، ولفظ سجين علم له. وقال قتادة، وسعيد بن جبير، ومقاتل، وكعب: إنه صخرة تحت الأرض السابعة ثقل، فيجعل كتاب الفجار تحتها، وبه قال مجاهد، فيكون في الكلام على هذا القول مضاف محذوف، والتقدير: محل كتاب مرقوم. وقال أبو عبيدة، والأخفش، والمبرد، والزجاج **﴿لغي سجين﴾** لغي حبس وضيق شديد، والمعنى: كأنهم في حبس، جعل ذلك ليلاً على خسارة منزلتهم وهوانها. قال الواحدي: نكر قوم أن قوله: **﴿كتاب مرقوم﴾** تفسير لسجين، وهو بعيد لأنه ليس للسجين من الكتاب في شيء على ما حكيناه عن المفسرين، والوجه أن يجعل بياناً لكتاب المذكور في قوله: **﴿إن كتاب الفجار﴾** على تقدير هو كتاب مرقوم أي: مكتوب قد بينت حروفه انتهى، والأولى ما ذكرناه، ويكون المعنى: إن كتاب الفجار الذين من جملتهم المطفون أي: ما يكتب من أعمالهم، أو كتابة أعمالهم لغي ذلك الكتاب المنون للقبائح المختص بالشر، وهو سجين. ثم نكر ما يدل على تهويله وتعظيمه، فقال: **﴿وما أدراك ما سجين﴾** ثم بيّنه بقوله: **﴿كتاب مرقوم﴾**. قال الزجاج: معنى قوله: **﴿وما أدراك ما سجين﴾** ليس ذلك مما كنت تعلمه أنت ولا قومك. قال قتادة: ومعنى مرقوم: رقم لهم بشر كأنه أعلم بعلامة يعرف بها أنه كافر. وكذا قال مقاتل. وقد اختلفوا في نون سجين، فقيل: هي أصلية، واشتقاقه من السجن، وهو الحبس، وهو بناء مبالغة كخمير، وسكير، وفسيق من الخمر والسكر والفسق. وكذا قال أبو عبيدة، والمبرد، والزجاج. قال الواحدي: وهذا ضعيف؛ لأن العرب ما كانت تعرف سجيناً. ويجاب عنه بأنه رواية هؤلاء الأئمة تقوم بها الحجة، وتدل على أنه من لغة العرب، ومنه قول ابن مقبل:

ورقة يضربون البيض ضاحية ضرباً تواصت به الأبطال سجيناً
وقيل: النون بدل من اللام، والأصل سجيل، مشتقاً من السجل، وهو الكتاب. قال ابن عطية: من قال إن سجيناً موضع، فكتاب مرفوع على أنه خبر إن، والظرف وهو قوله: **﴿لغي سجين﴾** ملفي، ومن جعله عبارة عن الكتاب، فكتاب خبر مبتدأ محذوف، التقدير: هو كتاب، ويكون هذا الكلام مفسراً لسجين ما هو؟ كذا قال. قال الضحاك: مرقوم مختوم بلغة حمير، وأصل الرقم الكتابة. قال الشاعر:

سارقم بالماء القراح إليك على بعمك إن كان للماء راقم
﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ هذا متصل بقوله: **﴿يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾** وما بينهما اعتراض، والمعنى: ويل يوم القيامة لمن وقع منه التكذيب بالبعث، وبما جاءت به الرسل. ثم بيّن سبحانه هؤلاء المكذبين فقال: **﴿الذين يكنون بيوم الدين﴾** والموصول صفة للمكذبين، أو بدل منه **﴿وما يكن به إلا كل معتمد أثيم﴾** أي: فاجر جائر متجاوز في الإثم منهمك في أسبابه **﴿إذا تتلى عليه آياتنا﴾** المنزلة على محمد ﷺ **﴿قال أساطير الأولين﴾**

وكان عيسى بن عمر يجعلهما حرفين، ويقف على كالوا أو وزنوا، ثم يقول: هم يخسرون. قال: وأحسب قراءة حمزة كذلك. قال أبو عبيد: والاختيار أن يكونا كلمة واحدة من جهتين: إحداهما الخط، ولذلك كتبوها بغير ألف، ولو كانتا مقطوعتين لكانتا كالوا أو وزنوا بالألف. والآخرى أنه يقال: كنتك، ووزنتك بمعنى: كنت لك، ووزنت لك، وهو كلام عربي؛ كما يقال صديتك وصدت لك، وكسبتك وكسبت لك، وشكرتك وشكرت لك، ونحو ذلك. وقيل: هو على حذف المضاف، وإقامة المضاف إليه مقامه، والمضاف المكيل والموزون أي: وإذا كالوا مكيلهم، أو وزنوا موزنهم، ومعنى يخسرون: ينقصون كقوله: **﴿ولا تخسروا الميزان﴾** [الرحمن: 9] والعرب تقول: خسرت الميزان، وأخسرت: ثم خولفهم سبحانه فقال: **﴿إلا يظن أولئك أنهم مبعوثون﴾** والجملتان مستأنفتان مسوقة لتهويل ما فعلوه من التطفيف، وتفضيحه، وللتعجيب من حالهم في الاجترار عليه، والإشارة بقوله: **﴿أولئك﴾** إلى المطففين، والمعنى: أنهم لا يخطر عليهم بباليهم أنهم مبعوثون، فمسؤولون عما يفعلون. قيل: والظن هنا بمعنى اليقين أي: لا يوقن أولئك، ولو أيقنوا ما نقصوا الكيل والوزن، وقيل: الظن على باب، والمعنى: إن كانوا لا يستيقنون البعث، فهلا ظنوه حتى يتدبروا فيه، ويبحثوا عنه، ويتركوا ما يخشون من عاقبته. واليوم العظيم هو يوم القيامة، ووصفه بالعظم لكونه زماناً لتلك الأمور العظام من البعث والحساب والعقاب، ويدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار. ثم أخبر عن ذلك اليوم فقال: **﴿يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾** انتصاب الظرف بمبعوثين المذكور قبله، أو بفعل مقتر يدل عليه مبعوثون. أي: يبعثون يوم يقوم الناس، أو على البذل من محل ليوم، أو بإضمار أعني، أو هو في محل رفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف، أو في محل جر على البذل من لفظ ليوم، وإنما بني على الفتح في هذين الوجهين لإضافته إلى الفعل. قال الزجاج: يوم منصوب بقوله: مبعوثون، والمعنى: إلا يظنون أنهم يبعثون يوم القيامة، ومعنى يوم يقوم الناس: يوم يقومون من قبورهم لأمر رب العالمين، أو لجزائه، أو لحسابه، أو لحكمه وقضائه. وفي وصف اليوم بالعظم مع قيام الناس له خاضعين فيه، ووصفه سبحانه بكونه رب العالمين دلالة على عظم ذنب التطفيف، ومزيد إثم، وقطاعة عقابه. وقيل المراد بقوله: **﴿يوم يقوم الناس﴾** قيامهم في رشحهم إلى انصاف آذانهم، وقيل: المراد قيامهم بما عليهم من حقوق العباد، وقيل: المراد قيام الرسل بين يدي الله للقضاء، والأول أولى. قوله: **﴿كلا﴾** هي: للردع، والزرجر للمطففين الغافلين عن البعث، وما بعده. ثم استأنف فقال: **﴿إن كتاب الفجار لغي سجين﴾** وعند أبي حاتم أن كلا بمعنى: حقاً متصلة بما بعدها على معنى: حقاً إن كتاب الفجار لغي سجين، وسجين هو ما فسر به سبحانه من قوله: **﴿وما أدراك ما سجين﴾** كتاب مرقوم. فأخبر بهذا أنه كتاب مرقوم أي: مسطور، قيل: هو كتاب جامع لأعمال

في جمالهم، وفي ألوانهم ما لا يصفه واصف. قرأ الجمهور (تعرف) بفتح الفوقية، وكسر الراء، ونصب نضرة، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع، ويعقوب، وشيبة، وطلحة، وابن أبي إسحاق بضم الفوقية، وفتح الراء على البناء للمفعول، ورفع نضرة بالنياحة ﴿يَسْقُونَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ﴾ قال أبو عبيدة، والأخفش، والمبرد، والزجاج: الرحيق من الخمر ما لا غش فيه، ولا شيء يفسده، والمختوم الذي له ختام. وقال الخليل: الرحيق أجود الخمر، وفي الصحاح الرحيق صفرة الخمر. وقال مجاهد: هو الخمر العتيقة البيضاء الصافية، ومنه قول حسان:

يسقون من ورد البريص عليهم بردي يصفق بالرحيق السلسل
قال مجاهد ﴿مَخْتُومٌ﴾ مطين كانه ذهب إلى معنى الختم بالطين، ويكون المعنى: أنه ممنوع من أن تمسه يد إلى أن يفك ختمه للأبرار. وقال سعيد بن جبير، وإبراهيم النخعي: ختامه آخر طعمه. وهو معنى قوله: ﴿خَتَمَاهُ مَسْكٌ﴾ أي آخر طعمه ريح المسك إذا رفع الشارب فاه من آخر شرابه وجد ريحه كريح المسك، وقيل: مختوم ألوانيه من الأكواب، والأباريق بمسك مكان الطين، وكأنه تمثيل لكمال نفاسته، وطيب رائحته. والحاصل أن المختوم، والختام إما أن يكون من ختام الشيء وهو آخره، أو من ختم الشيء وهو جعل الخاتم عليه، كما تختم الأشياء بالطين، ونحوه. قرأ الجمهور: (ختامه) وقرأ علي، وعلمقة، وشقيق، والضحاك، وطاووس، والكسائي: (خاتمته) بفتح الخاء، والتاء، والفاء بينهما. قال علمقة: أما رأيت المرأة تقول للعطار: لجعل خاتمته مسكاً: أي: آخره، والخاتم، والختام يتقاربان في المعنى، إلا أن الخاتم الاسم، والختام المصدر، وكذا قال الفراء قال في الصحاح: والختام الطين الذي يختم به، وكذا قال ابن زيد. قال الفرزدق:

وبتن بجانبي مصرعات وبنت اقض أغلاف الختام
﴿وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾ أي: فليرغب الراغبون، والإشارة بقوله: «ذلك» إلى الرحيق الموصوف بتلك الصفة، وقيل: إن في بمعنى إلى أي: وإلى ذلك، فليتبار المتبارون في العمل، كما في قوله: ﴿لمثل هذا فليعمل العاملون﴾ [الصفات: 61] وأصل التنافس التشاجر على الشيء، والتنازع فيه، بأن يجب كل واحد أن يتفرد به دون صاحبه، يقال نفست الشيء عليه أنفسه نفاسة أي: ظننت به، ولم أحب أن يصير إليه. قال البغوي: أصله من الشيء النفيس الذي تحرص عليه نفوس الناس، فيريده كل واحد لنفسه، وينفس به على غيره أي: يرضن به. قال عطاء: المعنى: فليستبق المستبقون. وقال مقاتل بن سليمان: فليتنازع المتنازعون، وقوله: ﴿ومزاجه من تسنيم﴾ معطوف على ﴿ختامه مسك﴾ صفة أخرى لرحيق أي: ومزاج ذلك الرحيق من تسنيم، وهو شراب ينصب عليهم من علو، وهو أشرف شراب الجنة، وأصل التسنيم في اللغة الارتفاع، فهي عين ماء تجري من علو إلى أسفل، ومنه

مَرُوا بِهِمْ يَنْظُرُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا أَنْعَلُوا إِلَى أَنْعَلِيهِمْ أَنْفَلُوا فَكِهِينَ ﴿١١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءَ لَسَاءُ لَوْنٍ ﴿١٢﴾ وَمَا أَرِيتُمْ عَنْهُمْ خَفِيفِينَ ﴿١٣﴾ فَأَلَيَّمُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَسْمَكُونَ ﴿١٤﴾ عَلَى الْأَرَاكِ يَنْظُرُونَ ﴿١٥﴾ هَلْ تُؤِيبُ الْكَفَّارُ مَا كَانُوا يَمْعَلُونَ ﴿١٦﴾

قوله: ﴿كَلَامٌ﴾ للردع، والزجر عما كانوا عليه، والتكرير للتأكيد، وجملة: ﴿إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ مستأنفة لبيان ما تضمنته، ويجوز أن يكون كلاً بمعنى حقاً، والأبرار هم المطيعون، وكتابتهم صحائف حسناتهم. قال الفراء: عليين ارتفاع بعد ارتفاع لا غاية له، ووجه هذا أنه منقول من جمع علي من العلو. قال الزجاج: هو إعلاء الامكنة. قال الفراء والزجاج: فأعرب كإعراب الجمع؛ لأنه على لفظ الجمع، ولا واحد له من لفظه نحو ثلاثين، وعشرين، وفتسرين، قيل: هو علم لديوان الخير الذي يؤن فيه ما عمله الصالحون. وحكى الواحدي عن المفسرين أنه السماء السابعة. قال الضحاك، ومجاهد، وقتادة يعني: السماء السابعة فيها أرواح المؤمنين. وقال الضحاك: هو سدرة المنتهى ينتهي إليه كل شيء من أمر الله لا يعنوها، وقيل هو الجنة، وقال قتادة أيضاً: هو فوق السماء السابعة عند قائمة العرش اليميني، وقيل: إن عليين صفة للملائكة، فإنهم في الملا الأعلى، كما يقال فلان في بني فلان أي: في جملتهم ﴿وما أدراك ما عليون﴾ كتاب مرقوم أي: وما أعلمك يا محمد أي شيء عليون على جهة التفتيح والتعظيم لعليين، ثم فسره فقال: ﴿كتاب مرقوم﴾ أي: مسطور، والكلام في هذا كالكلام المتقدم في قوله: ﴿وما أدراك ما سجين﴾ كتاب مرقوم [المطففين: 8، 9] وجملة: ﴿يشهده المقربون﴾ صفة أخرى لكتاب، والمعنى: أن الملائكة يحضرون ذلك الكتاب المرقوم، وقيل: يشهدون بما فيه يوم القيامة. قال وهب وابن إسحاق: المقربون هنا إسرافيل، فإذا عمل المؤمن عمل البر صعدت الملائكة بالصحيفة، ولها نور يتلألا في السموات كنور الشمس في الأرض حتى تنتهي بها إلى إسرافيل، فيختتم عليها، ثم نكر سبحانه حالهم في الجنة بعد نكر كتابهم، فقال: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ أي: إن أهل الطاعة لفي نعم عظيم لا يقار قدره ﴿على الأراك ينظرون﴾ الأراك: الأسرة التي في الحجال، وقد تقدّم أنها لا تطلق الأريكة على السرير إلا إذا كان في حجلة. قال الحسن: ما كنا ندري ما الأراك حتى قدم علينا رجل من اليمن، فزعم أن الأريكة عندهم الحجلة إذا كان فيها سرير. ومعنى: ﴿ينظرون﴾ أنهم ينظرون إلى ما أعد الله لهم من الكرامات، كذا قال عكرمة، ومجاهد، وغيرهما. وقال مقاتل: ينظرون إلى أهل النار، وقيل: ينظرون إلى وجهه، وجلاله ﴿تعرف في وجوههم نضرة النعيم﴾ أي: إذا رأيتهم عرفت أنهم من أهل النعمة لما تراه في وجوههم من النور، والحسن، والبياض، والبهجة، والروقة، والخطاب لكل راء يصلح لذلك، يقال أنضر النبات: إذا أزهو ونور. قال عطاء: وذلك أن الله زاد

أبوابها، فإذا رأوها قد فتحت أقبلوا إليها يريدون الخروج، والمؤمنون ينظرون إليهم على الأرائك، فإذا انتهوا إلى أبوابها غلقت أبوابهم، فذلك قوله: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ ﴿هَلْ ثَوْبَ الْكُفَّارِ مَا كَانَُوا يَفْعَلُونَ﴾ الجملة مستأنفة لبيان أنه قد وقع الجزاء للكفار بما كان يقع منهم في الدنيا من الضحك من المؤمنين، والاستهزاء بهم، والاستفهام للتقرير، وثوب بمعنى: أثيب، والمعنى: هل جوزي الكفار بما كانوا يفعلونه بالمؤمنين؟ وقيل: الجملة في محل نصب بينظرون، وقيل: هي على إضمار القول: أي: يقول بعض المؤمنين لبعض هل ثوب الكفار، والثواب ما يرجع على العبد في مقابلة عمله، ويطلق على الخير والشر.

وقد أخرج ابن المبارك في الزهد، وعبد بن حميد، وابن المنذر من طريق شمر بن عطية أن ابن عباس سأل كعب الأحبار عن قوله: ﴿إِنَّ كِتَابَ الْإِبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ قال: روح المؤمن إذا قبضت عرج بها إلى السماء، ففتحت لها أبواب السماء، وتلقاها الملائكة بالبشرى حتى تنتهي بها إلى العرش، وتخرج الملائكة، فيخرج لها من تحت العرش رق، فيرقم ويختم ويوضع تحت العرش لمعرفة النجاة لحساب يوم الدين. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ قال: الجنة، وفي قوله: ﴿يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ قال: أهل السماء. وأخرج أحمد، وأبو داود، والطبراني، وابن مردويه عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاة على أثر صلاة لا لغو بينهما كتاب في عليين». وأخرج ابن المنذر عن علي بن أبي طالب في قوله: ﴿نُصْرَةَ النَّعِيمِ﴾ قال: عين في الجنة يتوضئون منها ويقتسلون، فتجري عليهم نصرة النعيم. وأخرج عبد بن حميد، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وهناد، وابن المنذر، والبيهقي في البعث عن ابن مسعود في قوله: ﴿يَسْقُونَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ﴾ قال: الرحيق الخمر، والمختوم يجنون عاقبتها طعم المسك. وأخرج ابن أبي شيبة، وهناد، وابن المنذر عنه في قوله: ﴿مَخْتُومٍ﴾ قال: ممزوج ﴿خَتَامُهُ مِسْكٌ﴾ قال: طعمه وريحه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في البعث عن ابن عباس في قوله: ﴿مَنْ رَحِيقٍ﴾ قال: خمر، وقوله: ﴿مَخْتُومٍ﴾ قال: ختم بالمسك. وأخرج الفريابي، والطبراني، والحاكم وصححه، والبيهقي عن ابن مسعود في قوله: ﴿خَتَامُهُ مِسْكٌ﴾ قال: ليس بخاتم يختم به، ولكن خلطه مسك، ألم تر إلى المرأة من نسائك تقول خلطه من الطيب كذا وكذا. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي عن أبي الدرداء ﴿خَتَامُهُ مِسْكٌ﴾ قال: هو: شراب أبيض مثل الفضة يختمون به آخر شرابهم، ولو أن رجلاً من أهل الدنيا أدخل أصبعه فيه ثم أخرجها، لم يبق نوح روح إلا وجد ريحها. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: ﴿تَسْنِمُ﴾ أشرف شراب أهل الجنة، وهو صرف للمتقين، ويمزج

سنام البعير لعلوه من بينه، ومنه تسنيم القبور، ثم بين ذلك فقال: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ وانتصاب عيناً على المدح. وقال الزجاج: على الحال، وإنما جاز أن تكون عيناً حالاً مع كونها جامدة غير مشتقة لاتصافها بقوله: ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ وقال الأخفش: إنها منصوبة بيسقون أي: يسقون عيناً، أو من عين، وقال الفراء: إنها منصوبة بتسنيم على أنه مصدر مشتق من السنام، كما في قوله: ﴿أَوْ إطعام في يوم ذي مسغبة﴾ [البلد: 14، 15] والأول أولى، وبه قال المبرّد. قيل: والباء في بها زائدة أي: يشربها، أو بمعنى من أي: يشرب منها. قال ابن زيد: بلغنا أنها عين تجري من تحت العرش، قيل: يشرب بها المقرّبون صرفاً، ويمزج بها كأس أصحاب اليمين. ثم ذكر سبحانه بعض قبائح المشركين فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَجَرَمُوا﴾ وهم كفار قريش، ومن وافقهم على الكفر ﴿كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ أي: كانوا في الدنيا يستهزئون بالمؤمنين ويسخرون منهم ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ﴾ أي: وإذا مرّ المؤمنون بالكفار وهم في مجالسهم ﴿يَتَغَامَزُونَ﴾ من الغمز، وهو الإشارة بالجفون والحواجب: أي: يغمز بعضهم بعضاً، ويشيرون بأعينهم وحواجبهم، وقيل: يعيرونهم بالإسلام، ويعيرونهم به ﴿وَإِذَا انْقَلَبُوا﴾ أي: للكفار ﴿إِلَىٰ أَهْلِهِمْ﴾ من مجالسهم ﴿انْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ أي: معجبين بما هم فيه متلذذين به، يتفكهون بذكر المؤمنين، والطعن فيهم، والاستهزاء بهم، والسخرية منهم. والانقلاب: الانصراف. قرأ الجمهور: (فأكهين) وقرأ حفص، وابن القعقاع، والأعرج، والسلمي: (فكهين) بغير ألف. قال الفراء: هما لغتان، مثل طمع وطامع، وحذر وحاذر. وقد تقدّم بيانه في سورة النخان أن الفكه: الأشر البطر، والفكه: الناعم المتنعّم ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ﴾ أي: إذا رأى الكفار المسلمين في أي مكان ﴿قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءَ لَضَالُّونَ﴾ في اتباعهم محمداً، وتسكهم بما جاء به، وتركهم التمتع للحاضر، ويجوز أن يكون المعنى: وإذا رأى المسلمون الكافرين قالوا هذا العقول، والأول أولى، وجملة: ﴿وَمَا أَرْسَلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾ في محل نصب على الحال من فاعل قالوا: أي: قالوا ذلك أنهم لم يرسلوا على المسلمين من جهة الله موكلين بهم يحفظون عليهم أحوالهم وأعمالهم ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ المراد باليوم: اليوم الآخر ﴿مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ والمعنى: أن المؤمنين في ذلك اليوم يضحكون من الكفار حين يرونهم أذلاء مغلوبين قد نزل بهم ما نزل من العذاب، كما ضحك الكفار منهم في الدنيا، وجملة: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ في محل نصب على الحال من فاعل يضحكون: أي: يضحكون منهم ناظرين إليهم، وإلى ما هم فيه من الحال الفظيخ، وقد تقدّم تفسير الأرائك قريباً. قال الواحدي: قال المفسرون: إن أهل الجنة إذا رأوا نظروا من منازلهم إلى أعداء الله، وهم يعذبون في النار، فضحكوا منهم، كما ضحكوا منهم في الدنيا. وقال أبو صالح: يقال لأهل النار أخرجوا، ويفتح لهم

لأصحاب اليمين. وأخرج ابن المبارك، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وهناد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود **﴿مزاجه من تسنيم﴾** قال: عين في الجنة تمزج لأصحاب اليمين، ويشربها المقربون صرفاً. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن ابن عباس أنه سئل عن قوله: **﴿ومزاجه من تسنيم﴾** قال: هذا مما قال الله **﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾** [السجدة: 17].

تفسير سورة الانشقاق

وهي مكية بلا خلاف. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مروي، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة الانشقاق بمكة. وأخرج ابن مروي عن ابن الزبير مثله. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أبي رافع قال: صليت مع أبي هريرة العتمة فقرا: **﴿إذا السماء انشقت﴾** [أي: سورة الانشقاق] فسجد، فقلت له، فقال: سجدت خلف أبي القاسم عليه السلام، فلا أزال أسجد فيها حتى ألقاه. وأخرج مسلم، وأهل السنن، وغيرهم عن أبي هريرة قال: سجدنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في **﴿إذا السماء انشقت﴾** و**﴿اقرأ باسم ربك﴾** [أي: سورة العلق]. وأخرج ابن خزيمة، والرويان في مسنده، والضياء المقدسي في المختارة عن بريدة: **«أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في الظهر **﴿إذا السماء انشقت﴾** ونحوها»**.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا الشَّمْلَةُ انشَقَّتْ ① وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا رَحْمَةً ② وَإِذَا الْأَرْضُ مَدَّتْ ③ مَا فِيهَا وَهَلَّتْ ④ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَهَلَّتْ ⑤ بِأَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُتَلَبِّهِ ⑥ فَأَمَّا مَنْ أَرَبَتْ كَيْدَهُ يَسْبِيهِ ⑦ فَسَوْفَ يَحْصِيهِ ⑧ يَسِيرًا ⑨ وَيَتَلَبَّيْهُ ⑩ إِلَهُ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ⑪ وَأَمَّا مَنْ أَرَبَتْ كَيْدَهُ وَرَأَىٰ ظَهْرَهُ ⑫ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ⑬ وَيَصْخُرُ سَمِيرًا ⑭ إِنَّكَ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ⑮ إِنَّكَ ظَنَنْتَ أَنَّكَ لَنْ يَحْصُرَ ⑯ بَلْ إِنَّ رَبَّكَ كَانَ بِهِ بِصِيرًا ⑰ فَلَا أَقْبَمَ يَأْتِغِي ⑱ وَالْأَيْلَ وَمَا مَسَّ ⑲ وَالْقَمَرُ إِذَا أَتَقَىٰ ⑳ لَتَرَكَّكَ طَبَقًا عَن طَبَقِ ㉑ فَمَا لَمْ لَا يُؤْمِنُونَ ㉒ وَإِذَا قُرُوءٌ عَلَيْهِمُ الْقُرْءَانُ لَا يَسْمَعُونَ ㉓ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ ㉔ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُؤْمَرُونَ ㉕ يَنْبَرِثُهُمْ ذَمًّا بِأَلْسِنِهِ ㉖ وَلَا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَمْ أَجْزَ قَرَّةً مَّوَدُّنَ ㉗

قوله: **﴿إذا السماء انشقت﴾** هو: كقوله: **﴿إذا الشمس كورت﴾** [التكوير: 1] في إضمار الفعل وعدمه. قال الواحدي: قال المفسرون: انشقاقها عن علامات القيامة، ومعنى انشقاقها: انفطارها بالفقاع الأبيض، كما في قوله: **﴿ويوم تشقق السماء بالغمام﴾** [الفرقان: 25] وقيل: تشقق من المجرة، والمجرة باب السماء.

واختلف في جواب إذا، فقال الفراء: إنه أنثنت، والواو زائدة، وكذلك ألفت. قال ابن الأنباري: هذا غلط لأن العرب لا

تقحم الواو إلا مع حتى إذا كقوله: **﴿حتى إذا جاءوها، وفشت أبوابها﴾** [الزمر: 73] ومع لما، كقوله: **﴿فلما أسلما وتله للجبين﴾** ونابيناها [الصافات: 103، 104] ولا تقحم مع غير هذين. وقيل: إن الجواب قوله: **﴿فملاقية﴾** أي: فانت ملاقية، وبه قال الأخفش. وقال المبرد: إن في الكلام تقديمًا وتأخيرًا أي: يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحًا، فملاقية إذا السماء انشقت. وقال المبرد أيضًا: إن الجواب قوله: **﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه﴾** وبه قال الكسائي، والتقدير: إذا السماء انشقت، فمن أوتي كتابه بيمينه، فحكمه كذا، وقيل هو: **﴿يا أيها الإنسان﴾** على إضمار الفاء، وقيل: إنه **﴿يا أيها الإنسان﴾** على إضمار القول أي: يقال له يا أيها الإنسان وقيل: الجواب محذوف تقديره بعثتم، أو لاقى كل إنسان عمله، وقيل: هو ما صرح به في سورة التكوير أي: علمت نفس هذا، على تقدير أن إذا شرطية، وقيل: ليست بشرطية وهي منصوبة بفعل محذوف أي: انكر، أو هي مبتدأ، وخبرها إذا الثانية، والواو مزيدة، وتقديره: وقت انشقاق السماء وقت مد الأرض، ومعنى: **﴿وأننت لربها﴾** أنها أطاعته في الانشقاق من الإن، وهو الاستماع للشيء والإصغاء إليه **﴿ووحقت﴾** أي: وحق لها أن تطيع وتنقاد وتسمع، ومن استعمال الإن في الاستماع قول الشاعر:

صم إذا سمعوا خيرا نكرت به وإن نكرت بسوء عندهم أذنوا
وقول الآخر:

إن يأتونا ربية طاروا بها فرحاً مني وما أذنوا من صالح دفنوا
وقيل المعنى: وحقق الله عليها الاستماع لأمره بالانشقاق: أي: جعلها حقيقة بذلك. قال الضحاك: حقت أطاعت، وحق لها أن تطيع ربها لأنه خلقها، يقال فلان محقوق بكذا، ومعنى طاعتها: أنها لا تمتنع مما أراه الله بها. قال قتادة: حق لها أن تفعل ذلك، ومن هذا قول كثير:

فإن تكن العتبي فأملا ومرحبا وحقت لها العتبي لدينا وقلت **﴿وإذا الأرض مدت﴾** أي: بسطت كما تبسط الأنم؛ وبكت جبالها حتى صارت قاعاً صافصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمناً. قال مقاتل: سويت كمد الأنيم، فلا يبقى عليها بناء ولا جبل إلا يخل فيها، وقيل: مدت زيد في سعتها، من المد، وهو: الزيادة **﴿وألقت ما فيها﴾** أي: أخرجت ما فيها من الأموات والكنوز، وطرحتهم إلى ظهرها **﴿وتخلت﴾** من ذلك. قال سعيد بن جببر: ألقت ما في بطنها من الموتى، وتخلت ممن على ظهرها من الأحياء، ومثل هذا قوله: **﴿وأخرجت الأرض أثقالها﴾** [الزلزلة: 2] **﴿وأننت لربها﴾** أي: سمعت وأطاعت لما أمرها من الإلقاء والتخلي **﴿ووحقت﴾** أي: وجعلت حقيقة بالاستماع لذلك والانقياد له، وقد تقدم بيان معنى الفعلين قبل هذا **﴿يا أيها الإنسان﴾** المراد جنس الإنسان، فيشمل المؤمن والكافر، وقيل: هو الإنسان الكافر، والأول أولى لما سيأتي من التفصيل **﴿إنك كادح إلى ربك كدحاً﴾** الكدح في كلام العرب: السعي في

النقصان بعد الزيادة، وكذلك الحور بالضم، وفي المثل، حور في محار: أي: نقصان في نقصان، ومنه قول الشاعر:

والدم يسفى ورأى القوم في حور

والحور أيضاً الهلكة، ومنه قول الراجز:

في بشر لا حور سرا وما شعر

قال أبو عبيدة: أي: في بشر حور، ولا زائدة ﴿بلى﴾ إن ربه كان به بصيراً ﴿بلى﴾ إيجاب للمنفى بلى أي: بلى ليحورن وليبعثن. ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنْ ربه كان به بصيراً﴾ أي: كان به وبإعماله عالماً لا يخفى عليه منها خافية. قال الزجاج: كان به بصيراً قبل أن يخلقه عالماً بأن مرجعه إليه ﴿فلا أقسم بالشفق﴾ لازادة، كما تقدم في أمثال هذه العبارة، وقد قدمنا الاختلاف فيها في سورة القيامة، فارجع إليه، والشفق: الحمرة التي تكون بعد غروب الشمس إلى وقت صلاة العشاء الآخرة. قال الواحدي: هذا قول المفسرين، وأهل اللغة جميعاً. قال الفراء: سمعت بعض العرب يقول: عليه ثوب مصبوغ كأنه الشفق، وكان أحمر، وحكاها القرطبي عن أكثر الصحابة، والتابعين والفقهاء. وقال أسد بن عمر، وأبو حنيفة: في إحدى الروايتين عنه إنه البياض، ولا وجه لهذا القول، ولا متمسك له لا من لغة العرب ولا من الشرع. قال الخليل: الشفق الحمرة من غروب الشمس إلى وقت العشاء الآخرة. قال في الصحاح: الشفق بقية ضوء الشمس وحمرتها في أول الليل إلى قريب العتمة، وكتب اللغة والشرع مطبقة على هذا، ومنه قول الشاعر:

قم يا غلام أعنى غير مرتبك على الزمان بكأس حشوها شفق
وقال آخر:

أحمر اللون كحمرة الشفق

وقال مجاهد: الشفق النهار كله ألا تراه قال: ﴿والليل وما وسق﴾ وقال عكرمة: هو ما بقي من النهار، وإنما قال هذا لقوله بعده: ﴿والليل وما وسق﴾ فكأنه تعالى أقسم بالضياء والظلام، ولا وجه لهذا، على أنه قد روي عن عكرمة أنه قال: الشفق الذي يكون بين المغرب والعشاء، وروي عن أسد بن عمر الرجوع ﴿والليل وما وسق﴾ الوسق عند أهل اللغة: ضم الشيء بعضه إلى بعض، يقال استوسقت الإبل: إذا اجتمعت وانضمت، والراعي يسقها: أي: يجمعها. قال الواحدي: المفسرون يقولون: وما جمع، وضم، وحوى، ولف، والمعنى: أنه جمع، وضم ما كان منتشراً بالنهار في تصرفه، وذلك أن الليل إذا أقبل أبوى كل شيء إلى مأواه، ومنه قول ضابئ بن الحرث البرجمي:

فإنني وإياكم وسوقاً إليكم كقباض شيئاً لم تنله أنامله

وقال عكرمة ﴿وما وسق﴾ أي: وما ساق من شيء إلى حيث يawei، فجعله من السوق لا من الجمع، وقيل: ﴿وما وسق﴾ أي: وما جئ وستر، وقيل: ﴿وما وسق﴾ أي: وما حمل، وكل شيء حملته فقد وسقته، والعرب تقول: لا أحمله ما وسقت عيني الماء: أي: حملته، ووسقت الناقة تسق وسقاً:

الشيء بجهد من غير فرق بين أن يكون ذلك الشيء خيراً أو شراً، والمعنى: أنك ساع إلى ربك في عملك، أو إلى لقاء ربك، مأخوذ من كدح جلده: إذا خدشه. قال ابن مقبل:

وما الدهر إلا تارتان فمنهما أموت وأخرى ابتغي العيش لكدح

قال قتادة، والضحاك، والكلبي: عامل لربك عملاً ﴿فملاقية﴾ أي: فملاق عملك، والمعنى: أنه لا محالة ملاق لجزاء عمله، وما يترتب عليه من الثواب والعقاب. قال القتبي: معنى الآية: إنك كادح: أي: عامل ناصب في معيشتك إلى لقاء ربك، والملاقاة بمعنى اللقاء: أي: تلقى ربك بعملك، وقيل: فملاق كتاب عملك؛ لأن العمل قد انقضى ﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه﴾ وهم: المؤمنون ﴿فسوف يحاسب حساباً يسيراً﴾ لا مناقشة فيه. قال مقاتل: لأنها تغفر ذنوبه، ولا يحاسب بها. وقال المفسرون: هو أن تعرض عليه سيئاته، ثم يغفرها الله، فهو الحساب اليسير ﴿ويقلب إلى أهله مسروراً﴾ أي: وينصرف بعد الحساب اليسير إلى أهله الذين هم في الجنة من عشيرته، أو إلى أهله الذين كانوا له في الدنيا من الزوجات والأولاد، وقد سبقوه إلى الجنة، أو إلى من أعد الله له في الجنة من الحور العين، والولدان المخلدين، أو إلى جميع هؤلاء مسروراً مبتجياً بما أوتي من الخير والكرامة ﴿وأما من أوتي كتابه وراء ظهره﴾ قال الكلبي: لأن يمينه مغلولة إلى عنقه، وتكون يده اليسرى خلفه. وقال قتادة، ومقاتل: تفك ألواح صدره وعظامه، ثم تدخل يده وتخرج من ظهره، فيأخذ كتابه كذلك ﴿فسوف يدعوا ثبوراً﴾ أي: إذا قرأ كتابه قال: يا ويلاه يا ثبوراه، والثبور الهلاك ﴿ويصلى سعيراً﴾ أي: ينخلها، ويقاسي حر نارها وشنتها. قرأ أبو عمرو، وحمزة، وعاصم بفتح الياء، وسكون الصاد، وتخفيف اللام. وقرأ الباقر بنضم الياء، وفتح اللام، وتشديدها، وروى إسماعيل المكي عن ابن كثير، وكذلك خارجة عن نافع، وكذلك روى إسماعيل المكي عن ابن كثير أنهم قرءوا بضم الياء، وإسكان الصاد من أصلى يصلي ﴿إنه كان في أهله مسروراً﴾ أي: كان بين أهله في الدنيا مسروراً باتباع هواه، وركوب شهوته بطراً أشراً لعدم خطور الآخرة بباله، والجملة تعليل لما قبلها، وجملة: ﴿إنه ظن أن لن يحور﴾ تعليل لكونه كان في الدنيا في أهله مسروراً، والمعنى: أن سبب ذلك السرور ظنه بأنه لا يرجع إلى الله، ولا يبعث للحساب والعقاب لتكذيبه بالبعث، وجحد للدار الآخرة، وأن في قوله: ﴿أن لن يحور﴾ هي: المخففة من الثقيلة سادة مع ما في حيزها مسد مفعولي ظن، والحور في اللغة: الرجوع، يقال حار يحور: إذا رجع، وقال الراغب: الحور التردد في الأمر، ومنه نعوذ بالله من الحور بعد الكور: أي من التردد في الأمر بعد المضي فيه، ومحاورة الكلام مراجعته، والمحار المرجع والمصير. قال عكرمة، وداود بن أبي هند: يحور كلمة بالحشية، ومعناها يرجع. قال القرطبي: الحور في كلام العرب: الرجوع، ومنه قوله ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من الحور بعد الكور» يعني: من الرجوع إلى

مسلم: المراد الخضوع، والاستكانة. وقيل: المراد نفس السجود المعروف بسجود التلاوة. وقد وقع الخلاف هل هذا الموضع من مواضع السجود عند التلاوة أم لا؟ وقد تقدم في فاتحة هذه السورة الليل على السجود ﴿بَلِ النَّيْنِ كَفَرُوا يَكْنِبُونَ﴾ أي: يكتبون بمحمد ﷺ، وبما جاء به من الكتاب المشتمل على إثبات التوحيد، والبعث، والثواب، والعقاب ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوْعُونَ﴾ أي: بما يضمرونه في أنفسهم من التكذيب، وقال مقاتل: يكتمون من أفعالهم. وقال ابن زيد: يجمعون من الأعمال الصالحة والسيئة، مأخوذ من الوعاء الذي يجمع ما فيه، ومنه قول الشاعر:

الخبر لبقى وإن طال الزمان به والشّر أخبث ما لوعيت من زاد
ويقال: وعاه حفظه، ووعيت الحديث أعياه وعياً، ومنه: ﴿أَنْتَ وَاعِيَةٌ﴾ [الحاقة: 12] ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: اجعل تلك بمنزلة البشارة لهم؛ لأن علمه سبحانه بذلك على الوجه المذكور موجب لتعذيبهم، والأليم المؤلم الموجه، والكلام خارج مخرج التهكم بهم ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ هذا الاستثناء منقطع أي: لكن الذين جمعوا بين الإيمان بالله، والعمل الصالح لهم أجر عند الله غير ممنون أي: غير مقطوع، يقال مننت الحبل: إذا قطعته، ومنه قول الشاعر:

فترى خلفهن من سرعة الرج ع منيناً كأنه أهباء
قال المبرد: المنين الغبار؛ لأنه تقطعه وراءها، وكل ضعيف منين وممنون، وقيل: معنى غير ممنون أنه لا يمن عليهم به، ويجوز أن يكون الاستثناء متصلاً إن أريد من آمن منهم.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب في قوله: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ قال: تنشق السماء من المجرة. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس: ﴿وَأَنْتَ لِرَبِّهَا وَحَقَّتْ﴾ قال: سمعت حين كلمها. وأخرج ابن أبي حاتم عنه ﴿وَأَنْتَ لِرَبِّهَا وَحَقَّتْ﴾ قال: اطاعت، وحقت بالطاعة. وأخرج الحاكم عنه وصححه قال: سمعت وأطاعت ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ قال: يوم القيامة ﴿وَوَلَقْتَ مَا فِيهَا﴾ قال: أخرجت ما فيها من الموتى ﴿وَوَلَقْتَ مَا فِيهَا﴾ قال: سوري الذهب. وأخرج الحاكم: قال السيوطي بسند جيد عن جابر قال: قال النبي ﷺ: «تمد الأرض يوم القيامة مد الأديم، ثم لا يكون لآدم فيها إلا موضع قدميه». وأخرج ابن جرير عن ابن عباس: «إنك كادح إلى ربك كدحاً» قال: عمل عملاً ﴿فَمَلَأَقِيهِ﴾ قال: فملاق عملك. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «ليس أحد يحاسب إلا هلك، فقلت ليس يقول الله: ﴿فَمَا مِنْ أَوْتَى كِتَابِهِ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يَحَاسِبُ حَسَاباً يَسِيرًا﴾؟ قال: ليس ذلك بالحساب، ولكن تلك العرض، ومن نوقش الحساب هلك». وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، وابن جرير، والحاكم وصححه، وابن مروي

أي: حملت. قال قتادة، والضحاك، ومقاتل بن سليمان: وما وسق، وما حمل من الظلمة، أو حمل من الكواكب. قال القشيري: ومعنى حمل ضمّ وجمع، والليل يحمل بظلمته كل شيء. وقال سعيد بن جبير: وما وسق أي: وما عمل فيه من التهجد والاستغفار بالأسحار، والأول أولى ﴿وَالْقَمَرُ إِذَا اتَّسَقَ﴾ أي: اجتمع، وتكامل. قال الفراء: اتساقه امتلاؤه واجتماعه، واستواؤه ليلة ثالث عشر، ورابع عشر إلى ست عشرة، وقد افتعل من الوسق الذي هو الجمع. قال الحسن: اتسق امتلاء واجتمع. وقال قتادة: استدار، يقال: وسقته فاتسق، كما يقال: وصلته فاتصل، ويقال أمر فلان متسق أي: مجتمع منتظم، ويقال اتسق الشيء: إذا تتابع ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ هذا جواب القسم. قرأ حمزة، والكسائي، وابن كثير، وأبو عمرو لتركبن بفتح الموحدة على أنه خطاب للواحد، وهو النبي ﷺ، أو لكل من يصلح له، وهي قراءة ابن مسعود، وابن عباس، وأبي العالية، ومسروق، وأبي وائل، ومجاهد، والنخعي، والشعبي، وسعيد بن جبير، وقرأ الباقر بضم الموحدة خطاباً للجمع، وهم الناس. وقال الشعبي، ومجاهد: لتركبن يا محمد سماء بعد سماء قال الكلبي: يعني: تصعد فيها، وهذا على القراءة الأولى، وقيل: درجة بعد درجة، ورتبة بعد رتبة في القرب من الله ورفع المنزلة، وقيل المعنى: لتركبن حالاً بعد حال كل حالة منها مطابقة لأختها في الشدة، وقيل المعنى: لتركبن أيها الإنسان حالاً بعد حال من كونك نطفة، ثم علق، ثم مضغة، ثم حياً، وميتاً، وغنياً، وفقيراً، فالخطاب للإنسان المذكور في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا﴾ واختار أبو عبيد، وأبو حاتم القراءة الثانية قالوا: لأن المعنى بالناس أشبه منه بالنبي ﷺ. وقرأ عمر (اليركبن) بالتحية، وضم الموحدة على الإخبار، وروي عنه وعن ابن عباس أنهما قرأا بالفتية، وفتح الموحدة أي: ليركبن الإنسان، وروي عن ابن مسعود، وابن عباس أنهما قرأا بكسر حرف المضارعة وهي لغة، وقرئ بفتح حرف المضارعة، وكسر الموحدة على أنه خطاب للنفس. وقيل: إن معنى الآية: ليركبن القمر أحوالاً من سرار، واستهلال، وهو بعيد. قال مقاتل ﴿طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ يعني: الموت والحياة. وقال عكرمة: رضيع، ثم فطيم، ثم غلام، ثم شاب، ثم شيخ. ومحل عن طبق النصب على أنه صفة لطبقاً أي: طبقاً مجاوزاً لطبق، أو على الحال من ضمير لتركبن أي: مجاوزين، أو مجاوزاً ﴿فَمَالَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الاستفهام للإنكار، والفاء لترتيب ما بعدها من الإنكار، والتعجيب على ما قبلها من أحوال يوم القيامة، أو من غيرها على الاختلاف السابق، والمعنى: أي شيء للكفار لا يؤمنون بمحمد ﷺ، وبما جاء به من القرآن مع وجود موجبات الإيمان بذلك ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ هذه الجملة الشرطية، وجوابها في محل نصب على الحال أي: أي مانع لهم حال عدم سجودهم، وخضوعهم عند قراءة القرآن. قال الحسن، وعطاء، والكلبي، ومقاتل: ماله لا يصلون. وقال أبو

الآية قال: السماء تكون كالمهل، وتكون وردة كالدَّمان، وتكون واهية، وتشقق، فتكون حالاً بعد حال. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَوْعُونَ﴾ قال: يَسْرُونَ.

تفسير سورة البروج

وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت ﴿وَالسَّمَاءُ ذَاتُ الْبُرُوجِ﴾ [أي: سورة البروج] بمكة. وأخرج أحمد قال: حدثنا عبد الصمد حدثنا زريق بن أبي سلمى حدثنا أبو المهزم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العشاء الآخرة بـ ﴿وَالسَّمَاءُ ذَاتُ الْبُرُوجِ﴾ ﴿وَالسَّمَاءُ وَالطَّارِقُ﴾ [أي: سورة الطارق]. وأخرج الطيالسي، وابن أبي شيبة في المصنف، وأحمد، والدارمي، وأبو داود، والترمذي وحسنه، والنسائي، وابن حبان، والطبراني، والبيهقي، في سننه عن جابر بن سمرة: أن النبي ﷺ كان يقرأ في الظهر والعصر بـ ﴿وَالسَّمَاءُ وَالطَّارِقُ﴾، ﴿وَالسَّمَاءُ ذَاتُ الْبُرُوجِ﴾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءُ ذَاتُ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْوَعْدِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُلْ أَصْحَابُ الْأُفُقِ ﴿٤﴾ الَّذِينَ فِي الْأَفُقِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْكَ قُودٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ عَلَى مَا يَقُولُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهَدَاءُ ﴿٧﴾ وَمَا تَقُولُوا بِهِمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ وَكُتِبَتْ لَهُمْ سَبْعُونَ مِائَةً مِائَةَ السَّنِينَ وَمَن يُؤْتُوا هَؤُلَاءِ مِائَةَ مِائَةِ السَّنِينَ إِذَا أُولَئِكَ الْأَنْفُسُ تَخَالَفَتْ لِمَنْ تَحْتَهُ تَجَرَّى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْفُسُ ذَلِكَ فَازٍ الْكَبِيرُ ﴿١٠﴾ إِنَّ بَلَدَنَ رَبِّكَ لَنَدِيدٌ ﴿١١﴾ إِنَّهُ هُوَ بَدِيعُ رَيْبٍ ﴿١٢﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْكَرِيمُ ﴿١٣﴾ ذُو الْعَرْشِ لَجِيدٌ ﴿١٤﴾ فَعَالٌ لِّمِائَةٍ ﴿١٥﴾ عَلَى أُنُوكَ حَبِيبٌ لِّمُؤْمِنٍ ﴿١٦﴾ فَرَعَوْنُ وَمُؤَدُّوهُ ﴿١٧﴾ عَلَى الْأَيْمَنِ كُفُّوا فِي تَكْذِيبِ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَنْزِلُ فِي رُبُوعِهِمْ حَيْطٌ ﴿١٩﴾ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٢٠﴾ فِي رُوحٍ مُّخْتَوٍ ﴿٢١﴾

قوله: ﴿وَالسَّمَاءُ ذَاتُ الْبُرُوجِ﴾ قد تقدّم الكلام في البروج عند تفسير قوله: ﴿جعل في السماء بروجاً﴾ [الفرقان: 61] قال الحسن، ومجاهد، وقتادة، والضحاك: هي النجوم، والمعنى: والسماء ذات النجوم. وقال عكرمة، ومجاهد أيضاً: هي قصور في السماء. وقال المنهال بن عمرو: ذات الخلق الحسن. وقال أبو عبيدة، ويحيى بن سلام وغيرهما: هي المنازل للكوكب، وهي اثنا عشر برجاً لاثني عشر كوكباً، وهي: الحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والبلو، والحوث. والبروج في كلام العرب: القصور، ومنه قوله: ﴿ولو كنتم في بروج مشيدة﴾ [النساء: 78] شبهت منازل هذه النجوم بالقصور لكونها تنزل فيها، وقيل هي أبواب السماء، وقيل هي منازل القمر، وأصل البرج الظهور،

عن عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول في بعض صلاته: «اللهم حاسبني حساباً يسيراً، فلما انصرف قلت: يا رسول الله ما الحساب اليسير؟ قال: أن ينظر في كتابه، فيتجاوز له عنه، إنه من نوقش الحساب هلك، وفي بعض الفاظ الحديث الأول، وهذا الحديث الآخر: «من نوقش الحساب عذب». وأخرج البزار، والطبراني في الأوسط، والبيهقي، والحاكم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من كن فيه يحاسبه الله حساباً يسيراً، وينخله الجنة برحمته: تعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك، وتصل من قطعك». وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿يَدْعُوا ثُبُوراً﴾ قال: الوليل. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه: ﴿إِنَّهُ قُلْنَ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾ قال: يبعث. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً: ﴿أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾ قال: أن لن يرجع. وأخرج سمويه في فوائده عن عمر بن الخطاب قال: ﴿الشَّفَقُ﴾ الحمرة. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس مثله. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال: ﴿الشَّفَقُ﴾ النهار كله. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَاللَّيْلُ وَمَا وَسَقَ﴾ قال: وما لخل فيه. وأخرج أبو عبيد في فضائله، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر عنه: ﴿وَمَا وَسَقَ﴾ قال: وما جمع. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَسَّقَ﴾ قال: إذا استوى. وأخرج عبد بن حميد، وابن الأنباري من طرق عن ابن عباس أنه سئل عن قوله: ﴿وَاللَّيْلُ وَمَا وَسَقَ﴾ قال: وما جمع، أما سمعت قوله:

إِنْ لَنَا قَلْبَانِ فَتَلَسَّقَا
مُسْتَوْسَقَاتٍ لَوْ يَجِدُن سَائِقَا
وأخرج عبد بن حميد عنه: ﴿وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَسَّقَ﴾ قال: ليلة ثلاثة عشر. وأخرج عبد بن حميد عن عمر بن الخطاب: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ قال: حالاً بعد حال. وأخرج البخاري عن ابن عباس: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ حالاً بعد حال، قال: هذا نبيكم ﷺ. وأخرج أبو عبيد في القراءات، وسعيد بن منصور، وابن منيع، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه عن ابن عباس أنه كان يقرأ: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ يعني: بفتح الباء من تركبُنَّ. وقال: يعني: نبيكم ﷺ حالاً بعد حال. وأخرج الطيالسي، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، والطبراني عنه قال: ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ يا محمد السماء ﴿طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، والحاكم في الكنى، والطبراني، وابن منده، وابن مردويه عن ابن مسعود أنه قرأ: ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ يعني: بفتح الباء. وقال لتركبُنَّ يا محمد سماء بعد سماء. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عنه: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ قال: يعني: السماء تنفطر، ثم تنشق، ثم تحضر. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، والبيهقي عنه أيضاً في

السجستاني، وابن الأنباري أيضاً: في الكلام تقديم وتأخير أي: قتل أصحاب الأخدود، والسماء ذات البروج، واعترض عليه بأنه لا يجوز أن يقال: والله قام زيد، والأخدود: الشق العظيم المستطيل في الأرض كالخندق، وجمعه أخاديد، ومنه الخد لمجاري الدموع، والخدة لأن الخد يوضع عليها، ويقال تخد وجه الرجل: إذا صارت فيه أخاديد من خراج، ومنه قول طرفة:

وجه كان الشمس القت ردها عليه نقي اللون لم يتخذ
وسياتي بيان حديث أصحاب الأخدود إن شاء الله. قرأ الجمهور (النار ذات الوقود) بجر النار على أنها بدل اشتغال من الأخدود؛ لأن الأخدود مشتمل عليها، وذات الوقود وصف لها بأنها نار عظيمة، والوقود: الحطب الذي توقد به، وقيل: هو بدل كل من كل، لا بدل اشتغال. وقيل: إن النار مخفوضة على الجوار، كذا حكى مكي عن الكوفيين. وقرأ الجمهور بفتح الواو من الوقود، وقرأ قتادة، وأبو رجاء، ونصر بن عاصم بضمها. وقرأ أشهب العقيلي، وأبو حيوة، وأبو السمك العدوي، وابن السميع، وعيسى برفع النار على أنها خبر مبتدأ محذوف أي: هي النار، أو على أنها فاعل فعل محذوف أي: أحرقتهم النار ﴿إذ هم عليها قعود﴾ العامل في الظرف قتل أي: لعنوا حين أحرقوا بالنار قاعين على ما يدنو منها، ويقرب إليها. قال مقاتل: يعني: عند النار قعود يعرضونهم على الكفر. وقال مجاهد: كانوا قعوداً على الكرسي عند الأخدود ﴿وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود﴾ أي: الذين خنوا الأخدود، وهم: الملك وأصحابه، على ما يفعلون بالمؤمنين من عرضهم على النار؛ ليرجوا إلى دينهم شهود أي حضور، أو يشهد بعضهم لبعض عند الملك بأنه لم يقصر فيما أمر به. وقيل: يشهدون بما فعلوا يوم القيامة، ثم تشهد عليهم السننهم وأيديهم وأرجلهم. وقيل: على بمعنى مع، والتقدير: وهم مع ما يفعلون بالمؤمنين شهود. قال الزجاج: أعلم الله قصة قوم بلغت بصيرتهم، وحقيقة إيمانهم إلى أن صبروا على أن يحرقوا بالنار في الله ﴿وما نقموا منهم﴾ أي: ما أنكروا عليهم، ولا عابوا منهم ﴿إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾ أي: إلا أن صنفوا بالله الغالب المحمود في كل حال. قال الزجاج: ما أنكروا عليهم نذباً إلا إيمانهم، وهذا كقوله: ﴿هل تتقون منا إلا أن آمنا بالله﴾ [المائدة: 59] وهذا من تأكيد المدح بما يشبه الذم، كما في قوله:

لا عيب فيهم سوى أن النزيل بهم يسلو عن الأهل والأوطان والحشم
وقول الآخر:

ولا عيب فيها غير شكلة عينها كذاك عناق الطير شكلاً ميوئها
قرأ الجمهور (نقموا) بفتح النون، وقرأ أبو حيوة بكسرهما، والفصحى الفتح. ثم وصف سبحانه نفسه بما يدل على العظم، والفخامة فقال: ﴿الذي له ملك السموات والأرض﴾ ومن كان هذا شأنه، فهو حقيق بأن يؤمن به ويوحد ﴿والله على كل شيء شهيد﴾ من فعلهم بالمؤمنين

سميت بذلك لظهورها ﴿والليوم للموعود﴾ أي: الموعود به، وهو يوم القيامة. قال الواحدي: في قول جميع المفسرين ﴿وشاهد ومشهود﴾ المراد: بالشاهد من يشهد في ذلك اليوم من الخلائق أي: يحضر فيه والمراد بالمشهود ما يشاهد في ذلك اليوم من العجائب، وذهب جماعة من الصحابة والتابعين إلى أن الشاهد يوم الجمعة، وأنه يشهد على كل عامل بما عمل فيه، والمشهود يوم عرفة؛ لأنه يشهد الناس فيه موسم الحج، وتحضره الملائكة. قال الواحدي: وهذا قول الأكثر. وحكى القشيري عن ابن عمر، وابن الزبير أن الشاهد يوم الأضحية. وقال سعيد بن المسيب: الشاهد يوم التروية، والمشهود يوم عرفة. وقال النخعي: الشاهد يوم عرفة، والمشهود يوم النحر؛ وقيل: الشاهد هو الله سبحانه. وبه قال الحسن، وسعيد بن جبيرة، لقوله: ﴿وكفى بالله شهيداً﴾ [الفتح: 28] وقوله: ﴿قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم﴾ [الأنعام: 19] وقيل: الشاهد محمد ﷺ لقوله: ﴿كفكف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ [النساء: 41] وقوله: ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً﴾ [الأحزاب: 45] وقوله: ﴿ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ [البقرة: 143] وقيل: الشاهد جميع الأنبياء لقوله: ﴿كفكف إذا جئنا من كل أمة بشهيد﴾ وقيل: هو عيسى بن مريم لقوله: ﴿وكنتم عليهم شهيداً ما نمت فيهم﴾ [المائدة: 117] والمشهود على هذه الأقوال الثلاثة إما أمة محمد، أو أمم الأنبياء، أو أمة عيسى. وقيل: الشاهد آدم. والمشهود نريته. وقال محمد بن كعب: الشاهد الإنسان لقوله: ﴿كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾ [الإسراء: 14] وقال مقاتل: أعضاؤه لقوله: ﴿يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون﴾ [النور: 24] وقال الحسين بن الفضل: الشاهد هذه الأمة، والمشهود سائر الأمم لقوله: ﴿وكنلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس﴾ [البقرة: 143] وقيل: الشاهد الحفظة والمشهود بنو آدم، وقيل: الأيام والليالي. وقيل: الشاهد الخلق يشهدون لله عز وجل بالوحدانية، والمشهود له بالوحدانية هو الله سبحانه، وسياتي بيان ما ورد في تفسير الشاهد والمشهود، وبيان ما هو الحق إن شاء الله ﴿قتل أصحاب الأخدود﴾ هذا جواب القسم، واللام فيه مضمرة، وهو الظاهر، وبه قال الفراء، وغيره. وقيل تقديره: لقد قتل، فنحفت اللام، وقد، وعلى هذا تكون الجملة خبرية، والظاهر أنها دعائية؛ لأن معنى قتل لعن. قال الواحدي: في قول الجميع، والدعائية لا تكون جواباً للقسم، فقيل: الجواب قوله: ﴿إن الذين فتنوا المؤمنين﴾ وقيل: قوله: ﴿إن بطش ربك لشديد﴾ وبه قال المبرد: واعترض عليه بطول الفصل، وقيل: هو مقترن يدل عليه قوله: ﴿قتل أصحاب الأخدود﴾ كأنه قال أقسم بهذه الأشياء أن كفار قريش ملعونون، كما لعن أصحاب الأخدود، وقيل: تقدير الجواب: لتبعثن، واختاره ابن الأنباري. وقال أبو حاتم

يفضحهم بها، بالغ المحبة للمطيعين من أوليائه. قال مجاهد: الوادّ لأوليائه، فهو فعول بمعنى فاعل. وقال ابن زيد: معنى الودود الرحيم. وحكى المبرد عن إسماعيل القاضي أن الودود هو الذي لا ولد له، وأنشد:

واركبني الروع عريانة نلّول الجناح لقاحاً ووداً
أي: لا ولد لها تحنّ إليه. وقيل: الودود بمعنى الودود أي: يودّه عباده الصالحون، ويحبونه، كذا قال الأزهري. قال: ويجوز أن يكون فعول بمعنى فاعل أي: يكون محباً لهم. قال: وكلتا الصفتين مدح؛ لأنه جلّ نكره إن أحبّ عباده المطيعين فهو فضل منه، وإن أحبّه عباده العارفون، فلما تقرّر عندهم من كريم إحسانه. قرأ الجمهور: (نو العرش المجيد) الآية برفع المجيد على أنه نعت لنور، واختار هذه القراءة أبو عبيد، وأبو حاتم قالوا: لأنّ المجد هو: النهاية في الكرم والفضل، والله سبحانه هو المنعوت بذلك. وقرأ الكوفيون إلا عاصماً بالجر على أنه نعت للعرش. وقد وصف سبحانه عرشه بالكرم، كما في آخر سورة المؤمنون. وقيل: هو نعت لربك، ولا يضّرّ الفصل بينهما؛ لأنها صفات لله سبحانه. وقال مكي: هو خبر بعد خبر، والأوّل أولى. ومعنى ذو العرش: ذو الملك والسلطان، كما يقال: فلان على سرير ملكه، ومنه قول الشاعر:

راوا عرشي ثلثم جانباه فلما أن ثلثم أقرنوني
وقول الآخر:

إن يقتلوك فقد ثلثت عروشهم بعتيبة بن الحارث بن شهاب
وقيل: المراد خالق العرش ﴿فقال لما يريد﴾ أي: من الإبداء والإعادة. قال عطاء: لا يعجز عن شيء يريد، ولا يمتنع منه شيء طلبه، وارتقاء فعال على أنه خبر مبتدأ محذوف. قال الفراء: هو رفع على التكرير والاستئناف؛ لأنه نكرة محضة. قال ابن جرير: رفع فعال، وهو نكرة محضة على وجه الاتباع لإعراب الغفور الودود، وإنما قال: فعال لأنّ ما يريد ويفعل في غاية الكثرة. ثم نكر سبحانه خبر الجموع الكافرة فقال: ﴿هل أتاك حديث الجنود﴾ والجملة مستأنفة مقرّرة لما تقدّم من شدّة بطشه سبحانه، وكونه فعلاً لما يريد، وفيه تسلية لرسول الله ﷺ أي: هل أتاك يا محمد خبر الجموع الكافرة المكتبة لأنبيائهم المتجندة عليها. ثم بيّنهم فقال: ﴿فرعون وثمود﴾ وهو بدل من الجنود، والمراد بفرعون هو وقومه، والمراد بثمود: القوم المعروفون، والمراد بحديثهم ما وقع منهم من الكفر والعناد، وما وقع عليهم من العذاب، وقصتهم مشهورة قد تكرّر في الكتاب العزيز نكرها في غير موضع، واقتصر على الطائفتين لاشتهار أمرهما عند أهل الكتاب، وعند مشركي العرب، ودلّ بهما على أمثالهما. ثم أضرب عن مماثلة هؤلاء الكفار الموجودين في عصره ﷺ لمن تقدّم نكره، وبيّن أنهم أشدّ منهم في الكفر والتكذيب فقال: ﴿هل للنّين كفروا في تكذيب﴾ أي: بل هؤلاء المشركون من العرب في تكذيب

لا يخفى عليه منه خافية، وفي هذا وعيد شديد لأصحاب الأخدود، ووعد خير لمن عذّبوه على دينه من أولئك المؤمنين. ثم بيّن سبحانه ما أعدّ لأولئك النّين فعلوا بالمؤمنين ما فعلوا من التحريق فقال: ﴿إنّ النّين فتنوا للمؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق﴾ أي: حرقهم بالنار، والعرب تقول: فتنّت الشيء أي: أحرقته، وفتنت درهم والدينار: إذا أسخلته النار؛ لتتظّر جوبته. ويقال دينار مفتون، ويسمى الصائغ الفتان، ومنه قوله: ﴿يوم هم على النار يفتنون﴾ [الذاريات: 13] أي: يحرقون، وقيل: معنى فتنوا المؤمنين: محنهم في دينهم ليرجعوا عنه، ثم لم يتوبوا من قبيح صنعهم، ويرجعوا عن كفرهم وفتنتهم فلهم عذاب جهنم أي: لهم في الآخرة عذاب جهنم بسبب كفرهم، والجملة في محل رفع على أنها خبر إن، أو الخبر لهم، وعذاب جهنم مرتفع به على الفاعلية، والفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط، ولا يضّرّ نسخه بأنّ خلافاً للأخفش، ولهم عذاب الحريق أي: ولهم عذاب آخر زائد على عذاب كفرهم، وهو عذاب الحريق الذي وقع منهم للمؤمنين، وقيل: إن الحريق اسم من أسماء النار كالسعير، وقيل: إنهم يعذبون في جهنم بالزمهرير، ثم يعذبون بعذاب الحريق، فالأوّل عذاب ببردها، والثاني عذاب بحرّها. وقال الربيع بن أنس: إن عذاب الحريق أصيبوا به في الدنيا، وذلك أن النار ارتفعت من الأخدود إلى الملك وأصحابه، فأحرقتهم، وبه قال الكلبي. ثم نكر سبحانه ما أعدّ للمؤمنين النّين أحرقوا بالنار فقال: ﴿إنّ النّين آمنوا وعملوا الصّالحات﴾ وظاهر الآية العموم، فيدخل في ذلك المحرقون في الأخدود بسبب إيمانهم دخولاً أوّلياً، والمعنى: أن الجامعين بين الإيمان وعمل الصّالحات ﴿لهم جنّات تجري من تحتها الأنهار﴾ أي: لهم بسبب الإيمان، والعمل الصّالح جنّات متصفة بهذه الصّفة. وقد تقدّم كيفية جري الأنهار من تحت الجنّات في غير موضع، وأوضحنا أنه إن أريد بالجنّات الأشجار، فجري الأنهار من تحتها واضح، وإن أريد بها الأرض المشتملة عليها، فالتحتية باعتبار جزئها الظاهر، وهو الشجر؛ لأنها ساترة لساحتها، والإشارة بقوله: ﴿ذلك﴾ إلى ما تقدّم نكره مما أعدّه الله لهم أي: ذلك المنكور ﴿الفوز الكبير﴾ الذي لا يعده فوز، ولا يقاربه ولا يدانيه، والفوز الظفر المطلوب، وجملة: ﴿إن بطش ربك لشديد﴾ مستأنفة لخطاب النبي ﷺ مبيّنة لما عند الله سبحانه من الجزاء لمن عصاه، والمغفرة لمن أطاعه أي: أخذه للجبّابة والظلمة شديد، والبطش: الأخذ بعنف، ووصفه بالشدّة يدلّ على أنه قد تضاعف وتفاقم، ومثل هذا قوله: ﴿إن أخذه أليم شديد﴾ [هود: 102] ﴿إنه هو يبدئ ويعيد﴾ أي: يخلق الخلق أوّلاً في الدنيا، ويعيدهم أحياء بعد الموت. كذا قال الجمهور، وقيل: يبدئ للكفار عذاب الحريق في الدنيا، ثم يعيده لهم في الآخرة، واختار هذا ابن جرير، والأوّل أولى ﴿وهو الغفور الودود﴾ أي: بالغ المغفرة للذنوب عباده المؤمنين لا

قال: قال رسول الله ﷺ في الآية: «الشاهد يوم الجمعة، والمشهد يوم عرفة». وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس، وأبي هريرة مثله موقوفاً. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن مردويه عن سعيد بن المسيب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن سيد الأيام يوم الجمعة، وهو الشاهد، والمشهد يوم عرفة» وهذا مرسل من مراسيل سعيد بن المسيب. وأخرج ابن ماجه، والطبراني، وابن جرير عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «أكثرنا من الصلاة علي يوم الجمعة، فإنه يوم مشهد تشهد الملائكة». وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن علي بن أبي طالب في الآية قال: الشاهد يوم الجمعة، والمشهد يوم عرفة. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عن الحسن بن علي أن رجلاً سأله عن قوله: «وشاهد ومشهود» قال: هل سألت أحداً قبلي؟ قال: نعم سألت ابن عمر، وابن الزبير فقالا: يوم الذبح، ويوم الجمعة. قال: لا، ولكن الشاهد محمد ﷺ، ثم قرأ: «وجئنا بك على هؤلاء شهيداً» [النساء: 41] والمشهد يوم القيامة، ثم قرأ: «ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود» [هود: 103]. أخرج عبد بن حميد، والطبراني في الأوسط، والصغير، وابن مردويه عن الحسين بن علي في الآية قال: الشاهد جدِّي رسول الله ﷺ، والمشهد يوم القيامة، ثم تلا: «إنا أرسلناك شاهداً» [الأحزاب: 45] «ذلك يوم مشهود». وأخرج عبد بن حميد، والنسائي، وابن أبي الدنيا، والبزار، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه، وابن عساکر من طرق عن ابن عباس قال: اليوم الموعود يوم القيامة، والشاهد محمد ﷺ، والمشهد يوم القيامة، ثم تلا: «ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود» [هود: 103]. وأخرج ابن جرير عنه قال: الشاهد الله، والمشهد يوم القيامة. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: الشاهد الله. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: الشاهد الله، والمشهد يوم القيامة.

قلت: وهذه التفاسير عن الصحابة رضي الله عنهم قد اختلفت كما ترى، وكذلك اختلفت تفاسير التابعين بعدهم، واستدل من استدل منهم بآيات نكر الله فيها أن ذلك الشيء شاهد أو مشهود، فجعله نليلاً على أنه المراد بالشاهد، والمشهد في هذه الآية المطلقة، وليس ذلك بدليل يستدل به على أن الشاهد، والمشهد المذكورين في هذا المقام هو: ذلك الشاهد، والمشهد الذي نكر في آية أخرى، وإلا لزم أن يكون قوله هنا: «وشاهد ومشهود» هو جميع ما أطلق عليه في الكتاب العزيز، أو السنة المطهرة أنه يشهد، أو أنه مشهود، وليس بعض ما استدلوا به مع اختلافه بأولى من بعض، ولم يقل قائل بذلك. فإني قلت: هل في المرفوع الذي ذكرته من حديثي أبي هريرة، وحديث أبي مالك، وحديث جبير بن مطعم، ومرسل سعيد بن المسيب ما يعين هذا اليوم الموعود، والشاهد والمشهد؟ قلت: أما

شديد لك، ولما جئت به، ولم يعتبروا بمن كان قبلهم من الكفار «وإله من ورائهم محيط» أي: يقدر على أن ينزل بهم ما أنزل بأولئك، والإحاطة بالشيء: الحصر له من جميع جوانبه، فهو تمثيل لعدم نجاتهم بعدم قوت المحاط به على المحيط. ثم رد سبحانه تكذيبهم بالقرآن فقال: «بيل هو قرآن مجيد» أي: متناه في الشرف والكرم، والبركة لكونه بياناً لما شرعه الله لعباده من أحكام الدين والدنيا، وليس هو كما يقولون إنه شعر وكهانة وسحر «في لوح محفوظ» أي: مكتوب في لوح، وهو لم الكتاب محفوظ عند الله من وصول الشياطين إليه. قرأ الجمهور محفوظ بالجر على أنه نعت للوح، وقرأ نافع برفعه على أنه نعت للقرآن أي: يل هو قرآن مجيد محفوظ في لوح. واتفق القراء على فتح اللام من لوح إلا يحيى بن يعمر، وابن السميع، فإنهما قرأاً بضمها. قال مقاتل: اللوح المحفوظ عن يمين العرش. قيل: والمراد باللوح بضم اللام: الهواء الذي فوق السماء السابعة. قال أبو الفضل: اللوح بضم اللام: الهواء، وكذا قال ابن خالويه. قال في الصحاح: اللوح بالضم: الهواء بين السماء والأرض.

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال «البروج» قصور في السماء. وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ سئل عن: «السماء ذات البروج» فقال: الكواكب، وسئل عن قوله: «الذي جعل في السماء بروجاً» [الفرقان: 61] قال: الكواكب. وعن قوله: «في بروج مشيدة» [النساء: 78] قال: القصور. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله: «واليوم الموعود» * وشاهد ومشهود قال: اليوم الموعود يوم القيامة، والشاهد يوم الجمعة، والمشهد يوم عرفة، وهو الحج الأكبر، فيوم الجمعة جعله الله عيداً لمحمد وأمه، وفضله بها على الخلق أجمعين وهو سيد الأيام عند الله، وأحب الأعمال فيه إلى الله، وفيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم يصلي يسأل الله فيها خيراً إلا أعطاه إياه. وأخرج عبد بن حميد، والترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في سننه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «اليوم الموعود يوم القيامة، واليوم المشهود يوم عرفة، والشاهد يوم الجمعة، وما طلعت الشمس ولا غربت على يوم أفضل منه، فيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يدعو الله بخير إلا استجاب الله له، ولا يستعيز من شيء إلا أعانه منه». وأخرج الحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي عن أبي هريرة رفعه: «وشاهد ومشهود» قال: الشاهد يوم عرفة ويوم الجمعة، والمشهد هو الموعود يوم القيامة. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن علي بن أبي طالب قال: اليوم الموعود يوم القيامة، والمشهد يوم النحر، والشاهد يوم الجمعة. وأخرج ابن جرير، والطبراني، وابن مردويه من طريق شريح بن عبيد عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «اليوم الموعود يوم القيامة، والشاهد يوم الجمعة، والمشهد يوم عرفة». وأخرج ابن مردويه، وابن عساکر عن جبير بن مطعم

الجبل، فلما انتهوا إلى ذلك المكان الذي أراونا أن يلقوه منه جعلوا يتهافون من ذلك الجبل، ويتربون حتى لم يبق منهم إلا الغلام، ثم رجع الغلام، فأمر به الملك أن ينطلقوا به إلى البحر، فيلقوه فيه، فانطلقوا به إلى البحر، فغرق الله الذين كانوا معه، وأنجاه، فقال الغلام للملك: إنك لن تقتلني حتى تصلبني وترميني، وتقول إذا رميتني: بسم الله رب الغلام، فأمر به فصلب، ثم رماه، وقال: بسم الله رب الغلام، فوقع السهم في صدغه، فوضع الغلام يده على موضع السهم، ثم مات، فقال الناس: لقد علم هذا الغلام علماً ما علمه أحد، فإنا نؤمن برب هذا الغلام، فقيل للملك: أجزعت أن خالفك ثلاثة، فهذا العالم كله قد خالفوك، قال: فخذ أخدوداً، ثم ألقي فيه الحطب والنار، ثم جمع الناس، فقال: من رجع عن بيته تركناه، ومن لم يرجع القيناه في هذه النار، فجعل يلقيهم في تلك الأخدود، فقال: يقول الله: ﴿قتل أصحاب الأخدود﴾ النار ذات الوقود حتى بلغ العزيز الحميد، فأما الغلام، فإنه نفن، ثم أخرج، فينكر أنه أخرج في زمن عمر بن الخطاب، وأصبه على صدغه، كما وضعها حين قتل، ولهذه القصة ألفاظ فيها بعض اختلاف. وقد رواها مسلم في أولخر الصحيح عن هبة بن خالد عن حماد بن سلمة عن ثابت عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب. وأخرجها أحمد من طريق عفان عن حماد به. وأخرجها النسائي عن أحمد بن سليمان عن حماد بن سلمة به. وأخرجها الترمذي عن محمود بن غيلان، وعبد بن حميد عن عبد الرزاق عن معمر عن ثابت به. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب في قوله: ﴿أصحاب الأخدود﴾ قال: هم الحبشة. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: هم ناس من بني إسرائيل خنوا أخدوداً في الأرض أودوا فيه نارا، ثم أقاموا على ذلك الأخدود رجالاً ونساء، فعرضوا عليها. وأخرج ابن المنذر، والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال: ﴿والسماذ ذات البروج﴾ إلى قوله: ﴿وشاهد ومشهود﴾ قال: هذا قسم على ﴿إن بطش ربك لشديد﴾ إلى آخرها. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿إنه هو يبدئ ويعيد﴾ قال: يبدئ العذاب، ويعيده. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في الاسماء، والصفات عن ابن عباس في قوله: ﴿الودود﴾ قال: الحبيب، وفي قوله: ﴿نور العرش المجيد﴾ قال: الكريم. وأخرج ابن المنذر عنه في قوله: ﴿في لوح محفوظ﴾ قال: أخبرته أنه لوح النكر لوح واحد فيه النكر، وإن ذلك اللوح من نور، وإنه مسيرة ثلاثمائة سنة. وأخرج ابن جرير عن أنس قال: إن اللوح المحفوظ الذي ذكره الله في قوله: ﴿جبل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ﴾ في جبهة إسرافيل. وأخرج أبو الشيخ، قال السيوطي بسند جيد عن ابن عباس قال: خلق الله اللوح المحفوظ كمسيرة مائة عام، فقال للقلم قبل أن يخلق الخلق: اكتب علمي في خلقي، فجري ما هو كائن إلى يوم القيامة اهـ.

اليوم الموعود، فلم تختلف هذه الروايات التي نكر فيها، بل اتفقت على أنه يوم القيامة، وأما الشاهد ففي حديث أبي هريرة الأول أنه يوم الجمعة، وفي حديثه الثاني أنه يوم عرفة، ويوم الجمعة، وفي حديث أبي مالك أنه يوم الجمعة، وفي حديث جبير أنه يوم الجمعة، وفي مرسل سعيد أنه يوم الجمعة، فاتفقت هذه الأحاديث عليه، ولا تضر زيادة يوم عرفة عليه في حديث أبي هريرة الثاني؛ وأما المشهود ففي حديث أبي هريرة الأول أنه يوم عرفة، وفي حديثه الثاني أنه يوم القيامة، وفي حديث أبي مالك أنه يوم عرفة، وفي حديث جبير بن مطعم أنه يوم عرفة، وكذا في حديث سعيد، فقد تعين في هذه الروايات أنه يوم عرفة، وهي أرجح من تلك الرواية التي صرح فيها بأنه يوم القيامة، فحصل من مجموع هذا رجحان ما ذهب إليه الجمهور من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم أن الشاهد يوم الجمعة، والمشهود يوم عرفة، وأما اليوم الموعود، فقد قدمنا أنه وقع الاجماع على أنه يوم القيامة.

وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، ومسلم، والترمذي، والنسائي، والطبراني عن صهيب أن رسول الله ﷺ قال: «كان ملك من الملوك فيمن كان قبلكم، وكان لذلك الملك كاهن يكهن له فقال له ذلك الكاهن: انظروا لي غلاماً فهماً، أو قال فطناً لقناً، فأعلمه علمي، فإني أخاف أن أموت، فينقطع منكم هذا العلم، ولا يكون فيكم من يعلمه، قال: فنظروا له على ما وصف، فأمره أن يحضر ذلك الكاهن، وأن يختلف إليه، فجعل الغلام يختلف إليه، وكان على طريق الغلام راهب في صومعة، فجعل الغلام يسأل ذلك الراهب كلما مر به، فلم يزل به حتى أخبره، فقال: إنما أعبد الله، فجعل الغلام يمكث عند هذا الراهب، ويبطئ على الكاهن، فأرسل الكاهن إلى أهل الغلام أنه لا يكاد يحضرني، فأخبر الغلام الراهب بذلك، فقال له الراهب: إذا قال لك أين كنت؟ فقل عند أهلي، وإذا قال لك أهلك أين كنت؟ فأخبرهم أنني كنت عند الكاهن، فبينما الغلام على ذلك إذ مر بجماعة من الناس كثير قد حبستهم دابة، يقال إنها كانت أسداً، فأخذ الغلام حجراً فقال: اللهم إن كان ما يقول ذلك الراهب حقاً، فأسالك أن تقتل هذه الدابة، وإن كان ما يقول للكاهن حقاً، فأسالك أن لا تقتلها، ثم رمى فقتل الدابة، فقال الناس: من قتلها؟ فقالوا الغلام، ففرغ الناس، وقالوا: قد علم هذا الغلام علماً لم يعلمه أحد، فسمع أعمى، فجاءه، فقال له: إن أنت ربت علي بصري، فلك كذا، وكذا، فقال الغلام: لا أريد منك هذا، ولكن أرايت إن رجع عليك بصرك أتؤمن بالذي رده عليك؟ قال نعم، فدعا الله، فرد عليه بصره، فأمن الأعمى، فبلغ الملك أمرهم، فبعث إليهم، فأتى بهم، فقال: لا تقتلن كل واحد منكم قتلة لا تقتل بها صاحبه، فأمر بالراهب والرجل الذي كان أعمى، فوضع المنشار على مفرق أحدهما فقتله، وقتل الآخر بقتلة أخرى، ثم أمر بالغلام، فقال: انطلقوا به إلى جبل كذا، وكذا، فالتقوه من رأسه، فانطلقوا به إلى ذلك

به فقال: ﴿وما أدراك ما الطارق﴾ * النجم الثاقب﴾ الثاقب: المضىء، ومنه يقال ثقب النجم ثقباً، وثقابة إذا أضاء، وثقوبه ضوءه، ومنه قول الشاعر:

أذاع به في الناس حتى كأنه بعلياء نار أوقدت بثقوب

قال الواحدي: الطارق يقع على كل ما طرق ليلاً، ولم يكن النبي ﷺ يدري ما المراد به لو لم يبينه بقوله: ﴿النجم الثاقب﴾ قال مجاهد: الثاقب المتوهج. قال سفيان: كل ما في القرآن ﴿وما أدراك﴾ فقد أخبره، وكل شيء قال: ﴿وما يدريك﴾ لم يخبره به، وارتفاع قوله: ﴿النجم الثاقب﴾ على أنه خبر مبتدأ محذوف، والجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر نشأ مما قبله، كأنه قيل ما هو؟ فقيل: هو النجم الثاقب ﴿إن كل نفس لما عليها حافظ﴾ هذا جواب القسم، وما بينهما اعتراض، وقد تقدم في سورة هود اختلاف القراء في: (لما)، فمن قرأ بتخفيفها كانت إن هنا هي المخففة من الثقيلة فيها ضمير الشأن المقدر، وهو اسمها، واللام هي الفارقة، وما مزيدة أي: إن الشأن كل نفس لعلها حافظ، ومن قرأ بالتشديد، فإن نافية، ولما بمعنى إلا أي: ما كل نفس إلا عليها حافظ، وقد قرأ هنا بالتشديد ابن عامر، وعاصم، وحزمة. وقرأ الباقون بالتخفيف. قيل: والحافظ هم الحفظة من الملائكة الذين يحفظون عليها عملها، وقولها وفعلها، ويحسون ما تكسب من خير وشر، وقيل: الحافظ هو الله عز وجل، وقيل: هو العقل يرشدهم إلى المصالح، ويكفهم عن المفاسد، والأول أولى لقوله: ﴿وإن عليكم لحافظين﴾ [الأنعام: 61] وقوله: ﴿له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه﴾ [الرعد: 11] والحافظ على الحقيقة هو الله عز وجل، كما في قوله: ﴿فإله خير حافظاً﴾ [يوسف: 64] وحفظ الملائكة من حفظه؛ لأنهم بأمره ﴿فلينظر الإنسان مم خلق﴾ الفاء للدلالة على أن كون على كل نفس حافظ يوجب على الإنسان أن يتفكر في مبتدأ خلقه؛ ليعلم قدرة الله على ما هو بون ذلك من البعث. قال مقاتل: يعني: المكتب بالبعث ﴿مم خلق﴾ من أي شيء خلقه الله، والمعنى: فلينظر نظر التفكر، والاستدلال حتى يعرف أن الذي ابتدأه من نطفة قادر على إعادته. ثم بين سبحانه ذلك فقال: ﴿خلق من ماء دافق﴾ والجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر، والماء: هو المنى، والنفق: الصب، يقال نفقت الماء أي: صببته، يقال ماء دافق أي: مدفوق، مثل: ﴿عيشة راضية﴾ [القارة: 7] أي: مرضية. قال الفراء: والأفخش: ماء دافق أي: مصبوب في الرحم. قال الفراء: وأهل الحجاز يجعلون الفاعل بمعنى المفعول في كثير من كلامهم كقولهم: سر كاتم أي: مكتوم، وهم ناصب: أي منصوب، وليل نائم، ونحو ذلك. قال الزجاج: من ماء ذي انفلاق، يقال دارع، وقايس، ونابل، أي نو نرع، وقوس، ونبل، وأراد سبحانه ماء الرجل والمرأة؛ لأن الإنسان مخلوق منهما، لكن جعلهما ماء واحداً لامتزاجهما، ثم وصف هذا الماء، فقال: ﴿يخرج من بين الصلب والترائب﴾ أي: صلب

تفسير سورة الطارق

وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مريويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت، ﴿والسماء والطارق﴾ [أي: سورة الطارق] بمكة، وأخرج أحمد، والبخاري في تاريخه، والطبراني، وابن مريويه عن خالد العدواني: «أنه أبصر رسول الله ﷺ في سوق ثقيف، وهو قائم على قوس، أو عصي حين أتاهم يبتغي النصر عندهم، فسمعه يقرأ: ﴿والسماء والطارق﴾ حتى ختمها، قال: فوعيتها في الجاهلية، ثم قرأتها في الإسلام، قال: فدعنتي ثقيف، فقالوا: ماذا سمعت من هذا الرجل، فقرأتها، فقال من معهم من قريش: نحن أعلم بصاحبنا، لو كنا نعلم ما يقول حقاً لاتبعناه».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّزِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءَ وَالْطَّارِقَ ﴿١﴾ وَمَا أَزْكَمَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ انْتَبِهْ أَتَأْتِي ﴿٣﴾ لَمَّا عَلَيَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ لِيَنْظُرَ الْإِنْسَانُ مِمَّ خَلَقَ ﴿٥﴾ خَلَقَ مِنْ نَعْمٍ دَاقِقٍ ﴿٦﴾ يَرْجُ مِنْ بَيْنِ السَّحَابِ وَالْأَرْبَابِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَى تَرْجِيهِ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَكُنُ الْأَشْرَارُ ﴿٩﴾ مَا لَمْ يَنْفُورُوا وَلَا يَأْمُرُ ﴿١٠﴾ وَالسَّمَاءُ ذَاتَ الْآرِجِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضُ ذَاتَ الصَّانِعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُمْ لَقَوْلٌ مُضَلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْقَوْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَيَهْلِكُونَ أَهْلَهُمْ دُونًَا ﴿١٧﴾

اقسم سبحانه بـ﴿السماء والطارق﴾ وهو: النجم الثاقب، كما صرح به التنزيل. قال الواحدي: قال المفسرون: اقسم الله بالسماء والطارق، يعني: الكواكب تطرق بالليل، وتخفى بالنهار. قال الفراء: الطارق النجم؛ لأنه يطلع بالليل، وما أتاك ليلاً فهو طارق. وكذا قال الزجاج، والمبرد: ومنه قول امرئ القيس:

ومثلك حبلى قد طرقت ومرضع فالهيتها عن ذي ثمام محول وقوله أيضاً:

الم ترويانني كلما جئت طارقاً وجئت بها طيباً وإن لم تطيب

وقد اختلف في الطارق هل هو: نجم معين، أو جنس النجم؟ فقيل: هو زحل، وقيل: الثريا، وقيل: هو الذي ترمى به الشياطين، وقيل: هو جنس النجم. قال في الصحاح: والطارق النجم الذي يقال له كوكب الصبح، ومنه قول هند بنت عتبة:

نحن بنات طارق نمشي على النمطار

أي: إن أبانا في الشرف كالنجم المضىء، وأصل الطرق اللقي، فسمي قاصد الليل طارقاً لاحتياجه في الوصول إلى اللقي. وقال قوم: إن الطريق قد يكون نهراً، والعرب تقول: أتيتك اليوم طرقتين أي: مرتين، ومنه قوله ﷺ: «أعوذ بك من شر طوارق الليل والنهار إلا طارقاً يطرق بخير». ثم بين سبحانه ما هو الطارق، تخفياً لشأنه بعد تعظيمه بالإقسام

الصبا إلى النطفة. وقال ابن زيد: إنه على حبس ذلك الماء حتى لا يخرج لقادر، والأول أظهر، ورجحه ابن جرير، والثعلبي، والقرطبي «يوم تبلى السرائر» العامل في الظرف على التفسير الأول، هو رجعه، وقيل: لقادر. واعترض عليه بأنه يلزم تخصيص القدرة بهذا اليوم، وقيل: العامل فيه مقدر أي: يرجعه يوم تبلى السرائر، وقيل: العامل فيه مقدر، وهو أنكر، فيكون مفعولاً به، وأما على قول من قال: إن المراد رجح الماء، فالعامل في الظرف مقدر، وهو أنكر، ومعنى تبلى السرائر: تختبر، وتعرف، ومنه قول الرازي:

قد كنت قبل اليوم تزدريني فاليوم أبوك وتبتليني
أي: أختبرك وتختبرني، وأمتحك وتمتحنني، والسرائر: ما يسر في القلوب من العقائد والنيات، وغيرها، والمراد هنا عرض الأعمال، ونشر الصحف، فعند ذلك يتميز الحسن منها من القبيح، والغث من السمين «فما له من قوة ولا ناصر» أي: فما للإنسان من قوة في نفسه يتمتع بها عن عذاب الله، ولا ناصر ينصره مما نزل به. قال عكرمة: هؤلاء الملوك ما لهم يوم القيامة من قوة ولا ناصر. قال سفيان: القوة العشرية، والناصر الحليف، والأول أولى «والسما» ذات الرجوع: الرجوع للمطر. قال الزجاج: الرجوع المطر؛ لأنه يجيء ويرجع ويتكرر. قال الخليل: الرجوع المطر نفسه، والرجوع نبات الربيع. قال أهل اللغة: الرجوع المطر. قال المتنخل يصف سيفاً له:

أبيض كالرجع رسوب إذا ما باح في محتفل يختلي

قال الواحدي: الرجوع المطر في قول جميع المفسرين، وفي هذا الذي حكاه عن جميع المفسرين نظر، فإن ابن زيد قال: الرجوع الشمس، والقمر، والنجوم يرجعون في السماء تطلع من ناحية، وتغيب في أخرى. وقال بعض المفسرين: ذات الرجوع ذات الملائكة لرجوعهم إليها بأعمال العباد. وقال بعضهم: معنى ذات الرجوع: ذات النفع، وجه تسمية المطر رجعاً ما قاله القفال إنه مأخوذ من ترجيع الصوت، وهو إعادته، وكذا المطر لكونه يعود مرة بعد أخرى سمي رجعاً. وقيل: إن العرب كانوا يزعمون أن السحاب يحمل الماء من بحار الأرض، ثم يرجعه إلى الأرض، وقيل: سمته العرب رجعاً لأجل التفاضل ليرجع عليهم، وقيل: لأن الله يرجعه وقتاً بعد وقت «والأرض ذات الصدع» هو ما تتصدع عنه الأرض من النبات، والثمار والشجر، والصدع: الشق؛ لأنه يصدع الأرض، فتتصدع له. قال أبو عبيدة، والفرء: تتصدع بالنبات. قال مجاهد: والأرض ذات الطرق التي تصدعها المياه، وقيل: ذات الحرث لأنه يصدعها، وقيل: ذات الأموات لاتصدعها عنهم عند البعث.

والحاصل أن الصدع إن كان اسماً للنبات فكانه قال: والأرض ذات النبات؛ وإن كان المراد به الشق، فكانه قال: والأرض ذات الشق الذي يخرج منه النبات ونحوه، وجواب القسم قوله: «إنه لقول فصل» أي: إن القرآن لقول يفصل

الرجل، وتراثب المرأة، والتراثب جمع تريبة، وهي: موضع القلادة من الصدر، والولد لا يكون إلا من المائمين. قرأ الجمهور (يخرج) مبنياً للمفاعل. وقرأ ابن أبي عبلة، وابن مقسم مبنياً للمفعول، وفي الصلب وهو الظهر لغات. قرأ الجمهور بضم الصاد وسكون اللام، وقرأ أهل مكة بضم الصاد واللام. وقرأ اليماني بفتحهما، ويقال صالب على وزن قلب. ومنه قول العباس بن عبد المطلب:

تنتقل من صلب إلى رحم

في أبياته المشهورة في مدح النبي ﷺ. وقد تقدم كلام في هذا عند تفسير قوله: «الذين من أصلابكم» [النساء: 23] وقيل: التراثب ما بين الثديين. وقال الضحاك: تراثب المرأة: الثديين، والرجلين، والعينين. وقال سعيد بن جبيرة: هي الجيد. وقال مجاهد: هي ما بين المنكبين والصدر. وروي عنه أيضاً أنه قال: هي الصدر. وروي عنه أيضاً أنه قال: هي التراقي. وحكى الزجاج: أن التراثب عصارة القلب، ومنه يكون الولد، والمشهور في اللغة أنها عظام الصدر، والنحر، ومنه قول دريد بن الصمة:

فإن تببروا ناخذكم في ظهوركم وإن تقبلوا ناخذكم في التراثب

قال عكرمة: التراثب الصدر، وأنشد:

نظام يز على تراثبها

قال في الصحاح: التريبة واحدة التراثب. وهي: عظام الصدر. قال أبو عبيدة: جمع التريبة تريب، ومنه قول المثقب العبدى:

ومن ذهب بنين على تريب كلون العاج ليس بذى غضون

وقول امرئ القيس:

تراثبها مصقولة كالسجنجل

وحكى الزجاج: أن التراثب أربع أضلاع من يمنة الصدر، وأربع أضلاع من يسرة الصدر. قال قتادة، والحسن: المعنى، ويخرج من صلب الرجل، وتراثب المرأة. وحكى الفرء أن مثل هذا يأتي عن العرب يكون معنى من بين الصلب، من الصلب، وقيل: إن ماء الرجل ينزل من الدماغ، ولا يخالف هذا ما في الآية؛ لأنه إذا نزل من الدماغ نزل من بين الصلب والتراثب، وقيل: إن المعنى: يخرج من جميع أجزاء البدن، ولا يخالف هذا ما في الآية؛ لأن نسبة خروجه إلى بين الصلب والتراثب، باعتبار أن أكثر أجزاء البدن هي: الصلب والتراثب، وما يجاورها، وما فوقها مما يكون تنزله منها «إنه على رجعه لقادر» الضمير في إنه يرجع إلى الله سبحانه لدلالة قوله: «خلق» عليه، فإن الذي خلقه هو الله سبحانه، والضمير في رجعه عائد إلى الإنسان، والمعنى: أن الله سبحانه على رجح الإنسان أي: إعلانه بالبعث بعد الموت: «لقادر» هكذا قال جماعة من المفسرين: وقال مجاهد: على أن يرذ الماء في الإحليل. وقال عكرمة، والضحاك: على أن يرذ الماء في الصلب. وقال مقاتل بن حيان يقول: إن شئت رددته من الكبر إلى الشباب، ومن الشباب إلى الصبا، ومن

بإذن الله عن الأموال والنبات. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ﴾ قال: حق ﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ قال: بالباطل، وفي قوله: ﴿أَمْهَلُمْ رُوَيْدًا﴾ قال: قريباً.

تفسير سورة الأعلى

وهي مكية في قول الجمهور. وقال الضحاك: هي مدنية. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مريويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة ﴿سُبْحِ اسم ربك الأعلى﴾ [أي: سورة الأعلى] بمكة. وأخرج ابن مريويه عن ابن الزبير، وعائشة مثله. وأخرج البخاري وغيره عن البراء بن عازب قال: أَوَّلَ من قدم علينا من أصحاب النبي ﷺ مصعب بن عمير، وابن أم مكتوم، فجعلنا يقرأنا القرآن، ثم جاء عمار، وبلال، وسعد، ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين، ثم جاء النبي ﷺ، فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به حتى رأيت الولائد والصبيان يقولون: هذا رسول الله ﷺ قد جاء، فما جاء حتى قرأت: ﴿سُبْحِ اسم ربك الأعلى﴾ في سورة مثلاً. وأخرج أحمد، والبخاري، وابن مريويه عن علي قال: كان رسول الله ﷺ يحب هذه السورة ﴿سُبْحِ اسم ربك الأعلى﴾. أخرجه أحمد عن وكيع عن إسرائيل عن توبير بن أبي فاخنة عن أبيه عن علي. وأخرج أحمد، ومسلم، وأهل السنن عن النعمان بن بشير: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العيدين، وفي الجمعة بـ ﴿سُبْحِ اسم ربك الأعلى﴾، و ﴿هل أتاك حديث الغاشية﴾ [أي: سورة الغاشية]، وإن وافق يوم جمعة قراهما جميعاً، وفي لفظ: «وربما اجتمعا في يوم واحد، فقراهما» وفي الباب أحاديث. وأخرج مسلم، وغيره عن جابر بن سمرة أن النبي ﷺ: «كان يقرأ في الظهر بـ ﴿سُبْحِ اسم ربك الأعلى﴾. وأخرج أبو داود، والنسائي، وابن ماجه، والدارقطني، والحاكم، والبيهقي عن أبي بن كعب قال: كان رسول الله ﷺ يوتر بـ ﴿سُبْحِ اسم ربك الأعلى﴾، و ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ [أي: سورة الكافرون]، و ﴿قل هو الله أحد﴾ [أي: سورة الصمد]. وأخرج أبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، والحاكم وصححه، والبيهقي عن عائشة قالت: كان النبي ﷺ يقرأ في الوتر في الركعة الأولى بـ ﴿سُبْحِ﴾ وفي الثانية ﴿قل يا أيها الكافرون﴾، وفي الثالثة ﴿قل هو الله أحد﴾، والمعوذتين، وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ: «هلا صليت بـ ﴿سُبْحِ اسم ربك الأعلى﴾، و ﴿والشمس، وضحاها﴾ [أي: سورة الشمس]، و ﴿الليل إذا يغشى﴾» [أي: سورة الليل].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بين الحق والباطل بالبيان عن كل واحد منهما ﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ أي: لم ينزل باللعب، فهو جد ليس بالهزل، والهزل ضد الجد. قال الكميت:

تجدد بنا في كل يوم وتهزل

﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ أي: يعمدون في إبطال ما جاء به رسول الله ﷺ من الدين الحق. قال الزجاج: يخانلون النبي ﷺ، ويظهرون ما هم على خلافه ﴿وَإِكِيدُ كَيْدًا﴾ أي: استدرجهم من حيث لا يعلمون، وأجازيهم جزاء كيدهم، قيل: هو ما أوقع الله بهم يوم بدر من القتل والأسر ﴿فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ﴾ أي: آخرهم، ولا تسأل الله سبحانه تعجيل هلاكهم، وأرض بما ينبره لك في أمورهم، وقوله: ﴿أَمْهَلُمْ﴾ بدل، من مهل ومهل، وأمهل بمعنى: مثل نزل وأنزل، والإمهال الإنظار، وتمهل في الأمر اتاده، وانتصاب ﴿رُوَيْدًا﴾ على أنه مصدر مؤكد للفعل المنكسر، أو نعت لمصدر محذوف أي: أمهلهم إمهالاً رويدياً أي: قريباً أو قليلاً. قال أبو عبيدة: والرويد في كلام العرب تصغيراً لروء، وأنشد:

كانها تمشي على روء

أي: على مهل، وقيل: تصغير أرواء مصدر روء تصغير الترخيم، ويأتي اسم فعل نحو رويد زيداً أي: أمهله، ويأتي حالاً نحو سار القوم رويدياً أي: متمهلين، نكر معنى هذا الجوهري، والبحث مستوفى في علم النحو.

وقد أخرج ابن مريويه عن ابن عباس في قوله: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ قال: أقسم ربك بالطارق: وكل شيء طرقت بالليل فهو طارق. وأخرج ابن جرير عنه في قوله: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ قال: كل نفس عليها حفظة من الملائكة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس في قوله: ﴿النَّجْمِ الثَّاقِبِ﴾ قال: النجم المضيء ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ قال: إلا عليها حافظ. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عنه: ﴿يُخْرِجُ من بين الصلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ قال: ما بين الجيد والنحر. وأخرج ابن أبي حاتم عنه في الآية قال: تربية المرأة، وهي موضع القلاية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه أيضاً قال: الترائب بين شديي المرأة. وأخرج الحاكم وصححه عنه أيضاً قال: الترائب أربعة أضلاع من كل جانب من أسفل الأضلاع. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عنه أيضاً: ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ قال: على أن يجعل الشيخ شاباً، والشاب شيخاً. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وعبد بن حميد، والبخاري في تاريخه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة، والحاكم وصححه، وابن مريويه من طرق عن ابن عباس في قوله: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ قال: المطر بعد المطر ﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ قال: صدعها عن النبات. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس ﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ تصدع الأودية. وأخرج ابن منده، والديلمي عن معاذ بن أنس مرفوعاً ﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ قال: تصدع

سُبْحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ① أَلَيْكَ خَلْقُ السَّمَوَاتِ ② وَالْأَرْضِ ③ وَالَّذِي يَدْرُ هَهُنَا ④
وَالَّذِي أَخْرَجَ الْكُرْشَ ⑤ فَجَعَلَ غَنَاءً ⑥ أَوَى ⑦ سَقَرُكَ فَلَا تَنْقُ ⑧ إِلَّا

العشب، وما ترعاه النعم من النبات الأخضر ﴿فَجَعَلَهُ غَثَاءً أَحْوَى﴾ أي: فجعله بعد أن كان أخضر غثاء أي: هشيمًا جافًا كالغثاء الذي يكون فوق السيل أحوى أي: أسود بعد اخضراره، وذلك أن الكلا إذا يبس أسود. قال قتادة: الغثاء الشيء اليابس، ويقال: للبلل والحشيش إذا انحطم، ويبس غثاء وهشيم. قال امرؤ القيس:

كأن نرى راس المجرم غدوة من السيل والأغذاء فلكة مغزل
وانتصاب غثاء على أنه المفعول الثاني، أو على الحال، وأحوى صفة له، وقال الكسائي: هو حال من المرعى أي: أخرجه أحوى من شدة الخضرة والري ﴿فَجَعَلَهُ غَثَاءً﴾ بعد ذلك، والأحوى مأخوذ من الحوة، وهي: سواد يضرب إلى الخضرة. قال في الصحاح: والحوة سمرة الشفة، ومنه قول ذي الرمة:

لمياء في شفتيها حوة لعس وفي اللثات وفي أنيابها شنب
﴿سَنَقَرُكَ فَلَا تَنسَى﴾ أي: سنجعلك قارئاً بأن نلهمك القراءة، فلا تنسى ما تقرؤه، والجملة مستأنفة لبيان هدايته الخاصة به بعد بيان الهداية العامة، وهي هدايته لحفظ القرآن. قال مجاهد، والكسائي: كان النبي ﷺ إذا نزل عليه جبريل بالوحي لم يفرغ جبريل من آخر الآية حتى يتكلم النبي ﷺ بأولها مخافة أن ينساهما، فنزلت: ﴿سَنَقَرُكَ فَلَا تَنسَى﴾ وقوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ استثناء مفرغ من أعم المفاعيل أي: لا تنسى مما تقرؤه شيئاً من الأشياء إلا ما شاء الله أن تنساه. قال الفراء: وهو لم يشأ سبحانه أن ينسى محمد ﷺ شيئاً كقوله: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمُوتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ [هود: 107]، وقيل: إلا ما شاء الله أن تنسى، ثم تذكر بعد ذلك، فإن كان قد نسي، ولكنه يتذكر ولا ينسى شيئاً نسياناً كلياً. وقيل: بمعنى النسخ أي: إلا ما شاء الله أن ينسخه مما نسخ تلاوته. وقيل: معنى فلا تنسى: فلا تترك العمل إلا ما شاء الله أن تتركه لنسخه ورفع حكمه. وقيل المعنى: إلا ما شاء الله أن يؤخر إنزاله. وقيل: ﴿لَا﴾ في قوله: ﴿فَلَا تَنسَى﴾ للنهي. والألف مزيدة لرعاية الفاصلة، كما في قوله: ﴿فَاضْلُونا السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: 67] يعني: فلا تغفل قراءته وتذكره ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ الجملة تعليل لما قبلها أي: يعلم ما ظهر وما بطن، والإعلان والإسرار، وظاهره العموم، فيندرج تحته ما قيل: إن الجهر ما حفظه رسول الله ﷺ من القرآن، وما يخفى هو ما نسخ من صدره، ويخل تحته أيضاً ما قيل من أن الجهر هو إعلان الصلوة، وما يخفى هو إخفاؤها، ويخل تحته أيضاً ما قيل: إن الجهر جهرة ﷺ بالقرآن مع قراءة جبريل مخافة أن يفتلت عليه، وما يخفى ما في نفسه مما يدعو إلى الجهر ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى﴾ معطوف على سنقرتك، وما بينهما اعتراض. قال مقاتل أي: نهون عليك عمل الجنة، وقيل: نوفقك للطريقة التي هي أيسر وأسهل، وقيل: للشرعية اليسرى، وهي الحنيفية السهلة، وقيل: نهون

مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَمُرُّ بَيْنَ أَيْمَانِهِمَا وَمَا يَخْفَى ﴿٧﴾ وَيُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى ﴿٨﴾ فَذَكَّرَكَ إِنْ نَسِيَ الذِّكْرَ ﴿٩﴾ سَيَذَكِّرُ مِنْ خِطَايَ ﴿١٠﴾ وَيَجْعَلُكَ الْآخِزَى ﴿١١﴾ الَّذِي يَصَلُّ الْفَارَ الْكَبْرَى ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٧﴾ إِنَّ هَذَا لَكُلِّ الصَّحُفِ الْأَوَّلِ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴿١٩﴾

قوله: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ أي: نزهه عن كل ما لا يليق به. قال السدي: سبِّح اسم ربك الأعلى: أي: عظمه، قيل: والاسم هنا مقحم لقصد التعظيم، كما في قول لبيد:

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر والمعنى: سبِّح ربك الأعلى. قال ابن جرير: المعنى نزه اسم ربك أن يسمى به أحد سواه، فلا تكون على هذا مقحمة. وقيل المعنى: نزه تسمية ربك، ونكر إياه أن تذكره إلا وأنت خاشع معظم، ولنكره محترم. وقال الحسن: معنى سبِّح اسم ربك الأعلى: صل له. وقيل المعنى: صل بأسماء الله لا كما يصلي المشركون بالمكاء والتصدية. وقيل المعنى: ارفع صوتك بنكر ربك، ومنه قول جرير:

قبح الإله وجوه تغلب كلما سبِّح الحجيح وكبروا تكبيرا
والأعلى صفة للرب، وقيل للاسم، والأول أولى، وقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسْوَى﴾ صفة أخرى للرب. قال الزجاج: خلق الإنسان مستوياً، ومعنى سَوَّى: عدل قامته. قال الضحاک: خلقه فسوَّى خلقه، وقيل: خلق الأجساد، فسوَّى الأفهام، وقيل: خلق الإنسان وهياه للتكليف ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ صفة أخرى للرب، أو معطوف على الموصول الذي قبله. قرأ علي بن أبي طالب، والكسائي، والسلمي: (قدر) مخففاً، وقرأ الباقون بالتشديد، قال الواحدي: قال المفسرون: قدر خلق الذكر والأنثى من اللواتي، فهدى الذكر للأنثى كيف يأتيها. وقال مجاهد: هدى الإنسان لسبيل الخير والشر، والسعادة والشقاوة، ويروي عنه أيضاً أنه قال في معنى الآية: قدر السعادة والشقاوة، وهدي للرشد والضلالة، وهدي الانعام لمراعيها. وقيل: قدر أرزاقهم وأقواتهم، وهدهم لمعايشهم إن كانوا أنساً، ولمراعيهم إن كانوا وحشاً. وقال عطاء: جعل لكل دابة ما يصلحها وهدها له. وقيل: خلق المنافع في الأشياء، وهدي الإنسان لوجه استخراجها منها. وقال السدي: قدر مدة الجنين في الرحم تسعة أشهر وأقل وأكثر، ثم هده للخروج من الرحم. قال الفراء: أي قدر، فهدى، وأصل فاكتفى بأحدهما، وفي تفسير الآية أقوال غير ما ذكرنا. والأولى عدم تعيين فرد، أو أفراد مما يصدق عليه قدر، وهدي إلا ببليد يدل عليه، ومع عدم البليد يحمل على ما يصدق عليه معنى الفعلين، إما على البذل، أو على الشمول، والمعنى: قدر أجناس الأشياء وأنواعها، وصفاتها، وأفعالها، وأقوالها، وأجاليها، فهدى كل واحد منها إلى ما يصدر عنه وينبغي له، ويسره لما خلق له، والهمه إلى أمور دينه وبنياه ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾ صفة أخرى للرب أي: أنبت

صدقة الفطر. قال عكرمة: كان الرجل يقول: أقدم زكاتي بين يدي صلاتي. وأصل الزكاة في اللغة النماء. وقيل: المراد بالآية زكاة الأموال كلها، وقيل: المراد بها زكاة الأعمال لا زكاة الأموال؛ لأن الأكثر أن يقال في الأموال زكي لا تزكي **﴿ونكر اسم ربه فصل﴾** قيل المعنى: نكر اسم ربه بالخوف، فعبدته وصلى له، وقيل: نكر اسم ربه بلسانه فصلى أي: فأتاه الصلوات الخمس، وقيل: نكر موقفه ومعاده فعبدته، وهو كالتقول الأول. وقيل: نكر اسم ربه بالتكبير في أول الصلاة، لأنها لا تنعقد إلا بنكره، وهو: قوله «الله أكبر» وقيل: نكر اسم ربه في طريق المصلي فصلى، وقيل: هو أن يتطوع بصلاة بعد زكاة، وقيل: المراد بالصلاة هنا صلاة العيد، كما أن المراد بالتزكي في الآية الأولى زكاة الفطر، ولا يخفى بعد هذا القول؛ لأن السورة مكية، ولم تفرض زكاة الفطر، وصلاة العيد إلا بالمدينة **﴿بل تؤثرن الحياة الدنيا﴾** هذا إضراب عن كلام مقرر يدل عليه السياق أي: لا تفعلن ذلك بل تؤثرن اللذات الفانية في الدنيا، قرأ الجمهور (تؤثرن) بالفوقية على الخطاب، ويؤيدها قراءة أبي (بل أنتم تؤثرن) وقرأ أبو عمرو بالتحتية على الغيبة. قيل: والمراد بالآية الكفرة، والمراد بإيثار الحياة الدنيا هو الرضا بها، والاطمئنان إليها، والإعراض عن الآخرة بالكلية، وقيل: المراد بها جميع الناس من مؤمن وكافر، والمراد بإيثارها ما هو أعم من ذلك مما لا يخلو عنه غالب الناس من تأثير جانب الدنيا على الآخرة، والتوجه إلى تحصيل منافعها، والاهتمام بها اهتماماً زائداً على اهتمامه بالطاعات وجملة: **﴿والآخرة خير وأبقى﴾** في محل نصب على الحال من فاعل تؤثرن أي: والحال أن الدار الآخرة التي هي الجنة أفضل، وأنوم من الدنيا. قال مالك بن دينار: لو كانت الدنيا من ذهب يفتنى، والآخرة من خرف يبقى لكان الواجب أن يؤثر خرف يبقى على ذهب يفتنى، فكيف والآخرة من ذهب يبقى، والدنيا من خرف يفتنى؟ والإشارة بقوله: **﴿إن هذا﴾** إلى ما تقدم من فلاح من تزكى وما بعده، وقيل: إنه إشارة إلى جميع السورة، ومعنى **﴿لفي الصحف الأولى﴾** أي: ثابت فيها، وقوله: **﴿صحف إبراهيم وموسى﴾** بدل من الصحف الأولى. قال قتادة، وابن زيد: يريد بقوله: **﴿إن هذا﴾** والآخرة خير وأبقى. وقالوا: تتابعت كتب الله عز وجل أن الآخرة خير وأبقى من الدنيا، وقال الحسن: تتابعت كتب الله جل ثناؤه إن هذا لفي الصحف الأولى، وهو قوله **﴿قد افلح﴾** إلى آخر السورة. قرأ الجمهور (في الصحف الأولى صحف إبراهيم) بضم الحاء في الموضعين، وقرأ الأعمش، وهارون، وأبو عمرو في رواية عنه بسكونها فيهما، وقرأ الجمهور (إبراهيم) بالالف بعد الراء، وبالياء بعد الهاء. وقرأ أبو رجاء بحذفهما وفتح الهاء، وقرأ أبو موسى، وابن الزبير إبراهيم بالغين.

وقد أخرج أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، وابن المنذر، وابن مريويه عن عقبة بن عامر الجهني قال: «لما نزلت:

عليك الوحي حتى تحفظه وتعمل به، والأولى حمل الآية على العموم: أي: نوافك للطريقة اليسرى في الدين والدنيا في كل أمر من أمورهما التي تتوجه إليك **﴿فذكر إن نفعت الذكرى﴾** أي: عظم يا محمد الناس بما أوحينا إليك، وأرشدكم إلى سبل الخير، وأهدمهم إلى شرائع الدين. قال الحسن: تنكرة للمؤمن، وحجة على الكافر. قال الواحدي: إن نفعت أو لم تنفع؛ لأن النبي ﷺ بعث مبلغاً للإعذار والإنذار، فعليه التنكير في كل حال نفع، أو لم ينفع ولم يذكر الحالة الثانية كقوله: **﴿سراييل تقيمكم الحر﴾** [النحل: 81] الآية. قال الجرجاني: التنكير واجب، وإن لم ينفع، فالمعنى: إن نفعت الذكرى أو لم تنفع. وقيل: إنه مخصوص في قوم بأعيانهم، وقيل: إن بمعنى ما، أي: فنكر ما نفعت الذكرى؛ لأن الذكرى نافعة بكل حال، وقيل: إنها بمعنى قد، وقيل: إنها بمعنى إذ. وما قاله الواحدي، والجرجاني أولى، وقد سبقهما إلى القول به الفراء، والنحاس. قال الرازي: إن قوله: **﴿إن نفعت الذكرى﴾** للتنبيه على أشرف الحاليين، وهو: وجود النفع الذي لأجله شرعت الذكرى، والمعلق بأن على الشيء لا يلزم أن يكون عدماً عند عدم ذلك الشيء، ويدل عليه آيات: منها هذه الآية، ومنها قوله تعالى: **﴿واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون﴾** [البقرة: 172] ومنها قوله: **﴿ولا جناح عليكم أن تقصروا من الصلاة إن خفت﴾** [النساء: 101] فإن القصر جائز عند الخوف وعدمه، ومنها قوله: **﴿فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله﴾** [البقرة: 230] والمراجعة جائزة بدون هذا الظن، فهذا الشرط فيه فوائد: منها ما تقدم، ومنها البعث على الانتفاع بالذكرى، كما يقول الرجل لمن يرشده: قد أوضحت لك إن كنت تعقل، وهو تنبيه للنبي ﷺ على أنها لا تنفعهم الذكرى، أو يكون هذا في تكرير الدعوة، فأما الدعاء الأول فعام انتهى. ثم بين سبحانه الفرق بين من تنفعه الذكرى، ومن لا تنفعه، فقال: **﴿سيتذكر من يخشى﴾** أي: سيتعظ بوعظك من يخشى الله فيزداد بالتنكير خشية وصلاًحاً **﴿ويجتنبها الأشقي﴾** أي: ويتجنب الذكرى، ويبعد عنها الأشقي من الكفار لإصراره على الكفر بالله، وانهماكه في معاصيه. ثم وصف الأشقي فقال: **﴿الذي يصلي النار الكبرى﴾** أي: العظيمة الفظيعة؛ لأنها أشد حراً من غيرها. قال الحسن: النار الكبرى نار جهنم، والنار الصغرى نار الدنيا، وقال الزجاج: هي السفلى من أطباق النار **﴿ثم لا يموت فيها ولا يحيى﴾** أي: لا يموت فيها، فيستريح مما هو فيه من العذاب، ولا يحيا حياة ينتفع بها، ومنه قول الشاعر:

ألا ما لنفس لا تموت فينقضي عناها ولا تحيا حياة لها طعم
وثم للتراخي في مراتب الشدة؛ لأن التردد بين الموت، والحياة أقطع من صلي النار الكبرى **﴿قد افلح من تزكى﴾** أي: من تطهر من الشرك، فأمن بالله ووحده، وعمل بشرائعه. قال عطاء، والربيع: من كان عمله زكياً نامياً، وقال قتادة: تزكى بعمل صالح. قال قتادة، وعطاء، وأبو العالية: نزلت في

الصلوات الخمس. وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس **﴿قد افلح من تزكى﴾** قال: من قال لا إله إلا الله. وأخرج البزار، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم في الكنى، وابن مردويه والبيهقي في سننه عن كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده عن النبي **﴿أنه كان يأمر بزكاة الفطر قبل أن يصلي صلاة العيد، ويتلو هذه الآية ﴿قد افلح من تزكى﴾ وذكر اسم ربه فصلي﴾**. وفي لفظ قال: «سئل النبي **﴿قد افلح من تزكى﴾** قال: هي زكاة الفطر، فكثير بن عبد الله ضعيف جداً، قال فيه أبو داود: هو ركن من أركان الكذب، وقد صحح الترمذي حديثاً من طريقه، وخطئ في ذلك، ولكنه يشهد له ما أخرجه ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال: كان رسول الله **﴿يقول: ﴿قد افلح من تزكى﴾ وذكر اسم ربه فصلي﴾** ثم يقسم الفطرة قبل أن يدخل إلى المصلى يوم الفطر، وليس في هذين الحديثين ما يدل على أن ذلك سبب النزول، بل فيهما أنه **﴿تلا الآية، وقوله: هي زكاة الفطر، يمكن أن يراد به أنها مما يصدق عليه التزكي، وقد قدمنا أن السورة مكية، ولم تكن في مكة صلاة عيد ولا فطرة وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن أبي سعيد الخدري: ﴿قد افلح من تزكى﴾** قال: أعطى صدقة الفطر قبل أن يخرج إلى العيد **﴿ونكر اسم ربه فصلي﴾** قال: خرج إلى العيد وصلى. وأخرج ابن مردويه، والبيهقي عن ابن عمر قال: إنما أنزلت هذه الآية في إخراج صدقة الفطر قبل صلاة العيد **﴿قد افلح من تزكى﴾** وذكر اسم ربه فصلي. وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء قال: قلت لابن عباس: رأيت قوله: **﴿قد افلح من تزكى﴾** للفطر قال: لم أسمع بذلك، ولكن للزكاة كلها. ثم عابته فقال لي: والصدقات كلها. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، والبيهقي في شعب الإيمان عن عرفة الثقفي قال: استقرأت ابن مسعود **﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾** فلما بلغ **﴿بل يؤثرون الحياة الدنيا﴾** ترك القراءة، وأقبل على أصحابه، فقال: أثرتنا الدنيا على الآخرة، فسكت القوم، فقال: أثرتنا الدنيا لانا رأينا زينتها، ونساءها، وطعامها، وشرابها، وزويت عنا الآخرة، فاخترنا هذا العاجل وتركنا الأجل، وقال: **﴿بل يؤثرون الحياة الدنيا﴾** بالياء. وأخرج البزار، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: **﴿إن هذا لفي الصحف الأولى﴾** صحف إبراهيم وموسى. قال رسول الله **﴿هي كلها في صحف إبراهيم، وموسى، وفي لفظ: هذه السورة في صحف إبراهيم وموسى. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عنه في الآية قال: نسخت هذه السورة من صحف إبراهيم وموسى. وأخرج عبد بن حميد، وابن مردويه، وابن عساکر عن أبي نر قال: «قلت يا رسول الله كم أنزل الله من كتاب؟ قال: مائة كتاب، وأربعة كتب» الحديث.**

﴿فسبح باسم ربك العظيم﴾ [الحاقة: 52] قال لنا رسول الله **﴿اجعلوها في ركوعكم، فلما نزلت ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ [أي: سورة الأعلى] قال: اجعلوها في سجودكم ولا مطعن في إسناده. وأخرج أحمد، وأبو داود، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في سننه عن ابن عباس: أن رسول الله **﴿كان إذا قرأ ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ [الأعلى: 1] قال: «سبحان ربي الأعلى»، قال أبو داود: خولف فيه وكيع، فرواه شعبة عن أبي إسحاق عن سعيد عن ابن عباس موقوفاً. وأخرجه موقوفاً أيضاً عبد الرزاق، وابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن جرير عن ابن عباس أنه كان إذا قرأ: ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ قال: «سبحان ربي الأعلى»، وفي لفظ لعبد بن حميد عنه قال: «إذا قرأت ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾. فقل: سبحان ربي الأعلى». وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن الأنباري في المصاحف عن علي بن أبي طالب أنه قرأ **﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾** فقال: «سبحان ربي الأعلى» وهو في الصلاة، ف قيل له أتزيد في القرآن؟ قال: لا، إنما أمرنا بشيء، فقلته. وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن المنذر عن أبي موسى الأشعري أنه قرأ في الجمعة: **﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾** فقال: «سبحان ربي الأعلى». وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه عن سعيد بن جبير قال: سمعت ابن عمر يقرأ **﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾** فقال: «سبحان ربي الأعلى»، وكذلك هي في قراءة أبي بن كعب. وأخرج ابن أبي شيبه عن عمر أنه قال: إذا قرأ **﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾** قال: «سبحان ربي الأعلى». وأخرج ابن أبي شيبه، وعبد بن حميد عن عبد الله بن الزبير أنه قرأ **﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾** فقال: «سبحان ربي الأعلى» وهو في الصلاة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **﴿فجعله غثاء﴾** قال: مشيماً **﴿لحوى﴾** قال متغيراً. وأخرج ابن مردويه عنه قال: كان النبي **﴿يستنكر القرآن مخافة أن ينسى، ف قيل له قد كفيك ذلك، ونزلت: ﴿سنقرئك فلا تنسى﴾**. وأخرج الحاكم عن سعد بن أبي وقاص نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس **﴿إلا ما شاء الله﴾** يقول: إلا ما شئت أنا، فأنسيك. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً **﴿ونيسرك لليسرى﴾** قال: للخير. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود **﴿ونيسرك لليسرى﴾** قال: الجنة. وأخرج البزار، وابن مردويه عن جابر بن عبد الله عن النبي **﴿في قوله: ﴿قد افلح من تزكى﴾** قال: «من شهد أن لا إله إلا الله، وقطع الانداد، وشهد أنني رسول الله **﴿ونكر اسم ربه فصلي﴾** قال: هي الصلوات الخمس، والمحافظة عليها، والاهتمام بمواقفتها». قال البزار: لا يروى عن جابر إلا من هذا الوجه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **﴿قد افلح من تزكى﴾** قال: من الشرك **﴿ونكر اسم ربه﴾** قال: وحده الله **﴿فصلي﴾** قال:****

تفسير سورة الغاشية

وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة الغاشية بمكة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله، وقد تقدم حديث النعمان بن بشير: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ [أي: سورة الأعلى]، والغاشية في صلاة العيد، ويوم الجمعة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾ وَبُوءَ يَوْمَهُدْ خَنِيمَةً ﴿٢﴾ عَالِمَةً نَّاسِيَةً ﴿٣﴾ تَصَلَ نَارًا كَابِيَةً ﴿٤﴾ تَشَقُّ مِنْ عَيْنٍ رَابِيَةٍ ﴿٥﴾ لَيْسَ لَهَا طَمَاحٌ إِلَّا مِنْ ضَرْبٍ ﴿٦﴾ لَا يَسِينُ وَلَا يَنْفِي مِنْ جُوعٍ ﴿٧﴾ وَجُوعُهُ يَوْمَهُدْ نَاعِمَةً ﴿٨﴾ لَسْتِيهَا رَاضِيَةً ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَا تَسْعُ فِيهَا لَبِئَةٌ ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَرْوُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَارٌ مَقْشُوعَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَلَّالٌ مَبْنُوعَةٌ ﴿١٦﴾ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّحَابِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ تَذَكَّرْ إِنَّكَ أَنْتَ مُدَكِّكٌ ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُعْظِمْ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ يُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا جِسْمَهُمْ ﴿٢٦﴾

قوله: ﴿هل أتاك حديث الغاشية﴾ قال جماعة من المفسرين: هل هنا بمعنى قد، وبه قال قطرب: أي: قد جاءك يا محمد حديث الغاشية، وهي القيامة؛ لأنها تغشى الخلائق بأهوالها. وقيل: إن بقاء هل هنا على معناها الاستفهامي المتضمن للتعجب مما في خبره، والتشويق إلى استماعه أولى. وقد ذهب إلى أن المراد بالغاشية هنا القيامة أكثر المفسرين. وقال سعيد بن جبير، ومحمد بن كعب: الغاشية النار تغشى وجوه الكفار كما في قوله: ﴿وتغشى وجوههم النار﴾ [إبراهيم: 50] وقيل: الغاشية أهل النار؛ لأنهم يغشونها ويقحمونها والأول أولى. قال الكلبي: المعنى إن لم يكن أتاك حديث الغاشية، فقد أتاك ﴿وجوه يومئذٍ خاشعة﴾ الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل ما هو؟ أو مستأنفة استئنافاً نحوياً لبيان ما تضمنته من كون، ثم وجوه في ذلك اليوم متصفة بهذه الصفة المذكورة، وجوه مرتفع على الابتداء، وإن كانت نكرة لوقوعه في مقام التفصيل، وقد تقدم مثل هذا في سورة القيامة، وفي سورة النازعات. والتنويع في يومئذ عوض عن المضاف إليه أي: يوم غشيان الغاشية، والخاشعة: الذليلة الخاضعة، وكل متضائل ساكن يقال له خاشع، يقال خشع الصوت: إذا خفي، وخشع في صلاته: إذا تنل ونكس رأسه. والمراد بالوجوه هنا أصحابها. قال مقاتل: يعني الكفار؛ لأنهم تكبروا عن عبادة الله. قال قتادة، وابن زيد: خاشعة في النار، وقيل: أراد

وجوه اليهود والنصارى على الخصوص، والأول أولى. قوله: ﴿عاملة ناصبة﴾ معنى عاملة أنها تعمل عملاً شاقاً. قال أهل اللغة: يقال للرجل إذا دأب في سيره: عمل يعمل عملاً، ويقال للسحاب إذا دام برقه: قد عمل يعمل عملاً. قيل: وهذا العمل هو جزر السلاسل والأغلال، والخوض في النار ﴿ناصبة﴾ أي: تعب، يقال نصب بالكسر ينصب نصباً: إذا تعب، والمعنى: أنها في الآخرة تعب لما تلاقيه من عذاب الله. وقيل: إن قوله: ﴿عاملة﴾ في الدنيا إذ لا عمل في الآخرة أي: تعمل في الدنيا بالكفر والمعاصي، وتنصب في ذلك. وقيل: إنها عاملة في الدنيا ناصبة في الآخرة، والأول أولى. قال قتادة ﴿عاملة ناصبة﴾ تكبرت في الدنيا عن طاعة الله، فأعملها الله، وأنصبها في النار بجزر السلاسل الثقيل، وحمل الأغلال، والوقوف حفاة عراة في العرصات ﴿في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾ [المعارج: 4] قال الحسن، وسعيد بن جبير: لم تعمل الله في الدنيا، ولم تنصب فأعملها، وأنصبها في جهنم. قال الكلبي: يجزون على وجوههم في النار. وقال أيضاً: يكلفون ارتقاء جبل من حديد في جهنم، فينصبون فيها أشد ما يكون من النصب بمعالجة السلاسل، والأغلال، والخوض في النار كما تخوض الإبل في الوحل. قرأ الجمهور (عاملة ناصبة) بالرفع فيهما على أنهما خبران أخران للمبتدأ، أو على تقدير مبتدأ، وهما خبران له، وقرأ ابن محيصن، وعيسى، وحמיד، وابن كثير في رواية عنه بنصبهما على الحال، أو على الذم، وقوله: ﴿تصلى ناراً حامية﴾ خبر آخر للمبتدأ أي: تدخل ناراً متناهية في الحر، يقال: حمى النهار، وحمى التنور أي: اشتد حرهما. قال الكسائي: يقال: اشتد حمى النهار، وحموه بمعنى. قرأ الجمهور (تصلى) بفتح التاء مبنياً للفاعل. وقرأ أبو أبو عمرو، ويعقوب، وأبو بكر بضمها مبنياً للمفعول. وقرأ أبو رجاء بضم التاء، وفتح الصاد، وتشديد اللام، والضمير راجع إلى الوجوه على جميع هذه القراءات، والمراد أصحابها، كما تقدم، وهكذا الضمير ﴿تسقى من عين أنية﴾ والمراد بالعين الأنية: المتناهية في الحر، والأنية: الذي قد انتهى حره، من الإيناء بمعنى التأخر، يقال آناه يؤنيه إيناء أي: أخره وحبسه، كما في قوله: ﴿يطوفون بينها وبين حميم آن﴾ [الرحمن: 44] قال الواحدي: قال المفسرون: لو وقعت منها نقطة على جبال الدنيا لذابت. ولما ذكر سبحانه شراهم عقبه بنكر طعامهم فقال: ﴿ليس لهم طعام إلا من ضريع﴾ هو: نوع من الشوك يقال له الشبرق في لسان قريش إذا كان رطباً، فإذا يبس فهو الضريع. كذا قال مجاهد، وقاتدة، وغيرهما من المفسرين. قيل: وهو سم قاتل، وإذا يبس لا تقربه دابة ولا ترعاه، وقيل: هو شيء يرمي به البحر يسمى الضريع من أقوات الأنعام، لا من أقوات الناس، فإذا رعت منه الإبل لم تشبع، وهلكت هزالاً. قال الخليل: الضريع نبات أخضر منتن الريح يرمي به البحر. وجمهور أهل اللغة والتفسير قالوا بالأول، ومنه قول أبي نؤيب:

رعى الشريق الرّيان حتى إذا نوى وعاد ضريعاً بأن عنه التحايص
وقال الهنلي ينكر إبلاً، وسوء مرعاها:

وحبس في هرم الضريع وكلها قرناء دامية السيلين جرود
وقال سعيد بن جبير: الضريع الحجارة، وقيل: هو
شجرة في نار جهنم. وقال الحسن: هو بعض ما أخفاه الله
من العذاب. وقال ابن كيسان: هو طعام يضرعون عنده
وينلون، ويتضرعون إلى الله بالخلاص منه، فسمي بذلك؛ لأن
أكله يتضرع إلى الله في أن يعفى عنه لكرهاته وخشونته.
قال النحاس: قد يكون مشتقاً من الضارح وهو اللليل أي:
من شربه يلحقه ضراعة وثلة. وقال الحسن أيضاً: هو
الزقوم، وقيل: هو واد في جهنم، وقد تقدّم في سورة الحاقة:
﴿فليس له اليوم هاهنا حميم * ولا طعام إلا من غسلين﴾
[الحاقة: 35، 36] والغسلين غير الضريع، كما تقدّم، وجمع
بين الآيتين بأن النار دركات، فمنهم من طعامه الضريع،
ومنهم من طعامه الغسلين. ثم وصف سبحانه الضريع فقال:
﴿لا يسمن ولا يغني من جوع﴾ أي: لا يسمن الضريع
أكله، ولا يدفع عنه ما به من الجوع. قال المفسرون: لما
نزلت هذه الآية. قال المشركون: إن إبلاً تسمن من الضريع،
فنزلت: ﴿لا يسمن ولا يغني من جوع﴾ وكتبوا في قولهم
هذا، فإن الإبل لا تاكل الضريع ولا تقر به. وقيل: اشتبه
عليهم أمره، فظنوه كغيره من النبات النافع. ثم شرع
سبحانه في بيان حال أهل الجنة بعد الفراغ من بيان حال
أهل النار فقال: ﴿وجوه يومئذ ناعمة﴾ أي: ذات نعمة
وبهجة، وهي وجوه المؤمنين صارت وجوههم ناعمة لما
شاهدوا من عاقبة أمرهم، وما أعدّه الله لهم من الخير الذي
يفوق الوصف، ومثله قوله: ﴿تعرف في وجوههم نضرة
النعيم﴾ [المطففين: 24] ثم قال: ﴿لسعيا راضية﴾ أي:
لعملها الذي عملته في الدنيا راضية، لأنها قد أعطيت من
الأجر ما أرضاها، وقرّت به عيونها، والمراد بالوجوه هنا
أصحابها، كما تقدّم ﴿في جنة عالية﴾ أي: عالية المكان
مرتفعة على غيرها من الأمكنة، أو عالية القدر؛ لأن فيها ما
تشتهي الأنفس وتلذّ الأعين ﴿لا تسمع فيها لاغية﴾ قرأ
الجمهور (لا تسمع) بفتح الفوقية، ونصب لاغية أي: لا
تسمع أنت أيها المخاطب، أو لا تسمع تلك الوجوه. وقرأ ابن
كثير، وأبو عمرو بالتحتيّة مضمومة مبنياً للمفعول، ورفع
لاغية. وقرأ نافع بالفوقية مضمومة مبنياً للمفعول، ورفع
لاغية. وقرأ الفضل، والجحدري بفتح التحتيّة مبنياً للفاعل
ونصب لاغية، واللغو الكلام الساقط. قال الفراء، والأخفش
أي: لا تسمع فيها كلمة لغو. قيل: المراد بذلك الكذب
والبهتان، والكفر قاله قتادة، وقال مجاهد: أي: الشتم. وقال
الفراء: لا تسمع فيها حالفاً يحلف بكذب. وقال الكلبي: لا
تسمع في الجنة حالفاً بيمين برة ولا فاجرة. وقال الفراء
أيضاً: لا تسمع في كلام أهل الجنة كلمة تلغى؛ لأنهم لا
يتكلمون إلا بالحكمة وحمد الله تعالى على ما رزقهم من
النعيم الدائم، وهذا أرجح الأقوال؛ لأن النكرة في سياق النفي

من صيغ العموم، ولا وجه لتخصيص هذا بنوع من اللغو
خاص إلا بمخصص يصلح للتخصيص، ولاغية إما صفة
موصوف محذوف أي: كلمة لاغية، أو نفس لاغية، أو مصدر
أي: لا تسمع فيها لغواً ﴿فيها عين جارية﴾ قد تقدّم في
سورة الإنسان أن فيها عيوناً، والعين هنا بمعنى العين، كما
في قوله: ﴿علمت نفس﴾ [التكوير: 14] ومعنى جارية أنها
تجري مياهها، وتتدفق بأنواع الأشربة المستلذة. قال الكلبي:
لا أبري بماء أو بغيره ﴿فيها سرور مرفوعة﴾ أي: عالية
مرتفعة السمك، أو عالية القدر ﴿واكواب موضوعة﴾ قد
تقدّم أن الاكواب جمع كواب، وأنه القدر الذي لا عروة له،
ومعنى موضوعة: أنها موضوعة بين أيديهم يشربون منها
﴿ونمارق مصفوفة﴾ النمارق: الوسائد. قال الواحدي: في
قول الجميع، واحتلتها نمرقة يضم النون، وزاد الفراء سماعاً
عن العرب نمرقة بكسرهما. قال الكلبي: وسائد مصفوفة
بعضها إلى بعض، ومنه قول الشاعر:

وإنما لنجري الكاس بين شروبنا وبين أبي قابوس فوق النمارق
وقال الآخر:

كهول وشبان حسان وجوههم على سرر مصفوفة ونمارق
قال في الصحاح: النمرق، والنمرقة وسادة صغيرة،
وكذلك النمرقة بالكسر لغة حكاهما يعقوب ﴿وزرابي﴾
مبثوثة. يعني: البسط، واحداً زربي وزربية. قال أبو
عبيدة، والفراء: الزرابي الطنافس التي لها خمل رقيق،
واحداً زربية، والمبثوثة الميسوطة قاله قتادة. وقال عكرمة:
بعضها فوق بعض. قال الواحدي: ويجوز أن يكون المعنى:
أنها مفرقة في المجالس. وبه قال القتيبي. وقال الفراء: معنى
مبثوثة كثيرة، والظاهر أن معنى البث: التفرّق مع كثرة، ومنه:
﴿وبث فيها من كل دابة﴾ [البقرة: 164] ﴿أفلا ينظرون إلى
الإبل كيف خلقت﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ، والفاء
للطف على مقتر، كما في نظائره مما مرّ غير مرّة، والجملة
مسوقة لتقرير أمر البعث والاستدلال عليه، وكذا ما بعدها،
وكيف منصوبة بما بعدها، والجملة في محل جر على أنها
بدل اشتمال من الإبل، والمعنى: أينكرون أمر البعث،
ويستبعدون وقوعه، أفلا ينظرون إلى الإبل التي هي غالب
مواشيهم، وأكبر ما يشاهدونه من المخلوقات ﴿كيف
خلقت﴾ على ما هي عليه من الخلق البديع من عظم جنتها،
ومزيد قوتها، وبديع أوصافها. قال أبو عمرو بن العلاء: إنما
خصّ الإبل؛ لأنها من نوات الأربع تبرك فتحمل عليها
الحمولة، وغيرها من نوات الأربع لا يحمل عليه إلا وهو
قائم، قال الزجاج: نبههم على عظيم من خلقه قد دلّله
للصغير يقوده، وينيقه، وينهضه، ويحمل عليه الثقل من
الحمل وهو بارك، فينهض بثقل حمله، وليس ذلك في شيء
من الحوامل غيره، فأراهم عظيم من خلقه ليدلّ بذلك على
توحيده. وسئل الحسن عن هذه الآية، وقيل له الفيل أعظم
في الأعجوبة، فقال: أما الفيل فالعرب بعيدة العهد به، ثم هو

عباس قال: الغاشية من أسماء القيامة. وأخرج ابن أبي حاتم عنه **﴿هل أتاك حديث الغاشية﴾** قال: الساعة **﴿وجوه يومئذ خاشعة * عاملة ناصبة﴾** قال: تعمل، وتنصب في النار **﴿تسقى من عين أنية﴾** قال: هي التي قد طال أينها **﴿ليس لهم طعام إلا من ضريع﴾** قال: الشريق. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً **﴿وجوه يومئذ خاشعة * عاملة ناصبة﴾** قال: يعني اليهود والنصارى تخشع، ولا ينفعها عملها **﴿تسقى من عين أنية﴾** قال: قد اني غليانها. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: **﴿تسقى من عين أنية﴾** قال: حارّة، **﴿تسقى من عين أنية﴾** قال: انتهى حرّها **﴿ليس لهم طعام إلا من ضريع﴾** يقول: من شجر من نار. وأخرج عبد بن حميد عنه أيضاً **﴿إلا من ضريع﴾** قال: الشريق اليابس. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً **﴿لا تسمع فيها لأغية﴾** يقول: لا تسمع أذى ولا باطل، وفي قوله: **﴿فيها سرر مرفوعة﴾** قال: بعضها فوق بعض **﴿ونمارق﴾** قال: مجالس. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً **﴿ونمارق﴾** قال: المرافق. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً **﴿لست عليهم بمسيطر﴾** قال: جبار **﴿إلا من تولى وكفر﴾** قال: حسابه على الله. وأخرج أبو داود في ناسخه عنه أيضاً **﴿لست عليهم بمسيطر﴾** ثم نسخ ذلك فقال: **﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾** [التوبة: 5] وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً **﴿إنّ إلينا إيابهم﴾** قال: مرجعهم.

تفسير سورة الفجر

وهي مكية بلا خلاف. وأخرج ابن الضريس، والنحاس في ناسخه، وابن مريويه، والبيهقي من طرق عن ابن عباس قال: نزلت **﴿والفجر﴾** بمكة. وأخرج ابن مريويه عن ابن الزبير، وعائشة مثله. وأخرج النسائي عن جابر قال: «صلى معاذ صلاة، فجاء رجل فصلى معه فطوّل، فصلى في ناحية المسجد، ثم انصرف، فبلغ ذلك معاذاً فقال: منافق، فنكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله جئت أصلي فطوّل علي، فانصرفت فصليت في ناحية المسجد، فعلقت ناضحي، فقال رسول الله ﷺ: اقتان أنت يا معاذ؟ أين أنت من **﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾** [أي: سورة الأعلى]، **﴿والشمس وضحاها﴾** [أي: سورة الشمس] والفجر، **﴿والليل إذا يغشى﴾** [أي: سورة الليل].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْفَجْرِ ① وَبِالْأَنْوَارِ ② وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ③ وَأَوَّلِ إِذَا يَسِرَ ④
هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّئِيَّ حِمِي ⑤ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِمَاءِ ⑥ إِدَمَ
فَاتَّ الْوَمَاءُ ⑦ أَلَيْسَ لَمْ يَخْلَقْ مِثْلَهَا فِي الْيَلَدِ ⑧ وَتَوَدَّ الَّذِينَ جَاءُوا
الْصَّخْرَ يَأْكُلُوا ⑨ وَوَعَدَ ذِي الْأَرْكَانِ ⑩ الَّذِينَ طَعَنُوا فِي الْيَلَدِ ⑪

خنزير لا يركب ظهره، ولا يؤكل لحمه، ولا يحلب دمه، والإبل من أمر مال العرب وأنفسه، تاكل النوى والقت، وتخرج اللبن، ويأخذ الصبي بزمامها، فيذهب بها حيث شاء مع عظمها في نفسها. وقال المبرد: الإبل هنا هي القطع العظيمة من السحاب، وهو خلاف ما ذكره أهل التفسير واللغة. وروي عن الأصمعي أنه قال: من قرأ **﴿خلقت﴾** بالتخفيف عنى به البعير، ومن قرأ بالتشديد عنى به السحاب **﴿والى السماء كيف رفعت﴾** أي: رفعت فوق الأرض بلا عمد على وجه لا يناله الفهم ولا يدركه العقل، وقيل: رفعت فلا ينالها شيء **﴿والى الجبال كيف نصبت﴾** على الأرض مرساة راسخة لا تميد ولا تميل ولا تنزل **﴿والى الأرض كيف سطحت﴾** أي: بسطت، والسطح بسط الشيء، يقال لظهر البيت إذا كان مستوياً: سطح. قرأ الجمهور (سطحت) مبنياً للمفعول مخففاً. وقرأ الحسن: بالتشديد. وقرأ علي بن أبي طالب، وابن السميع، وأبو العالية: خلقت، ورفعت، ونصبت، وسطحت على البناء للفاعل، وضم التاء فيها كلها. ثم أمر سبحانه رسوله ﷺ بالتذكير فقال: **﴿فذكر﴾** والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها أي: فعظم يا محمد، وخوفهم ثم علل الأمر بالتذكير فقال: **﴿إنما أنت مذكر﴾** أي: ليس عليك إلا ذلك، **﴿ولست عليهم بمسيطر﴾** المسيطر والمسيطر بالسين والصاد: المسلط على الشيء ليشرف عليه، ويتعهد أحواله كذا في الصحاح أي: لست عليهم بمسيطر حتى تكرهم على الإيمان، وهذا منسوخ بآية السيف. قرأ الجمهور (بمسيطر) بالصاد، وقرأ هشام، وقنبل في رواية بالسين. وقرأ خلف بإشمام الصاد زائياً. وقرأ هارون الأعور بفتح الطاء اسم مفعول **﴿إلا من تولى وكفر﴾** هذا استثناء منقطع أي: لكن من تولى عن الوعظ والتذكير **﴿فيعذبه الله العذاب الأكبر﴾** وهو عذاب جهنم الدائم. وقيل: هو استثناء متصل من قوله: **﴿فذكر﴾** أي: فذكر كل أحد إلا من انقطع طمعك عن إيمانه، وتولى فاستحق العذاب الأكبر، والأول أولى. وإنما قال: **﴿الأكبر﴾** لأنهم قد عذبوا في الدنيا بالجوع والقحط، والقتل والأسر. وقرأ ابن مسعود (فإنه يعذبه الله) وقرأ ابن عباس، وقتادة (إلا من تولى) على أنها إلا التي للتنبيه والاستفتاح **﴿إنّ إلينا إيابهم﴾** أي: رجوعهم بعد الموت، يقال أب يثوب: إذا رجع، ومنه قول عبيد بن الأبرص:

وكلّ ذي غيبة يتوب وغائب الموت لا يؤوب
قرأ الجمهور (إيابهم) بالتخفيف، وقرأ أبو جعفر، وشيبة بالتشديد. قال أبو حاتم: لا يجوز التشديد ولو جاز لجاز مثله في الصيام والقيام، وقيل: هما لغتان بمعنى. قال الواحدي: وأما (إيابهم) بتشديد الياء، فإنه شاذ لم يجزه أحد غير الزجاج **﴿لهم إنّ علينا حسابهم﴾** يعني: جزاءهم بعد رجوعهم إلى الله بالبعث، وثم للتراخي في الرتبة لبعد منزلة الحساب في الشدة عن منزلة الإياب.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن

يخفاك ما في غالب هذه الأقوال من السقوط البين، والضعف الظاهر، والافتكال في التعيين على مجرد الرأي الزائف، والخطر الخاطي.

والذي ينبغي التعويل عليه، ويتعين المصير إليه ما يدل عليه معنى الشفع والوتر في كلام العرب، وهما معروفان واضحيان، فالشفع عند العرب الزوج، والوتر الفرد. فالمراد بالآية إما نفس العدد، أو ما يصلق عليه من المعدودات بأنه شفع أو وتر. وإذا قام دليل على تعيين شيء من المعدودات في تفسير هذه الآية، فإن كان الدليل يدل على أنه المراد نفسه دون غيره فذاك، وإن كان الدليل يدل على أنه مما تناولته هذه الآية لم يكن ذلك مانعاً من تناولها لغيره. قرأ الجمهور (الوتر) بفتح الواو. وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف بكسرهما، وهي قراءة ابن مسعود وأصحابه، وهما لغتان، والفتح لغة قريش وأهل الحجاز، والكسر لغة تميم. قال الأصمعي: كل فرد وتر، وأهل الحجاز يفتحون فيقولون وتر في الفرد. وحكى يونس عن ابن كثير أنه قرأ بفتح الواو، وكسر التاء، فيحتمل أن تكون لغة ثالثة، ويحتمل أنه نقل كسرة الراء إلى التاء إجراء للوصل مجرى الوقف ﴿والليل إذا يسر﴾ قرأ الجمهور (يسر) بحذف الياء وصلّاً ووفقاً اتباعاً لرسم المصحف. وقرأ نافع، وأبو عمرو بحذفها في الوقف، وإثباتها في الوصل. وقرأ ابن كثير، وابن محيصن، ويعقوب بإثباتها في الوصل والوقف. قال الخليل: تسقط الياء منها موافقة لرؤوس الآي. قال الزجاج: والحذف أحب إليّ لأنها فاصلة، والفواصل تحذف منها الياءات. قال الفراء: قد تحذف العرب الياء وتكتفي بكسر ما قبلها، وأنشد بعضهم:

كفك كَفَ ما تليق برهما جوداً وأخرى تعط بالسيف دما
ما تليق أي: ما تمسك. قال المؤرج: سألت الأخفش عن العلة في إسقاط الياء من يسر فقال: لا أجيبك حتى تبيت على باب داري سنة، فبت على باب داره سنة، فقال: الليل لا يسري، وإنما يسرى فيه، فهو مصروف عن جهته، وكل ما صرفته عن جهته بخسته من إعرابه، ألا ترى إلى قوله: ﴿وما كانت أمك بغياً﴾ [مريم: 28] ولم يقل بغية؛ لأنه صرفها من باغية.

وفي كلام الأخفش هذا نظراً، فإن صرف الشيء عن معناه لسبب من الأسباب لا يستلزم صرف لفظه عن بعض ما يستحقه، ولو صحّ ذلك للزم في كل المجازات العقلية واللفظية، واللازم باطل، فالملزوم مثله، والأصل ههنا إثبات الياء؛ لأنها لام الفعل المضارع المرفوع، ولم تحذف لعله من العلل إلا لاتباع رسم المصحف، وموافقة رؤوس الآي إجراء للفواصل مجرى القوافي: ومعنى ﴿والليل إذا يسر﴾ إذا يمضي، كقوله: ﴿والليل إذا أبر﴾ [المدثر: 33] ﴿والليل إذا عسعس﴾ [التكوير: 17] وقيل: معنى يسر: يسار فيه، كما يقال ليل نائم، ونهار صائم، كما في قول الشاعر:

لقد لمتنا يا أم غيلان في السرى ونمت وما ليل المطي بنائم
وبهذا قال الأخفش، ولقريبه وغيرهما من أهل المعاني،

فَاكْرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٧﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٨﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبَازِلٌ مُرَادٍ ﴿١٩﴾

أقسم سبحانه بهذه الأشياء، كما أقسم بغيرها من مخلوقاته. واختلف في الفجر الذي أقسم الله به هنا ف قيل: هو الوقت المعروف، وسمي فجراً؛ لأنه وقت انفجار الظلمة عن النهار من كل يوم. وقال قتادة: إنه فجر أوّل يوم من شهر محرم، لأن منه تتفجر السنة. وقال مجاهد: يريد يوم النحر. وقال الضحاك: فجر ذي الحجة؛ لأن الله قرن الأيام به فقال: ﴿وليل عشرين﴾ أي ليلي عشرين من ذي الحجة، وبه قال السدي، والكلبي. وقيل المعنى: وصلاة الفجر، أو ربّ الفجر. والأوّل أولى، وجواب هذا القسم وما بعده هو قوله: ﴿إن ربك لبازل مرصاد﴾ كذا قال ابن الأنباري، وقيل: محذوف لدلالة السياق عليه أي: ليجازين كل أحد بما عمل، أو ليعذبن، وقدره أبو حيان بما نلت عليه خاتمة السورة التي قبله أي: والفجر إلخ لإيابهم إلينا، وحسابهم علينا، وهذا ضعيف جداً، وأضعف منه قول من قال: إن الجواب قوله: ﴿هل في ذلك قسم لذي حجر﴾ وإن هل بمعنى قد؛ لأن هذا لا يصح أن يكون مقسماً عليه أبداً ﴿وليل عشرين﴾ هي عشرين من ذي الحجة في قول جمهور المفسرين. وقال الضحاك: إنها الأواخر من رمضان. وقيل: العشر الأوّل من المحرم إلى عاشرها يوم عاشوراء. قرأ الجمهور (ليل) بالتثنية، وعشر صفة لها. وقرأ ابن عباس (وليلي عشرين) بالإضافة، قيل: والمراد ليلي أيام عشرين، وكان حقه على هذا أن يقال عشرة لأن المعدود مذكور. وأجيب عنه بأنه إذا حذف المعدود جاز الوجهان ﴿والشفع والوتر﴾ الشفع والوتر يعمان كل الأشياء شفعها ووترها، وقيل: شفع الليالي ووترها. وقال قتادة: الشفع والوتر شفع الصلاة ووترها، منها شفع، ومنها وتر. وقيل: الشفع يوم عرفة ويوم النحر، والوتر ليلة يوم النحر. وقال مجاهد، وعطية العوفي: الشفع الخلق، والوتر الله الواحد الصمد، وبه قال محمد بن سيرين، ومسروق، وأبو صالح، وقتادة. وقال الربيع بن أنس، وأبو العالية: هي صلاة المغرب فيها ركعتان، والوتر الركعة. وقال الضحاك: الشفع عشرين من ذي الحجة، والوتر أيام منى الثلاثة، وبه قال عطاء. وقيل: هما آدم وحواء؛ لأن آدم كان وترّاً فشفع بحواء. وقيل: الشفع درجات الجنة وهي ثمان، والوتر بركات النار وهي سبع، وبه قال الحسين بن الفضل. وقيل: الشفع للصفاء والمروة، والوتر الكعبة. وقال مقاتل: الشفع الأيام والليالي، والوتر اليوم الذي لا ليلة بعده، وهو يوم القيامة وقال سفيان بن عيينة: الوتر: هو الله سبحانه، وهو الشفع أيضاً لقوله: ﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم﴾ [المجالة: 7] الآية. وقال الحسن: المراد بالشفع والوتر العدد كله؛ لأن العدد لا يخلو عنهما. وقيل: الشفع مسجد مكة والمدينة، والوتر مسجد بيت المقدس. وقيل: الشفع حجج القرآن، والوتر الإفراد. وقيل: لشفع الحيوان لأنه نكر وإنشئ، والوتر الجماد. وقيل: الشفع ما سمي، والوتر ما لا يسمى. ولا

من عاد، وقيل: هما عادان، فالأولى هي إرم، ومنه قول قيس بن الرقيات:

مجداً تليداً ببناءه أو لهم أدرك عاداً وقبيلة إرم
قال معمر: إرم إليه مجتمع عاد وثمود، وكان يقال عاد إرم وعاد ثمود، وكانت القبيلتان تنسب إلى إرم، قال أبو عبيدة: هما عادان، فالأولى إرم. ومعنى ذات العماد: ذات القوة والشدة، مأخوذ من قوة الأعمدة، كذا قال الضحاك. وقال قتادة، ومجاهد: إنهم كانوا أهل عمد سيارة في الربيع، فإذا هاج النبت رجعوا إلى منازلهم. وقال مقاتل: ذات العماد يعني طولهم، كان طول الرجل منهم اثني عشرة ذراعاً ويقال: رجل طويل العماد أي: القامة. قال أبو عبيدة: ذات العماد ذات الطول، يقال رجل معمد إذا كان طويلاً. وقال مجاهد، وقاتدة: أيضاً كان عماداً لقومهم، يقال: فلان عميد القوم وعمودهم أي: سيدهم. وقال ابن زيد: ذات العماد يعني إحكام البنیان بالعمد. قال في الصحاح: والعماد الأبنية الرفيعة تذكر وتؤنث، قال عمرو بن كلثوم:

ونحن إذا عماد الحي خرت على الإخفاض نمنع من يلينا
وقال عكرمة، وسعيد المقبري هي دمشق، ورواه ابن وهب وأشهب عن مالك. وقال محمد بن كعب: هي الإسكندرية ﴿التي لم يخلق مثلها في البلاد﴾ هذه صفة لعاد: أي لم يخلق مثل تلك القبيلة في الطول والشدة والقوة، وهم الذين قالوا: ﴿من أشد منا قوة﴾ [فصلت: 15] أو صفة للقريّة على قول من قال: إن إرم اسم لقريتهم، أو للأرض التي كانوا فيها. والأول أولى، ويدل عليه قراءة أبي: (التي لم يخلق مثلهم في البلاد) وقيل: الإرم الهلاك. قال الضحاك إرم ذات العماد أي: أهلهم فجعلهم رميماً، وبه قال شهر بن حوشب. وقد نكر جماعة من المفسرين أن إرم ذات العماد اسم مدينة مبنية بالذهب والفضة قصورها وبورها، وبساتينها، وإن حصباها جواهر، وترابها مسك، وليس بها أنيس، ولا فيها ساكن من بني آدم، وإنها لا تزال تنتقل من موضع إلى موضع، فتارة تكون باليمن، وتارة تكون بالشام، وتارة تكون بالعراق، وتارة تكون بسائر البلاد، وهذا كذب بحث لا ينفق على من له أننى تميز. وزاد الثعلبي في تفسيره فقال: إن عبد الله بن قلابة في زمان معاوية دخل هذه المدينة، وهذا كذب على كذب، وافترأ على افتراء، وقد أصيب الإسلام، وأهله بدهاية دهياء، وفاقرة عظمى ورزية كبرى من أمثال هؤلاء الكذابين البجاليين الذين يجترئون على الكذب، تارة على بني إسرائيل، وتارة على الأنبياء، وتارة على الصالحين، وتارة على رب العالمين، وتضاعف هذا الشر، وزاد كثرة بتصدر جماعة من الذين لا علم لهم بصحيح الرواية من ضعيفها من موضوعها للتصنيف، والتفسير للكتاب العزيز، فأدخلوا هذه الخرافات المختلفة، والأقاصيص المنحولة، والأساطير المفتعلة في تفسير كتاب الله سبحانه، فحرفوا، وغيروا، وبكروا. ومن أراد أن يقف على

وبالأول قال جمهور المفسرين. وقال قتادة، وأبو العالية: ﴿والليل إذا يسر﴾ أي: جاء، وأقبل. وقال النخعي أي: استوى. قال عكرمة، وقاتدة، والكلبي، ومحمد بن كعب: هي ليلة المزلقة خاصة لاختصاصها باجتماع الناس فيها لطاعة الله سبحانه، وقيل: ليلة القدر لسراية الرحمة فيها. والراجح عدم تخصيص ليلة من الليالي دون أخرى ﴿هل في ذلك قسم لذي حجر﴾ هذا الاستفهام لتقرير تعظيم ما أقسم سبحانه به، وتفخيمه من هذه الأمور المنكورة، والإشارة بقوله: ﴿ذلك﴾ إلى تلك الأمور، والتكثير بتأويل المنكور أي: هل في ذلك المنكور من الأمور التي أقسمنا بها قسم أي: مقسم به حقيق بأن تؤكد به الأخبار ﴿لذي حجر﴾ أي: عقل ولب، فمن كان ذا عقل ولب علم أن ما أقسم الله به من هذه الأشياء حقيق بأن يقسم به، ومثل هذا قوله: ﴿وإنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾ [الواقعة: 76] قال الحسن ﴿لذي حجر﴾ أي: لذي حلم. وقال أبو مالك: لذي ستر من الناس. وقال الجمهور: الحجر العقل. قال الفراء: الكل يرجع إلى معنى واحد، لذي عقل، ولذي حلم، ولذي ستر، الكل بمعنى العقل. وأصل الحجر المنع، يقال لمن ملك نفسه ومنعها: إنه لنو حجر، ومنه سمي الحجر لامتناعه بصلابته، ومنه حجر الحاكم على فلان أي: منعه. قال، والحرب تقول: إنه لنو حجر: إذا كان قاهراً لنفسه ضابطاً لها. ثم نكر سبحانه على طريقة الاستشهاد ما وقع من عذابه على بعض طوائف الكفار بسبب كفرهم، وعنادهم وتكذيبهم للرسول تحذيراً للكفار في عصر نبينا ﷺ وتخويفاً لهم أن يصيبهم ما أصابهم فقال: ﴿الم تر كيف فعل ربك بعاد﴾ * إرم ذات العماد ﴿قرأ الجمهور بتنوين (عاد) على أن يكون إرم عطف بيان لعاد، والمراد بعاد اسم أبيهم، وإرم اسم للقبيلة، أو بدلاً منه، وامتناع صرف إرم للتعريف والتأنيث. وقيل: المراد بعاد أولاد عاد، وهم عاد الأولى، ويقال لمن بعدهم عاد الأخرى، فيكون نكر إرم على طريقة عطف البيان أو البدل، للدلالة على أنهم عاد الأولى لا عاد الأخرى، ولا بد من تقدير مضاف على كلا القولين أي: أهل إرم، أو سبط إرم؟ فإن إرم هو: جد عاد؛ لأنه عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح. وقرأ الحسن، وأبو العالية بإضافة عاد إلى إرم. وقرأ الجمهور (إرم) بكسر الهمزة، وفتح الراء، والميم. وقرأ الحسن، ومجاهد، وقاتدة، والضحاك (إرم) بفتح الهمزة، والراء، وقرأ معاذ بسكون الراء تخفيفاً، وقرئ بإضافة إرم إلى ذات العماد. قال مجاهد: من قرأ بفتح الهمزة شبههم بالإرم التي هي الأعلام وأحدها إرم، وفي الكلام تقديم وتأخير أي: والفجر وكذا، وكذا ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ ألم تر أي: ألم ينته علمك إلى ما فعل ربك بعاد، وهذه الرؤية رؤية القلب، والخطاب للنبي ﷺ، أو لكل من يصلح له، وقد كان أمر عاد وثمود مشهوراً عند العرب؛ لأن نيارهم متصلة بديار العرب، وكانوا يسمعون من أهل الكتاب أمر فرعون. وقال مجاهد أيضاً: إرم أمة من الأمم، وقال قتادة: هي قبيلة

خط الشيء بعضه ببعض، ومنه قول كعب بن زهير:

لكن خلة قد سيط من بها فجع وولع وإخلاف وتبديل
وقال الآخر:

أحارث إنالو تساط لماؤنا تنزايلىن حتى لا يمس دم بما
وقال آخر:

نسطها نميم الرأي غير موفق فلست على تسويتها بمعان
﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ قد قُتِمنا قول من قال إن هذا جواب القسم، والأولى أن الجواب محنوف، وهذه الجملة تعليل لما قبلها، وفيها إرشاد إلى أن كفار قومه ﷺ سيصيبهم ما أصاب أولئك الكفار، ومعنى بالمرصاد: أنه يرصد عمل كل إنسان حتى يجازيه عليه بالخير خيراً، وبالشّر شراً. قال الحسن، وعكرمة أي: عليه طريق العباد لا يفوته أحد، والرصد والمرصاد: الطريق. وقد تقدّم بيانه في سورة براءة، وتقدّم أيضاً عند قوله: ﴿إن جهنم كانت مرصاداً﴾ [النبا: 21].

وقد أخرج القرطبي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله: ﴿والفجر﴾ قال: فجر النهار. وأخرج ابن جرير عنه قال: يعني: صلاة الفجر. وأخرج سعيد بن منصور، والبيهقي في الشعب، وابن عساكر عنه أيضاً في قوله: ﴿والفجر﴾ قال: هو: المحرم فجر السنة، وقد ورد في فضل صوم شهر محرم لحديث صحيحة، ولكنها لا تدل على أنه المراد بالآية لا مطابقة، ولا تضمناً، ولا التزاماً. وأخرج أحمد، والنسائي، والبخاري، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مريويه، والبيهقي في الشعب عن جابر: «أن النبي ﷺ قال: ﴿والفجر وليال عشر﴾ * والشفع والوتر﴾ قال: إن العشر عشر الأضحي، والوتر: يوم عرفة، والشفع: يوم النحر. وفي لفظ: هي ليالي من ذي الحجة». وأخرج عبد بن حميد عن طلحة بن عبد الله أنه نخل على ابن عمر هو وأبو سلمة بن عبد الرحمن: فدعاهم ابن عمر إلى الغداء يوم عرفة، فقال أبو سلمة: أليس هذه الليالي العشر التي نكرها الله في القرآن؟ فقال ابن عمر: وما يدريك؟ قال: ما أشك، قال: بلى، فاشكك. وقد ورد في فضل هذه العشر أحاديث، وليس فيها ما يدل على أنها المرادة بما في القرآن هنا بوجه من الوجوه. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وليال عشر﴾ قال: هي العشر الأواخر من رمضان. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، والترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم وصححه، وابن مريويه عن عمران بن حصين، «أن النبي ﷺ سئل عن الشفع والوتر، فقال: هي الصلاة بعضها شفع، وبعضها وتر». وفي إسناد رجل مجهول، وهو الراوي له عن عمران بن حصين. وقد روي عن عمران بن عصام على عمران بن حصين بإسقاط الرجل المجهول. وقال الترمذي بعد إخراج به بالإسناد الذي فيه الرجل المجهول هو حديث غريب لا

بعض ما نكرنا، فليُنظر في كتابي الذي سميته [الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة]. ثم عطف سبحانه القبيلة الآخرة، وهي: ثمود على قبيلة عاد فقال: ﴿وثمود الذين جابوا الصخر بالواد﴾ وهم: قوم صالح سموا باسم جذهم ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح، ومعنى جابوا الصخر قطعوه، والجوب القطع، ومنه جاب البلاد: إذا قطعها، ومنه سمي جيب القميص؛ لأنه جيب أي: قطع. قال المفسرون: أول من نحت الجبال والصخور ثمود، فبنوا من المدائن ألفاً وسبعمائة مدينة كلها من الحجارة، ومنه قوله سبحانه: ﴿وتنحتون من الجبال بيوتاً آمناً﴾ [الحجر: 82] وكانوا ينجسون الجبال وينقبونها ويجعلون تلك الأنقاب بيوتاً يسكنون فيها، وقوله: ﴿بالواد﴾ متعلق بجابوا، أو بمحنوف على أنه حال من الصخر، وهو وادي القرى. قرأ الجمهور (ثمود) بمنع الصرف على أنه اسم للقبيلة، ففيه التانيث والتعريف. وقرأ يحيى بن وثاب بالصرف على أنه اسم لأبيها. وقرأ الجمهور أيضاً بالواد بحذف الياء وصلأ، ووفقاً اتباعاً لرسم المصحف. وقرأ ابن كثير بإثباتها فيهما. وقرأ قنبل في رواية عنه بإثباتها في الوصل دون الوقف ﴿وفرعون ذي الأوتاد﴾ أي: نو الجنود الذين لهم خيام كثيرة يشنونها بالأوتاد، أو جعل الجنود أنفسهم أوتاداً لأنهم يشنون الملك، كما تشد الأوتاد الخيام، وقيل: كان له أوتاد يعذب الناس بها ويشدهم إليها. وقد تقدّم بيان هذا في سورة ص ﴿الذين طغوا في البلاد﴾ الموصول صفة لعاد وثمود وفرعون أي: طغت كل طائفة منهم في بلادهم، وتمزجت، وعنت، والطغيان مجاوزة الحد ﴿فاكثروا فيها للفساد﴾ بالكفر، ومعاصي الله، والجور على عباده، ويجوز أن يكون الموصول في محل رفع على أنه خبر مبتدأ محنوف أي: هم الذين طغوا، أو في محل نصب على الذم ﴿فصَبَّ عليهم ربك سوط عذاب﴾ أي: أفرغ عليهم وألقى على تلك الطوائف سوط عذاب، وهو ما عذبهم به. قال الزجاج: جعل صوته الذي ضربهم به العذاب، يقال: صبَّ على فلان خلعة أي: ألغاهما عليه، ومنه قول النابغة:

فصَبَّ عليه الله أحسن صبغة وكان له بين البرية ناصر
ومنه قول الآخر:

ألم تر أن الله أظهر دينه وصَبَّ على الكفار سوط عذاب
ومعنى سوط عذاب: نصيب عذاب، ونكر السوط إشارة إلى أن ما أحله بهم في الدنيا من العذاب العظيم هو بالنسبة إلى ما أعدّه لهم في الآخرة كالسوط إذا قيس إلى سائر ما يعذب به. وقيل: نكر السوط للدلالة على شدة ما نزل بهم، وكان السوط عندهم هو نهاية ما يعذب به. قال الفراء: هي كلمة تقولها العرب لكل نوع من أنواع العذاب، وأصل ذلك أن السوط هو عذابهم الذي يعذبون به، فجرى لكل عذاب إذا كان فيه عندهم غاية العذاب. وقيل معناه: عذاب يخالط اللحم والدم، من قولهم ساطه يسوطه سوطاً أي: خلطه، فالسوط

الأملة، وجسر عليه الرحم، وجسر عليه الرب عز وجل.

فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿٥٦﴾
وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿٥٧﴾ كَلَّا بَلْ لَا
تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿٥٨﴾ وَلَا تَعْصِمُونَ عَلَى عَهْدِ الْوَسِيِّينَ ﴿٥٩﴾ وَتَأْكُلُونَ
الْأَرْثَ أَكْثَرًا لِّمَا ﴿٦٠﴾ وَتُخْسِرُونَ أَلَا لَيْسَ حُبًّا جَمًّا ﴿٦١﴾ كَلَّا إِذَا دُكِّيَ
الْأُذُنُ دُكًّا دَكًّا ﴿٦٢﴾ وَجَاءَ رُبُّكَ وَالْجَلَّالُ صَفًا صَفًّا ﴿٦٣﴾ وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ
يَوْمَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَنْذِكُرُ الْإِنْسَانَ وَأَنَّ لَهُ الْذُكْرَى ﴿٦٤﴾ يَقُولُ يَلَيِّنَنَّ
فَتَنَّتْ لِحَافِي ﴿٦٥﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُدْرِي عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴿٦٦﴾ وَلَا يُؤْنَسُ وَفَأَنَّهُ أَحَدٌ
يَتَأْتِيهَا الْقَتْلُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٦٧﴾ أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاغِبَةً مُّهَيَّئَةً ﴿٦٨﴾ فَأَذِلُّ
فِي عَذَابِي ﴿٦٩﴾ وَأَذِلُّ جَنِّي ﴿٧٠﴾

لما ذكر سبحانه أنه بالمرصاد ذكر ما يدل على اختلاف أحوال عباد الله عند إصابة الخير، وعند إصابة الشر، وإن مطمح انتظارهم، ومعظم مقاصدهم هو الدنيا فقال: ﴿فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه﴾ أي: امتحنه، واختبره بالنعم ﴿فأكرمه ونعمه﴾ أي: أكرمه بالمال، ووسع عليه رزقه ﴿فيقول ربي أكرمن﴾ فرحاً بما نال وسروراً بما أعطي، غير شاكر لله على ذلك، ولا خاطر ببالة أن ذلك امتحان له من ربه، واختبار لحاله وكشف لما يشتمل عليه من الصبر والجزع، والشكر للنعمة وكفرانها، و «ما» في قوله: ﴿إذا ما﴾ زائدة، وقوله: ﴿فأكرمه ونعمه﴾ تفسير لابتناء ومعنى: ﴿أكرمن﴾ أي: فضلني بما أعطاني من المال، وأسبغ علي من النعم لمزيد استحقاقي لذلك، وكوني موضعاً له، والإنسان مبتدأ وخبره: ﴿فيقول ربي أكرمن﴾ وبخلت الفاء فيه لتضمن أما معنى الشرط، والظرف المتوسط بين المبتدأ والخبر، وإن تقدم لفظاً فهو مؤخر في المعنى أي: فأما الإنسان فيقول ربي أكرمني وقت ابتلائه بالإنعام. قال الكلبي: الإنسان هو الكافر أبي بن خلف. وقال مقاتل: نزلت في أمية بن خلف، وقيل: نزلت في عتبة بن ربيعة، وأبي حنيفة بن المغيرة ﴿وأما إذا ما ابتلاه﴾ أي: اختبره، وعامله معاملة من يختبره ﴿فقدّر عليه رزقه﴾ أي: ضيقه، ولم يوسع له، ولا بسط له فيه ﴿فيقول ربي أهانن﴾ أي: أولاني هواناً، وهذه صفة الكافر الذي لا يؤمن بالبعث: لأنه لا كرامة عنده إلا الدنيا والتوسع في متاعها، ولا إمانة عنده إلا قوتها، وعدم وصوله إلى ما يريد من زينتها، فأما المؤمن، فالكرامة عنده أن يكرمه الله بطاعته، ويوفقه لعمل الآخرة، ويحتمل أن يراد الإنسان على العموم لعدم تيقظه أن ما صار إليه من الخير، وما أصيب به من الشر في الدنيا ليس إلا للاختبار والامتحان، وإن الدنيا بأسرها لا تعدل عند الله جناح بعوضة، ولو كانت تعدل جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء. قرأ نافع بإثبات الياء في (أكرمن وأهانن) وصلأ وحذفهما وقفأ، وقرأ ابن كثير في رواية البزي عنه، وابن محيصن، ويعقوب بإثباتهما وصلأ، وقفأ، وقرأ الباقون بحذفهما في الوصل،

نعرفه إلا من حديث قتادة، قال ابن كثير: وعندي أن وقفه على عمران بن حصين أشبه، والله أعلم. قال: ولم يجزم ابن جرير بشيء من هذه الأقوال في الشفع والوتر. وقد أخرج هذا الحديث موقوفاً على عمران بن حصين عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، فهذا يقوي ما قاله ابن كثير. وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس في قوله: ﴿والشفع والوتر﴾ فقال: كل شيء شفع، فهو اثنان، والوتر واحد. وأخرج الطبراني، وابن مريويه، قال السيوطي: بسند ضعيف عن أبي أيوب عن النبي ﷺ: «أنه سئل عن الشفع والوتر فقال: يومان وليلة، يوم عرفة، ويوم النحر، والوتر ليلة النحر ليلة جمع». وأخرج ابن جرير عن جابر أن رسول الله ﷺ قال: «الشفع يومان، والوتر اليوم الثالث». وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن سعد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عبد الله بن الزبير أنه سئل عن الشفع والوتر فقال: الشفع قول الله: ﴿فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه﴾ [البقرة: 203] والوتر اليوم الثالث. وفي لفظ: الوتر أوسط أيام التشريق. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، والبيهقي في الشعب من طرق عن ابن عباس قال: الشفع يوم النحر، والوتر يوم عرفة. وأخرج ابن جرير عنه ﴿والليل إذا يسر﴾ قال: إذا ذهب. وأخرج ابن المنذر عن ابن مسعود أنه قرأ: ﴿والفجر﴾ إلى قوله: ﴿إذا يسر﴾ قال: هذا قسم على إن ربك بالمرصاد. وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الشعب من طرق عن ابن عباس في قوله: ﴿قسم لذي حجر﴾ قال: لذي حجر وعقل ونهي. وأخرج ابن جرير عنه في قوله: ﴿بهاد إرم﴾ قال: يعني: بالإرم الهالك، ألا ترى أنك تقول إرم بنو فلان ﴿ذات العماد﴾ يعني: طولهم مثل العماد. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مريويه عن المقدم بن معدي كرب عن النبي ﷺ أنه ذكر ﴿إرم ذات العماد﴾ فقال: كان الرجل منهم يأتي إلى الصخرة، فيحملها على كامله، فيلقها على أي حي أراد فيهلكهم، وفي إسناد رجل مجهول: لأن معاوية بن صالح رواه عن حنث عن المقدم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿جلبوا الصخر بالواد﴾ قال: خرقوها. وأخرج ابن جرير عنه في الآية قال: كانوا ينحتون من الجبال بيوتاً ﴿وفرعون ذي الأوتاد﴾ قال: الأوتاد: الجنود الذين يشنون له أمره. وأخرج الحاكم وصححه عن ابن مسعود في قوله: ﴿ذي الأوتاد﴾ قال: وقد فرعون لامراته أربعة أوتاد، ثم جعل على ظهرها رحي عظيمة حتى ماتت. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن ابن عباس في قوله: ﴿إن ربك بالمرصاد﴾ قال: يسمع ويرى. وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن مسعود في قوله: ﴿إن ربك بالمرصاد﴾ قال: من وراء الصراط جسور: جسر عليه

ملومة، وللاكل يلمّ الثريد، فيجمعه، ثم يأكله، وقال مجاهد: يسفه سفاً. وقال ابن زيد: هو إذا أكل ماله ألمً بمال غيره، فأكله، ولا يفكر فيما أكل من خبيث وطيب ﴿وتحيون للمال حبا جماعاً﴾ أي: حباً كثيراً؛ والجمّ الكثير، يقال جمّ الماء في الحوض: إذا كثر واجتمع، والجمّة: المكان الذي يجتمع فيه الماء. ثم كَرَّرَ سبحانه الردع لهم والزجر فقال: ﴿كلا﴾ أي: ما هكذا ينبغي أن يكون عملكم، ثم استأنف سبحانه فقال: ﴿إذا دكت الأرض نكاً دكاً﴾ وفيه وعيد لهم بعد الردع والزجر، والدك: الكسر والدق، والمعنى هنا: أنها زلزلت، وحركت تحريكاً بعد تحريك، قال ابن قتيبة: دكت جبالها حتى استوت. قال الزجاج: أي: تزلزلت، فدكت بعضها بعضاً. قال المبرد: أي: بسطت، وذهب ارتفاعها. قال والدك: حط المرتفع باليسط، وقد تقدّم الكلام على ذلك في سورة الاعراف، وفي سورة الحاقة، والمعنى: أنها دكت مرة بعد أخرى، وانتصاب نكاً الأول على أنه مصدر مؤكد للفعل، وبكأ الثاني تأكيد للأول، كذا قال ابن عصفور. ويجوز أن يكون النصب على الحال أي: حال كونها منكوكّة مرة بعد مرة، كما يقال: علمته الحساب باباً باباً، وعلمته الخط حرفاً حرفاً، والمعنى: أنه كَرَّرَ ذلك عليها حتى صارت هباء منبثاً ﴿وجاء ربك﴾ أي: جاء أمره وقضاؤه، وظهرت آياته، وقيل المعنى: أنها زالت الشبه في ذلك اليوم، وظهرت المعارف، وصارت ضرورية، كما يزول الشكّ عند مجيء الشيء الذي كان يشكّ فيه، وقيل: جاء قهر ربك وسلطانه، وانفراده بالامر، والتبشير من دون أن يجعل إلى أحد من عباده شيئاً من ذلك ﴿والملك صفاً صفاً﴾ انتصاب صفأ صفأ على الحال: أي: مصطفىين، أو نوي صفوف. قال عطاء: يريد صفوف الملائكة، وأهل كلّ سماء صفّ على حدة. قال الضحاك: أهل كلّ سماء إذا نزلوا يوم القيامة كانوا صفأ صفأ محيطين بالأرض ومن فيها، فيكونون سبعة صفوف ﴿وجيء يومئذ بجهنم﴾ يومئذ منصوب بجيء، والقائم مقام الفاعل بجهنم، وجوّز مكّي أن يكون يومئذ هو القائم مقام الفاعل، وليس بذلك. قال الوليدي: قال جماعة من المفسرين: جيء بها يوم القيامة مزمومة بسبعين ألف زمام مع كلّ زمام سبعون ألف ملك يجزونها حتى تنصب عن يسار العرش، فلا يبقى ملك مقرب، ولا نبي مرسل إلا جثا لركبتيه يقول: يا ربّ نفسي نفسي. وسياي الذي هذا نقله عن جماعة المفسرين مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ إن شاء الله ﴿يومئذ يتذكر الإنسان﴾ يومئذ هذا بدل من يومئذ الذي قبله أي: يوم جيء بجهنم يتذكر الإنسان أي: يتعظ، ويتكر ما فرط منه، ويندم على ما قدّمه في الدنيا من الكفر والمعاصي. وقيل: إن قوله: ﴿يومئذ﴾ الثاني بدل من قوله: ﴿إذا دكت﴾ والعامل فيهما هو قوله: ﴿يتذكر الإنسان وإنسى له الذكرى﴾ أي: ومن أين له التذكر والاعتاظ، وقيل: هو على حذف مضاف أي: ومن أين له منفعة الذكرى. قال الزجاج: يظهر التوبة، ومن أين له التوبة؟ ﴿يقول يا ليتني قدّمت لحياتي﴾ الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر، كأنه

والوقف اتباعاً لرسم المصحف، ولموافقة رؤوس الآي، والأصل إثباتها؛ لأنها اسم، ومن الحذف قول الشاعر:

ومن كاشح ظاهر غمره إذا ما انتصبت له إنكرن
أي: إنكرني. وقرأ الجمهور (فقدّر) بالتخفيف، وقرأ ابن عامر بالتشديد، وهما لغتان. وقرأ الحرميان، وأبو عمرو: ربي بفتح الياء في الموضعين وأسكنها الباقون. وقوله: ﴿كلا﴾ ردع للإنسان القائل في الحالتين ما قال وزجر له، فإن الله سبحانه قد يوسع الرزق، ويبسط النعم للإنسان لا لكرامته، ويضيقه عليه لا لإهانته، بل للاختبار والامتحان، كما تقدّم. قال للفراء: كلا في هذا الموضع بمعنى أنه لم يكن ينبغي للعبد أن يكون هكذا، ولكن يحمد الله على الغنى والفقر. ثم انتقل سبحانه من بيان سوء أحوال الإنسان إلى بيان سوء أفعاله فقال: ﴿بل لا تكرمون اليقيم﴾ والالتفات إلى الخطاب لقصد التوبيخ، والتفريع على قراءة الجمهور بالفوقية. وقرأ أبو عمرو، ويعقوب بالتحنية على الخبر، وهكذا اختلفوا فيما بعد هذا من الأفعال، فقرأ الجمهور (تحضون وتلكون) وتحبون) بالفوقية على الخطاب فيها. وقرأ أبو عمرو، ويعقوب بالتحنية فيها، والجمع في هذه الأفعال باعتبار معنى الإنسان؛ لأن المراد به الجنس أي: بل لكم أفعال هي أقبح مما نكر، وهي أنكم تتركون إكرام اليقيم، فتلكون ماله، وتمنعونه من فضل أموالكم. قال مقاتل: نزلت في قدامة بن مظعون، وكان يتيماً في حجر أمية بن خلف ﴿ولا تحضون على طعام المسكين﴾ قرأ الجمهور: (تحضون) من حضه على كذا أي: أغراه به، ومفعوله محذوف أي: لا تحضون أنفسكم، أو لا يحضّ بعضكم بعضاً على ذلك، ولا يأمر به، ولا يرشد إليه، وقرأ الكوفيون تحاضون بفتح التاء والحاء بعدها ألف، وأصله تتحاضون، فحذف إحدى التاءين أي: لا يحضّ بعضكم بعضاً. وقرأ الكسائي في رواية عنه والسلمي (تحاضون) بضم التاء من الحضّ، وهو الحث، وقوله: ﴿على طعام المسكين﴾ متعلق بتحضون، وهو إما اسم مصدر أي: على إطعام المسكين، أو اسم للمطعم، ويكون على حذف مضاف أي: على بذل طعام المسكين، أو على إعطاء طعام المسكين ﴿وتأكلون التراث﴾ أصله التراث، فابندلت التاء من الواو المضمومة، كما في تجاه، ووجه، والمراد به أموال اليتامى الذين يرثونه من قراباتهم، وكذلك أموال النساء، وذلك أنهم كانوا لا يورثون النساء والصبيان، ويأكلون أموالهم ﴿أكلا لماً﴾ أي: أكلاً شديداً، وقيل: معنى لماً جمعاً، من قولهم: لمت الطعام: إذا أكلته جميعاً. قال الحسن: يأكل نصيبه ونصيب اليتيم، وكذا قال أبو عبيدة. وأصل اللّم في كلام العرب: الجمع، يقال لمت الشيء أله لماً: جمعته، ومنه قولهم: لمّ الله شعثه أي: جمع ما تفرّق من أموره، ومنه قول النابغة:

ولست بمستبق لخا لا تلمه على شعث أي الرجال المهذب
قال الليث: اللّم الجمع الشديد، ومنه حجر ملموم، وكتيبة

كل نفس مطمئنة على العموم، ولا ينافي ذلك نزولها في نفس معينة، فالاعتبار بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿إِذَا بُعْثَ الْوَسْطَى﴾ قال: سقاء، وفي قوله: ﴿حَبَاباً جَمَافاً﴾ قال: شديداً، وأخرج ابن جرير عنه قوله: ﴿إِذَا بُعْثَ الْوَسْطَى﴾ قال: شديداً، وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿إِذَا بُعْثَ الْوَسْطَى﴾ قال: تحريكها. وأخرج مسلم، والترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤْتَى بِهِمْ يَوْمَئِذٍ سَبْعُونَ أَلْفَ جَرِيرٍ، وَأَخْرَجَ ابْنَ جَرِيرٍ، وَأَبْنُ الْمَنْزَرِ، وَأَبْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ يَقُولُ: وَكَيْفَ لَهُ؟ وَأَخْرَجَ ابْنَ أَبِي حَاتِمٍ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ﴾ الْآيَةَ قَالَ: لَا يُعَذِّبُ بِعَذَابِ اللَّهِ أَحَدٌ، وَلَا يُؤْتَى بِوَثَاقِ اللَّهِ أَحَدٌ. وَأَخْرَجَ ابْنَ أَبِي حَاتِمٍ، وَابْنَ مُرْدَوَيْهِ، وَالضَّيَّاءُ فِي الْمُخْتَارَةِ عَنْهُ أَيْضاً فِي قَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمَطْمَئِنَّةُ﴾ قَالَ: الْمُؤْمِنَةُ ﴿أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ يَقُولُ: إِلَىٰ جِسْمِكَ. قَالَ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، وَأَبُو بَكْرٍ جَالِسٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَحْسَنَ هَذَا، فَقَالَ: أَمَا إِنَّهُ سَيَقَالُ لَكَ هَذَا. وَأَخْرَجَ عَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ، وَابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَابْنُ مُرْدَوَيْهِ، وَأَبُو نَعِيمٍ فِي الْحَلِيقَةِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ نَحْوَهُ مُرْسَلًا. وَأَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ فِي نَوَائِدِ الْأَصُولِ نَحْوَهُ عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصَّنِيقِ، وَأَخْرَجَ ابْنُ مُرْدَوَيْهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمَطْمَئِنَّةُ﴾ قَالَ: هُوَ النَّبِيُّ ﷺ. وَأَخْرَجَ ابْنَ جَرِيرٍ، وَابْنَ الْمَنْزَرِ عَنْهُ قَالَ: ﴿النَّفْسُ الْمَطْمَئِنَّةُ﴾ الْمَصْنُوعَةُ. وَأَخْرَجَ ابْنَ جَرِيرٍ عَنْهُ أَيْضاً فِي الْآيَةِ قَالَ: تَرَى الْأَرْوَاحَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الْأَجْسَادِ. وَأَخْرَجَ ابْنَ أَبِي حَاتِمٍ عَنْهُ أَيْضاً فِي قَوْلِهِ: ﴿أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً﴾ قَالَ: بِمَا أُعْطِيتَ مِنَ الثَّوَابِ ﴿مَرْضِيَةً﴾ عَنْهَا يَعْمَلُهَا ﴿فَانْخَلِي فِي عِبَادِي﴾ لِلْمُؤْمِنِينَ. وَأَخْرَجَ ابْنَ أَبِي حَاتِمٍ، وَالطَّبْرَانِيُّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ قَالَ: مَاتَ ابْنُ عَبَّاسٍ بِالطَّائِفِ، فَجَاءَ طَيْرٌ لَمْ يَرِ عَلَى خَلْقِهِ، فَخَلَّ نَعْشَهُ، ثُمَّ لَمْ يَرِ خَارِجاً مِنْهُ، فَلَمَّا دَفِنَ تَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةَ عَلَى شَفِيرِ الْقَبْرِ لَا نَدْرِي مِنْ تَلَاهَا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمَطْمَئِنَّةُ * أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَرْضِيَةً * فَانْخَلِي فِي عِبَادِي * وَانْخَلِي جَنَّتِي﴾. وَأَخْرَجَ أَبُو نَعِيمٍ فِي الدَّلَائِلِ عَنْ عِكْرَمَةَ مِثْلَهُ.

تفسير سورة البلد

وهي مكية بلا خلاف. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمَطْمَئِنَّةُ﴾ [أي: سورة البلد] بمكة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله.

قيل: ماذا يقول الإنسان، ويجوز أن تكون بدل اشتغال من قوله: يتذكر، والمعنى: يتمنى أنه قَدَّمَ الخير، والعمل الصالح، واللام في حياتي بمعنى لأجل حياتي، والمراد حياة الآخرة، فإنها الحياة بالحقيقة؛ لأنها دائمة غير منقطعة. وقيل: إن اللام بمعنى في، والمراد حياة الدنيا: أي: يا ليتني قَدَّمْتُ الأعمال الصالحة في وقت حياتي في الدنيا انتفع بها هذا اليوم، والأول أولى. قال الحسن: علم والله أنه صائب حياة طويلة لا موت فيها ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ﴾ أي: يوم يكون زمان ما نكر من الأحوال لا يعذب كعذاب الله أحد ﴿وَلَا يُؤْتِقُ أَحَدٌ﴾ كـ ﴿وَوَاقَهُ أَحَدٌ﴾ أو لا يتولى عذاب الله ووثاقه أحد سواء إذ الأمر كله له، والضميران على التقديرين في عذابه ووثاقه لله عز وجل، وهذا على قراءة الجمهور يعذب، ويوثق مبنين للفاعل. وقرأ الكسائي على البناء للمفعول فيها، فيكون للضميران راجعين إلى الإنسان أي: لا يعذب كعذاب ذلك الإنسان أحد، ولا يوثق كوثاقه أحد، والمراد بالإنسان الكافر أي: لا يعذب من ليس بكافر كعذاب الكافر، وقيل: إبليس، وقيل: المراد به أبي بن خلف. قال الفرّاء: المعنى أنه لا يعذب كعذاب هذا الكافر المعين أحد، ولا يوثق بالسلاسل والأغلال كوثاقه أحد لتناهيه في الكفر والعناد. وقيل المعنى: أنه لا يعذب مكانه أحد، ولا يوثق مكانه أحد، فلا تؤخذ منه فدية، وهو كقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: 164] والعذاب بمعنى التعذيب، والوثاق بمعنى التوثيق، واختار أبو عبيد، وأبو حاتم قراءة الكسائي، قال: وتكون الهاء في الموضعين ضمير الكافر؛ لأنه معروف أنه لا يعذب أحد كعذاب الله. قال أبو علي الفارسي: يجوز أن يكون الضمير للكافر على قراءة الجماعة: أي لا يعذب أحد أحداً مثل تعذيب هذا الكافر. ولما فرغ سبحانه من حكاية أحوال الأشقياء نكر بعض أحوال السعداء فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمَطْمَئِنَّةُ﴾ المطمئنة هي الساكنة الموقنة بالإيمان وتوحيد الله، الواصلة إلى تلج اليقين بحيث لا يخالطها شك، ولا يعتريها ريب. قال الحسن: هي المؤمنة الموقنة. وقال مجاهد: الراضية بقضاء الله التي علمت أن ما أخطأها لم يكن ليصيبها، وأن ما أصابها لم يكن ليخطئها. وقال مقاتل هي الأمانة المطمئنة. وقال ابن كيسان: المطمئنة بنكر الله، وقيل: المخلصة. قال ابن زيد: المطمئنة؛ لأنها بشرت بالجنة عند الموت وعند البعث ﴿أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: أرجعي إلى الله ﴿رَاضِيَةً﴾ بالثواب الذي أعطاك ﴿مَرْضِيَةً﴾ عنده، وقيل: أرجعي إلى مواعده، وقيل: إلى أمره. وقال عكرمة، وعطاء: معنى ﴿أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ إلى جسدك الذي كنت فيه، واختاره ابن جرير، ويدل على هذا قراءة ابن عباس: ﴿فَانْخَلِي فِي عِبَادِي﴾ بالإفراد، والأول أولى ﴿فَانْخَلِي فِي عِبَادِي﴾ أي: في زمرة عبادي الصالحين، وكوني من جملتهم، وانتظمي في سلوكهم ﴿وَانْخَلِي جَنَّتِي﴾ معهم قيل: إنه يقال لها أرجعي إلى ربك عند خروجها من الدنيا، ويقال لها: انخلي في عبادي، وانخلي جنتي يوم القيامة، والمراد بالآية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ❶ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ❷ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ❸
لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ❹ أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ❺ يَقُولُ
أَهْلَكَتْ مَا لَمْ يَلِدْ ❻ أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرِهِ أَحَدٌ ❼ أَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ❽
وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ❾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ❿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ❶⓪ وَمَا
أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ❶❶ فَكَيْ رَجَعْتَ ❶❷ أَوْ يَلْمَنَ فِي يَوْمٍ مَسْفُورٍ ❶❸
يَمِينًا دَا مَرَبٍ ❶❹ أَوْ مَشِيكًا دَا مَرَبٍ ❶❺ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا
وَوَاصُوا بِوَصْفِهِ وَفَاوَصَوْا بِالْأَعْمَى ❶❻ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْآيَةِ ❶⓫ وَالَّذِينَ كَفَرُوا
يَكُونُوا لَهُمْ عَصَابٌ ❶⓬ الْمَشَقَّةُ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُوقَدَةٌ ❶⓭

قوله: ﴿لَا أقسم﴾ لا زائدة، والمعنى أقسم ﴿بهذا البلد﴾ وقد تقدم الكلام على هذا في تفسير - ﴿لَا أقسم بيوم للقيامة﴾ - [القيامة: 1] ومن زيادة «لا» في الكلام في غير القسم قول الشاعر:

تذكرت ليلي فاعترتني صباية وكاد صميم القلب لا يتصدع

أي: يتصدع، ومن ذلك قوله: ﴿ما منعك أن لا تسجد﴾ [الأعراف: 12] أي: أن تسجد. قال الواحدي: أجمع المفسرون على أن هذا قسم بالبلد الحرام وهو مكة. قرأ الجمهور (لا أقسم) وقرأ الحسن، والأعمش: (لا أقسم) من غير ألف، وقيل: هو نفي للقسم، والمعنى: لا أقسم بهذا البلد إذا لم تكن فيه بعد خروجك منه. وقال مجاهد: إن ﴿لا﴾ رد على من أنكر البعث، ثم ابتدأ، فقال أقسم، والمعنى: ليس الأمر كما تحسبون، والأول أولى. والمعنى: أقسم بالبلد الحرام الذي أنت حل فيه. وقال الواحدي: إن المراد بالبلد المدينة، وهو مع كونه خلاف إجماع المفسرين هو أيضاً مدفوع لكون السورة مكية لا مدنية، وجمله قوله: ﴿وأنت حل بهذا البلد﴾ معترضة، والمعنى: أقسم بهذا البلد ﴿ووالد وما ولد﴾ * لقد خلقنا الإنسان في كبدٍ واعترض بينهما بهذه الجملة، والمعنى: ومن المكابد أن مثلك علي عظيم حرمة يستحل بهذا البلد، كما يستحل الصيد في غير الحرم. وقال الواحدي: الحل والحلال والمحل واحد، وهو ضد المحرم، أحل الله لنبيه ﷺ مكة يوم الفتح حتى قاتل، وقد قال ﷺ: «لم تحل لأحد قبلي، ولا تحل لأحد بعدي، ولم تحل لي إلا ساعة من نهار» قال: والمعنى أن الله لما ذكر القسم بمكة دل ذلك على عظم قدرها مع كونها حراماً، فوعد نبيه ﷺ أن يحلها له حتى يقاتل فيها ويفتحها على يده، فهذا وعد من الله تعالى بأن يحلها له حتى يكون بها حلاً. انتهى. فالمعنى: وأنت حل بهذا البلد في المستقبل، كما في قوله: ﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾ [الزمر: 30] قال مجاهد: المعنى ما صنعت فيه من شيء فانت حل. قال قتادة أنت حل به لست بأنك يعني: أنك غير مرتكب في هذا البلد ما يحرم عليك ارتكابه، لا كالمشركين الذين يرتكبون فيه الكفر والمعاصي. وقيل المعنى: لا أقسم

بهذا البلد وأنت حل به، ومقيم فيه، وهو محلك، فعلى القول بأن لا نافية غير زائدة يكون المعنى: لا أقسم به وأنت حل به، فانت حلٌّ بالإقسام بك، وعلى القول بأنها زائدة يكون المعنى: أقسم بهذا البلد الذي أنت مقيم به تشريفاً لك وتعظيماً لقدرك؛ لأنه قد صار بإقامتك فيه عظيماً شريفاً، وزاد على ما كان عليه من الشرف والعظم، ولكن هذا إذا تقرّر في لغة العرب أن لفظ حلّ يجيء بمعنى حال، وكما يجوز أن تكون الجملة معترضة يجوز أن تكون في محل نصب على الحال ﴿ووالد وما ولد﴾ عطف على البلد. قال قتادة، ومجاهد، والضحاك، والحسن، وأبو صالح، ﴿ووالد﴾ أي: أم ﴿وما ولد﴾ أي: وما تناسل من ولده أقسم بهم؛ لأنهم أعجب ما خلق الله على وجه الأرض لما فيهم من البيان والعقل والتبدير، وفيهم الأنبياء والعلماء والصالحون. وقال أبو عمران الجوني: الوالد إبراهيم، وما ولد: نريته. قال الفراء: إن: «ما» عبارة عن الناس كقوله: ﴿ما طاب لكم﴾ [النساء: 3] وقيل: الوالد إبراهيم، والولد إسماعيل، ومحمد ﷺ. وقال عكرمة، وسعيد بن جبير: ﴿ووالد﴾ يعني: الذي يولد له ﴿وما ولد﴾ يعني: العاقر الذي لا يولد له، وكأنهما جعلاً ما نافية، وهو بعيد، ولا يصح ذلك إلا بإضمار الموصول أي: ووالد والذي ما ولد، ولا يجوز إضمار الموصول عند البصريين، وقال عطية العوفي: هو عام في كل والد ومولود من جميع الحيوانات، واختار هذا ابن جرير ﴿لقد خلقنا الإنسان في كبد﴾ هذا جواب القسم، والإنسان هو هذا النوع الإنساني، والكبد: الشدة والمشقة، يقال كابدت الأمر: قاسيت شتته، والإنسان لا يزال في مكابدة الدنيا ومقاساة شدائدتها حتى يموت، وأصل الكبد الشدة، ومنه تكبد اللبن: إذا غلظ واشتد، ويقال كبد الرجل: إذا وجعت كبده، ثم استعمل في كل شدة ومشقة، ومنه قول أبي الأصبغ:

لي ابن عم لو أن الناس في كبد لظن محتجراً بالنبل يرميني
قال الحسن: يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة. وقال أيضاً: يكابد الشكر على السراء، ويكابد الصبر على الضراء، لا يخلو عن أحدهما. قال الكلبي: نزلت هذه الآية في رجل من بني جمح يقال له أبو الأشدين، وكان يأخذ الأديم العكاظي ويجعله تحت رجله ويقول: من أزالني عنه فله كذا، فيجلبه عشرة حتى يتمزق، ولا تزال قدماء، وكان من أعداء النبي ﷺ، وفيه نزل ﴿ليحسب أن لن يقدر عليه أحد﴾ يعني: لبقوته، ويكون معنى ﴿في كبد﴾ على هذا: في شدة خلق، وقيل معنى: ﴿في كبد﴾ أنه جريء القلب غليظ الكبد ﴿ليحسب أن لن يقدر عليه أحد﴾ أي: يظن ابن آدم أن لن يقدر عليه ولا ينتقم منه أحد، أو يظن أبو الأشدين أن لن يقدر عليه أحد، وأن هي المخففة من الثقيلة، واسمها ضمير شأن مقتر. ثم أخبر سبحانه عن مقال هذا الإنسان فقال: ﴿يقول اهلكت ما لآلئكم﴾ أي: كثيراً مجتمعاً بعضه على بعض. قال الليث: مال لبد لا يخاف فناؤه من

وكان طوى كشحا على مستكنة فلا هو أبداها ولم يتقدم

أي: فلم ييدها، ولم يتقدم، وقيل: هو جار مجرى الدعاء كقولهم: لا نجاه. قال أبو زيد، وجماعة من المفسرين: معنى الكلام هنا الاستفهام الذي بمعنى الإنكار، تقديره: أفلا اقتحم العقبة، أو هلا اقتحم العقبة. ثم بين سبحانه العقبة فقال: ﴿وما أدراك ما للعقبة﴾ أي: أي شيء أعلمك ما اقتحامها ﴿فك رقية﴾ أي: هي إعتاق رقبة، وتخليصها من أسار الرق، وكل شيء أطلقته فقد فككته، ومنه: فك الرهن، وفك الكتاب، فقد بين سبحانه أن العقبة هي هذه القرب المنكورة التي تكون بها النجاة من النار. قال الحسن، وقاتدة: هي عقبة شديدة في النار دون الجسر، فاقتحموها بطاعة الله. وقال مجاهد، والضحاك، والكلبي: هي الصراط الذي يضرب على جهنم كحد السيف. وقال كعب: هي نار دون الجسر. قيل: وفي الكلام حذف أي: وما أدراك ما اقتحام العقبة؟ قرأ أبو عمرو، وابن كثير، والكسائي (فك رقية) على أنه فعل ماض، ونصب رقبة على المفعولية، وهكذا قرأ، أو أطلع: على أنه فعل ماض. وقرأ الباقر (فك، أو إطعام) على أنهما مصدران، وجر رقبة بإضافة المصدر إليها، فعلى القراءة الأولى يكون الفعلان بدلاً من اقتحم، أو بياناً له كانه قيل: فلا فك ولا أطلع، والفك في الأصل: حلّ القيد، سمي العتق فكاً؛ لأن الرق كالقيد، وسمي المرفوق رقبة؛ لأنه بالرق كالأسير المربوط في رقبته ﴿لو إطعام في يوم ذي مسغبة﴾ المسغبة المجاعة، والسغب الجوع، والساغب الجائع. قال الراغب: يقال منه سغب الرجل سغباً، وسغبوا فهو ساغب، وسغبان، والمسغبة مفعلة منه، وأنشد أبو عبيدة:

فلو كنت حراً يابن قيس بن عاصم لما بئت شعباناً وجارك ساغباً

قال النخعي: ﴿في يوم ذي مسغبة﴾ أي: عزيز فيه الطعام ﴿يتيماً ذا مقربة﴾ أي: قرابة، يقال: فلان ذو قرابتي، وذو مقربتي، واليتيم في الأصل: الضعيف يقال: يتم الرجل: إذا ضعف، واليتيم عند أهل اللغة: من لا أب له، وقيل: هو من لا أب له ولا أم، ومنه قول قيس بن الملوّح:

إلى الله أشكو فقد ليل لي كما شكا إلى الله فقد الوالدين يتيم

﴿أو مسكيناً ذا متربة﴾ أي: لا شيء له كانه لصق بالتراب لفقره، وليس له مأوى إلا التراب، يقال: ترب الرجل: يترب ترباً ومتربة: إذا افتقر حتى لصق بالتراب ضرراً. قال مجاهد: هو الذي لا يقيه من التراب لباس ولا غيره. وقال قاتدة: هو ذو العيال. وقال عكرمة: هو المديون. وقال أبو سنان: هو ذو الزمانة. وقال ابن جبير: هو الذي ليس له أحد. وقال عكرمة: هو البعيد التربة الغريب عن وطنه، والأول أولى، ومنه قول الهذلي:

وكنا إذا ما الضيف حلّ بأرضنا سفكنا دماء البنين في تربة الحال

كثرته. قال الكلبي، ومقاتل: يقول أهلكت في عداوة محمد مالا كثيراً. وقال مقاتل: نزلت في الحارث بن عامر بن نوفل: أننب، فاستفتى النبي ﷺ، فأمره أن يكفر، فقال: لقد ذهب مالي في الكفارات والنفقات منذ نخلت في بين محمد. قرأ الجمهور (لبداً) بضم اللام، وفتح الباء مخففاً. وقرأ مجاهد، وحמיד بضم اللام والباء مخففاً. وقرأ أبو جعفر بضم اللام، وفتح الباء مشدداً. قال أبو عبيدة: لبذ فعل من التلبيد، وهو المال الكثير بعضه على بعض. قال الزجاج: فعل للكثرة، يقال رجل حطم: إذا كان كثير الحطم. قال الفراء: وأحدته لبدة، والجمع لبذ. وقد تقدم بيان هذا في سورة الجن ﴿ليحسب أن لم يره أحد﴾ أي: أيظن أنه لم يعاينه أحد. قال قتادة: أيظن أن الله سبحانه لم يره، ولا يسأله عن ماله من أين كسبه، وأين أنفق؟ وقال الكلبي: كان كاذباً لم ينفق ما قال، فقال الله: أيظن أن الله لم ير ذلك منه، فعل أو لم يفعل، أنفق أو لم ينفق. ثم نكر سبحانه ما أنعم به عليهم ليعتبروا فقال: ﴿الم نجعل له عينين﴾ يبصر بهما ﴿ولساناً﴾ ينطق به ﴿وشفتين﴾ يستر بهما ثغره. قال الزجاج: المعنى ألم نفعل به ما يدل على أن الله قادر على أن يبعثه، والشفة محنوفة اللام، وأصلها شفة بلبيل تصغيرها على شفوية ﴿وهديناه النجدين﴾ النجد: الطريق في ارتفاع. قال المفسرون: بيّن له طريق الخير وطريق الشر. قال الزجاج: المعنى ألم نعرفه طريق الخير وطريق الشر، مبينتين كتبين الطريقين العاليتين. وقال عكرمة، وسعيد بن المسيب، والضحاك: النجدان: الثنيان؛ لأنهما كالطريقين لحياة الولد، ورزقه، والأول أولى. وأصل النجد المكان المرتفع، وجمعه نجد، ومنه سميت نجد لارتفاعها عن انخفاض تهامة، فالنجدان الطريقان العاليان، ومنه قول امرئ القيس:

فريقان منهم قاطع بطن نخلة وآخر منهم قاطع نجد كبكب

﴿فلا اقتحم العقبة﴾ الاقتحام: الرمي بالنفس في شيء من غير روية، يقال منه: قحم في الأمر قحوماً أي: رمى بنفسه فيه من غير روية، وتقحم النفس في الشيء: إخالها فيه من غير روية، والقحمة بالضم المهلكة. والعقبة في الأصل الطريق التي في الجبل، سميت بذلك لصعوبة سلوكها، وهو مثل ضربه سبحانه لمجاهدة النفس والهوى والشيطان في أعمال البر، فجعله كالذي يتكلف صعود العقبة. قال الفراء، والزجاج: نكر سبحانه هنا: «لا» مرة واحدة، والعرب لا تكاد تفرد لا مع الفعل الماضي في مثل هذا الموضع حتى يعيدها في كلام آخر كقوله: ﴿فلا صدق ولا صلى﴾ [القيامة: 31] وإنما أقردها هنا لدلالة آخر الكلام على معناه، فيجوز أن يكون قوله: ﴿ثم كان من الذين آمنوا﴾ قائماً مقام التكرير كانه قال: فلا اقتحم العقبة، ولا آمن. قال المبرد، وأبو علي الفارسي: إن «لا» هنا بمعنى لم أي: فلم يقتحم العقبة، وروي نحو ذلك عن مجاهد، فلهاذا لم يحتج إلى التكرير، ومنه قول زهير:

الرجال والنساء. وأخرج ابن جرير، والطبراني عنه أيضاً
 ووالد قال: أمم **﴿لقد خلقنا الإنسان في كبد﴾** قال: في
 اعتدال وانتصاب. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً: **﴿لقد خلقنا
 الإنسان في كبد﴾** قال: في نصب. وأخرج ابن جرير عنه
 أيضاً: **﴿لقد خلقنا الإنسان في كبد﴾** قال: في شدة.
 وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر،
 وابن أبي حاتم عنه أيضاً: **﴿لقد خلقنا الإنسان في كبد﴾**
 قال: في شدة خلق ولانته، ونبت أسنانه، ومعيشته، وختانه.
 وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه
 أيضاً: **﴿لقد خلقنا الإنسان في كبد﴾** قال: خلق الله كل
 شيء يمشي على أربعة إلا الإنسان فإنه خلق منتصباً.
 وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة عنه أيضاً:
﴿لقد خلقنا الإنسان في كبد﴾ قال: منتصباً في بطن أمه
 أنه قد وكل به ملك إذا نامت الأم أو اضطجعت رفع رأسه
 لولا ذلك لغرق في الدم. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً في
 قوله: **﴿مالا لبدا﴾** قال: كثيراً. وأخرج عبد الرزاق،
 والفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن
 أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه عن ابن مسعود
 في قوله: **﴿وهديناه النجيين﴾** قال: سبيل الخير والشر.
 وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن
 عباس: **﴿وهديناه النجيين﴾** قال: الهدى والضلالة. وأخرج
 عبد بن حميد، وابن جرير عنه قال: سبيل الخير والشر.
 وأخرج ابن أبي حاتم من طريق سنان بن سعد عن أنس
 قال: قال النبي ﷺ: «هما نجدان، فما جعل نجد الشر أحب
 إليكم من نجد الخير» تفرد به سنان بن سعد، ويقال
 سعد بن سنان. وقد وثقه يحيى بن معين. وقال الإمام أحمد،
 والنسائي، والجوزجاني: منكر الحديث. وقال أحمد: تركت
 حديثه لاضطرابه، قد روى خمسة عشر حديثاً منكراً كلها
 ما أعرف منها حديثاً واحداً، يشبه حديثه حديث الحسن
 البصري، لا يشبه حديث أنس. وأخرجه عبد الرزاق،
 وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن مردويه من طرق عن
 الحسن قال: ذكر لنا أن النبي ﷺ كان يقول، فذكره. وهذا
 مرسل، وكذا رواه قتادة مرسلأ. أخرجه عنه ابن جرير،
 ويشهد له ما أخرج الطبراني عن أبي أمامة أن النبي ﷺ
 قال: «يا أيها الناس إنهما نجدان: نجد خير، ونجد شر، فما
 جعل نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير» ويشهد له أيضاً
 ما أخرجه ابن مردويه عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ
 قال: «إنما هما نجدان، نجد الخير، ونجد الشر، فلا يكن نجد
 الشر أحب إليكم من نجد الخير». وأخرج عبد الرزاق،
 وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم من طرق عن ابن
 عباس في قوله: **﴿وهديناه النجيين﴾** قال: الشيين. أخرج
 ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عمر في
 قوله: **﴿فلا اقتحم العقبة﴾** قال: جبل زلال في جهنم.
 وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: العقبة النار. وأخرج
 عبد بن حميد عنه قال: العقبة بين الجنة والنار. وأخرج

قرا الجمهور (ذي مسغبة) على أنه صفة ليوم، ويتيمماً
 هو مفعول إطعام. وقرا الحسن: (ذا مسغبة) بالنصب على
 أنه مفعول إطعام أي: يطعمون ذا مسغبة، ويتيمماً بدل منه
﴿ثم كان من الذين آمنوا﴾ عطف على المنفي بلا، وجاء
 بثم للدلالة على تراخي رتبة الإيمان ورفعة محله. وفيه
 دليل على أن هذه القرب إنما تنفع مع الإيمان، وقيل
 المعنى: ثم كان من الذين آمنوا بأن هذا نافع لهم. وقيل
 المعنى: أنه أتى بهذه القرب لوجه الله **﴿وتواصوا
 بالصبر﴾** معطوف على آمنوا أي: أوصى بعضهم بعضاً
 بالصبر على طاعة الله، وعن معاصيه، وعلى ما أصابهم من
 البلياء، والمصائب **﴿وتواصوا بالمرحمة﴾** أي: بالرحمة
 على عباد الله، فإنهم إذا فعلوا ذلك رحمو اليتيم والمسكين،
 واستكثروا من فعل الخير بالصفقة ونحوها، والإشارة
 بقوله: **﴿أولئك﴾** إلى الموصول باعتبار اتصافه بالصفات
 المذكورة هم **﴿أصحاب الميمنة﴾** أي: أصحاب جهة
 اليمين، أو أصحاب اليمن، أو الذين يعطون كتبهم بأيمانهم،
 وقيل: غير ذلك مما قد قلّمنا ذكره في سورة الواقعة
﴿والذين كفروا بآياتنا﴾ أي: بالقرآن، أو بما هو أعم منه،
 فتدخل الآيات التنزيلية، والآيات التكوينية التي تدل على
 الصانع سبحانه **﴿هم أصحاب المشأمة﴾** أي: أصحاب
 الشمال، أو أصحاب الشؤم، أو الذين يعطون كتبهم
 بشمالهم، أو غير ذلك مما تقدّم **﴿عليهم نار مؤسدة﴾**
 أي: مطبقة مغلقة، يقال: أصدت الباب، وأوصته إذا أغلقته،
 وأطبقتها، ومنه قول الشاعر:

تحنّ إلى لجبال مكة ناقتي ومن نونها أبواب صنعاء مؤسدة
 قرا الجمهور (مؤسدة) بالواو. وقرا أبو عمرو، وحمزة،
 وحفص بالهمزة مكان الواو، وهما: لغتان، والمعنى واحد.
 وقد أخرج ابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس في
 قوله: **﴿لا أقسم بهذا البلد﴾** قال: مكة **﴿وانت حل بهذا
 البلد﴾** يعني: بذلك النبي ﷺ، أحل الله له يوم نخل مكة أن
 يقتل من شاء، ويستحيي من شاء، فقتل له يومئذ ابن خطل
 صبراً، وهو أخذ باستار الكعبة، فلم يحل لأحد من الناس
 بعد النبي ﷺ أن يفعل فيها حراماً حرّمه الله، فأحل الله له
 ما صنع بأهل مكة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن
 مردويه عنه في قوله: **﴿لا أقسم بهذا البلد﴾** قال: مكة
﴿وانت حل بهذا البلد﴾ قال: أنت يا محمد يحل لك أن
 تقتل فيه، وأما غيرك فلا. وأخرج ابن مردويه عن أبي برزة
 الأسلمي قال: نزلت هذه الآية: **﴿لا أقسم بهذا البلد * وانت
 حل بهذا البلد﴾** في: خرجت، فوجئت عبد الله بن خطل
 وهو متعلق باستار الكعبة، فضربت عنقه بين الركن والمقام.
 وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس: **﴿لا أقسم بهذا
 البلد﴾** قال: أحل له أن يصنع فيه ما شاء **﴿ووالد وما
 ولد﴾** قال: يعني: بالوالد أمم، وما ولد ولده. وأخرج الفريابي،
 وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه
 في الآية قال: الوالد الذي يلد، وما ولد العاقر لا يلد من

تفسير سورة الشمس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَأَشْرَقَتِ رُحْمَتُهُ ۖ وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا ۖ وَالنَّجْمُ إِذَا جَلَّهَا ۖ وَاللَّيْلُ إِذَا بَغَمَهَا ۖ وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا ۖ وَالْأَرْضُ وَمَا حَتَّىهَا ۖ وَالسَّمَاءُ وَمَا بَلَّهَا ۖ فَالْمُهْمُ إِذَا جُورَتْهَا ۖ وَتَقَوَّيْتُهَا ۖ قَدْ أَطْلَعَ مِنْ رُكْنَيْهَا ۖ وَقَدْ غَابَ مِنْ دَسَنَيْهَا ۖ كَذَّبَتْ ثُمُودُ بِطَغْوَيْهَا ۖ إِذْ أُلْبِثَتْ أَشْقَىٰهَا ۖ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ۖ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَكَدَمُوا عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ يَذِيقُهُمْ سُورَتَهَا ۖ وَلَا يَخَافُ عَذَابَهُ ۖ

أقسم سبحانه بهذه الأمور، وله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، وقال قوم: إن القسم بهذه الأمور، ونحوها مما تقدم، ومما سيأتي هو على حذف مضاف أي: ﴿وَالْقَمَرُ وَالشَّمْسُ﴾ ورب القمر، وهكذا سائرهما، ولا ملجئ إلى هذا، ولا موجب له، وقوله: ﴿وَضَحَاهَا﴾ هو: قسم ثان قال مجاهد: وضحاها أي: ضوئها وإشراقها، وأضاف الضحى إلى الشمس؛ لأنه إنما يكون عند ارتفاعها، وكذا قال الكلبي. وقال قتادة: ضحاها نهارها كله. قال الفراء: الضحى هو النهار. وقال المبرد: أصل الضحى الصبح، وهو نور الشمس. قال أبو الهيثم: الضحى نقيض الظل، وهو نور الشمس على وجه الأرض، وأصله الضحى، فاستقلوا الباء، فقلبوها ألفاً. قيل: والمعروف عند العرب أن الضحى إذا طلعت الشمس وبعد ذلك قليلاً، فإذا زاد فهو الضحاء بالمد. قال المبرد: الضحى، والضحوة مشتقان من الضحج، وهو النور، فأبليت الألف، والواو من الحاء.

واختلف في جواب القسم ماذا هو؟ فقيل: هو قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ قاله الزجاج وغيره. قال الزجاج وحذفت اللام؛ لأن الكلام قد طال، فصار طوله عوضاً منها، وقيل: الجواب محذوف أي: والشمس، وكذا لتبعث، وقيل تقديره: ليدمدن الله على أهل مكة لتكذيبهم رسول الله ﷺ، كما يمدن على ثمود؛ لأنهم كذبوا صالحاً، وأما: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ فكلام تابع لقوله: ﴿فَالْمُهْمُ إِذَا جُورَتْهَا وَتَقَوَّاهَا﴾ على سبيل الاستطراد، وليس من جواب القسم في شيء، وقيل: هو على التقديم والتأخير بغير حذف، والمعنى: قد أفلح من زكَّاهَا، وقد خاب من نساها، والشمس وضحاها والاولى أولى ﴿وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا﴾ أي: تبعها، وذلك بأن طلع بعد غروبها، يقال تلا يتلو تلوًا: إذا تبع. قال المفسرون: وذلك في النصف الأول من الشهر إذا غربت الشمس تلاها القمر في الإضاءة، وخلفها في النور. قال الزجاج: تلاها حين استدار، فكان يتلو الشمس في الضياء والنور، يعني: إذا كمل ضوءه، فصار تابعاً للشمس في الإنارة، يعني: كان مثلاً في الإضاءة، وذلك في الليالي البيض. وقيل: إذا تلا طلوعه طلوعها. قال قتادة: إن ذلك ليلة الهلال إذا سقطت رؤي

الحاكم وصححه، وابن مريويه، والبيهقي في سننه عن عائشة قالت: «لما نزل: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ قيل: يا رسول الله ما عند أحدنا ما يعقب إلا أن عند أحدنا الجارية السوداء تخدمه، فلو أمرناهم بالزنا، فجنن بالاولاد، فاعتقناهم، فقال رسول الله ﷺ: لأن أمتع بسوط في سبيل الله أحب إلي من أن أمر بالزنا، ثم اعتق الولد». وأخرجه ابن جرير عنها بلفظ: «لعلاقة سوط في سبيل الله أعظم أجراً من هذا». وقد ثبت الترغيب في عتق الرقاب بأحاديث كثيرة: منها في الصحيحين، وغيرهما عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من اعتق رقبة مؤمنة اعتق الله بكل عضو منها عضواً منه من النار حتى الفرج بالفرج». وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس: ﴿فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ قال: مجاعة. وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عنه: ﴿فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ قال: جوع. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً: ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ قال: ذا قرابة، وفي قوله: ﴿ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ قال: بعيد التربة، أي: غريباً عن وطنه، وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عنه أيضاً: ﴿أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ قال: هو المطروح الذي ليس له بيت. وفي لفظ للحاكم: هو الذي لا يقيه من التراب شيء. وفي لفظ: هو اللازق بالتراب من شدة الفقر. وأخرج ابن مريويه عن ابن عمر عن النبي ﷺ: ﴿مَسْكِينًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ قال: «الذي مأواه المزابيل». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ يعني: بذلك رحمة الناس كلهم. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه: ﴿مُؤَصَّدَةٍ﴾ قال: مغلقة الأبواب. وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي هريرة: ﴿مُؤَصَّدَةٍ﴾ قال مطبقة.

وهي مكية بلا خلاف. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مريويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت: ﴿والشمس وضحاها﴾ [أي: سورة الشمس] بمكة. وأخرج ابن مريويه عن ابن الزبير مثله. وأخرج أحمد، والترمذي وحسنه، والنسائي عن بريدة: «أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة العشاء: ﴿والشمس وضحاها﴾، وأشباهها من السور». وقد تقدم حديث جابر في الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ: «هلا صليت بـ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ [أي: سورة الأعلى]»، ﴿والشمس وضحاها﴾، ﴿والليل إذا يغشى﴾ [أي: سورة الليل] وأخرج الطبراني عن ابن عباس أن النبي ﷺ أمره أن يقرأ في صلاة الصبح بـ﴿الليل إذا يغشى﴾، ﴿والشمس وضحاها﴾. وأخرج البيهقي في الشعب عن عتبة بن عامر قال: «أمرنا رسول الله ﷺ أن نصلي ركعتي الضحى بسورتيهما بـ﴿الشمس وضحاها﴾، ﴿والضحى﴾».

وهذا هو الوجه لتفسير الإلهام، فإن التبيين والتعليم، والتعريف بون الإلهام، والإلهام أن يوقع في قلبه، ويجعل فيه، وإذا أوقع الله في قلب عبده شيئاً ألزمه ذلك الشيء. قال: وهذا صريح في أن الله خلق في المؤمن تقواه، وفي الكافر فجوره **﴿قد افلح من زكاه﴾** أي: قد فاز من زكى نفسه وأنماها، وأعلاها بالتقوى بكل مطلوب، وظفر بكل محبوب، وقد قُتِمَا أن هذا جواب القسم على الراجح، وأصل الزكاة: النمو والزيادة، ومنه زكا الزرع: إذا كثر **﴿وقد خاب من نساها﴾** أي: خسر من أضلها وأغواها. قال أهل اللغة: نساها أصله نسيها، من النسيس، وهو إخفاء الشيء في الشيء، فمعنى نساها في الآية: أخفاها وأخملها، ولم يشهرها بالطاعة والعمل الصالح، وكانت أجواد العرب تنزل الأمكنة المرتفعة ليشتهر مكانها، فيقصدها الضيوف، وكانت لثام العرب تنزل الهضاب، والأمكنة المنخفضة؛ ليخفى مكانها عن الوافدين. وقيل: معنى نساها: أغواها، ومنه قول الشاعر:

وانت الذي نسيت عمر فاصبحت حلاله منه أراسل ضيعا
وقال ابن الأعرابي: **﴿وقد خاب من نساها﴾** أي: نس نفسه في جملة الصالحين، وليس منهم **﴿كذبت ثمود بطغواها﴾** الطفوى: اسم من الطغيان كالدعوى من الدعاء. قال الواحدي: قال المفسرون: كذبت ثمود بطغيانها أي: الطغيان حملتهم على التكذيب، والطغيان مجاوزة الحد في المعاصي، والباء للسببية. وقيل: كذبت ثمود بطغواها أي: بعذابها الذي وعدت به، وسمي العذاب طفوى لأنه طغى عليهم، فتكون الباء على هذا للتعذية. وقال محمد بن كعب: بطغواها أي: باجمعا. قرأ الجمهور (بطغواها) بفتح الطاء. وقرأ الحسن، والجحدري، ومحمد بن كعب، وحماد بن سلمة بضم الطاء؛ فعلى القراءة الأولى هو مصدر بمعنى الطغيان، وإنما قلبت الياء والواو للفرق بين الاسم والصفة؛ لأنهم يقبلون الياء في الأسماء كثيراً نحو تقوى، وسروى، وعلى القراءة الثانية هو مصدر كالرجعى والحسنى، ونحوهما، وقيل: هما لغتان **﴿إذ انبعث اشقاها﴾** العامل في الظرف كذبت، أو بطغواها: أي: حين قام أشقى ثمود، وهو قدار بن سالف، فعقر الناقة، ومعنى انبعث: انتدب لذلك وقام به، يقال بعثته على الأمر، فانبعث له، وقد تقمَّ بيان هذا في الأعراف: **﴿فقال لهم رسول الله﴾** يعني: صالحاً **﴿ناقة الله﴾** قال الزجاج: ناقة الله منصوبة على معنى: نروا ناقة الله. قال الفراء: حنرهم إياها، وكل تحذير فهو نصب **﴿وسقياها﴾** معطوف على ناقة، وهو شربها من الماء. قال الكلبي، ومقاتل: قال لهم صالح: نروا ناقة الله، فلا تعقروها، وذروا سقياها، وهو شربها من النهر، فلا تعرّضوا له يوم شربها، فكنبوها بتحذيره إياهم: **﴿فعقروها﴾** أي: عقرها الأشقى، وإنما أسند العقر إلى الجميع؛ لأنهم رضوا بما فعله. قال قتادة: إنه لم يعقروها حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم، ونكرهم وأثامهم. قال الفراء: عقرها اثنان، والعرب تقول: هذان أفضل

الهلل. قال ابن زيد: إذا غربت الشمس في النصف الأول من الشهر تلاها القمر بالطلوع، وفي آخرها يتلوها بالغروب، وقال الفراء تلاها أخذ منها يعني: أن القمر يأخذ من ضوء الشمس **﴿والنهار إذا جلاها﴾** أي: جلى الشمس، وذلك أن الشمس عند انبساط النهار تنجلي تمام الانجلاء، فكانه جلاها مع أنها الذي تبسطه. وقيل: الضمير عائذ إلى الظلمة، أي: جلى الظلمة، وإن لم يجر للظلمة نكر؛ لأن المعنى معروف. قال الفراء: كما تقول أصبحت باردة أي: أصبحت غدائنا باردة، والأول أولى. ومنه قول قيس بن الحظيم:

تجلت لنا كالشمس تحت غمامة بدا حاجب منها وضنت بحاجب
وقيل المعنى: جلى ما في الأرض من الحيوانات، وغيرها بعد أن كانت مستترة في الليل، وقيل: جلى الدنيا، وقيل: جلى الأرض **﴿والليل إذا يغشاها﴾** أي: يغشى الشمس، فيذهب بضوئها، فتغيب، وتظلم الآفاق، وقيل: يغشى الآفاق، وقيل: الأرض، وإن لم يجر لهما نكر؛ لأن ذلك معروف، والأول أولى **﴿والسما وما بناها﴾** يجوز أن تكون ما مصدرية أي: والسما وبنيانها، ويجوز أن تكون موصولة: أي: والذي بناها، وإيثار «ما» على من لإرادة الوصفية لقصد التفضيم كأنه قال: والقادر العظيم الشأن الذي بناها. ورجح الأول الفراء، والزجاج، ولا وجه لقول من قال: إن جعلها مصدرية مغل بالنظم. ورجح الثاني ابن جرير **﴿والأرض وما طحاها﴾** الكلام في «ما» هذه كالكلام في التي قبلها، ومعنى طحاها بسطها، كذا قال عامة المفسرين، كما في قوله: **﴿نحاها﴾** قالوا: طحاها ونحاها واحد أي: بسطها من كل جانب، والطحو البسط، وقيل: معنى طحاها قسمها، وقيل: خلقها، ومنه قول الشاعر:

وما يندري جنينة من طحاها ولا من ساكن العرش الرفيع
والأول أولى. والطحو أيضاً: الذهاب. قال أبو عمرو بن العلاء: طحا الرجل: إذا ذهب في الأرض، يقال ما أبري أين طحا؟ ويقال طحا به قلبه: إذا ذهب به، ومنه قول الشاعر:

طحا بك قلب في الحسان طروب بعيد للشباب عصر حان مشيب
﴿ونفس وما سواها﴾ الكلام في «ما» هذه، كما تقدّم، ومعنى سواها خلقها وأنشأها، وسوى أعضائها. قال عطاء: يريد جميع ما خلق من الجن والإنس، والتذكير للتفخيم، وقيل: المراد نفس آدم **﴿فألهمها فجورها وتقواها﴾** أي: عرّفها وألهمها حالهما، وما فيهما من الحسن والقبح. قال مجاهد: عرّفها طريق الفجور، والتقوى، والطاعة، والمعصية. قال الفراء: فألهمها عرّفها طريق الخير، وطريق الشر، كما قال: **﴿وهديناه النجدين﴾** [البلد: 10]. قال محمد بن كعب: إذا أراد الله بعبده خيراً ألهمه الخير فعمل به، وإذا أراد به الشرّ ألهمه الشرّ فعمل به. قال ابن زيد: جعل فيها ذلك بتوفيقه إياها للتقوى، وخذلانه إياها للفجور، واختار هذا الزجاج، وحمل الإلهام على التوفيق والخذلان. قال الواحدي:

والطبراني، وابن مردويه من حديث ابن عباس، وزاد «كان إذا تلا هذه الآية: ﴿ونفس وما سواها﴾ فإلهما فجورها وتقواها» قال: فنكره، وزاد أيضاً: «وهو في الصلاة». وأخرج حديث زيد بن أرقم مسلم أيضاً. وأخرج نحوه أحمد من حديث عائشة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿قد أفلح من زكاها﴾ يقول: قد أفلح من زكى الله نفسه ﴿وقد خاب من بساها﴾ يقول: قد خاب من بس الله نفسه فاضله ﴿ولا يخاف عقباها﴾ قال: لا يخاف من أحد تبعه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه ﴿وقد خاب من بساها﴾ يعني: مكر بها. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والديلمي من طريق جويبر عن الضحك عن ابن عباس: «سمعت رسول الله ﷺ يقول في قوله: ﴿قد أفلح من زكاها﴾ الآية أفلحت نفس زكاها الله، وخابت نفس خبيها الله من كل خير» وجويبر ضعيف. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً: ﴿بطغواها﴾ قال: اسم العذاب الذي جاءها الطغوى، فقال: كذبت ثمود بعداها. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن عبد الله بن زعمة قال: «خطب رسول الله ﷺ فنكر الناقة، ونكر الذي عقرها، فقال: ﴿إذ أنبعث لنشأها﴾ قال: أنبعث لها رجل عارم عزيز منيع في رهطه مثل أبي زعمة». وأخرج أحمد، وابن أبي حاتم، والبخاري، والطبراني، وابن مردويه، والحاكم، وأبو نعيم في الدلائل عن عمار بن ياسر قال: قال رسول الله ﷺ لعلي: «ألا أحتك بأشقى الناس؟ قال: بلى. قال رجلان: أحمر ثمود الذي عقر الناقة، والذي يضربك على هذا يعني: قرنه حتى تبطل منه هذه» يعني: لحيته.

تفسير سورة الليل

وهي مكية عند الجمهور، وقيل: مدنية. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة ﴿والليل إذا يغشى﴾ [أي: سورة الليل] بمكة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. وأخرج البيهقي في سننه عن جابر بن سمرة قال: «كان النبي ﷺ يقرأ في الظهر والعصر: ﴿والليل إذا يغشى﴾ ونحوها». وأخرج الطبراني في الأوسط عن أنس «أن رسول الله ﷺ صلى بهم الهجرة، فرفع صوته، فقرأ: ﴿والشمس وضحاها﴾ [أي: سورة الشمس] ﴿والليل إذا يغشى﴾ فقال له أبي بن كعب: يا رسول الله أمرت في هذه الصلاة بشيء؟ قال: لا، ولكن أرت أن أوقت لكم» وقد تقدم حديث: «فهلأ صليت بـ ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ [أي: سورة الأعلى]، والشمس وضحاها، والليل إذا يغشى؟». وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: إني لأقول إن هذه السورة نزلت في السماحة والبخل ﴿والليل إذا يغشى﴾.

الناس، وهذان خير الناس، فلها لم يقل أشقياها ﴿قدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها﴾ أي: أهلكهم، وأطبق عليهم العذاب، وحقيقة الدمنة: تضعيف العذاب، وتربيده، يقال: دمدمت على الشيء أي: أطبقت عليه، ودمدم عليه القبر أي: أطبقه، وناقمة مدمومة: إذا لبسها الشحم، والدمنة: إهلاك باستئصال، كذا قال المؤرج. قال في الصحاح: دمدمت الشيء: إذا الرقته بالأرض، وطحطحته، ودمدم الله عليهم أي: أهلكهم. وقال ابن الأعرابي: دمدم إذا عذب عذاباً تاماً. والضمير في فسواها يعود إلى الدمنة، أي: فسوى الدمنة عليهم، ومعهم بها، فاستوت على صغيرهم وكبيرهم، وقيل: يعود إلى الأرض أي: فسوى الأرض عليهم، فجعلهم تحت التراب، وقيل: يعود إلى الأمة أي: ثمود. قال الفراء: سوى الأمة أنزل العذاب بصغيرها وكبيرها بمعنى سوى بينهم. قرأ الجمهور (قدمدم) بميم بين الدالين، وقرأ ابن الزبير (فدهم) بهاء بين الدالين. قال القرطبي: وهما لغتان، كما يقال: امتنع لونه، وامتنع لونه ﴿فلا يخاف عقباها﴾ أي: فعل الله نلك بهم غير خائف من عاقبة، ولا تبعه، والضمير في عقباها يرجع إلى الفعلة، أو إلى الدمنة المملول عليها بدمدم. وقال السدي، والضحاك، والكلبي: إن الكلام يرجع إلى العاقر لا إلى الله سبحانه أي: لم يخف الذي عقرها عقبي ما صنع. وقيل: لا يخاف رسول الله ﷺ عاقبة إهلاك قومه، ولا يخشى ضرراً يعود عليه من عذابهم؛ لأنه قد أنذرهم، والأول أولى. قرأ الجمهور (ولا يخاف) بالواو، وقرأ نافع، وابن عامر بالفاء.

وقد أخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس ﴿وضحاها﴾ قال: ضوئها ﴿والقمر إذا تلاها﴾ قال: تبعها ﴿والنهار إذا جلاها﴾ قال: أضاءها ﴿والسماء وما بناها﴾ قال: الله بنى السماء ﴿والأرض وما طحاها﴾ قال: نحاها ﴿فإلهما فجورها وتقواها﴾ قال: علمها الطاعة، والمعصية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه ﴿والأرض وما طحاها﴾ يقول: قسمها ﴿فإلهما فجورها وتقواها﴾ قال: من الخير والشر. وأخرج الحاكم وصححه عنه أيضاً ﴿فإلهما﴾ قال: ألزمها فجورها وتقواها. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، ومسلم، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه عن عمران بن حصين: «أن رجلاً قال: يا رسول الله أرايت ما يعمل الناس اليوم، ويكبحون فيه، شيء قد قضى عليهم، ومضى في قدر قد سبق، أو فيما يستقبلون مما اتاهم نبيهم، واتخذت عليهم به الحجة، قال: بل شيء قد قضى عليهم؟ قال: فلم يعملون إذن؟ قال: من كان الله خلقه لوحدة من المنزلتين يهينه لعملها، وتصديق نك في كتاب الله: ﴿ونفس وما سواها﴾ فإلهما فجورها وتقواها»، وسيأتي في السورة التي بعد هذه نحو هذا الحديث. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، والنسائي عن زيد بن أرقم قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم أت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها». وأخرجه ابن المنذر،

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَأَنزَلَ إِذَا نَغَمَ ① وَأَنزَلَ إِذَا نَغَلَ ② وَمَا عَلَنَ الذِّكْرَ وَالْأُنْثَى ③ إِذَا سَمِعَكَ ④ لَقَى ⑤ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَآتَى ⑥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ⑦ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ⑧ وَأَمَّا مَنْ يَحِلُّ وَاسْتَفْتَى ⑨ كَذَّبَ بِالْحُسْنَى ⑩ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ⑪ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ⑫ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ⑬ وَلَئِنْ لَّمْ نَكْفِرْهُ وَالْأَوَّلَ ⑭ فَأَنزَلْنَاهُ نَارًا تَلَظَّى ⑮ لَا يَسْلَمُهَا إِلَّا الْأَشْقَى ⑯ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ⑰ وَسَيَجْزِيهَا الْآلَافُ ⑱ الْكُلَى يُوَفَّى مَا كَانَ يَمُرُّ ⑲ وَمَا يَحْكُمُ عِنْدَهُ مِنْ شَيْءٍ نَّجْوَى ⑳ إِلَّا آيَةً ㉑ وَجَوْرِهِ الْأَوَّلَ ㉒ وَسَوْفَ يُرَى ㉓

قوله: ﴿والليل إذا يغشى﴾ أي: يغطي بظلمته ما كان مضيقاً. قال الزجاج: يغشى الليل الأفق، وجميع ما بين السماء والأرض، فيذهب ضوء النهار، وقيل: يغشى النهار، وقيل: يغشى الأرض، والأول أولى ﴿والنهار إذا تجلى﴾ أي: ظهر وانكشف، ووضح لزوال الظلمة التي كانت في الليل، وذلك بطلوع الشمس ﴿وما خلق الذكر والأنثى﴾ ما هنا هي الموصولة أي: والذي خلق الذكر والأنثى، وعبر عن من بما للدلالة على الوصفية، ولقصد التخصم أي: والقادر العظيم الذي خلق صنفَي الذكر والأنثى. قال الحسن، والكليبي: معناه، والذي خلق الذكر والأنثى فيكون قد أقسم بنفسه. قال أبو عبيدة: وما خلق أي: ومن خلق. وقال مقاتل: يعني: وخلق الذكر والأنثى فتكون «ما» على هذا مصدرية. قال الكليبي، ومقاتل: يعني: آم وحواء، والظاهر العموم. قرأ الجمهور (وما خلق الذكر والأنثى) وقرأ ابن مسعود (والذكر والأنثى) بدون ما خلق ﴿إن سعيكم لشتى﴾ هذا جواب القسم أي: إن عملكم لمختلف: فمنه عمل للجنة، ومنه عمل للنار. قال جمهور المفسرين: السعي العمل، فساع في فكاه نفسه، وساع في عطبها، وشتى جمع شتيت: كمرضى ومريض، وقيل: للمختلف شتى لتباعد ما بين بعضه وبعض ﴿فأما من أعطى واتقى﴾ أي: بذل ماله في وجوه الخير، واتقى محارم الله التي نهى عنها ﴿ووصى بالحسنى﴾ أي: بالخلف من الله. قال المفسرون: فأما من أعطى المعسرين. وقال قتادة: أعطى حق الله الذي عليه. وقال الحسن: أعطى الصئق من قلبه، وصئق بالحسنى: أي: بلا إله إلا الله، وبه قال الضحاك، والسلمي. وقال مجاهد: بالحسنى الجنة. وقال زيد بن أسلم: بالصلاة، والزكاة، والصوم، والأول أولى. قال قتادة: بالحسنى: أي: بموعود الله الذي وعده أن يثيبه. قال الحسن: بالخلف من عطائه، واختار هذا ابن جرير ﴿فسنيسره للعسرى﴾ أي: فسنيته للخصلة الحسنى، وهي: عمل الخير، والمعنى: فسنيسر له الإنفاق في سبيل الخير، والعمل بالطاعة لله. قال الواحدي: قال المفسرون: نزلت هذه الآيات في أبي بكر الصديق اشترى ستة نفر من المؤمنين كانوا في أيدي أهل مكة يعذبونهم في الله ﴿وما من يخل واستغنى﴾ أي: يخل بماله، فلم يبدله في سبيل الخير، واستغنى أي: زهد في الأجر والثواب، أو استغنى

بشهوات الدنيا عن نعيم الآخرة ﴿وكذب بالحسنى﴾ أي: بالخلف من الله عز وجل، وقال مجاهد: بالجنة، ودوي عنه أيضاً أنه قال: بلا إله إلا الله ﴿فسنيسره للعسرى﴾ أي: فسنيته للخصلة العسرى، ونسبها له حتى تتعسر عليه أسباب الخير والصالح، ويضعف عن فعلها، فيؤديه ذلك إلى النار. قال مقاتل: يعسر عليه أن يعطي خيراً. قيل العسرى الشر، وذلك أن الشر يؤدي إلى العذاب، والعسرة في العذاب، والمعنى: سنيته للشر بأن نجريه على يديه. قال الفراء: سنيسر سنيته، والعرب تقول: قد يسرت الغنم إذا ولدت، أو تهيأت للولادة. قال الشاعر:

هما سيدنا يزعمان وإنما يسوداننا إن يسرت غنماهما
﴿وما يغني عنه ماله إذا تردى﴾ أي: لا يغني عنه شيئاً ماله الذي يخل به، أو أي شيء يغني عنه إذا تردى أي: هلك، يقال: ردى الرجل يردى ردى، وتردى يتردى: إذا هلك. وقال قتادة: وأبو صالح، وزيد بن أسلم: إذا تردى: إذا سقط في جهنم، يقال ردى في البئر، وتردى: إذا سقط فيها، ويقال: ما أبرى أين ردى أي: أين ذهب؟ ﴿إن علينا للهدى﴾ هذه الجملة مستأنفة مقررة لما قبلها أي: إن علينا البيان. قال الزجاج: علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلال. قال قتادة: على الله البيان: بيان حرامه، وطاعته، ومعصيته. قال الفراء: من سلك الهدى، فعلى الله سبيله، لقوله: ﴿وعلى الله قصد السبيل﴾ [النحل: 9] يقول: من أراد الله، فهو على السبيل القاصد. قال الفراء أيضاً: المعنى إن علينا للهدى والإضلال، فحذف الإضلال كقوله: ﴿سرابيل تقيكم الحر﴾ [النحل: 81] وقيل المعنى: إن علينا ثواب هداية الذي هديناه ﴿وإن لنا للآخرة والأولى﴾ أي: لنا كل ما في الآخرة، وكل ما في الدنيا نتصرف به كيف نشاء، فمن أرادهما أو أحدهما، فليطلب ذلك منا، وقيل المعنى: إن لنا ثواب الآخرة، وثواب الدنيا ﴿فأنذرتكم نارا تلظى﴾ أي: حذرتكم وخوفتكم نارا تتوقد وتتوهج، وأصله تلظى، فحذفت إحدى التاءين تخفيفاً. وقرأ على الأصل عبيد بن عمير، ويحيى بن يعمر، وطلحة بن مصرف ﴿لا يصلأه إلا الأشقى﴾ أي: يصلأه صلياً لازماً على جهة الخلود إلا الأشقى وهو الكافر، وإن صليها غيره من العصاة، فليس صلي كصليه، والمراد بقوله يصلأه: يدخلها، أو يجد صلاها، وهو حرها. ثم وصف الأشقى فقال: ﴿الذي كذب وتولى﴾ أي: كذب بالحق الذي جاء به الرسل، وأعرض عن الطاعة والإيمان. قال الفراء ﴿إلا الأشقى﴾ إلا من كان شقياً في علم الله جل ثناؤه. قال أيضاً: لم يكن كذب برده ظاهر، ولكن قصر عما أمر به من الطاعة، فجعل تكتيباً، كما تقول لقي فلان العدو، فكذب: إذا نكل، ورجع عن اتباعه. قال الزجاج: هذه الآية هي التي من أجلها قال أهل الإرجاء بالإرجاء، فزعموا أنه لا يدخل النار إلا كافر؛ ولأهل النار منازل، فمنها أن المنافقين في الدرك الأسفل من النار. والله سبحانه كل ما وعد عليه بجنس من العذاب، فجدير أن يعذب به، وقد قال: ﴿إن الله لا يغفر أن

تعالى؛ ومعنى الآية: أنه ليس لأحد من الناس عنده نعمة من شأنها أن يجازى عليها حتى يقصد بإيتاء ما يؤتي من ماله مجازاتها، وإنما قال تجزى مضارعاً مبنياً للمفعول لأجل الفواصل، والأصل يجزيها إياه، أو يجزيه إياها ﴿إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى﴾ قرأ الجمهور ﴿إلا ابتغاء﴾ بالنصب على الاستثناء المنقطع لعدم اندراجها تحت جنس النعمة أي: لكن ابتغاء وجه ربه الأعلى، ويجوز أن يكون منصوباً على أنه مفعول له على المعنى أي: لا يؤتي إلا لابتغاء وجه ربه لا لمكافأة نعمة. قال الفراء: هو منصوب على التأويل أي: ما أعطيتك ابتغاء جزائك بل ابتغاء وجه الله، وقرأ يحيى بن وثاب بالرفع على البذل من محل نعمة؛ لأن محلها الرفع إما على الفاعلية، وإما على الابتداء، ومن مزيدة، والرفع لغة تميم؛ لأنهم يجوزون البذل في المنقطع، ويجرونه مجرى المتصل. قال مكي: وأجاز الفراء الرفع في «ابتغاء» على البذل من موضع نعمة، وهو بعيد. قال شهاب الدين: كأنه لم يطلع عليها قراءة، واستبعاده، هو البعيد فإنها لغة فاشية، وقرأ الجمهور أيضاً (ابتغاء) بالمد، وقرأ ابن أبي عبيدة بالقصر والأعلى: نعت للرب ﴿ولسوف يرضى﴾ اللام هي: الموطئة للقسم أي: وتالله لسوف يرضى بما نعطيه من الكرامة والجزاء العظيم. قرأ الجمهور (يرضى) مبنياً للفاعل، وقرئ مبنياً للمفعول.

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس: ﴿والليل إذا يغشى﴾ قال: إذا اظلم. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن عساكر عن ابن مسعود قال: إن أبا بكر الصديق اشترى بلالاً من أمية بن خلف، وأبي بن خلف ببردة، وعشر أواق، فاعتقه الله، فأنزل الله: ﴿والليل إذا يغشى﴾ إلى قوله: ﴿إن سعيكم لشتى﴾ سعي أبي بكر، وأميه وأبي إلى قوله: ﴿وكذب بالحسنى﴾ قال: لا إله إلا الله إلى قوله: ﴿فسنيسره للعسرى﴾ قال: النار. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله: ﴿فأما من أعطى﴾ من الفضل ﴿والتقى﴾ قال: اتقى ربه ﴿وصنق بالحسنى﴾ قال: صنق بالخلف من الله ﴿فسنيسره للعسرى﴾ قال: للخير من الله ﴿وأما من بخل واستغنى﴾ قال: بخل بماله، واستغنى عن ربه ﴿وكذب بالحسنى﴾ قال: بالخلف من الله ﴿فسنيسره للعسرى﴾ قال: للشّر من الله. وأخرج ابن جرير عنه: ﴿وصنق بالحسنى﴾ قال: أيقن بالخلف. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً: ﴿وصنق بالحسنى﴾ يقول: صنق بلا إله إلا الله ﴿وأما من بخل واستغنى﴾ يقول: من أغناه الله، فيخل بالزكاة. وأخرج ابن جرير، وابن عساكر عن عامر بن عبد الله بن الزبير قال: كان أبو بكر يعتق على الإسلام بمكة، وكان يعتق عجايز ونساء إذا أسلمن، فقال له أبوه: أي بني أراك تعتق أناساً ضعفاً، فلو أنك تعتق رجالاً جلدأ يقومون معك ويمنعونك ويدفعون عنك. قال: أي أبت إنما أريد ما عند الله، قال:

يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ [النساء: 48] فلو كان كل من لم يشرك لم يعذب لم يكن في قوله: ﴿ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ فائدة. وقال في الكشف: الآية واردة في الموازنة بين حالتي عظيم من المشركين، وعظيم من المؤمنين، فأريد أن يبالغ في صفتيهما المتناقضتين. فقيل: الأشقى، وجعل مختصاً بالصلي كان النار لم تخلق إلا له، وقيل: الاتقى، وجعل مختصاً بالنجاة كان الجنة لم تخلق إلا له، وقيل: المراد بالأشقى أبو جهل، أو أمية بن خلف، وبالاتقى: أبو بكر الصديق، ومعنى: ﴿وسيجنبها الاتقى﴾ سيباعد عنها المتقي للكفر اتقاء بالغا. قال الواحدي: الاتقى أبو بكر الصديق في قول جميع المفسرين انتهى، والأولى حمل الأشقى والاتقى على كل متصف بالصفتين المذكورتين، ويكون المعنى أنه لا يصلها صلياً تاماً إلا الكامل في الشقاء، وهو الكافر، ولا يجنبها ويبعد عنها تبعيداً كاملاً بحيث لا يحوم حولها فضلاً عن أن يدخلها إلا الكامل في التقوى، فلا ينافي هذا دخول بعض العصاة من المسلمين النار دخولاً غير لازم، ولا تبعيد بعض من لم يكن كامل التقوى عن النار تبعيداً غير بالغ مبلغ تبعيد الكامل في التقوى عنها. والحاصل أن من تمسك من المرجئة بقوله: ﴿لا يصلها إلا الأشقى﴾ زاعماً أن الأشقى الكافر؛ لأنه الذي كذب وتولى، ولم يقع التكنيب من عصاة المسلمين، فيقال له: فما تقول في قوله: ﴿وسيجنبها الاتقى﴾ فإنه يدل على أنه لا يجنب النار إلا الكامل في التقوى، فمن لم يكن كاملاً فيها كعصاة المسلمين لم يكن ممن يجنب النار، فإن أولت الاتقى بوجه من وجوه التأويل لزمك مثله في الأشقى، فخذ إليك هذه مع تلك، وكن كما قال الشاعر:

على أنني راض بأن أحمل الهوى وأخرج منه لا علي ولا ليه
وقيل: أراد بالأشقى، والاتقى الشقي، والتقوى، كما قال طرفة بن العبد:

تمنى رجال أن أموت وإن أمت فذلك سبيل لست فيها بأوحد
أي: بواحد، ولا يخفك أنه ينافي هذا وصف الأشقى بالتكنيب، فإن ذلك لا يكون إلا من الكافر، فلا يتم ما أراده قائل هذا القول من شمول الوصفين لعصاة المسلمين. ثم ذكر سبحانه صفة الاتقى فقال: ﴿الذي يؤتي ماله﴾ أي: يعطيه، ويصرفه في وجوه الخير، وقوله: ﴿يتزكى﴾ في محل نصب على الحال من فاعل يؤتي أي: حال كونه يطلب أن يكون عند الله زكياً لا يطلب رياء ولا سمعة، ويجوز أن يكون بدلاً من يؤتي داخلاً معه في حكم الصلة. قرأ الجمهور (يتزكى) مضارع تزكى. وقرأ علي بن الحسين بن علي: (تزكى) بإدغام التاء في الزاي ﴿وما لأحد عنده من نعمة تجزى﴾ الجملة مستأنفة؛ لتقرير ما قبلها من كون التزكي على جهة الخلوص غير مشوب بشائبة تنافي الخلوص أي: ليس ممن يتصلق بماله ليجازي بصنفته نعمة لأحد من الناس عنده ويكافئه عليها، وإنما يبتغي بصدقته وجه الله

عنه، وزاد فيه، فنزلت فيه هذه الآية: ﴿فَإِذَا مِنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى * وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾. وأخرج البزار، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، وابن مردويه، وابن عساکر عنه نحو هذا من وجه آخر. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿وَسَيَجْنِبُهَا الْآتِقَى﴾ قال: هو: أبو بكر الصديق.

تفسير سورة الضحى

وهي مكية بلا خلاف. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس: نزلت: ﴿وَالضُّحَى﴾ بمكة. وأخرج الحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب من طريق أبي الحسن المقرئ قال: سمعت عكرمة بن سليمان يقول: قرأت على إسماعيل بن قسطنطين، فلما بلغت: ﴿وَالضُّحَى﴾ قال: كبر حتى تخطم. وأخبره عبد الله بن كثير أنه قرأ على مجاهد، فأمره بذلك. وأخبره مجاهد أن ابن عباس أمره بذلك. وأخبره ابن عباس أن أبي بن كعب أمره بذلك. وأخبره أبي أن رسول الله ﷺ أمره بذلك. وأبو الحسن المقرئ المنكور هو أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي بزة المقرئ. قال ابن كثير: فهذه سنة تفرد بها أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله البري من ولد القاسم بن أبي بزة، وكان إماماً في القراءات. وأما في الحديث فقد ضعفه أبو حاتم الرازي وقال: لا أخذت عنه، وكذلك أبو جعفر العقيلي قال: هو منكر الحديث. قال ابن كثير: ثم اختلف القراء في موضع هذا التكبير، وكيفيته، فقال بعضهم: يكبر من آخر الليل إذا يغشى، وقال آخرون: من آخر الضحى. وكيفية التكبير عند بعضهم: أن يقول الله أكبر ويقتصر، ومنهم من يقول الله أكبر لا إله إلا الله الله أكبر. ونكروا في مناسبة التكبير من أول الضحى أنه لما تأخر الوحي عن رسول الله ﷺ، وفتر تلك المدة، ثم جاء الملك، فأوحى إليه: ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ [أي: سورة الضحى] السورة كبر فرحاً وسروراً، ولم يرووا ذلك بإسناد يحكم عليه بصحة ولا ضعف. وأخرج البخاري، ومسلم وغيرهما عن جنب البجلي قال: اشتكى النبي ﷺ فلم يقم ليلتين، أو ثلاثاً، فأتته امرأة فقالت: يا محمد ما أرى شيطانك إلا قد تركك لم يقربك ليلتين أو ثلاثاً، فأنزل الله: ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾. وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وسعيد بن منصور، وابن جرير، والطبراني، وابن مردويه عن جنب قال: أبطأ جبريل عن النبي ﷺ، فقال المشركون: قد ودَّعَ محمد، فنزلت: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ [الضحى: 3]. وأخرج الطبراني عن جنب قال: احتبس جبريل عن النبي ﷺ، فقالت بعض بنات عمه: ما أرى صاحبك إلا قد قلاك، فنزلت: والضحى. وأخرجه الترمذي وصححه، وابن أبي حاتم عن جنب، وفيه: فقالت له

فحكنتي بعض أهل بيتي أن هذه الآية نزلت فيه ﴿فَإِذَا مِنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾. وصنق بالحسنى * فسنيسر لليسرى. وأخرج عبد بن حميد، وابن مردويه، وابن عساکر عن ابن عباس في قوله: ﴿فَإِذَا مِنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾. وصنق بالحسنى قال: أبو بكر الصديق ﴿وَمَا مِنْ بَخْلٍ وَاسْتَفْنَى﴾. وكتب بالحسنى قال: أبو سفيان بن حرب. وأخرج البخاري، ومسلم، وأهل السنن، وغيرهم عن علي بن أبي طالب قال: «كنا مع النبي ﷺ في جنازة، فقال: ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة، ومقعده من النار، فقالوا: يا رسول الله أقلنا نكتل؟ قال: اعملوا، فكل ميسر لما خلق له؛ أما من كان من أهل السعادة، فييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاء، فييسر لعمل أهل الشقاء ثم قرأ: ﴿فَإِذَا مِنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾. وصنق بالحسنى إلى قوله: ﴿لِلْعَسْرَى﴾». وأخرج أحمد، ومسلم، وغيرهما عن جابر بن عبد الله: «أن سراقاً بن مالك قال: يا رسول الله في أي شيء نعمل؟ أي شيء ثبتت فيه المقادير، وجرت به الأقاليم، أم في شيء يستقبل فيه العمل؟ قال: بل في شيء ثبتت فيه المقادير، وجرت فيه الأقاليم، قال سراق: فقيم العمل إذن يا رسول الله؟ قال: اعملوا، فكل ميسر لما خلق له، وقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿فَإِذَا مِنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ إلى قوله: ﴿فَسَنِيْسِرُهُ لِلْعَسْرَى﴾». وقد تقدم حديث عمران بن حصين في السورة التي قبل هذه. وفي الباب أحاديث من طريق جماعة من الصحابة. وأخرج ابن جرير عن أبي هريرة قال: «لن تدخلن الجنة إلا من يابى، قالوا: ومن يابى أن يدخل الجنة؟ فقرأ: ﴿الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾». وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن أبي أمامة قال: لا يبقى أحد من هذه الأمة إلا أدخله الله الجنة، إلا من شرد على الله، كما يشرد البعير السوء على أهله، فمن لم يصدقني فإن الله يقول: ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾. كذب بما جاء به محمد ﷺ، وتولى عنه. وأخرج أحمد، والحاكم، والضياء عن أبي أمامة الباهلي أنه سئل عن أين كلمة سمعها من رسول الله ﷺ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا كلكم يدخل الله الجنة إلا من شرد على الله شراد البعير على أهله». وأخرج أحمد، وابن ماجه، وابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل النار إلا شقي». قيل: ومن الشقي؟ قال: الذي لا يعمل لله بطاعة، ولا يترك لله معصية». وأخرج أحمد، والبخاري عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أمي تدخل الجنة يوم القيامة إلا من أبى، قالوا: ومن يابى يا رسول الله؟ قال: من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى». وأخرج ابن أبي حاتم عن عروة أن أبا بكر الصديق أعتق سبعة كلهم يعذب في الله: بلال، وعامر بن فهيرة، والنهنية، وابنتها، وزنيرة، وأم عيسى، وأمة بني المؤمل، وفيه نزلت: ﴿وَسَيَجْنِبُهَا الْآتِقَى﴾ إلى آخر السورة. وأخرج الحاكم وصححه عن عامر بن عبد الله بن الزبير ما قدّمنا

قال الزجاج: وما أبغضك، وقال: وما قلّي، ولم يقل، وما قلاك لموافقة رؤوس الأي، والمعنى: وما أبغضك، ومنه قول امرئ القيس:

ولست بمقلّي الخلال ولا قلالي

﴿وللآخرة خير لك من الأولى﴾ السلام جواب قسم محنوف أي: الجنة خير لك من الدنيا، مع أنه ﷺ قد أوتي في الدنيا من شرف النبوة ما يصغر عنده كل شرف، ويتضاهل بالنسبة إليه كل مكرمة في الدنيا؛ ولكنها لما كانت الدنيا بأسرها مشوبة بالأكدار منغصة بالعوارض البشرية، وكانت الحياة فيها كاحلام نائم، أو كظل زائل لم تكن بالنسبة إلى الآخرة شيئاً؛ ولما كانت طريقاً إلى الآخرة، وسبباً لنيل ما أعدّه الله لعباده الصالحين من الخير العظيم بما يفعلونه فيها من الأعمال الموجبة للفوز بالجنة كان فيها خير في الجملة من هذه الحيثية ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ هذه اللام قيل هي لام الابتداء دخلت على الخبر لتأكيد مضمون الجملة، والمبتدأ محنوف تقديره، ولأنّ سوف يعطيك الخ، وليست للقسم؛ لأنها لا تدخل على المضارع إلا مع النون المؤكدة، وقيل: هي للقسم. قال أبو عليّ الفارسي: ليست هذه اللام هي التي في قولك: إن زيداً لقائم، بل هي التي في قولك لأقومنّ، ونابت سوف عن إحدى نوني التأكيد، فكأنه قال: وليعطيك. قيل المعنى: ولسوف يعطيك ربك الفتح في الدنيا والثواب في الآخرة، فترضى. وقيل: الحوض والشفاعة، وقيل: ألف قصر من لؤلؤ أبيض ترابه المسك، وقيل: غير ذلك. والظاهر أنه سبحانه يعطيه ما يرضى به من خيري الدنيا والآخرة، ومن أهمّ ذلك عنده، وأقدمه لديه قبول شفاعته لامته ﴿لم يجدك يتيماً فأوى﴾ هذا شروع في تعداد ما أفاضه الله سبحانه عليه من النعم أي: وجدك يتيماً لا أب لك، فأوى أي: جعل لك مأوى تآوي إليه، قرأ الجمهور (فأوى) بألف بعد الهمزة رباعياً، من أواه يؤويه، وقرأ أبو الأشهب (فأوى) ثلاثياً، وهو إما بمعنى الرباعي، أو هو من أوى له إذا رحمه. وعن مجاهد معنى الآية: لم يجدك واحداً في شرفك لا نظير لك، فأواك الله بأصحاب يحفظونك ويحوطنوك، فجعل يتيماً من قولهم درة يتيمة، وهو بعيد جداً، والهمزة لإنكار النفي، وتقرير المنفي على أبلغ وجه، فكأنه قال: قد وجدك يتيماً فأوى، والوجود بمعنى العلم، ويتيماً مفعوله الثاني، وقيل: بمعنى المصانفة، ويتيماً حال من مفعوله ﴿ووجدك ضالاً فهدى﴾ معطوف على المضارع المنفي، وقيل: هو معطوف على ما يقتضيه الكلام الذي قبله، كما ذكرنا أي: قد وجدك يتيماً فأوى، ووجدك ضالاً فهدى، والضلال هنا بمعنى الغفلة، كما في قوله: ﴿لا يضلّ ربي ولا ينسى﴾ [طه: 52] وكما في قوله: ﴿وإن كنت من قبله لمن الغافلين﴾ [يوسف: 3] والمعنى: أنه وجدك غافلاً عما يراد بك من أمر النبوة، واختار هذا الزجاج. وقيل: معنى ضالاً لم تكن تدري القرآن ولا الشرائع، فهداك لذلك. وقال الكلبي، والسدي، والفراء: وجدك في قوم ضلال،

امراً: ما أرى شيطانك إلا قد تركك، فنزلت: والضحي.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالضَّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَالْآخِرَةِ ﴿٤﴾ حَيْرَ لَكَ مِنَ الْأَوَّلِ ﴿٥﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرَىٰ ﴿٦﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٨﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١١﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١٢﴾

والمراد بالضحي هنا النهار كله، لقوله: ﴿والليل إذا سجي﴾ فلما قابل الضحي بالليل دلّ على أن المراد به النهار كله لا بعضه. وهو في الأصل اسم لوقت ارتفاع الشمس، كما تقدّم في قوله: ﴿والشمس وضحاها﴾ [الشمس: 1] والظاهر أن المراد به الضحي من غير تعيين. وقال قتادة، ومقاتل، وجعفر الصادق: إن المراد به الضحي الذي كلم الله فيه موسى، والمراد بقوله: ﴿والليل إذا سجي﴾ ليلة المعراج، وقيل: المراد بالضحي هو الساعة التي خرّ فيها السحرة سجداً، كما في قوله: ﴿وإن يحشر الناس ضحى﴾ [طه: 59] وقيل: المقسم به مضاف مقتر، كما تقدّم في نظائره أي: وربّ الضحي، وقيل تقديره: وضحاوة الضحي، ولا وجه لهذا، فله سبحانه أن يقسم بما شاء من خلقه. وقيل: الضحي نور الجنة، والليل ظلمة النار، وقيل: الضحي نور قلوب العارفين، والليل سواد قلوب الكافرين ﴿والليل إذا سجي﴾ أي: سكن، كذا قال قتادة، ومجاهد، وابن زيد، وعكرمة، وغيرهم: يقال: ليلة ساجية أي: ساكنة، ويقال للعين إذا سكن طرفها ساجية، يقال: سجا الشيء يسجو سجواً: إذا سكن. قال عطاء: سجا إذا غطي بالظلمة. وروى ثعلب عن ابن الأعرابي: سجا امتدّ ظلامه. وقال الأصمعي: سجو الليل تغطيته النهار، مثل ما يسجي الرجل بالثوب. وقال الحسن: غشي بظلامه. وقال سعيد بن جبير: أقبل. وقال مجاهد: أيضاً استوى، والأول أولى، وعليه جمهور المفسرين وأهل اللغة. ومعنى سكونه: استقرار ظلامه واستوائه، فلا يزداد بعد ذلك ﴿وما ودّعك ربك﴾ هذا جواب القسم أي: ما قطعك قطع المودّع. قرأ الجمهور (ما ودّعك) بتشديد الدال من التوديع، وهو توديع المفارق، وقرأ ابن عباس، وعروة بن الزبير، وابنه هاشم، وابن أبي عتبة، وأبو حيوه بتخفيفها، من قولهم ودعه أي: تركه، ومنه قول الشاعر:

سل أميري ما الذي غيره عن وصالي اليوم حتى ودّعه والتوديع أبلغ في الودع؛ لأن من ودّع مفارقاً، فقد بالغ في تركه. قال المبرد: لا يكابون يقولون ودع ولا ونر لضعف الواو إذا قدّمت، واستغنوا عنها بترك. قال أبو عبيدة: ودّع من التوديع، كما يودّع المفارق. وقال الزجاج: لم يقطع الوحي، وقد قدّمنا سبب نزول هذه الآية في فاتحة هذه السورة ﴿وما قلّي﴾ القلي البغض، يقال: قلاه يقلبه قلاء.

سبحانه بالتحث بنعم الله عليه، وإظهارها للناس، وإشهارها بينهم. والظاهر النعمة على العموم من غير تخصيص بفرد من أفرادها، أو نوع من أنواعها. وقال مجاهد، والكلي: المراد بالنعمة هنا القرآن. قال الكلي: وكان القرآن أعظم ما أنعم الله به عليه، فأمره أن يقرأه. قال الفراء: وكان يقرؤه ويحث به. وقال مجاهد أيضاً: المراد بالنعمة النبوة التي أعطاه الله. واختار هذا الزجاج فقال: أي: بلغ ما أرسلت به، وحث بالنبوة التي أتاك الله، وهي أجل النعم. وقال مقاتل: يعني: اشكر ما نكر من النعمة عليك في هذه السورة من الهدى بعد الضلالة، وجبر اليتيم، والإغناء بعد العيلة، فاشكر هذه النعم. والتحث بنعمة الله شكر، والجاء والمجور متعلق بحث، والفاء غير مانعة من تعلقه به، وهذه النواهي لرسول الله ﷺ هي نواه له ولائته؛ لأنهم أسوته، فكل فرد من أفراد هذه الأمة منهى بكل فرد من أفراد هذه النواهي.

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس: «والليل إذا سجي» قال: إذا أقبل. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه عنه: «إذا سجي» قال: إذا ذهب «وما ودعك ربك» قال: ما تركك «وما قلتي» قال: ما أبغضك. وأخرج الطبراني في الأوسط، والبيهقي في الدلائل عنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «عرض علي ما هو مفتوح لامتي بعدي، فأنزل الله: ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾». وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مريويه، والبيهقي، وأبو نعيم عنه أيضاً قال: «عرض على رسول الله ﷺ ما هو مفتوح على أمته من بعده، فسر بذلك، فأنزل الله: ﴿وَلَوْ سَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ فأعطاه في الجنة ألف قصر من لؤلؤ ترابه المسك في كل قصر ما ينبغي له من الأزواج والخدم». وأخرج البيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله: «وَلَوْ سَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى» قال: رضا أن يدخل أمته كلهم الجنة. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً في الآية قال: من رضا محمد أن لا يدخل أحد من أهل بيته النار. وأخرج الخطيب في التلخيص من وجه آخر عنه أيضاً في الآية قال: لا يرضى محمد، وأحد من أمته في النار، ويدل على هذا ما أخرجه مسلم عن ابن عمرو: «أن النبي ﷺ تلا قول الله في إبراهيم: ﴿فَمَنْ تَبِعْنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ [إبراهيم: 36] وقول عيسى: ﴿إِنْ تَعْبُدُونِي فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [المائدة: 118] الآية، فرغ يديه، وقال: اللهم امتي امتي، وبكى، فقال الله: يا جبريل اذهب إلى محمد فقل له: إنا سنرضيك في أمتك، ولا تسوؤك». وأخرج ابن المنذر، وابن مريويه، وأبو نعيم في الحلية من طريق حرب بن شريح قال: قلت لأبي جعفر محمد بن علي بن الحسين أرايت هذه الشفاعة التي يتحدث بها أهل العراق أحق هي؟ قال: إي والله. حدثني محمد بن الحنفية عن علي أن رسول الله ﷺ قال: «اشفع لامتي حتى ينابني ربي أرضيت يا محمد؟ فاقول: نعم يا رب رضيت، ثم أقبل علي فقال: إنكم تقولون يا معشر

فهداهم الله لك. وقيل: وجدك طالباً للقبلة، فهداك إليها، كما في قوله: «قد نرى قلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها» [البقرة: 144] ويكون الضلال بمعنى الطلب. وقيل: وجدك ضائعاً في قومك فهداك إليه، ويكون الضلال بمعنى الضياع. وقيل: وجدك محباً للهداية فهداك إليها، ويكون الضلال بمعنى المحبة، ومنه قول الشاعر:

عجباً لعزة في اختيار قطيعتي بعد الضلال فحبها قد أخلقا
وقيل: وجدك ضالاً في شعاب مكة، فهداك أي: ركب إلى جدك عبد المطلب «ووجدك عائلاً فاغني» أي: وجدك فقيراً لا مال لك فأغناك، يقال: عال الرجل يعيل عيلة إذا افتقر، ومنه قول أحيحة بن الجلاح:

فما يدري الفقير متى غناه وما يدري الغني متى يعيل
أي: يفتقر، قال الكلي: فاغني: أي رصاك بما أعطاك من الرزق، واختار هذا الفراء، قال: لأنه لم يكن غنياً من كثرة، ولكن الله سبحانه رضاه بما أتاه، وذلك حقيقة الغني. وقال الأخفش: عائلاً ذا عيال، ومنه قول جرير:

الله أنزل في الكتاب فريضة لابن السبيل، وللفقير العائل
وقيل: فاغني بما فتح لك من الفتوح، وفيه نظر؛ لأن السورة مكية، وقيل: بمال خبيجة بنت خويلد، وقيل: وجدك فقيراً من الحجج والبراهين، فأغناك بها. قرأ الجمهور (عائلاً) وقرأ محمد بن السميع، واليماني (عيلاً) بكسر الياء المشددة كسيد. ثم أوصاه سبحانه باليتامى والفقراء فقال: «فأما اليتيم فلا تقهر» أي: لا تقهره بوجه من وجوه التقهر كأنما ما كان. قال مجاهد: لا تحقر اليتيم، فقد كنت يتيماً. قال الأخفش: لا تسلط عليه بالظلم، انفع إليه حقه، وانكر يتمك. قال الفراء، والزجاج: لا تقهره على ماله، فتذهب بحقه لضعفه، وكذا كانت العرب تفعل في حق اليتامى تأخذ أموالهم، وتظلمهم حقوقهم، وكان رسول الله ﷺ يحسن إلى اليتيم، ويورثه، ويوصي باليتامى. قرأ الجمهور (فلا تقهر) بالقاف، وقرأ ابن مسعود، والنخعي، والشعبي، والأشهب العقيلي (تكهر) بالكاف. والعرب تعاقب بين القاف والكاف. قال النحاس: إنما يقال كهره: إذا اشتد عليه غلظ. وقيل: القهر الغلبة، والكهر الزجر. قال أبو حيان: هي لغة يعني قراءة الكاف مثل قراءة الجمهور، واليتيم منصوب بتقهر «وما للسائل فلا تنهر» يقال: ينهره وانتهره إذا استقبله بكلام يذجره، فهو نهى عن زجر السائل والإغلاظ له، ولكن يبذل له اليسير، أو يرده بالجميل. قال الواحدي: قال المفسرون: يريد السائل على الباب، يقول لا تنهره: إذا سالك فقد كنت فقيراً، فلما أن تطعمه، وإما أن ترده رداً ليناً. قال قتادة: معناه رد السائل برحمة ولين. وقيل: المراد بالسائل الذي يسأل عن الدين، فلا تنهره بالغلظة والجفوة، وأجبه برفق ولين، كذا قال سفيان، والسائل منصوب بتنهر، والتقدير: مهما يكن من شيء، فلا تقهر اليتيم، ولا تنهر السائل «وما بنعمة ربك فحدث» أمره

تفسير سورة الشرح

وهي مكية بلا خلاف. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مريويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت ﴿الم نشرح﴾ [أي: سورة الشرح] بمكة، وزاد: بعد الضحى. وأخرج ابن مريويه عن عائشة قالت: نزلت سورة ألم نشرح بمكة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۖ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۚ
ثَقَلَتْنَا ذُرِّيَّتُكَ ۚ وَذَكَّرْنَاكَ بِآيَاتِنَا ۖ إِنَّكَ مَعَ أَسَرِّ بَرٍّ ۚ
إِنَّا فَرَقْنَا فَانِيبًا ۖ وَلَكَ رَبٌّكَ ذَرْبًا ۚ

معنى شرح الصدر: فتحه بإذهاب ما يصد عن الإدراك والاستفهام إذا دخل على النفي قَرَرَهُ، فصار المعنى: قد شرحنا لك صدرك، وإنما خص الصدر؛ لأنه محل أحوال النفس من العلوم، والإدراكات، والمراد: الامتنان عليه ﷺ بفتح صدره، وتوسيعه حتى قام بما قال به من الدعوة، وقدر على ما قدر عليه من حمل أعباء النبوة، وحفظ الوحي، وقد مضى القول في هذا عند تفسير قوله: ﴿أقمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه﴾ [الزمر: 22] ﴿ووضعنا عنك وزرك﴾ معطوف على معنى ما تقدم، لا على لفظه أي: قد شرحنا لك صدرك، ووضعنا الخ، ومنه قول جرير يمدح عبد الملك بن مروان:

الستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح
أي: أنتم خير من ركب المطايا، وأندى الخ. قرأ الجمهور (نشرح) بسكون الحاء بالجزم، وقرأ أبو جعفر المنصور العباسي بفتحها. قال الزمخشري: قالوا لعله بين الحاء، وأشبعها في مخرجها، فظن السامع أنه فتحها. وقال ابن عطية: إن الأصل ألم نشرحن بالنون الخفيفة، ثم إبدالها ألفاً، ثم حنفاً تخفيفاً، كما أنشد أبو زيد:

من أي يومي من الموت أقر أيوم لم يقر أم يوم قدر
بفتح الراء من لم يقرر، ومثله قوله:

أضرب عنك الهموم طارقتها ضربك بالسيف قونس الفرس
بفتح الباء من أضرب، وهذا مبني على جواز توكيد المجزوم بلم، وهو قليل جداً كقوله:

يحسبه الجاهل ما لم يعلم شيخاً على كرسيه معهما
فقد تركبت هذه القراءة من ثلاثة أصول كلها ضعيفة: الأول توكيد المجزوم بلم، وهو ضعيف. الثاني إبدالها ألفاً، وهو خاص بالوقف، فإجراء الوصل مجرى الوقف ضعيف. والثالث حذف الألف، وهو ضعيف أيضاً؛ لأنه خلاف الأصل، وخرجها بعضهم على لغة بعض العرب الذين ينصبون بلم ويجزمون بلم، ومنه قول الشاعر:

أهل العراق إن أرجى آية في كتاب الله ﴿يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً﴾ [الزمر: 53] قلت: إننا لنقول ذلك، قال: فكنا أهل البيت نقول: إن أرجى آية في كتاب الله: ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ وهي الشفاعة. وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿إننا أهل البيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا، ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾. وأخرج العسكري في المواعظ، وابن مريويه، وابن النجار عن جابر بن عبد الله قال: «دخل رسول الله ﷺ على فاطمة، وهي تطحن بالرحى، وعليها كساء من جلد الإبل، فلما نظر إليها قال: يا فاطمة تعجلي مرارة الدنيا بنعيم الآخرة، فأنزل الله: ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾». وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مريويه، والبيهقي، وأبو نعيم، وابن عساکر عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «سألت ربي مسألة وبدت أني لم أكن سألته، قلت: قد كنت قبلي أنبياء منهم من سخرت له الريح، ومنهم من كان يحيي الموتى، فقال تعالى: يا محمد ألم أجعلك يتيماً، فأوتيتك؟ ألم أجعلك ضالاً، فهديتك؟ ألم أجعلك عائلاً، فأغنيتك؟ ألم أشرح لك صدرك؟ ألم أضع عنك وزرك؟ ألم أرفع لك نكرتك؟ قلت بلى يا رب». وأخرج ابن مريويه عن ابن عباس قال: «لما نزلت: ﴿والضحى﴾ على رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ: يميني ربي وأهل أن يميني ربي». وأخرج ابن مريويه عنه في قوله: ﴿ووجحك ضالاً فهدي﴾ قال: وجحك بين الضالين، فاستنقذك من ضاللتهم. وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن بن علي في قوله: ﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾ قال: ما علمت من الخير. وأخرج ابن أبي حاتم عنه في الآية قال: إذا أصبت خيراً، فحدث إخوانك. وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد المسند، والبيهقي في الشعب، والخطيب في المتفق، قال السيوطي بسند ضعيف عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ على المنبر: «من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله، والتحدث بنعمة الله شكر، وتركها كفر، والجماعة رحمة». وأخرج أبو داود، والترمذي وحسنه، وأبو يعلى، وابن حبان، والبيهقي، والضياء عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ قال: «من أبلى بلاء فذكره فقد شكره، وإن كتمه فقد كفره». وأخرج البخاري في الأدب، وأبو داود، والضياء عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أعطى عطاء فوجد، فليجز به، فإن لم يجد فليثن به. فمن أثنى به فقد شكره، ومن كتمه فقد كفره، ومن تحلى بما لم يعط فإنه كلابس ثوبي زور». وأخرج أحمد، والطبراني في الأوسط، والبيهقي عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «من أولى معروفاً فليكافئ به، فإن لم يستطع فليذكره، فإن من نكره، فقد شكره».

قول حسان:

اغتر عليه للنسبة خاتم من الله مشهور يلوح، ويشهد
وضم الإله اسم النبي مع اسمه إذا قال في الخمس المؤنن أشهد
وشق له من اسمه ليحمله فلو العرش محمود، وهذا محمد

﴿فإن مع العسر يسراً﴾ أي: إن مع الضيقة سعة،
ومع الشدة رخاء، ومع الكرب فرج. وفي هذا وعد منه
سبحانه بأن كل عسير يتيسر، وكل شديد يهون، وكل
صعب يلين. ثم زاد سبحانه هذا الوعد تقريراً وتأكيذاً،
فقال: مكرراً له بلفظ ﴿إن مع العسر يسراً﴾ أي: إن مع
ذلك العسر المنكور سابقاً يسراً آخر لما تقرّر من أنه إذا
أعيد المعرّف يكون الثاني عين الأوّل سواء كان المراد به
الجنس أو العهد، بخلاف المنكر إذا أعيد، فإنه يراد بالثاني
فرد مغاير لما أريد بالفرد الأوّل في الغالب، ولهذا قال
النبي ﷺ في معنى هذه الآية: «لن يغلب عسر يسرين» قال
الواحدي: وهذا قول النبي ﷺ والصحابه والمفسرين على
أن العسر واحد، واليسر اثنان. قال الزجاج: نكر العسر مع
الالف واللام ثم ثني نكره، فصار المعنى: إن مع العسر
يسرين. قيل، والتثني في اليسر للتفخيم والتعظيم، وهو في
مصحف ابن مسعود غير مكرّر. قرأ الجمهور بسكون السين
في العسر، واليسر في الموضعين. وقرأ يحيى بن وثاب،
وأبو جعفر، وعيسى بضمها في الجميع ﴿فإنذا فرغت
فانصب﴾ أي: إذا فرغت من صلاتك، أو من التبليغ، أو من
الغزو، فانصب أي: فاجتهد في الدعاء، واطلب من الله حاجتك،
أو فانصب في العبادة، والنصب التعب، يقال: نصب ينصب
نصباً أي: تعب. قال قتادة، والضحاك، والكلبي: إذا
فرغت من الصلاة المكتوبة، فانصب إلى ربك في الدعاء،
وارغب إليه في المسألة يعطك، وكذا قال مجاهد. قال
الشعبي: إذا فرغت من التشهد، فادع لدنياك وآخرتك، وكذا
قال الزهري. وقال الكلبي أيضاً: إذا فرغت من تبليغ الرسالة
فانصب أي: استغفر لذنبك، وللمؤمنين والمؤمنات. وقال
الحسن، وقاتدة: إذا فرغت من جهاد عدوك، فانصب لعبادة
ربك. وقال مجاهد أيضاً: إذا فرغت من دنياك، فانصب في
صلاتك ﴿والى ربك فارغب﴾ قال الزجاج: أي: اجعل رغبتك
إلى الله وحده. قال عطاء: يريد أنه يضمر إليه راهباً من
النار، راغباً في الجنة، والمعنى: أنه يرغب إليه سبحانه لا إلى
غيره كائناً من كان، فلا يطلب حاجاته إلاّ منه، ولا يعول في
جميع أموره إلاّ عليه. قرأ الجمهور (فارغب) وقرأ زيد بن
علي، وابن أبي عتبة (فرغب) بتشديد الفين: أي: فرغب
الناس إلى الله، وشوقهم إلى ما عنده من الخير.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن
ابن عباس في قوله: ﴿الم نشرح لك صدرك﴾ قال: شرح الله
صدره للإسلام. وأخرج أبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر،
وابن أبي حاتم، وابن حبان، وابن مردويه، وأبو نعيم في
الدلائل عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «أتاني

في كل ما هم أمضى رأيه قمنا ولم يشاورني إقدامه أحداً
بمنصب الرأى من يشاور، وهذه اللغة لبعض العرب ما
أظنها تصح، وإن صححت، فليست من اللغات المعتمدة، فإنها
جاءت بعكس ما عليه لغة العرب بأسرها. وعلى كل حال،
فقراءة هذا الرجل مع شدة جوره، ومزيد ظلمه، وكثرة
جبروته، وقلة علمه ليس بحقيقة بالاشتغال بها. والوزر:
الذنب أي وضعنا عنك ما كنت فيه من أمر الجاهلية. قال
الحسن، وقاتدة، والضحاك، ومقاتل: المعنى حططنا عنك
الذي سلف منك في الجاهلية، وهذا كقوله: ﴿ليغفر لك الله ما
تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ [الفتح: 2] ثم وصف هذا الوزر
فقال: ﴿الذي أنقض ظهرك﴾ قال المفسرون: أي: أثقل
ظهرك. قال الزجاج: أثقله حتى سمع له نقيض: أي: صوت،
وهذا مثل معناه: أنه لو كان حملاً يحمل لسمع نقيض ظهره،
وأهل اللغة يقولون: أنقض الحمل ظهر الناقة: إذا سمع له
صريه، ومنه قول جميل:

وحتى تداعت بالنقيض حباله وهمت ثواني زوره أن تحطما
وقول العباس بن مرداس:

وانقض ظهري ما تطويت منهم وكنت عليهم مشفقاً متحنناً

قال قتادة: كان للنبي ﷺ ذنوب قد أثقلتها فغفرها الله له،
وقوم يذهبون إلى أن هذا تخفيف أعباء النبوة التي تثقل
الظهر من القيام بأمرها سهل الله ذلك عليه حتى تيسرت له:
وكذا قال أبو عبيدة وغيره وقرأ ابن مسعود (وحللنا عنك
وقرك) ثم نكر سبحانه منته عليه وكرامته فقال: ﴿ورفعنا
لك نورك﴾ قال الحسن: وذلك أن الله لا ينكر في موضع إلاّ
نكر معه ﷺ. قال قتادة: رفع الله نكره في الدنيا والآخرة،
فليس خطيب، ولا متشهد، ولا صاحب صلاة إلاّ ينادي،
فيقول: أشهد أن لا إله إلاّ الله أشهد أن محمداً رسول الله.
قال مجاهد: ﴿ورفعنا لك نورك﴾ يعني: بالتأنيين. وقيل
المعنى: نكرناك في الكتب المنزلة على الأنبياء قبله،
وأمرناهم بالبشارة به، وقيل: رفعنا نورك عند الملائكة في
السماء، وعند المؤمنين في الأرض. والظاهر أن هذا الرفع
لنكره الذي امتنّ الله به عليه يتناول جميع هذه الأمور، فكل
واحد منها من أسباب رفع الذكر، وكذلك أمره بالصلاة
والسلام عليه، وإخباره ﷺ عن الله عز وجل أن من صلى
عليه، وأحداً صلى الله عليه بها عشراً، وأمر الله بطاعته
كقوله: ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾ [النور: 54] وقوله:
﴿وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾
[الحشر: 7] وقوله: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني
يحبيبكم الله﴾ [آل عمران: 31] وغير ذلك. وبالجمله فقد ملأ
نكره الجليل السموات والأرضين، وجعل الله له من لسان
الصدق، والذكر الحسن، والثناء الصالح ما لم يجعله لأحد
من عباده ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل
العظيم﴾ [الحديد: 21] اللهم صل وسلم عليه وعلى آله عدد
ما صلى عليه المصلون بكل لسان في كل زمان، وما أحسن

قال: أنزلت سورة التين بمكة. وأخرج ابن مريويه عن ابن الزبير مثله. وأخرج البخاري، ومسلم، وأهل السنن، وغيرهم عن البراء بن عازب قال: «كان النبي ﷺ في سفر فصلى العشاء، فقرأ في إحدى الركعتين ﴿التين والزيتون﴾ [أي: سورة التين]. فما سمعت أحداً أحسن صوتاً، ولا قراءة منه». وأخرج الخطيب عنه قال: «صليت مع رسول الله ﷺ المغرب، فقرأ: ﴿التين والزيتون﴾». وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف، وعبد بن حميد في مسنده، والطبراني عن عبد الله بن يزيد: «أن النبي ﷺ قرأ في المغرب، ﴿التين والزيتون﴾». وأخرج ابن قانع، وابن السكن، والشيرازي في الانقلاب عن زرة بن خليفة قال: «أتيت النبي ﷺ من اليمامة، فعرض علينا الإسلام، فأسلمنا، فلما صلينا الغداة قرأ ﴿التين والزيتون﴾، و﴿إننا أنزلناه في ليلة القدر﴾ [أي: سورة القدر].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالزَّيْتُونَ ① وَالزَّيْتُونَ ② وَلَوْ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ③ لَقَدْ عَلَّمْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ④ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ⑤ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا الْفَوَاحِشَ حَقْبَةً ⑥ أَمْرٌ عَزِيزٌ ⑦ مَن يَكُذِّبْكَ بَعْدَ الْإِذْنِ ⑧ أَتَى اللَّهُ بِكَ لَكَيْبًا ⑨

قال أكثر المفسرين: هو التين الذي يأكله الناس ﴿وَالزَّيْتُونَ﴾ الذي يعصرون منه الزيت، وإنما أقسم بالتين؛ لأنه فاكهة مخلصة من شوائب التنغيص، وفيها أعظم عبرة لدالتها على من هياها لذلك، وجعلها على مقدار اللقمة. قال كثير من أهل الطب: إن التين أنفع الفواكه للبدن، وأكثرها غذاء، ونكروا له فوائد، كما في كتب المفردات والمركبات، وأما الزيتون، فإنه يعصر منه الزيت الذي هو إدام غالب البلدان ودهنهم، ويخل في كثير من الأدوية. وقال الضحاك: التين المسجد الحرام، والزيتون المسجد الأقصى. وقال ابن زيد: التين مسجد دمشق، والزيتون مسجد بيت المقدس؛ وقال قتادة: التين الجبل الذي عليه دمشق، والزيتون الجبل الذي عليه بيت المقدس. وقال عكرمة، وكعب الأحبار: التين دمشق، والزيتون بيت المقدس.

وليت شعري ما الحامل لهؤلاء الأئمة على العدول عن المعنى الحقيقي في اللغة العربية، والعدول إلى هذه التفسيرات البعيدة عن المعنى، المبنية على خيالات لا ترجع إلى عقل ولا نقل. وأعجب من هذا اختيار ابن جرير للآخر منها مع طول باعه في علم الرواية والدراية. قال الفراء: سمعت رجلاً يقول: التين جبال حلوان إلى همدان، والزيتون جبال الشام. قلت: هب أنك سمعت هذا الرجل، فكان ماذا؟ فليس بمثل هذا تثبت اللغة، ولا هو نقل عن الشارع. وقال محمد بن كعب: التين مسجد أصحاب الكهف، والزيتون مسجد إيلياء، وقيل: إنه على حنف مضاف أي: ومنابت التين والزيتون. قال النحاس: لا دليل على هذا من ظاهر التنزيل،

جبريل فقال: إن ربك يقول: تدري كيف رفعت نكرتك؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: إذا نكرت نكرت معي» وإسناد ابن جرير هكذا: حدثني يونس أخيرنا ابن وهب، أخبرنا عمرو بن الحارث عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد. وأخرجه أبو يعلى من طريق ابن لهيعة عن دراج. وأخرجه ابن أبي حاتم من طريق يونس بن عبد الأعلى به. وأخرج ابن عساكر من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ نُكْرَكَ﴾ الآية قال: لا ينكر الله إلا نكر معه. وأخرج البزار، وابن أبي حاتم، والطبراني في الأوسط، والحاكم، وابن مريويه، والبيهقي في الشعب عن أنس قال: «كان النبي ﷺ جالساً، وحياه جحر، فقال: «العسر لو دخل العسر هذا الجحر لجاء اليسر حتى يدخل عليه فيخرجه. فأنزل الله: ﴿إِنْ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرٌ * إِنْ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرٌ﴾، ولفظ الطبراني: «وتلا رسول الله ﷺ ﴿فَإِنْ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرٌ * إِنْ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرٌ﴾». وأخرج ابن النجار عنه مرفوعاً نحوه. وأخرج الطبراني، وابن مريويه عنه أيضاً مرفوعاً نحوه. قال السيوطي، وسنده ضعيف. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا في الصبر، وابن المنذر، والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود مرفوعاً: «لو كان العسر في جحر لتبعه اليسر حتى يدخل فيه، فيخرجه، وإن يغلب عسر يسرين إن الله يقول: ﴿إِنْ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرٌ * إِنْ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرٌ﴾، قال البزار: لا نعلم رواه عن أنس إلا عائذ بن شريح. قال فيه أبو حاتم الرازي: في حديثه ضعف، ولكن رواه شعبة عن معاوية بن قرة عن رجل عن عبد الله بن مسعود. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، والحاكم، والبيهقي عن الحسن قال: خرج رسول الله ﷺ يوماً فرحاً مسروراً وهو يضحك، ويقول: «لن يغلب عسر يسرين». ﴿إِنْ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرٌ * إِنْ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرٌ﴾، وهذا مرسل. وروي نحوه مرفوعاً مرسلًا عن قتادة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه من طرق عن ابن عباس في قوله: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ الآية قال: إذا فرغت من الصلاة فانصبت في الدعاء، واسأل الله، وارغب إليه. وأخرج ابن مريويه عنه قال: قال الله لرسوله: إذا فرغت من الصلاة وتشهنت، فانصب إلى ربك واسأله حاجتك. وأخرج ابن أبي الدنيا في الذكر عن ابن مسعود: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ إلى الدعاء ﴿وَالِى رِبِكَ فَارْغَبْ﴾ في المسألة. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ قال: إذا فرغت من الفرائض، فانصب في قيام الليل.

تفسير سورة التين

وهي مكية في قول الجمهور. وروى القرطبي عن ابن عباس أنها مبنية، ويخالف هذه الرواية ما أخرجه ابن الضريس، والنحاس، وابن مريويه، والبيهقي عن ابن عباس

فلا مانع من كون الكفار، والمنافقين مجتمعين في ذلك البرك الأسفل، وقوله: ﴿أسفل سافلين﴾ إما حال من المفعول أي: رديناه حال كونه أسفل سافلين، أو صفة لمقدر محذوف: أي: مكاناً أسفل سافلين ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ هذا الاستثناء على القول الأول منقطع: أي لكن الذين آمنوا إلخ، ووجهه أن الهرم والرد إلى أرذل العمر يصاب به المؤمن، كما يصاب به الكافر، فلا يكون لاستثناء المؤمنين على وجه الاتصال معنى. وعلى القول الثاني يكون الاستثناء متصلاً من ضمير رديناه، فإنه في معنى الجمع أي: ردنا الإنسان أسفل سافلين من النار ﴿إلا الذين آمنوا، وعملوا الصالحات﴾ [العصر: 3] ﴿فلهم أجر غير ممنون﴾ أي: غير مقطوع أي: فلهم ثواب دائم غير منقطع على طاعاتهم؛ فهذه الجملة على القول الأول مبنية لكيفية حال المؤمنين، وعلى القول الثاني مقررة لما يفيد الاستثناء من خروج المؤمنين عن حكم الرد، وقال: أسفل سافلين على الجمع؛ لأن الإنسان في معنى الجمع، ولو قال: أسفل سافل لجاز؛ لأن الإنسان باعتبار اللفظ واحد. وقيل: معنى رديناه أسفل سافلين: رديناه إلى الضلال، كما قال: ﴿إن الإنسان لفي خسر﴾ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات. [العصر: 2، 3] أي: إلا هؤلاء، فلا يردون إلى ذلك: ﴿فما يكذبك بعد بالدين﴾ الخطاب للإنسان الكافر، والاستفهام للتقريع والتوبيخ، وإلزام الحجة أي: إذا عرفت أيها الإنسان أن الله خلقك في أحسن تقويم، وأنه يردك أسفل سافلين، فما يحملك على أن تكذب بالبعث والجزاء؟ وقيل: الخطاب للنبي ﷺ أي: أي شيء يكذب يا محمد بعد ظهور هذه الدلائل الناطقة، فاستيقن مع ما جاءك من الله أنه أحكم الحاكمين. قال الفراء، والأخفش: المعنى فمن يكذبك أيها الرسول بعد هذا البيان بالدين، كانه قال: من يقدر على ذلك؟ أي: على تكذيب بالثواب والعقاب بعد ما ظهر من قدرتنا على خلق الإنسان ما ظهر، واختار هذا ابن جرير. والدين الجزء، ومنه قول الشاعر:

نأتما كما كانت أوائلنا دانت أوائلهم من سالف الزمن
وقال الآخر:

ولما صرح الشر فأمسى وهو عريان
ولم يبق سوى العدا نأمام كما دانوا

﴿ليس الله بأحكم الحاكمين﴾ أي: ليس الذي فعل ما فعل مما نكرنا بأحكم الحاكمين صنعا وتبيرا؟ حتى تتروهم عدم الإعادة والجزاء، وفيه وعيد شديد للكفار، ومعنى: أحكم الحاكمين: اتقن الحاكمين في كل ما يخلق، وقيل: أحكم الحاكمين قضاء وعدلاً. والاستفهام إذا دخل على النفي صار الكلام إيجاباً، كما تقدّم تفسير قوله: ﴿الم نشرح لك صدرك﴾ [الشرح: 1].

وقد أخرج الخطيب، وابن عساكر قال السيوطي بسند فيه مجهول عن الزهري عن أنس قال: لما أنزلت سورة التين

ولا من قول من لا يجوز خلافه ﴿وطور سينين﴾ هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى اسمه الطور، ومعنى سينين: المبارك الحسن بلغة الحبشة قاله قتادة. وقال مجاهد: هو المبارك بالسريانية. وقال مجاهد، والكلبي: سينين كل جبل فيه شجر مثمر فهو سينين، وسيناء بلغة النبط. قال الأخفش: طور جبل، وسينين شجر، وأحنته سينة. قال أبو علي الفارسي: سينين، فعليل، فكثرت اللام التي هي نون فيه، ولم ينصرف سينين، كما لم ينصرف سيناء؛ لأنه جعل اسماً للبقعة، وإنما أقسم بهذا الجبل؛ لأنه بالشام، وهي الأرض المقدسة، كما في قوله: ﴿إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله﴾ [الإسراء: 1] وأعظم بركة حلت به، ووقعت عليه تكليم الله لموسى عليه. قرأ الجمهور (سينين) بكسر السين، وقرأ ابن إسحاق، وعمر بن ميمون، وأبو رجاء بفتحها، وهي لغة بكر وتميم. وقرأ عمر بن الخطاب، وابن مسعود، والحسن، وطلحة (سيناء) بالكسر والمد ﴿وهذا للبلد الأمين﴾ يعني: مكة، سماه آميناً؛ لأنه آمن، كما قال: ﴿إنا جعلنا حرمًا آمناً﴾ [العنكبوت: 67] يقال آمن الرجل أمانة فهو أمين. قال الفراء وغيره: الأمين بمعنى الآمن، ويجوز أن يكون، فعلاً بمعنى مفعول من آمنه؛ لأنه مأمون الغوائل ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ هذا جواب القسم أي: خلقنا جنس الإنسان كائنًا في أحسن تقويم وتعديل. قال الواحدي: قال المفسرون: إن الله خلق كل ذي روح مكباً على وجهه إلا الإنسان، خلقه مديد القامة يتناول ماكوله بيده، ومعنى التقويم: التعديل، يقال: قومته، فاستقام. قال القرطبي: هو اعتداله واستواء شأنه، كذا قال عامة المفسرين. قال ابن العربي: ليس الله تعالى خلق أحسن من الإنسان، فإن الله خلقه حياً عالماً قادراً مريداً متكلاً سمياً بصيراً منبهاً حكماً، وهذه صفات الرب سبحانه، وعليها حمل بعض العلماء قوله ﷺ ﴿إن الله خلق آدم على صورته﴾، يعني: على صفاته التي تقدم ذكرها. قلت: وينبغي أن يضم إلى كلامه هذا قوله سبحانه: ﴿ليس كمثله شيء﴾ [الشورى: 11] وقوله: ﴿ولا يحيطون به علماً﴾ [طه: 110] ومن أراد أن يقف على حقيقة ما اشتمل عليه الإنسان من بديع الخلق، وعجيب الصنع، فليتنظر في كتاب [العبر والاعتبار] للجاحظ، وفي الكتاب الذي عقده النيسابوري على قوله: ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾ [الذاريات: 21] وهو في مجلدين ضخمين ﴿ثم رديناه أسفل سافلين﴾ أي: رديناه إلى أرذل العمر، وهو الهرم، والضعف بعد الشباب، والقوة حتى يصير كالصبي، فيخرف وينقص عقله، كذا قال جماعة من المفسرين. قال الواحدي: والسافلون هم: الضعفاء، والزمناء، والأطفال، والشيخ الكبير أسفل هؤلاء جميعاً. وقال مجاهد، وأبو العالية، والحسن: المعنى ثم ردنا الكافر إلى النار، وذلك أن النار درجات بعضها أسفل من بعض، فالكافر يرد إلى أسفل الدرجات السافلة، ولا ينافي هذا قوله تعالى: ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار﴾ [النساء: 145]

والزيتون ﴿فقرا﴾ **﴿اليس الله باحكم الحاكمين﴾** فليقل: بلى، وأنا على ذلك من الشاميين» وأخرج ابن مريويه عن جابر مرفوعاً «إذا قرأت **﴿التين والزيتون﴾** فقرات: **﴿اليس الله باحكم الحاكمين﴾** فقل بلى». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس أنه كان إذا قرأ: **﴿اليس الله باحكم الحاكمين﴾** قال: سبحانك اللهم فبلى اهـ.

تفسير سورة العلق

وهي مكية بلا خلاف، وهي أول ما نزل من القرآن. وأخرج ابن مريويه عن طريق عن ابن عباس قال: أول ما نزل من القرآن **﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾** [أي: سورة العلق]. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن الضريس، وابن الأنباري، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مريويه، وأبو نعيم في الحلية عن أبي موسى الأشعري قال: **﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾** أول سورة أنزلت على محمد. وأخرج ابن جرير، والحاكم وصححه، وابن مريويه، والبيهقي وصححه عن عائشة قالت: إن أول ما نزل من القرآن: **﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾** ويدل على أن هذه السورة أول ما نزل الحديث الطويل الثابت في البخاري، ومسلم وغيرهما من حديث عائشة، وفيه: «فجاء الحق وهو في غار حراء، فقال له اقرأ» الحديث، وفي الباب أحاديث، وأثار عن جماعة من الصحابة. وقد ذهب الجمهور إلى أن هذه السورة أول ما نزل من القرآن.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَكُنْ ⑤ عَلَّامًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِكَفَرٍ ⑥ أَذْهَبَ أَشَقُّ ⑦ إِنَّ لَكَ رَبَّهُ الْأَشْمُسُ ⑧ أَذْيَتَ الْآلَى بَنَى ⑨ بَنَى إِذَا صَلَّى ⑩ أَذْيَتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْفَلَكَ ⑪ أَوْ أَمَرَ بِالْقَوْى ⑫ أَذْيَتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَكَّى ⑬ أَلَمْ يَكُنْ أَنْ لَكَ رَحْمَةً ⑭ كَلَّا لَمْ يَكُنْ لَكَ رَحْمَةً ⑮ نَاصِيَةً كَذِبًا خَالِفًا ⑯ فَلْيَعْنِ نَاصِيَةً ⑰ سَنَعُ الْآيَاتِ ⑱ كَلَّا لَا تُلْمَعُ ⑲ وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ⑳

قرأ الجمهور (اقرأ) بسكون الهمزة أمراً من القراءة. وقرأ عاصم في رواية عنه بفتح الراء، وكأنه قلب الهمزة الفاء ثم حذفها للأمر، والأمر بالقراءة يقتضي مقروءاً، فالتقدير: اقرأ ما يوحى إليك، أو ما نزل عليك، أو ما أمرت بقراءته، وقوله: **﴿باسم ربك﴾** متعلق بمحذوف هو حال أي: اقرأ ملتبساً باسم ربك، أو مبتدئاً باسم ربك، أو مفتتحاً، ويجوز أن تكون الباء زائدة، والتقدير: اقرأ لسم ربك كقول الشاعر:

سود المحاجر لا يقران بالسور

قاله أبو عبيدة. وقال أيضاً: الاسم صلة أي: اذكر ربك. وقيل الباء بمعنى على، أي: اقرأ على اسم ربك، يقال افعل

والزيتون على رسول الله ﷺ فرحاً شديداً حتى تبين لنا شدة فرحه، فسالنا ابن عباس عن تفسيرها فقال: التين بلاد الشام، والزيتون بلاد فلسطين، وطور سيناء الذي كلم الله عليه موسى وهذا البلد الأمين مكة: **﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾** محمداً **﴿ثم رددناه أسفل سافلين﴾** عبدة اللات والعزى: **﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون﴾** أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي: **﴿فما يكتكب بعد بالدين﴾** **﴿اليس الله باحكم الحاكمين﴾** إذ بعثك فيهم نبياً، وجمعك على التقوى يا محمد، ومثل هذا التفسير من ابن عباس لا تقوم به حجة لما تقدم من كون في إسناده ذلك المجهول.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مريويه عن ابن عباس في قوله: **﴿والتين والزيتون﴾** قال: مسجد نوح الذي بني على الجودي، والزيتون قال: بيت المقدس: **﴿وطور سينين﴾** قال: مسجد الطور **﴿وهذا البلد الأمين﴾** قال: مكة **﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾** ثم رددناه أسفل سافلين يقول: يرد إلى أرذل العمر كبير حتى ذهب عقله، هم نفر كانوا على عهد رسول الله ﷺ، ففسل رسول الله ﷺ حين سفهت عقولهم، فأنزل الله عنهم أن لهم أجرهم الذي عملوا قبل أن تذهب عقولهم: **﴿فما يكتكب بعد بالدين﴾** يقول: بحكم الله. وأخرج ابن مريويه عنه نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عنه أيضاً **﴿والتين والزيتون﴾** قال: الفاكهة التي ياكلها الناس **﴿وطور سينين﴾** قال: الطور الجبل، والسينين المبارك. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: سينين هو الحسن. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه عنه أيضاً: **﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾** قال: في أعدل خلق: **﴿ثم رددناه أسفل سافلين﴾** يقول: إلى أرذل العمر: **﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون﴾** يعني غير منقوص، يقول فإذا بلغ المؤمن أرذل العمر، وكان يعمل في شبابه عملاً صالحاً كتب له من الأجر مثل ما كان يعمل في صحته وشبابه ولم يضره ما عمل في كبره، ولم تكتب عليه الخطايا التي يعمل بعد ما يبلغ أرذل العمر. وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس قال: من قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر، وذلك قوله: **﴿ثم رددناه أسفل سافلين﴾** **﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾** قال: لا يكون حتى لا يعلم من بعد علم شيئاً. وأخرج ابن أبي حاتم عنه **﴿ثم رددناه أسفل سافلين﴾** يقول: إلى الكبر وضعفه، فإذا كبر وضعف عن العمل كتب له مثل أجر ما كان يعمل في شبابه. وأخرج أحمد، والبخاري، وغيرهما عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ «إذا مرض العبد، أو سافر كتب الله له من الأجر مثل ما كان يعمل صحيحاً مقيماً». وأخرج الترمذي، وابن مريويه عن أبي هريرة مرفوعاً «من قرأ **﴿التين**

كذا بسم الله، وعلى اسم الله قاله الأخفش. وقيل: الباء للاستعانة أي: مستعيناً باسم ربك، ووصف الرب بقوله: **﴿الذي خلق﴾** لتذكير النعمة لأن الخلق هو أعظم النعم، وعليه يترتب سائر النعم. قال الكلبي: يعني الخلاق **﴿خلق الإنسان من علق﴾** يعني بني آدم، والعلقة الدم الجامد، وإذا جرى فهو المسفوح. وقال: من علق بجمع علق؛ لأن المراد بالإنسان الجنس، والمعنى: خلق جنس الإنسان من جنس العلق، وإذا كان المراد بقوله: **﴿الذي خلق﴾** كل المخلوقات، فيكون تخصيص الإنسان بالذكر تشريفاً له لما فيه من بديع الخلق، وعجيب الصنع، وإذا كان المراد بالذي خلق الذي خلق الإنسان فيكون الثاني تفسيراً للأول. والنكتة ما في الإبهام، ثم التفسير من التفات الذهن وتطلعه إلى معرفة ما أبهم أولاً، ثم فسر ثانياً. ثم كرر الأمر بالقراءة للتأكيد والتقرير، فقال: **﴿اقرأ وربك الأكرم﴾** أي: افعل ما أمرت به من القراءة، وجملة: **﴿وربك الأكرم﴾** مستأنفة لإزاحة ما اعتذر به **﴿من قوله: «ما أنا بقارئ»** يريد أن القراءة شأن من يكتب ويقرأ وهو أمي، فقيل له: اقرأ، وربك الذي أمرك بالقراءة هو الأكرم. قال الكلبي: يعني الحليم عن جهل العباد، فلم يعجل بعقوبتهم، وقيل: إنه أمره بالقراءة أولاً لنفسه، ثم أمره بالقراءة ثانياً للتبليغ، فلا يكون من باب التأكيد، والأول أولى **﴿الذي علم بالقلم﴾** أي: علم الإنسان الخط بالقلم، فكان بواسطة ذلك يقدر على أن يعلم كل مكتوب. قال الزجاج: علم الإنسان الكتابة بالقلم. قال قتادة: القلم نعمة من الله عز وجل عظيمة، لولا ذلك لم يقيم دين، ولم يصلح عيش، فدل على كمال كرمه بأنه علم عباده ما لم يعلموا، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ونبه على فضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة التي لا يحيط بها إلا هو، وما بؤنت العلوم، ولا قيدت الحكم، ولا ضببطت أخبار الأولين ومقالاتهم، ولا كتب الله المنزل إلا بالكتابة، ولولا هي ما استقامت أمور الدين، ولا أمور الدنيا، وسمي قلماً لأنه يقلم أي: يقطع **﴿علم الإنسان ما لم يعلم﴾** هذه الجملة بدل اشتمال من التي قبلها أي: علمه بالقلم من الأمور الكلية والجزئية ما لم يعلم به منها، قيل: المراد بالإنسان هنا آدم كما في قوله: **﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾** [البقرة: 31] وقيل: الإنسان هنا رسول الله **﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾** والأولى حمل الإنسان على العموم، والمعنى: أن من علمه الله سبحانه من هذا الجنس بواسطة القلم فقد علمه ما لم يعلم، وقوله: **﴿كلا﴾** ردع وزجر لمن كفر نعم الله عليه بسبب طغيانه وإن لم يتقدم له ذكر، ومعنى **﴿إن الإنسان ليطغى﴾** أنه يجاوز الحد، ويستكبر على ربه. وقيل: المراد بالإنسان هنا أبو جهل، وهو المراد بهذا، وما بعده إلى آخر السورة، وأنه تأخر نزول هذا وما بعده عن الخمس الآيات المنكورة في أول هذه السورة. وقيل: **﴿كلا﴾** هنا بمعنى حقاً قاله الجرجاني، وعلل ذلك بأنه ليس قبله ولا بعده شيء يكون كلا رداً له، وقوله: **﴿إن رآه استغنى﴾** علة ليطغى: أي ليطغى أن رأى نفسه مستغنياً،

والرؤية هنا بمعنى العلم، ولو كانت البصرية لامتنع الجمع بين الضميرين في فعلها لشيء واحد لأن ذلك من خواص باب علم، ونحوه. قال الفراء: لم يقل رأى نفسه كما قيل قتل نفسه لأن رأى من الأفعال التي تريد اسماً وخبراً نحو الظن والحسبان فلا يقتصر فيه على مفعول واحد، والعرب تطرح النفس من هذا الجنس تقول: رأيتني وحسبتي، ومتى ترك خارجاً، ومتى تظنك خارجاً، قيل: والمراد هنا أنه استغنى بالعشيرة والأنصار والأموال. قرأ الجمهور (أن رآه) بمد الهزة. وقرأ قنبل عن ابن كثير بقصرها. قال مقاتل: كان أبو جهل إذا أصاب مالا زاد في ثيابه، ومركبه، وطعامه، وشرايه، فنلك طفياته، وكذا قال الكلبي. ثم هدد سبحانه وخوف، فقال: **﴿إن إلى ربك الرجعى﴾** أي: المرجع، والرجعى والمرجع والرجوع مصادر، يقال: رجع إليه مرجعاً ورجوعاً ورجعى، وتقدم الجار والمجرور للقصر أي: الرجعى إليه سبحانه لا إلى غيره **﴿أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى﴾** قال المفسرون: الذي ينهى أبو جهل، والمراد بالعبد محمد **﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾**، وفيه تقبيح لصنعه، وتشنيع لفعله حتى كأنه بحيث يراه كل من تتأتى منه الرؤية **﴿أرأيت إن كان على الهدى﴾** يعني العبد المنهى إذا صلى، وهو محمد **﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾** أو **﴿أمر بالتقوى﴾** أي: بالإخلاص والتوحيد، والعمل الصالح الذي تتقي به النار **﴿أرأيت إن كذب وتولى﴾** يعني أبا جهل، كذب بما جاء به رسول الله **﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾**، وتولى عن الإيمان، وقوله: **﴿أرأيت﴾** في الثلاثة المواضع بمعنى أخبرني لأن الرؤية لما كانت سبباً للإخبار عن المرئي أجرى الاستفهام عنها مجرى الاستفهام عن متعلقها، والخطاب لكل من يصلح له. وقد ذكر هنا أرأيت ثلاث مرات، وصرح بعد الثالث منها بجملة استفهامية، فتكون في موضع المفعول الثاني لها، ومفعولها الأول محذوف، وهو ضمير يعود على الذي ينهى الواقع مفعولاً أولاً لأرأيت الأولى، ومفعول أرأيت الأولى الثاني محذوف، وهو جملة استفهامية كالجملة الواقعة بعد أرأيت الثانية، وأما أرأيت الثانية فلم يذكر لها مفعول لا أول، ولا ثاني، حذف الأول لدلالة مفعول أرأيت الثالثة عليه فقد حذف الثاني من الأولى، والأول من الثالثة، والاثنان من الثانية، وليس طلب كل من رأيت للجملة الاستفهامية على سبيل التنازع؛ لأنه يستدعي إضماراً، والجمل لا تضر، إنما تضر المفردات، وإنما ذلك من باب الحذف للدلالة، وأما جواب الشرط المذكور مع أرأيت في الموضعين الآخرين فهو محذوف تقديره: إن كان على الهدى، أو أمر بالتقوى: **﴿لم يعلم بأن الله يرى﴾** وإنما حذف لدلالة نكره في جواب الشرط الثاني، ومعنى: **﴿لم يعلم بأن الله يرى﴾** أي: يطلع على أحواله، فيجازيه بها، فكيف اجترأ على ما اجترأ عليه؟ والاستفهام للتقريع والتوبيخ، وقيل: أرأيت الأولى مفعولها الأول الموصول، ومفعولها الثاني الشرطية الأولى بجوابها المحذوف المندرج عليه بالمتنكر، وأرأيت في الموضعين تكرير للتأكيد، وقيل كل واحدة من أرأيت بدل من

كَرَّرَ الردع والزجر فقال: ﴿كَلَّا لَا تَطْعَمُهُ﴾ أي: لا تطعمه فيما دعاك إليه من ترك الصلاة: ﴿وَأَسْجُدْ﴾ أي: صَلِّ لَهْ غير مَكْتَرَّثَ بِهِ، وَلَا مِبَالٍ بِنَهْيِهِ: ﴿وَأَقْتَرِبْ﴾ أي: تَقَرَّبْ إِلَيْهِ سَبْحَانَهُ بِالطَّاعَةِ وَالْعِبَادَةِ، وَقِيلَ الْمَعْنَى: إِذَا سَجَدْتَ اقْتَرِبَ مِنْ اللَّهِ بِالدَّعَاءِ. وَقَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ: وَأَسْجُدَ أَنْتَ يَا مُحَمَّدُ، وَأَقْتَرِبْ أَنْتَ يَا أَبَا جَهْلٍ مِنَ النَّارِ، وَالْأَوَّلُ أَوْلَى. وَالسُّجُودُ هَذَا الظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ الصَّلَاةَ، وَقِيلَ سَجُودَ التَّلَاوَةِ، وَيَدُلُّ عَلَى هَذَا مَا ثَبِتَ عَنْهُ ﷺ مِنَ السُّجُودِ عِنْدَ تِلَاوَةِ هَذِهِ الْآيَةِ، كَمَا سَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وأبو نعيم في الدلائل عن عبد الله بن شداد قال: «أتى جبريل محمداً ﷺ فقال: يا محمد اقرا. فقال: وما اقرا؟ فضمه ثم قال: يا محمد اقرا، قال: وما اقرا؟ قال: ﴿اقرا باسم ربك الذي خلق﴾ حتى بلغ: ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾». وفي الصحيحين: وغيرهما من حديث عائشة «فجاءه الملك، فقال: اقرا، فقال: قلت ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرا، فقلت: ما أنا بقارئ، فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرا، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد فقال: ﴿اقرا باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرا وربك الأكرم * الذي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾». الآية. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، والبخاري، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي عن ابن عباس قال: قال أبو جهل: لئن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لأطأن عنقه، فبلغ النبي ﷺ فقال: «لو فعل لأخذته الملائكة عياناً»، وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، والترمذي وصححه، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي عنه قال: «كان النبي ﷺ يصلي، فجاء أبو جهل فقال: ألم أنهك عن هذا؟ إنك لتعلم أن ما بها رجل أكثر نادياً مني، فأنزل الله ﴿فليدع ناديه * سندع الزبانية﴾» فجاء النبي ﷺ يصلي، فقيل: ما يمنعك؟ فقال: قد أسود ما بيني وبينه». قال ابن عباس: والله لو تحرك لأخذته الملائكة والناس ينظرون إليه. وأخرج أحمد، ومسلم، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي عن أبي هريرة قال: قال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ قالوا: نعم، قال: واللآلئ والعزى لئن رأيت يصلي كذلك لأطأن على رقبته، ولأعفرن وجهه في التراب فاتى رسول الله ﷺ وهو يصلي ليطأن على رقبته، قال: فما فجئهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيده، فقيل له مالك؟ فقال: إن بيني وبينه خندقاً من نار وهولاً وأجنحة، فقال رسول الله ﷺ: «لو دنا مني لأخطفته الملائكة عضواً عضواً». قال: وأنزل الله: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّا﴾. أن رآه استغنى. إلى آخر السورة: يعني أبا جهل ﴿فليدع ناديه﴾ يعني قومه ﴿سندع الزبانية﴾ يعني الملائكة، وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿أرأيت الذي ينهى﴾

الأولى، و: ﴿لَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ الخير. قوله ﴿كَلَّا﴾ ردع للناس، واللام في قوله: ﴿لَنْ لَمْ يَنْتَه﴾ هي الموطئة للقسم أي: والله لئن لم ينته عما هو عليه ولم ينزجر ﴿لنفسعاً بالناصية﴾ السفع الجذب الشديد، والمعنى: لنأخذُ بناصيته، ولنجرئه إلى النار وهذا كقوله: ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: 41] ويقال سفعت الشيء: إذا قبضته وجذبه، ويقال: سفع بناصية فرسه. قال الراغب: السفع الأخذ بسفعة الفرس أي: بسواد ناصيته، وباعتبار السواد قيل: به سفعة غضب اعتباراً بما يعلو من اللون البخاني وجه من اشتد به الغضب، وقيل للصفير أسفع لما فيه من لمع السواد، وامرأة سفعاء اللون انتهى، وقيل: هو مأخوذ من سفع النار والشمس: إذا غيرت وجهه إلى سواد. ومنه قول الشاعر:

أنا في سفعا في معرّس مرجل

وقوله: ﴿ناصية﴾ بدل من الناصية، وإنما أبدل النكرة من المعرفة لوصفها بقوله: ﴿كأنه خاطئة﴾ وهذا على مذهب الكوفيين فإنهم لا يجيزون إبدال النكرة من المعرفة بلا شرط وصفها، وأما على مذهب البصريين، فيجوز إبدال النكرة من المعرفة، وأنشدوا:

فلا وأبيك خير منك إنني ليؤنيني التحمحم والصهيل
قرأ الجمهور بجرّ (ناصية كأنه خاطئة) والوجه ما ذكرنا. وقرأ الكسائي في رواية عنه برفعها على إضمار مبتدأ أي: هي ناصية، وقرأ أبو حيو، وابن أبي عبيدة، وزيد بن علي بنصيبها على الذم. قال مقاتل: أخبر عنه بأنه فاجر خاطئ، فقال: ناصية كأنه خاطئة، تأويلها: صاحبها كاتب خاطئ: ﴿فليدع ناديه﴾ أي: أهل ناديه، والنادي: المجلس الذي يجلس فيه القوم، ويجتمعون فيه من الأهل والعشيرة؛ والمعنى: ليدع عشيرته وأهله ليعينوه وينصروه، ومنه قول الشاعر:

واستب بعك يا كليب المجلس

أي: أهله. قيل: إن أبا جهل قال لرسول الله ﷺ: أتتهنّدي وأنا أكثر الوادي نادياً؟ فنزلت: ﴿فليدع ناديه * سندع الزبانية﴾ أي: الملائكة الغلاظ الشداد، كذا قال الزجاج. قال الكسائي، والأخفش وعيسى بن عمر: واحدهم زابن، وقال أبو عبيدة: زبينة، وقيل زباني، وقيل: هو اسم للجمع لا واحد له من لفظه كعبايد وأبائيل. وقال قتادة: هم الشرط في كلام العرب، وأصل الزبن الدفع، ومنه قول الشاعر:

ومستعجب مما يرى من أناتنا ولو زبنته الحرب لم يترمرم
والعرب تطلق هذا الاسم على من اشتد بطشه، ومنه قول الشاعر:

مطاعيم في القصى مطاعين في الوغى زبانية غلب عظام حلومها
قرأ الجمهور (سندع) بالنون، ولم ترسم الواو، كما في قوله: ﴿يوم يدع الداع﴾ [القمر: 6] وقرأ ابن أبي عبيدة (سيدع) على البناء للمفعول، ورفع الزبانية على النية. ثم

شهر قال كثير من المفسرين أي: العمل فيها خير من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر، واختار هذا الفراء، والزجاج، ولك أن الأوقات إنما يفضل بعضها على بعض بما يكون فيها من الخير والنفع، فلما جعل الله الخير الكثير في ليلة كانت خيراً من ألف شهر لا يكون فيها من الخير والبركة ما في هذه الليلة. وقيل: أراد بقوله ألف شهر جميع الدهر؛ لأن العرب تذكر الألف في كثير من الأشياء على طريق المبالغة. وقيل: وجه نكر الألف الشهر أن العابد كان فيما مضى لا يسمى عابداً حتى يعبد الله ألف شهر، وذلك ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر، فجعل الله سبحانه لامة محمد عبادة ليلة خيراً من عبادة ألف شهر كانوا يعبدونها. وقيل: إن النبي ﷺ رأى أعمار أمته قصيرة، فخاف أن لا يبلغوا من العمل مثل ما بلغ غيرهم في طول العمر، فأعطاه الله ليلة القدر وجعلها خيراً من ألف شهر لسائر الأمم، وقيل: غير ذلك مما لا طائل تحته، وجملة:

﴿تَنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ مستأنفة مبينة لوجه فضلها موضحة لليلة التي صارت بها خيراً من ألف شهر، وقوله: **﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾** يتعلق بتنزل، أو بمحذوف، هو حال، أي: ملتبسين بإذن ربهم، والإذن الأمر، ومعنى تنزل: تهبط من السموات إلى الأرض. والروح هو جبريل عند جمهور المفسرين: أي: تنزل الملائكة ومعهم جبريل، ووجه نكره بعد دخوله في الملائكة التعظيم له والتشريف لشأنه. وقيل الروح صنف من الملائكة هم أشرافهم، وقيل هم جند من جنود الله من غير الملائكة، وقيل: الروح الرحمة، وقد تقدم الخلاف في الروح عند قوله: **﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾** [النبا: 38] قرأ الجمهور (تنزل) بفتح التاء، وقرأ طلحة بن مصرف، وابن السميع بضمها على البناء للمفعول، وقوله: **﴿مَنْ كُلُّ أَمْرٍ﴾** أي: من أجل كل أمر من الأمور التي قضى الله بها في تلك السنة، وقيل: إن من بمعنى اللام أي: لكل أمر، وقيل: هي بمعنى الباء أي: بكل أمر، قرأ الجمهور (أمر) وهو واحد الأمور، وقرأ علي، وابن عباس، وعكرمة، والكلبي (امرئ) مذكر امرأة أي: من أجل كل إنسان، وتولها الكلبي على أن جبريل ينزل مع الملائكة، فيسلمون على كل إنسان، فمن على هذا بمعنى على، والأول أولى. وقد تم الكلام عند قوله من كل أمر، ثم ابتداء فقال: **﴿سَلَامٌ هِيَ﴾** أي: ما هي إلا سلامة وخير كلها لا شر فيها، وقيل هي ذات سلامة من أن يؤثر فيها شيطان في مؤمن أو مؤمنة. قال مجاهد: هي ليلة سالمة لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءاً ولا أذى. وقال الشعبي: هو تسليم الملائكة على أهل المساجد من حين تغيب الشمس إلى أن يطلع الفجر يمزون على كل مؤمن ويقولون السلام عليك أيها المؤمن، وقيل: يعني سلام الملائكة بعضهم على بعض. قال عطاء: يريد سلام على أولياء الله، وأهل طاعته: **﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾** أي: حتى وقت طلوعه. قرأ الجمهور (مطلع) بفتح اللام. وقرأ الكسائي، وابن محيصن بكسرها، فقيل: هما

عبد إذا سلى: قال: أبو جهل بن هشام حين رمى رسول الله ﷺ بالسلى على ظهره وهو ساجد لله عز وجل. وأخرج ابن المنذر عنه في قوله: **﴿لِنَسْفَعُ﴾** قال: لنأخذن. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً **﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾** قال: ناصره، وقد قلنا أن النبي ﷺ كان يسجد في: **﴿إِذَا الْمَسَاءُ انشَقَّتْ﴾** [الإنشقاق: 1] وفي: **﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾**.

تفسير سورة القدر

وهي مكية عند أكثر المفسرين. كذا قال الماوردي. وقال الثعلبي: هي: منية في قول أكثر المفسرين، وذكر الواقدي أنها أول سورة نزلت بالمدينة. وأخرج ابن مريويه عن ابن عباس، وابن الزبير، وعائشة أنها نزلت بمكة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ۝ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ۝

الضمير في أنزلناه للقرآن، وإن لم يتقدم له نكر، أنزل جملة واحدة في ليلة القدر إلى سماء الدنيا من اللوح المحفوظ، وكان ينزل على النبي ﷺ نجوماً على حسب الحاجة، وكان بين نزول أوله وآخره على رسول الله ﷺ ثلاث وعشرون سنة، وفي آية أخرى **﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مَبَارَكَةٍ﴾** [السخان: 3] وهي: ليلة القدر؛ وفي آية أخرى **﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾** [البقرة: 185] وليلة القدر في شهر رمضان. قال مجاهد: في ليلة القدر ليلة الحكم: **﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾** ليلة الحكم، قيل سميت ليلة القدر لأن الله سبحانه يقرّر فيها ما شاء من أمره إلى السنة القابلة. وقيل: إنها سميت بذلك لعظيم قدرها وشرفها، من قولهم: لفلان قدر أي: شرف ومنزلة، كذا قال الزهري. وقيل: سميت بذلك لأن للطاعات فيها قدراً عظيماً، وثولاً جزيلاً. وقال الخليل: سميت ليلة القدر؛ لأن الأرض تضيق فيها بالملائكة، كقوله: **﴿وَمَنْ قَدَرِ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾** [الطلاق: 7] أي ضيق.

وقد اختلف في تعيين ليلة القدر على أكثر من أربعين قولاً، قد نكرناها بالبتها، وبيننا الراجح منها في شرحنا للمنتقى: **﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾** هذا الاستفهام فيه تفخيم لشأنها حتى كأنها خارجة عن رتبة الخلق لا يدرك بها إلا الله سبحانه. قال سفيان: كل ما في القرآن من قوله: وما أدراك، فقد أدراه، وكل ما فيه وما يدريك، فلم يدركه، وكذا قال الفراء. والمعنى: أي شيء تجعله دارياً بها؟ وقد قلنا الكلام في إعراب هذه الجملة في قوله: **﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾** [الحاقة: 3] ثم قال: **﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ**

تفسير سورة البينة

وهي مندية في قول الجمهور، وقيل: مكية. وأخرج ابن مريويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة ﴿لم يكن﴾ [أي: سورة البينة] بالمدينة. وأخرج ابن مريويه عن عائشة قالت: نزلت سورة لم يكن بمكة. وأخرج أبو نعيم في المعرفة عن إسماعيل بن أبي حكيم المزني، حدثني فضل، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يستمع قراءة ﴿لم يكن﴾ الذين كفروا» فيقول: أبشر عبيدي، وعزتي، وجلالي، لا يمكن لك في الجنة حتى ترضى» قال ابن كثير: حديث غريب جداً. وأخرجه أبو موسى المديني عن مطر المزني، أو المديني بنحوه. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ لأبي بن كعب: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك ﴿لم يكن﴾ الذين كفروا» قال: وسماي لك؟ قال: نعم، فبكى. وأخرج أحمد، وابن قانع في معجم الصحابة، والطبراني، وابن مريويه عن أبي حية البديري قال: «لما نزلت ﴿لم يكن﴾ الذين كفروا من أهل الكتاب» إلى آخرها قال جبريل: يا رسول الله إن ربك يأمرك أن تقرئها أبياً، فقال النبي ﷺ لأبي: إن جبريل أمرني أن أقرأك هذه السورة، فقال أبي: وقد نكرت ثم يا رسول الله؟ قال: نعم، فبكى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَرَبِّكَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ عَنْ تَابِعِهِمْ
الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَمَوْا مِنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتِبَ قِسْمَةٌ ﴿٣﴾
وَمَا تَفَرَّقُوا الَّذِينَ أَوْفُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَيْنِهِمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي
الْأَفْئِدَةِ ﴿٤﴾ اللَّهُ يَخْتِمْ لَهَ الَّذِينَ خَفَلَتْ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ
دِينُ الْقِسْمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ
جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ مَجْرَى
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْ ذَلِكَ لِمَنْ حَسِبَ
رَبَّهُ ﴿٨﴾

المراد بـ «الذين كفروا من أهل الكتاب» اليهود، والنصارى، و﴿١﴾ المراد بـ «المشركين» مشركو العرب، وهم عبدة الأوثان، و «منفكين» خبر كان، يقال فككت الشيء فانفك: أي انفصل، والمعنى: أنهم لم يكونوا مفارقين لكفرهم، ولا منتهين عنه «حتى تأتيهم البينة» وقيل: الانفكاك بمعنى الانتهاء وبلوغ الغاية أي: لم يكونوا يبلغون نهاية أعمارهم، فيموتوا حتى تأتيهم البينة، وقيل: منفكين زائلين أي: لم تكن منتهم، لتزول حتى تأتيهم البينة، يقال ما انفك فلان قائماً أي: ما زال قائماً، وأصل الفك الافتح، ومنه فك الخخال، وقيل: منفكين بارحين أي: لم يكونوا ليبرحوا أو يفارقوا الدنيا حتى تأتيهم البينة. وقال ابن كيسان: المعنى

لغتان في المصدر، والفتح أكثر نحو المخرج والمقتل، وقيل: بالفتح اسم مكان، وبالكسر المصدر، وقيل: العكس، وحتى متعلقة يتنزل على أنها غاية لحكم التنزل أي: لمكتهم في محل تنزلهم بأن لا ينقطع تنزلهم فجاً بعد فوج إلى طلوع الفجر، وقيل متعلقة بسلام بناءً على أن الفصل بين المصدر، ومعموله بالمتبداً مفتقر.

وقد أخرج ابن الضريس، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مريويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس في قوله: ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾ قال: أنزل القرآن في ليلة القدر حتى وضع في بيت العزة في السماء الدنيا، ثم جعل جبريل ينزل على محمد ﷺ بجواب كلام العباد وأعمالهم. وأخرج عبد بن حميد عن أنس قال: العمل في ليلة القدر، والصدقة، والصلاة، والزكاة أفضل من ألف شهر. وأخرج الترمذي وضعفه، وابن جرير، والطبراني، والحاكم، وابن مريويه، والبيهقي في الدلائل عن الحسن بن علي بن أبي طالب أن النبي ﷺ أري بني أمية على منبره، فسأه ذلك، فنزلت: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ [الكوثر: 1] يا محمد يعني نهراً في الجنة، ونزلت ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾ وما أدراك ما ليلة القدر * ليلة القدر خير من ألف شهر * يملكها بعنك بنو أمية. قال القاسم: فعدنا فإذا هي ألف شهر لا تزيد يوماً، ولا تنقص يوماً، والمراد بالقاسم هو القاسم بن الفضل المذكور في إسناده. قال الترمذي: إن يوسف هذا مجهول، يعني يوسف بن سعد الذي رواه عن الحسن بن علي. قال ابن كثير: فيه نظر، فإنه قد روى عنه جماعة: منهم حماد بن سلمة، وخالد الحذاء، ويونس بن عبيد. وقال فيه يحيى بن معين هو مشهور. وفي رواية عن ابن معين قال: هو ثقة، ورواه ابن جرير من طريق القاسم بن الفضل عن عيسى بن مازن. قال ابن كثير، ثم هذا الحديث على كل تقدير منكر جداً. قال المزي: هو حديث منكر، وقول القاسم بن الفضل إنه حسب مدة بني أمية فوجدها ألف شهر لا تزيد، ولا تنقص ليس بصحيح، فإن جملة منتهم من عند أن استقل بالملك معاوية، وهي ستة أربعين إلى أن سلبهم الملك بنو العباس، وهي ستة اثنين وثلاثين ومائة مجموعها اثنتان وتسعون سنة. وأخرج الخطيب في تاريخه عن ابن عباس نحو ما روي عن الحسن بن علي. وأخرج الخطيب عن سعيد بن المسيب مرفوعاً مرسلًا نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن مريويه، عن ابن عباس في قوله: ﴿سلام﴾ قال: في تلك الليلة تصفد مردة الشياطين، وتغل عفاريت الجن، وتفتح فيها أبواب السماء كلها، ويقبل الله فيها التوبة لكل تائب، فلذا قال: ﴿سلام هي حتى مطلع الفجر﴾ قال: وذلك من غروب الشمس إلى أن يطلع الفجر، والأحاديث في فضل ليلة القدر كثيرة، وليس هذا موضع بسطها، وكذلك الأحاديث في تعيينها، والاختلاف في ذلك.

والتقدير: يتلو صحفاً مطهرة منزلة من الله، وقوله: ﴿يَتْلُو صَحْفاً مطهرة﴾ يجوز أن تكون صفة أخرى لرسول، أو حالاً من متعلق الجار والمجرور قبله. ومعنى يتلو: يقرأ، يقال تلا يتلو تلاوة، والصحف جمع صحيفة، وهي ظرف المكتوب، ومعنى مطهرة: أنها منزلة من الزور والضلال. قال قتادة: مطهرة من الباطل، وقيل: مطهرة من الكذب، والشبهات، والكفر، والمعنى واحد؛ والمعنى: أنه يقرأ ما تتضمنه الصحف من المكتوب فيها؛ لأنه كان ﷺ يتلو عن ظهر قلبه، لا عن كتاب كما تقدم، وقوله: ﴿فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ﴾ صفة لصحفاً، أو حال من ضميرها، والمراد الآيات، والأحكام المكتوبة فيها، والقيمة المستقيمة المستوية المحكمة، من قول العرب: قام الشيء: إذا استوى وصح. وقال صاحب النظم: الكتب بمعنى الحكم كقوله: ﴿كُتِبَ الله لا غلبنا أنا ورسلي﴾ [المجادلة: 21] أي: حكم، وقوله ﷺ في قصة العسيف: «لا قضين بينكما بكتاب الله» ثم قضى بالرجم، وليس الرجم في كتاب الله، فالمعنى: لا قضين بينكما بحكم الله، وبهذا يندفع ما قيل: إن الصحف هي الكتب، فكيف قال ﴿صَحْفاً مطهرة﴾ فيها كتب قيمة؟ وقال الحسن: يعني: بالصحف المطهرة التي في السماء، يعني في اللوح المحفوظ، كما في قوله: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ﴾ في لوح محفوظ. [البروج: 21، 22] ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ﴾ هذه الجملة مستأنفة لتوبيخ أهل الكتاب وتقريرهم، وبيان أن ما نسب إليهم من عدم الانفكاك لم يكن لاشتباه الأمر، بل كان بعد وضوح الحق، وظهور الصواب. قال المفسرون: لم يزل أهل الكتاب مجتمعين حتى بعث الله محمداً، فلما بعث تفرقوا في أمره واختلفوا، فأمن به بعضهم، وكفر آخرون. وخص أهل الكتاب، وإن كان غيرهم مثلهم في التفرق بعد مجيء البينة؛ لأنهم كانوا أهل علم، فإذا تفرقوا كان غيرهم ممن لا كتاب له أنخل في هذا الوصف، والاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ بَعْدَ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ﴾ مفرغ من أعم الأوقات: أي: وما تفرقوا في وقت من الأوقات إلا من بعد ما جاءتهم الحجة الواضحة، وهي: بعثة رسول الله ﷺ بالشريعة الغراء، والمحجة البيضاء، وقيل البينة: البيان الذي في كتبهم أنه نبي مرسل كقوله: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ [آل عمران: 19] قال القرطبي: قال العلماء: من أول السورة إلى قوله: ﴿كُتِبَ قِيمَةٌ﴾ حكمها فيمن آمن من أهل الكتاب والمشركون، وقوله: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ﴾ إلخ فيمن لم يؤمن من أهل الكتاب والمشركون بعد قيام الحجج، وجملة: ﴿وَمَا أَمَرُوا إِلَّا لِيُعْبَدُوا الله﴾ في محل نصب على الحال مفيدة؛ لتقريرهم وتوبيخهم بما فعلوا من التفرق بعد مجيء البينة أي: والحال أنهم ما أمروا في كتبهم إلا لأجل أن يعبدوا الله، ويوحده حال كونهم ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: جاعلين دينهم خالصاً له سبحانه، أو جاعلين أنفسهم خالصة له في الدين، وقيل: إن اللام في ليعبدوا بمعنى أن، أي: ما أمروا إلا

لم يكن أهل الكتاب تاركين صفة محمد ﷺ حتى بعث، فلما بعث حسدوه وجحدوه، وهو كقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة: 89] وعلى هذا فيكون قوله: ﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾ أنهم ما كانوا يسيئون القول في محمد ﷺ حتى بعث، فإنهم كانوا يسمونه الأمين، فلما بعث عانوه وأسأوا القول فيه. وقيل: ﴿مُتَفَكِّينَ﴾ هالكين، من قولهم: انفك صلبه: أي: انفصل، فلم يلتزم فيهلك، والمعنى: لم يكونوا معذبين، ولا هالكين إلا بعد قيام الحجة عليهم. وقيل: إن المشركين هم أهل الكتاب، فيكون وصفاً لهم؛ لأنهم قالوا المسيح ابن الله، وعزير ابن الله. قال الواحدي: ومعنى الآية: إخبار الله تعالى عن الكفار أنهم لن ينتهوا عن كفرهم، وشركهم بالله حتى آتاهم محمد ﷺ بالقرآن، فبين لهم ضلالتهم وجهالتهم، ودعاهم إلى الإيمان، وهذا بيان عن النعمة، والانتقاد به من الجهل والضلالة، والآية فيمن آمن من الفريقين. قال: وهذه الآية من أصعب ما في القرآن نظماً وتفسيراً، وقد تخبط فيها الكبار من العلماء، وسلكوا في تفسيرها طرقاً لا تفضي بهم إلى الصواب. والوجه ما أخبرتك، فاحمد الله إذ أتاك بيانها من غير لبس ولا إشكال. قال: ويدل على أن البينة محمد ﷺ أنه فسرها وأبدل منها فقال: ﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صَحْفاً مطهرة﴾ يعني: ما تتضمنه الصحف من المكتوب فيها، وهو القرآن، ويدل على ذلك أنه كان يتلو عن ظهر قلبه، لا عن كتاب انتهى كلامه. وقيل: إن الآية حكاية لما كان يقوله أهل الكتاب والمشركون إنهم لا يفارقون دينهم حتى يبعث النبي الموعود به، فلما بعث تفرقوا، كما حكاها الله عنهم في هذه السورة. والبينة على ما قاله الجمهور هو: محمد ﷺ؛ لأنه في نفسه بينة وحجة، ولذلك سماه سراجاً منيراً، وقد فسر الله سبحانه هذه البينة المجملة بقوله: ﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ﴾ فاتضح الأمر، وتبين أنه المراد بالبينة. وقال قتادة، وابن زيد: البينة هي القرآن كقوله: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الْكِتَابِ الْأُولَى﴾ [طه: 133] وقال أبو مسلم: المراد بالبينة مطلق الرسل، والمعنى: حتى تأتيهم رسل من الله، وهم الملائكة يتلون عليهم صحفاً مطهرة، والأول أولى قرأ الجمهور (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركون) وقرأ ابن مسعود (لم يكن المشركون وأهل الكتاب) قال ابن العربي: وهي قراءة في معرض البيان، لا في معرض التلاوة. وقرأ الأعمش، والنخعي: والمشركون بالرفع عطفاً على الموصول. وقرأ أبي (فما كان الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركون) قرأ الجمهور (رسول من الله) برفع رسول على أنه بدل كل من كل مبالغة، أو بدل اشتغال. قال الزجاج: رسول رفع على البديل من البينة. وقال الفراء: رفع على أنه خبر مبتدأ مضمرة أي: هي رسول، أو هو رسول. وقرأ أبي، وابن مسعود (رسولاً) بالنصب على القطع، وقوله: ﴿مَنْ اللَّهُ﴾ متعلق بمحذوف هو صفة لرسول أبي: كائن من الله، ويجوز تعلقه بنفس رسول، وجوز أبو البقاء أن يكون حالاً من صحف،

ثوابهم عند خالقهم بمقابلة ما وقع منهم من الإيمان، والعمل الصالح ﴿جَنّاتٌ عِدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ والمراد بجَنّاتِ عدن هي أوسط الجنّات وأفضلها، يقال عدن بالمكان يعدن عدناً أي: أقام، ومعدن الشيء: مركزه ومستقرّه، ومنه قول الأعشى:

وإن يتضاعفوا إلى علمه يضاعفوا إلى راجح قد عدن
وقد قُئِمنا في غير موضع أنه إن أريد بالجنّات الأشجار الملتفة، فجريان الأنهار من تحتها ظاهر، وإن أريد مجموع قرار الأرض والشجر، فجري الأنهار من تحتها باعتبار جزئها الظاهر، وهو الشجر ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ لا يخرجون منها، ولا يظعنون عنها، بل هم دائمون في نعميها مستمرّون في لذاتها ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ الجملة مستأنفة لبيان ما تفضل الله به عليهم من الزيادة على مجردّ الجزاء، وهو رضوانه عنهم حيث أطاعوا أمره، وقبلوا شرائعه، ورضاهم عنه حيث بلغوا من المطالب ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ويجوز أن تكون الجملة خبراً ثانياً، وأن تكون في محل نصب على الحال بإضمار قد ﴿لَكُمْ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ أي: تلك الجزاء والرضوان لمن وقعت منه خشية الله سبحانه في الدنيا، وانتهى عن معاصيه بسبب تلك الخشية التي وقعت له لا مجردّ الخشية مع الانهماك في معاصي الله سبحانه، فإنها ليست بخشية على الحقيقة.

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿مَنْفُكِينَ﴾ قال: برحين. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال: اتعجبون من منزلة الملائكة من الله، والذي نفسي بيده لمنزلة العبد المؤمن عند الله يوم القيامة أعظم من منزلة ملك، وأقروا إن شئتم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَؤُلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾. وأخرج ابن مرويّه عن عائشة قالت: «قلت يا رسول الله من أكرم الخلق على الله؟ قال: يا عائشة أما تقرّين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَؤُلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾». وأخرج ابن عسّاكر عن جابر بن عبد الله قال: كنا عند النبي ﷺ، فأقبل عليّ، فقال النبي ﷺ: والذي نفسي بيده إن هذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة، ونزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَؤُلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ فكان أصحاب محمد ﷺ إذا أقبل قالوا: قد جاء خير البرية. وأخرج ابن عدي، وابن عسّاكر عن أبي سعيد مرفوعاً: «علي خير البرية». وأخرج ابن مرويّه عن ابن عباس قال: «لما نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَؤُلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ قال رسول الله ﷺ: لعليّ هو أنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيين». وأخرج ابن مرويّه عن عليّ مرفوعاً نحوه. وأخرج أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بخير البرية؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: رجل أخذ بعنان فرسه في سبيل الله كلما كانت هيعة استوى عليه، ألا أخبركم بشرّ البرية؟ قالوا: بلى،

بأن يعبدوا كقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [النساء: 26] أي: أن يبيّن، و ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾ [الصف: 8] أي: أن يطفئوا قرأ الجمهور (مخلصين) بكسر اللام. وقرأ الحسن بفتحها. وهذه الآية من الأدلة الدالة على وجوب النية في العبادات؛ لأن الإخلاص من عمل القلب، وانتصاب ﴿حُتُفًا﴾ على الحال من ضمير مخلصين، فتكون من باب التداخل، ويجوز أن تكون من فاعل يعبدوا، والمعنى: مائلين عن الألبان كلها إلى دين الإسلام. قال أهل اللغة: أصله أن يحنف إلى دين الإسلام أي: يميل إليه ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ أي: يفعلوا الصلوات في أوقاتها، ويعطوا الزكاة عند محلها، وخصّ الصلاة والزكاة؛ لأنهما من أعظم أركان الدين. قيل: إن أريد بالصلاة والزكاة ما في شريعة أهل الكتاب من الصلاة والزكاة، فالامر ظاهر، وإن أريد ما في شريعتنا، فمعنى أمرهم بهما في الكتابين أمرهم باتباع شريعتنا، وهما: من جملة ما وقع الأمر به فيها ﴿وَلَكُمْ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ أي: ذلك المذكور من عبادة الله، وإخلاصها، وإقامة الصلاة، والزكاة ﴿دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ أي: دين الملة المستقيمة. قال الزجاج أي: ذلك دين الملة المستقيمة، فالقيمة صفة لموصوف محذوف. قال الخليل: القيمة جمع القيم، والقيم القائم. قال الفراء: أضاف الدين إلى القيمة، وهو نعت لاختلاف اللفظتين. وقال أيضاً: هو من إضافة الشيء إلى نفسه، وبخلت الهاء للمدح والمبالغة، ثم بيّن سبحانه حال الفريقين في الآخرة بعد بيان حالهم في الدنيا فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ الموصول اسم إن، والمشركين معطوف عليه، وخبرها في نار جهنم، و ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ حال من المستكنّ في الخبر، ويجوز أن يكون قوله: والمشركين مجروراً عطفاً على أهل الكتاب ومعنى كونهم في نار جهنم أنهم يصيرون إليها يوم القيامة، والإشارة بقوله: ﴿لَؤُلَئِكَ﴾ إلى من تقدّم ذكرهم من أهل الكتاب، والمشركين المتصفين بالكون في نار جهنم، والخلود فيها ﴿هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ أي: الخليقة، يقال براً أي: خلق، والبراء الخلق، والبرية الخليقة. قرأ الجمهور (البرية) بغير همز في الموضعين، وقرأ نافع، وابن نكوان فيها بالهمز. قال الفراء: إن أخذت البرية من البراء، وهو التراب لم تنحل الملائكة تحت هذا اللفظ، وإن أخذتها من برئت القلم أي: قُتِرته دخلت. وقيل: إن الهمز هو الأصل، لأنه يقال براً الله الخلق بالهمز أي: ابتدعه واخترعه ومنه قوله: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ نَبْرَأَهُ﴾ [الحديد: 22] ولكنها خففت الهمزة، والتزم تخفيفها عند عامة العرب. ثم بيّن حال الفريق الآخر فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿لَؤُلَئِكَ﴾ المنعوتون بهذا ﴿هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ قال: والمراد أن أولئك شرّ البرية في عصره ﷺ، ولا يبعد أن يكون كفار الأمم من هو شرّ منهم، وهؤلاء خير البرية في عصره ﷺ ولا يبعد أن يكون في مؤمني الأمم السابقة من هو خير منهم ﴿جَزَأُوهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي

يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَنْ يَسْمَلْ يُسْكَالْ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَسْكَلْ يُسْكَالْ دَرَجَةً شَرًّا يَئُودُ ﴿٨﴾

قوله: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ أي: إذا حركت حركة شديدة، وجواب الشرط: تحدث، والمراد: تحركها عند قيام الساعة، فإنها تضطرب حتى يتكسر كل شيء عليها. قال مجاهد: وهي النفخة الأولى لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ [النازعات: 6، 7] ونكر المصدر للتأكيد، ثم أضافه إلى الأرض، فهو مصدر مضاف إلى فاعله، والمعنى: زلزالها المخصوص الذي يستحقه، ويقتضيه جرمها وعظمتها. قرأ الجمهور (زلزالها) بكسر الزاي، وقرأ الجحدري، وعيسى بفتحها، وهما مصدران بمعنى: وقيل: المكسور مصدر، والمفتوح اسم. قال القرطبي: والزلزال بالفتح مصدر كالسوساس، والقلقال **﴿وُلْخِرْجَتِ الْأَرْضُ ثِقَالَهَا﴾** أي: ما في جوفها من الأموات والنفاثن، والانتقال جمع ثقل، قال أبو عبيدة، والاختفش: إذا كان الميت في بطن الأرض، فهو ثقل لها، وإذا كان فوقها، فهو ثقل عليها. قال مجاهد: أثقالها موتاها تخرجهم في النفخة الثانية، وقد قيل: للإنس والجِن الثقلان، وإظهار الأرض في موضع الإضمار لزيادة التقرير **﴿وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا﴾** أي: قال كل فرد من أفراد الإنسان ما لها زلزلت؟ لما يدهمه من أمرها، ويبهره من خطبها، وقيل: المراد بالإنسان الكافر، وقوله: ما لها مبتدأ وخبر، وفيه معنى التعجب أي: أي شيء لها، أو لأي شيء زلزلت وأخرجت أثقالها؟ وقوله: **﴿يَوْمَئِذٍ﴾** بدل من إذا، والعامل فيهما قوله: **﴿تَحَدَّثْ أَخْبَارَهَا﴾** ويجوز أن يكون العامل في إذا محذوفاً، والعامل في يومئذٍ تحدث، والمعنى: يوم إذا زلزلت وأخرجت تخبر بأخبارها، وتحدثهم بما عمل عليها من خير وشر، وذلك إما بلسان الحال حيث يدل على ذلك دلالة ظاهرة، أو بلسان المقال، بأن ينطقها الله سبحانه. وقيل هذا متصل بقوله: **﴿وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا﴾** أي: قال ما لها **﴿تَحَدَّثْ أَخْبَارَهَا﴾** متعجباً من ذلك، وقال يحيى بن سلام: تحدث أخبارها بما أخرجت من أثقالها، وقيل: تحدث بقيام الساعة، وأنها قد أتت، وأن الدنيا قد انقضت. قال ابن جرير: تبين أخبارها بالرجفة والزلزلة، وإخراج الموتى، ومفعول تحدث الأول محذوف، والثاني هو أخبارها، أي: تحدث الخلق أخبارها **﴿بِأَنَّ رَيْكَ أَوْحَى لَهَا﴾** متعلق بتحدث، ويجوز أن يتعلق بنفس أخبارها، وقيل: الباء سببية أي: وأن وما في حيزها بدل من أخبارها، وقيل: الباء سببية أي: بسبب إحياء الله إليها. قال الفراء: تحدث أخبارها بوحى الله وإنه لها، واللام في أوحى لها بمعنى إلى وإنما أثرت على إلى لموافقة الفواصل، والعرب تضع لام الصفة موضع إلى، كذا قال أبو عبيدة. وقيل: إن أوحى يتعدى باللام تارة، وبإلى أخرى، وقيل: إن اللام على بابها من كونها للعلّة، والموحى إليه محذوف، وهو الملائكة، والتقدير: أوحى إلى الملائكة لأجل الأرض أي: لأجل ما يفعلون فيها، والأول أولى **﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا﴾** الظرف إما بدل من يومئذٍ

قال: الذي يسأل بالله ولا يعطي به. قال أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثنا أبو معشر عن أبي وهب مولى أبي هريرة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ، فنكره.

تفسير سورة الزلزلة

وهي مدنية في قول ابن عباس، وقتادة، ومكية في قول ابن مسعود، وعطاء، وجابر. أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال نزلت: ﴿إِذَا زُلْزِلَتْ﴾ بالمدينة. وأخرج أحمد، وأبو داود، والنسائي، ومحمد بن نصر، والحاكم وصححه، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عن عبد الله بن عمرو قال: «أتى رجل رسول الله ﷺ فقال: أقرئني يا رسول الله، قال: أقرأ ثلاثاً من نوات الرء، فقال الرجل: كبر سني، واشتد قلبي، وغلظ لساني، قال: أقرأ ثلاثاً من نوات حم، فقال مثل مقالته الأولى، فقال: أقرأ ثلاثاً من المسبحات فقال مثل مقالته الأولى، وقال: ولكن أقرئني يا رسول الله سورة جامعة، فأقرأه: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [أي: سورة الزلزلة] حتى فرع منها، قال الرجل: والذي بعثك بالحق لا أزيد عليها، فقال رسول الله ﷺ: أقلح الرويجل، أقلح الرويجل. وأخرج الترمذي، وابن مردويه، والبيهقي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ﴾ عجلت له بنصف القرآن، ومن قرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [أي: سورة الصمد] عجلت له بثلاث القرآن، ومن قرأ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [أي: سورة الكافرون] عجلت له بربع القرآن». وأخرج الترمذي، وابن الضريس، ومحمد بن نصر، والحاكم وصححه، والبيهقي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿إِذَا زُلْزِلَتْ﴾ تعدل نصف القرآن، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن، و﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ تعدل ربع القرآن». قال الترمذي: غريب لا نعرفه إلا من حديث يمان بن المغيرة. وأخرج الترمذي عن أنس: «أن رسول الله ﷺ قال لرجل من أصحابه: هل تزوجت يا فلان؟ قال: لا والله يا رسول الله، ولا عندي ما أتزوج به، قال: اليس معك **﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾**؟ قال بلى، قال: ثلث القرآن، قال: اليس معك **﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾** [أي: سورة النصر]؟ قال: بلى. قال: ربع القرآن. قال: اليس معك **﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾**؟ قال بلى، قال: ربع القرآن، قال: اليس معك **﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ﴾**؟ قال بلى، قال: ربع القرآن تزوج». قال الترمذي: هذا حديث حسن. وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ في ليلة إذا زلزلت كان له عدل نصف القرآن».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَخَرَجَتِ الْأَرْضُ أَخْأَلَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُخَرِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَيْكَ أَوْحَى لَهَا ﴿٥﴾

توهم أن من موصولة، أو على تقدير الجزم بحذف الحركة المقننة في الفعل.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه عن ابن عباس: **﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾** قال: تحرّكت من أسفلها **﴿وُلْخِرْجَتِ الْأَرْضُ ثِقَالَهَا﴾** قال: الموتى **﴿وَوَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا﴾** قال: الكافر يقول ما لها **﴿يَوْمَئِذٍ تُحَنِّثُ أَخْبَارَهَا﴾** قال: قال لها ربك قولي **﴿بِأَن رَّبِّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾** قال: أوحى لها **﴿يَوْمَئِذٍ يُصْدِرُ النَّاسَ أَشْتَاتًا﴾** قال: من كل من ههنا، وههنا. وأخرج ابن المنذر عنه **﴿وُلْخِرْجَتِ الْأَرْضُ ثِقَالَهَا﴾** قال: الكنوز والموتى. وأخرج مسلم، والترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«تَقَى الْأَرْضَ أَفْلاذُ كِبْدِهَا مِثَالِ الْأَسْطُورَانِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، فَيَجِيءُ الْقَاتِلُ فَيَقُولُ: فِي هَذَا قَتَلْتُ، وَيَجِيءُ الْقَاطِعُ فَيَقُولُ: فِي هَذَا قَطَعْتُ رَحْمِي، وَيَجِيءُ السَّارِقُ فَيَقُولُ: فِي هَذَا قَطَعْتُ يَدِي، ثُمَّ يَدْعُوهُ فَلَا يَأْخُذُونَ مِنْهُ شَيْئًا»**. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مريويه، والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة قال: **«قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ **﴿يَوْمَئِذٍ تُحَنِّثُ أَخْبَارَهَا﴾** قَالَ: أَتَدْرُونَ مَا أَخْبَارُهَا؟ قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: فَإِنْ أَخْبَارُهَا أَنْ تَشْهَدَ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ أَمَةً بِمَا عَمِلَ عَلَى ظَهَرِهَا، تَقُولُ عَمَلٌ كَذَا، وَكَذَا، فَهَذَا أَخْبَارُهَا»**. وأخرج ابن مريويه، والبيهقي عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: **«إِنَّ الْأَرْضَ لَتَجِيءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِكُلِّ عَمَلٍ عَمِلَ عَلَى ظَهَرِهَا»**. وقراء رسول الله ﷺ: **﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾** حتى بلغ **﴿يَوْمَئِذٍ تُحَنِّثُ أَخْبَارَهَا﴾**. وأخرج الطبراني عن ربيعة الخريشي أن رسول الله ﷺ قال: **«تَحْفَظُوا مِنَ الْأَرْضِ فَإِنَّهَا أَمْكَمُ، وَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَحَدٍ عَامِلٌ عَلَيْهَا خَيْرًا، أَوْ شَرًّا إِلَّا وَهِيَ مَخْبِرَةٌ»**. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني في الأوسط، والحاكم في تاريخه، وابن مريويه، والبيهقي في الشعب عن أنس قال: **«بَيْنَمَا أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ يَكُلُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ نَزَلَتْ عَلَيْهِ **﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾** وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾** فَرَفَعَ أَبُو بَكْرٍ يَدَهُ، وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي لَرَأَى مَا عَمِلْتُ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ مِنْ شَرٍّ. فَقَالَ: «يَا أَبَا بَكْرٍ أَرَأَيْتَ مَا تَرَى فِي الدُّنْيَا مِمَّا تَكْرَهُ، فَيَمِثَّقِيلُ ذُرَّ الشَّرِّ، وَيَخْرُجُ لَكَ مِثَاقِيلُ ذُرِّ الْخَيْرِ حَتَّى تَوَفَّاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». وأخرج إسحاق بن راهويه، وعبد بن حميد، والحاكم، وابن مريويه عن أبي أسماء قال: **«بَيْنَمَا أَبُو بَكْرٍ يَتَغَدَّى مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: **﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾** وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾** فَامْسَكَ أَبُو بَكْرٍ وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا عَمَلْنَا مِنْ شَرٍّ رَأَيْنَاهُ، فَقَالَ: مَا تَرَوْنَ مِمَّا تَكْرَهُونَ، فَذَلِكَ مِمَّا تَجْزُونَ، وَيُؤْخَرُ الْخَيْرُ لِأَهْلِهِ فِي الْآخِرَةِ». وأخرج ابن أبي الدنيا، وابن جرير، والطبراني، وابن مريويه، والبيهقي في الشعب عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: **«نَزَلَتْ **﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ****

الذي قبله، وإما منصوب بمقنن هو انكر، وإما منصوب بما بعده، والمعنى: يوم إذ يقع ما نكر يصدر الناس من قبورهم إلى موقف الحساب اشتاتاً أي: متفرقين، والصدر: الرجوع وهو ضدُّ الورد، وقيل: يصدرون من موضع الحساب إلى الجنة أو النار، وانتصاب اشتاتاً على الحال والمعنى: أن بعضهم آمن، وبعضهم خائف، وبعضهم بلون أهل الجنة، وهو البياض، وبعضهم بلون أهل النار وهو السواد، وبعضهم ينصرف إلى جهة اليمين، وبعضهم إلى جهة الشمال، مع تفرقهم في الألبان، واختلافهم في الأعمال **﴿لِيرَوِا أَعْمَالَهُمْ﴾** متعلق بصدر، وقيل: فيه تقنين وتأخير أي: تحنث أخبارها بأن ربك أوحى لها: ليروا أعمالهم **﴿يَوْمَئِذٍ يُصْدِرُ النَّاسَ أَشْتَاتًا﴾** قرأ الجمهور (ليروا) مبنيًا للمفعول، وهو من رؤية البصر أي: ليريه الله أعمالهم. وقرأ الحسن، والأعرج، وقتادة، وحماة بن سلمة، ونصر بن عاصم، وطلحة بن مصرف على البناء للفاعل، ورويت هذه القراءة عن نافع، والمعنى: ليروا أجزاء أعمالهم **﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾** أي: وزن نملة، وهي أصغر ما يكون من النمل. قال مقاتل: فمن يعمل في الدنيا مثقال ذرة خيراً يره يوم القيامة في كتابه، فيفرج به، **﴿وَوَكُنْكَ﴾** من يعمل في الدنيا **﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾** يوم القيامة فيسوءه، ومثل هذه الآية قوله: **﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾** [النساء: 40] وقال بعض أهل اللغة: إن الذرة هو أن يضرب الرجل بيده على الأرض، فما علق من التراب، فهو الذرة، وقيل: الذر ما يرى في شعاع الشمس من الهباء، والأول أولى، ومنه قول امرئ القيس:

من القاصرات الطرف لو لبَّ محول من الذر فوق الأتوب منها لأثرا
و «من» الأولى عبارة عن السعداء، و «من» الثانية عبارة عن الأشقياء. وقال محمد بن كعب: فمن يعمل مثقال ذرة من خير من كافر يرى ثوابه في الدنيا، وفي نفسه، وماله، وأهله، وولده حتى يخرج من الدنيا، وليس له عند الله خير، ومن يعمل مثقال ذرة من شر من مؤمن يرى عقوبته في الدنيا في ماله، ونفسه، وأهله، وولده حتى يخرج من الدنيا، وليس له عند الله شر، والأول أولى. قال مقاتل: نزلت في رجلين كان أحدهما يأتيه السائل، فيستقل أن يعطيه التمرة والكسرة، وكان الآخر يتهاون بالذنوب اليسير، ويقول: إنما أوعدهم الله النار على الكافرين. قرأ الجمهور (يره) في الموضعين بضم الهاء وصلًا، وسكونها وقفاً، وقرأ هشام بسكونها وصلًا ووقفاً. ونقل أبو حيان عن هشام، وأبي بكر سكونها، وعن أبي عمرو ضمها مشبعة، وباقي السبعة بإشباع الأولى، وسكون الثانية، وفي هذا الثقل نظر، والصواب ما نكرنا. وقرأ الجمهور (يره) مبنياً للفاعل في الموضعين. وقرأ ابن عباس، وابن عمر، والحسن والحسين ابناً علي، وزيد بن علي، وأبو حيوة، وعاصم، والكسائي في رواية عنهما، والجحدري، والسلمي، وعيسى على البناء للمفعول فيهما أي: يريه الله إياه. وقرأ عكرمة (يراه) على

وهذا هو المناسب لمعنى الآية، وليس لتفسير النقع بالصوت فيها كثير معنى، فإن قولك أغارت الخيل على بني فلان صباحاً، فائرن به صوتاً، قليل الجدوى مغسول المعنى بعيد من بلاغة القرآن المعجزة، وقيل النقع: شقّ الجيوب، وقال محمد بن كعب: النقع ما بين مزلفة إلى منى، وقيل: إنه طريق الوادي. قال في الصحاح: النقع الغبار، والجمع أنقاع، والنقع محبس الماء، وكذلك ما اجتمع في البئر منه، والنقع الأرض الحرة الطين يستنقع فيها الماء **﴿فوسطن به جمعاً﴾** أي: توسطن بذلك الوقت، أو توسطن ملتبسات بالنقع جمعاً من جموع الأعداء، أو صرن بعنوهن وسط جمع الأعداء، والباء إما للتعنية، أو للحالية، أو زائدة، يقال: وسطت المكان أي: صرت في وسطه، وانتصاب جمعاً على أنه مفعول به، والفأث في المواضع الأربعة للدلالة على ترتب ما بعد كل واحدة منها على ما قبلها. قرأ الجمهور (فوسطن) بتخفيف السين، وقرأ بالتشديد. **﴿إنّ الإنسان لربه لكنود﴾** هذا جواب القسم، والمراد بالإنسان بعض أقراده، وهو الكافر، والكنود: الكفور للنعمة، وقوله: **﴿لربه﴾** متعلق بكنود، قدّم لرعاية الفواصل، ومنه قول الشاعر:

كنود لنعماء الرجال ومن يكن
كنوداً لنعماء الرجال يبعد
أي: كفور لنعماء الرجال، وقيل: هو الجاحد للحق، قيل: إنها إنما سميت كنودة، لأنها جحلت أباهاً. وقيل: الكنود مأخوذ من الكند. وهو القطع، كنه قطع ما ينبغي أن يواصله من الشكر. يقال كند الحبل: إذا قطعه، ومنه قول الأعشى:

وصول حبال وكتادها

وقيل: الكنود البخيل، وأنشد أبو زيد:

إن نفسي لم تطب منك نفساً غير أنني أمسي بدين كنود
وقيل: الكنود الحسود، وقيل: الجهول لقدره، وتفسير الكنود بالكفور للنعمة أولى بالمقام، والجاحد للنعمة كافر لها، ولا يناسب المقام سائر ما قيل: **﴿وإنه على ذلك لشهيد﴾** أي: وإن الإنسان على كنوده لشهيد يشهد على نفسه به لظهور أثره عليه، وقيل المعنى: وإن الله جلّ ثناؤه على ذلك من ابن آدم لشهيد، وبه قال الجمهور. وقال بالأول الحسن، وقتادة، ومحمد بن كعب، وهو أرجح من قول الجمهور لقوله: **﴿وإنه لحبّ الخير لشديد﴾** فإن الضمير راجع إلى الإنسان، والمعنى: إنه لحبّ المال قويّ مجذّ في طلبه، وتحصيله متهاك عليه، يقال هو شديد لهذا الأمر وقويّ له: إذا كان مطيقاً له، ومنه قوله تعالى: **﴿إن ترك خيراً﴾** [البقرة: 180] ومنه قول عدي بن حاتم:

ماذا ترجي النفوس من طلب الـ خير وحبّ الحياة كانبها
وقيل المعنى: وإن الإنسان من أجل حب المال لبخيل، والأول أولى. واللام في: **﴿لحبّ﴾** متعلقة بشديد. قال ابن زيد: سمى الله المال خيراً، وعسى أن يكون شراً، ولكن الناس يجنونه خيراً، فسماه خيراً. قال الفراء: أصل نظم الآية أن يقال: وإنه لشديد الحبّ للخير، فلما قدّم الحبّ قال:

لشديد، وحذف من آخره نكر الحبّ؛ لأنه قد جرى نكره، ولرؤوس الآي كقوله: **﴿في يوم عاصف﴾** [إبراهيم: 18] والعصوف للريح لا لليوم، كأنه قال: في يوم عاصف الريح **﴿أفلا يعلم إذا يعثر ما في القبور﴾** الاستفهام للإنكار، والفاء للعطف على مقتر يقتضيه المقام أي: يفعل ما يفعل من القبائح، فلا يعلم، ويعثر معناه نثر وبحث أي: نثر ما في القبور من الموتى، وبحث عنهم وأخرجوا. قال أبو عبيدة: بعثرت المتاع جعلت أسفله أعلاه. قال الفراء: سمعت بعض العرب من بني أسد يقول: بحثر بالحاء مكان العين، وقد تقدّم الكلام على هذا في قوله: **﴿وإذا القبور بعثرت﴾** [الانفطار: 4] **﴿وحصل ما في الصدور﴾** أي: ميز وبين ما فيها من الخير والشر، والتحصيل التمييز، كذا قال المفسرون، وقيل: حصل أبرز. قرأ الجمهور (حصل) بضم الحاء، وتشديد الصاد مكسوراً مبنياً للمفعول. وقرأ عبيد بن عمير، وسعيد بن جبير، ويحيى بن يعمر، ونصر بن عاصم حصل بفتح الحاء والصاد، وتخفيفها مبنياً للفاعل: أي: ظهر **﴿إن ربهم بهم يومئذ لخبير﴾** أي: إن ربّ المبعوثين بهم لخبير لا تخفى عليه منهم خافية، فيجازيهم بالخير خيراً، وبالشّر شراً. قال الزجاج: الله خبير بهم في ذلك اليوم، وفي غيره، ولكن المعنى: إن الله يجازيهم على كفرهم في ذلك اليوم، ومثله قوله تعالى: **﴿أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم﴾** [النساء: 63] معناه: أولئك الذين لا يترك الله مجازاتهم. قرأ الجمهور (إن ربهم) بكسر الهمزة، وبالإلام في لخبير. وقرأ أبو السماك بفتح الهمزة، وإسقاط اللام من لخبير.

وقد أخرج البزار، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والدارقطني في الأقراء، وابن مردويه عن ابن عباس قال: «بعث رسول الله ﷺ خيلاً، فاستمرت شهراً لا يأتيه منها خير، فنزلت: **﴿والعالميات ضبحا﴾** ضبحت بارجلها. ولفظ ابن مردويه: ضبحت بمنأخرها **﴿فالموريات قنحا﴾** قدحت بحوافرها الحجارة، فأورت نارا **﴿فالمغيرات صبحا﴾** صبحت القوم بغارة **﴿فائرن به نقعا﴾** أثارت بحوافرها التراب **﴿فوسطن به جمعاً﴾** صبحت القوم جميعاً. وأخرج ابن مردويه من وجه آخر عنه قال: «بعث رسول الله ﷺ سرية إلى العدو، فابطا خبرها، فشقّ ذلك عليه، فأخبره الله خبرهم، وما كان من أمرهم، فقال: **﴿والعالميات ضبحا﴾** قال: هي الخيل. والضحبح نخير الخيل حين تنخر **﴿فالموريات قنحا﴾** قال: حين تجري الخيل توري نارا أصابت سنابكها الحجارة **﴿فالمغيرات صبحا﴾** قال: هي الخيل أغارت، فصبحت العدو **﴿فائرن به نقعا﴾** قال: هي الخيل أثرن بحوافرها، يقول بعدو الخيل، والنقع الغبار **﴿فوسطن به جمعاً﴾** قال: الجمع العدو. وأخرج عبد بن حميد عن أبي صالح قال: تقولت أنا، وعكرمة في شأن العالميات، فقال: قال ابن عباس: هي الخيل في القتال، وضبحها حين ترخي مشافرها إذا عدت **﴿فالموريات**

عن ابن عباس: ﴿وَالْعَابِيَاتُ ضَبْحًا﴾ قال: الخيل ضبحها زحيرها، ألم تر أن الفرس إذا عدا قال: أح أح، فذلك ضبحها. وأخرج ابن المنذر عن علي قال: الضبح من الخيل الحمحة، ومن الإبل النفس. وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود: ﴿وَالْعَابِيَاتُ ضَبْحًا﴾ قال: هي الإبل في الحج. ﴿وَالْمُورِيَاتُ قَبْحًا﴾ إذا سفت الحصى بمناسمها، فضرب الحصى بعضه بعضاً، فيخرج منه النار. ﴿وَالْمَغِيرَاتُ صَيْحًا﴾ حين يفيضون من جمع. ﴿فَالْأَرْثُ بِهِ نَقْعًا﴾ قال: إذا سرن يثرن التراب. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه من طرق عن ابن عباس قال: الكنود بلساننا أهل البلد الكفور. وأخرج ابن عساکر عن أبي أمامة عن النبي ﷺ في قوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ قال لكفور. وأخرج عبد بن حميد، والبخاري في الأنب، والحكيم الترمذي، وابن مردويه عن أبي أمامة قال: الكنود الذي يمنع رفقده، وينزل وحده، ويضرب عبده. ورواه عنه ابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، والديلمي، وابن عساکر مرفوعاً، وضعف إسناداه السيوطي، وفي إسناداه جعفر بن الزبير، وهو متروك، والموقوف أصح؛ لأنه لم يكن من طريقه. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس: ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَلِكْ لَشَهِيدٌ﴾ قال: الإنسان ﴿وَإِنَّهُ لَحَبِيبُ الْخَيْرِ﴾ قال: المال. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه: ﴿إِذَا بَعِثُوا فِي الْقُبُورِ﴾ قال: بحث ﴿وَحَصَلَ مَا فِي الصُّورِ﴾ قال: أبصر.

تفسير سورة القارعة

وقيل: مكية بلا خلاف. أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة القارعة بمكة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْقَارِعَةُ ① مَا الْقَارِعَةُ ② وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ③ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُورِ ④ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ⑤ فَأَمَّا مَنْ نَقَلَ مَوْزِينَهُ ⑥ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ⑦ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ⑧ فَأُنْزِلَتْ مَوَازِينُهُ ⑨ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ ⑩ نَارُ حَامٍ ⑪

﴿القارعة﴾ من أسماء القيامة؛ لأنها تفرق القلوب بالفزع، وتفرق أعداء الله بالعذاب. والعرب تقول قرعتهم القارعة إذا وقع بهم أمر فظيع. قال ابن أحمر: وقارعة من الأيـام لولا سبيلهم لراحت عنك حيناً وقال آخر:

متى نقرع بمرؤتكم نسؤكم ولم يوقد لنا في القدر نار والقارعة مبتدأ وخبرها قوله: ﴿مَا الْقَارِعَةُ﴾ وبالرفع قرأ الجمهور، وقرأ عيسى بنصبها على تقدير: احذروا القارعة،

فإنها أرت المشركين مكروهم ﴿فَالْمَغِيرَاتُ صَبْحًا﴾ قال: إذا صبحت العدو ﴿فَوْسَطُنْ بِهِ جَمْعًا﴾ قال: إذا توسطت العدو. وقال أبو صالح: فقلت قال علي: هي الإبل في الحج ومولاي كان أعلم من مولاك. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري في كتاب الأضداد، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن ابن عباس قال: بينما أنا في الحجر جالس إذ أتاني رجل يسأل عن العابيـات ضبحاً، فقلت: الخيل حين تغير في سبيل الله، ثم تأوي إلى الليل، فيصنعون طعامهم، ويورون نارهم، فانفتل عني، فذهب إلى علي بن أبي طالب، وهو جالس تحت سقاية زمزم، فسأله عن العابيـات ضبحاً، فقال: سألت عنها أحداً قبلي؟ قال: نعم سألت عنها ابن عباس، فقال: هي الخيل حين تغير في سبيل الله، فقال: اذهب، فادعه لي، فلما وقفت على رأسه قال: تفتي الناس بما لا علم لك، والله إن كانت لأول غزوة في الإسلام لبدر، وما كان معنا إلا فرسان فرس للزبير، وفرس للمقداد بن الأسود، فكيف تكون ﴿وَالْعَابِيَاتُ ضَبْحًا﴾ إنما العابيـات ضبحاً من عرفة إلى المزلفة، فإذا أوا إلى المزلفة أوقدوا النيران، والمغيرات صبحاً: من المزلفة إلى منى، فذلك جمع، وأما قوله: ﴿فَالْأَرْثُ بِهِ نَقْعًا﴾ فهي: تقع الأرض تطؤه بأخفافها وحوافرها. قال ابن عباس: فنزعت عن قولي، ورجعت إلى الذي قال علي. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود: ﴿وَالْعَابِيَاتُ ضَبْحًا﴾ قال: الإبل، أخرجوه عنه من طريق الأعمش عن إبراهيم النخعي. قال إبراهيم: وقال علي بن أبي طالب: هي الإبل. وقال ابن عباس هي الخيل. فبلغ علياً قول ابن عباس: فقال: ما كانت لنا خيل يوم بدر. قال ابن عباس: إنما كانت تلك في سرية بعثت. وأخرج عبد بن حميد عن عامر الشعبي قال: تمارى علي، وابن عباس في العابيـات ضبحاً. فقال ابن عباس: هي الخيل؛ وقال علي: كذبت يا ابن فلانة، والله ما كان معنا يوم بدر فارس إلا المقداد كان على فرس أبلق. قال: وكان يقول هي: الإبل، فقال ابن عباس: ألا ترى أنها تثير نقعاً، فما شيء تثير إلا بحوافرها. وأخرج عبد بن حميد، والحاكم وصححه من طريق مجاهد عن ابن عباس ﴿وَالْعَابِيَاتُ ضَبْحًا﴾ قال: الخيل ﴿فَالْمُورِيَاتُ قَبْحًا﴾ قال: الرجل إذا أوى رنده ﴿فَالْمَغِيرَاتُ صَبْحًا﴾ قال: الخيل تصبح العدو ﴿فَالْأَرْثُ بِهِ نَقْعًا﴾ قال: التراب ﴿فَوْسَطُنْ بِهِ جَمْعًا﴾ قال: العدو. وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد: ﴿وَالْعَابِيَاتُ ضَبْحًا﴾ قال: قال ابن عباس: القتال. وقال ابن مسعود: الحج. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق عمرو بن دينار عن ابن عباس ﴿وَالْعَابِيَاتُ ضَبْحًا﴾ قال: ليس شيء من الدواب يضح إلا الكلب، أو الفرس ﴿فَالْمُورِيَاتُ قَبْحًا﴾ قال: هو مكر الرجل قدح، فأوى ﴿فَالْمَغِيرَاتُ صَبْحًا﴾ قال: غارة الخيل صبحاً ﴿فَالْأَرْثُ بِهِ نَقْعًا﴾ قال: غباراً وقع سناك الخيل ﴿فَوْسَطُنْ بِهِ جَمْعًا﴾ قال: جمع العدو. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر

هي جمع ميزان، وهو الآلة التي توضع فيها صحائف الأعمال، وعبر عنه بلفظ الجمع، كما يقال لكل حائنة ميزان، وقيل: المراد بالموازين الحجج والدلائل، كما في قول الشاعر:

لقد كنت قبل لقائكم ذامرة عندي لكل مخاصم ميزانه
ومعنى عيشة راضية مرضية يرضاها صاحبها. قال الزجاج أي: ذات رضى يرضاها صاحبها، وقيل: عيشة راضية أي: فاعلة للرضى، وهو اللين، والانقياد لاهلها. والعيشة كلمة تجمع النعم التي في الجنة: ﴿وَمَا مِنْ خَفْتِ مَوَازِينَهُ﴾ أي: رجحت سيئاته على حسناته، أو لم تكن له حسنات يعتد بها ﴿فَإِمَامَهُ هَاوِيَةً﴾ أي: فمסקنه جهنم، وسماها أمه؛ لأنه يأوي إليه، كما يأوي إلى أمه، والهاوية من أسماء جهنم، وسميت هاوية؛ لأنه يهوي فيها مع بعد قعرها. ومنه قول أمية بن أبي الصلت:

فالارض مغلقلنا وكانت لمانا فيها مقابرنا وفيها نولد
وقول الآخر:

يا عمرولونلنك أرماحنا كنت كمن تهوي به الهاوية
والمهوى، والمهواة: ما بين الجبلين، وتهوى القوم في المهواة: إذا سقط بعضهم في إثر بعض. قال قتادة: معنى ﴿فَإِمَامَهُ هَاوِيَةً﴾ فمصيره إلى النار. قال عكرمة: لأنه يهوي فيها على أم رأسه. قال الأخفش: أمه مستقره ﴿وَمَا ادرك ما هي به﴾ هذا الاستفهام للتحويل، والتفطع ببيان أنها خارجة عن المعهود بحيث لا تحيط بها علوم البشر، ولا تدري كنهها. ثم بينها سبحانه فقال: ﴿نَارُ حَامِيَةٍ﴾ أي: قد انتهى حرها، وبلغ في الشدة إلى الغاية، وارتفاع نار على أنها خبر مبتدأ محذوف أي: هي نار حامية.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس قال: ﴿القارعة﴾ من أسماء يوم القيامة. وأخرج ابن المنذر عنه في قوله: ﴿فَإِمَامَهُ هَاوِيَةً﴾ قال: كقوله هوت أمه. وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة ﴿فَإِمَامَهُ هَاوِيَةً﴾ قال: لم رأسه هاوية في جهنم. وأخرج ابن مردويه عن أنس قال: رسول الله ﷺ: «إذا مات المؤمن تلقته أرواح المؤمنين يسألونه ما فعل فلان ما فعلت فلانة؟ فإذا كان مات، ولم ياتهم قالوا خوف به إلى أمه الهاوية، فبئست الأم، وبئست العربية». وأخرج ابن مردويه من حديث أبي أيوب الأنصاري نحوه. وأخرج ابن المبارك من حديث أبي أيوب نحوه أيضاً.

تفسير سورة التكاثر

وهي مكية عند الجميع. وروى البخاري أنها مدنية. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزل بمكة ﴿إِلَهُكُمْ التَّكَاثُرُ﴾. وأخرج الحاكم، والبيهقي في الشعب عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا يستطيع أحدكم أن يقرأ ألف آية في كل يوم؟ قالوا: ومن يستطيع أن يقرأ ألف آية في كل

والاستفهام للتعظيم، والتفخيم لشأنها، كما تقدم بيانه في قوله: ﴿الحاقة﴾ ما الحاقة * وما ادرك ما الحاقة ﴿[الحاقة: 1-3] وقيل: معنى الكلام على التحذير. قال الزجاج: والعرب تحذر وتغري بالرفع كالنصب، وأنشد قول الشاعر:

لجديرون بالفواء إذا قال أخو النجدة السلاح السلاح
والحمل على معنى للتفخيم، والتعظيم أولى، ويؤيده وضع الظاهر موضع الضمير، فإنه أدل على هذا المعنى، ويؤيده أيضاً قوله: ﴿وَمَا ادرك ما القارعة﴾ فإنه تأكيد لشدة هولها، ومزيد فظاعتها حتى كأنها خارجة عن دائرة علوم الخلق بحيث لا تتألف دراية أحد منهم، وما الاستفهامية مبتدأ، وأدرك خبرها، وما القارعة مبتدأ وخبر، والجملة في محل نصب على أنها المفعول الثاني، والمعنى: وأي شيء أعلمك ما شأن القارعة؟ ثم بين سبحانه متى تكون القارعة فقال: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ وانتصاب الظرف بفعل محذوف تدل عليه القارعة أي: تفرعهم يوم يكون الناس إلخ، ويجوز أن يكون منصوباً بتقدير انكر. وقال ابن عطية، ومكي، وأبو البقاء: هو منصوب بنفس القارعة، وقيل: هو خبر مبتدأ محذوف، وإنما نصب لإضافته إلى الفعل، فالفتحة فتحة بناء لا فتحة إعراب أي: هي يوم يكون إلخ. وقيل التقدير: ستاتيكم القارعة يوم يكون، وقرأ زيد بن علي برفع يوم على الخبرية للمبتدأ المقتر. والفراش: الطير الذي تراه يتساقط في النار، والسراج، والواحدة فراشة، كذا قال أبو عبيدة وغيره. قال الفراء: الفرش هو الطائر من بعوض وغيره، ومنه الجراد. قال وبه يضرب المثل في الطيش، والهوج، يقال: أطيش من فراشة، وأنشد:

فراشة الحلم فرعون العذاب وإن يطلب نداه فكلب بونه كلب
وقول آخر:

وقد كان اقوام ربت حلومهم عليهم وكانوا كالفرش من الجهل
والمراد بالمبثوث المتفرق المنتشر، يقال بثه: إذا فرقه، ومثل هذا قوله سبحانه في آية أخرى: ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ [القمر: 7] وقال الميثوث، ولم يقل الميثوثة؛ لأن الكل جائز، كما في قوله: ﴿أَعَاجِزُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ [القمر: 20] و﴿أَعَاجِزُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: 7] وقد تقدم بيان وجه ذلك ﴿وَيَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ أي: كالصوف الملون بالألوان المختلفة الذي نفش بالبنف، والعهن عند أهل اللغة: الصوف المصبوغ بالألوان المختلفة، وقد تقدم بيان هذا في سورة سأل سائل، وقد ورد في الكتاب العزيز أوصاف للجبال يوم القيامة. وقد قمنا ببيان الجمع بينها. ثم نكر سبحانه أحوال الناس، وتفرقهم فريقين على جهة الإجمال فقال: ﴿فَإِمَاماً مِنْ ثَلَاثِ مَوَازِينَهُ﴾ فو في عيشة راضية ﴿قد تقدم القول في الميزان في سورة الأعراف، وسورة الكهف، وسورة الأنبياء.﴾

وقد اختلف فيها هنا، فقيل: هي جمع موزن وهو العمل الذي له وزن وخطر عند الله، وبه قال الفراء وغيره، وقيل:

بالأموات. وقيل: نزلت في حيين من الأنصار. والمقابر جمع مقبرة بفتح الباء وضمها. وفي الآية دليل على أن الاشتغال بالدنيا، والمكاثرة بها، والمفاخرة فيها من الخصال المنومة، وقال سبحانه: ﴿الْهَٰكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ ولم يقل عن كذا، بل أطلقه؛ لأن الإطلاق أبلغ في الذم؛ لأنه يذهب الوهم فيه كل مذهب، فيدخل فيه جميع ما يحتمله المقام، ولأن حنف المتعلق مشعر بالتعميم، كما تقرّر في علم البيان؛ والمعنى أنه شغلكم التكاثر عن كل شيء يجب عليكم الاشتغال به من طاعة الله، والعمل للأخرة، وعبر عن موتهم بزيارة المقابر؛ لأن الميت قد صار إلى قبره، كما يصير الزائر إلى الموضع الذي يزوره هذا على قول من قال: إن معنى ﴿زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ متم، أما على قول من قال: إن معنى ﴿زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ نكرتم الموتى، وعدتموهم للمفاخرة، والمكاثرة، فيكون ذلك على طريق التكميم بهم، وقيل: إنهم كانوا يزورون المقابر، فيقولون هذا قبر فلان، وهذا قبر فلان فيفتخرون بذلك ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ردع وزجر لهم عن التكاثر، وتنبيه على أنهم سيعلمون عاقبة ذلك يوم القيامة، وفيه وعيد شديد. قال الفراء أي: ليس الأمر على ما أنتم عليه من التكاثر والتفاخر. ثم كرّر الردع والزجر، والوعيد فقال: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وثم للدلالة على أن الثاني أبلغ من الأول، وقيل: الأول عند الموت أو في القبر، والثاني يوم القيامة. قال الفراء: هذا التكرار على وجه التخليط والتأكيد. قال مجاهد: هو وعيد بعد وعيد. وكذا قال الحسن، ومجاهد ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ أي: لو تعلمون الأمر الذي أنتم صاثرون إليه علماً يقيناً كلمكم ما هو متيقن عنكم في الدنيا، وجواب لو محذوف أي: لشغلكم ذلك عن التكاثر والتفاخر، أو لفعلتم ما ينفعكم من الخير، وتركتم ما لا ينفعكم مما أنتم فيه، وكلا في هذا الموضع الثالث للزجر، والردع كالموضعين الأولين. وقال الفراء: هي بمعنى حقاً، وقيل: هي في المواضع الثلاثة بمعنى ألا. قال قتادة: اليقين هنا الموت، وروي عنه أيضاً أنه قال: هو البعث. قال الأخفش: التقدير لو تعلمون علم اليقين ما الهام، وقوله: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ جواب قسم محذوف، وفيه زيادة وعيد وتهديد أي: والله لتروين الجحيم في الآخرة. قال الرازي: وليس هذا جواب لو، لأن جواب لو يكون منفياً، وهذا مثبت؛ ولأنه عطف عليه ﴿ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ﴾ وهو: مستقبل لا بد من وقوعه قال: وحنف جواب لو كثير، والخطاب للكفار، وقيل: عام كقوله: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ فِيهَا مَا يَغْنَمُونَ﴾ [مريم: 71] قرأ الجمهور (لترون) بفتح التاء مبنياً للفعل وقرأ الكسائي، وابن عامر بضمها مبنياً للمفعول، ثم كرّر الوعيد والتهديد للتأكيد فقال: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ أي: ثم لتروين الجحيم الرؤية التي هي نفس اليقين، وهي المشاهدة والمعينة، وقيل المعنى: لتروين الجحيم بأبصاركم على البعد منكم، ثم لترونها مشاهدة على القرب. وقيل المراد بالأول رؤيتها قبل دخولها، والثاني رؤيتها حال دخولها. وقيل: هو إخبار عن

يوم؟ قال: أما يستطيع أحدكم أن يقرأ ﴿الْهَٰكُمُ التَّكَاثُرُ﴾. وأخرج الخطيب في المتفق والمفروق، والدليمي عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ في ليلة ألف آية لقي الله وهو ضاحك في وجهه، قيل: يا رسول الله، ومن يقوى على ألف آية؟ فقرأ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿الْهَٰكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ [أي: سورة التكاثر] إلى آخرها، ثم قال: والذي نفسي بيده إنها لتعدل ألف آية. وأخرج مسلم، والترمذي، والنسائي، وغيرهم عن عبد الله بن الشخير قال: «انتهيت إلى رسول الله ﷺ، وهو يقرأ ﴿الْهَٰكُمُ التَّكَاثُرُ﴾، وفي لفظ: وقد أنزلت عليه ﴿الْهَٰكُمُ التَّكَاثُرُ﴾، وهو يقول: ابن آدم مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت، فأفانيت، وأخرجته مسلم، وغيره من حديث أبي هريرة، ولم ينكر فيه قراءة هذه السورة، ولا نزولها بلفظ: «يقول العبد مالي مالي، وإنما له من ماله ثلاثة: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو تصدق فأفنى، وما سوى ذلك، فهو ذاهب، وتاركه للناس». وأخرج الحكيم الترمذي في نوارس الأصول، والبيهقي في الشعب، وضعفه عن جرير بن عبد الله قال: قال لنا رسول الله ﷺ: «إني قارئ عليكم سورة ﴿الْهَٰكُمُ التَّكَاثُرُ﴾، فمن بكى، فله الجنة، فقراها، فمنا من بكى، ومنا من لم يبكي، فقال الذين لم يبكوا: قد جهدنا يا رسول الله أن نبكي، فلم نقدر عليه، فقال: إني قارئها عليكم الثانية، فمن بكى، فله الجنة، ومن لم يقدر أن يبكي، فليتبكى».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْهَٰكُمُ التَّكَاثُرُ ۝ حَقٌّ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝ ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ۝

قوله: ﴿الْهَٰكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ أي: شغلكم التكاثر بالأموال والأولاد، والتفاخر بكثرتها، والتغالل فيها. يقال: الهاه عن كذا، والهاه إذا شغله، ومنه قول امرئ القيس:

فاليهتها عن ذي ثمام محول

وقال الحسن: معنى الهام: أنساكم ﴿حتى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ أي: حتى أنركم الموت، وأنتم على تلك الحال. وقال قتادة: إن التكاثر التفاخر بالقبائل والعشائر. وقال الضحاك: الهام التشاغل بالمعاش. وقال مقاتل، وقاتدة أيضاً، وغيرهما: نزلت في اليهود حين قالوا نحن أكثر من بني فلان، وبني فلان أكثر من بني فلان، الهام ذلك حتى ماتوا. وقال الكلبي: نزلت في حيين من قريش: بني عبد مناف، وبني سهم تعاونوا، وتكاثروا بالسيادة والأشراف في الإسلام، فقال كل حي منهم: نحن أكثر سياداً وأعرّ عزيزاً، وأعظم نفراً، وأكثر قائداً، فكثرت بنو عبد مناف بني سهم، ثم تكاثروا بالأموات، فكثرتهم بهم، فنزلت: ﴿الْهَٰكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ فلم ترضوا ﴿حتى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ مفتخرين

كان عنه مسؤولاً [الإسراء: 36] وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن أبي حاتم، وابن مريويه عن ابن مسعود عن النبي ﷺ: **«ثم لتسألن يومئذ عن النعيم»** قال: الأمن، والصحة. وأخرج البيهقي عن علي بن أبي طالب قال: النعيم العافية. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في الآية قال: من أكل خبز البر، وشرب ماء الفرات مبردًا، وكان له منزل يسكنه، فذلك من النعيم الذي يسأل عنه. وأخرج ابن مريويه عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ في الآية: أكل خبز البر، والنوم في الظل، وشرب ماء الفرات مبردًا. ولعل رفع هذا لا يصح، فربما كان من قول أبي الدرداء. وأخرج أحمد في الزهد، وابن مريويه عن أبي قلابة عن النبي ﷺ في الآية قال: «ناس من امتي يعتقدون السمن والعسل بالنقي، فياكلونه» وهذا مرسل. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن عكرمة قال: لما نزلت هذه الآية. قال الصحابة: «يا رسول الله أي نعيم نحن فيه؟ وإنما نأكل في أنصاف بطوننا خبز الشعير، فأوحى الله إلى نبيه ﷺ أن قل لهم: ليس تحتون النعال، وتشربون الماء البارد، فهذا من النعيم». وأخرج ابن أبي شيبة، وهناد، وأحمد، وابن جرير، وابن مريويه، والبيهقي في الشعب عن محمود بن لبيد قال: «لما نزلت: **«الهاكم التكاثر»** فقرأ حتى بلغ: **«ثم لتسألن يومئذ عن النعيم»** قالوا: يا رسول الله أي نعيم نسأل عنه؟ وإنما هما الأسودان: الماء، والتمر، وسيوفنا على رقابنا، والعنق حاضر، فعن أي نعيم نسأل؟ قال: أما إن ذلك سيكون». وأخرجه عبد بن حميد، والترمذي، وابن مريويه من حديث أبي هريرة. وأخرجه أحمد، والترمذي وحسنه، وابن ماجه، وابن المنذر، وابن مريويه من حديث الزبير بن العوام. وأخرج أحمد في الزهد، وعبد بن حميد، والترمذي، وابن جرير، وابن حبان، وابن مريويه، والحاكم، والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن أول ما يسأل العبد عنه يوم القيامة من النعيم أن يقال له: ألم نصح لك جسديك، ونروك من الماء البارد؟»** وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مريويه، والبيهقي في الشعب عن جابر بن عبد الله قال: «جاءنا رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمر، فاطعمناهم رطباً، وسقيناهم ماء، فقال رسول الله ﷺ: هذا من النعيم الذي تسألون عنه». وأخرج عبد بن حميد، وابن مريويه، والبيهقي من حديث جابر بن عبد الله نحوه. وأخرج مسلم، وأهل السنن، وغيرهم عن أبي هريرة قال: «خرج النبي ﷺ، فإذا هو بابي بكر وعمر، فقال: ما أخرجكما من بيوتكما الساعة؟ قالوا: الجوع يا رسول الله، قال: والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما فقوماً فقاما معه، فأتى رجلاً من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلما رآته المرأة قالت: مرحباً، فقال النبي ﷺ: أين فلان؟ قالت: انطلق يستعذب لنا الماء إذ جاء الأنصاري فنظر إلى النبي ﷺ وصاحبيه، فقال: الحمد لله ما أحد اليوم أكرم

نوام بقائهم في النار أي: هي رؤية دائمة متصلة. وقيل المعنى: لو تعلمون اليوم علم اليقين، وأنتم في الدنيا لترون الجحيم بعيون قلوبكم، وهو أن تتصوروا أمر القيامة وأموالها **«ثم لتسألن يومئذ عن النعيم»** أي: عن نعيم الدنيا الذي الهلك من العمل للأخرة. قال قتادة: يعني: كفار مكة كانوا في الدنيا في الخير والنعمة، فيسألون يوم القيامة عن شكر ما كانوا فيه، ولم يشكروا رب النعم حيث عبدوا غيره، واشركوا به. قال الحسن: لا يسأل عن النعيم إلا أهل النار. وقال قتادة: إن الله سيحانه سائل كل ذي نعمة عما أنعم عليه، وهذا هو الظاهر، ولا وجه لتخصيص النعيم بفرد من الأفراد، أو نوع من الأنواع؛ لأن تعريفه للجنس، أو الاستغراق، ومجرد السؤال لا يستلزم تعذيب المسؤول على النعمة التي يستل عنها، فقد يسأل الله المؤمن عن النعم التي أنعم بها عليه فيم صرفها، وبم عمل فيها؟ ليعرف تقصيره، وعدم قيامه بما يجب عليه من الشكر، وقيل: السؤال عن الأمن والصحة، وقيل: عن الصحة والفراغ، وقيل: عن الإبرك بالحواس، وقيل: عن ملاذ المأكول والمشروب، وقيل: عن الغذاء والعشاء، وقيل: عن بارد الشراب وظلال المسكن، وقيل: عن اعتدال الخلق، وقيل: عن لذة النوم، والأولى العموم، كما نكرنا.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن أبي بردة في قوله: **«الهاكم التكاثر»** قال: نزلت في قبيلتين من قبائل الأنصار في بني حارثة وبني الحارث تفاخروا وتكاثروا، فقالت إحداهما: فيكم مثل فلان، وفلان. وقال الآخرون: مثل ذلك تفاخروا بالأحياء. ثم قالوا: انطلقوا بنا إلى القبور، فجعلت إحدى الطائفتين تقول: فيكم مثل فلان يشيرون إلى القبر، ومثل فلان، وفعل الآخرون كذلك، فانزل الله: **«الهاكم التكاثر * حتى زرم المقابر»** لقد كان لكم فيما زرم عبدة وشغل. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: **«الهاكم التكاثر»** قال: في الأموال والأولاد. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مريويه عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: قرأ رسول الله ﷺ: «الهاكم التكاثر» يعني عن الطاعة **«حتى زرم المقابر»** يقول: حتى ياتيكم الموت **«كلا سوف تعلمون»** يعني: لو قد نخلتم قبوركم **«ثم كلا سوف تعلمون»** يقول: لو قد خرجتم من قبوركم إلى محشركم **«كلا لو تعلمون علم اليقين»** قال: لو قد وقفت على أعمالكم بين يدي ربكم **«لترون الجحيم»** وذلك أن الصراط يوضع وسط جهنم، فنجح مسلم، ومخوش مسلم، ومكشوش في نار جهنم **«ثم لتسألن يومئذ عن النعيم»** يعني: شعب البطون، وبارد الشرب، وظلال المسكن، واعتدال الخلق، ولذة النوم. وأخرج ابن مريويه عن عياض بن غنم مرفوعاً نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله: **«ثم لتسألن يومئذ عن النعيم»** قال: صحة الأبدان، والأسماع، والأبصار، وهو أعلم بذلك منهم، وهو قوله: **«إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك**

الجمهور (والعصر) بسكون الصاد. وقرأوا أيضاً (خسر) بضم الخاء، وسكون السين. وقرأ يحيى بن سلام (والعصر) بكسر الصاد. وقرأ الأعرج، وطلحة، وعيسى (خسر) بضم الخاء والسين، ورويت هذه القراءة عن عاصم. ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: جمعوا بين الإيمان بالله والعمل الصالح، فإنهم في ربح لا في خسر؛ لأنهم عملوا للأخرة، ولم تشغلهم أعمال الدنيا عنها، والاستثناء متصل، ومن قال: إن المزداد بالإنسان الكافر فقط، فيكون منقطعاً، ويدخل تحت هذا الاستثناء كل مؤمن ومؤمنة، ولا وجه لما قيل: من أن المراد الصحابة أو بعضهم، فإن اللفظ عام لا يخرج عنه أحد ممن يتصف بالإيمان، والعمل الصالح ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ أي: وصى بعضهم بعضاً بالحق الذي يحق القيام به، وهو الإيمان بالله، والتوحيد، والقيام بما شرعه الله، واجتناب ما نهى عنه. قال قتادة: بالحق أي: بالقرآن، وقيل: بالتوحيد، والحمل على العموم أولى ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ أي: بالصبر عن معاصي الله سبحانه، والصبر على فرائضه. وفي جعل التواصي بالصبر قريناً للتواصي بالحق دليل على عظيم قدره، وفخامة شرفه، ومزيد ثواب الصابرين على ما يحق الصبر عليه: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: 153] وأيضاً التواصي بالصبر مما يندرج تحت التواصي بالحق، فإنه بالذكر، وتخصيصه بالنص عليه من أعظم الأدلة الدالة على إنافته على خصال الحق، ومزيد شرفه عليها، وارتفاع طبقته عنها. وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿وَالْعَصْرُ﴾ قال: الدهر. وأخرج ابن جرير عنه قال: هو ساعة من ساعات النهار. وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً قال: هو ما قبل مغيب الشمس من العشي. وأخرج الفريابي، وأبو عبيد في فضائله، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن الأنباري في المصاحف عن علي بن أبي طالب أنه كان يقرأ (والعصر * ونوائب الدهر * إن الإنسان لفي خسر * وإنه فيه إلى آخر الدهر). وأخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود أنه كان يقرأ (والعصر إن الإنسان لفي خسر * وإنه لفيه إلى آخر الدهر) اهـ.

تفسير سورة الهمة

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: أنزلت: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [أي: سورة الهمة] بمكة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝ الْوَيْ جَمْعُ مَا لَا وَعْدَ ۝ يَحْسَبُ أَنَّ
مَالَهُ أَخْلَدَهُ ۝ كَلَّا لَيُبَدِّلَنَّهُ فِي لَحْمَتِهِ ۝ وَمَا أَزْكَاكَ مَا لَطَمْتَهُ ۝
تَارَ اللَّهُ أَلْمُدَّةُ ۝ أَلَيْ تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْقَةِ ۝ إِنِّي عَلَيْكَ مُوَدَّةٌ
۝ فِي عَرُو مُدَّةٍ ۝

أضيقاً مني، فأنطلق، فجاء بعنق فيه بسر، وتمر. فقال: كلوا من هذا، وأخذ المدينة، فقال له رسول الله ﷺ: إياك والحبوب، فذبح لهم فاكلوا من الشاة، ومن ذلك العنق، وشربوا، فلما شبعوا ورووا قال رسول الله ﷺ: لأبي بكر، وعمر: والذي نفسي بيده لنسألن عن هذا النعيم يوم القيامة، وفي الباب أحاديث اهـ.

تفسير سورة العصر

وهي مكية عند الجمهور. وقال قتادة: هي مننية. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة العصر بمكة. وأخرج الطبراني في الأوسط، والبيهقي في الشعب عن أبي مزينة الدارمي، وكانت له صحبة قال: كان الرجلان من أصحاب النبي ﷺ إذا التقيا لم يتفرقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر. ثم يسلم أحدهما على الآخر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَصْرُ ۝ إِذَا الْإِنْسَانُ لَقِيَ خَيْرٍ ۝ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝

أقسم سبحانه بالعصر، وهو الدهر، لما فيه من العبر من جهة مرور الليل والنهار على تقدير الأوبار، وتعاقب الظلام والضياء، فإن في ذلك دلالة بيّنة على الصانع عز وجل، وعلى توحيده، ويقال لليل عصر، وللنهار عصر، ومنه قول حميد بن ثور:

ولم ينته العصران يوم وليلة إذا طلبا أن يدركا ما تمنيا
ويقال للغداة والعشي عصران، ومنه قول الشاعر:

وأمله العصرين حتى يملني ويرضى بنصف الدين والأنف راغم
وقال قتادة والحسن: المراد به في الآية العشي، وهو ما بين زوال الشمس وغروبها، ومنه قول الشاعر:

يروح بنا عمرو وقد قصر العصر وفي الروحة الأولى الغنية والأجر
وروي عن قتادة أيضاً أنه آخر ساعة من ساعات النهار. وقال مقاتل: إن المراد به صلاة العصر، وهي الصلاة الوسطى التي أمر الله سبحانه بالمحافظة عليها، وقيل: هو قسماً بعصر النبي ﷺ. قال الزجاج: قال بعضهم: معناه، ورب العصر، والأول أولى ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ﴾ هذا جواب القسم. الخسر، والخسران النقصان، وذهب رأس المال، والمعنى: أن كل إنسان في المتاجر والمساغي وصرف الأعمار في أعمال الدنيا لفي نقص، وضلال عن الحق حتى يموت. وقيل: المراد بالإنسان الكافر، وقيل: جماعة من الكفار وهم: الوليد بن المغيرة، والحاص بن وائل، والأسود بن عبد المطلب بن أسد، والأول أولى لما في لفظ الإنسان من العموم، ولدلالة الاستثناء عليه. قال الأخفش: ﴿فِي خُسْرٍ﴾ في هلكة. وقال الفراء: عقوبة. وقال ابن زيد: لفي شر. قرأ

وعنده: إذا أمسكته. قال السدي: أحصى عدده. وقال الضحك: أعد ماله لمن يرثه. وقيل: المعنى فاخر بكثيره وعدده، والمقصود أنه على جمع المال، وإمساكه، وعدم إنفاقه في سبيل الخير. وقيل: المعنى على قراءة التخفيف في عدده، أنه جمع عشيرته وأقاربه. قال المهدي: من خفف وعنده، فهو معطوف على المال أي: وجمع عدده، وجملة: **«يحسب أن ماله لخلده»** مستأنفة: لتقرير ما قبلها، ويجوز أن تكون في محل نصب على الحال أي: يعمل عمل من يظن أن ماله يتركه حياً مخلداً لا يموت. وقال عكرمة: يحسب أن ماله يزيد في عمره، والإظهار في موضع الإضمار للتقريع والتوبيخ. وقيل: هو تعريض بالعمل الصالح، وأنه الذي يخلد صاحبه في الحياة الأبدية لا المال. وقوله: **«كلا»** ردع له عن ذلك الحسبان أي: ليس الأمر على ما يحسبه هذا الذي جمع المال وعدده، واللام في: **«لينبذ في الحطمة»** جواب قسم محذوف أي: ليطرح في النار، وليلقين فيها. قرأ الجمهور (لينبذ) وقرأ علي، والحسن، ومحمد بن كعب، ونصر بن عاصم، ومجاهد، وحديد، وابن محيصن (لينبذ) بالثنية أي: لينبذ هو وماله في النار. وقرأ الحسن أيضاً (لينبذ) أي: لينبذ ماله في النار **«وما أدراك ما الحطمة»** هذا الاستفهام للتحويل والتفطيع حتى كأنها ليست مما تدركه العقول، وتبلغه الأفهام. ثم بينا سبحانه فقال: **«نار الله الموقدة»** أي: هي نار الله الموقدة بأمر الله سبحانه، وفي إضافتها إلى الاسم الشريف تعظيم لها وتفخيم، وكذلك في وصفها بالإيقاد: وسميت حطمة؛ لأنها تحطم كل ما يلقى فيها وتهشمه، ومنه: إننا حططنا بالقضيب مصعباً يوم كسرنا أنف ليغضبنا قيل: هي الطبقة السانسة من طبقات جهنم، وقيل: الطبقة الثانية منها، وقيل: الطبقة الرابعة **«التي تطلع على الأفئدة»** أي: يخلص حرماً إلى القلوب فيعلوها ويغشاها، وخص الأفئدة مع كونها تغشى جميع أبدانهم؛ لأنها محل العقائد الزائفة، أو لكون الألم إذا وصل إليها مات صاحبها أي: إنهم في حال من يموت، وهم لا يموتون. وقيل معنى: **«تطلع على الأفئدة»** أنها تعلم بمقدار ما يستحقه كل واحد منهم من العذاب، وذلك بآمارات عرفها الله بها **«إنها عليهم مؤصدة»** أي: مطبقة مغلقة، كما تقدم بيانه في سورة البلد، يقال أصلت الباب: إذا أغلقته، ومنه قول قيس بن الرقيات:

إن في القصر لو دخلنا غزلاً مصيباً موصداً عليه الحجاب
«في عمد ممددة» في محل نصب على الحال من الضمير في عليهم أي: كائنين في عمد ممددة موثقين فيها، أو في محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: هم في عمد، أو صفة لمؤصدة أي: مؤصدة بعمد ممددة. قال مقاتل: طبقت الأبواب عليهم، ثم شئت بأوتار من حديد، فلا يفتح عليهم باب، ولا يدخل عليهم روح. ومعنى كون العمد ممددة: أنها مطوالة، وهي: أرسخ من القصيرة. وقيل: العمد أغلال

الويل: هو مرتفع على الابتداء، وسوّغ الابتداء به مع كونه نكرة كونه دعاء عليهم، وخبره **«لكل همزة لمزة»** والمعنى: خزي، أو عذاب، أو هلكة أو واد في جهنم لكل همزة لمزة. قال أبو عبيدة، والزجاج: الهمزة اللمزة الذي يغتاب الناس، وعلى هذا معناه وقال أبو العالية، والحسن، ومجاهد، وعطاء بن أبي رباح: الهمزة الذي يغتاب الرجل في وجهه، واللمزة: الذي يغتابه من خلفه. وقال قتادة عكس هذا. وروي عن قتادة، ومجاهد أيضاً أن الهمزة: الذي يغتاب الناس في انسابهم. وروي عن مجاهد أيضاً أن الهمزة: الذي يهزم الناس بيده، واللمزة الذي يلزمهم بلسانه. وقال سفيان الثوري: يهزمهم بلسانه، ويلزمهم بعينه. وقال ابن كيسان الهمزة: الذي يؤذي جلساءه بسوء اللفظ، واللمزة: الذي يكسر عينه على جلسيه، ويشير بيده وبرأسه وبحاجبيه، والأول أولى، ومنه قول زياد الأعجم:

تسلي بود إذا لاقيتني كذباً وإن أغيب فانت الهامز اللمزة
 وقول الآخر:

إذا لقيتك عن سخط تكاشرتني وإن تغيبت كنت الهامز اللمزة
 وأصل الهمز الكسر، يقال: همز رأسه كسره، ومنه قول العجاج:

ومن همزنا رأسه تهشما

وقيل: أصل الهمز واللمز: الضرب واللفع، يقال: همزه يهزمه همزاً، ولمزه يلزمه لمزاً: إذا دفعه وضربه، ومنه قول الشاعر:

ومن همزنا عزه تبركعا على أسته زبيعة أو زبيعا
 البركة: القيام على أربع، يقال بركهه، فتبركع أي: صرعه، فوقع على أسته، كذا في الصحاح، وبناء فعلة يدل على الكثرة، ففيه دلالة على أنه يفعل ذلك كثيراً، وأنه قد صار ذلك عادة له، ومثله ضحكة ولعنة. قرأ الجمهور (همزة لمزة) بضم أولهما، وفتح الميم فيهما. وقرأ الباقون، والأعرج بسكون الميم فيهما. وقرأ أبو وائل، والنخعي، والأعمش (ويل للهمزة اللمزة) والآية تعم كل من كان متصفاً بذلك، ولا ينافية نزولها على سبب خاص، فإن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب **«الذي جمع مالا وعدده»** الموصول يدل من كل، أو في محل نصب على الذم، وهذا أرجح؛ لأن البذل يستلزم أن يكون المبدل منه في حكم الطرح، وإنما وصفه سبحانه بهذا الوصف؛ لأنه يجري مجرى السبب، والعلة في الهمز واللمز، وهو إعجابه بما جمع من المال، وظنه أنه الفضل، فلأجل ذلك يستقصر غيره. قرأ الجمهور (جمع) مخففاً. وقرأ ابن عامر، وحزمة، والكسائي بالتشديد. وقرأ الجمهور (وعنده) بالتشديد، وقرأ الحسن، والكلبي، ونصر بن عاصم، وأبو العالية بالتخفيف، والتشديد في الكلمتين يدل على التكاثر وهو جمع الشيء بعد الشيء، وتعديده مرة بعد أخرى. قال الفراء: معنى: عدده أحصاه. وقال الزجاج: وعدده لنوائب الدهور. يقال: أعدت الشيء

نكر قصة أصحاب الفيل إن شاء الله **﴿الم يجعل كيدهم في تضليل﴾** أي: ألم يجعل مكرهم وسعيهم في تخريب الكعبة، واستباحة أهلها في تضليل عما قصدوا إليه حتى لم يصلوا إلى البيت ولا إلى ما أرادوه بكيدهم، والهزمة للتقرير كأنه قيل: قد جعل كيدهم في تضليل، والكيد: هو إرادة المضرة بالغير؛ لأنهم أرادوا أن يكيّدوا قريشاً بالقتل والسبي، ويكيّدوا البيت الحرام بالتخريب والهدم **﴿وأرسل عليهم طيراً أبابيل﴾** أي: أقطيع يتبع بعضها بعضاً كالإبل المؤيلة. قال أبو عبيدة: أبابيل جماعات في تفرقة، يقال جاءت الخيل أبابيل أي: جماعات من ههنا وههنا. قال النحاس: وحقيقته أنها جماعات عظام، يقال فلان توبل على فلان أي: تعظم عليه، وتكبر، وهو مشتق من الإبل، وهو من الجمع الذي لا واحد له. وقال بعضهم: واحده أبول مثل عجل. وقال بعضهم: أبيل، قال الواحدي: ولم نر أحداً يجعل لها واحداً. قال الفراء: لا واحد له من لفظه. وزعم الرؤاسي وكان ثقة أنه سمع في واحدها: أبالة مشدداً. وحكى الفراء أيضاً: أبالة بالتخفيف. قال سعيد بن جبير: كانت طيراً من السماء لم ير قبلها ولا بعدها. قال قتادة: هي: طير سود جاءت من قبل البحر فوجاً فوجاً مع كل طائر ثلاثة أحجار: حجران في رجله، وحجر في منقاره لا يصيب شيئاً إلا هشمه. وقيل: كانت طيراً خضراً خرجت من البحر لها رؤوس كروؤس السباع. وقيل: كان لها خراطيم كخراطيم الطير، وكف كالكف الكلاب. وقيل: في صفتها غير ذلك، والعرب تستعمل الأبابيل في الطير، كما في قول الشاعر:

ترام إلى الداعي سراعاً كأنهم أبابيل طير تحت دجن مسجن
وتستعملها في غير الطير كقول الآخر:

كانت تهد من الأصوات راحلتي أن سالت الأرض بالجرد الأبابيل
﴿ترميمهم بحجارة من سجيل﴾ الجملة في محل نصب صفة لطير. قرأ الجمهور (ترميمهم) بالفوقية. وقرأ أبو حنيفة، وأبو معمر، وعيسى، وطلحة بالتحنية، واسم الجمع ينكر ويؤنث. وقيل: الضمير في القراءة الثانية لله عز وجل. قال الزجاج **﴿من سجيل﴾** أي: مما كتب عليهم العذاب به، مشتقاً من السجل. قال في الصحاح قالوا: هي حجارة من طين طبخت بنار جهنم مكتوب فيها أسماء القوم. قال عبد الرحمن بن أبيزى: **﴿من سجيل﴾** من السماء، وهي الحجارة التي نزلت على قوم لوط، وقيل: من الجحيم التي هي سجين، ثم أبليت النون لأم، ومنه قول ابن مقبل:

ضرباً تلوّصت به الأبطال سجلاً

ولأنما هو سجيناً. قال عكرمة: كانت ترميمهم بحجارة معها، فإذا أصاب أحدهم حجر منها خرج به الجحدرى، وكان الحجر كالحصاة، وفوق العدسة، وقد قدّمنا الكلام في سجيل في سورة هود **﴿فجعلهم كعصف مأكول﴾** أي: جعل الله أصحاب الفيل كورق الزرع إذا أكلته النوا

في جهنم، وقيل: القيود. قال قتادة: المعنى: هم في عمد يعتبون بها، واختار هذا ابن جرير. قرأ الجمهور (في عمد) بفتح العين، والميم. قيل: هو اسم جمع لعمود. وقيل: جمع له. قال الفراء: هي جمع لعمود كأيمن وأدم. وقال أبو عبيدة: هي جمع عماد. وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر بضم العين، والميم جمع عمود. قال الفراء: هما جمعان صحيحان لعمود. واختار أبو عبيد، وأبو حاتم وقراءة الجمهور. قال الجوهري: العمود عمود البيت، وجمع القلة أعمدة، وجمع الكترة عمد وعمد، وقرئ بهما. قال أبو عبيدة: العمود كل مستطيل من خشب أو حديد.

وقد أخرج سعيد بن منصور، وابن أبي الدنيا، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مرونه من طرق عن ابن عباس أنه سئل عن قوله: **﴿ويل لكل همزة لمزة﴾** قال: هو المشاء بالنميمة، المفرق بين الجمع، المغربي بين الإخوان. وأخرج ابن جرير عنه: **﴿ويل لكل همزة﴾** قال: طعان **﴿لمزة﴾** قال: مغتاب. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عنه أيضاً في قوله: **﴿إنها عليهم مؤصدة﴾** قال: مطبقة **﴿في عمد ممّدة﴾** قال: عمد من نار. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال: هي الأدم. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: الأبواب هي الممّدة. وأخرج ابن جرير عنه في الآية قال: أدخلهم في عمد، فمّنت عليهم في أعناقهم، فشنت بها الأبواب.

تفسير سورة الفيل

وأخرج ابن مرونه عن ابن عباس قال: أنزلت بمكة **﴿الم تر كيف فعل ربك﴾** [أي: سورة الفيل].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَبْدَهُمْ فِي نَفْسِهِمْ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَابٍ ذِينَ سَيْبِلٍ ﴿٤﴾ فَبَدَّلَ كَعْفَهُمْ تَأْكُولُ ﴿٥﴾

الاستفهام في قوله: **﴿الم تر﴾** لتقرير رؤيته **﴿١﴾** بإنكار عدمها. قال الفراء: المعنى ألم تخبر، وقال الزجاج: ألم تعلم، وهو تعجيب له **﴿٢﴾** بما فعله الله **﴿بأصحاب الفيل﴾** الذين قصدوا تخريب الكعبة من الحبشة، وكيف منصوبة بالفعل الذي بعدها، ومعلقة لفعل الرؤية، والخطاب لرسول الله **﴿٣﴾**، ويجوز أن يكون لكل من يصلح له. والمعنى: قد علمت يا محمد، أو علم الناس الموجودون في عصره، ومن بعدهم بما بلغكم من الأخبار المتواترة من قصة أصحاب الفيل، وما فعل الله بهم، فما لكم لا تؤمنون؟ والفيل هو الحيوان المعروف، وجمعه أفيال، وفيل، وفيلة. قال ابن السكيت: ولا تقول أفيلة، وصاحبه فيال، وسياتي

تفسير سورة قريش

وهي مكية عند الجمهور، وقال الضحاك، والكلبي: هي مدنية.

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة: ﴿إِيلَافٌ﴾ بمكة. وأخرج البخاري في تاريخه، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي عن أم هانئ بنت أبي طالب، أن رسول الله ﷺ قال: «فضل الله قريشاً بسبع خصال لم يعطها أحداً قبلهم، ولا يعطيها أحداً بعدهم: أني فيهم. وفي لفظ: النبوة فيهم، والخلافة فيهم، والحجبة فيهم، والسقاية فيهم، ونصروا على الفيل، وعبدوا الله سبع سنين. وفي لفظ: عشر سنين لم يعبد أحد غيرهم، ونزلت فيهم سورة من القرآن لم ينكر فيها أحد غيرهم: ﴿إِيلَافٌ قريش﴾» [أي: سورة قريش] قال ابن كثير: هو: حديث غريب، ويشهد له ما أخرجه الطبراني في الأوسط، وابن مردويه، وابن عساكر عن الزبير بن العوام قال: قال رسول الله ﷺ: «فضل الله قريشاً بسبع خصال: فضلهم بأنهم عبدوا الله عشر سنين لا يعبد إلا قريش، وفضلهم بأنه نزلت فيهم سورة من القرآن لم يدخل فيها أحد من العالمين غيرهم، وهي: ﴿إِيلَافٌ قريش﴾، وفضلهم بأن فيهم النبوة، والخلافة، والسقاية». وأخرج الخطيب في تاريخه عن سعيد بن المسيب مرفوعاً نحوه، وهو مرسل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِيلَافٌ قُرَيْشٍ ① لِمَنْ لَمْ يَرْحَمْ رَحْمَةً أَيْشَاءَ وَأَصْنَاءَ ② فَلَمَّعِدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ③ أَلَدَّتْ أُمَّمُهُمْ مِنْ جُوعٍ وَأَمْنَهُمْ مِنْ حَرْبٍ ④

اللام في قوله: ﴿إِيلَافٌ﴾ قيل: هي متعلقة بأخر السورة التي قبلها، كأنه قال سبحانه: أهلك أصحاب الفيل لأجل تألف قريش. قال الفراء: هذه السورة متصلة بالسورة الأولى؛ لأنه ذكر سبحانه أهل مكة بعظيم نعمته عليهم فيما فعل بالحبيشة. ثم قال: ﴿إِيلَافٌ قريش﴾ أي: فعلنا ذلك بأصحاب الفيل نعمة منا على قريش، وذلك أن قريشاً كانت تخرج في تجارتها، فلا يغار عليها في الجاهلية، يقولون: هم أهل بيت الله عز وجل، حتى جاء صاحب الفيل ليهدم الكعبة، ويأخذ حجارتها فيبني بها بيتاً في اليمن يحج الناس إليه، فاهلكهم الله عز وجل، فذكرهم نعمته أي: فعل ذلك لإيلاف قريش: أي: ليألفوا الخروج ولا يجترأ عليهم، ونكر نحو هذا ابن قتبية. قال الزجاج: والمعنى: فجعلهم كعصف مأكول ﴿إِيلَافٌ قريش﴾ أي: أهلك الله أصحاب الفيل لتبقى قريش، وما قد ألفوا من رحلة الشتاء والصيف. وقال في الكشف: إن اللام متعلق بقوله: ﴿فليعبدوا﴾ أمرهم أن يعبدوا لأجل إيلافهم الرحلتين، وبخلت الفاء لما في الكلام من معنى

فرمت به من أسفل، شبه تقطع أوصالهم بتفريق لجزائه. وقيل المعنى: أنهم صاروا كورق زرع قد أكلت منه النواوب وبقي منه بقايا، أو أكلت حبه، فبقي بون حبه. والعصف جمع عصفة، وعصافة، وعصيفة، وقد قلّمنا الكلام في العصف في سورة الرحمن، فارجع إليه.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي عن ابن عباس قال: جاء أصحاب الفيل حتى نزلوا الصفاح، فأتاهم عبد المطلب فقال: إن هذا بيت الله لم يسلط عليه أحد، قالوا: لا نرجع حتى نهدمه، وكانوا لا يقدّمون فيلهم إلا تأخر، فدعا الله الطير الأبايل، فأعطاهم حجارة سوداً عليها الطين، فلما حانتهم رميتهم، فما بقي منهم أحد إلا أخذته الحكة، فكان لا يحك الإنسان منهم جلده إلا تساقط لحمه. وأخرج ابن المنذر، والحاكم، وأبو نعيم، والبيهقي عنه قال: أقبل أصحاب الفيل حتى إذا دنوا من مكة استقبلهم عبد المطلب، فقال لملكهم: ما جاء بك إلينا؟ ألا بعثت، فنأتيك بكل شيء؟ فقال: أخبرت بهذا البيت الذي لا يدخله أحد إلا أمن، فجنحت أخيف أهله، فقال: إنا نأتيك بكل شيء تريد، فارجع، فأبى إلا أن يدخله، وانطلق يسير نحوه، وتخلف عبد المطلب، فقام على جبل فقال: لا أشهد مهلك هذا البيت وأهله، فأقبلت مثل السحابة من نحو البحر حتى أظلمت طير أبايل التي قال الله: ﴿ترميهم بحجارة من سجيل﴾ فجعل الفيل يعج عجا ﴿فجعلهم كعصف مأكول﴾ وقصة أصحاب الفيل مبسوبة مطوّلة في كتب التاريخ والسير، فلا نطوّل بذكرها. وأخرج أبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس في قوله: ﴿ترميهم بحجارة من سجيل﴾ قال: حجارة مثل البنق، وبها نضح حمرة مختمة مع كل طائر ثلاثة لحجار: حجران في رجله، وحجر في منقاره حلقت عليهم من السماء، ثم أرسلت عليهم تلك الحجارة، فلم تعد عسكرهم. وأخرج أبو نعيم من طريق عطاء، والضحاك عنه أن أبرهة الأشرم قدم من اليمن يريد هدم الكعبة، فأرسل الله عليهم طيراً أبايل يريد مجتمعة، لها خرطوم تحمل حصاة في منقارها، وحصاتين في رجليها، ترسل واحدة على رأس الرجل، فيسيل لحمه وبمه ويبقى عظماً خالوة لا لحم عليها ولا جلد ولا دم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في الدلائل عنه أيضاً ﴿فجعلهم كعصف مأكول﴾ يقول: كالتين. وأخرج ابن إسحاق في السيرة، والواقدي، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي عن عائشة قالت: لقد رأيت قائد الفيل، وسائسه بمكة أعميين مقعدين يستطعمان. وأخرج الواقدي نحوه عن أسماء بنت أبي بكر. وأخرج أبو نعيم، والبيهقي عن ابن عباس قال: ولد النبي ﷺ عام الفيل. وأخرج ابن إسحاق، وأبو نعيم، والبيهقي عن قيس بن مخزومة قال: ولدت أنا ورسول الله ﷺ عام الفيل.

أطعمهم من جوع أي: أطعمهم بسبب تينك الرحلتين من جوع شديد كانوا فيه قبلهما، وقيل: إن هذا الإطعام هو أنهم لما كذبوا النبي ﷺ دعا عليهم، فقال: اللهم اجعلها عليهم سنتين كسني يوسف، فاشتد القحط، فقالوا: يا محمد ادع الله لنا فلما مؤمنون، فدعا، فلخصبوا وزال عنهم الجوع، وارتفع القحط **«وَأَمْنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ»** أي: من خوف شديد كانوا فيه. قال ابن زيد: كانت العرب يغير بعضها على بعض ويسبي بعضها بعضاً، فأمنت قريش من ذلك لمكان الحرم. وقال الضحاك، والربيع، وشريك، وسفيان: آمنهم من خوف الحبشة مع الفيل.

الشرط؛ لأن المعنى: أما لا، فليعبوه. وقد تقدّم صاحب الكشاف إلى هذا القول الخليل بن أحمد، والمعنى: إن لم يعبهوه لسائر نعمه، فليعبوه لهذه النعمة الجليلة. وقال الكسائي والأخفش: اللام لام التعجب: أي اعجبوا لإيلاف قريش. وقيل: هي بمعنى إلي. قرأ الجمهور (الإيلاف) بالياء مهموزاً من الفت أولف إثلافاً، يقال: الفت الشيء الآفاً والآفاً. وافتة إيلافاً بمعنى، ومنه قول الشاعر:

للمنعمين إذا النجوم تغيرت والظاعنين لرحلة الإيلاف
وقرأ ابن عامر (الإلاف) بدون الياء، وقرأ أبو جعفر (الإلف) وقد جمع بين هاتين القراءتين الشاعر، فقال:

زعمتم أن إخوانكم قريش لهم ألف وليس لكم ألف
وقرأ عكرمة (اليلاف قريش) بفتح اللام على أنها لام الأمر، وكذلك هو: في مصحف ابن مسعود، وفتح لام الأمر لغة معروفة. وقرأ بعض أهل مكة (الإلف قريش) واستشهد بقول أبي طالب:

تنود الورى من عصبة هاشمية إلفهم في الناس خير إلف
وقريش هم: بنو النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر، فكل من كان من ولد النضر فهو قرشي، ومن لم يلد به النضر فليس بقرشي، وقريش يأتي منصرفاً إن أريد به الحي، وغير منصرف إن أريد به القبيلة ومنه قول الشاعر:

وكفى قريش المعضلات وسادها

وقيل إن قريشاً بنو فهر بن مالك بن النضر، والأول أصح، وقوله: **«إيلافهم»** بدل من إيلاف قريش، و **«رحلة»** مفعول به إيلافهم وأقربها، ولم يقل رحلتي الشتاء والصيف لأمن الإلباس، وقيل: إن إيلافهم تأكيد للآل لا بدل، والأول أولى. ورجحه أبو البقاء، وقيل: إن رحلة منصوبة بمصدر مقتر أي: ارتحالهم رحلة **«الشتاء والصيف»** وقيل: هي منصوبة على الظرفية والرحلة: الارتحال، وكانت إحدى الرحلتين إلى اليمن في الشتاء؛ لأنها بلاد حارة، والرحلة الأخرى إلى الشام في الصيف؛ لأنها بلاد باردة. وروي أنهم كانوا يشتون بمكة، ويصيفون بالطائف، والأول أولى، فإن ارتحال قريش للتجارة معلوم معروف في الجاهلية والإسلام. قال ابن قتيبة: إنما كانت تعيش قريش بالتجارة، وكانت لهم رحلتان في كل سنة: رحلة في الشتاء إلى اليمن، ورحلة في الصيف إلى الشام، ولولا هاتان الرحلتان لم يمكن بها مقام، ولولا الأمن بجوارهم البيت لم يقدروا على التصرف **«فليعبدوا ربّ هذا البيت»** أمرهم سبحانه بعبادته بعد أن نكر لهم ما أنعم به عليهم أي: إن لم يعبدوه لسائر نعمه، فليعبوه لهذه النعمة الخاصة المنكورة، والبيت الكعبة. وعرفهم سبحانه بأنه ربّ هذا البيت؛ لأنها كانت لهم أوثان يعبدونها، فميز نفسه عنها، وقيل: لأنهم بالبيت تشرفوا على سائر العرب، فنكر لهم ذلك تنكيراً لنعمته **«الذي**

وقد أخرج أحمد، وابن أبي حاتم عن أسماء بنت يزيد قالت: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إيلاف قريش * إيلافهم رحلة الشتاء والصيف»** ويحكم يا قريش، أعبدوا ربّ هذا البيت الذي أطعمكم من جوع، وأمنكم من خوف». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مريويه عن ابن عباس في قوله: **«إيلاف قريش»** قال: نعمتي على قريش **«إيلافهم رحلة الشتاء والصيف»** كانوا يشتون بمكة، ويصيفون بالطائف **«فليعبدوا ربّ هذا البيت»** قال: للكعبة **«الذي أطعمهم من جوع وأمنهم من خوف»** قال: الجذام. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه عنه **«إيلاف قريش * إيلافهم»** قال: لزومهم **«الذي أطعمهم من جوع»** يعني قريشاً أهل مكة بدعوة إبراهيم حيث قال: **«وآزق أمله من الثمرات»** [البقرة: 126] **«وَأَمْنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ»** حيث قال إبراهيم **«ربّ اجعل هذا البلد آمناً»** [البقرة: 126] وأخرج ابن جرير، وابن مريويه عنه أيضاً في قوله: **«إيلاف قريش»** الآية، قال: نهاهم عن الرحلة، وأمرهم أن يعبدوا ربّ هذا البيت، وكفاهم المؤنة، وكانت رحلتهم في الشتاء والصيف، ولم يكن لهم راحة في شتاء ولا صيف، فطعمهم الله بعد ذلك من جوع، وأمنهم من خوف، فالفوا الرحلة، وكان ذلك من نعمة الله عليهم. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً في الآية قال: أمروا أن يالفوا عبادة ربّ هذا البيت كإفهم رحلة الشتاء والصيف، وقد وردت أحاديث في فضل قريش، وإن الناس تبع لهم في الخير والشر، وإن هذا الأمر يعني الخلافة لا يزال فيهم ما بقي منهم اثنان، وهي في نواوين الإسلام.

تفسير سورة الماعون

وهي مكية في قول عطاء، وجابر، وأحمد قولي ابن عباس، ومدينة في قول قتادة، وآخرين. وأخرج ابن مريويه عن ابن عباس قال: نزلت: **«أرأيت الذي يكذب بالدين»** [أي: سورة الماعون] بمكة. وأخرج ابن مريويه عن ابن الزبير مثله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَرَدَيْتَ الَّذِي يَكُودُ بِاللَّيْلِ ① فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ
الْيَتِيمَ ② وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ③ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ
④ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ⑤ الَّذِينَ هُمْ يُرَاكُونَ ⑥
وَيَسْمَعُونَ الْكَاوُونَ ⑦

الخطاب لرسول الله ﷺ أو لكل من يصلح له، والاستفهام لقصد التعجب من حال من يكتب بالدين، والرؤية: بمعنى المعرفة، والدين: الجزاء والحساب في الآخرة. قيل: وفي الكلام حذف، والمعنى: أرايت الذي يكتب بالدين أمصيب هو أم مخطئ. قال مقاتل، والكلي: نزلت في العاص بن وائل السهمي. وقال السدي: في الوليد بن المغيرة. وقال الضحاك: في عمرو بن عائذ. وقال ابن جريج في أبي سفيان، وقيل: في رجل من المنافقين. قرأ الجمهور (أرايت) بثلاث الهزرة الثانية. وقرأ الكسائي بإسقاطها. قال الزجاج: لا يقال في رأيت ريت، ولكن ألف الاستفهام سهلت الهزرة ألفاً، وقيل الرؤية: هي البصرية، فيتعدى إلى مفعول واحد، وهو الموصول أي: أبصرت المكذب. وقيل: إنها بمعنى أخبرني، فيتعدى إلى اثنين. الثاني محذوف: أي من هو **﴿فذلك الذي يدع اليتيم﴾** الفاء جواب شرط مقدر: أن إن تأملت أو طلبته، فذلك الذي يدع اليتيم، ويجوز أن تكون عاطفة على الذي يكتب: إما عطف ذات على ذات، أو صفة على صفة. فعلى الأول يكون اسم الإشارة مبتدأ، وخبره الموصول بعده، أو خبر لمبتدأ محذوف أي: فهو ذلك، والموصول صفة. وعلى الثاني يكون في محل نصب لعطفه على الموصول الذي هو في محل نصب. ومعنى يدع يدفع دفعاً بغف، وجفوة أي: يدفع اليتيم عن حقه دفعاً شديداً، ومنه قوله سبحانه: **﴿يوم يدعون إلى نار جهنم دعا﴾** [الطور: 13] وقد قلّمنا أنهم كانوا لا يؤثرون النساء والصبيان **﴿ولا يحض على طعام المسكين﴾** أي: لا يحض نفسه، ولا أهله، ولا غيرهم على ذلك بخلاً بالمال، أو تكتيباً بالجزاء، وهو مثل قوله في سورة الحاقة: **﴿ولا يحض على طعام المسكين﴾** [الحاقة: 34] **﴿فويل﴾** يومئذ **﴿للمصلين﴾** الفاء جواب لشرط محذوف كأنه قيل: إذا كان ما نذكر من عدم المبالاة باليتيم والمسكين، فويل للمصلين **﴿الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾** أي: عذاب لهم، أو هلاك، أو واد في جهنم لهم، كما سبق الخلاف في معنى الويل، ومعنى ساهون: غافلون غير مباليين بها، ويجوز أن تكون الفاء لترتيب الدعاء عليهم بالويل على ما نكر من قبائحهم، ووضع المصلين موضع ضميرهم للتوصل بذلك إلى بيان أن لهم قبائح أخر غير ما نكر. قال الواحدي: نزلت في المنافقين الذين لا يرجون بصلاتهم ثواباً إن صلوا، ولا يخافون عليها عقاباً إن تركوا، فهم عنها غافلون حتى يذهب وقتها، وإذا كانوا مع المؤمنين صلوا رياء، وإذا لم يكونوا معهم لم يصلوا، وهو معنى قوله: **﴿الذين هم يراعون﴾** أي:

يراعون الناس بصلاتهم إن صلوا، أو يراعون الناس بكل ما علموه من أعمال البر: لينثوا عليهم. قال النخعي **﴿الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾** هو الذي إذا سجد قال برأسه هكذا، وهكذا ملتفتاً. وقال قطرب: هو الذي لا يقرأ ولا ينكر الله. وقرأ ابن مسعود الذين هم عن صلاتهم لاهون **﴿ويمنعون الماعون﴾**. قال أكثر المفسرين: الماعون اسم لما يتعاضده الناس بينهم: من اللو، والغاس، والقدر، وما لا يمنع كالماء، والملح. وقيل هو الزكاة أي: يمنعون زكاة أموالهم. وقال الزجاج، وأبو عبيد، والمبرد: الماعون في الجاهلية كل ما فيه منفعة حتى الغاس، واللو، والقدر، والقداحة وكل ما فيه منفعة من قليل وكثير، وأنشدوا قول الأعشى:

بأجود منه بماعونه إذا ما سألهم لم تغم
قال الزجاج، وأبو عبيد، والمبرد أيضاً: والماعون في الإسلام الطاعة والزكاة، وأنشدوا قول الراعي:

أخليفة الرحمن إنا معشر حنفا نسجد بكرة وأصيلا
عرب نرى الله من أموالنا حق الزكاة منزلاً تنزيلا
قوم على الإسلام لما يمنعون ماعونهم ويضيعوا التهليل
وقيل: الماعون الماء. قال الفراء: سمعت بعض العرب يقول: الماعون الماء، وأنشدني:

تج صبرة الماعون صبا

والصبرة السحاب، وقيل: الماعون: هو الحق على العبد على العموم، وقيل: هو المستغل من منافع الأموال، مأخوذ من المعن، وهو القليل. قال قطرب: أصل الماعون من القلة، والمعن: الشيء القليل، فسمى الله الصدقة والزكاة، ونحو ذلك من المعروف ماعوناً؛ لأنه قليل من كثير، وقيل: هو ما لا ييخل به كالماء، والملح، والنان.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس **﴿أرايت الذي يكتب بالدين﴾** قال: يكتب بحكم الله **﴿فذلك الذي يدع اليتيم﴾** قال: ينفعه عن حقه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عنه **﴿فويل للمصلين﴾** الذين هم عن صلاتهم ساهون قال: هم المنافقون يراعون الناس بصلاتهم إذا حضروا، ويتركونها إذا غابوا، ويمنعونهم العارية بغضاً لهم، وهي الماعون. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عنه أيضاً **﴿الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾** قال: هم: المنافقون يترون الصلاة في السر، ويصلون في العلانية. وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي في سننه عن مصعب بن سعد قال: قلت لأبي: أرايت قول الله: **﴿الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾** أين لا يسهو، أين لا يحت نفسه؟ قال: إنه ليس ذلك، إنه إضاعة الوقت. وأخرج أبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني في الأوسط، وابن مردويه، والبيهقي في سننه عن سعد بن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكْبِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ الْأَكْبَرُ ﴿٣﴾

قرأ الجمهور (إنا أعطيناك) وقرأ الحسن، وابن محيصن، وطلحة، والزعفراني (أنطيناك) بالنون. قيل: هي لغة العرب العاربة. قال الأعشى:

حبلك خير حبا الملوك يسان الحلال وتنطى الحلولا

و ﴿الكوثر﴾ فوعل من الكثرة وصف به للمبالغة في الكثرة، مثل النوفل من النفل، والجوهر من الجهر، العرب تسمي كل شيء كثير في العدد، أو القدر، أو الخطر كوثرًا، ومنه قول الشاعر:

وقد ثارت نفع الموت حتى تكوثرًا

فالمعنى على هذا: إنا أعطيناك يا محمد الخير الكثير البالغ في الكثرة إلى الغاية. وذهب أكثر المفسرين، كما حكاه الواحدي إلى أن الكوثر نهر في الجنة، وقيل: هو حوض النبي ﷺ في الموقف قاله عطاء. وقال عكرمة: الكوثر النبوة. وقال الحسن: هو القرآن. وقال الحسن بن الفضل: هو تفسير القرآن، وتخفيف الشرائع. وقال أبو بكر بن عياش: هو كثرة الأصحاب والامة. وقال ابن كيسان: هو الإيثار. وقيل هو الإسلام. وقيل: رفعة الذكر، وقيل: نور القلب، وقيل: الشفاعة، وقيل: المعجزات، وقيل: إجابة الدعوة، وقيل: لا إله إلا الله، وقيل: الفقه في الدين، وقيل: الصلوات الخمس، وسيأتي بيان ما هو الحق ﴿فصل لربك﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، والمراد الأمر له ﷺ بالدوام على إقامة الصلوات المفروضة ﴿وانحرف﴾ البين التي هي خيار أموال العرب. قال محمد بن كعب: إن ناسًا كانوا يصلون لغير الله، وينحرون لغير الله، فامر الله نبيه ﷺ أن تكون صلاته ونحره له. وقال قتادة، وعطاء، وعكرمة: المراد صلاة العيد، ونحر الأضحية. وقال سعيد بن جبير: صل لربك صلاة الصبح المفروضة بجمع. وانحرف البين في منى، وقيل: النحر وضع اليمنى على اليسرى في الصلاة حذاء النحر قاله محمد بن كعب. وقيل: هو أن يرفع يديه في الصلاة عند التكبير إلى حذاء نحره. وقيل: هو أن يستقبل القبلة بنحره قاله الفراء، والكلبي، وأبو الأحوص. قال الفراء: سمعت بعض العرب يقول نتناحر: أي: نتقابل: نحر هذا إلى نحر هذا أي: قبالة، ومنه قول الشاعر:

إباحكم ما أنت عمرًا مجالد وسيد أهل الأبطح المتناحر

أي: المتقابل. وقال ابن الأعرابي: هو: انتصاب الرجل في الصلاة بازاء المحراب، من قولهم: منازلهم تتناحر تتقابل. ودوي عن عطاء أنه قال: أمره أن يستوي بين السجنتين جالسًا حتى يبو نحره. وقال سليمان التيمي: المعنى: وارفح يديك بالدعاء إلى نحر، وظاهر الآية الأمر له ﷺ بمطلق الصلاة، ومطلق النحر، وإن يجعلهما الله عز وجل لا لغيره،

أبي وقاص قال: سألت النبي ﷺ عن قوله: ﴿الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾ قال: هم الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها. قال الحاكم، والبيهقي: الموقوف أصح. قال ابن كثير: وهذا يعني الموقوف أصح إسنادًا. قال: وقد ضعف البيهقي رفعه وصحح وقفه، وكذلك الحاكم. وأخرج ابن جرير، وابن مروي عن قال السيوطي بسند ضعيف عن أبي برزة الأسلمي قال: «لما نزلت هذه الآية: ﴿الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾ قال رسول الله ﷺ: الله أكبر، هذه الآية خير لكم من أن يعطى كل رجل منكم جميع الدنيا، هو الذي إن صلى لم يرج خير صلاته، وإن تركها لم يخف ربه، وفي إسناده جابر الجعفي، وهو ضعيف، وشيخه مبهم لم يسم. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في الآية قال: هم الذين يؤخرونها عن وقتها. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وأبو داود، والنسائي، والبخاري، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني في الأوسط، وابن مروي، والبيهقي في سننه من طرق عن ابن مسعود قال: كنا نعد الماعون على عهد رسول الله ﷺ عارية للو، والقدر، والفأس، والميزان، وما تتعاطون بينهم. وأخرج ابن مروي عنه قال: كان المسلمون يستعيرون من المنافقين القدر، والفأس، وشبهه، فيمضونهم، فأنزل الله ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ وأخرج أبو نعيم، والديلمي، وابن عساکر عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في الآية قال: ما تعاون الناس بينهم الفأس، والقدر، واللو، وأشباهه. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مروي عن قرة بن دعيموس النميري: «أنهم وفدوا إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله ما تعهد إلينا؟ قال: لا تمنعوا الماعون، قالوا: وما الماعون؟ قال: في الحجر، والحديدة، وفي الماء، قالوا: فأي الحديد؟ قال: قنورك النحاس، وحديد الفأس الذي تمتنون به، قالوا: وما الحجر؟ قال: قنورك الحجارة. قال ابن كثير: غريب جداً، ورفع منكر، وفي إسناده من لا يعرف. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير عن سعيد بن عياض عن أصحاب النبي ﷺ: الماعون: للفأس، والقدر، واللو. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، والحاكم وصححه، والبيهقي، والضياء في المختارة من طرق عن ابن عباس في الآية قال: عارية متاع البيت. وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم، والبيهقي في سننه عن علي بن أبي طالب قال: الماعون الزكاة المفروضة ﴿يراعون﴾ بصلاتهم ﴿وَيَمْنَعُونَ﴾ زكاتهم.

تفسير سورة الكوثر

وهي مكية في قول ابن عباس، والكلبي، ومقاتل. ومنية في قول الحسن، وعكرمة، ومجاهد، وقتادة. وأخرج ابن مروي عن ابن عباس، وابن الزبير، وعائشة أنها نزلت سورة الكوثر بمكة.

وأحمد، والترمذي وصححه، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه عن عطاه بن السائب قال: قال محارب بن دثار: قال سعيد بن جبير في الكوثر: قلت حدثنا عن ابن عباس أنه قال: هو الخير الكثير، فقال: صدق إنه للخير الكثير، ولكن حدثنا ابن عمر قال: نزلت ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «الكوثر نهر في الجنة حافظه من ذهب يجري على الدرّ والياقوت، تربته أطيب من المسك، وماؤه أشدّ بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل». وأخرج البخاري، وابن جرير، والحاكم من طريق أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال في الكوثر: هو الخير الذي أعطاه الله إياه. قال أبو بشر: قلت لسعيد بن جبير، فإن ناساً يزعمون أنه نهر في الجنة، قال: النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه. وهذا التفسير من جبر الأمة ابن عباس رضي الله عنه ناظر إلى المعنى اللغوي كما عرفناك، ولكن رسول الله ﷺ قد فسّره فيما صرح عنه أنه النهر الذي في الجنة، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل. وأخرج ابن أبي حاتم، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي في سننه عن علي بن أبي طالب قال: «لما نزلت هذه السورة على النبي ﷺ: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ فصل لربك وانحر» قال رسول الله ﷺ لجبريل: ما هذه النخيرة التي أمرني بها ربي؟ فقال: إنها ليست بنخيرة، ولكن يأمرك إذا تحرّمت للصلاة أن ترفع يديك إذا كبرت، وإذا ركعت، وإذا رفعت رأسك من الركوع، فإنها صلاتنا، وصلاة الملائكة الذين هم في السموات السبع، وإن لكل شيء زينة، وزينة الصلاة رفع اليدين عند كل تكبيرة، قال النبي ﷺ: رفع اليدين من الاستكانة التي قال الله: ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لَهُمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون: 76] هو من طريق مقاتل بن حيان عن الأصعب بن نباتة عن علي. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال: «إن الله أوحى إلى رسوله أن ارفع يديك حذاء نحرِكَ إذا كبرت للصلاة، فذاك النحر». وأخرج ابن أبي شيبة، والبخاري في تاريخه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والدارقطني في الأفراد، وأبو الشيخ، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي في سننه عن علي بن أبي طالب في قوله: ﴿فصل لربك وانحر﴾ قال: وضع يده اليمنى على وسط ساعده اليسرى، ثم وضعهما على صدره في الصلاة. وأخرج أبو الشيخ، والبيهقي في سننه عن أنس عن النبي ﷺ مثله. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن شاهين في سننه، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس ﴿فصل لربك وانحر﴾ قال: إذا صليت، فرفعت رأسك من الركوع، فاستو قائماً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في الآية قال: الصلاة المكتوبة، والذبح يوم الأضحية. وأخرج البيهقي في سننه عنه: ﴿وانحر﴾ قال: يقول: وانبح يوم النحر. وأخرج البزار، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس قال: قدم كعب بن الأشرف مكة. فقالت له قريش: أنت خير أهل المدينة وسيدهم، ألا ترى إلى هذا الصابئ

وما ورد في السنة من بيان هذا المطلق بنوع خاص، فهو في حكم التقييد له، وسيأتي إن شاء الله ﴿إِن شَأْنُكَ هُوَ الْإِبْتَرُ﴾ أي: إن ميفضك هو المنقطع عن الخير على العموم. فيعمّ خيري الدنيا والآخرة، أو الذي لا عقب له، أو الذي لا يبقى تذكره بعد موته، وظاهر الآية العموم، وإن هذا شأن كل من يفيض النبي ﷺ، ولا ينافي ذلك كون سبب النزول هو العاص بن وائل، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، كما مرّ غير مرّة، قيل: كان أهل الجاهلية إذا مات الذكور من أولاد الرجل قالوا: قد بتر فلان، فلما مات ابن رسول الله ﷺ إبراهيم خرج أبو جهل إلى أصحابه فقال: بتر محمد، فنزلت الآية. وقيل: القائل بذلك عقبه بن أبي معيط. قال أهل اللغة: الإبتَر من الرجال: الذي لا ولد له، ومن الدواب: الذي لا ذنب له، وكل أمر انقطع من الخير أثره فهو إبتَر، وأصل البتر القطع، يقال بترت الشيء بترّاً: قطعته.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي في سننه عن أنس قال: «أغفى رسول الله ﷺ إغفاءة، فرفع رأسه مبتسماً فقال: إنه أنزل عليّ أنفاً سورة، فقرأ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ حتى ختمها قال: هل تدرون ما الكوثر؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: هو نهر أعطانيه ربي في الجنة عليه خير كثير ترد عليه أمتي يوم القيامة، أتيتك كعدد الكواكب يختلج العبد منهم فاقول يا ربّ إنه من أمتي، فيقال إنك لا تدري ما أحدث بعك». وأخرجه أيضاً مسلم في صحيحه. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «دخلت الجنة، فإذا أنا بنهر حافظه خيام اللؤلؤ، فضربت بيدي إلى ما يجري فيه الماء، فإذا مسك أنفر، قلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاك الله، وقد روي عن أنس من طرق كلها مصرحة بأن الكوثر هو النهر الذي في الجنة. وأخرج ابن أبي شيبة، والبخاري، وابن جرير، وابن مردويه عن عائشة أنها سئلت عن قوله: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ قالت: هو نهر أعطيه نبيكم ﷺ في بطنان الجنة. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أنه نهر في الجنة. وأخرج الطبراني في الأوسط عن حذيفة في قوله: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ قال: نهر في الجنة، وحسن السيوطي إسنادَه. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عن أسامة بن زيد مرفوعاً: «لنه قيل لرسول الله ﷺ: إنك أعطيت نهراً في الجنة يدعى الكوثر، فقال: أجل، وأرضه ياقوت، ومرجان، وزبرجد، ولؤلؤ». وأخرج ابن مردويه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده «أن رجلاً قال: يا رسول الله ما الكوثر؟ قال: هو نهر من أنهار الجنة أعطانيه الله، فهذه الأحاديث تدلّ على أن الكوثر هو النهر الذي في الجنة، فيتعين المصير إليها، وعدم التعويل على غيرها، وإن كان معنى الكوثر: هو الخير الكثير في لغة العرب، فمن فسّره بما هو أعمّ مما ثبت عن النبي ﷺ، فهو تفسير ناظر إلى المعنى اللغوي، كما أخرج ابن أبي شيبة،

المنبتر من قومه يزعم أنه خير منا، ونحن أهل الحجيج، وأهل السقاية، وأهل السدانة، قال: أنتم خير منه، فنزلت: ﴿إِنْ شَأْنُكَ هُوَ الْإِبْتَرُ﴾ ونزلت: ﴿أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ [النساء: 44] إلى قوله: ﴿فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ [النساء: 52] قال ابن كثير: وإسناده صحيح. وأخرج الطبراني، وابن مردويه عن أبي أيوب قال: لما مات إبراهيم بن رسول الله ﷺ مشى المشركون بعضهم إلى بعض فقالوا: إن هذا الصابئ قد بتر الليلة، فأنزل الله: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ إلى آخر السورة. وأخرج ابن سعد، وابن عساکر من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: كان أكبر ولد رسول الله ﷺ القاسم، ثم زينب، ثم عبد الله، ثم أم كلثوم، ثم فاطمة، ثم رقية، فمات القاسم، وهو: أول ميت من أهله، وولده بمكة، ثم مات عبد الله، فقال العاص بن وائل السهمي: قد انقطع نسله فهو أبتَر، فأنزل الله: ﴿إِنْ شَأْنُكَ هُوَ الْإِبْتَرُ﴾ وفي إسناده الكلبي. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس ﴿إِنْ شَأْنُكَ هُوَ الْإِبْتَرُ﴾ قال: أبو جهل. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه ﴿إِنْ شَأْنُكَ﴾ يقول: عدوك.

تفسير سورة الكافرون

وهي مكية في قول ابن مسعود، والحسن، وعكرمة. ومدينة في أحد قولي ابن عباس، وقتادة، والضحاك. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: أنزلت سورة ﴿يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ بمكة. وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير قال: أنزلت ﴿يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [أي: سورة الكافرون] بالمدينة. وقد ثبت في صحيح مسلم من حديث جابر: «أن رسول الله ﷺ قرأ بهذه السورة، و﴿قل هو الله أحد﴾ [أي: سورة الصمد] في ركعتي الطواف. وفي صحيح مسلم أيضاً من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قرأ بهما في ركعتي الفجر. وأخرج أحمد، والترمذي وحسنه، والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان، وابن مردويه عن ابن عمر: «أن رسول الله ﷺ قرأ في الركعتين قبل الفجر، والركعتين بعد المغرب بضعا وعشرين مرة، أو بضع عشرة مرة ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ و ﴿قل هو الله أحد﴾». وأخرج الحاكم وصححه عن أبي قال: «كان رسول الله ﷺ يوتر بسبح، و﴿قل يا أيها الكافرون﴾ و ﴿قل هو الله أحد﴾. وأخرج محمد بن نصر، والطبراني في الأوسط عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿قل هو الله أحد﴾ تعدل ثلث القرآن، و﴿قل يا أيها الكافرون﴾ تعدل ربع القرآن، وكان يقرأ بهما في ركعتي الفجر». وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ يا أيها الكافرون كانت له عدل ربع القرآن». وأخرج الطبراني في الصغير، والبيهقي في الشعب عن سعد بن أبي وقاص قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ: ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ فكأنما قرأ ربع القرآن،

ومن قرأ: ﴿قل هو الله أحد﴾ فكأنما قرأ ثلث القرآن». وأخرج أحمد، وابن الضريس، والبغوي، وحמיד بن زنجويه في ترغيبه عن شيخ أترك النبي ﷺ قال: «خرجت مع النبي ﷺ في سفر فمر برجل يقرأ: ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ [أي: سورة الكافرون] فقال: أما هذا فقد برئ من الشرك، وإذا آخر يقرأ: ﴿قل هو الله أحد﴾ [أي: سورة الصمد] فقال النبي ﷺ: بها وجبت له الجنة»، وفي رواية: «أما هذا فقد غفر له». وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن الأنباري في المصاحف، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عن فروة بن نوفل بن معاوية الأشجعي عن أبيه أنه قال: يا رسول الله علمني ما أقول إذا أويت إلى فراشي قال: «اقرأ ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ ثم نم على خاتمتها، فإنها براءة من الشرك»، وأخرجه سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن مردويه عن عبد الرحمن بن نوفل الأشجعي عن أبيه مرفوعاً مثله. وأخرج ابن مردويه عن البراء قال: قال رسول الله ﷺ لنوفل بن معاوية الأشجعي: «إذا أتيت مضجعك للنوم فاقرأ: ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ فإنك إذا قلتها، فقد برئت من الشرك». وأخرج أحمد، والطبراني في الأوسط عن الحارث بن جبلة، وقال الطبراني عن جبلة بن حارثة، وهو أخو زيد بن حارثة قال: «قلت يا رسول الله علمني شيئاً أقوله عند منامي قال: إذا أخذت مضجعك من الليل فاقرأ ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ حتى تمر بأخرها، فإنها براءة من الشرك». وأخرج البيهقي في الشعب عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ لمعاذ: «اقرأ: ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ عند منامك، فإنها براءة من الشرك». وأخرج أبو يعلى، والطبراني عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أتلکم على كلمة تنجيکم من الإشراك بالله تقرعون ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ عند منامكم». وأخرج البزار، والطبراني، وابن مردويه عن خباب أن النبي ﷺ قال: «إذا أخذت مضجعك، فاقرأ: ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ وإن النبي ﷺ لم يأت فراشه قط إلا قرأ: ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ حتى يخرجه». وأخرج ابن مردويه عن زيد بن أرقم قال: قال رسول الله ﷺ: «من لقني الله بسورتين، فلا حساب عليه ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ و ﴿قل هو الله أحد﴾». وأخرج أبو عبيد في فضائله، وابن الضريس عن أبي مسعود الأنصاري قال: من قرأ ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ و﴿قل هو الله أحد﴾ في ليلة فقد أكثر وأطاب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يٰٓأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝ وَلَا أَتَّبِعُ عِبَادَكُمْ مَا أَعْبُدُ ۝ وَلَا أَنَا عَلَيْهِمْ تَابِعٌ ۝ وَلَا أَتَّبِعُ عِبَادَكُمْ مَا أَعْبُدُ ۝ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝

الالف، واللام في ﴿يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ للجنس، ولكنها لما كانت الآية خطاباً لمن سبق في علم الله أنه يموت على

واحد، وهو لفظ لا في كل واحد منها، فكيف يصح القول مع هذا الاتحاد بأن معانيها في الحال والاستقبال مختلفة. وأما قول من قال: إن كل واحد منها يصلح للحال والاستقبال، فهو إقرار منه بالتركاز؛ لأن حمل هذا على معنى، وحمل هذا على معنى مع الاتحاد يكون من باب التحكم الذي لا يدل عليه دليل. وإذا تقرر لك هذا، فاعلم أن القرآن نزل بلسان العرب، ومن مذهبهم التي لا تجحد، واستعمالاتهم التي لا تنكر أنهم إذا أرادوا التأكيد كرروا؛ كما أن مذهبهم أنهم إذا أرادوا الاختصار أوجزوا، هذا معلوم لكل من له علم بلغة العرب، وهذا مما لا يحتاج إلى إقامة البرهان عليه؛ لأنه إنما يستدل على ما فيه خفاء، ويبرهن على ما هو متنازع فيه. وأما ما كان من الوضوح، والظهور والجلء بحيث لا يشك فيه شك، ولا يرتاب فيه مرتاب، فهو مستغن عن التطويل غير محتاج إلى تكثير القول والقيـل. وقد وقع في القرآن من هذا ما يعلمه كل من يتلو القرآن، وربما يكثر في بعض السور، كما في سورة الرحمن، وسورة المرسلات، وفي أشعار العرب من هذا ما لا يأتي عليه الحصر، ومن ذلك قول الشاعر:

يا البكر انشروا لي كليباً يا البكر أين أين الفرار
وقول الآخر:

هلا سالت جموع كندة يوم ولوا أين أيننا
وقول الآخر:

يا علقمة يا علقمة يا علقمة خير تميم كلها وأكرمها
وقول الآخر:

ألا يا سلمى ثم سلمى ثم سلمى ثلاث تحيات وإن لم تكلم
وقول الآخر:

يا جعفر يا جعفر يا جعفر إنك بعد أحق فانت أقصر
وقول الآخر:

أناك أذاك لأحقك أحبس أحبس

وقد ثبت عن الصادق المصدوق، وهو أنصح من نطق بلغة العرب أنه كان إذا تكلم بالكلمة أعادها ثلاث مرات، وإذا عرفت هذا، ففائدة ما وقع في السورة من التأكيد هو قطع أطماع الكفار عن أن يجيبهم رسول الله ﷺ إلى ما سألوه من عبادته ألهمهم، وإنما عبر سبحانه بما التي لغير العقلاء في المواضع الأربعة؛ لأنه يجوز ذلك كما في قوله: سبحانه ما سخر كن لنا، ونحوه، والنكتة في ذلك أن يجري الكلام على نمط واحد، ولا يختلف. وقيل: إنه أراد الصفة كأنه قال: لا أعبد الباطل، ولا تعبدون الحق. وقيل: إن «ما» في المواضع الأربعة هي: المصدرة لا الموصولة: أي: لا أعبد عبادتكم، ولا أنتم عابدون عبادتي إلخ، وجملة: **«لكنم دينكم»** مستأنفة؛ لتقرير قوله: **«لا أعبد ما تعبدون»** وقوله: **«ولا أنا عابد ما عبيتم»** كما أن قوله: **«ولي دين»** تقرير لقوله: **«ولا أنتم عابدون ما أعبد»** في

كفره كان المراد بهذا العموم خصوص من كان كذلك؛ لأن من الكفار عند نزول هذه الآية من أسلم وعبد الله سبحانه. وسبب نزول هذه السورة أن الكفار سألوا رسول الله ﷺ أن يعبد ألهمهم سنة، ويعبدوا إليه سنة، فأمره الله سبحانه أن يقول لهم: **«لا أعبد ما تعبدون»** أي: لا أقبل ما تطلبون مني من عبادة ما تعبدون من الأصنام، قيل: والمراد فيما يستقبل من الزمان؛ لأن لا النافية لا تدخل في الغالب إلا على المضارع الذي في معنى الاستقبال، كما أن «ما» لا تدخل إلا على مضارع في معنى الحال **«ولا أنتم عابدون ما أعبد»** أي: ولا أنتم فاعلون في المستقبل ما أطلب منكم من عبادة إلهي **«ولا أنا عابد ما عبيتم»** أي: ولا أنا قط فيما سلف عابد ما عبيتم فيه، والمعنى: أنه لم يعهد مني ذلك **«ولا أنتم عابدون ما أعبد»** أي: وما عبيتم في وقت من الأوقات ما أنا على عبادته، كذا قيل، وهذا عل قول من قال إنه لا تكرر في هذه الآيات؛ لأن الجملة الأولى لنفي العبادة في المستقبل لما قنعنا من أن «لا» لا تدخل إلا على مضارع في معنى الاستقبال، والدليل على ذلك أن لن تأكيد لما تنفيه لا. قال الخليل في لن: إن أصله لا، فالمعنى: لا أعبد ما تعبدون في المستقبل، ولا أنتم عابدون في المستقبل ما أطلبه من عبادة إلهي. ثم قال: **«ولا أنا عابد ما عبيتم»** أي: ولست في الحال بعابد معبودكم، ولا أنتم في الحال بعابدون معبودي. وقيل: بعكس هذا، وهو أن الجملتين الأولىين للحال، والجملتين الأخريين للاستقبال بدليل قوله: **«ولا أنا عابد ما عبيتم»** كما لو قال القائل: أنا ضارب زيداً، وأنا قاتل عمراً، فإنه لا يفهم منه إلا الاستقبال. قال الاخفش، والفرّاء: المعنى لا أعبد الساعة ما تعبدون، ولا أنتم عابدون الساعة ما أعبد، ولا أنا عابد في المستقبل ما عبيتم، ولا أنتم عابدون في المستقبل ما أعبد. قال الزجاج: نفى رسول الله ﷺ بهذه السورة عبادة ألهمهم عن نفسه في الحال وفيما يستقبل، ونفى عنهم عبادة الله في الحال وفيما يستقبل. وقيل: إن كل واحد منهما يصلح للحال، والاستقبال، ولكننا نخص أحدهما بالحال، والثاني بالاستقبال رفعاً للتركاز. وكل هذا فيه من التكلف والتعسف ما لا يخفى على منصف، فإن جعل قوله: ولا أعبد ما تعبدون للاستقبال، وإن كان صحيحاً على مقتضى اللغة العربية، ولكنه لا يتم جعل قوله: **«ولا أنتم عابدون ما أعبد»** للاستقبال؛ لأن الجملة اسمية تفيد النوام، والثبات في كل الأوقات، فدخل النفي عليها يرفع ما دلت عليه من النوام، والثبات في كل الأوقات، ولو كان حملها على الاستقبال صحيحاً للزم مثله في قوله: **«ولا أنا عابد ما عبيتم»** وفي قوله: **«ولا أنتم عابدون ما أعبد»** فلا يتم ما قيل من حمل الجملتين الأخريين على الحال، وكما ينفع هذا ينفع ما قيل من العكس، لأن الجملة الثانية، والثالثة، والرابعة كلها جمل اسمية مصدرة بالضمائر التي هي المبتدأ في كل واحد منها مخبر عنها باسم الفاعل العامل فيما بعده منفية كلها بحرف

النصر] حتى ختمها، فعرف رسول الله ﷺ أنها الوداع. وأخرج أحمد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه عن ابن عباس قال: «لما نزلت: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ قال رسول الله ﷺ: نعتيت إلي نفسي». وأخرج ابن مردويه عنه قال: «لما نزلت: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ قال رسول الله ﷺ: نعتيت إلي نفسي، وقرب إلي أجلي». وأخرج النسائي، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه عنه أيضاً قال: لما نزلت: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ نعتيت لرسول الله نفسه حين أنزلت، فأخذ في أشد ما كان قط اجتهداً في أمر الآخرة. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه عن أم حبيبة قالت: «لما أنزل: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ قال رسول الله ﷺ: إن الله لم يبعث نبياً إلا عمر في أمته شطر ما عمر النبي الماضي قبله، فإن عيسى ابن مريم كان أربعين سنة في بني إسرائيل، وهذه لي عشرون سنة، وأنا ميت في هذه السنة، فبكت فاطمة، فقال النبي ﷺ: أنت أول أهلي لي لحوقاً فقبضت». وأخرج البيهقي عن ابن عباس قال: «لما نزلت: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ دعا رسول الله ﷺ فاطمة، وقال: إنه نعتيت إلي نفسي، فبكت، ثم ضحكت، وقالت: أخبرني أنه نعتيت إليه نفسه فبكيت؟ فقال: أصبري، فإنك أول أهلي لحاقاً بي فضحكت، وقد تقدم في تفسير سورة الزلزلة أن هذه السورة تعدل ربع القرآن.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَنْوَابًا ۖ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَمِعْ لَهُ إِنَّكَ كَانَتْ تَوَّابًا ﴿١﴾
النصر: العون، مأخوذ من قولهم: قد نصر الغيث الأرض: إذا أعان على نباتها ومنع من قحطها، ومنه قول الشاعر:

إذا انصرف لشهر الحرام فودعي بلاد تميم وانصري أرض عامر
يقال نصره على عدوه ينصره نصرأ: إذا أعانه، والاسم النصر، واستنصره على عدوه: إذا سأل أن ينصره عليه. قال الواحدي: قال المفسرون: ﴿إِذَا جَاءَ﴾ ك يا محمد ﴿نَصْرُ اللَّهِ﴾ على من عاداك، وهم: قريش و﴿وَالْفَتْحُ﴾ فتح مكة، وقيل: المراد نصره ﷺ على قريش من غير تعيين، وقيل: نصره على من قتله من الكفار، وقيل: هو فتح سائر البلاد، وقيل: هو ما فتحه الله عليه من العلوم، وعبر عن حصول النصر، والفتح بالمجيء للإيدان بأنهما متوجهان إليه ﷺ. وقيل: إذا بمعنى قد، وقيل: بمعنى إذ. قال الرازي: الفرق بين النصر والفتح: أن الفتح هو تحصيل المطلوب الذي كان مغلقاً، والنصر كالسبب للفتح، فلهاذا بدأ بذكر النصر، وعطف عليه الفتح: أو يقال النصر كمال الدين، والفتح إقبال الدنيا الذي هو تمام النعمة؛ أو يقال: النصر الظفر، والفتح الجنة، هذا معنى كلامه. ويقال: الأمر أوضح من هذا وأظهر، فإن النصر هو التأييد الذي يكون به قهر

الموضعين أي: إن رضيتم بدينكم، فقد رضيتم بديني، كما في قوله: ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ [البقرة: 139] والمعنى: أن دينكم الذي هو الإشراك مقصور على الحصول لكم لا يتجاوز إلى الحصول لي، كما تطمعون، وديني الذي هو التوحيد مقصور على الحصول لي لا يتجاوز إلى الحصول لكم. وقيل المعنى: لكم جزاؤكم ولي جزائي؛ لأن الدين الجزاء. قيل: وهذه الآية منسوخة بآية السيف، وقيل: ليست بمنسوخة؛ لأنها أخبار، والأخبار لا يدخلها النسخ. قرأ الجمهور بإسكان الياء من قوله (ولي) وقرأ نافع، وهشام، وحفص، والبيزي بفتحها. وقرأ الجمهور أيضاً بحذف الياء من ديني وقرأً ووصلاً، وثابتها نصر بن عاصم، وسلام، ويعقوب، وصلاً ووقفاً. قالوا: لأنها اسم، فلا تحذف. ويجاب بأن حذفها لرعاية الفواصل سائغ، وإن كانت اسماً.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني عن ابن عباس: «أن قريشاً دعت رسول الله ﷺ إلى أن يعطوه مالا فيكون أغنى رجل بمكة، ويؤجوه ما أراد من النساء، فقالوا: هذا لك يا محمد، وكف عن شتم آلهتنا، ولا تنكرها بسوء، فإن لم تفعل، فإننا نعرض عليك خصلة واحدة، ولك فيها صلاح، قال: ما هي؟ قالوا: تعبد آلهتنا سنة، ونعبد إلهك سنة، قال: حتى أنظر ما يأتيني من ربي، فجاء الوحي من عند الله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ إلى آخر السورة، وأنزل الله: ﴿قُلْ أَغْفِرُ اللَّهُ تَامِرُونِي أَعْبُدْ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ [الزمر: 64] إلى قوله: ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر: 66].

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري في المصاحف عن سعيد بن مينا مولى أبي البحراني قال: «لقي الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب، وأميه بن خلف رسول الله ﷺ قالوا: يا محمد هلم، فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، ونشترك نحن، وأنت في أمرنا كله، فإن كان الذي نحن عليه أصح من الذي أنت عليه كنت قد أخذت منه حظاً، وإن كان الذي أنت عليه أصح من الذي نحن عليه كنا قد أخذنا منه حظاً، فأنزل الله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ إلى آخر السورة». وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن مردويه عن ابن عباس أن قريشاً قالت: لو استسلمت آلهتنا لعبدنا إلهك، فأنزل الله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ السورة كلها.

تفسير سورة النصر

وهي منية بلا خلاف. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: أنزل بالمدينة: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والبخاري، وأبو يعلى، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عمر قال: هذه السورة نزلت على رسول الله ﷺ أوسط أيام التشريق بمنى وهو في حجة الوداع ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [أي: سورة

بالاستغفار أي: من شأنه التوبة على المستغفرين له يتوب عليهم، ويرحمهم بقبول توبتهم، وتوابع من صيغ المبالغة، ففيه دلالة على أنه سبحانه مبالغ في قبول توبة التائبين. وقد حكى الرازي في تفسيره اتفاق الصحابة على أن هذه السورة نزلت على نبي رسول الله ﷺ.

وقد أخرج ابن مروي عن ابن عباس أن عمر سألهم عن قول الله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ فقالوا: فتح المدائن والقصور، قال: فانت يا ابن عباس ما تقول؟ قال: قلت مثل ضرب لمحمد ﷺ نعت له نفسه. وأخرج البخاري، وغيره عن ابن عباس قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكان بعضهم وجد في نفسه، فقال: لم يدخل هذا معنا، ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه من قد علمتم، فدعاهم ذات يوم، فدخله معهم، فما رايت أنه دعاني فيهم يومئذ إلا ليريههم، فقال: ما تقولون في قول الله عز وجل: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم، فلم يقل شيئاً، فقال لي: كذلك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا، فقال: ما تقول؟ فقلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله له، قال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، فذلك علامة أجلك ﴿فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً﴾ فقال عمر: لا أعلم منها إلا ما تقول. وأخرج ابن النجار عن سهل بن سعد عن أبي بكر أن سورة: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ حين أنزلت على رسول الله أن نفسه نعت إليه. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مروي عن عائشة قالت: «كان رسول الله ﷺ يكثر من قول: سبحان الله وبحمده، وأستغفره وأتوب إليه، فقلت: يا رسول الله أراك تكثر من قول سبحان الله وبحمده، وأستغفر الله وأتوب إليه، فقال: خبرني ربي أنني سأرى علامة من أمتي، فإذا رأيتها كثرت من قول سبحان الله وبحمده، وأستغفر الله وأتوب إليه، فقد رأيتها: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ فتح مكة ﴿ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفولجاً﴾ فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً». وأخرج البخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وغيرهم عن عائشة قالت: «كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: سبحانك اللهم وبحمك، اللهم اغفر لي يتأول القرآن، يعني: إذا جاء نصر الله والفتح، وفي الباب أحاديث. وأخرج ابن مروي عن أبي هريرة قال: لما نزلت: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ قال رسول الله ﷺ: جاء أهل اليمن هم أرق قلوباً، الإيمان يمان، والفقه يمان، والحكمة يمانية». وأخرج الطبراني، وابن مروي عن ابن عباس قال: «بينما رسول الله ﷺ في المدينة إذ قال: الله أكبر قد جاء نصر الله والفتح، وجاء أهل اليمن، قوم رقيقة قلوبهم لينة طاعتهم، الإيمان يمان، والفقه يمان، والحكمة يمانية». وأخرج ابن مروي عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس دخلوا في دين الله أفولجاً، وسيخرجون منه أفولجاً». وأخرج الحاكم

الأعداء وغلبهم، والاستعلاء عليهم، والفتح هو فتح مسكن الأعداء، ويدخل منازلهم ﴿ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفولجاً﴾ أي: أبصرت الناس من العرب، وغيرهم يدخلون في دين الله الذي بعثك به جماعات فوجاً بعد فوج. قال الحسن: لما فتح رسول الله ﷺ مكة قال العرب: أما إذ ظفر محمد بأهل الحرم، وقد لجأهم الله من أصحاب القيل، فليس لكم به يدان، فكانوا يدخلون في دين الله أفولجاً أي: جماعات كثيرة بعد أن كانوا يدخلون واحداً واحداً، واثنين اثنين، فصارت القبيلة تدخل بأسرها في الإسلام. قال عكرمة، ومقاتل: أراد بالناس أهل اليمن، وذلك أنه ورد من اليمن سبعمائة إنسان مؤمنين وانتصاب أفولجاً على الحال من فاعل يدخلون، ومحل قوله: يدخلون في دين الله النصب على الحال إن كانت الرؤية بصرية، وإن كانت بمعنى العلم، فهو في محل نصب عى أنه المفعول الثاني ﴿فسبح بحمد ربك﴾ هذا جواب للشرط، وهو العامل فيه، والتقدير: فسبح بحمد ربك إذا جاء نصر الله. وقال مكي: العامل في إذا هو جاء، ورجحه أبو حيان، وضعف الأول بأن ما جاء بعد فاء الجواب لا يعمل فيما قبلها، وقوله: ﴿بحمد ربك﴾ في محل نصب على الحال أي: فقل سبحان الله ملتبساً بحمده، أو حامداً له. وفيه الجمع بين تسبيح الله المؤذن بالتعجب مما يسره الله له مما لم يكن يخطر بباله ولا بال أحد من الناس، وبين الحمد له على جميل صنعه له، وعظيم منته عليه بهذه النعمة التي هي النصر، والفتح لآل القري التي كان أهلها قد بلغوا في عداوته إلى أعلى المبالغ حتى أخرجوه منها بعد أن اقتروا عليه من الأقوال الباطلة، والأكاذيب المختلفة ما هو معروف من قولهم: هو مجنون، هو ساحر، هو شاعر، هو كاهن. ونحو ذلك. ثم ضم سبحانه إلى ذلك أمر نبيه ﷺ بالاستغفار أي: اطلب منه المغفرة لذنوبك هضماً لنفسك، واستقصاراً لملكك، واستدراكاً لما فرط منك من ترك ما هو الأولى، وقد كان ﷺ يرى قصوره عن القيام بحق الله، ويكثر من الاستغفار والتضرع، وإن كان قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. وقيل: إن الاستغفار منه ﷺ ومن سائر الأنبياء هو تعبد تعبدهم الله به، لا لطلب المغفرة لذنوب كائن منهم. وقيل: إنما أمره الله سبحانه بالاستغفار تنبيهاً لأمته، وتعريضاً بهم فكانهم هم المأمورون بالاستغفار. وقيل: إن الله سبحانه أمره بالاستغفار لأمته لا لذنوبه. وقيل: المراد بالتسبيح هنا الصلاة. والأولى حملة على معنى التنزيه مع ما أشرنا إليه من كون فيه معنى التعجب سروراً بالنعمة، وفرحاً بما هياه الله من نصر الدين، وكبت أعدائه، ونزول النلة بهم، وحصول القهر لهم. قال الحسن: أعلم الله رسوله ﷺ أنه قد اقترب أجله، فأمر بالتسبيح، والتوبة؛ ليختم له في آخر عمره بالزيادة في العمل الصالح، فكان يكثر أن يقول: «سبحانك اللهم وبحمك اغفر لي إنك أنت التواب». قال قتادة، ومقاتل: وعاش ﷺ بعد نزول هذه السورة سنتين، وجملة: ﴿إنه كان تواباً﴾ تحليل لأمره ﷺ

وصححه عن أبي هريرة قال: «تلا رسول الله ﷺ ﴿وَرَأَيْتُ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي بَيْتِ اللَّهِ أَقْلُجًا﴾ قال: ليخرجنَّ منه أقْلُجًا، كما دخلوا فيه أقْلُجًا».

تفسير سورة المسد

وهي مكية بلا خلاف. وأخرج ابن مريويه عن ابن عباس، وابن الزبير، وعائشة قالوا: نزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ [أي: سورة المسد] بمكة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ① مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ② سِيمَانٌ ③ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ④ وَأَمْرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ⑤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسِينٍ ⑥

معنى: ﴿تَبَّتْ﴾ هلكت. وقال مقاتل: خسرت، وقيل: خابت. وقال عطاء: ضلت. وقيل: صفوت من كل خير، وخصَّ البيهقي بالتبَّاب، لأن أكثر العمل يكون بهما. وقيل: المراد بالبيهقي نفسه، وقد يعبر باليد عن النفس، كما في قوله: ﴿بِمَا قَدَّمْت يَدَاكَ﴾ [الحج: 10] أي: نفسك، والعرب تعبر كثيراً ببعض الشيء عن كله، كقولهم: أصابته يد الدهر، وأصابته يد المنايا، كما في قول الشاعر:

لَمَّا كَبَّتْ يَدُ الرَّزَايَا عَلَيْهِ نَادَى الْأَمْخَبِرَ

وأبو لهب اسمه عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم، وقوله: ﴿وَتَبَّ﴾ أي: هلك. قال الفراء: الأول دعاء عليه، والثاني خبر، كما تقول: أهلكه الله وقد هلك. والمعنى: أنه قد وقع ما دعا به عليه، ويؤيده قراءة ابن مسعود (وقد تبَّ). وقيل: كلاهما إخبار، أراد بالأول هلاك عمله، وبالثاني هلاك نفسه. وقيل: كلاهما دعاء عليه، ويكون في هذا شبه من مجيء العام بعد الخاص، وإن كان حقيقة البيهقي غير مرادة، وذكره سبحانه بكنيته لاشتهاره بها، ولكون اسمه، كما تقدَّم عبد العزى، والعزى اسم صنم، ولكون في هذه الكنية ما يدل على أنه ملابس للنار؛ لأنَّ اللهب هي لهب النار، وإن كان إطلاق ذلك عليه في الأصل لكونه كان جميلاً، وأن وجهه يتلهب لمزيد حسنه، كما تتلهب النار. قرأ الجمهور (لهب) بفتح اللام، والهاء. وقرأ مجاهد، وحמיד، وابن كثير وابن محيصن بإسكان الهاء، واتفقوا على فتح الهاء في قوله: ﴿ذَاتَ لَهَبٍ﴾ وروى صاحب الكشف أنه قرئ: تبَّتْ يَدَا أَبُو لَهَبٍ، ونكر وجه ذلك ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ أي: ما نفع عنه ما حلَّ به من التَّبَّاب، وما نزل به من عذاب الله ما جمع من المال، ولا ما كسب من الأرباح والجاه؛ أو المراد بقوله: ماله ما ورثه من أبيه، ويقول: ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ الذي كسبه بنفسه. قال مجاهد: وما كسب من ولد، وولد الرجل من كسبه، ويجوز أن تكون «ما» في قوله: ﴿مَا أَغْنَىٰ﴾ استفهامية أي: أي شيء أغنى عنه؟ وكذا يجوز في قوله:

﴿وَمَا كَسَبَ﴾ أن تكون استفهامية أي: وأي شيء كسب؟ ويجوز أن تكون مصدرية أي: وكسبه، والظاهر أن «ما» الأولى نافية، والثانية موصولة. ثم أوعده سبحانه بالنار فقال: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ قرأ الجمهور (سَيَصْلَى) بفتح الياء، وإسكان الصاد، وتخفيف اللام: أي: سَيَصْلَى هو بنفسه، وقرأ أبو رجاء، وأبو حيوة، وابن مقسم، والأشهب العقيلي، وأبو السماك، والأعمش، ومحمد بن السميع بضم الياء، وفتح الصاد، وتشديد اللام، ورويت هذه القراءة عن ابن كثير، والمعنى سَيَصْلَى الله، ومعنى ﴿ذَاتَ لَهَبٍ﴾ ذات اشتعال وتوقد، وهي: نار جهنم ﴿وَأَمْرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ معطوف على الضمير في يَصْلَى، وجاز ذلك للفصل أي: وتصلى امرأته ناراً ذات لهب، وهي أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان، وكانت تحمل الغضى والشوك، فتطرعه بالليل على طريق النبي ﷺ، كذا قال ابن زيد، والضحاك، والربيع بن أنس، ومزة الهمداني. وقال مجاهد، وقتادة، والسدي: إنها كانت تمشي بالنميمة بين الناس. والعرب تقول: فلان يحطب على فلان: إذا نمَّ به، ومنه قول الشاعر:
إِنْ بَنَى الْأَرَمَ حَمَلُوا الْحَطَبَ هُمْ الْوَشَاءُ فِي الرِّضَا وَالْغَضَبِ عَلَيْهِمُ اللَّعْنَةُ تَدْرِي وَالْحَرْبُ

وقال آخر:

من الليض لم يصطد على ظهر لامة ولم يمش بين الناس بالحطب الرطب
وجعل الحطب في هذا البيت رطباً لما فيه من التدخين الذي هو زيادة في الشر، ومن الموافقة للمشي بالنميمة. وقال سعيد بن جبير: معنى حمالة الحطب أنها حمالة الخطايا والذنوب، من قولهم: فلان يحطب على ظهره، كما في قوله: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنعام: 31] وقيل: المعنى حمالة الحطب في النار. قرأ الجمهور (حمالة) بالرفع على الخبرية على أنها جملة مسوقة للإخبار بأن امرأة أبي لهب حمالة الحطب، وأما على ما قدَّمنا من عطف، وأمراته على الضمير في تصلى، فيكون رفع حمالة على النعت لأمراته، والإضافة حقيقية؛ لأنها بمعنى المضى، أو على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: هي حمالة. وقرأ عاصم ينصب (حمالة) على الذم، أو على أنه حال من أمراته. وقرأ أبو قلابة (حاملة الحطب) ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسِينٍ﴾ الجملة في محل نصب على الحال من أمراته، والجيد العنق، والمسد الليف الذي تقتل منه الحبال، ومنه قول النابغة:

مقنوفة بحبض النحض نازلها له صريف صريف القعواء بالمسد
وقول الآخر:

يا مسد الخوض تعوذ مني إن كنت لندالينا فإني
وقال أبو عبيدة: المسد هو الحبل يكون من صوف. وقال الحسن: هي حبال تكون من شجر ينبت باليمن تسمى بالمسد. وقد تكون الحبال من جلود الإبل أو من أوبارها. قال الضحاك، وغيره: هذا في الدنيا، كانت تعير النبي ﷺ

تفسير سورة الإخلاص

وهي مكية في قول ابن مسعود، والحسن، وعطاء، وعكرمة، وجابر، ومنذية في أحد قولي ابن عباس، وقتادة، والضحاك، والسدي. وأخرج أحمد، والبخاري في تاريخه، والترمذي، وابن جرير، وابن خزيمة، وابن أبي عاصم في السنة، والبيهقي في معجمه، وابن المنذر، وأبو الشيخ في العظمة، والحاكم وصححه، والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي بن كعب: «أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: يا محمد انسب لنا ربك، فأنزل الله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ إلخ ليس شيء يولد إلا سيموت، وليس شيء يموت إلا سيورث، وإن الله لا يموت، ولا يورث ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ قال: لم يكن له شبيه، ولا عدل، وليس كمثله شيء» ورواه الترمذي من طريق أخرى عن أبي العالية مرسلاً، ولم يذكر أبيًا، ثم قال: وهذا أصح. وأخرج أبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني في الأوسط، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي عن جابر، قال: «جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: انسب لنا ربك، فأنزل الله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ إلى آخر السورة. وحسن السيوطي إسناده. وأخرج الطبراني، وأبو الشيخ في العظمة عن ابن مسعود قال: «قالت قريش لرسول الله ﷺ: انسب لنا ربك، فنزلت هذه السيرة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾». وأخرج ابن أبي حاتم، وابن عدي، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس: «أن اليهود جاءت إلى النبي ﷺ، منهم كعب بن الأشرف، وحبي بن أخطب، فقالوا: يا محمد صف لنا ربك الذي بعثك، فأنزل الله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ * فَيُخْرَجْ مِنْهُ الْوَلَدُ. وَلَمْ يُولَدْ * فَيُخْرَجْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾. وأخرج أبو عبيد في فضائله، وأحمد، والنسائي في اليوم والليلة، وابن منيع، ومحمد بن نصر، وابن مروي، والضياء في المختارة عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فكانما قرأ ثلث القرآن». وأخرج ابن الضريس، والبزار، والبيهقي في الشعب عن أنس عن النبي ﷺ: «من قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ مائتي مرة غفر له نيب مائتي سنة». قال البزار: لا نعلم رواه عن أنس إلا الحسن بن أبي جعفر، والأغلب بن تميم، وهما يتقاربان في سوء الحفظ. وأخرج أحمد، والترمذي، وابن الضريس، والبيهقي في سننه عن أنس قال: «جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إني أحب هذه السورة: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، فقال رسول الله ﷺ: حبك إياها أدخلك الجنة». وأخرج ابن الضريس، وأبو يعلى، وابن الأنباري في المصاحف عن أنس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أما يستطيع أحدكم أن يقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثلاث مرّات في ليلة؟ فإنها تعدل ثلث القرآن، وإسناده ضعيف. وأخرج محمد بن نصر، وأبو يعلى عن أنس عن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ خمسين مرّة غفر له نوب

بالفقر، وهي تحتطب في حبل تجعله في عنقها فخنقها الله به فاهلكها، وهو في الآخرة حبل من نار. وقال مجاهد، وعروة بن الزبير: هو سلسلة من نار تدخل في فيها وتخرج من أسفلها. وقال قتادة: هو قلادة من ودع كانت لها. قال الحسن: إنما كان خرزاً في عنقها. وقال سعيد بن المسيب: كانت لها قلادة فاخرة من جوهر، فقالت: واللّات والعزى، لأنفقنا في عداوة محمد، فيكون لك عذاباً في جسدها يوم القيامة. والمسد الفتل يقال: مسد حبله يمسده مسداً: أجاد فثله اهـ.

وقد أخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن ابن عباس قال: «لما نزلت: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: 214] خرج النبي ﷺ حتى صعد الصفا، فهتف يا صباحاه، فاجتمعوا إليه، فقال: أرايتكم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل اكنتم مصنقي؟ قالوا: ما جربنا عليك كذباً، قال: فيأتي نذير لكم بني يدي عذاب شديد؛ فقال أبو لهب: تباً لك إنما جمعتنا لهذا؟ ثم قام فنزلت هذه السورة: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن مروي عن ابن عباس في قوله: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ قال: خسرت. وأخرج ابن أبي حاتم عن عائشة قالت: إن أظيب ما أكل الرجل من كسبه، وإن ابنه من كسبه. ثم قرأت: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ قالت: وما كسب ولده. وأخرج عبد الرزاق، والحاكم، وابن مروي عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ قال: كسبه ولده. وأخرج ابن جرير، والبيهقي في الدلائل، وابن عساكر عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَمْرَاتِهِ حِمَالَةٌ لِلسُّبُلِ﴾ قال: كانت تحمل الشوك فتطرعه على طريق النبي ﷺ ليعقره وأصحابه، وقال ﴿حِمَالَةٌ لِلْحَطَبِ﴾ نقالة الحديث ﴿حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾ قال: هي حبال تكون بمكة. ويقال: المسد المصا التي تكون في البكرة. ويقال: المسد قلادة من ودع. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو زرعة عن أسماء بنت أبي بكر قالت: «لما نزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ أقبلت العواء لم جميل بنت حرب ولها ولولة وفي يدها فهر وهي تقول:

مَنْمَأَبِينَا وَيَنْهَقَلِينَا
وَأَمْرَهُ عَصِينَا

ورسول الله ﷺ جالس في المسجد، ومعه أبو بكر، فلما رآها أبو بكر قال يا رسول الله قد أقبلت، ولنا أخاف أن تترك، فقال رسول الله ﷺ: إنها لن تراني، وقرأ قرآنًا اعتصم به، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرَأَ الْقُرْآنُ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ [الإسراء: 45] فاقبلت حتى وقفت على أبي بكر، ولم تر رسول الله ﷺ، فقالت: يا أبا بكر إني أخبرتك أن صاحبك هجاني، قال: لا، ورب البيت ما هجأك فقلت وهي تقول: قد علمت قريش أنني ابنة سيدها، وأخرجه البزار بمعناه، وقال: لا نعلمه يروى بأحسن من هذا الإسناد.

فضل هذه السورة إلا حديث عائشة عند البخاري، ومسلم، وغيرهما: «أن النبي ﷺ بعث رجلاً في سرية، فكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم، فيختم بـ ﴿قل هو الله أحد﴾، فلما رجعوا نكروا نكلاً لرسول الله ﷺ، فقال: سلوه لأي شيء يصنع ذلك؟ فسألوه فقال: لأنها صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها، فقال: أخبروه أن الله تعالى يحبه، هذا لفظ البخاري في كتاب التوحيد. وأخرج البخاري أيضاً في كتاب الصلاة من حديث أنس قال: «كان رجل من الأنصار يؤمهم في مسجد قباء، فكان كلما افتتح سورة، فقرأ بها لهم في الصلاة مما يقرأ به افتتح بـ ﴿قل هو الله أحد﴾ حتى يفرغ منها، ثم يقرأ سورة أخرى معها، وكان يصنع ذلك في كل ركعة، فكلّمه أصحابه فقالوا: إنك تفتتح بهذه السورة، ثم لا ترى أنها تجزئك حتى تقرأ بالأخرى، فإما أن تقرأ بها، وإما أن تدعها وتقرأ بأخرى، قال: ما أنا بتاركها إن أحببت أن أؤمكم بذلك فعلت، وإن كرهتم تركتكم، وكانوا يرون أنه من أفضلهم فكرهوا أن يؤمهم غيره، فلما اتاهم النبي ﷺ أخبروه الخبر، فقال: يا فلان ما يمنعك أن تفعل ما يأمرك به أصحابك، وما حملك على لزوم هذه السورة في كل ركعة؟ فقال: إني أحبها، قال: حبك إياها أدخلك الجنة، وقد روي بهذا اللفظ من غير وجه عند غير البخاري.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝

قوله: ﴿قل هو الله أحد﴾ الضمير يجوز أن يكون عائداً إلى ما يفهم من السياق لما قدما من بيان سبب النزول، وأن المشركين قالوا: يا محمد انسب لنا ربك، فيكون مبتدأ، والله مبتدأ ثان، وأحد خبر المبتدأ الثاني، والجملة خبر المبتدأ الأول، ويجوز أن يكون الله بدلاً من هو، والخبر أحد. ويجوز أن يكون أحد خبراً أول، وأحد خبراً ثانياً، ويجوز أن يكون أحد خبراً لمبتدأ محذوف أي: هو أحد. ويجوز أن يكون هو ضمير شأن؛ لأنه موضع تعظيم، والجملة بعده مفسرة له وخبر عنه، والأول أولى. قال الزجاج: هو كناية عن نكر الله، والمعنى: إن سألتكم تبين ﴿قل هو الله أحد﴾، قيل: وهمزة أحد بدل من الواو، وأصله واحد. وقال أبو البقاء: همزة أحد أصل بنفسها غير مقلوبة، ونكر أن أحد يفيد العموم بون واحد، ومما يفيد الفرق بينهما ما قاله الأزهري: أنه لا يوصف بالاحدية غير الله تعالى، لا يقال رجل أحد، ولا درهم أحد؛ كما يقال رجل واحد، ودرهم واحد، قيل: والواحد يدخل في الأحد، والأحد لا يدخل فيه فإذا قلت لا يقاومه واحد جاز أن يقال لكنه يقاومه اثنان بخلاف قولك لا يقاومه أحد. وفرق ثعلب بين واحد وبين أحد بأن الواحد يدخل في العدد وأحد لا يدخل فيه. وردّ عليه أبو حيان بأنه يقال أحد وعشرون، ونحوه، فقد دخله العدد، وهذا كما ترى، ومن جملة القائلين بالقلب الخليل. قرأ الجمهور ﴿قل هو الله أحد﴾ بإثبات قل.

خمسین سنة» وإسناده ضعيف. وأخرج الترمذي، وابن عدي، والبيهقي في الشعب عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ: ﴿قل هو الله أحد﴾ مائتي مرة، كتب الله له ألفاً وخمس مائة حسنة، ومحى عنه ذنوب خمسین سنة، إلا أن يكون عليه دين» وفي إسناده حاتم بن ميمون ضعفه البخاري وغيره، ولفظ الترمذي: «من قرأ في يوم مائتي مرة: ﴿قل هو الله أحد﴾، محى عنه ذنوب خمسین سنة، إلا أن يكون عليه دين»، وفي إسناده حاتم بن ميمون المنكور. وأخرج الترمذي، ومحمد بن نصر، وأبو يعلى، وابن عدي، والبيهقي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من أراد أن ينام على فراشه من الليل، فنام على يمينه ثم قرأ: ﴿قل هو الله أحد﴾ مائة مرة، فإذا كان يوم القيامة يقول له الرب: يا عبدي اسل على يمينك الجنة، وفي إسناده أيضاً حاتم بن ميمون المنكور. قال الترمذي بعد إخرجه: غريب من حديث ثابت. وقد روي من غير هذا الوجه عنه. وأخرج ابن سعد، وابن الضريس، وأبو يعلى، والبيهقي في الدلائل عن أنس قال: «كان النبي ﷺ بالشام، وفي لفظ: بتبوك، فهبط جبريل فقال: يا محمد إن معاوية بن معاوية المزني هلك، أفتحب أن تصلي عليه؟ قال نعم، فضرب بجناحه الأرض، فتضعض له كل شيء، ولزق بالأرض ورفع له سريرته، فصلى عليه، فقال النبي ﷺ: من أي شيء أوتي معاوية هذا الفضل، صلى عليه صفان من الملائكة في كل صف ستة آلاف ملك؟ قال: بقرأة ﴿قل هو الله أحد﴾ كان يقرأها قائماً، وقاعداً، وجائياً، وذاهباً، ونائماً، وفي إسناده العلاء بن محمد الثقفي وهو متهم بالوضع. وروي عنه من وجه آخر باطل من هذا، وفي إسناده هذا المتهم. وفي الباب أحاديث في هذا المعنى وغيره. وقد روي من غير الوجه أنها تعدل ثلث القرآن، وفيها ما هو صحيح، وفيها ما هو حسن؛ فمن ذلك ما أخرجه مسلم، والترمذي وصححه، وغيرهما عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «احشدوا فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن، فحشد من حشد، ثم خرج نبي الله ﷺ فقرأ: ﴿قل هو الله أحد﴾ ثم نخل، فقال بعضنا لبعض: قال رسول الله ﷺ: فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن، ثم خرج نبي الله ﷺ فقال: إني قلت سأقرأ عليكم ثلث القرآن، ألا وإنها تعدل ثلث القرآن». وأخرج أحمد، والبخاري، وغيرهما عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن»، يعني: ﴿قل هو الله أحد﴾. وأخرج أحمد، والبخاري، وغيرهما من حديث أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه «أبعجز أحكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة؟ فشق ذلك عليهم، وقالوا: آينا يطيق ذلك؟ فقال: الله الواحد الصمد ثلث القرآن». وأخرج مسلم، وغيره من حديث أبي الدرداء نحوه. وقد روي نحو هذا بإسناد صحيح من حديث أبي هريرة، وحديث ابن مسعود، وحديث أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، وروي نحو هذا عن غير هؤلاء بأسانيد بعضها حسن، وبعضها ضعيف، ولو لم يرد في

فقال: ﴿لم يلد ولم يولد﴾ قال الرازي: قدّم ذكر نفي الولد مع أن الولد مقدّم للاهتمام، لأجل ما كان يقوله الكفار من المشركين: إن الملائكة بنات الله، واليهود: عزيز ابن الله، والنصارى: المسيح ابن الله، ولم يدع أحد أن له والدًا، فلهذا السبب بدأ بالآله، فقال: ﴿لم يلد﴾ ثم أشار إلى الحجة فقال: ﴿ولم يولد﴾ كانه قيل: الليل على امتناع الولد اتفاقنا على أنه ما كان ولدًا لغيره، وإنما عبّر سبحانه بما يفيد انتفاء كونه لم يلد ولم يولد في الماضي، ولم ينكر ما يفيد انتفاء كونه كذلك في المستقبل؛ لأنه ورد جواباً عن قولهم: ولد الله، كما حكى الله عنهم بقوله: ﴿إلا إنهم من إفكهم﴾ ليقولون ولد الله [الصفات: 151، 152] فلما كان المقصود من هذه الآية تكذيب قولهم، وهم: إنما قالوا ذلك بلفظ نفي النفي فيما مضى، وربت الآية لنفع قولهم هذا ﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾ هذه الجملة مقررة لمضمون ما قبلها؛ لأنه سبحانه إذا كان متصفاً بالصفات المتقدمة كان متصفاً بكونه لم يكافئه أحد، ولا يماثله ولا يشاركه في شيء، وآخر اسم كان لرعاية الفواصل، وقوله: ﴿له﴾ متعلق بقوله: ﴿كفواً﴾ قدم عليه لرعاية الاهتمام؛ لأن المقصود نفي المكافأة عن ذاته. وقيل: إنه في محل نصب على الحال، والأول أولى. وقد ردّ المبرد على سيبويه بهذه الآية؛ لأن سيبويه قال: إنه إذا تقدّم الظرف كان هو الخير، وهنا لم يجعل خبراً مع تقدّمه، وقد ردّ على المبرد بوجهين: أحدهما أن سيبويه لم يجعل ذلك حتماً بل جوازاً. والثاني أنا لا نسلم كون الظرف هنا ليس بخبر، بل يجوز أن يكون خبراً ويكون كفواً منتصباً على الحال وحكى في الكشاف عن سيبويه على أن الكلام العربي الفصيح أن يؤخر الظرف الذي هو لغو غير مستقر، واقتصر في هذه الحكاية على نقل أول كلام سيبويه، ولم ينظر إلى آخره، فإنه قال في آخر كلامه: والتقديم والتأخير والإلغاء، والاستقرار عربي جيد كثير. انتهى. قرأ الجمهور (كفواً) بضم الكاف والفاء، وتسهيل الهمزة، وقرأ الأعرج، وسيبويه، ونافع في رواية عنه بإسكان الفاء، وروي ذلك عن حمزة مع إبداله الهمزة وواو وصلًا ووقفًا، وقرأ نافع في رواية عنه (كفاً) بكسر الكاف، وفتح الفاء من غير مد، وقرأ سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس كذلك مع المد، وإنشد قول النابغة:

لاتقننني بركن لا كفاء له

والكفاء في لغة العرب النظير، يقول هذا كفوك أي: نظيرك، والاسم الكفاءة بالفتح.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والمحامي في أماليه، والطبراني، وأبو الشيخ في العظمة عن بريد لا أعلمه إلا رفعه. قال: ﴿الصمد﴾ الذي لا جوف له، ولا يصح رفع هذا. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال: ﴿الصمد﴾ الذي لا جوف له، وفي لفظ: ليس له أحشاء. وأخرج ابن أبي عاصم، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس مثله.

وقرأ عبد الله بن مسعود وأبي (الله أحد) بنون قل. وقرأ الأعمش (قل هو الله الواحد) وقرأ الجمهور: بتنوين أحد، وهو: الأصل. وقرأ زيد بن علي، وأبان بن عثمان، وابن أبي إسحاق، والحسن، وأبو السمك، وأبو عمرو في رواية عنه بحذف التنوين للحفة، كما في قول الشاعر:

عمرو الذي هشم الثريد لقومه ورجال مكة مستنون عجاف
وقيل: إن ترك التنوين لملاقاته لام التعريف، فيكون الترك لأجل الفرار من التقاء الساكنين. ويجاب عنه بأن الفرار من التقاء الساكنين قد حصل مع التنوين بتحريك الأول منهما بالكسر ﴿الله الصمد﴾ الاسم الشريف مبتدأ، والصمد خبره. والصمد هو الذي يصمد إليه في الحاجات أي: يقصد لكونه قادراً على قضائها، فهو فعل بمعنى مفعول كالقبض بمعنى المقبوض؛ لأنه مصمود إليه أي: مقصود إليه، قال الزجاج: الصمد السند الذي انتهى إليه السؤدد، فلا سيد فوقه. قال الشاعر:

ألا بكر الناعي بخير بني أسد بعمرو بن مسعود وبالسيد الصمد
وقيل معنى الصمد: الدائم الباقي الذي لم يزل ولا يزول، وقيل: معنى الصمد ما ذكر بعده من أنه الذي لم يلد ولم يولد. وقيل: هو المستغني عن كل أحد، والمحتاج إليه كل أحد. وقيل: هو المقصود في الرغائب، والمستعان به في المصائب، وهذان القولان يرجعان إلى معنى القول الأول. وقيل: هو الذي يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد. وقيل: هو الكامل الذي لا عيب فيه. وقال الحسن، وعكرمة، والضحاك، وسعيد بن جبير، وسعيد بن المسيب، ومجاهد، وعبد الله بن بريدة، وعطاء، وعطية العوفي، والسدي، الصمد هو المصمت الذي لا جوف، ومنه قول الشاعر:

شهاب حروب لا تزال جياده عوابس يعلكن لشكيم المصمدا
وهذا لا ينافي القول الأول لجواز أن يكون هذا أصل معنى الصمد، ثم استعمل في السيد المصمود إليه في الحوائج، ولهذا أطبق على القول الأول أهل اللغة وجمهور أهل التفسير، ومنه قول الشاعر:

علوته بحسام ثم قلت له خذها حنيف فانت السيد الصمد
وقال الزبيرقان بن بدر:

سيروا جميعاً بنصف الليل واعتموا ولا رهينة إلا سيد صمد
وتكرير الاسم الجليل للإشعار بأن من لم يتصف بذلك، فهو بمعزل عن استحقاق الألوهية، وحذف العاطف من هذه الجملة؛ لأنها كالنتيجة للجملة الأولى، وقيل: إن الصمد صفة للاسم الشريف، والخبر هو ما بعده. والأول أولى؛ لأن السياق يقتضي استقلال كل جملة ﴿لم يلد ولم يولد﴾ أي: لم يصدر عنه ولد، ولم يصدر هو عن شيء، لأنه لا يجانسه شيء، ولاستحالة نسبة العدم إليه سابقاً ولاحقاً. قال قتادة: إن مشركي العرب قالوا: الملائكة بنات الله. وقالت اليهود: عزيز ابن الله. وقالت النصارى: المسيح ابن الله، فلكذبهم الله

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [أي: سورة الفلق] و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [أي: سورة الناس]. وأخرج ابن الضريس، وابن الأنباري، والحاكم وصححه، وابن مروييه في الشعب عن عقبة بن عامر قال: «قلت يا رسول الله: أقرئني سورة يوسف، وسورة هود، قال: يا عقبة اقرأ: بقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ، فإنك لن تقرأ سورة أحبَّ إلى الله، وأبلغ منها، فإذا استطعت أن لا تفوتك، فافعل». وأخرج ابن سعد، والنسائي، والبغوي، والبيهقي عن أبي حابس الجهني أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا حابس أخبرك بأفضل ما تتعوذ به المتعوثون؟ قال بلى يا رسول الله، قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ هما: المعوذتان». وأخرج الترمذي وحسنه، وابن مروييه، والبيهقي عن أبي سعيد الخدري قال: «كان رسول الله ﷺ يتعوذ من عين الجان، ومن عين الإنس، فلما نزلت سورة المعوذتين أخذ بهما، وترك ما سوى ذلك». وأخرج أبو داود، والنسائي، والحاكم وصححه عن ابن مسعود «أن النبي ﷺ كان يكره عشر خصال، ومنها أنه كان يكره الرقي إلا بالمعوذتين». وأخرج ابن مروييه عن أم سلمة قالت: قال رسول الله ﷺ: «من أحب السور إلى الله ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾». وأخرج النسائي، وابن الضريس، وابن حبان في صحيحه، وابن الأنباري، وابن مروييه عن جابر بن عبد الله قال: «أخذ بمنكبي رسول الله ﷺ ثم قال اقرأ، قلت: ما اقرأ بأبي أنت وأمي؟ قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾؛ ثم قال اقرأ، قلت: بأبي أنت وأمي ما اقرأ؟ قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾، ولم تقرأ بمثلهما». وأخرج مالك في الموطأ عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة: «أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذتين، وينفض، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه، وأمسح بيده عليه رجا بركتهما». وأخرجه البخاري، ومسلم في صحيحيهما من طريق مالك بالإسناد المذكور. وأخرج عبد بن حميد في مسنده عن زيد بن أرقم قال: «سحر النبي ﷺ رجل من اليهود، فاشتكى، فأتاه جبريل، فنزل عليه بالمعوذتين، وقال: إن رجلاً من اليهود سحر، والسكر في بئر فلان، فأرسل علياً فجاء به، فأمره أن يحل العقد، ويقرأ آية، ويحل حتى قام النبي ﷺ كأنما نشط من عقال». وأخرجه ابن مروييه، والبيهقي من حديث عائشة مطولاً، وكذلك أخرجه ابن مروييه من حديث ابن عباس. وقد ورد في فضل المعوذتين، وفي قراءة رسول الله ﷺ لهما في الصلاة، وغيرهما أحاديث، وفيما نكرناه كفاية. وأخرج الطبراني في الصغير عن علي بن أبي طالب قال: «لدغت النبي ﷺ عقرب، وهو: يصلي، فلما فرغ قال: لعن الله العقرب لا تدع مصلياً، ولا غيره، ثم دعا بماء، وملح وجعل يمسح عليهما، ويقرأ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [أي: سورة الكافرون]، و ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [أي: سورة الصمد]، و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾».

وأخرج ابن المنذر عنه قال: ﴿الصمد﴾ الذي لا يطعم، وهو المصمت. وقال: أو ما سمعت النائحة، وهي تقول:

لقد بكر لناغي بخير بني أسد
بعمرو بن مسعود وبالسيد الصمد
وكان لا يطعم عند القتال، وقد روي عنه أن الذي يصمد إليه في الحوائج، وأنه اتشد البيت، واستدل به على هذا المعنى، وهو أظهر في المدح، وأنخل في الشرف، وليس لوصفه بأنه لا يطعم عند القتال كثير معنى. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة، والبيهقي في الأسماء والصفات من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: ﴿الصمد﴾ السيد الذي قد كمل في سؤده، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته، والحليم الذي قد كمل في حلمه، والغني الذي قد كمل في غناه، والجبار الذي قد كمل في جبروته، والعالم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤد، وهو الله سبحانه هذه صفة لا تنبغي إلا له ليس له كفو وليس كمثله شيء. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي عن ابن مسعود قال: ﴿الصمد﴾ هو السيد الذي قد انتهى سؤده، فلا شيء أسود منه. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس قال: ﴿الصمد﴾ الذي تصمد إليه الأشياء إذا نزل بهم كربة أو بلاء. وأخرج ابن جرير من طرق عنه في قوله: ﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾ قال: ليس له كفو ولا مثل.

تفسير سورة الفلق

وهي مكية في قول الحسن، وعكرمة، وعطاء، وجابر، ومدينة في أحد قولي ابن عباس، وقتادة، وأخرج أحمد، والبخاري، والطبراني، وابن مروييه من طرق. قال السيوطي: صحيحة عن ابن مسعود أنه كان يحك المعوذتين في المصحف يقول: لا تخلطوا القرآن بما ليس منه إنهما ليستا من كتاب الله، إنما أمر النبي ﷺ أن يتعوذ بهما، وكان ابن مسعود لا يقرأ بهما. قال البزار: لم يتابع ابن مسعود أحد من الصحابة، وقد صرح عن النبي ﷺ أنه قرأ بهما في الصلاة، وأثبتنا في المصحف. وأخرج أحمد، والبخاري، والنسائي، وغيرهم عن زر بن حبیش قال: «أتيت المدينة، فلقيت أبي بن كعب، فقلت له: أبا المنذر إني رأيت ابن مسعود لا يكتب للمعوذتين في مصحفه، فقال: أما والذي بعث محمداً بالحق لقد سألت رسول الله ﷺ عنهما، وما سألني عنهما أحد منذ سألته غيرك، قال: قيل لي قل، فقلت: فقولوا فنحن نقول: كما قال رسول الله ﷺ». وأخرج الطبراني عن ابن مسعود: «أن النبي ﷺ سئل عن هاتين السورتين، فقال: قيل لي، فقلت: فقولوا كما قلت». وأخرج مسلم، والترمذي، والنسائي، وغيرهم عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «نزلت علي الليلة آيات لم أر مثلهن قط

يخلقه، ومنهم عمرو بن عبدي، وعمرو بن عائذ ﴿ومن شر غاسق إذا وقب﴾ الغاسق الليل، والغسق الظلمة، يقال غسق الليل يغسق إذا أظلم، قال الفراء: يقال غسق الليل، وأغسق إذا أظلم، ومنه قول قيس بن الرقيات:

إن هذا الليل قد غسقا واشتكت لهم والأرقا
وقال الزجاج: قيل لليل غاسق؛ لأنه أبرد من النهار، والغاسق البارد، والغسق البرد، ولأن في الليل تخرج السباع من أجامها، والهوام من أماكنها، وينبعث أهل الشر على العبث والفساد، كذا قال، وهو: قول بارد، فإن أهل اللغة على خلافه، وكذا جمهور المفسرين ووقوبه: دخول ظلامه، ومنه قول الشاعر:

وقب العذاب عليهم فكأنهم لحقتهم نار السموم فأخذوا
أي: نخل العذاب عليهم، ويقال وقبت الشمس: إذا غابت، وقيل: الغاسق الثريا، وذلك أنها إذا سقطت كثرت الأسقام والطواعين، وإذا طلعت ارتفع تلك، وبه قال ابن زيد. وهذا محتاج إلى نقل عن العرب أنهم يصفون الثريا بالغسوق. وقال الزهري: هو الشمس إذا غربت، وكأنه لاحظ معنى الوقوب، ولم يلاحظ معنى الغسوق، وقيل: هو القمر إذا خسف، وقيل: إذا غاب. وبهذا قال قتادة، وغيره. واستتلوا بحديث أخرجه أحمد، والترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ في العظمة، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن عائشة قالت: «نظر رسول الله ﷺ يوماً إلى القمر لما طلع فقال: يا عائشة استعيني بالله من شر هذا، فإن هذا هو الغاسق إذا وقب». قال الترمذي: بعد إخراجهم حسن صحيح، وهذا لا ينافي قول الجمهور؛ لأن القمر آية الليل، ولا يوجد له سلطان إلا فيه، وهكذا يقال في جواب من قال: إنه الثريا. قال ابن الأعرابي في تأويل هذا الحديث: وذلك أن أهل الريب يتحينون وجبة القمر. وقيل الغاسق: الحية إذا لدغت. وقيل الغاسق: كل هاجم يضرب كائناً ما كان، من قولهم غسقت القرحة: إذا جرى صديدها، وقيل: الغاسق هو السائل، وقد عرفناك أن الراجح في تفسير هذه الآية هو ما قاله أهل القول الأول، ووجه تخصيصه أن الشر فيه أكثر، والتحرز من الشرور فيه أصعب، ومنه قولهم: الليل أخفى للويل ﴿ومن شر النفاثات في العقد﴾ النفاثات من السواحر أي: ومن شر النفوس النفاثات، أو النساء النفاثات، والنفث النفخ، كما يفعل ذلك من يرقى ويسحر، وقيل: مع ريق، وقيل: بدون ريق، والعقد جمع عقدة، وذلك أنه من ينفثن في عقد الخيوط حين يسحرن بها، ومنه قول عنترة:

فإن يبرأ فلم أثبت عليه وإن يعقد فحق له العقود
وقول متم بن نويرة:

نفث في الخيط شبهي الرقي من خشية الجنة والحاسد
قال أبو عبيدة: النفاثات هي: بنات لبيد الأعصم اليهودي، سحرن النبي ﷺ. قرأ الجمهور (النفاثات) جمع نفاثة على

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّي الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾

﴿الفلق﴾ الصبح، يقال: هو أبين من فلق الصبح، وسمي فلماً؛ لأنه ينفلق عنه الليل، وهو فعل بمعنى مفعول قال الزجاج: لأن الليل ينفلق عنه الصبح، ويكون بمعنى مفعول، يقال: هو أبين من فلق الصبح، ومن فرق الصبح، وهذا قول جمهور المفسرين، ومنه قول ذي الرمة:

حتى إذا ما انجلي عن وجهه فلق هائلة في أخريات الليل منتصب
وقول الآخر:

يا ليلة لم اتها بمرتفعاً أرعى النجوم لي أن نور الفلق
وقيل: هو سجن في جهنم، وقيل: هو اسم من أسماء جهنم، وقيل: شجرة في النار، وقيل: هو الجبال والصخور، لأنها تفلق بالمياه أي: تشقق، وقيل: هو التفليق بين الجبال؛ لأنها تنشق من خوف الله. قال النحاس: يقال لكل ما أطمأن من الأرض فلق، ومنه قول زهير:

ما زلت أرمقهم حتى إذا هبط أيدي الركاب بهم من راکس فلما والراكس: بطن الوادي، ومثله قول النابغة:

وبني راکس فالضواجع

وقيل: هو الرحم تنفلق بالحيوان، وقيل: هو كل ما انفلق عن جميع ما خلق الله من الحيوان والصبح والحب والنوى، وكل شيء من نبات، وغيره قاله الحسن، والضحاك. قال القرطبي: هذا القول يشهد له الانتشاق، فإن الفلق الشق، ففلقت الشيء فلماً: شققته، والتفليق مثله، يقال فلقت، فانفلق وتفلق، فكل ما انفلق عن شيء من حيوان، وصبح، وحب، ونوى، وماء فهو فلق، قال الله سبحانه: ﴿فالق الإصباح﴾ [الأنعام: 96] وقال: ﴿فالق الحب والنوى﴾ [الأنعام: 95]. انتهى. والقول الأول أولى؛ لأن المعنى، وإن كان أعم منه وأوسع مما تضمنه لكنه المتبادر عند الإطلاق. وقد قيل في وجه تخصيص الفلق بالإيماء إلى أن القادر على إزالة هذه الظلمات الشديدة عن كل هذا العالم يقدر أيضاً أن يدفع عن العائذ كل ما يخافه، ويخشاه، وقيل: طلوع الصبح كالمثال لمجيء الفرح؛ فكما أن الإنسان في الليل يكون منتظراً لطلوع الصباح، كذلك الخائف يكون مترقباً لطلوع صباح النجاح، وقيل: غير هذا مما هو مجرد بيان مناسبة ليس فيها كثير فائدة تتعلق بالتفسير ﴿من شر ما خلق﴾ متعلق بأعوذ أي: من شر كل ما خلقه سبحانه من جميع مخلوقاته، فيعم جميع الشرور، وقيل: هو إبليس ونزيتة وقيل: جهنم، ولا وجه لهذا التخصيص، كما أنه لا وجه لتخصيص من خصص هذا العموم بالمضار البدنية. وقد حذّر بعض المتعصبين هذه الآية مدافعة عن مذهبه، وتقويماً لباطله، ففرعوا بتكوين شر على أن: «ماء نافية». والمعنى: من شر لم

ابن جرير عنه في الآية قال: هو ما خالط السحر من الرقي. وأخرج النسائي، وابن مروي عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر، ومن سحر فقد أشرك، ومن تعلق شيئاً وكل إليه». وأخرج ابن سعد، وابن ماجه، والحكم، وابن مروي عن أبي هريرة قال: «جاء النبي ﷺ يعونني فقال: ألا أرقيك برقية رقتني بها جبريل؟ فقلت: بلى بأبي أنت وأمي، قال: بسم الله أرقيك، والله يشفيك من كل داء فيك» ﴿ومن شر النفاثات في العقد﴾ * ومن شر حاسد إذا حسد﴾ فرقى بها ثلاث مرّات. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿ومن شر حاسد إذا حسد﴾ قال: نفس ابن آدم وعينه اهـ

تفسير سورة الناس

والخلاف في كونها مكية، أو مدنية كالخلاف الذي تقدّم في سورة الفلق. وأخرج ابن مروي عن ابن عباس قال: أنزل بمكة: ﴿قل أعوذ بربّ الناس﴾ [أي: سورة الناس]. وأخرج ابن مروي عن ابن الزبير قال: أنزل بالمدينة: ﴿قل أعوذ بربّ الناس﴾ وقد قُمتنا في سورة الفلق ما ورد في سبب نزول هذه السورة، وما ورد في فضلها، فارجع إليه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْإِنْسَانِ ① مَلِكِ الْإِنْسَانِ ② إِلَهِ الْإِنْسَانِ ③ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ④ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ الْإِنْسَانِ ⑤ مِنَ الْغَيْثِ وَالْإِنْسَانِ ⑥

وقرأ الجمهور: ﴿قل أعوذ﴾ بالهمزة. وقرأ بحذفها، ونقل حركتها إلى اللام. وقرأ الجمهور بترك الإمالة في الناس، وقرأ الكسائي بالإمالة. ومعنى ربّ الناس: مالك أمرهم، ومصلح أحوالهم، وإنما قال ربّ الناس مع أنه ربّ جميع مخلوقاته للدلالة على شرفهم، ولكون الاستعاذة وقعت من شرّ ما يوسوس في صدورهم، وقوله: ﴿ملك الناس﴾ عطف بيان جيء به لبيان أن ربيته سبحانه ليست كربية سائر الملاك لما تحت أيديهم من ممالكهم، بل بطريق الملك الكامل، والسلطان القاهر ﴿إله الناس﴾ هو أيضاً عطف بيان كالذي قبله لبيان أن ربيته، وملكه قد انضمّ إليهما المعبودية المؤسسة على الألوهية المقترضة للقدرة التامة على التصرف الكلي بالاتحاد والإعدام، وأيضاً الربّ قد يكون ملكاً، وقد لا يكون ملكاً، كما يقال ربّ الدار، وربّ المتاع، ومنه قوله: ﴿اتخذوا أحبارهم وريبانهم أرباباً من دون الله﴾ [التوبة: 31] فبين أنه ملك الناس. ثم الملك قد يكون إلهاً، وقد لا يكون، فبين أنه إله؛ لأن اسم الإله خاصّ به لا يشاركه فيه أحد، وأيضاً بدأ باسم الربّ، وهو اسم لمن قام بتدبيره، وإصلاحه من أوائل عمره إلى أن صار عقلاً كاملاً، فحينئذ عرف بالدليل أنه عبد مملوك، فنكر أنه ملك الناس. ثم لما

المبالغة. وقرأ يعقوب، وعبد الرحمن بن سابط، وعيسى بن عمر (النفاثات) جمع نافثة. وقرأ الحسن (النفاثات) بضم النون. وقرأ أبو الربيع (النفاثات) بدون الف ﴿ومن شرّ حاسد إذا حسد﴾ الحسد: تمنى زوال النعمة التي أنعم الله بها على المحسود، ومعنى إذا حسد: إذا أظهر ما في نفسه من الحسد، وعمل بمقتضاه، وحمله الحسد على إيقاع الشرّ بالمحسود. قال عمر بن عبد العزيز: لم أر ظالماً أشبه بالمظلوم من حاسد، وقد نظم الشاعر هذا المعنى فقال:

قل للمحسود إذا تنفس طعنة يا ظالماً وكأنه مظلوم
نكر الله سبحانه في هذه السورة إرشاد رسوله ﷺ إلى الاستعاذة من شرّ كل مخلوقاته على العموم، ثم نكر بعض الشرور على الخصوص مع اندراجها تحت العموم لزيادة شرّه، ومزيد ضرره، وهو الغاسق، والنفاثات، والحاسد، فكان هؤلاء لما فيهم من مزيد الشرّ حقيقون بإفراد كل واحد منهم بالنكر.

وقد أخرج ابن مروي عن عمرو بن عبسة قال: صلى بنا رسول الله ﷺ فقراً: ﴿قل أعوذ بربّ الفلق﴾ فقال: يا ابن عبسة أتدري ما الفلق؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: بئر في جهنم. وأخرج ابن أبي حاتم من قول عمرو بن عبسة غير مرفوع. وأخرج ابن مروي عن عقبة بن عامر قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اقرأ: ﴿قل أعوذ بربّ الفلق﴾ هل تدري ما الفلق؟ باب في النار إذا فتحت سعرت جهنم». وأخرج ابن مروي، والديلمي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: «سألت رسول الله ﷺ عن قول الله عزّ وجل: ﴿قل أعوذ بربّ الفلق﴾ فقال: هو سجن في جهنم يحبس فيه الجبارون والمتكبرون، وإن جهنم لتعوذ بالله منه». وأخرج ابن جرير عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «الفلق جبّ في جهنم».

وهذه الأحاديث لو كانت صحيحة ثابتة عن رسول الله ﷺ لكان المصير إليها واجباً، والقول بها متعيناً. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: الفلق سجن في جهنم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مروي عن جابر بن عبد الله قال: الفلق الصبح. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس مثله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه قال: الفلق الخلق. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، وابن مروي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله: ﴿ومن شرّ غاسق إذا وقب﴾ وقال: النجم هو الغاسق، وهو الثريا. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم من وجه آخر عنه غير مرفوع. وقد قُمتنا تأويل هذا، وتأويل ما ورد أن الغاسق القمر. وأخرج أبو الشيخ عنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا ارتفعت النجوم رفعت كل عامة عن كل بلدة»، وهذا لو صح لم يكن فيه دليل على أن الغاسق هو النجم أو النجوم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس ﴿ومن شرّ غاسق إذا وقب﴾ قال: الليل إذا أقبل. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس ﴿ومن شرّ النفاثات في العقد﴾ قال: السحارات. وأخرج

جاء نفر من الجنّ، فقيل لهم: من أنتم؟ قالوا: ناس من الجنّ. وأيضاً قد سماعهم الله رجلاً في قوله: ﴿وأنه كان رجالاً من الإنس يعونون برجال من الجنّ﴾ [الجن: 6] وقيل: يجوز أن يكون المراد أعوذ بربّ الناس من الوسواس الخنّاس الذي يوسوس في صدور الناس، ومن الجنة والناس، كأنه استعاذ ربّه من ذلك الشيطان الواحد، ثم استعاذ بربّه من جميع الجنة، والناس، وقيل: المراد بالناس الناسي، وسقطت الياء كسقوطها في قوله: ﴿يوم يدع الداع﴾ [القمر: 6] ثم بيّن بالجنة والناس؛ لأن كل فرد من أفراد الفريقين في الغالب مبتلى بالنسيان، وأحسن من هذا أن يكون قوله: ﴿والنّاس﴾ معطوفاً على الوسواس أي: من شرّ الوسواس، ومن شرّ الناس كأنه أمر أن يستعاضد من شرّ الجنّ والإنس. قال الحسن: أما شيطان الجنّ، فيوسوس في صدور الناس، وأما شيطان الإنس، فيأتي علانية. وقال قتادة: إن من الجنّ شياطين، وإن من الإنس شياطين، فنعوذ بالله من شياطين الجنّ والإنس، وقيل: إن إبليس يوسوس في صدور الجنّ، كما يوسوس في صدور الإنس، وواحد الجنة جنّي كما أن واحد الإنس إنسيّ. والقول الأوّل هو أرجح هذه الأقوال، وإن كان وسوسة الإنس في صدور الناس لا تكون إلا بالمعنى الذي قدّمنا، ويكون هذا البيان تنكر الثقيلين للإرشاد إلى أن من استعاذ بالله منهما ارتفعت عنه محن الدنيا والآخرة.

وقد أخرج ابن أبي داود عن ابن عباس في قوله: ﴿الوسواس الخنّاس﴾ قال: مثل الشيطان كمثّل ابن عرس واضح فمه على فم القلب، فيوسوس إليه، فإن نكر الله خنس، وإن سكّت عاد إليه فهو الوسواس الخنّاس. وأخرج ابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان، وأبو يعلى، وابن شاهين، والبيهقي في الشعب عن أنس عن النبي ﷺ قال: «إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم، فإن نكر الله خنس، وإن نسيه التقم قلبه، فذلك الوسواس الخنّاس». وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿الوسواس الخنّاس﴾ قال: الشيطان جاث على قلب ابن آدم، فإذا سها وغفل وسوس، وإذا نكر الله خنس. وأخرج ابن أبي الدنيا، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والضياء في المختارة، والبيهقي عنه قال: ما من مولود يولد إلا على قلبه الوسواس، فإذا نكر الله خنس، وإذا غفل وسوس، فذلك قوله: ﴿الوسواس الخنّاس﴾ وقد ورد في معنى هذا غيره، وظاهره أن مطلق نكر الله يطرد الشيطان، وإن لم يكن على طريق الاستعاذة، ولنذكر الله سبحانه فوائد جليلة حاصلها الفوز بخيري الدنيا والآخرة.

والى هنا انتهى هذا التفسير المبارك بقلم مؤلفه محمد بن علي بن محمد الشوكاني، غفر الله له ذنوبه. وكان الفراغ منه في ضحوة يوم السبت لعله الثامن والعشرون من شهر رجب أحد شهور سنة تسع وعشرين بعد مائتين وألف سنة من الهجرة النبوية.

اللهم كما منّنت عليّ بإكمال هذا التفسير، وأعنتني على

علم أن العبادة لازمة له واجبة عليه، وأنه عبد مخلوق، وأن خالقه إله معبود بيّن سبحانه أنه إله الناس، وكزّز لفظ الناس في الثلاثة المواضع؛ لأن عطف البيان يحتاج إلى مزية الإظهار؛ ولأن التكرير يقتضي مزيد شرف الناس ﴿من شرّ الوسواس﴾ قال الفرّاء: هو: يفتح الواو بمعنى الاسم أي: الوسوس، وبكسرهما المصدر أي: الوسوسة كالزلزال بمعنى الزلزلة، وقيل: هو بالفتح اسم بمعنى الوسوسة، والوسوسة: هي حديث النفس، يقال: وسوست إليه نفسه وسوسة أي: حدثته حديثاً، وأصلها الصوت الخفي، ومنه قيل: لأصوات الحلي وسواس، ومنه قول الأعشى:

تسمع للحلي وسواساً إذا انصرفت

قال الزجاج: الوسواس هو الشيطان أي: ذي الوسواس، ويقال إن الوسواس ابن إبليس، وقد سبق تحقيق معنى الوسوسة في تفسير قوله: ﴿فوسوس لهما الشيطان﴾ [الأعراف: 20] ومعنى ﴿الخنّاس﴾ كثير الخنس، وهو التأخر، يقال خنس يخنس: إذا تأخر، ومنه قول العلاء بن الحضرمي يمدح رسول الله ﷺ:

إذا خسوا بالبشر فاعف تكرّماً وإن خنسوا عند الحديث فلا تسل

قال مجاهد: إذا نكر الله خنس وانقبض، وإذا لم يذكر انبسط على القلب. ووصف بالخنّاس؛ لأنه كثير الاختفاء، ومنه قوله تعالى: ﴿فلا أقسم بالخنس﴾ [التكوير: 15] يعني: النجوم لاختفائها بعد ظهورها، كما تقدّم، وقيل: الخناس اسم لابن إبليس، كما تقدّم في الوسواس ﴿الذي يوسوس في صدور الناس﴾ الموصول يجوز أن يكون في محل جرّ نعتاً للوسواس، ويجوز أن يكون منصوباً على الذم، ويجوز أن يكون مرفوعاً على تقدير مبتدأ. وقد تقدّم معنى الوسوسة. قال قتادة: إن الشيطان له خرطوم كخرطوم الكلب في صدر الإنسان، فإذا غفل ابن آدم عن ذكر الله وسوس له، وإذا نكر العبد ربه خنس. قال مقاتل: إن الشيطان في صورة خنزير يجري من ابن آدم مجرى الدم في عروقه سلطه الله على ذلك، ووسوسته هي الدعاء إلى طاعته بكلام خفي يصل إلى القلب من غير سماع صوت، ثم بيّن سبحانه الذي يوسوس بأنه ضربان: جنّي، وإنسي، فقال: ﴿من الجنة والنّاس﴾ أما شيطان الجنّ، فيوسوس في صدور الناس، وأما شيطان الإنس، فوسوسته في صدور الناس أنه يرى نفسه كالناصح المشفق، فيوقع في الصدر من كلامه الذي أخرجه مخرج النصيحة ما يوقع الشيطان فيه بوسوسته، كما قال سبحانه: ﴿شياطين الإنس والجنّ﴾ [الأنعام: 112] ويجوز أن يكون متعلقاً بيوسوس أي: يوسوس في صدورهم من جهة الجنة، ومن جهة الناس، ويجوز أن يكون بياناً للناس. قال الرازي، وقال قوم: من الجنة والناس قسمان مندرجان تحت قوله: ﴿في صدور الناس﴾ لأن القدر المشترك بين الجنّ والإنس يسمى إنساناً، والإنسان أيضاً يسمى إنساناً، فيكون لفظ الإنسان واقعاً على الجنس، والنوع بالاشتراك. والليل على أن لفظ الإنسان يندرج فيه لفظ الإنس والجنّ ما روي أنه

تحصيله، وتفضّلت عليّ بالفراغ منه، فامنن عليّ بقبوله، واجعله لي نخيرة خير عندك، وأجزل لي المثوبة بما لاقيته من التعب والنصب في تحريره وتقديره، وانفع به من شئت من عبادك؛ لينوم لي الانتفاع به بعد موتي، فإن هذا هو المقصد الجليل من التصنيف، واجعله خالصاً لك، وتجاوز عني إذا خطر لي من خواطر السوء ما فيه شائبة تخالف الإخلاص، واغفر لي ما لا يطابق مرادك، فإنني لم أقصد في جميع أبحاثي فيه إلا إصابة الحق، وموافقة ما ترضاه، فإن أخطأت، فانت غافر الخطيئات، ومسيل نيل الستر على

الهِفَوات، يا باريّ البريات، وأحمدك لا أحصي حمداً لك، وأشكرك لا أحصي شكرك، أنت كما أثّنت على نفسك، وأصلي وأسلم على رسولك وآله أ هـ.

تمّ سماعاً على مؤلفه حفظ الله عزّته يوم الاثنين صبح
اليوم الخامس من شهر ربيع الأوّل سنة 1241 هـ

كتبه

يحيى بن علي الشوكاني

غفر الله لهما

من أي	9	مراجعته
كم سن	11	خطبة الكتاب
شيء من و		
ما حقيقة		
الفسق لغة	13	تمحيص الكلام في مكة الفاتحة مدينتها
الكلام	13	أسماء الفاتحة
ما الذي أم		فضلها
كم يموت	14	هل البسملة آية من كل سورة أم لا؟
هل الأصل	15	فضل البسملة
ما النبيل	16	الكلام على الحمد والمدح والشكر
هل مر	16	فضل الحمد
الس	17	مبلغ رحمة ربنا
أيهما	18	ما هي العبادة؟
ما المر	18	ما هو الصراط المستقيم؟
الكلام عل	19	من هم المنعم عليهم والمغضوب عليهم والضالون؟
الأرض	19	هل لفظ أمين مشروع بعد قراءة الفاتحة وما فضله؟
ما الذي ع		
وأيهم		
عليه		
هل كان ي	21	فضل سورة البقرة
المتقد	22	الكلام في الحروف المقطعة واختيار المؤلف فيها
هل كا	25	هل تختلف حقيقة الهدى؟
الان		من هم المتقون؟
من أي	26	ما هو الغيب؟
ما هي الش		فضل المؤمنين بالغيب
هل كا	27	ما هو الرزق؟
هل كان س	28	رقية تذهب اللمم
كم الم		معنى الختم على القلوب وعلى السمع والغشاوة على
كم الأ	29	الأبصار
مدة إق	31	ما هو مرض القلوب؟
كيف نخل	32	هل في الإنس شياطين؟
ما الكلم		معنى عمه القلوب؟
عليه؟	33	بيان مثل المنافقين؟
استنكار	34	ما هو الرعد، ما هو البرق؟
ما الحق	35	بيان مثل آخر المنافقين
سنة		من أين ينزل المطر؟
تقريع	37	ما الحق في وجه إعجاز القرآن؟

- هل أمر سيدنا جبريل سيدنا إبراهيم أن يرمي إبليس
عند الجمرات الثلاث 94
- هل أرى سيدنا جبريل سيدنا إبراهيم المناسك؟
ندننة حول أهل الأهواء ومبلغ ضررهم 101
- كيف صرفت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، وبعد
كم شهر من دخول النبي المدينة كان ذلك؟ .. 102
- هل كان المكلف في ابتداء الإسلام مخيراً بين الصوم
والفدية ثم نسخت الفدية؟ 117
- مقدار الفدية
هل نزل القرآن من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا
في رمضان جملة، ثم نزل إلى الأرض مفرقاً؟ . 118
- هل يقال رمضان بدون لفظ شهر؟ 119
- إنزال كتب سماوية غير القرآن في رمضان
الجمع بين نزول القرآن في رمضان وفي ليلة مباركة،
وفي ليلة القدر 119
- الدعاء وشيء من آدابه
كيف كان الصيام في أول الإسلام، وبماذا نسخ؟ .. 120
- هل حكم الحاكم يحل الحرام؟ 122
- كيف كان الجهاد أول ما أثن فيه؟ 123
- ما هي الفتنة التي دونها القتل؟ 123
- إلى أي غاية ينتهي الأمر بالقتال؟ 123
- ما هو الاعتداء في القتال؟
هل نسخ القتال في الأشهر الحرم؟ 125
- هل يجوز لمن اعتدي عليه أن ينتقم بنفسه؟
رد المصنف على ابن عباس
تفسير بديع جداً لسيدنا أبي أيوب الأنصاري لقوله
تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِلَى أَنْ تَهْلِكُوا﴾ 125
- ما هو إتمام الحج والعمرة؟
هل العمرة فرض أو سنة؟ 126
- ما الإحصار في الحج؟ وماذا يفعل المحصر؟
ماذا يفعل من حلق رأسه لضرر هو محرم 128
- وفي أي مكان يفعل ما يفعل؟
ماذا يفعل المتمتع؟ 128
- ما هي أشهر الحج؟ 129
- بماذا يلزم الحج؟ 129
- هل تسمية الجبل بعرفات تعطل؟
لم سمي عرفات عرفات؟ 129
- ما هما حسنتا الدنيا والآخرة؟ 132
- زمن الذكر في الأيام المعدودات 132
- ما هو الخشوع؟ 54
- رجوع إلى الكلام فيمن يأمر ولا ياتمر
هل الصبر والصلاة معونتان يستعان بهما؟ 55
- ما المراد من العالمين الذين فضل بنو إسرائيل
عليهم؟ 56
- ما السبب في قتل فرعون أبناء بني إسرائيل
واستحيائه لبناتهم؟ 57
- في أي يوم نجى الله سيدنا موسى وقومه وأغرق
فرعون وقومه؟ 58
- ما الحق في رؤية ربنا في الجنة أ تكون أم لا تكون؟ . 59
- ما هو المرنّ والسلسوى للذنان من بهما على بني
إسرائيل؟
ما القرية التي أمروا أن يدخلوها؟ وما الباب الذي
أمروا أن يدخلوا منه؟ 60
- ما معنى السجود المأمور به عند دخولهم الباب؟
كيف كان تبديلهم؟ ما قيل لهم؟
لم سميت اليهود يهوداً والنصارى نصارى؟ 63
- ماذا جرى لليهود لما لم يقبلوا التوراة وبه قبلوها؟ . 65
- بماذا نجا من المسخ من نجا منهم؟ 65
- قصة البقرة التي أمروا بذبحها؟ 66
- مصادر لم تنطق العرب بأفعالها 70
- أقسام القلوب 74
- كفر اليهود برسول الله لما جاء وكانا يستنصرون به
قبل بعثته 75
- أسئلة اليهود وأجوبتها 78
- بحث في السحر 79
- الحق أن الله أنزل السحر ابتلاء للخلق 80
- هل للسحر تأثير؟
تبرئة سيدنا سليمان من السحر
قصة الملكين مع الزهرة 81
- تنفر بالغ من تعلم السحر 82
- الكلام في النسخ 83
- ما المراد بالسعي في خراب المساجد؟ 87
- معنى ﴿فإينما تولوا فثم وجه الله﴾
كلمات اليمة مع متبع هواه 89
- ما المراد بالكلمات التي ابتلى الله بهنّ خليله 90
- معنى العهد الذي لا ينال الظالمين 91
- جمع حسن بين حرمة مكة من مبدأ الخلق وتحريم
إبراهيم لها 93

- 196 ﴿الله ما في السموات وما في الأرض﴾ إلخ . .
- 197 هل استجاب الله الدعوات التي في آخر السورة؟ . .
- فضل الآيتين اللتين في آخر السورة وهو جليل
- 199 وجليل
- سورة آل عمران**
- 200 فضل سورة آل عمران
- 201 الكلام على المحكم والمتشابه من كلام ربنا عز وجل
- ما هي شهوات الدنيا التي زينت للناس، وما الذي هو
- 207 خير من هذه الشهوات؟
- فضل آية ﴿شهد الله﴾ إلخ، و﴿إن الدين عند الله
- 208 الإسلام﴾ وآية: ﴿قل اللهم﴾
- 210 إلى أي حد بلغ قتل بني إسرائيل أنبياءهم؟
- 211 تفسير آية ﴿قل اللهم مالك الملك﴾ وما بعدها
- 211 هل تجوز موالة الكفار تقية، وما معنى هذه التقية؟
- اختصاص السيدة مريم وابنها بحفظهما عند الولادة
- 214 من مس الشيطان
- 218 لم سمي المسيح مسيحاً؟
- تفسير قوله تعالى: ﴿إذ قال الله يا عيسى إني
- 220 متوفيك﴾ الآية
- 222 آية المباهلة وحديثها
- 241 هل أمد أهل بدر بملائكة أم لا؟
- ماذا كان يفعل الرسول ﷺ إذا أراد أن يدعو لأحد أو
- 243 عليه؟
- 244 معنى ﴿لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة﴾
- ما معنى أن الجنة عرضها السموات والأرض؟
- 244 ائتمار إبليس وجنوده على إضلال بني آدم
- 247 هل قتل نبي في حرب ومن هم الربيون؟
- 252 قدر الاستشارة في الإسلام
- 253 لماذا فعل الله بالمسلمين ما فعل يوم أحد؟
- 253 ما فعل المنافقون يوم أحد؟
- ما هو الحق في حياة الشهداء الحقيقية هي أم
- 254 مجازية؟
- 255 ما هو المراد بالرزق المنسوب للشهداء؟
- 256 بعض ما ورد في فضل الشهداء
- 259 ما جزاء من أوتي مالاً فلم يؤد زكاته
- 260 حادثة الصديق مع اليهودي
- هل موضع سوط المؤمن في الجنة خير من الدنيا
- 261 وما فيها؟
- 133 ما هي الأيام المعبودات؟
- معنى ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من
- 135 الغمام والملائكة﴾
- 141 هل نسخ تحريم القتال في الأشهر الحرم؟
- الكلام على الخمر والميسر
- 144 زواج المشركة والكتابية
- 145 الكلام على الحيض وشيء من أحكامه
- 147 معنى ﴿ولا تجعلوا الله عرضة لإيمانكم﴾
- 148 اليمين للغو ما هي؟
- 149 الكلام في الإيلاء
- 151 الكلام على المطلقات وعدتهن
- 153 هل يجوز أن تفترق المرأة بمل لتطلق؟
- 153 هل يجوز الزواج للتحليل؟
- 154 النهي الشديد عن طلب المرأة الطلاق بلا سبب
- 155 النهي عن مضارة المرأة في المعاشرة
- 157 النهي عن منع المرأة أن تتزوج مطلقها
- 157 شيء من أحكام الرضاعة
- 159 عدة المتوفى عنها زوجها
- 160 الكلام في خطبة النساء
- 161 شيء من أحكام المطلقات
- 164 ما هي الصلاة الوسطى؟
- 167 الذين أماتهم الله لما خرجوا من بيوتهم حذر الموت .
- 168 إلى أي حد يضاعف الله الحسنات؟
- 169 الكلام على طالوت وجنوده
- 172 هل تتفاضل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؟
- 173 نهى المفسر عن التفسير بالرأي
- هل نسخت الزكاة كل صدقة ونسخ رمضان كل
- 174 صوم؟
- 174 تفسير آية الكرسي
- 176 تفسير ﴿لا إكراه في الدين﴾
- 178 المحاجة التي بين سيدنا إبراهيم والنمرود
- 179 قصة الذي قال: ﴿أنتي يحيي هذه الله بعد موتها﴾؟ .
- الكلام على طلب الخليل أن يريه الله كيف يحيي
- 180 الموتى وإجابة طلبه
- إتفاق الأموال، وأدابه، وما يبطل ثوابه، وإلى أي حد
- 182 يضاعف ذلك الثواب؟
- 189 أبحاث آية الربا
- 192 الدين وما يتعلق به
- هل نسخت آية ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ آية

299	أمر رسول الله ﷺ ابن مسعود أن يقرأ عليه
301	ما معنى ملامسة النساء؟
302	رد المفسر على ابن السكيت وابن الأنباري في تفسير لفظ التيمم لغة
302	بم يكون التيمم؟
304	هل يدخل جميع طوائف الكفار تحت قوله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾؟
306	ما هو الفتيل والتقير والقطمير؟
308	كيف يكون الحاكم بين الناس؟
310	سبب نزول قوله تعالى: ﴿غلا وربك لا يؤمنون﴾ الآية، مع تلك قصة غريبة
311	سبب نزول قوله تعالى: ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم﴾ الآية
316	الكلام على السلام وردّه
318	الكلام على القتل خطئه وعمده
321	حديث محم بن جثامة قاتل عامر بن الأضبط بعد أن سلم سلام الإسلام
323	جزاء من أسلم بمكة ولم يهاجر من غير المستضعفين
324	الكلام على صلاة الخوف
326	تحريض المؤمنين على طلب الكفار وردّ أي عنر منهم إن وهنوا في ذلك
327	بيان أن الحكم بين الناس بما أنزل الله هو العدل
328	الليل على أنه لا يجوز لأحد أن يخاصم عن أحد إلا بعد أن يعلم أنه محق
328	بيان أحوال المنافقين وذنم ما كانوا عليه
328	الترغيب في تعجيل التوبة عقب الذنب
329	بيان أن من اكتسب سوءاً فعليه عقابه، ومن كسب خيراً فله أجره
329	نم النجوى إلا في أمر بصنقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ابتغاء وجه الله، والأجر لفاعل ذلك
329	الترهيب من مخالفة الرسول ﷺ والوعيد على ذلك تفويض غفران جميع الذنوب صغيرها وكبيرها إلى مشيئة الله تعالى ما عدا الشرك
330	تسفيه عقول عبدة الأصنام ووعيد من اتبع الشيطان، لعنه الله
331	الترغيب في الأعمال الصالحة ووعد الله الأجر العظيم عليها
331	آراء العلماء في خصاء الحيوان آمياً وغيره
331	بيان أن العقابة المحمودة ليست بالأمانى، وإنما هي

262	هل أخذ الله الميثاق على العلماء أن يبينوا ما أوحى الله؟
262	ما المراد بالذكر في قول الله: ﴿ينكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم﴾
265	فضل الرباط في سبيل الله
265	فضل الآيات العشرة من آخر سورة آل عمران
	سورة النساء
266	فضل سورة النساء
266	الكلام على قراءة ﴿والأرحام﴾ بالجر وإنكار المؤلف تواترها
267	هل تجب صلة الرحم ويحرم قطعها؟
268	الكلام بسعة على قوله تعالى: ﴿وإن خفتن أن لا تقسطوا في اليتامى﴾ الآية
271	من هم السفهاء الذين لا يعطون المال؟
272	ما هو الرشذ الذي به تدفع أموال اليتامى إليهم؟
272	ما هو الأكل بالمعروف من مال اليتيم لوليه؟
272	الوصية على اليتامى
275	عذاب من ياكلون أموال اليتامى ظلماً
275	الكلام بسعة على التركات
279	ما جزاء الحيف في الوصية؟
279	ما جزاء من قطع ميراث وارثه؟
279	هل للوصية حد لا تتجاوزته؟
279	فضل تعلم علم الفرائض
281	هل التوبة فرض على كل مؤمن باتفاق الأمة، وما هي التي تقبل؟
283	رجوع سيدنا عمر عن تحديد مهر النساء لاعتراض امرأة عليه
283	بحث مستفيض في المحرمات من النساء
286	هل كانت المتعة جائزة أو لا؟ ثم نسخت
	الكلام على زواج الإمام
291	حد الإمام إذا زنين
293	بحث في كبائر الذنوب ما هي وما عدها؟
294	الحسد والغبطة
295	بم جعل الله الرجال قوامين على النساء؟
296	ما يفعل الرجل مع امراته المستعصية عليه؟
296	بم نسخ التحالف الذي كان يورث به في صدر الإسلام؟
296	الحكماء بين الزوجين وأحكامهما
297	على من أمر الله أن تحسن؟

سورة المائدة

- 348 هل المائدة آخر سورة نزلت؟
 ما المنسوخ من المائدة، والتنبيه على حديث موضوع
 349 في فضلها
 حادثة فيلسوف في معارضة القرآن. ما هي العقود
 المأمور بالوفاء بها؟
 ما هي بهيمة الأنعام، وما الشعائر التي نهينا عن
 351 إحلالها، وما معنى الإحرام؟
 352 المحرم علينا من الحيوان
 353 هل للمضطر أن ياكل من الحيوان المحرم؟
 354 ماذا أحل لنا؟ والكلام على الصيد
 355 هل يحل لنا طعام أهل الكتاب ونكاح نسائهم؟ ...
 357 الكلام بسعة في الوضوء والتيمم
 ما نقباء بني إسرائيل بماذا بعثوا؟ وماذا فعل الله ببني
 360 إسرائيل لما نقضوا العهد؟
 362 هل كان أهل الكتاب يخفون من كتبهم شيئاً؟
 الرد على النصراني من قولهم إن الله هو المسيح،
 وعلى اليهود والنصارى معاً في دعوام أنهم
 362 أبناء الله وأحباؤه
 الكلام في الفترة التي بين رسولنا ﷺ وسيدنا عيسى
 363 ﷺ
 تنكير سيدنا موسى لقومه، ودعوتهم للجهاد
 363 وتمردهم عليه، وعقابهم على ذلك
 365 الكلام في ابني آدم وقتل أحدهما أخاه
 الكلام على قاتل النفس والمتسبب في إحيائها،
 367 والكلام على البيعة
 370 ما هي الوسيلة؟ وما حال الكفاء يوم القيامة؟
 حكم السارق، والرد على من قال إن التوبة تسقط
 371 الحدود
 المنافقون واليهود، وتسليية الرسول عن مسارعته
 372 في الكفر، وشيء من أخلاق اليهود وأحكامهم .
 من الحكم المحكوم عليه بالظلم والفسق والكفر
 إذا لم يحكم بما أنزل الله؟ ومعنى الظلم والفسق
 373 والكفر هنا
 أحكام القصاص في النفس والجوارح، والحق في
 373 شرع من قبلنا هل هو شرع لنا؟
 حكم موالاة غير المسلمين ووصف المنافقين
 والمؤمنين حقاً في هذه الموالاة، ومن هو ولي
 377 المؤمنين الولاية الصحيحة

- 331 بالأعمال الصالحة
 مدح دين الإسلام، والكلام على معنى الخلعة، بيان أن
 كل ما في السموات وما في الأرض مملوك لله
 332 تعالى
 الإيصاء بأمر اليتامى من النساء والمستضعفين من
 332 الولدان
 جواز المصالحة بين الرجل وزوجه عند خوف
 333 التشويز والتوصية بالنساء
 334 التوصية بتقوى الله سبحانه والترهيب من الكفر ..
 الترغيب فيما عند الله من الجزاء على العمل إذا كان
 334 خالصاً لوجهه
 335 الأمر بالعدل في جميع الأمور من غير محاباة ...
 الأمر بالإيمان بالله وملائكته ورسله وكتبه واليوم
 الآخر
 ذكر معائب المنافقين والتهم بهم وإبعادهم الوعيد
 336 الشديد
 النهي عن الغيبة والنميمة وجميع الإيذاء إلا متظلاً أو
 339 مستفتياً أو مكرهاً ونحو ذلك والترغيب في العفو
 اختراع أهل الكتاب على رسول الله ﷺ، وإنزال كتاب
 من السماء، وتسليية رسول الله ﷺ ما فعلت
 يهود مع موسى عليه السلام، إلى آخر ما قصه
 340 الله من شأنهم معه ﷺ
 بيان أن عيسى صلوات الله عليه وسلامه ما قتل وما
 صلب ولكن رفع إلى السماء وهو الآن حي، وأنه
 لا يموت يهودي ولا نصراني إلا آمن به قبل
 341 موته
 342 بيان أن المعاصي تنقص الرزق والدليل عليه
 الكلام على ﴿والمقيمين الصلاة﴾ وما جاء فيه، والرد
 على المنكرين لبعثة محمد ﷺ، وأنه مثل من
 تقدم من الرسل صلوات الله وسلامه عليهم
 343 أجمعين
 345 شهادة الله الملائكة بما جاء به النبي ﷺ
 نهى النصراني عن الغلو في المسيح وأنه كلمة الله
 القاهما إلى مريم وأن الله سبحانه منزه عن الولد
 346 والولد، والنليل على ذلك
 بشارة المؤمنين ووعيد الكافرين
 347 الكلام في الكلالة وامتنان الله سبحانه علينا بالبيان .
 انموذج من خط المؤلف رحمه الله من النسخة
 348 المطبوع عليها هذا التفسير

- آيات ثلاث هي أصعب ما في القرآن والكلام عليها . 400
الجواب عن نفي الرسل علمهم بما أجيبوا به من
أمرهم 403
الجواب عن الحواريين في قولهم هل يستطيع ربك؟ 404
هل نزلت المائدة وماذا كان عليها؟ 405
هل للتوفي معان متعددة، ما معنى توفى الله تعالى
لسيدنا عيسى؟ 406

سورة الأنعام

- فضل سورة الأنعام، وهو فضل عظيم 407
ما هي الظلمات والنور؟ ومعنى ثم في قوله: ﴿ثم
الذين كفروا بربهم يعلنون﴾ 407
ما الأجل الذي قضاه الله والأجل المسمى عنده؟
إلى أي حد بلغ تصلب الكفار في تكذيبهم للرسول
ﷺ 409
حجج على وحدانية الله تعالى 411
مبلغ رحمة ربنا عز وجل 412
فيمن نزل قوله تعالى: ﴿وهم ينهون عنه وينأون
عنه﴾ 414
في أي شيء مثلنا الحيوانات؟ 417
تحريض شديد على التضرع إلى الله تعالى، هل في
الرخاء والسعة خير والمرء مقيم على المعاصي
غافل؟ 419
إنكار المفسر على من يشتغل بالمفاضلة بين الملائكة
والأنبياء 420
حملة على النجاليين الذين يدعون علم الغيب وما هي
مفاتيح الغيب؟ 423
أين تكون الروح إذا نام الإنسان، وما معنى ﴿فوق
عباده﴾؟ 424
النهى عن مجالسة أهل الأهواء الباطلة ونسخ
الترخيص في ذلك أولاً 426
إنكار سيدنا إبراهيم على أبيه في عبادة غير الله . 429
الحجة التي أوتيتها سيدنا إبراهيم على قومه 431
ما يكون للظالمين وهم في غمرات الموت؟ 434
عدة حجج على أنه تعالى الإله الواحد 435
هل رأى محمد ربه، ما معنى ﴿لا تدركه الأبصار﴾؟ 439
هل يترك النهي عن المنكر إذا خيف أن يترتب عليه
أشد منه؟ وجملته شديدة جداً على معاندي
الشرائع 440
حل الإشكال في قوله تعالى: ﴿وما يشعركم أنها إذا

- وصف قوم نهينا عن موالاتهم أيضاً، ووصف شر
منهم 380
قول اليهود: ﴿يهد الله مغلوله﴾، وجزاؤهم على ذلك
وماذا كان يفعل الله بأهل الكتاب لو أقاموا التوراة
والإنجيل 382
استواء أهل البيت بجميع الناس في التبليغ لم
يختصوا وحدهم بشيء من الدين 384
حظ العلماء المخلصين من العصمة من الناس إذا
قاموا ببيان حجج الله 385
استغناء الرسول ﷺ عن الحراس لما وعد بالعصمة
من الناس 385
تخريج ﴿والصابئون﴾ المرفوع المعطوف على
المنصوب 385
حكم من قال: ﴿إن الله هو المسيح﴾ ومن قال: ﴿إن
الله ثالث ثلاثة﴾ 386
حقيقة سيدنا المسيح وأمه 386
لماذا لعن الكفار من بني إسرائيل؟ 387
من أشد الناس عداوة للمؤمنين، ومن أقربهم مودة
لهم؟ 388
بحث نفيس في تحريم العوام على أنفسهم بعض ما
أحل الله لهم، وأنه ليس من الدين في شيء لو
ترك تزهداً 390
ما هو اللغو من الإيمان، ما كفارة المنعقدة وما غلط
الغموس؟ 391
تحريم الخمر، وسر تحريمها بالتدريج ومضارها
الدنيوية والأخروية 392
الكلام في الميسر والنرد، وسواهما من الألعاب . 393
ابتلاء المؤمنين بتحريم الصيد وهم حرم، وجزاؤهم
الأخروي إن خالفوا 394
ما الجزاء الدنيوي لقاتل الصيد؟ 394
إباحة صيد البحر للمحرم 395
ما معنى كون الكعبة والأشهر الحرم والهدي والقلائد
قياماً للناس؟ 396
ما الخبيث والطيب ومعنى عدم استوائهما ولو كثر
الخبيث وأعجب الناظر؟ 397
النهى عن مسائل يسوء التكليف بها
ماذا كان لمن سألوها قبل المنهيين؟ 398
ما البحيرة والسائبة والوصيلة والحام؟
هل يسقط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بقوله
تعالى: ﴿عليكم أنفسكم﴾ الآية؟ 399

474 ما معنى كون أبواب السماء لا تفتح للكفار؟
 475 ردّ مفحم للمفسر على الزمخشري
 ماذا يقول الكافرون حين يرون منازلهم في الجنة؟
 ماذا يقول المؤمنون حينما يرون منازلهم في النار؟
 475 مناداة أصحاب الجنة لأصحاب النار
 ما الحجاب الذي بين أهل الجنة وأهل النار وما
 الأعراف ومن أهله؟
 نداء أهل النار أن يفيض أهل الجنة عليهم من الماء،
 والردّ عليهم
 477 الاختلاف في استواء الله تعالى على العرش والحق
 في ذلك
 478 فضل جليل جداً لعشرين آية من القرآن
 معنى التضرع، والاعتداء في الدعاء، ومعنى الفساد
 في الأرض والإصلاح فيها
 479 قصة سيدنا نوح مع قومه
 481 قصة سيدنا هود مع قومه
 482 قصة سيدنا صالح مع قومه
 483 قصة سيدنا لوط مع قومه
 485 قصة سيدنا شعيب مع قومه
 486 سياسة الله تعالى مع كل الأمم قبل إهلاكهم وماذا
 كان يفعل الله مع أهل القرى الهالكين لو آمنوا
 488 وانتقوا
 تهديد هذه الأمة أن يفعل معها الله كما فعل بالأمم
 السابقة إن لم تؤمن
 489 قصة سيدنا موسى مع فرعون وملئه وآيات عظيمة لم
 يؤمن برؤيتها فرعون وقومه
 490 أوضح برهان على بلة بني إسرائيل
 496 جواب ظاهر عن قوله تعالى: ﴿فَتَمَّ مِيقَاتِ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ
 497 لَيْلَةً﴾
 498 الصدع بالحق في رؤية الله تعالى يوم القيامة
 ما هي دار الفاسقين، وما جزاء الذين يتكبرون في
 499 الأرض بغير الحق؟
 هل كان العجل الذي اتخذهُ بنو إسرائيل إلهاً ذا لحم
 500 ودم؟
 رجفة السبعين الذين اختارهم سيدنا موسى وإيضاح
 503 كلامه ﷺ مع ربه
 506 قصة أصحاب السبت
 507 هل الأمر بالمعروف ينجي من السوء؟
 510 الحق في أخذ ذرية بني آدم من ظهورهم
 512 من الذي آتاه الله آياته فانسَخ منها؟

441 جاءت ﴿إِلْحَ فَتَحْ هَمْزَةً أَتَاهَا
 الجَنِّ وَالشَّيَاطِينِ هَلْ بَيْنَهُمَا اخْتِلَافٌ؟ وَمَتَى يَمُوتُ كُلُّ
 442 مِنْهُمَا؟
 ما المراد أكثر أهل الأرض الذين يصدون من أطاعهم
 443 عن سبيل الله؟
 444 الكلام على ما لم يذكر اسم الله عليه من الذبائح . . .
 446 هل يسمى المؤمن حياً والكافر ميتاً؟
 446 هل للهداية والضلال علامة، وما هي؟
 448 هل يسلط الله على الظالم ظالماً بسبب ظلمه؟
 449 كيف يرجح المشركون أصنامهم على ربِّ العالمين؟
 451 هل كان المشركون يحللون ويحرمون افتراءً على الله؟
 452 هل نسخ قول ربنا: ﴿وَأَتَوْا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾؟ . .
 هل في طاعة الله تعالى إسراف؟ والردّ على المحرّمين
 بعض الحيوانات بقوله تعالى: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾
 453 إلخ
 ما زيد من المحرمات على ما تضمنه قوله تعالى:
 454 ﴿قُلْ لَا أَجِدُ﴾ إلخ؟
 455 ماذا حَرَّمَ رَبُّنَا على اليهود لما بغوا؟
 احتجاج المشركين بمشيئة الله على جواز إشراكهم
 456 والردّ عليهم
 457 الوصايا العشر التي وصانا الله بها
 ما ورد في هذه الوصايا، هل هذه الوصايا هي التي
 458 في التوراة؟ وإزالة إشكال
 460 ما الذي ينتظره مَنْ لم يؤمن؟
 460 أَيُّ آيَةٍ التي إذا كانت لا ينفع نفساً إيمانها؟
 461 كيف يكون جزاء الحسنات والسيئات

سورة الأعراف

الجواب الحاسم عما يكون منفياً تارة ومثبتاً أخرى
 464 يوم القيامة
 465 كيف توزن الأعمال؟ والبحث في حقائق أنكرها قوم
 466 هل الطين أفضل من النار، ولماذا؟
 بناء على أَيِّ شيء قال إبليس: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ
 467 شَاكِرِينَ﴾؟
 هل تدل آية: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا
 470 تَرَوْنَهُمْ﴾ أننا لا نرى الشياطين؟
 470 كلام جليل مع المقلدين
 471 هل ترك ما أحلَّ الله تعالى يقال له زهد ويمدح؟ . . .
 473 حلّ إشكال الأجل إذا جاء كيف لا يتقدّم وقد جاء . .
 474 الكلام في زيادة العمر ونقصه

استثناء من لم ينقضوا عهدهم من تلك البراءة، والأمر
 557 بإتمام عهدهم إليهم
 ما هي الأشهر الحرم التي أمر المؤمنون أن يقاتلوا
 557 المشركين إذا انسحلت؟
 المعاني التي من أجلها لم يحترم عهد المشركين
 558 الذين لم يستقيموا على عهدهم
 بيان أن عمارة مساجد الله إنما تصح وتليق بالمؤمنين
 561 فقط
 تحريم موالاة الآباء والإخوان إذا لم يؤمنوا، والوعيد
 563 للشديد عليها
 ما كان يوم حنين؟
 563 منع المشركين من دخول المسجد الحرام، والخلاف
 564 في دخولهم غيره
 الأمر بقتال أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية، والخلاف
 565 في مقدار هذه الجزية
 رأي المفسر في مقلدي المذاهب الأربعة
 لماذا قال اليهود عزيز ابن الله؟
 566 وعيد من يكنزون الذهب والفضة، وبيان أن كل ما
 569 أبيت زكاته فليس بكنز
 هل نسخ تحريم القتال في الأشهر الحرم أم لا يزال
 570 باقياً، وما هو النسبي؟
 التحريض الشديد على النفس في سبيل الله والوعيد
 572 العظيم لمن لم ينفر
 كلام الله مع رسوله لإنه للمناققين أن يتخلفوا عن
 575 الجهاد
 578 مصارف الزكاة
 قصة ثعلبة المناق الذي عاهد الله ولم يف
 587 لماذا لا ينفع استغفار رسول الله ﷺ للمنافقين؟ ..
 588 تخلف المنافقين عن غزوة تبوك وجزاؤهم على
 ذلك دنيا وأخرة
 نهى رسول الله ﷺ عن الصلاة على المنافقين،
 589 والقيام على قبورهم، ولماذا ذلك؟
 590 ما جزاء من جاهد بماله ونفسه في سبيل الله؟ ...
 من هم المعنرون الذين جاءوا رسل الله ليأذن لهم في
 590 التخلف عن الجهاد؟
 رفع الحرج عن أرباب الأعداء الصحيحة إذا تخلفوا
 591 عن الجهاد ومن يؤخذ بالعقوبة لتخلفه عن الغزو
 592 اعتذار المنافقين وحلفهم، وجزاؤهم على ذلك ...
 هل الأعراب أشد كفراً ونفاقاً، وهل من الأعراب قسم
 مؤمن يتقرب إلى الله بنفقاته خلاف القسم الذي

هل هناك آدمية أضلّ من الأنعام؟ 513
 كم نوع الإلحاد في أسماء الله، كم أسماء الله تعالى؟ 515
 كيف يكون الاستدراج؟ 515
 هل يعلم متى تقوم الساعة أحد غير الله؟ 517
 اعتراف سيد العالمين أنه لا يعلم الغيب 518
 الكلام على قول الله تعالى: ﴿جعلنا له شركاء فيما
 519 آتاهما﴾
 صفات للأصنام تبين قدرها حق البيان 520
 كيف يتولى الله الصالحين؟ 520
 هل يجب سماع القرآن في كل حال؟ 521

سورة الأنفال

بحث في الأنفال أول الأمر 523
 من هم المؤمن حقاً؟ 525
 أوائل غزوة بدر 526
 هل مدّ المؤمنون بملائكة يوم بدر بشرى لهم؟ ... 527
 ماذا فعل الله لطمانه المؤمنين ونصرهم يوم بدر؟ . 528
 الوعيد على الفرار من الزحف 530
 متى كان الرمي في قوله تعالى: ﴿وما رميت إذ
 530 رميت﴾
 بماذا تأمر الكفار على النبي ﷺ ونجاة الله منهم؟ .. 536
 هل أنزل الله أمانين لهذه الأمة: ذهب أمان وبقي أمان؟ 537
 كيف تقسم الغنائم؟ 537
 تثبيت قلوب المؤمنين ببدر برؤيا رسول الله المنامية
 542 وبرؤية المؤمنين للكفار قليلين ليطيعوا فيهم ..
 وصايا تضمن النصر للمؤمنين إن راعوها 543
 تكليف الله للمؤمن أن يحرم عليه أن يفِر من عشرة
 أول الأمر وتخفيف الله ذلك عنهم وجعل الفرار
 549 المحرم الفرار من اثنين فقط
 الكلام في فداء الأسرى يوم بدر 550
 المعاني التي كان بها التناصر بين المؤمنين
 والموالاة، والمعاني التي كان بها الإعراض عن
 552 بعض المؤمنين، والمعاني التي كانت بها المعادة

سورة براءة

أسماء سورة براءة، وسب سقوط البسلة من أولها 553
 براءة الله ورسوله من المشركين لنقضهم العهود
 وضرب مدّة لهم يستعملون فيها للحرب والنداء
 يوم الحج الأكبر بهذه البراءة وبأشياء معها،
 554 وبيان ما هو الحج الأكبر

620	لا يتبعون إلا ظناً
624	الحجج على أن القرآن حق
626	صفات للكفار وتهديد لهم
627	رأي المفسر فيمن يستغيث برسول الله وإخوانه الأنبياء وأتباعهم الصالحين
632	إحاطة علم ربنا بكل شيء
632	ما هي بشرى الأولياء في الدنيا؟
635	قصة سيدنا نوح ﷺ مع قومه
636	قصة سيدنا موسى ﷺ مع قومه
642	الكلام على قوله تعالى: ﴿فإن كنت في شك﴾ الآيتين اختصاص قوم سيدنا يونس بنجاتهم من العذاب بعد أن عاينوه
644	هل الضرر النافع ربنا فقط؟

سورة هود

645	ما ورد في هود من الأحاديث
646	معنى إحكام آيات الكتاب وتفصيلها
647	ما جزاء من استغفر ربه وتاب إليه، وما جزاء من لم يفعل ذلك؟
647	شيء من صفة المنافقين
649	هل خلق العرش كان قبل السموات والارض؟
649	الكلام على قوله تعالى: ﴿فلعلك تارك﴾ الآية
650	الجواب عن قول الكفار إن القرآن افتراه رسول الله ﷺ
651	من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها فقط وجزاؤه ..
653	الكافرون والمؤمنون وجزاء كل، ومثل كل
654	قصة سيدنا نوح ﷺ مع قومه
661	قصة سيدنا هود ﷺ مع قومه
663	قصة سيدنا صالح ﷺ مع قومه
664	قصة سيدنا إبراهيم ﷺ مع الملائكة الذين أرسلوا لإهلاك قوم سيدنا لوط
667	قصة سيدنا لوط ﷺ مع قومه
669	قصة سيدنا شعيب ﷺ مع مدين
672	قصة سيدنا موسى ﷺ
673	كيف أخذ ربنا إذا أخذ القرى الأشقياء والسعداء وجزاء كل
674	ما معنى الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إلا ما شاء ربك﴾ وإزالة هذا الإشكال
677	هل قول رسول الله ﷺ «شيبتي هود وإخواتها» مرتبط بقول ربه عز وجل له: ﴿فاستقم﴾ الآية؟

593	يتخذ ما ينفق مغرمًا ويتربص بالمؤمنين الدوائر؟ ما جزاء السابقين الأولين من الصحابة والذين اتبعوهم بإحسان؟
595	عود إلى شرح خال المنافقين الذين بالمدينة وما حولها وما جزاؤهم
596	طائفة أخرى خلطت عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم
596	الاختلاف في الصنعة المأمور بأخذها منهم، أم هي الغرض أم لا؟
597	التحريض على التوبة
597	طائفة أخرى أرجى أمرهم لم يقطع لهم بالتوبة ولا يعدها
598	مسجد الضرار ومن اتخذوه، وحكمهم عند الله تعالى، والمسجد الذي أسس على التقوى وأهله وحكمهم
601	فضل المجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم وصفاتهم
602	النهى عن الاستغفار للمشركين ولو كانوا أولي قربي، والجواب عن استغفار خليل الله لأبيه
604	ما هو الأواه؟
604	الكلام على قوله تعالى: ﴿لقد تاب الله على النبي﴾ الآيات
605	تحريم التخلف عن رسول الله ﷺ في الغزو، وبيان ما للمجاهدين من ثواب في كل حال
606	تعليم المؤمنين أن تكون طائفة منهم تغزو، وطائفة منهم تتعلم العلم ليرشدوا من لم يتعلم وتعليم المؤمنين أن يبيتوا بالأنبياء في جهادهم
607	بقية من فضائح المنافقين
608	الكلام على قوله تعالى: ﴿لقد جاءكم رسول﴾ الآيتين

سورة يونس

610	إنكار عجب الكفار من إرسال الله تعالى لرسوله المنذر المبشر، ونكر آيات جليلة على قدرته تعالى حتى لا يكون هناك محل لتعجب أولئك الكفار من إرساله الرسول ﷺ
610	شرح حال من يؤمن بالمعاد ومن لا يؤمن، وجزاء كل منهما
611	صفات للكفار يتخللها تهديد وعيد لهم
613	مثل الدنيا
619	الذين أحسنوا والذين كسبوا السيئات، وجزاء كل ..
619	حجج دامغة على توحيدة تعالى وبيان أن المشركين

- هل كتب سيدنا يعقوب إلى سيدنا يوسف كتاباً وما هو؟ 714
- كيف تحققت رؤيا سيدنا يوسف؟ 715
- معنى قوله تعالى: وظنوا أنهم قد كذبوا؟ 717

سورة الرعد

- هل في قراءة سورة الرعد عند المحتضر فائدة؟ .. 719
- عبرة وشرحها 720
- معنى قوله تعالى: ﴿يحفظونه من أمر الله﴾ 723
- الكلام على سجود مَنْ في السموات والأرض، وعلى سجود الظلال 725
- مثالين وشرحهما 727
- الكلام على السحاب والرعد 727
- صفات المؤمنين والكافرين والحكم على كلّ منهما .. 728
- قيمة الدنيا، وما هي طوبى؟ 731
- الكلام على قوله تعالى: ﴿ولو أن قرآننا سيرت به الجبال﴾ الآية 732
- الكلام على قوله تعالى: ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت عنده أم الكتاب﴾ 734
- معنى نقص الأرض من أطرافها 736
- مَنْ هو الذي عنده علم الكتاب؟ 736

سورة إبراهيم

- هل يرسل الله الرسل بلسان قومهم ودفع اعتراض ضخم؟ 738
- هل الشكر يستوجب المزيد؟ 739
- معنى ردّ الكفار أيديهم في أفواههم 740
- عود إلى الشكر وما يعقبه من المزيد 741
- وصف شيء من عذاب الكفار وبيان علظه وشدّته .. 742
- خطبة إبليس لأهل النار وإفحامه لهم إفحاماً عجيباً، والكلام على ذلك 744
- مثل لكلمة الإيمان وكلمة الكفر 746
- معنى: ﴿يثبت الله الذين آمنوا﴾ 746
- نعم يعدّها ربّنا ويمتّن بها علينا 747
- الجواب عما لعله يتهم في قوله تعالى: ﴿ومن عصاني فإنك غفور رحيم﴾ 750
- السيدة سائرّة السيدة هاجر رضي الله عنهما 751
- معنى ﴿وإن كان مكروهم لتزول منه الجبال﴾ 752
- الأرض بعد أن تبذل 754

- الكلام على قوله تعالى: ﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا﴾ 677
- هل أعمال الصالحة تكفر صفائر المحرّمات؟ 678
- هل سبب استئصال الأمم السابقة بالعذاب كان بسبب أنه لم يكن فيهم من ينهون عن الفساد في الأرض؟ 679
- هل لا يهلك الله أهل القرى بظلم يتلبسون به وأهلها مصلحون؟ 680
- لم قصّ الله تعالى على رسوله ما قصّ في هذه السورة؟ 680
- تهديد شديد للكافرين
- هل خاتمة التوراة خاتمة هود؟ 681

سورة يوسف

- فضل سورة يوسف عليه الصلاة والسلام 682
- لماذا كانت سورة يوسف أحسن القصص؟ 683
- الكلام على الكواكب التي رآها سيدنا يوسف 683
- أسماء إخوة سيدنا يوسف واسم أمه 684
- الكلام في نبوة إخوته ﷺ 684
- هل كان نبياً سيدنا يوسف وقت المحنة؟ 686
- شرح حادثة امرأة العزيز مع سيدنا يوسف 689
- الذين تكلموا في المهمل، وبأي سنّ كان شاهد سيدنا يوسف 691
- مَنْ هنّ النسوة اللاتي شغفهنّ حب يوسف؟ 692
- هل صورة الإنسان أحمل وأكمل صور الخلق؟ ... 693
- ما هي الآيات التي راوها؟ 695
- شرح رؤيا الملك 699
- تحقيق الملك مع النسوة وظهور براءة سيدنا يوسف هل للإنسان أن يمدح نفسه ويطلب الولاية إذا كان يتقن بنفسه؟ 701
- ما كان بين يوسف وإخوته لما حضروا مصر لشراء الطعام؟ 703
- الرد على مَنْ ينكر تأثير العين والحكم في العائن .. 705
- ماذا كان من يوسف لما أحضر له إخوته شقيقه بنيامين؟ 706
- تفسير قوله تعالى: ﴿قالوا إن يسرق﴾ إلخ الآيات .. 707
- تعرف يوسف لإخوته ليغفروه وعدم عتابه لهم لما عرفوه واعتذاره له 712
- أي قميص قميص يوسف؟ 713

سورة الحجر

- 755 متى يؤدّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين؟
- 758 الكلام على البروج
- كيف حفظت السماء من الشياطين؟
- 759 معنى كون الرياح لواقع
- في معنى المستقدمين والمستأخرين
- 760 أصل الإنسان والجنان، وحادثه إبليس مع سيدنا آدم
- 762 الكلام على أبواب جهنم
- 763 ما أعدّ للمتقين وحالهم في الجنة
- 763 محاوردة سيدنا إبراهيم مع الملائكة
- 764 الملائكة مع سيدنا لوط
- 765 حال قوم سيدنا لوط معه ﷺ
- هل أجمع المفسرون على أن ربنا أقسم بحياة نبينا ﷺ
- 766 مَنْ هم المتوسمون، هل هم أهل الفراسة؟
- 767 هل أصحاب الأيكة أهل مدين أمّتان مختلفتان؟
- 768 ما هي السبع المثاني؟
- 769 مَنْ هم المقتسمون وما فعلوا بالقرآن؟
- المستهزئون الذين كفى الله نبيه منهم
- الكلام في الفاتحة وفضلها
- 769 حديث يتعلق بأخر السورة ينبغي أن يرى
- سورة النحل
- 771 ما المراد بالامر الذي أتى ونهوا عن استعجاله
- 772 ما هو الروح الذي يليق به ربنا على مَنْ يشاء من عباده؟
- 772 من جلة امتنّ الله بها على عباده
- 774 الكلام على لحوم الخيل حلاً وحرمه
- رجوع إلى الكلام على لحوم الخيل
- 774 من أخرى يمتنّ بها علينا ربنا فليتاملها المؤمن
- هل مَنْ يخلق هذه المنن يصح أن يساوى بمن لا يخلق شيئاً؟
- 776 كيف لا نحصى نعم ربنا؟
- 777 قيمة الإلهة التي يدعونها من دون الله
- 778 عادة الله مع أهل المكر السيء بدينه ورسله
- 779 معنى لا جرم ومن هو المتكبر وما جزاؤه؟
- الكفار والمؤمنون ووصف كل وجزاؤه
- كيف يفهم قول الكفار لو شاء الله ما عبدنا من دونه

- 781 من شيء؟
- 782 كيف يفهم قول الله للشيء كن فيكون؟
- 782 ماذا أعدّ الله لمن هاجروا من بعد ما ظلموا؟
- معنى يتعين لبيان الفوقية في قوله تعالى: ﴿يخافون ربهم من فوقهم﴾
- 784 دفع اعتراض ينبغي أن يحاط به
- 784 عجب عجيب؟ حال الكفار مع الله ومع ألتهم
- 785 حال العرب الوثنيين إذا بشروا بالأنثى
- 786 ماذا يفعل الله بالناس لو أخذهم بذنوبهم
- 787 معنى قوله تعالى: ﴿فهو وليهم اليوم﴾
- 788 الكلام على سقى وأسقى لغة، وعلى الضمير المذكور
- 789 الرجوع إلى الأنعام
- العبرة في خروج اللبن من بين فرث ودم خالصاً
- 789 سلفاً للشاربين
- الكلام على السكر في قوله تعالى: ﴿تتخذون منه سكرًا﴾
- 789 هل العسل شفاء لكل الأمراض أو لبعضها؟
- الكلام على ذلك
- أخبار وردت في العسل
- 791 مراتب العمر، والأرذل منه، ومعناه
- مثلان يفهمان أنّه لا يصح التسوية بين خالق الخلق
- 793 وبين الأصنام الجمادات
- نعم يمتنّ علينا بها ربنا وما أجلّ ما يمتنّ به الحكيم
- 795 التقدير
- 798 الكلام على العدل والإحسان والفحشاء والمنكر
- 799 أفضل آية، وأجمع آية، وأكثر آية تفويضاً، وأرجى آية
- 799 الكلام على الوفاء بالعهد وعلى اليمين بعد توكيدها
- ما هي الحياة الطيبة التي يحيي ربنا عليها المؤمن
- 801 العامل للصالحات
- 801 ماذا يفعل مريد قراءة القرآن؟
- مَنْ هذا البشر الذي زعموا أنّه يعلم الرسل، والردّ عليهم في ذلك؟
- 802 آثار في بيان الحياة الطيبة التي يحييها المؤمن
- 803 الصالح
- 803 الكلام على مَنْ كفر مكرهاً وقلبه مطمئن بالإيمان
- 804 هل يغفر الله لمن فتن إذا هاجر وجاهد وصبر؟
- شيء من تعذيب الكفار لبعض المؤمنين
- 804 المستضعفين وقت هجرتهم
- 805 ما هي القرية التي جعلها الله مثلاً؟
- الاستعارة التي في قوله تعالى ﴿فأذاقها الله لباس

- 834 مَن هو الإمام الذي يدعى كل أناس به
الكلام على قوله تعالى: ﴿ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى﴾
837 معنى قوله تعالى: ﴿ومن الليل فتهجد به نافلة لك﴾
ما هو المقام المحمود الذي وعده الرسول ﷺ؟
838 معنى منخل الصلح ومخرج الصلح
839 هل القرآن شفاء للقلوب أو الأبدان أو شفاء لكليهما؟
839 ما هو الروح والكلام فيه؟
841 هل يذهب القرآن من القلوب والمصاحف يوماً ما .
شبهة للكفار في أن يكون الرسول بشراً، والجواب
843 عنها
على أي حال يحشر الكافرون؟
845 ما هي التسع آيات التي أوتيتها سيدنا موسى؟ ...
848 الكلام على آية العز والآية قبلها
سورة الكهف
849 فضل سورة الكهف، وليراجع فإنه جليل
849 ما معنى ﴿ولم يجعل له عوجاً﴾
850 قصة أهل الكهف، وهي من بدائع القرآن فلتتأمل ..
855 معنى قوله تعالى: ﴿وانكر ربك إذا نسيت﴾
كلام ربنا مع نبيه في شأن فقراء المؤمنين وفي شأن
856 الكفار
857 ما أعد للكافرين وما أعد للمؤمنين
859 الكلام على الرجلين اللذين ضربهما الله مثلاً
862 مثل آخر هو مثل الحياة الدنيا والكلام عليه
862 الكلام على الباقيات الصالحات
معنى العرض، وكيف يعرض الناس؟
قصة إبليس مع سيدنا آدم، وبيان أنه من الجن لا
863 الملائكة
الكلام على قوله تعالى: ﴿ما أشهدتهم خلق السموات
864 والأرض﴾
قصة سيدنا موسى مع فتاه ومع سيدنا الخضر،
866 وهي من عجائب القرآن
869 بقية قصة سيدنا موسى مع سيدنا الخضر
872 الكلام على ذي القرنين وقصته
875 بقية هذه القصة، وفي ذلك الكلام على يأجوج ماجوج
878 مَن هم الأخسرون أعمالاً، وما هو جزاؤهم؟
ما هو جزاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات؟
879 هل يدخل الخوارج في الأخسرين أعمالاً؟

- 805 الجوع والخوف
807 ما معنى كون سيدنا إبراهيم أمة؟
807 كيف اختلف أهل السبت فيه؟
هل لمن أصيب بظلامة أن يعاقب بمثلها وإن صبر
كان خيراً؟
ما هو السبب في نزول قوله تعالى: ﴿إن عاقبتم﴾
808 الآية؟
سورة الإسراء
بحث لغوي في لفظ التسبيح والإسراء بم بارك الله
حول المسجد الأقصى؟
811 هل كان الإسراء ببين رسول الله ﷺ أم بروحه فقط؟
متى أسري به ﷺ؟
ما قضاه الله على بني إسرائيل من قهر عنوهم لهم
حين عصيانهم وقهرهم لعنومهم بعد ما تابوا .
811 معنى أن الله محا آية الليل وجعل آية النهار مبصرة
ما هو العذاب المنفي في قوله تعالى: ﴿ما كنا
814 معذبين﴾ الآية، أهو عذاب الدنيا أم عذاب الآخرة؟
الكلام على قوله تعالى: ﴿أمرنا مترفيها ففسقوا
814 فليها﴾
817 الوصية على الوالدين والتشديد في عدم عقوقهما .
819 ما هو التبذير، وما قيمة المبذر في حكم الشرع؟ ..
819 نواو جازمة يجب أن تمتثل فلتراجع
معنى كون ولي القاتل منصوراً، ومعنى نهيه عن
الإسراف في القتل
820 أوامر ونواو يجب أن تمتثل فلتعرف فإنها في غاية
الأهمية
822 ما الحق في تسبيح كل شيء بحمد ربنا هل هو
مجاز أم حقيقة؟ وليراجع هذا البحث
824 ما معنى المسحور؟
825 ما الحكمة في عدم إجابة الكفار فيما اقترحه من
الآيات؟
829 معنى كون الله لم يرسل الآيات إلا تخويفاً
829 ما هي الرؤيا التي جعلها الله فتنه للناس؟
830 ما هي الشجرة الملعونة في القرآن؟
قصة إبليس مع سيدنا آدم، وأنها ذكرت في القرآن
سبع مرات
831 رأي المفسر في قوله تعالى: ﴿وفضلناهم على كثير
833 ممن خلقنا تفضيلاً﴾
834 أحاديث في تفضيل بني آدم على الملائكة

توعد فرعون لسيدنا موسى أن يأتيه بسحر مثل	
آيئته	912
الموعد للاجتماع لذلك	912
مبلغ عظم السحر الذي فعله سحرة فرعون	914
ابتلاع عصا سيدنا موسى كل تلك السحر بعد أن	
انقلبت شعباناً	915
إيمان السحرة بمجرد رؤيتهم هذه المعجزة	
اتهام فرعون لهم بأنهم تلاميذ سيدنا موسى، وأنه	
كبيرهم الذي علمهم السحر، وتهديده لهم	
بقطع أيديهم وأرجلهم وصلبهم على جنوع	
النخل لأجل إيمانهم بموسى من غير إذنه	
استخدامهم كل هذا التهديد ومضيه على إيمانهم،	
ولينظر ما قالوا فإنه يشف عن إيمان كالجبال	
كيف نجى ربنا موسى وقومه، وكيف أغرق فرعون	
وقومه؟	916
جواب سيدنا موسى لما سأله ربه لم استعجل وتقدم	
قومه إلى الميقات؟	918
غضب سيدنا موسى وتوبيخه لقومه لما أخبره مولاه	
أن السامري أضلهم	918
كيف صنع السامري العجل وكيف أضل بني	
إسرائيل	
تصميم بني إسرائيل على عبادة العجل حتى يرجع	
سيدنا موسى رغم نهي سيدنا هارون لهم، وبيان	
فتنتهم بذلك العجل الذي اتخذوه إلهاً، وإنما إلههم	
الرحمن	919
لوم سيدنا موسى أخاه سيدنا هارون على عدم إنكاره	
على بني إسرائيل لما عبدوا العجل، وجواب	
سيدنا هارون على ذلك اللوم	920
جواب السامري لما سأله سيدنا موسى لماذا صنع ما	
صنع؟	920
عقوبة السامري الدنيوية على تلك الشنيعة	
معنى تحريق تلك العجل ثم نسفه في اليم	
ماذا كان من سيدنا آدم بعد نهيه عن الأكل من	
الشجرة، وكيف حاوره إبليس في ذلك الأكل؟ ..	924
هل صلاة الصبح والعصر هما التسبيح قبل طلوع	
الشمس وقبل غروبها، وما فضل هاتين	
الصلاتين؟	928
سورة الأنبياء	
كلام للمؤلف في حدوث القرآن ورأيه فيما كان من	
المتقديم في هذه المسألة	929

الكلام على الجنة وخصوصاً جنة الفردوس	
والتحريض على سؤالها	
ما هي كلمات الله التي تنفذ البحار ولا تنفذ؟ وهل هي	
قابلة لأن تنفذ أم لا؟	879
الكلام على قوله تعالى: ﴿فمن كان يرجو لقاء	
ربه﴾ الآية	

سورة مريم

فضل هذه السورة	881
سيدنا زكريا وقصته	
ما هو الحكم الذي أوتي به سيدنا يحيى صبيبا وفضل	
سيدنا يحيى	882
قصة السيدة مريم في حملها ووضعها لسيدنا عيسى	
وبرأتها	885
كيف امترى بنو إسرائيل في سيدنا عيسى ﷺ؟ ..	890
قصة سيدنا إبراهيم الإلخيل مع والده	890
فضل سيدنا موسى وسيدنا هارون وسيدنا إسماعيل	
وسيدنا إدريس	891
معنى رفع ربنا لسيدنا إدريس مكاناً علياً، وتنبيه على	
غلط	892
معنى الورد في قوله تعالى: ﴿وإن منكم إلا وادها﴾	896
هل تكون الألوهة يوم القيامة ضداً لعباديتها لا عزاً لهم؟	899
كيف يحشر المثلثون والمجرمون؟	900
أي جريمة جريمة من يزعم أن الله اتخذ ولداً؟	
ما هو العهد الذي يملك به الإنسان الشفاعة؟	901
ما هو الولد الذي سيجعله الله لعباده الصالحين؟ ..	902
لماذا يسر الله القرآن بلسانه ﷺ؟	

سورة طه

فضل هذه السورة	903
ما معنى لفظ ﴿طه﴾	903
ما معنى ﴿الرحمن﴾ على العرش استوى؟ وما معنى	
﴿السر وما أخفى﴾	903
قصة سيدنا موسى حينما رأى ناراً	
معنى ﴿أكاد أخفيها﴾	905
منة ربنا على سيدنا موسى في تربيته منذ كان	
رضيعاً وما يتصل بذلك حتى صار نبياً	908
قصة سيدنا موسى مع فرعون وقومه بعد الرسالة .	910
معنى قوله تعالى: ﴿أريناه آياتنا كلها﴾	912

- 966 مَنْ القانع وَمَنْ المعتز؟
 966 صفة مَنْ ينصرهم الله لأنهم ينصرونه
 هل أَوَّل آية نزلت في الجهاد ﴿إِنَّ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ﴾
 الآية؟
 الكلام على قوله تعالى: ﴿إِلَّا إِذَا تَعْنَى الْقَى الشَّيْطَانُ﴾
 969 في أمنيته
 971 فضل الموت في سبيل الله
 972 آيات وعبر ينبغي نظرها
 973 مثل لمن عبد غير الله عَزَّ وَجَلَّ
 975 كيف لم يجعل الله علينا في ديننا من حرج؟

سورة المؤمنون

- 977 هل الخشوع فريضة في الصلاة أم فضيلة؟
 977 صفات للمؤمنين الذين أفلحوا
 978 هل يفتدي ربنا المؤمنين من النار بالكافرين؟
 مراتب خلق الإنسان
 979 آيات وعبر أخرى ينبغي أن ترى ليزداد ناظرها إيماناً
 ما وافق عمر فيه ربه والتنبية على عدم اعتبار
 981 حديثين
 981 قصة سيدنا نوح مع قومه
 982 عادة الأمم مع رسلهم وعادة الله تعالى معهم
 984 قصة سيدنا موسى مع قومه
 986 هل قد تكون كثرة الأموال والأولاد إهانة لا كرامة؟
 صفات للفضلاء من أهل الإيمان فليعرض العبد نفسه
 986 عليها
 هل لو اتبع الحق أهواء الكفار كانت تفسد السموات
 989 والأرض؟
 989 هل القرآن فخر وشرف لمن نزل لهم؟
 هل سؤال المرشد من يرشدهم أجراً يصح أن
 يكون سبباً في إعراضهم عنه؟
 براهين على وحدانية الله تعالى تلقم المشركين الحجر
 990 لأنهم يعترفون بها
 991 برهان آخر على نفي الولد والشريك لله عَزَّ وَجَلَّ
 992 هل العمل هو مناط الإكرام والإهانة يوم القيامة؟
 هل السخرية بالمؤمن لإيمانه تخلد الساخر في النار،
 وهل صبر المؤمن على تلك السخرية مع ضعفه
 994 يكون سبباً في فوزه؟
 تنزيه ربنا نفسه عن أن يكون خلق الناس عبثاً
 هل يسأل الكافر الرجعة إلى الدنيا ليعمل صالحاً ولا
 994 يسألها المؤمن؟

- 930 رأي المفسر في التقليد
 الكلام على قوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوًا﴾
 931 الآية
 لماذا تفسد السموات والأرض لو كان فيهما الله إلا
 932 الله
 الرد على مَنْ قالوا: إن الله اتخذ الملائكة بنات، وبيان
 933 قدر الملائكة
 معنى فتق السموات والأرض بعد أن كانتا رتقا ...
 934 هل يشفع في أهل الكبائر؟
 934 فيمن نزل قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَجَلٍ﴾
 ومعنى هذا التركيب
 935 قصة سيدنا إبراهيم مع قومه وتشبيه المصنف
 938 المقلدين للأئمة بقومه
 كيف يفهم قول الله تعالى: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾
 939 الآية
 ماذا كان لما ألقى سيدنا إبراهيم في النار
 940 فضل ربنا على إبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب
 ونوح
 940 قضية الحرث التي فهمها الله سليمان، والكلام عليها
 941 فضل الله على داود وسليمان
 942 ماذا فعل ربنا مع سيدنا أيوب لما دعاه؟
 944 الكلام على سيدنا ذي الكفل
 945 قصة سيدنا يونس لما ذهب مغاضباً
 945 معنى قوله تعالى: ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾
 947 الآية، وإزالة إشكالاتها
 950 بيان وضع حديث السجل
 952 كيف أن نبينا أرسل رحمة للعالمين؟

سورة الحج

- 952 تفسير سورة الحج، وهل لها فضل؟
 952 هول يوم القيامة وإلى أي حد يصل؟
 952 مراتب خلق ربنا للإنسان
 954 بعث النار من بني آدم ومقدار هذه الأمة
 958 أهل النار وأهل الجنة وما أعد لكل منهما في داره
 الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظَلَمٍ﴾
 960 الآية
 بحث جليل في بيوت مكة باعتبار أنها للجميع
 الطارئ والمقيم
 961 مَنْ المأمور بقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾؟
 964 هل تعدل شهادة الزور الشرك بالله؟

- 1021 أوصاف للمنافقين
- 1022 كيف يكون المؤمنون إذا دعوا لحكم الله ورسوله؟
- 1025 بيان آية استئذان الممالك والصغار
- 1029 الكلام على القواعد من النساء
- في أي شيء رفع الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض؟
- 1029 البيوت التي لا حرج على المرء أن يأكل منها بلا إذن أهلها إذا كان الطعام مبنولاً له غير محرز ولا ممنوع
- 1029 صفة المؤمنين مع رسول الله ﷺ إذا كانوا معه على أمر جامع
- 1030 كيف يكون المؤمنون مع الرسول ﷺ إذا دعوه؟

سورة الفرقان

- 1031 تفسير سورة الفرقان، وأنها مكية في قول الجمهور
- الكلام على مادة تبارك، وهل لا تطلق إلا على الله سبحانه وتعالى؟
- 1031 الرد على طوائف المشركين، ومبلغ آلهتهم من العجز
- ما قاله الكافرون فيه ﷺ؛ ورد الله عليهم، ووعده لهم على ذلك القول، ووعده تعالى لرسوله وللمؤمنين بما أعد لهم في جنته
- 1033 تكذيب المعبرين لمن كانوا يعبدونهم حينما يسألهم الله عز وجل يوم القيامة أهم الذين أضلوا أولئك المشركين؟
- 1035 ما المراد بقول المجرمين عند مشاهدتهم الملائكة حجراً محجوراً؟
- 1037 معنى تشقق السماء بالغمام
- 1038 حشرات الكفار يوم القيامة على أن فاتهم اتباع الرسول ﷺ
- 1039 أم أهلكهم الله تعالى لما كذبوا رسلهم
- 1041 آيات على قدرته تعالى
- 1043 صفات صالح عباد الله عز وجل
- 1047

سورة الشعراء

- تفسير سورة الشعراء، وبيان أنها مكية، وبيان فضل الطواسين
- 1052 قصة سيدنا موسى وهارون مع فرعون وقومه
- 1053 قصة سيدنا إبراهيم مع قومه
- 1058 قصة سيدنا نوح مع قومه
- 1061 قصة سيدنا هود مع قومه
- 1062

- الجمع بين قوله تعالى: ﴿ولا يتساءلون﴾ وقوله: ﴿فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾
- هل ينفع نسب رسول الله ﷺ يوم القيامة وإن عدم نفع الأنساب في وقت مخصوص؟
- 994 كيف كلوح أهل النار، وهم فيها؟
- أي فضل فضل الآيات الأربعة آخر هذه السورة؟

سورة النور

- 995 تفسير سورة النور
- هل هي منبئية، وهل أمرنا أن نعلم نساءنا هذه السورة؟
- إعراب أول السورة
- ما هو الزنا، وما حد الزاني البكر البالغ الحر وما حد الأرقاء، وما حد الأحرار المحصنين؟
- 996 الكلام على قوله تعالى: ﴿الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة﴾
- 997 أحكام القذف
- 998 أحكام اللعان
- 999 ما هي التوبة من القذف؟
- 1000 قصة الإفك
- 1001 من الذي تولى كبر الإفك؟
- 1001 ما المراد بالخبيثات والطيبات؟
- 1005 الكلام على الاستئذان
- 1006 ما هي البيوت الغير مسكونة؟
- 1006 الكلام على أدب غص البصر للنساء والرجال
- 1007 النهي عن إبداء المرأة لزيينة إلا ما ظهر منها، والمراد من هذا الظاهر
- 1008 من يباح للمرأة أن تبدي زينتها امامهم
- 1008 لمن الخطاب في قوله تعالى: ﴿وانكحوا الأيامى﴾
- 1011 وحكم النكاح
- معنى تقييد النهي عن إكراه الفتيات على البغاء بشرط إرادتهن التحصن
- 1012 ما هو الخير المشروط علمه ف القرآن ليتوجه علينا الأمر بكتابتها
- 1013 الكلام على قوله تعالى: ﴿الله نور السموات والأرض﴾
- 1014 الآية
- 1015 معنى قوله تعالى: ﴿في بيوت أنن الله أن ترفع﴾ الآية
- 1017 مثلاً لأعمال الكفار
- الكلام على قوله تعالى: ﴿الم نر أن الله يزجي سحاباً﴾ الآية
- 1019

هل لم تكن أم موسى نبية، وأن الوحي إليها وحي إلهام؟	1063
معنى كون اللام للعاقبة في مثل: ﴿ليكون لهم عدواً وحزناً﴾	1064
من أي شيء كان فارغاً قلب أم موسى لما القته في اليم	1065
الوسيلة التي بها ردّ ربنا سيدنا موسى إلى أمه . . .	1066
بعد كم سنة يبلغ الإنسان الأشد، بعد كم يستوي؟ .	1071
الكلام على قتل سيدنا موسى القبطي لما استغاثه الإسرائيلي	1072
هل الإسرائيلي هو الذي قال أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس؟	1073
من الذي نصح سيدنا موسى بالخروج لافتتار الملا على قتله	1074
قصة سيدنا موسى مع بنتي سيدنا شعيب، ومع سيدنا شعيب	1075
قصته وهو راجع من مدين إلى مصر . . .	1076
امتنان الله على نبيه بإخباره بحوائث لم يكن في زمنها	1077
هل أهل مكة لم ياتهم رسل قبل نبينا ﷺ	1078
ماذا قال المشركون لما أرسل إليهم نبينا، وماذا علمه الله أن يقول لهم؟	1079
هل لمؤمني أهل الكتاب أجرهم مرتين لإيمانهم بموسى محمد وكتابينهما؟	1080
اعتذار من الكفار عن الإيمان وجوابه النافي له . . .	1081
هل لم يهلك الله قرية إلا بعد أن يرسل إليها رسولا؟	1082
أيهما أفضل من وعد جنات النعيم، وهو لا يد داخلها أم من متع أياماً قليلة ثم مصيره إلى النار؟	1083
هل الصحيح أن «ما» نافية في قوله تعالى: ﴿وما كان لهم الخيرة﴾؟	1084
هل من ممن الله علينا أنه لم يجعل الزمن ليلاً كله ولا نهراً دائماً	1085
قصة قارون مع سيدنا موسى ﷺ	1086
هل جعل الله الجنة لمن لا يريد علواً في الأرض ولا فساداً؟	1087

سورة العنكبوت

تفسير سورة العنكبوت	1113
هل لا بد من اتبلاء الناس ليتبين حالهم؟	1113
الوصية ببر الوالدين وطاعتهم إلا في المعصية	1114

قصة سيدنا صالح مع قومه	1063
قصة سيدنا لوط مع قومه	1064
قصة سيدنا شعيب مع قومه	1065
التنويه بقدر القرآن الكريم وما يفعله الله بمن كتب به	1066

سورة النمل

تفسير سورة النمل	1071
ماكان من سيدنا موسى وله وهو عائد بأهله من مدين إلى مصر حينما رأى ناراً، والمراد من هذه النار	1072
من هو المستثنى في قوله تعالى: ﴿إلا من ظلم ثم بدل حسناً﴾ إلخ	1073
ما هي التسع الآيات؟ وهل هي غير العصا واليد، أم هي تسع بهما؟	1074
ماذا فعل فرعون وقومه لما رأوا هذه الآيات وماذا فعل الله بهم؟	1075
امتنان الله تعالى على داود وسليمان بليتائهما العلم في أي شيء ورث سليمان داود، وهل علم سيدنا سليمان منطق الطير فقط أم كان يعلم لغة كل الحيوانات؟	1076
خطبة النملة للنمل، وما كان من سيدنا سليمان لما سمع هذه الخطبة	1077
قصة سيدنا سليمان مع الهدهد لما تفقد الطير وصانفه غائباً	1078
قصة سيدنا سليمان مع بلقيس، وما كان منها مع قومها لما ألقى الهدهد كتاب سيدنا سليمان إليها	1079
قصة سيدنا صالح مع قومه	1080
قصة سيدنا لوط مع قومه	1081
آيات على قدرته تعالى ووحدانيته، وعلى أنه لا نعمة للإنسان إلا وهو المنعم بها	1082
هل استأثر الله وحده بعلم الغيب ولا يعلم أحد سواه من ذلك شيئاً؟	1083
معنى قوله: ﴿إنك لا تسمع الموتى﴾ إلخ	1084
الكلام على قوله عزّ جل: ﴿وإذا وقع القول عليهم﴾ إلخ	1085
من هم المستثنون من الفزع حينما ينفخ في الصور؟	1086

سورة القصص

تفسير سورة القصص	1092
كلمة للزجاج تبين مبلغ حمق فرعون في قتله لأبناء بني إسرائيل	1093

هل الكافر هو الذي يسوي فتنة الناس وإيذاءهم
بعذاب الله، وأما المؤمن فيصبر؟

هل لا يحمل أحد إلا وزر نفسه؟ 1115

قصة سيدنا نوح مع قومه، وقصة سيدنا إبراهيم مع

قومه 1116

قصة سيدنا لوط مع قومه وقصة سيدنا شعيب مع

قومه 1119

هو نكر الله الذي حكم ربنا عليه بأنه أكبر؟ 1121

الكلام على قوله تعالى: ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب﴾

الآية 1121

هل أمية الرسول ﷺ برهان على صدق رسالته . 1123

الرد على من اقترحوا آيات على الرسول بأن معجزة

القرآن تكفيهم . 1124

هل تجب الهجرة من أرض لا يمكن للعبد أن يعبد ربه

فيها، ولا يمكنه أن يغير ما بها من المعاصي؟ . 1124

الوعد بالجنة على الهجرة

طعن وجيه في حديث 1126

سورة الروم

تفسير سورة الروم 1127

معجزة من معجزات القرن تبرهن على أنه من عند

الله 1127

التحريض على السير في الأرض للاعتبار 1128

على أي حال يكون الكافرون والمؤمنون يوم القيامة؟ 1129

آية تتضمن أمر بالصلوات الخمس

دلائل على قدرة ربنا ووحدانيته 1130

مثل يبرهن على توحيد الله تعالى 1133

بحث في الفطرة ما هي؟ 1133

حال الناس في الشدة والرخاء 1134

التحريض على مواساة الفقراء، والتحذير من الربا

بمعنييه هنا 1135

الكلام على قوله تعالى: ﴿ظهر الفساد في البر

والبحر﴾ الآية 1136

هل يسمع الكفار الميتون من يخاطبهم؟ 1138

سورة لقمان

تفسير سورة لقمان 1139

ما هو لهو الحديث وشيء من صفات الكافر؟ 1140

مقارنة يتبين منها أن الله هو الإله، وأن الأصنام لا

شيء 1141

الكلام على لفظ لقمان وعلى شخصه

وصايا لقمان لابنه 1141

امتنان من الله بأنه سخر لنا ما في السموات وما في

الأرض 1141

وصف للمشركين بأنهم يتكلمون في ربنا بغير علم

يقلدون آباءهم 1144

ما هي كلمات الله التي لا تنفذ؟ 1145

دلائل على قدرة الله ووحدانيته 1145

وصية الإنسان بالتقوى وخشية يوم القيامة 1146

مفاتيح الغيب الخمس التي لا يعلمها إلا الله 1146

سورة السجدة

تفسير سورة السجدة وهل لها فضل؟ 1147

اقل كلام على قوله تعالى: ﴿ثم يعرج إليه في يوم كان

مقداره ألف سنة مما تعدون﴾ 1148

لم أفرد الله السمع دون الأبصار والأفئدة؟ 1149

من هو المؤمن بآيات الله حقاً وما جزاؤه؟ 1151

هل بين المؤمن والكافر فرق؟ وما هو هذا الفرق؟ 1152

معنى ﴿فلا تكن في مريّة من لقاءه﴾ 1153

هل يوم الفتح هو يوم القيامة؟ 1154

سورة الأحزاب

تفسير سورة الأحزاب 1155

هل النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ وما ينبغي أن

يكون عليه للمؤمنين معه ﷺ إزاء ذلك؟ 1157

هل نساؤه ﷺ أمهات للمؤمنين فقط أو للمؤمنات

أيضاً؟ 1157

سبب نزول قوله تعالى: ﴿ما جعل الله لرجل من قلبين

في جوفه﴾ 1157

غزوة الخندق وما كان فيها للمؤمنين والكافرين . 1158

الكلام على قوله تعالى: ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك﴾

الآية 1165

هل يضاعف ثواب أمهات المؤمنين إن عملن

الصالحات، ويضاعف عذابهن إن لم يستقمن؟ 1166

تأديب ربنا لنساء رسوله ﷺ وهو يشمل سواهن . 1166

ما هي الجاهلية الأولى؟ 1167

من هم أهل البيت والإقامة في ذلك

صفات من اتصف بها من المؤمنين والمؤمنات غفر

له ونال أجراً عظيماً؟ 1170

- يعبدونهم؟ 1200
فضل الإنفاق في غير إسراف لا تقتير وأن الله
يخلقه
ما يقوله الكافرون إذا تتلى عليهم آيات الله 1201
الكلام على قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُ بِوَاحِدَةٍ﴾
الآية

سورة فاطر

- تفسير سورة فاطر 1204
مَنْ هم الرسل من الملائكة؟
لا يستطيع أحد أن يمسك رحمة فتحها ربنا أو يرسل
رحمة أمسكها 1204
تحذير الناس من الدنيا ومن الشياطين
الكلام على قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ
وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ 1206
هل يزيد العمل وينقص؟ الكلام في ذلك 1207
إفهام المشركين مبلغ اقتداره تعالى ومبلغ ضعف
الهتم ليؤمنوا 1208
هل ربنا الغني ونحن الفقراء إليه؟ وهل إن شاء أذهبنا
وأتى بسوانا؟ وهل لا تحمل نفس شيئاً من وزر
غيرها ولو كان ذا قربي؟ 1209
أمثال للمؤمن والكافر والإيمان والكفر تدرك بالحس
شيء يدل على باهر قدرته تعالى 1210
هل خشية الله تعالى مختص بها العلماء به وبآياته 1211
الكلام على قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ
اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَانَا﴾ الآيات، وهو مهم 1211
الذين كفروا وجزأهم وحالهم في النار وندائهم
والرد عليهم 1214
آية من آيات قدرته عز وجل وهي من البدائع 1215
هل لو أخذ الله الناس بظلمهم كان يهلكهم ويهلك كل
دابة بشؤم معاصيهم؟ 1216

سورة يس

- تفسير سورة يس، وما ورد في فضلها 1217
معنى لفظ يس، وهل هو عربي أم غير عربي؟ 1218
قسم الله بالقرآن على أن نبينا من المرسلين لينذر
قوماً ما أنذر آبائهم 1218
هل حق القول على أكثر هؤلاء الذين لم ينذر
آبائهم فلا يؤمنون بحال
هل يحيي الله الموتى للجزاء ويكتب ما قنموا

- هل يحرم على المؤمن إذا قضى الله ورسوله أمراً أن
يخالف؟ 1170
قصة سيدنا زيد وزوجه السيدة زينب، وما يتعلق
برسول الله ﷺ من ذلك 1171
فضل نكر ربنا عز وجل وأنه أفضل الطاعات 1173
عدة المطلقة قبل الدخول 1175
مَنْ أحل الله لنبيه من النساء، ولماذا أحل ذلك؟ 1175
رفع الوجوب عن النبي ﷺ في القسم بين نسائه .. 1176
الكلام على قوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النَّسَاءُ مِنْ
بَعْدِهَا﴾ الآية

- آداب المؤمنين معه ﷺ ومع أزواجه 1179
مَنْ لا يجب على نسائه أن يحتجبن منه من الرجال 1180
إفاضة في الصلاة والسلام عليه ﷺ 1181
أدب النساء إذا خرجن 1183
تهديد المنافقين إن لم ينتهوا عن نفاقهم بإغراء النبي
ﷺ بهم 1184
تمني الكفار وهم في النار أن لو كانوا اتبعوا الرسول،
وندمهم على اتباع كبرائهم 1185
سبب نزول آية الحجاب والأمر بإئناء نساء
المؤمنين عليهن من جلابيهن
بأي شيء أذى بنو إسرائيل موسى 1185
الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ﴾ الآية 1186
رجوع إلى ما أؤذي به سيدنا موسى 1187

سورة سبأ

- تفسير سورة سبأ 1188
نعم الله على سيدنا داود وسيدنا سليمان عليهما
الصلاة والسلام 1190
قصة سبأ 1193
إفهام الكافرين أن لا قيمة لألهمهم التي يدعونها 1194
إعراب لفظ «كافة» من قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا
كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾ 1198
استعجال الكفار بيوم القيامة، وجوابهم على ذلك .. 1198
مجادلة المستضعفين والمستكبرين من الكفار يوم
القيامة
كفر المترفين في كل زمان بالرسول فهماً منهم أنهم
أفضل من الرسل بكثرة المال، وإفهامهم قدر
المال، وأنه لا ينفع عند الله إلا صالحات الأعمال
مع الإيمان 1199
جواب الملائكة عن سؤال الله إياهم هل كان الكفار

- 1252 نسباً
هل يمكن الكفار وآلهتهم أن يضلوا من لم يسبق له
1254 الشقاء
1254 فضل قوله تعالى: ﴿سبحان ربك رب العزة﴾ الآية .

سورة ص

- 1255 تفسير سورة ص وسبب نزول أولها
1256 كلام عن كفار قريش لما جاءهم النبي ﷺ
أمم كنت قبل هؤلاء، وما نزل بهم من العذاب
1258 لتكنيهم رسلهم
سيدنا داود ونعمة الله عليه، وقصته مع من تسوروا
1259 عليه المحراب
1262 وصية ربنا لسيدنا داود في حكمه بين الناس
هل يجوز أن يسوي ربنا بين المتقين والفجار
1262 قصة سيدنا سليمان مع الخيل لما شغلته عن الصلاة
فتنة سيدنا سليمان وإلقاء الجسد على كرسيه وما
1264 هو هذا الجسد؟
مبلغ نعمة مولانا تعالى على سيدنا سليمان عليه
1265 الصلاة والسلام
1266 قصة سيدنا أيوب عليه الصلاة والسلام
1267 قدر سيدنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب عند ربنا
قدر سيدنا إسماعيل واليسع وذو الكفل وما للمتقين
1267 عند ربهم؟
1269 ما للطاغين عند ربهم وخصامهم في النار
رأيهم في المؤمنين الذين كانوا يسخرون منهم لما لم
1270 يروهم معهم في النار
1271 قصة إبليس لما أمر مع الملائكة بالسجود لسيدنا آدم

سورة الزمر

- 1273 تفسير سورة الزمر ما ورد فيها من الفضل
1274 هل يجب الإخلاص في العبادة؟
تكنيب ربنا للكفار في قولهم: ﴿ما نعبدكم إلا ليقربونا
1274 إلى الله زلفى﴾
وأنهم جعلوها مثله ماذا كان ينبغي لو أراد ربنا أن
يتخذ ولداً؟
1274 براهين على أنه تعالى الإله الواحد القهار
الكلام في كفر العباد وشركهم ماذا يرضاه تعالى
1276 منهما؟
1276 حال الإنسان إذا مسه الضر وإذا نال نعمة
هل من يخشى الله تعالى ويطيعه كمن لا يكون منه

- 1219 وآثارهم؟
قصة قرية انطاكية مع الرسل الثلاثة الذين أرسلوا
1220 إليها
1221 قصة أحدهم معهم وهو ينصحهم باتباع الرسل
1223 آيات على قدرة ربنا ووحدانيته
معنى قوله تعالى: ﴿وآية لهم أننا حملنا نريتهم في
1225 الفلك المشحون﴾
1227 هل ينفخ في الصور نفخة للموت ونفخة للبعث؟
1227 ماذا يقول الكافرون إذا قاموا من القبور
من يقول ﴿هذا ما وعد الرحمن وصدق
المرسلون﴾
1228 حال أهل الجنة فيها
لماذا لم يعلم الله نبيينا الشعر وتوجيه ما روي عنه
1230 يشابه الشعر
1332 نعمة الله تعالى في الأنعام ومنافعها
1233 حجة على البعث تلجم منكريه وتفهمهم

سورة الصافات

- تفسير سورة الصافات، وهل لها فضل؟ وما ورد في
1234 ذلك
1234 ما هي الصافات والزاجرات والتاليات؟
1235 الكواكب ومنافعها في السماء الدنيا
1236 الكلام مع منكري البعث
1238 مجادلة الكفار رؤسائهم وضعفائهم وجزاؤهم
1239 المؤمنون وجزاؤهم
مؤمن في الجنة يتذكر صديقاً له كان منكراً للبعث
1240 فيطلع في النار فراه ويكلمه
شجرة الزقوم ووصفها وكونها طعام أهل النار مع
1242 شوب من الحميم
1243 قصة سيدنا نوح مع قومه
1244 قصة سيدنا إبراهيم مع قومه
قصة سيدنا إبراهيم مع ولده النبيح، ومن هو
1245 إسماعيل أم إسحاق؟
1249 سيدنا موسى وسيدنا هارون مع قومهما
1249 سيدنا إلياس مع قومه
1250 سيدنا لوط مع قومه
سيدنا يونس مع قومه وما كان له حينما أبق إلى
الفلك المشحون
الكلام مع من يعتقدون أن الملائكة بنات الله
1252 الكلام على قوله تعالى: ﴿وجعلوا بينه وبين الجنة

- شهادة جلود أعداء الله تعالى عليهم، والمحاورة بينهم
 1313 وبين تلك الجلود
 1314 مَنْ اللذان أضلا الإنسان والجن؟
 1314 ما هي الاستقامة وما لأهلها؟
 1315 هل المؤمن الداعي إلى الله أحسن الناس قولاً؟ ...
 كيف تدفع السيئة، وأي درجة درجة العاملين بهذا
 1316 الأنبي؟
 1316 بماذا يغلب الإنسان الشيطان إذا وسوس له؟
 هل الليل النهار والشمس والقمر الأرض عند نزول
 1317 الماء عليها آيات على قدرته تعالى وتوحيده؟ ..
 1317 وعد للمؤمن وتهديد شديد للكافر
 1318 أي قدر قدر القرآن الكريم؟
 1318 أثر القرآن فيمن آمن به ومن كفر به
 1319 هل اختص ربنا بعلم الساعة؟
 1319 حال الكفار يوم القيامة
 1320 حالهم في الدنيا
 1320 جهة الدلالة في الآفاق والآنفس على أن القرآن حق

سورة الشورى

- تفسير سورة الشورى 1321
 الكلام في فاتحة هذه السورة 1321
 الكلام على قوله تعالى: ﴿ليس كمثله شيء﴾ 1323
 الكلام على قوله تعالى: ﴿شرع لكم من الدين﴾ الآية 1324
 أي فرق بين مَنْ يؤمن بالساعة مَنْ لا يؤمن؟ 1325
 ماذا يفعل الله مع مَنْ يريد ثواب الدنيا وَمَنْ يريد ثواب
 1326 الآخرة
 ما المراد من قوله تعالى: ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً
 1327 إلا المودة في القربى﴾
 هل يقبل الله توبة المذنبين وما هي التوبة؟ 1327
 هل كل ما يصيبنا بسبب ما فعلناه من المعاصي وما
 1330 عفا الله عنه كثير؟
 1330 آية الجواني على قدرة ربنا عز وجل
 لمن ما عند الله خير وأبقى، وهو موضوع يتعين
 1331 النظر فيه
 1332 حال الكفار حينما يرون العذاب يوم القيامة
 1333 تصرف الله تعالى في نعمة الأبناء وتنويعها
 1333 أنواع تكليم الله تعالى للبشر
 1334 هل الوحي يسمى روحاً؟

- ذلك: وهل يستوي العالم والجاهل؟ 1277
 أجر الصابرين وعظمه عظماً فوق العقول وهل يهاجر
 الإنسان من وطنه إذا لم يتمكن من إحسان عمله 1277
 هل أهل النار مغمورون فيها لهم من فوقهم ظلل منها
 1278 ومن تحتهم ظلل؟
 هل أهل الجنة لهم غرف من فوقها غرف 1279
 العبرة بالماء النازل من السماء وبما يخرج من
 1280 الزرع
 1280 مثل للتوحيد والشرك وتوضيحه
 الكلام على قوله تعالى: ﴿الله يتوفى الأنفس﴾ الآية . 1285
 كلام جليل على قوله تعالى: ﴿يا عبادي الذين أسرفوا
 1287 على أنفسهم﴾ الآية
 من المستثنى حين نفخة الصعق؟ 1291
 المؤمنون والكافرون في سوق كل إلى داره 1291

سورة غافر

- تفسير سورة غافر، وما ورد في الحواميم عامة وفي
 1293 غافر خاصة
 هل الملائكة يدعون للتائبين التابعين سبيل ربهم؟ . 1295
 ما هما الموتان والحياتان اللتان اعترف بهما الكفار 1296
 قصة سيدنا موسى مع فرعون وقومه 1299
 نصائح المؤمن الذي كان يكتم إيمانه لفرعون وقومه،
 1299 ما اسمه من أي فريق هو
 1303 محاجة الكفار في النار ضعفائهم ومستكبريهم
 الكلام على قوله تعالى: ﴿وقال ربكم ادعوني استجب
 1305 لكم﴾ الآية
 برهان عظيم على قدرته تعالى وحدانيته، ووعيد
 1306 شديد للكافرين المشركين
 منافع الأنعام وتقريع المشكرين بأنه وحده الذي
 1307 جعلها
 هل الإيمان الاختياري هو الذي ينفع دون
 1308 الاضطراري

سورة حم

- تفسير سورة حم السجدة، وقصة عتبة بن ربيعة معه
 1308
 الإنكار على المشركين الذين ينكرون توحيد الله تعالى
 بخلقه السموات الأرض الإنفاضة في بيان هذا
 1309 الخلق
 ما فعله الله تعالى بعد وثمود وما فعلوه سبباً لذلك . 1312

- 1357 ما المراد بالعالَمين الذين فضل عليهم بنو إسرائيل؟
 1358 هل يستوي المسيء والمحسن؟
 مَنْ هو الذي اتخذ إِلَهه هواه وأضلّه الله على علم؟
 كلام لمنكري البعث والردّ عليهم
 1359 حال المبطلين يوم القيامة وما يقال لهم
 هل استنساخ الملائكة لأعمالنا معناه نسخها من
 اللوح المحفوظ ويكون ما ينسخ منه موافقاً لما
 1360 يقع منا تماماً؟
 1360 المؤمنون والكافرون وأعمال كلٍّ وجزاؤه

سورة الأحقاف

- حديث يدلّ على أن القرآن لم ينزل في قراءته بوجه
 واحد
 1361 كلام مع المشركين وبين قيمة شركائهم
 1361 جزاء الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا
 1364 وصية الله تعالى للأبناء على الآباء والأمهات
 1364 هل ينبغي لمن بلغ أربعين سنة أن ينيب إلى ربه، وما
 جزاؤه على ذلك؟
 1364 قدر سيدنا عبد الله بن سلام رضي الله عنه
 1365 جزاء مَنْ لم يطع والديه في دعوتها له إلى الإيمان
 1365 ماذا فعلت عاد مع رسولها وماذا فعل الله بهم؟ ...
 1367 الجنّ الذين استمعوا القرآن من النبي ﷺ، وما كان
 منهم لقومهم
 1369 دليل باهر على قدرة ربنا على البعث يفهم منكروه . 1369

سورة محمد

- ما يفعله الله تعالى بأعمال الكفار، وما يفعله مع
 المؤمنين، والسبب الذي له فعل ذلك
 1371 ماذا نفعل بالكفار إذا لقيناهم في ميدان القتال؟ ...
 1371 هل أمرنا الله بالجهاد ابتلاءً لنا وكان قادراً أن ينصرنا
 بلا حرب؟
 1372 هل إذا دخلنا الجنة عرفنا منازلنا فيها؟
 هل ينصر الله مَنْ ينصر دينه؟
 هل أهلك الله الكفار وأحبط أعمالهم بأنهم كرهوا ما
 أنزل الله؟
 1373 وعيد الله لكفار مكة أن يهلكهم كما فعل بالكفار
 قبلهم لأنه مولى المؤمنين، وأولئك الكفار لا
 مولى لهم.
 هل يدخل الله المؤمنين الجنة لإيمانهم وصالح
 أعمالهم، ويدخل الكافرين النار لأنهم كانوا

سورة الزخرف

- تفسير سورة الزخرف
 1334 هل القرآن في اللوح المحفوظ
 1335 آيات على قدرته تعالى وتوحيده
 1335 الكلام مع مَنْ قالوا إن الملائكة بنات الله
 1336 هل كل أمة كذبت رسولها بتقليد آبائها؟ والردّ عليهم
 في تقليدهم ذلك؟
 1338 حملة من المؤلف على المقلّدين
 1338 كلام سيدنا إبراهيم مع قومه لما أرسل لهم
 1338 هل قسم الله الأرزاق بين الناس ولماذا رفع بعضهم
 على بعض
 1339 مبلغ حقارة الدنيا ولينظر بإمعان هذا الموضوع ..
 1340 ماذا يفعل الله بمن يعرض عن الإيمان بالقرآن
 1340 قصة سيدنا موسى مع قومه
 1342 جدل قريش في سيدنا عيسى وردّ ربنا عزّ وجلّ
 عليهم
 1343 هل نزول سيدنا عيسى من أشراط الساعة علاماتها
 هل الإخلاء يوم القيامة كلهم يكونون أعداء لبعضهم
 1344 إلّا المتقين؟
 1344 المتقون يوم القيامة وما لهم والكافرون وما لهم ..
 1345 الكلام على قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾
 الآية
 1346

سورة الدخان

- تفسير سورة الدخان وما ورد فيها
 1348 هل الليلة المباركة هي ليلة القدر، وأي معنى لفرق كل
 أمر حكيم فيها
 1350 هل البطشة الكبرى ما نزل بالكفار يوم بدر؟
 1350 وهل الدخان الجوع الذي أصاب قريشاً حتى كانوا
 يتراءى لهم دخان أمامهم من شدة ما هم فيه؟
 قصة سيدنا موسى مع قومه

- 1351 إنكار قريش البعث وتهديد ربنا لهم على ذلك
 1353 ما يكون فيه الكافر والمؤمن يوم القيامة
 1354

سورة الجاثية

- آيات على قدرته عزّ وجلّ، ولتراجع
 1355 صفات للكافر ووعيده على هذه الصفات
 1356 ممن لربنا علينا وهي من آياته

سورة ق

- 1396 ما ورد فيها
- 1396 الكلام على لفظ "ق"،
- عجب الكفار من مجيء منذر لهم، ومن القول البعث
- 1397 لفت الكفار إلى ما يسهل عليهم الإيمان بالبعث
- 1398 ماذا كان للأمم السابقة لما كُذِّبَ كما كُذِّبَ هؤلاء؟
- برهان مفحم لمن ينكر البعث
- هل كل ما يلفظ به الإنسان يكتب عليه؟ الموت وما
- 1399 بعده من عذاب للكافر ونعيم للمؤمن

سورة الذاريات

- ما هي الذاريات والحاملات وقرأً والجاريات يسراً
- 1403 والمقمسات أمراً؟
- 1404 هل الحك الحك الخلق المستوي الحسن؟
- جزاء الكفار على إنكارهم يوم القيامة واختلافهم في
- 1404 شأن الرسول ﷺ
- هل المتقون، في جنات وعيون بماذا كانوا هكذا؟
- 1405 عبر لفتنا ربنا إليها لنعتبر بها
- 1406 قصة سيدنا إبراهيم مع الملائكة لما دخلوا عليه
- 1408 قصة سيدنا موسى مع قومه
- ماذا فعل الله بعداد وشمود وقوم نوح لما كذبوا
- رسلمهم؟
- 1408 عبر أخرى دعانا ربنا للاعتبار بها
- الكلام على قوله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾
- 1409

سورة الطور

- 1410 ما ورد فيها
- 1410 الكلام على الأقسام التي في أول السورة
- هل لا يدفع العذاب عن العصاة يوم تمور السماء
- 1411 وتسير الجبال؟
- 1412 كيف يكون المتقون في ذلك اليوم؟
- رد الله على القائلين إن الرسول مجنون ومتقول
- 1414 للقرآن
- 1415 كلام مع أولئك الكفار

سورة النجم

- 1416 ما ورد فيها
- 1417 ما هو النجم؟

يتمتعون ويكفون كما تاكل الانعام؟

- 1374 انهار الجنة
- 1374 المنافقون وهم يستمعون إلى الرسول ﷺ
- ما هي اشراط الساعة التي يقول القرآن إنها
- جاءت؟
- 1376 حال المنافقين إذا نزلت آية وذكر فيها القتال
- كلام مع المنافقين
- نهى المؤمنين عن أن يضعفوا أمام الكافرين ويدعوهم
- 1378 إلى السلم ابتداء

سورة الفتح

- 1380 ما ورد في فضلها
- الكلام على قوله تعالى: للكلام على قوله تعالى: ﴿إنا
- فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله﴾ الخ
- 1380 هل من بايع الرسول ﷺ كانه بايع الله؟
- 1382 الكلام في شأن الأعراب المنافقين الذين تخلفوا عن
- رسل الله ﷺ حين خرج عام الحديبية
- 1382 هل الفتح القريب الذي آثب به الله المؤمنين حينما
- بايعوا بيعة الرضوان هو فتح خير؟
- 1384 ما هي كلمة التقوى التي كان المؤمنون أحق بها
- وأهلها؟
- 1386 ما هي الرؤيا التي ذكر الله تعالى أن يصدق فيها
- رسوله؟
- 1387 صفة أصحاب رسول الله ﷺ

سورة الحجرات

- 1389 آداب آتب الله بها الأمة مع رسوله ﷺ
- 1390 كيف تكون مع النمام؟
- 1392 ماذا نفعل لو اقتتل طائفتان من المؤمنين؟
- 1392 النهي عن السخرية والسخر في ذلك
- النهي عن أن يعيب الرجل أخاه أو يشتمه بنحو: يا
- فاسق يا منافق
- النهي عن ظن السوء والتجسس والغيبة
- هل نحن أبناء رجل واحد وامرأة واحدة؟
- 1394 لا فضل لواحد على أخيه إلا بالتقوى
- الكلام مع قوم من الأعراب أسلموا ليتصدق عليهم
- ولم يكونوا مخلصين
- المؤمنون حقاً
- 1395 تأنيب من من بالإسلام، وإفهامه أن العنة لله عز وجل

سورة الواقعة

- 1442 ما ورد فيها
- 1443 آيات لقيام القيامة
- هل الناس يوم القيامة يكونون أصنافاً ثلاثة، أهل
يمين وأهل شمال وسابقون؟ 1443
- السابقون، والكلام عليهم
- 1446 أهل اليمين والكلام عليهم
- 1447 أهل الشمال والكلام عليهم
- 1449 الكلام مع منكري البعث
- الكلام على «لا» في مثل قوله: ﴿فلا أقسم بمواقع
النجوم﴾ 1450
- ما هو الكتاب الذي لا يمسه إلا المطهرون؟ من هم
المطهرون؟ 1451
- معنى ﴿وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾ 1451
- التنصيص على حال كل قسم من الأقسام الثلاثة
- 1452 السابقة
- الكلام على المضاف والمضاف إليه في مثل حقّ
اليقين وعين اليقين

سورة الحديد

- 1454 ما ورد فيها
- هل تسبيح الجمادات والحيوانات غير العاقلة بلسان
الحال أم بلسان المقال؟ 1454
- صفات الله سبحانه وتعالى
- 1455 التحريض على الإيمان والإنفاق في سبيل الله
- هل من أنفق وقاتل قبل الفتح أجل ممن فعل ذلك بعد
الفتح وكل موعود بالجنة؟ 1456
- 1457 حال المؤمنين والمنافقين يوم القيامة
- تحريض لطائفة من المؤمنين أن ترقّ تخشع ﴿
- 1458 عزّ وجلّ
- 1459 أجر المؤمنين بالله ورسله، وعقاب المكذب الكافر
- 1460 مثل الحياة الدنيا
- 1461 هل كل مصيبة تنزل بالعالم مكتوبة قبل أن تخلق؟

سورة المجادلة

- قصة ظهار سيدنا أوس بن الصامت من زوجته خولة
بنت ثعلبة، وما يتعلق به من الأحكام 1464
- 1466 حال من حادّ الله ورسوله في الدنيا والآخرة
- شمول العلم الإلهي لتناجي من كانوا يتناجون
ليحزنوا المؤمنين 1467

- 1417 هل شديد القوى هو سيدنا جبريل؟
- هل المرّة جزالة الرأي وحصافة العقل؟
- هل الذي بالافق الأعلى ولنا هو سيدنا جبريل لنا من
النبي فكان قاب قوسين أو أدنى؟ 1417
- هل المرثي نزلة أخرى عند سدره المنتهى هو سيدنا
جبريل رآه سيد الوجود ﷺ؟ 1418
- 1419 ما هي الآيات الكبرى؟
- كلام مع المشركين
- 1421 هل الظن لا يغني في الأمور العلمية دون العملية؟
- 1422 النهي عن تزكية الإنسان نفسه لأن الله أعلم بمن اتقى
- 1424 الكلام مع بعض المشركين

سورة القمر

- 1426 ما ورد فيها
- الكلام على إن انشقاق القمر كان في عهد النبوة، وهو
بديع فليتنظر 1426
- 1428 قصة سيدنا نوح مع قومه
- 1429 قصة سيدنا هود مع قومه
- قصة سيدنا صالح مع قومه
- 1430 قصة سيدنا لوط مع قومه
- 1431 قصة سيدنا موسى مع قومه
- الكلام مع كفار مكة

سورة الرحمن

- 1432 ما ورد فيها
- الامتنان بتعليم القرآن وخلق الإنسان وتعليمه البيان
وبنعم أخرى 1433
- الحكمة في تكرير ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ بعد كل
نعمة ذكرت في هذه السورة 1434
- معنى ﴿كل يوم هو في شأن﴾ معنى ﴿سنفرغ لكم
أيه الثقلان﴾ 1436
- 1437 معنى ﴿فكانت ردة كالداهان﴾
- الجمع بين قوله تعالى: ﴿فيومئذ لا يسأل عن ذنبه
إنس ولا جان﴾ وبين قوله: ﴿فوربك لنسألنهم
أجمعين﴾ 1437
- 1438 ما هما الجنتان اللتان لمن خاف مقام ربه؟
- الكلام على الجنتين اللتين من دون الجنتين
السابقتين، ومعنى كونهما من دونهما 1440
- 1440 ما هو الزفر والخضر؟
- ما هو العبقري؟

- عيسى؟ 1487
هل أحد أظلم ممن يفترى على الله الكذب وهو
يدعى إلى الإسلام؟
ما هي التجارة التي تنجي من عذاب إليهم، وما جزاؤها
فوق تلك النجاة؟ 1488
دعوة المؤمنين أن يكونوا كائنصار سيدنا عيسى .. 1489

سورة الجمعة

- فضل ربنا على هذه أمة 1490
هل مثل اليهود لما لم يعملوا بالتوراة كمثل الحمار
يحمل أسفارا؟
تكذيب اليهود في زعمهم أنهم أولياء الله من دون
الناس
شيء من أحكام الجمعة 1491

سورة المنافقون

- شيء من صفات المنافقين 1493
تحذير المؤمنين أن تلهيهم أموالهم وأولادهم عن ذكر
الله الذي هو فرائض الإسلام 1495
أمر المؤمنين بالإنفاق الذي منه الزكاة قبل أن
يموتوا ويتمنوا الرجعة

سورة التغابن

- ما ورد فيها 1496
نعوت لربنا عز وجل
زعم الكافرين أن لن يبعثوا وللدَّ عليهم لماذا سمي
يوم القيامة يوم الجمع ويوم التغابن؟ 1497
هل كل مصيبة تنزل بمخلوق بإذن الله؟ 1498
ما معنى هداية الله لقلب من يؤمن بالله؟
التحذير من الأزواج والأولاد لأن منهم أعداء 1498
التحريض البالغ على الإنفاق في وجوه الخير 1498

سورة الطلاق

- كيف يطلق الإنسان زوجته، ويتعلق بذلك أحكام 1499
جزاء من يتقي الله ويتوكل عليه 1500
عدَّة اليائسات ومن لم يحضن وأولات الأحمال 1500
نفقة المطلقة وسكناها وأجرة إرضاعها إذا أرضعت 1502

سورة التحريم

عتاب الله تعالى لنبيه لما حرَّم السيدة مارية، وما

- التعجب من هؤلاء المتناجين لعودهم إلى التناجي بعد
نهيهم عنه 1467
تحية هؤلاء المتناجين للرسول وجزاؤهم وتعليم
المؤمنين كيف يتناجون
ألب المؤمنين في مجالسهم 1468
أمر المؤمنين بالصدقة إذا أرادوا مناجاة الرسول،
ونسخ ذلك تخفيفاً 1469
المنافقون في توليهم اليهود، وشيء من صفاتهم
وجزاؤهم 1470

سورة الحشر

- امتنان الله تعالى على المؤمنين بإخراج بني النضير
من حصونهم وكان يظن أن لا يخرجوا، وما
يتعلق بهذه الغزوة من الأحكام 1472
مصارف ما آفاه الله على رسوله من أهل القرى ... 1473
هل كان الانصار يؤثرون على انفسهم ولو كان بهم
خصاصة؟ 1476
ما هو الشَّخ المذموم؟
المنافقون ووعدهم لأهل الكتاب أن ينصروهم وما
يتعلق بذلك 1477
هل لو كان للجبل عقل كان يتصدع ويخشع لو نزل
عليه القرآن الكريم؟ 1479
نعوت لربنا عز وجل 1480
ما ورد في آخر الحشر 1480

سورة المتحنة

- نهي المؤمنين أن يتخذوا الكافرين أولياء وما يتعلق
بذلك 1481
نذب المؤمنين أن يقتدوا بسيدنا إبراهيم وقومه لما
تبرءوا من الكافرين 1482
من الكافرون الذين نهى المؤمنون عن موالاتهم؟ .. 1483
امتحان المؤمنات اللاتي يهاجرن إلى المؤمنين وما
يتعلق بهن من الأحكام 1484
مبايعة النساء وشروطها 1485

سورة الصف

- ما ورد فيها 1486
تقريع من يقولون ولا يفعلون 1487
هل يحب الله تعالى من يقاتلون في سبيله صفاً
كانهم بنيان مرصوص؟
ماذا قال سيدنا موسى لقومه؟ وماذا قال سيدنا

- 1527 شعر وكهانة وتقرير حقيقته
 ماذا يكون من ربنا مع نبيه لو تقول عليه بعض
 1527 الأقاويل

سورة سأل سائل

- 1528 ما هو اليوم الذي مقداره خمسون ألف سنة
 1529 الحال يوم القيامة
 أصناف استثناهم ربنا ونزههم عن وصف الهلع الذي
 1531 خلق عليه الإنسان
 1531 جزاء أولئك الأصناف
 إياه ربنا أن يدخل المشركون الجنة وتذكيرهم
 1532 بأصلهم القذر
 حال الكفار يوم القيامة وقسم ربنا أنه قادر على أن
 يهلكهم ويبدل خيراً منهم

سورة نوح

- ماذا قال سيدنا نوح ﷺ لقومه لما أرسل إليهم؟ وماذا
 1553 كان حالهم معه؟
 شكوى سيدنا نوح قومه إلى ربه ثم دعاؤه عليهم ثم
 1535 دعاؤه لنفسه ولوالديه وللمؤمنين والمؤمنات ..

سورة الجن

- هل رأى رسول الله ﷺ الجن حين استمعوا وهو يقرأ
 1537 القرآن؟
 ماذا قال الجن لما سمعوا القرآن
 1540 ماذا يكون من ربنا لمن يستقيم على الطريقة الإلهية؟
 1541 ماذا يكون لمن يعرض عن ذلك؟
 الكلام على قوله تعالى: ﴿عالم الغيب فلا يظهر على
 1542 غيبه أحداً﴾ وليراجع ..

سورة المزمل

- ما ورد فيها
 1544 المقدار الذي أمر أن يقومه ﷺ من الليل
 1545 ما هي ناشئة الليل التي هي أشد وطأً وأقوم قبلاً؟
 1545 وعيد المكذبين أولي الغنى والسعة
 1546 تهديد المشركين أن يفعل الله بهم ما فعل بفرعون
 لما عصى رسوله
 هل نسخ قيام الليل في حقه ﷺ وفي حق الأمة؟
 1549 ..

سورة المدثر

- سبب نزول قوله تعالى: ﴿يا أيها المدثر﴾ إلخ
 1550

- يتعلق بذلك
 1504 أمر المؤمنين أن يقوا أنفسهم وأهليهم ناراً وقودها
 الناس والحجارة
 1507 أمر المؤمنين بالتوبة النصوح وجزاءهم على ذلك ..
 1507 أمر النبي ﷺ أن يجاهد الكفار والمنافقين وأن يغلظ
 عليهم
 1508 مثل للذين كفروا ومثل للذين آمنوا، وما هي خيانة
 امرأة سيدنا نوح وامرأة سيدنا لوط

سورة الملك

- ما ورد في فضلها
 1509 هل خلقنا الله ليلولنا إنا أحسن عملاً؟
 1510 الدعوة إلى العبرة بالسماء
 1510 ما للذين كفروا يوم القيامة؟ وكيف تكون معهم النار،
 واعتراقاتهم حينئذٍ
 1511 عبر وترهيبات
 1512

سورة ن

- الكلام على ن والقلم
 1515 قسم ربنا أن نبيه ليس بمجنون وأن له أجراً غير
 مقطوع، وأنه على خلق عظيم
 صفات في غاية الشناعة لمن نهى سيد الوجود ﷺ
 أن يطيعه
 1516 عود إلى الكلام على ن والقلم
 1517 قصة أصحاب البستان البخلاء، وما كان منهم ولهم
 1518 ما للمتقين عند ربهم، والرد على المشركين في
 قولهم: إن صبح رجوعنا يوم القيامة فسنكون
 أوفر حظاً من المسلمين، وبعد ذلك من التفريع ما
 يبهت الكافر
 1519 حال الكفار يوم يدعون إلى السجود في القيامة ...
 1520 معنى الساق في قوله تعالى: ﴿يكشف عن ساق﴾

سورة الحاقة

- ما ورد فيها
 1522 ماذا فعل ربنا بعد وعود لما كذبوا بيوم القيامة؟
 1523 ماذا فعل بفرعون وقومه لما كذبوا رسول ربهم؟
 1523 ماذا فعل بقوم سيدنا نوح لما كذبوه؟
 1524 ماذا يكون إذا نفخ في الصور؟
 1525 ما لأهل اليمين وما لأهل الشمال؟
 قسم ربنا في الرد على الكفار الذين يقولون إن القرآن

- 1570 الآخرى الذي يكذبون به
لماذا كررت آية ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ في هذه
1570 السورة؟
براهين محسنة يقيمها ربنا على قدرته على بعث
1570 أولئك الكفار المنكرين للبعث
ما يقال للكفار يوم القيامة توبيخاً وتقريعاً وهم
1571 مسوقون إلى جهنم ومقدار شررها
هل لا ينطق الكفار يوم القيامة ولا يعتذرون؟ والجمع
1572 بين ذلك وبين ما يفيد نطقهم؟
كيف يكون المتقون حينئذ؟

سورة عم

- هل النذبة العظيم الذي يتساءل عنه المشركون هو
1573 البعث؟
دلائل على قدرته تعالى على البعث
1574
ميقات البعث، وماذا يكون بعد النفخ في الصور؟ ..
1575 هل جهنم تنتظر الكفار ولا يزيدهم الله فيها إلا عذاباً،
ولماذا ذلك؟
1575
ما للمعتقين عند ربهم؟
1577 هل لا يتكلم من الملائكة إلا من أن له الرحمن؟ ..
1578 هل يتمنى الكافر يوم القيامة أن يكون تراباً؟

سورة النازعات

- ما هي النازعات والناشطات والسابحات والسابقات
1579 والمديرات أمراً؟
ماذا يكون حال الكفار حين نفخ في الصور النفخة
1580 الأولى ثم الثانية؟
قصة سيدنا موسى لما أرسله الله إلى فرعون، وما
1581 فعله تعالى بفرعون لما كذب
براهين على قدرته تعالى على البعث، وهي براهين
1583 مسكتة
ما هو مأوى الكافر والمؤمن إذا جاءت الطامة الكبرى؟
1584 هل لا يعلم وقت قام القيامة إلا الله تعالى؟ ..
1584

سورة عبس

- قصة ابن أم مكتوم رضي الله عنه مع رسول الله ﷺ
1585
براهين قاطعة ساطعة على قدرته تعالى على البعث
1587 هل إذا جاءت القيامة يفر المرء من أحب الناس إليه؟
1587 هل يومئذ تكون الوجوه قسمين قسماً مسفراً ضاحكاً
مستبشراً، وقسماً عليه غبرة ترهقه قترة،

- هل إذا نفخ في الصور يكون يوم القيامة يوماً عسيراً
1551 على الكافرين؟
وعيد ربنا عز وجل للوليد بن المغيرة وبيان حاله
المستوجبة لذلك الوعيد
لماذا جعل الله المدبرين لأمر النار ملائكة وجعل
1553 عدتهم تسعة عشر؟
هل أصحاب اليمين مستثنون لا يكونون رهناً
1555 أعمالهم، بل يعفى عنهم لصالحاتهم؟
هل يسأل أهل الجنة أهل النار ما سلككم في
سقر؟ وما هو جواب أهل سقر؟
تمثيل الكفار في إعراضهم عن الموعظة بحمر نافرة
1556 فرّت من الرماة التي يصيدونها

سورة القيامة

- هل الجمهور على زيادة «لا» في مثل قوله تعالى: ﴿لا
1557 أقسم بيوم القيامة ولا أقسم﴾ إلخ؟
الرد على منكري البعث
هل لا مقر ولا وزر ولا معذرة لمنكر البعث إذا قامت
1558 القيامة؟
طمانة الرسول ﷺ على القرآن أن يذهب منه، ونهيه
1559 عن تحريك لسانه به إذا أوحى
بحث رؤية الله في الجنة، وهو مهم فليراجع
1560 عود إلى ذلك
الكلام على ﴿أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى﴾
وهو وعيد شديد لمن لم يصدق لم يصل ولكنه
1561 كذب وتولى
برهان على البعث مفحم لمن ينكر البعث
1561 ماذا يقول من ختم هذه السورة؟

سورة الإنسان

- ما ورد فيها
1562 من هو الإنسان الذي أتى عليه حين من الدهر لم يكن
شيئاً منكوراً؟
1462 ما الذي أعدّه الله للكافرين؟
1563 الأبرار وصفاتهم، ما أعد الله لهم في دار كرامته ..
1563

سورة المرسلات

- ما ورد فيها
1569 ما هي المرسلات والعاصفات والناشرات
والفارقات والمليقات ذكراً؟
أمور إذا كانت وقع ما يوعد الكفار به من العذاب

والأولون المؤمنون والآخرين الكافرون؟ 1588

سورة التكوير

ما ورد فيها 1589
أمر إذا كانت علمت كل نفس ما أحضرت من أعمال 1590
قسم الله بالخنس، والليل إذا عسعس، والصبح إذا
تنفس إن القرآن قول جبريل، وتوجيه معنى كونه
قوله، ووصف جبريل بأوصاف جليلة 1590
هل رأى نبينا ﷺ سيدنا جبريل بالافق المبين؟
ووصفه ﷺ بأنه ليس بمتهم على الغيب 1591

سورة الانفطار

ما ورد فيها 1593
أمر إذا كانت علمت كل نفس ما قدمت وأخرت ... 1593
تقريع الكفار على كفرهم بالله وهو ربهم الكريم
الذي خلقهم وسواهم وعلمهم في أي صورة
شاء

التعجب من أولئك الكافرين الذين يكذبون بيوم
القيامة وعليهم حفظة يكتبون ما يعملون

أين يكون الأبرار يوم القيامة، وأين يكون الفجار؟ .. 1594
هل يفارق الكفار النار أبداً؟

هل يكون الأمر كله لله يوم القيامة ليس لأي أحد
أي تصرف في أي أمر ظاهراً وباطناً؟

سورة المطففين

ما ورد فيها 1595
وصف المطففين 1595

هل خطورة البعث بالبال على سبيل اليقين يردع
عن المعاصي؟

هل سجين هو الكتاب المرقوم؟ وفي ذلك أقوال آخر؟ 1596
حال المنكبين يوم القيامة

حال الأبرار يومئذ، وهل عليون هو الكتاب المرقوم . 1598
هل يضحك المؤمنون يوم القيامة من الذين أجزموا

كما كان أولئك المجرمون يضحكون منهم في
الدنيا؟ 1599

سورة الانشقاق

ما ورد فيها 1600
جواب «إذا» في «إذا السماء انشقت» إلخ

كيف يكون المؤمنون والكافرون يوم القيامة؟ 1601
قسم ربنا بالشفق والليل وما وسق والقمر إذا اتسق

لتركيب طبقاً عن طبق، ومعنى هذا الطبق الذي

نركبه عن طبق 1601

هل تهكم أمر النبي ﷺ أن يبشّر المكذبين بعذاب

اليم؟ 1602

جزاء المؤمنين الذين عملوا الصالحات

سورة البروج

ما ورد فيها 1603

ما هي البروج، وما هو اليوم الموعود، وما هو

الشاهد والمشهود؟ 1603

ما هو جواب القسم في قوله تعالى: «والسماوات

البروج» إلخ 1604

الكلام على أصحاب الأخدود وما فعلوا بالمؤمنين

ما جزاء هؤلاء الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات؟ .. 1605

ما لمن آمن وعمل صالحاً؟

تفصيل ما فعل أصحاب الأخدود 1607

سورة الطارق

ما ورد فيها 1608

تأكد أن كل نفس لما عليها حافظ حتى أقسم على

ذلك ربنا بالسماء والطارق 1608

برهان على قدرة ربنا على رجح الإنسان بعد موته

قسم ربنا بالسماء والأرض إن القرآن قول فصل وما

هو بالهزل 1609

سورة الأعلى

ما ورد فيها 1610

نعت لمولانا تعالى هو بها جنير أن يسبحه ما سواه

الكلام على قوله تعالى: «فذكر إن نفعنا الذكرى» . 1612

هل من لا ينتفع بالذكرى من أهل النار؟ 1612

هل إثثار الحياة الدنيا خلق مذموم؟

سورة الغاشية

ما ورد فيها 1614

هل الغاشية القيامة؟ 1614

أهل النار وأهل الجنة يومئذ، وحال كل منهما

لفت منكري البعث إلى خلق ما يروونه بأعينهم من

الإبل والسماء والجبال والأرض 1615

سورة الفجر

ما ورد فيها 1616

سورة التين

- 1636 ما ورد فيها
 هل التين والزيتون هما المعلومان؟
 هل الطور هو الجبل الذي كلم الله سيدنا موسى عليه؟ وهل البلد الأمين مكة؟ 1637
 هل لم يخلق الله مخلوقاً أحسن خلقاً من الإنسان؟
 معنى ردّ الله تعالى للإنسان إلى أسفل سافلين
 هل جزاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات أجر غير ممنون؟

توبيخ وتقريع للمكذب بالبعث وهو يرى أنه مخلوق
 في أحسن تقويم ويردّ إلى أسفل سافلين ... 1637

سورة اقرا

- 1638 ما ورد فيها
 هل يطغى الإنسان إذا رأى نفسه استغنى؟ 1639
 التعجب ممن ينهي عبداً إذا صلى 1639
 ماذا يكون لو لم ينته هذا الناهي؟

سورة القدر

- 1641 وهي تتضمن فضل ليلة القدر

سورة لم يكن الذين كفروا

- 1642 ما ورد فيها
 معنى الآية الأولى من هذه السورة، وهي من المشكلات 1642
 أين الكافرون من أهل الكتاب والمشرّكين يوم القيامة؟
 وأين الذين آمنوا وعملوا الصالحات؟ وما قيمة كل منهما؟ 1644

سورة الزلزلة

- 1645 ما ورد فيها، وهي في أمور الآخرة

سورة العاديات

- 1647 ما ورد فيها
 أقسام أقسم بها ربنا إن الإنسان كفور بنعمته، وإنه على ذلك شهيد، وإن حبه للمال شديد، وتهديده بأن ربه عليم به ويجازيه على هذه الغفلة

سورة القارعة

وهي تمثل حال الناس يوم القيامة، تبين أين من ثقلت

ما جواب هذه الأقسام؟ ﴿والفجر وليال عشر﴾
 إلخ، وما معناها؟

- هل كذب ما يقال في عاد إرم ذات العماد من أنها مدينة مبنية بالذهب إلخ؟ 1618
 هل كافر الذي يعتبر النعم كرامة والفقر إهانة؟ ... 1620
 هل مذموم عدم إكرام اليتيم وعمد الحض على طعام المسكين وأكل التراث أكلاً لئماً، وحب المال حباً جماً؟ 1621
 هل يتمنى الإنسان يوم القيامة أن لو قدم صالحاً لحياته الأبدية؟ 1621

سورة البلد

- قسم ربنا على أن الإنسان خلق في كبد ومشقة، فهو لا يزال في دنياه في تعب 1622
 الإنكار عليه حيث لم يقتحم العقبة وهي فك رقبة إلخ 1624

سورة الشمس

- 1626 ما ورد فيها
 معنى «ماء» في قوله تعالى: ﴿والسمااء وما بناها﴾ وكذا ما بعدها 1627
 ما هو جواب الأقسام: والشمس وضحاها إلخ ... 1627
 قصة قوم سيدنا صالح معه، وما فعلوا بالناقة، وما نزل بهم

سورة الليل

- 1628 ما ورد فيها
 اختلاف أعمالنا صلاحاً وفساداً، وقسم ربنا على ذلك جزء من أعطى واتقى وصنّق بالحسنى، ومن بخل واستغنى وكذب بالحسنى 1629
 هل الذي على الله البيان وله الآخرة والأولى؟ 1629
 معنى كون النار لا يصلها إلا الأشقى الذي كذب وتولى
 هل سيجنب النار الاتقى الذي يؤتى ماله يتزكى؟

سورة الضحى

- 1631 ما ورد فيها وكلها منن عظمى يمتنّ بها ربنا على نبيه

سورة الم نشرح

- وهي: كسابقتها 1634
 تأكيد مولانا الغني الكريم أن العسر معه يسرّان، وهو وعد تطرب له الأذان سروراً 1635
 معنى ﴿فإذا فرغت فانصب * وإلى ربك فارغب﴾

- 1662 توجيه التكرار الذي في السورة
هل الآية ﴿لکم دینکم ولی دین﴾ منسوخة؟

سورة النصر

- 1663 ما ورد فيها
1663 ما المراد بالفتح
1664 لماذا أمر الانبياء بالاستغفار؟
هل أعلم الله رسوله باقترب أجله لما أمره أن
يسبح بحمده ويستغفره؟

سورة تبت

- 1665 وهي في أبي لهب وامراته

سورة الإخلاص

- 1666 ما ورد فيها وهي صفة ربنا تعالى

سورة الفلق

- 1669 ما ورد فيها. وفي سورة الناس وسبب نزولهما ...
1670 ما هو الفلق؟
ما هو الراجع في معنى قوله تعالى: ﴿غاسق إذا
1670 وقب﴾
هل النفاثات الساحرات؟

- 1671 ما هو الحسد، ومعنى قوله تعالى: ﴿إذا حسد﴾ ..
أحاديث في معنى الفاظ هذه السورة لو صحت
وجب المصير إليها

سورة الناس

- 1671 لم كرر لفظ الناس، ولم يؤت الضمير بعد الأول ..
1672 لم سمي الشيطان خناساً، وما هي وسوسته؟
معنى قوله تعالى: ﴿من الجنة والناس﴾

- 1649 موازينه ومن خفت موازينه

سورة التكاثر

- ما ورد فيها وكلها تهديد للناس على شغلهم بالدنيا
1650 عن الآخرة

سورة العصر

- 1653 ما ورد فيها وهي تبين الخاسرين والمفلحين

سورة الهمزة

- وهي تهدد بالنار الهمزة اللمزة الذي يحسب أن ماله
1653 يخلده في الدنيا

سورة الفيل

- هي تتضمن قصة أصحاب الفيل الذين كانوا يريدون
1655 هدم الكعبة وتخريبها

سورة قريش

- ما ورد فيها، وهي: تتضمن الامتنان على قريش بما
1656 فيها من الآلاء

سورة أرايت

- وهي تتضمن التهديد بالويل للمكذابين بالآخرة؟ الذين
وصفهم ربنا في السورة بالقسوة على اليتيم
والمسكين والرياء في الصلاة إن صلوا 1657

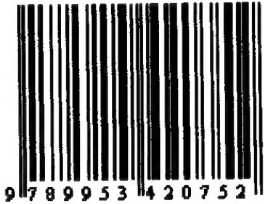
سورة الكوثر

- وهي امتنان على سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ
بالخير الكثير الذي أعطيه، وأمر له بالصلاة
ونحر النسك، ورد على من قال إنه أبتري بأنه هو
الابتري المقطوع عن رحمة الله 1659

سورة الكافرون

- 1661 ما ورد فيها

ISBN 9953 - 420 - 75 - 0



التنفيذ الطباعي: دار القماطي للطباعة
بيروت، لبنان ٠١/٤٥٠٤٦٧-٠١/٤٥٠٤٥٤